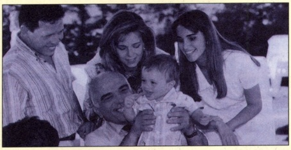
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثالث . السنة الأولى . أبريل ١٩٩٩ . الثمن عشرة جنيهات



محمد حسنين هيكل يكتب:

شخصيّة الملك حسين

ضرورات الفهم قبل الحكم ولكن إلى أى مدى؟

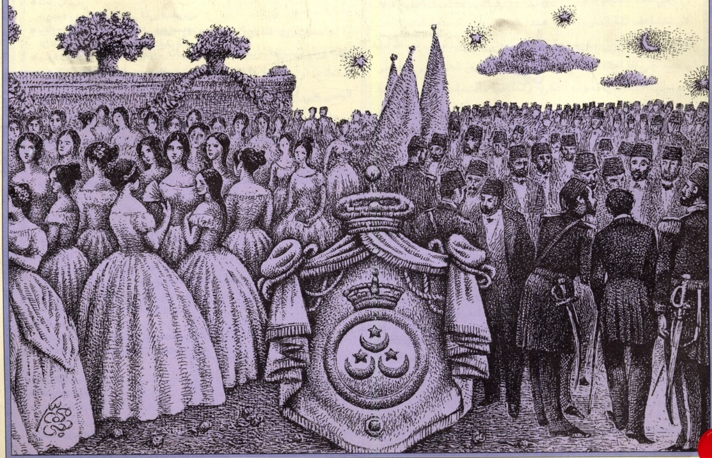
كيسنجر واللعب على حساب العرب!

إيڤا بيرون.. الأسطورة وصناعة الشهرة

خريطة الانتخابات الإسرائيلية

إذا ظهر الوباء.. فتش عن الاستعمار!

أفراح الأنجال.. صورة للترف فى عهد إسماعيل



الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الأولى
العدد الثالث
أبريل ١٩٩٩

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للتحرير
جميل مطر

اهداءات ٢٠٠١
أ. صلاح راتب
القاهرة

كتّاب العدد:

- **أيلين كيلى**: زميل كلية كينجز بجامعة كامبردج
- **جوردون كريج**: كاتب متخصص فى الشئون الألمانية
- **رءوف عباس**: أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة ووكيل كلية الآداب
- **رتشارد بيتس**: مدير دراسات الأمن القومى فى مجلس العلاقات الخارجية بالولايات المتحدة، ومدير معهد دراسات الحرب والسلام بجامعة كولومبيا.
- **زياد أحمد بهاء الدين**: محام وكاتب مصرى.
- **سارة كير**: صحفية بمجلة النيويوركر.
- **سلامة أحمد سلامة**: صحفى
- **صادق صبور**: أستاذ الأمراض الباطنة بجامعة عين شمس.
- **فواز جرجس**: أستاذ عربى يشغل كرسى كريستيان أ. جونسون فى الشئون الدولية ودراسات الشرق الأوسط بكلية سارة. لورانس بنيويورك.
- **كامل زهيرى**: كاتب صحفى
- **محمد الخولى**: صحفى، خبير إعلامى لدى الأمم المتحدة
- **محمد حسنين هيكل**: صحفى
- **مروان بشارة**: كاتب وصحفى فلسطينى مقيم فى القدس ورئيس تحرير صحيفة «فصل المقال»
- **هبة رءوف**: أستاذ مساعد علوم سياسية بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين:
محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠ / ٣٩٢٠٤٩٢ / ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٨٠ دولاراً أمريكياً ـ دول أوروبا وأمريكا وكندا: ١٢٠ دولاراً أمريكياً ـ باقى دول العالم: ١٥٠ دولاراً أمريكياً.
إدارة اشتراكات الأهرام ـ مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ اليمن ١٥٠ ريال ـ الكويت دينار واحد ـ الإمارات ١٥ درهماً ـ البحرين ١٫٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ١٫٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٢٥ درهماً ـ تونس ٣ دنانير.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة..

لاشىء يعدل ثقة القارئ فى مجلته أو صحيفته، كما أنه لا شىء يعدل حرص المجلة أو الصحيفة على قارئها.

فى الحالة الأولى يكتسب القارئ ثقته من خلال ما تلتزم به المجلة من أهداف ومبادئ ، تقوم على احترام عقل القارئ، وتزويده بأحدث المعارف والقراءات والتحليلات فى مجالات متنوعة؛ تنتقل به بين الثقافة والسياسة والفكر والفن، وتمد أمامه جسرا مفتوحا بين الثقافات وعبر القارات، تصل بينه وبين مراكز الفكر والإشعاع فى العالم. وتختزل له من الكتب وتقدم له من كبار الكتاب ما يصعب أن يجده مجتمعا فى مطبوعة واحدة.

وفى الحالة الثانية، تحرص المجلة على قارئها، من خلال ما تتكبده من جهد فى اختيار ما تقدمه، من بين أحدث الإصدارات ، وأهم الدوريات، وأشهر الأقلام العربية والعالمية.. دون أن تهمل فى ذلك وقع الأحداث المعاصرة والتطورات السياسية والفكرية التى تحاصرنا من كل جانب.. بل ودون أن تغفل البعد التراثى فيما تقدمه من «كتاب فى الزاوية» أو قراءة فى كتاب من كتب التاريخ لواحد من المؤرخين العظام فى الفكر العربى.

وفى كلتا الحالين، فإن «الكتب وجهات نظر» تسعى سعيا حثيثا لأن تضاعف ثقة القارئ فيها عددا تلو عدد وأن توسع - شهرا بعد آخر - شريحة من يحملونها إلى بيوتهم.. وأن تستجيب فى الوقت نفسه إلى ما تعتقد أنه يلبى احتياجات القارئ العربى فى العصر الحديث ، ويخاطب همومه الفكرية والثقافية والسياسية التى يحياها كلما أشرق عليه الصباح أو جن عليه الليل.. إيمانا بأن الفكر الذى لا يستجيب لحاجات الإنسان واهتماماته، لا يستحق الجهد الذى يبذل فيه.

ومن هذا المنطلق سوف يجد القارئ فى هذا العدد دراسة تحليلية ممتعة عن شخصية العاهل الأردنى الراحل الملك حسين، يقدمها قلم كاتب من أكبر الكتاب والصحفيين المعاصرين، عايش هذه الحقبة الهامة من حياة الأمة العربية،واطلع على أدق خفاياها، وربما شارك فى صنع أحداثها وهو الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل.

كما يطالع القارئ تحليلا وافيا عن خريطة الانتخابات الإسرائيلية واحتمالات الفوز والخسارة فيها بقلم مراقب عربى من قلب إسرائيل يعرف دقائق التيارات السياسية ، والدوافع الخفية، والمنافسات الشخصية بين زعمائها.

وصفحات العدد تتسع بعد ذلك ، لعروض عديد من الكتب والإصدارات الحديثة عربية وأجنبية ، تنتقل بالقارئ من تأثير التدين على الجموع الغالبة من الناس فى الشوارع والقرى والنجوع، إلى قراءة فى نصوص المحادثات السرية التى أجراها ثعلب السياسة الأمريكية كيسنجر مع الزعماء الروس والصينيين ، إلى صورة تحليلية للأديب الروسى الكبير تشيكوف.

وسوف يجد القارئ بعد ذلك فرصة للاستراحة فى «الزاوية» وهو يستعيد مقاطع من غزليات الشاعر الرقيق إبراهيم ناجى وغنائياته التى ملأت وجدان الملايين حين غنتها أم كلثوم.

وفضلا عن تعقيبات ورسائل القراء، يقدم العدد سجلا حافلا بآخر عناوين الإصدارات الجديدة من الكتب وعروضا موجزة لمختارات منها.

... نحن نريد للقارئ أن يجد فى صحبة هذه المجلة ما يمتع عقله ويثرى ذوقه، ويخاطب اهتماماته.. يقرأها دفعة واحدة إن استطاع، أو يطالعها فى ساعات الفراغ والتأمل والحوار الداخلى مع النفس على امتداد شهر.

وسوف يظل دائما من حق القارئ أن يلاحقنا بالرأى والنقد والتعليق . وأن يبعث إلينا بمقترحاته وأفكاره.. فاختلاف وجهات النظر لا يفسد للود قضية. ونحن نطمح إلى الدخول معه بوابة القرن القادم بمجلة رصينة هادئة هادفة، تعيد للقراءة وظيفتها وتعيد للوعى العربى يقظته وحيويته.

وجهات نظر

فكرة هذه المجلة:

- تُقدِّم لقارئها أحدث وأهم الكتب الصادرة بمختلف اللغات - وأولها اللغة العربية - حتى يكون متابعا مشاركا فى حوار الثقافات.
- تحاول أن تتناول هذه الكتب بالعرض، وتضيف إلى عروض الكتب أهم المنشورات والتقارير فى مجالات متنوعة بين الثقافة والسياسة والفكر.
- تُجَرِّب النفاذ عبر ما هو منشور فى الكتب والتقارير وغيرها إلى محيط أوسع، وبما يجعل علاقاتها بقارئها صحية فى التعرف على أحوال الحاضر وتصورات المستقبل.
- تستعين فى سبيل تحقيق ذلك بشبكة من العلاقات واصلة إلى كل مراكز الفكر والنشر على اتساع العالم، تريد أن تكون جسرا مفتوحا بين الثقافات وعبر القارات.

محمـد حسـنين هيكل

يكتب:

شخصية المَلك حسين

ضرورات الفهم .. قبل الحكم

[١]

إذا كان هناك دليل مادى مطلوب لكشف أحوال العالم العربى فى نهاية هذا القرن العشرين - فإن مشهد جنازة الملك حسين مَلك الأردن الراحل - هو ذلك الدليل المادى المطلوب!

وفى حقيقة الأمر فإن هذا المشهد - فكرة وإخراجا وعرضا - كان إنتاجا جديدا لنصين متشابهين سبقاه، الأول جنائزى أيضا وهو تشييع جثمان رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» (شتاء ١٩٩٥)، والثانى لحسن الحظ نص احتفالى هو مؤتمر شرم الشيخ لمقاومة الإرهاب (ربيع ١٩٩٦).

والآن هذا الموكب الجنائزى فى عَمّان.

الصور هى هى، والنجوم نفس الوجوه، والحوار تسلسل طبيعى، والمغزى، أو المعنى، أو الهدف متقارب، ومقصده:

* استيعاب صدمة مفاجئة فى الشرق الأوسط جاء بها الموت أو الاغتيال أو التفجيرات الفدائية.

* العمل على تثبيت مواقف الأطراف فيما يسمى بالمسيرة السلمية فى المنطقة - عند الحد الذى بلغته، وضمان ألا يتراجع أحد بمظنة تغير الظروف.

* وانتهاز الفرصة للتفتيش وسط فوضى المصائب عن فجوة يكون منها مخرج ولو بالهرب إلى الأمام خطوة إذا أمكن أو خطوات!

وتلك مطالب لا تتصل بالأشجان أو الأحزان، وإنما تتصل بممارسة القوة سواء باستغلال جلال الموت أو وحشة القبور.

وليس فى ذلك كله ما يسىء إلى جنازة الملك «حسين»، فلقد كانت جنازة مهيبة جليلة فى نواح عديدة منها، خصوصا عندما تَدافعَت مشاعر الناس العاديين فى الأردن وقد خرجوا يُوَدّعون رجلا لم يعرف معظمهم فى حياته حاكما غيره، وهم إذ عرفوه تَعَوّدوا عليه، وحتى حينما كانت التقلبات الحادة تجنح بسياساته على هذا الشاطئ أو ذاك فإنهم كانوا على اطمئنان طول الوقت معه، متأكدين من مرونته، واثقين أنه فى الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة سوف يجد لنفسه ولهم شَبَكة أمان يقفز إليها الجميع.

إن ذلك التقدير لدور الملك ومشاعر الناس من أبناء شعبه لا يحجب ملاحظات يصح تسجيلها:

أولها: أنه من المؤكد الآن أن الملك عاد من الولايات المتحدة الأمريكية وهو فى حالة «موت طبى»، وكانت الأجهزة الصناعية وحدها تستخرج أنفاسه، وتستبقى دقات قلبه وإن على وهن!

وفيما يبدو فقد كانت تلك فسحة من الوقت مطلوبة لعودة الملك إلى وطنه، ولمنح بعض الضيوف فرصة استعداد للسفر إلى عمان (وقد أعلن البيت الأبيض فى واشنطن يوم الجمعة ٥ فبراير أن الرئيس كلينتون سوف يكون فى عَمّان يوم الاثنين ٨ فبراير - وهكذا كان) - ولم يكن «كلينتون» وحده هو الذى يجب أن يستعد، وإنما وقع الاتفاق مع آخرين بأن يكونوا هم أيضا على استعداد.

وربما أن فسحة الوقت كانت مطلوبة - أيضا - لإتمام الترتيبات العملية والأمنية للجنازة بما فيها أن تتعرف القوات المشاركة فى الموكب على مسالكها وسط العاصمة الأردنية.

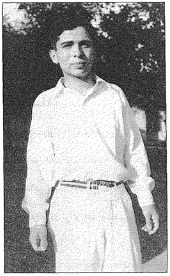
وزاد على ذلك - كما تَكَشّف فيما بعد - أن فسحة الوقت كانت مطلوبة لتسوية خلافات بين أطراف العائلة خصوصا فى شأن ولاية العهد. وكان الملك «حسين» من الأصل يرغب أن يخلفه ابنه (منَ الملكة نور) الأمير حمزة، ولم تمكنه نصائح دولية وإقليمية من إنفاذ إرادته فأعاد الأمر إلى الأكبر من أبنائه وهو «عبد الله»، ثم أصر على ولاية العهد لـ «حمزة» متخطيا بذلك أربعة من أبنائه بينهم اثنان من أم وُلِدَت عربية مسلمة هى الملكة «عالية» (طوقان) التى قتلت فى حادث سقوط هليوكوبتر سنة ١٩٧٧!(١).

ويبدو أن مجلس الوزراء الأردنى لم يكن مطمئنا إلى توصل أفراد الأسرة لحل سريع، ولذلك اتفق مع الأمير «عبد الله» على أداء اليمين الدستورية نائبا للمَلك دون انتظار - لكنه فى اليوم التالى مباشرةً نادى به مَلكا - لأن الخلافات العائلية أمكن تسويتها على نَحو غير متوقع فى الساعات القليلة التى فصلت بين يمين النائب، ويمين المَلك!

ثانيها: أن مراسم الجنازة طالت بأكثر مما هو ضرورى - خمس ساعات تقريبا - ولئن قيل إن ذلك كان ضروريا لإظهار تَعَلّق الشعب بمَلكه، فإن ذلك القول ينسى أن مشهدا حقيقيا أو صورة صادقة، بل دمعة صامتة - تستطيع



كان أنين موسيقى القرب الاسكتلندية وآهات النفخ فى الأبواق على حواف القبور أقرب إلى تقاليد الجيش البريطانى فى دفن قتلاه أثناء حروب المستعمرات، منها إلى أى موروث عربى أو إسلامى



الملك صبيا ..



ومع شقيقيه محمد وحسن..



ومع الملكة دينا الزوجة الأولى

King Hussein: A Life on the Edge

(الملك حسين: حياة على الحافة)

Roland Dallas

London: Profile, 1998. 296 pp. £17.99

ولكن إلى أى مدى؟!

وفى لمحة بصر إظهار ما تعجز عنه مواكب بطول عشرات الكيلومترات.

ويندرج تحت هذه الملاحظة أن بعض المواقف فى مراسم الجنازة بدت مُسْتَغْرَبَةً إلى درجة توحى بأن جهات متعددة تشاركت أو تداخلت فى وضع الترتيبات:

* وعلى سبيل المثال فإن الحصان الذى لا يركبه فارس ويتدلى الحذاء الطويل لذلك الفارس مقلوبا على الجانب الأيسر للسرج. لا يتصل مباشرة [٢] بتقليد عربى أو إسلامى، وإنما بتقليد أمريكى يرجع إلى أيام غزو الغرب والحرب الأهلية بين الولايات. ونفس الشىء ينطبق على طقس إلقاء النظرة الأخيرة على جثمان راحل مسجى أمام زواره. فذلك طقس بدأ فى أوروبا وشاع فى ظروف الحروب الصليبية حين كان رفات المحاربين يعود من الغربة الطويلة فى الشرق ثم يُعْرض أمام الأهل والأقارب والأتباع لنظرة وداع قبل الغياب النهائى!

* يلحق بذلك أن أنين موسيقى القِرَب الإسكتلندية وآهات النفخ فى الأبواق على حواف القبور أقرب إلى تقاليد الجيش البريطانى فى دفن قتلاه أثناء حروب المستعمرات (فى الهند مثلا). منها إلى أى موروث عربى أو إسلامى.

* وربما أن موكب العزاء الطويل الذى اضطر فيه المَلك «عبد الله» وإخوته إلى مصافحة أعداد هائلة من الناس وتجاذب الحديث مع معظمهم بعد انتظار طويل لدورهم فى الصفوف، وبينهم ملوك، ورؤساء، ووزراء، وسفراء، وقُوّاد جيوش، وزعماء أحزاب، إلخ. كان الإسهام العربى البارز فى مشاهد الجنازة، وربما أريد له أن يسترجع العادات القبلية والعشائرية!

وثالثها: أن كثيرا من الكلام الذى قيل فى مناسبة الجنازة وبعدها تجاوز ما يخص المَلك «حسين» نفسه. والحاصل أن المَلك كان إنسانا يملك صفات تُلفت النظر، وله مواقف شديدة الأهمية، ومحاولات أخذته جريئا إلى مهاوى الخطر.. ولكن بعض العبارات والشهادات التى احتواها النص الثالث الجنائزى بدت تَزَيُّدا على السياق ومبالغة لا يقتضيها حواره. ومن ذلك أن يقال إن المَلك «حسين» كان «عميد السياسة فى الشرق الأوسط»، وكان «أعظم شخصية فى القرن العشرين»، وكان ملاذ الشعوب «يتجه إليه الجميع لطلب الرشد حين الحاجة إلى النصح».

وكلها تجاوزات تسىء إلى الرجل بغير ذنب، لأنه لا شىء يسىء إلى رجل أو إلى حدث مثل المبالغة حين تجمح عن حدودها المنطقية!

وأحسب أن المَلك «حسين» نفسه لو عاد للحياة بمعجزة سَوف يكون أول مُسْتَغرِب لما قيل عنه بعد وفاته ولم يسمع منه شيئا فى حياته. ولعله كان يفعل كما فعل «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا حين ذهب إليه مساعده «ويليام ديكون» يحمل مقالا عنه كتبه الأستاذ «إيشيا برلين» أستاذ الفلسفة بكلية «جميع القديسين» فى جامعة «أوكسفورد»، وكان المقال مغاليا فى إشادته بمزايا «تشرشل» والتحدث عن عظمته وعبقريته، ويظهر أن «برلين» كتبه فى ساعة نشوة وانبهار. وقرأ «تشرشل» المقال وأعاد قراءته ثم كتب على هامشه بخط يده جملة واحدة نصها: "Too good to be true" وترجمتها: «جميل جدا إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون حقيقيا»!

وإنصافا للمنطق ـ قبل الإنصاف للمَلك أو للرجل ـ فإنه ليس فى مقدور سياسى مهما فعل أن يتجاوز بدوره موارد بلاده المادية والمعنوية. والأردن وطن عربى كريم، لكن النفوذ لا تصنعه فضائل البشر، وإنما تفرضه عوامل أخرى.. إلا فى حالة الأنبياء والرسل، وتلك مسألة مختلفة!

ومهما يكن فإنه فى حالة الحشد الدولى الكبير حول جثمان المَلك «حسين» فقد يكون للتجاوز والمبالغة مطلب إضافى هو تبرير هذا الوجود الدولى الكثيف مع عدم الرغبة فى البوح بأهدافه الحقيقية الأصلية! وهى أهداف جرت الإشارة إليها من قبل وبينها: «استيعاب صدمة ـ وتثبيت موقف ـ وانتهاز فرصة».

وبهذا المقياس فإن جنازة «رابين» كان هدفها الرد على اليمين الإسرائيلى الذى قام باغتياله، ومؤتمر «شرم الشيخ» كان هدفه الرد على اليمين (!) الإسلامى الذى فجّر قنابله البشرية فى القدس وتل أبيب، وجنازة المَلك «حسين» لها بالقطع هدف سياسى إضافى ومُستَجَد (سوف يزداد ظهوره فيما بعد) وذلك هو التفسير الوحيد والمقبول للطريقة التى تم بها ترتيب جنازة المَلك ـ خصوصا إذا تذكر ذاكر ما كان يُكتَب عنه أيام حرب الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) ثم يقارنه بما كُتبَ عنه ـ وهو نفس الرجل ـ حين مرضه ووفاته (١٩٩٨ - ١٩٩٩) ثم يتضح بهذه المقارنة أن هناك عدوانا على حُرْمَة الوعى ـ وعلى كرامة العقل فى آن واحد!

ولو اتُّخذ الإعلام المصرى مقياسا ورَصَدَ راصدٌ ما كان يُقال ويُكتَب حين نَشَر الملك «حسَين» ما أسماه بالكتاب الأبيض عن دوره فى حرب الخليج ـ ثم أصغى أو قرأ بعض ما يُقال ويُكتَب هذه الأيام بعد وفاة المَلك «حسين» ـ لهاله الفارق وخصوصا أن مسافة الوقت قصيرة، ومساحتها بالشهور وليست بالسنين بحيث يكون الزمن قد فعَل فعْلَه وأسقط غباره أو أسدل أستاره على الصور والصفحات!

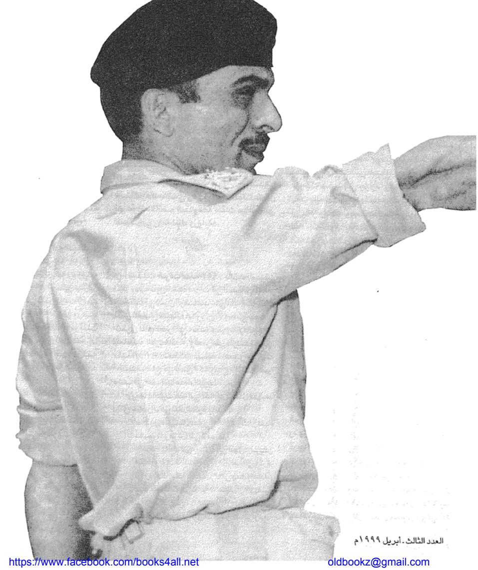
وتلك ـ أيضا ـ مسألة مختلفة!

وربما استطردت من هنا لأقول أن معرفتى بالمَلك «حسين» كانت وثيقة، وأظن أن ذلك كان تقديره أيضا ـ وأزعم أننى خالطته عن قرب ومن زمن. فقد لقيته لأول مرة وعمره اثنا عشر عاما، وكان ذلك عندما ذهبْت لمقابلة صحفية مع والدته الأميرة «زين» (وهى سيدة شديدة الذكاء شديدة الطموح) فى فندق «شبرد» القديم فى القاهرة ـ سنة ١٩٤٧ ـ وكانت يومها زوجة ولىّ عهد الأردن الأمير «طلال» (وأصبحت فيما بعد مَلكة على الأردن وظل لها اللقب رسميا حتى توفيت).

ثم صادفت المَلك «حسين» بعد ذلك مرات عديدة يركب دراجته فى حديقة قصر «رغدان» مَقرّ جَدّه ـ وكنت وقتها مراسلا مُتَجَوِّلا لـ«أخبار اليوم» فى الشرق الأوسط متنقلا باستمرار بين عَمّان والقدس وبيروت ـ وكان قصر «رغدان» أهم بؤرة فى السياسة العربية فى ظروف حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ـ ولذلك كثر ترددى عليه للقاء المَلك «عبد الله»، وكثرت رؤيتى لحفيده ووقوفى مرات عديدة معه.

ثم تابعت المَلك «حسين» بعد ذلك غداة اغتيال جَدّه ـ وكنت أغطى الحدث (سنة ١٩٥١) حتى كانت المناداة بوالده الأمير «طلال» ملكا على الأردن.

ثم عُدت إلى متابعته أثناء مشاورات سياسية وعائلية جرت فى قصر «بسمان»، وكان يديرها رئيس وزراء العراق «نورى السعيد» (باشا) والسير «أليك كيركبرايد» المُعتَمَد البريطانى فى عَمّان، ومعهما الجنرال «باجوت جلوب» (باشا) قائد الفيلق العربى ـ! ـ وكان موضوعها مشكلة الملك «طلال». وقد أصبحت هذه المشاورات مطلوبة إثر روايات وحكايات شاعت وذاعت عنه ـ ثم تقرر بعدها الحَجْر عليه وتم ترحيله إلى إستانبول حيث أودع مصحا للأمراض النفسية قضى فيه بقية عمره. وكان يمكن للعرش أن يؤول بعد المَلك «طلال» إلى شقيقه الأمير «نايف»، لكن



المشاورات استبعدته في اللحظة الحرجة، وكذلك أصبح «حسين» مَلِكًا على الأردن.

وكان فارق السن بين المَلِك «حسين» وبينى اثنى عشر عاما ـ ولم يكن هذا الفارق فى السن تلك الأيام يسمح بأكثر من أن أراه وأقابله وأتابعه ـ لكنه مع مَرّ السنين وتعاقب التطورات والأوضاع فى العالم العربى فإن أثر الفارق فى العُمْر راح يتلاشى ـ تدريجيا وطبيعيا ـ بما سمح بعلاقة توثقت بالتجارب اتفاقا واختلافا، اقترابا وتباعدا، لكنها ظلت موصولة، حية، ويقظى.

ولم تكن علاقتى بالمَلِك «حسين» بسيطة، ولعلها كانت أقرب إلى أنْ تكون علاقة مركبة، وفى بعض الأوقات معقدة! ـ والسبب أن كلينا كان يعرف أنه يتصرف حيال الآخر من موقف مختلف. فهو ـ فى اعتقاده واعتقادى ـ يقف على ضفة ـ وبنفس المعيار ـ وفى اعتقاده واعتقادى ـ فقد كنت أقف على الضفة الأخرى. لكننا برغم التناقض أقمنا صلات بين رجلين، كلاهما غارق مستغرق فى الشأن العربى العام مع اختلاف التقديرات والضرورات لدى كل منهما. ومع دواعٍ كثيرة تقتضى جسور لقاء عبر الضفاف!

وأتذكر على سبيل المثال أننى سنة ١٩٩٠ ظننت أن الأمور وصلت بيننا إلى درجة القطيعة، لأننى نشرت تحت عنوان «الانفجار» كتابا عن وقائع نكسة سنة ١٩٦٧ ـ وفى الكتاب فصول تناولت دور المَلِك «حسين» فى تلك الوقائع، وبينها أنه كان يعرف الكثير من تفاصيل مؤامرة جَرّ مصر إلى فخ تلك الحرب. وأن مجيئه المفاجئ إلى القاهرة فى ٣٠ مايو ١٩٦٧ ـ أى قبل بدء الهجوم الإسرائيلى بأيام ـ وتطوعه بدخول المعركة مع مصر ـ وتصرفاته السياسية والعسكرية طوال هذه الحرب ـ تثير جميعها أسئلة تطرحها وثائق تحفل بتلميحات وإشارات ترقى إلى مستوى الشك ـ على أقل تقدير.

وقد تَرَدَّدْت يومها فى نشر ما ظَهَر لى من دور المَلِك «حسين» فى تلك الوقائع باعتبار أن الأمر خَطير وأن الاعتماد فيه على الشك، قد لا يكون سليما، لكنى انتهيت إلى أنه فى مثل هذه الظروف فإن التلميحات والإشارات إذا كانت متصلة متكاملة تكفى ـ خصوصا أنه فى مخططات سياسية من نوع ما جرى سنة ١٩٦٧ ـ لن يكون هناك قط ذلك اليقين الدامغ، لأن الجميع تعلموا من درس السويس سنة ١٩٥٦ ألا يكرروا الخطأ الذى وقع فيه «دافيد بن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل حين أصَرّ على كتابة خطة وتفاصيل المؤامرة الثلاثية على مصر بينه وبين رئيسى وزراء بريطانيا وفرنسا (إيدن، وموليه) فى صورة معاهدة يوقعها الأطراف (معاهدة سيفر) ويتفقون على إبقائها سرّا فى عالم لم يعد فيه مجال لسرّ.

وهكذا نَشَرْتُ سنة ١٩٩٠ ـ وبغير اتهام ـ ما توصلت إليه بشأن دور المَلِك «حسين» فى حرب سنة ١٩٦٧، وظننت أن تلك نهاية الطريق فى علاقتى مع «سَيِّد عَمَّان».

[٢]

ولم أكن مُصيبًا فى ظنى، وكان المَلِك صاحب الفضل.

والذى حدث بعد شهور من نشر كتاب «الانفجار ١٩٦٧» (فبراير ١٩٩٠) ـ أن انفجارا من طراز آخر وقع فى الشرق الأوسط حين أقدم العراق على احتلال الكويت (أغسطس ١٩٩٠)، ثم توالت الحوادث خاطفة إلى «عاصفة الصحراء» (يناير ١٩٩١) ـ وكان للمَلِك «حسين» فى أجواء تلك السنة الحافلة دور رئيسى ومِحْوَرى، وفى مطلق الأحوال فإنه كان السياسى العربى الوحيد الذى ظل من البداية

بعض الشهادات التى احتواها النص الثالث الجنائزى بدت تزيدا على السياق ومبالغة لا يقتضيها حواره. ومن ذلك ما يقال إن الملك حسين كان عميد السياسة فى الشرق الأوسط، وكان أعظم شخصية فى القرن العشرين، وكان ملاذ الشعوب يتجه إليه الجميع لطلب الرشد حين الحاجة إلى النصح

القهوة العربية مع فيصل ملك العراق..



إلى النهاية على اتصال بجميع الأطراف، مُتابِعا لكل التطورات. وكان من حظه أن أصحاب القرار العالمى فى واشنطن ـ وهُم يعرفون أحواله ـ تركوا له مجاله يتحرك فيه بحرية لم يتركوها لغيره.

وحين طَلَبَت منى مؤسسة «هاربر كولينز» أن أضع كتابا عن موسم الرياح الهوج من «عاصفة الكويت» إلى «عاصفة الصحراء» ـ ورد على بالى أن المَلِك «حسين» مرجع يصعب تجاوزه. لكننى كنتَ أعرف مسبقا أن ما كتبته عن دوره سنة ١٩٦٧ ضايقه ـ وربما آلمه!

وبعد تردد رأيت أن أبعث إليه برسالة عن طريق ممثله فى القاهرة ذلك الوقت السفير «نبيه النمر»، وكان مؤدى رسالتى:

«إننى أريد أن أسمع منه رؤيته وروايته للقصة من أغسطس ١٩٩٠ وحتى فبراير ١٩٩١. وأنا أعرف فى نفس الوقت أن ما كتبته عن دوره سنة ١٩٦٧ لم يكن مُرْضِيا له. وأنا لا أعتذر عما كتبت، فذلك ما توصلت إليه واقتنعت به. لكنه. ومن ناحيته. إذا اعتذر عن مقابلتى فسوف أفهم موقفه مُقَدِّرا أن ذلك حقه وأبرره له من غير تردد وبدون ضيق»!

وفى اليوم التالى مباشرة تلقيت. عن طريق السفير «نبيه النمر». رسالة من القصر الملكى فى عَمَّان مؤداها أن «المَلِك ينتظرنى فى أى موعد يناسبنى» وهو يقول: «إن خير البِرّ عاجله». كذلك بالنص.

وأتممت أعمالا تتصل بإعداد مواد ذلك الكتاب الذى شرعت فيه لمؤسسة «هاربر كولينز» (وأصبح عنوانه «أوهام القوة والنصر»)، ثم قصدت إلى عَمَّان بعد شهر من دعوة المَلِك.

وفى اليوم التالى كان موعدى معه، وقد استقبلنى فى مكتبه فى قصر «الندوة» ولم تقع عودة إلى ما سبق، ولا تمهيد بشرح أو اعتذار، وإنما التقينا وتحادثنا وكأننا افترقنا بالأمس على موعدنا اليوم. وجلسنا معا من الساعة الحادية عشرة فى الصباح وحتى الساعة الثامنة فى المساء. وتغدينا وتَعَشينا معا. وأجاب عن كل ما سألته فيه، واستدعى مستشاره السياسى وهو يومها السيد «عدنان أبو عودة» فانضم إلينا ومعه مَلَفّات من الوثائق تضيف إلى رؤية المَلِك وروايته.

منذ ذلك الوقت سنة ١٩٩١ ظللت ألتقى الملك «حسين» عدة مرات فى السنة، وأكثر لقاءاتنا فى لندن، وساعد على ذلك أننا ننزل نفس الفندق فيها «كلاريدج»، وحتى بعد أن اشترى المَلِك قصرا فى «كنسنجتون» لإقامته فى العاصمة البريطانية، وقصرا فى الريف القريب منها (Surrey) لعطلات نهاية الأسبوع ـ فإنه احتفظ بجناح فى فندق «كلاريدج» اتخذه شبه مكتب فى قلب العاصمة البريطانية.

وربما أشرت هنا إلى لقاءين ـ لكل منهما مذاق خاص ـ فى تلك الفترة بالذات:

* الأول منهما. مايو ١٩٩٢. وكان لقاء مشحونا ومؤثرا إلى أبعد حد.

اتصلت بالمَلِك فى بيته فى لندن ولم يكن هناك، وعاد فاتصل بى ولم يجدنى وترك لى رسالة بأنه سيمُر علىّ بعد الغداء. الساعة الثالثة فى قاعة الاستقبال الداخلية لفندق «كلاريدج».

وجاء متأخرا عن الموعد عشر دقائق ومعه مرافق واحد ظاهر اطمأن عليه حتى جلس، ثم ابتعد وغاب. ولم تكن القاعة فى تلك الساعة بعد الظهر الباكر مزدحمة، بل إن معظم موائد الشاى كانت خالية تنتظر. إلا ثلاث موائد أو أربع جلس إليها أصحابها، وقد عرف بعضهم المَلِك واحترموا وجوده دون فضول وإن راحوا يسترقون النظر أحيانا إليه، وما أظن أن أحدا منهم. رجالا أو نساء. تخيل أو خطر بباله شىء عن الموضوع الذى تطرق إليه المَلِك فى حديثه. فبعد حوار عام لم يستغرق أكثر من ربع ساعة ألقى إلىّ المَلِك مفاجاة أن أطباءه اكتشفوا إصابته بالسرطان (فى المسالك البولية) وأنه فى الغالب سوف يضطر إلى جراحة فى أمريكا. ولحظة بعد لحظة راح المَلِك يغوص فى مشاعره ويحكى كيف عرف أنه مريض بالسرطان، وكيف كان وَقْعُ الكلمة عليه حين وصلت سمعه أول مرة! إن أطباءه صارحوه بالحقيقة بناء على رأى زوجته (الملكة نور) التى استوعبت الصدمة ثم كان تقديرها «أنه لابد أن يعرف كل شىء، واثقة أن لديه الشجاعة لمواجهة أى شىء». ولقد لَمَح فى عينى زوجته ظلالا لم يستطع فهمها وشعر أنها أقلقته دون تحديد لمعنى هذا القلق.

وعندما سمع من أطبائه ما سمع، كان أول ما فعله أن تَحوّل ببصره إلى «نور»، وكانت عيناها فى انتظاره برسالة تشجيع وأمل. وفى البداية تلقى ما سمع هادئا ومُعَلِّقا لأطبائه بأنه تَعَوَّد على المخاطر، وكما قال فقد تماثل الخطر فى فكره أولا مع احتلال إسرائيل لنصف مملكته، لكنه بعد ذلك راح يكتشف أنه أمام خطر من نوع مختلف عن كل ما واجهه. «هو الآن أمام عدو لا يستطيع أن يراه، وهذا العدو نفذ إلى جسده واحتل فيه موقعا أو عدة مواقع، وهو غير قادر على رصد حركة هذا العدو، وغير قادر على متابعتها، وغير قادر على الدفاع عن نفسه. وحتى حين ينام فإن هذا العدو ساهر، وحين يعمل فإن هذا العدو متفرغ له، وفى خاتمة المطاف فإن هذا العدو غير مستعد للتفاوض ولا للوساطة» (قالها المَلِك وهو يحاول أن يبتسم) ـ وفى الليلة التى عرف فيها «أن السرطان معه فى فراشه، تحت الأغطية والملاءات، داخل جسمه وفى عُمْق خلاياه ـ لم يستطع أن يغمض عينيه»، وكان يحس بزوجته «نور» إلى جواره، وقد تكلمت كثيرا ثم لاذت بالصمت، ولعلها أحست أن زوجها يحتاج أن يفكر وحده، ويستوعب. وقرب الفجر قال لها: «إنه سوف ينام، فهذه ليست معركته رغم أنها تجرى داخل كيانه، هى أمر مقادير، وحين حدثته «نور» عن إمكانيات العلم الحديث، كان رده عليها: «إن العلم قد يكون شفاعة لدى المقادير.. مقبولة أو مردودة».

....

....

وعاد موضوع مرض المَلِك بعد شهور قليلة ـ سبتمبر ـ إلى حديثنا، فقد قصد المَلِك إلى «مايو كلينيك» وأجرى جراحة استئصال للكلية، وعاد إلى لندن. وقال لى حين لقيته: «إنه باق هنا أياما يسترد فيها بعض العافية بعد الجراحة، وخصوصا أن الإخوة والأهل هناك يريدون أن يجعلوا من عودتى مناسبة فرح. وبانت فى عينيه نظرة احترت فى فك رموزها ـ وقلت له: «أليست المناسبة بالفعل فرحا؟» ـ ورد بسرعة «والله لا أعلم»؟!

وكانت شفاعة العلم لدى المقادير قد نجحت فى منحه سنوات ـ إضافة إلى عمره.

ثم وقع ما لم يكن منه مهرب حين بَطُل مفعول «شفاعة العلم لدى المقادير»، وانتهت حياة رجل سوف يظل الناس حيارى ـ وإلى أمد

طويل - فى البحث عن الحقيقة بشأنه، ومن هو فعلا وراء هذه الابتسامة العريضة دائما على شفتيه؟!

* وكان اللقاء الثانى - سبتمبر ١٩٩٣ - نقيضا للقاء الأول. كانت المفاجآت موجودة - لكن ثورة الغضب كانت هناك بدلا من لوعة الألم. كان لقاؤنا على مائدة العشاء فى مطعم «سانتينى» الذى اشتهر بمطبخه الإيطالى على طريقة «فينيسيا». وكان الملك «حسين» قد سبقنا إلى هناك بالفعل ومعه الملكة «نور» وابنهما الأمير «حمزة» وإحدى بناته الصغيرات وفى ذاكرتى - ولم أسجلها فى أوراقى - أنها الأميرة «إيمان»، ثم وصلنا نحن (قرينتى وأنا).

ومن أول لحظة وجدت الملك متأثرا ومنفعلا، بينما هو فى العادة منضبط وكتوم. ويظهر أن الأحداث يومها أخذته على غرة، فقبل ساعات من لقائنا فى «سانتينى» كان الملك قد عرف بأن اتفاق «أوسلو» سوف يجرى توقيعه فى واشنطن بين «ياسر عرفات» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، و«اسحاق رابين» رئيس وزراء إسرائيل، وبحضور ورعاية «بيل كلينتون» رئيس الولايات المتحدة.

ولقد تضايق الملك - فيما يبدو - لأن أحدا لم يخطره بشىء، ولم يستشره فى شىء، ولم يدعه إلى شىء. وعلى نحو ما، فقد كان إحساس الملك بـ «الخيانة» أقوى من سيطرته على أعصابه.

إن قصة «أوسلو» فى حد ذاتها لم تكن غريبة عليه ولكن إعلان الاتفاق فاجأه، وكان الملك على علم بوجود اتصالات واجتماعات بين الإسرائيليين والفلسطينيين فى عاصمة النرويج - إلا أنه كما بدا لى لم يُعلّق على ذلك أهمية تُذكر. ففى أثناء لقاء سابق قبلها بشهر (أغسطس ١٩٩٣) بمكتبه فى عمّان كان هو الذى ذكر لى بنفسه أمر هذه الاتصالات والاجتماعات فى «أوسلو» - وكان تعليقه بسرعة «أن عرفات لا يستطيع أن يَقْبل ما يعرضه رابين - وما يقبل به عرفات يستحيل على رابين أن يناقشه مجرد مناقشة»! - كان ذلك قوله بالنص ونحن نمشى من حيث كنا نجلس فى مكتبه إلى باب الغرفة خارجين إلى الممر الطويل نحو مدخل قصر «الندوة»، والحرس من الشركس العجائز بلباسهم التقليدى تزينه الخناجر المعلقة من الأحزمة - يؤدون له التحية كل بضعة أمتار فى طريقنا!

ودون أن يقولها صراحة فقد راودنى إحساس لازمنى منذ بدأت عمليات التفاوض بين العرب وإسرائيل ملخصه أن الملك ينتظر أن تتطور الأمور إلى نوع من الخيار الأردنى لا يسعى الملك له، لكن هذا الخيار سوف يسعى للملك بطبائع الأمور.

لكن اتجاه الحوادث بدا الآن وقد اتخذ لنفسه منحنى آخر.

وتلك الليلة فى مطعم «سانتينى» فى لندن كان اتفاق «أوسلو» أمام كل الناس ومعه الأسوأ منه، وهو ذلك الاحتفال المقرر فى واشنطن، فى البيت الأبيض، وبحضور «بيل كلينتون»، وإلى جانبه «عرفات» من ناحية، ورابين من ناحية أخرى. بينما هو (الملك حسين) بعيد عن الأحداث والأضواء فى مطعم إيطالى فى لندن!

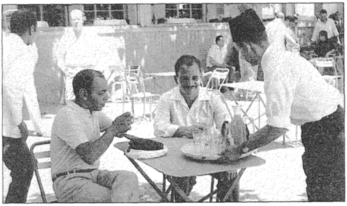
وما كدت أجلس إلى المائدة وأسأل الملك رأيه فيما جرى. حتى انطلق.

ولم أكن وحدى الذى اندهشت، وأحسب أن الملكة نور كانت أكثر اندهاشا منى.

يومها لم يكن الملك هو الذى يتكلم، وإنما الإنسان فيه بمشاعره المتناقضة لا يخفيها ولا يداريها. ولقرابة ساعة لم يوفر الملك طرفا، ولم يقصر فى أوصافه لأحد. وأظن أن ما سمعته منه تلك الليلة عن الأحداث والرجال فى المنطقة وفى العالم سوف يظل فى ذاكرتى. وفى أوراقى. شهادة فوّارة وتلقائية على دخائل السياسة العربية وطبائع المشاركين فى صنعها على المستوى الإقليمى والدولى. وبدون مجاملة أو تزويق مما تصنعه المساحيق!

كانت الساعات بين أداء الصلوات شكرا وتصفية الحسابات مع الشقيق علنا مأساة إغريقية، تؤكد لمن يهمه الدرس أن الحضارة والتكنولوجيا لم تتركا فى العالم الثالث إلا خدوشا على السطح، وأما تحت السطح فمعظمه لايزال حيث كان قبل قرون من الزمان...

.. الكوكاكولا مع الحسن الثانى ملك المغرب



ومرة أخرى، فقد كان ما يقوله - الآن - يعيد طرح مسألة شخصيته وقضية الحقيقة فى شأنه.

إن البحث عن الحقيقة - فى شأن الرجال أو الأحداث - لا يتطلب من الناس أن يبادروا بالحكم، وإنما أن يسعوا للفهم، وبعده وليس قبله يحق لهم أن يقرروا كما رأوا وكيفما شاءوا!

وسبب ذلك الطلب أن الحقيقة ليس لها وجه واحد، وإنما وجوه الحقيقة متعددة.

وحتى فى حالة أى شخص عادى أو أى حَدَث سياسى، فليس هناك - بالفعل - وجه واحد للحقيقة، فكل شخص عادى له شكل وشبه، وهذا وجه من الحقيقة. وله اسم وأسرة، وهذا وجه آخر. وله وطن وهوية، وهذا وجه ثالث.. وله تجربة وعمل، وهذا وجه رابع، وهكذا، وهكذا.. ونفس الشىء فى أحداث السياسة.

وفى حالة شخص سياسى فإن ثنائية الرجال والأحداث تتداخل مع بعضها بمعنى أن وجوه الحقيقة الإنسانية تبقى - ثم تزيد عليها وجوه الحقيقة السياسية وهى أيضا متعددة:

* حكم الجغرافيا هو الوجه الأول من وجوه الحقيقة السياسية.

* ثم إن حكم التاريخ هو الوجه الثانى من وجوه هذه الحقيقة.

* ويجىء حكم العصر - الزمن - ليكون الوجه الثالث.

* وأخيرا يقع حكم التجربة - كما فى حالة الشخص العادى - لأن التجربة هى القاسم المشترك فى توجيه تصرفات الناس خارج أحداث السياسة أو فى قلبها.

وفى حالة كل الناس، فإن أحكام الوجوه المتعددة للحقيقة - إنسانية وسياسية - تسرى فى الأفعال وردود الأفعال بطريقة لا يكاد يلحظها أحد لأنها مكونات «شخصية متكاملة» لا يفصح أى جزء منها عن نفسه منفصلا عن بقية الأجزاء، بل تتفاعل المكونات طبيعيا مع بعضها - إلا فى استثناءات قليلة تظل فيها الوجوه المتعددة للحقيقة منفصلة.. متجاورة، لكنها متباينة!

وفى حالة الملك «حسين» بالذات، فإن الاستثناء يبلغ مداه لأن الوجوه المتعددة للحقيقة تظهر مثل الوشم مرسومة وظاهرة - ولعله الضغط الزائد عن الحد لكل وجه من وجوه الحقيقة.

والواقع، إن شخصية الملك «حسين» بما يتداخل فيها إجمالا وتفصيلا يَصْعُب فهمها - حتى وإن استحال فى بعض الأحيان تبريرها - إلا بالنظر إلى وجوه الحقيقة المختلفة، وهى فى حالته كما قلت: رسوم وشْم جرى دقه دقا على جلد لحمه الحى!

[٣]

وإذا بدأنا بحكم الجغرافيا وهو بالفعل أهم وجوه الحقيقة فيما يتعلق بالأردن وملكه - فسوف يتأكد أن الجغرافيا كانت شديدة الصرامة مع الاثنين. فتلك دولة اصطُنعت بقرار سياسى خلافا لما هو طبيعى فى نشأة الدول، وكان إنشاؤها بتوجيه من «ونستون تشرشل» وزير المستعمرات البريطانى أثناء مؤتمر عُقد فى القاهرة برئاسته فى فندق «سميراميس» وعلى جدول أعماله مستقبل الممتلكات البريطانية فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى وما وقع خلالها وبعدها من أحداث أهمها معاهدة «سايكس بيكو» التى قسّمت إرث الخلافة العثمانية أنصبة بالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا، ومن ثم رَسَمت للمنطقة خريطة جديدة.

كان وزير المستعمرات البريطانى «ونستون تشرشل» هو المهندس الأول للخريطة على الجانب البريطانى، وقد راح يخطط، وبين ما خط موقعٌ تَحَيّر الذين رسموه فى اختيار اسم له، ثم كان أن استعملوا وصفا جغرافيا بسيطا هو «شرق الأردن». والدول لا تسمى فى العادة على هذا النحو، والمألوف أن الدول الجديدة تستعيد اسما قديما ينسب نفسه إلى أصل تاريخى، أو سلالة بشرية، أو قبيلة، أو نهر، أو حتى لغة - لكن نسبة الأوطان إلى اتجاهات أو مواقع على خريطة، سابقةٌ لم تحدث من قبل.

وعلى أى حال فقد كانت للضرورات أحكامها، وظهرت إمارة «شرق الأردن» و«عبد الله» على عرشها.

لكن الخريطة كان عليها موقع آخر اختار له أصحابه اسما من أساطير التاريخ وليس من تضاريس الجغرافيا: إسرائيل.

والواقع أن قرار إنشاء «شرق الأردن» يمكن اعتباره ملحقا إضافيا إلى معاهدة «سايكس بيكو»، وهو رابط بينها وبين وعد «بلفور» الذى أعطى اليهود حقا بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين.

والشاهد أن «شرق الأردن» تكاد تكون مساحة على خريطة تنطق حدودها بالمطلوب منها مجملا على النحو التالى:

١- إذا كانت المملكة الجديدة هى «شرق الأردن» - فإن غرب الأردن هو فلسطين حيث أعطت بريطانيا لليهود حقا بإنشاء دولة يهودية. وإذا كان إنشاء دولة يهودية مطلوبا - فإن نقطة مراقبة وحراسة - بريطانية وعربية إذا أمكن - تصبح مطلوبة، على مقربة.

٢- إن موقع «شرق الأردن» محشور بين الحجاز (المملكة العربية السعودية فيما بعد) وبين سوريا - وفى نفس الوقت محشور بين العراق وبين الدولة اليهودية الموعودة - وإلى حد ما بين العراق وسوريا أيضا.

٣- إنه مع ظهور احتمالات البترول المؤكدة فى مناطق الخليج وشبه الجزيرة العربية - ومع إمكانات ظهور دولة يهودية لا يزال قيامها وحجمها وقدرتها وقبول الجيران بها - أسئلة تنتظر - فإن «شرق الأردن» وحتى يبين جواب الأسئلة يمكن أن يقوم بدور حاجز بين اليهود فى فلسطين ومنابع النفط العربى، وخصوصا إذا تأزمت العلاقات - وهى مُعَرَّضة فى الغالب أن تتأزم - بين اليهود والعرب!

٤- إن المنطقة التى اقتُطعت لإمارة «شرق الأردن» فقيرة وتكاد تكون بلا موارد، ثم إنها فى حالة شبه حصار حيث حشروها، وهذا يجعلها فى حاجة دائمة إلى مساعدة أجنبية. و«الأمراء العرب (و«عبد الله» أولهم) يُفضّلون سؤال الغريب على القريب»، وذلك يجعل بريطانيا فى وضع فريد، فهى الغريب القريب فى نفس الوقت، وإذا كانت هى التى خططت ورسمت وأنشأت وساعدت، فإن الكلمة العليا لابد أن تكون لها.

ومهما يكن فإن التكاليف محدودة - اثنا

عشر مليون جنيه استرليني سنويا، نصفها لحكومة الملك «عبد الله»[3]، ونصفها الآخر لجيش يرفع رايته.

٥- إن قيام كيان سياسي في «شرق الأردن» تحميه بريطانيا وتتحكم فيه، يصنع بالفعل نقطة اتصال أساسية بين أهم القواعد العسكرية الإمبراطورية في الشرق الأوسط. وكانت قاعدة قناة السويس غربا في مصر وقاعدة الحبانية شرقا في العراق هما أهم هذه القواعد. وفي «شرق الأردن» جرى إنشاء قاعدة «الزرقاء» في المفرق وهي نقطة في الوسط تماما من خط المواصلات البريطاني بين وادي النيل وأودية دجلة والفرات.

وهكذا جرى رسم حدود دولة «شرق الأردن» وتعيين «عبد الله» أميرا عليها - وكذلك تقرر إنشاء جيش لها روعي أن يكون جنوده من البدو بتصور أن ولاء المقاتل البدوي مضمون لشيخ قبيلته - أو للأمير الكبير فوق شيخ القبيلة. وقد اختير لهذا الجيش اسم «الفيلق العربي»، ونُصّب على قيادته ضابط بريطاني هو «جون باجوت جلوب»، وبقصد تعريب الجنرال البريطاني، فقد منحه الأمير «عبد الله» رتبة الباشوية الهاشمية فأصبح اسمه «جلوب باشا»!

ثم كان أن أصبح «الفيلق العربي» أقوى الجيوش في المنطقة بكفاءة تدريبه وكفاية سلاحه رغم صغر حجمه.

إن ذلك الدور الذي حكمت به الجغرافيا على إمارة «شرق الأردن» ظهرت فوائده في الحرب العالمية الثانية حين أصبحت منطقة «المفرق» مرتكزا رئيسيا لقيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط - كما أصبح الفيلق العربي الذي اتخذ قيادته في قاعدة «الزرقاء» طليعة القوات البريطانية التي ضربت انقلاب «رشيد عالي الكيلاني» - ١٩٤٠ - وأعادت الفرع «العراقي» للأسرة الهاشمية إلى عرش بغداد بعد طرده منها. وقد تكرر نفس الشيء بعد ذلك حين أصبح الفيلق العربي (والفيلق اليهودي أيضا) - طليعة قوات الجنرال «ميتلاند ويلسون» عندما طرد الألمان من سوريا - يوليو ١٩٤١ - بعد أن جاءوا إليها بسماح من حكومة «فيشي» التي قامت في فرنسا بعد سقوط باريس واستسلامها أمام جيوش «هتلر»!

إن ذلك الموقع الجغرافي بعد ذلك هو الذي وضع الفيلق العربي داخل فلسطين عندما بدأ مشروع إنشاء الدولة اليهودية يأخذ شكله النهائي بعد الحرب العالمية الثانية، وكان دخول هذا الفيلق إلى فلسطين ضمن قيادة قائد القوات البريطانية فيها وتحت تصرّف حاكمها العام الجنرال «آلان كننجهام». وكان شاغل «كننجهام» في الشهور الأخيرة للحكم البريطاني في فلسطين هو حصر العنف الصهيوني وردة الفعل العربية تجاه هذا العنف، وكان العنف الصهيوني وردة الفعل العربية إزاءه كلاهما يُجرِّب قدر ما يستطيع أن يفرض أمرا واقعا على الحكومة البريطانية قبل انسحابها من فلسطين، وفي ذلك الوقت كانت الخطط اليهودية تستقوي بالإمبراطورية الجديدة البازغة التي خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية وهي الولايات المتحدة الأمريكية - وكان رد الفعل الفلسطيني يتمنى أن يستقوي بالدول العربية المحيطة بفلسطين.

وهكذا، فإن حكم الجغرافيا وضع عرش «شرق الأردن» (الأردن فيما بعد) وسط دوامة السياسة، وتقاطع النيران، وضباب الحرب وبرقها ورعدها - وفي قلب الحدود والتخوم بين مصر والعراق، وبين سوريا والسعودية، وبين العرب واليهود، وبين فلسطين وإسرائيل، وبين بريطانيا وأمريكا.

أربع أزمات عربية ظهر على خلفيتها ظل الملك وصورته، والأزمة الأخيرة منها كشفتها هيئة الإذاعة البريطانية في برنامج قدمته أواخر ١٩٩٨، في مناسبة مرور خمسين عاما على إنشائها، أن الملك حسين ذهب يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣ إلى مقابلة سرية مع رئيسة وزراء إسرائيل (قبل أيام من ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وحذر جولدا مائير من أن مصر وسوريا تدبران لشن معركة مفاجئة ضد القوات الإسرائيلية

.. مع رونالد ريجان وزوجتيهما



وباختصار، فإن موقع الأردن الذي كان بالجغرافيا الطبيعية بقعة ساكنة على الخريطة - أصبح بالجغرافيا السياسية فوهة بركانية متفجرة أو مستعدة للتفجير عند أي حركة محسوبة أو غير محسوبة.

ذلك عن حكم الجغرافيا وقد كان قاسيا!

[٤]

إذا كانت تلك قسوة الجغرافيا على مملكة الملك «حسين» وقت إنشائها في عهد جده - فإن قسوة التاريخ كانت أشد.

إن المملكة كانت بغير تاريخ قديم يخص الشعب الذي يعيش فيها حين أنشئت الدولة الجديدة وأقيم عرشها - إلا بمقدار ما يخص التاريخ العربي في مجمله كل العرب في عمومهم.

والشاهد أن المنطقة التي أنشئت فيها إمارة «شرق الأردن» كانت محرومة من وفرة الموارد، ولهذا فإنها لم تعرف مجتمعات مستقرة تترك وراءها بمضي العصور تراكمات حضارية متواصلة.

ولأن المنطقة كانت قبل الإسلام وبعده مسالك طرق من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب - فقد ظهرت عند بعض تخومها آثار شعوب وإمبراطوريات علا نفوذها في المنطقة، ومشت جيوشها أو سارت قوافلها عبر الأردن. ثم إنه على طرق زحف الجيوش وحركة القوافل نشأت مراكز محدودة للعمران ظلت آثارها باقية مثل معبد «بترا» والملعب الروماني في قلب عَمَّان، ثم مقابر لبعض قُوّاد الفتح العربي للشام استشهدوا بالسيف في الجهاد أو بالعطش وسط التيه. ثم حُفظت قبورهم شاهدا إذا صدق الرواة. كذلك بقيت أطلال بيوت أريد لها في زمانها أن تكون ملاذا بعيدا لبعض أمراء الأمويين إذا أوحشتهم حياة الصحراء.

لكن المنطقة في عموم أحوالها كانت ممرا أكثر منها مستقرا، ومَعْبَرا أكثر منها مقاما.

كانت عَمَّان التي وصل إليها ركب الأمير «عبد الله بن الحسين» معاتبا لأبيه ومغاضبا لشقيقه الأصغر منه - قرية صغيرة تتناثر بيوتها على مجموعة من التلال. وكانت حياتها تجارة محدودة وزراعة في واحات محصورة حول بئر هنا أو بئر هناك. ثم بعض مبان إدارية تركتها الإمبراطورية العثمانية وراءها حين كانت عَمَّان محطة ضرورية على الطريق من دمشق إلى مكة والمدينة في الحجاز.

ولم يكن الأمير «عبد الله» شديد السعادة بالإمارة التي أقطعه إياها وزير المستعمرات البريطاني، وقد قال وقتها، وظل يقول حتى سمعتها منه سنة ١٩٤٨ - أن هناك «ممالك دون ملوك» وهناك «ملوكا بدون ممالك»، وكان يُصرِّف المعنى على هواه وهوى سامعيه، فـ «المملكة بلا ملك» في بعض الجلسات هي السعودية - وفي بعض الجلسات هي العراق - بل وفي إحدى المرات - على الأقل - هي مصر - لكنه هو «عبد الله بن الحسين» في كل الأحوال كان «الملك بلا مملكة»!

وفي صميم قلبه - وعلى لسانه إذا وجد من يسمع ويكتم السرّ - فإن الملك «عبد الله» لم يكن سعيدا على الإطلاق بمن يراهم حوله من ملوك العرب. فالملوك السعوديون مُغتَصِبون للمُلك مرتين: من أسرة «الرشيد» في نَجد، ومن أسرته هو - والده مباشرة - في الحجاز. والملوك المصريون «ألبان»، لا هُم من العرب ولا هُم من قريش، ثم إنهم يتعاملون مع بقية الأمراء باستعلاء رغم أنهم بلا حَسَب ولا نَسَب يعطيهم سببا للفخار. وحتى ملوك العراق رغم أنهم إخوته وأبناؤهم - خانوا الأخ والابن، وخطفوا العرش العراقي ممن يستحقه وهو (عبد الله) أولهم وأكثرهم جدارة لأنه أكبر من شقيقه الملك «فيصل» وأسبق في الاتصال بالإنجليز لترتيب الثورة ضد العثمانيين.

ومن هنا بالتحديد، فإن تاريخ الهاشميين يصبح مقدمة لا غنى عنها في فهم سياسة الأردن من عصر الجَد «عبد الله بن الحسين» إلى عصر الحفيد «حسين بن طلال»!

* وتاريخ الهاشميين بالدرجة الأولى مشكلة.

* وحكايتهم من القرن السابع الميلادي وحتى القرن العشرين مأساة.

* ثم إن التعقيدات التي صنعوها وصنعتهم - مشكلة ومأساة - تركت آثارها عليهم وعلى التاريخ الإسلامي، وعلى السياسة العربية المعاصرة من وقتها وإلى اليوم - وكانت النتائج - ولازالت - مُرْهِقة!

....

....

* إن المشكلة بدأت حين تصور البعض من أسرة الرسول ﷺ أن لهم حقا في خلافته، ثم رأت غالبية من المسلمين أن النبوة ليست ملْكا يؤول إلى عائلة «محمد» ﷺ بعد انتقاله إلى الدار الآخرة.

وكانت تلك هي القضية المثارة علنا أو همسا في المجتمع الإسلامي طوال الجزء الأكبر من عصر الخلفاء الراشدين، وكانت ضمن العوامل التي أدت إلى الفتنة الكبرى وقد حسمها «معاوية» - أو هكذا بدا وقتها - بقيام دولة الأمويين.

* وكانت المأساة أن «معاوية» لم يكتف بالنصيحة كما فعل «أبو بكر» و«عمر» و«عثمان»، وإنما قاد عملية تمرد ضد «عليّ» (وهو أول خليفة من أسرة الرسول ﷺ)، ثم إن «معاوية» قاد العالم الإسلامي إلى تجربة إنشاء دولة قوية (تحولت إلى إمبراطورية إسلامية عظمى). وهي دولة لم تكن طول عمرها على استعداد - بالطبع - لقبول دعاوى بالأحقية في الخلافة لغيرها، وكان بين النتائج ما سُمّي في الأدبيات الإسلامية بـ «مصارع الطالبيين» (نسبة إلى «علي بن أبي طالب»)، وكان أشهرها مذبحة كربلاء واستشهاد «الحسين».

واستفحلت المشكلة واستفحلت المأساة معها حينما اختلفت أسرة النبي ﷺ نفسها مع بعضها - هاشميين وعباسيين وعلويين. إلى آخره.. وكانوا أشد على بعضهم من شدة غيرهم عليهم.

ونتيجة التفاعل بين المشكلة والمأساة جاءت التعقيدات التي صنعها الهاشميون كما صنعتهم، وهي باختصار (وحتى لا يتوه أحد في سراديب الماضي وكهوفه) - كما يلي:

١- أن الهاشميين اعتقدوا وظلوا على اعتقادهم بأنهم أصحاب حق في ولاية الأمر - ومنطقهم أن صلتهم بالنبي ﷺ لا يمكن أن تكون مصادفة.

٢- أن عامة المسلمين، أغلبية المسلمين، لم تعترف لهم بهذا الحق مؤيدة لفكرة أن الرسالة اختيار إلهي لرجل اصطفاه ربه وحده، وأي حديث عن أسرته - ينقل الأمر في الإسلام من الخلافة برضا الناس إلى المُلك بالإرث حتى وإن غطته مظاهر البيعة!

٣- لكن الهاشميين لم يقتنعوا، ولأنهم لم

يقدروا على المطالبة الصريحة إزاء إجماع معظم المسلمين، فإن عتبهم على الأمة ظهر وزاد، فقد كان مناهم أن تُقَدِّم لهم ما اعتقدوا أنه حقهم دون أن يضطروا هم إلى المطالبة به.

٤ـ وإزاء ذلك الوضع المعقد فإن الهاشميين في كل ما سعوا لتحقيق مطلبهم ـ حاولوا سرا ولم يحاولوا جهرا. وعلى هذا فإن دورهم عبر التاريخ اكتسب على نحو ما طابع العمل الخفي ـ وأحيانا لحقته شبهة المؤامرة!

٥ـ والشاهد أنه من عصر الأمويين إلى عصر العثمانيين فإن الهاشميين تحركوا دائما ومن وراء عواصم كل دولة إسلامية في التاريخ ومن مكة إلى دمشق، ومن الكوفة إلى استانبول ـ وكانت حركتهم في كل الاتجاهات ومع كل قريب أو بعيد! ـ تصوروه قادرا على فهم لغة الإشارات!

٦ـ وربما نتيجة لذلك أن الهاشميين صنعوا ما يمكن حسبانه لغة خاصة تقول بالعين ما لا ينطق به اللسان، وتُعَبِّر بجمل توحي ولا تبوح، وقد تفاقم الإبهام المقصود ـ والذي أصبح طبيعة فيما بعد ـ إلى درجة يمكن معها تمييز «أسلوب هاشمي» في الكلام أو الكتابة، يقبل كل تأويل ويحتمل أي معنى.

٧ـ ومع مرور السنين والقرون فإن الخطاب الهاشمي غلبت عليه نبرة من الإحساس بالاضطهاد والادعاء بالاستشهاد، فالأمة ضَنَّت عليهم بحقهم، ودولها الكبرى (الأمويين بالذات) ظلمتهم، واستباحت ذمامهم، وأهدرت دمهم ـ ثم لم ينتصر لهم أحد رغم تعاقب الدول ـ ومع أنهم استُعْمِلوا ـ أحيانا ـ رايات في معارك الآخرين، إلا أنهم خرجوا في النهاية ـ ودائما ـ صفر اليدين، لا دولة ولا عرش ولا تاج!

وأخيرا، فقد قَيَّض الله لهم من أنصفهم من الظلم بما فيه «كيد الأعداء وحَسَد الأمراء» ـ طبقا للنص الرسمي الذي أصر عليه الشريف «حسين» حين قَدَّم لحلفائه البريطانيين مشروع اتفاقه معهم!

ولم ينجح مشروع الشريف «حسين»، ولكن اثنين من أبنائه ـ «فيصل» و«عبد الله» ـ عثر كل منهما لنفسه على عرش: أولهما في بغداد، وثانيهما في عَمَّان!

[٥]

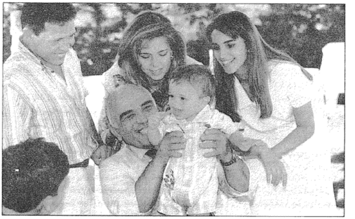
إن الأمير «عبد الله» الذي أقام مضارب خيامه على جبل عَمَّان، بدأ يبني بيتا هناك يتخذه مَقَرا يحكم منه إمارته الجديدة «شرق الأردن»، ثم راح يمد بَصَره إلى الضفة الأخرى للنهر حيث الأرض الخضراء والمراكز الحضرية للمجتمع الفلسطيني الذي هزته اليقظة العربية العامة بعد انتهاء الحرب وإعلان الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» بحق شعوب المستعمرات في تقرير مصيرها، والآمال التي تعلقت بمؤتمر الصلح في «فرساي» حيث كان الرجاء أن يظهر نظام عالمي جديد!

وفي ذلك الوقت وفي تلك الأجواء، فإن الحلم الذي تَبَدَّى على الفور للأمير «عبد الله» والذي أقنعه بقبول إمارة «شرق الأردن» مقدمة لجائزة أكبر منها ـ كان حلم فلسطين، فلو استطاع أن يمد إمارته من «شرق الأردن» إلى غربه وأطل على البحر الأبيض إذن فإنه يصبح مَلِكا لمملكة كبرى لا تقل أهمية عن مملكة العراق التي كانت من نصيب شقيقه الأصغر «فيصل». ثم لعله إذا أخذ فلسطين أحاط بعدها بسوريا، وإذن أصبح قريبا من الحلم الذي راود والده وأصحابه ـ بدولة عربية كبرى تملأ الهلال الخصيب من البحر الأبيض إلى الفرات!

ولم يكن الأمير «عبد الله» في حاجة إلى جهد كبير لكي يدرك أن العقبة الكبرى أمام مشروعه هي الوعد البريطاني بوطن لليهود في فلسطين، ولقد أدرك أهمية «وعد بلفور» ـ كما أدركه من قبله أخوه المَلِك «فيصل» حين رَتَّب له «لورانس» أن يلتقي قُرب «العقبة» بالدكتور

أمامنا الآن ما يؤكد ـ صريحا وموثقا ـ أنه على طول الفترة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٧٧ كان اسم الملك حسين على قائمة المرتبات السرية في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.. وكانت تلك هي السنوات التي شهدت انقلاب الأردن ١٩٥٧، وانفصال الوحدة المصرية ـ السورية ١٩٦١، والحرب في اليمن ١٩٦٢، والنكسة ١٩٦٧ ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣

.. مع الملكة نور وعبدالله وزوجته رانيا وأحفاده



«حاييم وايزمان» رئيس الوكالة اليهودية الشهير (وأول رئيس لدولة إسرائيل فيما بعد). وفي ذلك اللقاء وكما تبين من نصوص محاضره ـ فإن «فيصل» تَبَيَّن أن قبوله بحق اليهود في فلسطين هو جواز مروره إلى أي مملكة في المشرق ـ وقد قَبِل».

ولما كان الأمير «عبد الله» أكثر طموحا من شقيقه، فإنه لم يكن فقط على استعداد لأن يَتَبيَّن ويَقْبَل، ولكنه كان على استعداد لأن يساعد ويُسَهِّل، وهكذا فإنه عرض على الوكالة اليهودية وطنا قوميا في إطار حكم ذاتي (فيدرالي) داخل حدود مملكته.

وبذلك العرض فإن الأمير «عبد الله» أثبت أنه تعامل مع اليهود دون أن يعرف شيئا عن حجم مشروعهم، وقد تصور أنه يستطيع أن يستعمل طموحهم لتحقيق حلمه، وكانوا أقدر منه على استعمال حلمه لتحقيق طموحهم.

وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ فقد كان المَلِك «عبد الله» لا يزال أسير أوهامه، يتعامل مع الوكالة اليهودية، ويقابل جميع أقطابها ـ مدنيين وعسكريين (وايزمان ـ جولدا مائير ـ إلياهو ساسون ـ وحتى موشي ديان) لكنه ظن وحتى آخر لحظة أنه يستطيع إغراءهم بفيدرالية داخل مملكته «حقنا للدم وابتغاء وجه السلم»!

إن الوكالة اليهودية سارت في مخططها الذي أعدت نفسها وسلاحها ونفوذها له منذ صدر وعد «بلفور» وأعلنت قيام إسرائيل، وتلاءم أمير «شرق الأردن» بسرعة مع المخطط الجديد، ولم يكن لديه غير ذلك لأن جيشه كان يحمل رايَتَه دون أن يلتزم بأمره.

ومن قبل أن يدوي صوت الرصاص في حرب فلسطين بعد إعلان قيام إسرائيل، فإن المَلِك «عبد الله» رَتَّب نفسه على أن يكون الجزء المَخصص للعرب بقرار التقسيم امتدادا لمملكته، لكن إسرائيل لم تترك له الفرصة، وإنما زحفت مندفعة إلى بعيد وراء خطوط التقسيم. وكان أن تواضع مطلب «عبد الله» إلى القبول بأخذ ما تبقى من فلسطين بعد عاصفة النار الإسرائيلية، وفي سبيل تحقيق ذلك، فإن المَلِك «عبد الله» راح يعمل ـ وبكل الوسائل ـ على خروج جميع العرب الآخرين من فلسطين بحيث لا يظل على أرضها من العرب غيره، وقد وصل في ذلك إلى حد التلاقي الكامل في النوايا ـ وترتيبا على ذلك في الخطط ـ مع إسرائيل، وكانت وطأة هذا التلاقي شديدة على الجيش المصري في الجنوب كما تؤكد الوثائق. وعندما سكتت المدافع فإن حرب ١٩٤٨ انتهت، وقد استولت إسرائيل بالغزو المسلح على ٧٢٪ من الأراضي غرب الأردن (مرة ونصف بالزيادة عن قرار التقسيم).

وكان أن قنع المَلِك «عبد الله» بأن يأخذ ما تبقى غرب الأردن من أشلاء فلسطين ويضمه إلى إمارته يحَوِّلها إلى مملكة تعقد له البيعة عليها.

لكن المَلِك «عبد الله» في هذا كله كان يحتاج إلى غطاء شَرعي، وكان الغطاء الشرعي جاهزا.

ومن وقتها زاد التركيز على عنصر المسئولية التاريخية الخاصة والدور السياسي الخاص الموكول إلى «الهاشميين» استنادا لهذه المسئولية.

وكانت تلك دعوة راجعة عكس حركة الزمن، وربما أن بعض آثار الماضي البعيد جرى استخراجها من حفائر طبقات غائرة في تربة التجربة العربية والإسلامية وأعيد بعثها لكي تخدم مطالب مستجدة وطارئة، ومع أن تلك كانت علَّة ملائمة أخذ بها الإنجليز في ظروف الحرب العالمية الأولى، فإن الاستمرار فيها وتحويلها إلى سياسة ـ شملت صياغة اسم البلد ذاته (المملكة الأردنية الهاشمية) ـ أصبح مخاطرة لا لزوم لها لأنها تضفي على بعض التصرفات الصحيحة أو الخاطئة مسحة من العصمة تصد عنها حق الدرس والمناقشة والتقييم بدقة وموضوعية وبدون تَحَرُّج من رموز يُعاد بعثها بعد زمانها!

وليس هناك شك أن مسار التاريخ عرف أدوارا عظيمة لرجال ونساء من الهاشميين. لكن هذا التاريخ لم يعرف مسئولية معينة موكولة إلى أسرة بعينها ويكون على الجميع أن يُسَلِّموا لها بما يترتب على ذلك من حقوق، بما في ذلك عصمة تغطي على أي قول أو فعل.

لكن بعض أمراء الأسرة الحاكمة في عَمَّان بالذات بالغوا في تقديم الأسطورة الهاشمية وجعلوا منها حقيقة سياسية ليس يحق إنكارها، ووصل بعضهم في المبالغة إلى بعيد!

وأذكر أنني ناقشت المَلِك «حسين» في ذلك مرات، وكان يأخذ ويعطي، لكن الغريب أن آخرين كانوا على تصميم أن يأخذوا فقط!

ومن المفارقات أن الأمير «حسن» شقيق الملك «حسين» الذي نُحِّي عن ولاية العهد في ظروف وملابسات لم تعد الآن سرا، كان يشرف على مؤسستين: أولاهما تحت اسم «المنتدى» واختصاصها أن تكون مركزا للدراسات السياسية والإستراتيجية، أما المؤسسة الثانية فقد كان اسمها «مؤسسة آل البيت»، وهو وصف ملتبس إلى درجة التلغيم بما لا داعي له من مظان.

وأتذكر أنني (ما بين سنتي ١٩٩٥ و١٩٩٨) كتبت ونشرت تفصيلا وتحليلا عن دور ـ أو حلم ـ يتصوره الهاشميون لأنفسهم في مستقبل العراق. وكان الأمير «حسن» عندما يعن له أن يناقشني في قضية يكتب إليَّ بمَوَدَّة ورغبة في الإقناع ـ لكنه في تلك الفترة آثر أن يبعث إليَّ برسائل شفوية مع صديق له ولي، وكان مؤدى رسائله:

«إنني تجنيت على الهاشميين بما ذكرت عن نواياهم في مستقبل العراق، وذلك قَدَر الهاشميين أن يظلمهم الناس عبر عصور التاريخ وأن يشككوا في مقاصدهم ويروا في تصرفاتهم ما ليس من طبائعهم. ويظنونهم أطرافا في خطط خفية، وتحركات سرية، ومغانم يريدونها لأنفسهم غيلة من حق غيرهم ـ وليس ذلك إنصافا».

ثم تضيف الرسائل الشفوية ما مؤداه:

«إن الهاشميين لا يعرفون ما يسمى بالتعبير المصري الشائع «تدبير المقالب» للإخوان أو للشعوب أو للأمة».

وفي الأسابيع الأخيرة وحين كانت عَمَّان مسرحا لكل ما جرى فيها، خصوصا للأمير «حسن»، فقد هممت أكثر من مرة أن أبعث إليه برسالة أسأله إذا كان متأكدا من أن «تدبير المقالب» على فرض صحة إسناده إلى تعبير مصري ـ ليس له مقابل هاشمي؟!

....

....

[والآن طلب إذن للخروج عن النص:

أقول فيه إنني كنت أتمنى لو أتاحت لي الظروف أن أرى الأمير «حسن» وأن أسمع منه وجهة نظره فيما جرى، لكن ذلك لم

كان الصبى الهاشمى الذى أصبح ملكا على الأردن، بعد مشاهد درامية متلاحقة بينها شقاء والدته، ومصرع جده، والحجر بالجنون على أبيه، وتزيد عليه ضغوط المشكلة والمأساة فى تاريخ الهاشميين، ويتضخم شعوره بالحق الضائع وتزداد معه عقدة الاستشهاد

مع الجنرال فرانكو ديكتاتور أسبانيا



يحدث، وإنما حدث شىء آخر هو أننى سمعت نقلا عنه من أحد أفراد أسرة ملكية أوروبية التقاه فى مناسبة العزاء وزاره فى نهاية يوم طويل مرهق وثقيل.

إن الضيف المَلَكى الأوروبى - الذى أحجب اسمه بناء على طلبه - سأل الأمير «حسن» عن تفسيره لتصرف أخيه معه؟ وكان رد الأمير «حسن» أن «دهشته مما حدث لا تَقِلّ عن دهشة «سائله»، فقد كان آخر ما تلقاه من المَلِك قبل وصوله إلى الأردن بأسبوع (وهى عودته الأخيرة لبلده والتى أجرى خلالها تغييرات على قمة السلطة وضمنها عزل شقيقه عن ولاية العهد) - هو خطاب حمله إليه أحد مرافقى المَلِك، وكان مكتوبا بخط يده ومُوَجها إليه باعتباره «أخى. وقرة عينى - وولى عهدى». وفى هذه الرسالة أعطى المَلِك لشقيقه توجيهاته بما يريد أن يكون عليه استقباله فى المطار، بما فى ذلك مَن يستقبله داخله ومن يستقبله خارجه، وكيف يكون موكبه! - وفى نفس هذا الخطاب طلب المَلِك أن تكون هناك سجّادة جاهزة للصلاة موجهة إلى القِبْلة قبل نزوله من الطائرة. وكانت الإشارة الوحيدة الملفتة للنظر أن المَلِك قال لولى عهده «أنه يريد أن يطوف موكبه بشوارع عَمَّان الرئيسية، وأن تكون مسيرة الموكب كله مذاعة مباشرة على الهواء مهما أخذت من الوقت لأنه يريد أن يشكر «أسرتنا الكبيرة». ثم أضاف المَلِك «أنه يرى أن لا يركب معه شقيقه لأن ظروف الأمن - مع دقة الموقف - تقتضى ألا يكون المَلِك وولى عهده معا فى نفس السيارة»!

وروى الأمير «حسن» لضيفه مستغربا «أنه ذُهل من الخطاب الذى وجهه إليه المَلِك علنا وحوى تُهَمًا لم يكن لها سبب». وقد أدهشه أن الخطاب على قسوته أُعطى لكل وسائل الإعلام قبل أن يقرأه هو، وكان يتوقع على الأقل أن يسأله شقيقه فيما بلغه عنه وأن يسمع دفاعه.

وعلى سبيل المثال (طبقا لما قاله الأمير «حسن») فهو لم يعترض على طلب المَلِك أن يكون أحد أبنائه (أبناء المَلِك) وليا للعهد بعد الأمير «حسن»، وإنما كان موقفه هو الحرج من طرح مسألة الخلافة على هذا النحو الصريح بينما المَلِك مازال على قيد الحياة. و«مع ذلك فإن المَلِك لو أراد لكان له حق الأمر فى ولاية العهد وليس طلب الرأى».

وكانت رواية الأمير «حسن» أنه على العكس من كل ما قيل كان حريصا على شعور شقيقه رغم أن جهات دولية أبلغته أن «الملك فى عداد المُنتَهى». وكان هناك من طلب مِنه ترتيب الأمور على هذا الأساس، ولكنه - من جانبه - رفض لأنه لم يتصور أن يتصرف على أساس أن شقيقه «ميِّت» فيما هو على قيد الحياة - لا يزال!

وقال الأمير «حسن» أيضا إن أصعب ما واجهه فى حياته بعد إذاعة خطاب الملك العلنى بأسباب عزله - هو كيف يشرح لأبنائه ما وقع له دون أن يُعرِّضهم «إنسانيا لصدمة»، أو يضع ولاءهم «للأسرة» و«للمَلِك» فى امتحان عسير.

وقال الأمير «حسن» أيضا إن «خلعه عن ولاية العهد بطريقة تشبه الانقلاب» وضعه فى حرج شديد إزاء آخرين. فلسنوات طويلة (خمس وثلاثين سنة) تعامل معه كثيرون باعتباره وليا للعهد ونائبا للمَلِك، وقد تعاملوا معه «بوصفه الرسمى» وليس بصفته الشخصية، وبعضهم بسبب طبيعة المسئوليات الموكولة إليهم اقتربوا منه إلى درجة أنهم «حُسبوا من رجاله». ومبعث الحرج الذى يحس به (الأمير) الآن هو أن الطريقة التى خرج بها، أو عُزل بها، وضعت الذين تعاونوا معه جميعا فى «خانة» المشتبه فيهم أو «على الأقل غير الموثوق بهم»، وهذا يصيبه بكثير من عذاب الضمير حيالهم، وهو يجد نفسه حتى عاجزا عن أن يتصل بهم ولو «ليعتذر»!

وأكد الأمير «حسن» لضيفه أنه عندما سمع أن قلب شقيقه تغير عليه نتيجة لعملية تحريض كبرى ركزت عليه وقت مرضه - طلب منه أن يطلق النار عليه إذا خالجه الشك فى ولائه - «ولكن لا تترك أحدا يدخل بيننا».

وتدخلتْ زوجته الأميرة «ثروت» فى الحديث بين زوجها وضيفه - تنفى ما نُسب إليها من أنها زارت أحد القصور المَلَكية وأجرت فيه إصلاحات وكأنها أصبحت بالفعل ملكة جلست مع زوجها على العرش.

وقالت الأميرة «ثروت» إنها حزينة أن يقال هذا الكلام لأن الحقيقة كانت شيئا مختلفا. وطبقا لرواية الأميرة «ثروت» فإنها أُبلِغَت رسميًا أن زوجة رئيس ألمانيا التى كانت مع زوجها فى زيارة دولة إلى إسرائيل (١٧ نوفمبر ١٩٩٨) أبدت رغبتها أن تجىء إلى الأردن لكى تزور آثار «بترا». إن زوجة رئيس ألمانيا قالت: «إنها لا تتصور أن تكون قريبة إلى هذه الدرجة من أثر له شهرته العالمية دون أن تزوره بينما هى الآن على خطوة قدم منه». ورأت الأميرة «ثروت» أن تتأكد من أحوال القصر الذى سوف تنزل فيه قرينة الرئيس الألمانى، فذهبت وأطلّت عليه وكان القصر مُهْمَلا بسبب غياب المَلك وأسرته عندما كان يُعالج فى «مايو كلينيك» (بالولايات المتحدة)، وقد أشارت الأميرة «ثروت» ببعض الإصلاحات «وبهدف تنظيف القصر بحيث يكون لائقا بضيافة زوجة الرئيس الألمانى - وهذا هو كل شىء».

إن الضيف المَلَكى الأوروبى الذى سَمِعْت منه استطرد قائلا لى: «إنه تأثر إلى أبعد مدى حين سمع صديقه الأمير «حسن» يقول له وهو يُوَدِّعه: «أن ما جرى حرمنى حتى من حق البكاء على أخى، فلا أستطيع الآن أن أذهب إلى قبره إلا فى الليل حتى لا يرانى أحد يضايقه وجودى أو يضايقنى وجوده»!

وإلى هنا ينتهى هذا الخروج عن النص بعودة إلى سياقه الأصلى]

....

....

ولما كان هدف هذا الحديث كله هو الفهم قبل الحكم - فلابد من الاعتراف بأن الهاشميين فى بعض الظروف كانوا ضحايا تجربة صنعوها وصنعتهم - لكنه من سوء الحظ أن الأمة دفعت ضرائب هذه الظروف، وكذلك دفع «الهاشميون».

وربما كان المَلِك «حسين بن طلال» نفسه أكثر دافع لضرائب المشكلة والمأساة، وقد بدأ «حسين» يدفع وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره تصادف وقوفه بجوار جده المَلِك «عبد الله» على أبواب المسجد الأقصى بعد انتهاء صلاة الجمعة فى أحد أيام شهر يوليو ١٩٥١، وكان الذى أطلق عليه الرصاص فلسطينيا - ضمن مليون فلسطينى أضيفوا إلى رعاياه حين أضاف إلى مُلكه ما تبقى من فلسطين - ولم يكن هذا الفلسطينى الذى أطلق الرصاص مقتنعا بالغطاء الهاشمى عصمة كافية لتصرفات المَلِك «عبد الله» فى فلسطين.

وكان الرصاص المدوى والدم المسفوح على عتبات المسجد الأقصى بداية وَشْم التاريخ بالحريق على لحم صبى هاشمى بدأ يواجه قَدَرَه ويستعد لدوره - مَلِكا على الأردن لمدة ست وأربعين سنة!

[٦]

«الجغرافيا ظل الله على الأرض»، و«التاريخ ظل الإنسان على الطبيعة» - وبين الاثنين يدير كل إنسان تجربته - أو يحاول - فى مناخ عصر بذاته. وهنا يحين موضع الحديث عن دور العصر وحكمه فى صنع شخصية المَلِك.

إن طفولة المَلِك «حسين» لم تكن سعيدة، ولم يكن السبب هو الفقر الذى اضطر أمه إلى بيع دراجته كى يصرفوا من ثمنها - كما روى المَلِك فى مذكراته - والحقيقة أن تلك الرواية تَزَيُّد! - ذلك أن الهاشميين فى عَمَّان لم يكونوا فى ذلك الوقت ضمن الأغنياء، لكنهم على وجه القطع لم يكونوا من الفقراء، وكان لدى الأمير «طلال» ولى العهد الأردنى ما يكفيه ليعيش مع أولاده دون أن يضطروا إلى «بيع دراجة» مستعملة لا يزيد ثمنها فى ذلك الوقت عن دينارين أو ثلاثة.

لكن التعاسة فى حياة أسرة ولى العهد (الأمير طلال) أن علاقته بوالده المَلِك «عبد الله» كانت سيئة لخلافات شملت كل شىء تقريبا: من المشاكل المادية، إلى صحبة الناس، إلى آراء بدت للمَلِك العجوز طائشة، إلى سلوك كان غالبا موضع انتقاده.

وفى ذات الوقت فإن علاقة ولى العهد (الأمير طلال) بزوجته الأميرة «زين» لم تكن على ما يرام لأن زوجها هجرها إلى فتاة إيطالية اسمها «فلافيا» كان أبوها طبيبا جاء من بلاده إلى عَمَّان يفتح مستشفى صغيرا وجد دَخْلَه منه أفضل بكثير مما كان يستطيع الحصول عليه لو بقى فى بلاده.

وكان الصبى الهاشمى الذى أصبح مَلِكًا على الأردن بعد مشاهد درامية متلاحقة بينها شقاء والدته، ومصرع جده، والحجر بالجنون على أبيه - يرى هذا كله من حوله ويختزن فى نفسه ويجتر، وتتراءى له مشاهد من الماضى البعيد ومن الماضى القريب، وتزيد عليه ضغوط المشكلة والمأساة فى تاريخ الهاشميين ويتضخم شعوره بالحق الضائع، وبالتوازى معه تزداد عقدة الاستشهاد.

ثم إن المَلِك الصبى كان يتأمل أوضاع بلده ويشعر حتّى دون أن يُدرِك - أن الدواعى التى تشعره بعقدة الاضطهاد ليست تاريخية، وإنما هى سياسية أيضا. فمملكته محشورة بين من هم أقوى منها، ونصف شعبه وهو من فلسطين ناقم على أسرته إلى درجة القتل، وموارد بلده منحة من القوى الكبرى التى رسمت حدوده وأقامت عرشه وانفردت بالنفوذ فى عاصمته، ومن حوله مجموعة دول عربية كلها تسىء الظن فى أسرته لسبب أو آخر (السعوديون بعداء قديم مع الهاشميين، وسوريا باعتقاد أن الأردن جزء سُلِخ من جنوبها، ومصر من تجربة حرب فلسطين).

ثم إن كونه وافدا إلى العرش الأردنى شابا جديدا لم يكن كافيا ليُغفَر له إلا إذا تحرك على هوى الآخرين بسرعة يعرف هو قبل غيره أنه ليس قادرا عليها بطبيعة الظروف، خصوصا وقد كان الجميع (كل العرب) أمام قوة إقليمية لديها مطامع تتخطى ما حصلت عليه من أرض، وقد هضمت ما ابتلعت، وهى الآن شهية مفتوحة لالتهام الضفة الغربية من مملكته، وإذا استطاعت فإنها جاهزة أن تمد يدها إلى الشرق وفى خططها أن تقترب أكثر من منابع النفط فى العراق والخليج وأن تدخل بالقوة والقسر - طرفا رئيسيا فى موارد المنطقة الاقتصادية والإستراتيجية.

وكان على المَلِك «حسين» - وتلك نصائح جده - أن يوفر لنفسه من الحذر ما يجعله ولو بالغريزة - قبل الحكمة - يرسم لنفسه سياسات تضمن كل متطلبات السلامة والنجاة - وكذلك تحددت خطوط سياسته:

١ - عليه أن يتمسك بعلاقته بالقوة العظمى المهيمنة على بلاده وفى المنطقة.

٢ - ومع أنه عرف أن جَدَّه حين قُتِل كان يتفاوض على صلح منفرد مع إسرائيل، فإن الظروف تفرض عليه أن يتمهل ولا

يتوقف تماما مع إسرائيل، وأن ينتظر الظروف وفى نفس الوقت لا يتخطى الحدود ولا حتى بالهمس أو باللمس!

٣. وعليه أن يجد لنفسه قدر الإمكان أصدقاءً من العرب. لأن لديه بالفعل بينهم من الأعداء كفاية.

٤. وهو مُطالَب فى ذلك كله بأن يعطى نفسه مرونة فى الحركة، فهو لا يستطيع بسبب تعارض الضغوط أن يسير فى أى طريق إلى نهايته.

٥. وخلال ذلك كله فليس أمامه إلا أن يخفى مشاعره وعواطفه وأن يكتم نواياه وسياساته، وأن يمسك بأعصابه وأحيانا على حساب كرامته الشخصية. وأن يواجه كل الناس وكل الأحداث بابتسامة عريضة. لأنه ببساطة لا يملك ترف الغضب. على الأقل إظهار الغضب!

وبعد سنة على العرش - ١٩٥٢ - كان المَلِك - فيما بدا أمامه - يواجه ما لا طاقة له به:

أولا - حدث تغيير كبير فى موازين القوة فى الشرق الأوسط، وأخذت الإمبراطورية البريطانية تتراجع وتترك موقع السيطرة فى المنطقة للإمبراطورية الأمريكية الصاعدة إلى قيادة الغرب بسرعة الصاروخ.

ثانيا - ثم إن هذه القوة الإمبراطورية الأمريكية تريد قيادة العالم وليس قيادة الغرب وحده، ولهذا فقد دخلت إلى صراع عنيف عقائدى وسياسى وعسكرى (إلى حد ما) مع القوة الأخرى التى خرجت منتصرة معها فى الحرب العالمية الثانية وهى الاتحاد السوفيتى.

ثالثا: وفى إطار الصراع بين الكبار (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) فإن الولايات المتحدة تطرح على المنطقة حلفا عسكريا تحت قيادتها - وبالفعل فقد تَحَمَّس له الفرع الهاشمى فى بغداد، وعليه هو الآن فى عَمَّان أن يختار. وفى الواقع فلم يكن حق الاختيار الحر مطروحا عليه، وإنما كان مطلوبا منه أن يسارع ويلتحق.

رابعا: لكن هناك تيارات فى المنطقة تقاوم المخطط الأمريكى الجديد وتخشى منه أكثر من الاستعمار البريطانى العجوز، وكان بين هذه التيارات حزب البعث العربى الاشتراكى فى سوريا - والتيار السلفى الدينى تمثله حركة الإخوان المسلمين - ثم وبطبيعة الأحوال كل الأحزاب الشيوعية التى نشطت تحت الأرض - وفوقها بقدر ما سمحت لها الظروف - فى عواصم العالم العربى بدون استثناء تقريبا.

خامسا: وبالتحديد والتخصيص فقد كانت مصر فى عهد المَلِك فاروق ووقت وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠ - ١٩٥١) تعارض هذه المخططات، وكانت المملكة العربية السعودية إلى جانب مصر، وكانت الأسباب عديدة اختلط فيها الوطنى بالعائلى والشعبى بالقبلى، إلى آخره.

سادسا: وكانت إسرائيل مع فكرة هذا الحلف العسكرى طالما أنه سوف يُدخِلُها - بطبيعة الحال - فى شراكة مع العالم العربى تفرض بالضرورة قبول أوطانه بالصلح معها على أساس الأمر الواقع - فإذا تحقق ذلك، فإن إسرائيل تثق سلفا فى قدرتها أن تكون القوة الإقليمية الأولى فى المنطقة بنفوذها فى العالم، وبطش سلاحها، وكفاءتها فى استيعاب التقدم بما فيه ثورة العلوم التى تراكمت خلال تجربة الحرب العالمية الثانية ثم انطلقت بعد انتهاء الحرب تغزو كل نواحى الحياة المدنية فى عالم جديد.

....

....

سابعا: وفجأة وفى هذا المناخ الذى تتزاحم فيه الأفكار والتيارات والسياسات والجيوش - فجأة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر قامت ثورة ٢٣ يوليو - ثم ظهر «جمال عبد الناصر».

....

....

حكمت الجغرافيا - وحكم التاريخ - وحكم العصر.

ثم جاء الدور على التجربة الإنسانية للمَلِك «حسين» لتكون الوجه الرابع للحقيقة فى شأنه وفى شخصيته.

[٧]

من المفارقات الملفتة أن تجربة المَلِك «حسين» تقاطعت بشكل واضح مع الدور الذى قام به «جمال عبد الناصر» فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

وفيما رواه لى المَلِك «حسين» بنفسه (أثناء لقاء فى باريس) [٤] أنه مع سنة ١٩٥٥ أصبح شديد الإعجاب بـ «جمال عبد الناصر» إلى درجة أنه وضع صورته على مائدة بجوار سريره، «وكان يتمنى لو أنه وضعها على مكتبه لكنه خشى أن تَجُرّ عليه من المشاكل ما لا داعى له».

وكانت دعوة «جمال عبد الناصر» - هكذا قال المَلِك - إلى مقاومة الاستعمار هى التى جعلته يتردد فى الانضمام إلى حلف بغداد منذ طُرِح مشروعا مبكرا سنة ١٩٥٣.

وحين عُرِض على الأردن رسميا أن ينضم إلى الحلف سنة ١٩٥٤ - فإن المَلِك لم يكن متحمسا، وقد زاد الضغط البريطانى عليه لدرجة أن رئيس أركان الحرب الإمبراطورى وهو الماريشال «جيرالد تمبلر» كُلِّف - خريف سنة ١٩٥٥ - بالذهاب إلى عَمَّان والبقاء فيها حتى يضمن انضمام الأردن.

وعندما فشلت محاولة الماريشال «تمبلر» وسقطت محاولة جَرّ الأردن إلى حلف بغداد، تضايق الملك «حسين» لأن «بعض الناس اعتبروا فشل «تمبلر» فشلا له (للمَلِك) - وكان ذلك من وجهة نظره «افتراءً على الحَق» أساء إلى مشاعره وظَلَمَه. ومن المحتمل أن هذا الافتراء على الحق كان من العوامل التى أغرت المَلِك على اندفاعة قصد بها أن يستعيد لنفسه ما حسبه «حقا» و «عدلا».

وهكذا وجد المَلِك نفسه يقترب من مجموعة من ضباط جيشه تعاهد معهم على «تحرير الإرادة الأردنية» بطرد «جلوب باشا» وتأكيد سيطرة الحكم الوطنى فى الأردن على قواته المسلحة. ومع أن تلك كانت خطوة بالغة الخطورة فإن المَلِك قام بتأمين ظهره عن طريق إخطار الكولونيل «جيمس سوينى» الملحق العسكرى الأمريكى فى سفارة الولايات المتحدة فى عَمَّان. ولعل «سوينى» لم يحاول إثناء المَلِك عن عزمه لأن تلك كانت لحظة انتقال الإرث الإمبراطورى فى المنطقة. ولقد عرف بعض الضباط الوطنيين ذلك الوقت أن المَلِك تحدث فى طرد «جلوب» باشا مع الأمريكان، لكن الذين عرفوا لم يعتبروا ذلك فى حينه خرقا مخيفا لأن حركات وطنية عديدة كانت - تلك الأيام - على استعداد لأن تلعب على التناقض بين قوتين إمبراطوريتين. والشاهد أن الوجه القبيح للسياسة الأمريكية لم يكن قد ظهر بعد، ثم إن كثيرين تَصَوَّروا أن فرصة تغيير الحرس الإمبراطورى البريطانى القديم بحرس أمريكى جديد كفيلة بأن تفتح الباب لألف فرصة وفرصة.

ومن هذا المنطلق فإن مغامرة المَلِك وإن بدت مجازفة شديدة - كانت فى الوقت نفسه مجازفة محسوبة. (وتَكَشَّف فيما بعد [من شهادات ووثائق] أن السفارة الأمريكية فى عَمَّان - بما فيها ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - تَحَمَّست لطرد «جلوب» لأن ذلك سوف يرفع شعبية المَلِك ويجعله قادرا على دخول حلف بغداد محمياً بشعبية طرد «جلوب»).

ويقول المَلِك (وهذه الآن عودة إلى ذلك اللقاء فى باريس) أن تيار الحوادث فى المنطقة ابتداء من طرد «جلوب» (باشا) من الأردن فى مارس ١٩٥٦ وحتى تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ تحَوَّل إلى شلال متدفق يهدد بأن يجرف أمامه كل شىء بما فى ذلك كيان الأردن. وفى رأى المَلِك أن «عناصر غير مسئولة» حاولت دفع الموقف فى بلده إلى أكثر مما تحتمله الحقائق.

ويروى المَلِك: «أن الضغط زاد عليه عندما بدأت حرب السويس لأن شعبه راح يدفعه دفعا إلى دخول الحرب مع مصر. وكانت تلك وصفة لكارثة مؤكدة فى رأيه». ووجد نفسه فى مأزق عنيف بين ما يحسه من رغبات شعبه وبين ما يراه من خطر على بلده. ولم ينقذه غير «جمال عبد الناصر» الذى اتصل به على التليفون المفتوح يرجوه ألا يخضع لأى ضغط ولا يفكر فى التدخل عسكريا فى القتال الدائر بين مصر وإسرائيل (وبريطانيا وفرنسا) فى سيناء وبورسعيد.

ويروى المَلِك: «أن جمال عبد الناصر قال له: إننا قررنا إخلاء سيناء بعد الإنذار البريطانى الفرنسى، وبالتالى، فإن الجيش المصرى سوف يركز معركته على منطقة القناة، ومعنى ذلك أن هذا الجيش لن يكون فى وضع يسمح له بمساندة الأردن إذا قررت إسرائيل انتهاز الفرصة لاحتلال الضفة الغربية للأردن. وإذا حدث ذلك فهو خطر عاجل - ذلك أنه إذا دخلت إسرائيل سيناء فتلك مسألة تُقْدِر مصر عليها فور انتهائها من تصفية العدوان البريطانى الفرنسى فى منطقة القناة - وحتى إذا بقيت إسرائيل خلال ذلك أسابيع أو شهورا فى سيناء، فإنها لن تستطيع تغيير طبيعة الأرض فيها. بينما الأمر فى الضفة الغربية مختلف لأن إسرائيل سوف تفعل ما بدا لها. وباختصار، فإنه إذا احتلت إسرائيل سيناء فخروجها محقق بالغصب أو بالحرب، وأما إذا دخلت ضفة الأردن الغربية فإن خروجها سوف يكون معركة أكثر صعوبة».

ويواصل المَلِك «حسين» روايته قائلا: «إن جمال عبد الناصر خَوَّله أن ينقل لمن يشاء فى الأردن مجمل رأيه منسوبا إليه، وهو على استعداد لأن يتحمل مسئوليته السياسية والتاريخية. وقد فعل المَلِك. ولكن بعض الناس (كذلك قال المَلِك) أرادوا أن يكونوا ناصريين أكثر من الرئيس عبد الناصر نفسه - ولقينا مصاعب من بعضهم عندنا فى الأردن». ثم يستدرك المَلِك: «لكنى مضطر أن أقول لك بصراحة أن آخَرين من عندكم كانوا يفسدون الأمور ويُحَرِّضون دون فهم أو اطلاع.. وهذا فرض علينا فيما بعد أن نتصدى لأن المسألة تَحَوَّلَت إلى حياة أو موت»!

وهكذا فإنه طوال سنة ونصف السنة - خريف سنة ١٩٥٥ وحتى شتاء سنة ١٩٥٦ - كان المَلِك فى حالة ذهاب خطر إلى الحافة - وعودة خَطِرة من الحافة!

ومع بداية سنة ١٩٥٧ جاء مفترق طرق بالغ الأهمية فى تجربة المَلِك «حسين»، وفى التجربة السياسية العربية المعاصرة كلها.

انتهت حرب السويس فى ديسمبر ١٩٥٦ باضطرار بريطانيا وفرنسا إلى الانسحاب من بورسعيد، وكان ذلك الانسحاب هو الإعلان الرسمى بنهاية الإمبراطوريات القديمة (بريطانيا وفرنسا).

ثم انتقل المطلب الإمبراطورى فى المنطقة إلى الولايات المتحدة التى طرحت فى بداية سنة ١٩٥٧ وفى مطلع مدة الرئاسة الثانية للجنرال «دوايت أيزنهاور» - مشروعا لحماية المنطقة أطلق عليه فعلا اسم «مبدأ أيزنهاور». وكان «مبدأ أيزنهاور» فى تقدير السياسة المصرية ذلك الوقت مجرد تعبئة أمريكية جديدة مزوقة لنفس مطلب السيطرة الذى اهترأ وعاؤه البريطانى القديم.

وكان المَلِك «حسين» يرى ما يحدث وحسابه (طبقًا لروايته) كما يلى:

- لقد استطاع أن يقاوم دخول حلف بغداد رغم ضغط شديد مارسه الماريشال «تمبلر» عليه. لكنه هذه المرة يواجه ما هو أصعب. فالولايات المتحدة التى تقدمت لتمسك بمقادير الشرق الأوسط - ليست الإمبراطورية البريطانية التى غرقت فى مياه قناة السويس - وإنما هى قوة أخرى تملك وسائل السيطرة العالمية بغير منازع.

- والعناصر الوطنية فى الأردن لم تعط المَلِك فرصة كافية. وإنما سارت إليه الجموع تطالبه برفض مشروع «أيزنهاور»، وكان فى بنود هذا المشروع كثير عن مساعدات مالية للأردن هو فى حاجة إليها ولا يستطيع ببساطة أن يرفض عرضا أمريكيا سخيا بها. وقد وصل المَلِك فى النهاية إلى أن مصلحة « العائلة الأردنية» تقتضيه أن يقف ضد الرأى العام فى البلد. ثم هاله أن أصداء ما يجرى فى الشارع الأردنى وصلت إلى الجيش، وكان عليه أن يتصرف بأقصى الحزم وأقسى الإجراءات.

- وكانت الدعاية المصرية ضد مشروع «أيزنهاور» (كذلك يقول المَلِك) زيتا صَبَّتْه إذاعة «صوت العرب» على نار مشتعلة فى عَمَّان - وحسب تعبير المَلِك بالنص - «وقد كادوا يحرقون كل شىء ولا يبقون على أخضر أو يابس، ونحن بلد صغير لا يحتمل...».

....

....

وفى المحصلة النهائية فإن المَلِك «حسين» قاد انقلابا ضد قوى شعبية كثيرة فى بلده، وقوى وطنية معروفة فى جيشه. والمشكلة أن الانقلاب لم يكن عملية محض أردنية، وإنما كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طرفا فاعلا فيه بالتمويل والتخطيط والتنفيذ وبطريقة كادت تكون علنية، وثبت فيما بعد - وبالوثائق - أن عملية الانقلاب فى الأردن جرت بحضور وتخطيط «كيرميت روزفلت» مسئول المخابرات المركزية الأمريكية الشهير فى الشرق الأوسط، ثم إن عشرات ملايين الدولارات صُرِفت فى عَمَّان لتدبير الأمور!

والظاهر أنه فى تلك الظروف، مشى المَلِك «حسين» مع مفترق الطرق إلى الحواف الأكثر وعورة.

إن المَلِك «حسين» ظهر بعد ذلك، بظله أو بصورته مَرئية من بعيد، خلال أزمات مهمة مما عرفته المنطقة وعاشته، وبين هذه الأزمات بالتحديد أربع:

*** الأزمة الأولى: هى أزمة الانقلاب على الوحدة بين مصر وسوريا. ففى يوم وقوع ذلك الانقلاب (٢٨ سبتمبر ١٩٦١) وصلت إذاعة الأردن نفسها بإذاعة الانفصاليين من دمشق، وذهب المَلِك بملابسه العسكرية ومسدسه فى حزامه إلى رئاسة أركان حرب الجيش الأردنى مستعدا للطوارئ، وكان الحديث فى رئاسة الأركان الأردنية أن «سَيِّدنا (أى الملك حسين) هو مُدَبِّر ذلك الانقلاب لطرد مصر من سوريا عقابا لها على تأييدها لانقلاب العراق (١٤ يوليو ١٩٥٨) - الذى قُتِل فيه كل أفراد الفرع العراقى من الأسرة الهاشمية. ولما كان المَلِك**

«حسين» قد اعتبر الثأر لأبناء عمومته واجبا يلقيه «التاريخ الهاشمى» عليه، فقد كان مطالبا أن يتصرف» (هكذا نقلوا عنه)!

والواقع إن المَلك لم يتصرف وحده، وإنما كانت معه (كما تُظهر الوثائق) وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (كيرميت روزفلت. شخصيا. مرة أخرى)، وكان المُمَوِّل الرئيسى لمؤامرة الانقلاب هو المَلك «سعود». (الذى قال لى بنفسه أثناء لقاء بيننا بعد لجوئه إلى مصر فى ديسمبر ١٩٦٦ أنه دفع حوالى خمسة عشر مليون دولار ضمن تكاليف هذا الانقلاب). وعلى أى حال فلم أكن فى حاجة إلى تأكيد إضافى حتى أرى ظل المَلك «حسين» وصورته على خلفية أزمة الانفصال لأننى فى ذلك اللقاء فى فندق «كريون» بباريس سنة ١٩٦٣ (وأثناء محاولة المَلك حسين لطَىِّ صفحة الماضى وطلب فتح صفحة جديدة. وكان ذلك مطلبه فى هذا اللقاء كى أنقله إلى جمال عبد الناصر). سألت المَلك صراحة عن دوره فى الانفصال، واعترف به وتبريره «أنه كان غلطة» (ونَشَرْت بالفعل تقريرا طويلا عن لقائنا ضمن مقالى الأسبوعى فى الأهرام «بصراحة» فى العدد الصادر يوم الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣). وأكدت قول المَلك على لسانه (ولم يعترض): «إنه يعترف أن دوره فى الانقلاب على الوحدة كان غلطة».

※ **وكانت الأزمة الثانية التى ظهر فيها المَلك، بظله أو صورته، هى أزمة حرب اليمن التى قامت ضد أسرة «حميد الدين» (يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢) - وكانت قوات الملكيين فى اليمن قد خيمت على الحدود مع السعودية وراحت تضغط عسكريا على الثورة الوليدة فى صنعاء، وتدخلت مصر لحماية الثورة، وسارع المَلك «حسين» إلى إرسال طيرانه من عَمَّان يحمل أسلحة وذخائر إلى بقايا النظام القديم فى اليمن. وكانت المفاجأة القاسية التى تلقاها المَلك وأصدقاء له أن قائد الطيران الأردنى (العقيد سهل حمزة) قاد سربا أردنيا إلى القاهرة بحمولات طائراته من السلاح والذخيرة مرسلة إلى الملكيين فى اليمن!**

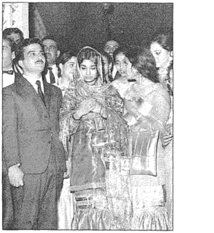
وحين أدرك أصحاب هذه الخطط الملكية أن استخدام قوات مسلحة عربية ضد التيار الكاسح للحركة القومية - مخاطرة غير مأمونة، فإن الجميع لجأوا إلى الاستعانة بقوى خارجية. ثم إن عملية واسعة لاستئجار مرتزقة أجانب نشطت فى باريس ولندن، وكانت النتيجة أن مسرح القتال فى اليمن شهد دخولا واسع النطاق لجيش (بضعة آلاف) من المرتزقة الأوروبيين من الإنجليز إلى الفرنسيين إلى الألمان، وحتى من إيطاليا وأسبانيا والبرتغال!

والملفت أن ترتيب هذه العملية آل إلى مجموعة من النواب البريطانيين كان على رأسهم «جوليان إيمرى» رئيس مجموعة المحافظين المعارضة للانسحاب البريطانى من السويس ومن العالم العربى بأسره. وكان «جوليان إيمرى» شخصا يستحق التوقف - أو التوقيف - لفحص هويته:

هو - أولا - ابن اللورد «ليو إيمرى» الذى كان سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء البريطانى أثناء الحرب العالمية الأولى (وقبل أيام قليلة من وفاة المَلك «حسين» أذيع نقلا عن الوثائق البريطانية أن «ليو إيمرى» هو الذى كتب بخط يده مسودة «وعد بلفور» تعهدا بريطانيا بوطن قومى لليهود فى فلسطين. وتكشف أن «ليو إيمرى» يهودى هاجرت أسرته من أوروبا الشرقية فى أواخر القرن التاسع عشر - إلى الغرب، ثم اندمج فى مجتمعه الجديد حتى وصل إلى مواقع القرار فى الإمبراطورية البريطانية).

جميع الأطراف عليهم أن يفهموا - بالحدس أو بالعلم - أن الأردن طرف فى ترتيب إقليمى يضم أربع دول هى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وتركيا والأردن. وهذا الترتيب هو المدير المقيم للأمن فى المنطقة. وكل من عداهم ساعد أو شارك وفق مواقع الأزمات. ولذلك فإن دور الملك حسين هو أهم الأدوار العربية فى هذا الترتيب

زفاف الأمير حسن وعروسه الباكستانية ثروت



وكان «جوليان إيمرى» - ثانيا - مرتبطا بمصاهرة رئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الوقت «هارولد ماكميلان»، فقد تزوج «جوليان» من «أليس» ابنة «ماكميلان» وزوجته الليدى «دوروثى» - وبالتالى فإن «إيمرى» الابن أيضا أصبح شديد القرب من مركز صنع القرار البريطانى فيما بعد العهد الإمبراطورى.

وثالثا - فإن «جوليان إيمرى» كان هو الذى تولى فى شهر مارس سنة ١٩٦٥ ترتيب اجتماعات بين شخصيات عربية وشخصيات يهودية، وكان ضمن الاجتماعات لقاء بين المَلك «حسين» وبين الجنرال «موشى ديان» - رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى - وقد تم هذا اللقاء فى بيت «جوليان إيمرى» نفسه فى «إيتون سكوير» - لندن - (وقد نَشَرْت بعض التفاصيل عن هذا اللقاء فى الجزء الثانى من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» صفحة ١٣٤(٥) - ونَشَرْت وسَنَدى فيما نَشَرت (وقد كتبت ذلك نصا) هو «جوليان إيمرى» نفسه الذى دعتنى معه إلى فنجان شاى فى بيتها الليدى «جيلكو» وهى أرملة القائد البريطانى الأميرال لورد «جيلكو» قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض بين الخمسينات والستينات).

وقد روى لى «إيمرى» (ونَشَرت عنه ذلك أيضا): «أن المَلك حسين قدم نفسه متحدثا باسم آخرين معه فى المنطقة يشاركونه أهدافه لكنهم لا يملكون جرأته». وقال لى «إيمرى»: «إن هدف الاجتماع كان تنسيق جهود أعداء عبد الناصر العرب مع إسرائيل». وقال معقبا: «إن أطرافا كثيرين فى العالم العربى كانوا على استعداد للتعامل مع الشيطان ضد ناصر». وأضاف «جوليان مُوَجِّها ملاحظته إلىّ: «وعلى أى حال فإن إسرائيل ليست الشيطان مهما كان رأيك فيها»!

وفى لقاء مع المَلك «حسين» فى لندن بعد نشر الجزء الثانى من كتابى عن «المفاوضات السرية» - ١٩٩٦ - فتحت معه هذا الموضوع وقلت له: «إننى عندما نشرت واقعة اجتماعه مع ديان سنة ١٩٦٥ فى بيت جوليان إيمرى لم أشأ أن أحدده بالاسم مُعْتَمِدا على رواية جوليان إيمرى وحدها» - وكان رد المَلك غامضا لا هو بالنفى ولا التأكيد، وقد قال بسرعة:

«يا أخى.. الآن بعد أن جرى كل ما جرى لم يعد فى مقدور أحد أن يحاسب غيره على أنه اجتمع بالإسرائيليين - أين؟ ومتى؟».

ولم أشأ أن أضغط - وربما لأنه لم يعد هناك معنى للجدال مع المَلك فى شىء أقدم عليه كثيرون غيره من الساسة العرب!

※ **وأخيرا - ولم يكن آخرا - تجىء الأزمة الثالثة التى ظهر فيها ظل المَلك «حسين» وصورته، وهى الدور الذى قام به فى سنة ١٩٦٧ - وكنت كما أسلفت فى مقدمة هذا الحديث نَشَرْت فى كتاب «الانفجار» (١٩٩٠) وقائع ظننتها بالغة الخطورة، وهى بالفعل كذلك - بينها:**

١- أنه عندما بدأت أزمة الحشود الإسرائيلية ضد سوريا تتفاعل مع موجبات تأهب مصرى لنجدتها، وصلت المشاعر فى العالم العربى إلى درجة غير مسبوقة من التعبئة، ثم وصلت التعبئة إلى الذروة الخطرة عندما أغلقت مصر خليج «العقبة» أمام الملاحة الإسرائيلية، وكان ذلك نذيرا بأن الحرب مسألة أيام - وفجأة يوم الثلاثاء ٣٠ مايو وصل المَلك «حسين» إلى القاهرة يطلب اجتماعا مع «جمال عبد الناصر» قائلاً: «إن الشعب الأردنى لن يسمح له بأن يظل بعيدا عن المعركة رغم أى خلافات سبقت، ثم إنه هو نفسه - مع شعب الأردن - لا يستطيع أن يقف متفرجا فى معركة عربية مقدسة!

ومع أن التغيير المفاجئ فى موقف المَلك «حسين» أثار تساؤلا - فقد نسبه الجميع إلى إحساس المَلك بضغط الرأى العام فى بلده إلى جانب تَوَصُّله أكيدا إلى أن العرش الأردنى نفسه سوف يكون فى مهب الريح إذا قامت الحرب وبقى الجيش الأردنى بعيدا.

٢- وكان داعى التساؤل مرة ثانية - أن المَلك طلب تعيين قائد مصرى للقوات الأردنية فى المعركة القادمة، بل واختار بنفسه واحدا من ألمع الضباط المصريين وهو الفريق «عبد المنعم رياض» الذى عرفه أثناء عمل الفريق «رياض» رئيسا لأركان حرب القيادة العربية الموحدة (فى إطار ميثاق الضمان العربى الجماعى).

ثم أصر المَلك «حسين» على أن يأخذ «عبد المنعم رياض» معه فى الطائرة ليتولى قيادة الجيش الأردنى من أول لحظة، وكان السفر إلى عَمَّان مساء ٣١ مايو ١٩٦٧ (أى قبل خمسة أيام من الهجوم الإسرائيلى على سيناء).

٣- إن المَلك «حسين» أثناء اجتماعاته فى القاهرة مع «جمال عبد الناصر» تَطَوَّع بالسماح للجيش العراقى بدخول الأردن للمشاركة فى المعركة، والجميع يعرف أن دخول قوات عراقية إلى الأردن واحد من النذر التى تعتبرها إسرائيل مبررا لشن الحرب. وبدا ذلك مستدعيا لتساؤل ثالث - لكن أحدا لم يدقق.

ثم إن المَلك «حسين» اجتمع أيضا فى القاهرة - وفى حضور «جمال عبد الناصر» - بالسيد «أحمد الشقيرى» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وأخذه - مع الفريق «عبد المنعم رياض» - فى طائرته إلى عَمَّان. وكان ظهور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية فى عَمَّان بدوره نذيرا آخر مما تعتبره إسرائيل مبررا لشن الحرب - والمَلك «حسين» أول من يعرف ذلك. ومع أن تصرفه فى هذا الأمر أثار هو الآخر تساؤلا رابعا... وخامسا وسادسا، إلى آخره - فإن أحدا - رغم تكرار التساؤلات - لم يتوقف ليدقق لأن الكل كان مشغولا بالاحتمالات القادمة، ومأخوذا بفكرة أن يظهر الصف العربى كله محتشدا ومعبأً على خطوط النار، مع ظن ان ذلك فى حد ذاته قد يكون بين الروادع.

٤- وذهب الفريق «عبد المنعم رياض» إلى عَمَّان، وعاد منها بعد انتهاء القتال وهو يحمل هواجس وهموما ضاغطة على أعصابه.

فهو من البداية - رغم لقاءات متكررة بالمَلك «حسين» وعدد من قيادات الجيش الأردنى جرت فى إطار القيادة المشتركة - لم يكن مستريحا لفكرة أن يجد نفسه على رأس قوات لم يعرفها ولم تعرفه - وأن يكون ذلك فى ظروف حرب.

ولقد راوده على نحو ما إحساس بأن صلته بالقوات فى الميدان ليست سالكة، ولقد أحس أن بعض ما يُعرَض عليه من المواقف التى تتطلب قراره، يحمل دواعى الشك فى دقَّته، وطبقا لتعبيره فقد أحس أنها كانت "Hollow" (مُجَوَّفة - فارغة من الداخل) - ثم تَحَوَّلَت هواجسه وهمومه إلى شكوك مُعَذِّبة حين عرف من مصادر خاصة - وقبل أن يغادر عَمَّان عائدا إلى القاهرة - أن خسائر الجيش الأردنى فى الدفاع عن الضفة الغربية بما فيها القدس لم تزد على ١٦ شهيدا - وبدا ذلك له مذهلا على ضوء ما كان يتلقاه من التقارير عن سير العمليات بواسطة ضباط الاتصال الذين ألحقوا بقيادته.

....

....

وفيما بعد ظهرت وثائق تتماشى فى أقل تقدير مع هواجس وهموم «عبد المنعم رياض»، وقد أتيح لـ «عبد المنعم رياض» أن يرى واحدة منها، لكنه استُشهِد قبل أن يرى بقيتها أو يعرف شيئا عنها. وكانت الوثيقة الواحدة التى عَرَف بها تقريرا من المخابرات العسكرية الأمريكية حصل عليه مندوب مخابرات مصرى فى نيويورك، وكان حصوله عليه فى ظروف لا

تحتمل الشك في صحة ما حصل عليه [٦].

وكان نصها: «علمت أن مقابلة جرت بين رئيس الأركان الأردني الجنرال «خماش» وبين السفير الأمريكي في الأردن يوم الخميس أول يونيو ١٩٦٧، وفي هذه المقابلة طلب رئيس الأركان الأردني من السفير الأمريكي سرعة نقل الطائرات المقاتلة «ف ١٠٤» من الأردن وعددها ٢٥ طائرة - وذلك بصفة مؤقتة حتى تنتهي الأزمة بين الدول العربية وإسرائيل».

وكان «عبد المنعم رياض» يستطيع أن يفهم معنى هذه البرقية أكثر من غيره، فقد تذكر وكتب في تقريره عن مهمته في الأردن «أن الطائرات من طراز «ف ١٠٤» لم يظهر لها أثر رغم تكرار سؤاله عنها».

وكذلك عرف القائد المصري المنتدب لقيادة القوات الأردنية على الجبهة أن الطيران الذي كان مفروضا أن يخدم خطته خرج من الأردن قبل الساعة التي تسلم فيها مسئوليته!

ولم يتح لـ «عبد المنعم رياض» أن يعيش ويطلع على وثائق أخرى إضافية لديها ما تقوله وبينه:

* أن المَلك «حسين» قابل ضباطا إسرائيليين على مستوى عال في الأردن يوم ٢٦ مايو ١٩٦٧ وأنهم أبلغوه بشكل ما هو قادم دون تفاصيل، وتركوا له مسئولية اختيار موقفه مع تحذيرات له بألا يتدخل فيها.

(محضر مجلس الوزراء الإسرائيلي يوم ٢ يونيو ١٩٦٧، وقد اطلع عليه وأشار إليه الدكتور «مايكل بريشر» وهو المؤرخ المعتمد لصنع القرار الإسرائيلي).

* وفي ذلك الاجتماع مع قادة إسرائيليين فإن المَلك «حسين» أبدى أنه لا يستطيع في حالة نشوب عمليات أن يقف موقف المتفرج لأن ضغط الشعب الأردني عليه يمكن أن يطيح بالنظام، وأنه من الضروري لسلامته أن يسمح له بهامش مناورة يُمَكِّنه من مقاومة الضغوط.

وكان الرئيس الأمريكي «ليندون جونسون» (وهو المهندس الأكبر لعملية ١٩٦٧) على استعداد لتقدير موقف المَلك، لكن الحكومة الإسرائيلية أبلغته (الرئيس جونسون) أنها تستطيع أن تتفهم وإنما إلى حد.

وفي جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلي بتاريخ ٤ يونيو عرض الجنرال «ديان» الخطوط العامة لإستراتيجية إسرائيل في معركة الغد كما يلي بالنص:

١- على الجبهة المصرية: الهجوم الرئيسي - هجوم شامل.

٢- على الجبهة السورية: موقف دفاعي إلا إذا وجدت القوات أنها في موقف الدفاع عن نفسها.

٣- على جبهة الأردن: يطلب وزير الدفاع عدم إجراء أية مناقشة في مجلس الوزراء حول هذا الموضوع.

(محضر جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلي في ٤ يونيو - وقد اطلع عليه ونقل منه «مايكل بريشر»).

* إن إسرائيل في الصباح الباكر من يوم ٥ يونيو بعثت برسالة من رئيس الوزراء «ليفي أشكول» حملها كبير مراقبي الهدنة الجنرال «أُد بول» طلبت فيها إلى المَلك «حسين» أن يبقى بعيدا، وإذا أراد تغطية موقفه فلابد أن يفعل ذلك بحذر. وبالفعل فقد سُمح للجيش الأردني بحرية إطلاق نيران محدودة وبدون رد عليها. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف صباح يوم ٥ يونيو، وبعد أن تأكد أن الضربة الجوية ضد مصر نجحت، طلب الجنرال «أوزي ناركيس» القائد الإسرائيلي لقوات الجبهة الشرقية إذنا ببدء هجوم على الأردن، وقد رُفض طلبه، وعاد الجنرال «ناركيس» يجدد طلبه في الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، ورُفض طلبه مرة ثانية، ثم رُفض طلبه مرة ثالثة في الساعة الثانية عشرة والنصف. وبعد ساعتين تماما أي في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر تلقى الجنرال «ناركيس» أمرا بالهجوم الشامل لاحتلال الضفة الغربية بما فيها القدس (كان إغراء حلم أرض إسرائيل أكبر من أن يقاوَم، وإذا أراد الملك أن يناور مرة فإن إسرائيل لها نفس الحق في مناورة العمر).

(كتاب «حياة على الحافة» صفحة ١١٨، ١١٩ - وهو سيرة معتمدة للمَلك «حسين» كتبها عقب لقاءات متعددة معه الصحفي البريطاني «رولاند دالاس»، وقد نُشر في لندن سنة ١٩٩٨ ضمن مجموعة «صور مكتوبة»).

* إن الملحق العسكري الأمريكي في تل أبيب قال أثناء مناقشة مع وزير الدفاع الإسرائيلي: «إنكم في إسرائيل أسأتم تفسير موقف المَلك حسين في حوادث الشهر الماضي دون مبرر»!

(برقية من الملحق العسكري الأمريكي في إسرائيل برقم ٢٥١٥٢٥٠ بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٦٧).

* إن وزارة الخارجية الأمريكية تلقت من القصر الملكي الأردني في عَمَّان مجموعة محاضر للقاءات قمة سياسية جرت في القاهرة في الأسبوع الثاني من يونيو ١٩٦٧، وقد شارك فيها المَلك «حسين» والرئيس «هواري بومدين» رئيس الجزائر مع الرئيس «جمال عبد الناصر»، وكان هدف القمة المحدودة في القاهرة تقييم الموقف بعد ما جرى ورسم سياسة لما بعده.

(المحاضر تشير إليها برقية رمزية لوزارة الخارجية الأمريكية برقم ٥٩٤٥ بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٦٧).

* وأخيرا - أخيرا - جاءت الأزمة الرابعة التي ظهر فيها ظل المَلك وصورته، وقد أعلنتها هيئة الإذاعة البريطانية في برنامج قدمته أواخر سنة ١٩٩٨ في مناسبة مرور خمسين سنة من حياة الشرق الأوسط شهدت ظهور وقوة إسرائيل. وكان مؤدى ما أعلنته الإذاعة البريطانية مؤكدا وموثقا أن المَلك «حسين» ذهب - يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣ - إلى مقابلة سرية مع رئيسة وزراء إسرائيل (قبل أيام من ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وحذر «جولدا مائير» من أن مصر وسوريا تدبران لشن معركة مفاجئة ضد القوات الإسرائيلية في سيناء والجولان، وأن «جولدا مائير» لم تأخذ هذا التحذير جدا. ثم حدث أن هيئة تليفزيون فضائية مملوكة لشركة سعودية أعادت نشر البرنامج وترجمته إلى اللغة العربية، وأحدث ما نُسب إلى المَلك «حسين» ضجة كبرى في العالم العربي.

والمزعج أن هذه الواقعة لم تكن سرا، فقد نشرها الجنرال «إيلي زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية في مذكراته عن حرب سنة ١٩٧٣ وقد ظهرت في كتاب باللغة العبرية وحدها، وجاءت الواقعة الخاصة بالمَلك «حسين» مع كل تفصيلات اللقاء في صفحة ٩٥ من المذكرات.

....

....

[ثم ألحق بها ما أذيع نفس الفترة - عن تعيين «أبراهام هالفي» رئيسا للموساد، وقيل - رسميا - أن مبررات تفضيله على غيره أنه كان لثلاثين سنة صلة وصل خاصة مع المَلك «حسين»، وأن لقاءات بينهما كانت منتظمة كل أسبوع للتنسيق السياسي والأمني!]

....

....

كانت تلك كلها ظلالا وصُورا - ثم طرأ جديد!

[٨]

كان الجديد الذي طرأ وحَوّل الظلال والصور إلى جسد وحياة هو أن «بن برادلي» رئيس تحرير جريدة «الواشنطن بوست» نشر مذكراته تحت عنوان «حياة جيدة» (A Good Life).

و«بن برادلي» ليس صحفيا عاديا في الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما واحد من أكبر نجوم المهنة في الخمسين سنة الأخيرة. فقد كان هو على صفحات «الواشنطن بوست» قائد الحملة على الرئيس «ريتشارد نيكسون» في فضيحة «ووترجيت»، وكانت هذه الحملة هي التي اضطرت أقوى رجل في العالم وفي التاريخ إلى ترك منصبه في البيت الأبيض والهرب إلى ظلام النسيان.

وقال «بن برادلي» في كتابه (ونَشر في تدعيم كلامه ما هو أكثر من مجرد رواية) - وابتداءً من صفحة ٤٢٤ ما يلي بالحرف:

«ذات صباح في نوفمبر ١٩٧٦ جاءني «بوب وودوارد» (أحد أشهر الصحفيين في الواشنطن بوست وقتها وحتى الآن) وقال لي إنه «عرف من مصادره أن أحد رؤساء الدول في الشرق الأوسط موجود باسمه على قائمة المرتبات في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية». وقلت له «أن هذه قصة إخبارية مهمة، لكن عليه أن يتقصاها أكثر».

ويمضي «برادلي» في روايته فيقول: «إنه سأل وودوارد عن رئيس الدولة المعني لأنه لن يستغرب إذا كان هناك أكثر من رئيس دولة واحد في الشرق الأوسط موجود على قائمة مدفوعات وكالة المخابرات المركزية»!

ويستطرد «برادلي»:

«بعد يومين جاءني بوب يقول لي: «إنه تأكد أن المَلك حسين ملك الأردن هو رئيس الدولة المعني وأنه يتقاضى مكافأة سنوية (شخصية لا علاقة لها بالمعونات الرسمية للأردن) مقدارها مليون دولار، وهي مرصودة لمصاريف المَلك الخاصة، وقد بدأ دفعها له من سنة ١٩٥٧ ولا تزال مستمرة حتى الآن»!

ويقول «برادلي»:

«إنني طلبت من بوب أن يؤكد معلوماته بمصدر ثان لأننا لا نستطيع في الواشنطن بوست أن نعتمد على مصدر واحد في قصة بهذه الدرجة من الحساسية، وبالفعل فإن بوب اتصل بـ «جودي باول» المستشار الصحفي للرئيس الأمريكي الجديد (في ذلك الوقت) وهو «جيمي كارتر» وروى له ما وصل إلى علمه، وطلب تأكيدا أو نفيا».

وفي اليوم التالي - الصباح الباكر - اتصل «بوب وودوارد» برئيس تحريره «بن برادلي» ليقول له طبقا لرواية هذا الأخير (صفحة ٤٢٥ من مذكراته): «إن زبجنيو برجينسكي مستشار الأمن القومي للرئيس الجديد اتصل به ودعاه هو ورئيس تحريره إلى لقاء مع الرئيس في المكتب البيضاوي في البيت الأبيض» - وذهب الاثنان بالفعل إلى لقاء مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

ويقول «بن برادلي» بالحرف:

«إن الرئيس قال لنا بداية إن الخبر صحيح!

ثم أبدى لنا دهشته من أن وزير الخارجية السابق (هنري كيسنجر) حين جاء إليه يضعه في صورة الحوادث والرجال في الشرق الأوسط مع بداية رئاسته لم يذكر له شيئا عن هذه الحكاية - ولا ذكرها له «چورج بوش» (رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في ذلك الوقت) عندما التقاه أيضا لنفس الغرض (كلاهما تعامل بها كأمر عادي روتيني)!

ثم استطرد الرئيس «كارتر» فقال: «إنه يريد أن يقول لنا شيئين: الأول أن نشر الواقعة يضر الأمن القومي للولايات المتحدة - والثاني أنه أصدر أمرا بإيقاف دفع المبلغ للمَلك حسين».

[وظنه أن المَلك لم يعد يحتاجه لأنه الآن واحد من أكبر أغنياء المنطقة].

ويقول «بن برادلي» إن الرئيس قال له في نهاية المقابلة: «إنه لا يستطيع أن يتدخل في الطريقة التي يدير بها (بن برادلي) صحيفته - لكنه وضع الحقائق أمامه ويترك له التقدير النهائي، فهذه مصالح بلدك كما هي مصالح بلدي».

ويقول «بن برادلي» (صفحة ٤٢٦) «إنه بعد اجتماع للتشاور مع هيئة تحرير الواشنطن بوست قرروا أن مهمتهم هي نشر الحقيقة، وبالفعل نشروها».

ثم يقول «بن برادلي» أخيرا:

«في اليوم الذي نشرنا فيه القصة تلقيت خطابا على ورق البيت الأبيض وبتوقيع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نصه كما يلي بالحرف:

إلى «بن برادلي»

أعتقد أن نشركم لقصة المخابرات المركزية الأمريكية بينما وزير الخارجية (سيروس فانس) يقوم بمهمة في الشرق الأوسط الآن - وهذه المهمة على وشك أن تحمله إلى الأردن - هو عمل غير مسئول.

إنني أكتب إليك هذه الرسالة كتعليق من قارئ وليس من رئيس الولايات المتحدة.

جيمي كارتر

وهكذا فإن أمامنا الآن - صريحا وموثقا - ما يؤكد أنه على طول الفترة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٧٧ كان اسم المَلك «حسين» على قائمة المرتبات السرية في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وكانت تلك هي السنوات التي شهدت انقلاب الأردن سنة ١٩٥٧. وانفصال الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١. والحرب في اليمن سنة ١٩٦٢. والنكسة سنة ١٩٦٧. ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣.

والرجل الذي يقدم شهادته هنا هو رئيس الولايات المتحدة نفسه ذلك الوقت وهو «جيمي كارتر». ومن المفارقات أنه كان واحدا من موكب الرؤساء السابقين الذين صاحبوا الرئيس الحالي «بيل كلينتون» في الوقوف أمام جثمان المَلِك «حسين»!

وفي مناسبات سبقت، مرتين أو ثلاثا، سألت المَلك مباشرة وصريحا عن حدود علاقاته بالولايات المتحدة وإسرائيل. وكان واضحا من لهجة سؤالي أنني لا أتحدث عن ظواهر العلاقات وإنما عن بواطنها، وكان المَلِك في كل مرة يجيب بلباقة!

مرة واحدة - لم تتكرر لا قبل ولا بعد - تخلت اللباقة عن المَلك أو هو تخلى عنها.

كان ذلكَ أثناء مؤتمر قمة القاهرة في سبتمبر ١٩٧٠، وكان الصدام الدامي بين جيش المَلك «حسين» وفصائل من المقاومة الفَلسطينية قد حَوَّل الأردن إلى ميدان قتال حقيقي. ودعت مصر إلى مؤتمر قمة عربي يتدارك الكارثة. وبعد تَرَدُّد وتَمَنُّع جاء المَلِك «حسين»، وجاء - فيما أحسست - وهو على استعداد لأن يقلب الموائد على الذين حاولوا قلبها عليه. وأمكن بصعوبة تفادي انفجار مؤتمر القمة، وتشكلت لجنتان إحداهما سياسية، والثانية عسكرية لمتابعة الحلول التي توصل إليها الملوك والرؤساء بعد عناء. وكانت اللجنة السياسية تضم كلا من السيد «حسين الشافعي» نائب رئيس الجمهورية، والسيد «الباهي الأدغم» رئيس وزراء تونس، وكنت معهما (عضوا في الوفد المصري كوزير للإعلام ذلك الوقت)، وكنت (ضمن هذه اللجنة)

طبقا لمعلومات أولية،
فإن هناك سيناريو تجرى كتابته
الآن لمستقبل الشرق الأوسط فى مطالع القرن
الواحد والعشرين. وهذا السيناريو نوقش
مرة أخرى فى واشنطن ولندن فى الأسابيع
الأخيرة من حياة الملك حسين

أحد زعماء العشائر يقبل يد «سيدنا»



مسئولا عن التنسيق مع اللجنة الأخرى العسكرية، وكان نظيرى فيها الفريق «محمد أحمد صادق» رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية.

واقتضى الأمر أن تلتقى اللجنتان مع المَلك «حسين» قبل عودته إلى عَمَّان بعد انتهاء دوره فى المؤتمر، وقد كان لديه كثير يواجهه هناك.

وذهبت قبل الآخرين بعشر دقائق إلى جناح المَلك، ووجدته شاعرا بكثير من الضيق والمرارة، وسمحت لنفسى أن أقول له إن بعض ما رآه من زملائه ملوك الدول العربية ورؤسائها يمكن تفسيره بما سمعوا عنه وأحسوا به من علاقات له مع قوى يعادونها وتعاديهم.

وتَخَلّت عن المَلك لباقته ـ أو هو تَخَلّى عنها ـ لأن صبره نفد، واندفع إلى الرد بضيق، ولم أشأ مقاطعته مدركا أن مشاعره تتحدث وليس حذره.

أول ما قاله: «إن هؤلاء الذين يعادون الآخرين ويعاديهم الآخرون ـ أكثرهم منافقون، فهم يقولون فى العلن عكس ما يفعلون فى السر، وهو على علم، وإذا قرر أن يتكلم فإن بعضهم سوف يلزم الصمت ربما إلى الأبد»!

ثم انتقل ليقول: «ماذا يريد منى هؤلاء؟ بلدى فى حاجة وهُم لا يعطون شيئا، وإذا أعطوا فقطرة قطرة. وبلدى مُعَرَّض للخطر وليس فيهم من يستطيع أن يبعث جنديا إلى خندق أو يطلق رصاصة فى اشتباك».

وضغط المَلك على كلامه وهو يقول: «إذا كان بينهم من يتَصَوَّر أننى أتصرف فى سياسة الأردن من موقف يملك ترف الاختيار فهو «يكذب». إننى أعرف أن هناك من ينتظر حركة «غير مسئولة» أقوم بها ثم يتخذها ذريعة لابتلاع البلد كله، وساعتها سوف أسمع وأقرأ بيانات تنديد ويذهب الأردن إلى حيث ذهبت فلسطين قبله.. هل هذا ما يريده مِنّى..!! (وذكر المَلك بعض الأسماء)!

ولاحظت أن المَلك لم يتوقف فى حديثه عندما دخل الآخرون من الذين كان مقررا أن يراهم قبل سفره (رئيس وزراء تونس ـ ونائب رئيس الجمهورية المصرى ـ ورئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرى) ـ وإنما استمر مكررا ما كان يقول، ومن أوله!

فيما بعد أيضا، وكنت أتحدث عنه مع المَلك «خوان كارلوس» مَلك أسبانيا، روى لى كيف شرح له المَلك «حسين» ذات مرة موقفه.

كان المَلك «حسين» مع المَلك «خوان كارلوس» يحضران مباراة مصارعة ثيران مهمة فى مدينة «أشبيلية»، وبعد انتهاء المباراة راح المَلك «خوان كارلوس» يشرح لضيفه أسلوب مصارع الثيران فى مواجهة ثور هائج يهاجمه ولابد لأحدهما أن يقتل الآخر، ودُهش مَلك أسبانيا حين سمع تعليق صديقه مَلك الأردن الذى قال له:

«إننى أعرف ما تتحدث عنه، وأنا أُجَرّبه كل يوم فى المنطقة التى أعيش فيها، وحالى أخطر من حال المصارع الذى تتحدث عنه، فهو على الأقل يواجه ثورا واحدا، وأنا عندى كل يوم فى المنطقة عشرة ثيران على الأقل، وكلها هائجة، وكلها تهجم، وكلها مواجهات يمكن أن تؤدى إلى القتل.

ومصارعك الأسبانى لديه مساعدون يحملون السنون والحراب، وأما أنا ففى الحلبة وحدى، وأحيانا تجىء إلىّ السنون والحراب من وراء ظهرى!

وسألنى المَلك «خوان كارلوس»:

«هل حسين مبالغ فى وصف صعوبة موقفه»؟!

ورددت على المَلك، وكنا فى مكتبه فى قصر «زرزويلا»: «إن الصورة فنية ونابضة بالحيوية، لكنى فى الحقيقة لا أعرف، لأن كثيرا فى شخصية المَلك يحيرنى رغم محاولات من ناحيتى مستمرة لفهمه...»

ثم جاء كتاب «بن برادلى».

[٩]

سوف يظل معى إلى مدى لا أستطيع تقديره ـ شعور يمتزج فيه نوع من الحزن المبهم ونوع من الندم المتفحم على أننى فوّت الفرصة لسؤال المَلك «حسين» فيما نشره «بن برادلى» وضمنه خطاب يؤكد ويعزز من رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت «جيمى كارتر».

والذى حدث أننى قابلت المَلك مرة فى قاعة الطعام فى فندق «كلاريدج» وكان معه ضيوف لا أعرفهم، ودعانى بعد انصرافهم إلى فنجان قهوة تحدثنا فيه قرابة ساعة تَرَكَّز معظمها على الموقف فى العراق والخليج. وخطر لى فى إحدى اللحظات أن أفتح السيرة، لكننى على نحو ما لم أجد الهِمّة الكافية لطرح السؤال الذى يلح علىّ. كان السؤال محرجا، ولم أكن أريد أن أُحَوِّل السؤال إلى استجواب، ثم يَتَحَوَّل الاستجواب إلى اتهام تصورت وقتها أنه لا يصح ولا يليق.

وقد عرانى فيما بعد شعور اختلط فيه ملمس الشوك بطعم الرماد، وكان ذلك الإحساس هو الذى دعانى إلى الاعتذار عن الذهاب إلى عَمَّان مرتين دُعيت فيهما إلى هناك.

وحاولت أن أذكر نفسى بأن الحقيقة ليس لها وجه واحد ـ وأن السعى للفهم مطلوب قبل التصدى للحكم، لكنى هذه المرة لم أكن متأكدا، لأن إلحاح السؤال كان طاغيا فوق أى إجابة عليه!

هل تكفى حَشْرة الجغرافيا؟ وهل تكفى مشاكل ومآسى التاريخ وعُقَده؟ وهل تكفى مفاجآت العصور والأزمنة؟ وهل تكفى ضغوط ـ وحتى أهوال ـ تجربة شخصية لمَلِك عربى فرضت عليه ظروفه أن يتحرك بسرعة إلى حافة الخطر ثم يعود فى الثانية الأخيرة بشبه معجزة؟

ثم أين هو الخط الفاصل بين المرونة والسيولة، والممكن وغير الممكن؟

أين هذا الخط الفاصل خصوصا بعد أن تنسحب من الذاكرة أصوات وأصداء نص جنائزى كان فى حد ذاته مهيبا وجليلا!

إن الرؤساء الأمريكيين الأربعة (رئيس حالى هو كلينتون، وثلاثة سابقون هم «بوش» و«كارتر» و«فورد» كانوا بين جميع الأدوار فى النص الجنائزى ـ الأقرب إلى وضوح المشاعر أمام جثمان المَلك «حسين». لأنهم كانوا الأقرب إلى جوهر الحقيقة الوافية الشافية من أى شك!

بعدهم فى قائمة وضوح المشاعر كان قادة إسرائيل الذين لم يتخلف منهم واحد عن الوقوف بالصلاة أمام الجثمان، وقد مشوا جميعا صَفًا متصلا رغم أنهم على الضفة الأخرى من النهر منهمكون فى معارك تقارب الحرب الأهلية.

يزيد على ذلك ـ وكما بان من قبل ـ أنه لم يكن لهذا الوضوح فى المشاعر علاقة بالماضى ولا بالتاريخ، لأن مجتمع الدول لا وقت عنده للمآتم ولأن الحياة وحدها شاغله، وقد يتأثر مجتمع الدول لفقد صديق، لكنه لا يتوقف، وقد ينكس مجتمع الدول أعلامه حدادا، لكن ذلك حكم المراسم دون أن تتحوّل الأعلام إلى مناديل تُجَفّف الدموع.

وإذا كان ذلك صحيحا ـ وأظنه صحيحا ـ إذن فماذا كان هدف الوقوف بالخشوع من جانب الرؤساء الأمريكيين ـ الأربعة ـ والقادة الإسرائيليين ـ بالعشرات ـ أمام جثمان مَلِك عربى له بالتأكيد مزايا ـ لكنه الآن بين يدى ربه وحيث لا تستطيع مزاياه أن تساعد أصدقاءه فى هذه الدنيا؟

* ولا يصلح للإجابة عن هذا السؤال أن يقال إن الخاشعين أمام الجثمان كانوا خائفين على أمن الأردن وبقائه بعد رحيل المَلك ـ ذلك أن الكل يعرف أن الأردن ليس مُعَرَّضا لخطر لأن معادلة أمنه مضمونة إقليميا ودوليا لأسباب تتخطى حدود الأردن وتصل إلى إستراتيجية الحفاظ على توازن ما بين البحر الأبيض إلى الخليج وما بين البحر الأحمر إلى البحر الأسود!

* وكذلك لا يصلح للإجابة أن يقال إن أصدقاء الأردن هرعوا إلى عاصمته ليتلقوا درسا فى شرعية انتقال السلطة من جيل إلى جيل، سلميا وديمقراطيا، لأن هؤلاء جميعا كان لهم قول فى انتقال السلطة!

وإذن ما هى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال الدقيق إذا كان ما سبق ليس صالحا؟

لقد أشرت فى بداية هذا الحديث إلى نصوص سبقت ذلك النص الجنائزى الأخير فى تشييع المَلك «حسين».

وأضيف ـ وهذا الحديث يوشك على بلوغ نهايته ـ أن هناك فيما يبدو مطالب أخرى ـ غير ما ورد ذكره من قبل ـ وكلها مطالب تبحث عن فرصة وراء جلال الموت ووراء زحام الجنازات، وبينها على الأرجح:

١ـ أن الولايات المتحدة وإسرائيل ـ وربما غيرهما ـ بكل هذا الذى حدث فى جنازة المَلك «حسين» قصدوا أن يقولوا لكل من يعنيه الأمر فى المنطقة أن فى يدهم وحدهم ـ وبوسائلهم وليس وسائل غيرهم ـ الحق والقدرة على تدشين الأبطال وترسيم القِدّيسين فى منطقة الشرق الأوسط.

وتلك قضية لابد أن تُؤخَذ باهتمام وأن تُدرَس بجد لأن المعنى الكامن فيها ـ سلطان!

٢ـ إن جميع الأطراف عليهم أن يفهموا ـ عن طريق الحدس إذا لم يقدروا عن طريق العِلْم ـ أن الأردن طرف فى ترتيب إقليمى يضم أربع دول هى الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا والأردن، وهذا الترتيب هو المدير المقيم للأمن فى المنطقة، وكل من عداهم مساعد أو مشارك وفق مواقع الأزمات! ولذلك فإن دور المَلك «حسين» فى هذا الترتيب كان أهم الأدوار العربية.

....

....

[يستحق التسجيل هنا أن «إيتان هابر» مدير مكتب رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» سئل فى برنامج تلفزيونى إخبارى (عنوانه «بوليتيكا») أذيع غداة تشييع جنازة الملك «حسين»، عن «السبب الذى جعل كل قيادات إسرائيل تسعى على هذا النحو إلى المشاركة فى جنازة الملك حسين؟» ـ كان السائل هو زعيم حزب «موليدت»، وكان رد مدير مكتب «رابين» على الهواء هو قوله بالحرف: «لو عرفت مع فعله المَلك من أجل أمن إسرائيل لما سعيت وراءجنازته فقط وإنما هرولت»!.]

٣ـ إن هناك دورا فى المنطقة لخليفة يتبع خطى المَلك ـ وليس بالضرورة أن يكون ولى عهده ـ فالمَلك الجديد فى الأردن شباب، ومازال أمامه الكثير يتعلمه رغم كل ما تعلم من والده (ومن سوء الحظ أن «جولدى دور» سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة وقف أمام عدسات الـ C.N.N. يوم جنازة المَلك «حسين» ليقول: «إن أول درس عَلّمه المَلك لأولاده هو أهمية العلاقة الحميمة مع إسرائيل»).

ومع أن أبناء المَلك يمكن أن يتعلموا، فإنهم يظلون فى حاجة إلى التجربة ترسخ معارفهم، وحتى يتحقق ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن بديل يدخل فى ملابس الدور!

وربما ـ ربما! ـ كانت للمَلك «حسين» أعذار من الجغرافيا والتاريخ والعصر، لكن هذه

الأعذار يصعب استعارتها لآخرين مهما بلغ حجم الغواية أو الضغط. وكان كلاهما - الغواية والضغط - ماثلا في جنازة المَلك «حسين» - رسالة موجهة إلى كل من يهمه الأمر ولديه الاستعداد والقدرة! !

٤- وحتى إذا استطاع أحد أن يملأ الفراغ الذى تركه المَلك «حسين»، فقد كان للأردن - كما هو الآن ودون حاجة إلى تجربة - دور يمكنه القيام به إذا وجد العهد الجديد فيه جرأة الخيال وجسارة القبول بالمخاطرة.

وهذه محطة على مسار هذا الحديث تستحق الوقوف عندها!

محطة تستحق الوقوف عندها لأن بعض الطريق وراءها - إذا صدقت معلومات أولية مازالت تحتاج إلى تأكيد - سوف يصل بآثاره في مستقبل المنطقة إلى بعيد على خرائط الجغرافيا وخرائط التاريخ وخرائط السياسة فيها - ليرسم عليها ألوانا وخطوطا وعلامات مستجدة.

وطبقا لمعلومات أولية فإن هناك «سيناريو» - كما يقولون - تجرى كتابته الآن لمستقبل الشرق الأوسط في مطالع القرن الواحد والعشرين. وهذا «السيناريو» نوقش (مرة أخرى) في واشنطن ولندن في الأسابيع الأخيرة من حياة المَلك «حسين»، وبالتحديد في الفترة التي خرج فيها المَلك من مستشفى «مايو كلينيك» في شهر ديسمبر الماضي وقضى أكثر من أسبوعين بين واشنطن ولندن - والكل - بما فيهم هو نفسه - عارف أنه المشهد الأخير قبل نزول الستار!

إن السيناريو - كما أسلفت - جرت مناقشته - لكن غير الواضح هو ما إذا كان اعتُمد أو تأجل اعتماده بعد المناقشة - ذلك أن المَلك رغم حماسته كانت لديه تحفظات على بُنيان «السيناريو» وعلى سياقه (وربما تكون هذه التحفظات قائمة بعدد في عَمَّان، وربما حدث تغيير!).

كان «السيناريو» الذى نوقش - ولايزال - في واشنطن ولندن على النحو التالى:

١- إن الأردن - في الغالب - قد لا يكون له دور إضافي فيما يسمى بعملية سلام الشرق الأوسط، وذلك سوف يخلق فيه ومن حوله فراغات يمكن أن تكون لها مخاطر.

٢- إن بؤرة التوتر في الشرق الأوسط التى انتقلت سابقا من شواطئ البحر الأبيض والبحر الأحمر إلى الخليج - تنتقل الآن من الخليج إلى ما فوقه، أى إلى حدود الاتحاد السوفيتى السابق، وبحيث تشمل منطقة التوتر الكبير القادم مستقبل العراق (وإيران؟) - ومناطق الأكراد (وتركيا؟) - وأفغانستان (وممتدة منها إلى كازاخستان وعبر القوقاز وحتى إلى كوسوفو على أطراف البلقان).

٣- إن الاستعداد للتفاعلات المحتملة والمتفجرة لبؤرة التوتر الجديدة يقتضى الخلاص من النظام الحالى في العراق. وهذا النظام حتى هذه اللحظة لا يريد أن يذهب - ومع أنه منهك بالحصار الاقتصادى الخانق وبالعمليات العسكرية من «عاصفة الصحراء» إلى «ثعلب الصحراء»، ثم بالغارات الجوية المستمرة إلى الآن - فإن هدف إسقاطه لم يتحقق بعد. والحل الذى يراه معظم الخبراء أنه لابد من وجود قوة عسكرية قريبة على الأرض قادرة على التدخل بشكل ما في لحظة تتهيأ فيها الأجواء بحدث داخلي يتصادف وقوعه أو يمكن ترتيبه!

٤- وليس هناك من لديه في المنطقة مثل هذه القوة العسكرية القادرة على التدخل للحسم في العراق إلا الأردن. ذلك أن دول الخليج المعنية قبل غيرها بالتغيير في بغداد لا تملك قوة تقدر على العمل في ميدان قتال حقيقي. وكان هذا الخيار معروضا على المَلك «حسين» وكان فيه ما يلبى أحلاما قديمة لديه (سواء من طموحه الشخصي أو من اعتقاد أنه الوريث الشرعى للهاشميين في بغداد)، لكن المَلك وإن تحمس أحيانا تردد في اللحظات الحَرجة شكًا في أوضاع الإقليم المحيط به وقلقا من نوايا بعض الحكام القريبين من حدوده.

٥- وكان بين بنود «السيناريو» المقترح تَصَوُّر يرى بإضفاء الشرعية والطمأنينة على أى دور أردنى في هذا السيناريو عن طريق دعوة الأردن للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجى - خصوصا وقد تَكفَّلت الأقدار بشكوك لدى «بعض الشيوخ» في موقف المَلك «حسين» أثناء غزو الكويت - والأمل أن يقوم خلفٌ له في عهد جديد بما هو مطلوب ضمن شرعية خليجية توفر له في نفس الوقت مطالبه المادية والسياسية والمعنوية (بما في ذلك مخزون معدات عسكرية مكدَّسة تبحث عمن يستعملها) - إن المَلك «حسين» لم يكن قادرا على التأقلم مع مثل هذا التصوّر، وكان بين تحفظاته أنه يريد أن يعرف بالتحديد ما يحق للأردن أن يتوقعه في ختام هذا «السيناريو» (وإذا كان يستطيع ضمان عرش العراق لواحد من أبنائه) - علمًا بأن إسرائيل كانت على استعداد لإعطاء ضوء أخضر لهذه الفكرة (باحتمال أنها تستطيع تهجير مئات ألوف من الفلسطينيين إلى شمال العراق).

إن الذين فكروا وناقشوا في واشنطن ولندن كانوا يعرفون طبيعة المَلك «حسين»، وقد خبروا ما اعتبروه ترددا وبالذات في موضوع السلام مع إسرائيل. فقد تصوّروه مقبلا على صلح منفرد معها - بحقائق الأشياء - بعد سنة ١٩٦٧، وبعد سنة ١٩٧٣، وبعد «كامب ديفيد» - لكن المَلك لم يرض بمجاراة تصوراتهم رغم علاقته الوثيقة دون اتفاقات صلح مع إسرائيل - لأنه لم يكن يريد أن يكون السابق علانية، ولا الثانى - كان يريد لمقتضيات سلامته أن يكون الثالث أو حتى الرابع إذا استطاع.

لكن البعض في واشنطن ولندن يرون الآن ظروفا متغيرة، وإمكانيات متاحة، وأهدافا جاء وقت تحقيقها خصوصا أن مطلب الصلح بين العرب وإسرائيل يمكن اعتباره الآن عصفورا في اليد وليس بين العصافير على الشجرة!

هكذا فإن دور الرؤساء الأمريكيين الأربعة في النص الجنائزى لتشييع المَلك «حسين» لم تكن له علاقة بالماضى أو التاريخ، ومع أن هذا النص الجديد تشابه مع نَصَّين سابقين فإنه في هذه المرة الثالثة تخطى وتجاوز رغم كل ماقالت به الصور. وكان يقال في وقت من الأوقات أن الصور لا تكذب، ولكن الأزمنة الجديدة أثبتت أن الصور (خصوصا في الشرق الأوسط!) يمكن أن تكون أكبر محترف للكذب في التاريخ. ويكفى أن يتذكر أحد صورة الملك «حسين» في ذهابه إلى الأردن - حيا آخر مرة - وهو يطل على مستقبليه من مقعد قائد الطائرة وكأنه كان يقودها عبر الأجواء من لندن إلى عمَّان. بينما هو يعرف أن أيامه معدودة وأنه وداعه الأخير لعاصمة مُلكه!

وربما أن خداع الصوَر تفوق على نفسه عندما تجرى المقارنة بين صور تفصل بينها ساعات قليلة. صور للمَلك يُصَلى على أرض مطار عمَّان شكرا على أن الله شفاه - ثم صور تالية لها تظهر فيها رسالة المَلك إلى شقيقه الأمير «حسن». فإذا الصور لرجُل مختلف لم يَعُد ليقيم صَلاته على أرض وطنه، وإنما عاد - وربما كانت لديه أعذاره فهو الأدرى - ليُصفّى حساباته مع شقيق له - بألفاظ مثل الهمز واللمز، واغتياب الزوجات والأبناء، والغدر بالأحباب والأصدقاء، والحنث بالوعود والعهود، واللعب غير المسئول بالأمن والسلاح. وكانت الساعات بين أداء الصلوات شكرا وتصفية الحسابات مع الشقيق علنًا مأساة إغريقية تؤكد لمن يهمه الدرس أن الحضارة والتكنولوجيا لم تتركا في العالم الثالث إلا خدوشا على السطح، وأما تحت السطح فمعظمه لا يزال حيث كان قبل قرون من الزمان في مشاهد القتل والاقتتال والنحر والانتحار في ملاحم الإلياذة وفواجعها الدامية!

والفهم مطلوب قبل الحكم - وباستمرار.

لكنه يخطر ببالى أحيانا أن الفهم ضرورى إلى الحد اللازم - ولكن ليس بعدد. لأن الزيادة في الفهم قد تجنح بالأحكام إلى حيث تضيع الحدود!

وبين هواجسى أخيرا أن البشر إذا زاد فهمهم قَدَّروا - وإذا قَدَّروا فقد تركوا التسامح يغلبهم وعَذَروا - وإذا عَذَروا فإنهم في نفس اللحظة حتى وإن لم يقصدوا غفروا.

والغفران ليس مِلكَ البشر، وإنما مِلكُ التاريخ وحده، بمقدار ما أن التاريخ كله مملكة الله!

الهوامش:

(١) حسين وُلد الأمير «على» ـ ١٩٧٥. أول أبناء الملك «حسين» من الملكة «عالية» (طوقان) بعث المَلك «حسين» برسالة مكتوبة إلى مجلس النواب الأردنى يبدى فيها نيته في اختيار «على» وليا للعهد عندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره.

(٢) ذكر الدكتور «محمد حسن عبد الله» أستاذ النقد الأدبى بجامعة القاهرة في مقال بالأهرام (١٩ فبراير الماضى) أن تقاليد بعض القبائل العربية كانت بعد رحيل الفارس تقتل حصانه حتى لا يركبه بعده غيره.

(٣) كان مُرتَّب الملك «عبدالله» ثلاثة آلاف جنيه استرليني في الشهر (٣٦ ألفا في السنة). وكان المَلك يشعر أن المبلغ لا يكفيه. وابتداء من الثلاثينات بدأ المَلك يتلقى عائدا منتظما من جهات يهودية تولت أمر استغلال أملاك له في فلسطين.

(٤) لقاء طويل مع المَلك «حسين» في فندق «كريون» في باريس ـ سبتمبر ١٩٦٣. وكان الذى جاء لاصطحابى من غرفتى في الدور الثانى إلى الجناح المَلكى في الطابق الأعلى هو المقدم «عمر المدنى» الملحق العسكرى الأردنى في سوريا ولبنان ذلك الوقت، وكان المرافق العسكرى للمَلك في زيارته تلك للعاصمة الفرنسية.

(٥) صدر الكتاب ضمن مجموعة «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» عن دار «الشروق» خلال سنة ١٩٩٦.

(٦) ظروف الحصول على الوثيقة منشورة في كتاب «الانفجار» (صفحة ٦٦٢ ـ ٦٦٦)، كما أن صورتها منشورة في الملحق الوثائقى للكتاب (صفحة ١٠٣٠). وقد صدر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٩٩٠.

«إن الهرب من الموت موت، وطلب الحياة حياة..
وإن الحرية هى شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المفسوح، والإسارة هى شجرة الزقوم،
وسقياها أنهار من دم المخاليق المخانيق».

الكواكبى

«أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنهم مختلفون فيه، فإن لكل شيء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإما أن تساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى. فإن كان الأول فلا معنى للاختلاف، وإن كان الثانى، وجب على المختلفين أن يعترف كل منهما لصاحبه ببعض الحق، لا أن يكون كل منهما في سلسلة الاختلاف في طرفها الأخير».

مصطفى لطفى المنفلوطى

كانت ميول كيسنجر الواقعية
المتشددة، وتركيزه علي الأمر الواقع وتوازن القوي،
تدفعه إلي تجاهل قضايا العدالة الاجتماعية،
وحقوق الإنسان، والأخلاق. وكانت مثل هذه الأمور ثانوية،
بل ولا صلة لها بـ«التوازن»، و«النظام»، و«الاستقرار الدولي»،
والوثائق التي رفعت عنها السرية برهان ساطع علي جهود
كيسنجر لتنفيذ دبلوماسيته بغض النظر عما تتكبده
الدول الصغيرة، كما أنه لم يجد حرجا في الكذب
والغش من أجل مصلحة بلاده

اللعـــــب علـى حســــــاب

فـــواز جـــرجـــس



■■ يقدم الكتاب ـ لأول مرة ـ نصوصاً مطبوعة، ورفعت عنها السرية لمحادثات هنري كيسنجر العديدة مع قادة الصين والاتحاد السوفيتي عندما كان مساعداً خاصاً لرئيس شئون الأمن القومي وبعد ذلك كوزير للخارجية، في عهد كل من ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد. وتكتسب هذه الوثائق التي رفعت السرية عنها مؤخراً قدرًا غير عادي من الأهمية، نتيجة للضوء الذي تلقيه على سلوك الشخصيات التاريخية الكبرى وتفاعلاتها الدبلوماسية خلال مرحلة شديدة الأهمية من تاريخ الحرب الباردة. وهي المرحلة التي سعت فيها إدارة نيكسون إلى تحقيق الوفاق الدولي – أي القضاء على التوترات القائمة مع عدوها القوي الاتحاد السوفيتي، وإعادة العلاقات الودية مع حليفها القديم جمهورية الصين الشعبية. وهذه السنوات ذات الأثر المهم – الممتدة من ١٩٧١ حتى خروج كيسنجر من وزارة الخارجية في سنة ١٩٧٦ ـ تغطي، بالإضافة إلى دبلوماسية القوى الكبرى، أحداثاً إقليمية مهمة من بينها الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر ١٩٧٣، ودبلوماسية كيسنجر المكوكية بين القاهرة وتل أبيب ودمشق وغيرها من العواصم العربية والشرق أوسطية، والحظر العربي على تصدير البترول، ورد فعل كيسنجر ومحاولته إجبار الدول العربية المنتجة للبترول على إنهاء الحظر، وخطة كيسنجر الاستراتيجية لإبعاد الاتحاد السوفيتي عن دبلوماسية الشرق الأوسط وفرض الهيمنة الأمريكية على المنطقة.

والمؤكد أن اهتمام كيسنجر بالشرق الأوسط لم يكن نابعاً من أي فهم متدرج أو تعاطف مع الأطراف المحلية، (على الرغم من أنه ظل ينظر دومًا إلى إسرائيل على أنها حليف متميز)، وإنما من اهتمامه بالنظام والاستقرار العالمين. بعبارة أخرى، لم يكن كيسنجر مهتماً بالشرق الأوسط في حد ذاته، ولكن باحتمال أن تقلب المنطقة الميزان الدولي وتعكر صفو العلاقات بين القوى الكبرى. ولم يكن كيسنجر يكن لثوار العالم الثالث والنزعة القومية في الدول الصغيرة سوى الازدراء. وقد عبر صراحة عن مشاعره: فقادة العالم الثالث، بما لديهم من «إحساس بسيط بالمسئولية نحو التوازن العالمي الشامل» يمكن أن «يبتزوا» إحدى القوتين الأعظم أو كلتيهما – أو حتى يهددون السلام – مستغلين تنافسهما.

وربما كان أفضل ما يوضح ازدراء كيسنجر للدول الصغيرة هو ما حدث خلال مواجهة كلامية جرت سنة ١٩٦٩ مع وزير خارجية شيلي جابرييل فالديس، الذي جرؤ على أن يعطي درساً لنيكسون في تعقد العلاقات بين الولايات المتحدة ودول أمريكا اللاتينية، ولم

The Kissinger Transcripts, The Top Secret Talks with Beijing & Moscow.
(محاضر كيسنجر: المحادثات فائقة السرية مع بكين وموسكو)
William Burr (editor)
New York: The New Press, 1999.

العـــــرب !

يتردد كيسنجر في أن يرد على الرجل بإهانة يشرحها فالديس الذي يشير إلى أن كيسنجر بدأ بقوله:

«سيدي الوزير، لقد ألقيت خطابًا غريبًا، إنك تأتي إلى هنا لتتحدث عن أمريكا اللاتينية، غير أن هذا ليس مهماً. فلا يأتي من الجنوب أي شيء مهم. والتاريخ لم يصنع قط في الجنوب. إن محور التاريخ يبدأ في موسكو، ويتجه إلى بون، ثم يمتد إلى واشنطن، وبعد ذلك يتجه إلى طوكيو. إن ما يحدث في الجنوب لا أهمية له. فأنت تضيع وقتك».

وتتضح أفكار كيسنجر أكثر ما تتضح في كتابه *A World Restored*، وهو دراسة حول الدبلوماسية الأوروبية في القرن التاسع عشر وميزان القوة في أعقاب انتهاء الحرب النابليونية التي استمرت من ١٧٨٠ حتى ١٨١٤ وكان كيسنجر يعتقد أن النظام يقتضي «توازناً للقوة» يقوم على فرض القيود على المشاركين من الدول الأقل تعاوناً . وكان كيسنجر يرى أن الاستقرار هو هدف التوازن الأساسي، وكان يعتقد أن من الواجب على كل الدول أن تتعاون في الحفاظ على التوازن، وفي تجنب الأفعال الحاسمة التي يمكن أن تحدث اضطراباً في «الميزان الأخلاقي» العالمي. وأخيراً كان كيسنجر يعتقد أن شرعية أي نظام لا تعتمد على صفاته الداخلية، قدر اعتمادها على كون سياسته متوافقة مع التوازن والاستقرار الدوليين.

وكانت ميول كيسنجر الواقعية المتشددة، وتركيزه على الأمر الواقع وتوازن القوى، تدفعه إلى تجاهل قضايا العدالة الاجتماعية، وحقوق الإنسان، والأخلاق. وكانت مثل هذه الأمور ثانوية، بل لا صلة لها «بالتوازن»، و«النظام»، و«الاستقرار الدولي». فقد ضحى كيسنجر بمسائل حقوق الإنسان والعدالة على مذبح «الدبلوماسية المثلثة» الخاصة به – والتي كانت تركز على السعي إلى توجيه وتشكيل العلاقات مع الاتحاد السوفيتي والصين لما فيه مصلحة الولايات المتحدة. والواقع أن الوثائق التي رفعت عنها السرية تعد بمثابة برهان ساطع على جهود كيسنجر لتنفيذ الدبلوماسية المثلثة بغض النظر عما تتكبده الدول الصغيرة، أو حتى الاهتمام بالأخلاق وحقوق الإنسان والحقيقة.

وإذا كان هناك وصف لتعامل كيسنجر بقسوة مع الدبلوماسية الدولية: فهو الاحتيال السياسي. وكانت تكتيكاته التي تقوم على الاحتيال، وغروره، والتغاضي عن الحق تعزز جميعاً صورة كيسنجر باعتباره سياسياً كان يتمتع بقدر كبير من اللامبالاة بالأعراف، كما كان مقتنعا تماما بأفكار الدبلوماسية الأوروبية في القرن التاسع عشر. وحسبما قاله الدبلوماسي الفرنسي الكلاسيكي داغاليا، فإنه ينبغي إعداد أي دبلوماسي وأي سياسي كي يكذب ويغش من أجل مصلحة بلاده. ولم يجد كيسنجر حرجاً في القيام بذلك.

وقد كشف غرور كيسنجر عن نفسه في تباهيه بنفوذه وفي إبدائه ملاحظات مشينة عن مساعديه، بل وعن نيكسون نفسه. وعندما كتب السفير الروسي لدى الولايات المتحدة أناتولي دوبرينن، الذي اتسم بقوة الملاحظة، إلى رؤسائه في الكريملين، وصف كيسنجر بأنه «شخص ذكي وواسع المعرفة، ... ومختال إلى حد كبير». وكدليل على نفوذ كيسنجر وغروره، نقل دوبرينن عنه قوله:

«هناك شخصان فقط يمكنهما أن يجيبا إجابة محددة في أية لحظة بخصوص موقف الولايات المتحدة بشأن هذه المسألة أو تلك: وهما الرئيس نيكسون وكيسنجر».

ومع ذلك كان دوبرينن يعتقد أن التباهي له شيء من الأساس: فقد كان لكيسنجر «وضع ثابت» في البيت الأبيض، وكان هو صاحب «التأثير المسيطر على الرئيس في مجال السياسة الخارجية».

والأمر الأكثر إثارة فيما يتعلق بتلك الوثائق السرية هو أنها تكشف مدى محاولات كيسنجر لإثارة العملاقين الشيوعيين – الاتحاد السوفيتي والصين – أحدهما ضد الآخر. ويكمن في جوهر استراتيجية نيكسون / كيسنجر الخاصة بالحرب الباردة، ثم بالوفاق، السعي من أجل توازن يقوم على التنافر الصيني السوفيتي، والتعاون مع موسكو، والميل المستتر نحو بكين، بينما يسعى لضمان أن أياً من القوتين الشيوعيتين لن تصبح على علاقة وثيقة بحلفاء أمريكا في آسيا وأوروبا. وقد اتضح ميل واشنطن نحو بكين في محاولة كيسنجر تحسين العلاقات مع الصين وتعميقها، والمشاركة في المعلومات الاستخبارية، وفتح خط ساخن لتحذير الصينيين في حال حدوث تطورات طارئة. وحتى بعد أن بدا الوفاق الأمريكي السوفيتي راسخاً بعد ١٩٧٢، تبين الوثائق أن كيسنجر حذر الصينيين من احتمال حدوث هجوم سوفيتي في منتصف السبعينيات. كما أنه في مسعاد لإقامة تحالف «ضمني» مع بكين، بالغ بطبيعة الحال في حجم التهديد السوفيتي للصين.

ومع ذلك لم ينخدع القادة الصينيون بتكتيكات كيسنجر، حيث أوضحوا له أن موسكو كانت تمثل تهديداً لواشنطن أكثر من تهديدها لبلادهم. فعلى سبيل المثال، أبلغ نائب رئيس الوزراء الصيني شياوبنج دنج كيسنجر في اجتماع معه سنة ١٩٧٤ أن «القوة العسكرية السوفيتية في الشرق ليست موجهة ضد الصين وحسب، بل هي موجهة كذلك ضد اليابان، وأسطولكم السابع، وقواتكم الجوية والبحرية». ورغم أن الوثائق تبين أن القادة الصينيين، ماو تسي تونج وشو إين لاي ودنج شياوبنج، كانوا يخشون السوفييت وبذلوا الجهد لمنع أي هجوم سوفيتي محتمل على بلادهم، فقد بدا أنهم يعتقدون أن كيسنجر حاول التلاعب بهم. وقد يفسر هذا الواقع الطريق المسدود الذي وصلت إليه العلاقات الصينية الأمريكية خلال عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥

وأثبت تناول كيسنجر لدبلوماسية القوى العظمى، الذي يقوم على التلاعب، نجاحه من الناحية التكتيكية على المدى القصير. وأكثر ما يهمني هو مدى الشك وعدم الثقة الذي أبداه القادة الصينيون نحو نظيرهم الشيوعي - الاتحاد السوفيتي. وهو ما تكشفه لقاءات القادة الصينيين المطولة مع كيسنجر التي أطلعهم فيها على الأزمات العالمية، بما في ذلك أزمة الشرق الأوسط، والتي عكست اهتمامهم العميق بالطريقة التي يمكن بها لأحداث وتطورات بعينها أن تحد من النفوذ الروسي. وفعلا طلب القادة الصينيون أكثر من مرة من كيسنجر معلومات عن النفوذ السوفيتي القوي في العراق واليمن واستفسروا عن الاحتمالات والاستراتيجيات الخاصة بإزاحة السوفييت من معقلهم هناك. وكان كيسنجر مستعدًا لتقديم العون: فقد أخبرهم بأن الرئيس السورى حافظ الأسد وعد بأنه بعد تحقيق الفصل بين القوات «سوف يتوجه إلى العراق ويعمل على تقليل الوجود السوفيتي في العراق». وفي نوفمبر ١٩٧٣ أثناء زيارته للصين، أبلغ كيسنجر الرئيس ماو أن «استراتيجيتنا مع العراق هي في بادئ الأمر محاولة كسب سوريا وإبعادها عنه. وبعد ذلك تقليل نفوذه في المشيخات الواقعة على الخليج. وبعد ذلك عندما يرى أنه لا يمكنه تحقيق أي شيء باعتماده على الاتحاد السوفيتي، سوف نتجه إليه. ولكن لا بد أن يعلموا أولاً أنهم لا يكسبون شيئاً من مسارهم الحالي».

وكان كيسنجر يلمح إلى حقيقة أن الولايات المتحدة كانت تطبق كلاً من الضغط السياسي والضغط العسكري على العراق كي يغير مسلكه، وأكد لمضيفيه الصينيين أن «إيران نشطة في العراق»، وأنه «يمكنكم أن تحققوا نتائج طيبة مع إيران».

كان كيسنجر يبغي تلقين العراق درساً، كي يعترف بأخطاء الطريقة التي اتبعها. وقال شو إين لاي كذلك إن الأمر سوف يحتاج من العراقيين إلى «فترة من الزمن» كي يغيروا توجههم «بعد أن عانوا منهم». بينما أكد ماو على أن «الموضع الأضعف نسبياً في الموقف العالمي المعاصر سيظل هو العراق». ومن المفارقات، في الماضي والحاضر، أن القوى الكبرى رأت أن مسلك العراق المتمرد لا يمكن السكوت عليه. وواقع الأمر أن كيسنجر رد بالتأكيد على أن «العراق في الوقت الراهن هو أصعب مكان في المنطقة». وهنا ضحك رئيس الوزراء شو إين لاي وقال إن الرئيس معمر القذافي ذهب إلى العراق «لإثارة» المتاعب هناك وحث العراقيين على عدم قبول وقف إطلاق النار الذي اتفق عليه على الجبهة العربية الإسرائيلية. وانضم ماو إلى المناقشة ليقول:

«إنه [القذافي] رجل لا أفهمه. وهناك شخص آخر، وهو رئيس اليمن الجنوبي. فقد اتصل بي الرئيس اليمني الجنوبي. وقال إنه يريد قطع العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وطلب مني المشورة. ولم أنخدع بما قاله وأبلغته بضرورة أن يتدبر عواقب الأمور. وهاهم الآن يربطون أنفسهم ربطاً شديداً بالاتحاد السوفيتي». وصدق كيسنجر على كلامه وقال «نعم، إنهم شديدو الارتباط بالاتحاد السوفيتي. وهم يثيرون المشاكل في كل أنحاء الخليج». وأكد كيسنجر كذلك لمضيفيه الصينيين أن المصريين وعدوا بالمساعدة في إقناع اليمن الجنوبي على تغيير توجهه الموالي للسوفييت.

وفي أكثر من موضع في الكتاب الذي يحرره وليام بير كبير محللي أرشيف الأمن القومي الأمريكي تتتابع مؤشرات ونصوص حوارات لتؤكد أن القيادتين الصينية والأمريكية كان لهما اهتمام مشترك بإضعاف الوجود السوفيتي في الشرق الأوسط. ففي لقاء مهم جرى في بكين ، انتقد ماو نيكسون وكيسنجر نقداً غير مباشر لمساهمتهما في تدعيم الموقف السوفيتي في المنطقة. وأبلغ ماو كيسنجر بطريقة دبلوماسية أن «البعض هنا يرى أنكم أضعتم فرصة لاتخاذ إجراء ما عندما لم تفعلوا ذلك عندما طردت مصر الخبراء العسكريين السوفييت [سنة ١٩٧٢] وأنه كان ينبغي عليكم في ذلك الوقت مساعدة مصر بعض الشيء. وعندما سمعت ذلك فكرت أكثر. فقد اعتقدت أنه بسبب وجود أسطوليكم في ذلك الوقت في كل جنوب شرقي آسيا [فيتنام] ولم تكونوا قد خرجتم منه بعد». ووافقه كيسنجر على ذلك قائلاً: «معك الحق سيدي الرئيس. فقد كانت هناك مشكلتان. إذ كانت لدينا انتخاباتنا. والأمر الثاني أننا كنا لا نزال في فيتنام. ولم يكن بالإمكان معالجة الاثنتين معاً في وقت واحد». وعقب ماو: «هو كذلك. والآن أنتم أقل انشغالاً من قبل». فرد كيسنجر قائلاً: «بكثير». وشجع ماو كيسنجر على التحرك قدماً نحو بناء الجسور مع العالم العربي. وما كان ماو يراد هو أن الرئيس المصري الراحل أنور السادات لم يكن قد سعى سعياً جاداً لإجراء مساومة مع الأمريكان قبل طرد الخبراء العسكريين والفنيين السوفييت من مصر. وبدلاً من ذلك قدم للأمريكان سياسة خارجية تحقق مصلحتهم دون أن يحصل في مقابلها على أية تنازلات. وكان نيكسون وكيسنجر أكثر واقعية من أي من أسلافهما وكانا يحترمان القوة ويقدرانها. وقد أخطأ الرئيس السادات خطأ كبيراً في حساباته.

وأكد ماو لكيسنجر على ضرورة تهدئة مخاوف العرب . كما أبلغ كيسنجر أن العرب ينظرون إلى الولايات المتحدة على أنها تناصر الجانب الإسرائيلي. وأشار الزعيم السوفيتي إلى زيارة نائب الرئيس المصري حسين الشافعي لبكين قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ بقوله:

«جاء إلى هنا وقال إنهم لا يثقون فيكم. كما قال إنكم منحازون لإسرائيل. وقلت أنا إن الأمر ليس كذلك بالضرورة. كما أن هؤلاء الذين ينحدرون من أصول يهودية ليسوا كتلة من نسيج واحد؛ فنحن على سبيل المثال تعاملنا مع إنجلز [وهو منظر ألماني يهودي] ولم نتعامل مع غيره من اليهود الرأسماليين». ورد كيسنجر قائلاً إن «المشكلة في الشرق الأوسط هي الحيلولة دون سيطرة الاتحاد السوفيتي عليه». غير أن ماو اختلف معه وقال: «إنهم [السوفييت] لا يحتمل أن يسيطروا على الشرق الأوسط، ذلك أنه رغم عظم طموحهم، فإن قدراتهم ضعيفة. ولنأخذ كوبا، على سبيل المثال. لقد أفزعتموهم ففروا من هناك».

كان الاتحاد السوفيتي مسيطرا على تفكير كيسنجر ويعميه عما سواه. وكان كيسنجر يفسر كل شيء من وجهة نظرة كونية، وليست إقليمية ومحلية. وبينما كانت القيادة الصينية تقدر الجذور المحلية لأزمة الشرق الأوسط، كان كيسنجر يرى أن هناك تآمراً سوفيتياً وراء عدم الاستقرار هناك. وكان هدفه هو استبعاد الاتحاد السوفيتي وإخراجه من الشرق الأوسط، باستخدام كل الوسائل المتاحة. وأتاحت حرب ١٩٧٣ فرصة ذهبية لإعادة رسم توازن القوى الإقليمي وتعزيز الهيمنة الأمريكية. وهو ما تشير إليه محادثات كيسنجر مع القادة الصينيين ، فقد جعلهم على علم بالتطورات التي تحدث على جبهة القتال وعلى طاولة المفاوضات كذلك. كما شرح

الاستراتيجية الأمريكية أثناء الحرب وبعدها بشكل بالغ الوضوح.

وتكمن أسباب كرم كيسنجر مع الصينيين في حاجته إلى دعمهم لاستكمال محاصرة السوفييت في الشرق الأوسط. وكان كيسنجر يرغب في ضمان تأييد الصين، أو على الأقل موافقتها التكتيكية في حال حدوث تعادل بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في المنطقة. وفي اجتماع مهم مع المسئولين الصينيين في ٢٥ أكتوبر ١٩٧٣، أبلغهم كيسنجر أن السوفييت حاولوا في اليوم السابق إفزاع الأمريكان بالتهديد بالتدخل من جانب واحد ما لم تجبر إسرائيل على احترام وقف إطلاق النار. وجري الحوار علي النحو التالي:

[قال كيسنجر مازحاً إن السوفييت «حاولوا الإلقاء بثقلهم في الليلة الماضية». غير أنه قال إنه لم ينزعج: «إن سياستنا هي ما سبق أن أبلغتكم بها في أول ليلة. فنحن لنا هدف أساسي، وهو الإبقاء على الوجود العسكري السوفيتي خارج الشرق الأوسط بغرض تقليل النفوذ السياسي السوفيتي بقدر الإمكان. أعرف أنكم سوف تختلفون مع هذه الأهداف اختلافاً عنيفاً (ضحك)». لم يقدر السفير الصيني لدى واشنطن سخرية كيسنجر ورد بقوله: «ليس بالضرورة». واستمر كيسنجر قائلاً: «ولكننا سوف نتتبعهم بغض النظر عن توصياتكم». وقال كيسنجر إن الاتحاد السوفيتي بعث برسالة «عنيفة في لغتها»، يحذر فيها من «أننا ينبغي أن نتفق على الفور على إرسال قوة مشتركة معهم إلى الشرق الأوسط، وإذا لم نتفق على إرسال قوة مشتركة معهم فقد يرسلون قوات سوفيتية خالصة». وأضاف كيسنجر أنه لم يكن مستعداً لدخول القوات المقاتلة السوفيتية في الشرق الأوسط: «لقد دعوت إلى اجتماع لمجلس الأمن القومي. عندما وضعنا قواتنا العسكرية في وضع الاستنفار [إشارة إلى الاستنفار النووي الذي أمرت به الحكومة الأمريكية]. كما أننا نقلنا أسطولنا إلى الجانب الشرقي من البحر المتوسط ووضعنا حاملة طائرات أخرى في الجانب الغربي من البحر المتوسط. وبعد أن تأكدنا من أن السوفييت التقطوا كل هذه التحركات أرسلنا رداً، قلنا فيه إننا مستعدون لإرسال مراقبين أفراد، وليس أفرادا مقاتلين، كجزء من قوة مراقبة تابعة للأمم المتحدة. ولكن إذا كان الاتحاد السوفيتي سيتصرف من جانب واحد، فإن ذلك ستكون له أوخم العواقب»].

والنقطة التي يجب تأكيدها هي أنه يبدو أن نيكسون وكيسنجر كانا يرغبان في دخول حرب ضد الاتحاد السوفيتي لمنعه من التدخل لصالح العرب. وكان كيسنجر يستعرض عضلاته السياسية كي يعطي للطرف الصيني في المحادثات انطباعاً بأن أمريكا مصممة وعازمة على احتواء السوفييت. وعلى النقيض من ذلك، لم يكن السوفييت مستعدين لإعطاء الفرصة لنيكسون وكيسنجر بتصعيدهم المواجهة أكثر وأكثر. وأبلغ السوفييت الأمريكان أنهم سوف يرسلون مراقبين ولن يرسلوا قوات عسكرية. وهذا التعادل بين واشنطن وموسكو يتضح في مجالات عديدة. أولها أنه بينما كانت الولايات المتحدة راغبة في دخول الحرب لدعم الدولة اليهودية، لم يكن الاتحاد السوفيتي لديه تلك الرغبة، حسب التحليل النهائي. الأمر الثاني هو أن نيكسون وكيسنجر لم ينأيا بنفسيهما عن شفير الحرب النووية، في الوقت الذي مارس فيه الاتحاد السوفيتي قدراً كبيراً من ضبط النفس. وكان مسلك السوفييت إبان أزمة الصواريخ الكوبية في أوائل الستينيات والحرب العربية الإسرائيلية في ١٩٦٧ و١٩٧٣ حالتين وثيقتي الصلة بذلك. ففي كل مرة كان الاتحاد السوفيتي يتراجع. وقد شجع الواقع الولايات المتحدة وأضعف الاتحاد السوفيتي وقضى على قوته في أعين دول العالم الثالث.

وكان الرئيس السادات يعي هذه الحقيقة ولم يتردد في طرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر. وقدر السادات حدود القوة السوفيتية واستعدادها وقدرتها على تغيير ميزان القوى في الصراع العربي الإسرائيلي تغييراً كبيراً. ومع أن السادات كان محقاً تماماً في تقييمه للقدرات والنوايا السوفيتية، فهو لم يصل بخياراته إلى الحد الأقصى قبل طرد الخبراء العسكريين الروس من مصر.

وبما كان عليه كيسنجر من صلف، وما كان ينعم به من مجد القوة الأمريكية، فقد حاول التأثير على القادة الصينيين بادعائه أن السبب في تراجع السوفييت عن المواجهة العسكرية هو أنهم «انهزموا». وهنا تساءل سفير الصين لدى واشنطن، هوانج زن، «من الذي انهزم؟» وكان كيسنجر صريحاً هذه المرة حين قال: «المصريون هم الذين انهزموا في الأساس، وعليه فقد انهزم الروس». وبنى كيسنجر رأيه على أن الروس والعرب كانوا يطلبون وقف إطلاق النار بإلحاح بسبب تغير الموقف العسكري لمصلحة إسرائيل. وعندما لم يقتنع هوانج برد كيسنجر، طلب منه تقييم الموقف السياسي والعسكري في الشرق الأوسط. وهنا قال كيسنجر في تعليق يبتعد كثيرا عن الموضوعية أو التواضع: «إن رأيي بأمانة هو أن الاتحاد السوفيتي مُني بهزيمة استراتيجية ضخمة. وهذا هو السبب في محاولتهم خداعنا بالأمس. فللمرة الثالثة حتى الآن يفقد الاتحاد السوفيتي أصدقاءه [العرب] معظم المعدات التي أعطاهم إياها. بل إن على القادة العرب أن يعلموا أن بإمكانهم الحصول على المعدات العسكرية من الاتحاد السوفيتي. أما إذا كانوا يرغبون في تحقيق تقدم دبلوماسي، فإنه يجب عليهم التعامل مع الولايات المتحدة. ولأننا لسنا معادين للعرب، فسوف نساعدهم الآن في تحقيق تقدم دبلوماسي. وبناء عليه، فإننا نتمتع الآن بوضع جيد جداً يسمح بالحد من النفوذ السياسي السوفيتي».

ما قاله كيسنجر يعد مضللاً من ناحيتين. أولاهما أنه لم يلق أي من السوفييت أو العرب هزيمة استراتيجية ضخمة في حرب ١٩٧٣ بل على العكس من ذلك، فقد حقق المصريون والسوريون نجاحاً استراتيجياً في ١٩٧٣، رغم تلك الانتكاسة التكتيكية التي ألمت بهم في نهاية الحرب. وينبغي على كيسنجر نفسه، وهو الخبير الاستراتيجي، أن يعرف ذلك. الأمر الثاني هو أن حكومة الولايات المتحدة ما كانت لتنشط في سعيها لإقناع إسرائيل بعدم جدوى احتلال الأراضي العربية لولا حرب أكتوبر التي شنتها مصر وسوريا، حيث غيرت الأوضاع الجامدة للقوات على المسرح العربي الإسرائيلي، فضلا عن أنه فيما بين ١٩٧٠ و١٩٧٣ فإن الرئيس السادات سعى سعياً حثيثاً للوصول إلى اتفاق سلمي مع إسرائيل. إلا أن مبادرات السادات لم تلق آذاناً صاغية في واشنطن وتل أبيب. فقد كان الإسرائيليون منتشين بقوتهم، وازدادت شهيتهم بعد حرب ١٩٦٧ ولم يخرج الأمريكيون عن مسارهم ليضغطوا على إسرائيل كي تستجيب لمبادرات السادات. وكان ما حقق أكبر قدر من الصدمة هو أن نيكسون وكيسنجر لم يبديا أي رد فعل لقرار السادات المهم بطرد الخبراء العسكريين السوفييت من مصر سنة ١٩٧٢.

إن القيادة الأمريكية تحترم حسم القوة. فبعد ١٩٦٧ لم تتعامل بجدية مع ما يقوله العرب ولم تشعر بأن هناك حاجة ملحة لأن تشارك بفاعلية في دفع إسرائيل نحو تسوية عادلة. وكانت حرب ١٩٧٣ بمثابة صدمة أفاقت كلاً من قيادة الولايات المتحدة وإسرائيل. وفي هذا السياق بدأ كيسنجر دبلوماسية الخطوة خطوة والدبلوماسية المكوكية، فور توقف الأعمال القتالية بين إسرائيل وجاراتها العربيات.

ويستحق رد هوانج المسهب على كيسنجر أن نورده هنا بالكامل، لما يلقيه من ضوء على استراتيجية الصين نحو الشرق الأوسط، واهتمامها، ليس فقط بسير الأحداث والتكتيكات، بل كذلك بالعدل والمصالحة التاريخية:

هوانج: ولكن هناك اختلافاً أساسياً في التقديرات هنا. فإننا نرى الأمور من منظور أي الجانبين عادل وأيهما ليس عادلاً. ونحن نرى كذلك أنه بينما توجد أهمية للسلاح، فإن من يستخدمون هذا السلاح أكثر أهمية.

وترون أن الشعب العربي عانى في العقود العديدة الماضية من المهانة، منذ الوصاية البريطانية على فلسطين سنة ١٩٤٧. وعندما أقيمت إسرائيل أصبحت هناك دولتان – واحدة في فلسطين وأخرى في إسرائيل – بدعم من القوى الكبرى في الخامس من مايو١٩٤٨. وفي اليوم التالي، شنت إسرائيل هجمات على الدول العربية، وطُرد العرب الذين كانوا في المنطقة الفلسطينية، وعددهم حوالي المليون، ليصبحوا بلا مأوى. وطوال هذه العقود الطويلة يعيش العرب والفلسطينيون بعيداً عن بيوتهم مضطرين للعيش في معسكرات اللاجئين: وبعد حرب ١٩٦٧ شعر أصدقاؤنا العرب بالمهانة. وهذا هو السبب في معاناة الشعب العربي معاناة شديدة في حرب ١٩٦٧ صحيح أن السوفييت أعطوهم السلاح، ولكنهم لم يدعوهم يستعملونه. فقد كان غرضهم هو السيطرة عليهم. وفي ظل تلك الظروف لم يكن بإمكان الشعب العربي بالطبع أن يجد من يهدئ مخاوفه. وفي مواجهة استفزاز إسرائيل، حارب العرب دفاعاً عن أنفسهم. كما أوضح نائب الوزير في كلمته أمام مجلس الأمن. إذ قال إن العرب حاربوا ببسالة شديدة، ورفعوا العلم المصري منتصرين شرقي السويس. وعلى جبهة الجولان، زعم السيد [موشي] ديان أن القوات الإسرائيلية سوف تستولي على دمشق، ولكنها لم تفعل ذلك. كما أن العرب الفلسطينيين كافحوا كفاحاً بطولياً كذلك. وشاركت دول عربية أخرى في المعركة. وازدادت وحدة الشعب وقوته. وليست لدي فكرة واضحة عن الموقف الحالي.

إن موقف الشعب العربي فيه قوة. وفي هذا الوقت أو ذاك قد تكون هناك نكسات عسكرية، غير أني لا أشاركك التقييم الذي يقول بأنهم انهزموا. فنحن على اقتناع تام بأن الجانب صاحب الحق هو الذي سينتصر في نهاية الأمر. وطالما أن الأراضي لم تعد لأصحابها، وأن الحقوق المشروعة للعرب الفلسطينيين لم تتم تسويتها، فلن يكون هناك سلام. وفيما يتعلق بما فعله الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، فأنا أعبر عن آرائي بشكل صريح. وفي النهاية، سوف ينتصر العرب بكل تأكيد.

كيسنجر: نحن لسنا معادين للعرب. وهدفنا الأساسي هو التصدي للنفوذ السوفيتي، كما أخبرتك من قبل. ونحن نتعامل بجدية شديدة مع ما قاله نائب الوزير في نيويورك. وسوف ترى أننا سوف نتبع سياسة فعالة تجاه العرب. وأنا أوافقك الرأي على أنهم عانوا من المهانة في السنوات الماضية، وأنهم حاربوا ببسالة.

هوانج: أردت فقط ذكر هذه الأمور، ولن أخوض فيما هو أكثر من ذلك. إننا أصدقاء قدامى. صحيح أن لنا وجهات نظر مختلفة، ولكننا أصدقاء قدامى. وأنت تعرف أننا متعاطفون مع قضية الشعب العربي.

كيسنجر: ونحن لا نطلب منكم التخلي عن هذا.

هوانج: ونحن قلنا في السابق إننا لسنا ضد الشعب اليهودي؛ نحن معارضون للصهيونية والعدوان الصهيوني. وهذا ما يقوله العرب كذلك.

وعلاوة على ذلك، فأنا نفسي باعتباري جندياً، لا أومن بالنظرية التي تقول إن السلاح يحسم كل شيء. ذلك أنه لو كان السلاح أكثر حسماً، فما كان للثورة الصينية أن تنتصر. ولما حقق جورج واشنطن انتصاره. وآخرون كذلك؟.

وفي اجتماع لاحق عقد في بكين يوم ١٢ نوفمبر ١٩٧٣، أقرت القيادة الصينية بـ«التناقض» بين أقوالها والسياسة الخارجية تجاه الشرق الأوسط. فقد أبلغ ماو كيسنجر أنه بينما كانت الصين تريد من الولايات المتحدة أن تضع في حسبانها الطموحات العربية، فإن احتواء الاتحاد السوفيتي لا بد أن تكون له

بعد ١٩٧٣ كان كيسنجر
يعرف المأزق العربي تمام المعرفة
وعندما طالبه نائب رئيس الوزراء الصيني
دنج شياو بنج بالإنصاف رد عليه بسخرية أن
العرب لا يفرقون بين شعر الملاحم وبين السياسة
الخارجية. إلا أن الزعيم الصيني لم تعجبه
هذه الإشارة وطالبه
بألا يهون من شأن العرب



الأولوية: «نحن من ناحية ساعدنا العديد من الدول العربية ضد الصهيونية الإسرائيلية. ومن ناحية أخرى رحبنا بوضع الولايات المتحدة للاتحاد السوفيتي تحت الضغط، وبجعله عاجزاً عن السيطرة على الشرق الأوسط. وقد أوضح سفيرنا هوانج زن هذا الدعم الذي نقدمه للعرب، ولكنه لم يفهم أهمية المقاومة الأمريكية للاتحاد السوفيتي». **وبهذا الكلام لا يقضي ماو مصداقية سفيره لدى واشنطن وحسب، وإنما يقضي معه على الموقف الصيني.**

ولم يكن ماو مضطراً لأن يشغل باله بكيسنجر الذي أخذ سياسة هوانج مأخذ الجد فتابع قوله: «لقد أخذته على حين غرة وكرر هو الموقف الرسمي [موقف الصين] من الأمم المتحدة (ضحك). وأنا أفهم أنكم مضطرون لاتخاذ مواقف معينة في العلن، وليس ما تفعلونه ضد موقفنا المشترك. ولكن الواقع هو أننا سوف نحرك الأمور نحو تسوية في الشرق الأوسط، غير أننا نريد كذلك أن يبدو الأمر على أنه لم يتم بضغوط سوفيتية. وبذلك فإنه حيثما يضغط السوفييت، لا بد أن نقاوم بغض النظر عن حقائق النزاع. وبعد أن نهزمهم، ربما نسير في الاتجاه ذاته. إننا لسنا ضد المطامح العربية؛ ولكننا ضد تحقيقها بالضغوط السوفيتية».

وهناك توضيحان لا بد منهما في هذا المقام. أولهما أننا لا ينبغي أخذ تأكيدات كيسنجر على أنها أمر مسلم به، إذ ينبغي أن يكون هناك فرق واضح بين الكلام الإنشائي والواقع. الأمر الثاني هو أن كيسنجر كان يعرف معرفة جيدة أن العرب موقفهم ضعيف بدون الدعم السوفيتي. وبعد أن حرم العرب من المساعدات السياسية والعسكرية الضئيلة التي يتلقونها من موسكو،أصبحوا تحت رحمة الولايات المتحدة وإسرائيل ومشيئتهما. وحيث إن البر والإحسان لا وجود لهما في الشئون الدولية، فعلاقات القوة هي التي تحدد من الخاسر ومن المنتصر في نهاية المطاف.وأنا واثق من أن كيسنجر كان يعي ذلك تماماً.

لقد اتفق ما قاله ماو مع ما قاله كيسنجر. فمن الواضح أن الصين كانت ترى أن الحد من الخطر السوفيتي كانت له أولوية كبيرة على جدول سياستها الخارجية تفوق أية اعتبارات أخرى، مثل الحقوق العربية. ونتيجة التنافس المكثف والمحموم بين العملاقين الشيوعيين نجح كيسنجر في إثارة كل منهما على الآخر، وليؤسس بذلك الاحتكار الأمريكي في المنطقة ويعززه. وكانت كل من القوتين الشيوعيتين لا تثق في الأخرى، بقدر يفوق عدم ثقتها في الولايات المتحدة. ووجه كيسنجر هذا التنافس لما فيه مصلحة بلاده. ودفعت الدول الصغيرة ـ ومنها الدول العربية ـ ثمناً باهظاً لكونها بدائل في لعبة سياسة القوى الكبرى.

ونصوص المحادثات التي دارت بين كيسنجر والقادة الصينيين تكشف عن أمور أكثر من تلك التي تكشفها مناقشاته مع القادة الروس . والاختلاف يرجع إلي أن كيسنجر كان ينسق السياسات والاستراتيجية مع الصينيين بغرض الحصول على دعمهم التكتيكي ضد السوفييت. إلا أن ذلك لا يعني أن محادثات كيسنجر مع القادة السوفييت لم تكن مهمة. وفي حالة الشرق الأوسط، كانت محادثات كيسنجر مع سفير روسيا لدى الولايات المتحدة أناتولي دوبرين، وغيره من الشخصيات، تتسم بالتوتر والمراوغة. ومع أن السوفييت والأمريكيين كانوا مشاركين في الوفاق وكانوا يسعون إلى التعاون مع بعضهم البعض على جبهات مختلفة، فقد كان السوفييت مستائين من استراتيجية كيسنجر المخادعة خلال حرب ١٩٧٣ وما تلاها من دبلوماسية الخطوة خطوة، التي استبعدهم فيها من جهوده لتسهيل انسحاب القوات الإسرائيلية من قناة السويس والتفاوض على فك الاشتباك الإسرائيلي السوري في هضبة الجولان.

ومن المفارقات أن السوفييت شعروا بأنهم لا حول لهم ولا قوة فيما يتعلق بالتأثير على مجريات الأحداث. ومن الواضح أن المصريين والسوريين، وخاصة الرئيس السادات، كانوا يفضلون التعامل مع الأمريكيين دون إشراك السوفييت في الأمر. والواقع أن السادات أوضح للأمريكان أنه لا يرغب في قيام السوفييت بدور فعال في المفاوضات. واعترف بريجينيف بحدود النفوذ السوفيتي على حلفائه العرب السابقين. وفي اجتماع عاصف في الكريملين يوم ٢٦ مارس ١٩٧٤، وجه بريجينيف اللوم لكيسنجر واعترض بشدة على جهوده الرامية إلى استبعاد الاتحاد السوفيتي من مفاوضات الشرق الأوسط. ورد كيسنجر بأن القادة السوفييت اتهموه بتجاهل روح مؤتمر جنيف ونصه باستبعاد السوفييت تماماً من المفاوضات. وأصر بريجينيف كذلك على نقل الولايات المتحدة للمحادثات السورية الإسرائيلية الوشيكة إلى جنيف كي يتسنى للسوفييت المشاركة.

وتعطي برقية بعث بها كيسنجر إلى السفير الإسرائيلي سيمحا دينتز في اليوم ذاته فكرة عن طبيعة الاجتماع: «إن اجتماعي الذي دام ثلاث ساعات ونصفا ... مع بريجينيف وجروميكو ... هو أصعب الاجتماعات التي عقدتها مع القادة السوفييت وأثقلها على نفسي. فمن الواضح أنهم في حالة من الضيق الشديد بشأن دورنا في مفاوضات فك الاشتباك ونجاح دبلوماسيتنا». **ومع ذلك رفض كيسنجر محاجات بريجينيف وأعلن أن المحادثات السورية الإسرائيلية سوف تفشل إن هي ألحقت بمؤتمر جنيف. واعترف كيسنجر بالوضع الصعب الذي وجد فيه السوفييت أنفسهم ولم يشعر بضرورة إشراكه لبريجينيف في افتراضاته الأساسية، ذلك أنه سوف يسيطر بصفة شخصية على المفاوضات وسوف يكون دور موسكو هامشياً في أحسن الأحوال.**

ولم يستسلم بريجينيف بسهولة. فقد عاد لموضوع الشرق الأوسط في اليوم التالي. كما أنه ضغط على كيسنجر كي يوافق على «التعاون، ولا أعني بذلك مجرد تبادل المعلومات. إذ ينبغي أن يميز هذا علاقتنا في الشرق الأوسط». **ووعد كيسنجر وعدا كاذباً:** «إننا مستعدون للتعاون وليس للسعي إلى تحقيق مصلحة أحادية». **وأجابه بريجينيف:** «ونحن بكل تأكيد لا نهدف إلى تحقيق أية مصلحة أحادية. إلا إذا كنتم تعتبرون ضمان أمن إسرائيل وكل الدول العربية مصلحة أحادية». **وقال كل منهما إن هدفيهما في المنطقة «متطابقان»، واتفقا على تنسيق تحركاتهما السياسية. وكانت المشكلة الوحيدة تكمن في أن كيسنجر لم يكن يعتزم في يوم من الأيام تنسيق الدبلوماسية مع السوفييت. والواقع أن استراتيجيته كانت تقوم على استبعاد السوفييت من المنطقة إن أمكن ذلك. وبصراحة تامة لم يقل كيسنجر الحقيقة عندما وعد بريجينيف بضم السوفييت إلى مفاوضات السلام على الجبهتين المصرية والسورية. وفي أغسطس ١٩٤٧ استقال نيكسون وأصبح جيرالد فورد رئيساً. وفي أكتوبر زار كيسنجر موسكو وأجرى محادثات مع القيادة السوفيتية. ومن جديد كان الشرق الأوسط واحدة من المناطق المثيرة للخلاف التي سيطرت على المحادثات الأمريكية السوفيتية.**

وذكّر بريجينيف كيسنجر باجتماعهما العاصف قبل سبعة أشهر وبنصيحته بأنه «لا يمكن أن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط دون تسوية حقيقية للمشكلة». وأضاف بريجينيف أن التسوية الحقيقية ينبغي أن تكون في إطار الأمم المتحدة التي تضمن الحقوق المشروعة لكل دول المنطقة. بما فيها إسرائيل. وحذره بريجينيف من أن «الموقف ينحو منحى مختلفاً. لقد بدأت رحلاتك. و لعبت على الدول كي تفرق بينها. ... وانتهك جانبكم تفاهماً بشأن اتفاق في تلك المنطقة». وحذر الزعيم السوفيتي كيسنجر من أنه بتجاهله المصالح العربية أو إهمالها يضع الأساس لـ«انفجار أسوأ مما وقع في أكتوبر». كما أكد على أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يمكنهما من خلال التنسيق الاستراتيجي استغلال نفوذهما في الضغط على الأطراف المحلية وتحقيق السلام الدائم في الشرق الأوسط.

وكشف الحوار بين بريجينيف وكيسنجر عن رؤى ثاقبة مذهلة. فقد اتفق كيسنجر مع بريجينيف على أن الموقف خطير في الشرق الأوسط وأن الأمريكان أخطأوا فيما اعتقدوه عن وجود علم مسبق لدى السوفييت عن حرب أكتوبر ١٩٧٣. وأشار بعض الساسة الأمريكان إلى حرب ١٩٧٣ على أنها نموذج لميل موسكو إلى المغامرة ولسوء استغلالها شديد الوضوح للوفاق. كما دعوا إلى إعادة تقييم العلاقات الأمريكية السوفيتية. وأكد بريجينيف حقيقة أنه لم يكن على علم مسبق بالهجوم المصري السوري على إسرائيل.

بريجينيف: أقسم بشرفي أنني لم أكن أعلم وقتها أنه ستنشب حرب جديدة في ذلك التاريخ. ولم تكن هناك مناقشة ما مع العرب. في ذلك الوقت أو في أي وقت آخر، حتى بداية حرب أكتوبر. لقد رأيت الموقف وهو يتطور وحسب.

كيسنجر: أنا شخصياً أصدق ما تقول. رغم أن هناك كثيرين في أمريكا لا يصدقونه.

بريجينيف: من المؤكد أنك سمعت ما قلته.

كيسنجر: وإني أصدق ما قلت. فقد طلبت من رجال استخباراتنا عمل تحليل لكل المعلومات التي يمكن تجميعها معاً. وأصدق ما قلت.

بريجينيف: ما علينا. ما علينا.

كيسنجر: نحن نعتقد أنكم علمتم بالأمر قبل حدوثه بثلاثة أيام.

بريجينيف: بل أقل من ذلك. لقد أُحطنا علماً وحسب، في وقت وبطريقة حرمانا تماماً من أية إمكانية لعمل أي شيء حيال الأمر. ...

كيسنجر: اعتقادي الصادق أنه حتى موعد سان كليمنت [اجتماع القمة الأمريكي السوفيتي سنة ١٩٧٣] كنتم تحاولون كبح جماح العرب. غير أنكم بعد سان كليمنت لم تبذلوا أي جهد آخر لكبح جماحهم. ولكنكم لم تعرفوا على وجه التحديد أنهم سوف يهاجمون. ولكنكم شجعتموهم تشجيعاً بسيطاً، دون أن يكون لديكم علم محدد بأنهم كانوا يعتزمون الهجوم.

بريجينيف: بل إنني أنكر أنه كان هناك ذلك التشجيع البسيط. وأنتم تعلمون ما وقع من أحداث. فقد أبلغنا السادات برغبته في سحب مستشارينا العسكريين. ونحن نفذنا ذلك دون تردد. وكان ذلك إجراء سياسياً.

كيسنجر: هذا هو ما لم نعلمه.

رغم اعتراف كيسنجر بأن السوفييت لم يكونوا على علم مسبق بحرب أكتوبر، ورغم تحذير بريجينيف من أن المنطقة كانت «برميل بارود»، فهو لم يقدم أية تنازلات للسوفييت. ولم يكن كيسنجر صريحاً حين قال إنه «مهما كان ما فعلناه، فلم يكن ذلك بنية الإضرار بالاتحاد السوفيتي». غير أنه غاب عنه أنه قبل ذلك ببضعة أشهر أبلغ دنج شياوبنج، نائب رئيس الوزراء الصيني، أن استراتيجية الولايات المتحدة كانت تقوم على استبعاد الاتحاد السوفيتي من دبلوماسية الشرق الأوسط.

وفي اجتماع لكيسنجر مع دنج، أبلغه كيسنجر أنه رغم «أن بريجينيف ظل يصرخ في وجهي لمدة ثلاث ساعات، قائلاً إنه لا بد أن يكون لهم دور في المفاوضات». فهو لم يكن يعتزم إشراك السوفييت أو إبلاغهم بـ«أي شيء». **كما أكد كيسنجر على أن العرب والإسرائيليين لم تكن لديهم الرغبة في إشراك السوفييت:** «تكمن الصعوبة في أن العرب والإسرائيليين لا يريدون السوفييت في المفاوضات. وعندما كنت في موسكو أرسلت برقية للأسد أسأله عما يريده. وجاءني رده بأنه يريد أن تتم معالجة الأمر بالطريقة التي اتبعت معالجته في حالة المصريين.... واقترح جروميكو أن ألتقي به في دمشق. ولكن عندما سألت السفير السوري في واشنطن عن رأيه في هذا الأمر، قال إنه لا يؤيد ذلك. وكل شيء الآن يتوقف على إن كنا سننجح

«في أكتوبر ١٩٧٤ حذر بريجنيف كيسنجر من أنه لايمكن تحقيق السلام في الشرق الأوسط دون تسوية حقيقية للمشكلة.. وقال له: لقد بدأت رحلاتك.. ولعبت على الدول كي تفرق بينها، وتجاهلك للمصالح العربية يضع الأساس لانفجار أسوأ مما وقع في أكتوبر»



في جعل الإسرائيليين يوافقون على الانسحاب من جزء من هضبة الجولان أم لا».

وكانت قوة كيسنجر تكمن في قدرته على توجيه الأطراف المختلفة نحو غايته هو. وفي هذه اللحظة التاريخية، ليست لدينا طريقة لمعرفة ما قالته القيادة السورية لكيسنجر. إلا أنه ربما كان السوريون، شأنهم شأن نظرائهم المصريين، قلقين بشأن التوصل إلى تسوية من خلال مساعي الولايات المتحدة الحميدة. ولم يكن لدى المصريين والسوريين قدر كبير من الثقة في الدبلوماسية الأمريكية وقدرتها على الضغط على إسرائيل. وقد ناور كيسنجر - الذي سبق أن قرر استبعاد السوفييت، المصريين والسوريين كي يعتمدوا فقط على الوساطة الأمريكية. وكانت النتيجة أن الولايات المتحدة بات لها احتكار لا ينافسها فيه أحد في المنطقة، وهو ما يضر الأطراف المحلية الضعيفة، وخاصة العرب. وهو على سبيل المثال كان يسخر من الروس لأنهم كانوا يعلقون آمالاً كبارًا على مؤتمر جنيف: «صحيح أننا أمضينا أربعة أشهر في الإعداد له، ثم اجتمع يوماً واحداً، أغلقناه بعده. (ضحك) .... وطالما أن العرب يعتقدون أنهم يحرزون تقدماً خارج المؤتمر، فلن يتعجلوا الذهاب إلى هناك. إذ ليس هناك من يرغب فيه سوى السوفييت الذين لهم سفير في جنيف، هو فلاديمير فينوجرادوف الذي يمضي كل وقته في انتظار مؤتمر لا ينعقد. ونحن من حين لآخر نرسل السفير إلسويرث بانكر مرة كل شهرين كي يجلس معه هناك دون أن يفعلا شيئاً».

وأبلغ كيسنجر ضيوفه الصينيين أنه كان يحاول إقناع الإسرائيليين، «الذين يصعب التعامل معهم»، كي ينسحبوا من مرتفعات الجولان على مراحل. وحاول إقناع ضيوفه الصينيين بأن الانسحاب من الجولان بكاملها لم يكن ممكناً في ذلك الوقت لأنه كان سيؤدي إلى الوقوع في مازق، وسوف يعود السوفييت من جديد». ولوح كيسنجر بالخطر السوفيتي في وجه القادة الصينيين. إلا أنه أضاف «في حال نجاحنا في محادثات فك الاشتباك هذه، يمكن أن نأمل في تقليص النفوذ السوفيتي، كما فعلنا في مصر». وكان كيسنجر أستاذاً في إثارة الخوف في نفوس المشاركين معه في المحادثات ومعرفة نقاط ضعفهم. وصدق دنج على ما قاله: «إذا نجح الاتحاد السوفيتي في سوريا، فسوف يكون للسوفييت ثلاثة مواقع في الشرق الأوسط يمكنهم الاعتماد عليها: وهي سوريا والعراق واليمن الجنوبي». وعقب عليه كيسنجر قائلاً: إن الولايات المتحدة كانت تسعى لإبعاد سوريا عن النفوذ السوفيتي، و«نحن نعمل بالفعل على إقناع اليمن الجنوبي. كما نعتقد أن المصريين سوف يساعدوننا في ذلك». لقد اتفق كل من كيسنجر ودنج على القيام بدور الشرطي الطيب والشرطي الشرير على المسرح الإسرائيلي العربي، لإقناع الأطراف المحلية بضرورة التوصل إلى تسوية، واستبعاد السوفييت من دبلوماسية الشرق الأوسط.

ولخص كيسنجر مناقشته مع الصينيين فيما يلي: «نحن نتفق مع تقديركم بأن النقاط السوفيتية القوية في الشرق الأوسط هي سوريا والعراق واليمن الجنوبي. كما أننا نحدث تغييرات كبيرة في السياسة الخارجية المصرية. ولمعلوماتكم فإننا لدينا الأسباب للاعتقاد بأن المصريين سوف يلغون معاهدتهم مع الاتحاد السوفيتي هذا العام. وهذا بطبيعة الحال سري للغاية. غير أني لم أقرأ قط تسريباً في إحدى الصحف الصينية!». وأبلغ كيسنجر القادة الصينيين أنه كان يسعى إلى إقناع حلفاء الولايات المتحدة بتقديم المساعدات الاقتصادية لمصر، بل إنه كان يأمل في أن تفعل الصين الشيء نفسه: «والرأي رأيكم». إن المصريين يحاولون معنا حل مشكلة اليمن الجنوبي. وسوف تتولى سوريا مشكلة العراق، وكذلك إيران، التي لها دور نشط كذلك في عُمان. ونعتقد أن بإمكاننا تقليص النفوذ السوفيتي في المنطقة بصورة مرتبة».

وعلى النقيض من الأمريكيين، كان القادة الصينيون يعتقدون أن الطريقة الوحيدة للحد من النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط هي أن يضعوا في اعتبارهم ما يشكو منه العرب وأن يتبعوا منهجاً عادلاً في الصراع العربي الإسرائيلي. وأبلغ نائب رئيس الوزراء دنج كيسنجر بصراحة أن «أضعف نقطة» لدى الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هي دعمها «لإسرائيل ضد العالم العربي، الذي يقدر عدد سكانه بمائة وعشرين مليون نسمة، وموقف الاتحاد السوفيتي في هذا المجال أفضل من موقفكم». وهنا أخذ كيسنجر يراوغ وقال: «إسرائيل هي أضعف نقاطنا وأقواها في آن واحد. ذلك أنه في نهاية الأمر ليس هناك سوانا يمكنه تحريكهم. فلا يمكن للعرب أن يجبروهم على شيء، ولا يسع الروس أن يقوموا بذلك. وأي إنسان يرغب في التقدم سيكون عليه أن يأتي إلينا. ويدخل في ذلك الفلسطينيون».. وعندما حثه دنج علي اتباع نهج منصف متوازن وافقه كيسنجر علي ضرورة وضع أهداف العرب في الاعتبار، لكنه حذر من أن الأمر سينطوي علي حالات مد وجزر خاصة عندما يجتمع ١٥ طرفا عربيا في غرفة واحدة، ذلك أنهم لا يفرقون بين شعر الملاحم وبين السياسة الخارجية،إلا أن الزعيم الصيني دنج لم يقبل هذه الإشارة السخيفة إلي العرب ورد عليه قائلا: لاينبغي لك أن تهون من شأنهم.

ولماذا يأخذ كيسنجر العرب مأخذ الجد؟ إنهم على أية حال منقسمون وبحاجة ماسة إلى اهتمام أمريكا. وقد وضع العرب معظم البيض في السلة الأمريكية، وكانوا يتمنون الخلاص. وكان كيسنجر يعرف المازق العربي تمام المعرفة وكان يتصرف بناء على ذلك. وليس مستغرباً كثيراً أن كيسنجر كان واثقاً من تقييمه الذي يرى أن الولايات المتحدة هي الطرف الوحيد الذي يمكنه أن يرعى أية تسوية. والسؤال المهم هو: ما نوع التسوية وما هو الثمن؟ وإدراكاً لطبيعة ما وقع بالفعل من أحداث، نحن الآن نعرف نتائج دبلوماسية الخطوة خطوة الخاصة بكيسنجر - وهي تحييد مصر وخروجها بعد ذلك من النظام الإقليمي العربي والمزيد من تشظي السياسة العربية العربية.

ولم يكن كيسنجر يرغب في استبعاد السوفييت وحدهم، بل كان يرغب كذلك في استبعاد الفرنسيين الذين «كانوا يعارضوننا في كل نقطة - وفي كل تفصيلة - من وراء ظهورنا». وقد امتدح الصينيين على استراتيجيتهم التنسيقية مع الولايات المتحدة. «ولكن الفرنسيين ليست لديهم استراتيجية، بل تكتيكات. ولذلك فهم يعملون على القضاء علينا في الشرق الأوسط». ولم يكن كيسنجر ليقبل الاختلاف من صديق أو من عدو وكان ينظر بكراهية لأية قوة كانت تسعى للقيام بدور مستقر في الشرق الأوسط، بمن في ذلك الحلفاء الأوروبيون. والواقع أن العلاقات بين الولايات المتحدة وشركائها الأوربيين أصابها التوتر في أعقاب حرب أكتوبر عندما حاولت أوروبا وضع سياسة أكثر استقلالاً ومنهج عادل للصراع العربي الإسرائيلي ومسائل الطاقة. وحذر كيسنجر الأوروبيين من مغبة الميل إلى التصرف باستقلالية عن الولايات المتحدة في الشرق الأوسط.

وبمباركة من الصين، ونتيجة لاعتماد مصر وسوريا على الولايات المتحدة، نجح كيسنجر في تحييد السوفييت وتحقيق احتكار الولايات المتحدة لدبلوماسية الشرق الأوسط. ومع أن السوفييت ظلوا غير راضين وأخذوا يشكون من احتكار كيسنجر لدبلوماسية الشرق الأوسط، فقد كان نفوذهم محدوداً. ولم يكن أي من الأطراف المحلية أو القوى الكبرى الأخرى يرغب في أن يكون للسوفييت دور فعال في المحادثات العربية الإسرائيلية. وفي يونيو ١٩٧٥ بينما كان كيسنجر يحقق تقدماً في دبلوماسية الخطوة خطوة بالتفاوض على انسحاب القوات الإسرائيلية من بعض أجزاء سيناء، ضغط جروميكو على كيسنجر كي يدعو إلى عقد مؤتمر جنيف وإدخال موسكو من جديد في عملية السلام للحيلولة دون انفجار أعمال العنف مرة أخرى في المنطقة. كما ناشده جروميكو أن يضع في حسابه الحقوق الفلسطينية. إلا أن كيسنجر ظل يتشكك من جدوى عقد مؤتمر جنيف، بل أشار كذلك باستعلاء إلى أنه لو اجتمع السوريون والفلسطينيون وغيرهم من الوفود العربية في غرفة واحدة «فإنهم سوف يشعلون حماسة بعضهم البعض». ورغم عدم رغبة كيسنجر في إشراك السوفييت في دبلوماسية الشرق الأوسط، فقد قرر السوفييت ألا يدخلوا في نزاع مع الأمريكيين فى الشرق الأوسط لأنهم كانوا بحاجة إلى المساعدات الاقتصادية الأمريكية والتعاون على جبهات مهمة أخرى. وكان الوفاق أهم بالنسبة لموسكو من أن تضحي به على مذبح مصالحها الضعيفة في الشرق الأوسط.

والواقع أنه بحلول سنة ١٩٧٥ كانت دبلوماسية كيسنجر المكوكية قد حققت الاتفاقية الثانية الخاصة بسيناء، التي تضمنت انسحاباً إسرائيلياً محدوداً آخر، إلى جانب الدور الأمريكي في مراقبة الاتفاقية، ومئات الملايين من الدولارات في صورة مساعدات اقتصادية لإسرائيل، وتعهد أمريكا بألا تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية أو تتفاوض معها إلا إذا اعترفت بحق إسرائيل في الوجود. وأدت اتفاقية سيناء الثانية إلى حدوث مزيد من الانشقاق في العالم العربي ودفعت الأسد إلى انتقاد السادات والذي رأي أنه تنازل عن أكثر مما يجب لإسرائيل. وكان من الطبيعي أن يساند السوفييت الأسد وأن يدعوا إلى الاعتراف بالحقوق الفلسطينية. ودفع التشدد الإسرائيلي بشأن المسألة الفلسطينية الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى أن تتخذ قراراً في نوفمبر ١٩٧٥ بأن الصهيونية «شكل من أشكال العنصرية أو التفرقة العنصرية»، وبدأ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في مناقشة الأزمة العربية الإسرائيلية في شهر يناير. وفي تلك الآونة كانت دبلوماسية الخطوة خطوة قد وصلت إلى طريق مسدود. وباستثناء المصريين والإسرائيليين، كانت سياسة كيسنجر تواجه من الجميع بالانتقاد. بل إن الصين أعادت في ذلك الوقت النظر في إخفاء المسألة الفلسطينية تحت المصالح الأمريكية.

وعرض كيسنجر على جروميكو احتمالات الدعوة من جديد لعقد مؤتمر جنيف. غير أن ذلك لن يكون إلا باعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل في الوجود. ووجد جروميكو أن هذه المحاجة الأحادية غير مقبولة، وقال إن على كل من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية أن ينفتحا على بعضهما في نفس الوقت. ويشير وليام بير محرر كتاب محاضر محادثات كيسنجر بذكاء إلى أن المناقشة أظهرت تحيز كيسنجر بشأن مشكلة الفلسطينيين: فبدلاً من معالجة المسألة الفلسطينية معالجة مباشرة عن طريق تشجيع المرونة الإسرائيلية،فإنه سعي إلى تمييع المسألة أملاً في أن تخبو جذوة منظمة التحرير الفلسطينية ويظهر بديل أكثر اعتدالاً. وفي كتابه «عملية السلام: الدبلوماسية الأمريكية والصراع العربي الإسرائيلي (١٩٦٧)، يشير ويليام كوانت باقتناع إلى أن كيسنجر كانت لديه «نقطة عمياء» تجاه الفلسطينيين. فقد خصص جزءاً كبيراً من دبلوماسيته «لمحاولة التحايل على هذه المسألة المهمة، وتأجيل لحظة الحق، وإضعاف جذوة الحركة الفلسطينية، أملاً في ظهور بديل ما».

وقد يتوقع المرء كذلك أن يكون موقف كيسنجر المتشدد من الفلسطينيين متأثراً بالمواقف الإسرائيلية. فرغم إبلاغ كيسنجر

كان كيسنجر أستاذا في إثارة الخوف لدي مضيفيه وجرب طريقته مع الصينيين وغيرهم، وقد ناور لكي يستبعد الاتحاد السوفيتي من دبلوماسية الشرق الأوسط ولكي يعتمد المصريون والسوريون فقط علي الوساطة الأمريكية، وكانت النتيجة أنه أصبح للولايات المتحدة احتكار لاينافسها فيه أحد في المنطقة



لجروميكو أنه لم يكن يتحدث باسم إسرائيل عن الفلسطينيين، فإن أفعاله كانت أعلى صوتاً من أقواله. وسلم كيسنجر برأي إسرائيل القائل بأن منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية، وجعل الاعتراف بها أو التفاوض معها غير مشروع إلى أن تعترف هي بحق إسرائيل في الوجود. وأثر هذا التعهد السياسي على تعامل أمريكا مع عملية السلام العربية الإسرائيلية حتى آخر الثمانينيات. بل إن الكونجرس ما زال يصنف منظمة التحرير الفلسطينية على أنها إرهابية، بفضل تعهد كيسنجر لإسرائيل في ١٩٧٥.

ويقودني هذا إلى نقطة مهمة: وهي أن تأثير كيسنجر على دبلوماسية الشرق الأوسط كان كبيراً في كثير من الجوانب. فإن تناوله التدريجي، خطوة خطوة، لعملية السلام العربية الإسرائيلية أوجد آلية أصبحت هي الأساس الذي تقوم عليه السياسة الأمريكية. وفي هذا السياق، نجحت إسرائيل في عقد اتفاقيات منفصلة مع الدول العربية المختلفة، بدلاً من اتفاقية شاملة تضع في اعتبارها كلية الصراع العربي الإسرائيلي. وهذا التناول الثنائي والتدريجي لصنع السلام كان في مصلحة إسرائيل، في ظل ميزان القوى غير المتكافئ بين الدولة اليهودية وجاراتها العربيات.

وكان لكيسنجر كذلك تأثير طاغ على سياسة صنع السلام الأمريكية في الشرق الأوسط في مجملها. وبداية، كان نيكسون يعتقد أنه ليس من الحكمة جعل كيسنجر مسئولاً عن السياسة الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط، بسبب خلفيته اليهودية. إلا أن كيسنجر أشرك نفسه من البداية في قضايا سياسية تتعلق بالشرق الأوسط. وفي الوقت الذي اندلعت فيه حرب أكتوبر، اتضح أن كيسنجر كان مسئولاً عن السياسة الأمريكية تجاه المنطقة. وهناك قول مقنع بأنه في الفترة بين ١٩٧٣ و١٩٧٦ كان كيسنجر يتحكم تحكماً تاماً في كل القرارات المهمة الخاصة بالشرق الأوسط. وأدى موقف نيكسون الضعيف في الداخل إبان فضيحة ووترجيت إلى تزايد تأثير كيسنجر بصورة كبيرة. وتظهر الوثائق أن كيسنجر كان يوجه السياسة غير عابئ بوجهات نظر الهيئات والوزارات الأخرى ومواقفها. وكان انشغاله الشديد بفكرة السرية مرده إلى الرغبة في استبعاد تلك الهيئات والاستحواذ على أدوات السياسة. وقد نجح في ذلك في وقت الأزمة.

وهذا هو السبب وراء الأهمية الشديدة لهذا الكتاب. فهو يقدم لنا صورة شاملة عن الطريقة التي كان كيسنجر يفكر بها في السياسة الأمريكية ويوجهها. كما تكمن أهميته فيما يتضمنه من وثائق في أنه يسمح للقارئ بالحكم بنفسه على الطريقة التي وجه بها كيسنجر السياسة الأمريكية في أجزاء مهمة كثيرة من العالم. وظل كيسنجر عدة سنوات وهو يحاول التأثير على تفكير الشعوب بشأن هذه الفترة التاريخية من خلال تقديم رؤيته هو ومنع وصول الباحثين إلى أوراقه الخاصة أو إلى أية أوراق حكومية أخرى أعدها وراجعها. وباعتبار كيسنجر دارساً للتاريخ، فقد سعى للتأثير على التقييم التاريخي لفترة توليه منصبه. والآن فإن هذا الدليل الذي يقدمه الكتاب يحدث توازناً مع الرؤية الأحادية التي قدمها كيسنجر. ورغم عدم اكتمال الصورة حتى الآن، فقد أصبح الأمر أكثر وضوحاً وأقل عتامة من خلال الرؤى التي تم الحصول عليها بطريقة «اخدم نفسك» والتي تثبت في نهاية الأمر كيف ظل كيسنجر يلعب طوال الوقت ولمصلحة من وعلي حساب من!. ■

ترجمة: أحمد محمود

و.. قراءة أخرى فى محاضر كيسنجر



التفاوض مع الشيطان!

محمد الخولى

■ ■ قبل واحد وعشرين عاما وبالتحديد فى يناير عام ١٩٧٧، غادر هنرى كيسنجر مكتبه، للمرة الأخيرة، فى مبنى وزارة الخارجية الأمريكية. وبينما كانت تدور الاحتفالات الصاخبة فى العاصمة واشنطن بمناسبة تنصيب رئيس جديد اسمه جيمى كارتر، وبينما كان موظفو الخارجية الأمريكية يستعدون لاستقبال وزيرهم الجديد، سايروس فانس، كان الدكتور كيسنجر يعد حقائبه التى حملها معه.

كانت الحقائب متخمة بكميات ضخمة من الوثائق والمذكرات والمستندات، وقد خلع عليها صاحبها صفة «الأوراق الشخصية»، ثم أضاف إليها نسخا طبق الأصل من الوثائق والمذكرات الحكومية والدراسات الرسمية التى أمر بإعدادها طيلة فترة ولايته سواء فى موقع مستشار الأمن القومى لدى الرئيس ريتشارد نيكسون فى البيت الأبيض، أو فترة توليه المنصب السامى الذى طالما طمح إليه وهو وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية، حيث عاش أربعة تحولات جذرية شهدها عقد السبعينيات فى سياسة أمريكا الخارجية، بل وفى مسارات السياسة الدولية بشكل عام، وهذه المتغيرات الأساسية الأربعة هى الوفاق الدولى بين واشنطن وموسكو، واستهلال علاقات أمريكا مع الصين الشعبية، والتوصل إلى نهاية لحرب ڤيتنام ثم تحويل سياسات الشرق الأوسط إلى ما يحقق مصالح أمريكا - على حساب الاتحاد السوڤييتى، وما يضمن بقاء المشروع الاستيطانى الصهيونى فى إسرائيل.

وعلى مدى السنوات التى أعقبت انتهاء الحرب العالمية الثانية، توالى على منصب وزير الخارجية وهو الوزير الأول - حسب التقاليد - فى حكومة واشنطن ساسة عديدون، لكن يظل كيسنجر بين هؤلاء الوزراء نجمًا تخطب وده أجهزة الإعلام - المرئية بالذات نتيجة عوامل شتى بينها:

١- أنه جاء من صفوف الأكاديميا، واستطاع أن يضع الكثير من رصيده الجامعى كأستاذ علوم السياسة فى جامعة «هارڤارد»، وكدارس متعمق لفن التوازنات السياسية منذ عهد الوزير النمساوى الأشهر مترنيخ، وقد استطاع كيسنجر أن يضع هذا كله فى خدمة الدبلوماسية الأمريكية.

٢- أنه كان يشكل مركز قوة وطيدا وديناميا سواء من موقعه كمساعد لرئيس الدولة فى البيت الأبيض، أو كوزير للخارجية فى عهد ريتشارد نيكسون الذى شاءت حظوظه العاثرة أن يسقط فى مستنقع فضيحة ووترجيت، وأن يمضى ردحا طويلا من فترة رئاسته الثانية وهو «بطة عرجاء» كما يقول التعبير الأمريكى -- فى البيت الأبيض، بينما كان وزير خارجيته هنرى كيسنجر مكوكا بشريا «يرمح» بطائرة خاصة تحط وتحلق كل عدة ساعات فى هذه العاصمة أو تلك.

٣- إن وجوده فى منصبه الدبلوماسى الرفيع، تزامن - بصدفة سعيدة بالنسبة لكيسنجر - مع عهد الرئيس المصرى أنور السادات، رحمه الله، الذى بدأ هنرى فى التعامل معه بمنطق يكاد يقارب الاستصغار إلى أن تعمق فى شخصية الرئيس المصرى.. فإذا به يفهم مفاتيحها ولم يكن بحاجة إلى أدوات فى هذا المضمار سوى لسان ذرب يكيل المديح للسادات ويستخدم فى ذلك تنويعات ولحونا شتى تحفها ألفاظ انتقاها بعناية ولاشك من «بضاعة هارڤارد» من قبيل: «صنع التاريخ» أو «تصحيح المسار» أو «كسر الحواجز النفسية». وبديهى أن ترتفع نبرة هذه التنويعات إلى حيث القول بأن الرئيس السادات يمكن أن يختاره الأمريكيون رئيسا لبلادهم من فرط الإعجاب.. الخ!

وبديهى أيضا، أن ينال وزير خارجية أمريكا ألقابا فى المقابل ومسميات خلعها عليه الرئيس السادات ومنها «عزيزى هنرى». ولاعجب إذن أن يصرح الدكتور كيسنجر يوما بأنه ظل يرفض شخصنة التاريخ، مؤكدا أن التاريخ تحركه أساسا عوامل موضوعية أكثر مما يستجيب لشخصيات الأفراد..ولكنه - كيسنجر - بات يدرك أن العوامل الشخصية لها دورها الفاعل والمؤثر فى رسم أو تغيير مسارات الأحداث.. وقد أرجع هذا التغير فى مدركاته إلى ما عايشه ولمسه فى تعامله - عند منتصف السبعينيات مع شخصيتى كل من أنور السادات وجولدا مائير.

والحاصل أن الدكتور هنرى كيسنجر مازال يشكل نوعا من المرجعية فى مجال السياسة الخارجية الأمريكية. تضطرم الأحداث وتتشابك الظروف فى العراق أو فى الصومال أو على مستوى المحالفة الأطلسية (الناتو) أو داخل أروقة الأمم المتحدة.. فإذا بالكاميرات تحرص على أن تنتقل إلى الدكتور كيسنجر تستفتيه وتستطلع ما يعنّ له من آراء.. ونقول «تنتقل» إلى الرجل وهو قابع فى مكتبة بيته الباذخ فى «سكار سديل» وقلما يأتى هو ضيفا إلى الاستديو، وهو لا يكذّب خبرا بل هو جاهز دوما بالآراء يعرضها بصوته الأجش ذى الرنين المعدنى العميق، وفى إنجليزية لا تخطئ الأذن المدربة أنه كثيرا ما تشوبها رطانة أو لكنة ألمانية موروثة. إن هذه النجومية تعكس نفسها بالتأكيد على هذا الكتاب وعنوانه:

«محاضر كيسنجر الحرفية» وقد تم تفريغها ونقلها من متونها الأصلية التى كانت مسجلة على شرائط. ومعنى ذلك: .. أننا أمام نصوص موثّقة بالصوت والكلمة والحرف لعدد من أهم المحادثات التى جرت فى الربع الأخير من هذا القرن، ودارت بين وزير خارجية أكبر دولة فى العالم وبين عدد من أبرز زعماء العالم فى عقد السبعينيات وفى مقدمتهم: ماوتسى تونج، وشواين لاى فى الصين. وليونيد بريجنيف وآندريه جروميكو وإليكسى كوسيجين فى الاتحاد السوڤييتى، إضافة إلى الرئيس الفرنسى الراحل جورج بومبيدو.

ومن المفارقات أن حرص كيسنجر على إيداع حقائبه كل متعلقاته خلال ولايته الوزارية من مستندات وأشرطة ومذكرات. وضع العديد من العقبات والعراقيل أمام الباحثين الراغبين فى الاطلاع بعمق على مستندات تلك المرحلة الحافلة بالتحولات -

لاسيما أن الرجل أوصى بعدم الاطلاع على أى منها إلا بعد خمس سنوات كاملة من رحيله عن الدنيا، ثم يتكشف الأمر فى مصادفات علمية أو بحثية سعيدة كما نسميها - عن أن نصوصا سبق تفريغها من أشرطة كيسنجر كانت قد وجدت طريقها إلى ملفات أخرى فى أروقة المحفوظات الدبلوماسية بالخارجية الأمريكية. وعندما نمى هذا الاكتشاف إلى علم مسئولى الأرشيف القومى الفيدرالى للولايات المتحدة نشط القوم، مثل كلاب الصيد المدربة، إلى تقصى أثر هذه التفريغات لمحاضر اللقاءات بين زعامات العالم وبين كيسنجر. ومن خلال هذه النصوص تشكلت مادة الكتاب. غير أن كل الحرص الذى أبداه كيسنجر لم يمنع المصادفة من أن تكشف سرا يمكن أن يشكل حرجا شديدا له وربما تنال من نجوميته. فمن حيث لايدرى «الدكتور» شاءت المفارقات أن تكشف مدى تواطؤه مع ديكتاتور شيلى السابق بينوشيه فى ارتكاب ما اقترفه الجنرال المشئوم من جرائم ضد حقوق الإنسان فى بلاده، عقب الانقلاب العسكرى الذى أطاح فيه بالرئيس اليسارى المنتخب سلفادور الليندى عام ١٩٧٤. وربما حسب كيسنجر أن أمر تأييده لبينوشيه لن ينكشف، ولكن تشاء أقداره أو أقدارهما التعسة أن تحمل الديكتاتور العجوز إلى لندن، وأن يقدم إلى المحاكمة فى أسبانيا وأن يجمع النائب العام الأسبانى مستندات وأوراقا لإدانته. والذى حدث أن الضربة التى كانت موجهة فى الأساس إلى بينوشيه أصابت كيسنجر شخصيا - إذ كشفت جريدة الأوبزرفر البريطانية (عدد ١٩٩٩/٢/٢٨) عن نص برقية أزاحوا عنها خاتم «سرى للغاية» وأمكن إذاعة فحواها ويكشف - كما تقول الصحفية الإنجليزية لوسى كوسيمار - المدى الذى ذهب إليه كيسنجر فى التغطية على مذابح بينوشيه بل وفى ترضيته والتعهد بأن أمريكا لن تطالب بمعاقبته عما جنته يداه بل ويتمنى لحكومته كل الخير!



غير أن الحديث عن محفوظات أو أرشيف الأمن القومى فى أمريكا يوقظ لدينا على الصعيد المصرى أو العربى - مواجع شتى.. فهذا الأرشيف ليس مؤسسة «تابعة للحكومة» وكل إدارة حكومية هى خصم طبيعى لمبدأ إعلان المستندات الرسمية، كما أنها - فى الغالب - حليف للاتجاه نحو التكتم أو التستر وعدم الكشف عن الوثائق وما فى حكمها من المحاضر والمذكرات. ولديها بالطبع ذريعة «التمحك» فى سرية المعلومات حفاظا على الأمن الوطنى أو الاستقرار الاجتماعى أو غيره من المبررات، لكن ها هى مؤسسة أرشيف الأمن القومى فى أمريكا - وهى عبارة عن مكتبة بحثية فى العاصمة واشنطن، وقد احتوت على الوثائق الحكومية المفرج عنها أو المنزوع عنها خاتم السرية. وتعتز بأنها قد استطاعت أن تبنى أرشيفا يحتوى على أكبر مجموعة فى العالم تملكها مؤسسة خاصة، من الوثائق والمستندات المفرج عنها.

كان هنرى يلعب لعبته وحيدا كما قال يوما فى حديث إلى الصحيفة الإيطالية الشهيرة «أوريانا فالاتشى» ولكن لم يقل لها إنه كان يستمتع بهذه اللعبة إذ كان رئيسه - نيكسون - وهو من أقدر ساسة أمريكا المعاصرين غارقا فى أوحال ووترجيت ومعزولا من ثم عن الإمساك الحقيقى بمقاليد الأمور.

ومحاضر المفاوضات السرية لكيسنجر ترسم بعد ذلك صورة معاصرة وحية لكيفية بناء ما يمكن أن نسميه شبكة دبلوماسية سرية بديلة أو مؤسسة خاصة - خلفية أو موازية - لمؤسسة السياسة الخارجية الأصلية والمعتمدة والخاضعة من ثم لبنود الدستور وأحكام القانون، وهى الشبكة التى كان يطلق عليها كيسنجر نفسه ومعاونوه الاسم الأثير: «القنوات الخلفية» كما فى اتفاق كيسنجر - السادات فى بداية السبعينيات على وجود قناة خلفية تستخدم للاتصالات من خلف ظهر المؤسسات المختصة. كما تجسد من خلال تلك الشبكة نوع من احتكار المعلومات أو هو الكهنوت السياسى الذى كان كيسنجر - كمستشار للأمن القومى - يفضله فى إدارة دفة الشئون الخارجية سواء فى صراعه ضد سلفه فى وزارة الخارجية وليام روجرز أو ضد خصومه فى مؤسسة الدبلوماسية المحترفة فى الوزارة».

فى هذا المضمار يشرح وليام بير محرر هذا الكتاب كيف كان كيسنجر يعمل جاهدا للحفاظ على سرية هذه الاتصالات (الخلفية) التى كانت تتم كلها من خلف ظهر وزير الخارجية روجرز والذي استبد به الغضب مثلا عندما فوجئ بأن بلاده - التى يفترض أنه يدير سياستها الخارجية قررت - أو أن كيسنجر هو الذى قرر - مساندة باكستان لدى اشتعال حربها مع الهند فى شتاء عام ١٩٧١ (الحرب التى أخرجت إلى الوجود دولة بنجلاديش) بعد أن ظلت سياسة واشنطن المعلنة لسنوات هى تأييد الهند من منطلق مساندة استقلال بنجلاديش.

وعلى امتداد فصوله نجح الكتاب فى أن يقدم سجلاً حافلا بالمعلومات التاريخية المهمة فى حد ذاتها أو من حيث إنها تصحح بدورها معلومات أو مفاهيم وتصورات طرحت وشابها خطأ أو تعرضت لسوء الإدراك أو خطأ التفسير.

من هنا جاء وصف الكتاب بأنه واحد من أهم سجلات الحرب الباردة التى نشرت حتى الآن، على حد تعبير الصحفى الأمريكى «باتريك تايلر»، والذى عمل لسنوات عدة مديرا لمكتب «نيويورك تايمز» فى العاصمة الصينية. والكتاب أيضا كما يقول الكاتب الأمريكى «چيمس هيرشبرج» وهو من المهتمين بالتأريخ لحقبة الحرب الباردة، وخاصة فى الجانب النووى منها، بفتح الباب أمام تقييم جديد وطازج وفعال لسنوات حافلة اضطرمت فيها الأحداث وشهدت اتخاذ عدد من قرارات المصير، وذلك بعد عقدين من الزمن لم يكن منها مناص سوى التعويل على مذكرات صانعى تلك الأحداث بكل ما احتوته من الدوران حول الذات.

.. ويبقى أن غلاف الكتاب يحمل صورة فوتوغرافية للدكتور كيسنجر بنظارته السميكة الشهيرة وهو فى كامل عافيته وربما أوج تألقه السياسى فى عقد السبعينيات، ولأمر ما، شاء الفنان مصمم الغلاف أن يلوّن النظارة بلون أحمر تطل من ورائه العينان، وهواللون الذى يختارونه عادة فى مفردات الفنون المرئية للإيحاء بوجود الشيطان! ... فهل كان القادة والساسة والزعماء الذين عرضت لهم فصول الكتاب يعقدون اجتماعاتهم مع «هنرى» المهاجر الألمانى اليهودى الذى كان نجما من نجوم السياسة الدولية منذ ربع قرن؟ أم أنهم كانوا - فى التحليل الأخير - يتفاوضون فى اجتماعاتهم تلك مع الشيطان شخصيا؟!

كتاب الزاوية



من شعر إبراهيم ناجى

ظلام

لا تقل لى ذاك نجمٌ قد خبا
يا فؤادى كلُّ شىءٍ ذهبا
ذلك الكوكبُ قد كان لعينى
السماوات وكان الشُّهُبا
هذه الأنوارُ ما أضْيَعَهَا
صِرْنَ فى جَنْبى جراحًا وظُبى
كلما أهْدَتْ شعاعًا خَلَّفَتْ
بعده سجنًا ومَدَّتْ قُضُبا

* * *

قلتُ أسلوك وكم من طعنة
بالمُداراة وبالوقتِ تهون
فإذا حُبُّكِ يَطْغَى مُزْبِدًا
كَدفُوق السَّيْلِ طُغْيَانَ الجنون
وكذا تمضى حياتى كلُّهَا
بين يأسٍ ورجاءٍ وظنون
ما على الهجر معينٌ أبدًا
وعلى النّسيانِ لا شىءَ يُعين

* * *

ذلك الحبُّ الذى فُزْتُ به
لا أُبالى فيه ألوان الملامه
ذلك الشطُّ الذى ذُقْتُ به
بعد لُجِّ البحر أمنًا وسلامه
إنّه مزَّق قلبى قسوةً
وسقانى المُرَّ من كاسِ الندامه
صارَ نارًا ودمارًا فى دمى
وصراعًا بين قلبٍ وكرامه



« رودنبـك أعطـى لكـل من يقـرأ
كتابه سببا لكى ينقده، فالكتاب لابد أن يضيقوا
بتطاول رودنبك على جميع الرموز الوطنية من رمسيس الثانى
إلـى عبـد النـاصـر».
« والإسلاميون لن يعجبهم دفاعه عن طه حسين
أو نصر حامد أبو زيد.. كما لن يستريح الحكوميون لإشاراته إلى معاناة
القاهرة من انحطاط الذوق وفساد الذمة، والناصريون سيعترضون على
وصف ما فعلته الثورة بالمدينة وبسكانها ».

القاهرة مدينة تنتصر على نفسها

« أم الدنيا » فى عيون « الخواجة » ..

زياد أحمد بهاء الدين

لعل أكبر صعوبة تواجه من يسعى لعرض كتاب ماكس رودنبك عن مدينة القاهرة هو كيفية تصنيفه. فعندما رأيت الكتاب معروضا فى المكتبات المختلفة، سواء فى مصر أو خارجها، تبين لى أن كل واحدة قامت بتصنيفه على نحو مختلف، مما أكد أن حيرتى فى محلها وأن باب الاجتهاد مفتوح فى هذا المجال. فبعض المكتبات وضعت الكتاب فى الطائفة العامة التى تسمى كتب السياحة والسفر. ومكتبات أخرى رأت أنه ينتمى إلى كتب التاريخ المصرى، وبخاصة الفرعونى. بينما عرضه بعضها الآخر مع كتب الفن والمعمار المصرى. وقد خطر على بالى أن أسأل أحد المسئولين فى مكتبة لم تجد للكتاب مكانا إلا بين صنف جديد ـ وعجيب ـ من الكتب اسمه «كتب الهدايا» عن المقصود بذلك.

ولكن هذه الحيرة لها ما يبررها فى ضوء ما يتضمنه بالفعل كتاب «القاهرة: مدينة منتصرة» "Cairo: The City Victorious". فهو ليس مؤلفا فى وصف القاهرة، ولا يزعم تلخيص تاريخ المدينة بشكل مبسط، وهو ليس دليلا للآثار التى تحتويها، ولا يتضمن قائمة بالمطاعم والملاهى المفضلة. بل هو بحث عميق فى التاريخ والاجتماع والسياسة والمعمار، وفى عادات وسلوك الناس على نحو يعطى مدينة القاهرة ملمسا ومذاقا ورائحة وصوتا يندر أن ينجح عمل مكتوب فى نقله إلى القارئ. والأهم من كل ذلك أن الكتاب ينجح فى مزج كل العناصر السابقة من خلال رؤية شاملة تثير لدى القارئ أسئلة أكثر مما تجيب عليها، وتستثير فضوله أكثر مما ترضى يقينه، وتدفعه إلى الشك والتأمل والنقد بدلا من أن تجنبه ويلات التفكير. ولذلك فإن كتاب ماكس رودنبك فى تقديرى ينتمى بجدارة إلى طائفة أدب الرحلات التى كانت حتى وقت قريب، ولا تزال فى أحوال نادرة، تتضمن أرقى كتابات

Cairo: The City Victorious

(القاهرة: المدينة المنتصرة)

Max Rodenbeck

London: Picador, 1998.

العصر وتحوى تحليلا اجتماعيا وثقافيا وحضاريا بالمعنى الكامل. وهذه الطائفة من الكتب كادت أن تختفى تحت وطأة المؤلفات والمطبوعات السياحية التى لا هدف لها سوى تأكيد يقين السائح فى معتقداته السابقة، وطمس الخصوصية الحضارية للمجتمعات المختلفة، وتبسيط الحقائق واجتزائها، وإبراز المعلومات التى لا قيمة لها سوى أنها مما يسهل استقراره فى ذهن السائح واسترجاعه حينما يرغب فى أن يروى لأصدقائه أو زملائه بعض نوادر البلد الذى زاره.

ومن هنا فإن ما يجعل لهذا الكتاب قيمة خاصة هو أنه يأتى فى وقت تعانى القاهرة فيه ـ على وجه الخصوص ـ من ظاهرة تراجع الكتب الجيدة فى مختلف المجالات أمام المؤلفات السياحية. وعلى القارئ أن ينظر فقط إلى عشرات الكتب والمطبوعات التى تزدحم بها المكتبات عن السياحة فى مصر، وأن يقلب صفحاتها لكى يدرك حجم المأساة التى يعانى منها القارئ الجاد والمهتم بمعرفة أكثر عمقا عن البلد. والكتاب المعروض هنا يأتى بعد طول انقطاع لكى يملأ فراغا كبيرا ويكمل مسلسلا من الكتابة عن القاهرة وعن مجتمعها، بدأه كُتّاب رومان سافروا إلى مصر قبل اندثار حكم الأسر الفرعونية، وتابعه رحالة وباحثون من عصور الحكم الإسلامى المختلفة، واشترك فيه العلماء والباحثون الذين صحبوا الحملة الفرنسية على مصر أو زاروها تحت حماية الاحتلال البريطانى، ثم كتب فصوله الأخيرة الباحثون الأجانب والوطنيون على حد سواء فى عصر الاستقلال.

ولأن الكتاب لا ينفصل عن كاتبه، فإن ما يعطى هذا الكتاب تنوعه الفريد ويجعل قراءته أقرب إلى مغامرة السفر بين عصور القاهرة المختلفة وبين أحيائها والعيش مع أهلها هو أن الكاتب هنا ليس مجرد عابر سبيل بالقاهرة أو باحث شغوف بها أو قاطن مؤقت لها، بل هو جزء منها، وعلى دراية كاملة بخباياها. ولذلك فإن الكتاب يكاد يكون رحلة استكشاف لذات الكاتب من خلال تراكم معرفته بالقاهرة وبالقاهريين ومن خلال طرح الأسئلة التى تحير أهل البلد مثلما تحير زائريها.

ماكس رودنبك ليس غريبا عن القاهرة، فهو حاليا كاتب مقيم بها وصحفى ومراسل لعدة صحف وجرائد أجنبية منذ سنوات. وقد بدأت علاقته بالقاهرة منذ حضر إليها بصحبة والديه اللذين يعملان بالتدريس الجامعى وعمره عامان، ثم لم يبرح المدينة من وقتها إلا لفترات متقطعة، فتعلم فى القاهرة، ونشأت صداقاته مع أبنائها، وعرف مباهج الحياة ومصاعبها فى أحيائها، ثم تزوج مصرية، وإن كانت من مدينة الأسكندرية، وقد درس تاريخ الشرق الأوسط وفنونه بالجامعة الأمريكية فى القاهرة، واشترك قبل عمله بالصحافة فى رسم خرائط للقاهرة الإسلامية.

ولكن كل ما سبق لا يبرر إقدام الكاتب على الخوض فى عمل على هذا القدر من الطموح والاتساع. فليس كل من سكن القاهرة وتزوج من أهلها وسار فى طرقاتها مؤهلا لكتابة وصف معاصر لها يشمل تاريخها ومجتمعها ومعمارها وحضارتها وفنونها وتياراتها السياسية. ومع ذلك، فإن هذا العمل الطموح إلى حد مخيف هو ما أقدم عليه ماكس رودنبك، مسلحا فى ذلك بأدوات ومؤهلات إضافية، أهمها فضوله المستمر نحو كل ما يراه ويسمعه، وقدرته على استخدام أدق التفاصيل من أجل تكوين الصورة الشاملة، ودأبه على التعرف على المدينة عن طريق التجول فى طرقاتها، والجلوس على مقاهيها، والحديث مع أهلها من كل مكان وطبقة وحرفة، على نحو لا يجرؤ عليه أو لا يكترث به فى معظم الأحوال أهل البلد ذاتهم.

هذا الاهتمام الشخصى بتجربة جميع جوانب العيش فى القاهرة أحد ثلاثة أركان أساسية لمنهج الكاتب فيما أقدم عليه من عمل طموح، إذ حاول فى كل فرصة ممكنة أن يعرض أفكاره عن القاهرة ليس فى إطار نظرى، وإنما من خلال التجربة الشخصية والمعايشة الحقيقية. فهو لا يصف مثلا معمارا معينا وصفا هندسيا جامدا، وإنما يصف ما يراه المشاهد اليوم حينما يقف فى الشارع أمام هذا المعمار، وما بقى منه وما حل محله وما يهدد استمراره. وهو لا يحكى تاريخا جامدا ومجردا عن الحقبة المملوكية أو الفرعونية، وإنما يروى حكايات محددة من خلال ما بقى من زمنها فى قاهرة اليوم، ومن خلال التجول فى الطرقات التى جرت فيها تلك الأحداث ووصف حالها اليوم. وهو كذلك يتابع فى كل مرحلة من تاريخ مصر التيارات الثقافية السائدة أو المعارضة ويربطها على نحو ما بالفكر المصرى المعاصر. بل إنه يصف حتى زيارته للسوق الأسبوعية للحيوانات المنزلية فى حى الخليفة، ويتوقف عند قرد محبوس فى قفصه انتظارًا لمشتر ذى خيال، ويقارن حالته المزرية بالتمجيد الذى حصل عليه أجداده قبل آلاف السنين حينما كان فراعنة مصر لا يزالون يعتبرون القرد تمثيلا لأحد الآلهة ويكرمونه فى حياته وحتى مماته عن طريق التحنيط والدفن اللائق.

ولعل هذا ما يجعل الكتاب منتميا فى نهاية الأمر إلى طائفة كتب الرحلات والسفر لما يتميز به من وصف للمدينة ولمجتمعها من خلال منظور اليوم وعبر ما يراه المرء بالفعل حينما يزورها أو يعيش فيها، وليس من زاوية البحث التاريخى أو الفنى أو الاجتماعى فى حد ذاته.

أما الركن الثانى فى منهج الكتاب، فهو الابتعاد الكامل والمتعمد عن القالب الأكاديمى، وما يرتبط به من وسائل فى البحث والكتابة والعرض. وفى اعتقادى الخاص أن ماكس رودنبك قد أحسن عملا بهذا الاختيار. فالمؤلفات الأكاديمية عن مختلف جوانب تاريخ القاهرة ومجتمعها والقضايا السياسية التى تشغلها أكثر من أن تحصى. والأهم من ذلك أن ما له قيمة حقيقية ومضافة فى هذا البحر من البحث الأكاديمى قليل جدا. وهذه ظاهرة ليست متصلة بالكتابة عن القاهرة وحدها، بل صارت جانبا لصيقا من البحث الأكاديمى عموما، حتى أصبح الحديث عن البحث الأكاديمى مرادفا فى معظم الأحيان للكتابة الجامدة الرتيبة التى لا يقرؤها سوى المتخصصين، والتى تضيع فيها الرؤية الشاملة تحت وطأة التفاصيل. ولعل هذا هو السبب فى الاتجاه المتزايد الذى تبناه عدد من أهم الأسماء الأكاديمية فى العالم، من مختلف المشارب والتخصصات للكتابة

المبسطة التى تتوجه إلى القارئ العام، والتى تعبر حواجز العلم الواحد إلى مناقشة المواضيع الكلية.

ولكن البعد عن التناول الأكاديمى فى حالة كتاب القاهرة له أسباب أخرى. فاتساع موضوع الكتاب، وحجم المواضيع والقضايا والأفكار التى يسعى لتقديمها، لا يسمح للكاتب بالالتزام بقواعد البحث الأكاديمى، وإلا تحول عمله إلى موسوعة تملأ آلاف الصفحات وتظل قاصرة عن تغطية موضوعها. ومن جهة أخرى، فإن الكاتب لا يلزم نفسه بمجال واحد للبحث، بل يخلط السياسة بالفن، والتاريخ بالجغرافيا، والعادات بالمعمار، والأسطورة بالواقع... وهذا كله بسبب القصور فى البحث الأكاديمى والعاملين به، لا يجد مكانا فى المفهوم الجامد للبحث العلمى الذى صار يفضل رسم الحدود والفواصل بين المناهج والمجالات المختلفة ويجزع من تخطى تلك الحواجز، مهما كان فى ذلك من إضافة قيمة ومن رضوخ للواقع محل البحث. وقد ترتب على ابتعاد الكاتب عن المنهج الأكاديمى التقليدى أن صار لديه قدر من الحرية فى اختيار ما يرغب فى تناوله من المواضيع وما يرى تجاهله. وهذه حرية ضرورية بالنظر إلى أن الكتاب يتناول مدينة القاهرة عبر العصور ومن مختلف الزوايا. كما ترتب على ذلك أيضا أن ماكس رودنبك قد اختار شكلا جديدا لتناول موضوعه، وهو تقسيم الكتاب إلى عدة فصول، كل منها يتناول موضوعا مستقلا تتداخل فيه الرؤى التاريخية والمعمارية والسياسية، دون التقيد بقواعد تحكم تسلسل هذه الفصول واختيارها. وسنعود إلى هذه الفصول المستقلة بعد قليل.

أما الركن الثالث من منهج البحث الذى اعتمده الكاتب، والذى يعطى الكتاب وحدته فى ظل غياب محور محدد له، فهو أنه يطرح على نفسه وعلى القارئ أيضا عدة أسئلة بسيطة ومباشرة، ولكنها أساسية فى فهم قاهرة اليوم. فما الذى يجعل هذه المدينة التى تزدحم بأهلها إلى حد لا يطاق وتعجز بنيتها الأساسية عن تحمل الضغط الملقى عليها، ويصم ضجيجها آذان أهلها. ما الذى يجعلها فى نظر سكانها «أم الدنيا» التى لا غنى عنها ولا بديل؟ وكيف يتعايش سكان القاهرة من مختلف الطبقات والمهن والأمزجة ويتفاعلون؟ وما الذى بقى فى قاهرة اليوم واستمر من تاريخ هذه المدينة العريقة فى سلوك أهلها وعاداتهم؟ أسئلة بسيطة بلا شك، والإجابة عليها تبدو للوهلة الأولى سهلة، ولكن التعمق فيها يثير قضايا أكثر عمقا وتعقيدا ويأخذ من يرتادها فى رحلة طويلة عبر العقلية المصرية المعاصرة. هذه الأسئلة البسيطة والصعبة فى آن واحد هى ما يحدد إطار الكتاب وما يعطيه وحدته، وما يجعل كل الأفكار المتناثرة فيه تسقط فى موقعها، وهى أيضا ما يجعل الكتاب أقرب إلى المحاولة الخاصة للاستكشاف والتفكير التى يشرك الكاتب فيها قراءه.

ولنعد إلى فصول الكتاب ذاته، وقد سبق القول إنها تتناول مواضيع متفرقة، وكل منها من منظور مختلف ولكن يضم رؤى مختلفة لا يجمعها سوى اختيار الكاتب لها وتجاربه الشخصية، وحركته الرشيقة بينها.

فهناك فصل عن المدن التى نشأت واندثرت محل القاهرة الكبرى الحالية، ومن خلاله يستعرض الكاتب تاريخ هذه المدن ويصف أنماط الحياة بها، وما ترك تأثيرا منها على حياة القاهريين المعاصرين. فالبداية كانت مدينة ممفيس، عاصمة الحكم الفرعونى منذ وحد الملك مينا قطرى مصر قبل ما يقرب من خمسة آلاف عام، وما ارتبط بذلك من بناء تدريجى للأهرامات فى الضفة الغربية للنيل لكى تصبح المنطقة فى نهاية الأمر أكبر مقبرة عرفها العالم. وقد شيد قدماء المصريين مدينة أخرى على الضفة المقابلة للنيل، هى مدينة هليوبوليس، لتكريم وعبادة إله الشمس رع، ولم يبق منها اليوم سوى مسلة يتيمة فى حى المطرية بشمال القاهرة. وقد استمرت ممفيس هى العاصمة الرئيسية حتى سقوط مصر تحت الحكم الرومانى عقب انهيار الدولة البطلمية، فبدأ الحكام الجدد ينقلون قواتهم إلى الضفة الشرقية للنيل على نحو أدى إلى اضمحلال مكانة ممفيس وحكم مصر من حصن بابل الذى شيده الر ومان فى مكان تحتله اليوم أقدم وأهم الآثار القبطية فى حى مصر القديمة. فلما فتح الجيش الإسلامى مصر بقيادة عمرو بن العاص، أراد الحاكم الجديد أن ينقل مركز الحكم إلى مدينة الإسكندرية، إلا أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، مدركا الأهمية الإستراتيجية لموقع القاهرة الحالية، أصر على استمرار إدارة البلاد منها، فنشأت فى جنوب الضفة الشرقية أيضا مدينة الفسطاط، قريبا من أنقاض حصن بابل. وأخيرا، تطور الأمر مرة أخرى إبان الحكم الفاطمى، ومع بلوغ المعمار الإسلامى مرحلة متقدمة من الإتقان، فنشأت القاهرة شمال الفسطاط حول سلسلة من المساجد والأضرحة التى مثلت قمة المعمار الإسلامى فى دولة المماليك.

والكاتب لا يكتفى فيما سبق بمجرد رصد التغير والانتقال من مكان إلى آخر، وإنما يبحث عن تفسير لكل ذلك، ويجده فى عناصر متعددة. فهناك الظروف الطبيعية وتغير مجرى النيل وما لذلك من تأثير على المدن. وهناك الحركة المستمرة لمركز التجارة، وما يتبع ذلك من انتقال للسكان والخدمات. ولكن هناك أيضا ظاهرة ملفتة ومزعجة يشير إليها الكاتب، وهى عدم قدرة أو استعداد كل مرحلة من المراحل السياسية الرئيسية فى تاريخ مصر لاحتمال ذكرى ما سبقها ،والرغبة فى أن يبدأ تاريخ مصر من جديد مع كل حاكم جديد. وهكذا لم يكتف فقط بعض الحكام بنقل مركز الحكم من مكان إلى آخر، بل ذهب بعضهم إلى حد هدم المعابد والقصور والمقابر التى شيدت فى العصر القديم للاستفادة بالأحجار والأعمدة والتماثيل الناتجة عن ذلك فى بناء رموز الحكم الجديد. وللأسف أن هذه الظاهرة التى بدأت منذ ممالك الفراعنة ذاتهم، قد امتدت عبر التاريخ المصرى، ولم تفارقه منذ هذا الوقت، وإن كان ذلك أحيانا بهدم المبانى، وأحيانا أخرى بالتلاعب بالحقائق التاريخية.

وفى الكتاب فصل آخر بعنوان مدن الموتى. يتناول فيه الكاتب الأبنية والمعابد والمقابر والمساجد والأضرحة التى شيدها المصريون فى القاهرة عبر العصور من أجل تمجيد موتاهم. ومن خلال هذا الوصف يقتحم موضوع تعامل المصريين مع الموت، وهوموضوع شديد الأهمية والسيطرة على العقل المصرى وعلى العادات والطقوس الاجتماعية السائدة فى مصر إلى اليوم. فالموت كان - ولا يزال - لدى المصريين الحقيقة الأكثر رسوخا والمناسبة الاجتماعية الأهم، والمحور الذى تدور حوله الحياة وينتظم به المجتمع. لذلك فالكاتب يصف طقوس الموت فى مختلف الحضارات، ويتوقف طويلا أمام ظاهرة «الموالد» التى يرى فيها امتدادا لمحاولة الفراعنة للتقرب من الآلهة العديدة آنذاك من خلال الفراعنة، أوللإله الواحد حاليا من خلال الأولياء الصالحين، وهويشير فى سياق ذلك إلى ظاهرة أخرى هامة، وهى التناقض الذى لا يزال قائما بين الرؤية الإسلامية الشعبية - بما فيها من طقوس وموالد وذكر وزيارة للأضرحة وتقديس للأولياء - وبين الرؤية الإسلامية الرسمية والمحافظة التى تعتبر كل ما سبق انحرافا وعودة لنوع من الوثنية جاء الإسلام لتخليص الناس من سطوتها.

أما فى فصل بعنوان مجتمع الثراء ومجتمع الفقر، فإن الكاتب يصف نماذج التباين الطبقى والثقافى الذى عرفته القاهرة على مر العصور، بما فى ذلك التناقضات التى لا تزال المدينة تعرفها اليوم بين الثراء الفاحش والفقر المدقع. والكاتب لا يقف فقط عند حد وصف بعض مظاهر الفقر(منها حياة سكان المقابر، ومجتمع جامعى القمامة، وقهوة المرضى التى يرتادها من يعانون من أمراض وعاهات مستديمة لانتظار من يرغب فى خدماتهم من طلاب مستشفى قصر العينى التعليمى أوأساتذته الراغبين فى إجراء الامتحانات)، ولا عند بعض مظاهر الثراء الفج، وإنما يطرح سؤالا هاما عن كيفية تعامل فقراء القاهرة مع الظروف الشاقة التى يعيشونها ، ويقترح إجابة تدور حول إدراك لطبيعة وحجم الاقتصاد غير الرسمى الذى يمثل لمعظم القاهريين المصدر الأساسى للدخل، والمصدر الأول للخدمات والسلع. وهو يجد فى نفس الظاهرة تفسيرا للغز آخر طالما حير الباحثين فى تاريخ مصر، وهوكيف احتمل المصريون على مر العصور وتحت مختلف أنظمة الحكم ظروفهم الشاقة بدون ثورة أوعنف.

وفى فصل آخر بعنوان صوت القاهرة - وهوفى اعتقادى من أفضل مقاطع الكتاب - يصف الكاتب ألوانا مما تصدره القاهرة من أصوات بكافة الوسائل، بدءا من صوت أم كلثوم الذى يتابعه السائر فى الأسواق الشعبية وفى سيارات الأجرة وما يمثله صوتها من نوع من الهوية الوطنية، مرورا بأمسيات إنشاد مدائح أبى زيد الهلالى، وبمقامات الموسيقى العربية و«الربع تون» الذى يميزها، انتهاء بالأصوات المزعجة التى تصدرها المحال التجارية فى كل وقت من الليل والنهار. ومن هذا المدخل يناقش الكتاب قضايا أكثر شمولا عن أسلوب القاهرة فى الحديث وفى التعبير، والعلاقة بين اللغتين العامية والفصحى، وكيف تمكنت العامية المصرية - وبخاصة القاهرية - من أن تصبح اللغة العربية الدارجة الأكثر شيوعا وفهما فى مختلف البلدان العربية. ومرورا من نفس

« فى فصل بعنوان: « صوت القاهرة »
يصف الكاتب ألوانا مما تصدره المدينة من أصوات بجميع الوسائل، بدءاً من صوت أم كلثوم الذى يتابعه الناس فى الأسواق الشعبية وفى سيارات الأجرة، إلى الأصوات المزعجة للمحال التجارية.. إلى ما يصدر فى القاهرة من مطبوعات صحفية ».



الزاوية، يصف الكتاب صناعة الإذاعة والسينما المصرية، ويثير أسئلة هامة عن كيفية استخدام الدولة، بالذات فى مرحلة ما بعد الثورة، لوسائل الإعلام الرسمية من أجل تكوين هوية قومية جديدة، وفرض مظاهر التحضر الرسمية. وأخيرا ينتقل إلى تحليل لما يصدر فى القاهرة من مطبوعات ومن وسائل صحافة، ومن كتب ومنشورات، ولكيفية تعبير المصريين عن آرائهم على وجه العموم، ويتناول من خلال ذلك التناقضات الثقافية التى صارت القاهرة تعرفها اليوم، والتى يرى فى محاولة قتل الكاتب نجيب محفوظ رمزا لها وللتراجع فى الدور الذى صارت القاهرة تلعبه اليوم فى الحياة الثقافية العربية.

هذه بعض فصول الكتاب، والتى توضح أن الأسلوب الشامل الذى لا يعتمد مدخلا واحدا لوصف القاهرة هوما يعطيه قيمة فريدة ويجعله بالفعل من أعمال أدب الرحلات بالمعنى الحقيقى والأكثر رقيا، أى بمعنى السعى إلى تقديم صورة عن المدينة بشكل متكامل وشخصى، ومن خلال ما يراه زائرها ويعرفه قاطنها اليوم، ودون أن يضطر الكاتب إلى تبرير ما يختار الكتابة عنه وما يرى إغفاله.

وبرغم تقديرى لحرية الكاتب فى اختيار ما يراه ملائما ومايرى تركه، إلا أن تقسيم الكتاب إلى فصول يتناول كل منها موضوعا منفصلا قد أغفل - فى اعتقادى - جانبا هاما من تحليل ووصف قاهرة اليوم، وكان من الممكن أن يكون إضافة قيمة للكتاب وللمعرفة السائدة عن العاصمة المصرية. هذا الفصل الناقص هو عن اقتصاد القاهرة المعاصر. والمقصود بذلك ليس تقديم بحث إحصائى جاف، وإنما رسم صورة عن اقتصاديات مدينة القاهرة بالمعنى الواسع، أى متضمنا تحليلا للمهن والحرف التى يمارسها أهلها ونسبة ذلك إلى الدخل القومى، وتوزيع الدخل فى المدينة، وحجم الاستثمار والسلع والبضائع التى تدخل القاهرة مقارنة بما يخرج منها، وصعود صناعات وخدمات معينة على حساب غيرها، وظروف العمل بها، وحجم الخدمات التى تحظى بها العاصمة المصرية ونصيبها من ميزانية الدولة فى الخدمات الأساسية والبنية التحتية، وتوقعات المستقبل لتطور المدينة من الناحية الاقتصادية. هذه الصورة الاقتصادية الشاملة كان يمكن أن تضيف إلى الكتاب جانبا هاما من فهم وتحليل مدينة القاهرة، وهو جانب لا شك أن الكاتب كان قادرا على تناوله باقتدار، نظرا لأنه يمس بعض جوانبه بالفعل وإن كان بشكل عارض، وكان من الممكن أن يتناولها على نحومستقل يضيف بعدا هاما وناقصا عن فهم قاهرة اليوم.

ومع ذلك، فإن الكتاب لا يخلومن أوجه للنقد لا يستهان بها، بل يسهل تصور سبب لمثل هذا النقد فى كل موضع من الكتاب وفى كل موضوع يتطرق إليه، ليس بسبب أخطاء أو آراء معينة بل بسبب ذات المنهج الذى يعطى الكتاب قيمته الفريدة، إذ إن الاختيارات الشخصية التى يقوم بها الكاتب أيضا يمكن أن تكون مما يستدعى نقده.

فالباحث التاريخى فى مصر الفرعونية مثلا قد يجد فى تناوله للتاريخ القديم تبسيطا لا يقبله ويعتبره تعديا على البحث الأكاديمى الرصين. والمتخصص فى التاريخ الإسلامى قد يجد لديه «شطحات» غيرمبررة وانحيازًا مبالغا فيه للعصر المملوكى وللرقى الفنى والمعمارى فيه على حساب كافة العصور الأخرى، وخبير العمارة قد لا يعجبه تناوله الوصفى لما بقى فى القاهرة من معمار يعود إلى مختلف العصور، أويرى فيه اختصارا لتفاصيل فنية كثيرة وهامة. أما الكاتب والمحلل السياسى فقد يضيق ذرعا بنقده لبعض الرموز الوطنية، خاصة حكام مصر فى العصر الحديث، والأرجح أن الكاتب لم يعط دخائل السياسة المصرية المعاصرة حقها من التعليق، وبالأخص فيما يتعلق بما كان النظام الناصرى يسعى أصلا لتحقيقه ومدى نجاحه فى ذلك.

ومن جهة أخرى، فقد يرى بعض المتحمسين أن فى الكتاب بعض المقاطع التى يغلب عليها الوصف «الاستشراقى» للمجتمع الإسلامى التقليدى (مثل وصف الموالد الشعبية وبالذات مولد الحسين فى الصفحات من ٦٠ إلى ٦٦ والعادات الغريبة التى يمارسها أهل القاهرة وزوارها أثناء تلك المناسبات). وقد يعتقد آخرون أنه بالغ فى الرومانسية عند تصوير الأشخاص والمشاعر (مثل أصالة الفقير «ابن البلد» من جهة والسلوك «الغربى» لسيدة المجتمع الثرية الذى يشبه ما نراه فى المسلسلات التليفزيونية) على نحوما يجدون فيه ابتعادًا عن الواقع الذى يعرفه كل منهم فى عالمه الخاص.

وقد لا يعجب الإسلاميين دفاعه عن طه حسين ونصر حامد أبوزيد، كما قد لا يستريح الحكوميون لإشاراته وتصريحاته عن معاناة القاهرة من فساد الذمة وانحطاط الذوق، والناصريون لوصف ما فعلته الثورة بالمدينة وسكانها، والملكيون لنقده للعصر السابق على تلك الثورة. باختصار، فإن ماكس رودنبك لم يتجنب المسائل الحساسة ولم يتردد فى إبداء آراء قد تبدو للمتخصص أوللمؤمن بفكرمحدد غيرمقبولة، وبالتالى فقد أعطى لكل من يقرأ كتابه سببا لكى ينقده.

ولكن مثلما أن أوجه النقد المذكورة، وغيرها مما يمكن للقارئ المتخصص أن يتوقف عنده، قد تكون حقيقية ومبررة من وجهات نظر ضيقة، فإن الحقيقة تبقى أن ما قدمه ماكس رودنبك فى كتابه لم يزعم أنه تاريخ عن القاهرة، ولا أنه دراسة معمارية عنها، ولا أنه بحث اجتماعى أوسياسى، أوحتى كتاب رحلات بسيط، وإنما رؤية خاصة وشخصية عن مدينة عريقة ومعقدة ومليئة بالتناقضات والأفكار والتجارب. بمعنى آخر فإن ما قدمه الكاتب لنا هو لوحة رسمها فنان لا حاجة به لتبرير ما الذى يرسمه والألوان التى استخدمها والتفاصيل التى أراد إبرازها أو فضل أن يتجاهلها، بل هى لوحة متكاملة وغيرموضوعية على الإطلاق، ومن لاتعجبه فليس عليه إلا أن يعرض عنها، أما من يرى جمالها ويقدره فلن تعوزه الأسباب لكى يسعى لاقتنائها والتمتع بها فى كل فرصة.

ولا يملك القارئ فى نهاية الكتاب إلا أن يعجب بهذا الخواجة (المصطلح المصرى للأجنبى الزائر أوالمقيم) الذى لم يتورع عن الخوض فى كل تفاصيل تجربة الحياة القاهرية، بل ويكاد يرى من خلال عرضه للمدينة تدرجا فى مشاعره الخاصة وفى درجة انصهاره بالمدينة وبأهلها. فبينما يكتفى فى الفصول الأولى من الكتاب بالوصف المجرد وغير المكترث، إلا أن انشغاله بالقضايا اليومية وبمشاكل الحياة فى القاهرة يتزايد مع كل فصل حتى يصل إلى ذروته فى فصل بعنوان «الصراع والانصهار» حيث يتناول الحياة السياسية والثقافية فى مصر فى العقود الأربعة الأخيرة، فإذا بالمشاهد «الخواجة» غير المكترث يكشف عن وجهه الحقيقى، فتتراجع رؤيته السلبية ليحل محلها خطاب سياسى وتحليلى مباشر فيه غضب وانفعال وتطلع ورغبة فى تغيير الأوضاع بدلا من مجرد رصدها، فندرك عندئذ أن «الخواجة» قد صار «ابن البلد» الذى يرتبط مصيره بها والذى يصعب عليه أن يقف مكتوف الأيدى أوصامتًا حينما يرى فيها ما يزعجه.

ولعل ماسبق يكون قد أوضح صعوبة تصنيف الكتاب، وخروجه عن القالب المعتاد لكتب الرحلات أوالسياسة أوالفن أوالتاريخ. ويزيد من صعوبة هذا الأمر أن الكتاب يتميز بأسلوب أدبى جميل وسهل فى آن واحد، يجعل قراءته فى متناول حتى السائح الفضولى الذى يرغب فى بذل بعض الجهد الإضافى للتعرف على المكان الذى يزوره. والكتاب كذلك يتميز بأنه يحمل من شخصية الكاتب ومن تجاربه ما يجعله يشبه فى مقاطع معينة السيرة الذاتية له من خلال معايشته للمدينة ولأهلها، الأمر الذى يزيد من سهولة قراءته ومن قابليته للوصول إلى القارئ غير المتخصص.

ولأن الكاتب «الخواجة» فى الأصل قد صار «ابن البلد» فإنه يعود فى نهاية الكتاب إلى ذات السؤال الذى بدأ به. ما الذى يجعل القاهرة بالرغم من مشاكلها ومن صعوبة المعيشة فيها، محبوبة فى نفوس كل من يرتادونها ويقطنون بها فتجدهم جميعا يتحدثون عنها بشغف وارتباط بالغين؟ ماكس رودنبك لا يقدم لنا إجابة واحدة، وإنما اقتراحات عديدة. فأحد ساكنى المقابر يقول له بفخر شديد أن القاهرة أعظم مدن العالم، وقاهرى آخر يذكره بأنها «أم الدنيا» وكأن هذه حقيقة لا تقبل الجدال وليست بحاجة إلى الشرح. أما الكاتب نفسه فيبحث عن الإجابة فى تاريخ القاهرة وفى مسلك أهلها وفى التنوع الذى تحتويه والذى يجعلها بحق مدينة متعددة الجوانب والعوالم. لا يشعر فيها أحد بالغربة مهما اختلفت ظروفه عن ظروف الأغلبية، وتتعايش فيها التيارات المتناقضة والأجناس المختلفةوالأمزجة المتنافرة، كل يدور فى عالمه الخاص ولا يزعج أحد منها الآخر. ويجد القارئ نفسه عند الانتهاء من القراءة، وقد عرف القاهرة أكثر ووقع تحت سطوة الإعجاب بها أكثر دون أن يكون قد توصل لإجابة محددة تزيل عجبه منها. ■

«فى الفصل الذى يتناول فيه الحياة السياسية والثقافية فى مصر فى العقود الأربعة الأخيرة.. يكشف المشاهد «الخواجة» غير المكترث عن وجهه الحقيقى ويحل محل رؤيته السلبية خطاب سياسى مباشر فيه غضب ورغبة فى تغيير الأوضاع.. فندرك عندئذ أن «الخواجة» صار «ابن البلد» الذى يرتبط مصيره بها».



خريطة الانتخابات الإسرائيلية القادمة

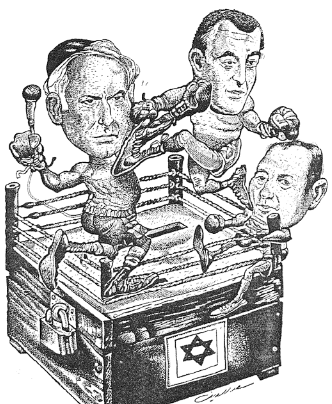
مروان بشارة

تجرى بعد أسابيع واحدة من أهم الانتخابات لاختيار كنيست جديدة ورئيس جديد للوزراء فى إسرائيل. ولا مبالغة كبيرة إذا وصفها محللون إسرائيليون وأجانب بأنها ربما تكون الانتخابات الأهم فى تاريخ الدولة اليهودية. فالمطروح على الساحة السياسية الإسرائيلية رهانات بعضها يتعلق بهوية إسرائيل، وبعضها يتعلق بمساحة إسرائيل، وبعضها يتعلق بالموقع الإقليمى لهذه الدولة. والحديث يطول عن هذه الرهانات، وكثير من الرهانات المطروحة فى هذه المرحلة تجاوز إسرائيل ففرض نفسه، أو يجب أن يفرض نفسه، على قائمة اهتماماتنا الجديدة. فاختيار الهوية مثلاً، إن كان دينيًا متطرفًا، أو صهيونية علمانية، أو صهيونية دينية، أو دولة على طريق العولمة.. أى على طريق اللادولة، اختيارات تتناقض جذريًا أو تتلاقى مرحليًا أو تتنافر عدائيًا مع اختيارات هوية نعتقد أنها، أو يجب أن تكون، مطروحة على الساحة العربية وإن بغير انتخابات ولا مناقشات.

من ناحية أخرى، كلنا أمام ظاهرة حديثة، قديمة فى المجتمع السياسى الإسرائيلى. ففى إسرائيل رجل، واسمه بنيامين نتانياهو، يريد أن يتوج ملكًا على إسرائيل، يريد أن يحقق فى سنوات قليلة هى سنوات حكمه التى فاتت وسنوات حكمه التى ستأتى ما لم يحققه أنصاف ملوك مثل بن جوريون، وموشيه ديان، وإرهابيون مثل مناحيم بيجين وإسحاق شامير، وأدعياء نبوة مثل شيمون بيريز وإسحق رابين.. أشخاص ارتدوا ثيابًا وتقمصوا شخصيات توراتية وحاولوا بناء مملكة إسرائيل الجديدة. وبعد مائة عام نستطيع أن نقول أنهم لم يفلحوا فيما عزموا عليه.. وأننا لم نفلح فيما عزمنا عليه ولكن لم نحزم أمرنا فيه.. والطريق مازالت طويلة.. وستكون أطول إن فاز نتانياهو.

ولما كان الموضوع برمته يحتاج لمعالجة وتحليل من متخصص من داخل إسرائيل يكون مطلعًا على تفاصيل التطورات السياسية، طلبت «الكتب، وجهات نظر» من مروان بشارة رسم خريطة للساحة السياسية الإسرائيلية عشية الانتخابات. وقضى مروان فى القاهرة، بناء على هذا الطلب، أسبوعًا يناقش ويحلل حتى انتهى من كتابة المقال المنشور هنا. ومروان بشارة فلسطينى ولد لوالدين من العرب الفلسطينيين وعاش فى الناصرة، أى فى أرض احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨، ولذلك فهو مواطن إسرائيلى. ويعتبر من الباحثين المهمين فى علوم السياسة.

المحرر



■■ توّج انتصار بنيامين نتانياهو فى انتخابات ١٩٩٦ الإسرائيلية، وعمّق لديه حكمة مفادها أنه يمكنه الكذب على كل الناس كل الوقت، وأن حبل الكذب طويل جداً فى دولة قوية شعبها عصبى وقلق، ومستعد للتمسك بأية أوهام تخفف عنه عناء الحرب بدون دفع فاتورة السلام. ونجح نتانياهو فى قلب جميع حسابات المؤسسة الإسرائيلية والأمريكية من خلال الفوز على مرشح الولايات المتحدة وأوروبا والعالم العربى شمعون بيريز.

وإذ جاء انتصاره صدمة لجميع المعنيين بالعملية السلمية والشراكة الإسرائيلية فإن فوزه لم يكن مفاجأة إسرائيلية. فقد تقمّص نتانياهو آنذاك شخصية الشرطى بين الشرقيين، والعلمانى بين العلمانيين، واللاهوتى بين المتدينين، والراديكالى بين العسكريين، وشخصية المتفهم لضرورة المفاوضات وشخصية الرفضى والعنيف بين العنصريين والمستوطنين والأصوليين. ولكن فى الأساس، اعتمد نتانياهو على تحالف شيطانى بين المتدينين المسيسين والمتطرفين من ناحية والعلمانيين القوميين اللاهوتيين من الناحية الثانية. وكان أن خرجت جماهير المتدينين بغالبيتها الساحقة لتصوت لنتانياهو إلى جانب غالبية أبناء الشرائح الدنيا والوسطية وغالبية الشرقيين والعسكريين والمستوطنين والتقليديين، كل هؤلاء الذين لم يروا فى بازار اقتصاد السلام ما يفيدهم ولم يقيّموا عالياً خصخصة أرض إسرائيل فى إطار عملية السلام.

برز نتانياهو بنبرته العالية وبنفسية الإسرائيلى «الوقحة» الحوتسبا وبلهجة ولغة إنجليزية متماسكة ورصينة أمام الغرب، وبلكنة إسرائيلية محلية متعجرفة أمام الإسرائيليين. واستغل نتانياهو العبوات الناسفة فى شارع يافا وتظاهرات المتدينين فى شارع بار إلان فى مدينة القدس عشية الانتخابات ليكشف عورات «السلام» ونقاط ضعف بيريز ويقدم نفسه قائداً قوياً وفولاذياً لشعب قلق.

لقد وصل نتانياهو لرئاسة الوزراء من عالم ديبلوماسى وسياسى حافل بالغوغائية. وكان هبوطه فى نيويورك رئيساً لبعثة إسرائيل لدى الأمم المتحدة بعد تعريجة قصيرة فى واشنطن، هبوطاً ماهراً وبتوقيت مثالى وهو خريج سلاح المظليين النخبوى فى الجيش الإسرائيلى. فقد تزامن وصوله مع اشتداد توتر الحرب الباردة فى الثمانينيات، فدخل فى شراكة استراتيجية مع أكثر حكومة أمريكية متطرفة فى هذا القرن كان يرأسها رونالد ريجان - ملك الديماجوجية والشعبوية والتمثيل الإعلامى. فأعلنوها حربا شعواء على ما أطلقوا عليه توتاليريات العالم الثالث والأنظمة الشيوعية والإرهاب الدولى متمثل بحركات التحرر فى العالم.

وفى الحقبة اللاحقة ما بعد الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية، تصدر بنيامين نتانياهو نائب وزير الخارجية المستضعف (ديفيد ليفى) فى غياب وزيره، تصدر إدارة الوفد الإسرائيلى إعلامياً وسياسياً فى محادثات مدريد وغطى على صلافة وتخلف رئيس الوزراء اسحق شامير فى التعامل مع وسائل الإعلام الدولية.

وحاول نتانياهو منذ ذلك الحين خفض سقف التوقعات الفلسطينية والعربية بخصوص أى تنازلات إسرائيلية واستهدف نتانياهو بصورة خاصة منظمة التحرير الغائبة من مفاوضات مدريد ليصب هجوماته على القيادة الفلسطينية. وهو الذى اشتهر باقتباس تصريحات قيادات فلسطينية من صحف كويتية حول تدمير إسرائيل أو رميها فى البحر بدون أن يعرف أحد من أين جاء بتلك الاقتباسات.

كان هو ذلك الأداء المتطرف البارع الذى أعجب اليمين الإسرائيلى والذى دعم نتانياهو وريثاً لزعامة حزب الليكود بعد خسارة اسحق شامير انتخابات ١٩٩٢ لصالح إسحق رابين. واستغل نتانياهو العلاقات الحميمة التى بناها مع الجالية اليهودية المتمكنة فى نيويورك لجمع الأموال واستعمالها فى معركته الداخلية ضد «أمراء» الحزب وقياداته التاريخية ليربح الصراع على زعامة الحزب ويبدأ حملة جديدة شعبوية لتطهير الحزب من أقطابه الكبيرة بعد تحجيم قياداته التقليدية وليكون الزعيم الأقوى بدون منافس. وما لبث أن ربح نتانياهو الانتخابات الفاصلة سنة ١٩٩٦ ليتربع على تحالف اليمين وجهاز الحزب.. والدولة.

ولفترة عامين ونصف العام قام نتانياهو بتفريغ العملية السلمية من مضامينها - وخاصة الأرض مقابل السلام - بديلا عن معادلة السلام مقابل الأمن أو بالعكس. وكذلك فقد قام بتحجيم دور جميع المؤسسات والتركيبات التى بناها حزب العمل فى السنين الأربع السابقة والتى اعتمد عليها رابين للوصول إلى اتفاق أوسلو وعلى رأسها الجيش والبرلمان والخارجية. ووجد نتانياهو نفسه بعد عامين وجهاً لوجه فى مواجهة واشنطن

وحلفاء إسرائيل الغربيين، وكذلك فى مواجهة شركاء إسرائيل العرب فى العملية السلمية من ناحية، وفى مواجهة شبح التطرف والراديكالية فى معسكره. فقرر التراجع عن الاتفاق الذى وقع عليه فى «واى بلانتيشن» والقبول بانتخابات مبكرة قبل أن تتدهور المواجهة السياسية والبرلمانية على خلفية الأزمة الاقتصادية بصورة تضعف من قيادته وقدرته على المناورة مع مرور الوقت.

اضطر رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتانياهو أن يعلن فى بداية السنة عن انتخابات مبكرة - ١٧ مايو - فى ظل جمود «العملية السلمية» الناتج عن تراجع إسرائيل عن تنفيذ الاتفاقات الموقعة فى «واى بلانتيشن» وبسبب تعاظم المعارضة البرلمانية لحكومته من داخل الائتلاف اليمينى الأصولى، وفى غياب «شبكة أمان» المعارضة والتى نفذ تاريخها بعد اتفاق «واى».

وتزامن إعلان الانتخابات مع قرب انتهاء المرحلة الانتقالية لاتفاقات أوسلو وما يمكن أن يتمخض عنها من استحقاقات سياسية وخاصة إعلان الفلسطينيين عن دولتهم المستقلة فى الأراضى المحتلة سنة ٦٧. وهدد حلفاء نتانياهو بأن أى انسحاب أو أى تنفيذ للاتفاقات يجب أن يكون مشروطاً بتنفيذ السلطة الوطنية الفلسطينية جميع التزاماتها وبتراجعها عن الإعلان عن دولة من طرف واحد.

وافتتح نتانياهو حملته الانتخابية بهجوم مباشر على «شريكه» فى العملية السلمية رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات. وانتقد مرشح اليمين - رئيس الوزراء - بشدة عدم التزام السلطة تحطيم «البنية التحتية للإرهاب» وسحب كل الأسلحة غير المرخصة من الفلسطينيين. ولم يأبه نتانياهو بالتأكيدات الأمريكية التى اعتبرت أن الفلسطينيين ينفذون التزاماتهم، معتبراً أنه يخوض الانتخابات الإسرائيلية لرئاسة الوزراء ضد ياسر عرفات وليس إيهود باراك - مرشح حزب العمل - والذى وصفه بأنه ضعيف وسيفرط بأمن إسرائيل وبالقدس «عاصمة موحدة وأبدية لدولة إسرائيل». ولم يتوان نتانياهو للحظة عن تجميد جميع «الانسحابات» المتفق عليها، بل وأخذ يعلن عن توسيع المستوطنات وعن تخصيص دعم إضافى جديد للاستيطان اليهودى على أراضى الضفة الغربية المحتلة. وعملياً أخذ نتانياهو يتراجع عن القليل مما قاله أو وقع عليه فى «واى بلانتيشن»، وحتى بدا وكأنه يهاجم الاتفاق الذى وقع عليه، وتقوقع من جديد فى خندق اليمين المحافظ محذراً من أن المؤامرة على إسرائيل من قبل الجيران والحلفاء تسير على قدم وساق.

وأعلن نتانياهو عن نفسه «قائداً قوياً لشعب قوى» فى مواجهة الأخطار المحيقة بإسرائيل (؟) وأمام التحديات التى تفرضها المفاوضات».

وجد نتانياهو نفسه بعد عامين وجها لوجه فى مواجهة واشنطن وحلفاء إسرائيل الغربيين، وكذلك فى مواجهة شركاء إسرائيل العرب فى العملية السلمية، وفى مواجهة شبح التطرف والراديكالية فى معسكره، فقرر التراجع عن الاتفاق الذى وقع عليه فى «واى بلانتيشن» والقبول بانتخابات مبكرة.

اختار باراك أن يبدأ حملته الانتخابية بمواجهة نتانياهو فى جبهة مغايرة. ألا وهى الاقتصاد.. على أساس أن سياسة نتانياهو أدت إلى إضعاف الاقتصاد الإسرائيلى.. كانت نسبة النمو ٧,١ بالمائة سنة ١٩٩٦ فانخفضت سنة ١٩٩٨ إلى ١,٦ بالمائة.

أهم ما يميز موردخاى هو تلك الرسالة الغريبة التى وصلته من زعيم العالم الغربى الرئيس كلينتون، والتى تضمنت إشادة بدور وزير الدفاع وموقفه الثابت فى خدمة عملية السلام.. وهو ما اعتبره مساعدو نتانياهو إهانة لرئيس الوزراء.

باراك: إنه الاقتصاد يا غبى!

على هذه الخلفية اختار زعيم المعارضة والجنرال السابق إيهود باراك أن يبدأ حملته الانتخابية بمواجهة نتانياهو فى جبهة مغايرة - ألا وهى الاقتصاد. واعتبر باراك أن سياسة نتانياهو قد أدت إلى إضعاف إسرائيل وإلى انعزالها عن المنطقة وعن أصدقائها وكذلك، أو بالنتيجة، إلى إضعاف الاقتصاد الإسرائيلى الذى يواجه ركوداً اقتصادياً للسنة الثالثة على التوالى. فبينما كانت نسبة النمو ٧,١ فى المائة سنة ١٩٩٦ فقد انخفضت سنة ١٩٩٨ إلى ١,٦ بالمائة. وكذلك فقد تراجع الشيكل الإسرائيلى من ٣,٤ مقابل الدولار إلى ٤,٤ فى نهاية السنة الماضية ما أدى إلى تراجع فى الناتج المحلى بالدولار عن السنوات الماضية. وكانت نتيجة ذلك ازديادا فى البطالة والتى وصلت فعلاً إلى أكثر من ١٠ فى المائة وفى المدن المتوسطة ومدن التطوير إلى أعلى من ذلك بكثير، أو ٢٣٠ ألف عاطل عن العمل.

واستغل باراك تدهور الوضع الاقتصادى فى السنتين الماضيتين بعد أن كان قد ازدهر بطريقة فظيعة فى الثلاث سنوات التى سبقتها، استغله للهجوم على نتانياهو واتهمه بأنه يفرط بالدولة وبأمنها واستقرارها بسبب بضعة آلاف من المستوطنين وقلة من أعضاء البرلمان - الكنيست - الذين يهددون بفك الائتلاف الحكومى.

وعمل باراك بنصيحة مستشاره الجديد - ستانلى جرينبرج - وهو من مستشارى الرئيس كلينتون فى حملاته الانتخابية الماضية الذين فرضوا الشعار الانتخابى سنة ١٩٩٤ إنه «الاقتصاد يا غبى»، فى وجه سياسة إدارة جورج بوش العسكرية - بعد الحرب الباردة - وفى العراق وفى الناتو. وأخذ باراك يشدد كذلك على تراجع الخدمات الاجتماعية والصحية وعلى تقليص ميزانيات التطوير والتنمية فى المناطق الفقيرة من إسرائيل، وكذلك ميزانيات التعليم لصالح الاستيطان والمعاهد الدينية التابعة لشركاء نتانياهو فى الائتلاف الحكومى.

واعتبر رئيس الأركان السابق أنه لابد من تجنيد طلاب المعاهد الدينية التابعة لحزبى أجودات يسرائيل وديجيل هتوراة الأصوليين فى صفوف الجيش لكى يخدموا دولتهم بدلاً عن صرف الدولة ميزانيات كبيرة لدعم دراستهم فى المعاهد.

واعتبر باراك أن سياسة نتانياهو التى أدت إلى تعطيل العملية السلمية قد أدت بالتالى إلى وقف الاستثمارات الدولية بل حتى هروب جزء منها، وهى الوجه الآخر لذات السياسة التى تهدر الميزانيات الحكومية على توسيع المستوطنات وتعمق الاندماج الجغرافى بين الفلسطينيين والإسرائيليين، مما «يهدد» الطبيعة اليهودية و«الديموقراطية» لدولة إسرائيل.

وبناءً على ذلك رفع باراك شعاره الانتخابى «نحن هنا وهم هناك» مؤكداً على أهمية «الفصل» بين الشعبين ولكن بدون ذكر أو حتى التمهيد لفكرة استقلال الشعب الآخر، أى الفصل بين الشعبين بدون سيادة للشعب الآخر على أرضه. بل إنه ذهب ليزعم ويحذر من أن سياسة نتانياهو ستؤدى إلى الدولة الفلسطينية.

وحاول باراك أن يقنع اليهود الشرقيين الذين يعانون أكثر من الاشكناز (الغربيين) من الضائقة الاقتصادية، من خلال إدخال ممثلين عن قائمة «جيشر» الشرقية العلمانية والتى تدعى تمثيل الطبقات المتوسطة والفقيرة بين الشرقيين إلى قائمة «إسرائيل واحدة» التى شكلها باراك نيابة عن حزب العمل. ولكنه فشل بسبب كراهية غالبية الشرقيين للميول «العنصرية» والمترفعة لقيادة حزب العمل الاشكنازية. وكان باراك قد حاول أن يعتذر قبل حوالى السنة، عن معاملة الدولة للشرقيين فى السنوات الأولى للدولة حين كان حزبه حاكماً ولكنه فشل فى أن يحرك قلوب الشرقيين. وزاد الطين بلة أن أحد رفاق باراك فى الحزب وفى الجيش سابقا - أورى أور - قد انتقد وهاجم الشرقيين «وعقليتهم» فى مقابلة صحافية منذ بضعة أشهر مما أثار حفيظة الشرقيين على حزب العمل. وتوجت أزمة الثقة هذه حادثة ممثل اليهود الأثيوبيين فى حزبه والذى ادعى أن قيادة حزب العمل قد زورت نتائج الانتخابات الحزبية الأولية بين أكثر من ١٠٠ ألف عضو من حزب العمل لصالح المرشحة الروسية وعلى حساب مقعده. واختار باراك الساعة الثامنة مساء ليعلن نتائج الانتخابات أمام عدسات التلفزيون فى وقت الذروة فثار

عضو الكنيست سيلو مصالة ممثل الأثيوبيين أمام عدسات التلفزيون واتهم قيادة الحزب بالعنصرية وهو يصرخ فى وجه باراك أنه سيكون عليه أن يعتذر مرة أخرى لليهود الإسفراد، مثلما فعل قبل سنتين.

وقام باراك بالتفاوض مع حركة «ميماد» الأصولية «المعتدلة» لضمها إلى قائمة «إسرائيل واحدة» بممثل واحد عنها، ولكن ذلك لم يهدئ من إسقاط المتدينين والأصوليين لحزب العمل وقيادته العلمانية، بل ازدادت عدوانية هؤلاء المتدينين وأحزابهم الأصولية تجاه المؤسسة العلمانية فى الدولة - بما فى ذلك مؤسسة القضاء ومحكمة العدل العليا - والتى ترى تلك الأحزاب أنها من ضمن التقاليد والثقافة التى زرعها ويدعمها حزب العمل العلمانى. ورفضت الأحزاب الدينية التى قامت بأكبر تظاهرة قبل بضعة أشهر احتجاجاً على سياسة ودور المؤسسات العلمانية والقضاء وتدخلها فى شئون الدين، والمجالس الدينية التى يهيمن عليها الأصوليون الأورثوذكس، رفضت السماح لباراك أن يلقى كلمة أمام الـ ٢٥٠ ألف متظاهر.

وتقدر الاستطلاعات أن مرشح حزب العمل سيحصل هذه المرة على أقل مما حصل عليه بين الاصوليين ومؤيدى الأحزاب الدينية شاس والمفدال وأجودات يسرائيل وديجيل هتوراة. وكان بيريز قد حصل على أقل من ١٣ بالمائة من أصوات الأصوليين سنة ١٩٩٦ مقابل أكثر من ٨٧ بالمائة لصالح نتانياهو. وتعطى الاستطلاعات باراك ٤ بالمائة من أصوات حزب شاس بينما كان بيريز قد حصل سنة ١٩٩٦ على حوالى ١٥ بالمائة من أصوات هذا الحزب الشرقى الاصولى.

موردخاى: مرشحا عن حزب الوسط

على قاعدة هذا الاستقطاب السياسى والاجتماعى بين مؤيدى نتانياهو وباراك وفى ظل ضعف شعبية الأخير فى قطاعات واسعة من الناخبين الشرقيين والتقليديين والمتدينين والذين يشكلون غالبية الإسرائيليين، قام الحزب الجديد «الوسط» - والذى أسسته مجموعة من رجال الأعمال وعدد من قياديى الليكود والعمل سابقاً - بترشيح وزير الدفاع السابق إسحق موردخاى لرئاسة الوزراء - وهى أول مرة يترشح فيها يهودى شرقى لملء هذا المنصب فى إسرائيل. وموردخاى ذو أصول كردية - وهو رجل تقليدى وشرقى (٥٤ سنة) فى طباعه وأسلوبه، متزوج من صبية اشكنازية تصغره بالسن كثيراً (٢٧ سنة). وكان أول ما فعله موردخاى فور ترشيحه أن ذهب إلى حائط المبكى ليقرأ نصوصاً من التوراة ومن ثم توجه إلى الزعيم الروحى لحركة شاس - عوفاديا يوسف - فقبل لحيته وحصل على بركته.

وبعد ذلك أخذ موردخاى ينتقد بشدة - ولكن ببرودة أعصاب - رئيس الوزراء متهماً إياه بالخداع شارحاً موقفه الذى دعاه إلى ترك حزب الليكود والتخلى عن منصبه، وزيراً للدفاع. وجاء رد فعل نتانياهو الذى فقد أعصابه متوتراً وضعيفاً بالرغم من لهجته القاسية ومن استعماله الكلمات والأساليب غير اللائقة لإقالة وزير الدفاع على شاشات التلفزيون.

وبالفعل فقد جاء دخول موردخاى إلى الحلبة الانتخابية ليمتص الكثير من الاستقطاب الدينى والاجتماعى وليفرض نفسه بديلاً عن نتانياهو أمام هؤلاء الشرقيين والمتدينين والتقليديين الذين يرفضون باراك بديلاً عن نتانياهو، كل ذلك بالطبع إضافة إلى تأييد قطاعات واسعة من رجال الأعمال ومن مؤسسة الجيش لحزب« الوسط».

وكان رئيس الأركان السابق أمنون ليبكين شاحاك الاشكنازى قاد هذا الحزب لفترة قصيرة أثناء نشوئه فى الأسابيع الماضية، ولكنه اعتبر بالاتفاق مع قيادة الحزب واستناداً إلى استطلاعات الرأى، بأن موردخاى صاحب شعبية أوسع منه، وهو القادر على الانتصار على نتانياهو فى الجولة الثانية.

ولذلك فقد عرض الحزب على موردخاى قيادته فى الانتخابات القادمة لرئاسة الحكومة معتمدين على قدرته فى جذب أوساط واسعة من الوسط السياسى الإسرائيلى ومن الشرائح الاجتماعية والطبقية التى طالما رفضت التصويت لحزب العمل وبالرغم من أن برنامجه الاقتصادى أكثر عدالة تجاههم من حزب الليكود الذى يمثل السياسة الريجانية والتاتشرية فى الاقتصاد.



مسألة الأرض واحتلال الضفة خلقت ما هو مشترك بين القوميين المتطرفين والدينيين الأصوليين.. وهذا هو الحلف الذى يعتمد الأرض قيمته السياسية ومرجعيته الأيديولوجية الأهم والذى يرى فى الفلسطينيين غرباء وفى العرب أعداء.

واختار موردخاى أن يقدم خطوطاً عريضة فقط لبرنامجه السياسى والذى يستهدف تلك القطاعات: دفاع قوى و«اقتصاد مع روح»، وبذلك يكون قد تكلم إلى قلوب قطاع هام من اليمين المتحفظ فى القضايا الأمنية والى قطاع الطبقات المتوسطة التى تعانى من الأزمة الاقتصادية بشقيها: البطالة وتراجع الخدمات الاجتماعية. كذلك فقد أكد موردخاى فى أكثر من مناسبة على أهمية الاستمرار فى العملية السلمية وتنفيذ ما تبقى من اتفاقات وخاصة اتفاق «واى بلانتيشن».

ومن المعروف أن العملية السلمية ما زالت تحظى بدعم غالبية الإسرائيليين. وكان موردخاى قد اعتبر قبل خروجه من الليكود أن نتانياهو قد خدعه وخدع واشنطن حين وقع على الاتفاق ولم ينفذه بسبب ضغوطات كتلة اليمين الراديكالية «القوة ١٧» والتى تشكلت من ١٧ عضواً برلمانياً يمينياً يرفض اتفاق «واى» أو مبدأ الانسحاب من أى شبر من الضفة الغربية وتسليمها للسلطة الفلسطينية. واعتبر موردخاى أن نتانياهو سهل الابتزاز وهو بذلك لا يمثل بعد اليوم مصلحة كل الإسرائيليين بل حفنة صغيرة منهم.

وكانت «قوة ١٧» هى التى هددت بنزع الثقة عن الحكومة والإعلان عن انتخابات مبكرة. وبرز منها قياديون من حزب تسوميت الذى يقوده الجنرال رفائيل إيتان وكذلك أعضاء فى الحزب الوطنى الدينى - المفدال - إضافة إلى أعضاء من داخل الليكود وعضو الكنيست المتطرف ميخائيل كلانير الذى ترك حزبه المعتدل «جيشر» على هذه الخلفية. وكانت تلك المناورات هى التى أجبرت نتانياهو أن يدعم التصويت من أجل الكنيست والدعوة لانتخابات جديدة بدون أن يلجأ بصورة جدية وصادقة إلى ائتلاف حكومى أوسع يمكنه أن يواجه «قوة ١٧» اليمينية.

على خلفية هذا المشهد السياسى، نادى موردخاى إلى انتخاب رئيس وزراء لا يكون عرضة لضغوطات وابتزاز كتلة يمينى اليمين ويمينى المتدينين، وأنه على خلاف نتانياهو لن يسمح لتلك الأقلية من الشعب الإسرائيلى أن تتحكم بمصير الدولة.

وتصدر موردخاى إعلانات الحملة الانتخابية لحزب «الوسط» تحت شعار «سنضع الدولة فى الوسط» وصورته ملازمة لصورة رئيس الأركان السابق آمنون شاحاك الاشكنازى إضافة إلى رئيس بلدية تل أبيب السابق رونى ميلو ووزير الليكود سابقاً دان ميريدور وهما من رموز النخبة الإسرائيلية اليمينية والقريبة من كبار رجال الأعمال ومدراء الشركات فى تل أبيب - العاصمة الاقتصادية والثقافية لإسرائيل العلمانية.

وتباهى موردخاى بتركيبة الحزب التى جمعت بين شرقيين وغربيين وأعضاء من الليكود ومن حزب العمل سابقاً (من أمثال أورى سافير مدير عام وزارة خارجية بيريز) وكذلك جنرالات ورجال أعمال. وكذلك فقد احتوت من العلمانيين والتقليديين الكثيرين. ولكن وجود الأصولى بعلمانيته رونى ميلو على قمة الحزب قد أبعد المتدينين من الشرقيين والغربيين باعتبار أن دعمهم لموردخاى مشروط بإبعاد أو تحجيم رونى ميلو.

الولايات المتحدة والجيش:

يبقى أن أهم ما يميز موردخاى هو تلك الرسالة الغريبة التى وصلته من زعيم العالم الغربى - الرئيس الأمريكى بيل كلينتون - والتى تضمنت إشادة بدور وزير الدفاع وموقفه الثابت فى خدمة العملية السلمية بدون أن تتطرق من قريب أو بعيد إلى رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو. وفى حين اعتبر مساعدو نتانياهو أن أسلوب الرسالة مهين لرئيس الوزراء، رأى موردخاى فيها دعما مباشرا له. وكان أن ترك موردخاى الليكود بعد تلك الرسالة بأيام لينتقل إلى مكانه المضمون على زعامة حزب الوسط. وفى الحال انفتحت أبواب الولايات المتحدة أمام ممثلى حزب الوسط الذين ذهبوا على الفور لجمع الأموال من الحليف الأمريكى ومن مستثمرى الجالية الأمريكية هناك.

لم تكن صدفة أن تدخل الولايات المتحدة على خط الانتخابات الإسرائيلية وهى التى حاولت من خلال منع الضمانات المالية لقروض العشرة مليارات دولار التى طلبتها حكومة شامير سنة ١٩٩١ لتأمين وتمويل هجرة مئات الآلاف من اليهود الروس. وتؤكد واشنطن فى أكثر من مناسبة وبطريقة غير مباشرة عن عدم رضاها عن سياسة نتانياهو التى ضربت عرض الحائط بالاتفاقات التى رعتها إدارة كلينتون.

ولم تكن واشنطن وحدها غير راضية عن ذبذبة نتانياهو وخداعه بل إن مؤسسة الجيش الإسرائيلى ذاتها قد ارتأت المواجهة المباشرة مع نتانياهو من خلال صناديق الاقتراع. ولم تكن صدفة أن يصطف إلى جانب باراك الجنرال ماتان فيلنائى المتقاعد مؤخراً والذى انتخب الرابع فى «قائمة إسرائيل واحدة» إضافة إلى تمترس رئيس الأركان السابق شاحاك ووزير الدفاع موردخاى جنباً إلى جنب فى مواجهة نتانياهو. وهذا الأخير لم يجد جنرالاً واحداً عليه القيمة يقبل أن ينضم إلى قائمته الانتخابية. والأسباب وراء ذلك كثيرة.

أهمها، أن نتانياهو حاول منذ وصوله الحكم سنة ١٩٩٦ أن «يطهر» الجيش من الموالين لحزب العمل والمؤسسة القديمة إضافة إلى هؤلاء الذين رأوا فى رابين بطلاً وجندياً من الطراز الأول، وكذلك فقد حاول نتانياهو - وهو الذى أتى من خارج المؤسسة الحاكمة - أن يحجم دور الجيش وهو أهم مؤسسة دولة فى إسرائيل لكى يتسنى له أن يتحكم بالقرار السياسى والأمنى من مكتبه وهو المنتخب مباشرة من الشعب ولأول مرة فى تاريخ إسرائيل.

وبدأ نتانياهو يؤسس فى مكتبه «مجلس الأمن القومى» على الطريقة الأمريكية فى إطار محاولاته لسحب صلاحيات سياسية واستراتيجية مهمة من مؤسسة الجيش لزجها داخل «مؤسسة» رئاسة الوزراء. وكذلك فقد بحث نتانياهو عن جميع السبل التى تعطيه القرار الاقتصادى المالى فى جميع القضايا العسكرية والتى هى فى العادة بيد المؤسسة العسكرية - والتى تبلغ أكثر من ٣ مليارات دولار سنوياً، ولها إسقاطات هائلة على القطاع الخاص والعام وفيها من التأثير الكبير على القرار السياسى والاقتصادى فى الدولة.

وأخيراً فقد تجاهل نتانياهو المؤسسة العسكرية فى قضايا حساسة كثيرة أولها كان قراره فتح النفق فى القدس فى سبتمبر ٩٦ بدون استشارة الجيش أو حتى إعطائه الفرصة اللازمة لتحضير نفسه مما أدى إلى مواجهات عنيفة وسقوط الكثيرين من مرتدى الزى العسكرى الإسرائيلى. وعلى مدى السنتين الماضيتين رفض نتانياهو بصورة تلقائية نصائح الجيش والمؤسسة العسكرية فى قضايا الأمن فى الضفة الغربية وعلى مستوى التعامل مع السلطة الوطنية الفلسطينية حتى أنه رفض أكثر من مرة مسودة اتفاقات أمنية توصل اليها ممثلو المؤسسة العسكرية مع الفلسطينيين مما أدى إلى إحراج جنرالات إسرائيل الذين يتباهون بمبدئيتهم وبأفضليتهم فى الدفاع عن أمن إسرائيل واستقرارها. فى كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نفور الجيش من نتانياهو ووقوف جنرالاته جنباً إلى جنب فى صف المعارضة. هذا وكان

شاحاك قد ذاق المهانة مباشرة من نتانياهو فى جلسات الحكومة فى حين أن موردخاى عانى من تجاهل نتانياهو له وتحجيمه لدوره كوزير للدفاع.

إعادة رسم الخارطة الحزبية:

ما سبق، ليس إلا وصفا عاما للحالة الترشيحية لرئاسة الوزراء وما يحيط بها من توجهات عامة وموازين قوى داخلية فى المجتمع الإسرائيلى. وهذه لا تكتمل بدون الأخذ بالحسبان عنصرين أساسيين يتقاطعان مع مسألة الترشيح لرئاسة الوزراء ويؤثران فيها إلى حد كبير وهما، أولاً: الأحزاب الصغيرة: مواقفها واتجاهاتها. وثانياً: الإعلام واستطلاعات الرأى وتأثير الأداء الفردى والشخصى وبناء الصورة الظاهرية لما يمثله كل من المرشحين الثلاثة الأوائل فى الانتخابات الإسرائيلية.

ولكن قبل الغوص فى تفاصيل هاتين الظاهرتين الجديدتين على الساحة الانتخابية لابد من بعض الملاحظات على الحزبين الكبيرين الليكود والمعراخ، وأهمية دخول حزب الوسط إلى المعركة الانتخابية.

لقد فقد هذان الحزبان ـ وخاصة حزب العمل ـ من الثقل والهيمنة اللذين فرضاهما خلال العقود الخمسة الأولى على المجتمع وخارطته السياسية والحزبية. وإذا كان حزب العمل قد هيمن فى الثلاثين سنة الأولى على الخارطة السياسية وعلى نظام الحكم فى إسرائيل وتلى هيمنة الليكود فى العقدين الماضيين، باستثناء فترة ١٩٩٢ ـ ١٩٩٦، فإن الانتخابات المباشرة لرئاسة الوزراء والتى طبقت لأول مرة فى سنة ١٩٩٦ وما سبقها من أمركة المجتمع الإسرائيلى فى السنوات الأخيرة وخاصة بعد الطفرة الاقتصادية التى شهدتها إسرائيل منذ أواسط الثمانينيات، كلها مجتمعة قد قللت من أهمية دور الحزب التقليدى فى الخارطة السياسية ووضعت ثقلها فى إنتاج أحزاب جديدة تمثل قطاعات مميزة ومنفصلة داخل المجتمع الإسرائيلى، إضافة إلى إعطاء الأولوية للسياسى أو الزعيم الفرد بشخصيته ونبرته وأسلوبه الذى تنقله وسائل الإعلام بشغف وتركيز مبالغ فيه على حساب برامج الأحزاب وأيديولوجياتها. فقلما ترى إسرائيلياً عاديًا يعرف برنامج هذا الحزب أو ذاك أو يعرف أن يميز بينهما. بينما لكل إسرائيلى رأى مبلور حول هذا المرشح أو الزعيم أو ذاك. ونذكر على سبيل المثال أنه حين خرج بن جوريون أكبر وأهم زعيم فى الحقبة الأولى من تاريخ الدولة ـ عن حزب العمل ـ ليشكل حزبا جديدا باسم «رافى» لم ينجح هذا الحزب باستقطاب التأييد الكافى لأكثر من عشرة مقاعد برلمانية. وحينها انشق شمعون بيريز مع معلمه وزعيمه مؤسس الدولة بن جوريون وشهد بنفسه فشل الخروج عن إرادة الحزب الحاكم. أما فى بداية التسعينيات فشهدنا على سبيل المثال كيف خرج حاييم رامون أحد المنتمين إلى الصف الثانى فى حزب العمل عن حزبه ليخوض انتخابات اتحاد العمال الأهم والأكبر من مؤسسات الدولة المدنية ويربحها بفارق كبير عن مرشح حزب العمل والليكود بفضل حملته الانتخابية الرنانة وشعاراته الشعبوية والتى جذبت غالبية الأصوات والتى كانت تنتمى تقليدياً إلى أحد الحزبين الكبيرين.

وباختصار، تراجع دور الحزبين الكبيرين فى العقد الماضى، وبعد أن خف وزنهما وارتخى تنظيمهما فى ظل انفتاح المجتمع على فردية المواطن فى سوق السياسة الحرة. وأصبح الحزبان فى ظل الأمركة السوقية للعملية السياسية يسيران باتجاه النمط الأمريكى، الجمهورى مقابل الديموقراطى مع الفارق الكبير فى مرحلة تطور الحالتين. وبالمقابل شكلت المجموعات والحركات الاثنية والدينية والأصولية أحزابا قوية تثمن عالياً إخلاص الأعضاء لبرنامج الحزب وقيادته.

وأصبحت تلك الأحزاب المتوسطة تشغل حوالى نصف عدد مقاعد الكنيست فى بداية التسعينيات وزادت أهميتها لتشكيل أية حكومة ذات أغلبية برلمانية. ومع تنفيذ قانون الانتخابات المباشرة لرئاسة الوزراء. انفتح الإسرائيليون سنة ١٩٩٦ ولأول مرة على تيارين: الأول: سياسى أيديولوجى قومى عام لرئاسة الوزراء، والثانى: اثنى، شخصى، دينى، وحتى حضارى لكتلة من الكتل البرلمانية.

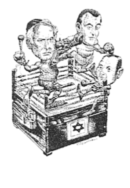
وكما ذكرنا، فبسبب الانتخابات المباشرة اعتزل جزء كبير من الناخبين لأحزابه الكبيرة مكتفين بالتصويت لمرشحيها لرئاسة الوزراء. وارتفعت نسبة التصويت بين هؤلاء الذين لم يجدوا أصلاً فى الحزبين الكبيرين الحل، مما أدى فى نهاية انتخابات ١٩٩٦ إلى مضاعفة بعض أحزاب الوسط من مقاعدها البرلمانية. وانقسمت هذه الأحزاب فى بداية وأواسط التسعينيات بين تلك اليمينية المحافظة فى نزعتها وميولها والتى ارتأت إلى تقوية التحالف مع الليكود فى معسكر اليمين عامة، وتلك التى تركت الباب مفتوحاً أمام تحالف مع رئيس وزراء ليكودى أو من حزب العمل.

ولكن فوز نتانياهو فى الانتخابات الأخيرة بنسبة لا تصل إلى الواحد بالمائة أو ١٦ ألف صوت أكثر من الـ ٥٠ بالمائة المطلوبة، مكّنه من تشكيل تحالف مع كلا المعسكرين اليمينى المحافظ والذى يندرج فيه الحزب الوطنى الدينى وأجودات هتوراة وتسوميت وكذلك تلك الأحزاب الوسطية من أمثال يسرائيل بعلياه وشاس والطريق الثالث.

ولابد من الإشارة هنا، إلى أنه لو جرت الانتخابات البرلمانية بدون تلك المباشرة لرئاسة الوزراء كما كان الأمر فى السنوات الخمسين الماضية ـ لتمكن بيرس الذى حصل حزبه على مقاعد أكثر من الليكود فى البرلمان من تشكيل الحكومة ولكان استطاع أن يجذب اليه «يسرائيل بعلياه» و«حتى شاس» و«الطريق الثالث» بحكم أولوية تلك الأحزاب واهتمامها بقضايا عينية تفيد مؤيديها وقواعدها الحزبية أكثر من اهتمامها بالفارق الأيديولوجى بين بيريز ونتانياهو. نقول ذلك ونحن واعون لعملية التطرف الأيديولوجى والقومى الجارية بين مؤيدى تلك الأحزاب لصالح ائتلاف مع اليمين أكثر منه مع اليسار.

بل إن انتخاب نتانياهو رئيساً للوزراء قد سهّل على قيادات تلك الأحزاب الالتئام مع الليكود وداخل معسكر اليمين بقيادة نتانياهو. وعلى سبيل المثال صوت مؤيدو حزب يسرائيل بعلياه واليهود الروس عامة فى غالبيتهم لإسحق رابين سنة ١٩٩٢ بينما صوت ثلثاهما لنتانياهو سنة ١٩٩٦. وخلال السنة الماضية جرى تشكيل حزب جديد بين المهاجرين الروس، يقوده مدير مكتب نتانياهو سابقاً، الشعبوى والديماجوجى أفيجدور ليبرمان، باسم «إسرائيل بيتنا» والمتوقع أن ينهش هذا الحزب من أصوات المهاجرين الروس عامة وأن يقدمها لحليفه فى الليكود بنيامين نتانياهو.

لقد زاد هذا الأمر محاصرة الخلاف بين زعيم يسرائيل بعلياه ورئيس الوزراء وهو الذى شعر أن نتانياهو مهيمن وخادع. وها هو الآن يخونه بالتآمر مع مساعده السابق ليبرمان لتحطيم قاعدته بين المهاجرين الروس. وبالرغم من أن استطلاعات الرأى تقول بأن ليبرمان لن يأخذ من يسرائيل بعلياه بقدر ما سيأخذ من الأحزاب الأخرى ويضمنها الليكود، فإن ترك عضوى كنيست من القائمة



غالبية العرب
أو ٨٨ بالمائة منهم
أيدوا فى استطلاعات
الرأى تشكيل قائمة
عربية موحدة.
ولكن بسبب
الاستقطاب بين
الشيوعيين والإسلاميين
يبدو أن ذلك
سيكون متعذرا.

ومفاوضاتهما الأحزاب الأخرى تهدد احتكار يسرائيل بعلياه لحصة الأسد من أصوات المهاجرين الروس وكان قد حصل فى الانتخابات الماضية على ٧ مقاعد.

وأما الحزب الوطنى الدينى المفدال الذى ارتفع عدد مقاعده إلى ٩ مقاعد سنة ١٩٩٦، فإنه هو الآخر يواجه تحديا مهما فى الحفاظ على مكتسبه السابق. وهو حرّم الدخول فى ائتلاف حكومى مع حزب العمل وقرر أن يكون الحليف الاستراتيجى لليمين القوى المتطرف.

وبالرغم من أن النتائج الداخلية للحزب قد أخرجت أهم قادة المستوطنين والتطرف ـ حنان بورات ـ من قائمة العشرة الأولى وهو الذى دفع باتجاه انتخابات مبكرة من خلال منصبه كرئيس للجنة القانون فى الكنيست، بالرغم من ذلك فإن حزب المفدال مستمر فى طريقه الأصولى المتطرف بقيادة إسحق ليفى وزير التعليم وشاؤول يهلوم وزير المواصلات.

وهو الحال مع حزب شاس الذى وعدت قيادته القواعد سنة ١٩٩١ بأن الحزب لن يكون شريكاً فى حكومة يقودها حزب العمل ومن ثم عاد ودخل ائتلافا يقوده اسحق رابين مما أدى إلى امتعاض القواعد التى زاد تطرفها فى بداية التسعينيات وخاصة بوجود الحزب الليبرالى اليسارى ميرتس والذى فرض علمانيته على الائتلاف بصورة أدت إلى خروج شاس بعد فترة قصيرة من الحكومة. وأشارت استطلاعات الرأى إلى أن شاس الذى صوّت ٨٥ بالمائة من مؤيديه لصالح نتانياهو سنة ١٩٩٦، سيعطى هذه السنة ليس أكثر من ٤ بالمائة لمرشح العمل إيهود باراك. ولم يساعد قيادة الحزب سنة ١٩٩٦ أنها لم تتخذ موقفاً من رئاسة الوزراء أملاً فى أن يصوت جزء من مؤيديها لبيريز حتى شهدت انجرافا هائلا فى صفوف الحزب لصالح مرشح اليمين.

وعلى العموم حصل نتانياهو على الغالبية الساحقة من أصوات المتدينين والأصوليين. ولهذا التقارب والتداخل بين نتانياهو العلمانى المعروف بتجاوزاته لكل الأعراف الزوجية والدينية، والأحزاب الدينية الأصولية المتشددة، حكاية سياسية هامة تصب فى صلب تغيير وتطور المجتمع السياسى الإسرائيلى، وهى مفتاح هام لفهم سيطرة اليمين على زمام الحكم فى العقدين الماضيين. وهذه هى ذات الديباجة التى سيتقمصها نتانياهو مرة أخرى باستراتيجيته السياسية الأهم للفوز بالانتخابات. وإذا اتفقت الأحزاب الدينية فيما بينها أن نتانياهو هو الذى مثل تطلعتها القومية والايديولوجية سنة ١٩٩٦، فإن الخلافات فيما بينها ليست هامشية. بل إن التنافس بين كل من شاس والمفدال اللذين يشكلان حوالى سدس أصوات الإسرائيليين وثلث معسكر اليمين فى حكومة نتانياهو له تأثير كبير على تصرفات كل واحد من هذين الحزبين. وسيكون لتخوف قيادة شاس من انجرار المتدينين الشرقيين إلى حزب المفدال تأثير كبير على قرار هذا الحزب إما التعمق أكثر فى اليمين أو التمركز أكثر فأكثر فى الوسط.

ولكن على العموم، وكما قلنا فإن مسألة الأرض واحتلال الضفة قد خلقت ما هو مشترك بين القوميين المتطرفين والمتدينين الأصوليين. وبدأ هذا التزاوج فى نهاية السبعينيات على صورة توأمة المسيانية الدينية التى تدعو إلى عمل المستحيل من أجل التحضير لمجىء «المسيح المنتظر» بما فى ذلك الاستيطان فى «أرض إسرائيل الكاملة»، والمسيانية القومية المتطرفة، التى ترى فى عودة شعب إسرائيل واستيطانه وبناء دولته فى كل ربوع فلسطين أو أرض إسرائيل الكاملة مهمته الأساسية المقدسة. وعلى هذه الخلفية ـ خلفية قدسية الأراضى وأولوية استيطانها أخذ الأصوليون اليهود يتسيسون ويتطرفون أكثر فأكثر وأخذ القوميون المتطرفون والأصوليون العسكريون ـ من أمثال أحزاب الجنرالات تسوميت وموليدت ـ يستعملون المصطلحات اللاهوتية وهى التى استغلها أشد استغلال مناحيم بيجن وبذلك أخذ هؤلاء العلمانيون يتقبلون اللاهوت ويبررون للأصوليين مواقفهم فى قضايا الدين والدولة والانخراط فى الجيش. وهكذا فقد التأم مع حلف الليكود والمفدال فى سنوات الثمانينيات والتسعينيات أحزاب دينية ـ شاس وأجودات يسرائيل وديجيل هتوراة من ناحية، وتسوميت وموليديت والطريق الثالث من الناحية الثانية.

هذا هو الحلف الذى يعتمد الأرض قيمته السياسية ومرجعيته الأيديولوجية الأهم والذى يرى فى الفلسطينيين غرباء وفى العرب أعداء. وفى الغرب متآمرين على الشعب اليهودى مثلما كان الأمر «على مدار التاريخ». وهذه هى الأرضية التى مهدت للمتدينين من الأحزاب الدينية اللاصهيونية أصلاً - أن تسيس وتتدخل فى مؤسسات الدولة وفى أجهزة الحكم عن طريق اليمين الحاكم والذى أمّن لهم معاهد دينية فى مدنهم ومعابد فى مواقعهم الدينية المحتلة.

فى هذا الحقل الخصب بالتطرف والتقوقع والانغلاق والأصولية والمحافظة سيزرع نتانياهو مرة أخرى أفضل بذراته ليحصد منها يوم الانتخابات انتصاراً مشابهاً لذلك الذى حصده سنة ١٩٩٦. وهنا سيحاول نتانياهو أن يعوض عن خسارات ليست بقليلة بين صفوف الليكود الأولى - مثل خسارة دان ميريدور ورونى ميلو واسحق موردخاى إلى حزب الوسط. إضافة إلى خسارة ديفيد ليفى لحزب العمل. وكذلك لربما خسارة أناتولى شيرانسكى وأفيجدور كهلانى.

وبالإضافة إلى هذه التكتلات والتحالفات على يمين الخارطة السياسية، ينتظر اليمين تشكيل قائمة يمينية متطرفة تضم هؤلاء المعارضين لعملية السلام بقيادة بينى بيجين ابن زعيم اليمينى التقليدى مناحيم بيجين. وإذ إن بينى بيجين رشح نفسه لرئاسة الوزراء، فإن هذه المناورة فى هدفها الأساسى هو التفاوض مع نتانياهو على الخطوط الحمر التى يود اليمين رسمها لحكومته القادمة حتى لا يتسنى لها أن تخطئ مرة أخرى كما أخطأت(؟) فى واى بلانتيشن وخاصة فى مفاوضات الحل النهائى حول قضايا الاستيطان والقدس واللاجئين.. إلخ.

وعملياً، إذا دخل بينى بيجين فعلاً الدورة الأولى وخسرها، فإن جميع أصواته ستذهب بدون شك لبنيامين نتانياهو. وهذا الأخير لن يواجه مشكلة فى المراوغة والكذب على بينى بيجين كما سبق وفعل مع غيره بل وسيتحالف كذلك مع القائمة اليمينية التى يحاول تشكيلها بيجين.

من اليسار ليس هناك شكوك حول تصويت غالبية مؤيدى حزب ميرتس لإيهود باراك ولربما لإسحق موردخاى. ولكن هنالك شعورًا فى أوساط السياسة بأن ميرتس ستخسر من تأييدها وستفقد من مقاعدها هذه السنة لصالح حزب الوسط والأحزاب العربية. وكانت الانتخابات الداخلية لميرتس قبل أسابيع قد أخرجت المقعد العربى من قائمة الأسماء المطروحة والتى من المتوقع أن تدخل البرلمان.



رفع باراك شعاره الانتخابى «نحن هنا وهم هناك» مؤكدا على أهمية الفصل بين الشعبين. ولكن بدون ذكر أو حتى التمهيد لفكرة استقلال الشعب الآخر، أى بدون سيادة الشعب الآخر على أرضه.

الصوت العربى:

وهنا نصل إلى قضية حساسة ولها أبعاد هامة، ألا وهى مسألة الصوت العربى. فى سنة ١٩٩٢ أدخل العرب إلى الكنيست ٩ نواب من كتلتين أساسيتين ونائبين عربيين عن الأحزاب الصهيونية. وكانت الكتلة الأولى قد تشكلت بالتحالف بين التجمع الوطنى الديموقراطى بقيادة عزمى بشارة والجبهة الوطنية للسلام والمساواة بقيادة الحزب الشيوعى وحصلت على ٥ مقاعد، والكتلة الثانية القائمة العربية الموحدة تشكلت بتحالف بين القائمة الإسلامية والحزب الديموقراطى العربى بقيادة عبد الوهاب دراوشة وحصلت على أربعة مقاعد.

وانتهت هذه الأحزاب فى الأسابيع الماضية من ترتيب بيتها الداخلى استعداداً للانتخابات، فانتخب عزمى بشارة على قيادة التجمع الوطنى وجاء وراءه الدكتور جمال زحالقة. وكذلك فى الجبهة الديموقراطية احتل أربعة شيوعيين المواقع الأربعة الأولى، أولهم محمد بركة وثانيهم عصام مخول، وجاءت الثالثة يهودية - تمار جوجانسكى، بالرغم من أن الصوت اليهودى لهذه القائمة ضئيل جداً. وتبين بسرعة أن قيادة هذين الحزبين قد تشكلت من قيادة الحركة الطلابية من سنوات السبعينيات. وكذلك فقد انتخب الحزب الديموقراطى العربى - طلب الصانع - على رأس القائمة بعد اعتزال عبد الوهاب دراوشة عمل الكنيست. وبدأت المفاوضات حال ترتيب الوضع الداخلى بين الأحزاب العربية على إيجاد أفضل وأضمن الصيغ لإيصال الصوت العربى للكنيست.

وبالرغم من أن الخارطة السياسية انقسمت على ثلاث قوائم الأولى قومية والثانية شيوعية والثالثة إسلامية، إلا أن غالبية العرب أو ٨٨ بالمائة منهم قد أيدوا فى استطلاعات الرأى التى أجريت أخيراً تشكيل قائمة عربية موحدة. ولكن وبسبب الاستقطاب بين الشيوعيين والإسلاميين فإنه يبدو أن هذا سيكون متعذراً.

من الناحية المقابلة فإن لتوحيد الصوت العربى لانتخابات رئيس الوزراء أهمية كبرى فى الانتخابات القادمة. وخاصة لأن هناك ثلاثة مرشحين رئيسيين كما ذكرنا. وفى حين صوت ٩٤ بالمائة من العرب فى الانتخابات السابقة لشمعون بيريز، فشل هذا المرشح بسبب حصوله على أقل من ٤٥ بالمائة من الصوت اليهودى مقابل ٥٥ بالمائة لنتانياهو.

فى هذه الانتخابات سيكون للصوت العربى تأثير من حيث الكم والكيف كذلك إذا توحدت غالبية الأصوات العربية وراء مرشح للرئاسة. ففى سباق المرشحين الثلاثة سيشكل الصوت العربى حوالى ثلث مخزون أصوات كل واحد من المرشحين لأن العرب يمثلون حوالى ١٤ بالمائة من أصحاب «الاقتراع» وبالتالى ثلث أصوات باراك أو موردخاى. ولكن هذين المرشحين لم يعطيا الانتباه والاهتمام الكافى بالأصوات العربية. باراك لأنه يعتبر الصوت العربى مضموناً وموردخاى لأنه لا ينوى التشديد كثيراً على هذه القاعدة وخاصة فى هذه الفترة المبكرة من الحملة الانتخابية.

وهنا تبرز فكرة ترشيح عربى لرئاسة الوزراء كتكتيك انتخابى هام إضافة إلى كونه استراتيجية هامة لتوحيد الصف العربى. وأعطت استطلاعات الرأى بين العرب الدكتور عزمى بشارة أولوية بين كافة المرشحين لمثل هذه المهمة. وقد أعلن عزمى بشارة بالفعل عن ترشيحه لنفسه رسميا لرئاسة الوزارة.

وكانت غالبية العرب قد أبدت استعدادها للتصويت لصالح بشارة لرئاسة الحكومة. ويمكن لبشارة الانسحاب حتى قبل الجولة الأولى لضم مؤيديه لأحد مرشحى المعارضة ضمن اتفاق على مبادئ التأييد بما فى ذلك قضايا المساواة فى الدولة وحقوق الفلسطينيين فى السيادة فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وحتى يومنا هذا لم يقرر العرب بعد إذا ما كانوا سيؤيدون باراك أو موردخاى، وسيكون لمثل هذا القرار الموحد أهمية قصوى فى إنجاح باراك أو موردخاى فى الجولة الأولى وبالتالى إنجاحه فى الجولة الثانية. وإذ إن هنالك تقليداً يدعم مرشح حزب العمل فى الانتخابات كما شهدنا فى السنوات الماضية، إلا أن فكرة التصويت لموردخاى قد بدأت تأخذ دفعة هامة فى الأسابيع الماضية وخاصة بعد الكشف عن استطلاعات الرأى القائلة بأن موردخاى هو القادر على الفوز على نتانياهو فى الجولة الثانية.

استطلاعات الرأى ومرشحو رئاسة الوزراء:

هنا نأتى إلى استطلاعات الرأى والتى زادت أهميتها بصورة كبيرة فى السنوات الأخيرة. وهى كما ذكرنا العامل الثالث المهم فى حساب الرهانات على مرشحى رئاسة الحكومة إضافة إلى العامل الفردى وتركيبة الأحزاب الصغيرة والمتوسطة وموقعها على الخارطة الحزبية فى البلاد.

تجرى إسرائيل بمؤسساتها الإعلامية والدعائية استطلاعات للرأى كل أسبوع إن لم يكن كل يوم. وأكثر ما يؤثر فى هذه الاستطلاعات إجراءات وتصريحات ومظهر المرشحين عشية كل أزمة وما بعد كل مواجهة داخلية أو خارجية. إن كان ذلك بموضوع العنف الداخلى أو موضوع الدين والدولة أو مواجهة حزب الله فى جنوب لبنان...الخ وإذ إن الخارطة السياسية فى غالبيتها قد حسمت أمرها من خلال الميول الأيديولوجية والحزبية والولائية من حيث موقفها من المرشحين الثلاثة، فإن هؤلاء غير الحاسمين من أمرهم هم الذين سيرجحون كفة أحد المرشحين على الآخر كما شهدنا فى انتخابات ١٩٩٦، حيث بقيت الاستطلاعات تشير إلى تقدم بيريز على نتانياهو بنسبة ٥-١٠ فى المائة فى الأصوات إلى أن وصلت يوم الانتخابات فاظهرت ٥١ فى المائة لمصلحة بيريز على نتانياهو، وهى التى تعترف بإمكان ٣ فى المائة خطأ فى جميع الاستطلاعات. وكان مزاج الناس سيئاً بسبب مجزرة «قانا» والعبوات الناسفة فى المدن الاسرائيلية فقرر هؤلاء المتأرجحون التصويت لمصلحة نتانياهو رجل المعارضة القوى على حساب رجل الدولة بيريز - «الضعيف»!.

الاستطلاعات مثلها مثل المنطق السياسى تقول إن موردخاى هو القادر فى الجولة الثانية أن يفوز على نتانياهو، ولذلك يرفع حزب الوسط شعار الفوز فوق كل شعار ويطالبون حزب العمل والناخبين التقليديين بدعم موردخاى.. فالهدف الإطاحة بنتانياهو - يبرر مثل هذه الوسيلة. ويذهب حزب الوسط أبعد من ذلك ليطلب من إيهود باراك أن يسمح للاستطلاعات أن تحسم أمر المنافسة بينهما لكى يتوحدا سوياً منذ الجولة الأولى ضد بنيامين نتانياهو.

وحجة المنطق لا تقل أهمية فى رأى حزب الوسط الذى يدعى أنه فى حالة ربح باراك الجولة الأولى فإنه يربح بالضرورة الأصوات التى ربحها موردخاى من الشرقيين والتقليديين ومن هؤلاء الوسطيين الذين تركوا العمل لمصلحة الليكود فى السنوات الأخيرة، وستذهب هذه الأصوات لمصلحة نتانياهو. وأما إذا ربح موردخاى الجولة الأولى فإنه سيحافظ على تلك الأصوات التى أوصلته إلى الجولة الثانية إضافة إلى كل صوت ذهب لمصلحة باراك فى الجولة الأولى مما سيضمن له النجاح ضد نتانياهو.

ولكن الاستطلاعات وحجة المنطق لم تقنع قيادة حزب العمل والذى يرى فى قائمته «اسرائيل واحدة» سر الفوز على نتانياهو وخاصة إذا انضم اليها شخصياً موردخاى وتنظيمياً حزب الوسط. وتعتبر أوساط العمل أنه بغض النظر عن الاستطلاعات، فحزب العمل يمتلك قوة كبيرة من التنظيم الحزبى والجهاز الانتخابى والفروع المنظمة فى جميع أرجاء البلاد إضافة إلى أكثر من مائة ألف مسجل فى الحزب. وهذه بمجملها يفتقر لها حزب الوسط حديث العهد. وهو ما يعنى أن حزب العمل هو القادر على جذب الأصوات يوم الانتخابات إلى صناديق الاقتراع إن كان ذلك فى الجولة الأولى ضد موردخاى ونتانياهو، أو فى الجولة الثالثة فى الأول من حزيران (يونيو) والتى من المتوقع ان تشهد نسبة تصويت أقل من ١٧ آيار (مايو) حيث التصويت لرئاسة الوزراء يتم فى الوقت نفسه مع الانتخابات البرلمانية. وهذا الأمر سيعطى أهمية قصوى للجهاز الحزبى القادر على تنظيم المقترعين يوم التصويت ومراقبتهم.

والحال هو أن وجهتى النظر صحيحتان، وهو ما يعنى فى نهاية المطاف ضرورة التنسيق والتعاون، لا بل والائتلاف وتقسيم العمل بين الحزبين لسحق نتانياهو من الجولة الأولى. وتقول استطلاعات الرأى وتؤكد على ما تقوله التجربة بأن نتانياهو إذا ما صعد إلى الجولة الثانية فهو قادر من خلال التلفزيون والشعبوية المفرطة والأكاذيب والوعود

والاتهامات والتخويف، قادر على سحق باراك في الأول من حزيران. هذا وبالرغم من أن نتانياهو - تلميذ باراك أصلاً، من ذات الطينة الحداثوية أو ما بعد الحداثوية التي تعتمد الشكل والحساب على المضامين والفكر. هذا وكان مستشارا باراك - جيمس كارفيل وجرينبرج - قد نصحا باراك بعدم منازلة نتانياهو وجهاً لوجه على شاشة التلفزيون لأن نتانياهو سيخرج رابحاً بلا شك.

انتخابات مفصلية:

تشكل الانتخابات المباشرة لرئاسة الوزراء هذه السنة مفصلاً هاماً في الحياة السياسية الإسرائيلية وفيما يخص عملية السلام. وإذ إن الوسط السياسي الإسرائيلي ما زال منفتحاً - ولو قليلاً ومتأخراً - لتشكيل حكومة بقيادة باراك أو موردخاي - فإن فوز نتانياهو للمرة الثانية سيعيد خلط الأوراق في الساحة السياسية والحزبية الإسرائيلية بصورة درامية، وسيعطي لليمين الإسرائيلي فرصة العمر لإعادة تشكيل مؤسسات الدولة والمجتمع على صورته وسيضع حداً لتنفيذ فعلي للعملية السلمية أو لأي اتفاق سلام يشمل الانسحاب. وسيعجل انتخاب نتانياهو من ضم الضفة الغربية على أرض الواقع الإسرائيلي من خلال أخطبوط الاستيطان الذي سيقسم الضفة نهائياً إلى بوندستانات ويمنع أبداً سيادة فلسطينية واحدة على الأراضي المحتلة.

وكذلك سيعيد انتخاب نتانياهو خلط الأوراق السياسية بين الفلسطينيين وفي أكثر من قطر عربي استعداداً لمواجهة من نوع آخر مع النظام الإسرائيلي والذي سيقترب أكثر فأكثر من الفاشية.

بل إن التنافس بين نتانياهو وبين بيجن من ناحية وباراك وموردخاي من الناحية المقابلة سيعيد شبح المواجهة بين مناحيم بيجن وإسحق رابين عشية حرب لبنان وشبح حكومة الوحدة الوطنية عشية الانتفاضة، بمعنى أنه سيضع المنطقة إما أمام حرب جديدة، أو أمام تشكيل حكومة وحدة وطنية قادرة على مواجهة التحديات القادمة من دون أي اعتبار للسلام.

وهل من دور للعرب؟!

هذا هو السؤال الذي طرحه عليّ أكثر من صديق وأكثر من مسئول في أكثر من عاصمة عربية وغربية. وأفترض أن هذا هو السؤال الذي يدور في عقول المسئولين الفلسطينيين: ما الذي يجب عمله للإطاحة بنتانياهو؟ ولا أستغرب لو كنا قمنا باستطلاع رأي عام ورسمي دولي لاكتشفنا أن الغالبية الساحقة إن لم نقل كل العالم يقف ضد نتانياهو. ولكن شعور هؤلاء أن نتانياهو يمكن أن يربح الانتخابات القادمة ويقوض العملية السلمية التي طالما استثمر فيها الكثيرون ممن تهمهم المنطقة.

بالنسبة للأمريكان، فإن العملية السلمية التي بدأت في مدريد واندفعت في أوسلو أصبحت نوعاً من النظام الإقليمي الجديد - «باكس أميركانا» ما بعد الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية. وأصبح هذا النظام هو المكان الذي تتم فيه تسوية الخلافات أو تقنين المصالح برعاية أمريكية مباشرة - أمنية - واقتصادية وديبلوماسية. وياسر عرفات في هذا الإطار يعتبر عاملاً إيجابياً ضمن «الباكس اميركانا» الجديدة. وأما نتانياهو فهو ما زال «الولد العاق».

وبينما استعملت واشنطن ضمانات القروض عشية انتخابات ١٩٩٢، فإنها بحسب المصادر الإسرائيلية بدأت تستغل حاجة إسرائيل لمساعدة الـ ١.٢ بليون دولار، والتي خصصت لها في «واي بلانتيشن» ثمناً لإعادة الانسحاب، وأخذت إدارة كلينتون تؤجل تمرير هذه المساعدة في الكونجرس ولحكومة نتانياهو.

وبالنسبة للأوروبيين، فإن استثمار السوق الأوروبية المشتركة في العملية العسكرية وفي اقتصاديات السلام، يمكن أن يشهد ردّة إلى الوراء وخسارات كبيرة، وهؤلاء أيضاً حريصون على تغيير نتانياهو، وهم الذين يعتبرون أن الضغط على القيادة الفلسطينية لتأجيل إعلان الدولة والحفاظ على الأمن سيسهل عملية التغيير هذه.

وكذلك الأمر بالنسبة للعرب الذين التقيتهم. نعم لتأجيل الإعلان ونعم للأمن ولا للعبوات الناسفة والتي «أتت» بنتانياهو سنة ١٩٩٦. ولكن ماذا بالنسبة لعمليات حزب الله ومواجهة اللبنانيين في الجنوب؟ هنا بدا إحراج حكومة نتانياهو واضحاً للجميع. وكشف حزب الله أنه قادر على تحجيم عنجهية نتانياهو والذي أخذ يستبق تصريحات باراك حول الانسحاب ويزايد عليها.

والسؤال مرة أخرى. ماذا يمكن للعرب أن يفعلوه؟ والجواب لا شيء، إن كان الحديث على هذه الفترة القصيرة حتى يوم الانتخابات. فملعونون العرب إذا فعلوا وملعونون إذا لم يفعلوا...

فإذا قاموا بأي خطوة سياسية أو عسكرية لإضعاف نتانياهو، سيدعي هذا بأن العرب قد برهنوا مرة أخرى أنهم ليسوا موضع ثقة وأنهم غير معنيين بالسلام وأنهم عنيفون يريدون تحطيم دولة إسرائيل أو «التدخل في شئونها الداخلية». وإذا لم يقوموا بأي شيء وتركوا نتانياهو يوسع الاستيطان ويحاصر القدس ويقاوم إعادة الانتشار - ولم نقل الانسحاب فإن نتانياهو سيؤكد للإسرائيليين أنه بفضل حكمه وحكمته استتب الأمن وحصل الإسرائيليون على الأرض والسلام معاً خلال سنتين ونصف السنة من إدارته. وعلى الناحيتين سيطالب نتانياهو الإسرائيليين بدعمه لمواجهة استحقاقات السلام... والمواجهة القادمة.

وعلى العموم فإن استحواذ الانتخابات الإسرائيلية على المزاج السياسي والنخبوي العربي قد وصل إلى درجات جديدة من الإذلال. استراتيجية العرب تتمحور عملياً حول من سيكون رئيس الوزراء الإسرائيلي القادم وليس كيفية التعامل مع أي رئيس وزراء بغض النظر عن هويته. وخاصة أن المرشحين الأربعة يتفقون فيما بينهم على المبادئ العامة لا لعودة اللاجئين، لا للقدس عاصمة للدولة الفلسطينية، لا للدولة الفلسطينية ذات السيادة، لا لتفكيك المستوطنات أو الانسحاب منها.

ولو اختلف هؤلاء المرشحون على بعض التفاصيل في المرحلة الانتقالية حول بعض النسب المئوية هنا وهناك من إعادة الانتشار، فإن مسألة الانسحاب الفعلي ما زالت غير واضحة عند أي من المرشحين. ولذلك فإن انتخاب باراك أو موردخاي ربما يخفف من عملية الإحراج التي واجهها شركاء اسرائيل في العملية السلمية، ولكنه لن يعوض عن ضرورة الوصول إلى استراتيجية عربية وحشد جميع الطاقات وراءها بالضبط كما أن هنالك استراتيجية قومية أو خطوطاً عريضة قومية إسرائيلية وخطوطاً حمراء في التفاوض يلتزم بها كل المرشحين وجميع الجنرالات الساسة. ■

انتهى زمن أسلحة الضعفاء.. الخوف الآن من التدمير البيولوجى

هيستريا الحرب ضد مجهول!

ريتشارد بيتس

أصبحت الأسلحة البيولوجية والكيماوية هى الأمل الوحيد لما يسمى بالدول الشريرة أو للإرهابيين الذين يريدون أن يتحدوا القوة الأمريكية وربما تكون الأسلحة البيولوجية الآن مصدراً أشد للقلق، تليها الأسلحة النووية فى المقام الثانى، ثم الأسلحة الكيميائية فى المقام الثالث بفارق كبير

■■ فى أثناء الحرب الباردة كانت أسلحة الدمار الشامل هى محور السياسة الخارجية. وكان شبح الأسلحة النووية يبدو فى خلفية أى قضية كبرى فى علاقات التنافس والتحالف بين الشرق والغرب. وكان فى الوسع أن تُربط أعلى الأولويات فى السياسة الأمريكية بطريقة أو أخرى بخطر نشوب حرب عالمية ثالثة، والخوف من حدوث إصابات بالملايين فى الأراضى الأمريكية.

ولكن منذ انتهاء الحرب الباردة ظهرت موضوعات أخرى لتحل محل المشاغل الإستراتيجية فى جدول أعمال السياسة الخارجية، بل إن ذلك الجدول لم يعد يحتل مكانا رئيسيا على شاشة رادار الرأى العام. وفيما عدا المحترفين المعنيين بسياسة الدفاع، لم يعد هناك أمريكيون كثيرون يجافيهم النوم بسبب أسلحة الدمار الشامل. وبعد كل شىء، فما هو مصدر الارتياح الذى يشعر به الشخص العادى نتيجة لانتهاء الحرب الباردة؟ هو شعوره بأن خطر نشوب حرب نووية قد انتهى.

ومع ذلك فإن أسلحة الدمار الشامل تعتبر اليوم مصدرا لأشياء أخرى تدعو إلى القلق أكثر مما كان عليه الحال أيام الحرب الباردة. من هذه الأشياء أن الأسلحة النووية لم تعد هى مصدر الخطر الوحيد. فقد برزت إلى المقدمة الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. ومن هذه الأشياء أن خطر الإبادة الكاملة أصبح أقل، ولكن خطر الدمار الشامل أصبح أكبر، ونظرا لأن الحرب الباردة قد انتهت، وأصبحت المخزونات النووية الأمريكية والروسية أقل مما كانت. تضاءلت احتمالات الضرب المدمر المتبادل بآلاف الأسلحة. ولكن خطر استخدام عدد أقل من أسلحة الدمار الشامل آخذ فى التزايد. وكثير من الإستراتيجيات والآراء الشائعة للتعامل مع أخطار أسلحة الدمار الشامل لم تعد سارية الآن، كما كانت فى الوقت الذى اعتبرت فيه موسكو العدو الرئيسى. ولكن التفكير الجديد لم يتبلور بعد بصورة واضحة بالقدر الذى كانت عليه مفاهيم الحرب الباردة ونظرية الردع النووى.

المخاطر الجديدة لم تغب عن بصر الدوائر العسكرية. وأصبحت «مقاومة الانتشار» صناعة منزلية منتشرة فى البنتاجون ودوائر المخابرات، وهناك مبادرات عديدة مهمة يجرى تنفيذها الآن للتعامل مع هذا الخطر. غير أن بعضا من أهم تداعيات العصر الحديث لم تسجل بعد على جدول الأعمال العام. وهذا بدوره يحد من ميل السياسيين للتقدم ببرامج ملائمة. بل إن المؤسسة العسكرية وجهت اهتمامها أساسا نحو التصدى لأخطار أسلحة الدمار الشامل التى تتعرض لها قوات الولايات المتحدة العاملة فى الخارج وليس إلى الخطر الأقرب لحدوث تدمير شامل داخل الولايات المتحدة يؤدى إلى مصرع أعداد كبيرة من المدنيين.

والنقاط الأساسية التى ينبغى الانتباه لها بشأن العالم الجديد للتدمير الشامل هى ما يلى:

أولا: أن الدور الذى تقوم به هذه الأسلحة فى المنازعات الدولية آخذ فى التغير. فهى لم تعد تمثل الحدود التكنولوجية للحرب، وهى بصورة مطّردة ستكون أسلحة الضعفاء من الدول أو الجماعات التى تقوّم من الناحية العسكرية باعتبارها قوى من الدرجة الثانية فى أحسن تقدير. كما أن أهمية أنواعها المختلفة قد تغيرت. وربما تكون الأسلحة البيولوجية الآن مصدرًا أشد للقلق، تليها الأسلحة النووية فى المقام الثانى، ثم الأسلحة الكيميائية فى المقام الثالث بفارق كبير.

ثانيا: أن ركيزتى سياسة الأمن فى فترة الحرب الباردة - الردع وضبط التسلح - لم تعودا الآن كما كانتا فى الماضى. فبعض الأخطار الجديدة قد لا تكون قابلة للردع، كما أن دور الحد من التسلح فى التعامل مع أسلحة الدمار الشامل أصبح هامشيا. وفى حالات قليلة، قد يكون لاستمرار التمسك بالردع والحد من التسلح آثار جانبية تلغى المنافع.

ثالثا: أن بعض التدابير التى يرجح أن تكون قادرة على مواجهة الأخطار بوسائل جديدة لن تلقى ترحيبا حاراً. فالإجراء الذى يجب أن تكون له الآن الأولوية العليا هو إجراء طال تجاهله أو مقاومته أو السخرية منه: وهو برنامج جوى للدفاع المدنى للحد من تأثير أسلحة الدمار الشامل إذا أطلقت داخل الولايات المتحدة. كما أن بعض أكثر التدابير فاعلية لمنع الهجمات داخل الولايات المتحدة ربما تتعارض أيضا مع الحريات المدنية التقليدية.

وأخطر الاستنتاجات بالنسبة للسياسة الخارجية هو أن تقليل احتمالات الهجوم داخل الولايات المتحدة ربما يتطلب الانسحاب من المشاركة فى بعض النزاعات الخارجية. ومن المفارقات أن التحركات الأمريكية لضمان الاستقرار الدولى هى المصدر الأول للمخاطر التى تتعرض لها.

وقد كان ذلك صحيحا إلى حد ما أثناء الحرب الباردة، عندما كان الخطر الأساسى من تعرض الأراضى الأمريكية للأسلحة النووية، ينبع من الارتباطات الإستراتيجية فى أوروبا وآسيا والشرق الأوسط لردع الهجوم على حلفاء الولايات المتحدة. ولكن ذلك الارتباط كان يفترض فى ذلك الحين وجود علاقة مباشرة بين الاستقرار الإقليمى واستمرار وجود الولايات المتحدة. ولم تعد هذه العلاقة واضحة بنفس القدر اليوم، حيث لم تعد هناك دولة عظمى تهدد العالم أو أيديولوجيا غير وطنية يتطلب الأمر احتواءها. والنزاعات القائمة هى مجموعة من الاضطرابات الخطيرة ولكنها اضطرابات محلية فقط. واليوم فإن الولايات المتحدة، باعتبارها البلد الوحيد الذى يقوم بدور رجل الشرطة فى مناطق خارج حدودها، تجعل من نفسها هدفا للدول أو الجماعات التى تحول قوة الولايات المتحدة دون تحقيق تطلعاتها.

عندما ولدت الأسلحة النووية كانت تمثل أكثر التطبيقات العسكرية تقدما للعلم والتكنولوجيا والهندسة. ولم تكن تأمل فى الحصول عليها غير الدول الكبرى. أما الآن فقد مضى على وجود الأسلحة النووية أكثر من نصف قرن، وعلى وجود الأسلحة الكيميائية والبيولوجية مدة أطول. وهى لا تتقدم فى العمر فحسب. بل أصبحت هذه الأسلحة ومن الناحية الإستراتيجية التى تهم أمن الولايات المتحدة، أسلحة بدائية. وبعد أن كانت أرقى الأسلحة العسكرية للأقوياء أصبحت هى الأمل الوحيد لما يسمى بالدول الشريرة. أو للإرهابيين الذين يريدون أن يتحدوا القوة الأمريكية. لماذا؟ لأن الولايات المتحدة حققت تفوقا هائلا فى القوة العسكرية التقليدية، وهو أمر لم تكن تأمل أن تحققه فى مواجهة الاتحاد السوفييتى.

وقد كشفت حرب الخليج فى ١٩٩١ عن التفوق الأمريكى بدرجة أذهلت الكثيرين فى الخارج. وعلى الرغم من أن الميزانية العسكرية الأمريكية انخفضت، فإن الفجوة بينها وبين الدول الأخرى لم تتضاءل. ومازال الإنفاق العسكرى يزيد بأكثر من ثلاثة أضعاف مثيله فى أية دولة يمكن أن تكون معادية، وهو يزيد على الميزانية العسكرية لكل من روسيا

والصين وإيران والعراق وكوريا الشمالية وكوبا مجتمعة.

ومن المهم أيضا أنه ليس هناك دليل على أن مستوى الحرفية العسكرية فى تلك الدول «يزيد بمعدل يجعلها قادرة على المنافسة، حتى إذا أنفقت مبالغ أكبر كثيرا على قواتها. واستمرارا لما يراه البعض ثورة فى الشئون العسكرية مازالت القوات الأمريكية تحقق استخداما لا مثيل له لأحدث الأسلحة، ولأنظمة الرصد وجمع المعلومات، والمرونة التنظيمية والعقائدية فى إدارة هذه المبتكرات المعقدة وإدخالها فى «أنظمة الأنظمة» التى أصبحت مفتاح الفاعلية العسكرية الحديثة. وأصبحت للعقول قوتها بشكل غير مسبوق فى التاريخ العسكرى. وإذا تمكنت دولة معادية من اللحاق بالولايات المتحدة فى سباق التسلح، فليس من المتوقع أن يلحق تنظيمها وثقافتها العسكرية بسباق الكفاءة فى الإدارة واستيعاب التكنولوجيا ومهارات القيادة القتالية.

وإذا كان من المتعذر على الدول المعادية أن تواجه الولايات المتحدة فى ميدان القتال التقليدى، فإن ذلك القتال أصعب بالنسبة للجماعات الأصغر حجما مثل الإرهابيين. وإذا كانت الولايات المتحدة حسنة الحظ، فإن شتى الجماعات التى تؤمن بالعنف والتى لديها مظالم تشكو منها من الحكومة الأمريكية والمجتمع الأمريكى، سوف تستمر فى وضع خطط تستخدم فيها المتفجرات التقليدية. ولم تظهر حتى الآن جماعات إرهابية تسعى إلى إحداث تدمير شامل حقيقى. ولم يؤد إلقاء القنابل أو أخذ الرهائن بوجه عام إلى تهديد أكثر من مئات قليلة من الأرواح. ودعونا نأمل أن تكون هذه القدرة المحدودة راجعة إلى سبب قوى، وليس إلى مجرد عدم امتلاك القدرة، وألا تغدو الاستثناءات القليلة أكثر انتشارا.

وليس هناك ما يدعو للاعتماد على هذا النوع من ضبط النفس. فقد حاول بعض تلك الجماعات بالفعل أن يستخدم أسلحة الدمار الشامل، إلا أن المحاولة أخفقت. فقد أطلقت جماعة «أوم شينرى كيو» اليابانية غاز السارين المدمر للأعصاب فى طوكيو فى سنة ١٩٩٥ لكنه لم يقتل غير عدد قليل من الأشخاص، ويعتقد بعض الباحثين أن أولئك الذين هاجموا مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى عام ١٩٩٣ لوثوا قنبلتهم بالسيانيد الذى احترق فى الانفجار، (هذا لم يتأكد، ولكن وجدت كمية كبيرة من السيانيد فى حوزة المتهمين). وبمرور الوقت لن تكون مثل هذه الجماعات بهذا القدر من عدم الكفاءة. وإذا قرر الإرهابيون أن يذهلوا صانعى السياسة الأمريكيين بإحداث ضرر بالغ فإن أسلحة الدمار الشامل ستصبح أكثر جاذبية فى نفس الوقت الذى تصبح فيه أقرب إلى المتناول.

وأخيرا، فإن التفوق العسكرى الذى لا نزاع فيه قد حوّل انتباه المؤسسة العسكرية الأمريكية بعيدا عن أسلحة الدمار الشامل. فأثناء الحرب الباردة كانت الأسلحة النووية هى العماد الرئيسى للقدرات الحربية الأمريكية. وكانت هى الكلمة الأخيرة فى المناقشات الدفاعية، وبرامج المشتريات، ومفاوضات الحد من الأسلحة: لأن الولايات المتحدة كانت تواجه دولة عظمى منافسة، دولة لم يكن التفوق عليها فى الحرب التقليدية أمرًا مؤكدا. أما الآن فليس هناك من يهتم بصاروخ MX أو بقاذفة القنابل B-1 وليس هناك من يهتم حقا بمعاهدة خفض الأسلحة الإستراتيجية. وبطريقة كانت تدعو إلى السخرية أثناء الحرب الباردة هناك الآن من يبرر إنتاج طائرات B-2 التى تتكلف الواحدة منها مليارين من الدولارات باعتبارها من أسلحة الحرب التقليدية، ولا يكاد يوجد فى البنتاجون الآن من لا يزال يهتم بالكيفية التى تستطيع بها الولايات المتحدة أن تستخدم أسلحة الدمار الشامل لأغراضها الإستراتيجية.

أما ما يهتم به المخططون العسكريون فهو كيفية إبقاء الأطراف المعادية بعيدا عن استخدام أسلحة الدمار الشامل باعتبارها وسيلة «غير منتظمة» لمواجهة القوة الأمريكية التقليدية، وكيفية حماية القوات البرية والبحرية الأمريكية فى الخارج من الهجوم عليها بأسلحة الدمار الشامل. وهذا الاهتمام له ما يبرره بغير شك، ولكنه ينطوى على خطر ابتعاد الاهتمام عن الخطر الرئيسى. فليس الخطر الرئيسى هو أن يقوم الأعداء بإلقاء بعض الأسلحة النووية أو الكيميائية على القوات المسلحة الأمريكية أو على السفن الأمريكية، بالرغم من خطورة ذلك. وإنما الخطر الحقيقى هو أن يحاولوا معاقبة الولايات المتحدة بإحداث الكارثة داخل المدن الأمريكية.

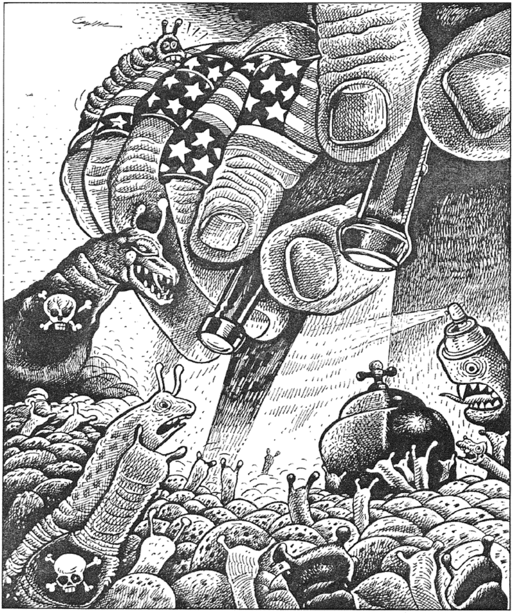
حتى العقد الماضى، كانت القضية هى الأسلحة النووية، وينتهى الأمر عند ذلك. وكانت الأسلحة الكيميائية تلقى قدرا من الاهتمام من جانب الخبراء، ولكنها لم تكن على قائمة الأولويات لدى رؤساء الجمهورية أو رؤساء الوزارات.

ونسيت الأسلحة البيولوجية تقريبا بعد أن حظرتها اتفاقية الأسلحة البيولوجية التى أبرمت فى سنة ١٩٧٢. وحظيت الأسلحة الكيميائية والبيولوجية بقدر أكبر من الاهتمام خلال التسعينيات. غير أن الثالوث الذى يُجمع تحت مظلة التدمير الشامل يثير قضايا مختلفة. وأهم ما يلفت النظر أن الأسلحة البيولوجية حظيت باهتمام أقل من السلاحين الآخرين بالرغم من أنها ربما تمثل أكبر الخطر.

وقد لقيت الأسلحة الكيميائية قدراً أكبر من الاهتمام خلال العقد الماضى، ولاسيما بعد أن استخدمها العراق ضد القوات الإيرانية فى حرب ٨٠ ـ ١٩٨٨ بين العراق وإيران وضد المدنيين الأكراد فى عام ١٩٨٨. والأسلحة الكيميائية متوافرة بدرجة أكبر من الأسلحة النووية. والتكنولوجيا اللازمة لإنتاجها أشد بساطة. وهناك عدد كبير من الدول التى تنفذ برامج للأسلحة الكيميائية غير أن هذه الأسلحة ليست فى الواقع من نفس طبقة أسلحة الدمار الشامل الأخرى، بمعنى القدرة على إحداث عدد كبير من الإصابات بين المدنيين بضربة واحدة. ولإحداث عشرات آلاف الوفيات مثل تلك التى احدثتها مثلا عمليات القصف الإستراتيجى الكبرى فى الحرب العالمية الثانية، يكون من الصعب للغاية من ناحية التعبئة وتنفيذ العمليات استخدام الأسلحة الكيميائية بالكميات اللازمة فى مناطق واسعة.

ومع ذلك فقد وجه اهتمام كبير وبذل جهد كثير من أجل إزالة الأسلحة الكيميائية. وقد يكون ذلك أمرا مفيدًا، ولكن آثاره الجانبية قد لا تكون كلها حميدة. من ذلك مثلا أن حظر الأسلحة الكيميائية يعنى أن يصبح للأسلحة النووية أهمية فى الردع تزيد عما كان عليه الحال من قبل. وذلك لأن إبرام معاهدة لا يمكن أن يمنع بشكل مؤكد الدول المعادية من صنع الأسلحة الكيميائية، فى حين أن الولايات المتحدة تعهدت بعدم الرد بالمثل.

وفى الماضى كانت الولايات المتحدة تتبع سياسة ألا تكون البادئة باستخدام الأسلحة الكيميائية، ولكنها احتفظت بالحق فى الرد بها إذا قام العدو باستخدامها أولا. ومعاهدة الأسلحة الكيميائية لسنة ١٩٩٣، والتى دخلت



حيز التنفيذ فى أبريل الماضى، تشترط أن تدمر الولايات المتحدة المخزون لديها من هذه الأسلحة، وبذلك ينتهى هذا الخيار. وقد فعلت الولايات المتحدة نفس الشىء تجاه الأسلحة البيولوجية منذ أمد طويل، فى فترة رئاسة نيكسون. وإزالة الأسلحة الكيميائية والبيولوجية الأمريكية يحول عمليا دون تطبيق سياسة ألا تكون البادئة باستخدام الأسلحة النووية، لأنها تصبح أسلحة الدمار الشامل الوحيدة المتاحة لها لترد بها.

فهل ستلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام الأسلحة النووية ضد دولة أو جماعة قتلت عدة آلاف من الأمريكيين بمواد كيميائية قاتلة؟ من الصعب تصور الخروج على التحريم الذى نشأ بعد نجازاكى فى حالة كهذه. ولكن خطط الرد العسكرى التقليدى لن تكون كافية دون الانتقاص من قوة التهديد بالردع الأمريكى. وقد يخلق ذلك سابقة من جانب الولايات المتحدة تؤدى إلى استخدام البعض لأسلحة الدمار الشامل ضد أمريكا دون أن يتعرض مقابل ذلك لتدمير مماثل. ولن يؤدى الحد من نطاق بدائل الردع المتاحة للإستراتيجية الأمريكية بالضرورة إلى فشل الردع، لكنه بالقطع لن يزيد من قوته.

والميزة المفترضة لاتفاقية الأسلحة الكيميائية أنها تجعل من الأصعب حيازة تلك الأسلحة وأنها ستصبح غير مشروعة ولا مقبولة، كما كانت الأسلحة البيولوجية طوال ربع قرن. فإذا كانت لها هذه الميزة، ماذا سيكون تأثير الحظر على خيارات الدول أو الجماعات التى تحتاج إلى نوع من أسلحة الدمار الشامل على أى حال، سواء لأغراض الردع أو العدوان أو الانتقام؟ على الأقل سيؤدى الحظر إلى إنقاص الحوافز على عدم حيازة الأسلحة البيولوجية، لأنها لن تكون أقل بعدا عن الشرعية، أو أصعب فى الحصول عليها أو إخفائها، أو أكثر ضررا من الأسلحة الكيميائية. فإذا كان إنقاص الخطر الكيميائى بنسبة كبيرة سيؤدى إلى زيادة ولو ضئيلة فى الخطر البيولوجى، فإن المبادلة ستكون خاسرة.

وهناك حقيقة بسيطة تدعو الأمريكيين إلى القلق بشأن الأسلحة البيولوجية أكثر من قلقهم بشأن الأسلحة النووية أو الكيميائية، وهى أن الأسلحة البيولوجية، على خلاف النوعين الآخرين، تجمع بين القدرة التدميرية القصوى وسهولة الحيازة. فالأسلحة النووية لها قدرة هائلة على القتل، ولكن الحصول عليها ليس سهلا. والأسلحة الكيميائية يسهل الحصول عليها، لكن ليست لديها تلك القدرة على القتل. أما العناصر البيولوجية فلديها كلتا الصفتين.

وقد أجرى «مكتب تقدير التكنولوجيا» فى عام ١٩٩٣ دراسة خلصت إلى أن قيام طائرة واحدة بنقل ١٠٠ كيلوجرام من جرائيم الجمرة الخبيثة - وهى نوع من الجرائيم تتكاثر بسرعة داخل الجسم وتنتج سموما تؤدى إلى نزيف سريع - فى ليلة صافية هادئة فوق واشنطن فإنها يمكن أن تقتل ما بين مليون وثلاثة ملايين شخص، أى ما يزيد ٣٠٠ مرة على الخسائر التى يمكن أن تحدثها الطائرة إذا حملت غاز السارين بكميات أكبر بعشرة أضعاف(١).

والأسلحة البيولوجية، شأن الأسلحة الكيميائية ولكن بخلاف الأسلحة النووية، يسهل صنعها نسبيا، وقد أدت التجديدات فى التكنولوجيا الحيوية إلى تحاشى كثير من المشاكل القديمة فى التعامل مع العناصر البيولوجية وحفظها، وقد أصبح بعض هذه العناصر متاحًا لأغراض البحث العلمى. ولا يتوقع أن تكون الأسلحة الكيميائية هى المختارة من بين أسلحة الدمار الشامل لدى الجماعات الإرهابية من غير الدول: لأنها تحتاج إلى استثمارات ضخمة، وإلى بنية تحتية يسهل التعرف عليها، أو ضربها، وهى معرضة لتهديدات مؤكدة من جانب الولايات المتحدة. وسوف تجد الجماعة التى لها مطالب وتقرر أن تقتل أعدادا هائلة من الأمريكيين، أن الوصول إلى هدفها بالجمرة الخبيثة أيسر من الانفجار النووى.

وفى داخل البنتاجون، زاد القلق من الأسلحة البيولوجية خلال السنوات القليلة الماضية، ولكن ليس هناك اهتمام جدى بهذه المشكلة خارج البنتاجون، وقد يكون ذلك شيئا طيبا إذا لم يكن هناك ما يمكن عمله فى هذا المجال، إذ أن الحديث العلنى فى الموضوع ربما يكون مصدرا للأفكار التى يناقشها الأعداء. ولكنه يكون شيئا سيئا إذا حال دون اتخاذ خطوات - مثل الدفاع المدنى - يمكن أن تقلل من أثر أى من الضربات النووية أو الكيميائية أو البيولوجية.

مازالت هناك أفكار عتيقة تسيطر على المناقشات المتعلقة بأسلحة الدمار الشامل. ومازال الحديث يدور فى المؤسسة العسكرية حول «الردع» تلك الكلمة الإستراتيجية التى كانت تستخدم لجميع الأغراض فى الحرب الباردة. ولكن الردع لا يغطى الآن غير مخاطر أقل مما كانت الولايات المتحدة تواجهه أثناء الحرب الباردة.

فمنطق الردع يكون واضحًا عندما تكون المسألة هى الحيلولة دون عدوان يتم بلا استفزاز ولا يتسم بالغموض، وعندما يدرك المعتدى أنه المعتدى وليس مدافعاً عن النفس. ولكن الردع لا يكون مدعاة للاعتماد عليه عندما يرى كل من طرفى النزاع أن الآخر هو المعتدى.

وهذا القول كثيرا ما يكون صحيحا عندما تتدخل الولايات المتحدة فى منازعات العالم الثالث المختلطة. وفى هذه الحالة قد يرى الجانب الذى ترغب الولايات المتحدة فى ردعه أنه هو الراغب فى ردعها. ومثل هذه المواقف صالحة تماما للخطإ فى الحساب.

وبالنسبة للبلد الذى كان فى العادة موضوع الردع الأمريكى - أى روسيا - فإن العبء الإستراتيجى قد انقلب رأسا على عقب، لأنه استنادا إلى افتراض التفوق العسكرى للسوفييت فى المجال التقليدى، كانت الإستراتيجية الأمريكية تعتمد على ذلك الخطر للتصعيد - لأن تكون هى الأولى فى استخدام الأسلحة النووية أثناء الحرب - من أجل ردع أى هجوم من جانب الفرق المدرعة السوفييتية. أما الآن فقد تغيرت الأوضاع. فلم يعد هناك وجود لحلف وارسو، وليس لدى روسيا غير نصف القدرات العسكرية للاتحاد السوفييتى أو أقل، وقواتها التقليدية حاليا فى حالة فوضى، فى حين يتوسع حلف الأطلنطى فى اتجاه الشرق. وموسكو هى التى لديها الآن دافع للتعويض عن الضعف فى المجال التقليدى بزيادة الاعتماد على القدرات النووية. وقد تبنى الروس فى أوائل الثمانينيات سياسة ألا يكونوا البادئين باستخدام الأسلحة النووية ولكنهم تخلوا عن تلك السياسة بعد ضعف قوتهم الذى أعقب نهاية الحرب الباردة.

إن روسيا الآن فى حاجة إلى ما يطمئنها لا إلى ما يردعها. والخطر الرئيسى من أسلحة الدمار الشامل الروسية هو التسرب من مخزوناتها الهائلة إلى الجماعات المعادية لأمريكا فى مناطق أخرى - ما يسمى مشكلة «الأسلحة النووية السائبة». وما دامت الولايات المتحدة لا تعتزم مهاجمة الروس، فإن زيادة اعتمادهم على القوة النووية لا يمثل مشكلة.

وبالمثل، فإن التفوق العسكرى الأمريكى فى المجال التقليدى يعطى الصين حافزا للنظر فى زيادة الاعتماد على إستراتيجية ترمى إلى التصعيد. وقد كانت الصين تتبع منذ أمد طويل سياسة مؤداها ألا تكون هى الدولة البادئة، ولكنها اعتمدت هذه السياسة عندما كانت عقيدتها الإستراتيجية هى «الحرب الشعبية» التى تعتمد على التعبئة العامة والأسلحة ذات المستوى التكنولوجى المنخفض. وقد تعرضت تلك العقيدة لهزة شديدة نتيجة للأداء الأمريكى فى حرب الخليج.

وهنا أيضا ربما تفترض الولايات المتحدة أنه لا توجد مشكلة ما دامت بكين لا تريد غير الردع، والولايات المتحدة لا تنوى أن تهاجم. ولكن ماذا يكون وضع هذه الافتراضات إزاء احتمال نشوب حرب حول تايوان؟ وهو نزاع لا يريده أحد ولكن لا يمكن استبعاده على ضوء التوترات المتزايدة. فإذا قررت الولايات المتحدة أن تردع بكين عن مهاجمة تايوان، قد يكون التراث القديم من الحرب الباردة صالحا. ولكن إذا استمرت واشنطن فى ترك السياسة غامضة، فما هو السبيل إلى معرفة من الذى يردع الآخر؟ إن الغموض يؤدى إلى اضطراب الرؤية والخطأ فى الحساب فى وقت الأزمات.



هل ستلجأ الولايات المتحدة إلى استخدام الأسلحة النووية ضد دولة أو جماعة قتلت عدة آلاف من الأمريكيين بمواد كيميائية قاتلة؟

إلا أن المشكلة الأساسية بشأن الردع، هى أنه مازال يعتمد على مجموعة النظريات التى استندت إليها سياسة الحرب الباردة التى سيطر عليها الاعتماد على التهديد بالضربة الثانية الانتقامية، لكن الانتقام يتطلب معرفة من الذى قام بالهجوم، والعنوان الذى يقيم فيه. وهذان الشرطان لا يمثلان مشكلة عندما يأتى الخطر من حكومة، ولكنهما يصبحان مشكلة إذا كان العدو مجهولاً. وهناك اليوم جماعات ربما ترغب فى معاقبة الولايات المتحدة بدون الإعلان عن عملها - أى عملية للقتل الجماعى شبيهة بما حدث فى عام ١٩٨٨ من إسقاط طائرة بان أمريكان ١٠٣ فوق لوكيربى باسكتلندا. يضاف إلى ذلك أن الخيارات التى تفضلها المؤسسة العسكرية تحولت تحولا جذريا، من الردع إلى المنع. وأغلبية من كان لهم دور فى سياسة الأسلحة النووية أثناء الحرب الباردة، اعترضوا بشكل قاطع على تطوير خيارات الضربة الأولى. أما اليوم فليس هناك من يأخذ بذلك المنطق القديم، عندما يفكر فى الدول «الشريرة» أو فى الإرهابيين، ويأمل معظم المسئولين أن يتمكنوا من القيام بعمل حاسم ضد أية جماعة تملك أسلحة الدمار الشامل.

وابتداء من مفاوضات الحظر المحدود للتجارب فى الستينيات، وعبر محادثات تقييد الأسلحة الإستراتيجية ومحادثات خفضها، ومفاوضات الأسلحة النووية متوسطة المدى فى السبعينيات والثمانينيات، كانت معاهدات الحد من التسلح جوهرية فى إدارة مخاطر أسلحة الدمار الشامل. وقد دارت مناقشات حامية حول ما إذا كانت بعض الاتفاقات المحددة مع موسكو هى فى مصلحة الولايات المتحدة أم لا، لأن الجميع كانوا يعتقدون أن النتائج التى ستتوصل إليها لها أهميتها. أما اليوم فليس هناك اتفاق فى الرأى على أن المعاهدات التى تنظم التسلح لها أهمية كبيرة.

كما أن شريكة الولايات المتحدة فى الحد من التسلح أيام الحرب الباردة، وهى روسيا، قد نزعت بإرادتها الكثير من أسلحتها. ولكن على الرغم من الاعتبارات المعتادة، فإن الولايات المتحدة لم تمنح أولوية متقدمة لإقناع موسكو بأن تتجرد من المزيد من أسلحتها النووية، وقد اختارت إدارة كلينتون أن تشجع توسيع حلف شمال الأطلنطى، مما يدفع الروس فى الاتجاه المضاد.

على الرغم من كل جوانب النقص المستجدة سيظل الردع من الجوانب المهمة فى

الإستراتيجية. غير أنه لا حاجة بالولايات المتحدة لأن تفعل شيئاً كثيراً للحفاظ على قدرتها على الردع بالنظر إلى ما لديها من آلاف الأسلحة النووية، وتفوقها في المجال العسكرى التقليدى. ولكن حيثما تكون القدرات غير متطورة بشكل ظاهر يضيق المجال لتدابير التصدى إذا فشل الردع.

ومازال المتحمسون لتطوير القدرة الدفاعية، ومعظمهم ممن كانوا يؤيدون مبادرة الدفاع الإستراتيجي في سنوات ريجان، متمسكين بأقل أشكال تلك القدرة ملاءمة: أى الدفاعات الإيجابية المعتمدة على التكنولوجيا الرفيعة من أجل التصدى للصواريخ الباليستية. ومازال الاهتمام ضئيلا بالموضوع الذى يجب أن يحظى في الوقت الحالى بالأولوية الأولى: وهى الاستعداد للدفاع المدنى لمواجهة استخدام أسلحة التدمير الشامل داخل الولايات المتحدة. والدفاع الإيجابى ضد الصواريخ يتطلب استثمارات باهظة ربما تنجح أو لا تنجح خلال سنوات طويلة، ولكنه لا يحقق شيئا ضد الخطر الذى تواجهه بالفعل. فتدابير الدفاع المدنى رخيصة للغاية، ويمكن أن تكون في مواجهة هجوم محلى أكثر فاعلية منها في مواجهة هجوم سوفيتي واسع المدى.

وكان النقاش في فترة الحرب الباردة بشأن الدفاع ضد الصواريخ يدور حول ما إذا كان هذا الدفاع ممكنا من الناحية التكنولوجية، أو ما إذا كان يبرر تكاليفه، أو ما إذا كان سيثير السوفييت ويؤدى إلى إشعال سباق محموم بين الأسلحة الدفاعية والهجومية. ولسنا بحاجة للعودة إلى المعارك التى دارت حول مبادرة الدفاع الإستراتيجي لنرى أن أهميتها بالنسبة لمخاطر أسلحة الدمار الشامل الحالية أهمية ضئيلة. فلن يكون في وسع إيران أو العراق أو كوريا الشمالية أن تطلق قذائف عابرة للقارات إلا بعد سنوات. كما أنه إذا كانت هذه البلدان تتمتع بالذكاء الإستراتيجي لن ترغب في ذلك. وبالنسبة للعدد المحدود من الرؤوس النووية التى يحتمل أن تملكها هذه الدول، وخاصة بالنسبة لما تملكه من الأسلحة البيولوجية، فإن الوسائل الأخرى لنقلها متاحة بدرجة أكبر. ومن بدائل الصواريخ عابرة القارات، استخدام الطائرات، والصواريخ التى تطلق من السفن، والوسائل غير التقليدية مثل التهريب، التى برعت فيها أجهزة مخابرات تلك الدول. ولا شك في أن المتآمرين من غير الدول، مثل أولئك الذين فجروا قنبلة مركز التجارة العالمية، سوف يختارون الوسائل السرية بالضرورة.



الميزانية العسكرية
الأمريكية تزيد على الميزانية
العسكرية لكل من روسيا والصين وايران
والعراق وكوريا الشمالية
وكوبا مجتمعة

ونظام الدفاع المضاد للصواريخ عابرة القارات، سواء أكان يتكلف أقل أم أكثر من مبلغ الستين مليار دولار، التى قدرها مؤخراً مكتب الميزانية التابع للكونجرس، لن تكون هناك حاجة إليه إلا من أجل خيار واحد محدود، ولن يكون صالحا لمواجهة هذه الأساليب البديلة في الهجوم. بل إنه إذا كان المصدر الأكبر للقلق بشأن أسلحة الدمار الشامل في الوقت الحالى يرجع إلى الخوف من استخدامها من جانب الدول الشريرة أو الجماعات الإرهابية، فالاحتمال الأكبر أنه في وقت ما، في مكان ما من هذا البلد، سوف تنطلق بعض تلك الأسلحة، على الرغم من بذل أفضل الجهود لمنعها. فإذا حدث ذلك، يجب أن يكون لدى الولايات المتحدة كل التدابير اللازمة للحد من نتائج استخدامها.

وفي المراحل الأخيرة من الحرب الباردة، كان من الصعب إثارة اهتمام الجمهور بالدفاع المدنى ضد هجوم سوفيتي شامل، يمكن أن يؤدى إلى تفجير الآلاف من الأسلحة النووية، ذات العيار الثقيل في المراكز المأهولة بالسكان في الولايات المتحدة. وكان من رأى الكثيرين أن عدد الأشخاص الذين يمكن إنقاذهم، سيكون أقل بكثير من عدد الملايين الذين سيكونون في عداد المفقودين. غير أنه من الأيسر أن نرى جدوى الدفاع المدنى في سياق عمليات هجوم محدودة، ربما تكون بأسلحة قليلة وذات قوة منخفضة. وهناك العديد من التدابير البسيطة التى يمكن أن تزيد الوقاية من الأسلحة البيولوجية أو النووية أو الكيميائية، أو التغلب على أضرارها. ومن أمثلة ذلك تخزين أو توزيع الأقنعة الواقية، وتوفير المعدات والتدريب على إزالة التلوث، والبرامج واسعة النطاق للتطعيم والعلاج السريع بالمضادات الحيوية، وتوسيع وتعميق التخطيط لتدابير التصرف في حالة الطوارىء، وتوعية الجمهور بشأن سرعة اللجوء إلى المخابىء، والتحرك السريع للحد من التعرض الفردى للأخطار.

وهذه البرامج لن تجعل في الوسع استيعاب الهجوم بأسلحة الدمار الشامل، إلا أن عدم كفاية التدابير ليس مبررا لعدم اتخاذ الإجراءات التى يمكن أن تقلل من الوفيات والإصابات، حتى إذا كان الفرق في الخسائر ضئيلا. وستكون هناك أهمية كبيرة لتدابير الدفاع المدنى، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أنها رخيصة للغاية بالمقارنة بالبرامج العسكرية العادية أو أنظمة الدفاع بالصواريخ.

إن إحدى المشاكل هى مشكلة القصور الذاتى الفكرى، إذ إن الحرب الباردة جعلت رجال الإستراتيجية معتادين على التفكير في عدو لديه آلاف من أسلحة الدمار الشامل وليس في أعداء لديهم عدد ضئيل منها. وعلى امتداد عدة عقود، أثارت مسألة الدفاع الإستراتيجي أيضا حوارا، بين من لا يرون بديلا عن الاعتماد على الردع، ومن يأملون في إقامة غطاء كوكبى فوق الولايات المتحدة، قادر على أن يحل محل الردع. وليس بين هذه الأفكار العتيقة البالية ما يتصدى للأخطار الأقرب لأسلحة الدمار الشامل في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

والمعارضة في برامج الدفاع المدنى في فترة الحرب الباردة هى السبب النفسى الآن في تجنبها. فقد دأب معارضو هذه البرامج على القول بأن الدفاع المدنى وهم خطر، لأنه لن يفعل شيئا يذكر للحد من فظائع الهجوم الذى يمكن أن يقضى على مئات المدن، وقد يؤدى إلى شعور كاذب بالأمن، و يمكن أن يكون مزعزعا للاستقرار وحافزا للهجوم في وقت الأزمة. وسواء كانت تلك الحجج سليمة في ذلك الحين أو لم تكن، فهى ليست سليمة الآن. ولكن كان هناك في ذلك الوقت والآن أيضا سبب قوى لعدم الرغبة في تطبيق إجراءات الدفاع المدنى. وهو أنها تؤدى إلى انزعاج الجمهور، لأنها تذكره بأن تعرضه للدمار الشامل ليس حلما مزعجاً، وليس شيئا «تستطيع الخطط الإستراتيجية للردع، أو المنع، أو اصطياد الصواريخ، أن تحول دونه بشكل مؤكد.

إن في وسع الدفاع المدنى أن يحد من الأضرار، ولكنه لا يستطيع أن ينزل بها إلى الحد الأدنى، وقد يتمكن بعض الأعداء من تطوير وسائل بيولوجية لا تتأثر باللقاحات والمضادات الحيوية المتاحة الآن. (غير أنه يمكن التغلب على أصحاب القدرات التقنية الهامشية عن طريق إغلاق الطريق أمام الخيارات الأسهل). ولكن أيهما أسوأ: نواقص الدفاع المدنى، أم تحمل مسئولية عدم المحاولة؟ ففى اللحظة التى تُستخدم فيها أسلحة الدمار الشامل في مكان ما، بطريقة ينتج عنها عشرات الآلاف من الضحايا، ستكون هناك انفجارات هستيرية من كل نوع وسيكون من بينها بالتأكيد السؤال: «لماذا لم تهيئنا الحكومة لهذا الاحتمال؟».

وعندما يؤخذ خطر استخدام الإرهاب لأسلحة الدمار الشامل مأخذ الجد، سيزداد الاهتمام بتدابير الدفاع الوقائية - وأكثرها وضوحا هو تكثيف جمع المعلومات عن طريق المخابرات. وعندما يشمل ذلك تحديد فئات معينة داخل الولايات المتحدة يمكن أن تكون مجالات محتملة لتوالد الإرهابيين (مثل مؤيدى المناضلين الفلسطينيين، أو من يعملون على إنشاء ميليشيات محلية، أو المتطرفين الذين لهم ارتباطات بإيران والعراق وليبيا)، سوف تثور الخلافات حول الحدود الدستورية لانتهاك الخصوصية، أو حول أعمال الاعتقال والتفتيش. ومادام خطر أسلحة الدمار الشامل مجرد احتمال لا أكثر لن يكون من السهل تسوية هذه الخلافات. وهى لم تبرز حتى الآن لأن انفاذ القانون في الولايات المتحدة كان حسن الحظ بقدر غير معقول في القبض على الإرهابيين.

فالمجموعة التى اعتقلت في عام ١٩٩٣ لتخطيطها لتفجير قنبلة في نفق لنكولن تصادف أن كانت تضم في عضويتها أحد المبلغين في عام ١٩٩٥ وألقى القبض على «تيموثى ماكفى» لأنه كان يقود سيارته دون ترخيص. وعلى الذين يخشون الإضرار بالحريات المدنية، بسبب التوسع الحكومى في تدابير البحث والتنقيب، أن يفكروا فيما يمكن أن يحدث إذا لم يتوافر هذا الحظ الحسن مرة واحدة وأصبح من المتعذر معرفة مرتكبى الحوادث. ولنفترض أن جماعة إرهابية سرية متطرفة شنت هجوما بالوسائل البيولوجية ترتب عليه قتل مائة ألف شخص، وأعلنت أنها ستكرر هذا الهجوم مرة أخرى إذا لم يتم الاستجابة لمطالبها (قد لا تكون احتمالات هذا السيناريو كبيرة، ولكن لم يعد في الوسع القول بأنه لا يتجاوز حدود حكايات الخيال العلمى). ومن الصعب أن نستبعد في تلك الحالة أن يلجأ النظام القانونى الذى يسوده الفزع إلى اتباع خطى الماضى ومعاملة الأمريكيين العرب كما عامل الأمريكيون اليابانيين الذين سيقوا بعد بيرل هاربور إلى معسكرات الاعتقال. وربما يكون توسيع نطاق المراقبة الداخلية للحد من احتمالات مواجهة هذه الخيارات هو أهون الشرين.

ليس هناك بين البرامج الرامية إلى الحد من قدرات الأعداء برنامج يستطيع أن يقضى تماما على المخاطر. ومن تلك المخاطر أنه يمكن - في ظل سيولة السياسات في عالم ما بعد الحرب الباردة - أن تتعثر الولايات المتحدة في أزمة غير متوقعة مع روسيا أو الصين. وليست هناك قواعد مستقرة للعبة تحول دون تصاعد نزاع بشأن دول البلطيق أو تايوان، شبيهة بالقواعد التى كانت قائمة في المنافسة بين الدولتين العظميين بعد أزمة الصواريخ الكوبية. والخطر الثانى هو أن تعمل إحدى الجماعات الغاضبة التى تلقى باللوم على الولايات المتحدة في مشاكلها على فرض إرادتها على الأمريكيين، أو مجرد الانتقام منهم وذلك بإبادتهم حيث يعيشون.

وإذا كانت الخطوات التى يمكن اتخاذها بشأن القدرات محدودة، فهل يمكن عمل شىء للتصدى للنوايا - أى لدوافع أية دولة أو مجموعة أجنبية ترغب في توجيه ضربة للولايات المتحدة؟ ليست هناك إجابة عن هذا السؤال تتعارض مع النشاط الإستراتيجي الأساسى وتوجه السياسة الخارجية الأمريكية إلى القيام بدور دولى خلال نصف القرن الماضى. وذلك لأن أفضل وسيلة لمنع الشعوب من الاعتقاد بأن الولايات المتحدة مسئولة عن مشاكل تلك الشعوب هى تجنب المشاركة في منازعاتها.

ومنذ اتفاق ميونيخ وبيرل هاربر، كان هناك توافق في الرأى على أنه إذا لم يدفع الأمريكيون بخطوط دفاعهم إلى الأمام ويواجهوا المتاعب الخارجية في مراحلها المبكرة، فإن تلك المتاعب ستأتى إليهم داخل حدودهم. ولكن لأن الولايات المتحدة هى الآن الدولة العظمى الوحيدة، ولأن أسلحة الدمار الشامل أصبحت متاحة بدرجة أكبر، فإن

كتاب الزاوية

من شعر إبراهيم ناجى

شكوك

يا رامى السهم يدرى أين موضعه
منى ويعلم ما داريت من ألم
رميتَ فى ساحة موسومة بدم
منقوشة بندوب الحب والندم
لا يخدعنَّك منها وهى صامتة
صمت القبور فراغ الموت والعدم
فكم شفاه جراحات إذا انطبقت
جرح الإباء عليها غير ملتئم
فيم انتقامك من قلب عصفتَ به
لم يبق من موضع فيه لمنتقم
وفيم لذعة سخط من جوى برم
ترمى بجمرته فى جوف مضطرم!

أغنية
أنتِ

أنتِ إن تؤمنى بحبى كفانى
لا غرامى ولا جمالك فانى
أجدب الهجرُ خاطرى وخيالى
وأجف النوى دمى ولسانى
فتعالىْ روّى الظما فى عيونى
وا جنونى لقطرة من حنان
طال واللّه فى تنائيك ذلى
ووقوفى على ديار الهوان
أى روح أحسه أى سر
فى جناحيك كلما ظللانى
أى روح أحسه أى سحر
سكبت فىّ هاته العينان
لكأن الرميم ما تبعثان
وكأن النشور ما تسكبان
وكأنى محلق فى سماء
ومطل منها على الأكوان
مستعز بما منحت قوىٌ
أجمع الكون كله فى عنان



الخطر الرئيسى من أسلحة الدمار الشامل الروسية هو التسرب من مخزوناتها الهائلة إلى الجماعات المعادية لأمريكا فى مناطق أخرى

التدخل الأمريكى فى مناطق المنازعات لم يعد وسيلة لإبعاد تلك المخاطر بقدر ما هو وسيلة لتحريكها.

فهل سيؤدى تدخل الولايات المتحدة فى الأوضاع غير المستقرة المحيطة بالاتحاد السوفيتى السابق إلى تجنب النزاع مع موسكو أم يكون دافعا إليه؟ وهل سيؤدى توسيع حلف الأطلنطى وانتقاله إلى أبواب روسيا إلى ردع الضغط الروسى على أوكرانيا ودول البلطيق أم سيكون باعثا عليه؟

فى حالة روسيا والصين، الاحتمال قليل لأن تشرع إحداهما فى غزو أوروبا أو آسيا، ولكن يحتمل أن تعملا على عودة مجالات السيادة ومناطق الأمن القديمة عن طريق إعادة ضم تايوان أو الدول الجديدة التى خرجت من الاتحاد السوفيتى السابق. وليس معنى ذلك أن توسيع حلف الأطلنطى أو تأييد استقلال تايوان سيؤدى إلى نشوب حرب نووية، وإنما يعنى أنه مهما تفعل السياسة الأمريكية لن يكون مجديا مادامت هناك حوافز لهذين البلدين للاعتماد على أسلحة الدمار الشامل بسبب الاحتكاك السياسى بينهما وبين واشنطن.

والخطر الأساسى الثانى هو سخط الدول أو الجماعات الدينية والثقافية الأصغر حجما التى ترى أن الولايات المتحدة هى قوة الشر التى تقف فى طريق تطلعاتها المشروعة.

ولم يكن واردًا أن يعمد المتطرفون فى الشرق الأوسط إلى رسم خطط مثل تدمير مركز التجارة العالمى لولا أنه استقر فى الأذهان منذ أمد طويل أن الولايات المتحدة هى السند الأول لإسرائيل ولشاه إيران وللأنظمة العربية المحافظة، وأنها مصدر الهجوم الثقافى على الإسلام. وقد أدى الانتصار فى الحرب الباردة إلى تضخيم المشكلة، وأصبح ارتباط الهيمنة العسكرية والثقافية للولايات المتحدة - وهما الخطران الأساسيان اللذان يواجهان المتطرفين الذين يريدون تغيير الأوضاع القائمة - ارتباطا مباشرا بما ينسب إلى الولايات المتحدة من المسئولية عن الإبقاء على النظام العالمى. ولما كانت الولايات المتحدة تلعب دور الشرطى الدولى فإن ذلك يزيد من رغبة الفئات الساخطة فى توجيه ضربة مضادة إليها.

هل تعتبر هذه دعوة إلى العزلة؟ كلا. فقد فات الأوان لتهدئة السخط فى الدول الخارجية عن طريق التراجع، حتى لو كان ذلك مقبولا - فالجماعات والحكومات التى تشعر بالاغتراب لن تكف عن إلقاء اللوم فى مشاكلها على واشنطن. بالإضافة إلى أن للسياسة الخارجية أهدافا تتجاوز تهدئة الحوافز الرامية إلى الإضرار بالولايات المتحدة. وليس من المنطقى التوقف عن السعى لتحقيق أهداف أخرى من أجل تقليل خطر غير مؤكد يتعلق باحتمال غير مؤكد. فالأمن ليس شيئا واحدا، والبقاء على قيد الحياة ليس إلا جزءا من الأمن.

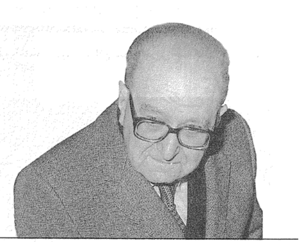
لكنه لم يعد من الحكمة افتراض أن المصالح الأمنية المهمة يكمل بعضها بعضا كما كانت الحال فى وقت الحرب الباردة. والمصلحة الجوهرية - وهى حماية الوطن الأمريكى من الهجوم - كثيرا ما تتعارض الآن مع النظرة الأكثر اتساعا إلى الأمن ومع الاهتمامات التى تشجع على تعزيز القيم السياسية الأمريكية، والاعتماد الاقتصادى المتبادل، وفرض القيم الاجتماعية الغربية، وضمان الاستقرار فى مناطق تتجاوز أوروبا الغربية والأمريكتين.

ولا ينبغى للولايات المتحدة أن تتخلى عن كل مصالحها السياسية الأرحب، ولكن عليها أن تتحرك بحذر فى بعض المناطق - وفى مقدمتها الشرق الأوسط - حيث تتصادم المصالح الأرحب مع المطلب الجوهرى، وهو منع الدمار الشامل داخل الحدود الأمريكية. ■

Foreign Affairs, Vol. 77 No.1

ترجمة: أسعد حليم





روجيه جارودى

شاهد القرن العشرين*

كامل زهيرى

في ۱۷ من يوليو عام ۱۹۹۸ بلغ روجيه جارودى الخامسة والثمانين. وفي هذه المناسبة أصدر جارودى كتابه السابع والخمسين. وعنوانه «أمريكا طليعة الانحطاط. كيف نعدّ للقرن الواحد والعشرين» ثقافة موسوعية ورؤية ثاقبة، تعكس حياة عميقة عريضة، مليئة بالفكر والمصاعب، والعمل والمعارك، جعلت من روجيه جارودى بحق شاهدا على عصره، بل وشاهدا على القرن العشرين.

فقد ولد روجيه جارودى قبل عام من الحرب العالمية الأولى في مارسيليا عام ۱۹۱۳. وكان أبوه المحاسب قد أصيب في الحرب الأولى وعاد معوّقا. واستحق روجيه الصغير مجانية التعليم لهذا السبب، رغم استحقاقه لها لنبوغه المدرسي المبكر. وقد حارب جارودى بدوره في الحرب العالمية الثانية وهو في السادسة والعشرين. ولكنه نقل من الجبهة الأوروبية إلى شمال أفريقيا لآرائه السياسية. واعتقل ۳۲ شهرا، ولم يفرج عنه إلا بعد نزول القوات الأمريكية في شمال أفريقيا. وعمل جارودى في الجزائر مديرا لتحرير مجلة «ليبرتيه» أو الحرية، ومذيعا في «راديو فرنسا»، ولكن السلطات الفرنسية أبعدته عن الجزائر، بعد احتجاج غاضب من روبرت مورفى ممثل أمريكا في الجزائر حينذاك، لأن جارودى هاجم في مجلته «ليبرتيه» أمريكا لتباطئها في فتح الجبهة الثانية في أوروپا. وانتقل من الجزائر إلى تونس.

وقد روى لنا جارودى مرتين أطرافا من حياته أيام الشباب. الأولى في رواية من تاليفه، اختار لها بالقصد عنوان «آنتى»، أحد أبطال الأساطير الإغريقية. ثم عاد إلى اعترافاته مباشرة في مقدمة كتاب سياسي أصدره عام ۱۹٦۸، وذلك العام شهد في پاريس أحداث الطلاب وإضراب العمال وسخط المثقفين واستقالة ديجول، وغزو السوڤييت لبراغ، وتصاعد أزمته مع قيادة الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد انتهت إلى فصله في فبراير عام ۱۹۷۰.

ولكنني أمام تلك السيرة المليئة بالأحداث والمسيرة الغنية بالمواقف توقفت أولا ـــ وكثيرا ـــ عند لحظة لها دلالة عند اعتقاله في صدر الشباب. خلال الحرب العالمية الثانية عام ۱۹٤۱. وكان جارودى في الثامنة والعشرين. وقد رواها لنا في كتاب ثالث: «حوار الحضارات»، وفي مقدمة طبعته العربية قائلا:

«كان أول احتكاك في حياتي الشخصية مع الإسلام احتكاكا برجال أعتبر نفسي مدينا لهم بحياتي. ففي الرابع من مارس عام ۱۹٤۰، كنا نحو خمسمائة مناضل من المعتقلين والمسجونين. لأننا كنا نقاوم الهتلرية. ونقلنا جميعا إلى «جلفة» جنوبي الجزائر. وكانت الحراسة علينا في المعتقل مشددة. إذ تحيطه الرشاشات والأسلاك الشائكة. وفي ذلك اليوم، وبالرغم من أوامر قومندان المعسكر، وهو فرنسي، نظمنا مظاهرة ـ داخل أسوار المعتقل ـ على شرف رفاقنا من قدامى المتطوعين في الفرقة الدولية الإسپانية (ضد فرانكو). وأثار عصياننا حفيظة قائد المعسكر. فاشتعل غضبا. وأنذرنا بأنه سيأمر بإطلاق النار علينا مالم نعد إلى خيامنا فورا. وأنذرنا ثلاثا. ولكننا مضينا في عصياننا. فأصدر القومندان أمره إلى الجنود حاملي الرشاشات بإطلاق النيران. وكانوا جنودا من جنوبي الجزائر. ورفض الجنود أن يضغطوا على الزناد! وهددهم القومندان الغاضب بكرباجه. ولكنهم أصروا على رفض أوامره!!».

ويقول جارودى عن تلك اللحظة التي لم يتوقعها: «وما أجدني حيا إلى الآن إلا بفضل هؤلاء المحاربين المسلمين». «فقد أوضح لنا أحدهم سبب رفضهم إطاعة أوامر القومندان. بقوله: ليس من شرف المحارب أن يطلق الرجل المسلح ناره على أعزل».

وأحسب أن تجربة تعرض جارودى للموت وهو في الثامنة والعشرين هزت أعماقه هزا. وهي تكاد تشبه تجربة الروائي الروسي فيودور دوستويفيسكى عندما صدر عليه حكم بالإعدام. وقبل التنفيذ بدقائق، وصل قرار بالعفو من القيصر.

وقد تكشف رؤية الموت المحقق للإنسان أسرار الحياة في لحظة.

فلقد روى روجيه جارودى هذه التجربة العنيفة التي هزته، في مقدمة كتابه «حوار الحضارات» قائلا:

«وبدءًا من هذه التجربة، أخذت منذ إطلاق سراحي في الجزائر، ثم في تونس أدرس الإسلام. ثم نشرت عام ۱۹٤٥ في الجزائر رسالة أولى، كان عنوانها: «إسهام الحضارة العربية التاريخي في الحضارة العالمية» - مطبوعات ليبرتيه.

وقد أعقبت تجربة التعرض للموت ثم النجاة: تجربة أخرى أو حادث آخر كان له أيضا مغزى عند جارودى. حين انتقل من الجزائر إلى تونس. وهناك قدمه عميد الزيتونة فضل بن عاشور لجمهور غفير، وكان يترجم محاضرته من الفرنسية إلى العربية. وانتهت محاضرته عن الحضارة العربية بطرده وإبعاده عن تونس، بأمر «هاست» المقيم العام الفرنسي الذي اتهمه بالدعاية المعادية لفرنسا!

وكان جارودى قد استند في محاضرته عن «فضل الحضارة العربية» إلى حوار وضعه الروائي الفرنسي أناتول فرانس في كتابه «الحياة المزهرة». ويقول أناتول فرانس في حوار خيالي في ذلك الكتاب:

«سأل السيد دوبوا» مدام فوربيير عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا. وكانت لا تعرف. فقال لها دوبوا: إنه يوم معركة «پواتييه» فقد تراجع العلم والفن والحضارة العربية عام ۷۳۲، أمام الهمجية الفرنجية.

وعقب تلك المحاضرة، أصدر المقيم العام الفرنسي قرار الإبعاد. فقد كان ممنوعا في عهد الحماية الفرنسية على تونس ذكر الحضارة العربية أو دورها في تاريخ الحضارات الإنسانية.

ولقد ظلت مفاجأة المعتقل في الجزائر، وحادث الإبعاد عن تونس، وقصة معركة پواتييه، لاتبارح روجيه جارودى.

فكيف له ـــ كما يقول بعد ذلك في عدة كتب ـــ وقد نال أعلى الدرجات الجامعية وهي الأجرجاسيون في الفلسفة، ولم يحدثه أحد عن حضارة «أخرى» استمرت في التاريخ، وكان لها فضل نقل الفكر الإغريقي إلى أوروپا عن طريق إسپانيا وصقلية!

ولماذا تُدرِّس الفلسفة في كبرى وأعرق الجامعات الأوروپية بينما الغرب يتركز على ذاته، ويفترض ثم يفرض أن ما خلا الحضارة الأوروپية لا شيء، والحضارة الأوروپية كل شيء. بل هي حضارة الإنسانية كلها؟!

ولسوف نشهد مرارا عند جارودى بعد ذلك في عديد من كتبه، ذلك الوقوف والمقارنة بين معركة پواتييه في غرب أوروپا ومعركة ماراتون بين الإغريق والفرس قبل الميلاد، مع الفارق الكبير في المكان والزمان.

وقد نشر روجيه جارودى حتى الآن تسعة كتب عن «حوار الحضارات» لإيمانه بأن الحضارات الأخرى غير الأوروپية، فيها من الكنوز الفكرية والقيم الدينية والاكتشافات العلمية والآثار الفنية، ما يحتاج إلى الدرس والفهم والحوار. وليس الدرس متحفيا من أجل المتاحف، أو من فضول الاستشراق والبحث عن الغرائب والطرائف، أو لمجرد الولع ببحث تاريخي موسوعي يستقصي الأسرار والدقائق كما تفعل الموسوعات. ولكنه بحث غايته ـــ كما يجب أن تكون غاية البحث ـــ أن يكتشف الإنسان في كل حضارة إنسانية عبر التاريخ إنسانية الحضارة. أي البحث عن «الروح» و«الغايات».

وبين كتبه التسعة التي تعرض فيها للثقافات والحضارات، كانت الباكورة عن الحضارة العربية الإسلامية عام ۱۹٤٦، ثم كتابه عن «الصين» عام ۱۹٦۷، ثم «حوار الحضارات» عام ۱۹۷۷، و«لكي يصبح الإنسان إنسانا» و«وعود الإسلام» عام ۱۹۷۸، ثم «الإسلام يقطن في مستقبلنا» عام ۱۹۷۹، و«فلسطين والرسالات المقدسة» عام ۱۹۸٦، ثم «المسجد مرآة الإسلام» ۱۹۸۷.

وجارودى يتحدث عما أسماه «الفرص الضائعة» أمام الغرب. «فلقد افترى الاستعمار الإنجليزي والإسپاني والفرنسي، فيما قام به في أرض الإسلام خلال أكثر من قرن، افتراء منهجيا لإساءة سمعة إسهام الحضارة العربية».

ويقول في «حوار الحضارات ص ۹۷:

إن ما يطلقون عليه اسم «غزو إسپانيا» لم يكن غزوا عسكريا. فلقد كان عدد سكان إسپانيا في ذلك الحين زهاء عشرة ملايين نسمة. ولم يزد عدد الفرسان العرب في الأرض الإسپانية على سبعين ألفا. وإنما لعب التفوق الحضاري دورا حاسما.

وعندما رحل الراهب الفرنسي جربير للدراسة في جامعة قرطبة، عاد منها وقد بلغ من العلم مبلغا.

«إننا ندين للعلم العربي بكليات الطب الفرنسية الأساسية، وقد كانت مونبلييه في طليعتها. وظلت كتب الطب العربية مثل كتب «الرازى» الشهيرة تنشر وتدرس حتى القرن السادس عشر في فرنسا، وحتى منتصف القرن التاسع عشر في إنجلترا.

وقد عرفوا الجبر بأكثر مما نعترف لهم به. والشاعر عمر الخيام الذي عاش حوالي سنة ۱۱۰۰، توصل إلى حل معادلات الدرجة الثالثة، باستخدام نفس الطريقة التي سيستخدمها «ديكارت» بعد خمسة قرون. وبذلك وضع أسس الهندسة التحليلية. وظل كتاب الجبر الكبير الذي ألفه عمر الخيام وترجم إلى الفرنسية مرجعا معتمدا حتى عام ۱۸٥۷».

وجارودى يتوقف في كتبه مرات عديدة عند دور ابن خلدون والرازي وابن سينا وابن الهيثم وابن النفيس وأحمد بن ماجد والإدريسي وغيرهم، ويقول: في «حوار الحضارات»:

«بينما كان الغرب لا يعرف في علم التاريخ غير التأريخ، وتسجيل الأحداث، جمع ابن خلدون بين الملاحظة الشخصية لرجل السياسة والتأمل النظري، فتحدث عن تأثير المناخ والجغرافيا والظواهر الاقتصادية في حياة الشعوب. وتميز ابن خلدون بالمنهج السببي في التاريخ، وسبق مونتسكيو وميكيافيللي، ثم تميز بروحه التي تبحث وراء الظواهر عن الأسباب».

ويقول في «وعود الإسلام»:

بلغ الطب الإسلامي ذروته منذ القرن الثامن، بينما كانت الكنيسة المسيحية قد جمّدت منظور الطب. ففي مجمع لطران عام ۱۲۱٥ قرر البابا أونيست الثالث «أن يحرّم على كل طبيب علاج أي مريض مالم يعترف أولا، لأن المرض في الأصل هو نتيجة ارتكاب الخطيئة».

ولذلك لم تكن كلية الطب في جامعة

پاريس تملك أى مـؤلف فى الطب يلخص علومه من العصور القديمة حتى عام ٩٢٥ مثل كتاب الرازى (٨٦٥ ـ ٩٢٥)، الذى ظل العمل العلمى المعتمد خلال عشرة قرون، وطبعت منه أربعون طبعة ما بين عامى ١٤٩٨ و١٨٦٦. وظل ذلك مرجعًا نحو ألف عام حتى كلود برنار. وقد ترجم فاراجو كتاب الرازى إلى اللاتينية عام ١٢٧٩.

ويقول: فى « حوار الحضارات» :

«وعندما كانت أوروپا غير قادرة فى مستهل القرن التاسع على معرفة القراءة، افتتح الخليفة المأمون فى بغداد بمساعدة جيش من الكتاب والمترجمين مكتبة ضخمة هى «دار الحكمة»، وكان يحفظ فيها جميع آثار الحضارات القديمة. وكان للحاكم ـ أحد الخلفاء الأمويين ـ مكتبة فى قرطبة تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد، بينما لم تضم مكتبة شارل الخامس ملك فرنسا الملقب بالحكيم ـ والحكيم يعنى العالم ـ إلا ألف كتاب بعد أربعة قرون.

بيد أن العرب لم يقتصروا على إحياء الثقافة القديمة، وإنما أسهموا إسهام إبداع ضخم فى الثقافة العالمية.

ومن شأن اكتشافاتهم الكبرى أنها ترتبط بطبيعة نظامهم الاقتصادى ذاته. فقد سعوا وهم يقيمون إمبراطورية تجارية إلى تنمية التقنيات والعلوم التى قفزت قفزة كبرى إلى الأمام بتأثيرهم. وحملهم جوب البحار واجتياز الصحارى على أن يجيدوا معرفة الجغرافيا الفلكية. وقد بنوا المراصد الأولى فى العالم، فى سمرقند، ودمشق، وبغداد، والقاهرة وقرطبة.. وفى القرن الثانى عشر، تنطلق خرائط الإدريسى من أن الأرض كروية.

.. ولقد أذهلت ريادة ماركو پولو الغرب. والثابت أن مؤلفا عربيا تحدث سنة ٨٣١، أى قبل ماركو پولو بـ ٤٢٥ سنة عن رحلة إلى الصين وصل خلالها إلى سدود كانتون، بل بلغ فيها بلا ريب إلى كوريا واليابان.

وقد وضع مسلم ـ أحمد بن ماجد ـ كتابا عن الملاحة البحرية فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى وبحر الصين».

ويتحدث جارودى أيضا عن ابن سينا المولود فى بخارى عام ٩٨٠، وكتابه فى الطب الذى ترجمه جيرار دى كريمون إلى اللاتينية. وقد ظل ذلك الكتاب حتى عصر النهضة هو موسوعة الطب «لصفاء فكره فى تصنيف الأمراض والدراسة المنهجية».

وكذلك الفلكى المهندس عالم البصريات، ابن الهيثم، المولود فى البصرة عام ٩٦٥، والمتوفى فى مصر عام ١٠٣٩، فلم يتردد روچر بيكون الذى تعلم فى الجامعات الإسلامية فى إسپانيا فى نقل الجزء الخامس من مؤلفه على أنه «ريادة فى المنهج التجريبى والعلم الحديث».

ويقول جارودى فى كتابه «الإسلام يقطن فى مستقبلنا» (الطبعة المزودة بالصور) ص ٨٧:

«هذه أول أسطورة للمركزية الأوروپية، ولابد من تبديدها. فلقد أثرت الحضارة العربية الإسلامية خلال ألف عام فى الماضى، وأعدت للمستقبل. وكان ذلك عبر إسپانيا وصقلية».

وتأثير الحضارة العربية الإسلامية تحقق بترجمات اللاتينية للأعمال الإبداعية الإسلامية الأصيلة فى طليطلة، وقام بترجمتها المطران ريمون (١١٢٦ ــ ١١٥١) بدعوة من ألفونس السادس، كما قام بها ملك صقلية الذى ترجم فى عهده كتاب الحيوان لابن سينا، وتعليقات ابن رشد على أرسطو ليصل بها إلى جامعات الغرب.

كانت هذه الأعمال القادمة من إسپانيا وصقلية تحولا، ولذلك يرفض أن يعتبر أوروپا مركز كل التاريخ، قائلا إن التطور الإنسانى كلٌ، ويرفض أن يعتبر الفترة من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر كانت مجرد «ثقب أسود» بل كانت ذروة، لأن النهضة الأوروپية لم ترث مباشرة تعليم الحضارة الإغريقية، والمسيحية ليست امتدادا للعبقرية الهلينية، ولم يكن سان توماس خليفة أرسطو، وجاليليو لم يطور العلوم فى القرن ١٧ التى توقفت بعد موت أرشميدس فى القرن الثالث قبل الميلاد.

وأتذكر الآن عام ١٩٦٦ حين زار القاهرة أندريه كاريل رئيس تحرير «الأومانيتيه» جريدة الحزب الشيوعى الفرنسى، العدد الأسبوعى، مع أتيين فاجو رئيس تحرير العدد اليومى، وكان اللقاء فى دار الهلال فى مكتب أحمد بهاء الدين، حين قلت لكاريل:

ـ إن القراء فى مصر والبلاد العربية يتابعون بشغف مايكتبه روچيه جارودى.

وقد لمحت أن السعادة لم تبد على وجه أندريه كاريل، فقلت مستأنفا: إن روچيه جارودى من الذين كتبوا عن فضل الحضارة العربية، وهو الذى كشف لى ابن خلدون فى عام ١٩٥٠.

ولكن كاريل لم يتكلم ورمقنى بنظرة انتظار.

فقلت: إن ابن خلدون له قيمة عظيمة عندنا، ولنا. وأذكر أن دكتوراه مفكرنا الكبير الدكتور طه حسين كانت فى پاريس عن ابن خلدون. وأذكر أيضا أن چورج دانى عميد كلية الآداب بجامعة السوربون عام ١٩٥٠ كانت رسالته عن ابن خلدون أيضا.

فقال فاجون:

ــ وما كتاب جارودى هذا؟

قلت:

ــ لقد طبعته «دار النشر الاجتماعية» عام ١٩٦٤، وهى دار نشركم فى پاريس.

فقال أندريه كاريل:

إن جارودى مفكر كبير بلا شك. ولكن زملاءه يعيبون عليه فى اللجنة المركزية هذه الاهتمامات التى تأخذ عليه كل قلبه وعقله ووقته.

وبقيت صامتا.. أنظر.

فقال أندريه كاريل:

إن زملاءه.. (وضغط كاريل على كلمة زملائه).. إن زملاءه يعيبون عليه أنه أصبح هذه الأيام يهتم بتطورات الكنيسة اهتماما لا يفهمون له سببا.

ولقد دخل جارودى على أعضاء اللجنة المركزية ذات يوم، وهو يلهث، ويتصبب عرقا من الفرح.

وقال لهم:

ــ عندى نبأ خطير سوف يهز عالم الفكر وحياة المفكرين!

فالتفت إليه زملاؤه الأعضاء وتربصت به الأنظار انتظارا أو استنكارا.

وقال جارودى:

ــ لقد أعلن الفاتيكان اليوم قرار العفو عن العالم جاليليو.

(وهو الذى أصدرت الكنيسة حرمانه عام ١٦٣٣ بسبب اكتشافاته العلمية لتأييده فكرة كوبرنيكوس حول دوران الأرض).

وحدجه الحاضرون بالنظرات. وقال أحد الأعضاء فى رنة ساخرة ما معناه:

« ما هو بدرى»!

وحين حكى أندريه كاريل هذه القصة ضحك أيضا، وضحك معه أتين فاجو رئيس التحرير العجوز.

ولكننى لم أشارك فى الضحك، لأننى كنت أترجم فى مجلة الهلال ــ عام ١٩٦٦ ــ فصلين من كتاب «واقعية بلا ضفاف» عن پيكاسو وفرانز كافكا، وهو الكتاب الذى وصفه الشاعر أراجون فى مقدمته بأنه حدث ثقافى خطير، لأنه ينتقد الواقعية الاشتراكية من منظور المفكر الستالينى زوانوف.

ونحن أمام كاتب موسوعى وأستاذ فلسفة وقارئ محترف. لأنه قرأ كل أعمال ماركس كما يقول فى عامين ولخصها على كروت. وعاش عاما فى الاتحاد السوفيتى مراسلا للأومانيتيه، وتجول فى آسيا الوسطى وأرمينيا وأوكرانيا ودول البلطيق.

وحصل على الدكتوراه من پاريس فى ٢٥ من يونيو عام ١٩٥٣ عن «النظرية المادية فى المعرفة». وكان أول فرنسى يحصل ــ (٥ يوليو ١٩٥٤) ــ من معهد الفلسفة فى أكاديمية العلوم على درجة الدكتوراه عن «الحرية».

وطاف حول العالم عدة مرات. لأنه تجول عام ١٩٤٩ فى ١٤ دولة فى أمريكا اللاتينية، من المكسيك إلى پيرو، ومن البرازيل إلى كوبا. وكان بصحبة الشاعر پول إيلوار، وصادق الشاعر بابلو نيرودا، والرسام دييجو دى ريڤيرا.



وهو كاتب موسوعى المزاج. ففى عام ١٩٤٦، وهو نائب عن مدينة تارن بالقرب من مارسيليا، مسقط رأسه، كان ينظم إضراب عمال الزجاج، ولكنه يضع مشروع موسوعة للنهضة الفرنسية بمناسبة مرور مائتى عام على موسوعة ديدرود، ويدعو للمشاركة فيها أراجون وإيلوار وپيكاسو وجوليو كورى ولوى چوفيه وكوربوازييه وهنرى ماتيس.

وقد أمضى عامين ــ وهو فى بداية انتخابه نائبا ــ يجوب دائرته الانتخابية على دراجته البخارية، ينتقل بين عمال المناجم والفلاحين، وليصبح مدرسا للفلسفة، ونائبا ــ فى نفس الموقع ــ فى التدريس والبرلمان الذى احتله چان جوريس قبل حرب عام ١٩١٤. وكثيرا ما كان يتذكر هذا الشعار الذى كتبه جوريس الذى اهتم أيضا بالتاريخ القديم والحديث قائلا:

علينا أن نبحث فى الماضى عن الجذوة المتقدة، وألا نكتفى من الماضى بالرماد.

وهكذا ظل جارودى خصما عنيفا للاستعلاء وإنكار الآخر، وظل من عشاق الحوار، والتواضع النبيل للتعلم من تجارب الآخرين.

ولقد ترك دراجته البخارية التى كان يركبها فى شبابه ليدور حول العالم عدة مرات.

ويقول جارودى فى «حوار الحضارات»:

ـ «إن تجربتى بالحياة هى التى قادتنى إلى هذا اليقين، وأوجبت علىّ الإدلاء بشهادتى.

إنها شهادة على تجربة كونية تشمل الكرة الأرضية بأسرها. شهادة غبطة بالثراء الإنسانى الذى حملته إلىّ ثقافات لا غربية، وأناس من آسيا، ومن الأصقاع الإسلامية، ومن إفريقيا، ومن أمريكا اللاتينية.

إنها شهادة تتناول ما بحثت عنه، وما أعتقد أننى اكتشفته فى كل ثقافة من هذه الثقافات. لدى كل إنسان من هؤلاء الناس. شهادة بالطابع الإلهى.

لقد حلقت فوق ذرى العالم كلها. من كليمنجارو إلى هماﻻيا. ومن سلاسل كورديلير فى الأند إلى براكين جاوة وجبال فوجياما المقدسة أو إلى جبل إكونج فى بالى.

واغتسلت فى مياه بحور العالم كلها. من المياه الثقيلة فى البحر الميت، إلى البحيرات الساحلية فى بحار الجنوب. ومن الكاريبى إلى المحيط الهندى. وفى النيل وبحيرة بيكال، وفى الأمازون، وفى يامونا المتدفق نحو الجانج وباتجاه بناريس.

وقد اجتزت الأبواب جميعا. من باب الهند فى بومباى إلى باب الشرق فى ميسورى.

واستطعت الوقوف للتأمل فى جميع المرتفعات التى ترك الإنسان فيها طابع آثاره. من «أبادانا» برسيبوليس التى شيدها دارا وكسرى، وأحرقها الإسكندر، إلى مدن مايا ومعابدها، إلى بالنك أو إلى حشائش إيتزا الطافية فى خضم الغابات المكسيكية، وإلى جواتيمالا، ومن أطلال نينوى وبابل وكتزيفون إلى أبواب بغداد، وأهرام الجيزة فى مصر، وأهرام توتينو كان فى المكسيك، وزيكارت «أور» حيث ولدت الحضارة الأولى، إلى مصب دجلة والفرات، ومرصد أولنج بك حفيد تيمور لنك، إلى سمرقند فى آسيا الوسطى، ومعابد نارا فى اليابان، وشبنا فى جزيرة الفانتا بالقرب من بومباى، وقباب المساجد التى تحاكى عقد اللؤلؤ ــ من الأطلسى إلى الهند ــ ما صغر منها كأنه اللآلئ فى تلمسان، وما عظم منها كما فى السليمانية، أو الجامع الأزرق فى إسطنبول، والمسجد الجامع فى أصفهان، وهو يلخص الفن الإسلامى الفارسى. إلى تلك المساجد التى يثابر المسلمون على تأمل عقيدتهم فى رحابها مثل «الزيتونة» فى تونس، و«الأزهر» فى القاهرة، أو تلك التى كانت نداء حب مثل «تاج محل» فى الهند، أو التى بناها تيمور لنك فى سمرقند لـ «بيبى خانون»، المرأة الصينية التى حظيت بإعجابه.

وقد استطعت مناقشة دلالة «قناع» إفريقى مع الشيوخ التسعة لقبائل «جورو» فى ساحل العاج، أحد المعاقل الزنجية، كما ناقشت عظمة الثقافة الهندو ــ أمريكية مع أحد رؤساء «إيركوا».. وناقشت «الزكاة» مع علماء الأزهر فى القاهرة.

إن التحليق فوق الذرى، والاستحمام فى مياه البحار والأنهار، واجتياز الأبواب كلها، والتأمل فى كل القمم التى أبدعها الإنسان، كل ذلك إنما يرمز أيضا إلى ما رفدنا به، عندما نحسن الإصغاء بتواضع، لأولئك البشر الذين يحيون اليوم. وما ينبئونا به عن أشواقهم الإنسانية، والمشروعات التى يحلمون بها عن المستقبل».

وبعد..

لقد بلغ روچيه جارودى الخامسة والثمانين. وهذا هو كتابه السابع والخمسون.

وفى كتابه الجديد يتهم الصهيونية وأساطيرها وعدوانها، ويتهم أمريكا لأنها «طليعة الانحطاط». ويبين فى اتهامه الحيثيات والأسباب، لنظام عالمى جديد يوشك أن يكون عالما جديدا بلا نظام. وهو كتاب شاهد على العصر، بل شاهد على القرن العشرين، ينظر مؤلفه إلى الماضى ليكتشف الجذوة، ولا يكتفى من الماضى بالرماد. وينظر إلى المستقبل فى أمل دائما. ولهذا اختار جارودى عنوانًا إضافيا لكتابه الجديد: أمريكا طليعة الانحطاط. وهذا العنوان:

ــ كيف نعُد للقرن الواحد والعشرين.

وهو ما يعالجه فى الفصل الأخير. ■

---

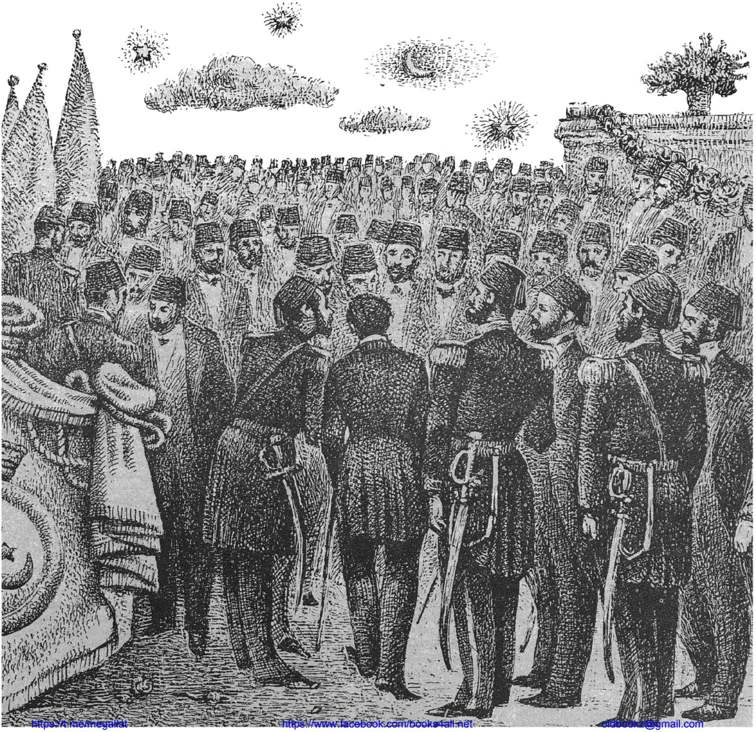
* دراسة جديدة كتبها كامل الزهيرى عن جارودى بمناسبة صدور كتابه «أمريكا طليعة الانحطاط. كيف نعدو للقرن الواحد والعشرين» التى صدرت طبعته الفرنسية أواخر عام ٩٨، وستصدر طبعته العربية مايو ١٩٩٩..

أفـــراح الأنجـــال .. صـــورة للتـــرف

شـهد التاريخ المصرى القريب من مظاهر العظمة والفخفخة فى إقامة الحفلات فى الأعياد والأفراح والمواسم، صورًا قلّما عرفت فى الشرق العربى فى عهود سارت بذكرها الركبان، وكانت أكثر تجلياتها وضوحا فى عهد الخديو إسماعيل، الذى شهدت سنوات حكمه عددا من الاحتفالات الأسطورية ليس فقط فى الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة افتتاح قناة السويس، ولكن فى كثير من المناسبات الأخرى التى عكست أبهة الملك: فى الأعياد الدينية والقومية، وفى حفلات الزواج والعرس التى أقيمت لأبناء الخديو وبناته.

وفى كتاب قديم طبع بدار الكتب المصرية عام ١٩٢٣ لواضعه إلياس أيوبى، وصف مفصل غير مسبوق للحفلات التى شهدتها مصر فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩). استند كاتبه فيه إلى مصادر عديدة أجنبية وعربية وشهود عيان، ولكنها تقدم سجلا وافيا دقيقا لصورة هذا العصر والحياة الاجتماعية التى شغلت طبقة الحكام والأعيان والشيوخ وكبار الموظفين فيه.. وهذه مشاهد من الكتاب

«المحـــــرر»



فى عهد إسماعيل

رأت مصر على ممرّ القرون من مظاهر العظمة ومجاليها، وأبهة الملك وجلاله، وفخفخة الرسميات وجمالها، ما لا تحسد معه قطرًا فى الوجود على ما أحرزه من ذلك؛ ولكنه لم تتوال تحت قبة سمائها الصافية، وعلى ضفاف نيلها السعيد، سلسلة أعوام أخذت

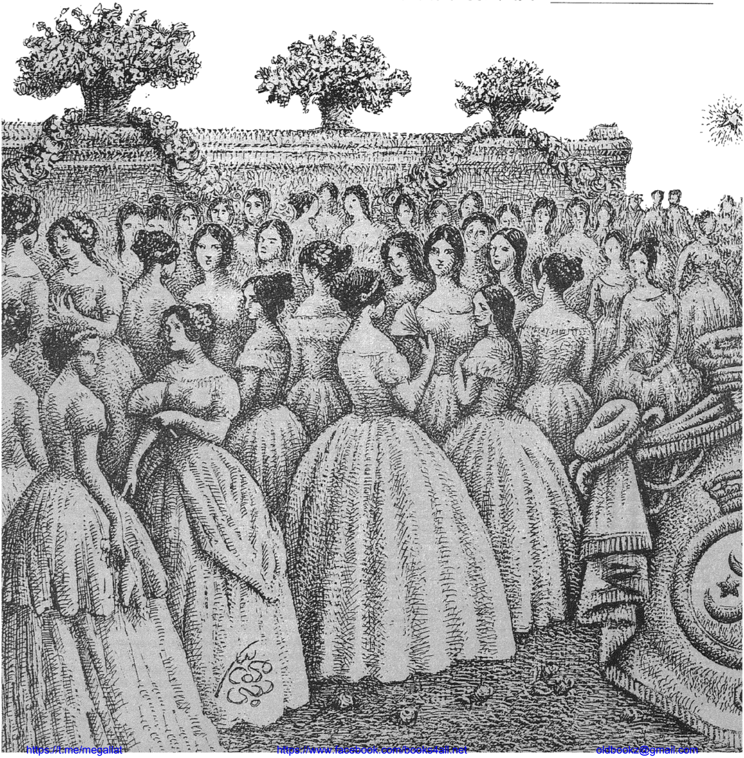
مصر فى عهد الخديو إسماعيل من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩

إلياس أيوبى

القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٢.

نصيبها الأوفر من الجلال والمهابة، والبهجة والأبهة، والجمال والفخامة، واللذات، مثل أعوام ملك (إسماعيل) الستة عشر. فقد كانت حلما فى مخيلة التاريخ لم يتحقق إلا مرّة واحدة فى دائرة عصوره! لا تكلمنى عن جلال حفلات الفراعنة الأقدمين: ولا عن أبهة الاحتفال البطليموسى المهيب بالمجيء برفات الإسكندر الأكبر من بابل إلى مقرّه الأبدى فى الإسكندرية: لا تذكر لى «الحياة التى لا يقتدى بها» التى قضاها أنطونيوس وكليوباترا، ما بين كانوب وفارو، قبل أن يميد البحر والأرض بهما: لا تحدثنى بأيام أحمد بن طولون وخمارويه وموكبهما السنى، وابتهاجات قران قطر الندى بالخليفة العباسى، المالك على ضفاف الدجلة فى بغداد: لا تخبرنى بزهو الأعياد والرسميات فى أيام الفاطميين التى لن تنسى، وبجلال جلوس أولئك الخلفاء البذاخين، وفخامة مواكبهم فى الأعياد والمواسم: لا تطنطن لى بفخفخة رجوع البندقدارى وقلاوون وفرج والناصر وبرقوق والمؤيد وبرسباى وقايتباى إلى عاصمتهم المصرية، عقب انتصاراتهم فى الشرق، وشقهم شوارعها بالقبة والطير: ولا تذكر لى دخول بونابرت القاهرة على رأس جيشه الفائز من تحت قبة باب الفتوح، بين عزف الموسيقات، ودق الطبول، فإن هذا جميعه على ما فيه من سنا وسطوع، وأخذ بمجامع القلوب، ينكسف تماما أمام الأشعة المنبعثة إلى صفحات الأساطير عن أبهة الأيام وجلالها وأعيادها فى عهد «إسماعيل».

وأنا بعد ما تقدّم لنا ذكره عن الأعياد التى اقيمت احتفالا بقدوم السلطان عبد العزيز، واللورد باچيت أمير الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض، والإمبراطورة أوچونى



إمبراطورة الفرنساويين، والإمبراطور فرنتز يوسف إمبراطور النمسا والمجر، والبرنس فردريك ولى عهد الدولة البروسية، وزمرة العواهل والأمراء الذين حضروا حفلات فتح «ترعة السويس»: وقد أنفق فيها وحدها ما أنفقته أسرة برمتها من الأسر السابقة فى أعياد مئات من السنين بعد ما سبق لنا وصفه من مظاهر الضيافة التى بذلت فى تلك الأعياد للألوف من الوافدين. تباعا. أياما بل أسابيع متوالية، وامتازت بأطعمتها اللذيذة ومشروباتها الفاخرة ونزهها النيلية الجميلة، والضيافة التى كانت تبذل بسخاء لا يعرف حدا. وتفنن لا يعبر عنه وصف لكل عالم وأديب، ورجل سياسة أو مال. كان يقدم زائرا على العاهل المصرى البهى المكارم: بعد ما شرحناه من إقامة الأعياد والمراقص الشتائية، الآخذة بهجتها بمجامع الألباب، فى كل سنة من سنى ذلك العهد العديم المثيل: وما بيناه من استقدام المليك الحاتمى الكف طوائف الممثلين والممثلات، وعلى رأسها نوابغ الفن وملوكه وملكاته، منذ أنشئت المسارح الفخمة للتمثيل فى عاصمتى بلاده: بعد ما ذكرناه من إقامة حفلات السباق فى مصر والإسكندرية على نظام لم تعهده القرون السالفة مطلقا، وأزرى بحفلات لعب القبق. فى أيام السلاطين المماليك: وما ذكرناه عن مظهر إسماعيل الخلاب فى معرض باريس سنة ١٨٦٧. وفى زياراته المتعدّدة للعواصم الأوروبية لاسيما فى سنة ١٨٦٩: وفى الحفلات التى أقامها فى قصره بميركون على البوسفور للسلطان عبد العزيز وكبراء دولة بنى عثمان. لا نرانا فى احتياج إلى التوسع فى هذا الباب، ولكنا لإيفاء الموضوع حقه، نقول إن أبهة الملك وجلاله تمثلا فى أيام إسماعيل علاوة على ما ذكرناه من مظاهرهما:

(أولا) فى الأعياد والرسميات. (ثانيا) فى الأفراح و الأعراس. (ثالثا) فى القصور والسرايات وما اشتملت عليه.

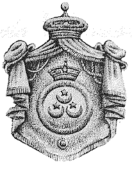
أما الأعياد - وهى الإسلامية الكبرى، والقومية العامة، كعيد وفاء النيل، وتذكار يوم الجلوس السنوى. فإنك كنت ترى فيها العاصمة قائمة قاعدة: تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفاخرة، والرايات والأشاير، والطبول والزمور وجماعات أصحاب الرتب والنياشين بملابسهم الذهبية الساطعة ونياشينهم المتلألئة، وأوسمتهم الفاخرة، يغدون على سراى عابدين زرافات، ووحدانا: وكنت تسمع الموسيقات تصدح بأنغامها الشجية فى كل حى من الأحياء، وتدوى المدافع دويا متعاقبا، وتجرى الاستعراضات الجميلة: إما فى ساحة عابدين الفسيحة، وإما بالعباسية مكان المولد النبوى الممتاز من بين تلك الأعياد بإحياء الليالى السابقة لحلوله، إحياءً بديعًا : فتنتشر فى الفضاء الواسع السرادقات الفخمة المزدانة بأفخر الرياش، لاسيما سرادق الخديو وسرادقات رجال حكومته: وتتلى الصلوات وتقام الأذكار فى الخيام والصواوين، وتعم الفيوضات الخديوية المعوزين والفقراء. فتمدّ لهم الأسمطة ليلا، فيأكلون ما طاب ولذ: وتشعل السواريخ والألعاب النارية على أبدع الأشكال وأتم الأنواع.

وأما عيد الجلوس، فإنه كان يمتاز بمرور عشرة آلاف درويش، بأشايرهم وراياتهم، أمام شرفة القصر بعابدين بضجة وعجة عجيبتين، تستمرّان ساعتين: وباستعراض فخم يقام بالعباسية، وتؤمّه جماهير العالمين من كل فج عميق.

ناهيك بما كان يقام فى تلك الأعياد من الولائم، وما ينحر من النحائر، وما يوزع من الصدقات، وينعم به من النعم، ويجاد به من العطايا، فما من مستخدم فى القصور مهما كان حقيرا إلا وتخرج له الهدايا الثمينة المتنوّعة: للكبراء، تمنح القصور والأطيان، والجوارى الحسان، والجواهر الثمينة، والجياد المطهمة. وللمتوسطين تهدى صرر النقود، أو السيوف المرصعة، والآنية الفاخرة، والرياش الوثير. وللأصاغر تعطى الجوائز من الخواتم والساعات، والملابس والحلويات. فكنت ترى الأقوام، على اختلاف مراكزهم الاجتماعية، ينتظرون حلول الأعياد بمطامع مفتوحة وأعين مرفوعة، مركزها ولىّ النعم وآل بيته. فتجود أيدى إسماعيل وأزواجه وبناته بما يشبع تلك المطامع ويقرّ تلك العيون[١].

وأما الرسميات، وأهمها استقبال القناصل عند تعيينهم. فإن أخص ما كان يستوقف الأنظار فيها العربات الخديوية الخاصة تجرّها أجاويد الجياد، تارة ستة، وطورا ثمانية، وكلها من لون واحد، وتحف بها كوكبات الفرسان بسيوف مشهرة: فتذهب بمعتمدى الدول إلى حيث يستقبلهم العاهل المصرى وهو فى وسط حلقة من وزرائه وأخصائه، يأخذ سنا ملابسهم بالأبصار، وتبهر جواهر النياشين المتلألئة على صدورهم الأنظار: فبعد أن تتبادل الخطب المعتادة، وتتصافح الأيدى كان يصدر الأمر الكريم بالإنعام على الوافد بسيف من السيوف المرصعة الثمينة، وحصان من أجاويد خيل الإسطبلات الخديوية العامرة.

وأما الأفراح والأعراس، فلا أوقع فى تقريبها إلى دائرة المخيلة من وصف الأعياد التى أقيمت احتفالا بزواج الأمراء الثلاثة: توفيق وحسين وحسن، أبناء إسماعيل، من الأميرات أمينة هانم بنت إلهامى باشا بن (عباس الأول)، والأميرة عين الحياة هانم بنت الأمير أحمد باشا بن (إبراهيم الأول)، والأميرة خديجة هانم بنت الأمير محمد على الصغير بن (محمد على) الباشا العظيم: وزواج أختهم الأميرة فاطمة هانم بالأمير طوسون بن (محمد سعيد) - تلك الأعياد، وقد أقيمت ابتداء من ١٥ يناير سنة ١٨٧٣، دامت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها: ولايزال ذكرها إلى يومنا هذا يبهر تصوّر الذين رأوها وعاشوا أيامها اللامنسية.



بعد ان ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، حيث كنت ترى الأنوار المختلفة الألوان المنبعثة عن حلى عقيلات المدعوين تقترن بسطوع أكتافهن ونحورهن العارية.. بينما الشيوخ المسلمون من علماء وأعيان وموظفين اللابسون قفازات بيضاء والملتحفون بوقارهم، ينظرون إلى قصفهن بأعين تستغرب أن يقبل على الرقص الكهول

فإن شوارع العاصمة المهمة، وعلى الأخص ما كان منها مؤديا إلى القصر العالى مقر والدة إسماعيل، وإلى سراى الجزيرة، مقر حفلات إسماعيل المفضل، وسراى القبة مقر ولىّ العهد، زينت بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان على مسافات بضعة آلاف من الكيلومترات: ووضع فى نهايتها أقواس نصر مختلفة الأنوار، جعلوا فى أعاليها طرقات رصعت بالشموع.

فسطعت ملايين الأضواء، تتلألأ فى الليل كأنها نجوم سطعت فجأة فقلبت الظلام نهارا، أو جعلت المتفرجين يتصورون مدة ستة أسابيع متوالية، أنهم ينتقلون فى الليل من منطقة مدار الشمال إلى منطقة أحد القطبين صيفا، حيث لا تغيب الشمس عن الآفاق أشهرا متعددة.

وأقيمت فى أهم الميادين، هنا جوقات موسيقية - وأهمها التى اتخذت موقفها فى الطرقة بعالى قوس النصر تجاه القصر العالى - وهناك تخوت آلاتية - وأهمها تخت عبده الحامولى ، بلبل الأفراح ورب الطرب الشرقى على العموم. فأخذت تلك تصدح وتعزف: وأخذت هذه تشنف الأسماع بألحان بديعة وأصوات رخيمة تجعل سامعيها يتخيلون أنهم انتقلوا إلى جنة الخلد البهية: وأنهم يسمعون ترانيم الملائكة المختارين حول عرش الرحمن.

ونصبت فى كل جانب المسارح المرتجلة، ليمثل عليها غواة الفن وجوقات كراكوز، فيحضر من شاء تمثيلها مجانا ويعود إلى منزله مرتاحا مبتهجا. ومدّت الحبال فى الساحات العمومية، لاسيما جهة القصر العالى، ليلعب عليها «البهلوانيون» ألعابهم المدهشة المحيرة الألباب: فشبكت بصوارى عالية جدا، ملفوفة عليها أقمشة ملونة تعلوها مراء فاخرة، وتتخللها مناور ساطعة.

ورتبت السواريخ بتفنن غريب، فى تلك الجهة عينها: وأخذوا يشعلون كل ليلة جانبا منها: فتدوى طلقاتها فى آفاق العاصمة كلها: وتتناثر نجومها وأهلتها فى جميع الأحياء ست ساعات متوالية، ناشرة فيها أنباء الأفراح القائمة، وداعية الأهالى على اختلاف طبقاتهم إلى الاشتراك فيها.

ففى اليوم الخامس عشر من شهر يناير، على ما نظنّ، بدأ خروج الهدايا المهداة من سموّ الأميرة والدة إسماعيل وزوجاته الفخيمات إلى العرائس من القصر العالى، وشوارهنّ. وكان شوار الأميرة أمينة هانم زوجة ولىّ العهد أوّل ما خرج من ذلك النوع، فسير به إلى قصر القبة، تخفره صفوف الفرسان، بزى عربى بديع، وآلاى بيادة بأسره، بملابس بيضاء ناصعة كالثلج، تتقدّمه جوقة موسيقية من أمهر العازفين. وكانت الهدايا موضوعة فى أسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوّة بالقصب، على مخدّات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، يغطيها شاش فاخر، يمسك بأطرافه أربعة عساكر فى كل عربة، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية، والسيوف مشهرة فى أيديهم.

وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية، وقلائد ماس ساطعة، من النوع المعروف عامّة باسم «البرلنتى»: ومناطق من الذهب الخالص، وأقمشة مطرّزة باللؤلؤ العديم المثيل، وزمرد فى حجم البيض، وملابس بيضاء مطرّز عليها رقم الأميرة باللآلئ والحجارة الكريمة، وآنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكمية عظيمة. وثمن ذلك جميعه يفوق الحصر والعدّ. وكان بين الهدايا المقدّمة من إسماعيل لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة: شبيه بالذى أهداه إلى الإمبراطورة أوچونى أثناء إقامتها بمصر، محلى بماء الذهب الإبريز، وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز. فاجتاز الموكب المهيب شوارع العاصمة، بين سياج حىّ من العساكر الشاكى السلاح، وتقدّم يتهادى فى سيره، مختالا كأنه طرب بذاته، شاعر بقيمته.

ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم، والهدايا المهداة إليهنّ، عن شوار أمينة هانم، وما أهدى إليها مما تقدّم وصفه.

وفى اليوم السادس عشر، أحيى فى العباسية السباق الأوحد الذى سبق لنا الكلام عنه فى غير هذا المكان، وكان معظم (چوكيه) من السود اللابسين لباسا من الحرير الأحمر، ومدّ فيه، على نفقة الخديو الخاصة، مقصف للمدعوين فاقت أصناف مأكولاته ومشروباته، فى التنوّع واللذة، كل ما ظهر من نوعها على المقاصف الخديوية إلى ذلك الحين.

وفى اليوم السابع عشر، أقيم مرقص فخم فى سراى الجزيرة، دعى إليه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف ذات من الأجانب وأعيان البلاد ووجوهها. فنوّرت الطريق كلها من عابدين إلى منفذ كوبرى قصر النيل فى الجزيرة بفوانيس من الورق الزاهر الألوان، ونشر عدد عديد من هذه الفوانيس عينها فى جميع طرقات البستان الجميل المحيط بتلك السراى البديعة، وبين أغصان أشجاره، وعلى الأخص فى البهو الواسع الممتدّ طول دورها الأرضى. فكان منظر تلك الأنوار لاسيما بسبب تنسيقها وترتيبها من ألطف ما تقرّ له العيون وتنشرح الصدور.

وامتاز ذلك المرقص بأنهم هيأوا فيه وليمة عظيمة للمدعوّين بدلا من المقاصف العادية، فبعد أن ماجت بجموعهم الراقصة، القاعة الفسيحة، حيث كنت ترى الأنوار المختلفة الألوان المنبعثة عن حلىّ عقيلات المدعوّين تقترن بسطوع أكتافهن ونحورهن العارية، ويمتزج وقار الإسطمبوليات والملابس السوداء بأبهة ملابس كبار الموظفين الرسمية، الساطعة الأوسمة المتحلية بها صدورهم على قصبها وذهبها الوهاجين، وبجلال ملابس الضباط العسكرية، اللامع ذهبها حول وجوه أصحابها، الملفوحة من الشمس فى فيافى السودان

ومجاهله، أو فى مفاوز اليمن، أو فى وهاد جزيرة كريت وبين مضايق جبالها، بعد أن ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، بينما الشيوخ المسلمون من علماء وأعيان وموظفين، اللابسون قفازات بيضاء والملتحفون بوقارهم، ينظرون إلى قصفهم بأعين تستغرب أن يقبل على الرقص الكهول، وتهزأ بهم هزءا ساكتا، بعد أن ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، وقد حركت الحركة شهياتهم إلى الأكل، جلسوا حول الموائد الفاخرة الممدودة، حيث أقبل يخدمهم نيف وأربعمائة غلام (جارسون) ورئيس طهاة (ميترودوتيل).

وفى التاسع عشر منه، بدأت أعياد القصر العالى . فنصبت حول الساحة الممتدة أمامه الصواوين والسرادقات وعليها أسماء أصحابها وبيان الغرض المعدّ كل منها لأجله، وفرشت بالطنافس العجمية الفاخرة: وأقبل أرباب اليازرجة يقيمون ألعابهم اللطيفة فى وسط تلك الساحة الواسعة: ومن ضمنهم بهلوان كان يصعد على حبله بخروف ويجزره فوقه، ثم تفرّق لحومه على الفقراء. ورتب مقصفان للعموم: أحدهما على النمط الغربى، وما فتئ مزدحما بقاصديه، الراغبين على الأخص فى أنبذته العتيقة الجيدة: والآخر على النمط الشرقى، وما فتئ هادئا بالمقبلين عليه. وأقيمت صواوين خاصة للقناصل، وغيرها للتجار وأخرى للعلماء: وسرادق لمحافظ العاصمة، علاوة على الصواوين التى أقامها الأعيان على نفقتهم لأنفسهم، ليتمتعوا بمشاهدة الأعياد.

على أن الرقص والغناء لم يكونا قاصرين على الخارج، بل ما كان منهما فى داخل القصر وفى سرّ دور الحريم كان أهم وأشهى منظرا، هناك كنت تسمع (ألمظ) التى كانت إذا غنت أخذت بمجامع القلوب واستولت على الأسماع برنين صوتها الرخيم، وتوقيع أناشيدها الفتانة. هناك كنت تنظر مشاهير البهلوانية من الإنجليز يأتون من صنوف الألعاب ما يخلب العقول ويدهش الألباب: وأساتذة الكار من أهل اليازرجة والسيماء يأتون من الملاعيب ما يحير الأبالسة أنفسهم: وذلك لبهجة ساكنات تلك الدور وانشراح عيونهن وأفئدتهن.

وفى ظهر الثالث والعشرين من يناير، خرجت العروس الأميرة أمينة هانم، بصحبة سمو الوالدة باشا من سراى الحلمية، وتوجهت باحتفال عظيم إلى قصر سمو ولى العهد بالقبة، يتقدمها ويحف بها موكب مهيب مؤلف من ثلاثة آلايات من الخيالة: (الأول) آلاى ذوى الرماح، وراياتهم المرفرفة من رماحهم خضراء وحمراء، ورؤوسهم مغطاة بخوذات الدراجون: و(الثانى) آلاى ذوى الدروع، ودروعهم تسطع عليها الشمس فيتلألأ كل منها كأنه قرصها المنعكس، ويتدلى من خوذاتهم شاش جميل أصفر وأبيض يلعب الهواء به حول وجوههم السمراء الهيجائية: و(الثالث) آلاى ذوى الزرد، وسلاحهم كسلاح الغز أيام الصليبيين، وخوذاتهم الصغيرة يتدلى منها قناع على وجوههم من الأمام، وأكتافهم من الوراء، وهم فى كسوتهم الفولاذية جامدون، كأنهم قدّوا من جلمد أو من حديد، قطعة واحدة كفرسان شاهين شاه وصلاح الدين والظاهر بيبرس. وسارت وراءهم العربات، وأهمها عربات التشريفة يجرها الستة والثمانية من الخيول ذات اللون الواحد: أبيض كالنور، أو أشهب كالذهب، أو أسود كالليل: ويقودها حوذيون بملابس حمراء تخطها شرائب القصب والفضة، بجوارب حريرية تصعد لغاية ركبهم، وبجدائل شعور مستعارة مرشوشة بالبودرة على رؤوسهم، كأنهم غلمان أحد اللويسات، الرابع عشر أو الخامس عشر أو السادس عشر، ملوك فرنسا، أعيدوا إلى الوجود: ويسير بجانبها مشيا على الأقدام خدم باللباس عينه، أيديهم على عضاضات أبوابها: وعلى رؤوس الجميع، من حوذيين وخدم، برانيط واسعة من ذوات القرون! وسار وراء العربات: الأغوات، بلباس فرنجى وبنطلونات ملونة فرايحية، يمتطون صهوات خيول قلما يدركون كيف يحكمونها، وكانت العين ترى فى وسطهم شيخا جليلا وقورا مهيبا: وتسمع الأذن همسا. إنه أمين بك آخر المماليك، وصاحب الوثبة المشهورة. على أنه إنما كان رئيس إدارة بيت دولة الوالدة.



فما من مستخدم
فى القصور مهما كان حقيرا
إلا وتخرج له الهدايا الثمينة.. للكبراء
تمنح القصور والأطيان، والجوارى الحسان، والجواهر
الثمينة، والجياد المطهمة. وللمتوسطين تهدى
صرر النقود أو السيوف المرصعة.. وللأصاغر
تعطى الجوائز من الخواتم والساعات
والملابس والحلويات

وعلى هذا النمط عينه، وبالأبهة والجلال ذاتيهما، خرجت عروسا الأميرين حسين وحسن إلى قصرى زوجيهما: وأما الأميرة فاطمة هانم فقد كانت زفتها أبهى وأجمل. وقد وصف إدون دى ليون كيفية الاحتفال بفرحها فى داخل القصر العالى عينه، كما نقلته إليه عقيلته، فقال:

اجتازت المدعوات بستانا فسيحا منارا، كأنهم أرادوا أن يبقوا فيه نور النهار بملايين المصابيح المتعددة الألوان، وسرن فوق طرقة رخامية تحف بجانبيها الأشجار والمغروسات الغريبة. فبلغن مدخل سراى الوالدة، حيث كان الأغاوات فى انتظارهن، يوصلوهن إلى قاعة واسعة ذات رياش فاخر. فوجدن هناك جوارى الحريم، ونصفهن مرتديات لباس رجال من أفخر الملابس الشرقية، وواقفات بصفة حجاب: وبعضهن لابسات لبسا بسيطا، بطرابيش حمراء على رؤوسهن، وشاهرات فى أيديهن سيوفا لامعة: وبعضهن لابسات لبسا عسكريا ساطعا، وواقفات وقفة عسكرية، بمظهر عسكرى حربى لا بأس به، كأنهن وصيفات الملكة زبيدة زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد. فأدخلن الضيفات إلى حجرة كانت «العوالم» ترقص فيها بالساجات! بينما كانت موسيقى نسائية تعزف ألحانا شجية. تلك الحجرة كانت تفتح على حجر أخرى، يتناول النظر أطرافها، وفيها جوار عديدات يرقصن رقصا غريبا بعصى وسيوف ودرقات فى أيديهن.

ثم اجتازت الضيفات عدة بلوكات أو صالات، قدّمت لهن فيها جميع أنواع الشربات، والمشروبات والحلوى المصنوعة على الطريقتين الغربية والشرقية، معروضة على موائد جمعت كل ما لذ وطاب، وترأست أميرات الأسرة المالكة المائدة الخصيصة بزوجات الخديو وقرينات القناصل، وغيرهن من قرينات كبار النزالة: فبينما هنّ يأكلن ويشربن، جعلت الموسيقى تصدح صدحا مفرحا.

ولما انتظم العقد بجميع المدعوات، دخلت الراقصات والمغنيات وأطربنهن مدة، ثم قدّمت إليهن الهدايا الفاخرة، من لدن الأميرات وأزواج الباشوات أصحاب المقامات الرفيعة فى الحكومة المصرية. فتغنين بمديح الهاديات، بعد استئذان دولة (الوالدة): والهاديات شكرنهنّ - وهى عادة «الشوبش» المعروفة بيننا حتى يومنا هذا.

بعد ذلك استجليت العروس: فأمسك كل من أغاوات السيدات المدعوّات شمعدانا فيه شموع مختلفة الألوان، واصطفوا من أول السلالم حتى القاعة العظمى، حيث كان عقد المدعوات منتظما. وفرش على الأرض منسوج من ذهب لتخطر العروس عليه. وانصرفت الراقصات ليعدن بمعيتها. وما هى إلا برهة قصيرة حتى تجلت الأميرة فاطمة هانم تستند على ذراع الأميرة أمها، فى وسط جمهور أميرات البيت الخديوى الكريم. فتقدّمت بخطوات بطيئة، وبوقفة بعد كل خطوة، كأنها تقول للناظرات: ها أنا فأعجبوا بى! واجتازت، وعيناها مطرقتان، صفى الأغوات على النسيج الحريرى، بين أغانى المغنيات: والراقصات يتقدّمنها.

فحالما وقعت أعين المدعوّات عليها نهضن. وبينما هى تتقدم كإلهة من آلهات الأزمنة الماضية نحوهن، بمعيتها وجواريها، صعدت كواعب كالبدور على كراسى وراءهن، وأخذت تنثر عليهن خيريات ذهبية، ضربت لتلك المناسبة، فتعلق برؤوسهن وملابسهن. فامتلأت القاعة على سعتها بالأميرات والسيدات والجوارى والراقصات والمغنيات: وتألقت كلها بالديباج الساطع والذهب الوهاج: وبثت فى كل مكان منها زهور البرتقال والورود: ونثرت فوق الملابس اللماعة البراقة.

وكانوا قد أقاموا فى صدر تلك القاعة، فوق منصة مرتفعة ثلاثة عروش مكسوة بالحرير الأبيض. فجلست دولة (الوالدة) على عرش اليمين: والأميرة أم العروس على عرش الشمال: وجلست العروس وعلى رأسها تاج من الماس ثمنه أربعون ألف جنيه، على عرش الوسط. وكان لباسها من الحرير الأبيض الفرنساوى الأغلى ثمنا، كله مرصع بأنفس أنواع اللؤلؤ والماس، وله ذيل طوله خمسة عشر مترا، رفعته الجوارى وراءها وهن راكعات. فتقدمت المدعوات وهنأنها. وبعد أن جلست معهن برهة، عادت إلى حجرها، واستمر الفرح حتى مطلع الفجر[٢].

ومما يحسن ذكره بمناسبة تزويج الأمير حسن من الأميرة خديجة أن (إسماعيل) - وقد أعجب بملامح الذكاء المرتسمة على محياها - لما أدخلها المدرسة التى أنشأها لأميرات البيت العلوى خصيصا، وعدها بتزويجها من أحد أولاده، إذا هى أظهرت اجتهادا فى تعلمها. ثم مضى على ذلك زمن. وعنّ (لإسماعيل) يوما أن يزور تلك المدرسة، ويتفقد حال الطالبات فيها. فلما وصل إلى الأميرة خديجة سألها: «إلى أين بلغت من تعلم القرآن، يابنيتى؟» فأجابت من فورها: إلى «واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد»!.

فسر الخديو بجوابها جدا، وقال: «أجل: أجل». ثم برّ لها بوعده.

ومن أفضل ما يحسن ذكره بمناسبة أفراح الأنجال أن طه باشا الشمسى ناظر الخاصة الخديوية فى ذلك الحين - وهو حمو حضرة صاحب المعالى أحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية الآن - كلف عدة محال تجارية بتقديم مناقصات لتوريد كل ما يلزم من فرش وبياضات ودنتلات ورياش لجهاز كل من الأميرات العرائس.

فلما قدمت، وقع اختيار طه باشا على مناقصة محل پاسكال الفرنساوى - ويعرفه كل من زار مصر القاهرة حتى سنة ١٨٩٢ - لأنها، على جودة البضاعة المقدمة نماذج منها، كانت على رخص فى الأثمان يرغب فيه.

ولكن لما عرض ما وقع اختياره عليه على (إسماعيل) سأله الخديو: «ألم يتقدم فى هذه المناقصة محل مصرى وطنى مطلقا؟» فأجاب طه باشا: «نعم يا مولاى: فقد تقدم، ضمن آخرين، محل مدكور. ولكن الأثمان التى عرضها مبالغ فيها ولاتوافق. لأنها تزيد خمسة وعشرين فى المائة على الأثمان التى يطلبها محل پاسكال». فقال إسماعيل: «أرنى مناقصته والنماذج المرفقة بها». فقدمها طه باشا له. فوجد (إسماعيل) أن الأثمان المكتوبة على تلك النماذج تزيد، حقيقة، خمسة وعشرين فى المائة على مايطلبه محل پاسكال. ولكنه وجد أن نوع البضاعة واحد عند الاثنين. فضرب بمناقصة محل پاسكال عرض الحائط، وقال لطه باشا: «خذ كل ما نحن فى حاجة إليه من محل مدكور، وادفع له خمسة وعشرين فى المائة فوق ما يطلب!» فبدا فى عينى طه باشا استغراب، بالرغم من أن فمه نطق بعبارات الامتثال. فقال إسماعيل له: «يا طه باشا، إذا كانت المحال التجارية المصرية لا تنتفع ولا تستفيد من أفراح أولادى، فمن أفراح من تريد أن تستفيد وتنتفع؟».

فاغتنمها محل مدكور، وهى طائرة، وزاد على أثمان كل ما قدّمه ما أمكنته زيادته. فكان ذلك من أسباب الثروة التى أحرزها[٣]. ■

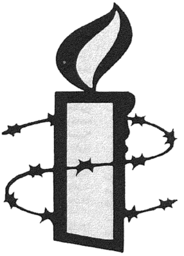
الهوامش

(١) انظر «حياة البلاط بمصر» لبتلر ص ٢٣٠.

(٢) انظر «مصر الخديوى» لادون دى ليون من ص ٢٣٢ إلى ٢٣٦.

(٣) روى لى هذه اللطيفة ثقة، حضر عصر الأفراح الخديوية.

أزمة الكتابة التاريخية فى مصر



تضخم فى الإنتاج وضآلة فى المعرفة

رءوف عباس

■■ تعانى المكتبة العربية فقراً شديداً فى المؤلفات الرصينة الخاصة بمناهج البحث فى العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة، ومنهج البحث فى التاريخ خاصة. فالمتاح من المؤلفات العربية ليس سوى إعادة صياغة - لا تخلو من خلل أحياناً - لبعض الكتب الدراسية فى أصول المنهج التى نشرت باللغة الإنجليزية قبل منتصف القرن، أو ترجمات غير دقيقة (أحياناً) لبعض المؤلفات الكلاسيكية فى هذا المجال، نشر معظمها قبل الخمسينيات من هذا القرن. وتخلو المكتبة العربية تماماً - فيما نعلم - من الكتب المؤلفة أو حتى المترجمة التى تعالج تطور علم التاريخ والاتجاهات الجديدة فى الكتابة التاريخية، والمدارس المختلفة فى تفسير التاريخ، اللهم إلا بعض المقالات القليلة التى تنشر هنا وهناك، ولا تحظى إلا باهتمام نفر قليل من المعنيين بالدراسات التاريخية.

وقد أدركت بعض المجلات الثقافية العربية حقيقة الأزمة المنهجية التى تعانى منها الكتابة التاريخية فى الوطن العربى، فخصصت مجلة «الفكر العربى» التى كان يصدرها معهد الإنماء العربى ببيروت، العددين ٢٧-٢٨ (عام ١٩٧٨) لمعالجة الكتابة التاريخية والمنهج، وخصصت مجلة «فكر» التى كانت تصدر عن دار فكر للدراسات والنشر بالقاهرة، العددين ٦ (يونيو ١٩٨٥) و ١١ (يناير ١٩٨٨) لمعالجة هذه القضية بمشاركة بعض المؤرخين المتميزين، ونظمت لجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة ندوة بالاشتراك مع قسم التاريخ بآداب القاهرة حول «تحديث الدراسات التاريخية» (أبريل ١٩٩٤)، كما نظم مركز سيداج CEDEJ [١] الفرنسى بالقاهرة ندوة حول «حصاد المدرسة التاريخية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة» (نوفمبر ١٩٩٥). وفى كل تلك الكتابات والندوات، كانت أزمة المنهج تحتل بؤرة الاهتمام والتوصيف والنقد والتحليل، ثم ينفض السامر دون أن يترتب على ذلك أى تغيير نوعى فى واقع الحال.

والحق أننا نواجه أزمة متفاقمة فى المنهج، تعانى منها الدراسات التاريخية فى الوطن العربى عامة، ومصر خاصة، تتجلى فى معظم ما تخرجه المطابع من كتب، وما تجيزه الجامعات من أطروحات للماجستير والدكتوراه، يكشف معظمها عن قصور شديد فى التدريب والإعداد المنهجى للباحثين، وتميل غالبيتها إلى «القص التاريخى»، ويغلب عليها أسلوب السرد الممل. ومن عجب أن تطالعنا الصحف بأخبار مناقشة أطروحات جامعية فى التاريخ قاربت الألف صفحة، أو تجاوزتها قليلاً، بشىء من الإشادة والتقدير، وكأن صاحب الأطروحة قد فتح فتحاً مبيناً فى مجال التخصص. ولا يدرك، إلا القليل من أهل الاختصاص، مغزى هذا التورم السرطانى للأطروحات الذى ينم عن فساد المنهج، أو حتى غيابه التام. وإذا بحثنا عما توصل إليه صاحب الأطروحة (أو الكتاب) من نتائج بعد هذه الدراسة المكتظة بالمعلومات، عدنا بخفى حنين، فغالباً ما يقوم الباحث بتقديم ملخص هزيل لأطروحته (أو كتابه) فى خاتمة الدراسة، لعجزه عن تحليل المادة ونقدها واستخلاص النتائج منها، لغياب الأدوات المنهجية التى كان عليه أن يتزود بها قبل أن يشرع فى إعداد بحثه.

ويرجع ذلك إلى قصور ملموس فى إعداد طلاب الدراسات العليا بالجامعات العربية، يعود إلى ضعف التدريب المنهجى، وإسقاط دراسة مدارس الفكر التاريخى، وفلسفة التاريخ من برامج الدراسة بأقسام التاريخ، إذ يقتصر تدريب الطلاب على كيفية جمع المادة، وترتيبها، وصياغتها، والتعرف على المصادر الأساسية فى سياق نظرى محض. وتكون المحصلة النهائية لأزمة المنهج تضخما فى الإنتاج، وضآلة للتراكم المعرفى الذى يدفع عجلة البحث التاريخى قدما إلى الأمام، ويساعد على تطوير الكتابة التاريخية.

لذلك كان كل جهد يبذل لإلقاء الضوء على القضايا المنهجية فى البحث التاريخى، بالغ القيمة، عظيم النفع، طالما كان يرشدنا إلى ما حققته الكتابة التاريخية من تقدم منهجى فى نصف القرن الأخير، ويطرح على بساط البحث أموراً يعد الحديث فيها - عند معظم المؤرخين العرب المعاصرين - أدخل فى باب المحظور منه فى باب المباح، لعل ذلك يحفزنا على مراجعة مواقفنا المنهجية المعيبة، فنحاول أن نطور الكتابة التاريخية عندنا استفادة بما تحقق فى هذا المجال على الصعيد العالمى.

من هنا تأتى أهمية كتاب اريك هوبسباوم Eric Hobsbawm الذى صدر عام ١٩٩٧ بعنوان «فى التاريخ On History» الذى نناقشه فى هذا المقال، فهو يعالج الكثير من قضايا الكتابة التاريخية والمنهج فى الغرب التى يغيب بعضها عن إدراكنا، ويسقط من اعتبارنا. ويزيد من أهمية الكتاب أن المؤلف من أبرز من عرفهم الغرب من المشتغلين بدراسة تاريخه الحديث والمعاصر، ومن أطول المؤرخين المعاصرين قامة علمية، وأكثرهم اهتماماً بأصول الكتابة التاريخية، ومناهج البحث فى التاريخ على مدى ما يزيد على نصف القرن من العطاء العلمى المتميز، الذى تناول التحولات الكبرى فى تاريخ الغرب منذ القرن الثامن عشر حتى تسعينيات القرن العشرين. وتتمثل فى اريك هوبسباوم الثقافة الغربية بمختلف مكوناتها، فقد ولد فى بريطانيا عام ١٩١٧ لأسرة يهودية من أصول بولندية (الأب) - نمساوية (الأم)، وتلقى تعليمه العام فى انجلترا، وتلقى تعليمه الجامعى فيها وفى النمسا وألمانيا، وشغل كرسى الأستاذية بجامعة لندن، وجامعة نيويورك بأمريكا. ويعد من أبرز المؤرخين الذين يرون أن «المجتمع» هو موضوع دراسة التاريخ، ومن الذين يرون أن الماضى البعيد لا يمثل حدود مجال دراسة المؤرخ - على نحو ما يرى الكثير من المؤرخين - بل يرى أن واجب المؤرخ أن يدرس الماضى القريب الذى عاصره وكان شاهد عيان له، بل له أن يستشرف المستقبل من خلال خبرته الواسعة بتاريخ المجتمع.

والكتاب الذى نعرض له، هو آخر ما نشر لهذا المؤرخ المرموق، ويضم ٢١ فصلاً، كان بعضها أوراقاً تقدم بها المؤلف لبعض المؤتمرات، وبعضها الآخر مقالات نشرها فى بعض الدوريات، هذا إلى جانب بعض نصوص المحاضرات التى دعى لإلقائها فى بعض الجامعات الأوربية والأمريكية. ويربط بين تلك المجموعة التى أنتجها هوبسباوم فى العقدين الأخيرين - معالجة موضوع واحد هو الكتابة التاريخية ومنهجيتها من مختلف جوانبها. فالكتاب على هذا النحو يضع بين أيدينا خلاصة خبرة لها وزنها وقيمتها، قد تفيدنا فى إقالة منهج البحث فى التاريخ عندنا من عثرته، وتساعدنا على التفكير فى تطوير الكتابة التاريخية.

On History

(فى التاريخ)

Eric Hobsbawm

New York: The New Press, 1997.

وبينما لا يزال طلاب التاريخ بالجامعات العربية يتعلمون من أساتذتهم أن هناك حدوداً زمنية صارمة يجب ألا يتجاوزها المؤرخ عند معالجته لموضوع ما، وتتردد أقسام التاريخ كثيراً قبل تسجيل موضوعات لأطروحات الماجستير والدكتوراه يتجاوز حدها الزمني ربع القرن، ويشيع القول بنظام لتقسيم العمل بين الباحثين فى التاريخ وزملائهم فى حقل العلوم السياسية، فإذا تجاوز باحث التاريخ الحد الزمنى المفترض الوقوف عنده، عُد متطفلاً على مجال بحث العلوم السياسية، وهى أفكار يتعامل معها الأكاديميون العرب تعاملهم مع المسلمات البدهية، نجد هوبسباوم يستهل كتابه «فى التاريخ» بموضوعين يكمل أحدهما الآخر، أحدهما بعنوان «التاريخ والمجتمع المعاصر»، والآخر بعنوان «التاريخ والمستقبل». ويذهب المؤلف فيهما إلى أن ثمة إساءة لاستخدام التاريخ فى المجتمع المعاصر، تعود إلى التشويه المتصل للتاريخ فى مراحل التعليم العام، حيث تستهدف برامج تدريس التاريخ تكوين المواطن المعتز بقوميته، فيتم التركيز على الأمجاد التاريخية وحدها، ولا يتم تقديم تطور المجتمع فى إطار يجعل الطالب قادراً على فهم أسس بنيته المعاصرة، لذلك يندر أن يستوعب الناس دروس التاريخ التى تساعدهم على البحث عن حلول للمشكلات الراهنة. ومن ثم يتجهون إلى الأرقام الصماء التى تتعامل معها الحواسب الآلية، بينما يستطيع المؤرخ بما له من خبرة بتطور المجتمع، ورؤية لآليات ذلك التطور من منظور تاريخى، أن يتعرف على القسمات المشتركة بين الماضى والحاضر، ويميز بين أوجه الاختلاف، وبذلك يساهم فى حل المشكلات الراهنة.

بل يزيد هوبسباوم على ذلك القول بأن المؤرخ يملك القدرة على التنبؤ بما قد تكون عليه الحال بالنسبة للمجتمع فى المستقبل، مستفيداً فى ذلك من دراسته للماضى، وإدراكه لآليات ودوافع التغيير التى لا تملك الحواسب الآلية إدراكها، لأنها لا تتناول أدلة مادية ملموسة، ولكنها تقوم على عملية عقلية تلعب قدرات المؤرخ واستعداده الشخصى الدور الأكبر فيها. وهنا يستخدم المؤرخ عند استشرافه المستقبل منهجين يتصلان ببعضهما البعض: التنبؤ بالاتجاهات العامة من خلال صياغة «النموذج»، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية أو نتائجها عن طريق تحليل الواقع الراهن واستشراف مساره المستقبلى. ويرى المؤلف أن التنبؤ بالاتجاهات الاجتماعية، أيسر من التنبؤ بالأحداث لأنه يرتكز على معطيات العلوم الاجتماعية الأخرى التى يحسن المؤرخ توظيفها.

وعلى ضوء ذلك، لم يعد بوسع المؤرخ أن يتجاهل ما يدور حوله حتى يطويه الزمن ويتقادم به العهد، بعد ما أصبح «الماضى» قريباً، نتيجة سرعة إيقاع الأحداث فى القرن العشرين، حتى أصبح الأمس القريب «ماضياً» يمكن إخضاعه للدراسة التاريخية استفادة بمعطيات العلوم الاجتماعية، وعلى ضوء ما يتوافر من المصادر المتاحة. فإذا كانت الوثائق لا تزال محبوسة، فهناك فيض زاخر من المصادر التى وفرها تطور أساليب الاتصال والإعلام، كالبيانات والتقارير الرسمية المعلنة، والكتب الملونة (البيضاء - الصفراء - الزرقاء.. الخ) التى تصدرها الحكومات لتحديد مواقف الفرقاء إزاء مختلف القضايا والأزمات. وهناك خارج الأرشيفات الرسمية مصادر تتعلق بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية لا يدخل معظمها فى نطاق السرية، مثل: تقارير الهيئات الدولية، وتقارير البنوك وأسواق الأوراق المالية، وما يصدر عن المنظمات والجمعيات الأهلية، والمضابط الخاصة بالمجالس النيابية، وغيرها من المصادر التى تجعل دراسة الماضى القريب ممكنة وميسورة، ولكنها تحتاج إلى باحث معد إعداداً مناسباً يؤهله للتعامل مع أدوات منهجية غير تقليدية.

ورغم أن الاهتمام بدراسة التاريخ المعاصر بدأ عند نهاية العشرينيات فى الغرب، ظلت الجامعة المصرية منذ إنشائها تتمسك بالمدرسة التاريخية الألمانية، والمدرسة المثالية والمدرسة الوضعية، تمزج بينها بوعى أحياناً، وبدون وعى فى أغلب الأحيان، ثم بدأ بعض المؤرخين المصريين والعرب فى استخدام المنهج المادى الماركسى فى منتصف الستينيات بدرجات متفاوتة من الفهم والتوفيق، وإلى هؤلاء يعزى الفضل فى التمرد على التقليد الذى كان راسخاً - عندئذ - فى الجامعات العربية، الذى كان يتمسك بحاجز الخمسين عاماً كحد زمنى لا يجب تخطيه لدراسة التاريخ وكأنه سور الصين العظيم، فتجاوزوا هذا الحاجز حتى وصلت به بعض الدراسات إلى عقد واحد من الزمان، وهكذا عالجوا التاريخ المعاصر، ووجهوا تلاميذهم نحو دراسته، وأبدت مجالس الأقسام والكليات قدراً من التسامح مع هذه «البدعة» الجديدة، فقبلت تسجيل بعض الأطروحات فى التاريخ المعاصر فى الستينيات بعد ما يقرب من نحو أربعة عقود على بداية التاريخ المعاصر فى الغرب.

ولكن أحداً من المؤرخين العرب لم يجرؤ بعد على ارتياد مجال التاريخ الاستطلاعى Para-history الذى يستشرف آفاق المستقبل من خلال قراءة متعمقة لواقع المجتمع فى الماضى والحاضر، على نحو ما فعل بول كنيدى، الذى نشر عام ١٩٨٨ كتابه الذى أثار - عندئذ - جدلاً كبيراً بين الباحثين، وحمل عنوان: «قيام وسقوط القوى الكبرى: التغير الاقتصادى والصراع العسكرى من ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠»، والذى تنبأ فيه بتفسخ كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. ويعود النفور من اقتحام هذا المجال من مجالات الدراسات التاريخية إلى الميل العام عند الأكاديميين والمثقفين العرب لتجنب الجديد، فلا يأخذون به إلا بعد ما يصبح قديماً، ولعل لذلك ما يفسره فى الثقافة العربية التقليدية، ولكننا نرجعه إلى القصور الشديد فى تكوين المؤرخ العربى، ومحدودية ثقافته، بمعنى عدم متابعته لما يجرى فى حقل تخصصه على الساحة العالمية (إلا نفر قليل لا يمثلون نقيضاً بارزاً لهذه الظاهرة السلبية)، هذا إلى جانب ضعف تكوينه المنهجى، ومن ثم قلة حيلته، وعجزه عن ارتياد مجال التاريخ الاستطلاعى.

ويعود ذلك فى المحل الأول إلى عدم اهتمام أقسام التاريخ فى الجامعات العربية بالعلوم الاجتماعية التى لا غنى للباحث فى التاريخ عنها. ويمتد هذا القصور إلى إعداد الباحثين فى مرحلة الدراسات العليا، بينما حققت الدراسات التاريخية تقدماً كبيراً فى الغرب على مدى نصف القرن الأخير عن طريق المزج بين منهج البحث فى التاريخ، ومناهج البحث فى العلوم الاجتماعية الأخرى: كالاجتماع، والاقتصاد، والانثروبولوجيا الاجتماعية، والتحليل النفسى، واللغويات البنيوية.. وغيرها. ويدعو هوبسباوم إلى تأكيد هذا المزج وتنميته، ولكنه يبدى تحفظه على من يقومون بتقطيع أوصال التاريخ، ويعمدون إلى صبه فى قوالب العلوم الاجتماعية الأخرى، من خلال عزله عن الاقتصاد أو الاجتماع، أو التاريخ النفسى، لأن التاريخ هو تاريخ المجتمع بكل مكوناته. بل يدعو المؤلف إلى رؤية الأحداث التاريخية من خلال ما اتصل بها من مفاهيم العلوم الاجتماعية المعاصرة. ويعنى بذلك دراسة تحولات المجتمع الإنسانى، والطريقة التى يتم بها التفاعل بين مكونات الحياة الإنسانية، وقياس التباين بين التجارب التاريخية المختلفة وبعضها البعض.

«ثمة إساءة لاستخدام التاريخ فى المجتمع المعاصر، تعود إلى التشويه المتصل للتاريخ فى مراحل التعليم العام»

«هل آن الأوان لمراجعة المفهوم السلبى للموضوعية، والإدانة غير المنطقية للانحياز لنظرية سياسية أو اجتماعية معينة...»

لقد مهد التطور المنهجى فى العلوم الاجتماعية، السبيل لظهور «التاريخ الاجتماعى» منذ مطلع الخمسينيات من هذا القرن، وقطع شوطاً ملحوظاً على يد «مدرسة الحوليات»[٢] الفرنسية، وحقق ازدهاراً فى السنوات الأخيرة نتيجة تطور النظرية الاقتصادية والعلوم الاجتماعية الأخرى. غير أن هوبسباوم يعرب عن خشيته من تحول «التاريخ الاجتماعى» إلى مجرد قاعدة لعلم الاجتماع أو خلفية يستند إليها، كما تحول «التاريخ الاقتصادى» إلى قاعدة للنظرية الاقتصادية، لأن هذه التخصصات فى الدراسات التاريخية لا تقدم لنا نماذج مفيدة، أو أطراً تحليلية بعيدة المدى لدراسة التحولات الاجتماعية الاقتصادية. ويطرح هوبسباوم دراسة «تاريخ المجتمع» بديلاً للتاريخ الاجتماعى، فيتسع بذلك حقل الدراسة فيه، وتتعدد مجالاته لتشمل السكان، وعلاقات القرابة، والدراسات الحضرية من منظور تاريخى، والطبقات والجماعات الاجتماعية، والضمير الجمعى بمفهوم أنثروبولوجى، وتحول المجتمعات فى إطار الحداثة، والحركات الاجتماعية، وظاهرة الاحتجاج الاجتماعى. ويرى المؤلف أن مثل هذه الدراسة تتطلب اتباع أسلوب العمل الجماعى فى إطار فريق البحث، واستخدام التقنيات الحديثة، وحل مشكلة المفاهيم التى لم تتم مواجهتها من قبل على يد المؤرخين، والتعامل مع الطبقة باعتبارها نظاماً للعلاقات الأفقية والرأسية، وليست قطاعاً منعزلاً عن الناس. على أن يتجنب الباحثون عزل الظاهرة موضوع الدراسة عن سياقها المجتمعى. وهى منهجية جديدة يدعو إليها هوبسباوم، ويرى أن البحث التاريخى يجب أن يتجه إليها.

ولا شك أن تلك الآراء التى تستهدف تطوير دراسة التاريخ الاجتماعى ليصبح تاريخاً للمجتمع تفيد المشتغلين بالدراسات التاريخية فى الوطن العربى، وخاصة المهتمين منهم بدراسة التاريخ الاجتماعى. فقد بدأنا العمل فى هذا المجال منذ نحو ثلاثة عقود من الزمان دون أسس منهجية واضحة، وإنما ترك الأمر للاجتهاد الفردى لكل باحث على حدة. فاتجه معظم من عملوا فى هذا المجال إلى دراسة الطبقات الاجتماعية، مع عدم إغفال بنية المجتمع ككل، بينما اتجه البعض الآخر إلى عزل الطبقة موضوع الدراسة عن سياقها الاجتماعى. وغالباً ما يميل من يستخدمون التفسير المادى للتاريخ منهجاً لهم، إلى مراعاة السياق الاجتماعى، بينما يقدم غيرهم دراسة وصفية لطبقة ما، دون اعتبار لشبكة العلاقات التى تربطها بغيرها من طبقات المجتمع، أو تحديد لدور البنية الأساسية فى تكوين الطبقة، وحركتها الجدلية مع غيرها من طبقات المجتمع. ونظرة إلى العديد من الأطروحات التى أجازتها الجامعات المصرية والعربية فى العقدين الأخيرين فى موضوعات مثل: «العامة» أو «التجار» أو «العلماء» أو «الفلاحين» أو «الحرفيين» فى العصر الإسلامى، والعصر العثمانى، تكفى لاكتشاف الإفلاس المنهجى، وغياب المعرفة بالعلوم الاجتماعية ذات الصلة بموضوع الدراسة، فضلاً عن مناهجها وأدواتها البحثية.

ويطيب للمشتغلين بالبحث التاريخى فى الوطن العربى، الحديث عن «الموضوعية» التى يجب أن تكون موضع رعاية كل من يكتب التاريخ. ويلقن الأساتذة تلاميذهم فى الجامعات العربية - بلا استثناء تقريباً - ضرورة التزام الباحث الموضوعية باتباع «الحياد» التام عند تعامله مع المادة التاريخية، فلا ينحاز لوجهة نظر على حساب أخرى. وغالباً ما يضرب المثل بالقضاء، فالقاضى عليه أن يلتزم جانب الحياد التام حتى يقيم العدل بين المتخاصمين، وهى مقولة لا تصمد أمام النقد، فالقاضى يستمع لأطراف الخصومة وشهادة الشهود وما يقدمه كل طرف من أدلة تسند وجهة نظره وتؤيد دعواه، ولكن عليه - فى نهاية المطاف - أن يصدر حكماً لصالح طرف ضد الطرف الآخر، فهو هنا «ينحاز» لوجهة النظر التى يرى أن الحق معها. وقد ترى دائرة قضائية أعلى غير ما رآه هذا القاضى، فتقضى بما تراه حقاً وعدلاً. ولا يمكن أن يوصم أى من الحكمين بالافتقار إلى الموضوعية، لأن الموضوعية قيمة نسبية.

وقضية الموضوعية ما زالت الشغل الشاغل للمؤرخين العرب عامة، والمصريين خاصة، حتى أن قسم التاريخ بآداب القاهرة والمركز القومى للدراسات الاجتماعية والجنائية قاما بتنظيم ندوة عام ١٩٨٧، بالاشتراك مع المعهد الهولندى للدراسات العربية بالقاهرة، ساهم فيها معظم المؤرخين المصريين المشتغلين بالتاريخ الحديث

بالجامعات وخارجها، حملت عنوان: «الالتزام والموضوعية فى كتابة تاريخ مصر المعاصر ١٩١٩-١٩٥٢»، احتدم فيها الجدل بين من أقاموا للموضوعية بمفهومها السلبى، معبداً اشتغلوا بسدانته، ومن رأوا أن الموضوعية نسبية، يلعب تكوين المؤرخ دوراً كبيراً فى التعامل معها، ويؤثر استعداده الذهنى وثقافته وانتماؤه الاجتماعى والسياسى فى تقديرها.

ويقدم لنا هوبسباوم رأيه فى هذه القضية فى فصل بعنوان «التحيز»، رأى فيه أنه لا غضاضة فى انحياز المؤرخ لنظرية سياسية أو اجتماعية معينة، يوظفها فى تقويمه للظاهرة التى يتصدى لها بالدراسة. وذهب إلى أن ذلك النوع من الانحياز قد يكون دافعاً لإمعان النظر بعمق داخل الظاهرة موضوع الدراسة. ويرى أن التحيز لفكرة أو نظرية قد يستدعى أفكاراً أخرى، ويطرح قضايا جديدة. ويُعد هذا النوع من التحيز آلية لا غنى عنها لهذا النوع من العلوم الإنسانية، لا تستطيع العلوم الاجتماعية أن تتطور بدونها.

وتعد الموضوعية بمفهومها السلبى من رواسب التأثر بالمدرسة التاريخية الألمانية التى تدرب الرواد الأوائل من أساتذة التاريخ بالجامعة المصرية على منهجها عند دراستهم بجامعة ليفربول بانجلترا، التى اتجهت إليها كل بعثاتنا الحكومية فى التاريخ فى العشرينيات والثلاثينيات. وكان للمدرسة التاريخية الألمانية - على ما يبدو - معقل نفوذ فى قسم التاريخ بجامعة ليفربول، رغم أفول نجمها فى أوربا قبل الحرب العالمية الأولى، لعجزها عن تجاوز الإطار الوصفى للحدث دون تقديم تفسير له قد يخرق حياد الباحث ويؤثر على «موضوعيته». وعندما عاد أولئك الرواد من بعثاتهم، لقنوا تلاميذهم نفس الأفكار. وغلب تأثير هذه المدرسة على معظم الأطروحات التى قدمت للجامعة منذ مطلع الأربعينيات، وتم عن طريقها تكوين الجيل الثانى من الأساتذة المصريين، والجيل الأول من الأساتذة العرب الذين درسوا بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن).

ولعل ذلك يفسر ترجمة عبد الحميد العبادى - أحد أولئك الرواد - لكتاب هارنشو الكلاسيكى «علم التاريخ»، واستخدم الكتاب كأساس لتدريس منهج البحث التاريخى حتى منتصف الخمسينيات. وكان من أوائل الكتب التى ألفت فى المنهج كتاب حسن عثمان «منهج البحث التاريخى» الذى لم يخرج عن إطار هارنشو، وما زال كتابه يطبع ويستخدم حتى اليوم، بل تأثر به الكثير ممن كتبوا فى المنهج على طريقته، فى مصر وسورية والعراق واليمن، ولا يستثنى من ذلك إلا كتابات المؤرخين المغاربة الذين جاءوا إلى الميدان متأخرين عن زملائهم المشارقة، ولكنهم تأثروا بالمدارس المنهجية الأحدث وخاصة «مدرسة الحوليات» الفرنسية.

ترى، هل آن الأوان لمراجعة المفهوم السلبى للموضوعية، والإدانة غير المنطقية للانحياز لنظرية سياسية أو اجتماعية معينة؟ إن الموضوعية بمفهومها السلبى المبنى على الحياد التام تعنى اللا موقف، وتلغى حق المؤرخ فى التعبير عن فكره ورؤيته الخاصة، وهى الآلية التى حققت التقدم فى البحث التاريخى على المستوى العالمى، على نحو ما نجده عند هوبسباوم.

ولا يعنى استخدام المؤرخ للنظريات السياسية والاجتماعية عند تحليله للظواهر التاريخية، البعد عن الموضوعية، طالما تجنب التورط فى قولبة التاريخ، أى القيام بصب مادته التاريخية فى قالب نظرى معين، بقدر كبير من التعسف، وصولاً إلى تأكيد مقولات النظرية التى يتبناها، بل نقصد بذلك أن يستفيد المؤرخ من نظريات العلوم الاجتماعية المختلفة فى فهم الظواهر التى يقوم بدراستها وتحليلها. وليس معنى ذلك أن يتحول المؤرخ إلى كاهن فى معبد نظرية بعينها، وإلا جاءت نظرية أحادية معيبة، وجاء مجال رؤيته محدوداً، مما يؤثر على قيمة ما يتوصل إليه من نتائج تأثيراً سلبياً.

وينقلنا ذلك إلى ما كتبه هوبسباوم عن الماركسية وما قدمته للدراسات التاريخية، وله فى هذا الصدد مقالان طويلان، أولهما: يحمل عنوان «بماذا يدين المؤرخون لكارل ماركس»، ذهب فيه إلى أن الماركسية لعبت دوراً أساسياً فى تحديث الكتابة التاريخية من حيث الأدوات المنهجية. فالتفسير المادى للتاريخ جعل العامل الاقتصادى أساسياً وليس فرعياً، وقدم نموذج الأساس والبنية الأساسية الذى شاع استخدامه عند تناول تاريخ الفكر، وأبرز دور المصالح الاقتصادية فى توجيه الصراع الطبقى. كما ترك التفسير المادى أثراً بالغاً على معالجة بعض الموضوعات النابعة من الاهتمامات الماركسية مثل: التطور الرأسمالى، والتصنيع، وتاريخ الفلاحين والعمال، والحركات الاجتماعية، إضافة إلى القوانين التاريخية، وفكرة الحتمية التاريخية. ورأى هوبسباوم أن بعض ما قدمته الماركسية كان له تأثيره الكبير على الكتابة التاريخية حتى عند المؤرخين غير الماركسيين، من حيث التأكيد على العوامل الاقتصادية والاجتماعية ودورها فى تحريك عجلة التاريخ التى شاع استخدامها بين المؤرخين على اختلاف مشاربهم منذ الحرب العالمية الثانية، كما شاع استخدام نموذج الأساس والبنية الأساسية، وتعاقب التكوينات الاجتماعية الاقتصادية، وفكرة المجتمعات الشرقية رغم ما فيها من افتراضات خاطئة.

« نظرة إلى العديد من الأطروحات التى أجازتها الجامعات المصرية والعربية فى موضوعات مثل: «العامة» أو «التجار» أو «العلماء» أو «الفلاحين» أو «الحرفيين» فى العصر الإسلامى، تكفى لاكتشاف الإفلاس المنهجى... »

وفوق ذلك كله، يعتبر هوبسباوم أن مساهمة ماركس الأساسية فى علم التاريخ تتمثل فى نقد الوضعية، والميل إلى إدماج العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية معاً، مما يعنى الاعتراف بالعلوم كنظم للعلاقات بين البشر وبعضهم البعض، وبينهم وبين البيئة التى يعيشون فيها. وقد تجاوزت الماركسية النظرية الوظيفية للمجتمع، فهى تساعد على شرح الكيفية التى تتغير بها المجتمعات، وتساعد على كشف حقائق التطور الاجتماعى. وسواء كان المؤرخون ماركسيين أو كانوا غير ذلك، فقد تجاوزت كتاباتهم ماركس بسبب التقدم الراهن فى العلوم الاجتماعية. ولكن قيمة المادية التاريخية - كما عبر عنها ماركس - كبيرة، تعكس ما للماركسية من أثر فى الكتابة التاريخية.

وفى المقال الثانى، الذى حمل عنوان «ماركس والتاريخ»، وضع هوبسباوم يده على أثر الماركسية فى الكتابة التاريخية، مؤكداً أن لماركس تأثيراً كبيراً فى البلاد غير الاشتراكية، يفوق أثره فى البلاد التى تلتزم بالأيديولوجية الماركسية. ورأى المؤلف أن التاريخ الماركسى اليوم أصبح تعدديا وليس أحاديا، فالتفسير الأحادى للتاريخ أصبح جزءاً من تراث الماركسية، ولكن لم يعد مقبولاً عند جمهرة المؤرخين. وأن التاريخ الماركسى اليوم لا يقف بمعزل عن الفكر التاريخى والبحث فى التاريخ، ولم يعد المؤرخون الماركسيون ينكرون جهد غيرهم من المؤرخين طالما كانت أعمالهم جيدة، كما أن الماركسية حولت مسار الكتابة التاريخية، حتى أصبح من الصعب أن نقف على حقيقة انتماء المؤرخ إلى الماركسية من قراءتنا لعمله، بعدما شاع استخدام الأدوات المنهجية للماركسية فى الكتابة التاريخية المعاصرة.

« الرواية الشفهية لا تحظى باعتراف الأوساط الأكاديمية العربية. فما زال غالبية المشتغلين بالكتابة التاريخية فى عالمنا العربى يجترون مقولة رانكه من الزمان: «لا تاريخ بغير وثائق....»

غير أن الكتابات التاريخية الأولى التى استخدمت التفسير المادى للتاريخ جاءت على يد غير المتخصصين فى التاريخ، ولم يتم تداولها إلا بعد منتصف الخمسينيات وما شهدته من أحداث حاسمة منذ قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. وبرزت فى هذا المجال كتابات شهدى عطية الشافعى، وإبراهيم عامر (١٩٥٧)، وفوزى جرجس (١٩٥٨). إضافة إلى ترجمات راشد البراوى فى أوائل الخمسينيات وبعض كتاباته التى تناولت التفسير المادى للتاريخ. ويلاحظ على هذه الكتابات قلة الإلمام بالتطور التاريخى فى مصر، وتطبيق المنهج الماركسى تطبيقاً تعسفيا لم يراع فيه اختلاف ظروف المجتمع المصرى عن النموذج الذى عالجه ماركس، واعتبار الصراع الطبقى محور الحركة التاريخية فى مصر. فاستخدام الماركسية هنا كان سياسيا بالدرجة الأولى عقائدى الطابع، ملتزماً بالنص الماركسى، لا يدخل فى اعتباره المراجعات التى تعرضت لها الماركسية على يد من عُرفوا بالماركسيين الجدد، ومن بينها مراجعة المؤرخ الإنجليزى موريس دوب لفكرة الصراع الطبقى فى مرحلة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية، التى أثارت جدلاً كبيراً بين الماركسيين فى الخمسينيات.

وجاءت المحاولة الأولى لاستخدام التفسير المادى فى الدراسات التاريخية الجامعية على يد محمد أنيس، الذى كان لدراسته التى حملت عنوان «مصر من الإقطاع إلى الرأسمالية ١٧٩٨-١٨٨٢» أبلغ الأثر فى توجيه اهتمام جيل الباحثين فى الستينيات إلى التفسير المادى للتاريخ، رغم ما وجه لتلك الدراسة من نقد، أبرزه وقوعها فيما وقع فيه الكتاب الشيوعيون فى الخمسينيات من تطبيق فكرة الصراع الطبقى تطبيقاً تعسفياً، والقول بوجود الإقطاع فى القرن التاسع عشر، واعتبار ثورة عرابى ثورة بورجوازية موجهة ضد الإقطاع.

ولكن الدراسة خلبت لب جيل الستينيات (ومن بينهم صاحب هذا القلم)، وكانت بالنسبة لهم فتحاً جديداً فى الدراسات التاريخية، فاختاروا أطروحتهم للماجستير والدكتوراه فى موضوعات تتصل بتاريخ القوى الاجتماعية. ولكن ذلك الجيل من الباحثين فى التاريخ لم يتم إعدادهم المنهجى فى رحاب الجامعة، وإنما كونوا أفكارهم بجهودهم الخاصة، ومن خلال حلقات دراسية نظموها بأنفسهم (أحياناً) لدراسة الماركسية والتفسير المادى للتاريخ، وطبقوا ما تحصّل لديهم على كتابة التاريخ. وكان من الطبيعى أن يشوب القصور استخدامهم للمنهج الماركسى نتيجة عدم التدريب على التعامل مع أدواته، غير أن إدراكهم لدور البنية الأساسية فى صياغة حركة المجتمع بكل أبعادها يبدو واضحاً فى كتاباتهم. وقد وجه هؤلاء تلاميذهم فى السبعينيات إلى أهمية التفسير المادى للتاريخ، وقيمة المساهمة الماركسية فى علم التاريخ. ولكن التأثر بالماركسية فى الكتابة التاريخية مازال محدوداً ليس فى مصر وحدها، بل فى الوطن العربى. ولا نستطيع الزعم أن المؤرخين العرب استفادوا من الماركسية على نحو ما فعل مؤرخو الغرب قياساً بما رأيناه عند هوبسباوم، مما يفسر بعض جوانب أزمة المنهج التى تعانى منها الكتابة التاريخية فى بلادنا.

ولا ريب أن تحول التوجهات السياسية منذ السبعينيات، وما أصاب المؤسسات الأكاديمية من تدهور فى مستوى الأداء فى العقدين الأخيرين الذى انعكس على الدراسات العليا عامة انعكاساً سلبيا، والعودة إلى النفور من الفكر الماركسى ونبذ أصحابه، والجرى وراء أفكار أخرى تمت صياغتها فى الغرب دون محاولة فهمها أو اختبارها أو النظر فى إمكانية مواءمتها للواقع المصرى (كالحداثة، وما بعد الحداثة)، كل ذلك كانت له آثاره على الحيلولة دون الاستفادة بالأدوات المنهجية للماركسية فى الكتابة التاريخية عندنا. وبذلك تم تكريس التخلف المنهجى عندنا.

ويعطينا هوبسباوم نموذجاً متواضعاً لما يثير اهتمام المؤرخين فى الغرب من إشكاليات تتصل بالكتابة التاريخية، فى مقال يعبر عن القلق الناجم عن عودة «القص التاريخى» فى بعض الكتابات التاريخية فى الغرب. فقد كتب لورانس ستون وهو مؤرخ بارز - مقالاً نشر فى مجلة «Past and Present» (وهى من المجلات العلمية المهمة) ينتقد عودة «القص التاريخى» الذى يتخذ من السرد أسلوباً له، بعد أن كاد يختفى تماماً منذ العشرينيات. وأرجع ستون ذلك إلى نفور بعض المؤرخين من أن يشغلوا أنفسهم بتفسير الظواهر التاريخية، وعزوف البعض الآخر عن الأخذ بفكرة الحتمية الاقتصادية. ورد هوبسباوم على زميله ستون بمقال آخر نشر على صفحات المجلة نفسها (فبراير ١٩٨٠) وأعاد نشره فى الكتاب الذى بين أيدينا «فى التاريخ».

استعرض هوبسباوم فى مقاله ما حققه علم التاريخ من تطور كبير بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص، وأطلق على الاتجاه الذى انتقده ستون فى مقاله اسم «المؤرخون المحافظون الجدد»، واعتبر هذا الاتجاه بمثابة رد الفعل للتاريخ الثقافى

اليسارى، وأوضح أن الميل إلى «القص التاريخى» يبدو واضحاً فى الدراسات التى تعالج ظاهرة واحدة، أو حالة واحدة فى سياق زمنى محدود، وبذلك يعجز أصحاب هذا الاتجاه عن إدراك التغير التاريخى لضيق مجال الرؤية أمامهم. وذهب هوبسباوم إلى أن وجود نفر من المؤرخين يميل إلى «القص التاريخى» لا يعنى أن ثمة ردة منهجية تعرض البحث التاريخى جميعه للخطر، طالما كانت الظاهرة محدودة من ناحية، ولا تخرج عن إطار المجتمع كموضوع للدراسة من ناحية أخرى، ومادامت تتبع الأسس المنهجية المتعارف عليها حتى لو أغفلت الفرضيات النظرية التى يستخدمها غيرها. فالقص التاريخى عند هؤلاء - كما يتضح من كلام هوبسباوم - ليس رصا للمادة إلى جوار بعضها البعض دون إدراك لسياقها الزمنى، ولكنه مجرد أسلوب للمعالجة فى إطار الأسس المنهجية المتعارف عليها. لذلك لم يشارك زميله القلق الذى اعتراه عند ملاحظته هذه الظاهرة.

ترى، ماذا يكون موقف هوبسباوم إذا عرف أن «القص التاريخى» وأسلوب السرد الممل - والمخل أحياناً - هو النمط الشائع فى الكتابة التاريخية عند العرب المعاصرين؟ هل كان باستطاعته أن يقابل الظاهرة بمثل هذا الاستخفاف، وخاصة أن معظم هذه الكتابات لا تعالج التاريخ باعتباره تاريخ مجتمع، وإنما يغلب عليها إعلاء دور الفرد فى تحريك عجلة التاريخ؟ لا أشك لحظة أن هوبسباوم لن يكون أقل قلقاً إزاء هذه الظاهرة من زميله ستون، وأنه لن يغفر لنا تخلفنا المنهجى، وهو الذى يشيد بفضل ابن خلدون على علم التاريخ ومناهج البحث فيه، فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب، ويعتبره صاحب أقدم صياغة لمنهج منطقى متماسك. إن أزمة المنهج فى الكتابة التاريخية عندنا ليست عَرَضاً كذلك الذى أقلق لورانس ستون، يمثل استثناءً لقاعدة عريضة، ولكنها عندنا مرض مزمن يصيب الكتابة التاريخية العربية بالشلل، ويجعلها عاجزة عن اللحاق بما حققه علم التاريخ من إنجاز متميز عند غيرنا، مما يتطلب مراجعة شاملة من جانبنا لكل ما اتصل بإعداد الباحث فى التاريخ، بصورة تكفل تحريك ما أصاب الكتابة التاريخية من ركود.

وبينما نحن مازلنا نفكر فى إقالة المنهج من عثرته، تتفتح عند غيرنا آفاق منهجية جديدة، يعرض لها هوبسباوم فى كتابه عند معالجته للتاريخ الشفاهى، وهى قضية منهجية تشغل بال من يدرسون تاريخ البسطاء من عامة الناس، وتاريخ الثقافة الشعبية بمختلف مكوناتها، وتاريخ العادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية، والفنون الشعبية والفولكلور، وغير ذلك من مجالات لا تتوافر عنها مادة أرشيفية، أو شواهد مادية معينة. وهنا يلجأ الباحث إلى جمع مادته من أفواه المصادر الحية المعاصرة. ويرى هوبسباوم أن «الرواية الشفهية» ما زالت تحتاج إلى اشتغال الفكر التاريخى بها، كما تحتاج إلى باحث من طراز خاص، على دراية بعلم النفس، وبطبيعة الموضوع الذى يتصدى لدراسته، تتوافر لديه القدرة على التصور وتكوين رؤيته الخاصة.

والرواية الشفهية لا تحظى باعتراف الأوساط الأكاديمية العربية، فما زال غالبية المشتغلين بالكتابة التاريخية فى عالمنا العربى يجترون مقولة رانكة Ranke التى أطلقها قبل قرن من الزمان: «لا تاريخ بغير وثائق»، فهم ينفرون من المصادر الشفهية، ولا يقبلون استخدامها، وينظرون بتحفظ شديد إلى البحوث المعدودة التى استخدمت الرواية الشفهية بين مصادرها. وثمة استثناءات نادرة، سمح فيها بعض الأساتذة لأحد تلاميذهم باستخدام الرواية الشفهية. ولعل صاحب هذا القلم كان أول من استخدم هذا المصدر فى الوطن العربى عند إعداده أطروحة الماجستير عن «الحركة العمالية فى مصر ١٨٩٩ ــ ١٩٥٢»، ونجح فى توظيفها توظيفاً منهجيا لسد الثغرات التى عجزت المصادر الأخرى عن سدها. وجاءت دراسة رفعت السعيد للحركة الشيوعية معتمدة اعتماداً يكاد يكون تاما على الروايات الشفهية. ولكن ذلك لا يعنى أن «الرواية الشفهية» قد حظيت بالاعتراف بها على المستوى الأكاديمى كمصدر من مصادر الكتابة التاريخية.

وقدم لنا هوبسباوم بعض المحاذير التى يجب أن ندخلها فى الاعتبار عند التفاعل مع «الرواية الشفهية»، وخاصة عند تحليل تلك الروايات، لأنها لا تخضع للاختبار إلا فى حدود ضيقة. وغالباً ما يتصور الباحث نماذج معينة ربما أضفت قدراً من الغموض على ما ينشد التوصل إليه. ويستلفت هوبسباوم النظر إلى أن هدف هذا النوع من الدراسة شرح الماضى وربطه بالحاضر وليس استكشاف الماضى ذاته. ويرى أن «التاريخ الشفاهى» يحتاج إلى تخصص يجمع بين منهجيات التاريخ وغيره من العلوم الاجتماعية، وإلى إعداد الباحثين فى هذا المجال إعداداً خاصا.

ويقودنا ذلك إلى آخر القضايا المنهجية التى عالجها هوبسباوم فى كتابه، وهى قضية التاريخ المعاصر، وهو نص محاضرة ألقاها فى جامعة لندن عام ١٩٩٣ بعنوان «الحاضر تاريخاً»، وكان شاهد عيان لها. مناقشة ممتعة، عرض فيها لتجربته الذاتية فى كتابة تاريخ القرن العشرين، وبيّن كيف أن رؤيته للتاريخ القريب كانت نتاجاً لمراقبته للأحداث التى عاصرها من منظور تاريخى، وما توافر لديه من استعداد خاص لاستشراف المستقبل، أو - بعبارة أخرى - طرح التوقعات لما قد تتخذه حركة الأحداث من اتجاهات على ضوء خبرته بالموضوع وثقافته وتكوينه العلمى.

إن قراءة كتاب هوبسباوم «فى التاريخ» تضع بين أيدينا خلاصة تجربة مؤرخ مرموق متابع ومشارك بجهده فى التطور المنهجى الذى حققه علم التاريخ فى النصف الثانى من القرن العشرين على وجه الخصوص. والقضايا المنهجية التى يطرحها المؤلف فى كتابه تدفعنا إلى إمعان النظر فى حال الكتابة التاريخية عندنا، وتحفزنا إلى ضرورة مراجعة ظاهرة القصور المنهجى التى تعانى منها الكتابة التاريخية العربية، لعلنا نستفيد مما تحقق على الصعيد العالمى فى هذا المجال. ■

كتاب الزاوية

من شعر إبراهيم ناجى

تحليل قبلة

ولما التقينا بعد نأى وغربة
شجيين فاضا من أسًى وحنينِ
تسائلنى عيناك عن سالف الهوى
بقلبى وتستقضى قديم ديونِ
فقمت وقد ضجَّ الهوى فى جوانحى
وأنَّ من الكتمان أىَّ أنينِ
يبث فمي سرَّ الهوي لمقبَّلٍ
أجود له بالروح غير ضنين
إذا كنت فى شك سلى القبلة التى
أذاعت من الأسرار كل دفين
مناجاة أشواق وتجديد موثق
وتبديد أوهامٍ. وفض ظنون
وشكوى جوى قاس وسقمٍ مبرح
وتسهيد أجفانٍ وصبر سنين!

الإهداء

أنتَ وحىُ العبقريةْ وجلالُ الأبديهْ
أنت لحنُ الخلد والرحمة فى أرض شقيهْ
أنت سرٌّ تعبتْ فيه العقول البشريهْ
إن تكن أشجتك أشعارى وأناتى الشجيهْ
فتقبَّلْ طاقةً بالدم والدمع نديهْ
وارضَ عنها وإذا لم ترضَ فاغفر لى الهديه

❊ ❊ ❊

يا حبيبى! نضب العمر وقرّبنا الضحيهْ!
إن يكن قد شقى الماضى فما أهنا البقيهْ
فى خيالات غوال وأمان ذهبيهْ
يطلع الصبح عليّها مثّلما تمضّى العشيهْ
أنت صهباء السماوات، وروحٌ قُدُسيهْ
بتَّ تسقينى فتنسينىَ أوجاعى العصيهْ
فسلامًا كل حينٍ وغرامًا وتحيهْ!

«أنا لا أعرف الحقيقة المجردة، ولكننى أركع متواضعًا أمام جهلى، وفى هذا فخرى وأجرى».

جبران خليل جبران

تشيكوف
هل كان
داعية لآراء هدامة؟

ايلين كيلي



الهدم المنسوب إلى تشيكوف نابع من مقدرته الفذة على التعامل مع الحياة العادية بحيث يتمكن من اختراق المرئي المألوف ليكتشف أشياء أخرى مهمة كامنة تحت السطح، ثم يعرض رؤيته للخبرة اليومية بما يتناقض مع افتراضاتنا التقليدية ويتعارض مع معتقداتنا المستقرة عن أنفسنا وعن العالم.

وهو يعترض على تصنيفه شخصيا، بناءً على إبداعه الفني، إذا ما كان متفائلاً أو متشائماً، لأن دوره في هذا السياق أن يسجل ما قاله أو فكر فيه هذا الشخص أو ذاك، وفي ظل أية ظروف.

وأما هدفه فذو شقين: أن ينجح في تصوير الحياة بإخلاص وأمانة، وأن يُبيّن مدى انحراف هذه الحياة عن الصورة المرجوة..

[١]

■■ إنه واحد «من أكثر الكتاب أصحاب النزعات الهدامة عمقاً على مدى التاريخ». قليلون حتى من بين أشد المعجبين بتشيكوف يمكن أن يتعرفوا عليه من هذا الوصف الذى قدمه سيمون كارلنسكى فى مقدمته لمجموعة مختارة من رسائله. فعلى خلاف الروايات التى كتبها دستويفسكى، والتى تكشف الجانب الشيطانى الكامن فى النفس البشرية، تصف مسرحيات تشيكوف وقصصه رجالاً ونساء عاديين، يقضون حياة بلا أحداث مثيرة، وغالباً ما تكون حياة مملة رتيبة. وبينما كان تولستوى يدعو إلى الفوضوية ويرعد ضد الكنيسة والدولة الروسية، كان تشيكوف يعمل بهدوء طبيباً فى الريف ومزارعاً على نطاق ضيق، إلى أن ضعفت صحته واضطر إلى قضاء فصول الشتاء فى مدينة يالطا.

كانت حياته تبدو لكثير من معاصريه مبتعدة بشكل زائد عن القضايا العظمى فى ذلك العصر، ولكن هذا الافتقار إلى التميز بالتحديد هو ما جعل لكتاباته طابعاً هداماً. ونظرته الساخرة إلى القواعد السائدة لسلامة التصرف تبدو الآن وكأنها اختراق غريب للغيب، فقد عمل على تقويض الكثير من افتراضات المجتمعات الحديثة بشأن طبيعة التقدم، والحرية، والأخلاقيات الشخصية. وهو لم يضع (على عكس تولستوى)، مكان الأساطير التى يقضى عليها أساطير أخرى من صنعه.

وكان المجتمع فى عصره يتطلع إلى الكتّاب للاضطلاع بدور القيادة الأيديولوجية والأخلاقية فى المعركة ضد الحكم الأتوقراطى. وكان النقاد الراديكاليون، والذين كانت سلطتهم فى مجال الأدب أقوى من سلطة الرقابة الرسمية، يمجدون كتّاباً من الدرجة الثانية من أمثال زلاتوفراتسكى وجليب أوسبنسكى الذين كانوا يعرضون الصراع بين الرجعية والتنوير من خلال نماذج ثابتة فجة: فالقساوسة والتجار وضباط الجيش يُقدَّمون دائماً فى صورة الأوغاد، ويقدم الفلاحون والشبان المثاليون الراديكاليون فى صورة الأبطال ذوى القلوب النقية. وعندما بدأت أفكار تشيكوف تتحول إلى موضوع للجدل فى الدوائر التقدمية، قدم نفسه فى رسالة مشهورة وجهها إلى المحرر الأدبى لمجلة كانت قد بدأت تنشر أعماله قال فيها:

«أنا لست ليبراليا ولا محافظا ولا من دعاة التدرج، ولست راهباً أو من أنصار اللامبالاة. وإنما أريد أن أكون فناناً حرا ولا شيء غير ذلك. إن النفاق، وثقل الدم، والتسلط، لا توجد فقط فى بيوت التجار ومراكز الشرطة، فإنى أراها فى مجالات العلم والأدب، وبين جيل الشباب. ولذا فإنى لا أقدم صورة خاصة لرجال الشرطة أو الجزارين أو العلماء أو الكتاب أو الشبان. وأنا أنظر إلى البطاقات والتسميات على أنها أفكار مسبقة. وقدس الأقداس لدىّ هو جسد الإنسان، والصحة والذكاء والموهبة والإلهام والحب... والتحرر من العنف والكذب، أيا كان شكل هذين الأخيرين».

وقد نبعت كراهية تشيكوف للعنف والنفاق من تعرضه مبكراً لكل منهما بشكل قاس ومتطرف. وقد كتب مرة يقول (بمناسبة تمجيد تولستوى للفلاحين الروس): «إن دم الفلاحين يجرى فى عروقى، ولكنى لست الشخص الذى يمجد فضائل الفلاحين». وقد ولد تشيكوف فى سنة ١٨٦٠، وهى السنة التى سبقت إلغاء نظام القنانة فى روسيا. وكان جداه من الجانبين من عبيد الأرض. وكان أبوه، بافيل، قد شغل مركزاً ضعيفاً بين طبقة التجار عندما امتلك محلاً لبيع الخضر فى مدينة تاجنروج Taganrog فى جنوب روسيا. وكان الأب طاغية فى المنزل يكثر من الحديث عن الأخلاق، ويمثل بإخلاص تقاليد الورع والنزعة الأبوية التى كانت سائدة لدى أصوله الفلاحية. وكان أنطون هو الابن الثالث بين ستة أبناء. وقد كتب فيما بعد يقول إن الطفولة كانت بالنسبة له وبالنسبة لأخويه الأكبر منه سنا «معاناة خالصة». فقد كان أبوهم يضربهم فى كل يوم، كما كان يضربهم رئيس الجوقة فى الكنيسة حيث كان يطلب منهم الترتيل ساعات متواصلة وهم يركعون فوق أرض حجرية مثلجة.

وعندما كان أنطون تلميذاً فى السادسة عشرة من عمره تركته أسرته ليرعى شئون نفسه فى تاجنروج عندما أفلس أبوه واضطر إلى نقل معظم أفراد الأسرة إلى موسكو للبحث عن عمل. وكان الأبناء البؤساء الحائرون من أسرة تشيكوف نموذجاً متكرراً بين عدد كبير من الصغار الموهوبين الذين تاهوا فى مسالك الحياة عندما تهاوت المؤسسات والقيم فى روسيا القيصرية. وقد تمكن بعضهم (مثل أخوى أنطون المستهترين الأكبر منه سنا) من الحصول على تعليم عال لكنهم ظلوا تائهين بلا مبادئ، وعثر غيرهم على كنيسة جديدة وعقيدة جديدة فى الحركة الراديكالية.

أما أنطون فقد اتخذ سبيلاً منفرداً. فخلال ثلاث سنوات قضاها وحده فى تاجنروج، واصل دراسته بينا كان يقوم بالتدريس للطلبة الآخرين. وأنجز ما أنفق تولستوى حياته عبثاً فى السعى إليه: إذ أعاد اكتشاف نفسه كشخص متكامل معنويا، وبمنأى عن التشويهات التى فرضها الاستبداد الذى كان سائداً فى الحياة الروسية. وأصبح أنطون عمليا هو رأس عائلته، إذ كان بقاؤها يعتمد على النقود التى يرسلها إليها مما يكسبه. وكان فى غضون ذلك يثقف نفسه بالقراءة النهمة فى مكتبة تاجنروج العامة.

ويمكن أن نستنتج ما اكتسبه خلال تلك الإقامة، المنفردة من النصيحة التى أسداها بعد سنوات لشقيقه الأكبر الجانح نيكولاى: «يجب أن تتغلب على ذلك الجانب منك الذى تربى على الصدقات والجَلد بأغصان البتولا بجانب قبو النبيذ»، وأنه يجب أن ينمى لديه احترام شخصيات الآخرين، وأن يبتعد عن كل شكل من أشكال القسوة والغرور. «وعليك أن تعمل من أجل ذلك بلا توقف، نهاراً وليلاً. ويجب ألا تكف

---

1 - Anton Chekhov's Life and Thought: Selected Letters and Commentary

(حياة وفكر أنطون تشيكوف: تعليق على خطابات مختارة)

translated from the Russian by Michael Henry Heim with Simon Karlinsky.
Introduction and commentary by Simon Karlinsky.
Northwestern University Press, 494 pp.

2 - Chekhov's Plays: An Opening into Eternity

(مسرحيات تشيكوف: مدخل للخلود)

Richard Gilman
Yale University Press. 261 pp.

3 - Anton Chekhov: A Life

(أنطون تشيكوف: حياة)

Donald Rayfield
Harper Collins. 674 pp.

عن القراءة، والتعمق في الدراسة، وممارسة الإرادة. فلكل ساعة قيمتها الثمينة». وكان ما أنجزه أنطون في هذا الصدد هو الذي مكنه عندما بلغ الثلاثين من عمره أن يرسل احتجاجاً إلى رئيس تحرير المجلة التي وصفته بأنه كاتب «بلا مبدأ» ليرد عليه بقوله: «لم يحدث قط أن تزلفت يوماً أو كذبت أو أهنت أحداً» ومهما يكن في عملي الفني من عيوب «فإني لم أكتب سطراً واحداً أشعر بالخجل منه اليوم».

وقد بدأ عمل تشيكوف الأدبي كوسيلة يقيم بها أود أسرته، عندما حصل على منحة من مجلس مدينته سمحت له بدراسة الطب في جامعة موسكو. وقد بدأ بتقديم إسكتشات هزلية للمجلات الأسبوعية، حققت نجاحاً أتاح له أن يُقسِّم وقته بعد التخرج في سنة ١٨٨٤ بين «الطب زوجتي الشرعية، والأدب عشيقتي».

وتميزت قصصه القصيرة بأصالة شكلها وتنوع موضوعاتها، والقدرة على تصوير الطبيعة الروسية والعالم الداخلي للنساء والقساوسة والفلاحين والتجار والأثرياء والحيوانات. وقبل أن يبلغ الثلاثين بات معدوداً من كبار الكتاب. وفي سنة ١٨٨٧ وضعته مسرحيته «إيفانوف» بين المؤلفين المسرحيين. وبعد أن تيسرت أحواله المالية أخيراً استطاع أن يشتري لأسرته مسكنها المستقر الأول، ومزرعة صغيرة بالقرب من موسكو، حيث اكتسب مكانة خاصة في الدوائر الفنية. وكان يستمتع بالجو الاجتماعي وصحبة النساء الجميلات. وقد ظلت كثيرات من النساء اللاتي أقام معهن علاقات قبل زواجه في سن الأربعين، من أصدقائه المخلصين. وكذلك كان الرجال يجدون شخصيته جذابة تصعب مقاومتها. وقد وصفه المصور قسطنطين كوروفين بأنه «وسيم للغاية» وأن عينيه طيبتان «ولديه ابتسامة خجول خاصة أن مظهره كله يبعث لدى الآخرين شعوراً خاصا بالاطمئنان».

وكان مصدر هذا الاطمئنان مشاعره الإنسانية البسيطة، التي جعلته شديد الحساسية للنفاق السياسي والتعميمات الفارغة. كتب يقول: «لقد اكتسبت إيماني بالتقدم عندما كنت لا أزال طفلاً. لم يكن بوسعي إلا أن أومن بذلك، لأن الفارق بين الفترة التي كانوا يضربونني فيها والفترة التي كفوا فيها عن ضربي كان فارقاً هائلاً». كان يعجب بالمثالية الأخلاقية لكثير من الراديكاليين الروس لكنه كان يرى في نشاطاتهم ما يذكره ببيئة طفولته: «إني أنفر جسديا من سوء المعاملة أيا كان الشخص الذي يتعرض لها». وكان يتهم المثقفين والمشغولين برؤاهم الطوباوية الشخصية بأنهم يتجاهلون ما حققته مؤسسات «الزمستفه» (Zemstva) من إنجازات - وهي مؤسسات الحكم المحلي التي نشأت نتيجة «للإصلاحات الكبرى» التي طُبقت في الستينيات من القرن الماضي - وما ترتب عليها من تهذيب المجتمع الروسي. وقد أشار إلى ما تحقق من تقدم في مجال الجراحة في روسيا خلال السنوات العشرين السابقة، وقال إنه لو خُيِّر بين «المثل العليا لتلك السنوات (والتي تم التعبير عنها في صور طوباوية راديكالية مثل الصورة التي وردت في رواية «ما الذي يجب عمله؟» التي ألفها نيكولاي تشرنيفسكي) وبين أفقر مستشفى أقامته مجالس الزمستفه لاخترت الأخير دون ذرة تردد».

وكان سجله الخاص بالعمل الإنساني حافلاً. وكتابه عن مستعمرة الاعتقال المقامة في جزيرة سخالين السيبيرية (الذي اعتمد على مسح طبي إحصائي للأحوال هناك) قد نبَّه الجمهور إلى فظائع نظام العقاب الروسي.

وأعقبت الجهود التي بذلها لتخفيف حدة المجاعة في منطقته في عامي ١٨٩١ - ١٨٩٢ نوبة من النشاط المهلك من الانتقال، غالباً على القدمين، في أنحاء الريف قارس البرد بوصفه مفتشاً طبيا بغير أجر مكلفاً بمكافحة وباء الكوليرا. وقد عالج آلاف الفلاحين في عيادة أنشأها في مزرعته، وساعد في بناء المدارس، وتبرع بالمكتبات، وجمع الأموال والتأييد لعشرات من الأغراض الأخرى، من بينها محاولة لإنقاذ مجلة مفلسة للجراحة، وشراء جياد لتوزع على الفلاحين لنقل الحبوب. وهذه المشاركة المباشرة في الأعمال اليومية الملموسة جعلته يهزأ بجميع الوصفات التي تقدم لإنقاذ كوكب الأرض: وفي إحدى زياراته لمدينة نيس ذكر أن من مميزاتها أنه لا يوجد بها «الماركسيون بوجوههم التي تعلوها سمات الشعور بالأهمية». وقد كتب يقول إنه لا يؤمن بالأنتلجنسيا في مجموعها، وإنه يضع أمله في الأفراد، سواء كانوا من المثقفين أو من الفلاحين، المنتشرين في كل أنحاء روسيا، والذين من خلال جهودهم الدائبة تنتشر المعرفة والوعي الاجتماعي ببطء، ويتحقق التقدم بخطى ثابتة: «هؤلاء هم الذين يهمون حقا».

وقد ساعدت نضالات تشيكوف المبكرة وممارسته الطبية في الإيحاء بفكرة مسيطرة في فنه: وهي المعركة بين الأماني البشرية والظروف المعاكسة. وكان قد شاهد وعاني القوة الضاغطة للوراثة والبيئة (وصف أباد ذات مرة بأنه «رجل ذو كفاءة متوسطة غير قادر على النهوض إلى أعلى من موضعه»). ولكن حياته الخاصة قدمت نموذجاً مخالفاً. فتجربته في تاجنروج علمته أن أهم المعارك المعنوية تكسب أو تخسر لا في مواضع التوتر الدرامي الشديد بل من خلال سلسلة متعاقبة من الخيارات التي لا تكون إحداها متميزة أو بارزة. ومن هنا تظهر خصائص البطل التشيكوفي - ومنها نستطيع أن نفهم نصيحة تشيكوف إلى ناشر كتبه وصديقه ألكسي سوفورين الذي كان يكتب مسرحية ذات طابع ميلودرامي تقليدي. كتب له يقول:

> ليس لك أن تنتهي مع العدميين.
> فالنهاية عاصفة وصوتها مرتفع.
> مسرحيتك في حاجة إلى نهاية هادئة،
> شاعرية، مؤثرة. وإذا انتهت بطلتها
> إلى إدراك أن الأشخاص المحيطين بها
> كسالى وأشرار ولا جدوى منهم وأن
> عليها أن تدع الحياة تمر، ألن يكون
> ذلك أكثر من العدمية مدعاة للخوف؟.

[٢]

كانت غرابة المعتاد، ودراما اللادرامي، هي موضوع المسرحيات التي أحدث بها تشيكوف ثورة في المسرح الروسي في العقد الأخير من حياته. وكانت أولى مسرحياته الكبيرة «إيفانوف»، التي احتفظت بعناصر من الميلودراما التقليدية، قد استُقبلت استقبالاً حسناً، أما مسرحية «النورس» (التي استخدم فيها تكنيكه الخاص بصورة كاملة، وتخلى فيها عن العقدة التقليدية) فقد تعرضت لفشل شديد في ليلة الافتتاح في شهر أكتوبر ١٨٩٦، ولكنها قوبلت بالاهتمام عند إنتاجها ثاني مرة في موسكو في سنة ١٨٩٨، وكذلك قوبلت مسرحياته التالية «الخال فانيا» و «الشقيقات الثلاث» ثم في يناير ١٩٠٤ «بستان الكرز». والواقع أن «عدم حدوث شيء» في مسرحيات تشيكوف أصبح منذ ذلك الوقت طابعها المميز. ولكن المناقشات النقدية التي دارت حولها كانت تميل إلى اللجوء إلى إكلاشيهات غامضة مثل الحديث عن قدرة تشيكوف على خلق «الجو» أو «الحالة النفسية». وكثيراً ما فسرت على أنها تعبير حزين عن «روسيا الآفلة» حيث يتأمل ممثلو الطبقة المقبلة على الموت حياتهم الضائعة.

وقد تولى مهمة الإطاحة بتلك الإكلاشيهات، ريتشارد جيلمان في دراسته البديعة، وهي الدراسة التي تُدين بكثير لتأثير مقالة فرانسيس فرجوسون عن «بستان الكرز» التي وصفها بأنها قصيدة مسرحية عن معاناة التغيير. وقد استعار جيلمان ملاحظة أبداها هنري جيمس عن هيدا جابلر في تناوله لمسرحيات تشيكوف «تلك الأشياء التي يفترض أنها ليست درامية: فهي لا تصور حدثاً بل حالة»، والانفعال فيها ينبع من المأزق الذي نواجهه جميعاً بوصفنا كائنات صائرة إلى الموت وخاضعة لتقلبات الزمن والصدفة. وتجلت قدرة تشيكوف على صنع الدرامي من اللادرامي بصورة خاصة في الشقيقات الثلاث، حيث يؤدي مرور الزمن (الذي وردت الإشارة إليه أكثر من عشر مرات في الدقائق الخمس الأولى من المسرحية) بلا هوادة إلى تآكل أمل الشقيقات في تحقيق ذواتهن في المستقبل عن طريق العودة إلى المدينة التي يربطن هويتهن بها في ظل ماض يبدو مثاليا: «أين ذهب ذلك كله؟ أين؟ أين؟ إننا لن نصل إلى موسكو أبداً. أبداً أستطيع أن أرى ذلك الآن». وانهيار إيرينا الباكي قرب نهاية الفصل الثالث يعبر عما يصفه جيلمان بأنه «تجسيد الحرمان باعتباره حالتنا». ولكن كل مسرحياته الرئيسية تتعلق بالخسائر التي تحدث نتيجة مرور الزمن. في ثلاث منها هناك بيت مهدد أو فقد (كما في «بستان الكرز») وضاع معه أسلوب مفضل في الحياة وآمال الحب والإبداع لا تتحقق أو تتحقق بصورة تختلف عما كان متوقعاً.

والموضوع المشترك بين المسرحيات هو زوال الأوهام. فالحب والعمل والمستقبل تعرض كلها في صورة مجردة مثالية تحاول الشخصيات من خلالها، دون نجاح، إنقاذ وضعها الحالي أو تحسينه أو الفرار منه. فست شخصيات في «النورس» تمارس شوقاً رومانسيا إلى «الآخر» كأداة للخلاص. وشخصيات توزنباخ وفيرشنين في «الشقيقات الثلاثة»، وتروفيموف في «بستان الكرز» يتطلعون إلى عصر ذهبي مقبل ينصلح فيه العالم بواسطة العمل. وبالنسبة لإيرينا في «الشقيقات الثلاث» يعتبر العمل («كم سيكون رائعاً أن يصحو المرء عند الفجر ويجتاز الطرق، أو أن يكون راعياً للأغنام، أو معلماً في مدرسة ...») جزءاً من حزمة عاطفية تجمع بينه وبين الحب والمستقبل: «لقد ظللت أنتظر أن نرحل إلى موسكو. قد كنت أعرف أني سألتقي بحبي الحقيقي هناك».

وكما يقول جيلمان، إن الكثير من شخصيات تشيكوف ترغب في أن تصبح شخصاً آخر، أو أن تنتقل إلى مكان آخر، ولكن المسرحيات تُلزمها بالعودة إلى المكان الذي توجد به الآن، والشخصية التي هي عليها الآن. ولكن ليس هناك إيحاء بالقدرية («الشقيقات الثلاث» و «بستان الكرز» لكل منهما عنوان فرعي: «كوميديا») وبدلاً من التقدم النمطي التقليدي نحو حل عقدة المسرحية نجد ما يسميه جيلمان «مجالاً دراميا»: نطاقاً من ردود الفعل لخسارة وقعت. ونحن لا نرى الشخصيات إلا عندما تكون قد عادت إلى أماكنها السابقة، وليس ثمة ما يحول بينها وبين الاستجابة لأوضاعها المباشرة في حوار يستجيب للإيقاعات المألوفة في حياتنا - منقطع، مرتجل، يتأرجح بين الذكريات والتوقعات، وتتناثر فيه الفجوات وانفجار الهزلي في وسط الجاد.

في «بستان الكرز»، نجد أن رجل الأعمال لوباخين (الذي كثيراً ما يفسر خطأ على أنه أداة القوى الاجتماعية التي لا ترحم) يتحدث عن «هذه الحياة التعسة والمختلطة»: إنها سمة الحياة العارضة والتي لا يمكن التنبؤ بها (والتي يذكرنا بها باستمرار بوقوع أحداث غير ذات أهمية مثل انقطاع حبل) والتي تفسد آمال الشخصيات وخططها. وبعضها (مثل قسطنطين في «النورس») يدمره إدراكه للحقيقة المخالفة لما كان لديه من أوهام، وشخصيات أخرى (نينا في النورس، والشقيقات، سونيا ابنة أخت فانيا) تنضج روحيا بقبولها للقيود وبالإمكانات الضيقة لوضعها. ويخفف من جلدها وقدرتها على التحمل (وهي ميزة خاصة بمسرح تشيكوف كما يقول جيلمان) الفكاهة، والتعاطف، والأمل في بعض الحالات. فالزمن عندما يغلق بعض الخيارات يفتح خيارات أخرى: القبول بفقد البستان يعني وجود إمكانات جديدة أمام رانيفسكايا وابنتها آنيا.

وعرض جيلمان للعلاقة بين أفكار تشيكوف وتكنيكه الدرامي يجب أن يقرأه المنتجون والنقاد الذين يصرون على تفسير المسرحيات على أنها دراسة في الفشل واليأس (فقد وصفت النيويورك أوبزرفر مثلاً الإنتاج الأخير في مسرح لندن الميدا لمسرحية إيفانوف بأنه عرض «لأفكار قضى تشيكوف بقية حياته يكتب عنها - ملل المثقفين، والاكتئاب الروسي، وموت نظام الطبقات، والقسوة التي لا سبيل إلى التسامح إزاءها»).

ونحن نعرف أن تشيكوف لم يكن سعيداً بإخراج ستانسلافسكي «لبستان الكرز». ويقال إنه قال لمخرج آخر: «باستثناء جزءين أو ثلاثة، ليس في المسرحية بهذه الصورة شيء مني. فأنا أصف الحياة، الحياة الرمادية العادية، ولا أصف هذا التشكّي والتباكي الممل. وهم يجعلون مني إما طفلاً كثير البكاء أو مجرد شخص يدعو إلى الضجر». وقد شكا ستانسلافسكي فيما بعد من أنه أثناء إجراء البروفات استعداداً لحفلة الافتتاح «كانت البراعم لم تكد تبدأ تتفتح عندما حضر المؤلف ولخبط لنا كل شيء». وتنبع قدرة تشيكوف على الهدم من رؤيته لـ «الحياة العادية». فهو يذكر لنا عن المعتاد أشياء جديدة، ويقدم للخبرة اليومية رؤية تتناقض مع الافتراضات التقليدية، وتتعارض مع المعتقدات المستقرة عن أنفسنا وعن العالم.

[٣]

وحتى نستوعب الرؤية الكامنة في مسرحيات تشيكوف وقصصه بشكل أوفى نحتاج للعودة إلى حياته ورسائله. فقد اتجه كاتبو سيرته إلى التركيز على القديس واستبعدوا المفكر. ويسعى كتاب «حياة» الجديد الذي كتبه دونالد رايفيلد إلى تقديم صورة لتشيكوف أكمل من أية صورة سابقة. ولكن بحثه في الأرشيفات الروسية أنتج مجموعة تفصيلية مرهقة من الحقائق عن حياة تشيكوف ولكنها لا تشكل رؤية لعقله وأعماله. فهنا نجد الرجل البديع الذي وصفه ارنست سيمونز ورونالد هينجلي وهنري ترويات ودانيال جيليز وكثيرون غيرهم: الابن والأخ الذي يضحي بنفسه، والطبيب والمواطن ذو الاهتمامات العامة، والصديق والزوج المحب، والذي تصادف أيضاً أن يكون كاتباً عبقريا، ولكن عالمه الداخلي يظل مراوغاً. ويبدو أن رايفيلد قد اعتذر مقدماً عن محاولة الدخول إلى ذلك العالم، فهو يقول إنه بينما نستطيع أن نعيد بناء فلسفة من حياة تولستوي ودستويفسكي وكتاباتهما «من الصعوبة بمكان أن نحدد ماذا كان تشيكوف يقصد في الحالات القليلة التي أبدى فيها حكماً قاطعاً أو شرحاً وافياً».

إن المرء ليتذكر رد تشيكوف عندما اتهم بكتابة قصة تفتقر إلى «الأيديولوجيا» حين قال: «ألا تتضمن القصة اعتراضاً على الكذب من بدايتها إلى نهايتها؟ أليست تلك

أيديولوجيا؟». وحتى نفهم أهمية اختلاف تشيكوف مع أولئك الذين انتقدوه، كما فعل تولستوى، لأنه «لم يكشف بعد عن وجهة نظر محددة» يحتاج المرء لأن يعرف شيئاً عن الحياة الفكرية فى عصره (وهو موضوع لم يتطرق إليه كتاب رايفيلد بأى شكل). ومازال أفضل مصدر متفرد لأفكار تشيكوف، هو تلك المختارات من رسائله والتى ترجمها مايكل هنرى هايم وقدمها وعلق عليها سيمون كارلنسكى. وقد نشرت هذه الرسائل لأول مرة فى ١٩٧٣، ولحسن الحظ أنه أعيدت طباعتها فى كتاب غلاف ورقى. وهى تقدم صورة شاملة لآراء تشيكوف فى الأدب والعلم والمجتمع. وجعلتها تعليقات كارلنسكى صورة فكرية واضحة لمفكر ضخم كانت آراؤه بشأن مجموعة من القضايا، من الاهتمامات الجنسية للمرأة إلى حماية البيئة، سابقة لأوانها بكثير.

وقد أوضح كارلنسكى أن من المفاتيح المهمة لتفكير تشيكوف، تلك السيرة الذاتية الموجزة التى كتبها لنشرة جامعية، وفيها يذكر أن دراسته للطب وتعرفه على الوسائل التطبيقية للعلوم الطبيعية كان لهما تأثير جوهرى على إنتاجه الأدبى. ومن الغريب أن هذا الكشف لم يكن جديراً بالمناقشة إلا لدى عدد قليل من المعلقين (رايفيلد لا يشير إليه). ومع ذلك فإن الأهمية التى يعلقها تشيكوف على خلفيته العلمية تبدو واضحة فى رسائله.

فهو يتمسك بأنه على الكاتب (فى إطار الأداء الفنى) أن يكون مخلصاً للواقع التطبيعى فى العالم وللسلوك البشرى، وأن يقدم آراء شخصياته «بموضوعية تامة». وهو كان يحترم تولستوى ولكنه ينفر من قصته التعليمية «سوناتا كرويتزر» التى تناولت الجانب الجنسى فى الإنسان وكشفت عن أن الكاتب العظيم «رجل جاهل، لم يهتم فى أى وقت فى حياته الطويلة بأن يقرأ كتابين أو ثلاثة من الكتب التى كتبها الإخصائيون». وقد ذكر أن الكتّاب الذين لديهم معرفة سطحية بالمنهج العلمى معرضون للاقتناع بوهم أن الجنس البشرى يوشك أن يحل خفايا الوجود الرئيسية. ولكنه تعلم من دراسته أنه لا يجوز أن يتكلم بثقة عن «الموضوعات التى لا يستطيع العلم أن يحيط بها». وعندما وُجه الانتقاد لإحدى قصصه لأنها لم تتخذ موقفاً واضحاً من مسألة التشاؤم، أجاب بأنه «ليس من مهمة الكاتب أن يحل مسائل مثل الله، والتشاؤم. إلخ. وأن كل ما عليه هو أن يسجل ما قاله أو فكر فيه هذا الشخص أو ذاك، وفى ظل أية ظروف، عن الله أو التشاؤم».

ولم يكن ذلك يعنى اتخاذ موقف النسبية الأخلاقية. فقد كان لتشيكوف هدف مزدوج: «تصوير الحياة بإخلاص وأمانة، وأن يبين بصورة عابرة مدى انحراف هذه الحياة عن الصورة المرجوة». لكنه قال إن أحداً لا يستطيع أن يحدد تلك الصورة المرجوة: «إننا جميعاً نعرف ما هو العمل غير الشريف، ولكن ما هو الشرف؟ ـ نحن لا نعرف». وقد كتب يقول إنه سيهتدى بتلك المفاهيم للخير التى صمدت لاختبار الزمن: تحرير الفرد من القمع، والأفكار المسبقة، والجهل، والخضوع لسطوة المشاعر.

وأدى هذا النهج العملى إلى جعله متشككاً إزاء كل الآراء الثابتة بشأن التاريخ والأدب. وكانت هناك نظرية من هذا القبيل عن نهضة الرواية الروسية تستبعد تأثير جوجول. وقد اعترض عليها تشيكوف بقوله: «أنا لا أفهم ذلك. فلو أننا اتخذنا موقف التطور الطبيعى فإننا لا نستطيع أن نستبعد ليس جوجول وحده بل لا نستبعد نباح كلب، وأن نضعه خارج التيار، لأن كل شىء فى الطبيعة يؤثر فى الأشياء الأخرى، وحتى إذا كنت قد عطست منذ لحظة فذلك لا يمضى دون أن يؤثر على الطبيعة المحيطة بى».

ونحن الآن نعرف ما يسمى «أثر الفراشة» حيث يقال إن رفرفة جناح فى غابات الأمازون المطيرة يمكن أن تحدث عاصفة فى كاليفورنيا. ولكن نظرة تشيكوف إلى الأهمية التراكمية للتفاصيل الجزئية البسيطة، كان من الناحية الفلسفية سابقاً لعصره بكثير. وكانت الحرب التقليدية بين العلم والفن، اعتماداً على ما يزعمه بناة المنظومات المتنافسون بشأن تنظيم كل شىء فى نمط واحد، تبدو له أمراً غير معقول:

> «إن التشريح والفنون الجميلة على حد سواء، كل منهما ينحدر من أصل نبيل، إذ إن لهما أهدافاً متماثلة وعدوا واحداً ـ هو الشيطان. وليس هناك أى سبب يدعوهما إلى التقاتل فإذا عرف رجل نظرية نظام الدورة الدموية فإنه يصبح غنيا. وإذا تعلم تاريخ الدين وحفظ إلى جانب ذلك أغنية «إنى أتذكر لحظة رائعة» لأصبح أكثر غنى وليس أكثر فقراً. فنحن نتعامل مع عمليات إضافة مستمرة. ولهذا السبب لم يحدث قط أن تقاتل العباقرة فيما بينهم. وجوته الشاعر كان يتعايش بشكل رائع مع جوته المعنى بالعلوم الطبيعية».



وقد كتب مرة يقول إن للعلم والحدْس الفنى نفس الغرض ونفس الطبيعة. «وربما بمرور الزمن، وبتحسين الأدوات، سوف يندمجان وتتألف منهما قوة هائلة ونافعة، قوة لا نستطيع الآن حتى أن نتخيلها».

وكان تشيكوف قارئاً مدققاً لداروين، ولم يجد صعوبة فى قبول ما لا يزال الكثيرون يجدون صعوبة فى استساغته بشأن الثورة الداروينية: القول بأن أحداثاً منفردة غير ملحوظة من النوع الذى يهتم به الفنان تلعب دوراً مهماً كالدور الذى تلعبه القوانين العامة فى تطور الحياة، وأنه ليس للنوع البشرى مصير خاص يعفيه من تقلبات تلك العملية. وقد وجد أوجها للتشابه بين المجاعة والكوليرا التى كانت تهدد منطقته فى بداية التسعينيات من القرن الماضى وبين وباء الأنفلونزا الذى كان منتشراً وقتذاك بين الخيول فى وسط روسيا: «من الواضح أن الطبيعة تبذل كل ما فى وسعها للتخلص من الكائنات الضعيفة والكائنات التى لا تستفيد منها». وكان تشيكوف ينظر إلى ما تتسم به الحياة من سرعة الزوال وانعدام القدرة على التنبؤ دون استياء. كتب يقول لسوفورين إن الطبيعة «تعطى الشخص رصانة. والمرء يحتاج إلى رصانة فى هذا العالم. وأصحاب الرصانة وحدهم هم القادرون على رؤية الأشياء بوضوح، وأن يكونوا منصفين، وينصرفوا إلى العمل».

وليس هناك ما يدعو للاكتئاب فى هذا القبول للأمور كما هى. فنفس الخطاب يحتوى على وصف بديع ودقيق للربيع فى حديقة أوكرانية تزدهر بحياة جديدة متعددة الأشكال «حيث لكل ساعة من ساعات النهار والليل خصوصيتها. بين الثامنة والتاسعة مساء، على سبيل المثال، تمتلئ الحديقة بما يمكن أن يوصف حرفيا بأنه زئير الفراشات». وكان تشيكوف يعتقد أن الشوق الرومانسى إلى عالم مبنى على نموذج المثل الدينية أو العقلية للكمال قد أعمى النوع البشرى عن جمال العالم الفعلى الذى يعيش فيه وإمكاناته الثرية. وقال «إن تاريخ الاكتشافات الروسية فى الشرق الأقصى، وهو التاريخ الذى قرأه استعداداً لرحلته إلى سخالين يكفى ليجعلك راغباً فى تأليه الإنسان، ولكننا لا نهتم بذلك، فنحن لا نعرف حتى من كان الأشخاص الذين قاموا بتلك الاكتشافات، وكل ما نفعله هو أن نجلس بين جدراننا الأربعة ونشكو من الصورة التى خلق بها الله الناس».

ومن الأفكار الأساسية فى «الخال فانيا» ما يرد على لسان الدكتور أستروف من تنديد حماسى بالتدمير العشوائى للطبيعة الروسية: «إن الغابات تصير أقل فأقل، والأنهار تجف، والحيوانات البرية تنقرض، ومع كل يوم يمر يصبح كوكب الأرض أشد فقراً وأكثر قبحاً». وجمال العالم الطبيعى هو موضوع أحد أعمال تشيكوف المتسمة بالتجديد، وهى القصة الطويلة المسماة «البرارى» عن رحلة فى جنوب روسيا يقوم بها صبى فى التاسعة من العمر، تتداخل فيها رؤيته بمظاهر السهول الروسية المتغيرة أبداً فى الصيف مع رؤى مؤلف الرواية.

وبعد أن يصف تشيكوف نباتات البرارى وحيواناتها بدقة نادراً ما نجح المترجمون فى نقلها، تتناول القصة الروائع التى يمكن أن يكشف عنها عالم الأشياء اليومية للمراقب اليقظ. فالفتى فانيا بعينه المتأملة يستطيع أن يرى الثعالب تلعب فى أوجارها، والأرانب تغسل أقدامها: «إلى جانب العالم الذى يراه كل إنسان» كان لدى فانيا «عالم آخر خاص به، لا يستطيع أن يصل إليه شخص آخر، ربما يكون عالماً رائع الجمال. وعندما كان يتطلع حوله يملؤه الشعور بالبهجة كان من الصعب على المرء ألا يحسده».

كتب تشيكوف يقول: «ربما تؤدى البرارى إلى فتح أعين المعاصرين وتريهم مجالات الروعة والغنى والجمال التى لم يكشف عنها بعد، وعن المجال الذى مازال مفتوحاً أمام الفنان الروسى». وراء هذه الرغبة المتواضعة تكمن غواية عميقة: تمثل تحدياً للافتراضات الجمالية والأخلاقية الكامنة وراء الطموح التقليدى إلى الجمال والخير باعتبارهما شكلاً من الكمال الذى لا يتغير، والمثل التى تتخطى التاريخ والزمن.

وتمسُّك تشيكوف بالقيمة الجوهرية للحياة العابرة يذكرنا بشكل مدهش بالنص المعنون «من الشاطئ الآخر» الذى كتبه ألكسندر هيرزن فى سنة ١٨٥٠ وهاجم فيه كل التهويمات الدينية والعلمانية التى لا ترى فى الحاضر غير معبر فى الطريق إلى هدف مقبل. وفى ذلك العصر الذى كان قد بدأ يتطلع إلى العلم ليقدم تفسيرات شاملة للعالم والسلوك البشرى، ولضمان التقدم الحتمى أشار هيرزن إلى بطء التغيير وصعوبة التنبؤ به، وإلى دور المصادفة والوراثة والفسيولوجيا فى إحباط محاولاتنا لفرض اتجاه عقلانى على التاريخ. ففى التاريخ، كما فى الطبيعة «كل شىء مرتجل وليس ثمة شىء ثابت».

وقد حث هيرزن على أن نطوع رؤيتنا الأخلاقية لتدفق الحياة، عن طريق زيادة استجابتنا للواقع الراهن. وقد قادت ملاحظة تشيكوف للعالم الطبيعى إلى استنتاجات مماثلة جعلته معارضاً لمثال تولستوى فى الكمال الأخلاقى، الذى كان يتطلب تضحية كل الارتباطات والرغبات التى تحول دون سعى البشرية إلى الخير بتعريفه الضيق. كتب تشيكوف إلى سوفورين يقول «وا أسفاه! إنى لن أصبح تولستويا أبداً! فأنا أحب فى المرأة الجمال قبل كل شىء، وأحب فى تاريخ البشرية الثقافة التى تتمثل فى السجاجيد والعربات ذات اليايات وعمق التفكير». ولكنه لم يكن من المغرمين بعلم الجمال: وقد اتهم أحياناً بأنه يتبع نزعة طبيعية فجة فى كتاباته. وقد رد على ذلك بقوله «إن أكوام السبخ تقوم بدور محترم للغاية فى الطبيعة».

وكانت هذه النظرة الشاملة إلى اهتمامات الفن تتعارض مع المقدسات السائدة فى عصره. وقد اعترف بذلك ساخراً عندما قال إنه من بين جميع الكتّاب الروس المعاصرين «إنى أقلهم جدية وأكثرهم رعونة. فقد أحببت ملهمتى، ولكنى لم أولها الاحترام اللازم، وخنتها، وكثيراً ما أخذتها إلى عوالم لا تناسبها». لقد كان حب الاستطلاع لديه بلا حدود. وهو فى مراسلاته مع أسرته يسأل باهتمام عن صحة نمس عصبى كان قد أحضره معه من جولاته فى الشرق الأقصى. ويقول كارلنسكى إنه من الصعب أن نتصور أن يلاحظ دستويفسكى مجرد وجود كائن كهذا. كما أنه من الصعب أن نتصور أن يكتب دستويفسكى أو تولستوى العبارة التالية (فى رسالة يشكو فيها تشيكوف من الضغوط المالية التى تلزمه بألا يكف عن الكتابة): «مثلى الأعلى: أن أظل بلا عمل، وأن أحب فتاة سمينة الجسد». كتب فى إحدى مذكراته يقول إن البقاء بلا عمل «يعنى الاستماع عن غير قصد إلى ما يقال، ورؤية ما يجرى ولكن الشخص الذى يعمل يكون مشغولاً بعمله، لا يسمع إلا قليلاً ولا يرى إلا قليلاً».

وقد مارس حبه للكسل الإبداعى. وختم رحلته إلى سخالين بجولة بحرية هادئة فى المحيط الهندى، وأعقبها فى السنة التالية بجولة طويلة فى أوروبا الغربية. ورسائله من الخارج لا تتسم بذلك الشوق العنيف إلى الوطن المميز لكتابات معظم كتاب روسيا العظام. فقد تملكه الإعجاب أيضاً بسكان سيبيريا المحليين، كما أعجبه تأنق فتيان فيينا، وأسعدته عواصم أوروبا العظيمة بما فيها من فنون وعمارة، وبأناقة نسائها، وبالوفرة الظاهرة فى محلاتها. كانت رؤيته لفتاتين من هولندا فى روما جعلته يصور «مسكناً صغيراً أنيقاً ذا حواف بيضاء، وزبداً ممتازاً، وجبناً هولنديا فائقاً، ورنجة هولندية، وقسا محترماً، وناظر مدرسة وقوراً، وتدفعنى إلى الرغبة فى أن أتزوج فتاة هولندية صغيرة عذبة، وأن نتحول أنا وهى وبيتنا الصغير الأنيق إلى رسم على صينية». والراوى فى قصة «قصة بلا مؤلف» وهى من أعمق أعمال تشيكوف، يعرف أنه سيموت عما قريب بداء السل، وتتملكه الرغبة فى أن يعيش المدة الباقية له معيشة حافلة. «كنت على استعداد لأن آخذ فى حياتى القصيرة كل الإمكانات المتاحة للإنسان. كنت أريد أن أتكلم، وأقرأ، وأعمل فى مصنع كبير، وأقف فى نوبات الحراسة، وأحرث الأرض. كنت أتشوق إلى شارع نفسكى بروسبكت، وإلى الحقول، وإلى البحر، وإلى كل مكان يستطيع خيالى أن يمتد إليه».

ولم يكن ذلك هو الهروب الذى لجأت إليه بعض شخصيات تشيكوف الأخرى. فالراوى (وهو ثورى انقشعت عنه الأوهام، ويضفى عليه المؤلف كثيراً من آرائه الخاصة) ينجذب إلى «الحياة العادية اليومية». ويحلم بما يشعر به المرء عندما تكون له «زوجة، وغرفة للأطفال، وبيت صغير به ممرات فى الحديقة» أو أن يكون سيداً ريفيا، أو أستاذاً جامعيا، أو أحد ضباط البحرية المتقاعدين، أو سائحاً، أو مستكشفاً. وكان تشيكوف مغرماً بأشكال الحياة البعيدة تماماً عن خبرته الشخصية، وإن كان قد نجح فى الجمع بين عدد كبير من أشكال الوجود المتوازية خلال سنواته الأربع والأربعين ـ الكاتب، والطبيب، وصاحب النشاط الاجتماعى، والمزارع، والبستانى (الذى يلقى الإعجاب لمهارته فى تقليم الورود)، ثم

خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياته، زوج الممثلة «أولجا نيبر». ولئن كان عملها الفنى فى مسرح موسكو للفنون قد حكم عليهما بقضاء أوقات طويلة متباعدين، فإن مراسلاتهما لا تدع مجالاً للشك فى عمق مشاعر كل منهما تجاه الآخر.

وعندما شخّص الأطباء فى عام ١٨٩٧ مرض تشيكوف بأنه السل المتقدم، جاء تولستوى إلى فراشه فى المستشفى ليناقش معه أمور الموت والخلود، ولكن تشيكوف ظل بعيداً عن الاهتمام بتلك الأمور البعيدة (كانت كل أعراض المرض موجودة لديه منذ ما يقرب من عشرة أعوام لكنه آثر تجاهلها). وهو لم يكف قط عن الأمل فى الشفاء، وظل يمارس أنشطته المتعددة بقدر ما يستطيع: وفى الشهور الأخيرة لحياته كثيراً ما عبّر عن عزمه على التطوع كطبيب عسكرى فى قوات الشرق الأقصى الروسية. وتضمنت رسالته الأخيرة، التى كتبها من بادنڤيلر حيث مات فى يوم ٢ يوليو ١٩٠٤، الرأى التالى: «لا توجد امرأة ألمانية واحدة أنيقة فى ملابسها: إن افتقارهن إلى الذوق يدعو إلى الاكتئاب». وتصف زوجته لحظاته الأخيرة فى مشهد يبدو وكأنه من مشاهد تشيكوف المسرحية الخالصة. فقد طلب من طبيبه إحضار شمبانيا لتهدئة تنفسه. وجلس تشيكوف فى فراشه وقال للطبيب بالألمانية «إنى أختنق».

> «ثم رفع كوبه. والتفت إلىّ، وابتسم ابتسامته الرائعة وقال: لقد مضى وقت طويل منذ أن شربت الشمبانيا. وشرب كأسه كاملة حتى الثمالة، ورقد بهدوء على جانبه الأيسر ولم يلبث أن صمت إلى الأبد. ولم يخرق الصمت غير فراشة ليلية ضخمة ظلت تصطدم بمصابيح الضوء بشكل مؤلم ثم انفلتت الفلينة من زجاجة الشمبانيا نصف الفارغة محدثة صوتاً عالياً».

وفى مقالة كتبها الفيلسوف الروسى ليو شستوف بعد موت تشيكوف مباشرة يقول إن تشيكوف فى كل حياته الأدبية «لم يفعل غير شىء واحد، فهو بطريقة أو أخرى، دمر أحلام البشر». و«النورس» نموذج فى هذا المجال، حيث نجد أنه «فى كل شىء وفى كل مكان تسيطر الصدفة المستبدة، ويصدر عنها تحد جرىء لكل الآراء الشاملة عن العالم».

ولكننا برؤية أطول أمداً نرى أن تشيكوف ليس متشائماً، وإنما هو بشير مبكر بمحاولات القرن العشرين للعثور على قواعد جديدة للقيم الأخلاقية. وكان مطلعاً على أفكار نيتشه. وبالرغم من أنه لم يعجب بتأكيد الذات لديه فقد قال مرة إنه يتمنى أن يلتقى به فى قطار أو على ظهر سفينة، وأن يقضى الليل كله يتكلم معه. ويمكن النظر إلى فنه على أنه يقدم بديلاً محسوباً لصدمات نيتشه الكهربائية القائلة بأنه ليس ثمة حقائق خالدة بل ولا قيم خالدة: فنحن «تاريخيون من البداية إلى النهاية». وفى السنوات الأخيرة من حياة تشيكوف أصبح أدباء الطليعة الروس شغوفين برؤية نيتشه غير المنطقية لإرادة القوة باعتبارها الخالق الوحيد للقيم: لكن دراسة تشيكوف العلمية هَدَته إلى موقف أكثر تعقلاً لكنه ليس بأية حال موقفاً متشائماً بشأن طبيعة وحدود حرية الإنسان فى عالم «كل شىء فيها نسبى وتقريبى». وهذا الجانب من عمله مازال فى حاجة إلى مزيد من الاهتمام. وقصصه، أكثر من مسرحياته، تشهد بالقدرة على الجمع بين رؤية الفنان ونظرة العالم الدارويني، وما يعنيه وجود كائنات يشكلها الزمن والصدفة.

ووزن الزمن الماضى يضغط على شخصيات تشيكوف فى صورة الوراثة والبيئة والذاكرة والعادة، مما يحول دون التحول الشخصى أو الاجتماعى الذى يطمحون إليه. وتاريخ أسرة تشيكوف نفسها منعكس فى القصة الطويلة «ثلاث سنوات» Three Years حيث نجد التاجر الشاب لابتيف، المنحدر من أجيال من عبيد الأرض، يشعر بأنه مسحوق تحت عبء الماضى، وثروته لا تعوض عن عدم شعوره بأن له قيمة شخصية. وقد رد على صديق يعتقد بأن روسيا لن تلبث أن تمر بتحول يحرر روحها، بقوله: «سوف تمضى سنوات طويلة قبل أن يخرج العبد من أرواحنا». والشخصيات الذين تتجاوز مواهبهم ورؤاهم ظروف بيئتهم يعانون مما يصفه تشيكوف (فى رسالة إلى المخرج ماير هولد) بأنه «نوع من الوحدة التى لا تشعر بها غير الشخصيات السامية» والتى تتمثل فى حالة من الانفعال المزمن.



إن العزلة والحب غير المتبادل الذى يصاب به كثير من شخصيات تشيكوف، هو فى كثير من الأحيان نتيجة للاختلاف فى سرعة ومسارات نموها الفكرى والعاطفى. فحياة لابتيف يدخلها السم على مهل عندما يعرف أن زوجته لم تتزوجه إلا للهروب من الوحدة والفقر. وهى بعد أن تمضى السنوات تبدأ فى الشعور نحوه بالحب، فى الوقت الذى لم يعد فيه قادراً على الاستجابة لهذا الحب. والفتى الثورى الذى انقشعت عنه الغشاوة، والذى يقوم بدور الراوى فى «قصة بلا مؤلف» يقع فى حب امرأة لا تريد منه غير الشىء الذى لم يعد قادراً على منحه: «إيمان يعيد لحياتها معناها».

وكان عرض شكل الشخصية عن طريق الزمن أصعب على المسرح، وهو ما اكتشفه تشيكوف من خلال تصويره لشخصية ايفانوف الثرى المتبرم بالعالم. وهو يذكر لسوفورين أن العلاقة بين ايفانوف البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً وجارته ساشا البالغة من العمر عشرين عاماً كان مقصوداً به بيان الصدام بين الحياة الواقعية والأوهام الرومانسية. وقد رأى النقاد فى إيفانوف وغداً. ولم يلاحظوا أن خموده الذى تقطعه من حين لآخر نوبات من الحماسة، قد أصبح حالة مزمنة، وأن رغبة ساشا فى إقامته على قدميه كانت مبنية على أفكار أدبية عن قدرة الحب على إنقاذ البشر. وقد كتب تشيكوف يقول:

> «إنها لا تدرك أن الحب بالنسبة لإيفانوف هو مشكلة إضافية، طعنة أخرى فى الظهر، فماذا يحدث؟ تهتم ساشا بأمره لمدة سنة كاملة، ولكنه بدلاً من أن يشفى يغرق أكثر فأكثر.
>
> وبطبيعة الحال فإنى لا أستخدم تعبيرات مثل التهيج والإرهاق إلخ.. فى المسرحية، فقد كنت آمل أن يكون القارئ والمتفرج منتبهاً ولا يحتاج إلى لافتة مكتوب عليها: هذا خوخ وليس برقوقاً».

ويذكر أحد المعاصرين لتشيكوف أنه ذكر فى إحدى المناسبات أن المسرح يجب أن يصور الأشياء كما تحدث بالفعل: «الأشخاص يتناولون عشاءهم، أى مجرد تناول العشاء، وفى الوقت نفسه تتشكل سعادتهم أو تدمر حياتهم».

ويبدو أن المصادفة أحياناً تغير مسار الحياة (كما فى «بستان الكرز» حيث يسمع صوت من خارج المسرح يمنع لوباخين من التقدم لطلب يد فاريا) ولكن خضوع الشخصية للقدر فى مثل تلك اللحظات يبدو فى القصص معتمداً جزئيا على نظره. وقيم تشكلها الخيارات السابقة.

فالبطل الأساسى الذى أطلق اسمه على قصة «يونيخ» طبيب ريفى، انجذب إلى شابة يستطيع أن يناقش معها الأدب والفن. وهى تغادر المدينة من أجل الدراسة، بينما يغرق هو فى الحياة الأنانية والجامدة فى البيئة المحيطة به. وعندما تعود الفتاة بعد أربع سنوات يشعر بالقلق لأنها تذكره بما كان عليه من مثالية فى السابق ويبدأ فى تجنبها، إلى أن يأتى يوم يقرر فيه، وهو مار بمسكنها، أن يدخل ليراها «لمدة دقيقة، ولكنه يراجع نفسه ويحجم عن الدخول. ولم يحدث بعد ذلك أن زار عائلة توركين فى أى وقت». وتنتهى القصة بعد مرور بضع سنوات نشهد فيها نتيجة خياراته المتعاقبة: حياة موحشة ومدمَرة.

والقدرية التى تميز بعض شخصيات تشيكوف إنما هى ذريعة لتجنب المسئولية عن الحرية المعنوية: وهو يريد منا أن نرى أن الماضى لا يمنع بالضرورة إمكانية الاختيار الحقيقى، ولا هو يحدد مسبقاً إمكانات الحاضر. ونجد فى القصص أن رؤية بعض الشخصيات تشوهها أشواق رومانسية، ولكن شخصيات أخرى مثل سائق العربة فانيا، يستطيعون أن يروا أعماقاً مختفية فيما تغلب عليه التفاهة الظاهرية. فلابتيف منقبض لرتابة شتاء موسكو الخالى من البهجة، فى حين أن صديقه (الذى تزداد نظرته إلى الحاضر ثراء بتعلقه بتاريخ روسيا) مبتهج بالمبانى الرمادية المغبرة التى يغسلها المطر.

وفى نهاية الفصل الرابع من «النورس» تتذكر نينا الطائر الذى أصيب بالرصاص والذى وضع تحت قدميها قبل بضع سنوات: «إنى نورس! كلا، ذلك ليس صحيحاً لقد تغيرت. لقد أصبحت ممثلة حقيقية». وهى تتخلى عن الصورة الرومانسية للضحية وتنكر قدرة الماضى على أن يحدد المستقبل. وهناك مجموعة من الشخصيات فى المسرحيات، من أكبر الشقيقات أولجا وهى فى العشرينيات من عمرها، إلى «الدكتور دورن» فى «النورس» وهو فى الخامسة والخمسين، تشعر بأنها قد شاخت قبل الأوان، وتلك طريقة للتعبير عن شعورها بأن الظروف أوقعتها فى شرك. نجد فى القصص أن الرجال يعتريهم الهرم بشكل مرئى، أما النساء فيصبحن أقل جمالاً، نتيجة لخسارة عاطفية. لكن هناك شخصيات أخرى تستطيع، ولو لفترة قصيرة، أن تخدع الزمن عن طريق اتخاذ موقف متغير تبعاً للخبرة، فـ «العزيزة» التى ترملت مرتين وتقدم بها السن قبل الأوان، فى القصة التى تحمل هذا الاسم، تسترد شبابها عندما تجد أنها قادرة على رعاية طفل فقد أمه.

وقد اعترض تشيكوف على ميل نقاده لوصف شخصياته بأنها شخصيات فاشلة: «إن تصنيف الناس بين ناجحين وفاشلين هو نظر إلى الطبيعة البشرية من زاوية ضيقة ومنحازة. فهل أنت ناجح أم لا؟ وهل أنا ناجح؟ وماذا عن نابليون؟ وأين هو المعيار؟ إنك يجب أن تكون إلهاً لتميز النجاح من الفشل دون أن تقع فى خطأ». إن شخصياته تملك خاصية «غير مكتملة» وهى السمة التى اكتشفها ميخاييل باختين فى أبطال دستويفسكى، فهم يعبرون عن حريتهم من خلال قدرتهم على الإدهاش: فكاتب صغير ومبتذل فى وظيفة حكومية يجلس أمام البيانو ويعزف بعمق ونبل فى المشاعر يثيران الدهشة - ثم يعود إلى شخصيته المعتادة. و «البطل المجهول» لتشيكوف يقول لمثقف متبرم بالحياة إن الوقت لا يكون متأخراً أبداً عن إعادة تشكيل المرء لحياته: «إن اللص المعلق على الصليب كان قادراً على استعادة بهجة الحياة والأمل الواثق الجسور، رغم أنه لم يكن أمامه غير ساعة واحدة يحياها». «إننا نمنح الحياة مرة واحدة، وعلى المرء أن يحياها بشجاعة، بوعى تام وجمال».

وهذا بالتأكيد «ما كان يقصده تشيكوف»!

ترجمة: أسعد حليم

«كانت هناك رقة بالغة فى عينيه، بها لطف وحنان. وكان ضحكه، وهو بلا صوت تقريبا، يحتوى على شىء جذاب جدًا، لم أعرف أحدا مثل تشيكوف يستطيع أن يضحك بهذه «الروحانية».

مكسيم جوركى



التـــاريخ الخـــفى لســـتـــة قـــرون من المرض

إذا ظهر الـوبـاء..
فتِّش عن الاستعمار!

محمد صادق صبور

الجـنـرال أمهـرسـت قـائـد الجـيـش البريطـــانى فى أمريكـا الشمـاليـــة أمـر عـام ١٧٦٣ بـأن ترسـل البطاطـين ومـلاءات الأسـرة المحملة بالجـدرى إلى من تبقى من الهنـود الحمر لتعجـل بفنائهم.

■■ هذا كـتـاب عظيم ويحـوى دراسـة مستفيضة عن الأوبئة الكبرى التى أصابت الإنسانية: الطاعـون والجـذام والجـدرى والزهرى والكوليرا والحمى الصفراء والملاريا خلال القرون الستة الماضية. ويحوى الكتاب أكثر من مجرد العرض التاريخى لتلك الأوبئة، فالمؤلف شلدون واتس ـ وهو مؤرخ اجتماعى وثقافى وأستاذ التاريخ الزائر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ـ يعرض آراءه وانطباعاته المبتكرة فى دراسة الأمراض العالمية، ويستعرض الارتباطات بين تحرك الأوبئة ومظاهر التسلط الاستعمارى فى الأمريكتين.

يفحص واتس العلاقة بين مهنة الطب قبل تحديثها والكوارث التى ألمت بالعالم من تلك الأوبئة، مثل وباء الطاعون الذى أصاب أوروبا الغربية والشرق الأوسط، والجذام الذى حل بالبلدان الغربية فى العصور الوسطى وفى بلدان المناطق الحارة فى القرن التاسع عشر، وانتشار الجدرى إلى العالم الجديد مع بداية عصر الكشوفات الجغرافية الكبرى، والزهرى والأمراض غير التناسلية مع ارتباط أوروبا بآسيا، والكوليرا فى الهند إبان الحكم البريطانى، والملاريا على شاطئ المحيط الأطلنطى فى عصور انتقال العبيد من أفريقيا إلى الأمريكتين. درس المؤلف باستفاضة العلاقة بين التغيرات البيئية العنيفة والمرض، وبين المرض والمجتمع.

يعرض الكتاب فى بابه الأول استجابة الإنسان للطاعون فى أوروبا الغربية والشرق الأوسط بين عامى ١٣٤٧ و١٨٤٤. فقد أبحرت على سفن لتجار البندقية من ميناء كافا على البحر الأسود فى صيف عام ١٣٤٧ جرذان وبراغيث تحمل ميكروب الطاعون، ومرت فى مضيق الدردنيل ثم أفرغت بضائعها فى موانى مسينا فى صقلية، وبيزا وجنوة على الشاطئ الغربى لإيطاليا ثم مرسيليا فى جنوب فرنسا، وأبحرت سفن أخرى لتجار البندقية من كافا إلى ثغور عند مصب نهر النيل فى مصر. وبعد بضعة شهور اجتاح وباء لم يسبق لإنسان تلك البلاد أن عرفه. قتل الرجال والنسوة والأطفال، وامتد إلى بقية شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وشواطئ المحيط الأطلنطى وسواحل بحر البلطيق، ثم امتد عبر الأنهار إلى داخل البلاد ثم عبر الحقول إلى جميع البشر فى أعماق أوروبا. تسبب وباء الطاعون الكاسح فى وفاة ما يتراوح من ثُمن إلى ثلثى البشر بين عامى ١٣٤٧ ـ ١٣٥١ (قتل فى المتوسط ثلاثة أعشار جميع الأوروبيين ـ أى حوالى ٢٤ مليونا). وتسبب هذا الوباء أيضا فى وفاة ربع سكان الشرق الأوسط، مصيبا أكثر ما يصيب النساء الحوامل والأطفال. وقد أصاب وباء الطاعون مدينة فلورنسا ثمانى مرات بين عامى ١٣٤٨ و١٤٢٧ وقتل جمعا هائلا من سكانها. وقد فرضت المناطق الثرية من إيطاليا (توسكانيا، ليجوريا، لومبارديا، فينيتيا) الحجر الصحى على المناطق الموبوءة وثبتت فاعليته فى احتواء الوباء، وظل هذا التقليد متبعًا حتى سنة ١٦٦٠ عندما فرض عليه القوم الحجر الصحى وبقية الإجراءات، وتسبب فى انحسار وباء الطاعون من أوروبا، وأكد هذا الإجراء ارتفاع شأن النبلاء بين أقوامهم وسلطتهم عليهم. أما فى الشرق الأوسط، فلم يتخذ أى إجراء فعال لمقاومة وباء الطاعون، حتى تولى

Epidemics and History: Disease, Power, and Imperalism

(الأوبئة والتاريخ: المرض و السلطة والإمبريالية)

by Sheldon Watts
New Haven:Yale University Press,1998

الأمر محمد على عام ١٨٠٥ وكان عدد سكان مصر قد بلغ ثلاثة ملايين نسمة فحسب بعد أن كان عددهم يزيد على تسعة ملايين نسمة قبل أن يحل وباء الطاعون فى المنطقة عام ١٣٤٧.

ولعل أول ذكر فى التاريخ لكارثة الطاعون هو ذلك الوباء الذى حل بمدينة أثينا فى عام ٤٢٧ قبل الميلاد، ثم ذلك الوباء الذى عم العالم بين عامى ٥٤١ ـ ٧٧٥ فى العصور المسيحية الأولى، ثم الوباء العالمى الثالث بين عامى ١٣٤٧ ـ ١٨٤٤. وأخيرا بين عامى ١٨٩٠ ـ ١٩٤٥ . فى هذا الزمن الأخير أتاح تقدم العلم الفرصة لكل من العالمين العظيمين روبرت كوخ الألمانى، ولويس باستير الفرنسى ـ أن يكشفا منفردين عن ميكروب الحمى الفحمية ـ الأنثراكس: هذا المرض الذى يصيب أصلا الماشية والخيل، ولكنه قد يصيب الإنسان. ثم أمكن لعالم يابانى يدعى شيبا سابورو، كان مساعدا لكوخ، وطالب سويسرى يدعى ألكسندر يرسين، كان مساعدا لباستير، أن يكشفا عن ميكروب الطاعون من وباء حل بمدينة هونج كونج عام ١٨٩٤ فى أنسجة جرذان وبشر توفوا بالطاعون: وبعد عامين تمكن الفرنسى سيموند من أن يكشف فى بومباى أن برغوث الجرذ هو الحلقة الناقصة الناقلة للميكروب بين الجرذان بعضها البعض، وبينها وبين الإنسان.

قبل أن يحل وباء الطاعون بأوروبا كان الاعتقاد لدى أهالى العصور الوسطى ـ المبنى على آراء الأقدمين من أمثال أبوقراط وجالينوس ـ أن الأمراض يتسبب فيها الطقس الردىء وتلوث الجو: لهذا نصح أصحاب الرأى السديد بتطبيق مبادئ الصحة العامة، فرفعت أكوام القمامة من الطرقات ورفعت بقايا الحيوانات من أمام حوانيت القصابين، وكذلك الدماء والسوائل وبقايا دبغ الجلود والمخلفات الآدمية من أمام أبواب البيوت: وإذا اشتدت وطأة مرض ما فى أى مجتمع طردت المومسات ومن تشوبهم شوائب أخلاقية من المدن.

وعندما حل الطاعون بمدن توسكانيا أضيف لهذه التعليمات كنس الشوارع وإزالة جثث الموتى من الطرقات ودفن الموتى بمجرد حدوث الوفاة، وطلب من رجال الدين إقامة الصلوات طلبا لمغفرة العزيز الجبار.

وفى فلورنسا هرب غالبية أعضاء البيوتات النبيلة الخمسمائة، وكان الشعار المرفوع يومئذ «اهرب بجلدك مسرعا إلى أبعد مكان ولا تعودن إلا آخر الناس».

أول مدن هاجمها الوباء كانت الموانئ، ثم امتد الوباء فى وديان الأنهار، خاصة نهر الراين، الشريان الطولى الرئيسى بأوروبا والذى تتركز عليه المدن التجارية. وبمقدم وباء الطاعون اشتدت بين الناس حمية التطهير العرقى واشتعلت ضد اليهود ـ الذين سبق وتعرضوا لمثل تلك الحملة عام ١٠٩٠ خلال الحرب الصليبية الأولى.

كان اليهود هم المتهمون لأنهم سبق وصلبوا السيد المسيح من قديم الزمان، فمُنعوا من زراعة الأراضى وحُرّم عليهم العمل كفلاحين، ولذا سكنوا المدن وزاولوا التجارة وتسليف النقود وبيع الدواء. وكان أبناء اليهود ـ على خلاف أبناء المسيحيين ـ يقرأون ويكتبون، وعلى دراية باللغة العربية وبقية لغات الشرق الأوسط القديمة، ولذا سهل عليهم الاطلاع على العلوم والمعارف القديمة. كان كثير من الأطباء من اليهود وكان من السهل تمييزهم واضطهادهم عند اللزوم.

وفى الشرق الأوسط، عندما حل الطاعون الدملى عام ١٣٤٧ كان الجزء الغربى من البلاد الإسلامية تحت حكم المماليك، وكان مقر الحكم هو قلعة الجبل فى المقطم فى مدينة القاهرة. وكانت رقعة ممتلكات المماليك تمتد من أسوان جنوبا حتى فلسطين وسوريا شمالا. وكانت القاهرة قبل أن يحل وباء الطاعون أكثر مدن العالم سكانا، وكان يسكنها نصف مليون نسمة، مات منهم ٢٠٠ ألف بين أكتوبر ١٣٤٧ ويناير ١٣٤٩. حدث الشىء نفسه فى سوريا التى رحل فلاحوها ملتجئين إلى دلتا النيل.

وعندما أحس البدو بحلول وباء الطاعون فى الدلتا والصحارى انطلقوا بسرعة على إبلهم وابتعدوا كيلو مترات أخرى فى أعماق الصحارى، وهكذا وقوا أنفسهم من الإصابة بهذا الوباء، وظلوا على عددهم الذى يبلغ مئات الآلاف فحسب، بينما تناقص عدد سكان مصر من الفلاحين من ثمانية ملايين إلى ثلاثة ملايين بين عام ١٣٤٦ وعام ١٨٠٥ من تعاقب أوبئة الطاعون المتتالية.

ولم يحاول المماليك ـ الحكام فى مصر وسوريا ـ أن يبذلوا أى جهد للسيطرة على الطاعون أو محاصرته أو القضاء عليه ـ كما عمل نبلاء إيطاليا فى بلادهم. كان المماليك غرباء عن الشعب، جُلبوا أطفالا من قبائل من الترك أو القوقاز فى أواسط آسيا جنوبى روسيا وشمالى البحر الأسود، وكان كل همهم الثراء من البلاد التى حكموها جيلا بعد جيل.

أطاح الطاعون (الموت الأسود) بكثير من رجال الجيش الفرنسى الذين قدموا مع الحملة الفرنسية إلى مصر. بدأ الطاعون يجتاح الجيش بعد ستة أشهر من الغزو، وبدأت أولى حالاته فى دمياط، وأمر نابليون بتسميته «الحمى الوبائية»، وظلت كلمة الطاعون الدملى محظورة طوال تفشى الوباء، فقد كان بونابرت يرى أن أشد أخطار المرض هو الخوف من المرض والوهم منه. ورأى أن خير وسيلة لوقاية الجيش منه هو شغله وجعله يواصل مسيرته. وقد نجح نابليون نجاحا بالغا فى إقناع جنوده أن هذا المرض ليس الطاعون وإنما هو حمى مصحوبة بدمامل، وكان يمسك بفراش الجنود المصابين بالطاعون، وأدى هذا إلى خجل بعض الأطباء الذين كانوا قد هربوا من رعاية المرضى، فعادوا إلى مباشرة أعمالهم بعد مشاهدتهم لهذا الموقف.

لقد أنقذ نابليون جيشه من فناء محقق من وباء الطاعون، حين اتخذ إجراءات صارمة للوقاية ومراعاة أصول النظافة.

ورغم ذلك بلغت إصابة الطاعون أشد ما تكون إبان الحملة على الشام وخاصة فى أثناء حصار عكا. إذ تفشى المرض بشدة فى صفوف جيش نابليون، وأقيمت مستشفيات ميدانية عديدة لاستقبال حالات الطاعون خلال رحلات الذهاب والإياب للقوات الفرنسية فى فلسطين والشام.

وأصاب الطاعون كثيرا من المصريين: فقد هلك سكان عديد من قرى الصعيد عن بكرة أبيهم. وفى القاهرة كانت تسمع الأنات والصرخات من كل البيوت، ووصل الحال إلى جمع العديد من الجثث فى النعش نفسه. لم يرحم الطاعون طفلا ولا شابا ولا كهلا ولا شيخا عجوزا، ولم يفرق بين رجل وامرأة، بل حصد الجميع. توفى من الطاعون ٦٠٠٠ من جنود الحملة الفرنسية بخلاف ١٠٠،٠٠٠ من المصريين، غالبيتهم فى الوجه القبلى.

فى عام ١٨٠١ اجتاح الطاعون القاهرة، وبلغ عدد الضحايا فى القاهرة وحدها ٣٠،٠٠٠.

عندما تمكن محمد على من الاستقلال، أدرك وجوب تقديم خدمة صحية متميزة لأفراد شعبه، وكانت مصر أول دولة فى البحر المتوسط تنعم بخدمات صحية ـ امتدت إلى أعماق الريف ـ فقد كلف كلوت بك بإنشاء أول مدرسة للطب على النمط الحديث عام ١٨٢٧، وعندما هاجم الطاعون مصر بعد أربع سنين استعان كلوت بك بالطلاب لمقاومة الوباء وحصره، وقد اختفى الطاعون من مصر فى الفترة من ١٨٢٥ ـ ١٨٣٤ ولكنه عاد مرة أخرى فى أواخر عهد محمد على.

وقد بلغت وفيات الطاعون فى مصر بأكملها ٢٠٠،٠٠٠، وأصاب الطاعون ٣٠٠،٠٠٠ أسرة وبلغت الوفيات فى القاهرة ٨٠،٠٠٠ ـ أى ثلث مجموع سكانها.

وقد فرض محمد على الحجر الصحى على السفن التركية القادمة من إسطنبول وفرض الحجر الصحى على جميع البضائع القادمة من الشام إلى دمياط. وكرر محمد على الإجراءات نفسها المشددة عندما عاد وباء الطاعون لمصر عام ١٨٤١، وساعده الأهالى بكل عزم حتى قضى عليه ثانية وأحرقت حاجيات المرضى وملابسهم.

بعد هذا التاريخ صارت مصر خالية تقريبا من مرض الطاعون، إلى أن عاد من جديد عام ١٨٩٩ خلال الموجة العالمية التى بدأت عام ١٨٩٤، حيث ظهر المرض بالموانىء المصرية (الإسكندرية ـ السويس ـ بورسعيد) ومنها انتقل إلى داخل البلاد حيث استوطن بها حتى عام ١٩٤٧، خاصة فى مديريتى أسيوط والمنيا.

أما باقى المحافظات فلم تكن الإصابات بها شيئا يذكر رغم مرور النيل بالقاهرة لمسافة طويلة حيث ترسو السفن، وكان ملفتا للنظر مناعة مدينة القاهرة لوباء الطاعون، وقد يرجع ذلك إلى بناء المنازل بالقاهرة من الحجر وقلة عدد الجرذان ووجود حيوان «العرسة» التى لها ميل شديد للفئران.

وفى السنوات الحديثة، حدثت إصابات محدودة وخصوصا خلال الحرب العالمية الثانية، والحرب مع إسرائيل، وقد وردت إلينا من الخارج، بدأت الإصابات فى الغالب من السويس أو بورسعيد أو الإسكندرية، حيث ترسو السفن الآتية من جهات موبوءة من الشرق تحمل البضائع والركاب، وتحمل فى الوقت نفسه عددا من الجرذان المصابة.

كشف آرمور هانسن النرويجى عن البكتيريا المسببة لمرض الجذام عام ١٨٧٣، قبل أن يكشف روبرت كوخ من بروسيا عن الميكروب المسبب للدرن بتسع سنوات: والمعروف حاليا أن المرضين ناتجان عن ميكروبين يشابه أحدها الآخر لدرجة كبيرة، وبالرغم من هذا فإن مرض هانسن لم يعرف له علاج شاف إلا حديثا جدا. كُشف عن عقار دابسون الفعال لعلاج الجذام فى الأربعينيات من القرن العشرين، ولكن ميكروبات المرض تكتسب حصانة ضد هذا العقار سريعا، وابتدعت طريقة العلاج الفعال فى الثمانينيات من القرن العشرين باستخدام عدة عقاقير سويا. هذه الطريقة هى الكفيلة بإيقاف الانحلال المطرد، وإذا تم استخدام العلاج مبكرا، فإن الشفاء يكون تاما.

الجذام نوعان: الجذام الدرنى والجذام الجذامى، وهذا الأخير يمر بمراحل ثلاث، يكون المرض شديد العدوى فى المرحلة الأولى عندما تكون مظاهر المرض بسيطة، وعديم العدوى فى المرحلة الثالثة عندما يسقط أنف المريض ويتبقى من يديه وقدميه بعد سقوط أصابعها ما يشبه المخالب العاجزة عن أداء أى وظيفة.

ربما يكون المرض قد وُجد فى الهند منذ حوالى ٦٠٠ سنة ق. م. وانتقل مع قوات الإسكندر الأكبر العائدة إلى الشرق الأوسط حوالى سنة ٣٢٧ ق. م. ثم انتقل مع قوات يوليوس المشرق إلى أوروبا حوالى سنة ٥٠ ق. م. ولعل أول وصف إكلينيكى كامل لمرض الجذام هو الذى كتبه الطبيب السكندرى أريتايوس فى القرن الأول بعد الميلاد، ثم جاءت الأوصاف التفصيلية والدقيقة لهذا المرض فى كتابات الأطباء العرب بين القرنين السابع والحادى عشر الميلادى، فقد وصفوا أنواعا



«لولا المرض لكانت أفريقيا فى مقدمة الأمم المتحضرة. كلنا يعرف ماذا كانت عليه مصر وماذا أصبحت عليه أفريقيا الآن»
ـ سير باتريك ماتسون رائد الأمراض المتوطنة عام ١٩٠٧.

مختلفة، من بينها الجذام والبهاق والبرص، واعتبروها أمراضا على الإنسان أن يتجنب الإصابة بها (وليست عقابا إلهيا لخطايا ارتكبها الشخص أو رجسا من عمل الشيطان كما كان يقول رجال الدين وأطباء الغرب)، ولم تنتقل هذه الآراء المستنيرة من الأطباء إلى الغرب الذي ظل مقتنعا بالآراء الكهنوتية الجامدة.

بدأت المطاردة الكبرى للمجذومين سنة ١٠٩٠ واستمرت حتى سنة ١٣٦٣.

وفي الفترة ما بين عامي ١٠٩٠ـ١١٢٠ وكذلك بين عامي ١٢٤٠ـ١٢٦٠ تم افتتاح عدة آلاف من الدور لعزل المجذومين، منها ٤٣ دارا في باريس وحدها و٢٢٠ دارا في إنجلترا وإسكوتلندة في القرن الثاني عشر، وبلغ تعداد الموصومين بالجذام في إنجلترا ١٤ في كل ألف نسمة.

قلائل في الغرب هم الذين اعتبروا أن الجذام يسم صاحبه ويعتبر وصمة في حقه، ثم ساد هذا الاتجاه المجتمع بأسره، بينما اعتبر العالم الإسلامي أنه مثل أي مرض آخر: وصم اليهود أنهم أكثر من يعاني من الجذام، ومنع الأطباء اليهود ـ وكانوا يبلغون ثلث عدد الأطباء ـ من معالجة غير اليهود.

يتفق معظم المؤرخين أن السيطرة على الجذام قد حدثت حوالي سنة ١٥٥٠، فقد اختفى المرض بصورة غريبة ـ رغم عدم فاعلية العزل التام لجميع المجذومين، فقد كان دخول ملاجئ الجذام اختياريا في جنوب فرنسا. بلغت مطاردة المجذومين و (اليهود) أشدها في السنوات من ١٣٢١ وحتى ١٣٦٣ ثم توقفت.

يوجب الفكر الغربي تجنب مرضى الجذام، بينما لا يعتبر المسلمون مرضى الجذام كارثة ينبغي تجنبها. وهناك حديث شريف أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ شوهد وهو يمسك بيد مريض مجذوم ويخاطبه: تناول الطعام معي فأنا مؤمن بالله ولن يصيبني المرض إلا إذا أراد الله.

كان الجدري معروفا في عهد قدماء المصريين، إذ لاحظ كل من روفر وفيرجسون وجود طفح يشابه تماما طفح الجدري على جلد بعض المومياوات المصرية القديمة والتي يرجع تاريخها إلى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد (مومياء رمسيس الخامس على سبيل المثال).

ويُجمع علماء الوبائيات والمؤرخون على أن عدم وجود فيروس الجدري في العالم الجديد ـ قبل أن يكشف عنه كريستوفر كولمبوس ـ لم يتح لأهالي أمريكا الأصليين فرصة تكوين حصانة ضد هذا المرض: ولعل هذا هو السبب في وفاة ٨٠ـ٩٠٪ من الأمريكيين الأصليين عندما ظهر المرض بينهم لأول مرة.

ولكن السؤال المطروح هو: لماذا لم يتمكن الباقون على قيد الحياة من أن يستعيدوا أعدادهم ثانية؟ المستوطنون البيض الأوائل عزموا أمرهم على أن يتسيدوا الأرض، وألا يسمحوا لأحد ـ حتى لو كان من أبناء البلد الأصليين ـ أن يبقى له أي ذكر في أمريكا.

قاوم سكان البلاد الأصليون ما فعله بهم الأوروبيون ـ من حرب وقتال واستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم عنوة، ومن أمراض أدخلوها معهم لدى مقدمهم لتلك البلاد. وبعد أن أهلك الجدري جُلَّ سكان أمريكا الوسطى، سارع الرجل الأبيض باستيراد العبيد عنوة من أفريقيا للعمل في مناجم الذهب والفضة التي تم الكشف عنها، وكان هؤلاء الأفارقة قد اكتسبوا حصانة ضد مرض الجدري لسبق إصابتهم في طفولتهم بنوع أقل ضراوة في بلادهم الأصلية.

بعد أن عبر كولومبوس المحيط الأطلنطي جيئة وذهابا عدة مرات في أواخر القرن الخامس عشر اشتدت ضراوة الجدري لدرجة كبيرة، وتحول إلى كارثة تهدد الجنس البشري، وتحول من مرض بسيط يصيب الأوروبيين في طفولتهم إلى مرض خطير ضار يهدد الأوروبيين في عقر قارتهم، وصار في القرن الثامن عشر السبيل الأول الذي يسيطر على تعداد سكان العالم بعد أن كان الطاعون يلعب هذا الدور فيما قبل.

وقد وصف الطبيب المسلم ـ الرازي عام ٩١٠ ميلادية ـ الجدري وفرق بينه وبين الحصبة، ولكنه لم يُذكر في كتب الطب الغربية حتى حلت الكارثة عند استفحال المرض في أمريكا، وما وصفه المستوطنون الأوائل في المكسيك عام ١٥٢١ وفي إمبراطورية الإنكا عام ١٥٢٧ كان واضحا أنه الجدري بعينه، ولكن لم يتعرف عليه الأوروبيون.

كانت الخدمات الصحية متقدمة في أمريكا قبل حلول الأوروبيين وكان عدد كبير منهم يتعدى الأربعين عاما، ولكن بعد نزول الأسبان إلى أمريكا الوسطى ومعهم خيلهم وخنازيرهم، حاملين معهم الأنفلونزا والتيفوس والحصبة وحمى الخنازير والجدري، صار غالبية أهل أمريكا يموتون في سن الطفولة أو في ريعان الشباب.

ويقال إنه بعد نزول البحارة إلى الأرض سنوا سيوفهم وأشبعوا الأهالي ذبحا وتقتيلا، وبقروا البطون والنساء الحوامل وشجعوا كلابهم على نهش أجسادهم، ولم يأت عام ١٥٥٠ إلا وكان أهالي البلاد الأصليون قد هلكوا جميعا من وحشية الأوروبيين ومن الأوبئة التي جلبوها معهم من أوروبا.

تكرر هذا المشهد البشع في بورتوريكو وفي كوبا. وبحلول عام ١٦٣٠ لم يتبق من الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية والوسطى سوى ٧٪ ممن كانوا هناك قبل عام ١٥٢٤.

وكذلك هلك من وباء الجدري ٦.٥ مليون نسمة كانوا يقطنون على الشريط الساحلي، ثم تحرك الجدري شمالا حتى تكساس قاتلا ٨٥٪ من السكان، وتولى المستوطنون البيض القضاء على البقية الباقية من سكان أمريكا الأصليين.

ويذكر المستوطنون البرازيليون الأوائل «أن سر الإله كان معنا بعد أن حصد الجدري الأهالي حصدا وتركنا أحياء أصحاء، إن مشيئته أن نرث أرضهم وأن نحل محلهم».

كتب الرحالة جوناثان كارفر «الهنود الحمر يتمتعون بالإنسانية ـ لأصدقائهم ولأعدائهم على السواء ـ وهم مستعدون لبذل حياتهم للدفاع عمن التجأ إليهم وأصبح في حماهم. إنهم يتمتعون بالشرف وجميع الفضائل الإنسانية».

قارن هذا الخلق بما فعله الجنرال سير جيفري أمهرست، قائد الجيش البريطاني في أمريكا الشمالية، عندما أمر عام ١٧٦٣ بأن ترسل البطاطين وملاءات الأسرة المحملة بالجدري إلى من تبقى من الهنود الحمر لتعجل بفنائهم. أو بثور الجدري التي أرسلت في علب من القصدير من مونتريال قبيل وباء الجدري الذي ساد البلاد في عام ١٧٥٧.

بعد هذا الوباء الكاسح انفصمت عرى القبائل وتبعثر النظام الإداري لها وصارت معتمدة على المنح التي يفيض بها عليها الرجل الأبيض.

اجتاح وباء كاسح للجدري المناطق الغربية حتى المحيط الهادي بين عامي ١٨٣٧ و١٨٤٠ وقتل ما يربو على ٤٠ ألفا، واجتاح البلاد وباء آخر بعد عشرين سنة في مناطق فيكتوريا وفانكوفر وامتد إلى ألاسكا وقتل ٦٠٪ من الأهالي الأمريكيين الأصليين (حوالي ٢٠ ألفا). ولم تبذل السلطات الموجودة (للرجل الأبيض) أي محاولة جادة لحصر انتشار الوباء أو وقف امتداده. تم حصر البقية الباقية من الهنود الحمر في مستوطنات خاصة، وهلك منهم الكثيرون بالجدري والتيفوس بين عامي ١٨٩٠ـ١٩١٠.

في عام ١٧١٤ نشر إيمانويل تيموني مقالا عن الإجراء المتبع في إسطنبول للوقاية من الجدري ـ وهو استخدام لقاح واق من المرض. وفي عام ١٧٢١ اعترفت اللادي ماري مونتاجيو ـ زوجة القنصل البريطاني في إسطنبول ـ أنها قد طعمت ابنتها ضد الجدري بالطريقة المتبعة في تركيا، وسرعان ما استجابت الملكة كارولين لنداء لادي مونتاجيو وطعمت أطفال الأمراء، وفي الحال لاقى هذا التشجيع الملكي قبول الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية لهذه الطريقة للوقاية.

بعد ذلك طبق ملوك فرنسا والسويد وأسبانيا وبروسيا وأمراء الإمارات الإيطالية الطريقة نفسها على أبنائهم وعائلاتهم، وشجعوا خاصتهم على محاكاتهم. في ذلك الوقت كان أطباء القرن الثامن عشر خريجو مدارس الطب والجامعات يقاومون بشدة هذا «الهراء» (ولكنهم بعد سنوات كانوا يطعّمون أطفالهم في الخفاء). وفرض حكام السويد الأوتوقراطيون على الأهالي وجوب تطعيم أطفالهم (حيث كان الجدري مسئولا عن وفاة خُمس سكان السويد) وخاصة الأطفال تحت سن تسع سنوات، وأعقب هذا انخفاض ملحوظ في الوفيات من الجدري.

في عام ١٧٩٦ ـ لاحظ الطبيب إدوارد جينر ـ أن من سبق أن ظهرت على أصابعهم بثور جدري البقر لا يموتون عندما يحل وباء الجدري بقريتهم، وشرع في تلقيح الأصحاء بهذا الطُعم، الذي أثبت فاعليته الشديدة في وقاية البشر من هذا الوباء.

اكتسب جينر شهرة فائقة من هذا الكشف وحصل على ثروة طائلة. يعتبر كشف جينر هذا نقطة تحول حاسمة في تاريخ الطب الغربي، والسبيل لتخلص أوروبا نهائيا من أحد أخطر أوبئتها.

وقد أمر نابليون بونابرت بتحصين رجال جيشه جميعا بلقاح جينر، وعندما سحقوا الجيش البروسي في معركة بينا سنة ١٨٠٦ ـ الذين أهلك الجدري أعدادا هائلة من جنودهم ـ فُرض التحصين في مختلف أنحاء أوروبا.

تزايد عدد سكان أوروبا بين عامي ١٧٥٠ و١٨٠٠ من ١٤٠ مليونا إلى ١٨٠ مليونا، ولكنهم تزايدوا إلى ٣٩٠ مليونا بحلول عام ١٩٠٠ ـ والفضل الأكبر في هذه الزيادة يعود إلى انعدام الوفاة من الجدري تقريبا.

وفي مصر، يذكر كلوت بك أنه قبل التطعيم كان ٢٠ ألفا في المليون من السكان يقضون نحبهم كل عام بسبب الجدري. وفي عام ١٨١٩ صدر مرسوم بإسناد تنظيم عملية التطعيم الشامل إلى كتخدا بك، وفي عام ١٨٢١ أسند إلى الدكتور دوساب مهمة تحصين سكان الوجه القبلي والسودان، وفي عام ١٨٢٤ قام أطباء فرنسيون بتحصين سكان الريف، وكذا بتعليم حلاقي الصحة عملية التحصين، وفي عام ١٨٢٧ قام كلوت بك بحملة لتطعيم تلاميذ مدرسة أبي زعبل وأفراد الجيش والنساء والأطفال والتجار والصناع والموظفين، ثم أصدر أمرا بتطعيم جميع المواليد إجباريا.

باستكمال تطعيم أفراد الشعب ضد الجدري في عهد محمد علي، تمكنت مصر من السيطرة على أوبئة الجدري، وتمت حماية المصريين من هذا المرض القاتل قبل معظم بلاد العالم، وبالرجوع إلى إصابات ووفيات الجدري من عام ١٨٨٦ تبين أن هذا الوباء الذي أودى بحياة أكثر من ٧٠٠٠ شخص حتى عام ١٩٠٠ ظهر في مصر بشكل وبائي كل خمس سنوات تقريبا لوجود الجدري بصفة مستديمة في البدو الرحل في مناطق الحدود والصحاري،



بسبب تعاقب أوبئة الطاعون المتتالية تناقص عدد سكان مصر من ٨ ملايين إلى ٣ ملايين بين عامي ١٣٤٦ ، ١٨٠٥. ومن بين نصف مليون كانوا يسكنون القاهرة مات ٢٠٠ ألف بين أكتوبر ١٣٤٧ ويناير ١٣٤٩!

وإهمال حلاقى الصحة بالقرى، والتقصير فى تطعيم جميع الأطفال، وعدم وجود قانون يحتم إعادة التطعيم بعد سن الطفولة.

وكانت أهم الأوبئة التى أصابت مصر فى القرن العشرين وباء ١٩١٩ - ١٩٢٠، ووباء ١٩٢٦ ووباء ١٩٣٢ - ١٩٣٥ وبلغ ذروته فى عام ١٩٣٣ وكان أشد ما يكون فى مدينة الإسكندرية، ثم موجة أوبئة أعوام ١٩٤٣ - ١٩٤٧ وأخيرا وباء ١٩٥٩ وهو آخر وباء للجدرى يظهر فى مصر قبل اختفاء هذا المرض تماما من العالم عام ١٩٧٨.

بداية من الأعوام التى تلت عام ١٤٩٠ انتشر فى بلاد العالم مرض تناسلى سريع العدوى فى موانىء أسبانيا وجنوب فرنسا وإيطاليا، وتحرك شرقا حتى وصل إلى فيينا وشمالا وتخطى لايبزج (بألمانيا) وبيرجين (النرويج) وأبردين (باسكتلندة). مرض لم يعرفه الأطباء من قبل، مرض جديد على العالم. هو الزهرى التناسلى.

منذ بدء ظهور الزهرى التناسلى فى أوروبا منذ خمسمائة عام وهو يعتبر من الأمراض السرية - الذى يود المصاب به إخفاءه وعدم التصريح لأى أحد بانه قد أصيب به.

انتقل مرض الزهرى التناسلى مع البحارة العائدين من أمريكا الإسبانية بعد أن أصيبوا به هناك ونقلوه معهم إلى أوروبا، ثم إلى العالم القديم بأسره. تأكد وجود المرض فى أمريكا عام ١٥٢٦، وعاد مع بحارة كريستوفر كولومبوس إلى أوروبا، وبحلول القرن الثامن عشر كان قد قضى على كثير من العائلات الكبرى فى جنوب أوروبا.

هكذا صار الزهرى التناسلى مرضا جديدا كلية وجديدا على أوروبا، ويتضح هذا من صفاته الجديدة. صارت له علامات جلدية واضحة وصار شديد العدوى ويؤدى فى النهاية للموت.

وقد انتشر الزهرى التناسلى بشدة بين ٣٠ ألفا من جنود الملك شارل الثامن المرتزقة الفرنسيين الذين رافقوه فى غزوه ميلانو، ثم روما ثم نابولى، حيث استمتعوا بمعاشرة آلاف المومسات، وكانت رحلتهم مهرجانا جنسيا.

ثم انتشرت دائرة هذا المرض الفرنسى الجديد ووصل إلى باريس ولايبزج وأدنبرة.

ثم رحل مع البحارة والتجار وبعثات التبشير الدينية والبعثات الاستكشافية الأوروبية الكبرى إلى جميع أنحاء العالم، وصارت له مراكز ينتشر منها على شواطئ البحر الأبيض المتوسط ثم فى الهند وسيلان وشبه جزيرة الملايو، وفى عام ١٥٠٤ فى كانتون (بالصين)، حيث كان يعرف «بقرحة شجرة البرقوق».

وبمرور الزمن ازداد عدد من التقطوا المرض زيادة كبيرة، وازدادوا باطراد. نقل الأزواج العدوى من المومسات إلى زوجاتهن، ومع انتقال الشباب من الريف إلى المدن - بحثا عن العمل - زاد عدد المصابين بالزهرى.

هكذا أهدت أمريكا مرض الزهرى إلى أوروبا. كان السعى الدءوب وراء الذهب من عوامل الانتشار السريع لمرض الزهرى. فقد اندفع الخلق إلى أمريكا زرافات وجماعات. وعند عودتهم فى كل مرة إلى أوروبا ينقلون معهم مزيدا من ميكروبات الزهرى التناسلى.

ونظرا لانتشار الزهرى - بعد عودة جنود وبحارة الملك من العالم الجديد - إلى جميع أرجاء أوروبا عن طريق بيوت الدعارة الرسمية وحمامات البخار التى كان يستمتع فيها الأثرياء وذوو النفوذ بالاستحمام والمتعة الجنسية معا - صدرت الأوامر بين عامى ١٥٢٠ - ١٥٣٠ بإغلاق حمامات البخار العامة ودور الدعارة الرسمية - حفاظا على الصحة.

تزامن هذا مع دعوة مارتن لوثر فى الأراضى الألمانية، والتى تبعتها دعوة جون كالفن فى فرنسا وسويسرا بإصلاحات كنسية واجتاحت أوروبا موجة الإصلاح الدينى.

استغل دعاة الإصلاح البروتستانت - المثقفون وخريجو الجامعات - التسيب الخلقى والإباحية الجنسية التى سادت أوروبا وما صاحبها من انتشار «المرض الفرنسى» - الزهرى - فى حملتهم هذه، والتى تدعو للعفة.

كانت مصر موبوءة بالأمراض التناسلية، وقد عرفها العرب والمصريون، وكانت تسمى بـ «مرض أيوب» ولم يتمكنوا من علاجها إلا بعزل المريض المصاب بالزهرى عن أقاربه وأهله لمدة ستة أشهر. وقد كانوا يسمون الأمراض التناسلية أحيانا «مرض إفرنجى» ولم يميزوا بين السيلان والزهرى والأمراض الجنسية الأخرى.

كانت البؤرة الحقيقية لتلك الأمراض هى النساء عادة، وقد أصيبت نسبة عالية من أفراد الحملة الفرنسية بالزهرى والسيلان حتى لجأ القادة الفرنسيون إلى اتخاذ وسائل يغلب عليها العنف للحد من انتشارها.

كتب الجنرال ديجيا إلى بونابرت يشكو من البغايا وكيف أنهن نشرن وباء يتفشى فى مساكن الفرنسيين ولابد من إبعادهن فورا حتى تطهر ثكنات الجيش الفرنسى من أمثالهن. وكان تعقيب بونابرت على الهامش فى الخطاب نفسه «كلف أغا الإنكشارية بهذه المهمة حتى تنفذ بصرامة».

ويذكر ديجنت فى كتابه (التاريخ الطبى لجيش الشرق) أن ٤٠٠ من المومسات اللاتى كن يمارسن البغاء مع الفرنسيين قطعت رءوسهن بالسيف وألقين فى النيل بأمر الأغا، حتى يكن عبرة لغيرهن.

وقد حاول الفرنسيون علاج الحالات الشديدة بين أفراد قواتهم، ولكن معلوماتهم المحدودة وطبهم الغربى القاصر لم يمكنهم من السيطرة على انتشار هذه الأمراض التناسلية، حيث كان الجنود الفرنسيون متعطشين لممارسة الجنس - مع المومسات خاصة - لافتقادهم للحياة الأسرية.

وقد تتابعت الكشوف العلمية عن داء الزهرى من ألمانيا، إذ كشف فرتز شودين وإيريك هوفمان عن الميكروب المسبب للمرض فى عام ١٩٠٥، وتبعهما فى العام التالى مباشرة «واسرمان» بابتداع طريقة عملية والكشف عن اختبار معملى يؤكد وجود المرض، وفى عام ١٩٠٩ كشف عالم ألمانى ثالث «بول إيرليخ» عن عقار السلفرسان، أحد مركبات الزرنيخ لعلاج مرض الزهرى بدون أن يكون له الأضرار السمية القاتلة التى دأب الأطباء (والمشعوذون) أن يعالجوا بها هذا المرض منذ عام ١٤٩٣ بالزئبق.

بعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى قررت الحكومات أن الطريقة المثلى لمنع انتشار الزهرى هى تشجيع استخدام العازل الذكرى المطاط لجميع الشباب. بدأت الحكومة البلجيكية بتطبيق هذا النداء، وبحلول عام ١٩٣٠ صارت أقل البلدان انتشارا لمرض الزهرى. تبعتها الحكومة البريطانية، ثم باقى حكومات أوروبا.

أنشأت الحكومات مراكز للوقاية والعلاج من الأمراض التناسلية - وكان المتبع حقن المرضى تباعا بالسلفرسان، ولكن المرضى خيبوا ظن الحكومات ولم يكمل غالبيتهم الحقن الثمانى المطلوب تعاطيها تباعا.

وبعد عام ١٩٣٥ فرض على الراغبين فى الزواج إجراء اختبار واسرمان، ومن وجد اختباره إيجابيا - يفرض عليه التعقيم قسرا.

أما فى غرب أوروبا فقد استمر ميكروب تريبونيما باليدوم (الزهرى) يمرح فى أجساد رعاياه حتى الأربعينيات عندما تم الكشف عن البنسلين ووجد أنه عقار قاتل للميكروب، وكذلك فرض استخدام الغطاء المطاطى الواقى لجنود القوات المسلحة. لم تحل الخمسينيات من القرن العشرين إلا وكان وباء الزهرى قد تمت السيطرة عليه تماما؛ إلا أنه لم يختف كلية وبدأ يرفع رأسه القبيح بعد عام ١٩٥٨ ومازال يعيش معنا إلى الآن.

ظهر وباء الكوليرا بالهند فى عام ١٨١٧ ثم وصل إلى بريطانيا عام ١٨٣١. وفى القرن التاسع عشر فقدت بريطانيا ما يقرب من ١٣٠ ألف مواطن من جراء خمسة أوبئة، فى هذا القرن نفسه، وفى الربع الأول من القرن التالى فقدت الهند ما يزيد على ٢٥ مليونا من أهلها من مرضى الكوليرا.

ومن الملاحظ أنه بينما كانت أوبئة الكوليرا فى إنجلترا يقل من يموت منها باطراد، كان الاهتمام الأول للحكومة البريطانية هو التنمية الاقتصادية للهند وليس السيطرة على الأوبئة والأمراض التى تصيب الشعب الهندى.

التنمية كانت تعنى شيئا واحدا، وهو سريان الثروة بلا انقطاع من الهند إلى إنجلترا، لذا استثمر الرأسماليون البريطانيون بكل عزم أموالهم فى بناء مشروعات للرى والسكك الحديدية ولتسهيلات الموانىء للشحن والتفريغ ولم تستثمر أى أموال فى مشروعات للارتقاء بالصحة العامة فى البلاد؛ بالرغم من أن الطبيب البريطانى جون سنو قد خرج بنظرية أن الكوليرا هى مرض ينتشر بشرب المياه الملوثة، فإن هذا الرأى لم يلق قبولا فى بريطانيا نفسها، ولم تعره السلطات البريطانية المسئولة عن الخدمات الصحية فى الهند أى اهتمام.

كانت مصر فى القرن التاسع عشر خالية من وباء الكوليرا إلى يوليو عام ١٨٣١ حين اندلع الوباء فى الأقصر، وانتشر فى الإسكندرية فى الشهر التالى، وفى أكتوبر اجتاح القاهرة وبلغ عدد الوفيات فيها ٥٥ ألفا (بمعدل ٢٥٠٠ يوميا).

وفى عام ١٨٣٤ حدث وباء أقل شدة وبلغت الوفيات ٣٠ ألفا فى القاهرة و(٤٠٠ ألف فى مصر كلها)، ثم تكرر الوباء فى عام ١٨٣٧، وفى عام ١٨٤٠، وفى عام ١٨٤٨ اشتعل الوباء فى طنطا ثم امتد إلى القاهرة، ثم أصاب الإسكندرية، وظهر ثانية فى الإسكندرية عام ١٨٤٩.

فى القرن التاسع عشر قام ميكروب الكوليرا بخمس جولات عالمية، وقام بجولة سادسة عام ١٩٠٢ فى أوائل القرن العشرين.

وقد تم الكشف عن فيريو الكوليرا فى الإسكندرية بواسطة الميكروبيولوجى الألمانى الأعظم روبرت كوخ عام ١٨٨٣. وفى عام ١٩٤١ اجتاح العالم الوباء العالمى السابع وأصاب مصر، ويبدو أنه وصل مصر عن طريق الجو. بدأ فى قرية القرين بمحافظة الشرقية بين العمال المصريين المتصلين بالجيش البريطانى، وكان منهم جنود من الهند.

بدأ المرض يزحف من القرين.. زحف فى أول الأمر من بلدة القرين على طريق المعاهدة متتبعا خط الأوتوبيس إلى أن وصل إلى القاهرة، فظهر أول ما ظهر فى الزيتون. وقدر الله لمصر طبيبا عالميا فى الأوبئة - الدكتور أحمد محمد كمال - فاستطاع مقاومة هذا الوباء والقضاء عليه فى شهرين، ثم عادت الكوليرا فظهرت فى أواخر الستينيات (١٩٦٩) من هذا القرن متسببة عن الميكروب الأضعف نسبيا - فيريو الطور - ومازالت متوطنة معنا للآن، ويخاف المسئولون عن الصحة من تسميتها باسمها الصحيح، ويطلقون عليها أمراض الصيف.



كان الاهتمام الأول للحكومة البريطانية هو سريان الثروة من الهند إلى بريطانيا وليس السيطرة على الأمراض التى تصيب الشعب الهندى.

ومما يذكر أن الوباء العالمى السادس الذى اجتاح العالم من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٢٣ وشمل مصر، ثم وصل إلى البلقان، هو الذى تم الكشف فيه عن فيريو الطور - بمدينة الطور بمصر أيضا.

لا تعرف أوروبا الكوليرا فى وقتنا الحاضر، رغم أن بريطانيا قد عانت من وباء الكوليرا لأول مرة عام ١٨٣١ - ١٨٣٢ . كشف روبرت كوخ عن الميكروب المسبب للكوليرا فى الإسكندرية عام ١٨٨٣ وأتم بحوثه فى كلكتا عام ١٨٨٤، وبدأ الفهم العلمى الصحيح لهذا المرض الذى يفيد بأن مرض الكوليرا يتسبب عن ميكروب واوى الشكل، يتناوله المصاب عن طريق الفم بشرب المياه الملوثة بالفضلات الآدمية، وكذلك عن طريق تناول المحارات البحرية والحيوانات القشرية . أو الخضروات أو الفاكهة المغسولة بمياه ملوثة بفضلات آدمية، أو أى طعام حط عليه الذباب ولوثه بهذه الفضلات.

عن هذه الوسيلة انتقلت الكوليرا من أفغانستان شمالا إلى روسيا وغربا إلى بلاد فارس والعراق من الهند عام ١٨٢٠.

يعيش الميكروب أيضا فى أمعاء بعض الآدميين الذين لا يعانون من أى أعراض ولكنهم ينقلونه إلى الآخرين إذا تلوث شرابهم وطعامهم بفضلات هؤلاء البشر، وعن طريق حاملى الميكروب ظلت الكوليرا متوطنة فى كثير من المجتمعات. تحركت الكوليرا مع طرق مواصلات البشر - مدقات الأقدام أو طرق السيارات - وتتبعت طرق نقل مياه الشرب: الأنهار والترع والقنوات، ومواسير المياه، والمضخات العامة والبرك والآبار. كذلك يمكن انتقال فيريو الكوليرا حاليا بالطائرات (كما حدث عام ١٩٩١ عندما انتقل الميكروب من بيرو إلى الولايات المتحدة الأمريكية على إحدى طائرات الخطوط الجوية الأرجنتينية).

وقد نقلت المرضعات الكوليرا من باريس إلى قراهن على بعد ٣٠ كيلو مترا من العاصمة خلال الأوبئة التى حدثت فى أعوام ١٨٣٢ و ١٨٤٨ و ١٨٤٩. وبعد نصف قرن نقل اللاجئون الهاربون من الوباء الذى حدث فى بروفنس المرض إلى نابولى، كذلك ثبت أن جنود الغزو الفرنسى هم الذين نقلوا الوباء إلى الجزائر فى أوائل السنوات التى تلت عام ١٨٣٠، كذلك نقل الجنود الفرنسيون الذين شاركوا فى حرب القرم عام ١٨٥٣ - ١٨٩٤ الكوليرا إلى مرسيليا من شمال فرنسا، ثم نقلوها إلى البلدان الروسية المواجهة للبحر الأسود.

وهكذا أعادت غرب أوروبا الأوبئة القاتلة إلى روسيا التى صدرت الطاعون عام ١٣٤٧ على ظهر سفن جنوة التجارية التى نقلته بعد ذلك إلى أراضى المماليك.

لعل استعراض أظهر معالم تاريخ الكوليرا فى الهند يعلمنا بعض الدروس. فى عام ١٨١٧ عرف فى كلكتا، وأعلن القسيس الإنجليزى توماس مالتوس مقولته الشهيرة «ربما تكون العواقب مرغوبة ومحمودة وذات فائدة كبرى، لأنها سوف تكون الحل الإلهى لتزايد عدد السكان».

فى عام ١٨٢٧ ساد الهند كلها الوباء الثانى الشامل - وتقدم بعد ذلك ووصل أوروبا.

منذ بداياتهم الأولى فى الهند حرص الإنجليز على حكم الهند بالعنف والتخويف وإثارة الرعب وبالقسر، واستمرت هذه الإستراتيجية قائمة حتى رحيلهم. ولعل أكبر فشل للحكم البريطانى للهند هو عدم إمكانها تحقيق أى نجاح فى رفع مستوى الصحة العامة، مما كان له انعكاسات على التطور السياسى فى إنجلترا نفسها حتى ظهور وباء الكوليرا لأول مرة فى بريطانيا عام ١٨٣١ - ١٨٣٢.

ومع التزايد المستمر لعدد السكان فى بريطانيا، من ٥ ملايين فى عام ١٧٠٠ إلى ١٠ ملايين فى عام ١٨٠٠ إلى حوالى ٢٠ مليونا فى عام ١٨٥٠، أعلن توه اس مالتوس - الشخص الرهيب فى الكنيسة الإنجليزية - فى عام ١٧٩٨، أن «الطبيعة بحكمها ستحل مشكلة التزايد السكانى بالمجاعات أو الحروب أو الطاعون»، ولم يدر أن الكوليرا هى الوباء القادم الذى سيتولى تحقيق ما يتمناه.

ومع ذلك حدث انخفاض فى سن الزواج (من سن ٢٦ سنة إلى سن ٢١ سنة للبنات)، وندرت وسائل منع الحمل، فزادت نسبة المواليد زيادة كبيرة، وزاد عدد الأفواه التى تطلب الطعام: وتزايد عدد سكان الطبقة العاملة فى بريطانيا وأصبح نصفهم أقل من عشرين سنة من العمر، وبلغ ثلاثة أرباعهم أقل من ثلاثين عاما. زاد من المشكلة هجرة كثيرين من المعدمين الكاثوليك من أيرلندة إلى إنجلترا.

تزايدت الغمة وأصبح التذمر بين طبقات الشعب المطحونة هائلا وصار العصيان على الأبواب. انضم كثير من شباب الطبقات الوسطى إلى الجمعيات الأهلية التى تنادى بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية.

فى ذلك الوقت علم أن وباء الكوليرا قد انفجر فى الهند، وامتد بسرعة إلى أملاك أسرة رومانوف - التى تحكم روسيا - وأسرة الهابسبورج - التى تحكم الإمبراطورية النمساوية المجرية؛ وحدث تذمر وعصيان وهياج بين الجماهير (الذين اعتقدوا أنها مؤامرة حاكها الأرستقراطيون لإنقاص عدد المواطنين الذين زادوا عن الحد). فى ذلك الوقت نشأت فى بريطانيا مدارس التشريح (أنشئت أولى مدارس التشريح عام ١٧٨٠ فى أدنبرة).

استلزمت دراسة التشريح طلب المزيد من جثث الموتى والتعاقد مع لصوص المقابر (وتطور الأمر إلى حد ارتكاب جرائم قتل لتوريد الجثث طازجة بمجرد الوفاة). لرفض أبناء الطبقة العاملة تماما التصريح بإعطاء جثث موتاهم لأبناء الطبقة المتوسطة ليتعلموا عليها. ولذلك صدر قانون من البرلمان عام ١٨٣١ بالتصريح لمدارس التشريح بأخذ جثث الموتى الفقراء ممن ليس لهم أهل يطالبون بجثثهم، وأصاب الجماهير رعب شديد بعد صدور ذلك القانون.

حطت الكوليرا فى النهاية فى إنجلترا فى أكتوبر من عام ١٨٣١ ودخلت عن طريق ميناء سندرلاند فى مقاطعة ديرهام، ونظرا لتشوق الأطباء البريطانيين للحصول على جثث الموتى انقض العديد من أطباء أدنبرة ولندن على مدينة سندرلاند. وهاجت الجماهير وبدأوا عصيانا وهاجموا المستشفيات وأطلقوا نزلاءها من المرضى.

بدأ الهجوم فى مدينة مانشستر وبلغ عدد الثائرين فيها عدة آلاف، ونتج عن إطلاق عشرات من المصابين بالكوليرا إلى بيوتهم إلى اشتعال الوباء بشكل لم يسبق له مثيل فى بريطانيا. وصلت الكوليرا أولا إلى سندرلاند ثم إلى ميناءى نيوبيرن ونيوكاسل، ولما قرر الأطباء الآتون من أدنبرة، أن هذا المرض الوافد مرض معد قد يكون أتى من الهند على ظهر السفن، أصدر ملاك مناجم الفحم بيانا ينكرون فيه «هذه المزاعم المتسرعة الجاهلة والخاطئة». ولا يحتاج لأى إجراءات إدارية، ولا أى تدخل يعوق حرية التجارة والنقل البحرى.

وهكذا تغلبت مصالح التجار الرأسماليين على الرأى العلمى الصحيح، بمعاونة طائفة من الأطباء المأجورين، ووافقت الحكومة على هذا الرأى.

مات من وباء الكوليرا هذا عامى ١٨٣١ - ١٨٣٢ ما يقرب من ٣٢ ألف فرد.

حدث الوباء الثانى للكوليرا فى بريطانيا عام ١٨٤٨ - ١٨٤٩ ومات منه ٦٢ ألف نسمة، أى ضعف عدد من ماتوا من الوباء الأول، ولما كانت بريطانيا ماتزال متمسكة بالفوارق الشديدة بين الطبقات، ولم تفلح أى محاولات فى تقريب الفوارق بين الطبقات ، دفع يأس الجماهير من إصلاح حالهم إلى هجرة الآلاف الكثيرة منهم إلى أمريكا الشمالية.

عادت الكوليرا للمرة الثالثة إلى بريطانيا عام ١٨٥٣ - ١٨٥٤ ومات منها هذه المرة ٩٠ ألف فرد. عادت إلى نيوكاسل، بالقرب من المكان الذى بدأ فيه الوباء الأول. وضرب للمرة الرابعة فى عام ١٨٦٦ ولحق بجميع المقاطعات. قرر البرلمان هذه المرة السماح لجميع المدن بإدخال المياه الصالحة للشرب وإنشاء وظيفة مفتش الصحة، وجعل هذه القرارات إجبارية عام ١٨٧٢، وفرض على الملاك جميعا تطبيق هذه الإجراءات الصحية - ولو بمصادرة أموالهم وعملها على حسابهم.

عندما أتت الكوليرا لبريطانيا عام ١٨٦٦ - ١٨٦٧ مات منها ١٤ ألف فرد فقط. بعد البدء فى إدخال الإجراءات الصحية المطلوبة.

أدرك الإنجليز أهمية وضع نقاط مراقبة لتنفيذ الحجر الصحى على طول الطريق من الهند إلى بريطانيا. وبعد اجتماع الهيئة الدولية لمراقبة الكوليرا فى إسطنبول عام١٨٦٦، ووضع مصر لإجراءات حجر صحى شديدة على طول قناة السويس بعد افتتاحها عام ١٨٦٩ - كان على أى سفينة بريطانية أن تبقى فى عرض البحر إذا أصابت الكوليرا أحد بحارتها أو أحد ركابها. بالرغم من معارضة بعض الوزراء الإنجليز الشديدة لهذه الإجراءات بدعوى مخالفتها لحرية التجارة.

وبالرغم من سبق أوروبا إلى اعتناق الآراء العلمية المتحررة والتى دفعت لتقدم العلم دفعا شديدا إلا أن حكام الهند البريطانيين كانوا فى غاية الجمود ومنتهى التحجر، كان التقليد المتبع من الحكام الإنجليز هو جمع الرجال والنساء والأطفال. الفقراء الجوعى. من قراهم فى معسكرات عمل وتكليفهم بأداء الأعمال الشاقة. لم تكن تلك المعسكرات مزودة بالمياه الصالحة للشرب ولا بالوسائل الصحية المناسبة للتخلص السليم من الفضلات: وهكذا كانت تلك المعسكرات مرتعا خصبا لفيريو الكوليرا.

استغلت بريطانيا الهند أبشع استغلال، وزرعت مساحات شاسعة من أراضى الهند بالأفيون لتبيعه للصين، وكانت البنوك البريطانية تعطى القروض وتستردها بفوائد باهظة، وكانت الأراضى تزرع - بعد شق الترع - بالقطن الذى يصدر إلى مانشستر. شقت الترع وقنوات الرى ومعها انتشرت الكوليرا فى البلاد انتشارا ليس له مدى.

كان الإنجليز يعلمون أطفال الهنود فى مدارسهم أشعار شكسبير أو ميلتون ولكنهم لم يعلموهم بتاتا مبادئ الصحة الشخصية - حتى تغيرت السياسة التعليمية وصارت مسئولية الهنود أنفسهم عام ١٩٢٠.

وقد ذكر جون هوبسون سنة ١٩٠٢ «أن الادعاء أننا قد أدخلنا المدنية للهند بمساعدتهم على اتباع نظمنا الصناعية والسياسية، واتباع أخلاقياتنا، هو محض هراء وتضليل ووهم قائم على تقدير خاطئ. يدعم هذا الضلال ويؤكده نزعتنا الاستعمارية التى تنسج تلك الخرافات لتغطية المكاسب التى يجنيها بعض أصحاب المصالح من الإمبراطورية»، يزيد من فظاعة تلك الكلمات الجارحة بقاء الكوليرا - ذلك المرض الرهيب - لمدة مائة وثلاثين عاما متوطنا فى الهند، وفتكه بخمسة وعشرين مليونا من الهنود.

بعد أن تولى الهنود أنفسهم مهمة الصحة فى الهند وبعد أن زودت البلاد بالمياه الصالحة للشرب انخفضت الإصابة بالكوليرا إلى حد بعيد. كانت الوفيات من الكوليرا فى الهند بين عامى ١٩١٠ - ١٩١٢ (٣,٨ مليون نسمة)، وبين عامى ١٩٣٠ - ١٩٣٩ (١,٧ مليون



ترحيل ملايين الأفارقة غصبًا من بلادهم إلى أمريكا كان عاملاً مهمًا فى نقص المناعة لديهم وسقوطهم صرعى للملاريا عندما هاجمتهم فى العالم الجديد.

نسمة)، وبين عامي ١٩٥٠ - ١٩٥٤ (٣٨٠،١٠٠ نسمة)..

وبعد استخدام محلول معالجة الجفاف بعد الحرب العالمية الثانية انخفضت الوفيات من الكوليرا إلى أقل من ١٪ من المصابين.

«لولا المرض لكانت قارة أفريقيا في مقدمة الدول المتحضرة في العالم. كلنا يعرف ماذا كانت عليه مصر، وماذا أصبحت عليه قارة أفريقيا الآن، التي هدمتها الأمراض العجيبة والخطيرة». هذه المقولة قالها سير باتريك مانسون - رائد الأمراض المتوطنة في العالم - عام ١٩٠٧.

وفدت الحمى الصفراء للعالم الجديد على ظهر السفن التي حملت العبيد الزنوج من أفريقيا، وأول تسجيل لظهورها في باربادوس كان عام ١٦٤٧. كذلك حملت السفن القادمة من أفريقيا إلى أمريكا الملاريا الخبيثة، وقد سجل ظهورها في الأقاليم البرتغالية والإسبانية منذ عام ١٦٥٠، وقد تصل نسبة الوفيات من الملاريا الخبيثة إلى ٢٥٪.

كشف ألفونس لافيران - من معهد باستير - عن العامل المسبب للملاريا - طفيل «البلازموديوم» - عام ١٨٨٠، وانتفى الرأي الذي جاء من إيطاليا أن الملاريا تنشأ من الأبخرة الفاسدة التي تتصاعد من البرك والمستنقعات؛ وتم الكشف عن العامل المسبب للحمى الصفراء وتم عزل الفيروس في عام ١٩٢٨ في غرب أفريقيا. وتأكد أن كلا المرضين ينقلان للإنسان إثر لدغه بأصناف معينة من البعوض.

وأعلن في مؤتمر القاهرة سنة ١٩٢٨ أن مجرد وجود البعوضة الناقلة للحمى الصفراء «إيدس اجيبتاي» ليس كافيا لانتقال المرض، فهي موجودة في الصين ولا يصاب بها مئات الملايين من الصينيين، وموجودة أيضا في البرازيل، ويقع صرعى للحمى الصفراء آلاف الصينيين الذين يهاجرون إليها.

كذلك عرف أن البعوض الناقل لطفيل الملاريا موجود من قديم الأزل في أمريكا، ولكن لم تحدث إصابة بالملاريا إلا بعد انتقال البشر من أوروبا ومن أفريقيا بدءا برحلة كولومبوس عام ١٤٩٢.

ولعل ترحيل ملايين الأفارقة غصبا من بلادهم إلى أمريكا كان عاملا مهما في نقص المناعة لديهم وسقوطهم صرعى للملاريا عندما هاجمتهم في العالم الجديد.

والجدير بالذكر أنه منذ بدأت تجارة الرقيق حوالي سنة ١٥٠٠، وبلغت أشدها بين عامي ١٦٩٠ - ١٧٥٠، حتى منعها في منتصف القرن التاسع عشر، تم شحن ما بين ١٢ - ٢٠ مليون أفريقي عبر المحيط الأطلنطي لأمريكا، توفي حوالي ٤٠٪ منهم من جراء الأوبئة، أو الجوع أو التعذيب الذي لاقوه في أثناء رحلتهم شديدة البشاعة على ظهور سفن الرجل الأبيض.

يقدر تعداد من خسرهم غرب وأواسط أفريقيا من البشر ما بين ٢٤ إلى ٣٧ مليونا. وقد ظن الأفارقة أن الرجال البيض من المتوحشين، آكلي لحوم البشر، وأنهم يقصدون توريدهم إلى أمريكا لأكل لحمهم.

انتشرت الحمى الصفراء أولا في باربادوس عام ١٦٤٧ (والتي بدأ الإنجليز في استيطانها عام ١٧٢٧) وأعقبت مشروعات تطوير العالم الجديد؛ الإزالة المتسارعة والبشعة للغابات وزراعة الأراضي البكر التي نشأت بقصب السكر، وتقطين الزنوج الذين جلبوا من أفريقيا في تلك الحقول ثم بيع السكر المنتج في إنجلترا.

هلك من هذا الوباء الأول - الذي استمر حتى عام ١٦٥٠ - ١٥٪ من السكان. ضربت الحمى الصفراء ثانية عام ١٦٩١ واستمرت لعدة سنوات وهلك منها «السادة، والخدم والعبيد»، وهرب بعضهم إلى كارولينا الجنوبية.

وقد توقفت هجرة البيض من بريطانيا بعد بدء الثورة الصناعية وتوافر الأعمال لفقراء الإنجليز في بلادهم (هاجر من أوروبا ما يبلغ تعدادهم ٥٠ مليون نسمة بين ١٨٤٠ - ١٩١٤، ورحل غالبيتهم إلى أمريكا)، ولم تعد هناك حاجة إلى خطف الزنوج من أفريقيا وترحيلهم عنوة إلى العالم الجديد.

سمح ملاك مزارع القصب للزنوج بمعاشرة كل من يرغبون من النساء السود لمتعتهم ماداموا ينتجون عددا كبيرا من الأطفال ويعملون عملا مرضيا للسادة أصحاب المزارع ولا يمرضون.

وبعد النجاح الباهر لإنتاج السكر من باربادوس انتقل إلى جزيرة جامايكا ثم إلى المستعمرة الفرنسية في سان دومينيج (هايتي)، ثم إلى البرازيل وإلى جزيرة كوبا، وقام بالعمل في هذه الأماكن عبيد من زنوج أفريقيا، بعد أن أفنت الأمراض (الجدري) ووحشية المستوطنين الإسبان السكان الأصليين للبلاد. ثم حلت الملاريا الخبيثة والحمى الصفراء محل الجدري كأداة لقتل السكان الجدد من البيض والسود.

استمر ورود الزنوج العبيد من أفريقيا إلى الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية، واستمروا يزرعون حقول القطن المترامية الأطراف التي كانت تزود مصانع مانشستر وأولدهام باحتياجاتها من القطن.

اشترت الولايات المتحدة الأراضي الفرنسية الشاسعة في لويزيانا من فرنسا عام ١٨٠٣ (لتستخدم فرنسا النقود في دعم حملتها ضد هايتي)، وضمت الولايات المتحدة غربي فلوريدا من إسبانيا خلال الحرب الإنجليزية الأمريكية بين عامي ١٨١٢ - ١٨١٥ وأفرغتها من سكانها، وتم استزراع القطن بواسطة العبيد في هذه الأجزاء التي اكتسبتها الولايات المتحدة.

زاد ملاك الأراضي البيض من سطوتهم وازداد قهرهم لعبيدهم من الزنوج، وبدأ الشماليون في المناداة بتحرير العبيد من سطوة البيض، وتصاعدت أوبئة الحمى الصفراء حوالي سنة ١٨٥٠ وأصابت المدن الكبرى في الجنوب: نيو أورليانز وممفيس وشارلستون، وكثيرا من المراكز المحلية التي كانت تزود ملاك الأراضي بالخدمات اللازمة؛ وأسبغت تلك الأوبئة سمعة سيئة على الولايات الجنوبية.

وقد ادعى الأطباء الجنوبيون أن الحمى الصفراء هي مرض الزنوج - المنحطين عرقيا عن البيض - وأنهم ناقلوه للجنس الأبيض (الحقيقة أن دفء أماكن سكنى الزنوج، من تزاحمهم وضيق المكان عليهم ودفء المكان بالنيران التي يوقدونها للتدفئة، كان يهيئ الظروف المثلى لتوالد بعوضة الإيدس الناقلة للحمى الصفراء).

ومع ذلك كانت نسبة الإصابة بالحمى الصفراء أقل كثيرا بين الزنوج عن البيض، وشدة إصابة البيض أشد ضراوة بكثير عن الزنوج (لأن أطفال الزنوج المصابين بلدغ البعوض الناقل للمرض من طفولتهم المبكرة يكتسبون قدرا كبيرا من الحصانة).

مع اندثار صناعة السكر في جامايكا عام ١٨٣٨ استولت جزيرة كوبا على المسرح وصارت كبرى المناطق في العالم المورِّدة للسكر، بالرغم من حظر تجارة الرقيق استمرت كوبا في جلبهم من أفريقيا حتى عام ١٨٨٦.

صار سكان العاصمة - كوبا - خليطا من الأفارقة والأوروبيين الجنوبيين من الإسبان والبرتغاليين وسكان جزر الكناري، وازدهرت هافانا وصارت ثانية مدن الأمريكتين - بعد نيويورك - جذبا للناس من كل صوب وحدب.

وقد حدث تمرد بين سكان كوبا عام ١٨٦٨، وثاروا على حكم مدريد، وصارت الجزيرة شبه مستقلة عن التاج الإسباني عام ١٨٩٨ في أواسط الأربعينيات من القرن التاسع عشر، مدت الولايات المتحدة نفوذها واستولت على الثلث الشمالي من المكسيك، ثم اتجهت لابتلاع جزيرة كوبا الخاضعة لإسبانيا عندما ضربت الحمى الصفراء نيواورليانز وممفيس وبقية مدن الجنوب عام ١٨٧٨، وعلم الجميع أن الوباء قد وفد من كوبا.

وبعد الوباء الذي اجتاح جنوب الولايات المتحدة عام ١٨٩٧ زحفت الولايات المتحدة على كوبا واحتلتها عام ١٨٩٨ واحتلت كذلك جزر الفلبين وبورتوريكو - المستعمرتين الإسبانيتين واللتين تنتجان السكر أيضا. وتأكد أن الأرباح التي تجنى من صناعة السكر سوف تسقط كلها في يد الأمريكان.

وقد أجرى والتر ريد رئيس البعثة الطبية للبحرية الأمريكية تجاربه على الآدميين وأكد نظرية كارلوس فينلي، وبالفعل طهر الأمريكيون كوبا ثم برزخ بنما من البعوض (والحمى الصفراء والملاريا) ثم أكملوا حفر قناة بنما التي وصلت المحيط الهادي بالمحيط الأطلنطي بعد أن فشل المهندسون الفرنسيون في إكمالها ودفعوا ثمنا باهظا لذلك بخسارتهم لخمسين ألف نسمة من المهندسين والعمال الذين سقطوا صرعى الحمى الصفراء والملاريا الخبيثة.

بدأت بريطانيا تتجه إلى توسيع رقعة مستعمراتها في أفريقيا. بعد النجاح الذي أحرزته من احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ اتجهت جنوبا وتطلعت لاحتلال السودان، ثم اتجهت لجنوب أفريقيا واستولت على مناجم الماس الغنية في كيمبرلي وعلى مناجم الذهب، واستغلت ثروات أنجولا في غرب أفريقيا نظرا لصلاتها الطيبة مع النظام الحاكم في البرتغال. ثم اتجهت لنيجيريا واستغلت منتجاتها من المواد الأولية: القطن، زيت النخيل وغيرها، مما تحتاجه الصناعة في أوروبا.

صار لقطن غرب أفريقيا أهمية عظمى في السنوات الأربع التي انقطع فيها ورود القطن من الولايات المتحدة في أثناء حربها الأهلية بين عامي ١٨٦١ - ١٨٦٥. ثم اتجهت بريطانيا إلى ساحل الذهب (غانا حاليا) لاستغلال مناجمها الغنية بالذهب، وزودتها بالميكنة اللازمة وجلبت عشرات الآلاف من العمال الأفارقة للعمل في تلك المناجم، ووضعت قوات بريطانية هائلة لحماية هذه المناجم.

غزا البريطانيون بعد ذلك بواسطة الرشاشات سريعة الطلقات والمدافع والبنادق الضخمة مزيدا من أراضي أفريقيا، فاحتلت بريطانيا بنين وأراضي الهوسا وأراضي المسلمين ذات الحضارة جنوب الصحراء الكبرى. وهزمت كذلك قوات المهدي في السودان وحوض النيل الأزرق (بواسطة الجنرال كتشنر).

وهكذا صارت بلاد أفريقيا كلها نهبا للمستعمرين الأوروبيين - باستثناء ليبيريا - التي نقل إليها بعض العمال من الزنوج الأمريكيين بعد نهاية الحرب الأهلية الأمريكية - وصارت ليبيريا إلى الآن من توابع الولايات المتحدة.

وبعد السيطرة الكاملة على أفريقيا بدأت الحكومة البريطانية الانتباه إلى أمراض المناطق الحارة، وأقنع مانسون وزارة المستعمرات بإرسال بعثات لدراسة الملاريا وأنشئت أول مدرسة لطب المناطق الحارة في ليفربول عام ١٨٩٩.



الأوبئة نتيجة مباشرة للاستعمار الأوروبي.. ولولا مساعدته في نشرها بتصرفاته الخاطئة وتقاعسه عن مقاومتها لما انتشرت هذا الانتشار. المستوطنون البرازيليون الأوائل كانوا مقتنعين بأن الله أراد أن يحصد الجدري السكان الأصليين لأن مشيئته أن يختفوا ليرث المستوطنون أرضهم!

بعد نزول الأسبان إلى أمريكا الوسطى حاملين معهم الأنفلونزا والتيفوس والجدرى، صار غالبية الأهالى الأصليين يموتون فى سن الطفولة أو الشباب.

بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة ألمانيا أجبرت فرنسا وإنجلترا أهالى أفريقيا (وسائر المستعمرات) على التجنيد فى قواتها المسلحة. وهرب الكثيرون من المستعمرات الفرنسية وسلموا أنفسهم للإنجليز، وتسبب هذا فى زيادة الإصابة بالملاريا بعد تغيير السكان لأوطانهم الأصلية وإصابتهم بفصائل جديدة من الطفيليات لم تكن لديهم أى حصانة تجاهها.

كانت أعداد السكان تتزايد بسرعة فى أوروبا (بمعدلات تصل إلى ٥ ـ ٦٪ فى العام). ولكنها كانت ثابتة لا تتزايد فى أفريقيا، من جراء الأوبئة التى لم تتم السيطرة عليها. وقد جلب الفرنسيون اللبنانيين والسوريين لمعاونتهم فى التجارة فى غرب أفريقيا ـ إذ كانوا يعتبرون الأفارقة متخلفين عقليا.

عند انعقاد مؤتمر أمراض المناطق الحارة فى القاهرة عام ١٩٢٨ كانت الأحوال الصحية قد تحسنت لدرجة بالغة، فى أوروبا وفى أمريكا ولكنها بقيت متدهورة فى أفريقيا، وظلت الوفيات من الأوبئة مرتفعة فى البلدان التى لم يتم فيها استيطان الأوروبيين، فى حين انخفضت إلى المعدلات الأوروبية فى الجزائر وفى المناطق المرتفعة من كينيا وفى الروديستين وفى جنوب أفريقيا ـ الأماكن التى استوطنها الأوروبيون ـ وفى أواخر القرن العشرين فوجئنا بحدثين مهمين: فقد اكتسب عدد كبير من أصناف طفيل الملاريا حصانة ضد العقاقير ـ القديمة منها والحديثة، كما صار البعوض مقاوما للكيماويات المختلفة مما يهدد ثانية بانفجار الأزمة.

من بين عشرات الكتب التى يتم نشرها تباعا عن الأمراض المعدية ووقعها على المجتمع والسياسات الصحية للدول المختلفة ـ يثير كتاب شلدون واتس أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة كثيرا من التأملات والأفكار، ويرى المؤلف أن الأوبئة نتيجة مباشرة للاستعمار الأوروبى الذى لولا مساعدته فى نشر الأوبئة ـ بتصرفاته الخاطئة فى كثير من الأحيان، وتقاعسه عن مقاومتها فى الوقت المناسب ـ لما انتشرت هذا الانتشار.

وقد شهد النصف الأخير من القرن العشرين انتصارات هائلة للطب كعلم منضبط يتبع الأسلوب العلمي ويدين لتقدمه بالنهج العلمى. ولكن هذه السنوات شهدت أيضا انفصالا يزداد اتساعا بين الخدمات الصحية الفعالة المتاحة لقليل من البشر وغير المتاحة لغالبيتهم. إذ يسود الجهل كثيرا من المجتمعات: فيتمسك البعض بالخرافات ويؤمن آخرون (من الأطباء والمثقفين والساسة) أن زيادة أعمار البشر ترجع إلى طرق التشخيص والعلاج الفعالة، بينما الحقيقة أن ارتفاع مستوى المعيشة وتوفير المياه الصالحة للشرب وضمان الغذاء المتكامل الكافى والتحصين ضد الأمراض وغيرها من وسائل الصحة العامة ـ هى السبب الرئيسى فى طول مدة الحياة وارتفاعها إلى أن وصلت فى المتوسط إلى أواخر السبعينيات فى البلدان المتقدمة.

على الساسة ـ إذا أدركوا هذه الحقيقة ـ عدم التهاون فى توفير وسائل الوقاية من الأمراض بدلا من إنفاق مليارات الجنيهات على علاج القليل من الأمراض. ونصيحتى أنه بدلا من أن يتخصص النابهون من شبابنا فى عمليات زرع نخاع العظام أو جراحات القلب لابد أن يهتم الكثيرون منهم بالمشاكل الصحية الحقيقية التى يعانى منها الملايين فى الريف أو فى الأحياء الفقيرة فى الحضر.

وقد توصلت شركات الأدوية الكبرى إلى لقاحات ضد الحصبة وشلل الأطفال والتيتانوس والدفتيريا ، وغيرت من صورة هذه الأوبئة فى العالم، ولكنها لم تبذل بعد الجهد الكافى لإنتاج لقاحات فعالة للأوبئة الخطيرة التى تعانى منها الدول الفقيرة.

من مصائب الدهر أن حكام الدول النامية يسعون لشراء المزيد من الطائرات النفاثة أو الغواصات أو الألغام أو زيادة تسليح وإعداد القوات المقاومة للشغب، أو زيادة الإمكانات فى المعتقلات، أو تحديث وسائل التعذيب فى السجون.

صناع الأسلحة هم أشد من يكون سعادة من هذه السياسات فى العالم، والتى يبيعونها للدول النامية، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا.. هذه الأسلحة تستخدم فى الحروب المحلية الصغيرة، بينما تلك الأمم فى أشد الحاجة للرعاية الصحية الأساسية والتى تحتاج لاستكمالها إلى قدر ضئيل من تلك الأموال.

ومن دواعى السخرية أن الأمريكان ـ الذين يباهون بأن لديهم أعلى مستوى للطب فى العالم ـ فوجئوا عام ١٩٨١ بظهور مرض «الإيدز» (فقر المناعة المكتسبة) بينهم، ذلك المرض الذى لا برء منه ويؤدى إلى الوفاة حتما (تبعا لمعرفتنا الحالية) والذى لم يصنع له لقاح واق بعد.

مات من الإيدز فى السنوات العشر الأولى بعد التعرف عليه ـ ١٫٥ مليون نسمة فى العالم كله، وسوف يبلغ عدد المصابين بالفيروس عام ٢٠٠٠ أربعين مليون نسمة. ظهر هذا الوباء ـ من سخرية القدر أيضا ـ بعد ثلاث سنوات من إعلان منظمة الصحة العالمية عن خلو العالم من مرض الجدرى.

ومن السخرية القدرية ـ للمرة الثالثة ـ أن مرض الإيدز كان أشد انتشارا ـ فى سنواته الأولى ـ فى قارتى أمريكا وأفريقيا (القارتان اللتان شهدتا حركة انتقال للسكان بالهجرة القسرية لملايين البشر من أفريقيا إلى أمريكا فى القرون الثلاثة السابقة).

ومن سخرية القدر أيضا أن مرض الدرن ـ قد صار ميكروبه الذى كشف عنه روبرت كوخ عام ١٨٨٢ ـ مقاوما لجميع مضادات الدرن وصار مستعصيا على العلاج وسيعاود فى المستقبل القريب ضراوته وخطورته البالغة على الإنسانية، وسيصيب بعنف فقراء العالم الجدد الذين يزداد عددهم فى أمريكا وبريطانيا وروسيا ـ بالإضافة إلى فقراء الدول النامية. ■

كتاب الزاوية

من شعر إبراهيم ناجى

النـاى المحتـرق

كم مـرَّة يا حـبـيـبى والليل يغشى البرايا
أهيم وحدى وما فى الـ ـظلام شاك سوايا
أصـيّـر الدمع لحنًا وأجعل الشّعر نايا
وهل يلبّى حطام أشعلته بجوايا
النار توغل فيه والريح تذرو البقايا
ما أتعس الناى بين الـ ـمنى وبين المنايا
يشدو ويشدو حزينًا مرجعًا شكوايا
مستعطفاً مَنْ طوينا على هواه الطوايا
حتى يلوح خيالٌ عرفته في صبايا
يدنو إلىَّ وتدنو من ثغره شفتايا
إذا بحلمى تلاشى واستيقظت عينايا
ورحت أصغى وأصغى لَم أُلفِ إلاّ صدايا!

اذكـرى

اذكرى ذاك المساءَ كيف كنا سعداءَ
لم يدع عندى همًا ومحا عنك الشقاءَ
ملأ الدنيا صفاءَ عندما شئت وشاءَ
أحسن الدهر إلْينا بعدما كانَ أساء
كلما أقبلت السحـ ـب فظلَّلن السماء
قاتمات غائمات يتهادينَ بطاءَ
لاح نجمٌ من بعيد فتجلى وأضاء
وتصدّى قمرٌ را ح على الأرض وجاء

رأى آخـــــــر فى هتـــــــلر

جـــــوردون كـــــريج



عالم اليوم من صنع هتلر

ولولاه لما انقسمت ألمانيا

وما كانت إسرائيل

وما انتهى الاستعمار

وما كان هناك تحرر سريع لآسيا وأفريقيا

وما تراجعت أهمية أوروبا!

[١]

نحن نقترب الآن من نهاية القرن، وذلك حدث يثير دائماً نوعاً من الهياج بين سكان العالم الغربى، الذين يرون فيه محطة مهمة تقطع سير الزمن، ووقفة مناسبة لتقويم الماضى والتطلع إلى المستقبل، وهى فوق كل شىء فرصة لإعداد القوائم. وكان من علامات نهاية القرن أن أعلنت مجلة «تايم» فى شهر أغسطس (١٩٩٧) أنها تعتزم خلال الشهور المقبلة أن تحتفل بالأشخاص المائة فى عصرنا الذين كان لهم أكبر الأثر على العالم وعلى الطريقة التى سنعيش بها فى المستقبل، وهى ممارسة ستنتهى فى آخر عام ١٩٩٩ بتحديد «شخصية القرن». ودعا محررو المجلة قراءهم لتقديم ترشيحات، وقاموا هم بعرض قائمة مؤقتة من جانبهم شملت: تشرشل، وروزفلت، وستالين، ولينين، وهنرى فورد، بيل جايتس، جون لينون، ميك جاجر، والفيس، ولويس أرمسترونج، ومرجريت سانجرا، وروزا باركس، ومارلون براندو، وأينشتين، وبيكاسو، والأم تريزا، وجاكى روبنسون.

وأول ما يستلفت النظر فى هذه القائمة المختلطة أنها لم تتضمن الشخص المهيأ أكثر من غيره للوفاء بالمعايير المعلنة، ألا وهو أدولف هتلر. ففى هذا القرن الذى شهد الكثير من أعمال العنف، كان هتلر تجسيداً له منذ اليوم الذى أخرج فيه ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح وعصبة الأمم فى أكتوبر ١٩٣٣ إلى يوم وفاته بين أنقاض برلين بعد ذلك باثنى عشر عاماً. ولن يستطيع أحد أن يفهم أكبر حرب شهدها التاريخ إلا إذا فهم دور هتلر فى إشعالها، كما أنه كان مسئولاً عن جميع النتائج المفجعة التى نتجت عنها. وقد كتب سبستيان هافنر منذ عشرين عاماً مقالة بديعة يقول فيها:

> «إن عالم اليوم، شئنا أو أبينا، هو من صنع هتلر. فبدون هتلر لما حدث تقسيم ألمانيا وأوروبا، وبغير هتلر لما كانت هناك إسرائيل، وبغير هتلر لما كانت هناك نهاية للاستعمار، أو على الأقل لم تكن لتتم بهذه السرعة، ولما تحرر الآسيويون والعرب والأفارقة السود، ولما تراجعت أهمية أوروبا».

وينعكس ذلك كله فى الاهتمام غير العادى الذى لا يبديه المؤرخون وحدهم بل يبديه أيضاً المواطنون العاديون بحياة ذلك الرجل وأعماله. وعدد الكتب والمقالات والأفلام وبرامج التليفزيون التى خصصت له أكبر مما خصص لأى شخص آخر من الزعماء الوطنيين فى هذا القرن. والآن وبعد مرور خمسين عاماً على وفاته لا يبدو أن هذا الاهتمام أخذ يضعف، بل إن الكلمات التى كتبها المؤرخ الألمانى جيرارد شرايبر فى الثمانينيات: «إننا لم نفرغ بعد من هتلر» هى اليوم أصدق من الوقت الذى كتبت فيه.

[٢]

يقتبس جون لوكاتش عبارة شرايبر فى الصفحة الأولى من كتابه الجديد عن هتلر، وهى تصلح تماماً لأن تكون شعاراً له. وليس لوكاتش غريباً عن الفترة الهتلرية. فقد كتب فى سنة ١٩٧٦ دراسة فريدة من نوعها عن المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، وأعقبها فى سنة ١٩٩١ بعرض درامى لما أسماه المبارزة بين هتلر وونستون تشرشل فى ربيع ١٩٤٠ غير أن موضوعه فى هذه المرة ليس عسكريا ولا عرضاً للسيرة بل هو بحث تاريخى. كما أن هذا الكتاب يعد تاريخاً لتطور معرفتنا بهتلر، كما يمكن استطلاعها من عمل كاتبى سيرته. وذلك يتضمن بحث جوانب فى سجل هتلر العملى لم يتم الاتفاق بشأنها بعد، وبمعنى أوسع لم يتم الاتفاق على ما يمكن أن يقال، بعد مرور خمسين عاماً على وفاته، عن مكانته فى تاريخ بلده وفى القرن العشرين.

كانت أول دراسة جادة عن هتلر هى تلك التى قام بها كونراد هايدن والتى نشرت فى زيورخ فى سنة ١٩٣٦. وكما يظهر من تاريخها، لم يكن بوسعها أن تذكر شيئاً عن الجانب الأكبر من دكتاتورية هتلر، لكنها ـ كما يوضح لوكاتش ـ حافلة بمعلومات تفصيلية دقيقة عن حياته المبكرة وصعوده إلى السلطة. وبالذات لأنها أعدت مبكراً فهى خالية من الاتجاه لاعتبار هتلر مختل العقل أو تجسيداً للشر، وهما الاتجاهان اللذان أضفيا لونهما على الكثير من الكتابات الشعبية التى كتبت عن هتلر فى السنوات التالية. كما كان هايدن ناقداً متشدداً للأساطير والحكايات التى أحاطت باسم هتلر. ويقول عنه لوكاتش: «إن فكرته الأساسية مازالت صادقة الآن كما كانت منذ أكثر من ستين عاماً: أن هتلر لم يلق تقديره الصحيح من جانب أعدائه، ولا من جانب حلفائه المؤقتين».

وبعد ذلك، مر أكثر من خمسة عشر عاماً قبل أن تظهر دراسة جدية أو سيرة موثقة لحياة هتلر، باستثناء الكتاب الصغير الذى أصدره هيو تريفور روبر بعنوان «أيام هتلر الأخيرة» *The Last Days of Hitler* فى سنة ١٩٤٧ والذى تناول موت الفوهرر فى قبو المستشارية. غير أن سنة ١٩٥٢ كانت نقطة تحول بارزة: حينما صدر كتاب آلان بولوك المهم عن سيرة هتلر باللغة الإنجليزية (وكان أول كتاب يستفيد بالوثائق الألمانية التى قدمت فى محاكمة نورمبرج)، وصدرت أول سيرة ألمانية جادة بقلم والتر جورلتز وهربرت كوينت، وكذلك ما حدث فى نفس الوقت من إنشاء معهد التاريخ المعاصر فى ميونخ بناء على مساعى هانز روتفلز وتيودور إيشنبيرج بقصد تنشيط البحث العلمى المتعلق بالماضى القريب، ونشر نتائج ذلك البحث فى المجلة التى يصدرها المعهد وعنوانها *Vierteljahrshefte für Zeitgeschichte* [المجلة الفصلية للتاريخ المعاصر] وبعد ذلك بدأت الكتب المتعلقة بهتلر تتكاثر.

ومناقشة لوكاتش لهذا العمل التاريخى دقيقة وانتقادية وأوفى مما يتصور المرء أنه ممكن فى حدود كتاب صغير كهذا. وقد تمكن من ذلك بسبب استخدامه للهوامش الطويلة التى تشغل أحياناً ثلث الصفحة أو أكثر، والتى يورد فيها اقتباسات من الكتب التى يناقشها ويقارن بينها وبين الكتب الأخرى. (والهوامش هى من بين أطرف وأهم جوانب هذا الكتاب، وإن كانت تصبح فى بعض الأحيان موضع جدل، إذ يقبلها البعض أو يرفضونها على الفور، وتتحول فى بعض الأحيان إلى محاضرات موجزة عن طبيعة التاريخ وغير ذلك من المواضيع التى تطرأ على ذهن المؤلف).

ومن بين الكتب التى يناقشها، هناك عدد من الكتب المفضلة لدى لوكاتش. وهو يعتقد أن السيرة التى كتبها يواقيم فست فى سنة ١٩٧٣ هى أفضلها. ومن بين الدراسات الأقل طولاً فإنه يعجب بكتابات بيرسى شرام وأرنست دويرلين والمؤرخ النمسوى فريدريك هير – وهو دائماً على حذر من «أنصار النسبية» وأنصار التصحيح. ويقول عن هذين الاتجاهين إنه بعد خمسين سنة من البحث فإننا الآن ندرك أن هتلر كان شخصاً أكثر تعقيداً وتعددا للجوانب مما يبدو فى اللوحة ذات البعد الواحد للفوهرر التى رسمها آلان بولوك فى سنة ١٩٥٢ ووصفه فيها بأنه انتهازى صميم، وندرك أن قواه الفكرية كانت كبيرة. وقد أدى ذلك بالبعض إلى التركيز المفرط على الجانب الحساس، والفنى، والإنسانى فى شخصيته على حساب جوانبها الأخرى، مثل ميله إلى التحرك فى الخفاء وقدرته على ارتكاب الأعمال الوحشية.

> «كما أن هناك تصويراً أحادى الجانب لما حققه هتلر من سعادة ورخاء لأغلبية الشعب الألمانى فى الثلاثينيات – دون إشارة إلى الجوانب المظلمة لتلك الصورة الشاملة. وكما أن هناك من يلتزمون الحذر فى محاولة لإصلاح الصورة، بين من يفرطون فى الدفاع عنه، هناك اتجاه لتبرئة هتلر – ولو جزئيا – من مسئولية إشعال الحرب العالمية الثانية. وهم يفعلون ذلك بإبراز الأغراض العدوانية لأعدائه، وتشبثهم بعدم الوصول إلى حلول وسط، ولاسيما البولنديون والبريطانيون. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك ميل متزايد لأن يغفر البعض لهتلر، جزئيا على الأقل، خطوته التى حددت مصيره فى الحرب، ألا وهى قراره بمهاجمة روسيا فى سنة ١٩٤١، وذلك بالقول – استناداً إلى وثائق مشكوك فى صحتها – بأن ستالين كان على وشك مهاجمة ألمانيا فى سنة ١٩٤١».

إن من يسعون إلى تصحيح الصورة، وبينهم يضع لوكاتش الكاتب البريطانى غزير الإنتاج دافيد إيرفنج، يفعلون ذلك لمساندة إنكارهم مسئولية هتلر الأدبية عن فظائع مثل محاولة إبادة الشعب اليهودى.

إن نظرتنا إلى الماضى لا يمكن أن تكون دائمة لا تتغير. فالمراجعة هى جزء من العملية التاريخية، وهى عملية حتمية بسبب مرور الزمن وما يصحبه من تغير فى زاوية الرؤية وتراكم المعلومات الجديدة. كما يمكن أن يعجل بها وقوع أحداث طارئة. وكانت الضجة التى ثارت فى أمريكا بشأن الزيارة التى قام بها الرئيس ريجان لبيتسبرج فى سنة ١٩٨٥، عندما دُعى لزيارة المقبرة التى دفنت فيها رفات

The Hitler of History

(هتلر فى الكتابات التاريخية)

John Lukacs
New York: Knopf, 1997.

انقسم المؤرخون وجانب كبير من الأكاديميين انقساما حادا حول ماضى النازية.. وكان من أهم الحجج أن ألمانيا اختيرت وحدها بغير حق لإلقاء اللوم عليها، فى حين أن الاتحاد السوفيتى كان لا يقل وحشية وقمعا

أعضاء من منظمة الصاعقة الألمانية، كانت كافية لإثارة جو من الاستياء والانتقاد فى ألمانيا، وكذلك إثارة مناقشات طويلة حول ماضى النازى كانت لها نتائجها المهمة. واتخذ ذلك الحوار صورة الجدل التاريخى الذى دار فى عامى ١٩٨٦ – ١٩٨٧ والذى فجره ما بدا أنه محاولة من جانب اثنين من الباحثين – هما أرنست نولته وأندريا هيلجروبر – لتحسين صورة هتلر ونظامه. وردا على ذلك قام الفيلسوف الاجتماعى يورجن هابرماس بهجوم ساحق على ما أسماه النزعة المحافظة الجديدة لدى المشتغلين بمهنة التاريخ. وقبل أن ينتهى الجدل كان قد شارك فيه كل كبار المؤرخين فى ألمانيا تقريباً، وكان قد بيّن أن المؤرخين وجانباً كبيراً من الأكاديميين عموماً ينقسمون انقساماً حاداً، إذ اتهم مؤيدو نولته وهيلجروبر معارضيهم بأنهم من قتلة الشخصيات، وأنهم يحاولون منع نشر الآراء التى لا تلقى تأييداً شعبياً، وأنهم يلقون الظلال على ماضى الأمة. وكان من أهم الحجج التى استخدموها القول بأن ألمانيا اختيرت وحدها بغير حق لإلقاء اللوم عليها، فى حين أن الاتحاد السوفيتى كان لا يقل وحشية وقمعاً، إن لم يكن أشد.

ونتيجة لذلك، ظهر اتجاه لمقاومة ما أسماه بعض الباحثين النظرة الأحادية لتاريخ ألمانيا القريب، وهى النظرة التى فرضها أعداء ألمانيا السابقون، وأن ذلك لم يلبث أن أثر على الدراسات المتعلقة بهتلر. ويوضح لوكاتش أنه جاء فى طبعة عام ١٩٩٥ من السيرة التى كتبها يواقيم فيست عن هتلر الذى كان مؤيداً لنولته أثناء الجدل، أن النهج التاريخى الموضوعى إزاء هتلر وعصره – والذى دعا إليه المؤرخ مارتين بروسات فى سنة ١٩٨٤ باعتباره وسيلة للخروج من الحصار الذى فرضته الاشتراكية الوطنية على الوعى التاريخى الألمانى – لم يتحقق. بل إن فيست يقول إن هتلر مازال يصوّر فى صورة الشيطان، وإن شخصيته زادت بعداً عن الواقع، وأنه مازال «يعيش معنا» وأن «ظلال معايشته لنا (كذا) تصبح أعمق فأعمق» إنه ليس من المتوقع أن يتحسن هذا الوضع مادامت هناك أسئلة مهمة ومواضيع تتعلق بالفوهرر تعتبر من «المحرمات» مثل مسألة ما إذا كان عداؤه للبلشفية ليس له ما يبرره.

فى سنة ١٩٨٩ نشر أكثر المؤرخين الشبان تأثيراً ونفوذاً، رينار سيتلمان، سيرة سياسية مختصرة لهتلر، كانت نغمة المراجعة واضحة فيها. كتب سيتلمان يقول: إن الصورة المرسومة لهتلر هنا تختلف عن الصورة الأخرى اختلافاً جوهرياً. فهو هنا يبدو سياسياً، له أفكاره وأعماله التى هى فى الواقع أكثر عقلانية مما كان يبدو فى السابق. ثم أضاف: «فى بعض المجالات مازال البحث المتعلق بالاشتراكية الوطنية فى بدايته... وفى النهاية فإن صورة هتلر تبدو فى الجوهر أكثر تركيباً وتعدداً فى الجوانب وبعيدة عن اليقين». وبعد ذلك، وبعد إلقاء نظرة على السير السابقة التى يراها سيتلمان ممتازة بالنسبة لعصرها ولكن الزمن تجاوزها الآن فى كثير من الجوانب، فهو يرى أن الأوان قد آن للحد من نغمة السخط فى مناقشة هتلر. كما أن النغمة الهادئة مطلوبة أيضاً فى اللغة. وذلك أمر بعيد عن الواقع فى كل السير التى كتبت عن هتلر (بما فى ذلك السيرة التى كتبها فيست).

وليس فى شىء من ذلك ما يدل على أن ثمة موجة لإعادة النظر تتجمع الآن، بالرغم من أن سيتلمان قد اعتمد فى بعض الأحيان على البحوث التى أجراها دافيد إيرفنج وأننى عليه مع إبداء بعض التحفظات، وبالرغم من أن لوكاتش يبدى قلقه من أنه لا يوجد فى بعض الأحيان تمييز بين المراجعة التى أجراها سيتلمان و«السعى إلى تحسين صورة هتلر». لكن هذه المراجعة توحى بأن الصورة المقبولة لهتلر تتعرض لتعديل مستمر، وأن هناك تفسيرات جديدة ستمثل تحدياً للقدرات الانتقادية للمؤرخين الذين يكرسون جهودهم لمعرفة الحقيقة.

[٣]

هذا ليس جديداً بطبيعة الحال. وقد انقضت عشرات السنين تراجعت خلالها الآراء الراسخة المتعلقة بمختلف جوانب حياة هتلر وأعماله ولكنها الآن تتهاوى تحت تأثير الاكتشافات الجديدة. ولنأخذ على سبيل المثال مسألة متى أصبح هتلر فعلاً الشخصية التى يعرفها التاريخ؟، أو بعبارة أخرى: متى تبلورت أفكاره واكتسبت شخصيته صورتها الناضجة؟.

فحتى وقت قريب كان معظم المؤرخين يميلون إلى قبول ما ذكره هتلر بنفسه فى كتاب «كفاحى» من أن السنوات الست التى قضاها فى فيينا بعد وفاة أمه فى سنة ١٩٠٧ كانت «أهم سنوات التكوين فى حياته»، فهو يقول: «أثنائها اكتسبت جوهر نظرتى للعالم، الأساس الجرانيتى الذى بنيت عليه تصرفاتى فيما بعد».

ومن الطبيعى أن سنوات فيينا كانت لها أهميتها (وإن كانت بحوث فيرنر مازر قد أثبتت أنها لم تكن فترة من الفقر المدقع كما يدعى هتلر) وقد كان فى سنواته الأخيرة يتحدث كثيراً عن فيينا بنغمة ودية لا نجد لها أثراً فى «كفاحى». ولكن ليس فى الوسع القول بأن أفكاره تبلورت فى فيينا أو أنه اكتسب رؤية



واضحة لمستقبله هناك. فبالرغم من أنه يقول إنه ترك فيينا «وهو على عداء تام للسامية» فإن لوكاتش يوضح أنه ليس هناك فى تصريحاته، سواء منها الخاصة أو العامة، ما يتضمن عداء للسامية قبل أن يبلغ سن الواحدة والثلاثين. وهناك دليل آخر وهو أن عرضه لفترة فيينا لا يكشف إلا نادراً عن طموح سياسى من جانبه.

وكانت الحرب التى خدم فيها هتلر من يومها الأول إلى يومها الأخير – وهزيمة ألمانيا – هى التى أيقظت وعيه السياسى. وتطلب الأمر تجربة إقامة مجلس للسوفييت فى ميونيخ فى سنة ١٩١٩، واكتشافه بعد ذلك أنه قادر على إلقاء خطب عامة، وأنه قادر على إقناع الناس، هى التى جعلته يقرر اقتحام مجال السياسة.

وحتى بعد ذلك – حدث التطور فى أيديولوجيا هتلر بالتدريج، والأرجح أنها لم تستكمل إلا بعد إتمامه كتابه «كفاحى» فى سنة ١٩٢٤.

وبالمثل فإن السؤال عما إذا كان ينبغى اعتبار هتلر رجعياً أو ثوريا يلقى ردا من المؤرخين اليوم يختلف عن الردود التى كانت شائعة فى الثلاثينيات والأربعينيات. فقد كان فى مقدمة اهتماماتهم فى ذلك الوقت معرفتهم بأن وصوله إلى السلطة جاء عن طريق المناورات التى قامت بها عصابة محافظة على رأسها «فرانز فون بابن» وكانت نتيجتها تدمير جمهورية فيمر الديمقراطية. وكان من السهل افتراض أنه بصدور «قانون التمكين» فى مارس ١٩٣٣ الذى أعطى هتلر عملياً كل السلطات، أن ألمانيا ستعود – كما قال بول رينو فى سنة ١٩٤٠ – «إلى العصور الوسطى مرة أخرى، ولكن دون أن تنيرها رحمة المسيح».

ولكن برنامج هتلر الداخلى بعد ١٩٣٣ لم يؤيد هذا الفرض لأنه – كما يقول المؤرخ الأمريكى دافيد شونباوم، وكان أول القائلين بذلك – أتى بما يمكن أن يوصف بأنه ثورة اجتماعية فى ألمانيا وأنه يصعب القول بأنها كانت ثورة لصالح المؤسسة السياسية والاجتماعية القديمة. وغالباً ما كان المؤرخون الألمان يترددون فى التخلى عن لافتة الرجعية وقبول أوراق اعتماد هتلر كسياسى ثورى؛ وقد وجه هانز مومزن مرة السؤال «هل يصح أن توصف الاشتراكية الوطنية بأنها ثورية وبالتالى توضع بين تلك التطورات فى تاريخ أوربا التى بدأت بالثورة الفرنسية فى سنة ١٧٨٩؟».

ويعلق لوكاتش على ذلك بقوله: «إن هناك قدراً من الحذر الذى لا موجب له فى هذا التردد، لأنه من الصعب إنكار أن أفكار هتلر، وقدرته الخطابية، وخططه، وطريقته فى تنفيذها كانت كلها جديدة تماماً على السياسة الألمانية. وعلى الرغم من قدرة هتلر عند اللزوم على كسب تأييد الطبقات المستقرة فإنه كان فى الواقع يمثل انفصالاً كاملاً عن الماضى. يقول لوكاتش إنه حتى قبل وصوله إلى السلطة:

> «لم يكن يلقى تأييداً من جانب القيم التقليدية للبرجوازية الألمانية. إذ إنه كان يحتقر حذرها وبخلها واحترامها للأنظمة الملكية، وطموحاتها الاجتماعية، وحرصها على الأمان، ووعيها الطبقى، ومجموعة خصائصها التى تمتد من الحرص البرجوازى إلى المعايير العتيقة للنزعة المحلية».

وقد تحول هتلر بأسرع ما يستطيع عن هذه الفئات إلى جمهوره الحقيقى، وهو المجتمع الوطنى العريض. وكان قيام ما سمى «الوحدة الوطنية» المبنية على القبول الكامل والطوعى من جانب الشعب بمثابة ثورة فريدة فى تاريخ ألمانيا.

وكانت تلك الثورة فوق ذلك ثورة عصرية، نفذها حزب كان يفخر بأنه حزب الشباب (فى سنة ١٩٣١ كان ٧٠ فى المائة من المنتمين للحزب فى برلين يقل عمرهم عن ثلاثين سنة، وكان ٦٠ فى المائة من أعضاء البرلمان النازى فى سنة ١٩٣٠ يقل عمرهم عن أربعين سنة) وكانت خططه لتغيير المجتمع تمثل انفصالاً عن الماضى. وقد كتب سيتلمان فى سنة ١٩٩٤ يقول إن هتلر:

> «لم يسمح بأن ينقاد للرؤى المتخلفة بشأن نظام اجتماعى ينتمى للعصور الوسطى. وكان النموذج الذى يتطلع إليه فى جوانب كثيرة هو الولايات المتحدة. وبالرغم من أنه رفض الاقتصاد الرأسمالى والنظام الديمقراطى للولايات المتحدة فقد كان مع ذلك معجباً بتطورها التكنولوجى الصناعى».



كما أنه كان معجباً بالأساليب الأمريكية فى الدعاية، وقدرتها على حساب واستغلال رغبات الأغلبية، وهى القدرة التى حاكاها ببراعة. ولا شك فى أن هتلر لم يكن مستنيراً فى آرائه بشأن دور المرأة فى المجتمع، كما أن آراءه عن الفنون (ولكن ليس عن العمارة) لم تكن متقدمة. ولكنه لم يكن رجعيا، وكانت سياساته الاجتماعية أكثر نجاحاً من سياسات جمهورية فيمر فى تدمير الحواجز الطبقية وبناء مجتمع جديد للطبقة المتوسطة. ولوكاتش على حق فى وصفه بأنه «ثورى شعبى فى عصر ديمقراطى، على الرغم من كل العناصر القديمة المتبقية من المؤسسات الألمانية والمجتمع الألمانى القديم والتى عرف كيف يستخدم الكثير منها (مثل الكنائس والجامعات) لتحقيق أغراضه».

وينبغى تأكيد الطابع الشعبى للنظام النازى. فألمانيا الهتلرية كثيراً ما توصف بأنها «دولة شمولية» أو «دولة بوليسية»، ولكن ذلك الوصف لا ينطبق عليها إلا بدرجة محدودة. وباستثناء اليهود الذين كان هتلر يكن لهم كراهية عنيفة، والمنشقين السابقين والمحتملين، والشاذين جنسيا والغجر، ظلت أغلبية الشعب، على الأقل حتى سنوات الحرب، غير مقيدة بسيطرة الدولة بدرجة تدعو إلى الدهشة. وحتى أولئك الذين كانوا يتآمرون للإطاحة بالنظام، وجدوا سهولة نسبية فى السفر إلى الخارج سعياً للحصول على المساعدة. ونادراً ما استخدم هتلر كلمة «الشمول»، كما أنه أنكر أنه يريد أن يكون دكتاتوراً. وقد قال فى خطبة ألقاها فى ميونيخ فى سنة ١٩٣٤:

> «إن البنادق فى ألمانيا لا تخيف الشعب. فالحكومة هنا تستند إلى تأييد وثقة الشعب كله.. إن أحداً لم يفرضنى على هذا الشعب. لقد تربيت بين أحضان هؤلاء الناس، وظللت بين صفوفهم، وإليهم أعود، ومن دواعى فخرى أنه لا يوجد رجل دولة فى العالم يستطيع أن يقول إنه يمثل الشعب بصدق أكثر منى».

والأرجح أن معظم مستمعيه وجدوا هذا القول مقنعاً، لأن سقوط جمهورية فيمر قوبل بارتياح وشعور بأن عصراً جديداً من الوحدة

لقد قادهم إلى الرخاء والكبرياء وبعث فيهم الثقة التى هزموا بهـا أوربا كلها تقريبا، وحقـق هيمنة ألمانية لم تلبث أن ضاعت لأنه سعى لتحقيق أهداف أكبر من طاقته؟

الوطنية والترابط الاجتماعى قد بدأ. وقد كتب سيتلمان يقول «لقد بدا للكثيرين أن نهاية الديمقراطية البرلمانية تعنى بداية الحكم الشعبى الحقيقى».



وقد لوحظ أنه حتى قبل وصول هتلر للسلطة كانت هناك موجة قوية من المشاعر الوطنية تجتاح ألمانيا، وهو شعور بأن الأوان قد آن لأن يفخر الألمان بأنفسهم مرة أخرى، وأن يكون لهم قول فى شئون العالم. ويذكر لوكاتش أن الوطنية، على خلاف النزعة المحلية القديمة، هى ظاهرة عصرية وشعبية، لا تنفصل عن أسطورة التضامن بين الأهالى التى تتعرض لاستنكار شديد من جانب من لا ينتمون إليها. ومنذ أيام وجود هتلر فى فيينا كان من أنصار الوطنية التى تجمع كل الألمان بمعناها المتطرف، وكانت تسرى فى وطنيته تلك الكراهية التى مثلت دائماً جزءاً من ذاته السرية، وهى التى أدت به فى خطاب ألقاه فى سنة ١٩٢٣ لأن يصيح: «إن تحرير الشعب يحتاج إلى شىء أكثر من السياسات الاقتصادية، وأكثر من الصناعة: إذا أريد للشعب أن يتحرر فإنه يحتاج إلى الكبرياء، والإرادة، والتحدى، والكراهية ثم الكراهية، والكراهية مرة أخرى». وبمجرد أن تقلد السلطة فإن تلك النزعة الوطنية التى تبدت فى المجال الخارجى فى خدمة سياساته العنصرية، كانت بمثابة كارثة للدول المجاورة لألمانيا التى كان يعتبرها أعداءها الداخليين. ولكن لم يكن لدى هتلر أى شك فى أن هذه السياسة ستلقى التأييد من جانب أغلبية الشعب الألمانى.

[٤]

ومعالجة لوكاتش لسياسة هتلر الخارجية وإدارته للحرب التى أشعلها فى ١٩٣٩ أقل جدارة بالرضى عن الأجزاء الأخرى فى كتابه المهم، ويبدو فى كثير من جوانب هذا الجزء مجادلاً بل دوجماتيا فى بعض الأحيان. وهو يبدو رافضاً لإبداء أهمية كبيرة للمبادئ الأساسية للسياسة الخارجية التى تضمنها كتاب «كفاحى»، بما فى ذلك حاجة ألمانيا للسيطرة على أوروبا الشرقية. ولكن بولوك ومؤرخين آخرين أشاروا إلى أن هتلر كرر الإعراب عن تلك السياسة بقوة فى كتابه الثانى الصادر فى ١٩٢٨ وفى الخطب التى ألقاها فى اجتماعات رجال الصناعة فى دوسلدورف سنة ١٩٣٠، والكلمات التى وجهها لجنرالاته العسكريين فى فبراير ١٩٣٣. وإذا راعينا مرونته التكتيكية التى يقول هيرمان رواشننج إنها وصلت إلى «حافة الارتجال» فقد كانت تلك فى الواقع هى المبادئ التى اتبعها فى تنفيذ سياسته.

وعندما يناقش لوكاتش أزمة إقليم السوديت يقول إن الأمر لم يكن يتطلب غير أيام معدودات حتى تهزم ألمانيا تشيكوسلوفاكيا لو وصل الأمر إلى الحرب، وإن كان لا يقدم تقديراً لنوعية القوات التشيكية أو صلابة دفاع تشيكوسلوفاكيا (التى أبدى الضباط الألمان إعجابهم بها بعد انتهاء الأزمة). كما أن لوكاتش يرفض بشكل قاطع لا موجب له حجة فيست القائلة بأن هتلر لم يكن ليستطيع أن ينجو من المؤامرة العسكرية فى سنة ١٩٣٨ وهو يقول بحق إن هتلر كان قد أحدث بحلول سنة ١٩٣٨ ثورة دبلوماسية فى أوروبا، حيث كانت إيطاليا إلى جانبه، وفرنسا وبريطانيا تقفان منه موقف الدفاع، وكانت النمسا ومنطقة السوديت قد ضمتا إلى الرايخ. ولكنه لا يحدثنا كثيراً عن الطريقة التى تمكن بها هتلر من تحقيق ذلك على نحو ما فعله جيرارد واينبرج وغيرهما من المؤرخين الدبلوماسيين، الذين وصفوا البراعة الدبلوماسية التى استخدمها هتلر فى السنوات التى لم يكن يستطيع فيها أن يساندها بالقوة، ومزيج الملاطفة والتهديد والجرأة الزائدة التى بدأت بانقلاب الراينلاند فى سنة ١٩٣٦. وهو لا يذكر أن جوانب ضعف الدبلوماسية الغربية فى الثلاثينيات أثرت عليه وأعطته شعوراً مهلكاً بالاطمئنان الزائد، بحيث أصبح عاجزاً عن إدراك مؤشرات القوة المتنامية والتصميم الذى بات يواجهه من جانب بريطانيا فى سنة ١٩٣٩، فقد قال لجنرالاته وهو يعلن قراره بمهاجمة بولندا إن بريطانيا وفرنسا لن تتدخلا. وقد تفاخر بقوله: «إن أعداءنا هم من الأسماك الصغيرة، وقد رأيتهم فى ميونيخ». وربما كان لهذا الاطمئنان دور مهم فى دفعه إلى الأمام، بقدر ما كان لخوفه الخفى – الذى يبرزه لوكاتش ـ من أن الوقت يمر بسرعة وأنه ربما يموت قبل أن يحقق أهدافه.

ولكن أين كانت تلك الأهداف مثلاً عندما انقض على روسيا فى سنة ١٩٤١؟. من الموضوعات الأساسية فى معالجة لوكاتش لإستراتيجية هتلر، مسألة ما إذا كان ذلك الهجوم قد تم بدافع من الأيديولوجيا أو من السياسة الواقعية، وهو موضوع كان موضع خلافات كبيرة بين المؤرخين. ويعرض علينا لوكاتش عينة من آرائهم، بينما يقول هو إن الدافع السياسى فى سنة ١٩٤١ كان الرغبة فى أن يؤدى دحر روسيا إلى إحباط الجهد الحربى لبريطانيا، وربما يدفع بريطانيا إلى الخروج من ساحة الحرب وكان الدافع الأيديولوجى هو الحصول على مجال حيوى للرايخ الألمانى الكبير فى المستقبل والرغبة فى القضاء على «البلشفية اليهودية» باعتباره هدفاً ثانويا، ولكنه ليس قليل الأهمية.

وظل ذلك صحيحاً بعد أن فشلت الجيوش الألمانية فى الاستيلاء على موسكو وبعد أن أدرك هتلر، قبل معظم الناس، أنه لا يستطيع أن يكسب الحرب بشروطه الخاصة. ويقول لوكاتش إن إستراتيجيته الآن أصبحت التمسك بمواقعه كما فعل فردريك الثانى فى حرب السنوات السبع، فى مواجهة مجموعة من الأعداء الأقوياء، مع الاستمرار فى توجيه ضربات قوية إلى قواتهم وانتظار أن يفقد واحد من كبار أعدائه حماسته ويخرج من الحرب. وكان الجانب الأيديولوجى فى هذه الإستراتيجية، وهو القضاء على اليهود، والذى بدأ بحماسة بعد الهجوم على الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤١ واستمر حتى نهاية الصراع، هنا أيضاً عنصر ثانوى بالقياس بالجانب العسكرى السياسى. وبالرغم من أن الهولوكوست لقى تأييداً بغير شك من جانب هتلر وكان نابعاً من كراهيته لليهود، فقد ظل بعيداً عن عمليات تنفيذه. ومن الواضح أنه لم يكن يرغب «فى أن يقرأ أو يسمع أو يرى تقارير عما يحدث واقعيا لليهود فى الشرق».

ولأى مدى كان هتلر موهوباً كقائد عسكرى؟ لقد وصفه الجنود الألمان فى نهاية الحرب ساخرين بأنه أعظم الخاسرين فى جميع العصور! لقد كانت لديه قدرة تدعو إلى الدهشة على إدراك التفاصيل، وخيال إبداعى فى المسائل الفنية ومسائل التسليح، وكانت مساهماته الشخصية فى مجال الأسلحة – اختياره للمدافع المضادة للدبابات فى الحملة الروسية مثلاً – ناجحة إلى حد كبير. وكانت لديه بالإضافة إلى ذلك موهبة الإستراتيجى. وقد استشهد ألفريد يودل على ذلك مرة بخطته بشأن الحملة الإسكندنافية، وفكرته عن غزو فرنسا، وما أمر به فى شتاء عامى ١٩٤١ – ١٩٤٢ بعدم التراجع من المواقع التى تم



اكتسابها. ولكن يودل أوضح أيضاً أنه، بعد ستالينجراد، عندما بات من الواضح للجميع أن تيار المعركة قد انعكس، وأن دوره كإستراتيجى قد انتهى، شرع يتدخل فى شئون العمليات بطريقة مضرة أفضت إلى كوارث.

وعندما يناقش لوكاتش مواهب هتلر العسكرية فإنه يقول إنه تعلم كثيراً من الخدمة العسكرية التى قام بها فى الحرب العالمية الأولى. وذلك صحيح بغير شك. ولكن من الصحيح أيضاً أن بعض ما تعلمه كان مصدراً للخطر، ومن بين ما ينطبق عليه ذلك فكرة أن الحروب تُكسب بقوة الإرادة. وكان هذا الاعتقاد هو سبب وقوف هتلر بقوة ضد سرعة الحركة فى العمليات العسكرية الدفاعية وإصراره الخاطئ – فى روسيا، وفى شمال أفريقيا، وفى فرنسا فى سنة ١٩٤٤ـ على ضرورة عدم التراجع حتى من المواقع التى تهددها قوات تفوق قواته بكثير. وكان الخطأ فى ذلك أنه مهما كان من إيمان هتلر بقوة إرادة الجندى الألمانى العادى، فقد نسى أن لدى العدو أيضاً قوة إرادة. وقد ظهر ذلك على الصعيد التكتيكى كما ظهر على الصعيد السياسى. ولم يكن أقل الأسباب التى أدت إلى فشل الإستراتيجية الفريدريكية لهتلر.

[٥]

فى نقطة مبكرة من هذا الكتاب المثير يبدو أن لوكاتش يرشح هتلر ليكون «شخصية القرن» حيث يقول:

«إنه ربما كان أكثر الزعماء الثوريين شعبية فى تاريخ العالم الحديث. والتركيز هنا هو على كلمة شعبى لأن هتلر ينتمى إلى العصر الديمقراطى من التاريخ وليس العصر الأرستقراطى. ولا يجوز مقارنته بيوليوس قيصر أو بكرومويل أو نابليون. فهو مختلف عنهم تماماً، وكان أقدر من أى منهم على بث الحيوية فى الأغلبية الساحقة من شعب عظيم، كان فى حياته أكثر الشعوب ثقافة فى العالم، وأقنعهم بالسير وراء قيادته لتحقيق إنجازات مدهشة، وبذل جهود استثنائية. ودفعهم إلى الاعتقاد بأن ما يدافعون هم (وهو أيضاً) عنه هو نقيض الشر. وقد قادهم إلى الرخاء والكبرياء، وبعث فيهم الثقة التى هزموا بها أوروبا كلها تقريباً، وحقق هيمنة ألمانية لم تلبث أن ضاعت لأنه سعى لتحقيق أهداف أكبر من طاقته. وكان الرايخ الذى أنشأه، وكان يرجو أن يعيش ألف عام، قد انتهى بعد اثنى عشر عاماً. ومع ذلك فقد كان له أثر هائل وترك بصمة لا تمحى على هذا القرن أكثر من أى دكتاتور آخر، سواء كان لينين أو ستالين أو ماو».

وبعد الحرب والهزيمة اختفى الولاء والحب اللذان أوجدهما حتى النهاية المريرة بشكل مفاجئ يدعو إلى الدهشة. وقد كتب فريدريك هير يقول إنه فى الأراضى الألمانية، ولاسيما فى الدوائر المسيحية والمحافظة، كان الناس على استعداد لأن يروا فيه:

> «شيطاناً ومسيحاً دجالاً وظاهرة تتخطى الفهم وتختفى فى ظلال ميتافيزيقية. إن هذا التراجع إلى جحيم ميتافيزيقى كان قبل كل شىء نوعاً من الخلاص: ولم يكن المرء مستعداً للاعتراف بأنه هو أيضاً مسئول عن النهوض وتقلد السلطة والإنجازات المدمرة على نطاق أوروبا لهذا الرجل».

وهناك أسباب قوية تدعو للاعتقاد بأن هذا الموقف تغير تغيراً جوهريا فى العقود الأخيرة. وإلا فكيف نفسر رد الفعل الإيجابى فى ألمانيا لكتاب دانيال جولد هاجن المسمى «قتلة هتلر المرحبون» وما ورد فيه من زعم مبالغ فيه بأن جميع جرائم هتلر قد ارتكبت وفقاً لإرادة الشعب الألمانى. وربما يبين ذلك أن عملية تحويل هتلر إلى جزء من تاريخ ألمانيا بدلاً من جعله قوة يصعب تفسيرها من خارجه ـ حققت تقدماً أكبر مما كان يواقيم فيست يعتقد. غير أن من المشكوك فيه أن يكون الكتاب قد وصل إلى حد ارتياح الألمان لصورة هتلر التى يرسمها لوكاتش على ضوء الأشعة القاتمة لحالة الحضارة الغربية فى نهاية كتابه، حيث يتساءل عما إذا كانت سمعة هتلر، فى فترة انهيار عام للمؤسسات والقيم الاجتماعية، لا يُنتظر أن تنهض فى عين «الأهالى المنظمين الذين قد يرون فيه مهندساً قويا من آخر المهندسين الذين شادوا الإمبراطوريات».

إن الألمان الذين وجدوا صعوبة فى قبول هتلر كجزء من ماضيهم، سيجدون من الصعب عليهم أيضا أن يقبلوا مثل هذه التخمينات بشأن تأثيره على مستقبلهم. ■

معاد نشره بإذن من
The New York Review of Books

ترجمة: أسعد حليم

«إيفا بيرون، الشخصية الأسطورية
فى الأرجنتين والتى ماتت فى ريعان الشباب عام ١٩٥٢،
عاشت حياة شديدة الاضطراب: من البؤس الشديد إلى قمة السلطة والأضواء،
ثم انتهت حياتها بمرض عضال وصارت قديسة..
سارة كير تعرض حياة إيفيتا من خلال الفيلم السينمائى الذى مثلته مادونا
وعدد من الكتب الصادرة حديثا».



إيفا بيرون
بين الأسطورة وصناعة الشهرة!

سارة كير

■■ نظراً لأن موضوع فيلم إيفيتا هو الشهرة، تجدر الإشارة إلى أنه فى أوائل الثلاثينيات، عندما كانت إيفا دوارتى فتاة نحيلة عليلة منبوذة، تعيش فى سهول الأرجنتين، كان هناك عنصران للعزاء فى حياتها، وهما إلقاء قصائد الشعر المنمقة عن الموت، وشراء مجلة تنشر أخبار الفنانين وصوراً جذابة وأنباء عن ممثلة كانت مغرمة بها، وهى نورما شيرر. وهو اختيار يبدو من وجهة نظرنا غريبا. فنحن نتذكر بسهولة ممثلات مثل بيتى ديفز وبربارا ستانويك، ونتذكر ما تميزن به من شراسة، ومن قوام مترفع، والطريقة التى كن يرتدين بها الشورتات القصيرة لفتيات الكورس، والفساتين التى تنتمى لموضة ما قبل الحرب. وعندما نقارن الممثلة المفضلة لدى إيفيتا بهن، تبدو كأنها خارجة من صفحات التاريخ، كأنها كائن من خلية واحدة من الكائنات التى سبقت النجمات الحقيقيات اللاتى كن على وشك الظهور.

فماذا كان الشىء الذى اجتذب إيفيتا؟ كانت نورما شيرر متعددة المواهب، تعمل باجتهاد، وتستطيع أن تلعب أدوار الكوميديا، وأدوار البطولة القوية، وحتى جوليت شكسبير. وتذكر بعض كتب السيرة أن إيفيتا أحبت بوجه خاص دور مارى انطوانيت، فقد كان ذلك النوع من العظمة والأداء الذى يستدر الدموع هو الدور الذى لعبته بعد سنوات قليلة فى مسلسل إذاعى فى الأرجنتين عن «أعظم نساء التاريخ»(١). ثم إن نورما شيرر كانت متزوجة من ايرفنج تالبرج، الرئيس «العبقرى» لشركة مترو جولدن ماير الذى استخدم سلطته ليطلق على زوجته اسم «سيدة الشاشة الأولى». ولعل إيفيتا استشعرت منذ ذلك الوقت مزايا أن يكون زوجها من أصحاب السلطة.

وبرغم أن نورما شيرر لم تكن قبيحة الشكل، فقد كانت قصيرة القامة، شعرها مبتذل، بنى اللون، وعيناها بهما حول، ولم تكن لها شخصية قوية تنتقل بها من فيلم إلى آخر. وكان اختيار أى شخص لها لتكون معبوده المفضل يحتاج إلى الاعتقاد بأن الشهرة والنجاح يولدان العظمة، وليس العكس. فإذا كان المرء شاباً وطموحاً، وإذا كانت حياته حافلة بالألم، فإنه ربما يتجاوز عن بعض النواقص، مثل الافتقار إلى البحث داخل النفس، تلك السمة الخاصة التى وصفتها ليليان هلمان بأنها «عقل لا يلقى عليه الفكر بظلاله».

وقد أفل نجم نورما شيرر. ولكن روحها القوية مازالت موجودة. ويكفى أن نتتبع حملة الدعاية لفيلم إيفيتا الجديد، والتى بدأت فى نوفمبر الماضى (١٩٩٥) عندما جلست مادونا لالتقاط صورها لأغلفة مجلتى «فوج» و«فانيتى فير». كان أول ما يلفت النظر فى الصور الفوتوغرافية هو خلوها من الصدور المثيرة، والجلسات غير المحتشمة، والملابس الموحية التى كنا نتوقعها من مادونا. فقد ارتدت ملابس أنيقة من ثياب وقبعات الأربعينيات، ومشطت شعرها إلى الخلف فى الشينيون المعروف عن إيفيتا، كما وضعت على عينيها عدسات لاصقة بنية اللون، ساعدتها فى محاولتها لأن تصبح شبيهة بإيفيتا، ولكنها أضفت على وجهها طابعًا غير إنسانى، وكأنها مانيكان. وأشارت كل من المجلتين فى غلافها إلى أن مادونا أصبحت أمًا منذ قريب (وعدت مجلة فانيتى فير بنشر «يوميات خاصة» فى داخل العدد وتحدثت عن «الأحلام وأوجاع القلب»). ولكن لم يبد عليها أنها على استعداد لأن تفضفض بحرارة وكان يبدو عليها

١- (إيفيتا) **Evita**
A film directed by Alan Parker,
with music by Andrew Loyd Webber
and lyrics by Tim Rice.
(فيلم من إخراج آلان باركر)

٢- (صناعة إيفيتا) **The Making of Evita**
by Alan Parker
introduction by Madonna
Collins Publishers, 125pp.

٣- (سانتا إيفيتا) **Santa Evita**
by Tomas Eloy Martinez,
translated from the Spanish
by Helen Lange.
Knopf, 371pp.

٤- (إيفا بيرون) **Eva Peron**
by Alicia Dujouvne Oritz.,
translated from the Spanish
by Shawn Fields
St. Martin's Press, 325pp.

٥- (إيفيتا: بكلماتى أنا)
Evita: In My Own Words
Translated from the Spanish
by Laura Dail
New Press, 119 pp.,

شيء من الإجهاد. غير أن هذا الإجهاد بدا وكأنه رسالة تريد أن تقول فيها أنها برغم تعبها فإنها تعمل باجتهاد.

وكان العمل الشاق هو الرسالة التى اعتمد عليها الفيلم. وقد ظهر فيلم إيفيتا معتمدًا على جهود منسقة بشكل مدهش من جانب الناشرين والصحافة وعالم الأزياء (أغلفة المجلات، وكتب جديدة، وعروض لكريستيان ديور، وسلسلة من مستحضرات التجميل من استى لاودر). وجاء أيضًا ومعه تقارير مدروسة عن عدد المخرجين ١٠ الذين اقترحت أسماؤهم على امتداد السنوات، وسلسلة النجمات (ستة عشر، من شارون إلى ميريل ستريب) اللاتى كن فى وقت من الأوقات على وشك التوقيع للقيام بالدور الرئيسى. ولكن هذه القصص تداخلت مع القصة الحقيقية للبطلة الشهيرة التى تسعى لخلق أسطورة أكبر حول التغلب على العقبات، بل إن الفيلم اكتسب قوة روحية من هذه الوقائع، كما لو كان هذا المشروع - وكأنه كاتدرائية قوطية - لا يمكن تنفيذه على عجل.

ونظرًا لأن الجهد الكبير يمكن أن يكون فى حد ذاته عاملاً مؤثرًا: فقد توجهت لمشاهدة فيلم إيفيتا وفى ذهنى بعض الشكوك، ولكنى كنت مستعدة أيضا لأن اتأثر بما أرى. ومن حسن الحظ أن الفيلم يبدأ بنفس اللحظة التى تموت فيها البطلة، فى الساعة ٨,٢٥ مساء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢، ولا تنقضى لحظات حتى يكون الحزن قد جرفنا.

والعنصر الذى يحرك القلب هنا فى البداية هو موسيقى اندرو ليود ويبر. وهى موسيقى كان قد ألفها للمسرح منذ عشرين عاما، ومازالت تمثل روح الاستخفاف والكآبة التى كانت سائدة فى السنوات التى أعقبت حكاية ووتر جيت - الحزن الناشىء من الشعور المؤلم بأن كل شىء زائف، والرغبة فى السخرية من السلطة. وهناك كورال يصحب الموسيقى الجنائزية يكاد أن يكون ترديدًا للموسيقى الكنسية الإنجليزية، ولكنه يستبعد منها طابعها السماوى، ويحتفظ فيها ببعض سمات أغانى الروك. وعلى حين غرة تقتحم هذا الموضوع الحزين موسيقى للجيتار تعزف بالإيقاع السريع المبالغ فيه الذى عرف عن العازف اريك كلابتون.

وينتهى شريط الصوت إلى أيام دوريس داى، وليس به وجه للتشابه مع مادونا اليقظة المغرمة بالعمل الشاق، والتى أكثرت الإعلانات من الحديث عنها. ولكن بينما تعزف تلك الموسيقى نشهد شيئًا آخر يجرى على الشاشة، شيئا ليس من مخلفات المسرحية. ففى مونتاج تركيبى للحزن، نرى المدينة بوينس أيرس كما كانت فى سنة ١٩٥٢، أعيد إنشاؤها بوصة بعد بوصة.

ومنذ عشرين عامًا حظرت الأرجنتين إذاعة المسرحية الموسيقية عن حياة إيفا بيرون، وكان الكثيرون يخشون أن يخرج الفيلم عن حقائق حياة إيفيتا. ولكن هذه المخاوف لم يكن لها مكان فى الفيلم الذى أخرجه آلان باركر[٢].

ولا يمثل التاريخ أى مشكلة. فجميع الأحداث الرئيسية موجودة، وهى بوجه عام لا تعرض من أجل إثارة الفضائح. (والأغنية التى ثار حولها بعض الجدل) واستمر المال فى التدفق إلى الداخل (وإلى الخارج) «تتعلق بالتصرفات المالية لمؤسسة خيرية». وهناك مشهد يتقاطع مع جنازة إيفيتا نرى فيه إيفيتا وهى فى سن السابعة عشرة وعيناها مغرورقتان بالدموع، تحاول المشاركة فى جنازة أبيها ولكن زوجته الشرعية الأنيقة تمنعها من ذلك، لأنها هى وإخوتها غير شرعيين - وكان ذلك مصدرا للإذلال أدى بها دائما «للسخط على الظلم». وتقوم مادونا بدور إيفيتا عندما تبلغ سن الخامسة عشرة. ونشهدها وهى تغادر مدينة جونين متجهة إلى بوينس أيرس ساعية للشهرة. وبالرغم من أن الفيلم يؤكد بعض الشائعات التى لم تثبت صحتها بأنها شقت طريقها عن طريق استخدام جسدها فى التعامل مع ناشرى المجلات، والعروض المسرحية، والعمل فى إحدى الفرق الهزلية، وأية وظيفة عرضت لها، حتى وصلت إلى منصب السيدة الأولى، فإن المشاهد التى تعرض ذلك ليست قاسية ولاانتقادية بل يغلب عليها التعاطف. وعرض الفيلم مشاهد ثورة الرابع من يونيو، وهى الثورة التى تغيرت فيها الأحوال، ونصب أثناءها ثلاثة رؤساء للجمهورية على التوالى فى يوم واحد، وأتاحت لبيرون أن يتقلد السلطة. وهى معروضة ببراعة. وكذلك المشاهد المتعلقة بالاستجابة السريعة للزلزال الذى أصاب مدينة سان خوان فى جبال الإنديز، وهى الاستجابة التى أكدت شعبيته والتى تعرف من خلالها بإيفيتا، واستفاد الضحايا من ذلك.

وعادة ما تجرى المسرحيات الموسيقية فى ظل خلفية تجريدية؛ حتى تتمكن من تضخيم المشاعر - مثل شوق الفتاة إلى حبيبها، وثورة الرجل الغيور. أما فيلم إيفيتا فيجرى على عكس ذلك. وهو مازال هادئًا كما كان الأمر على المسرح، ولكن نظرا لأن المخرج أراد أن يحدث أثرا واقعيا، فقد سجلت الموسيقى على الشريط فى لندن، ثم تم تصوير الفيلم بعد ذلك فى الأرجنتين (وفى المجر بالنسبة لبعض المشاهد) اعتمادًا على موسيقى مسجلة من قبل. وليس من المستغرب أن ذلك تطلب عمل مونتاج دقيق، كما أن جزءا من الأداء يبدو معلبًا بعض الشىء.

وزاد من الابتعاد عن الواقع، طريقة معالجة الشخصية الرجالية الثانية بعد بيرون. ففى الأصل الذى أعد فى سنة ١٩٧٨، ويبدو أن ذلك كان بناءً على إصرار المخرج هال برنس، كانت شخصية شى جيفارا هى شخصية الزعيم الفدائى الأرجنتينى. وكان يظهر على خشبة المسرح يلبس البيريه ويحمل البندقية: ليعلق على عمل إيفيتا عندما بدأت فى تجميع العمال والعاملات، وتستبدل ثيابها الزرية بثياب من صنع كرستيان ديور وتتحلى بالمجوهرات[٣].

ونجد فى الفيلم شخصية جيفارا مازالت معروضة بشكل مسرحى، وكأنه كورس مؤلف من شخص واحد. فهو مازال يرى طموح إيفيتا جنونيا، ولكنه يوحى بنوع من الرقة إزاءها ووراءمظهره التعليمى القاسى. غير أن المخرج باركر يحوله إلى شخص أقرب إلى الراوية. ويعرض إلى مشاهد فى بوينس أيرس لإعطاء إحساس بالأحوال الاجتماعية التى كانت سائدة فى الأرجنتين فى الأربعينيات: تمثل غطرسة الجيش، والأنانية والفساد المنتشرين بين أعداء بيرون من رجال الأرستقراطية والحماسة التى يبديها أنصار بيرون، والفلاحون والمهاجرون الذين اقتحموا بوينس أيرس فى الجزء الأول من القرن، والاستعداد المشئوم من جانب كل الأطراف لارتكاب أعمال العنف. والأهم من ذلك فى الفيلم أن «شى» استبعد الجزء الأخير من اسمه وأصبح مجرد الشخص العادى فى مسرحيات برخت. وفى المشاهد الجماعية يبدو «شى» شخصا مليئا بالحيوية، وعاملا لا يهتم بأناقة ثيابه، ولكن عندما تنتقل الكاميرا ببطء إلى مباراة فى البولو نراه متأنقا مرتديا قميصا من الكتان الأبيض.

وهنا أيضا نجد أن الفيلم تجنب الطابع الخشن للمسرح، ونجده بدلا من ذلك تأملا فكريا وأدبيا وكأننا إزاءفيلم تسجيلى هادئ.

ويجب أن نذكر أن الأغانى التى كتبها تيم رايس قد مهدت الطريق لذلك عندما قال: «لا تبك من أجلى يا بلدى الأرجنتين» وهى الأغنية الشهيرة التى تغنيها إيفيتا أمام جمهور اجتمع خارج قصر الرئاسة، والتى تطمح فيها أن تصل إلى روعة الأنغام التى كتبها بوتشينى. ولكن الكلمات تدور حول ارتباط أحد الأشخاص بالملايين من الشخصيات المجردة. ومع ذلك فقد كتبت الرواية المسرحية فى عصر كانت السياسة فيه مباراة محفوفة بالمخاطر شأن العروض المسرحية، وكانت تجمع بين البلاغة والاتجاه البوهيمى الحزين الذى يتجلى فى موت إيفيتا المبكر من أجل تشكيل مأساة مؤثرة.

وربما كان الفيلم أكثر مدعاة للحزن. فهو يدور حول الطموح والشهرة كما يراهما أشخاص يأخذون هذين الأمرين مأخذ الجد الخالص[٤]. ولكن الفيلم لا يهتم بأن يرينا النجمة وهى تصعد إلى النجومية اعتمادا على طاقتها الخاصة المتفردة، لأنه يفترض أشياءً لم تكن المسرحية تستطيع أن تصورها. ويفترض الفيلم أننا بدأنا نهتم بإيفيتا لأننا سمعنا عنها الكثير - لأن المسرحية جعلت منها نجمة بالفعل، من الناحية التاريخية. وبالتالى فإن الجوانب التى يهملها الفيلم يفترض أنها معروفة ومرتبطة بالشخصية. وهنا يتضاءل دور إيفيتا المرأة، وإنما تنفعل مشاعرنا بالخلفية التى تتحرك إزاءها، وخاصة خلفية الجمهور، وقدرته على التصفيق والصياح مؤيدا أو معارضا.

وليس من الصعب أن نفهم ميل الفيلم للرجوع إلى قصة استجابة الأهالى لإيفيتا، لأن شخصيتها كانت غير محددة، وقصتها مليئة بالثغرات. فأعداء بيرون ألقوا عليها بالاتهامات، وهى شخصيا لم تكن فوق الكذب. كما أن قدرتها الخطابية العاطفية لم تكن فى حاجة إلى بحث، كما يتبين من هذه العبارة المقتبسة من كلمة أذاعتها فى سنة ١٩٤٤:

«إن الثورة لم تقم بلا سبب. لقد جاءت لأن شيئا مؤلما وقاسيا قد نشأ فى وطننا، فى الأعماق التى تختزن الكراهية والانفعال والإحساس بالظلم الذى يجعل الدماء تندفع إلى أيدينا وعقولنا».

« لا شك فى أن جانبًا على الأقل من جاذبية إيفيتا أثناء حياتها كان يرجع إلى هذا الضعف الجسدى، وقد أحاطت بها هالة قوية اتخذت أبعادًا أكثر تأثيرًا بعد وفاتها »



مادونا .. فى دور ايفا بيرون

« شيئا فشيئا بدأت إيفيتا تتحول إلى قصة لا تكاد تقترب من نهايتها حتى تشعل قصة أخرى. فهى لم تعد ما كانت تقوله أو ما كانت تفعله، بل أصبحت ما يعتقد الناس أنها قالته أو فعلته »

وحتى الكتب التى ألفت عنها وحاولت أن تحل لغز شخصيتها - وآخرها كتاب «إيفا بيرون» بقلم أليشيا ديجون أورتيز - تميل لأن تتوه أثناء البحث عن الحقيقة أو الكذب فى الأقاويل العديدة، والتى تتركز على الأشياء التى يصعب معرفتها. فمثلا هل فعلا قدمت إيفيتا العون للنازيين فى الأرجنتين، أم أن الأمر لا يتجاوز معرفتها ببعضهم؟ وهل امتدت معتقداتها السياسية إلى ما هو أبعد من الارتباط الوثيق بالفئات المحرومة؟ ولماذا بعد رحلتها الشهيرة فى ١٩٤٧ إلى القارة الأوروبية التى تالقت فيها كما لو كانت ملكة، وكانت تلقى فيها بالأموال على الجموع التى دمرتها الحرب - لماذا بعد هذا النصر بيدو أنها أصبحت أكثر تعقلاً وأكثر استعدادا لأن تمارس العمل الشاق من أجل فقراء الأرجنتين؟ وهناك سؤال آخر يرتبط بذلك: فى أى لحظة بدأت تخمن، وفى أى لحظة أصبحت تعرف عن يقين أنها مريضة مرضا لا شفاء منه؟

إن ما يتفق عليه كتاب سيرتها، وما يبدو أنه ليس موجودا فى الفيلم، هو شعور إيفيتا القوى بحالتها البدنية المقلقة[٥]. فقد كان الناس يستجيبون بدنيًا لهذه المرأة التى تتحدث عن اندفاع الدم إلى يديها ورأسها، وظلوا يتذكرون تلك التجربة بعد انقضاء وقت طويل. وقد دهش أصدقاؤها من أيام اشتغالها بالتمثيل لضآلة حجم ثدييها، وأسنانها الملتوية وبشرتها الشاحبة التى كانت دائما باردة الملمس. وقد ذكر بيرون أنه عند أول لقاء بينهما «كانت يداها محمرتين من التوتر، لكن أصابعها كانت متماسكة بقوة. لقد كانت كتلة من الأعصاب». وحتى بعد أن أزالت لون شعرها وأصبح لجمالها طابع القديسين استمر مظهرها غير مستقر. ويتساءل الناس الآن عما إذا كان مرض السرطان الذى تسبب فى موتها فى سن الثالثة والثلاثين جعل عظام وجنتيها أكثر بروزا. وكان كثير من الرجال يرون أنها أصبحت أكثر جمالا، مع تقديم وصف غريب بأن جانبها الجنسى أصبح أقل وضوحا عن أى امرأة أخرى على وجه الأرض.

ولا شك فى أن جانبا على الأقل من جاذبية إيفيتا أثناء حياتها، كان يرجع إلى هذا الضعف الجسدى. وقد أحاطت بها هالة قوية اتخذت أبعادًا أكثر تأثيرا بعد وفاتها. وكانت رغبتها الأخيرة هى ألا يلمس رجل جسدها. ولكن لم تمض ساعات على وفاتها حتى سلموا جسدها لرجل يقوم بالتحنيط. كان مهووسا بها. وأصبح معروفا فى دوائر الطب بأنه قام بوضع يدى الموسيقار الأسبانى مانويل دى فلا بحيث تبدوان كما لو كان حيا ويعزف أشهر مقطوعاته. وفى كل يوم، وطوال اليوم، كان هذا الرجل يكرس وقته لإيفيتا، ويصفى الدم من كعبيها، ويستخرج الصفراء من بطنها، ويضع مكانها سوائل مثل الجلسرين والفورمالين. ويغطى جسمها بالزيوت ذات الرائحة الزكية. وقد استمر فى عمله سنة كاملة، حتى اطمأن إلى أن جسدها «لن يصيبه البلى».

هذه الحكاية، والحكاية الأغرب عما حدث بعد ذلك، واردة فى كتاب «سانتا إيفيتا» وهى حكاية طريفة للغاية وإن كانت محزنة، كتبها توماس إيلوى مارتينيز. وهى حكاية مبنية على الوقائع. وقد قامت على العمل خلال سنوات تمت أثناءها مقابلات مع أشخاص عديدين وبحث عن الحقائق من جانب المؤلف. وتبدأ الحكاية التى يرويها هذا الكتاب بعد موت إيفيتا بثلاث سنوات، عندما بدأت الخطط توضع للإطاحة ببيرون، وعندما أدركت



خــوان بــيــرون

«ذكر بيرون أنه عند أول لقاء بينهما كانت يداها محمرتين من التوتر، ولكن أصابعها كانت متماسكة بقوة.. لقد كانت كتلة من الأعصاب..»

«لم تمض ساعات على وفاتها حتى سلموا جسدها لرجل يقوم بالتحنيط. كان مهووسا بها.. استمر فى عمله سنة كاملة، حتى اطمأن إلى أن جسدها لن يصيبه البلى»

«بعد موت إيفيتا، بثلاث سنوات.. وعندما أدركت السلطة العسكرية القوة الرمزية لجسد إيفيتا، كلفت أحد الكولونيلات بأن يعمل على إخفاء جسدها.. وانتهى الأمر.. باختطاف الجثة ووضع خطة لنقلها المستمر من مكان إلى آخر بحيث لا يعثر عليها أحد»

العصبة العسكرية الجديدة القوة الرمزية لجسد إيفيتا، فكلفت أحد الكولونيلات بأن يعمل على إخفاء جسدها بحيث لا يعود إلى الظهور مرة أخرى. وانتهى الأمر بهذا الكولونيل الذى كان جاسوسا، ومحاضرا فى الشئون السرية والشائعات، وكان من المعجبين بكانت وإدموند بيرك، باختطاف الجثة ووضع خطة لنقلها المستمر من مكان إلى آخر بحيث لا يعثر عليها أحد.

وقد قيل أن جثة إيفيتا وضعت وراء الشاشة فى دار للسينما تعرض أفلام بود أبوت ولو كوستيللو: وأن ابنة مالك الدار تعلقت بها وأطلقت عليها اسم «عزيزتى». وبعد ذلك انتقلت الجثة من مكان لآخر. ويبدو أن لها قوة خاصة، وأنه تنبعث من داخلها روائح مخدرة، أو لعلها رائحة ذكية، أشبه بالزهور أو الأعشاب النقية، وأنها أحيانا تتألق فى الظلام. ويقال أيضاً أنها قضت على حياة بعض الأشخاص. فأحد ضباط الجيش الذى أودع الجثة فى أعلى مسكنه وقع فى غرامها، وعندما صعدت زوجته الحامل لتشاهد ما يجرى أصابه الفزع وأطلق عليها النار. وفى نهاية الأمر يصبح الكولونيل صاحب الفكرة رجلا مخمورا وبائسا، ويقتنع بأن إيفيتا قد سُرقت منه ودفنت على سطح القمر.

أما إيلوى مارتينيز فهو من المغرمين بالسينما، ويضفى على قصته طابعا سينمائيا: فالراوى فى القصة تحركه الشفقة والسخط معا. ويؤدى نفس الدور الذى قام به جوزيف كوتين وهو يحاول أن يكشف أسرار شخصية المواطن كين. ولكن الرواية تتركنا دون أن نصل إلى الحقيقة فهى تقول «شيئا فشيئا بدأت إيفيتا تتحول إلى قصة لا تكاد تقترب من نهايتها حتى تشعل قصة أخرى. فهى لم تعد ما كانت تقوله أو ما كانت تفعله بل أصبحت ما يعتقد الناس أنها قالته أو فعلته». فالبطلة يجب أن تظل سرًا خفيًا. والموضوع الحقيقى هو ما تمثله فى ذاكرة الجمهور.

وهكذا نعود مرة أخرى إلى الأسرار المحيطة بالشهرة. فهذا هو المجال المرتبط بتعلق الأرجنتين بإيفيتا، واهتمام الأمريكيين بما حدث لها. ومن الطبيعى أن هذين النوعين من الاهتمام مختلفان: فالأول ملح وقائم على الذكريات القوية والتى اتسمت بالعنف فى كثير من الأحيان، أما الثانى فعارض ومحب للاستطلاع ولكنه ينظر من بعيد.

ولن يكون الفيلم مرضيا لأى من هذين الجانبين. ومع ذلك فهناك ما يحرك العاطفة فيما حواه من مغامرة هائلة اعتمادا على أن الموضوع يكفى، وأن كل الجهد الذى بذل فيه كان له ما يبرره. وهذا الشعور يتجلى بوضوح فى الأغنية الجديدة التى وضعها ويبر ورايس وعنوانها: «إنك يجب أن تحبنى» التى أضيفت قرب نهاية الفيلم لتهدئة مشاعر الجمهور التى استهلكت من قبل. إن مادونا / إيفيتا إذ ترقد مريضة ومنهكة فى فراشها فى المستشفى وتغنى بصوت هادئ متقطع، تردد المقاطع المؤثرة، وتوجه سؤالا لا جواب له (إلى أين نمضى من هنا؟ ولماذا تجلس إلى جانبى؟) وتكرر عنوان الأغنية مرة بعد أخرى: فى البداية بلهجة الأمر وفى النهاية كطلب يائس لطمأنتها. إنها تريد أن يحبها زوجها. ولكن كما يحدث كثيرًا فى هذا الفيلم، فإننا نشعر بأن ما تطلبه فى الواقع هو حبنا نحن. ومن المؤسف أنها لم تتمكن من الحصول عليه. ■

الهوامش

(١) هذه المصادفة، مثل مصادفة انجذابها فى بداية حياتها إلى قصائد الموت، هى من المواضع العديدة التى يبدو فيها أن الفتاة المسكينة كانت تتنبأ بمصيرها: ومن المصادفات الأخرى أن أباها وأخاها كانا يحملان اسم خوان، مثل زوجها المقبل، وأن اسم أمها كان خوانا.

(٢) ومع ذلك فقد ظهرت بعض الاعتراضات فى الأرجنتين على الطابع الإنجليزى للفيلم، فاختيار الشخصيات وكتابة الأغانى قام بهما شخصان إنجليزيان، واستعانا بمجموعة غريبة من الأشياء الدولية ابتداء من فيكتور هوجو إلى فيتنام إلى العهدين القديم والجديد.

(٣) وفقًا لما يقول به جون لى أندرسون الذى نشر كتابًا عن سيرة شى جيفارا لم يحدث لقاء بين شى وإيفيتا فى أى وقت. وإذا كان اللقاء قد حدث فقد كان فى أحسن الأحوال حدثا من طرف واحد، ويتمثل فى خطاب وجهه جيفارا إلى أيفيتا عن طريق المؤسسة التى تشرف عليها. وهى رسالة لا تزيد على كونها واحدة من آلاف عديدة، يطلب فيها نقودًا لشراء سيارة جيب ليطوف بها فى أنحاء أمريكا الجنوبية. وليس من المعروف أنها ردت عليها.

(٤) كان آلان باركر هو أيضا مخرج فيلم «Fame»، وهو عن مجموعة من طلبة إحدى الكليات الفنية.

(٥) وهو لا يحوى أيضًا أية إشارة إلى شكوى خوان بيرون المستمرة من مرض الصدفية، والذى كان يحتاج إلى علاج يومى لإخفائه، وإن كان يتضمن إشارة إلى فقدان الطاقة نتيجة للإجهاد.

ترجمة: أسعد حليم

للسياسة بريق، وللسلطة سحر، ينطبق هذا على الواقع المعاش وعلى تطلعات البشر، كما ينطبق على النظرية والتفكير ودراسة هذا الواقع.

وتكسب السلطة للمفكر أو الباحث ثقلاً إذا ما اقترب منها وأجاد وصفها وتحليلها، وهي لديها - كظاهرة إنسانية - من الجاذبية والمحورية ما يشد إليها العقل ويلفت الانتباه.

وعلى مدى عقدين من الزمان انصرف اهتمام الباحثين في العلوم السياسية والاجتماعية عن دراسة الإسلام إلى دخوله ساحة الصراع السياسي. وصارت دراسة الحركات الدينية ورؤيتها السياسية وعلاقتها المتشابكة مع الدولة هي موضوع الساعة الذي جذب الانتباه واستحوذ على الرصد والتحليل، خاصة حين تصاعدت هذه العلاقة إلى حد الصدام المسلح. ويلحظ المتابع، الاهتمام نفسه في دراسة الدين والدولة في جميع بقاع الأرض، وبالنسبة لشتى الأديان والمذاهب.

وفي المقابل، بقيت هناك دراسات ترصد التدين الشعبي، الفردي والجماعي، وخاصة في مجالي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، بيد أن التوليفة الأولى ظلت هي المتصدرة على الساحة لما لها من طبيعة إشكالية وشائكة.

لكن التحولات التي شهدتها نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من تعثر للمد الديني، بسبب المواجهة الحاسمة مع شرعية الأنظمة، وتحول طبيعته نحو مزيد من إثبات الوجود على الساحة الاجتماعية / الأهلية، ومراجعته النقدية الذاتية لرؤيته للدولة والسلطة، وتغير أوسع تشهده الساحة الدولية في مجال الاقتصاد والاتصال، أعادت جميعها للضوء مرة أخرى مظاهر التدين الشعبي الجماهيري الذي كان موجودا قبل الحركات المنظمة، وظل معها وسيبقى بعدها.

ويتوازى مع الحديث عن التيارات الاجتماعية والمجتمع المدني والجماعة "Community" الصاعد الآن، ويأتي على قمة جدول أعمال المؤتمرات العلمية السنوية في أفرع العلوم الاجتماعية والسياسية حديث واهتمام بالثقافات الشعبية وتجلياتها اليومية في حياة الناس وممارساتهم العفوية الاعتيادية للدين، سواء أكان ذلك في صورة تدين فردي أم تدين شعبي جماعي. ولعل أبرز مظاهره الاحتفالات الدينية والطقوس الجمعية... والموالد. وربما كانت الأخيرة من أكثر المظاهر التي تعرضت في مدارس فكرية مختلفة للنقد والهجوم. فما بين اعتبار هذه الممارسة ذات الأبعاد «الميتافيزيقية» رمزًا للخرافة وانتشارها بين العوام لتكون أفيونًا للشعوب كما رأى أهل اليسار، وما بين تجريم هذه الصيغ من أهل التدين باعتبارها بدعًا لا يقرها الدين الصحيح، كما أكد أنصار الصحوة الإسلامية التجديدية ثم الحركات الدينية المنظمة، وقفت الملايين من العامة والبسطاء برؤيتها المتميزة للغيب والألوهية والعبودية، وبقيت محافظة على تقاليد الاحتفاء بالأولياء وآل البيت، ومارست الدين كما فهمته واستوعبته في حياتها، غير عابئة إلى حد كبير بخطاب «المثقفين» المتعالي ولا هجوم «الملتزمين» المغالي.

إن إعادة اكتشاف التدين الشعبي وديناميته وفاعليته يصبح في ظل هذه التحولات إعادة اكتشاف للناس، لتلك الغالبية التي بقيت خارج الأحزاب والجماعات والحركات المنظمة. وفي عمل متميز كدراسة د.

The Pure and Powerful: Studies in Contemporary Muslim Society

(النقاء والقوة: دراسات في المجتمع الإسلامي المعاصر)

Nadia Abu Zahra

Ithaca Press, 1997.



التديـن الشعبى

من الموالد إلى شم النسيم.. رباط بين العقيدة والحياة اليومية

هبة رءوف عزت

> ما بين تجريم الاحتفالات الدينية الشعبية - الموالد - من أهل التدين باعتبارها بدعًا لا يقرها الدين الصحيح، وما بين اعتبارها رمزا للخرافة وانتشارها بين العوام أفيونا للشعوب، وقفت الملايين من العامة والبسطاء برؤيتها المتميزة للغيب والألوهية والعبودية غير عابئة بخطاب «المثقفين» المتعالي ولا بهجوم الملتزمين المغالي

نادية أبو زهرة لا نجد هذه العودة للاهتمام بالناس مجرد إعادة اكتشاف، بل يمكن القول أنها إعادة اعتبار.. وإعادة قراءة.. واستعادة مكانة.

ولكي تقرأ كتابًا يجب أن تعرف كاتبه، وخلفيته، وتحيزاته التي لا مفر منها، وبنية عقله، وبنية ثقافته، اللهم إلا إذا كنت من مصدقي مقولات ما بعد الحداثة حول «موت المؤلف» وحرية القارئ في فهم النص دون أي اعتبار لكاتبه.

فكتاب د. نادية أبو زهرة الصادر مؤخرا عن دار إيثاكا للنشر بإنجلترا تحت عنوان «النقاء والقوة: دراسات في المجتمع الإسلامي المعاصر» هو من الكتب التي تتجلى فيها خلفية الباحث المركبة وتنعكس على منهاجيته وطريقة تناوله للظواهر محل الدراسة. فهي ابنة العلامة الأزهري الشيخ محمد أبو زهرة، وهي أستاذة الأنثروبولوجيا التي نالت درجة الدكتوراة من جامعة أوكسفورد ثم حاضرت ودرست في جامعات كندا وإنجلترا، وزارت لفترات قصيرة للتدريس في عدة جامعات عربية. برصانة ومهارة تجمع نادية أبو زهرة بين خلفيتها الإسلامية ومعرفتها العميقة بالنص الديني بحكم نشأتها، وبين تخصصها في العلوم الاجتماعية كباحثة متميزة بارزة في مجالها. وفي القسم الأول من كتابها تقدم دراستين، الأولى: حول صلاة الاستسقاء في إحدى قرى تونس، وكيف يطوع الناس النص الثابت في حياتهم اليومية ومعاناتهم من تقلب الظروف الطبيعية. والثانية: دراسة تحليلية نقدية لأبرز الدراسات الأنثروبولوجية حول المجتمع الإسلامي ونقض لمقولاتها وفرضياتها الأساسية.

تتحدى الباحثة أبرز أساطين هذا المجال، «أرنست جلنر»، ورؤيته التي أثرت على دراسة المجتمع الإسلامي في الغرب وافترضت الانفصال بين المجتمع من ناحية، والنص الديني من ناحية أخرى. حيث انطلقت من هذا لتدرس المجتمع الإسلامي دون أدنى شعور بالحاجة لقراءة أو فهم النص الديني الذي يؤثر في حياة الناس.

ولا تنقد نادية أبو زهرة هذه الرؤية وحسب، بل توضح كيف قادت إلى نتائج مثيرة مثل افتراض وجود أصول مسيحية للطقوس الدينية الإسلامية، دون اعتبار لعلم الأديان المقارن، والاختلاف البين ما بين الإسلام والمسيحية في تصور الإله وعلاقة الإنسان بالكون وبالآخرة وطبيعة النظرة لفلسفة التجمع الإنساني ذاته. لذا فإن فصل العلم الاجتماعي الغربي بين الدين والمجتمع والثقافة ليس فقط غير ممكن أو غير مفيد، بل يعوق - في نظرها - الباحث عن فهم دقائق العلاقات التي يدرسها ويحجم إلى حد بعيد قدرته على التحليل والتفسير.

وتقترب نادية أبو زهرة من طقسين دينيين غاية في الأهمية. الأول: هو صلاة الاستسقاء التي تمثل شعائر التطهر والتوبة التماسًا للرحمة الإلهية ومغفرة للذنوب وغيثًا من السماء يسقي الأرض وينبت الزرع ويعيد الحياة للأرض الجدباء، وتقارن بين صيغ الدعاء الشرعية المأثورة، وكيف أضاف لها الناس من بيئتهم وثقافتهم، وقاموا بتوزيع للأدوار في هذه اللحظات الطقوسية وتقاليدها بين الرجال والنساء والأطفال. والدلالات الرمزية للألفاظ المستخدمة في الصلاة، بما يربط بين الغيب والحياة المعاشة بمشكلاتها، ليست خرافة «أو هروبا»، بل مزجًا للعقيدة بالحياة وربطًا ما بين السماء والأرض وتجميعًا للأفراد في كيان متماسك في أوقات الشدة.

أما الدراسة الإثنوغرافية الثانية التي تسوقها للتدليل على فرضيتها الخاصة بالارتباط الوثيق بين النص والحياة اليومية للناس، فتدور حول طقوس الوفاة في المجتمع المصرى، وكيف يتبع الناس التعاليم الدينية بدقة شديدة، وكيف تم تحويلها إلى تقاليد صارمة يتبعها الجميع، بغض النظر عن درجة التزامهم بالإسلام في جوانب حياتهم الأخرى، حتى غابت هذه الجذور الدينية القوية التى لن يفهموها ، عن نظر الباحثين، إلا إذا قارنوا الممارسة بالنص والتعاليم في قضايا التعامل مع لحظة الوفاة، وطقوس غسل المتوفى وتكفينه، ثم دفنه، ثم طقوس العزاء، بل وصيغ المراثي و«العديد». وهى التى تجاهلها كثير من الباحثين رغم محوريتها في حياة البسطاء، وخاصة النساء، والتفت إليها من قبل في دراسته الرائدة د. عبد الحليم حفني وكانت بعنوان «العديد: فن المراثى الشعبية».

ركزت نادية أبو زهرة على هذين التعبيرين عن التدين تحت عنوان «طقوس التطهر والانتقال» من حال المعصية إلى حال التوبة. أو من حال الحياة إلى حال الموت. بيد أن القارئ يستطيع بناءً على فكرتها الأساسية حول ارتباط النص الديني بحياة الناس وتأثيره الجم فيها، أن يقارن ما كتبته بدراسة د. حسن الساعاتي حول ـ لغة القرآن ـ في الحياة اليومية. ويربط الطقوس باللغة ألفاظًا ومفاهيم، وهو بعد من الأبعاد المهمة التى تجب إضافتها إلى دراساتنا الاجتماعية، وهو علم اجتماع اللغة الذى يرصد كيف استخدم الناس اللغة، وهى في هذه الحال اللغة العربية ـ لغة القرآن ـ في شتى شئونهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل وفى فنونهم المعمارية والعمرانية. وهذا البعد الأخير من الأمور التى تنفرد بها اللغة العربية والثقافة الإسلامية بشكل واضح، انطلاقا من رؤيتها العقيدية لقضايا التجسيد وفلسفة الفن، ومحورية الكلمة والوحى في مقابل مركزية التجسد والحلول في عقائد أخرى.

ولعل أبرز ملاحظات د. حسن الساعاتى في هذا الصدد كان تجاوزه، مثل نادية أبو زهرة لهذه الثنائية بين الفصحى والعامية، حيث لاحظ أن لغة القرآن وهى رمز البلاغة المبينة قد تغلغلت في الاستخدام العامى الشعبى بما يسمح حتى للفرد الأمى أن يفهم القرآن ويدرك دلالات الحديث دونما قطيعة أو تناقض، وهو ما رصدته نادية أبو زهرة على مستوى التعاليم والتوجيهات والنصوص التى تجلت في حياة الناس واستوعبوها دونما إشكال.

لا يتحدى كتاب نادية أبو زهرة فقط افتراض انفصال النص عن الواقع، وأن الناس تمارس إسلامًا لا صلة له بالنص الشرعى، بل يحوى من التقاليد أكثر بكثير مما يحوى من الأصول الدينية، كما يتحدى أيضا افتراض انفصال دوائر الإسلام الصحيح والإسلام الشعبى والإسلام الرسمى / المؤسسى والعلماء. ويدور الجزء الأكبر من كتابها حول السيدة زينب كأحد أبرز رموز آل البيت في مصر. وهى «أم العواجز» التى تحتل في التدين الشعبى منزلة لا تدانيها منزلة.

تدرس نادية أبو زهرة شخصية السيدة زينب في الكتب التاريخية، وتدرس محوريتها في الثقافة الدينية الشعبية، وكيف اختصها الناس في مصر بحب أقرب لحبهم لأمهاتهم اللاتى ولدنهم، فصارت ملجأ المستضعفين وصارت الساحة الرخامية في مسجدها ملاذ المتعبين، وقبرها / مقامها موضع تقدير الناس وتكريمهم، بل وقسمهم. وصارت مآثرها موضوعًا ثريًا للشعراء والأدباء. وتستخدم هذه الدراسة الميدانية لمنزلة السيدة زينب، التى تأخذ ذروتها في أيام مولد السيدة زينب، للتدليل على عدم انفصال الدوائر السابق ذكرها وتجاورها في هدوء ثم امتزاجها وتداخلها في أيام المولد، وانفكاك ارتباطها بعده في سلاسة لتتجاوز ثانية وتتعايش.

وتدخل نادية أبو زهرة إلى تلك المساحة الثرية من التدين الشعبى من مقصورة أو ساحة النساء في مسجد السيدة زينب. فهى تجلس معهن وتلاحظ وترصد سلوكهن وهمومهن وخلفياتهن، وتدرس بعض الحالات بالتفصيل لترى لماذا يلجأن للسيدة ويلتمسن السلوى لديها. تلك التى توهب محبة مطلقة، وعندها يتم الوفاء بالنذور والاحتفال بمولد الأطفال و«السبوع»، ولديها يبحث الناس عن العدل بعد أن ضاقت بهم السبل. إنها «رئيسة الديوان» كما يسمونها، اعتقادًا من العامة بأن لأولياء الله وآل بيته ديوانا ومجلسا في الملأ الأعلى ترأسه السيدة زينب، أو ربما كانوا يرمزون أيضًا إلى أنها سيدة ديوان المظالم، ليس ذلك الديوان الرسمى الذى عجز عن الفصل بالعدل بين الناس، بل ديوان المظالم. . . الشعبى.

تلتمس العلم و الفقه السليم من العلماء، وتطلب الفتوى في اللقاءات الدورية مع إمام المسجد حرصًا على صحة ممارستها للإسلام. فلا انفصال في الواقع بين الدين الصحيح نصًا أو فقهًا لدى العالم والإمام، وبين معرفة الناس وسلوكهم. إذ تتداخل في الحياة اليومية، ويجدها الناظر في الانعقاد اليومى للجنة الفتوى بالأزهر، وفى التوجه المستمر من الناس من شتى الفئات والأصول الاجتماعية للعلماء في الأزهر وخارجه بحثًا عن حكم الشرع أو طلبًا للرأى والمشورة.

العلماء إذاً، ليسوا طبقة أو فئة معزولة كما افترضت دراسات اجتماعية مختلفة تشير لها الدراسة وتراجعها، بل هم يعيشون مع الناس وينشغلون بهمومهم ويتفاعلون عبر آلية الفتوى والاجتهاد مع مشكلاتهم المتجددة، ويصححون مسارهم، ويوجهون سلوكهم، خاصة في المشكلات الأسرية التى تحتل حيزًا كبيرًا من هموم البسطاء، وخاصة النساء.

وكانت نادية أبو زهرة تعتزم إجراء دراسة صغيرة حول مضمون الخطابات التى يكتبها الناس للسيدة زينب ويتركونها عند الضريح،

تتشابه الموالد الإسلامية مع الموالد المسيحية. فهناك أيضا تجد النشاط التجارى والترفيهى الموازى. وفى مقابل شرائط المديح يعلو صوت الترانيم. وتوهب الأضاحى وتوزع على الفقراء

ليس بمستغرب أن تقابل فى جناح النساء بمسجد السيدة زينب نساء من طبقات اقتصادية عليا أو حاملات لشهادة الدكتوراه

واللافت للنظر حين يقرأ المطالع لهذه الدراسة بأجزائها المختلفة أنها أثبتت دون ضجيج نسوى ولا موقف دفاعى أن الثقافة الشعبية / الدينية / التقليدية التى طالما اتُهِمَت بالأبوية والذكورية قد اختارت سيدات آل البيت رموزًا محورية، وأبرزهن السيدة زينب. وإذا كان قائل سيذهب إلى أنها نظرت لهن كأمهات، أى في ظل بنية تقليدية ترى المرأة أمًا وحسب، ثم تحولها في المجال الدينى إلى أم المؤمنين. وفى المجال الشعبى إلى أم العواجز، فإن هذا لا ينقض دلالة هذه المنزلة. وفى التفاصيل التى تسوقها نادية أبو زهرة حول منزلة السيدة لدى الرجال من زوارها وطلابها دلالة على تهافت هذا النقد وضعفه. بل تذكر الباحثة أن الرجال أكثر بكاءً وتأثرًا عند زيارتها وفى مولدها من النساء. . . بعكس الشائع عن ضعف النساء وسرعة تأثرهن وعاطفتهن. وعبر حوارات وبورتريهات مرسومة بعناية ودقة لكثير من النساء اللاتى يزرن السيدة، تكشف الدراسة عن ثقافة النساء الدينية الثرية حتى في أشد حالات الفقر والأمية. فالمرأة في المجتمع التقليدى والطبقات الفقيرة شديدة التدين، على غرار دراسة د. سيد عويس الرائدة حول مضمون رسائل البسطاء للإمام الشافعى، بيد أنها حين اقتربت من الظاهرة وجدتها أكثر تعقيدًا وتركيبًا. ولذا وسعت من دراستها لتضم شتى الأبعاد الرمزية والاجتماعية والطقوسية. فجاءت شديدة الثراء والريادة والتميز.

لا نهاية للموالد التى تقام في مصر ويصعب عدها وحصرها، ولا نهاية للقصص التى تروى عن كرامات آل البيت والأولياء. وعلى مدار العام هناك دائمًا احتفال بمولد لأحد الأولياء في مكان ما بمصر المحروسة. وساد اعتقاد بأن البسطاء يرون الأولياء كواسطة بين الإنسان وخالقه، ويعترفون لهم بسلطان لا حدود له، ويضفون عليهم صفات خارقة. لكن نادية أبو زهرة حين تقترب من الناس وتعيش بينهم ترى أنهم يحرصون في الزيارة وفى الموالد على تأكيد التزامهم بمفهوم التوحيد الخالص لله، وأنهم يبدأون وينهون تحيتهم وزيارتهم للأضرحة بالشهادتين وصيغ التوحيد الواردة في الدعاء القرآنى، مؤكدين أن الزيارة محبة ومودة وليست شركًا بالله ولا التماس واسطة. وربما كان هذا ما فهمه الأئمة والدعاة الذين يعايشون الناس في الربوع وأقاصى النجوع، مما جعل حكمهم على هذه الممارسات أقل حدة وأكثر تفهمًا ورحابة، وهو ما جعل المولد النبوى من الاحتفالات الأساسية في الحياة المصرية، بل يرصد المؤرخون أمثال المقريزى وابن إياس والجبرتى وغيرهم كيف كانت الموالد مناسبة لسعى الحكام لتكريس شرعيتهم الدينية بمنح العطايا وإقامة الولائم للفقراء، في محاولة لتوظيف هذه الطقوس لخدمة سياساتهم وتثبيت أركان سلطانهم. وللحملة الفرنسية على مصر طرائف مشهورة في مسألة إظهار احترام الموالد المختلفة وادعاء التقدير لآل البيت. فالتدين الشعبى، وإن كان يسعى للابتعاد عن دائرة السياسة بنزاعاتها وصراعاتها وينشد ممارسة العبادات والشعائر في هدوء وسلام، إلا أن توظيفه سياسيًا أمر متكرر عبر التاريخ، إذ كيف يمكن الإفلات من سعى الحكام الحثيث إلى التغلغل والاختراق والسيطرة على شتى المستويات وصولاً إلى أدق التفاصيل الصغيرة. وفى المولد، الذى يمثل ذروة الاحتفاء بالولى، تعيد نادية أبو زهرة اكتشاف هذا التلاحم بين الدوائر المختلفة. ففى مولد السيدة زينب تتلاقى الجماهير التى جاءت من شتى أنحاء مصر، دون ترتيب أو تنسيق، مع أتباع الطرق الصوفية الذين يمثلون بأعلامهم ولافتاتهم ويتميزون بمظهرهم ويتجمعون حول خيامهم مع ممثلى الهيئات الرسمية التى تحرص على التواجد، بل يقام المولد قانونًا تحت إشرافها، وأهمها وزارة الأوقاف وكذا الدولة بأجهزتها الأمنية التى تنظم المرور وتمنح تراخيص الأنشطة التجارية المؤقتة، وتضمن سلامة وأمن مئات الألوف المشاركة في المولد، وخاصة في «الليلة الكبيرة» التى تمثل ذروة الاحتفال.

في هذه اللحظة الطقوسية تتداخل الدوائر وتتشابك. لذا فإن دراستها تصبح ضرورية لدحض افتراض انفصالها أو تعارضها. وهذا التداخل يتم على أرضية الناس البسطاء والفقراء الذين يمهد تدينهم الشعبى اليومى لهذه اللحظة ويستمر بعد أن ينفض المولد في مساره المعتاد المنتظم.

والمولد ليس فقط مناسبة للذكر والطقوس والتلاوة والصلاة على النبى وآل بيته، بل هو كذلك مناسبة لإخراج الصدقات وإطعام الفقراء وذبح الذبائح، بل والدعاية الانتخابية للأحزاب إذا تزامنت معه، ولتأكيد النفوذ المحلى والسياسى، وللنشاط التجارى والترفيهى. كما أنه أهم مناسبات تجديد العلاقة وتوثيقها بين أتباع الطرق الصوفية الذين يتجاوز عددهم عدد المنخرطين في الأحزاب السياسية أو الجماعات الدينية والحركات السياسية أضعافًا مضاعفة. ورغم تفاوت طقوس الموالد إلا أن لها سمات مشتركة سواء ذهبت إلى مولد الحسين أم السيدة زينب أم نفيسة العلم، أو قصدت السيد أحمد البدوى أو أبو الحسن الشاذلى أو بلغ بك المدى حضور مولد أبو حجاج الأقصرى.

ومازالت هذه الموالد المختلفة في انتظار من يدرسها دراسة وافية بل ومقارنة، وهى المساحة التى حاول د. عرفة عبده على في كتابه المنشور حديثًا « موالد مصر المحروسة» الاقتراب منها بشكل انطباعى وصفى كما أكد هو وتحتاج لمزيد دراسة وبحث متعمق ربما تمثل دراسة الباحثة الفرنسية كاترين مايور جاوان عن شخصية السيد أحمد البدوى وحياته وكراماته وتاريخ الكتابة عنه ومنزلته في الأدب والشعر الصوفى عن الأولياء والصادرة عام ١٩٩٤ عن المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة، تمثل هذه الدراسة جهدًا رصينا في هذا الاتجاه يلزمه بحث ميدانى

لديها - السيدة زينب - يبحث الناس عن العدل بعد أن ضاقت بهم السبل. إنها «رئيسة الديوان» كما يسمونها، اعتقادًا من العامة بأن لأولياء الله وآل بيته ديوانا ومجلسا فى الملأ الأعلى ترأسه السيدة زينب

إثنوغرافى جاد لإثراء هذه الدراسات الاجتماعية فى التدين الشعبى ومظاهره، ليس فقط الإسلامى منه، بل كذلك المسيحى / القبطى إذ تتشابه الموالد الإسلامية مع الموالد المسيحية، فهناك أيضًا تجد النشاط التجارى والترفيهى الموازى. وفى مقابل شرائط المديح يعلو صوت الترانيم، وتوهب الأضاحى وتوزع على الفقراء. وهناك صناديق النذور، بل والليلة الختامية و«الزفة». وفى مقابل عمليات الختان هناك عمليات التعميد، وحرق البخور، ورفع الرايات، بل وقد يقصد المسيحى موالد المسلمين ويحتفى المسلم بمنزلة القديسين ويزورهم، وهى ظاهرة لم تعطها نادية أبو زهرة مساحة فى دراستها، وهى تستحق مزيد اهتمام من «تقرير الحالة الدينية فى مصر» الذى تصدره الأهرام فى المستقبل والذى تضمن فى عدده الثانى الصادر حديثًا جزءًا صغيرًا حول مولد السيد أحمد البدوى ومولد مارجرجس فى ميت دمسيس، وإن كان الربط بين الموالد فى التقاليد المسيحية والإسلامية ودراسة الطبيعة المصرية المشتركة ورمزيتها فى حاجة لالتفاتة أكبر، وخاصة فى سياق دراسة مكانة المرأة فى هذه التقاليد، إذ لا يمكن تجاهل هذه الاستمرارية فى محورية منزلة المرأة من إيزيس فى أساطير الفراعنة مرورًا بالقديسات القبطيات اللاتى تقام لهن أيضًا موالد واحتفاليات وأشهرهن القديسة دميانة، واستمرار هذا فى التقاليد الإسلامية بالاحتفاء والمنزلة الرفيعة لسيدات بيت النبوة وآل البيت مثل السيدة زينب والسيدة نفيسة وغيرهما، بما يستحق التأمل والنظر فى مكانة ورمزية المرأة فى التراث الدينى والتى كانت كما ذكرنا آنفًا موضع انتقاد وهجوم من جانب الكثير من التيارات التقدمية فى سياق نقدها للتراث الدينى بشكل عام، وكذا موضع نقد الكتابات النسوية الغربية والعربية لفترة طويلة.

هل التدين الشعبى هو تدين الفقراء؟ الإجابة عند نادية أبو زهرة بالنفى. فالشعبى هنا يقصد به الجماهيرى / العفوى / غير المنظم أو المقنن الذى يجمع الناس ويمثل مساحة مشتركة من القيم والمفاهيم والممارسات. لذا فليس بمستغرب أن تقابل فى جناح النساء بمسجد السيدة زينب نساء من طبقات اقتصادية عليا، أو حاملات لشهادة الدكتوراه. كما أن الشعبى ليس هو المرتبط بالخرافة أو ما شابه، بل تعد طقوس الاحتفال بشهر رمضان ذات السمت المصرى المتميز من مظاهر التدين الشعبى / الجماهيرى. ولكن هل محت هذه الطقوس الدينية طقوسًا كان يمارسها المصريون قبل الفتح الإسلامى؟ ربما كانت عبقرية الإسلام أنه استوعب واحتوى ثقافات وممارسات سابقة عليه دون صدام أو محاولة للمصادرة. ومن هنا، استمرت الاحتفالات بشم النسيم لترى فيها العين الفاحصة بعضًا من تقاليد الفراعنة وشيئًا من الثقافة القبطية، ثم التعامل معها بسماحة لتشارك الجموع الغفيرة من المسلمين فيها احتفاءً بالطبيعة وقدوم الربيع دونما إبراز للدينى، بل تقديم للوطنى الإنسانى المشترك فى التفاعل مع الطبيعة والأرض.

وفى الجزء الأخير من كتابها تقدم نادية أبو زهرة دراسة مقارنة بين احتفال المصريين بشهر رمضان الذى تقام فيه صلاة التراويح ويمثل شهر عبادة، ويمتاز كذلك فى مصر بسمت اجتماعى وثقافى خاص، فيتفاعل فيه الدينى مع التراثى مع الثقافى، وبين الاحتفال بشم النسيم الذى يمثل احتفالاً «علمانيًا» صرفًا على حد وصفها، لكنه يتم فى وسط محيط أوسع من التدين الشعبى يكسبه طبيعة خاصة.

ما هو القاسم المشترك بين طقوس الاستسقاء وطقوس الوفاة والدفن والحداد، ومولد السيدة زينب، ورمضان، وشم النسيم؟

القاسم المشترك هو الناس، وتفاعلهم مع الكون، ورؤيتهم للغيب، وربطهم المتراكم عبر القرون بين الدين والحياة، وإن اختلفت عقائدهم جيلاً بعد جيل، أو تجاورت هذه العقائد.

إن عودة الاهتمام بالتدين الشعبى هو - فى حقيقة الأمر - عودة للاهتمام بالناس، هؤلاء الذين تواروا حين سُلط الضوء على الحركات الاحتجاجية والجماعات المنظمة وغاب عن الباحثين أنهم الرصيد الحقيقى لأى حركة تغيير وهم المحيط الأوسع من التدين الذى لولاه لما تبلورت الحركات الدينية السياسية ولولا بقاؤه بعدها لما بقى الإسلام.

وعبر طقوس الميلاد والموت وما بينهما فى كل بيت وكل حى وكل منطقة وقرية ومدينة ودائرة حضارية يستمر الدين من جيل إلى جيل ويتم تناقله، ثم تبرز حركات التجديد والإحياء لتكسب هذا التدين العام أبعادًا وثقلاً فى المساحة الاجتماعية أو السياسية أو الفقهية. وعلى هذه الأرضية الصلبة تبنى الحركات. وحين تواجه الأزمات تبقى هذه الأرضية الصلبة حافظة للعقيدة حية فى حياة الناس انتظارًا لدورة تجديد أو حركة إصلاح جديدة.

وحين يأتى المرء من حقل العلوم السياسية وهوامش تلاقيه مع العلوم الاجتماعية الأخرى متخمًا بالقراءة حول الحركات الاحتجاجية وحركات الرفض وتصارع النخب المتنافسة على السلطة وغيرها من القضايا «الكبرى»، ثم يدلف مع نادية أبو زهرة إلى ساحة «سيدة الديوان» و «أم العواجز»، أو يراقب أحزان الناس فى مناسبات الوفاة، أو تلاقيهم على موائد رمضان، يدرك أن هناك جوانب مهمة فى واقعنا الاجتماعى غائبة عن الصورة الفكرية والأكاديمية، وأننا قد أغفلنا تلك المساحة الثرية. وآن لنا أن نعيد اكتشافها.. مساحة الأمة والناس . . والله أعلم.

كتاب الزاوية

من شعر ابراهيم ناجى

السراب على البحر

لا القوم راحوا بأخبار ولا جاءوا
ولا لقلبك عن ليلاك أنباءُ،
جفا الربيع ليالينا وغادرها
وأقفر الروض لا ظل ولا ماءُ
يا شافى الداء قد أودى بى الداء
أما لذا الظمأ القتال إرواءُ
ولا لطائر قلب أن يقر ولا
لمركب فزع فى الشط إرساءُ!
عندى سماء شتاء غير ممطرة
سوداء فى جنَبات النفس جرداء
خرساء آونة هوجاء آونة
وليس تخدع ظنى وهى خرساء
وكيف تخدعنى البيداء غافية
وللسواقى على البيداء إغفاء
أأنتناديتِ أم صوت يخيل لى
فلى إليك بإذن الوهم إصغاء

* * *

تفرق الناس حول الشط واجتمعوا
لهم به صخب عالٍ وضوضاءُ
مالى بهم، أنت لى الدنيا بأجمعها
وما وعت ولقلبى منك إغناءُ
لو أنه أبدٌ ما زاد عن سنة
ومدة الحلم بالجفنين إغفاء
أرنو إليك وبى خوف يساورنى
وأنثنى ولطرفى عنك إغضاء
إذا نطقت فما بالقول منتفع
وإن سكت فإن الصمت إفشاء
وأيما لفظة فالريح ناقلة
والشط حاك لها والأفق أصداء
يا ليل من علم الأطيار قصتنا
وكيف تدرى الصبا أنا أحِباء
لما أفقنا رأينا الشمس مائلة
إلى المغيب وما للبين إرجاءُ

كتب عربية

السيف والهلال

رضا هلال

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

هذا الكتاب، يحمل ثلاثة عناوين فوق غلافه لا عنوانًا واحدا: السيف والهلال - تركيا من أتاتورك إلى أربكان - الصراع بين المؤسسة العسكرية والإسلام السياسي. لكنه في الحقيقة يركز على الدور المهم الذي يلعبه الجيش التركي في تحديد مصير تركيا ومسار الحكم فيها، ففي عديد من الانقلابات التي جرت في تركيا أعوام ١٩٦٠ و١٩٧١ و١٩٨٠، كان الجيش يتدخل لوضع حد للفوضى الاجتماعية، أو لحسم الصراع بين الإسلام السياسي والمجتمع المدني - وفق رؤيته - كما جرى في تدخله عام ١٩٩٧، لإقالة حكومة أربكان وحظر أنشطة الرفاه، ومقاومة الإحياء الإسلامي، وهو دور ينظر إليه الجيش التركي باعتزاز، بوصفه صاحب الإسهام الأكبر في «تتريك» تركيا بدءا من أواسط العشرينيات، ورغم أن المبادئ التي أرساها أتاتورك، جرّمت انخراط ضباط الجيش في السياسة، فإنها منحت الجيش شرف حماية التعاليم التي قامت عليها الحكومة التركية والحفاظ على الدستور ضد أي انتهاك. وهو ما جعل الجيش في موقف أعلى من السلطة التنفيذية.

ويرصد الكتاب كيف كانت أزمة نهاية السبعينيات في تركيا حالة ضرورية لتدخل العسكر لوضع حد للفوضى الاجتماعية آنذاك. إذ تعاقب على حكم تركيا ١٢ حكومة أقلية وائتلافية خلال الفترة من يناير ١٩٧١ وحتى ديسمبر ١٩٧٩، بينما تدهور معدل النمو الاقتصادي من ٨٪ عام ١٩٧٥ إلى ١٫٧٪ عام ١٩٧٩، وارتفع معدل التضخم إلى ٨٥٪، ووصلت نسبة البطالة إلى ٢٠٪. لهذا كله، تدخل الجيش فيما عرف بانقلاب سبتمبر ١٩٨٠ الذي قاده الجنرال كنعان إفرين. فأغلق الأحزاب السياسية وحل البرلمان وأقال العمد وأعضاء المجالس المحلية، وزادت سلطات العسكريين بشكل غير مسبوق، وقبل أن يعيد الجيش السلطة للمدنيين في الانتخابات العامة التي جرت عام ١٩٨٣، فرض دستورًا جديدًا وإطارًا عاما للحياة السياسية، مكّنه من الإشراف على الحياة السياسية. وبعدها بدأ الصعود المتنامي لتيار الإسلام السياسي ،وحين وصل أربكان إلى الحكم كان عليه أن يثبت للعسكريين حرصه على علاقات تركيا بالغرب وولائه للدستور التركي العلماني، ولذا قدم تنازلات عديدة، بدءًا من التزامه بعلمانية تركيا، إلى اتفاقه الاستراتيجي الثاني مع إسرائيل، إلى نبذه لشعارات الأممية الإسلامية والبنك المركزي الإسلامي والدينار الإسلامي، إلى تخليه عن الوزارات المهمة لشريكته في الائتلاف «تانسو تشيللر» وبرغم كل هذه التنازلات، فقد أقصى أربكان في «انقلاب مدني» قاده الجيش من وراء ستار ليخلفه مسعود يلماظ، وفرض قادة الأركان على حكومة أربكان ١٨ إجراء لضمان التصدي للنزعة الإسلامية، وأعلنوا صراحة أن الأصولية الإسلامية خطر داهم يهدد تركيا.

والنتيجة التي يتوصل إليها الكتاب في رصده للصراع بين السيف والهلال في تركيا هي أن الإسلام هناك لم ينته بإقالة حكومة أربكان، وربما كان قدر تركيا - كما - يشير المؤلف في الختام - أن تجمع بين الإسلام والحداثة، وأن تقيم مجتمعا إسلاميا حديثا لا دولة إسلامية أصولية.

المثقف والسلطة

مصطفى مرتضى علي محمود

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨

يقدم هذا الكتاب دراسة تحليلية لأوضاع المثقف المصري في الفترة من عام ١٩٧٠ وحتى عام ١٩٩٥ خصوصا على صعيد علاقته بالسلطة. وهو يبدأ بفصول ثلاثة تحدد المفاهيم وتبحث عن إطار نظري ملائم ثم تقدم رؤية نقدية للدراسات السابقة في الموضوع، وفي الفصول الخمسة التالية يدرس التحولات البنائية وانعكاساتها على أوضاع المثقفين المصريين، وعلى العلاقة بين الدولة والمثقف على التوالي،قبل أن يقدم في الفصول الثلاثة الأخيرة رؤى المثقفين المصريين للعديد من الإشكاليات المهمة: قضية العدالة الاجتماعية، الديمقراطية، إشكالية الأصالة والمعاصرة.

لكن المؤلف لا يقفز بنا إلى فترة حكم الرئيس السادات دون أن يعرج على المرحلة الناصرية، والتي تميزت بعلاقة ملتبسة بين المثقفين والسلطة، ويلاحظ المؤلف أن فترة الخمسينيات والستينيات تميزت بنوعين من المثقفين: مثقف خاطر بحياته في رهان تاريخي على الثورة ومبادئها. وهو نفسه الذي صدمته الإجراءات التي اتخذتها الدولة لتضييق الحريات دون تبريرات مختلفة، لكنه مع ذلك كان يؤمن بأن هذه الإجراءات مؤقتة وستزول حالما تنتهي الثورة من تثبيت مواقعها في مواجهة أعدائها. وفي مقابل هذا النمط، كان هناك مثقفون من الضباط والبيروقراطيين والتكنوقراط، سرعان ما وضعوا أنفسهم في القوالب التي أرادتها السلطة لهم وتحدثوا لغتها، وصار المثقف الملتزم يعاني قهرا دفعه إلى الاغتراب أو الغربة داخل وطنه.

وينبه المؤلف إلى أن حقبة السبعينيات التي شهدت تعميق السلطة بعلاقتها بالرأسمالية العالمية، أفرزت مثقفين معارضين رافضين لتلك التوجهات وللغرب بشكل عام، وعلى الجانب الآخر، كانت هناك ثقافة رسمية تضخ عبر وسائل الإعلام الجماهيرية ثقافة تقمع التوجهات النقدية والعقلانية والمبادرات الإبداعية، وتنمي روح الاستهلاك والتغريب والابتذال والإذعان، وكان أخطر الإجراءات استغلال السلطة السياسية للدين كأيديولوجيا لتزييف وعي الجماهير.

ويعرض المؤلف في الفصول الثلاثة الأخيرة لموقف وآراء المثقفين المصريين من التيارات الثلاثة الأساسية، الماركسي والليبرالي والإسلامي، من قضايا الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والأصالة والمعاصرة.

وحين يسعى المؤلف لاستشراف طبيعة هذه العلاقة في المستقبل، فإنه لا يقدم إجابات جاهزة، وإنما أسئلة يتركها مفتوحة لاجتهادات المثقفين والسلطة، وربما لفعل المستقبل ذاته.

سرير الغريبة

شعر: محمود درويش

لندن: دار رياض الريس، ١٩٩٩

هذا هو آخر دواوين الشاعر الفلسطيني محمود درويش، الذي ما زال، رغم غزوة قصيدة النثر - وهو صرح أنه لا يعترف بها ويخشى ميليشياتها - ينظم قصائده محافظا على الوزن، ومحتفيا بالإيقاع وموسيقى الشعر إلى آخر مدى.

ولا تحضر فلسطين بشكل مباشر في قصائد الديوان الذي يتنقل بين كل مدينة عربية، وتسافر حروفه في أروقة التاريخ وأساطيره، حيث آلهات مصر وسومر، وسحر روما وقرطاج. وأبيات جميل بثينة وقيس ليلى، وغياب فلسطين المباشر مقصود على ما يبدو، كي يؤكد الشاعر من جديد، رحابة عالمه من ناحية، وفجيعة الألم الإنساني بصرف النظر عن سوابق التاريخ ومحدودية الجغرافيا من ناحية ثانية.

غنائية محمود درويش التي ميزته دائما، تأتي في هذا الديوان كثيفة وعالية، لكنها مشحونة بحس إنساني وثقافي رفيع، يضع صاحبه ضمن من يتبوأون قمة الهرم الشعري العربي في لحظته الراهنة.

الديوان هو الثامن عشر لمحمود درويش، ويتضمن نحو ثلاثين قصيدة كتبت بين عامي ١٩٩٦ و١٩٩٧.

الحركة الإسلامية المسلحة في الجزائر من الإنقاذ إلى الجماعة

كميل الطويل

بيروت: دار النهار، ١٩٩٨

يعرض الكتاب لتاريخ الأزمة في الجزائر بين عامي ١٩٨٩ و ١٩٩٧، وهي مرحلة أبدت فيها السلطة في العالم العربي قدرا من الانفتاح على التيار الذي يرى أن الانتقال إلى الحكم الإسلامي ينبغي أن يكون سلميا، وهو انفتاح جاء على حساب تيار لا يرى سبيلا لإقامة حكم إسلامي إلا بالجهاد، وبرغم هذا الانفتاح فإن الأنظمة العربية اعتبرت أن التيار الأول ليس سوى واجهة للأخير، ومن ثم، ألغت السلطة في الجزائر نتائج الانتخابات التي فازت فيها الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالأغلبية عام ١٩٩٢، مما فجّر الصراع بين الجبهة والحكومة من ناحية، وعزّز من ناحية ثانية موقف التيار الرافض للحكومة والمجتمع ومؤسساته.

وقد نشأت الجبهة كتكتل جمع تيارات إسلامية عدة، بعضها كان موجودًا في الساحة، وإن لم يمارس نشاطًا علنيا بسبب احتكار جبهة التحرير للأنشطة السياسية في البلاد، أما الجماعة الإسلامية المسلحة، فإن نشأتها كفكرة ليست معروفة ، وإن كانت بداية نشاطها الرسمي ترجع إلى العام ١٩٩٢.

وبسبب الضربات الموجعة التي وجهتها السلطة للإنقاذ، تراجعت الأخيرة، وبسطت الجماعة المسلحة نفوذها حتى في مناطق نفوذ جبهة الإنقاذ ذاتها.

ويعرض المؤلف للعلاقات داخل الجماعة المسلحة ذاتها، وبينها وبين الجماعات الأخرى، فأمير الجماعة الذي أمر بقتل الرهبان الفرنسيين السبعة (جمال زيتوني) قتل على يد معارضين من الجماعة، وبرغم بشاعة ما قام به، فإن ماجرى في إمارة خلفه «عنتر الزوابري» يتجاوزه عشرات المرات ، حتى أن الجزائريين يعرفونه بـ«عهد المذابح» . وبدا أن الجماعة المسلحة تصر على فرض رؤيتها على المجتمع، فرفضت الخصخصة، والتحاكم أمام القضاء الجزائري، وأعلنت أنها ستقتص من تارك الصلاة أو الزكاة، أما الجناح المسلح للإنقاذ، فقد أعلن عن هدنة مع الحكومة عام ١٩٩٧، وطلب زعماؤه إجراء حوار معها، فهل تؤدي هذه الهدنة إلى أوضاع جديدة في الجزائر؟ سؤال يحمل رائحة الأمل، يسوقه المؤلف في نهاية كتابه.

شكسبير واليهود

رمسيس عوض

القاهرة: سينا للنشر، مؤسسة الانتشار العربي، ١٩٩٩

حتى الآن، لم يظهَر في الأدب الغربي يهودي أشهر من «شيلوك»، التاجر المرابي في مسرحية شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية»، وكثير من الكتاب الذين جاءوا بعد شكسبير استفادوا من هذه الشخصية ووظفوها بطريقتهم، وتحول شيلوك بفضل شكسبير إلى أسطورة نسجت عبرها حكايات عديدة، خصوصا في مرحلة كان اليهود يمثلون فيها مشكلة مؤرقة لأوربا.

لهذا السبب يحتل «شيلوك» نحو ثلثي مساحة كتاب «شكسبير واليهود»، إذ يخصص له المؤلف الفصلين الثاني والثالث، فيقدم في الفصل الثاني

عـــــروض مــــــوجـــــزة

تلخيصا لمسرحية «تاجر البندقية» ومصادرها، ويدرس فى الثالث نظائر المسرحية فى الثقافات غير الإنجليزية، والتحليل الفرويدى لها. وأخيرا يقدم أصداءها بعد الحرب العالمية الثانية. أما الفصل الأول، فهو دراسة تاريخية عن اليهودى وصورته فى أوروبا العصور الوسطى.

وقد حفلت روايات ومسرحيات القرن الثامن عشر بشخصيات يهودية مقيتة، تتسم بالمكر والجشع وتشتغل بالسمسرة والربا، غير أن ذلك لم يمنع مؤلفا مثل الكاتب المسرحى «ريتشارد كمبرلاند» من كتابة مسرحية عنوانها «اليهودى عام ١٧٩٤» بدا فيها بطله اليهودى «شيفا» محسنًا وكريمًا على نقيض شخصية شيلوك تماما. لكن «شيفا» اندثر وبقى «شيلوك»، وبقى بعده اليهودى زعيم العصابة فى رواية تشارلز ديكنز الشهيرة «أوليڤر تويست» والمرابى فى رواية الروائى الإنجليزى ترولوب «رئيس الوزارة» وكذلك فعل الشاعر ت.س. إليوت فى قصيدة بعنوان «بيربانك» نظمها عام ١٩١٩، وفيليب لاركين فى روايته «جيل» عام ١٩٤٦، دون أن ينفى ذلك السعى لتغيير صورة اليهودى فى الأدب الغربى فى القرن العشرين.

عصافير النيل

إبراهيم أصلان

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩.

هذا هو آخر الأعمال الإبداعية للأديب إبراهيم أصلان. وهو مقل بدرجة ملحوظة. فبرغم انتمائه إلى جيل الستينيات الأدبى، وبداياته الملفتة قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاما، لم يصدر سوى مجموعتين قصصيتين هما «بحيرة المساء» و «يوسف والرداء» وثلاث روايات هى «مالك الحزين» و «وردية ليل» والرواية التى بين أيدينا.

وتدور رواية أصلان الأخيرة فى عالمه «الأثير» الكيت الكات، بالتحديد فى شارع فضل الله عثمان. وبين شخوص يبدون كما لو كانوا يبزغون من أطياف حلم، أو هم على وجه الدقة، يقفون على الخيط الواهى بين الحلم والواقع، ويمثلون أربعة أجيال مختلفة، بدءًا من الجدة نرجس التى تبدأ الرواية باختفائها وتنتهى دون تحديد واضح لمصيرها، وانتهاءً بنرجس الصغيرة والولد عبد الله، مرورا بالبهى عثمان والخال عبد الرحيم وعشرات آخرين ممن صنع بهم أصلان روايته، التى مارس فيها لعبته الأثيرة فى تكسير الزمن، بحيث تجرى الانتقالات داخل الرواية بطريقة تبدو مربكة، لكن بالدأب ومتابعة القراءة تتكشف الصورة تدريجيا، فأبطال أصلان كما هم دائما من البسطاء، أحلامهم تماثلهم، لكنهم شديدو الطرافة والدهاء. منكبون مثل كل المصريين على لقمة العيش، ويوقنون بمكر تاريخى، أن الكبراء غير معنيين بهم. وأنهم مجرد أدوات يتم استخدامها كى ينجحوا فى الانتخابات أو تمتلئ كروشهم على حساب بطون الفقراء الخاوية.

لايطرح أصلان هذه المعانى بصوت زاعق، إنما كالعادة، بصوته الهامس الخفيض المحايد، ولاتجد بين أبطاله - كالعادة أيضا - من يمكن الاستناد إليه بوصفه العمود الفقرى للعمل الروائى. فالبطل هنا هو المكان بتفاعله المستمر والجدلى مع شخوصه وزمنهم، ويبقى الراوى مثل عدسة لاقطة، تنقل أدق التفاصيل بحياد مماثل.

كنوز من السنة

الشيخ محمد الغزالى

القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٨.

هذا الكتاب، هو آخر الأوراق التى تركها الداعية الإسلامى الراحل الشيخ محمد الغزالى، اختار عنوانها لكنه لم يتمكن من الانتهاء منها، فقد وافته المنية قبل إتمام كتابه، وهو يتضمن تعليقات وتفسيرًا لعشرات الأحاديث النبوية، يربطها بوقائع معاصرة ليبين كيف إذا ما استمسك الناس بالتشريع الإسلامى، والسنة النبوية مصدره الثانى - صلحت أحوالهم ونجوا من تيار المادية الذى طغى، حتى بات يهدد الروح والقيم الإنسانية الصحيحة فى الصميم.

ويشتمل الكتاب على عدة أقسام يضم كل قسم منها عدة مقالات، ويجمع بينها خيط واحد هى: بين الغفلة والمكائد، كلمات فى الإيمان، الإنسان بين الطاعة والمعصية، دعائم اليقين بالله، سلوكيات، شئون المرأة والأسرة، بعض المفاهيم.

يصحح الشيخ الغزالى فى كتابه مفاهيم البعض حول حديث صحيح روى عن رسول الله ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى».

يضع الشيخ الغزالى الحديث فى سياقه ويؤكد على أن الإسلام لا يعرف الإكراه فى الدين، ولم يعلن المسلمون حربا أبدا على قوم ليعتنقوا الإسلام. هذه عينة مما تحفل به مقالات وتفسيرات الشيخ الغزالى.

تراث الغناء العربى

كمال النجمى

القاهرة: دار الشروق - مكتبة الأسرة - ١٩٩٨

يتجاوز الناقد الراحل كمال النجمى فى هذا الكتاب، حالة الخفة التى يتعامل بها كثيرون مع موضوع الغناء بوصفه لهوًا أو ترويحا عن النفس، فيؤصل للمسألة متنقلا بين الموصلى وزرياب وعبده الحامولى والقصبجى وسيد درويش وزكريا أحمد، وصولا إلى أم كلثوم وعبد الوهاب وليلى مراد وشادية.

ويكشف لنا النجمى عن مناظرات ممتعة بين إسحق الموصلى والأمير إبراهيم بن المهدى، والتى امتدت من أواخر القرن الثانى الهجرى إلى منتصف القرن الثالث، ويكشف كذلك مدى التلفيق فى قصة العداوة المختلقة بين الموصلى وتلميذه زرياب، ويشير أيضا إلى كتاب الإمام الغزالى عن «آداب السماع والوجد»، مؤكدا حرص واحد من أبرز فلاسفة المسلمين على أن يضمن كتابه الموسوعى الضخم «إحياء علوم الدين» شيئا عن السماع والغناء، خصوصا عند الصوفية، ويورد النجمى حكايات عن خلفاء العصرين الأموى والعباسى، تبين شغفهم بالغناء والمغنين، وفى مصر اضطلع كثير من المشايخ بمهمة نشر الغناء والتلحين وتطويرهما، ويشير بشكل خاص إلى الدور المهم الذى لعبه عبده الحامولى، الذى لم يكن أزهريا بنشأته، لكنه اكتسب علمه ورهافة حسه من الأزهريين، وغنى أشعارهم وألحانهم، برغم أنه كان من أكبر الملحنين، ثم ظهر فن «الدور»، وتطور على يد المغنين والملحنين من الرجال من أمثال القصبجى وزكريا أحمد وسيد درويش والسنباطى. وما إن نصل إلى عصر عبدالوهاب وأم كلثوم، حتى يشهد فن الغناء، الذى هو الأصل فى الموسيقى العربية تطورا ملحوظا، يتناوله المؤلف بإسهاب محاولا الإجابة عن عديد من المشكلات التى تواجه فن الغناء العربى، الذى كانت حركة النهضة فيه، إحياءً بكل معنى الكلمة، وتزامنت مع النهضة فى مجالات عدة، ويؤكد المؤلف أن أم كلثوم وملحنيها، وضعوا الأسس المتطورة للغناء العربى.

وبقدر المتعة المتحققة من متابعة تاريخ الغناء العربى منذ الموصلى وحتى اليوم، فإن حالة من الإحباط تلازمنا بالضرورة بسبب ما آل إليه حال الغناء خصوصا، ونحن نتذكر قول ابن خلدون فى مقدمته: «أول ما ينقطع فى الدولة عند انقطاع العمران صناعة الغناء».

من المشرق والمغرب

بحوث فى الأدب

شوقى ضيف

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨.

يشتمل هذا الكتاب على مجموعة من المقالات فى التراث العربى، ست مقالات عن الأدب فى المشرق العربى، وست أخرى عن الأدب فى المغرب العربى.

من المشرق العربى يكتب المؤلف عن المثل العليا فى شعر الفروسية الجاهلية، وينتهى إلى أن الحب العفيف نشأ منذ الجاهلية فى ظلال الفروسية وما رسمت من خصال كريمة عند عنترة وأضرابه، ويتحدث فى مقالة ثانية عن بعض صور الأدب المقارن فى الأدب العربى القديم، مؤكدا على الصلات الوثيقة التى قامت بين الآداب العربية والآداب الأجنبية، وتبادل التأثير بينهما حتى على مستوى الأجناس الأدبية، ويستدل المؤلف فى مقالته عن أبى حيان التوحيدى بمدى تغلغل الثقافة العربية فى الطبقات الشعبية عبر حلقات المساجد والمكتبات العامة التى أنشأها أثرياء بغداد والنشاط الهائل الذى قام به الوراقون، وهى مهنة كانت تدر على أصحابها آنذاك مبالغ طائلة.

ويشير المؤلف فى مقالة رابعة إلى الدور الذى لعبه المتصوفة فى نشر الجهاد والإسلام، ويرى أنه «دور تاريخى» (...) يشهد لهم شهادة بنية قاطعة بأنهم جديرون بكل تجلة وإكبار»، ويبرهن فى المقال الخامس على الدور الذى لعبته القاهرة فى الثقافة العربية، والذى يرى أنه دور قيادى أكد الروابط الحميمة بين القاهرة والبلدان العربية، وينبه فى مقاله السادس عن الثقافة العربية الإسلامية فى مواجهة الثقافة الغربية، إلى أهمية الترجمة.

ويكتب المؤلف فى القسم الخاص بالمغرب العربى عن عقيدة الموحدين بين التشيع والاعتزال، وعن حضارة الأندلس التى لعبت دورًا كبيرًا - كما يقول - فى بث الإشعاع الحضارى فى ربوع أوروبا، ويخصص مقالة كاملة للحديث عن استقلال القضاء فى الأندلس والذى كان للفقهاء فيه دور لا يقل عن دور المفوضين بجانب محاكم مجلس الدولة فى صورتها الراهنة، ويعرض الدكتور ضيف فى مقالة رابعة للأصول الإسلامية لقصة حى بن يقظان كما كتبها ابن طفيل، ويعرض فى الفصلين الأخيرين للبلاغة عند ابن رشد، ولسان الدين بن الخطيب الذى يرى المؤلف أنه أكبر كاتب أبدعته الأندلس.

الميــــاه

مصدر للتوتر فى القرن ٢١

محمود أبوزيد

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٨

يشير خبراء عديدون إلى أن حروب القرن المقبل - إذا نشبت - سيكون سببها المياه، والأرقام تدعو للقلق فعلا، فالمياه العذبة تمثل حوالى ٣٪ من مياه العالم، أكثرمن ثلاثة أرباعها فى هيئة جليد، وحوالى ٢٢٪ مياه جوفية، ويوجه الجزء الباقى ٠,٦٪ لتغطية احتياجات ٦ مليارات من البشر.

وفى هذا الكتاب، يناقش الدكتور محمود أبوزيد وزير الأشغال العامة والموارد المائية فى مصر، الأسباب التى جعلت من المياه مشكلة على النطاق العالمى، ويركز على المنطقة العربية باحثا

عـــــروض مـــــوجـــــزة

فى مصادر المياه فيها واستخداماتها وبؤر التوتر المتوقعة بسببها، وكيفية تحسين استخدام المياه، والعلاقة بين المياه وقضايا السلام والتعاون الاقتصادى، ويقدم فى الفصل الأخير توصيات بحلول لمشاكل ندرة المياه فى الوطن العربى.

ويطالب الدول العربية بالإفادة من التطورات التكنولوجية المتلاحقة فى المجال المائى، وأن تطور تشريعاتها المائية بما يخدم أهدافها، وأن تتعاون فيما بينها لتمويل وتنفيذ مشروعات عديدة مثل مشروع أنابيب السلام التركى ومشروع جنوب شرق الأناضول ومشروعات أعالى النيل فى حوض بحر الجبل وبحر الغزال والهضبة الأثيوبية،ويطالب أيضا بإقامة صندوق عربى للأمن المائى، مهمته تمويل إعداد وتنفيذ مخططات الأمن المائى العربى، الذى يعتبره المؤلف:« ركنا أساسيا من أركان الأمن القومى للأمة العربية».

كتب أجنبية

Aux Sources du Renouveau Musulman: d'al Afghani a' Hassan al-Banna, un Siecle de Réformisme Islamique

(من مصادر الإحياء الإسلامى: من الأفغانى إلى حسن البنا. قرن من الإصلاح الإسلامى).

de Tariq Ramadan
Paris: Bayards Editions, 1998. 480p.140F.

رفضت جميع دور النشر التى تقدم إليها طارق رمضان بهذا الكتاب أن تنشره. ما عدا إحدى دور النشر الكاثوليكية التى قبلت هذه المجازفة إيمانا منها بضرورة عقد مواجهة بناءة بين الأفكار الدينية، وإيمانا بأن المواجهة الحقيقية لأى فكر مختلف لا تكون بالقمع ولا بالتقديس، ولكن بنشر هذا الفكر وتعريضه للنقد.

والمؤلف الشاب طارق رمضان. هوحفيد حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين وابن سعيد رمضان أحد الذين فروا إلى چنيف خلال الفترة الناصرية. وهو يعتبر من أهم المراقبين للحركة الإسلامية فى فرنسا ومن أكثر الواعظين جمهورا فى الضواحى الفرنسية خارج باريس. والواقع أن طارق رمضان صديق لكثير من الآباء الكاثوليك مثل كريستيان ديلورم وميشيل لا لونج وبعض العلمانيين.

ويختلف هذا الكتاب عن الأعمال الأخرى لعلماءالإسلام الفرنسيين من أمثال جيل كيبل التى تفتقد البعد التاريخى وتتمسك بآراء محايدة تعبر عن الحركة الإسلامية فى الأونة الأخيرة فقط متجاهلة لماضى وتاريخ الإسلام.

ويقوم الكتاب بإحياء الكثير من الأعمال القديمة، مركزًا على أعمال الأفغانى ومحمد عبده وابن باديس ورشيد رضا لكنه يعطى الأولوية لجده حسن البنا. فيروى بكل حرارة وعمق مشواره الدينى وصفاته ومميزاته كإمام ومنظم للحركة الناشئة للإخوان المسلمين. ونتيجة لصلته العائلية استطاع طارق أن يعرض أعماله التى لم تنشر من قبل.

يظهر المؤلف للغرب حسن البنا فى صورة غاندى المسلم، ولكنه لا ينكر أن مؤسس الإخوان نادى بالمقاومة داخل مصر وفلسطين كما استطاع أن يوحد بين صفوف جميع الحركات الإسلامية وأعطاهم دورا اجتماعيا وتعليميا. ولكنه يؤكد أنه لم يؤسس جناحا عسكريا ولم يقم بتدبير عمليات اغتيال، ففكره نبع من إيمان عميق وملتزم، ولكن موت المئات من أفراد الإخوان خلال فترات القمع هو الذى غيرمن اتجاهها الثقافى إلى الاتجاد السياسى.

The Persian Gulf at the Millenium

(الخليج الفارسى فى الألفية)

Gory Sick and Lawrence Potter (editors)
Macmillan, 366 p, $ 49.95

استحوذ الخليج ونفطه على اهتمام الغرب، وتفوق على الصراع العربى الإسرائيلى كمصدر قلق بالنسبة للدول الغربية. وهذا الكتاب يضم مجموعة من المقالات التى هى ثمرة حلقات النقاش التى انعقدت فيما بين ١٩٩٤ و ١٩٩٥. حيث تبادل مواطنون من ثمانى دول خليجية الآراء مع عدد أقل من الغربيين. وقد قام جارى سك الذى بادر بالمشروع والذى يعمل الآن بجامعة كولومبيا بتحرير الكتاب مع زميله لورانس بوتر، وكان يعمل قبل ذلك خبيرا فى البيت الأبيض للشئون الخليجية. وفى مقاله الذى يضمه هذا الكتاب يرصد «سيك» الأزمة التى يراها تزحف ببطء على دول الخليج والتى تبلغ من الكثافة بحيث يمكن أن تبدل وتغير من سياساتها الداخلية وعلاقاتها مع بعضها البعض وكذلك علاقاتها مع القوى التى تعيش خارج منطقتها. فيناقش «سيك» القصور الهيكلى فى دول الخليج والمتمثل فى غياب المشاركة السياسية والمحاسبية كما يقوم بتحطيم عدة أساطير، من بينها تلك الخاصة بالثروات الخلابة التى تمتلكها تلك الدول: فقد وجد «سيك» أن الناتج القومى الإجمالى للدول الخليجية الثمانى مجتمعة يساوى ذلك الخاص بسويسرا وحدها. وكذلك يزعم أن البترول أصبح بالنسبة لحكومات الخليج بمثابة مخدر يلهيها بأوهام مزيفة، ويبرر لها ما يسميه بالشلل المريح الذى تحيا فيه.

وتعالج بقية فصول الكتاب مشكلات الأمن والمنازعات الحدودية والقدرات العسكرية لإيران. ويقوم فرانك فوجل خبير القانون الإسلامى بجامعة هارفارد بعقد مقارنة بين النظامين الإسلاميين القائمين فى كل من إيران والسعودية.

أما منيرة فخرو الأستاذة بجامعة البحرين فتقوم بفحص الصعود الثورى فى بلدها، وتتوصل إلى أنه من الصعب عدم تصور وجود تطورات مماثلة فى دول أخرى من دول الخليج.

Zarafa

(زرافــــة)

Michael Allin
Head Line, 1998.

انتشرت فجأة فى عام ١٨٢٧ موضة باريسية سميت بموضة الزرافة. فلبس الرجال قبعات لها نفس نقشة الزرافة وصففت سيدات المجتمع الراقى شعورهن على شكل رأس وعنق الزرافة حتى أنهن كن يضطررن للجلوس على أرضية العربات لارتفاع شعورهن.

يكشف المؤلف كيف وصلت هذه الموضة الغريبة إلى باريس. بدأت القصة حينما ساعد محمد على السلطان العثمانى على قمع ثورات بلاد اليونان فكرهه الأوروبيون. إلا أن القنصل الفرنسى بالإسكندرية أقنع محمد على بأن أنسب طريقة لتغيير هذه الصورة السيئة هى أن يغرق ملوك أوروبا بالهدايا غير الأثرية حيث فضل القنصل أن تظل الآثار مجالا للتجارة الخاصة. ووقع الاختيار على إرسال زرافتين أفريقيتين إحداهما إلى لندن حيث ماتت من قلة العناية بها وأخرى إلى ملك فرنسا شارل العاشر والذى كان مهتما بحدائق الحيوان.

ويتتبع المؤلف حياة هذه الزرافة الثانية منذ ولدت عام ١٩٢٤ بمدينة سنار بالسودان ونقلها على فلوكة فى النيل إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا لتصل أخيرا إلى ميناء مرسيليا أواخر عام ١٩٢٦. وظلت هذه الزرافة هى الوحيدة بأوروبا لمدة ٣٥٠ عاما. أطلق عليها الأجانب اسم «زرافة» كما تنطق بالعربية وكان طولها اثنى عشر قدما، لها حارس عربى اسمه حسن وكانت تشرب خمسة وعشرين جالونا من الحليب حيث رافقها عدد من الأبقار منذ بداية رحلتها. ودرس العلماء هذا المخلوق الجديد عليهم بعناية وتتبع الشعب الفرنسى رحلتها من مرسليا إلى باريس بشغف شديد فرسموها وكتبوا فيها المقالات والأشعار وزارها خلال اليومين الأولين من عرضها للجمهور مائة ألف فرنسى.

ومع ذلك لم تتحسن سمعة محمد على حتى عندما حاول إهداء الأوروبيين بعض المسلات أيضا. وتوفى القنصل رجلا ثريا من تجارة الآثار، وعندما ماتت «زرافة» حنطوها ومازالت معروضة حتى الآن بمتحف «لا روشيل».

The Emperors of Chocolate: Inside the Secret World of Hershey and Mars

(أباطرة الشوكولاتة: داخل العالم السرى لهيرشى ومارز)

Joel Glenn Brenner
Random House, 1999, 366 pp, 25.95

تعد مؤلفة هذا الكتاب ـ وهى محررة سابقة بالواشنطن بوست الصحفية الوحيدة التى استطاعت أن تقتحم شركة مارز لصناعة الشوكولاتة. فهى شركة شديدة السرية، حتى أنه عند استعانتهم بخبراء من الخارج لمعالجة أمر ما فى المصنع يتم تغمية أعينهم إلى أن يقتادوا للموقع المراد معالجته.

أما فورست مارز الابن والذى يدير الشركة مع أخيه چون، فهو يرفض أن يتم تصويره «فوتوغرافيا» منذ أن كان بالجامعة، وهو يتنكر كلما كان لديه اجتماعات خارجية. وهذا الكتاب يحوى أول مقابلة تجرى مع كليهما، كما يروى قصة أكبر عملاقين فى صناعة الشوكولاتة بالعالم أجمع: مارز وهرشى.

إن هذين المنافسين يسيطران على ٧٥٪ من سوق الحلوى فى الولايات المتحدة، كما أنهما يصنعان ١٨ صنفًا من بين أكثر من ٢٠ صنفًا مبيعًا من الحلويات. وفى الوقت الذى يتوقع فيه البعض أن يدخل المنافسة فى ظل نمو الأسواق الخارجية، صناع آخرون إلا أن العملاقين الكبيرين أصبحا أكثر سيطرة وأشد احتكارًا للسوق. وتزايد عدد المتساقطين من الصناع المستقلين. وبينما كان عدد صنّاع الحلوى فى أمريكا عام ١٩٤٥ يبلغ ٦٠٠٠، يتوقع أن ينكمش هذا الرقم عام ٢٠١٠ ليصل إلى ١٥٠.

وبعيدًا عن ذلك، فإن الكتاب يركز بالأساس على شخصية وحياة كل من فورست مارز الأب وملتون هيرشى. وما دار بينهما من معارك وحروب.

وتختلف شخصية هذان الرجلان أشد الاختلاف، فأحدهما وهو فورست مارز تسيطر عليه الرغبة فى غزو وامتلاك العالم، والآخر ملتون هيرشى تسيطر عليه الرغبة فى بناء يوتوبيا صناعية. وقد كان فورست مارز الأب رجل أعمال موهوبا وغليظا فى الوقت نفسه قام باختراع بعض من أنجح أنواع الحلوى فى تاريخ الشركة مثل ميلكى واى وام & إمز، كما طوّر من صناعة الشوكولاتة مستفيدًا من الصناعات الكيميائية وصناعات الحديد لكى يخفض الزمن الذى يستلزمه إنتاج عبوة من الحلوى من ١٦ ساعة إلى ٣٥ دقيقة. ولم يتورع حتى عن التجسس لصالح شركته بنفسه، فقد

تنكر فى صورة عامل مصنع فى سويسرا ليدخل مصانع «نستله» و «توبليرون». وفى مسألة الجودة كان شديد التطرف. فقطعة الشوكولاتة من نوع «سنيكرز» يجب أن تحمل ١٥ حبة فول سوداني بالتمام.

وقد خلق فورست مارز فى شركته مناخًا من الثقافة الداروينية. فقد كان المدير الذى يبدأ تعيينه يوقع على جواب استقالة نافذ المفعول فى حالة الإخفاق فى تحقيق أحد الأهداف. ولكنهم فى المقابل كانوا يحصلون على رواتب عالية (مربوطة بالأرباح). وكان الطريق مفتوحًا للصعود أمام ذوى الكفاءة ـ ولكن ليس إلى القمة التى كانت محجوزة لأبنائه.

ولا يعنى هذا أنه كان رحيمًا معهم. فأبناؤه لم يذوقوا حلوى الـ إم & إمز وهم أطفال. وذات مرة فى أحد الاجتماعات جعل مارز ابنه الأصغر چون يصلى على ركبتيه من أجل الشركة لمدة ساعة.

وعلى الجانب الآخر كان ملتون هيرشى شخصا كريما للغاية. وكانت تدفعه رؤيته أكثر مما يدفعه الربح. ففى بدايات القرن قام هرشى ببناء مدينة هرشى فى ولاية بنسلفانيا لتكون يوتوبيا صناعية. كان المصنع يتحمل نفقات كل شيء من السباكة الداخلية فى البيوت إلى التدفئة بالبخار بل وملاعب الجولف. ولم يقم هرشى فى أى وقت من الأوقات برفد أحد موظفيه حتى أثناء فترة الكساد الكبير ولأنه لم يكن لديه أبناء، أوقف كل أمواله على الإنفاق على أكبر دار رعاية أيتام فى الولايات المتحدة وأكثرها ثراءً.

وكانت النتيجة أن تراجع هرشى الطيب أمام منافسه العتيد مارز، وفى عام ١٩٧٦ تولى قيادة الشركة وليام ديردن أحد متخرجى دار رعاية الأيتام، وقام بتحديث الشركة وأنشأ قسمًا للتسويق، وأخذت الشركة موقع الصدارة من جديد بعد عدة معارك مع مارز. كان أنجح هذه المعارك على الإطلاق صفقة فيلم الخيال العلمى السينمائى الشهير إى.تى (E.T.). فقد كانت فكرة منتجى الفيلم فى ستوديوهات يونيفرسال أن يستخدموا حبات إم & إمز كسبيل لدفع كائن الفضاء إلى الهرب خارج الغابة، وعندما رفض مارز، لجأوا إلى المنتج المشابه (ريسز بيسز) والذى يصنعه هيرشى. واستطاع هرشى استخدام إى.تى فى الدعاية لمنتجاته التى تضاعفت مبيعاتها فى ظرف أسبوعين.

Crossing The Jordan: Israel Hard Road to Peace

(عبور نهر الأردن: طريق إسرائيل الصعب نحو السلام)

Samuel Segev

New York : St. Martin's Press,1998, 420 pp., $ 29.95

يتناول مراسل سابق لجريدة معاريف الإسرائيلية بتفصيل يكاد يكون يوميا تطور المباحثات الإسرائيلية العربية، مثل كامب ديفيد، والمباحثات الإسرائيلية الأردنية السرية، واتصالاتها مع المغرب، واتفاقيات أوسلو.

ويبتعد المؤلف تماما عن التصورات المسبقة الثابتة عن العرب كهمج والإسرائيليين كحملة مشعل الحرية والإنسانية والتقدم فى المنطقة. فكل الشخصيات متحايلة ولها خططها السرية ولايمكن الوثوق بأى منها، من رابين مرورا بكارتر إلى عرفات. ويعتقد أن إسرائيل قد استُغلت فى بعض الأحيان من الدول العربية مثل العراق والأردن والمغرب فى صراعاتها الشخصية.

ويكشف الكتاب بوضوح العلاقة المعقدة بين العدوين اللدودين شيمون بيريز وإسحق رابين. فبيريز وموشى ديان كانا يعتبران من تلاميذ بن جوريون وأعداء كل من رابين وأستاذه إيجال آلون. ولكن عندما انتخب رابين رئيسا للوزراء للمرة الأولى بعد حرب أكتوبر اضطر سياسيا إلى تعيين بيريز وزيرا للدفاع. ومن وقتها لم يتوقفا يوما عن الشد والجذب والخيانة وإخفاء المعلومات والأحداث الهامة عن بعضهما البعض، ومحاولة كل منهما إقصاء الآخر عن السلطة.

ويتناول المؤلف فترة بيريز كوزير خارجية فى حكومة رابين الثانية فى أوائل التسعينيات وكيف كان يتصرف فى جميع القرارات السياسية الحاسمة الخاصة بعملية السلام بدون علم أو تصريح من رئيس وزارته. ولم تكن بداية مباحثات أوسلو بدون علم رابين فقط، بل إنه عندما طلب رئيس الوزراء من وزير خارجيته تأجيل المباحثات لما بعد انتهاء رحلة وزير الخارجية الأمريكى فى الشرق الأوسط، تجاهل بيريز طلبه تماما، وإن كانت جهوده الفردية هذه هى التى أدت فى النهاية إلى توقيع إسرائيل على اتفاقيات أوسلو.

ومن أدل المواقف على طبيعة علاقتهما التنافسية صراعهما حول الفوز بمجد أوسلو. فكان رابين على علم بجهود بيريز الأساسية فى المباحثات بل وباركها. وبمجرد الانتهاء من الاتفاق قرر رابين وبيريز أن يقوم بيريز وأبو مازن بالتوقيع على إعلان المبادئ فى احتفال بالبيت الأبيض. فلم يكن رابين يريد التوقيع رسميا لما فى الإعلان من نقاط قد تؤثر على شعبيته. ولكن كلينتون رتب لقدوم عرفات، وبالتالى أراد أن يكون رابين موجودا أيضا، وقبل رابين فى النهاية تحت الضغط.

وبينما كان بيريز الذى ناور وحارب وجاهد خلال المباحثات المتعبة يقضى ليلته فى إعداد الخطبة التى سيلقيها بعد التوقيع، إذا به يسمع فى الإذاعة أن رابين سيكون رئيس البعثة الإسرائيلية إلى واشنطن. ويقول المؤلف إن (بيريز) صرخ ليلتها فى ألم :

«لماذا يفعل بى ذلك؟ ألم يضرنى بما يكفى؟ لماذا يستمر فى الإضرار بى؟ لقد حاربت أنا من أجل اتفاقية أوسلو بينما لم يكن لديه أى أمل فيها والآن يريد الذهاب إلى واشنطن؟ فليذهب! ولتقولوا له إنى باق فى إسرائيل وإنى مستقيل من وزارة الخارجية!» ..

ولكن بيريز ذهب فى النهاية إلى واشنطن وشاهدهما يوقعان بينما هو واقف وراءهما كما أنه بقى وزيرا للخارجية.

ويرى المؤلف أن السلام كان بالنسبة لرابين هدفا سياسيا. فهو لم يسع إليه من أجل الإنسانية أو الحق أو ما إلى ذلك، بل كان يريد السلام لتأمين استمرار إسرائيل وتحسين وضعها الاقتصادى وتقديم بعض من الحياة الطبيعية لشعبها.

Le Sang, La justice, La Politique

(الدماء والعدالة والسياسة)

de Blandine Crigelle

Plon,156p., 98fr.

بدأت فى التاسع من فبراير الماضى محاكمة ثلاثة من كبار المسئولين السابقين فى الحكومة الفرنسية السابقة وهم : «لوران فابيوس» ـ «جورجينا ديوفو» و«ادمون ارفى». فيما يطلق عليه وصف «فضيحة الدماء الملوثة». ويناقش هذا الكتاب الأبعاد المختلفة لهذه القضية شديدة التعقيد من الناحية السياسية، والطبية والاجتماعية بالإضافة إلى الناحية القضائية.

تأخذ المؤلفة جانب الدفاع عن الوزراء الثلاثة فى هذه القضية. فعلى ضوء تحليلها للدعوى القضائية الموجهة ضد هؤلاء الوزراء، إلى جانب بعض الحقائق الطبية والإحصائية التى كانت متوفرة عن فيروس الإيدز فى الفترة ١٩٨٣ - ١٩٨٥، تؤكد «كريجل» أن موقف «لوران فابيوس» من موضوع الدماء الملوثة ينم عن نوايا حسنة وموقف إيجابى. حيث إنه نادى فى فترة توليه رئاسة الوزارة بضرورة وضع أسس إجراء التحاليل الأساسية على عينات الدماء لمنع انتشار فيروس الإيدز عن طريق نقل الدم وهو إن دل على شيء فإنما يدل على معرفة قوية بالمشاكل الطبية المعاصرة .

وتضيف فى دفاعها عن المتهمين الثلاثة أن هناك عوامل كثيرة حالت دون إتباع المسئولين لخطوات الوقاية الضرورية لحماية الدماء من التلوث. ومن هذه العوامل ضغوط صحفية وضغوط من أصحاب الرأى المختلف فى جمعيات «الهيموفيلين» و«الشواذ جنسيا» ممن هاجموا تحديد المتبرعين بالدماء خارج نطاق معين للحد من أخطار تلوث الدماء بفيروس الـ HIV. وبذلك لا يمكن إغفال العنصر الاجتماعى فى تحديد المسئولية الجنائية فى هذه القضية وما يمثله هذا البعد من ضغوط تؤثر على أصحاب القرار.

ويعتبر عدد المصابين بفيروس «الإيدز» كنتيجة مباشرة لعملية نقل دماء فى فرنسا يساوى ثلاثة أضعاف العدد فى أى دولة أوربية أخرى. وفى كتابها تركز كيجل بشكل أساسى على البعد الاجتماعى للمسئولية بما ينفى إلى حد ما خطورة مسئولية كل من الوزراء المتهمين الثلاثة نظرًا لأن الجانب الاجتماعى له تأثير كبير على اتجاه قراراتهم.

Derrière L'Epaule

de François Sagan

(خلف الكتف)

Plon, 236 p., 120 F.

تستعيد «فرانسواز ساجان» ذكرياتها بتقديم عرض موجز لعشرين رواية قامت بكتابتها منذ أول قصة نشرت عندما كانت فى الثامنة عشرة من عمرها وهى «صباح الخير أيتها التعاسة» "Bonjour Tristess" والتى كانت نقطة انطلاقها نحو شهرة أدبية واسعة.

وتؤكد «ساجان» أنها لا تملك أية ذكريات خاصة ـ وأن ذكرياتها الوحيدة تكمن فى كتبها التى تقرأها الآن للمرة الأولى والأخيرة.

وتعرض «ساجان» فى ٢٠٠ صفحة تقريبا عشرين من كتبها، وتعترف أنها تدهش أحيانا للنجاح العظيم والذى لايزال مستمرا، وخاصة بين الشباب لأولى قصصها. وتشعر أن هذا النجاح أضفى بعض الظلال على قصص أخرى لا تقل قيمة عن هذه القصة الأولى، بل وقد يكون بعضها أقرب إلى قلب «ساجان». فقصتها (قليل من الشمس فى الماء البارد) "Un Peu de Soleil dans l'eau Froide" لم تحظ بنفس القدر من النجاح. ولكنها على حد قول «ساجان» أكثر كتبها رومانسية وعمقا.

تستعرض «ساجان» أيضا بعض ذكرياتها عن كتب أخرى لها، أقل قيمة أدبية مثل «الملامح الضائعة» "Un Profil perdu" وتشعر بالخجل والاستياء منها، وتلتمس الكاتبة لنفسها ولغيرها من الكتاب بعض الأعذار عن الكتابة الضعيفة، حيث تكون الحاجة المادية دافعا للكتابة السيئة أحيانا.. ويفتقر الكاتب إلى الخيال والقدرة الإبداعية أحيانا أخرى.

وتعترف «ساجان» انها تتمنى أن تستطيع فى يوم ما أن تعبر عن ما بداخلها عن طريق الشعر الذى تعتبره أسمى وسائل التعبير الأدبى على الإطلاق.

قــــــــــراءات جـــــــــــديـــدة

اجتمـــــاع

الأعمال الكاملة للدكتور سيد عويس
سيد عويس
القاهرة: المحروسة للنشر، ١٩٩٩
هذا هو المجلد الأول من أعمال عالم الاجتماع الراحل الدكتور سيد عويس صاحب الدراسات الرائدة والمهمة في المجتمع المصري، ويضم المجلد الأول أربعة كتب هي: «ظاهرة إرسال الرسائل للإمام الشافعي»، و«الخلود في التراث الثقافي المصري»، و«الإبداع على الطريقة المصرية»، و«الازدواجية في التراث الديني المصري».

□ □ □

العنف الأسرى
إجلال إسماعيل
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩
بحث في الأسباب التي تقود إلى العنف داخل الأسرة، وانعكاساتها على الصحة النفسية للأفراد داخل الأسرة الواحدة، وكيفية تلافي هذه الأسباب.

□ □ □

ضعف الثقافة الجنسية: سر شقاء الزوجين
عبد الهادي مصباح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.
دراسة علمية عن واحد من الموضوعات المهمة التي اعتبرت في بعض الأوساط ضمن دوائر المحرمات، لكن المؤلف يؤكد على أن الاقتراب منها والغوص فيها بعلمية وموضوعية، يفتح أبوابا للسعادة الزوجية بما يحقق الاستقرار الأسري.

أدب ونقـد

الآخرون (رواية)
حسونة المصباحي
تونس: دار بتر الزمان، ١٩٩٩
رواية جديدة عن المهمشين والصعاليك والمنفيين والمطاردين، وهو العالم الذي دأب المصباحي على اكتشافه وسبر أغواره دون تنميق.

□ □ □

الأعمال الكاملة للشاعر محمد عفيفي مطر
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨
تضم ثلاثة مجلدات تحتوي على كل النتاج الشعري لواحد من أهم الأصوات الشعرية العربية في هذا القرن، وترسم ملامح مسيرته الشعرية الممتدة منذ أواسط الخمسينيات حتى اليوم. وحملت المجلدات الثلاثة أسماء لثلاثة دواوين هي «من مجمرة البدايات»، و«ملامح من الوجه الأمبيذوقليسي»، و«احتفالات المومياء المتوحشة».

□ □ □

التناص في شعر السبعينيات
فاطمة قنديل
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩

وهو في الأصل رسالة ماجستير حصلت بها الشاعرة فاطمة قنديل على الدرجة العلمية، وناقشت عبرها استفادة جيل السبعينيات الشعري في مصر من جماعتي «إضاءة» و«أصوات» من شعراء سابقين عرب وأجانب. وممن تناولتهم الدراسة حسن طلب وعبد المنعم رمضان وحلمي سالم ورفعت سلام.

□ □ □

الحب العذري عند العرب
شوقي ضيف
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩
يتناول أشهر قصص الحب العذري التي خلدها الشعراء العرب بنظمها في قصائد، مثل مجنون ليلى وجميل وبثينة وقيس بن ذريح ولبنى وكُثير وعزة وذوالرمة وميَّة والعباس بن الأحنف وفوز وغيرهم. ويقدم نماذج بشرية لما أبدعه هؤلاء المحبون.

□ □ □

الشرخ/ رواية
إبراهيم الكوني
بيروت: دار النهار، ١٩٩٩.
هذا هو الجزء الأول من ملحمة قصصية للأديب الليبي الذي يعيش في جبال الألب السويسرية إبراهيم الكوني، وتدور في عالم الروائي الأثير، الصحراء، حيث يختلط الواقعي بالسحري بالمتخيل.

□ □ □

الهويات القاتلة
أمين معلوف
بيروت: دار النهار، ١٩٩٩
صدر هذا الكتاب بالفرنسية قبل عام. وهو يناقش تعدد الهويات للأديب اللبناني الذي سبق له الحصول على جائزة جونكور الأدبية في فرنسا، وهو مسيحي ماروني ينتمي حضاريًا إلى الثقافة الإسلامية، ويعيش في فرنسا ويبدع بلغة أهلها.

□ □ □

اليهود في الأدب الإنجليزي
رمسيس عوض
القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩
يستعرض صورة اليهود في الأدب الإنجليزي منذ مسرحية شكسبير «تاجر البندقية» وما بعدها، وكيف تغيرت هذه الصورة بفعل تغير النظرة إلى اليهود في أوروبا، وبفعل الضغط اليهودي نفسه.

□ □ □

ديوان الشعر المغربي المعاصر
صلاح بومريف ومصطفى النيسابوري
المغرب: دار الثقافة، ١٩٩٩.
يستعرض أهم الأسماء في مسيرة الشعر المغربي عبر مختارات دالة ترسم ملامح هذه المسيرة، والكتاب يقدم إسهامًا مهمًا لإبداع شعري ظل متواريًا ومغيبًا لأسباب مختلفة، ويعرِّف بخصائصه وتمايزاته.

□ □ □

طيران نحو الجنون (شعر)
ممدوح عدوان
بيروت: رياض الريس، ١٩٩٩

الديوان الجديد للشاعر السوري ليس سوى قصيدة طويلة، يستلهم فيها ممدوح عدوان تجربة جلال الدين الرومي الصوفية ويحاكيها.

□ □ □

Liebeserklärung An Eine Hässliche Stadt
(في حب مدينة قبيحة)
Bodo Morshäuser
Suhrkamp, 1998, 155pp, Dm 12.80.
مجموعة من المقالات النثرية والأشعار، كتبها الأديب الشاب عن مدينة برلين.

□ □ □

Secrets
(أســــرار)
Nuruddin Farah
Arcade: 1998, 304 pp; 23.95
رواية باللغة الإنجليزية للكاتب الصومالي نور الدين فرح، تدور أحداثها في مقديشيو في الأيام الأخيرة من عهد سياد بري.

□ □ □

The Arts and Sciences of Criticism
(فنون وعلوم النقد)
David Fuller, Patricia Waugh (editors)
Clarendon Press, 1999 (£ 25.00)
مجموعة مقالات كتبها أكاديميون وروائيون ونقاد حول دور كل من الأدب والنقد الأدبي وما يجب أن يهدفا إليه.

أديــــان

الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا
تأليف: عبد الفتاح مقلد
القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٨
يدرس المؤلف الدور الذي لعبه الإسلام والمسلمون في شرق أفريقيا، وخصوصًا أن الحبشة كانت أول أرض خارج مكة يطؤها المسلمون. ويبنه كيف توطدت الصلات بين المسلمين وشعوب تلك المناطق.

□ □ □

الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر
مونتجمري وات. ترجمة: د. عبد الله الشيخ
القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٨
دعوة للحوار بين الديانتين الكبيرتين، والبحث عن أسباب الائتلاف والوحدة، ونبذ دعاوى الشقاق المفتعلة. والمؤلف يدرس الإسلام ويقرأ مؤلفات عنه منذ أكثر من ثلاثين عاما.

□ □ □

قدمت أعذاري
عبد الوهاب مطاوع
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يختلف هذا الكتاب عما قدمه من قبل الكاتب، فهو ليس قصصًا مما يتابعها القراء في بابه الشهير «بريد الجمعة» بالأهرام، وليس صورًا إنسانية وأدبية، إنما هو تسابيح خاشعة، أو مناجاة لله عز وجل في صياغة أدبية رفيعة.

Two Thousand years of Coptic Christianity
(ألفا عام من المسيحية القبطية)
Otto F.A. Meinardus
Cairo: AUC Press, 1999, 368 pp, L.E.80
المؤلف يقوم في هذا الكتاب بمراجعة وتحديث ما سبق أن كتبه في الماضي من كتب ودراسات عن المسيحية القبطية ليضمها في كتاب واحد يؤرخ لعشرين قرنا من حياة أقدم كنيسة في العالم.

اقتصـــــاد

الاقتصاد الليبي. دراسة للأزمة والحلول
مجموعة من الباحثين
ليبيا: دار أخبار ليبيا، ١٩٩٩
الكتاب حصيلة مناقشات أجراها أعضاء هيئة التدريس في جامعة قاريونس في بنغازي، ويناقش الأزمات التي واجهها الاقتصاد الليبي على مدى عقدين من الزمان، في الفترة من ١٩٧٥ وحتى ١٩٩٥، ويتعرض لسياسات الاستثمار ومخاطر السوق السوداء وكيفية تلافيها، ويقدم توصيات ومقترحات لعبور الأزمة.

□ □ □

السوق العربية المشتركة في عصر العولمة
سليمان المنذري
القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٩
يطرح الكتاب من جديد فكرة السوق العربية المشتركة في ضوء التحديات التي يواجهها الاقتصاد العربي، والتي تأخذ مسميات من نوع شرق أوسطية أو عولمة وغيرها، ويقدم مجموعة من الأفكار العملية لإحياء هذه السوق.

□ □ □

The Fortune Sellers: The Big Business of Buying and Selling Predictions.
(بائعو الحظ: التجارة المربحة لبيع وشراء التوقعات)
William A.Sherdan
New York: John Wiley& Sons, 1998,308 pp. $ 29.95
يرى المؤلف أن المحللين الاقتصاديين وخبراء الأرصاد الجوية ليسوا أفضل من قارئي الكف أو الطالع، ويقوم بإثبات أن مؤسسات التوقعات الاقتصادية والتي تبتلع ما لا يقل عن ٢٠٠ بليون دولار«سنويا» ليس لتنبؤاتها أي أساس علمي.

□ □ □

The Mediterranean Basin in the World Petroleum Market
(الوعاء المتوسطي في السوق العالمية للبترول)
Paul Horsnell, Peter Greenhalgh,
Richard Hepnorth Steve Marxin,
and Kerry Preston
Oxford University Press, 1999.
تحليل لصناعة البترول في منطقة البحر المتوسط مع اهتمام خاص بأثر كل

قـــــــــــراءات جـــــــــــديـــدة

من الاحـتـيـاطي العـراقي وظهـور بتـرول قزوين على المنطقة.

بيئـــة

الألغام الأرضية وتدمير البيئة الكويتية
مجموعة من المختصين

الكويت، مركز البحوث والدراسات الكويتية. ١٩٩٨

يقدم عبر مجموعة من الدراسات رؤية لواحد من الآثار البيئية المدمرة التى نجمت عن الغـزو العـراقي للكويت، والتى تمثل مخاطر حقيقية على الناس والبيئة فى الخليج.

□ □ □

التـصـحـر. تدهور الأراضى فى المناطق الجافة.

محمد عبد الفتاح القصاص

الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٩

يكشف عن واحد من المخاطر التى تهدد العالم على أبواب الألفية الثالثة، خصوصًا مع تزايد مخاطر الجفاف فى بقاع عديدة، ويعرض المؤلف لأساليب المواجهة، ولدور الأمم المتحدة فى الحد من الآثار السلبية المتوقعة للظاهرة.

□ □ □

Earth Odyssey

(أوديسيا الأرض)

Mark Herts gaard

Broadway, 1998,372pp,$26.

يتساءل المؤلف عن مصير الإنسان فى ظل تدمير البيئة المستمر من خلال رحلات ومقابلات قام بها فى كثير من مناطق العالم الموبوءة.

□ □ □

Economics of Water Pollution :The Indian Experience

(اقتصاديات تلوث المياه: التجربة الهندية)

M.N .Murty, A.J. James, Smita Misra

Oxford University Press, 1999.

يتناول محاولة السيطرة على التلوث فى الدول النامية والجدوى من استخدام الأدوات الاقتصادية فى محاربة تلوث المياه من خلال نتائج الأبحاث الميدانية.

تـــاريــــخ

أزياء المرأة فى العصر العثمانى

آمال المصرى

القاهرة: دار الآفاق، ١٩٩٩.

تدرس المؤلفة العوامل التى أثرت فى الزى النسائى منذ العصر العثمانى وحتى عصر محمد على، ومكونات أزياء النساء فى تلك الفترة، ثم الحلى التى مثلت استكمالاً لهذه الأزياء. ومدى استجابة المصريات لهذه الموضات.

□ □ □

مشرقيات، فى صلات التجارة والفكر

نقولا زيادة

بيروت: دار السويس. ١٩٩٨.

يتناول الكتاب الصلات التجارية بين المشرق العربي والشرق الأقصى. وتقدم فصوله أخبار بلاد العرب كما عرفها الصينيون، وكذلك تطور الفكر العربى الإسلامي فى بلاد الخلافة الشرقية.

□ □ □

Frontiers of Medicine in the Anglo-Egyptian Sudan, 1899 -1940

Heather Bell

Clarendon, 1999, 45£.

بحث فى العلاقة المركبة التى تربط بين الطب والاستعمار السياسى ورأس المال.

□ □ □

Kuwait, (1950 - 1965) Britain, The al -Sabah, and Oil

(الكويت ١٩٥٠-١٩٧٠، بريطانيا وآل صباح والبترول)

Simon C.Smith

Oxford University Press/ British Academy, 1999, £20.00

يفحص المؤلف تطور العلاقات بين الكويت وبريطانيا أثناء حكم الشيخ عبد الله سالم. وهى فترة التوسع فى إنتاج البترول. ويتناول دور الكويت فى الاقتصاد البريطاني فى مرحلة ما بعد الحرب، والعلاقات بين بريطانيا والعائلة الحاكمة والكويت والعالم العربى.

□ □ □

Pan Arabism Before Nasser: Egyptian Power Politics and the Palestine Question

(القومية العربية قبل ناصر: سياسات القوة المصرية ومسألة فلسطين)

Michael Doran

Oxford University Press, 1999, 27.50 (hb)

يرى المؤلف أنه لم تكن هناك جبهة قومية عربية عندما أنشئت الجامعة العربية. وبدراسة القرارات السياسية المصرية أثناء السنوات من ١٩٤٤-١٩٤٨ يخلص إلى أن الصهيونية والمسألة الفلسطينية كانت أقل أهمية بالنسبة للمصالح القومية المصرية من مواجهة الاحتلال الإنجليزى والتوسع الأردنى - العراقى.

□ □ □

The Kingdom of the Hittites

(مملكة الحيثيين)

Trevor Bryce

Oxford University Press, 1999, £18.99 (pb)

فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أصبح الحيثيون أكبر قوة سياسية وعسكرية فى الشرق الأدنى. يتناول الكتاب أسباب حصولهم على هذه المكانة ومدى نجاحهم فى الحفاظ عليها وأسباب انهيارهم واختفائهم مستعينا باكتشافات أثرية حديثة ومخطوطات أصلية.

□ □ □

تربيـــــة

المناهج الدراسية بين النظرية والتطبيق

حسن شحاتة

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٨.

يتضمن عرضًا لمفاهيم وقضايا ومشكلات علم المناهج، حيث يؤلف بين النظرية والأفكار الحديثة فى ميدان المناهج من ناحية، والتطبيقات الميدانية الحقلية من ناحية ثانية.

□ □ □

Illusury Freedoms: Liberalism, Education and the market

(حريات وهمية: الليبرالية والتعليم والسوق)

Ruth Jonathan

Oxford: Blackwell, 244pp. £14.99

نقد لاذع توجهه أستاذ التربية بجامعة أدنبرة لعملية إدخال آليات السوق فى التعليم، مؤكدة على مدى اختلاف التعليم عن أى سلعة أخرى.

تراجـم وسيـــر

المرافئ القديمة. من دفاتر الصحافة

نبيل خورى

بيروت: رياض الريس، ١٩٩٨.

يمثل الكتاب سيرة لصحافى عاشر أجيالا من الصحافيين فى بلاده وفى المهجر، وخاض معارك يتذكرها قراء مجلة الحوادث اللبنانية، وكتابه يجمع بين التوثيق التاريخي، ومتعة الكتابة السلسة التى تنهل من الذاكرة.

□ □ □

كان صرحًا من خيال

سليم تركية. ترجمة بسام حجار

بيروت: دار المسار، ١٩٩٨

يعرض الكتاب للعلاقة العاطفية الفريدة التى جمعت أحمد رامى بكوكب الشرق «أم كلثوم». وهى علاقة نمت من طرف واحد، وارتضى فيها الشاعر الكبير أن يبقى محترقا كى تنطلق كلماته عبر حنجرة أم كلثوم دون غيرها، وقد عرفت أم كلثوم بذكائها. كيف أن هذا الحب سيشعل مخيلة الشاعر ويفجر ينابيع إبداعه.

□ □ □

مى زيادة. الكاتبة العربية

سميحة كريم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

يعرض الكتاب لحياة مى زيادة وأعمالها وعلاقاتها بعشرات من الأدباء والفنانين والمفكرين الذين عاشوا فى عصرها وترددوا على صالونها الشهير. كما يعرض لآرائها فى الموضوعات التى شغلت الحياة العامة فى مصر فى ذلك العصر.

□ □ □

Prophet: The Life and Times of Kahlil Gibran

(نبى: حياة خليل جبران)

Robih Water Field ·

New York: St. Martin's Press, 1998, 366 pp. $25.95

يتناول المؤلف الإنجليزى الأصل حياة الشاعر جبران خليل جبران، فيتحدث عن أصوله اللبنانية وعلاقاته العاطفية والمالية واصفًا إياه بأنه كان شخصًا انتهازيًا ومخادعًا.

□ □ □

Still Me

(لازلت أنا)

Christopher Reeve

Random House, 1998,$25.

السيرة الذاتية للمثل الأمريكى الشهير بدور (سوبرمان) والذى تعرض لحادث مروع فى عام ١٩٩٥ أدى إلى إصابته بالشلل. يقول ريف فى كتابه «أنا لست إنسانا متدينا» ولكنى وجدت أنه يجب أن أنشيء علاقة مع الله وإلا أصبحت ضائعا».

رحـــلات

استانبول. عبق التاريخ وروعة الحضارة

الصفصافى أحمد مرسى

القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩

دراسة عن مدينة إستانبول التى عاش فيها المؤلف ٧ سنوات كاملة للدراسة ولم تنقطع صلته بها بعد ذلك، دراسة فى عمارتها ومتنزهاتها وطبيعتها وفنونها وثقافتها.

□ □ □

The Last Barbarians: The Discovery of the Source of the Mekong in Tibet

(آخر البرابرة: اكتشاف منبع الميكونج فى التبت)

Michael Peissel

Souvenir, 1998, 253pp, $ 18.99

ست وعشرون رحلة قام بها المؤلف إلى التبت بغرض اكتشاف منبع نهر الميكونج ويحتوى كتابه على الكثير من المشاهدات حول تاريخ شخصية وفلسفة الشعب التبتى.

سيـــاســة

الصـراع العـربى الإسـرائيلى. أزمـة الديمقراطية والسلام

أمين المهدى

القاهرة: الدار العربية للدراسات. ١٩٩٩.

يتعرض للصراع العربى الإسرائيلى وما يفرضه من تحديات السلام أو حتمية الحرب، فيقدم رؤية تاريخية وتحليلية للصراع فى مراحله المختلفة، وإشكاليات التعامل مع إسرائيل فى ظل الحرب والسلام معًا.

□ □ □

النظام السياسى والتحول الديمقراطى فى مصر
هالة مصطفى
القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩
يقدم رؤية تحليلية لهيكل النظام السياسى المصرى وتحوله التدريجى نحو الديمقراطية منذ أواسط السبعينيات وحتى اليوم، وفرص توسيع الهامش الديمقراطى فى المستقبل المنظور.

□ □ □

نفقات الدفاع فى منطقة الشرق الأوسط
عبد المنعم كاطو
القاهرة: المركز العربى للدراسات الإستراتيجية
يعرض إحصائيًا لنفقات الدفاع فى دول المنطقة وتأثير التهديدات المحيطة بها فى زيادة هذه النفقات.

□ □ □

دولة حزب الله
وضاح شرارة
بيروت: النهار، ١٩٩٨
يلقى الكتاب أضواء مهمة على حزب الله الذى يحمل لواء المقاومة فى جنوب لبنان. ويتناول صلاته بإيران وعلاقاته وتأثيراته على الحركة السياسية فى لبنان، عبر تحليل الخطاب السياسى لقادة حزب الله.

□ □ □

A Tangled Web: The Making of Foreign Policy in the Nixon Presidency
(صناعة السياسة الخارجية أثناء رئاسة نيكسون)
William Bundy
Tauris, 1998, 647 pp. $24.50
يتناول الكتاب التاريخ الدبلوماسى للفترة (من ١٩٦٩ وإلى ١٩٧٤) ويغطى السياسات الخاصة بمناطق جنوب شرقى آسيا والشرق الأوسط وأوروبا.

□ □ □

Democratisation and Auhoritarianism in Post - Communist Societies
(التحول الديمقراطى والسلطوى فى مجتمعات ما بعد الشيوعية)
Edited By Karen Darwisha And Bruce Parrott
Cambridge University Press, 1998, 4 Volumes, $ 55
تستعرض هذه المجلدات الأربعة التحولات الحالية فى البلدان الشيوعية السابقة كالصراع فى وسط آسيا والقوقاز من خلال تناول حالة كل دولة كل على حدة (تركمانستان، وأذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا، وكازاخستان، وقيرجستان، وطاجكستان، وأوزبكستان). والتغيير الديمقراطى ومردوده السلطوى فى روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء، وملدوفيا. كما تتعرض للكفاح من أجل الديمقراطية فى جنوب شرق أوروبا. إلى جانب الرأسمالية المزدهرة فى سلوفانيا والفوضى فى ألبانيا. ومحاولات رومانيا فى التحول نحو تعددية الأحزاب.

□ □ □

Rebirth: An Anatomy of Russia
(ميلاد أمة من جديد: تشريح روسيا)
John Lloyd
London: Michael Joseph, 1998, $20.
شغل جون لويد منصب مدير مكتب جريدة Financial Times بموسكو فى الأربع سنوات الأخيرة، ويحاول من خلال هذا الكتاب التعرف على الملامح الأساسية لروسيا بعد سقوط الحكم الشيوعى من خلال تناول مجالات مختلفة: سياسية واقتصادية وقانونية وثقافية.

علم نفس

التعايش مع الخوف.. فهم القلق ومكافحته
إيزاك ماركس. ترجمة: محمد عثمان نجاتى
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يدرس فى ثلاثة أبواب طبيعة الخوف والقلق وأشكال التوتر العصبى وعلاجها. ثم كيفية علاج القلق. ويهدف الكتاب أخيرًا إلى إحداث قدر من التوازن النفسى والعصبى تمكن الإنسان من تجاوز ضغوط الحياة، والتعامل مع المشكلات بأكبر قدر ممكن من النجاح.

□ □ □

About Face
(عن الوجه)
Jonathan Cole
M.I.T., 1998
يتناول الكاتب ما يحدث عندما لا يستطيع الإنسان التعبير عن ذاته من خلال وجهه. مثل مرضى أعراض موبيوس. والذين يعانون من مرض باركنسون «الشلل الرعاش». ويناقش المؤلف كذلك دور تعبيرات الوجه فى حياة فاقدى البصر أو المكفوفين.
وينتقل فى الجزء الثانى من الكتاب ليحلل دور الوجه كمرآة لحالتنا الداخلية وعلاقاتنا الاجتماعية والصورة التى نصنعها لأنفسنا وللآخرين.

□ □ □

Questions for Freud: The Secret History of Psychoanalysis
(أسئلة لفرويد: التاريخ السرى للتحليل النفسى)
Nicholas Rand and Maria Torok
Harvard University Press, 1998, 239pp, £16.50
تحليل لكتابات فرويد وبحث فى انعكاسات حياته الأولى على هذه الكتابات.

علوم

الإنترنت.. المنافع والمحاذير
سامر محمد سعيد
الكويت: دار سعاد الصباح للنشر، ١٩٩٨
يناقش الكتاب الآثار المترتبة على هذا الوافد الجديد الذى يربط العالم بشبكة هائلة من المعلومات، ويحذر من مخاطر سوء استخدامه فى الحاضر والمستقبل.

□ □ □

عوالم فى تصادم.. الكوارث الكونية والحضارة الفرعونية
إيمانويل فلايكوفسكى. ترجمة: رفعت السيد
القاهرة: حور، ١٩٩٩
يتناول الكتاب بالتحليل العلمى، الكوارث الكونية التى أثرت على كل سكان كوكب الأرض ومسار حضاراتهم القديمة، والتى ردها الناس إلى معجزات أو أساطير أو أفعال خارقة، وهى فى حقيقتها ظواهر علمية بحتة.

□ □ □

Life on Other Worlds: The Twentieth Century Extraterrestrial Life Debate
(الحياة فى عوالم أخرى: جدال القرن العشرين)
Steven J.Dick
Cambridge University Press, 1998, 240 pp. £17.95
تطور فكرة وجود حياة خارج كوكب الأرض وأثر التقدم التكنولوجى فى ذلك.

□ □ □

What Remains to be Discovered: Mapping the Secrets of the Universe, the Origins of Life, and the Future of the Human Race
(ما تبقى للاكتشاف: أسرار الكون وأصل الحياة ومستقبل النوع الإنسانى)
John Maddox
Macmillan,1998.
يقدم المؤلف الذى رأس مجلة Nature لمدة ثلاثة وعشرين عاما نظرة متفائلة لمستقبل التقدم العلمى، وخاصة فى مجال الاكتشافات الجديدة فى الفيزياء والعلوم الطبيعية. وينتقد رأى علماء ما بعد الحداثة الذين لا يجدون مجالا للتقدم العملى فى المستقبل ويشككون فى قدرة العلم على اكتشاف الحقيقة.

فكر

الإعلان الإسلامى
على عزت بيجوفيتش. ترجمة: محمد يوسف عدس
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
أثار هذا الكتاب حين صدوره عاصفة سياسية وإعلامية فى العالم الغربى كله، واعتبرته السلطات اليوغوسلافية وثيقة لإدانة صاحبه فى محكمة سراييفو التى انعقدت عام ١٩٨٣ لتجريم بيجوفيتش البوسنى، وخصوصًا على صعيد دعوته لإقامة الدولة الإسلامية العالمية الموحدة.

□ □ □

إسرائيل.. ماذا تقول الوقائع والكتب
نعمات أحمد فؤاد
القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الصهيونية الدينية والسياسية. ويناقش أسطورة الحقوق التاريخية ويفندها، كما يحلل طبائع اليهود وبروتوكولات حكماء صهيون، ويشير إلى مدى تسامح الإسلام مع اليهود فى الوقت الذى عانوا فيه اضطهادًا من دول وأمم أخرى.

□ □ □

التغيير.. الصراع والضرورة
رفيق حبيب
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يواصل المؤلف فى هذا الكتاب ما بدأه فى كتاباته السابقة عن مشروع النهضة العربى المرتبط بالضرورة ـ وفق تصوراته ـ بالإحياء الإسلامى الذى تمثل وسطيته طوق النجاة للأمة، وهو ينطلق فى كتابه من عام ١٩٩٢، ويعتبره منعطفًا تاريخيًا مهمًا فى مسيرة البشرية لأسباب يشرحها تفصيلاً فى كتابه.

□ □ □

الغرب والشرق الأوسط: سجال وتباين
برنارد لويس
ترجمة وتعليق: سمير مرقص
القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩.
عينة نموذجية للكتابات الاستشراقية عن العالم العربى ترجمها وعلق عليها بصورة نقدية سمير مرقص، وقام بتقديم الكتاب السيد ياسين.

□ □ □

المرأة العربية فى الدين والسياسة
محمد طلال
المغرب: دار النشر المغربية، ١٩٩٩
يسعى الباحث إلى تحليل دور المرأة العربية، والأبعاد المختلفة التى تؤثر فى هذا الدور وتحجمه، عبر مجموعة من الدراسات أنجزها المؤلف على مدى عقد كامل فى الفترة من ١٩٧٥ وحتى ١٩٨٥.

□ □ □

المسألة الثقافية فى العالم العربى / الإسلامى
رضوان السيد، أحمد برقاوى
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٨
يناقش بدايات طرح المسألة الثقافية منذ حملة نابليون بونابرت، ويقدم رصدًا لتشعبات المسألة الثقافية فى هذا الموضوع، ويستقرئ الإخفاقات التى واجهها مشروع النهضة العربى ومراوحته بين رفض الآخر كلية، أو التماهى معه دون شروط مسبقة. وأزمة هذه المراوحة مع بدايات قرن جديد.

□ □ □

مصر: ولع فرنسى
روبير سوليه. ترجمة: لطيف فرج
القاهرة: المستقبل العربى، ١٩٩٩
يتناول كيفية تحويل الولع الفرنسى بمصر، وخصوصًا حضارتها القديمة فيما يعرف بالإجيبتمونيا، إلى مبادئ عملية

قراءات جديدة

ترسخ العلاقات بين مصر وفرنسا، وتفتح الباب لتبادل ثقافى أوسع نطاقًا على المستوى الشعبى.

□ □ □

Moral Aspects of Economic Growth, and other Essays

(الجوانب الأخلاقية للنمو الاقتصادى ومقالات أخرى)

Barrington Moore, Jr
Ithaca, NY: Cornell University Press, 186 pp. .23.95

تساؤلات محورية يعالجها العالم والمنظر الكبير فى هذا الكتاب.

هل تقوم الأنظمة المبنية على السوق بتشجيع أشكال من السلوك غير الأخلاقى، مما يؤدى إلى تآكل الرأسمال الاجتماعى والأخلاقى الذى تعتمد عليه هذه الأنظمة فى شرعيتها؟

هل هناك ظروفًا اقتصادية لازمة لظهور نظم سياسية ليبرالية؟

هل اللامساواة صفة حتمية لجميع المجتمعات الإنسانية بحيث لاتوجد مساحة كبيرة للعمل السياسى فى القضاء عليها؟

□ □ □

Reason before Identity

(المنطق قبل الهوية)

Amartya Sen
Oxford University Press, 1999. £6.00 (pb)

محاضرة حول الهوية المجتمعية ودورها وآثارها. ألقاها أمارتيا سن الفائز بجائزة نوبل ٩٨ فى الاقتصاد فى ١٧ نوفمبر ١٩٩٨ بجامعة أكسفورد ضمن سلسلة «محاضرات رومانيز» الشهيرة.

فنون

أثر الغرب فى الموسيقى العربية

فيكتور سحاب
بيروت: دار الحمراء، ١٩٩٨

يعرض الكتاب للآثار الغربية فى الموسيقى العربية من حيث المقامات والتوزيع وغيرها عبر دراسة علمية نظرية وتطبيقية فى نفس الوقت.

□ □ □

الرقص التركى

القاهرة: مركز النشر بأكاديمية الفنون، ١٩٩٩

ويعرض بشكل علمى للرقص التركى وتطوره خلال حقبة زمنية طويلة.

□ □ □

سينما الحب والسياسة

عبد المنعم صبحى
القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٩٩

يرى المؤلف أن الحب والسياسة هما الموضوعان الكبيران اللذان دارت حولهما جميع الأفلام السينمائية فى مصر، أو معظمها. يدرس ويحلل بعضًا من هذه الأفلام وحدود ارتباطها بموضوعى الحب والسياسة.

□ □ □

Castel Del Mante: Geometric Marvel of the Middle Ages

(كاستيل ديل مونته: أعجوبة القرون الوسطى الهندسية)

Heinz Götze
Prestel / te Neues, 1998, illustrated, $ 65.

كاستيل ديل مونته ـ أو قلعة الجبل ـ عبارة عن إسهاب معمارى موسع بنى فى القرن الثالث عشر بأمر من فريديريك الثانى أحد أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وبالإضافة إلى التأثيرات القوطية والنورماندية والإغريقية والبيزنطية، كان التأثير الأساسى من الناحية الفكرية والإبداعية فى مجال التصميم والرياضيات إسلاميًا بحتًا. فالتخطيط الأساسى للقلعة مبنى على فكرة النجمة الإسلامية المثمنة.

□ □ □

Opera in History: From Monteverdi to Cage

الأوبرا فى التاريخ: من مونتيفردى حتى كيدج

Herbert Lindenberger
Stanford University Press,1998.

تاريخ فن الأوبرا منذ مونتيفردى حتى العصر الحديث وجون كيدج، وعلاقة هذا الفن بالمجتمع وظروفه.

□ □ □

Stranger Than Paradise: Makers in Recent American Cinema.

أغرب من الفردوس: المخرجون الجدد فى السينما الأمريكية حاليا.

Geoff Andrew
Prior, 1998.

يتناول دافيدلينش، وسبايك لى، وجون سايلز، والإخوان جول، وإيثان كوين، وكوينتن ترانتينو، بالإضافة إلى جارموش، وهارتلى، وهاينز.

□ □ □

Visions of Jazz

(رؤى من موسيقى الجاز)

Gary Giddens
Oxford University Press,1998.690 pp.$35

تاريخ موسيقى الجاز من قبل أن يتم تسميته وتطور أشكاله من حقبة لأخرى.

قانون

رقابة دستورية القوانين. دراسة مقارنة بين مصر وأمريكا

هشام محمد فوزى
مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ١٩٩٩

أطروحة دكتوراة تعنى بالرقابة على دستورية القوانين، بوصفها الوسيلة الفعالة لرد طغيان السلطة التشريعية وإرجاعها إلى حدودها الدستورية. مع عمل دراسة مقارنة بين فعالية هذه الرقابة فى كل من مصر وأمريكا.

□ □ □

نظام الإرث فى التشريع الإسلامى

أحمد حسين
بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، ١٩٩٨.

يدرس نظام الإرث ومقاصده فى التشريع الإسلامى، وكيف يسهم فى تحقيق مفاهيم العدالة والتكافل فى المجتمع الإسلامى.

لغات

الكتابة والأسلوب

وحيد سامى
القاهرة: الجامعة الأمريكية، ١٩٩٩

تحليل للكتابة الإنشائية العربية ومكوناتها من مفردات ونحو وتركيبات لغوية.

□ □ □

The Reform of Turkish: A Revolution in Language

(إصلاح التركية: ثورة فى لغة)

Geoffrey Lwuis
Oxford University Press, 1999, £ 40

دراسة لأكبر عملية هندسة لغوية فى التاريخ. والتى تم بها القضاء على اللغة التركية ـ العثمانية فى خمس عشرة سنة.

متنوعات

طيب جدا. المطبخ المغربى

فاطمة الزهراء
بيروت: دار الراتب الجامعية، ١٩٩٨

يقدم أطباقا شهية من المطبخ المغربى وكيفية صناعتها.

□ □ □

كيف أتأكد من صحة جنينى

لاكان دى كرسبنى
السعودية: دار العبيكان للنشر، ١٩٩٨.

يناقش واحدا من الموضوعات التى تشغل بال كل أم، ويعرض لبعض المشكلات التى تواجهها فى تنشئة الطفل وكيفية التعامل معه.

□ □ □

The Cat and the Human Imagination: Feline Images from Bast to Garfield

(القط والخيال الإنسانى)

Katherine M. Rogers
University of Michigan, 1999, $ 29.95

تطور المفهوم الثقافى للقط من مصر القديمة وحتى يومنا هذا.

تستعرض المؤلفة صورة القط لدى الكتاب والفنانين والمفكرين الغربيين إلى جانب دراستها للمنظور الدينى والشعبى للقط. وخلال ذلك تناقش سبب تشبيه النساء بالقطط وسبب كره بعض الناس الشديد للقطط.

□ □ □

The New Diet Revolution

(الثورة الجديدة فى الريجيم)

Robert C. Atkins
Vermilion, 1999, £ 6.99

برنامج جديد للريجيم صممه الطبيب الشهير للمحافظة على النحافة إلى الأبد.

□ □ □

The Treasures of the Egyptian museum

(كنوز المتحف المصرى)

Introduced by H.E. Mrs. Suzanne Mubarak
Edited by Francesco Tiradritti
Photographs by Araldo De Luca
Cairo: AUC Press, 1999, 416pp. L.E.200.

أكثر من عشرين خبيرا من بينهم زاهى حواس يقدمون شرحًا ووصفًا لمحتويات المتحف المصرى بمصاحبة الصور الفوتوغرافية والرسومات الملونة فى كتاب قامت بتقديمه السيدة سوزان مبارك.

مراجع

المعجم الفلسفى

مراد وهبة
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٨، ط ٤.

المصطلحات الفلسفية ومعانيها فى طبعة مزيدة ومنقحة من العمل الذى بدأه يوسف كرم منذ أربعين عاما.

□ □ □

دائرة المعارف العربية فى علوم الكتب والمكتبات والمعلومات

شعبان خليفة
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨

تضم فى مجلدها الأول دراسات مستفيضة وإحصائية عن الكتب والمكتبات فى آسيا، وكيفية معالجة المعلومات فى مراكز التوثيق بها.

□ □ □

A Guide to World Language Dictionaries

(دليل قواميس لغات العالم)

Andrew Dalby
Library Association, 448pp. £ 59.95

يضم أسماء قواميس لخمسة آلاف لغة.

□ □ □

Encyclopedia of Africa: South of the Sahara (four volumes)

(موسوعة أفريقيا جنوب الصحراء)

New York: Scribners, 1998, 2.466pp,£320

معلومات ومقالات مفهرسة جيدا عن كل ما فى أفريقيا جنوب الصحراء: اللغات والجماعات الإثنية، التاريخ، الأديان، الصناعات، الموارد الطبيعية...الخ.

حول الكنيسة القبطية:

إمكانيات التطور المستقبلية يجب أن ترتبط بالديمقراطية والعلمانية

على الرغم من اللغة الرومانسية الحالمة والهادئة التى كتب بها المستشار وليم سليمان قلادة مقالته «تصويب الأخطاء وتجديد الذاكرة» والتى عرض فيها بشكل موجز لكتاب المسيحية المصرية التقليدية: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ثم تعقيبه المحكم من على أرضية الدعوة لتماسك الجماعة الوطنية المصرية، إلا أن المقالة تفجر العديد من القضايا والإشكاليات ليست فقط المرتبطة بالتاريخ المصرى عمومًا، أو بتاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ولكن أساسًا بالقضايا التى ترتبط بالمستقبل والتحديات التى تواجه وطننا المصرى، وكنيستنا المصرية، وهى التحديات التى تتقاطع خلالها لحظات دخولنا القرن الجديد بشكل درامى مع القدرة على «الاستمرارية والبقاء الحى الفاعل».

وهذه التحديات / الإشكاليات سوف نحاول الإشارة إليها فى عجالة:

[١]إذا كان تاريخ الكنيسة المصرية قد شهد نشوء وتطور حركة الرهبنة، والتى لم تكن حركة روحية فقط، كان الآباء الرهبان المصريون هم روادها ومعلموها، إلا أنها كانت في جوهرها أحد التعبيرات عن عبقرية الشعب المصرى في ابتكار أشكال وأساليب المواجهة للاضطهاد والظلم عبر المقاومة السلبية الجماعية، والتى يمنحها زخمها الجماعى الفاعلية التى حولتها فى النهاية إلي ما يشبه حركات العصيان المدنى في العصر الحديث.

لقد كان نشوء وتطور مثل هذه الأشكال من المواجهة تعبيرًا عن روح الاستقلال ورفض التبعية، القهر، والاضطهاد.. فهل مازال الجسد المصرى يتمتع بنفس الحيوية والمناعة على مواجهة هذه الأمراض؟

[٢]يشير الاستعراض السريع لتاريخ مصر أن الشعب المصرى منذ انتهاء عهد الأسرات الفرعونية وحتى ١٩٥٢، لم يحكمه مصرى مسلم أو مسيحى، بل إن المراكز الأساسية فى جهاز الدولة كانت للأجنبى، بل حرم الشعب من بناء جيش مصرى حتى عصر محمد على،الذى اضطر للجوء للمصريين كجند فى الجيش بعد فشل محاولاته فى بناء جيش حديث غير مصرى. لقد ظل المصريون على امتداد هذه القرون الطويلة (مسيحيين / مسلمين) موضوعًا للاضطهاد والنهب والتهميش، وهو ما جعل قضية الاستقلال المصرى، إحدى أهم قواعد بناء الجماعة الوطنية وتماسكها، ولكن بعد يوليو ٥٢ وخروج الاحتلال البريطانى ومصرنة الدولة، وعلى امتداد سبعة وأربعين عاما تعرض مفهوم الجماعة الوطنية لهزات عنيفة بدت آثارها في الانسحاب التدريجى للأقباط من الحياة العامة، وظهور الاحتقانات الطائفية، وتراجع مفهوم المواطنة.

[٣] إذا كان تاريخ الكنيسة المصرية يشير إلى أنها استطاعت بلورة عقيدتها المسيحية الخاصة التى امتد تأثيرها خارج مصر، وهو ما دفع الكنيسة البيزنطية والرومانية لعزل وحصار تأثيرها عن المسيحيين فى أوروبا شرقًا وغربًا عبر مجمع خلقدونية عام ٤٥١م، فهناك الآن سيناريو شبيه يتم مع الإسلام، حيث أثرت مصر بموقعها وظروفها على فهم وتدين المصريين المسلمين ورؤيتهم لدينهم، فجاء هذا الفهم سمحًا وسطًا مختلفًا عما هو سائد فى دول الجوار العربى.. فهل ما تتعرض له مصر الآن من نشر وتسييد للفكر الذى تجسده جماعات الإسلام السياسى، يسعى للاستفادة من خبرة عزل تأثير الكنيسة المصرية؟ وإذا كان الانحصار فى مصر فى الماضى قد دعم الارتباط بين الكيان المصرى وكنيسته، فهل يمكن فى ظل عالم اليوم بثورة الاتصالات والتكنولوچيا، وظواهر العولمة، اللجوء للتحصن والعزلة كشكل للمواجهة،وهل هناك جدوى أصلا من ذلك، فى ظل وجود تعددية دينية من المفترض أن تحكمها حقوق المواطنة؟ وهل مزيد من الارتباط بالثقافة والمؤسسة الدينية لا يهدر إمكانيات التطور المستقبلية التى نرى أنها يجب أن تكون مرتبطة بالديمقراطية والعلمانية؟

[٤] القضية الأخيرة، التى أشار إليها المستشار وليم قلادة خلال عرضه للكتاب سالف الذكر، هى حركة التجديد التى قادها البابا كيرلس الرابع، والتى شملت برامج وتنظيمات المؤسسة الكنسية منذ منتصف القرن التاسع عشر، والتى جعلت الكنيسة قادرة على الاستمرار والحيوية تطرح قضية التجديد فى البرامج والمنظمات والمفاهيم التى تحكم المؤسسة الكنسية ومشوار التجديد الذى قطعته الكنيسة المصرية منذ المصلح العظيم البابا كيرلس الرابع، وهل تحتاج الكنيسة لحركة إصلاحية جديدة تستوعب متغيرات العصر التى تهب على مصر بشكل عاصف؟

منى مكرم عبيد
عضو مجلس الشعب سابقا

تصويب «تصويب الأخطاء»

«جمال حمدان: كما أن مصر «فلتة» جغرافية، فإن الأقباط «فلتة» طائفية.. أو بالأحرى إنسانية».

هل ثمة استمرارية فى المسيحية المصرية التقليدية؟، لقد عاشت فى مصر ثلاث لغات، وثلاث حضارات منذ بدء ظهور المسيحية فى القرن الأول الميلادى.. فماذا كان تأثير ذلك على الكنيسة المصرية.

.. هذا هوالسؤال الذى ذكره المستشار وليم قلادة فى عرضه النقدى لكتاب (المسيحية المصرية التقليدية: تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية) لمؤلفه ثيودور هول بارتريك فى العدد الماضى. وهو سؤال يمثل إشكالية ختم بها المؤلف كتابه الذى يثير العديد من الأطروحات الشائكة الأبعاد والمفاهيم، ويسعدنا أن نورد عليها عدة ملاحظات عامة وخاصة من قبيل تصويب الأخطاء التى لا تفسد للود قضية.

أما الملاحظات العامة.. فهى تتلخص فى أن المقالة تنتمى إلى كاتبها أكثر من كاتب الكتاب الذى أشار إليه، كما أن القبطية انحسارها أو مدها.. لم يكن الموضوع الأول فى الكتاب، وإنما يظل استمرار مصر وحيويتها هو المحور الرئيسى فى الكتاب، أما عن الملاحظات الخاصة فهى تتحدد فى ثلاث:

* يردد البعض موضوع إهمال الحقبة القبطية من مناهج التاريخ المصرى المعاصر، وإذا صح هذا، فربما يعود إلى أن السمة الرئيسية لهذه الحقبة هى فكرة النضال ورفض التعاون مع المستعمر، وصد محاولات التدخل الأجنبى سواء تحت عنوان الرعاية أو الحماية. وهو ما نجده حديثًا فى مشاريع الكونجرس الأمريكى بشأن إصدار قوانين الانعتاق من الاضطهاد الدينى!! وهو ما يفسر ـ فى جانب منه ـ استمرارية وجود الكنيسة المصرية كأقدم مؤسسة من مؤسسات المجتمع المدنى فى مصر، مؤسسة شعبية ذات كيان مستقل له رئاسته وتنظيمه المكتمل والمكتفى بذاته داخل مصر على حد قول وليم سليمان قلادة، إذ كانت الكنيسة القبطية فى الوعى الشعبى رمزًا للاستقلال الدينى والقومى طيلة التاريخ المصرى.

* أما الملاحظة الثانية: فهى تتحدد فى أن عزلة المسيحية المصرية عن المسيحية الأوروبية التى جاءت بإيعاز من (روما وبيزنطة) منذ منتصف القرن الخامس الميلادى تعود فى الأساس الأول إلى البعد السياسى، وليس البعد الدينى.. لأن مكانة آباء الكنيسة المصرية ـ كما يردد كاتب المقال ـ فى قيادة حركة الفكر المسيحى فى العالم.. بدت أمام كل من روما وبيزنطة غير متسقة مع قيادة الإمبراطورية الرومانية ومكانتها، وخاصة فى ظل وضع مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية، وبشكل أخص، فى ظل رفض المصريين للهيمنة والسيطرة الرومانية عليهم سياسيًا ودينيًا.

* أما الملاحظة الثالثة: فمن المعروف أن التزام الكنيسة المصرية بالتقاليد التزامًا دقيقًا منذ نشأتها وإلى اليوم، لا يتعارض مع حيويتها فى مختلف المجالات كما جاء فى المقالة المشار إليها.. وهذا التقليد هو الذى يشكل الأصل التاريخى فى مصر لمفهوم التعددية وحرية الرأى من خلال إرساء مبدأ المواطنة وسيادة الوطن، وهو ما أكسبها مقومات الاستمرارية إلى الآن..

وعلى هذا النحو، لم يفلح الغرب بوجه خاص مع الكنيسة القبطية فى أن تكون بمثابة الجسر الذى يعبر عليه للتدخل فى شئوننا الداخلية سواء تحت المسميات الدينية أو برداء المصطلحات السياسية. وإنما ظل استقلال الكنيسة متمثلاً فى حيويتها واستمرارها كما تفضل د. وليم سليمان قلادة.

هانى لبيب

ديمقراطية للبيع:

ولكن.. البينة على من ادعى!!

أثار العرض النقدى الذى قدمه نيلسون لكتاب تشارلز لويس «ديمقراطية للبيع» (العدد الثانى ـ مارس ١٩٩٩)، مجموعة من الأفكار المهمة التى تفتح باب النقاش حول قضية المال والسياسة عموما فى الولايات المتحدة الأمريكية. رأى الناقد أن الكتاب يبالغ أحيانا في تقديرد لحجم الدور الذى يلعبه المال فى العملية السياسية الأمريكية، وعاب عليه أنه يميل إلى تقديم صورة أقرب إلى تبنى نظرية المؤامرة الخفية التى تحدث فيها صفقات غامضة خلف أبواب مغلقة.

وفي هذا السياق قدم نيلسون أمثلة قوية بشأن وقائع محددة من الصعب القول إن المال كان العامل الحاسم فيها عند اتخاذ القرار. إلا أن هذا النقد لا يعدو أن يكون اختلافا حول التفاصيل لا يمكن له أن يتطرق إلي ما هو أعمق من رد الأمثلة بأمثلة تثبت العكس أو الاختلاف ـ على أفضل تقدير ـ حول أى مجالات السياسة العامة هى الأكثر عرضة لتأثير المال على صنع القرار. ويرجع السبب فى ذلك إلي أنه من المستحيل السعى إلى التوصل لتحليل دقيق لأبعاد هذه القضية المعقدة بالاقتصار علي رصيد «مخرجات» العملية السياسية، إذ إن المسألة تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير حيث تتعلق بجوهر وطبيعة النظام السياسى الأمريكي نفسه، والأفكار الرئيسية التى تمثل أهم مرتكزاته. وترتبط هذه المشكلة أصلا بروح الدستور الأمريكى الذى عكس موقفا يميل بوضوح نحو اعتبار الحكومة «شرًا لابد منه»، يستوجب فرض أعلى قدر ممكن من القيود عليها لئلا تتوحش على نحو يؤدى للافتئات على حقوق الأفراد أو السلطات المحلية الأدنى. ومن ثم تم تصميم الدستور الأمريكى على نحو لا

يسمح فقط، وإنما يشجع أيضا على ممارسة النفوذ على العملية السياسية. فمن الناحية العملية فإن التعددية السياسية الأمريكية تقوم في جوهرها على «تعددية جماعات المصالح» على حد تعبير البروفيسور تيودور لوى، ولأن هذه المصالح تتنافس فيما بينها على ممارسة النفوذ، فإنها تحيد بعضها البعض مما ينتج عنه ـ وفق هذا الفكر ـ سياسة عامة تحقق الصالح العام. وبعبارة أخرى فإن «المصلحة العامة» فى الفكر الليبرالى الأمريكى هى حاصل جمع المصالح المتعددة نتيجة تنافسها على ممارسة النفوذ.

هذه الروح المتميزة للفكر الأمريكى هى المسئولة فى الواقع عن مسألة على جانب كبير من الأهمية، وهى الموقف الذى طالما تبنته المحكمة العليا ومثل إحدى أهم العقبات أمام أية محاولة جادة لتقييد دور المال فى السياسة.

فقد درجت المحكمة العليا الأمريكية على اعتبار إنفاق المال فى العمل السياسى أحد أشكال «حرية الكلمة» إذ يسعى كل طرح إلى شرح القضايا العامة و«توعية» الجماهير بشأن أبعادها. ومن هذا المنطلق، اعتبرت المحكمة أن أية محاولة لتقييد قدرة الأفراد والجماعات على إنفاق الأموال لهذا الغرض عمل غير دستورى لأنه «مرادف» لانتهاك «حرية الكلمة» التى يكفلها الدستور. وهذه فى الواقع هى إحدى العقبات الكؤود التى برع أصحاب المصالح فى استغلالها لحماية نفوذهم ضد أى محاولة لتقييد قدرتهم على الإنفاق لأهداف سياسية.

فى هذا السياق الأوسع، يمكن مناقشة الانتقادات التى وجهها نيلسون لأطروحات لويس. فبغض النظر عما إذا كانت هذه الواقعة أو تلك تثبت أو تنفى نفوذ المال، فإن القضية المحورية هى أن دور المال فى السياسة دور مشروع تماما فى السياق الأمريكى، بل اكتسب غطاء دستوريا بفضل موقف المحكمة العليا. أما الاختلاف فيتمثل فى التفاصيل المتعلقة بتنظيم أساليب إنفاق هذا المال وسد الثغرات القانونية التى تخرج هذه الممارسة من النطاق المسموح به قانونا.

ومن ناحية أخرى، فإن المسألة ليست ما إذا كانت هناك مؤامرة من عدمه، وإنما هى الصعوبة البالغة التى تواجهها أية محاولة «لإثبات» حجم نفوذ المال فى السياسة. وهى صعوبة مصدرها خصوصية النظام السياسى نفسه وقوانينه الحاكمة، بل وطبيعة تفاعلاته التى أفرزت أساليب وتقنيات بالغة الحذق والمهارة يستخدمها أصحاب الأموال للتأثير على صنع القرار، بينما تعقد من قدرة المواطن العادى، بل والأكاديمى على الإمساك بأدلة قاطعة عن نفوذ المال فى هذه الواقعة أو تلك.

وتزعم كاتبة هذه السطور أن بحث الأوجه المتعددة وراء صعوبة إثبات دور المال فى السياسة هى القضية الأهم التى لا يمكن دونها التعرف على أبعاد ذلك الدور وحجم تاثيره. وهى القضية التى كانت تستحق أن يفرد لها الكاتب والناقد مساحة أكبر لأنها فى حد ذاتها القرينة الأهم على الإطلاق على خطورة هذا النفوذ وتغلغله العميق فى شتى خلايا النظام السياسى الأمريكى.

منار الشوربجى

آية الله جورباتشوف: وصاية المثقف على المثقف

خالص التهانى على الإصدار الجديد ذى المستوى الرفيع والعميق، وقد جاء فى وقته وسط هذا الركام من الكتابات والإصدارات المتدنية والغثة. ولكن يبدو دائمًا أن أمورنا لا تكتمل لا أدرى بسبب هفوات فنية أم هى عقلية كاملة تكمن وراء هذه الهفوات؟

دفعنى إلي هذه الملاحظة ما ورد فى العدد الثانى فى موضوع: شاؤول بخش: هل يصبح خاتمى آية الله جورباتشوف؟ ص ٣٤ وما بعدها. فقد تصدر المقالة تحذير أو توجيه بقلم فهمى هويدى، هذه وجهة نظر علمانية، ولم أستطع فهم منطقية مثل هذا التعليق رغم أننى فى البداية تعاملت معه بسخرية وقارنته بما يكتب على علب السجائر: التدخين مضر بصحتك! ولكن قلت الأمر أكبر وأخطر، فهذه وصاية يمارسها المثقف على المثقف. ومازلنا نشكو من رقابة السلطة السياسية ولكن الآن ظهرت السلطة الثقافية ـ الدينية وهى الأشد خطرًا مهما ادعت الاعتدال والملمس اللين. كان يجب على مجلتكم الغراء فى مستهل عهدها أن تحترم عقولنا وحريتنا الفكرية فى تقييم وتقويم ما نقرأ. وكان يمكن للمعلق أن ينتظر حتى العدد القادم وإذا لم يستطع صبرًا كان يمكن أن يعقب بعد نهاية المقال.

د. حيدر إبراهيم على
مدير مركز الدراسات السودانية

فى البدء كانت الكتابة: نموذج ممتاز لناقد قرر أن يتخلى عن هدفه

استوقفنى بخاصة مقال الكاتب «سايمون ليز» فى البدء كانت الكتابة. وقد ذيّل ناقد الكتاب مقاله المكثّف والقصير نسبيا بخلفية عن المؤلف واهتماماته بالتراث والفلسفة الصينية.

ولم يخطر ببالى فى البدء أن أسهم برأيى فى المقال. إلا أن إعادة القراءة لبعض فقراته كشفت لى عن جاذبية فى المقال، ربما كان سرُّها غير قليل من الغموض المستتر والمحرِّض للقارئ، وهو غموض كشف عنه الناقد بكثير من الصراحة فى ثنايا استعراضه للكتاب. فهو مثلاً يصرِّح بأنه كان يتعامل مع الكتاب بمشاعر مختلطة.. فيها من الحيرة والدهشة بقدر ما فيها من الإحساس بالعجز فى إعطاء الكتاب حقَّه من الإنصاف.. وهى نغمة نادرة فى عالم النقد!

إن ارتياد المجهول غريزة بشرية.. وما أفقرنا جميعا بدونها.. وقد نجح ناقد الكتاب تماما فى كسب أحد قراء مجلة «الكتب: وجهات نظر» بإثارة غريزة حبِّ الاستطلاع لديه.. وهو كاتب هذه السطور. فها أنا بعد تردد وقراءة ثانية متمعنة للمقال أحاول أن أتلمس هذا السر فأجده مختبئًا بين ثنايا نصوص الكاتب وانفعال الناقد الصريح بها.. وأجده أكثر وضوحًا فى موقف الناقد من المؤلف. وخرجت بالحكمة الأولى في هذه التجربة.. وتساءلت: هل يلزم أن يكون النقد لأى عمل علمى أو أدبى حبيس مفهوم «التقييم» وحده؟ إن العلاقة الكلاسيكية المعتمدة بين العمل الإنشائى أى الأساسى والنقد مازالت فى كثير من صورها علاقة رأسية.. تتجه من الأعلى «الناقد» إلى الأسفل «المؤلف» ولم تتطور حتى الآن لتصبح أفقية تكاملية كما ينبغى لها أن تكون.

والنص الذى بين أيدينا نموذج ممتاز لناقد قرر فى ضوء تجربته الشخصية أن يتخلى عن هدفه فى إنصاف الكاتب لعجزه عن ذلك، وأن يكتفى بتحريض القرّاء ـ أمثالنا ـ على خوض التجربة بأنفسهم ليجدوا فى ذلك كل أو بعض ما وجده الناقد من متعة وإثارة فى هذه التجربة.

الدكتور محمد خير عثمان
أستاذ جامعى وسفير السودان سابقا فى المملكة المتحدة

وداعا للطبقة الوسطى: .. وأهلا بالفئات الوسيطة

أعجبنى التقييم الذى كتبه الدكتور جلال أمين لكتاب الدكتور رمزى زكى «وداعا للطبقة الوسطى»، فلقد فتح هذا التقييم الباب لتناول هذا الموضوع المحيِّر.. ألا وهو «وضع الطبقة الوسطى فى مصر، ذلك الموضوع الذى يعتبر حقلا كاملا من الألغام السياسية والاجتماعية ناهيك عن الألغام العلمية مما يصعب معه الولوج إليه وخوض غماره.

ومنذ بداية مرحلة «الانفتاح الاقتصادى» وإلى الآن، والمعنيون بالفكر السياسى والفكر الاجتماعى فى مصر يتساءلون عن «حالة الطبقى الوسطى».. هل هى فى نمو واتساع مادى ومعنوى أم هى فى حالة تدهور وانكسار؟ وتشعر من تلك التساؤلات أن هناك حرصا على التعامل مع هذه الطبقة والحفاظ على حيويتها بصفتها العمود الفقرى للمجتمع، والقوة الرئيسية فى البناء القائم، والمحافظة على الاستقرار السياسى والاستقرار الاجتماعى، وأنها عنصر التوازن مع الطبقات الأخرى وبالأخص الطبقة العاملة والفلاحين. ويمكن القول إن هذا الاهتمام الذى تحول إلى قناعة انتهى فى تقديرى إلي أن يكون وهما كبيرا، وخاصة مع غياب عمل علمى حقيقى حول الطبقات فى مصر خلال الربع الأخير من هذا القرن. وأحسب أن كتاب دكتور رمزى زكى هو محاولة للاقتراب من الموضوع، وقد أضفت مداخلة الدكتور جلال أمين بانتقاداتها الرصينة أبعادا مستنيرة له. ولعل وجهة نظرى فى الكتاب والمداخلة تختلف من زاوية أنهما لا يقدمان إجابة شافية أو دقيقة عن موضوع الطبقة الوسطى.

فموضوع دراسة الطبقات مسألة شديدة التعقيد وبالذات «مفهوم وإشكالية ودور الطبقة الوسطى».. وأزعم أن النظرة الجزئية أو النظرة الخاصة المرتبطة بصاحبها، أو مجرد الانطباعات الذكية، إنما هى مجرد محاولات للاقتراب الظاهرى من الموضوع، ثم إن موضوع الطبقات يرتبط بالهندسة الاجتماعية للمجتمع، وبالتالى يأتى الحرص الشديد على أعلى درجات الدقة والمنهجية، فهذه النوعية من الهندسة ترتبط بآفاق عملية التنمية والنهضة والتحديث، وأساسها الفعلي هو الدراسة الحقيقية للواقع الاجتماعى وأوضاع الطبقات فيه وقياس الوزن النسبى لكل طبقة فى هذه العملية الكبيرة، ومدى قوة كل طبقة وفكرياتها الخاصة.

* * *

وأزعم أنه لا يوجد من يعرف على وجه الدقة فى بلدنا الخريطة الاجتماعية الحالية. فلقد حدثت تحولات وتغيرات، ولم تعد الأدوات القديمة فى التحليل تصلح لذلك.. ناهيك عن التصنيفات الكلاسيكية التى تعودنا على اجترارها وتمثلها وإعادة استخدامها حتى فقدت صلاحيتها وعمرها الافتراضى! فى حين أن ماكينة الفكر الاجتماعى تغذينا بمدارس جديدة سواء فى الفكر اليمينى أو اليسارى الجديد.. بينما الفكر الاجتماعى المصرى منكمش علي ذاته حاليا ولديه عسر فى العملية الإبداعية اللهم إلا بعض الإرهاصات النادرة.

وينقلنا ذلك للنقطة التى أريد التركيز عليها، وهى أن موضوع الحكم على اتساع أو تدهور الطبقة الوسطى، لا يصح التعامل معه إلا من خلال «مشروع بحثى منظم له معايير علمية منضبطة وبوجود فريق عمل يضم مجموعة منتقاة من

الباحثين تتوفر على الجزء النظرى وعلى البحث الميدانى في شعبه المختلفة (ريف - حضر - مجتمع مدنى - منظمات أعمال - مهن - حرف... إلخ)، وتكون مهمة هذا الفريق داخل الإطار النظرى، هى التشريح الاجتماعى ثم بيان أجزاء الخريطة الطبقية وأبعاد الواقع الاجتماعى والاقتصادى القائم.

ومن العجائب والغرائب عدم اهتمام جهاز الدولة المصرية وكذلك الأحزاب السياسية بمثل هذا المشروع، وكأن الطرفين يفضلان ممارسة اللعبة السياسية بلا قواعد من العلم الراسخ.. وهذا نوع من الانفصال الشبكى عن الواقع، حسب علمنا فإن جميع الأحزاب السياسية فى مصر تقدم برامجها السياسية لجمهور الناخبين دون الاستناد على أبحاث ميدانية أو قياسات حقيقية لأحوال الطبقات فى مصر. إلا أنه للحقيقة فإن المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية التابع للدولة اهتم بالموضوع، وأعد مشروعا لدراسة الخريطة الطبقية فى مصر، وذلك منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما، وأصدر كتابا أول ممتازا أعده الدكتور إبراهيم العيسوى حول المفاهيم المختلفة للموضوع، بالإضافة لعدة حلقات نقاشية جادة تناولت تفاصيل المشروع البحثى.. ثم سكتت شهرزاد عن الكلام المباح، وتعثر المشروع، وتفرقت الهيئة البحثية وانفرط العقد ولم نعد نسمع أى جديد عنه.. فهل يدل ذلك على عدم اهتمام النخبة السياسية بالموضوع أم عدم اكتراثها أصلا أم ماذا بالضبط؟

***

يشعر المرء بحرج كبير ورهبة أكبر إزاء الكتابة أو حتى التعليق بالنسبة لموضوع الخريطة الطبقية للمجتمع أو موضوع «الطبقة الوسطى» لأن الحديث هنا سيفتقر للمعايير والموازين الدقيقة. فعلى سبيل المثال، فإن لكل طبقة مشروعا تسعى لتطبيقه تلبية لمصالحها وطموحاتها وفكرياتها.. فهل ما نطلق عليه «طبقة وسطى» لها مشروع حاليا فى مصر؟ هل يمكن الإجابة على هذا السؤال دون تشريح علمى؟ ثم أين هذا المشروع؟

ربما لا توجد طبقة وسطى، إنما بالأحرى «فئات وسيطة» لا تُكَوِّن طبقة، ولكن تسعى وتتواجد بين طبقات أخرى لها تحديد أكثر ومعالم أوضح. وفي ضوء ذلك، قد يكون من الأوفق أن نبحث في الدور والحجم والوزن النسبى لهذه الفئات الوسيطة فى عملية التنمية وإمكانيات التحديث والتغيير.. وقد نفاجأ (بعد الدراسة والتحليل) أنها أكثر رجعية وتقوقعا عما نتصور، أو أنها حائرة بين طبقات مختلفة. (على سبيل المثال: كيف يمكن تصنيف مُشغل الكمبيوتر أو مصمم البرامج للحاسب الآلى أو تصنيف سائق يمتلك «تاكسى» يعمل فى مدينة القاهرة ويقيم فى محافظة القليوبية بإحدى قراها ولديه قطعة أرض يزرعها أو يستأجر من يزرعها ويقوم بتربية بعض الماشية بغرض الاتجار فيها).

الحاصل أن التحولات فى الواقع وأيضا متغيراته تزيل مصطلحات ومفاهيم قديمة ثم تطرح بالضرورة مفاهيم ومصطلحات جديدة.. فقد نقول لمفهوم الطبقة الوسطى وداعًا ونقول لمصطلح الفئات الوسيطة أهلا.. وفى كل الأحوال يجب أن نفتح الباب على مصراعيه للدراسة والتحليل والبحث العلمى فى قضايا الحالة المجتمعية إذا كنا نرغب بحق في النهضة والتغيير وإعادة تشكيل الهندسة الاجتماعية لبلدنا.

عمرو كمال حمودة

الدور المصرى فى اكتشاف آثار الإسكندرية الغارقة

إشارة إلى موضوع «آثار الإسكندرية الغارقة، أسرار تحت الأمواج»، الذى نشر فى العدد الثانى من مجلة «الكتب: وجهات نظر» أود أن أسجل بعض الملاحظات التى تلقى الضوء على الجهود التى بذلتها الإدارة المصرية للآثار الغارقة فى الإسهام فى هذه الاكتشافات.

فقد شهدت السنوات الأخيرة عدة اكتشافات أثرية بهرت العالم وجذبت انتباه وسائل الإعلام العالمية المرئية والمقروءة، بفضل ما كشفته عن صفحات غامضة كانت مجهولة من التاريخ المصرى القديم وتتمثل هذه الاكتشافات فى موقع قلعة قايتباى والآثار الغارقة بجوارها واحتمال أن تكون أطلال فنار الإسكندرية القديم إحدى عجائب الدنيا السبع.. وكذلك اكتشافات الأحياء الملكية وأطلال قصور البطالمة والموانئ الملكية القديمة فى منطقة الميناء الشرقى بالإسكندرية وغيرها من الاكتشافات التى مازالت تجذب انتباه المتخصصين فى جميع أنحاء العالم.

فأين الدور المصرى من هذه الاكتشافات التى تنسبها وسائل الإعلام العالمية للبعثات الأجنبية سواء الفرنسية أو غيرها؟

** من المعروف أن سواحل مصر حافلة بالتراث الغارق سواء فى الإسكندرية أو الساحل الشمالى أو خليج أبى قير أو البحر الأحمر وغيرها، وقد كان أبناء مصر أسبق من غيرهم فى البحث عن هذا التراث. وكانت أول محاولة مصرية فى عام ١٩٣٣ عندما قام الأمير عمر طوسون بتكوين أول بعثة آثار تنقب عن التراث الغارق فى خليج أبى قير.

** ثم كانت المحاولة الثانية عندما قام الغواص المصرى كامل أبو السعادات

والذى كان غواصا هاويا بالغوص فى المواقع التى تحوى آثارا غارقة فى سواحل الإسكندرية وذلك طوال فترة الستينيات وسجل مشاهداته فى موقع قلعة قايتباى والميناء الشرقى على خرائط حدد فيها أماكن بعض التوابيت والتماثيل والأعمدة. كما قام بالغوص فى خليج أبى قير واستطاع أن يحدد مواقع بعض السفن الغارقة من أسطول نابليون وسجل مواقعها على الخرائط. وقد ظلت أعمال أبو السعادات مرجعا أساسيا لكل البعثات التى قامت بالتنقيب عن حطام أسطول نابليون فى أبى قير.

ومع بداية فترة التسعينيات بدأ مجال الآثار الغارقة يشهد طفرة كبيرة وانطلاقة علمية حيث بدأت البعثات الأجنبية تتسابق للكشف عن هذا التراث الغارق مثل بعثة مركز الدراسات السكندرية وهى بعثة فرنسية تعمل فى موقع قلعة قايتباى، وبعثة المعهد الأوروبى للآثار الغارقة وهى بعثة فرنسية تعمل فى الميناء الشرقى وخليج أبى قير، وبعثة معهد الآثار البحرية وهى بعثة أمريكية تعمل فى الساحل الشمالى والبحر الأحمر، وبعثة المعهد الهلينى للحفاظ على التراث الغارق وهى بعثة يونانية تعمل فى منطقة الشاطبى ورشدى بالإسكندرية.

وأمام هذه الأهمية الكبيرة والمتزايدة لهذا المجال، وتزايد المواقع الأثرية التى يتم اكتشافها، ومع تزايد البعثات الأجنبية العاملة فى هذا المجال والذى سبقتنا فيه العديد من دول العالم، ومع الاهتمام الإعلامى العالمي وأمام كل هذه العوامل كانت الحاجة الملحة لإنشاء إدارة مصرية متخصصة للآثار الغارقة، وبالفعل صدر قرار الأمين العام للمجلس الأعلي للآثار فى عام ١٩٩٦ بإنشاء الإدارة العامة للآثار الغارقة ومقرها مدينة الإسكندرية.

** لقد تضمن القرار انتداب ١٤ أثريا يعملون بالفعل فى مجال الآثار الغارقة وكانوا ينتمون إداريا للمتحف اليونانى وتفتيش آثار غرب الدلتا والمناطق الأثرية الأخرى بالإسكندرية وهم يمثلون جميع التخصصات الأثرية الفرعونية واليونانية والرومانية والإسلامية، وكلهم حاصلون على دورات تدريبية متقدمة فى مجال الغوص ويجمع معظمهم بين الدراسات العليا والعمل الميدانى بالغوص فى المواقع الأثرية.

** ثم كانت الخطوة التالية وهى مرحلة اقتحام هذا المجال عمليا، حيث أصبحت الإدارة قادرة على تكوين أول بعثة آثار غارقة بإمكانيات فنية وبشرية مصرية خالصة، وكانت البداية عام ١٩٩٧ فى منطقة شرق السلسلة بالإسكندرية عندما قامت هيئة حماية الشواطئ بإلقاء كتل خرسانية على الموقع، فقامت الإدارة بإيقاف عمل هيئة حماية الشواطئ وبدأت أول مسح أثرى بأفراد الإدارة، وتم عمل خريطة للموقع وتحديد الشواهد الأثرية به، ثم كانت الخطوة التالية عندما تقدم الجانب الفرنسى بطلب لبناء فنار يعمل بأشعة الليزر فى منطقة الميناء الشرقى وقامت الإدارة بعمل مسح أثرى في الموقع المطلوب بجوار نادى الكشافة البحرية وتم اكتشاف أرصفة بحرية تمثل ميناء قديما، وكتل جرانيتية وأعمدة وتم عمل تقرير وخرائط بالشواهد التى كشفت عنها ورفعه للأمين العام.

** والواقع أن الاكتشافات التى أعلن عنها مؤخرا والتي نسب فيها الفضل الأول والأخير للبعثات الأجنبية كان لأفراد الإدارة دور مهم فى تحقيقها فكيف كان ذلك؟

من المعروف أن البعثات الأجنبية تتحمل التكاليف المادية لإجراء الحفائر والتنقيب عن التراث الغارق وهذه حقيقة واضحة بما يتوافر لها من إمكانيات لم تكن متوافرة لإدارة الآثار الغارقة فى السنوات السابقة، وقد اعتمدت هذه البعثات بدرجة كبيرة على مفتشى الآثار المصريين وكان لهم دور كبير فى هذه الاكتشافات، وعلى سبيل المثال، فقد قام الأثريون المصريون المتخصصون فى الآثار المصرية بنقل وترجمة كل النصوص الهيروغليفية فى كل من الميناء الشرقى وقلعة قايتباى وقام كذلك الأثريون المصريون المتخصصون فى الآثار اليونانية بترجمة النصوص اللاتينية واليونانية وهى ترجمات اعتمدت عليها البعثات الأجنبية فى نشرها العلمى لهذه الاكتشافات. كما استطاع الأثريون المصريون الكشف عن العديد من القطع الأثرية التى تعتبر من روائع الحضارة المصرية سواء الأعمدة أو التماثيل أو المسلات أو قطع العملات وغيرها من القطع الأثرية. وقد استطاعت هذه المجموعة من الشباب إثبات وجودهم فى هذا المجال لدرجة أن البعثات الأجنبية أصبحت تعتمد عليهم بدرجة كبيرة فى أعمال الحفائر والمسح الأثرى والتصوير تحت الماء.

ومن ناحية أخرى، يجب توافر خبرات خاصة للأثرى الذى يعمل فى هذا المجال فى كيفية التعامل مع الأثر ورسمه وتسجيله وتصويره فى كل مراحل الاكتشاف.

** والواقع أن هذه المجموعة من الشباب يمثلون نموذجا للشباب المصرى الذى استطاع أن يقتحم مجالا ظل قاصرا على البعثات الأجنبية لسنوات طويلة وهو مجال سبقتنا إليه العديد من الدول فى حوض البحر المتوسط وسائر بلدان العالم، وفى خلال شهور قليلة استطاعوا اكتساب خبرات واسعة نالت احترام وتقدير الدول الأخرى التى لها باع طويل فى هذا المجال.

إبراهيم درويش

مدير إدارة الآثار الغارقة بالإسكندرية

نون

الفكر الحافى

تمتلئ الساحة الفكرية والثقافية فى العالم العربى هذه الأيام بمعارك أشبه ما تكون بعواصف الخماسين الرملية، تثير من زوابع الجدل العقيم أكثر مما تثير من قضايا جوهرية، وتسد العيون والآذان عن الرؤية السليمة، وتعيد طرح مشكلات لا تمس صميم الإبداع والتجديد بقدر ما تكشف عن الارتباك والتخبط الذى يمس موقف مجتمعاتنا العربية فى العصر الحديث من حرية الفكر والثقافة والانفتاح على العالم.

وأخطر هذه القضايا بدون شك وأكثرها دلالة على الغياب الحقيقى عن عالم أصبح الحديث فيه عن غزو الفضاء والسيبرسبيس والعولمة، زادًا يوميا للفكر والتأمل فى جميع مجالات الحياة، هى قضية التدخل الخارجى من جانب مراكز للسلطة لا علاقة لها بالتعليم الأكاديمى، ولا بالبحث الحر، ولا بتربية أجيال جديدة قادرة على القراءة والفهم والحكم السليم على إنتاج عالمى متدفق وغزير ومتنوع بغير قيود.. احتماءً بذرائع «أخلاقية»، وادعاءً بالدفاع عن «الفضيلة»، والوقوف فى وجه الإباحية والتبذل.

والقضية التى نشير إليها هنا هى قضية تدخل وزير التعليم العالى ومن بعده لجنة التعليم بمجلس الشعب لمنع تدريس قصة فى الأدب المعاصر من تأليف الأديب المغربى محمد شكرى هى «الخبز الحافى»، بحجة أن بعض أولياء الأمور رأوا فى الكتاب نوعا من الأدب الإباحى أو البورنو. وهو ما يمثل فى رأيهم خطرا على أخلاق الشباب، ينبغى أن نعصمهم منه ونغلق عيونهم عنه. وهى حجج تافهة سقيمة، تخفى وراءها نوعا من السلطوية الفكرية البغيضة، والظلامية العمياء، والتحرش العقلى بأجيال ينبغى أن تتعلم فى الجامعة كيف وماذا ولماذا تقرأ، دون وصاية من الشارع ولا من الوزير ولا من الخفير، لأنه حين يموت كل هؤلاء، فمن الذى سيعلم أبناءنا ماذا يقرأون وماذا يشاهدون؟ من الذى سيربى لديهم ملكة الحكم على الغث والسمين؟ وإذا لم تكن هذه هى مهمة التعليم الأكاديمى فمن تكون مهمته؟ ولماذا يدفع الناس بأبنائهم وبناتهم إلى تعليم جامعى عال، هو بحكم تعريفه وطبيعته انفتاح على المعرفة الإنسانية فى آفاقها المختلفة، وتدريب لملكة النقد الأكاديمى على توخى الموضوعية وسلامة الحكم والتقويم.

ومع ذلك فالكتاب فى حد ذاته نوع من أدب السيرة الذاتية، صدر قبل نحو ثلاثة عقود، وترجم إلى لغات مختلفة، وبيعت منه ألوف النسخ فى المغرب والعالم العربى، وطرح فى المكتبات ومعرض الكتاب فى القاهرة. وتعبر القصة بصاحبها مرحلة الطفولة والمراهقة، وما صاحبها من تحولات نفسية واجتماعية ومكانية.. تناوله نقاد الأدب باعتباره بعض تجليات الأدب المغربى الحديث، ولم تثر حوله مثل هذه الضجة الغوغائية التى ملأت بعض الصحف فى مصر وشغلت من لا شاغل لهم.. ولم يؤخذ ما فيه من عُرى فى العبارة أو خشونة فى اللفظ على أنه أدب جنسى بالمعنى الذى يجرد الكتاب من قيمته الأدبية. فقد عرف الأدب العربى أشعار أبى نواس الإباحية وقصص ألف ليلة وليلة قديما، وروايات أخرى لأدباء معروفين مثل رواية الطيب صالح «موسم الهجرة للشمال» حديثا، دون أن تعلن حالة الطوارئ الفكرية فى الجامعات ويفرض عليها منع التجول.

والحقيقة هى أنه لم يكن ذلك الكتاب وحده هو الذى تعرض للحظر داخل النطاق الأكاديمى، بل شهدت كلية الآداب فى جامعة القاهرة مشهدا مماثلا لكتاب ليس فيه أدب مكشوف أو غير مكشوف. ولكنه كتاب حاد العبارة شديد اللهجة، كتبه عبد الله النديم فى الرد على بعض الخصوم السياسيين، وهو كتاب «المسامير» الذى يدرسه أساتذة التاريخ كنموذج للكتابة السياسية فى مصر فى القرن التاسع عشر.. وثارت حوله ضجة مفتعلة وجرى فيه التحقيق مع الأستاذ الذى قرأ الكتاب على طلابه فى الجامعة أو استشهد ببعض صفحاته.

وهنا يصح أن نتوقف لنسأل: ما هو الهدف من التعليم الجامعى فى العالم العربى؟ وما هو الهدف من تدريس الآداب العربية والعالمية فى الجامعات إذا تركنا للشارع تحديد المناهج الأكاديمية والمقررات الدراسية، واضطرت الجامعات إلى الخضوع لما يفرض عليها من معايير غوغائية؟

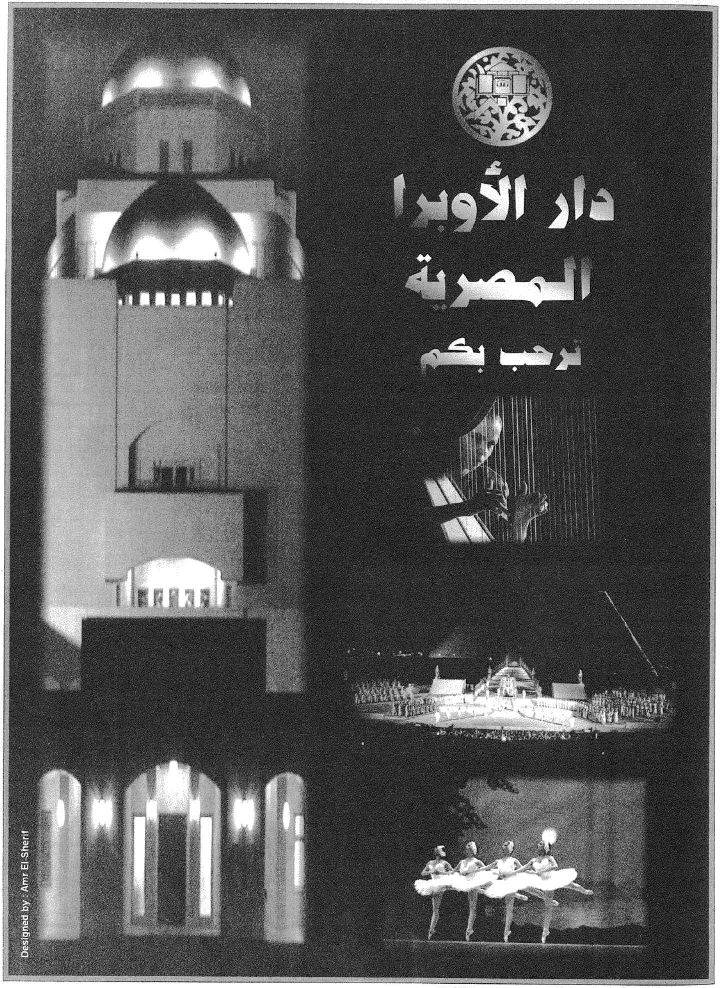
الجواب على ذلك، أننا سوف نجد أنفسنا بإزاء نوع من الفكر الحافى أو الأدب الحافى أو الثقافة الحافية.. مجرد كسرة من الزاد لا تقيم أودًا ثقافيًا، ولا تشبع جوعًا فكريًا، ولا تملأ عقلاً مفتوحًا، ولا تربط بين الإنسان العربى والعصر الذى يعيش فيه.. سوف نرتد إلى عصر البغال والحمير، ننتقل بها فى الزمان والمكان داخل قوقعة.. مغلقة.. ننتفض جزعًا وفرقًا مع كل إنتاج عقلى لا يرضى البعض عنه!

ولهذا لم يكن غريبا أن يتحول السجال الصحى الذى جرى رعدًا ومطرًا فى معرض الكتاب بين الشاعرين الكبيرين أحمد عبد المعطى حجازى، وأدونيس إلى معركة طاحنة.. ترتفع فيها نبرة الإقليمية والشوفينية، وتضيع فيها العناصر الجوهرية لاختلاف الرأى والذوق الشعرى وتعدد المدارس الأدبية. هذا التعدد الذى يثرى الحياة الفكرية والعقلية، ويعيد للعقل العربى خصوبته وغناه. ومن أسف أن الذين حولوا هذا السجال إلى خصومة سياسية أو شعوبية، لم يكن حجازى ولا أدونيس، ولكن بعض الحواريين من أكثر الناس بعدا عن الإبداع، وأقلهم ذيوعًا واعترافًا فى دنيا الشعر العربى الحديث وما بعد الحديث.

يتصل بهذا من قريب ذلك التحزب الأعمى، والميل إلى إثارة المعارك الكلامية الجوفاء، ونبش قبور الموتى.. بالدعوة إلى نقل رفات مى زيادة من مثواها الأخير فى القاهرة لدفنها فى وطنها الأصلى لبنان. وكأن مى زيادة التى ولدت فى فلسطين (الناصرة) وتعلمت فى لبنان، ثم تفتحت مواهبها فى مصر لتغدو قبلة المفكرين والأدباء والمبدعين فى صالونها الأدبى.. سوف تزداد مجدا وخلودا وتكريما لو نقلت عظامها من أرض مصر إلى أرض لبنان.

هذا العبث بالعقول، والانصراف إلى القشور، والانغماس فى شكليات لا طائل من ورائها، والوقوف على أطلال قضايا لا تقدم ولا تؤخر، هى أسوأ الأعراض لمرض عربى عضال، يتفشى فى جميع المستويات، وينعكس على جميع التصرفات والسياسات. فلا يخرج لنا غير أجيال من الحفاة العراة التى تعيش على الكفاف العقلى والإملاق الروحى.. جهودهم تذهب هباء فلا يبقى منها شىء.

سلامة أحمد سلامة


دار الأوبرا
المصرية
ترحب بكم
Designed by : Amr El-Sherif

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
مجلة شهرية . العدد الرابع . السنة الأولى مايو ١٩٩٩ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل يكتب :



حوارات مع القذافى

عن الأفكار

والأزمات

والناس ... والزمن

الوضع الدينى فى مصر .. وخريطة حركات العنف الإسلامى



ميلوسوفيتش

هكذا صعد..وهكذا يسقط

سوروس

وكارثة رأسمالية "السداح مداح"!

فلسطين

أى دولة .. وعلى أى أرض؟

مهرجان كان

خمسون عاماً

فصل الخطاب فى الجدل حول "الخبز الحافى"

جداريات الحج فن شعبى أصيل

سعد زغلول

الزعيم فى المنفى..والثورة فى الوطن



افتح ... وحرك .. واكتشف العجائب
فى
كتاب
جسمك
أجزاء
متحركة
ومجسمة
افتح الكتاب
لتتعرف على
صديق مدهش .
إنه جسمك المذهل
فى كتاب
ج س م ك
الكتاب الأول
من نوعه
باللغة العربية
يطلب من دار الشروق : ٨ش سيبويه
المصرى رابعة العدوية مدينة نصر
ت : ٤٠٢٣٣٩٩
ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت
حرب ت : ٣٩١٢٤٨٠

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الأولى
العدد الرابع
مايو ١٩٩٩

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للتحرير
جميل مطر

اهداءات ٢٠٠١
ا.صلاح راتب
القاهرة

محتويات العدد :

كتاب العدد :

- إحسان بكر .. خبير فى الشئون الفلسطينية من مصر
- تشارلز جلاس .. كاتب من المملكة المتحدة
- تيم يوداه .. عمل مراسلا لجريدة تايم ومجلة الإيكونومست فى بلجراد بيوغسلافيا السابقة ونشر له كتاب عن الصرب فى العام الماضى.
- جلال أمين .. كاتب من مصر وأستاذ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- رفيق الصبان .. ناقد سينمائى
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- طارق البشرى .. مؤرخ وكاتب من مصر
- مايكل بودرو .. كاتب من المملكة المتحدة
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد صلاح .. صحفى متخصص فى شئون الحركات الإسلامية المصرية
- محمد يوسف عدس .. خبير فى الدراسات البلقانية ومقيم فى لندن وله كتاب عن كوسوفا تحت الطبع
- محمود عبدالفضيل .. خبير اقتصادى ورئيس قسم الاقتصاد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة
- وليد خدورى .. خبير فى شئون النفط من العراق ورئيس تحرير نشرة ميس *Middle East Economic Survey*

رسوم العدد للفنانين : محمد حجى - سعد الدين شحاتة - نبيل تاج

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر : ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى : ٨٠ دولاراً أمريكياً - دول أوروبا وأمريكا وكندا: ١٢٠ دولاراً أمريكياً - باقى دول العالم: ١٥٠ دولاراً أمريكياً.
إدارة اشتراكات الأهرام - مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالا - اليمن ١٥٠ ريالا - الكويت دينار واحد - الإمارات ١٥ درهما - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٢٥ درهما - تونس ٣ دنانير.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــة..

بين الإيقاع السريع للأحداث، وماتنطوى عليه من مفاجآت خاطفة غير متوقعة، وما يواجهه إنسان العصر من تحديات وقضايا تصنعها تراكمات التغيير على آماد تطول أو تقصر، يقف القارئ العادى فى كثير من الأحيان مشدوها غير مصدق. يبحث عن الحقيقة فى ثنايا التقارير والأخبار والنشرات التى تتحفه بها الصحف «اليومية» وتحاصره بها الرسائل والصور الإذاعية والتلفزيونية، لعله يجد تفسيرا مقنعا لما يعج به العالم من آلام ومآس، أو يستريح إلى تصور شامل متكامل للبواعث والأسباب التى تحرك قوى الخير والشر، ونوازع السلام والحرب بين الشعوب.

وليس بوسع المرء أن يستغنى عن أى من الجانبين إن هو اختار أن يحاط علما بما يجرى حوله، وأن يكون مشاركا فى صنع مصيره ومصير أمته. فالأحداث التى تقع فى العالم تصل إليه مجزأة، متقطعة، منفصلة متسارعة، مسطحة. قد لايكون لكل حدث بذاته معنى أو دلالة. وقد لايثير لدى المرء شعورا بالراحة أو بالقلق. ولكنها مجتمعة، وبمرور الوقت واستمرار التغيير، وتواصل الحركة، تصبح تيارا يحفر مجراه فى صيرورة الزمن لتصبح جزءا لا يتجزأ من حركة التاريخ التى تحدد مصائر الشعوب والأمم.

ومن هذا المنطلق تحرص مجلة «الكتب .. وجهات نظر» على أن تساير إيقاع الأحداث، وتواكب مجرى الزمن تبحث عن الحقيقة فى إطار النظرة الشاملة، وتطل على الأحداث فى عمقها التاريخى، وتفاصيلها المركبة، بكل ما تنطوى عليه من صلف الغرور بالقوة أو من مركبات النقص الكامنة فى الطبيعة الإنسانية. وتحاول الكشف عن العوامل والظروف التى تصنع الزعامات التاريخية أو تحطمها.

وفى الحوار المثير الذى يديره الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل مع الزعيم الليبى العقيد معمر القذافى، تترقرق على سطح الأحداث خيوط وخطوط من ذكريات أيام سالفة تحمل عبق الماضى بكل ما فيه من آلام وآمال، وتستدير حركة الصحفى الكامن فى أعماقه استدارة كاملة، تبحث وتنقب فى النتائج والاحتمالات الناجمة عن حادث لوكربى بعد التطورات الأخيرة التى أدت إلى تسليم المشتبه فيهما للمحاكمة فى هولندا.

وفى خضم الحرب الدائرة فى البلقان، والتى تصاعدت فجأة لتصنع مأساة مئات الألوف من اللاجئين الألبان، مع احتمالات تفاقم النزاع واتساع دائرة الحرب، نقدم فى هذا العدد عرضا تاريخيا لجذور مشكلة كوسوفا وتطوراتها الراهنة، ونلقى الضوء على تاريخ الرجل الذى تلوثت يداه بدماء الألبان المسلمين فيما عرف بعمليات التطهير العرقى والمذابح الجماعية التى راح ضحيتها الآلاف حتى اليوم.

ولاشك فى أن العنف السياسى والدينى والطائفى مُدان بكل أشكاله وفى أى مكان فى العالم. وقد تضمن هذا العدد تقويما شاملا لحركات العنف الإسلامية فى مصر، يؤكد أن هذه الحركات قد دخلت مرحلة الانحسار والخسوف الكلى. مع نظرة نقدية لآخر تقرير صدر عن مركز الدراسات الاستراتيجية للأهرام عن الحالة الدينية فى مصر.

وحيث مازالت أشباح الأزمة الاقتصادية التى تهدد الدول الآسيوية تطل على العالم، فقد عرضنا للكتاب المثير الذى ألفه أكبر مضارب فى العالم المالى والمليونير المعروف سوروس، والذى شارك بمضارباته فى انهيار اقتصاد بعض الدول الآسيوية.

فضلا عن موضوعات أخرى عديدة، تناقش مستقبل الدولة الفلسطينية، والصراع على النفط فى القوقاز.. وتجدد للقارئ ذاكرته عن فترة حاسمة من تاريخ مصر بمناسبة مرور ثمانين عاما على ذكرى نفى الزعيم الخالد سعد زغلول.

بالإضافة إلى عديد من الموضوعات الفنية عن جداريات الحج كفن شعبى مصرى أصيل، وعن جوائز السينما العالمية فى مهرجان كان، وانطباعات أحمد فارس الشدياق فى كتابه الشهير: «الساق على الساق».

وهكذا تؤدى «الكتب ..وجهات نظر» رسالتها كجسر يربط بين فكر العالم وأحداثه وبين قارئها على امتداد الوطن العربى.

وجهات نظر

حـــــوارات مـــع

[١]

قابلت العقيد «معمر القذافي» مساء يوم الاثنين ١٣ مارس ١٩٩٩ ـ في الجناح الذي نزل فيه ضيفا رسميا على الدولة المصرية بقصر القبة.

وأهمية تحديد التاريخ هنا أن هذا اللقاء جاء بعد انقطاع ـ ولا أقول قطيعة ـ امتد بما زاد على ربع القرن ... خمس وعشرين سنة!

وعندما لمحني تحت السلم الرخامي الكبير للقصر مُتّجها نحو المصعد إلى الدور الأول حيث يقيم صاح من بعيد مُرَحِّبًا، ثم تسارعت خطاه تسبق العكاز الذي يسند ساقه، وأقبل معانقا وبحرارة شاعت فيها تلقائية العاطفة ممتزجة بالحيرة والدهشة قائلا:

«يا رجل هل هذا معقول، أنت أول شخص قابلته في العالم من خارج ليبيا نفس المساء الذي قمنا فيه بالثورة (أول سبتمبر ١٩٦٩)، وكنت أعتبرك أقرب الأصدقاء إلينا، ثم تذهب وتقطع حبال الود بهذا الشكل وكأن لم تكن بيننا في يوم من الأيام رابطة؟!»

وقلت للعقيد ـ بصوت خفيض ـ ونحن وسط حشد من الناس (خليط من مرافقيه وحراسه والعاملين في القصر):

«سوف نتكلم في ذلك تفصيلا حين نجلس معاً».

وطلب أن أصعد إلى جناحه ويلحق بي على الفور بعد أن تُلتقط له صورة مع وفد من الطلبة الليبيين، انتهى لتوه من حوار معه (في صالون الانتظار الرئيسي في قصر القبة)، ودخلت إلى المصعد ـ ثم إلى جناحه، وجلست في انتظاره (ثلاث دقائق).

وفي هذه الدقائق الثلاث كانت قصص الأيام والتواريخ تجري مشاهد حية في ذاكرتي.

نعم، صحيح أنني قابلته لأول مرة مساء يوم أول سبتمبر ١٩٦٩.

نعم، وصحيح أيضا أنني قابلته بعد ذلك لآخر مرة ظهر يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣.

نعم، وبين هذين التاريخين (١٩٦٩ ـ ١٩٧٣) ـ التقينا مرات كثيرة يصعب حصرها.

نعم، وهذا اللقاء ـ يجيء ـ الآن مساء يوم ١٣ مارس ١٩٩٩.

أي أنه بالفعل غياب خمس وعشرين سنة ـ وفوقها أكثر من خمسة شهور!

ولم تطل تأملات السنوات والأيام كثيرا، فلم يلبث صوت «القذافي» (أو الأخ العقيد «قائد ثورة الفاتح العظيم» كما يسميه الإعلام المصري هذه الأيام!) ـ أن وصل إلى سمعي قادما من الردهة، ثم داخلا إلى حيث كنت أجلس.

ومرة أخرى تكرر المشهد: ترحيب وعناق وعتاب!

....

وكما تكرر المشهد، تكرر السؤال مع إضافة جديدة:

«كيف يا رجل، خمس وعشرون سنة دعوناك خلالها عشرات المرات، وانتظرناك، وأنت لا تجيء. قل لي ما هو عذرك، ما هو تفسيرك، ما هو ردك؟»

ورجوته أن يتمهل على أجيب ـ وقلت له:

«إنها حكاية طويلة، والمسائل فيها متشابكة، والكلام فيها يستغرق وقتا بينما شاغلي الآن أن أسأل عن مستجدات اللحظة الأخيرة .. عما وصلتم إليه في أزمة لوكربي؟»

وقال «القذافي» أنه لن يرد على أسئلة «اللحظة الأخيرة» إلا إذا عرف سر الغيبة السابقة عليها لأنها مشكلة حَيَّرته ولم يجد لها مبررا برغم كل ما حاول».

ولم يبق مَفَرٌّ من عودة إلى ما جرى وكان!

....

....

ورحت أزيح عن حسباني ولساني كل الرتب من «الرئيس» إلى «العقيد»، وكل الألقاب والأوصاف وبينها ما خلعه الإعلام المصري على «معمر القذافي» في رحلته الأخيرة (قائد ثورة الفاتح العظيم) ـ ثم استعيد الصورة التي كنت أعرفه بها في أيام خلت باعتباره «الأخ معمر».

وقلت له «إنني بداية أريد أن أؤكد أنها لم تكن قطيعة ولا مقاطعة، وإنما كانت نوعا من إيثار الابتعاد أوصلتني إليه دواع وجدتها لازمة من وجهة نظري على الأقل»!

وقاطعني: «أية دواع يا رجل؟»

ورجوته أن «ينتظر على أشرح موقفي ويتحمل صراحتي ما دام يصر»!

... وبدأت فطلبت منه أن يتذكر آخر مرة التقينا فيها من قبل ـ وكانت ظهر ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ ...

....

....

يومها جاء إلى مكتبي في الأهرام مُستفزا وثائرا، وكان قادما إلى عندي من مكتب القائد العام المشير «أحمد إسماعيل علي» (وزير الحربية والقائد العام للقوات)، كان «القذافي» قد ركب الطائرة إلى القاهرة يريد أن يعرف أوضاع الجبهة العسكرية في سيناء ويطلع بنفسه على خطوط القتال التي توقف عندها إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.

واتصل «القذافي» بالرئيس «السادات» يقول أنه وصل إلى القاهرة ويريد أن يذهب إلى غرفة العمليات ويرى الموقف العسكري على الخريطة. ورحب به الرئيس «السادات» ـ لكنه اتصل على الفور بالقائد العام يلقي إليه أوامره فيما يخص طلب «القذافي».

وكانت الأوامر إلى «أحمد إسماعيل» أن يعطي «القذافي» فكرة عن المواقع دون أن يسمح له بدخول غرفة العمليات «لأنه لا شيء فيها الآن يراه»!

وتوجه «القذافي» إلى مقر القائد العام، وبعد نقاش قصير أحس بما وصفه بـ«الإهانة»، وفي نفس الوقت أحس لدى القائد العام بما كان بالفعل شعورا بـ«الحرج»!

وباختصار فقد أحس «القذافي» بأنه كان مسموحا له أن يسمع بعض «الكلام» ـ ولكنه كان ممنوعا من أن يرى خرائط غرفة العمليات!

وخرج من القيادة العامة إلى مكتبي ـ مُستفزا وثائرا كما أسلفت، وسمعته حتى اكتفى وكان هدفي تهدئة خواطره وانتهاز فرصة ـ دون علمه ـ أتصل فيها بالرئيس «السادات» عله يتدارك المشكلة.

وتعللت في لحظة من اللحظات بعمل يستدعي وجودي في صالة تحرير الأهرام،



عن الأفكار والأزمات والناس والزمن



محمد حسنين هيكل

كانت التغييرات التى لمحتها لأول وهلة أن السنين تركت آثارها خطوطا عميقة على صفحة وجهه، تعكس توترات الأيام وشدائد التجربة. وكانت عيناه الآن أكثر حذرا فى النظر إلى ما حولهما، وكانت لهجة حديثه ناطقة بنوع من الغربة.. وربما أن الأيام علمته أن مكامن الخطر ليست دائما حيث يتوقعها

بين ثلاثين سنة قضاها معمر القذافى فى الحكم، فإن عشرا منها انقضت فى علاقات حب وهجر بينه وبين مصر، وعشرا ثانية منها جرت طوافا بمواقع القلق على اتساع المعمورة من حركة «أبو نضال» إلى حركة الجيش السرى الأيرلندى، ثم ضاعت عشر سنوات ثالثة فى هموم «لوكربى»



وذهبت إلى غرفة مجاورة أتصل بالرئيس «السادات» أحدثه برأيى «وأسأله عن السبب الذى يمنع معمر القذافى إذا شاء من دخول غرفة العمليات حتى ولو لم يكن فيها شىء» ؟!

كان رأيى أن «معمر» له الحق كصديق موثوق به.. وله الحق كرفيق مهتم.. وله الحق كجار مباشر استخدمت أرضه بغير عوائق عمقا إستراتيجيا للجهد العسكرى المصرى .

وأكثر من ذلك فقد ذكَّرت الرئيس «السادات» بأن «معمر» شريك فى المعركة، ففى عام ١٩٧٣ وحده دفعت ليبيا تكاليف أسلحة لمصر وصلت قيمتها إلى ألف مليون دولار (كان ضمنها القوارب المطاطية التى استخدمتها قوات الموجة الأولى فى عبور قناة السويس، وكان شراؤها من إيطاليا) .

ولكن الرئيس «السادات» بدا لى مُصِرا على موقفه «لأن معمر سوف يحكى لطوب الأرض عما يرى فى غرفة العمليات، ثم لأنه ....» (أوصاف أخرى لا داعى لها الآن) .

وعدت إلى مكتبى حيث كان «معمر القذافى» ينتظرنى، وكانت محاولتى الآن إقناعه أن يذهب للقاء الرئيس «السادات» ويتحدث إليه مباشرة دون وضع المشير «أحمد إسماعيل» فى «مرامى نيران» متقاطعة ودون وساطة أو تدخل من أحد، ثم يتوصلا معا إلى صيغة تفاهم بينهما «الآن» و«مستقبلا» لأن ذلك ضرورى لكفاءة وسلاسة إدارة العمل القومى فى المرحلة الحساسة القادمة .

وأفاض «معمر القذافى» فى شكاواه وشجونه طوفانا متدفقا وحكى كيف «أن الرئيس «السادات» يصد دائما ويعرض، بل وأحيانا ما يتجاوز ويقسو ناسيا أن «معمر القذافى» قومى عربى مؤمن بدور مصر المحورى فى العالم العربى، وليس موظفا فى خدمة الحكومة المصرية مسئولا أمام بيروقراطية الحكم فيها» .

وحاولت أن أهدئ خواطره قدر ما أستطيع عارفا فى صميم قلبى أنه محق فى الكثير مما يشكو منه، لكنه ليس بريئا بالكامل مما يضايق أنور السادات من تصرفاته» .

....

....

وذكَّرت «معمر القذافى» ببعض ذلك ثم أضفت ونحن جلوس الآن بعد ربع قرن فى قصر القبة : «إنه فى ذلك الوقت - ولعله لم ينس - كانت مشاكلى كبيرة مع الرئيس «السادات» بسبب الطريقة التى تفاوض بها مع «هنرى كيسنجر» (يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣) وبسبب النتائج التى توصل إليها بفك الارتباط الأول، ثم بلغت خلافاتى معه (الرئيس «السادات») ذروتها حتى طلب إلىّ أن أكف عن كتابة ما أكتب «لأنه يحدث بلبلة فى أفكار الناس». والذى حدث أننى لم «أكف» معتقدا أننا أمام موقف يتطلب من كل رجل أن يقف وأن يجعل صوته مسموعا مهما كان أو يكون . والنتيجة أن الرئيس «السادات» أصدر أمرا بتعيينى مستشارا له، واعتذرت عن تنفيذ أمره وتركت الأهرام إلى بيتى أرتب نفسى لعمل آخر .

ويوم ٣ فبراير ١٩٧٤ غادرت مبنى الأهرام لآخر مرة بأسى ولكن دون أسف .

وفى نفس اللحظة كنت على قناعة تامة بانه ضمن أشياء كثيرة أخرى يتحتم علىّ تجميد علاقة الصداقة بينى وبينه هو : «معمر القذافى» !

كان «معمر القذافى» جالسا أمامى على الأريكة الكبيرة فى صدر صالون جناح الضيافة بقصر القبة، وكان يسمعنى وهو يميل إلى ناحيتى مستندا إلى عكازه .

وقاطعنى وهو يعود برأسه فجأة إلى الوراء سائلا «عن السبب الذى يدعونى فى هذا كله إلى الابتعاد (حسب وصفى !) - مع أنه يراه بالطريقة التى جرى بها قطيعة حار فى أمرها ولم يعثر على تفسير مقنع لها ».؟

وقلت : «إنه بإلحاحه على فهم موقفى لا يترك لى مجالا إلا أن أصارحه بكل ما خطر لى - وقتها - حتى وإن ضايقه» .

واستطردت : «إننى فى اللحظة التى غادرت فيها مبنى الأهرام قررت أن ألزم نفسى بأنه «لم تعد لى صلة بالقرار السياسى المصرى من قريب أو بعيد» . لى موقف إزاء القضايا التى يتعرض لها هذا

القرار بالطبع، لكن الموقف من القضايا شيء والمعايشة والقرب من مواقع القرار شيء آخر.

موقفي من القضايا متصل برأيي وحقي أن أبديه.

وأما المعايشة والقرب من موقع القرار السياسي فأمر مختلف يتعلق برؤى آخرين لهم رأيهم، وعليهم المسئولية بحقائق الأمور وبمقتضى الدستور».

وقلت لـ«القذافي»: «إنني بحكم ظروف سبقت اقتربت من علاقته بالرئيس «جمال عبد الناصر»، ثم من علاقته بالرئيس «أنور السادات»، ولم يكن ذلك بحق إبداء الرأي ـ كصحفي ـ وإنما كان بمصادفة صداقة مع قمة الدولة.

وفي زمن الرئيس «جمال عبد الناصر» فإن علاقتي بالسياسة المصرية كانت مفتوحة. ثم إنها ظلت كذلك في زمن الرئيس «أنور السادات» حتى انتهت حرب أكتوبر، لكنها ما لبثت أن ساءت ثم وصلت إلى طريق مسدود بسبب أسلوب التفاوض مع «كيسنجر»، وبسبب اتفاق فك الارتباط الأول مع إسرائيل.

وعندما كنت قريبا من صنع القرار أيام الرئيس «السادات» فقد حاولت قدر ما أستطيع أن أكون ـ كما كنت أيام «عبد الناصر» ـ «صلة بينك وبينه». وبنفس المعيار «فإنه في الوقت الذي أبتعد فيه عن دائرة القرار السياسي كان يجب أن أبتعد عنك أنت الآخر وإلا تشابكت خطوط لا يصح أن تتشابك وتعقدت أمور لا أريد لها أن تتعقد».

وقلت: «زيادة على ذلك فإنني أحسست أن الرئيس «السادات» (أو بعض المحيطين به) ـ يحاولون تلوين علاقتك بي، وعلاقتي بك، بأن يحسبوني عليك أو يحسبوك عليّ. وهو شيء لم أكن أريده. فأنت رجل له بمسئولية بلده سياسته، ولي بمسئولية رأيي موقفي. وقد تلتقي الاجتهادات أحيانا وقد تختلف، لكن حدود الأطراف لابد أن تكون واضحة.

لا تنس أن «أنور السادات» كان رئيس الجمهورية، وبصرف النظر عن خلافي معه فهو رئيس الدولة التي أنتمي إليها. وأنت أيضا رئيس دولة، ولكنها دولة ثانية ولا أقول أخرى. وكلاكما يستطيع أن يواجه زميله بقوة ما لديه من وسائل. وهذا الصدام بين الوسائل لا يخصني بل أريد البعد عنه، لأن ما لديّ «اجتهادات» مواطن، وليس «وسائل دولة».

قلت: «بمعنى مباشر أنت والرئيس «السادات» أصبحتما طرفين في خلاف سياسي تحوّل إلى عراك شخصي، ثم وصل إلى أن يكون حاجزا نفسيا.. وذلك أحزنني، لكنه في النهاية أمر يخصكما ويخص رؤاكما لما يجمع بينكما أو يفرق. وليس لي فيه شأن بعد حزني بسببه ولكني لا أريد الدخول فيه، وكان الحل الوحيد المانع والقاطع أن أبتعد وأن يكون الابتعاد كاملا».

....

....

برغم ذلك ـ قلت لـ«معمر القذافي» ونحن جلوس في صالون قصر القبة ـ فإن الرئيس «السادات» بذل جهدا كبيرا ليعطي انطباعا للكافة بأنني واقف في معسكرك، لدرجة أن كثيرين من الناس في مصر ظنوا أنني أقيم لاجئا في ليبيا لأنه لا يعقل من منظورهم أن أقف موقف المعارضة الصريحة على هذا النحو لسياسات الرئيس «أنور السادات» دون سلطان أحتمي به، وأن أظل في مصر تحت طائلة قوانينها دون ملجأ أهرب إليه».

قلت له: «كان بعض الناس يسألون أفراد أسرتي وأصدقائي الأقربين «عما إذا كنت ما أزال في ليبيا» ـ ولم أكن قد وضعت فيها قدما منذ سنة ١٩٧٠.

ووصلت أنا نفسي إلى حد أنني كنت أضيق بكل قائل لي «حمدا لله على السلامة» وأسأله بحدة مرات: «حمدا لله على السلامة من أين؟ إنني هنا لم أترك مصر على الإطلاق ـ أسافر أحيانا لبعض عملي أياما أو أسابيع ثم أعود إليها قابلا مقاديري فيها (وحين أراد الرئيس «السادات» وضعي في السجن.. وجدني في متناول قبضته وأخذني بوليسه إلى سجن طرة مع مئات غيري ضمن اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة) ـ وكان معظم السائلين يرد كريما «حمدا لله على السلامة في كل الأحوال».

وأطرق «معمر القذافي» برأسه قليلا ثم عاد يستند إلى عكازه ويعود برأسه إلى الوراء ويقول: «طيب... عذرك عن الانقطاع طول فترة السادات فهمته، أراك مخطئا ولكني أقدر حقك فيما ارتأيت... بعد السادات لم تعد لديك أسباب...».

قلت: «بعد السادات وجدت سببا آخر».

وقاطعني بسرعة: «الرئيس حسني (يقصد حسني مبارك) لم يمنعك!».

قلت: «لم يمنعني بالتأكيد، وإنما منعت نفسي».

ورفع حاجبيه كأنهما علامتا تعجب!

وقلت: «إنني عندما خرجت من السجن آخر سنة ١٩٨١ وجدت الطرق بين القاهرة وعواصم عربية غيرها ـ مزدحمة بمواكب ذاهبة راجعة.

وبصراحة أكثر فإن ليبيا أصبحت مقصدا لطلاب حاجات مشروعة وغير مشروعة حتى أصبح التواجد في ليبيا مجلبة للظنون صحيحة أو باطلة!».

ثم قلت: «هل تتصور أنني تلقيت خطابات من ليبيين عاديين يشكرون لي أنني لست ضمن زوار بلدهم في هذه الأوضاع»!

ـ إلى هذا الحد.

وقاطعني «القذافي» معترضا، وقلت: «خطر لي أنه عندما يتواجد الناس في نفس المكان فالظنون تفترض أنه نفس القصد».

وكان «معمر القذافي» يهز رأسه نفيا وربما استنكارا.

وأضفت: «وهناك سبب ثالث للابتعاد».

وسألني، وقلت ما أريد قوله (وأعتذر عن الدخول في التفاصيل الآن!).

ورد عليّ: «تصدق شائعات مغرضة ودعايات سوء لها دوافعها ضد ليبيا وأنت أول من ينبغي له أن يعرف أنها مؤامرات الاستعمار والسائرين في ركابه».

وقلت محتجا: «إنك صممت من البداية أن تجعلني أتحدث، وكان هدفي عندما جئت أن أسمعك... وما دمنا قد وصلنا إلى الشائعات والدعايات، والاستعمار ومؤامراته ضد ليبيا، فقد حان دورك الآن في الكلام».

[٢]

جاءت صينية شاي يحملها شاب لا تبدو ملامحه عربية، وتصادف ذلك مع مرور سيدة تحمل ملاءات ومناشف إلى غرفة نومه تعدها فيما يظهر قبل أن يأوي إلى فراشه، وهي الأخرى لا تبدو لها ملامح عربية. وبشكل ما بدت لي الملامح مألوفة، وسألته: «كلاهما يوجوسلاف فيما أظن؟

ورد «القذافي»: «مسلمون من البوسنة»!

واستند بصدره على عكازه يتناول فنجان شاي من الصينية التي وضعت أمامنا على المائدة، وسألني وهو يعود بظهره ليستند إلى ظهر مقعده:

ـ «من أين تريدني أن أبدأ؟».

وقلت: «كان آخر ما وقفنا عنده هو حكاية المؤامرات ضد ليبيا، وإذن نبدأ من آخر نقطة وصلتم إليها في أزمة لوكربي».

قال بنبرة يظهر عليها أثر جرح: «لوكربي.. لوكربي... كأنه لم يعد أمام الخلق مشكلة غير لوكربي؟ ما هي لوكربي هذه؟!».

ثم مضى يقول: «إنه سوف يؤجل الحديث في «لوكربي» إلى ما بعد، وأما الآن فهو يريدني أن أعرف ماذا يحدث في ليبيا لأن ما يجري هناك تجربة إنسانية عظيمة بكل المقاييس».

ورحت أسمعه دون اعتراض.

قال: «إن ليبيا ليست جمهورية، وهو ليس رئيسها، وقد كرر هذا للعالم كله ولكن كثيرين لا يفهمون وربما لأنهم لا يريدون أن يفهموا.

ليبيا جماهيرية، أي أن الجمهور بنفسه يحكم بديمقراطية مباشرة تمارسها اللجان الشعبية المنبثقة من المؤتمرات العامة، وليس بين الجماهير وصنع القرار مجالس وسيطة تصدر القوانين، وإنما هو الشعب بنفسه يحكم نفسه.

الشعب الليبي كله في السلطة، كله يصنع السياسة في كافة المجالات.

وأفاض في الحديث موجة طالت ربع ساعة ـ ثم توقف وسألني:

«ألا يساوي ذلك أن تهتم به ـ أن تكتب عنه؟».

....

....

وقلت: «إن لديّ حيرة إزاء هذا النوع من الديمقراطية المباشرة. ذلك أننا في زمن يختلف عن زمان «أثينا» عندما ظهرت فكرة الديمقراطية. أيام «أثينا» كان الذين يمارسون الديمقراطية مباشرة وفي الاجتماعات المفتوحة مئات على أكثر تقدير. النساء والعبيد لم يكن لديهم الحق في المشاركة. وإذن يجتمع في «الساحة» مائتا رجل أو ثلاثمائة ـ أكثر أو أقل ربما ـ ولكنهم دائرة محصورة، ورأيهم نافذ على مدينة واحدة، والقضايا المطروحة بسيطة يسهل الكلام فيها بعموم، والعالم الخارجي مدن مجاورة أو قريبة.

الآن صورة مختلفة. شعوب وأمم بالملايين وعشرات الملايين ومئاتها في أقاليم طويلة عريضة كثيرة، واجتماع هؤلاء في ساحة وسط «الأكروبول» مستحيل ماديا. والرأي بحر متلاطم في أقاليم ممتدة بعد أقاليم، والقضايا معقدة متشابكة، والعالم الخارجي حاضر عند خط الأفق ووراء البحر والمحيط.

الآن يصعب عليّ أن أرى كيف يعمل نمط الديمقراطية المباشرة في الجماهيرية.

نحن الآن دول ولسنا مدنا، والسلطة الشعبية ـ إذا كان لا بد أن تكون مؤثرة وفاعلة ـ تحتاج تمثيلا يعبر عنها ويجسدها، والنظام لا بد أن يتخذ لنفسه حكمة القانون كفالة تحكم فوق الأوطان طولها وعرضها، اتساعها وامتدادها، تشابك وتعدد قضاياها وعلاقات أهلها، وإلى جانب ذلك فإن العلاقات مع الخارج صراعات تتعدد وسائلها من قوة الحق إلى قوة الردع.

ويصعب عليّ هنا أن أتصور كيف يعمل هذا النوع الذي تحدثني عنه من الديمقراطية الجماهيرية المباشرة؟».

قال: «إذن تأتي بنفسك لترى».

وسألني «معمر القذافي»: «هل قرأت الكتاب الأخضر؟»

وقلت: «قرأته».

«المثقفون العرب، أو من يظنون أنفسهم كذلك، اهتموا كثيرا بما قيل عن الطريق الثالث الذي يتبعه بلير (رئيس وزراء بريطانيا) ويكثر من الحديث عنه.. الطريق الثالث هو نفسه نظرية الكتاب الأخضر.. النظرية العالمية الثالثة»

ـ القذافي ـ



وقـال : «كـثـيـرون في هذا العالم لا يريدون قراءته حتى لا يكتشفوا أن العرب لديهم نظرية عالمية يستطيعون تقديمها لمستقبل التطور الإنساني».

ومضى «معمر القذافي» يشرح الخطوط الرئيسية في الكتاب الأخضر الذي يعتبره الوثيقة الفكرية لثورته .

ومرة ثانية لم أقاطع حتى أكمل، ثم سألني كما فعل مرة من قبل : «ألا يساوي هذا كله أن تهتم به وأن تكتب عنه ؟»

ثم استدرك :

«المثقفون العرب، أو من يظنون أنفسهم كذلك، اهتموا كثيرا بما قيل عن الطريق الثالث الذي يتبعه «بلير» (يقصد «توني بلير» رئيس وزراء بريطانيا) ويكثر من الحديث عنه ...

الطريق الثالث هو نفسه نظرية الكتاب الأخضر .. النظرية العالمية الثالثة».

ووجدتني مضطرا إلى إبداء ملاحظة قلت فيها «إنه يصعب عليّ الربط بين نظريته وبين الطريق الثالث، فهذا الطريق الثالث الذي كثر الحديث عنه منذ ظهر كتاب «أنتوني جيدنز» (الأستاذ بكلية لندن للعلوم الاقتصادية) - ليس طريقا مستقلا ثالثا، وإنما هو حتى بنص عنوان مؤلفه على غلاف كتابه «الطريق الثالث» - يشير في سطر فرعي إلى أن المجلّد «محاولة لإصلاح الليبرالية الديمقراطية».

وفي حقيقة الأمر - أو كذلك ظني - فإن الطريق الثالث ليس نظرية جديدة وإنما هو سياسة حل وسط يريد أن يعطي وجها إنسانيا للرأسمالية الجديدة، وقد هرعت إلى هذا الطريق الثالث أحزاب يسارية أو اشتراكية أو تقدمية وصلت إلى الحكم في بلادها (مثل حزب العمال البريطاني) واكتشفت أن اللحظة الراهنة «رأسمالية»، ولما كانت تريد أن تجد وسيلة للتوفيق بين وهج المبادئ وبين سطوة الحقائق - فإنها عثرت في مقولة «الطريق الثالث» على غطاء نظري وفكري يمنحها مرونة أكثر في الحركة بين المبادئ والحقائق !

وهكذا فإنني أستطيع أن «أتابع» ما يقوله عن نظرية «الكتاب الأخضر»، ولكني أجد نفسي عاجزا عن «المتابعة» إذا جرت المقارنة بالشبه بينه وبين فكرة «الطريق الثالث» !

ودار بيننا نقاش حول هذه المسألة، ثم كان اقتراحه مرة أخرى : «إنه لا بد أن أذهب إلى ليبيا لكي أرى بنفسي «الكتاب الأخضر» حيا وفاعلا».

وتصورت أن مجرى الحديث أصبح مهيئا لأزمة «لوكربي» .

ولم يعترض، ولكنه اختار أن يكون مدخله إلى الحديث عن «لوكربي» هو مخطط التآمر المستمر ضد ليبيا وشعبها وثورتها، وضمن الحرب المتواصلة على القومية العربية فكرة وتجربة ومستقبلا .

وفجأة توقف يسألني :

- هل صحيح أن أنور السادات بطل قومي في مصر الآن ؟»

وأبديت دهشتي من السؤال وموضعه في سياق الحديث، وقال :

- «الرئيس حسني قال لي : لا تنتقد أنور السادات في كلامك لأن ذلك يؤدي إلى نفور الشعب منك لأنه يعتبره بطلا قوميا».

وقلت :

- «إذا سألتني رأيي فقد أتفق مع «الرئيس حسني» في نصيحته لك بأن لا تنتقد الرئيس السادات - أما أن يكون الرئيس السادات بطلا قوميا فهذه قضية خلافية . والأفضل تركها للتاريخ يحكم .

من وجهة نظري فإن الرئيس السادات رجل اجتهد وأخطأ، لكن له فضل الاجتهاد، وأول اجتهاده - وهو أول فضله - قرار القتال في أكتوبر ١٩٧٣ .

وربما أن خطأ الاجتهاد في رأيي يجيء في الإدارة السياسية وسط القتال وبعده - لكن رأيي هنا تقدير سياسي - وأما البطولة فهي حكم تاريخي مؤجل إلى زمان آخر تُمتحن فيه المقدمات والنتائج والأهداف والأدوات والظروف والأجواء، وتُمتحن بغير هوى وغرض وبعيدا عن التحزب ضد ومع مما هو جار في حياتنا هذه الأيام !

....

أما عن نفور الشعب المصري من نقدك لأنور السادات فدعني أذكرك برأي طرحته أمامك في زمن بعيد .

أثناء اشتداد خلافك مع أنور السادات (إلى حد الاشتباك مرات) عرضت عليك : «إنني متأكد من حبك لمصر، ولكني لست متأكدا من فهمك لها» .

عرضت عليك يومها «أن مصر ليست واثقة كل الثقة بعد من عروبتها، وربما أنها الوطن العربي الوحيد الذي يملك منطقا كاملا له عوامله (بالحق أو بالوهم) يغريه باختلافه عن بقية شعوب الأمة .

● «العامل الأول هو الجغرافيا المصرية بوادي النيل - النهر وضفافه - حيث تتركز الحياة في حصار حزام من الرمال يحوط كل شيء : الناس والنهر والوادي، وذلك يخلق مجتمعا مكتفيا بذاته وليس بالضرورة منكفئا على ذاته .

● العامل الثاني هو الحضارة الفرعونية القديمة، وهنا فإن مصر تخلط أحيانا بين «الميراث» و«التراث» .

«الميراث» تركة خلّفها وراءه تاريخ مضى .

في حين أن «التراث» ثقافة وضعها على الأرض تاريخ حي .

● والعامل الثالث هو ضرورة وقوة الدولة المركزية التي تدير مسئولية التعامل مع الجوار وراء الصحاري المحيطة بالصراع أو بالغزو.

....

....

تذكر أنني في زمن سبق عرضت عليه أنه «عندما تخرج مصر من الدائرة المحكمة والمغلقة للإرث، وتتجه إلى فكرة التراث فإنها تتوه في المحيط الإسلامي الكبير وتتصور نفسها مركزه بنفوذ الأزهر، وقلبه بدفاعها عن موطنه ضد الصليبيين وفرسانهم أو ضد التتار وسيوفهم .

وهنا تلتبس الأمور في مصر بالخلط بين الإسلام والعروبة .

ننسى كلنا - أو بعضنا - في مصر أن العرب لم يصنعوا حضارة، وإنما الإسلام هو الذي صنع الحضارة عندما التقت روافد ثقافية عظيمة من مصر والشام وفارس والهند وبيزنطة وخلقت مجمعا حضاريا ليس له مثيل في زمانه .

ووسط هذا المحيط الحضاري ظهرت الأمة العربية متفردة - ولا أقول مميزة - بلغة واحدة وتاريخ مشترك وجغرافيا ممتدة، وتواصل إنساني لم ينقطع، وأصبحت لها هوية قومية تستحق لدواع من المستقبل وليس من الماضي أن نقول في شأنها ونجد «أنها إذا لم تكن موجودة كحقيقة فإن المطلوب اختراعها كضرورة» .

وإذن فنحن فعلا أمام التباس يتأتى من أننا أمام واقع قومي، ثم إن الحضارة الإسلامية هي المحتوى الحضاري له .

(كان الزعيم الوفدي القبطي العظيم «مكرم عبيد» أبلغ معبر عن ذلك بمقولته المشهورة «إنه مسلم وطنا وقبطي دينا») .

وإذا كانت تلك إشكالية يتعين على العرب جميعا أن يجدوا حلا لها - فإنها في مصر مشكلة مستعصية أكثر من غيرها نظرا لما عرضته عليك من أسباب» .

....

....

كانت خشيته أن يصل التصعيد في العقاب إلى الحالة العراقية. ومع أنه - أي القذافي - يرى أن الحالة العراقية مختلفة عن الحالة الليبية، فإن القوة - في وسائل الإعلام قبل أدوات السلاح - تستطيع إعادة ترتيب الأشكال والصور بحيث تتماثل الحالة الليبية مع الحالة العراقية



يزيد على هذه العوامل الثلاثة عامل رابع هو سبق مصر إلى الاتصال بأوروبا (وهي المقر المعاصر للحضارة الإنسانية) وقد نؤرخ لهذا السبق بحملة «نابليون» على مصر، وقد نؤرخ له بمشروع «محمد علي» حتى وإن كان مشروعه في صميمه عثمانيا أكثر منه مصريا أو عربيا . والنقطة المهمة هنا أن «محمد علي» في سبيل تحقيق مشروعه العثماني أسس دولة حديثة في مصر سبقت غيرها في المنطقة، وكان سحر الدولة الحديثة هو الذي جعل كتلا كبيرة من الشعب المصري تنسى أنها لم تعش في أي عصر من العصور داخل واديها وإلا تحوّل الوادي إلى سجن تحاصره رمال الصحراء .

....

واستطردت ونحن في قصر القبة ١٩٩٩ أذكّر «معمر القذافي» بما عرضته عليه من قبل قائلا :

«إن مصر خرجت في العصور القديمة من الوادي بحافز الإمبراطورية - لكنها لم تلبث أن عرفت بالتجربة أن الجغرافيا تملي عليها أن تكون جزءا مما حولها موصولا به ومنسجما معه، وهكذا تعايشت مصر مع الزمان اليوناني، والروماني، ثم عاشت - ولم تتعايش فقط - في صميم عصرها الإسلامي، وحين أخذت اللغة العربية وشاركت في إقامة حضارة مشتركة تفاعلت فيها ثقافات المنطقة التي قبلت بالإسلام حتى وإن لم تقبل باللغة العربية، فإن هذه العملية من الصهر التاريخي جعلتها لأكثر من أربعة عشر قرنا كيانا منسجما مع عالم محيط به في السلطة وفي التشريع وفي الفن والأدب، وفي الصلات المفتوحة بين الناس على مدى اتساع جغرافي واضح، لديه بالإضافة إلى هذا كله أمنه المشترك (التتار - الصليبيين - الاستعمار - إسرائيل .. إلى آخره) .

ولقد حاول بعض الناس أن يعودوا بالهوية المصرية إلى العصر الفرعوني، ثم وجدوا أن الإرث غير التراث . ثم حاول بعضهم أن يجدوا لمصر هوية أوروبية، ولكنهم أدركوا أن قضايا الثقافة أعمق كثيرا من تقابل الشواطئ، وأن البحر الأبيض نافذة عريضة لمصر وليس بابا .

وعلى أي حال فإن مجمل كل تلك التصورات - وهي ليست جميعا أوهاما بلا أساس - تغري مصر بعض المرات - خصوصا في ظروف التراجع - بالانكماش داخل محلية ضيقة .

....

....

تلك كلها خطوط وعلامات من الإطار المحيط بحياة مصر .

ثم تجيء أنت وتنتقد أنور السادات .

وبحساسية الانكماش في محلية ضيقة يظن بعض الناس أن نقدك له موجه إلى البلد ذاته، إلى مصر .

أضف إلى ذلك أن كتلة مؤثرة من الشعب المصري ترى أن ما فعله أنور السادات، سواء كان صوابا أو خطأ، سواء كان في استطاعته بلوغ ما هو أكثر أو لم يكن، سواء أحسن استغلال نتائج حرب أكتوبر أو لم يحسن - أراح مصر ولو عصبيا من مآزق الارتهان لضرورات السلاح خصوصا وقد اختلفت الظروف الدولية .

وفي النتيجة فإن استثارة النعرات الوطنية - المحلية إذا شئت - سهلة في مصر .

وهكذا فإنك ما أن تنتقد أنور السادات حتى يشعر بعض الناس في مصر فعلا بنوع من العصبية .

والآن «أرجوك لا تتضايق إذا قلت لك أنني

أستطيع انتقاد أنور السادات فى مصر دون حرج، وأما أنت فلا بد لك أن تحاذر كى لا توقظ كوامن عصبية خامدة، لأن الجمرة تحت الرماد كما يقولون !»

كان «معمر القذافى» يسمعنى، وأحسست أننى أطلت لكنى أردت ـ من قلبى ـ أن أضعه ـ مرة أخرى ـ فى صورة فكرى حرصا على اعتبارات كثيرة تتجاوز هوى الأفراد وتتخطى مزالق السياسة .

وسكت .. سكت طويلا، ثم عاد يقول بحيرة :

ـ «إن السادات ساعد فى العدوان على ليبيا وكان فى نفس الدائرة مع ريجان ومع تاتشر .

لدينا الأدلة، ولا أريد أن أنكأ جراحا قديمة، لكننا نعرف أن ضرب ليبيا بالطائرات الأمريكية ـ وبمعاونة بريطانية ـ سنة ١٩٨٦ كان عملا شجعت عليه وشاركت فيه بشكل أو آخر أطراف عربية بينها السادات.

وكان ذلك قبل «لوكربى» .

[جرى ضرب ليبيا من الجو يوم ١٤ أبريل ١٩٨٦، وسقطت الطائرة الأمريكية فوق قرية لوكربى الاسكتلندية فى ديسمبر ١٩٨٨].

كانوا يقصدوننا دائما ولا زالوا . لقد ضربوا بيتى وقصدوا إلى قتلى، وأصابوا أفرادا من عائلتى !».

وقلت : «أعرف» .

قال : «وهُم فى حكاية «لوكربى» من وقتها وحتى الآن ـ أكثر من عشر سنوات ـ لا يريدون تحقيقا عادلا، ولكن يريدون الإيقاع بنا».

قلت : «وهنا أيضا أعرف، ولعلى لا أفاجئك بشىء لا تعرفه إذا أضفت أننى فى لندن ذات مرة سمعت مارجريت تاتشر تقول صراحة أنها لا تريد اثنين من ضباط المخابرات الليبية للتحقيق معهما، ولكنها تريدك أنت شخصيا فى القفص» !».

قال : «شريرة هذه المرأة» !

وقلت : «لا أعرف إذا كانت شريرة أم طيبة، لكنه فى صراعات الشعوب والأمم يكون الحَكَم هو إمكانيات القوة وليس إجراءات العدل !

ومع ذلك قل لى : «أين نحن الآن فى أزمة لوكربى» !»

وقال «معمر القذافى» : «إننا نبذل كل جهد ممكن ونمشى إلى نهاية الطريق حتى نصل إلى حل . والحصار على ليبيا يؤلم، ومع أنه ليس فى شدة الحصار على العراق لكن الشعب الليبى يعانى» .

وسكت .

وأحسست دون أن يقولها صراحة أن «تداعى العوارض المتشابهة فى الظروف المتماثلة» (Syndrome) يضغط عليه، فهو بعد الحصار على ليبيا كما جرت ممارسته طوال السنوات الأخيرة ـ أمام إنذار أمريكى بريطانى بالتصعيد إذا لم يستجب ويسلم المتهمين الليبيين («عبد الباسط على المقراحى» و«الأمين خليفة فحيمة») لمحاكمة خارج ليبيا .

وخشيته أن يصل التصعيد فى العقاب إلى الحالة العراقية . ومع أنه يرى أن الحالة العراقية مختلفة عن الحالة الليبية فإن القوة ـ فى وسائل الإعلام قبل أدوات السلاح ـ تستطيع إعادة ترتيب الأشكال والصور بحيث تتماثل الحالة الليبية مع الحالة العراقية .

....

....

كان يدرك أن الحالة العراقية قد استجابت تماما لطلبات مجلس الأمن، ولكن الذرائع وجدت لنفسها فجوات حتى وإن كانت بخداع البصر .

كان مطلوب من العراق شيئين :

أولا ـ أن ينسحب من الكويت (وقد فعل) .

ثانيا ـ أن لا يكون لديه من أسلحة الدمار الشامل ما يهدد جيرانه (ولم يعد لدى العراق شىء يهدد به جيرانه أو جواره) .

لكنه الإصرار على إيذاء العرب وإهانتهم (هكذا قال) .

ولقد اتكأ الأمريكان (هكذا تقديره) على ما يظهره جيران العراق من «ادعاء الخوف المستمر من خطره»، واعتبروا أن قرارات مجلس الأمن لم تنفذ بالكامل حتى الآن .

وفى حالته (معمر القذافى) «فهو يعلم أن قواته لم تخرج من حدوده وأنه ليس مطالبا بالانسحاب من شىء، وكذلك يعرف أن جيرانه لا يعتبرونه خطرا يهدد أمنهم، ولا يدَّعون عليه بشىء من ذلك، ولكن من يضمن ؟»

«فى حالته ـ وبرغم كل الحقائق ـ فإن اصطناع الذرائع سهل إذا كانت لدى الطرف الآخر وسائل الإعلام يصور بها الأمور على هواه، وأدوات السلاح يستعملها دون كوابح فى وقت تراجعت فيه سلطة ما سمى بـ «الشرعية الدولية» .».

أمريكا ـ والكل يرى وليس هو وحده ـ انفردت بالأمم المتحدة . وأخذت مجلس الأمن بكامله فى طاعتها . والمجلس لم يعد يجتمع علنا، وإنما أصبح يجرى مشاورات داخلية تديرها واشنطن وتوجهها حسب مطالبها وتقدمها للدنيا باعتبارها إرادة مجلس الأمن !

وحتى بدون مجلس الأمن ـ إرادة أو شهادة ـ فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تتصرف بعيدا عنه إذا رأت لمثل ذلك ضرورة. تتصرف كما تشاء، وتبرر كما يحلو لها،

وعندما تحتاج ففى استطاعتها أى وقت أن تعتمد على «محلل» بريطانى ـ سواء كان اسمه «مارجريت تاتشر» فى عهد «ريجان»، أو «جون ماجور» فى عهد «بوش»، أو «تونى بلير» فى عهد «كلينتون» !»

«كوفى عنان رجل طيِّب» .

قالها «معمر القذافى» وهو مرة أخرى يستند على عكازه ويميل ناحيتى ... ثم يسأل :

ـ «هل تعرفه ؟»

قلت :

ـ «سألنى عنك عندما لقيته على العشاء ـ وكنا على مقعدين متجاورين ـ وكان ذلك عندما زار القاهرة رسميا قبل أكثر من عام، وقال له وزير الخارجية «عمرو موسى» (بذكائه المتوهج وبروحه المرحة) ـ «ها هو بجوارك رجل عرف القذافى من اللحظة الأولى، فاسأله إذا كنت تريد» !».

وقاطعنى «القذافى» سائلا :

ـ «وماذا قلت عنى لكوفى عنان ؟».

ورددت :

ـ «قلت له الحقيقة ـ قلت له «سيادة الأمين العام إن معلوماتى المباشرة عن القذافى ترجع إلى ربع قرن ـ ولا أعرف إذا كانت الآن تفيدك» ؟».

سألنى «القذافى» :

ـ «وهل ترانى تغيرت ؟».

قلت ضاحكا : «هذا ما أحاول اكتشافه الآن، ولذلك أرجوك أن نعود إلى أزمة (لوكربى)».

....

....

[كانت التغيرات التى لمحتها لأول وهلة أن السنين تركت آثارها خطوطا عميقة على صفحة وجهه تعكس توترات الأيام وشدائد التجربة . وكانت عيناه الآن أكثر حذرا فى النظر إلى ما حولهما، وكانت لهجة حديثه كما عرفتها فى السابق ناطقة بنوع من الغربة، لكنه بدا لى أن الغربة الآن فيها نبرة من التوجس، وربما أن الأيام علمته أن مكامن الخطر ليست دائما حيث يتوقعها !

كان التغير الآخر الذى لمحته بانطباع سريع هو اختلاف ملابسه : فهى الآن أكثر رقة وانسجاما، الحذاء «موكاسان» إيطالى خفيف وأنيق، والبنطلون والقميص فوقه قطن مصنوع فى إنجلترا غالبا، والبلوفر فرنسى بلونه الأحمر وكذلك علامة مصنعه المشهورة، والشال حول العنق يشير إلى إيطاليا، لكن عباءة الشعر الشفافة فى الغالب عربية].

....

....

وقال «القذافى» مستأنفا كلامه من حيث وصلنا :

ـ «كوفى عنان رجل أمين وأنا أثق به .

معه أثق فى رجلين : «نلسون مانديلا» زعيم أفريقى شريف، وثائر لم يتنكر لمبادئه وهو فى الحكم .

الرجل الثانى الذى أثق فيه هو الأمير «عبد الله» ولى عهد السعودية ـ أعطانى كلمة وأنا أثق فيه».

....

....

[قلت لـ «معمر القذافى» : «إن الأمير «عبد الله» أعطانى الإحساس بأنه مهتم بالفعل، وكان ذلك عندما دعانى إلى فنجان قهوة حيث كان يقيم أثناء زيارته الرسمية لبريطانيا فى شهر أكتوبر الأخير . إن الأمير «عبد الله» فى ذلك اللقاء ـ وهو أول لقاء بيننا ـ روى لى أنه قبل أن يلقانى بساعات كان يتحدث مع «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا فى شأن ليبيا والعقوبات المفروضة عليها سبع سنوات حتى الآن !»

وحكى لى الأمير «عبد الله» أنه قال لرئيس وزراء بريطانيا أنه «لا يخشى من استمرار الحصار على ليبيا فقط، ولكنه يخشى ـ كذلك ـ على هيبة الأمم المتحدة . ذلك أن زعماء أفريقيا قرروا تحدى الحصار الأمريكى، وراح كل واحد منهم يركب طائرته يوما قاصدا إلى زيارة «القذافى» تحديا للحظر . وإذا استمر هذا الحال فماذا تفعل واشنطن ولندن ـ هل تقومان بإسقاط كل طائرة تحمل رئيسا أفريقيا يكسر الحظر، أو تسكت الدولتان على هيبة مجلس الأمن تتبعثر كل يوم فى الهواء ؟».

وطبقا لروايته ـ وهو بالتأكيد صادق ـ قال ولى العهد السعودى لرئيس الوزراء البريطانى : «هذا وضع لم يعد قابلا للاستمرار ولا بد من حل يضع نهاية له».

وطبقا لتقدير ولى العهد السعودى فإن «تونى بلير» أبدى تفهما، وبعد نقاش طال نصف ساعة طلب منه (من الأمير عبد الله) أن يستعمل نفوذه ويساعد].

....

....

[ومهما يكن ـ وهذه الآن عودة من حديثى مع ولى العهد السعودى فى لندن إلى قصر القبة فى القاهرة حيث كان حديثى مع «معمر القذافى» ـ فقد كان ذلك ـ ومن أول «نلسون مانديلا» وحتى «عبد الله بن عبد العزيز» شوطا بعيدا بعيدا جدا تقاس عليه ثقة «القذافى» بالناس وبالأفكار والمؤسسات .

لقد ذهب إلى الأبعد جغرافيا ـ أقصى الجنوب من أفريقيا السوداء ... «نلسون مانديلا» .

وقد ذهب إلى الأبعد فكريا ـ أقصى اليمين ـ تقليديا ـ فى العالم العربى ... المملكة العربية السعودية ... ولى عهدها الأمير «عبد الله» .

ثم ذهب أخيرا إلى أبعد الشواطئ وراء

لم أفاجأ حين قال لى
چيسكار ديستان: نحن نعرف
أن المفاوضين لشراء طائرات «الميراج»
مصريون، وأن جوازاتهم مستعارة، وأن الطائرات
ليست مطلوبة لليبيا وإنما لكم.
وفرنسا تتفهم الظروف
لكننا نطلب الحذر



الأطلنطى، إلى نيويورك - الأمم المتحدة - «كوفى عنان» - وهو القائل أكثر من مرة أن الأمم المتحدة هى الولايات المتحدة متنكرة فى زى آخر!

سفر طويل فى كل الاتجاهات متعارضا تماما مع بوصلته الأصلية الأولى].

....

....

[وقد أضيف إلى هذا السفر الطويل ملحقا بملاحظة قد تكون مهمة - إلى جانب جهود «نلسون مانديلا» و«عبد الله بن عبد العزيز» و«كوفى عنان» - وهى أن واحدا من أكبر دوافع الوصول إلى حل فى شأن قضية «لوكربى» هو أن جنوب أوروبا المتوسطى (فرنسا وإيطاليا وأسبانيا) زاد تشوقه إلى شمال أفريقيا المتوسطى (المغرب والجزائر وتونس وليبيا).

وأوروبا المتوسطية تريد عودة إلى نوع ما كان ذات يوم، حتى وإن كانت عودة مختلفة - بين الشاطئين شمال وجنوب البحر الأبيض.

وبعبارة أصرح فإن هناك شوقا فرنسيا إلى المغرب والجزائر - وتونس إذا أمكن.

كما أن هناك شوقا إيطاليا إلى ليبيا.

ثم إن هناك شوقاً أسبانيًا يرش مشاعره على رمال الشاطئ الشمالى لأفريقيا حيث وجد فرصة.

ومن الضرورى للولايات المتحدة أن تترك لحلفائها مجالا.

وأظن أن «معمر القذافى» كان يريد شاطئا عربيا يرسو عليه، لكنه لم يجد، ولقد تصور أنه يستطيع أن يلجأ إلى غابات الجنوب فى أفريقيا بديلا عن شواطئ الشمال، لكن الهجرة إلى الجنوب لم تنجح لأنها ضد التاريخ - بصرف النظر عن قرب الجغرافيا.

وهكذا فإن «القذافى» حتى وإن لم يقصد - وحتى إن لم يشعر - عاد إلى الشواطئ التى تتدافع أمواجها نحوه - وبالطبع ليس مُهمًا أن يعرف الناس مصادر الحركة إذا كان فعلها محسوسا - وذلك هو الحال فى حركة الزلازل مثلا!].

....

....

كنا ما زلنا فى صالون جناحه فى قصر القبة، وانتقل «القذافى» إلى ما تم الاتفاق عليه فى شأن أزمة «لوكربى».

ولاحظت، وكان ينبغى أن ألاحظ، أنه عندما وصل «معمر القذافى» فى حديثه إلى هذا الموضوع - فإن ميله على عكازه ناحيتى زاد، وفى نفس الوقت فإن صوته انخفض إلى درجة الهمس.

ولم أعلق وإنما أصخت السمع أدقق فى تفاصيل ما يقول.

....

....

[وعندما تصل هذه السطور إلى قرائها فإن ما قاله «القذافى» عن النتائج التى توصل إليها المهتمون بحل أزمة «لوكربى»، وخصوصا الثلاثة المعتمدين من جانبه: «نلسون مانديلا» - و«عبد الله بن عبد العزيز» - و«كوفى عنان» - لم يعد سراً على أحد.

● سوف يجرى - وقد جرى فعلا - تسليم الليبيين المتهمين من قبَل الولايات المتحدة وبريطانيا - بنسف طَائرة شركة «بان أمريكان» فوق قرية لوكربى الأسكتلندية فجر يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ - إلى محاكمة دولية فى لاهاى.

● وسوف تجرى المحاكمة طبقا للقانون الأسكتلندى، وهو قانون الدولة التى انفجرت الطائرة وسقطت على أرضها.

● ولقد تأكد له وكتابيا أن التحقيق مقصور على الرجلين دون أن يحاول أحد بسبق الإصرار اتخاذهما جسرا إلى ما وراءهما أو من فوقهما.

● ولقد أخذ كل الضمانات اللازمة لعدالة التحقيق والمحاكمة، وكذلك عن شروط تنفيذ العقوبة إذا ما حدث وأدين الرجلان.

● وهو واثق من براءتهما لأنه يعرف الحقيقة. كذلك فإن ما سمعه من المحامين الذين اطلعوا على ملفات التحقيق السابقة - ضعيف فى الدليل وفى السند ولا يمكن لمحكمة من أى نوع أن تأخذ بشىء منه.

● «والأهم أنه فور تسليم الرجلين فى «لاهاى» تُعلَّق العقوبات على ليبيا - وقد عُلِّقت فعلا - وهذا يعنى عمليا رفع العقوبات نهائيا، لأنه إذا أرادت الولايات المتحدة لسبب ما إعادة فرضها فلن تجد فى مجلس الأمن أصواتا (تسعة أصوات لازمة للنصاب) تؤيد إعادة فرضها (كذلك جاء فى إيضاحات دولية قُدِّمت إلى الحكومة الليبية)].

....

....

وحين كان لقاؤنا فى قصر القبة ذلك المساء (١٣ مارس ١٩٩٩) فقد كانت هناك - ما تزال - نقطتان يتراوح تفكيره حولهما بين الشك واليقين:

□□ النقطة الأولى: أنه كان يريد أن تجرى المحاكمة طبق القانون الاسكتلندى نعم - ولكن بواسطة قضاة من هولندا.

ولكن الذى حدث أن المقترحات النهائية التى قُدِّمَت إليه فى الثانية الأخيرة أخذت برأى أنه القانون الاسكتلندى وقضاة من اسكتلندا - مع الموافقة على أن تكون المحاكمة فى هولندا...

وبدا قلقا من أنه لم يحصل - وحتى الثانية الأخيرة - على قضاة من هولندا.

ولكنه طمأن نفسه: «بأنه ربما كان ذلك خيرا لأن قضاة هولنديين قد يرغبون فى تأكيد حيادهم ونزاهتهم عن طريق التشدد بأكثر مما يقتضيه القانون حتى لا يتهموا بالممالأة».

□□ والنقطة الثانية: أنه كان يريد فى حالة صدور حكم بالإدانة - والسجن - أن يكون قضاء العقوبة فى اسكتلندا نعم - ولكن تحت حماية وضمانة الأمم المتحدة.

وكانت الفكرة التى طرحت نفسها عليه أن تشترى ليبيا بيتا فى مكان ما من اسكتلندا وأن يتحوَّل هذا البيت إلى سجن، وأن تُرفع فوقه على نحو ما إشارة تومئ إلى تبعيته للمنظمة الدولية، وبالطبع فإنه من المستحسن أن تكون الإشارة علما أزرق اللون من أعلام الأمم المتحدة!

....

....

وطال الحديث، وطال، وتشعب إلى كل اتجاه وموقع.

وكانت عقارب الساعة تزحف إلى ما بعد منتصف الليل.

وقلت له: «طال حديثنا، فهل أستأذن منك ثم نستأنف مرة أخرى؟»

وسألنى إذا كنت أذهب معه إلى الفيوم غدا، فقد أنهى ما لديه فى القاهرة وموعده الباقى مع جماهير تنتظره هناك.

واستأذنته أن يذهب إلى الذين ينتظرونه ولا ينتظرون غيره، وليكن موعدنا لاستئناف حديثنا الطويل فى موعد نتفق عليه فيما بعد.

وقال: «عندنا.. لا بد أن تجىء إلى ليبيا».

[٢]

وعندما خرجت من قصر القبة عائدا إلى بيتى كانت القاهرة ما زالت ساهرة ومزدحمة حتى فى هذا الوقت قرب الواحدة صباحا.

وكانت ذاكرتى مثل القاهرة ساهرة يقظى ومزدحمة بالمواقف والمشاهد من ماضى معرفتى بـ«معمر القذافى»

كان اعتقادى أنه لو تعاون
الاثنان - السادات والقذافى - معا
بقلب صادق وعقل متفتح، لكانت تلك
خدمة كبرى للمعركة القادمة ولمستقبل العمل العربى
بعدها، خصوصا إذا ساعدت الظروف
على قيام نوع مؤسسى من صلة
القرب بين البلدين



وعلاقتى به من سنة ١٩٦٩ وحتى أكتوبر ١٩٧٣، حين كان آخر لقاء بيننا تلك الأيام، ثم طرأ بعد أسابيع منه ما جعلنى أقرر أن أبتعد تماما عن الساحات التى يتحرك أو يتواجد فيها صديق قديم، لقيته أول مرة فى ظروف مشهودة!

كانت أول مرة ألقاه فيها بعد ساعات من قيام الثورة فى ليبيا (ثورة الفاتح العظيم كما يسميها الإعلام المصرى هذه الأيام!)

كانت أنباء الثورة فى ليبيا قد أعلنت للعالم الخارجى من إذاعات طرابلس وبنغازى ضحى يوم أول سبتمبر ١٩٦٩.

وكان الإعلان مصحوبا بالبيان الأول للثورة على مكتبى حوالى الساعة العاشرة صباحا، واتصلت بـ«جمال عبد الناصر» لكنه كان قد دخل إلى قاعة اجتماع طارئ لدول المواجهة (كما كانت تسمى فى ذلك الوقت، وكانت تضم مصر وسوريا والعراق والأردن) - وكان المطلوب من هذه الدول تنسيق العمل العسكرى على الجبهة الشرقية استعدادا للمعركة القادمة مع إسرائيل.

وبعد دقائق اتصل بى «جمال عبد الناصر» لأن الاجتماع الذى وصلته أنباء الثورة فى ليبيا انشغل بالحدث الطارئ الذى فرض نفسه فوق جدول الأعمال المعد سلفا، خصوصا أن المجتمعين كانوا فى أجواء تساؤل يتحرق إلى معرفة اتجاه الثورة فى ليبيا: وهل هو قومى (أى أقرب إلى القاهرة)، أم هو بعثى (أى أقرب إلى حزب البعث بصرف النظر عن انقسامه إلى فريقين بين بغداد ودمشق).

وحاول المجتمعون فى إطار دول المواجهة لدقائق معدودة أن يواصلوا مناقشاتهم على أساس جدول أعمالهم، ولكن المحاولة كانت عبثية لأن إلحاح الحدث الليبى فرض نفسه قبل جدول الأعمال، وهكذا قرر المؤتمر أن يَنفضّ نصف ساعة ثم يعود إلى استئناف جلسته.

وسألنى «جمال عبد الناصر» عندما اتصل بى عما أستطيع استقراءه من بيان إعلان الثورة فى طرابلس، وكان سؤاله يحمل نبرة من طلب التدقيق شاغلها ومغزاها فى النهاية: «أهُمْ (يقصد القائمين بالثورة فى ليبيا) أقرب إلى القاهرة، أم أقرب إلى البعث، وأى بعث منهما؟»

وقلت أن استقرائى للبيان أنهم أقرب إلى القاهرة، ذلك أنه بصرف النظر عن العبارات الإنشائية فى النص فإن ترتيب شعار الحرية والاشتراكية والوحدة جاء متفقا مع الترتيب الذى يُستعمَل فى القاهرة، ومخالفا للترتيب الذى يستعمله حزب البعث والذى ترد فيه الوحدة قبل الاشتراكية وقبل الحرية.

وكان رأى «جمال عبد الناصر» أننى ربما أتعسَّف فى دلالة ترتيب الكلمات، «لأن الذى يقوم بما قام به هؤلاء الضباط فى ليبيا لن يتوقف طويلا أمام مواضع الشعارات. وحتى إذا جاءت الشعارات المعلنة فى طرابلس متوافقة مع الترتيب الذى تستعمله القاهرة فمن الاحتمال أن تكون تلك محض مصادفة».

وقلت: «ربما - ولكننى أشعر فى نبرة البيان العامة بما يعزز استنتاجى».

وكان اعتقادى أن «جمال عبد الناصر» يميل إلى استنتاجى سواء لأنه رأى مثلما رأيت، أو لأن ذلك كان مناه، فقد كانت قوى الأمة المقاتلة ذلك الوقت وسط معارك حرب

الاستنزاف المستمرة على الجبهة المصرية - في حاجة إلى دعم معنوي من الحركة القومية العامة في الوطن العربي .

....

....

وعاد «جمال عبد الناصر» إلى اجتماع دول المواجهة (وقد تحوّل إلى اجتماع مغلق)، وعدت إلى متابعة تطورات ما يجرى في ليبيا، ولم يكن هناك من مصدر غير إذاعة طرابلس وما تعلنه ومعظمه إنشائي حماسي، ثم وكالات الأنباء العالمية وما تنقله وقد كان ضئيلا يعاد تكراره، وكان كل ما يصدر عن الإذاعات وما تحمله الوكالات أقل بكثير من مستوى الحدث وهو خطير في موازين الشرق الأوسط .

- ثورة في ليبيا وهي موطن كنز نفطي كبير، وأهم ميزاته أنه نفط من النوع الخفيف تتدفق منابعه مباشرة نحو البحر الأبيض .

- وثورة في ليبيا وهي شاطئ بامتداد البحر الأبيض - ثلاثة آلاف كيلو متر تشمل منطقة القلب على شاطئه الجنوبي ومركزها خليج «سرت» .

- وثورة في ليبيا وهناك قواعد بريطانية (في «العظم»)، وهناك قواعد أمريكية في طرابلس «هويلس»، وهذه القواعد جزء متصل بخطط وعمليات الأسطول الأمريكي السادس في البحر الأبيض .

وكانت الأسئلة الملحة مع مرور الساعات : كيف نجحت الثورة ؟ - وإلى أي مدى يتعرض لها الغرب ؟ - وكيف يتصرف القائمون بها إزاء ما يتهددهم من خطر ؟ - وهل هم متنبهون إلى حجم هذا الخطر ؟ وعشرات الأسئلة الأخرى !

....

....

في الساعة الثالثة والربع عاد «جمال عبد الناصر» إلى الاتصال بي يقول أن ضابطا ممثلا لقيادة الثورة في ليبيا قصد القنصلية المصرية في بنغازي وأبلغ رسالة مفادها أن قيادة الثورة في ليبيا تريد إقامة اتصال سريع مع القاهرة، والهدف منه بحث التطورات المحتملة . وتقديرهم أن الثورة نجحت وتسيطر على كل أنحاء ليبيا، لكن هناك قواعد بريطانية وأمريكية والمخاطر قائمة .

وقال لي «جمال عبد الناصر» أن هناك الآن اتصالات جارية بقصد الاتفاق : إما على مجيء وفد من الثوار إلى القاهرة، أو على ذهاب وفد مصري إلى ليبيا يقابل ممثلا أو ممثلين لقيادة الثورة لبحث الاحتمالات .

....

....

وفي الساعة الخامسة والربع بعد الظهر عاد «جمال عبد الناصر» إلى الاتصال بي وأتاني صوته على التليفون ضاحكا قبل أن يقول كلمة واحدة، وتساءلت، وكان قوله :

- «يظهر أنك سوف تقضي ليلتك في بنغازي - لأنهم طلبوا حضورك» ؟

وقلت مستغربا : «من هُم ؟».

وقال : «قيادة الثورة هناك، اتفقوا على أفضلية أن يسافر وفد من هنا إليهم، فليس بينهم من يستطيع أن يترك «البلد» في هذه الظروف».

وأضاف «جمال عبد الناصر» : «إنهم طلبوك بالاسم، وهُم يعرفون صلتك بي، كما أنهم يقرأون مقالاتك أو يسمعونها من الإذاعات، ورأيي أن تذهب .

إننا سوف نبعث بمندوب ينسق مسائل الأمن معهم، ولكني رحبت بطلبهم لك ورأيي أن تذهب وتعود بسرعة وتعطيني تقييما سياسيا».

وقلت متحمسا : «إنه بصرف النظر عن أي شيء فأنا أريد أن أذهب - مادامت هناك فرصة - كصحفي بالدرجة الأولى» - وتساءلت «هل أستطيع أن آخذ مصورا من الأهرام معي ؟»

وقال «جمال عبد الناصر» الذي كان يتبرم أحيانا من «هَوَس» صحفي يجده لا يفارقني في كل الأوقات : «خذ من تشاء» .

وكان رفيقي من الأهرام صديقي وكبير مصوريه في ذلك الوقت : «محمد يوسف» .

....

....

في الساعة السابعة والنصف مساء وجدت نفسي على متن طائرة حربية مصرية، تقلع من مطار «ألماظة» في اتجاه الحدود الليبية ... وتقاطعها عند «طبرق» رسالة من قاعدة «العظم» البريطانية تسألها عن هويتها وعن اتجاهها وعن حمولتها - وترد الطائرة المصرية على الأسئلة بطريقة عامة تريد كسب دقائق تبدأ بعدها الهبوط في مطار «طبرق» .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف وجدت نفسي في القنصلية المصرية في بنغازي وقيل لي أن رئيس مجلس قيادة الثورة قادم إلى لقائي فيها .

وبعد قرابة نصف الساعة أقبل جمع من الضباط الشبان، أربعة أو خمسة، وتقدم أحدهم نحوي قائلا : «لا أصدق أنك هنا» .

ثم قدم نفسه «معمر القذافي» (نطقها «الجذافي») .

وكان سؤاله الأول : «كيف حال الرئيس جمال ؟ طمئنا عليه» .

وقلت له : «إن الرئيس جمال هو الذي يريد أن يطمئن عليكم ...»

وقال : «اقترح بعض الإخوان أن نتصل به قبل قيام الثورة لكني آثرت أن لا نفعل . كنا سوف نحرجه بمجرد إخطاره . وكنا إذا لا سمح الله فشلنا فيما اعتزمناه - سوف نلقي عليه المسئولية . ولذلك فضلنا أن نفعل ما هيأنا أنفسنا له ونفاجئه بالنجاح إذا تحقق» .

....

....

وحتى الساعة السادسة صباحا كنت ما أزال أستمع إليه، وأسأله ويجيب، وأحاوره ويناقش .

ثم قلت في النهاية : «إنني الآن عائد بالطائرة إلى القاهرة» .

وكان في رأسي كثير مما أريد أن أحكيه لـ «جمال عبد الناصر» .

وكان في عدسة صديقي «محمد يوسف» ألبوم كامل من صور قائد الثورة الليبية ورفاقه .

وعدت إلى القاهرة قبل الظهر، وكانت هناك رسالة من «جمال عبد الناصر» بأن أتوجه إليه في بيته مباشرة .

ودخلت عليه وكانت الأسئلة تطل من عينيه قبل أن تجرى على لسانه، وقلت له :

- «عندك مشكلة» .

وسألني إذا كنت وجدت لديهم ميولا حزبية أو عقائدية من أي لون ؟ - وقلت له : «على العكس ... مشكلتك أنهم رجالك» .

وأحسست أنه استراح بأعصابه ولم يسترح بفكره، وسألني : «أين المشكلة إذن ؟»

وقلت : «لأنك الآن أمام شباب برىء إلى درجة محرجة، وشباب رومانسي إلى درجة خطرة» .

وكان في شوق إلى التفاصيل .

وجلسنا لحديث متدفق وغزير أكثر من أربع ساعات .

[٤]

ولا أريد أن أطيل في روايات الماضي وحكاياته . لكني أتوقف عند بعض المشاهد في السنة التي عاشها «جمال عبد الناصر» مع الثورة الليبية من سبتمبر ١٩٦٩ إلى سبتمبر ١٩٧٠ .

كانت سنة خصبة بمقدار ما كانت سنة مثيرة .

في أكتوبر ١٩٦٩ - أي بعد شهر من الثورة - جاء «معمر القذافي» إلى القاهرة للقاء مباشر وجها لوجه مع «جمال عبد الناصر»، وكان مشهد اللحظة الأولى من اللقاء مؤثرا من الناحية العاطفية - ومع ذلك فإن الكلام الذي دار بعد اللحظة الأولى كان في صميم أزمة الشرق الأوسط .

ولم يكن لدى «جمال عبد الناصر» تردد في الإجابة عما سأله فيه «معمر القذافي»، وإنما كانت إجاباته واضحة :

«● لا تقترب من امتيازات البترول في ليبيا الآن - ليس ذلك هو الوقت المناسب .

● لا تحاول التسرع بإلغاء اتفاقيات القواعد في ليبيا - ذلك الآن استفزاز لا تحتاجون إليه . إنكم الآن بمقتضى المعاهدات على وشك التفاوض لتجديد هذه الاتفاقيات سنة ١٩٧٠ - ادخلوا إلى التفاوض عندما تجيء المهلة المطلوبة للشروع فيه وهي ستة شهور قبل انتهاء الاتفاقيات، وعندها تطلب ما تشاء !

● لا داعي لأي حديث عن الوحدة الآن بين مصر وليبيا - تلك مسألة يُستحسن تأجيلها إلى ما بعد مواجهة مشكلة القواعد الأمريكية والبريطانية، وربما أفضل إلى ما بعد المعركة .

● هناك كثير تستطيعون المشاركة فيه ضمن الجهد العسكري العربي، ولكني أفضل أولا أن تبحثوا أموركم في ليبيا وأن تعطوا أنفسكم فرصة للاستقرار والتركيز على خدمة الشعب الليبي حتى يمشي معكم بما هو أبعد من عواطفه القومية .

● لا تقلقوا من تأجيل إسهامكم العملي في الجهد العسكري، وتذكروا أن مجرد قيام الثورة في ليبيا في هذا الوقت بالذات إضافة إستراتيجية كبرى إلى القوة العربية» .

بعد شهرين من اجتماعهما في القاهرة أتيحت لـ «جمال عبد الناصر» و«معمر القذافي» فرصة التعرف الحقيقي كلاهما على الآخر بالصحبة المباشرة . ففي ديسمبر ١٩٦٩ كان هناك موعد لمؤتمر قمة عربي ينعقد في الرباط يتدارس فيه الملوك والرؤساء العرب أحوال أزمتهم ومستجداتها، ودرجة استعدادهم للعمل المشترك من أجل هدفهم المعلن وهو إزالة آثار العدوان (سنة ١٩٦٧) .

وكانت تلك أول مرة يشارك فيها «معمر القذافي» في مؤتمر على مستوى القمة عربيا أو غير عربي، ومن سوء الحظ أن تدشين دخوله إلى محيط القمة جرى في ذلك المؤتمر لأنه كان من أسوأ مؤتمرات القمة على الإطلاق !

كان آخر اجتماع قبله على مستوى القمة هو اجتماع الخرطوم الشهير (أغسطس ١٩٦٧) وفيه - وكرد فعل لما جرى قبله (في يونيو) - كان العالم العربي كتلة نار مشتعلة بالحماسة والإصرار على الصمود . وتحت الضغط الشعبي الجارف - وباقتراح مصري - توزعت المهام بين الدول العربية المؤثرة في النظام العربي على ثلاث فرق: دول المواجهة (مصر وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية) - ثم دول المساندة (العراق والجزائر والمغرب) - وأخيرا دول الدعم (السعودية والكويت وليبيا) . وكانت الفكرة أن تقوم كل دولة بما تهيأت له دون أن يعهد إلى طرف بمهام تتخطى قدرته عليها .

صباح يوم ٣٠ أغسطس ١٩٧٣ خرجت الجرائد المصرية كلها وعناوينها الرئيسية سوداء وحمراء بعرض الصفحات تعلن للناس أن ميثاقا للوحدة بين مصر وليبيا تم توقيعه في «ميت أبو الكوم»..
لكني (ومع الأسف) كنت أعرف أكثر من غيري أنه حبر على ورق!



وكان على دول الدعم (وهى فى الواقع دول البترول وفوائضه) أن تقدم لدول المواجهة سنويا حوالى ١٨٠ مليون جنيه استرلينى (وكان نصيب مصر منها مائة مليون).

وكان أهم قرارات القمة من الناحية السياسية «لاءات الخرطوم الثلاثة» الشهيرة بأنه لا تفاوض ولا صلح ولا سلام مع إسرائيل.

....

....

وعلى مدى عامين ونصف العام كانت مصر على وجه التحديد تقود عملية مواجهة على الأرض وفى البحر والجو، وقد عُرِفت هذه المواجهة بوصف حرب الاستنزاف. وفى نفس الوقت فإن التخطيط كان يمشى حثيثاً للانتقال إلى مرحلة الحركة والتقدم والإعداد لعبور قناة السويس بالقوة والعودة إلى سيناء، وكانت معارك حرب الاستنزاف مشهدا بطوليا جليلا وكريما. وكانت الخطوة التى يمكن أن تلى هذه الحرب شاغل السياسة الدولية ودافعها إلى البحث عن طريق لتسوية أزمة الشرق الأوسط قبل أن يقع الانفجار الكبير المنتظر.

وفى تلك اللحظة تقررت الدعوة إلى مؤتمر على مستوى القمة فى الرباط، لكن الأجواء لم تكن صافية سواء لأن قوى كبرى (الولايات المتحدة أولها) كانت لها تصورات ومخططات - أو لأن بعض القوى الإقليمية (الدول العربية المحافظة بالذات) كانت لديها مخاوف وتحفظات خصوصا بعد ثورة ليبيا التى أسقطت واحدا من الأنظمة الملكية.

....

....

وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية قبل موعد انعقاد المؤتمر بأيام إلى التقدم بمشروع للحل يحمل اسم وزير الخارجية الأمريكى وقتها (ويليام روجرز) وكان ذلك يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٩ (وقد رفضته مصر ولم تعلن رفضها له قبل مؤتمر القمة العربى حتى لا تحرج بذلك الرفض وقبل مؤتمر القمة دولا عربية صديقة للولايات المتحدة خصوصا من دول الدعم) [1].

وفى طريقه إلى مؤتمر الرباط مَرَّ الملك «فيصل» ملك السعودية بالقاهرة يتباحث فى شان جدول الأعمال مسبقا مع «جمال عبد الناصر»، وتصادف أن هيئة التسليح فى الجيش المصرى كانت فى حاجة ماسة إلى مبلغ عشرين مليون جنيه استرلينى إضافية مطلوبة لشراء نوع خاص من قوارب العبور. وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع طلبها من الملك «فيصل»، ولكن الملك «فيصل» اعتذر مبررا اعتذاره بسببين أولهما أن المملكة تواجه أزمة سيولة مالية، والثانى أن الشعب السعودى ليس راضيا عن قبول مصر بقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وهو يعتبر ذلك القرار - ٢٤٢ - حلا يتضمن قبولا بوجود إسرائيل، وذلك ضد مبادئ وعقائد الشعب السعودى الذى لا يقبل أساسا «بالوجود الصهيونى المحتل».

وأظن أن «جمال عبد الناصر» لم يتضايق من الاعتذار فى حد ذاته لكنه استغرب مبرراته (وتلك قصة أخرى).

هكذا وصل الملوك والرؤساء العرب إلى العاصمة المغربية، والأفق غائم، وأروقة المؤتمر يشيع فيها نوع من التحسب للمفاجآت، ولم يكن أقلها أن هناك وافدا جديدا على القمة اسمه: «معمر القذافى»!

وقبل أن يدخل الملوك والرؤساء إلى قاعة المؤتمر كان «معمر» قد «فرقع» أول أزمة فيه.

جاء مولاى «عبد الحفيظ» رئيس الديوان الملكى المغربى يبلغ الملك «الحسن» أن القاعة جاهزة وكل شىء فيها معد لدخوله ودخول ضيوفه كى يبدأوا أعمالهم - وطبقا للتقاليد فى «البلاط الشريفى» فإن مولاى «عبد الحفيظ» أخذ يد الملك الممدودة إليه فقبلها. وفوجئ «معمر» بما رأى وإذا هو يصيح بأعلى صوته: «ما هذا؟ تقبيل أيادى؟ عدنا إلى عصر العبودية ... لا .. لا .. هذا شىء مرفوض .. مرفوض تماما».

وتوقف كل الملوك والرؤساء عن السير نحو باب القاعة. وكانت الأزمة الأولى.

....

....

وعقب انتهاء الملك «الحسن» من كلمته الافتتاحية ثم انتقال الحديث إلى إقرار جدول الأعمال ساد الجلسة شعور بالقلق لأن «معمر القذافى» تدخل لإبداء ملاحظات، لكنه أثناء إبداء ملاحظاته راح يخاطب الملك «الحسن» بعبارة: «يا حسن»، كما راح يخاطب الملك «فيصل» بقوله: «يا فيصل»!

وكتب الملك «الحسن» بخط يده رسالة من سطر واحد أرسلها مع أحد مرافقيه إلى حيث يجلس «جمال عبد الناصر»، وجاء فيها: «فخامة الرئيس.. ألا تساعدنا بالتدخل لوضع ضوابط على تصرفات أخينا الليبى».

وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع الحديث مع «معمر القذافى» بعد انتهاء الجلسة، لكنها بضع دقائق وعَنَّ لـ «القذافى» أن يبدى تعليقا على مداخلة قام بها الملك «فيصل»، فإذا هو يقول موجها الكلام له: «يافيصل اتق الله ... اتق الله يا شيخ».

وبعد دقائق قليلة لَمَّ الملك «فيصل» أطراف عباءته ونهض بهدوء خارجا من القاعة.

ثم رأى الملك «الحسن» أن يرفع الجلسة لاستراحة قصيرة.

....

....

أثناء الاستراحة بدا أن هناك تقدما أمكن إحرازه فى ضبط «قواعد السلوك فى حضرة الملوك»! - ولم يكن «القذافى» مقتنعا، لكنه فى نهاية مناقشته مع «جمال عبد الناصر» قال على مضض «إنه سوف يقفل فمه ولا يتكلم، وهو يريد أن يسجل أن ما رآه حتى الآن من المؤتمر أقنعه أن كل هذا الذى يجرى على مستوى القمة العربية عبث لا فائدة منه إلا الضحك على عقول الناس».

ولم تمض غير دقائق حتى كان «معمر» قد نسى تعهده.

جاء يجلس إلى جوارى على مقعد فى أحد الممرات المؤدية إلى قاعة الاجتماعات، ومَرَّ ضابط عسكرى مغربى رفيع الرتبة تغطى صدره نياشين التكريم، وسألنى «القذافى»: «من هو؟» - وقلت له أنه الجنرال «محمد أوفقير» وزير الداخلية المغربى. وفتح «معمر القذافى» فمه وعينيه من الدهشة وسألنى: «أليس هذا هو الرجل الذى خطف «بن بركة» [2] وقتله؟» - وقلت هامساً: «نعم هو متهم بذلك». ورد «معمر القذافى»: «ليس متهما، إنه فعلها ولذلك فهو مجرم»، ونهض واقفاً يصيح: «اقبضوا على هذا الرجل .. ما الذى جاء به معنا؟ هذا قاتل ... مكانه السجن وليس هنا».

وحاولت تهدئة انفعاله والإمساك بحركته لكن المشهد أصبح حديث المؤتمر، وذهب الملك «الحسن» إلى لقاء مغلق مع «جمال عبد الناصر». وعلى أى حال فإن ما أنقذ الموقف كان امتناع «القذافى» عن حضور الجلسات لأنه لم يعد مقتنعا بشىء مما يسمع أو يرى!

....

....

باختصار غادر «معمر القذافى» عاصمة المغرب وقد فقد ثقته فى إمكانية «فعل عربى» عن طريق مؤتمرات القمة.

وكان «جمال عبد الناصر» الذى توجه معه إلى زيارة ليبيا لأول مرة يشاركه بعض شعوره ولكن بطريقة مختلفة، بمعنى أنه بأثر التجربة الطويلة كان «جمال عبد الناصر» يرى الفائدة السياسية العامة لاجتماعات القمة العربية، لكنه فيما يتعلق بالفعل المباشر خصوصا إذا اتصل باستعمال القوة المسلحة فإن مستوى القمة العربى ليس قاعدة الانطلاق الأمثل نحو ميادين القتال، وتحميل القمة العربية بهذا النوع من المسئوليات «امتحان خارج المقرر» (حسب تعبيره فى تلك الأيام).

وفى ليبيا كان «معمر القذافى» يريد أداء دور.

عرض وحدة بين مصر وليبيا (كان رأى «جمال عبد الناصر» أن المبدأ مقبول - لكن التنفيذ مؤجل، والأفضل أن يؤجل إلى ما بعد المعركة).

وعرض المساهمة فى المعركة (ورحب «جمال عبد الناصر» على أن تُترَك له فرصة التفكير فى طريقة مساهمة ليبيا).

وكان «جمال عبد الناصر» على وشك أن يقوم بزيارته السرية الشهيرة إلى موسكو (يناير ١٩٧٠) يطلب مددا من السلاح والذخيرة لتوفير مطالب خطة العبور، وكانت الصواريخ أهم طلباته!

وحصل «جمال عبد الناصر» على معظم ما أراد بما مكنه من بناء حائط الصواريخ العتيد.

ولكنه خرج من موسكو وليس ضمن ما حصل عليه قاذفة مقاتلة يريدها قواده، والاتحاد السوفيتى يعتذر بأنها ليست عنده لأنه ببساطة لم يصنعها، والسبب أنهم (السوفييت) ركزوا على الصواريخ بعيدة المدى لحمل الشحنات المتفجرة (نووية بالدرجة الأولى). كان تركيزهم الأساسى على المقاتلات - وليس القاذفات - وبالنسبة للمقاتلات فقد قدموا أسرابا أو أساطيل منها إلى مصر.

....

....

وبعد العودة من الرحلة السرية إلى موسكو حَمَلْتُ رسالة مكتوبة من «جمال عبد الناصر» إلى «معمر القذافى» (وكانت المهمة رسمية كعضو وقتها فى مجلس الوزراء).

وكان ملخص الرسالة المكتوبة ومؤدى العرض الشفوى الذى مهدت به لها:

- «إننا الآن فى حاجة إلى قاذفة مقاتلة، والسوفييت ليس عندهم ما نطلبه، وإذا كان عندهم فلا يبدو أنهم على استعداد لتقديمه لنا.

والمهمة التى تستطيع ليبيا أداءها للمعركة هى توفير قاذفة مقاتلة، وذلك ممكن لأن ليبيا قادرة على الدفع بسخاء فى الشروط، ونقدا، وربما مقدما.

وهناك نوعان من القاذفات المقاتلة صالحان لأداء الغرض: «الفانتوم» الأمريكية، أو «الميراج» الفرنسية.

والحصول على «الفانتوم» من أمريكا صعب لأن الموضوع سياسى أكثر منه ماليا، وأما الحصول على «الميراج» من فرنسا فممكن سياسيا وماليا، بمعنى أن فرنسا تريد أن تعود إلى منطقة الشرق الأوسط - سياسيا، ثم إنها تريد أن تدخل سوق السلاح فيها - ماليا».

وبدا «معمر القذافى» حائرا أمام ما يُطلَب منه، لكنه فى ظرف ثلاثة شهور كانت هناك بعثة تتفاوض (ضباط من الطيران المصرى يحملون جوازات سفر ليبية) - وكانت المفاوضات تتقدم. وذهبت إلى

أمريكا - والكل يرى وليس القذافى وحده - انفردت بالأمم المتحدة، وأخذت مجلس الأمن بكامله فى طاعتها. والمجلس لم يعد يجتمع علنا، وانما أصبح يجرى مشاورات داخلية تديرها واشنطن وتوجهها حسب مطالبها وتقدمها للدنيا باعتبارها إرادة مجلس الأمن



باريس أقابل الرئيس الفرنسي «جيسكار ديستان»[٣] ـ ومكتبه ذلك الوقت في قصر «اللوفر»، ولم يكن معنا في مكتبه غير كلبته السوداء وقد بقيت ساكنة طول الوقت تحت قدميه. ولم أفاجأ كثيرا حين قال لي:

ـ «نحن نعرف أن المفاوضين لشراء طائرات «الميراج» مصريون، وأن جوازاتهم مستعارة، وأن الطائرات ليست مطلوبة لليبيا وإنما لكم، وفرنسا تتفهم الظروف لكننا نطلب الحذر، وقد وافقنا على الصفقة بكاملها (مائة وواحد طائرة ـ وأربع للتدريب ـ والمجموع ١٠٥)».

....

....

وفي تلك الظروف رحل «جمال عبد الناصر» ـ وأصبح «أنور السادات» رئيسا.

وبدأت مرحلة جديدة في حياة «القذافي» ـ في علاقاته بمصر وربما في علاقاته بالعالم.

[٥]

ظني من وقتها ـ وحتى الآن ـ أن رحيل «جمال عبد الناصر» المفاجئ، وبعد سنة واحدة من ظهور «معمر القذافي» كان هزة عنيفة للضابط الشاب الذي مشى من الخيمة إلى قمة السلطة في بلاده بغير تمهيد.

وكانت الهزة إلى جانب العنف في شدتها، عريضة كذلك في مساحتها.

في البداية ظهر واضحا أن «معمر القذافي» لم يكن مقتنعا بأن «أنور السادات» يستطيع ملء مكان ومكانة «جمال عبد الناصر»، وعلى نحو ما فإن الكيمياء بين الرجلين (القذافي والسادات) تعطل تفاعلها، وتنافرت عناصرها بدل أن تمتزج.

وبعد أسابيع من رئاسة «أنور السادات» كان رأيه أن «معمر القذافي» شاب بلا تجربة، وأن استعداده للمغامرة أكبر من قدرته على حساباتها. وفي نفس الوقت فإن «أنور السادات» في رأي «معمر القذافي» كان ـ هو الآخر ـ بلا تجربة لأن عدد سنين التواجد في دائرة السلطة دون مسئولية لا يؤهل لشيء ـ ثم إن «أنور السادات» ليس صاحب فكر ثوري يناضل لتحقيقه، وإنما هو رجل أذهلته السعادة حين وصل إلى السلطة في لحظة فراغ أصاب الكل بالدوار!

وكان كلاهما ظالما للآخر لا يرى منه إلا سطح جلده الخارجي!

وبعد شهور كان «معمر القذافي» قد فقد ثقته أيضا في عدد من الناس قدموا إليه أنفسهم على أنهم «رجال عبد الناصر»، وقد صَدَّق في البداية لأنه رآهم في الصور داخل الدائرة القريبة من الرجل الذي اعتبره بطله، وكان كثير من هؤلاء رجالا ذوي نوايا طيبة لكن مشكلتهم أن الأوهام كانت أكبر من الحقائق في طموحاتهم، ثم لم يلبث «القذافي» أن اكتشف بنفسه مسافة البعد بين الطموحات وبين الهمم.

وبعد سنة كان «معمر القذافي» عاتبا على شعب مصر كله، كيف لم يقم بثورة يطيح فيها بكل هذه الأوضاع جميعا: «رئيس غير ثوري»، و«رجال لعبد الناصر» لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم قبل الدفاع عن تراث قائدهم.

وأزعم أنني كنت أتابع أزمته وأحاول.

في البداية كان عتبه عليّ شديدا لأنني وقفت مع «السادات» ضد «رجال عبد الناصر» في أزمة مايو الشهيرة والتي عُرِفت بـ«أزمة سقوط مراكز القوى».

وبعد البداية ـ كانت الساحة قد أصبحت أكثر وضوحا أمامه.

وكان «الأهرام» مقصده الأول حين يجيء إلى مصر وذلك بحكم الصلة بيني وبينه منذ يوم قيام الثورة، ثم بسبب ملاحظته بعد ذلك لما كان بين «جمال عبد الناصر» وبيني.

وفي تلك الأيام حاولت جاهدا بينه وبين «أنور السادات»، وكنت أتمنى عليهما أن يعطي كلاهما للآخر فرصة يتعرف فيها على ما لا يراه من مزاياه بدلا من التوقف عند ما يراه من عيوبه.

وكان اعتقادي ـ ولا يزال حتى هذه اللحظة ـ أنه لو تعاون الاثنان معا بقلب صاف وعقل متفتح، لكانت تلك خدمة كبرى للمعركة القادمة ولمستقبل العمل العربي بعدها خصوصا إذا ساعدت الظروف على قيام نوع مؤسسي من صلة القرب بين البلدين في هذا الموقع المتصل المتكامل من شمال شرق أفريقيا وجنوب شرق البحر الأبيض.

لكن المحاولات كلها نفد وقودها مبكرا، وربما نجحت محطات البنزين على الطريق أحيانا في توفير ضخة أو ضختين، لكن علاقات السياسة تحتاج إلى مدد مستمر لمحركاتها، وهكذا فإن العلاقات بين الرجلين كانت تمشي مسافة ثم تتوقف، وتعود للمشي ثم تتعطل!

وأستأذن في عرض أمثلة علها تشرح أكثر من أي تحليل يتعمق في دخائل النفوس، وتنافر المخفي في أعماقها.

....

....

المثال الأول: في أواخر سنة ١٩٧١ كان «معمر القذافي» في القاهرة، ودُعي ودُعيت معه إلى غداء في بيت الرئيس «أنور السادات» في الجيزة. وجلسنا ـ نحن الثلاثة ـ بعد الغداء في شرفة تطل على النيل لحديث على فنجان قهوة رجوته حديثا رائقا ومتوازنا.

وفجأة قال «معمر القذافي» وهو ينظر إلى مجرى النهر: «لو أن لدينا في ليبيا مثل هذا النيل لاختلفت أوضاعنا».

ورد «أنور السادات» ضاحكا: «أعطني بترول ليبيا وأنا أحَوِّل إليك فرعا من نهر النيل».

ورد «معمر القذافي»: «هل هي عملية مقايضة؟»

وبسرعة تسري فيها حدة أجاب «السادات»: «أنت الذي كنت تحسدنا على مياه النهر».

وقال «القذافي»: «أنا أحسدكم؟ أنا أتمنى لهذا البلد كل الخير!»

وأحسست أن الحوار قد يجمح، وتدخلت قائلا: «بالراحة من فضلكما.. أولا: النيل لا يجيء لمصر بفائض مياه تستطيع أن تعطي فرعا منه لليبيا، كل ما يجيء منه سنويا إلى هنا أكثر قليلا ـ في العادة ـ من خمسين مليار متر مكعب من الماء، وهي بالكاد تكفي».

وكنت على وشك أن أكمل ـ لكن الرئيس «السادات» قاطعني قبل مواصلة عبارتي وسألني وكأنه ضبطني متلبسا: «كيف تعرف أن ما يجيء إلى مصر من مياه النيل خمسون مليار متر مكعب في السنة؟ هل قستها ووزنتها؟»

وقلت له: «الأرقام هناك عند وزير الزراعة أو الري ... ولك أن تتفضل بسؤال أيهما»!

[وقد أدهشني نفاد صبره، وأدهشني أيضا أنه لم يكن يعرف أهم الأرقام في حقائق الحياة على «بر مصر» (ولم أعقب بشيء)].

وجاء فنجان القهوة، وشربناها، ولم تكن رائقة ولا موزونة!

....

....

المثال الثاني سنة ١٩٧٢، وكنت كتبت مقالا أبديت فيه ملاحظات عن مجرى العلاقات بين مصر وليبيا وانتقدت تعريضا مستمرا دأب «معمر القذافي» على توجيهه إلى الاتحاد السوفيتي وقيادته ووصل فيه إلى حد القول بأنه لا فارق بين «كيسنجر» و«كوسيجين» (رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي وقتها) ـ ثم أشرت فيما كتبت إلى أن ليبيا اشترت حصة من أسهم شركة «فيات» الإيطالية لصنع السيارات في «تورينو»، وتساءلت: لماذا لا تشتري ليبيا حصة من مصانع مصرية («المحلة» مثلا ـ هكذا كتبت) ويكون من ثمنها سيولة مالية تساعد مجمع الصناعات المصرية الضخم الذي كان يعاني في ذلك الوقت من نقص في النقد الأجنبي المتاح له؟

ويومها تصادف وجود «القذافي» في القاهرة، وبدون إنذار وجدته داخلا إلى مكتبي ومعه الرائد «عبد السلام جلود» وهو في موضع رئيس وزرائه.

وبادرت «معمر القذافي» بمنطق أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع»، قائلا: «أعرف أنك غاضب مما كتبته اليوم عنك».

وقال (وبدا لي قوله من خارج السياق): «أبدا وإنما لديّ سؤال عندك».

وكان سؤاله:

«هل صحيح ما جاء في كلامك اليوم من أن المجمع الصناعي الذي بناه الرئيس جمال عبد الناصر يعمل بأقل من طاقته بسبب مشاكل من نقص في النقد الأجنبي؟»

وقلت: «إذا كان ذلك ما فهمه من كلامي فهو صحيح».

وقال: «ماذا نفعل؟ ـ ماذا تستطيع ليبيا أن تفعل مع العلم بأنني غير موافق على اقتراحك بأن نشتري مصانع مصرية.. هذه المصانع لمصر ويجب أن تبقى لها، أما نحن فعلى استعداد لأي شيء.. هل تعرف ما هو المطلوب؟»

وقلت: «ليست لديّ فكرة دقيقة لكن ذلك أمر يمكن بحثه ـ وأول خطوة في هذا البحث أن تعرف أنت مدى استعدادك على ضوء ظروف ليبيا».

وانتحى «معمر القذافي» بـ«عبد السلام جلود» إلى جانب في ركن من مكتبي، ثم عاد إليّ يقول: «هل إذا قدمت ليبيا ثلاثمائة مليون جنيه استرليني تنحل المشكلة؟»

وبدا لي المبلغ وقتها هدية نزلت من السماء تستحق أن تُعْرَض على الرئيس «السادات».

وتركت «القذافي» و«جلود» في مكتبي وذهبت إلى مكتب مجاور أطلب الرئيس «السادات» في بيته (وكان في الجيزة) ـ ورويت له ما حدث، وأحسست به «طائرا من الفرح» (كذلك قال)، ثم كان اقتراحه:

ـ «إنه لا بد من تثبيت هذا العرض الآن».

وكان طلبه:

ـ «هات معمر وجلود فورا وتعالوا إلى عندي في الجيزة، وسأطلب من حجازي (الدكتور عبد العزيز حجازي وكان وزيرا للمالية) أن ينضم إلينا لنضع الترتيبات اللازمة، تعالوا فورا».

وكان تعليقه وقد كرره أكثر من مرة: «خير ما عملت.. خير ما عملت»!

وعدت إلى «القذافي» و«جلود» قائلا أن الرئيس «السادات» ينتظرنا لبحث الموضوع على مستواه الرسمي والطبيعي.

وعندما وصلنا إلى بيت الرئيس «السادات» في الجيزة كان الدكتور «عبد العزيز حجازي» قد وصل قبلنا بدقائق.

ورأيت مناسبا أن أعرض ما حدث في مكتبي وأكده «معمر القذافي»، وبدأ الحديث من هنا، وكان رأي الرئيس «السادات»

عندما وقع القذافي في أزمة لوكربي. بصرف النظر عمن أوقعه فيها.. حمق أصدقائه أم تربص أعدائه؟. فإن وسطاء كثيرين حولوا الأزمة إلى فرصة.. بينهم من عرض أنه يستطيع مساعدة العقيد بوساطة مع «بوش» أو «كلينتون». ومن ينقل رسالة عنه إلى «ميتران» أو «شيراك». ومن يسعى له عند «جون ماجور» أو «كوفي عنان». وجرب العقيد وجرب. ثم اكتشف أن بعضهم أخذوا ليبيا وأخذوه إلى نزهة في ضوء القمر!



بعد ذلك أن يجلس الدكتور «حجازى» مع «عبد السلام جلود» فى غرفة المائدة المواجهة لصالون بيته حيث كنا نجلس، وأن يتفقا على الخطوات العملية لطريقة التنفيذ، وطلب إليهما الرئيس «السادات» أن يفرغا من المهمة فى أقل من ساعة واحدة.

وجلسنا ثلاثتنا ـ الرئيس «السادات» و«معمر القذافى» وأنا ـ ننتظر ونتحدث فى بعض ما يجرى من الشئون.

وفجأة قال «معمر القذافى» موجها حديثه للرئيس «السادات»:

ـ «يا ريس أنور أريد أن أشكو إليك «الأستاذ هيكل» !»

وأطلت علينا ابتسامة الرئيس «السادات» المشهورة وهو يقول برضى: «خير يا معمر .. ما هى شكواك منه؟».

وكنت أنظر مستغربا إلى «معمر القذافى» الذى إستطرد يقول:

ـ «هل رأيت جريدة الأهرام اليوم.. فيها أربع صفحات عن منجزات الشيخ زايد فى الإمارات».

وقاطعته شارحا:

هذه الصفحات الأربع إعلان، وقد كُتب أعلى كل منها ما يفيد ذلك احتراما لتقاليد نلتزم بها، ثم إن هناك إطارا بالخط يحيط بكل المنشور عن الإمارات بحيث يكون معزولا وبوضوح عن تحرير الأهرام العادى».

ورد «القذافى»:

ـ «هذا تمجيد فى الرجعية، ولا يكفى أن يقال أنه إعلان».

وتدخل الرئيس «السادات» يقول:

ـ «معمر .. هذا إعلان واضح .. وليس فيه تمجيد ..».

ولم يقبل «معمر القذافى» وإنما واصل حديثه:

ـ «اليوم يُمَجِّدون فى الشيخ زايد، وغدا يكون التمجيد فى فيصل».

(وأضاف «معمر القذافى» وصفا للملك «فيصل»)

وبدا الضيق على وجه الرئيس «السادات» وقال:

ـ «معمر .. لا تغلط فى حق فيصل، هو صديقى ؟»

ورد «معمر القذافى» بحدة:

ـ «لا هو صديقك ولا شىء.. هو لا يحبك ولا يحب مصر».

وقاطعه «السادات»:

ـ «معمر .. إلزم حَدَّك ... قلت لك هو صديقى».

ورد «القذافى»:

ماذا جرى لك يا ريس أنور ؟ ـ هل فقدت ثوريتك ؟».

وكانت تلك هى الطامة الكبرى، فقد رد «السادات»:

ـ «هل تعلمنى الثورية يا معمر .. اسمع، إذا كنت تتصور أنك تشترى سياساتى بأموالك فأنا فى غِنى عنها».

ثم راح الرئيس «السادات» ينادى على الدكتور «عبد العزيز حجازى» ـ حيث كان يجلس فى غرفة المائدة مع «عبد السلام جلود» ـ بأن يوقف المفاوضات، فهو «لا يريد شيئا ما دام معمر يتصور أنه بأمواله يستطيع «شراء مصر» .»

وفى هذا التداعى السريع فى الموقف فقد رحت أحاول إيقاف التردى: مرة بأن ما أثاره «معمر القذافى» عن إعلان الشيخ «زايد» أمر أستطيع تسويته معه مباشرة فيما بعد، ومرة بأن نداء الظروف أقوى من المشادات خلافا فى تقدير الأشخاص، ومرة بأن الأوطان لا دخل لها فى مشادة توترت فيها أعصاب رجلين.

لكن الرئيس «السادات» وصل بالأمور إلى الحافة عندما نهض واقفا يخرج من حيث كنا غاضبا ومتجهما.

ولحقت به أقول له: «الرجل فى بيتك ـ ضيف عليك».

وكان قصارى ما فعله كحل وسط أن التفت قائلا للجميع: «البيت هنا ليس بيتى ولكنه بيتكم جميعا».

....

....

ومثال ثالث جرت وقائعه أواخر شهر أغسطس ١٩٧٣.

فقد اتصل بى الدكتور «أشرف مروان» ـ وهو وقتها مدير مكتب الرئيس «السادات» للمعلومات ومنسق خاص للعلاقات المصرية الليبية ـ يقول لى أن «العقيد معمر القذافى وصل فجأة إلى مطار القاهرة، وقد تَوَجَّهَت لملاقاته على عجل سيارات ضيافة من رئاسة الجمهورية تحمله إلى قصر «الطاهرة» ولكنه رفض ركوبها وقصد بسيارة تاكسى إلى فندق «النيل» على الكورنيش فى جاردن سيتى. ومن الواضح أنه متأثر لطريقة المعاملة التى يلقاها من مصر.

واتصلت على عجل بالرئيس «السادات» الذى كان عائدا لتوه من رحلة واسعة حملته إلى رومانيا وإيران وبعض دول الخليج ـ وتوجه مباشرة ليستريح فى بيته بقرية «ميت أبو الكوم». وبالطبع فقد كنت أعرف أن وقت المعركة يقترب وإن لم يكن اليوم والساعة قد تحددا بعد بالدقيقة والثانية.

وقال لى الرئيس «السادات» أنه «لم يعد يستطيع أن يعرف كيف يتصرف مع معمر»، وأضاف أنه قرأ لى مقالا منذ أيام قلت فيه أنه «إذا لم يستطع العمل الوحدوى بين مصر وليبيا أن يتقدم إلى الأمام فإنه لا يجب أن يعود إلى الوراء». وأضاف مبديا اندهاشه « «فسِّر لى هذا اللغز: لا نستطيع التقدم خطوة إلى الأمام ولا يصح أن نعود خطوة إلى الوراء، ما هو معنى ذلك ؟» ـ ثم أجاب بنفسه على سؤاله: «ننط فى الهواء يعنى ؟»

وكان رأيى والمعركة على الأبواب وليبيا تُمَوِّل أسلحة ومعدات تحتاجها القوات قاربت تكاليفها البليون دولار، إضافة إلى ثمن صفقة طائرات «الميراج» الفرنسية ـ أن هناك قضية تستحق الحرص حتى لو لم تكن هناك علاقات خاصة بين البلدين.

وسألنى، واقترحت عليه أن يدعو «معمر القذافى» إلى مقابلته غدا فى «ميت أبو الكوم» مع تسليمى بأنه عائد من رحلته متعبا ومرهقا.

وقال لى: «إن معمر اتصل بى هنا فى ميت أبو الكوم وقلت لهم أن يبلغوه أننى نائم».

وكان ظنى أن ذلك لا يصح، وأذكر ـ وبغير تجاوز ـ أننى قلت له: «إننا فى مصر أحيانا نُعْرِض عن الذين يُقْبِلون علينا، ونجرى وراء الذين يُعْرِضون عنا» ولست أعرف لذلك تفسيرا مريحاً.

وأحسب أنه تنبه إلى أن علاقته بـ «القذافى» تستحق محاولة أخيرة، فقد فوضنى أن أتصرف، وكان اقتراحى أنه «من المهم أن يصدر إعلان على نحو ما يؤكد الأهداف المشتركة للبلدين مع إشارة لاتفاقيات سبقت فى محاولة تحقيق نوع من الوحدة بينهما».

وإنصافا للحق فإنه تفضل وقبل اقتراحى.

وعدت إلى المشروعات القديمة، وأضفت إليها إعلانا جديدا سميته «ميثاق ميت أبو الكوم»، وقرأته عليه فى التليفون وأقره. ثم اتصلت بـ «معمر القذافى» أعرض عليه أن نذهب جميعا إلى «ميت أبو الكوم»، وكان «القذافى» غاضبا يقول: «إن الرئيس أنور لا يريد أن يرد على تليفونى فكيف أذهب إليه؟».

وقضينا جميعا يوم ٢٩ أغسطس فى «ميت أبو الكوم» وجرى أمام الميكروفونات والعدسات إحتفال لتوقيع وثيقة «إعلان ميت أبو الكوم» (هكذا سَمَّاها الرئيس «السادات» فى لحظة حماسة ونشوة!).

وبدا «معمر القذافى» مرتاحا، وبدا «السادات» صبورا. وقرر «القذافى» أن يعود إلى ليبيا من أقرب مطار إلى «ميت أبو الكوم» وكان مطار «قويسنا» العسكرى. وعدت مع الرئيس «السادات» من «قويسنا» إلى «ميت أبو الكوم»، وكنا وحدنا بعد انفضاض مهرجان توقيع ميثاق «ميت أبو الكوم».

وجلسنا فى سيارة الرئيس (وكانت «رولز رويس» فخمة أهداها إليه أحد مشايخ الخليج) ... ومضت دقائق ونحن سكوت، وأحسب أن كلينا كان يستعيد فى ذاكرته ساعات ومشاهد يوم حافل.

وقطع الرئيس «السادات» صمته وقال لى (مناديا باسمى الأول كما كان يفعل عادة):

ـ «محمد ـ هل تريد أن أدخل فى وحدة مع «ولد» مجنون ؟».

وأعترف الآن أننى تضايقت ولعلى تجاوزت حدى، فقد قلت للرئيس «السادات»:

ـ «هل تريد رأيى بصراحة.. إذا كان مجنونا فهو مجنون لأنه يريد الوحدة معنا. وبصراحة فأنا لا أعرف ما الذى يغريه بها ؟ نحن بلد فى حالة حرب، وجزء من أرضنا محتل، وأمامنا معركة معلقة بمقادير لا نعرفها، وليبيا عمق إستراتيجى نستعمله بغير عوائق، وهذا الرجل مسكون بفكرة يحلم بها وهو يحاول، وأنا أول من يسلم أن أسلوبه فى المحاولة مثير للأعصاب ومرهق أحيانا لكنى تصورت ....»

وقاطعنى الرئيس «السادات»:

ـ «لقد وقعنا اتفاقا وانتهى الأمر، ولعل أعصابه تهدأ حتى تجىء المعركة ويذهب كل منا إلى طريقه» !

وبدا لى ذلك نذير قلق ينبئ بشكل ما هو قادم.. مكتومٌ اليوم ومتفجرٌ غدا.

وصباح اليوم التالى ٣٠ أغسطس خرجت الجرائد المصرية كلها وعناوينها الرئيسية سوداء وحمراء بعرض الصفحات تعلن للناس أن ميثاقا للوحدة بين مصر وليبيا تم توقيعه فى «ميت أبو الكوم».

لكنى (ومع الأسف) كنت أعرف أكثر من غيرى أنه حبر على ورق!

....

....

وأخيرا ...

أخيرا ومهما كانت الأسباب فإنه حين توقف القتال وجد «معمر القذافى» نفسه ممنوعا من دخول غرفة العمليات، وإلى حد ما فإن الرئيس «السادات» كان على حق أن يتضايق من كلمات قالها «معمر القذافى» فى عز المعركة متسائلا: «هل هى حرب تحرير أم هى حرب تحريك ؟»

فقد بدا أن ذلك لعب بالألفاظ لا يتحمله قرار الحرب ولا تضحيات الرجال.

وكانت «شعرة معاوية» الباقية بين الرجلين على وشك أن تنقطع!

وفى كل الأحوال وفيما يتعلق بى (شخصيا) فإن وقف القتال والطريقة التى جرت بها المفاوضات مع «كيسنجر» أتى معه بتعقيدات كثيرة فى علاقتى بالرئيس «السادات»، وكان أن تركت موقعى صحافة (وسياسة) وابتعدت.

حين توقف القتال
ـ حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ وجد معمر القذافى نفسه ممنوعا من دخول غرفة العمليات.
وإلى حد ما فإن الرئيس «السادات» كان على حق أن يتضايق من كلمات قالها «معمر القذافى» فى عز المعركة متسائلا: هل هى حرب تحرير أم هى حرب تحريك؟



[٦]

ابتعدت، ولكننى لم أنفصل، بمعنى أننى نزلت من فوق خشبة المسرح ـ أيا كان موقعى عليها وحركتى حول هذا

الموقع - وانتقلت إلى مقاعد المتفرجين أشاهد وأتابع معنيا بكل ما يجرى أمامى ومهتما. وأما عملى وشاغلى الحقيقى وقد تفرغت له بالكامل فقد كان القلم وليس الخشبة، والورقة البيضاء وليس الستار المخملى للمسرح .. قرمزى فى العادة!

والغريب أن الرئيس «السادات» حاول أن يستدرجنى لأداء دور على الخشبة عدة مرات كانت إحداها قريبة من «معمر القذافى» أو متصلة بأمره.

قرأت - يوما - على غير انتظار وعلى لسان الرئيس «السادات» أنه مطلوب منى أن أشهد ما إذا كان «جمال عبد الناصر» قد أوصى من بعده لـ«معمر القذافى». وبدا لى الموضوع بالغ الغرابة.

كان السبب أن بعض المحيطين بـ«معمر القذافى» بدأوا يصفونه بأنه «الأمين على القومية العربية» بعد رحيل «عبد الناصر»، وكان الاعتماد على عبارة نشرتها فى مقال قديم لى وجهها «عبد الناصر» إلى «القذافى» قال له فيها: «معمر أنت تذكرنى بشبابى».

واعتبرها البعض استخلافا من «عبد الناصر» لـ«القذافى». وكانت تلك فى ذلك الوقت قضية كبيرة لدى قطاعات واسعة من المشتغلين بالسياسة فى العالم العربى، وعلى هذا الأساس طلب الرئيس «السادات» شهادتى، وكذلك فعل بعض أنصار «معمر القذافى».

وألح بعض المحيطين بالرئيس «السادات» فى الأمر إلى درجة بدا لى طلب شهادتى جزءا من الحملة ضد «معمر القذافى»، وقد اشتدت أيامها إلى درجة اتهامه بالجنون علنا - وليس داخل سيارة الـ«رولز رويس» فقط!.

ثم وصل الأمر بالرئيس «السادات» إلى درجة اتهمنى معها بالتواطؤ مع «القذافى» إذا لم أتكلم، وفى نفس الوقت كان رأى آخرين أنه يجب أن يصدر وعلى لسانى ما يفيد أن «السادات» وإن خلف «جمال عبد الناصر» على رئاسة الدولة المصرية لا يصلح لخلافته على المستوى القومى الأبعد.

ورأيت أن ألزم الصمت برغم ضغط الجانبين.

كان تقديرى أن الموضوع كله «خفيف» وإلى درجة السخافة. فالعبارة التى رويتها منسوبة إلى «عبد الناصر» وهى صحيحة - ليست وصية وإنما ملاحظة قصد بها «جمال عبد الناصر» وصف وتخفيف حدة اندفاعات «معمر القذافى» وقتها، وهى اندفاعات لم يشفع له فيها غير شبابه - لكنها لم تكن وصية.

وفى مطلق الأحوال فإن «جمال عبد الناصر» - أو غيره - لم يكن فى مقدوره أن يوصى بمكانه فى الدولة أو بمكانته فى الأمة لأحد بعده، لأن مكانه فى الدولة مسألة دستور وقانون، كما أن مكانته فى الأمة مسألة زعامة يراها الناس بمدى تقديرهم لأدائه تعبيرا وحركة عن أهداف مكنونة فى ضمائرهم.

(إلى جانب ذلك فقد نسى كل الأطراف أهم حقائق الموضوع وهى أنه لو ظهر «جمال عبد الناصر» فى غير مصر لما استطاع).

وهنا فإن الكلام عن وصية رجل خارج الموضوع.

ثم إن طلب شهادة رجل فى الموضوع خارج المنطق.

وسكت عارفا أننى لم أرض الطرفين رغم اختلاف الطرق بينهما.

وكان «معمر القذافى» فى طريق آخر غير طريق «أنور السادات».

لكنى أعترف أنه فى حين أن طريق «السادات» بدا لى خطرا، فإن طريق «القذافى» لم يبد لى أكثر أمانا رغم مسافة الاختلاف بين الطريقين!

وفى بعض المرات كنت أجد أعذارا لـ«القذافى»، وفى بعض المرات لم أجد!

[وبين ثلاثين سنة قضاها «معمر القذافى» فى الحكم فإن عشرا منها انقضت فى علاقات حب وهجر بينه وبين مصر، وعشرا ثانية منها جرت طوافا بمواقع القلق على اتساع المعمورة من حركة «أبو نضال» إلى حركة الجيش السرى الأيرلندى، ثم ضاعت عشر سنوات ثالثة فى هموم «لوكربى» (للإنصاف كان هناك مشروع النهر العظيم أيضا)].

كانت أكبر أعذارى لـ«القذافى» طبيعة ظروفه متفاعلة مع ظروف عصره:

١- لقد مشى من «الخيمة» إلى «القمة» مباشرة دون مرور بمحطات يتوقف عندها ويجرب ويدرس ويتعلم. خرج من «الخيمة» إلى المدرسة، ومن المدرسة المدنية إلى مدرسة عسكرية، وأرسلوه إلى إنجلترا لدورة تدريبية، وكان معسكر التدريب الذى التحق به على بعد خمسين كيلومترا من العاصمة «لندن»، ومع ذلك لم يذهب إليها مرة واحدة لأنه كان يرتب مع مجموعة من زملائه الشبان ليوم قريب يستطيعون فيه «إطلاق الثورة فى ليبيا».

٢- ولقد نجح فى «إطلاق الثورة» فى موقع خطر (٣ ملايين برميل بترول يوميا، و٣ آلاف ميل على الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض) - وبسهولة لا تكاد تصدق (٤ ساعات، ومائة ضابط وخمسة آلاف جندى). وربما كانت من هنا أسباب النجاح، فلم يكن هناك من ينتظر، ولا كان هناك من يتصور، وبالتالى فلم يكن هناك من استعد أو قدّر.

وحين تنجح أكثر المحاولات خطورة بأقل التضحيات تكلفة - فإن محصلة التجربة تعطى الأحلام مساحة تتجاوز قدرة الحقائق على بلوغها لأن ثقافة المصادفة تختلف تماما عن ثقافة القانون - خصوصا إذا كان قانون القوة!

٣- ومن سوء الحظ أن «معمر القذافى» لم يلبث - بعد أن نجح فى محاولته - أن فقد مَثَله الأعلى الذى قال له يوما «إنك تذكرنى بشبابى»، وكانت تجربة «جمال عبد الناصر» - ربما - تقدر على تركيز أحلام «القذافى» - لكن المقادير سبقت ووجد «معمر القذافى» نفسه أمام رجال جدد لا تدعوه هاماتهم إلى رفع رأسه ليراهم!

ولعل تلك هى الأحوال التى أغرت «معمر القذافى» بأن يعتبر نفسه الأقدر والأجدر.

٤- ولقد ساعد على الإغراء أن موارد ليبيا النفطية وضعت تحت تصرف «القذافى» ثروة سال لها لعاب كثيرين لم يكن معظمهم فى حاجة إليها، لكن رياح زمان محدث كانت تهب حاملة معها الكثير من عوامل التآكل والتعرية.

وهكذا أصبح «القذافى» مقصدا تتزاحم على الدروب إليه قوافل الطالبين - واستقبلهم بحفاوة!

وقد قصدت إليه بعض النخب فى العالم العربى تتحدث بالشعر وبالنثر، وبلغة التنظير والعقائد، والتعقيد أحيانا - واستمع إلى الكل ولكن دون فرز.

وتقدّمت إليه الكتب أشكالا وألوانا - وقرأها جميعا دون نقد.

وفى زحام بشبابه زحام «سوق عكاظ» خطر له أنه يستطيع أن يقول أفضل مما سمع، وأن يكتب أحسن مما قرأ (وفى ذلك لم يكن متجاوزا!)

٥- وعندما وقع «القذافى» فى أزمة «لوكربى» - بصرف النظر عمن أوقعه .. حمق أصدقائه أم تربص أعدائه؟ - فإن وسطاء كثيرين حوّلوا الأزمة إلى فرصة، فقد كان بينهم من عرض أنه يستطيع مساعدة «العقيد» بوساطة مع «بوش» أو «كلينتون»، ومن ينقل رسالة عنه إلى «ميتران» أو «شيراك»، ومن يسعى له عند «جون ماجور» أو «كوفى عنان». وقد جرّب «العقيد» وجرّب ثم اكتشف أن بعضهم أخذوا ليبيا وأخذوه إلى نزهة فى ضوء القمر، وهذا هو كل شىء!

وربما يكون من ذلك كله عذر لـ«القذافى» وربما لا يكون، لكن تلك ظروفه، ولم تكن له فيها حيلة، ولعل عذره المقبول يجىء بالنظر أكثر إلى ظروفه وظروف العصر الذى ظهر فيه.

والحقيقة أن أقدار الرجل جاءت به إلى الساحة العربية فى آخر نهار عالمى وعند لحظة مغيب أزمنة - يطلع بعدها صباح اليوم التالى زمن جديد.

وفى الزمن الجديد اكتشف «معمر القذافى» غربته ووحدته سواء على المستوى القريب أو على مدى النظر:

● على المستوى القريب مثلا فإنه عندما وصل إلى ملتقى الطرق قام بنصب خيامه على موقع فكرى معين وبجوار قبائل ظن أن قرابته بها شجرة نسب واحدة - لكنه فى مطلع الزمن الجديد صحا ليكتشف أن القبائل الأخرى خلعت أوتارها وطوت خيامها ورحلت بجمالها وراء الأفق!

● وعلى المستوى الأبعد قليلا فقد اكتشف أن «الكنز» (البترول) الذى يستطيع خدمة هدفه تغيرت قيمته. بمعنى أنه فى أزمنة ماضية كان الراغبون فى «الكنز» يأتون إليه، وصاحب «الكنز» يتحكم فى الراغبين كما يشاء - لكنه فى الزمن الجديد أدرك المحتاج للنفط أنه ليس مطالبا بالذهاب للمنابع فهى كثيرة، وإنما المنابع هى التى أصبح عليها الآن أن تحمل بضاعتها إلى الأسواق تعرضها عليه متنافسة فى ذلك مع كثيرين يعرضون.

● وعلى المستوى البعيد - حتى وراء الأفق - فقد اكتشف أن القوى المسيطرة غيرت أساليبها، فلم تعد تحتاج إلى قواعد تحتلها حتى تسعى للسيطرة، وإنما هى فى الأزمنة الجديدة تمارس إرهابها من الجو والفضاء العالى حيث لا بطولة دفاع، فإذا عادتها سياسة أو أغضبها تصرف فى يدها أن تعاقب وأن تظل تواصل العقاب بلا تضحيات عليها تقريبا حتى يتأتى لها الإخضاع.

● وفى المحصلة النهائية - اكتشف «القذافى»، ودون أن يفصح صراحة عما اكتشف خلال حديثنا فى قصر القبة - أن القوى الغالبة تستطيع الآن أن تشن الحرب على الدول الصغيرة - وحتى الدول المتوسطة - دون حاجة إلى ميادين قتال. سلاح الإعلام من ناحية يقوم بتلوين الصورة أو تغطيتها بالتمويه إلى درجة التغييب.

وفى نفس الوقت فإن سلاح المخابرات يستطيع أن يهز الحكومات إلى درجة الخلخلة أو التقويض.

وهكذا فإن وكالة (C.N.N. الإخبارية) من ناحية، ووكالة (C.I.A. الاستخباراتية) من ناحية أخرى، وحتى بدون ترتيب وتنسيق بين الاثنتين، تستطيعان معا دفع حركة كماشة تطبق وتزنق.

وإذا حدث غير المتوقع واستطاعت حكومة من الحكومات أن تهرب من مطاردة الوكالتين - فإن أساطيل الطائرات، وحاملات الصواريخ، على استعداد للعقاب دون حاجة إلى ميادين قتال تتجلى فيها «شجاعة الفرسان وقوة الإيمان والشهادة من أجل الأوطان»!!

....

وقد كان «معمر القذافى» أول من جرّب ضربات الجو عقابا - وآخر من استطاع الإفلات من الحصار بمعجزة بعد سبع سنوات من القحط!

بقيت ملاحظة أخيرة وهى أنه مهما كانت ظروف «القذافى» أو ظروف العصر فإن الرجل بصرف النظر عن كل شىء وأى شىء - استطاع أن يظل على قيادة ليبيا منذ سبتمبر سنة ١٩٦٩ وحتى الآن - قرابة ثلاثين سنة.

وعندما رأيته أول مرة فقد كانت خشيتى خصوصا بعد رحيل «عبد الناصر» أنها سنوات قليلة - اثنتان أو ثلاث على الأكثر - ثم تجرف العواصف الهوج خيامه من حيث نصبها وحده فى وحشة الصحراء.

لكنها الآن ثلاثون سنة والرجل فى موقعه - هزته العواصف صحيح - ولكنها لم تقتلع مضاربه.

....

....

وعندما كنت عائدا من قصر القبة بعد ساعات طويلة معه، وحديث مستأنف بعد أكثر من ربع قرن - كان السؤال الذى ما زال يلح علىّ هو:

- «كيف استطاع أن يبقى حتى الآن، وظروفه ما أعرف، وظروف العصر ما عرف؟»

ولم أجد غير جواب واحد:

- «لابد أنه سمع أو قرأ أو تعلم أشياء كثيرة لا أعرف كيف ولا متى ولا أين وصلت إليه أو وصل إليها».

وفى كل الأحوال، فإن «معمر القذافى» - بدايته واستمراره وتعامله مع التاريخ - يظل ظاهرة تستدعى الدرس، وأظنها سوف توضع يوما فى دليل «الخوارق» من ظواهر النصف الثانى من القرن العشرين! ■

الهوامش

(١) يختلف مشروع روجرز المقدم فى ديسمبر ١٩٦٩ والذى رفضته مصر وكان مشروعا للحل. عن مبادرة روجرز فى يوليو سنة ١٩٧٠ والتى قبلتها مصر - وكانت مجرد طلب بوقف إطلاق النار لمدة تسعين يوما.

(٢) الزعيم المغربى الشهير الذى أنشأ تحالف القوى الشعبية فى المغرب، والذى فكر وسعى لعقد مؤتمر كفاح القارات الثلاث فى «كوبا»، وقد جرى خطفه وقتله فى باريس فى السنة الأخيرة من حكم «شارل ديجول» الذى وَجّه الاتهام علنا إلى المخابرات المغربية.

(٣) كان «جيسكار ديستان» وقتها وزيرا للمالية تحت رئاسة «جورج بومبيدو»، ولكنه كان المرشح المقبل على دخول قصر «الإليزيه».

كتاب الزاوية

«الساق على الساق فى ما هو الفارياق»

مؤلفه الأديب اللبنانى المعروف: أحمد فارس يوسف الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٨)

من رواد الصحافة العربية الأوائل، ولد فى عشقون (قضاء كسروان) وتوفى فى استانبول، سافر إلى مالطة وفيها انتقل من المذهب المارونى إلى المذهب البروتستانتى، ثم إلى تونس، وفيها اعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد. ثم قصد الآستانة، حيث أصدر جريدة «الجوائب». جال فى أوروبا، وامتاز بمعرفته الواسعة باللغة العربية، وسهولة أسلوبه. من مؤلفاته «الجاسوس على القاموس»، و«الساق على الساق فيما هو الفارياق» والفارياق هنا لفظة مشتقة ومركبة من المقطع الأول من اسمه الأول «فارس» والمقطع الأخير من اسم عائلته «الشدياق»

وكتاب «الساق على الساق» هومجموعة لأربعة كتب، مكتوب بأسلوب غريب متمكن فى أسرار اللغة العربية، وهو أشبه بأدب الرحلات الذى يصف فيه بدقة الحياة اليومية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، لشعوب عربية وأوروبية.

فى وصف مصر:

قد قمت حامدا لله شاكرا فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة الجديرة بالمدح من كل من رآها. لأنها بلد الخير ومعدن الفضل والكرم. أهلها ذوو لطف وأدب وإحسان إلى الغريب، وفى كلامهم من الرقة ما يغنى الحزين عن التطريب. إذا سألوك فقد أحيوك، وإن سلموا عليك فقد سلّموك. وإن زاروك زادوك شوقا إلى رؤيتهم. وإن زرتهم فسحوا لك صدورهم فضلا عن مجالسهم. أما علماؤها فإن مدحهم قد انتشر فى الآفاق. وفات فخر من سواهم وفاق. بهم من لين الجانب ورقة الطبع وخفض الجناح وبشاشة الوجه مالايمكن المبالغة فى إطرائه. ولكل نوع من الناس عندهم إكرام يليق به سواء كان من النصارى أو غيرهم. وربما خاطبوهم بقولهم ياسيدى ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين فى الديار الشامية. وبذلك لهم الفضل على غيرهم. وكأن هذه المزية وهى حسن الخلق ورقة الطبع أمر مركوز فى جميع أهل مصر. فإن لعامتهم أيضا مخالقة ومجاملة. وكلهم فصيح اللهجة بيّن الكلام سريع الجواب، حلو المفاكهة والمطارحة...

«المحــــــرر»

الوضع الدينى فى مصر بين المنطوق به و المسكوت عنه

طارق البشرى

[١]

نحن فى الاستخدام اللغوى نفرق بين «الوضع» و«الحالة»، فالوضع هو هيئة الشىء التى يكون عليها، وهو يشير إلى ماهية الشىء. بينما الحالة تشير إلى الوقت الذى أنت فيه، وتتعلق بكيفية سريعة الزوال. فالحديث عن الوضع هوحديث عن ثوابت وماهيات، والحديث عن الحالة حديث عن عوارض ومتغيرات. وهكذا يرد الأمر فى الاستخدام الجارى على الأقلام والألسنة.

وعندما نتكلم عن الدين فى مصر، فثمة الوضع الدينى بما هو عليه من هيئة ومن ثوابت، وثمة الحالة الدينية بما هى عليه من تغيرات. ونحن لانستطيع أن نعرف متغيرا إلا إذا عقلنا ثوابته، ولاندرك التنوع إلا إذا فطنا إلى أصوله.

وقد أصدر مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، حوليته الجديدة عن «الحالة الدينية فى مصر» أصدرها من سنتين وأخرج منها عددين حتى الآن.

ونحن نعلم أن التقارير الحولية وإن كانت تتابع الأحداث فى مجال تخصصها خلال الحول الذى تصدر عنه، ومن ثم فهى تتابع «الحالات» والمستجدات وطوارئ الواقع، إلا أنها دائما ما تكون الأعداد الأولى منها أعدادًا تأسيسية، لأن الأحداث الجارية خلال أمد محدد لا تحدث من فراغ ولا تقع فى فراغ، إنما هى دائما خارجة من سياق سابق وموصولة بسياق لاحق. فالحدث الواحد «نقطة» والنقطة لا تشير إلى اتجاه سابق أو لاحق، إنما تكسب معناها من نقاط سبقت أو لحقت. بمعنى أن «الحالة» تكسب معناها من «الوضع». لذلك نتوقع دائما من الأعداد الأولى للحوليات أن تضع البنية التحتية فى المجال الذى سيكون محلا للرصد والمتابعة. وهذه البنية التحتية تشمل عرض السياق التاريخى السابق، كما تشمل الجذور الفكرية والتجهيزات الثقافية التى تستنطق الحدث التالى بمعنى من المعانى. ولذلك أيضا فإن الحوليات التأسيسية الأولى تظل ترمى بظلها على الحوليات التالية، تمدها بالفهم وتعطى «الحالة» الطارئة مفادها فى إطار «الوضع» الحاصل. وفى ظنى أن الحوليات التالية مهما نزلت وبعدت عن الحوليات التأسيسية الأولى، فهى لن تنجو منها ولن تتخلص من معانيها التى رسخت من البداية، إلا بعدول فكرى صريح يشكل علامة تحول، أو بتراكم فكرى مخالف يرد من بعد فى تتابع وإصرار، ويتكشف مفاده بعد حين أو أحيان.

ونحن لازلنا فى طور الأعداد الأولى التى تتأسس بها حولية «الحالة الدينية فى مصر» ومن ثم وجب عرض العددين الصادرين معا، ثم انتظار الثالث إن كان فى العمر بقية نافعة بإذن الله.

[٢]

والحديث عن الدين فى مصر، يتعلق بالحديث عن الإسلام وعن المسلمين بوصفهم الدينى، كما يتعلق بالحديث عن المسيحية والمسيحيين بوصفهم هذا أيضا. وهو يتعلق بتاريخ عقائد ومذاهب ومؤسسات، وبعلامات اجتماعية وأنشطة سياسية، والقضايا هنا متداخلة ومتشابكة، تشمل الفكر مع السياسة مع أوضاع أغلبيات وأقليات. وقضايا هذا الشأن تأثرت فى السنوات العشرين الأخيرة بمعارك وصراعات فكرية وسياسية، منها:

* إن اتجاهات العنف الإسلامى هيئ لها أن تضغط على الحكومة بالإساءة إلى العلاقات المسيحية فى الصعيد، فاضرت بالموقف الإسلامى وأضرت بالعلاقات الإسلامية المسيحية، كما أن اتجاهات الغلو العلمانى هيئ لها أن تضغط على الموقف الإسلامى بالتحصن وراء «حقوق المسيحيين» لتثبت عدم إمكان الفكر الإسلامى أن يرعى حقوق المواطنة.

* وسياسات الوضع العالمى الجديد، المسمى بالنظام الدولى الجديد، تتركز فى السعى لإلغاء الحواجز الذهنية والنفسية بين ما يعتبر شأنا داخليا للأمم والدول وبين ما يعتبر شأنا خارجيا، حتى لا تقوم عوائق فكرية وثقافية فى وجه تدخل الكبار فى شئون غيرهم، ومن ثم تذوب مسالة الاستقلال الوطنى وحركاته التى كانت وصلت ذروتها فى الستينيات، ودعمها فكر سياسى قامت على أساسه نصوص معاهدات ووثائق دولية وأحكام فى القانون الدولى.

* وتركزت هذه السياسات فى العمل على إضعاف قوى التماسك فى الجماعات السياسية التى تحقق بها انتصار حركات التحرر الوطنى، فطرح الفكر السياسى العالمى (للنظام الجديد) موضوع حقوق الإنسان (الفرد) لا لتحقيق هذا الهدف النبيل، ولكن ليستعاض به عن حقوق الإنسان (الجماعى). وليسع إثارة موضوع الأقليات الدينية والقومية فى كل دولة، وليسع التصديات التى تقوم بين كل شعب وحكومته، وليكون المثل الطوباوى فى ذلك هو مجتمعات الغرب، وبذلك تتخذ قوى الهيمنة العالمية وضع الحكم بين الشعوب بعضها البعض أو بين الشعوب وحكوماتها، بعد أن كانت فى وضع الخصم.

وفى المجال الداخلى، فإن النداءات الإسلامية كانت تصوغ مطالب النهوض والاستقلال والعدل السياسى والاجتماعى، حتى وفد الفكر الغربى بنظمه ونظرياته وصياغاته، وعلى مدى جيلين منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، جرى العدول إلى صياغات الغرب ونظرياته تحت ضغط أوضاع السياسة، وبحجة تراءت من نشدان الرشد والكفاءة، وعلى مدى جيلين فشل بلوغ الأهداف الاجتماعية السياسية وتحقيق المثل الفاضل، سواء وفقا للصيغة الليبرالية الإصلاحية من العشرينيات إلى الخمسينيات، أو بالصيغة الاشتراكية الثورية من الخمسينيات إلى السبعينيات. فعادت النداءات الإسلامية تصوغ نداءات النهوض والاستقلال وتجانس بينها وبين مطالب العدل السياسى والاجتماعى.

احتضنت النداءات الإسلامية صيغ حركات الإصلاح وحركات الثورة، وصيغ السعى السلمى أو السعى بالعنف، وصارت المعارضة فى تشكيلاتها الفعالة تخرج من هذه البردة، وعاجلتها النظم والحكومات بما تملك من مواجهات، ومن ذلك إذكاء الصراع الفكرى الذى استخدمت فيه ما استخدمت من خلال الحركات السياسية القديمة وقوى التغريب الثقافى، الصادق منها وغير الصادق. ومن بين الأدوات التى استخدمت موضوع المواطنة لدى مختلف الأديان، ولم يكن الجانب الإسلامى فى نشاطه الشعبى قد استوعب بعد الاجتهادات الإسلامية الرائدة فى هذا المجال.

كل ذلك كانت له أعماقه فى الحاضر الذى

**الجانب المسكوت عنه
هومن أخطر جوانب الموضوع،
ومن أكثرها إثارة للجدل والإشفاق،
وهو الآثار التى تترتب على الحالة الدينية
فى الحياة السياسية والاجتماعية.
وهى علاقة المواطنة بين
المسلمين والمسيحيين
من مواطنى مصر**

١- تقرير الحالة الدينية: التقرير الأول
تحرير: نبيل عبد الفتاح
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٩٧.

٢- تقرير الحالة الدينية: التقرير الثانى
تحرير: نبيل عبد الفتاح
القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ١٩٩٨.

بدأ يشكل فى السبعينيات ثم بلغت صراعاته ذراها فى الثمانينيات والنصف الأول من التسعينيات.

وظهرت حولية «الحالة الدينية فى مصر» وهذا الصراع فى ذراه، وموجه هائج وأعاصيره مزعزعة، وإدارة الصراع فى الداخل أو الخارج تصب الزيت على النار، فيتعالى لهيبها. والمسيحيون يشعرون بأعظم درجات الخوف من الإسلاميين، والإسلاميون يشعرون بأعظم درجات الخوف من نظم الداخل والخارج، وأشد ما يولد القسوة فى الإنسان هو الخوف، وأكثرما يصيبه بالتعصب هو فقدان الأمن. وأغطش مايصيب البصر والبصيرة يكون من عدم الاطمئنان.

فى هذا الظرف الصعب، تصدر الحولية وتكتب أعدادها الأولى التأسيسية. وهى تتراوح بين أن تكون فاعلة أو أن تكون منفعلة، مهاجمة أو مدافعة، فلا يمكنك أن تتجاهل موقفى الهجوم والدفاع إذا وقفت فى أرض المعركة.

[٣]

إن الحولية تصدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بدار الأهرام ، المركز الذى أنشىء فى عام ١٩٦٨، وكاد أن يكون من أول مراكز البحوث والدراسات السياسية العلمية فى بلاد العرب، وكان له من بداياته العلمية الرصينة ما أثقل موازينه نوعا ما، فى مواجهة تقلبات وأعاصير سياسية هبت عليه من منتصف السبعينيات. ثم أصدر تقريره الاستراتيجى السنوى، وخطابه فى رصد أحداث السياسات الجارية ووقائعها ما جعله محلا للاهتمام والاحتفاء، بمراعاة ما حاول المركز أن يتشبث به بقدر الإمكان من مراعاة وجوه النظر المتباينة فى الساحة السياسية والاقتصادية.

مع ملاحظة أن المركز فى مراحله الأخيرة بدأ يميل إلى بلورة تيار سياسى متحدد المعالم، وبدأ يقوم بوظائف الدعوة لهذا التوجه مما انعكس على أعماله، وبخاصة فى شأن سياسات الشرق الأوسط، وفى شأن العلاقات المصرية الأمريكية، أو بالأحرى موقف مصر إزاء «النظام العالمى الجديد» ، وهى مواقف تجاوز بها المركز رصيده السابق فى التوازن.

أقول ذلك، لأعبرعن الخشية والإشفاق من أن يكون هذا التجاوز لخطوط التوازن القديمة التى كان رسمها المركز لنفسه، مما يضيق به أفق التعبير لدى المركز عن السياسات المتنوعة التى تتراوح فيها رؤى الدولة المصرية وتتنقل بينها بمراعاة الخطوب والنوازل، وإن من تقاليد مؤسسة الأهرام فى إنتاجها السياسى والفكرى أن يكون «قماشها» عريضا يتسع لتعدد وتنوع ما تطيقه التوازنات العامة للدولة المصرية، وإن الحياة الفكرية والسياسية المصرية تخسر خسرانا يؤبه له، إن ضاقت هذه السعة وآلت إلى موقف سياسى أوفكرى محدد لايحتمل غيره.

وإن حولية «الحالة الدينية» على وجه الخصوص، بحكم موضوعها شديد الحساسية، وبحكم الطبيعة الخاصة جدا للفروق الدينية. إن حولية تصدر فى هذا الشأن إنما تحتاج إلى درجة عالية من اليقظة والنظر المتعدد الجوانب، ومعرفة حد «الصراط» ، والحالة الدينية لا تختزل فى أنها محض «حالة سياسية» ، ولايجرى التعامل معها بحسبانها مجرد أحداث تجرى، والمواقف بشأنها ـ فى أصولها الثقافية ـ تكاد أن تستعصى على التعديلات التى تجرى مجرى الوقائع اليومية، مما تعرفه مجالات السياسة والاجتماع.

ومن جهة ثانية، فإن الدين أو «الحالة الدينية» ذات اتساع وشمول، هو عقيدة وشريعة وعبادات ومعاملات ومدارس فكرية ومذاهب فقهية، وهو تصورعن الكون وبارئه وعن الرسالة ونزولها وعن الزمان الممتد وعن الإنسان وصلته بربه وعلاقاته بالمجتمع وأنشطته المتباينة. وهو حركات سياسية وطرق صوفية وجمعيات خيرية ومنتديات ثقافية. والبناء واسع والمداخل متعددة ومتنوعة . وعندما ينشغل المنشغل بالدين ، لابد أن يلج من أحد أبوابه، ولم تترك المقدمات الأولى للحولية التأسيسية الأولى مجالا للبحث فى هذا الشأن . فقد أوضحت أن الأمر أمر «الإسلام السياسى» أوهو أمر الأداء السياسى للإسلام، وهو أمر ظاهرة طرأت من ١٩٧٤ انتقل بها الإسلام من محض استلهامات خلقية إلى مجال السياسة والثقافة. واكبت هذا الانتقال «العودة إلى الدين» . ومع ما تشمله الحوليتان من وجوه النشاط الدينى غير السياسى، تبقى النقطة التى يتعين إثارتها هى أن مجال النشاط السياسى الإسلامى وفكره يقع ضمن ذات المجال الذى يصدر بشأنه التقرير الاستراتيجى الحولى من ذات المركز، على أنه من الظاهر، أن الحولية وإن كان باعثها المستحث هو الشأن السياسى، فإن ما يميزها عن التقرير الإستراتيجى هو أنها ترصد وتتابع هذا الشأن فى إطار الوعاء الإسلامى الأشمل، من حيث العمق العقيدى والشمول الثقافى ، ومن حيث المؤسسات والهيئات العاملة فى أى من جوانب النشاط الإسلامى، أو المسيحى، مثل الأزهر والأوقاف والمعاهد والطرق الصوفية، ومثل الكنيسة فى كل من المذاهب المسيحية الموجودة بمصر.

وإن هذه الصلات والعلاقات والأنشطة، إن كان المعايشون لها يدركون تداخلها وتأثيراتها المتبادلة، إلا أن غيرالمعايش لها فى مصر وغيرها من المهتمين بهذه الأمور، سواء فى أجهزة صنع القرار أو غيرها، يحتاجون إلى مزيد إيضاح وتبين لإدراك مجالات التأثير المتبادل ولإيضاح الروافد والمنافذ. لذلك تبقى للحولية وجوه فوائد ووجوه تميز تتعلق بهذه المتابعات.

[٤]

على أن الحولية وهى تعتبر النشاط السياسى ظاهرة غير لصيقة بالدين، عزلت نفسها عن إدراك الروابط التى تصل بين الحالة الدينية والظاهرة السياسية، لدى من يربطون بين الدين والسياسة، وخسرت بذلك بعض قدرات التحليل للظواهر. والقارئ فى النهاية يريد أن يفهم وأن يحسن تصور الواقع ، وأن شرح الآلية الداخلية لأى فكرة وكيف يفكر العاملون بها ، مما يهم القارئ وينفعه.ولكن المقررين للحولية لم يكن لديهم من التأنى والمثابرة ما يبلغون به هذه الغاية، ومن ثم جاء الرصد والتحليل ـ وخاصة فى الحولية الأولى ـ خارجيا وظاهريا يحكم على الظاهرة بمعايير ليست مستمدة منها، وليست متجردة من الفكر المخاصم، وترتب على ذلك ، قدر كبيرمن فقدان التوازن، وخاصة بالنسبة الحولية الأولى.

فإن من تحدثوا عن الشق الإسلامى من الوضع الدينى، يكشف نظرهم عن غربتهم عن إدراك هذه الصلات الفكرية والتاريخية، ومن الجلى أن «السياسة» أكثرظهورا فى الوضع الإسلامى منها فى المسيحية، كما أن الظاهرة التى تتفتق لدى الكثرة العددية تكون أخطف للبصر وأجذب للاهتمام من الظاهرة ذاتها إذا تفتقت لدى الأقلية العددية، لذلك فإن الحولية كشفت عن ظواهر الإسلام السياسى، بما لم يظهر صنو له بين المسيحيين.

وجاء تحليل الظاهرة السياسية فى الإطار الإسلامى وفى جو سياسى ينقسم بين مؤيد ومخاصم، وعرضت مع الشعور بالغربة ، ومن وجهة نظر لا تدخل فى حسابها، النسق الثقافى وآليات العمل الفكرى لما يعتبر دعوة إسلامية. ثم يجئ دور الثقافة الغربية السائدة لدى البعض من الباحثين لتبدو بها غربة أخرى تتعلق بالبحث فى المؤسسات الإسلامية غير ذات الدعوة السياسية، كالأزهر والجمعيات . فجاء كل ذلك العرض يتخلله شعور، لا أقول مخاصم للأوضاع التاريخية والحاضرة فى هذا المجال، ولكن أقول إنه شعور غيرمتفهم يتعامل مع ما يتصور أنه وضع غيرطبيعى. وعلى خلاف هذه المعالجة ، فإن الحولية تعرض للوضع المسيحى بواسطة دارسين وباحثين ينتمى كل منهم للمذهب الذى يعرضه، ولأهل هذا المذهب، لذلك تجئ العروض فى أغلبها الأعم عروضا غير نقدية. وهى متفهمة وشارحة للنسق الفكرى الداخلى لكل ظاهرة ولآليات العمل المذهبى الذى قام عليه أى من الأحداث والأوضاع فى الشأن المسيحى..

وقد ترتب على ذلك خلل فى التوازن بين العروض الخاصة بالشأن الإسلامى والعروض الخاصة بالشأن المسيحى، إذ افتقد التفهم فى الأولى وتوافر التفهم والتعاطف فى الثانية. وبدا ذلك أكثرما بدا عند الحديث عن الأزهر مقارنا بالحديث عن الكنيسة الأرثوذكسية، بل إن الحديث عن الكنيسة الأرثوذكسية صورها بحسبانها مؤسسة صنوًا للدولة المصرية، ورصد علاقتها مع الدولة فى إطارعلاقة بين مؤسستين ندين تقتربان وتبتعدان وتتآلفان وتتخاصمان، وخاصة فى عشرات السنين الأخيرة.

وبدا ذلك أيضا عند النظر فى الإعمال السياسى للإسلام أو للمسيحية، فيرد الأمر فى سياق عرض مخاصم بالنسبة للإسلام وفى سياق عرض يتراوح بين التفهم والتبرير بالنسبة للمسيحية. وبدا ذلك أيضا فى عرض شئون من بالخارج، فاقتصر على الإسلاميين وهم ذوو نشاط سياسى معارض للحكومة المصرية. واقتصر على أقباط المهجر من المواطنين العاديين غير السياسيين، فجاءت صورة الإسلام فى الخارج صورة عنف وتدمير وتفجير، وجاءت صورة المسيحية فى الخارج صورة بناء للمدارس والكنائس والأديرة. وكان ذلك من دلائل الخلل المنهجى الذى اعتور الحولية الأولى.

على أن الصورة تعدلت فى الحولية الثانية، وجرى التدارك للنشاط السياسى القبطى فى الخارج فى الولايات المتحدة وغيرها. أما فى داخل مصر فقد انتقل الحديث إلى المعاهد الدينية والطرق الصوفية والجمعيات، واتسم الأمر بالبعد نوعا ما عن التقييم وإصدار الأحكام، وبقدر أكبر من الاستغراق فى ذكر البيانات والمعلومات مما يعد ذا فائدة لا بأس بها للباحثين والدارسين.

إن اتجاهات العنف الإسلامى هيئ لها أن تضغط على الحكومة بالإساءة إلى العلاقات المسيحية فى الصعيد، فأضرت بالموقف الإسلامى وأضرت بالعلاقات الإسلامية المسيحية

[٥]

طبعا عندما يستقيم للحولية توازنها، ستكون مما ينتفع به الناس والدارسون، وستفيد فى إلقاء الضوء على جوانب من الحياة المصرية، ولذلك فنحن هنا لا نناقش كتابا كتب وانتهى، ولا نناقش فكرا ورد فى مؤلف واكتملت ملامحه، وإنما نحن نتابع عملا يجرى فى صيرورة، ويهمنا أن تكتمل وأن تنمو جوانب النفع الوطنى العام منه. وإن التركيز على الأعداد الأولى وإعادة القول عنها يقدم باعتبار أثرها التأسيسى للحولية فى قابل أيامها. والحقيقة أن الحولية الأولى فيما ورد بها تحتاج إلى إعادة بناء قد تتوافر أدواته، ويجرى العدول عن مقررات هذه الحولية فى المتابعات القادمة . ونحن نأمل فى ذلك وننتظره.

وثمة مسألة تستدعى التدقيق، فالحولية حولية نوعية تتعلق بوجه من وجود النشاط والفعل الإنسانى، وتمتد فى مجالات الثقافة والاجتماع والسياسة، فما الذى يميز الحالة الدينية أو الوضع الدينى عن غيره من الحالات والأوضاع الثقافية والاجتماعية والسياسية. ونحن عندما نتكلم مثلا عن المساجد أو الطرق الصوفية فلا شك نكون إزاء رصد لنشاط دينى، ذلك أن قلب الظاهرة لا يثير شبهة ولانحتاج إزاءه إلى البحث فى معيار للتمييز، إنما نحتاج إلى هذا المعيار إذا عرضت لنا «المتشابهات» وهى كثيرة جدا فى كل مجال ومتداخلة.

فبالنسبة للأحزاب مثلا، لاشك فى شمول الظاهرة الدينية لجماعة الإخوان المسلمين وللجماعات الدينية، ولكن ما هو الوضع بالنسبة لحزب العمل مثلا وحزب الأمة، أين موقعهما من الظاهرة أو من الحالة الدينية. والجمعية الشرعية وجمعية التوفيق القبطية تدخلان فى الحالة الدينية، ولكن ما هو الشأن بالنسبة للجمعيات الخيرية. ثم ما هو الشأن بالنسبة للأحزاب التى تضع الشريعة الإسلامية واحدا من أهدافها والدستور الذى يضع الشريعة مصدرا رئيسيا للتشريع، ويصف الدولة بانها إسلامية، وقانون الأحزاب الذى يسير إلى الشريعة الإسلامية، أو كليات الحقوق التى تدرس الفقه الإسلامى ماهوموقع هذه الظواهر.

أشير إلى هذه النقطة لا لأوضح مسألة معيارية فقط، ولكن لأوضح أن الدين متداخل فى المجتمع ومؤسساته وأفكاره ورجاله بما يصعب معه فرزه عن الظواهر الثقافية والتعليمية والاجتماعية والمؤسسية، ونحن عندما نقول الظاهرة أو الحالة الدينية، نكون على اختلاف وتداخل مع أمور كثيرة، كما لو قلنا الظاهرة أو الحالة اللغوية ونتساءل ما الذى نرصده وما الذى نتركه. أقصد بذلك أن نكون على إدراك بحجم التداخل والترابط الكبير، وأن نستجيب لهذا الإدراك بأن تكون معاييرنا مرنة جدا وفضفاضة فلا نعزل الشأن الدينى عن شئون الحياة التى تمارس به فى العديد من وجود النشاط البشرى، ولا نعزله عن شئون الثقافة التى يشكل منها فى التكوين الذهنى للمواطن سهما بعيد الغور. وإننا لوأجرينا هذا العزل فلن نضر الدين شيئا ولكننا سنضر قدرتنا على الفهم وتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية والسياسية. وما وضعت الحولية وصدرت إلا على أمل زيادة قدرات الفهم لدى من يطالعونها.

ونحن نعرف أن محاصرة النشاط الثقافى الإسلامى فى مجال معين، ينقل هذا النشاط إلى مجال آخر، هكذا كانت الدعوة الثقافية تقوم من الأزهر، ثم انتقلت إلى جماعات خارج الأزهر على مدى القرن الماضى،بل إنها انتقلت إلى عناصر ووجود نشاط من الجامعة المصرية منذ الثلاثينيات، وانتقلت من الطرق الصوفية إلى جمعيات مثل الجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة وغير ذلك، ومع ضم المساجد إلى وزارة الأوقاف مما يجرى فى السنوات العشرين الأخيرة، ويحتمل لها انتقالا من نوع جديد وهكذا، ونحن نلحظ مثلا أن الدعوة إلى حجاب السيدات ظهرت منذ السبعينيات من خلال الممارسة والانتشار أكثر كثيرا مما ظهرت من خلال الكتب والمقالات والندوات والمؤتمرات.

لذلك فالأمر هنا عند بحثه أو متابعته لا تفيده كثيرا المعايير الجامدة لأنها لا تقدر على ملاحقته، ولا تعيره المعايير الفاصلة لأنها تنحسر عن متابعته. وهنا تنفعنا الفكرة الجميلة التى ساقها مالك بن نبى، الذى فرق بين الفكرة المشخصة والفكرة المجردة، والفكرة المشخصة هى ما يتوقف وجودها على وجود شخص أو هيئة أو جماعة أو حزب يدعو إليها ويرعاها، وتذوى باختفاء وجود من يقوم عليها، والفكرة المجردة هى ما يسرى بين الناس دون توقف على وجود شخص أو مؤسسة دعاية أو رعاية، وعلينا أن نرعى هذا الفارق عند النظر إلى الأفكار والثقافات.

[٦]

يظل الجانب المسكوت عنه هومن أخطر جوانب الموضوع، ومن أكثرها إثارة للجدل والإشفاق، وهو الآثار التى تترتب على الحالة الدينية فى الحياة السياسية والاجتماعية. وهى علاقة المواطنة بين المسلمين والمسيحيين من مواطنى مصر، والعلاقة الثقافية بين ذوى النزوع الثقافى الإسلامى وبين ذوى النزوع الثقافى العلمانى. ولا أعرف هل الحولية تعتبر هذا الجانب من جوانب «الحالة الدينية فى مصر» مما يستدعى أن تتضمنها أبحاثها التأسيسية الأولى من جانب، ثم تجرى المتابعة الدورية لها من بعد.

والأمر هنا يتعلق برصد الوقائع المتعلقة بهاتين المسألتين، فما أكثر ما يثور الجدل حولهما وما أكثر ما تقوم التساؤلات بشأنهما. ولا ترتيب على الحولية إن تفادت العرض التأسيسى فى هذين الأمرين استمساكا بالبعد عن مجال حرج، ولكن تبقى أهمية متابع الوقائع على هذين الصعيدين. فإن الشواغل تشغلنا عن الإحاطة بكل ما يجرى فى حياتنا المعيشية من وقائع تهمنا، ونحن نحتاج إلى من يجمعها ويصنفها، حتى نكون أكثر يقظة وأبعد نظرا وأدق فهما لما يجرى حولنا ونكون أقدر على معالجة المشاكل.

وهذا الجانب فى ظنى يحتاج إلى جهود وإلى بصر بالأمور، وأنا لا أنسى كلمة قالها لى الأستاذ الجليل الراحل إبراهيم فرج باشا، الذى كان توليه الوزارة وجواره لمصطفى النحاس فى ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ وكونه مساعد أمين عام حزب الوفد وقتها، كان كل ذلك يجعله واحدا من المطالعين لأدق أوضاع السياسة المصرية فى تلك السنين، ومع ذلك لما قرأ كتابا ظهر فى السبعينيات عن هذه الفترة، قال لى إنهم لم يكونوا يرون كل هذه الوقائع والاتجاهات وقتها. ولاتزال كلمته هذه تجول فى صدرى.

وإن أنسى لا أنسى وأنا فى أواخر الستينيات أواظب على مطالعة الصحف، طالعت صحيفة كانت تصدر فى مصر باسم «إسرائيل» أصدرها ألبرت مزراحى منذ سنة ١٩٢٠، وكانت صحيفة تدعو للصهيونية. قرأت ذلك فى الستينيات ومشكلة فلسطين وإسرائيل وحروبنا معها فى ذروتها، وعجبت ولا أزال، كيف لم يدرك المصريون خطر أن يوجد بين ظهرانيهم من يدعون هذه الدعوة جهارا ونهارا، و تصورت أن الأمر يعود إلى أنهم لم يفطنوا إلى وجودها، فلاشك أن كان تداولها جد محدود، فضلا عن ثقة المصريين برسوخ الوجود العربى، واستبعادهم أن هذا الواقع التليد يمكن أن يتغير.

صيرتنى مثل هذه الدروس أشد حذرا مما يمكن أن يقوم بيننا من ظواهر لا نفطن إلى قيامها ولانراها فى غمرة ما يحيطنا من جلبة وضجيج وأضواء خاطفة، أو يمنعنا فرط الثقة بالوجود الراسخ التليد عن تصور ما قد يلحق من هدم وتغيير، لذلك أثارت لدى مشاعر القلق، زيارتى لمتحف النوبة فى أسوان فى العام الماضى. وجدته متحفا يحكى قصة النوبة من محافظة قنا إلى جنوب الحدود المصرية ويصور مجدها الغابر وممالكها وفراعينها وآثارها، بمثل ما يصور هامشية وجودها الحاضر، ووجدته يفصل تاريخها عن تاريخ مصر، وأول ما تتميز به الأمم وتنفصل الشعوب هوفصل التاريخ بعضه عن بعض، ووجدت زائرين ومشاهدين كثيرين يتكشفون تاريخهم بهذه الصورة. وتذكرت برامج أجنبية ومقالات كتبت عن شعب النوبة وما يشكو منه الآن فى مصر. وتذكرت عجبى وأنا بدار الكتب فى الستينيات أطالع الصحف القديمة، وتساؤلى كيف غفل أهل ذلك الزمان عما يجرى أمام أعينهم.

وطبعا لايدخل المثال السابق فى مجال «الحالة الدينية» ولكننى أسوقه مثلا لنتدبره وننظر فيه، ولنقول أن ليس من حقنا أن نغفل عن وقائع من هذا النوع تتراكم قليلا قليلا مع الوقت، ثم نفاجأ بها من أمور الواقع بعد أن لايكون منها مناص. ونحن اليوم نشاهد دعوة لتعليم اللغة القبطية القديمة التى لا يتكلمها الأقباط، وممارسة لهذا التعليم على مستوى شعبى فى الصحف السيارة لا فى مطبوعات المتخصصين، ونحن نعرف أن اللغة المستعملة شعبيا هى المقوم الأساسى للجامعة السياسية التى تقوم على الأساس القومى.

وسيبقى الصالح الوطنى العام هوما يكون الفيصل ومعيار الحكم على الظواهر والوقائع، أيا ما كان مصدر الفعل وأيا ماكان موقعه من جماعات الأمة وفئاتها الثقافية والسياسية والإقليمية على سواء. وكما أن الصالح الوطنى العام يفرض حدوده وضوابطه على أى تجاوزات أو نتوءات تتبدى وتتعارض معه. فإن هذا الصالح الوطنى العام هو فى النهاية متكون مما يضم ويحتضن من صوالح ذاتية لكل مكوناته البشرية، ثقافية كانت أو سياسية أو إقليمية أو عرقية، وواجبه مراعاتها والمحافظة عليها.

[٧]

نحن نرنو إلى أن تكون الحولية سجلا لحياتنا ومرآة لواقعنا ونحن نحاول التركيز على ما يزكو به العمل، وقد كنت لاحظت فى الحوليتين أن واحدة منهما لم تتعرض للأحجام ولا للأوزان النسبية لكل من ذوى الأديان أو المذاهب فى مصر. وظننت أننا ما دمنا فى إطار الأعداد التأسيسية الأولى، فقد يكون أُرجئ الحديث فى ذلك العدد لعدد لاحق، أو قد يتدارك ما نسى فى هذا الأمر فى عدد لاحق. ولكننى رأيت فى افتتاحية العدد الثانى ما يشير إلى أن هذا الإغفال يكاد يكون مدركا ومعروفا سلفا عند إعداد الحوليات، واعتُبر ذلك فتحًا فى النظر لأنه ينظر إلى الدين الإسلامى أو المسيحى «على قدم المساواة ودون اعتبار لأعداد البشر الذين ينتمون لكل الديانات السماوية»، ولم أفهم كيف يكون عدم الاعتبار بالأعداد البشرية هومن قبيل المساواة، ونحن إذا أسقطنا الاعتبار بالأعداد البشرية فسيكون للصفر شأن الألف أو المليون، بمعنى أن يصير العدم شأنه شأن الوجود، وإذا كان عدم الاعتبار بالأعداد البشرية قد سانح به الحديث عن اليهود فى مصر وهم الآن من النزر اليسير جدا، فقد يكون الإمعان فى عدم الاعتبار مما يسوغ به الحديث عن البوذية فى مصر. وعدم الاعتبار بالأعداد بهذا المنطق يسوى بين اليهود والمسيحيين فى مصر، ويسوى بين الأدفنتست بأفرادهم المعدودين وبين قبط مصر الأرثوذكس بملايينهم المعروفة، ويسوى بين مسلمى مصر الذى يبلغون نحو ٩٤٪ من السكان وبين غيرهم، كما يسوى بين المسلمين السنة وهم كل مسلمى مصر وبين أفراد من الشيعة، لا يكادون يحسبون بالمئات، كما يسوى بين أقباط مصر الأرثوذكس الذين يشكلون ما يجاوز أربعة أخماس مسيحيى مصر وبين المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت، وإذا كان هذا الإغفال مدركا باعتباره مما يصور العقائد على قدم المساواة فهل يصلح تصويرا للواقع المصرى، وهل يقضى الأمر كله إلى فهم حقيقى لمصر، لمن يريد أن يتدبر أمره وأمرها.

وكل ما نرجوه ونأمل فيه ونثق فى إمكان تحققه إن شاء الله ـ أن تكون الحولية مرآة نقية للأحوال التى تعكسها.

والحمد لله

الجانب المسكوت عنه هو من
أخطر جوانب الموضوع، ومن أكثرها
إثارة للجدل والإشفاق، وهو الآثار التى تترتب
على الحالة الدينية فى الحياة السياسية
والاجتماعية. وهى علاقة المواطنة بين المسلمين
والمسيحيين من مواطنى مصر، والعلاقة الثقافية
بين ذوى النزوع الثقافى الإسلامى وبين
ذوى النزوع الثقافى العلمانى

دار الشروق

تقدم أحدث إصداراتها

تطلب من دار الشروق ٨ شارع سيبويه المصرى . رابعة العدوية مدينة نصر ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت حرب ت: ٣٩١٢٤٨٠

ومن المكتبات الكبرى



العروش والجيوش
محمد حسنين هيكل



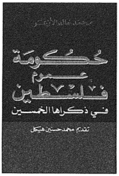
١٩٧٧ / ١٩٩٧ حديث المبادرة
محمد حسنين هيكل



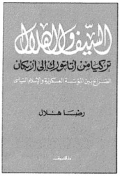
الحماية الدستورية للحقوق والحريات
د . أحمد فتحى سرور



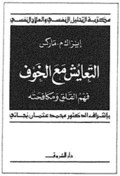
كيف نتعامل مع القرآن العظيم
د . يوسف القرضاوى



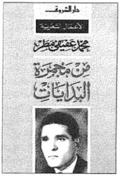
حكومة عموم فلسطين
محمد خالد الأزعر
تقديم : محمد حسنين هيكل



السيف والهلال
رضا هلال



التعايش مع الخوف
إيزاك م. ماركس
ترجمة : د . محمد عثمان نجاتى



الأعمال الشعرية
محمد عفيفى مطر



فراشة الأميرة الحمراء
نبيل خلف
رسوم: حلمى التونى



حكاية الكتاب
محيى الدين اللباد



كل معانى الحب
أنيس منصور



البتر التناسلى للإناث
د . محمد فياض



المستكشفون الميكروسكوبيون
أبطال جسمك وأشراره



المستكشفون الميكروسكوبيون
عالم الخلية العجيب



المستكشفون الميكروسكوبيون
عالم الكروموسومات العجيب



المستكشفون الميكروسكوبيون
عبقرية الجينات

كيف تصدعت

لوحة «الموزاييك»؟

خريطة حركات العنف الإسلامية فى مصر

محمد صلاح

«أثبتت الأحداث
عدم صحة ما توقعه البعض
من أن مصر ستتحول إلى دولة
أصولية تهز العالم على غرار
ما حدث مع تفجر
ثورة إيران»

فرضت «الحالة الإسلامية» نفسها على كتابات المفكرين والسياسيين إلى درجة يصعب معها حصر الكتب والأبحاث والدراسات التى تناولت نشأة وتطور ونشاط الحركات الإسلامية التى توالدت وتكاثرت وانتشرت وتشعبت، وتخطت حاجز المحلية وصارت لها فروع ومحطات ومراكز فى دول لم يكن يخطر على بال أحد فى الماضى أن يكون للأصوليين الإسلاميين مواقع فيها.

ومنذ اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات فى شهر أكتوبر من عام ١٩٨١ زاد الاهتمام بأحوال الأصوليين وصراعهم مع السلطة، خصوصًا بعدما كشفت أوراق قضية اغتياله أن خريطة توزيع عناصر تنظيمى «الجماعة الإسلامية» و«الجهاد» - اللذين التقيا عام ١٩٨٠ فى تحالف أسفر عن اغتيال رئيس مصر فى ذلك الوقت - تفوق فى مساحتها والمراكز المتناثرة على رقعتها داخل مصر تصورات خبراء الأمن وتوقعاتهم.

وإذا كان الخط البيانى لنشاط الحركات الإسلامية الراديكالية شهد منذ عام ١٩٩٢ صعودًا بالغًا وتكثيفًا جعل من مرور أسبوع واحد دون وقوع حادثة من «الوزن الثقيل» أمرًا نادرًا.. فإن حالة الهدوء وانحسار عمليات العنف - منذ حادثة الأقصر الشهيرة التى وقعت فى شهر نوفمبر عام ١٩٩٧ وأسفرت عن مقتل ٥٨ سائحًا وأربعة مصريين إضافة إلى منفذى العملية الستة فتحت مجالاً آخر للبحث والنقاش عن مستقبل تلك الحركات، خصوصا أن الشهور القليلة الماضية أثبتت أن المواقع المهمة فى خريطة توزيع تلك الحركات شهدت تغييرات وتطورات كبيرة خارج البلاد.

وفى الغالب فإن كتابات المحللين والمفكرين الأجانب حول «الظاهرة الأصولية» لا تعكس فهمًا لحقيقة الأحداث وطبيعة الأمور. وبالتالى فهى تصل فى معظم الأحيان إلى افتراضات غير مقبولة ونتائج غير صحيحة. وفى كتاب «الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث» للكاتب الباكستانى دليب هيرو، بدا المؤلف متأثرًا بوجهة النظر الغربية وطريقة التحليل التى تقوم على سرد وقائع عن نشأة الحركات الإسلامية فى كل من مصر وسوريا وليبيا والمملكة العربية السعودية وأفغانستان والفوارق بينها على المستوى الفكرى والحركى من منظور تاريخى اعتمد فى غالبيته على معلومات منشورة فى الصحف دون الحصول على توثيق لها من الجهات المعنية بالأمر، أى قادة الأصوليين أنفسهم، إضافة إلى الأجهزة الرسمية فى الدول التى تناولها المؤلف. وبالنسبة لمصر فإن ذلك كان السبب فى أن المؤلف وصل إلى نتيجة أثبتت الأحداث أنها غير صحيحة حين حذر من أن «بزوغ مصر كدولة أصولية وهى دولة سنية لها أهميتها الاستراتيجية فى داخل الوطن الدينى سيهز العالم الإسلامى وغير الإسلامى على نحو يشبه كثيرًا ما حدث لدى تفجر الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩»[1].

خرج كتاب هيرو إلى الضوء عام ١٩٨٨ أى قبل سنوات الصراع العنيف بين الأصوليين والحكومة المصرية فى التسعينيات. لكن ترجمته إلى العربية ظهرت عام ١٩٩٧ وعلى الرغم ذلك فإن نحو سنة ونصف سنة من الهدوء التام تقريبًا نعمت به مصر أخيرًا أثبت

١- الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث
تأليف: دليب هيرو
ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٢- جماعات العنف المصرية المرتبطة بالإسلام:
الجذور التاريخية والأسس الفكرية والمستقبل
أبو العلا ماضى
القاهرة: المركز الدولى للدراسات، ١٩٩٧.

أن المؤلف بنى توقعه على افتراض غير منطقى، وهو اكتفى بعرض تاريخى لنشاط جماعة «الإخوان المسلمين» والحركات الإسلامية الراديكالية التى تفرعت أو تولدت منها، وتلك التى نشأت عشوائيًا دون أن تمتد جذورها إلى «الإخوان»، دون أن يرصد خريطة توزيع تلك الحركات والأراضى الخصبة التى استغلها قادتها والتى أثبتت أحدث قضية نظرت أمام القضاء العسكرى المصرى والتى عرفت باسم «العائدون من ألبانيا» أنها بدأت فى الجفاف تحت أقدام الإسلاميين. وأن تبدل الظروف والأوضاع الدولية والإقليمية أطاح «بلوحة الموزاييك» التى رسمتها تلك الخريطة فبدأت فى التشقق والانهيار.

وفى المقابل فإن الدراسة التى أعدها وكيل مؤسسى حزب الوسط المهندس أبو العلا ماضى وطرحها المركز الدولى للدراسات فى كتيب صغير بعنوان «جماعات العنف المصرية المرتبطة بالإسلام.. الجذور التاريخية والأسس الفكرية والمستقبل» ركزت على «الأسباب الحقيقية لظاهرة العنف التى ازدادت فى السنوات الأخيرة، مهددة الوطن فى استقراره وتطوره ووحدته». وحرص ماضى أن يذكّر القارئ بأن جزءا مهما من المعلومات الواردة فى دراسته كان مصدرها هو نفسه لكونه أحد المشاركين فى نشاط الحركة الإسلامية منذ السبعينيات فى المرحلة الطلابية وسجن إبان أحداث عام ١٩٨٠، وظل على علاقات بكثير من الرموز المعاصرة لغالبية المحسوبين على الحركات الإسلامية بمختلف مسمياتها.

وعلى الرغم من عدم وجود خريطة محددة لانتشار «الجماعات الإسلامية الراديكالية» بحكم تحركها وامتدادها وتحالفاتها، فإن الصورة العامة لما يدور توحى بأمور مهمة للغاية، ليس فقط من زاوية معرفة المناطق التى تنتشر فيها «الجماعات الإسلامية»، لكن أيضا من زاوية معرفة أين تنتشر جماعات بذاتها، أو أفكار معينة، فخريطة انتشار الجماعات هى أحد المفاتيح الأساسية لفهم أسباب الظاهرة، وأساليب المواجهة.

فـ «الجماعة الإسلامية» يتركز وجودها الجغرافى داخل البلاد فى محافظات الصعيد. وقد استطاعت تلك الجماعة فى منتصف الثمانينيات أن تمد نفوذها إلى القاهرة، وأن تعيد تنظيم كوادرها بصورة خلقت لها تمركزًا فى العاصمة، وخاصة فى الأحياء الشعبية مثل عين شمس، وإمبابة، والعمرانية، وشبرا. أما جماعة «الجهاد» التى تعتمد عادة على مجموعات سرية صغيرة، فإنها تتركز أساسًا فى القاهرة الكبرى ولاسيما فى المناطق والأحياء العشوائية و الفقيرة المحيطة بمناطق متحضرة مثل كرداسة وناهيا وأبو زعبل، وقد تمكنت «الجهاد» من الوصول إلى بعض المحافظات فى الوجه البحرى أيضا.

وبالطبع، فبعيدًا عن مناطق التمركز السابقة توجد مراكز مهمة لجماعات أخرى أو امتدادات «للجهاد» و«الجماعة الإسلامية» فى بعض المحافظات مثل بنى سويف، والفيوم، والإسكندرية، والبحيرة، وهى كلها أمور تتطلب تحليلاً دقيقًا لمسألة التوزيع الجغرافى، ولمعدل الانتشار فى مدى معين أو قطاع معين، وغير ذلك وبالذات بالنسبة «للجماعة الإسلامية» إضافة إلى ضرورة تحليل امتدادات تلك المجموعات فى خارج البلاد [٢].

ولا يمكن رصد خريطة توزيع الحركات الإسلامية الراديكالية المصرية، وكذلك تحديد فروعها ومحطاتها الموجودة خارج البلاد دون التعرض إلى الظروف التى نشأت فى ظلها منذ منتصف الستينيات، إذ إن ظهور بعضها ارتبط بظروف سياسية ومكانية فى آن واحد. وإذا كان نشاط تنظيم «الجماعة الإسلامية» فى السبعينيات ارتبط بمناخ من الحرية منحه الرئيس الراحل أنور السادات للتيار الإسلامى، وخصوصا فى الجامعات فإن الجماعة نفسها استغلت ذلك المناخ وأسست قواعدها فى جامعة القاهرة. أما مركزها فظل دائما فى محافظات الصعيد بصفة عامة ومحافظتى المنيا، وأسيوط بصفة خاصة. غير أن التنظيم الرئيسى الآخر المعروف فى مصر وهو جماعة «الجهاد» الذى يقوده حاليًا الدكتور أيمن الظواهرى الذى يعيش حاليا فى أفغانستان فيمكن اعتباره بوتقة انصهرت داخلها جماعات وتنظيمات «جهادية» أخرى نشأ بعضها عشوائيا فى بعض مناطق القاهرة ومحافظات الوجه البحرى وكان بعضها الآخر امتدادا لتنظيمات أخرى ظلت تتعرض لضربات أمنية إجهاضية منذ تأسيسها فى الستينيات.

واللافت أن اسم «الجماعة الإسلامية» ظهر فى السبعينيات عنوانًا للتيار الإسلامى غير المنضم فى تنظيم، والمستقل عن كل التنظيمات وكان اسمها «الجماعة الدينية» كجماعة نشاط فى كليات الجامعات. ثم غير الشباب المتدين من أعضاء الجماعة فى ذلك الوقت الاسم إلى «الجماعة الإسلامية»، وكان من رموز هؤلاء الشباب بالجامعات المصرية كل من عبد المنعم أبو الفتوح وعصام العريان (جامعة القاهرة)، وإبراهيم الزعفرانى وخالد داود (جامعة الإسكندرية)، والسيد عبد الستار وأحمد الدغيدى (جامعة عين شمس)، وخيرت الشاطر (جامعة المنصورة)، وأسامة عبد العظيم وعبد الله سعد (جامعة الأزهر)، وأنور شحاتة (جامعة طنطا)، ومحيى الدين عيسى (جامعة المنيا)، وأسامة حافظ وصلاح هاشم (جامعة أسيوط). لكن تيارا بدأ ينمو فى جامعات الصعيد، وخصوصا فى المنيا وأسيوط يدعو إلى التغيير بالقوة، ولكنه كان محاصرًا بالغالبية التى ترفض ذلك إلى أن ارتبط عدد من رموز الجماعة فى عام ١٩٧٩ بالإخوان المسلمين فرد عليهم قادة الجماعة فى الصعيد بإنشاء تنظيم خاص بهم يدعو إلى التغيير بالقوة، وتزعم هذه الخطوة كرم زهدى ومعه ناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد وأسامة حافظ وعاصم دربالة وفؤاد الدواليبى وطلعت فؤاد قاسم وحمدى عبد الرحمن وآخرون [٣].

وليس سرًا أن أفكار ومبادئ سيد قطب التى تبلورت فى كتابه «معالم فى الطريق» الذى أنجزه عام ١٩٥٧ تعد أحد المرتكزات الأساسية للأسس التى قامت عليها كل الحركات الإسلامية الراديكالية فى وقت لاحق. ورغم إعدام قطب فى منتصف الستينيات، إلا أن كتابه ظل مرجعا للإسلاميين الراديكاليين الذين يرفعون راية الجهاد ويكفرون السلطة والحاكم.



وفى الوقت الذى كان فيه «شباب الإخوان» داخل السجون يلتفون حول مرشدهم حسن الهضيبى للتصدى «للمتطرفين الجدد» الذين يطالبون بحمل السلاح ومقاومة السلطة تسلل كتاب قطب إلى خارج السجن ليكون سببا فى تكوين أول فصيل «جهادى» فى القاهرة يتزعمه إسماعيل طنطاوى وضم أيضا كلا من نبيل البرعى ويحيى هاشم ومحمد عبد العزيز الشرقاوى وعلاء مصطفى وأيمن الظواهرى الذى كان مازال صغير السن[٤]. وفى وقت لاحق خرج أحد أفراد الإخوان وكون لنفسه «تنظيما جهاديا» آخر ذا نزعة تكفيرية ذاع صيته فيما بعد. إذ أنشأ على إسماعيل وهو شقيق عبد الفتاح إسماعيل الذى أُعدم مع سيد قطب «جماعة المسلمين» - التى عرفت إعلاميا باسم «التكفير والهجرة» - وتمكن إسماعيل من ضم نحو ١٥ شخصًا من شباب الإخوان غالبيتهم من القاهرة والمنيا وأسيوط كان بينهم شكرى مصطفى الذى تزعم الجماعة فى فترة تالية. وقام منهج الجماعة على تكفير المجتمع كله حكاما ومحكومين، كما رأت أن إقامة «المجتمع الإسلامى» تتم على مرحلتين، الأولى: تقوم على الهجرة إلى مكان بعيد لإقامة «المجتمع الطاهر». والثانية: وهى مرحلة التمكين وتقوم على العودة ومحاربة حكام فى البلاد لإقامة الدولة الإسلامية. غير أن زعيم الجماعة ما لبث أن انقلب عليها عام ١٩٦٩، وأعلن عودته إلى الجماعة الأم «الإخوان المسلمين» وعلى الفور تولى شكرى مصطفى الزعامة. وكان قد دخل السجن بعد ضبطه أثناء قيامه بتوزيع منشورات مناهضة داخل الجامعة. وعندما خرج مصطفى عام ١٩٧١، اتبعه عشرات من الأشخاص قاطعوا العمل فى الحكومة أو الدراسة فى الجامعة. وبمرور الوقت ارتفع عدد أعضاء الجماعة. وردا على قيام الشرطة بالقبض على ١٤ من أعضاء الجماعة أقدم شكرى وبعض من أتباعه يوم ٣ يوليو عام ١٩٧٧على اختطاف الشيخ حسين الذهبى، وقدموا مطالب إلى الحكومة شملت الإفراج عن المعتقلين ودفع فدية مالية مقابل إطلاق الذهبى وجاء الرفض الحكومى متوقعا، فقامت الجماعة بقتل الشيخ الذهبى يوم ٧ يوليو ولم تمر سوى أسابيع قليلة، إلا وكان شكرى مصطفى وأربعة من زملائه معلقين على حبال المشانق كما حكم على باقى أفراد الجماعة بالسجن لمدد متفاوتة[٥].

ولم تتوقف «عناقيد» التنظيمات الدينية عند هذا الحد، ففى الوقت الذى كانت جماعة «التكفير والهجرة» تتبلور فى بداية السبعينيات ظهر المواطن الأردنى صالح سرية الذى فرّ من الأردن إلى العراق ومنها إلى مصر عقب أحداث أيلول الأسود (سبتمبر ١٩٧٠) وكون تنظيما «جهاديا» آخر كان من أبرز أعضائه حسن الهلاوى وكارم الأناضولى. وحاول التنظيم عام ١٩٧٣ احتلال مقر الكلية الفنية العسكرية بهدف الحصول على السلاح الموجود داخلها واستغلاله فى الهجوم على مقر اللجنة المركزية حيث كان السادات يعقد اجتماعا مع قادة الدولة، ثم التوجه إلى مقر الإذاعة والتليفزيون لإعلان قيام الدولة الإسلامية، وفقا لما كانت تقتضيه الخطة، لكن المحاولة فشلت وألقى القبض على أعضاء التنظيم وأعدم سرية عام ١٩٧٥ وحكم على باقى الأعضاء بالسجن.

ويصعب حصر المجموعات «الجهادية» التى تكونت لاحقا، فإلى جانب تنظيم يحيى هاشم وإسماعيل طنطاوى وأيمن الظواهرى ظهرت تنظيمات أخرى، لعل أهمها التنظيم الذى تزعمه المهندس محمد عبد السلام فرج صاحب كتاب «الفريضة الغائبة» الذى انتقد فيه بشدة معظم المجموعات الدينية الأخرى لكونها «تغيِّب فريضة الجهاد عن مبادئها». وفى مسجد الفتح بحى «إمبابة» التقى فرج وكل من عبود الزمر وطارق الزمر ونبيل المغربى الذين كانوا نواة لأشهر تنظيم حمل اسم «الجهاد»[٦]. وطاف فرج بمحافظات الوجه البحرى ومناطق القاهرة والتقى مع قادة «الجماعات الجهادية» الصغيرة التى نشأت فيها وتمكن من توحيدها تحت لافتة «تنظيم الجهاد».

وعلى الجانب الآخر كان تنظيم «الجماعة الإسلامية» ينتشر فى هدوء بين أوساط الطلاب فى الجامعات المصرية، وخصوصا فى محافظات الصعيد. ويرجح أن التنظيم نشأ أساسا فى محافظة المنيا على أيدى أسامة حافظ، ثم انتشر فى المحافظات الأخرى. وفى الصعيد انضم إلى التنظيم كل من طلعت فؤاد قاسم وكرم زهدى وعاصم عبد الماجد وناجح إبراهيم وعصام دربالة، وانتهى لقاء جمع بين فرج وزهدى فى بداية عام ١٩٨١ إلى اتفاق تم بمقتضاه اندماج «تنظيم الجهاد» مع «الجماعة الإسلامية» فى تنظيم واحد[٧]. واختير الدكتور عمر عبد الرحمن أميرا للتنظيم الجديد وانتقل «مجلس شورى التنظيم» إلى الفيوم ليبايع عبد الرحمن، ولم يمض سوى أشهر قليلة حتى وقعت أشهر حادثة اغتيال فى تاريخ مصر حين نفذ التنظيم عملية المنصة التى اغتيل فيها أنور السادات. وداخل السجن ثارت خلافات شديدة بين أقطاب «الجهاد» وأقطاب «الجماعة الإسلامية» حول عدة أمور، إذ رأى فريق أن عملية اغتيال السادات لم تحقق الهدف منها وأوقعت كل أعضاء التنظيمين «المتحالفين» فى قبضة الشرطة وتسببت فى ضرب كل الجماعات الموجودة على الساحة. كما اعترض فريق على الأحداث التى جرت فى أسيوط فى اليوم التالى لاغتيال السادات وهى الأحداث التى أسفرت عن مقتل أكثر من مائة ضابط وشرطى إضافة إلى قتلى «الجماعة الإسلامية» هناك، ولكن الخلاف الأشد كان حول مسألة «الإمارة» على الجماعة إذ رفض عبود الزمر وعصام القمرى وأيمن الظواهرى بشدة مسألة استمرار عبد الرحمن فى موقع القيادة لكونه «ضريرا»، فى حين عارض المنتمون أساسا إلى «الجماعة الإسلامية» تولى عبود الزمر إمارة الجماعة لكونه «أسيرا» بعد صدور أحكام ضده يبلغ مجموعها ٤٠ عاما بالسجن، وانتهى الأمر بانفصال التنظيمين وفض التحالف[٨].

وبعد إعدام محمد عبد السلام فرج وأربعة آخرين من أعضاء «الجهاد» خرج عدد من قادة التنظيمين بعد أن برأتهم المحكمة وبدأ كل فريق فى التخطيط للخطوات المستقبلية. وطرحت «الجماعة الإسلامية»، منهاج العمل الإسلامى الذى اعتبر دستور الجماعة ومنهاجها، وقام بإعداده داخل السجن ثلاثة من قادتها هم ناجح إبراهيم وعاصم عبد الماجد وعصام دربالة. أما «تنظيم الجهاد»، فطرح المنهج الحركى لجماعة الجهاد الذى أعده عبود الزمر وشارك فى إعداده الفلسطينى عصام مطير الذى تولى بعد خروجه من السجن مع مجدى سالم مهمة متابعة نشاط أعضاء التنظيم، وفى الوقت نفسه كان أيمن الظواهرى يحاول جمع شتات مجموعته بالتنسيق مع سالم ومطير، واتخذ أقطاب «الجهاد» من مسجد النور فى العباسية مركزا لنشاطهم، وبعد أشهر كان للتنظيم وجود ملموس فى كرداسة وبولاق الدكرور وبعض محافظات الوجه البحرى، وخصوصًا فى المنوفية والشرقية.

وعلى الطرف الآخر حاولت «الجماعة الإسلامية» مد نشاطها ليشمل الوجه البحرى والقاهرة، ودفعت بمحمد شوقى الإسلامبولى للإقامة فى حى عين شمس، حيث اتخذ من مسجد آدم مقرا لنشاطه، ونجح فى ضم عناصر جديدة لعضوية الجماعة وتجول ما بين أحياء ومناطق القاهرة وتمكن من خلق بؤر لـ «الجماعة الإسلامية» فى إمبابة والزاوية الحمراء وحلوان.

ثم تأثر نشاط جماعة «الجهاد» بشدة بسفر أيمن الظواهرى ومجدى سالم وعادل السيد عبد القدوس وأحمد سلامة مبروك إلى بيشاور فى باكستان وترحيل عصام مطير إلى الخارج. وفى بداية عام ١٩٩٠ حدث دمج كامل بين مجموعة أيمن الظواهرى ،ومجموعة عبود الزمر واتفق على أن يكون الأول أميرا للجماعة على أن يكون الثانى زعيمها الروحى، لكن الزمر عاد وانضم إلى «الجماعة الإسلامية» وتخلى عن دوره الروحى فى جماعة «الجهاد»[٩].

وحتى عام ١٩٩٠ لم يكن لأعضاء الأجنحة العسكرية للجماعات الدينية المحظورة نشاط مؤثر باستثناء بعض حوادث نفذها أعضاء فى تنظيم «الجهاد» وأحرقوا فيها بعض المسارح عام ١٩٨٦، إضافة لمحاولات اغتيال كل من وزيرى الداخلية السابقين نبوى إسماعيل وحسن أبو باشا والصحفى مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور التى نفذت بواسطة عناصر تنتمى إلى تنظيم «الناجون من النار» الذى كانت أفكاره تشبه أفكار ومبادئ جماعة «التكفير والهجرة»، لكن نشاط تلك الجماعات شهد تحولا كبيرا نحو التصعيد الخطير قبل نهاية عام ١٩٩٠ على أثر مقتل المتحدث باسم تنظيم «الجماعة الإسلامية» الدكتور علاء محيى الدين حينما أطلق مجهولون عليه النار أثناء سيره فى أحد شوارع منطقة الطالبية فى حى الهرم، واتهمت الجماعة أجهزة الأمن بتنفيذ الحادث وقررت تنفيذ عملية انتقامية تستهدف وزير الداخلية آنذاك اللواء عبد الحليم موسى، وكمن عدد من عناصرها لموكبه فى حى جاردن سيتى أمام فندق سميراميس فى أكتوبر من العام نفسه، إلا أنهم أخطأوا الموكب وهاجموا بدلا منه موكب الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب وقتلوه.

وبعد الحادث بدت فى الأفق بوادر صدام متصاعد بين الشرطة و«الجماعات» ووقعت معارك متفرقة بين الطرفين فى محافظات عدة من بينها الصدام الشهير بين جماعة الشوقيين فى الفيوم وبنى سويف، وبين قوات الأمن هناك. وفى عام ١٩٩٢ بدأت دائرة العنف تتسع وتفجر الموقف فى مدن الصعيد بعد أن حدثت الشرارة الأولى فى قرية صنبو التابعة لمدينة ديروط فى محافظة أسيوط حينما قتل أعضاء فى «الجماعة الإسلامية» ١٣ مسيحيا وبعدها سرت نار العنف وانتشرت بين محافظات الصعيد، ونفذت سلسلة عمليات لاغتيال الضباط والجنود فى الشوارع، وردت الشرطة بشن حملات مكثفة على الأوكار التى أوى إليها أعضاء الجناح العسكرى لتنظيم «الجماعة الإسلامية» فى مدن الصعيد، وأصبح من النادر أن يمر يوم دون أن نسمع عن حادثة راح ضحيتها ضابط أو شرطى أو أكثر أو عدد من أعضاء الجماعات الدينية.

غير أن المواجهات دخلت منعطفا خطيرا حينما انتقل نشاط الجماعات الدينية إلى القاهرة ووقعت حوادث التفجيرات الشهيرة، وحادثة اغتيال الكاتب فرج فودة، واغتيالات لعدد من كبار ضباط الشرطة، وضرب السياحة، ومحاولة اغتيال السيد صفوت



«عقب انتهاء الحرب الأفغانية، وجد «الأفغان العرب» أنفسهم أمام خيارين كلاهما مر: أن يقسموا أنفسهم بين فصائل المجاهدين فيتصارعون، أو أن يرحلوا تاركين الأرض الخصبة التى ترعرعوا فيها.. واختاروا الحل الثانى ونزحوا إلى بيشاور»

الشريف وزير الإعلام ومن بعده الكاتب الكبير نجيب محفوظ. وكانت الملاحظة الرئيسية هي أن كل تلك العمليات نفذها أعضاء في «الجماعة الإسلامية» مما طرح تساؤلات حول أسباب اختفاء جماعة «الجهاد» حتى وقعت محاولتا اغتيال كل من وزير الداخلية اللواء حسن الألفي ورئيس الوزراء الدكتور عاطف صدقي في النصف الثاني من عام ١٩٩٣.

وقبل ذلك التاريخ وتحديدا في يناير من العام نفسه كانت أجهزة الأمن قد ألقت القبض على ٨٠٠ من أعضاء الجهاد في القاهرة والوجه البحري قسموا إلى مجموعتين: قدمت الأولى إلى القضاء العسكري في أربع قضايا حملت اسم «طلائع الفتح» وصدرت قرارات باعتقال الباقين. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها علانية، ولم تستمر التساؤلات كثيرا حول هوية المنتمين إلى التنظيم، وما إذا كانوا يتبعون «الجماعة الإسلامية»، أم أنهم جزء من «جماعة الجهاد» التي يقودها الظواهري. فقد بدأ وقتها الحديث عن خريطة توزيع قادة وعناصر الأصوليين في الخارج خصوصا بعدما أعلن الضابط السابق محمد مكاوي من مقر إقامته في بيشاور أن التنظيم يتبعه، لكن المتهمين في قضايا «طلائع الفتح» الأربع رددوا خلال جلسات المحاكمة هتافات باسم الظواهري وأنكروا أن يكونوا ضمن «الجماعة الإسلامية»، أو من أتباع مكاوي الذي عاد وأدلى بحوارات صحافية أكد فيها أن تنظيم «طلائع الفتح» لا علاقة له بالظواهري، ودلل على ذلك بأن نزيه نصحي وضياء عبد الحافظ اللذين نفذا محاولة اغتيال اللواء حسن الألفي وزير الداخلية وقتلا أثناء العملية هما من فصيل «جند الله» الذي يتبعه ولا علاقة لهما بالظواهري، إلا أن «المكتب الإعلامي لجماعة الجهاد» وزع شريط كاسيت يحوي وصية ضياء عبد الحافظ وذكر أنه سجلها قبل تنفيذ العملية وأعلن فيها أنه ضمن العاملين في جماعة «الجهاد».

هكذا طرحت قضية «الأفغان العرب» نفسها على الساحة وخلال فترة الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال السوفيتي (١٩٧٩ - ١٩٨٩) استقطبت أفغانستان ومدينة بيشاور الباكستانية أعدادا كبيرة من الإسلاميين غالبيتهم من المصريين، وهناك تشكلت من جديد قواعد وأسس تنظيمي «الجماعة الإسلامية» وجماعة «الجهاد»، وفي فترة لاحقة ظهر تنظيم آخر هو «حركة الجهاد - طلائع الفتح الإسلامي».

ووفقا لأقوال الأصوليين أنفسهم، فإن الوجود المكثف لـ«الجماعة الإسلامية» في بيشاور ثم أفغانستان بدأ عام ١٩٨٧ مع وصول ثلاثة من قادة التنظيم، هم محمد شوقي الإسلامبولي وعلي عبد الفتاح ورفاعي طه. وفي العام التالي زارهم الزعيم الروحي للجماعة ومفتيها الأول الدكتور عمر عبد الرحمن[١٠]، وأصدر التنظيم نشرة «المرابطون» الشهرية التي صدر العدد الأول منها في (مايو) ١٩٩٠، وغلب على أعدادها الأولى الطابع الفكري التأصيلي بعيدا عن التحليلات والتقارير الصحافية التي حفلت بها صفحاتها في مراحل تالية، وتولى رئاسة تحرير النشرة طلعت فؤاد قاسم الذي عرف فيما بعد باسم «أبو طلال القاسمي» [في الوقت الحالي تبث المرابطون عبر الإنترنت بعد توقف توزيعها مطبوعة].

ومع وصول الشيخ عبد الرحمن ثانية في يونيو ١٩٩٠ إلى بيشاور أجرت «المرابطون» مقابلة معه تحدث فيها عن ظروف سجنه داخل مصر، وفي تلك الفترة اقتصر نشاط «الجماعة» على سياسة التجميع، وكان العمل الجبهوي أقرب إلى العمل الحزبي النخبوي ربما بسبب قيادتها «الصعيدية» باعتبار أن أبناء الصعيد يتميزون بالانفتاح والشعبية. فأنشأت دار ضيافة في بيشاور لاستقبال العناصر الوافدة من مصر. وبدأت أواخر ١٩٩٠ تدريب عناصرها في مخيمات خاصة داخل الأراضي الأفغانية، وأشرف عليها شاب مصري يدعى صهيب قتل بعد ذلك في معارك جرت في منطقة بغلان داخل الأراضي الأفغانية عام ١٩٩١ ضد القوات السوفيتية.

ونشطت «الجماعة» في المجال الإعلامي والدعائي بإصدار سلسلة من أشرطة الكاسيت والفيديو (فيلم الإسلامبولي والبوسنة والهرسك، وثورة الجزائر الثانية). وعقب فوز «الجبهة الإسلامية للإنقاذ» في الجزائر في الانتخابات البلدية عام ١٩٩٠ زار وفد من مسئولي «الجماعة» الجزائر لتهنئة الجبهة بفوزها في الانتخابات.

ومع بداية تفجر الصراع بين عناصر الجماعة في الصعيد والشرطة، حرص قادة التنظيم الموجودون في أفغانستان على تنشيط قنوات الاتصال مع عناصر الأجنحة العسكرية داخل مصر، وبدا التنسيق واضحا من خلال بيانات أصدرتها الجماعة من داخل الأراضي الأفغانية تتحدث عن نشاط عناصر الداخل.

أما «جماعة الجهاد» فإن نشاطها على الأراضي الأفغانية كان أكثر كثافة، وربما كان خروج الظواهري مبكرا من مصر عام ١٩٨٥ ووصوله إلى مدينة بيشاور التي اتخذها مركزا لنشاطه سببا في ذلك، كما أن العلاقة الوطيدة التي نشأت في وقت لاحق بين الظواهري وأسامة بن لادن ربطت مصير الاثنين، وفتحت مجالات أوسع أمام عناصر الجهاد للعمل على الأراضي الأفغانية. ووفقا لاعترافات المتهمين في قضايا العنف الديني ممن حوكموا أمام محاكم مدنية وعسكرية مصرية، فإن عدد المعسكرات التابعة لـ«جماعة الجهاد» في بيشاور وأفغانستان فاق بكثير تلك التي كانت تتبع «الجماعة الإسلامية»[١١].

وفي حين نجت «الجماعة الإسلامية» من خطر الصراعات الداخلية على الأراضي الأفغانية، فإن الظواهري دخل في صدامات مع عدد ممن عملوا لفترة تحت قيادته كان على رأسهم محمد مكاوي، وأحمد حسين عجيزة اللذان اعترضا علنا على الأسلوب الذي يدير به الظواهري التنظيم[١٢]. غير أن الأخير حرص على أن يبدو أمام أنصاره بأنه يترفع عن المناصب فتنازل عن «إمارة» الجماعة إلى الدكتور سيد إمام المعروف باسم «الدكتور فضل» وهو طبيب جراح من بني سويف. غير أنه عاد وأطاح بإمام في فترة لاحقة ونصب نفسه أميرا عاما لـ«لجماعة الجهاد». وبايعه في اجتماع كبير عقد في مدينة بيشاور عشرات من المصريين. وتوارى مكاوي واختفى عن الأنظار. أما عجيزة فتمكن من ضم عدد من العناصر التي كانت وصلت حديثا إلى أفغانستان وأسس بنفسه تنظيما أطلق عليه اسم «حركة الجهاد - طلائع الفتح الإسلامي».

وتفجر الخلاف بين الظواهري وعجيزة مرة أخرى بعد وقوع محاولة اغتيال رئيس الوزراء السابق الدكتور عاطف صدقي ووزير الداخلية السابق السيد حسن الألفي عام ١٩٩٣، حيث تنازع الاثنان المسئولية عن العملية. وحسمت أجهزة الأمن والنيابة والمحكمة العسكرية الأمر بأن أعلنت أن المتهمين في القضية يدينون بالولاء إلى الظواهري.



«غالبية أعضاء «الجماعة» و«الجهاد» اضطروا لمغادرة السودان بعد محاولة اغتيال الرئيس مبارك في أديس أبابا.. لأنهم خشوا أن تتعرض الخرطوم لضغوط دولية أو أن تفكر في تسليمهم على غرار ما فعلته بالإرهابي الدولي كارلوس»

وانتهت الحرب الأفغانية وانقلب قادة المجاهدين على بعضهم البعض. ووجد «الأفغان العرب» أنفسهم بين خيارين كلاهما مر، الأول: أن يقسموا أنفسهم بين فصائل المجاهدين الأفغان فيتقاتلون ويتصارعون ويصوبون فوهات مدافعهم وبنادقهم إلى بعضهم البعض، أو أن يرحلوا تاركين تلك الأرض الخصبة التي زرعوا فيها وترعرعوا في صحراواتها وبين دروب جبالها. فاختاروا الحل الثاني ورحلوا واتخذوا من مدينة بيشاور مأوى لهم[١٣]. غير أن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن، لأن الحكومة الباكستانية شعرت بقلق بالغ من وجود هؤلاء على أراضيها، وخصوصا بعدما ارتفعت أصوات المسئولين في عدة دول على رأسها مصر تحذر من تحول بيشاور إلى مركز لإدارة الإرهاب. وأصبح من المحتم أن يجري قادة «الجماعة الإسلامية» و«جماعة الجهاد» تغييرات كبيرة على خريطة توزيع عناصر التنظيمين خارج مصر.

وعندما بدأت عملية الخروج من أفغانستان، لعب القيادي الإرهابي أسامة بن لادن دورا مهما في تأمين رحيل مجموعات من الأفغان العرب إلى دول أخرى، مستغلا صلاته وعلاقاته وأمواله ونفوذه في تلك الدول. كما تم توظيف مجموعات من الإسلاميين في شركات يملكها هو في بعض الدول الآسيوية والأفريقية[١٤]. ولذلك لم يكن غريبا أن تحصل أجهزة الأمن المصرية على معلومات عن وجود أفغان مصريين في دول مثل أندونيسيا والفلبين وتايلاند. وتؤكد اعترافات الإسلاميين المصريين أن اليمن مثل ملاذا لكثيرين من «الأفغان المصريين» بعد خروجهم من أفغانستان وباكستان، وتشير أيضا إلى أن أعضاء في تنظيم «الجهاد الإسلامي اليمني» استقطبوا مجموعات من المصريين ووضعوهم تحت حماية القبائل في مناطق بعيدة عن المدن اليمنية الكبيرة كصنعاء وعدن، وأن زعماء القبائل قبلوا حمايتهم مقابل التعهد بعدم التورط في أي أعمال ضد الحكومة المصرية حتى لا يضطروا إلى الدخول في مواجهة مع الحكومة اليمنية. غير أن النشاط التنظيمي للإسلاميين المصريين في اليمن أو غيرها من الدول الأخرى لم يكن ليتم علانية، كما أن التدريب على استخدام السلاح والمتفجرات كان يتم في مناطق نائية بعيدة عن العمران. أما السعودية التي كانت المحطة الرئيسية التي اتجه إليها الأفغان المصريون قبل انتقالهم إلى أفغانستان في الثمانينيات، فإنها قامت بتسليم مصر عدد منهم وكذلك ممن عادوا إليها بعد خروجهم من هناك أو حتى العناصر التي خرجت من مصر في التسعينيات واتجهت إلى السعودية تفاديا لحملات الشرطة المصرية ضدهم، ولعل ذلك يكشف سبب الهجوم المستمر من جانب الجماعات الإسلامية المصرية ضد المملكة[١٥].

وخلال لقاء معه في صيف ١٩٩٣، سألت الناطق السابق بلسان «الجماعة الإسلامية» طلعت فؤاد قاسم عن المحطات والأماكن الموجود فيها عناصر التنظيم بعد خروجهم من بيشاور، وكان رده: «إن الحكومة المصرية ضيقت على الإخوة في المنيا وأسيوط تضييقا شديدا ودفعتهم إلى الارتحال إلى القاهرة والإسكندرية والمحافظات الأخرى. فقد كان نشاطنا في وقت من الأوقات محصورا في محافظتي المنيا وأسيوط، ولكنهم ضيقوا على الشباب الذي اتجه لينشر الدعوة في القاهرة والإسكندرية وانضم إليهم الكثيرون بعد ذلك، ثم ضيقوا عليهم في باقي المحافظات واضطروهم إلى أن يرحلوا إلى خارج البلاد.

فذهبوا إلى أفغانستان وباكستان وهناك وجدوا فتحًا من الله تعالى على كل المستويات، والآن يضيّقون عليهم، فبدأوا فى الرحيل إلى بلاد أخرى، وأؤكد أن الحكومة المصرية ستعانى معاناة شديدة، وأرى أن الحكومة تتمنى عودتهم إلى المنيا وأسيوط وتتمنى لو كانت تركتهم داخل البلاد»(١٦).

ويعكس حديث قاسم اتساع الرقعة التى انتشر فيها الأصوليون المصريون بعدما اضطروا إلى مغادرة أفغانستان وبيشاور، ونجح عدد غير قليل منهم فى تأمين أوضاعه فى دول أوروبية متحصنين بحق اللجوء السياسى الذى حصلوا عليه هناك، فى حين هام معظمهم على وجهه فى دول أخرى، غير أنهم كانوا دائما يبحثون عن دول تعانى قلاقل واضطرابات داخلية حتى يتمكنوا من استغلال أوضاعها الداخلية، وثغرات الضوابط الأمنية فى النفاذ إليها والإقامة فيها. وفى الوقت نفسه تمكن بعض منهم من الوصول إلى دول تتعاطف مع قضيتهم أو تقاتل من أجل الاستقلال والحرية، وبمرور الوقت تواجد أعداد من المصريين فى البوسنة والشيشان والصومال، إضافة بالطبع إلى السودان واليمن، غير أن الجهود المصرية لإقناع تلك الدول بتخليها عن احتضان الأصوليين المصريين وتسليم المطلوبين منهم تمهيدا لمحاكمتهم ظلت دائما تثير مخاوف لدى الإسلاميين أنفسهم، إلا أن المقيمين فى دول أوروبية ظلوا على قناعة بأنه من المستحيل «أن تخضع الحكومات الأوروبية للطلبات والضغوط بتسليم المطلوبين من القيادات الإسلامية المقيمة فى أوروبا، وأنه لا يتصور أن يقدم الأوروبيون على مثل هذه الخطوة مع حرصهم على الإبقاء على قدر من المصداقية، لما يرفعونه من شعارات الحرية وحقوق الإنسان، على حد ما كانت تردده نشرة الاعتصام الصادرة فى لندن(١٧).

فى أديس أبابا فى ١٩٩٦ بعد أن صدرت لهم أوامر من قادتهم بالرحيل خشية خضوع الحكومة السودانية للضغوط الدولية، أو أن تفكر فى تكرار عملية الإرهابى الدولى كارلوس، سعيًا منها إلى الحصول على أى مكاسب. وتذكر التقارير أن من خرجوا من السودان إما حاولوا العودة إلى مصر عن طريق الدروب الصحراوية فتم القبض عليهم، أو اتجهوا إلى ليبيا واحتموا بعناصر من «الأفغان الليبيين» الذين نشأت بينهم وبين الإسلاميين المصريين علاقات وطيدة أثناء وجود الجميع فى أفغانستان وباكستان. كما أن آخرين توزعوا على دول أفريقية تعانى قلاقل وأصبحوا عناصر غير فاعلة على المستوى التنظيمى بعد أن انشغلوا بتدبير أحوالهم وتأمين أنفسهم.

المهم فى الأمر، أن إقامة هؤلاء فى الدول الموجودين فيها غير شرعية، ولذلك فإنهم عادة ما ينتقلون من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر. ويختلف الأمر فى حالة الذين تمكنوا من الحصول على حق اللجوء السياسى أو إقامة دائمة فى دول أوروبية. وهم الآن العناصر الفاعلة فى الجماعات الإسلامية الراديكالية المصرية فى الخارج، وخصوصا على صعيد النشاط الإعلامى العلنى. وكل هؤلاء استغلوا قضية حقوق الإنسان فى مصر لصالحهم وحصلوا عبر محامين إسلاميين داخل مصر على ملفات القضايا التى اتهموا فيها، وكذلك قرارات الاعتقال الصادرة فى حقهم، وقدموا كل ذلك إلى سلطات الدول الأوروبية التى تمكنوا من دخولها، وأيضا إلى جمعيات ومنظمات حقوق الإنسان وساروا فى طريق انتهى بحصولهم على اللجوء السياسى(١٨).

وعندما جرت عمليتا تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى نيروبى ودار السلام اللتان وقعتا فى وقت متزامن فى أغسطس الماضى، وأصبح واضحا أن أفريقيا احتضنت عددًا من العناصر التى تنتمى للجماعات الإسلامية الراديكالية المصرية، كما أن بعضهم شارك فى القتال إلى جانب قوات عيديد ضد القوات الأمريكية قبل خروجها من الصومال، بينما اتجه آخرون من «الجماعة الإسلامية»، «جماعة الجهاد» إلى كينيا وبوروندى والكونغو وتشاد وأوغندا ونيجيريا. وفى السياق نفسه كان «المرصد الإعلامى الإسلامى» قد أصدر فى ١٩٩٦ بيانًا نعى فيه إلى جموع المسلمين قياديا بارزًا لقب بـ «قائد الأفغان العرب» وهو على الرشيدى الذى عرف فى أوساط الإسلاميين المصريين باسم «أبو عبيدة البنشيرى»، ولم يذكر «المرصد» فى بيانه المكان الذى مات فيه البنشيرى، غير أنه أشار إلى أنه مات غرقًا. وكان البنشيرى واحدا من أبرز الأفغان العرب، واضطلع بمهمة تدريب أعداد كبيرة منهم لدى وصولهم إلى أفغانستان، كما حرص على ألا يعمل ضمن تنظيم بعينه وكان على صلات بمختلف الجماعات المصرية، وكشفت صحيفة «الحياة» الدولية - فى عددها يوم ١٠ يونيو ١٩٩٦ - عن الظروف التى مات فيها البنشيرى، حيث كان يستقل إحدى السفن فى دولة أفريقية وأن السفينة غرقت قرب إحدى المدن الكينية أثناء رحلة لها فى إحدى البحيرات الأفريقية.

غير أن مجموعة من العوامل والظروف الدولية دفعت الأصوليين إلى إجراء تغييرات فى «الخريطة» دون المساس بالشكل العام «للوحة الموزاييك»، فقد فقدوا إحدى قواعدهم بعد انقلاب الأمريكيين على الدكتور عمر عبد الرحمن والقبض عليه والزج به فى السجن، كما أن ازدياد الضغوط الدولية ضد السودان بعد محاولة اغتيال الرئيس حسنى مبارك أجبر بن لادن والظواهرى وباقى الأصوليين المقيمين هناك على العودة إلى أفغانستان مرة أخرى ليرتموا فى أحضان قادة حركة طالبان. أما «اتفاق دايتون» فتكفل بإخراج «المجاهدين العرب» من البوسنة والهرسك على حين أجبر حل مشكلة الشيشانية أعدادًا من المصريين والعرب على الرحيل من هناك. لكن كل من خرجوا لم يتجهوا إلى مصر، وإنما كانت هناك دائما بدائل سواء فى أفريقيا أو آسيا أو أوروبا أو حتى أمريكا.



والملافت أن قاسم نفسه اختفى فى ٦ أغسطس ١٩٩٥ أثناء وجوده فى كرواتيا والتى وصل إليها قادمًا من الدانمارك، حيث كان يعيش لاجئًا سياسيًا. وذكر زملاؤه أنه اعتقل بواسطة الشرطة الكرواتية، وهو فى طريقه إلى البوسنة وأنه سلم إلى عناصر تابعة للمخابرات الأمريكية التى سلمته إلى مصر، لكن كرواتيا نفت بينما لم تعلق مصر أو الولايات المتحدة على الأمر.

ولأن الهاجس الأمنى لدى عناصر الإسلاميين الراديكاليين فى الخارج عميق ويؤرقهم للغاية، فإن الحصول على معلومات عن خريطة توزيعهم يظل أمرًا بالغ الصعوبة، وهم حريصون على عدم تداول المعلومات حول أماكنهم إلا بالقدر الذى يخدم قضيتهم. ويكفى هنا أن نتذكر الحيلة التى لجأ إليها زعيم «جماعة الجهاد» الدكتور أيمن الظواهرى عام ١٩٩٣ عندما زعم أنه موجود فى سويسرا، وحصل على حق اللجوء السياسى هناك فى الوقت الذى كان يستعد فيه للرحيل من بيشاور إلى السودان لكى نفهم إلى أى مدى وصل حرصهم، وخصوصا القيادات منهم على تكتم المعلومات عن أماكنهم. ويصل الأمر إلى حد اعتبار قيام أى منهم بإفشاء مثل تلك الأسرار «خيانة» تستوجب العقاب، ولذلك فإنه على الرغم من الخلافات التى قد تظهر بينهم من وقت لآخر، فإن مسألة قيام أحدهم بالكشف عن المكان الذى يوجد فيه الآخرون غير واردة.

وتشير المعلومات إلى أن غالبية أعضاء «الجماعة الإسلامية» و«جماعة الجهاد» ممن أقاموا لفترة فى السودان غادروه بعد محاولة الاغتيال التى تعرض لها الرئيس حسنى مبارك

القبض على عمر عبد الرحمن والضغوط على السودان أجبرت بن لادن والظواهرى على العودة إلى أفغانستان ليرتميا فى أحضان طالبان، فى حين تكفل اتفاق «دايتون» بإخراج المجاهدين العرب من البوسنة والهرسك وبدأ تغيير الخريطة

رغم الاحتجاجات المصرية.. فإن خريطة الحركات الإسلامية فى الخارج ظلت بلا تغيير إلى أن جاء حادث السفارتين ليؤدى إلى تصدع قواعد الأصوليين وتسابق الدول فى القبض عليهم وتسليمهم إلى مصر

ورغم الاحتجاجات والنداءات المصرية، فإن خريطة الحركات الإسلامية فى الخارج لم تشهد تغييرات بفعل تسليح المطلوبين لمصر حتى وقعت حادثة الأقصر وأيقنت الدول التى تحتضن الأصوليين المصريين أن وجودهم على أراضيها يمثل خطورة على الأمن فيها. وجاءت حادثتا سفارتى الولايات المتحدة لتؤدى إلى تفكيك «لوحة الموزاييك» بشدة، مع تصدع قواعد الأصوليين فى الخارج وتسابقت الدول فى القبض عليهم وتسليمهم إلى مصر. ووفقا لاعترافات هؤلاء الذين سلموا إلى السلطات المصرية خلال الأشهر الماضية، فإن الحركات الإسلامية الراديكالية المصرية تمكنت من تأسيس قواعد لها فى دول أفريقية وآسيوية وأوروبية. كما أن عناصر من الأصوليين برعوا خلال السنوات الماضية فى تزوير جوازات السفر والأوراق الرسمية، الأمر الذى مكن أعدادًا كبيرة من زملائهم من اختراق الإجراءات الأمنية وتوسيع المساحة التى يتحركون فيها.

إلا أنه بصورة عامة ظلت الدول الأوروبية الغربية ملاذا آمنا ومرغوبا من جانب غالبية الأصوليين ويكفى الإشارة إلى أن سبعة من المتهمين فى قضية «العائدون من ألبانيا» يحاكمون غيابيا ومقيمون فى بريطانيا وهم: عادل عبد المجيد، وياسر توفيق السرى، وإبراهيم العيدروس، وأسامة حسن أحمد، وهانى السباعى، وسيد عجمى، وسيد عبد المقصود، وهم محسوبون على جماعة «الجهاد». وهناك اثنان آخران محسوبان على «الجماعة الإسلامية» مقيمان فى بريطانيا أيضا هما: محمد مصطفى المقرئى، وخالد فكرى. فضلا عن الدور المعروف الذى قام به بريطانى من أصل مصرى هو مصطفى كمال المعروف

باسم أبو حمزة المصرى الذى يدير هناك جماعة «أنصار الشريعة» فى عملية خطف السياح الغربيين فى اليمن. وفى ألمانيا هناك ثلاثة من أبرز قادة «الجماعة الإسلامية» هم أشرف النحاس، وإبراهيم علام، ومحمد عبد الرحمن بلاسى، بالإضافة إلى أسامة رشدى المسئول الإعلامى للجماعة الإسلامية الذى يقيم فى هولندا، وعادل السيد عبد القدوس الموجود فى النمسا والذى يعد واحدا من أبرز أعوان الدكتور أيمن الظواهرى. وجميعهم يحتمون من الجهود المصرية لتسلمهم، بالقوانين التى تحظر تسليم المطلوبين فى الدول الأوروبية إلى دول تطبق عقوبة الإعدام.

إلا أن إقدام ألبانيا فى يونيو الماضى على تسليم ثلاثة من أبرز قادة الأصوليين إلى السلطات المصرية دشن مرحلة جديدة اهتزت فيها بعنف خريطة توزيعهم فى الخارج وبدأت «لوحة الموزاييك» طريقها إلى التصدع والانهيار.

وليس سرًا أن وقوع أحد قادة التنظيمات الأصولية فى قبضة السلطات المصرية يجبر التنظيم الذى ينتمى إليه إلى إعادة ترتيب أوراقه وتحريك عناصره من مواقع إلى أخرى خشية القبض عليهم، وإجراء تغييرات فى أسماء وأوراق عناصر أخرى تقيم فى دول معينة لتأمينهم وحمايتهم من كشف أمرهم. ولاشك أن ذلك يؤدى إلى الوقوع فى أخطاء يكون من نتيجتها القبض على آخرين وتسليمهم إلى مصر. ولذلك فإن قطار تسليم المطلوبين اندفع بسرعة شديدة عقب تسلم مصر لهؤلاء الذين كانوا يقيمون فى ألبانيا، فوقع واحد فى بلغاريا ثم آخر فى الأكوادور، وثالث فى الأورجواى وأعداد أخرى فى الإمارات والكويت.

ورغم أن الأصوليين يتهمون الولايات المتحدة بالضلوع فى ملاحقة زملائهم وتسليمهم إلى مصر، إلا أن بعضا من الإسلاميين أنفسهم لم يخف شعورد بأن أكبر خطأ وقعوا فيه هو تحويل عدائهم للولايات المتحدة من مجرد كلمات وعبارات ترد فى بياناتهم ونشراتهم وخطبهم إلى رصاصات وقنابل ومتفجرات أطاحت بأشلاء المدنيين الأمريكيين والأفارقة فى نيروبى ودار السلام، ويسلمون كذلك بأن دخول الولايات المتحدة طرفا أساسيا فى المعركة ضدهم أفضى إلى النتيجة التى وصلوا إليها، فابن لادن والظواهرى وبعض من مساعديهما اضطروا للصمت والاختفاء، ومصير زعيم حزب العمل الكردستانى عبد الله أوجلان غير بعيد عنهم إلى جانب أن غالبية دول العالم صارت حريصة على أن تبعد عن نفسها شبهة احتضان الأصوليين وإيوائهم.

واللافت أن عمليات التسليم التى أطاحت بـ «لوحة الموزاييك» وتسببت فى تشققها وانهيارها، تزامنت مع تطور كبير فى التعامل مع قضية الأصوليين فى الداخل، حيث توقفت حملات الاعتقال العشوائية التى كانت تولد موجات من الرغبة فى الانتقام، وتحسنت أحوال المعتقلين فى السجون وخرجت أعداد منهم ليتمتعوا بالحرية قبل أن تمتلئ نفوسهم بشعور عدائى ضد المجتمع.

ورغم فارق السنوات العشر ما بين صدور كتاب دليب هيرو وإنهاء أبو العلا ماضى لدراسته، إلا أن الاثنين وصلا إلى نتيجة تكاد تكون متشابهة. فالأول توقع «تزايد حدة الخلافات بين الحكومة والأصوليين مع خلق مناخ يؤدى إلى تزايد الجماعات السرية الراديكالية. فى حين توقع الثانى «استمرار الظاهرة وتطور أشكالها بأجيال جديدة غير معروفة طالما استمرت أسباب العنف قائمة».

لا يمكن الفصل بين قيام السلطات البريطانية فى سبتمبر الماضى بالقبض على سبعة أصوليين بينهم ستة مصريين، وأطلق أحدهم بعد أيام فى حين مازال الخمسة الباقون محتجزين على ذمة قانون «الهجرة والجنسية» وبين عملية اعتقال الأصوليين المصريين مصطفى كمال (أبو حمزة المصرى) وياسر توفيق السرى (أبو عمار) فى مارس الماضى. ورغم أن الاثنين أطلقا بعد أربعة أيام فقط من اعتقالهما، إلا أن العمليتين عكستا منهجا بريطانيا جديدا فى التعامل مع نشاط الأصوليين العرب عموما والمصريين خصوصا على الأراضى البريطانية. فإذا كانت القوانين تكبل أيادى البريطانيين وتحول دون قيامهم بترحيل الأصوليين إلى بلادهم أو إبعادهم عن الأراضى البريطانية، إلا أن الواضح أن الحكومة البريطانية، ومن خلال بعض الثغرات القانونية بدأت فى مضايقتهم والتضييق عليهم والتلويح لهم بعصا قانون الإرهاب الجديد الذى يمنع استغلال الأراضى البريطانية فى التخطيط أو دعم عمليات الإرهاب التى تقع فى الخارج.

ويرجح أن يشهد نشاط الأصوليين فى بريطانيا خلال الفترة المقبلة انحسارا، وأن يهمش دور المقيمين هناك خشية القبض عليهم أو طردهم. ومن الطبيعى أن زيادة القيود المفروضة على هؤلاء ستحد كثيرا من نشاطهم وستدفعهم إلى العمل سرا فى أنشطة كانوا يقومون بها علنًا. ويمكن تطبيق الافتراض نفسه على باقى الأصوليين المقيمين فى دول أوروبية أخرى لم تمنحهم فى الماضى المساحة نفسها التى كان يستغلها زملاؤهم المقيمون فى بريطانيا. أما هؤلاء المطاردون فى دول غير معلومة ممن يعيشون بأسماء مزيفة، وكذلك المقيمون فى حماية أسامة بن لادن فى أفغانستان، فإن خطرهم يظل قائما لكن القراءة الدقيقة لخريطة توزيع هؤلاء وقدرتهم على العودة بالصراع إلى الدرجة نفسها التى كان عليها قبل حادثة الأقصر موضع شك. فـ «الجماعة الإسلامية» انشغلت منذ أطلق قادتها التاريخيون فى يوليو من عام ١٩٩٧ مبادرة وقف العنف، بمشاكل داخلية تفجرت بين قادتها ووصلت إلى الذروة بفعل مذبحة الأقصر، وانتهى الأمر بإصدار الجماعة بيانا فى عيد الأضحى المبارك الماضى أعلنت فيه وقف العمليات المسلحة داخل وخارج مصر. وأيا كانت التفاعلات التى أفرزت ذلك القرار، فإن الحقيقة المؤكدة أن سنوات الصراع والعنف شبه اليومى أسفرت عن سقوط أعداد كبيرة من عناصر التنظيم قتلى فى مواجهات مع الشرطة. كما قضت المحاكم المدنية والعسكرية بإعدام وسجن أعداد أخرى ممن تدربوا فى أفغانستان ويصعب تعويضهم أو إعداد عناصر مشابهة لهم بعد أن فقد التنظيم الأراضى الخصبة التى زرع فيها هؤلاء. لكن السؤال يبقى قائما: إذا كانت «الجماعة الإسلامية» اختارت التوقف عن العنف دون أن تتراجع عن أدبياتها وأفكارها ومبادئها، فكيف ستمارس نشاطها فى المستقبل؟ الإجابة المرجحة هى أن التنظيم سيدخل مرحلة كمون قد تمتد لعدة سنوات يتم خلالها العمل على إعداد كوادر جديدة وإعادة القنوات التى قطعت مع الجماهير من خلال مشاريع خدمية (مستوصفات وأسواق شعبية) والمؤكد أن السلطات تدرس حاليا الطريقة التى ستتعامل بها مستقبلا مع ذلك التنظيم لاستيعابه والحيلولة دون تراجعه عن قرار وقف العمليات، وفى الوقت نفسه وقف نمو التنظيم ومنعه من إعادة تشكيل هياكله وقدرته العسكرية مرة أخرى.

وعلى الجانب الآخر فإن الأوضاع بالغة السوء فى جماعة «الجهاد» التى رفضت فى بيان أصدرته بعد يومين من بيان «الجماعة الإسلامية» الانضمام إلى «المبادرة السلمية». فغالبية قادته وعلى رأسهم أيمن الظواهرى مطاردون من جانب الأمريكيين بعد أن وردت أسماؤهم فى قضية تفجير السفارتين الأمريكيتين فى نيروبى ودار السلام. كما أن قضية «العائدون من ألبانيا» مثلت ضربة كبيرة للجماعة بعد أن تسلمت مصر عددا من أنشط عناصرها التى لعبت دورا بالغ الأهمية فى دعم عمليات العنف من الخارج. وفضحت اعترافاتهم تفاصيل خطيرة عن أسرار الجماعة وخباياها.

ورغم اللهجة الحادة التى مازال التنظيم يتحدث بها فإن الحقيقة المؤكدة أن أمواله نضبت وعناصرد تشتتت وصارت قدرته على تنفيذ أعمال عنف داخل البلاد ضعيفة[١٩]. لكن يبقى الاحتمال هو أن شعور بعض العناصر من أعضاء التنظيم من المقيمين فى الخارج باليأس قد يدفعهم إلى المجازفة ومحاولة تنفيذ عمل ضد هدف مصرى أو أمريكى فى الخارج. وفى كل الأحوال فإن الظاهرة التى امتدت لسنوات لا يمكن أن تنتهى بين يوم وليلة. ■

الهوامش

(١)، (٥) «الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث». تأليف: دليب هيرو، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

(٢) تقرير «مكافحة الإرهاب» مجلس الشورى.

(٣)، (٤)، (٧) دراسة أبو العلا ماضى.

(٦) أوراق التحقيق فى قضية اغتيال الرئيس أنور السادات.

(٨) اعترافات المتهم أحمد النجار أمام النيابة فى قضية «العائدون من ألبانيا».

(٩) فى بداية التسعينيات ثار جدل كبير حول الوضع التنظيمى لعبود الزمر حسمه محاميه منتصر الزيات بالإعلان عن أن الزمر صار عضوا فى مجلس شورى الجماعة الإسلامية.

(١٠) اعترافات المتهمين فى قضية «العائدون من أفغانستان» التى نظرتها المحكمة العسكرية فى الإسكندرية فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢.

(١١)، (١٢) أوراق التحقيقات فى قضية «طلائع الفتح» التى نُظرت أمام أربع دوائر قضائية عسكرية عام ١٩٩٣.

(١٣) نشرة «المجاهدون» التى تصدرها جماعة «الجهاد» خارج مصر.

(١٤) أوراق التحقيق فى قضية «العائدون من ألبانيا».

(١٥)، (١٨) تقرير الحالة الدينية «الجزء الثانى» مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى «الأهرام».

(١٦) حوار بين الكاتب وطلعت فؤاد قاسم نشر فى صحيفة «الحياة» يوم ١٩٩٣/٨/٢٩.

(١٧) نشرة «الاعتصام» الصادرة عن الرابطة الإسلامية للعاملين بالكتاب والسنة فى لندن العدد ١٣.

(١٩) اعتراف المتهم أحمد النجار فى قضية «العائدون من ألبانيا» بأن الظواهرى أبلغ عناصر التنظيم عام ١٩٩٥ بأن الحالة المالية للجماعة سيئة للغاية وأنه كان ينوى وقف العمليات لسنوات بعد عملية تفجير السفارة المصرية فى باكستان لإعادة ترتيب الأوراق.

«ما أحوج الشرقيين أجمعين من بوذيين ومسلمين ومسيحيين وإسرائيليين، وغيرهم، إلى حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء، والرؤساء القساة الجهلاء، يجددون النظر فى الدين، فيعيدون النواقص المعطلة، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين بتقادم عهده، فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين».

الكواكبى

هكذا صعد .. وهكذا يسقط ..

تيم يوداه



[١]

من بين كل قادة أوروبا في الوقت الحالي يعتبر سلوبودان ميلوسوفيتش أكبر الألغاز. فمن غيره، في جيلنا مضى إلى الحرب لـ «إنقاذ» شعبه وانتهى بكوارث جسيمة سواء في كرواتيا، أو البوسنة أو كوسوفا؟ ومن غيره أشرف على التدمير الدرامي لاقتصاد بلده والإساءة إلي سمعة شعبه الذي كانت له سمعة طيبة في يوم من الأيام؟ ومع ذلك ما زال ميلوسوفيتش يحكم بلده، دون أسف ظاهر، باعتباره الزعيم المنتخب للشعب. فكيف تمكن من أن يفعل ذلك وإلى متى يستطيع أن يستمر؟

ولد سلوبودان ميلوسوفيتش في سنة ١٩٤١ في مدينة صغيرة تدعى بوزليفاك بالقرب من بلجراد. وكان والداه قد هاجرا منذ وقت قريب من مقاطعة الجبل الأسود. وكان والده سفيتوزار ميلوسوفيتش، قد درس ليصبح قسا أرثوذكسيا ولكنه بدلا من ذلك أصبح معلما. ولا يُعرف الكثير عن حياة أسرة ميلوسوفيتش فيما عدا أنها لم تكن حياة سعيدة. فلم تكد الحرب تنتهي حتى عاد سفيتوزار إلى الجبل الأسود حيث انتحر في سنة ١٩٦٢. وتولت تربية سلوبودان وشقيقه الأكبر أمهما، ستانسلافا، وهي مدرسة شيوعية يقال إنها كانت لها آراء تطهرية. وفي سنة ١٩٧٢ عمدت هي أيضا إلى الانتحار.

ووفقا لسيرة ميلوسوفيتش غير الرسمية وغير المترجمة، التي كتبها سلافوليوب دوكيتش كان سلوبودان الشاب يعتبر في المدينة التي تربى فيها شخصا «غير عادى». فهو «لم يكن يهتم بالرياضة، ويتجنب الرحلات، واعتاد أن يذهب إلى المدرسة بملابس من الطراز القديم - قميص أبيض وكرافتة». وكان «يعظ» زملاءه في المدرسة بأنهم لا يلبسون ملابس مناسبة. وكان ينظر إليه على أنه «تلميذ منطوٍ ومهتم بدروسه». وينقل ديوكتش عن أحد أصدقاء ميلوسوفيتش القدامى قوله أنه «كان يستطيع أن يتصور أنه سيصبح ناظر محطة أو موظفا مجتهدا».

ولو لم يكن ميلوسوفيتش قد التقى بالمرأة المناسبة لكان فعلا قد أصبح ناظر محطة. ففي أثناء الدراسة وقع في غرام ميرا ماركوفيتش التي انحدرت من أسرة محترمة من أسر الشيوعيين والأنصار. وقد قالت لصديقتها إن حبيبها سلوبودان سيصبح في يوم من الأيام قائدا عظيما مثل الرفيق تيتو نفسه. واستخدمت ميرا اتصالاتها لدفعه إلى الأمام، وقد بدأ مسيرته الطويلة من خلال المؤسسات الشيوعية التي بنى فيها مستقبله. وفي جامعة بلجراد تولى رئاسة القسم الأيديولوجي لفرع الحزب الشيوعي بها. وهناك التقى بشاب شيوعي طموح آخر، هو ايفان ستامبوليتش، ابن شقيق واحد من كبار رجال السياسة الصرب. وبينما كان ايفان يشق طريقه صاعدا كان يجر وراءه صديقه سلوبودان، مع بقائه دائما متأخرا عنه بخطوة.

وفي سنة ١٩٦٨، حصل ميلوسوفيتش على وظيفة في شركة «تهنو جاس» التي كان ايفان قد سبقه إلى العمل بها، وفي سنة ١٩٧٣ أصبح رئيسا لها. وفي أحد الأيام حول ذلك الوقت، حضر ميلوسوفيتش اجتماعا في مكتب عمدة بلجراد في وقت كانت فيه «بوركافوسيتش» وهي كانت موظفة في بنك بيوبانكا - وهو من أكبر بنوك يوجوسلافيا - تقوم بزيارة مع زميلة لها. وقد قالت لزميلتها : «يجب أن نراقب هذا الرجل فسوف يكون له شأن».

ولم يلبث ميلوسوفيتش أن انتقل للعمل في بيوبانكا، وبحلول سنة ١٩٧٨ أصبح رئيسا له. وقد سافر إلى نيويورك وباريس وغيرهما للقيام بأعمال البنك. ولكن كانت مهمته الحقيقية هي إنجاز صفقات سياسية ومالية، حيث كان هو الشخص الذي يستطيع ترتيب التمويل اللازم للمشاريع التي يرغب فيها زعماء الحزب.

وبحلول عام ١٩٨٤، أراد ميلوسوفيتش أن يستفيد إلى الحد الأقصى من موقعه في البنك، فبدأ الاهتمام بالسياسة الوطنية. وفي سنة ١٩٨٦ أصبح رئيسا للحزب الشيوعي في صربيا. وفي سنة ١٩٨٧ أرسله ستامبوليتش، الذي كان قد أصبح رئيسا لصربيا، إلى الجنوب ليستمع إلى شكاوى صرب كوسوفا. وقد ذكر زعماء الصرب، وكانوا على جانب من الحق، إنهم يواجهون تمييزا ضدهم في تلك المنطقة التي كانت في ذلك الوقت مقاطعة تتمتع بالحكم الذاتي في صربيا وتديرها الأغلبية العرقية الألبانية، والتي كان عددها هناك يزيد على عدد الصرب بنسبة ٩ إلى ١.

وقد كُتب بعد ذلك الكثير عن الطريقة التي استخدم بها ميلوسوفيتش قضية كوسوفا لإنشاء القوات الوطنية التي قامت بتمزيق البلد وحولته إلى أجزاء متناثرة، وقد جعل من استعادة سيطرة الصرب على كوسوفا مسألة يثير حولها المشاعر الوطنية، وطرد الشيوعيين الذين ترددوا في الاستجابة لتعليماته. وبحلول سنة ١٩٨٩ كان ميلوسوفيتش قد تخلص من ايفان ستامبوليتش وأصبح سيد صربيا بلا منازع ورئيس جمهوريتها. ولكنه لم يكتف بذلك، بل أراد أن يحكم كل يوجسلافيا. ولم يكن من المستغرب أن رفضه اليوغسلاف الآخرون، باستثناء الصرب وشقيقتها الجبل الأسود.

وكان ميلوسوفيتش قد ألقى كلمة منذ ما يقرب من عشر سنوات، في نوفمبر ١٩٨٨، في حشد من مئات الآلاف من مؤيديه المتحمسين المنتشين بالمشاعر الوطنية قال فيها: «إن هذا ليس وقتا للحزن، إنه وقت للنضال. لقد دخلنا كلا الحربين العالميتين دونما شيء غير اعتقادنا بأننا نقاتل من أجل الحرية، وقد كسبنا الحربين.. وسوف نكسب معركة كوسوفا بغض النظر عن العقبات التي تواجهنا في داخل بلدنا وخارجه. سنكسب على الرغم من أعداء صربيا في خارجها الذين يتآمرون علينا إلى جانب من يتآمرون في الداخل. ونحن نقول لهم: إننا ندخل كل معركة وقد عقدنا العزم على كسبها».

[٢]

المثير للاهتمام بوجه خاص بشأن ميلوسوفيتش أن كل معركة دخلها خسرها في النهاية. فقد فشل في السيطرة على يوغسلافيا السابقة بكاملها، وفشل في إنشاء صربيا الكبرى التي تضم صرب كرواتيا والبوسنة. وعندما انهارت يوغوسلافيا القديمة، بأن انفصلت عنها سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة ومقدونيا، أنشأ ميلوسوفيتش يوغسلافيا جديدة تتألف من صربيا (التي تضم كوسوفا، التي سيطر عليها ميلوسوفيتش بواسطة الشرطة) والجبل الأسود. ويبلغ تعداد سكان صربيا حوالي ١٠.٥ مليون نسمة، في حين لا يتجاوز سكان الجبل الأسود ٦٥٠ ألفا. والآن تتأرجح هذه اليوغسلافيا «الجديدة» ؛ ففي منتصف شهر يونيو كان أكثر من ٦٠ ألفا قد طردوا من مساكنهم بسبب الحرب في كوسوفا، ولم يكن هناك ما يدل على أن ذوي الأعراق الألبانية هناك على استعداد للخضوع لحكم ميلوسوفيتش. أما الجبل الأسود فقد فعل ما لم يكن أحد يتخيل أنه سيفعله. ففي الانتخابات الأخيرة، طالب أهله بالحقوق المتساوية المقررة له بحكم الدستور اليوغسلافي. وفي يوم ٣١ مايو أدلت أغلبية سكان الجبل الأسود بصوتها ضد حزب مؤيد لميلوسوفيتش ولصالح حلف يدعمه رئيس الجبل الأسود ميلودوكانوفيتش الذي يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاما وكان من مؤيدي ميلوسوفيتش في الماضي ثم تحول

من الحقائق المحورية أن مديرى بعض أكبر الشركات اليوغوسلافية الحكومية، سواء كانت تعمل فى مجال الأدوية أو إنتاج الأثاث، هم أيضا وزراء فى الحكومة. هذا الوضع يعطيهم فرصة «الحصول على المعلومات»، وهى أهم شىء، فهى تساعدهم على المحافظة على وضعهم الاحتكارى

ضده، كما أصبح يقول إن الفرصة الوحيدة أمام يوغسلافيا للبقاء تتمثل فى الخلاص من ميلوسوفيتش.

وعندما أعلن جوكانوفيتش خروجه لأول مرة على ميلوسوفيتش فى ديسمبر ١٩٩٦، كان رئيسا لوزراء الجبل الأسود وكان ميلوسوفيتش لايزال رئيسا لصربيا. (أصبح رئيسا ليوغسلافيا فى يوليو الماضى). وفى ذلك الوقت كانت هناك مظاهرات حاشدة تسير فى شوارع بلجراد وغيرها من المدن معادية لميلوسوفيتش. وكان حزبه ـ حزب صربيا ـ الاشتراكى قد غير نتائج انتخابات البلديات التى أجريت فى نوفمبر ١٩٩٦، ولجأ إلى سرقة الأصوات من أجل كسب المقاعد. واستغلت أحزاب المعارضة هذه القضية للحصول على التأييد، كما كان هناك عدد من حلفاء ميلوسوفيتش السابقين مثل جوكانوفيتش على استعداد لإعلان معارضتهم له.

وعلى امتداد ثمانية وثمانين يوما ظل مئات الألوف من الصرب يعقدون المسيرات فى أنحاء المدن الكبيرة والصغيرة عبر صربيا بكاملها. وكان ذلك نوعا من التطهير الذاتى، وكان معظم المتظاهرين ـ بما فى ذلك طلاب الجامعات وأساتذتهم وآباؤهم ـ يأتون مما أطلقوا عليه اسم صربيا «الأخرى» وخاصة من الطبقات المتوسطة المغلوبة على أمرها. وكانوا يريدون أن يشهدوا العالم على أنهم ليسوا من القتلة المهاويس، وإنما هم مواطنون عاديون قد برموا بالحرب والتسلط، ويتطلعون إلى ذلك النوع من المجتمع التعددى الذى أخذ يظهر فى البلدان الأخرى التى تخلت عن الشيوعية. ولكن كان من الأمور ذات الدلالة والمنذرة بالخطر، أن العمال الصناعيين لزموا دورهم. ومع ذلك فقد حظى أصحاب المسيرات بالتعاطف فى كل أنحاء العالم.بل ورأى البعض أنهم يعملون على تصحيح سمعة صربيا السيئة. وفى النهاية تراجع ميلوسوفيتش، وسمح لمرشحى المعارضة باحتلال مقاعدهم الشرعية فى مجالس البلديات، بما فى ذلك بلدية بلجراد.

ثم حدثت الخيانة العظمى التى لم تشف منها صربيا حتى الآن، فبدلا من أن يكون استخدام السلطة وسيلة لجعل الحياة أفضل للأهالى ولبناء منظمات سياسية قادرة على كسب الانتخابات العامة، لم تلبث المعارضة أن تفرقت صفوفها، واختلف زعيماها الرئيسيان، ڤوك دراسكوفيتش وزوران جنوتش، الذى أصبح الآن عمدة بلجراد، واتهم كل منهما الآخر بالتواطؤ مع ميلوسوفيتش والتعاون مع الشرطة السرية. ثم عمل دراسكوفيتش، صاحب التاريخ الطويل فى الديماجوجية الوطنية والانحرافات السياسية، على التخلص من حليفه السابق، وصوّت من أجل طرده من منصبه عن طريق التحالف مع حزب ميلوسوفيتش الاشتراكى والحزب الراديكالى الصربى، وهو حزب وطنى متطرف.

ثم حدث ما هو أسوأ، ففى كثير من المدن التى شغل فيها قادة المعارضة مناصبهم نتيجة للمظاهرات التى جرت فى الشتاء وقام بها المواطنون العاديون، لم يلبث أن تبين أنهم لا يقلون فسادا عن البيروقراطيين التابعين للحزب الاشتراكى الصربى الذين حلوا محلهم. وكانوا يطلبون رشوة للقيام بأصغر الخدمات البلدية.

بعد ذلك دخل ڤوك دراكوفيتش مفاوضات مع ميلوسوفيتش للاشتراك فى الحكومة. وقد ترك ميلوسوفيتش الباب مفتوحا أمام إمكانية تحقيق ذلك، ولكنه اختار نائبا لرئيس وزراء صربيا شخصا آخر ـ هو فويسلاف سسلى الذى كان رئيسا لمجلس النواب ورئيسا للحزب الراديكالى الصربى. وسسلى حاصل على درجة الدكتوراة فى النظريات السياسية وهو رجل ماهر للغاية وحزبه يدعو صراحة إلى التسلطية السياسية، إن لم نقل إلى الفاشية، ويطالب باستعادة «صربيا الكبرى» تحت قيادة زعيم قوى، هو بالتحديد فويسلاف سسلى.

وقد أدى انهيار المعارضة إلى دفع مئات الآلاف، بل الملايين ممن كانوا يريدون إقامة صربيا حديثة وديمقراطية إلى الشعور بيأس كامل، وهم يرون الآن أن ميلوسوفيتش رجل لا يقهر، ولم يعد لزعماء المعارضة السابقين تأييد يذكر، وأصبح الأهالى يائسين ومرهقين، وبات المرء يسمع نفس التعبير مرارا وتكرارا: «لقد ظل هذا يجرى على امتداد عشر سنوات.. وقد تعبنا.. تعبنا للغاية».

وكانت النتيجة أن أصبح ميلوسوفيتش، حتى وقت قريب جدا، فى وضع أقوى مما كان عليه قبل سنة واحدة. ومن الصعب للغاية أن نعثر على شخص يؤيده هنا، ولكن من الأصعب أن نجد شخصا يستطيع أن يخبرنا عمن يحل محله ـ باستثناء سسلى .وفوق ذلك، ففى أواخر شهر مايو زادت استفادة الحكومة من الضعف السياسى للصرب الذين يعارضون ميلوسوفيتش، فبينما كان الاهتمام الدولى منصبا على كوسوفا والجبل الأسود شنت السلطات حملة تدمير واستيلاء على الجامعات، وهى معاقل النشاط المعادى لميلوسوفيتش، وتم تمرير قانون جديد فى البرلمان يعطى وزير التربية والتعليم ـ وليس عمداء الكليات ـ السيطرة الفعلية على كل التعيينات فى الجامعة. وسيصبح الأساتذة الآن أكثر إحجاما عن كتابة المقالات التى تنتقد ميلوسوفيتش أو الانضمام إلى مسيرة احتجاج ضده.

حكت لى دانا بوبوفيتش، أستاذة الاقتصاد بجامعة بلجراد، والتى شاركت فى مظاهرات شتاء ٩٦/١٩٩٧ ـ ما حدث فى فصلها بعد صدور القانون الجديد.

«سألنى بعض الطلاب عما إذا كنت سأنضم إليهم إذا ما حدث إضراب؟ فقلت لهم: إن هذا سيكون من جانبى المشاركة الخامسة خلال سبع سنوات،وأعتقد بصراحة أنه مجرد تضييع وقت. فما الجدوى؟ وقلت إنهم إذا أضربوا بالفعل فسأنضم إليهم. ولكنهم فى النهاية وافقوا على رأيى».

فبالنسبة لكثير من الطلاب الأذكياء، وخاصة طلاب الكليات الفنية، ينحصر المستقبل فى الحصول على وظيفة فى الخارج. فهم قد تخلوا نهائيا عن كل أمل فى التغيير فى صربيا.

[٢]

بطبيعة الحال، إن صربيا قد تتحول فى يوم من الأيام، ولكن المعلقين فى بلجراد يتنافسون فى وصف صعوبة التنبؤ بالوقت الذى سيحدث فيه ذلك. ويقول المعلق السياسى كونجين بريبيفيتش:

«لقد حصلت على منحة للدراسة فى أكسفورد، ولكنى بعد أن قضيت هناك ثلاثة أشهر، وجدت أنى أفضل العودة إلى بلدى. كان الوضع مملا للغاية هناك!أما هنا فالأمر مثير حقا..إذا كنت من المشتغلين بالعلوم السياسية، إن الوضع أشبه بأن يكون المرء على متن ناقلة بترول جبارة خرجت عن السيطرة. وأنت تعرف أنها لا بد أن تصطدم بشىء لكن كيف سيحدث ذلك، ومتى، ليس هناك من يعرف».

وفى رأى المؤرخ الكساجيلاس، إن البلد أشبه بمناطيد زبلن فى سنوات الثلاثينيات.

«فإذا أصاب أحدها خرق فإنه لا يسقط على الفور بل ربما يستمر طافيا لمدة أسبوع قبل أن يسقط. وفى نظامنا الآن عدة خروق ولكن كم من الوقت سيحتاج حتى يسقط..

» وعند هذه النقطة فهو مثل الكثيرين غيره، يجد من الصعب أن يكون كلامه أكثر تحديدا.

هذا النوع من عدم اليقين والشعور بالإرهاق، هو الذى أدى بالكثيرين إلى أن ينأوا بأنفسهم أن يصبحوا جزءا مما درجوا على وصفه بـ«الهجرة الداخلية» فى الدول الشيوعية، حتى إذا كانت مساكن كوسوفا تحرق بالقرب من الحدود الألبانية. وكوسوفا لا تبعد عن بلجراد أكثر من أربع ساعات بالسيارة، ولكن أحد المشتغلين بالعلوم السياسية قال إنها بالنسبة إليه يمكن أن تكون بوروندى.

والواقع أن كثيرين لايكادون يعرفون ماذا يجرى. ومازال معظمهم يحصلون على أخبارهم من تلفزيون صربيا الذى تديرد الدولة والذى يخلق للعالم صورة خيالية من صنعه. ففى اليوم الذى أعقب الانتخابات التى سقط فيها مرشحو ميلوسوفيتش فى الجبل الأسود، وفى الوقت الذى أصبح فيه الوضع فى كوسوفا أكثر اتساما بالعنف من أى وقت مضى، لم تذكر نشرة الأخبار المسائية شيئا عن أى منهما خلال الدقائق العشرين الأولى. وكان أهم أخبار اليوم بالنسبة لرؤساء تحرير النشرة هو زيارة يقوم بها لصربيا المسئولون من إحدى شركات الخرسانة الفرنسية.

وصحيح أن أى شخص يريد أن يعرف ما يجرى يستطيع أن يستمع إلى الإذاعات المستقلة أو الإذاعات الأجنبية، أو أن يقرأ الصحف المستقلة. ولكن بعد مرور عشر سنوات من الاستماع إلى أنباء سيئة، وبناء آمال على التحسن ثم فقدها، فإن الكثيرين يفضلون عدم الاستماع إلى الأخبار أصلا، خاصة وهم يشعرون بالعجز عن تغيير أى شىء على كل حال.

[٤]

كثيرا ما يوجه الاتهام إلى ميلوسوفيتش بأنه يدمر اقتصاد يوجوسلافيا، بينما يحقق لنفسه من وراء ذلك مكاسب سياسية. ويقال أحيانا إن ذلك قد يفضى فى النهاية إلى سقوطه، ومن الصعب الحصول على الحقائق الخام لأن الكثير من التفاصيل المهمة هى من أسرار الدولة، وقد جاء فى بيان أصدرته مجموعة من الاقتصاديين المعارضين للحكومة، معروفة باسم «مجموعة الـ١٧) إنه من الأسهل عليهم أن يعرفوا احتياطيات النقد الأجنبى فى تايوان أو فى بوركينا فاسو عن حصولهم على بيان احتياطيات بلدهم نفسه.كما أنهم يعتقدون أن الإحصاءات التى تنشرها الدولة لا يعول عليها، ومع ذلك، يمكن استخلاص بعض النتائج العامة.

يبلغ الناتج المحلى الإجمالى ليوجسلافيا نحو ١٥ مليار دولار، ويرجّح أنه يقرب من نصف ما كان عليه فى سنة ١٩٨٩. والمعتقد أن مايقرب من ٤٤فى المائة من قوة العمل تعانى من البطالة. وأن الدين الخارجى بلغ ١٢ مليار دولار، وأن الاقتصاد «الأسود» الذى يشمل مجموعة متنوعة من السلع التى تصنع وتتبادل خارج نطاق القانون، تمثل نسبة تبلغ ثلث الناتج المحلى الإجمالى. وبالرغم من أن العقوبات الاقتصادية الأساسية ضد يوغوسلافيا قد ألغيت بعد اتفاقات السلام بشأن البوسنة التى وقعت فى دايتون فى نوفمبر ١٩٩٥، ما زال البلد ممنوعا من الحصول على قروض من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، وبالتالى فهو منقطع إلى حد كبير عن الاقتصاد العالمى.

غير أن هذه المعلومات السيئة تخفى وراءها جانبا من الواقع الذى يسيئ البعض

ميراماركوفيتش، زوجة ميلوسوفيتش، لها حزب صغير يسمى «اليسار اليوغسلافى المتحد»، وهو أبعد ما يكون عن اليسار، لأنه فى الواقع حزب لرجال الأعمال، وعندما اختلف معها مؤخرا اثنان من كبار أعضاء الحزب وجدا نفسيهما فجأة مقدمين للمحاكمة بتهمة الفساد

فهمه. فكثير من الأشخاص الذين يقال إنهم عاطلون لديهم أعمال فى الواقع، وكثير من الأشخاص الذين لديهم أعمال ليسوا فى حالة سيئة بقدر ما نتصور. وبناء على وعد بعدم ذكر اسمه قدم لى أحد عمال المعادن فى مصنع الجرارات والمحركات فى ضاحية راكوفيتشا ـ وهى ضاحية صناعية بالقرب من بلجراد ـ معلومات يفهم منها السبب الذى دفع العمال إلى عدم الانضمام إلى معارضى ميلوسوفيتش.

قال لى:

> إننى يجب أن أفهم أولا أن الأوضاع أصبحت الآن أفضل كثيرا مما كانت عليه. فى الأيام السيئة للحرب والتضخم المفرط. فهو قبل نشوب الحرب فى البوسنة وكرواتيا كان يكسب ما يوازى ٥٠٠ دولار فى الشهر. وفى آخر ١٩٩٣، عندما كان اقتصاد يوجسلافيا يعانى من العقوبات الدولية والنزيف الناتج عن النفقات الحربية، انخفض دخله إلى ٤ دولارات فقط، ولكنه الآن ارتفع إلى ١٠٠ دولار. وإن كان راتبه قد عاد إلى التآكل عند مقارنته بالسنة الماضية.

وقد وجدت أن ماذكره عامل المعادن هو الوضع المألوف بالنسبة لكثير من الصناعات الصربية الرئيسية المملوكة للدولة. وكان مما قاله إنه من بين قوة العمل فى شركته، والتى يبلغ عددها ثلاثة آلاف عامل. لايشتغل غير الثلث. وهناك ثلث آخر فى «إجازة مرضية» وثلث غيرد فى «إجازة مدفوعة الأجر»، وهؤلاء الألفان من العمال لا يحصلون إلا على ثلثى رواتبهم. ولكنهم يفضلون ذلك لأنهم جميعا يمارسون أعمال التجارة الصغيرة من نوع أو آخر، وكثيرون منهم يزرعون فى مساكنهم بعض أنواع الخضر ويبيعون جزءا منها. أما من يعملون بالفعل. فلدى كل واحد منهم تقريبا وظيفة ثانية، ماكانوا يستطيعون العيش بدونها. وقال لى عامل التعدين: وبطبيعة الحال. فإن مديرى الشركة ورؤساءها يعيشون حياة رغدة، وعندما لا يكونون قد أنشأوا شركات خاصة بهم لتوريد قطع الغيار للشركة المملوكة للدولة، يكون أصدقاؤهم قد فعلوا ذلك فى مقابل الحصول على عمولات كبيرة. والمديرون يعيشون فى شقق مملوكة للشركة، ويستخدمون فى تنقلاتهم سيارات الشركة.

والجرارات التى تنجح الشركة فى إنتاجها فعلا، تشتريها الدولة لتقايض بها، مثلا البترول المستورد من الصين. ولكن حتى إذا كانت لدى الشركة طلبات أكثر فإنها لا تستطيع أن تتوسع فى إنتاجها لتلبية تلك الطلبات لأن الدولة تستغرق وقتا طويلا فى دفع المستحقات عليها. وبالتالى فإن الشركة تعانى دائما من نقص الأموال السائلة ولاتستطيع أن تتوسع فى الإنتاج. وقد كف النظام المصرفى منذ أمد طويل عن العمل باعتباره جزءا طبيعيا من الحياة المالية. فالقروض يصعب للغاية الحصول عليها مالم يكن لمسئولى الشركة نفوذ سياسى داخلى، ومالم يكونوا على استعداد للدفع فى سبيل ذلك.

ووفقا لما قاله عامل المعادن: «إن أحدا لا يعترف بتأييده لميلوسوفيتش الآن، ولكن مادام هناك من يصوتون لصالحه فلا شك فى أن هناك من يؤيدونه».

وينبغى أن يكون واضحا أن اقتصاد صربيا لا يمكن أن يستمر إلى الأبد بوضعه الحالى ـ ولكن ـ كما أوضح ذلك العامل ـ عندما يحدث الإصلاح الاقتصادى الحقيقى، فذلك سوف يعنى أن معظم العمال الذين يتلقون أجورا لعدم عمل شيء، سوف يفقدون «وظائفهم» أو بالأحرى أجرهم الهزيل، ولما كانت إعانة البطالة منخفضة للغاية فمن الواضح أن الشيطان الذى تعرفه أفضل من الشيطان الذى سيقوم بفصلك من العمل.

ومن الحقائق المحورية فى النظام الاقتصادى أن مديرى بعض أكبر الشركات اليوغوسلافية الحكومية، سواء كانت تعمل فى مجال الأدوية أو إنتاج الأثاث، هم أيضا وزراء فى الحكومة. ووفقا لما تقول به الكسندرا بوزارتش، وهى باحثة اقتصادية ونائبة لرئيس حزب «التحالف المدنى» المعارض الصغير، إن هذا الوضع يعطيهم فرصة «الحصول على المعلومات، وهى أهم شيء، فهى تساعدهم على المحافظة على وضعهم الاحتكارى، لأنهم يستطيعون أن يقضوا على أى منافسة ويستطيعون أن يحصلوا على القروض والإعانات والعملة الصعبة بالسعر الرسمى. ويكون لذلك قيمته الكبرى عندما يختلف السعر الرسمى عن سعر السوق السوداء اختلافا ملحوظا. كما أن الموظفين الحكوميين المكلفين بمتابعة قطاع الأعمال، هم فى أفضل الأوضاع فى يوغسلافيا، فهم وأصدقاؤهم يجمعون الثروات ما داموا فى مناصبهم. والمعتقد أن جانبا كبيرا من الأموال التى يجب أن تذهب إلى الدولة يتم إخفاؤها فى شبكة من الحسابات الخارجية، والأرجح أنها تتخفى فى زى ممتلكات للقطاع الخاص أو لشركات وهمية.



وكل من يحاول أن يقاوم هذا النظام الفاسد سيقع فى متاعب لاحصر لها، لأن كل من يشتغل فى هذا المجال له «ملف» لدى البوليس السرى يمكن أن يستخدم ضده.

وميراماركوفيتش، زوجة ميلوسوفيتش، لها حزب صغير يسمى «اليسار اليوغسلافى المتحد»، وهو أبعد ما يكون عن اليسار، لأنه فى الواقع حزب لرجال الأعمال، وعندما اختلف معها مؤخرا اثنان من كبار أعضاء الحزب وجدا نفسيهما فجأة مقدمين للمحاكمة بتهمة الفساد.

وليس لهذا الحزب تأييد يذكر، ومع ذلك فإن الكثيرين من أعضائه من رجال الأعمال يشغلون مناصب هامة فى الحكومة كما أن الحزب عضو فى التحالف الذى يضم حزب زوج السيدة ماركوفيتش، وهو حزب صربيا الاشتراكى، والحزب الراديكالى التابع لسسلى. وليس هناك من يشك فى أن حزب الزوجة هو أيضا ترتيب مفيد للاستيلاء على الأموال العامة.

إلى متى يمكن لفساد على هذا النطاق أن يدوم؟ لقد توجهت إلى قرية بورتانوفيتش التى تقع على ضفتى الدانوب بالقرب من بلجراد. وهى تقع فى فوى فودينا، أكثر مقاطعات صربيا قربا من الشمال، وهى المصدر الرئيسى للقمح، حيث يرى المرء حقولا شاسعة تفيض بالقمح والذرة، ولكن الأمور لا تسير سيرا حسنا هنا أيضا. يقول المزارعون إن المحصول سيقل هذا العام بنسبة الربع عن السنة الماضية، لأنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على السماد بالقدر الذى يحتاجون إليه.

وقد قال لى أحد المزارعين إن ذلك يرجع إلى أن «بعض الأوغاد فى الحكومة أو بعض أصدقائهم فى يدهم احتكار استيراد الفوسفات الذى تحتاجه شركاتنا لصنع الأسمدة»، وبسبب ذلك ارتفع ثمن الأسمدة أكثر مما ينبغى.

وإذا كان هناك من يستطيع أن يكشف عن كيفية تعامل ميلوسوفيتش مع الاقتصاد، فهى السيدة التى كانت لمدة طويلة موضع سرد المالى، بوركافوستش، وهى بطبيعة الحال لن تتكلم. يقول كثيرون إن مسز فوستش قامت أثناء الحرب بتنظيم شبكة من الشركات وحسابات البنوك فى قبرص، الغرض منها تجنب عقوبات الأمم المتحدة. وإن المبالغ المدفوعة من الدول الخارجية وإليها تتحرك فى سرية داخله وخارجه، منها هذه الجزيرة التى لاتفرض قيودا شديدة. ومن الواضح أن مسز فوستش لها مواهب متعددة، فهى الآن فى منتصف السبعينيات، وقد قاتلت فى صفوف الأنصار أثناء الحرب العالمية الثانية. ويقال إنها قاسية بلا رحمة، وإنها تكرس كل جهودها لعملها ولميلوسوفيتش.

وعندما انتهت الحرب فى سنة ١٩٩٥، عادت مسز فوستش من قبرص إلى بلجراد لتصبح مديرا لبنك بيوجرادسكا، وهو الشركة القابضة التى تملك موقع ميلوسوفيتش الحصين السابق، أى بنك بيوبانكا، ومن موقعها ذاك تستمر فى إمداده بالمساعدة المالية بكافة أنواعها. وليس هناك شيء يمكن إثباته ولكن هناك اعتقاد بأنه بسبب الضغط من جانب أوروبا الغربية، فإن الأموال الحكومية والخاصة التى كان ميلوسوفيتش يسيطر عليها والتى كان يخفيها فى قبرص قد انتقلت إلى الصين وروسيا(*) ولأن صربيا لا تدفع الآن المستحقات عليها بشأن الغاز والبترول لكل من هذين البلدين، فربما كانت الأموال فى طريقها للانتقال إلى مكان مختلف مرة أخرى.

ويخمن كثير من اليوغسلافيين أن المبالغ الموضوعة فيما يسمونه «حساباتنا الموجودة فى الخارج»، قد بلغت أبعادا خرافية، والأرجح أن ميلوسوفيتش وحلفاءه المقربين، يملكون ثروات خاصة هربت إلى الخارج، ولكن هناك شواهد كثيرة على أن مصادر الأموال التى يعتمدون عليها فى الإبقاء على حركة الاقتصاد الوطنى يرجح أن تكون قد استنفدت. ففى العام الماضى قام ميلوسوفيتش ببيع حصة ٤٩ فى المائة فى شبكة تليفونات صربيا لشركتين إحداهما يونانية والأخرى إيطالية، وقد تلقى مبلغا ثمينا بلغ ١.٠٥مليار دولار نقدا، استخدمت فى دفع المعاشات والمرتبات المتأخرة قبيل إجراء انتخابات نوفمبر الماضى.

وطوال عدة شهور كانت هناك تخمينات بشأن أى من ممتلكات الدولة سيأتى عليها الدور ليبيعها ميلوسوفيتش للمستثمرين الأجانب حتى يتمكن من تغطية بقية شهور هذا العام. لكن فى يوم ٨ يونيو أصيبت تلك الخطط بضربة قاضية، فقد فرض الاتحاد الأوروبى وتبعته الولايات المتحدة، حظرا على الاستثمارات الأجنبية بسبب تصرفات ميلوسوفيتش فى كوسوفا.

ولم ينضم الروس إلى حظر الاستثمار، ولكن ليس من المتوقع أن تحصل حكومة صربيا المفتقرة إلى المال على مساعدة مالية كبيرة من «أشقائها» السلافيين، كما يقال كثيرا عن الروس، ومؤسسة جاسبروم الروسية العملاقة ترغب فى أن تشترى شبكة خطوط

(*) نظرا لأن قبرص مرشحة الآن لعضوية الاتحاد الأوروبى فهى بحاجة لأن تنظف صفحتها.

أنابيب الغاز الاستراتيجية الصربية، وهى شبكة قيمة وآخذة فى التوسع. ولكن نظرا لأن حكومة صربيا مدينة لمؤسسة جاسبروم وغيرها من الدائنين الروس بمبالغ تصل إلى ٧٠٠ مليون دولار، فإنها ستظل مدينة للروس حتى إذا باعت لهم خط الأنابيب.

[٥]

ويمكن مشاهدة ميلوسوفتش فى كل ليلة تقريبا على شاشة التليفزيون يرحب بضيف أو بآخر، ويتبادل معه عبارات المجاملة. ولكنه لم يعد يتحدث إلى شعبه فيما عدا ذلك. ويعتقد البعض أن هذا الانسحاب من جانبه كان فى البداية تكتيكا يهدف إلى إعطائه هالة الغموض والابتعاد، ولكنهم يعتقدون الآن أنه قد فقد اتصاله بحقائق الأمور.

ونظرا لأن ميلوسوفتش نادرا ما يتكلم، فمن الملاحظ أن الأشخاص الذين يفترض أن يتكلموا باسمه أصبحوا يفعلون ذلك بدرجة أقل فأقل. فأثناء الحرب كان المسئولون فى الحكومة والحزب يبذلون جهودا واضحة لتوصيل رسالتهم الدعائية، وخاصة للأجانب. وكانوا يقولون إن هناك سوء عرض لقضية صربيا. أما الآن فقد صمتوا كلهم تقريبا. وفى اعتقادى إن ذلك لأنه، فى حالة عدم تلقيهم توجيهات أعلى فإنهم لا يعرفون ماذا يقولون. وهناك بطبيعة الحال سبب آخر لصمتهم: إنه إذا جاءت «النهاية» يجب أن يكون فى وسعهم أن يقفزوا من السفينة لإنقاذ أنفسهم، وعلى ذلك كلما كان حديثهم قليلا الآن فى تأييد ميلوسوفتش كان ذلك أفضل.

وأصحاب المعاشات يمثلون ثلث الناخبين فى صربيا. ونظرا لأن كثيرين يتقاعدون فى وقت مبكر، فإن ٤٤ فى المائة منهم تقل سنهم عن الخمسة والخمسين، وقد أعلنت الحكومة الصربية مؤخرا أن معاشاتهم ستنقص بنسبة ٢٠ فى المائة. وبسبب التضخم سيكون معنى ذلك نقصا بنسبة ٤٠ فى المائة بالأسعار الحقيقية. ولما كان أصحاب المعاشات من المجموعات الرئيسية المؤيدة لميلوسوفتش، فإن فشل الحكومة فى العثور على أموال من مكان ما ربما يؤدى إلى تعريض حزب صربيا الاشتراكى التابع لميلوسوفتش لضربة شديدة.

وبينما يستمر وطن ميلوسوفتش فى الانهيار حوله، فإنه قد يواصل الحكم فى عزلة تامة، بينما تستمر صربيا تائهة، وبينما تشتعل الحرب فى الجنوب، وتهدد القوات العسكرية الأجنبية باحتلال جزء من الوطن. ولكن الشيء المؤكد هو ـ على حد تعبير سونيا بيسركا ـ المرأة الشجاعة التى تدير «لجنة هلسنكى لحقوق الإنسان» ـ إن هذا البلد سوف يواجه، إن عاجلا أو آجلا «انهياره التاريخى». ■

ترجمة : أسعد حليم

كوسوفا

بين هيمنة الأطلنطى.. ووحشية الصرب

محمد يوسف عدس

■ لعبت كوسوفا دورا مهما فى تاريخ البلقان بصفة عامة. وفى تاريخ الدولة العثمانية بصفة خاصة. ولكنها مع ذلك ظلت مجهولة من سكان أوروبا الغربية حقبة طويلة كانت خلالها لغزا خفيا. فقد تركزت معرفة الغربيين بمنطقة وسط البلقان على الدروب المطروقة للأغراض التجارية والعسكرية. وكانت كوسوفا بعيدة عن هذه الدروب.

وقد تآزرت على عزلة كوسوفا عوامل تاريخية وأخرى جغرافية. فمن الناحية الجغرافية تمثل كوسوفا بأرضها وتضاريسها وحدة متميزة تحيط بها جبال الألب الشاهقة كما يحيط السوار بالمعصم. وتمتد فى وسطها هضبة مرتفعة يشقها من وسطها تلال تمتد من الشمال إلى الجنوب لتقسم أراضى كوسوفا إلى شقين متساويين فى المساحة يعرف الشق الغربى منها باسم كوسوفا. والشرقى يطلق عليه الصرب اسم «ميتوهيا». مما يكرد الكوسوفيون ترديده. بل يطلقون على جميع الأراضى اسم كوسوفا وقديما نطقها العثمانيون «قصود». تشق سلاسل الجبال مجموعة من الأنهار لتروى أراضى الهضبة، ثم تخرج منها متجهة إلى مصباتها الثلاثة: بحر إيجه، والبحر الأسود، والبحر الأدرياتيكى.

وتضيف الجيولوجيا أهمية اقتصادية خاصة لكوسوفا. حيث يضم قسمها الشرقى أعظم مصدر للثروة المعدنية فى جنوب شرق أوروبا. ففى مناجم «تربيتا» وحدها يوجد أكبر مصادر الرصاص والزنك فى أوروبا. هذه الثروة المعدنية جعلت كوسوفا هدفا نغزو الجيوش منذ أيام الرومان إلى العصر الحديث. ففى الحرب العالمية الثانية حرص هتلر على أن يبسط سيطرته على كوسوفا وكانت القطارات تنقل يوميا خمسمائة طن من معدنى الرصاص والزنك من «تربيتا» إلى المصانع الحربية فى ألمانيا.

أما من الناحية التاريخية فقد اكتسبت كوسوفا أهمية عسكرية أخرى، حيث أدرك صُنَّاع الإمبراطوريات من وقت مبكر أن من يتحكم فى هضبة كوسوفا الحصينة يسهل عليه السيطرة على البوسنة وما وراءها من الأراضى الممتدة حتى شمال ألمانيا. هكذا نظرت إليها الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية. ومن هنا ترجع أهمية معركة كوسوفا الأولى سنة ١٣٨٩ م والثانية سنة ١٤٤٨، اللتين حسمتا الصراع فى البلقان لصالح العثمانيين عدة قرون.

العثمانيون :

ظلت كوسوفا جزءا من الدولة العثمانية قرابة خمسة قرون ازدهرت الحياة فيها خلال القرنين الأوّلين ازدهارا لم تشهده البلاد من قبل ولا من بعد. فقد ساد فيها أسلوب الحياة العثمانية والنموذج الإسلامى الذى قدّمه العثمانيون إلى هذه المنطقة من أوروبا. وكانت الدولة العثمانية حينذاك هى العالم الأول ومركز الحضارة والتقدم فى العالم. بينما كانت أوروبا غارقة فى ظلمات. العصور الوسطى رازحة تحت وطأة الإقطاع وطغيان الكنيسة.

كان الزى السائد هو الزى العثمانى وكذلك أسلوب السلوك العام. وكان هذا المشهد مصدر خلط وسوء فهم من جانب الرحالة الأوروبيين. فقد اعتقدوا أن هذا المظهر دليل على أن الشخص الذى يلتزم به لابد أن يكون تركيا. وبالضرورة مسلما فى حين أنه قد لا يكون تركيا ولا حتى مسلما. ومن ثم شاعت هذه الأخطاء فى كتابات الرحالة الأوروبيين ولم يسلم من التعصب ضد هذا المظهر العثمانى حتى «بايرون» الشاعر الإنجليزى الشهير.

وهنا معضلة يصعب على المثقفين حلها وأحسب أنها ستبقى كذلك لفترة من الوقت: لأن حلها يحتاج إلى جهد ذهنى وإلى صبر على مشاق البحث والتنقيب وهو أمر لم نتهيأ له بعد، لأن مشكلات البلقان لم تزل بعد بعيدة عن بؤرة الاهتمام العام.

لكن سبقنا فى محاولة فهمها المؤرخون والباحثون الأوروبيون والأمريكيون الذين يعكفون الآن على دراسة الوثائق العثمانية التى أخرجتها الحكومة التركية حديثا من ظلمات المخازن إلى أرفف المكتبات. كان الباحثون الغربيون هم أول من انكب على هذه الوثائق يريدون أن يكتشفوا سر ذلك التماسك المذهل الذى تميز به نسيج الدولة العثمانية قرونا، وهذا الامتزاج الفريد بين رعايا دولة يمثلون حشدا من المجموعات البشرية المتباينة فى أصولها العرقية واللغوية والدينية وفى ثقافاتها وأعرافها وأمزجتها. وينتشرون على مساحات شاسعة من الأرض، بينما لم تستطع الإمبراطورية السوفيتية أن تصمد إلا بضعة عقود رغم تفوقها العسكرى والتكنولوجى، وأنظمتها الإدارية والأمنية التى كانت تحصى على الناس أنفاسهم فى عقر دورهم.

بقيت كوسوفا ضمن أملاك الدولة العثمانية ما يقرب من خمسة قرون، وكانت أغلبية سكانها ـ عندما دخلها العثمانيون ـ من الألبان الكاثوليك، ولم يكن فيها سوى أقلية قليلة من الصرب الأرثوذكس، وقد اعتنقت غالبية السكان الإسلام عن رغبة واقتناع لا قهرا وإجبارا كما يزعم بعض المؤرخين.

شهد القرن التاسع عشر مولد القوميات بين شعوب البلقان، ولم يكن ألبان كوسوفا استثناء من هذه النزعة، ومن ثم تفجرت الانتفاضات الوطنية والثورات العارمة. وقد تركزت مطالب الألبان فى أول الأمر حول الإصلاحات الإدارية والضريبية والحكم الذاتى الذى يجمع كل الألبان فى كوسوفا وألبانيا ومقدونيا واليونان فى دولة وطنية واحدة ضمن الإطار العام للدولة العثمانية.

ولكن عندما انقضت حكومة الاتحاد والترقى على الباب العالى وخلعت السلطان عبد الحميد الثانى من السلطة صُدم الألبان صدمة مروعة لم يبرءوا منها بعد ذلك أبدا. فقد كانت شخصية السلطان العثمانى عند الألبان هى الخيط السحرى الذى يربط بينهم وبين دولتهم الكبرى، فلما أصيب الرمز انهارت العلاقة المقدسة وانفرط عقدها، وأدرك الألبان أنهم أصبحوا وحدهم أمام غزوة صليبية تدق عليهم الأبواب.

دراسات نويل مالكوم :

يعلق المؤرخ والصحفى البريطانى نويل مالكوم على هذه النقطة فيشير إلى أن فريقا من الباحثين الغربيين بدأ اليوم يعيد النظر فى كل ما كتب وشاع عن الدولة العثمانية بعد أن تبين لهم مدى ما ألصق بتاريخها من افتراءات ظالمة، حيث يرون أنه ليس من الإنصاف ولا من مقتضيات المنهج العلمى تعميم أحكامنا بشأن الأوضاع المتردية فى الدولة العثمانية خلال عصر أفولها على جميع الأوضاع والمؤسسات العثمانية فى كل العصور.

ولاشك أن نويل مالكوم نفسه هو أحد أبرز هؤلاء الباحثين المنصفين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التحرى عن الحقيقة، يلتمسها فى مصادرها الصحيحة ويجمع حول النقطة الواحدة كل ما أتيح له من وثائق ويمضى فى دأب ومثابرة يقارن بينها ويتحرى عن أصحابها ولا يطلق حكمه عليها إلا عندما يستقصى كل الملابسات التى أحاطت بها، يدعمه فى ذلك إجادته لعدد من اللغات الأوروبية إلى جانب اللغة التركية والصربوكرواتية، علاوة على تمتعه بذلك

Kosovo : A Short History

(كوسوفا : تاريخ مختصر)

Noel Malcom
London : Macmillan, 1998, pp 492, £ 30

خرج ميلوسوفيتش من اتفاقية دايتون أشد قوة، حيث مكنته هذه الاتفاقية من الهيمنة المطلقة على صربيا وأطلقت قبضته الحديدية على كوسوفا، وداعبه الدبلوماسيون الغربيون وشكروه على تعاونه في جهود السلام

الحس الصحفي النادر الذى اكتسبه خلال رحلاته فى يوغوسلافيا السابقة واختلاطه الحميم مع أفراد شعوبها المختلفة سواء فى المدن أو القرى.

أول ما عرفته كان من خلال مقالاته وتحليلاته السياسية فى الصحف البريطانية أثناء الحروب اليوغوسلافية حيث لفت نظرى بمنطقه القوى وحججه التى ساقها وهو يتهم حكومته والحكومات الغربية بالتقصير فى نجدة شعب البوسنة ثم فى التراخى غير المبرر فى وقف عمليات التطهر العرقى التى تشنها صربيا ضد الشعب الألبانى فى كوسوفا.

صدر له فى هذا السياق كتاب سنة ١٩٩٤م عن قضية البوسنة بعنوان (البوسنة: تاريخ مختصر). ثم أعقبه بكتاب أكبر منه عن كوسوفا بعنوان (كوسوفو: تاريخ مختصر) ويعتبر الكتابان من أهم ما صدر فى هذين الموضوعين فى بريطانيا. وقُدّر لى أن تطول إقامتى فى لندن منذ فبراير ١٩٩٢م حتى اليوم. حرصت خلال هذه الفترة على متابعة نويل مالكوم فى كل كتاباته ومحاضراته وندواته التى أصبحت بحق مصدرا من مصادر المعرفة ومركزا للمناقشات العلمية الرصينة حول هذا الموضوع المتفجر.

الحقيقة أن اهتمامى بكوسوفا ليس جديدا، وإنما هو اهتمام قديم يرجع إلى سنة ١٩٩٢ عندما بدأت أجمع مادة تساعدنى على فهم ما يجرى من أحداث مذهلة فى يوغوسلافيا وعلى استيعاب حقيقة الأعمال الوحشية التى مزق بها الصرب شعبا ودمروا دولة وليدة هى البوسنة والهرسك. وتبين لى حينذاك أن بذور هذه الحرب ومقدماتها وقعت فى أرض كوسوفا قبل أن تمتد إلى سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة. وبدأت أفهم مقولة بعض الكتاب أن الحرب اليوغسلافية بدأت فى كوسوفا وسوف تعود إليها أو تنتهى فيها.

خلال الثمانينيات كانت هناك حملات إعلامية صربية تفجرت بعد موت الرئيس جوزيف بروزتيتو، موجهة إلى تيتو نفسه، متهمة إياه بأنه دعم الشعوب والقوميات الأخرى على حساب الشعب الصربى والقومية الصربية، وأنه سمح بقيام جمهوريات وكيانات سياسية ذات حكم ذاتى لتفتيت الشعب الصربى بين هذه الكيانات. وفى ذلك إشارة إلى جمهورية البوسنة والهرسك، وإقليمى الحكم الذاتى فى كوسوفا وفويفرينا.

وكان من أهم التهم التى وجهها الصرب إلى تيتو هى صداقته للدول العربية والمسلمة فى إطار توجهه نحو حركة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز، وفى هذا يقول ميرولوب إيفيتتش (أستاذ مساعد فى كلية العلوم السياسية بجامعة بلجراد) فى لقاء صحفى نشر بمجلة دوجا اليوغسلافية فى ٢٢ ديسمبر ١٩٨٩، يقول:

إن تيتو كان مخطئا فى هذه الخطوة خطأً فاحشا لأنه كان يتوهم أنه ينشئ علاقات مع دول متحضرة مثلنا، ولكن تبين أنها بلاد متخلفة موبوءة بالأصولية الإسلامية التى انتقلت إلينا، وأن العرب والمسلمين لديهم استراتيجية للسيطرة على العالم تبدأ من إحياء الإسلام أولا فى يوغوسلافيا ثم تمتد منها إلى بقية الدول الأوروبية.

انتقلت الحملة الإعلامية بعد ذلك لتنصب على المسلمين والإسلام فى يوغوسلافيا وعلى الأخص فى كوسوفا والبوسنة، وشاع الكلام عن مؤامرة إسلامية ضد الصرب متمثلة فى الزيادة الجنونية فى عدد المواليد بين الأسر الألبانية، وأن الألبان قد استغلوا الحكم الذاتى لاضطهاد الصرب وطردهم من كوسوفا. والحقيقة أن خروج الشبان الصرب والألبان فى كوسوفا إلى الجمهوريات اليوغسلافية إنما كان باعثه هو البحث عن فرص أفضل للعمل والعيش: لأن كوسوفا كانت أفقر المناطق اليوغوسلافية وأكثرها تخلفا. بينما كانت سلوفينيا وكرواتيا وصربيا تشهد ازدهارا اقتصاديا وتدفقا سياحيا وتحفل بمباهج الحياة التى تجتذب الشباب.

انبعاث القومية الصربية :

ولكن اعتبر القوميون الصرب هذا النزوح مؤامرة إسلامية سرها المواليد الألبانية، وكان من المستحيل فى ذلك الوقت إقناعهم بالمنطق خلاف ذلك. فقد انبعثت القومية الصربية فى ظلمات اللاشعور حدثا تلقائيا ولا كان سببه عدوانا حقيقيا من أحد، وإنما كان عملا منظما خططت له القيادات الصربية وبثته على أوسع نطاق على الجماهير الصربية خلال أجهزة إعلامية أصبحت فى قبضة مجموعة من القادة رأوا مصلحتهم ومستقبلهم فى ركوب هذه الموجة القومية لتحقيق مشروعهم فى إقامة صربيا الكبرى على أشلاء الشعوب اليوغوسلافية الأخرى، لذلك انسحبت سلوفينيا من الاتحاد السوفيتى وتبعتها كرواتيا، وخشيت البوسنة أن تبقى وحدها فى الاتحاد اليوغوسلافى الجديد فيفترسها ميلوسوفيتش، ومن ثم أعلنت الاستقلال. ويعرف العالم بقية السيناريو المأساوى الذى نزل بشعب البوسنة وجمهوريتها. ثم انسحبت بعد ذلك مقدونيا، وبذلك انهار الاتحاد اليوغوسلافى السابق، فلم يبق مع صربيا بالمؤامرة سوى جمهورية الجبل الأسود وهى دولة صغيرة لا يصل عدد سكانها إلى نصف مليون، وكوسوفا - ببطش الآلة العسكرية - وفويفورينا بنفس الأسلوب التآمرى والغوغائية التى اتسم بها عهد ميلوسوفيتش. وقبل أن تنهار يوغوسلافيا عمليا كانت قد انهارت فكريا وأيديولوجيا بظهور القومية الصربية المتطرفة التى استبدلت الخطاب الماركسى الرصين فى وسائلها الإعلامية بخطاب غوغائى يلهث بالأكاذيب والافتراءات ويعبئ الجماهير لقتال جيرانهم بافتراض مؤامرات وهمية يدبرونها لهم.

وكان أول مسمار فى نعش يوغوسلافيا تيتو هو تلاعب ميلوسوفيتش بدستور ١٩٧٤، وإلغاء الحكم الذاتى لكوسوفا وإغلاق برلمانها، ونزول الدبابات فى شوارع العاصمة بريشتينا.

ذهبت يوغوسلافيا ولم يبق على الساحة سوى صربيا الكبرى بوجهها القومى القبيح.

كانت كوسوفا هى الساحة التى جرب فيها ميلوسوفيتش قدراته لأول مرة على مواجهة الجماهير والتلاعب بمشاعرهم، وكانت منصة انطلاقه الصاروخى نحو قمة السلطة فى بلجراد. وفى كوسوفا جرب ميلوسوفيتش قواته العسكرية والبوليسية وعصاباته الصربية المسلحة على قمع الجماهير الألبانية وبث الرعب بينهم . فلما نجح انطلق ينفذ مخططاته العدوانية فى جمهوريات يوغوسلافيا الأخرى.

أصل الصرب والألبان :

يحاول الصرب تصوير قضية كوسوفا على أنها قضية إقليم صربى، الصرب فيه هم السكان الأصليون، ولكن به أقلية وافدة من دولة مجاورة هى ألبانيا، جلبتها قوة أجنبية هى الدولة العثمانية إبّان احتلالها للمنطقة، وقد نجح الصرب فى تسويق هذه الأكذوبة إلى العالم وإلينا فأصبحنا نردد فى إعلامنا عبارات: الأقلية الألبانية، وسكان كوسوفا المنحدرون من أصل ألبانى، والانفصاليون وصفا لحركة المقاومة الكوسوفية الوطنية أو ما يسمى بجيش تحرير كوسوفا. ولم يبق سوى أن نصفهم بالإرهابيين لنكون قد تبنينا الأكذوبة الصربية بحذافيرها.

فى حين أن العكس هو الصحيح، فالألبان هم السكان الأصليون أحفاد القبائل الألبانية التى عاشت وسيطرت على المنطقة الممتدة من الساحل الأدرياتيكى إلى قلب البلقان شاملة ما يعرف حديثا باسم ألبانيا وكوسوفا وأجزاء من مقدونيا والجبل الأسود واليونان. هذه القبائل تنتمى إلى عناصر إليريانية قديمة فى أوروبا وتنتمى لغتهم إلى أحد الفروع اللاتينية. وأطلق عليهم الألبان نسبة إلى جبال الألب وليس لأنهم نازحين من الكيان السياسى الحديث المسمى بألبانيا، ومن هنا جاء الالتباس.

المهم أن هذه القبائل الألبانية كانت مستقرة لقرون طويلة فى كوسوفا وما حولها قبل أن تطأ أقدام الصرب أرض البلقان. فالصرب وهم قبائل تنتمى إلى كتلة السلافيين كانوا يسكنون فى شرق أوروبا شمال نهر الدانوب ولم يعبروا هذا النهر إلى منطقة البلقان إلا فى القرن السابع الميلادى عندما استدعاهم الإمبراطور البيزنطى «قسطنطين بروفير چينيتوس» لمساعدته فى طرد الغزاة الأفار.

استقر الصرب بعد ذلك فى منطقة راشكا ولم يتوسعوا نحو كوسوفا إلا فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى عندما تعاظمت قوتهم العسكرية فى عهد المملكة النيمانية فانتهزوا فرصة ضعف الإمبراطورية البيزنطية وما نشب فيها من حرب أهلية ليزحفوا على أراضى كوسوفا ويقتطعوها من الإمبراطورية. واحتل الصرب كوسوفا لمدة قرنين من الزمان، حتى جاء العثمانيون ليحطموا كل القوى العسكرية فى البلقان ويخضعوا المنطقة كلها لسلطانهم بما فى ذلك كوسوفا وصربيا والقسطنطينية نفسها.

بقيت كوسوفا ضمن أملاك الدولة العثمانية ما يقرب من خمسة قرون، وكانت أغلبية سكانها - عندما دخلها العثمانيون - من الألبان الكاثوليك، ولم يكن فيها سوى أقلية قليلة من الصرب الأرثوذكس، وقد اعتنقت غالبية السكان الإسلام عن رغبة واقتناع لا قهرا وإجبارا كما يزعم بعض المؤرخين المتحيزين، وأصبح الألبان من أقوى جنود الدولة العثمانية وأكثرهم إخلاصا. وكانت ثقة السلاطين العثمانيين فى جدارتهم كبيرة، فجعلوا منهم القادة العسكريين والوزراء العظام الذين شاركوا فى حكم الدولة العثمانية والدفاع عنها. وكان منهم الولاة الذين لم يحكموا كوسوفا فقط، بل حكموا ولايات أخرى مثل محمد على باشا والى مصر.

إسلام كوسوفا :

وفى موضوع دخول الأوروبيين من أبناء البلقان إلى الإسلام، يخصص نويل مالكوم فصلين فى كتابيه عن البوسنة وكوسوفا، يفنّد فيهما مزاعم الصرب وغيرهم، وينفى عن الدولة العثمانية أى رغبة أو محاولة لإجبار المسيحيين على الدخول فى الإسلام، ولا هى كانت معنية بهذا الأمر أصلا، ولم يشكل جزءا من سياستها، وإنما عاملت رعاياها مسلمين ومسيحيين ويهود وغجر على أساس من المساواة. ويؤكد أن سماحة الإسلام كانت من عوامل جذب الناس إلى هذا الدين، وأن من أهم الأسباب فى ترك الناس للمسيحية - فى نظره - كان راجعا إلى فساد الكنيسة وضعفها وعدم وجود دعاة مسيحيين راشدين يتمتعون بالعلم والأخلاق.

وإذن فلم يكن العثمانيون فى حاجة إلى أن يطردوا الصرب الأرثوذكس من كوسوفا ولا أن يجلبوا إليها مسلمين من ألبانيا ليملأوا الفراغ المزعوم، لأن الألبان الكوسوفيين كانوا ملء الساحة عندما كانوا كاثوليكا، وظلوا ملء الساحة وهم مسلمون، تماما كما أسلم السلاف فى البوسنة والهرسك وكرواتيا وصربيا نفسها.

تزييف التاريخ:

ولدى الصرب عادة قديمة فهم إذا لم يجدوا من الحقائق التاريخية ما يساند مزاعمهم

> **جاء على لسان «فلادان ديورديفتش» وكان رئيس وزراء صربيًا سابقا أنه «لا يوجد ألبان حقيقيون إلا في المناطق النائية وأنه حتى وقت قريب كان الألبان مثل الغجر والفينيقيين [يقصد اليهود] لهم ذيول مثل القرود».**

يلجأون إلى الافتراءات والأساطير، ينسجونها من خيالهم ويطلقونها أشعارا وملاحم، وتصبح الأسطورة بعد ذلك مرجعا للكتابة التاريخية تحرم مناقشتها. ومن أبرز هذه الأساطير اثنتان: أسطورة معركة كوسوفا، وأسطورة الخروج الكبير. يحاولون بالأخيرة إثبات أن الصرب كانوا يمثلون الأغلبية في كوسوفا وأن العثمانيين هم الذين عكسوا هذه المعادلة السكانية بطرد الصرب منها، ويحاولون بالأسطورة الأولى أن يثبتوا أن كوسوفا هي مهد الصرب ومستودع أسرارهم المقدسة، كما يتردد على ألسنة بعض المعلقين الذين يجلسون في مكاتبهم مسترخين بالخارج يستقبلون مطبوعات وزارة الإعلام الصربية ثم يرددون ما فيها من أكاذيب كالببغاوات لتنشر في صحفنا ووسائل إعلامنا دون تمحيص.

أسطورة الخروج الكبير:

خلاصة أسطورة الخروج الكبير أو (فيليكا سيوبا) كما يسميها الصرب، أن العثمانيين في سنة ١٦٨٩ أرادوا معاقبة الصرب على انحيازهم للغزو النمساوي لكوسوفا فلما استعادوها طردوا البطريرك الصربي «أرسينيا الثالث» ومعه أربعمائة ألف صربي من كوسوفا وأحلوا محلهم مسلمين من ألبانيا. وقد توجه البطريرك في حشد مهيب إلى المجر بدعوة من الإمبراطور النمساوي. ولتدعيم هذه الأسطورة أضفى عليها الكتاب بعد ذلك بُعدًا أيديولوجيا شبهوا خروج الصرب من كوسوفا بمرحلة موت المسيح عليه السلام ودفنه، على اعتبار أن المرحلة السابقة التي تمثل صلب المسيح هي معركة كوسوفا التي قتل فيها الأمير «لازار» سنة ١٣٨٩م. أما المرحلة الثالثة التي تتوازى مع قيام المسيح فهي غزو الصرب لكوسوفا واحتلالها سنة ١٩١٢.

يفند هذه الأسطورة المؤرخون المحدثون ومنهم نويل مالكوم بعد أن بحثوا الوقائع المتصلة بها في الوثائق النمساوية والألمانية والإيطالية، ونوجز تفنيدهم في ثلاث نقاط:

أولا: لم يستدع الإمبراطور النمساوي «ليوبولد الثاني» البطريرك الصربي هو ورعيته للإقامة في المجر، كما تزعم الأسطورة ولكن على العكس من ذلك تماما، فقد كانت رسالة الإمبراطور تحث البطريرك على البقاء في كوسوفا ومواصلة حفز الأرثوذكس على الثورة ضد العثمانيين حتى تأتيهم النجدة النمساوية.

ثانيا: عثر الباحثون على رسالة للبطريرك الصربي كان قد بعث بها إلى إمبراطور النمسا يصف له أوضاع اللاجئين الصرب في المجر مستعجلا مساعدات الإمبراطور يقول فيها: «لقد حضر هنا رجال مع زوجاتهم وأطفالهم في حالة تعيسة وأصبح عدد المهاجرين ثلاثين ألف نفس». ومعنى هذا على حد قول البطريرك نفسه أن اللاجئين الصرب كانوا ثلاثين ألفا لا أربعمائة ألف.

وقد كشفت الوثائق إلى جانب هذا أن الصرب النازحين من كوسوفا بالذات لم تزد نسبتهم على ربع عدد اللاجئين والباقي جاء من بلجراد وغيرها من المدن الصربية، وإن هؤلاء الفارين كانوا ممن حمل السلاح وحاربوا العثمانيين مع القوات النمساوية الغازية. يعني أن الصرب الذين خرجوا من كوسوفا كان عددهم أقل من ثمانية آلاف شخص لا أربعمائة ألف، وأنهم لم يخرجوا مع البطريرك في حشد مهيب، وإنما تقاطروا على المجر في فترة ممتدة تزيد على السنة، وهكذا تتهاوى أركان الأسطورة ويبطل مفعولها الطلسمي.

أسطورة كوسوفا:

أما أسطورة كوسوفا فتتعلق - كما ذكرنا - بالمعركة التاريخية الشهيرة التي جرت سنة ١٣٨٩ م في موقع يسمى «كوسوفابوليا» بين القوات العثمانية وبين جيش صربي كان قائده «لازار» ملك الصرب. وعندما نقول «أسطورة كوسوفا» لا نقصد أن المعركة لم تقع أو أن كل ما قيل عنها كلام خرافي، ولكن نقصد أن القليل جدا من الحقائق الأساسية هو المعروف على وجه اليقين، وأما باقي الوقائع والأحداث فقد كتب عنها أنهار من الشعر والنثر الصربي كله محض خيال جامح وأكاذيب، جرى تغييرها وتجميلها على مر العصور، بما يتناسب مع الظروف التاريخية المتغيرة، واكتسبت قداسة دينية تفوق قداسة أي نص ديني آخر في الكنيسة الصربية، وخصوصا بعد أن جعلت الكنيسة من لازار قديسا شهيرا وأضفت على مقتله أبعادا درامية وأحاطت شخصيته بشعائر تعبدية أصبحت تقليدا راسخا في الكنيسة الأرثوذكسية الصربية إلى اليوم.

ومع ظهور القومية الصربية في القرن التاسع عشر صيغت الأسطورة صياغة أيديولوجية جديدة لحث الصرب على الثورة ضد العثمانيين، وهكذا أصبحت الأسطورة طلسما سحريا غائرا في نسيج الهوية القومية للصرب.

وقد رأينا أن أسطورة كوسوفا قد استخدمت كمصدر أيديولوجي لتدعيم عمليات الإبادة ضد المسلمين في البوسنة، واستغلها «سلوبودان ميلوسوفيتش». فقد رتب القوميون الصرب احتفالا في ٢٨ يونية ١٩٨٩ بمناسبة مرور ستمائة عام على معركة كوسوفا، وبدأ ميلوسوفيتش وأعوانه مبكرا الاستعداد لهذا الاحتفال فأخرجوا عظام القديس لازار ووضعوها في صندوق أداروه أسابيع على جميع الكنائس في أنحاء صربيا ودُعي الأرثوذكس لزيارة القديس الشهيد والبكاء عليه، وكانت تباع في الكنائس صورة تجمع بين ثلاثة أقانيم «المسيح والقديس لازار وميلوسوفيتش» وحُشد يوم الاحتفال مليون صربي من أنحاء يوغوسلافيا في المكان الذي وقعت فيه معركة كوسوفا التاريخية، وكانت جميع القنوات التلفازية، والمحطات الإذاعية تذيع الاحتفال على الهواء، وأمام كاميرات المصورين ظهر ميلوسوفيتش وحوله كوكبة من القسس بثيابهم السوداء ذات الأشرطة اللامعة، وانتشرت حوله مجموعة من أفراد البوليس السري اليوغوسلافي بنظاراتهم الشمسية المشهورة.

في هذا الحشد الجماهيري الذي أجاد القوميون الصرب تنظيمه انطلقت كلمات ميلوسوفيتش وهو ينتفض حماسا حيث قال: «إن المعركة من أجل تحقيق آمال شهداء كوسوفا سوف تستمر بكل الوسائل ولن يهزم الصرب بعد اليوم».

استعمار عنصري:

للصرب في كوسوفا مزاعم لا تنقضي ربما من أهمها وأخطرها زعمهم بأنها جزء من صربيا تماما كما كانت فرنسا تزعم أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، ولذلك يفند نويل مالكوم هذا الزعم متطرقا إلى الجوانب القانونية والتاريخية والسياسية، معززا رأيه بالممارسات العملية التي التزمتها صربيا تجاه شعب كوسوفا المسلم، فلم تعتبر ألبان كوسوفا - في أي وقت - مواطنين لهم نفس حقوق المواطنين الصرب الآخرين، وإنما عاملتهم كما يعامل المستعمرون الشعوب المستعمرة، وكان للصرب ولا يزال أهداف استراتيجية لتجريد ألبان كوسوفا من أرضهم وطمس لغتهم وثقافتهم الخاصة وإنكار هويتهم القومية المتميزة وإفقار مجتمعاتهم واضطهادهم حتى تجعل من حياتهم جحيما.

وفي الوقت الذي يزعم فيه الصرب أن الألبان أصلهم صربي ولكنهم انحرفوا باعتناقهم الإسلام وإصرارهم على اللغة الألبانية، نرى دعوى أخرى تقول إن الألبان ليسوا بشرا مثل بقية الناس، فقد جاء على لسان «فلادان ديورديفتش» وكان رئيس وزراء صربيًا سابقًا أنه «لا يوجد ألبان حقيقيون إلا في المناطق النائية بملاسي [هؤلاء هم الألبان الكاثوليك] .. وإنه حتى وقت قريب كان الألبان مثل الغجر والفينيقيين [يقصد اليهود] لهم ذيول مثل القرود».

وتلك نظرة استعمارية استعلائية وليست نظرة إلى مواطنين متساوين في الأهلية والحقوق، وهي تعبير أمين عن العلاقة الحقيقية بين دولة صربيا وشعب كوسوفا.

وهناك برنامج كامل لاحتلال استيطاني صربي بدأت حكومة يوغوسلافيا الملكية تنفذه في كوسوفا بعد احتلال الصرب لها سنة ١٩١٢ ولم يتوقف إلا أثناء الحرب العالمية الثانية عندما طردهم الألمان من كوسوفا، وظل متوقفا في عهد يوغوسلافيا تيتو، ولكنه عاد إلى الظهور مرة أخرى في عهد ميلوسوفيتش.

برنامج ميلوسوفيتش في الاحتلال الاستيطاني:

سنة ١٩٩٠م أصدرت صربيا سلسلة من القوانين وأمرت بإجراءات استهدفت تدمير البنية الأساسية للشعب الألباني وتعزيز سيطرة الأقلية الصربية عليه. من هذه الإجراءات:

١- إنشاء مجالس محلية مقتصرة على الصرب في المناطق ذات الأكثرية الصربية.

٢- تركيز جميع الاستثمارات في المناطق ذات الأغلبية الصربية.

٣- بناء منازل جديدة للصرب لتشجيع من هاجر منهم على العودة إلى كوسوفا وجذب صرب آخرين للإقامة فيها.

٤- إقامة مراكز لتحديد النسل في مناطق المسلمين فقط.

٥- إلغاء شرعية امتلاك الألبان لأي عقارات أو أراض سبق لهم شراؤها من الصرب. وفي الوقت نفسه مساعدة الصرب في شراء الأراضي والعقارات من الألبان بثمن بخس أو عن طريق المصادرة.

٦- اشتمل قانون الأراضي على حق أي صربي يرغب في استيطان كوسوفا أن يمتلك خمسة هكتارات من الأراضي بالمجان.

فلما قامت المظاهرات في كوسوفا احتجاجا على هذه الإجراءات نزلت الدبابات الصربية إلى الشوارع لإرهاب الناس وأصدرت السلطات سلسلة أخرى من القرارات الاستعمارية في ٢٦ يونية عام ١٩٩١م أطلقت عليها الحكومة الصربية (إجراءات مؤقتة) ولكنها استمرت إلى اليوم:

أولا: منع صدور أي صحف منشورة باللغة الألبانية.

ثانيا: إلغاء المدارس الألبانية وإغلاق جامعة بريشتينا وتسريح طلابها.

ثالثا: إغلاق أكاديمية العلوم والآداب في كوسوفا.

رابعا: إغلاق محطة الراديو والتلفاز الألبانية.

خامسا: طرد جميع المدرسين العاملين في المدارس الألبانية.

سادسا: طرد الموظفين الألبان العاملين في القطاع العام.

سابعا: طرد ثمانين ألف عامل ألباني من وظائفهم في المصانع.

ثامنا: طرد جميع الأطباء الألبان والعاملين في المجال الصحي.

تاسعا: إلغاء التحصين الدوري لأطفال الألبان (مما تسبب في رفع نسبة الوفيات بينهم من أمراض بسيطة مثل الحصبة).

وهكذا بفرمان صربي واحد أحالت الحكومة شعبا بأكمله إلى الاستيداع ليلحق بجيش العاطلين والمتسولين. ولكي تكمل الدائرة الجهنمية أغلقت مؤسسة الأم تريزا الخيرية التي كانت تطعم ٢٥ ألف جائع ألباني. وفي تنفيذ هذه الإجراءات ارتكبت السلطات الصربية أبشع الجرائم ضد الأفراد لمجرد

الاشتباه في المقاومة. وتحفل سجلات منظمة العفو الدولية بتقارير مفصلة عن أنواع الجرائم التي شملت قتل أطفال المدارس وضرب مدير أكاديمية العلوم والآداب الكوسوفية حتى تحطمت عظام فكه وأنفه وألقى في الطريق العام مغشيا عليه وهو ينزف دما.

إبراهيم رجوفا والمقاومة السلمية:

في ٢ يولية ١٩٩٠م تحرك أعضاء برلمان كوسوفا الذي كان لايزال قائما آنذاك لمناقشة الإجراءات التعسفية التي اتخذها ميلوسوفيتش بإلغاء الدستور الفيدرالي لسنة ١٩٧٤م، وهو الإلغاء الذي ترتب عليه سلب حقوق كوسوفا في الحكم الذاتي. وفوجئ رئيس البرلمان وهو صربي من أعوان ميلوسوفيتش فأعلن تأجيل المناقشة إلى الخامس من يولية. فلما جاء النواب في الموعد المحدد وجدوا أبواب البرلمان مغلقة فأصروا على عقد جلستهم خارج مبنى البرلمان بحضور ١١٤ عضوا من مجموع النواب البالغ عددهم ١٢٣ ووافقوا بالإجماع على إلغاء ما جاء بالدستور الصربي الخاص بكوسوفا.وقامت السلطات الصربية على الفور بحل البرلمان وحل الحكومة الألبانية.

وفي سبتمبر من نفس العام اجتمع نفس الأعضاء في بلدة كتشانيك بسرية تامة وأعلنوا قيام جمهورية كوسوفا. وفي سبتمبر من العام التالي نجح الألبان في تنظيم استفتاء عام لجعل كوسوفا جمهورية ذات سيادة، اشترك في هذا الاستفتاء ٩٩٪ من مجموع الناخبين وافقوا بأغلبية ٨٧٪ على الجمهورية المستقلة.

وفي ٢٤ مايو ١٩٩٢ أجريت انتخابات على نطاق واسع استخدمت فيها منازل المواطنين كلجان انتخابية، وتم انتخاب أعضاء مجلس البرلمان الجديد وأعضاء الحكومة، واختير إبراهيم رجوفا رئيسا للجمهورية.

كان لنشاط جمعية الفلاسفة وعلماء الاجتماع وجمعية كُتّاب كوسوفا أكبر فضل في تنظيم وقيادة هذه الانتخابات الناجحة. وأصبحت جمعية كُتّاب كوسوفا مركز المعارضة القوية ضد السلطات الصربية وسياساتها القمعية في كوسوفا، ومن بين نجاحاتها عقد مؤتمر أصدر احتجاجا قام أربعمائة ألف من أبناء شعب كوسوفا بالتوقيع عليه.

وأصبح الدكتور إبراهيم رجوفا ـ وهو أستاذ جامعي ورئيس الجمعية ومؤلف مشهور ـ قائدا لهذه الحركة الجماهيرية التي تأسست رسميا في ديسمبر ١٩٨٩ وسميت باسم «الرابطة الديمقراطية لكوسوفا»، وهي أشبه ما تكون بحركة تضامن البولندية مزيجا من حزب سياسي وحركة جماهيرية تضم عضويتها سبعمائة ألف ألباني، وتتلخص السياسة الأساسية لإبراهيم وحزبه في ثلاث نقاط:

١ـ تجنب أي ثورة عنيفة.

٢ـ تدويل قضية كوسوفا، بمعنى السعي لإقناع المجتمع الدولي للتدخل بشتى الوسائل السياسية والدبلوماسية والتفاوض، بما في ذلك إقامة مظلة من الأمم المتحدة لحماية شعب كوسوفا من الاضطهاد الصربي.

٣ـ إنكار ومعارضة أي شرعية لحكم الصرب في كوسوفا، وذلك عن طريق مقاطعة أي انتخابات أو عمليات إحصاء سكاني تقوم بها السلطات الصربية، واستكمال الهياكل التنظيمية لجمهورية كوسوفا.

وقد نجحت الرابطة في تحقيق الهدف الأول والثالث إلى درجة لم يكن يتصورها أحد، وخاصة أولئك الذين يعرفون التقاليد العسكرية والروح القتالية والانتفاضات المسلحة لشعب كوسوفا عبر تاريخه الطويل.

أما بالنسبة للهدف الثاني فقد أجهد إبراهيم رجوفا نفسه في زيارات متعددة لعواصم الدول الغربية لإقناع ساستها بأهداف كوسوفا في الاستقلال، ولكنه لم يحقق نجاحا ملموسا سوى بعض القرارات الهزيلة التي صدرت من الأمم المتحدة ومن البرلمان الأوروبي.

قام الألبان بتنظيم أمورهم في حدود إمكاناتهم القليلة فأنشأوا نظما بديلة في التعليم والعلاج واستخدموا منازلهم كمدارس ومراكز صحية، وتولت الرابطة دفع مرتبات متواضعة للمدرسين والأطباء من حصيلة ما تجمعه من ضرائب من أبناء كوسوفا العاملين بالخارج وهي نسبة ٣٪ من دخولهم، واستطاعت الرابطة بجهد خارق أن توفر التعليم لأربعمائة ألف طفل.

ولكن السلطات الصربية لم تترك هذا المجهود الأهلي لكي ينمو أو يستمر، حيث كانت قوات الأمن وراء المدرسين والمنظمين بالاعتقال والاضطهاد والضرب حتى أصبح الإرهاب والسجن العشوائي جزء' من حياة الألبان اليومية.

أمضى إبراهيم رجوفا أربع سنوات يطمئن شعبه بأن المجتمع الدولي عندما يصل إلى تسوية نهائية في يوغوسلافيا سيتفرغ للنظر في مصالح وتطلعات الألبان في كوسوفا. وكان يظن أن اتفاقية دايتون ستأتي بخبر سار لكوسوفا. ولكنها جاءت بإحباط كامل للألبان، فلم يأت بها سوى إشارات إلى ضرورة تغيير الدساتير اليوغوسلافية لضمان حقوق الإنسان، وصرّح مجلس الأمن الدولي بأن بقايا الحصار لن ترفع عن صربيا حتى تقوم بتحسين سجلها في موضوع حقوق الإنسان بكوسوفا.

ولم يعبأ ميلوسوفيتش بهذه الإشارات فقد خرج ميلوسوفيتش من اتفاقية دايتون أشد قوة، حيث مكّنته هذه الاتفاقية من الهيمنة المطلقة على صربيا وأطلقت قبضته الحديدية على كوسوفا. وداعبه الدبلوماسيون الغربيون وشكروه على تعاونه في جهود السلام. وأكدوا له أنه قد أصبح قوة إيجابية في منطقة البلقان لا يمكن الاستغناء عنها لاستمرار الاستقرار في المنطقة.

جيش تحرير كوسوفا:

جلبت الأوضاع الجديدة مزيدا من النقد لسياسة إبراهيم رجوفا وتصاعدت حدة الهجمات والانتقادات ضد سياسة المقاومة السلمية داخل حزبه وخارجه، وفي الوقت نفسه زادت وطأة الاحتلال الصربي وتصاعدت عملياته البوليسية ضد الألبان، وفي تلك الأثناء ظهرت تطورات جديدة في المقاومة الألبانية بعيدا عن سيطرة حزب الرابطة الديمقراطية.

فقد بدأت تتكرر حوادث إطلاق أعيرة نارية في قوات البوليس الصربي ولم تعلن أي جهة مسئوليتها عن هذه الحوادث، ولكن بحلول صيف ١٩٩٧ برز شيء اسمه «جيش تحرير كوسوفا»، كان أحد مسئوليه يقوم بلقاءات صحفية في سويسرا زاعما مسئولية هذا الجيش عن إطلاق النار على القوات الصربية في كوسوفا، وأعلن أن حركته المسلحة يؤيدها شعب كوسوفا، ومهما يكن حجم التأييد الذي كان يتمتع به هذا الجيش حينذاك، فإن هذه الحركة الجديدة تعبير مباشر عن الإحباط الناتج من شلل سياسة إبراهيم رجوفا وعدم قدرته على كسب أي اعتراف دولي بمصالح وحقوق كوسوفا.

اندلاع الحرب والمفاوضات:

أخذ التصعيد العسكري الصربي بعدا خطيرا ابتداء من أبريل ١٩٩٨ فيما بدا أنه سيناريو إبادة جماعية على غرار «التطهير العرقي» في البوسنة، حيث قصفت المدفعية الصربية عدة قرى ألبانية ودمرت منازلها وقتلت من السكان الآمنين ما قتلت وخرج الباقون فارين من الموت.. كل ذلك بحجة البحث عن معاقل جيش تحرير كوسوفا ومصادرة أسلحتهم، وكان من نتيجة هذه الهجمة الصربية المروعة خروج ما يقرب من ربع مليون لاجئ إلى العراء محاولين اللجوء إلى البلاد المجاورة وهي ألبانيا والجبل الأسود ومقدونيا والبوسنة. وهنا بدأت الدول الغربية تنتبه إلى الخطر الزاحف من صربيا على البلقان وأن من واجبها أن تفعل شيئا لوقفه.

من هنا جاءت جولات «ريتشارد هولبروك» المكوكية بين الصرب والألبان حيث وافق ميلوسوفيتش على بعض مقترحات هولبروك ملخصه في الآتي:

١ـ لابأس من وجود فريق دولي لمراقبة عودة اللاجئين في كوسوفا ولكن بدون أسلحة وألا يزيد عدده عن ألفي مراقب.

٢ـ انسحاب القوات الصربية في مراكز تجمع تحددها صربيا داخل كوسوفا (يعني إعادة انتشار).

٣ـ مفاوضات مع رجوفا ولكن بدون شروط ولا تدخل دولي.

٤ـ لا بأس من التعاون في تقديم المسئولين عن انتهاكات حقوق الإنسان.

٥ـ وقف إطلاق النار ولكن بعد أن يتم القضاء على إرهاب جيش تحرير كوسوفا.

وعلى عادة ميلوسوفيتش اتخذ من المفاوضات ستارا لتدبير هجمة جديدة على الألبان، حيث انقضت قواته المسلحة في عيد الميلاد المجيد لتقصف القرى والمدن الألبانية وتسقط المزيد من القتلى وتخرج المزيد من اللاجئين.

ومع الحشود العسكرية لقوات حلف الأطلسي والتهديدات اليومية لقادة الحلف بضرب وشيك للقوات الصربية عاد الصرب إلى مائدة المفاوضات في رامبويه الفرنسية، التي انتهت إلى عدد من النقاط أهمها:

منح كوسوفا حكما ذاتيا موسعا، ولكن رفضت صربيا أن تقوم بتنفيذ الاتفاق قوات مسلحة لحلف الأطلسي أو غيره، ورفضت بندا ينص على إجراء استفتاء عام بعد ثلاث سنوات من تنفيذ الاتفاقية يقرر فيه شعب كوسوفا مصيره: هل يبقى مع صربيا أم يقرر الاستقلال. ورفض ممثلو جيش تحرير كوسوفا الاتفاق في أول الأمر نظرا لخلوه من مبدأ التفاوض على الاستقلال، ولكنهم اقتنعوا أخيرا ـ تحت الضغوط الغربية ـ بضرورة التوقيع على الاتفاق لإبطال كل حجج ميلوسوفيتش، وحذرهم الدبلوماسيون الغربيون أنهم إذا لم يوقعوا على الاتفاق فلن يتدخل حلف الأطلسي عسكريا إذا رفض ميلوسوفيتش التوقيع عليه. فوقع الألبان جميعا على الاتفاق، ورفض ميلوسوفيتش بل استهان بإنذارات حلف الأطلسي الذي لم يجد مناصا من البدء في القصف مستهدفا أولا الدفاعات الجوية، ثم خطوط الاتصالات والإمدادات، وأخذ القصف يتصاعد تدريجيا ليشمل مخازن الذخيرة والبترول، وآخر مراحل التصعيد شملت تجمعات الدبابات والقوات الصربية في كوسوفا.

الموقف الراهن وتفسيراته:

ورغم مواصلة القصف استمرت القوات الصربية الأرضية في عمليات القتل والهدم وطرد السكان من المدن والقرى وإخلاء مناطق بأكملها من الألبان حتى بلغ عدد اللاجئين الفارين من الجحيم مليونا وثلاثمائة ألف لاجئ، ويقدر المراقبون أنه مع استمرار معدل اللجوء بهذا المستوى فسوف تفرغ كوسوفا تماما من سكانها المسلمين خلال بضعة أيام قادمة.

بهذا السيناريو المأساوي المروّع ترتفع علامات استفهام كبيرة فقد كان هدف القصف الأطلسي المعلن هو إيقاف العمليات العسكرية وإجبار الصرب على التوقيع على الاتفاق وقبول قوات دولية للإشراف على تنفيذه، وسحب القوات الصربية من كوسوفا. ولكن القصف لم يوقف العمليات العسكرية في كوسوفا بل جعل خطاها تتسارع بشكل جنوني لايصدق، ولم يبد حتى الآن أن ميلوسوفتش قد تراجع عن موقفه، وبدأت تعلو صيحات تؤكد أن القصف الأطلسي غير مجد مالم تعززه قوات برية. وفي نفس الوقت تأتي الإشارات والتصريحات الأمريكية واضحة بأن القوات الأمريكية لن تتدخل إلا في حالة اتفاق الأطراف على وقف أعمال العنف وقبول مقترحات السلام، عندئذ تتدخل القوات الأمريكية لتشارك مع الآخرين في تنفيذ اتفاقية السلام، وكأن الولايات المتحدة تضع العربة أمام الحصان وتلقي بالقضية في حلقة مفرغة.

لقد أتيح لي وأنا أتابع أحداث كوسوفا بانتظام أن أقرأ وأسمع حشدا هائلا من التحليلات والتعليقات على هذا السيناريو المحير الذي يشهده العالم الآن، وأبادر بالتأكيد أن كل هذه التعليقات لم تؤد عندي إلى رؤية واضحة ولا تفسير منطقي معقول، ويبدو أن الجميع لديهم أفكار جاهزة يتطوعون بها على الفور في حماس ظاهر لمجرد إثبات الحضور أو تفريغ شحنة انفعالية مؤرقة أمام تسارع الأحداث المأساوية، وقد بدا لي أن هذه التعليقات في مجملها يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع:

فهناك ـ أولا ـ أنصار نظرية المؤامرة، وهي هنا بين الغرب والصرب، أُتفق فيها على أن يقوم الغرب بالقصف الاستعراضي على مواقع صربية لا تؤدي إلى عجز أو شلل للآلة العسكرية الصربية وبذلك يخلّص الغرب ذمته أمام الرأي العام العالمي، ويمنح الصرب في نفس الوقت غطاء للقيام بعمليات الإبادة الجماعية للمسلمين لتفريغ كوسوفا من سكانها في أسرع وقت ممكن.

وهناك ـ ثانيا ـ من ركز اهتمامه على إشكالية الشرعية الدولية فهو يثير اعتراضات قانونية على حق حلف الأطلسي في التدخل العسكري متجاوزا الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ويرى فريق من أصحاب هذا الاتجاه أن الحل العسكري غير ممكن ولابد من العودة إلى المفاوضات وإلى الشرعية الدولية. ويبدو لي أن أصحاب هذا الاتجاه يتحدثون وعيونهم لا تنظر إلى كوسوفا وإنما إلى القصف الأمريكي للعراق والسودان وليبيا وغيرها.

وهناك ـ ثالثا ـ من يرى أنه لاضير من قصف الآلة العسكرية الصربية المفترسة لكبح ميلوسوفيتش وإضعاف قوته العسكرية لعلها تردعه عن مواصلة حربه ضد الشعب المسلم في كوسوفا، وحتى لا تمتد مغامراته العسكرية إلى دول أخرى مجاورة لا تملك قوة عسكرية قادرة على الصمود أمام مغامرات وأطماع ميلوسوفيتش التي لاتتوقف عند حد.

وأعتقد أن هؤلاء جميعا قد أصابوا جانبا من الحقيقة كما فاتتهم جوانب أخرى، ذلك لأنهم فيما يبدو ركزوا أنظارهم على بعض عناصر الموقف وأغفلوا عناصره الأخرى التي قد تكون أكثر أهمية وأحق بالأولوية، وأزعم أن أكبر خطأ وقع فيه الجميع أنهم بدءوا من منطلقات فهم ناقص لقضية كوسوفا أو من أفكار مسبقة عن هذه القضية أو عن الأطراف الفاعلة والمشتركة في حلها.

ولي في هذا السياق ملاحظات للمناقشة:

أولا: لا أحب أن أصدم أنصار نظرية المؤامرة ولكني ألفت نظرهم فقط إلى أن هناك تكتيكا بديلا يتلخص في إطلاق فعل محسوب من طرف قوي وردود أفعال متوقعة لطرف ضعيف بدون اتفاق سابق، يُستخدم هذا التكتيك لدفع الأحداث في مسارمعين تتحقق فيه أهداف تبدو

يحاول الصرب تصوير قضية كوسوفا على أنها قضية إقليم صربى، الصرب فيه هم السكان الأصليون، ولكن به أقلية وافدة من دولة مجاورة هى ألبانيا، جلبتها قوة أجنبية هى الدولة العثمانية إبان احتلالها للمنطقة، وقد نجح الصرب فى تسويق هذه الأكذوبة إلى العالم وإلينا

مشتركة لأول وهلة، ولكن يفوز الطرف الأقوى فى نهاية السباق بهدفه المرسوم، (غزو الكويت ومعقباته مثال على هذا التكتيك)، وهو يرتكز على أنظمة معلومات متقدمة فائقة القوة تتمتع بها الولايات المتحدة وتوظفها بكفاءة.

ثانيا: من الأفكار المسبقة عن قضية كوسوفا وهى عوائق تمنع الفهم الصحيح لأبعاد القضية أن يوغسلافيا اليوم هى ميراث تيتو الصديق الحميم لعبد الناصر وأحد أبطال الحياد الإيجابى، فى حين أن الموجود على الساحة ليس إلا صربيا الكبرى بنزعتها القومية الدموية وبعنصريتها المريضة التى دمرت يوغسلافيا تيتو وأبادت شعب البوسنة.

ثالثا: من الأخطاء الفكرية الشائعة أن كوسوفا جزء من صربيا ومن ثم اختصرت مأساتها إلى مسألة حقوق إنسان تجاوزتها الحكومة الصربية، وأن المقاومة الوطنية لكوسوفا هى تمرد مسلح على السلطة الشرعية، فى حين أن الوصف الصحيح للعلاقة بين صربيا وكوسوفا هو أنها علاقة دولة مستعمرة تمارس نظاما عنصريا قائما على الاحتلال الاستيطانى وطرد السكان على غرار الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية.

رابعا: كثير من الأحكام والمصطلحات التى يعالج بها الإعلام العربى قضية كوسوفا جاءت نتيجة الوقوع فى فخاخ الدعاية الصربية الذكية المؤسسة على طوفان من الأكاذيب اعتمادا على جهل العالم الخارجى بتاريخ المنطقة وما يحيط بها من غموض، وأقرب مثال إلينا ذلك السفير المبجل الذى جلس أمام شاشة التلفاز المصرى ليدعى بأن خروج الألبان من كوسوفا بعشرات الألوف ليس نتيجة العمل العسكرى الصربى المنظم وإنما خوفا من ضربات حلف الأطلسى!

خامسا: أنه مادامت أمريكا هى التى تقوم بالقصف متجاوزة الشرعية الدولية وقياسا على سوابق أخرى فى منطقتنا العربية فلابد أن يكون هذا عملا خاطئا لايجب السكوت عنه حتى لا تصل إلينا هذه البلطجة الدولية فى عقر دارنا عاجلا أو آجلا. هذه النظرة الضيقة تتجاهل خصوصية الوضع الكارثى فى كوسوفا والمأساة الإنسانية التى ينسحق فيها شعب بأكمله تحت عجلة آلة عسكرية شرسة تذكرنا بأيام الغزو التترى.

سادسا: مجلس الأمن منقسم على نفسه فلروسيا والصين موقف معلن وواضح ضد التدخل العسكرى من أى نوع فى كوسوفا، ولم تستطع روسيا وهى الصديقة الكبرى للصرب إقناع ميلوسوفيتش بالحل السلمى الذى اشتركت هى بنفسها فى وضعه مع مجموعة الاتصال الدولية فى رامبويه الفرنسية، ولن يقبل ميلوسوفيتش إلا بمقترحات ينفذها على هواه أو يتظاهر بتنفيذها بينما هو ماض فى خطته الجهنمية لإخلاء كوسوفا من سكانها المسلمين.

معنى هذا أن دعوة العودة إلى الشرعية الدولية وإلى مائدة المفاوضات رغم بريقها المنطقى هى دعوة إلى طريق الندامة الذى لايعود منه سالك. فإذا كان القصف الأطلسى خطأ وتجاوزا وإذا كانت الشرعية الدولية مشلولة ولاحلول عندها وإذا كانت المفاوضات مجرد لعبة يستفيد بها الصرب على طول الخط ولايعتزمون الالتزام بأى اتفاق ولن يتوقفوا عن تنفيذ مخططاتهم فى كوسوفا طال الوقت أم قصر، فماذا بقى إذن من حلول؟

لم أجد إجابة واضحة محددة عند أحد من المحللين أو المعلقين، ولكنى ألمح أفكارا تتصاعد وسط الزحام عن ضرورة تسليح جيش تحرير كوسوفا، وهنا أجد نقطة جديرة بالتأمل ولابد من الرجوع خطوة إلى الوراء لننظر فى سيناريو حرب البوسنة وما تقدمه من دروس فى هذا المجال.

فقد ظلت الولايات المتحدة طوال ثلاثة أعوام تهدد بقصف المواقع الصربية دون أن تفعل شيئا، وكانت هناك ضرورات ملحة ولحظات بالغة الحرج، كان القصف الجوى لازما لتحييد الدبابات والمدافع الثقيلة، حيث كان البشناق يملكون جيشا مدربا على درجة معقولة من التسليح ولو أن أمريكا نفذت ضرباتها الجوية لتمكن هذا الجيش من تحرير البوسنة، ولكنها لم تتدخل إلا عندما شعرت أن البشناق تحولوا إلى الهجوم التكتيكى المؤثر وأن مواصلة الحرب لم تعد فى مصلحة الطرف الصربى.

أما فى حالة كوسوفا، فقد حرصت أمريكا على ألا تتسرب إلى جيش تحرير كوسوفا أسلحة مؤثرة ولاخبراء عسكريون لتدريب أفراده، ولكنها سارعت إلى القصف الجوى وظلت تصعدّه طوال الأسابيع الثلاثة الماضية، ومع الحشود العسكرية الصربية التى تكتسح القرى والمدن بدا جيش تحرير كوسوفا مشلولا عاجزا عن أى مواجهة ولو كان قد حصل على السلاح والتدريب لكان له شأن آخر فى كبح الصرب وإعاقة التطهير العرقى الذى بلغ أقصى مداه.

فهل هذه تجربة جديدة تجربها الولايات المتحدة وحلف الأطلسى: قصف جوى بدون قوات أرضية تدعمه من جانب الكوسوفيين؟ أم نقول إنه قصف مبرر لردع المعتدين ثم ننتظر النتائج العملية التى ستترتب عليه لنبدأ فى تحليل الحصاد؟ أم نميل إلى فكرة المؤامرة؟ أم نقول إنه إرباك مقصود لزلزلة العقول وإلقائها فى دوامة من الحيرة؟ أم ننطوى على أنفسنا ونغلق أعيننا ونطمئن أنفسنا بأن الطوفان بعيد عنا حتى الآن، وياهناء من يعيش؟

أقول إذا كنا لانملك شيئا نساعد به شعب كوسوفا الذى يغوص فى أعماق كارثة إنسانية تدمى القلوب، فعلى الأقل نملك الرفض أن تمتهن عقول مثقفينا باستسلامها لآلة الدعاية الصربية، ونملك القدرة على فهم القضية وإعادة النظر فى المسلمات المريحة التى تشل قدرتنا على الإدراك الصحيح والحكم الصحيح، ويقينى أن ميلوسوفيتش زائل، أما شعب كوسوفا المسلم فله ربٌ يدبر أمره، وسيعود هذا الشعب إلى أرضه لمواصلة النضال كما فعل دائما عبر تاريخه الطويل. ■

كتاب الزاوية

الساق على الساق

فى إطلاق بحر

فأما أنت ياسيدى الغنى فالأولى لك أن تسافر من مدينتك العامرة حتى ترى بعينيك ما لم تره فى بلدك. وتسمع بأذنيك مالم تسمعه. وتختبر أحوال غير قومك وعاداتهم وأطوارهم وتدرى أخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم. ثم تقابل بعد ذلك بين الحسن عندهم وغير الحسن عندنا. ومتى دخلت بلادهم وكنت جاهلا بلغتهم فلاتحرص بحقك على تعلم كلام الخَنَى منهم أولا. أو تستحلى الأسماء من أجل المسميات. فإن كل لغة فى الكون فيها الطيب والخبيث. إذ اللغة إنما هى عبارة عن حركات الإنسان وأفعاله وأفكاره. ومعلوم أن فى هذه ما يُحمد وما يذم، فأجلّك عن أن تكون كبعض المسافرين الذين لايتعلمون من لغات غيرهم إلا أسماء بعض الأعضاء وعبارات أخرى سخيفة. لا بل ينبغى لك حين تدخل بلادهم سالما أن تقصد قبل كل شىء المدارس والمطابع وخزائن الكتب والمستشفيات والمخاطب، أى الأماكن التى يخطب فيها العلماء فى كل الفنون والعلوم فمنها ما هومعد للخطابة فقط ومنها ما يشتمل على جميع الآلات والأدوات اللازمة لذلك العلم. وإذا رجعت بحمده تعالى إلى بلدك فاجتهد فى أن تؤلف رحلة تشهرها بين أهل بلادك لينتفعوا بها ولكن من دون قصد التكسّب ببيعها. وياليتك تشارك بعض أصحابك من الأغنياء فى إنشاء مطبعة تطبع فيها غير ذلك من الكتب المفيدة للرجال والنساء والأولاد ولكل صنف من الناس على حدته. حتى يعرفوا مالهم وماعليهم من الحقوق. سواء كانت تلك الكتب عربية أو معرّبة. ولكن احذر من أن تخلط فى نقلك عن العجم الطيب بالخبيث والصحيح بالمعتل. فإن المدن الغنّاء تكثر فيها الرذائل كما تكثر الفضائل. نعم إن من هؤلاء الناس لمن يأبى أن يرى أحدا وهو على الطعام. وإذا اضطر إلى رؤيته وهو فى تلك الحالة فلايدعوه للَوْس شىء مما بين يديه. لكن منهم من يدعوك إلى صرحه فى الريف فتقيم فيه الأسبوع والأسبوعين وأنت الآمر الناهى.

وإن منهم لمن يبخل عليك برد التحية، وإذا دخلت دار صديق منهم وكان فى المجلس جماعة من أصدقائه لم يعرفوك من قبل فما أحد يتحلحل لك فى القيام. ولايعبأ بك ولا يلتفت إليك. لكن منهم من إذا عرفك اهتم بأمرك فى حضورك وغيابك على حد سوى. وإذا ائتمنته على سرّ كتمه لك طول حياته.

«ســوروس» يحــذر

[١]

على نحو لم يسبق له مثيل شهدت حقبتا الثمانينيات والتسعينيات اتساع دائرة التعامل في الأصول المالية (من أسهم وسندات)، ومشتقاتها من عقود آجلة وعقود خيارات، ودخلت مجموعة جديدة من المدخرين: صغاراً من أبناء الطبقة الوسطى وكباراً مثل صناديق التامينات والمعاشات أسواق المال والبورصات العالمية المفتوحة على مصراعيها في ظل العولمة في البلدان المتقدمة وفي الأسواق الناشئة. وارتفعت كتلة الأموال والمدخرات «بلا حدود» التي يتم المخاطرة بها والمضاربة بها في أسواق المال، وراء «التكاثر المالي» المنفصم تماماً عن عمليات التراكم الإنتاجي، والذي أصبح سمة مميزة للتطور الرأسمالي الحديث في ظل صعود «رأس المال المالي» واتساع شبكة شركات السمسرة والوساطة المالية، وصناديق الاستثمار و«صناديق التحوط» (Hedge funds).

وربما كان الذي أعطى دفعة قوية لعمليات العوْلمة المالية خلال الثمانينيات والتسعينيات هو أن ٣٨٪ من مدخرات وثروات القطاع العائلي في الولايات المتحدة الأمريكية و ٥٦٪ من أموال صناديق التامينات والمعاشات مستثمرة في أسهم وأوراق مالية.

وخلال التسعينيات، اتسع حجم الإتجار في «المشتقات المالية» التي تعتبر أداة مهمة من أدوات المضاربة المستقبلية، من خلال «عقود المقايضة»، و «العقود المستقبلية على العملات»، و «عقود الخيار»، وخاصة بالأسهم والعملات، وغيرها من التباديل والتوافيق التي تم استحداثها خلال السنوات الأخيرة. ولقد تصاعد حجم هذه المعاملات بشكل خطير في أوائل التسعينيات، ليرتفع من ٢٩٢ مليار دولار أمريكي عام ١٩٩٠ لتصل إلى نحو ٨٥٠ مليار دولار أمريكي خلال النصف الأول من عام ١٩٩٤ وحده، كما سجل متوسط النمو السنوي لهذه المعاملات ٤٧٪ بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤.

ولقد ساعد على حدوث تلك التحولات الهائلة في مجال حركة الأموال في ظل العولمة ذلك التوسع الكبير في شبكة الاتصالات الإلكترونية التي سهلت عملية إعادة تدوير الأموال «خاصة رؤوس الأموال قصيرة الأجل» بين جميع أرجاء العالم على مدار الأربع والعشرين ساعة. إذ إن تلك الأموال تتحرك بسرعة تقترب من «سرعة الضوء» ما بين نيويورك، زيورخ، لندن، طوكيو، وغيرها من المراكز المالية المتقدمة، حيث لم يعد للمال أية هوية وطنية محدودة!

ولعل هذا التطور يكرس تلك «الانفصامية» المتزايدة، التي تسود منذ السبعينيات، بين حركة التجارة الدولية في السلع الحقيقية والخدمات، من ناحية، وحركة الأموال والعملات المتحركة بسرعات مذهلة، من ناحية أخرى. ففي عام ١٩٩٥، على سبيل المثال، بلغ حجم «الإتجار في العملات» نحو ١,٢ تريليون دولار في اليوم الواحد .. وهو رقم يشكل نحو خمسين ضعفاً من قيمة التجارة الدولية في السلع والخدمات الحقيقية، بينما كان هذا الرقم لا يتجاوز ستة أضعاف فقط في أوائل السبعينيات، وهذا يؤدي بدوره إلى اشتعال نيران المضاربات المالية التي يديرها مضاربون محترفون لا يهمهم سوى الربح الأقصى دون مراعاة للأضرار والهزات التي تلحق بالاقتصادات النامية.

وفي ظل هذه «السكرة المالية»، اندفعت أعداد وفئات عديدة من المدخرين ومن المضاربين المحترفين إلى دخول لعبة «الحظ والمصادفة» في أسواق المال العالمية، وعندما انهارت الأسواق المالية في آسيا خلال صيف عام ١٩٩٧، جاءت التحليلات من البلدان الرأسمالية المتقدمة لتلقي بالمسئولية على قلة الخبرة للمؤسسات المالية في تلك البلدان، وضعف القطاع المالي، وانعدام رقابة البنوك المركزية، والفساد، وغير ذلك من المسببات. وصدق البعض هذه التحليلات لفترة، وكأن الأزمة ليست «أزمة النظام المالي الجديد» في مجمله، الذي عجز عن التأمين ضد مخاطر السوق المالية المتزايدة وغير المحسوبة، وعدم كفاية رأس المال للشركات المالية و «صناديق التحوط» لتغطية مخاطر السوق غير المتوقعة.

واستمرت عربة المضاربات المالية، تسير بسرعات جنونية، والنشاط يجري بشكل محموم..حتى وقعت الواقعة وانهارت أكبر الشركات المالية لإدارة المخاطر في الأصول المالية في الولايات المتحدة المسماة شركة (LTCM) إدارة رأس المال طويلة الأجل» وكانت تلك الشركة تتعامل في محافظ مالية في حدود ٢٠٠ مليار دولار أمريكي. وتلك الشركة التي أصبحت على حافة الإفلاس، هي «الشركة - النجم» على الصعيد العالمي، وفي قلب العالم المتقدم الذي ابتدع هذه الفنون ويعرف أسرارها بل وأدهى من ذلك، أن هذه الشركة المالية الكبيرة التي كادت تفلس في وضح النهار يشارك في ملكيتها وإدارتها اثنان من أكبر علماء الاقتصاد في مجال «الاستثمار في المشتقات المالية» هما الأستاذان ميرتون وشولز الحاصلان على جائزة نوبل في العلوم الاقتصادية عام ١٩٩٧، لقيامهما بتطوير أدوات تحليلية ونماذج رياضية(Value at risk) للتحوط ضد المخاطر المالية لهذا النوع من الأصول والصكوك المالية.

وهكذا اقترب «الاقتصاد المالي الحديث» من الممارسات التي أسماها اللورد كينز في الثلاثينيات «اقتصاد الكازينو». والطريف في الأمر، أن هناك ورشة عمل تم تخصيصها في «منتدى دافوس» في شهر يناير ١٩٩٩، لمناقشة ظاهرة «رأسمالية الكازينو». وقد تحولت تلك الورشة إلى جلسة استجواب لرجل الأعمال والمضارب المالي الشهير «جورج سوروس». وتعبير «اقتصاد الكازينو» هذا صاغه في البداية اللورد كينز في كتابه «النظرية العامة» الصادر عام ١٩٣٦، حيث تحدث عن اقتصاد البورصات والمضاربات التي تطفو «كالفقاعات»، على سطح الاقتصاد العيني الحقيقي. وبينما كان حجم تلك المعاملات محدوداً ومتواضعا أيام كينز، فلقد توسع نشاط «اقتصاد الكازينو» بشكل هائل في عالمنا المعاصر، وبلغ الحجم اليومي لتلك المعاملات المالية أضعاف أضعاف حجم التجارة في السلع والخدمات الحقيقية، ومن هنا كانت الأزمة!

[٢]

أصبح جورج سوروس، الأمريكي الجنسية والمجري المولد والمنشأ، رجلاً له سمعة دولية كبيرة، باعتباره أكبر المضاربين الماليين في العالم. فهو الرجل الذي بدأ اسمه يدخل «دائرة الشهرة» بعد عمليات المضاربة الواسعة التي قام بها على الجنيه الإسترليني عام ١٩٩٢، وحقق من خلالها أرباحا هائلةً وصلت إلى مليار دولار أمريكي، ثم عاد اسمه يدخل «دائرة الضوء» من جديد، بعدما اتسعت دائرة مضارباته المحمومة على «العملات الآسيوية» (التايلاندية، الماليزية، الإندونيسية) خلال النصف الأول من عام ١٩٩٧، مما أدى إلى تعميق «الأزمة المالية» في بلدان جنوب شرق آسيا .. وأدى إلى انهيارات متسارعة في عملاتها.

و «جورج سوروس» يود أن يقدم نفسه، من وقت لآخر، كمفكر يتأمل في شئون المال والاقتصاد العالمي. وهو، بالإضافة إلى كونه مضارباً مالياً محترفاً، درس في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية، ويعتبر نفسه تلميذاً للفيلسوف الليبرالي «كارل بوبر»، صاحب مدرسة «المجتمع المفتوح» The Open Society، كما أن له كتابات متفرقة سابقة، أهمها كتاب صغير عنوانه «كيمياء سحر المال» *(The Alchemy of Finance)*، ومعناه باللغة المصرية الدارجة «كيمياء تحويل التراب إلى ذهب» الصادر عام ١٩٩٤، والذي يحمل عنوانا فرعيا له دلالة «قراءة في عقل السوق».

وآخر تجليات «جورج سوروس» هو كتابه الأخير الهام عن «أزمة الرأسمالية العالمية» *The Crisis of Global Capitalism*، الذي نشرت صحيفة التايمز البريطانية فصولا منه، ثم صدر بشكله الكامل يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٩٨ وهذا الكتاب الهام يجئ في وقته تماماً في ظل الأزمة الراهنة للنظام المالي الدولي، إذ يشهد «شاهد من أهلها» ويقدم رؤيته العملية والنقدية في آن واحد لعمليات وممارسات العولمة المالية وأدواتها وآلياتها وحدودها التاريخية.

ويقع كتاب سوروس في جزءين، أطلق على أولهما عنوان «الإطار المفاهيمي»، وهو يتضمن محاولة تقديم طرح نقدي للفكر الاقتصادي السائد حول أساليب التحليل الاقتصادي، وخاصة مفهوم «التوازن» الذي يحتل مكانة مركزية في التحليل الاقتصادي المعاصر، وكذا لآلية عمل أسواق المال.

وعلى الصعيد النظري، يرى «سوروس» أن مفهوم «التوازن» في التحليل الاقتصادي هو مفهوم مستعار من العلوم الطبيعية، ويصلح لحركة الأجسام والجزيئات، ولا يصلح لفهم ومقاربة حركة الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يرى «سوروس» أنها تخضع لما يسميه «التأثيرية» (Reflexivity)، حيث هناك عملية «تغذية عكسية» (Feed-back) مستمرة بين الواقع الاقتصادي وردود فعل اللاعبين الاقتصاديين (منتجين - مستهلكين - مستثمرين - مضاربين - حكومات - مؤسسات مالية). وهذا المفهوم الذي أفاض «سوروس» في وصفه وإيضاحه، يقترب كثيراً من مفهوم نظرية المباريات (Game Theory) في مجال السلوك الاقتصادي في صياغاته الراقية على أيدي عالمي الرياضيات فون نيومان ومورجنشترن عام ١٩٤٤.

ويرى سوروس أن أحد أهم أسباب فشل النظريات الاقتصادية السائدة هو أنها تتعامل مع القوى التي تحكم الظواهر الاقتصادية على أنها تماثل القوى أو القوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية (مثل قانون الجاذبية

عندما يوحي سوروس
في كتابه بالتعجيل بإصلاح النظام
المالي الدولي وعدم ترك الأوضاع الراهنة
دون ضبط وضرورة التدخل في أسواق المال لحمايتها
من المضاربين.. فكأنه يقول لراسمي السياسات:
امنعوني من أن أكون أنا نفسي، كما أنه يؤكد بالحرف
الواحد أن هدفه حماية الرأسمالية المعولمة
من أن تحطم نفسها بنفسها

The Crisis of Global Capitalism

(أزمة الرأسمالية العالمية)

George Soros

New York:Public Affairs, 1998.



العالم من نفسه!

محمود عبد الفضيل

الكارثة المقبلة للرأسمالية

«السداح مداح»!

الأرضية) والتى لا تخضع لسيطرة الإنسان. وهنا ـ فى تقديره ـ مكمن فشل أيديولوجية «الأسواق الحرة».

ويحتوى هذا الجزء «المفاهيمى» على إسنادات عديدة إلى منهجية كارل بوبر فيلسوف العلم الشهير ـ الذى يرى سوروس نفسه أحد حوارييه ـ وخاصة فيما يتعلق بأساليب اختبار الفروض ودحضها فى العلوم الاجتماعية. فهو يرى أنه لا حاجة لنا على سبيل المثال على الإصرار «أن الشمس سوف تشرق دوماً من الشرق مادام أنها فعلت ذلك كل يوم فى الماضى حتى الآن»، وإنما يكفينا الإقرار ـ المشروط والمؤقت ـ بصحة هذه الفرضية حتى يستجد ما يُقوّض صحة هذه المقولة. وذاك هو المنطق الذى نرى سوروس يطبقه فيما بعد على نظرية «نظام الاقتصاد الحر».

ومن هذا المنظور، فإن المشاركين فى «اقتصاد السوق» لا يتحركون فى الأسواق وفقاً لقواعد وقوانين صارمة مثل حركة الجزيئات فى «ميكانيكا الكم» (Quantum mechanics). بل هم يتأثرون فى حركتهم بما فى أذهانهم من تصورات ومعتقدات (وأضيف من عندى: ما يسمعونه من شائعات). وبالتالى فهم يخضعون لتلك «التأثيرية المتبادلة»، أى تبادلية التأثير بين الواقع والفكر أو المعتقد. ولهذا فإن التحليل الاقتصادى المعاصر القائم على مفهوم «التوازن» المستقر وأن الانحراف عن «نقطة التوازن» هو عملية مؤقتة سوف تصحح نفسها بنفسها مثلما يحدث لحركة البندول، هو محاولة فاشلة لمحاكاة العلوم الفيزيائية والطبيعية وميكانيكا نيوتن. كذلك فإن الهروب إلى الصياغات الرياضية المنمقة التى توحى باتساق البنية المنطقية «للنموذج الرياضى» المفترض أنه يحكم سلوك الظواهر الاقتصادية، هو فى نهاية الأمر بناء هش يستند على مجموعة من الفرضيات «غير القابلة للبرهنة». (Axioms) فالبحث عن «نقطة التوازن» فى الواقع الاقتصادى المتحرك هو أشبه بالجرى وراء هدف متحرك يتغير مسار حركته فى كل لحظة، نتيجة تفاعل عوامل عدة ومتداخلة.

ويعترف سوروس أنه لم يهتم يوماً بالكتابات الأكاديمية ذائعة الصيت حول «نظريات الأسواق ذات الكفاءة» (Theories of Efficient Markets) ونظريات التوقعات الرشيدة (Theories of rational expectations) لخلو هذه النظريات من أية فائدة عملية أو دليل عمل يرشده فى نشاطه. وهو يرى أن الفهم الحقيقى لأسواق المال يحتاج إلى نموذج تفسيرى جديد، يأخذ بعين الاعتبار «التأثيرية المتبادلة»، وكذا البعد التاريخى للأحداث باعتبار أن هذه الصفقات الاقتصادية والمالية تتم فى إطار زمنى معين، وليست بمعزل عن حركة التاريخ وسيكولوجية اللاعبين. كما يجب أن يأخذ بعين الاعتبار «نظام القيم» و«التفضيلات» لدى الأفراد والجماعات التى تشارك فى اقتصاد السوق. والدليل على فشل النموذج الراهن القائم على «المنطق الرياضى» هو عدم فهم الأزمة الاقتصادية والمالية فى اليابان، دون فهم التاريخ والثقافة الخاصة بهذا البلد.

ولكنه رغم ذلك الحشد الفكرى والفلسفى الكبير الذى يحفل به الجزء الأول من الكتاب. فهو ينطوى على قدر لا بأس به من «استعراض العضلات الفكرية» والدخول فى استطرادات فلسفية مستفيضة لا تخلو من شىء من الادعاء، لأن معظمها لا يعد مدخلاً لا غنى عنه لفهم الجزء الثانى من الكتاب. الذى يعكف على تحليل الأزمة الراهنة لنظام الرأسمالية فى طور العولمة. فلقد أنفق سوروس زهاء المائة صفحة كمقدمة فلسفية للتحليل المتضمن فى الجزء الثانى من الكتاب. وهو الجزء الذى يتمتع سوروس فيه بميزة نسبية عالية. ولقد كان من السهل ضغط هذه الصفحات المائة فى فصل واحد يقدم الخلفية الفكرية والفلسفية اللازمة، بدلاً من الفصول الخمسة التى اشتمل عليها الجزء الأول. ناهيك عن أن جانباً كبيراً مما أورده سوروس فى نقد نظريات ومفاهيم التوازن فى التحليل الاقتصادى المعاصر ليس بالجديد، حيث سبق طرح هذه الأمور بشكل أعمق وأكثر نفاذاً فى المعالجات النقدية لأساتذة «مدرسة كمبريدج» (إنجلترا) فى الستينيات والسبعينيات من هذا القرن. وعلى رأسهم أساتذتنا جون روبنسون ونيكولاس كالدور وبييرو سرافا وآخرون.

ويبشر سوروس فى نهاية الجزء النظرى من كتابه بمقولة «المجتمع المفتوح»، التى دشنها أستاذه كارل بوبر. باعتبار هذا المجتمع يمثل «نموذجاً مثالياً» لما يرنو إليه البشر ليكون بمثابة المجتمع الفاضل الذى يجب أن يتأسس على أنقاض كل من «الشيوعية» من ناحية، و«نظام الاقتصاد الحر» من ناحية أخرى. وهو مجتمع يقوم على ديمقراطية المشاركة وعلى اقتصاد سوق تحكمه آلية تضبط أسواقه خاصة المالية منها. كما يستدعى الأمر وجود ترتيبات مؤسسية لم يدخل فى تفصيلاتها. وإن اكتفى بذكر أنها غير مفروضة من أعلى ـ تعمل على حفظ السلام والنظام العام والقانون على الصعيد العالمى ككل. وبهذا يضيف «سوروس» «يوتوبيا جديدة» إلى ما سبقها من «يوتوبيات» فى الفكر السياسى والمذهبى العالمى.

[٣]

وعلى عكس الجزء الأول، يتألق «سوروس» فى الجزء الثانى من كتابه الذى عنوانه: «اللحظة الراهنة فى التاريخ». إذ يشكل هذا الجزء المساهمة الرئيسية للكتاب. وهنا يحشد «سوروس» كل ما يملك من خبرة وذكاء وأرقام ومعلومات. فهو يروى لنا وقائع جديدة ويزيح الستار عن بعض الأسرار فى عالم المال.. وحول خلفيات الأزمة المالية فى آسيا وروسيا والبرازيل .. فتكتمل الصورة أمام أعيننا، ونغوص معه فى عالم المال والمغامرات والمقامرات والمراهنات، وكأننا نشاهد فيلماً سينمائياً مثيراً.

ورغم الصلة الواهية التى يسعى سوروس لإقامتها بين الجزءين الأول والثانى من كتابه، فإنه ينتقل فى الجزء الثانى فوراً إلى أعماق وتلابيب النظام الرأسمالى فى طوره المعَوْلم. ويعترف سوروس بداءة بأن هنالك بالفعل اقتصاداً معولماً، وأنه أشبه ما يكون بنظام الإمبراطوريات الكبرى. ولكنه يغطى رقعة جغرافية من العالم أكثر من أية إمبراطورية مضت، ويقدم نفسه «كحضارة جديدة» متكاملة الأركان، وكل من يقع خارجها يعتبر فى حكم المتخلفين أو «البرابرة الجدد»! ورغم أن «امبراطورية العولمة» هذه لا تمتلك هياكل سيادية رسمية، وليس لها «سلطان سياسى» على أراض محددة، إلا أنها تتحكم فى العقول والنفوس والسلوكيات، بل إن جانباً كبيراً من رعاياها لا يدركون مدى خضوعهم لقوانينها وأحكامها!

ويرى سوروس أن تلك المشابهة مع النظام الإمبراطورى ملائمة تماماً، نظراً لأن «نظام

في ظل «السكرة المالية» التي سادت العالم في منتصف التسعينيات بلغ حجم «الاتجار في العملات» نحو ١,٢ تريليون دولار في اليوم. واندفعت فئات من المدخرين والمضاربين المحترفين إلى دخول لعبة «الحظ والمصادفة» في أسواق المال

العولمة» له مركز في البلدان المتقدمة (مجموعة الدول الصناعية السبع)، وله أطراف (Periph-ery) تسمى عرفاً «بالأسواق الناشئة»، وحيث يلعب المركز دور المصدر والمورد لرأس المال والتكنولوجيا بينما بلدان الأطراف هي المتلقية والمستقبلة للأموال وللتكنولوجيا الحديثة. وتحدد بلدان المركز «قواعد اللعبة» التي تسير عليها الأطراف الأخرى، كما تعين «الحكم» و«حامل الراية». وتدريجياً تتغلغل «قيم العولمة» القادمة من المركز في حياة المجتمعات والنظام السياسي في بلدان الأطراف، وأصبحت تتجاوز مجال الاقتصاد لتصل إلى الثقافة والسياسة والعادات والتقاليد! وعندما نستمع إلى ذلك التوصيف من «سوروس»، فكأننا نستمع إلى أصداء صوت عالم ماركسي مثل جوندر فرانك أو إيمانويل والرستين، أو اقتصادي من مدرسة أمريكا اللاتينية (ECLA) مثل سلسلو فوتادو أو دوس سانتيوس.

ويحاول سوروس جاهداً تحديد لحظة تبلور ظاهرة العولمة في مسيرة التطور الرأسمالي المعاصر. إذ إنه - في تقديره - أن حرية التجارة التي سادت لقرون طويلة في مجال السلع والخدمات لا تكفي وحدها لخلق نظام اقتصادي معَوْلم. فإذا كانت الأرض والموارد الطبيعية غير قابلة للانتقال فضلاً عن أن هناك صعوبات جمة تواجه «التنقلية» الكاملة للبشر فيما بين البلدان المختلفة، لذا تصبح حركة وحرية انتقال رأس المال، وتدفق المعلومات، وحركة المنظمين ورجال الأعمال هي التي تُكسب الرأسمالية سمة «العوْلمة» في صورتها الراهنة.

ويعترف سوروس صراحة بالدور المركزي والمهيمن لرأس المال المالي (Financial Capital)، وأنه يحتل اليوم مقعد القيادة للنظام الرأسمالي المعولم. إذ أن النظام الرأسمالي في طوره الراهن، يخضع بدرجة كبيرة لمتطلبات حركة وحرية انتقال «رأس المال المالي» بصوره وأشكاله المتعددة. فلم تعد الشركات المتعدِّية الجنسية، رغم قوتها ونفوذها، تتمتع بنفس قوة شبكة اللاعبين الماليين الكبار الذين يديرون المحافظ المالية عبر أسواق العالم وبصفة خاصة: بنوك الاستثمار، بيوت السمسرة الدولية، صناديق التحوط، وصناديق استثمار أموال التأمينات والمعاشات. ثم يأتي على رأس تلك المنظومة ما يسمى مؤسسات التقييم المالي الدولية مثل: «مودي» ، و«ستاندرد آند بورز» Moody, Stan-dard and Poors, EBECA، التي تنصب نفسها حكماً دولياً ترفع من تشاء وتهبط بمن تشاء.

ويرى سوروس أن هذا الطور الجديد لصعود «رأس المال المالي» يعود إلى بداية نشوء أسواق «اليورو - دولار» (Euro-dollar markets) عند نهاية السبعينيات، والتي دعمها بعد ذلك قدوم «التاتشرية» في بريطانيا و«الريجانية» في الولايات المتحدة في بداية الثمانينيات. حيث تم إسقاط العديد من القواعد المنظمة لتدخل الدولة في الأسواق (Deregula-tion).

وفيما يتعلق بدور النقود في المرحلة الراهنة من التطور الرأسمالي. يلاحظ «سوروس» بذكاء أن وظائف النقود الثلاث التقليدية: كوحدة للحساب، وأداة لتسوية المعاملات، ومخزن للقيم رغم أهميتها، يجب ألا تخفى عن أعيننا «الوظيفة الأهم» للنقود في عالمنا المعاصر «كمصدر للقوة»، وكغاية في حد ذاتها. وبالتالي أصبح محور سلوك اللاعبين الاقتصاديين هو «صناعة مزيد من المال» وأصبح «التكاثر المالي» هو الهدف الرئيسي والشغل الشاغل لمديري الشركات، ومديري صناديق الاستثمار ومديري المحافظ المالية. وهكذا في ظل «عولمة المال»، انحسرت القيم المعنوية وتراجعت الأهداف الاجتماعية «غير المالية»، على حد تقييم «سوروس».

ويشير سوروس إلى أن «الإقراض والائتمان» يشكلان مصدرا مهما لانعدام الاستقرار المالي في ظل الاقتصاد الحر. ذلك أنه يعمق من حدة التقلبات الدورية في النشاط الاقتصادي والمالي. ووفقاً للنموذج المعروف للدورات الاقتصادية، حيث تتعاقب فترات الازدهار (Boom) وفترات الانكماش والتراجع (Bust)، يلعب الاقتراض والائتمان دور المغذي للتوسع بل الإفراط في التوسع في فترات الازدهار، (كما يشهد بذلك الانتعاش في سوق العقارات)، بينما في ظروف الأزمة تكون هناك مغالاة في تقييد الائتمان وقطع خطوطه (Cred-it Crunch)، مما يعمق من حدة الأزمة الاقتصادية، ويعوِّق العودة إلى الانتعاش الاقتصادي كما شهدنا مؤخراً في بلدان الأزمة الآسيوية قبل وبعد حدوث الأزمة في صيف ١٩٩٧.

كما يلعب الاقتراض وخطوط الائتمان الدولي دوراً خطيراً في هذا المجال، لأنها لا تخضع لنفس قواعد الرقابة (أو الإشراف) الذي يخضع له الائتمان المحلي الذي تشرف عليه البنوك المركزية والسلطات النقدية عموماً. ويرى «سوروس» أن الضوابط الحالية غير كافية لتنظيم حركة وتدفقات الإقراض الدولي غير المنضبط. فرغم وجود ما يسمى بمقررات بازل التي وضعت عام ١٩٨٨ بواسطة بنك التسويات الدولية في زيورخ، فإن القواعد الدولية المنظمة لحركة رؤوس الأموال قصيرة الأجل لم تعد كافية (أو ناجحة) في التعامل مع التدفقات المالية الهائلة في أسواق المال المعَوْلمة.

وهنا يمتلك «سوروس» الشجاعة الأدبية ليقول أن الأزمة المالية العالمية الراهنة تعود مسبباتها إلى أمراض وفيروسات كامنة في صميم بنية النظام المالي المعَوْلم (ص ١٣٨). وذلك على عكس ما يقول به غلاة الليبراليين المدافعين عن النظام الراهن. حيث يروجون لمقولة أن الأزمة الراهنة لا تعدو عن كونها أزمة «سوء إدارة» و«عدم كفاءة» للقطاع المالي والمصرفي في أسواق المال الآسيوية الناشئة.

ويعرج «سوروس» في الفصل السابع من كتابه على مسببات الأزمة المالية في آسيا، لينقل لنا صورة نابضة بالتاريخ الحي لتطور تلك الأزمة التي مازال غبارها يملأ الأفق حتى الآن. وبهذا الصدد، يقول «سوروس» أنه في بداية عام ١٩٩٧ كان واضحاً لديه ولدى مديري صناديقه الاستثمارية أن أسلوب تمويل فجوة «الميزان التجاري» في تايلاند من خلال «حساب رأس المال» أصبح غير قابل للصمود والاستمرار. وبالتالي أبرمت «صناديق سوروس» عقود بيع مستقبلية للعملة التايلاندية والماليزية في أوائل عام ١٩٩٧ تحل آجالها بعد ستة أشهر أو بحد أقصى عام من تاريخ إبرام العقد.

والسر الذي يذاع لأول مرة، هو أن «صناديق سوروس» لم تكن تمتلك آنذاك العملات التايلاندية والماليزية التي تعاقدت على بيعها عند آجال مستقبلية بخصم، بل شرعت في شرائها لاحقاً عندما بدأت تلك العملات في الانهيار لتحقيق أرباح مستفيدة من الفرق بين «السعر الأعلى» المتعاقد عليه في الآجل المستقبلي وبين «سعر الشراء» المنخفض الذي نتج عن الانهيار الكبير لتلك العملات الآسيوية. وهكذا تبدو «العقود المستقبلية» للعملات إحدى أدوات المضاربة المالية الهامة في الأسواق المفتوحة على النحو الذي أفصح عنه سوروس.

وما حدث في تايلاند، وما تبعه من انهيارات في بلدان آسيا الأخرى كماليزيا وإندونيسيا وكوريا الجنوبية، نتيجة تداخل وتشابك تلك الاقتصادات، إنما يمثل تحذيراً واضحاً للبلدان النامية التي تعاني من خلل واضح في «الميزان التجاري» يقابله تآكل في مصادر تمويل «الحساب الجاري» و«حساب رأس المال»، مما يؤثر على استقرار سعر صرف العملة الوطنية، ودرجة مناعتها إزاء هجمات المضاربين المحترفين. فالمضاربون يقرءون الكف ذات الخطوط الواضحة، ولا يقرءون الفنجان!

ورغم الطابع العالمي للأزمة المالية في سياقها الآسيوي أو الروسي أو البرازيلي، فإن «سوروس» يشير إلى نقطة هامة تتعلق بهشاشة الهيكل المالي للشركات الخاصة في بعض البلدان الآسيوية الناهضة، ولا سيما كوريا الجنوبية، نتيجة الطبيعة العائلية المغلقة لبعض الشركات القابضة الكبرى التي تسمى (Chaebol). فقد تم الاعتماد المفرط على الاقتراض من القطاع المصرفي في الداخل وأسواق المال في الخارج بدلاً من إصدار الأسهم للاكتتاب العام، كمصدر للتمويل والتوسع حتى لا تفقد تلك العائلات السيطرة على الملكية والإدارة. وقد أدى هذا بدوره إلى ارتفاع نسبة الاقتراض إلى حقوق الملكية التي وصلت في المتوسط إلى نحو ٤٠٠٪ عام ١٩٩٦ في كوريا الجنوبية. وظاهرة مثل هذه الشركات نجد مقابلاً لها في الواقع الاقتصادي المصري المعاصر.



والآلية الأخرى التي أدت إلى سرعة انتشار عدوى الأزمة المالية فيما بين البلدان الآسيوية، هو وجود نظام هرمي «غير معلن» للاقتراض فيما بين هذه البلدان، حسب درجة الجدارة الائتمانية في أسواق المال العالمية. فعلى سبيل المثال، كان من الصعب على شركات ومصارف في إندونيسيا أن تقترض قروضا قصيرة الأجل من أسواق المال العالمية بأسعار فائدة معقولة، فكانت الشركات الإندونيسية تلجأ إلى البنوك أو الشركات الكورية لكي تقترض لها، ونيابة عنها، مستفيدة من متانة المركز المالي الكوري مقابل «علاوة» تقوم الشركات والبنوك الكورية بتعليتها على سعر الفائدة على القروض المقدمة لإندونيسيا. وفي المقابل، تقوم الوحدات المصرفية والشركات المالية الكورية بدورها بالاقتراض من البنوك وأسواق المال اليابانية لتغطية مراكزها وتدبير السيولة اللازمة. ولهذا فعندما انهارت الأوضاع في إندونيسيا وتعثرت الشركات الإندونيسية في سداد مديونيتها، تأثرت بذلك أوضاع السيولة في البنوك والشركات الكورية، التي أضرت بدورها بالأوضاع المصرفية في اليابان.

وفي نفس الوقت، نجد أنه قد ساد العالم في السنوات الأخيرة ميل غير مسبوق نحو المخاطرة فيما بين أسواق المال الناشئة. فعلى سبيل المثال، توسعت بعض البنوك الكورية في الاقتراض من الخارج ثم أعادت استثمارها في أدوات وأصول مالية «عالية المخاطرة» ولكنها مرتفعة العائد في أسواق ناشئة «غير مأمونة» مثل إندونيسيا، روسيا، أوكرانيا، والبرازيل. وهكذا فعندما تضرب الأزمة أحد هذه البلدان تنفرط حبات العقد بسرعة مذهلة، ويحدث ما يسمى «الذوبان المالي» السريع (Financial meltdown).

وجدير بالذكر هنا، أن الذي حمى كلاً من الصين وتايوان من آثار ذلك الإعصار المالي الجارف، هو عدم قابلية العملة الصينية الوطنية للتحويل مثل سائر العملات الآسيوية في بلدان الأزمة. كما أن تايوان لم تفتح بورصة الأوراق المالية لديها لاستثمارات الحافظة بواسطة الأجانب. وفي اعتقادي، أنها قضية جديرة بالتأمل من جانب «دعاة الهرولة» في اتجاه «الشعبطة» في قطار العوْلمة!

وعندما ينتقل «سوروس» لمناقشة الأزمة في روسيا، وهو البلد الذي خسر فيه للمرة

«فى روسيا التى عرف فيها سوروس معنى الخسارة للمرة الأولى، يقر الرجل الذى يتمتع بشهرة عالية باعتباره أكبر المضاربين فى العالم، بأنه «استدرج» رغم علمه مقدما بممارسات السلب والنهب للرأسمالية الروسية الجديدة، ورغم تحفظه وتردده. ولهذا كانت استثماراته المالية هناك هى الأسوأ طوال حياته المهنية

الأولى فى حياته المهنية. نجد أن الكتاب يتضمن تسجيلاً مثيراً ليوميات الأزمة المالية فى روسيا سجلها «سوروس» يوماً بعد يوم خلال شهر أغسطس ١٩٩٨، حيث دوَّن بدقة ما حدث لتطور «العائد» على الودائع بالروبل وعقود الروبل المستقبلية، وأذون الخزانة الروسية المُقوَّمة بالروبل، وسندات الحكومة الروسية المُقوَّمة بالدولار، وكيف قفز العائد على العقود المستقبلية للروبل من مستوى ٤٥٪ يوم ٩ أغسطس ١٩٩٨ حتى بلغ ٤٥٨٪ فى ٢٦ من نفس الشهر. وبالنسبة لأذون الخزانة الروسية المُقوَّمة بالروبل، فقد قفز العائد من ٩٤,٥٪ فى ٩ أغسطس إلى ١٧٢٪ فى ١٦ أغسطس. كما ارتفع العائد على سندات الحكومة المُقوَّمة بالدولار من نحو ٢٢٪ فى ٩ أغسطس إلى نحو ٤٣٪ يوم ٢٦ أغسطس.

كان هذا التطور الفلكى والمذهل للعائد على الأصول المالية الروسية هو فى حد ذاته عنواناً للانهيار والذوبان المالى السريع الذى شهدته البلاد خلال فترة لا تتجاوز الخمسة عشر يوماً. ويزيح «سوروس» فى كتابه الستار عن أسرار تلك الاتصالات الهامة والمحمومة التى دارت وراء الكواليس، وشارك فيها هو كوسيط بين القيادات الليبرالية الإصلاحية فى روسيا وعلى رأسها «جايدار» و«تشوبياس»، من ناحية، وبين كبار المسئولين فى الخزانة الأمريكية، من ناحية أخرى، فى محاولة يائسة لإنقاذ الموقف من خلال تدبير سيولة عالية من مصادر حكومية وخاصة فى الخارج، لتعويم الاقتصاد الروسى قبل أن تتفاقم الأزمة! ولكنها باءت جميعاً بالفشل. ويقر «سوروس» فى نهاية تحليله لتجربته مع روسيا، بأنه رغم علمه مقدماً بممارسات «السلب والنهب» للرأسمالية الروسية الجديدة التى أسماها (Robber Capitalism)، فقد تم استدراجه إلى مسرح العمليات الروسى رغم تحفظه وتردده. ولذا كانت استثماراته المالية فى روسيا تشكل أسوأ استثمارات قام بها طوال حياته المهنية (ص ١٦٧). وسوف يظل «سوروس» يتحدث عنها بقدر كبير من المرارة والأسى.

ويرى «سوروس»، فى التحليل الأخير، أن حكومات الدول الصناعية السبع (G7) والمؤسسات المالية وعلى رأسها صندوق النقد الدولى، قد فشلت فى حل الأزمة الروسية مما أدى إلى فقدان السيطرة على الموقف وهدد بكارثة للنظام المالى العالمى.

[٤]

ركز «سوروس» الهجوم فى كتابه على قضيتين أساسيتين هما:

أ ـ «أصولية السوق» (Market Fundmentalism).

ب ـ «أيديولوجية السوق» (Market ideology).

ويرى «سوروس» أن أنصار «أصولية السوق» يشنون هجوماً ضارياً على أية قوة سياسية (أو مجموعة) تتصدى «لأيديولوجية السوق»، ويصفونها بنعوت مثل «العاطفية»، «السذاجة» و «اللامنطقية»، ولذا يرى «سوروس» أن الخطر الداهم الذى يواجه العالم اليوم، لم يعد «الشيوعية» كما كان الحال من قبل، بل أصبح «أصولية السوق» التى سوف تدفع النظام الرأسمالى المُعَوْلم إلى التحلل والوصول إلى «حافة الكارثة». فهو يرى أن استمرار الممارسات الراهنة، سوف يدفع بلداناً كثيرة فى العالم النامى للخروج من دائرة النظام الرأسمالى «المعولم»، وحماية نفسها من سلبيات تدفقات رؤوس الأموال الساخنة، كما فعلت ماليزيا مؤخراً. تلك التجربة التى قد تصبح تجربة تحتذى بها البلدان المجاورة فى آسيا وبلدان العالم النامى.

ويحذر «سوروس» من أن انهيار نظام العوْلمة الراهن لن تقتصر آثاره على مجال تقليص التدفقات المالية «العابرة للحدود»، بل سوف يؤدى ـ وهنا مكمن الخطورة ـ إلى انهيار مجمل نظام التجارة الحرة فى السلع والخدمات. وذلك فى حد ذاته استدلال فى منتهى الخطورة!

ولذا ينادى «سوروس» بضرورة التعجيل بإصلاح النظام المالى الدولى، والمنظمات المالية الدولية (مثل صندوق النقد الدولى)، لإنقاذ «النظام الرأسمالى المعوْلم» من المخاطر التى تهدده. ويؤكد أن بقاء الأوضاع والآليات الراهنة على ما هى عليه، دون إصلاح، أمر يصعب استمراره، إذ أن سمة «عدم الاستقرار المالى» و «نقائص نظام السوق» كفيلان بتقويض مقومات النظام الرأسمالى فى طوره المعوْلم، إذ أن النظام الرأسمالى الذى ساد خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ والذى شهد بدايات «عمليات العَوْلمة»، كان فى جوانب كثيرة أكثر «استقراراً» من النظام الراهن.

ويوصى «سوروس» فى نهاية المطاف بضرورة التدخل فى أسواق المال لحمايتها من المضاربين، بدلاً من تركها عرضة للتقلبات والهزات العنيفة، على نحو ما شهدنا خلال السنوات الأخيرة. وكأنه يقول لراسمى السياسات ـ على حد تعبير أحد الكتاب ـ «أرجوكم امنعونى من أن أكون أنا نفسى»! إذ إن نظاماً مالياً عالمياً أكثر استقراراً سيكون أفضل لعدم انتكاس مسيرة العولمة، رغم ما يحمله ذلك المقترح فى طياته من تضييق للفرص أمام «المضاربين الماليين»، من أمثاله، من تحقيق مكاسب مالية سريعة. ففى شهادة نادرة، يقول «سوروس» بالحرف الواحد فى كتابه الجديد:

> «إننى أود بهذه التوصيات حماية «نظام الرأسمالية المعوْلمة» من أن يحطم نفسه بنفسه»

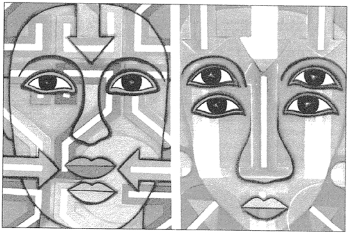
وتلك بلا شك شهادة هامة لشاهد من أهلها، يحذر القائمين على أمور «النظام الرأسمالى العالمى» من مخاطر الانفتاح والتحرير المالى «السداح المداح»، الذى يطلق «الحبل على غاربه» لآليات السوق، على غرار ما حدث فى ظل «التاتشرية» و«الريجانية».

ويرى «سوروس» أن الاقتصاد العالمى يسير فى طريق الركود، وليس الانهيار. ولكن الإبطاء فى إعادة الانضباط إلى الاقتصاد المالى الدولى يؤدى إلى مزيد من التدهور والأزمة. ولعل اقتراب أكبر «شركة للمضاربات المالية» فى العالم (LTCM) من حافة الإفلاس فى الولايات المتحدة، وهى الشركة التى يديرها كبار أساتذة الاقتصاد المالى فى العالم المزودين بأحدث الأدوات الإحصائية والرياضية، كان إشارة واضحة بأن الاختلالات فى أسواق المال والعملات «لا تصحح نفسها بنفسها»، ولابد من سياسات تدخلية رشيدة.

فلقد كان حدث انهيار صندوق التحوُّط الأمريكى العملاق المسمى «التوظيف طويل الأجل لرأس المال» (LTCM) فى أواخر سبتمبر ١٩٩٨، بمثابة تحطم الأسطورة عند الظهيرة. فلقد كان الاعتقاد سائداً لدى المستثمرين والمضاربين ودوائر المال الدولية، أن هذا الصندوق الذى يديره نجوم عالم المال والمضاربات هو بمأمن عن دائرة الانهيارات المالية، نتيجة تنويع المخاطر والأصول لديه عبر العملات والبلدان المختلفة.

ولكن عندما جاءت «ساعة الحقيقة»، تبين أن «الإمبراطور ليس لديه ملابس كافية تستره»، على حد التعبير الإنجليزى المشهور. فقد كانت قاعدة رأس مال الشركة لا تتجاوز ٥ بلايين دولار، فى الوقت الذى تتعامل فى أصول وتعاقدات يصل حجمها مائة بليون دولار، بالإضافة إلى التزامات عرضية تصل إلى نحو تريليون دولار، واضطر مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى إلى مطالبة أربعة عشر مصرفاً وبيت سمسرة، للتدخل لإنقاذ الصندوق الشهير من خلال ضخ سيولة إضافية تصل إلى ٣,٦ بليون دولار أمريكى، للحيلولة دون كارثة مالية محققة تلحق بأسواق المال العالمية فى العالم الأول، وعلى رأسها «وول ستريت» فى نيويورك. وهكذا كان تدخل مجلس الاحتياط الفيدرالى الأمريكى (الذى يلعب دور البنك المركزى هناك)، يوم ٢٣ سبتمبر ١٩٩٨، هو السبيل الوحيد للخروج من الأزمة. مرة أخرى كانت السياسة التدخلية هى الحل، عندما تفشل الأسواق فى تصحيح نفسها بنفسها .. كما يحاول أن يوهمنا «غلاة الليبراليين».

وختاماً، يؤكد «سوروس» أنه لا يهدف إلى إلغاء الرأسمالية»، كنظام اقتصادى، رغم كل مثالبها .. وإنما كل همه هو إنقاذ نظام الرأسمالية المعوْلم» من تحطيم نفسه. وكأنه هنا يتقمص من جديد «دور كينز» فى أوائل الثلاثينيات فى أعقاب الكساد الكبير .. عندما نادى بضرورة تدخل الدولة لتحقيق «التوظف الكامل» لقوة العمل وحماية النظام الرأسمالى من الانهيار.. وإبعاد شبح الاشتراكية. ولكن «كينز» لم يكن فى يوم من الأيام «مستر جيكل» و «مستر هايد» فى آن واحد على غرار ما فعل «سوروس»! ■



اللوحة للفنان عصمت داوستاشي

كيــف نفهــم العــالم من خلال الفن؟

مــايكـــل بـــودرو

تعتبر مجموعة من فلاسفة هذا العقد أن كتاب كينذال والتون «المحاكاة والتظاهر» الصادر في ١٩٩٠، كان كتابا محوريا بالغ الأهمية. واستجاب له بشكل ملموس كل المشاركين بمقالات في كتاب «العاطفة والفن» (تحرير ميت هيجورت وسيولافر، وساهم والتون نفسه بإعادة عرض نظريته. وكانت افتراضاته الأصلية أنه مع الرواية أو الفيلم السينمائي أو اللوحة التشكيلية، ينهمك القارئ أو المشاهد في لعبة مثل العصا التي يتظاهر الطفل بركوبها، أو اللعبة التي تتظاهر فيها مجموعة أطفال بأن الأشجار مقطوعة الجذوع تمثل دببة لابد من الهروب منها. وتقوم الأشياء الحقيقية مثل الأشجار مقام ديكور العرض المسرحي في اللعبة، وتشارك في دفع الحدث. ويؤكد والتون أن هذا أحد أساليب الاهتمام بالأشخاص الذين تحتويهم الرواية أو اللوحة. ويبدو هذا الأمر غاية في المباشرة والصراحة، إلا أنه يظهر لنا أن التوازن العقلاني يتطلب منا الفصل بين أحداث العالم وبياناته وبين الأحداث التي تحتويها أحلامنا وترسمها مخاوفنا وخيالاتنا، وإلا فسوف نجد أنفسنا نبني استدلالاتنا للواقع على أساس ما نحلم به فقط أو ما نخشاه. وتبرز المشكلة على نحوخاص عندما تؤثر رواية ما على عواطفنا وتستغرقنا: لأن «العاطفة» طبقا لوالتون علاقة بين رغباتنا ومعتقداتنا تجاه العالم. ونزوعنا للاستجابة بسلوك ملائم. وبدون أن تدفعنا معتقداتنا عن العالم الواقعي إلى الفعل فلن يمكن القول بأننا قادرون على أن نجرّب هذه العواطف.

وأدى هذا إلى أن يقول والتون إن شعور القارئ بأية عاطفة نحو شخصية أنّا كارنينا مثلا، ماهو إلا حقيقة خيالية، فالمشاعر بالنسبة لها كانت جزءًا من رواية وليست جزءًا من واقع غير خيالي. لكن هذا الأمر يمثل مشكلة يصعب حلها: لأن القارئ الذي شعر بتعاطف مع «أنّا» واشترى الكتاب وقرأه يشارك في أحداث الرواية على المستويين الواقعي والروائي الخيالي. وهل نزعم مثلا أنه لا توجد أية علاقة بين القراءة والتخيل، أو أن مشاعر القارئ نحو «أنّا كارنينا» ليست جزءا من حياته العاطفية الواقعية؟ وهل نستطيع فصل الخيال الذي يكوّن الرواية عن حياة القارئ الواقعية الذاتية؟

ويجيب ديريك ماترافيرس على هذه الأسئلة ليحل المشكلة التي تركها والتون، في مجموعة أوكسفورد the Oxford Collection وبشكل أكثر تفصيلا في كتابه الذي يسبر الأعماق «الفن والعاطفة» Art and Emotion بوجهتي نظر: الأولى تتبنى فكرة والتون حول إدراك شيء ما وفهمه من خلال الخيال. ويقول ماترافيرس إنه في حالة الرواية فإننا نقرأ كما لوكنا نقرأ تقريرا بالأحداث، أكثر من كوننا معرّضين لتلك الأحداث من خلال الفهم والإدراك. ويوفر هذا لنا أسلوبا طبيعيا أكثر للتفكيرفي الأعمال الخيالية. وبما أن القراءة أومشاهدة التقارير الإخبارية عن الأحداث جزء عادي من حياتنا، فإن الروايات الخيالية لاتنتج عنها أي مشكلة فلسفية.

وقد يجيب أحد مؤيدي أفكار والتون بأن كل هذا يفشل في حل التناقض الخيالي، لأن الرأي القائل بأن القارئ يشعر بأحاسيس عاطفية موجهة لأشخاص غيرموجودين يظل قائما. ويجيب ماترافيرس بأن هناك معتقدات تثير فينا هذه المشاعر، وهي بدورها نتيجة للتقارير التي نقرؤها أو نشاهدها على شاشة التليفزيون، بينما لايؤدي الخيال والأعمال الروائية إلى أية مشاكل خاصة، لأننا لا يمكن أن نكون قادرين على مساعدة الناس الذين نقرأ عنهم في التاريخ، أو الذين يعيشون في الطرف الآخر من العالم خارج نطاق تأثيرات أفعالنا. ورغم ذلك قد نشعر ببعض العواطف نحوهم. ولا يمنعنا عدم القدرة على الفعل من أن نشعر بأحاسيس عاطفية، وبالتالي ليس هناك ما يمنع من أن تكون لدينا هذه المشاعر والأحاسيس في حالة الرواية.

لكن نظرية التقارير التي تتضمن أخبار العالم الفعلية والاستجابات الجمالية لها، تحمل عددًا من الصعوبات. وبالنسبة لماترافيرس فإن التعامل مع التصوير والتمثيل بنفس أسلوب التعامل مع التقارير، ينفي فكرة أن الأعمال الخيالية تخاطب الجمهور أو القراء. وإذا كان هذا يبدو للوهلة الأولى أمرا مقبولا بالنسبة للرواية، فإنه لا يصلح على الإطلاق بالنسبة لسوناتات الحب مثلا، وقدر كبير من صنوف الأدب الأخرى، وهوأمر يفصل الرواية عن الغنائيات، وكم ستكون تلك التضحية كبيرة إذا كان ما نسعى إليه مفهوما عاما للأدب، ولن نقول للفن بشكل عام. وقد نزعم أن الكتابة ربما تخاطب قارئا مفترضا، لكن ضمن نطاق تقارير الواقع. وإذا صح هذا القول فإنه ينبغي التسليم بأن القارئ الفعلي ربما يتخيل نفسه يحتل دور المُخاطَب. وعند هذه النقطة تبدو فرضيات التقارير أقل طبيعية ووضوحا.

ويستشهد ماترافيرس بكلام جورج كوري:

> «أعتقد أن بعض أفراد الجمهور يلعبون دورا مزدوجا، فهم مشاهدون وممثلون في الوقت نفسه، وأحيانا يكونون جزءًا من الديكور في عملية الإنتاج».

ويلاحظ ماترافيرس بعد ذلك أن «تلك الازدواجية غير مريحة وتؤدي إلى إرباك مشاعر المشاهدين». ولكن هل يمكن ألا يكون في الشعور قدر من الإثارة والمباشرة يتجاوز ابتعادنا عن الماضي والحدود الفاصلة بين المتخيل والواقع؟ وقد نتخيل باعتبارنا الجمهور أننا نحن رواد المسرح في القرن العشرين، رومانيون يخاطبهم قتلة قيصر لدى مشاهدة مسرحية «يوليوس قيصر»، لكن ذلك التخيل يتضمن أيضا أننا نشاهد عرضا مسرحيا في مكان وزمان محددين، وأن المكان والزمان التاريخيين، اللذين يتشعبان من روما القديمة إلى ورثتها الشرعيين السياسيين والثقافيين يطوقاننا. فالعرض الذي نشاهده كنا قد توقعناه من أفكار المسرحية. إن إعادة التدوير التي يقوم بها الجمهور لمواقفهم الحقيقية هي مثال لشيء أكثر عمومية: يدور حول حقيقة وسيلة الاتصال ـ سواء كانت لغة، مسرحا أو سطحا مرسوما، وحتى المزاعم التاريخية التي يعتمد عليها المؤلفون ـ التي يُعاد استخدامها ومراجعتها في إطار هيكل العمل. ومؤكد أن فرضيات التقارير المباشرة تحتاج لأن تكون أكثر تساهلا حول طرق جذب القارئ أو المشاهد، أكثر بكثير مما يقترح ماترافيرس.

أما الجزء الثاني من نظرية ماترافيرس أو وجهة النظر الثانية، فهي فكرته عن الإثارة، وفي فصل معقد على نحو خاص يرفض المحاولات الحالية التي تسعى للتعامل مع التعبير الموسيقي، باعتباره علاقة بين الموسيقى كشكل فني والمحتوى التعبيري. وطبعا لا يمنع الاستماع إلى الموسيقى التعرف على الأصوات من خلال عواطفنا ومشاعرنا، ورغم أننا نسمع الموسيقى من أول جملة باعتبارها قالبا تعبيريا، إلا أن الأصوات المتتابعة قد تعطينا تلك التعبيرية في الشكل والبناء. وهذا هو المقصود بالاستماع إلى الموسيقى، ويمكن أن نضيف أنه لايوجد لدينا قاموس لغوي غير موسيقي لتلك الأشكال التعبيرية برناتها، لذلك ينبغي أن نصل إلى المجازات والاستعارات الخيالية من العلاقات المكانية ومنطق النقاش والصراع والحوار، فتلك هي المجازات والاستعارات في تأثير التعبير الموسيقي، ولكنها، كما يكرر ماترافيرس، ليست مجازات واستعارات في حد ذاتها. ثم يفسر استخدامنا لمصطلحات مثل

١ـ **Emotion and the Arts**
(المشاعر والفنون)
Mette Hjort, Sue Laver Ceditors
Oxford University Press, 302 pp.
£ 42.50

٢ـ **Arts and Emotion**
(الفن والمشاعر)
Derek Matravers
Oxford: Clarendon Press, 236 pp.,
£ 32.50

٣ـ **Aesthetics and Ethics**
(الجماليات والأخلاق)
Jerrold Levinson (editor)
Cambridge University Press, 328 pp.,
£ 37.50

«حزينة» للحكم على مقطوعة موسيقية، بقوله إن الموسيقى تترك فى النفس أحاسيس مرتبطة بالعواطف. ويبدو هذا صحيحا تماما، ويمكن أيضا أن نثير سؤالا: كيف نفكر فى أحاسيسنا وعواطفنا على ضوء حقيقة أنه يمكن أن تثيرها الموسيقى أو فى سياق علاقات بالآخرين؟ لكن ماترافيرس يعتبرهذا السؤال سيكولوجيا يخرج عن نطاق تحليلاته الفلسفية للمصطلحات التعبيرية.

ويركّز جزء كبير من كتاب *Emotion and the Arts* «العاطفة والفنون» وكتاب *Aesthetics and Ethics* «علم الجمال وعلم الأخلاق» على الرواية والسينما فى الأساس، رغم أن هناك اهتماما بالموسيقى، ونجد فى *Oxford Collection* «مجموعة أكسفورد» ورقة رائعة حول الرقص كتبها فرانسيس سبارثوت، وهو أستاذ قديم فى هذا المجال، ويناقش الكتاب فكرة أن الأمر ينتهى بنا لتطوير حساسيتنا الأخلاقية والعاطفية من خلال الأعمال الخيالية، ويتناول كتابا جريجورى كورى ونويل كارول كيف نفعل هذا، حيث يشير كورى إلى العلاقة بين العمل الخيالى وقدرتنا على التخطيط لمشاريع مستقبلية، وتخيل كيف يمكن أن تكون تصرفاتنا مع الآخرين من خلال تبادل الأدوار. ويشبه هذا التخيل بإدارة حقائق خيالية من خلال برنامج ذهنى لرغباتنا ومعتقداتنا. ويتكرر هذا التشبيه حيث يكتب كيث أوتلى وميترا جولامين:

> «إن اندماجنا مع عرض مسرحى أو رواية يستميلنا لسلسلة أحداث روائية زائفة، مع تتابعها وتأثيراتها العاطفية».

ويشير كورى إلى هذه الغرابة قائلا: إن الحاجة المتكررة لمناقشة هذا الأمر هى بالتأكيد لصرف اهتمامات القارئ الذاتية إلى التركيز على ما يقرؤه.

ومنذ بداية مناقشة الرواية، تثور أسئلة حول كيف يمكن أن نعزز إحساسنا بالأحكام الجمالية، التى لا تنهار فى ذرائعية التعليم الأخلاقى، التى ترى أن الأفكار وسائل للعمل وأن فائدتها هى التى تقرر قيمتها،وكيف تنطبق مثل هذه الأحكام على الموسيقى المجردة والفنون البصرية. وتتميز كتابات ريتشارد وميللر وبيتر ريلتون فى مناقشة هذه القضايا، فى مجموعة كامبردج لجيرولد ليفنسون. ويمكن أن نقول أن ميللر ينتمى إلى مدرسة كانط، حيث ينحاز إلى الموضوعية بمختلف معانيها التى تنطبق على العلم والأخلاق والفن، ليظهر كم هى مرتبطة ببعضها من الداخل خلال ملاحظة الفروق بينها. والملمح المركزى هو مفهوم المتعة من خلال نشاط تعليمى، يربط بين ملاحظة أرسطو حول أصل الشعر فى بداية كتابه *Poetic* «فن الشعر» وتشبيه كانط للأحكام الجمالية والمتعة التى يجدها المرء فى الاكتشافات العلمية. إن اكتشاف وحدة جديدة بين مواد متصارعة يشبع جانبا من احتياجاتنا الجمالية، وتشمل العملية التعليمية من خلال تشكيل علاقات جديدة، توسيع مداركنا العاطفية والأخلاقية.

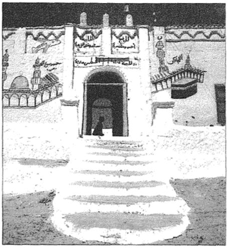
وقد يكون فيما كتبه ريلتون مجاملة لميللر. وقد يكون توسعا مهذبا لفكرة هيوم فى مقاله The Standard of Taste «مستوى الذوق». وتدّعى الأنشطة التى تشبه الأنشطة التعليمية وجود توافق بين عقولنا والعالم، ولكن كيف نفسر فى الوقت نفسه تنوع الأحكام الجمالية واختلافها؟ لو زعمنا مع هيوم أن هناك صفات معينة فى الأشياء «ركَبتها الطبيعة» لينتج عنها شعور بالجمال وشعور بالبشاعة، بمعنى أن التوافق لايكون نفسه مع كل الأشخاص، أو لأى شخص فى جميع مراحل حياته، إلا أن الأحكام خلال القرن الثامن عشر تبدو متوافقة بشكل عام من خلال التاريخ. ويفسر هيوم، على ضوء الإجماع الواسع الاختلاف على أنه مستمد من اختلاف الميول الشخصية والرعاية النقدية. إنه توفيق متسامح بين الفروق فى إطار تدريبات الذوق، وهى نشاط إنسانى يشارك فيه الجميع حسب رأى هيوم، وطبقا لريلتون فى الموقف الحديث «أن أى تناغم أو توافق مع قدرات إنسانية عامة ليس وقفا على تراث محدد». ويذهب أبعد من ذلك قائلا: إن مثل هذا التسامح فى كيفية التوافق بين عقولنا والأشياء لايؤدى إلى أى نزوة أو ميل إلى التقلب فى الرأى، لأن القيمة الجمالية أمر لا يقبله عالمنا إلا استنادا إلى أحكام مدروسة تُعنى بما هو خارج ذواتنا وما هوموجود كأساس لبنية حياتنا التحتية المعقدة.

إن التناقض بين وجهة نظر والتون - ماترافيرس وميللر وريلتون وزملائهما، يقع فى نظرة كل منهم الشخصية فيما يضع مسألة فلسفية فى نطاق الفن، فهو بالنسبة لوالتون كيف نربط بين حقيقة تقرير فردى عن عمل فنى وبين ما يعبر عن معرفتنا بالعالم، أما بالنسبة لماترافيرس فهوكيف يمكن فهم مثل ذلك التقرير الفردى وجعله مشابها لقصة عرضية عامة فيها معان ومشاعر، لكن ميللر وريلتون يعتقدان فى بناء وجهة نظر تقوم حول كيف يمكن أن تتوافق ملاحقة المعرفة وتحسين الأخلاقيات مع القيمة التى نقدرها فى الفن. ولايمكن أن نجد هذه الأمور بشكل منظم على مستوى الجمل الفردية أو فى إطار وجهة نظر مؤسسة سابقا فى مجال الفلسفة.

إن كلا من المجموعتين مفيد، خاصة «علم الجمال والأخلاق»، إذ تحتوى إضافة إلى الكتابات التى أشرنا إليها سابقا على مجموعة من الأحداث التاريخية التى تستكشف حدود الأخلاق والفن، مثل ما كتبته مارى ديفيرو فى كتاب رايفنستال «انتصار الإرادة» *Triumph of the Will* وماكتبه لاين تريل حول حديث الكراهية وورقة لآرثر دانتو يحاول فيها بعد محاولة فكرية ابتكار حوار أفلاطونى جديد باسم «المُجَمِّل» Beautician يتحول فيها من المزاج الفلسفى، إلى قضية أخلاقية، بخصوص شعور المرأة وتصورها للطريقة التى تقدم بها فى حالة التصوير مثلا. وما تؤكده كل هذه الكتابات هو أن أهداف علم الجمال بالمعنى المألوف مقيدة أخلاقيا، رغم أن ذلك ليس على أساس خاضع لأغراض أخلاقية.

نشر هذا المقال فى مجلة TLS (vol. 5002)

ترجمة: عبد العظيم الوردانى



في العقود القليلة الماضية ارتبطت الطائرة لدى الحجاج المصريين بالحج. وكثير من بيوت الحجاج لا تحمل سوى صور الكعبة والطائرة. والفنان التلقائي لم يبذل جهدًا في تمعن صورة الطائرة في الكتب والمجلات، بل أطلق لخياله العنان كي يرسم الطائرة بالصورة التي يراها هو.

جداريات الحج

فن شعبى مصرى أصيل

الاحتمال الأكبر هو أن تلك النقوش والزخارف الموجودة على المنازل تعود إلى مصر القديمة، عبر خيط طويل من الرسومات التى على المبانى وتمتد إلى أقدم عصور التاريخ.

عندما رأت المصورة «آن باركر» جداريات الحج لأول مرة من نافذة القطار المتجه إلى الصعيد، كان أول ما لفت نظرها ذلك الفن البسيط التلقائى الذى يشع قدرا كبيرا من الحيوية. وعندما أدركت ما تعنيه تلك الرسومات لم يسعها مقاومة تقديم ما باتت تعتقد أنه تراث شعبى غير عادى وذو أبعاد تاريخية. وهكذا بدأت «آن باركر» تسجل رسومات الحج بعدستها. وكانت فى كل مرة تعود فيها إلى مصر تراقب هؤلاء الفنانين التلقائيين وهم يرسمون لوحاتهم بأسلوب فردى فى مواسم الحج. وكم كان ندمها عظيمًا عندما رأت بقايا لوحات رُسمت منذ فترات طويلة وتمنت لو أنها بدأت تسجيل هذا الفن قبل ذلك بوقت طويل.

حرصت المصورة عند اختيارها لصور هذا الكتاب على أن تكون معبرة عن اللحظات الاستثنائية التى يخرج فيها الفنانون عن قدراتهم العادية كى يصلوا إلى آفاق جديدة من الإبداع. وكان لا بد لها أن تحرص فى اختياراتها للصور وترتيبها على أن يكون بناء الكتاب صحيحًا. وهوما يعنى العثور على الصور التى تصف تسلسل الأحداث، بداية بمغادرة الحاج لبيته وبدء الرحلة إلى الأراضى الحجازية، مرورًا بمحطات الحج المختلفة وانتهاء برحلة الحج وما يصاحبها من احتفالات بعودة الحاج سالمًا. ثم ما يلى ذلك فى الحياة اليومية بعد الحج.

وتقول «آن باركر» إن آلة التصوير تجعل دخولها حياة أنواع مختلفة من الناس أمرًا مشروعًا. وهى فى المقابل ترغب فى أن تكون صورها نوعًا من الشكر على إعطائها ميزة الاطلاع على عوالم هؤلاء الناس. ولذلك فهى ترى أنه إذا كان كتابها يحمل شيئًا من الدهشة وقدرًا من التعليم وبعض البهجة، أو إذا كان يجعل فن جداريات الحج معروفًا بصورة أفضل، فإن جهدها يكون قد كلل بالنجاح.

والمعروف أن السجلات المرسومة، التى تشكل أقوى صلة لنا بالماضى البعيد، هى التى تمدنا بالمعلومات الخاصة بأسلافنا وبالطريقة التى كانوا يعيشون بها. وترى «آن باركر» وزوجها «آفون نيل» الذى شاركها إعداد الكتاب، أن الكثير مما يعتبره العالم الحديث «فنًا عظيمًا» كان نتيجة للمعتقد الدينى، بدءًا من التأويلات شديدة البدائية وحتى أعمق التأويلات الخاصة بالإيمان والعقيدة. وما تلك الجداريات التى تزين بيوت الحجاج فى مصر إلا نتيجة لحدث دينى مهم فى حياة المسلمين، وهو الحج.

والصور المرسومة على بيوت الحجاج من إنتاج فنانين تلقائيين علموا أنفسهم بأنفسهم.

Hajj Paintings: Folk Art of the Great Pilgrimage

(صور الحج فى الفن الشعبى)

Ann Parker and Avon Neal

Washington: Smithsonian Institution Press, 1995, pp 164.

وهؤلاء يشكلون ظاهرة الفن الشعبى الموجودة فى أية أمة. وتؤكد المصورة على أن هؤلاء الفنانين جاءوا من ريف مصر. ورغم وجود أمثلة متفرقة فى بلدان إسلامية أخرى، فهى قليلة جدًا مقارنة بما هو موجود فى مصر.

وكل فنان من هؤلاء الفنانين التلقائيين له خطوطه التى تميزه عمن سواه. ولو بدت الرسومات متشابهة فى المضمون والتنفيذ، أو كانت بذات الأسلوب والتصميم والألوان والتكنيك، فالاحتمال الأكبر أن فنانًا واحدًا هو الذى صورها. ومعظم القرى بها شخص واحد على الأقل يمكنه استعمال الفرشاة والألوان بطريقة تلبى حاجات ساكنى تلك البيوت. غير أنه كما هو الحال فى أية حركة فنية، فإن كثيرا من الرسامين ينقصهم التكنيك والخيال، على حين نجد أن آخرين يتمتعون بقدر هائل من الموهبة. ويشير الكتاب إلى أن جميع الفنانين من الرجال، إذ ليس من المقبول أن تقوم المرأة بمثل هذه الأمور.

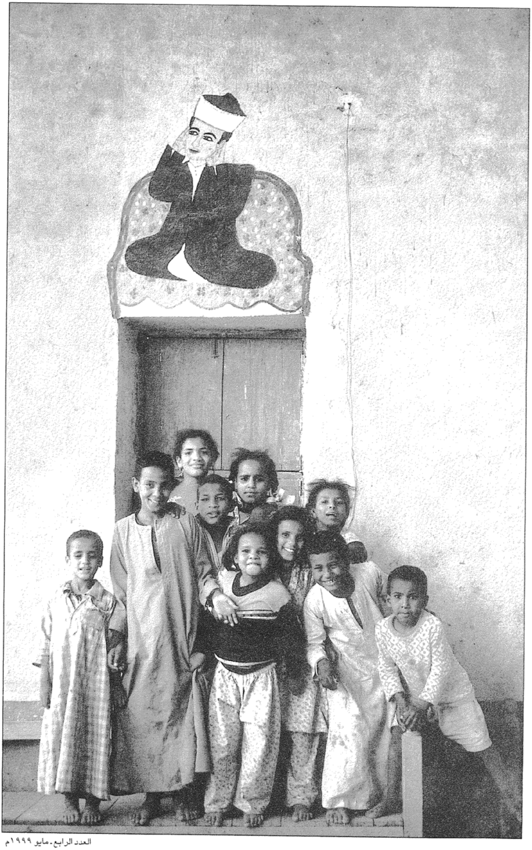
وتعد الجداريات المرتبطة برموز الحج على واجهات المنازل ممارسة حديثة نسبيًا. ولا يعرف أحد على وجه الدقة، كما يقول الكتاب، متى بدأت هذه العادة. غير أنه من المؤكد أن الفكرة حازت القبول وتطورت خلال فترة قصيرة نسبيًا لتصبح قالبًا مزدهرًا من قوالب الفن الشعبى. وهناك من يقول بأن هذه الممارسة ربما جاء بها الأتراك أثناء وجودهم فى مصر. غير أن الكتاب يشير إلى أننا إذا نظرنا إلى الأمر من الناحية التاريخية، فإن الاحتمال الأكبر هو أن تلك النقوش والزخارف الموجودة على المنازل تعود إلى مصر القديمة، عبر خيط طويل من الرسومات التى على المبانى وتمتد إلى أقدم عصور التاريخ. وأقدم هذه الرسومات هى تلك التى عثر عليها فى كهوف ما قبل التاريخ. وهناك أدلة أثرية على وجود زخارف على منازل بعينها فى العصور المصرية القديمة. وكان النوبيون يزينون بيوتهم دومًا، ويكون ذلك فى أغلب الأحيان بموتيفات من الزهور والزخارف الهندسية. وتوحى مذكرات الرحالة الذين زاروا مصر فى القرن التاسع عشر ورسوماتهم وصورهم الفوتوغرافية بأن جداريات الحج كانت موجودة فى تلك الفترة المتأخرة من القرن التاسع عشر، وإن لم تكن بالقدر الذى هى عليه الآن من الانتشار.

وكانت البداية عبارة عن كتابات بسيطة لا تتعدى اسم الحاج وتاريخ تأديته للفريضة. وفى بعض الأحيان كانت تكتب بعض آيات القرآن المرتبطة بهذه الفريضة بخط كبير على واجهات المنازل الخالية من أية زخارف. وكان ذلك كافيًا لإعلام الناس بخبر أداء صاحب هذا البيت أو أحد أهل بيته لفريضة الحج. وربما كانت الصور التى أضيفت بعد ذلك بمثابة بيان بنفس المعلومات لمن لا يعرفون القراءة والكتابة. ومن هنا بدأ فن جداريات الحج. وانتشرت هذه الممارسة. وفى نهاية الأمر اتخذ الخيال الرمزى شكلا ثابتا ليصبح ذا دور دائم فى احتفالات عودة الحجاج. وكان أن أضحت هذه الرسومات التى تسجل مناسبة الحج أكثر


الله أكبر ولله الحمد

جمع الفنان فى هذه اللوحة بين الحنطور الذى ينقل الحاج من بيته إلى محطة القطار الذى ينقله إلى السويس أو القاهرة ليكمل الرحلة إلى الأراضى المقدسة. ويلاحظ أنه وضع الجنود فى الصف حسب رتبهم. ولكى يخفف من حدة منظر الجنود والسلاح أنهى اللوحة بهذه الزهور.

صورة من داخل منزل أحد الحجاج رسمها فنان اسمه على عيد ياسين لأحد القرشيين. والمعروف أن رسومات الحج لا تقتصر فقط على واجهة البيت وحدها.

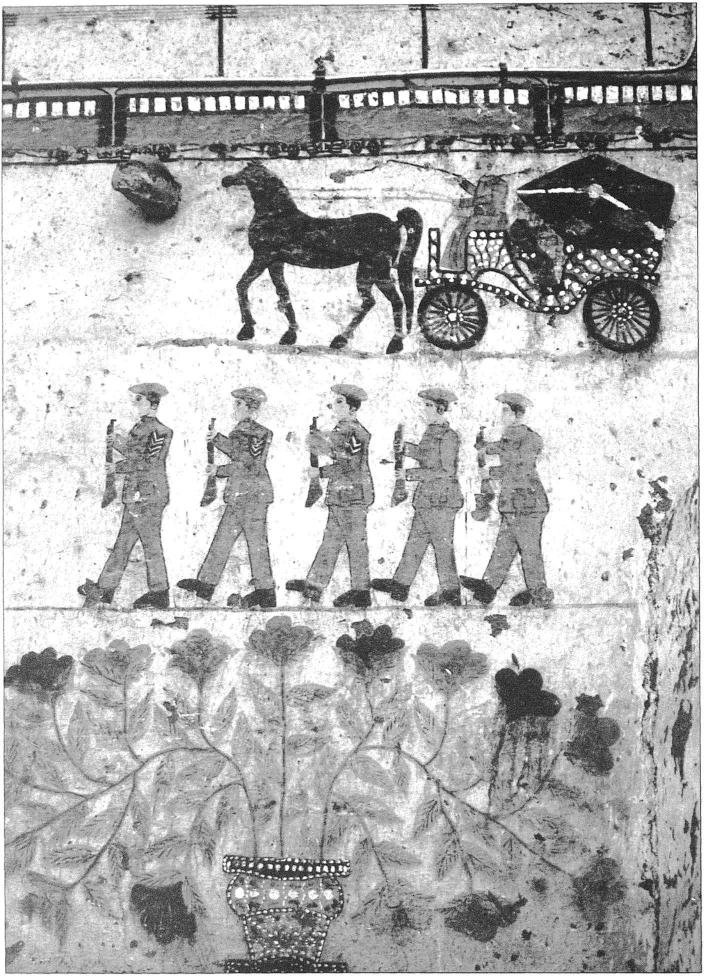


خيالاً وأدق تفصيلاً. وقد ازدهرت تبعًا لمهارات فنانين فرديين ومواهبهم. كما أنها نمت بالطريقة التى تنمو بها الحركات الفنية التلقائية، حيث تتغذى على الأعمال الأكثر تطورًا التى سبقتها، وتتحسن فى الوقت الذى يسعى فيه الفنانون لتحقيق أفكارهم الخاصة.

وتتسم جداريات الحج بأنها سريعة الزوال، وذلك لأنها مصممة بحيث لا تبقى طويلاً. وهى غير محمية من عناصر الطبيعة. وتعد سرعة تعرضها للعطب، إلى جانب وجودها فى أماكن يندر أن يزورها الأغراب، سببًا فى ضآلة فرصة تعقب وجودها فى مستهل ظهورها. إلا أن بمقدورنا تأمل تطور هذا الفن من خلال الرسومات البسيطة للكعبة، التى تشكل الرمز الرئيسى فى كل هذه الجداريات، وتلك الرسومات المنفذة بطريقة جذابة، وغالبًا ما يكون ذلك بالألوان الصريحة، لنصل فى النهاية إلى الجداريات المتقنة التى تزين بيوت الحجاج فى الوقت الراهن.

والذين يرسمون هذه الجداريات هم فى حالات قليلة جدًا ممن احترفوا الرسم والتصوير. والكثير منهم ممن يقومون بأعمال أخرى ولا يمارسون هذا العمل إلا فى موسم الحج، كعمل مؤقت يحقق لهم مزيدًا من الدخل ويستمر لمدة ثلاثة أسابيع فى المتوسط. وجرت العادة على أن يكون هؤلاء من المدرسين، كما يشير الكتاب، وتتراوح أعمارهم بين الخامسة والعشرين والخمسين. وجرى العرف على أن يبدأ العمل بعد ذهاب الحجاج إلى الأراضى الحجازية، على أن ينتهى بالكامل قبل عودتهم إلى ديارهم. ويشير الكتاب إلى أن غالبية هؤلاء الفنانين يشعرون بأن رسومات الحج واجب دينى. وهم يخلصون فى خلق صور أكبر حجمًا وأفضل رسمًا. وكأى جهد إبداعى، فإن من بين هؤلاء الفنانين من يتميزون بمواهبهم غير العادية، وتعد جدارياتهم مميزة من حيث الشكل والمضمون. فأعمال هؤلاء هى التى تحدد معيار تقييم أعمال الآخرين والحكم عليها.

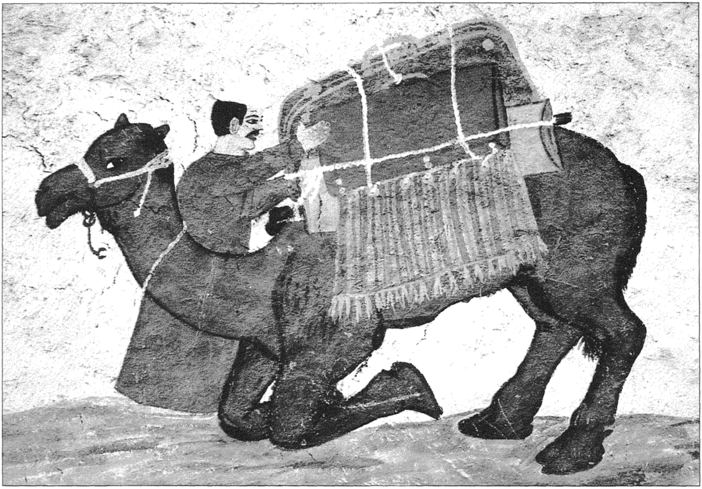
ويتم إعداد الجدار للرسم بوضع طبقة رقيقة من الجبس عليه، ثم تترك حتى تجف وبعدها يبدأ الرسم. وهناك من يرسم على الجدار مباشرة، ومنهم من يرسم اسكتشًا على الورق يحدد فيه الخطوط العريضة لما يعتزم رسمه على الجدار. وفى بعض الأحيان يقترح أهل الحاج ما ينبغى رسمه على جدار بيتهم. وفى كثير من الأحيان يكون للسطح نفسه دور فى اختيار الرسم. يضاف إلى ذلك أن الفنانين لديهم موضوعاتهم المفضلة، وهى تلك الأشياء التى يجيدون رسمها. كما أن البعض منهم يجد متعة فى تنويع موتيفاته تبعًا للحجم والمساحة. ويميل بعض الفنانين إلى الخيال، فى حين يحاول آخرون اتباع الطرق الواقعية، الأمر الذى يخلق جوًا خاصًا من الفن الشعبى. ويلاحظ أن خيالهم غير الموجه وعدم تمكنهم من المنظور، فى ظل وجود مساحات كبيرة توضع عليها ألوان صريحة، يؤدى إلى ظهور



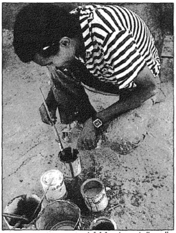
رجل وزوجته من إسنا يقفان أمام بيتهما الذى تحمل واجهته رسمًا لرجل يمتطى حصانًا راقصًا يقف على قائمتيه الخلفيّتين. اللوحة من تصوير فنان اسمه محمود العربى. يبدو أن هذا الفنان أراد تصوير الحاج فى شبابه، كما يبدو فى اللوحة.



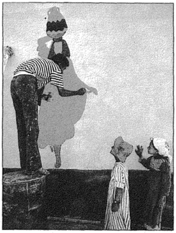
فى هذه اللوحة يصور الفنان الحاج وهو يستعد للرحيل، حيث يتأكد من سلامة حقائبه، التى نلاحظ أنها حقائب حديثة. ومع أنه لم يعد هناك من يقوم بالحج على الجمال، فإن هذا المشهد مازال يعيش فى مخيلة الفنان ونقله على جدار بيت أحد الحجاج. ويتضح فى هذه اللوحة اهتمام الفنان على عيد ياسين - من سلوة بحرى - بالتفاصيل.



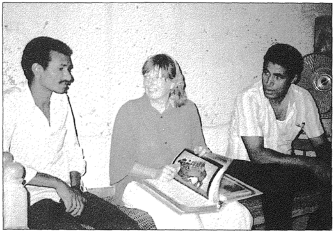
الفنان أحمد الطويب يعد ألوانه.



.... وينفذ إحدى الجداريات.

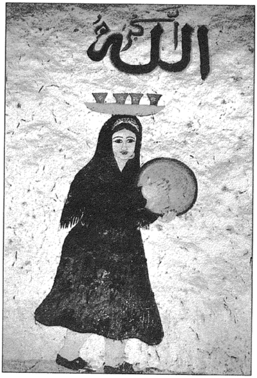


أثناء زيارة قامت بها «آن باركر» لقرية القرنة بالأقصر التقت بالفنان التلقائى أحمد الطويب الجالس على يسارها، وقد حرصت على اطلاع الفنانين الذين التقت بهم على صور لفنانين آخرين ومناقشتهم فى إبداعاتهم.



إحدى الحاجات التى لا تزال فى ملابس الحج البيضاء تعانق قريبتها التى تستقبلها عقب خروجها من المطار. واللوحة من رسم على عيد ياسين واجهة بيت على أطراف كوم امبو. وقد جيء به إلى هذا المكان بسبب شهرته فى رسم جداريات الحج، بعد أن أصر ابن الحاجة، صاحب المكانة بين أهله، على أن يرسم الواجهة أفضل فنان. وهذه شهادة على إبداع هذا الفنان.





وإحدى سيدات المنزل تقدم الشربات للمهنئين بعودة الحجيج، لاحظ صبغة الحناء على الأيدى والأصابع.

أشكال أشبه بالكاريكاتير وشخصيات ذات بعد واحد. بخلاف غياب التوازن أو التنظيم. وهى أمور غير مذمومة فى مثل هذا الفن الشعبى.

وكل فنان له خامته المفضلة، غير أنهم فى أغلب الأحيان يستخدمون ألوانا ذات قاعدة مائية. ويفضل البعض الألوان ذات القاعدة الزيتية، لأنها تعيش أطول، وإن كانت أغلى ثمنًا. وعادة ما تستعمل الألوان الزيتية فى إطارات النوافذ والأبواب الخشبية.

والكعبة هى العنصر الذى يحرص الفنان منهم على وجوده فى رسوماته. فهى وحدها ما ينقل فكرة الحج. وتصور الكعبة فى بعض الأحيان على هيئة مكعب أسود وحسب، ومرات أخرى تتخذ صورة محددة التفاصيل وسط بحر من البشر المحيطين بقاعدتها، وهم الحجاج فى ملابس الإحرام. وعادة ما تكون الكعبة محاطة بالعناصر الأخرى المرتبطة بالحج، وهى فى العادة صور منسوخة من المجلات والصحف والكتب واللوحات الفنية، وفى بعض الأحيان تكون من نسج الخيال أو شاهدها الفنان على شاشة التلفزيون. ونجد أن البعض يركز على تصوير وسائل النقل المختلفة التى يستقلها الحجاج فى رحلة الذهاب إلى الأراضى المقدسة والعودة منها.

وكانت رسومات الحج القديمة تقل كثيرًا من حيث جودتها عن تلك التى تتم فى الوقت الراهن. فقد كان الكثير منها يرسمه أهل البيت بأنفسهم. وكانت عبارة عن رسومات بسيطة للزهور أو الطيور أو الحيوانات ومعها بعض الآيات القرآنية المكتوبة بخط غير جيد.

وكما قلنا من قبل، فإن جداريات الحج ليست دائمة. وعادة ما تترك هذه الرسومات نهبًا للعوامل الجوية والإهمال. وتتولى أشعة الشمس الحارقة، والعواصف الترابية، والرياح، والأمطار التى تسقط أحيانًا، وضع بصماتها المدمرة عليها. وحتى أفضل اللوحات سرعان ما تبهت ألوانها وتتلاشى رسوماتها. ونادر هو الذى يبقى من هذه اللوحات لسنوات. وعندما تتلاشى بفعل العوامل الطبيعية أو عبث البشر، فإنها تترك انطباعًا حيًا فى الذاكرة الجمعية. ويبدى «آن باركر» و«آفون نيل» أسفهما على ضياع الكثير من الجداريات الجميلة دون أن يبقى لها أى أثر.

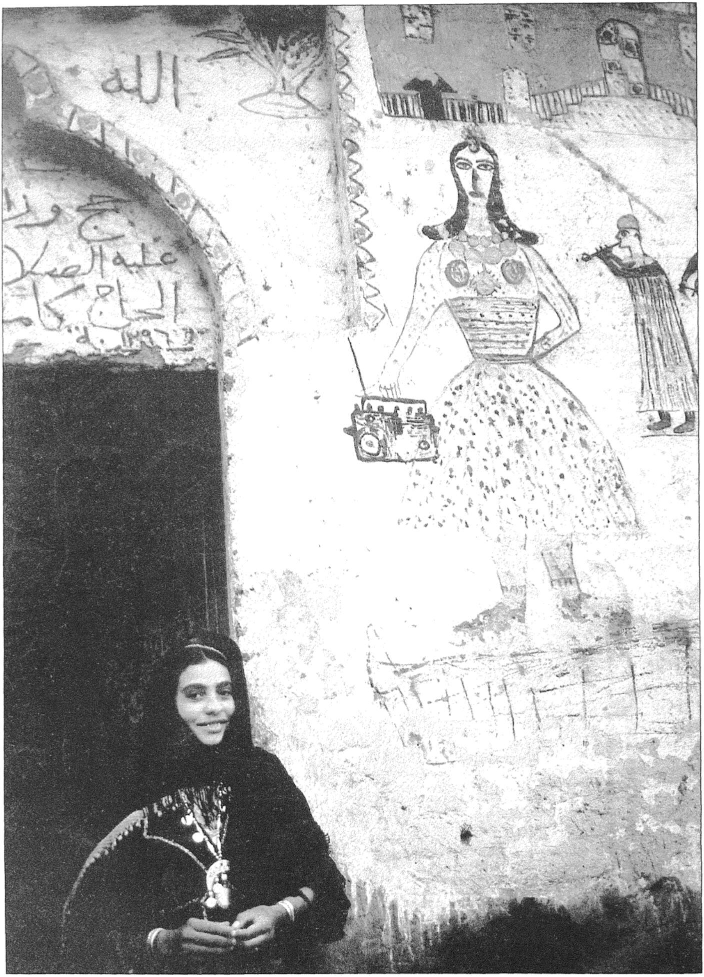
وبالطبع ليست هناك طريقة عملية لتجميع مثل هذه الأعمال فى المتاحف. ولذلك يرى المؤلفان أن أبسط طريقة لحفظ هذه الصور المؤقتة هى تسجيلها فوتوغرافيًا. وهى عندما تجمع مع بعضها ككيان مرئى تشكل أرشيفًا رائعًا لفن شعبى دينى على قدر كبير من الخصوصية ولحركة أصيلة توشك أن تحصل على الاعتراف بها باعتبارها وجهًا مهمًا من وجوه التراث الفنى للأمة المصرية.

ترجمة وإعداد: أحمد محمود



من أشكال كرم الضيافة عند المصريين فى المناسبات السعيدة تقديم الشاى و«الدخان» بمختلف أنواعه

هذه الحاجة الشابة الواقفة أمام بيتها هى التى صورها الفنان التلقائى على الجدار فى هيئة امرأة عصرية، وإن حرص على أن تكون حليها هى نفس الحلى التقليدية التى تظهر فى الصورة الفوتوغرافية. كما أنها تمسك بجهاز تسجيل، ربما اشترته هدية لأهلها من الأراضى الحجازية.


الله

الـــزعيـــــم فى المنـــــفى

فى ٩ مارس الماضى مرت - دون أن يتذكر أحد - ثمانون عاما على ثورة ١٩١٩، وهى واحد من أهم أحداث القرن العشرين، ليس فى تاريخ مصر وحدها، بل فى تاريخ العالم كله، إذ كانت أول ثورة شعبية تنشب فى أعقاب الحرب الأولى، وفى مستعمرة من مستعمرات الدول المنتصرة، لتسير على دربها ثورات أخرى فى الوطن العربى، وأوروبا وآسيا.

بدأت أحداث الثورة فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨، عند طلب ثلاثة من الزعماء المصريين، هم «سعد زغلول» و «عبد العزيز فهمى» و «على شعراوى»، السماح لهم بالسفر للتباحث مع الحكومة البريطانية حول مطالب مصر الوطنية، فلما رفضت طلبهم، بدأوا نشاطا سياسيا واسعا للحصول على تأييد المصريين، وصل إلى ذروته حين استقالت حكومة «حسين رشدى باشا» احتجاجا على منعهم من السفر، وأصدروا بيانا يطلبون فيه من السلطات رفض الاستقالة وعدم تكليف أحد بتشكيل الحكومة، فاعتقلت السلطة العسكرية البريطانية فى ٨ مارس ١٩١٩ «سعد» وثلاثة من أعضاء الوفد، هم «محمد محمود» و«إسماعيل صدقى» و«حمدالباسل».

وقبل أن تتحرك بهم السفينة إلى المنفى، اندلعت مظاهرات الطلاب صباح ٩ مارس ١٩١٩ احتجاجا على ذلك، فتصدت لها قوات الاحتلال، لتتحول إلى ثورة استمرت فى مرحلتها الأولى لمدة شهر كامل وشملت كل أنحاء مصر: أضرب الطلبة والعمال والمحامون وسائقو الترام والقطارات وتظاهرت السيدات وقطع الفلاحون خطوط السكك الحديدية وقضبانها وأعمدة التلغراف والتليفون وأضرب موظفو الحكومة عن العمل.. ولم تتوقف هذه المرحلة من الثورة إلا عندما أعلنت بريطانيا فى ٧ أبريل ١٩١٩ الإفراج عن «سعد» وصحبه وإباحة السفر للمصريين!

ولم تصل أنباء الثورة إلى «سعد زغلول» ورفاقه، إلا بعد حوالى عشرة أيام من نشوبها، حين استقروا فى منفاهم وسمح لهم بقراءة عدد محدود من الصحف التى تنطق بلسان الاحتلال..

وهذا النص يتضمن مقتطفات من «مذكرات سعد زغلول» عن الفترة بين ٩ مارس و١٢ أبريل ١٩١٩، راعينا فى اختيارها أن تعكس صورة لحياة زعيم الثورة وصحبه فى المنفى، ورد فعل أحداثها عليهم، وقد تطلب ذلك حذف بعض التفاصيل المكررة أو التى لا صلة لها بالسياق، كما تطلب إضافة بعض التوضيحات للنص ليصل إلى قارئه مستكفيا بذاته.

«المحـــرر»

٢٦ مارس ١٩١٩ - قلعة بولفاريستا بمالطة:

من يوم ٦ مارس ١٩١٩، لم أكتب شيئا عن المذكرات. وفيه دعانا الجنرال «واطسن» - قائد القوات البريطانية - إلى مقر قيادته بفندق سافواى، أنا وأصحابى أعضاء الوفد. وعندما اجتمعنا خرج علينا وحوله بعض العساكر. قال عابسا: إنه نظرا لأنه علم أنكم تناقشون الحماية، وتعرقلون سير الحكومة، بتعطيل تشكيل الوزارة فانذركم بأنكم إذا أتيتم ما يعطل سير الحكومة، تقعون تحت طائلة العقاب. فهممت بالجواب. فانصرف قائلا: لامناقشة. قلت لأصحابى: إن الأمر ليس مجرد تهديد، بل هو جدى.

ثم كتبنا إلى مستر «لويد جورج» - رئيس الوزارة البريطانية - تلغرافا بالاحتجاج على هذا التصرف، قلنا فيه: إن تعطيل تشكيل الوزارة ليس من عملنا، بل هو ناتج من منع الوفد من السفر، ولكن السلطة العسكرية البريطانية فى مصر أرادت أن تلقى علينا مسئولية هذا التعطيل.

مذكرات سعد زغلول (الجزء التاسع)
تحقيق: د. عبدالعظيم رمضان
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨

وفى يوم الجمعة ٧ مارس ١٩١٩، تحدث البعض بأن عشرين محلا أعدت فى سجن ليمان طرة. وفى صبيحة يوم السبت ٨ مارس ١٩١٩، أخبرنى بعض الأصدقاء بأنه تقرر شىء، ولو لم يصدر منا شىء مما نهينا عنه، فلم أعبأ. ولكن فى نحو الساعة ٥ بعد الظهر، حضر أحد الضباط الإنجليز وقال لى: إنك مدعو لفندق سافواى، فخرجت معه، حيث وجدت «محمد باشا محمود» واقفا أمام المنزل المجاور لمنزلى بجانب أوتومبيله، وبعض العساكر، فاركبنا معا فى أوتومبيل، إلى ثكنات الجيش الإنجليزى فى قصر النيل، وكان من خلفنا فى أتومبيل آخر «إسماعيل باشا صدقى».

وصعدنا إلى الطبقة العليا، ووضع كل منا فى أوده، وفتشونا جيدا، ولم يجدوا معى شيئا إلا بعض أوراق ردوها بعد أن قرأوها وعرفوا عدم أهميتها.. وكانت غرفتى أوفر متاعا وأوسع من بقية الغرف. وبعد قليل أحضر «حمد الباشا الباسل» وجلس كل منا منعزلا عن الآخر إلى أن سمح لنا - بناء على طلبى بالاجتماع معا..

وطلبت من المنزل أكلا، فلم يأتوا به إلا بعد الحادية عشرة ليلا.. وكنت قد رقدت فوق السرير.. ماذاقت عيناى النوم طول الليل، لأن الحراس كانوا يروحون ويغدون أمام الغرفة، فيحدثون حركة مقلقة، ولأن أفكارا كثيرة كانت تتوارد علىّ. وكان يزعجنى منها ماتوحيه خالة زوجتى التى لم تكن فى البيت وقت القبض علىّ. ولم يخطر النفى ببالى، وقدرت أنه قد يكون السجن إلى زمن ما. وخطر ببالنا - فيما خطر - إجراء تحقيق معنا.. ثم قيل لنا: أحضروا ملابس تكفى لشهر من الزمان. فما فهمنا أن ذلك للإبعاد، وتوهمنا أنه سوء فهم ممن أبلغونا.

وفى صباح يوم الأحد ٩ مارس ١٩١٩، قيل لنا: استعدوا للسفر من غير أن يحددوا الجهة. وطلبوا أن يحدد كل منا اسم خادم يصحبه، فطلبت خادمى «محمد أحمد». وعلمنا - بعد ذلك - أنهم طافوا على منازلنا لإحضار لوازم السفر. وفى الساعة العاشرة والنصف أنزلونا إلى الطبقة السفلى، حيث كانت أوتومبيلات معدة لنقلنا. ووجدنا أتباعنا مع أمتعتنا فى عربة نقل. وسارت بنا الأوتومبيلات مقفلة إلى محطة قطارات القاهرة، فدخلت إلى رصيف الصعيد، وانتهت إلى محاذاة العربة التى أنزلنا فيها، وكنا محاطين بالجند. ولم أر أمام العربة من المصريين، إلا «محمود باشا صدقى» - عديلى - وشقيقه «محمد باشا»، رأيتهما من بُعد والدموع تتناثر من عيونهما.. ودفع إلى كل واحد منهما بما كان معه من النقود، ولايبلغ مجموعها أكثر من عشرين جنيها تقريبا.

وكنا نضحك أحيانا، عندما يكون هناك سبب يقتضيه. ولطريقة «حمد باشا الباسل» فى حسن التوكل وجميل التحمل، يرجع الفضل فى تلطيف الأمر علينا.. ولما وصل القطار إلى محطة بورسعيد، وجدنا مستر «إلجود» - قائد الحامية البريطانية بالمدينة - فى انتظارنا، فقابلنا بهشاشة وبشاشة، وسار بنا إلى أوتومبيلات الصليب الأحمر، معتذرًا بأن غيرها كان مشغولا، فقادتنا إلى باخرة ضخمة من بواخر النقل، تدعى «كاليدونيا» وكانت مشحونة بالجنود الإنجليز وقدمنا «إلجود» إلى قبطانها. وتناولنا الشاى معه، وطلبنا منه أن يتوسط فى إحضار نقود لنا بموجب تحويلات على فروع البنوك التى لنا معاملة معها، فردها إلينا، لأن هذه الفروع أبت أن تدفع قبل مراجعة فروعها الرئيسية بمصر.

ولم تقلع بنا الباخرة من ميناء بورسعيد، إلا ظهر يوم الاثنين ١٠ مارس ١٩١٩، وأبى كل من شاهدناه أن يبوح باسم الجهة التى نتوجه إليها، حتى اليوم التالى، حيث قيل لنا إننا نتوجه إلى مالطة.. وقد كنا أثناء ذلك غير فزعين، ولا مضطربين، ولا قلقين، إلا على أهلنا الذين يتوهمون أننا متعبون فيألمون، ولو كنا متأكدين من اطمئنانهم علينا، لكنا فى راحة بال وسكون حال..

وكان كل الركاب - على اختلافهم - يتمرنون على حمل أطواق النجاة يحملونها كل يوم فى الساعة ٩، ويقفون صفوفا، فيمر بهم الضباط ويعلمون من يجهل منهم كيف يحملها. وقد أحدث التمرين عليها أول الأمر فى نفوسنا تأثيرا سيئا، لتوهم الخطر، ولكن لم يلبث حتى زال..

وكانت محلاتنا فوق ظهر الباخرة من المحلات المعدة للضباط، لكل واحد قمرة فيها مايلزم من غطاء وفراش ولوازم التواليت. وكان الأكل موحدا ومناسبا وأغلبه أرز مع الكارى، ولم يكن يسمح لأحد أن يأكل خارج القائمة الموحدة، إلا لى وحدى، لكونى مريضا. وكانت الخدمة راضية والنظافة عالية. وكان البحر فى اليوم الأول هادئا والرياح ساكنة، ولكنه تحرك فى اليوم الثالث، وهبت الرياح ونزلت بعض الأمطار، ثم هدأت بعد ذلك. ولكن لم يأخذنى دوار، ولم يشتد بى التعب اشتداده المعتاد.

وكنا نمضى بعض أوقاتنا فى تناشد الأشعار، وبعضها فى لعب الورق، وبعضها فى الحديث والسمر. ونستعين على طرد الهموم بمبادئ الدين والفلسفة، وأفادنا ذلك فى تحمل مشاق الغربة والسفر والبعد عن الأهل والأوطان..

ولم تكن السفينة قاصدة «مالطة»، ولكنها عرجت عليها لإنزالنا بها.. فوصلناها فى صبيحة يوم الخميس ١٣ مارس ١٩١٩، ووقفت بعيدة عن المرسى، ونقلنا إليه - اثنين اثنين - فى زورق بخارى صغير أخذ يتقلب بنا ذات اليمين وذات اليسار واعترانى من هزاته أكثر مما ألم بى من تعب السفر.

وصعدوا بنا إلى قلعة تسمى «بولفاريستا» وأدخلنا إلى قسم منها، مؤلف من ثلاث طبقات على هيئة قشلاق، تخصص لنا فيه مسكنان، يتألف كل منهما من ثلاث غرف مبلطة، ولاسجاد ولا حصير ولا أمتعة سوى بعض كراسى وترابيزات، فطلبنا أن تفرش. فوعدنا بذلك.

وكان البرد قارسًا والهواء عاصفا، وقد رأينا - عند دخولنا - أحد الأسرى المصريين، وعلى رأسه تعميمة، فاستقبلنا بالهشاشة والبشاشة. وتواردت علينا الرسائل من الكامبات الأخرى التى فيها أسرى من المصريين، وكلها تبدى الأسف من نفينا، والترحاب بنا والاستعداد للقيام بخدمتنا فى كل مايلزم لنا.

وفى اليوم الثالث السبت ١٥ مارس ١٩١٩ زار الحاكم العام لمالطة الأسرى، وحضر إلينا وتكلم مع «محمد باشا محمود» - وهو الوحيد بيننا الذى يتقن الإنجليزية - ووجدناه عارفا بأن «محمد باشا» من متخرجى «جامعة أكسفورد»، وقال لنا: إنه لابد أن نبقى هنا بعض الزمن..

والثورة فى الوطن

ويتم علينا فى اليوم مرتين: فى الساعة ٩ صباحا.. وفى الساعة ٥ مساء بواسطة نفر من العساكر، ويمر كل يوم بنا ضابط مالطى ليتلقى طلباتنا وينفذ مايمكن تنفيذه منها.

ولقد استوحشنا المكان أول نزولنا به. وكانت العبرات تخنقنى كلما فكرت فى حالة زوجتى، ولكنى كنت أستعين على قطعها بأنها - مع ذلك - أحسن حالا منى لأنها حرّة. ولاشيءفى العالم يعادل الحرية فى شيء. ولا يشعر بقيمتها إلا من حرم منها كلها أو بعضها.. لايمكن لأحد من الخارج أن يكلمنا أو نكلمه. لانكتب ما نشاء، ولايصل إلينا من الكتابة إلا مايشاء غيرنا. ولانقرأ من الجرائد إلا بعضها دون البعض الآخر، فلانقرأ الفرنساوية منها، ولا الإنجليزية إلا «التيمس»، ولا الإيتاليه إلا مالطة، ولا المصرية إلا «المقطم».. ولكن أحضروا لى معها «الأهرام».. أباحوا لنا الفسحة كلما طلبنا ساعتين فى اليوم، بشرط أن يصحبنا فيها أحد الضباط.. وعند الخروج لكل نزهة، لانخالط أحدا ولانشترى شيئا.. أخذت فى تعلم الإنجليزية وواصلت تعلم الألمانية..

مكثنا عدة أيام لانعلم من حوادث مصر شيئا، ولكن أتت أخبارها شيئا فشيئا من التلغرافات التى تنشر هنا، ومن جريدة «التيمس».. وأخيرا من جريدة «المقطم». واندهشت جدا من هذه الحوادث لأننا لم نكن نتصور حدوثها، خصوصا بالكيفية التى حدثت بها..

٢ أبريل ١٩١٩:

أخبار ما حصل من المظاهرات عقب قيامنا من مصر، ومن أجل إبعادنا، ملأت قلوبنا سرورا وابتهاجا، حتى كادت تحبب السجن إلينا، وأفعمنا شكرا لأمتنا، وهانت علينا نفوسنا نفدى بها هذه البلاد. نعم مازج هذا السرور كثير من الأسف، على النفوس التى أزهقت والدماء التى أهرقت، ولكن أى مجد قام بغير الضحايا، وأى أمة بلغت مناها بغير أن يخاطر أبناؤها بأعز مالديهم..

ولقد ساءنا أن تداخل بعض الأشرار فى الحركة ، وارتكبوا جرائم فظيعة، ولكن المسئول عن هذا هم الذين أساءوا السياسة من قبل. وزعم بعض أعضاء مجلس العموم البريطانى، أننا نفينا لأننا هددنا السلطان «أحمد فؤاد»، ولأننا عطلنا تشكيل الوزارة، ولكن سياستهم الخرقاء هى التى ترتب عليها هذا التعطيل، لأنهم منعونا من السفر إلى باريس لعرض مطالب قومنا على مؤتمر الصلح، واستقالت وزارة «حسين رشدى باشا»، احتجاجا على هذا المنع، فلم يجرؤ مصرى على قبول الوزارة، لاخوفا منا، بل خشية أن تحتقره أمته، التى صودرت إرادتها.

وليس فى الكتاب الذى أرسلناه للسلطان، فى ٢ مارس ١٩١٩، نطلب فيه ألا يقبل استقالة رشدى، وألا يكلف أحدا غيره بتشكيل الوزارة، شيء من التهديد، بل هو مملوء بالأدب فى مخاطبته، والاحترام لشخصه، والحرص على مقامه، وإيقافه على ما فى نفوس أمته، مما لم يجرؤ أحد غيرنا على عرضه عليه.. فإن كان رفع رغبات الأمة إلى سلطانها، يعد تهديدا له، فنعم هذا التهديد ومن الفخر أن نتحمل مسئوليته أمام أية سلطة شرعية..

لقد توهم حزب الاستعمار أنه سيبتلع مصر، بمجرد أن يبعد بعض أبنائها من بلادهم، ولكن ساء ماتوهم، فإن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تطلب الاستقلال، ولاتحمل للطامعين فيها إلا كل حقد وضغينة.. ومهما كان من طبيعة الحوادث التى حصلت فى مصر بعد سفرنا، فإنها جاءت قارعة شديدة فوق ماكان يقدر المقدرون، وعكست القصد على حزب الاستعمار، ولفتت نظر العالم كله، إلى أن هناك أمة مظلومة، تطلب الإنصاف.

قرأنا اليوم - ٢ أبريل ١٩١٩ - مقالة فى جريدة «التيمس» يلوم فيها كاتبها الحكومة الإنجليزية على منعها الوفد من السفر لإبداء مطالبه، ويقول إنه لو حصل ذلك لما حدثت فى مصر حوادث محزنة. ومما يدهش، مانشرته تلك الجريدة، من أنه نودى فى «زفتى» بأنها جمهورية!.. فهل تبدلت الأمة المصرية فى هذه البرهة الوجيزة التى مضت من وقت سفرنا من البلاد، أم أن غلاة المستعمرين الذين تنطق بلسانهم «التيمس» يكبرون فى الحوادث ويبالغون فى شأنها بغية الوصول إلى غرض يرمون إليه!

يؤسفنى جدا مايقع - من وقت لآخر - بين «محمد محمود» و«إسماعيل صدقى» من سوء تفاهم.. ولقد حاولت كثيرا منعه، فلم تساعدنى حالة «محمد محمود» على الوصول إلى غاية مرضية، لأنه كثير الانفعال، ويتأثر لأقل شيء، ويكفى أن يخالفه «صدقى» فى أمرمن الأمور حتى يرمى الغضب من لسانه بعض الكلمات الجارحة، وهو سيىء الظن كلما توهم أنى أميل إلى «صدقى» الذى أظهر سعة صدر، فلم يكن لى أن أتخلى عن نصرة حقه، رغم كون الصحبة بيننا لم تكن كبيرة، ورغم كونى صديقا لـ«محمد محمود» صداقة قديمة، وقد ابتدأت أتضايق من هذه الحالة مضايقة شديدة.



٤أبريل ١٩١٩ [قلعة بولفاريستا/مالطة]

أصبحنا والشمس زاهية، والسماء صافية، والجو هادئ. وقد نمت الليلة أحسن من كل ليلة سابقة، والأفكار المحزنة أخذت تزول وتتبدل بالأفكار المسلية. وسبب ذلك، أن المظاهرات الجريئة التى حدثت غضبا لإبعادنا، وطلبا لإرجاعنا، قد وجدنا فيه شيئا كبيرا من المكافاة والترضية. وماكنا نوده من سفرنا وهو تبليغ مطالب قومنا، سواء كان لأحرار الأمة الإنجليزية أو لأعضاء المؤتمر، قد حصل بأكبر بيان، وأفصح عبارة، وأقطع برهان. وأصبحت قضيتنا فى نقطة أعلى وأسمى من النقطة التى كنا نتعشم وضعها فيها قبل سفرنا..

والحق يقال إننا وقت قيامنا بهذه الحركة، بل وبعده لغاية إبعادنا، لم نكن نتصور أن مسألة مصر تبلغ من الأهمية مابلغته الآن، والفضل فى ذلك لايرجع إلى مهارتنا، ولكنه يرجع إلى سوء السياسة الإنجليزية فى مصر، إذ لو أنها تركتنا نسافر إلى مؤتمر الصلح، لما حصل شيء مما حصل. ولكن الله أضلهم، فأحبط أعمالهم وعكس القضية عليهم.. فالآن ، نعتبر مأموريتنا قد انتهت، ونستقبل كل قضاء على أنفسنا بغاية الرضا، وسواء أتيحت لنا العودة إلى وطننا العزيز أو لم تتح، فقد أعززناه وأعزنا.. وخدمناه فجزانا أحسن الجزاء، ولم يعد الظالمون يستسهلون اهتضامه ، ولا الطامعون يستبيحون التهامه..

٨ أبريل ١٩١٩:

نتم اليوم الشهر من تاريخ القبض علينا. وقد حضر بناء على إلحاحنا أمس مزين يصحبه أحد العساكر ليمنع الكلام بيننا. فقص لى شعرى الذى كان طويلا ويؤلمنى طوله.

من البلية أنى أشتهى تعلم اللغة الإنجليزية. ولاأحد فيمن يدرّس لى الكفاءة اللازمة، ولكن لغة مخلوطة خير من عدمها.

أرض الله واسعة فلا تحصر سعادتك فى بقعة منها، وفى أى محل حللت اجعله وطنا لك،



وافرض أنك بقيت فيه، إذا لم تستطع أن تعود إلى وطنك الأصلي..

إن الذين يتعرضون للأمور العامة، ليس لهم أن يتفكروا في أمورهم الخاصة، ولو أصابتهم مصيبة في أموالهم أو أنفسهم، فليس لهم أن يفزعوا منها، بل عليهم أن يقبلوا القضاء بها بالرضا، وإلا كانوا مخادعين لأنفسهم ولبلادهم..

يلوح لي أن الحوادث التي حدثت في مصر، وإن كان من شأنها أن تلفت أنظار مؤتمر الصلح إلى قضيتها، لكنها لاتدعو إلى حمله على إعلان استقلالها كما نود نحن، لأن إنجلترا لن تسلم بأن تخسر - بعد انتصارها في الحرب - ماكسبته قبلها، وهي تعتبر مصر لها من غيرمعارض منذ توقيعها الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٤. ولكن حالة مصر لابد أن تتغير إلى ماهو أحسن من الآن. خصوصا بسعي الأحرار من الإنجليز أنفسهم..

ويحملني على هذا الظن، أن للدول الأعضاء في مؤتمر الصلح، مستعمرات تسعى للحفاظ عليها، وإلى زيادتها، فلايمكن أن تحمل غيرها على أن تترك ما أصبح في ملك يمينها من المستعمرات. وقد ضعف صوت الرئيس الأمريكي «ولسن» الذى كنا نعتمد على وعده بإعطاء كل الشعوب حق تقرير المصير، ونعده نبي زمانه، بل اتهمه قومه بأنه يمالئ الإنجليز ويحابيهم. والله أعلم بمصير الأحوال.

١١ أبريل ١٩١٩ [الساعة ٦,٤٥ صباحا]

أمس بعد العشاء، في نحو الساعة ٨، ونحن حول مائدة اللعب، إذا بخادمي «محمد إبراهيم» دخل علينا، وفي يده تلغراف من «رويتر» يقول: أن الجنرال «ألنبي» الذى عين في ٢٥ مارس ١٩١٩ مندوبا ساميا في مصر - أعلن بأن السفر إلى خارج القطر صار مباحا لكل المصريين .فكدنا نطير من الفرح لهذا النبأ السار الشارح للصدور المنعش للآمال. قلت: إن هذا أول انتصار للحق على القوة، وأول ثمرة من ثمرات اتحاد الأمة على إباء الضيم والأنفة من ذل الاستعمار، وأثر من آثار الحركة المباركة التي قامت بها مصر في هذه الأيام.. فحيّا الله الأمم إذا عرفت واجبها، وحيّاها الله إذا اتحدت على المطالبة بحقوقها، وحيا أبناءها إذا هم خاطروا بأنفسهم في سبيل استقلالها.

وبعد ذلك عدنا إلى اللعب، حتى جاءت الساعة ١٠ - موعد نومنا - فذهبت إلى قضاء حاجة، وسمعت صوت «محمد محمود» يصرخ عاليا، وحضر الإخوان الثلاثة يعدون. وقال «محمد محمود» بصوت يختلط فيه البكاء بالفرح: إننا لم نقرأ بقية التلغراف، إنه يشتمل على خبر أهم - وهو الإذن لنا بالسفر أيضا، وقبّل بعضنا بعضا أمام بيت الأدب. وأعادوا قراءة التلغراف مرة أخرى. وصفقنا، تصفيقا دوى في المكان.

وجلسنا نتحدث فيما يكون من أمرنا.. فخطر لنا أنه عما قريب يأتينا خبر بالفرج والإذن لنا بالسفر، وفي الغالب أن العودة إلى مصر لا تتيسر الآن خشية مظاهرة الشعب لنا، على أننا نحن نفضل أن نسافر توا إلى أوروبا لنقضي واجب الوطن العزيز قبل كل شيء.

وقلت لإخواني:

هذه ضربة أصابت الذين لايزالون يتمسكون بلزوم الشدة، وكأنهم لايعلمون أن حركة مصر لم تتولد إلا من الشدة، ووضع البلاد تحت الأحكام العرفية زمانا طويلا، وعدم المبالاة بحياة المصريين، واستعمال السيف والنار فيهم لأوهن الأسباب. ألا قاتل الله هؤلاءالأئمة، قساة القلوب غلاظ الأكباد الذين أولى بهم النار وبئس القرار..

ومالنبعث في قلبي من الفرح، لم يلبث أن مازجه الشعور بالواجب نحو الأمة، وتحمل عنائه، بعد أن حط الاعتقال عن كواهلنا حمله، وصرت أفكر فيما يجب فعله.. وقلت لإخواني: لا يأخذكم ما أنتم فيه من الفرح عن واجب التحفظ، والظهور بمظهر الرزانة والسكون. ونرجو الله جميعا أن يرزقنا الصبر على استقبال نعمته.. فإن النعمة أحوج من النقمة للصبر عليها..

ومازلنا هائصين إلى انطفاء النور، فدخل كل منا مسكنه. ولم أنم إلا بعد الساعة ٢. وكان النوم غيرعميق، ثم تيقظت في الساعة الرابعة والنصف.. ولم أنم لغاية الآن. وقد حضر الساعة عندى «حمد باشا الباسل» وفهمت منه أنه لم ينم لا هو ولا «صدقي» . وأخذ يشرح مايخامرفؤاده من السرور، ويقول:

اليوم اندرجت حياتنا في حياة المجموع، واندمجت شخصياتنا في الأمة، فلانفكر في أنفسنا، ولكن في بلادنا، وقد كان الطريق غيرواضح من قبل أمامنا وقد أصبح الأمرجليا، فما علينا إلا أن نستمر في سلوكه إلى النهاية التي نرومها، ولاينقصنا الإقدام، فإني ما رأيت رجلا مثلك في الإقدام، عندما يعقد العزم على الشيءياتيه.. نعم ، إنك قبل الإقدام تدقق في الشيء تدقيقا شديدا، ولكن شيئا بعد ذلك لايصدك عنه مهما كان خطيرا..

وتقبل الأسرى المصريون خبر الإذن لنا بالسفر بالبشر والترحاب وأخذ بعضهم يهنئون بعضا.. وتغيرت حالة «محمد محمود» تغيرا محمودا، فالحمد لله الذى أصلح شيئا منه..

١٢ أبريل ١٩١٩:

لم أنم أمس، كالسابق، لأن الأفكار تحركت بعد أن كانت ساكنة.. وفي نحو الساعة ١١ حضر الضابط الذى يتفقد حالنا يوميا، وأبلغنا بأنه ورد تلغراف من مصر بالإذن لنا بالسفر إلى «لوندره» مع ١٨ مصريا، منهم أعضاء الوفد الذين كانوا في مصر، وأن الباخرة التي تحملهم قامت من بورسعيد أمس، وسوف تصل إلى هنا صباح بعد غد الاثنين ١٤ أبريل، وبعد قليل حضر حاكم مالطة الإنجليزى ليودعنا، وأخذنا نتأهب للسفر..

كتاب الزاوية

الساق على الساق

فى دائرة هذا الكون ومركز هذا الكتاب

كان هذا الرجل طبيبا مشهورا بمصر . ولكن شهرته فى دائه أكثر منها فى دوائه . وذلك أنه كان قد تزوج جارية تارّة على كبر سنه فأولدها بنتا وصبيا . ثم عجز عن أداء حقها فجعل دأبه الملاطفة لها والتملق . وتلك عادة الرجل مع المرأة من أنه كلما قصّر فى إعتابها وإرضائها فى الحقوق الزوجية زاد حرصه عليها وكلفه بها وتردّبه لها . توهم أن هذا يسد عند المرأة مسدّ ذلك ، وكذا حالته معها إذا كان يخونها ويرأم أخرى ، كما أن دأب المرأة أن تزيد هشهشتها وعروبيّتها لزوجها بزيادة إشباعه إياها وإطفاف الكيل لها . أو تملقها له إذا كانت تخونه .

وبناء على ذلك ، قال الطبيب لزوجته يوما من الأيام : ياهذى إننى أرى أن قد صدئ مفتاحى عن قفلك . وان سنّك وترارتك تقتضيان أن تتخذى لك آلة رصاعية لتتلهّى بها حتى يحين حينى فتتزوجى بأخر . وإلا فإنى أخاف أن تتركينى وتطيرى من عندى كما يطير الحمام . وقد يهون علىّ أن أخسر منك شيئا واحدا ولا أخسرك بجملتك . فإنك أم ولدى ومحل سرى من كبدى ، فلا أطيق فراقك . فاختارى لنفسك من شئت آتك به بقرنيه . فضحكت المرأة عند ذلك . ثم قال : ومن حيث إنى معروف فى هذا البلد بأنى طبيب فإذا رأى الجيران رجلا قادما إلىّ بل رجالا فلايكون عليك شبهة ، فضحكت المرأة أيضا لقوله رجالا . قال : فإن الناس يقرعون باب الطبيب ولو فى نصف الليل وهنا ضحكت أيضا . ثم تمادى فى الكلام معها إلى أن قال : ولا تظنى أنى وحدى تفردت بهذه العادة . فإن أمثالى من أهل بلادى يفعلون كذلك وهنا قهقهت . فلما فرغ من بقية خطبته على هذا النسق ظنت زوجته أولا أنه قصد بذلك أن يستطلع سرّها ويتصيّدها بزلة . فبكت من شدة الغيظ وقالت له : أزعمتنى بغيّا حتى تقابلنى بمثل هذا الكلام وتسىء بى الظن . قال : حاشا الله من ذلك . وإنما تكلمت معك بمقتضى الطبع فتدبرى قولى بعد حين وردّى علىّ الجواب . فانصرفت المرأة من حضرته وهى واجمة مرتابة .

وجهــــة نظـــــر:

فلسطيـــن .. أى دولـــة .. وعلـى أى أرض؟!

إحـــســـان بكـــر

ما الفـرق بين إعلان الدولة الفلسطينية فى الجزائر قبـل عشـر سنـوات، وإعلانهـا الآن؟ عرفـات يقول: إن إعلان الجـزائر صـادر من خـارج الوطن، ولكن إعلان مايو ١٩٩٩ يصـدر ونحـن فـوق الأرض الفلسطينية المحــررة.

لا مجـازفـة عندمـا نقـرر أن الرئيـسى الفلسطينى ياسـر عـرفـات لن يعلن دولتـه المستقلة وعاصمتها القدس فى يوم الرابع من مـايو(آيار) رغم كل الضـجـيج الإعـلامى والتصريحات التى غطت أرجاء المعمورة، وكان أقواها اعتبار ذلك التاريخ «مقدسًا»!

ومع تسليمنا الكامل وتأييدنا المطلق لحق الشـعب الفلسطينى فى أن يكون لـه وطنه ودولته المستقلة، فإن إعلان قرار بهذا الحجم لن يصـدر، فـالمسـألة مـرتبطة بموازين القـوى الإقليمية والدولية وهى كلها تصب فى صالح الدولة العـبـرية، بل وفى صـالح اليـمـين الإسرائيلى بالذات. والدولة الفلسطينية سبق إعـلانهـا فى نوفـمـبـر ١٩٨٨ فى العـاصـمـة الجزائرية، وكنت شاهدا على إعلانها فى قصر الصنوبر بمدينة الجزائر خـلال اجـتـمـاعـات المجلس الوطنى الفلسطينى، فما هو الفرق بين إعلانها منذ أكثر من عشـر سنوات وإعلانها الآن؟ عرفـات نفسـه يقول: إن إعلان الجـزائر صـدر من خـارج الوطن، لكن إعلان ٩٩ يصـدر ونحن فـوق الأرض الفلسطينيـة المحـررة، ثم يدلل علـى كـلامـه بـأن منظمـة التـحـريـر الفلسطينية وحركة فتح مستعدتان «لخوض حرب كرامة جديدة واستئناف الانتفاضة فى حـال انـتـقـاص حـق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم».

ومثل هذا «الكلام الكبير» سمعناه وسمعته شخصيا فى أكثر من مناسبة، لكن واقع الحال يؤكد استحالة العودة إلى الانتفاضة إلا على أشلاء كل هذه الاتفاقات التى عقدتها السلطة الفلسطينية مع حكومات إسرائيل وسهلت مهمة الإسرائيليين وجعلت وضع الفلسطينيين أكثر سوءًا وتعقيدًا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

ومشكلة أو عقدة العمل الفلسطينى هى أن القـيـادة الفلسطينيـة وتحـديدا كل أولئك الأشخاص الذين اندفعوا فى التفاوض مع إسرائيل يوقعون اتفاقات منفردة ودون أى تشاور مسبق مع شركائهم العرب تحت دعوى القرار الفلسطينى المستقل.

لكن نفس هذه القيادة تعود إلى العرب مرة أخرى وتطالبهم بدعمها وتحمّل «مسئولياتهم القومية» إذا تورطت فى التعامل مع إسرائيل ضمن اتفاقات مختلة وناقصة وغامضة فى كثير من بنودها.

أبوعمار فى وضع صعب وبالغ الحرج، والاتفاقات التى وقعها مع إسرائيل لم تنفذ، والوضع الاقـتـصـادى الفلسطينى بائس ومتدهور. والاستيطان اليهودى خاصة فى القدس يتزايد والاعتقالات التى تقوم بها السلطة الفلسطينية بحق الناشطين ضد إســرائيل توتر الوضع الأمنى الفلسطينى. وموعد الرابع من مـايو لإنجاز مفاوضات الوضع النهائى يقترب من لحظة الصفر دون أن تكون هذه المفاوضات قد بدأت.

يدرك الرئيس عرفات كل هذه الصعوبات.. ولا أحد من المحيطين حوله يستطيع أن يزايد عليه، وليس أمامه إلا أن يعوض كل الخسائر التى تمخضت عنها الاتفاقات المنفردة مع إسرائيل بتحقيق إنجاز ما. هذا الإنجاز يتمثل فى إعلان قيام الدولة الفلسطينية على كامل الأرض الفلسطينية التى احتلت فى الخامس من يونيو ١٩٦٧.

لكن للولايات المتحدة الأمريكية رأيا آخر، فامريكا أعلنت قبل زيارة عرفات إلى واشنطن أنها تعتبر الإعلان الفلسطينى بقيام الدولة هو إجـراء من جـانب واحـد، وهى ترفض ذلك بل وتدينه، ثم هى تريد لأى قرار أن يكون حصيلة مفاوضات فلسطينية ـ إسرائيلية.

وقد أعلن مـارتن انديك مسـاعـد وزير الخـارجيـة فى واشنطن يوم ٢٢ فبراير الماضى أن الولايات المتحدة تعارض تمامًا إعلان الدولة الفلسطينيـة من جـانب واحـد.. وأضـاف محـذرا:«نأمل ألا يصدر عن عرفات مثل هذا الإعلان».

وقبيل أن يتوجه ياسر عرفات إلى واشنطن تلقى رسالة من الإدارة الأمريكية تقترح عليه أن «يؤجل» أو «يلغى» زيارته لأمـريكا إذا كـان موضوعها الرئيس سيتركز على إعلان الدولة الفلسطينية فى الرابع من مايو.وربما نتيجة لهذه النصيحـة أو التـهديد الأمريكى تغيرت لهجة الزعيم الفلسطينى، فهو قد أعلن قبل وعند وصـولـه إلى واشنطن أنه يريد من الإدارة الأمريكية «ضمان تنفيذ الاتفاقات الموقعة مع إسرائيل». وعند اجتماعه مع مادلين أولبرايت وزيرة الخـارجـيـة قـال عرفات:«إننى أريد من الإدارة الأمريكية أن تساعدنى على التنفيذ الدقيق والأمين لكل الاتفاقات التى وقعت فى البيت الأبيض»، ولم يذكر موضوع الدولة.

وبعـد لقـاء الرئيس بيل كلينتـون وياسـر عرفات تم الإعلان عن موقف واشنطن:

ـ الالتزام بالعملية السلمية.

ـ الولايات المتحدة لن تغير سياستها فى الشرق الأوسط ومن أبرز ملامحها عدم تأييد قيام دولة فلسطينية من جانب واحد.

ـ إن أمريكا لن تعلن موقفا من حق تقرير المصير للشعب الفلسطينى لأنها لا تتعامل مع مثل هذه اللغة.

ـ إنها تعرف طموحات الشعب الفلسطينى وترى أن هذه الطموحات ينبغى أن توضع على طاولة المفـاوضـات، أى أن حق تقرير المصير الفلسطينى، وحق إعلان دولة فلسطين، هو موضوع يتم التفاوض عليه مع إسرائيل.

والأكثر من ذلك أن الإدارة الأمريكية رفضت أن تحدد تاريخا بديلا للرابع من مايو الذى لا توافق عليه، ورفضت تقديم «أى ضمانات» مسبقة للفلسطينيين، أو وعد بالاعتراف بدولتهم إذا أعلنوها فى أى وقت لاحق. وطلبت أن يكون الموضوع برمته محل تفاوض مع إسرائيل، ثم إنها رفضت أن تحدد «سقفا» لهذه المفاوضات حين تبدأ، فهى مفاوضات مفتوحة بلا أى حد زمنى أدنى أو أقصى.

ومعنى ذلك كله، أن الولايات المتحدة قد التزمت ومن جديد بالموقف الإسرائيلى، وهى تفعل ذلك رغم خلافها مع رئيس الوزراء بنيامين نتانياهو، وبذلك تسقط المقولة التى يرددها دعاة أوسلو بأن الفلسطينيين قد نجحوا للمرة الأولى فى كسب ود الولايات المتحدة على حساب إسرائيل!

والسلطة الفلسطينية الآن أمام خيارين لا ثالث لهما:

أولا: إما أن تخضع للضغط الأمريكى، وبذلك تكون قد قبلت نهائيًا الانضواء تحت جناح إسرائيل حيث ينشأ كيان فلسطينى ضئيل وهزيل تحت السيطرة والهيمنة الإسرائيلية.

ثانيا: أو أن تتجه إلى إعلان الدولة كمبادرة نضالية فلسطينية وبهذا تشكل مدخلا عمليا للوحدة الوطنية الفلسطينية والعودة إلى إطار العمل العربى المشترك.

ونسأل عن الطريق الثـالث.. هل سدت الطرق تماما أمام الفلسطينيين للخروج من المأزق؟ الإجابة جاءتنى على لسان فاروق قدومى «أبو اللطف» وزير خارجية فلسطين والمعارض تماما لنهج أوسلو وكل ما جرى من اتفاقات بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل.

وأعترف أننى منذ توقيع اتفاق أوسلو آثرت ـ مُكرَها ـ أن أبتعد عن القيادة الفلسطينية بعد أن ظللت على مقربة منها لمدة تتجاوز ثلاثين عاما. ابتعدت عمدًا رغم أننى كنت من أوائل الذين كتبوا عن الثورة الفلسطينية فى مصر. وازعم أننى عاصرتهم بل وكنت معهم موجودا فى كل الأزمات التى مروا بها وما أكثرها وكلها كانت مع الحكومات العربية.

وعندما ذهبت أبحث عن إجابة لهذا السؤال حول احتمالات إعلان الدولة الفلسطينية طافت بمخيلتى عشرات المشاهد، منذ صدمة زيارة الرئيس السادات للقدس وما تلاها من أحداث بدءًا من معركة الكرامة ومرورا بأحداث أيلول(سبتمبر) الأزمة الشهيرة بين الملك حسين عاهل الأردن الراحل وقوات المقاومة ثم حصار الفلسطينيين فى أحراش جرش وعجلون ثم الخروج الفلسطينى الكبير من الأردن إلى بيروت ثم معارك الفلسطينيين مع الحكومة اللبنانية وأخيرا هجوم إسرائيل على بيروت وحصار الفلسطينيين وخروجهم إلى تونس..

ولهذا فعندما اتصل بى الأخ فاروق قدومى يدعونى للعشاء فى أحد فنادق القاهرة فكرت فى الاعتذار ثم أخيرا قررت الذهاب للاستفهام.. ما جرى وماذا يجرى وكيف الخروج من المأزق؟

وأنا مسبقا أعلم أن أبواللطف فى موقع المعارضة للاتفاقات ورفض أن يمارس مسئولياته كرئيس للدائرة السياسية أو كوزير لخارجية فلسطين من داخل مناطق الحكم الذاتى، بل آثر أن يمارس عمله من تونس مقر القيادة الفلسطينية القديم، كان يحيرنى سؤال كبير: عضو قيادى بارز بل هو أحد أعضاء القيادة التاريخية للثورة الفلسطينية ولفتح فى موقع المعارضة، أى تناقض هذا.. على أى الحالات الرجل آثر ألا يحدث أى انشقاق فى الحركة الفلسطينية.

■ فى البداية سألته هل هناك طريق ثالث للخروج من مأزق الرابع من مايو؟

قال لى فاروق قدومى: إن الحل الثالث كما تسميه هو إعلان حكومة فلسطينية مؤقتة فى المنفى يوم الرابع من مايو تتولى مهام مفاوضات الوضع النهائى على المسار الفلسطينى، وتترك للسلطة الوطنية الفلسطينية مهمة تنفيذ استحقاقات المرحلة الانتقالية، وأضاف أن حكومة المنفى سوف تسد الفراغ السياسى الناجم عن إرجاء إعلان الدولة فى موعدها المقرر وفق اتفاقات أوسلو.

■ وأين يكون مقر هذه الحكومة المؤقتة؟

أجاب قدومى: القاهرة .. مصر باعتبارها الدولة الأم للدول العربية والمقر الرسمى

لجامعة الدول العربية.. وإذا لم تكن القاهرة فلتكن تونس هى المقر أو العاصمة الأردنية عمان.

■ ومن يرأس الحكومة المؤقتة وما هو وضع ياسر عرفات؟

قال: المجلس الوطنى الفلسطينى عند إعلانه فى الجزائر الاستقلال فى عام ٨٨ انتخب ياسر عرفات رئيسا لهذه الدولة، واختارنى وزيرا لخارجيتها.

■ معنى ذلك الاقتراح أنكم تسحبون كل اختصاصات مجلس وزراء السلطة الفلسطينية؟

قال فاروق قدومى: فى يوم الرابع من مايو تنتهى المفاوضات السياسية. وحتى لاتدخل القضية الفلسطينية فى تيه من الفراغ السياسى، وحتى لا تحدث مصادمات مع قوات الاحتلال الإسرائيلى فى حال إعلان الدولة فى موعدها فى الضفة الغربية وقطاع غزة، فإن الحل الحقيقى للخروج من المأزق هو المبادرة بإعلان تشكيل حكومة فلسطينية مؤقتة فى المنفى، والحكومة الجديدة تضم كل فصائل المقاومة الفلسطينية الأعضاء فى المجلس الوطنى وحركة حماس - إذا وافقت - ونحن ملتزمون حسب الميثاق الوطنى، التعامل مع المنظمات التى شكلت منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الجبهة الوطنية الفلسطينية.

■ ألا يعنى إعلان هذه الحكومة ازدواجية فى العمل الفلسطينى؟

قال قدومى: على الإطلاق، إن مهمة حكومة المنفى المحددة هى تولى مسئولية مفاوضات الوضع النهائى والتعامل مع القضايا الرئيسية المؤجلة، مثل اللاجئين والمستوطنات والقدس والحدود والمياه، أى أن مهمتها هى التفاوض فى شأن المرحلة النهائية بعد أن تكون فرضت سيادتها على الأرض، أما السلطة الفلسطينية فمهمتها التعامل مع القضايا والمواضيع التى لم تنفذ.

....

وما أكثر القضايا والمواضيع والاتفاقات التى لم تلتزم حكومات إسرائيل بتنفيذها.

وهناك أمثلة عديدة على ما جاء فى الاتفاقات ما لها وما عليها؟

١- إن اتفاق أوسلو حقق مطالب إسرائيل الأمنية والسياسية والاقتصادية وجرد الشعب الفلسطينى من حقوقه الوطنية المشروعة.

٢- إن إسرائيل أجهضت المقاومة داخل فلسطين، ولا تزال تطالب السلطة الفلسطينية بقمع المقاومة تحت شعار مكافحة الإرهاب.

٣- إن إسرائيل قفزت فوق صيغة مدريد وأوسلو وفرضت على الفلسطينيين تطبيق مبدأ «الأمن مقابل السلام» ..وليس «الأرض مقابل السلام».

■ وماذا حقق الفلسطينيون بعد كل سنوات التفاوض الطويلة؟

- نعم لقد اعترفت إسرائيل للمرة الأولى بوجود الشعب الفلسطينى، وبمنظمة التحرير ممثلا له، وبحق هذا الشعب فى إقامة سلطة - حكم ذاتى - فى الضفة الغربية وقطاع غزة، وفى أن يعيشوا فى أمن وكرامة.

ولكن إسرائيل حصلت فى المقابل على اعتراف فلسطينى صريح بوجودها، وعلى تعهد المنظمة باعتماد الوسائل السلمية لحل منازعاتها مع إسرائيل، حتى ولو كان التنازع على قضايا رئيسية مثل الحدود والقدس واللاجئين والمياه والأمن.

لا أحد يستطيع أن يشغل موقع عرفات من الأسماء التى تتردد، لا أبو مازن ولا غيره. بعض المسئولين عن أجهزة الأمن والمخابرات أو الأمن الوقائى.. ممن ترضى عنه أمريكا وتوافق عليه إسرائيل سيكون الرئيس القادم.

ثم إن المنظمة التزمت بإلغاء ٨ مواد من الميثاق الوطنى تتعلق بجغرافية فلسطين وتاريخها وحق شعبها فى مقاومة الاحتلال، وإذا تراجعت المنظمة عن التزاماتها هذه فإن إسرائيل تتخلى فى المقابل عن اعترافها بحق الشعب الفلسطينى فى الحكم الذاتى.

وبتعبير آخر، لقد حصلت إسرائيل على اعتراف فلسطينى كامل بها، بينما حصل الفلسطينيون على اعتراف منقوص بحقوقهم الوطنية وفى مقدمتها حق تقرير المصير الذى أقره القانون الدولى وكل القرارات الدولية المعنية.

ونسأل: على أى أرض ستقام الدولة الفلسطينية الجديدة يوم ٤ مايو؟

- حسب نصوص الاتفاقات التى وقعتها السلطة الفلسطينية مع إسرائيل فإن أراضى الضفة الغربية تقسم إلى ٣ مناطق:

● منطقة أ: مساحتها ٣٪ فقط من مساحة الضفة الغربية، وتشمل ٦ مدن فلسطينية هى: نابلس وجنين، وطولكرم، وقلقيلية، ورام الله، وبيت لحم، والجزء الأكبر من مدينة الخليل. والأمن فى هذه المنطقة من مسئولية السلطة الفلسطينية.

● منطقة ب: تبلغ مساحتها ٢٧٪ من مساحة الضفة الغربية وتضم ٤٥٠ قرية وبلدة، ويقطنها ٦٨٪ من سكان الضفة الغربية.

وتتولى السلطة الفلسطينية مسئولية النظام العام على أن تحتفظ إسرائيل بالمسئولية الأمنية العليا.

● منطقة ج: تشمل ٧٠٪ من مساحة الضفة الغربية وتضم مستوطنات وقواعد عسكرية إسرائيلية.

هذه المنطقة كلها تخضع للسيطرة الإسرائيلية الكاملة على الأرض وكأنها خارج سلطة الحكم الذاتى الفلسطينى.

ومنذ أيام التقيت فى القاهرة أحد القيادات الفلسطينية البارزة، وحضر هذا اللقاء عدد قليل من المهتمين بالشأن الفلسطينى، امتد حوارنا معه لأكثر من ساعتين، سألناه عما يجرى واحتمالات المستقبل.

كان جوابه: رغم أن القرار الرسمى لم يصدر حتى الآن إلا أنه بات فى حكم المؤكد ألا يعلن أبوعمار قيام الدولة الفلسطينية يوم الرابع من مايو نتيجة لضغوط هائلة يتعرض لها من جانب الولايات المتحدة، وتهديدات من جانب رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتانياهو ونصائح من جانب الاتحاد الأوروبى ودراسات تنصح بالتأجيل من جانب بعض العواصم العربية. غير أن هذه العواصم لم تنس أن تؤكد أنها مع الحق الفلسطينى فى إعلان الدولة وهو قرار فلسطينى أولا وأخيرا.

القيادى الفلسطينى قال لنا: إن مسئولا فلسطينيا كبيرا زار بكين أخيرا واجتمع بالقيادة الصينية، وعندما طلب منه اعتراف الصين بقيام الدولة الجديدة رد عليه قائلا: أى دولة تريدوننا الاعتراف بها. لقد سبق واعترفنا بالدولة الفلسطينية فى نوفمبر ١٩٨٨. الآن أنتم تريدون إعلان الدولة، فأين هذه الدولة التى تريدون منا الاعتراف بها؟ ما مساحتها، وأين حدودها، وما المخاطر التى تحيط بكم؟

المسئول الفلسطينى قال: وقتها لم أجد ردا شافيا على تساؤلات القيادة الصينية.

مثال آخر، والحديث لايزال للقيادى الفلسطينى البارز - أحد قادة أوسلو طرح فكرة الكونفدرالية مع الأردن للخروج من المأزق: أضاف أن الملك عبد الله بن الحسين استقبل أخيرا مبعوثا فلسطينيا كبيرا، تطرق الحديث معه عن الكونفدرالية المقترحة، وقتها قال له الملك عبد الله: أنت تعلم أن الكونفدرالية تتم بين دولتين، فأين هى الدولة الفلسطينية، أنتم الآن لاتشغلون إلا ١٣٪ فقط من الأرض، يا أخى نحن ندعم القرار الفلسطينى، ونحن والعرب مع قيام الدولة، أما الموعد فهو قراركم المستقل. لكن موضوع الكونفدرالية فأرجو أن تنسوه الآن، فلدينا من المشاكل ما يكفى وننصح بألا تصدروا مشاكلكم إلى الأردن.

وسألناه عن صحة أبو عمار، أجاب أنها طيبة، ونحن ندعو له بطول البقاء، فوجود الرجل الآن على رأس السلطة الفلسطينية ضمانة كبيرة لأن المستقبل محفوف بالمخاطر تماما.

سألناه تحديدا: ماذا بعد الرئيس ياسر عرفات؟ أجاب على الفور: الانهيار.

عندما كررنا السؤال: فكرر الإجابة نفسها: الانهيار.. الأوضاع الفلسطينية صعبة للغاية ومتردية.

سألناه: ألا تبالغ فى قتامة الصورة؟

أجاب: بالعكس، الوضع صعب ودقيق ومحفوف بالمخاطر، لا أحد - الآن - يستطيع أن يشغل موقع عرفات. لا أحد من الأسماء التى تتردد، لا أبو مازن ولا غيره من بعض المسئولين عن أجهزة الأمن والمخابرات أو الأمن الوقائى، الأمر كله الآن بيد المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A ومن بعدها الموساد، من ترضى عنه أمريكا وتوافق عليه إسرائيل سيكون الرئيس القادم. لهذا فنحن جميعا مؤيدون لأوسلو ومعارضون لها، ندعو لأبو عمار بطول البقاء، كى ينتشلنا من الأوضاع المتردية، فما تم وما وقعوا عليه مع إسرائيل انتقص تماما من الحقوق الوطنية الفلسطينية، الآن المخابرات المركزية الأمريكية بيدها الكلمة العليا، ولامبالغة.. لهذا ندعو لعرفات بطول البقاء حتى نخرج من المستنقع الراهن.

....

عرفات فى وضع حرج، لقد طاف العالم بطائرته باحثا عن تأييد دولى لإعلان دولة فلسطينية، لقد لقى فى الكثير من عواصم العالم تأييدا متفاوت الدرجات، لكن الكل كان يمنحه التأييد، وكان الكل - ويالمفارقة - يطلب منه فى الوقت نفسه أن يؤجل إعلان قراره.

لقد أعطوه مواقف مساندة، لكنهم رفضوا أن يمنحوه تأييدا لمطلبه الأساسى، قالوا له إن إعلان الدولة يجب أن يؤجل إلى ما بعد الانتخابات الإسرائيلية القادمة، وأن يتم بالتفاوض مع المسئول الإسرائيلى الجديد، والذين يأملون ألا يكون بنيامين نتانياهو. الدولة الفلسطينية قادمة، هذا حق لا أحد يجادل فيه، ولكن أى دولة وضمن أى إطار؟

إذا كانت دولة فى ظل الاتفاقات المنقوصة الموقعة فلا خير فيها. أما إذا كانت دولة تلبى حاجة الشعب، دولة مؤسسات ترسى الديموقراطية وتدعم الرأى والرأى الآخر وتحمى حقوق الإنسان.. دولة فى كل الضفة الغربية وغزة والقدس عاصمتها فهى الحق وهى الأمل الذى يستحق النضال والمعارك .. أى دولة..؟ لا

دولة محددة المعالم تجمع الفلسطينيين ولا تفرقهم، لاخلاف. دولة ضمن إطار العمل العربى المشترك والمطلوب أكثر كثيرا من مجرد إعلان دولة، ومعرفتى الشخصية وثقتى بياسر عرفات لاتزال تمنحنى الأمل فى أن يتجاوز الرجل المأزق، ويكفى فقط أن تتذكر كل تجاربه السابقة منذ أن شاءت الأقدار أن يفجر حركة المقاومة الفلسطينية فى الأول من يناير ١٩٦٥ ويحولها من حركة مقاومة مسلحة إلى ثورة شعبية كاملة هزت العالم..■

ياســــــر عرفــــــات

العودة إلى اللا مكان..
وحلم الدولة الفلسطينية



تشــــارلز جـــــلاس

نشأ والد عرفات، عبد الرءوف القدوة الحسيني، أبناءه على وهم أنه سوف يكسب قضية أملاك أسلافهم في مصر التي استولى عليها، وسعيا وراء الإرث الوهمي، نقل عبدالرءوف، وهو الرجل الهادئ الذي يلبس طربوشا ونظارات كبيرة الحجم وبدلة داكنة اللون، أسرته من موطنها في غزة إلى القاهرة سنة ١٩٢٧. وكانت عائلة أم عبد الرءوف وهي عائلة رضوان، تمتلك أرضا على أطراف القاهرة، وهي التي دخلت في زمنه في زمام المدينة وأصبحت حي العباسية المزدحم بالسكان. وكانت مساحة الأراضي تساوي ملايين الجنيهات ولكي يجري عبد الرءوف وراء الإرث من خلال متاهة نظام المحاكم في القاهرة، باع مزارع العائلة في غزة، وأهمل تجارته وبدد معظم أمواله.

وأدى هذا السعي الذي سيطر عليه إلى شعور أبنائه بالغربة وشعور زوجته زهوة أبوالسعود بالبؤس. وقد توفيت زهوة سنة ١٩٣٣ بعيدا عن موطنها في القدس. وكان محمد عبدالرءوف القدوة الحسيني في الرابعة فقط من عمره. (وكان ذلك قبل خمس وعشرين سنة من اتخاذه اسم ياسر عرفات ليصبح زعيم فتح. وكان اسمه الحركي أبو عمار) وكان محمد وإخوته الستة تحت رحمة خيالات والدهم وسلسلة من زوجات الأب. وعندما تدهورت العلاقات الأسرية، أرسل عبد الرءوف محمدا وابنا آخر هو فتحي إلى إخوة المرحومة زوجته في القدس. وكانت طفولة غير مستقرة يغلب عليها التنقل، تلك التي أمضاها الأطفال بين الأقارب في القدس والقاهرة وغزة. وبالنسبة لمحمد الصغير، كانت تلك الطفولة نذيرا لحياته وهو رجل بالغ، حيث سيكون من النادر أن ينام ليلتين متتاليتين في منزل واحد. وفي آخر المطاف كسب عبدالرءوف قضية الإرث في المحكمة الشرعية التي كانت تنظر المنازعات الخاصة بالميراث. وكان ذلك انتصارا كلفه الكثير. وتدخلت الحكومة المصرية واحتفظت بالأملاك. ونفت والد عرفات إلى غزة، وفي غزة مات مفلسا لايملك أرضا.

وكما فعل أبوه، كرس عرفات حياته لمسعى لا طائل من ورائه لاستعادة اللقب الضائع. فهو يصف نفسه بأنه موسى الفلسطيني، الذي خرج من مصر ليقود قومه إلى أرض الميعاد. وكما كان حال موسى فهو مصري بالثقافة. ومثلما حدث لموسى أصبح الزعيم الوحيد لشعب طرد بالقوة من وطنه. وكشأن موسى، كان جداله مع قومه أكثر مما كان مع أعدائه. إلا أن المقارنة مخيفة في جوانب أخرى. فموسى الذي أخرج قومه من التيه لم يدخل أرض الميعاد قط. أما عرفات فقد دخل فلسطين دخولا قويا، تاركا معظم الفلسطينيين في المنفى الدائم.

كتب الشاعر الفلسطيني محمود درويش قبل عشر سنوات من توصل عرفات إلى اتفاق أوسلو مع إسرائيل يقول: «نحن نسافر مثل بقية البشر، غير أننا نعود إلى لا مكان». وقال كذلك: «نحن نسير من مذبحة إلى مذبحة». وكزعيم لفتح ولقوات العاصفة، كان عرفات الزمار ذا الملابس الملونة الذي يقود ذلك الموكب المأساوي، ومعظم المذابح التي حدثت منذ إعلان عرفات أن «منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد» للشعب الفلسطيني، ارتكبها عرب آخرون. وأسفر تدخله في الشئون الداخلية في كل من الأردن ولبنان عن حروب أهلية كان اللاجئون الفلسطينيون أول ضحاياها. فقد ذبح الملك حسين الفلسطينيين كي يطرد مقاتلي عرفات من الأردن في عامي ١٩٧٠ و١٩٧١. وذبح المسيحيون اللبنانيون أعدادا أكبر فيما بين ١٩٧٥ و١٩٨٢. وقتلت سوريا الفلسطينيين في شمال لبنان سنة ١٩٨٣، وشنت ميليشيا أمل الشيعية هجوما عليهم في بيروت سنة ١٩٨٦.

وأسفرت أسوأ مذبحة إسرائيلية في الحرب العربية الإسرائيلية سنة ١٩٤٨ في دير ياسين عن مقتل ٣٥٠ مدنيا فلسطينيا - «ذبحوا بلا رحمة» - كما جاء في وصف مندوب الصليب الأحمر في مسرح الأحداث. وقال زعيم الأرجون مناحيم بيجن في مذكراته بعنوان «الثورة» إنه لولا أعمال القتل التي نظمها في دير ياسين لما وجدت إسرائيل. ودير ياسين مسألة حاسمة في الذاكرة الفلسطينية، وهي عار كان لابد من الثأر له ومازال أثره - وهو هروب مئات الآلاف من المواطنين المذعورين عبر الحدود بحثا عن الأمان - قائما (بعد إحدى وخمسين سنة). تطالب مجموعة من الإسرائيليين والعرب بإرسال الهبات التي تحيي ذكرى الضحايا إلى (Deir Yassin Remembered: 5 Galena Road, London W6 OLT) وكانت عودة هؤلاء المنفيين باسم تقرير المصير هي مهمة عرفات المعلنة. فعندما يكونون آمنين في ديارهم، يحميهم جنودهم داخل حدودهم، ساعتها فقط لن يكونوا معرضين لمذابح أخرى - وهو هدف يشارك فيه بالطبع الصهاينة باسم يهود أوروبا.

وقتل من الفلسطينيين على أيدي الجيش الأردني والميليشيات المسيحية اللبنانية ما يفوق عدد من قتلهم الإسرائيليون في دير ياسين. ففي أغسطس ١٩٧٦، وفي مخيم تل الزعتر للاجئين ببيروت، أزهقت الميليشيات المسيحية أرواح ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف فلسطيني، وقد نفذت مذابحها بعد أن كان عرفات قد أمر فدائييه بإخلاء المخيم. وبلغت مذابح الفلسطينيين في لبنان أوجها بعد ذلك بست سنوات في أعمال القتل التي وقعت في صبرا وشاتيلا، عندما نقلت إسرائيل الميليشيات المسيحية إلى داخل بيوت النساء والأطفال الفلسطينيين العزل الذين لم يكن هناك من يدافع عنهم. ومرة أخرى وقعت المذابح عقب انسحاب عرفات ومقاتليه. وكانوا قد قاتلوا ببسالة في بيروت، حيث تصدوا للإسرائيليين طوال شهور الصيف، ولكن عندما وقعت الهزيمة دعاها عرفات انتصارا.

«انتصار آخر كانتصار بيروت وسوف نعقد الاجتماع المقبل للمجلس الوطني الفلسطيني في فيجي». كان هذا هو ما وصف به الدكتور عصام سرطاوي تظاهر رئيس منظمة التحرير الفلسطينية بالشجاعة. وسرطاوي، ذلك الفلسطيني الذي أوتي شجاعة عقد لقاءات علنية مع الإسرائيليين بينما كان الرسل الذين بعث بهم عرفات يقومون بذلك سرا، كان طبيبا تلقى تعليمه في أمريكا (وهو صديق لي: فأنا أتذكره وهو يلعب مع أطفالنا في منزلنا بلندن)، وقد اغتيل سنة ١٩٨٣، وكان الجاني الإرهابي الفلسطيني أبو نضال المناوئ لعرفات، وقيل وقتها إن عرفات سحب «الحماية» التي كان يوفرها للسرطاوي بعد انتقاده له.

لقد غير «انتصار» بيروت سنة ١٩٨٢ كل شيء: إذ بات حجم الشجاعة الفلسطينية ضئيلا في الحسابات الاستراتيجية، وإن كانت أكثر تأثيرا من شجاعة الجيوش العربية. وأجبر الفدائيون على الخروج إلى شمال أفريقيا، حيث أصبح مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس بعيدا عن الوطن وفي متناول الهجوم الجوي وفرق الاغتيال الإسرائيلية. وكان التساؤل الذي أثاره الانسحاب من بيروت هو: هل سيكون أداء الفلسطينيين أفضل بدون قوة حرب العصابات التي أزعجت إسرائيل، دون أن تمثل تحديا لها قط، أم لا؟ ومن ناحية أخرى، ما هي الخيارات المتاحة لأي زعيم فلسطيني يسعى لرفع ما وقع من ظلم في عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧؟

كان الأمر بالنسبة لفتح أبعد ما يكون عن الوضوح، وكانت المنظمة التي أنشأها عرفات وزميلاه اللاجئان صلاح خلف (أبو اياد) وخليل الوزير (أبوجهاد) في غزة والكويت في الخمسينيات، قد نشرت كتيبا يعيد إلى الأذهان السنوات من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٤ عندما كان لابد للفلسطينيين من الدق على أبواب المجتمع الدولي. وكانت الأمم المتحدة قد أصدرت قرارا سنويا، حظي بتأييد الولايات المتحدة نفسها يدعو إلى عودة ٧٠٠ ألف فلسطيني طردوا سنة ١٩٤٨. وكانت إسرائيل تتجاهل ذلك القرار عاما بعد آخر. وأشار الكتيب إلى أن «التجربة علمتنا أن المغتصبين لا يفهمون لغة المناشدة، والتوسلات، والبيانات. وكان علينا أن نبحث عن لغة يفهمونها - وهي تلك اللغة التي سبق أن استخدموها لتقرير مصير أرضنا. وهكذا، وفي عدم وجود خيارات كثيرة، وجدنا أنفسنا نحمل السلاح من جديد».

وكان عرفات، الذي كان يعد «المتهور» بين الساسة الفلسطينيين، هو من حث على استخدام السلاح، وأدى ذلك إلى رفع الروح المعنوية لدى شعب مهزوم وجعلهم يعتقدون أنهم ليسوا بحاجة إلى مساعدة أحد لتحرير فلسطين. وقد أيد عرفات الكفاح المسلح في مواجهة من أصبح فيما بعد أكثر تشددا منه، وهو جورج حبش رئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وأثبت ذلك فاعليته لبعض الوقت. وكان الفلسطينيون يتفاخرون بما أنجزه شبابهم، على تواضعه، ضد الجيش الإسرائيلي الذي يتمتع بتفوق كبير جدا بما لديه من أسلحة القوى الكبرى.

وكان عرفات قد حظي بدعم دولتين عربيتين معاديتين للغرب، هما مصر ناصر وسوريا البعث. إلا أنه كان محقا في حذره من الاثنتين. فقد اعتقله المصريون سنة ١٩٥٤ ضمن حملة لإلقاء القبض على المتعاطفين مع الإخوان المسلمين بعد محاولة الإخوان اغتيال عبد الناصر في الإسكندرية، وقد احتاج الأمر من أصدقائه إلى شهرين للإفراج عنه. وبعد اثنتي عشرة سنة، أي في ١٩٦٦ انتقل إلى سوريا التي حبسته سلطاتها لتخطيه الخطوط المعلومة جيدا بتفجيره خط أنابيب التابلاين الذي كان ينقل النفط السعودي إلى لبنان. وأمضى ٥١ يوما في سجن المزة الشهير بدمشق. وفي النهاية استخدم أصدقاؤه من ذوي النفوذ وساطتهم في التدخل من أجل

Arafat: From Defender To Dictator
(عرفات: من مدافع إلى ديكتاتور)
Said Aburish
Bloomsbury: 1998, 352pp. £ 20

الإفراج عنه. وأدت مواجهته القصيرة مع الأمن السورى إلى تعكير صفو العلاقات مع سوريا التى لايزال قادتها يمقتونه. وكان لذلك أثر آخر غير متوقع، ويقول سعيد أبو الريش: «كان عرفات الذى يتعلم بسرعة قد أصبح منافسا للمكتب الثاني، وهى الشرطة السرية التى تحافظ على بقاء أهل البلاد فى إطار الخط العام.. فرغم تمتع عرفات بذاكرة غير عادية، إلا أنه كان يحتفظ بملفات شخصية لكل الأشخاص المهمين فى منظمة فتح، وهى ما بات يعرف بالملفات السوداء».

وبعد فترة الحبس التى أمضاها عرفات فى سوريا، اتخذ الأردن قاعدة له. وهناك حققت ثورته إنجازها الأكبر فى مارس ١٩٦٨. ففى قرية الكرامة الأردنية حقق عرفات وفدائيوه الفلسطينيون انتصارا معنويا أشبه بذلك الذى حققه الفيت كونج خلال هجومهم الذى شنوه فى العام نفسه. ويكتب سعيد أبو الريش عن أحلى ساعة فى حياة عرفات قائلا:

فى ليلة الحادى والعشرين من مارس شن الإسرائيليون هجوما بكل قوتهم، فقد استخدمت فيه القوات شبه العسكرية،والدبابات، وحاملات الجنود المصفحة، ومدافع طائرات الهليكوبتر، والطائرات المقاتلة والقاذفة فى أكبر عمل عسكرى منذ حرب ١٩٦٧. وتوقع الجنرال موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى أن تنتهى العملية بكاملها خلال ساعات. غير أن المفاجأة كانت فى انتظار الإسرائيليين، فقد تمسك الفلسطينيون المدربون تدريبا ضعيفا بأرضهم تمسكا بطوليا واستغلوا الأراضى الصخرية بفاعلية ضد القوة الإسرائيلية التى يقدر عددها بخمسة عشر ألفا من الإسرائيليين الأقوياء. وظل الفلسطينيون يقاتلون بمفردهم لبضع ساعات، حيث عوضوا نقص الأسلحة الثقيلة بالارتجال الرائع والتضحيات الفردية الضخمة.. وأشارت النتائج الإحصائية للهجوم على الكرامة إلى حدوث انتصار إسرائيلى. فقد قتل منهم ٢٨ فردا وجرح ٧٠، بينما فقدت فتح ما يزيد على المائة رجل، وفقد الأردنيون ٢٠، وجرح كثيرون غيرهم من العرب. إلا أن عرفات ومقاتليه حققوا هدفهم، وتركوا علامة لا تمحى فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث.

هنرى كيسنجر، الذى فعل ما لم يفعله أى سياسى أمريكى آخر لمنع حدوث اتفاق بين إسرائيل والفلسطينيين، كتب فى سيرته الذاتية Years of Upheaval(1982) قائلا: «يصعب الآن تذكر الدور الهامشى نسبيا الذى قامت به منظمة التحرير الفلسطينية حتى ما بعد حرب أكتوبر». وحققت الغارات الفدائية التى شنها عرفات من الأردن ولبنان، التى ساندها البترول العربى بعد أكتوبر ١٩٧٣، أدت إلى انتصاره العظيم الآخر: وهى الكلمة التى ألقاها فى الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٧٤. فقد أمسك ببندقية المقاتل من أجل الحرية فى يد وبغصن الزيتون فى اليد الأخرى،ودعا الإسرائيليين ألا يدعوا غصن الزيتون يسقط. ولم تكن إسرائيل تصغى لما يقول، حيث كان مندوبها قد خرج بالفعل من قاعة الجمعية العامة، وأذكر تلك الليلة، حيث كان الفلسطينيون فى بيروت يحتفلون بإطلاق نيران أسلحتهم فى الهواء. فلأول مرة خلال منفاهم الطويل اعتقدوا أن العالم سوف يفعل شيئا ما من أجلهم. غير أنهم أخطأوا الظن.

وفى تلك الأثناء تركز الاهتمام أكثر وأكثر على عرفات نفسه. فقد أدلى بأحاديث صحفية، وظهر على شاشات التليفزيون،وحسن من لغته الإنجليزية. وفى سنة ١٩٧٤ سعى للحصول على الاحترام الدولى باستنكاره اختطاف الطائرات وأجرى محادثات سرية مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA للمساعدة فى تعقب أعداء الولايات المتحدة. وفى الوقت نفسه لم تؤثر الخلفية الأسطورية التى اصطنعها عرفات لنفسه فى كيسنجر ولا واضعى السياسة الأمريكيين من بعده ـ وهو ما يعقد عمل كاتب السيرة. ومن بين الأمور الخيالية الأخرى التى أدلى بها عرفات لطابور طويل من الصحفيين على مر السنين أنه ولد فى فلسطين، وكان طالبا ممتازا، وحارب مع الجيش المصرى أثناء غزو السويس سنة ١٩٥٦، وخدم مع رئيس الأركان المصرى، وأصبح مهندسا مليونيرا فى الكويت، وقاد «الانتصارات» الفلسطينية فى الأردن ولبنان، وتفاوض بشأن سلام بين الأكفاء مع إسرائيل.

وبعد أن ذكر فى المئات من الأحاديث الصحفية أنه ولد فى القدس فى ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩، أجبرته مجموعتان من كتاب السيرة على التسليم بغير ذلك. فقد ذكر أندرو جاورز فى كتابه «ماوراء الأسطورة: ياسر عرفات والثورة الفلسطينية» (١٩٩٠) أنه وجد أن سجلات جامعة القاهرة تشير إلى محل ميلاد عرفات على أنه القاهرة. وقدم جانيت وجون والاش اللذان كتبا «عرفات : بعينى المشاهد» (١٩٩٠) شهادة ميلاده المصرية. ولم يعر عرفات إذاعة ذلك أى اهتمام. ويتعاطف سعيد أبو الريش الفلسطينى الذى تعد السيرة التى كتبها الأفضل باللغة الإنجليزية، مع ماقاله عرفات:

كان من الممكن أن يؤدى الإقرار بمولده فى مصر، وبأن والده كان نصف مصرى، إلى التأثير على فرص نجاحه، وخاصة فى تلك الفترات التى كان الفلسطينيون يميلون فيها إلى الفصل بين أنفسهم وبين سائر العرب الذين أحبطتهم جهودهم الخاصة بالتحدث باسمهم. وفى الخمسينيات والستينيات، قبل أن يبزغ نجم عرفات ويصبح هدفا للفحص والتمحيص، كان يؤيد بإصرار قصة مولده فى القدس وأنه تربطه صلة قرابة بعائلة الحسينى التى لها وضعها فى المدينة، وهى العائلة السياسية الرائدة فى فلسطين التى يعود نسبها إلى الرسول محمد ﷺ.

وعائلة القدوة الحسينى موطنها الأصلى غزة، وباعتبار أهل غزة جزءا من الدولة العثمانية، كانت لهم صلات نسب كثيرة مع مصر كما مع سائر ما أصبح فيما بعد منطقة الانتداب البريطانى فى فلسطين. وكان أفراد العائلة من تجار الموالح بغزة، وهناك صلة قرابة بعيدة تربط عرفات بعائلة الحسينى بالقدس، التى قاد ابنها الحاج أمين الحسينى عرب فلسطين ضد البريطانيين والصهاينة فى الثلاثينيات والأربعينيات. وجاءت هذه الصلة من خلال عائلة أمه، وهى عائلة أبو السعود، التى عاشت أجيالا تحت حائط المبكى فى القدس القديمة إلى أن دمرت إسرائيل منازلها سنة ١٩٦٧.

وارتباط عرفات بالطبقة الأرستقراطية فى فلسطين يفسر الكثير بشأن ما حققه من نجاح. فقد وعدهم بأنه لن يسعى إلى قيام ثورة اجتماعية فلسطينية ـ وهو نفس الوعد الذى قطعه على نفسه للعائلة المالكة فى السعودية عندما طلب منهم المال. وكانت نتيجة ذلك أن الأموال السعودية والأرستقراطية ذهبت إليه وليس للماركسيين، مثل حبش ونايف وحواتمة. وكان عرفات يتباهى بأن شركاء والده فى أعماله التجارية كانوا من أكثر العائلات الإقطاعية فى فلسطين شهرة، وحتى وقتنا هذا نجده مواظبا على التودد إلى أعيان القرى الكبرى والمدن.

وكان عرفات فى التاسعة عشرة عندما اندلعت حرب ١٩٤٨، حيث كان يعمل ضابط اتصال للحاج أمين الحسينى، وبعد الهزيمة ذهب إلى القاهرة ودرس الهندسة، وتولى تنظيم الطلبة الفلسطينيين، كما كان قريبا من الإخوان المسلمين. إلا أنه لم ينضم إليهم. ولأنه كان متدينا دوما، وكان يدرك أكثر من معاصريه أهمية الدين للسياسة، فقد أيد الإخوان المسلمين فى قتالهم ضد القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس، وكان التزامه الأكبر تجاه الفلسطينيين، مسلمين ومسيحيين، وقد أسس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، وكان التنظيم الفلسطينى الوحيد المعترف به فى مصر، وحث جامعة الدول العربية على تدعيم المصروفات الجامعية للطلبة الفلسطينيين. وكانت الأموال كلها تمر من خلاله، ولم يكن هناك من يدقق دفاتره ـ لقد تولد لديه اهتمام شديد بجمع الأموال وتوزيعها، ما زال مستمرا معه حتى يومنا هذا. وكان يعمل بلا كلل لمساعدة الشباب الفلسطينى للتغلب على مشاكل جوازات السفر والتأشيرات التى يبتلى بها من لادولة لهم. وأثارت حيويته العصبية إعجاب أصدقائه، حتى وإن أزعجتهم. وقد اكتشف زميله عمر الخطيب طابعه المتقلب مبكرا: «كان عرفات يقدم نفسه لنا على أنه مستقل، وكان هناك بعض الشيوعيين فى الاتحاد؛ فكان يقدم نفسه لهم على أنه شيوعى. بينما كان يقدم نفسه للإخوان المسلمين على أنه إخوانى».

وظل عرفات ساحرا، حتى وهو لايقول الحقيقة، ويروى أندرو جاورز وتونى ووكر حكاية لطيفة تعود إلى أيام كان زعيما طلابيا فى القاهرة فى الخمسينيات. فقد قدمت إليه امرأة فلسطينية التماسا نيابة عن ابنتها، التى كانت قد ذهبت للخارج فى بعثة طلابية ولم يسمح لها بالعودة إلى مصر. وأكد لها عرفات أن السلطات أرسلت لها الإذن لتوها. وبعد أن أخذ يفتش فى جيوبه قال لها إنه لابد أنه قد نسى خطابهما فى البيت. وبعد ذلك، اعتذر لزملائه الذين أصابتهم الدهشة قائلا: «ماكان لنا أن نتركها تمشى وهى محبطة، أليس كذلك؟ وقد قام بمناورة مشابهة مع اتفاقات أوسلو، حيث أكد للشعب الفلسطينى أنه قد نص على ضمان حقوقه فى موضع ما، إذ كان لا يريد إحباطهم.

لقد وضعه المصريون والسوريون فى السجن، وحارب الأردنيين واللبنانيين، ومع ذلك كان يعود مرات ومرات، وكانت نقاط قوته القليلة تبدد بعضها البعض، وطردته إسرائيل وسوريا من لبنان، ليصبح بلا قاعدة عسكرية. وتخلى عنه العرب الذين يقدمون له الدعم عندما أبدى تعاطفا مع صدام حسين سنة ١٩٩٠. وقتلت فرق الموت الإسرائيلية زملاءه ممن يتمتعون بسلطة مناقضة لسلطته وشاركوه فى تأسيس فتح. ودفعته العزلة السياسية والضائقة المالية إلى تحاشى العرب والأمريكان ومفاوضيه فى واشنطن عن طريق اتفاق سلام منفصل مع إسرائيل. وأنقذ عرفات نفسه ومنظمة التحرير الفلسطينية، وإن لم يكن قد أنقذ الفلسطينيين.

وتكشف سيرة سعيد أبو الريش النقاب عن القليل من الحقائق الجديدة، غير أنها تتميز على ما سبق من سير فى أمرين. أول هذين الأمرين وأوضحهما هو أنها تجدد القصة، حيث تنتقل مع عرفات من مقره فى تونس إلى مايسمى السلطة الوطنية الفلسطينية فى غزة. أما ثانيهما وأهمهما فهو أن أبو الريش، بصفته منفيا يعيش فى الغرب، يقدم تفسيرا لعرفات أعده للقارئ الغربى. وهو فى الوقت ذاته يعترف بالكثير من نقاط ضعف عرفات، لأنه يشاركه هذه النقاط. فقد نبت الرجلان من نفس الأرض وفى الثقافة ذاتها، وكل منهما يدرك حاجة من لادولة لهم للتحايل على النزعة الرسمية فى أنحاء العالم.وشب كلاهما فى ظل ثقافة تحترم التقاليد، حتى وإن كان الزعماء التقليديون يتسمون بالبطش والجهل، وهما يعرفان أن العيش فى ظل الاحتلال الأجنبى كما هو حال الفلسطينيين الذين لم يهربوا فى ١٩٤٨ و١٩٦٧، يقتضى تقديم الحلول الوسط والتواطؤ والمهانة أكثر مما يقتضى من بطولة. وقد وصف أبو الريش من قبل فى مذكراته العائلية «أطفال بيسان» (١٩٨٨) و «ابك يافلسطين» (١٩٩١) كيف أن جيلا من الفلسطينيين الأصغر منه فقد احترامه له ولمعاصريه هو. وكانت الانتفاضة مبادرة من الشباب الأصغر سنا، وكان تأثيرها على الاحتلال العسكرى الإسرائيلى أبعد مدى من تأثيرات غارات عرفات الفدائية. وكان عرفات وغيره من كبار السن يفقدون حب وتأييد أطفال فلسطين ـ وهى الحقيقة التى اضطرته إلى اتخاذ إجراء فورى، شأنها شأن أية حقيقة أخرى.

كان الفلسطينيون الصغار على وشك منافسة جيل أبو الريش وعرفات، ممن استندوا على زعمائهم الإقطاعيين والدكتاتوريات العربية الفاسدة بعد ١٩٤٨، وبحلول ١٩٩٣، حيث العراق مشلول، ومصر تسيطر عليها واشنطن، ومنظمة التحرير الفلسطينية مفلسة ماديا ومعنويا، كان الصغار يبحثون عن قادتهم. وقبل عرفات بوجود إسرائيل لأن شعبه كان على وشك اعتباره شخصا يمكن التضحية به، غير أنه إذا كان أبو الريش يفهم مأزق رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، فهو لا يلتمس له العذر فى محاولته إخفاء فشله وراء علامة النصر التى يرفع بها إصبعيه.

وبعد خمس وثلاثين سنة من وعد عرفات لشعبه بالتحرير إن هم حملوا السلاح تحت قيادته، مازال عرفات بلا دولة؛ ويفقد الفلسطينيون فى المناطق التى تحتلها إسرائيل الأرض والماء فى كل يوم لمصلحة المستوطنين الإسرائيليين؛ والفلسطينيون فى لبنان، الذين استغلهم عرفات طوال عشرين سنة، لاحول لهم ولا قوة وبدون حق المواطنة أو الحقوق القانونية، وعاجزون عن الحصول على فرص عمل فى الاقتصاد اللبنانى الذى يرفض توظيفهم، ومحرومون فى الغالب من التمويل الذى كانت منظمتهم والأمم المتحدة تقدمه لتعليمهم ورعايتهم صحيا؛ وقوات الشرطة التى يديرها فى غزة وقطع متناثرة من الضفة الغربية تحمى المستوطنين الإسرائيليين ؛ ولاتعترف إسرائيل بالدولة الفلسطينية ولابحق الفلسطينيين فى تقرير مصيرهم؛ بينما اعترف عرفات رسميا بالدولة الإسرائيلية و«حق» إسرائيل فى «الوجود»، وهو مفهوم لامعنى له فى القانون الدولى، غير أنه مفهوم يستلزم قبول الفلسطينيين لعدالة حلول الإسرائيليين محلهم. لقد فاز عرفات، وأصبح يحتل مكانًا بارزًا مثل غيره من الزعماء العرب الذين تجمعوا لتشييع الملك حسين. ■

نشر هذا المقال في مجلة :
London Review of Books, Vol. 21 No.6

ترجمة : أحمد محمود

الصراع على كعكة

أفرزت الفترة التى تلت نهاية الحرب الباردة تحولات عالمية كبيرة على الصعيدين السياسى والاقتصادى، منها على سبيل المثال وليس الحصر تفكك الاتحاد السوفيتى، وانفصال جمهوريات عديدة مهمة استطاعت أن تحقق استقلالها عن موسكو. أدى هذا التغيير فيما أدى إليه، إلى قيام العديد من الدول، من ضمنها جمهوريات أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان المطلة على بحر قزوين، التى فتحت المجال أمام الشركات العالمية للاستثمار فى أراضيها. وقد لجأت هذه الدول الحديثة إلى تبنى هذه السياسة إما لإفلاسها، أو لعدم توافر الإمكانات المادية والعلمية لديها، أو لأن اعتمادها على مساندة الولايات المتحدة وأوروبا فى تكريس سيادتها اليانعة استوجبت عليها اتباع سياسة الباب المفتوح.

وكما هى العادة فى هذا المجال هذه الأيام، تسابقت مراكز الأبحاث ودور النشر فى إصدار العديد من الكتب والدراسات حول هذا الحدث التاريخى المهم الذى لانزال نعيش بداية مراحله، والذى ستكون له حتما انعكاسات مهمة فى المستقبل على المنطقة وجيرانها ومن ضمنها الدول العربية.

يشكل التنافس على نفط بحر قزوين صراعا كلاسيكيا ذا أبعاد إقليمية ودولية طويلة الأمد، فهناك محاولة أمريكية للالتفاف على كل من روسيا وإيران فى الوقت نفسه. وهناك محاولة روسية لإعادة بسط نفوذها فى جمهورياتها السابقة. وهناك تركيا وإيران اللتان تريدان الاستفادة من الوضع المتغير الحالى لتوسيع تأثيرهما فى الدول المجاورة لهما التى ترتبط معهما بعلاقات تاريخية وحضارية قديمة

ومن الأدبيات المهمة التى صدرت عن هذا الحدث، السلسلة المكونة من عشرة أجزاء الصادرة فى الولايات المتحدة عن جامعة ماريلاند فى كولدج بارك وكلية الدراسات الدولية العليا التابعة لجامعة جونز هوبكنز بعنوان: السياسات الدولية لأوروبا الآسيوية.

هذه الأجزاء العشرة هى عبارة عن مشروع ضخم امتد عدة سنوات قدمت فيه أولا دراسات لندوات متخصصة ومصغرة، ومن ثم تمت مراجعة الأوراق لمحاولة توحيد مناهجها ومستوياتها كلما كان ذلك ممكنا. وأخيرا تم ترتيبها فى الأجزاء المختلفة حسب عناوين عديدة ذات علاقة مثل السياسة والأمن والاقتصاد والدين والثقافة.. إلخ. وأشرف على المشروع الأستاذان الجامعيان كارين دويشه وبروس باروت، وأصدرت الموسوعة دار نشر شارب فى نيويورك. ومن نافلة القول أن هذا المرجع أساسى لأى باحث يود التمحص والتدقيق فى هذه البقعة المضطربة من العالم. هذا رغم اختلاف مستويات المقالات من كاتب إلى آخر، وهذا شىء طبيعى فى مشروع واسع من هذا النوع.

لقد انفصلت العديد من الجمهوريات عن الاتحاد السوفيتى فى نهاية العقد الماضى، منها مناطق فى غرب البلاد وأخرى فى جنوبها، إلا أن الاهتمام الدولى، السياسى منه والاقتصادى قد انصب على جمهوريات القوقاز المحاذية لبحر قزوين، ويعود السبب فى ذلك إلى توافر احتياطيات ضخمة ومهمة من النفط والغاز فى البحر نفسه وفى مناطق اليابسة المحيطة به، إلى جانب طغيان المشاكل العرقية والإثنية التى وصمت تاريخ المنطقة والتى لا يبدو أن هناك نهاية لها، بالإضافة إلى تأجج الصراعات الإقليمية والدولية حول تحقيق مناطق نفوذ جديدة فى هذه البقعة الإستراتيجية من العالم.

The International Politics of Eurasia
(السياسات الدولية لأوروبا الآسيوية)
Karen Darwisha and Bruce Parrott (editors)
New York: M.E. Sharpe, 1996, 10 Volumes.

رافق هذه الصراعات تسابق شركات النفط الدولية لمحاولة الحصول على موطئ قدم وحقوق امتياز للاستكشاف والتنقيب عن النفط فى منطقة بحر قزوين. إن تنافس الشركات هذا ليس بالشىء الجديد أو الغريب، فهو من ناحية من صلب عملها للعثور على احتياطيات نفطية جديدة والحصول على الحقوق لاستكشاف النفط وإنتاجه ونقله، ومن ناحية أخرى تميز عقد التسعينيات بانفتاح مناطق جديدة عديدة فى العالم كانت مغلقة سابقا أمام شركات النفط الدولية مثل الصين وفيتنام وروسيا، وما منطقة بحر قزوين إلا إحدى هذه المناطق الحديثة التى فتحت أبوابها أمام الشركات الدولية لكى تستثمر أموالها فيها. إلا أن ما يجعل التنافس على نفط بحر قزوين مختلفا عن بقية المناطق، هو تواجد النفط فى دول مختلفة ذات مشاكل سياسية صعبة وذات علاقات إقليمية عويصة تحت ظلال صراع دولى من نوع جديد. لهذه الأسباب جميعها أصبح الكلام عن تطوير نفط بحر قزوين ذا أبعاد جيواستراتيجية تختلف عن الاستكشافات فى مناطق أخرى من العالم.

النفط والغاز فى منطقة بحر قزوين

تبلغ الاحتياطيات الحالية المعروفة لدول القوقاز المطلة على بحر قزوين (أذربيجان وكازاخستان وتركمنستان) حوالى ١٦ مليار برميل من النفط الخام، أى حوالى ١,٦٪ فقط من مجموع الاحتياطيات العالمية، بينما تزيد احتياطيات منطقة الخليج العربى عن ٦٦٠ مليار برميل، أى حوالى ٦٥٪ من إجمالى الاحتياطيات العالمية. هذا التباين فى الاحتياطيات يعكس نفسه أيضا على كميات النفط المصدرة حاليا من المنطقتين، إذ تصدر دول بحر قزوين حوالى ٣٠٠,٠٠٠ برميل يوميا، أى حوالى ١,١٪ فقط من إمدادات العالم من النفط، بينما تصدر منطقة الخليج العربى أكثر من ١٧ مليون برميل يوميا، أى حوالى ربع الإنتاج العالمى.

رغم هذا الفرق الهائل فى الاحتياطيات وكمية الصادرات الحالية، إلا أن العمل قائم على قدم وساق لاستكشاف وتطوير وإنتاج كميات أكبر بكثير من بحر قزوين ومناطق اليابسة المحيطة به. وقد ذكرت دراسة لوزارة الخارجية الأمريكية صدرت فى عام ١٩٩٧ أن الاحتياطيات المؤكدة والمحتملة من النفط الخام فى جمهوريات كازاخستان وأذربيجان وتركمنستان تقدر بحوالى ١٧٨ مليار برميل. وتشير الدراسات المتوفرة إلى أن إنتاج المنطقة سيرتفع من حوالى ٨٣٥,٠٠٠ برميل يوميا فى عام ١٩٩٧ ليصل تدريجيا إلى حوالى ٣,٦ مليون برميل يوميا فى عام ٢٠١٠، وسيتم تطوير جميع هذا الإنتاج الجديد من قبل شركات ومجموعات أجنبية.

ينصب جل اهتمام الشركات الأجنبية الآن على تطوير نفط جمهورية أذربيجان، إذ توجد هناك حاليا خمس مجموعات نفطية عاملة تنتمى إلى مختلف الجنسيات وهى:

الأولى والأهم: مجموعة أذربيجان الدولية للتشغيل التى تشارك فيها اثنتا عشرة شركة تنتمى إلى ثمانى جنسيات، معظمها أمريكية، ومعها شركة لوك أويل الروسية الضخمة وكذلك الشركتان السعوديتان الخاصتان دلتا ونمر (حصتهما ١,٧٪). وكانت مع هذه المجموعة شركة إيرانية إلا أنها اضطرت إلى الانسحاب نتيجة للضغوط الأمريكية. وتبلغ استثمارات هذه المجموعة حوالى ٨ مليارات دولار فى ثلاثة حقول بحرية (ازيرى وشيراك وغونيشلى) تبلغ احتياطياتها حوالى ٣ ـ ٥ مليارات برميل. هذا ومن المقرر تصدير الشحنة الأولى من نفط هذه المجموعة فى النصف الأول من عام ١٩٩٩ من ميناء نوفوروسيسك الروسى المطل على البحر الأسود. ويبلغ مقدار الإنتاج الأولى بحدود ٣٠,٠٠٠ برميل يوميا سيتصاعد تدريجيا ليصل إلى حوالى ضعف هذه الكمية فى نهاية هذا العام.

الثانية: شركة بترول قزوين الدولية، تنتمى إليها خمس شركات أهمها أجيب الإيطالية ولوك أويل الروسية، بالإضافة إلى شركة بنزويل الأمريكية.

الثالثة: مجموعة شمال ابشرون، وتملك الشركتان الأمريكيتان اموكو ويونيكال حصة الأسد فى هذه المجموعة، ومعهما شركة يابانية وكذلك شركة دلتا السعودية (٤,٥٪).

الرابعة: مجموعة شاه دينيز، وهى فى معظمها تحالف لشركات أوروبية (بريتش بتروليوم وستاتويل النرويجية والف اكيتان الفرنسية)، بالإضافة إلى لوك أويل الروسية وشركة تركية، كما ساهمت فى هذا الكونسورتيوم شركة إيرانية مما اضطر الشركات الأمريكية إلى الامتناع عن الانضمام إلى هذه المجموعة.

الخامسة: المجموعة الأوروبية ـ الإيرانية. وهو تحالف ما بين الشركتين الفرنسيتين ألف اكيتان وتوتال (يملكان ٥٠٪ من الحصص)، بالإضافة إلى الشركة الألمانية ديمتكس والبلجيكية بتروفينا وشركة إيرانية.

هذا، وتشارك شركة سوكار الأذربيجانية الرسمية بحصص تتراوح ما بين ٧,٥٪ إلى ٢٠٪ فى كل من هذه المجموعات التى تعمل جميعها حسب اتفاقيات تقاسم الإنتاج، أى أن الشركات الأجنبية تتحمل جميع تكاليف الاستكشاف، وفى حال العثور على النفط تتقاسم الأرباح مع حكومة أذربيجان.

أما فى كازاخستان، فإن أهم اتفاقية تم التوقيع عليها كانت مع شركة شيفرون الأمريكية فى عام ١٩٩٢ لتطوير حقل تنغيز، والذى تبلغ تكاليف تطوير واستخراج ونقل نفطه حوالى ٢٠ مليار دولار. وقد شاركت حكومة سلطنة عمان فى هذا المشروع. وفى أيلول ـ سبتمبر الماضى وقعت حكومة كازاخستان اتفاقية مع شركة البترول الوطنية الصينية لتطوير حقل كاراماى ثانى أكبر حقل نفط فى البلاد، بكلفة تقدر بحوالى ٤,٤ مليار دولار، تتضمن بناء خط أنابيب طويل المدى يبلغ طوله ٣,٠٠٠ كيلو متر وبطاقة ٥٠٠,٠٠٠ برميل يوميا ويمتد من وسط آسيا إلى الأسواق الصينية فى المحافظات الشمالية الغربية من البلاد، بالإضافة إلى بناء خط أنابيب آخر إلى إيران.

كما وقع رئيس كازاخستان نور سلطان نازاربايف اتفاقيتين جديدتين فى تشرين الثانى ـ نوفمبر ١٩٩٧ أثناء زيارته لواشنطن. تبلغ قيمة الاتفاقية الأولى ٧ مليارات دولار وهى مع كونسورتيوم مكون من شركة بريتش غاز وأجيب الإيطالية وتكساكو الأمريكية ولوكويل الروسية وهدفها تطوير حقل كاراجاكاناك الذى تبلغ احتياطياته الأولية حوالى ٥٠٠ مليار متر مكعب من الغاز و ٣٠٠ مليون طن من المكثفات، والذى تقدر كمية الإنتاج منه بعد تطويره فى عام ٢٠٠١ بحدود ٥ مليارات متر مكعب سنويا من الغاز، ١٧٥,٠٠٠ برميل يوميا من المكثفات. أما الاتفاق الثانى فهو مع كونسورتيوم غربى مكون من

النفط .. فى بحر قزوين

وليد خدورى

شركات اجيب وتوتال وبريتش غاز وموبيل وشل وبريتش بتروليوم وستاتويل. هدف هذا الاتفاق هو تطوير منطقة نفطية واعدة شمال بحر قزوين تبلغ مساحتها حوالى ٦،٠٠٠ كيلو متر مربع، وتقدر الاحتياطيات النفطية فيها بحدود ١٥ إلى ٤٠ مليار برميل. هذا وقد صرفت الشركات هناك حتى الآن ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون دولار من أجل العثور على النفط هناك.

أما فى تركمنستان التى تحتوى على احتياطيات كبيرة من الغاز الطبيعى، فقد تم توقيع اتفاقية لتصدير الغاز إلى تركيا عبر إيران.

هناك ثلاث مشاكل أساسية تواجه إنتاج وتصدير ونقل نفط وغاز منطقة بحر قزوين.

* المشكلة الأولى: هى عدم التوصل إلى تسوية نهائية للنزاع السياسى والقانونى المتعلق بحقوق السيادة على ما تحت مياه بحر قزوين. فإيران تصر أن قزوين بحر مغلق، مما يمنح الدول المحاذية له حقوقا حصرية فى استغلال موارده الطبيعية. كما تدعى طهران أنه لا يجب الاكتفاء بتقسيم النفط بين الدول المطلة عليه، بل يتوجب إقامة نظام يتم من خلاله استكشاف النفط والموارد المعدنية بشكل مشترك وبواسطة اتحاد يضم الدول المطلة عليه. وقد دعمت روسيا الموقف الإيرانى حتى فترة قريبة، ولكن نجحت مؤخرا المحاولات لتغيير موقف موسكو وتعديل موقفها، ومن ثم عزل طهران فى هذا المجال وحصر حقوقها فى حوالى ١٠٪ من ساحل بحر قزوين وفى مسافة لا تتعدى ١١٠٠ كيلومتر. وبالفعل نجد فى الأشهر الأخيرة تغييرا فى موقف موسكو القانونى لتطوير الموارد الطبيعية لبحر قزوين. وقد تم بالفعل فى النصف الأول من شهر تموز/يوليو ١٩٩٨ الاتفاق ما بين روسيا وكازاخستان على تقسيم القاطع الشمالى لبحر قزوين، حيث اعتبرت كل دولة أن الموارد التى تقع تحت سطح البحر فى منطقتها ملك لها. إلا أن الاتفاق ينص أيضا على أن المياه فى المنطقة برمتها وعبر القاطعين هى مياه مشتركة. هذا بينما أرجئ إلى إشعار آخر موضوع التعامل مع الأنابيب المارة فى القاطعين الروسى والكازاخستانى.

* المشكلة الثانية: هى افتقار المنطقة إلى منافذ تصدير دولية. هذا يعنى أن الدول المنتجة ستتحمل تكاليف إضافية نتيجة رسوم النقل والعبور والترانزيت الواجب دفعها إلى دول الجوار والتى تقدر بحوالى ٤-٦ دولارات للبرميل الواحد. لقد بدأت مشاكل الترانزيت هذه منذ فترة مبكرة وحتى قبل أن يبدأ التصدير، إذ نجد أن تركمنستان وروسيا قد اختلفتا فى بداية عام ١٩٩٨ على رسوم الترانزيت لنقل الغاز الطبيعى التركمنستانى عبر الأراضى الروسية لتصديره إلى الأسواق الأوروبية. فقد اقترحت شركة غازبروم الروسية العملاقة شراء الألف متر مكعب من الغاز التركمانى على الحدود الروسية بحوالى ٣٢ دولارا لغرض بيعه بعد ذلك إلى دول رابطة الكومنولث المستقلة، فيما تطالب تركمنستان بحوالى ٤٢ دولارا. ولم يتم التوصل حتى الآن إلى تفاهم مشترك حول هذا الأمر ما بين هاتين الدولتين. وبناء على تجارب دول منتجة أخرى ذات مشاكل إقليمية مع جيرانها، يجب عدم الاستهانة بالمشاكل المحتملة التى من الممكن أن تبرز بين ليلة وضحاها ولسبب أو لآخر والتى يمكن أن تؤدى إلى توقف تدفق النفط أو الغاز مستقبلا.

لكن ما هو أعقد من ذلك هو الصراع القوى للاستحواذ والهيمنة على أكبر عدد ممكن من مسارات الأنابيب لنقل النفط والغاز من منطقة القوقاز المغلقة إلى البحار العالمية المفتوحة. وهناك أربعة مسارات متوافرة لهذه الخطوط وهى عبر إيران وجورجيا وروسيا وتركيا. ومن نافلة القول أن الولايات المتحدة تلعب دورا علنيا وبارزا فى تحديد وجهة هذه الأنابيب والدول التى يجب أن تمر بها. ناهيك عن محاولة إعطاء الأولوية للشركات الأمريكية للاستحواذ على هندسة وإنشاء وتعمير هذه المشاريع الضخمة.

يتميز موقف واشنطن الرسمى حتى الآن برفضها مرور أى خط أنابيب جديد فى كل من روسيا أو إيران. لكن يتضح أنه بدأ يتحلحل الموقف الأمريكى من خلال السماح أو غض النظر عن إنشاء بعض الأنابيب عبر إيران، وهذا مما أغضب روسيا. لقد تجلى هذا الموقف الجديد من خلال السياسة الأمريكية الغامضة التى تراوحت ما بين الموافقة غير الرسمية وغض النظر عن اتفاقية خط غاز تركمنستان عبر إيران، ومن ثم مقايضة الغاز الإيرانى مع التركمنستانى وإيصال الغاز الإيرانى إلى تركيا. وهذا الخط حيوى جدا لتركمنستان التى تبحث عن طرق بديلة لتصدير الغاز غربا، إذ إن المنفذ الآخر الوحيد للتصدير إلى الغرب هو عن طريق روسيا. وهذا ما رفضته أمريكا حتى الآن. لقد تم بالفعل تشييد وتدشين هذا الخط ما بين تركمنستان وإيران فى نهاية عام ١٩٩٧ الذى تبلغ طاقته الأولية ٢ مليار متر مكعب سنويا تزداد تدريجيا إلى ٨،٥ مليار متر مكعب فى فترات لاحقة. أما الجزء المتعلق بإيران وتركيا فلم يتم تشييده حتى الآن وهناك تأخير واضح فى بناء الجانب التركى من المشروع.

كما أن موقف واشنطن لايزال غامضا بالنسبة لاتفاق شركة شل مع تركمنستان لدراسة إمكانية إقامة خط غاز ضخم وكبير يمتد عبر إيران إلى تركيا أولا، ومن ثم يتجه لاحقا إلى أوروبا. لقد بدأت شركة شل بالدراسات، ولكن واشنطن لم تقل كلمتها النهائية والفاصلة حتى الآن فيما إذا كانت ستوافق على مسيرة هذا الخط الذى تبلغ طاقته التصميمية ٣٠ مليار متر مكعب سنويا. من المفروض أن تنتهى شركة شل من دراستها فى النصف الأول من عام ١٩٩٩ تعلن بعدها فى الغالب أنه من الأجدى عبور الخط المقترح عبر الأراضى الإيرانية، بعدها يتوجب أن تقرر الولايات المتحدة فيما إذا كانت ستسمح للشركات الإنشائية والبنوك الأمريكية بالمساهمة فى هذا المشروع العملاق. لربما تلطيف الجو التدريجى ما بين واشنطن وحكومة الرئيس خاتمى سيسمح فى نهاية



الأمر بموافقة واشنطن على مرور الخط عبر إيران، وإلا سيكون البديل عبر روسيا وهذا ما لا تريده الولايات المتحدة ولا تركمنستان. أما الخيار الآخر المتوافر الذى تؤيده واشنطن ولكن تعارضه كل من طهران وموسكو لأسباب استراتيجية وبيئية، فهو بناء خط مباشر تحت مياه بحر قزوين من تركمنستان إلى أذربيجان. ويتضح أن واشنطن أخذت تدعم هذا المسار بكل ثقلها وتمول الشركات الأمريكية لتحضير الدراسات المتعلقة بهذا الخط، وهذا ما تم فعلا فى الأشهر الأخيرة.

أما تركيا، فإن موقفها واضح وهو أن مضيقى البوسفور والدردنيل لا يستوعبان العدد الجديد والضخم من الناقلات المحملة بالنفط والمزمع أن تبحر من البحر الأسود إلى البحر الأبيض والمياه الدولية، ومن ثم يتوجب بناء خط أنابيب عبر أراضيها إلى ميناء جيهان المطل على البحر الأبيض والذى يستعمل الآن لتصدير النفط العراقى. إلا أن مشكلة تركيا هى أن أى خط أنابيب مباشر بينها وبين أذربيجان يجب أن يمر فى ناجورنى كارباخ المتنازع عليها بين أرمينيا وأذربيجان. كما أن أى خط مباشر من كازاخستان إلى أذربيجان يجب أن يمر عبر بحر قزوين نفسه، وهذا ما يضر بالبيئة ويزعج إيران وروسيا.

وفيما يتعلق بالخطوط عبر روسيا أو جورجيا، فتمر جميعها فى مناطق موبوءة بالمشاكل الاثنية والعرقية (الشيشان فى حالة روسيا وأبخازيا فى حالة جورجيا) مما يشكل خطرا حقيقيا على سلامة الإمدادات وأمن الأنابيب نفسها. هذا وكان من المفروض أن تقرر مجموعة أذربيجان الدولية للتشغيل فى تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٨ مسار الخط الرئيسى الذى سينقل النفط من خلاله. إن البدائل الثلاثة المطروحة أمام الشركة هى ميناء سوبسا الجورجى وميناء نوفوروسيسك الروسى وميناء جيهان التركى. وكل من هذه المنافذ له مشكلته كما أوضحنا ذلك سابقا، إلا أنه تم تأجيل هذا القرار حتى إشعار آخر نظرا لأسباب عديدة، منها عدم قناعة الشركات بوجود كميات كافية من النفط الخام التى تقتضى بناء خط ضخم مكلف.

هذا، وقد فشلت آخر محاولة تركية لاستقطاب التأييد الإقليمى اللازم لبناء خط أنابيب مباشر من باكو، عاصمة أذربيجان إلى ميناء جيهان. ففى اجتماع عقد فى استانبول فى ١ ـ ٢ آذار / مارس ١٩٩٨ لوزراء خارجية تركيا وأذربيجان وجورجيا وكازاخستان وتركمنستان، لم تتمكن أنقرة من الحصول على بيان مشترك مؤيدا لهذا الخط المقترح، وذلك رغم الدراسة التى قامت بها شركة ألمانية مولها البنك الدولى لهذا الغرض. لقد أوضحت الدراسة أن كلفة الخط المقترح تقدر بحوالى ٢,٥٠ مليار دولار وتبلغ طاقته ١ ـ ١,٥٠ مليون برميل يوميا ويمتد طوله حوالى ١,٧٠٠ كيلومتر. لقد أيدت كل من أذربيجان وجورجيا هذا الخط، بينما تحفظت عليه كازاخستان. لأن الشركات العاملة لديها فى صدد بناء خط موازى عبر روسيا. واعتذرت تركمنستان لأنها تعمل لبناء خط غاز عبر إيران. ومن الجدير بالذكر أنه لم توجه دعوة لروسيا لحضور هذا المؤتمر، رغم دورها الرئيسى فى المشاريع الإقليمية المختلفة لتصدير النفط والغاز من بلاد القوقاز إلى العالم الغربى.

إلا أنه رغم المصالح الاستراتيجية والاقتصادية المتضاربة لكل من روسيا وتركيا فى بلاد القوقاز، نجد أن هناك تعاونا مهما قائما بينهما، وبالذات فى مشاريع الغاز. فتركيا تستورد حاليا حوالى ٦ مليارات متر مكعب سنويا من الغاز من روسيا عبر خط أنابيب يمتد عبر أوكرانيا ومولدوفا ورومانيا وبلغاريا. وستزداد الإمدادات الغازية لتركيا عبر هذا الخط إلى ١٤ مليار متر مكعب سنويا فى خلال عشر سنوات. كما تم التوقيع على مذكرة تفاهم فى شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٧ ما بين البلدين لبناء خط أنابيب جديد عبر البحر الأسود لكى تزود روسيا تركيا بكميات إضافية من الغاز الطبيعى ابتداء من عام ٢٠٠٠ وستكون طاقة هذا الخط الأولية حوالى ٣ مليارات متر مكعب ترتفع تدريجيا لتصل عام ٢٠١٠ إلى ١٦ مليار متر مكعب. وبهذا سيبلغ مجموع الإمدادات الغازية الروسية فى نهاية العقد القادم فى حال تنفيذ المشاريع المقترحة والمتفاهم عليها حوالى ٣٠ مليار متر مكعب أو حوالى نصف احتياجات تركيا من الغاز فى تلك الفترة.

ومن الجدير بالذكر أن إسرائيل تحاول من خلال شركاتها المحلية، أو بواسطة جهات دولية متعددة. بناء خط فرعى من تركيا عبر البحر الأبيض المتوسط ليصل إلى أراضيها الشمالية، وهى تتفاوض مع كل من روسيا وتركمنستان لإيصال الإمدادات الغازية من إحدى هاتين الدولتين إلى أسواقها. ورغم التكلفة الباهظة لهذا الغاز. نظرا لبعده الجغرافى عن إسرائيل ولامتداده عبر عدة دول وبحار، إلا أن هدف إسرائيل كما أعلن عن ذلك وزير البنية التحتية آريل شارون هو عدم الاعتماد على مصادر للغاز من دول عربية فقط، وهذه هى الحال فيما إذا استلمت الغاز من مصر. ورغم أنه قد تم تجميد هذا المشروع لفترة طويلة نتيجة للخلافات السياسية مع إسرائيل منذ استلام حزب الليكود السلطة فى منتصف عام ١٩٩٦. ونتيجة أيضا لارتباك الجهات الإسرائيلية المسئولة عن صناعة الغاز هناك وعدم معرفتها أو إلمامها فى كيفية التعامل مع هذا القطاع الطاقوى الجديد، ناهيك عن الخلافات حول السعر وكمية الإمدادات المطلوبة، إلا أن الشركات النفطية الأجنبية العاملة فى دول الشرق الأوسط لاتزال تحاول أو تأمل فى تنفيذ هذا المشروع فى المستقبل المنظور، هذا فى حال حصول تغير أساسى فى عملية سلام الشرق الأوسط.

* اما المشكلة الثالثة: فهى السلسلة الطويلة من المصاعب السياسية الناشبة عن الخلافات الإقليمية المستفحلة، ناهيك عن الصراع الدولى لبسط النفوذ فى منطقة القوقاز.

صراع المصالح والنفوذ

يشكل التنافس على نفط بحر قزوين صراعا كلاسيكيا ذا أبعاد إقليمية ودولية طويلة الأمد. فهناك محاولة أمريكية للالتفاف على كل من روسيا وإيران فى الوقت نفسه. وهناك محاولة روسية لإعادة بسط نفوذها فى جمهورياتها السابقة، وبالذات بعد أن أخذت تواجه ضغوطا متزايدة من حلف شمال الأطلسى على حدودها الغربية. وهناك تركيا وإيران اللتان تريدان الاستفادة من الوضع المتغير الحالى لتوسيع تأثيرهما فى الدول المجاورة لهما التى ترتبط معهما بعلاقات تاريخية وحضارية قديمة. إلى جانب كل هذا وذاك تحاول شركات النفط التنافس فيما بينها للحصول على أكبر نصيب ممكن من الامتيازات البترولية فى هذه المنطقة الواعدة. كما تحاول هذه الشركات منفردة ومجتمعة أن تؤمن سلامة خطوط الأنابيب التى تنوى إنشاءها فى هذه المنطقة المغلقة على البحار المفتوحة، وذلك فى ظل صراعات اثنية وقومية متعددة وشرسة.

تعمل واشنطن لتحقيق أهداف متعددة فى منطقة القوقاز. فقد راهنت فى بداية الأمر على تصدير النموذج التركى لاحتواء نفوذ إيران فى المنطقة، إلا أنها اكتشفت عجز تركيا عن لعب دور أساسى فى حلا المشكلات المزمنة المترسبة فى هذه الجمهوريات. كما اكتشفت أمريكا أن النفوذ الروسى لم يتبدد مع انهيار الاتحاد السوفيتى، وأن موسكو تعمل بطرق مختلفة لاستعادة موقعها فى جمهورياتها السابقة وإن تعددت الأشكال. أخيرا وجدت أمريكا فى هذه المنطقة مصدرا مهما للنفط والغاز يساهم فى دعم هدفها المزمن للتقليل من أهمية نفط الخليج العربى ومدى الاعتماد عليه. باختصار، لقد حاولت واشنطن فى ظل أوضاع مشحونة بالمشكلات ومليئة بالمتغيرات، أن تحقق عدة أهداف فى الوقت نفسه: دعم سيادة واستقلال دول القوقاز، وتطوير مصدر نفطى جديد، وتشجيع الشركات النفطية الأمريكية، والتقليل من النفوذين الروسى والإيرانى.

توضح الموقف الأمريكى من نفط قزوين بشكل دقيق فى أواخر كانون الأول / ديسمبر من عام ١٩٩٧ بعد زيارة رئيس الوزراء التركى السابق مسعود يلماظ إلى واشنطن إثر رفض الاتحاد الأوروبى البحث فى طلب تركيا الانضمام إلى عضوية الاتحاد. لقد تم على أثر هذه الزيارة تأسيس «تحالف إستراتيجى للطاقة» ما بين واشنطن وأنقرة فى ٢٣ / ١٢ / ١٩٩٧. ويكمن الهدف الرئيسى من هذا الإعلان تشجيع الشركات الدولية والتركية على بناء خط أنابيب قزوين الرئيسى ما بين العاصمة الأذربيجانية باكو والميناء التركى جيهان. والتزمت تركيا على أثر هذا البيان المشترك العمل بجدية وبسرعة لإعداد الدراسات المطلوبة للتقدم باقتراح متكامل فى تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٨ حول إنشاء هذا الخط الإستراتيجى ومساره وكلفته المالية. إلا أن جميع المحاولات الأمريكية والتركية لإنجاح هذا المشروع قد فشلت حتى الآن لرفض الشركات النفطية، وبالذات شركة بريتش بتروليوم أموكو الالتزام بالتنفيذ نظرا لكلفة المشروع ولعدم العثور على كميات كبيرة من النفط تبرر الالتزام بهذه النفقات. وبالذات فى وقت يتوقع فيه أن تبقى أسعار النفط على مستويات منخفضة.

أما بالنسبة لتركيا، فمشكلتها الأساسية فى منطقة القوقاز هى فى كيفية لعب دور أساسى دون الدخول فى صراع مفتوح مع جارتها الكبرى روسيا. لقد حاولت أنقرة إقامة علاقات جيدة مع أذربيجان وأرمينيا وجورجيا، إلا أن المتغيرات الأساسية فى تلك الدول نفسها وتشابك المصالح واحتلال ناجورنى كارباخ من قبل أرمينيا قد عقدت الموقف التركى وأضعفته. بالإضافة إلى ذلك، فإن علاقة تركيا الاقتصادية هى مع روسيا وليس مع جمهوريات القوقاز. ففى عام ١٩٩٥ بلغت قيمة التبادل التجارى بين تركيا وروسيا حوالى ٣,٥ مليار دولار أو حوالى ٦٠٪ من إجمالى التجارة الخارجية الروسية، وأخيرا، فإن تركيا تبذل محاولات مضنية، بمساندة الولايات المتحدة، من أجل مرور خط الأنابيب الأساسى عبر أراضيها وهى فى هذا تنافس جورجيا، ناهيك عن روسيا. كما تدخل فى مشاكل متعددة مع أرمينيا التى من الضرورى أن يمر الأنبوب فى أراضيها، هذا إذ تصر أمريكا على تفادى مرور الأنبوب فى إيران.

لقد استطاعت إيران التركيز على علاقاتها التجارية، وليس الأيديولوجية مع دول المنطقة بحيث أصبحت الشريك التجارى الرئيسى لكل من أذربيجان وأرمينيا، كما نجحت فى الاتفاق مع تركمنستان لتزويد المناطق الشمالية الإيرانية بالغاز الطبيعى من خلال خط أنابيب يرتبط بشبكة الخطوط الإيرانية ويمتد مستقبلا إلى تركيا. ورغم نجاح طهران فى هذه المحاولات، إلا أنها واجهت محاولات أمريكية متشددة للحد من علاقاتها ونفوذها مع عواصم الجمهوريات الجديدة، وما إبعاد الشركات الإيرانية عن المشاركة والعمل للمجموعات البترولية الأجنبية المهمة فى أذربيجان إلا خير

إن إسرائيل تحاول من خلال شركاتها المحلية، أو بواسطة جهات دولية متعددة، بناء خط فرعى من تركيا عبر البحر الأبيض المتوسط ليصل إلى أراضيها الشمالية. وهى تتفاوض مع كل من روسيا وتركمنستان لإيصال الإمدادات الغازية من إحدى هاتين الدولتين إلى أسواقها

يبقى هناك العامل المشترك ما بين النفط العربى ونفط بحر قزوين، فدول المنطقتين ومع الأسف تعتمد على النفط باعتباره المصدر المالى الأساسى للبلاد. هذا على عكس دول منتجة أخرى مثل النرويج أو إندونيسيا التى استطاعت أن تنوع من اقتصادها وتقلل من دور النفط فى الاقتصاد الوطنى

فى جورجيا التى تأمل أن تستفيد من موقعها الجغرافى لتحصل على عائد مهم من رسوم الترانزيت، كاد الرئيس إدوار شفارنادزة أن يفقد حياته أكثر من مرة نتيجة مؤامرات مافيات النفط الروسية

دليل على ذلك، ورغم التنبؤات العديدة حول بوادر الانفراج ما بين واشنطن ونظام الرئيس خاتمى، لا يتوقع أن تثمر هذه السياسة عن شيئا ملموسا فى المستقبل المنظور.

تحاول الشركات النفطية الأجنبية التكيف مع هذا الجو المحموم بالصراعات والمتغيرات. فأذربيجان كانت فى مهب الريح إلى أن استلم الرئيس حيدر علييف السلطة، إلا أن مشكلته الأساسية تكمن فى إطلاق الوعود الخلابة بالازدهار المقبل فى ظل مجتمع مدقع بالفقر والفساد . ومشكلة علييف الذى شارف عمره منتصف السبعينيات والذى يعانى من أمراض عديدة، أن الثروةالنفطية الموعودة لن يعود نفعها لبلاده إلا بعد ٥ إلى ١٠ سنوات فى أحسن الأحوال.

وتكمن مشكلة أرمينيا فى قضية ناجورنى كارباخ، إذ إنها هى العامل الأساسى وراء الحركات القومية الأرمنية التى استطاعت إزاحة الرئيس ليفون بتروسيان عن الحكم وإدخال البلاد منذ ذلك الحين فى نفق مظلم غير معروفة نهايته. هذا رغم الدعم الهائل الذى تحصل عليه هذه الجمهورية من أنصارها فى الولايات المتحدة، والكونجرس بالذات. وأهمية أرمينيا وناجورنى كارباخ تكمن فى ضرورة عبور أى خط أنابيب من أذربيجان إلى تركيا عبر هذه الأراضى، ذلك فى حال تفادى إيران. هذا هو ما تريده الولايات المتحدة وأذربيجان وتركيا، ولكن هذا ما تعرقله حتى الآن المشاكل السياسية المحلية.

وفى جورجيا التى تأمل أن تستفيد من موقعها الجغرافى لتحصل على عائد مهم من رسوم الترانزيت عبر خط أنابيب يمتد إلى ميناء سوبسا المطل على البحر الأسود، كاد الرئيس إدوار شفارنادزة أن يفقد حياته أكثر من مرة نتيجة مؤامرات مافيات النفط الروسية التى اتهمها علنا ومباشرة بمحاولة اغتياله من أجل زعزعة استقرار البلاد ودفع الشركات الأجنبية إلى العدول عن الاستثمار فى أراضيه. كما يواجه شفارنادزة مشكلة مزمنة لاستعادة أبخازيا والتى أدى سلخها عن جورجيا إلى إضعاف هيبة حكمه.

فى ظل هذه الأجواء المشحونة، تحاول الشركات النفطية استخراج النفط ونقله إلى البحار المفتوحة، هذا أمر صعب وليس هينا كما نعرف ذلك من تجربة بعض البلاد العربية. كما أدت الصراعات المحلية والإقليمية إلى عزوف الاستثمارات الأجنبية عن التواجد فى هذه البلاد، ما عدا شركات النفط التى استطاعت أن تتعايش تاريخيا مع مشكلات من هذا النوع وفى دول متعددة ولكن بضمانة حماية أجنبية.

بحر قزوين والنفط العربى

تعج وسائل الإعلام العالمية بالأخبار والتقارير عن قرب فك اعتماد الدول الصناعية الغربية عن النفط العربى،وذلك كلما تم اكتشاف حقل نفطى فى دولة معينة خارج الشرق الأوسط. ولا تختلف التغطية الإعلامية لنفط بحر قزوين عن بقية المناطق فى العالم. والحقيقة أن هناك مناطق عديدة وجديدة يتم فيها اكتشاف النفط هذه الأيام وتشكل مصدرا تنافسيا مهما لنفوط الشرق الأوسط، فهناك الاكتشافات المهمة فى المياه العميقة فى غرب أفريقيا، وهناك التطوير الإصلاحى البطىء للحقوق النفطية والغازية الكبيرة فى روسيا، وهناك التصاعد المستمر للإنتاج من بحر الشمال وبالذات القسم النرويجى منه، وهناك أخيرا ازدياد الإنتاج النفطى من دول أمريكا اللاتينية مثل فنزويلا وكولومبيا والبرازيل والمكسيك.

إلى جانب هذه الاكتشافات التى تؤدى تدريجيا إلى زيادة العرض من النفط فى الأسواق العالمية، ومن ثم تأثيره السلبى على الأسعار. نجد أيضا بروز ظاهرة التأثير التقنى على تكاليف الإنتاج. ففى العقود الماضية استطاعت نفوط الخليج مزاحمة النفط فى البقاع الأخرى من العالم لأن تكاليف الإنتاج فى الخليج كانت بسيطة مقارنة بالمناطق الأخرى، وبالذات من المناطق الجديدة مثل بحر الشمال. أما الآن، فإن الوضع قد تغير بفضل إدخال عنصر التقنية فى عمليات المسح السزمى والاستكشاف والتجميع والنقل، ومن ثم أصبح بمقدور الشركات العالمية مزاحمة نفوط الخليج وتحقيق أرباح معقولة فى نفس الوقت.

هناك أيضا تأثير التيار العالمى المتصاعد للمحافظة على البيئة ومحاولة تخفيض استعمال الوقود الاحفورى، الذى يشمل النفط من أجل تقليص كميات ثانى أكسيد الكربون فى الجو. هذه الحملة الدولية من أجل تحسين المناخ والبيئة، والتى تبلورت أفكارها وتياراتها فى مؤتمر كيوتو فى اليابان فى كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٧، بدأت تأخذ مفعولها تدريجيا وستؤثر حتما فى العقود القادمة فى الطلب على النفط من خلال قواعد المرور ونوعية السيارات التى سيتم إنتاجها فى المستقبل. هذا ناهيك عن نوعية المنازل والمكاتب التى سنعيش ونعمل فيها والتى ستأخذ بنظر الاعتبار الاهتمام المتزايد بالبيئة وطرق تحسين الظروف المعيشية الملائمة معها.

إن نفط بحر قزوين ما هو إلا عامل واحد من مجموعة عوامل ستؤثر على النفط العالمى مستقبلا، لكن هناك عوامل محددة للتنافس الذى يحتمل أن يحصل ما بين نفط قزوين والنفوط العربية. فعلى سبيل المثال، سيتم تنافس قوى على الأسواق وبالذات على منطقة البحر الأبيض المتوسط وشمال غرب أوروبا.كما سيشكل الغاز الذى سيتم تصديره من بلاد القوقاز مصدرا جديدا ستعتمد عليه أوروبا لتخفيض الاعتماد على الإمدادات الغازية الحالية وهى النرويج وروسيا والجزائر. أما فى الشرق وبالذات إذا تحققت المشاريع الضخمة التى يتم الكلام عنها لمد أنابيب النفط والغاز العملاقة إلى الصين أو حتى إلى اليابان، فمعنى هذا تغييب أسواق مستقبلية كانت دول الخليج تبنى عليها آمالا كبيرة لتصدير النفط والغاز لها بعد فتحها للمنافسة العالمية وبعد ارتفاع مستوى معيشة أهاليها وبعد فتح أسواقها للشركات الدولية، وبالذات فى الصين.

من ثم، يمكن القول أن نفط بحر قزوين ما هو إلا مصدر آخر من مصادر التنافس التى سيواجهها النفط العربى فى السنوات والعقود القادمة، ولا تقل أهمية أو خطورة هذا المصدر الجديد عن بقية النفوط الحديثة التى أخذت تصل إلى الأسواق مؤخرا، أو التى خطط لها الإنتاج فى المستقبل المنظور.

أما ما سيحدد فعلا أهمية وخطورة هذه النفوط على الشرق الأوسط فهو مؤشرات وبيانات الطلب العالمى على النفط، وهذا سيعتمد بشكل أساسى على معدلات النمو الاقتصادى العالمى، وبالذات فى الدول النامية التى تحاول الانطلاق وتغيير وضعها الاقتصادى إلى ما هو أحسن. إن معدل زيادة استهلاك النفط العالمى فى الفترات الجيدة (عامى ١٩٩٦، ١٩٩٧) قد تراوح بمقدار ٢,٠٠٪ سنويا، أو ارتفاع فى الاستهلاك العالمى مقداره حوالى ١,٨٠ ـ ٢,٠٠ مليون برميل يوميا، وهذه زيادة محترمة فى حال استمرارها، وهى ستضمن المحافظة على أهمية النفط فى الاقتصاد العالمى، كما ستستطيع أن تستوعب الكثير من النفوط الجديدة، وبالذات لأن العديد من الحقول القديمة قد تعبت وبدأ ينضب إنتاجها. لكن فى حال انخفاض هذه المعدلات المرتفعة للاستهلاك النفطى (كما حصل فى عام ١٩٩٨ والربع الأول من عام ١٩٩٩) ستتأثر صناعة النفط بشكل سلبى وأساسى. ومن ثم، ستتضرر جميع الدول النفطية العربية منها وغير العربية.

يبقى هناك العامل المشترك ما بين النفط العربى ونفط بحر قزوين، فدول المنطقتين ومع الأسف تعتمد على النفط باعتباره المصدر المالى الأساسى للبلاد، هذا على عكس دول منتجة أخرى مثل النرويج أو إندونيسيا التى استطاعت أن تنوع من اقتصادها وتقلل من دور النفط فى الاقتصاد الوطنى. لذا، فإنه فى حال حدوث أى ارتجاج أو قلاقل فى الأسواق النفطية، مثل أزمة انخفاض الأسعار فى عام ١٩٩٨، فإن هذه الدول ستكون المتضررة الرئيسية لأن الميزانية العامة فى كل من هذه الأقطار ستكون الضحية الأولى لعدم وجود دخل أساسى آخر للبلاد غير النفط. هذا هو واقع الدول العربية اليوم، وهذا هو ما سيكون عليه وضع دول بلاد القوقاز فى المستقبل المنظور بعد أن تبدأ بتصدير النفط إلى الأسواق العالمية فى العقود القادمة.



الخلاصة

تحاول دول بلاد القوقاز، بعد أن نالت استقلالها، استقطاب الاستثمارات النفطية الأجنبية، ليس فقط من أجل تنمية مصادرها النفطية، لكن أيضا تيمنا بالحصول على الضمانات الدولية للمحافظة على هذا الاستقلال ودفعا من التدخل فى شئونها الداخلية من هذا الطرف أو الآخر، إلا أن الأزمة الحقيقية لهذه الدول هى أن مشكلاتها تنبع من داخلها ومن التعدد الهائل فى الاثنيات والقوميات والأجناس القاطنين فيها، وإلى أطماع الدول المجاورة لها، وتكالب الدول الكبرى على مواردها الطبيعية. لذا فإنه من الصعب جدا أن يتصور المرء حلول نوع من الاستقرار السياسى لهذه الأقطار فى المستقبل المنظور.

وإذا افترضنا أنه بقدرة قادر استطاعت هذه الدول إحلال نوع من الاستقرار السياسى الداخلى، فمن الصعب التغاضى عن الصراعات الإقليمية التاريخية ما بين هذه الدول. وبما أن بلاد القوقاز لا تملك السواحل والموانئ المطلة على البحار العالمية، فمعنى ذلك أنها ستبقى تحت رحمة جيرانها وابتزازاتهم المستمرة لاستقطاع أعلى معدل ممكن من رسوم الترانزيت والخوات والمصاريف. هذه العوامل جميعها تصب فى خانة عدم استقرار إمدادات النفط من بلاد القوقاز، مهما حاولت الشركات النفطية العالمية هذه الأيام من تلطيف صورة هذه المنطقة وإبراز أهميتها الاقتصادية الدولية المستقبلية.

فى أحسن الأحوال، وفى حال عدم انقطاع الإمدادات بين فترة وأخرى، سيكون ثمن نفط هذه الدول باهظ التكاليف، مما يعنى أن الدول القوقازية نفسها ستحصل فى نهاية المطاف على ريع نفطى أقل بكثير من الدول المنتجة الأخرى، الأمر الذى سيحد من قوتها الاقتصادية ويبقيها دولا ضعيفة دون ركائز صلبة ومعرضة للتهديد والاضطرابات والقلاقل الاجتماعية والسياسية.

أخيرا، ورغم كل الأرقام المتفائلة التى صدرت عن المؤسسات الحكومية ودور الأبحاث، فإن كميات النفط المتوافرة فى منطقة بحر قزوين لا تزال محدودة. وبالفعل، فإن النتائج الأولية للبحث والاستكشاف عن النفط فى عام ١٩٩٨ وأوائل عام ١٩٩٩ غير مشجعة للغاية، مما دفع بعض الشركات الدولية بإغلاق مكاتبها والتنازل عن رخص الامتيازات التى حصلت عليها. لكن هذا لا يعنى أن المنطقة غير واعدة نفطيا. فالوقت لا يزال مبكرا لإصدار حكم من هذا النوع، والمجال لا يزال مفتوحا للاستكشافات فى السنوات المقبلة. إلا أنه إذا بقيت أسعار النفط على مستويات منخفضة نسبيا، فإن هذا العامل سيحد من استثمارات الشركات الدولية فى هذه المنطقة، مما سيقلل من معدل عمليات التنقيب ويبطئ فى برامج الحفر، وهذه كلها ستؤثر سلبيا على احتمال بروز منطقة قزوين كمنطقة واعدة نفطيا فى المستقبل المنظور.

فصل المقـــال فيمــا بيـــن «الخبــز الحــافى»

«محاولة الدفاع عن كتاب محمد شكرى
باستدراج كتاب الطيب صالح إلى المعركة، أمر مؤسف،
لأن الفارق بين الكتابين كبير جدا»

في الضجة الكبيرة التى ثارت فى مصر مؤخرا حول كتاب «الخبز الحافى» لمحمد شكرى، أشياء كثيرة قبيحة. ولأبدأ بما أعتبره قبيحا فى هذه الضجة، ثم أتناول الكتاب نفسه.

أما عن الضجة، فقد كان من أسوأ ما فيها أن يصرخ بعض الناس. سواء ضد الكتاب أو دفاعا عنه، دون أن يكونوا قد قرأوا الكتاب أصلا، باعتراف هؤلاء الناس صراحة أحيانا، أو بما يفهم من طريقة كلامهم عن الكتاب أحيانا أخرى.

أما الصارخون ضد الكتاب، فبعضهم قد حلا فى عينيه أن يظهر أمام الناس بمظهر المدافع عن الفضيلة، واتخذ من مجرد احتجاج بعض التلاميذ على الكتاب دليلا على وجوب منع الكتاب من التداول، واعتبر أن هذه الشكوى من بعض التلاميذ دليل على تعارض الكتاب مع «قيم مجتمعنا وديننا وتقاليدنا»، مع أن أبسط اطلاع على الكتاب كان من شأنه أن يبين أن الكتاب لا يتعارض مع «قيم مجتمعنا أو ديننا» بأكثر مما يتعارض مع قيم أى مجتمع آخر وأى دين آخر. كما سأحاول أن أبين فيما بعد.

كذلك من التصرفات القبيحة، ميل بعض هؤلاء الساخطين على الكتاب إلى «استعداء السلطات»، سواء كانت سلطات الجامعة التى كان يدرّس بها الكتاب، أو سلطات الدولة. مع أن الخطأ لا يزيد على سوء تقدير مما يمكن تصحيحه بسهولة دون ضجيج أو صراخ، إذ كانت نتيجة هذا الضجيج والصراخ أن أشاعا الخوف لدى الأساتذة جميعا، من أن تكون حريتهم فى التعبير عن أفكارهم، أيا كانت براءة هذه الأفكار قد أصبحت مهددة فى كل لحظة، مع أن الأمر فى هذه الحالة لا يتعلق باختلاف فى الرأى أو الأفكار، بل بأشياء مختلفة تماما.



محمد شكرى

والأسوأ من هذا، أن هذا الصراخ وهذا الضجيج قد أدّيا إلى تعرض بعض من أفضل الأعمال الأدبية وأرفعها شأنا، وأبعدها عن الابتذال، بل ومن أكثرها تعاطفا مع «قيم مجتمعنا وديننا وتقاليدنا»، للتهديد بالمنع هى الأخرى، وأعنى بذلك بالذات رواية الأديب السودانى «الطيب صالح»، التى أنقذها لحسن الحظ إجماع لا مثيل له من جانب أساتذة الجامعة على أنها قطعة من الأدب الرفيع، مما لا يجوز المساس به على الإطلاق.

إلى هذا الحد أجد نفسى متفقا مع تعليق الأستاذ سلامة أحمد سلامة على هذا الموضوع فى العدد الأخير من «وجهات نظر» (أول أبريل ١٩٩٩) تحت عنوان «الفكر الحافى»، إذ عبّر عن رفضه لهذه «السلطوية الفكرية البغيضة، والظلامية العمياء، والتحرش العقلى بأجيال ينبغى أن تتعلم فى الجامعة كيف وماذا ولماذا نقرأ دون وصاية من الشارع ولا من الوزير ولا من الخفير».

ولكنى لم أستطع التعاطف مع موقف الأستاذ سلامة عندما انتقل من الكلام عن العموميات إلى الكلام عن هذا الكتاب بالذات «الخبز الحافى»، فهو لم يقدم لنا سببا مقنعا لاعتبار تدريس هذا الكتاب أو حتى قراءته عملا مفيدا، فكل ما قاله دفاعا عن الكتاب أنه:

> «نوع من أدب السيرة الذاتية، صدر قبل نحو ثلاثة عقود، وترجم إلى لغات مختلفة، وبيعت منه ألوف النسخ فى المغرب والعالم العربى، وطرح فى المكتبات ومعرض الكتاب فى القاهرة. وتعبر القصة بصاحبها مرحلة الطفولة والمراهقة، وما صاحبها من تحولات نفسية واجتماعية ومكانية. تناوله نقاد الأدب باعتباره بعض تجليات الأدب المغربى الحديث. ولم تثر حوله مثل هذه الضجة الغوغائية التى ملأت بعض الصحف فى مصر، وشغلت من لا شاغل لهم.. ولم يؤخذ ما فيه من عرى فى العبارة أوخشونة فى اللفظ على أنه أدب جنسى بالمعنى الذى يجرّد الكتاب من قيمته الأدبية.. فقد عرف الأدب العربى أشعار أبى نواس الإباحية وقصص ألف ليلة وليلة قديما، وروايات أخرى لأدباء معروفين مثل رواية الطيب صالح (موسم الهجرة للشمال) حديثا، دون أن تعلن حالة الطوارئ الفكرية فى الجامعات ويفرض عليها منع التجول».

وقد عجزت عن أن أجد فى هذه الفقرة دفاعًا مقنعا عن الكتاب، أما أنه نوع من أدب السيرة الذاتية، فصحيح، وأما أنه صدر قبل نحو ثلاثة عقود فجائز، وأما أنه ترجم إلى لغات مختلفة فمحتمل، وأما أن آلاف النسخ قد بيعت منه فمؤكد، ولكن كل هذا لا يبرئ الكتاب من العيب، ولا يحوّل نقائصه الكثيرة إلى مزايا، بل نحن نعرف أن مثل هذه الكتب يمكن أن تباع منها ألوف كثيرة، وأن يترجم إلى لغات كثيرة، أما أن القصة «تعبر بصاحبها مرحلة الطفولة والمراهقة.. إلخ»، فهذا قد يهم صاحب السيرة الذاتية، ولكنه قد لا يهمنا، إذ الأمر يتوقف فى النهاية على كيفية عبوره هذه المرحلة وتلك، وما الذى قاله عن هذه المرحلة أو تلك. وأما أن «العرى فى العبارة أو الخشونة فى اللفظ» لا يجعلان الكتاب أدبًا جنسيا، فقد يكون صحيحا فى بعض الحالات، ولكنه ليس صحيحا دائما، كما سأحاول أن أبين. وأما محاولة الدفاع عن كتاب محمد شكرى، باستدراج كتاب الطيب صالح إلى المعركة، فهو أمر مؤسف إذ إن الفارق بين الكتابين كبير جدا. كما سأحاول أن أبيّن أيضا.

كذلك فإنى لم أتعاطف بالمرة مع ما كتبه الدكتور سعد الدين إبراهيم عن نفس الموضوع فى مجلة «القافلة» (وهى مجلة الجامعة الأمريكية بالقاهرة) تحت عنوان «الحرية الأكاديمية فى الجامعة الأمريكية» (عدد ١٤/٢/١٩٩٩) إذ حوّل الأمر إلى قضية اختلاف فى الرأى ووجهات النظر، وجعل السماح بتدريس مثل هذا الكتاب من صميم قضية الليبرالية الفكرية ونظام التعليم الحر المعروف باسم Liberal Arts وقد كنت - ولا أزال - أفهم الحرية الأكاديمية والفكرية بمعنى مختلف تماما، وكذلك كنت - ولا أزال - أفهم نظام التعليم الحر بمعنى مختلف جدا، لا يشمل تدريس كتب من نوع «الخبز الحافى»، فالمسألة ليست اختلافا فى الرأى بالمرة، وليست خلافا فكريا، بل هى شىء مختلف تماما.

رواية «الخبز الحافى» رواية صغيرة الحجم، لا تزيد على ١٥٠ صفحة فى ترجمتها الإنجليزية (التى اعتمدت عليها ثم قارنت بعض أجزائها بالنسخة العربية التى تقع فى ٢٢٨ صفحة من القطع الصغير) والمعروف أنها تقوم على السيرة الذاتية لكاتبها بل هى تحمل ما يدل على ذلك فى العنوان نفسه: الخبز الحافى، سيرة ذاتية روائية (١٩٣٥-١٩٥٦).

وكاتبها محمد شكرى. لم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى سن العشرين ثم أصبح كاتبا روائيا، وهى تصف طفولة محورها جوع وحرمان دائم، وقسوة بالغة من الأب. الأسرة فقيرة للغاية لا تجد ما يسد رمقها. الأم بائعة خضروات والأب مجرم سكير وعاطل عن العمل، والأم تحمل وتلد ويموت معظم أولادها وبناتها الواحد بعد الآخر، فلا يبقى إلا هذا الطفل (محمد) الذى يهيم على وجهه بحثا عن الرزق بكل الطرق غير المشروعة: سرقة وتهريب ودعارة، بما فى ذلك بيع جسده لمن يرغب. ويتخلل ذلك كله معاشرة للمجرمين من كل نوع وللعاهرات والسكارى ومدمنى الخمر والمخدرات من كل صنف. ولكن قبل أن تنتهى الرواية بصفحات قليلة يتعرف محمد أى صاحب السيرة على شخص مهتم بالسياسة اسمه «عبد المالك»، ويقرر محمد بعد التعرف عليه أن يتعلم القراءة

١- الخبز الحافى: سيرة ذاتية روائية، ١٩٣٥-١٩٥٦
محمد شكرى
بيروت: دار الساقى، ١٩٩٣، ٢٢٨ ص، ط٣.

٢. For Bread Alone
Mohamed Choukry
London: Peter Owen, 1973, 151pp.

٢- موسم الهجرة إلى الشمال
الطيب صالح
بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧، ٢٠٠ ص.

و«موسم الهجرة» من انفصال..

جلال أمين

والكتابة، فيذهب لشراء كتاب في مبادئ القراءة، ويخبر عبد الملك عن عزمه، وإن كان يختم الرواية بالتعبير عن شكّه في أن من الممكن أن يتحول إلى رجل مستقيم أو إلى «ملاك». ويرجح أن الوقت قد فات.

إن من الممكن جدا أن تكون رواية، هذا موضوعها، وهذه هي أحداثها، سرقة وتهريب ودعارة وسكر ومخدرات، رواية إنسانية بالرغم من هذا كله، ولكن لهذا بالطبع شروطا. من أهم هذه الشروط أن يكون البطل الذي يروي القصة والذي نرى كل أحداثها من خلاله، ونحكم على كل شيء من وجهة نظره، أن يكون هذا البطل شريفا في الأساس. لا أقصد بهذا أن يكون رجلا ملتزما بالقانون وبما تعارف عليه أهله ومجتمعه من قواعد أخلاقية، بل يكفي أن يكون رجلا نظيفا من الداخل، مهما كانت قذارة الأعمال التي يرتكبها رغما عنه. وهذه «النظافة من الداخل» لها مظاهر شتى، منها مثلا مدى الأسف الذي يشعر به عندما يرتكب عملا غير إنساني، أو الندم الذي يصيبه بعد ارتكابه مثل هذا العمل، أو التعاطف مع من يصادفه في حياته من رجال ونساء سيئي الحظ، أو قيامه بعمل إنساني لإنقاذ أو مساعدة أحد من هؤلاء الذين عاملتهم الحياة بقسوة، أو استعداده للصفح عمّن أساء إليه، أو التضحية بجزء من طعامه مثلا، رغم شعوره بالجوع، لمن هو أشد جوعا منه، أومقاومته، ولو لبعض الوقت، لإغراء القيام بعمل غير أخلاقي قبل أن يضطر اضطرارا للقيام بهذا العمل.. الخ. كل هذه أمثلة لما يمكن أن يدل على أن هذا البطل البائس، رغم بؤسه وانخراطه في مختلف الأعمال الإجرامية وغير الأخلاقية هو في الأساس رجل نظيف، ولكن اضطرته ظروف حياته القاسية إلى أن يظهر منه عكس ذلك. ولكننا للأسف لا نجد شيئا من ذلك في هذا الكتاب. فليس في المائة والخمسين صفحة التي تتكون منها رواية «الخبز الحافي» دليل واحد، مهما كان صغيرا، على أن بطل الرواية رجل نظيف من الداخل. ليس هناك شعور واحد نبيل، وليس هناك عمل واحد من أعمال التضحية، ولم يحدث أن أظهر مرة واحدة مقاومة لعمل من الأعمال القذرة قبل أن يقوم به. إنه لم يعبر ولو مرّة واحدة عن شعور بالصفح عن الأب الفظ البالغ القسوة، ولا حتى مايدل على أنه يفهمه أو يعذره أو أنه كان مضطرا إلى ماقام به، بل ولاتحسّ منه ولو مرة واحدة بعاطفة تشبه عاطفة الابن نحو أمه التي تعرضت لمنتهى القسوة من أبيه.

إذا كان الأمر كذلك فمن أين يأتي وصف الرواية بالإنسانية؟ وما جدوى الخوض في وصف الفقر والبؤس إن لم يصل إلى القارئ من هذا الوصف أية إثارة للعطف؟ الخلاصة إذن أن البطل من أول صفحة في الرواية إلى آخر صفحة، يظهر تماما أنه وغد، خال من أي ميزة، سواء في الذكاء أو في الإنسانية، بل ولا يتصف حتى بالنشاط أو الشجاعة. فما الذي ينتظر من قارئ الرواية غير اللامبالاة والاشمئزاز؟

نعم، إنك تترك الرواية ساخطا ولكن ليس على الظروف الاجتماعية التي أدت بهؤلاء البؤساء جميعا إلى هذا المصير، ولكن ساخطا على بطل الرواية ومن ثم على كاتبها أيضا. إنني لم أقابل مؤلف الرواية قط، ولكني بصراحة، بعد أن قرأت سيرته الذاتية لا أجد لديّ أي رغبة في مقابلته، لا لأنه ارتكب في شبابه الكثير من الأعمال القذرة ولكن لأني لم أشعر خلال قراءتي للرواية أنه كان يحسّ بمدى قذارتها.

الآن يمكن أن نأتي إلى الجنس. الرواية على صغر حجمها حافلة بالمشاهد الجنسية، ولكن ليست مشاهد جنسية عادية بل تحتوي على تفاصيل دقيقة في وصف أجزاء الجسم مع تسمية كل شيء باسمه، والتركيز في هذه المقاطع ليس على الأحاسيس، بل على الأعضاء التي ولدت هذه الأحاسيس. وتشمل هذه المشاهد العادي من الجنس والشاذ منه أيضا، وبعض هذه الممارسات الشاذة يبدأ من شخص غير البطل يحاول أن يجذب بطل الرواية إليها، مقابل المال أحيانا، ودون مقابل أحيانا، وبعضها يبدأه البطل نفسه تعبيرا عن رغباته هو الخاصة. الأهم من هذا كله أنه لا يكاد أن يكون هناك في علاقة واحدة من هذه العلاقات الكثيرة والمتكررة في الرواية شيء غير الجنس. فليست هناك عاطفة تبدأ بها هذه العلاقة أو تنتهي بها. ليس هناك إلا الرغبة الجنسية المحضة التي لا تختلف قط عن أي رغبة تطرأ على أي عضو من أعضاء المملكة الحيوانية. والبطل عندما يتذكر أحيانا علاقة سابقة مرّ بها، من هذه العلاقات، لا تمرّ بذهنه أي عاطفة رقيقة مما يمكن أن يوصف بالحب ولا أي شعور بالافتقاد إلا افتقاد اللمس، ولا شعور بالشوق إلا الشوق إلى ممارسة الجنس من جديد.

بل إن من المدهش حقا، في هذا «الأديب الكبير»، ما يبدأ به عندما يريد أن يروي قصة البطل مع أي من هؤلاء الفتيات العديدات. فهو يبدأ بأن يقول مثلا: وكان هناك فتاة اسمها كذا، هي ابنة صاحب قهوة كذا أو بستان كذا، ثم يشرع مباشرة في وصف جسمها كما رآه بطل القصة وهو مختف في أعلى شجرة دون أن تراه الفتاة، أو وهو يراقبها من مكان ما وهي تخلع ملابسها للنزول إلى النهر دون أن تعرف بوجوده. هذه الفتاة لم يصادفها لا قارئ القصة ولابطل القصة إلا منذ ثلاثة أو أربعة سطور فقط، وهي الآن تتعرى أمام كل منهما. ولا يلي ذلك أي علاقة عاطفية من أي نوع، بل أقصى ما يحدث هو أن يتحرش بها البطل فتقبل أن تمارس الجنس معه أو لا تقبل، ولكن لا شيء هناك بالمرة إلا الجنس.

نفس الشيء يتكرر في علاقاته الجنسية أثناء إقامته ببيوت العاهرات. فالعاهرات يجري وصف أجسادهن فقط، مع أن من الممكن أن يتصور المرء أن لهن مشاعر أيضا وعواطف، وأن شخصية الواحدة منهن لابد أن تختلف عن شخصيات الأخريات. ولكن الأمر في رواية محمد شكري غير ذلك، فهن عاهرات بمعنى الكلمة ولاشيء غير ذلك، مما يجعل القارئ يتساءل عن جدوى الأمر برمّته.

مادام الأمر كذلك، فقد كان لابد أن أستغرب جدا ما قرأته لناقدة أدبية كبيرة من دفاع عن هذه الرواية في صحيفة الأهرام ويكلي (١٨فبراير ١٩٩٩). لقد استندت الناقدة في دفاعها إلى أمرين: الأول أن ما احتوته الرواية من أحداث يصوّر تصويرا بليغا مدى تعاسة وبؤس شريحة مهمة من شرائح المجتمع، لا تحظى عادة بمن يعرّف الناس بمدى ما يعانونه من جوع وحرمان وتشرد.

والأمر الثاني أن الرواية وإن كانت تعرض قراءها لمشاهد ومواقف فظيعة من الإجرام والأعمال القبيحة واللاأخلاقية، فإنها تنتهي نهاية أخلاقية ومتفائلة، إذ أن البطل يصادف قرب النهاية شخصا يروي على مسامعه بيتين من شعر الشاعر التونسي أبي القاسم الشابي، وهما:

إذا الشعب يوما أراد الحياة
فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلي
ولابد للقيد أن ينكسر

مما يؤثر في نفس البطل ويدفعه إلى اتخاذ قرار ببدء تعلّم القراءة والكتابة. وهكذا يقدم البطل على إنهاء حياة الإجرام والدعارة، ويبدأ صفحة جديدة، مما لابد - على الأرجح - أن يترك أثرا أخلاقيا طيبا في النهاية في نفس القارئ.

وكلا الدفاعين ضعيف للغاية، فالقول بأن الرواية تصوّر حياة البؤس والحرمان لا أجد له في الرواية إلا صدى ضعيفا جدا. نعم البطل وكل معارفه كانوا مشردين ومحرومين، ولكن هذا شيء وتصوير التشرد والحرمان شيء آخر. وهذا هو بالضبط أحد الأشياء المدهشة في هذه القصة. فالكاتب يصادف مناظر البؤس



الطيب صالح

«أصبحت بعد تكرر تجربتى
مع قصص مماثلة ترجمت ونشرت بالخارج،
واحتفل بها نقاد «مرموقون»، أشك بشدة
فى المعايير التى تحكم اختيار ما يترجم
وما لايترجم من أعمالنا»

والحرمان وجها لوجه ولكنها لا تحرك قلبه لدرجة تدفعه إلى وصفها، ويفضل عليها مناظر الجنس. نعم إنه يذكر وصف ضرب أبيه له ولأمه ولأخيه، ولكن أين المشاعر الناتجة عن ذلك؟ إلا ما ذكره من حين لآخر من أنه كان يكره أباه أو يتمنى موته أو شيئا من نوع هذه العبارات التى تقال ببرود غريب. فلا تحرك شعور القارئ (أو شعورى أنا على الأقل)، ولا تعكس بالتالى شعورا قويا لدى الكاتب نفسه. نعم، إنه يقضى أياما كثيرة فى بيوت العاهرات، يتركها ليعود إليها، ونحن نعرف أسماء كثيرات من هؤلاء النسوة، وهن بكل تأكيد من البائسات المحرومات اللاتى عاملتهن الحياة بقسوة بالغة، مما نعرفه من روايات وقصص أخرى كثيرة. ولكن أين هذا البؤس والحرمان وهذه القسوة فى رواية «الخبز الحافى»؟ إن الكاتب، بدلا من أن يصور هذا البؤس الذى قاد هؤلاء النسوة إلى هذا المصير، يفضّل أن يصف أجسامهن والتصاق جسم البطل بها. بعبارة أخرى ودون إطالة: لايكفى أن تدور أحداث الرواية فى أوساط بائسة لكى نقول إنها تصوّر البؤس، بل يجب أن تقوم الرواية بوصف هذا البؤس على نحو يثير مشاعر القارئ ضده، لا أن يترك القارئ لتخمينه مستعينا بقراءات أخرى سابقة.

أما القول بأن الرواية، رغم ماتصوره من فسق وفجور تنتهى نهاية فاضلة، فإنى لا أجد له أساسًا. فهذه الفضيلة المزعومة لا تبدأ بتلك الرواية المتواضعة جدا، إلا قبل نهاية القصة بصفحات قليلة، عندما يكتب أحد المسجونين على حائط السجن البيتين المشهورين لأبى القاسم الشابى: إذا الشعب يوما أراد الحياة... الخ. وهما من أكثر أبيات الشعر العربى الحديث تداولا على ألسنة تلاميذ المدارس. ولكنهما أيضا ليسا جميلين جمالا خاصا، بل شاعا على الألسنة بسبب ما فيهما من وضوح تام وتكرار للمعنى الواحد عدة مرات وحماسة زائدة قد ينفعل لها صغار السن. ولكن المهم هو أن كل ما ترتب على مقابلة البطل لهذه الشخصية الجادة وأخيه، أن البطل اشترى وهو سائر فى طريقه كتابا لتعلم القراءة والكتابة، دون أن تدلنا الرواية على أنه قام بتعلمهما بالفعل. أو حتى أن تدلنا على مدى جديته فى العزم على تعلمهما، بل إن آخر سطر فى الرواية يشككنا فى قدرته على ذلك، إذ إن هذا السطر يقول ما معناه أن الأرجح أن الوقت قد فات ولم يعد ثمة أمل فى أن يصبح الشيطان ملاكا، (أو كما يقول النص العربى بلغة عربية ركيكة يختتم بها الكتاب: «لقد فاتنى أن أكون ملاكا»).

قد يقال إننا نعرف من مصادر أخرى أن الكاتب الذى هو بطل الرواية قد تعلّم القراءة والكتابة بالفعل، بدليل أنه أصبح كاتبا مشهورا، ولكنى أتكلم عن الرواية كرواية: هل هذا الذى حدث فى صفحاتها القليلة الأخيرة كاف لأن يمحو من ذهن القارئ كل هذا الفسق والفجور؟ بل وهل تغفر لبطل الرواية كل ما ارتكبه قبل ذلك؟ هل شراء كتاب لتعلّم القراءة والكتابة كاف لأن يغفر له كل ما ارتكبه من أعمال القسوة والدعارة والسرقة والتهريب والكراهية واللامبالاة بمشاعر الآخرين التى تحفل بها الرواية؟ بل حتى إذا افترضنا أن هذا الكاتب قد أنتج عملا فنيا عظيما، سواء فى هذه الرواية وهو فى رأيى افتراض غير صحيح بالمرة، أو فى روايات أو قصص أخرى مما لا يشوقنى البتة قراءته بعد أن قرأت هذه الرواية، حتى إذا افترضنا هذا، فهل حقا يجب علينا أن نغفر أى شىء لأى شخص يثبت أنه «فنان»؟ هل مجرد القدرة على أن يروى شخص ما قصة حدثت له، بشكل مشوق هل هذا يجعل من حقه أن يفعل أى شىء مهما كان عملا لا أخلاقيا؟ وأن يسوّد ما أراد من صفحات فى وصف ما فعله؟ أنا لا أعتنق هذا الرأى. من اللطيف أن يكون لدى المرء قدرة على أن يقص قصة مشوقة، ولكن هذا فى حد ذاته لا يحوّل شخصا مجرما إلى رجل فاضل جدير بالاحترام. وهذا الرأى لا علاقة له بقيم وتقاليد ودين مجتمع معين دون غيره. بل يصح على أى مجتمع وأى تقاليد وأى دين. كذلك فإن هذا الحكم الأخلاقى على الكتاب لا يتغير حسب ما إذا كان قارئه صغير السن أو كبير السن. فهو كتاب لا أنصح بقراءته طفلا صغيرا ولا شابا ولا كهلا.

إذا كان كل هذا صحيحا، فإنه لاتكون بعد هذا جدوى من أن يردد بعض الكتاب أقوالا عن عدد اللغات الأجنبية التى ترجمت إليها رواية «الخبز الحافى»، أو عن بعض الكتاب العظام الذين تعرضوا لوصف أحوال بؤس وتشرد مماثلة لما ورد فى هذه الرواية، أو القول بأن هذه الرواية جاء بها أيضا فضلا عن البؤس والتشرد، ذكر للاحتلال الفرنسى للمغرب، أو أنه قد جاء مرة، على لسان بعض شخصيات الرواية ذكر لثورة مصر فى ١٩٥٢ واسم محمد نجيب وعبد الناصر.. الخ. ماجدوى هذا كله، وأى مجد يضفيه مثل هذا على الرواية، إذا كانت حقا كما وصفت؟ أما كثرة اللغات التى ترجمت إليها فقد أصبحتُ بعد تكرر تجربتى مع قصص مماثلة، تُرجمت ونُشرت بالخارج، واحتفل بها بعض النقاد، بعضهم نقاد «مرموقون» أشك بشدة فى المعايير التى تحكم اختيار ما يترجم وما لا يترجم من أعمالنا، وما الذى يعجب بعض النقاد الأجانب من إنتاجنا الأدبى وما لا يعجبهم، مما يحسن بى ألا أخوض به فى هذا المجال. ولكنى لا أخفى على القارئ ميلى إلى الاعتقاد بأن من بين هذه المعايير التى تحكم اختيار ما يترجم وما لا يترجم من قصصنا إلى لغات أوروبية، ما إذا كانت هذه القصص تدل على «تقدمنا» فى الأخذ بآخر الموضات الأدبية فى الغرب، التى يسمح بعضها بالخوض «بمطلق الحرية» فى تفاصيل العلاقات الجنسية وأمثالها، ومدى «جراءتنا» فى التعرض لهذه الموضوعات.



فى كل هذه الأمور تكاد رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» أن تكون النقيض التام لرواية «الخبز الحافى» لمحمد شكرى. رواية الطيب صالح رواية «فاضلة» بمعنى الكلمة، سواء كان المقصود بذلك هو نبل القضية التى تعالجها أو طبيعة شخصيات الرواية، إذ ليس من بينها شخصية واحدة يمكن أن تعتبرها شخصية شريرة (سواء أيدت مواقفها أو لم تؤيدها)، أو الأثر النهائى الذى تتركه القصة فى القارئ، إذ أنت بعد الفراغ منها شخص أفضل مما كنت قبل أن تقرأها. هل بها جنس؟ نعم، وأكاد أن أقول بالطبع بها جنس. ولكن ليس فيها أى شىء يمكن أن ينطبق عليه وصف «الإثارة الجنسية». إذ ليس لدى الطيب صالح وقت لإضاعته فى مثل هذا، ولا احترامه لقارئه يسمح له بذلك. إن البطل فى قصة الطيب صالح رجل كانت له علاقات جنسية متعددة مع نساء أوروبيات، ومع امرأة واحدة سودانية التى هى زوجته الرائعة (حسنة). ولكن العلاقة بينه وبين النساء الأوروبيات لا يقدمها المؤلف إلا كوسيلة لإثارة قضية العلاقة بين مجتمعاتنا وبين الغرب، أى قضية ذلك الصراع القديم والمستمر بين الحضارتين، فيتخذ الطيب صالح هذه العلاقة الجنسية كوسيلة، من بين وسائل أخرى كثيرة لطرح قضية العلاقة بين حضارة (أو ثقافة) مهزومة، وحضارة منتصرة، شرق حالم، وغرب واقعى وعملى، شرقى مسحوق بقلة ثقته بنفسه وتقديره البالغ لكل ما هو غربى، ولو تعلق بلون البشرة والشعر، وغربى لايخالجه أى شك فى تفوقه وأفضليته على غيره. فى مثل هذا الجو من الإثارة الفكرية الممتعة، لايهم أبدا شكل المرأة أو ما إذا كانت سمينة أو رفيعة، صغيرة أو كبيرة الثديين (هذه الأمور المهمة جدا فى قصة الخبز الحافى)، وليس من المهم بالمرة ما قد يكون قد طرأ من أحلام جنسية على ذهن البطل أو البطلة (مما لا يتعرض له الطيب صالح بتاتا)، ولكن المهم فقط هو ما يرمز له تطور العلاقة بينهما وكأنها علاقة بين حضارتين، وما تثيره هذه العلاقة من أفكار عما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين هاتين الحضارتين فى المستقبل. إذا كان الأمر كذلك فإن من الممكن جدا أن يشار إلى العلاقة الجنسية دون أن تثير لدى القارئ أى شعور بالشهوة، أو تحرف القارئ ولو لدقيقة واحدة عن انشغاله بقضية الكتاب، وهى قضية فكرية محضة.

من أكثر فصول رواية الطيب صالح إمتاعا، ذلك الفصل الذى يجرى فيه حوار بين الجدّ، أى جدّ الراوى، واثنين من أصدقائه القدامى، «ود الريس» و«بكرى»، وامرأة يسمونها «بنت مجذوب»، ويصفها الكاتب بأنها «امرأة طويلة لونها فاحم مثل القطيفة السوداء، ما يزال فيها إلى الآن وهى تقارب السبعين بقايا جمال. وقد كانت مشهورة فى البلد، يتسابق الرجال والنساء على السواء لسماع حديثها لما فيه من جراة وعدم تحرّج. وكانت تدخن السجاير وتشرب الخمر وتحلف بالطلاق كأنها رجل. ويقال إن أمها كانت ابنة أحد سلاطين الفور. وقد تزوجت عددا من خيرة رجال البلد، ماتوا كلهم عنها وتركوا لها ثروة ليست قليلة. وقد أنجبت ولدًا واحدًا وعددا لا يحصى من البنات اشتهرن بجمالهن وعدم تحرجهن فى الحديث، مثل أمهن».

الأربعة جالسون، الرجال الثلاثة وبنت مجذوب، كلهم تجاوزوا السبعين أو يقتربون منها، بل إن الجدّ كاد يقترب عمره من المائة. جلسوا يتسامرون فى نهاية اليوم، ويفرّجون

«الجنس فى رواية الطيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال» ما هو إلا وسيلة يستخدمها المؤلف لإثارة قضية العلاقة بين مجتمعاتنا والغرب.. قضية العلاقة بين حضارة مهزومة وحضارة منتصرة. بين شرق حالم وغرب واقعى وعملى»

عن همومهم بالضحك والكلام الفارغ، وكلهم أناس طيبون، يجيدون الضحك كما يجيدون إغاثة المسكين وانتزاع حق المظلوم من ظالمه.

يقول الراوى:

«سمعتهم يقهقهون فميزت ضحكة جدى النحيلة الخبيثة، المنطلقة حين يكون على سجيته، وضحكة ودّ الريس التى تخرج من كرش مملوء بالطعام دائما، وضحكة بكرى التى تأخذ لونها وطعمها من المجلس الذى يكون موجودا فيه. وضحكة بنت مجذوب القوية المسترجلة».

فى هذا الفصل، يصف الراوى جدّه بهذه العبارات الرائعة والعامرة بالحب والاحترام:

«تمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمر فى ذلك الإحساس العذب الذى يسبق لحظة لقائى مع جدّى كلما عدت من السفر. إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا أصلا على ظهر الأرض. وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التى هى خليط من رائحة الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع.. نحن بمقاييس العالم الصناعى الأوروبى فلاحون فقراء، ولكننى حين أعانق جدى أحس بالغنى، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه. إنه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع فى أرض منّت عليها الطبيعة بالماء الخصب، ولكنه كشجيرات السيال فى صحارى السودان، سميكة اللحى حادة الأشواك، تقهر الموت لأنها لا تسرف فى الحياة».

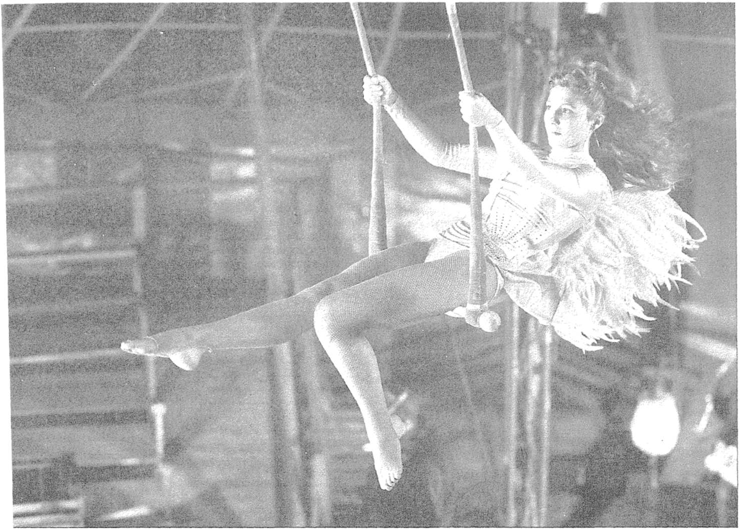
فى هذه الجلسة يداعب الجد ودّ الريس بسبب اشتهاره بحب النساء، وبأنه مزواج، ما أن يتزوج من واحدة حتى يقع فى عشق أخرى، فيرد ودّ الريس ضاحكا بأن يروى قصة وقوعه فى الغرام ببنت صغيرة، ولكن القصة تتحول على يد المؤلف إلى حكاية إنسانية لطيفة تبعث فى النفس الضحك، وحب الحياة، وحب أبطال القصة، وحب السودانيين، والتعاطف مع ودّ الريس، رغم أنه رجل شره إذا تعلق الأمر بالنساء.

وعندما يداعب الرجال الثلاثة بنت مجذوب، لأنها تزوجت ثمانية أزواج فيقول لها ودّ الريس «والآن وأنت عجوز كركبة، لو وجدته لما قلت لا» تدافع بنت مجذوب عن نفسها بأظرف كلام وألطف روح، فإذا سألها بكرى: «حدثينا يا بنت مجذوب أى أزواجك كان أحسن؟ قالت بنت مجذوب على الفور «ودّ البشير» . فيرد عليها بكرى مستنكرا: «ود البشير الكحيان التعبان؟ كانت العنز تأكل عشاءه». فتدافع بنت مجذوب عن هذا الزوج من أزواجها بالزعم بأنه عندما كان يبدأ معاشرته لها بعد صلاة العشاء «لاينتهى حتى آذان الفجر»، فيضحك الجميع ويقول لها الجدّ ممعنا فى استفزازها: «لا عجب أنك قتلته فى عز الشباب!» فتضحك بنت مجذوب قائلة: «قتله أجله. هذا الشيء لا يقتل أحدا».

مانوع هذا الكلام؟ إثارة جنسية أم كلام إنسانى جميل يصدق عليه وصف على الراعى لإحدى قصص الطيب صالح بأنها «زغرودة للحياة»؟

نعم، إن «موسم الهجرة إلى الشمال» هى فى نهاية الأمر قصة، كما أن «الخبز الحافى» قصة، وقد يختلط الأمر لدى البعض فيعاملهما معاملة متساوية، ويختلط الأمر عليه أيضا فيعتبر الإشارة إلى الجنس فى إحداهما كالإشارة إلى الجنس فى الأخرى، ولكن هل يجوز أن نغض البصر عن الفوارق الشاسعة بين الاثنين ، ونعتبر الأمر مجرد اختلاف فى الرأى أو اختلاف فى الذوق؟ لا يجوز هذا أبدا فى رأيى، كما أنه لايجوز أن تعامل قطعة من النحاس الردئ وكأنها قطعة من الذهب الخالص أو العكس. قد يخطئ البعض ويلقى بقطعة الذهب جانبا، مستهينا بها على اعتبار أنها قطعة من النحاس تافهة القيمة. فهل يجوز أن نعتبر هذا المسلك وكأنه تعبير عن مجرد «اختلاف فى الرأى» أو «اختلاف فى الذوق»؟ وأن نعتبر كلا من المعدنين جديرًا بنفس المعاملة، وأن التسوية بين المعدنين هى من سمات «الموقف الليبرالى» أو «التعليم الليبرالى» إلى آخر هذا الكلام؟

أنا لا أعتقد ذلك، بل أعتقد أن معاملة روايتين كهاتين الروايتين معاملة متساوية والامتناع عن التمييز بينهما باسم الليبرالية أو التسامح أو التحضّر، هو نفسه دليل على تدهور فى الحضارة وسمة من سمات هذا التدهور. أما التساؤل الشائع عمن يقرر ما إذا كان هذا العمل الأدبى أو ذاك عملا رفيعا أو ليس كذلك، ومن الذى يمكن أن يعطى لنفسه الحق فى الفصل فى مثل هذه المسائل الدقيقة والحسّاسة والتى لابد أن يختلف عليها الرأى؟ فردّى عليه هو بتساؤل آخر: «ومن الذى يقرر ما إذا كانت قطعة ما من المعدن ذهبا حرا أم نحاسا رديئا؟ ومن الذى يعطى لنفسه الحق فى المفاضلة بين صوت الكروان ونهيق الحمار؟ إنى أزعم أن الأمر فى الفن لا يختلف كثيرا عنه فى هذين المثلين. وأن الذى يجعل الأمر يختلط على بعض الناس لا يختلف كثيرا عما يجعل البعض يخطئ فيعتبر الذهب نحاسا أو النحاس ذهبا. فالسبب قد يكون هو محض التسرع والتهور فى الحكم، مما يمكن علاجه بالتروّى، أو أن العين غير مدربة مما يمكن علاجه بالتدريب. وقد يكون السبب مجرد مجاراة رأى شائع أو موضة جديدة سرت بين الناس والخوف من مخالفتها، مما يمكن علاجه بإبانة الحق والتشجيع على إعلانه.



«أجنحة الرغبة» فيلم فيم فندرز أحد المخرجين الذين أحبهم المهرجان

خمسون عاما

مهرجان كان السينمائى العالمى يتجه للمستقبل ليقدم عروضا سينمائية جديدة لم يسبق عرضها، يكشفها ويسلط الأضواء عليها، بينما يلتفت الأوسكار إلى الماضى، فينظر إلى ما تم عرضه من أفلام أمريكية فى السنة السابقة ويختار منها





«قبلة المرأة العنكبوت» وتعريف مدهش بسينما أمريكا اللاتينية

.. ومهـــــرجـــــان «كـــــان»

رفيـــــق الصبـــــان

عدد من الكتب صاحب العيد الخمسيني لمهرجان كان السينمائي، الذي يعتبر بنظر الكثيرين واحدا من أهم التجمعات السينمائية العالمية ـ إن لم يكن أهمها جميعا ـ في تأثيره واتساعه وجماهيريته والنتائج التي حققها على صعيد الجمهور والفن السينمائي معاً.

ورغم الدعاية الواسعة والإعلام المخطط الذي يحيط بجوائز الأوسكار السينمائية، فإن «الأوسكار» يبقى ـ رغم جماهيريته المصنوعة بذكاء إعلاني لا مجال لمناقشته ـ مهرجانا سينمائيا أمريكيا صرفا.. يكرم المتفوقين في الإنتاج الأمريكي لعام انقضى، بينما يفتح مهرجان كان أبوابه واسعة أمام أي إنتاج مثير للانتباه.. كائنا ما كان مصدره.. وأيًا كانت الدولة التي تقدمه.

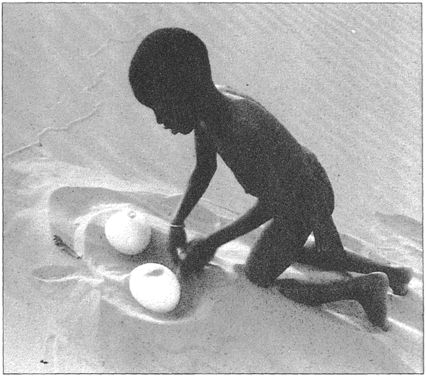
بالإضافة إلى أن مهرجان كان السينمائي العالمي يتجه للمستقبل ليقدم عروضا سينمائية جديدة لم يسبق عرضها، يكشفها ويسلط الأضواء عليها، ويبرز مخرجيها وفنانيها، ويحقق ربط الحلقات السينمائية المنفصلة لتشكل دائرة واحدة من نور وظلال، بينما يلتفت الأوسكار إلى الماضي، فينظر إلى ما تم عرضه من أفلام أمريكية في السنة السابقة فيختار منها (وفق معايير خاصة به وليست دائما هي المعايير الصحيحة) ما يستحق التكريم وما يستحق لفت النظر، وإن كانت الاعتبارات التجارية والإنتاجية كما هو الشأن في كل ما هو أمريكي تلعب الدور الأول والحاسم.

وهذا لا يعني أن مهرجان كان فوق الشبهات، وإنه يتمتع بحيادية فنية مطلقة، فالشكوك قد وجهت إلى جوائزه أكثر من مرة، ولكن وجود نظام إداري صارم يعطي أحيانا لرئيس لجنة التحكيم في المهرجان سلطة ونفوذا لا حد لهما.. حول هذه الشبهات إلى هذه الشخصية الفنية المرموقة التي يختارها المهرجان كل عام لكي تحمل عنه كل التبعات، ولكي تصبح بشكل أو بآخر هي المسئولة عن اختيار الأفلام الفائزة حسب تكوينها الفني أو ملامحها الخاصة بها أو المدرسة التي تنتمي إليها.

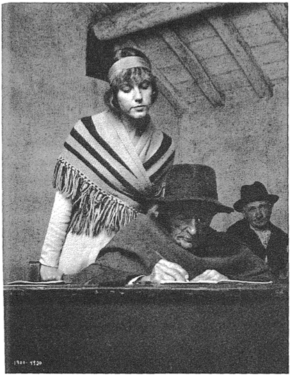
هذه الصفات كلها.. إلى جانب عيوب عدة بدأت تتفشى كالقروح الصغيرة في جسد هذا المهرجان الهام.. هو الذي جعل هذه الكتب التي نشرت تباعا، والتي حاولت بشكل أو بآخر تحليل هذا المهرجان وتاريخه والنقاط الفاصلة فيه، والخلافات التي أثارها، والقضايا التي طرحت من خلاله، والنتائج التي حققها في المسار السينمائي العالمي، والشخصيات السينمائية التي اكتشفها، والمدارس السينمائية التي شجعها، والتيارات الساخنة التي وقف ضدها.

خمسة كتب حاولت أن توجه أنوارا كاشفة إلى هذا المهرجان، بعضها بكثير من الجدية، والبعض الآخر بنوع واضح من التحيز، والقسم الأخير بشكل إعلامي وثائقي فيه بعض الفائدة والكثير من المعلومات.

المهرجان كما هو الآن. يضم عدة تظاهرات سينمائية تتكامل وتتضامن لتعطي المهرجان وجهه النهائي. هناك أولا وقبل كل شيء المسابقة الرسمية التي تضم كل عام (٢٢ـ ٢٤) فيلما روائيا طويلا، إلى جانب مجموعة أخرى صغيرة من الأفلام (٥ ـ ٦) تعرض على هامش المسابقة الرسمية.. وتعتبر خارج التحكيم لأسباب شتى، أهمها كون مخرجها قد تعدى مرحلة التسابق، وأصبح قيمة سينمائية معترفا بها تحوز احترام الجميع. أو كون هذه الأفلام تشكل ظاهرة سينمائية تستحق لفت النظر دون أن تكون موضعا للتنافس الحقيقي مع بقية الأفلام المختارة، أو أن تكون هذه الأفلام نوعا من الهدية الترفيهية يقدمها المهرجان الرسمي لرواده، لما تحمله من متعة حقيقية وسينمائية.



«الضياء» .. أحد أهم الأفلام الأفريقية التى قدمها المهرجان



«١٩٠٠» .. رائعة برتولوتشى عرض المهرجان نسختها الكاملة فى خمس ساعات

إلى جانب المسابقة الرسمية، هناك تظاهرة ثانية تحمل طابعا شبه رسمى، ويطلق عليها اسم «النظرة الخاصة»، وهى تشمل عموما أفلاما كادت أن تحصل على شرف التمثيل الرسمى، ثم أبعدت عنه لوجود من هوأكثر استحقاقا منها، أو لأنها تمثل وعدًا سينمائيا يستحق المتابعة والاهتمام، أو لأنها تقدم نظرة سينمائية حاسمة على اتجاه سينمائى مبكر فى دولة ما، أو تعلن رأيا فنيا سينمائيا فى قضية سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية تهم المجتمع العالمى كله بشكل أو بآخر.

إلى جانب هذين القسمين اللذين يعتبران القسمين الرسميين فى المهرجان، هناك تظاهرة «أسبوع النقاد» وهى تضم اختيارات سبعة أو ثمانية أفلام من قبل لجنة منبثقة من هيئة النقاد العالميين تختار أعمالا أولى لمخرجين شبان من جميع دول العالم، تمثل الاتجاهات الشابة فى السينما، وتبشر بالأسلوب السينمائى الذى لم يتكون بعد تماما، ولكنه يشكل ظاهرة تستحق المتابعة.

ولاشك أن هذا الأسبوع، قد قام خلال الأربعين عاما الماضية بجهود مشكورة واستطاع حقا أن يقدم اكتشافات سينمائية تستحق الانتباه.

أما التظاهرة الأكثر أهمية إلى جانب المسابقة الرسمية، والتى أطلق عليها البعض اسم (مهرجان الظل) فهى تظاهرة (أسبوعا المخرجين)، وهى تضم أفلاما تم اختيارها من قبل لجنة مؤلفة من المخرجين، وذلك اعتراضا على لجنة الاختيار الرسمية التى تضم فئات سينمائية من كل نوع.

(أسبوعا المخرجين) يحاول أن يقدم سينما صرفة، سينما نقية، تحمل طابع مخرجها أكثر مما تحمل طابع منتجها وتحاول أن تؤكد دور المخرج الرئيسى فى خلق الفيلم السينمائى.

ولاشك أن وجود هذه التظاهرة الجانبية قد أفاد المهرجان فائدة جمة؛ لأنها استطاعت أن تقدم «الرأى الآخر» ومن خلال أفلام تم اختيارها بعناية فائقة على مدار العام من خلال زيارة المسئول عن هذه التظاهرة لأغلب الدول التى تنتج أفلاما واختيار الصالح منها لعرضه بعيدا عن ضجة الأسماء الكبيرة الشهيرة التى استأثرت بالمسابقة الرسمية ولازالت تحمل الشارة الذهبية التى تفتح أمامها جميع الأبواب، على حساب الآمال الشابة التى تنتظر بفارغ الصبر فرصة مثل هذه لتجتاز العتبات الملكية التى تقودها إلى الشهرة وإلى التعريف بفنها.

تظاهرة «أسبوعا المخرجين» كانت أيضا مختبرا، قدم فيه المهرجان أطباقا شهية للمسابقة الرسمية،اختارت منها فى السنوات التى تلت عرضها فى هذه التظاهرة أسماء لامعة دخلت ظافرة إلى ميدان التسابق الرسمى، مسلحة بما كتب عنها، وبالتأثير الذى أحدثته أفلامها فى المجتمع السينمائى العالمى الذى يتابع نشاط السينما ومخرجيها فى كل أركان المعمورة.

هناك بعد هذا كله تظاهرة الفيلم الفرنسى الشاب، فمهرجان «كان» هو أولا وقبل كل شىء مهرجان فرنسى، أى أن عليه بطريقة ما تشجيع السينما التى تنتج على أرضه، وهذا التشجيع لا يقتصر على تقديم نموذج أو أكثر فى المسابقة الرسمية تقف موقف الند والتنافس مع سواها من الأفلام الآتية من كل أنحاء العالم، وإنما عليه أن يلقى نظرة حنان وتشجيع على براعم المستقبل فى هذه السينما، فيختار منها نماذج تستحق المشاهدة ليعرضها على رواد هذا المهرجان الكبير الآتين من كل ركن ليعرفهم بما يجرى فى باطن السينما الفرنسية ونوعية الجنين الذى يرتعش فى أحشائها.

الأفلام الفرنسية المعروضة فى هذه التظاهرة قاصرة على أفلام الشبان الصغار، وهى كما قلنا، معمل اختبار حقيقى سواء بالنسبة للمنتجين الفرنسيين أنفسهم أو بالنسبة للمتفرج العالمى، يمكن من خلال مشاهدتها معرفة ماذا يصلح لأن يكون غذاءً داخليا، وما يصلح لأن يكون طعاما دسما يوضع على موائد السينما العالمية الحافلة والمتنوعة.

الكتب الخمسة التى كتبت عن هذا المهرجان بمناسبة عيده الخمسينى تناولت المهرجان من عدة وجهات نظر، وبالطبع فإن أكثر وجهة نظر تستحق المتابعة هى العطاء الذى قدمه المهرجان لمسار السينما فى العالم والاكتشافات السينمائية المبهرة التى وجه إليها النظر وأصبحت بعد ذلك قيما سينمائية ثابتة لا جدال حولها.

أول هذه الاكتشافات وأهمها، اكتشاف السينما اليابانية وإلقاء الأنوار عليها من خلال منحها السعف الذهبى عن فيلم «بوابة الجحيم» عام ١٩٥٤، والتى كان وراءها نفوذ وتأثير رئيس لجنة التحكيم آنذاك الشاعر والسينمائى الكبير الراحل «جان كوكتو»، ومنذ هذا التاريخ فتحت الأبواب الأوروبية العريضة أمام السينما اليابانية والتى كان اكتشافها الأوروبى فى ذلك العام يعادل اكتشاف اللوحات المائية اليابانية فى معرض الرسم فى باريس فى أوائل القرن، والتى قلبت مفاهيم الفن التشكيلى الأوروبى المعاصر.

«بوابة الجحيم»، أطلق فى سماء السينما

لم تكن السينما اليابانية وحدها هى الاكتشاف السينمائى الذى قدمه مهرجان كان للعالم، فقد توالت هذه الاكتشافات المبهرة التى كان لهذا المهرجان فضل تقديمها.. ومنها سينما أوروبا الشرقية التى كانت السياسة الأمريكية إبان الستار الحديدى تفرض حولها تعتيما إعلاميا مهينا

١ - (ذكريات كان) **Cannes Memoires**
Jean Claude Romer
Media, 1998, 320 pp.

٢ - (تاريخ كان) **Histoires deCannes**
Antoine de Baecque
Cahiers de Cinema, 1998, 283pp.

٣ - **Les Realisateurs de la Quinzaine**
(مسيرة نصف شهر المخرجين)
Pierre Henri Deleau
La Quinzaine, 1989, pp 210.

٤ - (ذهب وجوائز) **D'or et des Palmes**
PanPierre Billord
Gallimard, 1997, pp 246.



«الكترا» قصيد شعرى للمخرج يانشكو قدمه المهرجان بتركيز شديد

العالمية، أسماء وأفلام مخرجين كبار كانوا فى الظل حتى ذلك التاريخ، وأتى المهرجان ليلقى على أعمالهم أضواء باهرة وليعيد الاعتبار إلى الفن السينمائى الآسيوى، وابتدانا نعرف كيروسافا وأوزو وكيوباشى وبتروجشى وكامورا وسواهم من عمالقة السينما الشرقية.

ولم تكن السينما اليابانية وحدها هى الاكتشاف السينمائى الذى قدمه مهرجان كان للعالم، فقد توالت هذه الاكتشافات المبهرة التى كان لهذا المهرجان فضل تقديمها وإحاطتها بالجو والمناخ الملائمين، سينما أوروبا الشرقية التى كانت السياسة الأمريكية إبان الستار الحديدى تفرض حولها تعتيما إعلاميا مهينا، والتى استطاعت بفضل هذا المهرجان أن تطلق فعالياتها، وتبرز أسماء مخرجيها الكبار كما حدث لياتشكو المجرى شاعر الثورة والجمال الجسدى والأحاسيس الحارة والتعلق الشبقى بالأرض والتاريخ، أو كوستارينزا اليوغوسلافى الذى حاز السعفة الذهبية لفيلمه «أبى فى رحلة عمل» والذى كان نقطة الانطلاق الرئيسية لأسلوب سينمائى متميز لازلنا نجنى ثماره حتى اليوم.

البولندى كوسلوفسكى الذى لفت النظر منذ أفلامه الأولى التى عرضها فى أسبوع النقاد ثم انتقلت إلى نصف شهر المخرجين قبل أن تصل إلى طرح نفسها بقوة فى المسابقة الرسمية وتنجح فى أن تفوز بالجائزة الكبرى فى فيلم «تحت الأرض». ولم يكن كوسلوفسكى أول بولندى توجه له (كان) الأنوار، فقد سبقه إلى ذلك اندريه فايدا الذى عرض معظم أفلامه الكبرى فى هذا المهرجان وحاز هو أيضا جائزة السعف الذهبى لفيلمه «رجل من حديد».

حتى الاتحاد السوفياتى استطاع أن يدعم اتجاهات سينمائيين جدد، والذين لم يكن النظام السوفياتى ينظر إليهم آنذاك نظرة كبيرة كتاركوفسكى وكوتشالوفسكى أو كالاتوزوف الذى فاز أيضا بالجائزة الكبرى لفيلمه «عندما تمر الدقائق» ، والذى كان بمثابة جواز سفر حقيقى للسينما الروسية، دخلت بعدها وبواسطته إلى عواصم أوروبا كلها، بل استطاعت أيضا أن تعبر المحيط وتصل إلى عرين الأسد فى أمريكا.

السينمات الجديدة القادمة من العالم الثالث، كان لها أيضا دور كبير فى هذا المهرجان، انطلقت منه محققة لنفسها رواجا لم تكن تحلم به، وأمكنها أن تحصل على مناطق للعرض كانت محظورة عليها لولا هذا المجد المفاجئ الذى أتاها من المدينة الصغيرة الواقعة على شاطئ البحر.

تركيا بفيلم بلمزجونى (الطريق) الذى تحدى به المهرجان النظم السياسية التركية التى حاولت أن تطيح بمخرجها الكبير الذى فر من سجونها ليرسم عنها صورة شعرية مليئة بالألم والشجن وطافحة بأوراق الأمل الخضراء رغم كل اليأس المحيط بها، بفيلم لا حد لجماله استحق من أجله الجائزة الأولى.

«الأخضر حامينا» الذى نجح فى أن يجعل أول دولة عربية وهى الجزائر تفوز بهذا التكريم الكبير الذى تتمناه كثير من دول العالم المتقدمة سينمائيا عندما استطاع فيلمه «وقائع سنوات الجمر» أن يفوز على كل الأفلام التى اشتركت معه فى ذلك العام.

مصر.. التى كرم المهرجان مخرجها الكبير يوسف شاهين فى عيد المهرجان الخمسينى وأعطاه دويًا إعلاميا ليس بحاجة إليه فى فرنسا، قدر ما هو بحاجة إليه لكى يغزو مناطق أخرى من العالم يرفع بها راية الرؤية السينمائية المصرية المتقدمة.

والجميل أن اكتشافات مهرجان كان لم تقتصر على الدول الصغيرة التى تحتاج إلى دعم إعلامى وفنى، كى تستطيع الوقوف على قدميها النحيلتين أمام التنين الأمريكى، بل إنها تعدتها إلى مخرجين وأفلام قدموا من دول شديدة التقدم سينمائيا، ولها أسواقها وجمهورها ومحبوها.

ألم يكن مهرجان (كان) هو السبب فى لفت الأنظار إلى المخرج الإيطالى الكبير ميشيل انجلو أنطونيونى، بعد الفضيحة المادية التى سببها عرض فيلمه «المغامرة» الذى استقبله جمهور كان بالنقد اللاذع والهتاف المضاد، والذى جعل الكثيرين يرغبون برؤية هذا الفيلم «الفضيحة» ليكتشفوا بعدها قيمته الحقيقية وتميزه السينمائى، وليصبح رأس مدرسة سينمائية كاملة تحمل اسم هذا المخرج العبقرى وتدافع عن أسلوبه.

وألم يكن مهرجان كان أيضا هو أول من أعطى فريدريكو فيلينى قيمته الحقيقية عندما استقبل بحماس لا حد له فيلمه «لاسترادا» ثم منحه جائزته الكبرى عن رائعته «الحياة حلوة» مما جعل فيلينى بعد ذلك شديد الوفاء لهذا المهرجان.. يخصه دائما بأفلامه التى يعرضها على شاشاته مفضلا إياه على أى واحد من المهرجانات الأخرى التى كانت تدعوه وتستعطفه للاشتراك فى فعالياتها».

وحتى السينما الأمريكية.. التى ابتدأت منذ سنوات تعلن بواسطة شركاتها الكبرى حربا صريحة على المهرجان وأن تبعد عنه أفلامها التى تتميز بإبهارها ودعايتها والنجوم الكبار الذين يزينونها، وذلك بسبب وقوف المهرجان على السينما المستقلة وتشجيعها وإعطاء الجوائز لروادها الكبار كستيفن سودربرج عن فيلمه الأول «أكاذيب وفيديو كليب» أو الثائر جون ترانتينو عن فيلمه «أقاصيص شعبية» الذى استطاع رغم صعوبته وخصوصية أسلوبه أن يفرضه على شاشات الدنيا كلها بعد فوزه بالسعفة الذهبية.

والسؤال الملح فى كل هذا هو: ماذا فعل هذا المهرجان بالنسبة للسينما الفرنسية خلال مرور الخمسين عاما أو يزيد على إقامته؟.. ماذا استطاعت السينما الفرنسية أن تحقق فيه؟.

مايدفع على الاحترام فى هذا المهرجان الفرنسى هو هذه الحيادية التى تميزه إلى حد كبير فى جوائزه.. إذ عندما ندرك أن فرنسا لم تنل خلال فترة نصف قرن الجائزة الكبرى إلا ثلاث أو أربع مرات، والأفلام لاشك أنها تستحق هذا التكريم.. يتجه حكم المرء إلى تصديق هذه



ميلوس فورمان



آرثر بن

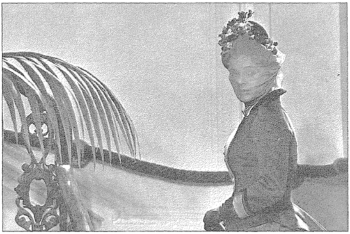


ماى زترلينج



كون إيشيكاوا

مخرجون لمعوا بنصف شهر المخرجين



«البرىء»..آخر أفلام فيسكونتى الذى عرضه المهرجان

الحيادية.. التى يطعن فيها عموما فى أغلب المهرجانات الأخرى.

وإن كان ليس من المستبعد أن تلعب الأهواء السياسية أحيانا أو الاتجاهات الدولية أثرا غير مباشر فى التأثير على أعضاء لجنة التحكيم ورئيسها كما حدث بالنسبة لفيلم «رجل الحديد» لأندريه فايدا. أو «وداعا عشيقتى» الصينى الذى رغم تميزه الشديد ومستواه الفنى الذى لا يحتمل الجدل.. قد أثار الشكوك حول اختياره لأن فوزه تصادف مع التقارب الصينى الفرنسى آنذاك على شتى المستويات.

أو فوز اليونانى الكبير أنجولوبولس بالجائزة الكبرى عن فيلمه «الأبدية يوم واحد» والذى كان بمثابة اعتذار علنى من المهرجان لعدم حصول هذا المخرج العبقرى على الجوائز التى يستحقها فى أفلامه السابقة التى عرضها فى مهرجان (كان) كخطوة اللقلق المعلقة أو نظرة أوليس الذى فاز مع ذلك بجائزة لجنة التحكيم الكبرى.. والتى تتميز بشكل ملحوظ عن فيلمه الجميل والأخير الذى نال من أجله الجائزة.

وتبقى كما قلنا فى مطلع الحديث مسئولية إعطاء هذه الجائزة التى تعتبر مفتاحا حقيقيا للمخرج وللبلد الذى ينتمى إليه، للخروج من محلية ربما تكون ضيقة بعض الشىء، إلى عالمية حقيقية يتمناها كل فنان.

هذه المسئولية تسقط بشكل مباشر على عاتق رئيس لجنة التحكيم، لذلك فإن تحديد شخصية هذا الرئيس يحدد معالم الجائزة المتوقعة ويرسم خطا سينمائيا واضحا لاتجاه المهرجان فى ذلك العام.

لذلك يسعى مهرجان كان قبل انعقاده بشهور طويلة إلى البحث عن الرئيس المناسب للمهرجان المقبل ويعلن عن ذلك قبله بمدة معقولة تتيح للدول المشاركة أن تنتقى بموجبه أفلامها المرشحة للعرض.. والتى تتلاءم بشكل ما مع ذوق وجماليات واتجاه الرئيس المنتظر.

الكتاب الثانى الذى ظهر عن المهرجان كتاب يؤرخ لدور نصف شهر المخرجين، ويحدد الدور الذى لعبته هذه التظاهرة الفنية الكبيرة من خلال هامش المهرجان.. والأهمية المتزايدة التى يحظى بها لدى الدول الصغيرة وشباب المخرجين، وكيف استطاعت هذه التظاهرة أن تكون العتبة الحقيقية لسلالم المهرجان الرئيسية وكيف ساعدت فى انطلاق عدد كبير من المخرجين الذين يحتلون اليوم مكانة لا حد لأهميتها فى خارطة السينما العالمية والتى كان «أسبوع المخرجين» هو السبب الحقيقى والدفعة الرئيسية التى وجهتهم إلى بؤرة النور.

السينمات الجديدة القادمة من العالم الثالث، كان لها أيضا دور كبير فى هذا المهرجان، انطلقت منه محققة لنفسها رواجا لم تكن تحلم به، وأمكنها أن تحصل على مناطق للعرض كانت محظورة عليها.

نصف شهر المخرجين ابتدأ نشاطه كما يقول الكتاب الذى صدر عنه سنة ١٩٦٩ عندما أراد بعض المخرجين وعلى رأسهم جابرييل البيكوكو أن تفتح نافذة للتعبير الحر فى مهرجان كان السينمائى يطلق عليها اسم «السينمات الحرة» ويقدم فيها مجموعة من المخرجين الشبان الذين يحاولون إبراز أفكارهم بحرية مطلقة غير عابئين بالأساليب التقليدية أو الميزانيات الكبيرة أو الضغوط السياسية والرقابية التى تمارس عليهم، أى أن تكون هذه التظاهرة وسيلة للتعريف بالسينما القادمة.

وبالفعل فقد استطاعت هذه التظاهرة منذ أول انعقاد لها أن تثير الرأى العام السينمائى العالمى عندما عرفته باتجاه السينما الكوبية من خلال فيلم «لوسيما» لإليجو كاربانتييه الذى أثار الدهشة والإعجاب.. وتداولته فورًا شركات التوزيع لعرضه فى أكثر من عاصمة أوروبية. وكان ذلك أول الغيث.. وحظيت هذه التظاهرة بالدعم الجماهيرى والعالمى ونجحت أيضا فى استقطاب الدعم الرسمى للحكومة الفرنسية إثر تكاثر طلبات المخرجين الشبان والدول الصغيرة على عرض أفلامهم من خلالها.

وهكذا عرفنا من خلال العروض السنوية المستمرة لهذه التظاهرة أسماء ما كان يمكن لنا أن نعرفها من غيرها. عرفنا وجوها مدهشة من سينما أمريكا اللاتينية كجلوبير روشا وارنالدو وجابور وروى جويرا.

كما انطلقت أيضا من هذه التظاهرة أسماء أكبر مخرجى ألمانيا المعاصرة: فاسبندر وهرتزوج و فيم فندرز. كما تأكدت موجة العبث الشعرى التى كان الكثيرون ينظرون إليها على أنها نوع من الألاعيب السينمائية الخادعة كأفلام ورنر شروتر..

كما نجحت أيضا فى تأسيس دعائم السينما الأيروتيكية وفصلها تماما عن السينما الجنسية البورنوجرافية التى كانت تلاحقها باستمرار وتمنع عرض أفلام قد تحتوى فعلا على بعض المشاهد الجنسية، ولكنها تقدمها بأسلوب سينمائى شعرى عال يجعلها تقارن بلوحات العرى الشهيرة بالفن التشكيلى. وهكذا فعلا عرضت أفلام بول موريس الأمريكى. ثم فيلم المخرج اليابانى أوشيما «امبراطورية الحواس» الذى كان الخط الفاصل الحقيقى لولادة سينما ايروتيكية رسمية يمكن عرضها كتحفة فنية للسينما تعلو فوق كل الشبهات.

نصف شهر المخرجين قدم لنا مخرجين فى أفلامهم الأولى.. قطعوا بعد ذلك شوطا كبيرا وأصبحوا ملء السمع والبصر كالأخوين تافيانى من إيطاليا وجيمس ايفورى من أمريكا وثيوأنجلو بولس من اليونان وفيراماير من الهند وجيم جاراموش سيد السينما المستقلة الأمريكية الآن دون منازع.

ولكن إذا كانت مساهمة تظاهرة نصف شهر المخرجين موجهة إلى السينما الشرقية وسينما أمريكا اللاتينية وسينمات المعسكر الشرقى فى تلك الفترة، فإن السينما العربية قد حظيت باهتمام ملحوظ، وكانت هذه التظاهرة سببا لعرض أفلام من عدد من الجنسيات العربية المتميزة بالإضافة إلى السينما المصرية.. التى قدمت لهذه التظاهرة عددا من كبار مخرجيها كيوسف شاهين فى «العصفور» وتوفيق صالح فى «المخدوعون» فإنها قدمت أيضا نماذج جيدة من سينما الشبان كفيلم عاطف الطيب «حب فوق هضبة الهرم» وفيلم يسرى نصرالله «سرقات صيفية». سوريا تمثلت فى فيلم أسامة محمود «نجوم النهار». وتونس بأفلام متعددة منها «طائر السطح» لفريد بوجدير و«شمس الضباع» و«الملائكة» و«صمت القصور» لمفيدة تلاتلينى. و«عزيزة» لعبد اللطيف بن عمار ـ الكويت ـ رغم قلة إنتاجها السينمائى كانت موجودة أيضا من خلال فيلم «عرس الزين» لخالد الصديق. وفلسطين من خلال أفلام متعددة أشهرها عرائس من قصب لجلالى فرحاتى.

الدور الذى لعبته هذه التظاهرة بتقديم هذه النماذج المختارة الجيدة من السينمات العربية المختلفة دور لا يستهان به على الإطلاق، خصوصا عندما نعرف أن الأسواق الأوروبية والأمريكية كانت مغلقة تماما فى وجه السينما العربية والتعبير السينمائى العربى.

ونصل أخيرا، إلى مجموعة من الكتب الأخرى التى حاولت أن تقدم صورة أخرى للمهرجان من خلال الأحداث السياسية والفنية التى تهم الجمهور الكبير وما يحيط بهذه الأحداث من قضايا ومن فضائح.. يأخذ البعض منها وجهها الباسم ويأخذ البعض الآخر وجهها الانتقادى الحاد.. كما حدث مثلا سنة ١٩٦٨ فى أحداث مايو.. حيث تدخل عدد من المخرجين الفرنسيين لإيقاف فعاليات المهرجان تضامنا مع أحداث الطلبة التاريخية فى ذلك الوقت وعلى رأسهم جان لوك جودار وفرانسوا تروفو. أو الضجة الإعلامية التى صاحبت ظهور انجمار برجمان المخرج السويدى الذى وافق لأول وآخر مرة على عقد مؤتمر صحفى ضخم فى قاعة العرض الكبرى للمهرجان إثر تقديم رائعته «همس وصرخات».

أو الفضائح الصغيرة التى تثير البسمات كظهور مادونا فى ثوب نوم قصير تحت فرائها الأبيض فى حفلة افتتاح «النوم مع مادونا» أو الأسئلة الحرجة التى تعرضت لها شارون ستون النجمة الأمريكية عقب عرض فيلمها «الغريزة الأساسية».. أخبار البعض منها يصلح للمجلات الفنية، ولايستحق أن يورد فى كتاب جاد. والبعض الآخر يؤرخ للحدث من خلال قضية تثار أو فيلم يعرض تحاط به علامات الاستفهام الكثيرة أو مخرج يستغل أضواء المهرجان ليعبر عن موقف سياسى أو أخلاقى.

المهم فى هذه الكتب كلها أنها تشكل مجموعة من المراجع تؤرخ لتطور الحركة السينمائية فى العالم.. وجوهها المميزة وأفلامها الهامة ومخرجوها الكبار وتؤطر أساليب سينمائية أصبحت الآن من ضمن كلاسيكيات الفن السابع.. وذلك من خلال مهرجان سينمائى هام يعتبر دون شك من خلال عطائه وأهميته وسيطرته والسوق السينمائية التى تعقد على هامشه واحدة من أهم مهرجانات السينما فى العالم وأكثرها عطاء ووعودًا. ■

كتاب الزاوية

الساق على الساق

فى وصف باريس وأهلها

واعلم أن أهل باريس قد اصطلحوا على أمور فى المعاش والنساء تميزوا بها عمن سواهم. أما فى أمر المعاش فإن من يأكل منهم فى المطاعم الشائعة فإنه يشارط صاحب المحل أو بالحرى صاحبته على أن يعطيها فى الشهر قدرا معلوما ويأكل عندها شيئا معلوما. فتعطيه تذاكر تؤذن بعدد المرات فيدفع ثمنها ثم يعيدها عليها فيؤدّى عن كل غداء أو عشاء تذكرة. فيتوفر عليه فى ذلك ربع المصروف. وقس عليه الحمامات والملاهى وما أشبهها. فأما أمر النساء فإن أصحاب البيع والشراء لما كانوا قد اتخذوا لإدارة أشغالهم نساء حسانا كما سبقت الإشارة إليه، فإذا خرجن فى الليل بعد انقضاء أشغالهن ترصدتهن الرجال ودعوهن إلى مواضع الأكل والقهوة والرقص واللعب. فتذهب كل واحدة مع من تحب. فمتى رافقته إلى أحد هذه المواضع علم أن حقه عليها صار ضربة لازب. فإما أن يستوفيه منها تلك الليلة فقط أو يوافقها على إعادة الوصل فى كل أسبوع مثلا مرتين أو ثلاثا وأن يعطيها فى آخر الشهر أجرة معلومة. ومابقى لها من الساعات فإنها تؤجره لآخرين بأجرة معينة. فترى للواحدة منهن عدة عشاق تواصلهم فى أوقات مختلفة من الليل والنهار. ومع ذلك فلاتزال تلقب بدموازل وهى كلمة تطلق على الأبكار على وجه التعظيم. ومعناها سيدة غير ذات بعل. ومنهم من يتصدى لمعرفة هؤلاء البنات من المراقص. فيعمد الرجل إلى بنت ويدعوها للرقص. فإذا أعجبته وأعجبها دعاها للشراب فى موضع مخصوص فى المرقص وعقد عليها عقد الزيارة الشهرى. ومن عامل واحدة منهن مشاهرة لم ينفق عليها نصف ما ينفقه لو قضاها على كل مرة على حدتها، وللنساء رخصة فى باريس أن يدخلن جميع المراقص العمومية من دون أن يدفعن شيئا اجتذابا للرجال بكثرتهن. ولكن عليهن أن يرقصن معهم إذا استرقصوهن. إلا إذا اعتذرن لهم بعذر يقبلونه كأن تقول المدعوة مثلا قد دعانى آخر من قبلك فلابد لى من أن أرقص معه أو نحوذلك. ثم لاحرج أيضا على من اكترى فى منزل بيتا مفروشا كان أو غير مفروش أن تزوره صاحبته فى مسكنه. سواء كانت من النوع الذى ذكرناه أعنى من النساء اللائى بمنزلة بين الحرائر والزوانى أو من غيره. وأن تبيت عنده على علم من الجيران والسكان. فإن منزلة هذا عند منزلة أهل باريس كمنزلة المتزوج. ولافرق عند أهل باريس بين امرأة متزوجة لها سبعة بنين وسبع بنات تربيهم فى تقوى الله وطاعة الملك، وبين قحبية تبيع عرضها لكل ابن سبيل وتتفنشخ لكل مجتاز فى الطريق كما تقول التوراة.

عـــــروض مـــــوجـــــزة

كتب عربية

تعال نفكر معا

أنيس منصور

القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٩.

أكثر من ثمانين مقالا، يضمها هذا الكتاب، موضوعاتها متعددة واهتماماتها تتقافز بين الأدب والسياسة والبحث العلمي والفكر والفلسفة وغيرها، وتطل عليك عبرها وجوه من زماننا وأخرى من زمن فات وثالثة من الفضاء وكائناته الواقعية والمحتملة.

ينقل المؤلف عن الكاتب السويسري دورينمات قوله له:

> شيء واحد يخجلني في هذه الدنيا، أن تكون بلادي على الحياد، كيف يمكن أن تكون محايدا أمام الشر والفقر والمرض. كيف تجمع كل أموال الدنيا ولا تنفقها على الدنيا. كيف يعيش مجتمع على فلوس الشعوب. كيف نرضى لأنفسنا أن نكون حراسًا للفلوس المسروقة والمنهوبة. كيف نحمي الظلم والقهر وكل الذي يهمنا هو امتلاء بنوكنا.

لكن معظم مقالات الكتاب يشغلها الهم العام والشأن المصري والعربي. ففي مقالة عنوانها «أي غزو» يرفض المؤلف ادعاءات البعض عن الغزو الأجنبي الذي يتم عبر وسائل الاتصال الحديثة، ويقول في عبارة صريحة:

> النجاة ليست في مقاومة التكنولوجيا المتطورة جدا، وإنما في تعلمها. النجاة في العلم والإنتاج وشيء من الخيال.

ويهاجم في مقال آخر البيروقراطية التي تعيق مصر عن التقدم والتطور. ويتحدث في مقال رابع عن حسابات مؤسسة نوبل واختياراتها في عالم الأدب. وفي خامس عن السياسة التي يرى أنها «فن السفالة الأنيقة». وفي سادس عن الإنجازات العلمية المهمة في مجال الفضاء، حيث يتوقع العلماء ـ كما يقول المؤلف ـ أن نعيش بعد ربع قرن على القمر، وأن نهبط آمنين على المريخ. وثمة مقالات أخرى عن كيفية الراحة والترويح عن النفس بين فترات العناء الطويلة.

التغيير
الصراع والضرورة

رفيق حبيب

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.

على غرار صيحات المناضلين في ثورة المصريين عام ١٩١٩، يرفع هذا الكتاب شعار «التغيير التام أو الموت الزؤام».

فالمؤلف يرى أن الأمة العربية والإسلامية تواجه تحديا يهدد وجودها في الصميم.. «الحرب الآن ضد ضمير الأمتين العربية والإسلامية ومحاولة هزيمة هذا الضمير». فما تم بحسب قوله هو جلاء للمستعمر، لكن ما لم يتم هو تغيير الأوضاع التي خلقها المستعمر وبناء أوضاع وأنظمة جديدة.

والفكرة الأساسية للكتاب تقوم على رفض دعاوى التوفيق بين مشروع الإحياء الحضاري كما يتبناه دعاة تجديد تراث الأمة وأصولها، ومشروع التماهي الكلي مع الحضارة الغربية بكل ما فيها، وهو تيار التغريب كما يسميه المؤلف، الذي يرى أن التغيير لن يتحقق إلا بسيادة أحد المشروعين، والمشروع الذي يرشحه للسيادة هو ذاك الذي ينادي بالنهضة من خلال إحياء الموروث وتجديده وتطويره، لأن نجاح فكرة إدماج الأمة في الحضارة الغربية يؤدي إلى تفكك وتحلل قيمها الخاصة، بما يقود إلى انقطاع حضاري كامل وإبادة شاملة للمنظومة الحضارية الموروثة.

وبرغم أن المؤلف يشدد على رفضه لفكرة استبعاد الآخر، إلا أنه يؤكد عليها في سياق آخر..

> «المشكلة بين هذين المشروعين، أن كليهما ضد الآخر، فللتغريب قيمه ولحضارتنا قيمها. ولذلك فإن أي مشروع منهما إذا نجح، ينفي الآخر في الواقع».

ولايدعو المؤلف إلى الالتزام الحرفي بالمرجعية وإعادة إنتاج الماضي، فهذا من شأنه أن يؤدي إلى ظهور تيارات متطرفة تتبنى حلولا صدامية عنيفة، والمطلوب نهضة تتولد من داخل الأمة لتجدد نفسها، ثم ينتج عنها تطوير للأنظمة والقوانين، وهذا يعني أن برنامج التغيير الحضاري موجه أساسا نحو النظم الحاكمة لحياتنا، لكنه لايهدف إلى هدم نموذج الدولة، بل إعادة إنتاجها حسب شروط المرجعية. وفي هذا الإطار، فإن شرط النهضة هو تفكيك التغريب ومصطلحاته الوافدة، ويورد المؤلف مفاهيم مثل حقوق الإنسان ونظام السوق وحقوق المرأة، كنماذج لأفكار وافدة بحاجة إلى تفكيك.

ضعف الثقافة الجنسية
سر شقاء الزوجين

عبد الهادي مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.

لم يعد ممكنا، في عصر صار فيه العالم عند أطراف أصابعنا عبر الإنترنت والأطباق الهوائية والقنوات الفضائية، أن نستمر في إحاطة موضوع الجنس على أهميته، بهذه الهالة الهائلة من الغموض، التي تشيع من المخاوف أكثر مما تبعث على الاطمئنان، فأين يمكن للشاب والفتاة أن يحصلا على معلومات صحيحة عن الجنس تؤهلهما لأن يصبحا زوجين صالحين في زمن انتشرت فيه أمراض الاتصال الجنسي حتى جاوزت أربعين مرضًا، كما أن عدم التوافق الجنسي، واحد من أهم الأسباب التي تقود إلى الانفصال، وهو يمثل ـ حسب إحصائيات يشير إليها الكتاب ـ ٧٥٪ من أسباب الطلاق في أوروبا والولايات المتحدة.

ويلقي المؤلف ضوءًا مهمًا على الأسباب النفسية الكامنة وراء الضعف الجنسي والبرود عند الرجال والنساء؛ والعلاقة السلبية بين التدخين والمخدرات والكفاءة الجنسية، ويتعرض بشكل موسع للمنشطات الجنسية سواء منها الأدوية المعتمدة على المركبات الكيميائية أو المستحضرات الطبية المشتقة من الأعشاب والمواد الطبيعية، وكذلك يعرض للأغذية ذات العلاقة بالنشاط الجنسي مثل التمر والجرجير والجزر والبقدونس والخس والحيوانات البحرية وغيرها، كما يفسر علميا التغييرات الجنسية الطبيعية التي تحد من مقدرة الرجل الجنسية مع تقدم العمر، أما الفياجرا ـ ذلك الأمل أو الكابوس ـ الذي لاح أخيرا للرجال كبار السن، والشباب الذين يعانون ضعفا جنسيا، فإن المؤلف يقيمه علميا، مستندا إلى نتائج أبحاث أجرتها مراكز دراسات يعتد بها.

النظام السياسي وقضايا التحول الديمقراطي في مصر

هالة مصطفى

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩.

عشرات الدراسات يضمها هذا الكتاب يشملها جميعا عنوان عريض هو «التحول الديمقراطي»، ذلك الذي تمثل مرحلة الثمانينيات والتسعينيات في مصر نقلته الهامة بحسب ما تقول المؤلفة، ففي رأيها أن عملية الإصلاح الاقتصادي استكملت، وبدت مصر أكثر قدرة على تحقيق الاستقرار وترسيخ التعددية السياسية، ومن ثم، يصبح استكمال الإصلاح السياسي ممكنا، ويسهم الإصلاحان ـ الاقتصادي والسياسي ـ في تحقيق التحول الديمقراطي المنشود.

وتدور مقالات الكتاب جميعا حول هذه المضامين، فتتناول الحياة الحزبية والتعددية السياسية والانتخابات والانتقال إلى الاقتصاد الحر ودور المؤسسة التشريعية، فضلا عن دراسات تعنى بشئون المجتمع المدني وتنتقد الإرث الثقافي السياسي الذي يحكم النخبة الفكرية، ويؤثر سلبا ـ كما تقول المؤلفة ـ على عملية التحول نحو الديمقراطية.

العنف الأسري

إجلال إسماعيل

القاهرة: دار قباء للنشر، ١٩٩٩.

ثمة أسباب عديدة للعنف الأسري في المجتمعات المعاصرة، بعضها عام، وبعضها يخص كل مجتمع على حدة، وإن كانت البشرية عرفت العنف الأسري منذ الخليقة، حين قتل قابيل أخاه هابيل، لكن المؤلفة تؤصل نظريا وميدانيا للظاهرة، خصوصا أن مشكلة الضرب المبرح للطفل لم تكن معروفة ـ كما تقول ـ حتى عام ١٩٦٢.

وهي تقدم لدراساتها بثلاثة فصول نظرية عن إشكالية تعريف العنف والاتجاهات الاجتماعية النظرية التي تدرسه والاجراءات المنهجية الحديثة في دراسته، وتدرس في الفصلين الرابع والخامس ظاهرة العنف من خلال البحوث الميدانية، وتحلل واقع العنف الأسري في المجتمع، وتقدم في الفصل الأخير، رؤية نقدية لدراسات العنف وتلاحظ المؤلفة في تحليلها للعنف الأسري في المجتمع المصري، أن العنف صار متبادلا، كما أن قيم التراحم بدأت تنحسر وتتلاشى، وهو أمر لا يقتصر على الأميين فحسب، وإنما يوجد أيضا بين المتعلمين والمتعلمات، وتلاحظ أيضا، أن الإحصاءات والبيانات الرسمية عن العنف الأسري متناقضة، وإن كانت في مجملها تكشف عن زيادة كبيرة في معدلات العنف ضد الأطفال والزوجات والآباء والأمهات كبار السن. وترد المؤلفة شيوع هذه الظاهرة عند ممارسيها إلى التنشئة الاجتماعية وظروف المعيشة المتدنية والضغوط الاقتصادية المتزايدة.

التعايش مع الخوف
فهم القلق ومكافحته

إيزاك م. ماركس

ترجمة: محمد عثمان نجاتي

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩.

حكمتان يسوقهما المؤلف للانتصار على القلق والمخاوف، الأولى: تعلم أن تتعايش مع الخوف وسوف يخمد بالتدريج.

والثانية: نحن في حاجة لأن نسلك سبيلا وسطًا بين الجبن من جهة، والتهور الأحمق من جهة أخرى.

ويقدم الكتاب عبر فصوله الاثني عشرات النصائح للتعامل مع كل أنواع المخاوف التي يواجهها الفرد، وأشكال الأرق المتعددة التي تقض مضاجعه.

والقلق كما يعرفه المؤلف، هو الانفعال الذي نشعر به عندما نجد أنفسنا محاصرين في ركن ضيق، فنشعر حينئذ بأننا مهددون برغم أن مصدر التهديد قد لايكون واضحا.

أما الخوف، فيراه استجابة عادية لخطر فعلي أو متخيل، يُحدث اضطرابات

عـــــروض مــــــوجـــــزة

في أحوال الفرد وتغييرات بدنية يشعر بها ويراها الأفراد الآخرون.

وبحسب المؤلف، فإن القلق والخوف إذا كانا خفيفين قد يكونا مفيدين..

«إذ إنهما يؤديان إلى فعل سريع في مجابهة التهديد، ويساعداننا على أن نكون متيقظين في المواقف الصعبة».

ويؤكد المؤلف على أن الخوف والقلق ينشآن عن تفاعل ثلاثة أنواع من المؤثرات: مؤثرات فطرية موجودة منذ الولادة، ومؤثرات تعتمد على نضج الجهاز العصبي، ومؤثرات تنشأ بالخبرات الشخصية والاجتماعية.

وثمة اضطرابات اكتئابية يعانيها كثير من الناس، بعضها وراثي، وأكثرها يرتبط بمواقف أليمة مرت بالشخص المصاب بها، مثل الاضطرابات الخوافية المتعلقة بالأماكن المفتوحة أو الأماكن المغلقة، أو الخواف الاجتماعي الذي يصيب الرجال والنساء على السواء، وكلا النوعين يصيب الراشدين. والمبدأ الأساسي في طرق العلاج لتلك الحالات كما يشير المؤلف، هو تعريض المريض للموقف الذي يخيفه حتى يصبح معتادا عليه بالتدريج.

خصائص اللغة للثعالبي

تحقيق: خالد فهمي

القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٩.

هذا الكتاب مختصر للقسم الأول من كتاب الثعالبي الكبير «فقه اللغة»، الذي يضم عدة مجلدات، والذي حققه محقق هذا الكتاب أيضا، وهو كتاب بين مائة وثلاثين كتابا لأبو منصور الثعالبي، وهو من العلماء الذي شرّق علمهم وغرّب بحسب ما يقول الدكتور رمضان عبد التواب العميد السابق لكلية الآداب جامعة عين شمس في تقديمه للكتاب. وقد اختصر الثعالبي «خصائص اللغة» ليصبح مجموع فصوله خمسة وسبعين فصلا، بعدما كانت في الأصل خمسمائة وواحدًا وستين فصلا، وتمثل الألفاظ المشروحة أو الواردة في خصائص اللغة والبالغ مجموعها ٦٨١ لفظة ٤٤,٧٪ من الأصل، البالغ مجموع ألفاظه ١٥٢٦ كلمة تقريبا.

وقد حذف الثعالبي في هذا المختصر كل الشواهد من قرآن وحديث أو شعر أو نثر، وترك ألفاظا كما يقول المحقق، يبدو أنه استغربها أو لم يورد لها شاهدا أصلا في فقه اللغة، وجاء بألفاظ لم توجد في الأصل، ولم يذكر غير اسم أربعة من الرواة، وأحال في غالب الفصول إليهم بقوله: عن ثقات الأئمة، كما أنه ـ كما يقول المحقق أيضا ـ لم يضبط كلمة واحدة بأي من طرق الضبط المعروفة في زمانه.

ويؤكد المحقق أن هذه المخطوطة هي الوحيدة، وقد صوّرها من معهد المخطوطات العربية، وهي بدورها مصوّرة عن نسخة المكتبة الظاهرية في دمشق.

التنوير الزائف

جلال أمين

القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩.

يهدف هذا الكتاب إلى إيضاح التمايزات الأساسية بين ما يمكن اعتباره تنويرا في الغرب، وما يسعى إليه التنويريون عندنا، وهو يضع التنوير الغربي في سياقه التاريخي، ويفرّق بين ما جرى في أوروبا في القرن الثامن عشر على الأصعدة السياسية والاقتصادية والفكرية، مما استدعى تنويرًا يعلي من شأن العقل ويخلصه من الخرافات والتحيزات المسبقة التي تعوق حركته، وبين ما جرى عندنا بعد ذلك بقرن تقريبا، منذ رفاعة الطهطاوي وحتى اليوم، مؤكدا على اختلاف التربة التي استقدمت دعوات التنوير إليها عن مثيلاتها في أوروبا. ومشيرًا إلى أن دعوات حرية التعبير وتحرير المرأة والمساواة وتقديس العقل دون سواه، لايمكن أن تكون صالحة للتطبيق عندنا بالطريقة ذاتها التي طبقت بها في أوروبا، ناهيك عن أنها لم تطبق ـ كما يقول المؤلف ـ بشكل مطلق دون اعتبارات بعضها سياسي وبعضها مجتمعي.

والتنوير المطروح في ظل النظام العالمي الجديد كما يقول الدكتور جلال أمين، هو تنوير الجواد الرابح، تنوير أمريكي صرف، يسعى إلى سيادة نمط وحيد في السياسة والاقتصاد والحياة اليومية، تنوير استهلاكي تحركه آلة الإعلام الجهنمية، هدفه أن تدور عجلة الاستهلاك في بلدان تحتاج إلى تنمية حقيقية، وأن تتسابق شعوب هذه البلدان نحو اقتناء مزيد من سلع لا تحتاجها، وأن تعتاد على الجينز والماكدونالدز وغيرها، وهو أمر باتت تعاني منه حتى دول أوروبية.

والآن .. ما طريق الخلاص؟ يقول جلال أمين:

ليس هناك طريق للخلاص إلا بتخليص مفهوم التنوير مما رسخ فيه، وإعطائه المضامين التي تتفتق عنها أذهاننا نحن، لمواجهة المشكلات التي نقوم نحن بتشخيصها، وصولا لأهداف نقوم نحن بتحديدها.

أزياء المرأة في العصر العثماني

آمال المصري

القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩.

تهبط الموضات، وخصوصا أزياء النساء من أعلى إلى أسفل، ولهذا كان على النساء في مصر، أن يتشبهن بأزياء نظرائهن من الأتراك، بعدما أصبحت مصر ولاية عثمانية، وصارت القسطنطينية هي العاصمة التي على مصر أن تحذو حذوها، وتشير المؤلفة إلى أن ذلك لم يحدث اختيارا دائما، وإنما جرى أحيانا بفرمانات، حرمت على النساء ارتداء أزياء المماليك السابقة من الزنط والتخفيفة والكلوتة، تماما كما جرى بالنسبة للرجال، حين مُنعوا من ارتداء القباء والطيلسان والكلفتاه، وأجبروا على لبس العمامة والجبة، كما أن النساء عرفت أنواعا من الأقمشة لم تكن شائعة قبل العصر العثماني، مثل الجوخ والفراء، وهو أمركان يبدو أكثر بين نساء الطبقة الأرستقراطية. وتستعرض المؤلفة وهي أستاذة للآثار والفنون بجامعة القاهرة، عبر أبواب ثلاثة، أهم العوامل التي أثرت في أزياء النساء في مصر منذ الفتح العثماني وحتى عصر محمد علي، وهي عوامل دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، ثم تدرس تفصيلا مكونات أزياء النساء في ذلك العصر، ثم مكملات الأزياء من حلي وأدوات تجميل وزينة.

وتلاحظ المؤلفة أن الزي بقي محتفظا بحشمته ووقاره وفقا للتعاليم الدينية، وأن الناس انقضوا في أعقاب خروج الحملة الفرنسية من مصر، على من ساير الفرنسيين في ملبسهم وأزيائهم، وقتلوا مئات من النساء ليكنّ عبرة لغيرهن، وعادت النساء إلى زيهن السابق على دخول الحملة مصر.

كما أن الفروق كانت واضحة بين نساء الطبقة العليا وغيرهن من نساء الطبقة الوسطى والطبقات الدنيا اللاتي كن يجدن ما يستر أجسادهن بالكاد، وبعيدا عن هذه الدراسة ذات الطابع التاريخي التحليلي، فإن المؤلفة تقدم فكرة شاملة وتفصيلية عن أزياء النساء في ذلك العصر، طبيعتها وألوانها وأجزائها وطرق تفصيلها.

الحيلة في التراث العربي

ثابت عيد

القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩.

يقدم مؤلف الكتاب معانٍ للحيلة تبعدها عما يتبادر إلى الذهن بوصفها واحدة من طرق الكذب والخداع، فالحيلة كما يصفها صاحب كتاب «السياسة والحيلة عند العرب»، وهو مجهول «ثمرة العقل ومستخرجة بقوانينه»، وهي أكثر الوسائل حذقًا ومهارة للوصول إلى الأهداف» ويعتبرها ابن مسكويه «خيرا من الشدة» ويفرق الطرطوش بين الحيلة والمكر، فالأولى مستحسنة مرغوبة، أما المكر فمذموم، وجاء في «لسان العرب» أن الحول هو الحيلة والقوة، ما يعني أن الحيلة والقوة متلازمان.

ويورد المؤلف في كتابه عشرات النماذج من الحيل، يرتبط بعضها بالأنبياء والخلفاء والأمراء، وينقل عن تاريخ الطبري قول عمر بن الخطاب لأصحابه، تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية، كما كان إذا استضعف رجلا في رأيه قال: أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد، يريد خالق الأضداد نظرا لدهاء عمرو الشديد.

إن استخراج الحيلة كما يقول المؤلف، يحتاج إلى عقل متفتح بعيد عن التزمت، لا يقف عند ظاهر النصوص بل يتعداها إلى المعاني والمقاصد، وأصحاب الحيلة كما يعرفهم هم أصحاب العقل وأهل العلم، وأعداء الحيلة هم أهل الجهل والجمود.

إعادة اكتشاف فلسطين
أهالي جبل نابلس ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠

بشارة دوماني

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٨.

ويركز هذا الكتاب على نابلس، تلك المدينة التي اعتقد أهلها دوما ألا مكان يوازيها في العالم، ويدرس جبل نابلس في الفترة من ١٧٠٠ وحتى ١٩٠٠م.

وخلال القرن الثامن عشر وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت نابلس هي المركز الاقتصادي والسياسي لفلسطين، ولعب جبل نابلس الذي عرف بجبل النار أدوارا مهمة في النضال ضد القوات المصرية عام ١٨٣٤ وضد الحكم البريطاني بين عامي ١٩٣٦ و١٩٣٩، وفي الانتفاضة الفلسطينية التي انفجرت عام ١٩٨٧.

وعلى مدى خمسة فصول يدرس المؤلف جبل نابلس مدنه وريفه، وأهم العائلات التي أقامت فيه وأنماط ثقافتها وتجارتها، ثم القطن والأقمشة والسياسات التجارية، وزيت الزيتون وأهميته في اقتصاد نابلس، ثم تصنيع الصابون وعلاقته بالدولة. ويشير المؤلف إلى أن تجارة نابلس جرت في الأساس مع دمشق والقاهرة، فكان ثلاثة أرباع إنتاج نابلس من الصابون يشحن إلى القاهرة التي استوردوا منها الأرز والسكر والتوابل، فيما كانت الأقمشة بأنواعها والنحاس أكثر ما يستوردونه من دمشق.

وأوجدت العلاقات الاقتصادية المتشابكة علاقات مصاهرة بين تجار الأقمشة وتجار الصابون، وقامت صناعة الصابون على ملكيات مشتركة في أغلب الأحوال، بسبب نفقاتها الباهظة، وبالتوسع في إنتاج الصابون زاد تركيز الثروة، وذابت الحدود بين السلطة السياسية والمكانة الاجتماعية، وتبلورت نخبة جديدة مع بدايات القرن التاسع عشر قوامها من التجار. أما محصلة ذلك كله ـ كما يشير المؤلف ـ فكانت التشبث بأعراف وتقاليد عززت انتماء أهالي نابلس لهويتها المحلية.

كتب أجنبية

To End a War: From Sarajevo to Dayton and Beyond.

(من أجل إنهاء حرب)

Richard Holbrooke
New York: Random House, 1998, 408 pp. $ 27.95

ريتشارد هولبروك هو الوسيط الخاص الذى عينه الرئيس كلينتون فى عام ١٩٩٥ من أجل إنهاء حرب البوسنة. فى هذا الكتاب يقدم هولبروك روايته الشخصية عن المفاوضات التى أدارتها الولايات المتحدة لإنهاء الصراع فى البوسنة فى قاعدة رايت - باترسون الجوية فى دايتون بولاية أوهايو. والكتاب يعد عملا من أعمال التاريخ الدبلوماسى ويقدم خلفية جديدة للمأساة البوسنية. حيث يتحدث المؤلف عن أفراد الدائرة الصغيرة المحيطة بالرئيس كلينتون فى الإدارة الأمريكية، كما يروى انطباعاته وآراءه فى قادة البلقان.

وينتقد هولبروك بشدة الجهود السلبية غير المؤثرة لكل من الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى فى إنهاء المجازر التى حدثت فيما بين ١٩٩٢ و ١٩٩٥.

وينتهى الكاتب إلى دروس عن إمكانات الدبلوماسية وحدودها، وعن أثر استخدام القوة والتهديد بل وقيمة استخدام أسلوب الغش والخداع. وهنا يكشف لنا هولبروك ما قام به شخصيا من تشجيع فرانجو تودجمان الرئيس الكرواتى الذى كان صاحب الشرارة الأولى فى الحرب على التقدم بجيشه إلى الأمام والاستيلاء على بعض المدن التى كانت تحت السيطرة الصربية، وذلك خلافا لما كان معروفا عن الموقف الرسمى لواشنطن، حين ادعت الولايات المتحدة أنها قد طلبت من تودجمان رسميا وقف القتال.

وعن المأساة البوسنية يقول هولبروك إنها لم تكن أبدا مقدرة مسبقا أو حتمية، بل إنها جاءت نتيجة وجود قادة سياسيين «مجرمين»، شجعوا على حدوث مواجهة اثنية دامية من أجل الحصول على مكاسب سياسية وشخصية ومالية لأنفسهم.

Breaking The Cycle

(إيقاف الدورة)

Roderick Von Lipsey (editor)
London: Macmillan, 1998, 310 pp., £ 5.

تهدف هذه الدراسات إلى وضع نظرية عامة للتدخل الخارجى فى الأزمات. فهى تحلل تسع حالات تدخل ناجحة أو غير ناجحة فى يوغسلافيا والصومال ورواندا و هاييتى، والضفة الغربية وغزة، وناجرنو - كاراباخ، والسلفادور وطاجيكستان والشيشان.

ويبدأ المحرر بفصلين نظريين يحددان الخطوط العريضة للدراسة، ثم يتناول كل فصل بعد ذلك أسباب نزاع كل منها وتاريخ التدخل ثم أهم الدروس المستفادة من الحالة، ليجمع المحرر الخلاصة بعد ذلك فى الخاتمة. وللتدخل الخارجى عادة ثلاثة أهداف: منع النزاع، أو الحد منه أو حله. ومع أن هذه الأهداف متصلة ببعضها، إلا أن كلا منها يحتاج إلى استراتيجيات مختلفة تماما.

والهدف الأول هو الأسهل، وإن كان الأصعب فى الوقت نفسه. فهو الأسهل لأنه يمكن دائما إصلاح ما أفسده استخدام العنف والسياسة أو الأيديولوجيا. ولكنه الأصعب أيضا لتعسر التكهن بوقت انفجار النزاع. كما أن المنع دائما ما يكون أقل شعبية من حل النزاع وتقف سيادة الدولة دائما فى وجهه. ويرى المحرر أن سبب النزاع يرجع إلى تهميش اجتماعى واقتصادى وسياسى لقطاعات هامة من المجتمع. وأفضل طريقة لتلافى ذلك تتمثل فى استخدام توليفة من الضغوط الدبلوماسية والمساعدات الاقتصادية والتهديد بفرض عقوبات اقتصادية وسياسية كى تكبح الدول الكبرى جماح نفسها للسيطرة على مقادير الدول الصغرى.

ويختم المؤلفون بأن التدخل الخارجى ليس عملا واحدا متناسقا. إنما يمر بمراحل متعددة لكل منها أهدافه المحددة التى تحتاج لإستراتيجيات مختلفة وعلى الوكالات التى تتولى الأمر أن تراعى هذه الفروق. فالتركيز الأساسى يجب أن يكون على حل النزاع، حتى فى الحالات الإنسانية. فلا يكفى إرسال الغذاء لإنقاذ الناس من المجاعة. فالغذاء يمكن أن يسرق أو يتم الاستيلاء عليه من قبل أحد طرفى النزاع. كما أن المساعدات الإنسانية قد تخدر الضمير العالمى والغربى بالذات وتغنيه عن التدخل الحاسم لحل النزاع.

The Chan's Great Continent: China in Western Minds

(قارة تشان العظيمة: الصين كما يراها الغرب)

Jonathan D.Spence
W.W.Norton & Sons, 1998.

يقيس المؤلف عظمة الدول بقوة تأثيرها على خيال وأفكار الآخرين، فيتناول الصين من خلال كتابات التجار والدبلوماسيين، والمبشرين، والكتاب، والشعراء، والمغامرين. إن بعضهم لم ير الصين فى حياته، ومع ذلك حكى عنها والبعض الآخر عاش هناك. بل منهم من توفى هناك كذلك.

يورد المؤلف كتابات الرحالة الشهير ماركو بولو، الذى أغفل ذكر فن الكتابة الصينية والشاى وتقييد نمو أقدام الفتيات حتى أن بعض الآراء الحديثة تعتقد أنه لم يذهب إلى الصين قط. وروايات المبشرين اليسوعيين الذين وصفوا الصين بالدولة العظيمة الواسعة الموحدة المنظمة التى تحكمها الكنفوشية بنظام مركزى صارم. وشهادات كتاب عصر النهضة أمثال فولتير ومونتسكيو وليبنتز الذين رأوا فى الصين مثالا للدولة المتجددة التى يعد انشغالها بالماضى وصعوبة لغتها سبب تجمدها. وهناك كذلك مذكرات الدبلوماسيين الأوروبيين مثل اللورد مكارتنى - أحد مبعوثى الإمبراطورية البريطانية فى القرن التاسع عشر - الذى وجد نفسه مراقبا بدقة وفضول غير مرغوب فيه. إلى جانب الشهادات النسائية التى تشرح عزلة الأجانب فى المجتمع الصينى. بالإضافة إلى كارل ماركس، وازار باوند، وبيرل بك، وأندريه مالرو، وبرتولت بريخت، وريتشارد نيكسون، وهنرى كيسنجر، وفرانس كافكا، وبورخيس، وإيتالو كالفينو. فالكتاب يحتوى على ٤٨ نصا تغطى الصين من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين. ويحلل المؤلف دوافع كل من هؤلاء حيث كان بعضهم مهتما فعلا بالصين والبعض الآخر اتخذها مرآة عاكسة لاهتمامات أخرى. ومما اكتشفه أن رؤاهم تتباين بدرجة كبيرة ولذلك خلص إلى أن حواس الإنسان تلتقط ما تريده وتتوقعه فقط.

يظهر المؤلف التفاعل الثقافى الخلاق بين الغرب والصين. فالغرب يرى فى الصين معينا لا ينضب للخيال والإثارة والغموض. معين يستحيل الوصول إلى كنهه أو معرفته.

André Citroen, Louis Renault, Un Duel Industriel

(أندريه ستروين ولويس رينو: مبارزة اقتصادية)

Alain Frerejean
Albin Michel, 1998,290p,125F.

نحن نستخدم أسماء أنواع السيارات بطريقة جعلتنا ننسى أن هذه الأسماء كانت قبل كل شيء لرجال من لحم ودم،لهم زوجات وأطفال وصديقات والكثير من الأسرار. فى حالة رينو فإن فحص هذه الشخصية مرتبط بأحداث تاريخية، ففى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٤ قتل رئيس مصنع بيانكور تحت أعين الشرطة لكونه متهما بالتعاون (مع الألمان) وبالخيانة. ويؤكد المؤلف أن رينو قتل فعلا فى السجن. كما أن القرار الصادر فى ١٦ يناير ١٩٤٥ بتأميم مصانع رينو كان بمثابة تأكيد العقوبة على صاحب تلك المصانع. وبعد فترة زمنية طويلة فى ٢٩ يوليو ١٩٦٧، صدر قانون يعطى ورثة رينو الحق فى التعويض.

أما بالنسبة لأندريه ستروين فقد قهره السرطان عندما وصل إلى عز مجده الصناعى، فمات فى ٣ يوليو ١٩٣٥، وفى هذا التاريخ نفسه أصيب رينو باضطرابات فى الدورة الدموية مما أثر على المخ. وأصبح فى حاجة إلى «مترجم» حيث إن كلامه لم يعد مفهوما، وبقى هذا الأمر سرا حتى بداخل بيانكور.

بالرغم من هذه النهاية التراجيدية، كانت ملحمة عالم السيارات قد جعلت من هذين الرجلين أبرز أبطالها. ولد ستروين بعد سنة من مولد رينو، أى سنة ١٨٧٨. وقد أتى كلاهما من عائلة تجار غنية ولم يكونا مجبورين على العمل، فقضوا وقتهما فى اللعب وفى الابتكار. فى عامه العشرين، كان لويس رينو رساما«يرى» بالأبعاد الثلاثة. وبالرغم من عدم حصوله على أية شهادة عليا، فقد استطاع أن يطور فى محرك السيارات قطعة قطعة ثم بنى لويس سياراته ومصانعه وإمبراطوريته.. وجعلت الحرب العالمية الأولى من هذا الملياردير بطلا من أبطال الدفاع الوطنى. فالعربات التى نقلت الجنود كانت تحمل علامة رينو. حتى دبابات النصر الـ FT 17، خرجت من عقل ومصانع رينو.

أما أندريه ستروين فقد كان ينتمى إلى أسرة يهودية بولندية تعمل فى مجال الماس وتعيش فى فرنسا منذ ١٨٧٢. وبالرغم من حصوله على شهادة الفنية العسكرية، لم يخترع ستروين بنفسه، كما فعل رينو، ولكنه كان يستفيد من اختراعات الآخرين.

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ظهر ستروين على ساحة عالم السيارات، كان أول من فهم فى فرنسا أنه يجب التصنيع من أجل العامة، بعكس ما كان يعتقد صاحب بيانكور. أطلق ستروين سيارته الـ10 HP بسبعة آلاف فرنك أى بنصف ثمن أية سيارة تباع فى أحسن أسواق فرنسا. باع منها ١٢ ألف سيارة. وفى ١٩٣٣ أطلق السيتروين الـ5HP، كان النجاح حينئذ محققا. ولكن أندريه كان أيضا عبقريا فى الدعاية. فاخترع لعب أندريه سيتروين(سيارة مصغرة)، وأقام مؤسسة تمويلية (السوفاك)، كما استخدم برج إيفل كلوحة إعلانات لسياراته. وأخيرا، تم اختراع وتصنيع العربات ذات «الجر الأمامى» عن طريق مهندس كان رينو قد طرده فعيّنه فورا خصمه. وفى ١٩٢٦، تقدم ستروين مرة أخرى على رينو بإنتاج سنوى حجمه ١٠٠ ألف سيارة، أى حوالى ضعف إنتاج رينو.

La Fatigue d'etre Soi: Depression et Société

(الاكتئاب والمجتمع)

Alain Ehrenberg
Gdile Jacob, 320 p. 145f.

يعتبر «الاكتئاب» مرض القرن العشرين النفسى الأكثر انتشارًا فى العالم. وقد تضاعفت فى السنوات الأخيرة أعداد المرضى النفسيين الذين تم تشخيصهم ضمن هذا التصنيف. فتشير الإحصاءات فى فرنسا مثلا إلى أن عدد المصابين بمرض «الاكتئاب» قد تضاعف

عـــــروض مـــــوجـــــزة

بنسبة ٥٠٪ في الفترة ما بين أوائل الثمانينات وأوائل التسعينات.

وقد أصبح «الاكتئاب» موضوع اهتمامات اجتماعية ودراسات طبية كثيرة.

وللاكتئاب أعراض متنوعة منها اللامبالاة، والانطواء، البطء الحركي والفكري، الإعياء الجسماني الشديد، الفراغ النفسي، فقدان الرغبة، والإحساس بالنقص وعدم الكفاءة.

وقد استطاع الطب النفسي الحديث أن يجد بعض الحلول لهذه الأعراض، وإن كانت هذه الحلول موضع مناقشات مستمرة بين الأطباء، ومنها عقار الـ «بروزاك» Prozac أو (حبوب السعادة) كما يطلق عليها البعض.

يستعرض «ايرنبرج» Ehrenberg في كتابه تطور المفهوم الطبي «للاكتئاب» على مر العصور مرورًا بالقرن التاسع عشر ووصولا إلى التصنيف المعاصر لحالات الاكتئاب المختلفة وأعراضها.

ويعقد الكاتب مقارنة مفصلة لرأى كل من «فرويد» Freud، وجانيه Janet في مصدر «الاكتئاب النفسي» عند أي إنسان.

فنجد «جانيه» يُرجع معظم الاضطرابات النفسية التي يتعرض لها الفرد إلى عدم تكيفه مع الواقع المحيط به في المجتمع وإحساسه بالعجز أمام المتطلبات الاجتماعية المختلفة، مما يؤدي إلى تقلص قدراته الذهنية وصولا إلى الاكتئاب.

أما «فرويد» فنجده يركز بصورة أكبر على الصراع النفسي الداخلي ويشير إلى أهمية الشعور بالذنب، وكبت الرغبات في حدوث الاكتئاب. ولذلك يكمن نجاح العلاج النفسي من منظور «فرويد» في إعادة توجيه الطاقات غير المسموح بها اجتماعيًا نحو قنوات أخرى مشروعة لتفادي شعور الشخص بالإحباط والاكتئاب.

كان النموذج «الفرويدي» للاكتئاب هو الأكثر شيوعا في فترة ما، ثم أصبح علماء النفس المعاصرون يميلون إلى اتجاه «جانيه» الاجتماعي الأنثروبولوجي لدراسة ظاهرة الاكتئاب، نظرًا لتحرر الفرد في كثير من المجتمعات من القيود الاجتماعية ـ التي كانت مفروضة عليه بصراحة في الماضي ـ والتي كانت مصدرًا لكثير من الكتب.

لقد أصبح الإنسان يرسم لنفسه الأهداف ويسعى لتحقيقها. فإن فشل، كان ذلك بسبب قصور أو عجز منه وليس نتيجة لضغوط المجتمع.

Environment and Sustainable Development in Eastern and Southern Africa: Some Critical Issues.

(البيئة والتنمية المستديمة في شرق وجنوب أفريقيا: القضايا المهمة)

Abdel Ghaffar M.Ahmed and Wilfred Mlay (eds.)

London: Macmillan, 1998, pp., 233 £ 45 .

يضم الكتاب مجموعة دراسات وأبحاث تغطي عدة فروع أكاديمية لمتخصصين في الشئون الزراعية الأفريقية، يظهر من خلالها بوضوح الارتباط الوثيق بين البيئة والسياسة في القارة، خاصة مع ازدياد الشك في كون أسباب المجاعات وانخفاض خصوبة الأراضي سياسية واجتماعية في الأساس بالإضافة إلى البيئة بالطبع.

ومن أهم أبحاث الكتاب بحث لعلي عبد القادر علي يثبت فيه العلاقة الوثيقة بين سياسات البنك الدولي للتعمير وزيادة الفقر في بعض المناطق الزراعية وانخفاض خصوبة الأراضي. أما الفصول الأخرى فتناقش دور المنظمات غير الحكومية، والسبل الآمنة لتحسين إنتاجية الأرض، والجوانب السلبية للسياسات الزراعية الحكومية في السنوات الأخيرة، ومشاكل قوانين الأراضي طبقا لنظم تشريعية وعرفية وتقليدية مختلفة ومتعارضة في بعض الأحيان.

وهناك كذلك بعض دراسات الحالة كتغيير تنزانيا لأساليبها الزراعية وأهمية انتظار الوقت المناسب لإدخال التكنولوجيا الجديدة. فإدخالها قبل ذلك سيقصر فائدتها على مجموعة صغيرة من الفلاحين وإدخالها متأخرة سيدمر توازنا بيئيا ضعيفا بالفعل. كما تناولت دراسة أخرى تفسير تكيف قبائل الزغاوة بغرب السودان مع الجفاف والمجاعة بشكل أفضل من قبائل الهناندوه بشرقي السودان وهو ما ترجعه إلى ثقافة كل منهما، حيث تسمح الأولى بالإبداع والابتكار والتفكير المختلف وتشجعه، بينما ترفضه تقاليد الأخرى.

Kitchener: The Road to Omdurman

(كتشنر: الطريق إلى أم درمان)

John Pollock

London: Constalde, 1998, 282 pp., £ 20.

ظهر في لندن كتاب جديد عن «حياة هربرت هوراشيو كتشنر، أو من نعرفه نحن باسم اللورد كتشنر، واتسمت سيرته بكثير من التناقض، ما بين قدراته العسكرية الفذة واستهتاره بأعداد القتلى، وبين وحشيته وقسوته في القتال، ورقته وخجله مع من يعرفونه.

كان والده أحد قادة الخيالة الإنجليز المشهورين بسوء الخلق، وقد استقر بعد تقاعده في ضيعة بأيرلندا، حيث اتسم بالقسوة الشديدة في معاملة خدمه وعائلته، مما أثر على الابن بعد ذلك فاعتزل العالم، وانغمس في العمل، حتى أنه كان يفضل أن يساء فهمه عن أن يظن الناس أن له مشاعر. ودخل المدرسة الحربية فأرسل كمسّاح إلى قبرص، ثم تطوع للقيام بعمليات سرية في فلسطين، كما أرسل كعميل سري لإنقاذ جوردون من حصار المهدي له ولقواته في السودان، ولكنه لم يصل في الوقت المناسب.

وبمرور الوقت ارتقى في المناصب حتى عين سردار الجيش المصري، فزحف في عام ١٨٩٦ إلى أم درمان لينتقم لجوردون ويسترجع السودان.

أما عسكريًا فيؤكد المؤلف أنه بينما كان يترك الجوانب التكتيكية لضباطه، فإنه كان عبقريًا في التنظيم وإرساء خطة المعركة وتهيئة الظروف المناسبة للانتصار، مثل مده خطوط السكك الحديدية لنقل الجنود والمؤن ونقل السفن للمدافع عبر شلالات السودان الصعبة ليهزم السودانيين هزيمة ساحقة في موقعة أم درمان.

ولكن يؤخذ على كتشنر تركه جثث ١٦ ألف سوداني بعد المعركة ما بين قتيل وجريح واهتمامه بمداواة جرحى جيشه فقط، كما شعرت الملكة فيكتوريا بالاشمئزاز حينما علمت أنه قد نبش قبر المهدي وألقى عظامه في النيل، كما يقال أنه ربما احتفظ بالجمجمة لاستخدامها كحبارة.

إلا أن المؤلف يستشهد بشهادة طبيب مصري عين من قبل الجيش المصري لرعاية ٤٠٠ من أسوأ حالات الضحايا السودانيين، يفسر نبش كتشنر لقبر المهدي بأنه كان بدافع إثبات أن المهدي لم يكن إلا بشرًا على عكس ما كان يعتقده أتباعه، وإن أضر ذلك بسمعته.

ويتتبع المؤلف بعد ذلك دور كتشنر في حرب البوير بجنوب أفريقيا، وهي آخر حرب شارك فيها بشكل مباشر، واستطاع مواجهة حرب العصابات باقتداره كما أدار بعد ذلك دفة المفاوضات مع الثوار البوير والسود بكفاءة عالية، فرجع إلى بلاده حاملاً لقب فيكونت وهبة تقدر بخمسين ألف جنيه استرليني.

ومازال يُذكر إلى الآن في جنوب أفريقيا بأنه الرجل الذي ترك ٤٠ ألف امرأة وطفلاً يموتون في معسكرات الاعتقال الإنجليزية.

Gesundheit! Bringing Good Health to you, the Medical System, and Society through Physician Service, Complementary therapies, humor and Joy.

(جيزوندهايت! تقدم لكم الصحة الجيدة والنظام الطبي من خلال الخدمة الطبية والعلاجات المكملة والفكاهة والمتعة)

Patch Adams, M.D. with Maureen Mylander

Vermont:Healing Arts Press, pp., 227.

مؤلف هذا الكتاب طبيب أمريكي كرس عمله وحياته لتقديم خدمة الرعاية الطبية بمفهوم جديد وبشكل يختلف عما هو سائد بين ممارسي الطب الغربي. ويروى لنا هنا مشواره وفلسفته في العلاج التي يطبقها في معهد «جيسوندهايت» الذي يطمح في تطويره إلى مستشفى مجاني مفتوح لأي شخص من أي مكان في العالم.

فعندما كان طالبا يدرس الطب وجد أثناء التدريب العملي أساتذته الأطباء يتعجرفون ويتعالون على مرضاهم الذين لا يعرفون لديهم بأسمائهم وإنما بأسماء الأمراض التي يحملونها. وكان أكثر المشاهد لا إنسانية من وجهة نظره هو دخول مجموعة من الأطباء وطلابهم حجرة مريض والتفافهم حوله أثناء الكشف.

أما المريض فما هو إلا متلق سلبي للحكمة الإلهية التي ينطق بها الطبيب الذي يمثل دور البطل الواجب الاستماع إليه بلا مناقشة.

وشاهد باتش آدمز أثناء الممارسة كيف أصبحت مهنة الطب مجرد مصدر للثراء والجاه الاجتماعي للأطباء. وكيف يخفون أخطاء بعضهم البعض في الوقت الذي يظهرون فيه أمام مرضاهم بهذا الغرور العلمي.

وخلص آدمز إلى أن العلاج الطبي يمر بأزمة لا تنفصل عن أزمة الحياة العائلية والحياة الاجتماعية الموجودة في مجتمعه، حيث أصبح الطب أكثر الخدمات غلاءً، وانتهى باتش آدمز بخبرته من معايشة المرضى إلى أنهم يعانون أكثر ما يعانون من الألم النفسي والروحي النابع من الوحدة والآمال المحبطة.

فهم غير سعداء بأنفسهم أو بحياتهم وفي حاجة إلى إنعاش روحي بالأساس، ولهذا وجد آدمز نفسه يقود ثورة اجتماعية سلمية من خلال مركز «جيسوندهايت». حيث تقوم فلسفته على أن الصحة تعتمد بالأساس على السعادة، السعادة التي تأتي من الضحك والشعور بدفء علاقات الأسرة والأصدقاء والرضا في العمل والإحساس بالطبيعة والفن.

ويقوم باتش آدمز حاليا بإلقاء المحاضرات في الجامعات والمؤتمرات الطبية المختلفة شارحا تجاربه والنجاح الذي لاقاه في معالجة الكثير من الحالات.

وقد بدأ باتش معهده الطبي أساسا من منزله واعتمد ومازال على المتطوعين من الأطباء وغيرهم من مختلف أنواع المعالجين. ويقوم العلاج عنده على دمج الرعاية الطبية بالتسلية والمتعة والصداقة بين المريض والمعالج حيث يشتركون جميعا معالجين ومعالَجين في أعمال مختلفة تشمل الزراعة وتربية الحيوانات والأعمال الفنية واليدوية المختلفة التي تجرى في المعهد والمزرعة الملحقة به. يؤمن باتش آدمز بعبارة أحد أطباء القرن السابع عشر التي تقول أن وصول مهرج مضحك إلى مدينة ما يفيد صحة أهلها بأكثر مما يفيدهم وصول ٢٠ بغلا محملا بالعقاقير والأدوية.

وقد أنتجت هوليوود في العام الماضي فيلما سينمائيا عن مسيرة هذا الطبيب غير العادي.

اجتمـــــاع

دين الحرافيش في مصر المحروسة
علي فهمي
القاهرة : ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩
يضم عددا من الدراسات العلمية التي تقع على تخوم التاريخ الاجتماعي والثقافي المصري. ويدرس الباحث في هذا الكتاب كثيرا من الظواهر الاجتماعية التي التصقت بالدين وممارساته الشعبية وبدت كما لو كانت جزءا أصيلا منه.

□ □ □

يهود اليمن
كاميليا أبو جبل
دمشق : دار النمير، ١٩٩٩
دراسة أكاديمية تعرف بيهود اليمن وتحلل ظروفهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، تستند الدراسة إلى مجموعة نادرة من المخطوطات العربية والعبرية.

□ □ □

Pierre Bourdieu et la Theorie du Monde Social
(بيير بورديو وقانون العالم الاجتماعي)
Louis Pinto
Albin Michel, 1999, 264p, 120f.
تتمثل ثورة بورديو من وجهة نظر المؤلف في تلك النظرة الجديدة للعالم الاجتماعي والتي تهتم بالتركيبة الرمزية للمجتمع.

□ □ □

She Works / He Works: How Two-Income Families are Happy,Healthy, and Thriving
(هي تعمل / هو يعمل: كيف تكون الأسر ذوات الدخل المزدوج سعيدة وصحية وناجحة)
Rosalind C.Barnett and Caryl Rivers
Harvard University Press,1998, $15.95.
دراسة استغرقت أربع سنوات تخلص إلى أن الزوجين المتعاونين ينجحان في أدوارهما المتنوعة رغم انشغالهما ويولدان الكفاءة والثقة في أطفالهما.

□ □ □

The Social Animal
(الحيوان الاجتماعي)
W.G. Runciman
Harper Collins, 1998, 230pp, £14.99.
مقدمة في علم الاجتماع، تحتوي على رؤية في ماهية هذا العلم وما يجب أن يكون عليه وهدفه الرئيسي الذي يتركز وفقا للمؤلف في محاولة تفسير أسباب وجود المجتمعات والمؤسسات الإنسانية المختلفة كما هي عليه.

أديـــــان

الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية
الشيخ محمد الغزالي
القاهرة: نهضة مصر، ٩٨
كتابات عن أسباب تدهور المجتمعات العربية والإسلامية من وجهة نظر دينية، كتبها الداعية الراحل الشيخ محمد الغزالي، يقدم فيها تحليلاً لأوجه الفساد وفرص النجاة منها.

□ □ □

من فقه الأقليات المسلمة
خالد محمد عبد القادر
الدوحة : سلسلة كتاب الأمة، ١٩٩٨.
دراسة لموضوع فقه الأقلية المسلمة في البلاد غير الإسلامية تتناول الأحكام الشرعية والفقهية والاجتهادات المتعددة في مجال العبادات والمعاملات والعلاقات الاجتماعية.

□ □ □

An Introduction to the Bible
(مقدمة في الإنجيل)
J.W.Rogerson
Penguin, 1999, 256pp, £ 7.99
يتناول أستاذ الدراسات الإنجيلية بجامعة شيفيلد مراحل تطور الإنجيل إلى أن وصل لأشكاله المعروفة، وأثره في تشكيل الأحكام الأخلاقية.

□ □ □

Buddhism Plain and Simple
(البوذية في بساطة ووضوح)
Steve Hagan
Penguin,1999,176pp, £6.99
كتاب عن البوذية في عالم اليوم.

إعـــــلام

الإعلان
منى الحديدي
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩
يدرس الإعلان وخصائصه وتعريفاته، ويتناول التشريعات الإعلامية في مواجهة التدفق الإعلاني المستمر، وتحلل المؤلفة لغة الإعلان وأساليبه في دول عربية عدة، بينها مصر والكويت وقطر والسعودية وعمان والإمارات وغيرها.

□ □ □

التخطيط الإعلامي
حميد الديلمي
القاهرة : دار الشروق، ١٩٩٨
يقدم رؤية جديدة للتخطيط الإعلامي تختلف عن الأدبيات السابقة التي تناولت الموضوع ذاته، في عصر بات الإعلام فيه يلعب دورا بالغ التأثير والأهمية.

□ □ □

The Entertainment Economy
(اقتصاد الترفيه)
Michael Wolf
Penguin, 1999, 288pp. £16.99
المؤلف أهم خبير إعلامي وترفيهي في العالم من بين عملائه روبرت مردوخ وتد ترنر وديزني.
يقدم تحليلا للكيفية التي تعمل بها شركات الإعلام الكبرى في العالم كما يقدم نصائح للشركات الصغيرة عن كيفية النمو والاستمرار. ويتنبأ بأن اقتصاد الترفيه هو الذي سيقود الاقتصاد العالمي فيما بعد.

تـاريـــخ

اليهود في مصر الملوكية
محاسن محمد الوقاد
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
يتناول حياة هذه الطائفة في مصر المملوكية، كيف مارسوا شعائرهم؟ كيف كانت علاقاتهم بغيرهم من المصريين من الطوائف الأخرى؟ ماهي مساهماتهم في الحياة العامة والمهن التي عملوا بها؟

□ □ □

صدمة الاحتكاك : حكايات الإرسالية الأمريكية في الخليج والجزيرة العربية (١٨٩٢-١٩٢٥)
إعداد وترجمة : خالد البسام
بيروت : دار الساقي، ١٩٩٨
يروي نشاط الإرسالية الأمريكية ورحلاتها في منطقة الخليج، إضافة إلى العراق واليمن، والتي كان عملها يجمع بين العمل التبشيري والطبي والثقافي والتعليمي والإنساني.

□ □ □

Religion in Roman Egypt: Assimilation and Resistance
(الدين في مصر الرومانية: الاستيعاب والمقاومة)
David Frankfurter
Princeton University Press, 1998.
تناول جديد للديانة المصرية القديمة التي يرى المؤلف أنها استمرت حتى بعد دخول المسيحية إلى مصر لعدة قرون.

□ □ □

Silent Images: Women in Pharaonic Egypt
(صور صامتة: النساء في مصر الفرعونية)
Zahi Hawass
Foreword by H.E. Mrs. Suzanne Mubarak
Cairo: The AUC Press,1999, 238pp(pb), L.E 90.
يبحث زاهي حواس في الكتاب الذي كتبت مقدمته السيدة سوزان مبارك عن صورة واقعية لحياة المرأة في مصر القديمة. معتمدا على مواد لم تنشر بعد من خلال كشوفاته الأثرية الأخيرة في منطقة الجيزة، فيلقي لنا الضوء على حياة العاملات اللاتي شاركن في بناء الأهرامات.

□ □ □

The Life and Times of Pancho Villa
(حياة وزمن بانشو فيلا)
Freidrich Katz
Stanford University Press, 1999, 985pp. $85.
فصول وأحداث الثورة المكسيكية (من ١٩١٠ إلى ١٩١٧) من خلال حياة أحد أبطالها.

تراجم وسير

داج همرشولد - حياته وفكره
السيد أمين شلبي
القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
يقدم الكتاب صورة متكاملة عن حياة وشخصية همرشولد كسكرتير عام للأمم المتحدة في مرحلة عاصفة من تاريخها في الفترة من ٥٣-١٩٦٠، ويبرز الجانب الفكري والفلسفي في حياته واهتماماته الأدبية والفنية، وانحيازاته لمجموعة من القيم التي رسخت استقلالية الأمم المتحدة، وهي سمة تحتاجها المنظمة الدولية اليوم أكثر من أي وقت آخر.

□ □ □

مشاهير وساخرون وصعاليك
كمال سعد
تحقيق: قاسم السامرائي
القاهرة : دار الشعب، ١٩٩٨
يغوص الكتاب في أعماق ٧٠ شخصية سياسية وأدبية وثقافية لمشاهير مصر والعرب والعالم.

□ □ □

Memories of a lost Egypt: Reminiscences and Recipes
(ذكريات عن مصر: تذكارات ووصفات)
Colette Rossant
Crown, 1999, 176 pp, £20 (hb)
الكاتبة يهودية من أب مصري وأم فرنسية، عاشت طفولتها في مصر في فترة الثلاثينيات وتعمل الآن كاتبة في صحيفة «الدايلي نيوز» نيويورك. تشرح ضمن مذكراتها طرق إعداد الأكلات المصرية مثل الزلابية والكشري.

□ □ □

The Messenger: The Rise and Fall of Elijah Muhammed
(الرسول: صعود وسقوط إليجيا محمد)
Karl Evanzz
Pantheon, 1999, 656 pp, £27.50
ترجمة لحياة الرجل الذي أسس «أمة الإسلام» في الولايات المتحدة الأمريكية. وبالرغم من أن أفكاره التي تميز بين الأسود والأبيض تتنافى مع مبادئ الإسلام، إلا أنها قادت ٤ ملايين أمريكي من ذوي الأصل الأفريقي إلى اعتناقها، ومن بينهم مشاهير مثل محمد على كلاي وجيسي جاكسون ومالكوم إكس ولويس فارخان.

اقتصاد وتنمية

الاقتصاد العربي في مواجهة تحديات القرن الواحد والعشرين
إشراف: محمود عبد الفضيل
القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٨، ٤٣٣ص
ويشمل دراسات عن الآثار الاقتصادية المحتملة لكل من اتفاقات الشراكة الأوروبية / المتوسطية واتفاقات تحرير التجارة العالمية واتفاقية الاستثمار

المتعددة الأطراف. بالإضافة إلى دراسات تتناول التحديات التى تواجه الزراعة والنفط والتطور التكنولوجى فى العالم العربى.

□ □ □

مستقبل الاقتصادات العربية

عبد الرحمن صبرى

القاهرة: المركز العربى للدراسات الإستراتيجية، ١٩٩٩.

دراسة فى تطور الناتج المحلى الإجمالى للدول العربية، إذ يحلل المؤلف هذا الناتج استنادًا إلى الإطار الإقليمى الذى تتم فيه التنمية العربية، والاختلالات الهيكلية الاقتصادية والمالية التى عاناها الاقتصاد العربى فى الثمانينيات، ويقدم رؤية لمستقبل الاقتصاد العربى فى ضوء هذه المحددات.

□ □ □

المرأة والتنمية

تحرير: هبة أحمد نصار. صلاح سالم زرنوقة

القاهرة: مركز دراسات وبحوث الدول النامية، ١٩٩٩.

يتناول الكتاب عددا من الدراسات التى قدمت إلى ندوة عن المرأة والتنمية، وتتناول القضية من منظور جديد، يعتبر المرأة فاعلا أساسيا فى عملية التنمية، والتنمية كما تبينها هذه الدراسات متعددة الأبعاد سياسية واجتماعية وفكرية بأكثر مما هى اقتصادية.

□ □ □

The New Global Economy and Developing Countries: Making Openness Work

(الاقتصاد العالمى الجديد والدول النامية: كيف نجعل الانفتاحية تنجح)

Dani Rodrik

Johns Hopkins Up, 1999,100pp, $13.95

يرى المؤلف أن الانفتاح الاقتصادى على العالم لا يجب أن يكون هدفا فى حد ذاته فى الدول النامية، حيث تحتاج هذه الدول فى رأيه إلى استراتيجية للاستثمار المحلى الذى يعده مفتاح النمو الاقتصادى. ويضيف أنه لن يحمى هذه الدول من الصدمات الاقتصادية سوى استقرار الديمقراطية فيها وحكم القانون والتأمين الاجتماعى.

روايـــات

أربع وعشرون ساعة فقط

يوسف القعيد

القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩.

تدور أحداث الرواية فى عام ١٩٩٢، بالتحديد فى أكتوبر من هذا العام الذى شهد أحد أيامه زلزالا هز مصر جميعها، ويعرض المؤلف للحظات الإنسانية التى امتزج فيها الخوف بالتضحية بالسخط، عبر عديد من الشخصيات فى «محروسة عبد الحى» حيث تقع أحداث الرواية.

□ □ □

ريّا النهر. رواية

جبور الدويهى

بيروت: دار النهار، ١٩٩٨.

وهى الرواية الأخيرة للمؤلف الذى صدر له من قبل «الموت بيد الأهل نعاس» مجموعة قصصية، ورواية «اعتدال الخريف».

□ □ □

غناء البطريق/ رواية

حسن داود

بيروت: دار النهار، ١٩٩٨.

الرواية الأخيرة للأديب والصحافى اللبنانى حسن داود الذى صدرت له من قبل روايات «بناية ماتيلد»، و«أيام زائدة»، و«سنة الأوتوماتيك»، ومجموعة قصصية هى «نزهة الملاك».

□ □ □

غواية الشحرور الأبيض

محمد شكرى

كولونيا: منشورات الجمل، ١٩٩٨.

يدخلنا محمد شكرى إلى مختبره السرى كاشفا مصادر إبداعه، وتأثره بالحياة فى طنجة وفاس وغيرهما من مدن المغرب، ويسلط الضوء على الكتابة وأهلها، مفرقًا بين البعدين التسجيلى والإبداعى فيها، وكأنه يرد سلفا على من هاجم سيرته الذاتية خصوصا الجزء الأول منها «الخبز الحافى».

□ □ □

مثل صيف لن يتكرر

محمد برادة

الرباط: الفنك، ١٩٩٩.

يصف المؤلف حياته فى مصر خلال فترة دراسته بالقاهرة، ومشاركته فى فرق الدفاع الشعبى فى حرب ١٩٥٦، ليس الكتاب سيرة ذاتية بالمعنى الحرفى، وإنما عمل أدبى يستند إلى واقع عايشه المؤلف.

□ □ □

A Man in Full

(رجل بالتمام)

Tom Wolfe

Farrar, Straus and Giroux,1998, 742 pp. $28.

الرواية الجديدة للأديب الأمريكى صاحب رواية The Bonfire of the Vanities والتى اعتبرها النقاد أهم ظاهرة أدبية فى الثمانينيات.

□ □ □

Kafka's Curse

(لعنة كافكا)

Achmat Dangor

Pantheon, 1999, 240pp., $ 22.

رواية كتبها أديب جنوب أفريقيا الذى اشتهر مؤخرًا فى أمريكا، تدور حول أسرة مسلمة وملونة تعيش فى أواخر عهد التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا.

□ □ □

Les Particules Elementaires

Michel Houellebecq

Flammarion, 1998,394 pp, FFr105

أكثر الروايات مبيعا الآن فى فرنسا، مؤلفها ماركسى سابق يبلغ من العمر ٤٠ عاما، تدور حول أخوين غير شقيقين من أم عاهرة، أحدهما فاشل كمدرس وكاتب وزوج وأب، والآخر عالم جينات منعزل يحتقر الإنسانية ويتمنى عالما جديدا لاجنسيا، أفراده من البشر المهندسين جينيا.

سيـــاســة

أزمة الحل العنصرى

أحمد صدقى الدجانى

القاهرة: المستقبل العربى، ١٩٩٩.

يتناول بالتحليل عرضًا لجذور المشكلة الفلسطينية والحلول التى اقترحت لإقامة وطن لليهود منذ مؤتمر بازل بسويسرا وحتى اليوم، ويفند التوجهات العنصرية لحل المشكلة اليهودية، والتى أوجدت مشكلة أخرى يعانى آثارها الفلسطينيون وتدفع فواتيرها المنطقة العربية ككل.

□ □ □

التاريخ السياسى لتركمان العراق

عزيز الصمانجى

بيروت: دار الساقى، ١٩٩٩.

يتناول التاريخ السياسى لتركمان العراق منذ أقدم عصورهم وحتى اليوم، ويلقى الضوء على أحوال هذه القومية المتمايزة، دورهم فى تاريخ العراق وأمانيهم القومية والوطنية.

□ □ □

التحدى الإسلامى فى الجزائر

ترجمة: عادل خير الله

الأردن: المطبوعات للنشر والتوزيع، ١٩٩٩.

يدرس التحديات التى تمثلها الجماعات الإسلامية المسلمة فى الجزائر وتأثيرها على السلطة وشرعيتها فى بلد يعانى أزمة شرعية بين جماعات إسلامية تؤكد حقها فى تولى مقاليد الحكم وسلطة فعلية تنازعها هذا الحق.

□ □ □

الخاتمية

محمد صادق الحسينى

بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩.

يتناول الآثار المترتبة على وصول محمد خاتمى إلى منصب الرئاسة فى إيران، وهو ما أوجد ما يسميه المؤلف بالظاهرة الخاتمية، التى تواجه مواقف محافظة مما يعكس صراعا بين ما تطرحه وما يطرحه المحافظون.

□ □ □

خروج الأهل عن الدولة

وضاح شرارة

بيروت. دار المسار، ١٩٩٩.

يشتمل الكتاب على عنوان فرعى يكشف محتواه «فصل من تاريخ الحروب الملبننة»، ويضم عشرة فصول فضلا عن تمهيد و«خاتمة مؤقتة» كما يسميها المؤلف، وهى جميعها بتحليلها للأوضاع فى لبنان والحوادث التى مرت به، تلقى أضواءً على مسرح الأحداث الحالى واحتمالات انفراجه مستقبلا.

□ □ □

Capitalism with a Comerade's Face

(رأسمالية لها وجه شيوعى)

Roman Frydman, Kenneth Murphy and Andrzej Rapaczynska

Central European University Press,1998, 389pp. £31.

دراسة تفصيلية للأثر الاجتماعى للإصلاحات السياسية والاقتصادية فى البلدان الشيوعية السابقة. فتعرض مثلا «للصفقة الفاوستية» التى سمح الشيوعيون بمقتضاها بتنفيذ الإصلاحات السياسية فى مقابل سماح الإصلاحيين لهم بأن يصبحوا أغنياء فى ظل النظام الجديد.

□ □ □

Pakistan: A Modern History

(باكستان: تاريخ معاصر)

Ian Talbot

London: Hurst, 1999,432pp.£16.50

يحلل المشاكل المزمنة التى ألمت بباكستان منذ عام ١٩٤٧ مثل الانقسام الإثنى والمذهبى، وتدخل الجيش فى السياسة، والتذبذب الاقتصادى إلى جانب العلاقة المعقدة مع الهند، وهشاشة النظام الديمقراطى.

□ □ □

This Blessed Plot: Britain and Europe from Churchill to Blair

(المخطط المبارك: بريطانيا وأوروبا من تشرشل إلى بلير)

Hugo Young

Macmillan, 1999, 543pp, $39.95.

يحلل المؤلف موقف الحكومة البريطانية تجاه أوروبا والوحدة الأوروبية منذ سنوات الحرب العالمية الثانية من خلال مواقف وتصريحات الساسة البريطانيين بدءا من تشرشل وبيفن وانتهاء بتونى بلير.

□ □ □

Twilight of the West

(غسق الغرب)

Christopher Coker

Boulder: Westview Press, 1998,203pp. $ 28.00

يحلل المؤلف التاريخ الثقافى لبلدان الجماعة الأطلنطية التى كان من المفترض أن تكون الأساس السياسى ـ الثقافى لحلف الناتو. ويخلص المؤلف إلى أن ذلك التحالف السياسى لم يحصل أبدا على ولاء عاطفى يكفى لاستمراره بعد زوال التهديد السوفيتى، وذلك بسبب الرؤية المنافسة لفكرة الهوية الأوروبية الموحدة إلى جانب التغيرات الديموجرافية الأخيرة التى تتجه نحو التعددية الثقافية.

علـــوم

العرب وتحديات العلم والتقانة

أنطوان زحلان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩

تتوج هذه الدراسة أكثر من ثلاثين عاما

من البحث، سعى فيها المؤلف وهو أستاذ للفيزياء ومحاضر فى عديد من جامعات العالم إلى إيضاح العلاقة بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والبرامج الاقتصادية وعملية صنع القرار فى الدول العربية من جهة أخرى، خصوصا مع التحديات الكبرى التى يفرضها التقدم المذهل والمستمر فى المجالات العلمية والتكنولوجية على مستوى العالم.

□ □ □

The Fifth Miracle : The Search for the Origin of Life

(المعجزة الخامسة: البحث عن أصل الحياة)

Paul Davies

Simon and Schuster, 1999, 400pp.$25.

المؤلف أستاذ للفيزياء الرياضية كما أنه فائز بجائزة تمبلتون لتقدمه فى الفكر الدينى.

يتحدى فى كتابه هذا علماء التطور البيولوجيين أنصار الفكر الداروينى فى تفسيره لأصل الحياة وقوانينها التى تحكمها.

□ □ □

The Thread of Life: The Story of Genes and Genetic Engineering.

(خيط الحياة: قصة الجينات والهندسة الوراثية)

Susan Aldridge

Cambridge University Press, 1998.

مدخل إلى عالم الجينات والاستخدامات المتعددة للهندسة الوراثية.

عمــــــــارة

Legacies For the Future: Contemporary Architecture in Islamic Societies

(ميراث للمستقبل: العمارة المعاصرة فى المجتمعات الإسلامية)

Cynthia Davidson (editor)

Thames and Hudson, 1999, 176pp, $22.00

كتاب جديد يتناول المشاريع المعمارية السبعة التى فازت بجائزة أغاخان للعمارة فى المجتمعات الإسلامية هذا العام. جدير بالذكر أن هيئة التحكيم ضمت المفكر الجزائرى محمد أركون وقد فاز بهذه الجائزة من قبل المهندس المصرى حسن فتحى.

□ □ □

Paris along the Nile: Cairo Architecture from the Belle Epoque

(باريس على شاطئ النيل: المعمار القاهرى فى العصر الذهبى)

Cynthia Myntti

Cairo: The AUC Press,1999,112 pp (hb), LE90.

قرر الخديوى إسماعيل بعد أن زار باريس فى ١٨٦٧ أن ينشئ مدينة حديثة على نفس الطراز المعمارى الموجود فى باريس. يحتوى هذا الكتاب على ٢٠٠ صورة فوتوغرافية لمبانى القاهرة التى أنشئت على الطراز الفرنسى، وتصاحب الصور تعليقات تحتوى على عنوان المبنى واسم مصممه وعام إنشائه واسم أول مالك له.

□ □ □

The Traditional Architecture of Saudi Arabia

(العمارة التقليدية فى السعودية)

Geoffery King

St.Martins Press, 1998, 256pp, $75.00

الكتاب يستعرض طرز المعمار التقليدى المختلفة فى أنحاء الجزيرة العربية، حيث يختلف الطابع المحلى للقرى والمدن على ساحل البحر الأحمر عن تلك الموجودة على الخليج وبين الجبال وفى سهول نجد الداخلية.

فــكــــر

أبى آدم .. قصة الخليقة بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض

عبد العظيم إبراهيم المطعنى

القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩

يفند الآراء التى تبناها الدكتور عبد الصبور شاهين فى كتابه عن خلق آدم، والذى قال فيه إن آدم ليس هو أول البشر، ويستخدم المطعنى أدوات لغوية وبلاغية وفقهية ليرد مزاعم شاهين، ويؤكد عبر سطور كتابه خطورة الخوض فى مثل هذه الأمور التى يعتبرها من الغيبيات.

□ □ □

القراءات وأثرها فى علوم العربية

محمد سالم محيسن

بيروت: دار الجيل، ١٩٩٩

يتعرض لأثر علوم القراءات فى اللغة العربية وإعجاز القرآن وبيانه وسره ولغته الجميلة وأثرها فى العربية.

□ □ □

القضاء القبطى فى مصر

مجدى جرجس

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات

تتناول الدراسة نشأة القضاء القبطى المسيحى وتطوره فى العصر الرومانى، والأسس النظرية التى قام عليها وتداخل التشريعات الكنسية مع التشريعات المدنية، والمراحل التى مر بها القضاء القبطى منذ الفتح العربى الإسلامى وأثرها على مساره، ويتعرض الكتاب بالتفصيل للإجراءات المتبعة فى سير الدعاوى فى القضاء القبطى وكيفية إصدار الأحكام وتنفيذها.

□ □ □

اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم

كمال بشر

القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٩٩

يرفض المؤلف فى كتابه القول بأن اللغة الفصحى جامدة وغير قادرة على مجاراة معطيات العصر والتعاطى مع مشكلاته، ويقدم تصوراته لإمكانيات تطورها وقدراتها الكامنة القادرة على استيعاب كل جديد والتعبير عن كافة المشكلات المعاصرة بأقصى درجة من الوضوح والإبانة.

□ □ □

مجرد ذكريات

رفعت السعيد

دمشق: دار المدى، ١٩٩٩

ذكريات يمزج فيها المؤلف همه الخاص بهموم الوطن وقضايا أمته، لايبعد الدكتور رفعت السعيد كثيرا عن رؤاه التاريخية، لكنه يقدمها هنا من وجهة نظر شخصية وإنسانية فى آن معا.

□ □ □

مقاربات فكرية وسياسية فى الشأن العربى الراهن

محمد مصطفى القباج

الرباط: المؤسسة العربية للنشر والإبداع، ١٩٩٩

يحتوى الكتاب على مجموعة من المقالات التى تتناول الوضع العربى الراهن، ويقدم المؤلف عبرها رؤية استشرافية للمستقبل العربى فى ضوء المعطيات الآنية.

□ □ □

The Culture of Secrecy: Britain 1832 - 1998

(ثقافة الكتمان: بريطانيا ١٨٣٢ - ١٩٩٨)

David Vincent

Oxford University Press / Clarendon Press, 1998.

أول دراسة شاملة للكتمان فى بريطانيا. يتناول من خلالها أسباب إخفاء الأسرار وأثرها فى تأسيس نظم الحكم وفى هدمها خلال المائة والستين عامًا الماضية.

□ □ □

Uncommon People: Resistance, Rebellion and Jazz

(ناس غير عاديين: المقاومة والتمرد والجاز)

Eric Hobsbawm

The New Press, 1998.$ 27.50

يبدأ المؤرخ الشهير مجموعة مقالاته بمناقشة الفن والأيديولوجيا ثم يفسر كيف أسهمت اتحادات العمال فى تفوق عمل الرجال على عمل المرأة؟ ولماذا قاد صناع الأحذية على وجه الخصوص الكثير من الثورات. كما يعترف فى كتابه بولعه المبكر جدا بموسيقى الجاز حتى فى حفلاتها «الإمبريالية».

فلسـفــة

تاريخ فلاسفة الإسلام

محمد لطفى جمعة

القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٩

يحوى اثنى عشر فصلا تتناول الفلاسفة على مر العصور، بدءا من أرسطو وحتى فلاسفة العصر الحديث، مرورا بفلاسفة المسلمين من أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد وغيرهم، عارضا لأهم آرائهم فى القضايا المختلفة.

□ □ □

الوجه الآخر لحداثة ابن رشد

محمد المصباحى

بيروت: دار الطليعة، ١٩٩٩

يأتى هذا الكتاب فى مناسبة مرور ٨٠٠ سنة على وفاة الفيلسوف أبو الوليد بن رشد، وفى هذا الكتاب يحاول المؤلف كشف الوجه الخفى لابن رشد عبر فلسفته المرنة القابلة للتفاعل مع هموم العالم المعاصر.

□ □ □

Beyond Evolution : Human Nature and the Limits of Evolutionary Explanation

(ماوراء التطور: الطبيعة الإنسانية وحدود التفسير التطورى)

Anthony O' Hear

Clarendon Press, 1999. £11.99

يقف أنتونى أوهير أستاذ الفلسفة بجامعة برادفورد ضد «موضة» تفسير السلوك الإنسانى من خلال نظرية التطور. فيرى أن النظرية تصلح فقط فى تفسير تطور الكائنات الحية ولكنها لاتقدم تفسيرا «شاملا» لأوجه الحياة الإنسانية الأخرى مثل الوعى بالذات والبحث وراء المعرفة والحس الأخلاقى وتقدير الجمال. حيث إنه فى تلك الأمور يتجاوز الإنسان أصله البيولوجى ولا يكون خاضعا لإرثه الجينى أو الثقافى.

□ □ □

Principes de la Philosophie du Droit de Hegel

(مبادئ فلسفة القانون لهيجل)

Traduction et presentation de Jean Louis Baron

GF - Flammarion, 1999, 448p, 62f.

ترجمة فرنسية جديدة لكتاب هيجل الشهير موجهة إلى القارئ العادى ببساطة فى الأسلوب. هذا الكتاب لاقى نجاحا وشعبية كبيرة منذ أن ظهر فى ١٨٢٠ حيث يمس موضوعات مهمة مثل الملكية والعدل والأخلاق والأسرة والدولة.

□ □ □

Truth: A History and a Guide for the Perplexed

(الحقيقة: تاريخ ودليل لمن اختلط عليهم الأمر)

Felipe Fernandez - Arnesto

London: Black Swan, 1998.

رأى غير نسبى عن طريقة تحديد الحقيقة.

فـنــــون

قراءات نقدية فى أفلام التسعينيات

قصى صالح الدرويش

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٩.

يقدم الكتاب قراءة نقدية وتحليلية لعدد من أهم الأفلام العربية التى عُرضَت فى السنوات العشر الأخيرة. ويصوغ المؤلف عبر هذه القراءة رؤية شاملة

لأوضاع السينما العربية الراهنة، وآفاقها المستقبلية، بين ما يعرض له المؤلف: المصير ليوسف شاهين، وكومبارس لنبيل المالح، وابنة الهواء لمارون بغدادى، وباب الواد الحومة لمرزاق علواش، وبيزنس لنورى بوزيد، وعصفور السطح لفريد بو غدير وغيرها.

□ □ □

متحف فى كتاب
مختارات من مجموعة د. محمد سعيد فارس (الأعمال المصرية)
صبحى الشارونى
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨
يضم عشرات الأعمال لفنانين تشكيليين مصريين يمثلون أجيالاً مختلفة منذ محمد ناجى، ومحمود مختار، وراغب عياد، ويوسف كامل إلى صلاح عنانى، ومحمد الناصر، وميشيل معلوف مرورًا بحامد ندا، وإنجى أفلاطون، وحامد عبد الله، وجاذبية سرى، وحسن سليمان، وحلمى التونى، وفاروق شحاتة وغيرهم. وتمثل هذه المجموعة متحفا يؤرِّخ للفن المصرى باتجاهاته ومدارسه وتطوره على مدى قرن كامل تقريبا.

□ □ □

Tchaikovsky and his World
(تشايكوفسكى وعالمه)
Leslie Kearney (Editor)
Princeton University Press, 1998.
باحثون من عدة مجالات يكشفون نواحى مختلفة لتشايكوفسكى تغير من الفهم السائد عن حياته وأعماله والوسط الثقافى الذى عاش فيه.

متنوعـــــات

الأحجار الكريمة
السيد الجميلى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٩
بحث جغرافى تاريخى جيولوجى ودينى أيضا فى الأحجار الكريمة، كاشفا عن بعض الأمراض التى تتعرض لها هذه الأحجار وتؤثر فى نقاوتها، كما يصف كرسى سليمان ـ عليه السلام ـ الذى صممه الجنى المسخر بكل ما حواه من إعجاز ورفاهة.

□ □ □

وسائل المواصلات
يعقوب الشارونى
القاهرة: دارسفير، ١٩٩٩
يتعرض لنشأة وسائل المواصلات وتاريخ تطورها برا وبحرا وجوا، وفضل قدماء المصريين والقوافل العربية فى تطور هذه المواصلات واكتشافهم للطرق البحرية.

□ □ □

The Madman and the Professor
(الرجل المجنون والأستاذ)
Simon Winchester
Harper Collins,1998, $ 22.
قصة واقعية عن رجل أمريكى قاتل ومجنون، استطاع أن يساعد جيمس موراى فى تجميع مادة قاموس أكسفورد الإنجليزى من مقر إقامته فى مصحة عقلية.

مراجـــع

دليل إصدارات الناشرين
شعبان خليفة
القاهرة: اتحادالناشرين، ١٩٩٩
يقدم ببليوجرافيا كاملة عند أحدث الإصدارات التى أخرجتها دور النشر المصرية، إذ شارك فيها نحو تسعة وخمسين ناشرًا، والحق بهذه الببليوجرافيا كشافان، أحدهما هجائى بأسماء المؤلفين والآخر هجائى بالعناوين، ويقدم الدليل بهذا المحتوى صورة واضحة لما انتجه الناشرون المصريون وتوجهات إصداراتهم، بما يعين القارئ على الاختيار والاقتناء.

□ □ □

The Dictionary of Global Culture
(قاموس الثقافة العالمية)
Kwame Anthony Appiah and Henry louie Gates, Jr.
Penguin, 1999, 736 pp, £ 12.99 (pb)
مقالات عن كتاب موسيقيين ومفكرين من جميع أنحاء العالم إلى جانب موضوعات عن الدين والفلسفة. جمعها المحرران إيمانًا بان العالم يتجه إلى ثقافة عالمية بعد ٥٠٠ عام من الهيمنة الغربية. ففى عام ٢٠٠٠، نصف سكان العالم سيكونون من الآسيويين، وثمن السكان من أفريقيا، كما ستكون الأغلبية غير مسيحية، بل إن أكبر مدن العالم لن تكون فى أى من أوروبا أو الولايات المتحدة.

□ □ □

The Modern Arabic Novel: Bibliography and Critical Introduction, 1865-1995.
(الرواية العربية الحديثة: مقدمة نقدية وببليوجرافيا ١٨٦٥ـ١٩٩٥)
Hamdi Sakkut
Cairo: The AUC Press,1999, 3200 pp. 5Vols. (pb), LE. 450
يشتمل المجلد الأول على مقدمة باللغتين العربية والإنجليزية عن أصول الرواية العربية وخصائصها فى كل من مصر والدول العربية المشرقية والدول العربية فى شمال أفريقيا.
أما المجلدات من الثانى إلى الخامس فتتناول معلومات ببليوجرافية عن كل رواية عربية نشرت ما بين ١٨٦٥ و١٩٩٥. بالإضافة إلى معلومات عن الأعمال النقدية المرتبطة بكل رواية.

□ □ □

The Penguin Biographical Dictionary of Women
(قاموس بنجوين لتراجم النساء)
Margaret Bluman (editor)
Penguin, 1998, 636pp (pb), £ 12.99
يحتوى على سيرة حياة مختصرة لألف وستمائة سيدة، أكثرهن من أمريكا وأوروبا، وأكثرهن من سيدات القرن العشرين.

مســـرح

الحركة المسرحية فى لبنان (١٩٦٠ ـ ١٩٧٥)
خالدة سعيد
بيروت: لجنة المسرح العربى، ١٩٩٩
تتناول الناقدة فى هذا الكتاب مشوار المسرح فى لبنان، وهى لاتقدم ببليوجرافيا تاريخية، وإنما رؤية نقدية لهذه المسيرة، تجيب خلالها على عديد من التساؤلات المطروحة على الساحة المسرحية العربية، وتبدى آراءً فى رواد المسرح مثل مارون نقاش وجورج أبيض وآخرين.

□ □ □

رواد وأساتذة فى المسرح المصرى
أحمد سخسوخ ـ فوزى فهمى
القاهرة: أكاديمية الفنون، ١٩٩٩
كتاب تذكارى يتناول نفرا من رواد المسرح الذين أسهموا فى نشأته وتطوره من أمثال زكى طليمات وتوفيق الحكيم وإبراهيم حمادة.

□ □ □

مسرحيات عراقية
قاسم محمد، عبدالخالق الركابى، عواطف نعيم
القاهرة: دار عشتار، ١٩٩٩
تحت عنوان أدب ضد الحصار تأتى هذه الإبداعات من العراق الشقيق، وهى مسرحيات لمسرحيين عراقيين يقيمون فى العراق، يمتزج فيها الجد بالسخرية والواقع بالفانتازيا والتراث بالمعاصرة.

□ □ □

On Directing
(عن الإخراج)
Gabriella Giannachi (editor)
Foreword by Peter Brook
Faver, 1999, 256pp, £9.99
الأساليب الجديدة فى الإخراج المسرحى المعاصر فى بريطانيا.

نقد أدبى

حوار مع الرواية المعاصرة
حلمى القاعود
دمشق: أشبيلية، ١٩٩٩
يحلل فيه المؤلف عدداً من الروايات التى يمس مضمونها قضايا مهمة فى مجتمعاتنا، فهو لايقدم رؤية نقدية جمالية فحسب، وإنما يعنى أساسا بالهموم التى تعكسها تلك الأعمال الروائية ومدى تعبيرها عن شواغل المواطن والإنسان العربى.

□ □ □

ظاهرة التعالق النصى فى الشعر السعودى الحديث
علوى الهاشمى
السعودية: صحيفة الرياض ـ الكتب الشهرية، ١٩٩٨
يحلل المؤلف شبكة العلاقات النصية التى ترد الشعر السعودى إلى بنى فنية وثقافية واحدة، وقد رُصد بعضها فى سياق آخر تحت عنوان «شعراء الظل» مؤكدا أصالة هذه العلاقات فى الوعى الاجتماعى والسياسى.

□ □ □

نزار قبانى والثورة العربية
صبرى العسكرى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩
يلقى الضوء على واحد من الجوانب المهمة فى شخصية نزار قبانى، ونعنى به الجانب العروبى الذى شغل الشاعر كثيرا وكتب فيه عددًا من أهم قصائده التى يستشهد بها المؤلف فى تحليله لمواقف الشاعر القومية

□ □ □

هسهسة اللغة
رولان بارت
ترجمة: منذر عياش
سوريا: مركز الإنماء الحضارى، ١٩٩٩
يأتى هذا العمل استمرارًا لترجمة روائع رولان بارت التى قام بها المترجم، وهو واحد من النقاد الحداثيين المتابعين للتوجهات النقدية الحديثة فى الغرب.

□ □ □

An Introduction to Modern European Literature: From Romanticism to Postmodernism
(مقدمة فى الأدب الأوروبى الحديث: من الرومانسية إلى ما بعد الحداثة)
Martin Travers
St. Marting Press, 1998, 276 pp, $19.95

□ □ □

Bad Girls and Sick Boys: Fantasies in Contemporary Art and Culture
(فتيات سيئات وصبيان مرضى: الأوهام فى الفن والثقافة المعاصرين)
Linda S. Kauffman
University of California, 1998, 324pp., $10.95.
تدافع المؤلفة عن المؤلفين والفنانين الذين تعرضت أعمالهم للإيقاف من جانب الرقابة، وتحلل أثر الحرب والتكنولوجيا على نظرة الفنان المعاصر للجسد الإنسانى.

□ □ □

Tending the Heart of Virtue: How Classic Stories Awaken a child's Moral Imagination
(رعاية قلب الفضيلة: كيف توقظ القصص الكلاسيكية الخيال الأخلاقى للطفل)
Vigen Guroian
Oxford UP, 1998, 176pp, $22.00
المؤلف عالم لاهوت بالأساس ولكنه يعمد إلى دراسة اثنتى عشرة قصة من كلاسيكيات التراث الغربى مبينًا أثرها الأخلاقى الإيجابى على وعى الأطفال.

وجهات نظر الكتب رسائل

الكتابة التاريخية فى مصر
أزمة منهج أم أزمة تطبيق؟

رغم أهمية التأليف باللغة العربية فى منهج البحث فى التاريخ، والاعتراف بفقر المكتبة العربية فى المؤلفات «الرصينة» الخاصة بهذا الباب على نحو ما أشار الدكتور رءوف عباس فى صدر مقالته، إلا أن أزمة البحث فى التاريخ فى تقديرى أكبر من نقص الكتابة فى المنهج، إذ يكفى ما كتب فيه سواء أكان ترجمة عن الآخرين أو تأليفا مزودا ببعض خبرات المؤلف من واقع ملاحظاته وتأملاته. أما ماينقص بعد ذلك فهو استيعاب المكتوب استيعابا جيدا والتدريب على كيفية استخدامه وتطبيقه.

والمشكلة التى أصبحت تبدو إشكالية، تكمن فى الفصل بين تدريس المنهج تدريسا نظريا مجردا فى قاعة الدرس وبين ممارسة تطبيقه عمليا.. فمثلا يحاضر الأستاذ طلابه فى أهمية العلوم المساعدة للبحث فى التاريخ وتتحدد بدائرة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ويؤكد أنه عند البحث فى موضوع له بعد اقتصادى فيتعين دراسة الاقتصاد والاقتصاد السياسى حتى يمكن التعامل مع المادة التاريخية، والتقاط ما فيها من إشارات اقتصادية.. وهكذا فيما يتعلق بالموضوع الذى يكون له بعد اجتماعى أو قانونى.. الخ. ومن هنا يدرك الطالب استحالة الفصل بين الظواهر، ويتعلم صعوبة دراسة ظاهرة فى التاريخ بمعزل عن الظواهر الأخرى. كما يتعلم الربط بين جزئيات معارف الموضوع حتى تكتمل عنده صورة الموضوع. ولكن عندما يكتب الباحث بحثه نجده خلوا من الاتصال بأساسيات العلم المساعد الذى يتصل بموضوع بحثه، ومن ثم يأتى البحث مجرد معلومات مصفوفة منقولة من أوراق قديمة صفراء على ورق أبيض.

ويدرس الطالب - ليس فى جميع أقسام التاريخ بالكليات - فلسفة التاريخ.. أى تفسير حوادث التاريخ فى ضوء مفاهيم نظرية مثالية ومادية ليدخل بأى واحدة منها لموضوع البحث، ويردد الطالب وراء الأستاذ هذه المفاهيم لكنه لايعرف كيفية استخدامها.. إما لأن القائم بالتدريس فى كثير من الأحيان لايعرف من التاريخ سوى أنه فن رواية الحوادث وليس تعليلها وفق مفاهيم معينة، وإما لأن الباحث لا يتمتع بقدرة ذهنية على استيعاب الأفكار المجردة وأصبحت فلسفة التاريخ فى قاعة الدرس عبارة عن حديث عن مفاهيم نظرية، وليس تعليم الكتابة بها.

ومن مظاهر بؤس الدراسة فى التاريخ أن يتعلم الطالب أن المؤرخ ما هو إلا قاض!!.. وطالما أنه اعتلى منصة القضاء فإن عليه أن يحكم.. ولاراد لأحكامه. وهذا فهم مبتسر لمهمة الباحث فى التاريخ. ومقابلة وظيفة المؤرخ بالقاضى تفتقد شروطا كثيرة، لعل أبسطها أن القاضى لايحكم إلا بعد الاستماع إلى مرافعة المتهم، التى تشمل بيان الظروف والأسباب التى أدت إلى ارتكاب الجريمة أو إلى اتهامه خطأ. ومن هنا يأتى الحكم القضائى فى إطار الظروف الموضوعية المعروضة.. فمن أين للمؤرخ هذه المرافعة؟.. هل يكتفى بالاحتكام إلى بيانات ووثائق متاحة قد لاتكون كل وثائق «القضية». لقد نسى هؤلاء أن مهمة الباحث فى التاريخ هى التفسير وليس المحاكمة، وذلك بالبحث عن الأسباب والعلل وراء مجموعة الحوادث التى يدرسها، ليقول لنا فى النهاية ما إذا كانت النتائج مرتبطة ارتباطا شرطيا بالأسباب المؤدية إليها.. أم أن صاحب القرار السياسى سار فى طريق غير الذى كانت الظروف ترسمه له وتخطه، ومن هنا أهمية المفاهيم النظرية للتعامل مع المعلومات التاريخية.

ويرتبط بتصور أن المؤرخ ما هو إلا قاض، تصور آخر مؤداه أن المؤرخ - القاضى لايجب أن ينحاز، وينبغى أن يكون محايدا. والمقصود بهذا أن لا يُحكم المؤرخ - القاضى تفضيلاته الذاتية فى الحكم على الحدث الذى يتناوله، من حيث الانتماء السياسى أو الدينى أو الاجتماعى. على أن الذين يقولون بهذا يرمون إلى إسباغ فضيلة الحياد على أحكامهم وإيهام القارئ بعدم انحيازهم، وهو افتراض كاذب فى كل الأحوال، لأن الذين يقولون بهذا هم أبعد الناس عن تلك الفضيلة، وأكثرهم عدوانا عليها، ويختفون وراء المصالح الخاصة التى تربطهم بموضوع البحث. ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء يخلطون بين حياد الباحث فى العلوم الطبيعية وحياد الباحث فى العلوم الاجتماعية.. فالأول لا تنشأ علاقة انتماء بينه وبين موضوع بحثه الذى يدور فى دائرة الجماد والحيوان والنبات، أما الثانى وهو الباحث فى العلوم الاجتماعية فلابد أن تربطه بموضوع البحث رابطة ذاتية ما. ومن هنا صعوبة الحياد أو خرافته عند البعض. ورغم كل هذا فإن الدارس يتعلم من أستاذه أهمية إبداء الرأى فى موضوع بحثه. وهذا الرأى المستند إلى أكبر قدر ممكن من المعلومات من المصادر المتباينة هو ما يعرف بالانحياز الموضوعى.

إن أحد الأسباب عقم بحوث التاريخ لدينا حيث تتسع أفقيا دون إضافة، وليس رأسيا بإضافات متنوعة تشكل التراكم المعرفى، غياب النقد الذى يساعد على تصويب الباحث وتصحيحه أولا بأول ووضعه على الطريق السليم. والأسباب كثيرة لعل أبسطها أننا لم نتعلم النقد الذاتى أولا قبل أن ننقد الآخرين، ونخلط بين ماهو شخصى وما هو موضوعى، وبدلا من أن ننقد العمل المنشور نمسك بتلابيب كتابه ونهيل التراب على أصله وفصله. وفى هذا الخصوص أعرف أستاذا كبيرا - يرحمه الله - لم يكتب إلا قليلا، وكان يقول إنه يخشى المطبعة. والمعنى أنه يخشى النقد حتى ولو كان شفاهة من أصدقائه.. فمابالك إذا كان النقد مكتوبا ومنشورا، وفى الوقت نفسه كان يتجنب نقد الآخرين علنا إلا فى جلساته الخاصة.

ومن نواقص البحث فى التاريخ لدينا الافتقاد إلى طبيعة العمل الجماعى Team Work ذلك أن هناك أعمالا تاريخية كبرى لايقدر باحث بعينه أن يقوم بها، وتحتاج إلى فريق عمل توزع فيه الأعباء تحت إشراف محررEditor غالبا ما يكون صاحب الفكرة. لكننا لم نتعلم العمل الجماعى، وكل فرد فى المجموعة يرى نفسه الأكفأ من غيره، ولايقبل بأى تعديل فيما كتب حتى من باب الاتساق مع السياق العام فما بالك إذا طلب المحرر تصويب بعض الأخطاء وبعض الأفكار؟

ويدرس الطالب أن بحث موضوع فى التاريخ يجب أن تتوافر له المصادر من وثائق وكتابات مرجعية. ومن هنا يجئ القول بأن التاريخ لايكتب إلا بعد مرور خمسين عاما أو ثلاثين. وسبب هذا القول أن بعض الدول لا تفرج عن وثائقها إلا بعد خمسين سنة أو ثلاثين حسب الأحوال. وهذا لايعنى الجمود إذ المقصود توافر المعلومات. أما إذا كانت الأرشيفات الحكومية تسمح بالإطلاع على الوثيقة فور حفظها، يصبح من السهل البحث فى الموضوع. لكن هناك بعض الباحثين تغريهم الكتابة عن الحوادث التى ماتزال فى حكم التاريخ الجارى current history اعتمادا على ماتنشره الصحف من أخبار. مع أننا نعلم حقيقة دورة الخبر من مصدره عبر وكالات الأنباء، واختلاف صيغة نشره بين صحيفة وأخرى. فإذا ما دخل باحث التاريخ فى هذا المجال يصبح أقرب إلى الكاتب الصحفى الذى يغير من تعليقاته يوما بعد يوم حسب حركة الوقائع. ومع هذا فلابأس من وجود من يقوم بتسجيل وقائع التاريخ الذى يعاصره على نحو مافعل المؤرخون القدامى مثل ابن اياس، والجبرتى، بل وعبدالرحمن الرافعى فيما كتبه عن وقائع تاريخ مصر منذ ثورة ١٩١٩، بصرف النظر عن آرائه، فمثل هذه الكتابات هى من قبيل الرواية الشفهية التى تأخذ مكانة كبيرة عند الباحثين بعد قدم الزمن بها.

أما ما يطرحه اريك هوبسباوم من دراسة تاريخ المجتمع History of Society بدلا من التاريخ الاجتماعى Social History خشية أن يتحول التاريخ الاجتماعى إلى قاعدة لعلم الاجتماع، فأمر غيرمفهوم لأن المجتمع المقترح دراسة تاريخه موضوع كلى يشمل وقائع سياسية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية فى زمن معين. وعلى هذا لايمكن دراسته دراسة كلية، إذ فى النهاية لابد من تحديد مجال موضوع دراسة تاريخ المجتمع بين أن يكون فى المجال السياسى أو فى المجال الاجتماعى أو فى المجال الاقتصادى أو فى المجال العسكرى.. الخ، وكذلك الحال فيما يتعلق بتخوفه من التاريخ الاقتصادى لئلا يتحول إلى قاعدة للنظرية الاقتصادية. والحقيقة أن هذا الطرح من قبل هوبسباوم يقودنا إلى فعل ما ينهانا عنه و هو تجنب عزل الظاهرة موضوع الدراسة عن سياقها المجتمعى. ولعله يعلم أن دوائر العلوم الاجتماعية - بعد تقسيم كل منها إلى تخصصات جزئية - تتداخل فيما بينها وتتماس..

وبعد.. ليس المقصود بما سبق نفى وجود إبداع فى الكتابة التاريخية فى مصر - فهناك عناصر بارزة فى دائرة البحث فى التاريخ يكتمل لديها إتقان المنهج واستخدامه مع سعة فى الاطلاع فى دائرة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولكن الظاهرة تقاس دائما بأغلبية عناصرها التى تشملها الجزئيات، ومن هنا ما نرصده من ملاحظات. إن صناعة الباحث فى التاريخ لايجب أن تترك فقط للفروق الفردية بين الناس، بل ينبغى أن يولد الباحث من خلال نظام تعليمى system يتعلم فيه أدوات البحث، ويتدرب على تطبيقها، ويتعلم أن البحث فى التاريخ يستهدف اكتشاف العلاقة بين الجزئيات وصولا للصورة الكلية من خلال تجريب المفاهيم النظرية، وليس مجرد جمع معلومات من بطون المصادر وإعادة كتابتها وربما بطريقة تنزعها من سياقها.

د.عاصم الدسوقى
أستاذ التاريخ المعاصر

أسلحة الدمار الشامل
وتطور التكنولوجيا الحديثة

يتناول مقال «هستيريا الحرب ضد مجهول» رؤية جديدة للتهديد الذى قد تتعرض له الولايات المتحدة الأمريكية من أسلحة الدمار الشامل، وهو يقوم على تصور إمكانيات استخدام هذه الأسلحة ضد التجمعات السكانية فى داخل مدن الولايات المتحدة.

ورغم أن هذا التصور ليس بالجديد، إلا أن الكاتب يعرضه بتحليل عميق للفكر الأمريكى للردع والسياسة الأمريكية تجاه هذا السلاح.

ويفتح المقال بعض النقاط التى يجب التركيز عليها:

١- تعاظم دور التكنولوجيا الحديثة التى أكسبت الولايات المتحدة قوة ردع جديدة متمثلة فى الأسلحة المتطورة ونظم التسليح المتكاملة، والتى أثبتت فاعلية لا نظير لها فى الخليج، وتحول الاهتمام الأمريكى بالتالى إلى الردع بالأسلحة المتقدمة بدلا من أسلحة التدمير الشامل.

ويرى الكاتب أن هذا التطور المتعاظم للأسلحة ذات التكنولوجيا الحديثة لن يمكن لأغلب الدول ملاحقته حتى إذا امتلكت أسلحة متقدمة.

وقد يترتب على ذلك احتياج دول «الدرجة الثانية» إلى اللجوء للردع بأسلحة التدمير الشامل، وبالتالى مواصلة الجهود للحصول على أفضلها وفقا لقدراتها.

وهنا يجدر الوقوف قليلا للتعرف

وجهات نظر

رسائل الكتب

على فكر الردع بالأسلحة الحديثة، فالولايات المتحدة قامت بتطوير نظم متكاملة من الأسلحة، منها ما ظهر فعلا، والباقى مازال تحت التطوير بحيث يحقق فاعلية لاشك فيها على الأجيال السابقة من الأسلحة والتى تتصارع حولها وبها دول «الدرجة الثانية».

التطور التكنولوچى الكبير الذى تمتلكه الولايات المتحدة فى مجالات التسليح خلق طفرة فى القدرات العسكرية لا يمكن لدول العالم الثالث بالفعل الوصول إليها، وبالتالى باتت الولايات المتحدة فى غير حاجة إلى أسلحة التدمير الشامل لردع هذه الدول، وكما كانت حريصة على حظر تسرب تكنولوچيات واحتياجات أسلحة التدمير الشامل عن هذه الدول، فإنها ستكون أكثر حرصا على حظر التكنولوچيات الحديثة عنها أيضا بمختلف الأساليب من الحظر التكنولوچى إلى قيود ضبط التسلح التى تفرضها ويجب توقع ازدياد اهتمام السياسة الأمريكية بالحظر التكنولوچى.

ولعل التطور الجديد الذى أدى إلى تقليل اهتمام الولايات المتحدة بالردع بأسلحة التدمير الشامل يكون دافعا لدعمها فكر التخلص من أسلحة التدمير الشامل فى العالم أجمع، حيث لن تعتمد عليها فى ردع أعدائها.

إلا أن هذا يعيدنا من جديد إلى فكر الردع بالأسلحة الحديثة الذى طورته الولايات المتحدة ودوره فى فرض إرادتها على العالم، فبهذا التنوع العريض من نظم التسليح الحديثة أثبتت القدرة على التعامل مع أى نظم عسكرية بأى من أسلوبين: الأول بإحداث تدمير فعال ومن آماد بعيدة يدخل فى إطار الردع. والثانى بشل قدرة النظم الإلكترونية ونظم القيادة والسيطرة والاتصالات والمعلومات المعادية فيما يعرف بالـ Soft Kill. وكلا الأسلوبين يعتمد على قدرات تكنولوچية فائقة، إلا أن الأسلوب الأول من الردع يسبب خسائر كبيرة مادية وبشرية (من العسكريين والمدنيين) للطرف تحت الردع، وبذلك لا يقل تأثيرا عن بعض أسلحة التدمير الشامل.

٢ـ تزايد الاهتمام العالمى بالأسلحة البيولوچية كسلاح ردع بالنسبة للدول الأقل تكنولوچيًا وما يمكن أن يترتب على ذلك من تسرب بعض هذه القدرات إلى جماعات إرهابية أو مناهضة للولايات المتحدة ـ سياسيا أو أيديولوچيا ـ إلا أنه يجدر توسيع هذا التصور ليشمل الاحتمالات أن تلجأ أى جماعات إرهابية أو عقائدية إلى استخدام هذا الفكر ضد أى نظم حاكمة فى العالم.

ويرتبط هذا التصور بالضرورة بوجود دعم علمى وفنى يحقق إمكانية التطبيق العملى لهذا الأسلوب ولو على مستويات أقل تأثيرا، وذلك على تجمعات محدودة، مما يحتاج بالتالى إلى وجود تنظيم تخطيطى وإدارى وعلاقات بين جهات قادرة علميا على توفير الإمكانيات المطلوبة لهذه التنظيمات المستخدمة.

٣ـ تبقى نقطة مهمة للغاية هى إمكانية استخدام السلاح البيولوچى المحدود من قبل مجموعات إرهابية ـ وهو موضوع المقال ـ كسلاح ردع للدول وهى نقطة جديرة بالبحث، حيث إن مثل هذا الاستخدام سيكون من الأرجح من قبل مجموعات عقائدية تعمل بشكل سرى وتستطيع استخدام الأساليب المتطورة لضرب تجمعات سكانية محدودة أو كبيرة نسبيا فى دول مناهضة. وقد يزيد هذا الاحتمال دعم بعض القوى، خاصة فنيًا (بالإمكانيات والمعلومات والخدمات)، للقيام بمثل هذه الأعمال، وذلك على غرار دعم مثل هذه المجموعات بالأسلحة من قبل بعض الدول، إلا أن استخدام السلاح البيولوچى قد يكون أكثر سهولة فى التداول والاستخدام وأصعب فى الرقابة والسيطرة بالإضافة إلى صعوبة مقاومته.

وقد يكون هذا الأسلوب لاستخدام الأسلحة البيولوچية ذا تأثير خطير على الدول الكبرى كردع لها يجعلها تفكر جيدا قبل التورط فى خصوصيات الدول، وخاصة أن مثل هذا التأثير قد يعد دافعا لتحرك شعبى فى الدول الكبرى للضغط على حكوماتها للتراجع.

ولعل هذا التصور هو أبسط صور الاستخدام حيث لا يمكن استبعاد التصور الآخر وهو استخدام مثل هذا السلاح لأعمال التطهير العرقى التى أخذت تنتشر فى العالم، وخاصة مع صعوبة تحديد المسئوليات وبما لاشك أن أهم أساليب مواجهة هذا الخطر هو من خلال التعاون الدولى فى مجالات الاستخبارات والتكنولوچيات المرتبطة بالأسلحة البيولوچية، والأهم من ذلك أن يكون النظام العالمى الجديد مبنيا على التكافؤ والتوازن العسكرى وليس على السيطرة العسكرية والردع بأى من صوره.

لواء .م مختار الفيومى

عن الأوبئة والاستعمار

الوباء عائد من جديد

بدأ مرض الدرن فى الانتشار بشكل واضح فى مصر كما هو الحال فى العديد من الدول الأوروبية والأمريكية بعد أن كان قد اختفى من كثير من دول العالم. وأصبح المرض يصيب ثمانية ملايين من البشر كل عام ويحصد أرواح الملايين منهم سنويا حتى أن عدد الوفيات بسبب مرض الدرن فاق فى بعض الدول الوفيات بسبب مرض الإيدز.

وقد أعلنت منظمة الصحة العالمية WHO أن ٩٥٪ من حالات الدرن توجد فى الدول النامية وأن ٧٥٪ من هذه الحالات تحدث بين أفراد المجتمع المنتجين اقتصاديا أى من سن ١٥-٥٠ عاما وهذا يوضح كم الضرر الواقع على الاقتصاد القومى.

وتعود أسباب انتشار المرض مرة

كتاب الزاوية

الساق على الساق

فى سفر وتصحيح غلط اشتهر

كانت زوجة الفارياق لاتدرى شيئا سوى بيت أهلها. ولاتتكلم فى أمر إلا فيما جرى لها مع أمها أو لأمها مع الخادمة أو لهذه معهما، وكانت إذا خبرت مثلا بأن الخادمة ذهبت إلى السوق لتشترى شيئا تخللت كل جملة بضحكة طويلة. فاقتضى لإخبارها من الوقت نحو ما كان اقتضى للخادمة من الذهاب والإياب، وسبب ذلك أن البنات فى مصر والشام لا يعاشرن أحدا سوى الخوادم وأهل البيت. أما أمهاتهن فلا يطالعنهن بشىء من أمور الدنيا مخافة أن تنجلى الغشاوة عن أبصارهن فيعرفن ما يراد منها. فمن ثمّ كان تحصيل معارفهن كلها من الخوادم لاغير. ولما كنّ هؤلاء يرين أن إخبار البنات بما يهوين ويملن إليه بالطبع خير لهن عظيم. فإذا رأت إحداهن مثلا فتى جميلا بادرت من ساعتها إلى البنت وقالت لها: قد رأيت اليوم ياسيدتى شابا مليحا ظريفا لا يصلح إلا لك. وإنه حين نظرنى وقف وشخص إلىّ وكأنه يريد أن يكلمنى. وأخاله عرف أنك أنت سيدتى. فإذا رأيته المرة الآتية كلمته. وأشباه ذلك من الكلام مما يجعل البنت ذات ضلع معها إذا غضبت منها الأم. ولا يخفى أن البنات إذا كنّ جاهلات بالقراءة والكتابة وحسن المحاضرة وبآداب المجلس والمائدة وغيرها، فلابدّ وأن يتعوضّن عن هذا الجهل بمعرفة الحيل والمكايد التى يتخذنها وسيلة لما يرمن. فإن البنت إذا اشتغلت بقراءة فن من الفنون أو بمطالعة الكتب المفيدة صرفها ذلك عن استنباط الحيل. فأما إذا لم يكن لهنّ شغل غيرملازمة البيت وليس فيه غير الخادمة فإن أفكارهن وأهواءهن كلها تتجمع إلى مركز واحد وهو اتخاذ الخادمة وسيلة لهن وسندا. فكلامها عندهن أصدق من كلام أمهاتهن. فالأولى عندى أنا العبد الحقير أن تشغل البنت بأحد الفنون والعلوم النافعة سواء كان ذلك عقليا أو يدويا. ألا ترى أن الأنثى مفطورة على حب الذكر والذكر على الأنثى؟ فجهل البنات بالدنيا غير مانع لهن من معرفة الرجال واستطلاع أحوالهم. بل ربما أفضى بهن هذا الجهل إلى التهافت عليهم والانقياد إليهم من دون نظر فى العواقب بخلاف ما إذا كن تأدبن بالمحامد والعلم اللائق بهن، فإنهن يعرفن ما يعرفن من الرجال عن تبصر وتدبر. وهناك قضية أخرى وهى أن النساء إذا علمن من أنفسهن أنهن أكفاء الرجال فى الدراية والمعارف تحصن بها عند تطاول الرجال عليهن. بل الرجال أنفسهم يشعرون بفضلهن فيرتدعون عن أن يهتكوا حجاب التأدب معهن. مثال ذلك إذا اجتمع غلام وبنت فى خلوة وكان الغلام قد قرأ ودرى والبنت لم تعرف شيئا غير ذكر اللباس والزينة والخروج إلى البستان. لم يلبث الغلام أن يتعدى طور الأدب معها لاعتقاده أنها لم تخلق فى الدنيا إلا لقضاء وطره منها. بخلاف ما إذا رآها ذات رأى رشيد.

وقول سديد. وفكرة مصيبة. وفهم للأمور البعيدة
والقريبة. وحسن محاضرة وجواب عتيد.
ومعارضات ومماتنات. فإنه
والحالة هذه يهابها
ويحترمها.

أخرى إلى انتشار فيروس نقص المناعة المكتسبة AIDS وكذلك ظهور فصائل من ميكروب الدرن مقاومة للعقاقير المستخدمة في العلاج وأهمها الريفامبيس والأيزونيازيد MDR Strains وحسب الإحصائيات العالمية فإن هذه الفصائل تزيد من ١٠٠ إلى ٢٠٠ مرة في المصابين بالإيدز عن غيرهم.

ويرجع ظهور هذه الفصائل المقاومة Resistant Strain لعدة أسباب أهمها عدم كفاية الموارد المالية مما يؤدي إلى عدم توافر العقاقير المعالجة أو عدم استكمال العلاج الذي يجب أن يستمر ٦ شهور على الأقل حيث أن المريض نتيجة لعدم الوعي الصحي يتوقف عن العلاج بمجرد شعوره بتحسن فيعاوده المرض بشراسة مرة أخرى نتيجة لحدوث تغيير بجينات الميكروب تجعله مقاوما (للميكروب). كذلك فإن سوء استخدام العقاقير بدون استشارة الطبيب المختص تؤدي لنفس النتيجة.

ومن العوامل المؤدية لزيادة نسبة الإصابة بالمرض التدخين وخصوصا تداول الشيشة على المقاهي ومرض السكر وسوء التغذية والأماكن المغلقة، وتعمل وزارة الصحة بالتعاون مع الإدارة المركزية للمعامل ومنظمات الصحة العالمية WHO بوضع خطة مفصلة لمكافحة الدرن في مصر حتى لا يستفحل عدد المصابين بالميكروب المقاوم للعقاقير.

وأهم بنود هذه الخطة هي العمل على التشخيص السليم والسريع للمرض حتى يتم العلاج فورا وذلك عن طريق الاهتمام بالمعامل بوحدات الصدر المختلفة وتزويدها بالأدوات والكيماويات الخاصة بالعمل. وكذلك تدريب الأطباء والفنيين بدورات متخصصة بالمعامل المركزية وكذلك إدخال الأجهزة الحديثة التي يمكن بها تشخيص المرض خلال ساعات عن طريق الكشف عن الحمض النووي بخلية الميكروب (DNA).

كذلك تم إدخال نظام جديد في العلاج معروف باسم DOTS وهو يستمر لمدة ٦ شهور ويتم فيه مراقبة المريض وإعطاؤه العلاج يوميا بواسطة جهاز التمريض أو المراقبين الصحيين.ويتم وضع المريض في المستشفى لمدة شهرين ولايخرج حتى يصبح بصاقه خاليا من الميكروب.

كذلك تقوم المعامل المركزية بعمل بحث عن نسبة المقاومة الأولية والثانوية وقد توصلت النتائج المبدئية إلى ارتفاع نسبة المقاومة الأولية التي وصلت إلى ٤٤,٨٪ أما نسبة المقاومة لأكثر من عقار MDR Strain وبالذات للريفامبيسن والأيزونيازيد وهما من أهم الأدوية المعالجة للدرن فقد وصلت نسبتها لـ ٢٪ وهذه تعتبر نسبة عالية ويعود ذلك لاستخدام عقار الريفامبيسن في علاج أمراض أخرى غير الدرن ولمعالجة هذه المشكلة أصدرت وزارة الصحة لائحة لحظر استخدام هذا العقار لعلاج أي أمراض غير الدرن.

د. مشيرة إسماعيل الإبياري
مديرة قسم الدرن بالمعامل المركزية

في التدين الشعبي
لابأس بإعادة الاعتبار.. ولكن دون تبسيط مخل

تعقيبا على موضوع [التدين الشعبي: من الموالد إلى شم النسيم.. رباط بين العقيدة والحياة اليومية] للأستاذة هبة رءوف عزت، وهو عرضها لكتاب (النقاء والقوة: دراسات في المجتمع الإسلامي المعاصر) من تأليف د. نادية أبو زهرة ـ والمنشور في مجلتكم الغراء في العدد الثالث ـ أبريل ١٩٩٩، فلا بأس بإعادة الاعتبار ولكن دون التبسيط المخل. فالأستاذة هبة رءوف عزت تستحق التهنئة على عرضها الجيد للكتاب وإثارة اهتمام القراء والمثقفين، بل «واستفزازهم» ليدلوا بآرائهم فيها.

والقضية في حقيقة الأمر شديدة التشابك بالغة التعقيد، ولذلك فنحن وإن كنا من أنصار فض الاشتباك بين عالم المثقفين أو النخبة وعالم العوام، والتقريب بين الفصحى والعامية، وغير ذلك من عوامل الالتقاء والتوحيد في إطار نهضة شاملة، لانستطيع أن «نهضم» بعض الأطروحات التي وردت في الكتاب أو نقبلها على علاتها من خلال العرض الذي لانشك في أنه جاء «أمينا» وواضحا بقلم الأستاذة هبة.

فطبقا للعرض يتحدى كتاب نادية أبوزهرة افتراض انفصال النص عن الواقع وأن الناس تمارس إسلاما لا صلة له بالنص الشرعي، بل يحوي من التقاليد أكثر بكثير مما يحوي من الأصول الدينية، كما يتحدى أيضا افتراض انفصال دوائر الإسلام الصحيح والإسلام الشعبي والإسلام الرسمي/المؤسسي والعلماء.

وطوال المقال تنقل لنا كاتبة العرض ما يمكن اعتباره دفاعا محموما من جانب المؤلفة عن العامة والبسطاء ومظاهر تدينهم الشعبي، وانحيازا يكاد يكون مطلقا لفكرة براءة ممارساتهم وطقوسهم الدينية /الشعبية من أية شبهة تعارض أو انفصال عن «النص الشرعي» و «إسلام العلماء والمشايخ»إلخ..

وهذا الطرح لا نعتقد أننا نكون متجنين أو مبالغين أو متجاوزين للحدود إذا وصفناه - مضطرين - ومع كل الاحترام الواجب حتى فى حالة الخلاف فى الرأى - بأنه «تسطيح شديد للقضية» و«تبسيط مخل للمشكلة» .

إن المسألة ليست أن باحثين أجانب رصدوا هذه الطقوس الشعبية ولاحظوا تباعدا جليا بينها وبين معطيات الدين الإسلامى، ثم تأتى باحثة «مصرية الأصل» فتنتصف لهؤلاء العوام البسطاء الأنقياء الذين لا يقصدون أى خروج على الدين، وترى من خلال دراستها الميدانية التزامهم بمفهوم التوحيد الخالص فى الموالد، وأن افتراض انفصال هذه الطقوس أو تعارضها مع الدين النصّى لابد من دحضه تماما!

المسألة هى أن الباحثة أرادت أن تتفادى مَزلق المبالغة فى الحكم على هذه الطقوس بعدم المشروعية الدينية، ومزلق التعالى على البسطاء والعوام ودفع تصرفاتهم البسيطة بالتجريم الدينى، فوقعت - فى رأينا - فى مزلق أخطر هو عدم القدرة على رصد أية مشكلة على الإطلاق فى هذه الممارسات. بل وانتقاد أجيال سابقة من علماء الدين والاجتماع والمثقفين والباحثين والمستشرقين لاحظوا جميعا - ومعهم كل الحق - أن كثيرًا جدا من ممارسات العوام فيما يسمى (تدينهم الشعبى) هذا - سواء فى طقوس الزواج والموت والولادة والموالد والتصوف والعادات المنزلية والتفاؤل والتشاؤم - الخ.. عبارة عن ركام هائل ضخم من الموروثات التى تداخلت فيها الخرافات والأساطير والعقائد التى يتصادم بعضها أو معظمها مع الإسلام تصادما جذريا لا حيلة فى دفعه أو تبريره أو الاعتذار عنه أو التعايش معه!

ونحن لانعرف مدى التصاق مؤلفة الكتاب بالطبقات الشعبية أو مدى عمق الدراسة الميدانية التى قامت بها ولكننا كنا نفترض عدم غربتها عن الواقع المصرى، لأنها مهما كانت تعيش فى الخارج وتقوم بالتدريس فى أعظم جامعات الغرب - مصرية أساسا، ويكفى أن يكون والدها هو الراحل العظيم الشيخ محمد أبو زهرة، ذلك العلامة الفذ، ومع ذلك، فإن الرؤية التى تطرحها فى كتابها - وعرضتها لنا الأستاذة هبة - تشكك للأسف فى هذا «الانتماء» وتجعل الباحثين الأجانب أكثر فهما لهذا الواقع.

ومن الطريف أن هذه العالمة الكبيرة الفاضلة تستند فى تبرئتها لمظاهر التدين الشعبى من أية شبهات إلى مايقوله العوام أنفسهم لها! جاء فى العرض: (لانهاية للموالد التى تقام فى مصر، ويصعب عدها وحصرها، ولانهاية للقصص التى تروى عن كرامات آل البيت والأولياء، وعلى مدار العام هناك دائما احتفال بمولد لأحد الأولياء فى مكان ما بمصر المحروسة، وساد اعتقاد بأن البسطاء يرون الأولياء كواسطة بين الإنسان وخالقه، ويعترفون لهم بسلطان لاحدود له، ويضفون عليهم صفات خارقة، لكن د. نادية أبو زهرة حين تقترب من الناس وتعيش بينهم ترى أنهم يحرصون فى الزيارة وفى الموالد على تأكيد التزامهم بمفهوم التوحيد الخالص لله، وأنهم يبدأون وينهون تحيتهم وزيارتهم للأضرحة بالشهادتين وصيغ التوحيد الواردة فى الدعاء القرآنى، مؤكدين أن الزيارة محبة ومودة وليست شركًا بالله ولا التماس واسطة»..

وليت شعرى ماذا كانت الدكتورة الفاضلة تتوقع من هؤلاء البسطاء، هل أن يقولوا لها إن ممارساتهم تتضمن بدعًا وخروجًا على الشرع ورواسب من عقائد أخرى وخرافات الخ..؟! إن أحد أهم أسباب تعقد المشكلة هو أن هؤلاء العوام لايدركون ذلك، وهم فى حاجة إلى توعية وتنقية مفاهيمهم، والارتقاء بمستوى فهمهم وتدينهم، وهذا هو واجب العلماء والمثقفين وضريبة علمهم وزكاة وعيهم، لا أن يتركوهم فى ظلام خرافاتهم وطقوسهم المتخلفة ويباركوا كل مايفعلون بدعوى إعادة الاعتبار للتدين الشعبى!

إن العوام كانوا ولايزالون للأسف يتبنون عقائد ويمارسون طقوسا ويحافظون على عادات - جميعها أو معظمها فى حاجة لثورة إصلاحية تبدأ بالتعليم والتوعية ومحو الأمية العلمية والدينية والثقافية ومواجهة المنتفعين من بقاء الحال على ما هو عليه (راجع الموالد وصناديق النذور).

والأستاذة الفاضلة التى لاحظت أن زوار المقام الزينبى يبدأون الزيارة وينهونها بالشهادتين لعلها لم تلاحظ ما بين البداية والنهاية من طواف حول الضريح ولمس للمقصورة وتوسل وشكوى - مسموعة أحيانا - لصاحبة الضريح ونذور لايعلم إلا الله أين تذهب ومدى مشروعيتها، ولم تحضر بنفسها أى «مولد» للسيدة (رئيسة الديوان)، وبالذات الليلة الختامية حيث تحدث أبشع المساخر والمهازل والجرائم والانحرافات مما لا علاقة له بالدين ولا بالسيدة زينب رضى الله عنها! وكان عليها أن ترجع إلى كتب التصوف لتعرف معنى (رئيسة الديوان) وهل يتفق هذا المعنى مع عقيدة الإسلام الصحيحة أم لا!

معتز محمود شكرى

باحث وصحفى

" نون "

إنتاج المعرفة واستخدامها

ثلاثة مشاهد متباينة، تتقاطع فيما بينها، ويقع كل منها في مجال يختلف عن الآخر تمام الاختلاف.. ولكنها جميعا ترتبط في سياق واحد، وتكشف عن عمق الأزمة التي تعانيها مجتمعاتنا العربية، وهي تقف على عتبة القرن القادم تبحث لنفسها عن موطئ قدم بين شعوب العالم.

المشهد الأول تتبين خطورته في الضجة التي أثيرت، وتناثرت أصداؤها في كتابات بعض المثقفين العرب، ينعون على مصر وقاهرتها، التي كانت عاصمة التنوير بامتياز، ومهد محاولات التحديث، قاهرة جمال الدين الأفغاني، ورفاعة الطهطاوي، ومحمد عبده، وطه حسين، وقاسم أمين.. أنها تتعرض الآن لهجمة رقابية عاتية، حيث سحبت النسخة الإنجليزية الأصلية من كتاب «النبي» أشهر كتب جبران خليل جبران من التداول، في الوقت الذي تصدر فيه ترجمة عربية لنفس الكتاب عن «دار الشروق» بالقاهرة قام بها الدكتور ثروت عكاشة.. وفي الوقت الذي يحتفل العالم فيه بالذكرى المئوية لجبران.

سحب كتاب جبران الذي ظل متداولا منذ مطلع القرن في مصر، وسط حملة شملت عددا من الكتب الأخرى، قيل إن من بينها مؤلفات لأجاثا كريستي وفلاديمير نابوتوف، ونحو ٧٠ كتابا آخر تراوحت بين التجميد من التداول أو منع إعادة طبعها وتوزيعها أو إحالتها للأزهر لإبداء الرأي. وكان آخر هذه الكتب كتابا لنوال السعداوي بعنوان «أوراق حياتي» نشرته دار الهلال مسلسلا في مجلة المصور القاهرية في حلقات، وصدر في كتاب عن نفس الدار قبل عام واحد. ثم ترجم الكتاب في دار «زد بوكس» في لندن إلى الإنجليزية، وبعد أن شرعت الجامعة الأمريكية في نشره عن طريق إدارة النشر فيها، تراجعت فجأة وقررت الاعتذار لأسباب غير مفهومة، لم تزد على القول بأنه «قد يؤدي إلى إثارة حساسيات دينية»!

هذه الضجة تأتي في أعقاب منع تدريس كتاب «الخبز الحافي» للأديب المغربي محمد شكري لأسباب مشابهة. وأيا كانت وجهة الخلاف حول انتساب هذا الكتاب للأدب أو بعده عنه، فإن المسألة هنا هي إلى أي مدى سوف تصل الرقابة على الفكر والإبداع؟ ومن الذي يضع الحدود والضوابط في عصر سقطت فيه كل الحدود والقيود؟

المشهد الثاني يقع في أسرة مصرية عادية، أتاحت لها التكنولوجيا الحديثة أن تقتني جهاز كمبيوتر، وأن تتاح الفرصة أمام أبنائها وبناتها لاستخدامه واستخدام الإنترنت، فوجئت الأم وهي تفتح موقعها على البريد الإلكتروني برسالة من إحدى شبكات المعلومات تسألها إن كانت توافق على اشتراك ابنتها الصغرى - ١٣ سنة - في الحصول على ما تطلبه من معلومات وقراءات ومشاركة في حلقات النقاش الإلكترونية.. واتضح أن الفتاة أتقنت الإبحار في عالم الإنترنت، ودخلت في حوارات ومناقشات حول موضوعات مختلفة مع شباب مثلها أو أصغر أو أكبر منها من أنحاء العالم، ينتمون إلى ثقافات وخلفيات أخرى. وحين سألتها الأم: هل تتعرض لأنواع من السخافات أو العبث من جانب المحاورين معها في محادثات الإنترنت؟ ردت الفتاة في حزم بأنها قادرة على وقف أي حوار لا يعجبها!

هل الأفضل أن تغلق الأم الجهاز وتلغي اشتراك الإنترنت، وتريح نفسها وتستريح من مخاطر الحرية المتدفقة عبر الإنترنت بدون حدود، بكل ما تحمله من مخاطر وإغراءات ومعاكسات حماية لابنتها، أم تقف إلى جانبها تعلمها وتمنحها الثقة بالنفس والاعتماد على الذات ومواجهة التحديات الحضارية والثقافية التي تنهال علينا تأثيراتها من كل حدب وصوب عبر السماوات المفتوحة والفضائيات التي لا سيطرة لأحد عليها ودون رقيب يمنع النشر أو حسيب يمنع التداول؟

لو انحزنا إلى هذا الرأي ونصحنا الأم بتحطيم الكمبيوتر وإغلاقه وحظر استخدامه فسوف ننتقل لا محالة إلى المشهد الثالث. وهو مشهد تتردد أصداؤه في التقارير التي لا تكف وسائل الإعلام عن نشرها ومتابعتها والتحذير منها حول انتشار الزواج العرفي بين الشباب، وهي ظاهرة تؤرق الآباء وتقض مضاجعهم، وتفجر مشكلات اجتماعية وأخلاقية وتربوية وقانونية لا سبيل إلى حصرها، تنبع في أساسها من كبت منافذ التعبير الحر والمشاركة الطبيعية لدى الشباب، واغتصاب حقهم في المعرفة والحوار وإبداء الرأي، وفي توجيه طاقاتهم نحو العمل العام والتنمية الاجتماعية، والاهتمام بمشكلات الوطن وهمومه، وتحمل المسئولية السياسية التي تربي الوعي وتخلق القدرة على الاختيار الصحيح.

لقد اختزلت مشاكل الشباب في مصر والعالم العربي في مشكلة واحدة هي المشكلة التعليمية وأهملت الجوانب التربوية، وحتى هذه المشكلة فإن علاجها مازال قاصرا عن الارتفاع إلى مستوى التطورات الجارفة والمثيرة التي تتلاحق، والتي تتصل بالتطور الاجتماعي والعلمي وثورة المعلومات في العالم.

هذه المشاهد الثلاثة هي وجوه مختلفة لقضية واحدة تتعلق بالرقابة الذاتية التي نفرضها على أنفسنا من ناحية، وبالرقابة الخارجية التي تفرضها سلطة أعلى خارج ذواتنا من ناحية أخرى، ولابد من حل هذه الإشكالية التي تعطل الإبداع وتقضي على حرية الفكر وتمنع مشاركتنا في إنتاج المعرفة، بوضع حد لخلط الفكر والفن بالدين، ولإطلاق الأحكام القيمية على الاجتهادات الفكرية.. فالذي لا يملك القدرة على استخدام المعارف لن يكون طرفا في إنتاجها، والذي يحال بينه وبين الحصول على الأفكار والمعلومات لن يكون مشاركا في إبداعها، وإطلاق ملكاته وطاقاته لإثرائها وتصديرها إلى الآخرين.. سوف تظل أجيالنا والأجيال القادمة تستهلك الثقافة ولا تنتجها، وتعتمد على ما يجود به الآخرون علينا، وهذه هي أسوأ أشكال التبعية في عصر الهيمنة السياسية والاقتصادية والتكنولوجية.

سلامة أحمد سلامة



لأن صحتك تفرق كتير ...
جنباً إلى جنب مع كبرى المؤسسات الطبية العالمية
CLEVELAND CLINIC
مستشفى دار الفؤاد
(بالتعاون مع كليفلاند كلينيك إنترناشيونال)
لتحقيق العالمية في :
مستوى الأطباء المتخصصين
مستوى التشخيص والعلاج
مستوى التجهيزات والأجهزة الطبية
مستوى غرف العمليات والعناية المركزة
مستوى التمريض والرعاية الصحية
مستوى الإدارة والخدمة
مع توافر الهدوء والمناخ الصحي
Dar Al Fouad Hospital
مستشفى السادس من أكتوبر لأمراض وجراحة القلب والصدر والأوعية الدموية والأمراض العصبية والعظام
امتداد شارع ٢٦ يوليو - المنطقة السياحية - مدينة ٦ أكتوبر تليفون : ٣٥٦٠٣٠ - ٣٥٦٠٤٠ (٠١١) فاكس : ٣٥٦٠٥٠ (٠١١)
Web Site: http://www.DarAlFouad.com
World Class Health Care
مستوى عالمي من الرعاية الطبية

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
Weghat Nazar - Issue 11 - December 1999
مجلة شهرية . العدد الحادى عشر . السنة الأولى . ديسمبر ١٩٩٩ . الثمن عشرة جنيهات



نظرة على القرن العشرين

- من ينهى "الجمود على الموجود"؟!
الحالة الإسلامية على مشارف ألفية جديدة
- كيف انتقلت الثروة والقوة من الحكومات إلى الناس؟
- بعد مرور ١٠٠ عام على كتاب قاسم أمين..
السؤال الآن: متى يتحرر الجميع رجالاً ونساءً؟!
- الإبداع الأدبى العربى.. كيفما تكونوا يكون إبداعكم!
- كابوس الصفرين.. آخر قنابل القرن!



دماء على بوابات القدس
٩٠٠ عام بعد
الحملة الصليبية الأولى

"غسيل المخ" .. باسم السلام!!

غزو أم فتح..١٤ قرناً من الإسلام فى مصر!

ماذا ينتظر الإنسان العربى فى قرن قادم؟!

وصفات مجربة
من مطبخ الخليفة العباسى



هل تعرف طعم السيكباج؟!

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الأولى

العدد الحادى عشر
ديسمبر ١٩٩٩

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

❝ كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها. ❞

محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- أحمد كمال أبو المجد .. أستاذ القانون الدستورى بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة
- أشرف البيومى .. أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة الإسكندرية وجامعة ولاية ميشيجان الأمريكية سابقا
- جيمس فالوز .. صحفى
- حسن حبشى.. أستاذ التاريخ الوسيط والإسلامى بجامعة عين شمس
- دايفيد ويتنر .. أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة لانكستر
- رضوى عاشور.. كاتبة من مصر، أستاذة الأدب الإنجليزى بكلية الآداب جامعة عين شمس
- زياد منى .. باحث فى التاريخ القديم والدراسات الكتابية
- سيمون ليز .. كاتب يعيش فى أستراليا
- عبد العزيز الشربينى .. أستاذ متفرغ بتجارة الإسكندرية
- قاسم عبده قاسم .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق
- محمد سيد أحمد .. كاتب صحفى
- هدى الصدة .. أستاذة مساعدة بكلية الآداب جامعة القاهرة، ومنسقة ملتقى المرأة والذاكرة.
- وليد خدورى .. خبير فى شئون النفط من العراق ورئيس تحرير نشرة ميس Middle East Economic Survy

رسوم العدد للفنانين : محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سيد القماش

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة اشتراكات الأهرام ـ مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير.
France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

الأستاذ الدكتور / احمد ثابت
جمهورية مصر العربية

كـلـمـــــة..

ابتســـامة آخــــر القــــرن!

لايريد القرن فيما يبدو أن يتركنا دون أن يشغلنا بمعركة أخرى إضافية. وحتى وهو يقترب من اللحظات الأخيرة للوقت بدل الضائع من عمره، وجد الكثيرون أنفسهم مطالبين بالإجابة على السؤال الغريب : متى ينتهى القرن العشرون؟ .. ومتى تبدأ الألفية الثالثة؟

.. والذين يرون أنه لم يبق للقرن سوى أسابيع تبدأ بعدها الألفية الثالثة عندهم عشرات الحجج التى يرد عليها - بحجج مضادة لها نفس الوجاهة - من يتبنون فكرة أن القرن الحادى والعشرين سيبدأ فى يناير ٢٠٠١.. والحجج على الجانبين كلها لفظية أو رقمية وكلها تطرح بحماس من يرى بعينيه أن هذه آخر الدنيا، أو كأن النتيجة يمكن أن تغير شيئا، أو تجعل لحياتهم معنى أفضل!

.. وآخر رصاصة أطلقت فى غمرة هذا التراشق صاحبها روبرت كابلان مؤلف كتاب «التاريخ الطبيعى للصفر» ، والذى كتب قبل أيام مقالا فى «النيويورك تايمز» يطالب فيه الطرفين (أنصار ٢٠٠٠ ومؤيدو ٢٠٠١) بعدم الانشغال بالمسألة. ورغم انبهاره بالجمال الذى يشعه تجمع الأصفار الثلاثة معا فى الرقم «٢٠٠٠» ! فإنه يطرح حلا بديلا وبسيطا لحسم الجدل: «فلنحتفل بسنة ٢٠٠٠ و بسنة ٢٠٠١!.. ولنحتفل كلما استطعنا .. فهذا أفضل!».

وأيا كان الرأى فى اقتراحه فإن المعركة ستظل ساخنة فى عقول الكثيرين، حتى بعد أن يعود عشرات الالاف بابتسامة آخر القرن من شاتهام فى أقصى الشرق النيوزيلاندى ، و ينهى الغرب احتفالاته عند قبة الألفية فى لندن مع اللحظة الأولى لأول يوم فى يناير ٢٠٠٠ (بتوقيت جرينتش طبعا). والمؤكد أن البعض سيجد أسبابا للغضب لأن رأيهم لم يؤخذ فى الاعتبار، أو لأن المعسكر الآخر هو الذى انتصر.. مع أن «الحكاية» كلها من أولها إلى آخرها - اللحظات والأيام والشهور والسنين والقرون - مجرد تسميات من اختراع البشر.

وكل هذا الانشغال بالأخذ والرد فى «قضية» بداية الألفية الجديدة يساوى بالضبط محاولة التأكد بإلحاح من موعد آخر رحلة دون اهتمام مواز بتحضير الحقائب، ودون التحقق من وجود إجابات مطمئنة على أسئلة أكثر أهمية وصعوبة: هل هناك مبرر أساسا - فى عالمنا الثالث والعربى - للاحتفال بقدوم قرن جديد (أيا كانت لحظة بدايته بعد شهر أو ١٣ شهرا)؟ هل استعددنا له كما ينبغى ؟ كيف سيكون حالنا فيه.. وهل سننهيه - كعرب ومسلمين وعالم ثالث - ونحن أكثر قوة؟ ثم إلى أى مدى سننجح خلاله فى حسم أسئلة الحرية والعلم والثروة والهوية؟

ومهما كانت الإجابة فإن المهم فى كل الأحوال ألا نتراجع أكثر أو نخسر القرن المقبل هو الآخر، أو يكون الوقت الضائع فيه أطول من زمن المباراة نفسها!

فى هذا العدد من «وجهات نظر» نقف بالضبط عند هذه النقطة الفارقة بين قرنين . ومن خلال ملف كامل حول حال الحركات الإسلامية والاقتصاد والإبداع والمرأة بأقلام كمال أبو المجد ووليد خدورى وفاروق عبدالقادر وهدى الصدة، نلقى نظرة جديدة على بعض قضايا السنوات المائة الماضية، ونراجع بصوت عال فصولا من دروسها، ثم نحاول فيما بقى من موضوعات استشراف ما ينتظرنا فى مستقبل بدأ بالفعل.

وفى مقاله عن «الحالة الإسلامية على مشارف ألفية جديدة» يدعو المفكر الإسلامى الدكتور كمال أبوالمجد إلى إنهاء الجمود على الموجود إذا كنا نريد نهضة حقيقية لمجتمعاتنا الإسلامية، بينما يرصد الدكتور وليد خدورى تحولات الاقتصاد العالمى فى النصف الثانى من القرن العشرين ويرسم سيناريو المعارك المقبلة بين الحكومات والأسواق للسيطرة على العالم الجديد. وفى حين يلقى الناقد المخضرم فاروق عبد القادر نظرة طائر على ساحة الإبداع الفنى والفكرى العربية طوال مائة عام، تطرح الدكتورة هدى الصدة سؤال قاسم أمين القديم بصياغة جديدة: متى يتحرر الجميع .. رجالا ونساء؟!

وباقى صفحات العدد يتسع بعد ذلك لأكثرمن قضية - أو همّ - وفى المقدمة منها: مرض السير فى المكان أو الحركة دون تقدم.. المشكلة الحقيقية التى تعطل عربة العرب فى عصر العلم والتكنولوجيا والتى يرى الدكتور أشرف البيومى فى العرض الذى يقدمه لكتاب أنطوان زحلان: «العرب وتحديات العلم والثقافة» - أنه ليست لدى الأمة العربية خطة جادة للتصدى لها.

وفى المقابل فإن كتاب بيل جيتس الجديد «البيزنس بسرعة التفكير» والذى يستعرضه الدكتور عبدا لعزيز الشربينى ، يفتح الباب لمقارنة تثير الغيظ - وربما الحسد - مع عالم شديد التقدم يبدو بعيدا وصعب التقليد .. عالم ترك دفته لثورة التكنولوجيا الرقمية التى أحالت الحياة فيه إلى شبكة معلومات هائلة تربط الدنيا والبشر فى حزمة واحدة.. دون أن يقول لنا أحد هل سنصبح أكثر سعادة!

والانشغال بالغد لايمنعنا من العودة فى التاريخ ٩ قرون كاملة إلى الوراء لنتوقف مع دراسة مهمة للدكتور حسن حبشى عند أبواب القدس يوم اجتاحتها جحافل الصليبيين فى حملتهم الأولى مختبئة خلف لافتات براقة تغطى رغبات ثأر وجشع تجار وأوهام مغامرين .. ليبدأ بعدها مسلسل ضياع القدس وغيرها.

إلا أن ذلك لا يعنى أن يضيع المستقبل أيضا، وهو ما تحذر منه الدكتورة رضوى عاشور فى مقال عن غسيل المخ باسم السلام، تكشف فيه الهدف الحقيقى للجماعات التى أنشئت بعيدا عن العيون تحت راية السلام لكن هدفها البعيد هو زراعة بذور جيل جديد ينسى ثوابت الحقوق العربية أو على الأقل يكون مستعدا للمساومة على غده.

على أن واحدا من موضوعات العدد - على الأقل - يجرب أن يدخل إلى العقل عن طريق المعدة ويقدم دراسة طريفة عن المطبخ العباسى يذكرنا فيها بوصفات مجربة لأطباق كانت تملأ الموائد فى بيوت ذلك العصر الذهبى.. والقائمة طويلة لأسماء لم تعد مألوفة: التنورية والاسفيذباجة والمضيرة والسيكباج، لكن أحدا - الآن - لا يدعى أنه يعرف طعمها!

ويستطيع أى منا أن يجد بعد ذلك مبررات للتفاؤل وللاحتفال بقرن مقبل، بصرف النظر عن الظلال القاتمة فى الصورة. وهوما يؤكد رئيس التحرير فى مقاله على الصفحة الأخيرة أنه ممكن بشرط أن ينجح الإنسان العربى فى تضييق الهوة السحيقة التى تفصل بينه وبين إنسان الغرب.. وساعتها فقط سيكون من حقه هو الآخر أن يبتسم بلا قلق أو يضحك من الأعماق ويرقص فى الميادين حتى الصباح إذا أراد.. عندما يبدأ قرن آخر فى ألفية جديدة!

وجهات نظر

«في الرحلات الطويلة يحتاج المرء من وقت لآخر إلى وقفة لالتقاط الأنفاس وتجديد الهمة والتزود بالوقود. وقد يتطلب الأمر من البعض التقليب في خرائطه للتأكد من المواقع ومراجعة الاتجاهات .. قبل أن يدير البصر حوله ليحسب ما قطعه من مسافات أو ينتظره من مراحل!

هذا الملف - الذي يلقى نظرة على بعض ما فعله القرن العشرون لنا وبنا - يشبه بالضبط محاولة لاهثة للتحقق من الكلمات المكتوبة ببنط صغير على اللافتات التي تتتابع بلا توقف على الطرق السريعة (كأنها هي التي تتحرك) لتنبه إلى حدود السرعة أو أخطاء القيادة أو تحذر من منعطف قادم يتطلب التمهل بعد لحظات.

الفارق الوحيد هو أنه - بعكس علامات المرور - ليست هناك إشارة واحـدة مؤكدة تسـتطيع أن تدلنا على ما بقى من زمـن في الرحـلة... لا إلى أين يمكن أن تأخذنا عندما يكمل الكون دورة أخرى كاملة مع نهاية رحلة طويلة لقرن جديد!»

المحـــرر

هذه السطور ليست مقالا مرسلاً أفرغت معانيه على الورق في انطلاق واسترسال، ولكنها ثمرة معاناة طويلة مع التردد، وإخلاف وعود عديدة بالكتابة طال أمدها منذ عقد صاحب هذا القلم عزمه منذ ما يقرب من عام على أن يسجل لنفسه، وللقراء، بعض الخواطر والتأملات حول مسيرة الفكر الإسلامي المعاصر، ومسيرة الحركات التي تستمد منه أو ترفع شعاراته أو تقوم عليه، فهذه السطور إذن ليست إلا قطوفا وخواطر متفرقة من فكر يعانيه كاتبها في مراجعات متواصلة وصبر وأناة طويلين، لا يتحكم فيهما الاستعجال الذي فرض نفسه على هذه السطور، وقد وعد صاحبها أن يفرغ من كتابتها في أيام معدودات، قبل أن يدق اليوم الأول من القرن الجديد أبوابنا وأبواب جميع الناس.

ويحتاج القارئ قبل أن ندخل به إلى صميم الموضوع أن ننبهه إلى أمور ثلاثة مهمة تعينه على فهم الحدود التي رسمناها لمناقشة هذا الموضوع:

الأمر الأول: أن الحركات الإسلامية التي نطل معه عليها من خلال هذه السطور ليست هي «الجماعات» أو «جماعات التطرف والعنف» التي امتلأت الصحف ووسائل الإعلام بالحديث المعاد عنها، وتتبع أخبارها، وإدانة الفكر الذي تقوم عليه، والسلوك الاجتماعي والسياسي الذي تمارسه، واصفة إياها بالحق والدقة أحيانا، وبالتعميم الفاسد أحيانا أخرى، بأنها جماعات التكفير أو جماعات الإرهاب أو جماعات الإسلام السياسي!!

وقد آثرنا من جانبنا أن نسميها جماعات الغلو في الفكر والانحراف عن مبادئ الإسلام وضوابط السلوك الجائر في الحركة والنشاط. ذلك أن هذه الجماعات على ما شغلته - ولاتزال تشغله - من اهتمام الناس والحكومات، فإنها لا تمثل - عند التأمل الهادئ والرصد الموضوعي، إلا هامشا ضئيلا، وإن يكن عالي الصوت شديد الضجيج - على جانبي تيار واسع عريض هو تيار الفكر الإسلامي والسلوك الذي تحكمه عقائد الإسلام وشرائعه وآدابه.. والذي هو فكر وسلوك مئات الملايين من المسلمين الذين أقاموا حضارة الإسلام، وعاشوا ثقافته عبر القرون، والذين تستقر عقولهم وقلوبهم في هذا الزمان على مبادئ الإسلام الإنسانية السمحة التي جاء بها خاتم النبيين لتكون رحمة للناس، تحررهم من الجوع والخوف وتدفع عنهم أسباب القلق ودواعي العسر والحرج.. وتضبط علاقات بعضهم ببعض على دعائم من العدل، والتكافل، وتبادل الفضل والعطاء.. ولقد وقع ظلم هائل لا يغتفر لحضارة الإسلام وثقافته ومسيرة أهله كلهم، حين اختزلت تلك المسيرة - عن نقص في العلم والوعي، أو نقص في روح العدل والإنصاف - إلى أن تكون هي مسيرة تلك الحفنة من الغاضبين الذين يخرجون على الأمة

١ - بين الاسلام والعروبة
طارق البشرى
دار الشروق، ١٠٤ ص، ١٩٩٨
٢ - رؤية اسلامية معاصرة
د. أحمد كمال أبو المجد
دار الشروق، ٦٨ ص، ١٩٩٢



كلها بين الحين والحين، يكفرون مؤمنها، ويفسقون صالحها، وتمتد أيديهم بالعدوان والأذى إلى برها وفاجرها.. ولقد آن الأوان - فيما نرى - لاستنقاذ «الثقافة الإسلامية»، ومعها الكثرة الغالبة من الحركات الإسلامية المعاصرة، من آثار هذا الاختزال الظالم، ومن آثار الخطيئة الكبرى التي وقع فيها بعض المثقفين والمؤرخين، حين فوتوا على أنفسهم وعلى الناس فرصة التأمل الموضوعي المنصف في مسيرة «التيار الإسلامي العام»، الذي تمثله جموع المسلمين الذين لا تربطهم رابطة بتلك «الجماعات» التي أوشك الحديث المتواصل المعاد عنها أن يكون «عقبة» حقيقية في طريق التاريخ الهادئ لمسيرة المسلمين، والتأمل الجاد فيما يمكن أن يكون للمسلمين وحضارتهم من مكان أو مكانة على خريطة المستقبل القريب الذي يمثله هذا القرن الحادي والعشرين..

الأمر الثاني: أننا في هذه الإطلالة لا نطيل التوقف عند ما جرى في القرن العشرين، بقدر ما نشد الانتباه إلى ما ينتظر تلك الحركات، وينتظر المسلمين جميعا في القرن الحادي والعشرين. لذلك فإن هذه السطور لا تقدم تسجيلا تحليليا للحركات الإسلامية التي ظهرت في القرن المنصرم، أولا: لأن كاتبها ليس من المؤرخين المتخصصين. وثانيا: لأن تقديم مثل هذا التسجيل يحتاج إلى قاعدة معلومات كاملة وإلى نظام توثيق دقيق لا يملكهما الكاتب ولا تتسع لهما هذه السطور. ثم إن شاغلنا الشاغل عند هذا المنعطف التاريخي بين قرنين ليس تقييم الحركات الإسلامية التي ظهرت خلال المائة عام الأخيرة، أيا كانت معايير ذلك التقييم، بقدر ما هو التنبيه إلى شروط النهضة ومتطلبات الانبعاث، وإلى ما نراه المنهج السليم في فهم الإسلام كله وفهم رسالته ومنهج الدعوة إليه، وتوظيف مبادئه وشرائعه لخدمة المجتمع، ومعالجة همومه وشئونه على نحو يحقق التواصل مع الناس، ويضع نهاية لمرحلة «الجمود على الموجود» التي طبعت فكر كثير من المثقفين المسلمين، كما طبعت جوانب عديدة من حياة جموع المسلمين، وألقت ظلالا قاتمة وسحبا عقيمة على أوضاعهم السياسية والاجتماعية.

الأمر الثالث: أننا نكتب هذه السطور في وعي كامل بالتغيرات التي طرأت على حياة الناس جميعا، مسلمين وغير مسلمين، شرقيين وغربيين، نتيجة الآثار الهائلة التي تركتها على حياة أولئك الناس ثورات العلم والتقنية في جميع المجالات، وعلى رأسها مجالات الحركة والاتصال والمعلومات.. ذلك أن المسلمين لا يمكن أن يكونوا بمعزل عن شيء من هذه التغيرات، بعد أن سقطت الحواجز وانهارت السدود، والتقى ماء الحضارات والثقافات على أمر قد قُدر.. ومسلمو هذا الزمان لا يملكون أبدا أن يصوغوا لأنفسهم تاريخا منفصلا عن تاريخ العالم الذين يعيشون فيه، كما لا يملكون أن يدخلوا القرن الجديد، كما يتوهم البعض من باب خاص بهم لا يدخل منه أحد سواهم، أو أن يصنعوا لأنفسهم مستقبلا منعزلا عن مستقبل سائر الشعوب، ذلك أنهم وإن لم يدرك بعضهم ذلك، جزء من عالم «سائر الناس» متأثر به ومؤثر فيه، إذ الناس في منطق الإسلام كلهم «عيال الله» تجرى عليهم القوانين والسنن

> لقد وقع ظلم هائل لا يغتفـر لحضـارة الإسلام وثقافته ومسيرة أهله كلهم حين اختزلت تلك المسيرة إلى أن تكون هى مسيرة تلك الحفنة من الغاضبين الذين يخرجون على الأمة كلها بين الحين والحين يكفرون مؤمنها ويفسقون صالحها

> إن المسلمين لا يمكـن أن يكونوا بمعـزل عن التغيرات التى طـرأت على حيـاة الناس بعد أن سـقطت الحـواجز وانهـارت السـدود والتقـى مـاء الحضارات والثقافات عـلى أمـر قـد قـدر

الإلهية الثابتة التى تجرى على سائر الناس، وإله المسلمين الذى يعبدونه هو رب الناس .. ملك الناس.. إله الناس، ورسولهم الذى يصدقونه ويتبعون سننه ويهتدون بهديه هو بشر مثلهم يوحى إليه، وقد علمهم أنه وسائر الأنبياء من قبله «أبناء علات، أمهاتهم شتى وأبوهم واحد» .. والمسلمون جميعا فى المنطق الإلهى، أمة من الأمم، إلا أنها صارت بما تحمله من دعوة الحق والخير والعدل والسلام، «خير أمة أخرجت للناس»، ولهذا فإن تاريخ المسلمين، قديمه وحديثه، ليس إلا جزءًا حيا من تاريخ سائر الناس، تتفاعل فى ظله ثقافة المسلمين وأفكارهم وثمرات إبداعهم وأنماط سلوكهم، مع كل ما يحيط بهم من ألوان العقائد والأفكار والرؤى والثقافات.. لهذا يحتاج المسلمون، عند هذا المنعطف التاريخى الخطير، إلى أن يدركوا أنهم حين يعبرون إلى القرن الحادى والعشرين، فسوف يعبرون فى موكب واحد تجتمع معهم فيه سائر الأمم والشعوب.. وهو موكب تحيط به مشكلات وهموم مشتركة، وتجمع السائرين فيه أشواق مشتركة تتطلع إلى تزكية ما حملته الثورات العلمية من خير «ينفع الناس»، وإلى مقاومة الآثار الجانبية المدمرة التى حملتها للإنسانية كلها رؤى حضارية توشك أن تقدم الشىء «على الإنسان»، ولا تكاد تعرف للسعادة طريقا إلا طريق حيازة الثروة، ومزاحمة الآخرين عليها مزاحمة تستحل فيها جميع الوسائل، ويستباح من أجل تحقيقها الجور على حقوق الآخرين واستئصالهم إذا لزم الأمر وتطلبته ملابسات الصراع.

فى إطار هذه المقدمات الطويلة التى لم يكن من عرضها بد، ننتقل إلى استعراض أمور ثلاثة:

أولها: نظرة سريعة إلى مجمل الحركات الإسلامية التى ظهرت خلال القرن العشرين، وإلى موقف سائر الناس منها.

الثانى: الدعوة إلى تصحيح العلاقة بين تلك الحركات وبين الأنظمة الحاكمة فى تلك المجتمعات، وفض الاشتباك العدائى القائم بين طرفى تلك العلاقة.

الثالث: تصور التوجهات الأساسية للحركات الإسلامية، كما تحددها روح الإسلام، فى إطار الظروف الموضوعية للواقع الإنسانى الذى نستطيع استشراف معالمه فى القرن الحادى والعشرين.

١ـ وأول ما يلفت النظر ويستوقف الباحث والمؤرخ أن الحركات الإسلامية التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين وحتى أواسطه قد كانت لها أهداف سياسية متطابقة تماما مع الأهداف السائدة فى المجتمع، حتى تكاد تكون موضع إجماع من جماهير الناس، فأهداف هذه الحركات لم تكن بهذا المعنى أهدافا خارجة على التوجهات السياسية للمجتمع، ولا مخالفة لها أو متناقضة معها.. كما يلفت النظر أن هذه الأهداف قد كانت فى الغالب الأكثرى منها أهداف تحرير وطنى ومقاومة للنفوذ والتسلط الأجنبى، وبهذا وبسببه دخلت جميع تلك الحركات تاريخ بلادها السياسى، باعتبارها حركات تحرير وطنى وقومى وثقافى. وعلى سبيل المثال، فإن حركة دينية سياسية كالحركة السنوسية التى ظهرت فى ليبيا على يد محمد بن على السنوسى المتوفى ١٨٦٠م، خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر والتى امتد تأثيرها وتعاظم مدها خلال النصف الأول من القرن العشرين، قد كانت إلى جانب طابعها الصوفى والدَّعَوى المعروف حركة تحرر جهادى من الاستعمار الإيطالى، كذلك كانت الحركة المهدية التى أسسها محمد أحمد المهدى فى السودان حركة تحرر من النفوذ الاستعمارى البريطانى، وحتى حركة «الجماعة الإسلامية» فى باكستان، كانت إلى جانب معالمها الفكرية المحافظة فى قراءتها للنصوص الإسلامية المقدسة، حركة تستهدف تمكين المسلمين فى شبه القارة الهندية من ممارسة حقهم فى تقرير مصيرهم السياسى والثقافى، و بهذا المعنى ـ وفى حدوده ـ كانت تلك الحركة واحدة من حركات التحرير الوطنى.. وفى مصر فإن حركة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا عليه رحمة الله، كانت عند نشأتها حركة ذات طبيعة مركبة، فيها قدر من التوجه الصوفى عبر عنه مؤسسها فى مناسبات عديدة من خلال إشادته بالطريقة الصوفية الشاذلية، وفيها قدر كبير من التوجه السلفى (فى أمور العقائد التى عرضها حسن البنا، عرضا واضحا شديد البساطة، ولكنه دائر فى فلك النظرة السلفية التى يمثلها الفكر الأشعرى، وكان فيها توجه للإصلاح السياسى والاجتماعى الداخلى على أسس ومنطلقات إسلامية ..كما كان فيها أخيرا ـ وهو ما يعنينا هنا ـ جانب سياسى تمثل فى شقه الخارجى فى تحرير مصر من الاستعمار الإنجليزى، كما تمثل بعد عام ١٩٤٧ فى العمل على تحرير فلسطين من الاغتصاب اليهودى.. وفى إطار هذا التوجه السياسى كان اشتراك أعداد غير قليلة من شباب تلك الجماعة فى الأعمال الفدائية الموجهة ضد المعسكرات البريطانية فى ضواحى القاهرة، وفى منطقة قناة السويس، كما كان اشتراكهم عام ١٩٤٨ فى كتائب المتطوعين التى دخلت الأراضى الفلسطينية تحت قيادة القائمقام أحمد عبدالعزيز، ولعلنا نلاحظ هنا أن قيام التنظيم شبه العسكرى الخاص لجماعة الإخوان المسلمين فى مصر بعدد من أعمال العنف داخل مصر، وهو ما ورطهم فى النهاية فى صدام مباشر مع القانون ومع الشرعية القائمة.. هذا التوجه الخاطئ قد كان فى بدايته الأولى موجها ضد المصالح الأجنبية واليهودية فى مصر، وكان فى نظر أصحابه ـ أيا كان الرأى فى شرعيته ومدى جوازه ـ عملا من أعمال التحرير الوطنى والمقاومة الشعبية يشتركون فيه مع جماعات أخرى عديدة خارج التيار الإسلامى.

والذى نصل إليه من هذه الملاحظة هو ما انتهى إليه مؤرخ معاصر ثقة من أنه « قبل ظهور الدعوات العلمانية المتأثرة بالغرب، كانت الدعوات الإسلامية مندمجة فى حركات التحرير الوطنى عامة، وفى الدعوات العامة للإصلاح والنهوض، فلما انفرزت حركة وطنية علمانية تدعو للاستقلال بصورة للمجتمع المستقل مستعارة من نماذج الغرب وأسسه الشرعية، لما حدث ذلك ظهرت الدعوة الإسلامية تؤكد أن الإسلام دين ودولة معا.(الأستاذ طارق البشرى، «بين الإسلام والعروبة» دار الشروق، ١٩٩٨، ص ٨١٧).

وعلى الصعيد الفكرى لا يملك الباحث إلا أن يلاحظ التوجه التحررى الواضح فى أفكار كثير من رواد حركة الانبعاث الإسلامى خلال النصف الأول من القرن العشرين.. ومن أوضح الأمثلة على هذا الاندماج الفكرى بين «الرؤية الإسلامية» والموقف الوطنى التحررى، ما نقرؤه فى كتابات السيد جمال الدين الأفغانى، وإن كان الفكر عند الأفغانى قد كان مصاحبا ومواكبا طول الوقت للعمل السياسى وللحركة النضالية.. كذلك يلاحظ الباحث مدى الارتباط الوثيق بين دعوة ابن باديس وجمعية العلماء الجزائريين إلى بعث تعاليم الإسلام والدعوة إلى التمسك بالثقافة العربية واللغة العربية فى مواجهة الاستعمار الفرنسى، الذى أخذ يعمل بهمة ونشاط وإصرار على طمس الهوية الثقافية للشعب الجزائرى، سعيا إلى تيسير خضوعه للنفوذ السياسى والثقافى الفرنسى.. وبذلك كان لجمعية العلماء الجزائريين وجهها الوطنى التحريرى، إلى جانب وجهها الإسلامى الإصلاحى.. وشبيه بهذا ما قام به الثعالبى فى تونس، جامعا فى دعوته وفى أفكاره بين التوجه الإسلامى الواضح، والتوجه القومى، إلى الاستقلال عن النفوذ الغربى الذى مثلته فرنسا، وهو ما انتهى عام ١٩٢٠، إلى تأسيس الحزب الحر التونسى على أسس إسلامية وعربية فى ذات الوقت.

بل إن الثنائية التى ظهرت فى المواقف الفكرية لعدد من رواد الفكر الإسلامى تجاه الدولة العثمانية تكشف عن أمر بالغ الأهمية، وهو أن كثيرا من تلك القيادات رغم توجهها الإسلامى الواضح، فإنها قاومت السيطرة العثمانية على العالم العربى من منطلق تحررى وإسلامى فى آن واحد، فبالإضافة إلى استفزاز حركة التتريك وإحياء القومية الطورانية للمشاعر العربية، فإن هذه القيادات الإسلامية قد استقر لديها الإحساس بأن الدولة العثمانية قد تراخت قبضتها وترهل بنيانها ولم تعد بسبب جمودها وتخلفها النسبى، قادرة على حماية المسلمين فى مواجهة النفوذ السياسى والعسكرى المتعاظم للقوى الكبرى فى أوروبا، وهو ما يعنى أن الموقف الفكرى لهذه القيادات الإسلامية قد كان فى جانبه السياسى موقف مقاومة، وسعيا للتحرر، حتى حين تتوجه تلك المقاومة إلى دولة ترفع شعارات الإسلام والخلافة الإسلامية.

وإلى جانب هذا الموقف التحررى تميز الرواد والعلماء فى تلك الفترة بانتباههم إلى دور العقل فى تحقيق النهضة.. ولم يكن هذا موقفا جديدا بقدر ما كان عودة إلى الأصول الثقافية الإسلامية، بعد أن طرأ عليها جمود مؤقت.. وحسبنا إثباتا لهذه الحقيقة أن نشير إلى قول كاتب سياسى شهير ينتمى إلى القرن الخامس الهجرى هو أبو الحسن الماوردى، إذ يقول فى كتابه «أدب الدنيا والدين» : اعلم أن لكل فضيلة أساسا ولكل أدب ينبوعا ، وأسس الفضائل وينبوع الأدب هو العقل الذى جعله الله تعالى للدين أصلا وعمادا، فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وألف بين خلقه مع اختلاف مذاهبهم ومآربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم، وجعل ما تعبدهم به قسمين: قسما وجب بالعقل فوكده الشرع، وقسما جاز فى

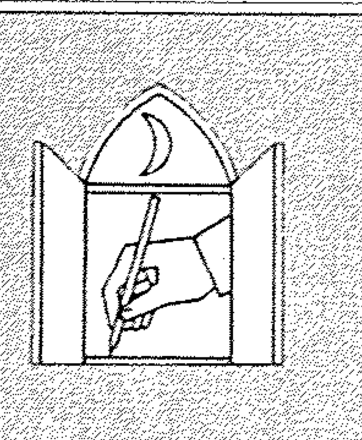
من ينهى الجمود على الموجود؟

العقل فأوجبه الشرع، فكان العقل لهما عمادا (تحقيق مصطفى السقا ـ القاهرة ١٩٥٥، ص ١). ثم يقول: «اعلم أن الله سبحانه جعل ما تعبدهم به (أى الناس) مأخوذا من عقل متبوع وشرع مسموع. فالعقل متبوع فيما لايمنع منه الشرع والشرع مسموع فيما لايمنع منه العقل، لأن الشرع لا يرد بما لايمنع منه عقل، والعقل لايتبع فيما يمنع منه الشرع، فلذلك توجه التكليف إلى من كمل عقله (المرجع السابق ص٧٨).

أما محمد عبده فقد كان ـ فيما نرى ـ مجدد هذا القرن بما انتهى إليه وما عبر عنه فى مؤلفاته وفتاواه من ضرورة الاجتهاد العقلى، وهو اجتهاد مارسه بنفسه حين قام بتفسير ما تيسر له تفسيره من القرآن الكريم وفى دعوته القوية لإصلاح مناهج التعليم فى الأزهر الشريف.

على أن هذا الموقف السياسى التحررى للفكر الإسلامى وللحركات الإسلامية لم يلبث أن تغير مع بداية النصف الثانى للقرن العشرين.. متجها بتلك الحركات إلى موقف المعارضة الحادة للنظم السياسية وللحكومات القائمة.. ودافعا بالطرفين إلى مواجهات ومصادمات غير مسبوقة وإلى اتجاه كثير من حكومات الدول العربية والإسلامية إلى السعى لتصفية تلك الحركات تصفية سياسية أول الأمر، وجسدية إذا اقتضت الظروف والملابسات، وهو اتجاه قابله اتجاه من جانب بعض تلك الحركات يسعى لزعزعة الاستقرار السياسى النسبى الذى تتمتع به تلك الحكومات.. ورغم التأييد الشعبى الذى تمتعت به بعض تلك الحركات، فإن طول فترة المواجهة مع الحكومات واتصال حلقاتها، وتصاعد موجات العنف المتبادل بين طرفى المواجهة، وما دفعته الجماهير من ثمن باهظ من دمائها وأمنها وحريتها بسبب ذلك كله.. قد نقل كثيرا من الحركات الإسلامية إلى موقف جديد هو موقف العمل «خارج» الإطار السياسى وخارج «الشرعية القانونية»، وانتهى الأمر إلى اختفاء تدريجى للخطوط الفاصلة بين الروافد المختلفة للعمل الإسلامى.. وسعت دوائر عديدة بعضها داخل المجتمعات الإسلامية، وبعضها خارج تلك المجتمعات إلى تثبيت هذا الخلط، وإشاعة الاعتقاد باستحالة التمييز بين تلك الروافد استنادا إلى مقولة مؤداها أن تلك الجماعات جميعها تحمل بذور العنف والتطرف، وأنها جماعات إرهاب.. تشكل فى الحال أو فى المآل خطرا شديدا على أمن المجتمع واستقراره وعلى مسيرة التنمية المتواصلة التى هى القضية الأولى لجميع الدول العربية والإسلامية النامية.

وهكذا، وفى مفارقة تاريخية مؤسفة تحول العمل الإسلامى المنظم كما تحول الفكر الإسلامى كله فى نظر أكثر الحكومات من قوة تبعث على النهضة ويضاف جهدها إلى جهد الحكومات فى تحقيق تلك النهضة وفى تحرير الشعوب وتوكيد استقلالها فى مواجهة القوى الأجنبية، إلى مصدر خطر داهم على استقرار المجتمع، وإلى عقبة تهدد مسيرته نحو النمو والرخاء.. وإلى مشكلة أمنية مزمنة يكاد حلها يستعصى على العقلاء والحكماء وبسيادة هذه النظرة الأمنية إلى مشكلة سياسية وثقافية بالغة التعقيد وقعت أضرار جسيمة وفات على الأمة بكل طوائفها خير كثير.



إن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان لاتعنى تجميد نصوصه ومبادئه وإنما تعنى توظيف الأدوات التى اشتمل عليها لتحقيق الاستجابة مع تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال

وأهم مايعنينا فى هذه السطور أن نكتشف الأسباب التى أدت إلى هذا التحول، وما إذا كانت هذه الصورة الجديدة للحركات الإسلامية صورة نهائية لارجعة فيها وعلينا أن نتعامل معها على هذا الأساس أم أنها مرحلة «عارضة» أدت إليها أسباب طارئة، ومن ثم ينبغى العمل على إنهائها فى أقرب وقت والعودة إلى السياق الطبيعى الذى تتفاعل فيه الأفكار والمذاهب والرؤى المختلفة تفاعلا عضويا صحيا يوظف فى النهاية لمصلحة المجتمع كله.

وفى تقديرنا أن أسبابا رئيسية قد ساهمت فى حدوث هذا التحول:

١ ـ أولها أن الحوار الفكرى الخلاق الذى كان دائرا داخل المجتمعات العربية والذى كان حوارا وطنيا داخليا بين مناهج مختلفة فى الإصلاح وتحقيق النهضة قد تسللت إليه قوى وتأثيرات خارجية رأى بعضها فى التيار الإسلامى خطرا داهما يهدد مصالحه، ويقف فى إصرار ضد محاولات التغريب التى تفقد الأمة هويتها الحضارية وتيسر دخولها بعد ذلك فى مجال التبعية والانقياد لتلك القوى الأجنبية. وقد عبر عن هذا التحول باحث معاصر محقق منبها إلى أن دخول هذا الطرف الأجنبى فى دائرة هذا الحوار قد غير طبيعة الحوار، وأخل بالتوازن الذى كان قائما بين أطرافه، فلم تعد النخبة العلمانية وحدها فى مواجهة مع المشروع الإسلامى ونخبته وجماهيره، ولم تعد مؤسسات الدولة القُطرية هى التى تحمل وحدها عبء مواجهة الحركات الإسلامية وإنما دخلت التبعية التى تشد الدول القُطرية إلى الغرب فى هذا الصراع الأمر الذى زاد من حدة الاستقطاب بين العلمانيين وبين الإسلاميين على نحو غير مسبوق.. وخلال السنوات العشر الأخيرة من القرن العشرين، وبسبب انتشار ظاهرة الإرهاب العالمى من ناحية وفى أعقاب انهيار المعسكر الاشتراكى فكريا وسياسيا وعسكريا، ارتفعت فجأة فى الأدبيات السياسية الغربية نغمة أن الإسلام هو العدو الجديد، وحدث تداع مؤسف فى الفكر وفى السلوك السياسى للغرب، بين محاربة الإرهاب وهو هدف مشروع تماما، ولا خلاف عليه داخل المجتمعات العربية والإسلامية، وبين مقاومة التيار الإسلامى بكل صوره وروافده وعلى اختلاف منطلقاته.. وكان من ثمرة هذه الملابسات المعقدة أن وقع التقاء بين جبهات ثلاث لكل منها رؤيتها وأهدافها الخاصة.. الجبهة الأولى هى جبهة القوى الخارجية الغربية التى ترى فى نمو التيار الإسلامى، ونمو روافده المعتدلة بصفة خاصة خطرا يهدد المصالح الغربية ويقف فى طريق تحقيق تبعية العرب والمسلمين للغرب.. فضلا عما يمثله ذلك التيار نظريا على الأقل من القدرة على تقديم بديل حضارى منافس لحضارة الغرب.

أما الجبهة الثانية، فهى جبهة الحكومات التى سيطرت على أكثرها رؤية أمنية خالصة ألقت ظلالها الكثيفة على فكر كثير من الساسة العقلاء والحكماء.. فرأت بسبب ذلك أن التعامل غير الأمنى مع روافد التيار الإسلامى أمر غير مجد وغير ممكن وغير مأمون.. وأن الإجراءات الأمنّية والعقابية هى الطريق الوحيد الصالح للتعامل مع تلك الروافد.. وبعبارة موجزة قررت تلك الحكومات أن التصفية النهائية الشاملة هى الحل. وقد أدى هذا الموقف من جانب كثير من الحكومات العربية والإسلامية إلى إجهاض الحوار الخلاق الذى كان يمكن أن يتم داخل التيار الإسلامى، ذلك أن سوء الظن العام الذى استولى على تلك الحكومات بجميع روافد التيار الإسلامى، قد أدى إلى وضعها عمليا فى سلة الخطرين على أمن المجتمع واستقراره وإلى وضع علامة شك وسوء ظن فوق رءوس جميع العناصر النشطة فكريا أو اجتماعيا أو سياسيا داخل هذا التيار، فحيل بين أكثر العناصر اعتدالا وتحررا وإيمانا بالتعددية والديمقراطية وحقوق الآخرين وبين ممارسة دورها التاريخى فى ترشيد الفكر وإصلاح العوج. وتأخرت بذلك كله تحولات أساسية بالغة الأهمية والأثر كان يمكن وقوعها داخل تلك الحركات ابتعادا حاسما عن التطرف والغلو، واستردادا للفهم السوى المعتدل لمهمة الفرد المسلم والجماعة المسلمة، وإرساء لعلاقة حميمة بين تلك الحركات وبين المجتمعات التى تعمل فيها..

ولما كان تحقيق مثل هذه التحولات هو الضامن الحقيقى لأمن المجتمع واستقراره، والضامن كذلك لانتفاع المجتمع بكل تيارات الفكر والعمل العام على اختلاف توجهاتها فإننا لانتردد من خلال هذه الإطلالة التى أردناها عامة موجزة، فإذا بها تتسع وتتشعب على النحو الذى نرى، لانتردد فى تقديم تصور إجمالى لوسائل إنهاء هذه الحالة التى ترفع درجة التوتر والقلق فى حياتنا السياسية والاجتماعية.. وهذا التصور يقوم على مجموعة من المطالب نتوجه بها إلى النخبة القائدة أو المثقفة الرائدة داخل التيار الإسلامى أو التى تتحدث عن مشروع إسلامى للنهضة العامة، كما يقوم على مجموعة مقابلة من المطالب والتوصيات نتوجه بها إلى الحكومات وإلى النخبة المثقفة داخل التيار العلمانى للإصلاح السياسى والاجتماعى.

أما الجبهة الثالثة: فهى النخبة من الكتاب والمثقفين العلمانيين الذين يرون أن إقحام الإسلام فى أمور المجتمع ونظمه السياسية والاقتصادية شر خالص.. وأن النضال للحيلولة دون ذلك التدخل بين الدين والمجتمع نضال مقدس لاينبغى أن يتوقف حتى تتم التصفية النهائية لجميع الحركات الإسلامية..ومن المؤسف أن بعض هؤلاء قد وضع نفسه، من حيث لايدرى، فى خندق واحد مع الطرف الأجنبى الذى لازال تأثيره على مجريات الأمور فى العالمين العربى والإسلامى يتعاظم سنة بعد سنة.. وذلك مع تباين المنطلقات والبواعث بين الفريقين.. إن دخول الطرف الأجنبى فى محاولة الصراع الثقافى والحوار الوطنى قد عقّد الصورة تعقيدا شديدا.. بحيث لم يعد ممكنا فى ظل هذا الدخول تصور مستقبل الحوار بين التيارين الإسلامى والعلمانى بعيدا عن رصد وفهم حقيقة الدور الأجنبى ومدى تأثيره على ذلك الحوار.

٢ ـ وإذا كنا لانغفل عن حقيقة الخلاف القائم منذ بدايات القرن العشرين بين التيارين «الإسلامى» والعلمانى داخل المجتمعات العربية والإسلامية، فإن الذى يحزننا على المستويين الشخصى والموضوعى أن نرى هذا الخلاف وقد تحول إلى «حرب أهلية ثقافية» هدفها الأوحد تصفية الفكر «الآخر» تصفية كاملة، والتعاون من أجل تحقيق هذاالهدف، مع قوى ومؤسسات ودوائر وطنية وأخرى خارجية.. على نحو يشتت الكيان الفكرى للنخبة المثقفة. ويبدد قواها، ويغلق ـ إلى أمد بعيد فى المستقبل ـ فرص التعاون بينها.. رغم أن «الفرز الموضوعى» لمحتويات موقف كل من الفريقين من شأنه أن يؤدى إلى تبين عناصر الاشتراك والاتفاق بين مجمل تلك المحتويات.. مما يفسح المجال لتعاون حقيقى، يخدم القضايا الكبرى للأمة بدلا من استهلاك طاقة النخب المثقفة فى أتون «حرب الاستئصال الثقافى» التى قد تؤدى فى مستقبل غير بعيد إلى استئصال الفريقين جميعا من جانب قوى أخرى تستخدم أحدهما ضد الآخر، ثم تعود فتصفى هذا الذى استخدمته لتخلو لها الساحة كلها، وخصوصا أنها منذ البداية، لاتنحاز انحيازا حقيقيا لأى قوة وطنية يمكن أن تقف فى وجه امتداد نفوذها وبسط هيمنتها.

إن مما يبعث على الدهشة والأسف معا أن هذه الرؤية الموضوعية لحقيقة الخلاف بين التيارين الإسلامى والعلمانى قد حجبت عن «النخبة» داخل التيارين رؤية «الملحمة» الفكرية القائمة داخل كل من التيارين، بين عناصر

التطرف والغلو من ناحيـة، وعناصر الاعـتدال والتسـامح والوعى بحق الآخرين فى الوجـود والممارسة من ناحية أخرى.. وعلى سبيل المثال، فإن «التيار الإسلامى» يشهد فى داخله صراعا حقيقيا بين قوى التطرف والجمود والذهول عن رؤية الواقع وحـركـة التـاريخ، والانقطاع الاختيارى عن مسيرة ذلك التاريخ.. وبين قوى الاعـتدال التى تنظر إلى مقـاصـد النصـوص والأحكام الدينيـة وإلى ترتيب الأولويات فى إطارها، كما تؤمن بالتعددية وتحـترم حقوق الآخرين، وتمد بصرها وبصيرتها عبر كل الحدود لتنتفع بتجارب أولئك الآخـرين.. وقد كـان المتوقع والمنطقى أن تنحاز «النخبة العلمانية» إلى هذا الرافد من روافد الفكر الإسلامى، وأن ترى فى هذا الانحياز ما يشد قوى الاعتدال والتنوير داخل ذلك التيـار.. وبدلا من هذا الموقف المنطقى وجدنا كثيرا من الأقلام والألسنة التى تتحدث باسم تيـار «العلمانيـة» والتنوير وقد نذرت نفسـهـا لتخص تيـار «التنويرالإسلامى» بالنصـيب الأوفى من سـهـام النقـد واللوم والاعتراض والتجريح.. وهى سهام قد تؤدى ـ لا قدر الله ـ إلى هزيمة العلم فى مواجهة الجهل، وتراجع الاعـتدال لحسـاب الغلو والشطط.. ليتراجع بذلك إسلام النهضة والعقلانية وتحرير العـقول والتسـامح الفكرى والسلوكى تجـاه الآخرين.. ولترتفع فى سـاحة الحرب الأهلية القـائمة بين «النخب الثقافيـة» أعلام الجمود والانتكاس والانغلاق.

وعلى الجانب الآخر جانب التيار الإسلامى، عجزت كثير من القيادات الفكرية داخل هذا التيار عن «رؤية» المشـترك بين التيـارين، وعن إعادة ترتيب أولوياتها بما ييسر «العمل المشترك» بينها وييسر الصمود الوطنى فى مواجهة قوى الجمود والتراجع داخليا، كمـا تجاهلت بدورها، تعدد الروافد داخل ذلك التيـار العلمانى، ومنها روافد عديدة ذات وزن وتأثير لاترى بينها وبين التيار الإسلامى فى عمومه تناقضا أساسيا يتعذر تجاوزه. بل انها تجاهلت ان ذلك التيار شأنه فى ذلك شأن كل تجمع فكرى يحمل فى داخله رؤى متباينة وانه تتم داخله تحولات وتطورات فكرية حقيقية جديرة بالانتباه والملاحظة.

لهذا فإن فى مقدمة المهام التى تواجه النخب الثقافيـة فى مطلع القرن الجديد مهمة البحث الموضوعى الهادئ عن صيغـة للتعـايش والتبـادل الفكرى بين التيـار الإسلامى وتيار «التنوير» العلمانى.. حتى تعود العلاقة بين النخب الثقافية إلى ماكانت عليه، علاقة حوار وطنى تستفيد منه التجربة المصرية وتجارب العـالمين العـربى والإسـلامى وسط الظروف الإقليمية والعالمية المعقدة التى تحيط بها.

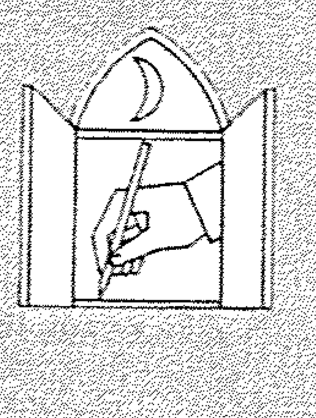
٣ ـ وأخيرا فإن تعدد الجماعات الإسلامية التى ترفض مجتمعاتها وتتهمها بالكفر والجاهليـة ولا ترى فى الغرب إلا شرا خالصا يتآمر على العرب والمسلمين، وترفض الأخذ منه والاستفادة من تجاربه، وما تورطت فيه بعض تلك الجمـاعـات من ممارسات طابعهـا العنف والامـتـداد بالعدوان والأذى إلى بعض رموز المجتمع السياسية والثقافية، فضلا عن تورط بعضـهـا فى صور من العنف العشـوائى الذى ينزع الأمن عن المجتمع كله بما فيه ومن فيه، ويضع تلك الجماعات فى مواجهة مع سائر عناصر تلك المجتمعات.. هذا كله قد ساهم فى تثبيت الصورة التى حرصت على تثبيتها دوائر عديدة خارج العالم الإسلامى وداخله، والتى مؤداها أن التوجـه الإسلامى فى العمل الاجتماعى والسياسى يحمل فى داخله بذور عنف كامن واستبداد أصيل، وأن كل تعـاظم لتأثير هذا التيار مهما كان هذا التعاظم منسوبا إلى أكثر الروافد اعتدالا وسماحة وعقلانية، يمثل خطرا داهما على حريات الآخرين وحقوقهم، كما يمثل تهديدا للمسيرة الديمقراطية، وعقبة كبرى فى وجه جهود التنوير وإشاعة العقلانية.

وصاحب تلك النماذج من السلوك العدوانى لبـعض تلك الجمـاعـات، ذيوع خطاب دينى إسلامى شديد الانغلاق، مسرف فى التفسير «الحرفى» لنصوص القرآن والسنة، غافل عن مقاصد الإسلام وقيمه الكبرى المهيمنة على الشـريعـة.. وتزامن ارتفـاع نبـرة هذا الفكر «الحرفى» مع موجة معاكسة تماما بدأت تنتشر فى العالم كله وهى موجة الإيمان بالتعددية الثقافية أو الدعوة النشطة إلى حوار الحضارات والأديان.. والسعى الدءوب لاكتشاف القواسم المشتركة بين الثقافات.. سعيا إلى ممارسة جهد مشترك يحفظ على مسيرة الشعوب قيم وأخلاقيات العلاقات الإنسانية التى تقوم على الاحترام المتبادل للخصوصيات الثقافية والالتزام الصارم بقيم العدل والمساواة واحترام حقوق الإنسان.

لهذا كله لم يكن غريبا أن تقع المفارقة المؤسفة التى أشرنا إليها بين ما رأيناه خلال النصف الأخير من القرن العشرين وبين ما ساد خلال النصف الأول منه، من اعتبار الحركات الإسلامية جزءا عضويا أساسيا من أجزاء حركة التحرر الوطنى ومقاومة النفوذ الأجنبى الذى يحمل طابع الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية..

ومن خلال هذا الرصد لما وقع عند نهاية القرن العشرين ننتقل إلى ما نراه منهجا أساسيا لفض الاشتباك المعقد القائم بين الحكومات والحركات الإسلامية من ناحية وبين التيار الإسلامى وتيار التنوير العلمانى، من ناحية أخرى، والمنهج الذى نقترحه يقوم على تقديم مجموعة من المطالب والتوصيات نتوجه بها إلى القيادات والنخب الواعية والمؤثرة داخل التيار الإسلامى أو تلك التى تتحدث عن مشروع أو مشروعات إسلامية للنهضة، كما يقوم على مجموعة مقابلة من المطالب والتوصيات نتوجه بها إلى الحكومات وإلى النخبة المثقفة الرائدة داخل التيار العلمانى فى الإصلاح السياسى والاجتماعى.

أما القيادات الفكرية الواعية والتى تنشط فى مجال العمل الإسلامى فإنها فيما نرى مطالبة عند هذا المنعطف التاريخى بعدة أمور:



منهج للمستقبل.. إن فقه العبادات وفقه الحدود والجنايات ينبغى أن يعودا إلى حجمهما الطبيعى داخل مجمل الفقه الإسلامى.. والاجتهاد الفقهى يحتاج إلى ممارسة نشطة وجريئة اعتمادا على مبدأ التيسير فى التقوى ومبدأ مراعاة الأولويات

١ ـ أن تحدد بحسم وبوضوح كاملين، وبنبرة عالية لاتردد فيها موقفها من أفكار وتصرفات الجماعات المنظمة التى تجمعها روح العزلة عن المجتمع، وإدانتها لسائر الناس، وللدولة ومؤسساتها، كما يجمعها التفسير الحرفى للنصوص الدينية، وقلة الاحتفال بالديمقراطية، وغياب الإيمان بالتعددية الفكرية والسياسية واستباحة الوسائل الانقلابية فى الوصول إلى مواقع التأثير وممارسة السلطة فى المجتمع.. وبغض النظر عن المحاولة المشروعة لفهم البواعث الحقيقية التى تحرك تلك الجماعات أو الأسباب المجتمعية لنشأة هذا النموذج المنحرف من نماذج الفكر والسلوك، فإن محاولة التفهم هذه لايجوز أبدا أن تحول دون إعلان موقف واضح وصريح من هذه الجمـاعـات.. حتى لا تختلط الأوراق، وتتداخل المواقف، وتتميع الحدود الفارقة بين التيار العريض للفكر الإسلامى وبين فكر هذه الجماعات، وهو اختلاط من شأنه أن يمنح فرصة ذهبية للذين يحرصون على إدانة التيار الإسلامى بروافده كلها، كما يمنح عذرا ظالما لمن يصرون على وضع الفكر المعتدل مع الفكر المتطرف والمنحرف فى سلة واحدة.

٢ ـ أن تعلن رأيها واضحا وصريحا ومفصلا وموثقا فى عدد من القضايا الأساسية التى يحتاج الناس حكاما ومحكومين خاصة وعامة، إلى استجلاء الرأى فى شأنها:

أ) وعلى رأسها الموقف من الديمقراطية فى أسلوب الحكم، دون تعقيد للقضية بالإلحاح على اختلاف الرؤى الإسلامية عن الديمقراطية الغربية، إذ إن الإلحاح على هذا الاختلاف يفضى عملا إلى الابتعاد عن الشورى الإسلامية وعن الديمقراطية بجميع صورها لصالح أنظمة استبدادية ظالمة يضيق عنها صدر الإسلام، كما لا يتسع لها صدر الديمقراطية الحديثة.

ب) ومن أهمها كذلك قضايا الحرية وحقوق الإنسان وبصفة خاصة الحقوق الثلاثة الآتية :

١ ـ حقوق الأقليات السياسية والدينية وحرية أصحاب الأديان الأخرى وبصفة خاصة الإخوة المسيحيين فى ممارسة شعائرهم الدينية والتمتع بمساواة حقيقية قانونية وفعلية مع المسلمين، ورفض جميع صور التفرقة فى الحقوق المدنية والشخصية والسياسية وفى الوظائف العامة، وفرص العمل والترقى فيه إلى أعلى مواقع القيادة.

٢ ـ حق التعبير عن الرأى فى المسائل السياسية والاجتماعية وممارسة ذلك التعبير فى أمان من الملاحقة القضائية أو السياسية، ورفض المسلك الفاسد الذى تفشى أخيرا، والذى يصادر حق الناس فى التفكير والتعبير، عن طريق ممارسة القسر والإكراه، بسوق المخالفين فى الرأى إلى القضاء.. بتهم غامضة، يصعب معها دفاعهم عن حقوقهم وحرياتهم، كما تتراجع ـ فى ظلالها القاتمة ـ فرص انتعاش الفكر والإبداع.. وهو تراجع يهدد أمل الأمة فى أن يكون لها إسهام حقيقى فى صنع حضارة القرن المقبل كما يهدد أملها فى تحقيق نهضة داخلية حقيقية لايقدر على تحقيقها إلا أصحاب الرءوس المرفوعة، والقلوب الآمنة، والعقول المتفتحة.

٣ ـ حق المرأة فى مشاركة الرجل أعباء الحياة العامة، إلى جانب قيامها بدورها الأساسى فى بناء الأسرة ورعايتها، وهى مشاركة لاتزال تقف فى طريقها رؤى بعض القيادات الفكرية الإسلامية التى انطبع فكرها ومزاجها بأعراف محلية فاسدة لاتزال سائدة فى كثير من المجتمعات، فإذا بهذه الأعراف تقدم للأمة العربية والإسلامية كما تقدم للدنيا كلها كما لو كانت «حكم الإسلام» فى هذه القضية ذات التأثير الحاسم على مستقبل التنمية الشاملة فى مجتمعات العرب والمسلمين.

جـ) أن يعلنوا ـ فى وضوح كامل كذلك ـ إدانتهم للعنف الذى تمارسه جماعات التطرف والغلو ـ والتزامهم الكامل بأسلوب العمل الديمقراطى، وبقواعد النظام الدستورى والقانونى القائم فى ممارسة دعوتهم لتغيير أوضاع المجتمع توجها نحو برنامج الإصلاح الذى يتبنونه.. كذلك لابد أن تؤكد ممارساتهم اليومية صدق هذا الالتزام باعتباره موقفا مبدئيا نابعا من إيمان حقيقى، وليس موقفا تكتيكيا أو مرحليا يتخذونه انتظارا لفرصة سانحة يتخلون فيها عنه حين يكون هذا التخلى خادما لمصالحهم وتطلعاتهم السياسية فى صراعهم مع سائر القوى السياسية والاجتماعية التى تزاحمهم ساحة العمل العام.

د) ألا يتعجلوا الأمور فى مطالبتهم بتطبيق الشريعة، وأن يدركوا طبيعة العمل الاجتماعى وشروط الإصلاح التشريعى .. حتى لاتكون الدعوة إلى تطبيق الشريعة نوعا من إكراه الجماعة السياسية على أمر لا تريده، أو لا ترى تطبيقه تطبيقا فوريا شاملا معجلا.. ذلك أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة فى كثير من المجتمعات الإسلامية تجعل من الضرورى البدء بإصلاح سياسى عام.. يسترد

به الشعب سلطته فى اختيار حكامه ونظمه وشرائعه، وتمارس فيه الحقوق والحريات ممارسة حقيقية لا شكلية. وحين يتحقق ذلك ويجرى الحوار الوطنى فى جو من الحرية والموضوعية وتقبل الآراء المخالفة، فسوف تجد الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية فرصة حقيقية نابعة من اختيار الجماعة، كما سوف يطمئن الجميع الموافق منهم والمخالف، إلى أن تطبيق الشريعة إنما يعنى تحقيق الانسجام بين الاستقلال الوطنى والسياسى من ناحية وبين الاستقلال الثقافى من ناحية أخرى.. كما يطمئن الجميع إلى أن القصد النهائى من تطبيق الشريعة إنما هو تحقيق المصالح وحماية الحقوق وإشاعة العدل وليس إدخال العسر والحرج باسم الدين على المجتمع وأفراده.. ولايتم ذلك إلا بعد دراسات علمية واسعة واجتهاد فقهى جسور.. ترصد فيه الحاجات الاجتماعية والسياسية للجماعة.. ويمارس فيه الاجتهاد الفقهى بوعى من ضرورة استجابة ذلك الفقه لهذه الحاجات إيمانا بأن الفتوى لابد أن تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال.

أما الحكومات.. فإنها مطالبة بأمور ثلاثة من شأن الالتزام بها أن يفتح أبوابا واسعة لتحقيق «تصفية حقيقية دائمة» لظواهر العنف والإرهاب الذى يرفع أصحابه رايات وشعارات إسلامية وأن يرد التيار الإسلامى العريض إلى مكانه ومكانته اللتين كان عليهما خلال النصف الأول من القرن العشرين..رافدا أصيلا مندمجا فى مجمل حركة المجتمع نحو التحرر الوطنى والاستقلال السياسى والثقافى..

الأمر الأول: التعامل مع ظواهر العنف والتطرف بسلطان القانون، إذ لا يتصور أن يوجه اللوم أو الانتقاد إلى حكومات تحارب الخارجين على القانون بسيف القانون وسلطانه. ولا يجادل أحد فى أن من خرج على الجماعة يضرب بسيفه برها وفاجرها، ويروع أهلها، وينزع الأمن من حياتهم فهو مستحق للعقوبة بلا هوادة ولا التماس للأعذار.. ولكن فاعلية هذا الأسلوب وشرعيته تتوقفان جميعا على التزام أجهزة الدولة بسيادة القانون، وسلامة إجراءات المحاكمات أمام قضاء طبيعى مستقل.. يوقع الجزاء المستحق على الخارجين على القانون.. بلا ترخص ولا تجاوز للحدود.. وسيظل الخيط الرفيع الذى يفصل بين السيادة الحقيقية للقانون.. وبين رفع شعار تلك السيادة والخروج عليها فى الممارسات.. سيظل ذلك الخيط فاصلا حاسما بين الشرعية ومخالفة الشرعية.. فالشرعية هى وحدها التى تكفل لسلطة الدولة ولقراراتها وأفعالها تأييد الجماهير، أما مخالفة الشرعية من جانب الدولة فإنها تمنح الخارجين على القانون تعاطفا لا يستحقونه، وقد تصور لبعضهم أنه فى معركة بين فصائل متحاربة متساوية فى نصيبها من الشرعية، لا أنه يقف فى خندق الخروج على القانون فى مواجهة الشرعية الحقيقية التى تمثلها الدولة وأجهزتها الأمنية والقضائية.

محمد عبده كان فيما نرى مجدد هذا القرن بما انتهى إليه وما عبر عنه فى مؤلفاته وفتاواه من ضرورة الاجتهاد العقلى وهو اجتهاد مارسه بنفسه حين قام بتفسير ما تيسر له من القرآن الكريم وفى دعوته القوية لإصلاح مناهج التعليم فى الأزهر الشريف

الأمر الثانى: الانتباه إلى أن تعقب المداخل الفكرية والثقافية للتطرف الدينى هو السبيل الحقيقى إلى تصفية الروافد المنحرفة فى تيار الفكر الدينى.. والتعقب الذى نتحدث عنه عمل سياسى وثقافى فى آن واحد.. والحوار هو أداته الوحيدة الفعالة.. ومهما بذلت أجهزة الأمن من جهود فى محاربة التطرف فستظل المنابع الثقافية للفكر الدينى المنحرف تزود المجتمع بأجيال من حملة البذور الأولى لهذا الفكر المنحرف.

وأعجب العجب وأدعاه للدهشة والأسف أن يعترض البعض على هذه الدعوة للحوار احتجاجا بأن الحوار مع المتطرفين الخارجين على القانون أمر لايجوز، ولايتصور أن تقبله دولة تحرص على هيبتها وسلطان القانون فيها.. وموضع العجب فى هذا الاحتجاج أن أحدا لايدعو إلى كف يد القانون عن الخارجين عليه، اكتفاء بإدارة حوار فكرى معهم رغم تورطهم فى العدوان على المجتمع وأفراده ومؤسساته!! هذه دعوة لم يقل بها أحد، ولا يتصور أن يقول بها أحد.. وإنما الحوار الذى نقول به ونلح عليه هو الحوار مع أولئك الذين لم يتورطوا فى الخروج على القانون، وهو حوار يهدف إلى إصلاح العوج الفكرى الذى زُودوا به وإلى كشف عورات التصور الدينى الفاسد الذى ألقى فى روعهم وإلى ردهم من جديد إلى صحيح الإسلام.. كما يهدف بما يتاح له من علانية إلى توقى دخول أبرياء جدد فى دائرة هذا الفكر المنحرف.. وتطعيم عامة الشباب بما يحصنهم من مزالق الدخول فى دوامة الغلو والتطرف ومعاداة المجتمع.

الأمر الثالث: تجنب الوقوع فى وهم الاعتقاد بأن روافد الفكر والعمل الإسلامى كلها سواء وأنها - علمت أو لم تعلم - تحمل بذور العوج والتطرف والعنف، ذلك تبسيط شديد للأمور، وذهول عن أبسط الحقائق المتصلة بالفكر وتطوره، وتقلب الأفراد بين المعتقدات والأفكار المختلفة.. كما أنه تجاهل لا عذر لأحد فيه لما هو واضح وضوح الشمس من وجود فوارق جذرية بين تيارات الغلو والتطرف والعنف، وبين روافد للفكر الإسلامى تحمل سماحة الإسلام، وأدب النبى ﷺ وتظللها روح الرفق والرحمة بالناس كل الناس.. وتتوحد بمشاعرها الصادقة مع هموم الأمة ومشاكلها، وآمالها.. وتؤمن بالديمقراطية إيمانا نابعا عن يقين علمى والتزام دينى وتقدس حقوق الإنسان وحريته، وتعلم علم اليقين أن المسلم لايستحق هذا الوصف إلا إذا فهم مهمته بين الناس على أنها الدعوة بالكلمة الطيبة، وبالرفق الذى لايعرف العنف، والمواساة عند الشدائد، وبذل النفس والجهد والمال تخفيفا عن الأمة وافتداء لها من آلامها، إن الذين يصرون على تجاهل هذه الحقيقة الكبرى - أيا كانت مواقعهم - يساهمون من حيث لايعلمون فى استمرار ظواهر الغلو والتطرف، ويحولون دون ما يتطلع إليه حملة الفكر الإسلامى السمح المستنير من أداء دورهم التاريخى، فى اجتثاث هذه الظاهرة وتصفية منابعها الفكرية التى تسىء إلى الإسلام قبل أن تصيب المجتمع بما شاهدناه جميعا من اهتزاز الأمن وتهديد الاستقرار، وتعويق مسيرة النمو.

وبعد، فهذه صورة الفكر الإسلامى والحركات الإسلامية كما نراها عند نقطة العبور من قرن إلى قرن، وإذا كان فيما قررناه كثير من التعميم والتبسيط فعذرنا أن جوهر ما قصدنا إليه هو ألا ندخل القرن الجديد، وفى حياتنا هذه الحرب الأهلية الثقافية التى طال أمدها، وألا تشرق علينا سنواته الأولى ونحن فى حيرة من أمرنا نحارب ثقافتنا الخاصة لأننا لا نرضى عن رافد من روافدها وينخلع بعضنا عن حضارته العربية والإسلامية لأن بعض حملتها ورافعى شعاراتها قد أساءوا الفهم وأساءوا التصرف وعرضونا جميعا لحملة تشويه واتهام لانريد أن ندخل القرن الجديد ونحن بعد متعرضون لها مشغولون بأمرها.

متطلبات المستقبل:

فإذا تم لنا ما نرجوه ونلح فى رجائه وهو فض الاشتباك الطارئ بين الروافد المختلفة لجماعات المثقفين، وفض الاشتباك الآخر الطارئ كذلك بين الحركات الإسلامية والحكومات.. كان علينا أن نبنى تصورا لشروط الانبعاث العربى الإسلامى كما تتطلبها حقائق القرن الجديد.. وكان علينا - فى سبيل ذلك - أن نستعلى على «الانحصار» فى إطار كثير من الأفكار وأساليب العمل التى سادت خلال قرن مضى وانقضى وكانت له - هو الآخر - حقائقه وملابساته ومتطلبات التكيف مع تلك الحقائق والملابسات.

وفى هذا الجزء الأخير من هذا البحث أكتفى بسرد قائمة بما أتصوره شروطا أساسية لهذا الانبعاث، وللتكيف المحسوب مع حقائق العصر تكيفا محكوما بالثوابت الأخلاقية المستمدة من أصول الثقافة العربية الإسلامية..

فعلى صعيد الفكر الإسلامى، يحتاج الفكر الجديد إلى إبراز الحقائق التالية:

١ - إن الإسلام دعوة ونداء، وأنهما تحددا موضوعيا وتاريخيا من خلال خطاب إلهى يتوجه إلى عقول قادرة وإرادات حرة، والدعاء والنداء لايفرضان على الناس فرضا، ولايكره عليهما أحد ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف - ٢٩)، ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس - ٩٩)، ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (العنكبوت - ١٨).

٢ - إن المسلمين وإن كانوا أمة متميزة بمعالمها وبعقيدتها وثوابت شريعتها، وبالمنظومة الأخلاقية المهيمنة على ذلك كله، فهم حلقة فى سلسلة الأمم المؤمنة، وبينهم وبين سائر الناس وشائج وروابط وثقى، وإلحاحهم على التميز الكامل قد كان مفهوما حين كان «صراع الاستئصال» يهددهم فى وجودهم الثقافى والدينى والسياسى، أما فى القرن المقبل فإن الإلحاح على ماهو مشترك بينهم وبين سائر الناس يغدو أمرا لازما، لزوما لايقل عن لزوم التمسك بثوابت حضارتهم الدينية، ويترتب على هذا الاعتقاد تصحيح علاقة المسلمين بسائر الأمم والشعوب وتواصلهم مع سائر الحضارات والثقافات.

٣ - إن صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان لاتعنى تجميد نصوصه ومبادئه، وإنما تعنى توظيف الأدوات التى اشتمل عليها لتحقيق الاستجابة مع تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال، ولعل كتابات عبدالعزيز جاويش (المتوفى عام ١٩٢٩) تقدم نموذجا فذا لإدراك هذه الحقيقة، وكذلك كتابات موكب موصول الحلقات من مفكرى ومنظرى الفكر الإسلامى خلال النصف الأول من القرن العشرين، نذكر منهم علال الفاسى، وعبدالحميد بن باديس، ومحمد كرد على، وعبدالحميد الزهراوى، ورفيق العظم، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ومنصور فهمى، ومحمد حسين هيكل (فى السنوات الأخيرة من عمره) وعبدالرزاق السنهورى وكثيرين غيرهم.

٤ - إن فقه العبادات وفقه الحدود والجنايات ينبغى أن يعودا إلى حجمهما الطبيعى داخل مجمل الفقه الإسلامى.. ذلك أن العبادات وإن كانت «جوهر الالتزام الدينى» وقاعدة الأساس فيه، فإن الفقه الخادم لها قد تحددت معالمه وأكثر أحكامه منذ قرون عديدة، وإذا استثنينا مباحث الزكاة، فإن أركان وسنن الصلاة والصوم والحج قد صارت معلومة للكافة، متفقا على أكثرها بين عامة العلماء.. أما فقه الجنايات فهو على ضرورته جزء صغير من أجزاء الفقه الإسلامى لارتباطه بظاهرة مرضية طارئة على المجتمعات الإنسانية وإن كانت ملازمة لها، وهى الخروج على سلطانها وشريعتها والعدوان على حقوق أفرادها وجماعتها، وأكثر المؤمنين يولدون ويعيشون ويموتون دون أن يتعاملوا - بوجه أو آخر - مع فقه الحدود والجنايات، أما الذى يحتاج إلى اجتهاد واسع وإلى منهج علمى لممارسة الاجتهاد فهو فقه المعاملات التى استحدث الناس منها ألوانا وصورا لم تكن معروفة للفقهاء الأوائل، أو كانت أصولها معروفة لديهم ولكن صورها المعاصرة قد صارت تحتاج إلى فقه جديد.

٥ ـ إن الاجتهاد الفقهى ينبغى أن يكون محكوما بمبادئ قال بها الفقهاء القدامى، ولكنها تحتاج الآن إلى ممارسة نشطة وجريئة لها.. أشير إلى مبدأين اثنين هامين منها:

أ) مبدأ التيسير فى الفتوى.. تخفيفا عن الناس فى عصر معقد تراكمت فيه الأعباء النفسية والمادية على الناس، وفقه التيسير باب واسع يحتاج إلى بحث مستقل حسبنا أن نشير فيه إلى مبدأ أن الأصل فى الأشياء الإباحة وإلى ضرورة التضييق من قاعدة «سد الذرائع» حتى لاننتهى بالناس إلى منع ما هو جائز وتحريم ما لم يقم دليل يقينى على تحريمه.. هذا فضلا عن أن التيسير فى الفتوى قد كان منهج رسول الله ﷺ، ومنهج التشريع الإسلامى كله كما كان من وصاياه لسفرائه ومبعوثيه للقضاء فى الأمصار المختلفة.

ب) مبدأ مراعاة الأولويات عند مخاطبة الناس ووضع النظم والتشريعات .. وليس فى هذه المراعاة خروج على ما هو مقرر ومسلم به من أنه لا تعديل ولا نسخ بعد انقطاع الوحى وكمال الدين.. إذ الأمر فى هذا ليس أمر تدرج فى التشريع، وإنما هو أمر تدرج فى البيان والتنفيذ مراعاة لأحوال الناس وانتباها لأوضاعهم وحفزا لهم على احترام التشريع والرضا به، إذ ليس للجماعة مصلحة فى إصدار أوامر ونواهى يتفنن الناس فى الخروج عليها، وهو خروج تدعو إليه أحيانا المفارقة الكبيرة بين حاجات الناس وبين استجابة التشريع لها.

جـ) الاستئناس بتجارب الأمم الأخرى قديما وحديثا فى التشريع، اطمئنانا إلى أنه ليس فى أصول الإسلام ومبادئ شريعته ما يحول دون ذلك، مادام ذلك الاستئناس والاقتباس يتم فى إطار المبادئ الكلية الحاكمة للتشريع الإسلامى، ولعل من أحسن مايقال فى هذا المجال ما يذكره أحد مفكرى القرن العشرين (خير الدين التونسى) من ضرورة «تحذير ذوى الغفلات من عوام المسلمين عن تماديهم فى الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا لمجرد ما انتعش فى عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراكيب ينبغى أن يهجر»، وأوضح منه قول أحد متأخرى المالكية (الشيخ المواق): «إن مانهينا عنه من أعمال غيرنا هو ما كان على خلاف مقتضى شرعنا أما مافعلوه على وفق الندب أو الإيجاب أو الإباحة فإنا لا نتركه لأجل تعاطيهم إياه»، وأوجز العلامة الحنفى ابن عابدين هذا الأمر كله بقوله: «إن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر».

٦ ـ الالتفات إلى قيمة الحرية فى الحياتين السياسية والثقافية، ويستوقف النظر أن عددا كبيرا من رواد الفكر الإسلامى فى بداية القرن العشرين وحتى منتصفه كانوا شديدى العناية بقضية الحرية ودورها فى ترشيد المجتمع، كما كانوا شديدى النقد لكل صور الاستبداد السياسى والاجتماعى.. وحسبنا أن نشير إلى ماقدمه عبدالرحمن الكواكبى (المتوفى سنة ١٩٠٢) للفقه السياسى الإسلامى والفقه السياسى بصفة عامة فى قضية الحرية، فهو يرد انهيار المجتمعات وتردى أوضاعها إلى غياب الحرية وانتشار الاستبداد.. فيقول: «وقائل آخر يقول:

الشرق مريض وسببه فقد التمسك بالدين، ثم يقف. مع انه لو تتبع الأسباب لبلغ إلى الحكم بان التهاون فى الدين ناشئ من الاستبداد، وان العافية المفقودة هى الحرية السياسية» (من كتابه طبائع الاستبداد) ويقول: «قد تمحص عندى أن أصل هذا الداء (الانحطاط) هو الاستبداد السياسى، ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية».

٧ ـ الكف عن تصور «الخلافة الإسلامية» صورة محددة من صور الحكم، غابت بسقوط الخلافة العثمانية، ويحتاج الأمر إلى بعثها من جديد لينصلح حال الأمة، وليتم تطبيق الشريعة فى ميدان هام من ميادينها، والصحيح أن الخلافة لفظ أطلق تاريخيا على أشكال مختلفة من أشكال الحكم، وأنه ليس للإسلام «نظام سياسى واحد مخصوص متفرد بمعالم خاصة ينبغى بسبب وجودها رفض جميع أشكال النظم والترتيبات السياسية القائمة فى عصرنا»..

والصحيح الذى توصل إليه وقال به المحققون فى هذا الفن من فنون العلم أن الإسلام أوجب الالتزام بعدد من المبادئ الأساسية المتصلة بإقامة الحكومة وسياسة الرعية، على رأسها مبدأ الشورى، ومبدأ العدل فى الحكم، ومبدأ مسئولية الحكام وتقيدهم بحدود النظام القانونى المعمول به، واستمداد التشريعات والحكم فى الأقضية من مبادئ الشريعة الإسلامية وأحكامها الجزئية، واحترام حقوق الإنسان وحريته التى منحها له الله، أما ما عدا ذلك فترتيبات وتراكيب يجتهد المسلمون لإقامتها بمثل ما يجتهد به غيرهم، وليس بعضها بأولى من بعض، ولاهو أقرب إلى حكم الإسلام فى هذا الشأن السياسى.. وإنما تتفاضل الترتيبات والتراكيب بمدى تحقيقها للهدف أو الأهداف المرجوة، وبذلك تتسع دائرة الاجتهاد الجائز والواجب فى أمر النظام الدستورى والسياسى للدولة الإسلامية، ويتحرر الفكر الإسلامى من أسر بعض الصيغ التى طال الحديث حولها فى كتب «الأحكام السلطانية».

وبعد فهذه مداخل نراها ضرورية لينطلق الفكر الإسلامى مع مطلع القرن القادم، انطلاقا يعين المجتمعات الإسلامية على إصلاح أوضاعها، وإحداث نهضة شاملة وانبعاث حقيقى، كما يعين «الحركات الإسلامية» على إعادة النظر إعادة شاملة فى منهج تفكيرها وأسلوب حركتها.

فإذا تيسر شىء من ذلك فهو بشير خير يؤذن بمكان ومكانة جديدتين يحتلهما العرب المسلمون بين شعوب الدنيا، أما إذا ركنت الأمة إلى الجمود على الموجود، وظلت الحركات الإسلامية فى صراعها العقيم مع الحكومات وبقى الفكر العربى السائد أسير الحرب الثقافية بين جماعات المثقفين فى عالمنا العربى والإسلامى، فإن الحديث عن مستقبل أكثر إشراقا يكون ضربا من التمنى والخيال لا تتحقق به نهضة، ولا يتغير به حال ﴿ولايظلم ربك أحدا﴾ (الكهف ـ ٤٩).

كتاب الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهى

• «تعاظمنى ذنبى» للإمام الشافعى

ـ الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس، يتصل نسبه بالرسول الكريم. ولد بغزة وارتحل إلى مكة والمدينة واليمن والعراق. ثم جاء إلى مصر سنة ١٩٩ هجرية وصنف فيها مذهبه وألف علم الأصول، وصار أحد الأئمة الأربعة. توفى بمصر سنة ٢٠٤ هجرية عن أربع وخمسين سنة.

إليك إله الخلق أرفعُ رغبتى
وإن كنتُ يا ذا المن والجود مجرما

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى
جعلتُ الرجا منى لعفوك سُلَّما

تعاظَمَنى ذنبى فلما قرنتُه
بعفوك ربّى كان عفوُكَ أعظما

ومازلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل
تجود وتعفو منة وتكرما

ولولاك ما يقوى بإبليس عابدٌ
وكيف وقد أغوى صفيك آدما

فإن تعفُ عنى تعفُ عن متمرد
ظلوم غشُومٍ لايزايلُ مأثما

وإن تنتقمْ منى فلستُ بآيس
ولو أدخلتَ نفسى بجُرمى جهنما

فجرمى عظيم من قديمٍ وحادث
وعفوك يأتى العبدَ أعلى وأجسما

تعاظمنى ذنبى، فأقبلت خاشعا
ولولا الرضا ما كنت يارب منعما

أصون ودادى أن يدنسه الهوى
وأحفظ عهد الحب أن يتثلّما

ففى يقظتى شوق وفى غفوتى مُنًى
تلاحق خطوى نشوة وترنما

ومن يعتصم بالله يسلم من الورى
ومن يرجُهُ هيهات أن يتندما

إليك إله الخلق، أرفع رغبتى
وإن كنتُ ياذا المن والجود مجرما

تحولات الاقتصاد العالمى فى الخمسين سنة الأخيرة

كيف انتقلت الثروة والقوة من الحكومة إلى القطاع الخاص؟

وليد خدورى

يحتار المرء فى فهم ما يجرى حوله من تغييرات أساسية فى نظم الحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية خلال النصف الأخير من القرن الماضى، وبالذات فى العقدين الماضيين.

فالذى يميز هذه الحقبة التاريخية هو أولا سرعة تدفق المتغيرات الواحدة تلو الأخرى وبالذات المتعلقة بالقضايا الاقتصادية والمعلوماتية ووسائل الاتصالات. وثانيا هو الطبيعة المسالمة نسبيا لهذا المسلسل من المتغيرات مقارنة بما رافق المتغيرات السابقة من حروب عالمية ودمار واسع ونزاعات مسلحة، وبالذات فى النصف الأول من هذا القرن. وثالثا هو عولمة هذا المسلسل المتغير الذى وإن كان يختلف شكلا ونوعا من قطر إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى، إلا أنه فى نهاية المطاف يصب فى بوتقة واحدة من العلوم والأفكار والاتجاهات الاجتماعية المتجانسة.

ومن نافل القول، فإنه ليس من السهل حصر المتغيرات الاقتصادية العالمية على مدى نصف قرن فى كتاب واحد، كما أنه ليس من المعتاد تحليل مادة بهذه الصعوبة والتشابك فى كتاب سلس القراءة وموجه أساسا للقارئ العام وليس فقط للمتخصصين والباحثين.

The Commanding Heights: The Battle Between Government and The Marketplace that is Remaking the Modern World

(القوى الحاكمة: الصراع ما بين الحكومة والسوق فى صياغة العالم الجديد)

Danial Yergin and Joseph Stansilow
New York: Simon and Schuster, 1998,
pp.457

وأخيرا، فإنه من الصعب عادة الاتفاق مع مؤلفين كتاب كهذا فى الفرضيات والتحليل، بل وحتى السرد الذى يقدمونه نظرا لتوسع الموضوع وتشعبه، إلا أن مؤلفى هذا الكتاب، دانيال يرجن (صاحب كتاب الجائزة حول تاريخ النفط فى القرن العشرين والذى فاز بجوائز عالمية وتم تصويره على شكل مسلسلات تليفزيونية)، وزميله جوزيف ستانسيلو (الذى يعمل مع يرجن فى مؤسسة سيرا لأبحاث الطاقة)، استطاعا تحقيق الكثير فى عملهما المهم هذا. فقد تطرقا إلى موضوع حيوى معتمدين على فرضيات وأسئلة محددة حاولا الإجابة عنها من خلال إلمامهما الواسع بالاقتصاد والسياسة الدولية.

لقد نجح الكاتبان فى تغطية موضوعهما بجدارة واستحقاق من خلال التركيز المشترك، وفى آن واحد، على الأشخاص والأفكار والصراعات السياسية والتجارب المتعددة التى غيرت الاقتصاد العالمى فى العقود الخمسة الماضية. ورغم تطرقهما إلى المتغيرات الاقتصادية فى الدول الصناعية، فضلاً عن أقطار العالم الثالث، إلا أنهما انطلقا فى تحليلهما من ثلاثة أحداث سياسية واقتصادية مهمة فى بريطانيا واستعملوها كمؤشرات لتحولات جذرية عالمية.

هذه المنطلقات البريطانية الثلاثة هى فوز حزب العمال بقيادة كليمانت آتلى فى انتخابات عام ١٩٤٥، وبدء سياسة الاقتصاد المختلط، وفوز حزب المحافظين بقيادة مارجريت تاتشر فى انتخابات عام ١٩٧٩، وتنفيذها سياسة تفكيك الشركات الحكومية وكسر نفوذ نقابات العمال. وأخيرا فوز حزب العمال بقيادة تونى بلير فى انتخابات عام ١٩٩٧، وتبنيه سياسة الطريق الثالث الذى يحتضن الفكر التاتشرى، لكن مع التركيز على دور الدولة فى دفع عملية النمو الاقتصادى إلى الأمام من خلال الاهتمام بالتجارة الدولية والتعليم والخدمات الصحية والتأهيل المهنى.

لم يترك الكاتبان حدثا تاريخيا اقتصاديا مهما فى النصف الثانى من القرن العشرين إلا عالجاه فى هذا الكتاب. فيبدأ التحليل أولا فى استعراض الأسباب والعوامل وراء صعود أحزاب وزعامات جديدة إلى مقاليد الحكم بعد الحرب العالمية الثانية فى الأقطار الأوروبية نتيجة لردود الفعل فى فشل النظام الاقتصادى المحافظ فى منع الحروب ولجم البطالة والتضخم فى الثلاثينيات. وينتقل التحليل بعدها إلى أول هجوم مضاد ضد الاقتصاد المختلط. حدث هذا فى بريطانيا بعد ثلاثة عقود من جانب زعيمة حزب المحافظين، مارجريت تاتشر، والثورة الاقتصادية لصالح الاقتصاد الحر التى قادتها فى الثمانينيات - جنبا إلى جنب مع زميلها فى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى الرئيس الأمريكى رونالد ريجان.

إلا أن الكتاب لا يقف عند سرد الأحداث ووضعها فى موقعها التاريخى المناسب والملائم. إذ يبحث المؤلفان أيضا فى الأسباب التى أقنعت الرأى العام العالمى بضرورة التغييرات التى طرحتها القوى المحافظة والشعور المتنامى بضرورة تقليص دور الحكومات فى الاقتصاد لصالح الخصخصة والأسواق المفتوحة، مع التركيز المستمر على الأخطاء القاتلة التى أهلكت الاقتصاد المركزى والموجه.

كما أن الكتاب لا يحصر شرحه فى الدول الصناعية، فهو يعالج أيضا المعجزة الاقتصادية الآسيوية - كما عرفناها فى الثمانينيات وحتى عام ١٩٩٧، كذلك التحول الكبير والمهم جدا الحاصل فى الصين والهند، إلى جانب الزلزال فى الكتلة الشيوعية والنقلة المهمة فى أمريكا اللاتينية والوحدة الاقتصادية الأوروبية. وأخيرا، وليس آخرا التحولات المهمة فى تقليص دور رقابة الدولة فى الاقتصاد الأمريكى والتغيير الحاصل هناك فى إدارة شئون الميزانية العامة والضرائب.

وفى النهاية، يتطرق الكتاب إلى المستقبل وبالذات التركيز على أهم الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى يتوجب التعامل معها فى السنوات القادمة. ويتم التساؤل حول ماهية العوامل الأساسية التى هى معنا فى الوقت الحاضر، وهل ستتغير، وفى أى اتجاه، وكيف سيتغير ميزان القوى ما بين الحكومات والأسواق فى ضوء التطورات المستقبلية.

من اللافت للنظر أنه رغم كون كل من يرجن وستانسلو من الخبراء النفطيين المشهود لهما عالميا، ومن الملمين بسياسات واقتصاديات الشرق الأوسط، إلا أنهما لم يتطرقا إلى العرب ودورهم فى الاقتصاد العالمى، وكأنه لا دور لمنطقة الشرق الأوسط فى الاقتصاد العالمى (ما عدا النفط، طبعا)، أو أن الأحداث الاقتصادية فى منطقتنا بطيئة بشكل ومهمشة كونيا بشكل آخر، بحيث أن تطوراتهما المحلية والإقليمية لا تؤثر من قريب أو بعيد فى الأحداث الدولية، أو أنه لا وزن لها على صعيد الأسواق الدولية. هذا

رغم كون كل من يرجن وستانسلو من الخبراء النفطيين المشهود لهما عالميا، ومن الملمين بسياسات واقتصاديات الشرق الأوسط، إلا أنهما لم يتطرقا إلى العرب ودورهم فى الاقتصاد العالمى، وكأنه لا دور لمنطقة الشرق الأوسط فى الاقتصاد العالمى، أو أن الأحداث الاقتصادية فى منطقتنا بطيئة بشكل ومهمشة كونيا بشكل آخر، أو أنه لا وزن لها على صعيد الأسواق الدولية

فى الوقت الذى منحوا فيه فصلا لأمريكا اللاتينية وفصلا آخر لآسيا.. إلخ.

لماذا تعبير القوى الحاكمة؟

فى الحقيقة، إن التعبير مقتبس من خطاب ألقاه فلاديمير لينين فى نوفمبر ١٩٢٢ فى بترو غراد أثناء انعقاد الكونجرس الرابع للأممية الدولية. فقد حاول لينين أن يشرح ويبرر لرفاقه أهمية الاستمرار فى سياسة الاقتصاد الجديدة التى تبناها الحزب الشيوعى فى السنة السابقة، وضرورة السماح ببعض التجارة الصغيرة الحجم والمزارع الخاصة، وذلك تلافيا للانهيار الكبير الذى حصل فى اقتصاد الاتحاد السوفيتى فى تلك الفترة. لقد أكد لينين لزملائه أن المهم فى الأمر هو ليس السماح لعوامل السوق بالاستمرار فى العمل، فهذا قرار سياسى يمكن تغييره فى أى لحظة وفى ظل الظروف المناسبة، إلا أن الأهم هو بقاء الحزب، مسيطرا على مقاليد الدولة والاقتصاد الوطنى، ومن ثم تواصله كقوى مسيطرة تستطيع أن تتخذ القرارات الحاسمة فى الوقت المناسب، أى أن تكون طوال الوقت فى مواقع حاكمة تتيح لها السيطرة على الأمور والتطورات.

فى الظاهر، فإن الفكرة وراء كتاب القوى الحاكمة بسيطة ومعروفة، ألا وهى كيفية انتقال الغنى والقوة من يد الحكومات إلى يد القطاع الخاص فى السنوات الماضية، وبالذات كيف تغير الاقتصاد العالمى نتيجة لخصخصة الشركات الحكومية العملاقة، وكيف أصبح يسيرا انتقال رأس المال من دولة إلى أخرى، وكيف تفكك نفوذ نقابات العمال لصالح أصحاب المال من مستثمرين ومضاربين. وأخيرا وليس آخرا، كيف أن مجرد حيازة حفنة من الدولارات عند مواطن سوفيتى قبل سنوات قليلة كانت تؤدى بصاحبها إلى السجن، بينما يعتبر الدولار اليوم سيد الموقف فى موسكو.

بمعنى آخر، يعالج الكتاب المسيرة التاريخية والفكرية والسياسية عبر نصف القرن الماضى فى كيفية تغيير الاقتصاد العالمى لكى يتمكن رأس المال الخاص، بتكوينه الجديد ومؤسساته الحديثة من أن يسحب القوة والموارد والسطوة من يد الحكومات ويحولها لصالحه. وكيف استطاع رأس المال الخاص أن يسيطر على آلاف المليارات من الدولارات ويتعامل بها يوميا ويحولها فى دقائق من بنك إلى آخر ومن قارة إلى أخرى، ويجبر الحكومات فى بعض الأحيان على أن تلهث وراءه من أجل تصحيح ما يحدث ومن أجل منع حدوث كوارث اقتصادية عالمية دون التمكن من وضع القوانين المناسبة لردع مثل هذه العمليات فى المستقبل.

لكن الفكرة ليست بتلك البساطة، فالمسألة ليست محصورة فقط بأمور الخصخصة والتغييرات الاقتصادية الهيكلية هنا وهناك، بل هى تشمل أيضا النقلة الكبيرة فى الأفكار والسطوة الكبيرة عند أصحاب المال الجديد، والمخاطر التى يخوضها هؤلاء الذين يخلقون الأسواق الحديثة والمكاسب التى يتوقعونها نتيجة لمجازفاتهم والانعكاسات الاجتماعية الكبرى التى تنشأ نتيجة لهذه المتغيرات فى الاقتصاد الدولى والوطنى، وكيفية معالجة آثارها السلبية قبل أن تستفحل المشاكل الناتجة عنها.

إن الفرضية الأساسية وراء الكتاب هى أن الفكر الاقتصادى المحافظ استطاع أن يسترد قوته مرة أخرى ويأخذ زمام المبادرة فى نهاية القرن العشرين. والسبب فى هذا التحول الجذرى من الاقتصاد المختلط إلى الاقتصاد الحر فى الأقطار الصناعية الغربية هو إخفاق الدولة فى إدارة دفة الاقتصاد الوطنى ومجتمع الرفاهية سواسية وفى آن واحد، وبالذات فى مجال أداء الشركات العامة والنتائج المترتبة على الخدمات التعليمية والصحية والتأهيلية وبقية الأمور المتعلقة بالرفاد الاجتماعى، ناهيك عن الثمن الباهظ الذى تم دفعه من أجل محاولة تحقيق هذه المتطلبات الاجتماعية، والتى نتج عنها ارتفاع العجز المالى فى هذه الدول إلى مستويات مخيفة، والذى يتحمل وزره المواطن من خلال الضرائب المفروضة عليه الآن ومستقبلا، ومن خلال المستوى المتدنى من الخدمات فى الكثير من الأحيان مقارنة بما استطاع القطاع الخاص تقديمه فى نفس المجال.

أما فى دول المعسكر الاشتراكى والعالم الثالث، فقد اتسعت الفجوة بين الطموحات المتوقعة من الدولة وبين ما تم تحقيقه فعلا، أو بالأصح ما كان يمكن تحقيقه فى ظل اقتصاد آخر - وبالذات إذا منحت الفرصة للمقارنة. وهذا ما حصل فعلا مع الانهيار الكامل للاتحاد السوفيتى وتراكم الديون الهائلة فى دول العالم الثالث وإخفاق هذه الأقطار فى تلبية حاجات المواطنين الأولية من سلع أساسية وجيدة. كما صاحب هذه الظاهرة الفرق الشاسع والواضح فى طموحات المواطنين فى أقطار الاقتصاد المركزى والموجه، مقارنة بما كان متوفرا للمواطنين فى ظل الاقتصاد الرأسمالى.

يعتبر الكتاب بداية التاريخ الاقتصادى المعاصر هى الفترة التى تلت مباشرة نهاية الحرب العالمية الثانية، انطلاقا من فوز حزب العمال البريطانى بالانتخابات البرلمانية فى يوليو ١٩٤٥، ووصول السيد كليمنت آتلى إلى رئاسة الوزارة، خلفا لونستون تشرشل الذى قاد الحرب ضد الهجوم النازى ولكنه فشل فى الانتخابات.

كانت الفروقات بين آتلى وتشرشل كبيرة جدا، ولم تكن محصورة فى التصرفات الفردية فقط، بل عكست خلافات اجتماعية وسياسية مهمة. فآتلى - على عكس تشرشل وبقية رؤساء الحكومات البريطانيين المتمرسين فى السياسة والمحاماة والجندية - كان قد قضى السنوات الأربعة عشر الأولى من حياته المهنية فى ممارسة الخدمة الاجتماعية فى ضواحى لندن الفقيرة، ومن ثم راقب بكثب الفروقات الاجتماعية فى البلاد ومعاناة شريحة كبيرة من الشعب البريطانى التى كانت تفتقر إلى المتطلبات الأساسية، والتى كانت متوافرة دون جهد يذكر لدى الطبقة الأرستقراطية ذات النفوذ، كما تبنى آتلى الفكر الاشتراكى الإصلاحى، حاله حال زملائه فى الحزب من أساتذة فى جامعة أكسفورد ومن مسئولين فى نقابات العمال. وكان الهم الأساسى لحزب العمال فى حينه سيطرة الدولة على المؤسسات الاقتصادية ومنها تكوين قوى نافذة جديدة فى بريطانيا تخدم الحاجات الأساسية للمواطنين بعد سنوات الحرب القاسية.

لقد نجح حزب العمال البريطانى عندئذ فى تأسيس نموذج للاقتصاد المختلط وإعطائه الشرعية اللازمة ليتم تبنيه كذلك - مع بعض الفروق - فى بقية الدول الصناعية الأخرى. وقد اتصف هذا النموذج بالتدخل المباشر والقوى للحكومة فى الاقتصاد - إما من خلال السياسة المالية والضريبية، أو من خلال إنشاء الشركات العامة العاملة بمفردها أو سواسية مع القطاع الخاص، بالإضافة إلى تأسيس شبكة واسعة من الخدمات الاجتماعية الحكومية والمجانية فى مجال التعليم والصحة والرفاه الاجتماعى والتأهيل المهنى والتقاعد وحقوق العمال.

وطبعا، لم ينبع هذا النموذج من فراغ، لا فى بريطانيا ولا فى بقية الدول الأوروبية. لقد نجحت فكرة الاقتصاد المختلط نتيجة لتفاعل عدة عوامل جبارة فى حينه. أول هذه العوامل وأهمها هو الخراب الذى حصل فى أوروبا بأكملها نتيجة للحرب العالمية الثانية. وثانيا: هناك التجربة القاسية لإخفاق النظام الاقتصادى الحر فى الثلاثينيات والمتمثل فى انهيار البورصات وتفشى البطالة والتضخم والفقر. ومن ثم، فرغم انتصار الحلفاء فى الحرب ضد النازية، فقد فشلت الرأسمالية فى إقناع الناس بأنها المثال الذى يجب أن يحتذى به. وثالثا: هو تمكن الشيوعية من خلال الاقتصاد المركزى فى تفعيل موارد الاتحاد السوفيتى ومساعدته فى الصمود أمام ألمانيا ودحرها عن أراضيه، وفى الوقت نفسه توفير فرص العمل لجميع المواطنين وإنتاج الأعداد الكافية من الأسلحة والآلات لأغراض السلم والحرب.

وكما تنوعت التجارب، فقد تنوعت المصادر الفكرية وراء تجربة الاقتصاد المختلط. فهناك المدرسة الفابية فى بريطانيا والتى أسسها فى نهاية القرن التاسع عشر كل من بياترز وسدنى ويب وجورج برنارد شو. وهناك السياسة الديناميكية والفعالة التى تبناها الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت فى الثلاثينيات، والمتمثلة فى تدخل الدولة المباشر فى الاقتصاد على نمط ما اقترحه جون مينرد كينز، وذلك من أجل إنقاذ البلاد من الكساد الاقتصادى الذى عم هناك بعد انهيار بورصة نيويورك فى عام ١٩٢٩. وهناك أيضا التجربة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى التى ساعدت الدولة فى التعامل مع السلم والحرب سواسية.

هذه الأجواء المشبعة بدور الدولة فى الاقتصاد، رغم الاختلاف الكبير فى المناقب والمذاهب والمناهج، هى التى أعطت الحكومات الصناعية بعيد الحرب العالمية الثانية، الزخم اللازم لتبنى سياسة الاقتصاد المختلط والاستمرار بهذا المنهج لمدة ثلاثة عقود، أى حتى نهاية السبعينيات، مع التأكيد على اختلاف تفاصيل تجربة الولايات المتحدة عن اليابان وعن ألمانيا وعن فرنسا وعن بريطانيا والتى يشرحها الكتاب بدقة وعناية.

أما فى دول العالم الثالث، فالوضع كان يختلف كليا عن تجربة الدول الصناعية. فالهم الأول والأساسى للدول الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية هو تحقيق الاستقلال السياسى وتوطيد دعائمه. أما فيما يتعلق بالاقتصاد، فكانت الخيارات المتوافرة محدودة جدا، نظرا للتركة الثقيلة التى ورثتها تلك الدول بعد عقود من الاحتلال والاستعمار والإهمال. لذا انصب الاهتمام تلقائيا على دور الدولة فى قيادة وإدارة عملية التنمية وفى بناء البنى التحتية والمدارس والمستشفيات من خلال برامج المعونات الاقتصادية والقروض الميسرة - كان هذا بمجمله هو الخيار الأول والأخير، ولم يعترض عليه أحد فى حينه.

كانت تلك الفترة مرحلة خطط السنوات الخمس وبناء قواعد الانطلاق الاقتصادى انطلاقا من نظريات التنمية لألبرت هيرشمان وبول روزنستين رودان ويان تنبرغن والكسندر غرشنكرون، ناهيك عن فلسفة البنك الدولى. لكن ومع الأسف، صاحب هذه التجربة بناء بيروقراطيات واسعة لا حدود لها وفشل ذريع فى وضع الأسس لبناء اقتصاد حديث، يستطيع أن يصمد دوليا. ويدعى الكتاب أن هذه المرحلة من نظريات التنمية والمساعدات والقروض انتهت مع حرب رمضان فى عام ١٩٧٣، والانقلاب الكبير الذى حصل فى العلاقات الاقتصادية الدولية فى حينه، نتيجة لارتفاع أسعار النفط الخام.

لقد كرست فترة منتصف السبعينيات مرحلة الحوار ما بين دول الشمال والجنوب الذى استمر عدة سنوات، لكن دون أى نتيجة تذكر، إلا أن هذا الحوار وفر من ناحية جرعة من الثقة لدى دول العالم الثالث. كما أنه كشف من ناحية أخرى مدى الفساد الذى بدأ يعم البلاد والقليل الذى تم إنجازه فعلا على مستوى الصناعة والزراعة والتجارة الخارجية فى دول العالم الثالث.

أخذت تجربة الاقتصاد المختلط بالتداعى مع نهاية السبعينيات. فقد فشلت الحكومات الغربية رغم تدخلها المستمر والواسع من خلال التحكم بالأسعار والأجور، فى لجم عامل التضخم وبعبع البطالة. ومما زاد الطين بلة فى

الثـــروة والقـــوة

الفكرة وراء كتاب القـوى الحاكمة بسـيطة ومعروفة، ألا وهى كيفية انتقـال الغنى والقـوة من يد الحكـومات إلى يد القطاع الخـاص فى السنوات الماضية، وبالذات كيف تغير الاقتصـاد العالمى نتيجة لخصخصـة الشركات الحكـومية العملاقة، وكيف أصبـح يسـيرا انتقـال رأس المـال من دولة إلى أخرى، وكيف تفكك نفـوذ نقـابات العمـال لصـالح أصحاب المـال من مسـتثمرين ومضــاربين

حينه - وحسب رأى يرجن وستانسيلو - الارتفاع المفاجئ لأسعار النفط الخام، مما أدى لارتفاع معدل التضخم فى الولايات المتحدة، مثلا إلى أعلى مستوى سنوى له منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. كما وصل معدل البطالة فى الولايات المتحدة إلى ٩,٢٪، وهو أعلى معدل لها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

بعدها عم الخوف المجتمعات الغربية نتيجة عودة ظهور عوامل التضخم والبطالة - هذا الخوف الذى لانزال نراه متجسدا فى هذه الدول حتى يومنا هذا، وكل ذلك بسبب الويلات السياسية التى تجرها هذه الصعاب الاقتصادية بالذات ومخاطر بروز الفاشية كنتيجة حتمية لها. كما فقد المواطن الثقة فى حكوماته نتيجة للأخطاء القاتلة فى حرب ڤيتنام التى هيمنت على عقد السبعينيات - فى الولايات المتحدة بالذات وأيضا فى بقية الدول الغربية التى بقيت ساكتة على هذه الحرب.

وكل هذه العوامل السياسية والاقتصادية ألقت بظلالها على التيارات الفكرية، وشككت المواطن الأمريكى وبقية المجتمعات الغربية فى جدوى تغلغل الدولة فى مختلف أوجه الحياة العامة، وفى مدى قدرة الحكومات على معالجة المشاكل الاجتماعية الكبرى بالطرق الرشيدة والفعالة، رغم الضرائب العالية التى تجبى من المواطنين. وساعد على توطيد هذه الشكوك فى دور الدولة فى المجتمع، بروز مدارس فكرية اقتصادية محافظة متأثرة بأفكار وكتابات مليتون فريدمان وفريدريك فون حايك وذلك على حساب مدرسة جون مينرد كينز.

ووفقًا لتشخيص السير آرثر لويس فإن خطأين قاتلين أصابا تجربة الاقتصاد المختلط. الخطأ الأول هو طمس دور التجارة الدولية فى عملية النمو الاقتصادى. أما الثانى فهو إعطاء الأهمية لخطب الوزراء بدلا من الأسعار فى حركة الأسواق.

مرة أخرى، وحسب رأى يرجن وستانسلو، لعبت السياسة الداخلية البريطانية دور المحرك الأساسى وراء تغيير ميزان القوى وتحويل قوى السيطرة من مجموعة إلى أخرى. فقد شكل معهد الشئون الاقتصادية فى لندن القاعدة الفكرية المناسبة لبروز مارجريت تاتشر فى الثمانينيات، ودفعها إلى شن حملة عنيفة وشرسة لتفكيك الشركات العامة فى قطاعات الكهرباء والهاتف والمياه والمواصلات، وتحويلها إلى القطاع الخاص وكذلك فى دحر نفوذ وسطوة نقابات العمال. وامتدت هذه التجربة التاتشرية تدريجيا إلى مختلف أرجاء العالم لتصبح اليوم مرجعية الاقتصاد الدولى الحديث.

لقد انطلقت تاتشر فى برنامجها السياسى والاقتصادى من فرضية أن اقتصاد ما بعد الحرب العالمية الثانية كان مبنيا على تراث الماضى ومحاولا معالجة مشاكله ومصائبه، ومن ثم فقد كان مشبعا بعوامل الخوف والحذر. لكن قد آن الأوان - وبعد ثلاثة عقود من الزمن - للانطلاق إلى عالم جديد يتجاوز هذه المخاوف ولا يعيرها وزنًا يذكر، والتركيز بدلا عن ذلك على احترام أولئك الرأسماليين والمبدعين الذين يخلقون فرص العمل الجديدة والذين يوظفون أموالهم من أجل فتح أسواق غير مطروقة سابقا. كما أنه من الواجب التعامل مع هذه المجموعات الجديدة من أصحاب العمل بإيجابية؛ لأن هؤلاء هم الذين يخاطرون بالأموال المتوافرة لديهم من أجل بناء اقتصاد المستقبل.

ومن الواجب لفت النظر هنا إلى أن هذه الأفكار التى بدأت تنتشر بشكل واسع منذ النصف الثانى من السبعينيات وجدت بيئة مناسبة لها فى بريطانيا، التى كانت تمر فى ضائقة مالية شديدة فى تلك الفترة، مما اضطرها إلى الاقتراض من صندوق النقد الدولى لحماية قيمة الباوند الاسترلينى من الانهيار. ومما ساعد رئيسة الوزراء تاتشر فى دعم سياساتها الاقتصادية الجديدة، الانتصار العسكرى الذى حققته بريطانيا ضد الأرچنتين فى جزر الفوكلاند، مما أعطاها الدعم السياسى الداخلى للمضى قدما - ودون معارضة تذكر - ببرنامجها الاقتصادى المثير للجدل فى تلك الفترة.

جنبا إلى جنب مع هذه التغييرات المتواصلة فى المعسكر الغربى، سقط جدار برلين فى نوفمبر ١٩٨٩، وسقطت معه جميع الرموز التى كان يمثلها بالنسبة للفاصل ما بين المعسكرين الغربى والشرقى، الذى تحكم بالسياسة الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. والتغيير الذى حصل هنا لم يكن ابن يومه، فقد فشل الاتحاد السوڤيتى على مدى هذه السنوات فى اللحاق بالسباق القائم مع الولايات المتحدة، وفى مواءمة اقتصاده مع المتطلبات المادية والمالية الكونية على الصعيدين المدنى والعسكرى سواسية. وأصبح واضحا لاحقا أن عملية الفشل هذه هى عملية تراكمية ترعرعت على مدى عقود من الزمن، وعكست الإخفاق فى الوصول إلى نفس المستوى الاجتماعى والاستهلاكى فى الجانب الآخر من الجدار. وكانت النتيجة التى فاجأت العالم بأجمعه قبل عقد من الزمن بالضبط - والتى تسارعت أحداثها وكأنها فيلم سيرالى يصعب تصديقه أو اللحاق به - هى تعرية النظام الاشتراكى الأوروبى رغم الهالة الضخمة التى كانت تحيط بقشرته الخارجية.

أما بالنسبة لوضع العالم الثالث، فقد تحولت عملية التنمية إلى التسابق فى تعيين الآلاف من الموظفين سنويا فى دوائر الدولة ومؤسساتها دون الحاجة إلى عملية التوظيف هذه. كما أصبحت عملية التنمية وسيلة لاغتناء طبقات جديدة على حساب طبقات قديمة دون نتائج اقتصادية تذكر لهذا الغنى الجديد على عكس تجربة الأقطار الأوروبية مثلا، فى العصر الصناعى. وتمثلت عملية التنمية فى تراكم أعباء الديون المالية والاعتماد المتزايد على المساعدات المشروطة والهجرة الكبيرة للشباب، ناهيك عن فضائح صفقات الأسلحة والرشاوى، التى يعلم عنها القاصى والدانى، ولكن الحديث عنها ممنوع داخل البلاد نفسها. وأخيرا، تميزت عملية التنمية بإنشاء مصانع حكومية تنتج لتلبية أرقام الخطط الخمسية وأهدافها الطموحة، دون الأخذ بنظر الاعتبار جودة البضاعة المنشودة أو حاجة السوق المحلية لها أو إمكانية تصديرها إلى الخارج.

لقد طفت جميع هذه الأحكام المكبوتة على السطح فى الفترة ما بين انهيار جدار برلين فى عام ١٩٨٩، وسقوط الاتحاد السوڤيتى فى عام ١٩٩١، وتدفق السيل وراءها ولم يقف حتى الآن. ومع هذين الحدثين، انتهت تجربة ٣٥ عاما من الأحلام والمخططات الاقتصادية ونفوذ قوى مسيطرة لصالح قوى أخرى.

كما برزت فى نفس الفترة ظاهرة النمور الآسيوية والانتعاش الاقتصادى فى الدول الآسيوية فى الثمانينيات وحتى منتصف عام ١٩٩٧، هذه الظاهرة التى تميزت بمعدلات تضخم منخفضة وميزانيات عامة متوازنة، ونسب توفير عالية، وتأسيس الأسواق المالية، والتفاعل مع الاقتصاد الدولى. وكما فى تغطيته لأوروبا، يشرح الكتاب التجارب الاقتصادية المختلفة فى آسيا سواء تلك المتعلقة بالنمور الآسيوية، أو ذات الصلة باليابان والهند والصين. إلا أن الكتاب لا يشرح بما فيه الكفاية الأسباب وراء انهيار تجربة النمور الآسيوية، ولربما يعود السبب فى ذلك إلى أن عملية تحرير الكتاب كانت قد أشرفت على نهايتها عند حدوث هذه الأزمة فى النصف الثانى من عام ١٩٩٧.

.. ولكن ماذا عن المستقبل، وبالذات بعد أن انتشرت أفكار وأعمال تاتشر على صعيد العالم برمته؟

هنا أيضا يعود يرجن وستانسلو إلى بريطانيا من جديد، ولكن هذه المرة مع فوز حزب العمال بقيادة تونى بلير فى الانتخابات البرلمانية فى مايو ١٩٩٧. لقد فاز الحزب بنسبة كبيرة ووعد بتغييرات اقتصادية واجتماعية واسعة، لكن دون نبذ التاتشرية هذه المرة - كما فعل آتلى مع تجربة الاقتصاد الحر، وكما فعلت تاتشر مع برنامج الاقتصاد المختلط. والسبب فى ذلك أن خسارة حزب المحافظين كانت نتيجة فشلهم فى تنفيذ برنامجهم وليس فى معاداة الناخبين لأفكارهم ومعتقداتهم.

فقد انقسم المحافظون على أنفسهم بعد غياب تاتشر، وفقدوا الزعامة الكاريزماتية وعمت فى قيادة حزبهم الفضائح الجنسية والمالية الواحدة تلو الأخرى. أما حزب العمال، فقد استطاع بقيادة تونى بلير أن يغلق صفحات الماضى اليسارى للحزب، ويهمش دور النقابات ويتناسى دور الدولة فى المرافق الاقتصادية الأساسية. وهذه النقلة النوعية فى تفكير وبرنامج حزب العمال، المتمثلة بدحر حزب المحافظين مع التمسك بالتاتشرية، لا تختلف كثيرا عما تحقق فى الولايات المتحدة على يد الرئيس بيل كلينتون من تبنى مجموعة كبيرة من أفكار وبرامج الحزب الجمهورى الاقتصادية والاجتماعية المحافظة ورفع رايتها باسمه، وعلى حساب الحزب الجمهورى نفسه.

ما هى الخيارات المفتوحة فى المرحلة الجديدة أمام الأحزاب العمالية والليبرالية واليسارية التى تحكم معظم الأقطار الأوروبية اليوم؟ هل هى العودة إلى الاقتصاد المختلط؟ الجواب الواضح هو لا. فما هو إذن الاقتصاد الجديد - أو الطريق الثالث - كما أخذوا يسمونه الآن؟

تتمحور الأفكار الجديدة فى نبذ آراء كينز والإدارة الحكومية المباشرة والشاملة للاقتصاد، مع الاعتراف الصريح بصعوبة حماية أى اقتصاد وطنى من المؤثرات الدولية. والبديل المطروح هو تقنين دور الدولة فى الاقتصاد إلى أقل مستوى ممكن، وتحسين أدائها فى المجالات المحدودة المتبقية لها، والتركيز بدلا عن ذلك على خلق الفرص المتساوية أمام عموم أبناء البلاد من تحسين للتعليم والخدمات الطبية والتأهيل المهنى وإيجاد طرق أنجع لتجنب المشاكل المالية الناجمة عن ازدياد أعداد المسنين والمتقاعدين التى تطرق أبواب الدول الصناعية، وتنشيط دور التجارة الخارجية فى الاقتصاد الوطنى.

لذا نجد أن الحوار منصب الآن على تحديد ماهية دور الدولة والمواطن: مسئوليات كل جهة وواجبات كل طرف ضمن الأطر التى أقيمت فى الثمانينيات والتسعينيات. بمعنى آخر إصلاح الاقتصاد التاتشرى بدلا من الثورة عليه.

ولكن هل هناك إجماع على الوضع الجديد؟

يعتمد العالم اليوم على التواصل فيما بينه بعد أن فرقته المسافات والحروب والثورات

الثروة والقوة

والكوارث الاقتصادية. ويلعب الكمبيوتر دورا أساسيا في عملية الاتصال هذه سواء كان ذلك من خلال كمية المعلومات التي يتم إيصالها وإرسالها، أو من خلال السرعة في الإرسال. وما يميز الاقتصاد الجديد عن السابق هو سرعة التنقل والحركة مقارنة بالماضي، كان ذلك حركة رأس المال أو المهنيين والعمال أو الموارد الطبيعية والسلع التجارية. وفي خضم هذا التحول الذي نشهده ونقرأ عنه يوميا، يحاول القطاع الخاص الولوج تدريجيا في القطاعات الاقتصادية الضخمة التي كانت الدولة مسيطرة عليها سابقا، مثل الطاقة والمواصلات والاتصالات والبنى التحتية، إلى جانب ترويج ثورة المعلومات التي تتحكم الآن بالاقتصاد الجديد وتدير دفته وتقوده إلى الألفية الجديدة.

هذا النفوذ الجديد والواسع للأسواق يضع دور الشركات أمام اختبار، وبالذات الحدود التي تواجهها والمسئوليات الجديدة الملقاة عليها. والحقيقة أنه مع عمليات الدمج القائمة حاليا ما بين الشركات العالمية الكبرى، لم يعد ممكنًا معرفة هوية هذه الشركة أو تلك.

فعلى سبيل المثال، عندما نذكر شركة بريتش بتروليوم نعتقد لأول وهلة أننا نتكلم عن شركة بريطانية محضة. فرئيس الشركة هو جون براون البريطاني الجنسية، ومقر الشركة مدينة لندن. ولكن أين استثماراتها. فبعد شرائها مؤخرا لشركتي اموكو وأركو الأمريكيتين، أصبحت معظم استثماراتها في الولايات المتحدة، فضلاً عن استثماراتها الأخرى في الجزائر (من خلال شركتي اركو واموكو) ومصر (من خلال شركة اموكو) وعشرات الدول الأخرى. وشركة بريتش بتروليوم التي ترغب كثيرا في دخول الساحة النفطية الإيرانية تمتنع أن تقوم بهذه الخطوة في الوقت الحاضر، خوفًا من عقوبات الحكومة الأمريكية وقرارات المقاطعة الثنائية التي فرضتها ضد إيران. ومن ثم، ولو كانت بريتش بتروليوم شركة بريطانية محضة، لما كانت تخاف من وضع كهذا: لأنه لا توجد قوانين بريطانية ضد التعامل التجاري مع إيران، كما هو الحال مع شركة توتال الفرنسية التي تحدت الحكومة الأمريكية وأخذت المبادرة في الاستثمار في إيران: لأن قوانين بلادها لا تمنع ذلك. ويقول جون براون: إننا لا نزال في أول الطريق بالنسبة لدور العولمة والمعلوماتية في تغيير هوية الشركات وطريقة عملها ومجالات الاستثمار الجديدة المتاحة لها.

ماذا يعني هذا التغيير الهائل في دور الشركات العالمية؟ يعني هذا أنه في الوقت الذي تقلص فيه الحكومات دورها ومسئولياتها في خدمة مواطنيها، يتوسع دور الشركات في التفاعل مع المجتمع، أو هذا هو المفروض، والسبب بسيط: لأن هذه الشركات بسطت نفوذها على مجمل الحياة اليومية للمواطنين وعلى صعيد مختلف أنحاء العالم. هذه ظاهرة جديدة لم نتعامل معها بشكل واسع في الماضي ويجب أن نواجهها مستقبلا - شئنا أم أبينا.

كذلك، ماذا يعني كل هذا التغيير بالنسبة لأنظمة الحكم السياسية؟ هل هناك ضرورة لوجود نظام ديمقراطي تعددي من أجل نجاح النظام الاقتصادي الجديد؟ أم هل تستطيع أنظمة الحزب الواحد والعائلة الواحدة أن تدفع بالاقتصاد المحلي إلى الأمام ودمجه بنجاح في الاقتصاد العالمي دون تغيير نظام الحكم؟ وهل يستطيع نظام شيوعي أن يحقق هذا النوع من الانفتاح على الاقتصاد العالمي مع الاستمرار في السيطرة على القوى ذات النفوذ، كما هو الوضع في الصين؟ أم أن هناك تناقضا جذريا بين النظامين وأن انفتاحا كهذا سيؤدي في نهاية المطاف إلى تداعي نفوذ الشيوعيين كما هو حاصل في روسيا؟

أخيرا، وعلى عكس غيرهما من الكتاب، ورغم تحمسهما الواضح وغير المحدود للنقلة النوعية التي حصلت في العقدين الأخيرين لصالح الاقتصاد الحر، فإن يرجن وستانسيلو يطرحان عدة أسئلة للتأكد مما إذا كان نجاح الأسواق في المعركة الحالية سيستمر، أم أن الدولة ستستطيع مرة أخرى أخذ زمام المبادرة في حال إخفاق القوى المسيطرة الجديدة في مواءمة متطلبات المواطنين. ويستنتج الكاتبان أن نجاح أو سقوط النظام الجديد سيعتمد في نهاية المطاف على قبول الناس به أو رفضه له من خلال ما سيقدمه لهم هذا النظام، وهل ستكون إنجازاته عملية وواقعية وبثمن معقول أم لا، وما هي البدائل المتوافرة الأحسن منه.

ومن أجل ذلك، طرح الكاتبان عدة أسئلة يعتقدان أنها ستقرر هل سينجح هذا النظام الجديد أم لا؟ وتغطي هذه الأسئلة خمس مناطق:

١- هل سيستطيع اقتصاد السوق تلبية ما هو متوقع منه في تحقيق نمو اقتصادي معقول، وتخفيض مستوى البطالة، وزيادة المواد الاستهلاكية للمواطنين، ورفع مستوى المعيشة لغالبية السكان؟

٢- كيف سيتعامل اقتصاد السوق مع متطلبات مجتمع الرفاهية من توفير التعليم والخدمات الطبية والضمان الاجتماعي والتأهيل المهني، وهل سيتمكن من خلق عدالة اجتماعية أكثر عقلانية من خلال سد الفجوة ما بين الطبقات الاجتماعية؟

٣- ما هو دور الهوية الوطنية في ظل نظام السوق الكوزموبوليتي العالمي؟

٤- هل سيحافظ نظام السوق على البيئة ويرشد استخدام الموارد الطبيعية دون إهلاك البشرية؟

٥- .. وهل سيستطيع التعامل اجتماعيا واقتصاديا، وبطريقة متزنة وعادلة مع الأعداد الهائلة للشباب في دول العالم الثالث التي تتطلع باستمرار إلى فرص عمل جديدة غير متاحة في كثير من الأحيان، ومع العدد المتزايد لكبار السن والمتقاعدين في الدول الصناعية الذين يحتاجون إلى دعم مالي كبير في صورة ضمان اجتماعي وخدمات طبية ورعاية اجتماعية لا تتوافر الآن بشكل واسع؟

في عبارة واحدة لخص كوان كيو، رائد التجربة الاقتصادية في سنغافورة، الوضع الاقتصادي الدولي الحالي: «لقد سقطت الشيوعية، وفشل الاقتصاد المختلط، فما الذي بقي هناك؟»، ويرد هو: أن الباقي هو النتائج التي سيوفرها النظام الجديد، فالرأي العام سيحكم على التجربة الجديدة من خلال نتائجها، وعندها يكرم المرء أو يهان!

كتاب الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهي

• «ته دلالا» لابن الفارض

- أبو حفص عمر بن الفارض، ولد في القاهرة سنة ٥٧٦ هجرية لأسرة شامية الأصل ونشأ نشأة دينية ودرس طريق الصوفية. توفي سنة ٦٣٢ هجرية.

ته دلالا فأنت أهلٌ لذاكا
وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الأمرُ فاقض ما أنت قاض
فعليّ الجمال قد ولاكا
وبما شئت في هواك اختبرني
فاختياري ما كان فيه رضاكا
فعلى كلّ حالة أنت مني
بيَ أولى، إذ لم أكن لولاكا
وكفاني عزا بحبك ذلّي
وخضوعي، ولست من أكفاكا
وإذا ما إليك بالوصل عزّت
نسبتي عزّةً وصحّ ولاكا
فاتهامي بالحب حسبي، وإني
بين قومي أعدُّ من قتلاكا
لك في الحي هالكٌ بك حيٌّ
في سبيل الهوى استلذ الهلاكا
ذاب قلبي فأذَنْ له يتمنّا
كَ، وفيه بقيّةٌ لرجاكا
أو مر الغمضَ أن يمُرّ بجفني
فكأني به مطيعا عصاكا
فعسى في المنام يعرضُ لي الوهـ
ـمُ، فيوحي سرا إليّ سُراكا
وإذا لم تُنعش بروح التمني
رمقي، واقتضى فنائي بقاكا
وحَمت سنةُ الهوى سنةَ الغمـ
ـض جفوني، وحرّمت لُقياكا

نظرة طائر إلى الإبداع الأدبى العربى فى هذا القرن

كيفما تكونوا يكن إبداعكم

فاروق عبد القادر

كيف يمكن أن ننظر للإبداع الأدبى، روايةً وشعرًا ومسرحًا وقصةً على امتداد قرن كامل، وباتساع العالم العربى؟

بدهى أننا لن نستطيع إلا لو حددنا لنا منطلقًا واضحًا، وليكن محاولة تقصى هذا الإبداع فى علاقته بالواقع العربى وتحولاته الدائمة طوال هذا القرن، والوقوف عند النقاط الرئيسة فى هذه العلاقة. وثمة ملاحظة أولى هى أن أشكال هذا الإبداع - عدا الشعر «ديوان العرب» كما يقولون - هى نبت هذا القرن ذاته، وإن سبقتها إرهاصات مختلفة فى القرن الماضى. بعبارة أخرى قد نستطيع القول إن الرواية العربية إنما تبدأ بدايتها الحقيقية مع «زينب» عام ١٩١٣، وإن سبقتها أعمال فى المشرق ومصر منذ ١٨٦٥، لكن «زينب» - وبإجماع نقاد هذا الشكل الأدبى - هى التى حققت الحد الأدنى من الشروط الفنية التى تجعلنا نطلق عليها صفة «الرواية» دون تحفظ يذكر. قل مثل هذا فى المسرح، أو بالتحديد فى الكتابة للمسرح، فرغم أن العروض المسرحية العربية قد بدأت مع مارون نقاش فى بيروت فى ١٨٤٧، ثم القبانى فى دمشق فى ١٨٦٠، إلا أن التأليف المسرحى - وبذات المعنى أى الذى يحقق الحد الأدنى من الشروط الفنية - إنما بدأ فى مصر، على يدى توفيق الحكيم (١٨٩٨ - ١٩٨٧)، وغنى عن القول أن القصة القصيرة نبت هذا القرن بلا جدال.

ويرى بعض الدارسين (د. حمدى السكوت فى تقديم «ببلوجرافيا الرواية العربية») أن الطبعة الأولى من «زينب» لم تُحدث أثرا يذكر، إنما كان هذا الأثر لطبعتها الثانية التى صدرت فى ١٩٢٩، فالأولى لم تكن تحمل اسم صاحبها. أما حين صدرت الثانية، فقد كان الدكتور هيكل ملء السمع والبصر، ويُدلّل على ذلك بتوالى صدور الأعمال الروائية بعدها: «إبراهيم الكاتب» للمازنى فى ١٩٣١، و«عودة الروح» للحكيم فى ١٩٣٣، و«أديب» طه حسين فى ١٩٣٦، و«سارة» للعقاد فى ١٩٣٨، وهكذا. وقد نلاحظ هنا أن أيًا من هذه الأسماء التى سبقت لم يكن متفرغًا أو مقتصرًا عليها، لعل أقربهم إلى الإخلاص لهذا الفن كان المازنى، فى حين انصرف العقاد عن الرواية تماما بعد «سارة».

على أننى أعتقد أن أخطر القرارات فى تاريخ الرواية العربية فى هذا القرن هو ما اتخذه نجيب محفوظ ذات يوم من ١٩٣٨، حين قرر التوقف عن كتابة القصة القصيرة والمقالة والانصراف تماما إلى الرواية (يمكننا القول: تأسيس الرواية العربية دون تجاوز)، وأخضع كل شروط حياته الخاصة والعامة - بصرامة قاسية - لهذا المسعى. وظل حتى أبريل ١٩٥٢، حين أنجز «بين القصرين» ينجز عملاً كل عام دون توقف (ظهرت روايته الأولى «عبث الأقدار» فى العام التالى مباشرة لهذا القرار فى ١٩٣٩).

كانت لدى نجيب خطة طموح، هى أن يكتب تاريخ مصر كله على نحو روائى. ومن ثم، كان طبيعيًا أن يبدأ بالفرعونيات الثلاث، غير أن إلحاح مشكلات الواقع المصرى آنذاك دفعه لأن يتخلى عن هذا المشروع الطموح، ويتجه - مباشرة - إلى «القاهرة الجديدة عام ١٩٤٥»، وتتابعت أعماله على نحو ما هو معروف، حتى توقف فى عام ١٩٥٢ كى يتفهم الواقع الجديد، ولتبدأ مرحلة جديدة من عمله، بعد «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٨، مع «اللص والكلاب» عام ١٩٦١... إلخ.

وقد نلاحظ هنا أن صدور الأعمال الروائية التى تحقق قدرًا - يزيد أو ينقص - من النضج الفنى فى العالم العربى، أعنى المشرق باعتبار الظروف الخاصة بأقطار المغرب العربى التى أخرت ظهور الأعمال الأدبية بالعربية، إنما يدور حول نهاية الثلاثينيات، ولاشك فى أن صدور أعمال روائية فى مصر لكُتاب كبار (هيكل، المازنى، الحكيم، طه حسين، العقاد)، قد عجَّل بهذا الميلاد. هكذا أصدر الكاتب اللبنانى توفيق يوسف عوَّاد روايته «الرغيف» فى ١٩٣٨، وسبقه السورى شكيب الجابرى بروايته «نهم» فى ١٩٣٧، ولحق بهما العراقى ذو النون أيوب بروايته «الدكتور إبراهيم» فى ١٩٣٩. أما فى المغرب فقد تأخر ظهور هذه الرواية الأولى - بسبب تلك الشروط الخاصة - إلى عام ١٩٥٦، عام الاستقلال، حين صدرت «رواد المجهول» لأحمد عبد السلام البقالى.

وراحت الرواية العربية تشق طريقها، وتتتابع أجيالها، وتكتسب لها مواقع جديدة، خاصة فى أقطار المغرب والجزيرة والخليج، ويدخل ساحتها عدد متزايد من الكاتبات، حتى كادت أن تصبح - مع نهاية القرن - هى الفن العربى الأول، وقد ظلت - فى تيارها العام، وباستثناءات قليلة - على ارتباط وثيق بالتحولات الكبرى فى العالم العربى، خاصة فى النصف الثانى من القرن: زمن الثورات والسعى للتحرر من السيطرة الاستعمارية والحكام الفاسدين والتماس العدل والحرية. لقد حَدَت الركب العربى خلال هذه العقود الخمسة فى انتصاراته وانكساراته على السواء (إن الأعمال الروائية التى كُتبت عن ١٩٦٧، وعن النضال الفلسطينى والجزائرى تمثل مكتبة كاملة)، إضافة إلى أنها جاست كل ركن فى الأرض العربية من شاطئ المحيط إلى حدود العراق، ومن الشمال السورى لشواطئ الخليج، لم تكد تترك مدينة أو قرية أو بادية أو نهرًا أو جبلا، وأعانها انفساح مداها على أن تعرض شتى الشخصيات والنماذج التى تعيش على هذه الأرض المترامية.

وليس هذا كله بالأمر القليل.

حتى انتصاف القرن تقريبًا، ساد المشهد الشعرى العربى نجوم بزغوا فى القرن الماضى: أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبرى وخليل مطران فى الصف الأول، وراءهم صف طويل ثانٍ من الشعراء فى مصر والمشرق، وحول منتصف القرن ساد الفتور هذا المشهد: رحل الكبار، ولم يستطع من تلاهم (بشكل خاص: مدرسة «أبوللو» وشعراء المهجر) ملء الفراغ، فبقيت ساحة الشعر شاغرة أو تكاد. ربما كان الاستثناء الكبير هو الجواهرى (١٩٠٠ على الأرجح - ١٩٩٧): بدأ ينشر شعره بعد ثورة ١٩٢٠ المجهضة فى العراق، من ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية وما بعدها، كان الشعراء هم صوت الشعب فى معاركه من أجل الاستقلال والتقدم. لعب الشعر دور المنشور الثورى والمقال السياسى والتحليل الاجتماعى. كان الجواهرى قد اختار طريقه وسط الصراع الدامى فى وطنه، إلى جانب شعبه ضد المحتلين والمتعاونين، إلى جانب الفقراء والمقهورين ضد مستغليهم وقاهريهم، إلى جانب الاستنارة والتقدم ضد التخلف والأفكار السلفية والغيبية، لهذا ظل فى صعود وشعراء آخرون فى انحسار. كان جميل صدقى الزهاوى (١٨٦٣ - ١٩٣٦)، ومعروف الرصافى (١٨٧٥ - ١٩٤٥) أصبحا ينتميان للماضى أكثر من الحاضر. ومع الأربعينيات أصبح الجواهرى أهم الأصوات فى الشعر العراقى - العربى، يعيش مُبعدًا حينا ومنبوذًا حينا وبلا عمل حينا، لكنه يكتب شعره وينشره فى كل الأحيان، وبلغ الجواهرى بالقصيدة التقليدية أقصى مداها، وآخر الطريق الذى عمل البارودى على تمهيده منذ الربع الأخير من القرن الماضى، وعليه سار كل التقليد بين الكبار.

على أن أهم تحول حدث فى المشهد الشعرى العربى خلال هذا القرن، وقبيل منتصفه، كان هو ظهور الشعر الحر أو الحديث أو شعر «التفعيلة». تقول نازك الملائكة إن ذلك حدث ذات يوم من صيف ١٩٤٧، حين فرغت من كتابة قصيدتها «كوليرا»، والتى كانت استجابتها للوباء العاصف بقرى مصر ومدنها فى ذلك الحين، وسواء صَحَّ زعم نازك أو لم يصح، فلاشك أن مثل هذه الحركة لا تخضع لمبادرة فرد قدر ما تكون تعبيرًا عن اضطراب

أخطر القرارات فى تاريخ الرواية العربية فى هذا القرن هو ما اتخذه نجيب محفوظ ذات يوم من ١٩٣٨، حين قرر التوقف عن كتابة القصة القصيرة والمقالة والانصراف تماما إلى الرواية (يمكننا القول: تأسيس الرواية العربية دون تجاوز)، وأخضع كل شروط حياته الخاصة والعامة - بصرامة قاسية - لهذا المسعى.

يجيش به المجتمع كله، يلتقطه هؤلاء الأكثر حساسية وإصغاءً لهمس الجماعة، وحين كانت نازك مشغولة بسطور قصيدتها في بغداد، كان في العراق نفسه شعراء آخرون يمهدون ذات الدرب، السياب والبياتي والحيدري، وفي مصر كان عبد الرحمن الشرقاوي ولويس عوض وسواهما ممن لم يُقدَّر لنا أن نعرف تجاربهم.

فما ملامح هذه الثورة الشعرية وبم تتميز؟ من حيث «التكنيك» استبدل هذا الشعر «بالتفعيلة» نظام الشطرين في البيت، ونوَّع أعدادها في كل سطر، ولم يعد شاعرنا يلتزم قافية مفروضة عليه سلفًا بحكم قوالب بحور الشعر التقليدي، لكنه أخضع قصيدته لقافية أخرى نابعة من قلب العمل نفسه، واحتفظ الرَّوي - الحرف أو الحروف الأخيرة من البيت - بمكانه في بعض القصائد واختفى من بعضها الآخر، واكتسب الشعر موسيقاه من شيء آخر غير صخب الرَّوي الواحد ورتابة تكافؤ الشطرين، اكتسبها من تنويع عدد التفعيلات في كل سطر - من التفعيلة الواحدة إلى تسع تفعيلات، ومن إيقاع الألفاظ المفردة وما تنسجه من موسيقى داخل القصيدة الواحدة.

هذه الاختلافات «التكنيكية» ليست كل شيء، ثمة اختلافات أعمق في المضمون وطريقة التعبير، مما يجعل حركة هذا الشعر ثورة تعبيرية كاملة، وليست مجرد تلاعب بالعروض التقليدي للشعر أو خروج عليه. إن حرص الشاعر على تأكيد ذاته في مواجهة الجماعة هو ما دفعه لأن يطرح القيود القديمة (ويلتزم قيوده هو)، لكن إحساسه بهذه الجماعة نفسها هو ما دفعه لأن يرفض الوقوف عند الجزء فيتجاوزه إلى الكل، وكما كان الشاعر القديم حريصًا على وحدة البيت في قصيدته وتجويد المعنى داخله قدر ما يستطيع، تجاوز الشاعر المعاصر البيت إلى القصيدة، وأصبح حريصًا على فنية بنائها والتنسيق بين العناصر الداخلية فيها. هذان جانبان من تلك الدائرة الجدلية الدائمة التي تشمل الفنان والجماعة، والموقف الذي اختاره الشاعر المعاصر يتلاءم والإطار العام لهذا الصراع. فنظرة إلى واقع العالم العربي في السنوات التي شهدت بدايات الشعر المعاصر ونموه، تؤكد هذا الاختيار، وليس مصادفة أن يقترن ميلاد هذه الحركة بتلك السنوات الحاسمة في تاريخنا القومي، خاصة ١٩٤٨، فما حدث في تلك السنة كان يمثل قمة التعبير عن فشل نمط الحياة الذي تعيشه شعوب المنطقة العربية، ومن قاع الهزيمة أو قمتها، ظهرت استجابات أكثر صحة وثورية: ٥٢ في القاهرة، ٥٤ في الجزائر، ثم ٥٨ في بغداد.

رفض الواقع الفاسد إذن، نقطة انطلاق شعرائنا المعاصرين إلى رفض الأشكال الفنية المفروضة: كل شيء فينا وحولنا يتغير.. فلم الإبقاء على شكل تعبيري نضيق به؟ لسنا بحاجة لمزيد من القيود!

وتجسد رفض الواقع في عديد من الاستجابات اختلفت باختلاف الشعراء أنفسهم من حيث تكوينهم الفكري وعُدتهم الفنية وانتماءاتهم الأيديولوجية والسياسية. باختصار، من حيث اختلاف مواقفهم من الحياة والإنسان، وتنوعت الاستجابات: من الغوص في قوقعة الحزن العميق (نازك الملائكة، صلاح عبد الصبور) إلى الانتماء لموقف سياسي محدد، والوقوف - شعرًا وحياة - إلى جانبه (السياب في مرحلته الأولى، البياتي) إلى البحث عن الخلاص في اشتعال لحظة الشبق (نزار قباني) إلى الانعكاف على الذات والغوص في سراديبها الموحشة (أدونيس، خليل حاوي) إلى الالتزام الحار بقضايا الإنسان في المنطقة العربية كلها (عبد المعطي حجازي)، هذا إن اقتصرنا على أهم الأسماء، وليست هذه التحديدات جامعة ولا مانعة، لكنها أقرب إلى تلمس أوضح النغمات فيما يعزفه كل شاعر.

انتصرت حركة الشعر الحديث أو المعاصر إذن، لأنها انطلقت من رفض الواقع. ثمة سبب مهم آخر هو أن هذه الحركة نابعة من قلب التراث الشعري، موصولة به، هي قمة سلسلة من محاولات بدأت منذ عصر مبكر لتطويع القالب الشعري، فالرباعيات والخماسيات و«الدوبيت»، وتلك القصائد التي تخلو من الرَّوي الواحد (تذكر نازك الملائكة قصيدة كاملة لجميل صدقي الزهاوي، ويثبت عز الدين إسماعيل في كتابه عن «قضايا الشعر المعاصر» قصيدة أخرى لعبد الرحمن شكري، أقول إن تلك جميعا كانت محاولات للفكاك من أسر القفص الحديدي الذي وضعه الخليل بن أحمد بعد أن استقرأ نماذج الشعر التي عرفها قبل ألف سنة، ولم تبلغ تلك المحاولات شيئًا لأنها دارت حول المشكلة ولم تضرب في قلبها. بعبارة أخرى، رغم محاولات الخروج على الإطار التقليدي للشعر، فقد بقي تقليديًا مادام يلتزم القيد الرئيس في هذا الإطار، الانتظام داخل البيت الواحد والقافية المفروضة من خارج العمل الفني. أما الشعر المعاصر فقد واجه المشكلة بحسم، فخرج عن نظام البيت



ليلتزم بالتفعيلة، وخرج عن القافية المفروضة ليلتزم قافية القصيدة.

وحققت هذه الحركة مكاسب فنية لاشك فيها، حين تحرر الشعر من إطار الشكل التقليدى استطاع أن يتسع ليعبر عن خبرات وتجارب لم يحتملها الإطار القديم، وترددت فى شعرنا المعاصر نغمات جديدة، واكتسبت القصائد نفسها بناءً أكثر غنى وتركيبًا، لم تعد القصيدة نغمة واحدة مسطحة، يطربنا - أو لا يطربنا - ما فيها من إيقاع رتيب صاخب، لكنها أصبحت بناءً موسيقيًا كاملاً، قد يكون من «حركة» واحدة أو يتسع ليشمل عدة «حركات» تتصاعد بلحن رئيس واحد، له تلوينات وتفريعات وتنويعات.

ودون النظر إلى طول القصيدة أو قصرها، فإننا نستطيع أن نستخدم معيارًا آخر للتفريق بين القصيدة «القصيرة» و«الطويلة» فى الشعر المعاصر. القصيرة هى التى تعبر عن «شعور» واحد من خلال عدد من المقاطع المتتابعة، والطويلة هى التى تعبر عن «فكرة» واحدة من خلال عدد من المقاطع أكثر طولا وتعقيدا. القصيدة الغنائية المعاصرة ينتظمهاخيط شعورى واحد، يبدأ - فى العادة - من منطلق ضبابى غائم، ثم يتطور - خلال المقاطع المتتالية - نحو مزيد من الوضوح والتحديد، وكما كانت تنتهى قصيدة الشاعر التقليدى بإزجاء «الحكمة»، تنتهى القصيدة الغنائية المعاصرة بإشباع نفسى وعاطفى. وحدة العاطفة إذن، وتطورها فى اتجاه واحد هو ما يميز القصيدة الغنائية عن الشكل الآخر المتمثل فى القصيدة الطويلة.

ولعل هذه القصيدة الطويلة أن تكون أثمن كشوف حركة الشعر المعاصر، ومن أوائلها تلك التى كتبها صلاح عبد الصبور فى ١٩٥٣ بعنوان «المُلك لك»، ومجموعة المطولات التى كتبها السياب فيما بين ١٩٥٤ و١٩٥٧، ونشرها فى مجموعته الكبيرة «أنشودة المطر». وإذا كان «الشعور الواحد» هو جوهر القصيدة الغنائية القصيرة، فإن «الفكرة الواحدة» هى قلب القصيدة الطويلة، ففى كل مقاطعها - مهما تعددت هذه المقاطع واتخذت لها أرقامًا أو عناوين داخلية - ثمة فكرة واحدة لكنها ذات طبيعة مُركبة ومتصارعة، تحقق تأثيرها عن طريق التقارب والتآلف مرة، وعن طريق التضاد والتنافر مرة أخرى. إنها ليست مجرد «تكبير» للقصيدة الغنائية القصيرة، لكنها تكاد أن تكون «نوعا» فنيا مستقلا بذاته، ومنذ قصيدة «الملك لك» حتى آخر قصائد أدونيس الطويلة، تطورت هذه القصيدة تطورًا مذهلاً، ففى كل مقطع من مقاطعها تقليب للفكرة على وجه من الوجوه، وإثراء لها من خلال الوحدة التى تنتظم التنوع.

وسواء كانت القصيدة قصيرة أو طويلة، فقد استعانت بطرائق فى التعبير لم تكن تعرفها القصيدة التقليدية، أولها: التعبير «بالصورة الشعرية» بدل عُدة البلاغة التقليدية (التشبيه والاستعارة.. إلخ). فالشاعر يراكم عددًا من الصور الصغيرة المتتابعة، أو يقف متانيا ليرسم صورة تفصيلية تستطيع أن تكون «مكافئا فنيا» لإحساسه أو فكرته. كذلك استعانت القصيدة بالحوار مع الذات «المونولوج»، ومع الآخر «الديالوج»، وربما كان حرص الشاعر على التعبير عن عاطفة أكثر تركيبا وتعقدا، وحرصه على أن يكون أكثر صدقا - بالمعنى الفنى - من الشاعر التقليدى هو ما يدفعه لأن يستخدم «المونولوج» و«الديالوج» بعد أن استغنى عن معظم أفعال القول، فلم تعد قصيدته مثقلة «بقالَت» و«قُلتُ».. إلخ، لكنها أصبحت أكثر صدقًا ومباشرة، وتكتسب القصيدة بنيتها الدرامية - بالتالى - من تعدد الأصوات فيها بدل صوت الشاعر المفرد الذى كان يميز القصيدة التقليدية. كما استعانت القصيدة المعاصرة بالسرد القصصى، وأخضعته لبنية القصيدة ونظامها الداخلى، واستعانت بالرموز المنثورة فى الأساطير والآداب القديمة والحديثة، بل خلق الشعراء رموزهم الدالة عليهم.

تلك الثورة الشعرية أعدها من أهم إنجازات الإبداع العربى فى هذا القرن.

ثم تدور دورة الأيام، ويتحول ما كان مكاسب فنية وفكرية إلى بضاعة مزجاة، وتتتابع أجيال من الشعراء، أقلهم متميز متفرد، وأكثرهم مزيّف مُقلِّد. تسطحت إنجازات الشعر الحديث وتميعت، وأصبح المشهد الشعرى الآن - مع نهاية القرن - مختلطًا أشد الاختلاط، رَحل من رَحل، وصمت من صمت، والشاعرون اليوم إما واحد يعيش ماضيه أو آخر يلغو ويلقى كلماته وسط مستنقع مائع من الإحالات والصور لا يؤدى لشىء، فلا إشباع ولا تقليب لفكرة، إنما اجترار وتكرار لما سبق إليه أولئك الرواد الكبار (فاتت عليك معظم أسمائهم»، لا نكاد نجد سوى قامتين كبيرتين لشاعرين لا يزالان قادرين على مواصلة الإبداع، أحدهما عراقى (سعدى يوسف) والآخر فلسطينى (محمود درويش)، وراءهما صف من المتوسطين، ثم حشد هائل ممن لو صمتوا، لكان خيرًا للشعر وقارئيه على السواء!

قلت إن التأليف الجاد، والأصولى للمسرح بدأ مع توفيق الحكيم، غير أن المسرح من حيث هو فن ذو طبيعة مركبة، لا يقتصر على النص المكتوب وحده، وإن بقى النص هو النواة الصلبة التى يقوم عليها العمل المسرحى، رغم كل دعاوى إسقاطه أو تجاوزه. ضرورات المساحة المتاحة وحدها هى ما تجعلنا نقصر حديثنا على التأليف، سبقت الحكيم محاولات قارب بعضها حد النضج (عند فرح أنطون وإبراهيم رمزى ومحمد تيمور بوجه خاص)، لكن الحكيم هو الذى قطع بالنص المسرحى العربى خطًى واسعة للأمام، واستطاع أن يزيح - وإن قليلا - حائط الغرابة بين المسرح - من حيث هو فن له جديته وأصوله - وبين قطاع مهم من الجمهور القارئ أو المتلقى. بعبارة أخرى، لقد نجح الحكيم فى أن يكتب للمرة الأولى باللغة العربية مسرحيات تلتزم - إلى حد كبير - بقواعد البناء الذى عرفه المسرح الأوروبى حتى عشرينيات هذا القرن، وضرب فى كل أرض تخايلت لعينيه، فغطت موضوعات نصوصه مدى واسعا يمتد من إعادة صياغة التراث الإغريقى والتاريخ الفرعونى، إلى محاولة مسرحة القصص القرآنية والتوراتية وقصص التراث العربى، إلى النظر فى الواقع المعاصر ومحاولة تطويعه للقالب المسرحى.

لكن الحكيم اختار أن يجعل الحياة والفن على طرفى نقيض، والإنسان والفنان على طرفى نقيض، وكان هذا ما يتفق تماما وتكوينه النفسى وانتماءه الطبقى، إنه التماس الأمن والأمان وغسل اليدين من أوحال الواقع وهموم الأرض، وهو يقول صراحة، إنه لجأ إلى ما أسماه «المسرح الجاد» مقابل «أن يفوز باحترام الناس بدل مهانة التشخيص»، وكان سبيله إلى كسب احترام مجتمعه أن يمضى بمسرحه إلى ما لا علاقة لهذا المجتمع به، وجاءت أهم أعماله إصرارًا على اختيار طريق الفن الذى ينفى الحياة سبيلا للحياة، إنه الفن الذى لا يمس أعمدة البناء السياسى - الاقتصادى للواقع.

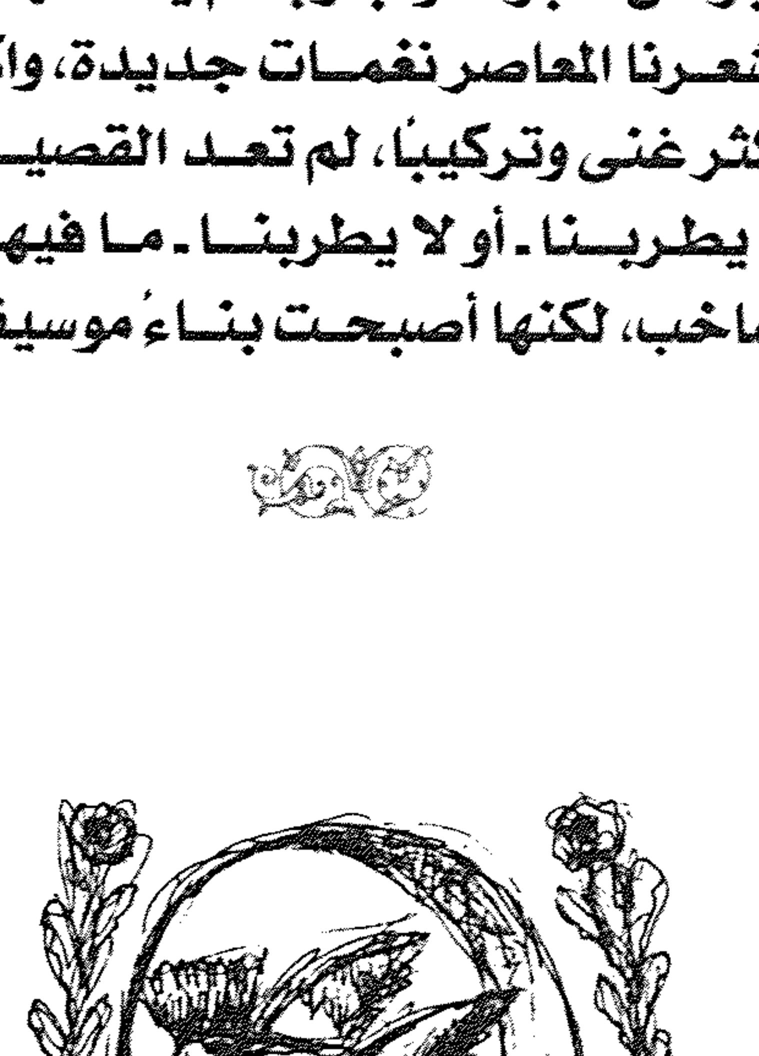
غير أن النظر إلى المسرح المصرى - والعربى - بعده يؤكد - دون أى شك - دوره فى إزاحة حائط الغرابة بين المسرح الجاد وقطاع متميز من الجمهور، ويؤكد - كذلك - أن كثيرين من الكتاب التالين عليه كانوا له قراءً وبه متأثرين.

وكان لابد أن يحدث ما حدث فى يوليو ١٩٥٢ كى يقوم مسرح جديد، هذا مجتمع قائم أخذت قواعده فى التخلخل والانهيار.. ومن أحشائه وعلى أنقاضه يتخلق مجتمع جديد، وهؤلاء الذين خرجوا فى قلب الليل وتسلموا السلطة دون عناء كبير لم تكن لديهم خطط جاهزة لإحداث التغيير، لكنهم يجربون فيخطئون ويصيبون، وتلك أكثر اللحظات مناسبة فى تاريخ أمة من الأمم لقيام مسرح جديد. وإلى خشبة المسرح المصرى تدافعت كوكبة من الفرسان: نعمان عاشور، ألفريد فرج، يوسف إدريس، سعد الدين وهبة، عبد الرحمن الشرقاوى، لطفى الخولى، رشاد رشدى، ميخائيل رومان، وتلاهم محمود دياب وصلاح عبد الصبور ونجيب سرور وسواهم. كان فرسان الموجة الأولى من أبناء الجيل الذى تفتح وعيه أثناء تلك السنوات المثقلة ١٩٤٥ - ١٩٥٢: اشتدت حركات التحرر فشملت معظم البلاد التى كانت مستعمرات ومناطق نفوذ، ومن بينها الأقطار العربية بطبيعة الحال: مصر وسوريا ولبنان وأقطار المغرب، وفى مصر كان الاحتلال جاثما بكل ثقله على صدور المصريين، وأدت سنوات الحرب إلى ازدياد الإحساس بوطأته، ونضج الوعى الشعبى فأصبح يربط الاحتلال بالاستقلال الاقتصادى، وتحقق اللقاء بين القضيتين الوطنية والاجتماعية، ثم إن الأحزاب التقليدية ضعيفة معزولة، والحزب الكبير الذى قاد النضال الوطنى منذ ١٩، فقد معظم طاقته بعد ٣٦، وجيل «الإحياء» من الكتاب والمثقفين كانوا قدموا أهم ما ارتبطت به أسماؤهم قبل منتصف الثلاثينيات، وتحولوا إلى نوع من الأدباء «الرسميين» يدافعون عن ليبرالية فقدت مبرر وجودها ذاته.

عن هذا الوعى صدرت موجة ثقافية كاملة لتعبر عن نفسها بعد ٥٢، وهمَّ المسرح المصرى الجديد أن يردم هوة عمقتها السنون بين الفن الجاد والجماهير، وتمثلت شجاعته فى الوقوف إلى جانب الجديد، يدعو إليه، ويبشّر به، ويؤكد حتمية حدوثه، لكنه لم يدْعُ إلى تجاوزه إلا قليلا، ثم إنه رفع إلى خشبة المسرح كثيرا من هموم الناس وقضاياهم الملحة.

غير أن هذا المسرح لم يعمر طويلا، هما عقدان على وجه التقريب، وسرعان ما سقط تحت ضغوط عوامل متعددة: ٦٧ وتحولات الواقع وتربص الرقابة وخيانة المسرحيين، وسرعان ما رجحت كفة المسرح التجارى من

حين تحرر الشعر من إطار الشكل التقليدى استطاع أن يتسع ليعبر عن خبرات وتجارب لم يحتملها الإطار القديم، وترددت فى شعرنا المعاصر نغمات جديدة، واكتسبت القصائد نفسها بناءً أكثر غنى وتركيبًا، لم تعد القصيدة نغمة واحدة مسطحة، يطربنا - أو لا يطربنا - ما فيها من إيقاع رتيب صاخب، لكنها أصبحت بناءً موسيقيًا كاملاً.



ناحيـة، والمسـرح الذى يمـالئ السلطـات القـائمة من الناحيـة الأخـرى، وفـقد المسـرح قـدرتـه على نـقـد الواقـع وتطلعـه نحـو المستـقبل واهتـمامـه بجـماهيـر الناس، وأصبحت القاعدة التى تحكم نشاطه هى أن «شباك التذاكر لا يخطئ أبدا!».

ولاشك فى أن هذا المسرح الجديد فى مصر قد أحدث آثارا تختلف من حيث قوتها ومداها فى مسارح الأقطار العربية التى كان لها بعض رصيد سابق فى فن المسرح: حدث لون من النهوض المسرحى فى بغداد، بعد جيل الرواد: حقى الشبلى ويوسف العانى وإبراهيم جلال، ظهر جيل جديد يمثلهم سامى عبد الحميد وجليل القيسى وعزيز خيون وهانى هانى وقاسم محمد وسواهم، وتلاحم جيل ثانٍ يمثله صلاح القصبى وفاضل خليل وشفيق مهدى وعونى كرومى وسواهم كذلك. وكانت الظاهرة الغالبة على هذا النهوض أن معظم القائمين به «مسرحيون» أو «مسرحجية» أى أنهم ليسوا كتابا فقط، لكنهم يكتبون أعمالهم أو يعدونها ثم يخرجونها وقد يشارك بعضهم بالتمثيل فيها، وفى بيروت كان محمد شامل ونزار ميقاتى ومنير أبودبس وأنطوان ملتقى وجلال خورى والرحبانية ونضال أشقر وريمون جبارة وسواهم، وإن كانوا جميعا «مسرحيين» بالمعنى الذى سبقت إليه الإشارة. وفى دمشق ظلت الكتابة للمسرح تنتظر طويلا حتى جاء سعد الله ونوس(١٩٤٢-١٩٩٧). وقد درس فى القاهرة إبان نهضتها المسرحية : (٥٨ - ٦٢) بمسرحيته الطويلة الأولى «حفلة سمر من أجل ٥حزيران» فى ٦٨، ثم تتابعت أعماله حتى أصبح واحدا من أهم كتاب المسرح العربى، منذ بدأ وحتى اليوم، إلى جانبه مصطفى الحلاج ووليد إخلاصى وممدوح عدوان وفرحان بلبل وسواهم. أما فى المغرب العربى فقد قاد النشاط المسرحى الذى بدأ بعد الاستقلال المسرحيان الكبيران الطيب الصديقى وأحمد الطيب العلج.

واليوم، مع نهاية القرن، لم يكد يبقى من هذا المسرح سوى حفنة من النصوص للحكيم وألفريد فرج ومحمود دياب وصلاح عبدالصبور فى مصر،ويوسف العانى، ويوسف الصايغ فى العراق، وسعد الله ونوس فى سوريا، وعز الدين المدنى فى تونس، وعبدالكريم برشيد فى المغرب. هذا ما انتهى إليه مسرحنا العربى.

حدثنا يحيى حقى عن «فجر القصة المصرية» حين تحدث عن أعضاء «المدرسة الحديثة» وقدم لنا صورا من حياة بعضهم وأعماله. وبذات المعيار الذى استخدمناه حتى الآن، أعنى البدء بالأشكال التى تحقق قدرا من الشروط الفنية الضرورية، جاز لنا أن نقول - مع يحيى حقى - إن مجموعة «سخرية الناى» لمحمود طاهر لاشين، الصادرة فى ١٩٢٥، هى أول مجموعة من القصص القصيرة تلتزم تلك الشروط.

كان يحدثنا عن أعضاء تلك المدرسة التى تضم - إلى جانب لاشين - خيرى سعيد وحسين فوزى ومحمد تيمور، وعلى هامشها إبراهيم المصرى وحسن محمود ومحمود عزى وحبيب زحلاوى. وعن دوافع قيام تلك المدرسة يقول : «ولكن حدث حينئذ لمصر حادث غريب، هذه الأمة التى خيّل للكثيرين من البسطاء أنها استكانت وفقدت القدرة على النهوض قد هبت سنة ١٩١٩ تلتف حول سعد زغلول، وتطالب بحقها فى الحياة والاستقلال، وعم الشعور الوطنى الشعب كله واستشهد منه كثيرون. فى أحضان هذه الثورة نشأت موسيقى سيد درويش، ونشأ أدب المدرسة الحديثة، وكلاهما منبعثان من حاجة ملحة لإيجاد فن شعبى صادق الإحساس إلى أدب واقعى، متحرر من التقليد واقتباس الأخيلة من الغير..».

هكذا جاء ميلاد القصة القصيرة بشروطها الفنية، وأقبل كتاب كثيرون على ممارستها، لكن أحدا لم يخلص لها أو يجعل إبداعه مقتصرا عليها، بل كانوا يمارسونها إلى جانب الرواية أو المسرحية أو الشعر أحيانا. وحول منتصف القرن كان نجوم القصة فى مصر هم محمود كامل ومحمود البدوى وسعد مكاوى وعبدالرحمن الخميسى وأمين يوسف غراب وسواهم (أما يحيى حقى نفسه فقد كان - كعادته - متواريا «فى الظل»!) ، وقصصهم - فى معظمها - ذات طابع رومانسى شاحب، تدور حول «عذاب المحبين» ، أو تحكى حكاية ذات أحداث غريبة، وكثير منها يدور فى أرض غريبة، وأبطالها دائما من الطبقة العليا فى المجتمع، أو التى تليها مباشرة فى السلم الاجتماعى، وهى مكتوبة - على الأغلب - بلغة فصحى تلتزم قواعد البلاغة التقليدية السائدة، يدفعها طابعها الرومانسى إلى المبالغة فى تصوير المشاعر والمواقف، مبالغة تنأى بأبطالها عن أن يرى فيهم القارئ أناسا يعرفهم، أو مشاعر يمكن له - ولسواه من صغار الناس: أبطال القصة القصيرة بامتياز - أن يمارسها.

إنما من هنا تأتى أهمية يوسف إدريس (١٩٢٧-١٩٩١). رأى يوسف فى القصة المصرية السائدة اقتباسات يقوم بها هواة عن مادة أدب أجنبى، أو بتعبيره: «إن الشخصيات وطريقة القص وموضوع القصة ، كانت كلها مختلفة عن الحياة الواقعية اختلافا كاملا..» ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة ثقيلة هى أن يقدم «القصة المصرية الخالصة» ، بدأ نشر قصصه فى ٥٠، وحين صدرت مجموعته الأولى فى ٥٤، بدا أنه قد حقق قدرا كبيرا من مهمته الثقيلة ، حفلت قصصه بحشد هائل من الأبطال المغمورين الذين دخلوا إلى التعبير الأدبى فى القصة المصرية للمرة الأولى، وتتابعت مجموعاته حتى فرض ظله الفارع على هذا الفن الهش المراوغ فى مصر والعالم العربى جميعا.

فى المشرق العربى بدأت بواكير القصة التى تحوى الحد الأدنى من الشروط الفنية حول أوائل الخمسينيات كذلك: كان فى سوريا شكيب الجابرى وفؤاد الشايب ومحمد النجار وعبدالسلام العجيلى وسواهم، وفى العراق ذون النون أيوب وفؤاد التكرمى وسواهما كذلك، أما فى المغرب - ولذات الأسباب - فقد تأخر ميلاد القصة - شأن بقية الفنون، إلى مابعد الاستقلال، ولعلنا لم نعرف أحدا من قصاصى المغرب قبل السبعينيات ، أى قبل محمد زفزاف وأحمد المدينى وإدريس الخورى وعبدالجبار السحيمى وسواهم.

وتتابعت أجيال القاصين فى أقطار العالم العربى: مصره ومشرقه ومغربه، وتزايدت أعداد القاصين، أغراهم هذا الشكل لطواعيته وتنوعه وقدرته على التعبير عن اللحظة ، إضافة لسهولة نشره مع تزايد الصحف والمجلات، وتمايز من بينهم كثيرون، قد يعيينا أن نذكرهم بأسمائهم دون أن نسقط منهم أحدا، ولا تزال تطالعنا أقلام جديدة فى كل يوم. إن القصة القصيرة - مثل شقيقتها الكبرى - تكسب أرضا جديدة كل يوم!

بين هذه الأجيال يتميز ما عُرف بجيل الستينيات فى مصر (ثمة مجايلون لهم فى المشرق بوجه خاص) : إنهم أولئك الذين تفتح وعيهم بعد ٥٢، وتعلقت آمالهم بفترة الزهو والصمود، ثم جاءت مرحلة التناقضات المريرة وبعدها قاصمة الظهر فى ٦٧، فوقعت على رؤوسهم وهم يشعرون أنهم مخدوعون وممتهنون ومسئولون كذلك، ومن ثم كتبوا أدبا مختلفا (كان بينهم روائيون وشعراء، لكن الغالبية كانت من القاصين) يعبر عن إحباطهم ورفضهم الكامل للماضى وشكهم القوى فى الحاضر، ويأسهم من المستقبل، لا أجد فى وصفهم أصدق مما كتبه شكرى عياد: «هذا إذن جيل ثورة ١٩٥٢، وهذا قَدَره التاريخى، لقد بدأ اللعب بالقلم حين كان الجو مليئا بالصياح والتهليل، وعندما ثبت القلم بين أصابعه كان الجو مليئا بالصراخ والعويل، وكان عليه أن يحمل أوزار السابقين، ويسير دون دليل..».

إنما على أيدى أبناء هذا «الجيل الضائع» فى السبعينيات انتعشت الكتابة، والقصة القصيرة بوجه خاص!

تلك كانت «نظرة طائر» إلى الإبداع الأدبى فى هذه الوجوه الأربعة خلال قرن كامل. طبيعى ألا تقف إلا عند أهم العلامات، مسقطة كثيرا من التفاصيل. هل يمكن أن نستشف منها دلالات عامة، أو أقرب لأن تكون كذلك؟

بأقصى قدر ممكن من تدقيق الكلمات نستطيع القول إننا لانجد حركة إبداعية شاملة أو متكاملة على اتساع الأرض العربية، الأمر لايعدو مبدعا هنا وآخر هناك، قد تجد روائيا أو شاعرا أو قاصا أو مسرحيا مُجيدا، لكنه موجود كفرد مبدع، وعلّه يجاهد كى يبقى كذلك وسط شروط هذا الواقع الساقط والمتردى.

وقد نستطيع القول إن مثل هذه الحركات الإبداعية عزفتها الأقطار العربية المختلفة فى فترات متوهجة من هذا القرن : مصر فى العشرينيات، ثم من منتصف الخمسينيات لمنتصف الستينيات (اقرأ: بعد ١٩١٩، ثم بعد ١٩٥٢)، والعراق حول منتصف القرن، والشام فى الخمسينيات والستينيات، وأقطار المغرب عقب الاستقلال.

وقد نستطيع القول أيضا إن هذا النظر يثبت - لمن شاء مزيدا من الأدلة - أن الإبداع العربى وحدة واحدة رغم التنوع: تتأسس الرواية فى مصر، ومنها تنتشر لكل العالم العربى،وتحدث ثورة الشعر المعاصر فى العراق، ومنه تنتشر إلى القاهرة ودمشق وبيروت.

وقد نستطيع القول كذلك! إنه حين تسطع شمس الحلم، تتلاشى الحدود القائمة بين الأقطار، وتمتد الأيدى للتلاقى.

وقد نستطيع القول أخيرا: كيفما تكونوا، يكن إبداعكم. ■

سرعان ما رجحت كفة المسرح التجارى من ناحية، والمسرح الذى يمالئ السلطات القائمة من الناحية الأخرى، وفقد المسرح قدرته على نقد الواقع وتطلعه نحو المستقبل واهتمامه بجماهير الناس، وأصبحت القاعدة التى تحكم نشاطه هى أن «شباك التذاكر لا يخطئ أبدا!».



مـع مـرور مـائة عـام
على كتـاب قـاسم أمـين

السؤال الآن متى يتحرر الجميع.. رجالا ونساء؟!

هـدى الصـدة

■■ فى أغلب المعالجات التى تتناول موضوع المرأة فى المجتمع، أو بعبارة أصح، قضية المرأة فى المجتمع، جرت العادة على تسليط الضوء على ما حققته المرأة فى القرن العشرين من تقدم ملحوظ على جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية. فالافتراض الأساسى الذى تنطلق منه الأغلبية العظمى من المؤرخين والراصدين لهذا الموضوع، هو أن وضع المرأة قد شهد تحسنا جذريا مع قيام الدولة الحديثة التى أسسها محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر. فكما هو معروف، شرع محمد على فى إرسال بعثات تعليمية إلى أوروبا ليتعلم المبعوثون الأسس التى بنيت عليها الدول الغربية الحديثة، فيعودوا إلى مصر ويساهموا فى نهضة المجتمع. ومنذ البدايات الأولى، ظهرت قضية المرأة وتعليمها على قائمة الأولويات فى عملية التحديث.

ومن العلامات المهمة فى هذا الموضوع كتاب الشيخ رفاعة الطهطاوى المرشد الأمين للبنات والبنين (١٨٧٢)، حيث يطرح الشيخ قضية تعليم البنات بإلحاح وقوة. وتستمر قصة تعليم البنات باعتبار التعليم الدعامة الأساسية فى قضية المرأة، وبافتراض أن فرص التعليم لم تكن متاحة للمرأة العربية قبل إنشاء المدارس الحديثة، فإن كتب التاريخ ترصد مسيرة التحديث فى نشر تعليم البنات، وتشير مثلا إلى إنشاء مدرسة المولدات سنة ١٨٣٢، ثم أنشئت فى ١٨٧٣ مدرسة السيوفية، وفى ١٨٧٥ ضمت لها مدرسة أخرى، ثم تحول اسم المدرسة إلى مدرسة السنية فى عام ١٨٨٩. ويستمر هذا الرصد فينتقل إلى تحديد العلامات المهمة فى طريق تحرير المرأة، فنتوقف دائما عند كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»، الذى نشره سنة ١٨٩٩، ثم كتابه «المرأة الجديدة» الصادر سنة ١٩٠٠. ويتطور هذا الرصد إلى تسليط الضوء على إنجازات المرأة فى القرن العشرين، فنتحدث عن أول طبيبة وهى الدكتورة هيلانة سيداروس وأول خريجة من مدرسة حكومية وهى ملك حفنى ناصف، ثم أول مهندسة وأول طالبة فى الجامعة المصرية وأول وزيرة إلى آخر هذه القائمة من الأوائل. يدخل فى هذا السياق أيضا إحصائيات عن انخراط المرأة فى سوق العمل وتزايد أعداد البنات فى الجامعات والمدارس، وحصول النساء على حقوقهن السياسية سنة ١٩٥٦، وتسليط الضوء دائما على فكرة أن التطور إلى الأمام مستمر قدما، وأن ما على النساء إلا متابعة مسيرة الإنجازات فى العمل والتعليم واقتحام المجال العام للتأكيد على وجودهن وحقوقهن.

وفى مقابل خطاب الإنجازات والتقدم المستمر نصطدم بكم مخيف من التناقضات على جميع المستويات. ففى التعليم تفجعنا إحصائيات عن نسب أمية النساء التى تصل إلى ٧٠٪، وعن أعداد هائلة من النساء اللاتى يعانين من ظروف اقتصادية مجحفة، عن قوانين تميز بين الرجل والمرأة، هذا على الرغم من أن الدستور المصرى ينص على المساواة بين الجنسين، مما لا شك فيه أن قدرا كبيرا من الصعوبات التى تواجه النساء فى المجتمعات العربية تواجه الرجال أيضا. فالمجتمع بأسره مازال مهددا بالثالوث غير المقدس، أى الفقر والجهل والمرض، وهو ثالوث يطول جميع أفراد المجتمع. ولكن ومع اعتبار كل هذا، علينا أن ندرك خصوصية وضع النساء فى المجتمع. وحقيقة أن المشكلات التى يعانى منها المجتمع ككل تشتد وطأتها على النساء، ففى مجتمع فقير نجد أن أفقر الفقراء هم النساء، وفى مجتمع يعانى من تفشى الأمية، نجد نسبة الأمية أعلى عند النساء من الرجال. بالإضافة إلى ذلك، فهناك أنواع من الظلم تختص بها النساء دون الرجال، فالوزيرة التى ائتمنتها الدولة والمجتمع على إدارة فرع مهم من شئون الدولة لا تستطيع مثلا أن تسحب أوراق أبنائها لتنقلهم من مدرسة إلى أخرى، ولا تستطيع سحب مصروفات الدراسة، وإن كانت على الأغلب قد دفعتها بنفسها، فهذه الأمور من اختصاصات ولى أمر التلميذ وهى ليست كذلك. والأستاذة الجامعية يستطيع زوجها أن يدرج اسمها فى قائمة الممنوعين من السفر إذا أرادت أن تمثل كليتها فى مؤتمر فى الخارج، وهى تعامل فى المطار معاملة الخارجين على القانون. والأمثلة فى أشكال الظلم الذى تتعرض له النساء فى القرن العشرين كثيرة ومؤلمة، لا يتسع المجال هنا إلى تعيينها كلها، هى مؤلمة لا بسبب الظلم والإجحاف الذى تنم عنه فقط، ولكن لأنها غير منطقية ومتناقضة، وتدل على خلل حقيقى فى بنية القيم فى المجتمع.

فمن أخطر الأمور التى تؤثر بالسلب على قضية المرأة فى مصر، هى تحويل هذه القضية الاجتماعية المصيرية بمعنى الكلمة إلى ورقة سياسية تتنازعها الأطراف المتناحرة المختلفة، بهدف الفوز بجولة سياسية دون اعتبار للمصلحة العامة. وإذا تأملنا المشهد الثقافى والسياسى المعنى بهذا الموضوع، نكتشف عملية استقطاب مخيفة لقضية المرأة فى المجتمع تتم على جميع المستويات. ويكفينا أن نشير كمثال إلى المؤتمر الضخم الذى نظمه المجلس الأعلى للثقافة فى شهر أكتوبر من هذا العام، للاحتفال بمرور مائة عام على صدور كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين عام ١٨٩٩. وكما هو معروف، يعد هذا الكتاب علامة مهمة فى مسيرة المرأة العربية، اختلفنا معه أم اتفقنا. ومن الجدير بالذكر أن المؤتمر لم يتوقف بتاتا عند صيغة الاحتفالية بشخصية أو مطبوع، وإنما اتخذ من هذا الكتاب نقطة انطلاق، أو ذريعة جيدة لدعوة الباحثين والباحثات من مختلف التخصصات والاتجاهات لتوصيف وتقييم حالة المرأة العربية فى نهاية القرن العشرين.

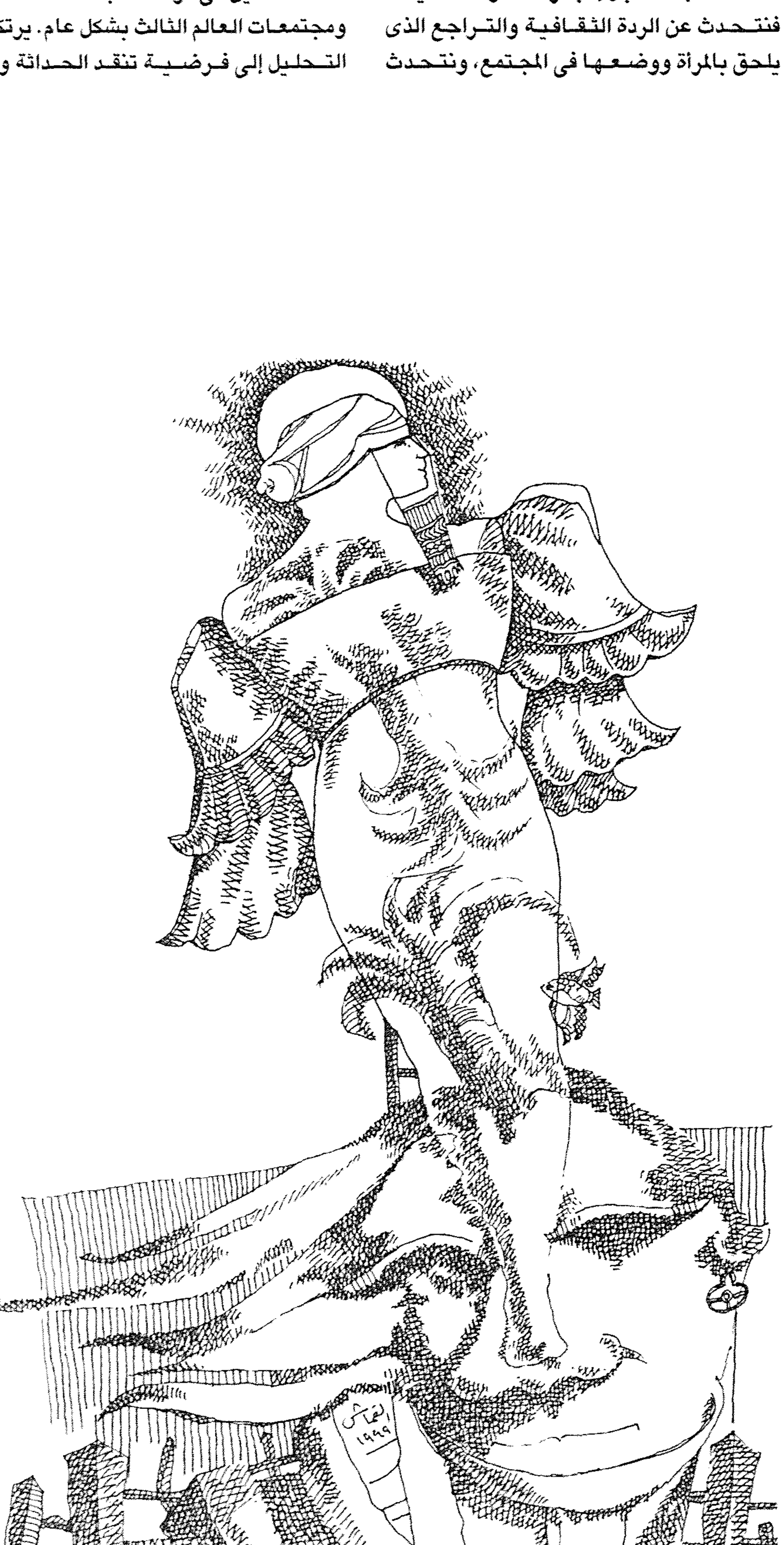
أثبت انعقاد المؤتمر وجود ثراء فكرى وثقافى غزير وفعال فى مجال دراسات المرأة، ظهر جليا فى الأبحاث القيمة التى قدمها

من أخطر الأمور التى تؤثر بالسلب على قضية المرأة فى مصر، تحويل تلك القضية الاجتماعية المصيرية إلى ورقة سياسية تتنازعها الأطراف المتناحرة، بهدف الفوز بجولة سياسية دون اعتبار للمصلحة العامة.

مقابل تصوير المرأة كرمز للوطن، يطلب منها أن تكتفى بالرمز وأن توافق على تأجيل السعى من أجل الحصول على حقوقها فى المجتمع. وكلما تطرح قضية المرأة بجدية، تواجه بأصوات تنادى النساء بعدم تشتيت الجهود للمطالبة بحقوق جميع المواطنين، وكأن حقوق النساء ليست جزءا من حقوق جميع أفراد المجتمع.

مجموعة من الباحثين والباحثات المتميزين. أفصح المؤتمر أيضا عن اتجاهات جديدة ورائدة فى البحث تعيد النظر فى المقولات السائدة المتعلقة بخطاب تحرير المرأة، بل وتعيد النظر فى ما قاله قاسم أمين وغيره من رواد النهضة. فى الوقت نفسه، جسدت بعض جلسات المؤتمر الحالة الثقافية العربية من تشتت واستقطاب إلى الحد الذى يمكن وصف بعض المناقشات التى دارت فى قاعات المؤتمر بـ «حوار الطرشان»: لا أحد يسمع أحدا، ويأتى البعض لتسجيل مواقف مسبقة لا للاستماع والمناقشة، تبادل الاتهامات الجزافية، ثم الاتجاه لرفض الرأى الآخر برمته، بل الأحرى أن نقول اغتيال الرأى الآخر. فمثلا فى جلسة تعرض فيها أوراق تناقش موضوعات أدبية أو اجتماعية أو رأيا أو اتجاها، يقف أحد الحاضرين ويلقى على الجمهور خطبة حماسية عن حقوق المرأة فى الإسلام، وكيف أن الإسلام أعطى المرأة جميع حقوقها من قرون مضت، هذا على الرغم من أن الأوراق المقدمة فى هذه الجلسة بالتحديد لم تتطرق لموضوعات دينية من قريب أو بعيد، ولكن يطفو على السطح الافتراض المنحاز أن كل من تنطق بقضية المرأة لابد أنها تفعل شيئا ضد الدين، وتضيع الفرصة على الحاضرين والحاضرات لمناقشة الأفكار الرئيسية التى ترد فى الأوراق المقدمة. فى المقابل، تلقى باحثة ترتدى حجابا بحثا ممتازا تقوم فيه بتحليل خطاب بعض المفكرين فى تناولهم لموضوع المرأة، فيهب أحد الحاضرين ويعلق على كلامها ويشكك فى إمكانية الوصول إلى تحليلات حقيقية إذا ما وضعنا لأنفسنا حدودا مسبقة تمنعنا من التفكير الحر المستقل، وهو بتعليقه هذا كان يخاطب حجاب الباحثة مفترضا أنها غير قادرة على تقديم تحليل جيد، لأنها ارتضت ارتداء الحجاب، وهو بهذا يمثل الطرف الآخر المنحاز ضد قضايا المرأة. هذا عن بعض الجلسات، أما التغطية الإعلامية فهى تحتاج إلى وقفة طويلة ومتأنية لا مجال لها الآن، ولكن نظرة سريعة تكشف لنا الآتى (باستثناء بعض المقالات الجيدة والموضوعية بطبيعة الحال): قدر عال من التشويق والإثارة فى تناول المادة المقدمة، بحيث ينتفى الهدف من توصيل المعلومات أو النقد الموضوعى، الاستقطاب التام فى تناول المؤتمر، فجميع التيارات السياسية تنتهز الفرصة لتسديد ضربات لمعارضيها من التيارات الأخرى، توجيه اللوم للنساء لفشلهن فى فهم معنى الحرية الذى يفهمه بالطبع كاتب المقالة أفضل من غيره، ولكنه لا يكلف نفسه عناء توضيح فكرته، والتركيز على السلبيات وتجاهل الإيجابيات، ومشكلات أخرى كثيرة.

ينحو بعض المحللين للواقع الثقافى العربى نحو تبرير ما نلمسه من تردٍ على جميع المستويات على أنه تراجع لمسيرة التحديث التى خاضتها الأمة العربية منذ بدايات هذا القرن، فيشيرون إلى الحداثة المنقوصة أو المشوهة التى حاقت بالمجتمعات العربية، وإذا اتفقنا أن الحداثة فى الأساس هى عملية قطيعة معرفية بين الماضى والحاضر، فنستنتج أن عملية القطع لم تكن حاسمة بالقدر الكافى، بل كانت متهاونة مع قوى الماضى، بحيث سمحت لها بالعودة مرة أخرى فى شكل جماعات محافظة تهدد سجل إنجازات الدولة الحديثة، فنتحدث عن الردة الثقافية والتراجع الذى يلحق بالمرأة ووضعها فى المجتمع، ونتحدث عن أهمية المواجهة والصراع بين قوى الماضى وقوى الحاضر لحسم الصراع الجارى لأكثر من مائة عام. فى السطور القليلة القادمة سوف أحاول تقديم تحليل آخر للمشكلات التى تحيط بقضية المرأة فى المجتمع العربى، وهو تحليل يعكس اتجاهات فى البحث ظهرت بوضوح فى العقد الماضى فى دراسات باحثين وباحثات متخصصين فى دراسة المجتمعات العربية ومجتمعات العالم الثالث بشكل عام. يرتكز هذا التحليل إلى فرضية تنقد الحداثة وتفكك الأسس التى تبنى عليها بهدف إيجاد صيغة أخرى ومختلفة لصياغة المستقبل.



أبحث عن جذور المشكلة فى بدايات طرح مسألة المرأة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. فمن الناحية التاريخية، تزامن طرح قضية المرأة مع قضية تحديث المجتمع فى عصر محمد على، ونشأت علاقة وثيقة بين تحسين وضع المرأة والنهوض بالوطن، بل كتب الكثيرون عن العلاقة بين تحرر المرأة والتحرر من الاستعمار. وكان السؤال: كيف نبنى مجتمعا مصريا حديثا يأخذ بسبل التقدم ويتخلى عن مظاهر الجهل والتخلف؟ وارتبط مفهوم المجتمع الحديث بشكل المجتمعات الغربية الموجودة فى ذلك الوقت، واستمر هذا المفهوم ليحمل فى طياته الكثير جدا من معطيات وتجليات تلك المجتمعات، يمكن تحديدها على هذا النحو المبدئى: تبنى النموذج الغربى للتقدم وتنمية المجتمعات، الإيمان بالتطور الخطى للحضارة، بحيث نقرأ التاريخ باعتباره رحلة الإنسان للخروج من الظلام إلى نور المعرفة والحضارة، افتراض أن المجتمعات غير الغربية متخلفة عن المجتمعات الغربية؛ لأنها مازالت تمر بمراحل أولية من التطور، تبنى منظومة فكرية تشجع على خلق تضاد ثنائى بين الغرب والشرق، الحداثة والتراث، وبين الأنا والآخر بحيث يحافظ الغرب على تمييزه واختلافه وتفوقه على المجتمعات الأخرى.

ولقد بين نقاد الحداثة ونقاد ما بعد الاستعمار ارتباط مفهوم الحداثة والمجتمع الحديث بالتوسع الاستعمارى الذى بلغ ذروته فى القرن التاسع عشر، حيث كان على المجتمعات الغربية الاستعمارية اللجوء إلى خلق كيان آخر يتناقض ويتصارع مع الذات الغربية، وذلك بهدف تعزيز مكانة الذات وتحديد ملامحها ودعم قوتها[١]. بالإضافة إلى ذلك، لا ننسى الدور الذى لعبه بعض منظرى الاستعمار فى مصر وبلدان أخرى فى الربط بين «مظاهر تخلف» المرأة الشرقية وبين تخلف المجتمعات الغربية، وأصبحت المرأة الشرقية فى هذا الخطاب هى ضحية مجتمعات «متخلفة» تمنع أفرادها من ممارسة أبسط حقوقهم الطبيعية، كما أصبح وضعها دليلا على عدم قدرة تلك المجتمعات على حكم نفسها، ومن ثم تصبح فى حاجة إلى توجيه وإرشاد من قبل أبناء المجتمعات المتقدمة، الغربية بطبيعة الحال. وقد قام عدد كبير من الباحثين والباحثات بتفكيك هذا الخطاب الاستعمارى، فبينت روزمارى صايغ آليات تحول هذا الخطاب إلى «عصا لتأديب المجتمعات العربية»[٢]. كما كتبت ليلى أحمد عن الدور الذى لعبه اللورد كرومر فى تسليط الضوء على حجاب المرأة الشرقية، وتحويله إلى رمز لقهر

تزامــــن طـــرح قضيـــة المـــرأة مـــع قضيـــة تحـــديث المجتمــع فـى عصــر محمـــد علـى، ونشـــأت علاقـــة وثيقـــة بين تحســـين وضـــع المـــرأة والنهـــوض بالوطـــن، بـل كتـــب كثيـــرون عـــن العــــلاقة بيـــن تحـــريـــر المـــرأة والتحـــرر مـــن الاســـتعمـــار

المجتمعات الإسلامية لنسائها، وكيف قدم نفسه باعتباره نصير المرأة المقهورة في الشرق في الوقت الذي كان عضوا في جمعية كرست جهودها لمحاربة المجموعات النسائية التي كانت تسعى إلى تحسين وضع المرأة في إنجلترا[٣].

ولقد تبنى رواد الإصلاح الأوائل المنتمون لجميع التيارات الفكرية الممثلة في ذلك الوقت (ليبرالية كانت أو إسلامية) الافتراضات الأولية للحداثة، أى أنهم تشربوا فكرة التفوق الثقافي الغربي، وتبنوا مفهوما للتطور يرى التقدم يسير في خط مستقيم وصل فيه الغرب إلى أرقى المستويات، بينما تحاول المجتمعات الأخرى اللحاق به، كما قبلوا المنظومة الثنائية التي تضع الحداثة في مواجهة التراث. وعلى هذا الأساس نرى وفقا لقواعد هذه المنظومة تيارات فكرية تبرز وتختلف رغم اتفاقها على المنطلقات الأساسية. بعبارة أخرى، برز في أوائل القرن خطاب إصلاحي تنويري قومي، رأى أن يحاكي المجتمعات الغربية الحديثة ويأخذ بظواهرها، مع مراعاة اعتبارات خاصة بالهوية والخصوصية الثقافية، كما برز تيار آخر محافظ ديني، يرفض النموذج الغربي ويمجد القيم التقليدية الموجودة في المجتمع، باعتبارها قيمًا تراثية وجب التمسك بها في مواجهة الهجمة التحديثية السائدة. ومن الملاحظ أن كلا الطرفين قبلا ورضيا بالتعارض الحتمي بين التراث والحداثة، وانحصر الخلاف في مواقف الرفض أو القبول.

كان من آثار هذا الربط بين وضع المرأة وتخلف أو تقدم المجتمع في القرن العشرين وتشابك قضيتها مع ثنائية الحداثة والمعاصرة، أن اهتم معظم الرواد والمصلحين بالتفكير في حال المرأة، الأمر الذي أدى مما لا شك فيه، إلى بعض الإيجابيات في مجالات التعليم والصحة والعمل ومجالات أخرى. إلا أنه في الوقت نفسه، ترتب على هذا الاشتباك سلبيات لم يلتفت إليها جيدا، تفاقمت ومازلنا نعاني منها إلى يومنا هذا. أولا: ظهرت نبرة أو تجاه يلوم النساء ويحملهن ذنب تخلف المجتمع، ومن ثم عبء النهوض به. فإلى جانب المقالات والكتب المهمة التي تطرقت إلى تشخيص المشكلات وتحديد طرق الإصلاح، جاءت أيضا مقالات لا حصر لها لتوبيخ النساء لكسلهن أو جهلهن أو مظهرهن غير اللائق مقارنة بأزواجهن. فالأم الجاهلة لا تصلح لتربية أولادها وتفشل في التواصل مع زوجها وفي الحصول على احترامه، والعادات التقليدية التي تتمسك بها النساء أغلبها مضر ومضلل، والمظهر الخارجي لهن غير لائق ومناف للذوق الرفيع. واعتبر «تخلف» النساء السبب الرئيسي وراء فشل الزيجات وكثير من الأمراض الاجتماعية المتفشية في المجتمع.

وعموما حملت النساء مسئولية تخلف وتطور المجتمع، فتقول ملك حفني ناصف في هذا الصدد: «قطع رجال الإصلاح في مصر شوطا بعيدا للتنقيب عما يجعل الأمة المصرية في مصاف الأمم الراقية، فلم يظفروا بضالتهم، وبعد لأى ألقوا الذنب في تأخير الأمة المصرية على المرأة المسكينة، وقالوا: لو كانت المرأة المصرية راقية لأخرجت للعالم أبناء ناشطين، وأزواجا حكماء، وأسرا منظمة، ووقفوا عند هذا الحد ينتظرون ما يقضيه لهم الدهر من ارتفاع شأن المرأة ورقيها، ويهيئه لهم الاتفاق لصالحها. كأن المرأة تلهم الإصلاح إلهاما ولا تتعلمه تعليما، ثم تقول لهم بما عجزوا عنه»[٤].

ثانيا، أفصح التيار القومي الذي ربط بين نهضة المرأة ونهضة المجتمع عن ازدواجية في تحديد الدور المنوط بالمرأة في المجتمع الحديث. فبالقدر الذي كان يحث المرأة على تحسين حالها وإثبات وجودها في المجال العام أسوة بالمرأة الغربية – نموذج المرأة العصرية المتحضرة – تحولت المرأة في هذا الخطاب إلى رمز للخصوصية الثقافية العربية بمعنى أنها حملت عبء مشكلات الهوية «المهددة»، من وجهة نظر منظري الإصلاح، وعبء الحفاظ عليها في آن. ففي المجتمعات العربية، ومجتمعات العالم الثالث التي عانت من نير الاستعمار بوجه عام، اختلفت العلاقة المفترضة بين المرأة والمجتمع الحديث عن العلاقة المفترضة بين الرجل والمجتمع الحديث، وكان المطلوب من المرأة أن تجمع بين المعاصرة والتقليدية، بين أدوارها «الجديدة» في ظل الدولة الحديثة وبين أدوارها «التقليدية». ويقدم الناقد الهندي بارثا تشاترجي تحليلا لهذه المفارقة في إطار خطاب القوميات المناهضة للاستعمار. فمن خصائص هذه القوميات أنها قسمت العالم إلى مجالين: المادي والروحاني. يشمل المجال المادي المحيط العام بكل ما يتضمنه من اقتصاد وشئون الدولة والعلم، وهو مجال أثبت الغرب فيه تفوقه، وحدد معالمه وخصائصه، وعلى من يرغب الدخول فيه أن يحذو حذوه. أما المجال الروحاني، فهو مرتبط بالمحيط الخاص ويحتوي على المعالم الجوهرية للهوية الثقافية. ويقع مركز هذا المجال في البيت وتجسده المرأة.

يصف تشاترجي هذا الوضع بأنه مبني على أساس «انتقائي أيديولوجي». هذا الانتقاء يؤدي إلى تطبيق معايير متناقضة في التعامل مع المنتج الغربي أو المنتج القادم من جهة مستعمر الأمس. ووفقا لقواعد ومعايير هذا الخطاب، يستطيع مجتمع الرجال استيراد التكنولوجيا والعلم وركوب السيارات والطائرات والتحاور مع النظريات الحديثة في الاقتصاد والسياسة والفلسفة وتطبيقها. ولكن في المجال الخاص، المخصص للنساء، تختلف المعايير والقواعد، وتصبح النساء مكبلات بمفاهيم جامدة عن الهوية والخصوصية الثقافية، مفاهيم تطبق عليهن فقط ولاتشمل جميع أفراد المجتمع.

نلمس آثار هذه القسمة الأيديولوجية الانتقائية في التعديلات التشريعية التي أتت بها ثورة ٢٣ يوليو في سنة ١٩٥٦ ثم ١٩٥٩ حيث حصلت المرأة على حقوق سياسية وحقوق في العمل وتم الإبقاء على قوانين الأحوال الشخصية ومن ثم تكريس علاقات قوة غير متوازنة داخل محيط الأسرة نلمسها أيضا في الارتباك الحاصل في الخطاب الموجه للمرأة الآن في نهاية القرن العشرين. فهي من ناحية مطالبة بالعودة إلى المنزل والتخلي عن عملها في المجال العام المدفوع الأجر بافتراض أن خروجها للعمل أدى إلى كوارث أسرية ومجتمعية، ومن ناحية أخرى، تحث على المشاركة في جهود تنمية المجتمع في ظل ظروف اقتصادية طاحنة لاتسمح بأي حال من الأحوال لأحد برفاهية تناول موضوع العمل باعتباره ترفا أومجهودا إضافيا تقوم به حفنة من النساء منافسات الرجال في قوتهم ورزقهم. وفي كلتا الحالتين، يستخدم خطاب أخلاقي لتبرير هذه التناقضات ويرفع لواء الخصوصية الثقافية في وجه أي محاولات يقوم بها نساء أو رجال للتصدي لهذه الازدواجية المتعسفة.

وفي نفس الاتجاه كتب باحثون وباحثات عن الالتباس المضمر في خطابات القوميات في العالم الثالث في تناولها لمسألة المرأة. ففي مقابل تصوير المرأة كرمز للوطن، يطلب منها أن تكتفي بالرمز وأن توافق على تأجيل السعي من أجل الحصول على حقوقها في المجتمع استنادا إلى منطق الأولويات. فكلما تطرح قضية المرأة بجدية، تواجه بأصوات تنادي النساء بعدم تشتيت الجهود والانضمام إلى صفوف الرجال المنادين بحقوق جميع المواطنين، وكأن حقوق النساء ليست جزءا من حقوق جميع أفراد المجتمع. ولقد أثبتت التجربة التاريخية في بلدان العالم الثالث على وجه الخصوص أن استدعاء منطق الأولويات يستخدم دائما لإجهاض حركات تحرير المرأة، ويكفينا أن نشير إلى تجارب نساء كثيرات في مصر والجزائر والهند، اقتنعن في بدء الأمر بمنطق الأولويات، ورضين تأجيل النظر في أوضاع المرأة في مجتمعاتهم، إلى أن جاءت لحظة الوفاء بالوعود واكتشفن أن رفاق الأمس نسوا أو تناسوا قضيتهن وامتنعوا عن مساندتهن في زعزعة البنية البطريركية في المجتمع.

حاولت فيما تقدم تفسير كيف أصبحت قضية المرأة ورقة سياسية في يد التيارات المتصارعة مشيرة إلى جذور الأزمة في خطاب الرواد، وركزت على جانب واحد في هذا الموضوع ولم أتطرق بطبيعة الحال إلى رصد شامل لجميع عناصره. فكما بينت، يصاحب طرح القضية استدعاء انتماءاتنا الفكرية والسياسية ومواقفنا من علاقاتنا المعقدة مع الآخر الغربي ورؤيتنا لسبل الخروج من الأزمة الراهنة. ما زلنا ندور في فلك ثنائية الأصالة والمعاصرة وما زلنا نتبنى معظم المنطلقات الفكرية للحداثة التي تكرس لتلك الثنائية. إلا أن السنوات الماضية قد شهدت نشاطا ملحوظا في الأوساط البحثية يتناول نظريات التحديث والمنطلقات الفكرية للحداثة بالنقد والتحليل. وقد أشرت فيما سبق إلى الاتجاهات البحثية التي سلطت الضوء على العلاقة بين التوسع الاستعماري وبلورة مفهوم الحداثة باعتباره قطيعة معرفية بين الماضي والحاضر. توجد اتجاهات بحثية أخرى تتصدى لمنطلقات الحداثة بشكل عام وتطبيقها في المجتمعات العربية بشكل خاص.

فمثلا، نعيد النظر في ثنائية العام والخاص فيما يخص دور المرأة، فنجد اتجاهات بحثية تعيد تقييم الافتراض السائد بأن مكان المرأة الأساسي هو داخل محيط الأسرة مبينة أن هذا الفصل المتعنت بين العام والخاص إنما هو فصل حداثي جاء مع تأسيس الدول الحديثة ومع تعريف العمل باعتباره العمل المأجور، وتستكشف هذه الأبحاث أحوال النساء في عصور ماضية لتكتشف مرونة الحدود بين العام والخاص، بل واختفاء تلك الحدود كلية في بعض الأحيان، وقد كان من نتائج هذا الفصل المتعسف أن يستبعد عمل النساء الفلاحات مثلا في الحقل والمنزل من الإحصائيات الرسمية عن عمل المرأة، هذا على الرغم من انتفاء هذه القسمة (العام والخاص) في حياة الريفيات مثلا.

نعيد النظر في الافتراض القائل بأن التشريعات القانونية التي جاءت بها الدولة الحديثة أدت إلى تحسين وضع المرأة القانوني في المجتمع. فتستهل أميرة سنبل كتابها «المرأة والأسرة وقوانين الطلاق في التاريخ الإسلامي» بعقد مقارنة بين قضيتي طلاق نظرت في المحاكم الشرعية في مصر. في القضية الأولى، تحصل امرأة على الطلاق في الحال مع الاحتفاظ بمؤخر الصداق المتفق عليه وذلك لأن زوجها تزوج زوجته الأولى مرة أخرى وحنث وعده بألا يفعل ذلك. فما كان عليها إلا إثبات ما عاهدها عليه فمنحها القاضي الطلاق، وكان هذا سنة ١٨٥٧.

أما القضية الثانية، فقد تقدمت فيها امرأة بطلب الطلاق للضرر، وأثبتت تعرضها للضرب والإهانة وتنازلت عن حقوقها المالية، أي طلبت الخلع، ولم تمنحها المحكمة الطلاق بل واستجابت لطلب الزوج بإرغام الزوجة على دفع تعويض مالي، إلى جانب تنازلها عن حقوقها، مقابل الطلاق. كان هذا سنة ١٩٨٤.

يعبر هذا الكتاب عن اتجاهات جديدة في البحث تناقش الافتراضات الحداثية السائدة عن تحسن وضع النساء في ظل المجتمعات الحديثة ومن ثم تتصدى أيضا إلى ما يحدث من تبرير معظم مشاكلنا باعتبارها بقايا العهد القديم، أو بصمات غائرة من العرف والتقاليد العتيدة. في دراسة أخرى في نفس الاتجاه، تقوم نيللي حنا بكتابة تاريخ اجتماعي لأسرة شهبندر التجار إسماعيل أبو طاقية وتدحض

لقد أثبتت التجربة التاريخية فى بلدان العالم الثالث أن استدعاء منطق الأولويات يستخدم دائما لإجهاض حركات تحرير المرأة، ويكفينا أن نشير إلى تجارب نساء كثيرات فى مصر والجزائر والهند اقتنعن بمنطق الأولويات ورضين تأجيل النظر فى أوضاع المرأة، ثم اكتشفن أن رفاق الأمس نسوا أو تناسوا قضيتهن.

افتراء خضوع النساء للسلطة المطلقة لرب الأسرة أو الحاكم فى العصر العثمانى. أما عفاف لطفى السيد فتدرس أحوال النساء فى مصر فى القرن الثامن عشر وتنتهى إلى أن النساء كن يتمتعن بحرية حركة أكبر فى ظل الدولة غير المركزية، وتتقلص مساحة الحركة مع تأسيس الدولة الحديثة والاتجاه نحو مزيد من المركزية.

أسارع بالقول أن اتجاهات نقد الحداثة لاتعنى أن الماضى أفضل من الحاضر وأن علينا احتضان التراث القديم لكى نتقدم. فجميع الأبحاث التى أشرت إليها لاتهدف بتاتا إلى التشكيك فى الأشياء الإيجابية التى حلت بالمجتمعات فى العصر الحديث ولاتسعى إلى التخلى عن المكتسبات فى مجالات الحرية والحقوق. ولكن ، الهدف من نقد الحداثة هو إعادة النظر فى الثنائيات المتضادة التى أسستها الحداثة فى فكرنا إلى أن أصبحت هذه الثنائيات جزءا من نسيجنا القومى الذى لا نناقشه ونقبله دون تردد. هذه الثنائيات تنبع من مبدأ القطيعة وتفترض الصراع الدائم بين أقطابها المتنافرة : الماضى / الحاضر، التراث / المعاصرة، الشرق / الغرب، العام / الخاص إلى آخر تلك القائمة .

كلمة أخيرة، فبعد انتهائى من كتابة هذه المقالة، قرأت لهشام شرابى فى الحياة (الأربعاء ١٠ نوفمبر١٩٩٩) مقالة عنوانها «المثقفون العرب وإشكالية التغيير الاجتماعى» يتحدث فيها عن أهمية «تسييس قضية المرأة» إذا كان المثقف العربى جادا فى مساعى التغيير الاجتماعى وتحقيق «الحداثة الحقيقية» . وإذا اتفقنا أن قضية المرأة قضية سياسية منذ البداية، فأعتقد أن مايعنيه هشام شرابى هو حث المثقف العربى على وضع القضية على قائمة الأولويات الثقافية والسياسية والاجتماعية، وأضيف، حثه على التعامل معها باعتبارها قضية مصيرية لا ورقة سياسية ، وفى هذا الأمر أتفق معه تماما.

أما عن السعى نحو تحقيق «الحداثة الحقيقية» ، فلقد كان الهدف من مقالتى هو تفكيك هذه المقولة الشائعة فى الأوساط الثقافية العربية، وبيان أثرها على أسلوب تناولنا لقضية المرأة. فالاستقطاب المستشرى فى الوسط الثقافى العربى مصدره فكرة القطيعة المعرفية، وهذا حداثى. وثنائية العام والخاص، العمل خارج المنزل وداخله، وتقسيم الأدوار الاجتماعية وفقا لهذه الثنائية، أيضا حداثى. سواء فى تبجيل المنزل ووصفه بمملكة المرأة وتنصيب الأم الملكة المتوجة التى تحظى بكل احترام وتقدير إذا التزمت بحدود مملكتها، وفى المقابل تواجه بالنقد واتهامات بالتقصير والفردية إذا ما جرؤت على القيام بدور فى كلا المجالين، ظاهرة حداثية وليست تقليدية. هذا الإصرار على البحث عن «حداثة حقيقية» هو الوجه الآخر من البحث عن «أصالة حقيقية» والبحثان يرتضيان قبول الأطر المسبقة، والنماذج المصاغة فى فترات تاريخية مختلفة ووفقا لظروف أخرى ، فهل نأمل مع قدوم ألفية جديدة فى إعادة النظر من هذه الأطر المعرفية لكى نتحرر جميعا، رجالا ونساء.

الهوامش

(١) انظر:

Ali Rattansi, "Western Racisms, Ethnicities and Identities in a Postmodern Frame" in Racism, Modernity and Identity on the Western Front, ed. Ratansi and Sallie Westwood, Cambridge, Polity Press, 1994.

(٢) انظر:

Rosemary Sayigh, "Roles and Functions of Arab Women: A Reappraisal," in Arab Studies Quarterly III,3 (Autumn, 1981).

(٣) انظر ليلى أحمد، المرأة والجنوسة فى الإسلام: الجذور التاريخية لقضية جدلية حديثة، (١٩٩٢) ترجمة منى إبراهيم وهالة كمال، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٩٩.

(٤) آثار باحثة البادية (ملك حفنى ناصف ١٨٨٦ - ١٩١٨) جمع وتبويب مجد الدين حفنى ناصف، تقديم الدكتورة سهير القلماوى، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٢، ص ١١٤.

00

أربعـة.. ثلاثة.. اثنان.. و...

كابوس الصفرين آخر قنابل القرن!!!

جيـــمس فـــالوز

[١]

تعود مشكلة عام ٢٠٠٠ المتصلة بالكمبيوتر إلى الخمسينيات والستينيات، عندما قرر المبرمجون استخدام خانتين رقميتين لتمثيل العام بدلا من أربع. فتاريخ إطلاق أبوللو الثانية إلى القمر، على سبيل المثال، جرى تسجيله على برامج وكالة الفضاء الامريكية على النحو التالى: ٦٩/٠٧/١٦، بدلا من ١٩٦٩/٠٧/١٦. وكان من الواضح أن المبرمجين فى حاجة إلى الاحتفاظ بخانتين رقميتين لكل من اليوم والشهر - أى ٠٧ بدلا من ٧ فقط للدلالة على شهر يوليو. لكن كل الأسباب كانت تدفع - على مايبدو - إلى الاقتصاد فى خانة السنة.

وكان أحد هذه الأسباب هو ارتفاع ثمن ذاكرة الكمبيوتر آنذاك. فالذاكرة العشوائية RAM، وهى الواسطة التى يستخدمها الكمبيوتر فى تخزين التعليمات والبيانات للبرامج النشطة، كانت تكلفة الوحدة منها، فى الستينيات، مليون ضعف تكلفتها اليوم تقريبا. ويؤكد أحد الاقتصاديين على أنه حتى لو كان من الممكن التنبؤ بكل مشكلات البرمجة التى نعانى منها مع نهاية القرن، فإن اختيار خانتين رقميتين فى الخمسينيات كان سيظل اختيارا متعقلا بسبب ما كان يوفره فى كلفة الذاكرة فى ذلك الحين. لكن كانت هناك أيضا اعتبارات مهمة أقل عقلانية تتصل بالعادة والملاءمة. فقبل عصر أجهزة الكمبيوتر طراز UNIVAC، كانت الوكالات الحكومية والشركات تحفظ المعلومات فى آلات جدولة بواسطة بطاقات التثقيب. وكانت البطاقة تسع ٨٠ عمودا فقط من البيانات، والثقب فى كل عمود يشير إلى حرف أو رقم، وهكذا كان من المعقول حصر العام فى عمودين بدلا من أربعة. وكان كل ما فعله المبرمجون الأوائل هو مواصلة السير على هذه القاعدة. كما أن اختصارا كهذا كان يتناسب مع الطريقة التى عادة ما يتكلم بها الناس ويفكرون. فهم يتكلمون عن صخب العشرينات، وشذوذ التسعينيات، وروح السادسة والسبعين، ولا يزعجون أنفسهم بالقرن.

وحيث إن قاعدة الخانتين الرقميتين قد استقرت، كان من الطبيعى أن تستمر، حتى ولو على حساب الذاكرة. والصداع الأكبر لصناعة الكمبيوتر هو «التوافق الارتجاعى» backwards compatibility، أو التعامل مع «شفرة الميراث» legacy code. فقد يكون من الأيسر على الشركات تقديم حواسب أكثر سرعة، وبرامج أكثر كفاءة، تفوق ما قدمت حتى الآن، إذا لم تنشغل بتوافق كل الأجهزة والبرامج الموجودة بالفعل. إن إضافة «١٩» إلى بداية كل عام مسألة بسيطة بالنسبة لبرامج الكتابة، على سبيل المثال، حيث إن تغييرا فى مذكرة واحدة لايؤثر بالضرورة على قدرتنا على فهم ما بعدها. أما بالنسبة لبرامج قواعد البيانات، كتلك المستخدمة فى جداول المرتبات أو حجز تذاكر الطائرات، فإن حجم البيانات فى كل من هذين المجالين - عدد الفراغات المخصصة لتخزين كل اسم، أوالتاريخ، أو أى نوع آخر من المعلومات - جزء من البنية الأساسية للبرنامج. وتغيير المجال من خانتين رقميتين إلى أربع يمكن أن يكون مسئولية كبيرة، يترتب عليها آثار عدة على البرامج وقواعد البيانات التى يجب أن تتغير بدورها بحيث تظل متوافقة معها. والمبرمجون الذين كان باستطاعتهم العمل يدويا، بصورة أو بأخرى، مثل مبتكرى الماكنتوش فى أوائل الثمانينيات، استطاعوا أن يؤسسوا للتاريخ ذى الخانات الأربع الرقمية منذ البداية (على الرغم من أن هذا لا ينطبق على الجميع؛ فبسبب التعود عادت التواريخ ذات الخانتين الرقميتين إلى جيل البرامج الجديدة الذى وسم التسعينيات). لكن إذا كان هناك شركة تنسجم أعمالها مع التاريخ ذى الخانتين فلا مبرر هنالك للعبث فى برامجها لحين اقتراب القرن الجديد.

ومع اقتراب ذلك الوقت، كان على المبرمجين أن يتأهبوا لمواجهة مجموعة من الصعوبات التى تشكل مجتمعة «مشكلة العام ٢٠٠٠» (Y2K) أو «آفة القرن». وبعض الوظائف ذات التقنية الكمبيوترية العالية ليست حساسة لمسألة التاريخ، وبهذا يمكنها الانتقال إلى القرن القادم دون تعديل. فمنتجات مثل مسجلات الفيديو كاسيت VCR، والمنبهات، وماكينات القهوة الأوتوماتيكية، وغيرها من الآلات الصغيرة تعمل بواسطة شرائح كمبيوترية، لكن ليس من وظائفها ضبط الوقت أو التاريخ الحقيقى. وهذا مايجعلها غالبا تصدر ومضات تشير إلى «١٢:٠٠»، ولا تتأثر بحلول الأول من يناير. والسيارات الحديثة تحتوى على المئات من شرائح الكمبيوتر التى تتحكم فى الموتور والفرامل وتتولى حساب موعد إجراء الصيانة. لكنها دائما ما تحسب الوقت عن طريق عد الأيام أو الساعات التى تدور فيها السيارة، لا بالاعتماد على تقويم مطلق. فهى تعرف كيف تصدر إشارة «حان موعد الصيانة» عندما يصل عداد المسافات إلى ٣٠ ألف ميل، لكنها لا تعرف بصورة عامة متى يبدأ العام الجديد. وينطبق الشئ نفسه حتى على أكثر الطائرات تقدما، التى تعج بشرائح الكمبيوتر، لكن أنظمتها تحتفظ بتسلسل وقت التشغيل المتراكم بعيدا عن الساعة الحقيقية أو اليوم أو الشهر أو العام.

والبرامج المتصلة بتقويم مطلق يمكن أن تصادف المشكلات عند قيامها بعملية مقارنة فى العام التالى. فمقارنة قيمة بأخرى والقيام - من ثم - بتصرفات مختلفة تعتمد على أى القيمتين أكبر، هو أحد العناصر الأساسية فى أى برنامج كمبيوتر. وإجراء مقارنات خلال العام القادم لن يكون سليما فى أى برنامج يستخدم الخانتين، لأن أحداث ذلك العام - عام ٠٠ - سوف تبدو وكأنها خاصة بالعام السابق على هذا العام .. عام ٩٩.

وسوف يقود هذا، فى الغالب الأعم، إلى نتائج لا معنى لها، يعجز البرنامج عن تفسيرها. وعلى سبيل المثال، فعند حساب ما إذا كانت بطاقة الائتمان لا تزال سارية، أو حلول موعد قرض البنك، فإن الكمبيوتر يقوم بطرح تاريخ الإصدار من التاريخ الحالى ليعرف كم عاما مضت. فإذا ما طرحنا تاريخ الإصدار فى العام ٩٥ من التاريخ الأخير فى عام ٠٠ لحساب الزمن المنقضى، فستكون النتيجة بالناقص (- ٩٥ عاما). وبالاستناد إلى الكيفية التى كتب بها البرنامج، فإن القيمة الناقصة للزمن المنصرم إما أن تؤدى إلى سلسلة من النتائج الخاطئة أو توقف البرنامج. وفى أى من الحالتين فإن الكمبيوتر لن ينجز مايريده المستخدم. وهناك أنواع لاحصر لها من الطرق التى يمكن عن طريقها للعام ذى الخانتين الرقميتين أن يوقف البرامج أو يجعلها تقدم بيانات خاطئة، وكلها ناجمة عن ظهور وقائع المستقبل وكأنها حدثت فى الماضى.

وتعد حسابات السنوات الكبيسة أحد التعقيدات ذات الخصوصية التى تزيد من مشكلة العام ٢٠٠٠. فالسنوات التى تقبل القسمة على أربع هى، بالطبع، سنوات كبيسة. ومن المثير للدهشة أن السنوات التى تقبل القسمة على ١٠٠ ليست بالضرورة سنوات كبيسة - فالأعوام ١٨٠٠ و١٩٠٠ عدد أيام كل منها ٣٦٥ يوما. (وهذا ضرورى للتوفيق بين التقويم الجريجورى الحديث وبين التوقيت الفعلى لدورة الأرض السنوية حول الشمس.) لكن السنوات التى تقبل القسمة على ٤٠٠ هى سنوات كبيسة. ومن هنا فإن العام ٢٠٠٠، الذى يقبل القسمة على ٤٠٠ ستكون عدد أيامه ٣٦٦ يوما. وإذا ما قرأ الكمبيوتر ٢٠٠٠ باعتبارها «٠٠»، مفترضا أنها ١٩٠٠، فسوف يحسب تلك السنة باعتبارها ٣٦٥ يوما، ومن ثم يرفض قبول ٢٩ فبراير التالى أو ٣١ ديسمبر (اليوم السادس والستين بعد الثلاثمائة من العام ٢٠٠٠) كقيم صحيحة.

وبناء على هذا فإن حل مشكلة العام ٢٠٠٠ واضح: التوصل إلى كل مجالات التاريخ ذى الخانتين، وتحويلها إلى أربع خانات، وإدخال «١٩» أو «٢٠»، بصورة ملائمة. ومن الوجهة العملية، فإن هذا قرار ضخم ومضجر، لأن

Y2K: The Millennium Bug

(مشكلة الكمبيوتر عام ألفين.. جرثومة الألفية الثالثة)

Don L. Tiggre
Xlibris Press, 360pp, 1999,$25

مجالات التاريخ يمكن أن تكون مطمورة بطرق غامضة شتى فى أنواع من البرامج لا حصر لها. وقد نشرت كل شركات صناعة البرامج الكبرى تقريبا معلومات عن جهودها فى كيفية إصلاح مشكلة العام ٢٠٠٠. ونظرة على هذا تعطى فكرة عن مدى ضخامة المهمة.

وإضافة إلى جهود تنقية البرامج نفسها، حيث ضيق الوقت هو العقبة الرئيسية، هناك استحالة تقرير عدد الشرائح المطمورة والمشفرة بطريقة تسبب مشكلة العام القادم، فى وقت قصير. فعلى اتساع العالم، هناك حوالى ٥٠ بليون من الشرائح الدقيقة تدخل فى بنية الأجهزة الطبية، وأجهزة التحكم فى المنشآت الصناعية، ومعدات النقل والملاحة، وأنظمة التدفئة والتبريد، وكل ما يعزز الحياة الحديثة. وهناك قسم ضئيل ـ يقدر بحوالى ١ ـ ٢٪ ـ من الأجهزة والبرامج تم تصميمه بعمليات تقويم داخلية تسبب الأخطاء فى العام التالى. وشرائح أكثر الأنظمة حيوية، مثل تلك التى تتحكم فى توليد الطاقة، وغرف العناية المركزة، والطيران وغيرها، تم اختبارها وإصلاحها إلى حد كبير. لكن أحدا لن يعرف عدد الشرائح التى تحتاج إلى علاج قبل أن يظهر الخلل فى أدائها.

إن كل من كتب أو تحدث عن المشكلة يتفق على أن بعض أنظمة الكمبيوتر سوف تختل وظائفها العام القادم، وأن ذلك يعود، ببساطة، إلى وجود الكثير من الشفرات فى العديد من الأماكن ينبغى الوصول إليها وإصلاحها فى الوقت المناسب. أما ما يثير الدهشة فهو الاختلاف البين حول مدى خطورة عواقب هذه الأعطال.

وأول المظاهر المثيرة فى هذا الجدل هو ذلك التفاخر باللامبالاة من جانب جماعة التقنيين. فهؤلاء، الأغزر معرفة بثقافة الكمبيوتر، يبدون أكثر الناس استرخاء تجاه ما سيحدث فى الأول من يناير. وعلى مدى ستة شهور من التقصى، لم أصادف مديرا أو مبرمجا محترفا يظهر اهتماما جديا بالنتائج المترتبة على مشكلة العام ٢٠٠٠، فكلهم يقرون بحتمية حدوث نوع من الاضطراب؛ وكلهم يرفضون إمكانية حدوث أعطال واسعة النطاق أو ذات قيمة. وعندما سألت شارلز سيمونى، وهو أهم مصممى البرامج فى ميكروسوفت، عن مدى اهتمامه بالمشكلة، أجاب: «صفر». سيكون الحال مثلما حدث فى هوجة «سقوط سكايلاب». ويقول رئيس فريق مواجهة مشكلة العام ٢٠٠٠، بإحدى كبريات شركات البرمجة: «أنا شخصيا لا أقوم باستعدادات خاصة ولا أتوقع مشكلات ذات قيمة فى الأول من يناير». ويقارن اريك شميت، المدير التنفيذى لشركة «نوفل» للبرمجيات، بين الضجة المثارة حول مشكلة العام ٢٠٠٠، وتلك التى أثيرت حول مونيكا لوينسكى، ويقول: «ستحدث المسألة قدرا من الإثارة، لكنها لن تعنى الكثير». لقد كان الخبراء على خطأ، من قبل، فيما يتصل بمجال عملهم، ومن المحتمل أن تسفر ثقة المحترفين، بعد شهور قليلة من الآن، عن حماقة. لكن هناك، فيما يبدو، سببين رئيسيين وراء نظرتهم هذه.

أول هذه الأسباب هو أن مصممى البرامج، بصفة خاصة، وصناعة البرامج، بصفة عامة، يعتقدون بقدرتهم على مواجهة ذلك عند الضرورة، بالرغم من أن المواعيد النهائية عادة ماتفوتهم. وهناك بديهية غالبا ما يُستشهد بها فى النقاشات المتصلة بالمشكلة، مؤداها أن معظم مشروعات تطوير البرامج تستغرق وقتا أكبر من المخطط لها. وهكذا، فإنه برغم ادعاء الخبراء بقرب التوصل إلى حل مشكلات العام ٢٠٠٠، فإن الأمور ستكون أسوأ، على ما يبدو، بحلول الأول من يناير. ويجيب مصممو البرامج بأن هناك فرقا شاسعا بين التخطيط لمنتج تجارى عادى، وبين استكمال العمل فى مشكلة عام ٢٠٠٠، فإذا كان البرنامج العادى يخرج إلى الأسواق بعد شهر أو حتى عام من الموعد المقرر، فإن هذا يشكل إزعاجا لكنه لايشكل كارثة. لقد تأخرت النسخة الجديدة من الملاحظات R5، لكن هذا تحديدا كان ميزتها التنافسية ـ فقد جعلها هذا التأخير آخر برنامج Office من ميكروسوفت. وغالبا ما يكون التأخير بهدف التخلص من الإنتاج القديم، وتوفير الوقت اللازم لإنتاج واختبار منتجات جديدة.

على عكس ذلك، فإن آخر موعد للانتهاء من أعمال عام ٢٠٠٠، موعد حقيقى، ومصممو البرامج يتعاملون معه بعقلية غرفة الطوارئ، التى تحل المشكلات الملحة الآن وتؤجل التفاصيل الدقيقة لما بعد. وخطوات عمل البرنامج العادى تتشابه مع خطوات نشر الكتاب، حيث يكون آخر موعد هدفا وليس ضرورة واجبة، بينما العمل فى حل مشكلات العام ٢٠٠٠ مثل نشرة أخبار التليفزيون المسائية. فأنت إذا استقرأت المواعيد النهائية التى لاتتحقق فى عالم صناعة الكتاب، لسرى لديك الاعتقاد بأن نشرة التليفزيون المسائية لن تذاع فى مواعيدها ـ لكنها تأتى دائما فى نفس الموعد لأنه موعد نهائى حقيقى.

ويذهب مصممو البرامح إلى ما هو أكثر من التأكيد على أن باستطاعة زملائهم إنجاز الجزء الأهم من العمل فى الوقت المقرر، وذلك بادعائهم أن صناعة البرامج قد أنجزت ذلك بالفعل. وهم يدعون بأن نقلة العام ٢٠٠٠ لن تأخذ شكل قصفة رعدية ليلة رأس السنة القادمة، كما تفترض الكثير من سيناريوهات الكوارث. فالعملية جارية بالفعل، من خلال مراجعة أعداد لا حصر لها من البرامج التى عليها أن تتعامل مع التاريخ مستقبلا ـ وهكذا تتم النقلة بسلاسة تثير الدهشة.

وهناك العديد من النظم الصناعية والمالية التى تتعايش الآن بالفعل مع هذه النقلة، ويحدث هذا دون صعوبات تذكر. ونظم حجز الطائرات تعمل لـ٣٣٠ يوما قادمة. ومنذ أبريل، وهى على علم بأن رحلة محجوزة فى عام ٩٩ يمكن أن تنفذ فى عام ٠٠. وقد صدرت مصنفات واسطوانات cd ذات تواريخ صلاحية فى القرن القادم. وفى الأول من مارس بدأت السنة المالية ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠ لحكومتى ولاية نيويورك واليابان، دون مشكلات ملحوظة تتعلق بمشكلة الألفية الجديدة. وفى التاسع من أبريل من العام الحالى لم تشهد أنظمة الكمبيوتر فى العالم أية مشكلة، وهذا أمر له دلالته لأن ذلك اليوم كان اليوم٩٩ من عام ١٩٩٩. ويستخدم مصممو البرامج، أحيانا، أرقاما مثل ٩٩ أو ٩٩٩أو ٩٩٩٩ كقيم صامتة تشير إلى انتهاء عملية من العمليات. وفى برنامج بسيط، فإن أمرا مثل «ن= ١إلى ٩٩٩٩، موافق»، يعنى أن هناك عملية يجب تنفيذها ٩٩٩٩ قبل التوقف. ومن ثم فإن البرنامج الذى يقبل داخليا بـ٩ أبريل باعتباره ٩٩/٩٩ أو ٩٩٩٩ يواجه مشكلة، لكن من الواضح أن ذلك لم يحدث إلا فى حالات قليلة.

وهناك ما يكفى من الصعاب المتوسطة، فى أجزاء غير قليلة من العالم، تشير إلى استمرار قدر من الفوضى حتى العام الجديد ومابعده. فمنذ عامين قامت شركة كريزلر بتشغيل مثقاب متوافق مع مشكلة الألفية بإحدى منشآتها الإنتاجية، مع ضبط الساعة الداخلية لحواسبه على عام ٢٠٠٠، لمعرفة إذا كان سيعمل أم لا. وكانت النتيجة أن آلات صنع السيارات نجحت فى القيام بوظائفها، بينما أخفقت أنظمة أمن المبنى، ولم يفلح الموظفون فى فتح الأبواب الا بعد مرور عدة ساعات. وحدث شئ مشابه لعمدة لوس انجلوس، عندما انقطع التيار الكهربائى عن سيتى هول، أثناء اختبار لبرنامج متوافق مع مشكلات العام ٢٠٠٠، وظل حبيس المصعد لفترة. وفى الأول من يناير من هذا العام تعطل برنامج قراءة جوازات السفر بالمطارات السويدية الرئيسية؛ وكذلك الحال بالنسبة لبرنامج قراءة كروت الائتمان بمحطات الغاز فى النرويج. وهى أعطال استغرق إصلاح كل منها عدة ساعات.

مثل هذه الأعطال سوف تتزايد مع بداية القرن، ولسبب أكثر أهمية. فـ «أكبر المشكلات سوف تواجه المنظمات والأفراد عندما تكون هناك نقطة تقاطع بين الاعتماد على نظم مطمورة ونقص فى البرامج المعدة للتعامل مع مشكلة الألفية»، كما أخبرتنى جين شيلدون، خبيرة الاختبارات والمسئولة عن تجهيز برامج أوفيس ـ ميكروسوفت ببرامج الألفية. وهى تضيف: «إذا كنت تجهل أن الجهاز فى مصنع التجميع الذى تملكه يقيس سرعة خط التجميع عن طريق حساب الوقت المنفق فى تجميع القطعة فإن خط إنتاجك سوف يتوقف عندما يصبح الوقت المنفق بالناقص». وهى تشير إلى أن مثل هذه الإخفاقات المتمركزة يمكن تصحيحها ببساطة عن طريق إغلاق أجهزة الكمبيوتر التى تتحكم فى خط التجميع وتحميل البرنامج من جديد. (وهذا يعيد عداد الوقت المنقضى إلى وضع الصفر، وهكذا تنتقل كل القيم إلى العام ٠٠، لتحاشى مشكلة الوقت المنقضى بالناقص.)

00

مثلما فعل الخوف من الإرهاب، أفرخت التوقعات المتعلقة بمشكلة العام ٢٠٠٠ صناعتها الخاصة بها من المستشارين والناصحين الذين يتراوحون بين الخبراء الحقيقيين والباعة الجائلين. وسيذهب الجزء الأكبر من الـ٦٠٠ بليون دولار المقدر إنفاقها لإصلاح المشكلة على مستوى العالم إلى شركات صناعة البرامج.

وخلال العديد من الجلسات التى عقدت هذا العام، تكرر على مسمع «لجنة مجلس الشيوخ الامريكى الخاصة بمشكلة تكنولوجيا العام ٢٠٠٠» أن أكثر مشكلات العام ٢٠٠٠ صعوبة هى تلك المتوقع حدوثها خارج الولايات المتحدة. فشبكة الإنترنت العالمية مصممة بحيث تستمر فى العمل حتى فى حال تعطل بعض أجهزة الكمبيوتر أو الشبكات المحلية المتصلة بها. لكن ما لا يمكن التنبؤ به الآن هو إلى أى مدى سيبلغ بها البطء والانقطاع إذا ما أصاب الخلل أنظمة ماوراء البحار، أو تعثر الاتصال بالشبكة داخل الولايات المتحدة. على أن أهم تحذير، خلال جلسات الاستماع، كان ذلك الذى أطلقه لورنس جرشوين، الضابط بالمخابرات المركزية الأمريكية. فقد شرح كيف أدى انقطاع التيار الكهربائى فى الامبراطورية السوفيتية السابقة إلى أعطال مأسوية فى مشروعات الطاقة النووية القديمة السوفيتية التصميم، ومن بينها مفاعل لايزال يعمل فى تشيرنوبل.

وتفترض تداعيات الكوارث المحتملة سلسلة من الإخفاقات المتصلة بها، مثلما يحدث عند سقوط قطعة من قطع الدومينو. فانقطاع التيار حدث، فى المقام الأول، بسبب عدم حل كل المشكلات المتصلة بالألفية فى شبكة الطاقة. ومن الطبيعى أن يؤدى انقطاع التيار إلى توقف المشروع عن العمل ـ وإن كان ذلك قد يجعل الأداة المسئولة عن التوقف الآمن عاجزة عن أداء مهمتها فى حالات معينة. وعلى سبيل المثال، أفاد جرشوين بأنه فى نوع معين من المفاعلات التى تبرد بالماء، يطلق عليه اسم RBMK، فإن انقطاع التيار أو تعطل الكمبيوتر ينشط نظام الأمان فيبدأ المفاعل الانتقال إلى وضع التوقف تلقائيا. لكن التوقف التام يحتاج إلى مضخات تبريد، تعمل لعدة أيام، للتخلص من الحرارة الزائدة فى قلب المفاعل. والمضخات تعمل بالطاقة الكهربائية، التى يمكن توفيرها، فى حالات الطوارئ، عن طريق مولدات الديزل الموجودة فى المشروعات النووية. لكن إذا لم يتوافر للمشروع وقود الديزل الكافى لتشغيل المولدات لعدة أيام، فقد يترتب على هذا انصهار القلب.

ويحرص جرشوين على تلقى اتصالات تليفونية حول مثل تلك الاحتمالات. وفى مؤتمر صحفى للمخابرات المركزية، فى يوليو، قال أحد المسئولين أنه «يواصل متابعة» الموقف. فالمخاطر التى يمكن توقعها مسبقا ـ مثل نقص وقود الديزل ـ يمكن تفاديها. لكن احتمال الانصهار، برغم أنه بعيد الاحتمال، لا يمكن السيطرة عليه حال حدوثه.

ويطرح جرشوين توقعا أكثر سوءا: الفشل فى حل مشكلة العام ٢٠٠٠، فى أنظمة الدفاع الاستراتيجية قد يقود روسيا أو الولايات

كابوس الصفرين

المتحــــدة إلى إطلاق صـــواريـخ نووية. لكن التعليقات اللاحقة من جانب مسئولين آخرين، بعد الاهتمام العالمى المكثف بالمشكلة، تقلل من احتمالات خطر كهذا. وقد أخبرنى جاك جريبن، الناطق باسم «المجلس الرئاسى بخصوص التحول للعام ٢٠٠٠» أن «انطلاق الصواريخ النووية من تلقاء نفسها بسبب مشكلات الألفية، أمر بعيد الاحتمال». وعندما أبديت دهشتى، استطرد قائلا : «إن هذا لن يحدث. المسألة تحتاج إلى تدخل الإنسان. إنها لايمكن أن تطلق نفسها. إن هناك ترخيصات بكل الأوامر المطلوب تنفيذها ـ وفى حالة أى عطب فإنها تتعطل بدلا من أن تنطلق». وحتى أثناء القتال فى كوسوفو، كان الجيش الأمريكى يعمل مع نظرائه من الروس من أجل نشر المراقبين على جانبى مقار القيادتين بحلول ٣١ ديسمبر، وضمان الاتصال التليفونى بينهم للتأكد من عدم شن أى هجمات مفاجئة.

إن أكثر نتائج مشكلة العام ٢٠٠٠ إثارة للقلق وأكثرها توقعا، هى حرمان مدينة أو منطقة من الطاقة الكهربائية. ومن المتوقع أن يكون هذا هو حال جميع الأمم الأكثر فقرا، مع استثناءات قليلة، حيث تسهيلات برمجة الكمبيوتر محدودة، ولن تستخدم إلا بعد حدوث العطل بالفعل، فى بعض الحالات. والحقيقة المؤسفة أن نفس المجتمعات لايمكنها الاعتماد على الطاقة الكهربائية فى أفضل الأحوال ـ ولا هى متصلة بشبكات طاقة دولية تجعلها تعطل أنظمة أمم أخرى معها. إن نتائج إخفاق الألفية قد تكون قاسية عليهم، لكن تأثيرها لن يختلف عما يعانونه الآن بالفعل بسبب الأعطال المتكررة للخدمات الكهربائية.

[٢]

إن أهم جوانب مسألة العام ٢٠٠٠ هى أن المشكلة المتوقع أن تثيرها قد تقع فعلا وقد لا تقع. وحتى لو ثبت أن هذه المشكلة بسيطة، كما يتوقع معظم الخبراء الآن، فإن الجهود المبذولة لتفادى عواقبها قد جعلت منها أكبر حدث تجارى وسياسى وثقافى.

ومثلما فعل الخوف من الإرهاب، أفرخت التوقعات المتعلقة بها صناعتها الخاصة بها من المستشارين والناصحين، الذين يتراوحون بين الخبراء الحقيقيين والباعة الجائلين. وكان أول الانتعاش فى أوساط مصممى البرامج المحنكين فى لغات الكمبيوتر القديمة، وبالذات COBOL، التى بدأت فيها المشكلة. فالجزء الأكبر من الـ ٦٠٠ بليون دولار المقدر إنفاقها لإصلاح مشكلة الألفية على مستوى العالم، سيذهب، بصورة أو بأخرى، إلى شركات صناعة البرامج، وللإنفاق بالأساس على عمل برامج تعفى العميل من التخلص من البرامج القديمة المختفية فى سراديب جهازه. وعملية إعادة تدوير أموال إصلاح الكمبيوتر تلك فى اقتصاد التقنيات العالية high – tech يفسر لماذا أصبحت مشكلة الألفية مصدرا للإثارة، بدلا من أن تكون عقبة تحتاج إلى حل. وعلى النقيض من هذا (حسبما يشير ميتش راتكليف، من مجلة ZDNet) فإن انهيار الأسواق الآسيوية ترتب عليه ضياع ٣,٥ تريليون دولار من الأرصدة العالمية خلال ستة شهور من عام ١٩٩٨، وهى خسارة فادحة.

وتقدير تكلفة إصلاح مشكلة الألفية بـ ٦٠٠ بليون دولار مصدره «جارتنر جروب»، ومركزها ستانفورد بولاية كونكتكت الأمريكية، وهى أكثر المؤسسات الاستشارية تصديا للمشكلة، وأكثرها إثارة للجدل. ويشمل هذا الجدل احتمال التقدير المبالغ فيه للتكلفة وتأثير برامج الإصلاح. وهذا الجدل يجتذب العديد من المجلات المتخصصة ومواقع على الإنترنت، وتتراوح الآراء بين التقليل من شأن المشكلة وبين التشاؤم التام. بل إن هناك من بنوا شهرتهم على هذا التشاؤم على ما يبدو.

ويعتبر ادوارد مارديني الرئيس الاقتصادى لدويتش بانك، من أبرز وجوه الفريق الأخير. فقد ظل، على مدى العامين الأخيرين، يتنبأ بأن «أسوأ ركود عالمى» سوف يبدأ مع يناير القادم. وفى البداية، قال مارديني أن هناك احتمالا بنسبة ٧٠٪ لأن يكون الانهيار الناجم عن مشكلة العام ٢٠٠٠ شبيها بذلك الذى أعقب الهزات النفطية فى أوائل السبعينيات؛ وهو حاليا يخفض النسبة إلى ٦٠٪. والسبب، فى رأيه، هو فوضى «النظام العالمى للتصنيع الآنى»، الذى يوفر المكونات لحظة استخدامها بالضبط، بهدف توفير النفقات.

لقد أصبح الإجماع العالمى فى المجال المالى أكثر دموية فى مزاجه من آراء ياردينى. ففى يوليو، على سبيل المثال، صدر تقرير عن «مريل لنش» للأبحاث العالمية، جاء فيه أن المشكلة «الحقيقية» أى إصلاح برامج الكمبيوتر، قد حُلت؛ والمخاطرة المالية الوحيدة الملحوظة ـ كما يقول التقرير ـ تجئ من التصرفات المذعورة من جانب المستهلكين والمستثمرين كلما اقترب الموعد.

00

إن أكثر نتائج مشكلة العام ٢٠٠٠ إثارة للقلق وأكثرها توقعا هى حرمان مدينة أو منطقة من الطاقة الكهربائية. ومن المتوقع أن يكون هذا هو حال جميع الأمم الأكثر فقرا مع استثناءات قليلة حيث تسهيلات برمجة الكمبيوتر محدودة ولن تستخدم إلا بعد حدوث العطل بالفعل.

وإذا ما مر يناير القادم دون حوادث، سيجد ادوارد مارديني تفسيرا يقدمه. لكن هذا التبرير يمكن أن يكون أنه وزميله كساندراس قد أنقذا العالم. فاهتمام المحذرين وعنايتهم هى التى دفعت الشركات والحكومات إلى الانخراط فى جهود الإصلاح عندما كانت الفرصة لاتزال سانحة.

وكان خبير مشكلة الألفية، ذو الاسم المتشابه، ادوارد يوردون، موجودا بالفعل منذ مرحلة «شرح ما يجب عمله». فمنذ منتصف التسعينيات وهو خبير كمبيوتر ثقة، ومؤلف عدد من كتب التقنية الهامة، وخريج جامعة MIT فى بوسطن بولاية ماساتشوستس وقد بدأ، منذ ذلك الحين، يحذر من مشكلات العام ٢٠٠٠، وهى ـــ حسبما صاغها فى موقعه على الإنترنت ـ مسألة «تشغل كل لحظة تقريبا منذ صيف ١٩٩٧». وقد ألقى العديد من الخطب، وقدم شهادته أمام الكونجرس، وينشر كل ما هو جديد بصورة شبه يومية على موقعه بالانترنت، وأصدر عدة كتب أشهرها «٢٠٠٠ .. موعد الانفجار»، بالاشتراك مع ابنته جنيفر. وهذا الكتاب يتضمن سيناريوهات للكساد تستمر لمدة تتراوح بين عقد من الزمان وأخرى لاتتجاوز اليومين، وإن كان يميل إلى توقع الكارثة. وقد انتقل يوردون من نيويورك إلى نيو مكسيكو، لتفادى فوضى المدينة التى ينتظر أن تعقب المشكلة، كما نشر مقالا شيقا يتنبأ فيه باضطرار مصممى البرامج إلى الرحيل عن المدن الكبرى فى عام ١٩٩٩، هربا من غضبة الجمهور.

ويعد النشر جانبا آخر من صناعة العام ٢٠٠٠، حيث صدر أكثر من ١٠٠عنوان حول الموضوع. والاهتمام الأساسى لهذه الكتب هو تقديم النصيحة المالية الشخصية، التى تستهدف الأمريكيين المضغوطين بالفعل، وتقدم لهم الأمل فى الاستفادة من محنة الأمة. فكتاب «حقق الثروة مع العام ٢٠٠٠»، يبدأ بملحوظة مفزعة : «إننا على وشك مواجهة أسوأ أيام حياتنا وأكثرها إثارة للهلع». ومن جهة أخرى، فإن «فرص تحقيق الثراء لا يصدقها عقل ... وفى وقت لا ضمان فيه للوظائف، وتتزايد فيه البطالة، ويتهدد المشروعات الإفلاس، وحركة الرهونات تتم بسرعة الصاروخ، يمكنك أن تصبح غنيا! ... إنك ستعيش عيشة الملوك...

واستراتيجية حقق الثروة تتضمن بالأساس شراء الممتلكات المتعثرة التى من المؤكد عرضها فى مزادات الرهونات، التى ستعقب مشكلة الألفية، ثم تأجيرها بغرض السكنى. وهذا الكتاب وغيره يقدم وثائق ملموسة، مثل حسابات البنوك، والأسهم، والصفقات العقارية قرب نهاية العام؛ لاترتبك إذا تسببت الفواتير فى حالة من الفوضى مع بداية العام؛ وادخر كميات إضافية من المواد التى لايمكنك الاستغناء عنها، من تذاكر الدواء وحتى السيولة النقدية. ومع هذا الإلحاح على إجادة تقديم أنفسهم مع تلال من المشروعات، فإن من المستحيل تفادى الانطباع بأن الثراء سيكون من نصيب بائعى النصائح.

وبنك الاحتياطى الفيدرالى، إدراكا منه أن ضمان الحصول على السيولة هو جزء من مثل تلك الاستشارات، يقوم بتوفير سيولته النقدية الإضافية تحسبا لنهاية العام. وقال ناطق باسمها أن الطلب على السيولة دائما ما يكون مرتفعا خلال موسم أجازات آخر العام، ولهذا رصدت الهيئة بليونين من الدولارات لمواجهة احتياجات الموسم. وخطة هذا العام تقضى بتخصيص ٥٠ بليون دولار إضافية تحت الطلب. وهذا المبلغ يعنى توفير ١٠٠٠ دولار لكل أمريكى ـ وهو مبلغ لايبدو كبيرا بالنسبة لحركة بنكية حقيقية. لكن آلان جرينسبان رئيس البنك لم يبد اهتماما بمسألة العام ٢٠٠٠ ، وقال المتحدث باسم البنك : «إذا ما دعت الحاجة، يمكن تشغيل مكتب الحفر والطباعة وقتا إضافيا. ونحن على ثقة من قدرتنا على توفير الأموال اللازمة للوفاء بالطلب.»

[٣]

وباعتبارها حدثا سياسيا، أصبحت مسألة العام ٢٠٠٠ كابوسا غير مسبوق بالنسبة للديموقراطيين. فهى، بالنسبة لآل جور، يمكن أن تعنى أخبارا سيئة. وإذا ماحل العام الجديد وذهب دون مشكلة، فلا أحد سيعتبر ذلك سببا لإعطائه صوته. أما إذا ظهرت مشكلات حقيقية، فإنه لن يفقد القدرة على مجاراة كلينتون فيما حقق من ازدهار فحسب، بل سيصبح كذلك خبير التكنولوجيا الذى راح ضحية فشله التكنولوجى.

إن المشكلة الأكثر إلحاحا أمام الديموقراطيين، هذا العام، هى التفاوض حول حق التقاضى بخصوص الأضرار التجارية المترتبة على مشكلات الألفية. ففى يوليو، وفى ظل ظروف غير متوازنة، وافق الكونجرس ومجلس الشيوخ على مشروع قانون يصَعِّب من مقاضاة شركات الكمبيوتر والبرامج إذا ما فشلت منتجاتها من الأنظمة العام القادم ـ وهو ما سوف يحدث دون شك، بصورة أو بأخرى. وبمقتضى القانون، سيتاح للشركات مهلة ٩٠ يوما لمحاولة حل المشكلات قبل أى محاولة للتقاضى؛ وعلى المدعين بذل قصارى جهدهم لتقليل الأضرار بدلا من الاندفاع رأسا نحو المحكمة؛ وينبغى الحد من الدعاوى القضائية؛ والشركات التى يقل عدد مستخدميها عن ٥٠ لايجب أن تتجاوز العقوبة المالية الموقعة عليها، نتيجة الأضرار، عن ٢٥٠ الف دولار. (ولا قيود على الأضرار التعويضية العادية) والقانون مقدم من جانب الجمهوريين، لكنه لقى مساندة فعلية من المشروعات العاملة فى مجال التقنيات العالية. وهو يضع إدارة كلينتون فى وضع صعب، لأنه يحرض كتلة يأمل الديموقراطيون فى خطب ودها (أقطاب صناعة التقنيات العالية) ضد كتلة أخرى معروفة بولائها الشديد فى جمع التبرعات (منظمة محامى المحاكم، التى تعارض القانون بشدة). وبعد الهجوم على القانون باعتباره ضد المستهلك وتحريض حفنة من الديموقراطيين على التصويت ضده، أعلن الرئيس كلينتون فى يوليو عزمه على التصديق عليه. ومرة أخرى، ترك جور وحيدا، عرضة للهزيمة : فصناع التقنية العالية لايقدرون التحول الأخير؛ والمحامون وجماعات حماية المستهلك يشعرون بالخديعة.

لقد تركت مشكلة الألفية أثرها كذلك على السياسة، بالمعنى الثقافى الواسع. فمثلما يبدو أولئك القريبون من برمجة الكمبيوتر أكثر

هدوءا. فيما يتصل بتأثيرها، يبدى القريبون من مراكز القوى الحكومية والتجارية والاجتماعية أقل اهتمام بشأن كيفية مواجهة المجتمع للألفية. والذين يدعون بأننا سنواجه آثارا عميقة يميلون إلى الابتعاد عن السلطة.

ويشكل المفهوم الدينى حول نهاية العالم مع الألفية جانبا مهما من جوانب الحركة التحذيرية المتصلة بمشكلة الألفية. فمحطات الكابل التلفزيونية الدينية تؤكد على هذا الموضوع بشدة على مدى العامين الأخيرين. وجارى نورث، الأكثر تطرفا فى تشاؤمه بخصوص المشكلة، هو صهر أكبر منظرى جماعة «إعادة البناء المسيحى»، الذى يؤمن بأن المجتمع الراهن لابد أن يسقط وتأتى بعد ذلك مرحلة من الحكم التوراتى القويم قبل عودة المسيح إلى الأرض. وهذا مايفسر نغمة التوبيخ فى نبوءات نورث، حيث يقول، على سبيل المثال: «أعتقد أن مشكلة العام ٢٠٠٠ سوف تطيح بكل الحكومات القومية فى الغرب. ليس مجرد تغييرها، لا.. إنها ستطيح بها تماما. وأنا أعتقد بصدق أن الحكومة الفيدرالية لن تفلت من مصير كهذا. أعتقد أن الولايات المتحدة سوف تلقى نفس مصير الاتحاد السوفيتى. قل عنى حالم. قل متفائل. لكن هذا ما أؤمن به.»

وتمثل رواية «عام ٢٠٠٠: آفة القرن»، لدون تيجر، النواة الصلبة للجناح اليمينى، بالمعنى الإحيائى. وموضوع الرواية هو أن من يعتمد على المؤسسات المستقرة السائدة التى تتولى توفير المواد الغذائية والمياه والتدفئة والكهرباء وضمان السلامة البدنية، سوف يكون عرضة للهلاك مع بداية القرن الجديد. ولن يبقى على قيد الحياة إلا أبطال يقتدون بـ «روكى»، مسلحون برصيد من الدولارات، يمكنهم من تكديس الأغذية ومدفعية خاصة موجهة بكمبيوتر (متوافق مع الألفية) لسحق جماهير الجياع التى تسول لها نفسها القيام بأعمال النهب. (المورمون، وهم أعضاء طائفة دينية أمريكية، سيبقون أيضا على قيد الحياة، فى دولة الصحراء المستقلة). ويقدم الكتاب مشاهد من ليلة رأس السنة القادمة، أذاعت CNN بعضا منها: أحيانا، ومع تحرك منتصف الليل باتجاه الغرب عبر فتحة فى غطاء السحب، تحتجب المدن وغيرها من مصادر الضوء. وهذا أصبح أمرا مؤكد الحدوث عندما حل العام ٢٠٠٠ على أوروبا، خاصة عندما اختفت دولة بلجيكا من الوجود. إنك لايمكن أن تخطئ اختفاء بلجيكا؛ كانت كل الطرق السريعة تضئ الليل لتجعل من بلجيكا واحدا من أكثر الأماكن بريقا على ظهر الأرض، عند رؤيتها من الفضاء. وعندما تعطلت شبكة الطاقة، كانت كما لو أن مياه بحر الشمال الباردة صبت فى قلب أوروبا ومحت البلد.

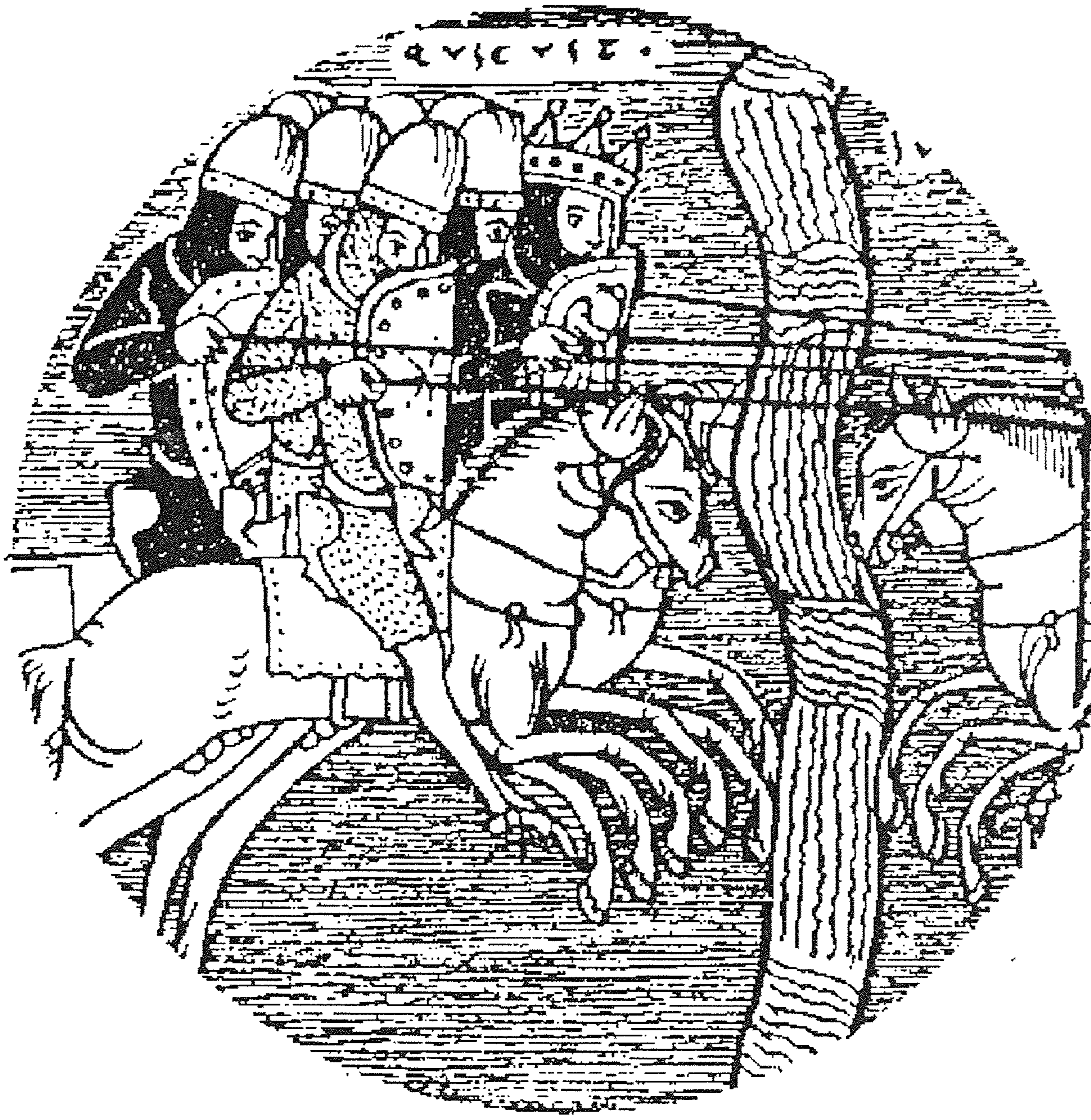
والآن، جاء دور الولايات المتحدة.

وهناك كتب ومجلات أخرى تروج لنفس الفكرة: الاعتماد على المؤسسة يجلب الهلاك. وهناك كتاب حديث بعنوان «كارثة Y2K: القيامة عام ٢٠٠٠!»، يعج بإعلانات عن الأغذية الجافة، وأنظمة تنقية المياه، والمسدسات والذخيرة، ودليل للعيش بعيدا عن الأرض. (لماذا الأغذية المجففة؟ لأن أنظمة الجرد الفورى للمخزون بمحلات البقالة ستتوقف، وتصبح الأرفف خالية من البضائع.) والكتاب يروج لأكثر من دستة من كتب ما بعد الكارثة لجارى بنسون، ومنها «الشراك العشرة الأفضل لجارى»: «بهذه الشراك التى لايعرفها كثيرون، يمكنك اصطياد أى سمكة تتخيلها، والطيور والضوارى، بما فى ذلك الوشق والثعلب والذئب والغزال والمنك والراكون والبط، وأكثرها مكرا وخداعا - الإنسان».

إن عدم الترحيب بالوثوق فى أجهزة الكمبيوتر الحديثة تبدو حالة محددة من حالات عدم الثقة فى الحياة الحديثة ككل. وهذا الموقف هو الشئ الوحيد الذى يمكن - كما يرى الخبراء - أن يحول المشكلات التى من المحتم أن تواجهنا العام القادم إلى فشل اقتصادى وتقنى أكبر. والمسئولة عن الاختبارات ومشكلة عام ٢٠٠٠ فى ميكروسوفت تقول إنها لم تدخر غذاء للمستقبل أو تبذل جهدا آخر لمواجهة المشكلات. وهى تقول: «التصرف على غير هذا النحو يكشف عن عدم الإحساس بالمسئولية الاجتماعية». وتضيف: «أنا قلقة كثيرا بشأن الآثار الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على الهلع. والثقة فى فعالية تكنولوجيا الكمبيوتر جزء مما يجعلها فعالة. والجانب الظريف فى اهتمام الناس بالإخفاقات المتتابعة هو أن الذين يعبرون عن اهتمامهم يعتقدون بأنهم قد نجحوا فى حل كل المشكلات فى نطاقهم. إن الأنظمة المتصلة بغيرها هى وحدها المعرضة للإخفاق. وأنا لاأرى فرقا بين هذا وبين إدراك أن فرامل السيارات ليست كلها سليمة. فقادة السيارات الجيدون على علم بهذا. لكنهم لايمتنعون عن استخدام الطرق العامة بسببها.

ومن هذا المنظور، فإن «كارثة» الألفية، تكمن فى احتمال أن يكون هناك عدد كبير من الناس الذين يعتبرونها - مع اقتراب ٣١ ديسمبر - كارثة، فيتلبسهم، فجأة، من المخاوف ما يجعلهم يبيعون ممتلكاتهم، ويكنزون النقود السائلة، وغير ذلك من التصرفات غير المتعقلة. وفرص مثل تلك الانتفاضات من الهلع تتضاءل أكثر فأكثر، لكنها لازالت قائمة. ■

ترجمة: بدر الرفاعى



تسعة قرون على حملة الصليبيين الأولى

دماء على بوابات القدس!

حسن حبشي

مفاتيح القدس سنة ١٠٠٠ وبعدها موجودة فى «قسطنطينية» القرن العاشر للميلاد.. والطريق إليها لم يكن ممكنا، إلا أن يمر بالمدينة التى كانت عنوانا لسطوة الإمبراطورية البيزنطية عبر بوابات الثأر والدم وتصفية الحسابات.

... فالعرب الذين دوخوا أوروبا وحاصروا القسطنطينية فى نهايات الألف الأولى للميلاد، وتجراوا على أن تكون لهم أسنان فى عالم لا يعترف إلا بالقوة، وناوشوا وأغاروا، وأصبحت لهم لأول مرة قوة بحرية، لم يحتفظوا بالقمة طويلاً، وجاء دورهم ليضعفوا ويختلفوا وتذهب ريحهم، بينما كانت روح صليبية محمومة تجتاح الغرب، وتقدم صكوك الغفران لمن يتطوع بنجدة القدس، وتقدم الوقود لأول حملة اقتحمت بجحافلها أسوار المدينة المقدسة، التى ضاعت مرة قبل أن تنتهى الأعوام المائة الأولى للألف الثانية.. ومازالت حتى الآن فى الأسر لأسباب ليس أقلها العجز العربى، بعد ألف عام من ذلك اليوم الدامى فى صيف ١٠٩٩.

كان اليوم يوم الجمعة السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٦، وكان من أيام الشتاء القارسة البرودة، لكن ذلك لم يمنع تجمع حشود كثيفة من شتى الطبقات والأعمار، تلمح فيهم رجال الدين الذين تعرفهم من سيماهم ومن عباءاتهم السوداء وقد تدلَّت منها الصلبان ما بين صغيرة وكبيرة، كل حسب مكانة صاحبه. كما تلمح جماعات من الفلاحين والعمال والذين تدل ملابسهم الرثة على ما هم فيه من الفاقة، بل والجوع، فأجسامهم هزيلة، وعيونهم قد خبا منها بريق النشاط، وترى بينهم نسوة فيهن من تحمل رضيعها على صدرها تُلقمه ثديها وقد كاد لبنه أن يجف، فالطفل فى عويل وصراخ، لا يسكنه غير شدة الجوع والتعب، وكانت أمهاتهم يُدَثّرنهم بخرقٍ هيهات أن ترد عنهم غائلة البرد الشديد فى مثل هذا الصباح.

كما ترى هنا وهناك، بعض الماشية والأغنام والدواجن وكلاب الحراسة.

كان المكان الذى هم فيه أرضا فسيحة منبسطة من بقعة دخلت التاريخ منذ هذه اللحظة لتكون جزءًا حيا منه، نذكره اليوم بعد تسعمائة من السنين، لعل الذكرى تنفع سامعيها، وإن أقضت المضاجع بأمسها الدابر، ويومها الحاضر.

كانت هذه اللحظة من ذلك اليوم نقطة انتقال فى حياة الإنسانية فى الشرق والغرب، وتعرف هذه البقعة بكليرمونت بفرنسا.

ويلمح الناظر فى هذا المكان ناحية، وضع القوم فيها صندوقا من الخشب، ارتقاه رجل ليس ككل الرجال الذين يحيطون به، ولا من تَحلَّقوا حوله.

كان رجلا قوى البنية رغم أنه جاوز الستين من عمره، تخشع أبصار من حوله إذ ينظرون إليه مهابةً وإجلالاً، ولكنهم جميعا يصيخون السمع إلى كل كلمة تنفرج عنها شفتاه.

وتسأل من ذا يكون هذا الرجل المهيب فتعلم أنه رأس الكنيسة الرومانية البابا ايربان الثانى(...)، وهو من أسرة شريفة، ولد حوالى سنة ١٠٣٥م فى ناحية من فرنسا تعرف بشاتيون سير مارن.

كان ايربان هذا قد تعلم على يد رجل ترك أثرًا عميقا فى نفسه، وقد رفعه معاصروه إلى مرتبة القداسة، واسمه «برونو»، وإن كان الناس لا ينادونه إلا بالقديس، ولم يكونوا مسرفين فى هذا النعت، فالحق أنه كان صادقًا فى إيمانه، مخلصا لعقيدته، مؤمنا بتعاليم السيد المسيح وتلاميذه، وقد أدرك أن مهمته لا تقتصر على دعوة الناس إلى الطريق الصحيح ليعرفوا طقوس العبادة، ولكن يجب أن تتجاوزها إلى خدمة الكنيسة والتعريف بجوهر المسيحية السمحة كما نادى بها عيسى ولقَّنها لحوارييه، وكما أفشاها تلميذه «بطرس» الذى اعتبره الصخرة التى تُبنى عليها كنيسته، فسمي بهذا الاسم ونسى الناس أنه سمعان بن يونا (متى ١٦:١٧).

وإذ كان هذا مفهوم «برونو» للملّة، فقد أدى به هذا إلى تكوين طائفة تابعة لكنيسة روما يطلق على من فيها اسم الرهبان

«الكارثوسيين» Carthusians، وكان مقرهم مدينة «ريمز».

كان إعجاب «إيربان» بهذا الداعية الطاهر «برونو» كبيرًا، وزاد من إعجابه به ما عرفه عنه من مكابدته العناء الشديد مع الكثيرين من أصحاب السطوة والنفوذ والمصالح الخاصة، لذلك ما كاد البابا «إيربان» يعتلي الكرسي البابوي في روما، حتى دعا «برونو» ليكون مستشاره، فلبّاه - وهو تلميذه القديم - ولكن في ضجر لأنه رأى - في هذه المهمة التي ناطها به تلميذه - ما يخرجه عن عزلته الروحية ويزج به في محيط يعج بالكذابين والمنافقين والمخادعين، في الوقت الذي يسعى هو فيه أن يتجرد من كل شيء ليوقف نفسه وجهده وجهاده وتكريزه من أجل المسيح، وما له لا يفعل ذلك وهو الواعي لقول السيد إلى تلميذه «.. بع كل ما تملك واتبعني»، فبرونو يريد أن يتخلص من كل ما يربطه بالدنيا وماديتها ليعيش لدعوة عيسى- (E. I. Watkin: Neglect-ed Saints).

إن برونو يعرف في تلميذه إيربان إخلاصه وصدقه، وأنه منذ أن انخرط في سلك رهبان كلوني سنة ١٠٦٨م، ومنذ اتصاله بالبابا جريجوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥)، وهو صادق في ولائه للنصرانية، عامل على رفعتها، وأنه من أجل ذلك جاهد الجهاد الحسن.

كان «برونو» يعرف في تلميذه الهدف الشريف، ولكنه كان يدرك أن تلميذه هذا «إيربان» قادر - بغير معونته واستشارته - أن يقيم الصّرح الكنسي عاليا موقّرا.

ولم يعارضه «إيربان» في التخلي عما كان يريده له ومنه؛ لإدراكه أنه إن رفض عرضه فليس عن قلي، ولكن حتى يخدم الدين الخدمة التي يحبها له محبوه الصادقون.

ونعود إلى اللحظة التي يقف فيها إيربان الآن في كليرمونت، فنرى الدافع له هو براعته السياسية، فرأى أن يدعو في هذه الآونة إلى عمل يزعزع مكانة الخصوم سياسيًا ودينيا وشعبيا، ويسحب البساط من تحت أقدام الملوك والأباطرة الذين مالوا إلى الدنيا، ورأى أن يدعو إلى ما عرف في النهاية بالحرب الصليبية التي لم يوجه الدعوة فيها إلى أحد من هؤلاء الأباطرة بل تجاهلهم، وإنما خاطب الأمراء «الإقطاعيين» والنبلاء والأشراف، الذين كان من المفروض أن يكون ولاؤهم لملوكهم فقط، على أن «إيربان» استطاع بذكائه وحنكته وألمعيته السياسية وبراعته في رسم الخطط أن يحمل هؤلاء الأمراء الإقطاعيين، ومن سلك دربهم على أن يلبوا دعوته للخروج للشرق ومحاربة «المسلمين»، وإن لم يذكرهم صراحة، ولكنه قال إن سيوف هؤلاء الأمراء يجب أن توجه لاستخلاص القدس ممّن هي في أيديهم.

ثم إنه دعا الأمراء أرباب السيوف إلى نبذ ما قد يكون بين بعضهم والبعض الآخر من منازعات وخصومات، وإلى تجريد هذه السيوف من أغمادها، وأن تُشهر في غير الساحة الأوروبية، فإن تغلبوا على أعدائهم الجدد الذين يلقونهم لأول مرة، كانت لهم أرضهم وبلادهم ودورهم وما يملكون، وكان أصحابها خدمًا لهم، وحينذاك يقيم «الكبار» الأوروبيون لأنفسهم في تلك البلاد الجديدة إمارات لا يخضعون فيها لسلطان ملك أو إمبراطور، ولكن لرب العالم وكنيسته.

ثم تجاوز «إيربان» هذه الأمور فلوّح لهؤلاء الأمراء بما يستطيعون أن يجنوه من ثمار في الشرق، هيهات أن تتحقق لهم في الغرب الفقير الإقطاعي، وفي ظل تبعيتهم للملوك، ثم إنهم ذاهبون إلى بلاد ممزقة الأوصال بفضل حكامها، وعداوات بعضهم لبعض، وجريهم وراء مصالحهم الشخصية، فما يعني الواحد منهم سوى نفسه، ولا يهمه من يحكمهم، ولا الدين في شيء.

كذلك فإنه استمال «الرعاع» وهم بطبقاتهم المختلفة لم يكن لهم قط حظ من الثقافة أو المعرفة، فهم يعيشون في أدنى مراتب الحياة، لا يملكون لهذه الحياة إصلاحا، وهم راضون بما هم فيه، قانعون بما يصيبونه، ولكن لم يبق لهم من أمل يتمسكون به سوى الدين - أو ما فهموه منه - ومن ثم ضرب لهم «إيربان» على هذا الوتر الحساس، وأفهمهم أنهم إن اتجهوا إلى هذا الشرق الإسلامي، استخلصوا أقدس موضع وأعز مكان عندهم، وأرضًا شهدت مولد السيد المسيح عليه السلام، وما كابده فيها من عذاب، وما لاقاه من يهودها الذين كانوا يتظاهرون بالدفاع عن مصالح الإمبراطورية الرومانية، وما يبغون في الواقع إلا إيذاء من جاء ليقول لهم «جعلتم بيتي مباءة للصوص».

ثم إن في خروج «العامة» إلى فلسطين نفعًا لهؤلاء الأمراء والعامة، وأي نفع أعظم جدوى من أنهم سوف يتمكنون من «الحج» إلى الأحرام المقدسة، الذي هيهات أن يتمكنوا من أدائه في غير هذا الوقت وفي غير تلك الساعة، ومن غير حاجة إلى مال أو نفقة أو متاع، إذ وقر في أذهانهم أن البلاد المسيحية التي سوف يمرون بها سوف تمدهم بكل ما هم في حاجة إليه، بل وفوق الذي يحتاجونه.

أليسوا حجاج القبر المقدس ومخلص كنيسة القيامة وإخوانهم في الدين؟

أليسوا ماضين للثأر من قوم، صور لهم رجالهم أنهم عَذَّبوا وأهانوا صاحب الدعوة، وما كان شيء من ذلك حقيقة!

ورأت العامة أنها إن استجابت لدعوة «كليرمونت»، ضربت أكثر من عصفور بحجر واحد وفي وقت واحد.. فهي تطيع البابا الذي طاعته رحمة ودليل على صدق الإيمان، كما أن في طاعته تخليصا للقدس وكل حَرَم ديني مقدس.

وأجْدَتْ هذه الدعاوى الزائفة في طبقات تحلم ولا تعلم، وتُحكَم ولا تَحكُم... وتتطلع إلى حياة فيها العيش اللذيذ، ومن ثم كانت استجابتهم قوية إلى الخروج، فخرجوا فعُرِفوا بالحجاج، وإن نَعَتَهم الواقع والتاريخ بالحجاج المسلحين، فكانوا بدعة الحجاج، إذ هل يحمل السلاح في سيره وزحفه إلا متربص أو باغي شر بآخرين؟

لقد كان بين هؤلاء الحجاج كثيرون من سفلة القوم ورعاعهم، وقطاع الطرق والمرتزقة، ممن يطلبون الحياة على حساب الآخرين، ويحدثنا واحد من بين هؤلاء الحجاج عما ارتكبه رفاقه «الحجاج» من أمور يعف عن عملها كل ذي خلق شريف، بل إن الأديرة - وهي أقدس مكان للعبادة بعد الكنائس - لم تسلم من ضراوة هؤلاء «الحجاج» وشراستهم، فارتكبوا من الموبقات والآثام - حتى مع الراهبات المتعبدات - ما يأبى اللسان أن ينطق به، فنراه يقول: «لقد استولينا على الثيران والخيل والحمير.. وسقطت في أيدينا قرية فاضرمنا بها النار، وأحرقناها بسكانها.. ولم يتورع «الصليبيون» عن اقتراف شتّى الموبقات كإضرام النار في البيوت والكنائس..» (كتاب الجستا: أعمال الفرنجة، ترجمة: حسن حبشي).

على أن وراء هذه الظواهر الباعثة على الخروج أسبابا حقيقية لم يكن من الممكن لأصحابها الإفصاح عنها جهارًا، فأما أولاها: فهي أن البابوية - كما أشرنا - كان يهمها أن تبرهن على أن سلطانها أعلى من كل سلطان على الأرض، وكان سبيلها إلى إظهار ذلك أن لا يشارك في الخروج أحد من الأباطرة أو الملوك، ومن ثم كانت حملة ١٠٩٦ حملة بابوية خالصة في إدارتها العليا وفي توجيهها. ومع أن فيها رجالا كانوا من أشد المتحمسين دينيا كريموند الصنجيلي وجود فردي دي بويون، الذي أوقف على الحملة كل ما يملك. إلا أن البابا جعل مرشدها الأعلى رجلا من رجال الكنيسة هو «أديمار» أسقف بوى، وذلك حين اختاره ليكون نائبه في قيادة الحملة روحيا.

كما أن البابا كان يرى في نجاحه في هذه الدعوة نجاحا ذاتيا له في أعين المسيحيين الشرقيين، وأنه ملاذهم الأعلى حين تسحق هذه القوات الغربية المعتدين على إمبراطورية الشرق النصرانية والثأر لهزيمة مانزيكرت عام ١٠٧١، ومحو العار الذي أصابها يوم وقع الإمبراطور «رومانوس الرابع ديوجين» في أسر السلاجقة، فاذلوه أبشع إذلال مرّغ أنف الإمبراطورية البيزنطية في الطين، وأحس القريب والغريب بأن اللطمة قاتلة، فلما جاء إلى العرش الرومي ألكسيوس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨م)، بعث إلى البابا في روما، راجيا أن يمده بطائفة من المرتزقة يساعدونه في ضرب المخاطرين أمثال «رسل باليول»، و«روبرت جيسكارد» لاسيما الأخير الذي كان قد انتزع باري من أملاك بيزنطة في إيطاليا، ومد ناظريه إلى القسطنطينية ذاتها.

ونقف لحظة قصيرة عند هذه الاستغاثة أو الرجاء من جانب ألكسيوس، فنراها أنها لم ترد فيها الإشارة إلى محاربة المسلمين في القدس، ولا إلى ما يدل على رغبته في حرب تكون القدس غايتها، بل إن مسيرة أحداث الحملة الصليبية دلت على أن الإمبراطور لم يكن مرحبًا بها أبدا.

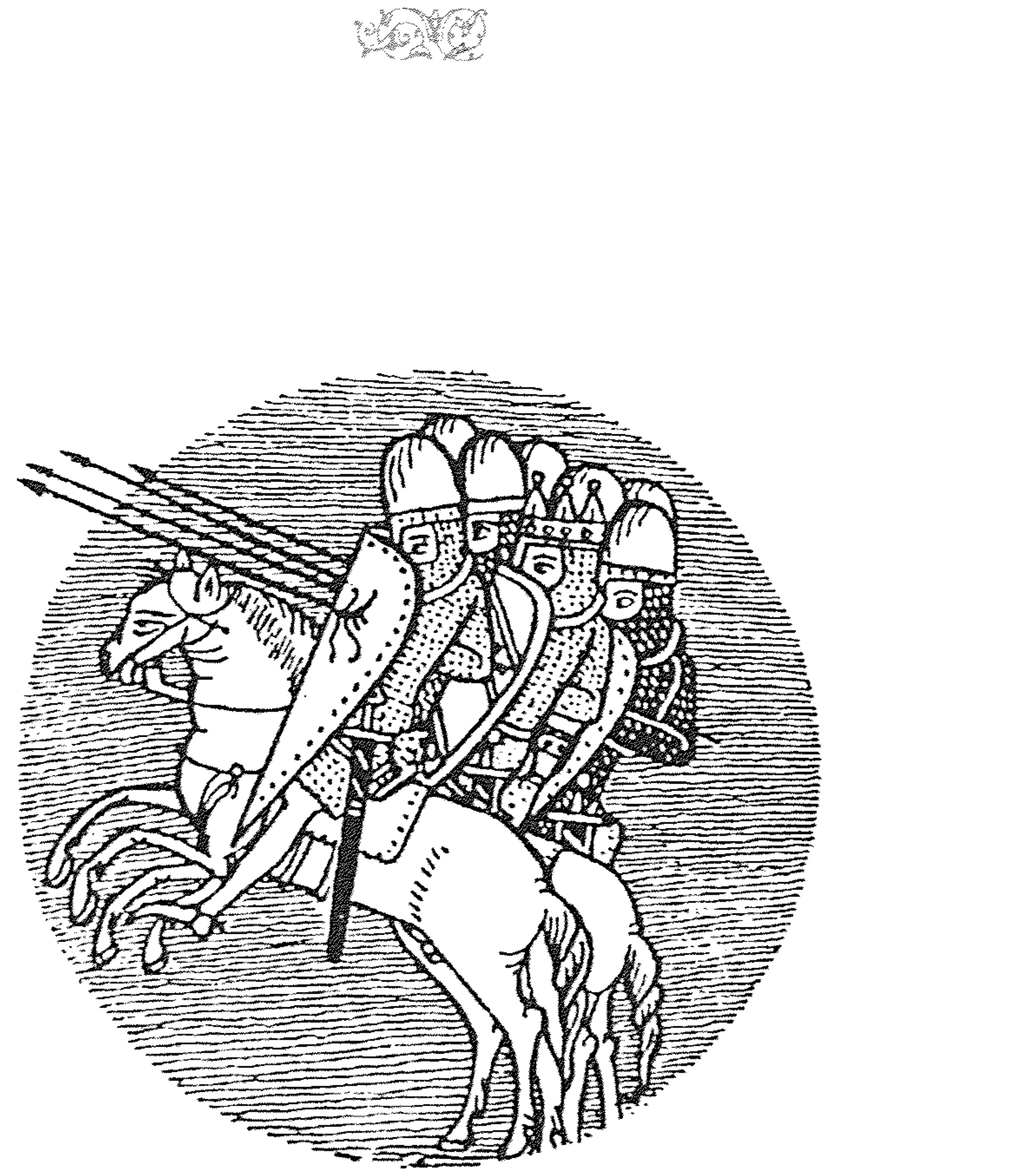
أما من ناحية الأمراء الذين اشتركوا في هذه الحملة، فقد كانوا يعانون عسرا ماديا شديدا، إذ كثروا كثرة واضحة، وأصبحوا يتقاتلون فيما بينهم على رقعة من الأرض لم تكن قابلة للاتساع أبدا في الوقت الذي يتضخم فيه أعداؤهم.

لذلك نظر الأمراء إلى الدعوة البابوية من منظور فيه إصلاح أحوالهم، وخلاصته أنهم واجدون في بلاد الشرق الإسلامي أراضي فيها «المن والسلوى»، لا يصدهم عن جنبيها أحد إذ إن بين حكامها المحليين من التخاصم والمنافسات ما لا يخفيه الواحد منهم عن الآخر.

فإذا خلينا هؤلاء جانبا وجئنا إلى العامة الدهماء، وهم وقود كل حرب في كل عصر ومصر، وجدنا طائفة فقيرة بائسة - كما قلنا - وهي جاهلة حتى بأبسط ما يمس روحانياتها، وكيف تكون على شيء من المعرفة بالدين الصحيح الذي إن تلقت هذا الكم منه تلقته على أيدي رجال صح أن يقال فيهم إنهم «محترفون»، ثم ماذا تطلب من مثل هؤلاء الرجال وقد قل فيهم من يحفظ إنجيله، ولا نقول يدرسه.

وأما المسلمون - أو أغلبهم - فقد كانت الظروف مواتية ومشجعة على خروج مثل هذه

في صيف ١٠٩٩: أصبح الفرنجة الغزاة على رمية قوس من القدس، وما من أحد يعترض طريقهم، لا أهل البلاد الذين كانوا بلا حول أو قوة، ولا من أصحاب السلطة الذين عرض بعضهم على الصليبيين الأموال والمئونة



الحملة، إذ شهدت هذه الفترة بالذات هزائم للمسلمين في الأندلس، كان آخرهما ما أحرزه ألفونس السادس، ملك قشتالة من انتصارات كثيرة حين استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥، أي قبل عقد من السنين من الدعوة إلى الحرب الصليبية في ساحة «كلير مونت».

لم يفت هذا الأمر المأساوي نظر مؤرخ مسلم هو ابن الأثير، الذي استقامت له أدوات البحث والكتابة التاريخية، فنظر في الأحداث نظرة مدقق واع، وربط بين ما هو جار على أرض الأندلس وبين أحداث الشرق، ولم تغره بعد قليل هزيمة الملك الأسباني أمام قوات يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين فيما عرف بموقعة الزلاقة، غير أن الذي جرى في ساحة القتال بين الطرفين المسلم الأندلسي والقشتالي كان أكبر مشجع على الدعوة لمقاتلة المسلمين أينما كانوا، فتكونت جبهة شبه غربية بقيادة ملك أرجونة، ولا نعرض هنا لهذه الجبهة الجديدة إلا لنقول إن روحا صليبية سادت الغرب.

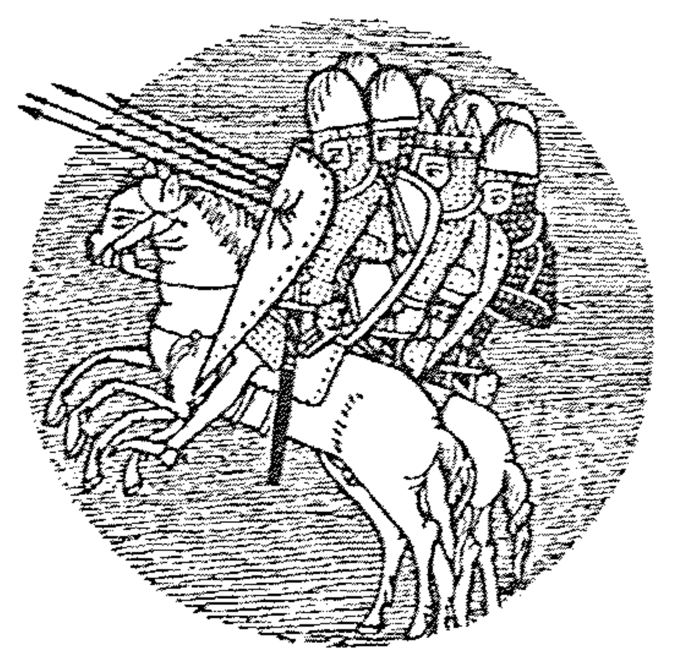
وكانت الحرب الصليبية - من وجهة نظر أخرى - رد فعل لاستفحال قوة الإسلام منذ ظهوره وانتشاره في بلاد خارج نطاق شبه الجزيرة العربية كمصر والشمال الأفريقي وبلاد الشام، مما أدى إلى التحام السيوف الإسلامية بالبيزنطية، لاسيما إذا أخذنا في الاعتبار أن دولة الروم كانت هي المسيطرة على تلك الأراضي إلى جانب سطوتها ونفوذها في آسيا الصغرى وبين الأرمن.

كذلك ركب المسلمون البحر واصطدمت أساطيلهم بالأساطيل الرومية، ولا ينسى أحد ما كان من الأثر الكبير لموقعة «ذات الصواري»، التي برهنت على أن المسلمين خصم عنيد جبار لا يجوز تجاهله أو الاستهانة به أو التقليل من خطره.

ثم ما كان من المسلمين بعدئذ تجاه قبرص ورودس، بل وتطلعهم إلى القسطنطينية ذاتها، ولم يكن لمثل هذا الأمر أن يحدث لولا أنهم كانوا قد بلغوا مبلغا كبيرا من السطوة الحربية برا وبحرا، استطاعوا به - ويستطيعون - أن يناطحوا أكبر دولة في عالمهم يومذاك، وتمثل هذا في حملة أنفذها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وجعل عليها أخاه مسلمة، فطرقت - هي وأخرى - أبواب القسطنطينية التي عانت أهوال الحصار برا وبحرا مدة قاربت السنة، ولولا استعمال الروم النار الإغريقية لكان لهذه الحملة خاتمة أخرى غير رجوعها - الذي كان بأمر الخليفة - إلى قواعدها في بلادها حرصا على أرواح جندها.

على أن ذلك التراجع لم يؤد إلى وقف المشاحنات بين الجانبين العربي والبيزنطي، حتى اضطر الأخيرون - في لحظة من اللحظات - إلى دفع الجزية التي ما كاد يقطعها الإمبراطور ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢م) حتى عاد القتال من جديد بين الطرفين وهو صراع أحس فيه الروم أنهم مهزومون، وأن الدائرة عليهم، وأدركوا الخطر الذي يهدد كيانهم ووجودهم كقوة عالمية في ذلك العصر، لذلك رأى ثيوفيل إرسال بعثة لطلب الصلح، لكن لم يُقدّر لها إكمال رسالتها نظرا لموت الخليفة العباسي المأمون، وعادت بيزنطة من جديد ترفع رأسها، فأغارت جيوشها على رقعة إسلامية تنتهي عند «زبطرة»، وكانت أول خطوة في مسيرة تاريخية نحو عمورية، وبذلك طرقت الجيوش الإسلامية آسيا الصغرى، وتوغلت فيها توغلا كان يشير إلى أنها عازمة على القسطنطينية ذاتها. Treadgold (W.) Byzautene. ومهما تكن الحروب التي شبت بين الجانبين بعد ذلك، إلا أنها لم تكن تزيد على مناوشات وليست بالوقائع الحاسمة.

وتمضي الأيام والجبهة الإسلامية بين ضعف وقوة، وقوة وضعف، حتى تظهر قوة إسلامية فتية كالسامانية والحمدانية والبويهية وغيرها من تلك القوى أو الدويلات التي انتهبت أجزاء من جسد الدولة العباسية.



أسفر فجر الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ عن جحافل الصليبيين تدخل المدينة المقدسة، وتصيب فيما تصيب المسجد الأقصى، وتطأ خيولهم أرضه بسنابكها.. وصاح صائح: لقد دخلوا القدس

أجل! لقد شاهد القرن السابق لهذه الأحداث صحوة حربية بيزنطية كان من آثارها استيلاء الروم على اقريطش «كريت» زمن نقفور فوكاس (٨٠٢ - ٨١١)، وقائده جون زيمسكس الذي تعرفه المصادر الإسلامية العربية باسم يوحنا الشمشيق، ووصل الإمبراطور وقائده إلى حلب، وارتكبا من الفظائع ما سجلته حوليات الجانبين المتحاربين.

والحق أن نقفور فوكاس كانت فيه بداوة وغلظة المحارب الشرس، وكان محبا لسفك الدماء، كما كانت تحركه كراهية انطوت عليها نفسه نحو جيرانه المسلمين، كما هاجم بلاد النهرين، بل إنه جعل من جنده شبه قطاع طرق يتعرضون للقوافل التجارية الإسلامية، كما هاجموا أنطاكية، وساعدته الظروف فمات سيف الدولة الحمداني عدوه اللدود، وخلفه ولده سعد الدولة الذي لم يستطع أن يجاريه، وسار نقفور سيرة الطاغية يجتاح بلاد الشام فما لبثت أنطاكية - وكانت في يد المسلمين - أن سقطت في أيدي العدو، وكان المتوقع أن يجيء الدور على حلب، لكن المستبد «قرغويه»، عقد هدنة كانت في صالح البيزنطيين أكثر مما هي في صالح المسلمين، إذ هادنهم ودفع لهم مالا كثيرا ليأمن غائلة شرهم.

على أن ذلك كله واكب دخول الفاطميين مصر وإقامتهم دولة لهم بها، تخاصم الخلافة العباسية، فكان ذلك إيذانا بانقسام خطير زاد من تفكك الجبهة الإسلامية التي زاد من انقسامها قيام «افتكين التركي» التابع لبغداد بالاستيلاء على دمشق.

حدث كل هذا قبل قرن وربع قرن من الحرب الصليبية الأولى، واشتدت قوة بيزنطة وصار لها نفوذ ملحوظ في بعض بلاد الشام التي أصبحت بين شقي الرحى: من البيزنطيين والفاطميين، وإن استطاع الأخيرون - كقوة فتية - أن يثبتوا وجودهم الفعال على مسرح الأحداث.

لم يكن ما جرى في أعقاب ذلك سوى مناوشات فَلّتْ من حدة البيزنطيين، وواكب ذلك بدايات ظهور قوة إسلامية جديدة من الترك عرفهم الناس بالسلاجقة، نسبة لجد لهم اسمه «سلجوق»، وموطنهم الأصلي بلاد تركستان، فلما أسلموا كانوا دما جديدا قويا يجري في عروق المسلمين، ثم اشتد ساعدهم بظهور واحد منهم هو طغرلبك، الذي استطاع أن يقيم له حكومة في أصبهان، والذي نظر فرأى ما عليه العباسيون من ضعف ملحوظ، وخضوعهم للبويهيين الشيعة الذين زادوا الجرح إيغالا حين قام البساسيري، الذي تصفه المراجع العربية بأنه من الغلمان الأتراك، وقد مالأ الفاطميين على حساب بني العباس الذين لم يجدوا بدًا حينذاك من التماس المعونة من جانب السلاجقة، لدفع خطر البساسيري، فترتب على هذا الوضع صدام بين طرفي المغامرة أفضى إلى انتصار طغرلبك، حتى لقد خُطب في مساجد بغداد باسمه، وذلك بموافقة الخليفة العباسي نفسه؛ القائم بأمر الله.

هكذا أخذت الأمور تتعقد يوما بعد يوم، وتتراجع كفة ميزان القوى العباسية، وترجح كفة طغرلبك وسلاجقته، وكان ظهور شأو طغرلبك، ظهورًا للقوة الإسلامية في وجه البيزنطيين، إلى جانب تعرض الكثير من الأملاك البيزنطية لأخطار غزو سلجوقي ربما قيل فيه إنه مناوشات خطيرة، حتى إذا حل في القيادة السلجوقية ألب أرسلان، محل طغرلبك سنة ١٠٦٣م، اتجهت الرياح اتجاها خطيرا تمثل في توغل ألب أرسلان في أملاك بيزنطة الموجودة في آسيا الصغرى، لاسيما في أرمينيا وكبادوكيا. وكان ذلك الأمر يعني أن توغلا إسلاميا سلجوقيا راح يستفحل خطره في داخل رقعة الأراضي البيزنطية، وأحس بفداحة نتائجه - التي ستكون مريرة - الجالس على عرش القسطنطينية حينذاك رومانوس الرابع ديوجين، حين أخذ مقاليد الحكم في يده سنة ١٠٦٨م، والذي كان اختياره وإيثاره بالعرش انعكاسا لما أحسه المهتمون بأمر الدولة من حاجتها القصوى إلى رجل محارب كفء بعد أحوالها المتردية زمن قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ - ١٠٦٧)، الذي أهمل شئون الدولة الحربية إهمالا شجع النورمانديين على اجتياح جنوب إيطاليا واحتلال المجريين بلجراد وعبور البشناق والكومان الدانوب وانتشارهم في البلقان دون أحد يردعهم، ووصول السلاجقة الأتراك إلى آسيا الصغرى، فكانت سياسته خاطئة حتى لقد أخذ ذلك عليه من كان اختاره وزكاه للعرش وهو ميخائيل باليولوجس. لذلك ما إن مات في مايو ١٠٦٧ حتى قام المسئولون بإرغام أرملته يودوكيا الوصية على أولاده الثلاثة على الزواج من رومانوس الرابع ديوجين، فتوج في يناير ١٠٦٨، وكان قائدا محنكا ومحاربا عظيما، غير أن الفساد كان قد استشرى وترسخت جذوره بشكل تضيع معه كل محاولة لاجتثاثها.

لقد أدرك رومانوس ديوجين بألمعيته أن الخطر كل الخطر على الدولة، إنما يكمن في السلاجقة الأتراك دون غيرهم، وكان مصيبا في هذا الإدراك وفي معرفة عواقبه الوخيمة. فأبى إلا أن يقضي عليهم، وفاته أن جيشه الذي هو ماض به لقتالهم إنما أكثره مرتزقة، لا يدافعون عن شيء فيه نفع لهم إلا ما يدخل جيوبهم.

لقد أجمع رومانوس على تأديب السلاجقة واسترداد هيبة بيزنطة في الداخل والخارج على السواء، والتقى الخصمان وجها لوجه، حتى إذا كان يوم ١٩ أغسطس ١٠٧١ التحم ألب أرسلان مع رومانوس في مانزيكرت، فوقع الإمبراطور أسيرا في يد عدوه، ولم يقصر الأمر على أن يكون مجرد هزيمة، بل تعداه إلى أن يكون إذلالا معنويا له، زاد من وقعه ما لاقاه من شعبه حين أعاده المنتصر إلى بلاده التي أبت إلا أن تكون خاتمته على يدها خاتمة مهينة.

لكن الذي يعنينا من وجهة النظر الصليبية هو أن هذه الموقعة فتحت الباب على مصراعيه أمام السلاجقة الأتراك فتوجوا هذا النصر بنصر آخر حين احتلوا نيقية، التي كانت مركزا من مراكز القوى البيزنطية، وأخذت الأمور الداخلية في الإمبراطورية تسير من سيئ إلى أسوأ، وتمثل ذلك في معارك داخلية بين أصحاب السيوف والطامحين الطامعين في حكم البلاد، حتى اغتصب العرش لنفسه ألكسيوس كومنين، الذي كان فريدا في سياسته الداخلية والخارجية وتغلب بحكمته وذكائه ودهائه وسياسته على كل الصعاب، وأقام أسرة ظلت في الحكم مدة جاوزت قرنا، وبعد توليته العرش بخمس عشرة سنة كانت الحملة العدوانية التي شنها الفرنجة على الشرق حيث بلاد الشام وفلسطين وعرفت بالحرب الصليبية الأولى.

كانت واقعة مانزيكرت وما صحبها وتلاها من الأحداث والوقائع هي الخلفية الدعائية التي تذرع بها أربان الثاني في دفع أوروبا لحمل السلاح في وجه الشرق الإسلامي. والحق أن هذه المعركة كانت بين جيشين لا دخل للقدس فيها، فإذا قيل أن البابا تذرع بخطاب استغاثة من ألكسيوس، فما كان خطابه استغاثة، وإنما كان طلبا لمده - كما قلنا - بطائفة من الجند، يمكن نعتهم بالمرتزقة، يقاتلون إلى جانب الجيش البيزنطي بكتائبه المختلفة، حتى إذا انتهت الحرب عادوا إلى بلادهم، ولم يرد في خطاب ألكسيوس ما

يستفاد منه أنه مهتم بالقدس، بل إن كتاب الكسياد، لأنا كومنتينا خال تماما من كل إشارة ولو بسيطة إلى مثل هذا الأمر، ولم يرد فيه ذكر القدس إلا حين تصل الجموع إلى القسطنطينية، ولكن بصورة لا تحمل المؤرخ على أن يستنطق الكتابة ما هي بعيدة عنه.

لم يكن ألكسيوس - وليس هذا طعنا في إيمانه - بالرجل أو الحاكم أو السياسي الذي يعنيه أمر القدس، بل كان عنده من همّ السلاجقة ما يشغله عن كل شيء آخر وما يكاد يطغى على انشغاله بالأمور الداخلية، ثم إن ألكسيوس لم يكن فيما كتبه إلى ايربان بدعا بين أباطرة بيزنطة الذين سبقوه وحفظ التاريخ لنا رسائلهم إلى الكنيسة الغربية، ومما يدحض زعم البابا أنه بعد موقعة مانزيكرت قام الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٩) فاستنجد بجريجوري السابع، وكان صريحا إذ طلب نجدة لضرب السلاجقة، ولم يذكر قط «القدس»، لكن لم يقدر لهذه الاستغاثة أن تجد صدى إيجابيا من جانب كنيسة روما لانشغالها في هذا الوقت بصراعها مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة حول ما عرف بالتقليد العلماني Lay Investe-lure، فهدأت الأمور حتى إذا جاء ايربان الثاني، حاول أن تكون له علاقات طيبة مع بيزنطة، وأراد أن تتسم المعاملة باللين واللطف لا الشدة والعنف، لذلك عقد مجمع كليرمونت في نوفمبر ١٠٩٥، وكان محور المسائل المطروحة على بساط المناقشة والبحث هو المشاكل الكنسية الداخلية، وكيفية معالجتها معالجة تؤدي إلى وأد كل ما يدعو إلى الشقاق ويسببه، واستمر العرض والبحث والنقاش والجدل حول مسائل عقائدية بحتة مدة بلغت تسعة أيام سويا، حتى إذا كان يوم الختام للمؤتمر - وهو اليوم العاشر - أشار البابا من غير سابق إشارة أو توجيه منه أو من أحد كبار رجالاته إلى ما يكابده مسيحيو الشرق من معاناة في ظل الحكام المسلمين، وما «علمه» من «معاناة» بيت المقدس، وما يلقاه - كما علم - في ظل الحكام المسلمين، ولم يبين البابا لسامعيه علام يعتمد في كل هذه التهم من وثائق أو رسائل أو اتصالات على مستوى عال تبرر الدعوة للخروج إلى القدس لنجدته، لكن لما كان سامعوه من طبقة تحركها العاطفة، وتستهويها حلاوة اللفظ وحسن إيقاعه، وتتأثر بالانفعالات المؤقتة، فقد اندفعوا رافعين عقيراتهم بأن هذه هي إرادة الله أن يخرجوا إلى القدس، وكان لبلاغته ما حرك قلوب سامعيه فاعلنوا - في عزم بات - على أن يبذلوا الأرواح وما يملكون، وهل يملكون شيئا إلا أرواحهم لنجدة إخوانهم، ثم أي إخوان هؤلاء الذين يسعون لخلاصهم ولم يكن في القدس إلا قلة من المسيحيين، بل إن المحاربين دعاة كليرمونت حين قبضت الحياة لمن بقي منهم إلى الفتح لم يجدوا من المسيحيين إلا نفرا لا يصلحون لأن يكونوا سكان بلد.

على أن أول من تطوع للخروج إلى الشرق كان أديمار أسقف بوي الذي جعله البابا نائبه في هذه الرحلة الحربية. ثم راح البابا يزيد في إغرائه العامة على الخروج والحرب، فأعلن أن الكنيسة سوف تغفر ما تقدم من ذنوب من يخرج للحرب، أيا كانت ذنوب هؤلاء الخارجين وخطاياهم، فكان ذلك ماءً قراحا لألسنة حرى أمضّها الظما، ورأت الدهماء وطبقات المجتمع الدنيا خلاصا من آثامهم وجبًّا لها، وكان فيهم - كما قلنا - لصوص وقطاع طرق وسفكة دماء ومغتصبون، وأقوام يعف المرء الصالح عن مسايرتهم ومعايشتهم إلا أن يقضي عليه في أيام محنة لا يستطيع دفعها.

أما البابا فلم تكن تعنيه مكانة من يخرجون، وإنما الذي يهمه كثرة من يخرجون.

وكان البابا أسكرته نشوة انتصار دعواه في كليرمونت، فانطلق في الشهر التالي - ولمدة ستة أشهر تالية - يدعو للحرب في شتى الأماكن والبلاد الأوروبية التي يبلغها، حتى استجابت له جنوة، وهي ذات الأساطيل الكبيرة، فكانت أول جمهورية إيطالية بحرية لبت النداء واستجابت للدعوة البابوية، وكانت بعيدة النظر تعمل على خدمة مصالحها الذاتية، إذ سنراها تجني ثمار موقفها في حصولها على امتيازات تجارية في فلسطين إثر انتهاء هذه الحرب الكالحة.

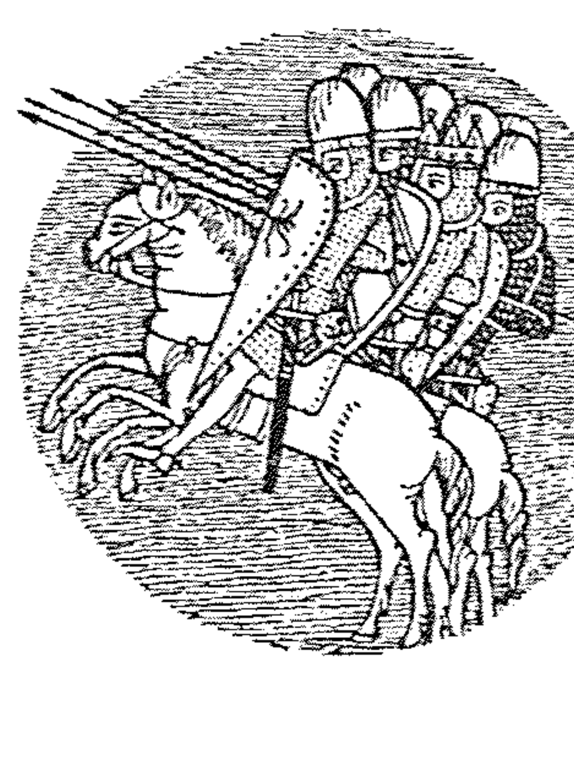
أما العامة فقد وجدوا أكبر محرك لهم في رجل ديماجوجي نعرفه ببطرس الناسك وما نرى دماء كثيرة من هلكى هذا الخروج إلا معلقة برقبته ويده.

لم يكن بطرس هذا بالناسك، وإنما هو نعت يبرأ منه النساك، حتى أن قاموس القديسين لبنجوين الصادر حديثا لم يدرجه بين النساك أو القديسين الذين مهما كانت آراء بعضهم، إلا أنهم كانوا رجالا لا يملك الإنسان إلا احترامهم وإن اختلف في الرأي معهم اختلافا كبيرا. غير أن هذا البطرس الذي ليس بناسك نجح في إثارة الرعاع واستحوذ على ألباب العامة والدهماء حيثما ذهب وأتى وحل، وتهافت الناس عليه ملبين دعوته في الخروج وهم لا يدركون مدى الأخطار التي تعترضهم، ولا عظم المسافة التي لابد أن تفصلهم عن الموضع الذي تهوى نفوسهم الذهاب إليه، ولا أي البلاد والأقطار التي عليهم اجتيازها، وماذا تطلب من قوم لم يخرجوا من الإقطاعيات الصغيرة التي يملكها ويملكهم هم أنفسهم سيدهم الإقطاعي، والتي ما كان لهم أن يتجاوزوها حسب النظام الإقطاعي السائد.

وأغرى نجاح بطرس رجلا آخر اسمه وولتر المفلس Walter the Penniless، فاتبعه واتبعت صاحبه الألوف المؤلفة وهي جاهلة بأصول الحرب وفنون القتال، وإنما اندفعوا يحركهم الجهل المطبق، وما كان ينبغي أن يؤذن لهم بالحرب مما ندين به البابا أيضا، فقد كان عارفا بكل شيء عن العدو، وكان قادرا على أن يمنع أتباعه حتى يضمن ألا يصيبهم ما أصابهم. فقد كان ما أصاب المحاربين من أهل هذه الطليعة حتى بلوغهم آسيا الصغرى - وقبل أن يحققوا أي نصر - نكبة ألمت بهم حتى بلغ من إنكار بطرس الناسك أن فرّ ناكصا على عقبيه وترك أتباعه الذين صدقوه يلاقون أسوأ صورة من الهلاك.

لقد خرجت جموعهم الغفيرة وفيها النساء والأطفال والعجزة ومن لم يسبق لهم الخروج من الأرض الإقطاعية التي عاش فيها أجدادهم وآباؤهم وعاشوا هم فيها وأولادهم لكنهم ساروا، فلما بلغ الأحياء منهم القسطنطينية لم يأذن لهم ألكسيوس الأول بالتقدم حتى يصل قائد جماعتهم بطرس الناسك الذي كان لاختياره الطريق البري، ولم يكن معه ومعهم من المال ما يدفعونه لاستئجار السفن - أقول كان لاختياره هذا الطريق البري أثره الضار، فاشتد بهم الجوع بل وأهلك الكثيرين مما حملهم على أن يسلكوا كل طريق مهما تكن بشاعته، ولا يرضى عنه الرجل العادي، بله كل ذي خلق ودين، فامتدت أيديهم بالسلب والنهب ولم يقيموا وزنا للأديرة ولمن فيها، ونهبوا القرى والضياع وأفسدوا الزروع وأضروا بالضروع.

كان غضب ألكسيوس شديدا على هؤلاء الحجاج وحق له أن يغضب، ولكن الذي يعنينا هنا هو أن هؤلاء المحاربين أو جند المسيح، كما يحلو للبعض تسميتهم، استهلوا حركتهم بالإساءة إلى إخوانهم في الدين. ولما كان الإمبراطور داهية، فقد أدرك أنه لا قبَل له بقتالهم أو اعتراضهم، وعلم أن عملا مثل هذا العمل من جانبه يسخط عليه في أوروبا من يصدر سخطه عن حق ومن يراه فرصة لتأليب الناس على الإمبراطور، فغلب مكره مكر الماكرين، وقدم للحجاج العامة ما في ظاهره الرحمة والإحسان، ولكن في باطنه العذاب والهلاك حين يسر لهم عبور البسفور، ففرحوا وما علموا



.. ثم راح البابا يزيد في إغرائه العامة على الخروج لنجدة القدس، فأعلن أن الكنيسة ستغفر لكل من يخرج للحرب ما تقدم من ذنوبه أيا كانت.. ولم تكن تهمه في ذلك مكانة من يخرجون وإنما كثرتهم.. وطبعا رأى الدهماء في هذا العفو خلاصا من آثامهم

أنهم بدخولهم آسيا الصغرى إنما أصبحوا في فم الأسد، وأنهم يواجهون خطرين، أقلهما ضررا - إن قيس بالآخر - أن يلاقوا السلاجقة، وأما الثاني وهو ما لا يستطيعون دفعه، فالظما في صحراء آسيا الصغرى، والجوع في أرض لا زرع فيها ولا ضرع.

ومختصر القول أن من تمكنوا من عبور البسفور بتدبير من الإمبراطور، إنما وجدوا المنايا كأسوأ ما تكون المنايا، فكانوا بين صرعى المجاعة وهلكى الظما، وقتلى حرارة الشمس، وبرودة الليل القارسة. فأصبحوا أو أصبح أغلبهم ممن تنهشهم وحوش الفلا، وتحوم فوق جيفهم الطيور الجارحة، حتى أن الذين جاءوا من بعدهم هالتهم آلاف الهياكل العظمية لإخوان لهم سبقوهم فحزنوا وأدركوا أن وراء هذه الفجيعة العظمى يد ألكسيوس كومنين، فكرهوه وكرهه مسيحيو الغرب وعدوه خائنا ومتآمرا على المسيحيين الغربيين.

على أنه جاء في أثر هذه الحملة المنكوبة التي عُرفت بحملة الرعاع حملات أخرى عرفت بحملات الأمراء النظامية، الذين كان لهم رغم اختلاف أصولهم وبلادهم من مقدرتهم وممارستهم الأمور، ما لا تعرفه العامة والغوغاء، ولكن كان قدوم هؤلاء الأمراء ينطوي على خطر لم يغب عن ذهن الإمبراطور ألكسيوس من مطامع ذاتية لا يراعون فيها دينا، ولا شخصا مهما علا قدره، ومن ثم كان التعامل مع هؤلاء يتطلب سياسة جديدة خاصة تقوم على دراسة نفسية لكل منهم على حدة، وتقدير مقدرته الحربية وتنظيماته القتالية.

ثم إن هؤلاء الأمراء - فرادى أو جماعات - كانوا على إلمام بفنون الحرب والقتال الذي يتخذه البعض منهم وسيلة لتمضية الوقت والفراغ، ويتخذه البعض حرفة تكون قوام حياتهم، ثم كان لديهم من التنظيمات ما يؤذي بيزنطة، أرضا وشعبا وأملاكا متناثرة في آسيا الصغرى وأعالي الفرات والشام، وخافت بيزنطة أن تغتنم أمم أخرى هذه الفرصة فتنزل الأذى بالكيان البيزنطي.

واجهت بيزنطة أربع جماعات نظامية صليبية جاءت كل واحدة منها من إحدى المناطق الأوروبية، وكل واحدة منها تحت قيادة أمير إقطاعي تمرس ومن معه بفنون القتال، فأما هؤلاء الأمراء فكان أولهم جود فروى دي بويون، من إقليم لوتارنجيا بفرنسا التي سوف تضطلع بالنصيب الأكبر في الحملات الصليبية على اختلافها.

كان يصحب جود فروى أخوه بلدوين وكلاهما من أهل الثراء، أما الراية فحملها الأخ جود فروى الذي انضم إليه عدد من صغار الأمراء ولكنهم ممن يمكن الاعتماد عليهم، وكلهم من أهل تلك البلاد، ولذلك كانت هذه الحملة الفرنسية الطابع أكثر من أية واحدة غيرها من التي خرجت إلى الشرق استجابة لدعوة البابا ولنيل مكاسب مادية - إقليمية، أو مالية تسعى إليها.

سارت هذه الحملة برا كحملة رعاع بطرس المنعوت بالناسك، ولكنها كانت قد بلغت الغاية في التنظيم، وتعرف ما تسعى إليه وتعرف من تقابل في الطريق، وقد بلغ سمعها ما كان من أمر حملة الرعاع، ورأت أن تشق طريقها في أوروبا عبر بلاد المجريين الذين كانت الشكوك تحوم في صدورهم من ناحية الصليبيين، ويذكرون ما لاقوه على أيدي أتباع الديماجوجي بطرس والمفلس وولتر وفولكمار

الهمجى، وكان ذلك ماثلا فى ذهن جود فروى دى بويون، فبذل جهده فى تجنب كل ما من شأنه أن يغضب المجر، فمنع أتباعه من ارتكاب أى موبقة من تعد أو سلب أو حرق زرع أو دور أو دخول دير، أو نهب ما يمرون به، فكان هذا مدعاة لكثير من الطمأنينة أحسها المجريون والمحاربون الصليبيون معا، وزاد من طمأنينة المجريين أن جود فروى أسلم ملكهم أخاه بلدوين رهينة حتى تخرج الحملة من المجر فيعود إلى جود فروى.

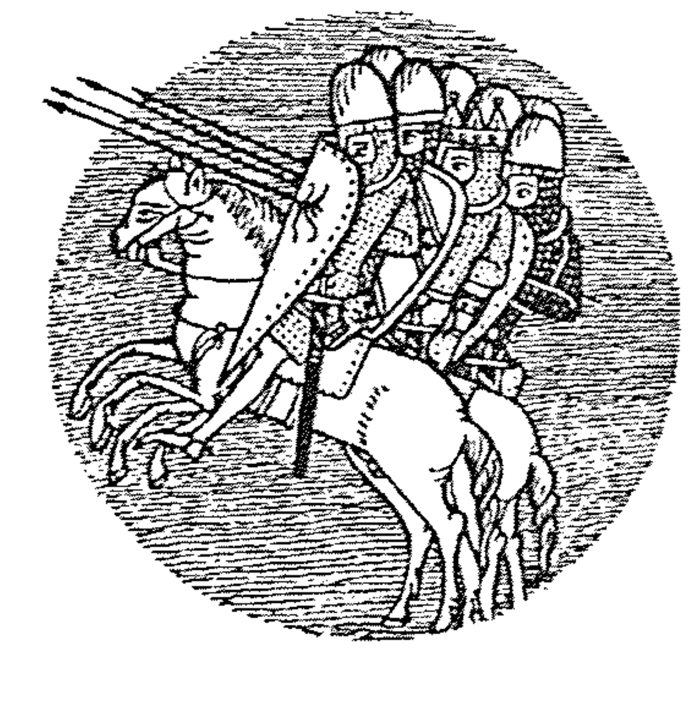
لم يكن فى استطاعة ألكسيوس أن يمنع جود فروى من متابعة رحلته الحربية الدينية هو ومن معه، فإن هو هم بمثل هذا العمل لم يسلم من لوم اللائمين على مجال دولى وربما وجهوا إليه سيوفهم، وقد يزداد الخطر الذى يواجهه - ولابد أن يزداد - ممن يقدرون بعدئذ من اللاتين والفرنجة.

لذلك اتبع الإمبراطور سياسة الموادعة بعهد ارتضاه جود فروى، وهو أن يسير رجاله فى أملاك الإمبراطورية سيرة غير مستهجنة، ولا مغموزة أو مستنكرة من جانب أصحاب البلد، على أن يمدهم الروم بالمئونة التى لا غنى لهم عنها، وزاد على ذلك بأن بذل سعيه فى الوقت ذاته كى يحمل جود فروى على أن يقطع له يمين الولاء، والمعروف أن اليمين لا تكون إلا لواحد فقط، ومعنى قطع جود فروى العهد لألكسيوس أن يكون ولاؤه لا لسيده الأوروبى الرومانى المذهب، بل للإمبراطور الأرثوذكسى، كما أن هذا العهد يفرض على جود فروى أن يكون كل ما يفتحه للإمبراطور البيزنطى.

فلما أصبح جود فروى البولونى أمام أسوار القسطنطينية رفض ما يطلبه منه الإمبراطور، فتعقدت الأمور بين الاثنين بصورة عنيفة تمثلت فى منع بيزنطة تزويد جيش جود فروى الصليبى بالمئونة والزاد، مما يعنى الحكم بموته ورجاله جوعا وظمأ، ومن ثم لم يجد الأمير البولونى بدا من أن ينهى رجاله عن النهب والسلب حفاظا على حياتهم، فعاد ألكسيوس يمدهم بما يحتاجونه مما يقيم أودهم، ولكنه لم يتراجع عن عزمه على أخذ اليمين. ثم جرت أحداث من جانب صليبيى اللورين، ولكن خاتمتها أفهمتهم أنهم لا قبَل لهم بمخاصمة البيزنطيين، فرضخ جود فروى لإلحاح ألكسيوس، وقطع له يمين الولاء، كما تعهد له بأن يرد عليه كل ما يستولى عليه من أرض انتزعها السلاجقة من القسطنطينية، وزاد أيضا بما يكون انتزعها غيرهم منها، فكان معنى ذلك أن الصليبيين الذين جاءوا وفى عنقهم عهد لملوكهم خلعوا هذا العهد، وأنهم أصبحوا يعملون أتباعا حربيين لإمبراطور بيزنطة، فكان ذلك محققا لهوى ألكسيوس، وعاد الصفاء بينه وبين الزعيم البولونى، وأذن بنقله هو وجنده إلى بر آسيا الصغرى.

ثم جاء فى أعقاب ذلك مباشرة النورماندى بوهيموند بن روبرت جيسكارد، العدو التقليدى للإمبراطورية، والواقع أن بوهيموند لم يكن أكثر من مغامر، وقد صحب معه تانكريد ابن أخته ومعه من كان يقاتل بهم فى أمالفى بإيطاليا، والتى رفع عنها الحصار، ومضى بهم إلى القسطنطينية كصليبيين هدفهم فى الظاهر الوصول إلى بيت المقدس.

وسار بوهيموند على غير ما هو متوقع منه، فى الأراضى البيزنطية الأوروبية سيرة نزلت من نفس ألكسيوس كومنين منزلة الرضا، وعجب الناس من سياسة هذا العدو النورماندى، إذ كانت تخالف كل المخالفة سياسة قومه السالفة إزاء إمبراطورية الروم منذ سنة ١٠٨١، كما اتخذ بوهيموند سياسة «تمسكنت حتى تمكنت»، فاقسم - فى غير جدل ولا نزاع - يمين الولاء لألكسيوس الذى قام من جانبه ردا على هذه الخطوة الودية، فاقطعه أرضا فى أنطاكية تلبية لطلبه، وسرعان ما أمر الإمبراطور بتيسير نقل القوات النورماندية عبر



كانت الحملة الصليبية الأولى رد فعل لاستفحال قوة الإسلام منذ ظهوره وانتشاره.. وفرصة للثأر لموقعة «ذات الصوارى» وحصار المسلمين للقسطنطينية، كما اقتنع قادة الحملة بأنهم ذاهبون إلى بلدان وممالك ممزقة الأوصال بسبب حكامها، وعداواتهم لبعضهم البعض، وجريهم وراء مصالحهم

البسفور، لتصل إلى آسيا الصغرى ومنها تزحف إلى الشام.

أما الفريق الثالث من الحملة التى خرجت استجابة لتوجيهات البابا اربان الثانى فى مؤتمر كليرمونت، فقد قدم من إقليم بروفنس بفرنسا، وعلى رأسه ريموند كونت تولوز وبصحبته اديمار أسقف بوى ونائب البابا، مما أكسب هذا الفريق أهمية خاصة، حتى إذا بلغت هذه الحملة القسطنطينية. والتقى ألكسيوس بقائدها المعروف فى المراجع العربية بالصنجيلى، وفى المراجع الغربية De Saint Gilles، رفض الكونت أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور، وأصر إن أراد العاهل البيزنطى مثل هذا اليمين على أن يعلن من جانبه أنه سوف يصاحب الحملة بجيش رومى، حتى يبلغوا القدس، فعز هذا الطلب على ألكسيوس وعدّه أمرا وثلما لشرفه وهيبته، فمن ذا يكون ريموند إن قيس بالكسيوس، فما هو إلا أمير إقطاعى، وأوشكت الأمور أن تفضى بين الاثنين إلى حرب وإلى ثلم فى الصف المسيحى: أرثوذكسية ورومانية. وهل يكون ريموند مثله إلا مثل جود فروى وبوهيموند وقد قطع كل منهما يمين الولاء للجالس على عرش القسطنطينية.

ونترك صاحبنا ريموند لحظات لنستقبل الفريق الأخير من الصليبيين المحاربين الوافدين من أوروبا استجابة لتوجيهات اربان الثانى، وكان هذا الفريق وهو الرابع بقيادة روبرت بن وليم، وستيفن كونت بلوا وشارتر، اللذين بادرا إلى إعطاء يمين الولاء فى يسر وسهولة ورضا، فحظيا بعطف كبير من جانب ألكسيوس الذى أغدق العطاء عليهما وعلى من معهما إغداقا أنساهم مشاق الرحلة.

وهكذا تحقق لألكسيوس كومنين الأول ما شاءه من جعل الحملة بأكملها تقريبا رهن إشارته، ولو فى الوقت الحاضر مؤقتا.

ووفد عليهم مرة أخرى بطرس الناسك، وانضم الحجاج المسلحون بعضهم إلى بعض، واتفقوا على مهاجمة نيقية مركز تجمع السلاجقة، وشاركتهم كتيبة بيزنطية ضئيلة العدد، ذرا للرماد فى العيون. وعلى الرغم من أهمية نيقية للسلاجقة، إلا أن المحاربين الصليبيين الذين بلغوها لم يجدوا ما يكافئ خطورتها، استعدادًا وجندا. ويعلل بعض المؤرخين هذا التقصير من جانب صاحبها قلج أرسلان، بأنه كان فى شغل ضد الدانشمنديين، ويدللون على هذا من جانبه أنه سرعان ما نهض إلى نيقية حين أدرك مدى خطر التجمع الصليبى، ولكن إدراكه هذا جاء متأخرا وبعد أوانه، إذ ما لبثت حامية البلد أن استسلمت وفوجئ الصليبيون بالرايات البيزنطية تخفق على أسوارها وعلى قلعتها وذلك على غير توقع من الحجاج، وفسروا ذلك بأنه جرت اتصالات سرية بين الحامية الإسلامية لنيقية وبين البيزنطيين الذين فى جانب الصليبيين، فكان ذلك الاستسلام ضربة للأخيرين، إذ تكشف لهم الأمر عن خديعة، وأن اتصالا سريا جرى من وراء ظهورهم مع أهل نيقية.

لم يعتبر الصليبيون الاستيلاء على نيقية نصرا لهم بل كسبا للإمبراطور ألكسيوس تم من وراء ظهورهم وتأكد لديهم أيضا أن أمورا تجرى فى الخفاء، لكنهم لم يكونوا فى وضع يستطيعون فيه أن يقوموا بعمل ما أو ضرب الخيانة، ومن ثم لم يكن لهم بد من إغماض عيونهم على القذى، ورأوا أن بعض الشر أهون من بعض، فلو ناصبوا ألكسيوس العداء لكف عن تموينهم وإرشادهم فى مجاهل هذه الصحراء المهلكة فى آسيا الصغرى، وما وعدهم به من مرافقتهم أو مرافقة جنده لهم فى زحفهم المقدس. فإنه إن فعل هذا أو ذاك كان فيما يفعل الهلاك لهم. ومن ثم جدد الأمراء يمين الولاء، كما لم يعد أحد منهم يكترث إن هو سعى جهرًا وعلانية لما فيه صالحه، وتركوا القدس فإن لها ربا يحميها، وكان هذا أمرا أخفاه كل منهم فى صدره، ولكنهم رأوا أن يصطفوا وأن يكونوا يدا واحدة، فكتب لهم النصر فى وقعة عرفت بوقعة روديليوم أو اسكى شهر.

على أن المطامع الصليبية الشخصية ما لبثت أن ظهرت حين انفصل بلدوين أخو جود فروى ومعه تانكريد، وهما فى بعض الطريق، واتجها شطر أرمينية ولكن بعد أن خرج السلاجقة من جزء كبير من أراضى الأناضول.

تجمع الانفصاليان بلدوين البولونى وتانكريد ونجحا فى الاتصال بالأرمن فى الرها، مما أسفر عن أمر عجيب هو ترحيب أرمنها ببلدوين ترحيبا لم يكن له ما يسوغه ويجعله مفهوما، إلا أن يكون نتيجة مؤامرة دُبرت بليل، كما تدل على حدوث شرخ فى الصف الصليبى، كانت أول بادرة له تتمثل فى انفصال بلدوين أخى جود فروى عن بقية الجيوش الصليبية التى كان مفروضا فيها أنها زاحفة بكل طوائفها وفئاتها إلى القدس، ثم أعقب هذا الانفصال دخوله الرها من غير حرب، بل إن العجيب هو ما أبداه عاهل الإمارة وأهلها الأرمن من الترحيب ببلدوين، الذى ليس له سطر واحد فى تاريخها بالخير أو بالشر، مما يبعث الفكر على الذهاب مذاهب شتى، أقلها أن دخوله الرها بهذه الصورة لم يكن وليد يومه، ولكن سبقته اتصالات مريبة مهدت الأرض لأن يحدث ما حدث.

ومما يزيد الأمر تعقيدا فى محاولة تفسير هذا الحادث، هو أن بلدوين انفرد بالحكم دون شريك، وهكذا تأسست أول إمارة لاتينية فى الشرق فى بقعة لم تكن البابوية ولا المساهمون فى الخروج يدخلونها فى حسابهم.

إن للرها أهميتها العظمى فى الوجدان المسيحى، كما أنه منذ هذه اللحظة التى تقلد فيها بلدوين مقاليد الحكم هنا، انقطعت كل صلة له بالصليبيين حملة وهدفا، إلا ما أسفرت عنه الأيام بعد موت أخيه جود فروى من استدعائه المريب أيضا ليتولى حكم القدس لا كحام للقبر المقدس، وهذا هو اللقب الذى اختاره أخوه الراحل لنفسه، ولكن ليكون أول ملك للقدس.

أما فى لحظته الحاضرة فقد أخذ بلدوين فى عمل كل ما من شأنه تأمين حدود إمارته، فاشترى سميساط من أميرها، وتوالى نشاط الإمارة فى عهدها الجديد بمد حدودها على حساب البيوتات الإسلامية الحاكمة، لاسيما بقايا بنى أرتق، ثم انطلق بلدوين يفتح سروج والبيرة وغيرهما، ولم يعد يعنيه من أمر بقية رفاق رحلته الصليبيين الفرنجة شىء، وإن استقدم بعض اللاتين من أوروبا لموازنة العنصر الوطنى فى الإمارة التى صارت له سنة ١٠٩٨ ولكن بالخديعة.

ونترك بلدوين فى إمارته لننظر ماذا كان من أمر بقية رفاق الحملة بعد انفصاله عنها فنراها تتابع زحفها إلى أنطاكية التى كانت هدفا لبوهيموند النورماندى، وكانت لقمة تحلّب شدقاه عليها، وكانت فى يد واليها المسلم

ياغى سيان، الذى رغم اختلاف مترجميه فى شأنه، إلا أنه لم يجد المعونة الصادقة الجادة من القوى الإسلامية على اختلافها.

أما بوهيموند فلم يعدم الوسيلة، وإن كانت قذرة، فى تحقيق هدفه فى الاستيلاء على أنطاكية دون اكتراث بما قد يكون من حق لبيزنطة فيها.

ولم يكن بوهيموند يعف عن أى سلوك ـ مهما بلغت دناءته ـ مادام يوصله إلى هدفه، ولقد حدث أن خرج من أنطاكية سريانها وأرمنها، واختلف المؤرخون فى سبب هذا الخروج، فمن قائل أنه كان بأمر من ياغى سيان، لعدم اطمئنانه إلى طواياهم الخفية، ومن قائل بل خرجوا من تلقاء أنفسهم ليكونوا عونا وعينا للاثنين بدليل تركهم نساءهم وأولادهم بها.

فإن صح القول الأول، فالحق مع ياغى سيان، إذ كانت التجهيزات والنجدات البحرية الأوروبية تترى على الفرنجة وفيهم نرمان كثيرون.

إن بعض المصادر ـ وهى عربية ـ تقول إن الصليبيين وجدوا ترحابا ـ أو على الأقل تراخيا ـ من جانب الفاطميين الذين أرسلوا سفارة بهذا المعنى للفرنجة، فإن صح هذا السعى الذى يؤكده مصدر موثوق به، وهو الكامل لابن الأثير فى العربية، وأكثر من مصدر غربى كان ذلك دليلا على تفسخ عرى الوحدة بين المسلمين، وهو أمر لم يعد خافيا على الفرنجة الذين أدركوا بذلك أنهم بالغون ما جاءوا من أجله، ولقد بقيت أنطاكية تعانى الوقوف فى وجه الدخيل، فلا مصر أنقذتها، ولا دمشق أنجدتها، ولا حلب أسعفتها، ثم كانت وقعة العمق التى انتهت بانتصار اللاتين عند حصن حارم، وبادروا بالاتصال سرا برجل فى يده مفاتيح أنطاكية واسمه فيروز، وكان من أسرة احترفت الزرادة، وقيل أنه أرمنى تظاهر بالإسلام وتراسل سرا مع بوهيموند، ثم أسلمه البلد على غير علم من أهله أو علم بقية الصليبيين، فدخل بوهيموند أنطاكية ورفع علمه على قلعتها، وقامت بذلك إمارة صليبية لاتينية بالشام لتكون رأس حربة فى قلب بلاد الشام رغم ما دب من نزاع بين بوهيموند وريموند الصنجيلى.

كان من المتوقع حسب الاتفاق بين ألكسيوس وزعماء الفرنجة أن يردوا أنطاكية إلى العاهل البيزنطى، لكن بوهيموند أنكر هذا الاتفاق وتنكر له، وعزّ عليه أن يتخلى عن أنطاكية فاتحا وأميرا.

ولما تم فتح أنطاكية على هذه الصورة رأى الصليبيون ألا جدوى من البقاء بها والجدل حولها، ومن ثم قرروا متابعة زحفهم إلى غايتهم العظمى وهى بيت المقدس.

كانت مقدمات الزحف إلى القدس هى اجتماع الصليبيين فى كنيسة القديس بطرس بأنطاكية ليقرروا خطة الزحف، فقد خافوا تفرق الآراء تبعا للأهواء الشخصية، وكانت صيحة التجمع «القدس» وكان لوقعها رنين عذب فى السمع وأثر طيب فى القلوب.

وشهدت الأيام القليلة التالية اتصالات بين أمير شيزر وهو سلطان بن منقذ وبين ريموند الصنجيلى، حيث وعد الأمير المسلم الزعيم اللاتينى بمده بكل معونة مادية ومعنوية، كما زوده بدليلين فرأى ريموند الاستفادة من هذه الفرصة المتاحة له ليستولى على بلد ساحلى تابع لابن عمار صاحب طرابلس وهو فى طريقه إلى القدس، على حين رأى فريق آخر من الصليبيين سلوك طريق آخر غير هذا الطريق، لكن الملاحظ أنه توافد على اللاتين رسل الأمراء المسلمين من بعض حكام الشام يعدونهم العون، كما لو كانوا من أهل دينهم وبنى جلدتهم، وبعث هؤلاء الأمراء الخونة بالهدايا والمؤن إلى المغير دون طلب منه إليهم، بل إن صاحب طرابلس وكان إذ ذاك فخر الملك ـ وهو من أسرة بنى عمار ـ بعث إلى ريموند ما يشير إلى تذلله له وأخذ على نفسه أن يدفع له جزية كبيرة، مما أغرى رفاقه على حثه على الاستيلاء على طرابلس التى كانت عينه عليها أسوة بما تم لبلدوين فى الرها وبوهيموند فى أنطاكية، فزحف وزحف الباقون على «عرقة»، ولم يتورع أحد حتى جود فروى بمن معه عن مد أيديهم إلى ما يصادفهم من القرى والمزارع، ولم يجدوا مقاومة ما.

وتابع الفرنجة بقيادة جود فروى زحفهم إلى القدس التى لم تجد أى عون من مصر الفاطمية بحجة يقولها المدافعون عن موقفها بأنها كانت كارهة لنفوذ السلاجقة، وتتمنى لهم الهلاك، وهل هناك هلاك للسلاجقة إلا أن يأتيهم على أيدى الصليبيين الذين هم وحدهم الآن القادرون على ضرب الأتراك عدو الفرنجة والفاطميين، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالوقوف فى وجههم حتى لو كان هذا الوقوف إلى جانب الشيطان، فأملى ذلك موقفا كان سبة الدهر وعار الأيام.

لقد أصبح الفرنجة الغزاة على رمية قوس من القدس، وما من أحد يعترض طريقهم، بل إن الكل أصبحوا ـ من ذعرهم ـ أشبه بمن وقعوا فى سبات أو غيبوبة، فهم ينظرون بعيون مفتوحة، وقد تدرك الخطر ولكن الخوف سيطر على نفوسهم حتى لم يعودوا قادرين على عمل شىء لصده، بل لعلهم أخذوا يوطنون أنفسهم على التعايش فى ظل هذا الخطر.

إن الغزاة يتقدمون ولم تعد بلاد الشام تمثل أية عقبة فى طريقهم، ولم يعودوا يأبهون قط بأهل البلاد، فما هم إلا فراشات لا حول لها ولا قوة، وإنها لفراشات تطير ويجذبها لهيب النيران الذى لا تلبث أن تسقط فيه فتهلك.

إن أصحاب السلطة فى هذا المجتمع الإسلامى ـ ومن بيدهم الأمر ـ لم يصبحوا مكمن خطر أو مثار خوف، وهل أدل على عدم اعتداد الصليبيين بهم من موقفهم من الأفضل شاهنشاه يوم تقدم بمحالفتهم بغية الوقوف فى وجه السلاجقة، فردوه خاسرا. إذ ماذا يجديهم ما يعرضه وهم فى غير حاجة إليه وإلى غيره ومثله. فقد خلت الساحة من أحد يخاف منه أو يرتجى نفعه، وقد صارت الأمور ـ أوكادت ـ أن تكون فى أيديهم، وها هم ذا منذ مايو ١٠٩٩م يرون الحكام يعرضون عليهم الأموال والغذاء والمئونة، بل ويؤمنون لهم طريق الزحف إلى الحرم الذى وصلوه، فلم يهب لدفعهم سوى الأهالى الذين لا يملكون إلا الدعاء والاستغاثة، فراح اللاتين يرمونهم بالمنجنيق وغيرها من آلات القتال، وأقاموا برجين لقتال المدينة.

وكان ليل ثم كان صباح عبوس.

وأسفر فجر الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ عن جحافل الصليبيين ـ وليست بالكثرة التى كانوا عليها يوم خروجهم من أوروبا ـ تدخل القدس وتصب نقمتها وتصيب فيما تصيب المسجد الأقصى، وتطأ أرضه خيولهم بسنابكها، بعد أن كانت جباه المؤمنين تمسه وتقبله.

وصاح صائح لقد دخلوا القدس.

وصاح غيره ها هم يقتلون الشيوخ والعجائز والشباب والرجال والنساء والأطفال والعذارى والغلمان والصغار على صدور أمهاتهم لتتناثر الدماء فى كل مكان.

وظل الصليبيون على مدى أسبوع كامل تثير شهوتهم رؤية الدماء، وتطرب آذانهم أنات الجرحى والقتلى.

وزالت يومذاك راية المسلمين وحلت رايات أقوام لا يعرفون الرحمة، وإن كانوا من أتباع من سبيله الرحمة والمحبة.

لقد كان يوم ١٥ يوليو ١٠٩٩ وصمة عار لا تمحى من جبين الإنسانية، وكان صرخة حق مهيض فى أذن التاريخ، فهل أصاب الصمم أذن التاريخ؟! ■

كتاب الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهى

• «مريضة الأجفان» لابن عربى

ـ محيى الدين بن عربى، ولد بمرسية إحدى بلاد الأندلس سنة ٥٦٠ هجرية. وانتقل منها إلى أشبيلية ثم سافر إلى مصر ودمشق وبغداد. وتوفى بالشام عن ستة وسبعين عاما، وأشهر كتبه «الفتوحات المكية» الذى يعد واحدا من أمهات كتب التصوف.

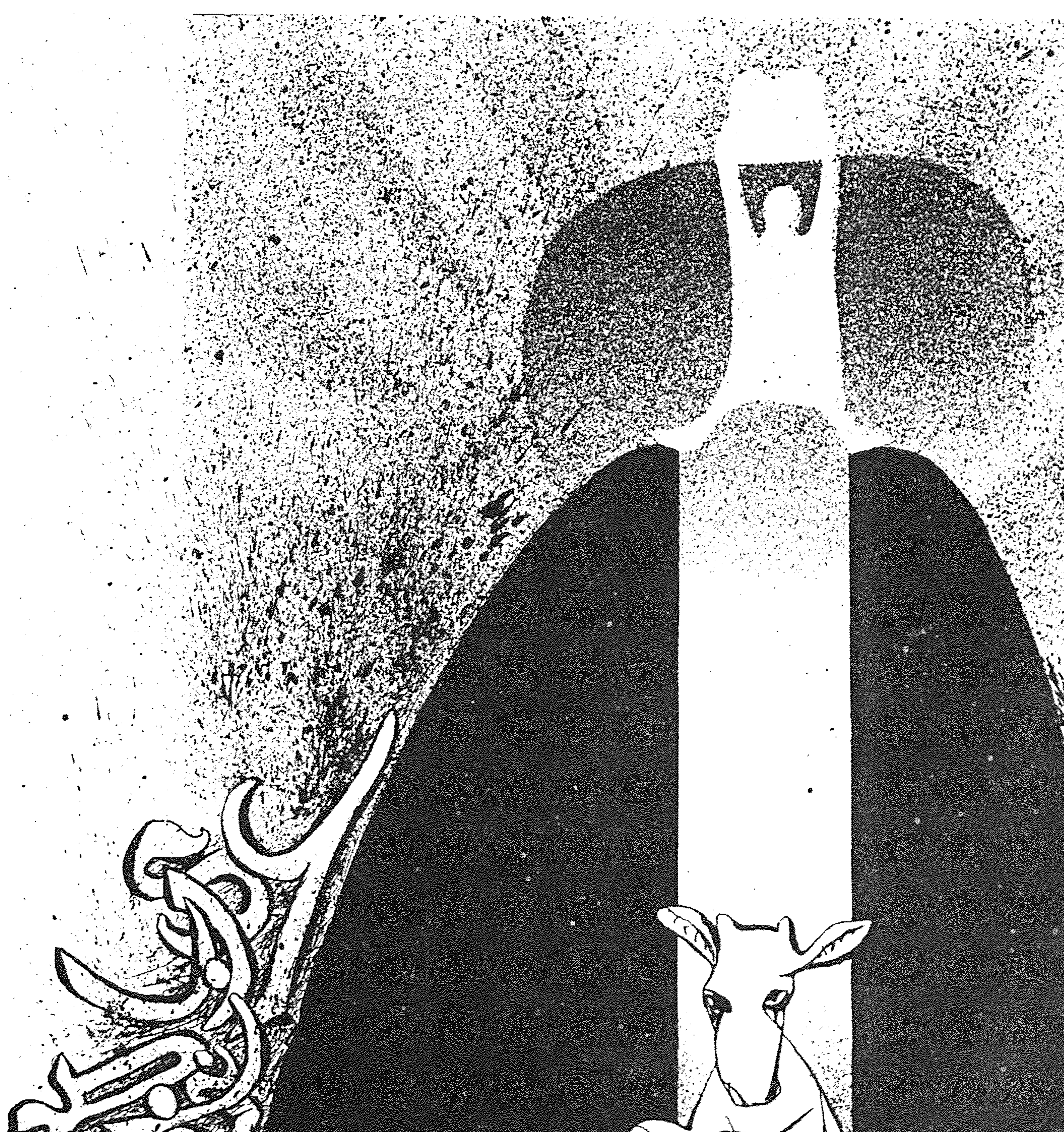
مَرَضِى من مريضة الأجفان
علّلانى بذكرها، عللانى
هفت الوُرق بالرياض وناحت
شجوُ هذا الحمام مما شجانى
بأبى طفلةٌ لعوب تهادَى
من بنات الخدورِ بين الغوانى
طلعتْ فى العيانِ شمسًا، فلما
أفلتْ أشرقتْ بأفق جنانى
يا طلولا برامة دارسات
كم رأت من كواعبٍ وحسان
يا خليلىّ عرجا بعيانى
لأرى رسم دارها بعيانى
فإذا ما بلغتما الدار حُطا
وبها صاحبىَّ، فلتبكيانى
وقفا بى على الطلول قليلا
نتباكى، بل أبْكِ مما دهانى
الهوى راشقى بغير سهام
الهوى قًاتلى بغير سنان
عرّفانى إذا بكيتُ لديها
تُسعدانى على البُكا تُسعدانى
طال شوقى لطفلةٍ ذات نثرٍ
ونظامٍ ومَنبرٍ وبَيان
من بناتِ الملوك من دار فُرسٍ
من أجلّ البلاد من أصْبهان
هى بنتُ العراق بنتُ إمامى
وأنا ضدّها سليلُ يمانى

«أرض الميعاد» ليست «أرض الميعاد»

الخرافة والحقيقة: خفايا اليهود.. وحروبهم.. وخروجهم!

زيـــاد مـــنى

مغامران أمريكيان تسللا إلى المملكة العربية السعودية بحثا عن جبل سيناء الحقيقي في شمالي غربي المملكة.. حيث يعتقد أن الموقع المقصود هو جبل اللوز قرب مدينة تبوك شمالي الحجاز.. وكان القصد من وراء المغامرة هو الوصول إلى الذهب الذي تقول التوراة أن «العبرانيين» تركوه وراءهم قبل الاتجاه إلى أرض الميعاد»



يلاحظ المتتبع للدراسات الإنجيلية أنه من النادر أن يمر عام واحد دون أن تشهد سوق الكتب في الغرب بشكل عام وفي الولايات المتحدة بشكل خاص، صدور مؤلف جديد يؤكد أنه يقدم أخيرًا «الإثبات القاطع والنهائي» على مصداقية العهد القديم الذي يعتبر كتاباً مقدسا لدى كل من اليهود والمسيحيين، والعهد الجديد الذي ينفرد بتقديسه المسيحيون.

ومع اقتراب عام ألفين تتصاعد وتيرة الخطاب المسيحي المبشر بالقيامة وبدء حكم إله التوراة يهوه عبر مسيحه، ويتزايد عدد المؤلفات والاكتشافات المزعومة المرتبطة بالموضوع والقائلة بظهور علامات القيامة. ومن ذلك على سبيل المثال الهوس الذي اندلع بين صفوف بعض غلاة التلموديين حول خرافة البقرة الحمراء، والتي تنبيء ولادتها في فلسطين بقرب مجيء المسيح المنتظر. وقبل الاسترسال في مناقشة تلك الظاهرة يجب التذكير بأن قدوم المسيح يعني في الكتابات ذات الصلة ـ سيادة اليهود واليهودية على العالم ـ على أن تسبق ذلك مجموعة من الأحداث على رأسها إعادة بناء ما يسمى بالهيكل، أي «المعبد» المنسوب تأسيسه إلى سليمان بن داود والذي لا يمكن أن يبنى مجدداً إلا مكان قبة الصخرة والمسجد الأقصى في مدينة القدس المحتلة.

ومن الدلائل الهامة الأخرى التي تشهد على تعالي النبرة الحماسية للخطاب المسيحي ذلك المؤلف الذي نشر العام الماضي في الولايات المتحدة تحت عنوان «شفرة الإنجيل»، والذي ذاع ذيوعا واسعا في الغرب وترجم إلى العديد من اللغات الأوروبية وهو وكما يدل عنوانه، يفيد أن التوراة تحوي برنامج كمبيوتر يسجل ما جرى في العالم وما سيجري فيه ويتحدث كُتّابه من حاخامات وعلماء رياضيات عن اقتراب موعد يوم القيامة الذي سيكون على شكل حرب نووية تجتاح المشرق العربي، ويعيدون التذكير بقرب قدوم المسيح و«إعادة» بناء هيكل القدس بدوره على أنقاض المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

وإلى جانب تلك الكتابات التي تعتمد المقولات المبسطة ولا تنبني على حقائق علمية بل تعتمد على تجييش العواطف الدينية لأشياعها من عامة الناس غير المطلعين على تعقيدات الموضوع وتشابكاته، فقد شهد الغرب في الوقت نفسه نمطاً آخر من الكتابات الإنجيلية الموجهة إلى أهل الخبرة وأصحاب الاختصاص تزعم التوصل أخيراً إلى إثبات أن الرومان هم المسئولون الحقيقيون عن قتل يسوع المسيح متجاوزة بذلك المبدأ الكنسي المعمول به منذ ولادة المسيحية والذي يلقي بالتبعة الكاملة على اليهود، وهو ما يرد بصريح العبارة في الأناجيل الأربعة بشكل عام، وفي إنجيل يوحنا بشكل خاص.

وهنا يحق فعلاً للمرء أن يتساءل عن مدى جدية آخر الاكتشافات هذه وما سبقها بالطبع، مادام أهل الاختصاص يؤكدون المرة تلو الأخرى أنهم عثروا أخيرا على البراهين الدامغة على أن الإنجيل على حق نصا وروحا.

وفي الوقت الذي يسفر فيه تفحص هذه الاكتشافات وما يماثلها عن هشاشتها البالغة ويقود لانهيارها أمام أول اختبار علمي لها، فمن الواضح أن هدف طرحها ومعها التأويلات المرافقة لها، إنما هو استكمال الخضوع لشروط

١ـ The Gold of Exodus : The Discovery of the True Mount Sinai
(ذهب الخروج: اكتشاف جبل سيناء الحقيقي)
Howard Blum
New York Simon & Schuster, 1998.

٢ـ التوراة جاءت من جزيرة العرب
كمال الصليبي
بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥.

المصالحة التاريخية بين كل من الكنيسة الغربية من جهة واليهودية من جهة أخرى باعتبارهما معاً الوريث الشرعي والمالك الوحيد لما يعرف في الخطاب الإنجيلي باسم «أرض الإنجيل»، وهو ما ينقلنا مباشرة إلى موضوع مقالنا هذا.

ولا شك أن الكثيرين من القراء سيحتارون في أمر مادة الكتاب موضوع مقالنا، والذي يوحي عنوانه بترجمته الحرفية. «ذهب الخروج: اكتشاف جبل سيناء الحقيقي» بأن صاحبه (وهو مسيحي مؤمن) عن قناعة بأن جبل سيني كما في لهجة التوراة الكنعانية، وجبل سيناء كما في الترجمة العربية التقليدية ليس المكان الواقع في شبه جزيرة سيناء والمطل على دير القديسة كاترين! ومن الجدير بالذكر أن التراث الديني المسيحي ينظر إلى ذلك الموقع على أنه المكان الذي خاض عليه موسى تجربته مع إلهه الذي ظهر له وسلمه الوصايا العشر.

فماذا يعني عنوان الكتاب «... اكتشاف جبل سيناء الحقيقي» إذن؟

إنه يعني ضمن أمور عديدة، إما أن الكاتب يقلب الحقائق رأساً على عقب، وإما أنه يعني أن الكثير من جوانب تاريخ المشرق العربي العتيق لايزال غير معروف، أو لنقل أنه على الأقل لايزال مثار جدال ونقاش لن يحسما إلا بالعثور على براهين واضحة لا ريب فيها. ونحن نتفق معه في هذه النقطة.

وسواء كان غرض المؤلف الإيضاح أو التلبيس، فقد أثار كتابه، ولايزال، لغطا كثيراً في الغرب بشكل عام وفي الولايات المتحدة بشكل خاص، حيث قامت مجلة نيوزويك بالكتابة عنه وعرضه على نصف صفحة في عددها الصادر بتاريخ ٢ مارس 1998 كما نوّه العديد من شبكات التلفزة الأمريكية بهذا المؤلف، ومن ذلك محطة «إن بي سي» التي أجرت لقاء مع أصحاب الاكتشافات المشار إليها مساء يوم ٢٠ أبريل الماضي.

وفي الحقيقة فإن هذا المؤلف مفيد من نواح عديدة، أهمها لفت الانتباه إلى مسألة لا تزال بعيدة عن اهتمام البحاثة العرب ألا وهي تاريخ المشرق العربي العتيق، حيث نجد أن معظم ما نشر حتى الآن في بلادنا عن الموضوع ما هو إلا ترجمة - أحيانا بالغة الرداءة - لكتابات العلماء الغربيين الذين يخضعون المادة لشروط الخطاب الاستشراقي أو الإنجيلي. فإذا كان الخطاب السياسي الغربي ينفي المشرق العربي جغرافياً بأن يطلق عليه اسم «الشرق الأوسط» أو «الشرق الأدنى» أي يعرفه بمدى قربه أو بعده عما يراه مركزاً للعالم، أي الغرب، فإن الخطاب الاستشراقي أو الإنجيلي يلغي وجوده بشكل كامل لأنه يُعرفه على أنه «أرض الإنجيل» ليس إلا، علماً بأن المقصود بذلك بلاد الشام ومصر والعراق وبعض أقاليم شمالي جزيرة العرب وكذلك اليمن.

إن استيعاب تفاصيل الكتاب من قبل القارئ غير المتخصص أو غير المطلع يستوجب برأينا إلمامه بمادته الأساسية، أي علم «الدراسات الإنجيلية». وحيث إن مثل هذا التخصص العلمي ما يزال أرضاً بكراً بالنسبة للقارئ العربي بما يحد من قدرته على مناقشة الموضوع انطلاقاً من أسس علمية صلبة، فمن الضروري التعريف به وكذلك بمنهجية البحث فيه، مستفيدين من كتابات من سبقنا من أهل الاختصاص، آملين أن يفتح هذا الجهد المتواضع الأبواب أمام نقاش علمي متزن بعيداً عن الأهواء والرغبات، المعلن منها والدفين. وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى أن ما ذكر عن حداثة هذا الفرع من الدراسات التاريخية، إنما يعني وعلى وجه التحديد أنه ظل مجهولاً في بلادنا حتى منتصف الثمانينيات، عندما صدر مؤلف «التوراة جاءت من جزيرة العرب» لكمال الصليبي الذي كان حينئذ أستاذاً للتاريخ في الجامعة الأمريكية ببيروت. ففي تلك الفترة وضع المؤرخ اللبناني مؤلفه الذي نشر في بداية الأمر على حلقات في مجلة «دير شبيجل» الألمانية، ثم ترجم إلى اللغة العربية ونشر بدوره مسلسلاً في جريدة القبس الدولي الكويتية قبل أن يصدر عام ١٩٨٥ ككتاب عن مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت وتدور الفكرة الجوهرية للكتاب حول أن ما يعرف في التراث العربي - الإسلامي باسم التوراة، هو تسجيل للتجربة الدينية - التاريخية لبني إسرائيل وليس لليهود، وأن المسرح الذي شهد هذه التجربة كان هو بلاد عسير بجنوب غربي جزيرة العرب وليس فلسطين.. بعبارة أخرى يريد كمال الصليبي أن يقول في كتابه الذي أثار عاصفة لم تهدأ بعد في الوسط العلمي، أن الأحداث التي تحكي عنها التوراة وبغض النظر عن مدى صدقها، لم تجر في فلسطين وإنما في جنوب غربي جزيرة العرب، فمصر الوارد ذكرها في التوراة ليست هي مصر وادي النيل وإنما هي بلدة المصرمة في بلاد عسير، وفرعون المذكور في التوراة إلى جانب موسى لم يكن أحد حكام مصر وإنما كان والي تلك البلدة العسيرية التي كانت تابعة للدولة المصرية الأم على ما يبدو. و«أورشليم» ليست مدينة القدس بفلسطين المحتلة وإنما هي منطقة تعرف حالياً باسم سراة رجال الحجر تقع شمالي بلاد عسير.. الخ.

ولما كنا وقت صدور مؤلف كمال الصليبي نجهل كل شيء عن تدريس مادة «الدراسات الإنجيلية» في الجامعات الغربية، فلقد واجهتنا مجموعة من المعضلات التي رأينا حينئذ أنها رئيسية وأنه يجب أخذها بعين الاعتبار قبل تشكيل رأينا في الموضوع برمته. ورغم أننا شكلنا وقتها في هذا الموضوع دون أن نكون قد درسنا المادة أو أن نكون قد امتلكنا أياً من الأدوات العلمية التي تؤهلنا للحديث فيه فقد طرحنا على أنفسنا وقتها السؤالين التاليين.

أولاً: هل كان ذلك المؤرخ اللبناني سيخاطر بسمعته العلمية ذائعة الصيت - سواء في الشرق أو الغرب - ويطرح موضوعاً ليس ثمة ما يؤكده؟.

ثانياً: هل كانت المجلة الألمانية المرموقة التي عرفت بجدية طروحاتها ستخاطر بسمعتها من أجل مضاعفة توزيعها وإن تبع ذلك سقوط سريع؟ وهل ستتأسى في هذا الشأن بمنافستها مجلة «شترن» التي وقعت ضحية تسرع المسئولين وحماستهم عنها ولم تلبث أن فقدت سمعتها ومركزها في السوق بعدما نشرت مذكرات هتلر التي ثبت أنها مزورة بعد حلقتين اثنتين منها؟

ورغم أننا لا ننتقص الآن من أهمية هذين العاملين - الذاتيين بالتأكيد - إلا أن دراستنا اللاحقة للمادة أوضحت لنا ضرورة إعادة النظر في منطلقنا لتقييم الموضوع والتركيز على المسائل الجوهرية، أي على الحقائق العلمية وعدم استبعاد جانب الخطأ الإنساني الذي قد يحدث عن حسن نية.

وقبل الانتقال إلى استعراض المادة والمنهجية اللتين أوصلتا كمال الصليبي إلى ما انتهى إليه، لابد من القول إن معظم المستشرقين عبروا عن استنكارهم لأطروحة المؤرخ اللبناني ورفضهم لها عبر مجموعة من المقالات والمقابلات التي نشرت في العديد من الصحف الأوروبية والأمريكية دون أن تمنح كمال الصليبي حق التعقيب. ورغم أن أهل الاختصاص الغربيين قدموا العديد من المبررات لرفضهم الفكرة، إلا أنهم لم يتمكنوا في الوقت نفسه من الإجابة على التحدي العلمي الرئيسي الذي تمثله، ألا وهو شرح سبب عدم العثور في فلسطين حتى الآن على أي أثر لبني إسرائيل، وذلك رغم مرور أكثر من ربع قرن على بدء التنقيب الأثري فيها، والذي لم يترك حجرا دون قلبه أو موقعاً دون حفره أو بقايا مبنى قديم دون تفحصه. وبالإضافة إلى هذه النقيصة في ردودهم، نجد أنهم لم يتمكنوا من نقد منهجية البحث، مما يعني أن هذا البحث تم وفق القواعد العلمية المعمول بها.

أما رد الفعل في بلادنا على طرح الصليبي فقد كان مختلفاً. ونعني بذلك انقسام المعلقين عليه بين مؤيد ومعارض، وكأن المسألة ستحل بالتصويت على هذا أو ذاك من الآراء. رأى «المعارضون» في هذا الطرح دعوة للعدو الصهيوني لوضع بلاد عسير على قائمة الأراضي التي ينوي إضافتها إلى «إسرائيل الكبرى». بينما اعتبر معظم أصحاب الرأي المضاد أي «المؤيدون» والمصابون بالإحباط بسبب عجزهم الذاتي أمام قوة العدو، أن هذا الطرح هو المنقذ لأنه على ما اعتقدوا سيعفيهم من مواجهة عجزهم وسيريحهم في الوقت نفسه من العدو الصهيوني الجاثم على أرض فلسطين، كونه سيسحب «البساط التاريخي» من تحت أقدام الصهاينة وسيضطرهم إلى مغادرة الإقليم بحثا عن (أرض الميعاد) على بعد آلاف الكيلومترات بعيدا عنهم!

وقد يقول قائل: وكيف يمكن إهمال العامل السياسي في الموضوع برمته وصراع أمتنا مع العدو الصهيوني لا يزال قائما، والعدو يتطلع إلى التهام المزيد من الأراضي العربية بعدما استكمل احتلال كل أرض فلسطين، ونال من العرب الاعتراف بشرعية هذا الاحتلال؟. والواقع، أنه رغم تسليمنا بالمضمون السياسي للصراع العربي الإسرائيلي، إلا أننا نعتبر أن اللجوء إلى المنهج السياسي كبديل للمنهج العلمي في التحليل، يكشف مدى الإحباط المحيط بنا ومبلغ عجزنا عن التعامل مع الموضوع بروية وفكر صاف. فإذا كان البعض يجد المبررات لإخضاع البحث للاعتبارات السياسية، فإننا نرفض ذلك بشكل قاطع ونشدد على أن النقاش السياسي ينتمي إلى ضرب مختلف من الأبحاث، بحيث يكون من الخطأ الفادح الخلط بين كليهما أو إخضاع أحدهما لمنطق الآخر.

وإذا كان مؤلف «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، وبغض النظر عن مدى صحة طرحه من خطئه، بشكل جزئي أو كامل، قد كشف عن مدى تقصيرنا في بحث ماضينا ومقدار البؤس العلمي الذي يحيط بنا، وأوضح جهلنا بالمادة واعتمادنا على غيرنا ليقرأوا تاريخنا ويعيدوا كتابته على هواهم، فإننا ننظر بإيجابية إليه وإلى كشفه لنا عن أحد جوانب ضعفنا، رغم الآلام المرتبطة بهذه المعرفة. فقد أثار المؤلف، ولا يزال، نقاشا واسعا حول مسائل تاريخية هامة وأثار اهتماما في صفوف الكثير من الأكاديميين والمثقفين العرب، رغم قناعتنا بأن ما نشر حتى الآن، أو لنقل أن ما اطلعنا عليه مما نشر، لا يزال بعيدا عن أن يصل إلى درجة النضج العلمي المأمول.

يدعي كتاب «شفرة الإنجيل» أن التوراة تحوي برنامج كمبيوتر.. وأن موعد يوم القيامة قد اقترب. وسوف يكون على شكل حرب نووية تجتاح المشرق العربي

التوراة، على عكس ما يتوقع البعض، تحوي بالإضافة إلى المواعظ والتعاليم الدينية تاريخا وأساطير وشعرا أولت جميعا تأويلا دينيا

في تلك الحدود، نجد أنه من الضروري البدء بتعريف القارئ بحقائق أساسية عن التوراة. فالأخيرة، وعلى عكس ما قد يتوقع البعض العثور عليه في الكتب المقدسة، تحوي بالإضافة إلى المواعظ والتعاليم الدينية، تاريخاً وأساطير وخرافات وشعراً أُوّلت جميعاً تأويلاً دينيا. وهذا ما جعل الكثيرين ينظرون إلى التوراة على أنها بمثابة تسجيل مسار قوم منذ بداية الخلق. أو بالأحرى منذ ما يعتقد البعض أو يود أن يعتقد أنها بدايته وحتى اندثارهم «الاثني» على يد قوات نبوخذ نصر البابلي حوالي عام ٥٨٦ ق م. ومن أجل تقريب الصورة إلى الأذهان، وبالتنزيل على واقعنا العربي - الإسلامي يمكن تشبيه التوراة بسفر يحوي بالإضافة إلى بعض الآيات القرآنية والأحاديث المنتقاة، تعليقات المفسرين والمؤولين، وكتب السيرة، ومجموعات من أساطير وميثولوجيا جزيرة العرب في العصور الأولى بما فيها إساف ونائلة وأخبار ملوك حمير وكندة والغساسنة والمناذرة وسبأ وريدان وأكسوم، وتفاصيل اجتماع السقيفة والفتوحات الإسلامية وما تلاها من أحداث وصولاً إلى بدء حكم العثمانيين، مع اعتبار ذلك كله تاريخ قريش القبيلة المقدسة التي اختيرت دون كل أقوام العالم لحمل لواء إله السموات الذي عرف بأسماء مختلفة هي هبل وعشتر ومناة وشمس ونحوهم ممن عبدهم أجداد قريش منذ بدء الخليقة أو ما يُخَال أنها بدايتها!!!

فالتوراة تحوي الكثير من النصوص التفصيلية عن الأسباط وتحركاتهم - سواء الحقيقية أم الوهمية - داخل ما يسمى «أرض الميعاد» وخارجها. وفي تلك النصوص الكثير من المواقع الجغرافية المرتبطة بالأحداث موضع التحليل بما يعطي الانطباع بأن هدف كتبتها كان وضع الزمان المطلق ضمن مكان محدد، أي حصر أخبارهم ضمن جغرافيا محددة، وهو بالضبط ما يشرح أهمية الجغرافيا في الخطاب الإنجيلي الذي حول المشرق العربي إلى «أرض الميعاد»؛ وهو أيضا ما يشرح هوس العدو الصهيوني بالأسماء، ويفسر عمله المستمر لتغيير المعالم الجغرافية في فلسطين المحتلة

وإعطاءها أسماءً توراتية، ونظرا لتوافر أعداد كبيرة جدا من أسماء المواقع المرتبطة بأحداث جرت، أو بالأحرى يفترض أنها جرت ضمن فترة زمنية محددة، فإنه يمكن متابعة هذه الأحداث جغرافيا اعتمادا على ما توفر من أسماء لمواقع ورد ذكرها في الكتابات القديمة ومنها ما يعود إلى ممالك الشرق القديمة مثل آشور ومصر.

وبعد هذا المدخل نلتفت الآن إلى أطروحة كمال الصليبي، ونقول إنه أقامها على ركائز خمسة أساسية هي التالية:

١- التحليل اللغوي لنصوص توراتية محددة.

ومن ذلك على سبيل المثال فهمه أن المفردة «التوراتية» [تهموت] تعني «تهامة»، أي المنطقة الساحلية من جنوب غربي جزيرة العرب، علما بأن الرأي التقليدي يرى بأن المقصود هنا «الغمر» أي المياه تحت أرضية - أصل الحياة وفق الخرافات البابلية. وبناء على ذلك فقد قرأ النصوص التوراتية التي يرد فيها هذا المصطلح في ضوء بلاد عسير، لكننا لن نحاول التعمق في الموضوع لأن ذلك يتطلب عمل مقارنة لغوية بين العديد من لغات المشرق العربي القديمة بما سيعقد من الموضوع في ذهن القارئ بدلا من تبسيطه.

٢- إعادة قراءة بعض الأحداث التاريخية التي شهدها المشرق العربي في الفترة محل الاهتمام.

والمقصود بذلك أن وجهة غزوات قوات نبوخذ نصر الثاني البابلي كانت جنوب غربي جزيرة العرب ولم يكن هدفها فلسطين. وقد استعان الصليبي هذا بكتابات الإخباريين العرب التي تتحدث عن تدمير قواته للحجاز.

٣- قراءة نصوص توراتية ضمن جغرافية جزيرة العرب بشكل عام وبلاد عسير بشكل خاص.

ورغم أن كمال الصليبي قصر القسم الأعظم من تقصيه على متابعة جغرافية المواقع الجغرافية التي ترد في النصوص، إلا أنه تناول بعضها، ومن ذلك على سبيل المثال الموقع «جرار» الذي كثيرا ما يتردد في التوراة وبين أن الاسم يشير إلى أكثر من مكان يحمل الاسم نفسه. كما تناول بالتحليل النصوص التوراتية التي تصف حدود «أرض الميعاد» بالعلاقة مع «إبراهيم» و«موسى» التوراة وقدم عرضًا مقنعا لحدودها ضمن جنوب غربي جزيرة العرب.

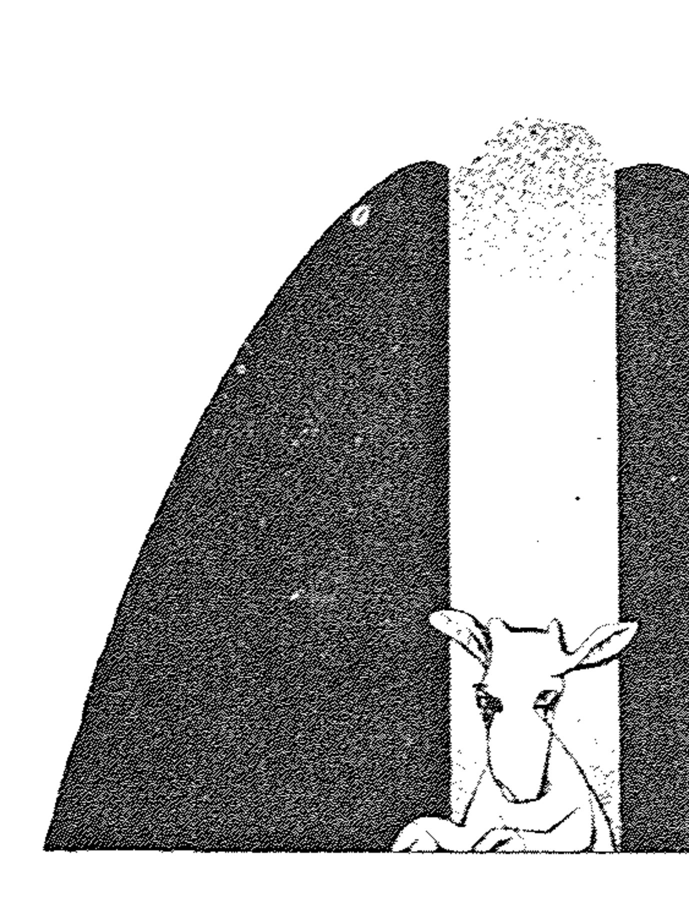
٤- نقد الاكتشافات المعتمدة في الدراسات الإنجيلية.

٥- قراءة نقوش أثرية تعود لبعض ممالك المشرق العربي ضمن جغرافية جزيرة العرب.

بدأ كمال الصليبي مؤلفه بشرح الركيزة الأولى لأطروحته والقائمة على قراءة العهد القديم بلغته أو بلهجته الكنعانية - المعرفة خطأ بأنها «عبرية» - بعيدا عن مختلف الترجمات والتأويلات المعتمدة في هذا التخصص العلمي. وتمكن بفعل ذلك من كشف الكثير من الأخطاء التي ارتكبها العلماء في قراءاتهم وبالتالي في فهمهم للنصوص. وأكد المؤلف، كأحد أهم نتائج أطروحته، أن سبب تلك الأخطاء هو قيام المتخصصين في «الدراسات الإنجيلية» بقراءة النصوص التوراتية متأثرين بأحكام مسبقة. وقدم من جانبه العديد من الاجتهادات اللغوية الجديدة التي تحل ما كان يعتبر من قبيل المعضلات اللغوية والجغرافية في علم «الدراسات الإنجيلية» بسبب قراءته المتجردة للنصوص عن كل المسلمات الدينية والجغرافية المتداولة. كما أوضح الدور الكبير الذي يمكن أن تلعبه اللغة العربية، كأهم لغة سامية حية، في فهم العديد من النصوص التوراتية التي استعصت على علماء الإنجيل حتى الآن، رغم أن الرعيل الأول من العلماء لم يجد حرجا في ذلك.

وعلى سبيل الاستطراد، تطرق المؤلف إلى

لماذا لم يربط القرآن عيسى ابن مريم بفلسطين، بل ربط ولادته بمكة على أساس أن الآية الكريمة: «واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا» هي آية مكية؟



الأداة اللغوية التي استخدمها في تحليله، والتي تهتم بملاحظة تغير موقع الحروف في إطار الكلمة نفسها واللغة بل واللهجة نفسها، كما تهتم بتغير موقع الحروف من لغة إلى أخرى.

نموذج للحالة الأولى تحول كلمة «زوج» في العربية الفصحى إلى كلمة «جوز» في اللهجات العامية. ونموذج للحالة الثانية تحول كلمة «شعلب» في اللغة التوراتية إلى «ثعلب» في اللغة العربية، أو «جلعاد» وهو اسم موقع جغرافي يتكرر في التوراة إلى «الجعد» في اللغة العربية.

ويتحول الصليبي في شرح الركيزة الثانية لأطروحته إلى استعراض ما رآه من تطورات تاريخية سبقت ما يسمى بالسبي البابلي الذي يفترض أنه جرى حوالي عام ٥٨٦ ق م. وما رآه من عوامل أدت إلى نسيان الجغرافيا الأصلية للأحداث المرتبطة بالأسباط. والمقصود بالسبي البابلي ذلك الخبر الذي أوردته التوراة، ولم تؤكده النقوش البابلية ذات الصلة، عن قيام ملك بابل نبوخذ نصر الثاني (والذي عرف عند الإخباريين العرب باسم بختنصر) باقتياد أعيان مملكة يهوذا بعد القضاء عليها إلى بابل وتوطينهم فيها. وقد نوه كمال الصليبي في هذا المقام بأهمية الانتباه إلى موقع «بلاد عسير» على أساس أن قسما من خط التجارة الرئيسي في العالم القديم والممتد من جنوبي جزيرة العرب وحتى شط العرب وبلاد الشام (والذي عُرف باسم درب البخور والذهب) كان يمر عبر ذلك الإقليم الذي يفترض أنه احتضن مملكة يهود بني إسرائيل. ورأى المؤرخ اللبناني أنه في إطار هذه الحقيقة يمكن فهم أبعاد الحدث الهام الذي شهده المشرق العربي لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد والمقصود بذلك «توحد» الإقليم تحت الاحتلال الفارسي، بحيث امتد ليشمل مجمل المشرق العربي ومصر وبلاد الإغريق. وقد كانت إحدى نتائج ذلك «التوحد» القضاء على خطوط التجارة التقليدية للإقليم مع شرقي أفريقيا والهند وجنوب شرقي آسيا، حيث صارت البضائع المستوردة من تلك الأقاليم تنقل بشكل مباشر إلى الخليج العربي.

وعندما سمح الفرس لبقايا السبايا بالعودة إلى مواطنهم الأصلية في جنوب غربي جزيرة العرب - على ما تقوله التوراة - وجدوا أن المنطقة قد خربت اقتصاديا بعد القضاء على خط التجارة القديم. وإذا كان قسم من السكان قد ظل في الإقليم (وهو ما يشرح الوجود «اليهودي» القديم في جزيرة العرب)، فقد انتقل جزء آخر شمالا حيث أطلق أسماء مستوطناته القديمة على مناطق سكناه الجديدة في فلسطين. ومع مرور الزمان خبا الضوء عن الوطن الأصلي باستثناء إشارات عابرة هنا وهناك في كتابات الإخباريين العرب. وقد رأى صاحب الأطروحة أن ذلك الانتقال السكاني هو ما يشرح الوجود المكثف للأسماء التوراتية في بلاد عسير، مقابل خفتها في فلسطين.

وقد شكل ذلك العرض التاريخي أرضية انتقال المؤلف إلى الركيزة الثالثة لأطروحته والتي خصص لها القسم الأكبر من مؤلفه، ألا وهي تحليل نصوص مختارة من مختلف أسفار التوراة تحوي أسماء مواقع في بلاد عسير، تتطابق بشكل دقيق مع ما يرد من أسماء في تلك البلاد، تأكيداً منه على صحة افتراضاته.

ولا مفر في هذا الخصوص، من التذكر مجددا أنه حسب «الدراسات الإنجيلية»، فإن ما من أثر يذكر، نقشاً كان أم مبنى، يربط فلسطين وأرضها بأي حدث توراتي، الأمر الذي برر للمتخصصين فيها وضع جغرافية التوراة التقليدية على المحك، وسمح بإعادة تمحيص تاريخ فلسطين خلال الفترة الممتدة من القرن العاشر قبل الميلاد وحتى ما أشير إليه بالسبي البابلي.

ومن تحليل النصوص كجوهر ركيزته الثالثة، إلى فحص النقوش في ركيزته الرابعة، ينتقل الصليبي مشككاً في سلامة الشائع منها، كونه لا يهدف إلى إثبات صدقية التوراة وتاريخيتها. ومن النقوش التي يعيد المؤلف فحصها، نقش «لكش/ لكس» علما بأن الاسم ينطق «لخش» أو «لخيش». ويحوي هذا الأثر، وهو عبارة عن قطع فخارية عثر عليها عامي ١٩٣٥ و١٩٣٨ في مدينة تل الدوير الواقعة جنوبي فلسطين المحتلة نقشا غير محدد التاريخ أصلا، هو عبارة عن تقارير وشكاوى أرسلها شخص يحمل اسم هوسعيهو. وبدون الخوض في التفاصيل اللغوية المعقدة التي تخرج بنا عن سياق هذا العرض، فإن العلماء الإنجيليين يعتبرون أن هذا النقش يقدم دليلا على أن مدينة تل الدوير الفلسطينية هي نفسها المدينة التوراتية «لخش». وقد قام الصليبي بقراءة النص بلغته الأصلية، لتتضح لنا مرة أخرى حقيقة أن معرفة لغة التوراة ونحوها من اللغات القديمة هي شرط مسبق لأي عمل يمكن أن يدعي الحد الأدنى من الجدية، وأوضح أن ما يقدمه الرأي التقليدي من ترجمات للنصوص القديمة ذات الصلة غير موثوق به. ومن النقوش الأخرى التي تفحصها المؤلف، ما يسمى «نقش سلوان» الذي عثر عليه ضمن حدود قرية سلوان الواقعة بمحاذاة مدينة القدس المحتلة. ويحكي النقش المنحوت على جدران نفق مائي عن قيام العمال بحفره من جهتين في آن واحد، وهو تأويل يجد صداه في التوراة التي تربطه بفترة حكم حزقيا ملك يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد. وتكمن أهمية تعامل كمال الصليبي مع هذا «الدليل» الجديد، في لفت الانتباه إلى أنه لا يحوي أية إشارة إلى حزقيا أو إلى يهوذا، وأن الأنفاق تحفر في المواقع التي تنشأ الحاجة إليها في كل الأزمنة. وعلى صعيد آخر، من الواضح أن النص التوراتي عن النفق، كتب في القرن الثاني للميلاد، هذا إن كان المقصود واحداً. وقد أشرنا سابقا إلى أن أحد هموم كتبة التوراة، كان هو وضع الزمان المطلق في جغرافيا محددة. لذا فالاحتمال قائم بأن أولئك الكتبة قاموا بأخذ خبر متأخر وربطوه بزمن سابق ليمنحوا كتاباتهم الجديدة شرعية تاريخية هي غير جديرة بها. ومن الجدير بالذكر أن القراءة التقليدية لتاريخ هذا النقش تتعرض لتحد من داخل البيت التقليدي نفسه حيث نشر اثنان من علماء الإنجيل الإنجليز بحثا في إحدى المجلات المتخصصة عبرا فيه عن اقتناعهما بأن النقش يعود على أقصى تقدير إلى القرن الثالث قبل الميلاد.

وخصص كمال الصليبي فصلين من مؤلفه للركيزة الخامسة لأطروحته، حيث تعامل نقديا مع إحدى الأدوات التحليلية الأساسية التي يعتمدها الاتجاه التقليدي في علم «الدراسات الإنجيلية» في محاولته التعرف على جغرافيا النصوص التوراتية، ونقصد بذلك ما نطلق عليه اسم «البرهان الظرفي»، أي النقوش الأثرية التي عثر عليها خارج فلسطين. وتحديدا في ممالك الشرق القديمة «ومنها المصرية والآشورية»، وذلك التفافًا حول ما صار معروفا من انقطاع للصلة بين النقوش داخل فلسطين والنصوص التوراتية. ومن هذه الآثار الخارجية ما يعرف باسم «الحجر المؤابي» الذي عثر عليه القرن الماضي في شرق الأردن والذي يتحدث عن حروب مملكة مؤاب مع الأسباط وإلحاقها الهزيمة بهم، وهو خبر لا يرد له ذكر في التوراة. وقد بين كمال الصليبي بقراءته الشخصية للنقش أخطاء علماء الإنجيل وكيفية إخضاعهم النص لتأويلاتهم.

وعلى صعيد آخر، تعامل الأستاذ اللبناني تعاملاً نقدياً مع القراءات التقليدية لآثار أخرى يوظفها علم الدراسات الإنجيلية كدليل على صحة وجهة نظره ومنها ما يعرف باسم «رسائل تل العمارنة» أو «رسائل العمارنة» وهي عبارة عن مراسلات عادة ما يُؤرخ لها بالألف الثانية قبل الميلاد، عثر عليها أواخر القرن الماضي قرب مدينة العمارنة جنوبي مصر، وكان قد أرسلها موفدو بعض ملوك بعض تلك البلاد للأقاليم المجاورة إلى ملوكهم لقص مشاكلهم مع أمراء مدن محددة يرد ذكر بعضها في التوراة. وقدم كمال الصليبي تعريفاً بالكثير من تلك المدن، بوصفها تقع في غربي جزيرة العرب وليس في فلسطين.

كذلك قام المؤلف بقراءة نصوص «جغرافية» أخرى تعود لبعض ممالك المشرق العربي القديمة، ويرى الاتجاه التقليدي السائد أنها تشير إلى فلسطين. ومن ذلك كتابات بعض ملوك مصر التي تتحدث عن غزوات قواتهم في الإقليم، حيث ترد في النصوص ذات الصلة أسماء مواقع مذكورة في التوراة على أنها تقع ضمن حدود مملكة بني إسرائيل. ومن ذلك على سبيل المثال تلك النصوص المنسوبة إلى مؤسس ما يعرف باسم «المرحلة الليبية» في تاريخ مصر الملك شيشنق الأول (٩٤٦ - ٩٢٥ ق.م» من الأسرة الثانية والعشرين، والتي سجل فيها على جدران معبد الكرنك بمصر العليا أسماء الأقوام والمواقع التي اقتحمتها قواته، وهو حدث تشير إليه التوراة في سفر الملوك الثاني، وتقول إن قوات ملك مصر غزت مملكة يهوذا عقب وفاة سليمان ونهبت خزائن المعبد أو الهيكل، رغم أن نقش شيشنق لا يذكر الإقليم بالاسم. لكن الملاحظ أن كمال الصليبي لم يناقش صحة الخبر نفسه، بل على العكس نرى أنه تمسك به واعتبره مؤيداً لأطروحته الرئيسية.

ومن الجدير بالذكر أن كمال الصليبي طور أفكاره وأبحاثه بشكل كبير في مؤلف آخر هو «خفايا التوراة - وأسرار شعب إسرائيل» حيث قام بتحليل العديد من قصص العهد القديم ومنها علي سبيل المثال قصة سيدنا نوح، وقدم براهين من النصوص نفسها على أن الأحداث كانت تجري في غربي جزيرة العرب وجنوبيها، حيث توجد بالفعل معظم الأسماء

الواردة فيها. كما بيَّن الصليبي في قراءته للنصوص أن مسرح القصص التوراتي، لم يقتصر على بلاد عسير إنما امتد ليشمل مناطق أخرى من جزيرة العرب، ومنها عمان على سبيل المثال. وفي «خفايا التوراة ...» أيضاً، محص المؤلف جغرافية بعض القصص التي استعصى تقصي وقائعها في مصر وبلاد الشام، ومنها على سبيل المثال قصة خروج بني إسرائيل من (مصر) والتيه الذي تبع ذلك. فلقد أوضح المؤلف أن ذلك الخروج لم يمر بمنطقة البحيرات المرة على خلاف الرأي التقليدي، وإنما جاء عبر «بحر الصافي» الواقع شرقي بلاد عسير، علما بأن التوراة تطلق على «البحر» الذي عبره «العبرانيون» إبان خروجهم من مصر اسم «يم سوف» وليس «البحر الأحمر» كما يرد في الترجمات المعتمدة.

ووصلت أبحاث المؤرخ اللبناني إلى قمة إبداعها في مؤلفه الثالث تحت عنوان «حروب داود - الأجزاء الملحمية من سفر صموئيل الثاني مترجمة عن الأصل العبري»، وقد تناول المؤلف في ذلك الكتاب أجزاء من سفر صموئيل الثاني الذي يحكي شعرا قصة التقاء شاول بداود، ثم انفجار الصراع بينهما، وبيَّن أن وقائعه لا يمكن أن تنطبق على أية بقعة جغرافية باستثناء عسير. وكان الصليبي قد استهل مؤلَّفه بمقدمة تاريخية طور فيها رؤيته لتاريخ بني إسرائيل، وميز بشكل واضح بين هؤلاء وديانتهم من جهة، واليهود واليهودية من جهة أخرى. ويعد ذلك من الأمور التي لم يشر إليها بشكل واضح في مؤلفيه الأول والثاني وما لم ينتبه إليه معظم البحاثة العرب حتى الآن.

وإذا كان الاتجاه المهيمن على الدراسات الإنجيلية، قد اتخذ موقفا مناهضاً من كمال الصليبي وأطروحته، بوصفه دخيلا على التخصص أي غير مخول بالحديث فيه رغم امتلاكه كل الأدوات العلمية، فإن هذا أدى إلى توالي الاجتهادات الإنجيلية، ومنها مجموعة من الأبحاث غاية في الأهمية عن تاريخ فلسطين وجذور بني إسرائيل، في طليعتها مؤلف العالم الإنجيلي الأمريكي توماس طومسون الذي نشر عام ١٩٩٢ تحت عنوان «تاريخ بني إسرائيل العتيق - اعتمادا على المصادر الأثرية والمكتوبة»، والذي كان سببا في طرد صاحبه من وظيفته الجامعية على إثر نشره. بحيث اضطر إلى مغادرة بلاده والانتقال إلى أوروبا حيث يعمل حاليا في إحدى جامعات الدانمارك. كما صدر عام ١٩٩٣ عن قسم الدراسات اللاهوتية بجامعة شيفلد بالمملكة المتحدة مؤلف «تاريخ فلسطين القديم - من العصر الحجري وحتى حملة الإسكندر المقدوني» للعالم الإنجيلي السويدي الراحل جستل ألشتروم. وقد شكك ذلك العالم الذي توفي قبل صدور كتابه ثم استكمله زملاؤه، في الكثير من القصص الإنجيلية السائدة. كما نشر عام ١٩٩٦ مؤلف ثالث بعنوان «تلفيق إسرائيل - طمس التاريخ الفلسطيني» لعالم التوراة البريطاني كيث وايتلام وعنوان الكتاب ينم عن محتواه. هذا دون الحديث عن المجلات المتخصصة في الدراسات الإنجيلية التي لا يطلع عليها إلا أهل الاختصاص، والتي تعد ساحة لنقاشات مهمة حول الموضوع والتي ترفض الآراء التقليدية السائدة وتشكك في مجمل محتويات كتاب اليهودية المقدس.

وفي كل الأحوال، فإن نشر كتاب كمال الصليبي، ومن بعده العديد من المؤلفات الناقدة للدراسات الإنجيلية التقليدية - أوضح أن ما يقدم للقارئ من معلومات عن تاريخ فلسطين وبني إسرائيل هو مجرد نظريات قابلة للتعديل الجزئي أو الكلي، سيما في غيبة أي دليل أثري على صحتها. وفي الحقيقة فإن كل ما فعله كمال الصليبي هو قلب منهجية البحث الإنجيلي السائدة، والتي تنطلق من صحة الجغرافيا وخطأ التاريخ.

وفي هذا السياق نفسه يأتي المؤلَّف الجديد موضوع العرض، والذي اختار له صاحبه عنوانا موحيا هو «ذهب الخروج - اكتشاف جبل سيناء الحقيقي».

موضوع الكتاب كما يوحي العنوان، هو البحث في ما يرد في الإصحاحات ١٢ - ١٩ من سفر الخروج عن مكان لقاء موسى بإله التوراة يهوه على الجبل المسمى «سيني» (وفي الترجمات العربية القديمة «سيناء») والذي يعتبره البعض جبل موسى الذي يطل على جبل القديسة كاترين في شبه جزيرة سيناء.

ومن الجدير بالذكر أن ربط ذلك المكان بقصص التوراة يعود إلى الإمبراطور قسطنطين الأكبر في القرن الرابع الميلادي، والذي حلم بأن يكون هو موسى «الجديد».

يتضمن هذا الكتاب مقدمة و٤٣ فصلا صغيرا تغطي القسم الأكبر من المؤلَّف الذي يربو على ٣٦٠ صفحة، والجانب الأكبر من الكتاب مكتوب بأسلوب روائي مثير يحكي قصة تسلل أمريكيين هما التاجر الثري لاري وليامز والشرطي السابق بوب كورنيوك إلى المملكة العربية السعودية بحثا عن جبل سيناء الحقيقي في شمال غربي الإقليم، حيث يعتقدان - ومعهما العديد من علماء الكتاب - أن الموقع المقصود هو جبل اللوز قرب مدينة تبوك الواقعة شمالي الحجاز. وفي هذا السياق، يصور الكتاب العوائق التي كان على المغامرين الهاويين تجاوزها ليصلا إلى موقع تحقيق أحلام كل منهما، أحلام بوب كورنيوك في الوصول إلى جبل سيناء «الحقيقي»، وأحلام لاري وليامز الذي موَّل المغامرة بهدف الوصول إلى الذهب الذي تقول التوراة إن «العبرانيين» الخارجين من مصر تركوه قبل أن يسيروا وراء موسى باتجاه «أرض الميعاد». ويحكي المؤلف - وبتفاصيل شيقة - كيفية تجاوز المغامرين بعض تلك العوائق، ومن ذلك كيفية تمكنهما من استخراج تأشيرة دخول إلى أراضي المملكة العربية السعودية.

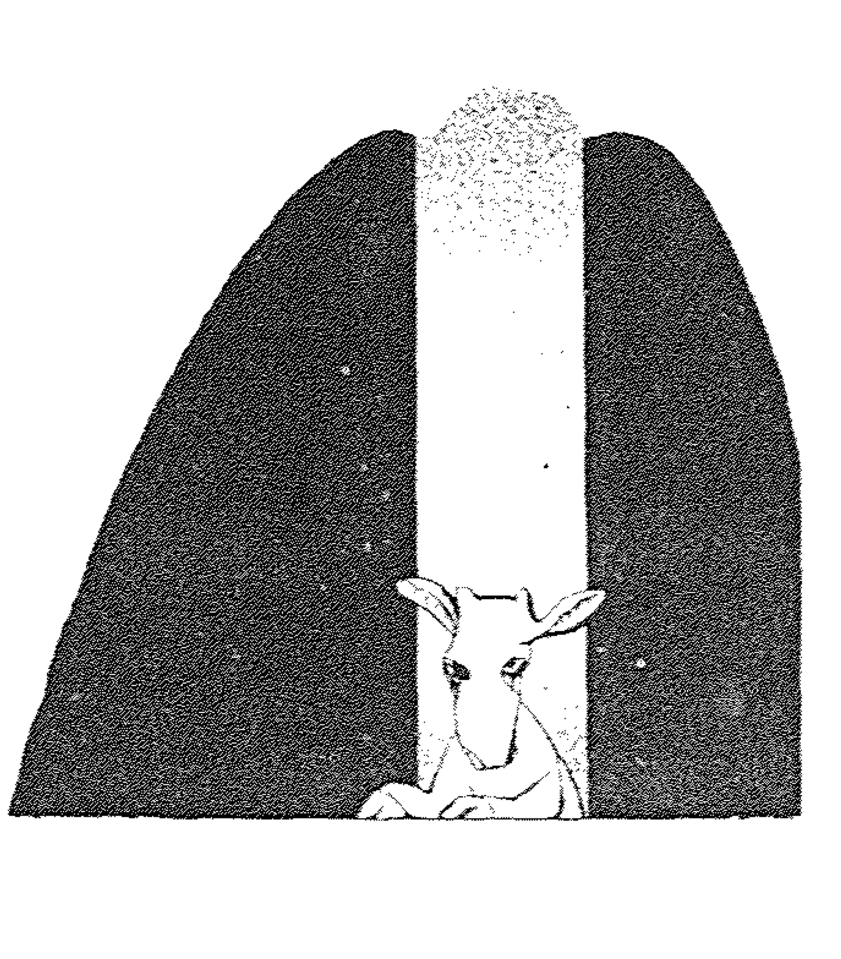
ويتحدث الكتاب أيضا عن سعي المملكة لبناء نظام صاروخي خاص بها، وكيفية تمكنها من شراء صواريخ صينية متوسطة المدى على أراضيها في إطار «مشروع الصقر». وعن رد فعل الولايات المتحدة وسعي العدو الصهيوني لتدميره قبل إنهائه.

كما يعثر القارئ في صفحات المؤلف على الكثير من المعلومات الثمينة التي تكشف قدرات الولايات المتحدة الأمريكية على جمع ما تريده من معلومات باستخدام ما توافر لها من أجهزة إليكترونية متقدمة. ويشير المؤلف أيضا إلى خلفية العديد من القصص التي سمع بها القارئ بعدما تناولتها أجهزة الإعلام، ومن ذلك الزوبعة الصغيرة التي أحاطت بالعلاقات الأمريكية - الإسرائيلية بعد الكشف عن جاسوس للأخيرة كان ينقل معلومات غاية في الأهمية لتل أبيب. وعن كيفية إنهاء تلك الأزمة العابرة.

وبإلقاء نظرة على مصادر الكتاب نجد أن المؤلف قد رجع إلى بعض الصحف والمجلات المتخصصة في الشئون العسكرية وإلى بعض الكتب غير المتخصصة، وكذلك، وهو الأهم فإنه تلقى مساعدة من كل من استخبارات العدو الصهيوني والاستخبارات الأمريكية في جمع المعلومات عبر لقاءات مباشرة أجراها مع مندوبيها. والكتاب في مجمله قصة بوليسية من الطراز الأول؛ بطلاها شخصان ساذجان أضحيا لعبة في يد مخابرات العدو الصهيوني.

ومن الجدير بالذكر أن لاري ويليامز الذي كان أحد المشاركين في المغامرة التي انطلقت عام ١٩٨٨ وانتهت بإلقاء القبض عليه وشريكه من قبل قوات الأمن بالمملكة السعودية، كان قد سجل قصته في كتاب نشره على نفقته الخاصة عام ١٩٩٤ تحت عنوان «جبل موسى». لكن يبدو أن ذلك العمل الذي قيضت له دعاية واسعة في مجلات أمريكية متخصصة في الدراسات الإنجيلية، لم يلق انتشارا واسعا، مما قاد في نهاية الأمر إلى تبنيه من قبل الصحافي الأمريكي هوارد بلوم (الذي عمل في العديد من الصحف الأمريكية الشهيرة ومنها نيويورك تايمز، ولا يزال يعمل لمجلة فانيتي فير التي نشرت مراجعة الكتاب في عدد فبراير الماضي). ولا شك أن تبني الصحافي الأمريكي المعروف قد ساعد في انتشار الكتاب.

في قصة خروج بني إسرائيل من مصر أوضح المؤلف أن الخروج لم يمر بمنطقة البحيرات المرة، وإنما جاء عبر «بحر الصافي» الواقع شرقي بلاد عسير



ورغم أن أطروحة الكتاب التي تعتبر أن شمالي غرب جزيرة العرب هو مكان قصة موسى مع إلهه يهوه ليست بجديدة، إلا أنه من الصعب تحديد تاريخ ما قال المغامران أنهما عثرا عليه من آثار، رغم عدم تقليلنا من أهمية المادة. وبغض النظر عن قناعتنا الشخصية حول مجمل الروايات التوراتية وجغرافيتها والتي عبرنا عنها في العديد من المؤلفات المنشورة.

ورغم أن الكتاب لا يشرح بصورة واضحة كيف وصل المغامران الأمريكيان إلى اقتناعهما بخصوص كون «جبل اللوز» هو المكان المفترض أن موسى استلم فيه ألواح الوصايا من إله التوراة يهوه، إلا أننا نرى أن الكاتب أشار إلى عدد من البراهين منها:

أولا، بما أن النص التوراتي يقول إن يهوه ظهر لموسى على هيئة نار، فقد تم الاستنتاج بأن المكان المقصود لابد وأن يحوي آثار حمم بركانية وهو الأمر غير المتوفر في الموقع المحدد في شبه جزيرة سيناء. وفي المقابل، فإن معظم منطقة الحجاز (وليست تلك المحيطة بتبوك فقط) تحوي آثار نشاطات بركانية قديمة.

ثانيًا: لقد أخذ المغامران بشكل حرفي قول التوراة إن عدد الفارين من مصر من «العبرانيين» قارب المليون شخص، مما يعني أن المنطقة المتاخمة للجبل الذي استلم فيه موسى التوراة الوصايا العشر يجب أن تكون منبسطة وكافية لاستيعاب مثل هذا العدد من الناس.

البرهان الثالث هو أن النصوص التوراتية ذات العلاقة بجبل سيني أو سيناء وفق الترجمات، تشير إلى الأبقار وهي من الحيوانات التي لم تذكرها النصوص التاريخية القديمة عن الإقليم بما يولد انطباعا بأنها لم تكن معروفة هناك. وقد عثر المغامران على نقوش على الصخور لأبقار قرب الجبل بما قادهما إلى ربط تلك الرسومات بسفر الخروج ٣٢:١٩ الذي يتحدث عن عبادة العبرانيين للعجل الذهبي.

وهناك «إثبات» رابع استعان به المغامران وهو عثورهما في منطقة محاذية لسفح جبل اللوز على أكوام حجارة رأيا فيها المذبح الذي تقول الإصحاحات ٢٠:٢٤-٢٦ و ٤:٢٤ من سفر الخروج إن موسى قام ببنائه ليقدم عليه الأضحية لإلهه يهوه.

كما أشار المغامران إلى عثورهما في المنطقة ذاتها على اثنى عشر عمودا رأيا أنها تمثل الأسباط الاثني عشر.

نحن لا نشك في أن هذه المنطقة تحوي الكثير من الآثار. إلا أنه من المستحيل ربط أي منها بأي رواية أو قصة إلا بعد التقصي العلمي، آخذين بعين الاعتبار أنه لم يعثر حتى الآن على أية آثار في مصر يمكن ربطها بموسى التوراة ولفيفه من «العبرانيين». هذا بالطبع لا يقلل من اهتمامنا بالتعرف على ما تحويه ليس تلك المنطقة فحسب وإنما مجمل جزيرة العرب من آثار. إلا أنه في غياب أية إثباتات واضحة الرسالة تبقى المقولات هذه ضربا من المغامرة وليس أكثر من ذلك.

المهم في الأمر أنه في غياب أي تقييمات مستقلة للآثار موضوع الكتاب، فضلا عن عدم توفر أية إمكانية في الوقت الراهن للتنقيب الأثري الميداني في الإقليم، فإن القيمة العلمية للأطروحة تبقى مجهولة، آخذين بعين الاعتبار أن صاحبيها لا يمتلكان الحد الأدنى من المعارف التاريخية واللغوية اللازمة للبحث في الموضوع. لكن إشارة الكاتب إلى تبني هوليوود للمؤلَّف وقرب البدء في تصويره سينمائيا يوضح المنزلة التي يحتلها بأنه الإطار الأكثر ملاءمة حقا لهذا الكتاب.

وبالعودة إلى مادة مقالتنا الأساسية وبالتحديد أطروحة الصليبي «افتراض صحة التاريخ وخطأ الجغرافيا». وبغض النظر عن سلامتها من عدمها، وسواء كانت قابلة للتعديل الجزئي أو الكلي، نرى أنها قدمت لمن يرغب من الباحثين العرب في تاريخ المشرق العربي أدوات علمية هامة وأوضحت أن هناك الكثير في ذلك التاريخ مما يستوجب المراجعة والتصحيح. ومن ذلك على سبيل المثال علاقة مصر بالإقليم وبجزيرة العرب فقد قدم صاحب الأطروحة من خلال مراجعاته لجغرافية بعض النصوص التاريخية وللجغرافيا القديمة، أدوات ومؤشرات علمية هامة للغاية توضح ضرورة نبذ الكثير من الأفكار السائدة عن تاريخ الإقليم وضرورة إعادة النظر في وحدته الحضارية التاريخية، وهو ما ينفيه الخطاب الاستشراقي.

وفي التحليل الأخير، يبقى السؤال المهم، هل كان موطن بني إسرائيل في عسير أم في فلسطين؟ وأهم من ذلك سؤال هل ثمة فارق بالنسبة لنا كعرب أن يكون موطن بني إسرائيل في عسير وليس في فلسطين؟

هنا نكرر رفضنا التعامل مع المسألة سياسيا ولا نقبل بإخضاعها لمفردات الخطاب السياسي، ونعبر عن قناعتنا بضرورة التعامل مع المادة من منطلق علمي محض وبوصفنا باحثين في التاريخ.

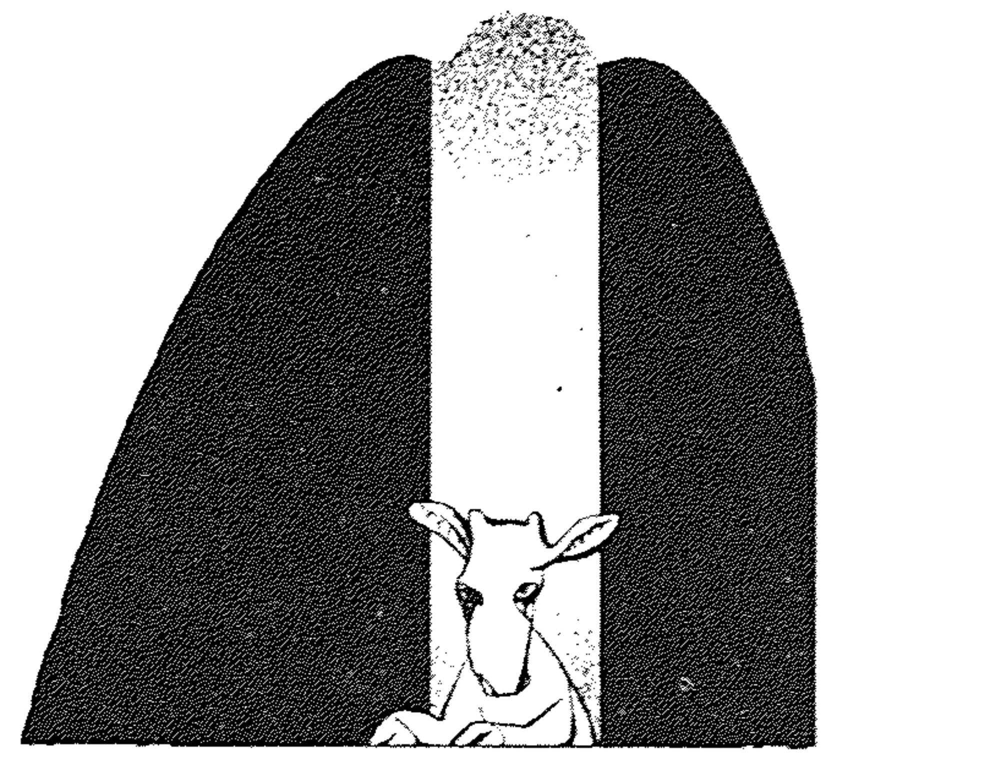
وفي هذا السياق نسأل: ما دلالة الأطروحة على فهمنا لتاريخ بلادنا؟

لنكن أكثر وضوحا ولنطرح المعضلة التالية: إن كان الموطن هو فلسطين، فلماذا لم يحو القرآن الذي ذكر بني إسرائيل مرارا إشارة واضحة إلى هذا؟ وإن كان الخروج تم من مصر أي من بلاد نهر النيل فلماذا لم يقل القرآن ذلك بصريح الكلمة؟

وإذا كانت فلسطين هي التي احتضنت تجربة بني إسرائيل الدينية والتاريخية، فما

سبب احتواء القرآن على هذا العدد الكبير من الآيات عن بنى إسرائيل البعيدين كل البعد عن جزيرة العرب؟ لقد تحدث القرآن إلى العرب عن مسائل كانت منتشرة بينهم وأعطاهم أمثلة ومواعظ عن أقوام عرفوها. فلولا كان العرب على علم عميق بأخبار بنى إسرائيل وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وآدم ونوح ... إلخ، لفقدت القصص والمواعظ المرتبطة بهم أى معنى. فالبشر لا يتعظون بقصص أناس لا يعرفونهم. أو لنقل بأن استحضار أمثلة عن مصائر أقوام عرفهم العرب أو كانوا جزءا لا يتجزأ من تراثهم التاريخى هو أقوى بما لا يقارن من استحضار أمثلة عن أناس مجهولى الهوية. لقد عثرنا على مؤلف قام صاحبه بمحاولة فهم بعض قصص بنى إسرائيل الواردة فى القرآن ضمن جغرافية عسير، لكن صاحبه أخضع عمله للخطاب الحماسى وابتعد عن التعامل العلمى المحايد مع النصوص بما أضعف من الجهد الذى بذله.

لقد أتم كمال الصليبى أطروحته فى مؤلف صدر له باللغة الإنجليزية تحت عنوان «مؤامرة فى القدس ـ الأصول الخفية للمسيح» حيث ذكر فيه أن عيسى ابن مريم المذكور فى القرآن ليس هو «الجليلى» يسوع بن يوسف النجار المعروف بأنه المسيح «الناصرى»؛ وهو مايشرح القول القرآنى بالخصوص ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾. وعبر عن رأيه بأن المقصود بذلك هو أن الأمر اختلط على القائلين بأن عيسى ابن مريم قد صلب، وأنه ليس ذلك الشخص الذى قتل صلبا فى القدس. ثم ينطلق كمال الصليبى ليبحث فى أصول يسوع المسيح وفق ما ترد فى الأناجيل الأربعة وضمن إطار منهجية «الدراسات الإنجيلية»، ويصل إلى نتيجة مفادها أن يسوع جاء من جزيرة العرب ومن منطقة الطائف تحديدا حيث يوجد وادى جليل الذى تقطنه قبيلة النصيريين حتى يومنا هذا؛ وأنه توجه إلى فلسطين مطالبا بالملك، أى طالبا الاعتراف بأنه هو المسيح لأنه ينحدر من بيت داود ـ وهو ما تشترطه التوراة.



ويمضى متسائلا: إذا كان التحليل ينتهى إلى غير ذلك، فلماذا لم يربط القرآن عيسى ابن مريم بفلسطين، بل ربط ولادته بمكة، على أساس أن الآية ١٦ من سورة مريم التى تقول ﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا﴾ هى آية مكية؟

ومن جانبنا وبدورنا نعيد السؤال إن كان عيسى ابن مريم هو نفسه يسوع بن يوسف النجار، وكان موطنه فلسطين، فما مدى تأثير هذه القصة والمواعظ المرتبطة بها على العرب سكان الجزيرة؟ ولماذا يستحضر لسكان جزيرة العرب أمثلة من خارج الإقليم ومن خارج تراثهم التاريخى والتراثى بدلا من قصص من تاريخهم؟

وبهذا تكتمل الدائرة عند كمال الصليبى حيث ينظر، ضمن علم الدراسات الإنجيلية، إلى أطروحته كلبنة فى بنيان تاريخ المشرق الذى هو بحاجة إلى إعادة نظر فى الكثير من مراحله، وهذه تحديدا ما نرى أنها أهم نتائج أطروحته.

لقد أهمل البحاثة العرب مسائل كثيرة فى تاريخ بلادهم واتبعوا إحدى منهجيتين، إما الاستسلام الكامل لما تناقله الإخباريون العرب من أخبار عن التاريخ القديم، وإما رفض ما جاء فى تلك الكتابات لصالح تحليلات ورؤى صبيانية طرحها بعض المستشرقين فى مطلع هذا القرن.

وثمة نقطة أخرى نرى أنها من نتائج هذه الأطروحة، وبالتالى فإنها تستحق النقاش الموسع، وتلك هى التمييز بين بنى إسرائيل الذين ننظر إليهم على أنهم أحد أقوام العرب البائدة والمستعربة، وبين اليهود الذين هم طائفة دينية بدأت فى التكوين بأوروبا منذ القرن الثانى للميلاد. ونلاحظ هنا أن القرآن ميز بدوره بين الجماعتين، وهذه من الأمور المهمة حقا.

كما أن هناك نقاطا أخرى مرتبطة بذات الأطروحة، تتصل بفهم تاريخ العرب فى العصور الأولى، أى قبل الإسلام. فجزيرة العرب هى الإقليم الوحيد الذى شهد ظهور الكثير من الأنبياء ومن مدعى النبوة أيضا، قبل ظهور النبى وبعده. فماذا يعنى ذلك؟ ولماذا لم يظهر ذلك فى أى مكان آخر من المشرق العربى؟

وماذا يعنى أيضا وجود الشعراء فى جزيرة العرب بهذه الكثافة؟

وماذا يعنى أن يلعب الشعر والشعراء ذلك الدور المرموق فى حياة العرب؟

وماذا يعنى أن يقال إن النبى محمد شاعر؟ وينظر القرآن إلى ذلك على أنه تهمة وجب ردها، بالرغم من المكانة العالية التى تمتع بها الشعراء عند العرب؟

ولماذا لعبت اللغة ذلك الدور الاستثنائى فى حياة العرب منذ البداية؟

ومن هم الشعراء الأنبياء، أو الأنبياء الشعراء؟

وماذا تعنى «المعلقات»؟

وماذا يعنى البكاء على الأطلال عند العرب؟

لا شك فى طول قائمة الأسئلة التى نعتقد أن الإجابات عنها مرتبطة إلى حد كبير بالدراسات الإنجيلية بشرط أن تكون جدية وقائمة على دراسة محايدة ومنفتحة وتجديدية للعهدين القديم والجديد.

ولا شك أنه لا توجد إجابات جاهزة لها، وأن الكثير مرتبط بقدرتنا على الانفتاح على البحوث بعيدا عن الرؤى الضيقة، ومتجردين من الأحكام المسبقة والخطاب السياسى، بالرغم من أننا سنقدم إجاباتنا لبعضها فى مؤلفنا القادم عن تاريخ فلسطين القديم والذى نأمل صدوره فى نهاية هذا العام. لكن الجهد الفردى، ومهما كان معطاء، يبقى غير قادر على الإجابة عن جميع المعضلات والأسئلة المطروحة، وبالتالى فإذا كنا نريد أن نفهم تاريخنا وأنفسنا وجذورنا وموقعنا فى هذا العالم ـ فعلينا أن ندرسها بجدية وتحرر من الأحكام المسبقة، وهذا لا يمكن أن يكتمل إلا بتأسيس مركز أو مراكز عربية للدراسات الإنجيلية بحيث تمنح الأموال التى تستحقها، فهذا أجدى لنا من مطالبة الغير بأن يكتب لنا تاريخنا وفق أهوائنا، ونحن لا تنقصنا لا الأموال ولا القدرات، فهل من يسمع ويستجيب؟! ■

كتاب الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهى

• «وا رحمتاه للعاشقين» للسهروردى

ـ شهاب الدين عمر السهروردى، ولد فى سهرورد وقرأ كتب الدين والحكمة وأقام فى مراغة وبغداد وحلب، وكان مقتله بأمر السلطان صلاح الدين، بعد أن نسب إليه البعض فساد المعتقد.

توفى بحلب سنة ٦٦٥هجرية.

أبـدًا تحـن إلـيـكـم الأرواحُ
ووصـالكم ريْحـانُـهـا والرّاحُ

وقلوبُ أهلِ ودادكم تشـتـاقكم
وإلى بهـاء جـمـالكم ترتاحُ

وا رحـمـتـا للعـاشـقين تحمّلوا
ثقل المحبـة والهـوى فـضّاحُ

أهل الهـوى قسـمان: قسم منهمو
كـتـمـوا، وقـسـمٌ بالمحبـة باحوا

فـالبـائحـون بِسرهم شربوا الهـوى
صرفًا فـهزهمو الغرام فباحوا

والكاتمون لسـرهم شـربوا الهـوى
ممزوجـةً فـحمـتـهـمـو الأقـداحُ

بالسـر إن باحـوا تبـاحُ دمـاؤهم
وكـذا دمـاء البـائحـين تُبـاحُ

عـودوا لنور الوصل من غَسق الدُّجى
فـالهـجـر ليلٌ والوصـال صبـاحُ

صـافـاهمو فـصـفـوا له، فـقلوبهم
فى نورهـا المشكاةُ والمصـبـاحُ

وتمتـعـوا فـالوقت طاب بقـربكم
راق الشـراب وراقت الأقـداحُ

يا صـاح ليس على المحب مـلامـةٌ
إن لاح فى أفق الصباحِ صبـاحُ

لاذنب للعـشـاق إن غلب الهـوى
كـتـمانهم، فنمـا الغـرامُ، فـباحـوا

سـمـحـوا بأنفسـهم ومـا بخلوا بهـا
لمّا دروا أن الـسَّـمـاحَ رباحُ

غسيل المخ ..

يتردد فى الآونة الأخيرة حديث متصل عن «ثقافة السلام» فى مقابل «ثقافة العنف أو الحرب». وفى هذا الإطار نشأت أو أنشئت جماعات عديدة تدعو إلى ثقافة السلام ونسيان الماضى وإسدال الستار على الصراع العربى ـ الإسرائيلى، على أساس أن مفاوضات السلام الجارية قد خلقت واقعا جديدا، وأن المستقبل يحمل فى طياته بذور أمل فى سلام حقيقى يسود المنطقة. ولكن نظرة فاحصة على بعض هذه الجماعات التى أنشئت تحت اسم السلام، تكشف عن الأهداف البعيدة المدى لخلق جيل جديد، ينسى ثوابت الحقوق العربية ويكون على استعداد للمساومة فيها والتسليم بالتصورات التى وضعها راسمو الاستراتيجيات الطويلة المدى فى إسرائيل وواشنطن.

ولعل أخطر هذه الجماعات التى تعمل فى صمت وهدوء، وبعيدا عن الأعين هى جماعة «بذور السلام»، التى تستثمر أموالا وجهودا طائلة فى تربية أجيال من الشباب، فتيان وفتيات حديثى السن والخبرة والخلفية التاريخية، يجرى إعدادهم لتولى القيادة فى الأمة العربية بعد أن ينتهى دور هذا الجيل من الحكام «الذين بلغوا الستين والسبعين من العمر»، على حد ما جاء فى بيان تأسيس هذه الجماعة. وأخطر ما فى «بذور السلام» أن الذين يتولون تربيتهم ورعايتهم هم واضعو الاستراتيجيات فى واشنطن وتل أبيب.. أما فى العالم العربى، فلا أحد يتابع شيئا مما يجرى، أو يشارك فى تربية أبنائه حتى ولو بالنصيحة أو تصحيح المفاهيم.

المحرر



فى ٣٠ أغسطس ١٩١٥ كتب السير هنرى ماكماهون نائب ملك بريطانيا إلى حليفه الشريف حسين رسالة هذا نصها:

«إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمقامة السامية السيد بن السيد والشريف بن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمت بركتها الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز. وقد يسرنا علاوة على ذلك أن سيادتكم ورجالكم على رأى واحد. وأن مصالح العرب هى نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس. وبهذه المناسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كيتشنر التى وصلت إلى سيادتكم على يد على أفندى، وهى التى كان موضحا بها رغبتنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها.

وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربى صميم من فروع تلك الدوحة العربية المباركة.

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم، فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها، وتصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائرة رحاها، ولأن الأتراك أيضا لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالا فعليا (..).

... إننا على كمال الاستعداد إلى ساحة دولة السيد الجليل والبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد الإشارة من سيادتكم وفى المكان الذى تعينونه. وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم فى جميع سفرياته إلينا، ونحن على الدوام معكم قلبا وقالبا مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرا (بعرى) محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا» (ملف وثائق فلسطين، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة ١٩٦٩، الجزء الأول ص ١٧١).

ليست مراسلات الحسين ماكماهون جزءًا من الموضوع الذى أريد تناوله، ولكنه طفا إلى الذاكرة وأنا أشرع فى الكتابة. ولابد أن فى الأمر منطقًا ما قد نكتشفه معا بعد قليل. المؤكد أن

مواقع على شبكة الإنترنت

www.seedsofpeace.org
www.peaceworks.net
www.peres-center.org
www.youngleaders.netvision. net.il

باسم السلام

رضوى عاشور

عام ١٩١٥ هذا بعيد كل البعد عنا، كذلك الحرب العالمية الأولى التى كتبت المراسلات أثناءها. نحن فى عصر السلام وثقافة السلام والمراكز المتخصصة فى دراسته والتدريب عليه ونشره وتعميمه ورعاية بذوره.

ولبذور السلام مؤسسة لرعايتها، تعقد معسكرات صيفية فى الولايات المتحدة تجمع فيها الصبية والصبايا العرب بنظرائهم الأمريكيين والإسرائيليين. بإمكان القارئ الدخول على الشبكة الإلكترونية فيجد موقعا من عشرات الصفحات، عن «بذور السلام» (وهذا ما فعلته).

وبإمكانه إن أراد مزيدا من المعلومات حول هذا النوع من النشاط أن يعرج فى طريقه على عدد من المواقع المشابهة منها مركز بيريز للسلام، ومركز الشرق الأوسط الدولى للسلام، وشبكة مستقبل الشرق الأوسط: شبكة شباب القادة، و«أعمال السلام» المتخصصة فى المأكولات العربية واليهودية، والبطاقات والقمصان المطبوعة بصور على وموشيه!

توفر لنا جولة سريعة من هذا النوع معارف لا توفرها لنا صحفنا اليومية، منها مثلا أن للمنطقة قادة شبابا (من مصر والأردن وفلسطين وإسرائيل) يتم إعدادهم للعمل معا على تشكيل مستقبل الشرق الأوسط ونشر ثقافة السلام. لأن حكام الشرق الأوسط وهذا من نص تعريف الشبكة بنفسها: «يحكمه رجال فى الستين والسبعين من العمر. وينتظر الجيل التالى دوره فى القيادة، جيل من رجال ونساء فى الثلاثين أو الأربعين من العمر، بدأ يتطلع إلى صنع القرار».

اجتمع القادة الشباب المشار إليهم فى لقاءات صغيرة وكبيرة منذ يناير ١٩٩٨، لقاءات نظمها مركز بيريز للسلام ومولتها وزارة الخارجية النرويجية. وفى الفترة من يناير ١٩٩٨ حتى يولية ١٩٩٩ نظمت الشبكة ١٨ لقاء بواقع لقاء كل شهر. تمت اللقاءات فى رام الله ومستوطنة زخرون ياكوف ورامات جان وعمان وتل أبيب وشرم الشيخ والقدس والقاهرة. وكان من بينها ثلاثة مؤتمرات، أولها عقد فى قبرص فى مايو ١٩٩٨، وثانيها فى شرم الشيخ فى نوفمبر ١٩٩٨، وثالثها فى آلكالا (القلعة) بأسبانيا فى يولية ١٩٩٩.

أما موقع مركز الشرق الأوسط الدولى للسلام فيتيح لنا معرفة أسماء ٤٣ من المثقفين العرب (مغاربة وتوانسة وجزائريين وأردنيين وفلسطينيين من بينهم حمّادى رديسى عميد كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة تونس والطيب صديقى الممثل المغربى)، اجتمعوا فى تل أبيب بدعوة من المركز للالتقاء بمثقفين أوروبيين يهود (معظمهم مسئولون عن مؤسسات يهودية فى أوروبا) ووقعوا نداء مشتركا تحت عنوان: نداء من أجل السلام: التزام يهودى - عربى بمساندة السلام ومحاربة الإرهاب «تقول فقرته الأولى: «التقى فى تل أبيب بدعوة من مركز الشرق الأوسط للسلام مثقفون وفنانون لدعم إنشاء مراكز فى جميع البلاد العربية وأصدروا هذا النداء إلى الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى»، ويركز البيان وهو من صفحة واحدة على ضرورة اقتلاع الإرهاب وإنشاء مراكز فى كل الدول العربية تعمل على تقوية الروابط الثقافية والأكاديمية والاقتصادية بين العرب وإسرائيل.

يجمع كافة هذه الأنشطة هدف أساسى هو تشكيل ثقافة مغايرة فى «منطقة الشرق الأوسط».

نعود إلى «بذور السلام»: «منظمة غير سياسية» - هكذا تقدم نفسها - أنشأها عام ١٩٩٣ صحفى أمريكى يدعى جون والتش لمساعدة أجيال المستقبل «على مهارات صنع السلام». بدأت المنظمة نشاطها بخمسين مشاركا وبدولتين ثم ازدهرت وتوسعت حتى استقبلت فى صيف ١٩٩٩ عدة مئات من الشباب الإسرائيليين والعرب (من مصر وفلسطين والأردن وتونس والمغرب وقطر واليمن) فى ثلاثة معسكرات صيفية، وتعد لرحلة لقيادات الشباب إلى «الشرق الأوسط» فى أكتوبر الحالى. المطلوب من الشباب بعد مغادرة المعسكر والعودة إلى بلادهم أن يصبحوا «دعاة» لقضية السلام وسفراء لها. ويضمن البرنامج الإقليمى أن يظل شباب المعسكر بعد تفرقهم على اتصال ببعضهم البعض، بواسطة شبكة إلكترونية (حاولت دخولها فاكتشفت أنها مغلقة على الأعضاء). وعلى هؤلاء الشباب أن يعملوا على تغيير أفكار المحيطين بهم عبر الندوات المدرسية وتحرير ونشر مجلة «غصن الزيتون» وهى مجلة نصف شهرية. وتقول أدبيات «بذور السلام» أن المجلة توزع فى كل أنحاء الشرق الأوسط! وتستخدم كأداة تعليمية من قبل بعض المدرسين الإسرائيليين والعرب (أين، ومن؟!). مطلوب أيضا عقد ندوات مدرسية ومشاركات فى قاعة الدرس وفتح باب الحوار فى كل من إسرائيل والسلطة الفلسطينية (لا يشار إلى فلسطين أبدا إلا بالسلطة الفلسطينية) ومصر والأردن وغيرها من البلاد العربية، وتنظيم رحلات جماعية وتبادل الزيارات..إلخ.

تقدم «بذور السلام» نفسها بالشكل التالى:

> «تتفاوض الحكومات وصولا إلى الاتفاقيات، ولكن السلام تصنعه الشعوب. ومن هنا فإن بذور السلام تحقق ما لا تستطيع حكومة تحقيقه بين الأطفال الذين نشأوا فى ظل أهوال الحرب. تغير بذور السلام واقع الصراع فى المنطقة بتعليم الصبية والصبايا كيفية تنمية الثقة بينهم، وتمكين من أعمتهم الكراهية أن يبصروا الوجه الإنسانى لأعدائهم، وتزويد الجيل القادم بأدوات إنهاء الصراع وإعدادهم ليكونوا قادة المستقبل» (ومن المدهش أن المجاز المستخدم «العمى» يرد فى كلمة شيمون بيريز فى مقدمته للموقع المخصص لمعهد بيريز للسلام. يقول بيريز: «المستقبل ملك لنا ونحن نعمل على خدمته. لا منطق فى الهروب منه. لا منطق فى إغلاق أعيننا فلا نراه.. المسألة أن نفتح أعيننا»).

ولن يتسع المجال لفحص أدبيات «بذور السلام» بكاملها، وأكتفى هنا بالتوقف عند «مؤتمر القمة الأول لشباب الشرق الأوسط الذى نظمته «بذور السلام» فى مايو ١٩٩٨ فى فيلار بسويسرا بتمويل من نوفرتيس وحضره ٧٥ فتى وفتاة من إسرائيل وفلسطين ومصر والأردن والولايات المتحدة، كلهم من «خريجى» معسكرات «بذور السلام». أصدر هذا المؤتمر ثمانى وثائق: خطاب افتتاحى، إعلان مبادئ، ومشروع اتفاقيات أعدتها واقترعت عليها لجان تخص الأمن وقيم السيادة، والتعاون الاقتصادى، والقدس، والأراضى واللاجئين.

نقتبس من الخطاب الافتتاحى الموجه إلى قادة البلاد الخمسة التى ينتمى لها الشباب المشاركون:

«يمثل السلام لنا جميعا الآمال والأحلام الغائبة من حياتنا. وهو غياب نتج عنه فراغ دفع الناس إلى سبيل العنف لمواجهة مشكلاتهم. الآن وللمرة الأولى تبدأ مفاوضات الحل النهائى. نبدأها نحن المتأثرين بالسلام، وليس الحكومات.

لقد قررنا، هنا فى بذور السلام أن نصنع السلام على مائدة المفاوضات وليس فى ميادين القتال. لقد دلنا قادتنا على الطريق، طريق مناحم بيجن وأنور السادات (...).

نأمل أن تكون هذه الاتفاقية نموذجا لكم يا قادة بلادنا، تعتمدون عليه فى اتفاقياتكم وتستمدون منه الاقتراحات».

ولا يسمح ضيق المجال بنظرة تحليلية فاحصة وتفصيلية لوثائق الاتفاق (٤٤ صفحة)، فنكتفى بالإشارة إلى أن إعلان المبادئ يركز على ضرورة تجاوز الماضى و«نسيانه» ونبذ العنف (البند الأول)، التفاهم انطلاقا من أن الطرفين أخطآ فى الماضى (البند الثانى)، ضرورة تغيير البرامج التربوية والتعليمية والإعلامية والعمل على إيجاد أشكال من التبادل الثقافى تخدم مشروع السلام (البند الثالث)، التعايش بين مختلف الأديان (البند الرابع)، التعاون الاقتصادى (البند الخامس).

وربما كان أخطر وثائق هذا المؤتمر وثيقة الاتفاق الخاص باللاجئين. ويستوقفنا أول ما يستوقفنا أن موقف هؤلاء الشباب أكثر تخلفًا فى تناوله للقضية من بعض شرائح المثقفين الإسرائيليين، ومنهم المؤرخون الجدد الذين - رغم احتفاظهم بصهيونيتهم - يقرون بالإثم الذى اقترفه الإسرائيليون عام ١٩٤٨، وبالعلاقة العضوية بين الموقف الصهيونى وسياسات تهجير الفلسطينيين من بلادهم.

فى هذه الوثيقة الشبابية لا إشارة لأى شىء من هذا القبيل.

هناك مشكلة اسمها مشكلة اللاجئين ولابد من حلها لأسباب «إنسانية»، وعلى المجتمع الدولى فى المقام الأول أن يجد لها حلولا: «نحث المجتمع الدولى أن يعترف بالتزاماته تجاه



ماذا لو قامت إسرائيل بقبول طلبات بضعة آلاف من طالبى العودة وأعلنا الرضى والأفراح، واكتشفنا أنها قبلت بعودة من كانوا يعملون على خدمتها (يصل عدد هؤلاء العملاء فى بعض التقديرات إلى حوالى عشرة آلاف شخص، يسكن معظمهم حاليا فى إسرائيل وقد سهلت لهم ذلك لحمايتهم من غضبة الأهالى أثناء الانتفاضة).

الإنسانية. لابد من مواجهة مشكلة اللاجئين هذه...».

كيف؟

«اعترافا بإرادة المجتمع الدولى فى توفير ظروف معيشية مناسبة لأولئك الذين يسكنون حاليا فى مخيمات اللاجئين، نقترح إلغاء وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (Unrwa)، والدعوة إلى إنشاء لجنة متعددة الجنسية للتنمية الفلسطينية تشرف على تفكيك مخيمات اللاجئين وتطوير تسهيلات تمكن من استيعاب هؤلاء الفلسطينيين فى مجتمعات». (هكذا: مجتمعات)، وتشير الوثيقة إلى مهام اللجان الفرعية فى توطين اللاجئين فى «البلاد المضيفة» وفى الدولة الفلسطينية. ومن يمول؟» يمول اللجنة متعددة الجنسية للتنمية الفلسطينية بلاد (هكذا: بلاد) فى المنطقة والجهود المشتركة للدول والمنظمات المانحة المهتمة بالأمر».

ثم تطرح الوثيقة إمكانية إعطاء جنسية الدولة الفلسطينية للاجئين (أى إمكانية حشر ما يقرب من ٧ ملايين فلسطينى فى خُمس أرض فلسطين التاريخية)، وضرورة حث الدول المضيفة، حيث مخيمات اللاجئين على توطين كل من يرغب فى ذلك. وتكافئ اللجنة متعددة الجنسية هؤلاء المواطنين الجدد بالمساعدات المالية، لتمكنهم من تحقيق الاستقرار الاقتصادى. أما الدول المضيفة فلها أيضا مكافأة تقدمها اللجنة المذكورة بمساعدات اقتصادية وإسقاط بعض ديونها.. إلخ.

وسوف تحصل كل عائلة من عائلات اللاجئين ساعة مغادرتها للمخيم على مبلغ من المال.. يمكنها من بداية حياة جديدة.

وإسرائيل ما موقعها من كل ذلك؟

«برغم معرفتنا، من ناحية المبدأ، أن لكل الفلسطينيين الحق فى العودة إلى ديارهم، سواء فى فلسطين أو إسرائيل فقد اتفقنا، من الناحية العملية، أن تنفيذ هذا الحق فى إسرائيل ليس عمليا وغير ممكن؛ لأن إسرائيل أنشئت كالدولة اليهودية الوحيدة. ومن هنا فلها الحق فى الحفاظ على شخصيتها اليهودية والأغلبية اليهودية بالشكل الذى تراه مناسبا. ونعرف أيضا أن لإسرائيل احتياجات أمنية خاصة».

ويمكن - تقول الوثيقة - أن يسمح «لشريحة» من الفلسطينيين بتقديم طلب عودة إلى إسرائيل بعد خمس سنوات من إنشاء الدولة الفلسطينية. ولابد لمن يقدم الطلب (ليس لقبول الطلب بل لمجرد صلاحيته للفحص) أن تكون قريته مازالت قائمة ومازالت عائلته (ليس العائلة الممتدة بل أهله المباشرون) تقيم بالقرية، وأن يكون صاحب الطلب على استعداد للتنازل عن الجنسية التى يحملها ليصبح مواطنا إسرائيليا. وألا يكون قد شارك فى أية أعمال غير قانونية ولا يشكل تهديدا لدولة إسرائيل. والمدة المقررة لتقديم هذه الطلبات فى ظل قانون «لم الشمل» تسع سنوات، و«لإسرائيل كما هو الحال بالنسبة لكل دولة ذات سيادة حق القول الفصل فى عدد من تقبل عودتهم وأى منهم تقبل أو ترفض. ومن يرفض طلبه رغم استكماله للشروط فستعطيه اللجنة الدولية مبلغا إضافيا من المال».

لا يرد فى الوثيقة أى ذكر للقرار ١٩٤ الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١١ ديسمبر ١٩٤٨، الذى ينص على «ضرورة السماح للاجئين بالعودة إلى ديارهم فى أقرب وقت»، وينص أيضا على وجوب دفع التعويضات عن أموال الذين يختارون عدم العودة إلى ديارهم، وكذلك دفع التعويضات عن الخسائر والأضرار التى أصابتهم وفق القانون الدولى..». تسقط الوثيقة حق العودة وتحول حقوق الفلسطينيين فى التعويضات عن الأراضى والبيوت والمنشآت والمنقولات التى استحلتها إسرائيل إلى شكل فج هزلى ومهين، حيث تعطى كل أسرة تترك المخيم مبلغا من المال! وبذلك تحول قضية تاريخية لشعب مستلب إلى «حالة إنسانية» تستوجب الإشفاق والتصدق عليها ببعض المال!

ولا إشارة فى الوثيقة إلى قانون العودة اليهودية الصادر فى عام ١٩٥٠، والذى يمنح أى يهودى يصل إلى إسرائيل حق المواطنة إذا أراد الاستيطان. (وهو القانون الذى يغذى إسرائيل بشكل متصل بكتل بشرية مستجدة كان آخرها اليهود السوفييت والفلاشا). وبهذا تحتفظ وثيقة حل مشكلة اللاجئين بجوهر عناصر الأزمة: حرمان الفلسطينيين من أرضهم وحق يهود العالم فى الاستيطان فيها. ولا يرد بخاطر هؤلاء الشباب و٦٠٪ منهم العرب (فلسطينيون ومصريون وأردنيون) أى احتمال لاعتذار تاريخى من قبل يهود إسرائيل لما كبدوه للعرب من خسائر مادية ومعنوية طوال ثلاثة أرباع قرن، بل يقبلون بالتوطين أو تعويض هزلى لا تتحمل فيه إسرائيل شيئا، وبصيغة أخرى يبرئ هؤلاء الشباب فى وثيقتهم إسرائيل من كل مترتبات احتلالها أرض الغير، ثم ينهمكون فى تفاصيل مضحكة على طريقة شر البلية، تفاصيل عن الشروط المطلوب توافرها فيمن يقدمون طلبات العودة: من هدمت قراهم لا يستوفون الشروط فماذا عن ٤١٨ قرية فلسطينية تشكل نصف قرى فلسطين تحت الانتداب تمت إزالتها وتسويتها بالأرض؟ (انظر حصر القرى المهدمة فى كتاب وليد الخالدى، كى لا ننسى: قرى فلسطين التى دمرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٧) لا حق لأهل دير ياسين والقسطل وعين كارم ولفتا والفالوجة ومئات القرى الأخرى التى هدمت وسويت بالأرض فى تقديم طلب العودة. أما قانون «لم الشمل»، وهو القانون الذى كان ساريا فى الضفة الغربية بعد احتلالها ويسمح بأن يطلب الرجل أو المرأة زوجها أو والديه أو أبناءه غير المتزوجين، ويرد فى الوثيقة أنه سيكون إطارًا لفحص طلبات العودة، فهو هنا يبدو نكتة قاتمة: (يسمح بتقديم الطلبات بعد خمس سنوات من إقامة دولة فلسطين) هل نجد آباء على قيد الحياة، فى هذا الجانب أو ذاك من الحدود؟ وكم زوجا ترانا نجد امتد به العمر عبر كوارث الاحتلال والشتات الأسرى وحواجز المحتلين يطلب جمع الشمل بزوجه بعد ستين عاما!

قبل عام وتنفيذًا للاتفاقيات أطلقت إسرائيل سراح مساجين جنائيين بدلا من المساجين السياسيين، بدعوى أن الاتفاق لا يحدد نوع المساجين. وفى تلك الواقعة مؤشر دال: ماذا لو قامت إسرائيل بقبول طلبات بضعة آلاف من طالبى العودة وأعلنا الرضى والأفراح، واكتشفنا أنها قبلت بعودة من كانوا يعملون على خدمتها (يصل عدد هؤلاء العملاء فى بعض التقديرات إلى حوالى عشرة آلاف شخص، يسكن معظمهم حاليا فى إسرائيل وقد سهلت لهم ذلك لحمايتهم من غضبة الأهالى أثناء الانتفاضة).

ليست وثيقة اللاجئين سوى وثيقة مملاة تعبر عن الموقف الإسرائيلى والأمريكى يغلفها حضور مجموعة من الشباب العرب لا يسعفهم ذكاؤهم ولا خبرتهم أو يختارون لأنفسهم دور سفراء لإسرائيل والولايات المتحدة، دور أهلتهم له معسكرات «بذور السلام».

اخترت التوقف عند الجزء الخاص باللاجئين تحديدا لأنه الأساس فى أى حل نهائى. ورغم عدم توفر أية أدلة لدى، إلا أننى أخشى ما أخشاه أن تكون أمثال هذه الوثيقة تمهيدا لوثائق الحل النهائى، وأن يستخدم المفاوض الفلسطينى ورقة اللاجئين كمجرد ورقة ضغط للحصول على شروط أفضل فيما يخص الانسحاب من أراضى الضفة الغربية، أو تخفيف بعض القيود عن الدولة الفلسطينية المأمولة. إن مشكلة اللاجئين: مشكلة ٧٥٠ ألف فلسطينى هجروا من بلادهم عام ١٩٤٨، وأصبح عددهم الآن بعد أكثر من نصف قرن بين أربعة وخمسة ملايين هى جوهر الصراع العربى الإسرائيلى الذى لم ينته لسبب بسيط للغاية، هو أن كل عناصره مازالت قائمة.

إن توطين هؤلاء الفلسطينيين يعنى ضياع قضية فلسطين برمتها؛ لأنهم إذا وطنوا الآن حيث هم وذابوا فى المجتمعات المجاورة، فسيعجز العرب عن استرداد حقوقهم فى حيفا ويافا وعكا واللد وصفد، حتى وإن تغير ميزان القوة لصالحهم، حيث لن يبقى أحد يطالب بهذه الحقوق.

ومن هنا يظهر أن الهدف من قصة السلام هذه، وثقافة السلام المروجة لها، ليس تدمير قدرة العرب على استرداد حقوقهم (إن كان العرب لا يمتلكون هذه القدرة الآن فالمستقبل مفتوح على الإمكانية، وضعفنا الحالى ليس قدرا أبديا) أقول ليس الغرض من ثقافة السلام تدمير قدرة العرب فى استرداد حقوقهم، بل تدمير رغبتهم فى ذلك، لذا فإن مشروع ثقافة السلام هو حرب على النوايا الوطنية وعلى المستقبل.

إننا نعتاد الأشياء حتى ننسى مدى خطورتها. ها هم شبابنا الصغار يتخرجون من معسكرات تدربهم على التعامل مع أعدائهم



توفر لنا جولة سريعة على شبكة الأنترنت معارف لا توفرها لنا صحفنا اليومية. منها مثلا أن للمنطقة قادة شبابا (من مصر والأردن وفلسطين وإسرائيل) يتم إعدادهم للعمل معا على تشكيل مستقبل الشرق الأوسط ونشر ثقافة السلام. لأن حكام الشرق الأوسط وهذا من نص تعريف الشبكة بنفسها: «يحكمه رجال فى الستين والسبعين من العمر. وينتظر الجيل التالى دوره فى القيادة».

وتبنى منظورهم فيعودون إلينا للترويج لما ينافى مصالح بلادهم ويخدم المصالح النقيضة.

فى عام ١٩٠٧ رفع مؤتمر من الخبراء البريطانيين تقريرا إلى وزارة الخارجية البريطانية عرف لاحقا باسم تقرير كامبل باترمان ورد فيه:

«إن البحر الأبيض المتوسط هو الشريان الحيوى للاستعمار، وأنه ملتقى طرق العالم، فلابد لنجاح أى خطة تستهدف حماية المصالح الأوروبية المشتركة من السيطرة على هذا البحر، وخاصة جوانبه الجنوبية والشرقية (..) فى هذه البقعة الشاسعة الحساسة، يعيش شعب واحد تتوافر له وحدة تاريخ ولغة وآمال، وفى كثرة قبائله كل أسباب القوة والتحرر والنهوض، ويبلغ تعداده الآن (٣٥) مليون نسمة يمكن أن ترتفع فى مدى قرن واحد إلى (١٠٠) مليون نسمة، فماذا يمكن أن يكون وضع المنطقة إذا توحدت فعلا؟.. وإذا اتجهت هذه القوة كلها فى اتجاه واحد؟ إن هذا يستدعى ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى، وذلك بإقامة حاجز بشرى قوى غريب على الجزء البرى الذى يربط آسيا بأفريقيا.. بحيث تتشكل فى هذه المنطقة على مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار، وعدوة لسكان المنطقة». (كمال غالى، النظام السياسى الإسرائيلى، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ص٢٨) لم يدر بخلد الخبراء البريطانيين أن عدد سكان المنطقة سوف يصبح فى قرن واحد ثلاثة أضعاف الرقم الذى تنبأوا به. ولم يفكروا أن هؤلاء العرب رغم تكرار هزائمهم العسكرية سيواصلون المطالبة بحقوقهم، أو أنهم سيحتفظون بذاكرة هذه الحقوق والوعى أنها هناك فى أيدى سواهم، وأنهم مستلبون.

فى القرن التاسع عشر كانت الهيمنة تتطلب الجيوش والإرساليات لتدمير البنى السياسية والاقتصادية والثقافية للبلد المراد استعماره. ولقد نشأت الصهيونية كجزء لا يتجزأ من هذا المشروع، ولا داعى هنا لإعادة ما نعرفه وأثبته الباحثون فى مئات الدراسات. ولكننا الآن فى عصر العولمة وفتح الحدود، وعلى الصهيونية أن تعيد تشكيل نفسها بما يضمن لها استمرارها كأيديولوجية استعمارية وجدت ترجمتها على أرض الواقع فى شكل دولة ومؤسسات. لم تعد «الدولة العدوة» هى الصيغة المناسبة للقرن الواحد والعشرين. وفى عصر العولمة والقرية الكونية.. إلخ. يحسن نشر ثقافة السلام حتى وإن كانت الحروب مشتعلة فى أكثر من بؤرة وبشكل يومى تقريبا.

إن هذا الواقع الجديد يفسر العديد من الظواهر ومنها مثلا ظاهرة المؤرخين الجدد فى إسرائيل. تكشف لنا القراءة المتفحصة لإنتاجهم أنهم يقدمون رؤية نقدية للصهيونية من موقع ترشيدها وشد دعائمها «الأخلاقية» بما يسمح باستمرارها. لم يعد ممكنا ترداد عبارة «جولدا مائير» «أين هم الفلسطينيون؟»، فهم حضور يصعب إغفاله. ومادام الأمر كذلك، فلتكن المحاولة لاستيعابه بالتعامل معه. إن الأكثر بصيرة من قادة إسرائيل، وبيريز نموذج دال على هذه الفئة، يعرف أن الصهيونية الكلاسيكية أدت دورها بامتياز وعليها الآن ترشيد دورها فى المنطقة شرط الحفاظ على المغنم الرئيسى: احتلال الأرض وازدهار المستوطنين فيما استقدام المزيد منهم (إن إنجاز حزب العمل فى بناء المستوطنات يفوق إنجاز الليكود بحسم ووضوح). ويكتب بينى موريس أحد المؤرخين الجدد «كان وجود الصهيونية حتميا.. من حق اليهود أن تكون لهم دولة، وكان بمقدورنا إنجاز هذه الأمور بشكل أكثر إنسانية. ولكن الصراع مع الفلسطينيين كان حتميا: كان الثمن الذى يتعين علينا أن ندفعه. وأنا مستعد لدفعه..»

(مقتبس من:

Dominique Vidal, Le Peche Originel d'Israel, Les Editions de L'Ateliers, Paris, 1998.

يعى بنى موريس، من موقعه كمؤرخ، السمة الهيكلية فى الدولة الصهيونية، وإن كان لا يعرفها بما هى جوهرا وتاريخا وممارسة: استعمار استيطانى إحلالى. ومن موقعنا المناقض نرى هذه الحقيقة بكل وضوح، وبالتالى نرى حتمية الصراع الآن ومستقبلا مع هذا الكيان المرتبط هيكليا بالإمبريالية البريطانية، فالأمريكية والمناقض بحكم هذه الصفة الهيكلية بمشروع تحرر ونهضة شعوب المنطقة التى زرع نفسه فيها. إن ثقافة السلام ككل خطاب استعمارى توظف اللغة والثقافة كأداتين من أقوى أدوات السيطرة السياسية بتمثيل الواقع تمثيلا زائفا والإسقاط المتعمد لكافة عناصره الجوهرية.

وفى تقديرى أن «ثقافة السلام» شكل مستجد من الخطاب الاستعمارى يستبدل وهم الشراكة الاقتصادية والتكنولوچية بالمفاهيم العتيقة للتفوق العرقى وعبء الرجل الأبيض فى إنقاذ المتوحشين من واقع توحشهم وإضاءة روحهم وبلادهم بأنوار الحضارة الأوروبية. فى الخطاب الاستعمارى الكلاسيكى حديث حول دونية المستعمَر (بالفتح) وحضارة المستعمِر (بالكسر)، وفى الخطاب الجديد حديث عن بناء مشترك لمستقبل آمن؛ والنهب قائم فى الحالتين، وفى الحالتين أيضا عنف معرفى يغلف الخبرات القاسية والمعيشة المتراكمة بغلاف براق.

إن العولمة سمة بنيوية فى الهيمنة الاستعمارية، فتح سكك التجارة وإقامة خطوط السكة الحديد.. إلخ. هذه هى طبيعة القرن التاسع عشر، أما طبيعة القرن الواحد والعشرين فلها ملامحها الإلكترونية الحاسمة والشبكة التى تربط بين الجميع. المدهش أن قطع الصلة بالماضى قاسم مشترك بين الخطابين. فى الأول تقطع الصلة بالماضى لأنه مرادف لظلام البداوة وعتمة التوحش الإنسانى. أما فى الخطاب الثانى، خطاب «ثقافة السلام» فعليك أن تقطع صلتك بماضيك وذاكرتك ونواياك. عليك أن تؤمن بالسلام حتى وإن كانت القذائف الإسرائيلية تسقط على رأسك يوميا أو الطائرات الأمريكية تفرض عليك الحياة بين قوسين، بين حدادك على من رحل وفزعك من حداد على الطريق - لست مضطرا لأن تكون ابنا للنبطية أو امرأة تسكن البصرة - فأنت تعرف أنهم أهلك وأنك مثلهم عشت ما عاشوه قبلا أو قد تعيشه فى القريب العاجل. ولكن عليك أن تحب أمريكا وتحب إسرائيل، عليك أن تحبهما لأننا فى عصر السلام، والكراهية تولد العنف، والعنف اسمه إرهاب، والعالم كل العالم ضد الإرهاب!

وبقدر ما كان الخطاب الاستعمارى صادما فى حالة العرب تحديدا (ولهم جذور حضارية ممتدة ومتشعبة فى الحضارة العربية الإسلامية والحضارات السابقة على الإسلام)، فإن الحديث فى ثقافة السلام يبدو فى حالتنا تحديدا مفارقة ساخرة جدا: فهى خطاب يذاع علينا فى ظل المدافع ونسف البيوت والجرافات التى تعمل حثيثا فى بناء المزيد من المستوطنات.

ترد عبارة «نسيان الماضى» بشكل متكرر فى أدبيات بذور السلام والمشاريع المماثلة، حتى تكاد تبدو كلازمة مكررة. (ودعونا نتغاضى عن مفارقة أخرى طريفة تطلب من العرب نسيان الحاضر والماضى القريب وتسمح للصهاينة بالتشبث بماض أسطورى لما كان قبل ألفى عام!) لن أدخل فى قيمة الذاكرة كسمة من السمات الفارقة بين البشر وغيرهم من المخلوقات. ولكنى أتوقف أمام الدور الفاعل للذاكرة الجماعية فى جميع معارك التحرر، هى جذور حاضرنا، وأساس وعينا بحكايتنا وموقعنا من الزمان والمكان، والسند الأساسى فى تعاملنا مع أيامنا.

يتميز الخطاب الاستعمارى القديم والحديث معا، خطاب كرومر وخطاب مادلين أولبرايت بلغة تسعى إلى تصوير العالم بما ينافى التجربة الفعلية للمستعمَر (بالفتح)، ويشكل أو يعيد إنتاج العلاقة بين الطرفين لحساب المستعمِر (بالكسر). وفى الحالتين يبدو صاحب الخطاب المعارض بطة سوداء خارج السرب، أو لنستخدم الصورة العربية القديمة الأكثر بلاغة: كأنه «مطلى به القار، أجرب». فمن كان يجرؤ أن يقول أنه ضد نشر أنوار الحضارة فى القارات المظلمة، ومن يجرؤ الآن على الإفصاح أنه ضد السلام؟ إن سرقة المفردات النبيلة والكذب فى تمثيل الواقع سمتان بارزتان للخطاب الاستعمارى.

وهنا أعود للاقتباس الذى أوردته فى بداية المقال. أفهم الآن لماذا عدت لهذه اللحظة تحديدا، مراسلات الحسين - ما كماهون ولهذا الخطاب بالذات، رغم أن تاريخ القرن العشرين به عشرات اللحظات المشابهة فى دلالتها، ربما لأن «الثورة العربية الكبرى» و«الخازوق» الذى أخذه العرب فى تلك الفترة لا يماثله خازوق آخر إلا خازوق السلام!



هل تعرف طعم السيكباج؟!

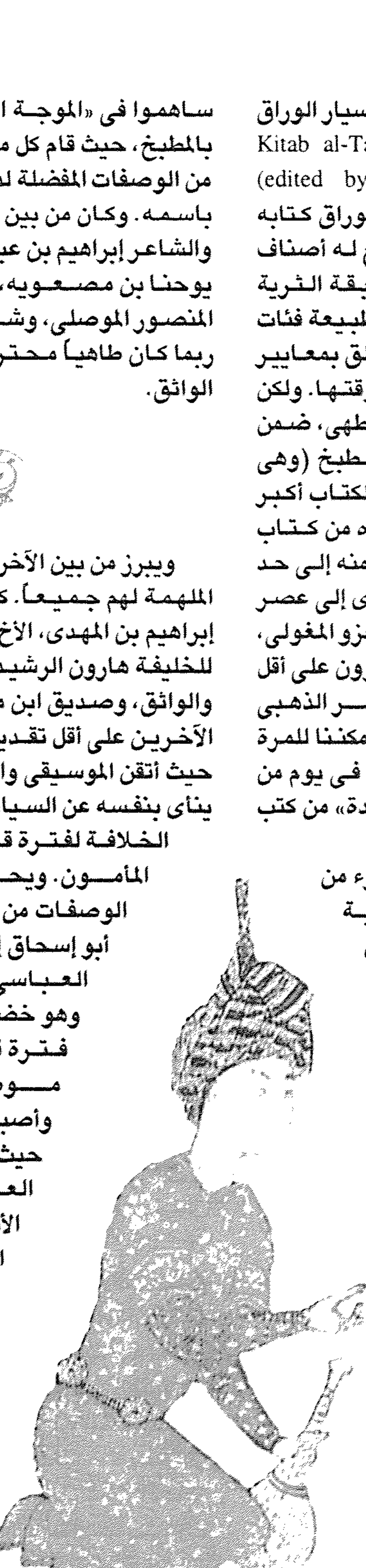
وصفة مجرّبة لأطباق عمرها ١٠٠٠ عام!

ديفيد وينز

فى أوائل الثمانينيات أصبحت مهتماً بالطهى العربى فى العصور الوسطى. وكان قد تصادف أنى قرأت مقالاً كتبه مستشرق بريطانى مشهور هو أ.ج. أربيرى وكان ترجمة لكتاب طهى من القرن الثالث عشر جمعه شخص يدعى محمد بن الحسن البغدادى (Islamic Culture, 13, 1939). ومع أن مجالى المهنى هو الحضارة العربية فى العصور الوسطى، فلم يخطر لى حتى التقائى بالبغدادى عن طريق الصدفة أن الطهى يمكن أن يكون هماً أكاديمياً مشروعاً. والواقع أن اهتمامى فى أول الأمر لم يكن أكاديمياً، بل كان عملياً بحتاً. فإقامتى كأعزب فى إحدى المدن الجامعية البريطانية الشمالية دفعتنى إلى تعلم الطهى من أجل البقاء، ثم لكى أدعو بعض الأصدقاء والزملاء فى بعض المناسبات. وخطر لى أنه من الممكن أن تحقق وصفات كتاب البغدادى للطهى غرضاً مزدوجاً، إن هى عدلت حسب المطبخ الحديث، لإبقائى على قيد الحياة وإمتاع الآخرين. ولم يتعد اهتمامى هذا الهدف الدنيوى البحت. وفى ذلك الوقت جمعت مجموعة صغيرة تضم حوالى خمسين وصفة مجربة ومختبرة. وحقيقة أنها صلحت وحظيت بتقدير كل من شارك فى تناول هذه الأصناف بصورة أدهشتنى، ولكنها شجعتنى كذلك تشجيعاً كبيراً على المضى فيما أبذله من جهد. وحيث إن هذه الوصفات كانت تعد بسهولة منذ ألف سنة أو يزيد، فقد كانت لها «نكهة» رومانسية إضافية خاصة بإحياء الماضى، وكأننا نشارك مشاركة مباشرة فى مجتمع بلاط هارون الرشيد الراقى فى بغداد.

إلا أنه سرعان ما أثير حب استطلاعى التاريخى. فهل كتاب البغدادى للطهى هو كتاب الطهى الوحيد باللغة العربية الباقى من العصور الوسطى؟ ولماذا كُتب؟ ولمن كُتب؟ ومن أين جىء بالوصفات؟ وماذا تشى الوصفات للمحقق بشأن التاريخ الاجتماعى للعصور الوسطى؟ وهلم جرا. أما السؤال الذى يبدأ بـ«لماذا» فيقدم البغدادى إجابته هو عنه من زاوية واحدة. فهو فى مقدمته للكتاب يقول: «إنى مع القول بتفوق متعة الأكل على كل ما عداها من متع». وما جعل مهمة رؤية الصورة التاريخية الأكثر اتساعاً أيسر هو تطور مهم، وأعنى به نشر «كتاب الطبيخ لابن سيار الوراق Kitab al-Tabikh by Ibn Sayyar al-Warraq (edited by Kay Ohrnberg and Sahban Mrouen, Helsinki, 1987). وألف الوراق كتابه بناء على طلب راع مجهول جمع له أصناف الطعام المعاصرة الخاصة بالطبقة الثرية الحضرية. وتصف الفصول الأولى طبيعة فئات المواد الغذائية العديدة فيما يتعلق بمعايير الطب اليونانى الذى كان شائعاً وقتها. ولكن على غير ما هو معهود فى كتب الطهى، ضمن الوراق كتابه عدداً من قصائد المطبخ (وهى سيئة إلى حد ما). ولم يكن هذا الكتاب أكبر حجماً وأكثر تنوعاً فى محتواه من كتاب البغدادى وحسب، بل كان أقدم منه إلى حد كبير. فبينما يعود كتاب البغدادى إلى عصر انهيار الخلافة العباسية على يد الغزو المغولى، فإن كتاب الوراق يسبقه بثلاثة قرون على أقل تقدير ويعكس مادة من العصر الذهبى للعباسيين الأوائل فى بغداد. ويمكننا للمرة الأولى أن نلمح ظهور ما اخترت فى يوم من الأيام أن أسميه جيل «الموجة الجديدة» من كتب المطبخ.

ولم تكن كتب الطهى سوى جزء من حركة أدبية إنسانية ديناميكية عريضة ميزت تلك الفترة من القرنين التاسع والعاشر، باعتباره عصراً له أهميته الكبرى فى الأدب العربى. وكان الاهتمام بالمأكولات والمشروبات بصفة عامة، وفن الطهى، ومكونات النظام الغذائى الصحيح وآداب الطعام تعامل جميعها على أنها أسلوب المعيشة الخاص بالشخص المؤدب. وهناك أسماء اثنى عشر شخصاً تقريباً معروف أنهم ساهموا فى «الموجة الجديدة» هذه الخاصة بالمطبخ، حيث قام كل منهم إما بتأليف مجموعة من الوصفات المفضلة لديه، أو تكليف من يؤلفها باسمه. وكان من بين هؤلاء الخليفة المأمون، والشاعر إبراهيم بن عباس الصولى، والطبيب يوحنا بن مصعويه، والفلكى يحيى بن أبى المنصور الموصلى، وشخص يسمى أبو سمين ربما كان طاهياً محترفاً فى خدمة الخليفة الواثق.



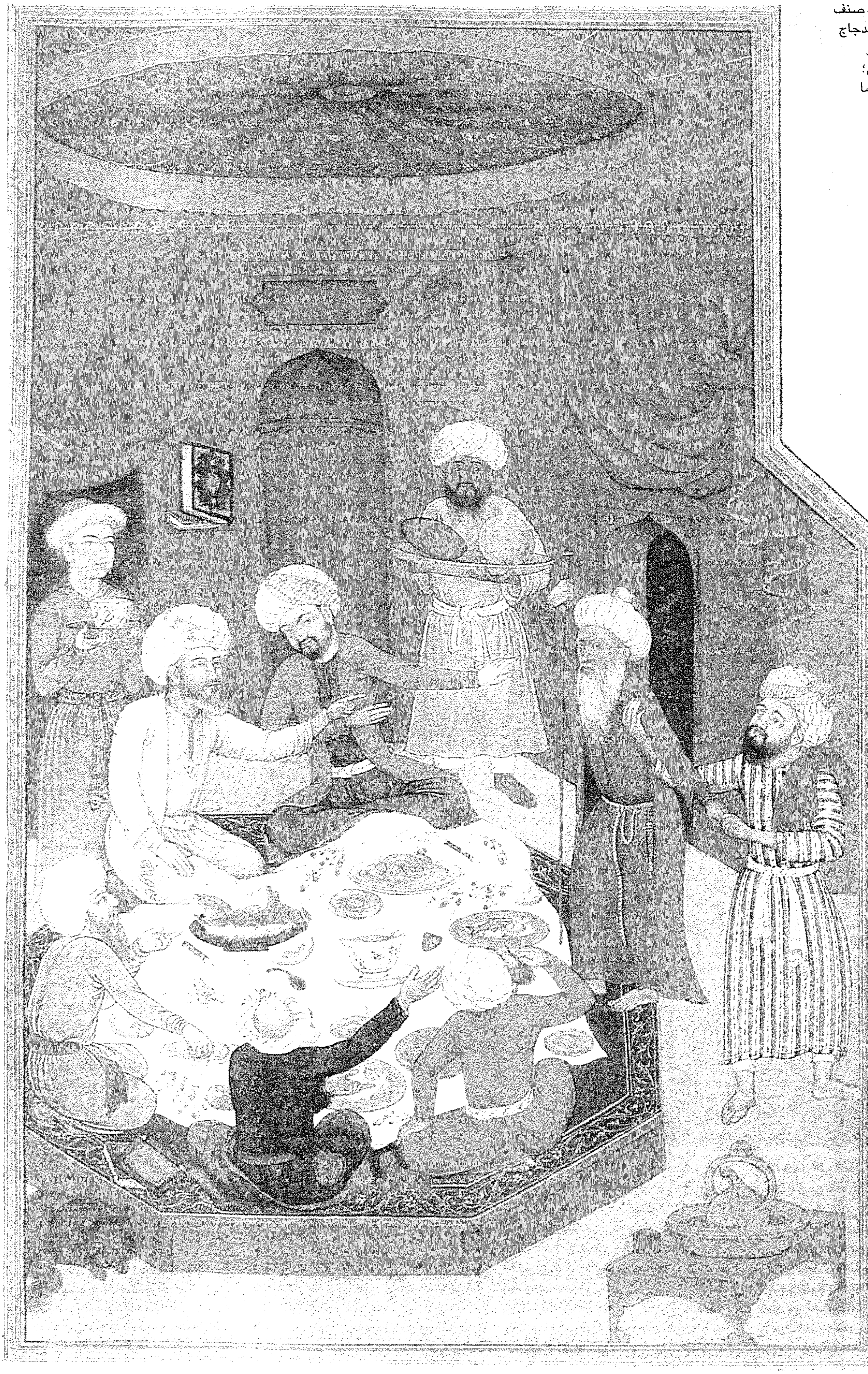
ويبرز من بين الآخرين شخصية ربما كانت الملهمة لهم جميعاً. كان ذلك هو أبو إسحاق إبراهيم بن المهدى، الأخ الأصغر غير الشقيق للخليفة هارون الرشيد، عم الخليفتين المأمون والواثق، وصديق ابن مصعويه ومن معارف الآخرين على أقل تقدير. وكان بطبعه فناناً، حيث أتقن الموسيقى والشعر؛ وكان فى الغالب ينأى بنفسه عن السياسة، ومع ذلك فقد تولى الخلافة لفترة قصيرة قبل أن يتولاها المأمون. ويحفظ الوراق عدداً من الوصفات من كتاب الطهى الذى كتبه أبو إسحاق إبراهيم تبين حب الأمير العباسى لأصناف الباذنجان، وهو خضار كان قد استؤنس منذ فترة قريبة فى العراق من موطنه الأصلى فى الهند وأصبح شائعاً شيوعاً كبيراً، حيث انتشر فى أنحاء العالم العربى ومنه انتقل إلى الأندلس فى المغرب الأقصى.

وكان لدى أبى إسحاق إبراهيم جارية اسمها بديعة، وكانت امرأة رائعة تتمتع بمهارة كبيرة فى فن الطهى؛ وكان من بين الأصناف التى تختص بها «البوارد»، وهى أصناف باردة متبلة تتبيلاً خفيفاً تصنع من الخضروات أو اللحم.

ومما لا شك فيه أن التعاون بين الأمير والمحظية هو ما أدى إلى ظهور كتاب أبى إسحاق إبراهيم، وربما كان هو الأول من نوعه باللغة العربية. وذاع صيت أبى إسحاق إبراهيم؛ ويوجد قسم من الوصفات التى تنسب لأبى إسحاق إبراهيم فى كتاب مجهول المؤلف عن الطهى المغربى والأندلسى فى القرن الثالث عشر (كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس (Ed. A. Huici Miranda, 1965).

ويعكس ذيوع صيت أبى إسحاق إبراهيم فى المغرب حركة بعض الأصناف من العراق عبر شمال أفريقيا إلى الأندلس، وهى التى كانت قد ظهرت ضمن وصفات «الموجة الجديدة» العراقية. على سبيل المثال كان صنف «الاسفيذباجة» معروفاً فى الأندلس باسم مختلف، هو «التفاية». ويصنع هذا الصنف بالدجاج أو السمك، ولكنه فى أكثر الأحيان يعد بلحم الضأن؛ وكان التتبيل الأساسى إما بذور الكزبرة الجافة أو الكزبرة الخضراء التى تجعل لونه أخضر. وكان يعتقد كذلك أن هذا الصنف له فوائد معينة مثل التغذية المتوازنة، وكونه مناسباً للمعدة الضعيفة، وينتج الدم الجيد، ويناسب السليم والناقه. وفى حالات أخرى، كانت كتب الطهى الأندلسية تتضمن وصفات «مشرقية» صريحة، مثل المخللات المعروفة باسم «الكوامخ»، وصنف شائع من اللحم يسمى «الثريد»، وكان يتميز بإضافة الخبز المصحون إلى مرق الدجاج لتغليظ قوامه فى المرحلة الأخيرة من الطهى.

واعتباراً من أوائل الثمانينيات زادت معرفتنا بتراث مطبخ العصور الوسطى زيادة كبيرة بنشر كتب طهى أخرى من مخطوطات عربية. وكان أولها كتاب طهى أندلسى لأبى رازن التوجيبى بعنوان «فضلات الخوان فى طيبات الطعام والألوان» (تحقيق محمد بن شقرون، الرباط، ١٩٨١). ويوضح التوجيبى فى مقدمته أنه ضمن الكثير من الأطباق الأندلسية مثل وصفة حلوى كانت تختص بها طليطلة. ونرى التأثير البربرى على مطبخ الأندلس فى صنفين أحدهما يسمى «الصنهاجى»، نسبة إلى قبيلة صنهاجة التى



على سبيل المثال كان صنف «الاسفيذباجة» يصنع بالدجاج أو السمك، ولكنه فى أكثر الأحيان يعد بلحم الضأن؛ وكان التتبيل الأساسى إما بذور الكزبرة الجافة أو الكزبرة الخضراء التى تجعل لونه أخضر. وكان يعتقد كذلك أن هذا الصنف له فوائد معينة مثل التغذية المتوازنة، وكونه مناسباً للمعدة الضعيفة، وينتج الدم الجيد، ويناسب السليم والناقه.

لم يكن التنور يستخدم لصنع الخبز وحسب. فهناك وصفة خاصة بنوع من فطيرة الدجاج فى «مقلة» موصوفة على أنها توضع فى التنور لتطهى. وهناك طبق آخر من اللحم والأرز والخضروات يصنع فى قدر يوضع فى التنور ليطهى. والصنفان كانا يسميان تنورية، وهو أمر غير مستغرب.

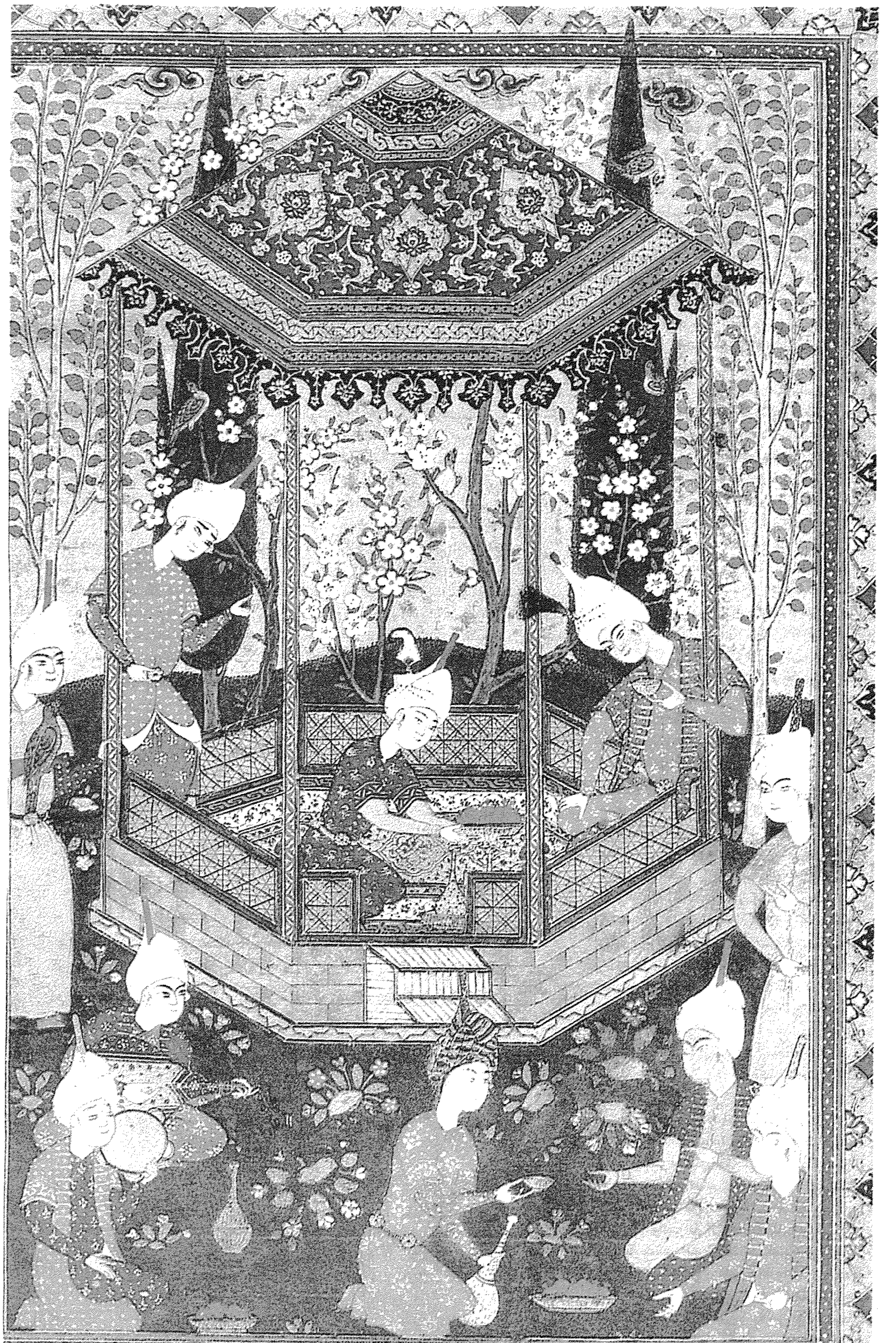
وفى كثير من الأحيان كانت الآنية تترك طوال الليل كى تنضج على نار هادئة فى تنور يبرد ببطء لكى تقدم فى اليوم التالى.



جاءت بالمرابطين إلى الحكم فى شبه الجزيرة. كما تضمن وصفات لطبق «الكسكس» البربرى الشهير. وكان كتاب المطبخ الثانى الذى جرى تحقيقه هو «الوصلة إلى الحبيب» (تحقيق س. محجوب و د. الخطيب، حلب، ١٩٨٨). وهذا هو الكتاب الباقى الوحيد الذى منشؤه سوريا؛ وهو يعود إلى العصر الأيوبى فى القرن الثالث عشر. وهو يتميز بصفة مثيرة للانتباه وهى احتواؤه على فصل عن العطور. وكان هذا الكتاب قد لفت الانتباه منذ سنة ١٩٤٩ عندما نشر الباحث الفرنسى المعروف ماكسيم رودنسون مقالاً استشرافياً عن ثقافة المطبخ فى العصور الوسطى. وكان رودنسون سابقاً لعصره، حيث لم يكن هناك باحث غربى على الأقل مستعداً بعد لتوجيه انتباه جاد لموضع الشئون المنزلية فى حضارة الشرق الأوسط المادية. إلا أن المؤسس الحقيقى للدراسات الحديثة الخاصة بالطعام فى الثقافة العربية هو حبيب الزيات الذى نشر عدداً من المقالات فى صحيفة «المشرق» الجيزويتية التى ظهرت (وما زالت تصدر) فى بيروت. وقد جُمعت قطع قصيرة كتبت فى مقال كبير نشر سنة ١٩٤٧ تحت عنوان «فن الطبخ وإصلاح الطعام فى الإسلام» (المشرق، ٤١) ويبدو مستغرباً فى الوقت الراهن أنه مرت ثلاثون سنة منذ مساهمات الزيات ورودنسون قبل استئناف الدرس من جديد بشكل جاد لتحقيق مخطوطات عربية أخرى عن المطبخ كما وصفنا آنفاً. وأحدث طبعة تنضم لهذه القائمة كتاب مجهول المؤلف بعنوان «كنز الفوائد فى تنويع الموائد» (بيروت ١٩٩٣) وقد حققته أنا وزميلتى الأسبانية مانويلا مارتن. وقصة حدوث ذلك مثيرة للاهتمام.

بينما كنت أحضر مؤتمراً فى دبلن، حصلت على ميكروفيلم لمخطوط من مكتبة تستر بيتى، وهى مشهورة بمجموعتها الرائعة من المخطوطات العربية، وكان قد أسسها رجل أعمال أمريكى ثرى. وظهر المخطوط فى كتالوج المكتبة تحت عنوان «كتاب الطبيخ» وحسب، وهو العنوان الذى أعطاه إياه محرر الكتالوج؛ إلا أنه كان مجهول المؤلف ولا يحمل أى عنوان. وكانت الفصول الستة الأولى وجزء غير محدد من نهايته مفقودة. وكان رغم ذلك اكتشافاً مثيراً، ذلك أنه كان من الواضح أنه مهم، فهو مميز عن أى كتاب آخر جرى تحقيقه ونشره حتى ذلك الوقت؛ ومع أنه لم يكن مكتملاً، فقد قررت أنا وزميلتى الأسبانية تحقيق الجزء المتوفر منه. وعندما أوشك عملنا على الانتهاء أتيحت لنا فرصة جيدة للحصول على ميكروفيلم خاص بمخطوطة مطبخ موجودة فى مكتبة جامعة كمبردج. وعند الفحص اكتشفنا أنها نسخة كاملة للمخطوطة نفسها التى كنا نقوم بتحقيقها! لم يكن هناك مؤلف، غير أنها كانت على الأقل تحمل عنواناً هو «كنز الفوائد فى تنويع الموائد». وشعرنا من الفحص الداخلى للكتاب بالثقة من أنه من أصل مصرى ويحتمل أنه يعود إلى العصر المملوكى فى القرن الرابع عشر. وفى هذا تكمن أهميته، ذلك أنه الكتاب المصرى الوحيد الذى وصلنا حتى الآن. والباحث لديه الآن مجموعة كبيرة من وصفات الطهى من العراق (وهو ما يعكس كذلك التأثير الفارسى) حتى الأندلس. بل إن كتب الطهى المنشورة مجتمعة تمثل أعظم كنز وصفات من العصور الوسطى خاص بثقافة معاصرة فى العالم، بما فى ذلك الثقافة الصينية، حيث تبلغ عدة آلاف بما فيها الوصفات المكررة. وقد بدأ استغلال هذه الذخيرة الضخمة كمصدر للتاريخ الاجتماعى للعالم العربى فى العصور الوسطى. ولنتجه الآن إلى النتائج التى يمكننا استخلاصها من المعلومات التى تقدمها لنا كتب الطهى هذه. ولنبدأ بعرض صورة موجزة للمطبخ الحضرى فى العصور الوسطى.

وكما أشرت منذ كانت الوصفات المذكورة فى كتب الطهى العربية تعد فى مطابخ بيوت تخص العائلات الحضرية من «الطبقة الوسطى» الميسورة الحال؛ وهى لا تعكس أياً من وسط قصور الحكام فى العصور الوسطى ولا مواقد فقراء المدن أو أهل الريف. وأى نموذج بسيط سوف يبين التناقض الريفى الحضرى.



فصناعة الخبز نشاط يشترك فيه الجميع. وقد لاحظ الرحالة السويسري بوركهارت الطريقة التالية بين البدو في شبه جزيرة العرب في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. أولا، كان يسخن بناء مستدير من الحجر، في موقع المخيم القبلي. وبعد ذلك تزال النار وكان العجين المصنوع من طحين الحبوب الخشن يرص على الحجارة الساخنة التي كان يوضع عليها الرماد المتوهج حتى ينضج الخبز. وكانت النتيجة رغيفا مستديرا غير خامر قاسيا بعض الشيء.

وعلى العكس من ذلك، كان الخبز المصنوع في بيت أسرة العصور الوسطى الثرية يخبز في مطبخها بأفضل المكونات. وكانت الأداة المستخدمة في ذلك هي «التنور»، وهو من أصل قديم يعود إلى بلاد الرافدين. وهو على هيئة خلية النحل، وكان كأنه قدر كبير مقلوب وربما كان قد تطور منه. أما الوقود، ويفضل أن يكون نوعاً جيداً من الفحم النباتي، فكان يوضع من فتحة جانبية ثم يشعل، وعندما يكون التنور حاراً بالقدر الكافي يبدأ الخبيز. ويمكن ضبط حرارة التنور إلى حد ما بإغلاق الفتحة السفلى وكذلك الفتحة التي في أعلى الجزء المستدير. وكان العجين، وهو من دقيق القمح الأبيض الفاخر، ذا أشكال وأحجام وملامس عدة. وعندما كان العجين يشكل على هيئة أرغفة مسطحة مستديرة، كان يوضع من الفتحة العلوية للتنور ويلصق بالجوانب الداخلية ليخبز. والمتحف الزراعي بالقاهرة به، أو كان به، عرض ممتاز لهذه الأنواع من الخبز وطرق إعدادها. وذكرت أدوات كثيرة ترتبط بصنع الخبز في المصادر العربية: فهناك «لوح» العجين، و«شوبق» (نشابة) صغير خاص بالرغيف العادي وشوبق كبير للرقاق. وكانت تستخدم ريشة لدهن العجين في بعض الوصفات؛ وكان العجين يعجن في «جفنة» من الخشب وكانت هناك مكشطة معدنية تسمى «محق» لتنظيفها. وكانت الخميرة تحفظ في وعاء خشبي يسمى «محلب». وكانت تستخدم قطعة قماش تسمى «منديل» لمسح الرغيف الذي لم يخبز وأخرى لمسح التنور للتخلص من أية رطوبة غير مرغوبة. وكانت «الصنارة» تستخدم لإخراج الرغيف من التنور لو سقط على الأرضية. أما «المحرق» فكان أداة معدنية لإخراج الجمر والرماد من التنور بعد الانتهاء من الخبيز. وبالنسبة للأسرة التي ليس لديها تنور، كان عجين الخبز وكذلك أصناف الطعام التي تقتضي النضج في الفرن الحار الجاف تؤخذ إلى الفرن العمومي في الحي.

ولم يكن التنور يستخدم لصنع الخبز وحسب. فهناك وصفة خاصة بنوع من فطيرة الدجاج في «مقلة» موصوفة على أنها توضع في التنور لتطهى. وهناك طبق آخر من اللحم والأرز والخضروات يصنع في قدر يوضع في التنور ليطهى. والصنفان كانا يسميان تنورية، وهو أمر غير مستغرب.

وفي كثير من الأحيان كانت الآنية تترك طوال الليل كي تنضج على نار هادئة في تنور يبرد ببطء لكي تقدم في اليوم التالي.

وهناك وصفة أخرى للتنور وهي تحمير حيوان كامل، خروف أو عنز، بوضعه على سيخ يسمى «سفود» ثم ينزل من فتحة التنور العليا ليطهى.

وكانت هناك أداة أخرى للطهي تسمى «مستوقد». وكان المستوقد مصمما بحيث يسع العديد من قدور الطهي والصواني بجوار بعضها في وقت واحد. وكان ارتفاعه يصل إلى وسط جسم الإنسان مما يسهل الوصول إلى الطعام الذي يطهى، وكان مزوداً بفتحات تهوية تسمح بدخول الهواء وخروج الدخان. وكان هناك موقد نقال يسمى «كانون» أو كانت النار وحسب تستخدم كذلك، مما كان يسمح بتسخين قدر واحد كل مرة.

وكانت قدور الطهي المصنوعة من الحجر أو الفخار أو النحاس ذات أشكال عديدة. وكانت الطاسات المستخدمة لتحمير السمك تصنع عموماً من الحديد. وكانت القدور التي تحتوى على طعام تغطى، وهي لا تزال حارة، بأغطية ذات فتحات دقيقة تسمح بخروج الأبخرة. وكان الاعتقاد هو أنه ما لم تطلق مثل هذه الأبخرة فمن الممكن أن تتكون قوة سامة في الطعام. وهناك

كانت قدور الطهي التي تحتوى على طعام تغطى، وهي لا تزال حارة، بأغطية ذات فتحات دقيقة تسمح بخروج الأبخرة. وكان الاعتقاد هو أنه ما لم تطلق مثل هذه الأبخرة فمن الممكن أن تتكون قوة سامة في الطعام.

أوان أخرى كثيرة جاء ذكرها في المصادر، إلا أنه لا يجب أن تستوقفنا في هذا المقام.

وتتناول الكثير من كتب الطهي مسألة النظافة في المطابخ. ويبدو أنه كانت شكوى عامة من أن الخدم إما أنهم لم يكونوا يغسلون القدور بالمرة، أو أنهم لم يكونوا يغسلونها غسلاً جيداً عقب استعمالها؛ وأدت هذه المشكلة إلى النصح باستخدام قدر فخار جديد كل يوم واستبدال القدر المزجج كل خمسة أيام. وربما تفسر مثل هذه الإجراءات الشديدة التعبير الاستهلالي في بضع وصفات وهو «خذ قدراً جديداً». وهذه النصيحة لم يكن يعمل بها دائماً، حيث كان من الممكن تنظيف القدور التنظيف اللازم بالماء الساخن والنخالة، أو كما جاء في وصف البغدادي: «دع القدور والآنية تدعك بالحمرة الناعمة، ثم بالبوتاس المطحون الجاف والزعفران وأخيراً بأوراق الليمون الخضراء». ويضيف الوراق تحذيراً من أن التوابل القديمة التي فقدت نكهتها يجب ألا تستخدم لئلا «تخرب القدر». وبالمثل ينبغي تذوق الملح والزيت قبل إضافتهما لقدر الطهي للتأكد من أن حالتها لا تزال جيدة.

وفي كل العمليات التي تنطوي على الإعداد لأصناف أساسية للمائدة، من الواضح أن طاقم المطبخ في هذا الوسط الاجتماعي كان يعمل بمنتجات طازجة من اللحم والطيور والأسماك. فعلى سبيل المثال، تبدأ وصفة دجاج بعبارة «خذ طيراً سميناً مخصياً واذبحه واسمطه وافتح بطنه لإزالة أحشائه، ثم قطعه». وكان لحم الضأن يعامل بالطريقة ذاتها. وتشير الوصفات إلى أنه من الممكن استخدام كل أجزاء الحيوان ما لم تكن النية طهي الذبيحة كما هي. وفي أصناف لحم البقر، تذكر الأجزاء المحددة من العجل أو الحيوان الكبير التي تطهى، أو تستخدم عبارات أكثر عمومية مثل «خذ أفضل الأجزاء من الحيوان». ويبدو أن اللحم المستخدم في الأطباق من النوع الأول كان يؤتى به طازجاً من السوق، وإن كان من الأسهل في حالة الأسر الكبيرة ذبح عجل في فناء المطبخ. ويشير الإعداد اليومي للحم والطيور والأسماك الطازجة كذلك إلى أن التوابل والبهارات المستخدمة في الطهي لم تكن لإخفاء رائحة اللحم العفن وحسب. صحيح أن زيوت القرفة والقلفل، وكلاهما من الزيوت المفضلة، كان معروفاً عنهما خواصهما المطهرة والحافظة: ومع ذلك كانت جماليات الطهي معترفاً بها كذلك باعتبارها مهمة في إنتاج أصناف ذات نكهة متوازنة. وربما كانت وظيفة الحفظ الخاصة بالتوابل مفيدة في حال حفظ بقايا الطعام لليوم التالي.

وكانت كل أقاليم العالم العربي في العصور الوسطى تشترك في مجموعة من المتبلات المجهزة العديدة تسمى «كوامخ» تستخدم إما في عملية الطهي ذاتها أو بمفردها مصاحبة لأصناف غيرها من الطعام. وهذه يمكن إعدادها مقدماً وتخزينها لحين طلبها. وعلى سبيل المثال كان الزيتون والليمون والكبّار والباذنجان والسمك تجهز بطريقة مشابهة في جرار كبيرة إلى أن تكون هناك حاجة إليها. وكان الزيتون الذي يجمع في الخريف يوضع في أواني كبيرة مع أغصان صغيرة من شجرة الزيتون والليمون والزعتر، ثم تملأ بالماء وتترك لعدة أيام، ويضاف الملح حسب الرغبة. وكانت الفواكه والأعشاب وبعض الخضروات تجفف وتخزن كذلك للاستخدام في المستقبل. والتابل المجهز الشائع في كل الطهي العربي في تلك الفترة كان «المرِّي». وكان يحتاج إلى عملية طويلة ومعقدة كانت تستغرق حوالي تسعين يوماً من نهاية مارس حين يبدأ الإعداد. وكانت تعرف عملية أقصر تستغرق يومين فقط، وإن كان الذواقة قد لا يعتبرون هذا المنتج «شيئاً أصيلاً». وكانت المكونات الأساسية هي دقيق الشعير والملح ومجموعة من المتبلات التي تضاف في مراحل مختلفة حسب الوصفة المحددة. ولأنه يستخدم بكميات صغيرة في أطباق كثيرة، فلابد أن نكهته المرة كانت مميزة، حيث كان البديل المقترح في أحد كتب الطهي هو تابل «السماق» حمضي المذاق.

ولم يكن الطعام مجرد وسيلة للمتعة في البيوت الحضرية ميسورة الحال. إذ تكشف كتب الطهي عن اهتمام مساو بصحة البدن. وكثيراً ما كانت تضيف وصفات الأصناف الرئيسية نبذة عن فائدة خاصة بصنف ما لنظام الشخص الغذائي وصحته. فإحدى الوصفات قد «تثير الشهية وتقوي المعدة»؛ وأخرى، تقدم طبقاً صيفياً، مفيداً لـ«تبريد الجسم»؛ بينما كان صنف آخر مناسباً «لكبار السن وأصحاب الأمزجة الرطبة» في حين كان صنف شتوي مفيداً لهؤلاء الذين يعانون من علل البرد، وهكذا. وبالإضافة إلى مثل هذه النصائح المفيدة، تتضمن كتب الطهي عدداً من وصفات بعينها تتناول تناولاً مباشراً نتائج استهلاك الطعام، كالإفراط في الأكل على سبيل المثال، وكذلك مع وظائف الجسم ورغباته.

ولكن ما هي السمات الرئيسية لمطبخ العصور الوسطى؟ يتعامل جزء كبير جداً من الوصفات مع أصناف أساسية، وهي ما نسميه اليوم «الطبق الرئيسي». وهي جميعاً تحتوي لحوماً من نوع ما، سواء أكانت دجاجاً أم سمكاً أو لحم الضأن المفضل، وهو لحم الخروف الذي يذبح وعمره حوالي ثلاث سنوات. وكان اللحم الكبير في السن قاسياً ولذلك يصعب هضمه.

أما لحم الجدي فكان البعض يضعه في مرتبة عالية. ومن ناحية أخرى كان لحم البقر، لما له من خشونة، يحكم عليه بأنه أكثر ما يلائم من يكدون ويكدحون – وليس أبناء الطبقة التي كانت تؤلف لها كتب الطهي. وكان لحم الصيد يوجد كذلك في ذخيرة العصور الوسطى من وصفات؛ وكانت الحيوانات، كالأرنب والحمار الوحشي والغزال، والطيور، كالطيهوج والتدرج والسمان والحجل، تعتبر جميعاً قابلة للأكل. وكان لحم الصيد يقطع كذلك ويجفف (القديد) أو يملح ويباع في أسواق بغداد. ويلاحظ غياب لحم الخنزير عن المطبخ لتحريم القرآن له. وكانت الجاليات اليهودية في الشرق الأوسط تراعي التحريم نفسه، وإن لم يكن المسيحيون خاضعين لمثل هذا القيد.

وتعكس طرق طهي الأصناف التي تحتوي على لحم المبادئ الحديثة المستخدمة في الطهي على النار في الطاجن. وكان اللحم المقطع يشوح أولاً في الزيت. وكانت الزيوت المفضلة تصنع من السمسم (السيرج) والزيتون، وإن كان دهن إلية الخروف يستعمل على نطاق واسع كذلك. وبعد ذلك يغطى اللحم بالماء وتضاف التوابل مع المكونات الأخرى كالخضروات والفواكه المجففة حسب نوع الطبق. وحينئذ تبدأ العصائر المحتجزة داخل اللحم في الخروج شيئاً فشيئاً لتختلط بسائل الطهي في الوقت الذي يمتص فيه اللحم نكهات السائل المختلفة ويزداد غنى بها. وكانت هناك طريقة أخرى كثيرة الشيوع وهي سلق اللحم أولاً في الماء قبل إضافة المكونات الأخرى. وكان استبدال اللحم ملمحاً كثير الحدوث في بعض الأطباق.

وقد يكون من الصدق القول بأن المطبخ كان متأثراً ببعض تقاليد الطهي الفارسية. وأحد الأصناف الحلوة اللاذعة «السيكباج»، ويصنع من اللحم والفواكه المجففة كالخوخ، والكمثرى والمشمش، والتمر والتين. وكان التقليد العربي واضحاً كذلك. فأطباق مثل «السويق» و«الثريد»، وكانت مشهورة في زمن النبي محمد ﷺ، عرفت طريقها إلى المطبخ الحضري الجديد، وإن حدثت بها تحولات بسبب استخدام مكونات أغلى ثمناً. وكان السويق دقيق شعير محمص وكان يحتاج إلى إضافة الماء أو الحليب عند تجهيزه للأكل، وكان مناسباً كغذاء أساسي في الرحلات الطويلة. وكان صنفاً بهذا الاسم يباع في أسواق بغداد كغذاء أساسي للفقراء مصنوعاً من الحمص المطحون. وفي الأسر الثرية كانت مثل هذه الأصناف الرعوية تصنع من دقيق القمح الفاخر وتحلى بالسكر أو تخلط بالمكونات الأخرى لبذور الرمان. واحتفى بالثريد في حديث عن النبي ﷺ قال فيه إنه أفضل الأطعمة مثلما أن زوجته عائشة أفضل النساء. وهذا الصنف العربي التقليدي يتكون من مكعبات اللحم المطهوة في مرق مع الخبز الجاف الذي يفتت عليه أثناء المرحلة الأخيرة من الطهي. وهذا الطبق طرأت عليه تحولات كذلك في تراث الطهي الراقي في الحضر، فكان يصنع من لحم الضأن أو الجدي أو الدجاج مع الخضروات، ولكن دائماً مع قطع من الخبز المفتت فوقه. وهناك صنفان آخران، هم «المصلية» و«المضيرة»، يشيران إلى تراث الطهي العربي باستخدامهما منتجات الألبان؛ فكانت المصلية تحتوي على «المصل»، وهو شرش اللبن، بينما كانت المضيرة صنف لحم يطهى في اللبن الرائب.

وكانت هناك أصناف أخرى كثيرة تحتوي على اللحم، إلا أنها كانت تعتبر في المقام الأول أصناف خضروات أو فاكهة وكانت تعرف بمكون معين بارز فيها. وهكذا كانت «الشلجمية» صنفاً مصنوعاً من الشلجم؛ وكانت هناك أصناف أخرى تسمى «إسفناخية» و«تفاحية» و«مشمشية» و«عدسية» و«أرزية».

وعلى عكس أي كتاب طهي حديث يعكس دقة عصرنا العلمي، كان كتاب الوصفات في العصور الوسطى يقدم دليلاً لصنع صنف له تميزه الفردي. وكانت الوصفة العربية في العصور الوسطى دقيقة فيما يتعلق بعملية الصنع، ولكنها لم تكن ملتزمة بمقادير المكونات أو نسبها. وكان الأساس الإبداعي للمطبخ هو استخدام الطاهي الحدسي للأعشاب والتوابل، وللكوامخ والبهارات التي تصاحب الأطباق الرئيسية أو كانت تستخدم لتتبيلها أثناء الطهي.

وضمن هذا العدد الكبير من التوابل المتاحة للطاهي، كانت هناك توابل مفضلة. وهناك ملمح مثير للانتباه تكشفه مقارنة للتوابل المستخدمة في كتابين للطهي من القرن الثالث عشر، أحدهما من أصل عراقي والآخر من أصل أندلسي. والتوابل الأكثر استخداماً في الأول، مرتبة حسب مرات استخدامها، هي القرفة والكزبرة والكمون والمستكة والفلفل (بينما الزعفران بعد ذلك بقليل)، بينما كان الترتيب في الثاني هو الفلفل والكزبرة والقرفة والزعفران (بينما يأتي الكمون بعد ذلك بقليل). فهل تعكس هذه المقارنة اختلافات إقليمية فيما يفضله الذوق؟ ليست هناك إجابة تعد حاسمة بحق. ورغم ذلك فإن التوازن في الرائحة والنكهة بين القرفة والكزبرة قد يقال عنه إنه القلب المميز لمجموعة التوابل المستخدمة في مطبخ الشرق الأوسط في العصور الوسطى. وكانت «مجموعة التوابل» هذه هي ما ورثته أوروبا من الشرق الأوسط وأحدثت تحولاً في المطبخ الأوروبي اعتباراً من القرن الرابع عشر. وربما كان هذا أقل ما نعرفه ونقدره من تأثيرات عديدة للحضارة العربية الإسلامية على الثقافات الأوروبية في العصور الوسطى.

كانت كل أقاليم العالم العربي في العصور الوسطى تشترك في مجموعة من المتبلات المجهزة العديدة تسمى «كوامخ» تستخدم إما في عملية الطهي ذاتها أو بمفردها مصاحبة لأصناف غيرها من الطعام. وهذه يمكن إعدادها مقدماً وتخزينها لحين طلبها. وعلى سبيل المثال كان الزيتون والليمون والكبَّار والباذنجان والسمك تجهز بطريقة مشابهة في جرار كبيرة إلى أن تكون هناك حاجة إليها



دار الأوبرا المصرية

برنامج
حفلات شهر ديسمبر ١٩٩٩

التاريخ	المسرح الكبير	المسرح الصغير
الأربعاء ١	باليه «كسارة البندق» فرقة باليه أوبرا القاهرة ـ أوركسترا أوبرا القاهرة تصميم وإخراج: عبد المنعم كامل	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
الخميس ٢	باليه «كسارة البندق»	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
الجمعة ٣	أوركسترا القاهرة السيمفونى ـ حفل الكريسماس	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
السبت ٤	حفل ختام مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الثالث والعشرون	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
الأحد ٥	المايسترو توماس هنجلبروك ومجموعة بالتازار نيومان (ألمانيا) فى حفل أوركسترالى بالآلات التاريخية	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
الاثنين ٦	باليه «كسارة البندق» «ماتينيه ١١ ص + سواريه ٨ م»	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
الثلاثاء ٧	باليه «كسارة البندق»	مهرجان القاهرة السينمائى الدولى
الأربعاء ٨	باليه «كسارة البندق»	فرقة يحيى خليل لموسيقى الجاز
الخميس ٩	فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية قيادة: صلاح غباشى	
الجمعة ١٠		
السبت ١١	أوركسترا القاهرة السيمفونى	
الأحد ١٢		
الاثنين ١٣		كورال بوليفونيكو مالا تستيانو دى فانو (إيطاليا)
الثلاثاء ١٤		
الأربعاء ١٥	أوركسترا الكونسرفتوار السيمفونى	
الخميس ١٦	الفرقة القومية العربية للموسيقى ـ قيادة: سليم سحاب	حفل جمعية الشباب الموسيقى
الجمعة ١٧		رباعى الأوبرا الوترى
السبت ١٨	أوركسترا القاهرة السيمفونى	فرقة بنات النيل للموسيقى والغناء
الأحد ١٩	حفل عيد الميلاد ـ د. نبيلة عريان	
الاثنين ٢٠		
الثلاثاء ٢١		
الأربعاء ٢٢		ريسيتال عيد الميلاد ـ فرقة أوبرا القاهرة
الخميس ٢٣	فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية قيادة: صلاح غباشى	أوركسترا القاهرة السيمفونى ـ موسيقى حجرة (٤)
الجمعة ٢٤		
السبت ٢٥		
الأحد ٢٦		شرقيات ـ فتحى سلامة .
الاثنين ٢٧		
الثلاثاء ٢٨		
الأربعاء ٢٩		
الخميس ٣٠	الفرقة القومية العربية للموسيقى ـ قيادة: سليم سحاب	
الجمعة ٣١		

التاريخ	مسرح الجمهورية	الإسكندرية (قاعة المؤتمرات)
الأربعاء ١		أوركسترا القاهرة السيمفونى
الخميس ٢	أوبرا «الخادمة السيدة» فرقة أوبرا القاهرة ـ إخراج: وليد عونى	الفرقة القومية العربية للموسيقى ـ قيادة: سليم سحاب
الجمعة ٣	أوبرا «الخادمة السيدة»	
السبت ٤	رحالة ـ حسام شاكر	
الأحد ٥		أوركسترا القاهرة السيمفونى ـ حفل الكريسماس
الاثنين ٦		
الثلاثاء ٧		
الأربعاء ٨		
الخميس ٩		
الجمعة ١٠		
السبت ١١		كورال بوليفونيكو مالاتستياتو دى فاتو (إيطاليا)
الأحد ١٢		
الاثنين ١٣		
الثلاثاء ١٤		
الأربعاء ١٥		
الخميس ١٦		فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية قيادة: صلاح غباشى
الجمعة ١٧		
السبت ١٨		
الأحد ١٩	ريسيتال بيانو ـ محمد شمس الدين	
الاثنين ٢٠		
الثلاثاء ٢١		
الأربعاء ٢٢		أوركسترا القاهرة السيمفونى ـ موسيقى حجرة (٤)
الخميس ٢٣		
الجمعة ٢٤	شرقيات ـ فتحى سلامة	
السبت ٢٥		
الأحد ٢٦		
الاثنين ٢٧		
الثلاثاء ٢٨		
الأربعاء ٢٩		
الخميس ٣٠		
الجمعة ٣١		أوركسترا القاهرة السيمفونى ـ حفل العام الجديد

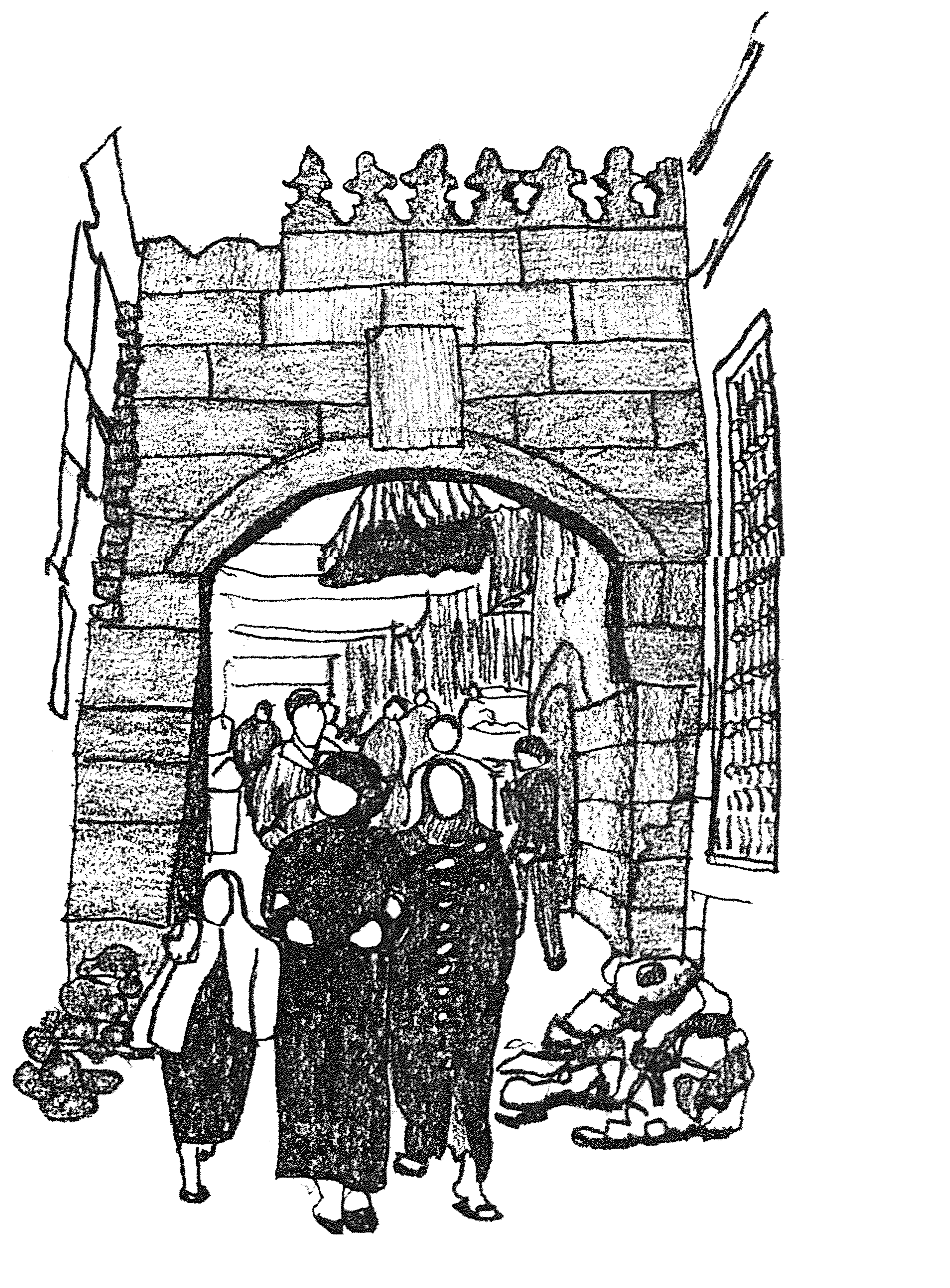
دار الأوبرا المصرية

دار الأوبرا - للاستعلام: ٣٣٩٨١٤٤ - ٣٣٩٨١٣٢
مسرح الجمهورية: ٣٩٠٧٧٠٧

أســئلة الهـويـة

بعـد ١٤ قـرنا من الإسـلام فى مـصـر!

قـاسم عـبـده قـاسـم



■■ فى لحظات تاريخية بعينها تجد الأمم نفسها فى مواجهة سؤال يبحث عن الذات والهوية، وعادة ما يكون هذا السؤال مطروحًا فى أوقات الأزمة، أو فى زمن السيولة الاجتماعية والسياسية، وربما يتم طرح السؤال فى لحظات فارقة يتم فيها الانتقال من حال إلى حال، وعادة ما يكون السؤال أكثر إلحاحًا إذا كان تاريخ هذه الأمة ضاربًا بجذوره فى تربة الزمن البعيد.

وربما لا نبالغ إذا قلنا أن الأمة المصرية تواجه هذا كله وهى تطرح سؤال الهوية على نفسها؛ فماضيها بعيد موغل فى القدم، وحضارتها متعددة الروافد، وحاضرها يمور بالكثير من عوامل القلق والاضطراب، ونوازع الأمل والترقب، وتوتر الانتظار. ثم جاءت مناسبتان جمعتهما صدفة الزمن وإن فرقتهما لحظة التاريخ؛ اقتراب سنة البداية للألف الثالثة بعد ميلاد المسيح عليه السلام، واكتمال أربعة عشر قرنًا على الفتح الإسلامى لمصر. ولمصر فى كل من المناسبتين نصيب وافر؛ فهى التى احتضنت الأسرة المقدسة اللاجئة إليها هربا من وجه الاضطهاد، ثم هى صاحبة فضل فى صياغة المذاهب المسيحية وإهداء الرهبنة والديرية إلى دنيا المسيحيين. ومصر من ناحية أخرى تحولت تحت راية الإسلام من مجرد ولاية إلى مركز من مراكز الحضارة العربية الإسلامية، ثم قلب العالم العربى والإسلامى وقلعته الحصينة حتى سقوط دولة سلاطين المماليك فى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى على أقل تقدير.

بيد أن تاريخ مصر، وإسهامها الحضارى فى تاريخ العالم، لم يبدأ بالمسيحية، ولكنه أيضا لم يتوقف بعدها. كما أن دخول الإسلام إلى مصر لم يكن أبدا نهاية لتاريخها الطويل، وإنما كان بداية لدور حضارى جديد يستوعب ما قبله لكى يعيد صياغته هوية مصر الحضارية فى إطار يجمع بين موروث مصر الحضارى الطويل وما جاءت به الحضارة العربية الإسلامية من ناحية، وما أسهمت به مصر فى بناء هذه الحضارة من ناحية أخرى.

وتلك قصة تستحق أن نرويها...

لا يمكن التحدث عن عناصر «هوية مصر» الحضارية أو مكوناتها، دون أن يمتد الحديث على ساحة الجغرافيا وامتداد التاريخ معا. بيد أن الحديث فى هذا الموضوع من ناحية أخرى، تكتنفه صعوبات منهجية وبحثية لا يمكن لباحث فرد أن يتجاوزها بسهولة. ومن ثم، فإن بعض التحفظات تبدو مطلوبة قبل البداية:

أولا: أن مكونات هوية مصر الحضارية متداخلة، وليست متراكمة فى طبقات، بسبب طول التاريخ المصرى فى عمق الزمن من جهة، وتعدد الروافد التى غذت نهر التاريخ المصرى (محلية، وشرقية، وبحر متوسطية، وأفريقية وآسيوية) من جهة ثانية.

ثانيا: أن العناصر الثابتة نسبيا فى هذه الهوية، ترتكز على الجغرافيا متمثلة فى الموقع الجغرافى؛ الذى أعطاه النيل والصحراء المحيطة بالوادى ميزة الحماية ونعمة الاستقرار، على حين جعله البحر المتوسط والبحر الأحمر من أسباب طمع الآخرين فى مصر على مر العصور. وربما كان هذا هو السبب المباشر فى أن أية قوة أرادت السيطرة على المنطقة عبر التاريخ، كان لابد لها من أن تصطدم بمصر.

ثالثا: أن العناصر التاريخية المتغيرة فى هذه الهوية ليست كلها فاعلة بقدر متساو فى تشكيل الهوية المصرية - إذ إن العناصر التاريخية القديمة التى يتغنى بها البعض ربما لا تكون فاعلة بالقدر الذى يتصورونه أو

يحاولون إيهام أنفسهم به. كما أن العناصر التاريخية الباقية فى حياتنا الآن والواضحة فى الثقافة المصرية (اللغة، نظام القيم والأخلاق، الذوق العام، العادات والتقاليد، النظرة إلى الذات وإلى الآخر، الفهم الاجتماعى للدين، الفنون والآداب، قائمة الطعام... وما إلى ذلك)، ينبغى أن تكون محل اهتمام الباحثين. بيد أن هذا لا يعنى تجاهل فترة تاريخية لحساب فترة تاريخية أخرى؛ وإنما يعنى أن ننتبه إلى أن المجرى الطبيعى للتطور التاريخى يجعل الشعوب تختار العناصر التى لم تعد تناسب حياتها الحاضرة والمستقبلة.

رابعا: إذا كان البعض يرى أن الماضى يعيش فى الحاضر، باعتبار أن الحاضر نتاج لما حدث فى الماضى، فإننا ينبغى أن نلاحظ أن بعض عناصر الماضى فقط، وليس الماضى كله، هى التى تعيش فى الحاضر.

من بدهيات الجغرافيا المصرية أن «نهر النيل» هو سبب الوجود الحضارى للمصريين. وبغض النظر عن التعبيرات الجاهزة و«المعلّبة»، فإن النهر هو الحقيقة الجغرافية والتاريخية الناصعة فى قصة مصر والمصريين. وربما كان النيل من أهم عناصر تشكيل الهوية المصرية قديما، وظل كذلك طوال عصور التاريخ المصرى. فحول النهر، ومحاولات تطويعه وترويضه قامت حياة شعب بأكمله. فقد كانت حضارة المصريين حضارة زراعية نهرية اعتمدت على مياه النيل الذى جعل مصر أشبه بواحة فيضية فى الركن الشمالى الشرقى من أفريقيا، تحيط بها الصحراء عن شرق وعن غرب، وتحدها مياه البحر المتوسط شمالا وأحراش أفريقيا فى الجنوب. وقد وفرت الظروف الجغرافية قدرًا من الاستقرار ساعد المصريين على بناء حضارتهم القديمة.

وكان لابد من ترتيب الحياة المصرية وفقا لأحوال النيل وتقلباته. وقد صاغ المصريون مع النهر دراما تاريخية من نوع فريد. فمن خلال محاولات الفلاح المصرى لتطويع نهر النيل اكتسب من الخبرة ما حوله إلى مهندس جغرافى أعاد تشكيل أرض بلاده بفضل شبكة الترع والمصارف والجسور التى بناها لترويض النهر. وفى خضم دراما النيل التاريخية عرف الإنسان المصرى الحكومة المركزية، وسار خطواته نحو اكتشاف الدين، وفهم أسرار الفصول وطبيعة المناخ فى بلاده. وعرف المصريون الكثير وقدموا للعالم الكثير فى سياق صراعهم الملحمى مع النيل، بيد أن أهم ما تعلموه ومارسوه أن يكون نسيجهم الاجتماعى واحدًا متماسكًا. ويعنى هذا بعبارة أخرى أن يكون التعاون سمة المجتمعات الزراعية، فإذا ما كان مصدر الحياة فى مجتمع زراعى ـ مثل مصر ـ واحد هو النيل، كان التعاون أكثر إلحاحًا.

كان النيل بفيضانه السنوى محل اهتمام المصريين، ولا يزال. ولأن النيل هو الظاهرة الطبيعية الحاكمة فى الحياة المصرية منذ أقدم العصور، فإن خضوع المصريين لهذه الظاهرة من ناحية، وشكل استجابتهم للتحدى الذى طرحته هذه الظاهرة من ناحية أخرى، تركا بصماتهما الواضحة على تكوين الهوية المصرية على مر الأزمنة. كما أن العلاقة بين الإنسان المصرى ونهر النيل تركت آثارها التراكمية على الوجدان المصرى عبر الزمان؛ ذلك أن أحدا من ساكنى مصر لم يكن ليستطيع أن يبتعد عن تأثير النيل على الحياة المصرية سواء من الناحية المادية أو من الناحية الوجدانية. وكان طبيعيًا أن يتمثل تراث الدراما التاريخية، التى تكونت من فصول الصراع الملحمى بين المصرى والنهر، فى قيام نوع من علاقة الحب والامتنان من جانب المصريين تجاه النهر العظيم. وتمثلت نتيجة ذلك فى أن المصريين ألبسوا النهر ثوب القداسة وجعلوه من آلهتهم المعبودة زمن الفراعنة، ثم جعلوه «النهر المؤمن» ومن «أنهار الجنة»، عندما اعتنقوا الإسلام. وسواء كان المصرى وثنيا، أو مسيحيا، أو مسلما، فإن علاقته بالنهر كانت تسير فى نفس الاتجاه منذ عصور الفراعنة حتى دخول مصر الإسلام.

أيضا.. جعل النيل الزراعة حرفة الغالبية من المصريين، وسادت قيم المجتمع الزراعى العلاقات الاجتماعية للمصريين، وحكمت عاداتهم وتقاليدهم وشكلت أعيادهم واحتفالاتهم. كما حكم النهر علاقة الإنسان المصرى بحكامه، وحكمت ثنائية الأرض والمياه طبيعة العلاقة بين السلطة والناس فى مصر على مر العصور. إذ إن وجود النهر الذى يحمل المياه من الجنوب إلى الشمال، ليكون مصدر الحياة الوحيد تقريبا فى مصر، استدعى أن يخضع الناس فى مصر كلها لسلطة مركزية تضبط النهر وتضبط الناس الساكنين على ضفاف هذا النهر. ومنذ توحيد مصر على يد «مينا» لم يحدث أن انقسمت ولا يتصور أحد انقسامها.

لقد كان النظام الإدارى يعطى للحاكم حق التصرف فى الأرض الزراعية وحصص المياه منذ أيام الفراعنة، وما يزال حتى الآن على الرغم من تغير المسميات والمصطلحات. والناظر فى تاريخ الملكية الزراعية المصرية على مر عصور التاريخ المصرى، سيجد أنها كانت ـ دائما ـ أقرب ما تكون إلى حق الحيازة منها إلى الملكية الخالصة من ناحية، وسيكتشف أن مصر لم تعرف العائلات الأرستقراطية الزراعية التى تتوارث ملكية الأرض الزراعية على مدى القرون، كما هو الحال فى أوروبا مثلا. من ناحية أخرى، فقد تصرف الفراعنة باعتبارهم الواسطة بين الآلهة والبشر، وكانت كل الموارد الطبيعية ملكًا لفرعون، وبعدهم أقر البطالمة نفس النظام الإدارى على أساس ثنائية الأرض والمياه التى اعتبرها الحاكم حقا له. وورث الرومان، ثم البيزنطيون نفس النظام، بل إن الحكام المسلمون أقروا نفس النظام مع تعديلات غير جوهرية. ألم تكن مصر إقطاعا لباكباك التركى الذى عين أحمد بن طولون نائبا عنه؟ وفى عصر الأيوبيين والمماليك صارت أرض مصر الزراعية كلها إقطاعا للسلطان وأمرائه. وماذا حدث فى العصر العثمانى؟ ألم يكن استمرارا لفكرة أن الأرض ملك للحاكم؟ ومن ثم تصرف محمد على على نفس المنوال.

ولم تكن العناصر الثابتة فى مكونات الهوية المصرية قاصرة على نهر النيل وحده، وإنما تمثلت أيضا فى سواحلها الطويلة الممتدة على البحر المتوسط شمالا والبحر الأحمر شرقا. وكان هذا البحران عوامل اتصال بين مصر وجيرانها أكثر منهما عاملى عزلة وانفصال. فقد شادت مصر حضارتها منذ أقدم العصور، وخرجت لتنقلها إلى كريت ثم بلاد اليونان (على نحو ما أثبتت الدراسات الحديثة)، وأقامت علاقات قديمة وحميمة مع بلاد الشام عن طريق البحر والسواحل، وعن طريق سيناء وفلسطين فى البر. ومن هذه المناطق جاء التجار والمهاجرون والغزاة والأنبياء على مر العصور. وتقلبت المناطق الشمالية والشرقية بين مؤثرات حضارية وسكانية متنوعة أكسبتها نوعا من المرونة الحضارية والتسامح، إزاء الآخر على نحو لا يعرفه إلا من عرف اختلاف الأقوام. فمن هذه المناطق جاء الغزاة الذين نجح بعضهم فى احتلال مصر ردحًا من الزمان؛ فقد جاء الهكسوس والفرس من الشمال والشرق، وجاء الإسكندر المقدونى وبعده قام أحد ضباطه ببناء أسرة حاكمة انتهت بمصرع كليوباترا السابعة عام ٣٤ ق.م. ثم جاء الرومان ليحكموا مصر قرابة سبعة قرون حتى الفتح الإسلامى ٦٤٠م.

التساؤلات التى تثور الآن حول طبيعة ما جرى فى مصر منذ ١٤ قرنا من الزمان عندما دخل الإسلام مصر.. وهل كان «غزوا» أم «فتحا»؟ صلحا.. أم عنوة؟.. مردود عليها فى المقابل بأسئلة عن نتيجة الفتح الإسلامى لمصر؟ ألم تستأنف دورها الحضارى فى خدمة البشرية؟ هل ظل حالها كما هو؟

لم يبدأ تاريخ مصر وإسهامها الحضارى فى تاريخ العالم.. بالمسيحية ولم يتوقف بعدها. كما أن دخول الإسلام إلى مصر لم يكن أبدا نهاية لتاريخها الطويل، ولكنه كان بداية لدور حضارى جديد يستوعب ما قبله لكى يعيد صياغة هوية مصر فى إطار يجمع بين موروثها الحضارى وما جاءت به الحضارة العربية الإسلامية

فى تصورنا أن اختلاط العناصر السكانية الناجم عن هذه الأحداث، والناجم أيضا عن الهجرات السلمية الكثيرة التى جاءت إلى مصر من شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر وعبر سيناء، والتى جاءت من بلاد الشام أو من بلاد البحر المتوسط، أو مناطق الشمال الأفريقى، كلها أدت إلى هذا النمط من الوسطية والمرونة الذى يميز المصريين، وهو الذى جعل مصر تستوعب كل ما يرد إليها لكى يذوب فى بوتقتها، ويتشكل بالشكل الذى يلائمها؛ سواء كان ذلك فكرًا أو دينًا أو بشرًا.

أما العناصر غير الثابتة، أو المتغيرة، فى الهوية المصرية فهى تلك التى تشكل تاريخها أو ميراثها الحضارى. وهنا يطرح السؤال نفسه بقوة عن تأثير الفترات التاريخية المختلفة فى التكوين الحضارى للمصريين. فقد بدأ الإنسان المصرى رحلته الحضارية منذ طفولة التاريخ والبشرية؛ فروّض النهر كما روضه النهر. واستأنس الحيوان والنبات، وبنى القرى والمدن، ثم أخذ فى كشف الأسرار الأولى فى الكون، وطرح أسئلته وإجاباته عن الحياة والموت وما بعد الموت، وأنشأ مجتمعا متحضرا عرف الاستقرار، والسلطة والدين. كما أنتج الفن والأدب والعلم والحكمة؛ فضلاً عن سيطرته على عناصر بيئته بشكل نسبى. هذا الإنسان المصرى تعلم أن يطوع حياته عبر الزمان، وبمرور الزمن صار تراكم الخبرة الحضارية من عوامل تقدمه. ويقول چيمس هنرى برستيد فى كتابه «فجر الضمير» (ترجمة الدكتور سليم حسن):

«... وهكذا يمر أمامنا دور عظيم من الخبرة البشرية، كاشفا لنا فى مدى ثلاثة آلاف سنة من حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م، عن ظهور أول مجتمع إنسانى عظيم، وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى فى أطول تطور أخلاقى يمكن للباحث تعقبه فى حياة أى مجتمع بشرى.. ولابد أن تطور حياة مثل هذه الأمة العظيمة وآدابها خلال ثلاثة آلاف سنة قد أثّر تأثيرا عميقا على جيرانها فى فلسطين خاصة، بل على كل أنحاء الشرق الأدنى...».

ثم حدث انقطاع تاريخى فى حضارة الفراعنة، وجاء زمن خضع فيه المصرى للآخر، الهكسوس والفرس والإسكندر وخلفائه، ثم الرومان وامتدادهم البيزنطى. وعلى الرغم من أن هذه الغزوات شكلت منعطفات حادة، وهامة أحيانا فى التاريخ المصرى، فإنها كانت إضافة بشكل ما إلى رصيدهم من الخبرة الحضارية؛ تعلموا منها لكنهم لم يغرقوا فى طياتها ولم يفقدوا هويتهم الحضارية فى موجاتها. وكان الإسكندر الأكبر (ت ٣٢٣ ق.م) هو الذى بدأ مرحلة جديدة فى التاريخ المصرى لعبت فيها المدينة دورا أساسيا؛ فقد كانت الإسكندرية عاصمته التى ورثها البطالمة، ولكنها لم تكن داخلة فى النسيج المصرى العام، وعادة ما كانت توصف بأنها «الإسكندرية المتاخمة لمصر». والسبب فى ذلك أن البطالمة عاشوا فى المدن، على حين عاش المصريون عموما كما كان أجدادهم يعيشون من قبل؛ محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم، يعبدون آلهتهم ويخضعون لقوانينهم وأعرافهم الفرعونية. وكان معنى هذا فى التحليل الأخير أن مصر لم تتأثر بالحضارة اليونانية ولكن اليونانيين هم الذين تمصروا.

كان المصريون فى أثناء الفترة البطلمية، التى استمرت حوالى ثلاثة قرون، يجاهدون فى سبيل الحفاظ على هويتهم الحضارية. وكانت أطول فترة خضعت فيها مصر لحاكم أجنبى قبل دخول الإسلام، هى الفترة الرومانية وامتدادها البيزنطى (٣٤ ق.م ـ ٦٤٠ م)، فمنذ هزيمة الملكة البطلمية الأخيرة كليوباترا فى

معركة أكتيوم، وانتحارها بعد ذلك، تحولت مصر إلى ولاية رومانية. فقد صار الإمبراطور الرومانى وريثا للفراعنة والبطالمة والحاكم المطلق لمصر. أما الإسكندرية فقد بقيت عاصمة للبلاد وصارت العاصمة الثقافية للعالم الهللينستى، الذى ورثته روما، ومن أهم مراكز التجارة العالمية التى تجتذب العرب والهنود والأثيوبيين وغيرهم. ولكن المصريين عاشوا حياتهم بعيدًا عن هذا كله، ولم يتغير فى حياتهم شىء اللهم إلا زيادة الضرائب بشكل غير مسبوق. وعاشت روما على القمح المصرى بلا مقابل. ومع ذلك ظل المصريون يحاولون الحفاظ على هويتهم الحضارية، وكان الدين وسيلتهم فى ذلك، فتمسكوا بديانتهم القديمة. ولم يلبث الرومان أن تأثروا بهذه الديانة وبالآلهة المصرية، فعبدوها وأقاموا لها التماثيل حتى فى روما نفسها. وواصل البيزنطيون سياسة نهب مصر من بعد الرومان.

وعلى الرغم من طول الفترة الرومانية، فإن التأثير الرومانى، ثم البيزنطى، على مصر ظل سطحيا وقشريا لم يخضع له سوى تلك الفئة من المصريين المرتبطين بدوائر الحكم والمؤسسات الرسمية فى العاصمة (الإسكندرية) وبعض المدن، على حين بقيت غالبية المصريين فى الريف تعيش حياتها بمنأى عن الحكام؛ لا يتحدثون لغتهم، ولا يمارسون عاداتهم أو يأخذون بتقاليدهم.

ثم دخلت المسيحية إلى مصر فى القرن الأول الميلادى، وانتشرت بشكل كبير فى أواخر القرن الثانى، وتعرض المصريون للاضطهادات الرومانية التى بلغت فى عصر الإمبراطور الرومانى دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)، حتى اتخذ الأقباط من هذا التاريخ بداية «لتقويم الشهداء» أو التقويم القبطى. وحينما انتصرت المسيحية بفضل الإمبراطور قسطنطين الكبير، وهدأت نيران الاضطهاد، بدأت الكنائس فى العالم المسيحى تناقش العلاقة بين الثالوث المقدس. وكان طبيعيا أن تلعب كنيسة الإسكندرية دورها بفضل تراث مدرسة الإسكندرية فى الفلسفة والمنطق والعلوم. وبعد عدة تطورات تبنت الكنيسة المصرية مذهب الطبيعة الواحدة، فى مواجهة المذهب الذى حاول أباطرة القسطنطينية فرضه على رعاياهم. وكان ذلك نوعًا من بلورة الموقف الوطنى المصرى حول الكنيسة القبطية ومذهبها. وغرق المصريون من جديد فى موجات الاضطهاد المذهبى، إلى جانب معاناتهم من النهب المستمر لموارد بلادهم. وانتزعت من الأقباط كنائسهم وأديرتهم وأملاكهم لصالح الكنيسة البيزنطية. وقد أدى هذا بطبيعة الحال، إلى المزيد من الشقاق والتباعد بين أهل مصر وحكامهم البيزنطيين.

فماذا كان حصاد تلك القرون العشرة التى خضعت مصر فى أثنائها «للآخر»؟ لم ينجح البطالمة (من غزو الإسكندر مصر سنة ٣٣٢ ق.م إلى مصرع كليوباترا سنة ٣٤ق.م) فى «أغرقة» مصر، على حين نجحت مصر فى تمصيرهم.. تماما كما لم ينجح الاحتلال الرومانى وامتداده البيزنطى الطويل (٣٤ق.م / ٦٤١م) فى فرض اللغة اللاتينية، أو اليونانية من بعدها، على المصريين. ولأن اللغة إطار حضارى معبر عن الذات والهوية، ولأن اللغة ليست مجرد كلمات تنطق بها الألسنة، أو تجرى بها الأقلام، ولأن اللغة أداة تواصل ثقافى ووجدانى بين أبناء المجتمع الواحد، ولأن اللغة تحمل المخزون الحضارى للجماعة وتؤثر فى طريقة التفكير وفى العقلية الجماعية ـ لهذا كله، وكثير غيره، لم يتقبل المصريون لغة «الآخر». واتخذت لغتهم صيغة متطورة عن اللغة الهيروغليفية المقدسة هى اللغة الديموطيقية (الدارجة)، التى اصطلح على تسميتها اللغة القبطية (أى المصرية). وبقيت هذه اللغة بالنسبة لأهل مصر لغة التعامل اليومى، والصلوات فى الكنائس، والأغانى والأناشيد، وظلت اللغة المصرية مستخدمة حتى بعد الفتح الإسلامى بدليل وجود برديات مكتوبة بثلاث لغات هى العربية واليونانية والقبطية، يرجع تاريخها إلى القرن الأول والثانى بعد الهجرة.

قبل الفتح إذن كانت مصر سلة الخبز بالنسبة للرومان والبيزنطيين، كما أن الضرائب أثقلت كاهل المصريين، واتخذت العلاقة بين أهل مصر وحكامهم شكلا نهبيا مثيرا، ترك بصماته السلبية على أهل مصر، وأضافت الاضطهادات المذهبية التى مارسها البيزنطيون ضد المصريين بعدًا عدائيا جديدا بين الطرفين. وكان طبيعيا أن يرحب المصريون بالفاتحين المسلمين الذين جاءوا بدين مخالف ولكنهم مارسوا سياسة الحرية الدينية.

ويجدر بنا قبل أن نعرض لتأثير الفتح الإسلامى فى تكون الهوية المصرية أن نتوقف عند بعض الأسئلة التى تثور الآن حول طبيعة ما جرى منذ أربعة عشر قرنا من الزمان: هل كان «غزوا» أم فتحا؟ وما تأثيرات ما جرى على مصر والمصريين؟ وما جدوى هذه الأسئلة الآن؟ حتى إذا تجاوزنا عن القصد من ورائها.

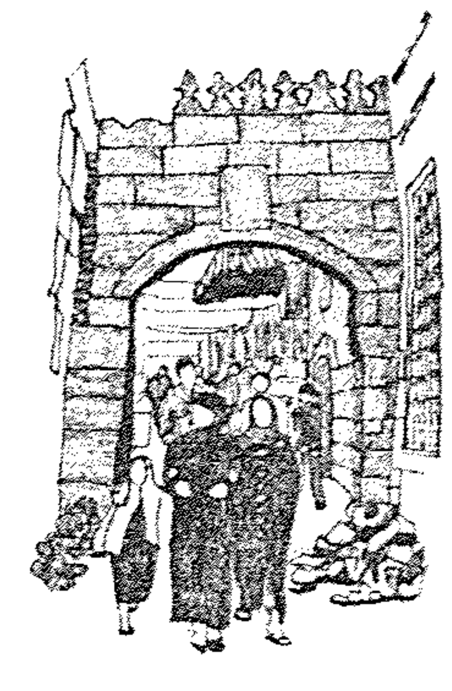
بداية كانت القرون العشرة السابقة على الفتح الإسلامى فترة تراجع وانحسار فى الدور الحضارى لمصر، وتحولت مصر خلال القرون السبعة الأخيرة من تلك الفترة بشكل خاص من دور «الفاعل» الحضارى إلى دور «المفعول به». وكان هم المصريين واهتمامهم منصبًا على محاولة التمسك بملامح هويتهم الحضارية فى مواجهة «الآخر»: الفرس والبطالمة ثم الرومان فالبيزنطيون. ولم تسهم مصر أثناء تلك الفترة فى الحضارة الإنسانية بشىء خطير سوى صياغة بعض المذاهب المسيحية، وابتداع الرهبنة الفردية التى حولتها أوروبا إلى نمط من الديرية الجماعية فيما بعد.

وبغض النظر عن المعنى اللغوى للغزو والفتح، والفارق بينهما: فإن المعنى الاصطلاحى للغزو يشى بالتدمير والتخريب والنهب، على حين توحى كلمة الفتح بالبناء والتقدم والبداية الجديدة المثمرة. وهنا نرد على هذه الأسئلة بسؤال يقول: ماذا نتج عن الفتح الإسلامى لمصر؟ ألم تستأنف دورها الحضارى فى خدمة البشرية؟ وهل كان حال مصر بعد الإسلام هو نفس حالها تحت حكم الرومان؟ وهل... وهل...؟

إن مثل هذه الأسئلة الجدلية الخطابية تبدو عقيمة إذا لم تسندها حقائق التاريخ، وربما يكون من المناسب أن نحاول مناقشة هذا الموضوع من خلال الكتاب الذى أصدرته الهيئة العامة لقصور الثقافة بعنوان «أثر الإسلام فى مصر وأثر مصر فى الحضارة العربية الإسلامية»، ضمن احتفالات مرور أربعة عشر قرنا على دخول الإسلام إلى مصر (الطبعة الأولى ـ يوليو ١٩٩٩م).

مع بداية أربعينيات القرن السابع الميلادى، كانت جيوش المسلمين قد أكملت سيطرتها على بلاد الشام وفلسطين واستولت على السواحل الشرقية للبحر المتوسط. وكان لابد من تأمين هذه السيطرة بالاستيلاء على مصر وبقية السواحل الجنوبية للبحر المتوسط. وبغض النظر عن الروايات التى أوردتها المصادر التاريخية عن تردد الخليفة عمر بن الخطاب فى فتح مصر، فإن منطق التداعيات العسكرية والإستراتيجية كان يفرض على الجيوش الإسلامية الاستيلاء على مصر لتأمين وجودها فى بلاد الشام وفلسطين.

وهكذا تقدم عمرو بن العاص بجيشه لفتح مصر، وكانت هذه حربًا مثل أية حرب أخرى بطبيعة الحال. إذ إن فرض السيادة على دولة أخرى، أو إحدى ولايات هذه الدولة لم يكن ليتم بدون قتال وإراقة دماء. ولكن ما ينبغى أن نلاحظه هو أن تلك الحرب لم تكن ضد المصريين، وإنما كانت ضد البيزنطيين (الروم) من ناحية، كما أن المصريين ساندوا جيش عمرو بن العاص، وقدموا له المساعدة بناء على نصيحة البطريرك بنيامين.



الاختلاط العرقى بين المصريين والعرب كان موجودا قبل الإسلام، وظل قائما بعده. فقد كان عرب الشمال البدو الرحل يستوطنون المناطق الشمالية والشرقية من مصر، أما عرب الجنوب النازحون من اليمن فكانوا يعبرون البحر الأحمر ليستقروا فى الوادى بين الزراع؛ لأنهم كانوا أهل زراعة فى بلادهم أيضا. كما لاحظ هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد، واسترابون فى أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الميلادى الأول

ويخبرنا المؤرخ القبطى يوحنا النقيوس عن الاضطهاد البيزنطى العنيف ضد الأقباط موضحا لنا ـ وهو شاهد عيان ـ أن تلك الاضطهادات كانت السبب فى مساندة الأقباط للمسلمين، ويرى أن الرب انتقم من البيزنطيين عن طريق المسلمين «... ولكن الله الذى يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردَّهم إلى يد الإسماعيليين (أى المسلمين)، ثم نهض المسلمون وحازوا كل مصر...» (ترجمة الدكتور عمر صابر عن اللغة الحبشية، تحت الطبع).

ويشير إلى أن الأقباط نقلوا قوات عمرو بن العاص فى قواربهم فوق صفحة النيل من ضفة إلى أخرى، كما أنهم قاموا ببناء الجسور وأقاموا الأسواق لخدمة الجيش الإسلامى منذ دخوله الحدود المصرية عند الفرما (قرب بورسعيد الحالية). ويخبرنا يوحنا النقيوسى أن حسن معاملة القائد عمرو بن العاص لبنيامين بطريرك الأقباط، كانت من أهم أسباب نظرة الأقباط إلى المسلمين، باعتبارهم جيش الإنقاذ الذى يخلصهم من الطغيان البيزنطى. فقد كان بطريرك الأقباط هاربًا فى كهوف صحراء الصعيد، خوفًا من بطش كيرس (المقوقس) الحاكم البيزنطى على مصر طوال ثلاثة عشر سنة. ويقول يوحنا النقيوسى: «... ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هربه من الروم لمدة ثلاثة عشر عاما. وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان كل الناس يقولون: هذا النفى وانتصار المسلمين كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكس على يد البابا كيرس (المقوقس)، وهلك الروم لهذا السبب وساد المسلمون مصر...».

وإذا كنا قد توقفنا قليلا عند هذه النقطة، فإن السبب فى ذلك يرجع إلى أننا نريد أن نوضح أن الحرب كانت ضد البيزنطيين من ناحية، وأن المصريين كانوا إلى جانب المسلمين من ناحية أخرى. وقد أخبرنا المؤرخ العربى المسلم عبد الرحمن بن عبد الحكم والمؤرخ القبطى سعيد بن البطريق بروايات تؤكد ما ذكره يوحنا النقيوسى فى هذا الصدد وتزيد عليه. ولسنا نقصد أن نتورط فى أى نمط من الكتابة التبريرية أو الاعتذارية حول الفتح الإسلامى لمصر، ولكننا نريد أن نوضح الحقائق التاريخية الأساسية التى تقول، إن المصريين تحت الحكم البيزنطى كانوا فى أسوأ حال من النواحى السياسية والاجتماعية والدينية؛ فقد أثقلتهم الضرائب الباهظة ووسائل جبايتها القاسية، كما انتزعت كنائسهم وأديرتهم وأملاكهم الخاصة، وعاش بطريركهم طريدًا على مدى ثلاث عشرة سنة. ثم جاء عمرو بن العاص يرفع راية الحرية الدينية، ويطبق شعارها فيساعده المصريون لكى يتخلصوا من شرور البيزنطيين، وبفضل مساعدتهم تتم هزيمة الحامية البيزنطية، ويتم تسليم حكم البلاد للمسلمين.

وبعد أن استقرت أمور الفاتحين المسلمين فى مصر، استقدم عمرو بن العاص البطريرك بنيامين وأمَّنه وأعاد إليه ممتلكات الكنيسة القبطية، ولكنه لم يصادر أيضا ممتلكات الكنيسة الملكانية التى كانت تتبع مذهب الكنيسة البيزنطية.

على أية حال، أخذ بنيامين بطريرك الأقباط الذى قضى شطرا كبيرا من حياته فى النضال ضد البيزنطيين أعداء الأقباط المذهبيين، يعمل بلا كلل لتقوية الكنيسة القبطية، ويعيد تأسيس الأديرة والكنائس التى كانت قد هدمت قبل الفتح الإسلامى، كما أرسل مطرانًا جديدًا إلى كنيسة الحبشة التى كانت تابعة للكنيسة المصرية. وكانت آخر أعماله تأسيس كنيسة جديدة للقديس مكاريوس فى وادى النطرون.

كان هذا المشهد التاريخى تجسيدًا لجوهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين على أرض مصر منذ تلك اللحظة وعلى امتداد تاريخ مصر بعد ذلك. وكانت العلاقة بين المسلمين المصريين والمسيحيين المصريين من أهم عوامل صياغة الهوية المصرية على امتداد أربعة عشر قرنًا من الزمان. وتفسير ذلك أن تلك اللحظة التاريخية قد شهدت تعاونًا بين المسلمين الذين قادهم عمرو بن العاص لفتح مصر، والأقباط الذين ساعدوا الفاتحين ضد «الآخر» البيزنطى، ثم تعين عليهم أن يصوغوا علاقة جديدة فيما بينهم. وربما

ساعدتنا الوقائع التاريخية على فهم طبيعة هذه العلاقة ومدى متانتها.

فعلى الرغم من اختلاف آراء المؤرخين القدامى حول فتح مصر؛ أكان صلحًا أم عنوة؟ فالواقع أن الخليفة عمر بن الخطاب أمر بأن يعامل المصريون على أساس أن بلادهم قد فتحت صلحا، وهو ما يعني أن يحتفظ المصريون بالأرض الزراعية وممتلكاتهم الأخرى، ويؤدون عنها الضرائب المعتادة. وربما كان من أسباب هذا الإجراء أن الزراعة مهنة المصريين، وأن الأصوب أن تترك الأرض لمن يزرعونها، وربما يكون من بين هذه الأسباب أيضا، أن الحرب كانت ضد الاحتلال البيزنطي ولم تكن ضد المصريين، وربما كانت المساعدات والإسهامات المصرية وراء قرار الخليفة. بيد أن ما يهمنا أن هذا القرار كان في صالح مستقبل العلاقة بين الطرفين.

وربما يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن الطرفين لم يكونا غرباء، وإنما كانت هناك بعض صلات القربى والدم تربط بين العرب والمصريين قبل الإسلام. فقد أثبتت الدراسات والبحوث الأثرية (في العلا ومدائن صالح بالسعودية)، أن الصلات قديمة بين مصر وشبه الجزيرة العربية؛ إذ تشير سجلات التاريخ الفرعوني إلى استمرار قدوم القبائل العربية إلى مصر عبر شبه جزيرة سيناء، ثم استقرارها على الأرض المصرية. ويلاحظ كلا من جمال حمدان (شخصية مصر)، وحسين مؤنس (مصر ورسالتها)، وسيدة كاشف (مصر في عصر الولاة)، أن الاختلاط العرقي بين المصريين والعرب كان موجودا قبل الإسلام، وظل قائما بعده. فقد كان عرب الشمال البدو الرحل يستوطنون المناطق الشمالية والشرقية من مصر، أما عرب الجنوب النازحون من اليمن فكانوا يعبرون البحر الأحمر ليستقروا في الوادي بين الزراع؛ لأنهم كانوا أهل زراعة في بلادهم أيضا. وينبغي أن نلاحظ أن جيش عمرو بن العاص كان يضم الكثير من عرب الجنوب. وقد لاحظ هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد، واسترابون في أواخر القرن الأول قبل الميلاد وبداية القرن الميلادي الأول، كثافة الوجود العربي في مصر. وهو ما يعني في التحليل الأخير وجود أساسي سكاني تاريخي لعملية المزج السكاني بين العرب والمصريين بعد الإسلام.

وهنا ينبغي أن نشير أيضا إلى أن عملية المزج بين المسلمين والنصارى قد جرت في اتجاهين:

أولهما: أن العناصر العربية الإسلامية التي جاءت مع جيش الفتح واستقرت في مصر قد تمصرت وذابت في النسيج المصري العام لاعتبارات عديدة، وهو ما حدث أيضا بالنسبة للقبائل والبطون العربية التي استمرت في القدوم إلى مصر على مر القرون.

ثانيهما: أن أعدادًا متزايدة من المصريين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام لأسباب متنوعة حتى صار المسلمون أغلبية بين المصريين.

ومع هذا، فإن النسيج السكاني والاجتماعي المصري بقي متجانسا وقويا. وربما تؤكد التطورات التاريخية ما ذهبنا إليه.

لقد كان الفتح الإسلامي في نقطة فارقة، ومنعطفا مهما في تاريخ المصريين من جوانب عديدة؛ إذ كانت تلك هي المرة الأولى في التاريخ المصري الطويل، التي يتغير فيها الشكل الحضاري لمصر. فلم يكن المسلمون مجرد قوم من الغزاة الذين عرفهم التاريخ المصري على مدى عصوره الطويلة. كما أن الدين الذي جاءوا تحت رايته كان أساسا لحضارة رائعة، أسهمت في ترقية البشرية وتقدمها على مدى ما يزيد على عشرة قرون. وعلى الرغم من أن المصريين غيروا دياناتهم مرتين: إحداهما، عندما اعتنقوا المسيحية. والثانية، عندما اعتنقت غالبيتهم الإسلام، فإن الفتح الإسلامي كان فاتحة شكل حضاري ودور حضاري جديد لمصر. إذ إن الفتح الإسلامي أنهى فترة الرقاد والركود الحضاري من جهة، وغير من طبيعة النسيج الثقافي المصري من جهة ثانية، كما مزج بين الموروث الحضاري العريق للمصريين وما جاء به الإسلام والعروبة من جهة ثالثة - فكيف كان ذلك؟



الضرائب التي زادت بشكل غير مسبوق دفعت المصريين - مسلمين ومسيحيين - إلى المقاومة المسلحة. وكانت ثورات المصريين المتكررة فيما بين العام ١٠٧ من الهجرة والعام ١٥٦ بمثابة البوتقة التي ذابت فيها مكونات الشخصية المصرية لتكون سبيكة واحدة

كانت هناك نتائج مباشرة للفتح الإسلامي: فقد كانت سياسة عمرو بن العاص تتسم بالحكمة تجاه المصريين. وتزخر أدبيات الفتح الإسلامي لمصر بأحاديث كثيرة تنسب إلى النبي (عليه الصلاة والسلام) توصي بالقبط خيرا عند فتح مصر؛ لأن «... لهم ذمة ورحمًا...»، وأن «... منهم أخوال العرب...»، وأنهم «خير جند الأرض»، وأنهم سوف يعينون المسلمين في فتح البلاد. وربما تكون هذه الأحاديث قد وضعت في روايات الفتح بأثر رجعي، لكي تزين قصة الفتوح التي ظلت محلا للتداول الشفاهي حتى دونها عبد الرحمن بن عبد الحكم في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي؛ ولكنها تعكس جانبا من الحقائق التاريخية، كما تكشف عن أسباب السياسة التي اتبعها عمرو بن العاص تجاه المصريين. إذ إن الروايات التاريخية تنسب إلى عمرو بن العاص خطبة ألقاها على جنوده غداة الفتح جاء فيها: «... واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا...». وقد التزم عمرو بن العاص بمبدأ حرية العقيدة بدقة، كما كانت العدالة تميز سلوكه تجاه المصريين جميعا.

وعلى العموم كانت أحوال الأقباط تحت الحكم الإسلامي الباكر أفضل كثيرا منها تحت الحكم البيزنطي، بل إننا نوافق الدكتور إسحق عبيد على ما ذهب إليه من أن الفتح الإسلامي هو الذي حفظ الكنيسة المصرية من الضياع لحساب الكنيسة البيزنطية. فقد أعطى عمرو بن العاص للأقباط مساحة من بركة الجيش لتكون مقابر لهم بعدما كان البيزنطيون ينكرون عليهم هذا الحق، وسُمح لهم بترميم كنائسهم وبناء كنائس جديدة، إذ تم بناء كنيسة مارمرقس بالإسكندرية فيما بين عامي ٣٩ و ٥٠ هجرية، كما بُنيت أول كنيسة بالفسطاط في ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٨ هـ).

وقد شجعت هذه السياسة بعض المصريين على اعتناق الإسلام، كما أن أعدادا متزايدة من المصريين أخذوا يعتنقون الإسلام لأسباب متنوعة؛ فمنهم من بادر منذ البداية إلى اعتناق الإسلام تقرباً وزلفى إلى الحكام الجدد، ومنهم من خشي على وظيفته أو مكانته الاجتماعية، ومنهم من آمن فعلا بالدين الجديد. ولك معدل انتشار الإسلام في مصر ظل بطيئا طوال القرن الهجري الأول / القرن السابع الميلادي. ولم يثبت تاريخيا أن هنا ضغوطا قد مورست على الأقباط لكي يعتنقوا الإسلام كرها؛ لأن ذلك ضد مبادئ الإسلام من ناحية، ولأن المسلمين الأوائل آمنوا بحق أهل الكتاب في التمسك بدينهم والبقاء في دار الإسلام من ناحية أخرى.

ولكن تعريب الأداة الحكومية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م)، ثم توطين بعض القبائل العربية، وزيادة معرفة المصريين بالإسلام، زادت من أعداء المصريين الذين اعتنقوا الإسلام. وفي القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي تصاعد معدل انتشار الإسلام في أنحاء مصر بسبب زيادة أعداد المصريين الذين اعتنقوا الإسلام من جهة، وزيادة بطون القبائل العربية التي سكنت ريف مصر من جهة ثانية. ويذكر المؤرخ تقي الدين المقريزي، نقلا عن مصادر تاريخية قديمة، أن العقود الأولى من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، شهدت تحول المسلمين إلى أغلبية بين سكان البلاد.

وقد نتج عن هذه التحولات في البنية السكانية آثار ونتائج اجتماعية / ثقافية بعيدة المدى على الهوية الحضارية للمصريين. ذلك أن المصريين الذين تحولوا إلى الإسلام، احتفظوا بموروثهم الثقافي الطويل، وحاولوا تبريره في مصطلحات تناسب دينهم الجديد، ولم يكن ممكنا أن يحدث غير ذلك، فالموروث الثقافي لأي مجتمع يكون من القوة بحيث يطوع كل شيء في خدمته؛ وربما يكون هذا هو السبب الأساسي في اختلاف شكل التدين من مجتمع لآخر، فضلا عن أن المذاهب الدينية المختلفة - في كل الأديان - ليست في حقيقتها سوى تفسيرات للدين يحكمها الموروث الثقافي للمجتمع. وقد كان المصريون في ذلك متوافقين مع قانون التطور التاريخي. ومن ناحية أخرى، ذابت العناصر العربية الوافدة رويدا رويدا في المجتمع، وتمصروا مثلما حدث مع من سبقهم، ولكن ثقافتهم الفرعية تركت تأثيراتها في المجرى العام للثقافة المصرية. وهكذا، وجدنا أنفسنا في القرن الثالث الهجري أمام مجتمع مصري، يعتنق معظمه الإسلام ويعتنق الباقون المسيحية. كما أن معظم سكانه من المصريين الأصلاء والباقين من العناصر العربية، وغير العربية، المتمصرة. وبدا هذا المجتمع يواجه ظلم الإدارة الذي تصاعد في عهد الأمويين ثم العباسيين من بعدهم.

وكان السبب المباشر في ذلك أن الأعباء المالية كانت قد زادت على المصريين بشكل غير معقول قرب نهاية القرن الهجري الأول، مما أنتج حركة مقاومة سلبية واسعة النطاق تمثلت في عمليات الهروب بأعداد كبيرة من الريف، وقد حاول قرة بن شريك (والي مصر ٩٠ - ٩٦هـ / ٧٠٨ - ٧١٤م)، أن يوقف حركة الهاربين، فانشأ هيئة خاصة لتعقب الفلاحين الهاربين وإعادتهم إلى قراهم، كما أصدر المراسيم التي يطلب فيها مراعاة العدالة في تقدير الضرائب وجبايتها. وقد حفظت لنا أوراق البردي بعض هذه المراسيم. إلا أن محاولة هذا الوالي باءت بالفشل؛ إذ تخبرنا المصادر التاريخية أن زيادة الضرائب قد أخرجت المصريين جميعا: مسلمين ومسيحيين من طور المقاومة السلبية إلى مرحلة المقاومة المسلحة.

وكانت ثورات المصريين التي تكررت في سنوات ١٠٧هـ، ١٢١هـ، ١٣٢هـ، ١٥٠هـ، ١٥٦هـ بمثابة البوتقة التي ذابت فيها مكونات الشخصية المصرية وانصهرت لتكون سبيكة واحدة ذات خصائص ثقافية واجتماعية متمايزة. وعلى الرغم من أن حكومة الولاة تمكنت من إخماد هذه الثورات كلها، فإن القرن الثالث الهجري شهد تصاعدا خطيرا في الثورة المصرية ضد ولاة الدولة العباسية، وأحسب أن السبب في شدة ثورات القرن الثالث راجع إلى زيادة تماسك النسيج الاجتماعي المصري بعناصره المسيحية والإسلامية من ناحية، والمصرية والعربية من ناحية أخرى.

ففي عام ٢١٥هـ / ٨٣٠م شارك المسلمون والمسيحيون في ثورة عارمة بسبب ظلم السياسة الضريبية التي انتهجها الولاة العباسيون، وامتنع المصريون عن أداء الضرائب وطردوا موظفي الدولة. ولم تستطع القوات الحكومية إخماد الثورة، واضطر الخليفة المأمون العباسي أن يقود جيشه بنفسه إلى مصر عام ٢١٧هـ / ٨٣٣م، حيث تمكن قائد جيوشه، المعروف باسم الأفشين، من هزيمة المصريين؛ فقتل رجالهم، وسبى نساءهم، وباع أطفالهم في أسواق النخاسة. وأعقبت ذلك عمليات تفريغ سكاني في مناطق شمال الدلتا، وعمليات توطين بديلة. وتم ترحيل عدد كبير من المصريين الذين ينحدرون من أصول بيزنطية، ومن ناحية أخرى تم توطين عدة بطون عربية في الريف المصري، كما أن كثيرين من المصريين اعتنقوا الإسلام. وفي هذا يقول المقريزي «... وغلب المسلمون على أماكنهم من القرى...»، أي أن غالبية أهل الريف صاروا من المسلمين.

وكان هذا تحولا خطيرا حقا، إذ ظل الإسلام حتى تلك اللحظة دينا حضريا، فقد عاش المسلمون في العاصمة - التي لم تخل من المسيحيين بطبيعة الحال - ولكن أعدادهم في الريف كانت قليلة حتى منتصف القرن الثالث الهجري عندما صار المسلمون أغلبية بين المصريين. ونتج عن هذا تيار اجتماعي / ثقافي، استمر على مدى الأجيال التالية في

صياغة الهوية الحضارية المصرية. فقد امتزج الموروث الاجتماعي / الثقافي المصري بتعاليم الإسلام بشكل جعل بعض عادات المصريين وتقاليدهم تختفي لتعارضها الواضح مع الإسلام، على حين استمرت بعض هذه العادات والتقاليد في الوجود تحت عباءة الإسلام. وكانت العادات والتقاليد المصرية المرتبطة بالموت والمقابر وطقوس الجنائز أبرز العادات والتقاليد الباقية، كما أن بعض العادات والتقاليد المرتبطة بقائمة الطعام والملابس واحتفالات دورة الحياة، والاحتفالات العامة استمرت في شكل حضاري جديد كانت الثقافة العربية الإسلامية إطاره وأساسه. وعلى الرغم من أن المسيحيين تمتعوا بحرياتهم الدينية تحت رئاسة البطريرك القبطي، فإنهم لم يكونوا يشكلون كيانا منعزلا، وإنما شاركوا في جميع نواحي النشاط السياسي والاقتصادي والثقافي باعتبارهم جزءًا عضويا من الكل المصري.

هكذا كان انتشار الإسلام في مصر من أهم عوامل صياغة الهوية؛ بيد أن مسألة «تعريب» مصر تعتبر مسألة غاية في الأهمية والخطورة. فقد انتشر الإسلام في مناطق شاسعة من العالم آنذاك، ولكنه لم يقترن بالتعريب سوى في المنطقة العربية. ومن ناحية أخرى، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتخلى فيها المصريون عن لغتهم طوال تاريخهم الطويل. وهي مسألة تثير الكثير من التساؤلات حول أسبابها ونتائجها. وربما كان من المناسب أن نقول مع الدكتور أحمد مختار عمر إنها قصة «... تستحق التسجيل وتغري بالدرس...». وأخطر فترة في تاريخ اللغة العربية في مصر هي تلك التي بدأت مع الفتح الإسلامي واستمرت طوال القرون الثلاثة التالية.

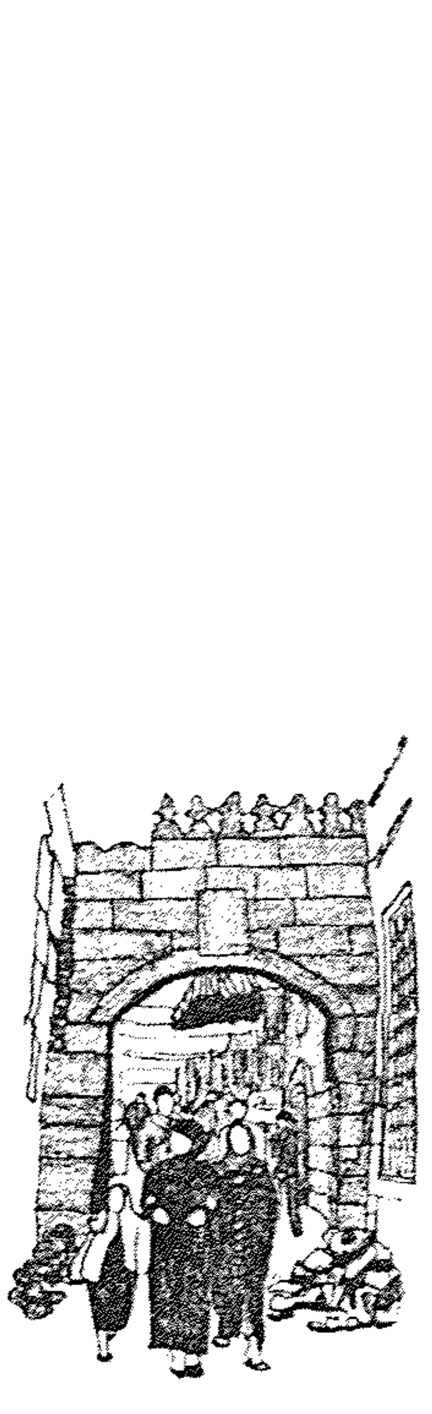
لم تكن اللغة العربية غريبة على مصر، إذ كان لها تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل الإسلام، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن وجود اللغة العربية في مصر كان وجودا حقيقيا مرتبطا بوجود العناصر العربية التي أشرنا إليها من قبل.

وفي تصورنا أن اللغة العربية انتشرت في مصر بعد الإسلام، لأسباب عديدة أهمها: أنها لغة قريبة في بنائها وطرق اشتقاقها من اللغة المصرية. بل إن دراسات علماء اللغة كشفت عن أن هناك قرابة شديدة بين اللغتين اللتين تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة، وهو الأمر الذي سهّل من انتشار اللغة العربية في مصر، بحيث صارت لغة المصريين الوحيدة. وعلى الرغم من أن عوامل كثيرة سياسية واقتصادية ودينية وفكرية كانت وراء النجاح الذي كللت عملية التعريب، فإن أهم هذه العوامل في ظني يرجع إلى درجة القرابة بين اللغتين، والاندماج الذي حدث بين العرب والمصريين، قبل الإسلام وبعده، على نحو ما ظهر في الصفحات السابقة.

لقد فرضت الحياة الاجتماعية على البشر اختراع اللغة؛ أي تلك الأصوات التي تحمل معان أو دلالات اصطلحت عليها الجماعة. وبالاتفاق صارت الكلمات تدل على أفعال، أو ترمز إلى أشياء مادية أو غير مادية. وربما كانت كلمات البشر الأولى هي تلك التي تحمل معاني الأشياء الماثلة أمامهم. ويرى بعض علماء اللغة أن شكل الشفاه في نطق بعض الكلمات يشي بمحاولة تقليد معنى الكلمة أو مضمونها؛ ففي كلمات الشعوب البدائية نجد تشابها بين الكلمات ومعانيها، ولأن اللغة جزء من الموروث الثقافي / الاجتماعي، كما أنها تقوم بنقل هذا الموروث وتشكله، فلا يمكن اعتبارها مجرد وسيلة نقل؛ لأن اللغة لا تكتفي بالنقل، وإنما تؤثر فيما تنقله، ويؤدي هذا بالضرورة إلى أن تكون اللغة من أهم عناصر تكوين الهوية الحضارية.

فاللغة من أهم عناصر رؤية الجماعة الإنسانية لذاتها؛ أي أنها من أهم عناصر تكوين الأيديولوجية التي تتحرك الجماعة الإنسانية في داخلها. والسبب في ذلك أن اللغة لا يمكن أن تكون مجرد نتاج للحياة الاجتماعية، وإنما هي أيضا من عوامل تشكيل هذه الحياة الاجتماعية، كما أن التفكير في معاني مفرداتها ودلالاتها ومغزاها لا يمكن أن يتم بمعزل عن السياق الاجتماعي، فضلا عن أن الأفكار التي تحملها اللغة لا يمكن أن تصبح أفكارا حقيقية، أو أن يكون لها تأثير اجتماعي، دون أن يكون المجتمع متقبلا لها.

ومن هنا تتضح خطورة تعريب مصر بعد الفتح الإسلامي، وتأثير هذا التعريب على التكوين الحضاري للمصريين. فقد تقبل المصريون اللغة العربية واتخذوها لغة لهم؛ لأنها لم تكن غريبة عليهم، كما أن بناءها وتراكيبها واشتقاقاتها كانت مشابهة للغتهم القديمة، فضلاً عن أنها ارتبطت بالإسلام الذي اعتنقته غالبية المصريين. وأخيرا فإن ظروف المجتمع المصري والتطورات التاريخية التي مرّ بها ساعدت على قبول اللغة العربية من جانب المصريين.



أدى تعريب الدواوين في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ إلى ٨٥هجرية) وتوطين بعض القبائل العربية وزيادة معرفة المصريين بالإسلام، إلى زيادة أعداد الذين اعتنقوا الدين الجديد. وبالقدر نفسه تقبل المصريون اللغة العربية واتخذوها لغة لهم؛ لأنها لم تكن غريبة عليهم أو على لغتهم القديمة، لكن الأمر تطلب عدة أجيال قبل أن يكتمل تعريب مصر.

ولم يفرض الفاتحون قيودًا على استخدام اللغة القبطية، بل إنهم سمحوا باستخدامها في الوثائق القانونية، وهو ما لم تسمح به السلطات البيزنطية سوى في أواخر سني حكمهم، وفي نطاق ضيق للغاية يتعلق بالقانون الخاص فقط. وعندما فتح المسلمون مصر لم تكن اللغة المصرية مستخدمة في أية معاملات رسمية، بل إن الصلوات في الكنائس كانت تُتلى باليونانية، ويتم شرحها بالقبطية. وكانت اللغة اليونانية لغة الحكم والإدارة والوثائق. واستمر الحال كذلك إلى أن صارت اللغة العربية اللغة الرسمية بعد تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٥هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥م)، وبدأ والي مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان تنفيذ ذلك منذ سنة ٨٧هـ / ٧٠٦م. بيد أن القبطية ظلت مستخدمة إلى جوار العربية حتى العصر العباسي حين صارت العربية وحدها، لغة الوثائق الرسمية والقانونية، وهناك عدد كبير من أوراق البردي التي ترجع إلى تلك الفترة مدونة باللغات الثلاث Trilingual.

ولا شك في أن تعريب الأداة الحكومية في مصر قد دفع عددا من المسيحيين إلى تعلم اللغة العربية؛ لكي يحتفظوا بوظائفهم المتوارثة في الجهاز المالي والإداري، بيد أن هذا العامل لم يكن حاسما في عملية التعريب، وإنما كان للعامل السكاني والاجتماعي إلى جانب العامل الديني الأثر المهم في تعريب مصر على مدى القرون الثلاثة التالية للفتح.

ومن المرجح أن تعريب مصر قد استغرق زمنا أطول من انتشار الإسلام بين غالبية سكانها، إذ إن اعتناق دين جديد يمكن أن يتم في دقائق معدودة بالنسبة للفرد. صحيح أن فهم الدين بشكل صحيح يستغرق زمنا أطول، ولكن اعتناق الدين أو التحول من دين إلى دين آخر، يتم بمجرد انتهاء الطقوس والشعائر الضرورية لاعتناق هذا الدين. أما بالنسبة للغة، فإن الأمر يختلف كثيرا، فإذا كانت هناك لغة جديدة تحل محل لغة قديمة، فلابد أن تحتاج اللغة الجديدة إلى عدة أجيال حتى تبسط سيادتها. إذ إن الجيل الأول يحتفظ بلغته القديمة ويتعلم اللغة الجديدة. وكلما كانت اللغة الجديدة قادرة على توفير الحاجات الثقافية / الاجتماعية، زاد معدل انتشارها بين الأجيال التالية، حتى تصير هي اللغة الوحيدة المعبرة عن المجتمع، والحاملة لموروثه الثقافي. وهي في هذه الحال عبارة عن نتاج اجتماعي من ناحية، كما أنها من عوامل تشكيل المجتمع من ناحية أخرى. وفي تصورنا أن هذا ما حدث في قصة اللغة العربية في مصر.

لقد بدأ انتشار اللغة العربية محدودًا مع الفتح الإسلامي لمصر، ثم أخذ في الازدياد مع زيادة استخداماتها في مختلف جوانب الحياة المصرية. ومنذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على أقل تقدير، صارت اللغة العربية لغة المصريين جميعا، في الحياة اليومية وفي دواوين الحكم وفي ساحات القضاء وفي سطور الوثائق والكتب، فضلا عن الأشعار والأغنيات والترانيم. وظهرت آنذاك مؤلفات كثيرة كتبها الأقباط باللغة العربية في التاريخ العام وتاريخ الكنيسة، وفي التأليف الديني والأدبي أيضا. وربما كانت التفاعلات الثقافية والفكرية التي شهدها القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي هي السبب في انتصار اللغة العربية بشكل نهائي وحاسم. ذلك أن هذا القرن يعتبر أهم فترة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بشكل عام. فقد اكتمل خلال هذا القرن التفاعل بين الإسلام واللغة العربية من جهة، والموروثات الحضارية للشعوب التي اعتنقت الإسلام من جهة أخرى، وقد شهدت فترة التوافق هذه مولد ثقافات فرعية متمايزة في كل بلد من بلدان العالم الإسلامي داخل النطاق العام للثقافة العربية الإسلامية، وقد ساعدت حركة الترجمة المنظمة والنشطة على زيادة معدلات التعريب في مصر وغيرها. ومن ناحية أخرى، ظهرت المدارس الفكرية المتنافسة في كل عاصمة من عواصم دار الإسلام.

ولم تكن مصر استثناء في ذلك بطبيعة الحال، فقد أنجبت عددا من العلماء والمفكرين كانوا قوام مدرسة ثقافية مصرية تتنافس مع المدارس الثقافية الأخرى في أنحاء العالم الإسلامي. وكانت اللغة العربية أداة المصريين في المنافسة العلمية والثقافية. ومن ثم، زادت الحاجة إلى استخدام اللغة العربية في مصر، وزادت أهميتها في صياغة أيديولوجية المجتمع المصري الذي بات نسيجه الاجتماعي والسكاني أشد تماسكا وأكثر تجانسا.

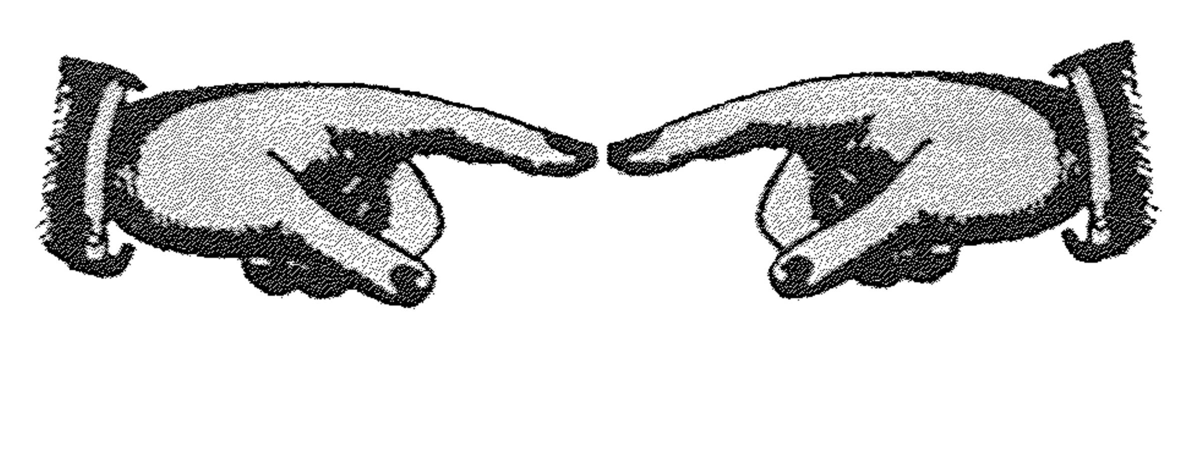
هكذا، نتج عن الفتح الإسلامي صياغة جديدة للهوية المصرية تمت على مدى القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح. وهكذا تم بعث الدور الحضاري المصري من جديد بعد الفتح الإسلامي. فقد تحولت مصر من ولاية بيزنطية خاملة في العصر البيزنطي إلى ولاية إسلامية نشطة وفاعلة على مدى قرنين وعقدين من الزمان، ثم عرفت نوعا من الاستقلال زمن الطولونيين، ثم الإخشيديين، استمر حوالي قرن من الزمان. وبعدها قامت الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٤هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م) لتكون مصر مركزا لدولة إقليمية كبرى ذات دور محوري وفاعل في تاريخ المنطقة والعالم الإسلامي. وهو الدو الذي تصاعدت أهميته في العصر الأيوبي، ثم في عصر سلاطين المماليك (٥٦٦ - ٩٢٢هـ / ١١٧١-١٥١٧م).

لقد عادت مصر مرة أخرى فاعلا حضاريا وتخلصت من دور المفعول به. وعلى الرغم من أن مصر في تلك الفترة كانت مركزا للفعل الحضاري بجانب المراكز الحضارية الأخرى في العالم الإسلامي، فإن ظروف الغزو الصليبي (القرن ١١م) والغزو المغولي (القرن ١٣م)، قد جعلت منها حصن الدفاع الأخير عن الحضارة العربية الإسلامية حتى تولى العثمانيون هذه المهمة بعد هزيمة قنصوه الغوري في مرج دابق وطومانباي في الريدانية سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م. فهل يجوز طرح السؤال مرة أخرى، أكان غزوا أم فتحا؟

لقد كان سكان مصر في تلك الفترة نسيجا اجتماعيا واحدا، جمعته ثقافة واحدة امتزجت عناصرها فيما بين الموروث المصري عبر العصور، وما جاء به الإسلام واللغة العربية، ثم تداعيات هذا التفاعل بين هذا وذاك طوال تسعة قرون من الزمان. لقد ذاب العرب القادمون تحت راية الإسلام (وكان عددهم قليلا للغاية مقارنة بعدد سكان مصر آنذاك)، كما ذاب أبناء القبائل العرب التي هاجرت بطون منها إلى مصر لأسباب عديدة. كذلك فإن تحول غالبية المصريين إلى اعتناق الدين الإسلامي، على امتداد تلك الفترة الزمنية، جعل العنصر البشري عنصرا واحدا يعتنق ديانتين مختلفتين، ولكن عاداته وتقاليده، ونظامه القيمي والأخلاقي، وإبداعاته الفكرية والثقافية والفنية واحدة.

وهذا في تصورنا هو السبب في أن المصريين جميعا أبناء هوية حضارية واحدة، وهذا هو السبب أيضا في خلو مصر من الأقليات العرقية والصراعات العنصرية، وفي كون نسيجها السكاني الاجتماعي واحدًا.

إلقاء اللّوم على الآخرين



بروس كاكليك

■■ كان والد ويليام باندى مؤلف كتاب «شبكة بالغة التعقيد»، صديقًا مقربًا لهنرى شيمسون، الذى يعد من أبرز الدبلوماسيين المنتمين للحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة خلال النصف الأول من القرن الحالى، كما كان حموه وزير الخارجية الأمريكى الأسبق دين أتشيسون أبرز الدبلوماسيين المنتمين للحزب الديمقراطى فى تلك الفترة. وعمل باندى فى المخابرات المركزية الأمريكية CIA فى الخمسينيات، وأصبح مسئولا كبيرا فى وزارتى الخارجية والدفاع إبان عهد الرئيسين الأمريكيين الأسبقين كيندى وجونسون. وأشرف على تحرير مجلة «الشئون الخارجية» Foreign Affairs بين عامى ١٩٧٢، ١٩٨٤. ومعروف أنها من أكثر مطبوعات مجلس العلاقات الخارجية نفوذًا، وكان شقيقه الأصغر ماكجورج دبلوماسيا بارزا أيضا.

ويتناول كتاب باندى الفترة بين ١٩٦٩ و١٩٧٤ أى بعد أن ترك العمل الحكومى مباشرة، كما يناقش أيضا الدبلوماسية الأمريكية فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بأكملها، التى انبثقت منها سياسات الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون، وحتى العصر الراهن. ويعتبر هذا الكتاب من أكبر المؤلفات التى تتناول تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، لكنه تقليدى للغاية.

وتتميز تغطية باندى لهذه الفترة بأنها شاملة وبالغة التدقيق فى التفاصيل الصغيرة، رغم أن منطقة جنوب شرقى آسيا تحظى بمعالجة أكثر توسعًا، ويجد القارئ المهتم تلخيصات جيدة للسياسة الأمريكية تجاه أوروبا أيضا، مثل النزاع الذى نشب بين أعضاء حلف الناتو خلال حرب فيتنام، إضافة إلى سياساتها تجاه جنوب آسيا والشرق الأوسط، مثل ميلها إلى باكستان أثناء حربها ضد الهند فى ١٩٧١، والدبلوماسية المكوكية فى الشرق الأوسط فى ١٩٧٣ و ١٩٧٤. ويجد القارئ أيضا تفاصيل سياسة الانفتاح نحو الصين وانفراج العلاقات المتوترة مع الروس، ودبلوماسية توازن القوى بين الصين والاتحاد السوفيتى السابق والولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن باندى منظم جدا فى تفكيره ويكتب بوضوح تام، إلا أن الكتاب حافل بكثير من الأمور المبعثرة غير المترابطة، وتجد الموضوعات متتالية بشكل يمكن التنبؤ به خلال سعى باندى لفهم موقف نيكسون تجاه القضايا التى واجهته، ويفتقر إلى أسلوب التركيب وجمع العناصر المختلفة فى الكتاب. وكما يتوقع المرء من دبلوماسى شارك فى صنع القرار السياسى وتحوّل إلى مؤرخ، لم يحاول باندى تجنب حقائق الحرب الباردة وخفاياها مثلما نُشرت فى الولايات المتحدة منذ فترة نهاية الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

ويلاحظ أن النتائج النهائية فى كتاب باندى قياسية، بمعنى أنه يمكن أن تجدها فى معظم النصوص الأكاديمية التى تتناول عهد نيكسون، إلا أن باندى يسهب ويفصّل كثيرا فى كتابه.

وينسب باندى لكل من نيكسون وكيسنجر فضل إدارة الشئون الخارجية بنجاح، خاصة أنه كان يعتبر كيسنجر لاعبًا فى نفس وزن نيكسون، لكن باندى يجد أن هذا الملف عمومًا يفسده الافتقار إلى الالتفات إلى التفاصيل، والاهتمام الواضح بالمكاسب الدبلوماسية قصيرة المدى، وعدم مقدرة نيكسون خلال ولايته الثانية التركيز على السياسة الدولية بسبب فضيحة ووتر جيت. ويرى أن من أهم ما أدى إلى فشل نيكسون ميله المعتاد إلى الخداع والغش والكذب، وافتقاره إلى الحس الإنسانى، واللاأخلاقية البغيضة، وكلها نقائص يذكرنا باندى بأنها تنطبق تماما على كيسنجر.

ويمكن مقارنة كتاب باندى «شبكة بالغة التعقيد»، فيما يتصل بهذه الجوانب، بدراسة جيفرى كيمبول الأكاديمية «حرب فيتنام التى أشعلها نيكسون». ويعمل كيمبول أستاذًا للتاريخ فى جامعة ميامى فى أوهايو، ويركز كتابه على هذه الحرب التى يخصص لها باندى نحو ٢٥٪ من كتابه الكبير. وأجرى كيمبول بحوثا حول المصادر الأولية أكثر مما فعل باندى، لكنه لا يتمتع بسمات الكاتب بشكل واضح، رغم أنه أكثر ذكاءً فيما يتعلق بالجوانب التفسيرية، ويستشهد بعدد من التقلبات والتغيرات المفاجئة لإلقاء الضوء على شخصية نيكسون بصراحة ووضوح.

وإذا كان باندى ينتقل من نقطة إلى أخرى بتثاقل وبطء، فإن كيمبول قد يبالغ فى الحديث عن محاولات الرئيس لجعل نفسه أسطورة، وهى الحيلة السيكولوجية الجوهرية التى يستخدمها كيمبول لفهم عهد نيكسون. وإذا ما نحّينا هذا الفارق البسيط جانبًا رغم ذلك، فإن كيمبول يصل إلى نفس النتائج التى توصل إليها باندى، فشخصية نيكسون الشريرة عرّضت دبلوماسيته للشبهة والخطر، وأطال بلا ضرورة الحرب فى جنوب شرق آسيا، وأضعفت الإجماع المحلى على السماح بالتدخل فى الشئون السياسية فى الخارج منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ويبدو لى أن الاهتمام الذى ناله كتاب باندى يرجع إلى موقف المؤلف، أكثر مما يستحقه الكتاب فى حد ذاته. ووجدت نفسى أثناء قراءة الكتاب أتساءل: لماذا يريد باندى الكتابة عن نيكسون؟ وما الذى يستحوذ عليه لمطاردة شخص هاجمه كثير من المؤرخين بضراوة قبل ذلك؟

وتُلقى إجابات هذه الأسئلة الكثير من الأضواء الكاشفة، حيث نجد بين ثنايا كتاب باندى رؤية تأملية للسياسات الخارجية فى فترة ما بعد الحرب بأكملها، والأسلوب الذى استخدمته سياسات نيكسون لتلائم تلك الفترة. وتعبر هذه الرؤية عن وجهات نظر الديمقراطيين الليبراليين التى اتسمت بالقلق، وهم الذين أشعلوا حرب فيتنام فى المقام الأول.

وطبقًا لباندى فإن الدبلوماسية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية كانت مرسومة ومعدة، ليس فقط لبناء عالم يمكن فيه للولايات المتحدة أن تزدهر، بل أيضا لحماية كوكب الأرض من الاتحاد السوفيتى والشرور الأيديولوجية للشمولية الشيوعية. وكانت منطقة جنوب شرق آسيا فى حالة عدم استقرار وحكوماتها معرضة للهجوم خلال الخمسينيات وبداية الستينيات، مما جعلها أحد أجزاء الكوكب المهددة بخطر الحركات الثورية الشيوعية. ثم حققت مكاسب كبيرة واستقرارًا وثقة فى النفس بسبب الموقف الصارم الذى اتخذته الولايات المتحدة عندما صعدت الحرب فى فيتنام فى ١٩٦٤/ ١٩٦٥.

ويسلم باندى بأن تلك المكاسب كان ثمنها باهظًا للغاية، وأن صانعى السياسة الأمريكية ارتكبوا أخطاءً فادحة. ويقول باندى: «إنه بعد خوض حرب كان البلاء فيها حسنا وكانت لمعاونة حليف ضعيف، خطط المسئولون عن الأمن القومى سياسة أمريكية متوازنة ومدروسة للانسحاب من جنوب فيتنام، قبل أن يتولى نيكسون الرئاسة، ولو كانت تلك الخطة قد نفذت لتمكنت فيتنام الجنوبية والدول المجاورة لها من الحصول على فرصة جوهرية، لتتغلب على ما يهدد أمنها».

وكان نيكسون أيضا مهتما بـ«الانسحاب المتوازن المرتب»، لكنه أفسد هذا المسعى، وجعل الأمور أسوأ مما كانت عليه. وكانت النتائج الإيجابية التى حققها فى النهاية لتخليص الولايات المتحدة من مأزق فيتنام غير متناسبة، حتى مع النتائج السلبية فى الفترات المبكرة.

ويجد باندى أن الحدث الأسوأ والأكثر شرًا فى جنوب شرق آسيا لم يكن ارتكاب جريمة حرب فيتنام، بل عذابات كمبوديا التى يتحمل مسئوليتها نيكسون وكيسنجر وحدهما.

وأخيرًا، فرغم أن باندى يعترف بعدم إلمامه بالسياسات المحلية، فإنه يرفض الرأى القائل بأن تخبط نيكسون الذى أدى إلى فضيحة ووترجيت كان متصلاً بالاضطراب الداخلى الذى ورثه عندما اعتلى مدة الرئاسة فى ١٩٦٩. وطبقا لذلك الرأى الذى يرفضه باندى، فإن كثيرًا من الديمقراطيين من أنصار جونسون، مثل دانييل إلزبرج مستشار وزارة الدفاع كان قد خطط للسياسة الأمريكية فى فيتنام فى أوائل الستينيات، ثم تحول بشكل عاطفى منقلبًا ضدها. وبعد انتخاب نيكسون بذل أولئك الديمقراطيون كل جهودهم لتقويض استراتيجية الرئيس الرامية إلى انسحاب الولايات المتحدة من فيتنام وتشويهها. وجعلت انتقاداتهم غير المسئولة وأفعالهم، مثل تسريب أوراق البنتاجون، وجعلت تنفيذ نيكسون أية سياسات متعزمة أمرًا أكثر صعوبة بالتأكيد.

هذه هو إذن تاريخ الولايات المتحدة فى فترة الحرب الفيتنامية طبقًا للسيد باندى، وكان دبلوماسيون أمريكيون قد وطدوا العزم مثله على منع منطقة جنوب شرق آسيا من السقوط فى أيدى الشيوعيين. وبشكل عام، فإن هذه السياسة عندما وضعت موضع التنفيذ بين الخمسينيات والسبعينيات تصدعت وظهر فيها الخلل. لكن رجالاً مثل باندى اتخذوا قرارات شجاعة، ولو كانت تلك القرارات قد تلتها مفاوضات، وتخفيف لحدة الحرب التى فكر فيها مليا ليندون جونسون فى نهاية فترته الرئاسية مثل باندى، لحظيت فيتنام الجنوبية بفرصة جيدة للبقاء، لكن ديمقراطيين من أمثال باندى رفضوا تقديم فرصة لتنفيذ هذه السياسة. وتولى نيكسون المزدوج وتابعه الأمين كيسنجر السلطة فى ١٩٦٩، ودفعت منطقة الهند الصينية الثمن عندما انتصر الشيوعيون بطريقة أكثر تدميرًا. وفى الوطن كان تمزق تقدم الديمقراطيين الأمريكيين الذى سبق تعاظم سلطة الحزب الجمهورى، وهناك قليل من التأثير يعزى لانتصار الحزب على جميع المستويات، على اقتراحات نيكسون الخبيثة للفوز بولايته الثانية وتخريب الدستور الأمريكى. ■

عن مجلة TLS، العدد ٥٠٠٢
ترجمة: عبد العظيم الورداني

أهم ما أدى إلى فشل نيكسون ميله المعتاد إلى الخداع والغش والكذب، وافتقاره إلى الحس الإنسانى، واللاأخلاقية البغيضة، وكلها نقائص يذكرنا باندى بأنها تنطبق تماما على كيسنجر

١- **A Tangled Web: The Making of Foreign Policy in the Nixon Presidency**
(شبكة بالغة التعقيد: صنع السياسة الخارجية فى عهد نيكسون)
William Bundy
Tauris, 1998, £24.50, 647pp.

٢- **Nixon's Vietnam War**
(حرب فيتنام التى أشعلها نيكسون)
Jeffrey Kimball
University Press of Kansas, 1998, £39.95, 528pp.

الثورة الحقيقية
فى تكنولوجيا المعلومات
بيل جيتس
فى أحدث كتاب له:

شبكات المعلومات تنافس

هل من الممكن أن تلعب نظم وتكنولوجيا المعلومات والشبكات الإلكترونية دورا مماثلا لما يقوم به الجهاز العصبى داخل الكائن الحى؟ فالجهاز العصبى البشرى هو شبكة اتصالات فائقة الحساسية والسرعة، يقوم بإثارة الإنسان واستجاباته وسلوكياته تجاه متغيرات البيئة المحيطة به، مما يجعله يتفاعل بسرعة ولحظيا مع الخطر والفرص وعلاقاته واحتكاكاته بالآخرين. كما يلعب دورا مهما فى إدراك المشاهدات والمتغيرات وتفهم سلوكياتها ومعناها، والتحكم فى ردود أفعاله إزاءها.

ويدعو بيل جيتس فى كتابه الجديد(دنيا الأعمال بالسرعة الفائقة)، إلى استخدام نفس المفهوم فى شكل نظام عصبى جديد تلعب فيه الحاسبات الإلكترونية وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الدور الرئيسى فى توجيه النشاط والتحكم فى مساره على كافة المستويات من أفراد وهيئات وشركات ودول. ومن الضرورى أن يصبح هذا النظام العصبى قادرا على توفير البيانات والمعلومات فى غاية السرعة ولجميع المسئولين فى آن واحد، وعلى الاستجابة السريعة للمخاطر والفرص، ويشمل ذلك تقديم الدعم اللحظى اللازم لاتخاذ قرارات سريعة ومؤثرة كالتفاعل بين المنتجين ومنافسيهم، والمستهلكين، والحكومة، ومقدمى الخدمات المتنوعة كالطالب والمدرسة والمريض والمستشفى وغيرذلك.

وبيل جيتس هو مؤسس ورئيس شركة مايكروسوفت العالمية للبرمجيات. وهو أغنى رجل فى العالم وتفوق ثروته الناتج القومى للعديد من الدول النامية. ومن المثير أن ثروته عام ١٩٩٧ كانت فقط ثلث ما هى عليه الآن. وهناك تقدير أن دخله الحالى يبلغ ٢٢ ألف دولار فى الدقيقة الواحدة. ويستطيع قارئ الكتاب أن يستنتج بسهولة الأسباب الكامنة وراء نجاحه المثير. فهى لا ترجع فقط إلى مهاراته التكنولوجية التى لا ينكرها أحد، وإنما فى المقام الأكبر إلى مواهب تسويقية فائقة، مكنته من اقتناص الفرص فى الوقت المناسب وتضييق الخناق على منافسيه. وفى هذا الصدد يقول جارى ريفلين فى كتابه« المؤامرة لاغتيال بيل جيتس» : إنه من اللافت للنظر أن العلماء الذين يبتكرون الاختراعات الحديثة لا يحققون هذه الشهرة التى يحظى بها رجال الأعمال المخاطرون (Eutrepreucurs) أمثال بيل جيتس. فعالم الفيزياء «برنرز لى» (Berners - Lee) الأستاذ بمعهد MIT الأمريكى والذى ابتكر نظام الشبكة العنقودية العالمية (World Wide Web - WWW) وهومن أهم أركان تكنولوجيا المعلومات، لم يحقق مثل شهرة بيل جيتس. فلاتزال الشهرة مرتبطة بقدرة رجل أعمال مخاطر على التطبيق العملى للابتكار وإفساح المجال لفرصه التسويقية!

وقد استخدم بيل جيتس هذه المهارة الفائقة فى قتال شرس مع منافسيه مما استثار حفيظتهم وتكتلهم فى اتهامه بالنزوع إلى الاحتكار فى قضايا (Anti-Trust) أدانته فيها المحاكم الأمريكية أخيرا.

ومن هذه المقدمة الطويلة نسبيا عن شخصية مؤلف الكتاب ومكانته الاقتصادية والاجتماعية، فلابد من لمحة سريعة عن شركته العملاقة «مايكروسوفت» . فهذه الشركة العالمية حققت أرباحا سنوية قدرها ٧,٧٩ مليار دولار بزيادة قدرها ٧٣,٥٪ بالنسبة لقيمة مبيعات بلغت ٧٥,١٩ مليار دولار خلال السنة المالية التى اختتمت فى ٣٠ يونية ١٩٩٩، وقد تجاوزت قيمتها السوقية أخيرا(القيمة الحالية لأسهمها) نصف تريليون دولار، وهذه أول مرة فى التاريخ تتعدى فيها أى منشأة هذا الرقم. ومن المهم تفهم نشاط الشركة فى سياق الإطار العام لصناعة الكمبيوتر وتحولها من صناعة متكاملة رأسيا إلى صناعة متكاملة أفقيا. وقد أرجأ جيتس وصف ومناقشة هذا التحول باختصار شديد إلى ملحق الكتاب، بينما كان من الواجب أن يعرضه تفصيليا فى الأجزاء الأولى من الكتاب، ففى النموذج الرأسى يشترى العميل جميع مكونات البرامج من الشرائح الإلكترونية (Chips) إلى نظام التشغيل إلى النظام الشبكى إلى نظام الخدمة من عميل واحد كشركة IBM وديجيتال، NCR، وغيرهما. وتحت هذا النظام كانت أسعار البيع مرتفعة وحجم المبيعات متواضعا. وكان التكامل بين هذه المكونات صعبا للغاية وتكاليف التحول من نظام لآخر باهظة، أما فى نظام التكامل الأفقى فتحل الحاسبات الشخصية (PC) مكان النظام القديم بحيث تقوم شركات متخصصة بصناعة كل من مكونات البرنامج مثل نظام الكمبيوتر ونظام حزمة البرامج ونظام التطبيقات السوقية والنظام الشبكى وغيرها. ويستطيع العميل أن يختار من يشاء من منتجى هذه المكونات. وتلعب شركة مايكروسوفت دورا أساسيا فى هذا النظام المتكامل أفقيا. وبجانب المرونة الكبيرة التى يحظى بها العملاء فى هذا التنظيم الجديد، فقد ساعد على خفض الأسعار واتساع حجم المبيعات بشكل جوهرى.

وقد شهدت السنوات الأخيرة امتدادا ملحوظا لظاهرة المكونات والتكامل الأفقى . فبجانب العديد من الشركات المتخصصة فى إنتاج برامج ونظم معلومات عملاقة أومتعددة الوظائف وجاهزة للاستخدام من قبل المستفيدين النهائيين، فقد تخصصت شركات أخرى فى إنتاج العديد من المكونات الصغيرة التى تدخل فى إنتاج النظم العملاقة. وقد غزا تيار المكونات الصغيرة صناعة البرمجيات عالميا خلال السنتين الماضيتين، وهو مرشح لأن يسود هذه الصناعة فى السنوات المقبلة. وتدل المؤشرات الحالية على أن تأثير هذا الاتجاه على صناعة البرمجيات الناشئة فى البلدان النامية - ومنها مصر - سيكون بالغا ويحمل العديد من الفرص المغرية والتحديات الصعبة.

وهناك جوانب كثيرة لمنهج ومضمون الكتاب تثير انتباه واهتمام القارئ. فعنوان الكتاب يعكس المهارة التسويقية والترويجية للمؤلف ، فهو لافت للنظر ومثير للفضول والتعجب. فهل من المعقول للمنشأة مضاهاتها بالجهاز العصبى البشرى؟ وهل من الممكن أن تتمتع المنشأة بنفس القدرة على الإدراك (Perceptian) والتفهم (Cognition) وردود الفعل اللحظية التى يتميز بها العقل البشرى ؟ وهل من الممكن أن يتأثر نظامها العصبى بمتغيرات نفسية كالحزن والفرح والاكتئاب؟

وبجانب العنوان المثير للكتاب فقد اتخذ المؤلف شكلا له خصوصيته الترويجية فى عرض الموضوعات المختلفة التى اشتمل عليها، ومن ذلك طريقة مجلة «هارفارد» الأمريكية للإدارة فى عرض ومناقشة نقاط معينة داخل مربعات خاصة(Boxes) فى سياق الموضوع الرئيسى. وكذلك ختام كل من فصول الكتاب بعرض للدروس المستفادة من الموضوع وكيفية استخدام مضمون كل فصل فى تشخيص النظام العصبى للمنشأة. وهذا أسلوب مبتكر فى تحديد جوانب القوة والضعف لنظام المعلومات الذى تستخدمه المنشأة.

والكتاب يناقش الموضوعات المختلفة على مستويين: مستوى المنشأة (Micro) ، ومستوى المجتمع (Macro)، بعرض خاص فى نهاية الكتاب لتطبيقات تكنولوجيا المعلومات فى مجالات الرعاية الصحية ، والتربية والتعليم، والإدارة الحكومية، وربط المجتمعات، وفى فنون الحرب الحديثة. وهو موجه أساسا لرجال الأعمال مع تركيز خاص على أمثلة متنوعة من التطبيقات العملية كما تعكسها تجارب شركة ميكروسوفت وعملائها. ومن هذه الناحية فالكتاب مفيد حتى للفنيين المتخصصين الذين تنقصهم الخبرات العملية والتطبيقية، ويفتح أمام خيالهم المجالات الواسعة لتطبيق مالديهم من أسلحة ومهارات تكنولوجية. فالكتاب مفيد للمتخصص وغير المتخصص على حد سواء!

والمحصلة النهائية لقراءة الكتاب أنه أساسا محاولة ماهرة لتسويق وترويج منتجات شركة مايكروسوفت. وقد أحصيت عشرات المرات التى يبدأ فيها المؤلف الجملة بعبارة «أنا» - أو مايكروسوفت.

كما أن معظم الأمثلة الشيقة التى وردت فى الكتاب هى من شركات عميلة لمايكروسوفت. على أن هذا لا يقلل من نجاح المؤلف فى إعطاء أفكار سريعة ومفيدة عن الثورة الرقمية وآثارها المرتقبة على عالم الأعمال، وبالتالى تعريف القارئ بالأمثلة العملية وليس بالعرض الجاف لأساليب تكنولوجيا المعلومات والإمكانيات الواسعة لتطبيقها.

وقد خرجت من قراءة الكتاب بتساؤلات أساسية لم يتناولها المؤلف بالبحث والتحليل الكافى ، مثال ذلك موقف العلاقات الإنسانية فى مجتمع يدار بالتكنولوجيا الرقمية وتقل فيه المواجهة الشخصية؟ هل يقتضى الأمر إعادة النظر فى العلوم السلوكية وصياغتها فى إطار جديد؟ وكيف ستتأثر العلاقات بين الأمم بهذه الثورة الرقمية؟ هل ستتسع الفجوة؟ وكيف سيكون التعامل بين من يملكون التكنولوجيا الرقمية والذين لا يملكونها؟ وهل سيتحول العالم إلى كواكب منعزلة تتشكل ممن يعرفون والذين لايعرفون؟

وربما كانت نقطة البداية المناسبة فى توضيح معنى ونطاق تكنولوجيا المعلومات التمييز بين الأرقام فى شكل ورقى (Paper Numbers)، والأرقام فى شكلها الإلكترونى الجديد. فبيان رقمى عن عدد السياح الوافدين وجنسياتهم وعدد الليالى السياحية ، بل واتجاهات هذه الأرقام من سنة لأخرى، هو بيان ستاتيكى وتاريخى، إذ هو لا يوضح ما وراء هذه الأرقام مثال ذلك الغرض من السياحة، وأعمار السائحين، ومستويات تعليمهم، ومهنهم، والشكل الذى أتوا به (كأفراد أو مجموعات) ، ومرات تكرار الزيارة، وسبب اختيارهم لمقصدهم السياحى، ووكالات السياحة التى نظمت لهم الرحلة ، وقيمة اشتراكهم، وانطباعاتهم فى ختام الزيارة ، وجوانب تفضيلهم أو شكواهم، وغير ذلك من البيانات (Data) التى يمكن تحويلها إلى معلومات (Informattion) حركية ولحظية تكون ذات فائدة كبرى فى رسم استراتيجية الترويج السياحى بالتسديد أو التصويب الدقيق (Targeting) إلى قطاعات مختارة من السوق المستهدفة، واتخاذ القرار المناسب فى الوقت المناسب.

وبجانب شموله لكافة الجوانب الممكنة للظاهرة، يتميز الرقم الإلكترونى بلحظيته وبالإمكانيات الواسعة لتحليله وبالتالى إثرائه للمعرفة وإمكانية تخزينه واسترجاعه بسرعة البرق عند الحاجة، ونشره فى أوسع الحدود بين كل من يعنيهم الأمر، وبالتالى قدرته الديناميكية على التفعيل السريع فى

Buisness @ The Speed of Thought
A Digital Nervous System

(إدارة الأعمال وسرعة التفكير.. استخدام نظام عصبى رقمى)

Bill Gates
Callins Hemingway
Warner Books, 1999,470pp

غزا تيار المكونات الصغيرة صناعة البرمجيات عالميا خلال السنتين الماضيتين، وهو مرشح لأن يسود هذه الصناعة فى السنوات المقبلة. وتدل المؤشرات الحالية على أن تأثير هذا الاتجاه على صناعة البرمجيات الناشئة فى البلدان النامية - ومنها مصر - سيكون بالغا ويحمل العديد من الفرص المغرية والتحديات الصعبة

الجهـــاز العصـــبى للإنســـان!



عبد العــزيز الشــربينى

المواقف التى تستدعى تدخل الإدارة بسرعة وحسم، وهو ما تعجز عنه الأرقام الورقية. ويعطينا الماسح الضوئى (Scanner) فى محلات السوبر ماركت الكبرى - ولها مثيل فى مصر - مثالا عمليا لهذه القدرات. وقد حلّت هذه الماكينات محل آلة تسجيل النقود فى مخارج هذه المحلات وكان هدفها الأول هو سرعة خروج العميل. ولكنها أصبحت الآن سلاحا الكترونيا هاما فهى تسجل لحظيا نوع السلعة المشتراة وماركتها، والكمية المشتراة، وسعرها، ووقت الشراء وطريقة الدفع (شيك - بطاقة ائتمان - نقدا)، بل واسم البنك ومكانه، واسم الشركة المصدرة لبطاقة الائتمان، وغيرذلك. وتسجل هذه البيانات على أسطوانة مدمجة (CD)، ويجرى تحليلها أولا بأول لمعرفة كافة ما يتعلق باتجاهات البيع. ولايخفى ما لهذه المعلومات من فائدة قصوى لإدارة الشركة التى تملك وتدير عدة وحدات للبيع، وكذلك للمنتجين الذين يتفقون معها على تزويدهم بهذه المعلومات. ولاريب أن هذه الإمكانيات لا يمكن إتاحتها تحت نظام الأرقام الورقية السائد حاليا.

ويتطلب إنشاء نظام إلكترونى للمعلومات ثلاثة أشياء رئيسية هى:

١ - تجهيز مناسب بالحاسبات الشخصية (PC).

٢ - تجهيز مناسب بحزم البرمجة ذات تكلفة مناسبة (Packaged Software).

٣ - تجهيز مناسب لاستخدام شبكة الإنترنيت، بالإضافة طبعا إلى وسيلة سريعة وفعالة للاتصالات فى شكل بريد إلكترونى (E-Mail).

وتبنى هذه التجهيزات عادة على مكونات منطة بحيث يسهل ربط هذه التجهيزات الثلاثة أى الحاسبات الشخصية، والحزم المبرمجة، ووسائل الاتصال بعضها ببعض مما يخلق نظاما متكاملا للمعلومات، أو مايسميه بيل جيتس تجاوزا الجهاز العصبى الرقمى للمنشأة.

ويمر التطبيق العملى لنظام المعلومات المصمم فى ثلاث مراحل هى:

أولا: إعداد العاملين المدربين على التكنولوجيا الجديدة (Knowledge Workers) بالحاسبات الشخصية وإقامة نظام للشبكات الداخلية التى تساعد على تبادل المعلومات مع دعمه بنظام للبريد الإلكترونى.

ثانيا: ربط نشاط العاملين فى مختلف مجالات عمليات المنشأة والمدعمين إلكترونيا بالنظم العامة لإدارة المنشأة، وذلك بتخزين البيانات بشكل يسمح بتحويلها إلى معلومات تهم الإدارة العليا فى رسم سياسات واستراتيجيات المنشأة.

والخطوة الثالثة الهامة هى ربط هذا النظام العام بأنظمة تطبيقية دون أن يقتضى الأمر تغييرات جوهرية فى التجهيزات الأساسية لنظام المنشأة ومن أمثلة ذلك التجارة الإلكترونية التى تسمح بالتعامل المباشر مع العملاء والموردين فى أى مكان وأى وقت.

وتحت النظام الشبكى الجديد، تحول العديد من المنشآت الصناعية والتجارية الكبرى من نظام يعتمد على الحاسبات الكبيرة المركزية وكذلك المتوسطة إلى تجهيز شبكى موحد يستند إلى الحاسبات الشخصية (PC)، والخدمات الشبكية المنمطة، ونظام للاتصالات والمشاركة فى المعلومات يعتمد على الشبكة العنكبوتية (Web). وقد أعطى هذا التطور قوة دفع هائلة للحاسبات الشخصية، وجعل إقامة نظام الكترونى للمعلومات فى متناول المنشآت الصغيرة، بل والأفراد على حد سواء. كما أدى إلى تطوير مستمر فى قوة وأداء الحاسبات الشخصية وانخفاض سعرها إلى حد مذهل فى السنوات الأخيرة.

ويدور الكتاب فى المقام الأول حول أهمية التحول إلى الإدارة بالحقائق والمعلومات، وهذه إضافة إلى نظريات الإدارة السائدة مثل الإدارة بالأهداف، والإدارة بالاستثناء، والإدارة بالأزمات. ولكنها ليست إضافة جديدة تماما. فقد تعددت الكتابات فى هذا الموضوع وكثرت مراكز المعلومات ودعم اتخاذ القرار، وإنما الجديد فى كتابات جيتس هو التطبيقات العملية على مستوى المنشأة. ولايجب أن ينسينا هذا الاتجاه الكمى الأهمية القصوى للاتجاه السلوكى والذى تخصصت فيه بعض المراكز العلمية فى الجامعات المرموقة مثل مركز بحوث سلوكيات القرار بجامعة شيكاجو الأمريكية، الذى يعطى الجوانب السلوكية أهمية تفوق الجوانب الكمية التى يدعو إليها جيتس.

ومما يعزز أهمية هذه الجوانب السلوكية دلالتها بالنسبة للتنظيم السلوكى للمنشأة (Organization Behaviour) كما يتضح فى أماكن متناثرة من الكتاب دون ربط أو تحليل كاف.

ويؤكد جيتس فى البداية أن المعلومات أصبحت شريان الحياة لأى منشأة وأن الكيفية التى تجمع بها المعلومات وتدار، والتى يجرى بها استخدامها ستحدد فى النهاية من الذى يفوز ومن الذى يخسر، وأن تكنولوجيا المعلومات ستكون العامل الحاسم فى تميز المنشآت الناجحة. ولاتقتصر هذه الأهمية على مستوى المنشأة، بل تمتد إلى الاقتصاد الكلى، إذ يقدر البعض أن قطاع المعلومات يسهم بحوالى ٥٠ إلى ٦٠٪ من الناتج القومى للدول الصناعية فى الوقت الحالى.

وحتى تحقق تكنولوجيا المعلومات أهدافها، يجب إتاحة المعلومات لحظيا لجميع العاملين فى المنشأة. وهذا اتجاه يختلف تماما عن النمط السائد فى معظم المنشآت، والذى يقصر النفاذ إلى المعلومات على أفراد الإدارة العليا فقط. فالهدف الرئيسى من إقامة شبكات الكمبيوتر هو نشر المعلومات على نطاق واسع - وخاصة بين الطبقة الوسطى من المديرين - داخل المنشأة، بهدف تكامل أنشطتهم وعملهم كفريق واحد متماسك. وتحت هذا التنظيم يكون تميز المنشأة هومحصلة لمجموع التميز الفردى لكافة العاملين بها. بل إن هذا الاتجاه هو الذى يسهم مباشرة فى تحويل العاملين بالخطوط الإشرافية الأولى من عمال عاديين إلى صناع معروفين (Knowledge Workers) بعد تزويدهم بالمهارات اللازمة من حاسبات

شخصية وغيرها واستخدامهم لتكنولوجيا المعلومات.

غير أن جيتس لا يعطى أهمية تذكر للجوانب السلوكية في هذا التحول فى السلوك التنظيمى للمنشأة. ففى التنظيمات الهيراركية قد يؤدى هذا التطور إلى خلخلة جوهرية فى خطوط السلطة والمسئولية. فالمشاهد أن البيانات (أو تجاوزا المعلومات) هى مصدر رئيسى للقوة مما يجعل من العسير تقبل نشرها أو التفريط فيها. وهى التى تتيح الاتصال المباشر برئاسة المنشأة كلما احتاجت إلى هذه المعلومات. والميل إلى المشاركة فى المعلومات هو ظاهرة نفسية واجتماعية يجدر دراستها وتحليلها قبل الإقدام على استخدام التكنولوجيا الجديدة، كما أظهر ذلك العديد من تجارب الدول النامية.

غير أن أفكار جيتس تعد أساسا مناسبا لإعادة صياغة بعض النظريات الحديثة مثل نظرية «تمكين العاملين»(Empowerment) الفكر التقليدى السائد هو أن «التمكين» يكون بتفويض قدر أكبر من السلطة وما يرتبط به من مسئولية. ولكن تفويض السلطة فى اتخاذ القرارات لا يجدى نفعا إلا إذا أمكن تزويد الفرد بمهارات تكنولوجية تمكنه من ممارسة هذه السلطة. ومن هنا تبرز أهمية إعادة تأهيل العاملين لكى يصبح كل منهم جزءًا لا يتجزأ من الجهاز العصبى للمنشأة كما يقول جيتس، أى صانع معرفى يجيد استخدام الحاسب الشخصى واستخدام حزم البرامج وغير ذلك من مكونات الجهاز العصبى. وبذلك يمتد مفهوم الصانع المعرفى إلى مختلف المستويات الإدارية فى المنشأة، ولايقتصر على العلماء والخبراء الفنيين كما قد يتبادر إلى الأذهان طبقا للمفاهيم السائدة.

وبالمقارنة بالنظام العصبى للمعلومات، فمن الواضح أن النظام الورقى للمعلومات لا يستطيع أن يحقق هذه الإنجازات. فهو لاينقل تيارا مستمرا من المعلومات المتدفقة لحظة بلحظة، وهو ليس مستمرا. ويقدم البيانات أو المعلومات حسب الطلب، وهو بذلك بيان تاريخى من حيث طبيعته، وبالتالى فهو قاصر بالنسبة لمعرفة الحاضر واستشراف المستقبل. ونتيجة لذلك، فهو لايصلح كنظام للإنذار المبكر لوقوع الأزمات وتداركها فى الوقت المناسب، أو لرسم خريطة تحليلية للفرص المتاحة أمام المنشأة، وكذلك السيناريوهات اللازمة لاستثمارها وتحقيق قصب السبق فى المنافسة.

ويبرز جيتس بمهارة تأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على التحول من النظام الورقى إلى نظام اتصالات إلكترونى، بما يطلق عليه اسم «الإدارة بدون أوراق»(A paperless Office). ويرجع استخدام هذه العبارة المثيرة إلى ربع قرن مضى حين صاغته شركة زيروكس لآلات النسخ والتصوير. ويدعو جيتس إلى هذه الثورة الجديدة التى ستغير جذريا نمط العمل فى المنشآت كبيرها وصغيرها. ولاتزال المعاملات الورقية تسود عالم الأعمال فى كافة أنحاء المعمورة، حتى فى الولايات المتحدة بالرغم من انتشار الحاسبات الشخصية وربط الإنترنت لهذه الحاسبات على المستوى القومى والعالمى. فاستهلاك الورق يتضاعف كل أربع سنوات، و٩٥٪ من المعلومات فى الولايات المتحدة يتم تداولها باستخدام الورق، بينما لاتتعدى نسبة تلك المخزنة إلكترونيا ١٪ حاليا.

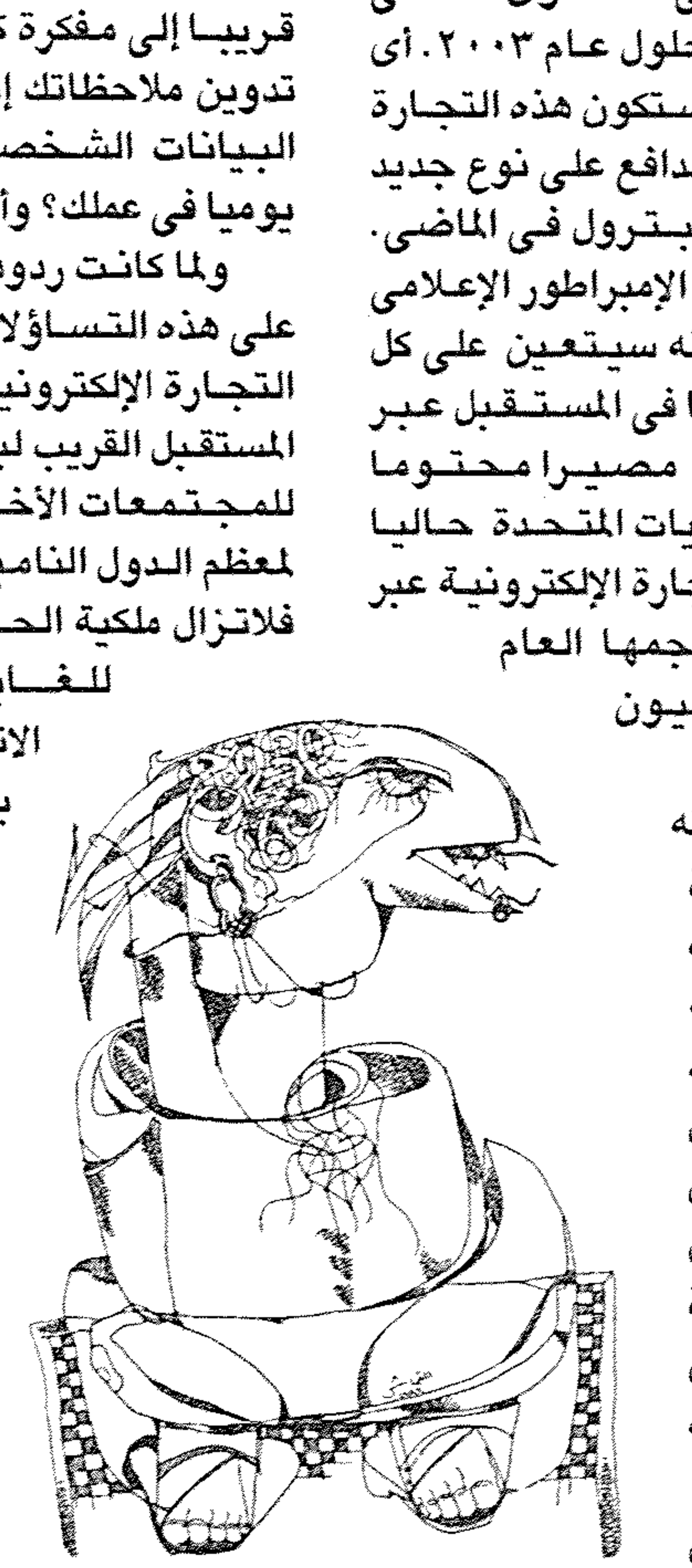
ويحكى جيتس تجربته مع الورق فى شركة مايكروسوفت. فلدهشته وجد أن الشركة قد طبعت فى إحدى السنوات ٣٥٠,٠٠٠ نسخة من تقارير المبيعات، وأنها تستخدم ١١٤ استمارة فى عمليات الشراء والتوريد بمفردها. وتساءل عن الأسباب الكامنة وراء هذا الكم الهائل من الورق فى الوقت الذى تربط فيه التكنولوجيا الحديثة جميع العاملين بالشركة بعضهم ببعض!

فى مجتمع يدار بالتكنولوجيا الرقمية وتقل فيه المواجهة الشخصية، هل يقتضى الأمر إعادة النظر فى العلوم السلوكية وصياغتها فى إطار جديد؟ وكيف ستتأثر العلاقات بين الأمم بهذه الثورة الرقمية؟ هل ستتسع الفجوة؟ وكيف سيكون التعامل بين من يملكون التكنولوجيا الرقمية والذين لا يملكونها؟ وهل سيتحول العالم إلى كواكب منعزلة تتشكل ممن يعرفون والذين لايعرفون؟

وفى هذا السياق قرر استبدال النظام الورقى بنظام إلكترونى للحفظ والاتصالات والاستغناء عن كم هائل من الأوراق المستخدمة وتحضرنى تجربة مماثلة لشركة سيمنز (Siemens) الألمانية فى إحلال نظام إلكترونى يعتمد على الأسطوانات المدمجة (CD) محل النظام الورقى العقيم الذى كانت تستخدمه دائرة الجوازات والهجرة البريطانية (مليون ملف) فالفكرة ليست جديدة تماما ولكن لها دلالتها الهامة.

فمثلا كيف سيكون التعامل بين طرفين أحدهما يستخدم النظام الورقى والآخر النظام الإلكترونى؟ وهل ستؤدى نهاية النظام الورقى فى المستقبل القريب أو البعيد بالضرورة إلى القضاء على البيروقراطية كما يتصور جيتس؟ إن الموظف الحكومى البيروقراطى الذى يتعامل بالتكنولوجيا الحديثة مع طالبى الخدمة من المواطنين، يستطيع التخلص منهم بسهولة بحجة أن الكمبيوتر معطل!، وهنا تبرز مرة أخرى أهمية الجوانب السلوكية التى أغفلها جيتس فى كتابه. فتغيير أو تطوير السلوكيات هو شرط أساسى لنجاح تطبيق التكنولوجيا الجديدة.

ويفرد جيتس جانبا هاما من كتابه لتأثير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على قطاع التجارة. وتقدر التوقعات الحالية حجم التجارة الإلكترونية على المستوى العالمى بحوالى تريليون دولار بحلول عام ٢٠٠٣. أى بعد ثلاث سنوات فقط. وستكون هذه التجارة بمثابة «حمى» جديدة للتدافع على نوع جديد من الذهب يفوق حمى البترول فى الماضى. ولإبراز هذه الأهمية يقول الإمبراطور الإعلامى الشهير روبرت ميردوخ إنه سيتعين على كل منشأة أن تروج أنشطتها فى المستقبل عبر الإنترنيت، وإلا ستواجه مصيرا محتوما بانهيارها. وتتصدر الولايات المتحدة حاليا أكثر الدول استخداما للتجارة الإلكترونية عبر الإنترنيت حيث سيصل حجمها العام القادم إلى حوالى ٣٠٠ بليون دولار.



ويبنى جيتس توقعاته على افتراضات محددة عرضها فى شكل تساؤلات فى محاضرة أمام مجموعة من رجال المصارف الألمان، وهم بطبيعتهم من رجال الإدارة المحافظين الذين يأخذون بعين الحذر كل جديد مثل التجارة الإلكترونية. وقد يكون من الطريف والمفيد عرض هذه التساؤلات:

١ ـ هل تعتقد أن الناس فى المستقبل سيستخدمون الحاسبات الشخصية كل يوم فى جميع أعمالهم؟ فحتى الصانع المعرفى لايستخدم الكمبيوتر حاليا إلا فى حالات معدودة لإنجاز عمله.. وأجابوا بنعم.

٢ ـ هل تعتقد أن النظام الورقى الحالى سيتم استبداله بنظام إلكترونى جديد يعتمد على الـ (CD) وعلى الـ (E-Mail)؟ وأجابوا بنعم.

٣ ـ هل تعتقد أن ملكية الحاسبات الإلكترونية ستنتشر بين كافة الأسر؟ وأكد أن نصف العائلات فى الولايات المتحدة تمتلك حاليا كمبيوتر واحدا أو أكثر. وهل تعتقد أن الكمبيوتر سيصبح شيئا عاديا للأسرة مثل الهاتف والتليفزيون؟ وأجابوا بنعم.

٤ ـ هل تعتقد أن يوما ما سيكون فى إمكان الأفراد والمنشآت ربط أجهزتهم بالشبكة العنكبوتية العالمية (WWW)؟ وألمحوا بالإيجاب.

٥ ـ هل تعتقد أن البريد الإلكترونى (E-Mail) سيكون استخدامه شيئا عاديا مثل الهاتف والبريد الورقى اليوم؟ وأجابوا بنعم.

٦ ـ هل تعتقد أن معظم المعلومات ستصل الناس فى المستقبل فى شكل أرقام إلكترونية بدلا من الورقية؟ مثال ذلك فواتير الكهرباء، وعمل حجوزات الطيران والفنادق باستخدام الإنترنت. فأجابوا أن هذه التطورات فى طريقها إلى الواقع فعلا.

٧ ـ هل تعتقد أن أجهزتك الكهربائية المنزلية كالهاتف والتليفزيون وآلات التصوير ستدار كلها بالأرقام الإلكترونية(Digital)؟ فأجابوا بأن بعض هذا قد حدث فعلا.

٨ ـ هل تعتقد أن مفكرتك اليومية ستتحول قريبا إلى مفكرة كمبيوترية تساعدك على تدوين ملاحظاتك إلكترونيا وعلى تخزين كافة البيانات الشخصية والمهنية التى تحتاجها يوميا فى عملك؟ وأجابوا بنعم.

ولما كانت ردود فعل رجال المصارف الألمان على هذه التساؤلات إيجابية بوجه عام، فإن التجارة الإلكترونية تصبح إذن أمرا حتميا فى المستقبل القريب لبعض الدول، والبعيد نسبيا للمجتمعات الأخرى الصاعدة. أما بالنسبة لمعظم الدول النامية فالأفق لا يبدو مشرقا، فلاتزال ملكية الحاسبات الشخصية متدنية للغاية، والتحول إلى عالم الاتصالات الإلكترونية حلما بعيد المنال. ومع ذلك فهناك بدايات طيبة: ففى أسرتى (ونحن أسرة مصرية صغيرة من طبقة فوق المتوسطة. ولا أقول ثرية) يشترى ابنى كتبه الأجنبية بالاتصال المباشر بالناشر عبر الإنترنت، وحجزت ابنتى أخيرا غرفتها بفندق فى مدينة ميلانو الإيطالية فى رحلة عمل أيضا باستخدام الإنترنت وليس عن طريق وكالة سياحية!

ويبرز جيتس ثلاث دلالات رئيسية لإنشاء هذه البنية الأساسية (Infrastructure) للتكنولوجيا الإلكترونية فى مجال المعلومات والاتصالات والتى ترتكز حول الحاسبات الشخصية (PC):

الأولى: أن معظم العمليات والصفقات بين المنشآت والأفراد سيتم إنجازها بطريقة الخدمة الشخصية(Self-Service) بالتكنولوجيا الرقمية، مما يعنى نهاية المنشآت الوسيطة(Middle)، أو ضرورة تحولها لتقديم خدمات جديدة ذات قيمة مضافة عالية.

والثانية: أن خدمة المستهلك ستصبح لها الأولوية كوظيفة أساسية لأى منشأة. وأن يتحول الأمر من خدمات روتينية متكررة إلى خدمات تخصصية عالية القيمة تناسب الاحتياجات الخاصة لكل عميل.

والثالثة: أن سرعة المعاملات والحاجة إلى «تفصيل» الخدمات لتناسب الاحتياجات المتنوعة للعملاء، سيتطلب بالضرورة التحول إلى نمط «تفصيلى» (Customized) للعمليات الداخلية للمنشأة حتى يمكنها مواجهة تغيرات البيئة السوقية المحيطة بها بالمرونة اللازمة. وهذه الضرورة هى التى تملى الحاجة إلى الصانع المعرفى الذى يستطيع استخدام التكنولوجيا الإلكترونية الحديثة لتلبية الطلبات المتنوعة، مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بمزايا الإنتاج الكبير.

ويعترف جيتس بأن التجارة الإلكترونية عبر الإنترنت لا تحل تماما مكان الاتصال الشخصى (Face -to - Face)، وإنما الواقع الجديد سيعكس فى الحقيقة تفاعلا بين الإنترنت والمواجهة الشخصية. ولكنه لايشرح بوضوح موقع الإنترنت على مسلسل التسويق ـ والبيع ـ وخدمة ما بعد البيع وكيف سيتم هذا التفاعل. ويلخص تصوره لهذا التفاعل بأن على المنشأة أن تقصر فى النهاية عملية الاتصال الشخصى على الأنشطة ذات القيمة المضافة العالية، مثال ذلك المفاوضات النهائية لإنهاء صفقة هامة ما. وفى هذا السياق تتغير وظيفة رجال البيع بحيث يعملون كاستشاريين فنيين فى مجالات التسويق، وليس كرجال بيع عاديين.

وتصطدم تصورات جيتس بالنسبة لإمكانية إزالة الوسطاء من تجارة جملة وتجزئة ووكالات إعلان وغيرها، ببعض المفاهيم التسويقية السائدة بين الأكاديميين المتخصصين فى العلوم التسويقية، ومنها أنه يمكن الاستغناء عن الوسطاء بشرط أن يقوم المنتج أو المستهلك بالوظائف التى يقومون بها كالبيع والشراء، والنقل، التخزين، والتمويل، والفرز والتدريج وغيرها من الوظائف الهامة التى يقوم بها الوسطاء حاليا. فهل هذا ممكن تماما فى ظل التجارة الإلكترونية؟ فربما أتاحت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات فرصة تلبية طلبات العلماء لحظيا طبقا لعمليات مبرمجة إلكترونيا، بما يعنى تجاوز وظيفتى التمويل والتخزين، ولكن هذا لايعنى التخلص من الوظائف الأخرى كالنقل والتدريج وتحمل المخاطرة وغيرها من الوظائف التى يقدمها حاليا الوسطاء التجاريون.

كما أن تطبيق التكنولوجيا الجديدة للتجارة الإلكترونية يشترط أن يكون كل من المنتج أو المورد (Supplier) من ناحية والمستخدم أو المستهلك (User) من ناحية أخرى مزودا بهذه التكنولوجيا. ولايوضح جيتس كيف ستتم التجارة أو التعامل بين مستخدم التكنولوجيا الإلكترونية والآخر

المستخدم للنظام الورقى؟ هل سيتوقف التعامل بينهما، أم سيؤدى ذلك إلى ظهور منشآت وسيطة يمكنها حل هذه المشكلة ؟

وهناك بداية فعلاً لوجود هذا النوع من المنشآت الوسيطة فى بعض البلدان النامية، ومنها مصر. وتنوب هذه المنشآت عن الطرف المستورد أو المصدر فى تقديم الخدمات الإلكترونية من معلومات واتصالات. ولكن ربما كان هذا ترتيبًا مؤقتًا لا يغنى فى النهاية عن الاتصال المباشر بين المورد والمستخدم. كما بدأت بعض الحكومات فى الدول النامية فى استخدام الاتصالات الإلكترونية عبر الإنترنت فى عقد الصفقات التجارية المتكافئة، ومن ذلك مثلا أول صفقة مصرية - فنلندية متكافئة بالتجارة الإلكترونية تحصل مصر بمقتضاها على الأخشاب مقابل توريد الأثاث.

ومن النتائج المهمة التى تتمخض عنها تكنولوچيا المعلومات والاتصالات وإمكانية الاتصال المباشر بين المورد والمستخدم عبر الإنترنت، إعادة هندسة سياسات واستراتيچيات المنشأة، بحيث تركز نشاطها بصفة أساسية على الجزء الرئيسى من مكونات إنتاجها الذى تتمتع فيه بمهارات خاصة (Core Compuemcies)، مع الحصول على المكونات الفرعية من مصادر وموردين خارج المنشأة (Out sourcing). وهذه الاتجاهات سائدة فعلا منذ فترة بين المنشآت الصناعية الكبرى. فلشركة سيمنز (Siemens) الألمانية العملاقة مركز فى سنغافورة يتعاقد على توريد بعض المكونات مع أكثر من ٤٠٠ شركة منتشرة بين عدة دول فى جنوب شرق آسيا. ويتيح هذا التحول فرصًا فريدة أمام الدول النامية الصاعدة، بشرط توافر تكنولوچيا المعلومات والاتصالات المناسبة. فالاتجاه ليس بجديد، ولكن يبرز جيتس حتمية التكنولوچية الرقمية للولوج إلى هذا الميدان.

ويحاول المؤلف أن يحاكى دراماتيكيا تأثير هذه الثورة الرقمية على نمط معيشة الناس، بتأثير اختراع الكهرباء على هذا النمط، ويطلق عليه اسم «نمط المعيشة الشبكى» (Web Li-geslyele). فنمط المعيشة الذى يشمل الآن الأجهزة الكهربائية المنزلية كالراديو والتليفزيون والثلاجة والغسالة والمكنسة والهاتف وغير ذلك، كان محصلة مباشرة لاختراع الكهرباء. وبالمثل فإن انتشار التكنولوچيا الرقمية سيؤدى لا محالة إلى تحول فى نمط المعيشة إلى نمط شبكى يعتمد على الإنترنت والحاسبات الشخصية والبريد الإلكترونى والحزم المبرمجة.. إلخ. ولا يخفى ما لهذا من آثار اجتماعية واقتصادية هائلة.

والنظام العصبى الرقمى هو بمثابة إنذار مبكر يغير سلوكيات المنشأة من مجرد ردود أفعال إلى مبادءات مدروسة. فهو يدعم حواسها اللحظية (Reflexes) مثل الجهاز العصبى البشرى. ولكن هذا التطور يتطلب شفافية واسعة داخل المنشأة وخارجها، ومن ذلك، انسياب كافة الأخبار وخاصة السيئة لحظيًا إلى جميع العاملين فى المنشأة. وإذا تحقق ذلك عمليا، فإنه سيحدث تطويرًا جذريا فى السلوك التنظيمى للمنشأة. فالتنظيم «الهيراركى» الحالى السائد تقليديا فى معظم المنشآت يجعل من المستويات الإدارية السفلى والوسطى بمثابة مرشحات (Filters) تحجب الأخبار السيئة عن الإدارة العليا، ولا تسمح بمرور إلا الأخبار السارة! ولهذا الاتجاه السلوكى أمثلة كثيرة فى المجالات الإدارية والاقتصادية فى الدول النامية، بل وفى المجالات السياسية كما حدث فى حرب ١٩٦٧!

ويلعب النظام العصبى الرقمى فى هذا الصدد دورًا مهمًا فى دعم رؤية المنشأة (Corpo-rate Vision)، وبالتالى فى تحديد رسالتها ورسم استراتيچيتها، وبحيث يشترك جميع

الجديد فى كتابات جيتس هو التطبيقات العملية على مستوى المنشأة. ولا يجب أن ينسينا هذا الاتجاه الكمى الأهمية القصوى للاتجاه السلوكى والذى تخصصت فيه بعض المراكز العلمية فى الجامعات المرموقة مثل مركز بحوث سلوكيات القرار بجامعة شيكاجو الأمريكية، الذى يعطى الجوانب السلوكية أهمية تفوق الجوانب الكمية التى يدعو إليها جيتس

العاملين بطريقة أو أخرى فى رسم هذه الاستراتيچية، مما كان إلى عهد قريب مقصورًا تمامًا على الإدارة العليا للمنشأة. وفى هذا السياق يقص جيتس تردد الإدارة العليا لميكروسوفت فى تركيز استراتيچيتها حول الإنترنت وقت ظهورها، والدور الذى لعبه بعض العاملين فى إبراز الفرص البعيدة المتاحة ومخاطر التردد فى انتهازها، وفعلا أصبحت الإنترنت هى محور نشاط المنشأة بكاملها.

وتبرز هذه التجربة أهمية رؤية وإدراك نقطة الالتواء فى الاتجاه العام للظاهرة فى الوقت المناسب. وهذه هى النقطة التى تحدث عندها خلخلة فى مسار السوق أو الصناعة، مثال ذلك ظهور البريد الإلكترونى فى صناعة الاتصالات التى كانت - ولاتزال إلى حد ما - قائمة على الورق والهاتف. وقد أحدث هذا التطور تغيرًا جوهريا فى الهيكل التنظيمى لبعض المنشآت الكبرى، وتحولها من الشكل الهيراركى إلى الشكل المفرطح (Flat)، بحيث يتغير دور الإدارة الوسطى من مجرد مرشحات لنقل المعلومات إلى دور تفعيلى (Doers) فى رسم استراتيچية المنشأة وتطبيقها. ويعكس هذا التطور آثارا نفسية بعيدة للمنشأة وفى تكوينها الثقافى (Corporate Culture)، يضاهى التغير فى التكوين الثقافى للمجتمعات. ويحجم جيتس عن طرق هذه الجوانب تفصيليًا فى عرض العابر لها فى إطار التغير السلوكى التنظيمى للمنشأة.

.. وبجانب دوره كإنذار مبكر للتغيرات الهيكلية فى السوق أو الصناعة، يقوم النطاق العصبى بنقل ردود الفعل لحظيًا لأنشطة المنشأة، وهو ما يسمى تقليديا بارجاع الأثر أو التغذية العكسية (Feedback Loop). وليست هذه أفكارًا مستحدثة، وإنما الجديد فيها هو لحظيتها التى تعتمد فى المقام الأول على تكنولوچيا المعلومات والاتصالات الإلكترونية. فعامل الوقت هذا هو عامل حاسم، إذ لا جدوى أو من الصعب إصلاح الخطأ أو انتهاز الفرصة بعد مرور وقت طويل نسبيًا من الزمن.

وبطبيعة الحال فإن التغذية العكسية اللحظية تتطلب أن يكون لدى كل من المورد والمستخدم تجهيزًا إلكترونيًا مناسبًا. ولذلك انصب تعامل ميكروسوفت تقليديا على العملاء المجهزين إلكترونيا تجهيزا كافيا لتلقى خدمات الشركة ومنتجاتها. ولكن الشركة بدأت الآن فى طرق الجانب الآخر من السوق الذى يشمل عملاء ليست لديهم مثل هذه الإمكانيات. ولا يخفى ما يقتضيه هذا التحول من مرونة كافية فى تصميم المنتجات وتقديم الخدمات إلى جميع العملاء. ويفتح هذا الاتجاه بصيصًا من الأمل أمام المنشآت فى الدول النامية التى ليست لديها الإمكانيات الفنية اللازمة.

والملاحظ فى الأجزاء الأخيرة من التطورات فى إدارة المنشآت أن جيتس يستخدم اصطلاحات جديدة لعرض أفكار ليست بحق جديدة. مثال ذلك، اصطلاح (Data Mining)، أى التحليل الدقيق للبيانات بهدف اكتشاف أنماط (Patterns) يمكن أن تستخدم فى زيادة دقة تصويب أنشطة المنشأة إلى قطاعات سوقية متماثلة أو متجانسة مثلا (Market Segueut). وقد اعتمد الباحثون فى الماضى على الأساليب الإحصائية المعقدة والمتعددة المحاور لاكتشاف هذه الأنماط. والجديد فى هذا المجال هو أن التكنولوچيا الإلكترونية تتيح الآن مثل هذا التحليل بيسر وسهولة، وربما بدقة أكبر.

كذلك يستخدم جيتس اصطلاح (Corporate IQ)، وهو يعكس نفس الأفكار السائدة حاليا عن رأس المال المعرفى (Knowledge Capital)، والذى يعكس القدرة التنظيمية للمنشأة على تحقيق تآزر العاملين ودعمهم لبعضهم لبعض للعمل كفريق واحد، نتيجة لسهولة الاتصالات الأفقية وتدفق المعلومات فيما بينهم. وهذا محدد رئيسى لقدرة المنشأة على إتاحة الفرصة للتطبيقات العملية للاختراعات والاكتشافات العلمية وعلى نجاحها فى مجالات البحوث والتطوير (R & D).

وينهى جيتس حديثه عن النظام العصبى الرقمى المقترح بمناقشة سريعة - وربما سطحية - لدلالته بالنسبة للسلوك التنظيمى للمنشأة. ويؤكد أن تنشيط دوافع (Motiva-tion) العاملين لها يتأتى ببساطة عن طريق تغيير الهيكل التنظيمى للمنشأة، وإنما بتغيير اتجاهاتهم (Attitudes) نحو المنظمة. ويتم ذلك بتمكينهم من تحمل قدر أكبر من المسئوليات واستخدام معارفهم الجديدة المستندة إلى تكنولوچيا المعلومات والاتصالات. يضاف إلى ذلك سياسة الباب المفتوح، والتخلص من قيود التحكم والأوامر التى تدار من المركز ومن أعلى إلى أسفل. وفى رأيه أن الأمر لا يقتصر على تغيير هيكل المنظمة، إذ إن ميكروسوفت تتبع تنظيمًا تقليديًا - وربما هيراركيا إلى حد ما - ولكنه يتميز بالانسياب والتدفق السريع للمعلومات بين الجميع. وفى هذا الإطار تقتصر وظيفة الإدارة العليا على رسم الاستراتيچية العامة للمنشأة وتوجيه العاملين منها، أما جميع القرارات التشغيلية فهى من حق جميع العاملين المزودين بالأسلحة الإلكترونية الجديدة.



غير أن تغيير الاتجاهات يتطلب تحليلاً نفسيا واجتماعيا أعمق بكثير من الطريقة العابرة التى ذكرها جيتس. فالدافعية أو الحافزية ليست مجرد نتيجة مباشرة لتغيير طرق الإنتاج والأدوات المستخدمة. فهناك الجانب المعنوى الذى أبرزه إلتون مايو فى الأبحاث التى أجراها بشركة وسترن إليكتريك فى الأربعينيات. فمجرد تقسيم العاملين إلى فريقين، أحدهما يعمل تحت ظروف طبيعية، والآخر تحت أحوال متغيرة مثل تخفيض الإضاءة أدى إلى زيادة إنتاجية الفريق الثانى رغم الظروف غير المواتية، نتيجة لشعورهم بالتحدى وهم تحت الاختبار. وهذا الجانب السلوكى لم يحظ مع الأسف بالاهتمام الكافى من جانب التقنوقراطيين الجدد من ناحية، ولا من جانب المهتمين بالعلوم السلوكية من ناحية أخرى. فالفجوة بين الجانبين لاتزال واسعة وتحتاج إلى مزيد من التأمل والدراسة.

ويختم جيتس عرضه للتنظيم العصبى الرقمى المقترح بمناقشة إمكانية تطبيقه فى مجالات قطاعية أربعة وهى: الرعاية الطبية، والتعليم، والإدارة الحكومية، وأخيرا فى الحروب الحديثة. فهناك حوالى ٣٠٪ من التكلفة الكلية للرعاية الصحية البالغة تريليون دولار سنويا فى الولايات المتحدة فى شكل عمليات ورقية يمكن تخفيضها دراماتيكيا باستخدام التكنولوچيا الإلكترونية الرقمية. أضف إلى ذلك الربط الدقيق بين جميع العمليات الطبية مما يؤدى إلى سرعة فائقة فى الإسعاف والعلاج. وكذلك التشخيص المبكر للأمراض ومعرفة أسبابها واكتشاف أنماطها. وفى هذا السياق يكشف جيتس عن قصور نظم المعلومات لدى الأطباء الممارسين فى أمريكا. فهناك ٥٪ فقط من الأطباء يستعملون الكمبيوتر فى عياداتهم. وأجد من الصعب توفيق هذا الرقم مع نسبة الخمسين فى المائة من الأسر الأمريكية التى تملك أجهزة كمبيوتر، كما يقول المؤلف فى سياق آخر من الكتاب!

وربما كان عرضه لتطبيقات تكنولوچيا المعلومات والاتصالات فى مجالات التعليم أفضل العروض القطاعية التى ذكرها. فالأمور تتغير بسرعة فائقة على مستوى المدرسة والجامعة والنشر، بل والثقافة العامة، بحيث تبشر بثورة هائلة فى نظم التعليم وأساليبه. ففى المعاهد النموذجية لم يعد مكان الكمبيوتر يقتصر على معمل المدرسة، وإنما أصبح جزءا لا يتجزأ من العملية التعليمية فى الفصول المدرسية ذاتها. وقد تأثر بذلك دور المعلم إلى حد بعيد بالإضافة إلى أسلوب التدريس والمادة الدراسية. وينذر هذا بفجوة هائلة فى نظم التعليم بين الدول المتقدمة والنامية ستكون وخيمة العواقب إن لم تبادر بتداركها!

ويضيف جيتس بعدًا جديدًا لنظريات الإصلاح الإدارى بعرض الإمكانيات الجديدة للإدارة الحكومية التكنولوچية، وتحسين الأداء الحكومى والقضاء نهائيا على البيروقراطية. ولكنه لا يضيف كثيرا لما جاء فى كتاب أوزبورن ذائع الصيت «إعادة اختراع الحكومة من جديد».

أما فى العمليات الحربية فيقدم المؤلف عرضا مختصرا لأحدث تطبيقات تكنولوچيا المعلومات والاتصالات، كما أبرزتها الحروب الأخيرة فى الخليج والبوسنة وكوسوفو بيوغوسلافيا. وهى تحاكى فى جملتها واستشراف مستقبلها ما جاء فى أفلام «حرب النجوم».

والكتاب فى الختام هو مزيج من الجدية والطرافة، وثرى بالأمثلة الواقعية رغم سمتها الدعائية، ومن الصعب إنكار فائدته للهواة والمتخصصين على حد سواء. ■

حركة دون تقدم!

أشرف البيومي

يبحث هذا الكتاب النادر موضوعا غاية فى الأهمية، فهو يتعلق بتحديات العلم والتكنولوجيا فى العالم العربى، وندرة الكتاب تعكس قلة الاهتمام بالموضوع والدور الهامشى الذى يلعبه العلم والتكنولوجيا فى عالمنا العربى، إذا نحينا جانبا خطابات المسئولين والبث الإعلامى بشأنهما..

يقول المؤلف: «يأتى هذا الكتاب تتويجا لأكثر من ثلاثين عامًا من البحث، وقد كانت الناحية الأكثر صعوبة واستهلاكا للوقت خلال عملية البحث هذه، هى إيضاح جوانب العلاقة بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والبرامج الاقتصادية وعملية صنع القرار فى الأقطار العربية من جهة أخرى. وعلى الرغم من توافر دراسات تبحث هذه العلاقات فى عدد من البلدان الغربية والسوفيتية، فإن مثل هذه الدراسات لم تحظ إلا باهتمام محدود فى البلدان النامية».

وأهمية الكتاب فى أنه ليس مجرد عرض لآراء وانطباعات المؤلف مستقاة من خبرته الطويلة والغنية فى هذا المجال، ومحاولاته المتكررة فى عدد من الأقطار العربية لبناء مؤسسات علمية، إنما تقع أهمية الكتاب فى الجمع بين خبرة المؤلف لعقود طويلة فى مواقع مختلفة واعتماده على دراسات متعددة حول آلية وديناميكية منظومات العلم والتكنولوجيا فى الغرب، واستناده إلى الكثير من التقارير والبيانات والإحصاءات عن النشاط العلمى العربى، والتى تبين معدلات نشر الأوراق العلمية فى فروع العلم المختلفة وفى مختلف الأقطار العربية، وترتيب الإنتاج العلمى حسب القطر، وأسماء المؤسسات العربية وأنواعها، ومعدلات الاستشهاد بمنشورات علمية حسب الحقل والبلد، ومدى المساهمة العربية فى المؤتمرات الدولية والوطنية. وبهذا يصبح الكتاب مرجعًا مهمًا فى عملية التقييم الموضوعى لمكانة العلم والتكنولوجيا فى العالم العربى بعيدًا عن الادعاءات الإعلامية والسياسية.



لقد حاول المؤلف - بنجاح - تبيان طبيعة التحدى العلمى والتكنولوجيا فى إطار تاريخى وكيف أن التواكل الثقافى على الغرب وانتشار القوة العلمية الغربية عبر وسائط عسكرية واقتصادية كانت مصدر خراب على الوطن العربى، وكيف أن هذا ساهم بشكل فعال على تواصل تفكيك الهياكل الاجتماعية والتجارية فى الوطن العربى، وعلى تعميق الهيمنة العلمية والسياسية والاقتصادية والعسكرية للغرب عبر القرون الخمسة الماضية... لقد تفاعلت عوامل خارجية مع أخرى داخلية مؤدية إلى «قولبة وجمود العالم العربى».

بين المؤلف كيف «ارتفع عدد الخريجين الجامعيين فى الوطن العربى إلى أكثر من الضعفين بين عامى ١٩٨٥ و١٩٩٥، ومع ذلك ظل الناتج الوطنى الإجمالى على حاله» «كل هذا على الرغم من استثمار أكثر من ألف مليار دولار خلال الفترة ذاتها فى إجمالى تشكيل رأس مال ثابت». و«هذه الحقائق المجردة تشير إلى أن الأقطار العربية تمتلك منظومات علم وتكنولوجيا فى أقصى الحالات البدائية إن كان هناك مثل هذه المنظومات». وأن اقتصاديات الوطن العربى حولت «مدخلات ضخمة إلى مخرجات معدومة»، ومن هنا جاء عنوان الكتاب: «تقدم من دون تغيير»، وإن كنت أفضل «حركة دون تقدم».

العرب وتحديات العلم والثقافة.. تقدم من دون تغيير

تأليف: أنطوان زحلان

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩.

١- العلم والتكنولوجيا الوطنية محرك أساسى للتنمية والتغيير:

يؤكد الكاتب على حقيقة واضحة، وهى اعتماد النشاط البشرى على العلم والتكنولوجيا، فإنتاج الغذاء وشفاء المرضى والدفاع عن الوطن، كل ذلك يعتمد على قدرة المجتمع على تخطيط تطبيقات العلم والتكنولوجيا والتكيف معها واقتباسها وابتكارها وصناعتها وصيانتها وتشغيلها وزيادة تقدمها. كما تعمل منظومة العلم والتكنولوجيا بشكل متناسق ومنظم فى تطوير المجتمع وإحداث تغيير اجتماعى واقتصادى هائل يمكن الوطن العربى من المشاركة بدرجة أكثر تكافؤًا فى التطورات العلمية والتكنولوجية، وتمكن العالم العربى من أن يكون مساهمًا حقيقيًا لهذه التطورات وليس

ويؤكد الكاتب على «أن امتلاك هذه المواهب البشرية الملموسة لايساهم بشكل بارز فى تحسين الحال الوطنى إلا إذا عززت الثقافة السياسية تشكيل منظومات وطنية فعالة للعلم والتكنولوجيا»، وإلا إذا تبنت الحكومات العربية «سياسات علم قوية وناجحة».. وهكذا فإن إنتاج البحث العلمى بحوالى خمسين ألف أستاذ فى ١٧٥ جامعة عربية فى عام ١٩٩٥، كان ١٠٪ فقط مما يمكن أن نتوقعه. «إن خمسين ألف عالم بحث وتطوير - يعملون فى إطار منظومة علم وتكنولوجيا متطورة سينشرون سنويًا حوالى مائة ألف ورقة علمية، بدلا من الستة آلاف ورقة - ستة عشر ضعفًا - التى ينشرونها الآن فى الوطن العربى.. ومستوى الناتج الوطنى الإجمالى سيكون فى هذه الحالة أكبر بخمسة إلى عشرة أضعاف معدل الخمسمائة مليار تقريبا، الذى وصل إليه مجمل إنتاج البلدان العربية فى عام ١٩٩٥».. وهنا أود أن أشير إلى أن النشاط العلمى والتكنولوجى يعتمد على الإبداع والابتكار، ولهذا فإن نوعية الأوراق العلمية المنشورة لها أهمية خاصة، وأنه إذا أخذنا ذلك فى الحسبان لأصبحت الصورة قاتمة بدرجة أكبر ولكنها أقرب للواقع. أقول ذلك رغم شعورى بالمرارة لإيمانى بضرورة مواجهة الحقائق، ولتقتى الموضوعية بإمكانية التغيير وضرورته.

قدم المؤلف عرضًا جيدًا لطبيعة وديناميكية منظومة العلم والتكنولوجيا فى الغرب، وأبرز العوامل المساعدة والظروف المعطلة لهذا النشاط.. كما تحدث تفصيلاً عن أهمية مثل هذه المنظومة لمواجهة التحديات العسكرية، ولتلبية حاجات الأمن القومى العربى، وناقش فى النهاية مستقبل العلم والثقافة فى الوطن العربى، ونوّه عن التغييرات القائمة الآن فى البيئة الدولية.

نحن بالفعل أمام كتاب يتعلق بقضية محورية لمستقبل العالم العربى، كتاب يستحق الدراسة والتفكير بإمعان حتى نخرج من حالة إنكار الواقع التى تعطل أى تغيير أو تقدم.. ورغم أنه كتاب مؤلم يوضح دون مواربة سوء الوضع العربى الحالى، إلا أنه أيضا يبدد الوهم فى استحالة مساهمة متكافئة وفعالة فى النشاط العلمى والتكنولوجى الدولى، ويخلع عن هذه النشاطات صفة الإعجاز.

يُعد أنطوان زحلان نموذجًا لعالم عربى امتزجت طموحاته العلمية ورغبته فى البحث العلمى فى مجال الفيزياء بطموحاته الكبيرة لوطنه العربى وآماله التى لم ينل منها الإحباط رغم الهزائم والنكسات، فى أن يستثمر العالم العربى طاقاته الخلاقة والمبدعة فى مواجهة التحديات، وعلى رأسها تحديات العلم والتكنولوجيا.. فهو بلاشك نموذج فريد من العلميين العرب الذين ينظرون للعلم كأداة من أدوات التغيير على مستوى الفرد والمؤسسة، والذين يربطون العلم بالمجتمع ومشكلاته فى تباين مع نماذج أخرى من علميين عرب عزلوا نشاطهم العلمى عن قضايا المجتمع متذرعين بمقولات زائفة مثل فصل العلم عن السياسة.

مجرد أن يكون مستهلكًا لها. فالعلم والتكنولوجيا قوتان رئيسيتان تدعمان التغيير التاريخي وتحدثان التغيير على المستويات الشخصية والاجتماعية والمنظماتية والوطنية والدولية، وبإمكان مجتمع يتقن التكنولوجيات التي يحتاج إليها أن يتطور بانسجام. أما المجتمع الذي يعتمد على العقود الإنجازية والمشاريع الجاهزة، فإنه ينتهي إلى ثقافة جاهزة: فطائر ماكدونالدز، وأغاني مايكل جاكسون ومنوعات ديناستي التليفزيونية، وملابس جوتشي، وسيارات مرسيدس، فمن المستحيل قيام رفاه ثقافي واقتصادي واجتماعي وسياسي من دون الاستفادة من العلم. وفي البلدان الصناعية حيث دخل الفرد يعادل عشرة أضعاف دخل الفرد في البلدان العربية نجد أن أكثر من تسعين بالمائة من الناتج الوطني الإجمالي، إنما هو من نتاج العلم والتكنولوجيا، وعلى العكس من ذلك، فإن الجهل والفقر والفساد والمرض في الوطن العربي يساعد على إبقاء قمع مستمر وتواكل تكنولوجي وعدوان أجنبي. ويحذر المؤلف من أن البلدان التي لا تدعم البحث العلمي - بشكل جدي - ستظل متروكة في الظلام، محكوما عليها بفقر مستديم للعقل وبتواكل ثقافي.

٢. السلطة السياسية وأولوية العلم:

قد نتساءل عما إذا كانت هناك أصوات عالية توضح أهمية المشاركة العلمية والتكنولوجية، وتدعو لها لدى صانعي القرار! والإجابة عن ذلك أن المحاولات كانت متعددة ومتكررة، ومنذ فترة بعيدة.. الكاتب يذكر مقالا لذلك المفكر اللبناني، شبلي الشميل والذي «نشر في عام ١٨٩٦ كتابًا مفتوحًا إلى السلطان عبد الحميد في استانبول تحت عنوان شكوى وأمل»، يحدد فيه ثلاثة أسباب لضعف الإمبراطورية العثمانية وهي غياب «العلم والعدالة والحرية». وبالرغم من أن منشورات الشميل أدت إلى نقاشات واسعة.. إلا أن أثر هذه الأفكار في السياسة العامة كان محدودًا جدًا. وأود أن أضيف إلى ذلك مثالاآخر هو أديب الثورة العرابية عبد الله النديم، ففي «التنكيت والتبكيت» (١٨٨١ - ١٨٨٢)، كان النديم يحث على نقل تكنولوجيا الصنائع من أوروبة إلى مصر، ويتحدث في «الأستاذ» عن هيمنة الأجانب وتدخلهم في شئون البلاد، وبالذات عن محاولاتهم تقويض الصناعة المحلية لصالح البضائع الأجنبية.

وعقب هزيمة ١٩٦٧ تبنت الجامعة العربية عددا من المحاولات لوضع سيناريوهات لمستقبل الوطن العربي، وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد ونشر استراتيجية عربية للعلوم والتكنولوجيا وُجهت للحكومات والمعنيين في العالم العربي في عام ١٩٨٩. وها نحن في مطلع القرن الواحد والعشرين.. فلماذا ذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح؟ ولماذا لم يكن لها سوى أثر قليل على المستويين القطرى والإقليمي؟

٣. التخلف التكنولوجي وتفكك العالم العربي:

بيّن الكاتب كيف أن عام ١٤٩٨م شهد تطورًا مهمًا في المواجهات بين الشمال والجنوب، أدى إلى دخول البرتغاليين إلى المحيط الهندي وإلحاق أقصى الضرر بنظام التجارة العربي عن طريق قوتهم البحرية المتفوقة، والتي كانت نتاج «بحث وتطوير في مجال تكنولوجيا الأساطيل والحرب البحرية»، وأصبح الأوروبيون على قدم المساواة مع



ارتفع عدد الخريجين الجامعيين في الوطن العربي إلى أكثر من الضعفين بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩٥، ومع ذلك ظل الناتج الوطني الإجمالي على حاله

إن خمسين ألف عالم بحث وتطوير - يعملون في إطار منظومة علم وتكنولوجيا متطورة سينشرون سنويًا حوالي مائة ألف ورقة علمية، بدلا من الستة آلاف ورقة - ستة عشر ضعفًا - التي ينشرونها الآن في الوطن العربي

الدولة العثمانية - الدولة العظمى آنذاك - تكنولوجيًا بعد أن سدّوا الفجوة التكنولوجية التي أقامها العرب في القرن السابع، والتي استمرت حتى القرن الثاني عشر. تلى ذلك تنامي القوى البحرية الهولندية والإنجليزية والفرنسية التي لم تكن مدعمة بتفوق في القوة البحرية فقط، بل أيضا بوسائل جديدة مكنتها من القيام بممارسات احتكارية في التجارة العالمية، وأدى التآكل المستمر للأمن القومي إلى تمكين شركات الهند الشرقية المستندة إلى القوة البحرية من إخراج العرب من التجارة الدولية واحتكارها للسلع وهيمنتها على التجارة الدولية.. مما أدى إلى انهيار نظام النقل والتجارة العربي اللذين كانا يوفران العمود الفقري لاقتصاد الوطن العربي، والدعامة للوحدة القومية من خلال التحرك الاجتماعي والثقافي للمشاركين في هذا النظام التجاري. وبحلول منتصف القرن السابع عشر كان العرب يشترون المنتجات الآسيوية من تجار أوروبيين متمركزين في حلب والإسكندرية، وكان من الطبيعي أن يؤدي خراب التجارة العربية البعيدة المدى إلى التراجع الثقافي للعرب. فقد كان التجار العرب أيضا «بحّاثة ورحّالة وعلماء اجتماع بنائين يحملون معرفتهم ودينهم إلى أقاصي آسيا وأفريقيا». بدأت آلية الانهيار والتخلف والتفكك والتباعد بين الدول العربية وضعف العلاقات بينها، ثم التراجع الثقافي وانحسار حرية تعميم المعرفة، وتقلص العلاقات مع الصين والهند وأفريقيا، وبدأ مسلسل التواكل التكنولوجي والتنازلات التجارية والقروض التي عمقت هيمنة الغرب على العالم العربي، والتي وصلت إلى أوجها في العصر الحاضر في شكل مبيعات ضخمة للأسلحة لا علاقة لها ألبتة بحاجات الأمن القومي العربي، ولكن تعود أساسا إلى طمع الحكومات الغربية في الحفاظ على ربحية صناعاتها الحربية.

أدى تقدم الأوروبيين في مجالات التكنولوجيا الزراعية وصناعة النسيج ووسائل النقل والمواصلات والصناعات الكيماوية في القرن التاسع عشر، إلى خسارة أنشطة اقتصادية مهمة، وإلى تفكيك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المرتبطة بها، والتي تربط معا مناطق الوطن العربي المختلفة، وجدير بالذكر أن المؤلف أبرز بوضوح العلاقة القوية بين العلم والتكنولوجيا من جهة، والاقتصاد والتجارة والقوة العسكرية والترابط القومي من جهة أخرى.

وأود أن أشير في هذا المجال إلى أن العوامل التي تدفع في اتجاه تبعية أعمق وتخلف أكبر لازالت تفعل فعلها الآن، بل إنها تتعاظم وتتسارع بسبب التقدم الهائل الغربي بما في ذلك الإسرائيلي في الفروع العلمية المختلفة.

٤. الخطر الإسرائيلي:

تحصل إسرائيل على دعم غير محدود من جانب أنظمة التسلح الغربية: التقليدية والنووية والبيولوجية والكيميائية.. كما أن الحركة الصهيونية أنشأت «منذ بدايتها الجامعات ومراكز البحث العلمية ومجمعًا صناعيا» متطورًا ساهم بشكل فعال في تطوير تكنولوجيا الفضاء والصواريخ وأسلحة الدمار الشامل، وكان شيمون بيريز المهندس للكثير من هذه التطورات.

وقد تلقت إسرائيل مساعدة فرنسية هائلة لتطوير مفاعل ديمونا النووي، وتحققت القنبلة اليهودية بدعم مباشر من الحكومتين الفرنسية والأمريكية، وبدعم أطلنطي غير مباشر، عندما تحولت شحنة كاملة من مائتي طن من اليورانيوم بشكل غير مشروع إلى إسرائيل، وجرى انتهاك قوانين قومية ودولية لتحقيق هذا التفوق الإسرائيلي، والذي يمثل إحدى استراتيجيات الغرب المعلنة. وكان يجب أن يكون ممكنا للدول العربية أن تأخذ دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية هذه إلى محكمة دولية لمحاكمتها على التواطؤ في حملة واسعة من التدمير والقهر والاضطهاد ومصادرة الممتلكات والتطهير العرقي في فلسطين ولبنان وسوريا، واغتيال الأسرى العرب، واغتيال علماء عرب مثل د. يحيى المشد المصري الجنسية، وغيره من العلماء الأجانب. وفي المقابل «تواصل دول حلف شمال الأطلسي للسنوات العشر الفائتة، تشويه سمعة بلدان إسلامية مثل باكستان وليبيا والعراق ومصر أيام عبد الناصر، والجزائر حديثًا، على اعتبار أنها إما تخطط لاكتساب أسلحة دمار شامل أو امتلاك هذه الأسلحة. ويشير الكاتب إلى مؤلفه المهم «العلم والتعليم العالي في إسرائيل» الذي صدر باللغتين العربية والإنجليزية، والذي أوضح فيه تسخير البحث العلمي الأكاديمي الخالص في خدمة احتياجات المؤسسة العسكرية، كما أشار إلى الصلات الوثيقة القائمة بين الأسرة العلمية الإسرائيلية».

٥. تقييم الإنتاج العلمي في الوطن العربي:

إن أهم المؤشرات للنشاط العلمي هي الأوراق العلمية المنشورة في مجلات علمية محكمة (حيث لا تُقبل الورقة العلمية للنشر إلا بعد تقييمها من اثنين أو ثلاثة من المتخصصين في نفس المجال)، وخصوصا المجلات ذات الصيت والاحترام التي تنشر الأوراق العلمية المتميزة أو ذات النوعية الجيدة.. ومن المؤشرات الأخرى: المؤلفات العلمية، وبراءات الاختراع، والاكتشاف والابتكار، والجوائز الدولية المعروفة.

والمؤلف يعرض في الكتاب نتاج البحث العلمي في الوطن العربي من خلال الأوراق العلمية المنشورة، مستخدمًا ثلاث مواد مرجعية هي: الدوريات العلمية العربية، ولجنة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أيكسو) عن العلم والثقافة، ونتائج الأبحاث المسجلة في فهرس مؤسسة المعلومات (I.S.I)، وهي مؤسسة خاصة تحتل مكانا مهما في توفير المعلومات، ويرجع إليها العلماء كثيرًا. وبالرغم من أن المعلومات غير مكتملة، إلا أن معالم الصورة التي تعطيها واضحة تماما ويمكن تلخيصها فيما يلي:

** المعلومات عن الدوريات العربية غير مكتملة وغير كافية، وتعتبر سجلات مكتبة الكونجرس في واشنطن أفضل مصدر للمعلومات حول الدوريات العربية، وهذا نفسه له دلالة سلبية.

** تأسست شبكة إنستينت (Enstinet)، وهي شبكة المعلومات العلمية والتكنولوجيا الوطنية (المصرية) في عام ١٩٥٨ من قبل أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، ومدعمة من قبل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID) لتطويرها «مع التأكيد على الأولويات الاجتماعية - الاقتصادية»، وهذا له دلالة مهمة أيضا؛ وتضم دليلا لمشاريع البحث الراهنة والجمعيات العلمية في مصر، وملخصات لكتب ومقالات وتقارير مصرية، وهي غير كاملة، ولا تتضمن ما ينشره مصريون في مجلات أجنبية.

** الدوريات المصرية المتعلقة بالعلم تتأخر غالبا في النشر.. والأوراق التي تردها قد تظل محبوسة مع المحررين بانتظار النشر لعامين أو ثلاثة.

** دراسة «أيكسو» عن العلم والتكنولوجيا الميدانية، والتي انتهت بتقرير عن «الإنتاج العلمي العربي»، تعطي الملامح الأساسية عن هذا الإنتاج، حوالي ٧١٪ من

المنشورات العلمية جاء من مصر، ونسبة عالية منه نشرت في دوريات وطنية غير مشمولة من قبل I.S.I، والمعدل الغربي هو ٥٧٪ منشورات في دوريات وطنية.. ومن أهم المعلومات الواردة في التقرير: أن معدل نشر أوراق الأبحاث العلمية العربية في دوريات دولية محكّمة في الفترة ما بين ١٩٩١ و١٩٩٥ هو ٥٨٠٠ في السنة بالمقارنة إلى ٨٨٧٧ نتاج البحث العلمي الإسرائيلي في نفس الفترة، أي أن نسبة نتاج البحث العلمي الإسرائيلي لما تنتجه جميع الدول العربية هو حوالي مرة ونصف دون أن يؤخذ في الاعتبار نوعية الأوراق العلمية. فإذا أخذنا النوعية في التقييم، وهذا ضروري، فالنسبة تصبح أكثر اختلالا، فمعدل الاستشهاد - وهو معيار يعطي مؤشرا.

** وفي معرض المقارنات الدولية، أسوق بعض أمثلة من التي ذكرها المؤلف، فبينما نجد أن معدل الإنتاج العلمي للفرد في عام ١٩٩٥ هو ٢٦ للوطن العربي، نجده ١٤٤ لكوريا الجنوبية، و١١٠٠ لهولندا، و١٣٣٠ لإسرائيل. يلاحظ أيضا أن هذا المعدل قفز قفزات كبيرة في كوريا الجنوبية من ٦ عام ١٩٨١ إلى ٤٨ عام ١٩٩١ إلى ١٤٤ عام ١٩٩٥، أي ٢٤ ضعفا في خمسة عشر عاما، مما يدل على أن كوريا الجنوبية بلد في العالم الثالث، بذل حديثا جهدا مصمما وناجحا في بناء قدراته العلمية والتكنولوجية. أما بالنسبة للعالم العربي فلم يتغير معدل الإنتاج العلمي للفرد كثيرا (١١ في عام ١٩٨١ و٢١ في عام ١٩٩١، ٢٦ في عام ١٩٩٥)، حوالي الضعف (٢,٤) في نفس الفترة.

كما يلاحظ المؤلف أن المنتجين الرئيسيين في المجال العلمي في العالم الثالث هم الصين والهند والبرازيل. وقد عززت حكومة الهند منذ استقلالها تطوير وتطبيق العلم والتكنولوجيا، وقدم العلماء الهنود مساهمات مهمة إلى العلم في العالم. وسعى بعض العلماء الهنود إلى تطوير علوم وتطبيقات مباشرة وفورية.

ويحذر المؤلف من أن معدل الإنتاج للفرد لا يعني الكثير كمقياس وحيد، فعلى الرغم من أن للصين معدل إنتاج علمي منخفضا جدا بالنسبة للفرد، فهي قوة نووية وفضائية، كما أنها طوّرت عددًا من تكنولوجيات مثيرة للاهتمام.

** تجدر الإشارة إلى بعض الحقائق المهمة التي جاءت في الكتاب حول الإنتاج العلمي العربي ونموه وارتباطه بالصناعة: كان معدل نمو الإنتاج العلمي العربي ١٠,٣٪ سنويا، والوقت اللازم لمضاعفته ٦,٧ سنة. وكان المعدل في مصر ٨,٣٪ سنويا، والوقت اللازم لمضاعفته ٨,٤ سنة. وأسرع نسبة للنمو سُجلت في العربية السعودية (٢٠٪) والكويت (٢٥٪). وتحققت المكاسب الرئيسية للنشاط العلمي خلال السنوات الثلاثين الماضية في بلدان مجلس التعاون الخليجي. وانعكس ذلك في حصتها في الإنتاج العلمي العربي، فارتفعت من ١٧٪ في عام ١٩٨٠ إلى ٣٣٪ عام ١٩٩٥، بينما انخفضت حصة مصر من ٤٦٪ إلى ٣٢٪ في نفس الأعوام، ولكن مصر لاتزال تنتج بحوثا أكثر من نسبتها السكانية في الوطن العربي. كما أن «الجامعات المصرية تظل هي مراكز البحث الرئيسية، إذ إنها تنشر ٨١٪ من البحوث المذكورة في I.S.I. خلال عامي ١٩٩٠ و١٩٩١، على الرغم من العدد الكبير لمراكز البحوث والمستشفيات ومحطات البحوث الزراعية في مصر.

يشير المؤلف أيضا إلى الآثار السلبية المنعكسة على النشاط العلمي في الكويت والعراق نتيجة غزو الكويت وبينما استردت الكويت بعض عافيتها في هذا المجال.. إلا أن البحث العلمي في العراق لازال في حالة انهيار نتيجة للعدوان والحصار الشامل المستمر عليه.

ويضيف الكاتب أن إنجاز البلدان العربية يبين أنها ضعيفة في العلوم الحاسمة الأهمية لعالم اليوم، والعلوم الحاسمة للمستقبل. وبعبارة أخرى فإن البلدان العربية لم تقم بعد بالانتقال إلى علوم آخر القرن العشرين وتكنولوجيته.



بإمكان مجتمع يتقن التكنولوجيات التي يحتاج إليها أن يتطور بانسجام. أما المجتمع الذي يعتمد على العقود الإنجازية والمشاريع الجاهزة، فإنه ينتهي إلى ثقافة جاهزة: فطائر ماكدونالدز، وأغاني مايكل جاكسون ومنوعات ديناستي التليفزيونية، وملابس جوتشي، وسيارات مرسيدس.

عقب هزيمة ١٩٦٧ تبنت الجامعة العربية عددا من المحاولات لوضع سيناريوهات لمستقبل الوطن العربي، وقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بإعداد ونشر استراتيجية عربية للعلوم والتكنولوجيا.. فلماذا ذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح؟

٦. عقبات أمام قيام منظومة علمية وتكنولوجية عربية فعالة:

يذكر المؤلف عدة عوامل تشكل عقبات حقيقية لقيام منظومة علم وتكنولوجيا متطورة وفعالة في الأقطار العربية، أهم هذه العوامل هي: العلاقة غير الفعالة بين منظومة العلم (النشاط العلمي) والاقتصاد الوطني، المستويات العالية من المركزية التي تشل التعاون والتفاعل واتخاذ المبادرة، غياب التنسيق الجيد في مجال العلم والتكنولوجيا بين فروع الحكومة التي تعمل وكأنها وحدات مستقلة لا توافق، أو تزامن بينها؛ غياب التمويل اللازم رغم أن التمويل وحده لايكفي وليس ضمانة للنجاح في المجال العلمي أو الاقتصادي. فعائدات النفط قد وفرت المفتاح للتنمية في العربية السعودية مثلا.. ولكن استثمارها الصناعي كان مبتسرا وظاهر السلبية: ارتكاز اختيار القيادات على المحسوبية أو الأقدمية والولاء السياسي دون إعطاء الكفاءة والإنجاز المعيار الأساسي في الاختيار؛ انتشار ثقافة سياسية مناوئة لبناء المؤسسات: منح العقود على أساس ممارسات فاسدة وإتاوات: البيروقراطية وعدم المتابعة متمثلة في كثير من قرارات وتوصيات لا تنفذ وهيئات ولجان لا تعمل مما يضاعف من حالة الإحباط.. ولعل أهم العقبات هي التواكل التكنولوجي والتبعية السياسية والاقتصادية والثقافية..

وشدد الكاتب على الكلفة العالية للإصلاح والصيانة الداخلة في هذه الخدمات رغم أن القدرات المطلوبة في هذا المجال أقل بكثير من تلك المطلوبة لصناعة الناتج الأصلي.. وهذا يعكس عجز الحكومات العربية المستمر في تطوير وتمكين بيئة تكنولوجية، وقد أدى هذا العجز إلى واردات ضخمة من خدمات متصلة بالتكنولوجيا.. لايمكن لمعظم الحكومات العربية تحملها ولايمكن تأمين تحسين الكفاءة الاقتصادية الوطنية إلا عن طريق اعتماد المصادر المحلية. لقد تمسكت الأقطار العربية بسياسات التواكل التكنولوجي الكلي إلى حد الأيديولوجيا: فهي تستورد الخدمات، وقطع الغيار والسلع الرأسمالية، والخدمات الاستشارية، وخدمات المقاولة. والتأثير الاقتصادي لمثل هذا الاعتماد الكلي في المدى البعيد يعد بمثابة الكارثة.. هذه السياسة وتجاهل الارتباطات الممتدة خلفيا والمتعلقة بالتكوين الإجمالي لرأس المال الثابت إلى تصدير الوظائف.. والعامل المضاعف المرتبط بمعظم الاستثمارات في الأقطار العربية يكاد يكون صفرا أو سلبيا، هذا الاستثمار الضخم بلغ ٢٥٠٠ مليار دولار خلال الفترة ١٩٨٠ -١٩٩٧، وعلى سبيل المثال تصدر صناعة البناء والتشييد العربية وحدها ما يتراوح بين سبعة ملايين إلى تسعة ملايين وظيفة. وتصدر صناعة النفط العربية مليون وظيفة مرتبطة بوارداتها من منتجات وخدمات، ويسود هذا النموذج كل القطاعات الأخرى وبعبارة أخرى أصبح العالم العربي مُصدّرا جيدا للخامات (النفط) وللوظائف!!

٧. ارتباط منظومة العلم والتكنولوجيا بالاقتصاد:

إن نهوض الأمم الصناعية وسقوطها أمر منتظم الحدوث.. والقاسم المشترك في هذه العملية هو الالتزام بالبحث والتطوير وبمستوى الاستثمار في التعليم ونوعية البنى التحتية الفعلية، وامتلاك الموارد المعنية لايحمي اقتصاد دولة: فأستراليا التي كانت في وقت من الأوقات أغنى بلد في العالم انزلقت الآن إلى الموقع السابع عشر بين بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية الأربعة والعشرين، والسبب هو اعتمادها على صناعات منخفضة المستوى نسبيا مثل التعدين والزراعة اللذين يشكلان ٨٠ بالمائة من صادراتها، وتخصيصها «١,٣» بالمائة فقط من ناتجها الوطني الإجمالي للبحث والتطوير. إن الاتجاه المستمر لفك ارتباط الاقتصاد بالمادة الخام جعل الاستثمار في التعليم.. له نسبة أعلى في المردود من أي نوع آخر، والسبب كما يذكر هاريس في الفاينانشيال تايمز في عام ١٩٩١، أن هذا هو الشكل الوحيد لرأس المال القابل للتكيف إلى مالانهاية مع الظروف والتكنولوجيات المتغيرة.

كما أن انهيار الاتحاد السوفياتي يعود في جزء منه إلى العلاقة غير الفعالة التي كانت قائمة بين منظومته للعلم والتكنولوجيا والاقتصاد الوطني ويستشهد المؤلف بدراسة تظهر أن الإصلاحات في المنظومة السوفياتية، بدأت في عهد خروتشوف في عام ١٩٥٧، إلا أن النظام السياسي السوفياتي لم يكن قادرا على تقديم المرونة والمعالجة المطلوبة لتمكين منظومة العلم والتكنولوجيا السوفياتية من العمل بكفاءة فضلا عن الإصرار على الإشراف البيروقراطي والسياسي المباشر على عناصر منظومة العلم والتكنولوجيا، وكانت هذه التجزئة مميتة بالنسبة إلى كفاءة الاقتصاد السوفياتي. لقد كانت لدى الاتحاد السوفياتي وفرة في العلماء والابتكارات إلا أنها لم تتمكن من تحويل نتاجها اقتصاديا إلى خدمات ومنتجات مطلوبة.

والوضع في البلدان العربية أشد حدة.. فليس هنالك علاقات تكنولوجية مهمة أوبارزة بين أي مؤسسة صناعية ومحيطها الوطني والإقليمي. كما أن البيروقراطية سواء في القطاع العام أو الخاص وعوامل أخرى حالت دون أي جهد جدي لاكتساب التكنولوجيا.

وفي كوريا الجنوبية نلاحظ نجاح الارتباط بين الاقتصاد الوطني ومنظومةالعلم والتكنولوجيا مما مكنها من تسريع معدل نموها الاقتصادي، ومن المتوقع أن تنضم الصين إلى «النادي الصناعي» خلال عشر سنوات أو نحو ذلك ولقد أقامت الهند عددا كبيرا من المراكز الصناعية ومراكز البحث والتطوير وتمكنت من تحسين امتصاص خبرتها المهنية.

وبكل بساطة فإن مستقبل الوطن العربي ومستقبل العلم في الوطن العربي يعتمدان على قدرة العرب على تطوير ثقافتهم السياسية. وإذا وُضعت منظومات علم وتكنولوجيا وطنية في مواقعها فعندها يمكن للكفاءة الاقتصادية المرتبطة بالاستثمارات السابقة والجديدة أن تتحسن بشكل واسع. إن على العرب لكي يستفيدوا من العلم أن يقيموا بيئة سياسية تمكن للاقتصاد الصناعي أن ينمو داخليا. وإلا فإن التدهور الاقتصادي للوطن العربي.. سيستمر في الهبوط السريع، وبيّن المؤلف أن إنفاق العالم على البحث والتطوير آخذ في الازدياد وأن عاملي ازدياد التعقيد التكنولوجي وكثافة رأس المال سيكون لهما تأثير قوي على سياسات التكنولوجيا العربية لتصدير الوظائف وإفقار الوطن العربي. وسوف يؤدي التقدم التكنولوجي إلى تعميق «التواكل

التكنولوجى» بفضل العمولات الثقيلة وسوء الإدارة والمشاريع الخالية من نقل التكنولوجيا.

وأكد المؤلف مرارا أن «مستقبل الوطن العربى سيتقرر بقدرته على الانتقال من اقتصاد ريعى إلى اقتصاد صناعى. وأن إمكانية تأسيس وتطوير منظومات علم وتكنولوجيا وطنية يعتمد على الانخفاض المتزايد للسلوك الريعى فى الاقتصاد الوطنى.

بعد عرض لنقاط الكتاب الأساسية، يصبح من المهم تسجيل بعض الملاحظات النقدية لمضمون الكتاب:

أولا: غياب إطار هيكلى متماسك يضع النشاط العلمى والتكنولوجى فى ارتباط وثيق وتلقائى بالمسار التنموى، فلم يبين الكاتب بوضوح كاف الارتباط العضوى بين طبيعة السلطة السياسية وأولوياتها الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم حاجتها الفعلية لمنظومة علم وتكنولوجيا وطنية ومتطورة. ورغم أن الكاتب أكد فى مواضع مختلفة من كتابه على أن اتباع أسلوب التكنولوجيا المستوردة والجاهزة والتمركز القوى فى آليات صنع القرار والفساد والمحسوبية والبيروقراطية الحادة يمنع قيام منظومة علم وطنية فعالة فكيف إذًا فى ظل هذا الأسلوب السائد تنشط مثل هذه المنظومة؟

ويشير المؤلف لبيئة سياسية ضرورية حتى يحدث تحول من اقتصاد ريعى إلى اقتصاد صناعى معتمد على العلم ومن ثم يحتاج إلى منظومة علمية متطورة.. إذ يقول بوضوح «إن النشاطات فى العلم والتكنولوجيا لاتحدث فى فراغ: الثقافة السياسية عامل حاسم للتقدم العلمى. وتعتمد طاقة العلماء والتكنولوجيا فى المساهمة فى تطوير مجموعاتهم على الثقافة السياسية السائدة»، ورغم ذلك فالمؤلف لايتحدث عن البعد الاجتماعى لهذه البيئة السياسية الضرورية، طبيعتها، أولوياتها، نوعيتها، ارتباطاتها الداخلية والخارجية، ظروف نشأتها ومؤشرات ظهورها.. العوامل المساعدة والمعطلة لمثل هذه البيئة السياسية.. قد يعتقد البعض أن هذا خارج موضوع الكتاب ولكن الكتاب لم يكتف برصد حالة العلم والتكنولوجيا فى العالم العربى بل يتطرق للخطوات الأولى لتشكيل منظومة العلم وللبعد الدولى والإقليمى والعسكرى ومستقبل العلم والتكنولوجيا فى الوطن العربى ويتحدث عن أفعال وسياسات من أجل الاختراق وإطار زمنى للتغيير..

إذًا نحن بصدد تغيير جذرى متعلق بالعلم والتكنولوجيا والاقتصاد والثقافة السياسية لذلك، أعتقد أن تعريف الملامح الأساسية للبيئة السياسية وأبعادها الاجتماعية ضرورى لأن ذلك يساعد فى تحديد الأولويات للذين يعملون جادين لتغيير حقيقى فى المجالات المختلفة المتشابكة والمتداخلة والمتفاعلة فيما بينها والتى يشكل فيها العلم والتكنولوجيا أحد المجالات المحورية.. هذا الفهم الأكثر شمولا واكتمالا يمنع التقاعس بحجة أن المناخ السياسى ليس مواتيا ويمنع أيضا تشتيت الجهود -النادرة- فى جزئيات فرعية أو هامشية .. كالاهتمام بمسألة هجرة الأدمغة العربية على سبيل المثال.

ثانيا: علم وتكنولوجيا فى ظل العولمة والمشروع الشرق أوسطى

بالرغم من حديث الكاتب عن التحدى الإسرائيلى العسكرى، لم يتطرق الكاتب للمشروع الشرق أوسطى والذى يعتبر حجر الزاوية بالنسبة للترتيبات الإقليمية التى تسعى إليها أمريكا وإسرائيل فى ظل ما يسمى بالنظام العالمى الجديد.. وخصوصا أن أحد الجوانب الرئيسية فى هذا المشروع هو دور إسرائيل المتميزة علميا وتكنولوجيا لإحكام الهيمنة على العالم العربى. ورغم أن المؤلف تحدث عن تفكيك الوطن العربى من قبل المستعمر الأوروبى فى السابق وعن دور التكنولوجيا والتجارة فى تحقيق ذلك، إلا أنه لم يناقش فى حديثه عن المستقبل التحديات الآتية التى يواجهها العالم العربى كله من قبل أمريكا التى تخطط علنا استخدام التكنولوجيا لإحكام السيطرة وتعميق الهوة بين الأقطار العربية ورفع كفاءة استغلالها لموارد الوطن العربى وطاقاته.. وفى هذا الإطار سنرى نشاطا تكنولوجيا فى إطار الهيمنة الأمريكية دوليا وإسرائيل إقليميا وفى مجالات تخدم مصالحها.

نحن بصدد مرحلة جديدة تستهدف خلق نموذج شرق أوسطى بقيادة إسرائيلية شبيه بنموذج النافتا NAFTA لدول أمريكا اللاتينية سيكون نتيجته -إن تحقق- تعميق الهوة بين الأقطار العربية وزيادة التفاوت الاجتماعى المحلى وتدعيم التبعية لأمريكا أساسا وأوروبا وتحقيق مزيد من الهيمنة الإسرائيلية إقليميا فى المجالات الاقتصادية وبالتحديد فى مجالات العلم والتكنولوجيا. وهذا يؤكد أن هدف إقامة منظومة علم وتكنولوجيا عربية ذات كفاءة عالية وتعمق التعاون العربى لابد أن يكون مقترنا بإطار اقتصادى وسياسى واجتماعى واضح وإلا فقد نرى منظومة لها مسحة من العلم والتكنولوجيا تعمل فى إطار منظومة أكبر إسرائيلية أمريكية.

ثالثا: فى مضمار تأكيده على العقبات المفروضة ذاتيا لنقل التكنولوجيا للعالم العربى والتى تشكل دون شك الأهمية القصوى فى المرحلة الراهنة، قلل الكاتب من أهمية وحجم العقبات التى يفرضها الغرب على العالم الثالث عموما والعربى بشكل خاص فى مجال العلم والتكنولوجيا.. وأن استراتيجية الغرب بقيادة أمريكا فى جعل وإبقاء إسرائيل قوة متفوقة إقليميا تعنى بوضوح: العمل على إبقاء العالم العربى فى حالة ضعف وتخلف دائمة خصوصا فى المجالات العلمية والتكنولوجية.

إن تدمير العراق وحصارها المستمر هو جزء من هذه الاستراتيجية وهو لايهدف فقط إلى التخلص من أسلحة دمار شامل بل أيضا إلى تحطيم إمكانيات العراق تنمويا لعدة عقود وضمان تآكل القدرات العلمية والتكنولوجية المكتسبة فى المرحلة السابقة.

رابعا: حدد المؤلف عددا من العناصر الضرورية لقيام منظومة علم وتكنولوجيا متطورة ولكن أحد العناصر الضرورية لم يلق الاهتمام اللازم.. هذا العنصر هو الثقافة العلمية العامة، وخصوصا أننا نشاهد كيف أن الخطاب السياسى فى بعض الدول العربية المحورية انتقل من مرحلة عدم الاكتراث بقضايا العلم والتكنولوجيا إلى مرحلة جديدة يستخدم فيها العلم والتكنولوجيا كأداة إعلامية للتدليل على تقدم علمى هائل، مرحلة رُفعت فيها شعارات جذابة مثل «العلم والإيمان»، و«العلم من أجل التنمية»، و«اقتحام مجالات التكنولوجيا المتقدمة» ومن جهة أخرى، نجد إعلاما علميا يخلط العلم بالخرافة.. ويغرِّب العلم بمعنى الغُربة والتغريب وينشر أخبارا علمية متناثرة غالبا ما تكون ناقصة ومشوهة وأحيانا بعيدة عن الصحة تماما، وهذا يعكس الافتقار الشديد للمحررين العلميين المتخصصين فى أجهزة الإعلام. لاشك أن هذا الموضوع بالأهمية التى لايمكن بحثها بالتفصيل فى هذا المكان ولكن أردت التأكيد على دور الثقافة العلمية العامة الضرورية لخلق وعى علمى وتكنولوجى.

نابكوف:
شعار «دون كيشوت»
هو الشفقة، ورايته الجمال. وهو
يمثل كل ما هو رقيق
وبائس ونقى وغير
أنانى وشهم

فارس.. أم مجنون؟

دون كيشوت.. بطل هزمه واقع البشر

سايمون ليز

إن استخدام كلمة «دون كيشوتى» فى أية مناقشة هو فى كل الأحوال تقريبا نوع من الإهانة، الأمر الذى يحيرنى، إذ إننى لا أرى مجاملة أفضل أو أعظم منها. والطريقة التى يشير بها معظم الناس إلى «دون كيشوت» تجعلك تتساءل إن كنت قد قرأت الكتاب حق قراءته أم لا. والواقع أنه من المفيد أن نكتشف إن كانت «دون كيشوت» مازالت تقرأ على نطاق واسع، كما توحى بذلك الشعبية العالمية للشخصية، أم لا؟.

غير أن القيام بمثل هذا البحث أمر محرج: إذ إنه بين المتعلمين على وجه الخصوص، غالبا ما يواجه المرء مفهومًا خاطئًا غريبًا مؤداه أن هناك عددًا من الكتب ينبغى أن يكون الإنسان قد قرأها، ومن العار أن يعترف بفشله فى هذا الالتزام الثقافى. وأنا شخصيا أختلف مع هذا الموقف؛ إذ أعترف بأننى أقرأ من أجل المتعة فقط.

وأنا هنا، أتحدث بالطبع عن الإبداع الأدبى (الرواية والشعر)، وليس عن الأدب النظرى (المعلومات والوثائق) الذى يجب أن يتقنه الباحثون والمهنيون كى يؤدوا عملهم بكفاية داخل فروع تخصصهم. فعلى سبيل المثال، من الطبيعى أن تتوقع أن أى ممارس للطب ينبغى أن يكون قد قرأ مقالات وبحوثا فى التشريح والباثولوجى، ولكنك لا تطالبه بأن يكون على دراية كاملة بكل قصص «تشيكوف» القصيرة (رغم أنك إن فكرت فى الأمر فإن من بين كل طبيبن تتساوى مؤهلاتهما الطبية، أعتقد أننى سوف أثق أكثر فى ذلك الذى يقرأ تشيكوف).

يقوم نقاد الأدب بدور غاية فى الأهمية (كما سأوضح بعد لحظة)، غير أن هناك مشكلة على ما يبدو فيما يتعلق بالنقد المعاصر، وخاصة بنوع معين من النقد الأدبى الأكاديمى. فهناك إحساس بأن هؤلاء النقاد لا يحبون الأدب حبًا حقيقيًا. إنهم لا يجدون متعة فى القراءة، بل ما هو أسوأ أنهم إذا كانوا يستمتعون بالفعل بقراءة كتاب ما، فإنهم قد يشكون أنه عمل تافه، فهم يرون أن ما هو مسلٍ لا يمكن أن يكون مهمًا أو جادًا.

وينتشر هذا الموقف انتشارًا غير متعمد فى نظرتنا العامة نحو الأدب. ونتيجة ذلك أننا غالبًا ما ننسى أنه حتى عهد قريب كانت معظم الروائع الأدبية مقصودًا بها أن تكون ترفيهًا واسع الانتشار. فبدءًا من رابليه وشكسبير وموليير فى العصر الكلاسيكى، وصولاً إلى عمالقة الأدب فى القرن التاسع عشر ــ بلزاك، ودوماس، وهيجو، وديكنز، وثاكرى ــ لم يكن اهتمام مبدعى الأدب الرئيسى هو الحصول على تأييد المتذوقين رفيعى الثقافة (وهو لا يزال رغم ذلك حيلة سهلة نسبيًا)، بقدر ما هو لمس رجل الشارع وجعله يضحك، وجعله يبكى ــ وهو عمل أكثر صعوبة.

إن فكرة «الكلاسيكيات الأدبية» تحيط بها دائرة من الهيبة. غير أن «دون كيشوت» ــ التى هى كلاسيكية كأحسن ما يكون ــ قد كتبت لغرض عملى صرف: وهو تسلية أكبر عدد ممكن من القراء، بغرض جلب أكبر قدر ممكن من المال للمؤلف (الذى كان فى حاجة شديدة إليه). يضاف إلى ذلك أن «سيرفانتيس» نفسه لا يتناسب وتلك الصورة الضخمة التى يرسمها له معظم الناس فى أذهانهم عندما يفكرون فى الكُتَّاب الملهمين الذين يبدعون روائع أدبية خالدة، فهو فى الأصل جندى من جنود المرتزقة، أصيب فى الأعمال القتالية وأصبح عاجزًا عن الحركة، وبعد ذلك أمسك به القراصنة وباعوه عبدًا فى شمال أفريقيا. إلا أنه بعد عدة سنوات من الأسر استطاع العودة إلى أسبانيا، حيث عاش فى فقر مدقع، وأدخل السجن مرات عديدة. وكانت حياته كفاحًا قاتلاً من أجل البقاء. وقد حاول مرات كثيرة أن يكسب عيشه من الكتابة، ولم يحالفه النجاح قط: فى الروايات المسرحية والروايات الرعوية، واختفت كل هذه الأعمال، والقليل الذى بقى منها ليس ذا شأن كبير.

إلا أنه فى نهاية حياته العملية فقط ــ وكان وقتها قد بلغ الثامنة والخمسين ــ حقق نجاحًا وثروة كبيرين بـ«دون كيشوت»، التى كتبها سنة ١٦٠٥، وكان الكتاب فى وقت من الأوقات أكثر الكتب مبيعًا. وتوفى «سيرفانتيس» بعد سنة واحدة من نشر الجزء الثانى والأخير من الكتاب (١٦١٥). وحيث إن «دون كيشوت» اعتبرت بحق واحدة من أعظم الأعمال الروائية فى أى عصر، وبأية لغة. فمن المفيد أن نشير إلى أنها كانت كذلك ــ بالمعنى الحرفى للكلمة ــ الأثر الأدبى الذى كتبه كاتب أجير عجوز يائس فى آخر أيامه.

بل إننا عندما نتدبر ما أطلق العنان لخيال «سيرفانتيس» سوف تزداد حيرتنا، فقد قصد بكتابه بالكامل أن يكون آلة حربية موجهة ضد هدف بعينه ــ وهو أدب الفروسية والفرسان الجوالين. وهو جنس أدبى كان شائعًا لبعض الوقت. وهذه الحملة الأدبية تبدو الآن غير مناسبة بالمرة، إلا أنها كانت بالنسبة لـ«سيرفانتيس» سببًا مهمًا، عبأ له أفضل ما لديه من طاقة فكرية. والواقع أن المطاردة التى لا هوادة فيها الخاصة بتلك المعركة التى لا طائل من ورائها، كانت بمثابة العمود الفقرى لروايته كلها. وكما نعرف جميعًا، فإن بناء «دون كيشوت» غاية فى البساطة، فقد وضعت المقدمة التى تقوم عليها القصة فى الصفحات القليلة الأولى من الفصل الأول، وتمثل الصفحات الألف التالية تطبيقات لها على مواقف مختلفة؛ مئات التنويعات على فكرة واحدة بعينها.

فهل من الضرورى هنا أن نتذكر هذه المقدمة؟

إن «دون كيشوت» الرجل الريفى الطيب والحكيم والمتعلم، الذى لديه القليل من المال والكثير من وقت الفراغ (وهما تركيبة خطيرة بالنسبة لشخص ذى خيال خصب) يصبح مدمنًا إدمانًا غير عادى لأدب الفروسية. ويقول «سيرفانتيس» نفسه:

في الوقت الذى لم يكن لدى هذا الرجل ما يفعله ــ وهو ما كانت عليه الحال معظم أوقات السنة ــ كان يغرق فى قراءة كتب الفرسان الجوالين، وهى الكتب التى أحبها واستمتع بها حتى أنه نسى صيده نسيانًا تامًا، بل نسى كذلك الاهتمام بضيعته. والواقع أنه أصبح غريبًا وأحمق بشأن هذا الموضوع، حتى أنه باع أفدنة كثيرة من أراضى الذرة ليشترى كتب الفروسية هذه ليقرأها... [وفى النهاية] دفن نفسه فى الكتب، لدرجة أنه كان يقضى الليالى فى القراءة من الغسق حتى طلوع النهار، والأيام من الفجر حتى حلول الظلام. ونتيجة لقلة النوم وكثرة القراءة، جفّ مخه وطار عقله.

وكانت نتيجة ذلك أنه قرر أن يتحول إلى فارس جوال. وخرج إلى العالم الواسع، أملاً فى أن يقرن اسمه دائمًا بالأعمال النبيلة والشجاعة. ولكن المشكلة هى أن جولات الفرسان كانت تنتمى إلى عصر آخر، واختفت منذ زمن طويل. وفى العالم الحديث الذى لا يرحم، كان سعيه العنيد من أجل الشرف والمجد مفارقة تاريخية تتسم بالغرابة. والصراع بين رؤيته الضخمة والواقع التافه، يمكن أن يؤدى إلى سلسلة من الأحداث المؤسفة المخالفة للعقل؛ فهو فى أغلب الأحيان ينتهى به الأمر ضحيةً للمقالب الشريرة المدبّرة. إلا أنه فى النهاية يستيقظ من حلمه ويدرك أن ما كان

كتبت «دون كيشوت»
لغرض عملى صرف: وهو
تسلية أكبر عدد ممكن من القراء،
بغرض جلب أكبر قدر ممكن
من المال للمؤلف



يطارده بتلك البطولة العبثية وَهْمٌ يبعث على الضحك والسخرية. وهذا الاكتشاف هو هزيمته الأخيرة. ويموت أدبيًا، محطم القلب.

وموت «دون كيشوت» في الفصل الأخير هو ذروة الكتاب كله. وأنا أتحدى أى قارئ، مهما كانت صلابته وعدم حساسيته، أن يقرأ تلك الصفحات دون أن تدمع عيناه. ومع ذلك فإنه - حتى في تلك المرحلة المهمة - ما زال «سيرڤانتيس» يجرى وراء هاجسه القديم، ومرة أخرى يضطر لتسجيل بضع نقاط ضعيفة أخرى على حساب بعض كتب الفروسية المغمورة. وإقحام هذا الهجوم الذى لا طائل من ورائه في تلك اللحظة بالذات، يحدث هبوطًا مفاجئًا. غير أن «سيرڤانتيس» كانت لديه عادة تدمير أحسن آثاره، وهى ممارسة أثارت غضب الكثير من القراء والنقاد (وسوف أعود إلى هذا فيما بعد).

وما أريد توضيحه هنا، هو ببساطة ما يلى: إنه لأمر غريب أن نلاحظ كيف يمكن لتحفة أدبية تحقق لها هذا القدر العالمى من القبول - متعدية كل حواجز اللغة والثقافة والزمن — أن تُبنى بالكامل منذ البداية على هذه المعركة الأدبية المملة الضيقة التى لا هدف لها.

ولكى نفهم غرابة هذا الموقف فهمًا كاملاً، لا بد أن نترجمه إلى مصطلحات حديثة: فالأمر على سبيل المثال يبدو كما لو كان مارسيل بروست قد كتب «البحث عن الزمن الضائع»، وليس فى ذهنه سوى هدف واحد، هو فضح زيف القصص التافهة التى كانت تظهر أسبوعيًا فى مجلة L'Illustration أو أية مجلة شعبية أخرى فى تلك الفترة.

إلا أن هذا بدوره يثير سؤالاً مهمًا، فمنذ فترة قريبة تعرضت لهجوم نقدى فى أستراليا لأننى تجرأت على أن أقول فى محاضرة أذيعت فى أنحاء البلاد أن الأدب الإبداعى يمكن ألاّ تكون له رسالة، مادام صالحًا من الناحية الفنية. وهذه ليست وجهة نظر جديدة بالمناسبة، ولا بد أن تكون واضحة. وقد عبر هيمنجواى الذى اقتبست كلامه أحسن ما يكون التعبير عن ذلك، حين سأله أحد الصحفيين عن «رسائل» رواياته؛ ففى ذلك الوقت ردّ عليه هيمنجواى ردًا فى منتهى العقل قائلاً: «ليست هناك رسائل فى رواياتى، وعندما أريد أن أبعث برسالة ما، سأذهب إلى مكتب البريد».

كان رد فعل بعض النقاد المعارضين لما قلته غاضبًا: «ماذا؟! لا رسائل فى روائع عالم الأدب؟! وماذا عن «الكوميديا الإلهية» لدانتى؟ وماذا عن «الفردوس المفقود» لملتون؟»، بل كان يمكنهم أن يضيفوا كذلك: «وماذا عن «دون كيشوت» لـ«سيرڤانتيس»؟».

صحيح أن كثيرًا من الشعراء والروائيين يعتقدون أن لديهم رسائل يبلغونها، وفى أغلب الأحيان يؤمنون إيمانًا قويًا بأهمية رسائلهم الخطيرة، إلا أنه كثيرًا جدًا ما تكون هذه الرسائل أقل أهمية مما كان كتابها يفترضون فى الأصل، بل إنه فى بعض الأحيان يثبت أنها خاطئة بالفعل، أو سخيفة تمامًا، أو حتى بغيضة، وغالبًا ما تصبح بعد فترة قصيرة غير مناسبة، بينما تكتسب الأعمال نفسها حياتها الخاصة، إذا كانت لها قيمة أدبية حقيقية، حيث تكشف عن مغزاها الحقيقى الدائم للأجيال اللاحقة. إلا أن المؤلف نفسه لم يكن واعيًا بهذا المعنى الأكثر عمقًا. إن معظم قراء دانتى الأكثر تحمسًا الآن يهتمون أقل ما يكون الاهتمام بلاهوت القرون الوسطى، وواقع الأمر أنه ليس بين المعجبين المحدثين برواية «دون كيشوت» من سبق له أن قرأ معظم كتب الفروسية التى هاجمها «سيرڤانتيس» ذلك الهجوم الشرس — هذا إن كان قد سمع أسماءها.

والواقع أنه فى هذه الفجوة التى بين القصد الواعى للمؤلف (الذى قد يكون أمرًا عارضًا) والمدلول الأكثر عمقًا لعمله، يمكن للناقد أن يجد الأرضية الشرعية التى يمارس فيها عمله. وقد أوضح تشسترتون هذه النقطة توضيحًا جيدًا (فى إحدى المقدمات التى كتبها لروايات ديكنز):

«إن وظيفة النقد — إن كان للنقد وظيفة مشروعة - يمكن أن تكون وظيفة واحدة، إنها وظيفة معالجة الجزء الباطن من عقل المؤلف الذى يمكن للناقد فقط التعبير عنه، وليس معالجة ذلك الجزء الواعى من عقل المؤلف، الذى يمكن للمؤلف نفسه التعبير عنه. والنقد، إما أن يكون بلا أية فائدة بالمرة (وهو موقف يمكن الدفاع عنه دفاعًا قويًا) أو أن يعنى النقد أن نقول عن أى مؤلف الأشياء نفسها التى قد تجعله يغتر».

وكلما اقترب أى كتاب من كونه عملاً فنيًا أصيلاً، وإبداعًا حقيقيًا يحيا بحياته هو - كان احتمال أن تكون للكاتب السيطرة الكاملة والفهم الواضح لما كتبه أقل. ولخص هذه النقطة د.هـ. لورانس، الذى كان ناقدًا ثاقبًا بشكل غير عادى، فى عبارة استشهدت بها مرات عديدة، وهى عبارة لا يمل المرء من الاستشهاد بها: «لا تثق فى الفنان أبدًا، ثق فى الحكاية؛ فوظيفة الناقد الحقيقية هى إنقاذ الحكاية من الفنان الذى أبدعها».

إن هذا الحث على «إنقاذ الحكاية من الفنان الذى أبدعها» قد ثبتت قوته بشكل خاص فيما يتعلق بنقاد «دون كيشوت». فالواقع أن بعض هؤلاء النقاد قد أصبح لهم موقف شديد الغرابة، فالأمر يبدو وكأنه كلما ازداد حبّهم لـ«دون كيشوت» كان استياؤهم من «سيرڤانتيس» أشد. قد تبدو هذه المفارقة بعيدة الاحتمال، إلا أن فيها شيئا من المنطق.

وفى القرن الماضى عندما كانت الفرق المسرحية تجول الريف، حيث تعرض مسرحيات ميلودرامية للمشاهدين القرويين البسطاء، كان لا بد من حماية الممثل الذى يقوم بدور الشرير فى المسرحية بعد العرض، حيث كان «البلطجية» المحليون ينتظرونه ليضربوه؛ عقابًا له على الأعمال الشريرة التى ارتكبها للتو بطريقة مقنعة على خشبة المسرح. وبالمثل، فإن «دون كيشوت» أصبح حيًا وحقيقيًا بشكل مكثف بالنسبة لهم، حتى أن بعض القراء لا يمكن لهم أن يغفروا لـسيرڤانتيس تعريضه بطلهم لمثل هذه المعاملة القاسية والوحشية.

ومرة أخرى يمكننا أن نجد مثالاً آخر للظاهرة نفسها فى رواية مثيرة معاصرة تتمتع بشعبية، وهذه الرواية هى «البؤس» لستيفن كنج (وأنا لم أقرأ الكتاب، ولكنى شاهدت الفيلم، وهو رائع إلى حدّ كبير)، وفيها تحتجز إحدى المعجبات كاتبًا، مؤلفاته من الكتب الأكثر مبيعًا، فهذه القارئة - التى تعانى من اضطراب نفسى - غضبت بسبب موت بطلتها المفضلة فى الرواية، فراحت تعذب المؤلف الذى لا حول له ولا قوة، وتجبره على إعادة كتابة نهاية روايته.

ونقاد «سيرڤانتيس» المحدثون الأربعة الذين أتمنى أن أستعرض وجهات نظرهم استعراضًا موجزًا، يحتلون مكانًا بين أفضل العقول الأدبية فى عصرنا، ولذلك فإنهم - بكل تأكيد - لا ينبغى أن يشبهوا كثيرًا تلك المهووسة التى فى قصة «كنج»، أو السذج الريفيين الذين كانوا يضربون شريرى المسرح عند الباب الخلفى. ومع ذلك، فإنه - كما سنرى - يشهد تعقد القارئة وسذاجة المشاهدين القرويين على القوة المؤثرة للسحر نفسه: أى واقع العمل الروائى.

أول النقاد الذى ينبغى أن أبدأ بدراسته، هو ڤلاديمير نابكوڤ. فقد ألقى نابكوڤ ست محاضرات عن «دون كيشوت» عندما كان محاضرًا زائرًا فى جامعة هارڤارد فى أوائل الخمسينيات. وبينما كان يعد لسلسلة محاضراته اعتمد فى أول الأمر على ما اختزنه فى الذاكرة من الرواية التى استمتع بها فى شبابه. إلا أنه سرعان ما شعر بضرورة العودة إلى النص، غير أنه فى هذه المرة أفزعته فظاظة رواية «سيرڤانتيس» ووحشيتها. وجاء على لسان كاتب سيرة حياته برايان بويد أنه «كان يكره تلك القهقهة التى كان سيرڤانتيس يريدها أن تصدر من قرائه بسبب إحباط بطله، وقد قارن مرات عديدة مرح الكتاب الشرير بإذلال المسيح وصلبه، وبمحاكم التفتيش الأسبانية، وبمصارعة الثيران الحديثة.

لقد استمتع استمتاعًا كبيرًا بالهجوم على «دون كيشوت» أمام جمع ضخم من الطلاب، لدرجة أنه أغضب عددًا من الزملاء فى الكلية آخر الأمر. وهنا تم تحذيره بأن: «هارڤارد تفكر بشكل آخر». وعندما تقدم بعد عدة سنوات بطلب لأن يكون له كرسى أستاذية فى هارڤارد، رُفض ترشيحه، مما يعد ضربة قاسية بالنسبة له. وربما كانت هناك عوامل أخرى أكثر أهمية، إلا أن محاضراته عن «دون كيشوت» قد يكون لها دور فى فشل محاولته تلك.

وكان نابكوف يجد على الدوام متعة خاصة فى تحدى الآراء التى يؤمن بها الآخرون. وفيما يتعلق بـ«دون كيشوت» فإن قبوله لما هو غير تقليدى ساعده على صياغة ملاحظة مهمة وأصيلة واحدة على الأقل: فعلى العكس مما يعتقده معظم القراء، فإن رواية «دون كيشوت» ليست مكونة من سلسلة رتيبة من الكوارث. وبعد مراجعة دقيقة، حلقة حلقة، استطاع نابكوف أن يبين أن قضية كل مغامرة كان أمرًا غير متوقع بالفعل، بل إنه حصر سجل «دون كيشوت» من الانتصارات والهزائم كما يحدث فى مباريات التنس، حيث ظلت زاخرة بالإثارة والترقب حتى النهاية: ٦-٣، ٣-٦، ٦-٤، ٥-٧. إلا أن المجموعة الخامسة لن تلعب أبدًا. فقد ألغى الموت المباراة».

إن كراهيته لمعاملة «سيرفانتيس» السادية لـ«دون كيشوت» بلغت نقطة جعلته يستبعد الكتاب فى آخر الأمر من محاضراته المنتظمة عن الأدب الأجنبى فى كورنيل، فهو لم يحتمل الانكباب على الموضوع أكثر مما فعل. إلا أن النتيجة الطبيعية لعدائه الشديد نحو الكاتب كانت إعجابًا شديدًا بما أبدعه، وهو ما عبر عنه فى كلمة ثناء مؤثرة:

«لقد سافر [دون كيشوت] على ظهر جواده طوال ثلاثمائة وخمسين سنة فى غابات الفكر الإنسانى وسهوله، وقد اكتسب الحيوية والمنزلة الرفيعة. إننا لم نعد نسخر منه. إن شعاره هو الشفقة، ورايته الجمال. وهو يمثل كل ما هو رقيق وبائس ونقى وغير أنانى وشهم».



ڤان دورين:

لم يتوهم «دون كيشوت»
أنه فارس جوال، بل قرر أن يصبح
فارسًا جوالاً. إن ما قام به كان
نتيجة تفكير مترو
واختيار متعمد

أما الناقد الثانى الذى أود أن أستشهد به هنا، فهو أونرى دى مونترلان. وكان مونترلان، وهو واحد من أبرز الروائيين الفرنسيين فى هذا القرن (كما أنه كاتب مسرحى وصحفى مهم)، شديد الاهتمام والتأثر بالثقافة الأسبانية. فقد أمضى معظم وقته فى أسبانيا (بل إنه فى واقع الأمر تعلم مصارعة الثيران ومارسها)، ومكنته معرفته الكبيرة بالأسبانية من قراءة «دون كيشوت» فى نصها الأصلى.

لقد أعاد قراءة الكتاب أربع مرات فى حياته، كما أنه كان يشعر بغضب متزايد من معاملة «سيرفانتيس» القاسية لشخصيته الرفيعة. وهو بالإضافة إلى ذلك كان يشعر بأن الكتاب أطول مما ينبغى، وأنه تضمن الكثير جدًا من المقالب القاسية التى لا معنى لها. غير أن هذا الرفض يمكن أن يرتد على نفسه: أليس هذا على وجه التحديد تعريفًا تامًا للحياة نفسها؟ دعونا نفكر فى هذا الأمر، قصته تطول أكثر مما ينبغى، وتزخر بالمقالب القاسية التى لا معنى لها... ولاحظوا أن أسوأ الاتهامات التى يمكن توجيهها لـ«سيرفانتيس» تتجه فى نهاية الأمر دومًا إلى قدرة كتابته الفريدة والمزعجة على استحضار الواقع.

وأخيرًا، فإن أكثر ما أزعج مونترلان، وما لم يمكنه أن يغفره لسيرفانتيس - هو أنه فى الكتاب كله لا يعبر المؤلف بكلمة واحدة عن تعاطفه مع بطله، أو بكلمة واحدة عن لوم للفتوات الأقحاح الذين يسخرون منه ويضطهدونه بلا رحمة. وردّ الفعل هذا — وهو شديد الشبه بردّ فعل نابكوف — يعكس مرة أخرى إحدى المفارقات المألوفة لنا الآن. فما يغضب النقاد من سيرفانتيس هو على وجه التحديد القوة الأساسية التى يتميز بها فنه، إنها سرّ تشابهه مع الحياة. وقال فلوبير (الذى كان يعبد «دون كيشوت» بالمناسبة): إن الكاتب العظيم ينبغى أن يقف فى روايته كما يقف الإله فى خلقه. لقد أبدع كل شىء، لكن أحدًا لا يراه فى أى مكان ولا يسمعه فى أى مكان. إنه فى كل مكان، ومع ذلك لا يراه أحد ولا يسمعه، ويبدو غائبًا وغير مكترث بشىء. إننا نسبّه بسبب صمته وعدم اكتراثه، وهما ما نتخذهما دليلاً على قسوته.

ولكن إذا كان على المؤلف أن يتدخل فى رواياته - أى أنه بدلاً من ترك الحقائق والأفعال تتحدث عن نفسها، يصبح عليه أن يتحدث بصوته هو - فإن السحر سوف يزول فى الحال، وسوف يكون هناك ما يذكرنا فجأة بأن هذه ليست الحياة، وأنها ليست الواقع، أى أنها مجرد حكاية. وعندما نلوم «سيرفانتيس» على عدم تعاطفه وعدم اكتراثه وقسوته، وعلى وحشية مقالبه، فإننا ننسى أننا كلما كرهنا المؤلف كان اعتقادنا فى واقع عالمه ومخلوقاته أكثر.

هذا الواقع المطلق الخاص بـ«دون كيشوت» قانون إيمان بالنسبة لأقوى معلقيه المعاصرين وأكثرهم أصالة، وهو ناقدى الثالث: ميجيل أونامونو. وكان أونامونو (١٨٦٤-١٩٣٦) عبقريًا متعدد الأوجه، فكان باحثًا وفيلسوفًا وروائيًا وكاتب مقالات وشاعرًا، كما كان باسكيًا وأسبانيًا وأوروبيًا وإنسانيًا عالميًا. وقد كتب كتابًا بعنوان «حياة دون كيشوت وسانشوبانزا»، علق فيه على رواية «سيرفانتيس» بالكامل، فصلاً فصلاً. وتتميز إعادة صياغته لما كتبه «سيرفانتيس» بالخيال والمفارقة والعمق. وهى على قدر كبير من المرح كذلك.

ومقولته التى ظل متمسكًا بها على امتداد ما يزيد على أربعمائة صفحة، هى أنه ينبغى إنقاذ «دون كيشوت» فورًا من يد «سيرفانتيس» الرعناء. إن «دون كيشوت» هو مرشدنا، فهو ملهم، وهو مهيب، وهو صادق. أما فيما يتعلق بـ«سيرفانتيس» فهو مجرد خيال، فهو لا يكاد يكون له وجود لو حُرم من دعم «دون كيشوت»، وهو عندما نهبط به إلى قدراته الأخلاقية والفكرية الضئيلة — نجده عاجزًا عن إنتاج أى عمل له أهمية. فكيف يتأتى له أن يقدر عبقرية بطله؟!

لقد نظر إلى «دون كيشوت» من وجهة نظر العالم؛ لقد وقف فى صف العدو. وهكذا فإن المهمة التى ألزم بها أونامونو نفسه، هى أن يعيد الأمور إلى نصابها، أى أن يثبت أخيرًا مشروعية رؤية «دون كيشوت» فى مواجهة الحكمة الزائفة الخاصة بالدهاة المهرة، وسوقية «البلطجية»، وضيق أفق المهرجين، وفى مواجهة الفهم المبهم لـ«سيرفانتيس».

ولكى يقدر المرء مقالة أونامونو حق قدرها، يجب عليه أن يضعها فى سياق حياته الروحية، التى كانت عاطفية ومأساوية. فقد كان أونامونو كاثوليكيًا، ظلت مشكلة الإيمان بالنسبة له طوال حياته هى القضية الأساسية، فالأ يؤمن أمرٌ لا يمكن تصوره، أمّا أن يؤمن فأمر مستحيل. وقد عبر عن هذا التناقض الدرامى فى واحدة من قصائده:

... إنى أعانى بسببك،
أيها الرب الذى لا وجود له، فلو كنت موجودًا
لكنت أنا كذلك موجودًا

بعبارة أخرى، الرب لا وجود له، وأوضح دليل على ذلك أننى كذلك غير موجود، كما ترون جميعًا.

وهكذا، فإن كل عبارة كفر تتحول مع أونامونو إلى اعتراف ينطوى على المفارقة. فالإيمان فى فلسفة أونامونو يخلق فى آخر الأمر الشىء الذى يتأمله، ليس كإيحاء ذاتى زائل، وإنما كواقع موضوعى لا يزول يمكن نقله للآخرين.

وأخيرًا فإن سانشو بانزاس — وكل من هم على شاكلة سانشو بانزاس فى هذا العالم — هو من سوف يشهد على هذا الواقع. إن سانشو الواقعى، الذى سار وراء «دون كيشوت» هذه المدة الطويلة، بالشك، وبالتشوش، وبالخوف — قد اتبعه كذلك بالإخلاص. فلم يكن سانشو يؤمن بما كان سيده يؤمن به، غير أنه كان مؤمنًا بسيده. كان ما يحركه فى أول الأمر هو الطمع، ولكن الحب كان ما يحركه فى آخره. وحتى فى أسوأ المحن ظل يتبعه؛ لأنه أصبح يحب الفكرة. وعندما كان «دون كيشوت» يحتضر، وقد شفى من وهمه الكبير، وتجرد أخيرًا من حلمه — وجد سانشو أنه ورث إيمان سيده؛ لقد انتقل إليه انتقال المرض للإنسان، من خلال عدوى الإخلاص والحب.

ولأن «دون كيشوت» غيَّر حال سانشو، فهو لن يموت.

وهكذا فإن أونامونو يقرأ فى جنون «دون كيشوت» وصفًا كاملاً لقوة الإيمان وحكمته. لقد جرى «دون كيشوت» وراء الشهرة الخالدة والمجد الذى لا يزول. ولكى يحقق هذا الغرض اختار أن يتبع ما قد يبدو لمعظم الناس عبثًا وسبيلاً غير عملى، إذ اتبع أسلوب الفارس الجوال فى عالم اختفت فيه الفروسية منذ زمن بعيد. ولذلك سَخِر أولو الألباب المهرة جميعًا من حماقته، إلا أن فى ذلك القتال الطويل، الذى أثار الفارس الوحيد وتابعه المخلص ضد العالم. أى طرف هو الذى اكتنفه الوهم فى آخر الأمر؟

إن العالم الذى سخر منهما تحول إلى تراب، بينما عاش «دون كيشوت» وسانشو إلى الأبد.

إن إثبات حكمة «دون كيشوت» فى آخر الأمر هو النقطة التى كشف عنها ناقدى الآخر بطريقة مقنعة، وأعنى به مارك ڤان دورين فى مقالته «مهنة دون كيشوت». ومما يؤسف له أن هذه المقالة نفدت، وهى تستحق إعادة الاكتشاف على الفور من جانب كل محبى الأدب.

ويصف ڤان دورين «دون كيشوت» وصفًا مناسبًا بقوله إنها كتاب «البساطة الغامضة»، «فأمارة بساطتها أنه يمكن تلخيصها فى بضع جمل، وأما أمارة غموضها فهى أنه يمكن الحديث عنها إلى الأبد. وواقع الأمر أن الناس تحدثوا عنها كما لم يتحدثوا من قبل عن أية قصة أخرى. ذلك أن شيئًا غريبًا يحدث لقرائها، فهم لا يقرأون الكتاب نفسه.. ولم تكن هناك قط تلك الكثرة من النظريات عن أى شىء بمثل ما كانت عن «دون كيشوت». ومع ذلك فقد بقيت بعدها جميعًا، شأن ما يجب أن تفعله أية تحفة، إذا قدر لها أن تعيش».

وتبدأ المقالة بفقرة تستحق أن نوردها هنا بالكامل، فهى تعد نموذجًا مميزًا لڤان دورين، بما لها من إشراق:

فى يوم من الأيام اخترع رجل فى الخمسين من عمره، لا عمل له، مهنة لنفسه. وكان المحيطون به من أهل بيته وبنى قريته يرون أن مثل هذه الخطوة اليائسة لا ضرورة لها، فقد كانت له ضيعة، وكان محبًا للصيد؛ فقالوا إنهما يكفيانه كمهنة، وإن عليه أن يرضى بالروتين المتسم بالهدوء الذى تفرضه عليه.

غير أن الرجل لم يكن راضيًا. وعندما رحل رغبة فى أن يعيش حياة مختلفة اختلافًا تامًا، ظن الجميع — فى بلده أولاً ثم خارجه — أنه إما غريب الأطوار أو مجنون. وقد رحل ثلاث مرات، وعاد مرة برغبته، غير أنه فى المرتين الثانية والثالثة أعاده أشخاص من القرية كانوا قد خرجوا وراءه لهذا الغرض.

وفى كل مرة يعود وقد أخذ منه التعب كل مأخذ؛ لأن المهنة التى أحبها كانت مجهدة وشاقة. وبعد عودته الثالثة مباشرة رقد فى الفراش، وكتب وصيته، واعترف بخطاياه، وأقر بأن المشروع برمته كان خطأ.. ومات.

المقولة الأساسية فى مقال ڤان دورين (بغض النظر عما قد يظنه «سيرفانتيس» نفسه بخصوص هذا الموضوع) هى أن «دون كيشوت» لم يكن مجنونًا، لقد خدع فقط عندما حاول تقييم مدى تقدم مشروعه. وهنا، كان هناك دور قاتل للخدع التى راح ضحية لها، فقد

قدمت له تأكيدًا زائفًا على أن تحقيقها ممكن، كما أكدت أمله الخاطئ في أنه سوف ينجح في آخر المطاف. وهكذا فإن هذه الخدع أطالت عمله إطالة مصطنعة. ومع ذلك فإنه كان بإمكانه أن يتخلى عن مسعاه ويعود أدراجه، لولا أن بدا النجاح في متناوله. وكل ما في الأمر هو أن الوهم الذي قام على الخدع شجعه على المضي قدمًا. إلا أنه ظلّ حرًا على الدوام في أن يقرر الاستمرار أو الكف عما يقوم به. وأي رجل مجنون ليس أمامه هذا الاختيار.. إنه أسير جنونه؛ فعندما يصبح الأمر غير محتمل، لا يمكنه الإفلات منه ويعود أدراجه بكل بساطة كي يستأنف حياته السابقة.

وهذه المهنة التي يختارها «دون كيشوت» لنفسه هي مهنة الفارس الجوال. وهو لا يتوهم أنه فارس جوال. لا، بل يقرر أن يصبح فارسًا جوالاً. إنه لا يتوهم نفسه شخصًا آخر، كما يفعل الأطفال في ألعابهم، وهو لا يتظاهر بأنه إنسان آخر، شأن أي محتال، أو تقمص شخصية ما، مثلما يفعل الممثل على خشبة المسرح. إنه يتخذ مهنة الفارس بعد تفكير متروٍ، فهذا نتيجة اختيار متعمد. لقد قرر بعد دراسة الخيارات الأخرى أن عمل الفارس الجوال سيكون الأكثر مردودًا من الناحيتين الفكرية والأخلاقية.

ولكن، كيف يصبح المرء فارسًا؟

هذا هو السؤال الذي يطرحه فان دورين.

إنه بالقيام بما يقوم به أي فارس — وهو أمر مختلف جدًا عن التظاهر، أو الاحتيال — وأن يتصرف المرء بالطريقة التي يتصرف بها «دون كيشوت» أمر يزيد على التقليد. فالتقليد بالطريقة التي يقلد هو بها تلمذة عميقة، فهي الطريقة الصحيحة للتعلم، والمدخل إلى الفهم. ويتساءل فان دورين قائلاً: «ما الفرق بين القيام بما يقوم به أي رجل عظيم، وكون المرء رجلاً عظيمًا؟ أن تقوم بما يقوم به أي شاعر (يعني كتابة القصائد) وأن تقوم بما يقوم به أي سياسي (يعني إعمال الفكر في الخير والعدل) وأن تقوم بما يقوم به أي طالب (يعني الدراسة)، وأن تقوم بما يقوم به أي فارس (يعني التفكير والشعور كما يفكر أي فارس ويشعر)؟».

ولو كان «دون كيشوت» مجنونًا واضح الجنون، أو لو كان قد انغمس في لعبة مطولة من خداع الذات والتمثيل — لما كنا نتحدث عنه الآن. ويلاحظ فان دورين «أننا نتحدث عنه؛ لأننا نشك أنه أصبح بالفعل فارسًا في النهاية».

«الإنسان مخلوق يصنع صورًا لنفسه، وبعد ذلك يصبح شبيهًا للصورة».

قدمت أيريس مردوخ هذه الملاحظة في سياق مختلف، إلا أنها تعرّف ملمحًا محددًا للطبيعة البشرية تعريفًا دقيقًا. وإن أوضح مثال لها هو «دون كيشوت» الذي وفر لرواية «سيرفانتيس» عالميتها.

وعلى عكس «دون كيشوت» فإن معظمنا لا تتاح لهم فرصة اختيار وتقرير الشخصيات التي ينبغي أن نصبح عليها. فظروف الحياة هي التي توزع الأدوار؛ إذ إن أدوارنا مفروضة علينا، وآخرون يملون علينا ما نقوله، ويلقنوننا في أثناء التمثيل. وقد جاء توضيح ذلك في واحد من آخر أفلام روسيليني، وهو «الجنرال ديلا روفير» (١٩٥٩). ففي هذا الفيلم يلقى الجستابو القبض على أحد المحتالين في إيطاليا في نهاية الحرب العالمية الثانية، ويجبرونه على انتحال شخصية أحد رجال المقاومة البارزين، وهو الجنرال ديلا روفيري، لكي يمكنهم انتزاع المعلومات من السجناء السياسيين. إلا أن المحتال يؤدي دوره بشكل مقنع يجعل السجناء الآخرين يعبدونه كأنه قائدهم الروحي. وهكذا يضطر شيئًا فشيئًا إلى أن يعيش أعلى مما هو عليه، وأن يحاكي الصورة التي خلقتها آمالهم. وفي النهاية يرفض أن يخون ثقتهم فيه، وبعد ذلك يوضع أمام فرقة الإعدام ويموت ميتة الأبطال. لقد أصبح بالفعل الجنرال ديلا روفيري.

أما بالنسبة لنا، فنادرًا ما تقدم لنا الحياة مثل هذا السيناريو الدرامي. فعادة ما تكون الأدوار التي علينا القيام بها أكثر تواضعًا وابتذالاً، وهو ما لا يعني أنها أقل بطولة؛ فنحن أيضًا لدينا رفاق الأسْر بآمالهم الكثيرة جدًا، التي يمكن أن تجبرنا على القيام بأدوار تزيد كثيرًا عن قدراتنا الطبيعية. فآباؤنا يتوقعون منا أن نكون أبناء وبنات، وأطفالنا يتوقعون منا أن نكون آباء وأمهات، وشركاء حياتنا يتوقعون منا أن نكون أزواجًا وزوجات. وأي من هذه الأدوار ليس تافهًا أو سهلاً. إنها جميعًا محفوفة بالمخاطر والتحديات، وبالمحن والكروب والإذلال، وبالهزائم والانتصارات.

وعن التساؤل الأساسي للإنسان، وهو، لماذا لا يتحدث الرب إلينا جهارة، ويجيب علينا مباشرة بصوت واضح؟ ولماذا لا يسمح لنا برؤية وجهه؟

يجيب سي إس ليويس عن ذلك إجابة رائعة: كيف يقابلنا الرب وجهًا لوجه وليست لنا وجوه؟

إننا عندما نظهر على مسرح الحياة لأول مرة، يبدو الأمر وكأننا أُعطينا فقط أقنعة تتناسب مع أدوارنا. وإذا أتقنا تمثيل أدوارنا تتحول الأقنعة في النهاية إلى وجوهنا الحقيقية. وبذلك يصبح «دون كيشوت» فارسًا ويصبح محتال روسيليني الجنرال ديلا روفيري، ويمكن لكلٍ منا أن يصبح في النهاية مَن كان مقصودًا أن يكونه في الأصل.

إن كلمة «كيشوتي» — كما أوضحت في البداية — قد دخلت اللغة الدارجة بحيث يكون معناها «ساذج ومثالي أكثر من اللازم» و«غير عملي بطريقة مضحكة» و«مكتوب عليه الفشل».

واستخدام هذه الصفة الآن بالمعنى الازدرائي الصرف لا يدل فقط على أننا توقفنا عن قراءة «سيرفانتيس» وفهم شخصيته، ولكنه يكشف أساسًا عن أن ثقافتنا قد ابتعدت عن جذورها الروحية.

لا تخطئ! إن رائعة «سيرفانتيس» رغم كل دنيويتها، ونكاتها الساخرة، وواقعيتها الفاسقة والداعرة — ترتكز على المسيحية، وبتحديد أكثر على الكاثوليكية الأسبانية باتجاهها التصوفي. وفي هذا الخصوص، أشار أونامونو إلى أن يوحنا الصليبي، وتيريزا الأفيلية، وإجناتيوس الليولي، لم يرفضوا العقلانية، ولم يرتابوا في المعرفة العلمية، فما دفعهم إلى تصوفهم وروحانيتهم هو إدراكهم أن هناك «تفاوتًا لا يمكن تجاهله بين ضخامة رغبتهم وضآلة الواقع».

وفي مسعى «دون كيشوت» من أجل الشهرة الخالدة عانى من الهزائم المتكررة. ولأنه رفض بعناد أن يوفق بين «ضخامة رغبته» و«ضآلة الواقع» قُضي عليه بالفشل الأبدي.

إن ما يجب علينا أن نتذكره — على أية حال — هو ما يلي (إذا جاز لي إعادة صياغة ما قاله برنارد شو): الرجل الناجح يكيف نفسه مع العالم. أما الخاسر، فيصر على تكييف العالم مع نفسه. ولذلك فإن كل التقدم يتوقف على الخاسر. ■

ترجمة: أحمد محمود

من وحي تجربتي

السجن شجع التشتت والتشرذم والانقسام فى صفوف الشيوعيين. وكان النشطاء (الكوادر) يعودون إلى القادة «التاريخيين» الذين ألفوا فى الأصل فصائل الحركة، ويتجمعون حولهم فى صورة شلل متنافرة. وكان كل فريق ينسب إلى نفسه صفة «الثورية»، ويعتبر نفسه «التيار الثورى»، ويتهم الفرق الأخرى بـ «الانتهازية»، والخروج على «الماركسية ـ اللينينية»

قيل إن أنور السادات، عندما ذهب لموسكو ليدعو ـ نيابة عن عبد الناصر ـ الزعيم السوفيتى ليشارك فى حفل افتتاح السد العالى، فوجئ بقول خروتشوف مازحا: «أنا أخاف أروح مصر، لأنكم هناك تعتقلون الشيوعيين». وفهم من هذه العبارة أن خروتشوف كان يشترط بلباقة الإفراج عن الشيوعيين قبل تلبية الدعوة. وكان الإفراج على هذا النحو المفاجئ وغير المرسوم، وقبل انتهاء مدة العقوبة المقررة، مسألة هى الأخرى بحاجة إلى تفسير

لا أكثر من تأليف كتب. وجل جهدى موجه لكتابة مقالات. ولا أحرص على جمعها. وهذا عيب، ذلك أننى أستطيع ـ بجمعها ـ أن أتكشف أبعادا لفكرى لا تتضح إلا من خلال عملية تركيبية. ولا بد من يوم أخصص فيه وقتا للقيام بمثل هذا الجهد التركيبى، يكون فى صورة كتب لكل منها مقدمة، وظيفتها تقديم الصورة المركبة، بدلا من عناصر الموضوع الواحد فى صورة مقالات متناثرة، كتبت فى أوقات مختلفة، وبمناسبة أحداث لا يربطها رابط مباشر.

ولكن شاءت الظروف أن أؤلف عددا محدودا من الكتب، فرضت نفسها علىّ فرضا فى ظروف معينة. وأزعم أن كل كتاب منها حمل فى طياته معانى شكلت نقاط تحول هامة فى حياتى. عبرت، فى كل مرة، عن فكر هو بسبيله إلى التكوّن. وفجأة أجده قد تبلور. وشعرت بحاجة جامحة إلى طرحه كتابة. وقد كان.

مؤلف لم ير النور:

أول هذه المؤلفات ـ التى اعتبرتها «مهمة» ـ لم ير النور. تناول المؤلف انطباعاتى عن تجاربى فى الحركة الشيوعية. كتبته وأعدت كتابته مرات عدة وأنا فى السجن. ولكن عمليات التفتيش الدورية من قبل إدارة السجن أجبرتنى مرارا على إعدام الأصل. وكان علىّ فى كل مرة أن أبدأ من جديد. وكنت أنسخ المخطوط بقلم الكوبيا على ورق «بفرة»، وهو ورق خفيف للغاية مصنوع للف السجائر. وكنا فى السجن نلجأ إلى ورق «البفرة» فى الكتابة حتى يكون بوسعنا إخفاء المخطوط وحمايته من حملات التفتيش. ومع ذلك، وبسبب كثافة هذه الحملات، وجدت نفسى أعدم بيدى ما كتبته عدة مرات متتالية. وكل مرة وأنا أعيد الكتابة، زاد المخطوط تضخما، لإضافتى مزيدا من المادة إليه.

وقد نجحت ذات مرة فى تهريب المخطوط إلى خارج السجن. كان فى صورة اسطوانة من ورق البفرة طولها ٦ سنتيمترات وقطرها ١,٥سم. واستعدت الوثيقة بعد إطلاق سراحى. ولكنها شوهت خلال عملية التهريب، وغابت عنها أجزاء. وكادت تكون متعذرة القراءة. وحاولت فى وقت لاحق أن أعيد نسخها بطريقة طبيعية. ولكن الأصل ضاع، لا أعلم على وجه التحديد كيف. وقد أعثر عليه فى يوم ما. ولكن حتى هذا اليوم، فإن المؤلف فى عداد المفقود.

وأذكر أننى انتهجت نهج الفيلسوف سبينوزا فى طريقة الكتابة. لم أكن أعرف الكثير عن هذا المفكر الكبير وقتذاك. ولكن علمت أنه من الممكن معالجة أطروحة، وكأنها نظريات رياضية تتسلسل وتتداعى، وتنطلق من افتراضات لتنتهى إلى نتائج.. أو إلى تناقضات. ويثبت ـ فى الحالة الثانية ـ عدم صواب الافتراض الأصلى. وهكذا حددت لنفسى معيارا لتمييز الصواب عن الخطأ.

هكذا فعل سبينوزا. وهكذا فعلت وأنا أبحث عن أسباب الفشل التى أصابت الحركة الشيوعية المصرية، وانتهت بنجاح الدولة فى إحالة نشطاء الحزب (جلهم إن لم يكن كلهم) إلى السجن، فى يوم واحد، يوم أول يناير ١٩٥٩، كان المخطوط ـ ربما ـ تعبيرا عن حاجة طاغية كى أفسر لنفسى لماذا انتهى بى الأمر إلى حبس كان من المقرر أن يدوم سبع سنوات، ولكن كان واردا أن يستمر إلى غير أجل. فكان المحكوم عليهم الذين تنتهى مدة حبسهم لا يفرج عنهم، وإنما يعودون إلى السجن بوصفهم «معتقلين»!

وكان لمؤلفى هذا جانب خرج تماما عن المألوف. فإن السجن قد شجع التشتت والتشرذم والانقسام فى صفوف الشيوعيين. وكان النشطاء (الكوادر) يعودون إلى القادة «التاريخيين» الذين ألفوا فى الأصل فصائل الحركة، ويتجمعون حولهم فى صورة شلل متنافرة. وكان كل فريق ينسب إلى نفسه صفة «الثورية»، ويعتبر نفسه «التيار الثورى»، ويتهم الفرق الأخرى بـ «الانتهازية»، والخروج على «الماركسية ـ اللينينية». ومثل هذا النهج كان لا بد أن يفضى إلى مزيد من التفتت والتشرذم والانقسام، ذلك أنه كان واردا خروج عناصر على مجموعة معينة وتشكيل مجموعة جديدة. وبمجرد خروجها، سوف تدمغها مجموعتها الأصلية بالانتهازية. فإن الانقسام يولد المزيد من الانقسام. ولا خروج من الدائرة المفرغة.

وقد تعمدت أن أنتهج فى مؤلفى نهجا ينطلق من نقيض التفرق والانقسام. من افتراض أن «الحركة الشيوعية» كل لا يتجزأ، ورفضت أن يكون مرجعى فريقا محددا، مهما كان قربى شخصيا إلى أقطابه، أو إيمانى بصحة خط هذا الفريق. كان المرجع فى منهجى هو «الحركة ككل»، بكل أوجه قصورها. وهكذا رفضت الانطلاق من «الخاص» إلى «العام»، حتى مع إيمانى بوجود اتجاهات تمثل «خاصا ثوريا» فى وجه «عام انتهازى». انطلقت من افتراض أن الرفاق جميعا ينتمون إلى الحركة، وأن نقطة البداية فى الحكم عليهم، هى ما يزعمونه عن أنفسهم، وليس ما يقوله خصومهم (أو حتى أنصارهم) عنهم. وقد فوجئت بأن هذه الرؤية مرفوضة من الجميع، حتى من أقرب المقربين إلىّ. وكان هذا لى اكتشافا خطيرا.

إذ كان معنى ذلك أن «الذات»، فى نظر كل «ذات»، تعلو «الموضوع». وأن الرؤية التى تنطلق من «موقع ذاتى ما» هى المتحكمة. وأن لا إيمان قط «بحقيقة موضوعية» تسمو فوق كل «ذات» على حدة، وإنما كل «ذات» هى التى تلوّن كيفية النظر إلى «الموضوع»، وهذا بطبيعة الحال يتعارض تمام التعارض مع الفلسفة الماركسية، القائلة بأولوية «الواقع الموضوعى» على «التصور الذاتى» عنه.

ففى الفترة التى سبقت السجن، وفى ٩ يناير عام ١٩٥٨ تحديدا، كانت المنظمات الشيوعية المصرية قد توحدت، على نحو غير مسبوق فى تاريخ الحركة من قبل. ولكن رغم توحدها، ورغم اندماجها فى قوام تنظيمى واحد وإعلان خضوعها لمبدأ «المركزية الديمقراطية»، ظلت الحركة تتسم بطابع «فدرالى»، بمعنى أن القيادات للفرق التاريخية استمرت تعقد اجتماعات خاصة لها، وتتخذ قرارات لتتحرك وكأنما هى «كتلة» ـ أو «تكتل»: هكذا سميت هذه الفرق الخاصة التى لم تتنازل حقيقة عن كيانها الذاتى ـ وكان معنى ذلك ازدواجية التنظيم، بل كيلاً للأمور بمكيالين. فثمة تنظيم مشترك يجمع كل المنظمات. وثمة تنظيم آخر، غير شرعى فى نظر التنظيم الأول.. يشكل تنظيما سريا داخل الحركة السرية! وفيه يكون الهيكل التقليدى لكل تيار تاريخى (له وجوده الأسبق على الوحدة) هو المحك، وهو المرجع. وكان ذلك تعبيرا عن أن الوحدة بين المنظمات لم تكن كاملة ولا خالصة، وإنما كان هناك ما يلزم بوجود الوحدة فى ظرف ظل للتكتلية «والشللية» فيه، وعموما للتجمع حسب الأصول التاريخية للرفاق، قوام ووجود طاغ وملح.

جاز إذن التساؤل: لماذا كانت وحدة المنظمات لا بد منها؟ والحقيقة أن الفضل فى إنجاز الوحدة رجع إلى عبد الناصر قبل أن يعود إلى قادة المنظمات الشيوعية! كان عبد الناصر قد أصبح يتخذ خطوات قدرت بأنها ثورية وتجاوزت أكثر التقديرات تفاؤلا، بعد أن وصفته بعض المنظمات بـ «الدكتاتورية العسكرية»، و«الفاشية»، وغير ذلك من النعوت. وكانت المنظمات جميعا قد قررت التقارب منه، وإقامة «جبهة وطنية» معه. فكيف تتم إقامة مثل هذه الوحدة مع زعيم يمثل البورجوازية، بينما يظل التفرق هو الذى يميز العلاقات بين ممثلى الطبقة العاملة؟ إن التطلع إلى وحدة مع عبد الناصر، هو الذى ألزم المنظمات بأن تقدم على وحدة فيما بينها!

وأذكر وأنا فى السجن أننى أصبحت أتساءل عن معنى هذه الازدواجية. أى أن نتعامل فى تنظيم رسمى وكأنما نحن كل لا يتجزأ، ونخضع لقواعد المركزية الديمقراطية، ثم نجتمع فى اجتماعات «تكتلية» جانبية، سرية على تنظيمنا السرى! كيف نتحدث عن الثورية وقد أعوزتنا الاستقامة والسلوك القويم المتسق؟ وهل الهزيمة التى ألمت بنا جميعا هى بسبب افتقارنا إلى الاستقامة والاتساق؟ وأخذت أكتب هذا، وأحاول إعمال المنطق لإثبات عدم استقامة سلوكنا. وقد أحدثت كتاباتى هذه غضب القادة التاريخيين للحركة التى كنت أنتمى إليها، ورأوا فيها خروجا على السلوك المتبع، وعلى «اللعبة المرخص بها» فى ظل وحدة لم تكن قد سوت كل أوجه الخلاف، وكانت ما زالت تلاحقها ثغرات وأوجه قصور كثيرة.

والحقيقة أن أوجه القصور هذه قد أشعرتنى بأن هناك ما هو بحاجة إلى إيضاح. بالذات إزاء نفسى. فلم تكن لى مصلحة شخصية فى الانتماء إلى الشيوعية، لا طبقيا، ولا اجتماعيا، ولا من الوجهة المادية. إلا إذا أعطت الشيوعية شيئا يسمو فوق هذا كله. أى أن تكون الشيوعية كما تصورتها، وسنى ١٦، ١٧ سنة، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة، أمل المستقبل، والنظرية التى تجسد حركة التاريخ. كان لا بد أن تلبى الشيوعية تطلعى إلى الاتساق، الذى يبرر خروجى على عائلتى، وتضحيتى بمواصلة الدراسة بعد الجامعة والحصول على شهادة دكتوراه فى مجال من مجالات المعرفة ـ كالرياضيات مثلا، التى جذبتنى دائما.

وهكذا أكتشف وأنا فى السجن، ومعرض للبقاء فيه إلى غير أجل، أن الحركة التى أنتمى إليها تسلك سلوكا غير مستقيم. ولكن لم يكن مطروحا قط التخلى عنها، وإنما ظل يشغلنى كيف نتجاوز المأساة. وفجأة جاء الإفراج عنا، ودون مقدمات. فى ظرف تقرر فيه أن خروتشوف سيزور مصر لافتتاح السد العالى.

فإن السد قد تم بناؤه بنجاح كبير بفضل مشاركة الخبراء السوفييت. وقيل إن أنور

مـــع الشـــيوعية!



محمد سيد أحمد

السادات، عندما ذهب لموسكو ليدعو - نيابة عن عبد الناصر - الزعيم السوفيتي ليشارك في حفل الافتتاح، فوجئ بقول خروتشوف مازحا: «أنا أخاف أروح مصر، لأنكم هناك تعتقلون الشيوعيين». وفهم من هذه العبارة أن خروتشوف كان يشترط بلباقة الإفراج عن الشيوعيين قبل تلبية الدعوة.

وكان الإفراج على هذا النحو المفاجئ وغير المرسوم، أي بعد حبس دام خمس سنوات، وقبل انتهاء مدة العقوبة المقررة، مسألة هي الأخرى بحاجة إلى تفسير. كان الإفراج عنا جماعة، بعد طول تعثر، مدعاة، بعد التشاؤم، للتطرف في الاتجاه العكسي وسيادة النظريات التفاؤلية. وقد كنا، بعد خروجنا من السجن، ما زلنا ملزمين بضرورة التواجد في مكان الإقامة ابتداء من غروب الشمس وحتى شروقها في صبيحة اليوم التالي. وظل وضعنا على هذا النحو لأشهر عديدة حتى تقرر إلغاء الأحكام وإزالة كل آثارها. وكانت هذه مناسبة لي لمحاولة صياغة دراسة مطولة تحمل تفسيرا لما يجرى كما تصورته وقتذاك. وقد عكفت مساء كل يوم على كتابتها. وطبعتها على جهاز «رونيو» على غرار ما كنا نفعله من قبل في طبع المنشورات الشيوعية السرية. كان موضوع الدراسة التحولات الجارية في العالم، لا الإشكاليات التي أفرزها التواجد في السجن. وكان عنوان الدراسة: «حول مفهوم الاشتراكية في عصرنا». وظل المستند في صورة مطبوع على الرونيو ولم يأخذ - هو الآخر - شكل الكتاب أبدا. ولكنه وصل إلى العديد من قيادات الدولة في ذاك الوقت. منهم محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير الأهرام. ومنهم كمال رفعت، المسئول عن الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكي. وكان هذا المستند نقطة البداية لاحتلالي موقعا متميزا ككاتب وصحفي، متاحا له أن يكتب في قضايا الرأي، في صحف ومطبوعات النظام.

كانت الفكرة المحورية في الدراسة أن العالم يمر بنقطة تحول أساسية، من عالم تحاصر فيه الرأسمالية والإمبريالية الاشتراكية، إلى عالم بدأت الاشتراكية فيه تحاصر الإمبريالية والرأسمالية. ومن هنا، فإن الوقت قد حان لاعتبار من هو ليس مع الإمبريالية، على أنه مع الاشتراكية، بدلا من النظر إلى من هو ليس شيوعيا على أنه مع الرأسمالية! هكذا كانت نظرة الشيوعيين في ظل حكم ستالين. ولكن أصبح واردا أن تتغير هذه النظرة مع خروتشوف.

كان خروتشوف قد أقر مبدأ جديدا في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي في فبراير عام ١٩٥٥، خلاصته أن قادة وطنيين مثل عبد الناصر خليقون بأن يتحولوا إلى ماركسيين لينينيين، ومن هذه الوجهة، لا ينبغي أن تقف الأحزاب الشيوعية عقبة في وجه هذا التحول. وقد نجح هذا التحول في كوبا حيث تحول فيدل كاسترو من زعيم وطني إلى زعيم اشتراكي. وهذا وارد أن يتكرر في بلدان أخرى من العالم الثالث. وهذا هو ما اصطلح على وصفه «بالطريق اللا-رأسمالي إلى الاشتراكية».

هذه النظرية قد عبرت أنا - على نحو ما - عنها في دراستي دون أن أعلم عنها شيئا، ودون استخلاصي لكل النتائج المترتبة عليها. كان صاحب النظرية والمروّج لها، هو المنظّر السوفيتي البارز أوليانوفسكي (الذي قيل لي إنه قضى ١٩ سنة من عمره في سجون ستالين). وقد جسد طموح خروتشوف في سياسة سوفيتية جديدة، متميزة عن الستالينية، لا تلتزم موقف التربص والدفاع وحسب، وإنما تتخذ مواقف أكثر انفتاحا، في ضوء الإمكانات التي أصبحت متوافرة بفضل ثورات التحرير في العالم الثالث.

والحقيقة أن الأطروحة، كما طرحتها أنا على الأقل، كانت غاية في التفاؤل. انطلقت من إيمان راسخ بالجبرية التاريخية، مع إغفال أن التاريخ لا بد أن يصير بمقتضى منعرجات كثيرة، وأنه ليس هناك من يستطيع أن يجزم بأن المستقبل سوف يتخذ شكلا معينا وأن يكون له نمط محدد، وبالذات في قضية بتعقيد وخطورة محاصرة الاشتراكية للرأسمالية، كنقيض لماض تميز بأن الرأسمالية كانت تحاصر هي الاشتراكية! فلقد تعلمنا منذ ذاك الوقت أن التقدم لا يتحقق أبدا بمقتضى خط مستقيم، وإنما تحكم مجريات الأحداث منعرجات كثيرة يتعذر التنبؤ بها سلفا.

تأميم الصراع الطبقي:

وقد تقرر بمجرد خروجنا من السجن أن ننضم إلى «التنظيم الطليعي». كان تنظيما سريا يتبع عبد الناصر مباشرة وهو على رأس السلطة. كان تنظيما سريا في أنشطته وإن كان الميثاق قد أشار إليه بتعبيرات مبهمة عامة. وكان وجود هذا التنظيم سببا في إدراكي أنه لم يكن صحيحا أن التخلي عن التنظيم المستقل هو مشكلة خاصة بالشيوعيين وحدهم. لقد تكشفت أنه كان «للتنظيم الطليعي» أفرع متعددة: فرع مخصص للماركسيين، وفرع للإخوان، وبوجه عام فروع لمختلف القوى التي ظلت متميزة عن النظام، وقبلت بقيادة عبد الناصر وزعامته.

وهكذا شكل هذا التنظيم نوعا من «التأميم» للصراع الطبقي، وقد عرف عن عبد الناصر، منذ بداية الستينيات، عدم توانيه في القيام بتأميمات واسعة للمصانع والمصارف. أما وقتذاك، فلقد أصبح يتجاوز هذا الحد، ويحاول تأميم الصراع الطبقي ذاته، وينشئ تنظيما يجمع في صفوفه رموزا لمختلف أطراف الصراع الاجتماعي. وطولب أعضاء هذه الأفرع بتقديم وجهات نظرهم في السياسات التي ينتهجها عبد الناصر. وهكذا جرى حوار فكري على الورق، بدلا من أن يجرى في المجتمع، وعلى نحو يحول دون خروج العملية من هيمنة السلطة!

وهذا الذي جرى في التنظيم السري جرى أيضا على صفحات الجرائد والمجلات وقتذاك. كانت هناك مجلة «الطليعة» التي مثلت الاتجاه اليساري. وكانت هناك كذلك مجلة «الكاتب». وكانت هناك مجلات أخرى للكتابات ذات النزعة الليبرالية، وأخرى للاتجاه الإسلامي، الخ.. وظل كل اتجاه له مطبوعاته الخاصة بمعزل عن مطبوعات الاتجاهات الأخرى. وأذكر ذات مرة أن أحد المحررين قد طلب مني أن أكتب مقالا في «الأهرام الاقتصادي». ولكن فوجئت بأن المقال قد نزع من المجلة بعد طبعها، ذلك أنه كان من المقرر وقتذاك أن أكتب في «الطليعة»، أو في «الكاتب»، أو في الصحف اليومية، ولكن لم يكن مقررا لي أن أنشر شيئا في مجلة «الأهرام الاقتصادي» التي كان يرأس تحريرها الدكتور بطرس بطرس غالي. وكانت مخصصة وقتذاك لمخاطبة جمهور من نوع آخر!

والحقيقة أنه لم يكن مقررا لي أصلا، بعد خروجي من السجن، أن أصبح صحفيا. فكنت خريج كلية هندسة جامعة القاهرة قسم الإلكترونيات، وكذلك خريج كلية الحقوق بجامعة عين شمس. وكنت قد باشرت الدراسة في الكليتين في وقت واحد لأعوض تأخيري في الدراسة بسبب غيابي عن الجامعة طوال سنوات أربع، أمضيت سنتين منها في نشاط سري «تحت الأرض» في ظل الملكية، ثم سنتين أخريين في الحبس من جراء هذا النشاط. هذا كله قبل وقوع ثورة يوليو.

وكنت أنا مبتكر مصطلح «تأميم الصراع الطبقي». والتأميم شكل من أشكال الضبط والربط. والماركسية تتحدث عن تأميم المصانع والمصارف وشركات التأمين، ولكن لا تتحدث أبدا عن تأميم الطبقات الاجتماعية. بل أزعم أن مصطلح «تأميم الصراع الطبقي» مصطلح لا يعبر عن فكرة ماركسية، ذلك أن الصراع الطبقي غير قابل في نظر الماركسية للتأميم. إنه صراع طليق لا يمكن صده أو وقفه أو إخضاعه لهيمنة سلطة معينة. إن صراع الطبقات، وفق النظرية الماركسية، أقوى من هذا كله، ويتعذر التحكم فيه.

والحقيقة أن مجرد الاعتقاد بأن التحكم فيه وارد، إنما عبر في صورة ما عن إيماني وقتذاك إيمانا مفرطا «بجبرية حركة التاريخ»، تمثلت في أن التاريخ يلبي أنماطا يمكن تصورها والتخطيط لها والتحكم فيها مسبقا. كان تصوري هذا هو الذي برر انتمائي أصلا إلى فكر لا يمت بصلة إلى الوضع الاجتماعي الذي نشأت فيه، وحمل في طياته رغبة دفينة في تجميد الأوضاع داخل إطار معين منشود، بغض النظر عما كان يحدث في الواقع. مرة أخرى، تكررت الفكرة التي حكمت دراستي عن الاشتراكية بعد خروجي من السجن مباشرة، فكرة أن حركة التاريخ وارد التحكم فيها وفق مخطط مقرر سلفا، وأنه وارد أن تكون للتصور الفكري أسبقية على ممارسة الصراع.

كان مثل هذا الفكر يؤهلني تماما لما كانت تريده السلطة من أمثالي وقتذاك، أي أن نلبي متطلبات التعامل مع السوفييت في إطار «عقد» محدد، في إطار «صفقة» ما. كان الشيوعيون السابقون مكلفين بأن يزيلوا العقبات في وجه التعاون مع السوفييت، دون أن يترتب، على هذا التعاون كسب للشيوعية في مصر، وإنما أن يكون الكسب كله لنظام عبد الناصر.

«صفقة» حل الحزب:

دفعتني فكرة «تأميم الصراع الطبقي» إلى استنتاج أن خروجنا من السجن، بعد طول تعثر، لم يكن مجرد صدفة، وإنما كان هناك اتفاق أبرم بين عبد الناصر وخروتشوف في هذا الصدد. لا أعلم كيف تمت هذه الصفقة. لا أعلم إن تمت بشكل صريح أو بشكل ضمني. ولكن الذي أومن به إيمانا راسخا، رغم أنني لا أملك الدليل

ما زالت هناك علامات استفهام كبيرة حول اندلاع حرب ١٩٦٧. لقد بدأت الحرب إثر بلاغ سوفيتي بوجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا. وقد أنكر الجانب الإسرائيلي ذلك، ودعا جهات دولية كي تتحقق بنفسها. وقد اشتعلت الحرب وظلت الأحداث التى أفضت الى نشوبها يكتنفها الغموض حتى اليوم

عليه، هو أن «اتفاقا» ما قد أبرم، وأن الاتفاق كان تعبيرا عمليا عن تصور السوفييت عن موازين القوى وقتذاك، وهو أن حركة التحرير فى العالم الثالث بصدد أن تتحول إلى «قوة احتياطية» للاشتراكية العالمية، بدلا من أن تظل تشكل الخطوط الخلفية للإمبريالية العالمية، وقوة احتياطية للرأسمالية العالمية فى التحليل الأخير.

لقد أراد خروتشوف حث قادة بلدان العالم الثالث، أمثال عبد الناصر، كى يتحولوا إلى ماركسيين لينينين. ومن هنا، فإن التنظيمات الشيوعية، مادامت استمرت قوة مستقلة، أصبحت عقبة فى وجه هذا التحول، ذلك أن السلطة استمرت تنظر إليها على أن ولاءها للسوفييت، بدلا من أن يكون للتجربة الوطنية.

ومن هنا استنتاجى بأن خروتشوف قد بادر، وعرض على عبد الناصر عرضا مفاده أنه لم يكن ضد حل التنظيمات الشيوعية، بشرط احترام كرامة أعضائها. فلا يتم الحل وهم سجناء ومعتقلون، وإنما بعد إطلاق سراحهم، وحتى يكون الحل وسيلة لتحقيق مواءمة مع النظام تحفظ الكرامة، وتكفل انتماء الشيوعيين إلى النظام الناصرى انتماء خالصا ومخلصا. وهذا ربما يفسر أن التنظيمين الشيوعيين الرئيسيين فى ذاك الوقت، «الحزب الشيوعى المصرى» و«حدتو»، قد حلا تنظيميهما فى وقت كاد أن يكون واحدا، وبقرار مستقل من كل منهما. وهذا لا يمكن اعتباره مجرد صدفة.

يتعرف علىّ والتقينا أكثر من مرة. وذات يوم، طلب لقائى فجأة. إذ كان قد علم أننى كنت قد تلقيت دعوة لزيارة تشيكوسلوفاكيا وأخرى لزيارة بولندا. سألنى هل هذا صحيح؟ قلت: نعم. قال: «أنا موافق على سفرك إلى بلدين ينتميان إلى الكتلة الشرقية، وأتوقع أنهم سوف يسألونك أسئلة كثيرة عن أحوالك. وكل ما أريده منك هو أن تروى لهم حقيقة أوضاعكم، وحرية الحركة التى تتمتعون بها»!

هذا الحديث دعانى إلى التفكير كثيرا فى دلالته. وأشعرنى بصحة استنتاجى بأنه كان هناك ترتيب مرسوم. وقد أرادت السلطة المصرية أن تكون هناك شهادة من قبل السجناء الشيوعيين السابقين أنفسهم بأن «الاتفاق» قد احترم من الجانب المصرى، وأنه يتعين على الجانب السوفيتى احترامه هو الآخر!

والحقيقة أن هذا «الاتفاق» قد كرس رسميا فى المؤتمر الذى عقد بالقاهرة بين «الطليعة» وبين مجلة «السلم والاشتراكية» سنة ١٩٦٦، كانت مجلة «السلم والاشتراكية» تصدر فى براج، وتعتبر أهم مجلة نظرية وإعلامية للأحزاب الشيوعية التى كانت تدور فى فلك موسكو. وكانت «الطليعة» وقتذاك ترمز للانفتاح المصرى على علاقة من نوع جديد مع السوفييت. وقد ترتب على المؤتمر أن نشرت لأول مرة مقالات ليساريين مصريين فى مجلة «السلم والاشتراكية». وهذا أمر حمل دلالات كبيرة عن تقارب فى طور التكوين وتجاوز حدود مصر بين دول «المعسكر الاشتراكى» الذى تتزعمه موسكو، وطلائع حركات التحرير فى أفريقيا وآسيا.

كان هذان التنظيمان خلال سنوات السجن على طرفى نقيض. لقيادة كل منهما خط يناقض خط التنظيم الآخر على طول الخط. «حدتو» تدافع عن فكرة «المجموعة الاشتراكية على رأس السلطة». وكانت قيادة «الحزب»، على عكس تصور «حدتو»، أميل إلى فكرة أن عبد الناصر يمثل «رأسمالية احتكارية تتبع الإمبريالية العالمية». وكانت جمهرة النشطاء تميل إلى خط وسطى، لا هذا فى تطرفه ولا ذاك فى تطرفه العكسى. ولكن فى نهاية الأمر، خرجت الحركة كلها، بمجرد إتمام عملية الإفراج، بخط وسط يسلم بوطنية القيادة، إن لم يكن باشتراكيتها ـ ولكن على وجه التأكيد بتقدميتها، وليس برجعيتها «الاحتكارية الإمبريالية». وهذا أمر يكاد يقطع بحدوث «صفقة» ما.

وبعض رذاذ هذه «الصفقة» نالنى أنا شخصيا. فأذكر أننى كلفت من قبل عدد من الرفاق بعد خروجنا من السجن بأن أتولى مهمة الاتصال بالحكومة من أجل تسليم كشوف بأسماء المسجونين الذين لم يعودوا إلى العمل، وبالذات العمال منهم. ورتبت لى لقاءات منتظمة بسمير مصلح مدير مكتب رئيس الوزراء. وكان رئيس الوزراء وقتذاك زكريا محيى الدين، المنظور له من قبل الشيوعيين على أنه عدو لدود للشيوعية. وقد أراد زكريا محيى الدين أن

وقد كان لعبد الناصر تعبير شائع وهو يتحدث عن الماركسية. وصفها بأنها «عنصر إثراء وتصحيح». مما كان يحمل ـ ضمنا ـ معنى إيجابيا للماركسيين المصريين، وهو أن هذا «الإثراء» يوفر بدائل تفسح المجال «لتصحيح» ما تنطوى عليه الرؤية «القومية» من أوجه قصور. غير أن مقولة عبد الناصر قد حملت أيضا معنى سلبيا للشيوعيين المصريين ولو من باب الحذف وعدم الذكر، وهو أنه لا ينبغى أبدا أن يشكلوا «عنصر قيادة»! شأنهم أن يكونوا فقط «مستشارين» لعبد الناصر ولتوجهه القومى، تحاشيا لارتكاب أخطاء، وأيضا لإحاطة السلطة بأناس كفيلين وهم يتحدثون إلى السوفييت أن يتحدثوا إليهم بـ«الرطانة» الماركسية اللينينية!

كان هناك، باختصار، مخطط «لتوظيف» الشيوعيين المصريين. والحقيقة أنه لم يكن هناك اعتراض من قبل الماركسيين المصريين أنفسهم على فكرة «التوظيف». ذلك أن فكرة «التوظيف» جاز لهم ادعاء أنها فى نظرهم فكرة مألوفة، وإن تجنبوا دائما استخدام مصطلح «التوظيف». فما «الجبهة الوطنية» التى ينادى بها الشيوعيون على الدوام إلا عملية يحاول بها كل طرف من أطراف «الجبهة» «توظيف» الأطراف الأخرى. إن «الجبهة» تسعى إلى





تكشف معالم سياسة تشكل القاسم المشترك لأطراف مختلفة. إن الأطراف في أية «جبهة» متباينة ومختلفة. وهذا لا بد أن يفضى، إن عاجلا أم آجلا، إلى انتصار خط على الخطوط الأخرى. إن الخط الذى ينتصر هو الخط الذى نجح فى «توظيف» غيره. وإن انتصار إحدى السياسات على هذا النحو هو - حسب مصطلح داروين - «البقاء للأفضل»، وربما بتعبير أكثر دقة البقاء للأكثر قوة، وربما من وجهة نظر «الماركسية اللينينية» البقاء للأكثر اتساقا فى التعبير عن حركة التاريخ. إننا بصدد التسليم بـ«الجبرية التاريخية» إلى غير حدود.

وفيما يتعلق بحل الحزب الشيوعى فى مصر، فكان معنى ذلك التسليم بأولوية قيادة عبد الناصر، بصفته هو الأصلح، وبأن حركة التاريخ تؤهله، أكثر من الشيوعيين، بل وفى نظر الشيوعيين أنفسهم،لحسم مستقبل مصر. والجدير بالملاحظة أن اللعبة لم تكن ديموقراطية، لا من وجهة نظر الشيوعيين، ولا من وجهة نظر عبد الناصر، الذى وظف الشيوعيين بوصفهم «عنصر إثراء وتصحيح»، ولا حتى من وجهة نظر السوفييت الذين أرادوا بدورهم «توظيف» عبد الناصر - ومصر بوجه عام - كطرف محورى فى تحويل العالم الثالث من قوة احتياطية للإمبريالية العالمية إلى قوة احتياطية للاشتراكية العالمية.

وقد شاهدنا الإرهاصة الأولى لهذه العملية فى اللقاء الذى تم فى مصر بين مجلة «الطليعة» ومجلة «السلم والاشتراكية» فى عام ١٩٦٦، ثم توّجت المحاولة فى اجتماع شهير عقد بالجزائر قبل نشوب حرب ١٩٦٧ بأيام معدودة فقط. انعقد المؤتمر فى نهاية مايو، واشتعلت الحرب فى بداية يونيو. وقد أريد أن يكون المؤتمر تجسيدا للتصالح بين مختلف الاتجاهات التى نسبت نفسها الى الاشتراكية العربية: الاتجاهات القومية والاتجاهات الماركسية على حد سواء. كانت المحاولة للبحث عن أرضية مشتركة. وقد تصدى بومدين للنهوض بهذه المهمة. أراد بها تثبيت حكمه، وتأكيد صفته الاشتراكية بعد الإطاحة ببن بيللا، وإقامة شرعيته على انقلاب داخلى. غير أن لقاء الجزائر الذى بدا وقت انعقاده واعدا، لم تتح له فرصة جنى ثماره. ذلك أن الحرب قد اندلعت بعد أيام من انعقاده، وكانت هزيمة يونيو التى ما زلنا نتحمل آثارها إلى اليوم.

وما زالت هناك مسائل تتعلق باندلاع هذه الحرب تحيط بها علامات استفهام كبيرة. لقد بدأت الحرب إثر بلاغ سوفيتى بوجود حشود إسرائيلية على حدود سوريا. ولم يثبت أبدا أن هذه الحشود قد تجمعت بالفعل. وقد أنكر الجانب الإسرائيلى دائما أنه قد أرسل حشودا للحدود السورية، ودعا جهات دولية كى تتحقق بنفسها. وقد اشتعلت الحرب. وظلت الأحداث التى أفضت الى نشوبها يكتنفها الغموض. وتضاربت الأقوال حول من المسئول عما حدث وقتذاك وما زال يلاحقنا حتى اليوم.

وللغرب وأجهزته تفسير لما جرى، هو تفسير لم يكن للأطراف العربية كلمة بشأنه، لا إيجابا ولا سلبا، وهذه مسألة لا يجوز أن تظل طى الكتمان إلى غير أجل. قال البعض إن السوفييت أرادوا اختبار الغرب، واختبار الولايات المتحدة تحديدا. فإن العالم الثالث كان بصدد أن يتحرر. وإن موازين القوى كانت بصدد أن تتغير. كان واردا أن يصبح العالم الثالث حليفا احتياطيا للمعسكر الاشتراكى، بدلا من أن يكون تابعا للمعسكر الاستعمارى. ثم ها هى أمريكا متورطة فى حرب فيتنام. وكان شللها بسبب تورطها هذا مناسبة لتفجير الموقف برمته فى الشرق الأوسط بما يعزز الضربات التى كانت تتلقاها أمريكا فى فيتنام. وتخلق ظروفا أكثر مواتاة لطرح قضية الوفاق الدولى من منطلق يحقق للمفاوض السوفيتى مركزا تفاوضيا أفضل.

غير أن الحرب لم تسفر عن هذه النتيجة. ونجحت إسرائيل فى غزو قطاعات واسعة من الأرض العربية. وقد أغضب السلوك السوفيتى الجانب المصرى، كما أغضب أطرافا عربية أخرى بعد الهزيمة. وارتبكت الأطراف المسئولة لما حدث. وأذكر غضبة كبيرة من لطفى الخولى بالذات. وانتهى الأمر بدعوته إلى موسكو للتصارح حول المسئولية عن الحرب ونتائجها. وفقد الاتحاد السوفيتى كثيرا من لمعانه السابق، كطرف كفيل بالدفاع عن العالم الثالث. وحمّل هو الجانب العربى مسئولية الإساءة الى سمعة السلاح السوفيتى، وإظهار السلاح الأمريكى على أنه الأقوى، مما يعرض حركة التحرر الوطنى لنكسات خطيرة.

وهزيمة ١٩٦٧ أصبحت تطرح أسئلة كبيرة حول معنى تضحياتى أصلا. معنى التضحية بأهلى وبدراستى، وبانسحابى من الجامعة ومن مواصلة دراسات عليا، هذا كله من أجل مسلك سياسى بدا فجأة وكأنما يقوم كله على أسس مهزوزة. وفى وجه هذه التحديات العاتية، أصبحت قضية العلاقة مع إسرائيل هى التى باتت تفرض أولويتها على قضية الشيوعية ومصير اليسار المصرى. وأصبح المؤلف الذى عبر عن همومى - ربما دون أن أدرك - أكثر من أية قضية أخرى، هو كتابى «بعد أن تسكت المدافع». وقد ترجم إلى ست لغات، وأصبح هو الذى قرر صورتى لدى الناس أكثر من أن يكون أداتى فى تقرير ما رغبت أن تكون عليه صورتى.

وأذكر ذات مرة أننى سئلت فى اليونسكو أن أعرّف نفسى فى دقيقة واحدة. قلت: «درست الهندسة والحقوق، ولم أمارس لا هذه ولا تلك. واعتقدت أننى كرست حياتى لقضية الاشتراكية فى وجه الرأسمالية. وتكشفت أن حياتى خصصت لهذا الإعصار الذى يوصف بالصراع العربى فى وجه إسرائيل».

عـــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

القضاء القبطى فى مصر

مجدى جرجس

القاهرة: ميريت للنشر والتوزيع، ١٩٩٩

يقدم هذا الكتاب جانبًا من تاريخ الكنيسة القبطية التى يعتبرها الدكتور وليم سليمان قلادة - فى تقديمة للكتاب - أقدم مؤسسة شعبية مصرية.

يتناول المؤلف فى دراسته قضاء القبط الأرثوذكس منذ العصر الرومانى حتى عام ١٨٨٣، وهو لم يتوقف عند نصوص التشريعات، وإنما ركز أساسا على تاريخ هذا القضاء وكيفية ممارسته عمليًا، متعرضًا لقضاء أهل الذمة فى العصر الإسلامى والاختصاصات والصلاحيات والإجراءات ومصادر التشريع التى عمل فى إطارها النظام القضائى للقبط الأرثوذكس.

وينتهى فى فصل خاص عن قضاء أهل الذمة، إلى أن المذاهب الأربعة المشهورة كفلت للذميين حق الاحتكام إلى أهل دينهم، ليحكموا بينهم وفق شرائعهم، وخاصة فى الدعاوى التى هى موضع خلاف بين الشرائع، كأحكام الزواج والطلاق والميراث.

ويرصد فى فصل تال، مواقف الحكام من قضاء أهل الذمة، وسنلاحظ أن مواقف الحكام تفاوتت من عمرو بن العاص، الذى جعل الفصل فى المنازعة بين القبط والمسلمين إلى قضاة من الطرفين، إلى عبد الملك بن مروان الذى تدخل فى شئون الأساقفة للمرة الأولى بحسب ما يقول المؤلف، إلى العصر الفاطمى الذى يعد برأى المؤلف «العصر الذهبى لأهل الذمة»، إلى العصر الأيوبى الذى شهد تسامحًا ملحوظًا تجاه القبط، ثم العصر المملوكى الذى جاءت «تدخلات الحكام فيه من قضاء القبط بهدف جمع الأموال»، والعصر العثمانى الذى تمتع فيه القضاء القبطى بصلاحيات واسعة، وصولاً إلى عهد محمد على وخلفاؤه.

ويقدم المؤلف فى القسم الثانى من الكتاب دراسة لمصادر التشريع القبطى وللهيئة القضائية القبطية وصلاحياتها واختصاصاتها، ويقدم لنا فى فصله الأخير، نماذج للوثائق الصادرة عن الهيئة القضائية القبطية فى أمور البيع والشراء والتعاقد والميراث والزواج، مما يعطى صورة عن الأحكام القضائية فى هذه المنازعات.

قراءات نقدية فى أفلام التسعينيات

قصى صالح الدرويش

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٩

يصارحنا المؤلف، بأنه لم يكن متحمسًا لإصدار كتاب يضم مقالاته المتفرقة والتى سبق أن نشرها فى جريدة الشرق الأوسط، والتى كتبت لاعتبارات صحفية محضة، لا لكى تنتظم بين دفتى كتاب.

ومع ذلك، فإن ثمة ما يفيد فى كتاب يمكن اعتباره «نموذجًا تطبيقيًا» للنقد السينمائى، يجمع الأفلام المصرية فى قسمه الأول، والأفلام العربية فى قسمه الثانى، وهكذا تفصح الصورة - التى ينقصها القليل - عن أحوال السينما العربية عبر أعمال ليوسف شاهين، وشريف عرفة، ورأفت الميهى، وعاطف الطيب، وخيرى بشارة، وساندرا نشأت، كذلك عبر أعمال مارون بغدادى، وفريد بوغدير، ونبيل المالح، ومرزاق علواش، ونورى بو زيد، وفاضل جعايبى.

وتفيد الخلفية السياسية والصحافية للمؤلف كثيرًا فى تعامله مع الفيلم، فهو يغوص خلف الأفكار وتناقضاتها، كما يفعل مع أفلام مرزاق علواش ورشيد مشهراوى مثلاً، فى تناولهما للشأن الجزائرى والفلسطينى على الترتيب.

كما لا تغيب عنه «هواية السينما»، والوقوف على أوجه التميز والقصور فى تقنية الفيلم، كما فى مقالاته عن سينما ميشيل خليفى، ورأفت الميهى، وعاطف الطيب، ويوسف شاهين، والبعدان: السياسى والفنى لا يختفيان وهو يثنى على فيلم ساندرا نشأت الأول «مبروك وبلبل»، أو يكيل النقد لفيلم فريد بو غدير «عصفور السطح»، وتبقى الكتابات النقدية من هذا النوع، وثيقة مهمة عن أحوال السينما العربية فى زمن أزمتها.

تاريخ إيران السياسى بين ثورتين

د. آمال السبكى

الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٩

تقدم المؤلفة دراسة لأوضاع إيران السياسية منذ بدايات القرن وحتى انتقال الحكم إلى رجال الدين وتوطيد أركان الحكومة الدينية فى الفترة من ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٩، وفيما كانت الأوضاع الاقتصادية والإدارية المتردية سببًا فى الثورة الدستورية الأولى عام ١٩٠٦، التى اضطلعت بها النخبة المثقفة فى إيران، التى كانت أكثر شعورًا بوطأة النفوذ الأجنبى فى بلادها، والتى سرعان ما اصطدمت بالبلاط الشاهنشاهى والسلطة الحاكمة، كان فساد الشاه وأسرته الحاكمة وتغلغل النفوذ الأجنبى واستغلاله لخيرات البلاد، سببًا فى الثورة الخومينية فى نهاية السبعينيات كما تذهب المؤلفة.

وفى هذا الإطار تتتبع المؤلفة مسار العلاقات الدبلوماسية الأمريكية الإيرانية فى عهد أسرة بهلوى، والصراع الدولى حول إيران منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وبرغم سقوط إيران فى أيدى الحلفاء، حيث القوات البريطانية جنوبًا والقوات الشيوعية شمالاً، فإن الولايات المتحدة الأمريكية لم تنس أبدًا مصالحها فى إيران وسعت باستمرار إلى موطئ قدم فيها، وهكذا شجعت محمد رضا بهلوى على الانفراد بالسلطة فى إيران، ودعمت توجهاته الأتوقراطية برغم أنها كانت وراء عزل والده رضا بهلوى بزعم دكتاتوريته واستبداده، وهى التى أعادته إلى السلطة عقب فشل ثورة مصدق فى عام ١٩٥٣، لكن القوى الدولية التى آزرته سرعان ما اتفقت على عزله حين بدأت مصالحها تتهدد، وواكب ذلك ظهور آية الله الخومينى الذى قاد ثورة «الكاسيت» على مدى عامين من باريس ليعود فى عام ١٩٧٩، ويتولى الزعامة الدينية والسياسية فى آن واحد.

ومنذ ذلك التاريخ، بدأت دعائم الدولة الدينية تتوطد فى إيران، وشهدت تحديات وتطورات، تناول المؤلفة أغلبها عبر صفحات كتابها، الذى لم يصل بطبيعة الحال إلى ما آل إليه أمر إيران الآن فى عهد حكومة سيد محمد خاتمى.

تحديث مصر

شريف دلاور

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ١٩٩٩

كما يصفه المؤلف، فإن هذا الكتاب يدور حول المستقبل ويناقش التغيير فى الفكر الاقتصادى والتكنولوجيا، وفى أنماط العمل والمؤسسات.

يخصص المؤلف الفصل الأول من كتابه لمفهوم التنمية وصلته بالتحديث، وصلة التحديث بالتغريب، وصلة ذلك كله بالديمقراطية ويضع أولويات خمسة للتقدم والقضاء على الفقر، ولا يرى أن ما يسبب الفقر عوامل مادية، وإنما عوامل غير مادية فى الأساس مثل العجز فى التعليم وقصور التنظيم والانضباط بين البشر الذين يمثلون موارد الأمة الحقيقية. ويناقش فى هذا الإطار دور الدولة فى التنمية الاقتصادية، ويقدم نموذج شرق آسيا فى التنمية للتدليل على التوازن المطلوب بين مساندة الدولة للقطاع الخاص، والالتزام من جانب القطاع الخاص بمستويات معينة من الأداء وجودة الإنتاجية، كما أن رقابة الدولة على مستوى الأجور، يقابلها التزام الشركات بتدريب العمالة والاحتفاظ بها أثناء فترات الركود الاقتصادى. وخلاصة ما يقرره المؤلف فى هذا الإطار، هو أهمية دور الدولة التنموى كمحرك أساسى لتنمية أى مجتمع وفى أى عصر. ومن ثم، يناقش مفهوم العولمة وتأثيراتها على النمو الاقتصادى والاستثمار الأجنبى وتوزيع الدخل، ويعرض للاتجاهات السائدة فى الفكر السياسى والاقتصادى وتعاملها مع العولمة، إذ يرفضها بعض المفكرين باعتبارها شرًا مطلقًا واعتداءً على سيادة الدولة، ويعدها آخرون طوق النجاة لاقتصاديات انهارت تحت وطأة نظم قامت على المركزية والتخطيط وبقية المنظومة الاشتراكية وهياكلها. وختامًا يحدد التحديات العشرة التى تواجه الاقتصاد المصرى ومنها: ضرورة وجود خطة واضحة للتنمية الاقتصادية وتقييم الصناعة المصرية وتشكيلة إنتاجها وعلاج مشكلات البطالة بما لا يجور على مقاومة التكنولوجيات الحديثة ووضع استراتيجية للتخصصية تحقق نتائج سريعة، واستنباط تشريعات تساند اقتصاد السوق وتشجيع عمليات التصدير، وإسناد إدارة الأعمال إلى النخبة المتميزة من العقول المصرية.

القفز على الأشواك

شكرى عياد

القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩

يضم الكتاب مجموعة من الدراسات التى كتبها الناقد الراحل فى السنوات العشر الأخيرة. القسم الأول منها والذى يحمل عنوان «المرايا»، يتناول عددًا من الشخصيات التى تأثر بها وعايشها المؤلف، ويشتمل القسم الثانى على مقالات فى النقد الأدبى، وهى التخصص الأصيل للمؤلف الذى كتب القصة والدراسة، فضلاً عن كتابات عديدة عنيت بالشئون العامة.

يكتب فى القسم الأول عن العلامة الراحل محمود محمد شاكر الذى يسميه «عاشق اللغة العربية»، فيقدم جوانب مضيئة من حياته التى كرسها للبحث اللغوى والدرس الأدبى وتحقيق النصوص، وقد اضطلع بها جميعا فى تؤدة واقتدار وإنكار للذات، ويكتب عن سهير القلماوى التى يرى أنها واصلت مسيرة طه حسين (أستاذها)، فصارت جسرًا بين الثقافة العربية والثقافة العالمية، ويكتب عن لويس عوض الذى يصفه بأنه مزيج من المؤرخ والفنان، وكلاهما - كما يقول - سعى إلى افتراس الآخر... «ولهذا كان لويس عوض فى أحسن أحواله حين ينقد، وفى أشد أحواله استفزازًا حين يؤرخ، وفى أقرب أحواله للفن حين ينسى نفسه».

أما عبد الغفار مكاوى فهو عنده: الأديب الحائر بين الفلسفة والفن. ويصف الكاتب الصحفى الراحل أحمد بهاء الدين بالمفكر المسئول الذى لم يغير مواقفه الثابتة الجذرية مع تغيرات العصر والظروف، وينتقد كتابات غالى شكرى الذى يعتبره «مثقفا من الجيل الضائع»، ويعنى ذلك الجيل الذى تفتح وعيه على شعارات القومية والتحرر والاشتراكية، وحفرت هزيمة يونيو ١٩٦٧ فى قلبه جرحًا لم يندمل، ويتعرض لكتابتين من السيرة الذاتية للدكتور حسن فتح الباب والدكتور محمد إبراهيم الفيومى.

أما فى القسم الخاص بالنقد الأدبى، فيجول المؤلف بين نصوص من الشرق

والغـــرب، يكتب عن رواية «في ظلال الرمان» للكاتب الباكستاني المقيم في إنجلترا طارق علي، وعن علاء الدين وكتابه «وقفة قبل المنحدر»، وعن أبو المعاطي أبو النجا وبهاء طاهر ورضوى عاشور ومنتصر القفاش وإدوار الخراط وبهيجة حسين ونورا أمين وعفاف السيد وأمين معلوف.

ومطالعة هذه الأسماء لأجيال مختلفة من الأدباء، تكشف عن متابعة مستمرة وحفاوة بالغة من المؤلف، بكل إبداع أصيل. وبتفاعله المستمر مع المنتج الأدبي حتى آخر أيام حياته.

سيد قطب وثورة يوليو

حلمي النمنم

القاهرة: ميريت للنشر والمعلومات، ١٩٩٩

لا يبدأ المؤلف مما يوحي به عنوان الكتاب، أي منذ يوليو ١٩٥٢ وصدام سيد قطب معها بعد شهور قلائل من قيامها، وإنما يمتد قبل ذلك إلى لحظة الميلاد، ميلاد سيد قطب في قرية «موشا» بأسيوط، في العام ١٩٠٦، عام حادثة دنشواي.

وعبر إطلالة تاريخية على زمن الميلاد ومكانه، يبرهن المؤلف على حجم المعاناة ومقدار الظلم والقمع الذي عاناه سيد قطب كما عاناه أهل مصر، وأهل القرى والفقراء منهم على وجه الخصوص مما كان له عظيم الأثر في توجهاته الفكرية فيما بعد، ويتابع المؤلف إنجاز سيد قطب الإبداعي منذ بحثه الذي نشر في مجلة «المقتطف» عام ١٩٣٩ وعنوانه «التصوير الفني في القرآن» وقبلها ديوانه الأول «الشاطئ المجهول» (١٩٣٥) وكتابين في النقد هما «كتب وشخصيات» و«النقد الأدبي» وصدرا عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٨ على الترتيب وروايتان هما «المدينة المسحورة» و«أشواك» لم يثيرا انتباه أحد. وإزاء هذا التجاهل، اتجه سيد قطب - كما يقول المؤلف - إلى الكتابة الإسلامية، وقد تصور أن بإمكانه أن يحقق ما حققه العقاد وطه حسين والدكتور هيكل حين سلكوا الاتجاه نفسه، لكنه لم يصب نجاحا.

ويتتبع المؤلف مسيرة سيد قطب منذ قيام ثورة يوليو وحتى سجنه ثم الإفراج عنه في أزمة مارس ١٩٥٤ ثم سجنه مرة أخرى من ١٩٥٥ وحتى ١٩٦٤، ثم القبض عليه مرة أخرى في عام ١٩٦٥ والحكم عليه بالإعدام في العام التالي.

ويصل المؤلف عبر تتبعه مسيرة سيد قطب إلى موالاته التامة للثورة في بداياتها الأولى ودعوته إلى الضرب بقوة على أيادي الأحزاب القديمة والإقطاع وكل رموز العهد السابق على يوليو ١٩٥٢، حتى أن دعواته للتطهير - كما يقول المؤلف - اتخذت طابعا انتقاميا فجا، أما لماذا اختلف سيد قطب مع الثورة وعاداها، فإن المؤلف يرد ذلك إلى خذلان الثورة له وعدم تعيينه وزيرا أو وضعه في أي منصب رفيع آخر، مما جعله يلقي بثقله كاملا في جانب الإخوان، لتبدأ مسيرته الجديدة وأفكاره التي يرى المؤلف أنها تشكل العمود الفقري لفكر التطرف منذ الستينيات وحتى اليوم.

حوار الاستشراق

أحمد الشيخ

القاهرة: المركز العربي للدراسات الغربية، ١٩٩٩

أكثر من عشرين مستشرقا يحاورهم المؤلف في كتابه، جميعهم معاصرون، وبينهم كاتبان عربيان هما محمد أركون ومالك شبل، أما الأول فاعتباره مستشرقا ليس اجتهادا من المؤلف، وإنما هو الوصف الذي أطلقه عليه كتاب فرنسيون، فيما اعتبره كتاب آخرون أصوليا، والبون بينهما شاسع كما نرى، أما مالك شبل فهو عربي من أصل جزائري يكتب بالفرنسية، ويمكن أن نضيف إليهما ندى طوميش وهي من أبوين لبنانيين عاشا في القاهرة، وهي نفسها ولدت في القاهرة وكتبت دراسة مهمة عن اللهجة العامية المصرية، وتكشف مطالعة بقية الأسماء عن تعدد في الاتجاهات وتفاوت في الأجيال: بيرك، رودنسون، أرنالديز، لاكوست، بورجا جونزاليس، توبي، ريشار جاكمون..الخ.

ويحقق المؤلف عبر حواراته هدفين مهمين: أولهما أنه يلقي أضواء على مستشرقين معاصرين لم يُلتفت إلى نتاجهم، وربما جاءت سيرتهم عرضا في كتابات عربية عن الاستشراق كما هو الحال فيما كتبه إدوارد سعيد أو حسن حنفي أو أنور عبد الملك، غير أن أيا من هؤلاء لم يتوقف كثيرا أمام مناهج الاستشراق الجديد وأدواته وتوجهاته وهو ما فعله المؤلف.

من ناحية ثانية، فإن الحوار مع المستشرق نفسه يتيح فرصة للتعرف عن قرب على آرائه في القضايا موضوع بحثه، ويصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة لديه أو لدى متابعي إنتاجه.

والصورة الأولى التي تطالعنا هي «لجاك بيرك»، ذلك المستشرق الذي كان يردد دوما أنه كاثوليكي يحب الإسلام، لكنه بقي حزينا حتى مات بسبب الانتقادات الحادة التي وجهت إلى ترجمته لمعاني القرآن الكريم، واتهامه بالتعصب واللاموضوعية، ثم «مكسيم رودنسون» صاحب كتاب «محمد» الصادر في عام ١٩٦١، والذي أثار ضجة في القاهرة قبل عام ومُنع تدريسه على طلاب الجامعة الأمريكية، والمفاجأة أن رودنسون لا يعترف بالاستشراق ويراها كلمة لامعنى لها، ثم «روجيه أرنالديز» الذي يصفه المؤلف بأنه مستشرق مخضرم وإن كانت دراسته تركزت حول ابن حزم القرطبي وحده، ثم «أندريه ميكل» أحد الوجوه الاستشراقية المعاصرة و«جان بول شارنيه» صاحب كتاب الصحيح والوهمي في المجتمع الإسلامي و«أوليفيه كاريه» الذي بدأ اهتمامه بالشرق عبر بوابة القضية الفلسطينية.

الوجوه التي يقدمها المؤلف متعددة، ومناهجها في الاستشراق متباينة ودوافعها إلى الاهتمام بالعرب والمسلمين وتاريخهم متفاوتة، والمحصلة الأهم، أن الاستشراق مازال يجري هناك، لكن ناقدي الاستشراق عندنا توقفوا عند مستشرقي نهايات القرن الماضي.

قضايا علمية

مصطفى إبراهيم فهمي

القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٩

يطرح الكتاب قضية الثقافة العلمية إيمانًا من المؤلف بأهمية إشاعتها، ولكونها النمط الذي نحتاجه في عصرنا هذا أكثر من أي وقت آخر، فهذا العصر هو عصر المعلوماتية وتدفق المعارف وتراكمها، بصورة لم تسبق من قبل.

يبدأ المؤلف بالتليسكوب الفضائي هابل وإنجازاته المدهشة وتكلفته الأكثر إدهاشًا، والتي بلغت حوالي ثلاثة مليارات من الدولارات، وهو يكلف في الثانية الواحدة ثمانية دولارات، كي يقوم بدور محطة رصد فلكية في الفضاء، تدرس الكواكب والنجوم وتتابع تحولاتها وتلتقط لها صورًا في كل حالة.

ثم ينتقل إلى المريخ والجهود المستمرة لدراسته، وهي جهود لن تتوقف حتى يهبط الإنسان عليه كما فعل مع القمر في أوائل الستينيات. ويتناول أحلام الوراثيات الحديثة ومشكلاتها، وفي مقدمتها الحلم بإطالة عمر الإنسان، حتى يبلغ في المتوسط ١٧٠ عاما، وليس بصحته وحيويته، أم ستدب فيه أمراض الشيخوخة برغم إطالة العمر؟

ويناقش المؤلف قضية الاستنساخ وأبعادها الأخلاقية والدينية، ويطالب الدول بألا تتسرع في استصدار القوانين التي تجرِّم أبحاث الاستنساخ على الإنسان، انتظارًا لما يسفر عنه التطبيق... «فالعلم يعطي الإنسان إمكانات التطبيق، وعلى الإنسان أن يختار ما يفيده وأن ينبذ ما يضره».

ويتعرض المؤلف لبعض قضايا الثقافة العلمية في بلادنا، وهي ثقافة تخاصمها القناة الثقافية في التليفزيون المصري بحسب قوله، ويجافيها الإعلام الرسمي الذي مازال مشغولا «بالعلاج من عين الحسود بماء استحمامه». وفي رأيه، فإن الثقافة العلمية هي أحد الأسلحة المهمة لمواجهة العولمة التي ستغزونا، شئنا أم أبينا.

الشعر والتصوف

إبراهيم محمد منصور

القاهرة: دار الأمين، ١٩٩٩

استفاد كثير من الشعراء العرب المعاصرين من الصوفية وتجلياتها في الشعر والفلسفة والنثر الأدبي، وهذه الاستفادة لم تقتصر على المتصوفة العرب كالحلاج وابن عربي، وإنما امتدت إلى سواهم من الفرس مثلا، فلا يمكن إنكار تأثيرات الشيرازي وجلال الدين الرومي وغيرهما، على كثير من الشعراء العرب المعاصرين.

هذا ما يؤكده المؤلف في دراسته التي تتتبع هذه التأثيرات بعد مقدمة نظرية تستغرق فصلين، يتناول فيها حدود الصوفية ومعنى الحب الإلهي عندهم ودلالات الغزل الصوفي والرموز التي استخدمها المتصوفة للتعبير عن المرأة والخمر والطبيعة وغيرها، مما يهيم به الشعراء. ويشير في فصل آخر إلى العلاقة بين الصوفية والمدارس الفلسفية والفنية المعاصرة كالرومنتيكية والوجودية والرمزية والسريالية والحداثة، ويدرس المؤلف بعد ذلك هذه التأثيرات على عدد من كبار الشعراء المعاصرين من أمثال محمود حسن إسماعيل، وصلاح عبد الصبور، وعبدالوهاب البياتي، ومحمد الفيتوري، وأدونيس، ومحمد عفيفي مطر. ويؤكد على استلهام هؤلاء في عديد من قصائدهم الشعرية لروح الصوفية ورموزها وأخيلتها وأحيانا ألفاظها، وهو الأمر الذي استمر لدى من يعرفون بشعراء الحساسية الجديدة في مصر، وخصوصا شعراء جماعة «إضاءة ٧٧»، وبينهم حسن طلب، وحلمي سالم، وفريد أبو سعده، وجمال القصاص، ثم شعراء الجيل التالي من أمثال محمد سليمان، ووليد منير، وأحمد الشهاوي وآخرون. ويثير المؤلف قضية التناص بين قصائد هؤلاء الشعراء وسابقيهم من شعراء المتصوفة، وهي جلية ولا ينكرها الشعراء ذاتهم، وتؤكد درجة ما من التواصل مع شعر الصوفية وموضوعاته وأخيلته.

كتب أجنبية

The Basque History of the World

(التاريخ الباسكي للعالم)

Mark Kurlansky

Jonathan Cape, 1999, £15.99

لا يعرف الكثيرون في العالم شيئا عن شعب الباسك، وحتى المعلومات التي تعرفها نسبة كبيرة من الذين سمعوا أو قرأوا عن هذا الشعب لا تتعدى شذرات قليلة عن مجموعة متمردة تريد الانفصال عن أسبانيا تقودها منظمة «إيتا» التي يضاف دائما إلى اسمها كلمة الانفصالية.

ويحاول مؤلف هذا الكتاب إعادة الاعتبار لشعب تعود جذوره، كما يقول

عـــروض مـــوجـــزة

إلى ٤٠ ألف عام، وله تاريخ عريق ولغة مميزة أوسكيرا Euskera. ويشير إلى أنه بينما ستدخل أوروبا الألفية الثالثة من الميلاد، فإنها ستجد أن مليونًا من سكانها يتحدثون لغة تعود جذورها إلى العصر الحجرى.

ويعيش شعب الباسك فى ٧ مقاطعات، ٤ منها فى أسبانيا، والأخرى فى فرنسا، ولم يحصل هذا الشعب على استقلاله على مدى تاريخه، إلا أنه لقرون عديدة تمتع بنوع من الحكم الذاتى مع سلطة تشريعية نابعة من عادات وأعراف محلية. وأطلق المؤلف على كتابه عنوان «التاريخ الباسكى للعالم» لأنه يرى أن بقاء الباسك كشعب اعتمد دائما على التدخل الدولى. وساهمت التركيبة الجغرافية الجبلية فى استمرارهم عبر العصور، فقد مر عليهم غزاة كثيرون، لكن قليلين للغاية هم الذين بقوا. ولأن الطبيعة وعرة ولا تساعد على كسب العيش، فإن أفراد الباسك فى الغالب كانوا يتجهون إلى البحر، ولذلك فإنهم عرفوا بناء السفن، بل إن شخصًا منهم هو الذى كان أول من دار حول العالم ويدعى أيلكانو، وليس ماجلان كما تذكر كتب التاريخ.

ويقول إنه ليس هناك كلمة تقلل من قدر أفراد شعب الباسك أكثر من «انفصاليين». وقد حارب الباسكيون بشجاعة ضد الفاشيين والنازيين فى الحرب العالمية الثانية على أمل أن يساعدهم الحلفاء بعد الحرب فى إقامة دولتهم، لكن الولايات المتحدة وجدت فى الچنرال فرانكو حاكم أسبانيا حليفًا مهمًا، فتناست فضائل أهل الباسك. ورغم تحسن ظروفهم نسبيا فى عهد الحكم الديمقراطى فى أسبانيا ما بعد فرانكو، فإن الدستور الأسبانى يمنع إجراء استفتاء على الاستقلال، ومازالت عمليات التعذيب والاعتقال والقتل مستمرة ضد النشطين منهم. ولا يشعر المؤلف بخجل من أعمال العنف التى تمارسها منظمة إيتا، التى تطالب باستقلال الباسك، ويقول إن الأسبان قتلوا أيضا كثيرين من الباسك ويجب أن يلاموا أيضا.

Islam, Nationalism and The West.. Issues of Identity in Pakistan

(الإسلام.. القومية والغرب.. قضايا الهوية فى باكستان)

Ifikhar H. Malik

Macmillan, 1999, 360pp., £47.50

مع قيام الانقلاب العسكرى فى باكستان فى أكتوبر الماضى والقضاء على الحكم المدنى، عادت باكستان إلى واجهة الأحداث، وعاد الحديث عن القضايا المتفجرة التى تواجه باكستان منذ نشوئها مع تقسيم شبه القارة الهندية. وقبيل الانقلاب بوقت قصير أصدر المعلق السياسى الباكستانى إفكار مالك هذا الكتاب، الذى يتناول فيه موضوعات عديدة مثل تغطية الإعلام العربى لقضايا تدور حول الإسلام والمواقف الباكستانية تجاه الصراع فى كشمير والمجتمع المدنى فى باكستان والسياسة الخارجية الأمريكية والبريطانية تجاه باكستان. والكتاب يحتوى على معلومات غزيرة. تاريخ الإسلام فى الهند وعلاقات باكستان الخارجية، وبشكل خاص علاقة الحرب والكراهية مع الثقافة الأمريكية، وكذلك أبناء الشتات الباكستانى فى الخارج، ومشكلاتهم سواء مع المكان الذى يقيمون فيه ومع الوطن الأم. ويشير إلى أنهم محصورون بين ثقافة أصولية تأتى من الوطن الأم ومحاولات للذوبان فى أوطانهم الجديدة.

ومن خلال الكتاب تظهر رغبة المؤلف فى قيام مجتمع باكستانى ذى وجه إنسانى متسامح تنتهى فيه الصراعات بين أبنائه، وهو يدعو لسياسات ديمقراطية غير مركزية، ويعترف بالحاجة لنوع جديد من القومية تسمح بالتعددية فى المجتمع، وبالحوار بين أبنائه وبين باكستان نفسها والغرب، ويبدو المؤلف متشائما من إمكانية أن يحل الحوار والتسامح محل المواجهة، وأن تنتهى حالة عدم التوازن سواء فى السلطة.. أو فى توزيع موارد البلاد. وكلها قضايا ستواجه الحكام العسكريين الجدد فى محاولتهم لإثبات شرعيتهم بعد أن أنهوا شرعية حكومة نواز شريف المنتخبة ديمقراطيًا.

Cities and Citizenship

(المدن والمواطنة)

James Holsten, editor

Duke University Press, 1999, 260pp.

خلال معظم فترات القرن العشرين، نظر المفكرون وعلماء السياسة إلى الدولة القومية باعتبارها الحاضن المناسب للمواطنة، وكما يقول مؤلفو هذا الكتاب، فإن عديدًا من الكتاب المؤثرين منذ بداية القرن رأوا المواطنة مرتبطة بشكل وثيق بالثقافة الحضرية والسياسات.

وقد كان من آمال الرئيس الأمريكى الراحل وودرو ويلسون (فى الفترة من ١٩١٣ إلى ١٩٢١) أن تصبح المدينة مكان مجتمع إنسانى اقتصادى يستطيع فيه الناس من كل الطبقات تطوير مسئولياتهم المدنية.

وبينما شهدت السنوات التالية لحكم ويلسون قوة دور الدولة وسلطاتها، فإن المساهمين فى الكتاب لديهم جميعًا اعتقاد بأن المدن ستكتسب أهمية جديدة فى تحديد حقوق المواطن. ويقول محرر الكتاب چيمس هولستن فى تقديمه للكتاب أن عمليات «العولمة» ستؤدى إلى دق اسفين عميق بين الفضاءات الوطنية وبين المراكز الحضرية، أى بين الدولة والمدينة. ويقتبس الكتاب قول العالم الجغرافى بيتر تيلور أن المدن تحل محل الدولة فى بناء الهويات الاجتماعية.

وتوضح الباحثة ساسكيا سبلز فى مقالها بالكتاب، كيف تتحدد العلاقة بين المدن والدولة بالطريقة التى تستطيع بها المدينة أخذ مكانها فى الاقتصاد العالمى.

فالمدن مقار الشركات الكبرى والتأثير المالى وهى شركات لا ترتاح لمناطق الحرمان والفقر، وبالتالى يحدث الانقسام فى المدن، وهو ما درسته تريزا كالديرا فى مدينة ساوباولو، فهناك انفصام بين الاغنياء والفقراء بشكل شبه تام، والأسوار والجدران تفصل بين الجانبين وتتساءل كالديرا فى النهاية، هل يمكن الحديث عن المواطنة فى مدينة الأسوار؟!

Karl Marx

(كارل ماركس)

Francis Wheen

Fourth Estate, 1999, 431pp., £20.00

كثيرة هى الكتب التى تناولت حياة كارل ماركس مؤسس الاشتراكية العلمية أو الماركسية، لكن معظمها كانت إما إنها منحازة إلى ماركس أو متحيزة ضده، وفى الغالب فإن معظم المؤلفات الغربية حول هذا الفيلسوف كانت من بين الصنف الأخير.

والكتاب الجديد للصحفى البريطانى فرانسيس وين نجح فى أن يتجنب كراهية ماركس، وبالتالى جاء موضوعيًا إلى حد كبير، وهو يقول إنه من المثير للسخرية أن نلوم ماركس على جرائم ارتكبت باسمه، لكنه فى الوقت نفسه يشير إلى مدى تقلب ماركس فى تعامله مع الناس، فقد كان على استعداد للتعامل مع شخص ما، ثم إسقاط هذا الشخص من حسابه فى اللحظة التالية.

ويركز وين على جذور ماركس الألمانية، والتحولات التى أوصلته إلى الشيوعية وحياته فى لندن وقدرته الكبيرة غير العادية على النشاط والقراءة والتأليف وقضائه الساعات الطوال فى المكتبة البريطانية الشهيرة فى لندن للقراءة والتأليف. وقد استقر ماركس فى لندن فى نهاية الأربعينيات من القرن الماضى إلى أن توفى عام ١٨٨٣. وعندما وصل إلى بريطانيا اعتقد جازمًا أن الثورة الشيوعية على وشك أن تندلع هناك، لكن ذلك لم يحدث. ومع سبعينيات القرن التاسع عشر بدأ يخمن فى أن تلك الثورة يمكن أن تحدث فى روسيا وهو ما حدث بالفعل عام ١٩١٧.

Memoirs

(مذكرات)

John Major

Harper Collins, 1999, £25.00

In Office

(فى السلطة)

Norman Lamont

Little Brown, 1999, £20.00

صدر هذان الكتابان فى توقيت واحد وهما يتناولان قضايا واحدة تقريبًا، إضافة إلى السيرة الذاتية للمؤلفين جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا السابق، ونورمان لامونت وزير الخزانة فى بداية حكم ميجور.

وأثار الكتابان لدى صدورهما ضجة كبيرة نظرًا لأنهما كانا بمثابة نوع من الانتقام الشخصى ضد الآخر، فنورمان لامونت الذى جرت إقالته بشكل مذل بعد أن ظل يراوغ شهورًا عديدة عقب خروج بريطانيا من آلية سعر الصرف الأوروبى فى ديسمبر ١٩٩٢، يحمل ميجور المسئولية عن هذا الحدث الذى اعتبره المراقبون أكبر نكسة سياسية واقتصادية أصابت حزب المحافظين منذ وصوله للسلطة عام ١٩٧٩.

ويحاول لامونت فى كتابه أن يدافع عن نفسه قائلا: «إن تردد ميجور وعدم قدرته على حسم الأمور والمؤامرات التى حاكها الوزراء ضده (أى لامونت) سبب هذه الأزمة». ومن ناحيته يقول ميجور أن لامونت لم يكن قادرًا على فعل شىء وحده، كما أنه كثيرًا ما كان يهدد زملاءه فى الاتحاد الأوروبى بالانسحاب، الأمر الذى أفقد الثقة فيه. ويعتقد ميجور أنه لو استقال لامونت مباشرة عقب الأزمة لكان قد حفظ اسمه فى التاريخ بشكل جيد، لكن رغبته فى البقاء فى السلطة بأى ثمن جعله يخرج غير مأسوف عليه.

ولم ينس ميجور فى كتابه أن يوجه سهامه إلى مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة التى جعلت سنوات حكمه جحيما بكثرة انتقاداتها لسياساته. وقد اتهم تاتشر بأنها لم تصدق حتى الآن أنها خرجت من الحكم، ولذلك حاولت بكل وسيلة أن تتدخل فى تسيير أمور الدولة وتفرض وجهة نظرها، وعندما اختط ميجور لنفسه منهاجًا مستقلا، أعلنت عليه حربًا غير مشروعة.

والكتابان يسردان تفاصيل دقيقة لسنوات حكم المحافظين واللحظات الأخيرة التى أدت إلى هزيمتهم المذلة فى مايو ١٩٩٧ أمام حزب العمال وهما فى المحصلة الأخيرة، وجهة نظر يحاول ميجور ولامونت من خلالها أن يقولا كلمتهما للتاريخ عن تلك السنوات التى كانا فيها أبرز رجال الدولة فى بريطانيا.

Fortunate Son: George W. Bush And The Making of An American President

(ابن محظوظ.. چورچ دبليو بوش وصناعة رئيس أمريكى)

عـــروض مـــوجـــزة

J. H Hatfield
St. Martin's Press, 1999

كتاب فجر ضجة كبيرة في الولايات المتحدة لدى صدوره في نهاية أكتوبر الماضي، إذ حمل اتهامات خطيرة لجورج دبليو بوش نجل الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش، وأحد أبرز الساعين للفوز بانتخابات الرئاسة الأمريكية العام المقبل. ومن أبرز الاتهامات أن جورج بوش الابن حاكم تكساس الحالي ألقي القبض عليه عام ١٩٧٢ بتهمة حيازة مخدر الكوكايين، وخضع لعقوبة بسيطة هي خدمة المجتمع لفترة محددة باعتباره لم يكن بالغًا في ذلك الوقت. ورغم أن هذا الاتهام أثار ضجة كبيرة، إلا أن الضجة الأكبر ظهرت بعد أن سحبت دار النشر الكتاب من الأسواق عندما علمت أن مؤلفه أدين سابقًا بالتآمر لقتل رئيسه في العمل، ثم استقال رئيس تحرير دار النشر على خلفية هذه القضية.

وتثير هذه المسألة قضية مهمة تتعلق بمؤهلات مؤلفي الكتب أخلاقيًا ومدى تحري دور النشر عن ذلك، فمن الواضح أن الدار المذكورة لم تبحث في سجل المؤلف، بل أرادت الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرباح في ظل شغف وسائل الإعلام لالتقاط أي اتهامات بشأن المرشحين من الحزبين الكبيرين في الولايات المتحدة (الديمقراطي والجمهوري) في السباق الطويل لانتخابات الرئاسة، والأخطر أن الدار لم تتأكد من المعلومات والاتهامات التي ساقها المؤلف، والتي ثبت أنها لا تقوم على أساس متين.

ويشير أحد نقاد الكتاب في الولايات المتحدة إلى أنه في ظل كثرة المؤلفين بشكل غير معقول، وفي ظل كثرة دور النشر الراغبة في إنتاج الكتاب، فإنه ليس هناك كثيرون على استعداد لبذل الجهد للبحث عن ماضي المؤلفي ومصداقيته.

Humanity: A Moral History of The Twentieth Century

(الإنسانية: التاريخ الأخلاقي للقرن العشرين)

Jonathan JLover
Cape, 1999, 464pp., £18.99

يتعجب مؤلف الكتاب من أنه كلما حدثت مجزرة أو عمليات قتل واسعة النطاق في دولة أو منطقة ما من العالم، يصف الناس ذلك بأنه وحشية تماثل ما حدث في العصور الوسطى، مع أن ما يحدث خلال القرن العشرين ليس له مثيل على الإطلاق في تاريخ البشرية، وبالتالي فإن القول بأن ذلك الفعل أو الجرم وحشية تعود بنا للعصور الوسطى خاطئ.

ويقول المؤلف أن هناك أمرين فيما يتعلق بهذا القرن الذي يودعه العالم بعد أيام، هو أنه الأسوأ في التاريخ البشري، والثاني أن الناس لازالوا يرفضون وصف هذا القرن بأنه الأسوأ.

وحسب رأي المؤلف فإن الحقائق واضحة ولن تعدم الإحصاءات التي تشير إلى أعداد القتلى والجوعى وغيرها في القرن العشرين، وبفضل بشر مثل ستالين وهتلر وبول بولت، فإن عصرنا كان الأكثر قسوة وقتلا بالمقارنة بأي عصر آخر.

ولنتذكر أنه قبل سنوات كانت دول مثل كمبوديا والصين وروسيا وألمانيا النازية تعيش مذابح وحشية غير مسبوقة، لكن مواطني نهاية القرن العشرين لا يريدون على ما يبدو أن يتذكروا.

ويشير جلوفر إلى أن العالم كان في لحظات معينة من القرن يسير وهو نائم، مثلما حدث عند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، والحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وعندما ألقت الولايات المتحدة القنبلة النووية على هيروشيما بدلاً من أن تطلقها على جزيرة غير مأهولة بالسكان.

ويعتقد أن العالم فقد وازعه الأخلاقي بصورة كبيرة خلال هذا القرن، وانزلق إلى البربرية والوحشية، فكانت النتيجة هي كابوس القرن العشرين. ورغم أن القارئ لهذا الكتاب سيشعر في النهاية بإحباط، فإن المؤلف يقول أننا نحتاج إلى فرض قيود محددة على مستوى العالم، ويجب أن يعود الوازع الأخلاقي والقانون الإلهي ليشارك في تسيير مسيرة البشر حتى لا يظهر في القرن الجديد ستالين وهتلر وبول بولت آخرون.

The Yamato Dynasty: The Sercet History of Japan's Imperial Family

(سلالة ياماتو: التاريخ السري للأسرة الإمبراطورية في اليابان)

Sterling Seagrave
Bantam Press, 1999, 426pp., £17.99

كتاب مثير للجدل يخترق محرمات لا يرغب اليابانيون في كشفها، ويتناول نظرة اليابانيين إلى أنفسهم، ونظرة العالم إليهم. ويشير الكاتب إلى أنه رسخ في الأذهان منذ سنوات طويلة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية أن الأسرة الإمبراطورية اليابانية بعيدة تمامًا عن السياسة، وأنها ليست سوى واجهة احتفالية لنظام الحكم الياباني تعود لعصور بعيدة مضت. ويقول المؤلف أنه لا شيء بعيد عن الحقيقة مثل تلك المقولة، فالإمبراطور وعائلته - كما يدعي - يمارسان دورًا فعليًا في السلطة، وإن كان من وراء حجاب.

ولمدة تزيد على قرن من الزمان، كانت السلطة الحقيقية في اليابان يسيطر عليها رجال من زاباتيسو، وهي مجموعة من الشركات التي تمتلك عصارة الاقتصاد في البلاد، ومن بين هذه الشخصيات كوداما يوسيشو الذي كان الحاكم الحقيقي لليابان قبل الحرب العالمية الثانية. وهؤلاء الرجال كانوا الداعمين الأساسيين للنظام السياسي، وعلى سبيل المثال فإن الحزب الليبرالي، الذي يعد الحزب الديمقراطي الليبرالي الحالي امتدادًا له، كان يتلقى الدعم من كوداما قبل أن يدخل السجن كمجرم حرب.

واكتسب رجال زاباتيسو الثروة من نهب اليابان للشعوب المجاورة مثل كوريا ومنشوريا والصين وغيرها، وقد جرى إخفاء جزء كبير من هذه الأموال لما بعد الحرب، حيث ظهرت من جديد لتساهم في إعادة بناء البلاد صناعيًا.

وحتى الآن فإن الاعتقاد السائد هو أن الأسرة الإمبراطورية اليابانية إما أنها يتم تجاهلها سياسيًا، أو أنه تنقصها الكفاءة للتأثير السياسي، إلا أن المؤلف ينفي ذلك ويشير إلى أنه على سبيل المثال، فإن شقيق الإمبراطور الراحل هيروهيتو الأمير شيشيبو كان يرأس جهاز المخابرات، وحتى هيروهيتو نفسه كان على علم بكل التطورات التي حدثت في اليابان، وكان بإمكانه منع الهجوم الياباني على ميناء بيرل هاربور الذي أدى لإعلان الولايات المتحدة الحرب على اليابان.

ويتساءل المؤلف.. لماذا إذن لم تتم محاكمة أعضاء الأسرة الإمبراطورية كمجرمي حرب بعد انتهاء الحرب رغم أن القادة الأمريكيين يعرفون تماما دورها في الحرب؟ ويرد بأن اليمين الأمريكي أراد بقاء هيروهيتو في السلطة في إطار معركتهم مع الشيوعية، وكوسيلة للتأثير الدائم على اليابان بعد ذلك. ويشير إلى أن التحالف بين اليمين الأمريكي وعلى رأسه الجنرال دوجلاس ماك آرثر والنخبة اليابانية أخفى جرائم الأسرة الإمبراطورية، وجرى تقديم الجنرالات والسياسيين اليابانيين كأكباش فداء.

Vaclav Havel: A Political Tragedy in Six Acts

(فاكلاف هافيل.. تراجيديا سياسية في ستة فصول)

John Keane
Bloomsbury, 1999, 532pp., £25.00

قبل عشر سنوات فقط، لم يكن فاكلاف هافل الروائي والرئيس الحالي لجمهورية التشيك معروفًا سوى في وطنه تقريبًا. وكانت الأقلية التي تعرفه تنظر إليه على أنه مناضل شجاع رافض للحكم الشيوعي في بلاده وروائي جيد.

ولكن بعد أن جرى اختياره رئيسا لجمهورية تشيكوسلوفاكيا قبل أن تنقسم إلى جمهوريتي التشيك والسلوفاك، عقب الثورة التي اجتاحت أوروبا الشرقية في نهاية الثمانينيات، صعد هافيل سلم المجد وتحول الروائي إلى زعيم دولة بارز.

وقد اختار المؤلف العنوان «فاكلاف هافيل.. تراجيديا سياسية في ستة فصول» على هذا الشكل ربما ليحاكي إحدى روايات هافيل، وهو يقدم ليس فقط سيرة ذاتية لهافيل، بل دراسة في فن الحكم في شكل سيرة ذاتية. ويشير المؤلف إلى أن الفصل الأخير في سيرة هافيل بعد النضال والتأليف والسجن والوصول للرئاسة هو الانحدار. فقد عاش حياة أسرية عاصفة عقب وفاة زوجته الأولى أوليجا في بداية حكمه، وتزوج من داسا التي لم تكن تحظى بشعبية أوليجا، وقاد هافيل سنوات التحول من الاشتراكية لاقتصاد السوق مع المشكلات التي عانى منها الناس، ثم جاء الانفصال الحضاري الذي تم بين التشيك والسلوفاك، وبدأت منذ شهور صحة هافيل نفسه في التدهور إلى درجة خطيرة.

ويتناول المؤلف سياسات هافيل من وجهة نظر نقدية، فهو غير مؤيد للتحول إلى سياسات السوق الحرة، ويعتقد أن هافيل ربما ركب الموجة ليتقدم الصفوف ويفوز بالرئاسة التي لاشك أن هناك كثيرين غيره يستحقونها.

The Plot to get Bill Gates

(مؤامرة للنيل من بيل جيتس)

Gary Rivlin
Quartet, 1999, £10.00

يتفق الجميع علي أن بيل جيتس أحد المؤسسين والرئيس الحالي لشركة ميكروسوفت للكمبيوتر هو أغني رجل في العالم. وهناك مواقع علي الإنترنت حاليا تتابع تزايد ثرواته علي مدار الساعة، كما لو كان الأمر رياضة محببة. ووراء ذلك فإن الآراء تختلف بشدة حول هذا الشخص، فهناك من هو معجب به بشدة، باعتباره مؤسس أفضل شركة تحقق أرباحًا علي مستوي العالم، لكن هناك في المقابل من يكره ويخشى منه بأوسع الحدود، وخاصة داخل صناعة الكمبيوتر.

وهذا الكتاب يمثل محاولة جديدة لفهم ظاهرة جيتس متتبعًا جذوره من خلال العودة إلي شخصيته الغريبة أيام الدراسة التي لم تكتمل في جامعة هارفارد، وتأسيسه مع صديقه من أيام المدرسة بول آلان شركة ميكروسوفت. ويحصر المؤلف القصص العديدة التي تصل أحيانا إلي حد الأساطير حول كيفية تحول جيتس وشريكه إلي عملاق تمكن من إذلال شركة IBM، وموقف الشركات الأخرى في مجال الكمبيوتر من هذا القادم الجديد الذي اكتسح هذه الصناعة، ولأن المؤلف يعرف المحيطين بجيتس جيدا، فإنه يروي القصة ببراعة وهو لا يحاول أو يضفي علي جيتس صبغة شيطانية، كما يصر خصومه، بل يحاول أن يفهمه قائلا: «إنه رجل أعمال أفضل منه مصمم برامج».

اجتمـــاع

التنوع والتعايش

حسن الصفار

بيروت: دار الساقي، ١٩٩٩

يطرح المؤلف فكرة التنوع التي يفترض أنها تقود إلى الاختلاف والصدام، لكنه يبحث من خلالها عن إمكانيات التعايش بين الأضداد والمختلفين.

□□□

مدخل إلى علم الاجتماع

مختار محمد ـ فاطمة عبد السلام

القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩

يتضمن الكتاب إطلالة على أهم مدارس علم الاجتماع ورواد هذه المدارس ومناهج البحث التي اتبعوها، وتأثير هذا النوع من المعارف على المجتمع.

□□□

Consuming Desires: Consumption, Culture and The Pursuit of Happiness

(رغبات استهلاكية: الاستهلاك والثقافة والبحث عن السعادة)

Roger Rosen Blatt (editor)

Shearwater Books, 1999, 240pp., $24.95

هجوم مدروس على الإدمان العالمي لاستهلاك الأشياء من جانب مجموعة كبيرة من النقاد الاجتماعيين. يناقشون اختفاء قيم أخلاقية مثل التواضع والبساطة، وسيادة الاهتمام بالأشياء المادية باعتبارها مصدرا لتقدير الذات، والخطورة النفسية والاجتماعية من ذلك.

□□□

Multicultural Questions

(قضايا التعددية الثقافية)

Steven Lukes

Oxford University Press, 260pp., £30.00

قام بتأليف هذا الكتاب ثمانية باحثين بارزين من دول مختلفة ناقشوا خلاله التعددية الثقافية من حيث النظرية والتطبيق. ولم يحاول الباحثون إصدار حكم قطعي بتأييد أو رفض التعددية الثقافية، بل فضلوا تحليل الأبعاد التاريخية والجغرافيا للظاهرة في عديد من الدول.

□□□

The End of Class Politics

(نهاية سياسات الطبقة)

Geoffrey Evans (editor)

Oxford University Press, 438pp., £40.00

يعتمد الكتاب على فكرة أن الطبقة لم تعد مهمة في تحديد السياسات، ويجمع أدلة من أنحاء العالم على أن دور الطبقة في الحياة السياسية يتضاءل ولم يعد الناخب يصوت لمرشح معين بسبب طبقته، وهي فكرة تحتاج إلى نقاش كثير بالنظر إلى اختلاف التطور السياسي والاجتماعي بين الدول.

اقتصاد وإدارة

الرأسمالية اليهودية في مصر

أنسي مصطفى كامل

القاهرة: دار ميريت، ١٩٩٩

يتناول المؤلف الدور الذي لعبه اليهود في الاقتصاد المصري منذ أسرة محمد علي، واقتحامهم لميادين الصناعة في مصر، ثم محاولاتهم الحالية بعد التطبيع.

□□□

Accounting Services, The Islamic Middle East and Global Economy

(الخدمات المحاسبية والشرق الأوسط الإسلامي والاقتصاد العالمي)

David L.Mckee,Yosra Abumara Mckee

Quorum, 1999, $65.00

يحلل دور الخدمات التي توفرها شركات المحاسبة الدولية في خلق الروابط الاقتصادية بين دول العالم،وفي التوسع المحلي والإقليمي. ويتناول بصفة خاصة دور هذه الشركات في مصر والمملكة السعودية وتركيا وبعض دول الخليج العربي.

□□□

Management Challenges for the 21st Century

(تحديات الإدارة في القرن الحادي والعشرين)

Peter F. Drucker

Harperbusiness, 1999, 207pp., $27.50

أحد مؤسسي علم الإدارة الحديث في الخمسينيات من هذا القرن، يتناول أثر التحولات الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة اليوم على استراتيجية إدارة الأعمال في المستقبل. من أهم التغيرات، انهيار معدلات المواليد في العالم المتقدم، وتغير مفهوم الأداء المؤسسي، والمنافسة العالمية، بالإضافة إلى التباعد المستمر بين الواقع الاقتصادي والواقع السياسي. يضع دراكر قواعد جديدة لمتطلبات القيادة الحديثة، وقواعد جديدة في النظر إلى العمالة الذهنية أو المعرفية، لا باعتبارها تكلفة ولكن باعتبارها أحد أصول رأس المال.

□□□

In Praise of Hard Industries: Why Manufacturing, Not the Information Economy, Is The Key to Future Prosperity

(لماذا التصنيع وليس الاقتصاد المعلوماتي هو مفتاح الرخاء المستقبلي)

Eamonn Fingleton

Houghton Mifflin,1999, 288pp., $26.00

في وجهة نظر مخالفة للخطاب السياسي والأكاديمي السائد في الولايات المتحدة، يعدد المؤلف مساوئ الاعتماد على الأنشطة ما بعد الصناعية، مثل الصناعات المالية والخدمية..إلخ. ويدعم وجهة نظره من خلال عقد مقارنة بين الاقتصاد الياباني والاقتصاد الأمريكي.

تاريخ

القدس.. سيرة مدينة

خالد محمد غازي

القاهرة: دار الهدى للنشر والتوزيع، ١٩٩٩

يلقي الكتاب أضواء على القدس وتاريخها، مؤكدا عروبتها، من خلال وثائق ودفوع تاريخية، وعبر شهادات لمؤرخين وكتاب عرب وإسرائيليين.

□□□

العرب وثورة الاتصال الأولى

عصام الموسى

عمان: جامعة اليرموك، ١٩٩٩

يبحث المؤلف في اللغات القديمة بوصفها إحدى وسائل الاتصال بين الشعوب والحضارات القديمة، ويقدم تاريخ الحروف العربية، مشيرًا إلى أنها نبطية وليست سريالية.

□□□

تاريخ الإسكندرية عبر العصور

مجموعة من الباحثين

تقديم: محمد عواد حسين

الإسكندرية: الهيئة الإقليمية لتنشيط السياحة، ١٩٩٩

يتحدث الكتاب عن نشأة الإسكندرية منذ عام ٣٣١ ق.م. عندما أرسى الإسكندر قواعدها، وكيف أنها أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية عندما اتخذها بطليموس الأول والثاني عاصمة لملكهما، وزينا بها تاج الدولة الرومانية.

□□□

تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية

جان مازيل

ترجمة: ربا الخش

اللاذقية: دار الحوار، ١٩٩٩

يتتبع الكاتب آثار الحضارة الفينيقية في مساحة تتسع إلى ٥٥ ألف كيلو متر، مبينًا أهم هذه الآثار، ومتتبعا أصل الفينيقيين ومعتقداتهم وآثارهم العلمية والروحية.

□□□

المرأة في مصر المملوكية

أحمد عبد الرازق

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩

لا يقدم الكتاب فقط توصيفًا لما كان عليه حال المرأة في العصر المملوكي من حيث طريقة حياتها وأزيائها وزينتها، وإنما يحلل دورها سياسيا ومدنيا وحربيا.

□□□

رحلة العائلة المقدسة

وزارة السياحة

القاهرة: ١٩٩٩

الكتاب نشرته وزارة السياحة بلغات سبع. وهذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها باللغة العربية، ويتناول فيها سيرة السيدة مريم العذراء ورحلتها في أرض الكنانة.

□□□

إمارة بني صالح في بلاد النكور

الطاهري أحمد

الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩

يتناول الكاتب التاريخ الإسلامي لمنطقة النكور التي فتحت على يد طارق بن زياد، ويعد صالح بن منصور من أهم مؤسسي هذه الإمارة، التي انتشر الإسلام فيها ومنها امتد إلى باقي أنحاء المغرب، متعرضًا لدورها الثقافي والاقتصادي آنذاك.

□□□

The Sword and The Shield: The Mitrokhin Archive and The Secret History of the KGB

(السيف والدرع: أرشيف ميتروخين والتاريخ السري للكي. جي. بي)

Christopher M. Andrew, Vasili Mitrokhin

Basic Books, 1999, 720pp., $32.50

عمل ميتروخين مديرًا لأرشيف المخابرات الأجنبية في الكي. جي. بي، ومسئولا عن ٣٠٠,٠٠٠ ملف سري. ومع فقدان إيمانه بالنظام، أمضى اثني عشر عاما في تهريب المعلومات السرية من الأرشيفات السوفيتية إلى أن سلمها لسفارة بريطانيا في عام ١٩٩٢. هذا الكتاب يضم معلومات عن أهم العمليات التي قامت بها وخططتها الكي. جي. بي، خاصة ضد بريطانيا والولايات المتحدة.

□□□

World Civilizations: The Global Experience

(حضارات العالم: التجربة الكونية)

Peter N. Steams, Midrael Adas

New York: Longman, 1999, 700pp.

مقدمة شاملة للحضارات الرئيسية في العالم، تعالج تاريخ جنوب وشرق وغرب آسيا، وأمريكا اللاتينية، وأفريقيا، إلى جانب التاريخ الأوروبي.

تراجم وسير

تحية كاريوكا بين الرقص والسياسة

سليمان الحكيم

القاهرة: دار الخيال، ١٩٩٩

لم تكن تحية كاريوكا مجرد راقصة، كانت ظاهرة فنية وتعبيرا عن عصر، عاشت تناقضات عديدة على المستوى الشخصي، فقد تزوجت من وجهاء عديدين، وأحد أزواجها كان من الضباط الأحرار. وقد دخلت المعتقل وتناثرت حولها الشائعات. وعلى المستوى الفني عملت في السينما والمسرح والإذاعة وساهمت في العمل الاجتماعي العام.

□□□

ثمن الحب

رفيق سبيعي

دمشق: ١٩٩٩

يتحدث المؤلف عن تاريخ سوريا عبر سيرته الذاتية، وكذلك تاريخ الفن، وخصوصًا المسرح وتكوينه لعدة فرق مسرحية منذ بدايات المسرح في سوريا، ويخصص المؤلف جزءا من كتابه للأحداث الكبرى التي شهدتها بلاده وكان شاهدًا عليها.

□□□

لطف الله خلاط.. الصحافة بين الدين والسياسة

عاطف عطية

بيروت: دار النهار، ١٩٩٩

يتابع المؤلف السيرة الذاتية للكاتب لطف الله خياط، الذى حرر مجلة الحوادث، ونفى إلى الأناضول أثناء الحرب العالمية الثانية، ومساهمته بالكتابة أثناء الحرب، وجهاده فى سبيل تحرره الفكرى.

□□□

King of The World: Muhammad Ali And The Rise of An American Hero

(ملك العالم: محمد على وصعود بطل أمريكى)

David Remnik

Picador, 1999, 336pp., £14.99

عشرات من الكتب تناولت حياة وبطولات محمد على كلاى. فى هذا الكتاب يكتب رئيس تحرير مجلة «النيويوركر» عنها باعتبارها مسرحية أخلاقية تحتوى على دروس إلهية، حيث مَثل كلاى «البطل الطيب» دائما منذ صعوده المدوى وخلال نجوميته، وحتى إصابته بمرض باركنسون. قال عن مرضه إنه يعتبره تذكيرا له بأنه إنسان عادى رغم كونه أقوى ملاكم.

□□□

People of the Century: One Hundred Men and Women Who Shaped the Last One Hundred Years

(شخصيات القرن: مائة رجل وامرأة شكلوا المائة عام الماضية)

Time / CBS News

Simon & Schuster, 1999, 488pp., $35.00

محررو مجلة «تايم» بالاشتراك مع محطة «سى بى إس نيوز»، يختارون أهم مائة شخصية فى القرن الماضى من بين القادة والفنانين والمثقفين والأبطال الشعبيين.

ثقافة شعبية

الأمثال الشعبية الجزائرية

عز الدين جلاوجى

الجزائر: دار الثقافة، ١٩٩٩

إطلالة على المثل الشعبى فى الجزائر، ودوره فى الكيان الجمعى للأمة الجزائرية، كونه يمثل خلاصة حكمة الشعب، ويورد المؤلف أحيانا تواريخ شيوع تلك الأمثال والمناسبات التى قيلت فيها.

□□□

DK Illustrated Dictionary of Mythology: Heroes Heroines, Gods, and Goddesses from Around the World

(القاموس المصور للخرافات: أبطال وآلهة من جميع أنحاء العالم)

Philip Wilkinson, Neil Philip

DK Publishing, 1998, 128pp., $24.95

يتناول الخرافات التى وجدت فى مصر واليابان وأمريكا الشمالية وأستراليا قديما. وعلى وجه الخصوص تلك الخرافات التى كانت تعمد إلى تفسير الكون ومعنى الحياة والموت والظواهر الطبيعية.

رواية

المسافر الأبدى

علاء الديب

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩

مجموعة قصصية تضم نحو ثلاثين قصة كُتبت فى مراحل متعددة من رحلة الكاتب التى استمرت أكثر من أربعين عامًا، وتحمل القصص حكمة المؤلف فى الإبداع ودروبه، وخبراته المتراكمة عبر تلك السنوات.

□□□

تل الهوى

يوسف أبو رية

القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩

رواية تحكى حالة الصراع داخل قلب وعقل الكاتب بين عالمين، عالم القرية ببساطته وتلقائيته، وعالم المدينة بما يحويه من صخب ومشاحنات. وفى النهاية تظل القرية هى بؤرة اهتمام الكاتب ومفخرة إبداعه.

□□□

حياة وحشية

ريتشارد فورد

ترجمة: كامل يوسف حسين

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩

رواية عن العلاقات الفاسدة التى تفرزها ضغوط اقتصادية واجتماعية حادة، وما يمكن أن تقود إليه من انهيارات وتحولات.

□□□

زواج مدنى.. بعل وبلك

طليل رامز سركيس

بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩

عمل أدبى يدور فى إطار خيالى، حيث يصور المؤلف زواجا تم بين الإله بعل ومدينة بك، الإله يسعد بحرية المدينة، والمدينة ترى الحرية بلا خبز جوعا، وترى أيضا أن لقمة العيش مع القيود مجاعة تامة، ومن ثم لابد من توازن بين الحرية والخبز.

□□□

غرفة البرتقال

عارف علوان

كولونيا: دار الجمل، ١٩٩٩

رواية هى الثانية للكاتب العراقى المقيم فى ألمانيا، وهى ذات طبيعة اجتماعية وإنسانية. لكن مشاعر الغربة لا تغيب عنها، والسياسة دائما بين السطور.

□□□

كل يا طاووس حتى تكبر

جنان جاسم حلاوى

السويد: دار المنفى، ١٩٩٩

مجموعة قصصية يمكن أن تمثل فى مجملها سيرة ذاتية عن رحلات المؤلف وذكرياته فى الأماكن التى ارتادها وقبع فيها، إما هاربًا أو مختبئًا أو مسجونًا، فى لغة مشحونة بالحنين والوصف.

□□□

Fate of A Prisoner and Other Stories

(مصير سجين وقصص أخرى)

Denys Johnson - Davies

Quartet, 1999 / Cairo: AUC Press,1999.

المجموعة القصصية الأولى للمترجم الإنجليزى، الذى ترجم العديد من الأعمال الأدبية العربية إلى الإنجليزية مثل روايات الطيب الصالح، ومحمود تيمور، وسلوى بكر وأليفة رفعت، ومحمد البساطى. تتناول قصصه زوايا مختلفة من الحياة فى مصر والشرق الأوسط بعيون الأوروبى الذى يعيش فى تلك المنطقة.

□□□

Gemma Bovery

(جيما بوفارى)

Posy Simmonds

Jonathan Cape, 1999, 100pp., £14.99

المؤلفة تتعمد محاكاة رواية فلوبير الشهيرة «مدام بوفارى»، ولكن فى قالب ساخر يعكس مزاج وأسلوب التسعينيات المعاصر.

سياسة

أبحاث فى تاريخ الفكر السياسى المغربى

تحرير: عبد الله ساعف

الرباط: كلية العلوم القانونية والاجتماعية

دراسات فى تطور الفكر السياسى فى المغرب والتاريخ السياسى للمنطقة، ويضم الكتاب أبحاثا لمفكرين عرب من بينهم عز الدين العلام وزكى مبارك ونجية بن يوسف وآخرون.

□□□

أنا.. والجنزورى

عادل حمودة

القاهرة: الفرسان للنشر، ١٩٩٩

أسرار المعارك التى دارت فى كواليس الصحافة والسياسة فى عهد حكومة الجنزورى، ويسجل بعض جوانب التجربة من وجهة نظر المؤلف.

□□□

السلام المعلق

أحمد قريع

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩

رؤية لمسار السلام الراهن والاتفاقات الموقعة بين إسرائيل من جهة، وأطراف عربية من جهة أخرى. وهى رؤية لا ترى خيرًا كثيرًا فيما يمكن أن تقود إليه الاتفاقات بأوضاعها الراهنة.

□□□

المتدينون والعلمانيون فى إسرائيل

نافذ أبو حسنة

بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحث والتوثيق، ١٩٩٩

يتناول الكتاب العلمانية داخل المجتمع الإسرائيلى ومدى تحققها، وموقف الجماعات الدينية فى إسرائيل من المفهوم وتطبيقاته ومحاولاتهم للتأثير على التوجهات العلمانية داخل هذا المجتمع.

□□□

المفترون

فهمى هويدى

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يتناول الكتاب مواقف تكتلات ثقافية من الماركسيين والعلمانيين يقفون فى معسكر الضد لكل ما هو إسلامى، بعضهم حسبما يرى المؤلف يسىء إلى الإسلام عن قصد، وأكثرهم يعادونه عن جهل، والطرفان ينفذان مخططًا غربيًا يسعى لاقتلاع الإسلام من بين أهله.

□□□

إيران والخليج

عبد الله النفيس

الكويت: دار قرطاس، ١٩٩٩

يعرض الكتاب للمشكلات التى يواجهها عرب الخليج وإيران فيما بينهم، والتى يعود بعضها إلى الخلافات القديمة بين الفرس والعرب، وبعضها إلى اختلاف اللغة والثقافة. ويدعو الكاتب إلى إيجاد وسيلة لتجاوز هذه الخلافات فى الوقت الراهن.

□□□

جنون العولمة

ترجمة: كمال السيد

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٩

يناقش المؤلف مصطلح العولمة، والأفكار التى تناولها المؤلفون حوله، وتحليلاتهم للمفهوم فى الاقتصاد والسياسة وغيرها من المجالات. ويركز المؤلف على تأثيرات العولمة على الشرق الأوسط ودول المنطقة.

□□□

سؤال الحرية

ماجد السامرائى

دمشق: دار الأهالى، ١٩٩٩

يتساءل الكاتب: كيف اغتال المشروع القومى العربى كل الأحلام، واغتال حرية الكتابة عند المثقفين وأحبط أحلامهم، وكيف ساهم المثقفون أنفسهم فيما آلت إليه الأمور.

□□□

فيض الغربة

حبيبة محمدى

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩

دراسات عن الحالة السياسية الراهنة فى الجزائر، ومشاعر الجزائريين وآلامهم وتاريخهم النضالى الطويل.

□□□

مشروع التطبيع مع الكيان الصهيونى

حسن جوهر

الكويت: دار البناء، ١٩٩٩

يسعى الكتاب إلى كشف خطط التطبيع التى يعتمد فيها العدو إلى بث الخراب والفساد وروح الانهزامية فى المجتمعات العربية، عبر سلام خادع لم يتحقق.

□□□

مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية

جمال السويدى وآخرون

أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٩

رؤية لمستقبل مجلس التعاون فى ظل المتغيرات الراهنة على الصعيدين المحلى والعالمى، ويعرض فيه المؤلف لإنجازات المجلس فى الماضى وخططه للمستقبل.

□□□

من عناوين المجتمع القادم

سهيل العروس
دمشق: دار الأهالى، ١٩٩٩

مقالات عن أهم قضايا مجتمعاتنا العربية فى الوقت الراهن وصراعها مع العلمانية والتطرف، وتحدياتها المفترضة لبناء هياكل ديمقراطية وبنى متقدمة صناعيًا وإنتاجيًا، ليمكن فى النهاية بناء مجتمع ناهض عماده التسامح.

□□□

Ally to Adversary: An Eyewitness Account of Iraq's Fall From Grace
(حليف العدو: رواية شاهد عيان لسقوط العراق من الرحمة)
Rick Francona
Annapolic, MD: Naval Institute, 1999, 216pp.

المؤلف عمل ضابطا فى القوات الجوية الأمريكية، وتخصص فى المخابرات الدفاعية فى الشرق الأوسط. ولأنه يتحدث العربية، عمل المترجم الشخصى للجنرال شوارسكوف أثناء حرب الخليج. كما كان ضابط اتصال مع المخابرات السعودية. يتحدث فى كتابه عن انطباعاته الشخصية والعلاقة التنافسية المعقدة بين أجهزة المخابرات المختلفة فى الإدارة الأمريكية. ومن ضمن ما يذكر أن المخابرات العسكرية الأمريكية علمت بغزو العراق للكويت وحذرت منه. ولكن آخرين تعمدوا تجاهل تلك الإنذارات.

□□□

Corruption and Government: Causes, Consequences and Reform
(الفساد والحكومة: الأسباب والنتائج والإصلاح)
Susan Rose Ackerman
Cambridge UP, 1999, 280pp., £35.00 (HB), £11.95(PB)

تناقش المؤلفة كيف يمكن للمعدلات المرتفعة من الفساد أن تحد من النمو الاقتصادى وفرص الاستثمار، وكذلك من فاعلية الحكومة.

سينما

السينما العربية خارج الحدود

صلاح هاشم
القاهرة: المركز القومى للسينما، ١٩٩٩

مقالات فى النقد وتحليل لأوضاع السينما العربية الراهنة، والدور الذى تلعبه فى أوروبا، وإمكانات تعظيم هذا الدور كى يصبح تأثيره أكبر على المشاهد الأوروبى. كما يتضمن الكتاب حوارات مع فنانين عرب عن قضايا السينما فى العالم العربى.

□□□

African Cinema: Postcolonial and Feminist Readings
(السينما الأفريقية: قراءات نسوية وما بعد الكولونيالية)
Kenneth W. Harrow (editor)
Africa World Press, 1999, 400pp., $17.56

يناقش القضايا المعاصرة فى السينما الأفريقية: سؤال الهوية القومية بعد الاستقلال وأدوار النساء المتغيرة وسيادة السلطوية. ويستعرض الأفلام التى أخرجها أفريقيون فى أوائل الستينيات بعد الاستقلال فى كل من نيجيريا والسنغال والجزائر.

□□□

Asian Pop Cinema: Bombay to Tokyo
(السينما الشعبية الآسيوية: من بومباى إلى طوكيو)
Lee Server
Chronicle Books, 1999, 132pp., $16.95

يستكشف المؤلف أهم الأفلام الشعبية التى بزغت فى الفترة الأخيرة فى كل من هونج كونج والصين وتايوان واليابان وكوريا والفلبين والهند، بالتركيز على أفلام الحركة والرعب والخيال والعصابات، كاشفًا عن الاختلافات والتشابهات فى الاقتراب من تلك الموضوعات بين مخرجى هذه الدول. ويتضمن الكتاب كذلك مقابلة مع جون وو، الذى هاجر إلى الولايات المتحدة فى التسعينيات ليخرج فيلمين شهيرين هما :
Face / Off و Mission: Impossible

□□□

Matinee Idylls: Reflections on the Movies
(أناشيد الماتينيه الرعوية: أفكار عن السينما)
Richard Schickel
Iran R. Dee Inc., 1999, 320pp., $26.50

مجموعة مقالات للمحرر السينمائى الرئيسى بمجلة «تايم»، تدور حول نجمات ونجوم الماضى مثل بيتى دايفز، وجريتا جاربو، وفيلليني، وكذلك الفرق بين أفلام وجمهور الخمسينيات وأفلام وجمهور السبعينيات وما تلاها.

□□□

The New York Times Guide to the Best 1000 Movies Ever Made
(دليل النيويورك تايمز لأفضل ١٠٠٠ فيلم صنع)
Vincent Canbey, Janet Maslin (editors)
Times Books, 1999, 1024pp., $25.00

وضع محررو هذا الكتاب قائمة بأفضل ١٠٠٠ فيلم تمت صناعتها منذ بداية السينما، بالرجوع إلى أرشيفات مجلة «التايمز». حيث أعادوا نشر مراجعات الأفلام التى نشرت منذ ١٩٣١ فى المجلة لتسجيل كيف كان استقبال هذه الأفلام فور صدورها.

□□□

Writing and Cinema
(الكتابة والسينما)
Jonath and Bignell (editor)
Longman, 1999, 288pp.

مجموعة من المقالات تناقش الطرق المختلفة التى يمكن من خلالها دراسة علاقة الكتابة بالسينما. فيتم تناول أنواع الكتابة التى تنتج من أجل صناعة السينما، والاقتباسات السينمائية من الأعمال الأدبية والمسرحية الكلاسيكية والمعاصرة، إلى جانب مناقشة للتطورات الأخيرة فى دراسات السينما التى تتضمن الدراسة الثقافية التحليلية لجمهور السينما.

شعر

أجمل قصائدى فى الحب

فاروق جويدة
القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٩

مختارات من دواوين الشاعر من قصائده التى كتبها فى الحب، تعكس سمات العالم الشعرى للمؤلف الذى اشتهر بشعره العاطفى.

□□□

الحب شعر وموسيقى

محمود ربيع الملط
القاهرة: دار حورس، ١٩٩٩

كتاب عن الشعر المغنَّى، حيث يتناول المؤلف عددًا من القصائد التى غناها مطربون كبار، قصائد لأحمد شوقى وكامل الشناوى وأحمد رامى وإبراهيم ناجى ونزار قبانى، وكيف حولت الموسيقى القصائد إلى كلمات سهلة متداولة بين أسماع الناس فأكسبتها شهرة أكبر.

□□□

رماد القمر

برهان مشاوى
أبو ظبى: وزارة الإعلام والثقافة

قصيدة طويلة تستحضر زمن السومريين، وتلقى بظلالها على الواقع عبر مناخ أسطورى وأجواء تاريخية حقيقية.

□□□

صهيل الروح

جويرية الخاجة
الشارقة: المسار للدراسات والنشر، ١٩٩٩

قصائد أغلبها حزين، لا تقوم على صوت ذاتى بقدر ما تستصرخ العالم ليواجه تحدياته الحقيقية، وتستنفر الإنسانية للاضطلاع بواجباتها.

علوم فلكية

دليل المكتشفات الفلكية

وليام لير
ترجمة: عدنان حسن
دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩

يتحدث المؤلف عن المكتشفات الفلكية الجديدة، ويرصد الحركات الجديدة فى فلكنا بأقلام مجموعة من علماء الفلك، ويضم صورًا عن أحداث فلكية مهمة.

□□□

Magnificent Universe
(الكون البديع)
Ken Croswell
Simon and Schuster, 1999, 224pp., $60.00

الكتاب يحتوى على صور تلسكوبية لم تنشر من قبل لكواكب المجموعة الشمسية، وأجرام فلكية أخرى مكتشفة حديثًا، التقطت بواسطة مكوكى الفضاء «فوياجر» و«مارز باثفيندر»، بالإضافة إلى ست عشرة صورة من صور التليسكوب هابل، معالجة بنظام التشفير الحديث.

فكر دينى

الإسلام.. الثابت الحضارى والمتغيرات السياسية

الكسى مالاشينكو
ترجمة: ممتاز بدرى الشيخ
دمشق: دار الحارث، ١٩٩٩

تساؤلات يقدمها المؤلف عن الحضارة والديانة والترابط بينهما، وخصوصًا أن الإسلام هو أكثر الأديان اهتمامًا بتنظيم العلاقات بين البشر وتقنين سلوكهم. ويناقش المتغيرات العديدة المحيطة بثوابت الإسلام، وكيفية تعامله مع هذه المتغيرات.

□□□

الكيان الإسلامى والنضال من أجل العدالة

نعمة حافظ البرزنجى
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩

تتناول الكاتبة فى خمسة فصول، بدايات ظهور الإسلام والمفاهيم التى أشاعها بين الناس، ثم صفة العدل التى هى أساس نهضة المؤسسة الإسلامية، وكيف أن الإسلام يتفق مع الديانات الأخرى فى مبادئ أساسية تتصل جميعها بفكرة العدل.

□□□

محمد إقبال ـ فكره الدينى والفلسفى

محمد العربى بو عزيزى
دمشق: دار الفكر، ١٩٩٩

لا ترجع أهمية محمد إقبال إلى كونه شاعرًا أو فيلسوفًا فحسب، وإنما لمعاصرته فترة عصيبة فى شبه القارة الهندية هى فترة الاحتلال الإنجليزى، ودوره فى رئاسة الرابطة الإسلامية وعمله على توحيد صفوف المسلمين.

□□□

An Invitation to Joy
(دعوة للسعادة)
Pope John Paul II
Additional Text by Greg Burke
Simon & Schuster, 1999, 224pp., $30.00

مختارات من كتابات وأقوال البابا يوحنا بولس الثانى حول المرأة والعمل والأسرة والصلاة والعفو والسيدة مريم العذراء.

كتب أطفال

عالم الكروموسومات العجيب

فريق من علماء الكيمياء
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

كتاب للأطفال يقدم فى أسلوب مبسط

رحلة الكروموسوم داخل الخلية، ومعناها وتاثيراتها، وهو ياتى ضمن سلسلة تعنى بتبسيط العلوم للأطفال.

□□□

101 Things Every Kid Should Know About Science

(مائةمعلومة و معلومة عن العلم يجب على كل طفل أن يعرفها)

Samantha Beres

Lowell House, 1998, 96pp., $9.95

يحتوى على معلومات علمية أساسية للأطفال من سن تسع سنوات إلى اثنتى عشرة سنة. وينقسم إلى أبواب رئيسية فى الكيمياء والطبيعة والأحياء والجغرافيا وعلم النبات...إلخ. ويتناول موضوعات مثل الخلايا والآلات البخارية والزلازل وجسم الإنسان والأشجار..إلخ، بالإضافة إلى سير مختصرة لبعض العلماء والمكتشفين، وكذلك بعض التجارب العملية اليدوية البسيطة.

□□□

The Magnificent Music Book

(كتاب الموسيقى البديع)

Kate Petty and Jennie Maizels

Random House, 1999, £14.99

كتاب مصوَّر للأطفال فى جميع الأعمار يعلمهم كيفية قراءة النوتة الموسيقية، وتفهم أنواع الإيقاع، والنغمات المختلفة، والسلم الموسيقى، والهارمونى.

□□□

The Story of Mankind

(قصة الجنس البشرى)

Hedrik Willem Van Loon, John M. Morriman

Lireright, 1998, 674pp., (HB), $32.95

الكتاب يروى للناشئين تاريخ العالم منذ ٥٠٠,٠٠٠ عام قبل الميلاد. وهو كتاب كلاسيكى شهير صدر لأول مرة عام ١٩٢٢، وحصد جوائز كثيرة، وقد تم تحديثه ليواكب الألفية الثالثة.

لغات

نظام اللفظ اليابانى

بسام خالد طيارة

بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٩٩

يقدم الكتاب شرحا للغة اليابانية وتراكيبها وكيفية نطقها، ويضع الكاتب منهجا لدراسة هذه اللغة وكيفية فهم دلالاتها.

□□□

Arco Toefl Grammer Workbook: Everything you need to Score High (3rd Edition)

(كتاب التمارين النحوية لامتحان التويفل: كل ما تحتاجه لتحقق درجة مرتفعة)

Phyllis L. Lim (editor), et al.

IDG Books, 1998, 256pp., $11.95

□□□

American English Pronunciation Program: For Speakers of English as a Second Language and Native Speakers With Strong Regional Accents

(برنامج نطق الإنجليزية الأمريكية: للمتحدثين بالإنجليزية كلغة ثانية، والمتحدثين الأصليين ذوى اللهجات المحلية الحادة)

Living Language (Editor)

Living Language, 1999, $34.95

(كتاب وشرائط كاسيت)

متنوعات

A Century of Fashion

(قرن من الموضة)

François Baudot

Thamas& Hudson, 1999, 400pp., £19.95

يتناول تطور الأذواق والموضات خلال القرن العشرين، ويبين كيف كان يرتبط دائما بتطور المجتمعات الصناعية وعاداتهم ورغباتهم، وكذلك تطور الأساليب التجارية فى أوروبا والولايات المتحدة. ويتحدث المؤلف عن المصممين المشهورين مثل شانيل وكالفن كلاين، إلى جانب عمالقة الرياضة مثل نايك وأديداس، والرموز الثقافية التى أثرت فى عالم الموضة.

□□□

Crying: The Natural and Cultural History of Tears

(البكاء: التاريخ الطبيعى والثقافى للدموع)

Thomas Lutz

W.W Norton& Company, 1999, 356pp, $27.00

بين علم النفس وعلم وظائف الأعضاء، إلى جانب أمثلة من الأدب والفن. يتناول الكتاب ظاهرة البكاء من زوايا طبية وثقافية واجتماعية، ويحاول شرح الفرق بين دموع الفرح ودموع الفخر ودموع الرثاء ودموع الهزيمة.

□□□

100 Banned Books: Censorship Histories of World Literature

(مائة كتاب ممنوع: تاريخ الرقابة على الأدب العالمى)

Nicholas J. Karolides

Cheekmark Books, 1999, 423pp., $18.95

يتناول أهم الكتب التى تم منعها فى وقت ما بسبب الرقابة، سواء فى الولايات المتحدة أو فى العالم. من الكتب التى منعت لأسباب سياسية: «مزرعة الحيوانات»، و«دكتور جيفاجو». ولأسباب دينية: «الإنجيل» و«القرآن»، و«التلمود»، و«أوليفر تويست». ولأسباب جنسية: «لوليتا»، و«مدام بوفارى»، و«أوليسس». ولأسباب اجتماعية: «مغامرات هاكلبيرى فين».

□□□

نقد أدبى

البؤرة ودوائر الاتصال

نسيمة الغيث

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩

تتناول المؤلفة مصطلح البؤرة فى النقد الحديث واستخداماته، وتبين أن البؤرة هى مركز الإحساس بالنص والنواة التى يدور فى فلكها، وتقدم نماذج تطبيقية من أعمال امرئ القيس وبديع الزمان وغيرهما.

□□□

شذرات فى الأدب الحسانى

بويا لعتيك ماء العينين

الرباط: مركز طارق بن زياد، ١٩٩٩

ينفض الكتاب الغبار عن نوع من الآداب الشعبية فى المغرب وهو الأدب الحسانى، فيتحدث عن موطنه، ويروى بعضًا من أشعاره، ويتناول دوره فى المجتمعات الصحراوية القديمة.

□□□

قالت الرواية - حكايات من وجهة نظر المرأة

تحرير: هالة كمال

القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ١٩٩٩

يقوم الكتاب على التفكيك وإعادة البناء، بحثًا عن دور المرأة فى الحكايات الشعبية. وبناء حكايات أخرى توازى هذه الحكايات.

□□□

مسيرة الرواية فى مصر

حامد أبو أحمد

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٩

يتابع الكتاب تطور مسيرة الرواية العربية منذ الثلاثينيات حتى اليوم، ويثمِّن الإضافات التى قدمها الرواد الأوائل نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعى وغيرهم، وصولاً إلى جيل الرواية الحالى فى مصر.

□□□

قراءات غير بريئة فى التأويل والتلقى

أمنية غصنى

بيروت: دار الآداب، ١٩٩٩

تتخير المؤلفة النصوص التى جار عليها بعض النقاد ووصفوها بأنها خارجة بعدما انتزعوها من سياقها. والمؤلفة تعيد هذه النصوص إلى سياقها العام وتعيد قراءتها وتأويلها ونقدها، لتخرج باستنتاجات جديدة.

□□□

تيارات الأدب العربى فى القرن العشرين

محمد عبد المنعم خفاجى

القاهرة: رابطة الأدب الحديث، ١٩٩٩

يتناول الكتاب اتجاهات الشعر العربى الحديث، ويعرض لآراء مجموعة من كبار المفكرين فى الحركة الشعرية، مثل العقاد ونازك الملائكة وشعراء مدرسة أبولو.

□□□

عيون الشعر العربى القديم

على الجندى

القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩

يعرض الكتاب بالتحليل للمعلقات السبع الشهيرة فى الشعر العربى، موضحًا موقف اللغويين منها وتباين المواقف حولها.

□□□

نظرية الشعر

أحمد يوسف على

القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٩٩

يتتبع المؤلف الإبداعات الشعرية العربى، ويتتبع الرؤى النقدية للإبداع الشعرى منذ ابن طباطبا العلوى، الذى كان واحدًا من رواد الحركة النقدية العربية.

□□□

لذة النص

رولان بارت

ترجمة: محمود خير البقاعى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩

يتناول أفكار واحد من نقاد الحداثة الكبار فى عصرنا الراهن هو رولان بارت، فيقدم عرضًا لآرائه فى العلاقة بين القارئ والنص، ولذة المعرفة التى يكتشفها القارئ بتفاعله مع النص. ويشير بارت فى هذا الإطار إلى أن المعرفة امتلاك لنواحى الحياة.

□□□

ماهية الشعر - قراءات فى شعر حسن طلب

سعيد توفيق

القاهرة: هيئة الثقافة الجماهيرية، ١٩٩٩

بالإضافة إلى ما يقدمه المؤلف من رؤية نقدية وتحليلية لشعر حسن طلب بوصفه رمزا لجيل شعرى، يحتوى الكتاب على مقالات نقدية كتبت عن الشاعر بأقلام أحمد عبد المعطى حجازى وإدوار الخراط وصبرى حافظ وفاطمة قنديل وعباس بيضون وآخرين.

□□□

The Poetics of Science Fiction

(شعرية أدب الخيال العلمى)

Peter Stockwell

Longman, 1999, 256pp.

يستخدم المؤلف علم اللغويات لاستكشاف العالم الأدبى فى الخيال العلمى. فيناقش الكلمات والاستعارات الجديدة، وأثر العوالم الخيالية التى يبدعها الأدباء فى الارتقاء بالتعبير الشعرى والأدبى.

□□□

Writing and Fantasy

(الكتابة والفانتازيا)

Ceri Sullivan, Barbara Whote (editors)

Longman, 1999, 304pp.

يتناول أسلوب الفانتازيا فى الأدب باعتباره استجابة سياسية للفرص والضغوط الثقافية. المقالات تغطى الفترة الكلاسيكية وحتى القرن العشرين، بالتركيز على الفانتازيا كاستراتيجية يستخدمها الفرد لاحتواء أو استغلال لحظات تاريخية أو ثقافية معينة مضت. الكتاب يتجول بين أنواع مختلفة من الفانتازيا من قصص الأشباح إلى اليوتوبيا النسوية.

□□□

كتاب الزاوية

من أجمل قصائد الحب الإلهى

• «إلهى يا سميع» لأحمد البدوى

ـ أبو العباس أحمد البدوى القرشى، ولد بمدينة فاس بالمغرب ثم هاجر إلى مكة مع أهله وتعلم القرآن والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلى العراق ومنها إلى مصر فى عصر الظاهر بيبرس الذى استقبله أحسن استقبال.

نزل فى مدينة طنطا وتوفى بها سنة ٦٧٥ هجرية.

إلهى أنت للإحسان أهلٌ
ومنك الجود والفضل الجزيلُ

إلهى بات قلبى فى هموم
وحالى لا يُسرُّ به خليلُ

إلهى تب وجُد وارحم عُبيْداً
من الأوزار مدمعهُ يسيلُ

إلهى ثوب جسمىَ دنستْهُ
ذنوبٌ حملها أبداً ثقيلُ

إلهى جُد بعفوك لى فإنى
على الأبواب منكسرٌ ذليلُ

إلهى حُفَّنى باللطف يا منْ
له الغفرانُ والفيضُ الجزيلُ

إلهى خاننى جَلَدى وصبرى
وجاء الشيبُ واقترب الرحيلُ

إلهى ذاب قلبى من ذنوبى
ومن فعْلِ القبيح أنا القتيلُ

إلهى زحزحِ الأسواء عنىَ
وكن لى ناصرا نعْمَ الكفيلُ

إلهى سيدى، سندى وجاهى
فمالى غير عفوكَ لى مقيلُ

إلهى صرتُ من وجدى أنادى
أنا العاصى المسيء، أنا الذليلُ

إلهى ضاع عمرى فى غرور
وفى لهو وفى لعب يطولُ

إلهى طالما أنعمتَ منّا
بجودِ منك فضلا يستطيلُ

الكتب
وجهات نظر
رسائل

جلال أمين يرد
على مقال صادق جلال العظم
«العولمة كمثال لصناعة الأفكار»

الدكتور صادق جلال العظم كاتب مهم، إذا كتب فلابد أن يقرأ، يتمتع بدرجة عالية من نفاذ البصيرة. كثيرا ما قرأت له ما اختلفت معه فيه، ولكنك دائما، بعد أن تفرغ من قراءة كتبه أو مقالاته، أكثر ثراء منك قبل أن تقرأه.

كذلك كان حالى بعد أن قرأت مقاله فى العدد الأخير من «وجهات نظر» (نوفمبر ١٩٩٩) المعنون: «نقد لمواقف المفكرين العرب من العولمة»، وإن كنت قد لاحظت انشغاله أحيانا بالأقل أهمية على حساب الأكثر أهمية، كما شعرت باستعداد أقل من اللازم لإبداء السخاء فى قراءة ما يكتبون، مما سأحاول توضيحه فيما يلى.

١ ـ «العولمة» لفظ حديث جدا فى العربية، ولكنه ليس من اختراعنا نحن العرب، بل هو ترجمة لكلمة صُكت فى الغرب (Globalization) وانشغل الناس بها هناك وعقدوا لمناقشتها الندوات والمؤتمرات، فإذا بنا ننشغل بها بدورنا ونحاول البحث عن معناها الحقيقى وتعريفها الصحيح. وهذه ليست بالطبع المرة الأولى التى يصك فيها الغرب فكرة أو شعارا، فننشغل نحن بهما، ثم يخبو اهتمام الغرب بهما فيخبو بالتالى اهتمامنا. حدث ذلك مثلا عندما اشتعل حماس الاقتصاديين فى الغرب خلال الستينيات لفكرة روستو عن مراحل النمو الاقتصادى وبالذات مرحلة الانطلاق (Take-off)، واعتبروها بديلا عن نظرية ماركس فى التاريخ، فتحمسنا لها نحن أيضا حتى انصرف الغرب عنها فانصرفنا نحن. ثم حدث هذا مع شعار «النظام الاقتصادى الدولى الجديد» فى السبعينيات، ثم مع «التكييف الاقتصادى» فى الثمانينيات، ثم مع «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات» فى التسعينيات.. الخ.

وأنا لا أقول هذا من باب الاعتراض على مناقشة ما يناقشه الغرب، ولكن أقوله فقط من باب التنبيه إلى وجوب الحذر من أن صياغة الأفكار والشعارات تتأثر بالمصدر الذى تنبع منه، فهى تعكس طريقة للنظر للأمور قد لاتكون هى الأكثر ملاءمة لنا. إنها دائما تلمس جانبا من الحقيقة، وقد يكون جانبا مهما منها، ولكن اختيار تعبير دون غيره واختيار صياغة معينة للفكرة دون غيرها من الصياغات، قد يحملان فى طياتهما خطر صرف الذهن إلى نواحى قد لاتكون هى الأجدر بانصراف الذهن إليها.

لم أشعر لدى قراءة مقال الدكتور صادق جلال العظم بأنه يعلق أهمية على هذا الأمر، فهو يقبل على تعبير «العولمة» بكل نشاط وحماس ويشمر عن ساعديه لتقديم التعريف «الصحيح» لها، وكأن هناك تعريفا واحدا صحيحا والتعاريف الأخرى كلها باطلة، وكأن هناك طريقة واحدة لوصف هذه الظاهرة تلغى ما عداها. وهكذا تنجح «صناعة الأفكار» فى الغرب، مرة أخرى معنا، كما نجحت من قبل، المرة بعد المرة، إذ تلقى إلينا بالفكرة أو الشعار فننشغل بها ونشبعها بحثا وتحليلا، بل ونتخاصم حول المقابل العربى «الدقيق» لها، كما ننشغل الآن بشعارات حقوق الإنسان ومكافحة «الأصولية» والإرهاب، حيث يجرى إيهامنا بأن هناك جديدا حيث لا جديد، أو بأن الجديد يكمن فى مكان ما بينما هو فى الحقيقة فى مكان آخر.

إن الدكتور العظم يعرف بالطبع، أن الظاهرة أو الظواهر التى يثيرها فى الذهن لفظ «العولمة» كثيرة ومعقدة، وتمس مختلف جوانب الحياة، اقتصادا وسياسة واجتماعا وثقافة.. الخ، فلماذا هذا الإصرار على تقديم تعريف جامع ومانع لها، واعتبار كل ما عداه خاطئا أو على الأقل سطحيا ومتسرعا؟ أليس من الأنسب فى التعامل مع ظاهرة كالعولمة، أن يكون الكاتب مستعدا للاعتراف بأنه لم يلمس كل جوانبها وأطرافها، تاركا بعض هذه الجوانب لغيره، أكثر مما يلائمها هذا الإصرار على إدخال كل هذا الجسم الضخم، بكل تعرجاته ونتوءاته فى ثوب ضيق؟ وهذا هو مايبدو لى أنه حدث مع التعريف الذى قدمه لنا الدكتور العظم لظاهرة العولمة (أو بالأحرى لما ينصرف إليه الذهن عندما نسمع هذا التعبير). فهو يقول: «إن العولمة هى حقبة التحول الرأسمالى العميق للإنسانية جمعاء، فى ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها وفى ظل سيادة نظام عالمى للتبادل غير المتكافئ» ويضيف: «مع التذكير أن كلمة عميق تشير هنا إلى عمق نمط الإنتاج الرأسمالى وليس إلى سطحه فقط، كما تم إيضاح ذلك سابقا» (ص ٣٤).

فلنلاحظ أولا على هذا التعريف، أنه يحاول إبراز العولمة فى صورة تجعلها مجرد مرحلة من مراحل تطور «الرأسمالية». صحيح أن الكاتب واع تماما بأن هذه المرحلة تمثل انتقالا مهما وتحولا كيفيا أو نوعيا، ولكنها ما زالت، على أية حال، فى نظره «مرحلة» من مراحل نفس النظام. وهى نظرة قد لاتكون بعيدة عن الصواب، ولكنها أيضا تصادر على حق مشروع تماما لدى أى ملاحظ لما جرى ويجرى فى العالم خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الماضية، فى أن يعيد التفكير فى ظاهرة الرأسمالية نفسها وأن يتساءل عما إذا كان هذا الذى يحدث يجعلنا بصدد ظاهرة تستحق اسما جديدا، أو على الأقل أن هذه «الرأسمالية» قد أصابها من التغير فى نصف القرن الأخير ما يجعل استخدام نفس الاسم الذى كان مستخدما لوصف ظاهرة عمرها أربعة قرون أو أكثر، أقل ملاءمة بكثير مما نظن.

٢ ـ ولكن حتى إذا وافقنا د. العظم على اعتبار العولمة مرحلة من مراحل النظام الرأسمالي، فما هي السمة الأساسية التي تميز هذه المرحلة الجديدة؟

إنها في نظره امتداد سيطرة الرأسمالية من جانب دول المركز، لتشمل ليس فقط عمليات التبادل والتجارة مع دول الأطراف، بل وأيضا دائرة الإنتاج نفسه في هذه الدول الأخيرة. ولكن هذا التصور للسمة المميزة لمرحلة «العولمة»، لايمكن أن يعتبر تصويرا دقيقا. فالاستعمار التقليدي عرف امتداد رأسمالية المركز إلى مجال الاستثمار وتوظيف رؤوس الأموال في عملية الإنتاج نفسها في داخل الدول الأطراف، ولم يقتصر على مجال التبادل (أي التجارة). فاستثمارات دول المركز امتدت إلى إقامة المزارع الواسعة في الدول المستعمرة وإلى استغلال المناجم وبناء الموانئ والسكك الجديدة ومشروعات الكهرباء والمياه وغير ذلك من المرافق، فضلا عن البنوك التجارية ومختلف أنواع الخدمات الأخرى. هل المقصود إذن «الإنتاج الصناعي» في الدول الأطراف، باعتباره السمة المميزة للعولمة؟

ولكن هذا التأكيد على «الإنتاج الصناعي» بدلا من الإشارة إلى «دائرة الإنتاج» بوجه عام لايبدو بدوره كافيا لتمييز عصر العولمة عن غيره. فقد عرف الاستثمار الصناعي من جانب دول المركز في دول الأطراف، ولو بدرجة بسيطة في ظل الاستعمار التقليدي، ثم عرف بدرجة أكبر بكثير في ظل سياسة «الإحلال محل الواردات» قبل هذا العصر الذي ندعوه بعصر العولمة بعدة عقود.

من المؤكد أن عصر العولمة قد اقترن بإعادة تقسيم العمل الدولي بين المركز والأطراف، على نحو يسمح بتخلي دول المركز لدول الأطراف عن بعض الصناعات أو عن أجزاء منها، وأن هذا التغير قد احتاج بالضرورة كما يشير د. «العظم» إلى «تنظيمات وتوابع ولواحق ومؤسسات..الخ». ولكن ليس من الواضح لماذا نعتبر هذه السمة أهم من السمات الجديدة الأخرى التي طرأت في نفس الوقت، على عمليات التبادل نفسها، وخاصة أن هذه السمات الأخيرة (المتعلقة بعمليات التبادل) قد استدعت بدورها «تنظيمات وتوابع ولواحق..الخ». فبالإضافة إلى انتقال بعض الصناعات أو أجزاء منها من دول المركز إلى دول الأطراف، تغيرت أيضا بشدة طبيعة المنتجات التي يجرى تبادلها بين المركز والأطراف، فزاد نصيب السلع الإنتاجية في إجمالي صادرات دول المركز إلى دول الأطراف، وطرأت تغيرات مهمة على أنماط السلع الاستهلاكية، ليس أقلها أهمية زيادة نصيب الأسلحة في إجمالي هذه الصادرات، فضلا عما نتج عن ثورة الاتصالات والمعلومات من زيادة أهمية صادرات المعلومات والأفكار وأنماط السلوك ومختلف أدوات غسيل المخ.

إن من الممكن جدا، ومن المشروع تماما، أن يزعم المرء بأن هذه التغيرات التي طرأت على عملية «التبادل»، بكل أنواعه، أي سواء كان نقلا لسلعة أو خدمة أو معلومة أو نمط من أنماط السلوك، أهم بكثير وأجدر بالتأكيد، من انتقال بعض الصناعات أو أجزائها إلى دول الأطراف.

٣ ـ في مقال د. العظم يتكرر قوله بأن المطلوب هو التعمق، وتعبيره عن الأسف لأن كثيرا مما يكتب عن العولمة، خاصة من الكتاب العرب، لايتناول إلا ما يظهر على السطح. ولاشك أن التعمق مطلوب وأن الكلام السطحي مذموم. ولكن يظهر من طريقة تناول د. العظم لموضوع العولمة، ومن تعريفه لها، أنه يقصد بالتعمق هنا أمرا معينا هو الوصول إلى السبب، أو مجموعة الأسباب، التي يمكن أن يُفسر بها أكبر عدد من الملامح والسمات التي تتميز بها العولمة. فالتعمق المطلوب في نظره ليس إذن مجرد الكشف عن المستور، أو إيضاح ماكان خافيا، بل هو البحث عن تلك السمة من سمات العولمة التي سببت، على نحو أو آخر، غيرها من السمات، حتى ولو كانت تلك السمة المسئولة عن غيرها، ظاهرة للعيان بنفس الدرجة وبنفس الوضوح اللذين تظهر بهما السمات الأخرى. وهو يختار، كما رأينا، سمة تتعلق «بالإنتاج»، وعلى الأخص الإنتاج الصناعي، تمييزا له عن «التداول والتجارة». ولكن لنفرض أن الدكتور العظم مصيب في اعتبار امتداد نمط العلاقات الرأسمالية إلى مجال الإنتاج، أو إلى الصناعة في دول الأطراف، هو من المميزات الأساسية لعصر العولمة، فهل هو مصيب في اعتباره العامل «الأساسي» أو «الأكثر عمقا»، الذي يصلح لتفسير غيره من سمات العولمة؟ أليس هذا الامتداد إلى ميدان الإنتاج أو ميدان الإنتاج الصناعي، في دول الأطراف، هو نفسه ثمرة التقدم التكنولوجي، وعلى الأخص في ميادين النقل والاتصالات والمعلومات وفي ميدان الإنتاج الصناعي نفسه؟ فإذا كان المطلوب هو الذهاب في «التعمق» إلى أقصى مدى، ألا تكون الثورة التكنولوجية وعلى الأخص في هذه الميادين، هي الأجدر باعتبارها السمة الأساسية لعصر العولمة، ومن ثم تكون هي الأجدر بالإبراز والتأكيد في أي تعريف موجز لظاهرة العولمة؟

وخذ مثلا ظاهرة «عصر النهضة الأوروبية»، إننا نعتبر أن أهم سمات هذا العصر هو ما طرأ فيه من تغير على اتجاهات التفكير وأنماط السلوك، مما ظهر في بزوغ النزعة الإنسانية واشتداد ساعدها على حساب التفكير الديني والغيبي، وفي ازدهار الفنون، وظهور أنماط جديدة منها، ونشأة المنهج العلمي الحديث، ونهضة العلوم، ونشأة الدولة القومية..الخ.

ولكن لنفرض أن أحد المفكرين كالدكتور العظم مثلا، كتب يوبخنا على أن الاهتمام بكل هذا ليس إلا تسطيحا للأمور وتسرعا، إذ لم نتعمق في الأمور بالدرجة الكافية، وأن هذا التعمق كفيل

الكتب
وجهات نظر
رسائل

بأن يدلنا على أن وراء كل هذه التطورات «السطحية» ، تكمن «الكشوف الجغرافية» مثلا، أو اختراع البوصلة، أو حتى اختراع المطبعة، ومن ثم فالأجدر بنا تعريف عصر النهضة الأوروبية بأنه عصر الكشوف الجغرافية، أو عصر اختراع البوصلة أو المطبعة.

ألا يكون هذا الموقف مخيبا للآمال؟ ليس لأن الكشوف الجغرافية أو البوصلة أو المطبعة، لم يكن لها هذا الأثر العظيم، ولكن لأن السمات الأخرى، التى قد تكون نتجت عنها، هى الأكثر حسما وأهمية، والأقوى أثرا فيما تلى ذلك من تطورات. ولكن هذا فيما يبدو لى، هو ما فعله د. العظم مع العولمة. أراد مزيدا من التعمق، وقد يكون قد وصل إليه بالفعل، بمعنى من المعانى، فلم يفعل أكثر من صب الماء على النار المشتعلة، فحوّل موضوعا مثيرا إلى ظاهرة عادية، ومن ثم حوّل الانتباه إلى التركيز على أكثر السمات إثارة وحيوية إلى شىء لايزيد كثيرا عن تسارع معدل الإنتاج الصناعى فى دول الأطراف.

٤ - ولم تكن محاولة د. العظم لإحراز درجة أكبر من «التعمق» أكثر نجاحا فى تناوله لموضوع العلاقة بين العولمة ودور الدولة. ذلك أنه بصرف النظر عما طرأ من تغيرات على مضمون العلاقة بين المركز والأطراف، سواء كانت تتعلق بالإنتاج والاستثمار فى الصناعة أو بالتبادل والتجارة، فإن د. العظم لايميل إلى تعليق أهمية كبيرة على ما طرأ من تغيرات على الآليات التى تجرى هذه العلاقات من خلالها، مع أن هذه التغيرات الأخيرة قد تشكل بعضا من أهم سمات العصر الجديد، عصر العولمة.

لقد طرأت تغيرات على طبيعة السلع والخدمات المتبادلة، ولكن وسائل الإعلام وحملات الإعلان والترويج للسلع أصبح لها نتيجة لذلك، آثار بالغة الخطورة تمتد إلى أبعد بكثير من مجرد كونها وسائل لتصريف السلع. إن هذا التغير فى وسائل الإعلام وحملات الترويج للسلع، وثيق الصلة بالطبع بما طرأ على طبيعة التبادل، ولكن قد يكون فى آثاره أهم من التغيرات التى طرأت على أنواع السلع المتبادلة، مما قد يبرر إبرازه أكثر من غيره فى توصيف ظاهرة العولمة. أى أن التغير فى الآليات التى تتحقق بها ظاهرة ما قد يكون أهم من التغير فى مضمون هذه الظاهرة نفسها. وقل مثل هذا على التغير الذى طرأ على دور الدولة، إن التغير الذى طرأ على نمط تقسيم العمل فى مجال الصناعة بين دول المركز ودول الأطراف فرض تغيرات مهمة على دور الدولة، سواء كانت من دول المركز أو من دول الأطراف، وقوّى بشدة دور الشركات متعدية الجنسيات، سواء فى علاقتها بالدول التى تنتسب مراكزها إليها، أو بالدول التى تمارس فيها نشاطها، وخلق نوعا جديدا من العلاقة بين هذه الشركات وبين دول الأطراف، كما أدى هذا التغير فى تقسيم العمل الدولى إلى نوع جديد من العلاقة بين المؤسسات المالية الدولية، كصندوق النقد الدولى والبنك الدولى، التى تعمل أساسا وبدرجة متزايدة، بوحى من هذه الشركات متعدية الجنسيات، وبين دول الأطراف.

هذا التغير فى دور الدولة، الذى هو قطعا فى اتجاه مزيد من الضعف لا مزيد من القوة، قد يعتبر من بين ما طرأ من تغيرات على آليات العلاقة بين المركز والأطراف، أو آليات عمل النظام الرأسمالى، إذا شئت، ولكنه قد يشكل واحدا من أهم سمات هذا العصر الجديد، عصر العولمة.

لهذا السبب لا أجد مبررا مقبولا لإمعان د. العظم فى التقليل من شأن ما طرأ على دور الدولة من تغير، والإصرار على قول ما معناه إن الدولة لاتزال قوية كما كانت دائما وكما ستظل دائما. نعم، الدولة كانت دائما فى خدمة أصحاب المصالح الاقتصادية الأقوى، ولكن دورها تفاوت قوة وضعفا بحسب تغير هذه المصالح نفسها. والظاهر أن المصالح السائدة اليوم تفضل الدولة الأضعف، وإن كانت دائما على استعداد لاستخدامها، فى أى صورة من الصور، عندما تتطلب هذه المصالح ذلك.

نعم، الدولة كانت موجودة دائما ولازالت موجودة، ولكن ألا يرى د. العظم فرقا مهما بين الملك فى العصر الإقطاعى الذى كان عديم السلطة ومثار السخرية والاستهزاء، والدولة الاستعمارية فى أوج عصر الاستعمار، والدولة فى عصر ريجان وكلينتون؟

٥ - وأخيرا، ألاحظ أن د. العظم لم تظهر منه، فى رأيى، درجة كافية من السخاء فى معاملة بعض الكتابات التى يختلف معها، إنى بالطبع لا أطالبه بالصفح عن الأخطاء، ولكن ما أطلبه هو «السخاء فى القراءة»، فلا يفرط فى تعليق أهمية على بعض الألفاظ المستخدمة، ما دام المعنى الأساسى المقصود صحيحا. إن بعض الكتاب المصريين المساهمين فى كتاب «العرب والعولمة»، الذى تناوله د. العظم بالنقد، تعرضوا للعلاقة بين الدولة والشركات

متعدية الجنسيات فوصفوا دور الدولة بالضعف أو الأفول أو بأنها تتخلى تدريجيا عن بعض سلطاتها لهذه الشركات. كما ذهب د. محمد عابد الجابرى المفكر المغربى، إلى أن العولمة «تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية فى المجال الاقتصادى (المالى والتجارى)، واستخدم للتعبير عن هذه الفكرة العبارة الآتية «العولمة عالم من دون دولة» . أمسك د. العظم بعبارة د. الجابرى «العولمة عالم من دون دولة» واعتبر ذلك من قبيل «الطرح المتسرع والسطحى لعلاقة العولمة والدولة» ، مع أن من الممكن أن يُقرأ كلام الجابرى فى هذا الصدد بمعنى يجعله وصفا قريبا جدا من الحقيقة.

جلال أمين

كسوف الشمس بين الشرق والغرب

مع أول رسالة لكم يشرفنى أن أعترف للقائمين على أمر «وجهات نظر» بالفضل والجهد الذى لاينكر فى تحريك الماء الراكد فى المجتمعات الشرقية ، سدد الله خطاكم، وبارك فيها.

وقد قرأت باستمتاع شديد (ملاحظة) الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل حول ضوء الشمس وظل القمر (العدد الثامن - سبتمبر ١٩٩٩) حيث (لاحظ) أن الممارسة الدينية فى بلاد الشرق أصابها قدر غير قليل من الخلل فانحرفت عن مسارها وعطلت العقل الشرقى عن (الإبداع الحضارى)، واتخذ هيكل من حادثة كسوف شمس يوم (١١/٨/١٩٩٩)، وموقف العقلين الغربى والشرقى منها، اتخذ من ذلك (شاهد إثبات) على ما يقول. وقرر قبل أن يبدأ ، فى مقالته ، ولنعم ماصنع، أنه عند الحديث عن (المقدس) لابد من مراعاة والتزام بعض الشروط.

وفى الواقع أنه لايوجد خلاف حول القضية المحورية (للملاحظة) فلكم وددتُ لو صرختُ بها فى الميادين العامة فى عواصم الشرق أجمعين، ومع هذا فقد شعرتُ أثناء القراءة أن الحاجة ماسة لبيان بعض (المفردات) أظنها ستكون بمثابة الإطار لمقالة الأستاذ هيكل وبلورة لبعض (الشروط) التى تحدث عنها فى بداية المقال.

أولا: إن أى حديث عن الممارسة الدينية فى الشرق يحتاج - معه - إلى بيان واضح تظهر فيه براءة الإسلام - كدين - من الحالة المتردية للشرق فى لحظته التاريخية الحاضرة، وتلقى فيه - أى فى البيان - التبعة كاملة على (فهم) الشرقيين للإسلام فهما مشوها، ثم على (التطبيق) أو)(الممارسة) الخاطئة له بالضرورة. وخصصت الإسلام بالذكر على اعتبار أنه دين الأغلبية فى الشرق على المحور (جاكرتا - طنجة).

ثانيا: الحديث عن العقل الأوروبى وإنجازاته - فى القرون الأخيرة - بجوار الحديث عن العقل الشرقى وإخفاقاته، بالإضافة إلى ممارساته الدينية غير السديدة - بدون ذكر أو بيان الضابط السابق - إنما يكرس المفهوم الظالم أن (الدين) هو آفة الشرق المستعصية على العلاج، وفى ظنى أن الأستاذ هيكل ما أراد هذا على الإطلاق أو بالأحرى - على إطلاقه.

ثالثا: فيما يتعلق بحادثة الكسوف أو سواها من ظواهر الكون، فإنه ينبغى أن يُعلم أن الإسلام جاء بمنظومة شاملة لبناء الإنسان، ومن ثم الحياة، وعلّم المؤمنين - من ضمن ما علم - أن مايجرى فى الكون لا مكان فيه (للمصادفة) أو (الفوضى) ، وإنم بتقدير من الله يقع، وأنه فى وقوعه هذا خاضع لقوانين و(سُنن)، ودعاهم بأصرح دعاء إلى اكتشاف كنه هذه القوانين والتفكر فيها والتعامل معها والانفتاح عليها والتأثر بها وتوجيه أثرها حتى تستقيم لهم الحياة على هذا الكوكب، وفى مسافة زمنية ليست بالقصيرة فقُه المسلمون هذا وعلّموا البشرية كيف تكون صناعة الحياة.

رابعا: للمؤمن حسٌ مرهف يتعامل به مع ما يحدث فى الكون من ظواهر كالزلازل والبراكين وغيرها إلا أن هذا لايبرر أن ينقطع عن دراسة هذه الظواهر والتعامل معها، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم - كما ورد فى الصحيح - إذا هبت الريح يدخل ويخرج ويتغير لونه، ولايقر له قرار، وهو ، هو الذى أمر المسلم أن يتفكر فى آيات الله وآلائه.

وأنا أتساءل: ماالذى يمنع أن يفزع المسلمون إلى الصلاة والدعاء وفى ذات الوقت (ينفر) فريق منهم ليرصدوا ويحللوا ويستنتجوا ما يجد ويحدث فى الكون من ظواهر؟!

إننا دائما نقع بين المزلقتين فى الفكر : التهوين أو التهويل، ونقع بين المزلقتين فى السلوك : الإفراط ، أو التفريط، وهذا أيضا من آفات العقل الشرقى.

طارق عبد الفتاح السيد
مدرس لغة عربية

"نون"

ماذا ينتظر الإنسان العربى فى قرن قادم؟

تعاقب الفصول يخلع على حياة الناس قدرا من الثبات والتغير فى آن، وتصبح فترة التحول من الصيف إلى الشتاء من أكثر اللحظات المفعمة بالمشاعر الغامضة، والأسى الشجى، الذى يتذكر الإنسان فيه أجمل الأوقات وأصعبها معا.. تمتد الحياة وراءه مثل نهر طويل بغير بداية، وتنبسط أمامه دون أن يدرك ماذا تخفيه وراء أول منعطف يقابله من منعطفات النهر.. ويألف الإنسان فى حياته تلك التحولات الخفية الهادئة بكل ما تحمله من تغيرات داخلية وخارجية، وما تنطوى عليه من تقلبات وصدمات أو أفراح ومسرات، لا ينزعه من الواقع كر الغداة ومر العشى، ولا يمنعه تغير الفصول وتعاقب الشهور وانقضاء السنين وصيرورة الزمن، من أن يحيا حياته بالطريقة التى اعتادها.

ومع ذلك فالناس يحتفلون بنهاية القرن، ولكنهم أكثر احتفالا ببداية قرن جديد، وكأن مرور عشرين قرنا قد أزاح عن كاهلهم شقاء الإنسانية وصراعها من أجل التقدم، وفتح أمامهم مغاليق قرن جديد حافل بالأسرار والاكتشافات.

ولا يستطيع الإنسان أن يتحرر من تاريخه أو ماضيه، وليس بوسعه أن يتجاهل حاضره وظروفه الراهنة، ولكنه يستطيع أن يتجاوزه برؤية مستقبلية كاشفة ومستهدفة.. قد يلجأ البعض إلى الخيال العلمى، يبحث فى إمكانات العلم والتكنولوجيا عن إجابات تلبى أحلام الإنسان وتطلعاته فى مزيج من الواقع والخيال، أو الحقيقة والأسطورة، أو فى أوهام السعادة التى داعبت آمال البشرية منذ فجر التاريخ.. وقد يلجأ البعض الآخر إلى الدراسات المستقبلية القائمة على وضع سيناريوهات مختلفة، تستند إلى إحصائيات وفروض وإلى دراسات واقعية تغطى فترات طويلة نسبيا، تسمح بالوصول إلى استنتاجات أو اتجاهات عامة للمستقبل، تربط بين العناصر المختلفة، وتقدم عددا من الرؤى والاحتمالات الأقرب للممكن.

وإذا استبعدنا أسلوب الخيال العلمى لأنه قد لا يفيد إلا فى شحذ الخيال من خلال القصص والأفلام وحلقات المغامرات، فإن الأسلوب الثانى الذى يلجأ إلى دراسات مستقبلية تغطى فترة زمنية محددة، ترتكز على الماضى وتنسحب إلى المستقبل هو الأسلوب الأمثل الذى يقوم على مناهج علمية معترف بها، تعززها الإمكانات الهائلة للحاسوب (الكمبيوتر). وتسفر عن تنبؤات واحتمالات لمسارات أقرب ما تكون للواقع بعد تحليلات دقيقة للبيانات والمعلومات والإحصائيات.

ولا حاجة بنا إلى القول بأننا فى العالم العربى أبعد ما نكون عن استخدام مثل هذه المناهج العلمية والبرامج البحثية لاستقراء المستقبل واستشراف آفاقه. فنحن قد أدمنا النظر إلى الماضى بدرجة مَرَضيَّة، ولا نملك الأدوات العلمية والكوادر البشرية المدربة لإنجاز مثل هذا الهدف. وباستثناء المشروع الوحيد الذى يقوم منتدى العالم الثالث فى مصر عليه منذ بعض الوقت وعلى وجه التحديد منذ عام ١٩٩٨، بإشراف العالم الكبير إسماعيل صبرى عبد الله، لإنجاز مشروع بحثى عن «مصر ٢٠٢٠» لكى يقدم رؤية مستقبلية بالمعنى العلمى المتفق عليه، تساعد صانعى القرارات على ترشيد قراراتهم وتدير حوارا مع الأطراف الفاعلة فى المجتمع، فإن الصورة المستقبلية للعالم العربى كمجموعة من الشعوب الطامحة إلى نوع من التماسك، والمرتبطة بوشائج تاريخية وجغرافية وحضارية، لم تجد من يقدح ذهنه بحثا عنها أو سعيا إلى الوصول إليها.. اللهم إلا ما تتطرق إليه دراسات المؤسسات البحثية الغربية فى إطار رؤاها ومنطلقاتها الخاصة، ومخططاتها بعيدة المدى، التى يجرى إعدادها لنا فى غيبة عنا وليس لحسابنا.

وإذا كنا لا نستطيع أن نشارك فى مجاهل الخيال العلمى بكل ما فيه من سحر الرؤى وشطحات العقل الإنسانى.. وإذا كنا لا نملك غير انتظار ما تسفر عنه جهود مخلصة ومضنية للقائمين على المشروع البحثى لمصر ٢٠٢٠، فقد لا يبقى أمامنا غير أن نطرح تساؤلات واحتمالات. وهو المجال الذى يمكن أن تشغل الصحافة ووسائل الإعلام نفسها به، استنادًا إلى ما ينشر من أبحاث هنا وهناك.

وقد أغرقتنا الصحافة العالمية بمقالات وملاحق ودراسات عما ينتظر إنسان القرن الواحد والعشرين من رؤى وتطورات فى مختلف جوانب الحياة ومناشطها، وإلى أى مدى سوف تغير التكنولوجيا والعلم أنماط حياته، وشكل المجتمعات التى يعيش فيها إنسان المستقبل ونظمه السياسية والاقتصادية والاستهلاكية، وهل سيبقى للإنسان فى ظل العولمة الكاسحة شىء من إنسانيته، أم تدهسها الآلة الضخمة لقوى لا يملك إزاءها شيئا، تتحكم فيها القبضة الخفية لأصحاب النفوذ والشركات المتعددة الجنسية؟

ماذا ينتظر الإنسان العربى فى القرن الواحد والعشرين؟ أو قل فى العشرين عاما القادمة من القرن الجديد؟

فى الغرب بعد أن بلغت الحرية بالإنسان حد التخمة.. حرية الإرادة والفعل والقول، وتوافرت له معظم الشروط المادية للحياة، وارتقت المجتمعات فى سلم التطور بعيدا عن الدرك الأسفل للاستبداد، وانطلقت الطاقات الذهنية والعقلية تكشف أسرار العلم وتخوض غمار تجاربه.. أصبحت الأسئلة التى يبحث لها الإنسان الغربى عن إجابة هى من نوع: هل ينجح الإنسان فى التغلب على الأمراض المستعصية مثل الإيدز والسرطان؟ وهل يمكن تجديد الشباب لتصل معدلات الأعمار إلى حدود ١٢٥ عاما؟ وهل تختفى القمامة والنفايات من المدن والقرى وتستعيد الطبيعة جمالها ورواءها؟ هل يشهد الإنسان نوعا جديدا من السياحة فى مستعمرات الفضاء؟ هل سيحتاج الإنسان إلى الجنس؟ وهل يمكن التوسع فى قطع الغيار البشرية؟ هل يمكن عن طريق التحكم فى الجينات أن ننتج أطفالا حسب الطلب وبدون حاجة إلى الجنس؟ هل يمكن التنبؤ بالكوارث الطبيعية والأوبئة ومنعها؟ إلى آخر هذه الأسئلة التى أصبحت إجاباتها فى متناول اليد داخل معامل البحث والجامعات بل وفى الواقع!

أما بالنسبة للإنسان العربى فسوف تظل الأسئلة التى تؤرق مضجعه فى القرن القادم من نوع: كيف يمكن القضاء على الأمية فى العالم العربى؟ ما هى البدائل المطروحة للتنمية أمام المجتمعات العربية حين تنفجر المعضلة السكانية، ويُستنزف النفط ولا يبقى لديها شىء من الثروات المدفونة؟ ومتى يتم تحرير الإنسان العربى من نير الاستبداد الذى قال عنه الكواكبى قبل مائة عام، إنه أصل الانحطاط فى العالم العربى والإسلامى؟ كيف يمكن توفير التعليم الأساسى لملايين الأطفال؟ ومتى يختفى الفقر والجوع والتخلف من الشعوب العربية؟ هل بوسع المجتمعات العربية أن ترتقى إلى درجة تسمح باحترام حقوق الإنسان وأن تختفى أدوات القمع المعلنة والخفية لإرادة الحياة والحرية والتطور؟ متى تتوقف موجات تكفير الإنسان العربى ومحاكمته على فكره، وينتفى ذلك التناقض الزائف بين الدين والعلم، وبين الأصالة والمعاصرة، وبين التراث والتحديث؟ متى تسترد المرأة حقوقها فى المجتمعات العربية، فلا تصبح مطية لأهداف السياسيين ورهينة لسجال قديم حديث حول التمييز الجنسى.. بل قل: متى يختفى الرق وتندثر النخاسة التى مازالت قائمة فى بعض أجزاء الوطن العربى؟

هناك إذن من الأسباب والعلل ما يحمل على الظن بأن إنسان الغرب لديه مبررات تحثه على الاحتفاء بمنجزات قرن قادم، وأن يحتفل بها لنفسه ولأبنائه وأجياله القادمة. أما الإنسان العربى فلو استطاع أن يحقق بعضا من المبادئ الأساسية التى تمثل القاعدة لبناء الحضارة، مثل التحرر من الفقر والجهل والمرض، والتسلح بالحرية والديمقراطية والعلم، فقد ينجح فى تضييق الهوة السحيقة التى تفصل بينه وبين العالم. أما إذا لم يستطع، وغلبه العجز وضعف الهمة وانكسار الإرادة، فلن يبقى له شىء غير ما هو عليه أو فيه. سوف تغلبنا عوامل الاستبداد السياسى، والانهيار الأخلاقى، والإفلاس المعرفى والحضارى لتقودنا إلى مهاوى الانحطاط الذى حذر منه الكواكبى... والمسافة إلى ذلك قصيرة وأقصر مما نتصور!!

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الرابع عشر . السنة الثانية . مارس ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 14 - March 2000

محمد حسنين هيكل

عن المسلمين والأقباط فى مصر

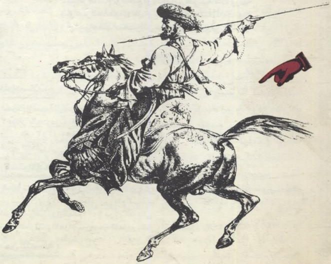




فانونو وامرأة الموساد

القصة الكاملة للقنبلة الذرية الإسرائيلية





انتفاضة الديمقراطية فى إيران

تقرير فهمى هويدى من طهران

كمال أبو المجد وحوار فى دافوس

عن العولمة والإسلام

أنا.. أنا.. ومن بعدى الطوفان — سيرة حياة عبد الرحمن بدوى

على أنقاض الشيشان. بوتن إلى الكريملن

النجمى.. أصفهانى القرن العشرين

الخيول العربية فتنة الأمراء وملهمة الشعراء


ight
Departures
Arrivals
F025 ENGLAND
F001 HONGKONG
F254 YEMEN
F261 NEWYORK
F255 SAUDIARA.
F013 KUWAIT
F225 JORDAN
F420 SPAIN
F540 EGYPT
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
ZIMBABWE
SPAIN
EFG - Hermes

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية

العدد الرابع عشر

مارس ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

محتويات العدد:

«كل المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأي أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

كتاب العدد:

- أحمد كمال أبو المجد.. أستاذ القانون الدستوري بكلية الحقوق - جامعة القاهرة
- آربيه أوسوليفان.. صحفية بالجيروزاليم بوست
- إلياس سحاب.. كاتب سياسي وناقد موسيقي من لبنان
- أنتوني كوردزمان.. خبير استراتيجي أمريكي
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي
- سيرجي كوفاليف.. عضو البرلمان الروسي
- عبد العظيم أنيس.. أستاذ الإحصاء الرياضي المتفرغ بجامعة عين شمس
- عمرو كمال حمودة.. من هواة تربية الخيول
- فهمي هويدي.. صحفي
- فيونا مكارثي.. كاتبة أمريكية
- محمد حسنين هيكل.. صحفي
- محمد سليم العوا.. محام
- مرفت عبدالناصر.. أستاذ الطب النفسي في جامعة ليستر بإنجلترا
- يوسف القعيد.. صحفي وروائي مصري

رسوم العدد للفنانين: محمد حجي - سعد الدين شحاته

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً - باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة اشتراكات الأهرام - مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - ت: ٣٣٩١٠٩٠

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير.
France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

شـــــهر الجـــــوائز والســـــبق الصـــحفي

منذ أن كتب صمويل هانتنجتون مقاله الشهير قبل أعوام عن الصدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية، والفكرة تطرح نفسها، أو «تُطرح عمدا» من وقت لآخر بغض النظر عن مكان الطرح أو أسلوبه أو الهادفين لتسويقه.

فعند القمة البيضاء الشاهقة في «دافوس» السويسرية، حيث جلس زعماء العالم وحكماؤه قبل شهر يتبادلون حديثا «هادئا» وعقلانيا عن «العالم القادم»، كان الملف على المائدة. وفي سفوح جبال القوقاز الوعرة، كان المزارعون الشيشانيون البسطاء يدفعون يوميا ثمن الترويج الواسع النطاق في وسائل إعلام موسكو، لمفهوم «العدوالإسلامي» الذي بدأت ترتسم في الأذهان صورته الإعلامية الكاريكاتورية: ذلك الرجل ذو الجلباب القصير، واللحية الطويلة، والذي يحمل مدفعا وأوراقا ثبوتية تشير إلى كنية تبدأ دائما بلفظة «أبو..» أو «ابن..».

كما جاء في القائمة الشهيرة التي أذاعها التليفزيون الروسي قبل أيام مدللا على «أننا لا نحارب الشيشان.. بل أولئك المسلمين القادمين من كل مكان» في إطار حملة «تبريرية» واسعة النطاق لحرب يتفق الكثيرون على أنها قامت لأسباب داخلية وانتخابية بحتة.

قضية «التكامل أو الصراع مع الآخر» مثلت إحدى زواياها بندا أول على «أجندة» لقاءات منتدى دافوس قبل أسابيع والذي يحضره عدد من رؤساء الدول وكبار الساسة وشارك فيه - ممثلا لمصر - المفكر الإسلامي الدكتور أحمد كمال أبوالمجد حيث شارك في حوارات عديدة مع عدد من رؤساء الدول وراسمي السياسات في الدول الغربية، والذين تتيح لهم الندوة لقاءات مغلقة متحررة من الشكليات والرسميات.

وفي هذا العدد من «وجهات نظر» يخصنا الدكتور أبوالمجد بعرض «ما تكشف له خلال هذه الحوارات» والتي ركزت على الإجابة عن سؤال أساسي مفاده: هل تؤدي العولمة - بالضرورة - إلى صدام الحضارات؟! مفسرا المظاهرات الصاخبة التي شهدتها «سياتل» الأمريكية، وبعدها «دافوس» نفسها، موضحا أن الآليات الجديدة للسوق «العولمية» - وعذرا للاشتقاق - وإن كانت قادرة بحق على إعادة التوازن إلى كثير من صور العلاقات الاقتصادية والتجارية، إلا أنها - مع ذلك - ليست وصفة سحرية قادرة بذاتها على تحقيق جميع صور التوازن الاجتماعي، وتحقيق قيم العدل والمساواة.

قضية «الآخر» ، وإن كانت من زاوية مختلفة، وجدت طريقها أيضا إلى موضوعنا الرئيس في هذا العدد، فوسط «حالة من الفوضى أحاطت بالموضوع» والتعبير للأستاذ هيكل، وإدراكا منا لأهمية - إن لم يكن خطورة - القضية، كنا قد قدمنا في العدد الماضي «رؤية ثنائية» لما حدث في تلك القرية الجبلية جنوب مصر، والتي احتل اسمها، صعب النطق باللغات اللاتينية(الكشح) سطور برقيات وكالات الأنباء العالمية للمرة الثانية خلال أشهر معدودة، لدرجة دفعت البعض - بدلا من التفكير في تغيير المناخ والأسباب - إلى الدعوة إلى تغيير الاسم المتوارث لعقود طويلة لم يكن فيها شقاق ولا مواجهة ولا دماء، ليبقى التغيير بعد ذلك «على الورق» مهما بدا من حفاوة واحتفال.

وفي هذا العدد، نؤصل ما بدأناه بمقال واسع وشامل للكاتب الكبير محمد حسنين هيكل حول «ما تبدى وتصاعد في السنوات الأخيرة من ضغوط على العلاقات بين المسلمين والأقباط من أبناء الشعب المصري..»، يرى فيه أن موضوع الوحدة الوطنية يقف جنبا إلى جنب مع أهمية الحفاظ على مياه النيل «النهر الواحد الذي تجيء موارده من خارج الحدود»، وأن كلتا المسألتين أهم وأخطر من أي مسألة أخرى، ذلك أنه «بدون سلامة القاعدة الوطنية، وبدون حماية مياه النيل والمحافظة عليها، يصبح أي كلام عن الأمن وعن المستقبل سبقا للأوان بالقفز على الحقائق..».

ورغم أننا مطبوعة «شهرية» ، إلا أننا نواكب دائما خبرية الحدث، ففي هذا العدد أيضا نستبق إعلان النتائج النهائية للانتخابات النيابية في إيران، لنقدم «تحقيقا صحفيا ميدانيا» للتحول الكبير الحادث على الضفة الأخرى للخليج، حيث جسد النظام هناك لسنوات في الذهن الغربي نموذج «الخطر الإسلامي» ثقافيا وسياسيا، بل وحتى عسكريا.

التغطية الصحفية من داخل طهران وحوزاتها وحسينياتها بل وبيوت فعالياتها، يكتبها لنا الكاتب الصحفي المعروف فهمي هويدي، والذي أوفدته «وجهات نظر» خصيصا لتغطية الحدث، وليعود لنا بحصيلة لقاءات وحوارات مع عدد من القوى والرموز الفاعلة في عاصمة «الجار» الذي لايمكن تجاهله عربيا في وقت تعاد فيه الصياغة الشرق أوسطية، وفي الحقيقة فقد كانت «وجهات نظر»، ونحن المجلة الشهرية، المطبوعة العربية الوحيدة الحاضرة - فعليا - هناك لنرصد عن قرب، ونحلل عن كثب، ونكتب بأصابع صافحت أولئك الذين نكتب عنهم.

يتواكب مع الأحداث في عددنا أيضا الذي يصدر قبل أيام من الانتخابات الرئاسية في موسكو، مقال مهم لسيرجي كوفاليف يوضح فيه كيف كانت تلك الانتخابات سببا أساسيا لحرب الشيشان الثانية، وكيف أشعلها فلاديمير بوتن ليجعل من أنقاض البلد الفقير طريقه المُعبَّد للكريملن، فضلا عن عرض لكتاب لايخلو من بوليسية الإثارة، كتبه بيتر هونام المحرر بالصنداي تايمز عن الأسرار الحقيقية لعملية خطف موردخاي فانونو الخبير الإسرائيلي الذي كشف قبل سنوات عن الأسلحة النووية الإسرائيلية، قبل أن تتمكن الموساد من خطفه بعد أن أغوته إحدى الشقراوات بقضاء وقت ممتع في العاصمة الإيطالية ، ننشر عرضا لهذا الكتاب بقلم الدكتور عبدالعظيم أنيس، في الوقت الذي تتصاعد فيه شكوك «موثقة» عن أخطار التلوث الإشعاعي المتسرب لمفاعل ديمونة المتهالك والذي كان موضوعا رئيسا لما كشفه فانونو بطل القصة في هذا الكتاب.

ويبدو أن الشهر الفائت الذي احتفلت فيه المجلة بعيد ميلادها الأول كان شهر جوائز، إذ فازت «وجهات نظر» ، وهي لم تكد تطفئ شمعتها الأولى، بجائزة أحسن مجلة ثقافية لعام ١٩٩٩، وتسلم رئيس تحريرها الجائزة من الرئيس مبارك في حفل افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب.

وعلى الناحية الأخرى من العالم ، أعلن في بولونيا، حيث يقام أكبر معرض في العالم لكتاب الطفل نهاية هذا الشهر، عن فوز الشقيقة «دار الشروق» بجائزة «الآفاق الجديدة ٢٠٠٠» والمخصصة لناشري العالم من قارات أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا وأستراليا، وذلك عن كتاب «حياة محمد في ٢٠ قصة» ، والذي تفوق على ١٤٠٠ كتاب من أكثر من ٣٠ دولة وصلت للتصفية النهائية.

قيِّمةٌ هي هدايا عيد الميلاد تلك التي نعتز بها، ونعتز أكثر بثقتكم وحفاوتكم، التي نعتبر الاحتفاظ بها أثمن هدية «شهرية»، علينا مسئولية الحفاظ عليها.

وجهات نظر

عن المسلمين



محمد حسنين هيكل

إن العقائد لا دخل لها بما يمكن أن يقال فى قضايا غيرها عن ديمقراطية الحوار؛ ففى مجال الدين لا توجد أقلية أو أغلبية تحصى بها الأصوات فى نهاية المطاف، ولحسم الأمور بحيث تخضع أقلية لرأى أغلبية، أو تواصل الأقلية عرض حججها كى تتحول هى يومًا إلى أغلبية.

....

لقد كان زمن الحرب الباردة جامعة كبرى تعلمت فيها القوى «هندسة» الفتن، وأكثر من ذلك فإن البراعة فى «الهندسة» وصلت أحيانا إلى إعادة «هندسة الماضى» وإعادة تركيب تاريخ المجتمعات بما يوافق مقاصد الأقوياء!

اللوحة للفنان محمد حجى



والأقباط فى مصر

١ الدين والنيل

طال تَرَدُّدى أمام الموضوع الذى أحسست أننى أريد التَّوَقُّف معه، وليس مع غيره، فى هذا الحديث !

وطال تَرَدُّدى - أيضاً - أمام الجِهة التى ينبغى توجيه الحديث إليها بظنٍ - أو باعتقاد - أنها الأولى به من غيرها، وأنها المسئولة عنه قبل الجميع.

والحاصل أن الموضوع الذى طال تَرَدُّدى أمامه هو ما تَبَدّى وتصاعَد فى السنوات الأخيرة من ضغوطٍ على العلاقات بين المُسلمِين والأقباط من أبناء الشعب المصرى.

والحاصل كذلك أن الجِهة التى طال تَرَدُّدى فى تَوجيه الحديث إليها هى رئاسة الدولة بالتحديد، لأنى أظنُّ - وأعتقد - أنها الأولى به من غيرها وأنها المسئولة عنه قبل الجميع.

....

....

والسَّبَب الذى طال من أجله تَرَدُّدى أمام الموضوع فى حَدِّ ذاته أن الخَوضَ فيه استُبيحَ أمرُه - رغم جَلال خَطَره - لكل ماسكِ قَلَمٍ أو حَجَر أو سَيْف، ولكل مُطلٍّ على الناس من صفحة جريدة أو سَمّاعة مذياع أو شاشة تلفزيون، ولكل من اعتَلى منصَّة كلام أو منبَر وَعظ، أو أمسَكَ بحَبْلِ ناقوسٍ فى بُرجِ كنيسة.

وكانت النتيجة حالة من الفَوْضى أحاطت بالموضوع وقد حَسَبَت أنها تَسُدُّ الطُرُقَ إليه بالزِحام، أو تَصُدُّ عنه بإيثارِ البُعد (عن الزِحام) !

وأما السَّبَبُ الذى طالَ من أجله تَرَدُّدى أمام الجِهة التى أوَجِّه إليها هذا الحديث - وهى رئاسة الدولة - فهو الحساسية من تَجاوُزِ الحُدود :

من ناحية فإن لدَىَّ ظناً - بل واعتقاداً - أن موضوع الوِحدة الوطنية - هو وموضوع مياه النيل معها دون غيرهما وقبل غيرهما - هما اختصاصٌ أصيلٌ لرئاسة الدولة، ومسئولية غير قابلة للقِسْمة تحت أية دعاوى - بما فى ذلك دعوى الفصل بين السُلطات، أو دعوى الممارسة الديمقراطية - ذلك أن مسألة دينَيْن على أرض وطنٍ واحد، وكذلك مسألة نَهْر هو المَصدَر الوحيد للحياة تجيء موارده من خارج الحدود - هما مما لا يَجوزُ فيه التفويض، ولا طول الجَدَل والتَزَيُّد!

كلتا المسالتين فى ظنى - واعتقادى - أهَم وأخطر من أى مسألة أخرى، حتى مسألة الحرب والسلام، وحتى مسألة التنمية والتكنولوجيا. ذلك أنه بدون سلامة القاعدة الوطنية، وبدون حماية مياه النيل والمحافظة عليها - يُصبِح أى كلام عن الأمن وعن المُستَقبل سَبقاً للأوان بالقفز على الحقائق !

ومن ناحية أخرى فإن داعى الحساسية من تَجاوُزِ الحُدود ينشا من أنِ توجيه الحديث إلى رئاسة الدولة قد يُرَدُّ عليه بأن رئاسة الدولة ليست فى حاجة إلى من يلفِت نظرها لما هو فى الصميم من اختصاصها ومسئوليتها .. وهذا منطقى ومشروع !

....

....

على أنه فى النهاية كانت دَواعى التَرَدُّد - هى نفسها دَواعى المُجازفة بالإقدام، لأن الأمور لم تَعُد تحتمل.

ففوضى الزِحام من حول موضوعٍ من الموضوعات لا تمنع أحداً أن يُنادى من بعيد بصوت الضمير، حتى وإن لم يكن واثقاً من إمكانية التاثير.

ثم إن اختصاص جِهة بأمرِ ومسئوليتها عنه لا يَصُدُّ عن توجيه الحديث إليها فى شانه، فتوجيه الحديث إلى طَرَفٍ لا يَعنى بالضرورة تَنبيه هذا الطَرَف إلى غياب، وإنما قد يكون القَصدُ تاكيد وتاييد اختِصاصِه وتدعيم قيامه على مسئوليته.

....

....

وفى كل الأحوال، ومهما كانت الاعتبارات، فإننى بعد طول التَرَدُّد جازَفت وتَقَدَّمت !



أما الديـن ـ على خلاف مع النيل حتى الآن ـ
فقـد كان باسـتمرار مكمناً مشـحوناً بالخطـــر.
بمعنى أن ميـاه النيـــل لقــرون طـــويلة ظلت فى أمان..
أما عقائد الديـن فقد كانت باستمرار فى الميدان. والتفسير واضح، فالنيل فى حُضن الطبيعة، أما الدين ففى قلوب البشر. وفى حين أن الطبيعة مستقرة على أحوالها، فإن قلوب البشر تتنازعها تقلبات الأيام.

ذلك أن الموضوع مُتَّصِلٌ بمُستَقبَلِ وَطَن، ثم إن التَّوَجُّه بالحديث إلى الجِهة المسئولة عنه ـ رئاسة الدولة ـ حالة ضرورة وليس حالة اختيار!

وفيما يتصل بالموضوع نفسه واعتباره مَوصولاً بمستقبل وطن، فليست هناك حاجة إلى إعادة قراءة أو استقراء التاريخ العام ـ أو حتى تاريخ الأفكار ـ لكى يَتَّفِق الناس جميعاً على مَركَزِيَّة الدين فى حياة مصر بالذات، ذلك أن هذا البَلَد هامَ تَعَلُّقاً بفكرة الدين حتى من قبل أن تَتَنَزَّل كلمة السماء!

....

....

وأتذكر حوارين مُتَّصِلَيْن ذات يوم فى باريس (ربيع سنة ١٩٧١) ـ مع أديب فرنسا الحديثة ومُفَكِّرها الكبير «أندريه مالرو» (وزير الثقافة فى عَهْدِ «شارل ديجول») ـ وكان الدين ـ وفى مصر بالذات ـ هو مالئ حديثنا، وكان «أندريه مالرو» هو الذى بادر بطرح الموضوع.

كان الحوار الأول على الغداء فى مَطعَم «لاسير»، وكنا فى صَدَد الحديث عن إسهام مصر فى مُحيط الحضارة الإنسانية الأكبر، ووَجَدتُ «مالرو» يقول: «لا بد أن نَتَذَكَّر أن الحضارة المصرية هى التى «اختَرَعَت» فكرة الأبَدِيَّة.

وعَلَّقْتُ بملاحظة قلت فيها: «لنَتَّفِق على أن نكون أكثر تحديداً ونقول إن الحضارة المصرية لم «تَختَرِع» وإنما «أهْدَت» إلى الإنسانية فكرة الأبَدِيَّة. أى نقول بأن مصر «أهْدَت» بَدَلاً من أن مصر «اختَرَعَت».

وكان رَدُّ «مالرو» قوله: «إنه دون تَعَنُّت فى تدقيق الكلمات فإن الحضارة المصرية هى التى طَرَحَت فكرة البَعثِ بعد الموت، وفكرة العالم الآخر بعد هذه الدنيا التى نعيش فيها، وفكرة الحِساب والثَّواب سَيْراً على صراطٍ مُستَقيم فى يوم معلوم.

....

....

وفى الحوار الثانى ـ على العشاء ـ فى بيت صديقته الكبيرة السيدة «فيلموران» فى حَىِّ «سان جيرمان دو برى» ـ عادَ «مالرو» إلى استئناف ما انقطع بعد الغداء وكاننا بَقينا فى نفس المجلس من الظهر إلى الليل، وهكذا فتح من جديد قصة غَرام مصر وهيامها بفكرة الدين، وكان بين ما قاله أن تَعَلُّق مصر بفكرة الدين وَصَلَ بها إلى دَرَجة جَعَلَت منها البَلَد الوحيد فى الدنيا الذى اعتَنَقَ ثلاثة أديان على التوالى: من العقائد الفرعونية المغرقة فى الأساطير، إلى المسيحية المُستَعِدَّة للشهادة، إلى الإسلام المُكَلَّف بالجِهاد.

ومن اللافت للنظر أن «مالرو» كان يربط فى حديثه بين ديانات مصر المختلفة وبين النهر الواحد، ورأيه أن «مصر كانت فى حاجة إلى النَّظَرِ فيما وراء الطبيعة لأن حياتها كلها تَعتَمد على نَهْرٍ لا ترى منابعه وتَجهَل كل شىء عن مَساره، ثم إن مياه هذا النهر تزيد وتنقص، ومَجراه يفيض أو يغيض لأسباب تحس بها مصر حين مَجىء خيرها أو شرها، لكنها فى الحالتين لا تستطيع أن تجد تعليلاً غير أن حركة النهر «المعبود» إرادة علوية فوق أى إرادة إنسانية، وكانت تلك دوافع مصر إلى الرجاء وإلى الدُّعاء وإلى الصَّلاة، وإلى الربط بين المَعبَد والمَجرى!

....

....

وناقَشْتُ «مالرو» طويلاً تلك الليلة، وكان طرحى عليه أن هناك أسباباً أبقى لتَعَلُّقِ مصر بفكرة الدين.

قلت إنه بصرف النظر عن كل الأسباب والعِلَل ـ مما ذكر ولم يذكر ـ فإن تَعَلُّقَ مصر بفكرة الدين مُؤَسَّسٌ على أن هناك خالقاً وخَلقاً، وهناك رسالات ورُسُلاً، وهناك عَقائد ليس من الضرورى أن يبحث لها الناس عن أسبابٍ مادية أو «مائية»، حتى وإن احتَكَموا فى كل ثَقافتهم إلى العقل وجَعَلوه مَرجِعاً وسُلطاناً، باعتبار أن العقل هو القوة الفاعلة فى المادة وليس العكس، وتلك هى ميزة العَقل وقُدرَته على الإدراك المُستَمِر لقوانين الطبيعة ومطالب الحياة.

وقد ظَلَّ تَبايُن التفسيرات بيننا قائماً على الغداء والعشاء، لكن اتفاقنا واتفاق من شاركوا فى الحوار معنا ـ وبينهم كبير مراسلى «النيويورك تيمس» فى أوروبا «ساى سالزبورجر»، ورئيس تحرير «الموند» «بوف ميرى»، والمُفَكِّر الكبير صاحب العَمود الشهير فى «الفيجارو» «ريمون آرون»، إلى جانب مضيفتنا الكريمة السيدة «فيلموران» ـ انعَقَدَ على الأهمية المركزية لقضية الدين فى مصر، سواء بدأت الفكرة بسِرِّ النهر مانِح الحياة والنماء، أو بسَبْقِ الرسالات الإلهية مانِحَة الإيمان واليقين.

وفى مطلق الأحوال فقد كانت تلك الحوارات فى باريس نظرة جديدة على حقائق راسخة من قديم فى حياة مصر: «النيل والدين» حسب «مالرو» ـ أو «الدين والنيل» حسب ما طَرَحَ غيره عليه!

بالنسبة للنيل لم يظهر تَحَدٍّ له شأن يُهَدِّد وصول مياهه إلى مصر، وتلك قضية يطول الحديث فيها وليس هنا مكانها رغم أهميتها ورغم ما ظَلَّ ساكناً فيها حتى القرن التاسع عشر، ثم تَبَدّى مشكلة فى القرن العشرين، وهو على الأرجح سوف يُصبِح قضية القضايا وصراع الحياة ذاتها فى الحقب الأولى من القرن الواحد والعشرين!

أما الدين ـ على خلاف مع النيل حتى الآن ـ فقد كان باستمرار مَكْمَناً مَشحوناً بالخطر.

بمعنى أن مياه النيل لقرون طويلة ظلَّت فى أمان..

أما عقائد الدين فقد كانت باستمرار فى الميدان.

والتفسير واضح، فالنيل فى حُضنِ الطبيعة، أما الدين ففى قلوب البَشَر. وفى حين أن الطبيعة مُستَقِرَّة على أحوالها، فإن قلوب البَشَر تتنازعها تَقَلُّبات الأيام.

....

....

إن مصر القديمة المُغرَمة بفكرة الدين (على رأى «مالرو») سارت وراء الفرعون الإله ثلاثة آلاف سنة تبنى له أهراماته ومعابده، وتدفن معه كنوزه ـ أو كنوزها! (وكانت صِلة الفرعون بالنيل حميمة، بل إن الصور اختلطت إلى حدود يصعب تمييزها فى بعض الأحيان بين النهر والإله والفرعون).

وعندما وَصَلَت المسيحية فإن مصر لم تَتْبَعها فقط، وإنما قادت أحد مذاهبها الكبرى وراء «مُرقُص» قِدِّيسها الأعظم.

هكذا فإن الخط غير المرئى (فى ظروف العافية)
يتحول بإثارة الحساسيات حوله إلى علامة ظاهرة
أشبه ما تكون بخيط أو شعرة. ثم يزداد الضغط على مواقع
الحساسيات، وتتحول العلامة (خيطا أو شعرة) ـ إلى مساحة
واضحة تباعِد بين ناحيتين. وتبلغ الأحمال والأثقال مَداها،
ويتحول الفاصل إلى خط، ويتحول الخط إلى شَرخ،
ثم إلى فلق، ثم إلى ما يشبه الكسر!

وعندما أقبَلَ الإسلام فإن جيش «عَمرو بن العاص» لم يكن قَوِياً بسلاحه (أربعة آلاف جندى بالسيوف والحراب) ـ وإنما كانت قوته الحقيقية هى الشريعة التى سبقت السَّيْف وغاصت إلى أعمق من الحربة، وكانت قوة الشريعة ـ مع عوامل أخرى فعلت فعلها ـ هى التى شَدَّت الجماعة الأكبر من سكان مصر، فى حين أن جماعة أخرى (لها وزنها) آثَرَت أن تَظَلَّ حيث كانت على عقيدتها المسيحية.

هكذا تجاوَرَ دينان على أرض الوطن الواحد، وبالتجربة الحية وعِبرَتِها أدرَكَ أتباعُ الديانتين ـ من الشعب الواحد على أرض الوطن الواحد ـ أن الحياة المشتركة فَرض ومكتوب، وذلك تَحَقَّقَ على مَسار التاريخ رغم اختلاف الدين.

ومع أن هذا الاختلاف فى الدين ظَلَّ حقيقة اجتماعية وسياسية، مقبولة بالفكر ومُعاشة بالواقع، فإن هذا الاختلاف ـ شأنه شأن أى اختلاف ـ كان قابلاً للاستغلال، مُعَرَّضاً لكل ما تتأثَّر به قلوب البَشَر من نوازع تجىء بها تَقَلُّبات الأيام.

وذلك الاستغلال وَقَعَ فعلاً فى فترات من التاريخ تَعَرَّضَت مصر فيها لحَمَلات الغُزو، ولمحاولات الاختراق، ولتَرَبُّص الأغراض والمَطامِع خصوصاً عندما كان ذلك يتَوافَق مع عوامل التراجع والانحطاط، فتلك بالطبيعة فاتحة الثغرات ومُحَرِّضة الأهواء.

....

....

وكان الذى يحدث فى تلك الفترات أن الاختلاف فى الدين ـ وهو موجود فى كل الأحوال، وغير مرئى مثل خطوط الطول والعرض على كوكب الأرض مع أنها تَدُلُّ على اختلاف مناطق الزَّمَن وتَبايُن مواسم الطبيعة ـ يجرى التركيز عليه.

وهكذا فإن الخط غير المرئى (فى ظروف العافية) يَتَحَوَّل بإثارة الحساسيات حوله إلى علامة ظاهرة أشبه ما تكون بخيط أو شَعرة.

ثم يزداد الضغط على مواقع الحساسيات، وتَتَحَوَّل العلامة (خيطاً أو شعرة) ـ إلى مساحةٍ واضحةٍ تُباعِد بين ناحيتين.

وتبلغ الأحمال والأثقال مَداها، ويَتَحَوَّل الفاصل إلى خَط، ويَتَحَوَّل الخَطُّ إلى شَرخ، ثم إلى فلق، ثم إلى ما يُشبِه الكَسْر!

ثم يَتَنَبَّه الكل إلى أن الفِتْنَة استيقظت، ويكتشف الكل قبل أن يفوتَ الأوان ـ أحياناً بشبه معجزة ـ أنهم تَخَطَّوا حدود الأمان!

وفى العادة «تَتَنَبَّه رئاسة الدولة فى مصر» لأنها المسئولة عن تَماسُك الوَطَن وعلى أرضه ديانتان (بينهما خَطٌّ غيرَ مرئى فى ظروف العافية) ـ بمقدار ما أنها المسئولة عن النهر الواحد تَتَدَفَّق مياهه إلى أراضيها



قادمة من وراء حدودها مع أنه بذاته كل حياتها.

وفى هذه الظروف تحتاج الأمور إلى إرادة الفعل المُتَمَثِّلة فى سُلطَة السيادة، وهى المُتَجَسِّدة - بالدرجة الأولى - فى رئاسة الدولة.

والواقع أنه حين تظهر بوادر الفِتنة، ناشئة من اختلاف العقائد، مع وجود رغبة أو تصميم على استغلالها من الخارج أو حتى من الداخل - فإن الوَطَن - أى وَطَن، وليس الوَطَن المصرى وحده - يَجِد نفسه أمام ظرفٍ لا يصلح فيه منطق الحوار لأن العقائدَ بطبيعتها مُتَعَلِّقة بالإيمان، وما يتصل بها مشبوب بالعواطف، وطول الأخذ والرد يحرك فى القلوب ما تصعب السيطرة عليه.

ومن ناحية أخرى فإن العقائد لا دخل لها بما يمكن أن يقال فى قضايا غيرها عن ديمقراطية الحوار، ففى مجال الدين لا توجد أقلية أو أغلبية تحصى بها الأصوات فى نهاية المطاف ولحسم الأمور بحيث تخضع أقلية لرأى أغلبية، أو تواصل الأقلية عرض حججها كى تَتَحَوّل هى يوماً إلى أغلبية.

مثل ذلك كله فى غير محله، وخارج السياق.

وكذلك تنشأ الحاجة إلى سُلطة الدولة العليا، مع ملاحظة أن المَطلَبَ الديمقراطى فى أى سياسة هنا يَسْتَمِدُّ قُوَّته من شرعية السُلطة وليس من ممارسة شَعائِر الديمقراطية (على فرض وجودها !).

يضاف إلى ذلك أن شعائر الديمقراطية ربما - ربما - تكون لها فرصة قبل أن تُطِلَّ الفتنة.

لكن كل هذه الشعائر تصبح عبئاً حتى على روح الديمقراطية وما تكفله من الحقوق - إذا أطَلَّت الفِتنة.

وذلك شئ من نوع ما يحدث فى ظروف الحرب: شعائر الديمقراطية تسبق السلاح. فإذا كانت إدارة الحرب موكولة إلى إدارة شرعية حَقَّ لها أن تدير شئون الحرب دون أن تتعطل أو تنتظر.

وفى الفِتَنِ شىء قريب الشَّبَه بذلك خصوصاً فى مَجال العقائد - وهى فى بعض الأحيان براكين نار - وهنا وكما يحدث فى الحرب فإن الإدارة لا بد أن يَقَعَ تكليفها على قيادة شرعية تَتَصَرَّف بالمسئولية قبل أن تَتَصَرَّف براكين النار وهى غير مسئولة.

....

....

والشاهد أنه فى الأزمنة الحديثة فإن صناعة الفِتَن - إلى جانب عوامل الفِتَن - لم تَعُد عود ثِقَاب يُلقى - بالمصادفة أو بالعمد - على حَطَب، وإنما صناعة الفِتَن تَحَوّلَت إلى «هندسة» بمعنى الكلمة ! :

- الخط الافتراضى (مثل خطوط الطول والعرض) يمكن هندَسَته ليُصبِح مسافةً وفاصِلاً (خيطاً أو شَعرة).

- والفاصل (خيطاً أو شَعرة) يمكن هندَسَته ليَتحَوّل إلى خطٍ - إلى شَرخٍ - إلى فَلْقٍ - إلى كَسْر.

- وطول الجدل إلى حَدِّ الصخب، وتبادل الاتهامات وتوزيع المسئوليات فى حوادث متصلة بالعقائد - قادرٌ لوحده أن يُحَوِّل «خَطَأً غير مرئى» إلى «أخدود عميق بلا قرار»، وأن يُحَرِّك من المشاعر والغرائز ما يجعل الوَهْمَ نفسه يَتَجَسَّد قضية حياة ومَوْت.

ولقد كان زَمَنُ الحرب الباردة جامعة كبرى تَعلَّمَت فيها القوى «هندَسَة» الفِتَن. وأكثر من ذلك فإن البراعة فى «الهندَسَة» وَصَلَت أحياناً إلى إعادة «هندَسَة الماضى» وإعادة تركيب تاريخ المُجتمعات بما يوافق مقاصد الأقوياء! ▪

٢ خطـــة كردينـــال ملكـــى!

▪ ▪ مَسار التاريخ بلا نهاية، وعصورد ووقائعه سَيْلٌ مُتَدَفِّقٌ طوال الوقت، هادئٌ أحياناً، هائجٌ فى معظم الأحيان - لكنه فيما يتعلق بهذا الحديث فإن النصف الثانى من القرن التاسع عَشَر رأى مشاهد بالغة الأهمية فيما يتعلقِ بمصر، خصوصاً فيما يتصل بجوار ديانَتَيْن على أرض وَطَن واحد.

فى ذلك النصف الثانى من القرن التاسع عَشَر كانت مصر موضوع سباق إمبراطورى هائل : اقتصادى - عسكرى - سياسى - وثقافى أيضاً، لأن الثقافى وفيه العقائد قابل لأن يَتَحَوَّل بالمُعالجة وإعادة التشكيل إلى مصالح لها مكاسبها ومغانمها !

وفى المجال الإمبراطورى (اقتصادى - عسكرى - سياسى) كان السباق بين قوتين : بريطانيا وفرنسا - وفى حقيقة الأمر فإن السباق بينهما نحو مصر مَلأ مساحة القرن تقريباً - من حَملة «نابليون» إلى حَملة «فريزر»، ثم جاءَت وَقفة لتخفيف حرارة السباق اتفقت فيها القوتان على سيطرة مُشتَرَكة فى عصر «إسماعيل»، ثم انقَضَّت بريطانيا وانفَرَدَت بالغنيمة واحتَلَّت مصر بحملة «ولسلى» سنة ١٨٨٢.

وبطبيعة شبكة العلاقات بين القوتين فإن ما هو ثقافى فى المجال الإمبراطورى كان مُحَرِّكاً إلى الاهتمام - أو ادعاء الاهتمام - بالإسلام والمسلمين، وذلك بحُكْمِ نفوذ بريطانيا شرق وغرب الهند حتى أودية الفرات والنيل، وبحُكْمِ نفوذ فرنسا عبر الشواطئ إلى شمال أفريقيا وسواحل الشام.

وهذا السباق بين إمبراطوريتين تَرَكَ الباب مفتوحاً لقوى أخرى - ولعله أغراها - بأن تحاول التَدَخُّل أو التَسَلُّل إلى الميدان الثقافى، ولكن عن غير طريق الإسلام والمسلمين، بتحديد أكثر عن طريق المسيحية والمسيحيين من كل المذاهب، بما فيهم الأقباط الأرثوذكس فى مصر.

وكان هناك ثلاثة وافدين جُدُد رأوا الباب المفتوح وتقدموا يُجَرِّبون حظوظهم، الوافد الأول هو الولايات المتحدة الأمريكية، الإمبراطورية الجديدة القادمة على أول الطريق - والثانى هو الكنيسة الأرثوذكسية الكبرى للإمبراطورية الروسية، وهى إمبراطورية وصلت إلى آخر الطريق وكانت وقتها تُجاهد السقوط وتبحث عن وسائل لتفاديه - وأخيراً الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان، وهى بدورها قوة إمبراطورية بلا حدود - حتى وإن كانت لا تملك سلاحاً أو اقتصاداً مُسَيْطِراً أو مُستَعمَرات خاضعة.

وجَرَّبَ الثلاثة فى مصر المسيحية - ولم يَصِلوا جميعاً إلى نتيجة تُذكَر.

- جَرَّبَت الولايات المتحدة عن طريق بعثات التبشير، وكانت خطوتها «الرسولية» - أو «الإرسالية» وفق التسمية التى جرى اعتمادها تواضعاً - هى العمل على تحويل أقباط مصر من الأرثوذكسية إلى البروتستانتية، وتَوافَد المُبَشِّرون الأمريكان، أو تحت الرعاية الأمريكية، إلى القاهرة، ومنها نَقَلوا نشاطهم إلى صعيد مصر بعيداً عن العين الساهرة للكنيسة القبطية المصرية وبَطرَكها العنيد «ديمتريوس» الثانى.

- وتَصَوَّرَت الإمبراطورية الروسية أن تدخل من الباب بإذن رسمى، فذَهَبَ قُنصُل روسيا العام فى مصر إلى مقابلة البطرك الذى خَلَفَ «ديمتريوس» - وهو البطرك «كيرُلُس» الخامس - يهمس فى أذُنه بأنه «إزاء كل هذا الطَمَع فى مصر فإن الأقباط الأرثوذكس فيها لا ملجأ لهم غير قيصر روسيا وهو حامى العقيدة الصحيحة». ورَدَّ البطرك المصرى بذكاء الفطرة فسأل القُنصُل الروسى: «ومَن يحمى القيصر ؟» - وجاء الرَدُّ : «يحميه الله» - وكان البطرك جاهزاً فقال : «وهو أيضاً يحمينا»، ثم أضاف عبارته المشهورة : «القَيْصَر يموت وأنا أيضاً.. ولا يحتاج مَيِّت إلى حماية مَيِّت، وإنما يحتاج الكل إلى حماية من لا يموت».

- وأما الفاتيكان فى روما فقد كانت محاولته قصيرة العُمْر، فما أن جاءت الرسالة الأولى من البابا الكاثوليكى إلى البطرك المصرى حتى كان الرَدُّ عليها : «منذ متى تَهْتَمُّ الكنيسة الرومانية فى الغرب بأحوال المسيحيين فى الشرق، وهى التى كانت تعتبرهم طول العُمر هراطقة مُرتَدِّين» !

وعندما دَخَلَت مصر إلى القرن العشرين استَوقفها سؤال هوية تاريخى كان لا بد أن تَرُدَّ عليه، ذلك أن تطورات القرن السابق (التاسع عشر) وقد انتهت بالاحتلال البريطانى لها سنة ١٨٨٢ - طَرَحَت عليها ذلك السؤال الحيوى، وكان عليها أن تَرُدَّ، ثم تُقاتل إذا اقتضى الأمر دفاعاً عن اختيارها.

وكان المطروح على مصر ثلاثة خيارات :

١ - مقاومة الاحتلال البريطانى لطلب الاستقلال وإقامة دولة ذات سيادة من نوع ما عرفته أوروبا فى أعقاب الثورة الفرنسية - وليس هناك ما يمنع هذه الدولة ذات السيادة من التعاون بصفة مميزة مع الإمبراطورية البريطانية (صديق قوى يقدر فى رأيهم على مساعدتها - وكان من أنصار هذا الرأى الشيخ «محمد عبده» ومدرسته).

٢ - مقاومة الاحتلال البريطانى بقصد العودة إلى الخلافة العثمانية وهى الإطار الجامع للشعوب الإسلامية باعتبار أن ذلك مكان مصر الصحيح، ثم إنه الموقع الذى كانت فيه فعلاً قبل الغَزْوِ البريطانى، وكان أهلها فى حماد رَعِيَّة عثمانية - (وأنصار هذا الخيار يرون أن مَطلب مقاومة الاحتلال البريطانى يحتاج أيضاً إلى قوة أكبر من قوة مصر الذاتية، والحَلُّ هو الباب العالى - وكان من أنصار هذا الرأى «مصطفى كامل» وحزبه).

٣ - مقاومة الاحتلال البريطانى والإصغاء جيداً إلى دعوة قومية جديدة تُعطى للعَرَب بوحدَة الثقافة وتَواصُل الجغرافيا وامتداد التاريخ خصوصية الأمة فى المحيط الحضارى الإسلامى الأوسع.

(وكان هذا الخيار نداءً بعيداً خافت الصوت لا تساعده قُوَّة إمبراطورية، ولا نداء خلافة قادرة أو عاجزة - وليس له بَعد نصير قوى له صوت يمكن سماعه !).

وكذلك كان مَطلَبُ مقاومة الاحتلال مُتَفقاً عليه.

وأما سؤال الهَوِيَّة فقد كان مَوْضِعَ اجتهادات مُتعارِضة.

....

....

لم يكن «الوفد» يضم بين أعضائه حتى هذه اللحظة أقباطاً، وهنا ذهب عددٌ من أقطابهم إلى «سعد زغلول» (باشا) الذى برز كزعيم لا ينازع للوفد المصرى يسألونه: «إذا كان مبدأ استقلال الشعب المصرى هو المطلوب فكيف يجوز تشكيل الوفد المصرى المطالب به ـ دون أقباط مصر؟»

وربما أن سؤال الهَوِيَّة كان أشَدَّ صعوبة بالنسبة للأقباط فى مصر ـ أكثر مما كان بالنسبة للمُسْلمين، ولعلهم كانوا أقرب إلى الخيار الأول ـ وهو خيار الاستقلال، لكن الهواجس ساورتهم من واقع أنهم كانوا منذ دخول الإسلام فى ذِمَّة الوالى أو الأمير أو الخليفة.

وبصرف النظر عن رواسب كثيرة فقد عرفوا «وَضْع أهل الذمة» وتَعامَلوا معه وخبروه ـ لكن الاستقلال حالة مُسْتَجَدَّة. فالفرد فى الدولة المستقلة «مواطن»، و«المواطنة» مفهومٌ مُسْتَجَدٌ ـ يَحِلُّ محَلَّ مفهوم طالت العهود عليه، وهو وضع «الرَعِيَّة» للفرعون، أو القيصر، أو الخليفة، أو السلطان، أو المَمْلوك، أو الأمير ـ وهذا المفهوم المُسْتَجَدُّ للمواطَنة سوف يأخذ وقتاً طويلاً حتى تثبت جذوره، وإلى أن يتأكد ذلك فالقلق وارد.

وبالتداعى من ذلك كان هناك محظور رآه بعض العُقَلاء من أقباط مصر، ذلك أن خيار الاستقلال مع علاقة مُتَمَيِّزة ببريطانيا (وفق الخيار الأول) سوف يَضَع أقباط مصر أمام مَأزَق مُحتَمَل خصوصاً إذا لم يستطع مفهوم «المواطَنة» أنْ يُؤَكِّد قِيَمَه وقواعدَه ـ ذلك أنهم فى هذه الحالة سوف يجدون أنفسهم ـ بواقع الحال أو بضرورته ـ أقرب إلى القوة الدولية ذات العلاقة المُتَمَيِّزة مع مصر المُسْتَقِلَّة، وهى بريطانيا.

وفى بعض الأحيان فإن هذا الخيار رغم محاذيره تَبَدَّى أدعى إلى السلامة من العودة إلى الخلافة العثمانية (الإسلامية) ـ ثم إنه كان أكثر تحديداً من خيارٍ عَرَبىٍّ ما زال بعيداً لكنه يحمل هو الآخر بالحقائق الحضارية مُحتَوى «إسلامياً» تظهر لمساته ولو من بعيد!

وكان التَّخَوُّف ـ وهو مُبَرَّر ـ أن تكون من هذين الخيارين عَوْدة بالعلاقات بين المُسْلمين والمسيحيين إلى «عهود الذمَّة» بحكمِ الولاية بدلاً من «حقوق المُواطَنَة» فى الدولة الحديثة.

ثم بقى سؤال الهَوِيَّة فى مصر مُعَلَّقاً وحائراً حتى جاءت ثورة سنة ١٩١٩ فأخَذَت بخيار الدولة الوَطَنِيَّة المُسْتَقِلَّة، وكان نجاحها الأعظم هو تَبَنِّيها لمبدأ «المُواطَنة» من واقع أنه وَطَنٌ واحد يتعايش على أرضه دينان، ومن الإنصاف أن يقال أن نقطة التَحَوُّل فى هذا التَوَجُّه جاءت من قيادات قبطية.

فقد حَدَثَ فى بداية الثورة أن وفداً تَشَكَّلَ لمقابلة المندوب السامى البريطانى لإبلاغه بمطالب وطنية على رأسها مطلب الاستقلال. ثم تَحَوَّلَ الوفد إلى حزب حمل نفس الاسم وهو «الوفد»، تعبيراً عن أن المطالبة بالاستقلال ما زالت مُسْتَمِرَّة. ولم يكن «الوفد» يضم بين أعضائه حتى هذه اللحظة أقباطاً، وهنا ذَهَبَ عَدَدٌ من أقطابهم إلى «سعد زغلول» (باشا) الذى بَرَزَ كزعيم لا ينازع للوفد المصرى يسألونه: «إذا كان مبدأ استقلال الشعب المصرى هو المطلوب فكيف يجوز تشكيل الوفد المصرى المُطالِب به ـ دون أقباط مصر؟».

وكانت تلك علامة فارقة فى مسار الحَرَكة الوَطَنِيَّة المصرية.

وبعد دخول أقباط مصر من باب «الوفد» بالدرجة الأولى إلى المشاركة السياسية فى تجربة الدولة الجديدة تحت مفهوم «المُواطَنة» (بدلاً من مفهوم «الرَعِيَّة») ـ فقد كان يمكن أن تنتكس التجربة كلها لسببين:

أولهما ـ أن المَلك «فؤاد» راح يَتَطَلَّع إلى إرث الخلافة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية ـ وقد استطاع المَلك دون عناء كبير أن يُجَنِّدَ الأزهر لمطلبه، وبالتالى فإن العباءة الإسلامية جرى استعمالها سياسياً بأكثر من اللازم، وكان مطلوباً منها أن تكون غطاءً لأحلام مَلَكِيَّة لا أمَلَ لها فى الحالة الإسلامية وقتها، بل وَلا أمَلَ لها فى عُصور جديدة لا يملك فيها رئيس دولة واحد أن يَضَعَ على رأسه عمامة الإسلام (والإسلام لا يعرف التيجان).

لكن عباءة الخلافة كان فى مقدورها أن تمتلئ برياح الأوهام ـ ومن ثم تظهر للناظرين إليها أوسع من حقيقتها!

وأما السبب الثانى فهو أن أحزاب الأقلية (الأحرار الدستوريين فى ذلك الوقت) وقد نَشَأت بالخروج على «الوفد»، لم تَجِد لها فى الشعب المصرى نصيراً يعطيها شَرعية تُغَطِّيها ـ وكذلك فإنها لم تلبث أن احتَمَت بالعرش تستعمله للوصول إلى الحكم أو يستعملها فى طموحات وأغراض المَلِك «فؤاد» فى الخلافة.

ومع أنه كان بين «الأحرار الدستوريين» من عارَضَ المَلك «فؤاد» فى مطلب خلافة المُسْلمين ـ فإنَ الحزب نفسه ـ وغيره من أحزاب الأقلية ـ لم تجد فى عدائها لـ «الوفد» دعوى تقدم بها نفسها إلى الشارع المصرى غير دعوى التواجد القبطى الظاهر فى قيادة «الوفد». وهكذا كانت أحزاب الأقلية التى أسَّسَت دعاواها على وَعد الديمقراطية هى التى قبعت فى الخندق المَلَكى يحميها من نتائج وعدها!

وكذلك لم يَعُد أمام أحزاب الأقلية التى تراجَعَت عن دعوى الديمقراطية ـ إلا أن تَشْتَدَّ فى تظاهرها بادعاء الغيرة على الإسلام مُسْتَغِلَّةً ظهور الأقباط فى «الوفد»، ومُرَكِّزَة على هذا الظهور، وكانت تلك مأساة كبرى لأن بعضاً من أكثر العناصر فى مصر استنارة لم تجد سبيلاً إلى مقاومة «الوفد» غير «تحريض إسلامى يَسْتَثير الشكوك» ـ ضدَّ مسيحية قبطية «وَجَدَت المكان الأكثر ملاءَمَةً لها فى حِزب الأغلبية»!

وعندما بدأ تراجع «الوفد» حتى فى حياة «سعد زغلول» (باشا) بعد قبوله بالإنذار البريطانى الذى تلقته مصر فى أعقاب اغتيال السير «لى ستاك» سردار الجيش المصرى وقائد القوات فى السودان ـ فإن ذلك القبول بالإنذار أحدث آثاره رغم أن «سعد زغلول» تَرَكَ مطالب هذا الإنذار يُنَفِّذها غيره ـ وإن برضاه وتحت حمايته.

وفى هذه اللحظة كان يمكن أن يكون ضَعفُ «الوفد» (وتهالك خصومه رغم استنارة بعضهم) ـ حَدَثاً يُؤَثِّر على الوعاء الأكبر للوَطَنِيَّة المصرية الجامعة لولا بروز شخصية «مكرم عبيد» بدوره الكبير فى «الوفد» وفى الحياة السياسية المصرية بعموم.

....

....

والحقيقة أن «مكرم عبيد» أخَذَ أقلَّ مما يستحق فى الاعتراف بدَوْرِه فى تمتين رابطة الوطنية المصرية (وفى صميمها فكرة «المُواطَنة») من حيث إنه المسيحى القبطى المتمثل لروح الحضارة العربية (وهى إسلامية) ـ الذى استطاع لسنوات طويلة من أواخر العشرينات وطوال الثلاثينات وحتى بداية الأربعينات أن يجعل من نفسه ومن دَوْرِه رَمزاً بالِغ الأهمية فى الحياة السياسية المصرية.

كان «مصطفى النحاس» هو زعيم «الوفد»، لكن قيادة «الوفد» الفعلية كانت لـ «مكرم عبيد»، وفى حين أن «مصطفى النحاس» كان يُلَقَّب فى قاموس «الوفد» بـ «الزعيم الجليل»، فإن «مكرم عبيد» كان يُلَقَّب بـ «المُجاهِد الكبير»، وكان الرجل يستحق هذا الوصف مَن ناحية فكرية بَحتَة، حتى قبل الناحية السياسية الأوسع، وكان ذلك حتى باللاوَعى تجسيداً حَيّاً لتجاوُرِ دينين على أرض وَطَنٍ واحد فى ظروف لم يَتَرَسَّخ فيها بعد مفهوم الوَطنية، ولم يتأكد فيها بعد معنى المُواطَنة.

كان وجود «مكرم عبيد» على قِمَّة «الوفد» ـ فى حَدِّ ذاته ـ يغنى عن اجتهادات كثيرة تثير بالطبيعة أسباباً للاختلاف.

وكان الأمَل أن يَظَلَّ الرمز قائماً بدَوْرِه ريثما تَتَمَكَّن المفاهيم والمعانى من مَدِّ وتَعميق جذورها.

لكن أحوال السياسة، وأهواء البَشَر، وضغوط ظروف دولية طاغية ـ تكاتَفت كلها لمحاصرة الحلم الوطنى المصرى، ولم يكن هذا الحلم ـ لسوء الحظ ـ قادراً على مواجهتها.

وكان «مكرم عبيد» رمزاً ودَوْراً ضمن قائمة الضحايا فى أزمة الحلم الوَطَنى المصرى.

كان «مكرم عبيد» ـ وهو الشخصية النافذة فى «الوفد» ـ قد بدأ يحس بما طَرَأ على الحزب بعد زواج زعيمه «مصطفى النحاس» وهو فى الخامسة والخمسين من عمره بفتاة شابة جميلة فى العشرين من عمرها عنْد إتمام الزواج، وفى أبسط الأحوال وأهْوَنِها فإن «مكرم عبيد» (مع أنه أكثر الساعين فى زواج «النحاس» (باشا) وفى اختياره لشريكة لحياته) ـ بدأ يحس أن هناك تأثيراً منافساً له على وقت «الزعيم» واهتماماته، وكذلك فكره! ومع تزايُد «سلطان البيت» فإن «سلطان الحزب» راح يتناقص، و«مكرم عبيد» بواقع الحال أول من يحس بالتغيير.

وفى ظروف الحرب العالمية الثانية (التى بدأت سنة ١٩٣٩) فإن الأحوال الاجتماعية فى مصر شهدت دخول عناصر كثيرة وافدة بوسائلها على ساحة التأثير والنفوذ، والسياسة كذلك.

وعندما عادَ «الوفد» إلى الحكم فى حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ فقد كانت عودته مأساوية، ذلك أن «الوفد» عاد نتيجة لتَدَخُّل السفير البريطانى بحصار قصر «عابدين» واقتحامه، بفصيل دبابات، وإبلاغ المَلك «فاروق» أنه «إذا لم أعلم قبل الساعة السادسة مساءً بأن النحاس باشا قد دُعِىَ لتشكيل الوزارة فإن المَلك فاروق يَتَحَمَّل تبعَةَ ما يَحدُث». وكان على المَلك «فاروق» أن يُوَقِّعَ بقبول الإنذار أو يتنازل عنَ العرش، وقد وَضَعَ المَلك توقيعه على الإنذار بيَد مُرتَعشة، ثم جاء «الوَفد» ـ وهو من الناحية الفعليَة مُمَثِّل الأغلبية الشرعية إلى الحكم ـ ولكن بقُوَّة الدَّبابات البريطانية، وكانت تلك هى المأساة.

ولم يكن «مكرم عبيد» سعيداً بما جرى على النحو الذى جرى به ـ كما لم يكن سعيداً بما طَرَأ على محيط «النحاس» (باشا) سواء

كان وجود «مكرم عبيد» على قمة «الوفد» ـ فى حد ذاته ـ يغنى عن اجتهادات كثيرة تثير بالطبيعة أسبابا للاختلاف. وكان الأمل أن يظل الرمز قائما بدوره ريثما تتمكن المفاهيم والمعانى من مد وتعميق جذورها



بظروف زواجه مع تفاوت الأعمار، أو بالعناصر الاجتماعية المُسْتَجَدَّة مع أجواء الحرب على الحياة الخاصة لزعيم «الوفد».

وكان المَلك «فاروق» الذى قَبِلَ الإنذار البريطانى مُرغَماً يشعر بالمهانة، ولم يكن له عزاء إلا ثقته فى أن رئيس ديوانه «أحمد محمد حسنين» (باشا) يُرَتِّب له خُطَّة تُعيدُ إليه حَقَّهُ وتُمَكِّنُه من خُصومه ـ وكان أسوأ هؤلاء الخصوم فى نَظَرِه «مصطفى النحاس» الذى لم يَكتَفِ بعَداء قديم مع القصر من عَهْد والده وعَهْدِه (وكَان «النحاس» فيه على حَقٍّ) ـ وإنما أضيف إلى ذلك قبول «النحاس» بتأليف الوزارة من يَد (ماسورة) مَدفع على ظهر دَبَّابة بريطانية تَحَدِّياً للمَلك ومُشارَكَة فى تَحقيرِه أمام شعبه وجيشه، وإذلاله حتى أمام نفسه وداخل قصره !

وبالفعل فإن «أحمد محمد حسنين» (باشا) وَضَعَ خُطَّة انتقام للمَلك قَلَّدَ فيها عُصور الكرادلة (من «ريشليو» إلى «ماتزينى») وكلهم وقفوا وراء مُلوك فى الصبا، وقاموا بالوصاية عليهم، وعشقوا أمهاتهم(!)، وحاكوا الدسائس والمُؤامرات فى تصفية خُصومِ العرش (أو خُصوم الكرادلة بمعنى أصح !).

وكانت خُطَّة الكردينال «أحمد محمد حسنين» انتقاماً لكرامة المَلك الصَبِى (الذى قام بنَوْعٍ من الوصاية عليه تحت وصف أنه رائده، وتَزَوَّجَ أُمَّه سراً كما فعَل الكردينال «ماتزينى» مع «كاترين دى مديتشى» والدة مَلك فرنسا القاصر «لويس» الثالث عشر) ـ خَطة طويلة ومعقدة والبنود الرئيسية فيها كما يلى :

١ ـ العَمَل على إنهاء خدمة اللورد «كيلرن» السفير البريطانى (الذى قَدَّمَ الإنذار) فى مصر كى لا يَظَلَّ وجوده فيها تَذكِرة للمَلك بلَحظة هَوانه وهو يريد أن ينساها !

٢ ـ القِصاص ـ ! ـ من «مصطفى النحاس» الذى فُرِضَ عليه قهراً، والأفضل أن يكون القصاص تصفية جَسَدِيَّة لرئيس «الوفد» ورَمياً بالرصاص (وبالفعل جَرَت أكثر من محاولة لاغتيال «النحاس» (باشا) قام بها ضباط من تنظيم الحَرَس الحديدى الذى أنشاه المَلك أداة لإرهاب خصومه !).

٣ ـ إنزال العقاب بكل من ساعَدَ فى توثيق العلاقات بين السَفارة البريطانية وزعيم «الوفد» ، وأول هؤلاء «أمين عثمان» (وبالفعل فقد تم اغتيال «أمين عثمان» بتوجيه ورعاية من القصر، وبأسلحة ضباط الحَرَسَ الحديدى).

٤ ـ وهذا هو البَندُ الأهَمُّ ـ كسر «الوفد» كحزب والتركيز بالتحديد على «مكرم عبيد» سكرتيره العام باستغلال ما طرأ على مشاعره الداخلية فى السنوات الأخيرة، سواء من إحساسه ببُعدِ «مصطفى النحاس» عنه وعن الحزب ـ أو من ضَيقِه بمازق عَوْدَة «الوفد» إلى الحُكمِ نتيجة إنذارٍ بريطانى.

وكان نجاح الكردينال «أحمد محمد حسنين» فى بَنْدِ كَسْر «الوفد» بالتركيز على سكرتيره العام كبيراً. فقد كان «مكرم عبيد» حتى من قبل فبراير سنة ١٩٤٢ مُتَأزِّماً، ثم زادته الظروف التى رافقت عودة الحزب إلى الحكم تازُّماً، لأن تكالُبَ العائدين إلى السُلطة بدا له مزعجاً وخصوصاً أن هذا التكالُب كان يَجِد له سنداً داخل دوائر مُؤَثِّرة فى الحزب أو عليه ـ بل إن هذا التكالب وَجَدَ منطقاً يغطيه بادِّعاء أن البُعدَ عن السُلطة سنوات جَعَلَ الحلوق شديدة الجفاف بقسوة الظما !

كان حلم كسر «الوفد» مشروعاً سياسياً دائماً للقصر. وقد تَصَوَّرَ السلطان «فؤاد» عندما انشَقَّ الأحرار الدستوريون أن خروجهم بالجملة من الحزب ـ وأقطابهم صفوة أساطينه ـ أنها نهاية «الوفد» ، ثم تَبَيَّن أن الرمز السياسى فى مصر كان ـ وسوف يَظَل ـ مَعبوداً لا يُطال إلى درجة أن مُدُن مصر وقراها سمعت ورَدَّدَت نداءً يقول إن «الاحتلال على يَد سعد ولا الاستقلال على يَدِ عدلى» (يَكَن)، ثم شعاراً ثانياً يقول «إنه لو رَشَّحَ الوفد حَجَراً لانتَخَبناه» ـ أى أنه «سعد زغلول» بذاته وصفاته وليس غيره مهما كان من مَزاياه، ثم تَبَيَّن أيضاً أن «سعد زغلول» قادرٌ بشعاراته على سحق منافسيه حتى بالتخوين، وكذلك تَرَدَّدَت أحكام قاسية بالإعدام السياسى من نوع وصف مفاوضات غير «الوفد» مع الإنجليز بأنها «جورج الخامس يُفاوض جورج الخامس (مَلِك إنجلترا)» ، ثم إن كل هؤلاء الذين انشقوا عن «الوفد» هم : «برادع الإنجليز». وقد تمكنت هذه الشعارات فى الحياة السياسية المصرية، وأدَّت إلى عملية استقطاب حاد كان «الوفد» خلالها فى الموقع الأعلى، وكان خصومه فى الموقف الأدنى.

وتَكَرَّرَت عملية الانشقاق على «الوفد» ، والقصر يراهن كل مرة ويخسر الرهان، بما فى ذلك الرهان المُهِم على «محمود فهمى النقراشى» (باشا) و «أحمد ماهر» (باشا)، وقد بدا ذلك انشقاقاً حاسماً، أصحابه هُم وقتها أغلبية النخبة فى صفوف القيادة الوفدية العليا، ثم إن «النقراشى» و «ماهر» كانا الأقرب إلى «بيت الأمة» والأحب إلى السيدة «صفية زغلول» . وقد اختارا لحزبهما الجديد الذى قام بالانشقاق اسم «السعديين» . ولم يكن هناك فى رأيهما دليلٌ على العودة إلى شرعية الأصول أكثر من استعادة اسم «الزعيم خالد الذِكر» عنواناً لحزبهما الجديد.

وعندما راهَن «أحمد حسنين» (باشا) ضمن سياسة الانتقام للمَلك «فاروق» من خصومه واستقرَّ رهانه على كسر «الوفد» بانتزاع «مكرم عبيد» نفسه من صفوفه ـ فإن الرهان بدا جدياً وشبه موثوق بنتائجه لأسباب موضوعية ولأسباب ذاتية.

ومن الناحية الموضوعية فإن «الوفد» سنة ١٩٤٢ لم يَعُد ذلك «الوفد» الذى ملأ الساحة المصرية فى بداية العشرينات من القرن. فالحزب لم يستطع أن يقدم شيئاً فى قضية الاستقلال سوى أنه رَفَعَ عَلَمها ورَدَّدَ شعارها، وكان هو الذى عاد بعد وصف دستور سنة ١٩٢٣ بأنه دستور الأشقياء إلى اعتبار هذا الدستور نصاً مقدساً، وكان هو حتى فى حياة «سعد زغلول» الذى قبل بالإنذار البريطانى بإخلاء السودان، وأخيراً وبعد عناء طويل فإن «مصطفى النحاس» خليفة «سعد» كان هو الذى وَضَعَ توقيعه على معاهدة سنة ١٩٣٦، وهى وثيقة لا تختلف كثيراً عما تَوَصَّلَ إليه غير الوفديين فى مفاوضاتهم مع الإنجليز.

ثم جاءت الورطة الكبرى بحادث ٤ فبراير ١٩٤٢، ومع أن «النحاس» من الناحية النظرية كان زعيماً لحزب يمثِل الأغلبية لا زال، وهو مقصى عن الحكم بتَعَسُّفٍ مَلَكى ـ إلا أن ملابسات عودته إلى حقه الدستورى كانت «عورة» لا سبيل إلى تغطيتها، وقد بَدَت العورة فاضحة عندما حُملَ السفير البريطانى على أعناق الوفديين حين ذَهَبَ إلى مَقَرِّ مجلس الوزراء غداة تشكيل الوزارة ليهنئ رئيسها «مصطفى النحاس». وكانت صورة اللورد «كيلرن» محمولاً على الأعناق وصوت متظاهرين يهتفون له ـ إشهاراً للفضيحة أكثر من تغطية عليها !

وإذن ـ هكذا جَرَت حسابات «أحمد حسنين» (باشا) ـ فإن «الوفد» سنة ١٩٤٢ ليس هو «الوفد» سنة ١٩٢٠ وبعدها.

وأما الأسباب الذاتية التى تخص «مكرم عبيد» شخصياً، فأولها أن «المجاهد الكبير» عيارٌ آخر غير عيار كل من سبقوه إلى الخروج من «الوفد».

فهو بذاته ـ روح «الوفد السياسى، ومدير شئونه الذكى، وصوته البليغ الناطق باستيعاب كامل للحضارة المصرية والعربية (ومحتواها الإسلامى)، وهو مُحَرِّك تُواجُد «الوفد» وسط مواقع التأثير فى الحياة العامة وأهمها تلك الأيام حركة النقابات المهنية، ثم هو المثقف الواعى اجتماعياً والذى استطاع أن يقول للكل فى آخر ميزانية قدمها : «إننا حررنا المواطن المصرى من استغلال الأجنبى، وآن أن نحرر المواطن المصرى من الاستغلال المصرى».

وأخيراً وأهَم ـ فى نظر «أحمد حسنين» (باشا) [وتلك من خطاياه غفر الله له]ـ تقديره أن خروج «مكرم عبيد» سوف يضع الأقباط جميعاً أمام اختيارٍ صعب، فمكان «مكرم عبيد» حيوى فى «الوفد» ، ودوره الواسع مظلة فوق كثيرين، ووجوده فى حَدِّ ذاته ضمانة وعلامة على أن «الوفد» هو الباب المفتوح بوعى ـ لواحدة من الحقائق التاريخية الكبرى فى مصر (شَعبٌ واحد وديان).

وتَرَدَّدَ «مكرم عبيد» فى الشهور الأولى من سنة ١٩٤٢، ثم غلبته هواجسه. وكان الرجل ـ شانه شأن كثير من المُثَقَّفين ـ شخصية بالغة الحساسية، شديدة التَوَتُّر، سريعة التأثر ليس فقط بالوقائع ولكن حتى بالإشارات والتلميحات.

وكذلك استطاع «أحمد حسنين» أن يحقق هدفه.

خرج «مكرم عبيد» من «الوفد» ـ وخرج ومعه جمع كبير من أقطاب الحزب ـ ولم يكن فى مقدور أحد أن يتجاهل حقيقة أن الخارجين بينهم عَدَدٌ مَلحوظٌ من كبار الأقباط.

ولم يخرج «مكرم عبيد» ساكتاً رغم قسوة الأحكام العرفية فى زمن الحرب، وإنما خرج ومعه سِجِلٌ حافلٌ بما اعترض عليه من تصرفات زَعامة «الوفد» ومحيطها ـ أسماه «الكتاب الأسود ـ للعهد الأسود».

ومن المفارقات أن فصول الكتاب كانت تُسَلَّم فصلاً بعد فصل إلى مندوبٍ يمثل القصر، يحملها كى تُحفظ فى خزينة «رئيس ديوان جلالة المَلك» حتى يجئ أوان الطبع والتوزيع!

وكانت تلك فترة الحيرة الكبرى لأقباط مصر منذ بدأ

وبالفعل فإن «أحمد محمد حسنين» (باشا) وضع خطة انتقام للملك قلد فيها عصور الكرادلة (من «ريشليو» إلى «ماتزينى») وكلهم وقفوا وراء ملوك فى الصبا، وقاموا بالوصاية عليهم، وعشقوا أمهاتهم (!)، وحاكوا الدسائس والمؤامرات فى تصفية خُصوم العرش (أو خُصوم الكرادلة بمعنى أصح !)

> **كانت مشاعر «مكرم عبيد» تتسرب حتى وإن لم يقصد، وتسحب ذيولها على الحياة القبطية فى مصر. وكان هناك جيل جديد من المهتمين بالسياسة. وقد بدا لهم عندما اقتربوا من الساحة أن تجربة «مكرم عبيد» فصلٌ مُحَيِّرٌ، دافعٌ ورادعٌ فى نفس الوقت!**

انخراطهم فى الحياة السياسية المصرية الحديثة بعد تشكيل «الوفد».

والمزعج أن «أحمد حسنين» (باشا) لم يكن غافلاً عما يفعل، فقد كان وهو يشق «الوفد» - يُغامر أيضاً فى مجال العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.

وفى تلك الأوقات وطبقا لشهادة «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان المَلَكى، فإن حسابات رئيس الديوان «أحمد حسنين» (باشا) فى هذه النقطة الحساسة جرت فى السياق التالى :

- إن خروج «مكرم» من «الوفد» سوف يؤدى إلى «كسر» تمثيله الشامل للأمة، وسوف يصل الأقباط فيه يوماً بعد يوم إلى الشعور بأنه لم يَعُد لهم مكان فيه.

- وسوف يتأكد ذلك الشعور عندما يخرج أكبر عَدَد من قادة الأقباط من حزب «الوفد» لينضموا إلى «مكرم»، وهذا سوف يجعلهم - ويجعل مؤيديهم - فى موقف معارضة لـ «الوفد».

- إن القصر المَلَكى أخطأ ذات مرة فى العشرينات أيام المَلِك «فؤاد» حين تصور إمكانية حصوله على خلافة المسلمين، ومن ثم أبعد عنه الأقباط، وقد حان الوقت الآن كى يقوم «فاروق» بتصحيح خطأ «فؤاد» ويقرب الأقباط منه.

- إن القصر سوف يكون فى مقدورد أن يرضى الأقباط، وإذا لم يستطع أن يضمن لهم فى المجال السياسى وظروفه أوضاعاً مناسبة، فإنه يستطيع تعويضهم عن ذلك بدفعهم أكثر فى المجال المالى، وكان هذا قطاعاً يستطيع القصر أن يصل إليه بحكم أن الوزارات تتغير وأما القصر فهو هناك طول الوقت، وذلك ما يريده المال : نصيراً موجوداً فى كل وقت.

(والغريب أن تلك كانت إحدى المعالم الرئيسية فى سياسة «اللورد «كرومر» غداة الاحتلال البريطانى لمصر، فقد كتب ينتقد الأقباط لعدم مجاراتهم للإمبراطورية البريطانية وهى مسيحية مثلهم، وكان رأى «كرومر» ترتيباً على ذلك أن الأقباط لا يرجى لهم دور سياسى مُؤَثِّر فى مصر، والحل أنه يمكن تعويض ضعفهم السياسى بقوة مالية تؤدى إلى توازن يعطيهم نوعاً من التأثير السياسى حتى وإن كان صامتاً).

وفى النهاية فإن «مكرم عبيد» انشق عن «الوفد» ، وكان «النحاس» (باشا) بوصفه الحاكم العسكرى فى البلاد وقتها هو الذى أمَرَ باعتقاله بعد شهور من انشقاقه.

وكان ذلك بالفعل، وكما قَدَّرَ «أحمد حسنين» ، أهَمَّ خروج من «الوفد» ، فلم يكن الأمر مجرد شخص «مكرم عبيد» ، وإنما كان هناك - أيضا - ما أصاب الرمز الذى ظَلَّ «مكرم عبيد» يمثله فى الحياة السياسية المصرية من العشرينات إلى الأربعينات.

والذى حَدَثَ أن «مكرم عبيد» أنشأ فيما بعد حزباً أسماه حزب «الكتلة» (وكان المعنى الذى قصده واضحاً). وكان المفروض أن يكون «الكتلة» بديل «الوفد» - لكن ذلك لم يحدث، فلا الكتلة حلت محل «الوفد» ، ولا «الوفد» احتفظ بـ «كتلة» ما كان يمثله. والحقيقة أن «الوفد» بعد ذلك الانشقاق الكبير وملابساته لم يُصبح بعدها نفس «الوفد» الذى كان قبلها.

والحاصل أن «مكرم عبيد» أصيب بعد انشقاقه واعتقاله، وحتى بعد تحرره من الاعتقال عندما أقيلت وزارة «الوفد» يوم ٨ أكتوبر ١٩٤٤ - بنوع من الإحباط الشديد ظلت وطأته تزداد ثقلاً عليه حتى أصيب باكتئاب حاصره ثم عَصَرَهُ عَصراً !

والذى حدث أن «مكرم عبيد» خرج من الاعتقال يوم ٩ أكتوبر ١٩٤٤ ليجد مندوباً عن القصر يبلغه أنه أصبح وزيراً للمالية فى وزارة «أحمد ماهر» الذى عهد إليه المَلِك بتشكيل الوزارة بعد إقالة «النحاس». وربما أن «مكرم عبيد» راوده الإحساس بأنه أكبر من «أحمد ماهر» (سياسياً) وأجدر منه (نضالياً) فى إسقاط حكومة «الوفد» بحكم تأثير «الكتاب الأسود» ولعله تصور نفسه أحق برئاسة الوزارة، ومع ذلك فإن الرجل كَتَمَ مشاعره بظَنٍّ - أو وَهْم - أن الفرصة لم تضع بعد. وهكذا وقف على سلم وزارة المالية فى لاظوغلى وقد احتشد أمامه ألوف من الناس جاءوا إليه ولم يذهبوا إلى غيره من رجال العهد الجديد ليلقى فيهم خطابه الشهير الذى بدأه بقوله : «سبحانك اللهم جئت بى من باطن الأرض سجيناً ووضعتنى على خزائن الوَطَن أميناً».

ثم توالت شعاراته تُحَرِّك الناس وتهز وجدانهم من قوله «فلنجعل من ماضينا قاضينا» ، و «انقضوا أو انفضوا»... إلى آخره.

ودَخَل «مكرم عبيد» بحزب «الكتلة» إلى انتخابات سنة ١٩٤٥، ومع أنه كان هناك اتفاق بين الأحزاب التى شاركت فيها على توزيع المقاعد النيابية درءاً لأسباب الفرقة بين أطراف التحالف المناهض لـ «الوفد» - فإن «مكرم عبيد» ما لبث أن شعر أن حزبه يَتَعَرَّض عَمْداً للتحجيم وأحياناً بوسائل «التزوير» ، ولم يتحمل «مكرم عبيد» أن يجد نفسه شريكاً صغيراً فى ائتلاف يعلم هو أكثر من غيره أنه «مصنوع» ، ثم إن كل ما يسنده هو رغبة القصر.

وفى هذه الفترة قام «مكرم عبيد» بدور نشيط فى السياسة العربية، وفى حين أن غيره من الساسة الأقباط ساورتهم شكوك - خفيفة أو ثقيلة - فى مسألة انتماء مصر العربى، فإن «مكرم عبيد» كان يملك من سِعة الرؤية وبُعد النظر ما جعله يدرك الضرورة القومية حين طرحت نفسها - حتى عندما وَقَّعَ «مصطفى النحاس» (باشا) ميثاق إنشاء الجامعة العربية وكان «مكرم عبيد» فى المعتقل.

ثم شارك «مكرم عبيد» فى لقاءات ومؤتمرات، وكان هو - قبل فلاسفة حزب «البعث» (فى الشام) مَن رأى مُبَكِّراً أن الإسلام ليس ديناً فقط وإنما هو مُحيطٌ حضارِىٌّ التقت فيه ثقافات الأمم التى اختارت الإسلام، وقد جاءت كل منها بمواريثها إلى ساحته وصَبَّت فيها خلاصة ما عندها، وتفاعل الجزء مع الكل، وكان أن الأمة العربية - بمسلميها ومسيحييها - خلقت محيطاً حضارياً عاماً جوهره الإسلام وامتزاج ثقافات شعوبه، ثم إن هويته النهائية هى العروبة. وفى حين أن كثيرين من الأقباط - حتى بين مفكريهم - خلطوا بين القومية العربية وبين الدين فإن «مكرم عبيد» ظَلَّ يرى التخوم ظاهرة والملامح واضحة.

....

....

وبرغم ذلك فإن «مكرم عبيد» بدأ يرى مع تصرفات كل يوم أن شركاءه فى الائتلاف يحاولون تهميشه، وذهب شاكياً إلى القصر مرة بعد مرة، لكن القصر - خصوصاً بعد مصرع «أحمد حسنين» فى حادث سيارة أمام لورى إنجليزى عند كوبرى قصر النيل - كان قد نسى منطق اللعبة مع «مكرم عبيد» - والواقع أنه لم يَعُد هناك فى البلاط المَلَكى من يستطيع ادعاء أنه كان فى هذه اللعبة فى البداية لكى يتحمل مسئوليتها ويدفع حركتها فى النهاية !

وهكذا فإن القصر بدأ يهمل شكاوى «مكرم عبيد» ، ثم راح يضيق بها، ثم راح رجاله يتهربون بالذرائع التقليدية التى تَتَرَدَّد باستمرار فى بلاطات الشرق !

وضاعف من إحساس «مكرم عبيد» بالمرارة أن «أحمد ماهر» (باشا) الذى قبل هو على مَضَض أن يعمل تحت رئاسته - جرى اغتياله فى البرلمان ثم خلفه «النقراشى» (باشا) رئيساً للوزراء، وفى حين أن «أحمد ماهر» كان سياسياً مَرِناً فإن خَلَفَه كان مشهوراً بشدة العناد، ولم يكن «مكرم» - من أيام مَجده فى «الوفد» - مُعجَباً بـ «النقراشى» ، وقد تمزقت نفسه حسرات عندما وَجَدَ نفسه مُخَيَّراً بين العمل تحت رئاسته أو الخروج من الحكم.

ويبدو أن «مكرم عبيد» راوده فى ذلك الوقت وَهْم إمكانية العودة إلى حِزبه القديم، ولو حتى من باب النكاية فى هؤلاء الذين استدرجوه ثم تَرَكوه فى التِّيه بعيداً عن العُمران - وقد أيقظ هذا الوَهْم فى خواطره أن «صبرى أبو علم» (باشا) سكرتير «الوفد» الذى خلف «مكرم عبيد» فى موقعه القديم توفى فجأة سنة ١٩٤٧ - وتَرَدَّدَت شائعات - لم تكن بلا أساس - عن عودة «مكرم» إلى «الوفد» ، ولكن «النحاس» (باشا) قطع دابر كل إمكانية لهذه العودة بنفى صريح.

ويروى تقرير للسفير البريطانى السير «رونالد كامبل» إلى وزير الخارجية البريطانية (ضمن محفوظات وزارة الخارجية لتلك السنة ١٩٤٧) أن مصدراً موثوقاً به أبلغ السفير أنه حضر مجلساً مع «النحاس» (باشا) قيل فيه لزعيم «الوفد» إن «مكرم عبيد» يذرف الدموع نَدَماً على ما كان وتَحَرُّقاً للعودة إلى مكانه القديم. وطبقاً لتقرير السفير فإن «النحاس» (باشا) قفز من مقعده وقال : «التماسيح التماسيح "crocodile crocodile" - يريد أن يقول إن دموع «مكرم عبيد» دموع تماسيح.

وفى الوقت الذى أصبح فيه «مكرم عبيد» نهباً لليأس من دورٍ مؤثرٍ يستحقه بقدرته وتجربته وتاريخه - فإن الأحوال القبطية عاوَدَتها الوساوس، وزاد منها ذلك البروز المُتصاعِد لحركة الإخوان المسلمين فى الحياة السياسَية، وفى الشارع السياسى، وفى أوساط الشباب. وكان القصر الذى مال فى البداية إلى استعمال قوة الإخوان المسلمين ضد «الوفد» قد أفزعته نزعتهم إلى العنف، لكنه فى حالة تقربه من الإخوان المسلمين حاول أن يجعل المَلِك «فاروق» - بانتظامه فى صلاة الجمعة وفى يده مسبحة وعلى ملامح وجهه خشوع - إماماً فى عيونهم. وعندما لم تنفع مناورة الاحتواء وصل العداء الصريح خصوصاً بعد اغتيال «النقراشى» رئيس الوزراء واغتيال «حسن البنا» مرشد الإخوان انتقاماً له - إلى حَدِّ أن القصر حاول أن يجعل من المَلِك منافساً للإخوان يأخذ منهم الإمامة ما دام لم يستطع أن يكون هو بذاته إماماً لهم !

....

....

وفى الظروف التى أتيح لى فيها أن أتعرف على «مكرم عبيد» عن قرب، وكان ذلك فى أواخر الأربعينات، وفى أجواء انتخابات يناير ١٩٥٠ التى أشرفت عليها وزارة قصر رأسها «حسين سرِّى» (باشا)، فقد كان إهمال شأنه قد بلغ ذروته إلى درجة الإهانة - حتى أن حزب «الكتلة» تحت قيادته لم يحصل على مقعد واحد من مقاعد مجلس النواب !! - وكان الرجل ممروراً بقسوة، وضاعف من مرارته أن حزب «الوفد» عاد إلى الحكم، وأن ما كان يشكو بسببه من أوضاع أصبح قانون الحزب، وأصبح قانون الحكم.

وسمعت فى هذه الفترة «مكرم عبيد» بطريقة لا تخلو من مبالغة أوجدها فى نفسه - شعوراً طغى عليه بأنه استُعمِلَ فى لعبة قصور، ومع أنه لم يقل ذلك بوضوح فيما سمعت منه - فإن النبرة فى صوته كانت مزيجاً من الغضب الواصل إلى حَدِّ الكراهية مُوَزَّعة على أطراف بعرض الساحة السياسية المصرية.

وكانت مشاعر «مكرم عبيد» تتسرب حتى وإن لم يقصد، وتَسْحَب ذيولَها على الحياة القبطية فى مصر. وكان هناك جيل جديد من المهتمين بالسياسة، وقد بدا لهم عندما اقتربوا من الساحة أن تجربة «مكرم عبيد» فصلٌ مُحَيِّرٌ، دافعٌ ورادعٌ فى نفس الوقت! ■



٣ بعد ثورة ١٩٥٢

وعندما وقعت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ـ كان الخط غير المرئى ـ مثل خطوط الطول والعرض ـ قد نزل على الأرض خيطاً أو شعرة، ثم تَحَوَّلَ إلى فاصلٍ ظاهر، ثم إن هذا الفاصل تَحَوَّلَ إلى شرخٍ يزداد عُمقاً باندفاع الحوادث.

كان ما تداعى وتوالى بعد الحرب العالمية الثانية قد طرح أسئلة ومشاكل وملابسات تثير القلق، ثم حدث أن جاءت الثورة بأسباب أخرى للقلق جعلت احتمال انفلاق الشرخ أكثر من احتمال التئامه كما يحدث للجروح فى الجسم الإنسانى، والأوطان فى الأصل والأساس مجتمعات إنسانية.

وكانت هناك بالتحديد ثلاثة أسباب جاءت مع الثورة أو توافقت مع قيامها :

أولها: أن مجلس قيادة الثورة لم يظهر فى قائمة أعضائه «قبطى»، ومع أن هناك فارقاً بين التنظيمات السياسية العلنية وبين تشكيلات العمل السياسى السرى ـ فإن ما آلت إليه الأحوال قبل الثورة جَعَلَ من عدم وجود ضابط قبطى فى مجلس القيادة الجديدة مسألة أكبر من حجمها.

وثانيها: أنه بدا فى أول الثورة وكأن نظامها الجديد وثيق الصلة بتنظيم الإخوان المسلمين، وبالفعل فإن الإخوان حاولوا إعطاء الانطباع بأن لهم فى الثورة أكبر مما هو بادٍ على السطح، وزَكَّى ذلك واقع أن بعض أعضاء مجلس الثورة اقتربوا فى مرحلة من مراحل حياتهم من جماعة الإخوان المسلمين («كمال الدين حسين» و «أنور السادات» ـ بل و «جمال عبد الناصر» نفسه لعدة شهور).

وثالثها: أنه فى تلك اللحظة لم تكن الكنيسة القبطية فى أحسن أحوالها لأن بطركها الأنبا «يوساب» كان يواجه أزمة داخل كنيسته نشأت من صراع بين التقليد والتجديد، وكانت الكنيسة بواقع ما طرأ خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها ـ قد أصبحت ـ بأحكام الظروف ـ وحدها فى الحياة القبطية ودون قيادة سياسية بارزة يعترف بها الكل ـ المسلمون قبل الأقباط ـ كما كان فى زمن «مكرم عبيد»، ولم تكن الكنيسة فى ذلك الوقت مُؤَهَّلة لهذا الدور. ومن سوء الحظ أن معظم العائلات القبطية الكبيرة قصرت نشاطها على المجال الاقتصادى والمالى مصداقاً لسياسة القصر (التى فلسف لها اللورد «كرومر») ـ وبالتالى فإن الدائرة القبطية (constituency) كانت خالية سياسياً، ليس لها نائب معتمد، أو مرشح مقبول !

....

....

ثم طرأت مضاعفات ألقت ظلالها على موقف كان معقداً وزاد تعقيداً، ففى ذلك الوقت ظهر تَنظيم سياسى قبطى باسم «جماعة الأمة القبطية»، وراح هذا التنظيم يضغط بمطالبه على الكنيسة كى تتخذ موقفاً باسم الأقباط «يستعيد لهم حقوقهم الضائعة»، ثم كان أن تمكن أفراد من هذا التنظيم سنة ١٩٥٤ من خطف البطرك القبطى الأنبا «يوساب» نفسه من قلب دار البطريركية ونقله إلى دير معزول فى الصحراء، وهناك جرى إرغامه على توقيع وثيقة بالتنازل عن الكرسى البابوى والموافقة على مطالب كثيرة، وفوق ذلك فقد حملت الوثيقة فى نهايتها تحذيراً للسلطات المصرية من أى تدخل فى الموضوع لأن ذلك «شأن داخلى» لا يخصها.

وانقسم الرأى العام القبطى فى الموضوع جانبين :

- جانب يرى ـ حتى وإن لم يدخل فى إطار تنظيم «جماعة الأمة القبطية» ـ أن الأحوال القبطية كان يجب أن تحصل على عناية أكثر من الدولة حتى لا تصل الأمور إلى ما وَصَلَت إليه.
- وجانب يرى أن النظام الجديد وقف يتفرج على إهانة خطف البابا من مقرد البطريركى، ولو شاء لتدخل ومنع، لكنه ترك قبطياً يضرب فى قبطى ووقف هو يتفرج.

ولم يكن ذلك هو الحال ـ لكن شكل الحوادث أوحى باستنتاجاته خصوصاً فى أجواء مثقلة بعوارض سبقتها.

ولقد حاول النظام الجديد (نظام ٢٣ يوليو) أن يواجه القضية، وفى البداية فإن تمثله لها لم يكن كاملا بقدرٍ مُتَساوٍ مع أهميتها، ومن سوء الحظ أن المستشارين السياسيين الأول للنظام الجديد كانت لهم تصورات مسبقة (خصوصاً «عبد الرزاق السنهورى» (باشا) رئيس مجلس الدولة وقتها، و «سليمان حافظ» (بك) وكيله). وكان ظَنُّ الاثنين أنه فى أى ممارسة سياسية، وحتى بالديمقراطية المطلقة، فإنه لا أمل لأى «أقلية دينية» أن تشارك فى الحياة السياسية على مستوى يرضيها، والحل فى رأى الاثنين هو «التعويض الاقتصادى عن الغياب السياسى». والملاحظ أن رئيس الوزراء فى بداية الثورة («على ماهر» باشا) ساند هذا الرأى (والقول به ـ كما وَرَدَ من قبل ـ سابق : اعتمده من الأصل اللورد «كرومر» من دار المندوب السامى البريطانى فى بداية القرن العشرين ـ واعتمده «أحمد حسنين» باشا من القصر الملكى من بداية أربعينات القرن نفسه) ـ والآن وفى بداية الخمسينات عاد ذلك الرأى يعرض نفسه فى عصرٍ مختلف.

وبشكل ما فإن «جمال عبد الناصر» كان يشعر ـ ولو على نحوٍ غير محدد ـ أن هناك وضعاً ما يقتضى حلاً ما، وكان إحساسه التلقائى أن الدائرة القبطية تحتاج إلى نائب جديد أو مرشح مقبول يُعَوِّض الدور الخلاق الذى قام به «مكرم عبيد» فى العشرينات والثلاثينات فى الحياة السياسية المصرية.

وكان أن وَقَعَ اختياره ـ وبترشيح من المهندس «أحمد عبده الشرباصى» الذى كان بخبرته العملية يعرف أسرار التركيبة العائلية المصرية خصوصاً فى الريف ـ على الدكتور «كمال رمزى استينو».

وبالفعل فإن «استينو» أقبل على دورد بإخلاص، لكن المشكلة أن الرجل قضى حياته كلها «تكنوقراطى» يحاذر كل ما هو سياسى، والآن وقد تجاوز به العمر سِن الشباب فإن إعادة تأهيله سياسياً كانت صعبة. والحقيقة أن الرجل حاول وبصدق ـ لكن المشكلة أن الدائرة القبطية بعموم، والعائلات القبطية بخصوص ـ نظرت إلى «استينو» باعتبارد مبعوث النظام الجديد إليها يسمع وينقل، يستجلى ويوضح، وذلك وضع آخر يختلف عن وضع «مكرم عبيد» الذى استطاع بفَهْمٍ عميقٍ لروح الحضارة العربية أن يبادر ويقول، وأن يؤثر ويحرك، وهو فى نفس الوقت قيادة سياسية وطنية جامعة.

فى نفس الوقت الذى كانت فيه «العسكرية» الأمريكية تحاول إنشاء حلف إسلامى واسع من كراتشى إلى القاهرة إلى أنقرة ـ فإن «الدبلوماسية» الأمريكية وضعت ثقلها وراء مجلس الكنائس العالمى

وإنصافاً لـ «كمال رمزى استينو» فإنه وَجَدَ أن عدداً من العائلات القبطية الكبيرة ـ والتى قام نفوذها على مسافة قريبة من سياسات «كرومر» و «أحمد حسنين» ـ قد تَفرنْجَت بتراكم الثروة مع بروز أنماط جديدة من الحياة الاجتماعية فى النصف الأول من القرن العشرين. وفى حين أن رجلاً مثل «مكرم عبيد» كان يحفظ القرآن عن ظَهرِ قلب، فقد كان المشكوك فيه أن بعضاً من هذه العائلات القبطية الكبيرة تنطق فى حياتها كل يوم داخل بيوتها بجُملة واحدة سليمة من اللغة العربية.

وفى ظروف اشتداد الحرب الباردة فقد تأكد أن السياسة الأمريكية ابتداء من عصر الرئيس «أيزنهاور» ـ راحت تعتمد سياسة خارجية يلعب الدين فيها دوراً بارزاً، وكان الظن أن الدين ـ قبل الجيوش، وقبل الأدب، وقبل الفن ـ هو القادر بالطبيعة على مواجهة الماركسية «المُلحِدة» فى الدول التى اعتمدتها (الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية كلها ـ ثم الصين ومحيطها فيما بعد).

وكان «جون فوستر دالاس» وزير خارجية «أيزنهاور» قد وضع سياستين متوازيتين اعتقد أنه لا تعارض بينهما، وآمن أن كل سياسة منهما قادرة فى مجالها :

السياسة الأولى هى إنشاء حلف إسلامى يضم كل الدول التى تعتنق الإسلام (وتحارب الالحاد) فى حلف عسكرى تقوده الولايات المتحدة.

وقد سمعت بنفسى فى واشنطن ـ أواخر سنة ١٩٥٢ ـ شرحاً مُفَصَّلاً للفكرة قدمه لى الجنرال «أولمستيد» رئيس برامج المساعدات الخارجية فى وزارة الدفاع ـ البنتاجون. والخُلاصة فيه أن الولايات المتحدة ترى ثلاث دول محورية يلزم أن يرتكز عليها هذا الحلف لتكتمل له فاعليته :

- باكستان ـ وهى بالتعداد أكبر بُعد إسلامى (وقتها).
- تركيا ـ وهى بالسلاح أقوى بلد إسلامى (وقتها أيضاً)
- مصر ـ وهى بالأزهر أهَم مرجعية إسلامية (وقتها كذلك).

ولعل اهتمام الجنرال «أولمستيد» وغيرد بزيارتى إلى واشنطن تلك الأيام كان هدفه أن أنقل الفكرة إلى «جمال عبد الناصر» باقتناع يؤكد ما ينقله إليه سفراء الولايات المتحدة لديه ـ رسمياً

الحقيقة أن البابا «شنودة» كان أكثر الناس ملاءمة لمكانه وزمانه، ولعل دوره ـ على نحو ما ـ استعاد دور «مكرم عبيد» رغم اختلاف خلفيته وشخصيته وموقعه. كان «مكرم عبيد» قد وصل إلى روح الحضارة العربية (للعرب المسلمين والمسيحيين) عن طريق دراسة الدين وحفظ القرآن، وكان الراهب «شنودة» قد وصل إلى نفس النتيجة من باب الأدب

عن فكرة الحلف واحتمالات تنفيذها (وكان «جمال عبد الناصر» طول الوقت يراقب بحرص، ويتابع بحَذَر!).

وكانت السياسة الثانية ـ وقد تبناها «جون فوستر دالاس» بنفسه وعمله وتواجده المباشر ـ هى إنشاء ما سمى باسم «مجلس الكنائس العالمى». وكان الغرض من إنشائه جمع كل الكنائس من المذاهب المسيحية المختلفة فى تنظيم واحد ينهض هو الآخر بدوره فى وضع القِيَم المسيحية فى مواجهة الدعاوى الماركسية، وكان أكثر الخوف ذلك الوقت على جنوب أوروبا، خصوصاً فرنسا وإيطاليا واليونان. ففى هذه البلدان جميعاً بدا التحدى الشيوعى غالباً، وبدا أن الديمقراطية نفسها قد تصبح وسيلته إلى بلوغ السُلطة. ولم يَعُد هناك خط دفاع قادر غير الدين ـ مع وجود خط دفاع خفى هو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ونعرف الآن أنها «دفعت» و«زَوَّرَت» و«قتلت» لكى تمنع اليسار من الوصول إلى مواضع القرار فى باريس وروما وأثينا (وغيرها).

....

....

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه «العسكرية» الأمريكية تحاول إنشاء حلف إسلامى واسع من كراتشى إلى القاهرة إلى أنقرة ـ فإن «الدبلوماسية» الأمريكية وضعت ثقلها وراء مجلس الكنائس العالمى.

وبالفعل فإن مجلس الكنائس العالمى حاول أن يمد نشاطه إلى الكنيسة المصرية ـ وكان ذلك إحياء جديداً لجهود تبشيرية سبقت ـ لكن الكنيسة القبطية المصرية كانت واعية بتراثها، حريصة على استقلالها.

وبرغم محاولات لاستغلال تَوَجُّه مصر العربى فى منتصف الخمسينات، ثم قيام الوحدة المصرية السورية قرب نهايتها ـ وتأويل ذلك لدى البعض إسلامياً ـ فإن الكنيسة المصرية الوطنية حشدت قوتها وواجهت. (ولا يهم هنا أن نفراً من الأقباط حاولوا عَلَناً وسراً ومن مَقَرِّ جريدة طائفية ـ إيقاظ النعرة الفرعونية عن تصميم وعمد ـ ثم الترويج فى الداخل والخارج لاحتكار الفرعونية وحصرها فى الأقباط وحدهم، ثم جنوح البعض بعد ذلك إلى تصرفات وصلات جانبها الصواب. وتَشَجَّعَت هذه التصرفات والصلات فى أعقاب الانفصال بين مصر وسوريا، وكان أن تَقَرَّرَ ـ تَزَيُّداً فى الحرص دون خطر حقيقى فيما أظن ـ وضع بعض المُتَوَرِّطين فيها تحت الحراسة، ومن سوء الحظ أن الإجراء طال غيرهم بالتبعية.

[وكان هناك بين الأقباط من انطبقت عليهم الإجراءات الاشتراكية بقواعدها ـ شأن غيرهم من المسلمين ـ وكان هناك من وَصَلَت إليهم الإجراءات باعتبارات الأمن ـ من منظور المُختصِّين به)].

وفى كل الأحوال فإنه بعد مرحلة حافلة بالتطورات من السويس إلى دمشق، وجد «جمال عبد الناصر» أمامه بطركا قبطياً قادماً من عمق الريف المصرى مستوعباً ـ بالحِسِّ ـ لحقائق مصر الاجتماعية وضروراتها. وهكذا فإنه فى أول مرة التقاه بعد أن جرى انتخابه وترسيمه، اتفق معه على خط اتصال مباشر يعطى للبطرك ـ كما لشيخ الأزهر وقتها ـ أن يطرق باب رئيس الدولة فى أى وقتٍ يشاء.

وكان «جمال عبد الناصر» قد أدرك بالتجربة العملية أن تجاور دينين (إلى جانب نهر واحد يعيش على ضفافه واعتماداً على مياهه أصحاب وَطَن واحد) ـ هو مسئولية رئاسة الدولة، لأن ترك الأمر لجهاز الدولة العادى قد لا يكون كافياً فى ظروف غير عادية (ومن الملاحظ أن نفس الشىء حَدَثَ فى ذات الفترة بالنسبة لنهر النيل، فقد كان مشروع إنشاء السد العالى تحت الإشراف المباشر لرئاسة الدولة).

وكذلك قامت علاقة من نوع خاص بين «جمال عبد الناصر» وبين «كيرلس» السادس، وكانت علاقة مباشرة لا يدخلها وسطاء ولا تداخلها حساسيات.

وربما أن الأمر احتاج مرة واحدة إلى اقتراب غير مباشر بين الاثنين.

....

....

ففى ذات يوم من سنة ١٩٦٤ جاء لزيارتى فى «الأهرام» صديق كريم ينتمى إلى أسرة قبطية بارزة هو الأستاذ «أمين فخرى عبد النور» (ابن السياسى القبطى الكبير «فخرى عبد النور» الذى كان أول من ذهب إلى «سعد زغلول» عند تشكيل «الوفد» يطالب بحق الأقباط ودورهم فى العمل الوطنى من أجل الاستقلال).

وكان «أمين فخرى عبد النور» يسألنى «إذا كنت أقابل الأنبا صمويل يحمل إلىَّ رسالة من البطرك كيرلس». وبالطبع رَحَّبْت ـ وفى غد جاء الأنبا «صمويل» ومعه «أمين فخرى عبد النور» ـ وكانت رسالة «كيرلس» السادس سؤالاً رأى البطرك أن يوجهه إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» عن طريقى وليس مباشرة منه إليه ـ وذلك حتى لا يؤدى طرح السؤال مباشرة إلى إحراج للطرفين إذا كان للرئيس رأىٌ مخالفٌ.

كان مؤدى السؤال كما شرحه الأنبا «صمويل» هو أن الكنيسة المصرية وهى مقبلة على الاحتفال بألفية ثانية بعيد ميلاد السيد المسيح تفكر فى المستقبل، ومع ظهور مجتمعات قبطية جديدة خارج مصر، فإن البطرك يحلم بإنشاء كاتدرائية تكون فى مقام الكرازة المرقسية ـ بين كنائس العالم الكبرى.

والمطلب الذى يريده البطرك من الرئيس هو:

ـ السماح ببناء كاتدرائية (فهذه مسألة أضخم من بناء كنيسة عادية) ـ والتصريح من المستوى الأعلى مطلوب هنا بصفة خاصة (مع العلم أنه بالنسبة لبناء الكنائس العادية فإن «جمال عبد الناصر» كان قد أعفى البطريركية من تصريح وزارة الداخلية وذلك فى حدود بناء ٢٥ كنيسة كل سنة، والبطرك هو الذى يملك سلطة التصريح بها، وتَقَبَّل منه وزارة الداخلية بغير أن تتعلل بأحكام الخط الهمايونى الشهير!)

ـ بعد ذلك فإن البطرك عنده مشكلة أخرى هى مشكلة التمويل، فبناء الكاتدرائية سوف يحتاج إلى مبالغ كبيرة، والكنيسة تواجه أزمة بين أسبابها أن بعضاً من أغنياء الأقباط المستعدين للتبرع أصابتهم القرارات الاشتراكية (سنة ١٩٦١)، ومن ثم فقد أصبح عذرهم أمام البطرك ظاهراً. ومن ناحية ثانية فإن أوقاف الكنيسة سَرَى عليها ما سَرَى على الأوقاف كلها، ولم يعد هناك من ريعها ما يغطى ولو جزءا من تكاليف بناء الكاتدرائية.

ـ وأخيراً فإن البطرك لا يرى بُدّاً من طلب مساعدة الدولة، لكنه فى نفس الوقت يدرك أن مساهمتها مباشرة فى بناء كاتدرائية مسيحية مسألةٌ دقيقة!

وخلاصة الرسالة فى النهاية أن البطرك حائر: يريد أن يكلم الرئيس فى ذلك كله ـ لكنه فى نفس الوقت لا يريد إحراجه ـ لا أمام المسلمين ولا أمام الأقباط.

من تلك الأيام تدفقت مياه كثيرة فى النهر الواحد الذى يعيش على ضفافه ويتجاور دينان لكن مياه النهر حملت بعد ذلك بقع دم. وفى «الكشح» سنة ١٩٩٩ كان الدم بقعة كبيرة على سطح الماء، وهذه علامة بالغة الخطورة. والشاهد الآن أن أحداً لا يحتاج إلى لجنة تحقيق برلمانية ـ أو حتى محضر تحقيق بوليسى ـ لكى يدرك مدى خطورة العلامة

....

....

ونَقَلْتُ رسالة البطرك إلى الرئيس، وسألنى «جمال عبد الناصر»: «ما هى الحدود المالية لطلب البطرك؟» ـ ولم أعرف جواباً، لأن الأنبا «صمويل» كان مُكَلَّفاً بالسؤال ولم يكن مُكَلَّفاً بما بعده.

وبعد أيام قليلة ذهبت مع الأنبا «صمويل» إلى لقاء مع البطرك «كيرلس» السادس فى مَقَرِّه.

وكان البطرك محرجاً فى تحديد ما يطلبه، وتشاور مع الأنبا «صمويل» أمامى بالظنون عن التكلفة، وكان رده أنها «ما بين مليون ونصف إلى مليونين من الجنيهات»، وأكثر من ذلك فإن البطرك أمر سكرتيره فجاءه بمجموعة من الرسوم الهندسية لمشروع الكاتدرائية، وكان «كيرلس» السادس من تشوقه إلى بناء كاتدرائية قد كلف بتصميمها ـ فعلا ـ عدداً من أكبر المهندسين الأقباط فى مصر.

....

....

وحين حملت اقتراح البطرك وما ألحقه من تصميمات ـ إلى «جمال عبد الناصر» فى بيته مساء نفس اليوم، كان قد توصل إلى حَلٍّ عملى.

كان تقديره أنه قد يكون من الصعب أن يقرر مجلس الوزراء إنشاء كاتدرائية قبطية من ميزانية الدولة. فهذه سابقة قد تجر وراءها بالنسبة للمسلمين والأقباط ما لا داعى له من التباس. لكنه نظراً للضرورات ـ وهى تتعلق بروابط المجتمع الوطنى ـ فإن إنشاء الكاتدرائية بمؤازرة الدولة مطلوب. وكان الحل أن «جمال عبد الناصر» دعا رئيس مؤسسة البناء والتشييد (وهو يومئذ المهندس «على السيد») وطلب إليه ـ وعَزَّزَ طلبه بتوجيه رئاسى مكتوب ـ أن تتولى شركات المقاولات التابعة لمؤسسته، كل فى اختصاصها الفنى، بناء وتجهيز الكاتدرائية، ثم أن تضيف التكاليف إلى حساب عمليات أخرى يقوم بها القطاع العام ـ وقد كان.

وحضر «جمال عبد الناصر» احتفال بناء الكاتدرائية، ولم أستطع حضور الاحتفال لداعى سفرٍ مفاجئ، وكان أن بعث البطرك باثنين من كبار أساقفة الكنيسة أحدهما الأنبا «صمويل» والثانى الأنبا «تاوفيلس» لإقامة قداس بركات فى بيتى ولأولادى، ومع القداس صفحة من كتاب كنسى عتيق، وقطعة نسيج قبطى قديم، كلاهما داخل حافظ من زجاج ـ وقال لى البطرك فيما بعد إن «الصلاة مهما اختلفت الطقوس دعاء لرب واحد ساكن فى قلوب كل المؤمنين».

وربما أن الحقائق كانت تَتَطَلَّب ما هو أبقى وأعمق من علاقة وثيقة بين بطرك ورئيس ـ لكنه لسوء الحظ أن معارك ٢٣ يوليو المستمرة جعلتها تترك وراءها فراغات مفتوحة! ■



السـادات وشـنودة

في بداية رئاسته ترك الرئيس «السادات» قضية «تجاور دينين في وطن واحد» لجهاز الدولة العادي، وبالذات وزارة الداخلية، وقد شغلها السيد «ممدوح سالم» ابتداءً من مايو سنة ١٩٧١ وظلَّ فيها حتى عهد بها إلى أحد مساعديه عندما كُلِّفَ هو بتشكيل الوزارة في مايو سنة ١٩٧٥.

وكان «ممدوح سالم» رجلاً يتمتع بمزايا كثيرة، لكن طبيعة اهتمامه بـ «عامل الأمن» قبل أي اعتبار دفعه دون تَعَمُّد إلى صدام مع البطرك الجديد الذي أصبح لقبه الرسمي «البابا» بعد إنشاء الكاتدرائية. ومع أن السيد «ممدوح سالم» كان أكبر المُحَبِّذين لانتخاب الأنبا «شنودة» (البابا الجديد) - فإنه ما لبث أن غَيَّرَ رأيه لأن البابا «شنودة» كانت له نظرة في إدارة شئون كنيسته يصعب أن تَتَحَكَّم فيها كلها قيود أمن.

والحقيقة أن البابا الجديد كان أكثر الناس مُلاءمة لمكانه وزمانه، ولعل دوره - على نحوٍ ما - استعاد دور «مكرم عبيد» رغم اختلاف خلفيته وشخصيته وموقعه. كان «مكرم عبيد» قد وصل إلى روح الحضارة العربية (للعرب المسلمين والمسيحيين) عن طريق دراسة الدين وحفظ القرآن، وكان الراهب «شنودة» قد وصل إلى نفس النتيجة من باب الأدب، وكانت اللغة مدخل عقله إلى قناعته، كما أن الشعر كان المدخل إلى قلبه. وفي حين أن «مكرم عبيد» كان كتلة من الأعصاب مشحونة طول الوقت، فإن البابا «شنودة» كان هادئاً في حساباته ممسكاً بزمام أعصابه دائماً.

وكانت بداية المتاعب بين الرئيس «السادات» والبابا «شنودة» - هي السياسة الجديدة التي فَكَّرَ فيها وأشرف على تنفيذها المهندس «عثمان أحمد عثمان» وهو الصديق الذي راح يظهر بإلحاح في الدائرة القريبة من الرئيس «السادات»، وكان مؤدى سياسة «عثمان» استعمال شباب الجماعات الإسلامية في التصدي لجمهور الشباب القومي (وفيه الناصري) في الجامعات. ومع استمرار مظاهرات الطلبة بسبب فوات «عام الحسم» (١٩٧١) - كما أسماه الرئيس «السادات» - دون حسم - فإن مطلب التصدي تَحَوَّل إلى مطلب ردع، وكان أن ظهرت العصي والجنازير وسكاكين قرون الغزال. وبالطبع فإن نزعة العنف لم تقتصر على الجامعة وإنما تَسَرَّبَت وسالت إلى المجتمع الواسع خارجها، وكانت وزارة الداخلية في حساباتها «لاتجاهات الشارع» قد أصبحت أكثر تَوَجُّساً، وكان أن اتخذت موقفاً أكثر تشدُّداً في عملية ترميم وإنشاء الكنائس مُتَزَمِّتة أكثر من اللازم حتى في تطبيق الخط الهمايوني، والهدف بالطبع مجاراة الجماعات الإسلامية أو مداراتها - مع اعتبارها في ذلك الوقت ضمن احتياطي النظام ضد مُناوئيه.

وتَوَتَّرَت الأحوال في «الخانكة» - حين حَدَث ما اعتُبِر عدواناً - بالحريق والهدم - على كنيسة في «أبو زعبل»، ثم قرر البابا «شنودة» أن يقود موكب أساقفة سَيْراً على الأقدام إلى الكنيسة المعتدى عليها لإقامة الصلوات فيها. وأحس وزير الداخلية أن البابا - صديقه القديم - يَتَحَرَّش بوزارته ويَتَحَدَّاها أن تَتَعَرَّض له ووراءه صفوف من القادة الروحيين لكنيسته!

كنت في ذلك الوقت - نوفمبر ١٩٧٢ - ما زلت من أقرب الناس سياسياً إلى الرئيس «السادات».

وظهر يوم ١٠ نوفمبر ١٩٧٢ - اتصل بي الرئيس «السادات» هائجاً من اللحظة الأولى يقول لي «إنه لم يَعُد يطيق صبراً على شنودة» (يقصد البابا «شنودة»)، فهو - في رأيه - يتصرف وكأن الدولة غير موجودة، أو كأنه يريد أن يصبح دولة فوق الدولة، وهو بذلك سوف يقود «البلد» إلى فتنة طائفية، وقد قرر هو («السادات») - أن يتحمل مسئوليته وأن يضع «شنودة» في حجمه الطبيعي، ولذلك فإنه سوف يذهب أول الأسبوع القادم إلى مجلس الشعب ويُفَجِّر «الموضوع الطائفي» ويطلب إلى المجلس أن يتحمل مسئوليته وأن يتخذ من الإجراءات ما يكفل وضع الأمور في نصابها و«البلد» مقبل على معركة - ثم طلب الرئيس «السادات» مني أن أكتب له الخطاب الذي يعرض به الموضوع على مجلس الشعب وأن أضمنه ما اقترح أن يتخذه المجلس من إجراءات أشار إلى بعضها.

ورَجَوْتُه أن يَتَمَهَّل فذلك موضوع لا يُعالَج بالحِدَّة، ثم إنه لا يُعالَج بـ «الإجراءات»!

واحتَدَّ الرئيس «السادات» قائلاً إنه «لا يستطيع أن يجلس على كرسيه وتحته لغم موقوت كما كان يفعل جمال» (يقصد «جمال عبد الناصر») - ثم يستطرد: «جمال كان له بال طويل في الصبر، أما أنا فلا أستطيع، ولا بد لمجلس الشعب أن يَجِدَ حلاً حاسماً للموضوع»، وهو على أي حال «ذاهب» «ذاهب» إلى المجلس سواء كان في يده خطاب مكتوب أو لم يكن عنده إلا ما يخطر على باله لحظة يبدأ حديثه أمام المجلس، مضيفاً: «إنني سوف أفَجِّر المشكلة برمتها وليكن ما يكون»!

ورَجَوْتُه أن يأذن لي بالمرور عليه في بيته في الجيزة.

وعندما دَخَلْتُ عليه أحسست من اللحظة الأولى أنه مُعَبَّأ على الآخر بحتمية «التفجير» سواء كان مُحَرِّك التعبئة أمنيا، أو كان مُحَرِّكُها من أصدقائه المقربين.

ولساعتين حاولت أن أطرح عليه وجهة نظر أخرى ملخصها «مسئولية رئاسة الدولة مباشرة» عن «جوار دينين على أرض وطن» (وبمثل «تَعَلُّق حياة شعب بمجرى نهر واحد»).

وأخيراً وبعد عناء تَوَصَّلنا إلى حَلٍّ وسط: بدل أن يتكلم هو في مجلس الشعب يبعث إلى المجلس بخطاب عن «الموضوع»، وبدل أن يقوم هو بعملية «تفجير» أمام المجلس يَطلُب من هذا المجلس أن يقوم بتقصي الحقيقة فيه والعودة إليه بتقرير عنه. وكتبت له ونحن بعد جلوس في بيته مشروع الخطاب الذي يبعث به إلى المجلس، ووافق عليه.

وصباح اليوم التالي دَعَوْتُ إلى مكتبي الدكتور «جمال العطيفي» - وهو المستشار القانوني لـ «الأهرام» وفي نفس الوقت وكيل مجلس الشعب (وقد عُيِّنَ فيما بعد وزيراً للإعلام). وحكيت لـ «جمال العطيفي» ما انتهى إليه لقائي في اليوم السابق مع الرئيس «السادات»، وأحطته علماً بأن المجلس سوف يتلقى اليوم أو غداً خطاباً من رئيس الجمهورية يطلب إليه «تشكيل لجنة تحقيق برلمانية» لتقصي الحقائق وتقديم تقرير عنها. وكان تعليق «جمال العطيفي» على الفور أنه «لا يستطيع أن يرى ماذا يستطيع المجلس أن يفعل في هذا الموضوع وفي هذه الظروف؟» - وقلت له إن «ذلك رأيي أنا الآخر» - لكن ما يمكن «تَوَقُّعُه» من المجلس هو فسحة وقت (أسبوع أو أسبوعين على أكثر تقدير) تخدم هدفين:

من ناحية تنفيس البخار المكبوت في البلد نتيجة لحوادث لم يتداركها في الوقت المناسب أحد، وإنما تُرِكَت لتتراكم ولتتحول إلى قنبلة موقوتة (على حَدِّ تعبير الرئيس «السادات»).

ومن ناحية ثانية إتاحة فرصة لمناقشة مسئولة في إطار دستوري واضح، قد يستفيد منها الرئيس ويشعر معها أن هناك من يشاركه المسئولية في مواجهتها، وذلك في نفس الوقت يساعده على أن يستجمع أفكاره ويعيد تركيزها، ويتصرف بسلطته وهي وحدها القادرة على المواجهة السليمة لهذا الموضوع، سواء بالاستباق المستنير لوقائعها، أو بالتدارك اليقظ لتداعياتها.

ولم أكن أحتاج إلى شروحات تطول مع «جمال العطيفي» لأن علاقة صداقة وعمل في «الأهرام» نشأت واستمرت سنوات قبلها وجعلتنا معاً في مواجهة هذا النوع من القضايا العملية المباشرة على موجة واحدة. وقد سألني دون تَرَدُّد لا تسمح به ظروف هذا النوع من المشاكل «ما إذا كنت أرى أن يكون هو المسئول عن هذه اللجنة البرلمانية باعتباره وكيل مجلس الشعب؟» - وكان ذلك في ظني ترتيباً مثالياً لو أمكن تدبيره. وطلب «جمال العطيفي» أن أساعد في «الترتيب» باتصال مع السيد «حافظ بدوي» رئيس مجلس الشعب وقتها بعد، أن يكون هو قد تولى شرح التفاصيل له فور أن يتلقى مكتبه رسالة الرئيس «السادات». وكذلك كان.

وصباح يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٢ صَدَرَ «الأهرام» وعلى صَدْرِ صفحته الأولى خَبَر كتبته بنفسي، ونصه كما يلي:

«علم مندوب «الأهرام» أن الرئيس أنور السادات قد طلب إلى مجلس الشعب تشكيل لجنة برلمانية خاصة للتحقيق في بعض المحاولات التي جرت أخيراً لافتعال فتنة طائفية لا يمكن أن يستفيد منها الوطن أو المواطنون في أي وقت فضلاً عن هذا الوقت بالذات.

وكانت وجهة نظر الرئيس السادات أن هناك وسيلتين لمعالجة هذا الموقف:

الوسيلة التقليدية وهي محاولة تَكَتُّم الأمور والتغطية عليها بالحلول الوسط.

والوسيلة الثانية هي وسيلة المواجهة ووضع الحقائق أمام جماهير الأمة الواعية كلها لكي تستطيع أن تحكم وتفرض على الجميع أن يلزموا حدود مسئولياتهم تجاه الوحدة الوطنية.

وقد كان آخر المحاولات التي دعت إلى تشكيل لجنة التحقيق البرلمانية، هو حادث في «الخانكة»، احترق فيه سقف غرفة في مقر جمعية «أصدقاء الكتاب المقدس».

وأدت تطورات هذا الحادث إلى مضاعفات وردود أفعال مختلفة، برغم أنه كانت هناك محاولات لا شك في صدقها لضبط الأعصاب والحرص على كل المقدسات الوطنية التي يلزم الحرص عليها.

أشعر - ولا بد أن غيري يشعرون كذلك - أن المشهد العربي كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً - وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل ثراءً لو أن ما يجري الآن من هجرة مسيحيي المشرق ترك أمره للتجاهل أو التغافل - أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس



وكان الرئيس السادات قد تلقى برقيات عديدة من أهالي «الخانكة». ومن عدد من رجال الدين. وكان بعد ذلك اتصاله بالسيد حافظ بدوي رئيس مجلس الشعب.

وقد اتخذ مجلس الشعب أمس قراراً. نصه كما يلي:

«قرر مجلس الشعب تشكيل لجنة لتقصي الحقائق حول الأحداث الطائفية التي وقعت في مركز الخانكة، والاطلاع على تحقيقات النيابة وإعداد تقرير للمجلس عن حقيقة ما حدث».

وقد تشكلت اللجنة برئاسة الدكتور جمال العطيفي وكيل المجلس، وعضوية السادة: محمد فؤاد أبو هميلة، وعبد المنصف حزين، وكمال الشاذلي، وألبرت برسوم، والدكتور رشدي سعيد، ومحب استينو.

وعلم مندوب «الأهرام» أن لجنة التحقيق البرلمانية سوف تستمع إلى أقوال جميع المسئولين بغير استثناء.

وستبدأ اللجنة بسماع تقرير السيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، ثم جميع رجال الأمن في المنطقة. ثم كل الذين اتصلوا بالوقائع. ثم تُطَّلِع اللجنة على تحقيقات النيابة العامة للموضوع، وذلك في سبيل التوصل إلى الحقيقة وإعلانها للمواطنين.

....

....

وجاءني الدكتور «جمال العطيفي» بعد أسبوع يقول إنه اللجنة عَقَدَت عدة اجتماعات للاستماع ولتقصي الحقائق، وهو يرى أن الاستماع والتقصي لا يمكن أن يزيدا أكثر من أيام قليلة أخرى، وإلا فإن المسائل قد «تفك»، وذلك لا يجب السماح به. وكان «جمال العطيفي» حائراً في كيفية كتابة تقرير اللجنة رداً على إحالة الرئيس. ولم يكن هناك حَلٌّ إلا إعادة الأمر إلى رئاسة الدولة «باعتبار أن الدستور أناط بالرئيس أن يسهر على حماية الوحدة الوطنية». وكانت تلك بالفعل هي العبارة المفتاح في تقرير اللجنة (مع ملاحظة أن تقرير اللجنة حوى فوق العبارة المفتاح أفكاراً واقتراحات ما زالت حتى هذه اللحظة تستحق الاهتمام وتستوجب إعادة التقدير حتى رغم انقضاء ثمانية عشر عاماً على كتابته).

ولم أفاجأ حين اتصل بي الرئيس «السادات» تليفونياً صباح العشرين من نوفمبر يقول لي، ضاحكاً هذه المرة وليس مُستَفزاً: «إن المجلس أعاد لي الكرة مرة أخرى».

وكان ردي أن تلك طبائع الأمور، فليس في هذه الساحة ولا ينبغي أن يكون هناك لاعب آخر، بمعنى أن الكل يستطيع أن يتفهم وأن يقترح وأن يساعد وأن يفيد، لكن «جوار الدينين على أرض الوطن الواحد» - هي ومياه النيل - مسئولية رئاسة الدولة قبل كل الأطراف.

واستأذنت الرئيس «السادات» مرة أخرى أن أَمُرَّ عليه في بيته، وجلسنا ساعات طويلة نناقش ماذا بعد؟ وماذا يصنع بتقرير اللجنة؟ - وتوصلنا إلى أهمية أن تكون خطوته الأولى بزيارتين: أولاهما للجامع الأزهر يلتقي مع شيخه ومع هيئة كبار العلماء، والثانية لدار البطريركية يلتقي مع بابا الكرازة المرقسية ومع المجمع المقدس بأكمله، وفي الاجتماعين يستطيع الرئيس أن يوجه وأن يدعو إلى تلطيف الأجواء وتخفيف درجة الاحتقان، من باب الحقيقة الوطنية والتاريخية، وليس من باب الكلام الشائع والساذج عن «التسامح» وعن «السماحة» - إلى آخره!

(وفي نفس الجلسة وافقَ الرئيس «السادات» بعد تَرَدُّد على إعادة العمل بالترتيب القديم بين «جمال عبد الناصر» والبابا «كيرلس» السادس، وبحيث يكون في سلطة البابا، ودون عراقيل بسبب الخط الهمايوني، أن يُصَرِّح ببناء خمس وعشرين كنيسة كل عام).

....

....

وبعد أسبوعين - في شهر ديسمبر - قام الرئيس «السادات» بالفعل بالزيارتين. وقد طلب إليَّ أن أكون في انتظاره ليقص عليَّ النتائج، ودخل الرئيس «السادات» من باب بيته إلى البهو وإلى الصالون الكبير وكنت في انتظاره جالساً مع قرينته السيدة «جيهان»، وكانت هي الأخرى قلقة تريد أن تعرف كيف سارت الأمور. وكان الرئيس «السادات» في أحسن أحواله وهو يحكي بطريقته المسرحية (أحياناً) - ويقول:

- «في هيئة كبار العلماء مشى كل شيء كما هو منتظر. في البطريركية أثبت «شنودة» أنه ناصح أكثر مما قَدَّرت».

وأضاف الرئيس «السادات»:

- «حاولت استفزازه مُتَعَمِّداً. نظرت إلى ساعتي أثناء اجتماعنا وأعضاء المجمع المقدس كله حولنا وقلت مُوَجِّهاً كلامي له: «لقد حان موعد صلاة الظهر وأريد سجادة صلاة».

وهرع شنودة بنفسه إلى غرفة مجاورة وجاء لي بسجادة صغيرة فَرَشَها بنفسه وسط مكتبه وخرج الكل من القاعة، ولكن شنودة لم يخرج وإنما وقف بعيداً وقد شَبَكَ يديه أمام صدره في خشوع وانتظرني حتى أتم صلاتي... ورأيته بركن عيني وحاولت تقدير رد فعله...».

وكانت السيدة «جيهان» هي التي سبقت بأول ملاحظة في التعقيب على ما قال زوجها، وسألته بحيرة: «غريبة يا أنور... وليه تِستَفِزُّه؟»..

وقال لها «أنور السادات» بطريقته:

«ياه يا جيهان لن تفهمي في السياسة طول عمرك. أردت استفزازه لكي تَظهَر خفايا مشاعره».

ثم أضاف:

«لكنه ناصح وغويط».

وسألتُه إذا كان قد أبلغه بالعودة إلى اتفاق الرئيس «عبد الناصر» والبابا «كيرلس»؟ - ولم ينتظر الرئيس «السادات» حتى أكمل سؤالي، وقال:

«وافقت له على ضعف عَدَد الكنائس التي اتفق عليها جمال مع كيرلُّس»!

وعندما لاحظ دهشتي استطرد يقول:

«شنودة ظَلَّ طول الوقت يقول لي أنت رئيسنا وأنت زعيمنا وأنت رَب العائلة».

....

....

ومن سوء الحظ أن الأمور لم تلبث أن تعقدت حتى جاء يَومٌ سنة ١٩٧٨ - سمعت فيه وكنت في زيارة عمل إلى روما - خطاباً عاماً للرئيس «السادات» يروي فيه تفاصيل إضافية عن خلافاته - القديمة والجديدة - مع البابا «شنودة»، ثم وَصَلَ إلى نقطة من خطابه قال فيها إنه كان على وشك اتخاذ إجراء ضده لولا أنه تلقى «خطاباً من فتاة صغيرة رَجَتهُ أن يطيل صبره، وتَمَنَّت لو كان في استطاعتها أن تأخذ من عمرها وتضيف إلى عمره»، وكان أن تَمَهَّلَ في اتخاذ ما انتوى من إجراء - لكنه - كما قال - «تَمَهَّلَ فقط وقد يعود إلى ما فكر فيه إذا لم يكف البابا شنودة عما يفعله».

وأدهشني خطاب الرئيس «السادات» خصوصاً فيما أعلن أنه ينوي اتخاذه من إجراءات، وحين عُدتُ إلى القاهرة بعد أيام سألت الأستاذ «سيد مرعي» وهو الصديق العزيز المشترك وقتها بين الرئيس «السادات» وبيني - عن الأمر، وفوجئت به يقول لي: «إن الرئيس كان ينوي عزله»!

وتساءلت مندهشاً: «وهل يملك عزله؟».

وكان رد «سيد مرعي»: «كان سيعملها باستفتاء عام»!

واشتدت دهشتي وتساءلت: «استفتاء عام على منصب البطرك للشعب المصري كله أم لطائفة منه فقط؟»!

وقال «سيد مرعي»: «لا.. كان سيعرضه على الجميع، لكنه لم يكن ينوي طرحه على الناس بمنصب البطرك تحديداً - كان قد تلقى فتوى من بعض أساطين الكنيسة من أصدقائه بأنه يكفيه أن يسحب المرسوم الرئاسي الذي اعتمد نتيجة انتخاب البطرك بواسطة المجمع المقدس، لكي يصبح وضع البابا غير قانوني» - وهكذا فإن سَحب مرسوم رئاسي هو المقرر له أن يكون سُؤال الاستفتاء!

وسألته عمن قدم للرئيس هذه الفتوى وهي مؤدية في رأيي إلى كارثة، ولم يجب «سيد مرعي» مباشرة، وأحسست أنه يوافق على رأيي، وكان من حُسن حظ الجميع أن خطاب الفتاة الصغيرة التي تَطَوَّعَت على الورق أن تأخذ من عمرها وتعطي الرئيس «السادات» قد أنقذ الموقف قبل وصوله إلى نقطة اللا عودة.

لكنه من سوء الحظ أن تَطَوُّع الفتاة الصغيرة بسنين إضافية من العمر لم يجد نفعاً، فما هي إلا سنوات ثلاث إلا وكان رصاص شباب إسلامي قد أصاب الرئيس «السادات» في مقتل!

وكان بعد ذلك - في سبتمبر ١٩٨١ - أنني سمعت في سِجن «مزرعة طُرَة» مع مئات غيري من المُعتَقَلين - أن إجراءات «ثورة» سبتمبر (!!) التي أعلنها الرئيس «السادات» على معارضيه جميعاً مرة واحدة - طالت ضمن مَن طالت بابا الكرازة المرقسية نفسه، وأن البابا «شنودة» حاله كحالنا الآن - نحن في سِجن «طُرة» - وسجنه دير وادي النطرون.

وكانت رئاسة الدولة بعد الرئيس «السادات» هي بنفسها التي تقدمت تفتح باب الدير - وباب السِجن - لكي تنتهي حالة احتقان خطرة كان يمكن أن تؤدي إلى ما هو أبعَد من الاحتقان!

من تلك الأيام تَدَفَّقت مياه كثيرة في النهر الواحد الذي يعيش على ضفافه ويتجاور دينان لكن مياه النهر حملت بعد ذلك بُقَعَ دَم.

وفي «الكشح» سنة ١٩٩٩ كان الدَم بُقعة كبيرة على سطح الماء، وهذه علامة بالغة الخطورة.

والشاهد الآن أن أحداً لا يحتاج إلى لجنة تحقيق برلمانية - أو حتى محضر تحقيق بوليسي - لكي يدرك مدى خطورة العلامة.

وفي كل الأحوال فإن الحقائق الواضحة أمام الكل لا تترك مجالاً للاجتهاد:

- فهناك أجواء مشحونة ومُعَبَّأة بأسباب تَتَعَدَّد دواعيها: اجتماعية - اقتصادية - سياسية - فكرية.

- وهناك مناخ تحفزت فيه عوامل الانفلات والانفجار.

- وهناك حقيقة سقوط ٢٣ قتيلاً من المواطنين: ٢٢ منهم من الأقباط وواحد فقط من المُسلِمين - وهي قرينة تشير إلى خطأ ما في مكان ما، مَهما قيل إن التدقيق في مسار الوقائع ضروري ومطلوب.

....

....

وفي حالة من الفوضى تُشارِك فيها الأقلام والحجارة والسيوف، وتفتي فيها صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون وأجهزة الراديو، ومنابر المساجد وأجراس أبراج الكنائس - فإن الأمور في النهاية تحتاج إلى صَوتٍ يقول: مَهلاً!

ثم يكون على الجميع أن يخفضوا أصواتهم ولو مؤقتاً ويتذكروا أن سُلطة الدولة العليا هي المُكَلَّفة بالمسئولية قبل غيرها، وهي القادرة على أن تلحق، والأفضل أن تسبق.

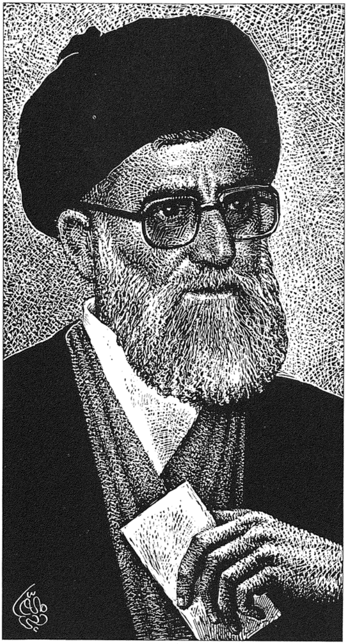
بقي أنه ما دام هذا الحديث كله حديث ضمير فإن هناك ملاحظة لابد لها أن تقال، وهي ملاحظة تعبر ضفاف النهر الواحد، وتتخطى صحاري الوطن المصري، واصلة بقلق حقيقي إلى المشرق العربي - وهي ملاحظة تتعلق بمسيحيي المشرق (في فلسطين، ولبنان، وسوريا، والعراق، وحتى تركيا).

هناك ظاهرة هجرة بينهم يصعب تحويل الأنظار عنها، أو إغفال أمرها، أو تجاهل أسبابها، حتى وإن كانت الأسباب نفسية تتصل بالمناخ السائد في المنطقة أكثر مما تتصل بالحقائق الواقعة فيه!

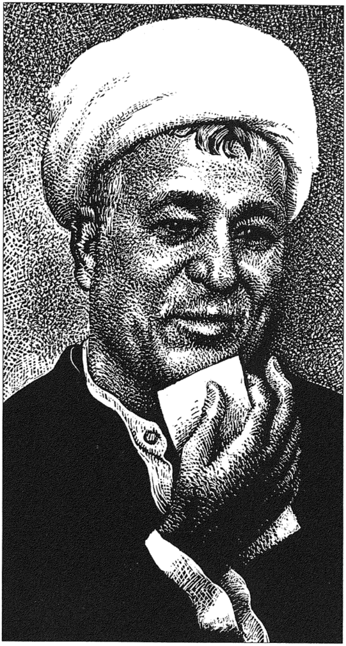
وأشعر - ولا بد أن غيري يشعرون كذلك - أن المشهد العربي كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً - وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل ثراءً لو أن ما يجري الآن من هجرة مسيحيي المشرق تُرِكَ أمره للتجاهل أو التغافل - أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس.

وظني أن جموع المسلمين في الأمة مطالبة أكثر من أي وقت مضى بأن تعرف وتُدرك بيقين أهمية مواريثها، وحيوية تَنَوُّع مصادر ثقافتها، وخصوصية التركيبة الخلاقة والمبدعة في تشكيل حياتها.

أي خسارة لو أحَسَّ مسيحيو المشرق - بحق أو بغير حق - أنه لا مستقبل لهم أو لأولادهم فيه، ثم بقي الإسلام وحيداً في المشرق لا يؤنس وحدته غير وجود اليهودية الصهيونية - بالتحديد - أمامه في إسرائيل؟! ■



خامنئى



رفسنجانى

تقـرير من طهـران عن انتخابات البرلمان

انتفــــاضــــة

فــهـــمـى هـــويـــدى

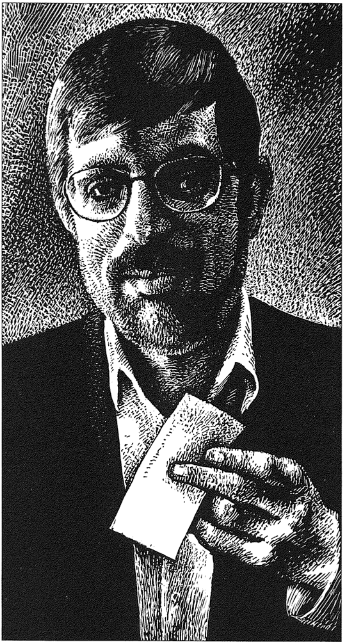
■■ هبت ريح الديمقراطية هذه المرة من حيث لايحتسب أى أحد كعادتنا، توقعناها من الغرب فداهمتنا من الشرق! ليس هذا فحسب، وإنما وجدناها خارجة من آخر موقع يخطر على البال فى تفكير هذا الزمان. إذ من كان يصدق أن تطل علينا المفاجأة من عباءة أولئك الذين درجنا على تسميتهم «بالملالى» استخفافا بهم وازدراء لهم. حتى وجدناهم - وهم «الأصوليون» الملتحون والمعممون - حققوا فى إيران خلال عقدين اثنين فقط تحولات ديمقراطية جذرية، عجز عنها «العسكر» فى أقطار أخرى نعرفها طيلة نصف قرن من الزمان.

نعم كانت الانتخابات النيابية التى جرت أخيرا فى إيران مشهدا ديمقراطيا بامتياز، أثار دهشة البعض وحسد وحسرة آخرين، لكن الذى لايقل أهمية عن ذلك، أنها كانت بمثابة فض لاشتباك بائس بين الدين والحرية، عشّش فى الوجدان الإيرانى منذ «ثورة الدستور» فى بدايات القرن الفائت.

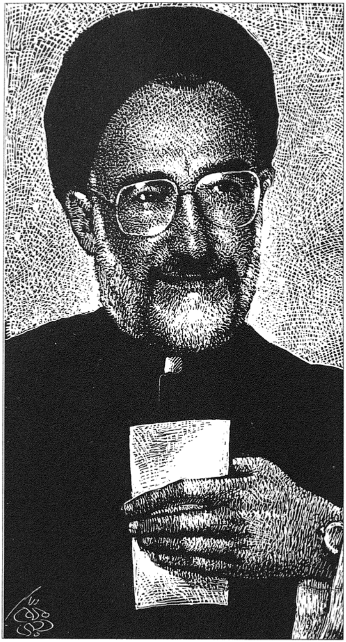
يحتاج ذلك المنطوق إلى تحرير، يكشف عن القسمات ويتقصى الشواهد والحيثيات فيما هو كائن وفى الذى كان، الأمر الذى يدفعنا إلى سباحة لامفر منها تمر بشطآن عدة، تتوزع مراسيها بين الحاضر والماضى، لكنها تظل فى إيران، لاتبارحها.

[١]

جرت المعركة كلها فى أجواء تحت الصفر، فشتاء طهران الثلجى لم يشهد صخبا



كرباستشى



خاتمى

الديمقـــراطيـــة فـــى إيـــران

ولاضجيجا كهذا الذى جرى هذا العام، إذ ألف الناس فى شهر فبراير بالذات أن يظللوا معتصمين بالبيوت وحول المدافئ قدر الإمكان، وقليلون هم الذين اعتادوا الذهاب إلى شمال العاصمة لكى يمارسوا هواية التزلج والرشق بكرات الثلج، لكن المشهد انقلب هذا العام بسبب الانتخابات، حيث قضت الأغلبية أوقاتها فى قاعات المؤتمرات ومراكز التجمعات، من المساجد والحسينيات إلى ستاد أو ملعب «شيروى» الذى يحمل اسم طيار كان من أبطال الحرب العراقية الإيرانية.

لأحد يعرف بالضبط كيف كانت الأرض تنشق عن تلك الحشود التى ما انفكت تملأ القاعات والملاعب متحدية أجواء ماتحت الصفر ومعرضة عن المدافئ، نعم استخدم المرشحون العديد من وسائل جذب الجماهير، فاستعانوا بالمطربين والموسيقيين الكبار، والمشاهير من لاعبى كرة القدم والمصارعة، لكن القدر المتيقن أن حضور الجماهير كانت له أسباب أقوى بكثير من مجرد الاستماع إلى معزوفة أو أغنية أو الحصول على توقيع لاعب شهير أو مصارع عتويل.

فالشعب الإيرانى ـ مثلنا ـ مسيّس حتى النخاع، ومنذ تلقى إشارات الاستدعاء التى لاحت فى الأفق منذ نزل السيد محمد خاتمى إلى حلبة المصارعة السياسية فى عام ٩٧، فإن الجماهير العريضة تشبثت بالفرصة وعضت عليها بالنواجذ، حتى لم تعد تفوت مناسبة حضور دون أن تسارع إلى الاحتشاد وملء المقاعد، والمشاركة بكل ما تملك من قوة فى تنويعات الضجيج الانتخابى العذب. وهو الضجيج الذى تكفلت الصحافة الإيرانية بتغذيته ورفع وتيرته، ذلك أن الصحافة كانت ـ وما زالت ـ إحدى جبهات الصراع بين الإصلاحيين والمحافظين، ومنذ رفعت القيود عن التعبير والإصدار تحولت الصحف إلى مرآة عاكسة لكل مايجرى، وكاشفة للمعقول وغير المعقول من الخبايا والأسرار، صحيح أن القضاء الذى خضع لسيطرة المحافظين أغلق أربع صحف فى غمرة الانفعال والاستنفار، لكن عشر صحف أخرى صدرت مقابل ذلك، حتى لا أستبعد أن يكونوا قد ندموا على المصادرة، فالريح التى تأتى عبر أربع نوافذ همّها أقل من تلك التى تهب من عشر، حيث بعض الضر أهون من بعض!

استغرق فى الضحك زميلنا «شمس» (اسمه وحده دون أبيه أو عائلته«ما شاء الله شمس الواعظين» ولكل أن يختار الكلمة التى تروقه وينادیه بها!)، حيث سألته عن عدد الصحف التى رأس تحريرها وخاض من على منبرها معركته ضد المحافظين، حتى استصدروا حكما بسجنه لمدة ثلاث سنوات، لم يتأيد بعد، لأنه لايزال معروضا على محكمة الاستئناف، قال إنه أصدر فى أواخر عام ٩٧ صحيفة «جامعة» أى المجتمع المدنى (كان ذلك بعد انتخاب الرئيس خاتمى) لكن المحافظين لم يحتملوها فاستصدروا حكما بإيقافها وسحب رخصتها، فاصدر صحيفة أخرى باسم (توس) ـ أرض شهيرة فى خراسان ـ بنفس هيئة التحرير والكتاب وبنفس الإخراج، وحين أغلقت

هذه بدورها أصدر صحيفة باسم «نشاط» واصلت الموقف والتجربة. وحين ضاقوا بها وأغلقوها أصدر صحيفة باسم «صبح آزاد جان» ومعناها «عصر الأحرار» ، ومعها صحيفة أخرى باسم «أخبار الاقتصاد» ، وهو يعتقد أن الأجواء المترتبة على الانتخابات الأخيرة فى إيران سوف تطيل من عمر صحيفتيه الأخيرتين.

[٢]

ما فعله شمس لجأ إليه آخرون من الذين خاضوا المعركة لصالح الإصلاحيين، وكانت النتيجة أن تزايدت أعداد الصحف ولم تنقص، بحيث أصبحت المواجهة بين التيارين المحافظ والإصلاحي تدور رحاها على صفحات ٣٠ صحيفة يومية - إذا أضفنا المجلات الأسبوعية فإن الرقم يرتفع إلى ٧٠ مطبوعة - يتخاطفها الناس كل صباح من على الأرصفة والأكشاك، ولك أن تتصور كم المعلومات والآراء التى يمكن أن تزخر بها تلك الصحف، وتعبئ بها الرأى العام بمختلف اتجاهاته، حتى أن البعض يحملون الصحف «طويلة اللسان» مسئولية تدهور الوضع الانتخابى للرئيس السابق هاشمى رفسنجانى فى ترتيب المرشحين الفائزين عن طهران. إذ لأنه بدرجة «رئيس سابق» للجمهورية، فقد كان الظن أنه سيحتفظ بموقعه على رأس القائمة، وسيكون أول الفائزين بين نواب العاصمة الثلاثين، بمظنة أن «الرئيس» حتى وإن كان سابقا ينبغى أن يصبح رأسا لكل شيء وفى الصدارة دائما. وقد ظل أنصار الشيخ رفسنجانى أسرى هذا الظن حتى ٤٨ ساعة قبل بدء التصويت، إذ بنفسى سمعت كلاما بهذا المعنى من السيد غلام حسين كرباستشى الأمين العام لحزب «كوادر البناء» الذى هو حزب الرئيس السابق. (تأسس أثناء رئاسته للجمهورية، وضم بعضا من معاونيه إضافة إلي شقيقه محمد).

ليلة الثلاثاء ٢/١٥ قال لى كرباستشى الذى رأس بلدية طهران وخرج من السجن حديثا. (تصيده المحافظون وحاكموه ثم ساقوه إلى السجن ليقضى ثلاث سنوات، ثم أفرج عنه بعفو من القائد السيد خامنئى) ، إن استطلاعات الرأى التى أجريت دلت على أن الشيخ رفسنجانى سوف يحصل على المركز الأول فى طهران، محتفظا بمسافة كبيرة بينه وبين الثانى، غير أنه غير رأيه ليلة الخميس، وقال إن آخر الاستطلاعات التى أجراها حزب كوادر البناء أشار إلى أن رفسنجانى لن يحصل على المركز الأول.

أما ماحدث فقد قلب الموازين وصدم كل أركان «الكوادر» حيث ظل مركزه الانتخابى يتدهور ساعة بساعة أثناء الفرز، إلى أن أعلن رسميا يوم الاثنين ٢/٢١ أن الرئيس السابق حصل على أقل أصوات الفائزين وجاء ترتيبه التاسع والعشرين من ثلاثين نائبا!

فرحت حين سمعت الخبر، لا لأن رفسنجانى سقط فى الاختبار الأول، ولكن لأن الديمقراطية نجحت بامتياز، ذلك أنه كلما ازداد عدم اليقين قبل الانتخابات، وكلما كانت النتائج مفاجئة ومغايرة للتنبؤات، كلما ازدادت الثقة فى نزاهة الانتخابات وشفافيتها، ولاأنكر أن لهذه الواقعة صدى خاصا عندى، اختلف عما استشعره كل الذين أعرفهم فى طهران، ربما لأنى أحد الذين يستبد بهم الشوق إلى طور نكف فيه عن تعاطى الانتخابات مضمونة النتائج (هل كلمة مطبوخة أدق؟). تلك التى يدخل فيها البعض وهم مطمئنون إلى النتيجة، وغير مستشعرين أى درجة من القلق أو الاضطراب.

لست أشك فى صحة القول بأن للصحف دورا فى الهزيمة النسبية التى لحقت بالشيخ



رفعت جبهة «المشاركة» التى شكلها مؤيدو الرئيس خاتمى ويتزعمها شقيقه الأصغر الدكتور رضا شعارا يقول: إيران لكل الإيرانيين، ورفع حزب كوادر البناء الذى شكله مناصرو الشيخ هاشمى رفسنجانى شعارا يدعو إلى «الأمن والعدالة والحرية»

رفسنجانى، ذلك أنها حاكمته بقسوة وانتقدت سجله، بعدما استدعت ملفه وفتشت فيه ضمن ملفات أخرى عديدة نزعت من حولها الهالات وهتكت الحصانات، واستباح الجميع نقدها بجراة غير معهودة، منذ طالت الرقاب وارتفعت مختلف الأصوات مجلجلة فى الفضاء السياسى.

قبل ثلاثة أسابيع تقريبا من موعد التصويت نصبت مجلة «إيران فردا» - إيران الغد - محاكمة مطولة للرئيس السابق لم تبق لعهده على فضيلة، سواء حين كان رئيسا لمجلس الشورى فى عهد الإمام الخمينى، أو رئيسا للجمهورية بعد وفاته، أكثر من ذلك فإن صحيفة «صبح آزاد جان» نشرت رسالة لأحد العلماء المخضرمين - حجة الإسلام حسن يوسف أشكورى - ندد فيها بالشيخ رفسنجانى، وروى فى ثناياها القصة التالية: فى الدورة الأولى لمجلس الشورى الإسلامى، فى منتصف عام ١٩٨٢، وقف السيد هاشم صباغيان عضو المجلس وسط القاعة وقال: يجب أن تكون الانتخابات القادمة حرة، لكى يتمكن أبناء الشعب من اختيار مرشحيهم دون وصاية من أحد، لكنه حين صرح بذلك، فوجئ ببعض الأعضاء وقد نهضوا مسرعين حوله، وأشبعوه ضربا! - وقد قام على أكبر معين ممثل طهران وعبر عن اعتراضه على ذلك السلوك، فما كان من أولئك النفر من الأعضاء إلا أن استداروا نحوه وأعطوه حظه من الضرب، وبعد عدة أيام من الواقعتين، وقف الشيخ هاشمى رفسنجانى خطيبا فى صلاة الجمعة، وأعرب عن تأييده لما جرى، معتبرا أن عمل أنصار «حزب الله» فى مجلس الشورى كان بمثابة عمل جهادى كبير!

هذا نموذج واحد لعشرات القصص والروايات التى تناولت مواقف رفسنجانى وسياساته وركزت على سلبيات عهده، الأمر الذى كان لابد أن يحدث صداه لدى الرأى العام، وكان التصويت فى الانتخابات دالا على أن الرسالة وصلت، وأنها كانت سريعة المفعول!

[٣]

يكفى أن يخترق المرء شارع «ولى عصر» وحده، حتى يرى صورة وافية للخريطة السياسية الإيرانية كما بدت فى سنة ٢٠٠٠، على الأقل، فهذا ما فعلته لعلمى أن شارع ولى عصر الذى يصل شمال طهران بجنوبها ، ممتد بطول لامثيل له فى إيران، حيث يزيد على ثلاثين كيلو مترا، الأمر الذى جعل بعض الفقهاء - الإمام الخمينى على رأسهم - يعتبرون القادم من الشمال إلى الجنوب أو العكس «مسافرا» يحق له الإفطار فى شهر رمضان.

اللافتات والملصقات الانتخابية غطت جوانب الشارع واعترضته فى مواضع عدة، ولأنه طويل على النحو الذى ذكرت، فقد وجد كل مرشح مكانا على جانبيه أعلن فيه عن نفسه، باسمه وصورته وشعاراته، ورغم أن المرشحين فى طهران وحدها كان عددهم ٨٠٠ شخص، بينهم ١٢٥ امرأة، يتنافسون على ٣٠ مقعدا للعاصمة (إجمالى المرشحين وصل إلى ٥٨٠٠ بينهم ٤٢٤ امرأة، والعدد المطلوب لمجلس الشورى ٢٩٠ فقط)، إلا أن جنبات الشارع احتملت هذا العدد الكبير نسبيا، وظل بوسع المار أن يقرأ بوضوح الرسائل المبثوثة فى ثنايا الشعارات، التى أتاح البراح للبعض أن يكررها فى مواضع عدة.

ليس فى هذا كله جديد يسترعى الانتباه، فقد كان ذلك دأب المرشحين فى كل انتخابات سابقة، إنما الجديد والمثير حقا فى خطاب «مجلس شمشم» (المجلس النيابى السادس)، هو مضمون شعارات الحملة الانتخابية، التى كان محورها الأساسى هو الناس بهمومهم وأشواقهم.

منذ قامت الثورة كانت الشعارات المرفوعة تحمل سمتا أيديولوجيا، يدور فى فلك الثورة والإسلام وولاية الفقيه، حتى بدت وكأنها محلقة فى الفضاء أو متعلقة بالآخرة، هذه المرة، رفعت جبهة «المشاركة» التى شكلها مؤيدو الرئيس خاتمى ويتزعمها شقيقه الأصغر الدكتور رضا شعارا يقول: إيران لكل الإيرانيين، ووجدنا حزب كوادر البناء الذى شكله مناصرو الشيخ هاشمى رفسنجانى يرفع شعارا يدعو إلى «الأمن والعدالة والحرية» ، بل وجدنا أن حزبا باسم «العدالة والتنمية» قريب من كوادر البناء ، رفع شعارا غيرمسبوق فى خطاب الثورة الإسلامية يقول: دعونا نعيش!

هذا التوجه كان له صداه فى شعارات أخرى بلاحصر، دعت إلى الوفاق الوطنى، والإصلاح الاقتصادى ، والعزة والسعادة، وحل مشكلات الناس...إلخ.

صحيح أن الحملة الانتخابية تضمنت شعارا بأكثرمما تضمنت برامج، نتيجة لعدم وجود حياة حزبية مستقلة وواضحة المعالم، إلا أن الشعارات كانت لها دلالتها المهمة من حيث إنها شغلت بالمجتمع وركزت على مشكلات الخلق - وربما كان شعار «دعونا نعيش» من أكثر النداءات تعبيرا عن تطلعات الناس فى هذه المرحلة.

أما شعار إيران لكل الإيرانيين (إيران براى همه ايرانيان) الذى رفعه أنصار السيد خاتمى (حزب جبهة المشاركة) فهو يختزل مشروع الرئيس الذى يلح عليه منذ خاض معركته فى عام ٩٧ وتولى السلطة بعد ذلك، وعلى حد تعبير حجة الإسلام مجيد أنصارى (من أركان حزبه وكان زعيم الأقلية الإصلاحية فى مجلس الشورى الخامس (الحالى) وهو فى الوقت نفسه عضو مجلس الخبراء) فإن الشعار يعد مسعى نحو تكريس مفهوم «المواطنة» ، ومن ثم فهو دعوة لعدم استثناء أحد فى بلد الثورة الإسلامية ، مسلما كان أم غير مسلم، بصرف النظر عن كونه مصطفا فى اليمين أو اليسار ، وسواء كان ملتزما أو غير ملتزم، رجلا كان أو امرأة، وقد ترجم الحزب هذا الموقف حيث رشح على لائحته فى إحدى الدوائر الانتخابية القريبة من أصفهان واحدا من المسيحيين الأرمن خارج نطاق الحصة المقررة دستوريا للأقليات (خمسة مقاعد).

الذين يتابعون خطاب ومواقف الأطراف المختلفة فى الساحة الإيرانية ، يدركون أن شعار إيران للإيرانيين هو رد مباشر على موقف المحافظين الذين يعتبرون أن العلماء فى مقام الأوصياء على المجتمع، ويرددون عبارة مفادها أن «الناس أيتام والعلماء قيمون عليهم» ، وقد سمعت هذا الكلام فى زيارة سابقة من آية الله جنتى، أحد أهم رموز معسكر المحافظين، الذى أضاف أن العلماء - فضلا عما سبق - هم أقرب إلى كافل اليتيم ، الأمر الذى يعنى أن الناس تحت وصايتهم ويعدون طبقا لهذا المنظور مجرد رعايا، وليسوا مواطنين.

هذا المنطق يتحداه شعار إيران لكل الإيرانيين، وإن شئنا الإنصاف والدقة فينبغى أن نلحظ أن خطاب الرئيس خاتمى من البداية كان يمثل تحديا لذات الموقف، أذكر له فى هذا الصدد خطابا ألقاه فى «خوزستان» ذات

الأغلبية العربية، بعد أقل من عام على توليه السلطة، (فى ٥/٣/٩٨) حيث قال ما نصه: «فى مجتمعنا قراءات وتفسيرات مختلفة للإسلام، بعضها يدعى أن الناس ليسوا أهلا لانتخاب خياراتهم بأنفسهم، وأنهم بحاجة إلى وصي بحاجة إلى أحد «الأسياد» فوق رءوسهم، وهذا السيد أو الحاكم لاينتخبونه أو يختارونه بأنفسهم، بل إنه ينتخب فى مكان آخر وفى موقع آخر، وقد يزعمون بأن الله هو الذى نصبهم فوق رءوسهم وصيا عليهم. وأنه يسيرهم ويرشدهم كما يرى» ..

هذه ليست قراءة الثورة الإسلامية للإسلام، لأن هناك وثيقة محددة حصلت على موافقة الشعب، وصادق عليها الإمام (الخمينى) وهى موضع قبول مرشد الثورة (السيد خامنئى). هى الدستور الذى ينص صراحة على أن الناس يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وأن للناس وحدهم حق تقرير مصيرهم.

رسالته هذه عبر عنها السيد خاتمى بلغة أكثر وضوحا، فى خطاب آخر ألقاه فى شهر يوليو من العام ذاته، وقال فيه «إذا أردنا أن نخدم التدين خدمة حقيقية، فينبغى أن نعلن التلازم الدائم بين الدين والحريات، وبغير ذلك فإن التدين قد يصبح سلاحا يعوق تقدم البشرية».

[٤]

لنا أن نقول أن الرئيس خاتمى لم يكن فحسب يرد على دعاوى الجناح المحافظ، الأبوية والوصائية، ولكنه كان أيضا يلح على إزالة ذلك الالتباس الذى شاع فى بعض الأوساط بشأن علاقة الدين بالحرية، وهو الالتباس الذى فرض نفسه على تفكير البعض، فى الحوزة العلمية وخارجها، منذ ثورة الدستور فى سنة ١٩٠٦، التى يطلق عليها فى الأدبيات الفارسية اسم «انقلاب مشروطيت».

ذلك أن مرحلة نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين شهدت تمردا فى إيران على حكم القاجاريين الذين طغوا فى البلاد وأشاعوا الفساد، وفتحوا أبوابها لنفوذ الأجانب وهيمنتهم على التجارة فيها، الأمر الذى استنفر العلماء والتجار وأعدادا من المثقفين، مما ألجأ السلطان ناصر شاه إلى السعى لقمعهم بكل السبل، فهرب بعضهم إلى الخارج وواصلوا إصدار الصحف والمنشورات التى كانت تهرب إلى إيران، وتغذى فى أوساطها روح التمرد والسخط، ومن المفارقات أن القاهرة كانت إحدى أهم العواصم التى يصدر منها المنفيون الإيرانيون صحفهم، وتذكر المصادر التاريخية أن أولئك الإيرانيين كانوا يصدرون آنذاك مجلتين على الأقل من العاصمة المصرية، إحداهما باسم «ثريا» والثانية «يدورش»، وأنهما كانتا من أكثر المطبوعات فضحا لمفاسد الحكم القاجارى فى إيران. (بعض المنفيين أصدروا فى كلكتا بالهند مجلة «الحبل المتين»، وأقرانهم الذين تمركزوا فى لندن أصدروا مجلتى «اختر» و«قانون»).

أثمر التحريض مفعوله - هناك كلام كثير عن دور جمال الدين الأفغانى فى إذكاء الثورة ضد حكم ناصر الدين شاه - الأمر الذى فجر ثورة عارمة فى المدن الإيرانية، انتهت باغتيال الشاه ناصر الدين، وتولى الشاه مظفر الدين السلطة فى البلاد. وقد حاول الأخير أن يقوم ببعض الإصلاحات، ولكن رياح الثورة كانت قد هبت وفجرت معها غضب الجماهير المكتوم. وحين لجأ أعوان الشاه الجديد إلى قمع التمرد بالقوة، فإن ذلك أجج من الغضب ووسع من نطاقه. وارتفعت أصوات العلماء؛ داعية إلى إعمال حكم القانون، وإلى المطالبة بالدستور وبالثورة الإسلامية. فى الوقت ذاته كانت المنشورات والصحف التى تسربت من الخارج تلح على إقامة دولة القانون والدستور الحديثة، لا دولة الاستبداد والشركات الأجنبية.



حين ظهر خاتمى على المسرح، كان قد قضى سنوات قابعا فى أرشيف المكتبة الوطنية فى طهران، منذ استقال من منصبه كوزير للإرشاد ، بالكاد كان يذهب إلى جامعة طهران لكى يحاضر فى موضوع «المجتمع المدنى»، لم يكن متفائلا كثيرا، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه

قاد العلماء الثورة، واشتهر من بينهم السيد محمد الطباطبائى والسيد عبد الله البهبهانى، وتنادى الجميع للاعتصام بمدينة «قم»، فيما سمى بالهجرة الكبرى، فى إعلان عن الاحتجاج والإصرار على المطالب الدستورية. كما اعتصم التجار فى معسكر كبير بطهران، تصادف أن كان أمام السفارة البريطانية.

حين تزايدت الضغوط على ذلك النحو، لم يجد مظفر الدين شاه بدا من الرضوخ، فأصدر فرمانا بتكوين مجلس نيابى منتخب من الأمة فى ١٥ أغسطس ١٩٠٦، وبدأ عدد من المفكرين والخبراء فى وضع قانون الانتخابات، وسرعان ما تمت الانتخابات، وافتتح أول مجلس نيابى فى تاريخ إيران فى السابع من أكتوبر عام ١٩٠٦، ولم يكن مستغربا أن احتل العلماء أغلبية مقاعد ذلك المجلس.

لم يلبث مظفر الدين شاه أن مات فى أول يناير عام ١٩٠٧، وتولى مكانه فى عرش السلطنة، أمين محمد على قاجار، الذى أحاط نفسه بمستشارى السوء، الذين كانوا من الروس، وعلى رأسهم يهودى روسى اسمه «شبشل». ومنذ لحظة توليه السلطة، فإنه أضمر شرا للمجلس النيابى، حتى أنه لم يوجه الدعوة لأعضائه لحضور حفل تتويجه، لكنه لم ينتظر طويلا حتى أعلن الحرب على المجلس، فلجأ إلى حيلة خبيثة ادعى فيها «أن النظام الدستورى مخالف للإسلام»، وأنه كمسلم «مخلص» لا يقبل باستمرار ذلك التعارض، وأنه حين يقف مصطلح «الشريعة» فى مواجهة القانون، فإن خياره محسوم لصالح الشريعة، الأمر الذى لا يدع له فرصة للتردد فى الإطاحة وسحق كل من يتحدث عن الدستور أو القانون!

لم يخل الأمر من علماء منافقين داهنوا الشاه ودافعوا عن مقولته، فاستخدم أحدهم «فضل الله نورى» فى التنديد بالخارجين على الشريعة، الذين يحاولون استبعادها وإحلال القانون والدستور مكانها، إذ اعتبر هؤلاء «خارجين على ولى الأمر وظل الله فى الأرض والحكم الشرعى، وأنهم من البابية والبهائية»، الخارجين عن الملة والملعونين فى الدنيا والآخرة.

حدث الصدام الذى لم يكن منه مفر، واستعان الشاه بفرقة من القوازق الروسية، كان قد شكلها أبوه ناصر الدين لحمايته فى عام ١٨٧٩، فحاصرت المجلس النيابى وقصفته بالقنابل فى ٢٧/٦/١٩٠٨. بينما وقفت قوات أخرى لاصطياد أعضاء المجلس الذين حاولوا الخروج منه هربًا من القصف، قتل بعض أولئك الأعضاء، وأعدم عدد من الزعماء الدينيين، بل وأطلق الرصاص على الذين احتموا بمسجد «بهارستان». وكان ذلك حافزا لانتقال شرارة الثورة إلى بعض المدن الإيرانية الأخرى «تبريز ورشت وكيلان وأصفهان». لكن كل تحرك ووجه بذات الدرجة من القمع الوحشى، وكانت تلك بداية سلسلة من الاضطرابات والقلاقل، أدت إلى خلع محمد على شاه ونفيه، وتعيين ابنه أحمد شاه ملكا، الذى كان تحت الوصاية، وعجز عن السيطرة على البلاد، الأمر الذى انتهى بقفز رضا شاه على السلطة فى عام ١٩٢٥، وانتهاء حكم القاجاريين، وبدء حقبة جديدة حكمت فيها أسرة بهلوى طيلة أكثر من نصف قرن، حتى أطاحت بها الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩.

[٥]

هذا الالتباس فى علاقة الشريعة بالقانون والدستور ظل كامنا فى الوجدان الإيرانى، سواء فى جانب بعض المتدينين من غلاة المحافظين، أو من جانب بعض المثقفين العلمانيين، الذين تبنوا حل الإشكال من خلال رفع شعار فصل الدين عن الدولة. ورغم أن مشروع الحكومة الإسلامية الذى تبناه آية الله الخومينى، انطلق من فكرة المصالحة بين الطرفين - إذا جاز التعبير - إلا أن ممارسات بعض رموز المحافظين وآرائهم أساءت كثيرا إلى توجهه. ولا ينسى أن الثورة الإسلامية ما أن استقام لها الأمر فى سنة ١٩٧٩، حتى سعت إلى إعداد دستور جديد، وإلى انتخاب مجلس نيابى. غير أن نشوب الحرب العراقية الإيرانية فى سنة ١٩٨٠، واستمرارها لمدة ثمانى سنوات، لم يتح للتجربة أن تنمو وتنضج على النحو المنشود. وحين انتهت الحرب وخلفت ما خلفته من تدمير وتخريب فى البنيان الإيرانى، جاء الشيخ هاشمى رفسنجانى رئيسا للجمهورية، ورفع شعار «التنمية الاقتصادية»، التى كانت استجابة لضرورات تلك المرحلة، وبعد ثمانى سنوات من توليه السلطة، تغيرت خلالها إيران كثيرا، انتخب الرئيس محمد خاتمى، الذى قدم من الظل، رافعا شعار «التنمية السياسية»، وملبيا شوق المجتمع إلى الحضور والمشاركة، وإلى الحرية التى غيبتها طويلا الظروف والصدمات المتلاحقة.

حين ظهر السيد خاتمى على المسرح، كان قد قضى عدة سنوات قابعا فى أرشيف المكتبة الوطنية فى طهران، منذ استقال من منصبه كوزير للإرشاد فى حكومة الرئيس رفسنجانى، بالكاد كان يذهب إلى جامعة طهران لكى يحاضر طلابه فى موضوع «المجتمع المدنى»، هو نفسه لم يكن متفائلا كثيرا، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه.

يروى السيد غلام كرباستشى رئيس بلدية طهران السابق، أنه زاره فى بيته فى أوائل عام ١٩٩٦، لكى يدعوه إلى ترشيح نفسه لعضوية مجلس الشورى الخامس، لكسر احتكار وهيمنة المحافظين والتقليديين الذين فازوا بأغلبية كبيرة فى المجلس الرابع، فأطاحوا بالإصلاحيين واليسار، حتى كادوا يستأصلونهم من المسرح السياسى الإيرانى. وحين اقتربت مدة المجلس الرابع من النهاية، حاولت تلك القوى أن تعيد تنظيم صفوفها والاحتشاد لخوض المعركة الانتخابية، ومنافسة المحافظين فى المجلس التالى (الخامس). فى هذا السياق، فإنهم حاولوا أن يرشحوا على لائحتهم بعضا من الأسماء ذات الوزن، التى تحظى باحترام الجماهير، وكان السيد محمد خاتمى واحدا منهم.

حين فاتحه كرباستشى فى الأمر، وكان آنذاك أمينا عاما لحزب كوادر البناء، لم يجد منه حماسا للترشيح. وحين سأله عن سبب إعراضه عما دعى إليه، وجده ضعيف الأمل فى أن تكون المحاولة ذات جدوى، وغير واثق من فرص النجاح، خصوصا أن المحافظين كانوا آنذاك فى أوج قوتهم، وفى ذروة الشعور بأحكام الهيمنة على مختلف مؤسسات الدولة.

وكانت جملة هذه الأسباب، هى التى دفعت السيد خاتمى إلى

الاعتذار عن عدم الترشيح لمجلس الشورى، وإيثاره البقاء فى موقعه بالمكتبة الوطنية، والاكتفاء بما يلقيه من محاضرات على طلاب جامعة طهران.

يرجح كرباستشى أن السيد خاتمى أعاد النظر فى موقفه، وعاد إليه بصيص الأمل، حين وجد أن الإصلاحيين أثبتوا حضورا قويا فى الانتخابات التى اعتذر عن عدم المشاركة فيها، إذ فازوا فى المجلس الخامس بحوالى مائة مقعد من ٢٧٠ (تمت زيادة عدد مقاعد مجلس الشورى لاحقا، حتى وصلت إلى ٢٩٠). ومن ثم أصبحوا يمثلون أقلية قوية، نجحت فى كسر هيمنة المحافظين على المجلس. أهم من ذلك أن تلك النتيجة أثبتت أن هناك قطاعات فى الرأى العام ضائقة بأداء المحافظين وباحثة عن بديل آخر.

هذا الأمل شجع السيد خاتمى على النزول إلى الحلبة، وخوض المعركة الرئاسية فى عام ١٩٩٧، وليس سرا أن الرئيس السابق هاشمى رفسنجانى كان أحد الذين شجعوه على ذلك، رغم أن بعض أركان حزبه (كوادر البناء)، لم يكونوا متحمسين لترشيحه، على الأقل، فقد كان هذا هو رأى كرباستشى الأمين العام للحزب، الذى رأى فى خاتمى فضائل كثيرة، لكنه اعتبره شخصية «غير مقاتلة» (التعبير الذى سمعته منه)، ولأنه كذلك فى ظنه، فقد كان تقديره أنه ليس أنسب شخص لمقارعة المحافظين، وتحدى قبضتهم القوية، وهيمنتهم على مؤسسات الدولة.

حين رشح نفسه للرئاسة، فإن خاتمى تصرف كأى مثقف ذكى وواع، فرفع شعار «التنمية السياسية»، مدركًا أن المجتمع بحاجة ملحة إليه، ثم خاطب الشرائح التى همشت لسبب أو آخر خلال سنوات الثورة، وفى مقدمتها المثقفون والنساء والشباب. وحين دخل من هذا الباب، فإنه نجح فى أن يلحق هزيمة قاسية بمنافسه الشيخ ناطق نورى رئيس مجلس الشورى، الذى أيدته كل مؤسسات الدولة، بما فى ذلك القائد السيد على خامنئى. وكانت تلك أول مفاجآت التحول الذى أذهل المحافظين وأفقدهم صوابهم. وأسوأ من ذلك، أنهم لم يستوعبوا درسه، فاستخفوا بما حدث بقدر استخفافهم بخاتمى نفسه حين نازل مرشحهم فى البداية.

[٦]

الذى لم يلحظه المحافظون لا فى الانتخابات الرئاسية ولا فى الانتخابات النيابية الأخيرة، أن الدنيا تغيرت فى إيران، وأن العقدين اللذين مرا فى عمر الثورة الإسلامية، شهدا تحولات جذرية فشلوا فى إدراكها، ومن ثم فشلوا فى التعامل معها. وهو معنى يركز عليه كثيرا «شمس الواعظين» رئيس تحرير صحيفة «عصر آزادجان» فى أحاديثه وكتاباته، حيث ما برح ينبه إلى أن المجتمع الإيرانى الذى شهد انتخابات سنة ألفين يختلف تماما عن المجتمع الذى قامت فيه الثورة قبل ٢١ عاما. «يكفى أن تعلم مثلا أنه حين قامت الثورة فى عام ١٩٧٩، كان عدد سكان إيران ٣٤ مليون نسمة، وكانت نسبة الأمية بين ٤٨٪، ٥٠٪. وكان عدد الذين تخرجوا من الجامعات فى السبعين سنة السابقة، لايزيد عددهم على ٤٠٠ ألف شخص».

فى سنة ألفين، انقلب هذا الوضع رأسا على عقب، فقد وصل عدد السكان إلى ٦٥ مليونا (البعض يرتفع بالعدد إلى ٧٠ مليونا). الأمر الذى يعنى أن أكثر من ٣٠ مليون شخص ولدوا بعد الثورة، ولم يكن لهم علاقة لا بعهد الشاه ولا بالصراع ضد «الشيطان الأكبر»، وربما بالكاد يذكرون الحرب العراقية الإيرانية.

من ناحية أخرى، فإن نسبة الأمية انخفضت إلى ٢٠٪. وفى الوقت ذاته، وصل عدد الذين تخرجوا فعلا من الجامعات الإيرانية، والمنخرطين فى سلك التعليم الجامعى إلى أربعة ملايين و٤٠٠ ألف شخص.

إذا أضفنا إلى المتغيرات الجذرية الحاصلة فى إيران، جملة المتغيرات الأخرى التى شهدها العالم خلال العقدين الماضيين فى مجالى الاتصال والمعلومات، فإننا نستطيع أن نقول بثقة أن عالم سنة ألفين يختلف بصورة جذرية عن عالم عام ١٩٧٩، الذى وقف عنده المحافظون فى التفكير والمتطلبات والأحلام والتطلعات.. إلخ.

ليس ذلك فحسب، وإنما يستطيع المراقب أن يلحظ فى الشارع الإيرانى الآن، أن هالات القداسة التى أحاطت بكثير من العناوين والرموز والشعارات فى بداية الثورة، لم تعد تحظى بذات القدر من التقديس والامتثال أو الانصياع، فمفردات مثل القائد أو المرشد أو الرئيس أو آية الله العظيم أو ولاية الفقيه، لم تعد تعنى الكثير عند الجيل الجديد من الشباب. لذلك فإن رجلا فى حجم وثقل الشيخ هاشمى رفسنجانى، كان رفيق الإمام وساعده طيلة العقد الأول للثورة، أصبح من السهل تجريحه والهتاف ضده الآن، ولم تعد له ذات الهيبة أو السلطان فى أوساط الأجيال الجديدة. ولذلك كان ميسورا إلحاق الهزيمة به فى الجولة الأولى من الانتخابات، على النحو الذى سبقت الإشارة إليه. وقد سمعت فى أحد المهرجانات التى نظمها الحزب المؤيد له (كوادر البناء) هتافات صاخبة ضده من جانب بعض الشبان.



إن هالات القداسة التى أحاطت بكثير من العناوين والرموز والشعارات فى بداية الثورة، لم تعد تحظى بذات القدر من التقديس والامتثال أو الانصياع، فمفردات مثل القائد أو المرشد أو الرئيس أو آية الله العظيم أو ولاية الفقيه، لم تعد تعنى الكثير عند الشباب

[٧]

حين توجه الرئيس خاتمى بخطابه إلى المجتمع، واستدعى الفئات المهمشة فيه، تشبث الجميع بالفرصة وعضوا عليها بالنواجذ، حيث بدا أن ثمة إصرارا شعبيا عارما ليس على الحضور السياسى فحسب، وإنما على المشاركة أيضا. ساعد على ذلك لا ريب التسييس ضارب الجذور فى الأعماق الإيرانية. وحقيقة أن المجتمع فى ظل الثورة، ظل محتفظا بحيويته، التى اختزنت حقا، لكنها لم تجهض ولم تمت. وحين واتتها الفرصة، فإن الطاقات المختزنة عبرت عن نفسها بسرعة، وظهر المجتمع فى حالة من العافية لا تخطئها عين.

يكفى أن تعلم مثلا أن ١٥٠ حزبا وتجمعا ورابطة شاركت فى المعركة الانتخابية التى شهدتها طهران، لذلك فإننى أزعم أن اختزال المعركة فى كونها تنافسا بين «المحافظين» و«الإصلاحيين»، يعد من قبيل التبسيط المخل، لأن المحافظين ليسوا شيئا واحدا، ولكنهم جبهة عريضة ومتسعة تضم مختلف ألوان الطيف السياسى، تماما كما هو الحال بالنسبة للإصلاحيين.

المحافظون مثلا، يتألف تجمعهم من حوالى عشرين جبهة مختلفة فى مقدمتها: رابطة رجال الدين المناضلين، جمعية المؤتلفة الإسلامية، رابطة المهندسين الإسلامية، رابطة الأطباء الإسلامية، رابطة العمال الإسلامية، الرابطة الإسلامية لأرباب العمل فى سوق طهران (البازار)، الرابطة الإسلامية للجامعيين الإيرانيين، الرابطة الإسلامية للمعلمين، الرابطة الإسلامية للموظفين، رابطة وعاظ طهران، رابطة زينب (نسائية)، الرابطة الإسلامية لأطباء الأسنان، وللأطباء البيطريين، الرابطة الإسلامية للناصحين فى قم، رابطة نواب المجلس.. إلخ.

أما الإصلاحيون، الذين يضمهم إطار باسم «جبهة ٢ خرداد»، وهو التاريخ الفارسى لفوز الرئيس خاتمى بمنصبه (فى ٢٣ مايو ١٩٩٧)، فإنهم يتشكلون فى عدد مماثل تقريبا من الجماعات التى فى مقدمتها، مجمع رجال الدين المناضلين، جمعية المشاركة الإسلامية، حزب كوادر البناء، منظمة مجاهدى الثورة الإسلامية، البيت العمالى، حزب العمل الإسلامى، الرابطة الإسلامية للمدرسين الإيرانيين، الرابطة الإسلامية لأساتذة الجامعة، الرابطة الإسلامية للمهندسين، حزب التضامن الإيرانى الإسلامى، رابطة نواب المجلس السائرين على نهج الإمام، رابطة المرأة الإيرانية، التجمع الإسلامى، مكتب توثيق الوحدة، تجمع السائرين على نهج الإمام.. إلخ.

داخل كل جبهة، هناك اليمين واليسار والوسط، وهناك المعتدلون والمتطرفون والعقلاء والحمقى، وبعضهم أقرب إلى مجموعات فى الجبهة المقابلة، بقدر ما هم أبعد عن جماعات أخرى فى ذات الائتلاف الذى ينخرطون فيه، ولذلك فمن الصعب نسب الشر كله إلى طرف واحد، أو نسب الخير كله إلى طرف آخر. وبعض المحافظين يعتبرون أنفسهم «ملتزمين» وينسبون إلى الإصلاحيين أنهم «غير ملتزمين»، بل إن الإصلاحيين أنفسهم تشقق معسكرهم أثناء الانتخابات بسبب الخلاف حول ترشيح الشيخ هاشمى رفسنجانى لعضوية مجلس الشورى، وهو الموقف الذى دعا إليه أنصاره فى حزب «كوادر البناء»، غير أن بعض أنصار الرئيس خاتمى الذين شكلوا حزبا باسم «جبهة المشاركة الإسلامية»، عارضوا ذلك، كما عارضته أعضاء جبهة رجال الدين المناضلين (روحانيون مبارز). وانتهى الأمر بأن وصف أعضاء كوادر البناء رفاقهم فى جبهة المشاركة «بالتطرف». وفى الأيام الأخيرة للحملة الانتخابية، كان الاشتباك بين الفصيلين الكبيرين من الإصلاحيين أكثر حدة منه بين الإصلاحيين والمحافظين.

من تجربتى مع التيارين، وجدت بين المحافظين جامدين ورجعيين ومعادين للحريات، كما وجدت بينهم عقلاء ومتفتحين وغيورين على هوية البلد واستقلاله وكرامته. أيضا وجدت بين الإصلاحيين رموزا نيرة وواعية غيورة على الحريات العامة بقدر غيرتهم على الإسلام وعلى أهداف الثورة، كما وجدت منفلتين ومتغربين التحقوا بقطار الإصلاحيين ليس حبًا فيه، ولكن كرها للآخرين وسعيا إلى هدم البنيان فوق رءوس الجميع!

[٨]

ليلة الانتخابات كانت جلستنا فى بيت الدكتور عطاء الله مهاجرانى، وزير الإرشاد المثير للجدل الذى ظل المحافظون يحاولون اصطياده وتنحيته عن موقعه طيلة السنتين الماضيتين، كانت زوجته جميلة كديور التى تعمل صحفية منذ عشر سنوات فى صحيفة «اطلاعات» (حاصلة على الدكتوراه فى العلوم السياسية)، قد أخذ منها التعب كل مأخذ، فهذا هو اليوم الأخيرفى حملتها الانتخابية، بعدما قررت أن تجرب حظها فى عضوية مجلس الشورى عن طهران، بعدما نجحت فى «شيراز» فى الدورة السابقة (الخامسة)، لكن المحافظين استخدموا نفوذهم وأسقطوها، طبقا لروايتها.

كانت السيدة جميلة قد وضعت طفلتها الرابعة «صهباء» منذ ثلاثة أشهر فقط، الأمر الذى أضاف إليها عبئا جديدا، لم يكن هناك

مفر من اقتسام المسئولية عنه مع زوجها الدكتور مهاجراني. فحين لايكون أمام الوزير اجتماعات أو لقاءات مسائية، كان يبقى فى البيت إلى جوار صهباء، يرعاها ويطعمها ويغير لها ملابسها إذا لزم الأمر. وحينما كانت ظروف عمله تضطره إلى مغادرة البيت فى أمسيات أخرى، لم يكن أمام الدكتورة جميلة سوى أن تحمل الطفلة على كتفها وهى تطوف بأنحاء الدائرة حتى منتصف الليل، وسط جو طهران الثلجى.

فى تلك الليلة ، كانت قد اختتمت جولاتها وجلست تترقب التصويت والنتيجة، ولم يكن يزعجها سوى رنين الهاتف المحمول الذى لم يكف عن النداء طوال الوقت. انتحت جانبا فى غرفة الاستقبال وراحت تطعم «صهباء» وتهدهدها، بينما نهض وزير الإرشاد لكى يقدم لنا الشاى، وأطباق الفاكهة وبعض الحلوى الإيرانية.

استغرق الأمر وقتا حتى استجاب لإلحاحى فى أن يكف عن مجاملة الضيوف، ويجلس كى يجيب عما عندى من استفسارات، وحينئذ سألته عن السبب الذى يقف وراء كثرة الأحزاب والجمعيات التى شاركت فى الانتخابات، وتضخم قوائم المرشحين فى العاصمة (كانت هناك ٢٣ قائمة).

كنت أعلم أن الدكتور مهاجرانى - وهو وزير فى حكومة السيد خاتمى - من أركان «كوادر البناء»، وهو الحزب أو التجمع المؤيد للشيخ هاشمى رفسنجانى، وأن زوجته الدكتورة جميلة قدمت نفسها باعتبارها مرشحة مستقلة، وإن كانت أكثر ميلا إلى حزب «المشاركة» الذى أنشأه أنصار الرئيس خاتمى، بمعنى أن الاثنين يقفان فى صف الإصلاحيين، مع تمايز طفيف فى هوى كل منهما. [للعلم : أشارت نتائج فرز الأصوات فى طهران إلى فوز السيدة جميلة بالمركز الثانى بين نواب طهران، وكانت السيدة فائزة رفسنجانى قد فازت بالمركز الثانى فى العاصمة أثناء انتخابات عام ٩٦].






إن تعدد المجتمعات والمؤسسات الأهلية أصبح ظاهرة فى إيران، منذ دعا خاتمى إلى إقامة المجتمع المدنى الإسلامى، وإن القوانين السارية تيسر وتشجع إقامة هذه المؤسسات، لذلك فإنه أصبح بمقدور أى جماعة من الناس أن يسجلوا أنفسهم فى جمعية أو رابطة أوحتى حزب

قال الدكتور مهاجرانى إن تعدد المجتمعات والمؤسسات الأهلية أصبح ظاهرة فى إيران، منذ دعا الرئيس خاتمى إلى إقامة المجتمع المدنى الإسلامى، وإن القوانين السارية تيسر وتشجع إقامة هذه المؤسسات. لذلك فإنه أصبح بمقدور أى جماعة من الناس تلتقى على هدف معين أن يسجلوا أنفسهم فى جمعية أو رابطة أوحتى حزب، وفى كل الأحوال فليس هناك مايمنعهم من الاشتغال بالعمل السياسى. وقد وجد كثيرون أن إنشاء مثل تلك التجمعات يتيح لهم فرصة المشاركة بقوائم تجمع أعضاءها وغيرهم من المرشحين الذين يريدون تأييدهم، الأمر الذى أدى إلى تلك التخمة المؤسساتية التى حفلت بها الساحة الإيرانية فى موسم الانتخابات، وهى تخمة عارضة وموسمية، لأن أكثر تلك التجمعات لن يسمع لها صوت يذكر، وقد تنفض تماما بعد انتهاء المعركة الانتخابية.

سألته: ماالذى سيبقى بعد ذلك؟ - فقال : إن فى إيران الآن أربع قوى سياسية أساسية، والباقون على هوامشهم أو يدورون فى فلكهم، الأولى: رابطة علماء الدين المناضلين(روحانيت مبارز) التى تمثل ركيزة تجمع المحافظين - والثانية هى مجموعة «كوادر البناء» بقيادة هاشمى رفسنجانى وهم مجموعة من السياسيين والتكنوقراط الإصلاحيين - والثالث هو تجمع علماء الدين المناضلين (روحانيون مبارز) وهم يمثلون اليسار الراديكالى إذا جاز التعبير ، وإلى جانب خصومتهم للمحافظين ، إلا أن لهم تحفظات على سياسة الشيخ رفسنجانى وعلى سياسة الكوادر، ومع ذلك فهم يعتبرون أنفسهم ضمن جبهة خرداد والخط الإصلاحى عموما. المجموعة الرابعة هى جبهة المشاركة ، التى تشكلت منذ أكثر من عام، وتضم مجموعة من مؤيدى الرئيس محمد خاتمى، فى مقدمتهم شقيقه الدكتور رضا، وهو طبيب كان من الناشطين فى قيادة حرس الثورة (احتل رأس قائمة الفائزين لعضوية مجلس الشورى عن مدينة طهران).

قلت للسيد مهاجرانى: ما الفرق بين المحافظين والإصلاحيين؟

قال: الفرق الأساسى يكمن فى الموقف من الحريات العامة ومن فكرة المواطنة، فالمحافظون ضد إطلاق الحريات، ويتعاملون مع المجتمع من منطلق الوصاية والأبوة، ومن ثم فإنهم يعتبرون الناس رعايا يسمعون ويمتثلون، بينما موقف الإصلاحيين المنحاز إلى الحريات مشهود، كما أنهم يرون فى الناس أنهم مواطنون لايمتثلون، وإنما يشاركون. فى الجانب الاقتصادى ليست هناك برامج واضحة يمكن الاعتماد عليها فى تحديد الفارق فى النظر بين الجانبين، وإنما يمكن القول بأن المحافظين أميل إلى التجارة، بحكم علاقتهم بالبازار، بينما الإصلاحيون أقرب إلى الصناعة.

فى السياسة الخارجية ليست هناك فوارق جوهرية بين المعسكرين، باستثناء موضوع العلاقة مع الولايات المتحدة، الذى يضع المحافظون لاستئنافها شروطا أكثر صعوبة وتشددا من غيرهم، أما العلاقات الإيرانية العربية أو الإيرانية الأوروبية، فموقف المحافظين والإصلاحيين منها متطابق إلى حد بعيد.

قلت: والموقف من ولاية الفقيه؟

قال: ولاية الفقيه أصل فى الدستور ولا نختلف حوله، فالجميع يقرون بضرورة استمرار تلك الولاية، ولكن هناك خلافا حول شروطها، فالتيار الغالب بين الإصلاحيين يدعو إلى تحديد مدة الولاية، بدلا من أن تكون مطلقة، وإلى إخضاع القائد للقانون، كما يطالب هؤلاء بأن يمارس «مجلس الخبراء» الذى ينتخب القائد حقه فى الرقابة عليه، شأنه فى ذلك شأن أى مسئول فى الدولة، وهذه أفكار تتبلور بمضى الوقت ، وأحسب أنها تلقى تجاوبا من جانب السيد على خامنئى، الذى أثبت أنه دائم التفاعل مع اتجاهات الرأى العام، ذلك أنه ليس قائدا فحسب، ولكنه «مرجع» دينى أيضا، واحترامه للرأى العام وتجاوبه معه جزء من مقومات شرعيته.

أضاف السيد مهاجرانى أن المحافظين لا يتحدثون عن شروط الولاية، ولكنهم يقبلون بها كما هى، ويتمسحون فيها، بل ويزايدون عليها حتى يحتموا بسلطات وصلاحيات القائد. لكنه كان أكثر ذكاءً منهم، وكان مدركا لما يريدونه، وحرص دائما خصوصا فى السنة الأخيرة أن يبتعد عن التصنيف فى معسكرهم، محتفظا بدوره الطبيعى كرأس للدولة فوق الصراعات والتحزبات.

قلت: أين يكمن الخلاف بين الطرفين الإصلاحيين الكبيرين: كوادر البناء، وجبهة المشاركة؟

قال: أنت تعلم أن كوادر البناء تأسست فى عهد الرئيس هاشمى، وعمرها أكثر من أربع سنوات، بينما جبهة المشاركة حديثة نسبيا، حيث لا يتجاوز عمرها عاما واحدا. وأستطيع أن أقول إنه ليس هناك خلاف موضوعى كبير بينهما، فهما يقفان على أرضية واحدة، وتضمهم جبهة واحدة (الثانى من شهر خرداد). وكانت «كوادر البناء» فى مقدمة القوى السياسية التى دعمت السيد خاتمى وناصرته فى حملته الانتخابية الرئاسية. وإذا كان «الكوادر» قد انحازوا إلى مدخل التنمية الاقتصادية فى ظرف ما بعد الحرب، بينما ارتأت قيادة «المشاركة» فى طور لاحق التركيز على مدخل التنمية السياسية، فذلك لا يعد سببا للخلاف، ولكنه بمثابة تباين فى زاوية النظر وفى تقدير متطلبات الواقع فى كل مرحلة، فضلا عن أن كلا منهما يكمل الآخر، ولا يتناقض معه.

قلت: هل تعتقد أن الخلاف الذى ظهر على السطح أثناء الحملة الانتخابية ينصب على شخص الرئيس هاشمى رفسنجانى؟

قال: هذا صحيح إلى حد كبير، فالكوادر اختاروا الشيخ هاشمى على رأس قائمتهم، بينما رفضت جبهة المشاركة ذلك، ولم يكن هذا موقفها وحدها، إنما شاركها فيه طرف إصلاحى مهم ثالث، هو تجمع علماء الدين المناضلين (روحانيون مبارز). وفيما عدا ذلك فقد كان هناك اتفاق بين هذه القوى على دعم بقية المرشحين (للعلم: من بين ١٨ حزبا وتجمعا فى جبهة «٢ خرداد» وافقت ٦ تجمعات فقط على اسم الشيخ رفسنجانى بينما اعترض عليه ١٢).

قلت: هل تعتقد أن هذا الخلاف يمكن أن يؤثر على مستقبل المعسكر الإصلاحى، أو على علاقة الشيخ هاشمى بالسيد خاتمى؟

قال: أستبعد ذلك تماما، إلا إذا رجحت كفة المتطرفين بين الإصلاحيين ونجحت ضغوطهم فى فك الارتباط بين قوى جبهة ٢ خرداد، وفى حدود علمى، فإن هناك تفاهما وتشاورا مستمرين بين الرجلين الكبيرين (هاشمى وخاتمى)، اللذين يعملان بتنسيق مع القائد، وهذا كفيل بضمان استقرار الأمور فى المستقبل.

[٩]

لقد هزم المحافظون حقا فى الحملة الانتخابية، وفقدوا أغلبيتهم فى مجلس الشورى، لكننا نبسط الأمر كثيرا إذا ما تصورنا أنهم تلقوا ضربة قاضية، وأخرجوا من حلبة السياسة الإيرانية. وغاية ما يمكن أن يقال إنهم خسروا جولة، لكنهم لم يخسروا المعركة، وربما أخرجوا من موقع لكنهم لم يغادروا الساحة.

أقول هذا الكلام راجيا ملاحظة أننا نتحدث عن الاتجاه العام الذى برز فيما تم فرزه من أصوات، وأن النتائج الرسمية للجولة الانتخابية الأولى لم تعلن بعد، وأن جولة الإعادة الثانية ستتم بعد احتفالات عيد النوروز، التى تكاد تتعطل فيها الحياة تماما فى إيران لمدة أسبوعين فى النصف الثانى من شهر مارس، ومن ثم فإن الصورة النهائية لمجلس الشورى لن تكتمل معالمها إلا خلال شهر أبريل بإذن الله.

مع ذلك كله فالقدر المتيقن، حتى إشعار آخر على الأقل، أن الإصلاحيين حققوا فوزا بدا ساحقا، وأن هزيمة موجعة لحقت بالمحافظين، الأمر الذى يثير أكثر من سؤال حول مستقبلهم السياسى ودورهم المفترض فى الساحة الإيرانية.

المحافظون لا يزالون موجودين فى العديد من المواقع المهمة فى إيران، فهم يسيطرون على «مجلس صيانة الدستور»، (١٢ عضوا نصفهم من الفقهاء يعينهم القائد والنصف الآخر من كبار رجال السلطة القضائية، فقهاء أيضا) الذى يراقب سير الانتخابات ولا يعتبر أى قانون يصدره مجلس الشورى ساريا إلا إذا تحقق أعضاؤه من مطابقته للشريعة وللدستور. هم يسيطرون أيضا على «مجلس الخبراء» الذى ينتخب أعضاؤه (عددهم ٩١) بالاقتراع العام، ويقومون هم بانتخاب القائد ومراقبة سير عمله، هم يسيطرون كذلك على عضوية

«مجلس تشخيص مصلحة النظام»، المعين من قبل القائد، والذى يفصل فى أى نزاع ينشأ بين مجلس الشورى وصيانة الدستور، حول القوانين المزمع إصدارها. فى الوقت ذاته فإنهم يسيطرون على جهاز السلطة القضائية الذى كان سلاح المحافظين فى تصفية الحساب مع رموز الإصلاحيين حتى ساقوا بعضهم إلى السجون فى الفترة الماضية (كرباستشى وعبد الله نورى ومحسن كديور).

لا يستطيع أحد أن يتجاهل سيطرة المحافظين على قيادة الحرس الثورى، وعلى مختلف المؤسسات الاقتصادية الضخمة فى البلاد (بنياد شهيد ـ وبنياد مستضعفان ـ وبنياد انقلاب إسلامى). بنياد معناها مؤسسة، ثم إن الجميع يعرفون أن لهم اليد الطولى فى «البازار» ـ عالم التجارة والمال ـ بقدر ما أن لهم ذات اليد الطولى فى المساجد والحسينيات والحوزات العلمية.

ملحوظة: حتى عهد قريب كان القائد ـ السيد على خامنئى ـ مصنفا على جانب المحافظين، فضلا عن أن عناصر لا يستهان بها فى مكتبه اعتبرت ضمن غلاة المحافظين. وبدا تحيزه ذاك واضحا أثناء الانتخابات الرئاسية التى تمت فى عام ١٩٩٧، إذ بدا لكل مراقب أن الإشارات الصادرة عن القائد وعن مكتبه تدعم الشيخ ناطق نورى. القطب المحافظ المعروف. غير أن موقف السيد خامنئى تغير خلال السنتين الماضيتين، بعدما بذل السيد خاتمى جهدا حثيثا لتحييده، من خلال إقناعه بأن التيار الإصلاحى الصاعد ليس ضده، وبأنه ينبغى أن يظل فوق التيارات السياسية، وأن تحيزه إلى جانب طرف دون آخر يسحب من رصيده كقائد ومرشد للأمة. وما كان للسيد خاتمى أن يحقق مراده لولا أن عكف منذ توليه السلطة على عقد اجتماع أسبوعى مع القائد، عادة ما يستمر لعدة ساعات، الأمر الذى كانت له ثماره الإيجابية التى تبدت فى الانتخابات النيابية الأخيرة، حين ظهر السيد خامنئى محايدا تماما، وبعيدا عن أى صراع بين التيارات، الأمر الذى أزعج المحافظين كثيرا وأفقدهم سندا قويا عولوا عليه فى معركتهم ضد الإصلاحيين.

هذا التواجد القوى للمحافظين فى الساحة الإيرانية يمكن أن يكون عونا للحكومة ولمجلس الشورى، ويمكن أن يتحول إلى مصدر للمتاعب. يعمق من الاستقطاب فى البلاد، ويقود البلاد بالتالى إلى طور آخر من الانسداد السياسى. وأحسب أن ترجيح أى احتمال على آخر وثيق الصلة بقدرة عقلاء الجانبين على التفاهم. وبمدى رعايتهم للمصلحة العامة: لأنه إذا انشغل كل طرف بتصفية حسابه مع الآخر، فإن تلك المعركة الخاصة سوف تستغرق الجميع إلى حد قد يلهيهم عن رعاية مصالح الناس، مما قد يقود السفينة إلى الغرق بكل ركابها، وبصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية.

والذى لا شك فيه أن سلوك الإصلاحيين بوجه أخص سوف يكون مؤثرا بدرجة أكبر بحكم سيطرتهم على موقعين بالغى الأهمية فى الساحة السياسية، هما السلطتان التنفيذية والتشريعية. أعنى بذلك أن الإصلاحيين سوف يستدعون ذلك الانسداد، الذى يخشى منه، إذا ما تعاملوا مع المحافظين بذات الأسلوب الاستئصالى والقمعى الذى استخدمه المحافظون ضد الإصلاحيين فى مجلس الشورى الرابع (٨٢ ـ ٨٦) الذى سيطروا عليه، ومنه لاحقوا الإصلاحيين وطاردوهم فى موقعهم.

[١٠]

هذه الهواجس تشغل بال كثيرين فى إيران، خصوصا بين عقلاء التيارات السياسية المختلفة، وحين تحدثت مع ثلاثة منهم، غلام حسين كرباستشى الأمين العام لحزب الكوادر، ومجيد أنصارى زعيم الأقلية فى مجلس الشورى وأحد قادة جبهة المشاركة، والدكتور حسن غفورى من أقطاب المحافظين، وجدت أن الثلاثة يحذرون من سلوك المتطرفين على الجانبين، ويسعون إلى إحداث تفاهم بين القيادات يحول دون الانسداد السياسى الذى يمكن أن ينذر بشرور كثيرة.

الدكتور غفورى كان صريحا فى نقده لحكومة السيد خاتمى، فقال إنه حقق نجاحا مشهودا على الصعيد السياسى فى الداخل والخارج، فقد أحدث انفراجا فى علاقة السلطة بالمجتمع، ووفق فى مخاطبة شرائح عدة كانت عازفة عن المشاركة فى الحياة السياسية، كما أنه أنجز الكثير على صعيد إزالة بؤر التوتر فى علاقات إيران بالعالم الخارجى. غير أن هذا النجاح السياسى ـ أضاف ـ اقترن بفشل اقتصادى من نواحى عدة. فقد انخفض معدل التنمية من ٤,٥٪ فى عهد الرئيس رفسنجانى إلى ١,٥٪ فى عهده. ونسبة البطالة ارتفعت إلى ١٥٪، وكانت بين ١٠ و١١٪ فى السابق، كما أن التضخم المالى ارتفع فى عهده من ١٨ إلى ٢٢٪. ثم قال الدكتور غفورى إنه ليس صحيحا أن مجلس الشورى الذى كان تحت سيطرة المحافظين عوق عمل الحكومة، صحيح أنه حاسب بعض الوزراء وسحب الثقة من آخرين، لكنه مارس فى ذلك حقه الطبيعى. لكنه إلى جانب ذلك استجاب لكل طلبات الحكومة فى الميزانية والخطة الخمسية. ثم إن المحافظين ضحوا لصالح استقرار الحكومة وتجانسها، حين تنازلوا عن التمثيل فى التشكيلة الوزارية، رغما أن لهم فى ذلك حقا، باعتبارهم الأغلبية فى المجلس، ثم تساءل حين ذكر هذه المعلومة: فى أى بلد يمكن أن تجد أغلبية برلمانية تتنازل عن حقها ولا تمثل بوزير واحد فى الحكومة؟



هزم المحافظون حقا، وفقدوا أغلبيتهم فى مجلس الشورى، لكننا نبسط الأمر كثيرا إذا ما تصورنا أنهم تلقوا ضربة قاضية، وأخرجوا من حلبة السياسة الإيرانية. وغاية ما يمكن أن يقال إنهم خسروا جولة، لكنهم لم يخسروا المعركة، وربما أخرجوا من موقع لكنهم لم يغادروا الساحة

قال الدكتور غفورى أيضا إن فكرة «الطريق الثالث» بين المحافظين والإصلاحيين تلوح فى الأفق، وإن هناك اتصالات بين بعض عناصر النخبة سواء لجمع العقلاء للاستمرار فى قيادة السفينة إلى بر الأمان، عبر التفاهم حول المشترك وتكتل الجميع للدفاع عنه، أو لتشكيل تجمع جديد يتبنى هذا الموقف.

كرباستشى بدورد ليس قلقا على المستقبل، ويقول إن بعض المتطرفين من «محدثى العمل السياسى» فى جبهة المشاركة يدعون إلى المفاضلة بين هاشمى رفسنجانى والسيد خاتمى ، ولكن هذا المسعى لن يكتب له النجاح، ليس فقط لأن كل طرف بحاجة إلى الآخر، وليس فقط لأن الكوادر حاضرون بقوة ـ حتى كتابة هذه السطور قبل إعلان النتائج الرسمية ـ ضمن تركيبة مجلس الشورى الجديد، ولكن أيضا لأن ثمة تفاهما جيدا بين الرجلين، من شأنه أن يقطع الطريق على احتمال من هذا القبيل.

مجيد أنصارى ردد الفكرة تقريبا، وقال إن مشروع الطريق الثالث يبحث الآن بشكل جاد فى إطار «تجمع العلماء المناضلين» ويرجح أن يقوم التجمع ذاته بهذا الدور، وحين نقلت إليه رأى الدكتور غفورى فى الأداء الاقتصادى لحكومة السيد خاتمى، سارع إلى القول بأن هذا الكلام مدهش، لأنه لو صح لاستجوب المحافظون الوزراء المسئولين عن الاقتصاد وحاسبوهم على الفشل الذى زعموه. وهو مالم يفعلوه، وإنما ركزوا على مساءلة وزيرى الداخلية والإرشاد! وعقب على الأرقام التى ذكرها غفورى قائلا: إنها مبالغ فيها، وأنه تجاهل تأثير الانخفاض الشديد فى أسعار البترول خلال السنتين الماضيتين، الأمر الذى كان له تأثيره المباشر على خطة التنمية فى البلاد، وهو أمر ليس للحكومة يد فيه، لكنه كان يمكن أن يحدث ذات التأثير على أى حكومة أخرى موجودة فى السلطة.

[١١]

لقد قلت إن الذى حدث فى طهران كان «مشهدا ديمقراطيا» بامتياز، واستخدمت هذا الوصف عن قصد حتى لايظن أحد أن الديمقراطية قد ثبتت أقدامها، وإن تجربتها قد اكتملت هناك، وإذ تمنيت ألا نهون من شأن ما جرى ـ وهو إنجاز ضخم لاريب ـ فإننى لا أوافق على التهويل من شأنه، إلى الحد الذى ينسينا أن ثمة أشواطا يجب قطعها لكى تنتقل الثورة الإسلامية بحق من ولاية الفقيه إلى ولاية الأمة.

هذا الكلام ليس رأيا شخصيا فحسب، ولكنها وجهة نظر تتردد بقوة فى أوساط النخبة الإيرانية، ويجهر بها البعض من خلال منابر عدة، وقد سمعت عدة آراء فى هذا الاتجاه من الدكتور إبراهيم يزدى زعيم حركة الحرية، ومن شمس الواعظين رئيس تحرير صحيفة عصر أزادجان، ومن على حكمت الذى كان رئيسا لصحيفة «خرداد» الإصلاحية، الذى كان صاحب امتيازها عبدالله نورى، وزير الداخلية الأسبق الذى حكم عليه بالسجن مدة خمس سنوات.

يقول هؤلاء إن الذى تم فى إيران حتى الآن يعد خطوة ضخمة فى الاتجاه الديمقراطى، وإن ثمة خطوات أخرى مازالت مطلوبة فى ذات الاتجاه، منها ما يتعلق بالقائد (مدته وخضوعه للقانون وتنشيط مساءلته) ومنها ما يتعلق بتدخل مجلس صيانة الدستور فى إجازة المرشحين ومنع آخرين، وهو الدور الذى حاول الرئيس خاتمى تقليصه من خلال إلزام المجلس بالإعلان كتابة عن أسباب اعتراضه على كل مرشح، الأمر الذى خفف كثيرا من نسبة المشطوبين فى الانتخابات التشريعية الأخيرة، فقد كان المجلس يشطب عادة ٤٠٪ من المرشحين فى السابق، ولكنه شطب على ١٢٪ فقط هذه المرة الأخيرة، وأغلبهم من ذوى السوابق القضائية والذى ثبت ارتكابهم جرائم مخلة بالشرف [يقال إن السيد على خامنئى ضغط على المجلس حتى لايطلق يده فى شطب المرشحين الإصلاحيين].

يتحدث هؤلاء أيضا عن ضرورة إلغاء محكمة رجال الدين، وعن توفير ضمانات أفضل لممارسة الحريات الصحفية ، وعن أهمية تقنين التعددية السياسية..إلخ.

لا أخفى أننى كنت أستمع إليهم بشعور اختلطت فيه الغيرة بالحسد، إذ وجدتهم أكثر ثقة فى المستقبل وأشد حماسا لمواصلة خطى التغيير الديمقراطى، الذى ثبتت شواهده ولاحت بشائره، على نحو أنعش أجواء إيران وأحيا فى كل النفوس آمالا وأشواقا بلا حصر.

لقد مصمصت شفتى وقلت : إن الذى قطع شوطا فى الرحلة ـ وهى دون الألف ميل بكثير ـ أفضل حظا من الذين لايزالون عند نقطة الصفر ويوهمون أنفسهم بأنهم يعيشون أجمل الأيام وأزهى العصور.

مع ذلك فلم أستطع أن أخفى شعورا بالسعادة، باعتبار أن من حق «القرعاء» أن تتباهى بشعر أختها، أوهكذا يقولون فى الأمثال على الأقل! ■

جنود إسرائيل البكّاءون
يفقدون شجاعتهم فى مواجهة حزب الله

آريـيـه أوسـوليـفـان

«السيف يصدأ إن أنت ألقيت به فى الماء المالح» ـ لاو تسو

الجنود الإسرائيليون فى لبنان يتخلون عن رباطة جأشهم لكى يدلوا باعترافات لا يخجلون منها: إنهم خائفون، ويشكون فى حربهم المحبطة ضد حزب الله، التى كثيرا ما يشعرون فيها بأنهم أشبه بأهداف يسهل ضربها. وهناك من اتهمهم بأنهم بكاءون.

وقد أثار أحدث الشكوك بشأن صمود جنودنا بعض الأسئلة المقلقة. هل جنودنا فى سبيلهم لأن يفقدوا شجاعتهم؟ وهل فقدت البلاد قدرتها على الصبر على المكاره؟ وماذا يمكن أن يعنيه هذا كله بالنسبة لمستقبل جيش الدفاع الإسرائيلى؟

إن قدرة جيش الدفاع الإسرائيلى على تحطيم أعدائه الذين يفوقونه عدداً بطريقة سلسة جعلته موضع حسد من العالم. وكان سلاحه الخفى هو ارتفاع الروح المعنوية لدى جنوده.

واليوم، يعتقد كثير من المراقبين أن جيش الدفاع الإسرائيلى مازال يلخص روح المجتمع الإسرائيلى الحالى. وهو المجتمع الذى نال منه التعب وتميز بالفردية ويزكى فيه كل إنسان نفسه ويفرح بها، بينما القدرة على تحمل الآلام آخذة فى الانحدار.

مرت إسرائيل بأوقات عصيبة فى لبنان فى السنوات القليلة الماضية. فقد قتل سبعة وثلاثون جندياً منذ ثلاث سنوات فى تصادم طائرتى هليكوبتر كانت تنقلهم إلى منطقة الشريط الآمن. وفى خريف ١٩٩٧، لحقت بجيش الدفاع الإسرائيلى موجة من الهزائم، بما فى ذلك الإجهاز المهين شبه التام على وحدة كوماندوز محمولة بحراً تضم ١٣ فرداً.

وقتل ثلاثة وعشرون جندياً فى لبنان سنة ١٩٩٨؛ وقتل اثنا عشر فى العام الماضى، ولكن كان بينهم قائد وحدة الاستطلاع المظلية، وهو أحد كبار القادة الإسرائيليين فى لبنان، حيث قتل مع صحفى إذاعى مشهور عندما قصفت قافلتهم.

أما الموجة الأخيرة التى أودت بحياة سبعة جنود إسرائيليين، فى غضون ما يقل عن ثلاثة أسابيع، فيبدو أنها القشة التى قصمت ظهر البعير، ليس فقط بالنسبة لجماهير الشعب، وإنما فيما يتعلق بالجنود أنفسهم الذين يدعون صراحة للمرة الأولى إلى مغادرة جيش الدفاع الإسرائيلى للشريط الأمنى.

إنهم يقولون إن أحداً لا يرغب فى أن يكون آخر من يموت فى لبنان.

وبالطبع فإن أحد أسباب رد الفعل هذا هو عزم رئيس الوزراء ايهود باراك المعلن على الانسحاب من الشريط الأمنى بحلول شهر يوليو. غير أن البعض يرى أن وراء هذا الانفجار العاطفى غير المعتاد من جانب الجنود نقطة ضعف أكثر عمقاً.

يقول أحد كبار ضباط جيش الدفاع الإسرائيلى المشاركين فى التخطيط العقائدى: «إننا مدللون». كما قال إن إسرائيل تفقد قدرتها على تحمل الخسائر. ويشير آخرون إلى أن السلام النسبى الذى تنعم به إسرائيل منذ حرب ١٩٧٣ قد حد من تأهبها. ومازال جيش الدفاع الإسرائيلى يعد لحرب فيما يتصل بالصراع مع القوات المسلحة للعدو أو الدول المحتمل أن تعاديه. والواقع أنه طوال ٢٧ سنة لم يهاجمنا أحد هجوماً عنيفاً. ولكن هذا يعنى أن فرق إسرائيل المدرعة تمضى فى دورة من التدريب إلى التخزين دون أن تثبت نفسها فى ميدان القتال.

والواقع أن الجنود الحاليين يتسمون بالتفرد فى تاريخ جيش الدفاع الإسرائيلى، لكونهم أول جيل يشب دون الدخول فى حرب كبيرة.

ويقول البروفيسير مارتن فان كريفالد فى كتابه: (The Sword and the Olive السيف والزيتونة)، وهو تاريخ نقدى لجيش الدفاع الإسرائيلى: «قدمت حرب الخليج أول تحذير واضح بأن شعب إسرائيل يفقد الشجاعة فى مواجهة الخصم ويتحول إلى أمة من الجبناء لم يعد لديها ما يعينها على الجلد والقتال».

ويقول الدكتور جال، كبير الأطباء النفسيين فى جيش الدفاع الإسرائيلى السابق ومؤلف كتاب (The Portrait of the Israeli Soldier صورة الجندى الإسرائيلى) «أعتقد أن الطريقة ذاتها التى مجدت بها وسائل الإعلام جنود حرب ١٩٦٧ تستخدم فى الوقت الراهن لإلحاق العار بجنود سنة ٢٠٠٠ باعتبارهم بكائين».

ومن النادر أن يسمح جيش الدفاع الإسرائيلى للصحفيين بدخول لبنان لإجراء مقابلات مع الجنود فى الخنادق. وفى المرات النادرة التى سمح فيها بذلك، كانت المقابلات تتم فى وجود المتحدث الرسمى باسم جيش الدفاع الإسرائيلى.

غير أن مخاوف الجنود وإحباطاتهم وشعورهم بأنهم خُدعوا تخترق هذا الحجاب أكثر وأكثر. وهم جميعاً ـ أو هكذا يبدو الأمر ـ لديهم رقم تليفون مراسلة إذاعة إسرائيل الحربية كارميلا ميناش. ونشرت صحيفتا «يديعوت أحرونوت» و«معاريف» مانشتات تحمل ما يقوله الجنود عن كونهم خائفين ولم يعودوا يطيقون البقاء فى لبنان ـ وتنقل سخرية قادتهم منهم باعتبارهم جبناء.

فقد نقلت «يديعوت أحرونوت» هذا الأسبوع عن ملازم فى سلاح المظلات قوله: «لم يعد لدى ما أبحث عنه فى لبنان. إننا نسمع باراك يتحدث دائماً عن الخروج فى الصيف، غير أنى أخشى أن موقعنا سيكون عليه الدور فى أن يضرب. إنى أعرف جنوداً يائسين، وجنوداً يشجعهم آباؤهم على أن يتمارضوا، وجنوداً يخافون الذهاب إلى بوابات الحدود كما أعرف جنوداً يغمرهم إحساس باليأس ويعتقدون أنهم ذاهبون إلى الموت».

وقال جندى مظلات آخر: «نحن جميعاً خائفون والقادة يحاولون تهدئتنا. إننا لا ندافع عن الدولة. ونحن مكشوفون ومعرضون للضرب. وحزب الله يضربنا بصواريخه الجديدة وكل ما نريده هو ألا يصيبنا الضرب. إننا نريد الخروج، وقد حان الوقت الذى لا بد لنا فيه من الخروج من لبنان».

ويقول ثالث: «إذا لم تكن هناك أهمية كبيرة لبقائنا هناك، فلماذا إذن لا نفكك الموقع؟ إننا فى كل الأحوال نوشك على الخروج. فماذا يريدون منا؟ أن نكون أهدافا تسهل إصابتها»؟

وفيما قد يراه المؤرخون على أنه نقطة بارزة فى معضلة جيش الدفاع الإسرائيلى اللبنانية، نقل هذا الأسبوع عن قائد المنطقة الشمالية الميجور جنرال جابى أشكينازى دعوته الجنود الذى عبروا عن هذه المخاوف بأنهم «خرق بالية وبكاءين». ونقل كذلك عنه قوله أنه إذا كان يحق لهم أن يقولوا شيئاً فينبغى عليهم قوله لقادتهم. إلا أنه أنكر بعد ذلك وصفه الجنود بأنهم «خرق بالية»، ولكنه لم ينكر الباقى.

لا يمكن وصف الجنود الإسرائيليين بأنهم قساة أو وحشيون، ولكن هل هم جبناء؟

الواقع أن الشخص الغريب قد يظن أن جيش الدفاع الإسرائيلى يعامل جنوده على أنهم أطفال. فبعد العشاء يقدم لهم الـ«كريمبو» كنوع من التحلية.

وفى لبنان، يخرج الجنود إلى الكمائن ومعهم حشية للرقاد فى الكمين، بحيث يكونون مستريحين وهم يرقدون ترقباً لمقاتلى حزب الله. كما أن حقائبهم مليئة بالأطعمة التى تعطيهم القوة والطاقة، ولديهم ملابس داخلية مدفئة وأفضل أجهزة اللاسلكى ومعدات الرؤية ليلاً.

ويذكر قادة الميدان فى لبنان أن هناك ارتفاعاً مفاجئاً فى عدد التماسات الآباء الخاصة بعدم إرسال أبنائهم إلى لبنان. وهؤلاء الذين لهم أبناء بالفعل هناك يطالبون بإعادتهم. وقيل إنهم تعللوا بمشاكل شخصية وأمراض.

وتميل مثل هذه المناشدات إلى الزيادة فى كل مرة يكون فيها تصعيد للعنف فى الشريط الأمنى. غير أنه قيل فى هذه المرة إن القادة وصفوا الأمر بأنه «هستيرى». ونقل عن أحد الضباط قوله: «ماذا أفعل عندما تهدد إحدى الأمهات بأن تقتل نفسها؟ إننى فى موقف صعب»...

ذكر الكولونيل يائير جولان، وهو قائد لواء سابق فى لبنان ويعمل حالياً رئيساً للعمليات فى قيادة الأركان العامة، إن الموقف فى لبنان أعقد من أن يوضحه أحد للجنود. وقال جولان فى مقابلة مع التلفزيون: «لا بد أن نفهم أن هذا الواقع محبط جداً. وأفضل طريقة للتعامل معه هى أن نتذرع بالجلد والقدرة على استيعاب الخسائر».

أما رئيس هيئة الأركان العامة الليفتنات جنرال شاؤول موفاز فقد اعترف بأن الغارات الجوية وغيرها من تكتيكات القتال عن بعد قد حلت محل الأكمنة التقليدية. كما قال إن المحصلة النهائية هى النتائج. وحتى الآن يقول جيش الدفاع الإسرائيلى إن النتائج «معدل انتصار» مقداره ثلاثة إلى واحد لمصلحة إسرائيل.

واتخذ موفاز خطوة غير معتادة بقضاء بعض الوقت هذا الأسبوع فى موقع متقدم للتحدث مع الجنود. وفى وقت لاحق قال للصحفيين: «لا يمكنكم أن تستدلوا من تعليق أو تعليقين صادرين عن جنود جيش الدفاع الإسرائيلى على مستوى استعداد الجنود الإسرائيليين ودافعهم».

ورغم ذلك، فإنه من الواضح أن جيش الدفاع الإسرائيلى غيّر مبادئه للحيلولة دون وقوع خسائر. فقد طورت الأسلحة بحيث تسمح للجنود بأن يبقوا على منأى من العدو. كما زيد مرمى الأسلحة، مما يقلل احتمال ما يطلق عليه جيش الدفاع الإسرائيلى اسم «هامفجاش» ـ وهى المواجهة قريبة المدى مع العدو.

والسوريون يعرفون هذا الأمر ولا يرغبون فيما هو أفضل من إرسال مغاويرهم ليقاتلوا الجنود الإسرائيليين العاجزين عن التقدم بأرقى المعدات، بينما ينظر إليهم على أنهم غير مستعدين للتضحية بأنفسهم.

ويقدم هذا المبدأ المتغير لمحة عن الطريقة التى يتوقع بها الجيش الإسرائيلى أن يخوض بها حربه التالية. فسوف يكون تبادل إطلاق النار مع العدو عن طريق القذائف والطائرات والصواريخ، مع القليل من الهجمات الأرضية. والفكرة هى التغلب على العدو بسرعة، لتحاشى الدخول فى حرب استنزاف لدى العرب قدرة أكبر على تحملها.

ولم يكن جيش الدفاع الإسرائيلى فى يوم من الأيام ـ على الورق ـ بمثل ما هو عليه الآن من قوة ومن حسن التجهيز والقدرة على الفتك بالعدو. وهو جيش يحسده كثيرون. إلا أنه، شأنه شأن كل الجيوش الحديثة فى العالم فى الوقت الراهن، يظل غير مجرب.

وبغض النظر عن الجيوبوليتيكا، لم تكن إسرائيل فى يوم من الأيام على ما هى عليه من استعداد للهجوم التقليدى. ومع ذلك فإن الإسرائيليين ـ والجنود الإسرائيليين ـ يشعرون بقدر أقل من الأمان.

قال عضو بهيئة الأركان العامة إن خوف إسرائيل من التعرض للخسائر ربما يؤدى إلى عكس ما هو مرجو. كما أوضح أن بعض التدريب قد اختصر بسبب هذا الاحتمال. وقال كذلك: «قد يؤدى هذا إلى أن نتحمل الكثير فى الأيام الأولى من المعركة. هناك ثمن لهذا. فإنك إن دربت أقل، فحينئذ تكون أقل استعداداً للحرب. وإذا كنت أقل استعداداً للحرب، فإنك تتعرض لخسائر أكثر».

ومع ذلك فإن قادة جيش الدفاع الإسرائيلى يعرفون تمام المعرفة أن جنودهم الآن، وكانوا كذلك على الدوام، أكثر حساسية، وأكثر شكاً، وأكثر إلحاحاً ـ وهو ما يشهد عليه نظامهم الغذائى.

فلتستمر إذن أيها المقاتل. ولتبك بكاء جيداً.

(THE JERUSALEM POST, INTENET EDITION, Feb. 18, 2000)

ترجمة: أحمد محمود

فى لحظة أدرك فانونو غباءه،
فقد هجم عليه رجلان وضرباه على رأسه
وألقياه على الأرض، ثم ربطاه من يديه وقدميه، ثم جاءت المرأة
التى فتحت الباب وأعطت فانونو حقنة
فى ذراعه، فغاب عن الوعى

فانونو وامرأة الموساد

التحقيق الصحفى الذى كشف لأول مرة سر حيازة إسرائيل للأسلحة النووية

عبدالعظيم أنيس

تعرض موردخاى فانونو لمصير مفزع؛ لأنه كشف أسرار الأسلحة النووية لدى إسرائيل، لصحيفة بريطانية هى «الصنداى تايمز»، ولمحررها بيتر هونام Peter Hon-nam، مؤلف هذا الكتاب.

ولقد قامت امرأة شقراء فاتنة تدعى سندى Cindy، بغواية فانونو، وأخذه من لندن إلى روما بحجة قضاء إجازة ممتعة سويا هناك، حيث قام عملاء الموساد بإفقاده الوعى بضربة على الرأس فى شقة بالعاصمة الإيطالية، ثم حقنه بمادة مخدرة وتهريبه إلى إسرائيل على ظهر سفينة بضاعة.

وفى محاكمة مثيرة بالقدس، وجهت لفانونو تهمة الخيانة العظمى، وحكم عليه بالسجن ثمانية عشر عاما، ومازال فانونو فى السجن رغم الحملة الدولية للإفراج عنه. هذه هى القصة المأساوية لرجل صحا ضميره (فانونو)، فقرر فضح كل ما يعرفه، ولامرأة جاسوسة حاولت أن تدمر فانونو، وللخداع السياسى الذى مازال مستمرا لإخفاء الدور الذى لعبته فرنسا وبلچيكا وجنوب أفريقيا ثم الولايات المتحدة لمساعدة إسرائيل فى الحصول على أسرار المعرفة النووية وتوفير تكنولوچياتها.

■■ يحكى مؤلف الكتاب بيتر هونام قصة صلته بموردخاى فانونو فى أغسطس عام ١٩٨٦ قائلا: إنه وزملاءه فى قسم التحقيقات فى صحيفة «الصنداى تايمز» كانوا مشغولين بمناقشة قضية غريبة عن صحفى كولومبى يدعى «أوسكار جيريرو» قال لمحررى الصحيفة. إنه ساعد عالما ذريا من إسرائيل على الهرب، وأنه خبأه فى سيدنى باستراليا، وأن هذا العالم الذرى الإسرائيلى لديه القصة الكاملة عن أسلحة إسرائيل النووية، وطبعا ساورت بيتر هونام وزملاءه الشكوك فيما إذا كانت قصة هذا الصحفى الكولومبى مزيفة من أولها لآخرها ومفبركة للحصول على مكافأة مالية ضخمة من «الصنداى تايمز»، وساعد على ذلك أن الصحيفة كانت قد وقعت فى شرك مماثل، عندما اشترت منذ سنوات ما قيل إنه «يوميات هتلر»، ثم اتضح أن هذه اليوميات كانت مفبركة من أولها لآخرها.

وكدليل على جديته، قدم الصحفى الكولومبى أوسكار سبع صور فوتوغرافية أخذت داخل مفاعل ديمونا بإسرائيل وخارجه، وفى مركز البحوث النووية الإسرائيلية فى صحراء النقب، وقال أوسكار: «إن هذا العالم الإسرائيلى يستطيع أن يبرهن أن لدى إسرائيل ليس فقط عددا من القنابل الذرية، وإنما استطاعت أيضا تطوير قنابل هيدروچينية».

ظهر أوسكار لأول مرة فى مكتب الصحفى البريطانى «تيم براون» الذى يعمل لحساب الصنداى تايمز فى مدريد، وبالطبع ساورته الشكوك عندما استمع إلى القصة. لكنه مع ذلك اتصل بقسم الشئون الخارجية فى الجريدة، وأوضح لهم شكوكه وإن كان قد قال أن أوسكار يحمل معه صورا فوتوغرافية مثيرة. وهكذا قررت الصحيفة تكليف مراسلها فى پاريس (جون سواين) بالتحقق من القصة كلها. وطار سوين إلى مدريد، وأقام فى الفندق الذى يقيم فيه الصحفى الكولومبى أوسكار، لكنه اكتشف صعوبة التحقق من كلام أوسكار فى هذا الفندق بمدريد، فقرر إحضار أوسكار معه إلى لندن.

وهكذا وقعت على قسم التحقيقات فى الصنداى تايمز مهمة التعامل مع أوسكار جيريرو، ولما كان بيتر هونام (مؤلف الكتاب) يتولى مسئولية هذا القسم تحت إشراف روبن مورجان، الذى كان شديد الشك فى الموضوع برمته، فقد كان من الطبيعى أن يكلف بيتر هونام بسؤال أوسكار واستجوابه، خصوصا أنه (أى بيتر) حاصل على بكالوريوس فى علم الفيزياء، ويقول بيتر هونام فى الكتاب: «إن شكوكه فى الأمر قد استمرت حتى بعد استجواب أوسكار، لكن الصور التى معه كانت تؤيد قصته».

وبالطبع دارت مناقشات مستفيضة بين المسئولين فى الصحيفة، وانتهت إلى أنه ليس هناك ما يمكن عمله غير السفر إلى سيدنى (أستراليا) لمقابلة العالم الإسرائيلى «البروفيسور» موردخاى فانونو، واستجوابه للتحقق من صحة قصته.

أدرك خلال سنوات عمله أن الأجهزة الكيميائية الموجودة تحت الأرض - والتى ساعد فى تركيبها - كانت تقوم بإعداد البلوتونيوم وهو مادة أساسية فى صناعة القنبلة الذرية. ثم أدرك فيما بعد أن أجزاء من الأسلحة النووية كانت تصنع فى غرف تحت الأرض

وهكذا سافر بيتر هونام - ومعه أوسكار - إلى أستراليا يوم ٣٠ أغسطس، ونزلا فى الهيلتون، وكان شعور بيتر هونام بعد حوار مطول مع أوسكار خلال رحلة الطائرة عن كيفية تعرفه على العالم الإسرائيلى، أن الموضوع مزيف، وبالتالى لم يتوقع هونام الشىء الكثير من مقابلة هذا العالم الإسرائيلى.

ولكن بعد وصولهما الفندق بساعة، اتصل أوسكار بهونام وطلب منه أن يحضر إلى غرفته لمقابلة «البروفيسور» فانونو، الذى حضر خصيصا لمقابلته. وبالطبع عندما دخل هونام الغرفة، توقع أن يرى رجلا عجوزا أبيض الشعر، لكنه فوجئ بشاب فى الواحدة والثلاثين، يقف بجوار نافذة الغرفة، هو موردخاى فانونو. وعندما بدأ هونام يوجه أسئلة، أجاب فانونو فى هدوء، واكتشف أن معظم ما قاله أوسكار عن فانونو هو من قبيل المبالغات، ولا يحتوى إلا على جزء ضئيل من الحقيقة. لقد عمل موردخاى حقا فى مفاعل ديمونا، لكنه كان مجرد «فنى» Technician، يساعد على تشغيل عملية فصل البلوتونيوم هناك. واعترف فانونو بوضوح أنه ليست لديه معرفة مفصلة بتصميم الأسلحة النووية، وإنما لديه ذاكرة قوية عن العمليات الكيميائية، وأنه قادر على أن يصف بالتفصيل الصور التى لدى أوسكار (وعددها سبع) والصور الخمسين التى فى جعبته هو.

بعد استجواب فانونو، أصبحت المسألة لدى بيتر هونام هى كما يلى: هل لدى هذا الفنى الإسرائيلى المتواضع قصة تثير الاهتمام؟ وهل هو يقول الحقيقة؟

لقد تبين من هذا الحوار أن أوسكار وفانونو تقابلا لأول مرة فى كنيسة سان چورج فى سيدنى، وكان موردخاى قد تحول إلى المسيحية، وأخبر مجموعة نقاشية فى الكنيسة بما يحمله من أسرار، وسمع أوسكار بالموضوع، فاتصل بموردخاى فورا، موقنا أنه وقع على صيد ثمين.

ورغم إنجليزية موردخاى الضعيفة، إلا أنها كانت كافية لوصف العمليات الكيميائية المعقدة التى تجرى فى ديمونا. لكن الشىء المقنع فى قصته هو استعداده للاعتراف بأنه لا يستطيع الإجابة عن كل الأسئلة الموجهة له، وذلك بسبب وضعه الوظيفى المتدنى فى مفاعل ديمونا.

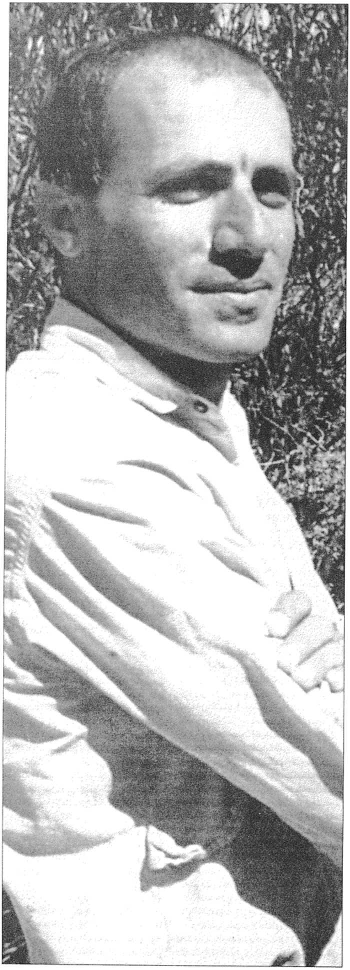
وقد شرح موردخاى كيف أنه عين فى نهاية عام ١٩٧٦، بمركز البحوث النووية للعمل فى التطبيقات السلمية لهذه البحوث. وبعد تدريبه أرسل للعمل فى ديمونا بمرتب جيد، وفرصة للدراسة، لكنه أدرك خلال سنوات عمله أن الأجهزة الكيميائية الموجودة

The Woman From Mosad: The Torment of Mordechai Vanunu

(امرأة من الموساد: عذاب موردخاي فانونو)

Peter Hounam

Vision Paperbacks, 1999, 214pp., £9.99





قبل انتقاله إلى الفندق الجديد، لاحظ فانونو امرأة شقراء فاتنة بالقرب من الفندق، فاقترب منها، وتحدث معها، ثم دعاها إلى فنجان قهوة فوافقت، ثم اتفقا على اللقاء في اليوم التالي، وقالت الفاتنة إنها أمريكية وتدعى سندي

تحت الأرض - والتي ساعد في تركيبها - كانت تقوم بإعداد البلوتونيوم وهو مادة أساسية في صناعة القنبلة الذرية. ثم أدرك فيما بعد أن أجزاء من الأسلحة النووية كانت تصنع في غرف تحت الأرض.

وقد التحق فانونو بالجامعة في وقت فراغه لدراسة الفلسفة. وهناك اختلط بطلاب عرب، وبدأ يستمع إليهم: فأصبح أكثر قلقا مما يفعله في ديمونا. وقال إنه قرر أن يتكلم عندما اكتشف أن إسرائيل لم تكن تصنع أسلحة ذرية فحسب، وإنما كانت تصنع قنبلة نيتروجينية، وقنبلة هيدروجينية أيضا بقدراتهما الهائلة في الدمار.

وهكذا ترك فانونو ديمونا في أكتوبر سنة ١٩٨٥، تحت ستار التخلص من العمالة الزائدة. وقد توافرت لديه نحو عشرة آلاف دولار كمكافأة نهاية الخدمة، ومن بيع سيارته وشقته، وسافر إلى أستراليا عن طريق اليونان وبلدان آسيوية أخرى، حاملا معه فيلمين أخذهما سرا في ديمونا، ولم يقم بتحميضهما إلا في سيدني، وكانت الفكرة من أخذ هذه الصور الفوتوغرافية سرا، هي دعم روايته إن قرر أن يتكلم علنا.

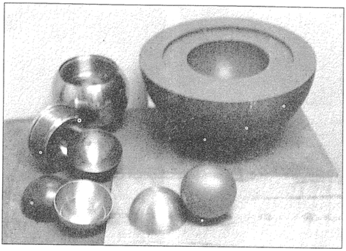
رغم كل القصص المعقولة التي تحدث عنها فانونو، ظل بيتر هونام يفكر أن موردخاي قد يكون مدفوعا بهذه القصة لإيقاع «الصنداي تايمز» في مصيدة. فهذه الصحيفة كانت في وضع حرج جدا من قبل عندما اضطرت إلى الاعتراف بأن «يوميات هتلر» التي اشترتها للنشر كانت زائفة تماما.

لذا قامت «الصنداي تايمز» بإرسال أحد محرريها إلى إسرائيل للقاء أي أشخاص يعرفون فانونو للتحقق من صدق كلامه، بينما تولى محررون آخرون مهمة الاتصال بعلماء بريطانيين وإطلاعهم على التقارير التي كان هونام يرسلها من سيدني عن استجواباته لفانونو، وذلك لتقدير ما إذا كان وصف موردخاي المفصل لعملية فصل البلوتونيوم صحيحة أم لا. وقد استطاع هونام أن يختلي بفانونو بعيدا عن الصحفي الكولومبي أوسكار، فإذ بفانونو يعترف أنه لم يعد سعيدا مع هذا الرجل أوسكار. وقال إنه قلق على أمنه، فالموساد يمكن أن تكون وراءه، وهو لا ينسى أن الموساد قتلت شابا مغربيا أمام زوجته الحامل، ظنا منها أنه واحد من رجال «أيلول الأسود»، ثم تبين أنه مغربي يعمل جرسونا في أحد مطاعم النرويج.

حتى ذلك الوقت، لم يكن فانونو، ولا محررو «الصنداي تايمز»، يعرفون أن أوسكار جيريرو (كما كشف الصحفي الأمريكي لويس توسكانو فيما بعد)، كان على اتصال بالقنصل الإسرائيلي في سيدني. فوفق رواية توسكانو، اتصل أوسكار هاتفيا حوالي ١٢ أغسطس بالبعثة الإسرائيلية، ثم قابل أفي كليمان مسئول المخابرات الإسرائيلية في مقهى مجاور، وقام أوسكار بحكاية قصة فانونو، وقدم اسمه الكامل ورقم جواز سفره. وهكذا وصلت القصة إلى الموساد، وبدأ الإعداد لاغتيال فانونو الذي كان يعمل سائق تاكسي في سيدني.

لقد قرر بيتر هونام أن يعود إلى لندن ومعه موردخاي فانونو تاركين أوسكار وراءهما في سيدني، ولم يتصوروا أنه سيلحق بهما على وجه السرعة.

عندما وصول بيتر هونام وصاحبه فانونو إلى لندن، اكتشف أن الصحفي



وعاء حفظ قلب البلوتونيوم للقنبلة الذرية

البريطاني الذي أرسلته الصحيفة (ويدعى برانجيل) إلى تل أبيب، قد عاد بعد أن تأكد أن هناك فعلا شخصا اسمه موردخاي فانونو، تنطبق أوصافه على هذا الإسرائيلي الموجود في لندن. ثم بدأ استجواب موردخاي عن طريق العالم البريطاني فرانك بيرنابي، وهو أحد العلماء البريطانيين الذين اشتركوا في صناعة القنبلة الذرية، ثم استقال بعد ذلك، وتخصص في أعمال السلام ومناهضة البحوث النووية الحربية.

ولقد عبر بيرنابي لرئيس تحرير «الصنداي تايمز» عن شكوكه في قصة فانونو، ثم عاد بعد أيام ليقول إنه يعتقد أن فانونو صادق، وهو يستنتج من كلام فانونو أن إسرائيل لا تنتج أسلحة ذرية فقط، وإنما لديها إمكانيات لصناعة قنبلة هيدروجينية أيضا.

وقد بدأت صحيفة «الصنداي تايمز» في اتخاذ إجراءات لحماية أمن فانونو إبان إقامته في لندن، إذ أخذت تنقله من فندق لآخر، تجنبا لرصده في أحد الفنادق، ثم قامت بتكليف أحد محرريها بمصاحبة فانونو خلال جولاته في لندن. ففي يوم يصحبه برانجيل وفي يوم آخر تصحبه الصحفية الإنجليزية ويندي روبنز. وفي بعض هذه الجولات التقى فانونو ببعض الإسرائيليين الذين يعرفهم ويعرفونه، وظن أن هذا اللقاء كان بالصدفة، ثم تبين بعد ذلك أنه لم يكن كذلك، وإنما من ترتيبات الموساد، وكان هدف الموساد من ذلك هو محاولة إقناع فانونو بالعودة إلى إسرائيل.

وكانت مشكلة فانونو في لندن هي إحساسه بالوحدة وبالكبت الجنسي وهو في الحادية والثلاثين، حتى أنه اقترح على ويندي روبنز أن ينام معها، لكنها اعتذرت قائلة: إنها تريد أن تكون صديقة فحسب. وبالطبع كان بيتر هونام قلقا من جولات فانونو في لندن ومحاولاته التعرف على الناس على قارعة الطريق، حتى اضطرت الصحيفة إلى نقله إلى فندق في كوفنت جاردي، وطلبت منه أن يعدها ألا يقول لأحد عن مكان إقامته.

لكنه قبل انتقاله إلى الفندق الجديد، لاحظ فانونو امرأة شقراء فاتنة بالقرب من الفندق، فاقترب منها، وتحدث معها، ثم دعاها إلى فنجان قهوة فوافقت، ثم اتفقا على اللقاء في اليوم التالي، وقالت الفاتنة إنها أمريكية وتدعى سندي.

أعطى أوسكار جيريرو القنصل الإسرائيلي في سيدني كل أخبار فانونو يوم ١٠ أغسطس، وبذلك كان للموساد الوقت الكافي لتحريك عملائها في الأماكن المناسبة.

وفي ٧ سبتمبر، كانت السلطات الإسرائيلية على علم بمناقشات فانونو مع «الصنداي تايمز»، فقد اتضح فيما بعد أن عميلين من «شيف بيت» زارا شقيق فانونو الأكبر «ألبرت» وسألاه عن مكان موردخاي، فقال إنه لا يدري. عندئذ قال أحد العميلين: «إن موردخاي تحدث إلى صحيفة بريطانية عن عمله في ديمونا، فإن اتصل أخوك بك قل له إنه يضع نفسه في متاعب ضخمة بهذا الحديث». ثم طلبا من ألبرت أن يوقع على وثيقة تمنعه من الكلام في هذا الموضوع وإلا تعرض لعقوبة السجن خمسة عشر عاما.

وكانت محاولة الموساد الأولى هي إقناع فانونو بالتراجع عن الحديث مع «الصنداي تايمز»، ولهذا دبرت هذا اللقاء الذي تم «بالصدفة» بين فانونو وبعض معارفه القدامى في شارع ريجنت بلندن كمحاولة أخيرة لتراجع فانونو. فإذا فشلت هذه المحاولة، فالحل الباقي عند الموساد هو إزاحة موردخاي، وترك «الصنداي تايمز» في حالة من الحيرة دون شاهدها الأساسي.

وكان على الموساد أن تعمل في حرص بعد حادث آخر عصف بسمعة مخابرات إسرائيل منذ عامين. ففي عام ١٩٨٤، خُطف وزير نيجيري سابق من أمام منزله في بورشستر تراس، وكان هذا الوزير السابق عدوا لدودا للانقلاب الذي وقع في نيجيريا. ولقد انتبهت سكوتلاند يارد للحادث وأرسلت تحذيرا إلى كل الموانئ والمطارات باحتمال تهريبه سرا إلى نيجيريا.

وفي المطار لاحظت سكوتلاند يارد صندوقين كبيرين يحملان على طائرة متجهة إلى لاجوس، فأسرعت سيارة الشرطة إلى مدرج الطائرة وأوقفتها، وبالتفتيش وجد الوزير السابق في الصندوق الأول وهو في غيبوبة ومقيد من يديه وقدميه، وبجانبه دكتور ليفي شابيرو الطبيب المختص في التخدير وضابط الاحتياط في الجيش الإسرائيلي. أما الصندوق الثاني فقد اختبأ فيه إسرائيليان آخران هما ألكسندر باراك وفيلكس أبيتول، وهما اللذان قاما بعملية الخطف. وقد اتضح أن باراك هو قائد المجموعة وقد حكم عليه في أولد بيلي بالسجن ١٤ سنة، كما حكم على الآخرين بعشر سنوات لكل منهما. وقال القاضي ماكون إنه واثق أن العملية من تدبير الموساد.

لهذا، كان على الموساد أن تعمل في حرص، ولذلك قررت أن تجرى عملية اختطاف فانونو بعيدا عن بريطانيا. ولهذا أيضا كانت «الصنداي تايمز» تسعى من جانبها لإخفاء فانونو على الأقل حتى يتم نشر تحقيقاتها عن الأسلحة النووية الإسرائيلية، فكانت تكثر - كما أسلفنا - من نقل فانونو من فندق لآخر، وكانت تنقله أحيانا من الفندق إلى مكان الجريدة في حقيبة السيارة، عندما يكون مطلوبا للإجابة عن الاستجوابات الموجهة له. لكن فانونو لم يكن مطيعا دائما، فهو لم يوقع عقدا مع الصحيفة ولم يكن ملزما باتباع نصائحها، على أن الخطأ الأكبر الذي ارتكبته الجريدة بحسن نية، هو أن فانونو أقام في لندن خلال زيارته.

وفي ٢٣ سبتمبر كانت الصحيفة جاهزة لنشر أقوال فانونو، وذهب محرران من الجريدة إلى السفارة الإسرائيلية في لندن ومعهما خطاب من «الصنداي تايمز» يحتوي على أقوال فانونو المعدة للنشر طالبين من السفارة أن تعلق على هذه الأقوال. وقد وعد الملحق الصحفي بالسفارة بالرد في اليوم التالي. وبالفعل أملى الملحق على الجريدة في اليوم التالي تكذيبا لكل أقوال فانونو. واستعدت الصحيفة لنشر أقوال فانونو وتكذيب السفارة. كان فانونو في مكاتب الصحيفة عندما وصل رد السفارة، وأعيد إلى فندق مونتباتن في المساء. كان الجو دافئا وقرر فانونو التعرف على محيط الفندق الجديد.

ما حدث بعد ذلك عندما وقع موردخاي في المصيدة، أصبح جزءا من أسراره، لكن اليوم اتضح أبعاد ما حدث. لقد أخذ يتطلع إلى المجلات المعروضة في بعض المحلات

عندما لاحظ امرأة شقراء كثيفة المساحيق تنظر إليه، ثم تركت المكان الذي تقف فيه وذهبت إلى فاترينة محل مجاور، وذهب فانونو إليها، وقال: مرحبا.. هل أنت سائحة مثلي؟ ثم دعاها إلى فنجان قهوة. وفي الطريق عرف أنها أمريكية وأن اسمها سندي.

أما لماذا لم يشك فانونو في أنها عميلة الموساد، فلأنه هو الذي حاول الاتصال بها، بينما كانت هي تبتعد عنه، فأي واحدة تحاول اصطياده لابد أن تبدأ الخطوة الأولى، هكذا فكر فانونو وكان خطاه ماساويا.

ولقد اتفقت سندي مع فانونو على زيارة متحف التيت Tate Gallery، في اليوم التالي، وسعد فانونو بذلك. لكن في هذا اليوم وصل ماكس برانجيل إلى الفندق ليخبر فانونو أنه مطلوب في الصحيفة لاستجواب آخر، وكان فانونو مستاءً من كثرة الاستجوابات، وقال لبرانجيل إنه لابد من أن يعمل زيارة في الطريق إلى الصحيفة، وذهبا سويا إلى المتحف وانتظر برانجيل عودة فانونو. وقد لاحظ أن سيدة شقراء كثيفة المساحيق تتحدث مع فانونو عند باب المتحف، وقال موردخاي عند عودته أنه اتفق معها على الذهاب إلى السينما الساعة السادسة.

وقد اعترف فانونو بعد ذلك أنه عندما سأل سندي عن الفندق الذي تقيم فيه، امتنعت عن الإجابة، وعندما سألته أين يقيم، اعترف لها أنه يقيم في فندق مونتباتن تحت اسم مستعار (جورج فورستر)، وقال لها إن رقم غرفته ١٠٥، وطلب منها الحذر لأنه ليس من المفروض أن يخبر أحدا بكل ذلك.

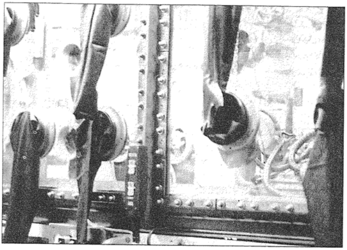
وفي اليوم التالي، بدأت الصحيفة تأخذ مسألة سندي باهتمام، ونبه بيتر هونام صديقه موردخاي فانونو إلى احتمال أن تكون عميلة للموساد، لكن فانونو استبعد ذلك، فاقترح عليه بيتر دعوته معها إلى العشاء في منزله في اليوم التالي، فوافق ثم اعتذر بعد ذلك لأنه هو وسندي مرتبطان بموعد آخر، واتفق مع هونام على قبول الدعوة يوم الثلاثاء.

وبعد الظهر اتصل فانونو ببيتر هونام ليخبره أن خططه للسفر خارج لندن هو وسندي قد اكتملت، وأنه لن يتراجع، وأنه سوف يعود بعد ثلاثة أيام، ليوقع عقد الصنداي تايمز. وقد طلب منه هونام أن يتصل به مرتين يوميا في مكتبه أو في منزله فوافق على ذلك.

وفي اليوم التالي، حزم فانونو أمتعته وغادر الفندق واختفى، وكان تحقيق فانونو جاهزا للنشر، لكن قسم التحقيقات في «الصنداي تايمز» كان في قمة القلق لاختفاء الشاهد الأساسي. ثم جاءت أنباء من إسرائيل تقول إن رئيس الوزراء شيمون بيريز، اجتمع برؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية، وأخبرهم أن قضية أساسية تتعلق بإسرائيل سوف تنشر في «الصنداي تايمز»، ورجاهم باسم الأمن القومي أن يتعاونوا معه في محاصرة الضرر المترتب على النشر.

وفي اجتماع بمقر صحيفة «الصنداي تايمز» ضم كل محرري الجريدة، نوقش من جديد موضوع نشر التحقيق، وكانت الأغلبية تحبذ التأجيل إلى أن يظهر فانونو، لكن بيتر هونام عارض التأجيل، وقال إن موقف شيمون بيريز يثبت أن «الصنداي تايمز» إزاء خبطة صحفية كبيرة، وأنه إذا ثبت أن فانونو قد خطف كما هو محتمل، فمعنى هذا تأجيل النشر إلى أجل غير مسمى. وفي النهاية قرر رئيس التحرير النشر فورا ونظر إلى هونام وقال: يحسن أن يكون رأيك صحيحا!!

إن فكرة خطف فانونو بعيدا عن بريطانيا كان مقصودا بها عدم إحراج مارجريت تاتشر صديقة إسرائيل الحميمة



نموذج لطراز القنبلة الذرية الإسرائيلية

أين ذهب فانونو؟

اتضح بعد أيام أن فانونو ذهب مع سندي إلى إيطاليا، ولم تكن الصحيفة تعلم أي شيء عن سندي.. أين تقيم؟ وما اسمها الحقيقي؟

وفي ٢٨ سبتمبر، استطاعت الصحيفة أن تعرف من تحرياتها أن سندي اشترت تذكرة سفر إلى روما، وبدأت تلح على فانونو لمرافقتها، وقالت إنها لن تشعر بانجذاب إليه وهو في حالة القلق التي يمر بها، وأن الذهاب إلى روما سيجعله في حالة أفضل. وادعت أن لها أختا في روما لديها شقة جميلة وأنه في هذا المناخ يمكن أن تزدهر علاقتهما، وفي الوقت نفسه، فقد اعتذرت عن أي علاقة جنسية معه في الوقت الراهن، ولتسهيل الأمور عليه، اشترت تذكرة سفر أخرى على الخطوط الجوية البريطانية وقالت له إنه يمكنه السداد فيما بعد.

إن فكرة خطف فانونو بعيدا عن بريطانيا كان مقصودا بها عدم إحراج مارجريت تاتشر صديقة إسرائيل الحميمة.

أما ما حدث عندما وصل فانونو إلى روما، فقد ظل سرا غامضا لم يعرف محررو «الصنداي تايمز» تفاصيله إلا فيما بعد. فعند الوصول إلى روما، وجد فانونو صديقا لأخت سندي في انتظارهما في المطار، ثم ذهبت السيارة بالثلاثة إلى شقة من الشقق في ضاحية نائية، وقد فتحت الباب لهم امرأة ذات شعر أسود. وفي لحظة أدرك فانونو غباءه، فقد هجم عليه رجلان وضرباه على رأسه وألقياه على الأرض، ثم ربطاه من يديه وقدميه، ثم جاءت المرأة التي فتحت الباب وأعطت فانونو حقنة في ذراعه، فغاب عن الوعي.

وعندما استيقظ، أعطي حقنة أخرى، ونقل في سيارة إلى مكان بعيد، حيث كانت سفينة شحن في انتظاره في المياه الدولية، نقل إليها بواسطة يخت، وعاد فانونو إلى وعيه وهو في الطريق إلى إسرائيل، وخلال ساعات كان في غرفة مظلمة في مقر الموساد بتل أبيب.

وأخيرا، فتح باب الغرفة ودخل رجل ألقى بنسخة من «الصنداي تايمز»، وعلى صفحتها الأولى قصة فانونو كما رواها، وصورة مفاعل ديمونا في وجهه وقال: «انظر إلى الدمار الذي صنعته».

والغريب أن فانونو ظل يعتقد في براءة سندي حتى بعد أن أفلحت تحريات «الصنداي تايمز» في نشر صورتها وكشف شخصيتها الحقيقية، وظل يعاند ويقول: «لقد أخطأتم الاختيار، لكنه في الحقيقة كان خجلا من أن يعترف أنه مخطئ إلى درجة الغباء».

مطاردة سندي..

كان أول عمل لدى الصحيفة بعد نشر التحقيق، هو اكتشاف ما إذا كان فانونو قد تعرض لأي أذى.. لقد اختفى منذ صباح ٣٠ سبتمبر، وكان قد وعد بيتر هونام أن يتصل به مرتين يوميا خلال سفره خارج لندن. لكنه لم يفعل. وفي أواخر أكتوبر بدأت تنتشر شائعات أن فانونو عاد إلى إسرائيل قسرًا، وأرسلت الصحيفة واحدا من محرريها إلى إسرائيل للتحقق من هذه الشائعات. وبدأت ضغوط دولية من جانب بريطانيا وأستراليا وفي إسرائيل لمعرفة الحقيقة، وطلب نائب بريطاني في مجلس العموم وقف أعمال المجلس لمناقشة موضوع خطف فانونو.

عندئذ اضطر رئيس الوزراء شيمون بيريز إلى إصدار بيان يعترف فيه أن فانونو مقبوض عليه في إسرائيل. ونفى بيريز أن يكون قد خطف من بريطانيا.

بقي السؤال المهم: كيف أعيد فانونو إلى إسرائيل؟

لقد ظل هذا لغزا حتى ٢٢ ديسمبر، عندما أُخذ فانونو لثاني جلسة من جلسات محاكمته التي جرت سرا، وعندما اقتربت السيارة من باب المحكمة، فتح فانونو يده أمام زجاج السيارة للصحفيين، وكان مكتوبا عليها بالحبر الأسود: «فانونو اختطف في روما في ٨٦/٩/٣٠، وقد حضر إلى روما على الرحلة البريطانية رقم ٥٠٤».

أخذت «الصنداي تايمز» تبحث عن الاسم الذي استعملته سندي عند شراء التذاكر، وقد تبين أن فانونو شغل المقعد 6F، بينما شغلت الآنسة هانين C. Hanin المقعد المجاور له. وبدأ بيتر هونام يعتقد أنه لابد أن تكون هناك سيدة حقيقية تدعى سندي هانين، تقمصت امرأة الموساد شخصيتها. وبعد بحوث واسعة في أمريكا وبريطانيا وإسرائيل، عثرت «الصنداي تايمز» على سيدة يهودية أمريكية تقيم في فلوريدا تدعى سندي هانين، وعرفت عنوانها في فلوريدا، كما تبين أنها عملت في صالون تجميل لمدة ثلاث سنوات، وكانت هذه المعلومة لافتة للنظر: لأن صديقة فانونو ادعت هي أيضا أنها عملت في صالون تجميل.

لقد اتضح بسرعة أن سندي المقيمة في فلوريدا لا يمكن أن تكون قد اشتركت في خطف فانونو: لأنها في نفس الفترة كانت مشغولة بالاستعداد لزواجها من راندي هانين.

لكن تبين أن لراندي هذا شقيقة أكبر تدعى شيرل Cheryl، ومن خلال البحث تبين أن لهذه العائلة اتصالات إسرائيلية.

إن شيرل ذات الشعر الرملي والخدود البارزة تشبه سندي التي عرفها فانونو إلى حد كبير، وهي تعيش الآن في إسرائيل، ومتزوجة من نقيب سابق في المخابرات العسكرية الإسرائيلية. لقد بدأت شيرل حياتها في أورلندو، وقال عنها نائب مدير المدرسة هناك، إنه يتذكرها كطالبة مجتهدة وهادئة. وفي سن السابعة عشرة، بدأ والدها ستانلي وأمها راشيل إجراءات الطلاق، وطالبت الأم بحضانة الأطفال الثلاثة: شيرل وراندي وأختهما الصغيرة بيني Penny.

في هذا الجو العائلي المتوتر، قررت شيرل أن تستفيد من عرض في مدرستها بقضاء تيرم يدرس في إسرائيل، وأحبت التجربة، وعندما عادت إلى فلوريدا وجدت أمها مشغولة بنشاطات الكنيسة. وهكذا عادت شيرل إلى إسرائيل عام ١٩٧٨، وتطوعت في الجيش الإسرائيلي. وفي مارس ١٩٨٥، تزوجت من زوجها بنتو Bentoo.

إن التحقيقات المفصلة التي أجرتها «الصنداي تايمز» عن عائلة هانين Hanin في فلوريدا، جعلت من الممكن أن تكون شيرل هي المرأة التي غوت فانونو، وعندما حصلت الصحيفة على صور لها بوجهها المستدير وخدودها البارزة عظامها، أعطت هذه الصور

كتاب الزاوية

حديث عيسى بن هشام

محمد المويلحى

محمد المويلحى (- ١٩٣٠)

محمد المويلحى هو ابن إبراهيم المويلحى السياسى والصحفى والكاتب المصرى الذى كان من أهم رموز مصر الثقافية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ولاتعرف سنة مولده بالضبط. وكان والده قد غادر مصر مصاحبا للخديو إسماعيل عام ١٨٧٩ بعد عزله من الحكم لكن محمدا ظل فى مصر وعاصر أحداث الثورة العرابية، وحكم عليه بالإعدام لتوزيع مقالات والده ثم خفف الحكم بالنفى إلى إيطاليا ليلحق بأبيه هناك. عاد إلى مصر عام ١٨٨٧، فكتب فى «المقطم» وانضم لصالون الأميرة نازلى ابنة أخت الخديو إسماعيل، وعندما رجع والده إلى مصر عام ١٨٩٥ أسسا معا صحيفة «مصباح الشرق». أشهر أعماله الأدبية «حديث عيسى بن هشام»، و«علاج النفس».

توفى محمد المويلحى فى ٢٨ فبراير ١٩٣٠.

(١)
المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام: ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا فى ساحتها أقواما ذوى وجوه مكفهرة، وألوان مصفرة، وأنفاس مقطوعة، وأكف مرفوعة. وشاهدنا باطلا يذكر، وحقا ينكر، وشاكيا يتوعد، وجانيا يتودد، وشاهدا يتردد، وجنديا يتهدد، وحاجبا يستبد، ومحاميا يستعد، وأمّا تنوح، وطفلا يصيح، وفتاة تلهف، وشيخا يتأفف، وسمعنا ألفاظا متناقضة، وأقوالا متعارضة، ورأينا المحامين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه، ويقدح جنانه، استعدادا للنزال، فى ميادين المقال، وتأهبا للدفاع فى مواقف النزاع.

فانزويت بصاحبى، ومحامينا بجانبى، يذكر لنا «أصولا مرعية» و«مسائل فرعية»، وظروفا وأحوالا، وشروحا وأقوالا، ومواد وفقرات، فى الجنح والمخالفات. ثم يتصفح محاضره، ويقلب دفاتره، ويقسم لنا بوكيد الأيمان، أن الباشا من تهمته فى أمان. ولما سألنى عن هذه الملحمة، قلت له هى المحكمة.





جاءت أنباء من إسرائيل تقول:
إن رئيس الوزراء شيمون بيريز،
اجتمع برؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية، وأخبرهم أن قضية أساسية تتعلق بإسرائيل سوف تنشر فى «الصنداى تايمز»، ورجاهم باسم الأمن القومى أن يتعاونوا معه فى محاصرة الضرر المترتب على النشر

لاثنين من محرريها كانا قد رأيا سندى مع فانونو من قبل، وطلبت منهما أن يدرسا الصور بدقة. وقد أكد الاثنان أن هذه هى نفس المرأة التى رأياها مع فانونو.

لقد حان الوقت إذن لأن يقوم بيتر هونام بزيارتها ومواجهتها فى إسرائيل!

لقد أوضحت التحقيقات الصحفية عنوان شيرل وزوجها كما يلى: شارع شتروف، ناتانيا وهى مدينة ساحلية على بعد ٣٢ كيلومترا من تل أبيب.

وسافر بيتر هونام مصحوبا بزميله دافيد كوينت إلى إسرائيل، وحجزا غرفة فى فندق فى ناتانيا كسائحين، وعندما وصلا إلى عنوان المنزل لم يجدا أحدا فيه، ثم وصل الزوجان. وعندما اقترب الصحفيان البريطانيان من باب المسكن وجدا شيرل مع سيدة عجوز يتمتعان بالشمس فى الحديقة الخلفية.

ودقا جرس الباب، وفتحت شيرل الباب وقالت: «ماذا يمكن أن أفعل لكما»؟

قال بيتر هانوم: نحن من «الصنداى تايمز»، نحن نبحث عن موضوع هنا. هل يمكن أن ندخل؟

وللحظة بدأت خدودها فى الاحمرار، إذ أدركت معنى وقوف صحفيى «الصنداى تايمز» أمامها. لكنها قالت: تفضلا، ثم قادت الطريق إلى غرفة الجلوس، وذهبت شيرل وأحضرت أمها.

قال بيتر هانوم: إننى واحد من الذين أحضروا موردخاى فانونو إلى بريطانيا من أستراليا. والقصة كلها منشورة فى الصحف الإسرائيلية، ولابد أنك تعرفينها، لأن فانونو الآن فى السجن.

ـ نعم.

ـ نحن مهتمون جدا أن نعرف من هى المرأة التى تدعى سندى التى أحضرت فانونو إلى إسرائيل.

قالت: هل هناك امرأة بهذا الشكل؟

قال بيتر هانوم: نعم أنت هى تلك المرأة. لقد تأكدنا من ذلك دون أدنى شك. ومن الواضح أنك تعملين لحساب المخابرات الإسرائيلية، وزوجك كان على صلة بنفس الأجهزة.. إننى مهتم بحقيقة...

قالت: هل أنت تدعى أن زوجى على صلة بالاستخبارات الإسرائيلية؟

قال: طبعا.

قالت: ماذا تريد أن تحصل عليه من كل ذلك؟

قال: من الأشياء ذات المغزى، استخدامك لاسم سندى وتبنيك لشخصيتها.

قالت: إن اسمى ليس سندى.

قال: نعم هذا اسم زوجة أخيك.

قالت: أنتم تعرفون كل شىء عن عائلتى.

وارتفعت الأصوات وقال بيتر هونام لها: إنك لم تنكرى خلال كل الحديث أنك سندى.

قالت: أنكر ذلك، أنكر ذلك..

ثم قامت، وكان من الواضح أن الحديث انتهى، وبسرعة أخذ هونام بعض الصور لها قبل أن تعترض، وفى المساء اتصل الصحفيان البريطانيان بزوجها فى المنزل هاتفيا، وشرحا له ما حدث فى الصباح، وسألاه إن كان من الممكن توجيه بعض الأسئلة له، فرفض وهدد بإبلاغ البوليس إن عادا إلى المنزل لمضايقة زوجته.

وقد حاولت «الصنداى تايمز» مقابلة ستانلى هانين (والد شيرل) فى فلوريدا، لكنه رفض وادعى أنه لم ير ابنته منذ سنين، فلما قال بيتر هونام له إنه على علم بأنه رآها فى حفل زواج نجله راندى منذ عام، ثار وقال: لا أريد أن أقحم نفسى فى هذه الموضوعات.

كل الأشياء كانت تؤكد أن شيرل هى التى اشتركت فى خطف فانونو، ومع ذلك ظل هونام يقول لنفسه، إن المرأة التى رآها فى ناتانيا ليست شقراء، ولم تكن كثيفة المساحيق، كما كانت سندى فى لندن، وهذا ما جعله يقول لنفسه إنه ربما كان فى حاجة لمزيد من الأدلة، ثم تبين له بعد البحث أن هناك امرأة تدعى شيرل هانين، أقامت فى فندق Eccleston، بلندن، فى نفس فترة خطف فانونو، وعلى استمارة التسجيل عنوانها فى فلوريدا، وهو نفس عنوان عائلة هانين هناك.

وهكذا جرى التأكيد نهائيا على أن شيرل هى المرأة التى أغوت فانونو وساهمت فى خطفه إلى إسرائيل.

ثم بدأ السؤال الأخير:

هل كانت شيرل تعمل لحساب الموساد فقط، أم أنها كانت تعمل لحساب المخابرات الأمريكية أيضا؟

لقد نشرت صحيفة «الصنداى تايمز» صورا مختلفة لشيرل، باعتبارها عميلة للموساد التى اشتركت فى خطف فانونو، ثم اعترفت الصحف الإسرائيلية بالحقيقة، ونشرت صورة شيرل كبطلة من بطلات إسرائيل، وتحدثت عن دورها فى الموساد، الذى انتهى بالطبع بعد عملية فضحها. ■

مــــــــوزار المصـــــــــرى ..

أو

النــــوم في ســرير جـوته

مـرفـت عـبـدالنـاصــر

■■ منذ عـام تقـريبـا دعـيت لمؤتمر فى مـدينة الجبـال والجليد «انزبروك».. تلك العـاصمـة السـاحـرة لمنطقـة التيـرول النمساوية للمشاركة بمحاضرة عن الدورالذى تلعبه «الثقافة» فى تشكيل السلوك والاضطراب النفسى.. ومقرر هذا المؤتمر الذى وجه إلىّ الدعوة ، هو رئيس لقسم الطب النفسى فى جامعة انزبروك، غير أنه الآن فى إجازة دراسية يبحث فيها عن الأسباب التى أدت إلى انتشار التعصب العرقى وظهور النازية الجديدة فى أوروبا!

كان كريما للغاية معنا.. فلقد مكثنا فى أقدم وأجمل فندق فى انزبروك، الفندق الذى أقام فيه موزار وجوته وشيلر وسارتر وكامى وغيرهم.. ولاشك أن جاذبية هذا الفندق بالنسبة للعالم كله تكمن فى استضافته لتلك الأسماء اللامعة التى أثرت بإبداعاتها العقل الإنسانى، وجميع الغرف مسماة بأسماء هؤلاء النزلاء العظماء الذين مكثوا فى هذا الفندق خلال القرنين الماضيين.

ومازلت حتى الآن أحكى وأتباهى بشرف إقامتى فى تلك الغرفة التى نام يوما فى سريرها جوته نفسه! وكم كان هذا الأمر رائعا بالنسبة لى وفالا حسنا! فمحاضرتى التى أشارك بها فى هذا المؤتمر تبدأ بصورة هذا الشاعر العبقرى وبعض من كلماته.. هذا الشاعر الذى تساءل منذ حوالى مائتى عام عن الأسباب التى تجعل الغرب يحلو له أن ينظر إلى الشرق على أنه يمثل دائما «الآخر».. المتخلف والمختلف! مؤكدا أنه برغم تلك النظرة السلبية فإن هناك التحاما إنسانيا بين الشرق والغرب لايمكن بأى حال فصله أو تجاهله..

إلى أن جاء من بعده الشاعر الإنجليزى «كبلنج» ليهدم هذا التقارب تماما ويصر - من موقف يعرفه الجميع بأنه عنصرى - أن الشرق شرق والغرب غرب، وليس من الممكن أن تكون الحضارة الغربية الراقية البيضاء قد تأثرت من قريب أو بعيد بأى من الحضارات ذات البشرة غير البيضاء!

ماعلينا.. ولكن ما علاقة كل هذا بموزار ومصر وهذا المقال؟

تأتى هذه العلاقة من طبيعة الهدية التى أهدتها لزميلى النمساوى القائم على تنظيم هذا المؤتمر وهى عبارة عن أسطوانة من الليزر تحمل عنوان هذا المقال.. «موزار المصرى» وهى بدون شك عمل جرئ، وتجربة شيقة قام بها مائة وخمسون موسيقيا من هؤلاء المبدعين الذين تفرزهم مصر يوما بعد آخر، تلك الأرض التى لاتكف أبدا عن العطاء..

وكما تقول كلمات غلاف الأسطوانة، أن هذا العمل محاولة جديدة لتوزيع موسيقانا توزيعا «موزاريا» يدمج «عمودية» الموسيقى الغربية مع «أفقية» الموسيقى الشرقية، ومن أجمل ما حوته هذه الأسطوانة مرثية تمس القلوب تتغنى بها طفلة عمرها ثمانى سنوات تغنى كلماتها بالقبطية ويقال إنها نفس المرثية التى كانت تصاحب طقوس التحنيط فى مصر القديمة.



أعجب زميلى النمساوى بالهدية وسألنى بدهشة ولكن موزار لم يذهب إلى مصر أبدا! فقلت له: نعم هذا صحيح، ولكن مصر كانت الإلهام لعمله الرائع «الناى السحرى» لدرجة أن هناك مدارس تصنف التاريخ المصرى القديم إلى ماقبل الناى السحرى (والتى اتسمت بنظريات تنكر على المصريين صناعة تلك الحضارة وتقلل من دورها فى صنع الحضارة الإنسانية) وفترة مابعد الناى السحرى (والتى اضطر العالم فيها أن يعترف لحد ما بأفضال مصر القديمة).

ولكن كيف تعرف موزار على تلك المنابع المصرية؟ والإجابة فى «بومبى» تلك المدينة الرومانية التى قضى عليها بركان فيزوف عام ٧٩ بعد الميلاد فحول تلك المدينة الجميلة إلى أطلال ورماد.. وبقايا تلك المدينة تحكى عن عظمة وجمال معبد النور والحكمة فيها.. وهو معبد إيزيس الذى كان يقام فيه يوميا احتفال راقص وقت الأصيل..

ولقد كان معبد إيزيس فى بومبى فى الحقيقة «الماكيت» الذى استخدمه موزار فى بناء معبد الحكمة فى أوبراه الشهيرة والذى تدور حوله أحداث نايه السحرى.. فقصة الناى السحرى هى قصة أمير أراد يوما أن يدخل معبد الحكمة لأنه يعرف أن حبيبته تعيش هناك! ويذهب الأمير بالفعل إلى المعبد حيث يستوقفه الكاهن الأكبر قائلا:

لايدخل هنا إلا أصحاب القلوب النظيفة

فنور الحكمة لايعرف عتمة القلوب

لاتدخل هنا أرواح جريحة

لايدخل معبدنا سوى نور النهار

فيتساءل الأمير قائلا: وهل يكفى الحب؟

ويرد الكاهن الأكبر: نعم.. فالحب يطهر القلوب..

خذ هذا الناى، نغماته سوف ترعاك وملكة الظلام تكره موسيقاه، فى ذلك اليوم الذى تتغلب فيه على كل العقبات التى حتما ستضعها فى طريقك، ستكون بالفعل جديرا بأن تدخل هذا المعبد، معبد الحكمة.

وقبل أن أتناول «مصرية» معبد النور الذى تسكنه الحكمة، أرجو أن أناقش تلك العلاقة القديمة بين النور والموسيقى. وهى أيضا فكرة مصرية أصيلة بدت لنا واضحة فى شخص «حتحور».. ربة الموسيقى والحب والجمال وهى التى ارتبط اسمها بالآلة الموسيقية التى تسمى «السيسترام». والسيستراما آلة بسيطة قد تشبه الشخشيخة، كانت فى بداية تكوينها مجرد حزمة من أعواد البردى يلوح بها فى الهواء فتصدر أصواتا رقيقة النغم! ولكن السيستراما كآلة موسيقية تحمل بالرغم من بدائيتها الظاهرة عمق تلك العلاقة الكامنة بين الموسيقى والنور والتنوير..

فلقد اعتقد المصرى القديم بفطرته أن الموسيقى تملك القدرة على تطهير النفس من الشرور والتعالى بها فوق الحقد والكراهية وربما فوق كل النقائص البشرية، ولهذا ارتبطت الموسيقى بالصلوات وأصبح النغم أقصر الطرق المتاحة للبشر للوصول إلى مراتب الإنسانية والترقى بها تدريجيا للوصول بالنفس إلى الحكمة..

ومن هنا كانت الموسيقى هى الكاهن الحقيقى فى أى معبد مصرى، فهى بالفعل أداة الكاهن التنويرية وجعبة دوائه التى يعطى من سحرها جرعات الحكمة، ولهذا فإن معبد الحكمة.. معبد النور والموسيقى معبد مصرى فى الصميم، تجسدت فكرته أكثر وأكثر فى معبد الشمس الأخناتونى والذى صمم بشكل يختلف عن كل المعابد المصرية التى سبقته، فمعبد العمارنة الأخناتونى صمم تصميما خاصا يجعل البناء نفسه يمتزج مع الفضاء الخارجى لكى يسمح لنور الشمس بالدخول فى أى وقت تريد!

هل هى الصدفة ياترى التى جعلت الاسم الأول لموزار: «أماديوس» يحمل نفس معنى أخناتون.. من يحبه الرب أو من تحبه السماء؟

وها هو أخناتون يتغنى بهذا النور.. فى شخص قرص الشمس آتون

عندما تسافر يا آتون فى السماء

ويأتى الغروب

ننتظر ساعات الليل فى سكون الصمت

حتى يأتى الشروق

وتنير مرة أخرى الوجود

عندما تشرق فى هذا الأفق

ترفرف الطيور

وترقص الغزلان

إن مصر تستيقظ كل صباح

فى عيد..

لتقف عند قدميك وتستحم بنورك

أحب أخناتون الضوء شعرا.. وأحب موزار الضوء موسيقى

ومازال الإنسان فى كل مكان يعشق الضوء مثلهما.. حبا يضئ قلب الإنسانية ويجعلها فى وسط أى ظلام على يقين تام بأن «الضوء مسيره لوحده حا يطلع»!! ■

الخيول العربية .. فتنة الأمراء



من أجمل قصص السيرة الهلالية، قصة فرس «العقيلي جابر» التي اضطر أبوزيد الهلالي أن يخوض معركة عنيفة من أجل الفوز بها وفاء لعهد قطعه على نفسه.

تتحدث القصة عن جمال ورشاقة الفرس. فهي شقراء ذهبية اللون وفي جبهتها بياض يسيل في خط أشبه بالغدير، وفي ثلاث أرجل حجل أبيض. أما الذيل فكان كثيف الشعر، مرفوعا دائما في زهو.

ولشدة ذكاء الفرس وحيويتها في النزال والطعان، تفردت بين سائر القبائل العربية وذاع صيتها.. وكان صاحبها غيورا عليها.. يكرمها كل الكرم في الطعام والرعاية ويضع على حراستها ستة من العبيد الفوارس طوال الليل وأثناء النهار فلايجرؤ أحد على الاقتراب منها.. ذلك بخلاف أن العقيلي جابر نفسه كان من فرسان العرب المشهورين بالشراسة وشدة البأس.

وتقول القصة إن امرأة من كريمات القبائل العربية ذهبت لأبوزيد الهلالي تخاطب شهامته وترجو نخوته في أن ينقذ ابنها من الكرب والهم. فقد أحب فتاة رائعة الحسن، كاملة الأدب.. أخذت بمجامع قلبه، وعندما طلبها للزواج، صدم بالمهر فوالد الفتاة طلب فرس «العقيلي جابر» فقط مهرا لها.

وهكذا أصاب الهم والكرب الفتى.. وهكذا ذهبت والدته تستعطف «أبوزيد الهلالي» ليفك كربه. فقطع الهلالي عهدا للأم بأن يأتي لها بفرس «العقيلي جابر» مهما كانت الأهوال.. وقد أطنب الرواة بأصواتهم الشجية في وصف المحن التي خاض فيها بطل السيرة الهلالية حتى تمكن من اقتناص الفرس الشقراء وأوفى بالوعد الذي قطعه على نفسه.

وإذا تاملت الحصان تجد طلعته أرستقراطية وأذنيه مضمومتين وعينيه واسعتين كحيلتين ورقبته في إنثناء دليل العزة وجبهته مقوسة ومنخاره كبيرا وصدره عريضا أما ظهره فقصير وبه استدارة تستمر مع الكفل الذي ينتهي بالذيل المرفوع على الدوام كلما خرج الحصان من مربطه إلى الهواء الطلق. أما قوائم الحصان العربي فهي رفيعة طويلة وشعر الرأس والذيل في منتهى النعومة والكثافة».

والحصان العربي من أقدم سلالات الخيول في العالم، ويصل عدد الخيول العربية الأصيلة حاليا إلى نصف مليون حصان تعيش في ٦٩ دولة حسب ما جاء في

أحب الناس الحصان العربي على مر العصور، لأنه كائن جميل، رشيق متناسق الأعضاء، قوي، يقظ، حساس، شديد الذكاء، يتعلم بسرعة ولاينسى أبدا ما يتعلمه من تدريبات وحركات.

وصفت الليدى «وينتورث ـ Lady went-worth»، وهي من المعدودات معرفةً بالحصان العربي الأصيل، جمالياته في الكلمات الآتية «الحصان العربي سلالة قوية، نبيلة، مسيطرة، تتميز بالعظمة والشموخ،

Encyclopedia of the Horse

(موسوعة الخيل)

Edited by Elwyn Hatley Edwards

Octopus Books - London, 1999 Edition

عمرو كمال حمودة

سلالتها قويّة
وطلعتها بهيّة
وأشهرها الأبجر والأدهم



مملوك على حصانه للفنان «كارل فيرنيه»

سجلات «المنظمة العالمية للخيول العربية الأصيلة» المعروفة باسم «الواهو» والتى تعتنى بتسجيل أنساب وأسماء جميع الخيول العربية فى أنحاء العالم، كما تعقد مؤتمرا سنويا له صبغة أكاديمية لمتابعة الموضوعات الخاصة بالمحافظة على نقاء دماء الخيول العربية ووسائل تطوير تربيتها.

ويحدثنا التاريخ أن أصل الخيل العربية كان «اليمن» وعندما انهار سد مأرب هاجرت خيل اليمن إلى شمال الجزيرة العربية، ومات عدد كبير منها بسبب قسوة الطريق والعطش والجوع. وبقيت من بينها على قيد الحياة خمس خيول فقط. وجدها بعض البدو فامسكوا بها وأطلقوا عليها الأسماء الآتية:

هدبان * دهمان * عبيان * كحيلان * صقلاوى.

هذه الأسماء تحولت إلى أرسان (الرسن هو النوع من السلالة) تنتسب إليها كافة الخيول العربية.

وقد حرصت شعوب كثيرة على استجلاب خيول عربية إليها من أجل تحسين سلالة الخيل عندها.

* فمن خلال الرحالة الإيطالى «ماركوبولو» عرفنا أن الخيل العربية دخلت الهند عام ١٢٩٠. كان التجار الهنود يبتاعونها من ساحل عمان عند مضيق هرمز بأسعار زهيدة ثم تنقل إلى «مدراس Me-dras»، حيث تباع بأثمان مرتفعة، فتتحقق للتجار أرباح كبيرة لعظم الطلب على تلك الخيول من مهراجات وسلاطين الهند.

ويحكى «ماركوبولو» أنه فى عام ١٣٥٠ قام السلطان الهندى «علاء الدين» بتوزيع خمسمائة حصان عربى أصيل كهدايا على المدعوين فى حفل زفاف نجله الأكبر، مما يعكس مدى تقدير أثرياء المجتمع للحصان العربى.

وعند مطالعة الرسوم والمنمنمات الهندية نعرف مدى تعلق أمراء المغول بالخيل العربية، فقد استجلبوا منها الكثير. وهناك لوحة مشهورة فى غاية الجمال للإمبراطور «شاه جيهان» رسمت عام ١٦٢٨، تظهر الإمبراطور ممتطيا صهوة جواد عربى أصيل آية فى الرشاقة والتناسق.

كما اهتم الهولنديون بتربية الخيول ولهم شهرة فى حسن انتخاب السلالات، وساعدهم توفر المراعى وانتشار الزراعة، ونجحوا فى تهجين سلالة ممتازة هى «الفيلكوبولسكى Wielkopolsky»، وهو حصان جميل الطلعة ويعد مفخرة للبولنديين وهو خليط من الحصان العربى وحصان «التراخنر» الليتوانى والحصان «الثوروبريد» الإنجليزى.

وقد تعرضت أنساب الخيل البولندية لفقدان المصداقية عدة مرات بسبب ضياع أو تلف السجلات الخاصة بذلك خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية، وبذلت جهود كبيرة استغرقت سنوات طوالا حتى نشأت سجلات جديدة موثقة.

ونعرف عن مربين بولنديين يقيمون مزادا سنويا لبيع خيول من سلالتهم التى تحتوى على دماء عربية، عند المنطقة الحدودية مع أوكرانيا، ويشهد المزاد عدد كبير من الأمراء والمشايخ العرب والبارونات ورجال الأعمال الأوروبيين الذين يشترون خيولا بملايين الدولارات.

وفى ألمانيا حيث التقاليد العريقة فى تربية الخيول وتنمية السلالات المختلفة، أدخل جورج الأول أمير مقاطعة هانوفر عام ١٧١٤ الخيل العربية فى السلالة التى قام بتهجينها مع الحصان «الثوروبريد» الإنجليزى وتوصل إلى إنتاج جديد أطلق عليه اسم «الهانوفرى Hanoverian». وهناك سلالة أخرى ألمانية وهى حصان «التراخنر»، وقد استولده الإمبراطور البروسى وليم الأول عام ١٧٣٢ وهو خليط من دماء ليتوانية وألمانية وعربية.

وكان وليم الأول من الخبراء فى تربية الخيول، وهو أول من أنشا سجلات منظمة لأنساب الخيل، واهتم اهتماما خاصا بمسألة تدوين التقاليد لإنشاء المزرعة والإسطبل، ويعد إسطبل مقاطعة «سيل» The State Stud Of Celle نموذجا للتقاليد العريقة التى أرساها وليم الأول منذ عام ١٧٣٥ فى إدارة الإسطبلات وتسجيل أنساب الخيل ومتابعة تطوراتها.

أما النمسا فهى تعتز بالحصان الليبيزنر Lippizaner الأشهب فخر المدرسة الإسبانية

للركوب في فيينا The Spanish Riding School of Vienna وهوحصان مدرب تدريبا عاليا لأداء حركات خاصة جدا في الاستعراضات أو في المناسبات الاحتفالية مثل التشريفة وأعياد ميلاد وجلوس الإمبراطور على العرش.

وتعود سلالة هذا الحصان إلى إسطبلات «ليبيزا Lippiza» التي أنشأها الأرشيدوق تشارلز ابن الإمبراطور فرديناند الأول، في مدينة «تريستا» الإيطالية الساحرة.

وحصان «اللابيزنر» خليط من دماء عربية وحصان «الجانيت Jannet» الإسباني والحصان «الكلادروبر Kladruber» النمساوي.

أما حصان «الشجيا Shagyas» المجري الشهير فهو نتاج خليط من الدماء المجرية والدماء العربية، وهو في الأساس اسم جواد عربي اشتراه المجريون عام ١٨٣٦ من إحدى القبائل البدوية التي كانت تربي الخيول والأغنام في المنطقة الحدودية بين تركيا وسوريا.

وفي روسيا كان عشق القياصرة للخيل مضرب الأمثال، وقد استجلبوا خيولا عربية من منطقة «تركمان» لتحسين السلالة الروسية وتمكنوا من انتخاب سلالة جديدة راقية هي حصان «آخال تيكي Akhal Teke» في إسطبلات الكونت أليكسي أورولوف والذي كان فارسا ومربيا للخيول من المعدودين، وقد اشتهر اسمه في تاريخ الفروسية بصفته صاحب طريقة «تروت أورلوف» وهي أسلوب لمشية الحصان تبرز رونقه ونغمات خطواته.

وبسبب حسن وشاعرية الحصان «آخال ـ تيكي» شيد القياصرة بالقرب من ضاحية «سان بطرسبرج» مقبرة لسلالته تزدان بالورود والرياحين، تضم مائة وعشرين حصانا وقد حفرت الأسماء وتواريخ الميلاد والوفاة على شواهد القبور.

لم تعرف فرنسا الحصان العربي جيدا سوى مع الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لمصر في أواخر القرن الثامن عشر. وقد انبهر بونابرت بجمال ورشاقة الحصان العربي واسترعى انتباهه مدى ذكاء وسرعة الحصان في التلبية أثناء الحرب.. وعندما دخل القائد الفرنسي القاهرة كان من أول الأمور التي استهوته تفقد إسطبلات أمراء المماليك الذين غادروا القاهرة وتحصنوا بالصعيد، ومنهم إسطبل مراد بك وإسطبل البرديسي بك. تخير نابليون لنفسه حصانا عربيا شديد البياض بين خيول المماليك، وكان جوادا يتدله في مشيته فخرا واعتزازا بجماله.

وعندما عاد بونابرت إلى فرنسا أخذ معه عددا من الخيول العربية الأصيلة لتطعيم الخيول الفرنسية بدمائها.. وكان النتاج الجديد أساسا لمدرسة «كادرنوار Cadre Noir» للفروسية والتي أقيمت في مدينة «سومور». وقد تأسست عام ١٨١٤ بهدف تحسين مستوى الفروسية في الجيش الفرنسي، وبها مجموعة متفردة من الخيول المدربة تدريبا راقيا على الحركات المتنوعة مثل التروت والقفز والسباق واللعب في المناسبات الاحتفالية.

ولايفوتنا ذكر تأثير الحصان العربي على الخيول الأمريكية، وهي في الأساس خليط من الجياد الهندية الأصل و«الثوروبريد» الإنجليزي، ومنذ عام ١٧٩٣ تم تطعيم هذا الخليط بدماء الحصان العربي وجاء الهجين من نوعية جيدة أطلق عليها اسم «حصان مورجان» وقد ولد بمدينة «فيرمونت» وتتحسن نوعية السلالة بمضي الزمن وتواتر الأيام.



ارتبط العرب بالخيل (من رباط ومربط) في الجاهلية والإسلام معرفة بفضلها وتشرفا بها، والحصان ركن أساسي من اعتزاز العربي بتاريخه وحاضره بل جزء من شرفه وكرامته، وأطلق العرب على الحصان عدة أسماء فهو جواد من الجودة لأنه سخي وكريم في الجري والرمح.. وهو فرس من الفروسية والنخوة والنبل، والجمع خيل لأنه يذهب بخيال الإنسان لشدة جاذبيته ولأنه يختال بجماله.

وفي كتاب «المحاسن والأضداد للجاحظ» نعرف أن أول من ركب الخيل واتخذها كان نبي الله إسماعيل بن النبي إبراهيم (عليهما السلام)، وكان النبي داود يحب الخيل حبا جما، فلم يكن يسمع بفرس «بعرق وعتق أو حسن أو جرى إلا بعث إليه حتى جمع ألف فرس».. فلما قبض الله داود عليه السلام، ورث النبي سليمان ملكه وميراثه وجلس في مقعد أبيه فقال كلمته المشهورة: «ماورثني داود مالا أحب من هذه الخيل».. وقد أحسن رعايتها والحفاظ عليها..

وكانت أجمل خيل سيدنا سليمان الحصان «زاد الراكب» ومن نسله كل خيول «بني هلال» الذين تفوقوا بين سائر العرب في إنتاج الخيل الجميلة كاملة الأوصاف سواء في البنية أو الحسن أو السلوك.

وقد اشتهر من نسل «زاد الراكب» لدى بني هلال.. «حوشية» و«بار» و«الخرز» و«الوثيمي» و«ابن الديناري» و«هجيس» ثم «أعوج» وهومن خيرة خيول العرب لرشاقته وسرعته، فلم تكن تسبقه أية خيول في ساحة الحرب.

ومن القبائل المشهورة أيضا في تربية الخيل «بني تغلبة» و«بني أسد».. وقد استنكح بني تغلبة لخيلهم من «أعوج» وانتجوا «ذا العقال» وكان جوادا عجيبا في قوته وتحمل السفر لمسافات طويلة وفي قدرته على الكر والفر وساهم في إنتاج سلالة قوية كانت مفخرة بني تغلبة على مدى التاريخ.

ويحدثنا التاريخ أيضا عن الفرس «مكتوم» وكان من فحول الخيل وملكا لغني بن أعصر وقد أنتج سلالة طيبة في جنوب الجزيرة العربية. وإذا تحدثنا عن ذكاء الخيل، فلايجب أن ننسى جياد فارس العرب «عنترة بن شداد العبسي، ومنهم «الأبجر» و«الأدهم»، والأخير كان لونه أسود مثل الليل يمرق كالسهم وسط الصحراء فيثير الخوف في قلوب الفرسان معلنا عن قدوم عنترة لساحة الوغى.

وكان الشاعر الكبير امرؤ القيس أول من شبه في الشعراء الخيل بالظبي والنعامة والسرحان (الذئب السريع) في قوله:

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

ووصف شاعر العرب النابغة الذبياني خيل «بني أسد» بقوله:

فيهم بنات «العسجدي» و «لاحق» ورق مراكلها من المضمار

والشطر الثاني من البيت يعني أن الخيل مدربة جيدا بحيث رقت مواضع ركاب الفارس وهومستوى على السرج.

وكان رسول الله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حفيا يعتز بالخيل لأقصى درجة وهو القائل «..اربطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفالها وقلدوها (أي ضعوا القلائد في رقابها) ولاتقلدوا الأوتار، وعليكم بكل كميت أغر محجل (أي البني اللون ذو الشعر الأسود والأرجل بها بياض) أو أشقر أغر محجل أو أدهم أغر محجل».

ومن خيول الرسول البديعة: «لزاز» و«ليحاف» و«المرتجز» (وسمي كذلك لحلاوة صهيله) و«السكب» وكلها معدودة من خيل بني هاشم.

ونعرف من كتب التاريخ أن «الأجدل» كان من أقوى الخيل لصاحبه أبي ذرالغفاري، كما أن اليعسوب «فرس الصحابي الزبير بن العوام» كانت من أجمل خيل العرب في الإسلام.

وفي العهد الأموي، ذاع صيت «الحرون» وكان شديد الجري له ملكة غريبة، فهو ينطلق في السباق متحديا ويسبق غيره ثم يقف وينتظر الخيل حتى تأتي للمكان الذي يقف فيه فينطلق من جديد بأقصى سرعته ليسبقها حتى تلحق به مرة أخرى. ويحكى أن القائد العباسي المهلب بن أبي صفرة رغب في شراء «الحرون» وزايد عليها مع مسلم نجل القائد أبي قتيبة حتى وصل سعر الجواد إلى «ألف دينار» ففاز بها مسلم، واحتفى «بالحرون» أيما احتفاء، ذلك أن مسلم كان من أبصر الناس بفنون ترويض ورعاية الخيل، ولقب بالسائس لمعرفته بسياستها وبعلمه الغزير في مداواة الخيل وتطبيبها.

ومن أجمل الخيول العربية الأصيلة، النوع المصري وقد كتب عنه الدكتور«كلوت بك» في كتابه «لمحة عامة إلى مصر» الصادر في أواخر القرن التاسع عشر فقال:

«للخيل في مصر أنواع عديدة منها النوع العربي الأصيل الوارد من بلاد العرب والنوع الشامي الذي تستخدمه قبائل الكرد وعنيزة والنوع الوارد من داخل آسيا وأوروبا والنوع المجلوب من دنقلة، وقد اختلطت هذه الأنواع ببعضها فكان نسلها خليطا مختلفا، على أنهم يتخذون الطلوقة من الجياد العربية الكريمة الأصل، فإن هذه الجياد إذا «نزت» على أفراس قوية، انجبت نوعا من الجياد كبيرا قويا تام الاستدارة وهو الذي يتألف منه النوع المصري الحقيقي.

فالحصان المصري أطول قامة من الجواد العربي، ورأسه أحسن وضعا من رأس الجواد العربي ورقبته أجمل منظرا وأدق استدارة وعيناه يطير منها الشرر والنشاط والحماس ومنخاره أعرض وأوسع وسوقه أدق وأصلب وأكثر أعصابا، ومشيته أدل على النبل والعزة والجلال».

وللسلطان أحمد بن طولون فضل كبير في تربية الخيول العربية بمصر وتوفير الرعاية لها وتشييد الإسطبلات الصحية وكان ابن طولون خبيرا ببيطرة الخيل وأصول التداوي، لإدراكه لمدى حساسية الخيل للأمراض. وقد أوصى بالاهتمام بنوعية الطعام وهو صاحب نظام معين للإطعام يتكون من الشعير والتبن والنخالة،



مع قليل من الفول فى فصل الشتاء لتوفير الطاقة للجواد، بالإضافة للبرسيم والعشب باستمرار.

ومن خبرة ابن طولون كتب مؤلفا عن تطبيب الخيل هو «أقرابازين الخيل»، ومن ضمن مانصح به إضافة قليل من العسل الأسود على طعام الفرس التى تلد لزيادة إدرار اللبن خلال فترة الرضاعة.

وقد بنى الإسطبلات فى «القطائع» وأمر هو وابنه خمارويه بحلبة لسباق الخيل، وقلده كل من جاءوا من بعده وتذكر المؤرخة سيدة إسماعيل كاشف فى كتابها عن تاريخ الدولة الإخشيدية، «أن الإخشيد قلد أحمد بن طولون فامر بإقامة حلبة سباق الخيل منذ سنة ٣٢٤هجرية، ويبدو أن الإخشيد شعر بعد وفاة الوزير الفضل بن جعفر ومقتل ابن رائق بأن سلطانه قد توطدت دعائمه فاطمأن باله وزاد ميله إلى التشبه بابن طولون وابنه خمارويه. وأمر بأن تكون فى بلاطه رسوم وتقاليد وقواعد للبروتوكول، وأن تكون له امتيازات لايشاركه فيها أحد من كبار رجال دولته، ومن ذلك أن يكون لسرج فرسه حلية دقيقة وزخارف خاصة لايشاركه فيها أحد، وقد اقتنى الإخشيد مجموعة كبيرة من الخيل الجميلة المدربة تدريبا رفيعا كانت من مظاهر الترف والأبهة فى بلاطه».

أما سلاطين المماليك فقد وصل تعلقهم بالخيول العربية إلى حد العشق الجنونى، ولا عجب لأنهم كانوا فرسانا وأصحاب أذواق رفيعة تشهد عليهم عمارة المساجد والقصور والأسبلة التى شيدوها.

من هؤلاء السلاطين والأمراء يأتى فى المقدمة السلطان «الناصر محمد بن قلاوون» وكان فارسا محبا لركوب الخيل وممارسة رياضة اللعب بالكرة والصولجان.. وكان بناء عظيما أقام القصور والمساجد والبيمارستانات وأصلح الطرق والجسور.

وقد امتلك السلطان قلاوون عددا كبيرا من الخيول الأصيلة التى استجلبها من «نجد» و«الإحساء» ومن «العراق» و«قطيف» و«البحرين» وقد دفع مبالغ طائلة مقابل ذلك، بل قيل إنه دفع ٦٤ ألف دينار لشراء الفرس المسماة «القرطاء».

وقد وضع السلطان نموذجا لبناء الإسطبلات السلطانية محددا عمارتها وطريقة البناء وتوزيع المبانى. والمقصود بالإسطبل عند «قلاوون» ومن جاء من بعده من سلاطين وأمراء المماليك (البحرية والبرجية) مجموعة من مبانى لأجل سكن السلطان أو الأمير هو وأسرته ومماليكه وخيوله.. فكان الإسطبل يشمل مقر السكن وبيوتا لمماليكه وإسطبلات لخيوله ومخازن لمؤنها وحفظ سروجها والإسطبل السلطانى بالقلعة مكانه اليوم مجموعة المبانى التى كانت مخازن الجيش بالقلعة الواقعة على يمين الداخل من باب العزب الذى كان يسمى قديما باب الإسطبل وفى المساحة الممتدة بين جامع أحمد أغاقبوجى إلى نهاية الورش القديمة فى جهاتها الغربية والقبلية والشرقية.

ومن أهم الإسطبلات التى أقامها السلطان قلاوون، إسطبل «ميدان المهارى» وإسطبل«ميدان سرياقوس» بالإضافة لثلاث حلبات للسباق وكثيرا ماكان السلطان يتواجد بنفسه بين الإسطبلات لمتابعة ميلاد مهر أو مراجعة سجلات الأنساب أو لمشاهدة «المرماح» أى سباق الخيل عند المماليك.

وعلى الرغم من الطباع الشرسة للسلطان «برقوق» إلا أنه كان صاحب ذوق رفيع محبا للجمال ويشهد على ذلك روعة



وفخامة عمارة مسجده بالقرافة الشرقية بمدينة القاهرة.

وقد اقتنى السلطان برقوق مايربو على السبعة آلاف حصان عربى أصيل، وهو الذى أنشأ سوق الخيل بالرميلة وسوقا للسروجية وأخرى للمهمازيين واللجامين، وذلك بالمنطقة الواقعة بميدان صلاح الدين حاليا، وبالتحديد بين مدرسة السلطان حسن وبين باب قلعة الجبل الغربى (باب العزب) وما فى امتداده إلى الجنوب من سور القلعة بطول حوالى مائة متر ومنه إلى مدخل شارع السيدة عائشة. وكان برقوق شغوفا بالأبهة والفخامة، واهتم بصنعة السروج من الجوخ المشغول بخيوط الذهب، وكان يصنع ركابات سرجه الخاص من الفضة الخالصة.

ومن أمراء المماليك الذين افتتنوا بالخيل «الألفى بك» . فمن شدة حبه لها كان يترك أموره وأعماله وينطلق إلى صحراء مديرية الشرقية ويغيب شهرا أو أكثر سعيا وراء الخيل الأصيلة التى اشتهر بتربيتها عربان الشرقية ومنهم الطحاوية، وكان الألفى بك يعيش بينهم كما يحيا البدو بل تزوج امرأة بدوية كان يترك لديها جواده المفضل لترعاه عند غيابه.

وكان الألفى فاهما للغة الخيل ويتحدث معها، وكانت الخيل تسير إليه عندما تراه مقبلا عليها، وقد عرف بشدته مع السائسين فى إسطبلاته، يدخل عليهم بعد صلاة الفجر ليخرجوا الخيل إلى الهواء الطلق ويقف بنفسه على نظافة الإسطبلات وطومار الخيل (أى تنظيفها)، ويلاحظ تحضير «العليقة» ويأمر بتريض الجياد ويتابع المريض منها، وعرف عنه حب ركوب الخيل بدون سرج، وقد أخذ زوجين من جياده معه عندما نفى إلى إنجلترا.

وفى العصر الحديث، فإن طوسون باشا نجل محمد على باشا الكبير اكتشف ولع ابنه عباس وتعلقه بالخيل أثناء مصاحبته له خلال الحملة العسكرية المصرية فى الحجاز ضد الوهابيين. وقد صارت صداقة قوية أساسها حب الخيل بين عباس وابن سعود وأهدى الأخيرفرسا عربية لعباس عربونا للصداقة، ودفع عباس لابن سعود سبعة آلاف جنيه ذهبى لشراء فرس أخرى «جلابية» وفيما بعد أمر مملوكه الخاص جمال الدين بك الشماشرجى الملقب بـ«اللالا» بأن يمسح كل شبر فى الجزيرة العربية بحثا عن أجمل الخيول ويشتريها لتأسيس



الإسطبل الخديوى فى مصر. وتمكن جمال الدين بك من شراء أجمل فرسات قبيلة عنيزة وهى من رسن صقلاوى النادر.

وقد وضع عباس باشا ومن بعده نجله إلهامى باشا البداية الحقيقية للإسطبلات الملكية المصرية للخيول العربية الأصيلة، ولاينسى فضل النبيل عمرطوسون فى إنشاء السجلات المصرية الدقيقة لأنساب خيول الجمعية والتى انتظمت أصول السلالة المصرية حتى الآن. وقد تحول اسم الجمعية بعد ثورة ٢٣ يوليو وزوال الملكية إلى الهيئة الزراعية المصرية الحكومية وتضم حوالى أربعمائة حصان وتشرف على سير العمل فيما يقرب من ١٦٣ مزرعة خاصة ملك أفراد لتربية الخيول العربية.

وتحتفظ الهيئة المصرية بنخبة فريدة من الطلائق الكاملة الأوصاف غير الموجودة فى أى مزرعة أخرى فى العالم. ومن نجوم هذه النخبة، الحصان «العدل بن أخناتون» وهو أشهب، ولايقل ثمنه عن خمسة ملايين من الدولارات، وهناك أيضا«عمير» وهو أشقر، ثم «سراج الدين» و «جادالله» و«سنبل» وكلها لاتقدر بمال ولايسمح ببيعها باعتبارها ثروة قومية.

ومن الخيول المصرية المرتفعة الثمن الحصان «سكر معقود» ولايقل ثمنه عن ثلاثة ملايين جنيه وتملكه السيدة وجدان البربرى وهى من أقدم وأشهرمربى الخيول العربية على مستوى العالم.

ولعل الحصان «أسوان» يحوز شهرة خاصة وصيتا ذائعا، فقد أهداه الزعيم الراحل جمال عبدالناصر إلى نيكيتا خروشوف سكرتير عام الحزب الشيوعى السوفيتى فى حقبة الستينيات، إعرابا عن امتنان الشعب المصرى للمساعدة التى قدمها السوفييت لمصر فى بناء السد العالى.

وقد وضع الحصان «أسوان» فى إسطبل خاص بمزرعة «تيرسك» الحكومية فى مقاطعة «ستافروبول» بجنوب روسيا، وكان فاتحة خير على الخزانة الروسية لأن سلالته بلغت ٣٥٠ حصانا أصيلا بيعت بملايين الدولارات، وأشهر أولاده المهر «بيلينج» الذى بيع لشركة «كوايتكس ترويترس الفنلندية» بمبلغ ٢,٥ مليون دولار.

وقد وقعت حادثة طريفة عندما سافرت البعثة الحكومية المصرية لتسليم الجواد «أسوان» هدية الرئيس عبدالناصر إلى الاتحاد السوفيتى، فقد تكونت من وكيل وزارة الزراعة والأستاذ عبدالوهاب عبدالنبى كبير مربى مدرسة الفروسية ثم عم «عبدالقادر» سائس الحصان «أسوان»، وكان أكبر أعضاء البعثة سنا مع تميزه بالطول الفارع. وكانت وزارة الزراعة قد ارتأت أن يرتدى عم عبدالقادر لباسا يتكون من بنطلون كاكى وجاكيت أخضر موشى بخيوط وأزرار ذهبية. وعندما وصلت البعثة إلى الميناء الروسى استقبل الحصان «أسوان» استقبالا رئاسيا فقد اكتست أرض الميناء بالسجاد الأحمر وعزفت الموسيقى.

وعندما أطل الحصان «أسوان» وعم عبدالقادر ممسك بلجامه تصور السوفييت لأول وهلة أن عم عبدالقادر جنرال فى الجيش المصرى أتى خصيصا لرئاسة البعثة وتسليم الحصان، فقوبل على الفور بترحاب شديد وأركبوه السيارة التى أرسلها خروشوف لرئاسة البعثة وأعطيت له أجمل غرفة فى الفندق، وفى اليوم التالى اتضحت الحقيقة لموظف البروتوكول فتم تنزيل مستوى «عم عبدالقادر» على الفور وأعطيت له غرفة بجوار صديقه «أسوان» فى الإسطبل.. ولكن عاش عم عبدالقادر طيلة حياته وهويترحم فى سعادة على العز والأبهة التى أسبغتها عليه علاقته بالحصان «أسوان» ذلك الجواد العربى الأصيل. ■

هل تؤدى العولمة إلى صدام الحضارات؟

حوار في دافوس حول الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية

أحمد كمال أبو المجد

الحوار بين الحضارات لا يمكن أن يؤدى وظيفته التاريخية إلا إذا تمت ممارسته في إطار ثلاثة مبادئ: عدم محاولة إقناع الآخرين بالتخلى عن انتمائهم الحضارى وخصوصيتهم الثقافية، والتسليم بأن التعددية الثقافية جزء من نظام الكون وسنة من سننه، والتوجه إلى البحث عن القاسم المشترك بين الحضارات سعيا إلى وضع برنامج عمل موحد يتحقق به الاعتماد المتبادل

الحوار بين أبناء الحضارات المختلفة واقع موضوعى قائم منذ قرون طويلة وليس بدعة مستحدثة خلال السنوات العشرين الأخيرة كما يتصور بعض الناس، إلا أن بواعث الاهتمام به والدعوة إليه قد اختلفت لاختلاف الأوضاع السياسية والاقتصادية التى تحيط به فى هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإنسانى، حيث تدخل العلاقات بين الناس والشعوب عهدًا جديدًا لاتزال معالمه فى طور التشكل والتكوين.

وقد أتيح لكاتب هذه السطور أن يشارك مستمعًا أحيانا، ومتحدثا وباحثًا أحيانًا أخرى، فى عشرات الندوات والمؤتمرات التى عقدت على المستويين الإقليمى والدولى خلال العشرين سنة الأخيرة.. وكان آخر هذه الندوات الندوة المهمة التى عقدت يومى ٣١ يناير وأول فبراير من هذا العام فى منتجع دافوس على قمة الجبل قريبًا من مدينة زيوريخ بسويسرا، وهى ندوة ضمت عدة لقاءات، شارك فيها رؤساء عدة دول غربية وإسلامية، وكان لى شرف المشاركة فيها - ممثلا لمصر - مما أتاح لى إدارة حوارات عديدة مع عدد من الباحثين المتخصصين وراسمى السياسات فى الدول الغربية (الأوروبية).

وقد دار الجزء الأكبر من الحوار فى غرف مغلقة، وبأسلوب وتنظيم بعيدين تماما عن الشكليات، مع حرص على أن يكون الحديث تلقائيا، وأن يتخذ اللقاء شكل الحوار الحقيقى.. وقد شارك فيه عدد من رؤساء الدول وكبار الساسة وعلى رأسهم رؤساء إيطاليا وألمانيا وفنلندا وأندونيسيا ورئيس وزراء إسرائيل السابق شيمون بيريز، وممثل بابا الفاتيكان الكاردينال أرنيزو.

وفى هذا السياق، بدا لى أن أعرض بعض ما تكشف لى خلال هذه الحوارات على جمهور قرائنا فى مصر، وعلى امتداد العالمين العربى والإسلامى.

مقدمات ضرورية:

إن الحوار بين الأمم والشعوب لم ينقطع يومًا، منذ تكونت الجماعات الإنسانية الأولى فى صورة قبائل وعشائر، ثم حين قامت الدولة الحديثة بأركانها ومعالمها المعروفة فى علمى السياسة والقانون.. وزادت أهمية هذا الحوار وتجلت آثاره المختلفة فى تبادل التأثير والتأثر بين الحضارات المختلفة حين تحددت ملامح الثقافات المختلفة باطرها المرجعية المتباينة، وبانظمتها المعرفية والقيمية التى تمنح كلا منها خصوصيتها المتميزة.. وفى خصوص العلاقة بين الحضارتين «الغربية» و«الإسلامية»، يعرف مؤرخو الحضارات أن العرب قد قاموا بترجمة عديد من كتب الثقافة اليونانية القديمة، فحافظوا بذلك عليها، ثم نقلوها إلى عديد من الدول الأوروبية، مساهمين بذلك فى تكوين ما نسميه اليوم «الحضارة الغربية».. ويعرف أولئك المؤرخون كذلك مدى تأثير ذلك الفكر العربى الإسلامى على تطور كثير من روافد الثقافة الغربية فى ميادين الأدب والفلسفة وفى ميدان العلوم الرياضية، وعلمى الطبيعة والطب.. مما نستطيع معه أن نقرر أن ثقافة عصر النهضة الأوروبية لم تكن ثقافة غربية خالصة، وإنما كانت تضم تأثيرات عربية وإسلامية سجلها ووثقها كثيرون من دارسى الحضارات ومؤرخيها.. حسبنا أن نشير منهم إلى ما سجلته العالمة الألمانية الشهيرة سيجريد هونكه فى كتابها «شمس الإسلام تشرق على الغرب».

على أن الاهتمام بموضوع «الحوار بين الحضارات» والدعوة النشطة إلى ممارسته قد دخلا مرحلة جديدة فى أعقاب ظاهرتين.. إحداهما «عالمية» تتجاوز حدود العلاقة الخاصة بين الثقافتين الإسلامية والغربية، والأخرى خاصة بالعلاقة المتميزة بين هاتين الحضارتين:

أما الظاهرة الأولى، فهى ظاهرة الاتجاه المطرد الذى تتسارع خطاه نحو «العولمة» أو الكوكبة بصورها ومجالاتها المختلفة، وهو اتجاه أدى إليه سقوط الحواجز المكانية والزمانية التى كانت تفصل الحضارات بعضها عن بعض، وتعزل التجارب الإنسانية المحلية عن تجارب الآخرين، وتحول دون التواصل معهم..

والعولمة حقيقة واقعة حين تفهم على أنها التقارب الحتمى بين النظم والتجارب الإنسانية تقاربًا صنعه سقوط الحواجز، وهو السقوط الذى أدى إليه التقدم العلمى الهائل فى وسائل وفنون الاتصال وتبادل المعلومات، وسهولة انتقال الأشخاص والسلع والخدمات من مكان إلى مكان.

ولكن هذا الاقتراب الواقعى ليس قادرًا على أن يخلق - بذاته ومن تلقاء نفسه - واقعًا إنسانيًا جديدًا أفضل من كل ما كان قبله، وإنما يتوقف الأمر فى النهاية على ما نفعله جميعا فى توجيه هذا التقارب، وما نقيمه لأنفسنا من نظم وهياكل للعلاقات بين الشعوب فى إطار هذا الواقع الجديد.

ومن الأمانة العلمية والصراحة الضرورية، أن نقرر أن السنوات الأخيرة قد شهدت - ولاتزال تشهد - محاولات بالغة النشاط من جانب قوى سياسية واقتصادية كبرى لتوجيه هذا الواقع الجديد، وجهة تخدم مصالحها وحدها، دون التفات لمصالح الآخرين وحقوقهم.

ولعل محاولات تنظيم التجارة العالمية تنظيمًا يتيح أكبر قدر من حرية الحركة والانتقال للسلع والخدمات عبر حدود الدول والقارات، قد كشفت لنا جميعا عن هذه الحقيقة التى آن أوان الانتباه إليها حتى لا يؤدى تجاهلها إلى إطلاق شرارة جديدة لصراعات اقتصادية لم تكن فى الحسبان بين القادرين على المنافسة وغير القادرين عليها، أو بين الأقوياء اقتصاديًا والضعفاء، وهى صراعات يمكن أن تتحول فى مراحل تالية إلى صور أشد حدة تفقد النظام الاقتصادى العالمى الجديد ميزته المنشودة فى تحقيق السلام الشامل بين المتنافسين فى أسواق الاقتصاد والتجارة وتقديم الخدمات..

إن الانتباه المفاجئ إلى هذه الحقائق، هو الذى يفسر المظاهرات الصاخبة التى قامت منذ أسابيع فى سياتل عاصمة ولاية واشنطن الأمريكية، وتلك التى قامت فى منتجع دافوس بسويسرا خلال الاجتماع السنوى للمنتدى الاقتصادى العالمى.. تعبيرًا عن احتجاج الضعفاء و«المهمشين» على انفراد الأقوياء والأغنياء بوضع قواعد النظام الاقتصادى العالمى الجديد.

إن آليات السوق فى النظام الاقتصادى الحر الذى صاحب ظاهرة «العولمة»، والذى اتجهت إليه الأغلبية العظمى من دول العالم، استجابة للرغبة فى الاندماج Integration فى النظام العالمى، هذه الآليات قادرة بحق على إعادة التوازن إلى كثير من صور العلاقات الاقتصادية والتجارية، ولكنها - مع ذلك - ليست وصفة سحرية قادرة بذاتها على تحقيق جميع صور التوازن الاجتماعى، وتحقيق قيم العدل والمساواة، وهما قيمتان إنسانيتان عالميتان، مستقرتان فى الضمير

البشري ولا تتوقفان على اتباع نظام اقتصادي معين.

وبعبارة واضحة، فإن آليات السوق التي كثر الحديث عنها والإشادة بدورها لا يمكن أن تكون بديلاً يحل محل الجهود الإنسانية المتميزة عبر التاريخ لتحقيق هاتين القيمتين. ولذلك تظل الحاجة قائمة إلى منظومة أخلاقية تحرس النشاط الاقتصادي وتمنع كل صور العدوان على حقوق الآخرين ومصالحهم. وفي ظل «العولمة» التي تفرض نفسها يوماً بعد يوم، تظهر الحاجة إلى «قيم أخلاقية مشتركة» يتوافق عليها أتباع الحضارات المختلفة، وهو ما يجعل الحوار بين الحضارات مدخلاً طبيعيًا وضروريا لتحقيق هذا التوافق.

ب - أما الظاهرة الثانية، فهي ما روج له بعض الكتاب والباحثين من توقع الصدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية، والواقع أن المقدمة الأولى لهذه الظاهرة قد جاءت مع ما ذهب إليه فرانسيس فوكوياما من أن التاريخ السياسي والاجتماعي قد بلغ نهايته بانتصار الحضارة الغربية ونموذجها المعاصر الذي تمثله أوروبا والولايات المتحدة.. وفكرة نهاية التاريخ هذه فكرة لا تثبت علميًا عند المناقشة، وهي مناقضة لما ذهب إليه ابن خلدون قديمًا، وما قال به أزوالد اشبنجلر حديثا، من أن الحضارات لها دورات كدورات الكائنات الحية، تبدأ بالميلاد فالطفولة فالشباب، وتنتهي بالكهولة والشيخوخة..ولا نريد هنا - والحديث أساسًا عما جرى في داڤوس من أحاديث ومناقشات حول العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية - لا نريد أن نعترض سياق هذا الحديث بدراسات نقدية للنظريات المختلفة في فهم التاريخ وتفسير مساراته.. وإنما حسبنا أن نقرر خطأ النتيجة التي انتهى إليها فوكوياما، والتي لا نرى فيها إلا تعبيرًا عن الانحياز الجارف للحضارة الغربية، والانبهار الشديد بما حققته تلك الحضارة من انتصار سياسي وعسكري واقتصادي على حضارة معاصرة أو نظم سياسية واقتصادية كانت تستند إلى فكر فلسفي مناقض ومخالف.. وقد نسي فوكوياما أن الساحة المعاصرة تضم حضارات وثقافات أخرى غير أطراف الصراع الدولي الذي استمر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى سقوط المعسكر الشيوعي في أوائل التسعينيات من القرن الماضي.

أما الترويج للصدام المتوقع أو «الحتمي» بين الحضارتين الغربية والإسلامية، فقد اشتد الاهتمام به منذ كتب صمويل هانتنجتون مقاله الشهير في مجلة «الشئون الخارجية Foreign Affaires»، ثم بعد أن أصدر كتابه الذي يحمل ذات العنوان. ونظرية هانتنجتون وإن لم تخل من جانب من الحقيقة، إلا أنها تسرف إسرافًا شديدًا في توقع «هذا الصراع» وتكاد تقول بحتميته.. فضلاً عن أنها تقوم على افتراضين لا دليل عليهما:

أولهما: وجود تناقض أساسي لا سبيل إلى رفعه بين مضمون الحضارتين والقيم الأساسية المسيطرة على كل منهما.. مع تجاهل عناصر التشابه والاشتراك التي تسمح بقيام صور عديدة من التعاون بين أتباعهما.

الثاني: افتراض أن «اختلاف» مضمون كل من الحضارتين، وقيمهما العليا لا يمكن أن يصفى إلا من خلال الصراع والتصادم.. مع أن كثيرًا من «الخلافات» الثقافية والأيديولوجية، بل السياسية والاقتصادية قد جرت تسويتها تاريخيًا من خلال اتفاقات على التعايش، أو من خلال علاقات أخذ وعطاء.. تبادلت فيها الأطراف المختلفة التأثر والتأثير.

وسنعود إلى بيان تصورنا لمستقبل العلاقة بين هاتين الحضارتين في الجزء الأخير من هذه الدراسة، وإنما نشير في هذا السياق إلى ما انتهى إليه باحث غربي معاصر تميزت كتاباته في هذه القضية، بقدر كبير من الموضوعية والفهم السليم لروح كل من الحضارتين، وهو الأستاذ جون اسبوسيتو - الأستاذ بجامعة جورجيتاون - ومؤلف كتاب من أهم ما كتبه الغربيون في هذه القضية هو كتاب «الخطر الإسلامي، وهم أم حقيقة» "The Islamic Threat, Myth or Realty"، وانتهى فيه إلى التسليم بوجود اختلافات مهمة بين الحضارتين، ولكنه نفى نفيًا قاطعًا أن تكون الحضارة الإسلامية معبرة عن «تهديد Threat» للحضارة الغربية ولطرق المعيشة في إطارها.. كما ذهب إلى أن المواجهة بين الحضارتين إنما تشكل تحديًا Challenge لكلٍّ منهما، وأن نتيجة هذا التحدي سوف تتمثل - في تقديره - في استفادة كل من الحضارتين من الأخرى، وفي التقاء أتباعهما على خير ما في كلٍّ منهما.

ويقتضي فهم أصحاب كل حضارة للحضارات الأخرى، ملاحظة أمرين أساسيين تشترك فيهما الحضارات كلها:

الأمر الأول: أن تاريخ كل حضارة إنسانية يسجل صورًا عديدة من المفارقة والتفاوت بين «المفاهيم النظرية الأساسية للحضارة» والسلوك العملي لأتباع تلك الحضارة.. وهي مفارقات تفسرها أسباب مجتمعية مختلفة.. تتمثل فيما تتعرض له الشعوب من ضغوط وما تواجهه في تاريخها من مؤثرات داخلية أو وافدة.. ومن ثم ينبغي عند الدراسة المقارنة للحضارات المختلفة التمييز دائمًا بين مستوى الأفكار والمبادئ Conceptual Level، ومستوى السلوك العملي للناس من أتباع تلك المبادئ المعلنة، وهو ما نسميه المستوى المجتمعي Societal Level.

الأمر الثاني: أن الحضارات المعاصرة جميعها ليست في حالة سكون أو جمود عند حالة نهائية ثابتة، وإنما هي جميعًا في حالة حركة وتطور.. ولابد - من أجل ذلك - من ملاحظة هذه الحركة ورصد اتجاهاتها.. وتصور مستقبلها في ظل هذه الحركة.. وبغير هذا يقع المتحاورون في أخطاء فادحة قد تؤدي إلى استحالة التفاهم والتعاون بينهم.. وما أظن أحدًا يجادل في أننا نحن «العرب والمسلمين» نمارس عملية تأمل داخلي، ونقد ذاتي، وتحليل موضوعي لأوضاعنا ومشكلاتنا وطرق سلوكنا. وأن كثيرًا من موروثاتنا وتقاليدنا توضع من جديد على محك التحليل والتقييم، وأننا صرنا أكثر وعيًا بدور المؤثرات الخارجية على أوضاعنا الداخلية، وأن الآراء التي تقدم لنا وللآخرين عن حضارتنا وعن موقفها من عديد من القضايا المعاصرة، قد صارت تطرح في أطر جديدة دعا إليها «تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال» على حد تعبير الفقهاء وعلماء الأصول.

كذلك لاشك في أن ما نطلق عليه، تعميمًا وتبسيطًا وصف «الحضارة الغربية»، يتعرض لهزات عديدة، ومراجعات متنوعة، وأن تيارها الأساسي تحيط به تيارات جانبية أو هامشية عديدة.. وأن الغرب بدوره يمارس عمليات معقدة من عمليات المراجعة وإعادة التأمل..

ولما كانت كثير من أسباب هذه المراجعات هي ذات الأسباب التي دعت إلى مراجعات مماثلة في حضارتنا العربية والإسلامية، فإنه لا يبدو بعيدًا أن تسفر المراجعات عن توسيع مساحات الاتفاق.. وتضييق مواضع التناقض والاختلاف.. وهو ما يزيد الحاجة إلى تنشيط الحوار.

نحو منهج سليم للحوار:

إن الحوار بين الحضارات لا يمكن أن يؤدي وظيفته التاريخية في إثراء التجارب الإنسانية، وفي الاستفادة من الخبرات المتنوعة للشعوب إلا إذا تمت ممارسته في إطار منهج سليم يوافق عليه ويرتضيه أطراف ذلك الحوار، وأهم عناصر هذا المنهج - في تقديري - أمور ثلاثة:

أولها: الاتفاق على أن الغرض من وراء الحوار ليس إقناع الآخرين بالتخلي عن انتمائهم الحضاري وخصوصيتهم الثقافية، والدخول في حضارة أخرى مهما كان لها في لحظة تاريخية معينة من تفوق وانتشار.. إن الدعوة إلى التخلي عن الانتماء الحضاري لا تعدو أن تكون استثمارًا لأوضاع سياسية أو اقتصادية قائمة سعيًا إلى فرضه هيمنة ثقافية لا تقل في آثارها السلبية عن الهيمنة السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية.. وفي تقديري أن التقصير أو التردد في الإعلان عن الالتزام المطلق بهذه القاعدة الأساسية مسئول إلى حد كبير عن إعراض الكثيرين عن المشاركة في هذا الحوار، واتخاذهم - بدلا من ذلك - مواقف دفاعية رافضة للتبادل الحر الفعال في ميادين الفكر والثقافة والنظم الاجتماعية والاقتصادية..

وثانيها: التسليم بأن التعددية الثقافية جزء من نظام الكون وسنة من السنن التي أودعها الله في مجتمعات البشر، وأن السعي للقفز عليها والابتعاد عنها عن طريق استبعاد الآخرين أو تهميش دورهم، إنما هو حركة ضد التاريخ وضد السنن الثابتة في الكون وفي مجتمعات الناس.

وهذا الإيمان بالتعددية لابد أن يصاحبه ويتممه إدراك لحقيقة أخرى مؤداها أن الحكمة موزعة بين خلق الله، وأن البناء الإنساني الجديد لا يمكن أبدًا أن يكون احتكارًا لشعب واحد أو أمة واحدة.. وقد لا يعرف البعض أن حضارتنا العربية الإسلامية وهي - تاريخيًا وموضوعيًا - إحدى الحضارات الإنسانية الكبرى التي ينتمي إليها اليوم ما يزيد على ألف مليون من البشر، هذه الحضارة قد قامت من يومها الأول على أساس الإيمان بالتعددية، والاعتقاد بأن التنوع والاختلاف مصدر أساسي من مصادر الغنى الحضاري، ومحرك أساسي من محركات التبادل الثقافي والمنافسة الإنسانية البناءة.

وفي القرآن الكريم - كتابنا المقدس - إشارة صريحة لا تحتمل سوء التفسير لهذه الحقيقة حيث يقول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً ولكن ليبلوكُم فيما آتاكم فاستَبِقوا الخَيرات﴾.. وهكذا جعل هذا النص الكريم من التنوع والاختلاف دافعًا للمنافسة، ومحركًا للتسابق على طريق الخير والعمل النافع.

وثالث هذه المبادئ: التوجه إلى البحث عن المشترك الجامع بين الحضارات المعاصرة، ذلك أنه إذا كان الحرص الشديد على تثبيت الانتماء الثقافي، والدفاع المستميت عن «الخصوصيات الثقافية» أمورًا مفهومة ومشروعة تمامًا في عصر الغزوات والحروب ومحاولات الاستئصال الثقافي، فإن طبيعة المرحلة التي يجري فيها الحوار المعاصر بين الحضارات والتي يميزها وعي متزايد بالأخطار المشتركة التي تهدد مستقبل جميع الشعوب، ووعي مواكب له بالحاجة إلى إيجاد «أنساق سلوكية» تحتكم إليها تلك الشعوب عند الاختلاف.. كل ذلك قد صار يتطلب توجه الجهد الأكبر نحو البحث عن القواسم المشتركة، والمصالح المشتركة سعيًا إلى وضع برنامج عمل موحد يتحقق به الاعتماد المتبادل، والمشاركة المتساوية لأبناء الحضارات المختلفة..

وفي إطار هذا المنهج، كان من الضروري أن نذكّر المشاركين في ندوة داڤوس بأنه إذا كان التعرف على حضارة الآخر وفهم منطلقاتها الأساسية، هو أول شرط للحوار الصحيح بين الحضارات، وإذا كنا من جانبنا نمارس هذه المحاولة الشجاعة في حرص كامل على الموضوعية وطلب الفهم الصحيح، فإن من واجبنا أن نذكر مفكري الغرب وباحثيهم وساستهم - بكل التواضع - بأن عليهم من جانبهم واجبًا مماثلاً في التعرف الصادق على حقيقة الحضارة العربية والإسلامية.. وفي رفض التصوير الظالم لحضارتنا بأنها حضارة عزلة وجمود وعنف وعدوان على الآخرين.. وهو تصوير يفتقر إلى أبسط مظاهر الموضوعية والدقة العلمية ولكنه قادر - إذا ترك دون تصويب حاسم وسريع - على تسميم الآبار التي سوف نشرب منها جميعًا مع مطلع القرن الجديد، وعلى خلق حاجز مصطنع بين شعوب تنتمي إلى أكبر حضارتين معاصرتين، وأكثرها تأثيرًا على مستقبل المسيرة الإنسانية المشتركة، وهي تعبر بوابة القرن الجديد.. إن هذا التصور الظالم للحضارة العربية الإسلامية يقوم على انتقاء غير موضوعي للظواهر، مركزًا الأضواء كلها على عدد من الظواهر العارضة أو الجزئية، وبعض التيارات الفكرية والسياسية الهامشية، مصورًا إياها على أنها المعبر الشرعي والوحيد عن الحضارة العربية الإسلامية..

إن على مفكري الغرب وساسته أن يذكروا أن الأزمات السياسية والاقتصادية التي تتعرض لها الشعوب المعاصرة قد أفرزت تيارًا نسميه بمنطق التاريخ العربي الإسلامي تيار الخوارج.. وهم جماعة قديمة، لها في عالمنا المعاصر أشباه كثيرة، خرجوا بفكرهم ونشاطهم عن التيار العريض للجماعة، محاولين هدم ذلك التيار ونقض أسسه الكبرى..

ونعلم جميعًا أن ظاهرة التطرف التي يؤثر البعض أن يسميها الأصولية قد أصبحت ظاهرة عالمية، وأنها نشأت نشأة مستقلة داخل الحضارات المعاصرة، وداخل الفكر الديني المعاصر بصفة خاصة.. ونعلم جميعًا كم تعاني المجتمعات الغربية وكم يعاني الفكر الديني في المسيحية وفي اليهودية على السواء من آثار هذا الفكر الشكلي الحرفي المتشدد الذي ينمو وينتعش في أجواء الإحباط أو الظلم وفي ظل التغيرات الحادة والسريعة التي تنتاب المجتمعات في فترات التحول التاريخي..

والراسخون في العلم، في الجامعات ومراكز البحث العلمي الصحيح في الغرب وفي الشرق على السواء، يعرفون حق المعرفة أن التيار الواسع العريض للحضارة العربية الإسلامية كان - ولايزال - إلى هذا اليوم تيارًا إنساني النظرة، عقلاني البحث، واسع الصدر، مؤمنًا أشد الإيمان بالتعددية الثقافية وممارسًا لهذا الإيمان من خلال فضيلتي التسامح والسماحة، وهما كلمتان عربيتان

ظاهرة التطرف التى يؤثر البعض أن يسميها «الأصولية» أصبحت ظاهرة عالمية داخل الحضارات المعاصرة، وداخل الفكر الدينى المعاصر.. تعانى منها المجتمعات الغربية والفكر الدينى المسيحى واليهودى على السواء.. والراسخون فى العلم يعرفون حق المعرفة أن التيار الواسع للحضارة الإسلامية تيار إنسانى واسع الصدر مؤمن بالتعددية..

خطر الإرهاب وخطر استخدام أسلحة الدمار الشامل من الأخطار الجسيمة التى يجب أن يتوجه الحوار القائم إلى تجنبها والتوصل إلى صيغة للتعايش بين الشعوب تضع نهاية للحروب التى سادت القرن الذى ودعناه، وتفتح عهدا جديدا لثقافة السلام

فاعلية الدور الذى يمكن أن تؤديه الأديان فى المستقبل القريب والبعيد تظل موقوفة على قدرة المتحدثين باسم هذه الأديان على إعادة النظر فى خطابهم الدينى بحيث يغدو أكثر تجاوبا مع الهموم الجديدة للأفراد والشعوب وأوثق صلة بالواقع الذى تعيشه تلك الشعوب

تعبيران عن مقابلهما الإنجليزى والفرنسى Tolerence, Toleration.. والراسخون فى العلم فى الغرب والشرق يشهدون بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت - ولاتزال - شديدة الاهتمام بالعلم حريصة على طلب المعرفة، تدعو بلسان أول وحى أوحى إلى النبى العربى محمد عليه الصلاة والسلام أن ﴿اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم﴾ وأنها حضارة تحترم إنسانية الإنسان وتصون حياته وعرضه وماله.. وهو احترام ردده وأعلنه هذا النبى العربى فى آخر كلماته إلى الناس قائلا لهم: «أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى يوم القيامة».

موضوعات الحوار:

كان من الضرورى بعد هذه المقدمات كلها أن نقدم للمشاركين فى مؤتمر دافوس قائمة سريعة بأهم الموضوعات التى يمكن أن يدور حولها الحوار فى مرحلته الراهنة، وكان على رأس هذه القائمة الأمور الخمسة الآتية:

١ - أن من أول ما نحتاج إلى تذكره والانتباه إليه، والعمل على تحقيقه، الحرص على إقامة العدل وتحقيق المساواة، داخل الجماعات السياسية القطرية، وفى العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدول.

إن قضية التنمية وتعظيم الثروة لايجوز بحال أن تشغلنا عن السعى الدءوب لتحقيق العدل، فالعدل قيمة إنسانية كبرى لايجوز أن تحتكر الدعوة إليها والاهتمام بها مدرسة فكرية أو سياسية واحدة..

ومن الخلط الشديد فى الفهم أن يرى البعض فى تحول أكثر الدول إلى نظام اقتصادى حر يشجع المنافسة ويعتمد فى تحقيق التنمية الشاملة على مبادرات الأفراد والمؤسسات الخاصة.. مايصرف الأفكار عن قيم العدل وتكافؤ الفرص.. إن مشكلة الفقر الذى لايزال شبحه يخيم على عشرات الملايين من البشر فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.. ينبغى أن تحتل مكان الصدارة بين موضوعات الحوار الدائر بين الحضارات المعاصرة، وعلينا أن نتذكر بعد ذلك أن استمرار الفوارق الهائلة بين المستويات الاقتصادية للأفراد والشعوب يهدد السلام الاجتماعى الداخلى والدولى تهديدا مباشرا وينذر بسلسلة من الأزمات، ويفجر ألوانا من الصراع لاينبغى أن يكون لها موضع فى حضارة الحوار..

٢ - وإذا كان من أهداف الحوار القائم التوصل إلى صيغة لتعايش الشعوب تضع نهاية للحروب التى امتلأ بها القرن الذى ودعناه، وتفتح عهدا جديدا من العلاقات تسوده ثقافة السلام والتعايش الآمن بين الشعوب.. فإن هذا الهدف النبيل يهدده فى واقعنا الداخلى والدولى خطران جسيمان:

أولهما: خطر الإرهاب الذى تمارسه فى عشوائية غير مسبوقة جماعات منحرفة الفكر مجردة من المسئولية، لاتلقى بالا لحرمة الدماء والأنفس والأموال.. ولقد عبر كثير من المفكرين والساسة ورؤساء الدول فى مناسبات سابقة عديدة عن ضرورة التعاون الدولى لمقاومة الإرهاب العشوائى الذى استشرى خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضى، والذى بات ينشر القلق والفزع، وينزع الأمن والاطمئنان ويهدد مسيرة التنمية فى العديد من البلدان، ولقد أثبتت الأيام أن خطر الإرهاب الذى يهدد الحضارة الإنسانية فى صميمها لايزال قائما ومستشريا مع بدايات القرن الجديد..

أما الخطر الثانى: فهو تهديد الحياة كلها باستخدام أسلحة الدمار الشامل القادر على عبور القارات، وعلى إصابة عشرات الملايين من الأبرياء والمدنيين.. ولقد سارعت مصر من جانبها إلى الانضمام المبكر لاتفاقية حظر الأسلحة النووية، حرصا على تطابق الأعمال مع الأقوال، وحثا للدول التى لاتزال مترددة فى الانضمام لتلك الاتفاقية على تغيير موقفها، والانضمام إلى كتيبة الحريصين على السلام، ولكن بعض هذه الدول ومنها دول مجاورة لمصر ترفض الاعتماد فى تحقيق أمنها على النظام الدولى، وعلى القرارات الدولية الصادرة من مؤسسات ذلك النظام، مؤثرة أن تأخذ القانون فى يدها، وأن تعتمد على الردع الذى تحققه لها حيازة هذا النوع البغيض من أسلحة الدمار..

وقد آن الأوان للمؤمنين بالسلام وضرورة تحقيقه من أبناء الحضارات المختلفة أن يشكلوا فيما بينهم قوة ضغط سياسى واقتصادى على تلك الدول، حتى تزول أسباب القلق والتوتر، وحتى يختفى شبح استخدام تلك الأسلحة القادرة على التدمير الشامل، إذا وقعت نزاعات سياسية أو اقتصادية تدفع بعض أفرادها للجوء إلى القوة التى تمثل أسلحة الدمار الشامل أسوأ صورها وأخطر وسائلها.

٣ - ويواجه العالم مع مطلع الألفية الثالثة تهديدا غير مسبوق للبيئة، يتمثل فى استنفاد مواردها الطبيعية، وتدمير جانب منها، وتلويث أرضها وجوها وبحرها بألوان من الملوثات تعاظم حجمها وتأثيرها الضار مع انتشار الصناعة، وقيام المصانع الضخمة التى تهدد مخلفاتها السامة حياة ملايين البشر وصحتهم وسلامة أبدانهم تهديدا لم تعرف البشرية له مثيلا فى تاريخها الطويل، وفى مقدمة الموارد التى يهددها انتشار النمو تزايد الرخاء وتضاعف عدد السكان، الموارد المائية التى يتوقع الخبراء والعلماء أن يكون الصراع حولها أحد أبرز وأخطر الصراعات فى القرن الذى استقبلناه منذ أسابيع، وإذا كان هذا الصراع لم يتفجر بعد على نطاق واسع فإن الحكمة تقتضى العمل السريع على تجنبه وتوقى حدوثه ووضع إطار قانونى اتفاقى ملزم دوليا يحكم استخدام المياه، وينظم حقوق الراغبين فى هذا الاستخدام، حتى لايساء استخدام الحقوق فى هذا المورد الحيوى الذى تعتمد عليه حياة الناس وسائر الكائنات.

٤ - وتواجه شعوب العالم مع بداية القرن الجديد حاجة ملحة إلى صياغة إطار قانونى جديد يحكم العلاقات الدولية بعد أن طرأت عليها تغيرات جذرية جعلت النظام القانونى القائم الذى تمثله منظمة الأمم المتحدة إطارا غير معبر عن الأوضاع الجديدة، عاجزا عن التلبية الفعالة لحاجات الأمم والشعوب فى ظل تلك الأوضاع. إن موازين القوى التى كانت قائمة عند وضع ميثاق الأمم المتحدة فى الأربعينيات من القرن الماضى قد تغير تغيرا جوهريا، كما أن المخاطر التى كانت قائمة آنذاك، والتى جرى وضع ذلك الميثاق لمواجهتها، لم تعد هى المخاطر القائمة عند بداية القرن الجديد، إن المفارقة بين النظام الدولى الذى تحددت - جزئيا - بعض معالمه خلال العقود الثلاثة الأخيرة وبين نظام الأمم المتحدة وآليات العمل فى إطاره قد تجلت فى عجز الأمم المتحدة عن حل كثير من النزاعات الدولية الحادة، وفقا لمعيار واحد يعبر تعبيرا دقيقا وأمينا عن إرادة الشعوب التى تعمل باسمها الأمم المتحدة، لقد عبرت تلك الشعوب عن إرادتها من خلال توصيات وقرارات الجمعية العامة، بينما جرى اتخاذ القرارات الحاسمة والملزمة من خلال قرارات مجلس

الأمن الذى ظل حتى يومنا هذا يعبر عن «توازنات» بين القوى كانت قائمة عند وضع الميثاق ولكنها لم تعد اليوم قائمة ولاصالحة، وظلت غالبية شعوب الأمم المتحدة تتخذ داخل الجمعية العامة مواقف وتوجهات لاتجد سبيلها للتنفيذ، مابقى ذلك التنفيذ محكوما بالتوازنات القديمة التى يعكسها نظام الفيتو المعمول به فى مجلس الأمن..

ونستطيع، دون مبالغة أو تجنٍ، أن نقرر أن جزءا كبيرا من الدور السياسى والقانونى للأمم المتحدة قد أصابه الشلل نتيجة نظام العمل وأسلوب اتخاذ القرارات داخل مجلس الأمن، ولولا الجهود المثمرة والنشاط الكبير الذى أدته الأمم المتحدة فى الجوانب الاجتماعية والثقافية والإنسانية لكان حجم الإحباط والشعور بالعجز الذى أصاب شعوب العالم أشد وأكبر.

٥ - وأخيرا، نسجل من جديد فى هذا العرض السريع الحاجة الماسة إلى «إطار أخلاقى» للسلوك يحكم النشاط السياسى والاقتصادى للدول وشعوبها فى ظل «العولمة» التى فرضها سقوط الحواجز بين الشعوب، وتداخل المصالح وامتدادها عبر الحدود التى كانت قائمة بين الدول والقارات.

إن العالم الذى يتجه بسرعة - على هذا النحو - فى اتجاه العولمة قد صار محتاجا إلى أخلاق عالمية تعكس هذا التوجه وتناسبه، خصوصا وقد بدأ الناس جميعا ينتبهون إلى انتشار عدد من الظواهر المصاحبة لهذا التحول أو المترتبة عليه وفى مقدمتها استغراق الأفكار فى تحصيل المنافع المادية، وتراجع مستوى العلاقات الإنسانية الآن وانتشار عبادة الذات وانتشار عديد من صور الفساد فى الأنشطة السياسية والاقتصادية على السواء وفى سبيل الاتفاق على مضمون هذا النظام الأخلاقى الجديد فإن الأديان وعلى رأسها الأديان الإبراهيمية الثلاثة ومعها الفلسفات الإنسانية القديمة والحديثة تستطيع أن تؤدى دورا رائدا وفعالا فى إقامة «المنظومة الأخلاقية» التى تتراضى حولها جميع الأمم والشعوب. على أن فاعلية هذا الدور فى المستقبل القريب والبعيد، تظل موقوفة على قدرة المتحدثين باسم هذه الأديان على إعادة النظر فى «خطابهم الدينى» بحيث يغدو أكثر تجاوبا مع الهموم الجديدة للأفراد والشعوب وأوثق صلة بالواقع الذى تعيشه تلك الشعوب، ولاشك عندنا فى أن فى مقدمة مظاهر التعديل الذى ينتظره الناس من «الخطاب الدينى» أن يكون أكثر التفاتا إلى ضرورات التعاون واكتشاف مواضع الوفاق، وأقل إلحاحا فى طرح مواضع التباين ومظاهر «الاختلاف» وأسباب المواجهة والصدام وأن يكون - كذلك - أكثر ميلا للتيسير على الناس ورفع الحرج الفكرى والعملى عنهم وتوسيع هامش التباين والتميز الجائز بينهم، فى إطار المبادئ العليا والمقاصد الكبرى التى تلتقى عند أكثرها الأديان والفلسفات الإنسانية التى توجه أكثر الأمم والشعوب.

ومن المهم بعد ذلك أن نشير إلى عدد من الظواهر التى تميزت بها ندوة دافوس والتى استوقفت نظرى منذ البداية:

أولا: شدة اهتمام المشاركين من رؤساء الدول الأوروبية بالتعبير عن فهمهم الصحيح للإسلام، وإعلان براءتهم من الحملة الإعلامية التى تحاول الإساءة للإسلام والمسلمين، وتوكيد حرصهم على تصحيح صورة الإسلام فى العقل الغربى، وفى إقامة علاقات تعاون وتفاهم وجهود مشتركة بين أوربا بصفة خاصة وبين العالمين العربى والإسلامى، وهذا الاهتمام الكبير لم يقابل بمثله من جانب العرب والمسلمين، فالرئيس الأندونيسى عبدالرحمن وحيد، وهو الرئيس المسلم الوحيد الذى شارك فى هذا الحوار، مشغول أساسا بالمتاعب والمشاكل التى يواجهها فى بلده، وبعضها متاعب ذات طابع طائفى ودينى..

ثانيا: أن الأمر لم يكن واضحا تماما فى شأن موضوع الحوار ونطاقه، وما إذا كان حوارا مسيحيا - إسلاميا بدليل مشاركة كاردينال كاثوليكى ممثل لبابا روما وتحدثه إلى المؤتمر بهذه الصفة، أم أنه حوار حضارى يتجاوز نطاق الحوار المسيحى الإسلامى على أهميته.

ثالثا: أن شيمون بيريز رئيس وزراء إسرائيل الأسبق قد شارك فى الحوار بصفته الشخصية، كما سبق له أن شارك فى دورات أخرى لمؤتمر داڤوس، وكان جوهر حديثه أنه - على ما يقول - قد آمن بأن القوة المسلحة لاتصلح لفض النزاعات بين الشعوب، وأن الحوار والتسابق فى ميادين العلم والإبداع والاقتصاد هو اللغة التى ينبغى أن تسود العلاقة بين الشعوب خلال القرن المقبل، وهذا كلام جيد لا اعتراض عليه، ولكنه كلام تكذبه السياسات والمواقف التى تتخذها حكومة إسرائيل التى تنتمى إلى حزب العمل وهو الحزب الذى يمثله شيمون بيريز، وآخرها التصعيد الوحشى وغير المسئول للعدوان على الأراضى اللبنانية واللبنانيين المدنيين.

ولما كان منظمو الندوة قد اختاروا لشيمون بيريز مقعدا مجاورا لى، فقد سألته بعد انتهائه من إحدى كلماته: «مادمت تحسن الحديث بهذه الدرجة من الفصاحة، فما هو سر خسارتك المتكررة فى الانتخابات، وكان جوابه المتارجح بين الجد والسخرية: «لأن الناخبين هناك ليسوا على وعى كوعى المشاركين فى هذا الحوار».

رابعا: اتخذت الجلسة الختامية للمؤتمر كله شكلا خاصا، إذ عقدت الجلسة برئاسة السيد كلاوس شواب رئيس المنتدى، وحضرها جميع المشاركين فى المؤتمر، وأدارها رئيس فنلندا، وتحدث فيها رئيس جمهورية ألمانيا المستر يوهانس راو حديثا بالغ العمق يكشف عن فهم واضح لإشكالية الحوار بين الحضارتين الغربية والإسلامية، كما تحدث فيها رئيس فنلندا، والكاردينال أرينزو، وشيمون بيريز، كما تحدثت فيها بصفتى الشخصية أو ممثلا لمصر وهو أمر لم يكن واضحا تماما للمشاركين..

ولكن..

بقى أن نوجه إلى مثل هذه الحوارات اهتماما متزايدا وأن نعظم مشاركتنا فيها وفى أمثالها، حتى لاينفرد بساحة الحوار من يملكون أسلحة بالغة التأثير على العقول والنفوس، وحتى لانغيب عن منافستهم فى مثل هذا التأثير، كما يبقى أن توجه صحافتنا وأجهزة إعلامنا مزيدا من العناية لإدخال مثل هذه الحوارات ومايدور فيها فى ثقافتنا العامة، حتى يتخلص الرأى العام العربى والإسلامى من الانكماش والعزلة ومن أسر الرؤى المحلية الخالصة التى تهدد قدراتنا على أن يكون لنا مكان فى نظام عالمى جديد يحدد معالمه الذين يبادرون ويبادئون ويشاركون لا الذين يترددون ويبتعدون وينعزلون. ■

كتاب الزاوية

حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٢)
الطب والأطباء

قال عيسى بن هشام: ولما حال أمرنا من المحكمة إلى الأوقاف، وعلم الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف، وأنه لابد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء، ونكرر الدعاء والنداء، ونكثر من الغدو والرواح، فى كل مساء وصباح، فنبلى فى هذا الديوان جدة الزمن، ونقف عليه، وقوف العاشق على الدمن، لما هو مستفيض من اختلال أعماله، واعتلال عماله، وفساد إدارته، وسوء نظارته، نزل به من الهم والغم ما أورثه الضنى والسقم، وحل به من الحزن والكمد، ما أخل بنظام الجسد فغدا هزيلا نحيلا، ووقع مريضا عليلا، فأشرت عليه بالطبيب. قال: يخطئ ولايصيب، وماذا يجدى العلاج ومايفيد وللآجال توقيت وتحديد، فأقنعته بأن الاعتقاد بتحديد الأجل، لايمنع من مداواة العلل وسبحان من أرشدنا إلى الدواء، عند حلول الداء، لالتماس الشفاء! فقبل إشارتى بعد طول الإباء. فجئت له بأحد الأطباء، من ذوى الشهرة بالبراعة، فى ممارسة الصناعة، فجلس بجانبه يجس نبضه، ويقرع صدره، ثم استلم قلمه وولاه ظهره، وأخذ يرقم أصناف العلاج، بيد دائمة الاختلاج.

ثم قال: دونكم هذا الدواء، جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن، لايغش فى التركيب ولايغلى فى الثمن.

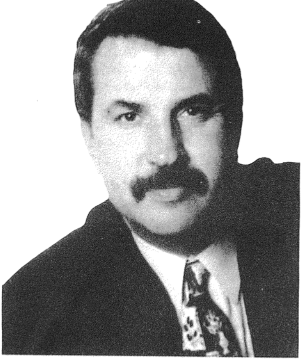
قال عيسى بن هشام: فأعجبنى من هذا الطبيب صدقه فى مقالته، وحسن نظره فى صناعته، وسألت الله لجماعة الأطباء أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء.

ثم إنى ودعته بعد أن عين لنا البقعة المناسبة لتجديد الهواء، وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء.

مبعوث العولمة.. أو توماس فريدمان

جلال أمين

لوسائل الإعلام الأمريكية والغربية عموما، حاسة قوية جدا قادرة على التقاط الكتاب والمتحدثين الذين يتمتعون بقدرة على الترويج للأفكار الحديثة المطلوب تسويقها، وقد عثرت مؤخرا على كنز ثمين في صورة السيد توماس فريدمان



لابد أن أعترف للقارئ بأنني رغم أني أعتبر نفسي من المهتمين بعدالة توزيع الدخل، لم أبتئس كثيرًا لدى سماعي بسقوط الاتحاد السوفيتي، أو على الأقل لم أبتئس بنفس الدرجة التي ابتأس بها كثيرون غيري.

ذلك أن الاتحاد السوفيتي، وإن كان قد قطع شوطا بعيدا في تحقيق العدالة في توزيع الدخل، بدا لي أقرب إلى الولايات المتحدة، مما كان يظن الكثيرون من المؤمنين بالاشتراكية والرأسمالية على حد سواء. لاشك في أن أوجه الاختلاف بين النظامين كانت شديدة ومهمة، ولكن الذي أقصده هو المعنى الذي كان في ذهن المفكر السياسي الفرنسي «ريمون آرون»، كما عبر عنه في كتابه الذي اشتهر وذاع صيته في أوائل الستينيات، «ثمانية عشر درسا عن النظام الصناعي»[1]. كان ريمون آرون يقول، إنه على الرغم مما بين النظامين السوفيتي والأمريكي من اختلافات مهمة، فكلاهما كان يبني «النظام الصناعي»، وإن كان الأول يحاول في ذلك أن يلحق بسرعة بالثاني. وأن النظام الصناعي سواء في ظل الرأسمالية أو الاشتراكية، له خصائص ثابتة، تتعلق بالاقتصاد أكثر منها بالسياسة، أي بتراكم رأس المال وتعظيم الربح (وإن كان يسمى «بالفائض» في الاتحاد السوفيتي)، وترشيد الإنتاج، وتقسيم العمل، واستهداف رفع معدل النمو (ولو على حساب العمال) والمستهلكين.. إلخ.

ربما كان الأمر مختلفا في ذهن كارل ماركس (بل لابد أنه كان بالفعل أمرا مختلفا)، عندما كان يكتب كتابه «رأس المال»، وكذلك في ذهن لينين، عندما كان يستعد لشن ثورته، ولكن المقصود هنا هو الاتحاد السوفيتي وليس الماركسية أو اللينينية. كانت المنافسة الأيديولوجية بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مهمة بلا شك، وكان التعصب الأيديولوجي لدى الطرفين شديدا وحقيقيا، ولكننا لا يجب أن نبالغ في أهمية هذا التنافس بين أيديولوجيتين مختلفتين، بالمقارنة بالتنافس بين نظامين حول مغانم متشابهة.

كانت هذه المغانم المتشابهة تشمل مغانم سياسية وعسكرية، ولكن المغانم الاقتصادية كانت أساسية أيضا للطرفين، وكان من أهم هذه المغانم الاقتصادية، خاصة في نظر الولايات المتحدة هي الأسواق. كانت كل دولة تدخل في فلك الاتحاد السوفيتي سوقا مغلقة أمام السلع ورءوس الأموال الأمريكية والغربية بوجه عام، بما في ذلك بالطبع السلاح الأمريكي.

لا عجب إذن، أن سقوط الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية كلها دولة بعد أخرى، في أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات، كان انتصارا رائعا للاقتصاد الغربي والأمريكي بوجه خاص. لم يكن غريبا أن يجري التعبير عن هذا الانتصار وإطلاق صيحات الفرح والتهليل في شكل تعبيرات أيديولوجية أساسا، ولكن ليس من الضروري أن يكون هذا هو سبب الفرح الأساسي. أقول إن هذا التأكيد على الانتصار الأيديولوجي (أي انتصار مبدأ الحرية الفردية) على حساب الانتصار الاقتصادي (أي فتح أسواق جديدة للسلع ورءوس الأموال الغربية). لم يكن غريبا، لأن من الطبيعي أو الأكثر لياقة، أن يفاخر المرء بمبادئه أكثر مما يفاخر بماله، حتى لو كان قبل هذه المبادئ أمرا مشكوكا فيه. ولكن الحقيقة هي أن السبب الأساسي للفرح كان اقتصاديا. ليس هذا فحسب، بل إن الانتصار الأيديولوجي كان مبالغا فيه جدا، وذلك لأسباب قريبة جدا مما كان يدور في ذهن ريمون آرون.

لقد كان النظامان، السوفيتي والأمريكي في واقع الأمر، وكما كان يقول بحق المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي «تنويعين على نفس اللحن الأصلي»، أو صيغتين من صيغ حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية. والهدف النهائي لكلا النظامين، كان متشابها إلى حد بعيد: وهو تعظيم معدل النمو، وتكاثر حجم السلع والخدمات، ورفع مستوى الاستهلاك، كل ما هنالك أن هذا الهدف كان يجري السعي له في النظامين، في ظروف تاريخية مختلفة، استتبعت بعض الاختلافات في النظام السياسي، وفي درجة تدخل الدولة، ومن ثم في سياسة توزيع الدخل. بل إن النظام الأمريكي كان يحمل في الحقيقة حتى في جانبه السياسي، إذا تأملناه جيدا، أوجه شبه مع النظام السوفيتي أكبر مما يبدو لأول وهلة، منها ما حاول تصويره جورج أورديل في رواية (١٩٨٤)، على الرغم من أن الكثيرين يحبون أن يصوروا هذه الرواية وكأنها مجرد نقد للاتحاد السوفيتي وحده.

في مثل هذا المناخ من الفرح والتهليل لانتصار المعسكر الرأسمالي، كان ابتداع تعبيرات جديدة لوصف المرحلة الجديدة التي دخلها العالم أمرا مفيدا جدا، بل ولعله كان ضروريا.

كان تعبير «نهاية التاريخ» مفيدا، ولكنه فضلا عما فيه من مبالغة (إذ كم منا يمكن أن يصدق أن العالم سوف يظل رأسماليا إلى الأبد)، كان يصف جانبا صغيرا من جوانب هذه المرحلة التاريخية ولا يصف جوهرها. كذلك كان تعبير «صراع الحضارات» لا يصف جوهر المرحلة الجديدة، بل أحد أعراضها، وحتى هذا العرض كان من الممكن أن يثير اعتراض الكثيرين، كما حدث بالفعل.

كلا التعبيرين (نهاية التاريخ وصراع الحضارات) كانا مع ذلك مفيدين في الإيحاء، بأن الرأسمالية هي النظام الأبقى، وأن «الحضارة» التي تمثلها هي أفضل الحضارات طرًا.

كان تعبير «العولمة» (Globalization)، إذا قورن بالتعبيرين الآخرين، ذا مزايا لا يستهان بها. فهو ينصب على جوهر المرحلة الجديدة التي دخلها العالم بعد سقوط الكتلة الشرقية (أو هكذا يبدو الأمر على الأقل): تقارب وسقوط الحواجز، وسهولة انتقال السلع والخدمات، ورءوس الأموال والأفكار بدرجة لم يعهدها التاريخ من قبل، كما أن من الممكن للجميع الاعتراف بهذه الحقيقة، حتى لو اختلفوا فيما بينهم حول ما إذا كانت هذه هي نهاية التاريخ أو لم تكن، تنبئ بصراع بين الحضارات أو بحوار وتعايش سلمي فيما بينها. ففي جميع الأحوال لا خلاف على أن ما يحدث هو «عولمة». ولكن الكلمة يمكن أيضا أن تحقق نفس الغرض الذي يحققه التعبيران الآخران (نهاية التاريخ وصراع الحضارات)، وإن كان على نحو أكثر «خبثًا»، ومن ثم أكثر فعالية. فكلمة العولمة، وإن كانت لا توحي إيحاءً مباشرًا بأفضلية النظام الرأسمالي، فإنه من الممكن إذا استخدمت استخداما جيدا، أن تحقق نفس الغرض وتوحي بنفس الإيحاء، إذا فلنتتبع الخطوات الآتية:

١- العولمة ظاهرة حتمية (يبدو أن هذا واضح ومن السهل الاقتناع به).

٢- إذا كانت العولمة ظاهرة حتمية، فلا جدوى ولا فائدة من محاولة مقاومتها (صحيح أيضا).

٣- العولمة في حقيقة الأمر، انتشار لنظام

والمثقفون المصريون!

معين ونمط معين للحياة، أقرب النظم والأنماط إليه هو - فيما يبدو - النظام والنمط الأمريكي (يبدو أن هذا صحيح أيضا).

٤- إذن فلا جدوى ولا فائدة من الوقوف في وجه انتشار النفوذ الأمريكي، سواء تمثل هذا الانتشار في صورة دخول سلع أو خدمات أو رءوس أموال أو أفلام أو أفكار أو قيم أو أنماط سلوك. (انتهى الاستنباط).

المنطق إذن سلس وواضح، وليس من السهل التشكيك في صحته. فلنروِّج له إذن على بركة الله، ولتعقد المؤتمرات والندوات والمناظرات، ولندعُ المحاضرين والكتاب لمناقشة هذا الموضوع المبهر، متعدد الجوانب، والذي يمس أحدث قضايا الساعة وأشدها أهمية وإلحاحًا، بل يمسها كلها، وهو موضوع «العولمة». ولا يجب أن ندخر مالا في سبيل الإكثار من هذه المؤتمرات والمحاضرات. ولدينا هذه الميزة العظيمة إذا تعلق الأمر بالعالم الثالث: فمثقفو العالم الثالث لا يبتدعون بأنفسهم أي تعبيرات أو ألفاظ جديدة، بل هم قاعدون ينتظرون بلهفة ظهور أي تعبير أو لفظ جديد في العالم المتقدم. فمتى ظهر، سرعان ما يتخذون سمة المفكرين العظام، ويشحذون أذهانهم للبحث عن المعاني العميقة الكامنة وراء هذا التعبير، أو ذلك اللفظ، وعن المعنى «الصحيح» والدفين له. وقد يعترضون على الظاهرة نفسها، التي يصفها هذا التعبير أو يقبلونها، وقد يقول بعضهم إنها ظاهرة قديمة، وبعضهم يقول إنها حديثة جدا. ليس هذا مهمًا، المهم أنهم وقعوا كلهم في الفخ (كما سبق أن شغلوا من قبل بما إذا كان التاريخ قد انتهى حقا أو لم ينته، أو ما إذا كان ما بين الحضارات صراعا أم مجرد حوار). وانطلى عليهم هذا التخفي الجديد للنظام الأمريكي، الذي يبدو أنه يتخفى كل يوم في زي جديد، فلم يتبينوا أنهم، وهم يدافعون عن العولمة بهذا الحماس، إنما يدافعون في الوقت نفسه عن النظام الأمريكي والنمط الأمريكي في الحياة.

ولوسائل الإعلام الأمريكية، والغربية عموما، حاسة قوية جدا قادرة على التقاط الكتّاب والمتحدثين الذين يتمتعون بقدرة على الترويج للأفكار الحديثة، المطلوب تسويقها. وقد عثرت مؤخرا على كنز ثمين في صورة السيد توماس فريدمان، محرر الشئون الخارجية في جريدة النيويورك تايمز، ومؤلف كتاب السيارة ليكساس وشجرة الزيتون: محاولة لفهم العولمة[2]، الذي ظهر في العام الماضي، واكتسب شعبية واسعة، وترجم بسرعة فائقة إلى اللغة العربية، وظهر في طبعة أنيقة أناقة غير مألوفة[3] (فهو مجلد بجلدة سميكة من القماش لا يعرفها قراء الكتب العربية عادة، تعلوها جلدة أخرى ورقية فاخرة كتب عليها اسم الكتاب بحروف ذهبية كبيرة وبارزة، وقد ترجم الكتاب ترجمة رائعة، صحيحة لغويا ودقيقة ومفهومة (على عكس ما نجده عادة فيما نراه من ترجمات إلى العربية). ولم يكد المثقفون المصريون ينتهون من قراءة الكتاب، حتى وجدوا توماس فريدمان نفسه واقفا بينهم بدمه ولحمه، مدعوًّا لإلقاء بعض المحاضرات، وللالتقاء بهم في ندوات وحوارات، أو على موائد عشاء أو قنوات تليفزيونية، لا تعد عادة بهذه السرعة. وقد قرأت كثيرًا من هذه المقالات أو معظمها، ووقائع هذه الحوارات، كما استمعت إلى تسجيل لحوار دار بين توماس فريدمان والدكتور هشام الشريف أستاذ إدارة الأعمال، بدعوة من الجامعة الأمريكية بالقاهرة تحت عنوان «العولمة والشرق الأوسط»، جرى في هذه الجامعة في ٢٤ يناير الماضي، وأعقب الحوار مناقشة بين فريدمان وبعض المثقفين المصريين الذين حضروا هذا اللقاء.

ولابد أن أبدأ بالتعبير عن إعجابي بالسيد فريدمان كمتحدث ومحاضر. إنه رجل يتكلم كلاما واضحا ومفهوما ومرتبا، وهو لا ينحرف يمينا أو يسارا عن موضوعه في تفاصيل لا جدوى منها للموضوع الذي يتكلم فيه. وهو صريح ومباشر لا يقول كلاما يحتمل مائة معنى. وهو لا يخلو من ملكة أدبية، يحسن استخدام التشبيهات، فيرسم صورًا معبرة عن المعاني التي يريد نقلها، فتنتقل إلى المستمع أو القارئ بسهولة.

عندما سمعت كلامه بعد أن رأيت صوره، رأيت اتفاقا تاما بين الاثنين، فهو في صوره متحمس مندفع، وعمره يبدو في الصور أقل بكثير مما يتوقع المرء لشخص له مثل وظيفته المرموقة وشهرته، ولكنه عمرٌ يناسب هذه الصفات التي ذكرتها.

هذا هو تقريبا كل ما لدي من قول لصالحه. وإن كنت قد وجدت كتابه أيضًا مليئا بالملاحظات الذكية، التي لا تخلو في كثير من الأحيان من حكمة تفتقر إليها كثير من الكتابات في موضوع العولمة. أخذت أسأل نفسي وأنا أستمع إلى الشريط المسجل لحديثه في ندوة الجامعة الأمريكية: «بأي شيء تذكرني هذه الطريقة في الكلام؟» فوجدت أن أقرب شيء لها، هو طريقة بعض الرجال الذين كنت أراهم على شاشة التليفزيون الأمريكي أثناء زياراتي للولايات المتحدة، وقد عهد إليهم بمهمة الترويج لسلعة ما، كسيارة أو ثلاجة، فإذا بهم ينهمكون في حديث طويل سريع الإيقاع وشديد الحماس، وقد بدوا أحيانا وكأنهم قد حفظوا هذا الحديث عن ظهر قلب دون تفكير أو اقتناع بما يقولون.

لا أريد أن أزعم أن الصورتين متطابقتان تمام الانطباق، فالسيد فريدمان رجل محترم أكثر من ذلك الرجل بكثير، وهو يقول كلاما أكثر ذكاء بكثير وأخف ظلا، ولكن الشبه موجود وإن لم يكن كاملا.

فالرجل يبيع شيئا لاشك في ذلك. وإن كان الشيء المباع في هذه الحالة فكرة، بل فكرة عميقة ومهمة، ولكنه يحاول بيعها على أية حال. والمطلوب حث الجمهور وترويضه على قبول هذه الفكرة. صحيح أن الجمهور في هذه الحالة جمهور من المتعلمين تعليما عاليا، بل وكثير منهم من المثقفين، ولكنه جمهور يمكن ويجب ترويضه. ذلك أن النجاح النهائي لهذه المهمة لا يتم إلا بإقناع (أو حث) بعض متخذي القرارات الأساسية وأولي الأمر في عدد كبير من الدول، على اتخاذ قرارات تتفق مع مصالح معينة. وهؤلاء الذين يتخذون هذه القرارات يتأثرون بالرأي العام ويحسبون حسابه، وهذا الرأي العام يصنعه في نهاية الأمر، حفنة من المتعلمين والمثقفين، ومن ثم وجب ترويضهم. ومن هنا تأتي أهمية أشخاص لهم مثل كفاءات توماس فريدمان.

ولكن ما الذي يحاول توماس فريدمان بالضبط أن يبيعه؟ إنه ليس إلا فكرة «العولمة» نفسها. فهو يبدأ حديثه بالقول بأن العولمة ليست مجرد موضة عابرة، أو صفة من صفات النظام الجديد، بل هي النظام الجديد نفسه. وهو في هذا لا يبعد كثيرا عن الحقيقة، بل إذا تغاضينا عن تطلب منتهى الدقة، قد لا يبعد عن الحقيقة بالمرة. وهو يقول إنه في ظل هذه العولمة لم يعد توازن القوى كما كان من قبل بين دولة وأخرى، بل بين الدولة والسوق، أو على حد تعبيره، السوق الأعظم (Super Market) وهو لا يبعد كثيرا عن الحقيقة هنا أيضا.

وهو مصيب كذلك عندما يقول إنه إذا أرادت هذه «السوق الأعظم» إسقاط دولة ما، فهي لا تفعل ذلك عن طريق ترتيب انقلاب، كما كان يحدث في الماضي، بل عن طريق (إغراق) سنداتها، أي عمل ما من شأنه تخفيض قيمة سنداتها، وسمعتها في أسواق الائتمان إلى الحضيض.

وهو يقول كلاما قريبا من الحقيقة أيضا، وإن لم يكن دقيقا، عندما يقول إنه في ظل العولمة، لا يملك أحد «مقاليد السيطرة كاملة» (Nobody is quite in Control)، ولكن الأخطر من عدم الدقة هنا، أنه قول قد يوحي بشيء بعيد جدا عن الحقيقة.

إن فريدمان لا يكاد ينبس قط بتعبير «الشركات متعددة الجنسيات» أو الدولية أو العملاقة، بل لم ترد كلمة الشركات على فمه قط (بل ولا في الكتاب اللهم إلا ربما مرة واحدة في الكتاب كله، وعلى نحو عابر)، بينما الحقيقة فيما يبدو لي، أنه إن كان هناك شيء يقترب من السيطرة شبه الكاملة على ما يحدث في العالم فهو هذه الشركات، والأهم من ذلك أن سيطرة ونفوذ وقوة هذه الشركات قد أصبحت في ظل «العولمة» أكبر منها في أي وقت مضى.

إذن فالقول بأنه في ظل العولمة «لا أحد يملك مقاليد السيطرة كاملة»، إذا فهم منه (كما هو المقصود فيما أظن)، أننا نعيش في هذا العصر، أكثر مما كنا في أي عصر مضى، في ظروف ديمقراطية يتمتع فيها الصغار والضعفاء بحرية أكبر في الحركة والتعبير عن أنفسهم، فإنه يكون قولا مضللا بدرجة كبيرة.

قد يكون فريدمان قد قال هذا القول مدفوعا ببعض الخبث، وقد يكون قاله ببراءة، ولكن «الخبث» يوجد بدرجة أكبر (وإن كان لا يزال مستترا إلى حد كبير)، في مواضع أخرى من حديثه. فهو مثلا وهو يحاول إقناعنا بأن فردا واحدا قد يستطيع تعبئة مقاومة ناجحة لبعض القوى الغالبة في ظل العولمة، يخاطب جمهوره قائلا: «أنتم مصدر القوة وليس غيركم». وهذا كلام معسول جميل، ولكنه أبعد عن الحقيقة من عكسه، ولا أظن أن شخصا له مثل ذكاء توماس فريدمان، وسعة اطلاعه على ما يجري في العالم، يفتقد حقيقة أننا نحن المساكين أصحاب القوة الحقيقية في هذا العالم!

ولكن الخبث كامن بدرجة أكبر بالطبع، في طريقة فريدمان في حشر إسرائيل والإسرائيليين بداع وبدون داع في كلامه، ولكن الأثر المقصود في جميع الأحوال هو دائما لصالح إسرائيل. والأمثلة على ذلك كثيرة جدا، خاصة في كتابه. فهو كلما أراد أن يضرب مثالا على شيء طيب، مثل الكفاءة العالية، أو التقدم التكنولوجي، أو الحكمة، أو القوة بوجه عام، أو المناعة ضد أي عمل عدائي.. إلخ. نجد بالصدفة المحضة، أن المثل يتعلق بإسرائيل. وكلما أراد أن يذكر أسماء ثلاث أو أربع عواصم من عواصم العالم، نجد أن من بينها مدينة القدس (معتبرا إياها بالطبع، عاصمة إسرائيل). وإذا أراد أن يدلل على أنه لا يقلل من أهمية المحافظة على التراث، يضرب كمثل على ذلك تأييده لما تفعله إسرائيل للمحافظة على تراثها، الذي يمتد في التاريخ لآلاف من السنين!

كذلك يظهر بعض الخبث في رده على سؤال وُجِّه إليه في ندوة الجامعة الأمريكية، عن رأيه في اعتراضات المعترضين خلال انتفاضة سياتل في نوفمبر الماضي. هنا قام توماس فريدمان بدور تمثيلي ممتاز، وهو ينطق باحتقار كلمة «سياتل» ويرددها بنفس الطريقة الساخرة عدة مرات، من أجل أن يسلب أحداث سياتل ما حظيت به لدى الكثيرين من تعاطف وتأييد. وكان محور رده أن «سياتل» هذه ليست سياتل واحدة، بل عدة «سياتلات»، بمعنى أن المعترضين في سياتل على أعمال منظمة التجارة العالمية، وعلى جولات تحرير التجارة، ليسوا في الواقع متحدي الهدف والموقف، بل لديهم أهداف ومواقف مختلفة، يتعارض بعضها مع بعضها الآخر. وهذه حقيقة لا ينكرها، أو لا يجب أن ينكرها المعترضون على مبدأ حرية التجارة، ولكن إدراك هذه الحقيقة لا يضع حدا للقضية، ولا يوجب السخرية مما حدث في سياتل، ولا يمثل «دفاعا» ناجحا عن مبدأ حرية التجارة، ولا يبرئ ساحة منظمة التجارة العالمية. فقد يكون أعداء هذه المنظمة مختلفين وذوي أهداف متعارضة، دون أن يعني ذلك أن هذه المنظمة بريئة مما تتهم به. كل ما هنالك أن تعارض أهداف المعارضين، يجعل مهمة كل منهم أصعب مما يمكن أن تكون، لو اتحدت هذه الأهداف، ويجعل من السهل على منظمة التجارة العالمية أن تستمر في عملها وتستفيد من استخدام هذا ضد ذاك.

كل هذا بسيط ولا يجب أن نتوقف عنده كثيرا، لا عدم الدقة ولا حتى الخبث يجب أن يستوقفنا كثيرا، ذلك أن المهم ليس هو ما قاله توماس فريدمان وطريقة تعبيره عنه، بل المهم هو ما لم يقله. وهذا فيما يبدو هو أيضا الاعتراض الأساسي على أسلوب مروجي السلع والبرامج الدعائية، بما في ذلك البرامج الدعائية السياسية التي كان يذيعها الاتحاد السوفيتي وبقية دول الكتلة الشرقية قبل سقوطها. لتوضيح ذلك، لنتوقف قليلا عند السؤال الذي أثاره فريدمان في ندوة الجامعة الأمريكية، واستغرقت الإجابة عليه الجزء الأكبر من حديثه. السؤال هو: «علام يتوقف نجاح أو فشل دولة ما في عصر العولمة؟ وما الذي يحدد قدرتها على الفوز في هذا السباق الذي أصبح هو السمة المميزة لعصر العولمة»؟

إجابته واضحة ومختصرة، ويلخصها في عشر نقاط (كانت في الكتاب ثماني ثم أضاف إليها نقطتين):

١- ما حجم وقوة اتصالاتك بالعالم الخارجي؟ (وهو يقترح مقياسا لهذا عدد أجهزة الكمبيوتر الشخصي للأسرة الواحدة، وشبكات الاتصال المتاحة للفرد الواحد).

٢- ما درجة سرعتك في الأداء؟ (ويذكر في هذا الصدد أننا انتقلنا من عالم كان الكبير فيه يلتهم الصغير، إلى عالم سمته أن السريع فيه يلتهم البطيء).

٣- ما حجم قدرتك على الاستفادة من المعلومات

والمعرفة التى تحصلها؟: إذ لا يكفى أن تكون واسع الاتصالات، بل يجب أن تكون لديك قدرة عالية على الإفادة منها، وهذا يتوقف إلى حد كبير على العدد الذى تحوزه الدولة من المتعلمين تعليما عاليا.

٤ـ ما وزنك؟ والذى يقصده فريدمان هنا، هو عكس ما قد يظنه القارئ، فكلما كانت الدولة «خفيفة» كان حظها فى النجاح أكبر، إذ إنه يقصد بالخفة والثقل نوع ما تنتجه وتصدره: هل يتكون أساسا من سلع تقليدية «من الوزن الثقيل»، كالحديد والصلب مثلا: أم من أشياء خفيفة، كالخدمات والسلع التى تعتمد قيمتها على ما فيها من معرفة وتكنولوجيا متقدمة؟

٥ـ ما درجة انفتاح الدولة على العالم الخارجى؟

٦ـ ما درجة انفتاحها داخليا (أى ما قدر ما يتمتع به أفرادها من حرية، ونظامها من «شفافية»)؟

٧ـ ما مدى كفاءة «الإدارة والمديرين» فى بلادك؟

٨ـ ما حجم قدرتك على جذب الأصدقاء وتكوين التحالفات؟ ذلك أن كثيرا من مشكلات العولمة لا يمكن للدولة حلها منفردة، بل لابد لها من الدخول فى اتفاقات ومعاهدات.

٩ـ ما مدى جودة «العلاقة التجارية» لبلدك؟ أى ما قدرتها على جذب «الزبائن» سواء كان هؤلاء الزبائن مشترين لبضائعها أو مستثمرين فى أراضيها؟

١٠ـ ما مدى استعدادك «لقتل جرحاك»؟ أى أن تدع مشروعاتك وصناعاتك الخاسرة تموت دون أن تبكى عليها، فى سبيل أن تستمر فى الحياة، المشروعات والصناعات الناجحة والعالية الكفاءة، ويشمل «قتل جرحاك» أيضا، مدى قدرتك على طرد العامل غير الكفء، ومن ثم قدرتك على تعيين عامل آخر أكثر كفاءة فى مكانه.

كلما أراد فريدمان أن يضرب مثالاً على شىء طيب مثل الكفاءة العالية أو التقدم التكنولوجى أو الحكمة أو القوة بوجه عام أو المناعة ضد أى عمل عدائى، نجد بالصدفة المحضة، أن المثل يتعلق بإسرائيل

هذه القائمة السهلة الممتنعة، يصعب أن يجرى عليها التحسين والتبديل، فهى تصيب كبد الحقيقة، إذ هى بالفعل معايير الفوز فى هذا السباق الذى أصبح السمة المميزة لعصر العولمة. إذ من الذى يستطيع أن ينكر أن الفوز فى هذا السباق (كما فى سباقات أخرى كثيرة بما فى ذلك كثير من المسابقات الرياضية) يتوقف على السرعة والخفة والتصميم الذى لا يلقى بالاً لما قد يسببه الفوز من إضرار بالغير.

وعلى جاذبيتك وتحالفاتك، وعلى قدرتك على الاعتراف بأخطائك وتصحيحها؟ الكلام صحيح بقدر ما هو بديهى لدرجة قد لا يحتاج معها إلى كل هذا العناء فى الشرح والتوضيح.

ولكن الصعب هو ما لم يتعرض له توماس فريدمان فى أى حديث استمعت إليه أو قرأته له فى القاهرة، وهو تقييم هذا السباق نفسه، أخلاقيا وحضاريا إنسانيا وتاريخيا. مفهوم أننا إذا اشتركنا فى هذا السباق نحتاج إلى كل هذه الأشياء من أجل الفوز، ولكن أليس لدى توماس فريدمان أى كلمة يقولها فى «تقييم» هذا السباق؟ هل هو نبيل أم غير نبيل؟ عادل أم غير عادل؟ يعامل الناس بإنسانية أم بوحشية؟ وما التقييم التاريخى له فى مسار التقدم الإنسانى من حيث التوحش والتحضر؟

فى كتابه «السيارة ليكساس وشجرة الزيتون»، تعرض لبعض هذه الجوانب، ولكنه من ناحية يضع التأكيد كله على ذلك «السباق» الملعون، وضرورة الفوز فيه، والمآسى الناتجة عن التخلف عنه. التأكيد كله على «القطار» الذى لن يتوقف كثيرا والضياع والتشريد اللذين سوف يصيبان من لم يلحق به. وهو من ناحية أخرى لا يلتفت إلى التناقض الصارخ بين مراعاة الشروط التى يضعها للأداء الجيد فى هذا السباق، وبين مراعاة جميع الاعتبارات الأخرى: اعتبارات الأخلاق والعدل والإنسانية واحترام الهوية..إلخ. إنه مثلا يعقد فى كتابه فصلا يتعلق بالهوية والمحافظة على التراث، ويدعو إلى ما يسميه «بالعوحلية»، أى العولمة مع عدم التضحية بقدر الإمكان، بالسمات والخصائص المحلية. ولكن كيف يستقيم هذا مع كل هذه الشروط التى قال بضرورتها من أجل الفوز بالسباق، بما فى ذلك «الاستعداد لقتل جرحاك»؟ إن من الواجب أن تكون «منفتحًا» بشدة، و«خفيفًا» للغاية، و«سريعا» بأقصى قدر؟ فكيف يمكن أن تكون كذلك وأنت «مثقل» بأعباء تراث لا نفع فيه فى السباق، ولا يساعد على حصولك على «علاقة تجارية جيدة»؟. إن الكلام عن «شجرة الزيتون»، وهى التى ترمز للمحافظة على الهوية والشخصية الوطنية، وكل ما هو مثالى أو شخصى أو عاطفى أو روحى..إلخ، هذا الكلام لا يمكن أن يكون إذن، أكثر من محاولة لذر الرماد فى الأعين، من جانب السيد فريدمان، الذى لا يعنيه فى الواقع إلا السيارة ليكساس.

إنى أقدِّر أن من الصعب على رجل يحتل وظيفة مثل وظيفة توماس فريدمان (التى يصفها بأنها أعظم وظيفة فى الوجود)، وهى وظيفة محرر الشئون الخارجية فى صحيفة النيويورك تايمز أن يفعل غير ذلك، فهى وظيفة لا تترك لصاحبها من الوقت أو صفاء الذهن (أم هو صفاء القلب؟) ما يسمح بالاهتمام بهذه الأمور التى يعتبرها آخرون أمورا مهمة. وهؤلاء الآخرون منهم أيضا أشخاص مهمون، بل قد لا يقلون أهمية عن محرر الشئون الخارجية فى تلك الصحيفة السيارة، فمنهم الأنبياء والرسل جميعا، والمصلحون الأخلاقيون والاجتماعيون، الذين أفنوا حياتهم فى محاولة إقناعنا بأن الحياة ليست مجرد سباق، وأن هناك أشياء لا يجوز أبدا أن تباع أو تشترى، بل وكثير من الزعماء السياسيين الذين اهتموا بمسألة الهوية، وحماية الثقافة الوطنية، ومعظم

الكتّاب والروائيين والرسامين والموسيقيين، بل وحتى بعض المفكرين الاقتصاديين الذين شغلتهم مشكلة التوزيع والمساواة أكثر مما شغلتهم مشكلة التنمية، واعتبروا مكافحة البطالة أهم من رفع معدل نمو الناتج القومى الإجمالى.. إلخ. كل هؤلاء لم يعبأ بهم توماس فريدمان، إذ لابد أنه يعتبرهم، هم والمعجبين بهم، من الضعفاء ثقيلى الحركة بطيئى السرعة، المنطوين على أنفسهم أكثر من اللازم، وليس لديهم أى استعداد «لقتل جرحاهم»، وليس لديهم «علاقة تجارية جيدة» تضمن لهم زبائن كثيرين.

أكُلّ هذا الإهمال لهذا النوع من الناس الذين يمثلون أجمل ما فى تاريخ البشرية، يكفى لتبريره القول بأن «العولمة حتمية»؟ ولكن ما هو الحتمى بالضبط فى العولمة؟ تقليل المسافات وزيادة قدرة الناس على اتصال بعضهم ببعض، أم النمط الأمريكى فى الحياة؟ وهل من المستحيل حقا، كما يتصور توماس فريدمان، أن نتصور أحدهما بدون الآخر؟ إن من مصلحة توماس فريدمان بالطبع أن يعامل العولمة والأمركة، كمترادفين، بل كثيرا ما يذكر صراحة أن «العولمة تعنى الأمركة»، ولكن هل هذا هو أيضا رأى المثقفين المصريين؟

لا أظن أن المثقفين المصريين قد أعجبهم ذلك[٤]، على الرغم من أن الأسئلة التى وجهت إلى فريدمان فى أعقاب كلمته فى ندوة الجامعة الأمريكية كان يسيطر عليها الشعور «بعدم التصديق» أكثر من الشعور بالغضب. فقد كان السائلون يستوضحونه بأدب ما الذى يقصده بالطبع بهذا القول أو ذاك، مع أن كلامه كان أوضح مما يحتاج إلى مزيد من البيان. وعندما سأله أحد المثقفين المصريين من الحاضرين عما إذا كان راضيا عن كل شيء فى العولمة، بما فى ذلك التليفون المحمول مثلا، أجاب أنه هو نفسه

يحاول فريدمان بخبث إقناعنا بأن فرداً واحداً قد يستطيع تعبئة مقاومة ناجحة لبعض القوى الغائبة فى ظل العولمة.. يخاطب جمهوره قائلا: «أنتم مصدر القوة وليس غيركم».. وهذا كلام معسول جميل، لكنه بعيد عن الحقيقة

لا يحب أن يحاط بعدد كبير من الناس من مستخدمى المحمول، لأنه يشوش عليه ويحرمه من الراحة والهدوء. وقد اعتبر توماس فريدمان هذا التنازل الكبير من جانبه كافيا لإرضاء الساخطين على كل ما يهدد آدمية الإنسان فى ظل العولمة وتهدئة خواطرهم!

من الواضح أن توماس فريدمان فى أحاديثه فى القاهرة، كان يقوم فى الأساس بدور «المتحدث الرسمى باسم العولمة». كان ترويجه للولايات المتحدة فى حدود ضيقة، (وإن كان كتابه ينتهى بعبارة «حفظ الله أمريكا!»، أو هكذا تنتهى، إذا أردنا الدقة، الفقرة قبل الأخيرة من الكتاب). إنما هو يروّج أساسا للعولمة، كما كان هو الحال فى كتب ومقالات «نهاية التاريخ» و«صراع الحضارات». ولكن من المهم فى رأيى أن نلاحظ، وأن يلاحظ المثقفون المصريون والعرب بوجه خاص، أنه فى هذه الكتب الثلاثة التى صاحبتها حملات ترويج واسعة النطاق خلال العشر سنوات الماضية، والتى تلت سقوط الكتلة الشرقية، أن «الجرعة الإسرائيلية» تزيد شيئا فشيئا. فهذه الجرعة تكاد أن تكون غائبة فى «نهاية التاريخ»، ولكنها موجودة فى النبرة العدائية ضد الإسلام والمسلمين فى كتاب «صراع الحضارات»، ثم ها هى الجرعة الإسرائيلية واضحة للغاية فى كتاب فريدمان الأخير، مما يجعل المرء يتساءل بحق عما إذا كانت العولمة التى تمثلها السيارة ليكساس فى هذا الكتاب، والتى ينتصر ويروج لها، هى العولمة بوجه عام أو عولمة معينة تلعب فيها إسرائيل دورا أساسيا؟ وعما إذا كانت شجرة الزيتون التى تمثل فى كتابه التمسك بالثقافة الوطنية والتراث والهوية، وتمسك المرء بدينه وتقاليده وقيمه الأخلاقية، والتى لا يبدى فريدمان أسفا كبيرا على ذبولها وموتها، هل هذه الشجرة غير المأسوف عليها تمثل كل أشجار الزيتون، أم كلها باستثناء شجرة زيتون وحيدة يبذل المؤلف كل هذا الجهد لرعايتها وصيانتها ودعم نموها؟

هكذا نرى أن لفظ «العولمة» له من المزايا أكثر مما كنا نظن. ففضلا عن المزايا التى يحققها استخدامه مع أى شعب من الشعوب، أو أى منطقة من مناطق العالم، مما أشرنا إليه فى بداية هذا المقال، فإن له مزايا وفوائد أخرى عندما يستخدم مع العرب والمنطقة المسماة حاليا «بالشرق الأوسط». فالعولمة فى هذه الحالة لا تعنى فقط الانفتاح على العالم الخارجى، بسلعه واستثماراته وأفكاره، بل وأيضا التصالح مع إسرائيل، وقبولها كما هى بل وحتى أكبر مما هى، وإذا بالترويج للعولمة، فيما يتعلق بالعرب، لا يعنى الترويج لمجرد «الأمركة»، بل لشيء أسوأ من هذا بكثير. ■

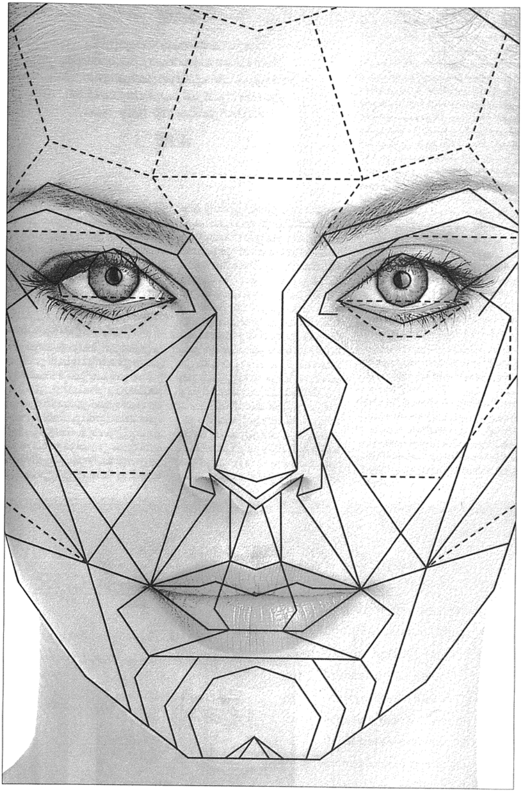
الهوامش

1 - Raymond Aron: 18 Lectures On Industrial Society, Weiden Feld and Nicolson, London, 1968.

2 - Thomas L. Friedman: The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization, Farrar, Straus and Giroux, N.Y., 1999.

(٣) توماس ل. فريدمان: السيارة ليكساس وشجرة الزيتون، محاولة لفهم العولمة، ترجمة ليلى زيدان ومراجعة فايزة حكيم، الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠.

(٤) يظهر هذا أيضا مما كتبه كثير من المثقفين المصريين فى نقد كتاب فريدمان، ابتداء من مقال جميل مطر فى مجلة «وجهات نظر» (يوليو ١٩٩٩)، إلى مقالات محمود عبد الفضيل وصلاح قنصوة فى «مجلة الهلال» (فبراير ٢٠٠٠)، ومقالتى سلامة أحمد سلامة، وصلاح الدين حافظ فى جريدة الأهرام (فبراير ٢٠٠٠).



الوجه «الأكمل» و«الأجمل» كما صممه جراحو التجميل.. تتحقق فيه «المعادلة الذهبية» للجمال عند الإغريق، ويلخّص ملامح أكثر الوجوه شعبية وقبولا لدى الجماهير

جراحات تجميل.. أم إعادة تشكيل للجسم البشرى؟!

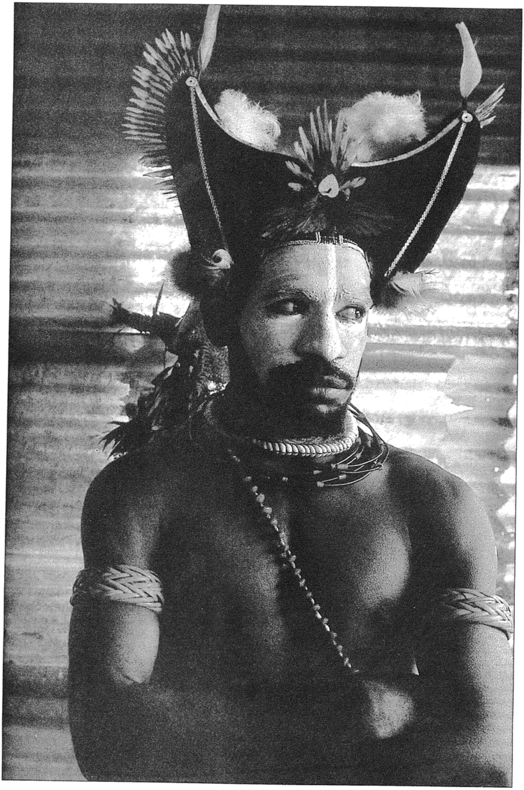
السبب وراء شعبية جراحة التجميل (حيث أجرى ما يزيد على ١,٩ مليون عملية سنة ١٩٩٦ فى الولايات المتحدة وحدها) هو الطريقة التى تساعد بها الناس على «الانتقال» إلى جماعة اجتماعية يتماثلون معها عاطفيا

في الصيف الماضى، كسب ثلاثة ممن يرغبون فى التحول من رجال إلى نساء، قضايا الاستئناف التى رفعوها ضد سلطات الصحة المحلية فى الولايات المتحدة، والتى كانت قد رفضت أن تجرى لهم عمليات تحولهم إلى جنس غير جنسهم. وفى قضية شغلت الإعلام فى المملكة المتحدة، ألغت محكمة الاستئناف حكمًا سبق أن أصدرته المحكمة العليا، وقضت ببطلان تصرف السلطات غير القانونى، دون أى اعتبار لما كان «العلاج الصحيح لمرض معترف به». وأهمية هذا الحكم هو أن الراغبين فى التحول من جنس إلى آخر فى بريطانيا، الذين ينتظر حوالى الألف منهم إجراء عمليات جراحية، سوف يكون فى مقدورهم المطالبة بإجراء عمليات تغيير الجنس على حساب هيئة الصحة الوطنية. وعلق محامى الراغبين فى تغيير جنسهم فى نهاية هذه القضية التى طال نظرها، بأن تكلفتها التى بلغت ٢٠٠ ألف جنيه إسترلينى، كان يمكن أن تمول إجراء عشرين عملية تحويل جنس.

وكان قد نُقل عن إحدى الراغبات فى تحويل جنسها، ويرمز إليها بالحرف «أ»، قولها إن عملية تغيير الجنس ضرورية لإنهاء سنوات البؤس. وتعتبر «أ» أن تكوينها الجسمانى الذكورى نوع من «التشويه». والإحساس المؤلم الذى يشعر به رجل «ولد فى الجسم الخطأ، وينبغى أن يكون فتاة بحق ظهر منذ فترة فى رواية جان موريس "Conundrum" (اللغز) (١٩٧٤)، وهى عبارة عن سيرة ذاتية تعد أكثر الروايات إقناعًا لعملية تغيير الجنس حتى الآن. وقد أدت جان التى كانت تعرف وقتها باسم جيمس الخدمة العسكرية، وقد حبست فى جسدها الذكورى، وعملت بصحيفتى الجارديان والتايمز، حيث غطت أخبار الحرب فى فلسطين وصعود قمة

Making The Body Beautiful: A Cultural History of Aesthetic Surgery
(التاريخ الثقافى لجراحات التجميل)
Sander L. Gilman
Princeton University Press, 396pp., $29.95

Survival of The Prettiest: The Science of Beauty
(البقاء للأجمل.. علم الجمال)
Nancy Etcoff
Doubleday, 325pp., $23.95



أحد رجال قبيلة «الهولى» ـ بمرتفعات «بابوا غينيا الجديدة» والتى تقع شمال إستراليا ـ يزين وجهه استعدادا لمهرجان القبيلة السنوى

إيفرست قبل ذهابها إلى الدار البيضاء، حيث أجريت لها عملية لاستئصال جهازها التناسلى الذكورى، وتم تخليق مهبل لها فى عيادة خاصة عالية التكاليف. وفى ذلك الوقت، لم يكن هناك خيار أن تتم العملية مجانًا عن طريق هيئة الصحة الوطنية فى بريطانيا.

وقد عادلت جيمس / جان لغزها بأفكار الروح أو الذات: «إنى أفكر فى الأمر ليس على أنه مجرد لغز جنسى، بل على أنه سعى إلى التوحد». ومنذ ذلك الوقت، والمؤرخون الثقافيون يبحثون الروابط بين مفاهيم الناس عن الجسد الذى يرون أنفسهم يعيشون داخله بصورة مثالية، وبين سعادتهم العقلية. وقدم البروفيسور ساندر جيلمان فى دراسة سابقة عن جراحة التجميل بعنوان Creating Beauty to Cure the Soul (خلق الجمال لعلاج الروح)، حقائق مذهلة عن أصول هذه الأفكار، حيث تتبع فهم فلاسفة عصر التنوير للجسم الجميل، باعتباره تعبيرًا مرئيًا عن الفضيلة الإنسانية. وعلى العكس من ذلك، يدل الجسم القبيح على الروح غير السليمة، ولو صدقنا هذه المحاجة لأصبح أنف اليهودى يمثل روح اليهودى المريضة دومًا.

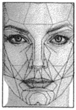
وفى «خلق الجمال لعلاج الروح»، يركز جيلمان على العلاقة المعقدة بين جراحة التجميل والتحليل النفسى فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين، الذى قدم احتمالين متوازيين للتحويل، أحدهما للجسد والآخر للعقل. وبينما يتناول كتاب "Making the Body Beautiful" (تجميل الجسم) الموضوع نفسه، إلا أنه عمل ذو قاعدة أوسع وأقل أكاديمية، كُتب ببعض من مرح أفكار روى بورتر الاجتماعية الطبية، ويتضمن مجموعة لا تنسى من الصور التاريخية قبل التحويل وبعده. ويختلف كتاب جيلمان كذلك فيما يهتم به عن كتاب اليزابيث هايكن "Venus Envy: A History of Cosmetic Surgery" (حسد فينوس: تاريخ جراحة التجميل). فبينما استمدت هايكن معظم نماذجها واستنتاجاتها من الولايات المتحدة، جعل جيلمان مدى كتابه أكثر اتساعًا، ويكشف كتابه عن معرفة أوروبية رائعة.

ويتمحور بحث جيلمان حول فكرة «الانتقال». فقد كان السبب وراء شعبية جراحة

.. عذاب .. أن تولد فى الجسم الخطأ

فيونا ماكارثى

ها هى الأنوف الأيرلندية الصغيرة المائلة لأعلى التى كانوا يسخرون منها فى يوم من الأيام، وكانت تدل على الطبقات المهاجرة المشكوك فيها التى تعمل بالخدمة، تصبح النموذج الأمريكى والإنجليزى الذى يحتذى فى منتصف القرن العشرين. وأصبح لنجمات السينما أنوف ترتفع لأعلى عند أطرافها





التجميل (حيث أجرى ما يزيد على ١,٩ مليون عملية سنة ١٩٩٦ فى الولايات المتحدة وحدها) هو الطريقة التى تساعد بها الناس على «الانتقال» إلى جماعة اجتماعية يتماثلون معها عاطفيا. وكان جراحو التجميل الأوائل، بما كانوا يجرونه من عمليات ترقيع بدائية باستخدام قطع من الجلد، يعملون على إزالة الأدلة السطحية للأصول العنصرية غير المقبولة أو الأمراض غير المرغوبة. ويذكر جيلمان الجراح الإيطالى جاسبارى تالياكوتسى من القرن السادس عشر، باعتباره مبتكر تكنيكات الترقيع لزرع أنف مكان أنف أتى عليه مرض الزهرى. وكانت لتلك الأنوف «الوهمية» مساوئها. فكثيرًا ما كان لونها يزرق فى الطقس البارد. كما أن اللكمة القوية قد تخلعها. ولكن ما كان يبقى أكثر هو مفهوم تالياكوتسى الإنسانى، وهو أن أى شخص بلا أنف كان لابد أن يكون تعيسًا، وأن هذه التعاسة قد تؤدى إلى المرض.

واكتشف «علاج» الأنف المفقود عام ١٧٩٤ فى الهند، وكانت وقتها خاضعة للحكم البريطانى الاستعمارى. وكانت أخبار «العملية الجراحية شديدة الغرابة غير المعروفة فى أوروبا»، التى تنطوى على استخدام رقع جلدية من الجبهة قد انتشرت فى لندن من خلال مجلة «جنتلمانز مجازين». وفى بداية القرن التاسع عشر فى ألمانيا، كان يوهان فردريش ديفينباخ رائدًا فى اتباع طرق أكثر تقدمًا باستخدام قصبة الأنف لإعادة بناء الأنف الذى أسقطه الزهرى. وفى عام ١٩٩٢، ذبح جراح التجميل الأمريكى روبرت ف. فير، بطة حية فى غرفة العمليات واستخدم عظم صدرها كبديل لقصبة الأنف لرجل فى السادسة والعشرين أصيب بالزهرى.

وكان مصطلح جراحة التجميل، المستخدم منذ أوائل القرن التاسع عشر، ينظر إليه فى أول الأمر على أنه جراحة الأنف. ويقدم لنا جيلمان تواريخ مفصلة للحالات، ومؤلمة فى كثير من الأحيان، لأنوف اليهود، والأنوف الأيرلندية (التى غالبًا ما تربط بآذان الكيزان الشهيرة)، والأنوف الشرقية، والأنوف الزنجية، والأنوف المتورمة، كتلك التى كانت تظهر فى كاريكاتير ج. بيربونت مورجان القاسية. وهو يلعب بما يقال عن أن أنف الرئيس كلينتون به صفة مضحكة مشكوك فيها تعود فى أصلها إلى و.ك. فيلدز.

وابتكرت جراحة جديدة لتحويل الأنوف التى ينظر إليها على أنها أدنى من الناحية العنصرية إلى ملامح مقبولة اجتماعيًا. وعند تحويل أنف «الملاكم» الخاص بالمهاجر الأيرلندى إلى أنف أمريكى حقيقى، أجرى الجراح جون أورلاندو رو من أواخر القرن التاسع العملية داخل الأنف، بحيث لم يكن هناك أى أثر للجرح. وأتقن رو كذلك طريقة لكشط الأورام من على وجه رجل سكير بطريقة كان يمكن أن تحول وجهه إلى وجه رجل من عائلة طيبة. «يمكن للمرء أن يغير ملامح سكير ـ ولكن هل فى مقدوره أن يغير شخصيته؟»، إن مثل هذا السؤال وغيره هو مركز اهتمام كتاب جيلمان.

وهو يروى قصة غريبة ومرعبة، ومضحكة جدًا فى الغالب، عن تغيير الرغبات. وتلاشى إلحاح إخفاء الأصول العنصرية بالقبول الاجتماعى للأعراق التى كانت مهمشة فى الماضى. فها هى الأنوف الأيرلندية الصغيرة المائلة لأعلى التى كانوا يسخرون منها فى يوم من الأيام، وكانت تدل على الطبقات المهاجرة المشكوك فيها التى تعمل بالخدمة، تصبح النموذج الأمريكى والإنجليزى الذى يحتذى فى منتصف القرن العشرين. وأصبح لنجمات السينما أنوف ترتفع لأعلى عند أطرافها، مثل الممثلة الإنجليزية كاى كيندل التى شكل أنفها على هذه الصورة جراح التجميل النيوزيلندى الشهير أرشيبولد ماكينود بطريق الخطأ.

وبحلول منتصف سبعينيات القرن العشرين، وهى فترة بزوغ فجر التفاخر العرقى، أعيد النظر فى العمليات التى تجرى لجعل السود يبدون أقل شبهًا بالزنوج. فقد بات من الخطأ المبالغة فى التصحيح وخلق أنف لا يتناسب من الناحية العنصرية. وأصبح الأنف اليهودى الذى كثيرًا ما يعاب موضع حب، بل وتوقير، فى حالة باربرا سترايسند التى ينظر إليها على أنها وجه مقبول لليهودية.

وكان تقدم تقنية التخدير، وتطهير الجروح هو ما سمح بانتعاش جراحة التجميل، التى تطورت بانتهاء القرن التاسع عشر فى أهدافها إلى ما يتعدى بكثير تصحيح الوجه أو الفرق العنصرى. ويحثنا جيلمان على أن ننظر إلى طموح كل من الجراحين والمرضى المتزايد فى سياق الحركات الفكرية والثقافية التى شهدتها أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين. فقد كانت جزءًا مما يسميه جيلمان «بحرًا من التغيير فى تصورنا لأنفسنا ولأجسادنا».

ونشأ مفهوم جراحة التجميل كمهنة رومانسية بين الجراحين اليهود الألمان فى تلك الفترة. وكان جاك جوزيف، وهو أكثرهم جميعا من حيث تأثيره، يرى نفسه نحاتًا للشكل البشرى، وكان يستخدم تكنيكات من جراحة تجميل الأنف لجعل ملامح مرضاه قريبة من النموذج الكلاسيكى الفنى. وكان الوجه الأنثوى الكامل عنده ذا «بروفيل يونانى رومانى بزاوية وجه قدرها ٣٣ درجة»، ومن المثير أنه استخدم صورة زوجته (غير اليهودية) كنموذج، مشيرًا إلى تشابهه مع صورة امرأة رسمها ليوناردو دافنشى بالقلم الرصاص.

وتغلب جراحو التجميل على مكانتهم المنخفضة نسبيًا فى أوائل القرن العشرين لكى ينالوا الاحترام، بل والتزلف. وفى الحربين العالميتين أصبحوا أبطال الساعة. وذاعت شهرة جاك جوزيف عام ١٩١٦، عندما تولى مسئولية قسم الجراحة التقويمية فى المستشفى الخيرى ببرلين، حيث عالج الجروح الفظيعة التى انتشرت فى حرب الخنادق، وسببها أن وجوه الجنود كانت مكشوفة فوق مستوى المتاريس. وأفضل ما فى كتاب جيلمان، فصل متألق عن الجراحات التكميلية، حيث يعلق بإحساسه شديد السخرية أحيانًا قائلاً: إن النجاح الحقيقى كان يحدث عندما يعود المريض إلى وحدته العسكرية كى يقاتل من جديد.

وكان لـ «المحارب المصاب فى قدرته الجنسية»، كما يسميه جيلمان، موضع بارز ومتأرجح فى ثقافة القرن العشرين. وربما كان جيلمان يشير بذلك إلى سلسلة غريبة تضم اثنين وسبعين رسمًا بعنوان «دراسات لجروح الوجه»، قام بها عام ١٩١٦ فنان بريطانى اسمه «هنرى تونكس»، عندما ألحق بوحدة هارولد جيليز لجراحة الوجه التكميلية بمستشفى كمبريدج فى ألدرشوت. وهذه الرسومات شديدة الدقة، موجودة حاليا فى كلية الجراحين الملكية بلندن. والإحساس بأبهة الجندى المحطمة أمر مؤلم فيما رواه هيمنجواى فى رواية "A Moveable Feast" ، وهى عن المحاربين القدماء الفرنسيين الذين شاركوا فى الحرب العالمية الأولى "Les Gueules Cas-sées"، حيث كانت أشرطة صليب الحرب معلقة فى طيات صدور ستراتهم. «كان هناك دائما لون لامع يكاد يكون متعدد الدرجات فى الوجه الذى أجرى به قدر كبير من الجراحات التكميلية، بدلا من أن يشبه منحدر التزلج الذى سوى تسوية جيدة». ومع أن شكل هؤلاء الرجال مخيف، فقد ظلوا يحظون بالاحترام. ويشير جيلمان كذلك إلى الكونت لازلو ألماسى الذى دمر جسمانيًا، ولكنه كان لايزال واضحًا بقوة فى رواية مايكل أونداتجى «المريض الإنجليزى». فقد خلق أونداتجى «وجه البطل الرمزى وجسده المحروقين حرقًا فظيعًا كعلامة تشير إلى المعارضة الكاملة للحرب».

وشجع الجو البغيض الخادع فى ألمانيا النازية، عناصر الجراحة التكميلية المريبة. فقد قامت بدورها فى صنع آلة هتلر الحربية الكاملة. ففى عام ١٩٣٥، سمح قانون جديد للدولة بإعادة تشكيل جسم أى جندى «رغما عنه إذا اقتضت الحاجة، لاستخراج أقصى ما يمكن من لياقته». وفى إيطاليا الفاشية، كانت الأوامر تصدر لضباط جيش موسولينى بفحص جفونهم، وشدها عند الضرورة بعملية جراحية لتحسين رؤيتهم. وكان اليهود فى عهد الرايخ الثالث يجرون جراحات تجميل كى «يختفوا». وأصبح العضو الذكرى الذى أجرى له الختان أشبه بالكابوس. وكان يطلب من الذكر اليهودى المشتبه فيه الذى يستجوب فى شوارع برلين فى آخر المطاف أن يخلع سرواله. وكان العرب قد دربوا أفراد الاستخبارات الألمانية على التمييز بين الجروح التى تتم فى اليوم الثامن والعشرين بعد الولادة، التى تميز أى مسلم، والجروح التى تتم فى اليوم الثامن، التى تكشف أى يهودى.

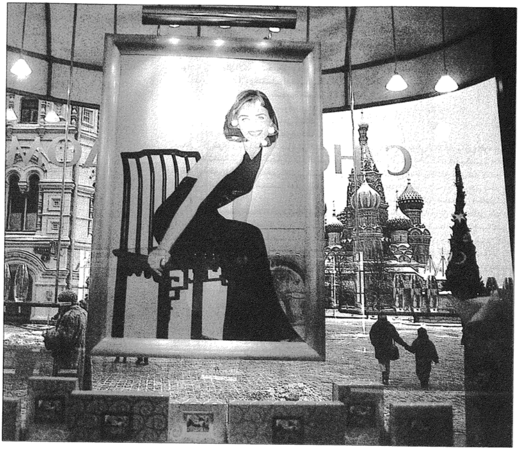
ويكاد يكون من الممكن نقض الختان، مثلما أن إجراءه ممكن. ويعثر جيلمان على نماذج رومانية من العمليات الجراحية لإطالة القُلفة (وهى جلدة الذكر التى تقطع فى الختان) أو تقليدها. وكان اليهود الذين تأغرقوا قد لجأوا لهذه العمليات كى يشاركوا فى الألعاب الرياضية اليونانية، التى كانت محظورة على الرجال الذين أجرى لهم الختان ـ مثلما كان اليهود المتأخرون المستبعدون من المبارزة يذهبون إلى جراحى التجميل لعمل آثار جروح مزيفة للإيهام بأنها ناتجة عن المبارزة. ويشير جيلمان إلى الطلب المتزايد بشدة على نقض الختان خلال العقد المنصرم فى الولايات المتحدة. والاندفاع نحو الترميم الجراحى للعضو الذكرى، الذى بلغ حد «الصناعة الصغيرة». كان يتم على خلفية من الهجوم على الختان، باعتباره ممارسة فيها إساءة قاسية إلى الأطفال، ولا ضرورة لها من الناحية الطبية، ومن انخفاض عدد الأطفال الذكور الذين تجرى لهم عملية الختان ذاتها. غير أننا نجد مرة أخرى أن الرغبات الإنسانية متغيرة. فطبقًا لما ذكره جيلمان، فإن العضو الذكرى «غير المجروح» يعد فى الوقت الراهن هو المرغوب فى دوائر الشواذ فى نيويورك سيتى، بينما العضو الذى أجرى له الختان مرغوب أكثر فى نفس السياق الاجتماعى بألمانيا.

مادام لكل من الرجل والمرأة مؤخرة، فلماذا نجد أن شد المؤخرة فى المقام الأول عملية أنثوية، مثلها مثل تصغير وشد النهود؟ يبين جيلمان كيف أن بعض كتب أوائل القرن العشرين مثل كتاب هافلوك إليس "Studies in Psychology of Sex"، (دراسات فى علم النفس الجنسى)، كانت تتبع نظريات تشارلز داروين التناسلية التى كانت تركز على المؤخرة باعتبارها صفة جنسية ثانوية أنثوية تشتهى بشدة فى الثقافة الأوروبية. وعندما أتقن جراح التجميل البرازيلى إيفو بيتانجوى فى السبعينيات عملية شد المؤخرة التى قلدت على نطاق واسع، قلل ذلك التركيز على النهود وأعاد التركيز على المؤخرة، ليصل إلى صورة لشكل الأنثى يشبه إلى حد كبير «فتاة» إليس الإنجليزية ـ بل وبطلات السير جون بيتجمان المثيرات فى ملاعب التنس بالضواحى.

وطوال قرون عديدة، كانت الأثداء المتدلية تعد دليلاً على الغرابة والبدائية. وتشير دراسة هيرمان هاينريش بلوس الإثنوغرافية عن «المرأة» التى نشرت لأول مرة عام ١٨٨٥، إلى أثداء الجنس «الأسود» على أنها تشبه ضرع الماعز. بل بلغ الأمر بعالم الأنثروبولوچيا «هانز فريدنتال» أن يزعم فى مقالته التى نشرها سنة ١٩٢٧ بعنوان "Muttersprache und Mutter-brust" (لغة الأم وثدى الأم)، أن بنية اللغة البدائية كان يشكلها ضغط ثدى الأم البدائى، مشيرًا إلى أنماط التنشئة بين «الهوتنتوت والبوشمن» وعلى «الأصوات الغريبة الخاصة بلغتهم التى تنسجم مع أثداء الأمهات الشبيهة بالهراوات التى شكلت الشفاه أثناء رضاعة الطفل».

وليس مستغربًا أن التطور الحديث لجراحة تجميل الثدى، تبدأ بالمطالبة بتصغير الحجم. وقد بذل جراحو الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر جهدًا كبيرًا فى تطوير التكنيكات لبلوغ الشكل المثالى لثدى «المرأة الحديثة»، حيث حلت الأثداء الأكثر استدارة صغيرة الحجم محل الأثداء الكبيرة الثقيلة التى عفى عليها الزمن، مما يخفف الضغط على عضلات الظهر ويزيد الثقة بالنفس. وبعد مائة سنة مازال تشكيل الأثداء مرتبطًا بالعرق. ففى البرازيل تشيع عمليات تصغير الثدى بين عائلات الطبقة الوسطى العليا، وكثيرًا ما تقدم كهدية عيد الميلاد لبناتها، عندما تبلغ الفتاة منهن السادسة

شجع الجو البغيض الخادع فى ألمانيا النازية، عناصر الجراحة التكميلية المريبة. فقد قامت بدورها فى صنع آلة هتلر الحربية الكاملة. ففى عام ١٩٣٥، سمح قانون جديد للدولة بإعادة تشكيل جسم أى جندى «رغما عنه إذا اقتضت الحاجة، لاستخراج أقصى ما يمكن من لياقته»



فى أيام «الاتحاد السوفيتى» كان مثيلاتها يوصمن «بالتهتك».. ولكن فى يومنا هذا «تلعلع» صورة «السوبر موديل» منتصرة فى نافذة محال مستحضرات التجميل.. فى الميدان الأحمر

عشرة لتمييزهن عن المراهقات من الطبقات الأدنى، التى تَصمهُن أثداؤهن الثقيلة بأنهن «سوداوات». وعَلى العكس من ذلك، نجد أن الفتيات فى الأرجنتين يملن إلى طلب إجراء عمليات لتكبير الأثداء، تمشيًا مع المفهوم الأسبانى الخاص بكون المرأة ذات النهود الكبيرة مثيرة جنسيًا. وطبقًا لما يقوله جيلمان، فإنه فى هذه الحالة أجريت مليون عملية تكبير للثدى منذ عام ١٩٧٠، وهو ما يساوى واحدة من بين كل ثلاثين أرجنتينية.

والرد الطبى على رغبة الكثير من النساء كبيرات السن فى أن «يتحولن» إلى نساء أصغر سنًا له تاريخ ليس مشرفا على الدوام. ويحدد جيلمان «نموذجين كلاسيكيين». الأول، هو إعادة الشباب الكامل للجسم بوسيلة مثل حقن منى الكلاب (وهو ما فعله براون ـ سيكوار فى پاريس عام ١٨٨٩، وزرع خصيتين كاملتين تبرع بهما أحد القرود ـ رغمًا عنه كما يبدو ـ (وهو ما قام به سيرج أفراموفيتش فورونوف فى پاريس كذلك بعد حوالى عشر سنوات)، ونظام «شتايناك» الخاص بقطع القناة الدافقة الأحادى، الذى كان يغمر الجسم الذكرى العجوز بإضافات «غدة البلوغ». وكانوا يزعمون أن هذا يؤدى إلى زيادة كبيرة فى إحساس المريض بالسعادة. غير أنه عندما أجريت لفرويد عملية «شتايناك» عام ١٩٢٦، بعد إصابته بسرطان فى الفك، أملاً فى أن إعادة الشباب سوف يساعده على الشفاء، كان هو يدرك أنه لا فائدة بالمرة.

وتغطى فئة جيلمان الثانية، العمليات الجراحية لإعادة الوجه والجسم إلى ما يشبه الشباب. كانت هناك زيادة ضخمة، ومازال تتقدم فى الطلب على مثل هذه الأنواع من العلاج منذ إجراء الجراح والمؤرخ الثقافى يوجين هولندرز، أول عملية شد وجه لامرأة من الطبقة الأرستقراطية البولندية عام ١٩٠١. وبينما ظلت الجراحة التكميلية على مستوى مستقر إلى حد ما على مدى العقد الماضى، فإن أحدث الأرقام الصادرة عن الجمعية الأمريكية لجراحى التكميل والتجميل، تبين أن هناك زيادة مقدارها ١٣٥ بالمائة فى «التحسينات التجميلية» التى أجراها جراحو التجميل من عام ١٩٩٢.

ويمكن إرجاع الزيادة فى جراحات التجميل، إلى تقدم التكنيكات والعمليات الأقل خطورة والشفاء الأسرع فى عمليات شد الوجه، التى تتم فى عطلة نهاية الأسبوع، والجراحة السعيدة. وتبدأ عمليات إعادة الشباب فى سن أصغر، وينصح بعض جراحى التجميل فى نيويورك بإجراء عمليات «صيانة» سنوية، مثل إزالة الدهون من الرقبة، والقضاء على التجاعيد المثيرة للقلق للنساء بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين.

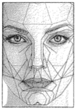
وفى الوقت الراهن، هناك قدر أقل من الاحتيال المرتبط بجراحة التجميل، غير أنه يظل هناك سؤال ـ يسأله جيلمان بذكاء وإنسانية وبإصرار ـ وهو إذا ما كان المظهر الجديد يخفى وحسب المشكلات القديمة، ويخلق مشكلات جديدة غيرها فى أحيان كثيرة أم لا. وعندما نستفيد مما تقدمه جراحة التجميل، هل نقلل بذلك توقعاتنا الخاصة بالتغير الإنسانى، أى بوقار الشيخوخة؟ ما هذا الذى نفعله بأنفسنا؟

فى أواخر القرن التاسع عشر، كان معظم المرضى الذين أجريت لهم جراحات تجميل من الرجال، وتبين الأرقام الحديثة الصادرة من الولايات المتحدة، ارتفاعا فى عدد المرضى الذكور الذين تجرى لهم عمليات شفط الدهون، وجراحة الجفون، وشد الوجه، وغيرها من العمليات «التجميلية». فقد بلغ عددهم ٩٩ ألفا عام ١٩٩٨، مقابل ٥٥ ألفا سنة ١٩٩٢، غير أن أرقام النساء تزداد بمقدار عشر مرات تقريبا. فقد صارت عمليات التجميل أمرًا تسيطر عليه النساء فى القرن العشرين، وكان رد فعل الحركات النسائية تجاهها فى التسعينيات مقسمًا تقسيمًا عميقًا، بل وحادًا فى كثير من الأحيان.

وقد عبرت ناعومى وولف فى كتابها "The Beauty Myth: How Images of Beauty Are Used Against Women" (خرافة الجمال: كيف تستغل صور الجمال ضد المرأة)، كأقوى ما يكون التعبير عن وجهة نظر الحركات النسائية التى تتسم عادة بالارتياب من جراحة التجميل، باعتبارها مؤامرة رأسمالية رجالية. وفى هذا الكتاب، تقول وولف أن مصلحة جراحى التجميل المالية المباشرة الكامنة فى عدد العمليات التى تجرى وحجمها، خلقت مناخًا ثقافيًا تم فيه توجيه المرأة نحو الشعور بأنها قبيحة وشكلها غير ملائم. وعليه، فهى بحاجة إلى علاج. وهى توجز ذلك بقولها: «تنتشر الصناعة الإعلانات وتحصل على التغطية الإعلامية، بينما تنال المرأة الجروح. وهذا السطر من المحاجة لا يحظى بتأييد من جيلمان الذى يشير إلى أعداد النساء الضخمة التى تبحث عن العلاج وتنكر احتمال أنهن جميعا لا يتمتعن بالذكاء.

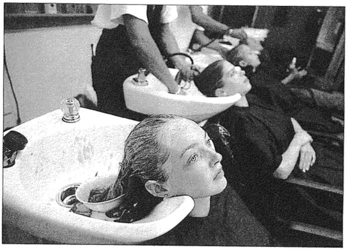
أما وجهة النظر النسائية البديلة، فترى جراحة التجميل على أن فيها تمكينا للمرأة، إذ إن بها تكون المرأة مسئولة مسئولية تامة عن جسمها، ويمكنها إصلاحه إن هى اختارت ذلك. وكان عنصر الاختيار هذا هو العامل الحاسم فى تعليق كاثى ديفيز الغاضب أحيانا "Reshaping the Female Body: The Dilemma of Cosmetic Surgery" (إعادة تشكيل جسم المرأة: معضلة جراحة التجميل)، الذى يقودها إلى نتيجة مفادها أن عملية تصغير البطن يمكن أن تكون صحيحة فى واقع الأمر من الناحية السياسية. وهنا يقدم جيلمان رأيًا تاريخيًا مفيدًا بشأن الدور الفعال الذى يقوم به المرضى فى بدء العلاج. فعلى سبيل المثال، توصلت السيدة الأرستقراطية البولندية التى أجرى لها هولندرز العملية، إلى أول استشارة لها من خلال رسم مفصل يبين كيف أن أثر إزالة جلد الوجه من أمام الأذن سوف يضيق ركنى الفم والثنية الأنفية، وكانت هى التى صممت شكلها الجديد. ويمكن القول بأن أول عملية شد وجه كانت تخصها أكثر مما تخصه هو.

وأكثر المداخلات إثارة فى هذه المحاجة، تأتى من الدكتورة نانسى اتكوف الطبيبة النفسية، التى يقدم كتابها "Survival of the Prettiest: The Science of Beauty" (البقاء للأجمل: علم الجمال)، ردًا سريعًا على ما





تبدأ عمليات إعادة الشباب فى سن أصغر، وينصح بعض جراحى التجميل فى نيويورك بإجراء عمليات «صيانة» سنوية، مثل إزالة الدهون من الرقبة، والقضاء على التجاعيد المثيرة للقلق للنساء بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين





كله تجميل.. سواء كانت العملية صباغة شعر أو قصّه أو إضافة بعض الحمرة على الخدين.. أو كانت العملية جراحة شد وجه وتقويم أنف

قالته ناعومى وولف. فالجمال ليس خرافة فيما يتعلق بالمُنشأ الثقافى أو خلق المعلنين الموجهين للآراء. وترى وولف الأمر على أنه متأصل فى طبائعنا، حيث تزعم أن ما نقوم به من «سعى حثيث نحو الجمال يعكس آثار غريزة أساسية ما». وهى تنقل عن أفلاطون قوله: «أمانى المرء الثلاث هى أن يتمتع بالصحة، وأن يكون غنيًا بالوسائل الشريفة، وأن يكون جميلا». كما تورد افتراض جورج سانتايانا، بأنه لابد أن «فى طبيعتنا ذاتها ميلا أساسيا وشائعا إلى مشاهدة الجمال وإلى تقديره».

وردها المحدد على وولف، هو أن شارع ماديسون، حيث تجرى أغلب جراحات التجميل، يستغل أفضلياتنا العمومية ولم يخلقها. وتتراوح مراجع اتكوف بصورة محيرة بين دوريات الأنثروبولوچيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الأكاديمى، وبين كتب تاريخ الموضة والجمال الأكثر شعبية، وكتاب هنرى جيمس "Letters"، وكتاب أوفيد "Erotic Poems"، وملاحظتها هى شديدة المعاصرة والحرفية للطريقة التى يتصرف بها الناس. وهى تزعم أن تقييم مظاهر الناس وتقدير مدى جاذبيتهم عملية آلية ومستمرة. كما تقول: «يمكننا أن نرى وجها ما لمدة جزء من الثانية (١٥٠ مليثانية فى إحدى تجارب علم النفس)، ونقدر جماله، بل ونعطيه نفس التقدير الذى كنا سنعطيه إياه فى حال فحصه لفترة أطول». وهذا صحيح تماما.

ومنذ خمسين عامًا، حدد كونراد لوزنز المتخصص فى علم الأعراق البشرية، تدفق الرقة الإنسانية الذى تحدثه ملامح الطفل الرضيع، الذى لا حول له ولا قوة. وتقوم اتكوف ببحث جديد لبيان أن الوالدين أكثر عاطفة فى سلوكهما نحو المولود الجديد الذى يعد جذابًا من الناحية الجسمانية. وكما قالت الملكة فكتوريا في يوم من الأيام، فإن «المولود القبيح شىء شديد البغض». ويختلف الأطفال الرضع أنفسهم فى ردود أفعالهم. ففى الشهر الثالث يمكن رؤيتهم وهم يحملقون فى الوجوه الجذابة فترة أطول من تلك التى يحملقون فيها فى الوجوه غير الجذابة.

وتصف اتكوف مدى سيطرة «النظرة» على تعاملاتنا مع بعضنا البعض، وإن كان هذا بلا وعى. فالذين يوصفون بالجمال، رجالا كانوا أم نساء يعاملون معاملة فيها تفضيل، وهم يجدون شركاء حياة بطريقة أيسر. كما أن إمكانية حصولهم على وظائف أحسن، وغالبًا ما تصدر ضدهم أحكام أخف فى المحاكم، وهم يحصلون على العون والمساعدة بطريقة أسهل، وعندما عرضت على خمسة وسبعين طالب جامعة، فى اختبار أجراه أحد علماء النفس، صورًا فوتوغرافية لنساء على درجات متفاوتة من الجاذبية، وطلب منهم أن يقولوا أى منهن سوف يسرعون بنقل أثاثها، أو إقراضها المال، أو التبرع لها بالدم، أو التبرع لها بالكلى، أو إنقاذها من مبنى يحترق، وغيرها من أعمال الفروسية، حصلت الجميلات على أكثر الإجابات كرمًا فى كل المجالات ما عدا إقراض المال. ويبدو أن الرجال أقل احتمالاً لأن يطلبوا مساعدة النساء جميلات المنظر. وبالطبع فإن مثل هذه الإجابات التى أظهرها الاستبيان، تثير أسئلة عن مطابقتها للسلوك الفعلى، وهى مسألة يصعب بحثها.

فيم يكمن الجمال إذن؟ تزعم اتكوف أن الجنس البشرى يرى أن الجمال هو «تلك الصفات الجسمانية التى توحى بصلاحية الزواج، والقدرة على الإنجاب، والصحة، والشكل الجيد». وهذه صفات عامة وتخضع لتأويلات مختلفة فى كل ثقافة. وتظل أسباب الاختلافات المعينة غامضة فيما تقوله اتكوف. وفى الماضى رأى علماء الأنثروبولوچيا وعلماء النفس أن الوجه الجميل «متوسط»، بمعنى أن تكون له ملامح أواسط الناس ـ وهى قراءة ترتبط بنظريات جيلمان عن «الانتقال». غير أن اتكوف تورد المزيد من البحث كى توحى بأنه فى ثقافتنا التى تضع فى اعتبارها المشاهير، نجد أنه من بين أجمل النساء جميعا، تختلف قليل من ملامح الوجه «المتوقعة» عن المألوف. فشفاه ناعومى كامبل وكريستى تيرلنجتون تختلف عن شفاه معظم الناس. كما أن ما لدى كيت موس من «عظمتى فك ناتئتين وخط فك رقيق» لا يمكن تقييمه على أنه عادى. وفى دنيا السحر والجمال هناك كذلك تركيز غير عادى على الشباب، وعندما يتم إدخال نسب وجه فتاة غلاف على مجلتى «فوج» و«كوزموبوليتان» فى الكمبيوتر، فإن المرء يخمن أنهما طفلتان بين السادسة والسابعة من العمر.

ويمكن أن يسيطر الاعتقاد بكون المرء جذابًا أو غير جذاب على حياته. وتستشهد اتكوف بتولستوى، الذى كان يرى أنه لا أمل فى السعادة على الأرض بالنسبة «لرجل بمثل هذا الأنف العريض، وهاتين الشفتين الغليظتين، وهاتين العينين الرماديتين الضيقتين كما هو حالى». ولكن المرء يتساءل إذا ما كان تولستوى أو بالأحرى جورج إليوت كان سيكتب بمثل ذلك الطموح أو ذلك العمق لو أنه كان أكثر جمالاً بالمعنى التقليدى. ويحدث الوعى بعدم القبول الجسمانى ردود فعل قوية فى كثير من الأحيان. وتنكر اتكوف خلال مراجعتها لأعداد الأمريكيين الذين أجروا طواعية عمليات تجميل تنطوى على شق جلدهم أو حرقه، أو شفط دهونهم، أو زرع مواد غريبة، أن هذا يشى بثقافة مريضة داخل أمريكا فى الوقت الراهن. خلال التاريخ البشرى، قام الناس بعمل ندوب فى أجسامهم ولونوها وثقبوها وحشوها وصلّبوها ونتفوا شعرها ولمعوها باسم الجمال. وحقيقة أن أربعمائة امرأة كانت تجرى لهن عمليات زرع أثداء قبل منع هيئة الأغذية والأدوية لها عام ١٩٩٢، قد تشير إلى درجة متزايدة من التهور والطيش. ولكن التصرف بطريقة تورد الإنسان موارد الألم والخطر ليس بالأمر الجديد.

وكما هو حال الأثداء، فإن عدم رضا الرجل عن عضود، يمكن أن يدفعه إلى أشكال يائسة من العلاج. والدافع الرئيسى وراء قيام عشرة آلاف أمريكى لجأوا إلى الجراحة لإطالة أعضائهم أو زيادة عرضها ليس فى كثير من الأحيان، هو انتقاد شريكة الحياة، أو ما تصفه اتكوف بأنه «فوبيا غرفة خلع الملابس»، أى السخرية التى يتخيلها الرجل من أقرانه. وربما زادت حدة الفزع بعد التقارير التى تشير إلى حدوث انخفاض عام فى حجم العضو الذكرى الأمريكى.

ورغم أنها تقول فى مقدمتها بأن محاجتها سوف ترشدها الأبحاث المتطورة فى العلوم المعرفية وعلم النفس الارتقائى، وجدت نفسى أتمنى لو كان كتابها أكثر علمية وأقوى من الناحية الفكرية، وخاصة فيما يتعلق بمسألة مدى ثقتنا فى نتائج الاستبيانات. وهى تكتب بأسلوب جذاب، غير أنها تفتقر إلى قدرة جيرمين جرير علي أن تكون لها نظريتها الخاصة بها فيما يتعلق بوضع ما يبرر قبول جراحة التجميل. وكتابها المثير للتفكير يجعلنى أعيد النظر فى الأفكار المكتسبة عن الملاحظة والمتعة والسحر والموضة والجمال الطبيعى والاصطناعى، ويترك لدى شعورا بانه مازال هناك الكثير الذى يجب أن يقال. ■

كتاب الزاوية

حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٣)
العزلة فى العلم والأدب

قال عيسى بن هشام: واعتزلت بالباشا مدة من الدهر، نستملح العزلة، ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيهاعيش الحكماء، من حسن الرضاء، بحسن الاكتفاء، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه، وإغماض الجفون على قذاه، مؤتنسين كل الائتناس، بالوحشة من الناس، بعد الذى شهدنا من أعمالهم ورأينا، وسمعنا من أقوالهم ووعينا وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا: عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى.

وعكفت مع الباشا فى عزلتنا، أذهب به كل مذهب، وأنتقل به من مطلب إلى مطلب، فى مطالعة الأسفار والكتب، من تاريخ وأدب، ومن حكم متينة قويمة، وشتى علوم حديثة وقديمة، أهديه من كل طرف بطرفة، وأتحفه من كل باب بتحفة، وأجتنب معه ما يدعو إلى الضجر والملل، ويدنى من الكد والكلل، فتارة أخوض معه عباب البحار، وطورا أجتاز به سراب القفار، فنرى من يحرق فى البحر مراكبه، ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه، ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته، ويشبب بمعشوقته، ثم لايقعد به ذل الغرام، عن التفاخر بعز الكرام، ولاينسيه ذكر الهوى، مواقف الحتف والردى، فيخلط بالغزل الفخر، ويخاطب صاحبه من جوف القفر.

ثم أدخل به فى مطالعتنا إلى حلقة حكيم واعظ، يسلب الألباب بقوة بيانه ويخلب العقول بضوء برهانه، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه.

وهكذا قضيت مع الباشا زمنا ليس بقصير، أستخرج له نفائس الأعلاق من بطون الأوراق وأقتطف معه زهر الأدب العاطر من حدائق الكتب والدفاتر.

على أنقاض الشيشان .. بـوتـن إلــى الكريملـن

سـيــرجى كـوفــاليف

هل دخلت روسيا الحرب «الثانية» مع الشيشان لكى يصعد فلاديمير بوتن إلى سدة الرئاسة؟

وإلى أى مدى يمكن اعتبار أصلان مسخادوف الذى انتخب فى يناير ١٩٩٧، رئيسا للدولة «الجار» الصغيرة، والتى لا يتجاوز تعدادها مليون نسمة من المزارعين البسطاء مسئولا باعتداله أو «بتساهله» عن إعطاء الفرصة لأولئك الباحثين عنها فى الكرملين للقضاء على بلده وإبادة شعبه، لأسباب «موسكوفية» داخلية بحتة. وتحت رايات نجحوا فى أن يكتبوا عليها الشعارات الأكثر رواجا هذه الأيام: «القضاء على الإرهاب».

يحاول سيرجى كوفاليف الإجابة عن هذه الأسئلة، فى مقال «متشائم» يعيد فيه النظر فى مقال آخر كتبه قبل أكثر من عامين فى أعقاب حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤-١٩٩٦) موضحا أن القضية لم تكن أبدا «بقاء الشيشان جزءا من الاتحاد الروسى»، وحسب رؤيته الجديدة، يبدو أنه كان «متفائلا» أكثر مما ينبغى.

■■ فى سنة ١٩٩٧ نشرت مقالاً حاولت فيه الوصول إلى بعض النتائج بشأن حرب الشيشان التى وقعت فى الفترة من ١٩٩٤ إلى ١٩٩٦، وكان رئيسا روسيا والشيشان قد وقعا للتو اتفاقية رفضت استخدام القوة أو التهديد باستخدامها وأجلت التسوية النهاية للعلاقات الشيشانية الروسية حتى سنة ٢٠٠١، بدا لى وقتها أن الحرب انتهت إلى الأبد وأن الوقت قد حان لتلخيص الأحداث الأخيرة.

كنت مخطئاً كل الخطأ فى ذلك. إلا أنه فى ذلك الوقت لم يكن هناك من يحلم، ولو فى أشد كوابيسه سوءاً، بأنه سيكون فى روسيا ساسة لهم من العقل والذاكرة السليمين ما يجعلهم يستأنفون حرب الشيشان على مستوى يفوق ما كانت عليه فيما سبق. بل كان من الأصعب تخيل أن الحرب لن تحظى بدعم الشعب الروسى وحسب، بل ستؤدى إلى انقسامات سياسية غير مسبوقة فيما يتصل بالزعماء الروس الذين يشرفون عليها، وخاصة فلاديمير بوتن الذى يدين ببلوغه الرئاسة بصورة كبيرة إلى مساندته للحرب.

ولكى يفهم القراء الأمريكيون الطريقة التى حدث بها ذلك التحول الذى لم يفكر فيه أحد فهماً تاماً، عليهم أن يتخيلوا للحظة أنه فى سنة ١٩٧٨، مثلاً، استأنف رئيس الولايات المتحدة الحرب فى فيتنام. بل وأن هذا العمل حظى بتقدير كل الأمريكيين - من عمال المناجم والمزارعين حتى أساتذة الجامعة والطلاب. هذا بالضبط هو ما حدث فى روسيا أخيرًا.

أولا وقبل كل شىء لا بد أن أوضح أن جزءاً ضخماً من الذنب فيما يتصل بما حدث يقع على عاتق الشعب الشيشانى وقادته.

ففى الشهور الأولى التى أعقبت انتهاء العمليات العسكرية بدا أن هناك فرصة لإقامة نظام ديمقراطى فى شيشان ما بعد الحرب، وهو النظام الذى كان سيعمل طبقاً لحكم القانون. وفى رأيى أنه لو كان ذلك قد حدث لما كانت هناك أهمية لبقاء الشيشان جزءاً من الاتحاد الروسى أو عدمه. وفى يناير ١٩٩٧ انتخب أصلان ماسخادوف رئيساً



للشيشان. وكان ماسخادوف زعيماً معتدلاً ومسئولاً ورجلاً يفضل بالتأكيد النموذج العلماني للتنمية على «الدولة الإسلامية».

ومن المؤكد أنه كانت هناك مخاوف خطيرة بشأن المسلك الشيشاني في ذلك الوقت. فابتزاز الشعب الروسي المحلي المتبقي في الشيشان واستخدام العنف ضده، بما في ذلك عمليات الاختطاف للمطالبة بالفدية أو الاستعباد، لم تتوقف بانتهاء الحرب ولكنها ازدادت أكثر وأكثر. ولم تبذل السلطات الشيشانية الجديدة أي جهد لوقف هذا النشاط الإجرامي، رغم أنه في بلد ضئيل الحجم مثل الشيشان، الذي يقل عدد سكانه عن المليون، كان كل إنسان يعرف معرفة تامة أياً من رفاق ماسخادوف السابقين يحقق ثروة من تجارة الرقيق، وأين يحتجز الأسرى، وكيف كانت الفدية تبتز، وغيره وغيره. إلا أنه بعد كل بلاغ عن اختطاف لضحية معروفة، كان رئيس الشيشان يدلي ببيانات عامة يشرح فيها الأحداث بلغة غامضة وغير مقنعة بالمرة مثل «استفزاز الاستخبارات الروسية». لم تكن هناك أية مساعي لإنقاذ الأسرى. ولم تكن هناك أية محاولات لملاحقة منظمي تلك الجرائم أو معاقبتهم.

وكان اختطاف العديد من الصحفيين أمراً بغيضاً جداً. فقد كان هؤلاء هم من ظلوا عامين يعرضون حياتهم للخطر الشديد، وكانوا يخبرون الروس والعالم بحقيقة الحرب. وكان الشيشان مدينين لهم بالسلام، مثلما هم مدينون للانتصارات العسكرية التي حققتها الميليشيا الشيشانية.

ولم تكن الحقيقة بحاجة إلى وقت طويل كي تتجلى. فقد توقف المراسلون عن العبور إلى الشيشان، وتكون موقف جديد تماماً ومعارض بشدة للجمهورية بين الصحفيين الروس. ويصعب على توجيه اللوم لموقفهم العدائي من الشيشان.

بل إنه بدأ العمل بأحكام الشريعة الإسلامية في الشيشان بصورة شديدة القسوة، بما في ذلك العقاب البدني، وبتر الأطراف، وإذاعة تنفيذ الإعدام على شاشة التلفزيون المحلي. كل هذا أجبر المتعاطفين مع الشيشان على الشك في مدى صدق نوايا ماسخادوف للدفاع عن الطابع العلماني للدولة - وهي بالمناسبة تلك النوايا التي لم يقلها علناً - أو على الأقل الشك في صدق عزيمته.

ومما يؤسف له أن المخاوف التي أعربت عنها بشأن مستقبل الشيشان في مقالي المنشور سنة ١٩٩٧ ثبت أنها تقوم على أسس سليمة. ففي خلال السنوات الثلاث المنصرمة لم يكن رئيس الشيشان وحكومتها على استعداد للمخاطرة باتخاذ إجراءات حاسمة لإحلال النظام في الجمهورية. وأسباب ذلك واضحة - فقد كانوا يخشون من أن أول خطوة ثابتة يخطونها سوف تؤدي إلى انتفاضة وحرب أهلية. غير أن جبن ماسخادوف أدى إلى نتيجة أكثر سوءاً، وهي الفقدان التام للسيطرة على البلاد وانتقال السلطة الحقيقية إلى أيدي من يسمون «قادة الميدان»، ومن بينهم رجال مثل تاجري الرقيق آربي بارايف ورسلان خيخورويف، والارهابيين سلمان رادويف وشامل باسايف، والمتعصب الإسلامي الأردني خطاب، الذي يؤكد كثيرون على أنه حليف من حلفاء أسامة بن لادن. واختفت آخر آثار نظام الدولة في المواجهة بين الحكومة وقادة الميدان.

بعبارة أخرى، لم يعد هناك وجود لجمهورية الشيشان التي كان يرأسها اتشكيريا - ولو كـ«جمهورية إسلامية». وبدلاً من ذلك تكون ثقب أسود في خريطة العالم يهبط منه رجال ملتحون، يقودون شاحنات كاماز ويحملون الكلاشنكوف، من حين لآخر على المناطق المجاورة من روسيا. وفي بعض الأحيان يستولون على الماشية ويختفون بها، وأحياناً أخر يستولون على الناس. ولا يعرف أحد على وجه الدقة ماذا كان يجري بالفعل في أرض الشيشان نفسها.

إن ما نعرفه هو أن باسايف وخطاب شنا في شهر أغسطس «حملة تحرير» في داغستان المجاورة. ويبدو أنهما وغيرهما من قادة الوحدات الشيشانية التي غزت داغستان كانوا يرون أنفسهم «محاربين عالميين في سبيل الله»، أو لنقل أن كلاً منهما يرى نفسه تشي جيفارا إسلامياً. وكان هؤلاء متأكدين من أن المؤمنين على الجانب الآخر سوف يلقونهم بأذرع مفتوحة. غير أنهم كانوا مخطئين في ظنهم. فقد قابلهم الداغستانيون بالسلاح. بل إن بعض الشيشان - داخل داغستان وفي المناطق الحدودية الشيشانية نفسها - حاولوا منع الغارة المجنونة. لقد أدركوا العواقب التي ستنتج عنها. وقيل إنهم قالوا لرجال باسايف وخطاب: «لن تمروا إلا على جثثنا». وكان رد هؤلاء هو: «لا بأس يا جند الله». وهكذا سمحت الدوريات الريفية الشيشانية غير الرسمية في المناطق الحدودية لهم بالعبور.

وليس من حقي إصدار حكم على الفلاحين المسالمين الذين استسلموا أولئك الإسلاميين المسلحين تسليحاً ثقيلاً. وفي اعتقادي أنهم لو كانوا يعلمون كل نتائج مغامرة داغستان لفضل كثيرون منهم المخاطرة بأرواحهم، بدلاً من عبور الإسلاميين حدودهم. ولو كان للرئيس ماسخادوف أن يتنبأ بكل النتائج (وهو ما كان من واجبه القيام به)، لفعل كل ما في إمكانه لمنع الإغارة على روسيا من أراضي الشيشان، حتى لو كانت في ذلك مخاطرة بنشوب حرب أهلية.

ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، نفذ الجيش الروسي في داغستان مهمة تحرير حقيقية. فقد حمى سكان داغستان من الهجوم الخارجي. غير أن أداء الجيش كان سيئاً. فقد لحقت به خسائر من نيران مدفعيته وضرباته الجوية. كما أنه ظل أسابيع عاجزاً عن استعادة عدة قرى جبلية كان قد استولى عليها باسايف وخطاب؛ ولم يحذر سكان تلك القرى الآمنين بشأن استخدامه الوشيك للمدفعية والقصف الجوي. كما شاركت القوات الروسية في أعمال السلب والنهب والعنف ضد الناس في المناطق المحررة، رغم أن سلوكهم كان معتدلاً إلى حد ما، مقارنة بالحرب السابقة. إلا أن الجيش في نهاية الأمر أنجز مهمته. وتشتت بعض الغزاة الإسلاميين، بينما أجبر آخرون على العودة إلى الشيشان.

ومن الواضح أنه عند هذه النقطة ولدت في رأس جنرالات موسكو وساستها فكرة رهيبة، وهي استغلال قوة الدفع الناجمة عن انتصار داغستان لشن حرب جديدة مع الشيشان.

قصة الانفجارات التي وقعت في موسكو شديدة الغموض.. ومع ذلك فمن الصحيح أن عالم الإرهاب وعالم الاستخبارات لم يفصل بينهما سور يمنعهما من الاندماج، ولاتوجد أدلة تدين الشيشان، ولكن غياب الأدلة لم يمنع بوتن من استغلالها بصورة مخجلة

ومن السهل معرفة ما كان يبغيه الجنرالات. فقد أرادوا الانتقام لهزيمتهم النكراء في الحرب السابقة. أما دوافع الساسة فهي أكثر تعقيداً. حاولت مؤخراً وصف بعضها في صحيفة «دي فيلت» التي تصدر في برلين:

إن استئناف الحرب بالنسبة للساسة الروس الرجعيين انتقام كذلك، ولكنه انتقام من «الليبراليين البغيضين» و«المتشدقين غير المسئولين» الذين أثاروا الرأي العام في ١٩٩٤-١٩٩٦ ضد الاستعراض الدموي لقوة الدولة الروسية.

غير أني أخشى أن يكون هذا التأويل شديد التبسيط. فقد قللت من شأن مستوى السعي وراء المصالح الشخصية الذي يسود الحياة السياسية الروسية المعاصرة. صحيح أن «الساسة الروس الرجعيين» - وهم مؤيدو الجماعات القومية والعديد من فصائل الحزب الشيوعي - كان سيسعدهم التخلص من «الليبراليين البغيضين» وكذلك من قيصر الكريملين العاجز الذي أجاز اتفاقية وقف إطلاق النار في بلدة خاسافيورت في ٣١ أغسطس ١٩٩٦. ووقع الاتفاقية في موسكو في مايو ١٩٩٧ غير أنه لم تواتهم الفرصة لتحقيق ذلك.

واستخدم آخرون حرب الشيشان الجديدة كذخيرة سياسية. ويأتي على رأس هؤلاء فلاديمير بوتن وغيره من المقربين للكريملين. ففي ذروة العمليات العسكرية في داغستان في الصيف الماضي، عزل يلتسين رئيس الوزراء سيباشين وعين محله بوتن. بل إن الرئيس سمى بوتن علناً ليكون له «وريثاً للعام ٢٠٠٠» - وهو الإعلان الذي لم يثر في ذلك الوقت سوى الضحك. فهو بحق يبدو أمراً مضحكاً. أول كل شيء، كيف يمكن للرئيس الحالي أن «يعين» الرئيس القادم - هل نحن نعيش في هاييتي أو ما شابه ذلك؟

الأمر الثاني هو أن بوتن رجل ذو وجه يصعب وصفه من الناحية المهنية. فبما أنه كان مديراً سابقاً للاستخبارات الروسية، فلم يكن معروفاً في واقع الأمر للجمهور بصورة عامة. وبدا الأمر وكأنه ليست لديه أية فرصة بالمرة للفوز في حملة انتخابية ضد الساسة المحنكين أمثال ايفجيني بريماكوف رئيس الوزراء السابق، أو يوري لوزكوف رئيس بلدية موسكو، أو جنادي زيوجانوف زعيم الحزب الشيوعي الروسي. والأمر الثالث أنه بعد الأزمة المالية التي حدثت في أغسطس ١٩٩٨، كانت سمعة يلتسين من السوء بحيث كان دعمه لأي مرشح يعني كارثة للشخص الذي يدعمه.

ومع ذلك لم ينزعج بوتن. فقد أكد أنه لا يعتزم دخول انتخابات الرئاسة، غير أن أهم شيء في ذلك الوقت كان الحرب في داغستان. وكان لذلك أثره الكبير على الجماهير - وحقيقة الأمر أنه بدا حكماً سليماً. فهل يمكن أن يكون هناك ما هو أهم بالنسبة للحكومة من العمليات العسكرية التي تجرى على أراضيها؟

وبعد مغادرة القوات الشيشانية لداغستان وعودتها للشيشان في شهر أغسطس، أعلن بوتن أن الوضع الراهن في الشيشان لا يمكن السكوت عنه - وهو ما كان صحيحاً. كما قال إن الحكومة لا يمكنها التوقف الآن: إذ إن عليها ضرب قواعد الشيشان، «حتى لو كانت على الأراضي الشيشانية». (وهذا المنطق مفهوم كذلك - غير أنه يتجاهل مشكلة أساسية، وهي كيف يمكن تمييز «القاعدة الإرهابية» من أية قرية شيشانية عادية؟)

بدأ بوتن بإرسال قوات إلى حدود جمهورية الشيشان. وأخذ كثيرون أقواله وأفعاله على أنها مجرد استعراض للقوة العسكرية لمصلحة ماسخادوف وغيره من الزعماء الشيشان الرسميين، وحركة يقصد بها إجبارهم على التحول، على أقل تقدير، من مجرد الإدانة اللفظية للمتطرفين الإسلاميين إلى اتخاذ إجراءات فعالة ضدهم. إلا أن المراقبين الواعين كانوا يرون أن دوافعه واضحة. فرئيس الوزراء الجديد لم يكن يعتزم الاقتصار على التهديدات. بل إنه لم يسع إلى بدء الاتصالات مع الحكومة الشرعية في الشيشان. كما أنه لم ير ضرورة لعرض موعد نهائي على ماسخادوف. لقد كان راغباً في الحرب، وكان سبب رغبته واضحاً.

كان موعد الانتخابات البرلمانية سيحين بعد ثلاثة أشهر ونصف - وهي بمثابة

البروفة بالنسبة لانتخابات الرئاسة التى تجرى فى يونيو ٢٠٠٠ ـ وكان هناك احتمال كبير أن تحقق الحركة المسماة «الوطن الأم ـ كل روسيا» (وتضم فى معظمها مديرى الشركات السوفيتية السابقين والقادة الإقليميين الأقوياء)، والمعارضة ليلتسين ومؤسسة الكريملين، نصراً كبيراً فى هذه الانتخابات. وكان المرشح الرئاسى الذى تمت مباركته حديثاً سيدخل فى تنافس مع زعماء هذه الحركة، الذين هم أكثر الساسة شعبية فى البلاد، مثل يورى لوزكوف وايفجينى بريماكوف.

وكانت الطريقة الوحيدة التى يمكن بها لبوتن تحقيق أى انتصار سياسى على منافسيه فى موسكو هى تحقيق انتصار عسكرى. ولم تكن داغستان بكافية. ولكن هل سيؤيد الرأى العام استئناف العمليات العسكرية فى القوقاز؟ على أية حال، لم تكن قد مرت سوى ثلاث سنوات على تعبير الجماهير الروسية عن ارتياحها عند توقيع اتفاقية خاسافيورت سنة ١٩٩٦، صحيح أنه منذ ذلك الوقت فعل الشيشان الكثير، مما قضى على أى تعاطف معهم قد يكون لدى الروس. إلا أن الغزو المسلح لداغستان لم يكن كافياً لتقوية الموقف المعادى للشيشان فى المجتمع الروسى، بحيث يقر أية مغامرة عسكرية جديدة. وقرب نهاية شهر أغسطس بدت الحملة الجديدة فى الشيشان أكثر من مشكوك فيها.



كانت الطريقة الوحيدة التى يمكن بها لبوتن تحقيق أى انتصار سياسى على منافسيه فى موسكو هى تحقيق انتصار عسكرى

وتحرك بوتن بحذر. إذ أعلن أن الحكومة لا تتحدث عما يزيد على تأمين الحدود مع الشيشان. (وكان يكذب بالطبع؛ فبعد أسبوعين فقط بدأ غزو واسع المدى ـ وعمليات كهذه لا يمكن تخطيطها فى أسبوعين). وبعد ذلك ذكر أنه لضمان أمن القوات لا بد من احتلال بضعة رؤوس تلال على الأراضى الشيشانية. وبالطبع مضى الأمر دون القول بأن أحداً كان يتحدث بالفعل عن الحرب، حاشا لله! فالحكومة كانت تسعى فقط لضمان أمن المناطق المجاورة.

فى ذلك الوقت، وكان شهر سبتمبر، دوت الانفجارات فى موسكو وفولجودونسك ـ وهى الانفجارات الليلية التى حدثت فى المبانى السكنية التى أدت لمقتل ما يربو على مائتى شخص.

كانت تلك الانفجارات لحظة مهمة فى كشف تاريخنا الراهن. فبعد أن انتهت الصدمة الأولى، اتضح أننا نعيش فى بلد مختلف تمام الاختلاف، ليس فيه من يجرؤ على الحديث عن الحل السياسى السلمى للأزمة مع الشيشان. وكان السؤال المطروح هو كيف يمكنك التفاوض مع أناس يقتلون الأطفال ليلاً فى أسِرَّتهم؟ إن الحرب، والحرب وحدها، هى الحل؛ وما نريده ـ حسب لغة الكثير من الساسة بمن فيهم فلاديمير بوتن ـ هو القضاء الذى لا رحمة فيه على «الخصم» كائناً من كان، ومهما كانت الخسائر، وبغض النظر عن عدد المدنيين العزل الذين سيموتون أثناء ذلك، ودون أى اعتبار للجنود الروس الذين سيجودون بأرواحهم من أجل الانتصار العسكرى ـ ما دمنا سندمر «عش الدبابير الخاص بالإرهابيين» إلى الأبد. ولا يهم من يكون هذا «الخصم» ـ المقاتلان باسايف وخطاب، أو الحرس المختار للرئيس ماسخادوف (الذى لم يكن له شأن بالغارة التى شنت على داغستان، ولا بتفجير المبانى السكنية فى المدن الروسية بطبيعة الحال)، أو مجرد أحد أفراد الميليشيا المحلية الذى يدافع عن قراه ضد القوات الروسية التى اكتسحتها على حين غرة.

وبدأ الساسة الروس فى استخدام لغة جديدة ـ وهى لغة عالم الجريمة. وكان رئيس الوزراء المعين حديثاً أول من يعطى الشرعية لهذه اللغة بتصريحه العلنى «أننا سوف ندفنهم فى قمامتهم». وعقب قول ذلك أخذت شعبية بوتن تزداد فى استطلاعات الرأى زيادة فلكية. فهاهو «شخص صلب» يمسك أخيراً بعجلة القيادة.

وصار للمصطلحات القديمة مدلول جديد. وهكذا سرعان ما باتت كلمة «إرهابى» لا تعنى شخصاً ينتمى لإحدى الجماعات السرية الإجرامية التى كان هدفها هو القتل. فقد صار معنى الكلمة هو «الشيشانى المسلح» ـ أينما كان. وكانت التقارير العسكرية من داخل الأراضى الشيشانية صريحة فى ذلك: «حوصرت مجموعة تضم ثلاثة آلاف إرهابى فى جوديرميس»؛ «تمت تصفية ألفين ونصف من الإرهابيين فى شالى». بل إن الحرب نفسها لم تعد تسمى سوى «عملية القوات الروسية الخاصة المناوئة للإرهابيين».

وفى الخريف الماضى، تجمعت أعداد كبيرة من القادمين من منطقة القوقاز، وما زال التحرش مستمراً فى الوقت الراهن؛ وكان هناك كلام عن إقامة «نقاط احتجاز مؤقتة» فى ضواحى موسكو «للأفراد المقيمين فى العاصمة دون حيازة التوثيق اللازم» ـ أى لأهل القوقاز الذين ليس لديهم من المال ما يكفى لشراء ذمة الشرطة. ويبدو أن «نقاط الاحتجاز المؤقتة» تلك، أو فلنسمها صراحة معسكرات اعتقال، لم تتم إقامتها بالمرة ـ مع أن العزم على إقامتها كان أكيداً. غير أن أحداً بخلاف حفنة من المدافعين عن حقوق الإنسان لم تصدمه تلك الأفكار البربرية.

بل إن موقف المدافعين عن حقوق الإنسان ذاتهم تغير واكتسب الاسم مدلولاً جديداً. فاليوم يعتبر العاملون فى مجال حقوق الإنسان ومنظماتها على رأس أعداء البلاد فى الداخل، فهم «الطابور الخامس» الذى تدعمه المؤسسات الغربية (ويقصد بها الاستخبارات)، ويقوم بانشطة هدامة ضد روسيا. ونشرت سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع ليس فقط فى بعض الصحف الصفراء القومية الوطنية، بل كذلك فى أكثر من صحيفة من الصحف رفيعة المستوى فى صحافة روسيا الحرة ـ واقصد بها «نيزافيسمايا جازيتا».

ويتضح أن المدافعين عن حقوق الإنسان والصحافة «غير الوطنية» يتحملون وزر الهزيمة التى لحقت الجيش الروسى فى حرب الشيشان الأولى. فقد خلقت تقاريرهم تعاطفاً مع معاناة الشعب الشيشانى، مما أدى إلى تشويش الرأى العام. وبالمناسبة، لا يتهم أحد أياً من المدافعين عن حقوق الإنسان أو الصحافة بترويج معلومات زائفة أو أحادية. فهم متهمون فى واقع الأمر بنقل الأحداث نقلاً موضوعياً.

لقد ضرب القادة حصاراً إعلامياً غير مسبوق حول الشيشان. غير أنه تسربت بعض الروايات عن الفظائع التى ترتكبها القوات الروسية ـ مثل قتل المدنيين ـ ووقعت فى منطقة الصراع العسكرى و«المناطق المحررة». وهذه التقارير بحاجة إلى بحث منظم ومستقل ولا يمكننى تأكيدها بصورة محددة؛ غير أنه بكل أسف ليس لدى كذلك سبب لعدم تصديقها. ولم يكن القادة مضطرين لفرض حصار إعلامى. ففى تلك المرات التى عرفت فيها تقارير التدمير والخسائر التى تقع فى صفوف السكان المسالمين فى جروزنى المحاصرة طريقها إلى شاشة التلفزيون، كانت لم تعد تثير اشمئزاز المشاهد الروسى.

قد يمكن تلخيص الوضع الذهنى الراهن فى روسيا فى كلمتين، هما «هستيريا الحرب». وبطبيعة الحال لم تكن انفجارات المبانى السكنية العامل الوحيد الذى سببها. فيبدو أن الرأى العام فى روسيا، حتى قبل اندلاع العنف الأخير، مستعداً من الناحية النفسية لدعم إجراءات الحكومة القاسية، بغض النظر عن كنهها أو عمن وجهت إليهم. فما حدث هو ما تُنُبئ به منذ زمن مضى. ذلك أن المجتمع كان يحن إلى «اليد القوية».

وفى مقالى الذى نشرته سنة ١٩٩٧، قلت إن انتصار الشيشان العسكرى، الذى وفر للبلاد استقلالاً بحكم الأمر الواقع، قد يؤدى فى حقيقة الأمر إلى موت الحرية الشيشانية. إلا أننى قلت كذلك إن هزيمة الجيش الروسى قد تتحول إلى نعمة خفية. ذلك أنه ربما أعطى قوة دفع جديدة لجهود تنفيذ الإصلاحات التى باتت مكبلة، بحيث تتحول البلاد مرة أخرى نحو الديمقراطية والحرية. وفيما يتصل بالشيشان، كان لمخاوفى ما يبررها؛ أما فيما يتعلق بروسيا، فلم تتحقق آمالى.

ما حدث فقط هو أن الاقتصاد الروسى دمرته الأزمة المالية المفجعة التى حلت سنة ١٩٩٨ بل إن الفضائح السياسية المصاحبة للأزمة قضت إلى حد كبير على إيمان الشعب بإمكانية الديمقراطية السياسية والحرية الاجتماعية فى روسيا والرغبة فيهما. وكان الكثير من الناس يرون أن فشل «إصلاحات يلتسين» على المستويين السياسى والاقتصادى يعنى خيبة الأمل فى نماذج ليبرالية «الأسلوب الغربى» ـ وقد ظلت الجماهير سنوات عدة مطمئنة إلى أن الإصلاحات يجرى تنفيذها طبقاً للنموذج الغربى.

وكانت أولى متلازمات التغير الذى طرأ على موقف المجتمع هى تفشى ذلك الشعور المناوئ للغرب إبان أزمة البلقان. ولم يكن لذلك أية علاقة بالتضامن «السلافى» أو «المسيحى الأرثوذكسى» مع الصرب، أو حتى بانتهاك الناتو للقانون الدولى. كانت المسألة أمراً مختلفاً. فمن المؤكد أن الروس لم يعودوا يحبون ما افتتنوا به فجأة وبعمق قبل عشر سنوات. وأعنى الغرب وكل ما يرتبط به، بما فى ذلك مفاهيم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان.

ومما يحير أن روسيا بها كثيرون يرون «مكيدة غربية» فى الفوضى الراهنة فى القوقاز، دون أن ينتبهوا لعبثية افتراض أن الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة، قد تساند عدوهم المعلن ـ أى الإرهابيين الإسلاميين ـ ضد روسيا. وينظر إلى الشجب الأوروبى والأمريكى لفظائع الحرب الراهنة على أنها مزيد من التأكيد على «المشاعر المعادية لروسيا» لدى الغرب. ولا تعزى الاحتجاجات الغربية لأى قدر من الإخلاص.

إلا أن عواطف الجماهير الروسية السلبية وجهت فى معظمها ضد الوضع الراهن فى روسيا نفسها، وهو الوضع الذى ربط بمكائد حقبة يلتسين السياسية، وهو صحيح، وبقيم الديمقراطية الليبرالية ـ وهو ما ليس صحيحاً على الإطلاق.

ربما كان من المتوقع أن ينتهى هذا الوضع بعودة النظام القديم، كما تصور زيوجانوف، أو بشبه عودته، كما تصور بريماكوف. ومن المحتمل جداً أن مثل هذه المخاوف جعلت الكريملين (وربما الناس خارج الكريملين) يفكر فى خطة لعمل «تحديث سلطانى» لنظام يلتسين العاجز. وأكاد أجزم أن الصورة النهائية لهذه الخطة كانت قد وضعت فى منتصف الصيف. ولم يكن العامل الرئيسى بطبيعة الحال هو الخطة ذاتها، وإنما الحالة الذهنية التى تجعلها صالحة للتطبيق. ويمكن تلخيص ذلك فى الصيغة التالية: «نحن لا نريد العودة للشيوعية، غير أننا مللنا ديمقراطيتكم، وحريتكم، وما تقولونه عن حقوق الإنسان. إن ما نريده هو النظام».

ويبدو أن مخرجى الدراما التى كانت

تجرى كتابتها قد اختاروا بالفعل ممثلاً يقوم بالدور الرئيسى. ولم يكن يهم أنه بكل وضوح لن يقارن بنابليون أو كرومويل - سواء فى المواهب الإدارية والسياسية، أو الشدة. وكانت الجماهير الروسية المرهقة مستعدة تماماً لأن تقبل دليلاً على شدته بعض التعليقات العدوانية الهستيرية على شاشات التلفزيون وبعض اللقطات التى تبين جروزنى التى دمرها القصف الجوى والمدفعى.

وما يشهد على ذلك القبول من الجماهير هو النجاح المدهش الذى حققته تلك الحركة المسماة بـ«الوحدة» - التى تجمعت على وجه السرعة «لدعم رئيس الوزراء» - فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى ديسمبر. فقد فازت كتلة الوحدة، التى تعرف كذلك بـ«الدب» بـ ٢٣ بالمائة من الأصوات. وبالنسبة لكتلة سياسية لم يكن لها وجود فى نهاية الصيف، ودخلت الانتخابات دون أى برنامج سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى، ولم يكن لها سوى شعار واحد هو «نحن نؤيد بوتن»، ولم يكن زعماؤها معروفين فى روسيا، لم تلك النتيجة مجرد عرض جيد، وإنما كانت نجاحاً ساحقاً.

بعد الانتخابات حان الوقت لأداء الفصل الأخير من المسرحية. وأكاد أجزم بأن استقالة يلتسين الدرامية فى ٣١ ديسمبر ١٩٩٩ كانت جزءاً من الخطة التى ذكرتها آنفاً. والقضية هنا ليست مجرد أن استقالة يلتسين دفعت منافسى بوتن إلى الدخول فى حملة سياسية مختصرة، مما يتيح له فرصة تحقيق أقصى استغلال لشعبيته الحالية قبل الانتخابات التى تجرى فى أوائل مارس. وكانت تلك إشارة بيانية مفهومة من الجماهير، وهى أن الزعيم الجديد تخلص الآن من كونه «يلتسينياً»، وهو ما كان سيصبح حتمياً تقريباً إن هو دخل سباق الرئاسة باعتباره رئيس وزراء يلتسين. فالآن يمكنه أن يظهر أمام الناخبين متحرراً من خطايا النظام السياسى السابق، الذى لم يكن يحظى بالشعبية لعدة سنوات ودمر نفسه بعد أغسطس ١٩٩٨.

ويقف «السياسى الحاسم الشاب» حالياً فى ذهن الجماهير مقابل العجوز بريماكوف والنكوصى زيوجانوف، بالإضافة إلى سلفه الواهن. ويجرى تشجيع الجماهير تدريجياً، ولكن بثبات على أن ترى رئاسة بوتن بديلاً لكل من عودة الشيوعية وعجز «الديمقراطيين».

ويبدو أن معنى هذا هو أن حملة الشيشان ستستمر على أقل تقدير حتى أوائل مارس، عندما يصبح فلاديمير بوتن متأكداً تقريباً من أنه سيصبح ثانى رئيس لروسيا. بينما لم تكن لديه قبل الحرب أدنى فرصة لأن ينتخب.

ولا أزعم أن بوتن نظم متعمداً انفجارات سبتمبر لتكون لديه ذريعة لشن الحرب. وقصة الانفجارات شديدة الغموض؛ غير أنه ليس لدى أى سبب كى أعتقد أن الانفجارات كانت من تدبير الاستخبارات الروسية، كما يعتقد البعض فى روسيا والغرب. وأنا بصراحة أعتقد أن المعلقين الغربيين يميلون إلى المبالغة فى قوة الكى جى بى وخلفائها وحِرَفيتهم، وهو الأكثر أهمية. لقد كانت لى تعاملات مع هذه المنظمة لعشرات السنين؛ وفى رأيى أنه ليس لديهم أناس مؤهلون التأهيل الكافى وعلى قدر من الحسم يتيح لهم تنفيذ مثل هذا العمل.



بدأ الساسة الروس فى استخدام لغة جديدة - وهى لغة عالم الجريمة. وكان رئيس الوزراء المعين حديثاً أول من يعطى الشرعية لهذه اللغة بتصريحه العلنى أننا سوف «ندفنهم فى قمامتهم»

ومع ذلك فمن الصحيح أن عالم الإرهاب وعالم الاستخبارات لا يفصل بينهما سور من المنعة، بحيث يحول دون اندماجهما على أرضية واحدة. ومن الممكن أن تتخذ إثارة الشرطة أشكالاً عدة. فعلى سبيل المثال قد لا تتخذ الشرطة أى إجراء عند تلقيها معلومات تنطوى على تهديد ما، وذلك إذا ظن أحد أن التراخى يتطابق أكثر مع الرغبات غير المعلنة للمسئولين الكبار.

وبطبيعة الحال لا ينطبق افتراض البراءة على الشيشان وحدهم، وإنما على الاستخبارات كذلك. فالواقع أنه فى الوقت الراهن، وبعد ثلاث سنوات ونصف، يعترف المزيد والمزيد من الناس بأن صورة «الإرهابى الشيشانى» الخاصة بهذه الجرائم لم تؤكدها أية حقائق بالمرة. فعلى الأقل لم تقدم أدلة، مباشرة أو غير مباشرة، للجماهير لمساندة زعم أن الإرهابيين يمكن الوصول إليهم بتتبع أثر الشيشان. ويشير القدر الضئيل المعروف عمن يشتبه فى أنهم يتحملون بعض مسئولية الانفجارات إلى أن هذا قد يكون أثراً زائفاً. فالأشخاص الذين يدور حولهم الكلام ليسوا عرقياً من الشيشان.

ولكن غياب الأدلة لا يمنع الشعب من مواصلة دعمه الحماسى لما تقوم به الحكومة فى القوقاز. فقد كانت الانفجارات ضرورية فقط كذريعة مبدئية لهذه الأعمال.

وبينما لا أعتقد أن بوتن نفسه اختلق تلك الذريعة، فإنى لا أشك فى أنه استغلها بطريقة مخجلة وتنطوى على المصلحة الذاتية، تماماً مثلما لا أشك فى أن الحرب خُطط لها مسبقاً. وليس فى قيادة الجيش الروسى وحسب، بل كذلك فى بعض القيادات السياسية، كما سبق وقلت.

أى القيادات السياسية؟ هذا سؤال يكره حتى التفكير فيه. فهذه الخطط لا تحمل خاتم الجيل العجوز من الشيوعيين أو المؤيدين الشباب المتعصبين لدولة روسيا الكبرى، الذين كنت أخشى فى وقت من الأوقات من تأثيرهم الرجعى على الحياة فى البلاد. إنها تتطابق أكثر مع الأسلوب الجسور الديناميكى شديد النفعية الخاص بجيل سياسى جديد. وليس من المحتمل أنه بعد شهر مارس سوف يبعث الرئيس بوتن القوة السوفيتية من مرقدها، أو يحيى أساطير الدولة الروسية العتيقة. والأمر الأكثر احتمالاً هو أنه سوف يبنى نظاماً له تراث عريق فى التاريخ الغربى ولكنه جديد كل الجدة فى روسيا. إنه نظام بوليسى سلطوى سوف يحافظ على السمات الشكلية للديمقراطية. والأكثر احتمالاً أنه سوف يحاول تنفيذ الإصلاحات التى تؤدى إلى اقتصاد السوق الحرة. وهذا النظام قد يكون شديد العداء للشيوعية. غير أنه ليس من غير المنتظر أن يكون هناك تسامح مع الشيوعيين، ما داموا لم «يدسوا أنوفهم». إلا أن الحياة لن تكون جميلة بالنسبة للمجتمع المدنى الوليد فى روسيا.

وكان من يسمون باليمينيين (أى «اتحاد القوى اليمينية» الذى يضم حزبى أنا «خيار روسيا الديمقراطى») قد أعلنوا بالفعل عن دعمهم لترشيح بوتن فى انتخابات الرئاسة قبل استقالة يلتسين. والواقع أن تعدى اتحاد القوى اليمينية لحاجز الخمسة بالمائة فى الانتخابات البرلمانية، وهو إنجاز كان هناك شك كبير فى تحقيقه قبل شهرين فقط، يعود الفضل فيه بصورة كبيرة إلى حقيقة أن عدداً من زعمائه البارزين، بمن فيهم إصلاحيون مثل أناتولى تشوبايس وسيرجى كيرينكو، أيد بوتن والحرب علانية.

ولا يخفى بوتن بدوره تعاطفه مع اليمينيين، ولا اهتمامه ببرنامجهم الاقتصادى، ولا رغبته فى أن يدير أناتولى تشوبايس حملته الانتخابية المقبلة، بصورة خاصة. (يعزى كثير من الفضل فى نجاح حملة يلتسين الانتخابية سنة ١٩٩٦ لتشوبايس.) وهذا أمر يمكن فهمه - فلا يمكن أن تتسوق برنامجاً اقتصادياً من بين صفوف الوحدة، التى خلقتها الحكومة وحدها كى تدخل نوابها الذين انتقتهم ويمكنها السيطرة عليهم فى مجلس الدوما. ولا يمكنك تسوقه بين الشيوعيين.

لذلك فإن عقد صفقة بين بوتن واليمينيين تبدو شديدة الاحتمال. وسوف تقبل حكومة بوتن البرنامج الليبرالى الخاص بالإصلاح الاقتصادى الذى يصر عليه اليمينيون. وسوف يحجم اليمينيون عن الانتقاد الزائد للملامح البوليسية والسلطوية التى تتسم بها حكومة بوتن. بل إنهم ربما أيدوا الإجراءات البوليسية الأشد صرامة، مثلما أيدوا حرب الشيشان الثانية. فلا جديد تحت الشمس. ذلك أن ما يشبه ذلك حدث فى شيلى أثناء حكم بينوشيه الدكتاتورى.

فى رأيى أن هذه توقعات سياسية. وفيما يتصل بالحرب الدائرة فى الشيشان، التى تعد أساسية فى الاستراتيجية السياسية الجديدة، فإن تحقيق انتصار عسكرى هناك ممكن بل ومحتمل. ويبدو جلياً أن القيادة العسكرية قد عقدت العزم على ألا تشغل بالها بالخسائر التى تقع بين صفوف المدنيين العزل؛ فهى قادرة على محو أى جزء من الشيشان، بما فى ذلك جروزنى، لكى تقضى على «الإرهابيين». وفى كل الاحتمالات، سوف تكون نتيجة هذا الانتصار حرب عصابات طويلة لا أول لها ولا آخر فى الجبال وفى المناطق الواقعة عند سفوح التلال. بل إنه كما هو معروف جيداً، هناك طريقة واحدة للقضاء على رجال حرب العصابات، وهى عدم تمييزهم عن العزل الذين يختبئون بينهم. بعبارة أخرى، لا بد من القيام بتطهير عرقى فى المناطق التى تسيطر عليها حركة رجال حرب العصابات.

إن الجيش الروسى مستعد تماماً للتطهير العرقى. وقد اتضح ذلك فى حرب سابقة؛ وأثبتته مرة أخرى الأحداث التى وقعت مؤخراً فى قرية ألخانيورت، حيث أطلق جنود محترفون النار على حوالى أربعين من السكان العزل - بلا سبب. وأكدت التصريحات الرسمية أن قنابل تفريغ الهواء تستخدم فى الشيشان - وهى سلاح رهيب يقتل كل كائن حى على مدى منطقة شاسعة، بمن فى ذلك الأشخاص المختبئين فى الملاجئ.

والجديد فى الأمر هذه المرة هو أن المجتمع الروسى كافة مستعد لتنفيذ التطهير العرقى. فالقسوة والعنف لم يعودا مرفوضين. ولكن هل روسيا مستعدة لحملة إرهابية مطولة فى مدنها وبلدانها؟ ليس لدى شك فى شن هذه الحملة حتى لو بقى بضعة آلاف فقط من الشيشان على قيد الحياة فى مكان ما عقب هذه الحرب، ولا فى أنها ستستمر لوقت طويل.

وفى مقالى الذى نُشر قبل عامين ونصف كتبت أن رؤى الكارثة تستحضرها دعاية الحكومة كى تبرر الحرب التى تجرى فى الشيشان - بما فى ذلك العنف وظهور التطرف الإسلامى - تحققت بعد الحرب، وكنتيجة مباشرة لها. واليوم يتم تخويف الجماهير الروسية بشبح الإرهاب الشيشانى. فما هو الشبح الذى سوف يظهر نتيجة لهذه التعاويذ الجديدة؟ للأسف أن الإجابة فى رأيى يمكن التكهن بها إلى حد كبير. ومن الواضح كذلك أنه طبقاً لتقاليدنا سوف تجعل هذه التطورات من توقعات أى انتصار للديمقراطية فى روسيا أمراً غير محتمل فى أى وقت قريب.

بل إنى أخشى أنه من المحتمل جداً أن العام ٢٠٠٠ سوف يشار إليه فى يوم من الأيام على أنه «غروب الديمقراطية الروسية». ■

أنـــا .. أنـــا .. أنـــا

قـراءة فـى سـيرة حيـاة الدكتور عبدالرحمن بـدوى

يوسـف القعيـد

طلبت من اثنين من شباب مصر الفتاة ضرب العقاد حتى يتوقف عن الهجوم علينا فصمت إلى الأبد

تحقيـق وترجمـتى لكتـابى أرسطو «الخطابة والشعر» عمل لامثيل لـه فـى التـاريخ

كانت المرة الأولى التى أقرأ فيها اسم الدكتور عبدالرحمن بدوى فى النصف الأول من الستينيات عندما ذهبت إلى مكتبة البلدية فى دمنهور باحثا عن المجلد الخاص بمحافظة البحيرة ومدنها وقراها وعزبها ونجوعها، من القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، وهو القاموس الذى وضعه وحققه وعلق عليه محمد رمزى.

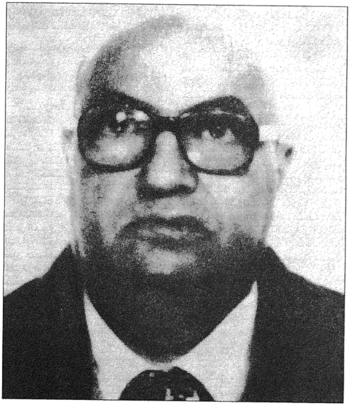
كنت أريد البحث عن تاريخ قريتى «الضهرية - مركز إيتاى البارود، محافظة البحيرة»، وسبب تسميتها والأطوار التاريخية التى مرت بها. ولكن هذا الجزء من القاموس لم يكن موجودا، وإن كنت قد وجدت فى طريقى وأنا أقلب فى كروت الكتب والمؤلفين كتابا آخر بالصدفة كان عنوانه: «الزمان الوجودى» وكان مؤلفه هو الدكتور «عبدالرحمن بدوى».

كان من حقى فقط الاطلاع الداخلى فى المكتبة لأنه لم يكن لى الحق فى الاستعارة الخارجية. وقد جلست فى المكتبة التى كانت تعلو بناء قديما هو مبنى سينما البلدية فى دمنهور. وكان المبنى كله واسعا براحا، ولذلك كان الجلوس فيه يرد الروح، ومع هذا أعترف أننى عجزت عن فهم كلمة واحدة من هذا الكتاب الذى كان رسالته للدكتوراه. مما ولّد بداخلى حالة من التحدى جعلتنى أتردد أكثر من مرة على المكتبة محاولا الدخول فى عالم هذا الكتاب.

لكننى لم أعان من هذا العسر عندما قرأت له بعد ذلك بسنوات من مؤلفاته: «شخصيات قلقة فى الإسلام» و«من تاريخ الإلحاد فى الإسلام». ومن ترجماته رواية «دون كيشوت». وعندما كنت أقرأ له كان قد رحل عن مصر، ولم أقرأ له بعد الرحيل سوى حديث نشرته له مجلة «الكرمل» الفلسطينية أجرته معه الصحفية العربية سلوى نعيمى، كان حادا فيه، هاجم كل من فى مصر، بصورة مخيفة، وكان ذلك حوالى منتصف الثمانينيات.

قلت لنفسى يومها: ربما كان الرجل معذورا، ذلك أن الغربة تفعل بالإنسان مالايمكن تصوره. كانوا يقولون فى قريتى: «الغربة تربة» بمعنى مقبرة، وقرأت بعد ذلك فى أدبيات الاغتراب من التراث العربى أن الغربة مذلة وهوان وضعة وموت للإنسان وهو على قيد الحياة.

فى عقد التسعينيات وجدت له فى المكتبات كتابين جديدين، ليسا من مؤلفاته التى نعرفها. الأول دفاع عن القرآن الكريم ضد منتقديه، والثانى دفاع عن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهما مترجمان عن الفرنسية التى كتبهما بها. وبعد أن أصبحا ضمن مكتبتى لم أجد فى نفسى حماسة لقراءتهما، لأن التصفح الأول لهما، وهو مايمكن أن يسمى بالتعارف مع الكتاب، أعطانى الانطباع أن الدكتور بدوى كتب الكتابين يخاطب بهما قارئا فى الغرب لايعرف الكثير عن القرآن ولا النبى محمد «صلى الله عليه وسلم». ولذلك فإن قراءتهما قد لاتضيف إلىّ الجديد، ولهذا اعتبرتهما من قراءات العمر



المؤجلة، ذلك أنه لاتوجد علاقة - عندى - بين شراء الكتاب وقراءته.

إلى أن وجدت مؤخرا كتابا ضخما يقع فى جزءين عنوانه «سيرة حياتى» يسبق العنوان اسم الدكتور عبدالرحمن بدوى، كان الثمن غاليا ولولا إغراء الناشر بإجراء تخفيض على تخفيض معرض القاهرة الدولى للكتاب ما اشتريته. وقد سألت الناشر إن كان المؤلف وهو مصرى، قد أشار عليه أو طلب منه وجود طبعة شعبية من كتابه فى مصر، فلم أسمع منه فى صخب المعرض وضجيجه إجابة واضحة.

وسبب سؤالى أن الدكتور إدوارد سعيد عندما تعاقد مع ناشر من بيروت على أن يترجم الجزء الذى كتبه من سيرته، اشترط عليه فى العقد المبرم بينهما أن تكون هناك طبعة شعبية خاصة بمصر، وأن توزع هذه الطبعة بمعرفة مؤسسة صحفية مع الصحف والمجلات، وأن إدوارد سعيد تنازل عن كافة حقوقه عن هذه الطبعة حتى يصل الكتاب رخيصا للقارئ المصرى العادى، وقال إدوارد سعيد لناشره اللبنانى إننى أفعل هذا عرفانا بالدور الذى لعبته مصر فى تكوينى الثقافى فى سنوات الشباب الأولى.

المهم عندى أن عبدالرحمن بدوى لم يفكر فى هذا من الأصل والأساس.

عدت إلى بيتى ومعى «خير جليس فى الزمان» كتاب جديد أحب أن أقرأه، وأعترف أننى تفرغت له تماما، لأننى أعتبر أن كتابة السيرة الذاتية تقف فى المقدمة من ناحية متعة القراءة، ولكن ذلك يتم إن توافر شرطان:

الأول: أن يكون الصدق هو الأساس فى الكتابة، ذلك أن السيرة الذاتية تخاصم الكذب والادعاء والصدق هو كلمة السر التى لايمكن تعويضها. والثانى: أن تكون هذه السيرة مكتوبة بشعرية عالية تعيد للعين متعة القراءة. بعد أن افتقدتها فى معظم ما نقرأه هذه الأيام.

لقد خطفتنى هذه المذكرات من حياتى، جعلتنى أصل نهارى بليلى، وأنهيت ستا وستين وسبعمائة صفحة من القطع الكبير فى يومين وليلتين، وإن كنت أعترف أن الذى دفعنى لهذا لا هو إحساس بصدق الكاتب ولاجمال أسلوبه أو شعريته وعذوبته، فكتابته حادة مدببة جافة تذكر الإنسان بكتابات الأدباء الألمان فى جفافهم وبعدهم فيما يكتبون عن الدم واللحم وإنسانية الإنسان، خاصة هيرمان هيسه وتوماس مان.

الذى دفعنى إلى التهام هذه المذكرات هو حالة «الذهول»، ولا أجد كلمة أدق من هذه الكلمة عندما أحاول وصف شعورى عند قراءة هذه المذكرات، والذهول سببه أننى عندما كنت أتاهب لقراءة هذه السيرة الذاتية، لكاتب قرأت له ولم أعرفه. كنت أمنى نفسى بتعارف من نوع فريد، تعارف على الورق، أصحبه فيه من خلال رحلة تكوين عقل وضمير وروح مشتغل بالفكر والفلسفة وكيف تكونت قناعاته وتطورت نظرته إلى الأمور، ولكنى وجدت كل مالم أتوقع وجوده أما ماانتظرته فلم يكن له وجود، لم أجد سوى الذهول.

ذهلت - أولا - من نزيف الأنا، من كل هذا التمركز حول الذات وعبادة الذات من خلال حالة من هستيريا جنون العظمة التى تتعدى كل ما تعاملنا معه من قبل.

ذهلت - ثانيا - من هذا الهجوم الجارح على كافة رموز مصر فى القرن العشرين من ساسة وكتاب وأدباء ومفكرين ورجال دين، مع التركيز فى هذا الهجوم الكاسح على الأموات، الذين لا يردون عادة على مثل هذا الهجوم.

(سيرة حياتى): ج ١ - ٢٨٢ ص، ج ٢ - ٣٨٣ ص - قطع كبير.

د. عبدالرحمن بدوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠.

الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - عمان.

أنــــا .. ومن بعــــدى الطــــوفان

ذهلت - ثالثا - من هذا الهدم المنظم لكافة إنجازات مصر في القرن الذي مضى وودعناه منذ أيام وإهالة التراب عليها. أعرف وأدرك أن كل إنسان حر في رأيه ولايمكن لقوة على الأرض أن تصادر رأى إنسان، حتى لو خالفت هذه الآراء حالة الإجماع العامة، ولكن ما قيل لايمت بأى صلة من الصلات للآراء.

أخشى أن أكون بذلك أمارس عملية قفز فوق المذكرات وما فيها، لذلك سأعود إلى المربع رقم واحد طارحا سؤالا بسيطا وبديهيا: من الدكتور عبدالرحمن بدوى؟! شرعية السؤال مصدرها أن في مصر الآن أجيالا شابة لاتعرف عنه أى شيء، سأستند في هذا التاريخ إلى ماكتبه هو بنفسه في هذه المذكرات عن سنوات عمره من تاريخ ميلاده في الساعة الثانية من صباح ١٩١٧/٢/٤، في قرية شرباص مركز فارسكور محافظة دمياط. حيث كان الثامن بين إخوته لأمه، والخامس عشر بين أبناء والده، ومجموع إخوته واحد وعشرون، أحد عشر من البنين وعشر من البنات، ودخل مدرسة فارسكور الابتدائية، وفي مايو ١٩٢٩ حصل على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، وفي سبتمبر التحق بالمدرسة السعيدية الثانوية في الجيزة، وحصل على البكالوريا سنة ١٩٣٤. ويلتحق بكلية الآداب ويحصل على الليسانس في مايو ١٩٣٨. ويسجل رسالة الماجستير في أكتوبر من نفس السنة حول مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية. ولكن أستاذه «**لالاند**» يقول له إنه لايثق بالبدع، وأن الوجودية بدعة فحول الموضوع إلى مشكلة الموت في الفلسفة المعاصرة.

لكنه بعد سفر هذا الأستاذ إلى فرنسا وإسناد الإشراف إلى أستاذ آخر هو «**كوبريه**» يعود عبدالرحمن بدوى إلى موضوعه الأصلي، ويقول:.. وبهذا استعدت خطتي الأصلية وهي أن تنصب الرسالة في مجموعها على آراء الفلاسفة الوجوديين في مشكلة الموت.

وفي الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٨ يعين معيدا بقسم الفلسفة في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكان الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب قد سمع قبل ذلك بسنة عن طالب بالكلية يجيد ثلاث لغات هي: الألمانية والفرنسية والإيطالية، فقرر أن يسافر هذا الطالب في الصيف إلى هذه الدول الثلاث حتى يختلط بأهلها، ويتعرف إلى الحضارة التي تقف وراء هذه اللغات، وكانت المشكلة أن اللائحة تنص على ألا يسافر في رحلات الصيف سوى الأساتذة أو المدرسين، وعبدالرحمن بدوى الذى كان يجيد هذه اللغات كان لايزال طالبا، ولكن طه حسين ذلل هذه العقبة وأصر على سفره وفي ١٩٣٧/٦/١٢ التقى الطالب لأول مرة بأوروبا عندما سافر إلى إيطاليا وفرنسا وألمانيا.

وفي ١٩٤٤/٥/٢٩ قدم رسالته للدكتوراه حول «**الزمان الوجودى**»، وقال طه حسين بعد المناقشة: لأول مرة نشاهد فيلسوفا مصريا، ثم يعمل بالتدريس في جامعة القاهرة التي يغيرها بجامعة عين شمس بعد إنشائها، ويعين مستشارا ثقافيا لمصر في سويسرا من فبراير ١٩٥٦ إلى فبراير ١٩٥٨. ويسافر إلى ليبيا بناء على طلب تقدم به للعمل في جامعتها في بنغازي من سبتمبر ٦٩ إلى مايو ١٩٧٣، ويعود إلى مصر في الثامن من مايو، ويبقى فيها حتى السابع من يوليو ١٩٧٣. ويسافر إلى باريس حيث ما زال يعيش حتى اليوم، أو إن شئت الدقة



طه حسين

كان يبلغ البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين، ويستعين بجواسيس من بين الطلبة.



محمد عبده

صديق كرومر ومصلح ديني مزعوم.. يكتب ضد محمد على بناء على طلب كرومر.. ضئيل الإنتاج الفكرى ليس له إلا رسالة التوحيد التي لاتفيد سوى المبتدئين.



محمود فوزى

رجل معتوه جهول عيي غبي صوته مثل مواء القطط المخنوقة.. تورط في فضائح مالية عندما كان قنصلا في القدس.



عبد الوهاب عزام

مدعى العروبة والإسلام. الحقود المتقلب الأهواء التافه.



أحمد أمين

حقود ضيق الأفق يغار من أى متفوق، حاول أن يضع اسمه معى على كتابى التراث اليونانى في الحضارة الإسلامية فرفضت، كان يكره كل من يعرف لغة أجنبية لجهله بأية لغة.



العقــاد

أوعز له النقراشي بالهجوم على مصر الفتاة والإخوان فكتب.. طول حياته كان مأجورا لحزب من الأحزاب.



زكى نجيب محمود

مستوى كتاباته لا يزيد على مستوى طالب في المرحلة الإعدادية.



الدكتور على إبراهيم

كان جبانا.. هيابا للسلطة أيا كانت.. كان انتهازيا يأكل على كل مائدة من موائد الأحزاب السياسية.



أحمد حسين

ضيق التفكير ومندفع ومستبد، تلقت مصر الفتاة أموالا من ألمانيا وإيطاليا وحكومة محمد محمود.. حصل على ٢٠٠ جنيه من المخابرات البريطانية وتراجع بعد رد الفعل.



السنهورى

يستحق الاعتداء عليه.. ليتحمل وزر سلوكه.

حتى اليوم الأخير من هذه المذكرات الذى يشير إليه في سياق الكتاب وهو الخامس من مارس ١٩٨٨، أى منذ اثنتى عشرة سنة مضت تخللتها عشرة أشهر تقع في الفترة الزمنية ما بين عامي ١٩٧٤-١٩٧٥ قضاها في إيران. وكان قد سافر خلال هذه السنوات إلى الهند والكويت ولبنان أكثر من مرة والولايات المتحدة الأمريكية وهولندا، وكتب ونشرمائة وعشرين كتابا مابين مؤلفة ومترجمة وكتب تراثية تولى تحقيقها.

كان آخر ما سمعته عنه مؤخرا أنه عندما حصل على جائزة مبارك التي منحت العام الماضي لأول مرة وقيمتها مائة ألف جنيه، وقد تقرر منحه هذه الجائزة حتى تكون مصالحة مع الوطن، ولكنه رفض بصورة قاطعة مناقشة فكرة حضوره إلى مصر من أجل تسلمها، وإن كان لم يمانع في تحويل قيمتها المالية إليه حيث يعيش في باريس.

الأكثر إثارة للذهول في هذه المذكرات هو آراء الدكتور عبدالرحمن بدوى في رموز عصره، ومن الصفحات الأولى، وعند الكلام عن أصل اسم قريته، فهو يطلب من القارئ عدم الثقة بما جاء في الخطط التوفيقية لعلى مبارك، دون أن يوضح الخطأ الذى وقع فيه على مبارك وما هو صوابه، الذى يدفعه إلى أن يطلب مثل هذا الطلب من القارئ، ثم يبدأ في الكلام عن رموز عصره **بالشيخ محمد عبده**، حيث يتهم د. عبدالرحمن بدوى الشيخ محمد عبده بأنه كان صديق اللورد كرومر، وأنه كان مصلحا دينيا مزعوما، وكانت له صلة حميمة بكرومر، ويقول:

هذا إن صح أن توصف بالحميمية علاقة التابع بالمتبوع والذليل بالجبار والمطيع الخاضع بالأمر المستكبر، بل كان محمد عبده هو نفسه يتفاخر ويتباهى بهذه العلاقة الوثيقة بينهما، أى بينه وبين سلطات الاحتلال، كما ورد في رسالة منه إلى رشيد رضا، لما خاف هذا الأخير من أن يعتقله الإنجليز، وقد استغل كرومر علاقته هذه بمحمد عبده، فجعله يكتب مقالات ضد محمد على رأس الأسرة العلوية، بمناسبة مرور مائة سنة على توليه حكم مصر، وذلك في سنة ١٩٠٥، وكان ذلك قبيل وفاة محمد عبده بقليل.

ويقول إن محمد عبده ضئيل الإنتاج الفكرى، إذ ليس له إلا كتاب صغير هو رسالة التوحيد، وهي درس ألقاه في بيروت بعد خروجه من مصر، وهي متن في علم التوحيد واضح العبارة حسن الأسلوب، لكنه من حيث المادة خجل بسيط لايفيد إلا المبتدئين في هذا العلم، وما عدا هذه الرسالة ليس إلا تعليقات لغوية بسيطة على مقامات البديع الهمذاني والبصائر النصيرية للساوى، ونهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب.

وعندما يعود المؤلف إلى واقعة محاضرات محمد عبده في بيروت بعد ذلك بمناسبة محاضرات ألقاها هو أيضا في بيروت، ينسى ما قاله من قبل عن رأيه في هذه المحاضرات بل ويقارن بين نفسه وبين الشيخ محمد عبده، فهل تجعلنا هذه المقارنة نتساءل: إن كانت تنطبق على الآراء السابقة في اجتهاد محمد عبده على عبدالرحمن بدوى نفسه أم أنه نسى ما سبق أن قاله عنه من قبل؟

وعندما يتكلم عن **طه حسين** يتناسى ماقدمه طه حسين له من قبل من فرص، ووقوفه معه، بل ينسى أنه سيثبت شهادة طه حسين



عن رسالته للدكتوراه بعد ذلك. عندما يقول عن طه حسين أنه كان يبلغ رجال البوليس عن زعماء الطلبة المعارضين فى كلية الآداب، مستعينا فى ذلك ببعض الجواسيس المتزلفين إليه من الطلاب. فكنا نسمع فى اليوم التالى أن البوليس قبض على فلان وفلان من هؤلاء الزعماء. فيمتلك الغضب زملاءهم ويهجمون بالضرب الموجع على المشبوهين، وكم شاهدنا فى طرقات الكلية. وأمام مكتب العميد من معارك عنيفة أو تسوية حسابات فى هذا المجال.

ويقول عن كتابه «حديث الأربعاء» أنه لايؤلف وحدة متصلة بل هو فى الغالب انطباعات متناثرة ولمحات قصيرة.ثم يقول عن «أحمد أمين» أنه كان رجلا حقودا ضيق الأفق تأكل الغيرة قلبه من كل متفوق ومن كل متقن للغات الأجنبية. لأنه كان لايعرف لغة أجنبية فيما عدا قشور تافهة من أوليات اللغة الإنجليزية وكان يسعى للتعويض عن عجزه بانتحال أعمال الآخرين، خصوصا الناشئة المتطلعين إلى الشهرة بالتسلق على جذوع شخصيات ذات شهرة أو نفوذ.

ثم يحكى عبدالرحمن بدوى عن أحمد أمين:

وقد حاول أحمد أمين أن يصطنع معى هذا الصنيع لما أن قدمت إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ وكان هو رئيسها ـ أصول كتابى: التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية، فى أواخر ١٩٣٩، فلم تفلح محاولته هذه وهددته منذ اللحظة الأولى، إذ قلت فى نفسى: وما شأن هذا الرجل بكتاب مؤلف من دراسات بالألمانية والإيطالية، وفى موضوع بعيد عنه؟! وكيف أبرر وجود اسمه إلى جانب اسمى على كتابى هذا؟! إنها منه صفاقة مابعدها صفاقة؟!

ويقول عن كتاب **«تذكار جيتى» لعباس محمود العقاد** إنه كتاب صغير وتافه، وأنه لايحب القراءة للعقاد وعن العقاد وأحزاب ذلك الزمان، إن النقراشى أوعز إلى كاتب السعديين فى ذلك الوقت عباس محمود العقاد بالهجوم على مصر الفتاة والإخوان المسلمين وقد كان العقاد طول حياته مأجورا لحزب من الأحزاب: الوفد حتى سنة ١٩٣٥، وخصوم الوفد من ٣٥إلى ١٩٣٨، والسعديين من ١٩٣٨ إلى ١٩٥٠، كما كان مأجورا لبريطانيا طوال مدة الحرب ١٩٣٩ـ١٩٤٥ على الأقل.

يستخدم العقاد لسانه وما يزعمه لنفسه من قوة عارضة فى التطاول على خصوم من يستغل للدفاع عنهم، فكتب العقاد مقالات ضد الإخوان المسلمين لكن هؤلاء سكتوا ولم يحركوا ساكنا، ثم انكفأ بعد ذلك يهاجم مصر الفتاة. فلما كتب أول مقال. تشاورنا فى مصر الفتاة بماذا نرد، فرأى **محمد صبيح** أن يكون ذلك بالرد القاسى فى مجلة مصر الفتاة. وكتب فعلا مقالا بعنوان: «العقاد جهول يريد أن يعلم الناس مالا يعلم»، فكتب العقاد مقالا آخر أشد وأعنف، وكان من رأيى أن العقاد يرحب بهذه المقالات. فلا علاج له عن هذا الطريق، بل لابد من استخدام العنف معه، لأنه لايردعه غير العنف، وأخذ برأيى اثنان من أعضاء الحزب، فتربصا للعقاد وهو عائد إلى بيته رقم ١٣ شارع سليم فى مصر الجديدة، وانهالا عليه بالضرب والصفع والركل وأفهماه أن هذا تأديب مبدئى بسبب مقالين ضد مصر الفتاة، فإذا عاد عادا إليه بما هو أشد نكالا وأحدثت هذه العلقة أثرها الحاسم، فخرس العقاد خرسا تاما، ولم يعد إلى الكتابة ضد مصر الفتاة.

وهذا سلوك فاشى من عبدالرحمن بدوى لابطولة فيه سواء كان الذى ضرب العقاد عضو فى الحزب أم فتوة من الشارع، وهو عودة إلى شريعة الغاب، وعبدالرحمن بدوى يحكى ما يجرى بعد نصف قرن من وقوعه حتى دون أن يعلق عليه، سواء بالإعجاب بما قام به أو مراجعة النفس فيه، والخجل منه، ولاأحب أن يتصور أحد أن الدافع إلى هذا السلوك هو الصراحة والصدق، أتصورأن الدافع إلى هذا الاعتراف المخجل بتدبير علقة للعقاد أى مواجهة الكلمة بالضرب والعدوان ـ وهو مايقوم به المتطرفون بعد هذا بنصف قرن ـ دافع هذا الاعتراف هو نوع من توسيع دائرة الأنا، فالرجل يحب أن يبدو قادرا حتى على إسكات العقاد بالضرب.

ويقول عن **أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة**، والذى كان عبدالرحمن بدوى نفسه عضوا فيه: إنه ضيق التفكير ومندفع بصورة انفعالية، وأنه فطر على العناد والاستبداد بالرأى،وفى كل تصرفاته لم يستشر أحدا من أعضاء الحزب اللهم إلا مصطفى الوكيل الذى كان بمثابة الأنا الآخر لأحمد حسين.

ويتكلم عن تقلبات أحمد حسين فيقول إنه أوغل فى الاتجاه الدينى، وأمر بتحطيم الحانات، وأطلق لحيته ثم فاجأ الجميع بأنه غير اسم مصر الفتاة إلى اسم الحزب الوطنى الإسلامى، ثم جاء أخيرا بمهزلة المهازل فى هذا الاتجاه وهى كتابه رسائل إلى كل من هتلر وموسولينى يدعوهما إلى اعتناق الإسلام وصاغ الرسائل بطريقة تحاكى الرسائل التى بعث بها النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى كسرى والمقوقس والنجاشى.

هذه الواقعة تجسد أزمة عبدالرحمن بدوى، بل ومعظم المثقفين المشتغلين بأمور الفكر، فهو على المستوى النظرى يصف سلوك أحمد حسين بأنه مهزلة المهازل، ومع هذا تعال لنرى ماذا سيفعل عبدالرحمن على مستوى السلوك الشخصى فى نفس هذه الواقعة، والكلام التالى عن سلوكه من عنده أى ماكتبه بنفسه فى مذكراته.

بعد أن يصف عبدالرحمن بدوى الرسالتين بأنهما مهزلة المهازل يعترف أن أحمد حسين طلب منه ترجمة هاتين الرسالتين، واحدة إلى الألمانية والثانية إلى الإيطالية، الغريب أن عبدالرحمن بدوى يكتب الترجمة بعد تمنع ويكتفى بالقول: وقد أوقعنى ذلك فى حرج، ثم يكتب بعدها: ومن عجيب أننى طاوعته، من المؤكد أنه يدرك أبعاد المسألة، ويعرف بعد المسافة بين مايقوله وما يفعله، ولكنه يلجأ إلى كلمات مخففة مثل الحرج، والمطاوعة، فكم عبدالرحمن بدوى فى أعماقه؟ وكم لسان فى فمه؟ وكم يد يمسك بها القلم ليدون الشيء ونقيضه فى الصفحة الواحدة؟

يتهم عبدالرحمن بدوى مصر الفتاة أنها تلقت أموالا من ألمانيا وإيطاليا بل ومن المصروفات السرية فى عهد حكومة محمد محمود عام ١٩٣٨. ويقول إن أحمد حسين أخبره هو وخمسة عشر زميلا له من رجال الحزب ـ وإن كان لايذكر اسم واحد منهم ـ ربما كان من الأحياء الذين يمكن العودة إليهم، بأن المخابرات البريطانية عرضت عليه ـ أى على أحمد حسين شخصيا ـ مبلغا من المال، وكدفعة أولى مائتى جنيه، وأن يسافر إلى إنجلترا للتفاهم معها، واعترف أحمد حسين أنه تسلم هذا المبلغ فعلا وأنه بسبيل إتمام هذه المهمة، وأن عبدالرحمن بدوى وفتحى رضوان وحمادة النادى اعترضوا على هذا التصرف، وقطع صلته بالحزب ولايقول عن أحمد حسين سوى أنه حاول التراجع عما خطط له مع المخابرات البريطانية، وهذا قليل من كثير كتبه عبدالرحمن بدوى عن أحمد حسين، إنه يرصده وينتقد تصرفاته حتى سنة ١٩٦٩.

ويكتب عن **الدكتور على إبراهيم**:

هكذا كان دائما كبير الجراحين فيما زعموا.. كان جبانا هيابا للسلطة أيا كانت، ولم يكن له من مبدأ فى السياسة، بل كان انتهازيا يأكل على كل مائدة من موائد مختلف الأحزاب السياسية، والسلطات البريطانية، وكان مهرجا يحب الظهور فى الأمور العامة التى لاتكلفه أى مخاطرة.

هل رأيت عمومية الأحكام وإطلاقها دون تقديم دليل أو واقعة واحدة، يؤكد بها ما يذهب إليه من اتهامات خطيرة؟ خاصة أن الوقائع بعيدة وكل شهود الحدث لم يعد لهم وجود فى هذا العالم.

وعندما يصل إلى **الدكتور عبدالوهاب عزام** يقول عنه:

هذا المدعى للعروبة والإسلام، الحقود المتقلب الأهواء التافه الجهول، الرجل الذى يعانى من التفاهة، الذى يمارس الدجل على الناس، وكل هذه الاتهامات التى يوجهها إلى عبدالوهاب عزام سببها أن هذا الأخير عندما كان عميدا لكلية الآداب، رفض أن يمد لعبدالرحمن بدوى إجازة كان يقضيها فى الخارج، ورغم أن المسألة سويت بعد عودة بدوى إلا إنها تسببت فى كافة هذه الشتائم، لدرجة أن الإنسان يتساءل عن حجم الشتائم التى كان سيوجهها إلى عبد الرحمن عزام وهو الآن فى قبره لو أن مد الإجازة أسبوعا لم يتم.

ويقول عن **عزيز المصرى** ـ الذى وصل إلى حدود الأسطورة فى خيال شباب تلك الأيام:ومن خصال عزيز المصرى ما يجعله لايستمر فى عمل بدأه أو كلف به، وكان عزيز المصرى يعتز بأن الملك فاروق يجلس أمامه مجلس الولد المهذب وكان يعتز أيضا أن الزوجة الأولى لفاروق ـ فريدة ذو الفقار ـ من أقربائه.

وحتى بعد مرور أكثر من عشر سنوات على حادث الطائرة الفاشل، لم يكن يرضى أن يفصح عما انتواه آنذاك بهذه السفرة، رغم أن كل ظروف الحادث قد زالت ولم يعد لها أثر حتى يخشى من الإفصاح عن جلية الأمر، أتراه كان خجلا من هذا الإخفاق الشنيع؟!

ويتقدم د. عبدالرحمن بدوى لشغل وظيفة أستاذ للفلسفة وتاريخها فى أكتوبر ١٩٥٦، ويكون منافسه على هذه الوظيفة **الدكتور زكى نجيب محمود**، فيكتب عنه:

إنه تخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٣٠، ولم تكن فيها تدرس الفلسفة، فلم يدرس إذن شيئا من الفلسفة، وعين مدرسا فى المدارس الثانوية وراح يكتب مقالات أدبية سطحية فى مجلة «الرسالة»، معظمها تلخيص ساذج لكتاب وول ديورانت «قصة الفلسفة»، وهو كما يدل عليه اسمه كتاب تافه جدا سطحى جدا، يتوجه لعامة المبتدئين فى الثقافة وبالمراسلة مع جامعة لندن تقدم للحصول على بكالوريوس فى الآداب B.A ثم سافر فى منحة علمية للمجلس البريطانى سنة ١٩٤٤ إلى إنجلترا، وبعد ثلاث سنوات حصل على الدكتوراه فى الفلسفة PH.D فهو لم يدرس الفلسفة دراسة منتظمة فى معهد علمى، ولم يكن له من الإنتاج إلا مقالات بسيطة فى المجلات الأدبية ـ تماما كما يفعل الآن فى صحيفة الأهرام ـ مستواها لايزيد على مستوى طالب فى المرحلة الإعدادية، والمرشح الثانى لنفس الوظيفة كان **الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى** وقد قال عنه أضعاف ما قاله عن زكى نجيب محمود، وعلل هذا بسبب المنافسة على وظيفة فى الجامعة.

وإبان العدوان الثلاثى على مصر يصل إلى جنيف **الدكتور محمود فوزى** وزير خارجية مصر. ويكون عبد الرحمن بدوى فى استقباله بالمطار. ويحضر حفل عشاء أقيم على شرفه. ولابد أن يفعل بدوى هذا. ذلك أنه كان ملحقا ثقافيا فى السفارة المصرية فى سويسرا. هذا ما يقوم به على مستوى السلوك. ولكن تعال اقرأ ما يكتبه عن محمود فوزى، بعد أكثر من أربعين عاما على وقوع الحدث، عندما يمارس الحكم على التاريخ ولكن بأثر رجعى.

يكتب عبد الرحمن بدوى عن محمود فوزى، أنه رجل معتوه وجهول، لا يدرى فى السياسة شيئا. وعندما يقف محمود فوزى فى مجلس الأمن يخطب باسم مصر فى ظل هذه المعركة، التى أصبحت الآن من معارك الوطنية المصرية يقول عنه:

سمعت شخصا عييًا غبيًا لا يستطيع أن ينطق بجمله، فضلا عن أن صوته الذى كان يموء به مواء القطط المخنوق، خصوصا وقد تلاه فى الخطابة أبا إيبان بفصاحته وبلاغته وصوته الجهورى الأخاذ، ويكمل عن محمود فوزى:

ولا أريد هنا أن أروى الفضائح المالية التى تورط فيها محمود فوزى لما كان قنصلا عاما فى القدس عام ١٩٤٣، فى موضوع يتعلق بالملكة الوالدة نازلى والدة فاروق. وقد رواها لى أحمد رمزى القنصل المصرى آنذاك فى بيروت، ولا تلك التصرفات التى أقدم عليها لما كان ممثلا لمصر فى هيئة الأمم المتحدة من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٢. وقد رواها لى أحمد فراج طائع وزير الخارجية فى وزارة محمد نجيب الأولى، التى شكلت فى ١٩٥٢/٩/٨.

هل رأيت ما هى الوقائع التى يستند إليها الدكتور عبد الرحمن بدوى فى توجيه اتهامات مالية غامضة وغير محددة لمحمود فوزى، إنه مجرد كلام رواه له شخصان لا وجود لهما على قيد الحياة الآن. ولو كانت ذمم الناس يمكن قياسها بمثل هذه الحكايات القريبة من النميمة التى يكون الهدف منها عادة تصفية الحسابات، لما بقى إنسان وحيد له قيمة على ظهر الأرض.

لن أتوقف أمام ما قاله عن سعد زغلول ومصطفى النحاس وتوفيق الحكيم والدكتور إسماعيل غانم والدكتور محمد ثابت الفندى، بل

أنــا .. أنــا .. أنــا .. ومن بعــدى الطــوفــان



وعبد الرحمن بن خلدون، الذى لم يعاصره ولم يعرفه. والدكتور **عبد الرزاق السنهورى** الذى يرى بدوى أنه كان يستحق واقعة الاعتداء عليه. فقد كان عليه أن يتحمل وزر سلوكه ولا ما قاله عن البخل الشديد لمصطفى مرعى، ولا تردد علوبة باشا. ولا ما قاله عن **الدكتور إبراهيم بيومى مدكور. والدكتور مراد غالب. وأحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوى**، وهجومه يتعدى الحدود فهو يهاجم جان بول سارتر وبابلو بيكاسو.

ولكنى أتوقف أمام بعض الدلالات فقط:

١- إن الناس بالنسبة لعبد الرحمن بدوى نوعان: إما قدموا له خدمات أو لم يقدموا، وربما تنافسوا معه. وموقفه من الجميع واحد: هو الهجوم مع اختلاف فى درجات هذا الهجوم. حتى وإن هاجم الذين خدموه برفق فهو هجوم فى النهاية، ومن يهاجم صفوة الناس بهذه الضراوة لابد وأن يرقى إلى مستوى الضمير فى سلوكه وكتاباته وتصرفاته.

والدكتور عبدالرحمن بدوى يعترف صراحة بأنه كان يوسط **الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبدالرازق** فى كل قضاياه - الكبيرة منها والصغيرة - ويمكن القول أنه كانت هناك صعوبات لم تجعل أمامه مفرا من الواسطة، ولكن من الناحية الأخرى: هل يمكن أن ننسى الوجه الكريه للوساطة والمحسوبية فى ذلك المجتمع الطبقى الذى كان فى مصر فى تلك الأيام.

٢ - إن جميع الذين يهاجمهم بدوى بضراوة من الأموات والموتى لايردون، أما الأحياء فكلامه عنهم مخفف بدون حدود، والموت له حرمة فى العرف المصرى العام، وأنا لاأطالبه بذكر محاسن هؤلاء الموتى، ولكن على الأقل أن يكون منصفا، وخاصة أنه مشتغل بالفلسفة ومن المفترض أن يكون لديه منهج من أجل الوصول إلى الحقيقة، وهذا المنهج يتطلب حالة من الحياد التام، أو الحياد المستحيل إن شئت الدقة بين الإيجابيات والسلبيات!

والأسماء التى داس الدكتور بدوى على إنجازاتها بقدمه، لها دور هام فى صياغة العقل والقلب والضمير المصرى والعربى فى القرن العشرين. ولايمكن محو أدوار هذه الأسماء بجرة قلم، إن ضخامة ما قام به كل منهم يتطلب التفرقة بين الخاص والعام من أدوارهم،كما أن معظم هذا الهجوم «عنعنات»، كلام يقال نقلا عن. عن. عن. إلى آخر هذه الدائرة الجهنمية.

إن هذا الهدم المنظم لرموز هذه الأمة، وإهالة التراب عليها، يوصلنا إلى المحنة التى نعانى منها الآن، وهى غياب القدوة وانتهاء المثل الأعلى فى نظر الأجيال الشابة، الذين يتكون وجدانهم الآن ومنهم سيخرج من يحكم هذا البلد فى الزمن القادم، ومن سيصنع لمصر فنها وأدبها واقتصادها وأمنها وعلومها.

إننى أتابع بحالة من الفزع بداية غروب دور مصر العربى، ذلك أنه لم يبق لها من الدور سوى ذكريات الزمان الذى مضى، وها هو كتاب الدكتور بدوى يحاول أن يحرم مصر حتى من هذا الماضى، وعندما ندرك عقم الواقع المصرى وانتهاء قدرته على إفراز رموز جديدة، لابد أن نستهول المستقبل الذى ينتظر هذا الوطن، ذلك أن مصر دولة دور، وتآكل هذا الدور معناه انتفاء مبرر وجود هذا الوطن نفسه، فى محيطه الإقليمى أو الدولى.

ثم أى شجاعة تلك فى اصطناع البطولات على أضرحة الموتى؟! إن الذى يبقى من الرمز الذى مات هو دوره، ومناقشة هذا الدور لابد أن تتم فى سياق عصره وظروفه المعقدة والمتشابكة، أما اجتزاء تصرف هنا وآخر هناك والتعامل معه بمفرده فذلك خطأ.وحالة الكراهية هذه لاتقف عند حدود البشر ولكنها تمتد إلى المكان، فهو لايحب قريته إلا بعد وصول شركة أوروبية إليها - يكتب - والشركة الأجنبية أشاعت فى القرية جوا متحضرا شبه أوروبى.

أصل إلى نزيف الأنا، أو حالة جنون العظمة التى تبدو فى كل صفحة من صفحات هذه المذكرات. وأنا أعرف أنها مذكرات أى أن الكاتب صاحب السيرة يصبح هو محور الكون، لأننا نرى كل شىء من خلاله. ولكن هناك فارقا بين أن تكون أنت الراوى الذى يرى الآخرين ويقدمهم من خلال رؤيته، وبين أن تقول فى كل صفحة أنا.. أنا.. أنا.. ومن بعدى الطوفان.

فى فصل عنوانه: «الدكتوراه ومذهبى الوجودى» يصف المجهودات التى قام بها ويقول عنها:

- وأمام هذا العمل الجبار جن جنون الحاقدين من هؤلاء المستشرقين الأدنياء وتلاميذهم الأوفياء وحاولوا نقده. فكان نقدهم المزعوم هذا...

كناطح صخرة يوما ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ثم يكتب هذه الجملة بالحرف الواحد:

- وهيهات..هيهات أن يؤثر طنين الذباب فى جبل شامخ.. والجبل الشامخ طبعا هو الدكتور عبدالرحمن بدوى.

ثم يكتب:

وبفضل ماكتبته عن الوجودية صارت الوجودية رافدا أساسيا فى تكوين غالبية المثقفين العرب.

وعندما يحقق ويترجم كتابى « **الشعر والخطابة لأرسطو**» يصف ماقام به قائلا:

- وهكذا أنجزت هذا العمل الجبار متحديا كل الباحثين القدماء والمعاصرين، وهذا ما أثار حقد العاجزين الأدعياء.

ثم يعود ليصف ماقام به:

- وبهذا العمل العظيم الذى لا أجد له مثيلا فى تاريخ تحقيق المخطوطات فى العالم كله وبأية لغة من اللغات..

الغريب أن عبدالرحمن بدوى الذى يتعبد فى محراب ذاته بهذه الصورة، ويتصور أن الجميع فاشلون إلا هو،وأن هؤلاء يحقدون على أى إنجاز يقوم به، بل يصل به الأمر إلى شن الهجوم على الذين يعملون فى مهن بأكملها، وعلى جماعات إنسانية بصورة مطلقة، مع أن هذا التعميم ضد طبيعة البشر، فهو يهاجم الأزهريين والدبلوماسيين والصحفيين والطلبة المصريين الذين يدرسون فى الخارج، ويصل إلى الهجوم على المصريين جميعا، خاصة الذين يشكلون كتلة الجماهير.

يقول عن الصحفيين المصريين إنهم غاية فى الصفاقة والجهل والادعاء، وإن كان هذا لايمنعه من الإشادة بأنيس منصور لأنه كتب مقالا عن اعتقال السلطات الليبية للدكتور بدوى، والدبلوماسيون المصريون فى نظره جهلة ولصوص، ومع هذا فهو يثنى فى نفس الصفحة على المستشار الثقافى المصرى فى الهند، والسفير المصرى فيها، ولكن هذا يتم لأسباب شخصية بحتة، أقرب إلى المنافع والمصلحة. يقول أنه عندما زار الهند «يناير ١٩٦٤» فإن المستشار الثقافى المصرى فيها د.العتر - هكذا يكتب اسمه - والسفير المصرى الممتاز هما اللذان سعيا لدى وزارة الثقافة الهندية أن تستضيفه شهرا فى الهند - طعاما وإقامة - ألقى فيها أربع محاضرات فى أربع جامعات هندية. ويعود ليقول: إنه بفضل التأييد الكريم من السفير المصرى الممتاز أحمد حسن الفقى تعرفت إلى نائب رئيس الجمهورية الهندى ذاكر حسين،ولكنه يعود ليقول إن لقاءات الدبلوماسيين عبث لا طائل من ورائه، وتسيطر عليها التفاهة والحذر الشديد والكلام الخالى من كل معنى.

وقد يسأل القارئ ألم يعجب الدكتور بدوى شىء؟ وأقول: إنه كان معجبا بكل شىء فى أوروبا وتلك ليست حاله بمفرده، ولكنها كانت حال معظم أبناء هذا الجيل، الذين رأوا أن خلاص مصر يرتبط بكل مايأتى من الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط، وهى الفكرة التى غرسها الخديوى إسماعيل والتى تقول بجعل مصر قطعة من أوروبا.

والدكتور بدوى معجب بألمانيا وهتلر، لدرجة أنه يقول: إنه لم ير شرطة عادية ولاسرية ولم يشعر بأى رقابة، بل إنه عندما يقارن بين مقابر ألمانيا ومقابر مصر، يعجب بالأولى ويرفض الثانية. وهو معجب غاية العجب بفرانكو فى أسبانيا، بل يقول عن فرانكو: إنه كان حاكما حكيما بارد الأعصاب صبورا أبعد مايكون عن ثرثرة السياسيين وصلف الديكتاتوريين ورعونة المغامرين العسكريين، جمع بين الحذر والمرونة وبين الوطنية واتساع الأفق العالمى وبين النظام العام وإطلاق الحريات الخاصة.

هذا الإعجاب بفرانكو لايبديه لشهيد من شهداء النضال الوطنى المصرى، إن الدكتور بدوى يصف مظاهرة الطلبة على كوبرى عباس باعتباره كان مشاركا فيها، ويكتب عن وفاة عبدالكريم الجراحى، وفضلا عن الخطأ فى اسمه الذى هو **عبدالحكيم الجراحى**. ويصف ما جرى باعتباره وفاة وليس استشهادا ولايتكلم عن الشهيد بكلمة واحدة، بل يصف نجاته التى كانت بالصدفة، ولايشارك فى الجنازة التى شارك فيها كل الطلاب على شهداء هذه المظاهرة التاريخية.

أعترف أننى عندما كنت أتهيأ لقراءة هذا الكتاب منيت نفسى برحلة عقلية ممتعة يكتبها مشتغل بالفكر تعدى الثمانين من عمره، ومرّ بتجربة الغربة وعاش معظم سنوات عمره فى الفنادق، وخاصة أنه عاش فى فندق واحد فى باريس من ٤٦ إلى ١٩٥٥، ومن فبراير ١٩٦٧ حتى اليوم، واليوم هو يوم كتابته لهذا الكتاب.

ومع هذا لايلتفت إلى تلك الحياة التى عاشها فى الفنادق، والفندق مكان شديد الخصوصية تمر به حالات إنسانية نادرة، وهذا الكلام لابد أن يلفت نظر المفكر قبل الروائى، فالروائى قد يستلهم شخصية ولكن المفكر يستخلص قواعد عامة للسلوك الإنسانى وردود أفعال البشر إزاء الأزمات التى يفاجأون بها.

إن الدكتور بدوى يعترف بتردده على المطاعم والمقاهى ويقول إنه مدمن جلوس على المقاهى، بل ويكره المدن الأمريكية لخلوها من المقاهى، ومع هذا لم تلفت نظره. ومايكتبه عن المطاعم والفنادق فى هذه المذكرات لايخرج عما يكتب فى نشرات الدعاية السياحية.

ثمة موضوع ما كنت أحب التطرق إليه، ألا وهو تجربة العزوبية وعدم الزواج، لولا أنه هو الذى كتب عنها وكنت أتصور من قبل أنه رفض لفكرة الوجود، أو لأن الإنسان يأتى إلى الدنيا ولايختار اسمه ولادينه ولاوطنه كما قال فلاسفة الوجودية، الدكتور بدوى يتحدث عن هذه القضية فى موضعين من كتابه.فى المرة الأولى يتكلم عن تجربة مع فتاة هولندية، وكل التجارب حسية تخلو من العواطف، ذلك أن كلمة الحب لاترد أبدا. والأمر لايزيد على حالة من الإعجاب بمقاييس أجساد نسوية، وجميع هؤلاء النساء فى أوروبا، فهو لايذكر أبدا امرأة مصرية.

موقف الدكتور بدوى من ثورة يوليو وقائدها **جمال عبدالناصر** يتطلب وقفة. وقد ذكر صراحة أكثر من سبب يجعله ضد هذه الثورة، ولكن ليس إلى الحد الذى وصل إليه،مع ملاحظة أن هذه الأسباب خاصة وتدور حول أمور شخصية، بينما الثورة من أهم الأحداث العامة فى مصر والوطن العربى والعالم الثالث، فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم أنه يخصص فصلا للثورة إلا أنه وطوال الكتاب فى جزءيه، يتكلم عنها من خندق العداء المطلق لدرجة أنه عندما يقارن بين العصر الملكى وزمن يوليو تتحول المقارنة لصالح زمن فاروق على طول الخط فى الحريات العامة والاقتصاد والتعليم والإسكان والأسعار والحزبية، وإن كان يستدرك ليقول إنه ضد الملكية مثلما هو ضد يوليو.

والفصل الذى يخصصه ليوليو عنوانه: السنة الكبرى. وفيه يتكلم عن الأوضاع التى كانت سائدة قبل يوليو: فالحرية كانت وارفة ينعم بها الجميع، فأصبحت حكرا لفرد تحيط به عصابة، وكانت الكرامة أعز مايملك المصرى فصارت هدفا لكل اضطهاد ومصدرا لكل حرمان وشقاء، وكان الأمن على النفس والمال موفورا لكل شخص، فصار الخوف على كليهما يقض مضجع كل فرد وكل أسرة، وكان النفاق مقصورا على فئة من الوصوليين وعديمى الضمائر فأضحى خصلة شعب بأسره، يتنافس الجميع فى ممارستها ويتباهى فى التفوق فيها.

وكان التفريط فى أى حق من حقوق الوطنية خيانة تنهار بسببها الحكومات، فإذا بالتخلى عن أكبر هذه الحقوق - وهوحق مصر فى السودان - يعد إنجازا عظيما يتباهى به الحكام، ويقارن بين هزيمة فلسطين وهزيمة يونيو والأسلحة الفاسدة التى اشتريت فى ٤٨ بأموال قليلة فى مواجهة الأسلحة التى تركها جيش مصر عند انسحابه فى ٦٧.

وكافة قرارات يوليو كوارث، فتأميم قناة السويس لم يكن هناك ما يبرره لأن القناة كانت

أنـــا .. أنـــا .. أنـــا .. ومن بعـدى الطوفـان



ستعود بعد تسع سنوات بدون حرب، وقرار الوحدة مع سوريا كارثة واليمن مصيبة، أما لماذا نجحت الثورة فذلك يعود لسببين : الأول المفاجأة والثانى غفلة الحاكمين.

ويقول : إن كل ما قام به جمال عبدالناصر داخليا وخارجيا عبارة عن تصرفات حمقاء طائشة لاتحسب حسابا لأى شىء غير الدوى الأجوف العقيم حول شخصه مهما ترتب عليها من خراب وويلات لمصر، وشعب مصر ومكانة مصر فى المجتمع الدولى. وعبدالناصر كان يتخذ قراراته دون تبصر بالعواقب وعلى طريقة التهويش التى جرى عليها فى كل تصرفاته وقد تملكه الغرور حتى أعماه عن كل شىء.

ورغم هذا الموقف العنيف ضد ثورة يوليو وجمال عبدالناصر فهو ـ أى عبدالرحمن بدوى ـ يشارك فى لجنة الدستور على نحو غامض ويغفل باقى التفاصيل، بل ويصبح عضوا فى لجنتين، الأولى لجنة الحقوق والواجبات والثانية لجنة الشئون الانتخابية. وهاتان اللجنتان ـ ضمن لجان أخرى ـ شكلتها ثورة يوليو لدراسة نظام الحكم المناسب لمصر بعد الثورة.

وهذا الموقف يطرح على عبدالرحمن بدوى حزمة من الأسئلة، فإن كان رافضا للثورة وقبل عضوية لجانها، فتلك شهادة ضده، من الصعب رفض نظام مع المشاركة فى نفس الوقت فى لجانه، أم أنه أصبح ضد الثورة بعد لجنة تصفية الإقطاع، وبعد مشكلة الترقيات فى الجامعة التى أثيرت بعد تولى كمال الدين حسين وزارة التربية والتعليم؟ عموما إن عضوية لجان شكلتها ثورة هو ضدها يجسد أزمة انقطاع الصلة وبعد المسافات بين التصور النظرى والسلوك العملى.

ثم إنه لم يذهب إلى هذه اللجان لامباليا ومتفرجا، بل ذهب ليشارك فى بناء يرفضه وهو يستعد لذلك، اقرأ مايكتبه عن عضويته ودوره فى لجنة الحقوق والواجبات:

ـ وللعمل فى هذه اللجنة أعددت نفسى إعدادا جيدا بالاطلاع على كل الدساتير التى صدرت فى الدول المختلفة بعد الحرب العالمية الثانية، فضلا عن الإلمام بالقانون الدستورى بصورة عامة، أكثر من هذا فهويكتب أنه لم يكن عضوا فى لجنة نظام الحكم وليس من حقه المشاركة فيها بالرأى، ومع هذا كان حريصا على الإدلاء بالرأى فيما ينبغى أن يكون عليه نظام الحكم فى مصر بعد الثورة.

بل إنه ـ الدكتور بدوى ـ عندما يقوم على ماهر وأتباعه ـ هكذا يكتب ـ مصطفى الشوربجى ـ ربما يقصد عبدالعزيز الشوربجى ـ والسنهورى ومصطفى مرعى، بالدفاع عن النظام الملكى مستعينين بجريدة «أخبار اليوم»، فهويرد عليهم فى«اللواء الجديد» بمقال عنوانه :«الضفادع الملكية تستأنف نقيقها»، إنه يكتب عن غياب الحريات والبلد الذى تحول إلى سجن كبير، ومع هذا فإنه ينتج فى هذا الجو فى الفترة من ٦٠ إلى ١٩٦٦ ثمانية وعشرين كتابا، تسعة كتب فى التأليف وأحد عشر كتابا فى الترجمة،وسبعة كتب فى تحقيق التراث، أى حوالى خمسة كتب فى كل سنة، وبنفس الحسبة كتاب كل شهرين ونصف،فأى قدرة على الإنتاج فى ظل هذا الكابوس، الغريب والعجيب أن هذه الغزارة فى الإنتاج لم تمنع الدكتور بدوى من القول إن دور النشر قد انحسرت فى الستينيات بعد التأميم، ولم تكن هناك سوى المطابع الحكومية التى سيطر عليها الشيوعيون سيطرة تامة.

هل يمكن الآن مقارنة إنتاج سنوات ١٩٦٦/٦٠ بنتاج ثلاث سنوات قضاها فى سويسرا مستشارا ثقافيا فى سفارة مصر فى سويسرا، ورئيسا للمكتب التعليمى المصرى هناك، وقبل المقارنة لابد من سؤال من المستحيل المرور عليه مرور الكرام، وهو أن يقبل الدكتور بدوى أن يكون مستشارا ثقافيا لنظام يكن له كل هذا العداء. وله عليه كل هذه التحفظات، وأنا أكتفى بطرح السؤال، لأن طرحه يمثل نصف الطريق للإجابة عنه.

من فبراير ١٩٥٦ حتى فبراير ١٩٥٨، وهى نصف المدة السابقة عليها تماما، يترجم عملين أدبيين هما: «دون كيشوت» لسرفانتس وبحث«ليوليوس فلهوزن» عن أحزاب المعارضة الدينية فى الإسلام: الخوارج والشيعة. وتحقيق رسائل ابن سبعية. أى ترجمة وتحقيق ولايوجد كتاب وحيد مؤلف. فأى فارق بين إنتاج سويسرا بكل مافيها من نعم الحياة وإنتاج مصر فى ظل كابوس يوليو الفظيع؟!

أما عما يقوله عن وقائع يوليو فحدث ولاحرج وهو يهتم بحادث كمشيش واستشهاد صلاح حسين زوج السيدة شاهندة مقلد، لأن الحادث كان سببا فى مصادرة أرض زراعية لعائلته، إنه يقول عن حادث كمشيش مثلا، إنه حادث تافه عابر يحدث أمثاله فى ريف مصر كل يوم، حادث قتل لأسباب نسائية فى قرية من قرى محافظة الغربية،وينسى أو يتناسى أن قرية كمشيش من محافظة المنوفية.

وتحت عنوان «وانزاح الكابوس» يكتب عن رحيل جمال عبدالناصر، ويدهش لأن

أنــا .. أنــا .. أنــا .. ومن بعـدى الطوفـان



الصحـــافــة الأوروبيــة بالـغت فى وصف الجنازة، خاصة الصحف الفرنسية بما عرف عن محـرريها من تهويل أهوج، وعلى الرغم من أنه كان بعيدا عن مصر فهو يدلى برأيه فى جنازة عبدالناصر. فيقول: إن شعب مصر مـولع بالسـيـر فى الجنازات، منذ فـجـر التـاريخ. ولايوجد شعب على الأرض يتفنن فى طقوس الحداد مثل الشعب المصرى، بل إن المصـريين يتـخـذون من هذه الجنازات فرصة للاجتماع ببعضهم، وإن كان الفقيد فى منصب كبير يأتى الناس ليعرفوا من سيخلفه، ولهذا لاينبغى أن يقيم الإنسان لهذه الجنازات فى مصر أى وزن فيما يتعلق بتقدير الفقيد، إنها مجرد تجمـهر شعبى كسائر أنـواع التـجمهرات الشعبيـة التـى يـراد بهـا التنفيس والتـفـريـغ، وفرصة لمشـاهدة الكبـراء وذوى النفوذ من باب حب الاستطلاع الزائف.

والدكتور بدوى يصل فى سخريته إلى فكرة الشعب عموما، فالشعب مارد هائل على رجلين من طين باسـمـه ترتكب أكـبـر الفظائع، وباسمه تدمر أضخم الأبنية وباسمه تهدر كل القيم النبيلة التى أمضى الإنسان كل تاريخه دفاعا عنها، ويعدد الجرائم التى ارتكبت باسم الشعوب عبر التاريخ مع أن الشعب برئ من دم سقراط ومن دم السيد المسيح عيسى ابن مريم. ومن دم الحلاج ومن ضحايا الثورة الفرنسية، لأن كل من أقدم على هذه الجرائم كانوا من الحكام، والدكتور بدوى يرى أن الشعب هو الذى قام بكل هذه الجرائم، ورأيه أن الشعوب لاتحركها سوى المصالح وليس الأفكار، والغريب أن يصدر هذا الكلام عن مشـتـغل بالفكر وليس رجل أعمال.

تبقى بعض المواقف المتناقضة فى هذه السيرة وما أكثرها، وبعض المعلومات التى فى حـاجـة إلى تصـويب، ويخـيل إلىّ أن الدكتور بدوى كتب هذه المذكرات وهو فى الغربة يعيش فى غرفة بفندق فى باريس. وليست معه أوراقه ووثائقه، ولهذا جاءت فى المذكرات بعض الأخطاء أو التناقضات، مثلا يقول أن يوليو منعت المصريين من السفر وحولت البلاد إلى سجن كبير، فى حين أن سفرياته هوشخصيا فى زمن يوليو تفوق سفرياته قبلها وبعدها، بصورة لم تلفت نظره، وعند كلامه عن العدوان الثلاثى يقول إن هزيمة مصر سببها هو الغفلة التامة التى كان القائمون على الجيش يعانون منها.

ومن الأخطاء التى يذكرها أن قريته كانت تزرع المطاط، وهذه أول مرة أسمع فيها عن مطاط يزرع فى مصر، وبعد أن يقارن بين الأدب والفلسفة وينحاز للفلسفة ويقول: لقد هان شأن الأدب فى نظرى، ورأيت أنه لايستـحق أن يكرس له المرء حياته، إنما هو مرحلة أولية تزود الإنسان بأداة للكتابة هى اللغة والأسلوب الجيد وبحساسية مرهفة لتذوق ماهو جميل، فحسبى إذن ما حصلته منه كيما أملك هذه الحاسة وتلك الأداة، ولكنه يعود بعد هذا ليترجم أعمالا أدبية أكثر من الأعمال الفلسفية التى ترجمها.

يقول الدكتور بدوى أن اتحاد الكتاب فى مصر استخدم كأداة لمنع النشر عن غير الشيوعيين من الكتاب فى مصر، واتحاد الكتاب لم يكن له وجود فى مصر فى الستينيات، ولم يتم التفكير فى قيامه إلا فى نهاية السبعينيات وفى زمن السادات. ولاعلاقة له بعملية النشر من قريب أوبعيد، فقط هذا الاتحاد يحاول أن ينشر للأدباء الشبان من بين أعضائه أو يساعدهم على النشر. أما فى الستينيات فقد كانت هناك جمعية للأدباء اقتصر دورها على عقد بعض الندوات والنشر كان بعيدا عن اهتماماتها.

ويذهب إلى أن **ممدوح سالم** هو الذى ألقى القبض على من يسميهم مراكز القوى، مع أن الذى تولى هذا كان قائد الحرس الجمهورى **اللواء الليثى ناصف** الذى سرعان ماتمت تصفيته فى لندن.

ورغم أن هذه السيرة الذاتية فيها من السياسة أكثرمن الفلسفة، فإن الدكتور بدوى عندما يذهب إليه وهو فى باريس طلاب من إيران لكى يشارك فى حفل تأبين الدكتور على شريعتى، يرفض هذه المشاركة لأنه لا يعرف شريعتى ولم يقرأ له شيئا، فيقول له الطلاب إن الدكتور على شريعتى الذى قتل فى باريس كان ينصح الطلاب بقراءة مؤلفاته ـ أى مؤلفات الدكتور بدوى ـ فيقول لهم إن الحفل سياسى، وهولاعلاقة له بالسياسة، وذلك تفاديا للحرج والخوف من السلطات الفرنسية التى قتل شريعتى على أرضها.

المذهل أن الدكتور بدوى يثبت بعد هذا الكلام مباشرة، تقييما كبيرا وواسعا لدور على شريعتى، ولايقول إنه توصل إلى هذا التقييم فيما بعد، فهل وصلت الرسالة إذن؟!

الخطب والنوايا لاتكفى.. العبرة بالتغيير الفعلى

الطريق الصعب لتحـــولات الشـــرق الأوســـط!

«خطاب موجه إلى المؤتمر الأمريكى الثامن لصناع القرار فى الشرق الأوسط»

أنتـــونى كـــوردزمـــان

المشكلات التى يواجهها الشـرق الأوسـط لا تتمثل فى أنه معرض لمستقبل مظلم، وإنما فى حركته شديدة البطء باتجاه تأمين مستقبل أفضل، فمن السهل أن نتحدث عن إصلاح اقتصادى بنيوى جاد، لكن الأصعب هو تحقيق هذا الإصلاح

الجانب الأكبر من تفسير المشكلة يكمن فى أن عددا كبيرا من دول الشرق الأوسط ليس لها عدو أكبر من حكوماتها نفسها، فتدخل الدولة فى الاقتصاد والفشل المستمر فى تبنى منهج للإصلاح، ثابت بوسائل تقود إلى تحول اقتصادى عملاق، أدى إلى تعثر أجزاء كثيرة من المنطقة

جرت العادة على أن نتحدث عن أى تحولات من منظور الانتقال إلى القرن الحادى والعشرين. لكن من النادر أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للشرق الأوسط، فمعظم شعوب المنطقة تتحرك باتجاه العام ١٥٠٠، فى وقت يتجه فيه كثيرون غيرهم نحو العام ٥٦٠٠. والشرق الأوسط لديه من الأسباب ما يجعله يرحب بالألفية الأخرين وهو يتثاءب غير مبال!

وبنفس الطريقة، يمكننا الحديث عن التحولات من منطلق «الشكوك المعتادة»، فهذه التحولات تتضمن تأثير الصراع العربى ـ الإسرائيلى، وزيادة النسل، وإيران والعراق، والإسلام، وحقوق الإنسان والديمقراطية، وتغيير القيادة السياسية، وغيرها. وبخلاف العام ٢٠٠٠، فإن كل تلك تحولات مهمة، لكنها أيضا تحولات معروفة وتحظى بالاهتمام الذى تستحقه.

وأنا أود أن أتحدث هنا عن ثلاثة تحولات أخرى تتعلق بـ: السكان، والاقتصاد، والتحول الاجتماعى، وآمل أن يتم تحديد هذه التحولات بطرق تطرح مسائل جديدة على عملية صنع القرار أو تسليط الضوء على الطريقة التى ينبغى عن طريقها اتخاذ القرار.

لكننى أبدأ بتحذير مهم، فأنا لا أتحدث عن أى من هذه الموضوعات الثلاثة لأن الشرق الأوسط يعانى أزمة مالتوسية أو كارثة محدقة، إننا نتحدث عن أى دولة من بين ١٩ إلى ٢٣ دولة متباينة الاختلاف تضمها المنطقة و بعضها ناجح، وبعضها الآخر يراوح الخطى، والبعض الثالث عرضة للفشل. وفوق هذا، فإن الدول تواجه تحديات فى كافة المجالات ونادرا ما يكون الشرق الأوسط وحده فى مواجهة مثل هذه التحديات، والحاجة إلى إحداث تحولات ملائمة لمواجهتها، وأنا أتحدث عن السكان والاقتصاد والتغيير الاجتماعى لأنى لا أعتقد أنها لقيت العناية التى تستحقها على مستوى وضع السياسات، ولأننى أعتقد أن أحدا ليس بإمكانه وضع سياسة ناجحة للشرق الأوسط إذا لم يأخذ هذه العوامل فى حسبانه بصدق.

المشكلة السكانية:

السكان ليس بالموضوع الجديد على الإطلاق، وكثيرا ماحذر العديد من الخبراء فى شئون المنطقة من مسألة النمو السكانى، والحقيقة أنه لا الحكومات العربية ولاصناع السياسة الأمريكية يرتاحون للمواجهة الصادقة للمشكلات الناجمة عن النمو السكانى فى المنطقة، حتى البنك الدولى يتبنى، على مايبدو سياسة «ليس بالإمكان أبدع مما كان»، فيما يتصل بالمسائل الديموجرافية فى هذه الآونة، وغالبا ماتفترض أرقامه أن معدلات النمو سوف يطرأ عليها فى الغالب تراجع غير معهود فى المستقبل المنظور، بفضل الإصلاح الاقتصادى، وبغض النظر عن جهة الإحصاء، فإن الشرق الأوسط يشهد زيادة مفرطة فى عدد السكان.

وعندما أتيت للشرق الأوسط للمرة الأولى، أوائل الستينيات كان إجمالى عدد سكان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا مابين ٨٠ ـ ٩٠ مليون نسمة.

بحلول عام ١٩٧٠، ارتفع الرقم إلى ١٢٠ مليونا.

حسب تقديرات البنك الدولى، فإن عدد السكان فى ١٩٨٠ كان ١٧٤ مليونا.

فى ١٩٩٧ وصل عدد السكان إلى ٢٧٩.٣ مليون.

حسب تقديرات البنك الدولى، فإن من المتوقع أن يرتفع الرقم فى عام ٢٠١٥ إلى ٣٩٣.٩ وإلى ٤٨١ مليونا فى عام ٢٠٣٠.

وكما سبق وأعلنت، فإن هذا التصور الأخير للبنك الدولى حول النمو السكانى لايدعو إلى الحذر على الإطلاق، فهو يفترض أن المنطقة سوف تشهد فجاة انخفاضا نسبيا فى معدلات النمو السنوى للسكان، لتصبح النسبة ١.٩٪ فقط خلال أعوام ١٩٩٧ ـ ٢٠١٥، بالرغم من أن معدل النمو فى المنطقة فى الفترة ما بين ١٩٨٠ ـ ١٩٩٧ كان ٢.٧٪، وهناك أيضا مُعامل تحرك محافظ يبلغ ١.٦، بالرغم من حقيقة أن معدل النمو السنوى فى الشريحة العمرية من ٠ ـ ١٤ عاما هى ٢٪.

وأود أن أذكركم بشدة بأن أجزاء كبيرة من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا صحراوية فى غالب الأحوال وهى علاوة على ذلك، ليست صحراوات غنية ـ على الأقل بالنسبة لمستوى دخل الفرد، فالنفط والغاز هما مصدر الثروة الوحيد فى المنطقة، وهو مصدر يحقق الثروة لعدد محدود من الدول المحظوظة، لكن المنطقة ككل إمكانياتها فقيرة للغاية، من حيث المياه والأراضى القابلة للزراعة، ولاتتمتع بمزايا نسبية فى مجال التجارة، باستثناء صادرات الطاقة.

والمؤشرات السكانية التى أشرت إليها لتوى، لاتفصح أيضا عن أن الضغوط السكانية أكبر بكثير فى بعض الدول عن غيرها.

كقاعدة، فإن أية أمة يتجاوز معدل نمو السكان فيها ٣٪، تواجه مشكلات فى دعم نمو دخلها الفردى، وحسب تقديرات المخابرات المركزية الأمريكية، فإن عددا من بلدان الشرق الأوسط يقترب من هذا المعدل زيادة أو نقصا. وتضم هذه البلاد: غزة، والضفة الغربية، والعراق، وليبيا، وعمان، وقطر، والمملكة العربية السعودية، وسوريا، واليمن.

حتى المعدلات الأقل كثيرا من هذا يمكن أن تشكل مشكلة، عندما يكون قطاع كبير من هؤلاء السكان من صغار السن، ويعوق عدد السكان بالفعل مايمكن للاقتصاد والمجتمع أن يتعاملا معه.

دعونى أقدم لكم بعض الأمثلة القوية حول تأثير مثل هذه الاتجاهات:

ـ فى عام ١٩٨٠، كان تعداد مصر ٤١ مليون نسمة، ويبلغ تعدادها الآن ٦٦ مليونا، وعلى الرغم من أن معدل نمو السكان فى مصر الآن حوالى ١.٩٪ فقط فإن البنك الدولى يتوقع أن يصل عدد السكان فى عام ٢٠٣٠ إلى ٩٣ مليونا.

ـ كان تعداد سكان إيران فى ١٩٨٠ هو ٣٩ مليون نسمة، وهو الآن يتجاوز ٦٩ مليونا، وعلى الرغم من أن معدل النمو السكانى يزيد قليلا على ٢٪ فإن توقعات البنك الدولى لعدد السكان فى ٢٠٣٠ هو ٩٦ مليون نسمة.

ـ فى ١٩٨٠، كان تعداد العراق ١٣ مليون نسمة، وصل الآن إلى حوالى ٢١.٧ مليون، ومعدل النمو السكانى فى هذا البلد ٣.٢٪ وهو من أعلى المعدلات فى التاريخ، ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد السكان هناك فى عام ٢٠٣٠ إلى ٣٩ مليونا.

ـ كان عدد سكان الأردن فى ١٩٨٠ حوالى ٢.٢ مليون نسمة، وهو الآن حوالى

٤,٤مليون، ومعدل النمو ٢,٦٪، أما توقعات البنك الدولى لعدد السكان عام ٢٠٣٠ فهو ٨ ملايين.

- عدد سكان المغرب فى ١٩٨٠ كان ١٩.٤ مليون نسمة، وهو الآن حوالى ٢٩.١ ومعدل النمو ١,٨٩٪ فقط ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد السكان فى ٢٠٣٠ إلى ٤٢ مليون.

- فى عام ١٩٨٠، كان عدد سكان العربية السعودية ١٩.٤ مليون، وهو الآن يصل إلى ٢٩.١ بالرغم من أن معدل النمو السكانى حاليا هو ١,٨٩٪ فقط، ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد السكان فى ٢٠٣٠ إلى ٤٢ مليونا.

- كان تعداد سوريا فى ١٩٨٠ - ٨,٧ مليون نسمة، ويبلغ عدد سكانها الآن ١٧ مليونا، ومعدل الزيادة السكانية ٣,٢٪ ويتوقع البنك الدولى أن يصل عدد سكان سوريا فى ٢٠٣٠ إلى ٢٨ مليون نسمة.

ودعونى أؤكد مرة أخرى على أننا نتحدث عن تحديات لا أزمات، فليست هناك قيود سحرية على النمو السكانى، وكثير من المناطق النامية الأخرى تظهر اتجاهات مشابهة، على أن النمو السكانى هو نوع من الرفاهية وليس حقا، كما أنه يلعب دوره فى إفشال التنمية الاقتصادية عن طريق خفض الدخل الفردى، وهذا بالمقابل يجعل ضبط التغير الاجتماعى من الصعوبة بمكان.

والأكثر من هذا، أن هذه البيانات المتصلة بالنمو السكانى تعد سببا يجعلنا نحذر الخلط بين أعراض مشكلات السياسة والمرض نفسه، وكخبراء فى شئون الشرق الأوسط، فإننا نميل إلى الحديث باستهانة عن نقص المياه وحروب المياه، إننا نتحدث عن مشكلات تحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء، لكن وراء كل هذه المشكلات هناك الضغوط العنيدة للسكان والتساؤل بشأن الحلول التى من شأنها الحد من هذه المشكلات، وتكون أفضل من شراء الوقت فى حال عدم التمكن من السيطرة على معدلات النمو.

ووفقا لهذا، فإن الاقتراح الأول الذى أود تقديمه الآن ، بشأن التحولات والسياسة هو أننا بحاجة إلى استشفاف أمين لتأثير النمو السكانى، فبينما يوجد عدد محدود من البلاد التى يمكن أن تتحمل معدلات النمو المرتفعة، فإن الأغلبية ليس بإمكانها ذلك، وأعتقد أن من الواضح الجلى أن الشرق الأوسط فى حاجة ماسة إلى جهود على قدر كبير من الجرأة للحد من معدل النمو السكانى وتحقيق التوازن بينه وبين معدل النمو الاقتصادى.

مشكلة الإصلاح الاقتصادى:

دعونا ننتقل الآن إلى التحولات فى مجال الإصلاح الاقتصادى، والمشكلات التى يواجهها الشرق الأوسط لا تتمثل فى أنه معرض لمستقبل مظلم، وإنما فى حركته شديدة البطء باتجاه تامين مستقبل أفضل. فمن السهل أن نتحدث عن إصلاح اقتصادى بنيوى جاد، لكن الأصعب هو تحقيق هذا الإصلاح. وعندما سئل مارك توين عن صعوبات الإقلاع عن التدخين، أجاب بأن الأمر سهل وأنه فعل ذلك عشرات المرات.

وأنا أتذكر هذا التعليق كلما قرأت عن جهود جديدة للإصلاح الاقتصادى فى الشرق الأوسط، وهونفس السبب أيضا الذى يجعلنى أحيل تلاميذى إلى مراجعهم كلما قرأت عن الإصلاح الاقتصادى فى أبحاثهم، مطالبا إياهم بعمل جدول زمنى بكل وعود ومحاولات الإصلاح السابقة وتفسير أسباب فشلها.

إن الشرق الأوسط ليس منطقة فاشلة ، ومن يقارن بين الشرق الأوسط اليوم وبينه فى الستينيات أو السبعينيات أو الثمانينيات سيجد أن تقدما قد تحقق، وفى الوقت نفسه، فإن الشرق الأوسط ليس منطقة تنافسية أوناجحة بمعايير المناطق والبلاد النامية الأكثر تقدما، فعلى مدى معظم سنوات العقد الماضى، تأرجحت بلاد كثيرة على حافة الشروع فى إصلاح اقتصادى دون أن تتحرك باتجاه مستويات الإصلاح التى تكفل إحداث تحولات كبيرة فى النمو الاقتصادى والدخل الفردى.

وحتى إذا أخذنا فى الاعتبار العوائد غير الناجمة ، إلى حد كبير، عن صادرات النفط والغاز، فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تظهر تراجعا مطردا فى إسهامها فى إجمالى الناتج القومى العالمى والتجارة العالمية منذ منتصف السبعينيات.. أى على مدى أكثر من ربع قرن ، ومعدلات النمو الاقتصادى للمنطقة متخلفة كثيرا عن مثيلتها فى شرق آسيا وأمريكا اللاتينية، وهى لا تتمتع حاليا بمعدلات النمو التى تشهدها جنوب أفريقيا أو شبه الصحراء الأفريقية.

كانت معدلات نمو الدخل القومى العام فى الشرق الأوسط فى الفترة من ١٩٨١ - ١٩٩٠: ٢,١٪ فقط مقابل ٧,٥٪ فى شرق آسيا، و٥,٦٪ فى جنوب آسيا، وقد تحسن المعدل فى الشرق الأوسط فى الفترة من ١٩٩١ - ١٩٩٧ فاصبح ٢,٩٪ لكن المعدل ارتفع فى شرق آسيا إلى ٩,٤٪ وفى جنوب آسيا ظل كما هو، ووصل فى أمريكا إلى ٣,٨٪ .

وهناك وسيلة أخرى للنظر إلى النجاح الإقليمى تتمثل فى أخذ معدل زيادة الاستهلاك الفردى السنوى فى الاعتبار، وهذه الزيادة لم تتجاوز نسبتها ٠,٧ ٪ فى الشرق الأوسط خلال الأعوام ١٨٨٠-١٩٩٧،مقابل ٦,٨ ٪ فى شرق آسيا.

وإذا ما نظرنا إلى معدل الزيادة فى الدخل القومى العام للفرد فى العام ١٩٩٦ - ١٩٩٧،فإن أحدث تقارير البنك الدولى تشير إلى أن هذا المعدل كان ٠,٨ ٪ بالنسبة للشرق الأوسط، و٦,٢ ٪ فى شرق آسيا، و٣,٩٪ فى أمريكا اللاتينية، و ٣,٤٪ فى جنوب أفريقيا.

ولا أريد أن أغرقكم فى الأرقام،لكن بإمكانكم الاطلاع على التفاصيل التى ترغبونها سواء فى تقرير البنك الدولى حول مؤشرات التنمية العالمية أو التحليل البيانى المفصل الموجود بموقع CSIS على شبكة الإنترنت،لكن تظل الحقيقة هى أنه كلما زاد فحصنا للمؤشرات كلما تخلف الشرق الأوسط، فى أغلب الأحوال،وهذا صحيح، سواء كان حديثنا عن الناتج الصناعى أو الزراعى أوالاستثمارات الأجنبية والمحلية أو الإنتاجية.

ومن المفارقات أيضا فى الشرق الأوسط أن صندوق النقد الدولى وجد أن الدول المصدرة للبترول قدمت أكثر أشكال التنافس فقرا أمام الدول الرائدة فى العالم النامى، بالرغم من أنها دخلت عقد الثمانينيات باعتبارها أكثر الدول ثراء.

وجزء من تفسير هذا النقص فى الأداء والتنافس يكمن فى المشكلات السكانية التى سبق وتحدثت عنها ، وإن كان الجانب الأكبر من التفسير يكمن فى أن عددا كبيرا من دول



الشرق الأوسط ليس لها عدو أكبر من حكوماتها نفسها، فتدخل الدولة فى الاقتصاد والفشل المستمر فى تبنى منهج للإصلاح، ثابت وذو معنى، بوسائل تقود إلى تحول اقتصادى عملاق، أدى إلى تعثر أجزاء كثيرة من المنطقة.

ومن المفارقات أيضا أنه يبدو أن لا صلة للمسألة بمن يحكم الدولة، ملكا كان أوشيخا، أو رئيسا،أو «أبناء غير شرعيين» جاءوا عن طريق الانقلابات، ولايهم بصفة خاصة مدى ديمقراطية النظام، أو ما إذا كان فى حالة سلام تقنيا. فالمشكلات تكمن فى السياسة الاقتصادية وليس فى المسائل الجانبية.

وإذا مانظرنا إلى التاريخ الاقتصادى للمنطقة، فمن الواضح أيضا أن المشكلة لاتكمن فى نقص السياسات الصحيحة أو الجهود المتكررة لبدء الإصلاح، وإنما فى افتقاد المتابعة الجدية، فالتحول المطلوب لايحتاج إلى وضع سياسات بقدرما يحتاج تطبيقها بشكل كامل ومتماسك على مدى سنوات طويلة.

ومن منظور السياسة، فإننى أرى أننا بحاجة إلى الكف عن امتداح الحكومات على أعمالها الرمزية وخططها الجيدة الصياغة ونواياها الحسنة، والحكم عليها على ضوء نجاحاتها الاقتصادية الكبيرة فى التنافس مع الأمم النامية الرائدة، على أسس عالمية، فالشروع فى الخصخصة وتشجيع الاستثمارات الأجنبية وتقليل الاعتماد على الخدمات الاجتماعية وتشغيل الحكومة للمواطنين والتنويع الاقتصادى كل هذا لايكفى، فشعوب الشرق الأوسط تستحق الفعل والعمل لا الوعود والكلمات.

ودعونى أذكر أيضا التضمينات السياسية الأخرى لهذه الحقائق:

* إن التركيز على خطط تنمية اقتصادية «عربية» أو «إقليمية» لأمرمضحك. فتجارة الدول الشرق أوسطية تكاد تكون قاصرة على أمم خارج المنطقة، ولابديل أمامها غيرذلك، فالتجارة تذهب إلى حيث توجد المزايا النسبية. والدول الفقيرة لايمكنها تنمية تجارة غنية مع غيرها من الدول الفقيرة. كما تبين تجربة آسيا وأمريكا اللاتينية أن نموا كبيرا فى التجارة الإقليمية لايتحقق إلا بعد تنمية ناجحة. والجرى وراء التعاون العربى أو الإقليمى كحل للنمو مثل مطالبة الشرق الأوسط بأن يرفع نفسه برباط حذائه.

* إن أهدافا مرغوبة أخرى، مثل السلام والديمقراطية ليست بديلا عن الإصلاح الاقتصادى ولاتحقق التنمية الاقتصادية والحرب والاستبداد لايحولان دون تحقيقها، فمن المفارقة أن عددا من نمور شرق آسيا حققت معدلات نموها الكبيرة خلال فترات من الإنفاق العسكرى الكبير وفى ظل أنظمة قمعية، ونفس الشىء ينطبق على شيلى، وانتظار السلام أو الديمقراطية للفوز بثمار سلام بنيوى جاد يعنى الانتظار إلى الأبد.

* إن عملية السلام العربى ـ الإسرائيلى مسألة عاجلة، ومصر ليس لديها أسباب حقيقية كثيرة للتبادل التجارى مع شرق المتوسط، والسياسات الاقتصادية السورية واللبنانية لاتنسجم وتلك التى تنتهجها إسرائيل أو الفلسطينيون أو ا لأردن. والتساؤل حول كيفية تكوين وحدة اقتصادية ناجحة، تتجاوز الحدود القومية والعرقية الحالية، قد يكون له نفس أهمية قضايا «الوضع النهائى» الأخرى.

* إن السياحة لا تحقق لأية أمة سوى دخل محدود، ونموقطاع الخدمات، وخطط مواجهة الطوارئ لن تؤدى إلا إلى مزيد من الاعتماد على الواردات المصنعة، والنمو المتوازن والتنويع أمر ملح.

* بالنسبة لكل الشكاوى المتصلة بالفساد، فإن الفساد غالبا ما يكون قوة منتجة وحافزة على الاستقرار، باعتباره القطاع الأسود فى العديد من دول الشرق الأوسط، وبصورة أو بأخرى، فإن الأموال الموصومة بالفساد غالبا ما تعود إلى الناس، والقطاع غير الشرعى فى الاقتصاد هو الذى غالبا ما يكون الأكفأ فى الوفاء باحتياجات السوق التى عجزت الحكومة عن الوفاء بها.

* إن المشكلة الحقيقية، على مايبدو، تكمن فى النفقات الباهظة للدولة، وهذه النفقات تشمل مشتروات السلاح المكلفة ومشروعات الدولة الفخيمة المبالغ فى تكاليفها ـ تلك «الأهرامات» التى يعشقها كثيرون من تكنوقراطى المنطقة، والتى أدت إلى الإنفاق الباذخ على مشروعات البنية الأساسية الضخمة «الأولى من نوعها»، وغيرها. وتشمل كذلك تكاليف نظام أبوى لايزال يقدم الإعانات المالية والخدمات الاجتماعية، ويفرض ضرائب ضئيلة، والذى يتستر على نسبة كبيرة من البطالة الحقيقية عن طريق الوظائف التى تقدمها الدولة.

* إن ثروة البترول غير كافية، فليس هناك مستوى أسعار للنفط يمكنه أن يحل حتى المشكلات المتوسطة المدى التى تعانى منها معظم الدول المصدرة للنفط، بحيث تحقق نوعا من النموالاقتصادى يسمح لها بمنافسة الدول النامية الرائدة فى العالم، فالدخل الفردى الحقيقى وصل الآن إلى ٣٥ ـ ٤٠٪ فقط مما كان عليه الحال فى فترة الانتعاش النفطى فى أوائل الثمانينيات، حتى عندما يتجاوز سعر البرميل الـ ٢٠ دولارا. فالنمو السكانى والاعتماد المتزايد على الدعم الحكومي والعمالة الأجنبية يتجاوز زيادة الدخل من النفط والغاز، والحد من النمو السكان والإصلاح الاقتصادى من شأنهما تغيير هذه الاتجاهات فى معظم الدول المصدرة للطاقة.

وقبل أن أنتقل إلى التغيير الاجتماعى، دعونى أؤكد مرة أخرى على أنى أتحدث عن مشكلات قابلة للحل، وليس عن منطقة فاشلة. فالمسألة ليست أن الشرق الأوسط يمثل فشلا اقتصاديا مع وجود بعض الأمم الناجحة نسبيا، بل إن معظم الأمم تخفق فى زيادة الدخل الفردى بالقدر الذى تحتاجه المنطقة، وبعبارة أخرى، فإن التحدى المطروح هوجعل الشرق الأوسط قادرا على المنافسة على أسس عالمية، فالمنطقة تخلفت عن غيرها من المناطق والدول النامية الرائدة فى العديد من المجالات. فالإقليمية الحسنة أومخالفة الجغرافيا الاقتصادية لاطائل من ورائها.

وطبقا للاتجاهات السكانية التى سبق أن ناقشناها، ينبغى أن يكون واضحا كذلك أن هناك حاجة ملحة للتحرك قدما. وعلى السياسة الاقتصادية أن توجه المزيد من الدعوات إلى ما هو أكثرمن جولات جديدة من الخطط والنوايا الحسنة، وتقييم النجاح من منظور التقدم الاقتصادى الجاد، كما أن السياسة مطالبة كذلك بعدم الخلط بين النمو الاقتصادى وغيره من أهدافها، مثل السلام والديمقراطية والتعاون الإقليمى. فكلها أشكال مرغوبة من التقدم، لكن العلاقة بين تقدم مجال وآخر ضعيفة للغاية، والتحرك فى مجال لايعنى التقدم فى غيره.



إن أهدافا مرغوبة أخرى، مثل السلام والديمقراطية ليست بديلا عن الإصلاح الاقتصادى ولاتحقق التنمية الاقتصادية، والحرب والاستبداد لايحولان دون تحقيقها، فمن المفارقة أن عددا من نمور شرق آسيا حققت معدلات نموها الكبيرة خلال فترات من الإنفاق العسكرى الكبير وفى ظل أنظمة قمعية، وانتظار السلام أو الديمقراطية للفوز بثمار سلام بنيوى جاد يعنى الانتظار إلى الأبد

مشكلة التغيير الاجتماعى:

المسألة الأخيرة التى أود مناقشتها هى التغييرالاجتماعى، وهوموضوع معقد للغاية، لكن النقطة التى أود أن أصل إليها هى أن التحولات الاجتماعية تستدعى التطرق بعناية إلى ماهو أكثرمن الإسلام وحقوق الإنسان والديمقراطية. فتحولات التغيير الاجتماعى تتصل حتما بالضغوط السكانية والمشكلات الاقتصادية التى سبق وأشرت إليها.

ودعونى أركز على ثلاث من النتائج الاجتماعية الأساسية المترتبة على المشكلة السكانية والضغوط الاقتصادية فى المنطقة.

الشرق الأوسط صار حضريا بالفعل فى معظم أجزائه، وفى عام ١٩٦٠،كانت نسبة الحضرنة ٢٥٪ ارتفعت إلى ٣٧٪ عام ١٩٧٠، وإلى ٤٨٪ عام ١٩٨٠، وتبلغ النسبة الآن ٥٨٪ ويتوقع أن تصل إلى ٧٠٪ بحلول عام ٢٠١٥، مع الحضرنة الكثيفة لحوالى نصف دول المنطقة، فحوالى ربع مجموع سكان المنطقة سوف يعيشون فى مدن يصل تعدادها إلى المليون نسمة أو أكثر. ومستقبل مدن الشرق الأوسط وقدرتها على الوفاء بالمتطلبات الاجتماعية هو الذى سيقرر، إلى حد كبير، استقرار ونجاح المنطقة، ويكمن التحدى فى إعادة تشكيل المدن بحيث تعزز من النمو الاقتصادى وتوفر ظروف العيش السليمة للشباب والفقراء.

إن الشرق الأوسط يواجه «انفجارا شبابيا» وهوانفجار يخلق نوعية جديدة من السكان ليس لذاكرتها اتصال مباشر بنضالات الماضى وثوراته. والنموالسكانى للمنطقة سريع جدا بحيث أن ١٤٪ من السكان فى سن الرابعة عشرة أو أقل من ذلك. وتصل هذه النسبة إلى ٥٢٪ فى غزة، و ٤٨٪ فى ليبيا واليمن، و٤٤٪ فى إيران والعراق، و٤٦٪ فى سوريا، و٤٣٪ فى الأردن. وهذا الشباب فى حاجة إلى توسع كبير لتوفير السكن وفرص العمل والمرافق، للوفاء باحتياجاته، فالتكاثر السكانى لايمكن تجاهله أكثر من هذا، شأنه فى ذلك شأن أسلحة الدمار الشامل.

إن إنتاجية الزراعة الشرق أوسطية تواجه انخفاضا غيرعادى، فخلال معظم عقد التسعينيات لم تزد نسبة هذه الإنتاجية على ١,٧٪، مقابل ٥,٥٪ فى الثمانينيات. فى الوقت نفسه،انكمش نصيب الفرد من الأراضى القابلة للزراعة بأكثرمن الثلث خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة، وكانت هذه المساحة فى الفترة من ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ـ ٠,٢٩ هكتار للفرد، تراجعت إلى ٠,٢١ فقط فيما بين ١٩٩٤ ـ ١٩٩٨، وفوق هذا، فبالرغم من انخفاض نسبة الأيدى العاملة من الذكور فى مجال الزراعة من ٣٧٪ عام ١٩٨٠ إلى أقل من ٢٧٪ الآن، فإن العمالة الزراعية ضعفا ماتحتمله مساحة الأراضى الزراعية، وهو ما يقلل من إسهام الزراعة فى الناتج القومى العام بنفس النسبة.

إن الضغوط السكانية والاقتصادية الضخمة تعجل من ابتعاد الناس عن الأرض والزراعة التى تتدهور أحوالها مع الوقت، والزراعة الجيدة والاستغلال الأمثل للمياه يستدعيان أيضا زراعات كثيفة والمزيد من المال لتحقيق العائد الأساسى وتوفيرمزارعين أكثرمهارة وتحقيق مستويات عالية من الإنتاج لمحاصيل متخصصة، وبلا مواربة، فإنه كلما أمكن إبعاد المزارعين غير المهرة قليلى المال عن الأرض كلما كان أفضل.

كل هذه التحولات تعنى أن تدخل المنطقة فى موجة تغيير علمانى كبير، فالشرق الأوسط لايمكن أن يرتد مرة أخرى إلى الخيمة والقرية، بقدر مالايمكن للأمريكيين أن يشبوا الآن رعاة بقر ورواد. والمنطقة يجب أن تتعامل مع حقيقة أنها أصبحت منطقة من المدن والحواضر يمكن أن تكون فقيرة بصورة ملحوظة إذا لم يتعامل صناع السياسة مع تلك الموجة بواقعية . فكل شخص فى الشرق الأوسط بحاجة لأن يفهم ، بصورة قاطعة ، أنه لاخيار هنالك غيرالتعامل مع المشكلات والمسائل العلمانية، إن الشرق الأوسط ليس ضحية لـ«المادية الغربية» ، وهويتغير من أجل التعامل مع حقائق ديموغرافية واقتصادية جديد ة لايمكن تفاديها.

ولكى أكون أكثر تحديدا فإننى أعتقد أن سياسة الشرق الأوسط يجب أن تبذل مزيدا من الجهد عند النظر إلى المشكلات السكانية والاقتصادية باعتبارها أكثرالتحولات الاجتماعية المطلوب التعامل معها. وهذه التحولات تشمل التغييرالسياسى والحضرنة والتعليم، وكذلك ما يطلق عليه عموما «حقوق المرأة» .

فيما يتعلق بالتغيير السياسى ، فإننى أرى أن اجتماع الضغوط السكانية مع الضغوط الاقتصادية التى ذكرتها فيما سبق يؤكد أن الصفقة الأبوية لمجتمع الرفاه الذى تسيره الدولة التى تميز كل نظم الشرق الأوسط تقريبا أصبحت الآن غير محتملة وغيرقابلة للبقاء، فالاقتصاد يجب أن يصبح أكثر إنتاجية بطرق لايمكن تحقيقها ما لم تبتعد الدولة عن الطريق، وينكمش قطاع الدولة ، ويتراجع دور الحكومة فى توفير الخدمات الاجتماعية وتقديم الدعم ،ويُعطى القطاع الخاص حرية واستقلالية أكبر فى الحركة. فـ«سلطانية الأرز الحديدية» لم يعد من الممكن الإبقاء عليها فى الشرق الأوسط بأكثر مما هو الحال فى الصين.

تشير الخبرة إلى أن الاقتصاد الذى تشكله قوى السوق أكثر فعالية بكثير من ذلك الخاضع لسيطرة الدولة، لكن الإصلاح الاقتصادى يجب أن يتطور من خلال الخبرة وعبرالوقت، على أن الأزمة الاقتصادية الراهنة فى آسيا تعد تحذيرا بأن الإصلاح الاقتصادى المستقر يتطلب المزيد من الشفافية من جانب حكومات الشرق الأوسط، فالتنمية الاقتصادية ونمو القطاع الخاص يحتاجان تقريرا اقتصاديا أمينا ، وميزانية عامة، وخططا عامة تسجل نجاحاتها بانتظام، ويجب على الأقل مناقشة جدوى التكلفة بالنسبة لكافة مشروعات الدولة الكبيرة واستثماراتها، إلى الحد الذى يكون واضحا معه أنها أفضل من الاعتماد على قوى السوق. كما أن طرح قضايا النمو السكانى والإنتاجى وكفاءة التوظيف والاعتماد على الواردات والعمالة الأجنبية وتأثير الاقتصاد على التعليم للنقاش العام والواقعى أمرمطلوب.

يتطلب التغيير الاقتصادى كذلك أشكالا جديدة لحقوق الإنسان، تخدم الاقتصاد أكثر مما تخدم المصالح السياسية، فحقوق الإنسان ليست مجرد حماية للفرد والمفاهيم السياسية ، فهى يجب أن تشمل حقوق الملكية وتوحيد المصطلح التجارى ومفهوم جديد للقانون.

إننا نميل ، فى الولايات المتحدة إلى نسيان أننا لسنا ديموقراطية ، وإنما جمهورية تقوم على الفصل بين السلطات وحكم القانون، وليس من سبب يجعل دولة شرق أوسطية أن تكون صورة من الولايات المتحدة لكن هناك أسبابا اقتصادية تدعو إلى التسليم بأن قيام اقتصاد شرق أوسطى ناجح يستدعى الارتكاز إلى حكم شامل لقانون يعول عليه، يصون حقوق الملكية وحرية العمليات التجارية، وهذا يتطلب حماية أكثر فاعلية مما هومتاح الآن بشكل عام.

إن التغييرالاقتصادى لايمكن أن يتحقق بالمدى والسرعة المطلوبة دون التأكيد مجددا على الإنتاجية الاقتصادية ، والتعليم بحاجة إلى التأكيد مجددا على مجالات من شأنها تعليم المواطنين المنافسة، ولايمكن أن يقوم هذا التعليم على التلقين، أو أن يكون متشددا بصورة ترفض فوائد التجارة أو «ليبراليا» بصورة تجعله يخرج أساتذة كبارا فى العلوم السياسية بدلا من تدريب قوة عمل فعالة.

التحديث الاقتصادى يتطلب وسائل اتصال حرة ومفتوحة والاتصال بقواعد البيانات والإنترنت، وهذه النقلة أيضا لاتحتمل الانتظار، فالصغار لايمكن أن يتعلموا ويتكيفوا بحق إلا عن طريق الممارسة، وأى تأخير فى هذا، ولو لسنوات قليلة يمكن أن يعنى تخلف «أجيال كاملة» عن ركب التكنولوجيا.

القيم الاجتماعية مطالبة بالتركيز على الإنتاجية وكذلك وضع القيود أمام النموالسكانى، فتفسيرات الإسلام والموروث الاجتماعى لايمكن أن تعود إلى الماضى، والدول لا يجب أن تتبنى مفاهيم غير عملية للاشتراكية والعون الاجتماعى ، إن العولمة لها تشعباتها الكثيرة، لكن إحداها هى : إذا كان باستطاعة آسيا أن تبيع أجهزة أو ملابس فى الشرق الأوسط أقل سعرا مما تنتجه دول الشرق الأوسط، فمعنى هذا أن آسيا سوف تصدر وتنمو، أما الشرق الأوسط فلا. وإجراءات الحماية والموروث الاجتماعى يمكن أن تقلل من حدة الفقر، لكنها لاتمنعه.

للمرأة دور رئيسى فى هذه الإنتاجية، وحولى ٥٥٪ من الأيدى العاملة النسائية، فى الشرق الأوسط لازالت فى القطاع الزراعى ، فى الوقت الذى تراجعت فيه قوة عمل الذكور بأكثرمن الثلث، ولاتزيد نسبة العاملات فى الصناعة على ١١٪ مقابل ٣٠٪ فى أوروبا.

وبعيدا تماما عن حقوق الإنسان ، فإن دول الشرق الأوسط ليس لها أن تتحمل هدرا أو التقليل من شأن مردود نصف قوة عملها. والمسائل المتعلقة بدور النساء تمتد لتشمل قضايا الأمية والحقوق الاجتماعية، إنها تتعلق بمجمل المستقبل الاقتصادى لأمم الشرق الأوسط.. بالقدرة على الوصول إلى مستوى من الإنتاجية ـ على نطاق الأمة ـ يسمح لدول الشرق الأوسط بمنافسة غيرها من المناطق النامية. ويشمل كذلك قدرة كل من الرجال والنساء على الاختيار الذكى بالنسبة لمعدلات المواليد ومستقبل الأسرة.

خاتمة

دعونى أختم حديثى بالقول بأننى لم أتناول هذه التحولات لاعتقادى بأنها تمثل استبصارا ذكيا وجديدا أو تشتمل على منهج جديد للتعامل مع الشرق الأوسط، فقد سبق لكثيرين من الحاضرين هنا منذ زمن ، مناقشة هذه المسائل ، وكثيرمن حكومات المنطقة بدأت وضع يدها على الأقل ، على المشكلات والبعض منها حقق قدرا من التقدم الملموس.

على أننى أعتقد أن مستقبل الشرق الأوسط سوف يتشكل إلى حد بعيد وفقا لقرارات السياسة التى تصوغ التحولات فى تلك المناطق بالقدر الذى يصوغه به مردود أزماتها السياسية والأمنية المتعددة. كما أعتقد أن نجاح المنطقة سوف يكون محكوما فى النهاية بتنافسها العالمى مع غيرها من المناطق النامية. وقدرتها على الاندماج فى اقتصاد عالمى مستقر.

وأضيف إلى هذا، أننى لا أثق إطلاقا فى البدايات الجديدة والنوايا الطيبة ، وصحيح أن الضغوط التى أشرنا إليها ليست قدرا محتوما، لكنها من الحدة بحيث لايمكن قياس التقدم إلا من زاوية التغيير القومى والإقليمى ، لا من زاوية الخطط ، أو الخطب، أو الأحلام. ■

ترجمة : بدر الرفاعى

كتاب الزاوية

حديث عيسى بن هشام

محمد المويلحى

(٤)

العرس

قال عيسى بن هشام : كنت دعيت فيمن دعى من الناس إلى وليمة عرس من أكبر الأعراس، فقلت للباشا : عندى اليوم حد الكفاية فى بلوغ الغاية، فهلم إلى المحفل الذى تحتشد فيه المحافل، والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل.

ودخلنا ساحة كأنها مدينة، تبرجت فى يوم الزينة، فوقفنا هنيهة فى وسط المزدحم لانجد موضعا للقدم، حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب، من ذوى العلامات فى الثياب، فدسنا بين جماعة لم نعرف منهم أحدا، ولم يحسنوا لتحيتنا ردا، وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهول لايدرك ما يذره وما يأتيه، وأن صاحب البيت لايدرى الليلة بالذى فيه، وأنه لاتثريب عليه ولالوم، فهو مشغول بتحية كبار القوم، ممن لم يخالطهم قبل اليوم.

الباشا : وماالغرض لصاحب العرس من هذا كله؟

الصديق : الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته، وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الأعراس ينفقون عليها جانبا عظيما من ثروتهم لاغرض لهم منها سوى ذلك وحده، وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق فى إقامة العرس جميع ماله، ثم بقى عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه.

الباشا : ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت، بل كنت أعهدها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء.

الصديق : ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب فى طعام الأعراس، بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم.

كمال النجمي..

إلياس سحاب

كتابات النجمي أنقذت لنا ما يمكن إنقاذه من أساسيات العصر العربي الذهبي في الموسيقى والغناء، وبقي استكمال المهمة على عاتق الباحثين الأكاديميين الذين ننتظرهم

■■ يقول معجم «المنجد» في التعريف بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: «كتاب الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني - دون فيه الأصوات التي اختارها المغنون للخلفاء، ولاسيما لهارون الرشيد، فجمع من الأغاني العربية قديمها وحديثها ما أمكنه جمعه، ونسب كل ما ذكره منها إلى قائل شعره وصانع لحنه. ثم اتسع في ترجمة (أي في سيرة) هذا الشاعر أو المغني، وبحث في الأحوال التي قيلت فيها الأبيات من حرب أو مجلس لهو، في الجاهلية والإسلام».

مع أن أبي الفرج الأصفهاني قد ولد في عام ٨٩٧، أي في عهد الخليفة العباسي السادس عشر (المعتضد)، وتوفي في عام ٩٦٧، أي في عهد الخليفة العباسي الثالث والعشرين (المطيع)، فقد قدر له أن يضمن كتابه تاريخ الغناء العربي على مدى يقارب القرنين، من أواخر الجاهلية وصدر الإسلام في مطلع ومنتصف القرن السابع، حتى بداية القرن التاسع ذروة العصر الذهبي للغناء العربي في ذلك الزمان، عصر هارون الرشيد والأمين والمأمون (إبراهيم الموصلي وابنه إسحق، وزرياب).

وتشاء الظروف بعد عشرة قرون، عند انبثاق عصر ذهبي آخر في الغناء العربي (بين منتصف القرن التاسع عشر وسبعينيات القرن العشرين)، أن ينبري أديب آخر (استولى عليه شغفه بالموسيقى والغناء حتى صرفه عن الأدب)، إلى تمثل دور أبي الفرج الأصبهاني وتكراره في تأريخ عصر الغناء العربي الذهبي الحديث، هو كمال النجمي.

غير أن كمال النجمي، كان أحسن حظا من سلفه العظيم الأصبهاني، فبينما كان اطلاع الأصبهاني على تراث العصر الذهبي الذي أرخ له، كان في غالبه اطلاعا على الوصف الكتابي لنماذج ذاك التراث، فإن كمال النجمي الذي ولد في عشرينيات القرن العشرين وتوفي في أواخره، قد أتاح له اختراع الأسطوانات والتسجيل على أشرطة، والحفلات المسرحية والإذاعية، الاحتكاك المباشر والمعايشة المباشرة لتراث القرنين التاسع عشر والعشرين في الغناء العربي، حتى أنه استمع إلى تراث القرن العشرين بأكمله مسجلا بأصوات أصحابه. أما تراث القرن التاسع عشر الذي مات معظم عظمائه قبل أن يتاح لهم تسجيل أصواتهم على أسطوانات (الحامولي ومحمد عثمان وسواهما)، فقد تولى تلامذتهم ومريدوهم من فطاحل الغناء المخضرمين (مثل المنيلاوي والصفتي وعبد الحي حلمي وصالح عبد الحي وسواهم) تسجيل زبدة أعمالهم على أسطوانات. سنكتشف في كتابات النجمي أنها كانت زادا سمعيا أساسيا لديه، كما أن حظه كمؤرخ موسيقي، اكتمل بمعايشته لفطاحل المشايخ من أمثال محمد رفعت ومصطفى إسماعيل (والاستماع إلى تسجيلات الشيخ علي محمود)، ممن كان لهم أثر مؤكد وعميق في تطوير فن الغناء العربي المعاصر، والارتقاء به إلى ذراه السامقة التي عرفها مع محمد عبد الوهاب وأم كلثوم.

كذلك أتيح لكمال النجمي أن يعايش التحولات الكبرى التي طرأت على الغناء العربي (والموسيقى العربية) من مدرسة القرن التاسع عشر، إلى مدرسة القرن العشرين، إلى نهاية العصر الذهبي في الربع الأخير من هذا القرن وولادة الألوان الهجينة التي أعلن النجمي رأيه الصريح فيها باقتضاب في كتابه الأخير، ولكنه استفاض في ذلك في كتاباته الصحفية التي لم تجمع بعد في كتاب. كما قدر للنجمي أن يعايش محاولات «تطوير» الموسيقى العربية عن طريق التغرب، وكان له في ذلك موقف صريح أيضا هو معادلة دقيقة بين الحسم والوضوح من جهة، واللباقة الكاملة في أسلوب التعبير، الذي كان لا يجرح أصحاب هذه المحاولات، ولكن يصارحهم بحتمية فشلهم. وقد توج النجمي كل هذه المزايا الخاصة التي أتيحت له، بلقاءات مطولة مع كبار الرموز الفنية في العصر الذهبي (مثل عبد الوهاب وأم كلثوم وسواهم)، فأفاد من ذلك في الاطلاع على آرائهم (بعد الاطلاع على فنهم).

لكل ذلك، ومع أن كمال النجمي لم يتبع الأسلوب المنهجي الذي أمضى فيه أبو الفرج الأصبهاني خمسين عاما لإعداد كتاب «الأغاني»، فإن كتابات كمال النجمي التي امتدت على حوالي أربعين عاما، قد تجاوزت شكل المقالات الصحفية (الذي ظهر فيه القسم الأكبر من كتاباته الموسيقية الأساسية)، فلم تترك موضوعا هاما في تاريخ الموسيقى والغناء العربيين بلا تغطية، وتجاوزت ذلك إلى تحليل طبائع عصر هذه النهضة الموسيقية - الغنائية، بخصائصه الاجتماعية والسياسية والثقافية، وإن تراوح هذا التحليل بين السطح والأعماق، كما سيبدو عند الاستعراض التفصيلي لهذه الكتابات.

غير أن الدخول إلى تفاصيل كتابات كمال النجمي الموسيقية لابد له من المرور بملاحظة أساسية بشأن قيمتها الحقيقية.

فباستثناء كتاب النجمي عن محمد عبد الوهاب (مطرب المائة عام)، جاءت كتبه الأخرى تجميعا لمقالات متفرقة، مما أدى (إضافة للأسلوب الأدبي الممتع لكمال النجمي) إلى التوهم بخلو هذه الكتابات من القيمة الأكاديمية الحقيقية، خاصة أننا نجد الموضوع الواحد، يعالج بمقالات موزعة بين أكثر من كتاب أو في مواقع مختلفة من الكتاب الواحد.

غير أن قراءة متعمقة في كتابات كمال النجمي الموسيقية، تؤكد لنا أن هذا ليس سوى خلل في شكلها الخارجي. فهي لو أعيد نشرها، بعد إعادة تصنيفها وفقا لمواضيعها التفصيلية، أو لو تم تصنيفها على الحاسوب وفقا للمواضيع، لكشفت لنا عن كنوز داخلية من المعلومات والتحاليل، التي إذا قورنت بسواها من الكتابات في الموسيقى والغناء العربيين، اكتشفنا أنها (على الأرجح) أغنى أو من أغنى ما بين أيدينا لملء جزء من الفراغ الذي نشكو منه في الكتابات النظرية عن الموسيقى العربية المعاصرة (والذي أشرت إليه تفصيلا في مراجعة كتاب عن أم كلثوم في العدد الخامس من وجهات نظر)، وهو فراغ مازال بحاجة إلى جهود كثيفة ودءوبة لملئه، ولكن كتابات كمال النجمي أنقذت لنا ما يمكن إنقاذه من أساسيات العصر العربي الذهبي في الموسيقى والغناء، وبقي استكمال المهمة على عاتق الباحثين الأكاديميين الذين ننتظرهم.

وخلاصة الملاحظة على كتابات كمال النجمي إذا ما نظرنا إليها من هذه الزاوية، أنه إنما اكتفى بكتابة تاريخ الغناء العربي المعاصر، ولم يكتب تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة. وليس في هذا أي عيب، ولكنه جهد يقف عند حدود معينة، والحاجة ماسة إلى استكماله بالدأب نفسه، والحرص نفسه والعشق نفسه للموسيقى العربية، الذي يلف كتابات كمال النجمي

الغناء والموسيقى في القرن التاسع عشر

مع أن الفصل الثاني من كتاب «تراث الغناء العربي» (ص ٦١ - ١٣٢)، هو الذي أودعه كمال النجمي خلاصة مركزة عن الغناء العربي في القرن التاسع عشر (أهم نجومه وأشكاله)، فإن كتابه «محمد عبد الوهاب - مطرب المائة عام» قد تضمن فصلا مهما على علاقة حميمة بهذا الموضوع (الفصل السابع، ص٨٧ - ١٠٢)، عنوانه «عبد الوهاب، آخر مطربي شوقي». يميط النجمي في هذا الفصل اللثام عن معلومات بالغة الأهمية في علاقة أمير الشعراء شوقي الوثيقة بتاريخ الغناء العربي الراقي. فبينما تشيع في حياتنا الثقافية «المعلومة» التي توحي بأن محمد عبد الوهاب هو أول وآخر مطرب كبير كانت لأمير الشعراء صلة مباشرة به، وأن شوقي لم ينظم الشعر بالعامية إلا خصيصا لعبد الوهاب (بلبل حيران، وفي الليل لما خلي ومقطوعات أخرى كثيرة)، فإن كمال النجمي يميط اللثام عن أن عبد الوهاب كان آخر المطربين الكبار الذين اتصل بهم شوقي، (فهو لم يكن الأول، كما لم يكن الوحيد)، بل كانت العلاقة الحقيقية والخلاقة بين أمير الشعراء وأمير اللحن والغناء هي تتويج لمسيرة طويلة بدأها شوقي، كما يؤكد النجمي، بشيخ موسيقيي القرن التاسع عشر محمد عبد الرحيم المسلوب، وأطولهم عمرا (١٧٩٦ - ١٩٢٨)، فيقول في الصفحة ٩٠ من كتابه عن عبد الوهاب: «وكان شوقي من القلائل الذين يتذكرون الشيخ محمد المسلوب، ويزورونه من وقت إلى آخر، ويبرونه ويحدبون عليه ويأخذون إليه الأطباء، وكان الشيخ المسلوب قد انقطع عن الغناء منذ مطلع القرن العشرين إذ كان قد بلغ المائة من عمره، وعاش بعدها إلى سنة ١٩٢٨، فقيل إنه جاوز المائة والثلاثين عاما».

وفي مقطع آخر من الكتاب نفسه يقول النجمي، في ص٩٣:

«لكن الظن بأن شوقي لم يمارس نظم الزجل العامي إلا في أغانيه لعبد الوهاب، هو ظن بعيد عن الواقع، لأن لشوقي تاريخا قديما، قبل معرفته بعبد الوهاب، نظم خلاله مقطوعات عامية لمطربين من أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين».

إلى أن يقول في ص ٩٤:

«فقد كان شوقي منذ شبابه الأول شديد المحبة لفن الغناء، عظيم التقدير لأعلامه الكبار، ولم يمنعه منصبه في الديوان

أصفهانى القرن العشرين

الخديوى من نظم الأغانى لعبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى وغيرهم».

ثم استشهد النجمى بأبيات من قصائد شوقى رثا بها عبده الحامولى (١٩٠١) وعبد الحى حلمى (١٩١٢) وسلامة حجازى (١٩١٧)، ومع أن شوقى لم يلتق وسيد درويش، فقد خصه فى ذكراه الثامنة (١٩٣١) بقصيدة مطلعها:

بلبل اسكندرى أيكه
ليس فى الأرض ولكن فى السماء
هبط الشاطئ من رابية
ذات ظل، ورياحين وماء

ثم طب شوقى سيد درويش بأبيات رائعة عن عبد الوهاب ليخبره بخلافة عبد الوهاب له:

لقد استخلفت فنا نابغا
دفع الفن إليه باللواء
إن فى ملك «فؤاد» «بلبلا»
لم يتح أمثاله للخلفاء

غير أننا نعود من هذا المشهد الرمزى عميق الدلالة، الذى يرسم فيه كمال النجمى بخطوط سريعة من خلال شخصية أحمد شوقى، عمق التداخل بين ينابيع الثقافة العربية المعاصرة فى مرحلتها الحيوية والمزدهرة، نعود إلى الكتاب المرجع لكمال النجمى (تراث الغناء العربى: بين الموصلى وزرياب، وأم كلثوم وعبد الوهاب)، حيث يستعرض فى ٢٥٧ صفحة، تاريخ المحطات الأساسية فى الغناء العربى عبر العصور، من خلال ثلاث لوحات تاريخية كبرى:

* لوحة الغناء فى صدر الإسلام والعصر العباسى.
* لوحة الغناء فى القرن التاسع عشر.
* لوحة الغناء فى القرن العشرين.

ومع أن الطريقة التى يعالج بها النجمى مواضيعه هذه، لا تصنف كتابه هذا (كسائر كتبه أصلا) فى فصيلة التاريخ الأنتولوجى المنهجى للغناء العربى فى كل هذه العصور، غير أنه يرتفع فى معالجته إلى مستوى، ويدخل أعماقا تتيح له استخلاص روح الغناء العربى عبر كل هذه العصور، كما أنه عندما يصل إلى العصور الحديثة (القرن التاسع عشر والقرن العشرين) فإنه يبقى على رفعة المستوى وعمق البحث والتحليل، ويضيف إليهما توسعا فى المعلومات، يقترب بكتبه وكتاباته من أسلوب الاستعراض التاريخى والمنهج الأنتولوجى، أو هو - فى أقل تقدير - يضع بين أيدينا دليلا مدهشا فى عمقه ووضوحه، لابد لأى بحث أنتولوجى منهجى فى تاريخ الموسيقى العربية، القديمة والمعاصرة، (خاصة المعاصرة) من الاستناد إليه.

فلوحة الجذور التاريخية للغناء العربى، تتضمن العناوين الرئيسية التالية:

* مناظرات الموصلى وابن المهدى
* معركة الحياة والموت بين الموصلى وزرياب
* شعر عمر بن أبى ربيعة فى الغناء القديم
* الغناء الدينى والدنيوى عند الغزالى
* الغناء والإيقاع والرقص بين الغزالى والمستشرقين
* غناء بعض الخلفاء، وغناء أبنائهم.

إذا كانت هذه اللوحة تتضمن محطات أساسية عن الغناء العربى فى العصور القديمة، ولا تغطى بالضرورة جميع المحطات بالتفاصيل التاريخية الكاملة، بل تكتفى كما قلنا بالتعبير عن روح الغناء العربى من خلال محطاته الأساسية، فإن النجمى عندما ينتقل إلى اللوحة الثانية (القرن التاسع عشر) يزداد دقة وشمولا، مع الاحتفاظ دائما بدليله الأساسى فى رحلته التاريخية الشاملة هذه، وهو محاولة رسم ملامح الروح العامة للغناء العربى، عبر مختلف العصور.

العناوين الأساسية فى لوحة القرن التاسع عشر، هى:

* شيوخ الغناء (الشيخ شهاب الدين، الشيخ المسلوب، المعلم شعبان).
* مخترع فن الدور.
* فن الدور وتطوره.
* الأدوار الوحيدة.
* فن الدور للرجال فقط (باستثناء أم كلثوم).
* معركة حول أدوار محمد عثمان.
* نواقيس عبده الحامولى.
* حكاية «عشنا وشفنا».
* لما بدا يتثنى.
* الشيخ السنباطى والقصبجى أفندى (والدا رياض السنباطى ومحمد القصبجى).

غير أن ناقدا له شمولية المعرفة وعمق الحساسية كما لكمال النجمى، ما كان يمكن أن يفوته أن مدرسة القرن التاسع عشر قد ظلت هى الذوق الجمالى السائد فى الغناء العربى، حتى انتشار أعمال سيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم فى عشرينيات القرن الحالى. لذلك، فقد ضمن كتبه الأخرى مقالات فى تذوق فن الغناء العربى فى مدرسة القرن التاسع عشر، وأشكال هذا الفن. أما من خلال استعراض ليالى الغناء مع نجوم القرن التاسع عشر أنفسهم، أو نجوم الغناء المخضرمين بين القرنين، ممن استحقوا لقب حفظة تراث القرن التاسع عشر، وممن كان من حسن حظ الصدف التاريخية أن هؤلاء النجوم كانوا عند دخول تقنية التسجيل على أسطوانات إلى مصر، مازالوا على قيد الحياة ومازالوا فى ذروة مقدرتهم الغنائية، ومازال تراث القرن التاسع عشر العظيم حيا فى ذاكرتهم الموسيقية مطربين أو عازفين، ولا غرو فى ذلك، فقد تخرجوا جميعا على يدى زعماء مدرسة القرن التاسع عشر (المسلوب والحامولى ومحمد عثمان وسواهم). وهذه





كمال النجمى يميط اللثام عن أن عبد الوهاب كان آخر المطربين الكبار الذين اتصل بهم شوقى، (فهو لم يكن الأول، كما لم يكن الوحيد)، بل كانت العلاقة الحقيقية والخلاقة بين أمير الشعراء وأمير اللحن والغناء هى تتويج لمسيرة طويلة بدأها شوقى، كما يؤكد النجمى، بشيخ موسيقيى القرن التاسع عشر محمد عبد الرحيم المسلوب

محطة انتقالية بالغة الأهمية، أحسن كمال النجمى رصدها ووصفها فى كتبه الأخرى، مؤكدا على أنه إذا فاتنا الاستمتاع بفن الغناء العربى العظيم فى القرن التاسع عشر لأننا لم نعاصر عظماءه ونجومه، فقد عوضنا الله (وعوض تاريخ الغناء العربى المعاصر) بظهور الأسطوانة فى السنة الثالثة أو الرابعة من بداية القرن العشرين، مما حفظ لنا زبدة تراث القرن التاسع عشر، ووضعه بين أيدينا نستمتع به ونحلله وندرسه، لمن أراد إلى ذلك سبيلا.

ففى كتاب «مطربون ومستمعون»، يقدم النجمى فى ص٢٤٩، وصفا لوصلة غنائية لصالح عبد الحى، مع مقارنة غنية بأداء خاله عبد الحى حلمى. وفى الصفحة ٢٥٣ وصف وصلة لنجم آخر ممن تخصصوا فى أداء تراث القرن التاسع عشر، هو الشيخ يوسف المنيلاوى، فى صالون نظلة هانم.

وفى كتاب «سحر الغناء العربى» يلتقط لنا النجمى، من ذاكرة مستمع قديم، وصفا حيا لليالى الشيخ عبد الرحيم المسلوب، والمطرب محمد سالم العجوز فى أواخر القرن التاسع عشر. وفى الصفحة ٣٤٤ وصف حى لليلة من ليالى عبد الحى حلمى (أنشد فيها دور فى البعد ياما لأحمد عثمان) وهكذا. ومع أن كمال النجمى لا يدعى فى هذه الفصول تاريخا أنتولوجيا أكاديميا لتراث القرن التاسع عشر، ولا يسعى إلى ذلك أصلا، غير أنه يؤدى مهمة لا تقل أهمية عن ذلك، وهى استحضار روح الغناء والموسيقى العربية فى القرن التاسع عشر، إما على لسان رواد من المستمعين القدامى، أو من خلال استماعه الحى أو المسجل لتراث القرن التاسع عشر كما أنشده مخضرمون.

مؤرخ القرن العشرين

إذا كان كمال النجمى قد أدى بامتياز مهمة استحضار روح فن الغناء العربى فى القرن التاسع عشر، فإن معايشته لفن الغناء العربى فى القرن العشرين من أوائله حتى أواخره، قد هيأت له أن يؤدى بامتياز دور مؤرخ فن الغناء العربى فى القرن العشرين (وهى الصفة التى اخترناها عنوانا لهذا المقال)، ابتداء بالمرحلة الانتقالية المتداخلة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، مرورًا بالمرحلة التأسيسية على أيدى سيد درويش (فى فنون المسرح والدور والموشحات والطقطوقة) أبو العلا محمد (فى فن القصيدة)، ثم بمرحلة العصر الذهبى مع عبد الوهاب وزكريا أحمد والسنباطى والقصبجى وأم كلثوم وسواهم، وصولاً إلى مرحلة الهبوط أو مرحلة الموجة الجديدة.

غير أنه لابد هنا من التنبيه إلى أن مساهمة كمال النجمى فى هذا المجال بالذات لم تتوقف عند كتبه المذكورة فى حاشية هذا المقال، بل تواصلت بعد ذلك فى مقالات بالغة الأهمية فى المجلات المصرية واللبنانية، مما يستحق أن يجمع فى كتاب أو أكثر، لاستكمال ملامح النفس التاريخى والتحليل العميق الذى كان يسير كتابات كمال النجمى الموسيقية.

ولأن القرن العشرين هو مجاله الأرحب، فإن كمال النجمى لا يتوقف عند سير عظماء هذا القرن، ولكنه لا يبخل أبدا فى التوسع فى تسجيل كل الظواهر التى رفدت فن الغناء العربى المعاصر وأغنيته، سواء فى ذلك وصف المراحل الانتقالية فى بدايات القرن، بنجومها وأجوائها وتحولاتها الاجتماعية والفنية، وتداخل العوامل المعقدة التى ساهمت فى تطوير الغناء العربى، وإكسابه ملامح هويته العربية والحديثة.

فقبل ظهور أم كلثوم (وكوكبة ملحنيها) ومحمد عبد الوهاب، كانت ساحة الغناء العربى (باستثناء ظاهرة سيد درويش) موزعة بين غناء تراث القرن التاسع عشر الكلاسيكى، فى حفلات غنائية أو أسطوانات، وغناء علب الليل ذى الطابع الترفيهى الخفيف، بل والهابط غالبا فى كلامه وفى لحنه وأدائه. ومع أن الخط الفاصل بين هذين اللونين كان واضحا ومحددا وحاسما فى بعض الأحيان، ولدى بعض فنانى مطلع هذا القرن، فإنه فى أحيان أخرى لم يكن بهذا الوضوح والحسم. فقد تورط رموز كلاسيكيون، من ملحنين ومغنين لفترة معينة فى اللون الترفيهى السائد. حتى جاءت اللحظة التاريخية الحاسمة التى شهدت صعود النجمين الساطعين اللذين سيسيطران بعد ذلك على مسيرة الغناء العربى فى القرن العشرين (عبد الوهاب وأم كلثوم)، وأفول نجم سلطانة الطرب منيرة المهدية، وكان ذلك نتيجة طبيعية، بل بديهية لبزوغ عصر السيطرة الحاسمة للون الكلاسيكى الكبير، الذى كان يمثله عبد الوهاب وأم كلثوم أجمل وأعظم تمثيل، بينما كان صوت منيرة المهدية وأداؤها، واختيارها للكلام والألحان، أميل إلى اللون الترفيهى (مع طابع الطرب المشترك بين الترفيهى والكلاسيكى) منه إلى اللون الكلاسيكى.

سنجد فى كتابات كمال النجمى الموسيقية وصفا وتحليلا عميقا لظواهر التحول هذه، خاصة فى الفترة الانتقالية التى شهدت التحولات الأساسية بين مدرستى القرن التاسع عشر والقرن العشرين: ظهور الأسطوانة، صعود وهبوط المسرح الغنائى، الانتقال من المسرح إلى السينما، الانتقال من الأسطوانة إلى الإذاعة، معاهد الموسيقى العربية ومؤتمرات الموسيقى العربية.

ينابيع الهوية الخاصة للغناء العربى

قبل الانتقال إلى مناقشة الملامح الأساسية والقضايا الأساسية التى أفاض كمال النجمى وتعمق فى عرضها وتحليلها وتحديد الموقف الواضح إزاء كل منها، عند عرضه لتراث الغناء العربى فى القرن العشرين (مما يمثل ٨٥٪ على الأقل من مجمل كتاباته المجموعة فى كتب، وغير المجموعة)، لابد لنا من التوقف أمام أبحاث مهمة تضمنتها كتابات النجمى، سعيًا وراء تحديد ينابيع الهوية الخاصة والمميزة للغناء العربى الكلاسيكى المعاصر، سواء فى نماذج الأدب العربى الكلاسيكى المعاصر، أو فى مدرسة تجويد القرآن الكريم والتواشيح الدينية. وهذه مساهمة أساسية لكمال النجمى، وقيمة أساسية فى كتاباته الموسيقية، يجدر بجميع من يتعاطى هذا اللون من الكتابة التوقف عندها، وتمثلها والنسج على منوالها، ليس فقط سعيا وراء فهم أفضل وأعمق لتراث الغناء العربى، بل أيضا سعيا وراء إيجاد المخارج الصحيحة لتجاوز الحائط المسدود أمام تطور الموسيقى والغناء العربيين، الذى مازلنا نقف أمامه منذ عقدين من الزمن على الأقل.

ففى سعى كمال النجمى للتعبير عن الملامح القومية العربية للغناء المصرى وعن تداخل هذه الملامح بين فنون الغناء والأدب، تمتلئ كتبه كلها بمقالات مطولة عن هذا الموضوع. نجد فى كتاب «الغناء المصرى» عرضا لرومانسية إبراهيم ناجى (شاعر أطلال أم كلثوم وقيثارة محمد عبد الوهاب)، ومقارنة بين رومانسية رامى فى ترجمة الخيام ورومانسية على محمود طه. ثم قصصا طريفة عن ولع الأديب الكبير زكى مبارك بفن الغناء، لدرجة قيامها بعرض إحدى قصائده على عبد الوهاب لتلحينها، ثم مقالة رائعة فى الصفحة ٦٨ من الكتاب، يقارن فيها بين سيطرة الروح النهضوية العربية على شعر محمود سامى البارودى وتلحين أبو العلا محمد للقصيدة، ثم مقارنة مماثلة (الصفحة ٦٩) بين مهمة أبو العلا محمد فى بعث الروح القومية العربية (من خلال تلحين القصائد) ومهمة سيد درويش فى بعث الروح المصرية الشعبية (فى ألحانه الشعبية).

ولا يترك النجمى مجالا للتشكيك فى الهوية العربية العامة للغناء المصرى. فيفتتح مقاله بعنوان «مستقبل الغناء المصرى» فى الصفحة ٧٠ من الكتاب نفسه، بالسطور التالية:

«أقصد بالغناء المصرى، الغناء العربى بوجه عام. فإن الغناء المصرى هو الجزء الأجمل، والأكثر تطورا وانتشارا من فن الغناء الذى تتذوقه جميع الشعوب العربية الآن».

وفى كتاب «ألحان وأصوات عربية» يعقد مقارنة بديعة بين المازنى وابن الرومى وبيرم، علاقتهم بالأصوات، جميلها وقبيحها (١٢٠-١٢١). ويعود فى الكتاب نفسه (١٤٢-١٤٥) إلى الحديث عن وحدة الوجدان العربى من زرياب إلى الشيخ محمد رفعت إلى أم كلثوم. ويعرج بعد ذلك (١٥٦) على سيرة غريبة لأديب من يافا (فلسطين) عاش فى مصر وكتب مئات الأغانى لعبده الحامولى وسلامة حجازى ومحمد عثمان وعبد الحى حلمى ومنيرة المهدية وفتحية أحمد، وهو الشيخ إبراهيم الدباغ. ويخصص فى كتاب «مطربون ومستمعون» مقالات لتقلب مزاج الأجيال فى فن الغناء بين قديمه وحديثه (١٩٧)، كما يعبر عنه نجيب محفوظ فى عدد وافر من رواياته، وصولاً إلى انتصار عصر أم كلثوم فى ميرامار. ويخوض فى مسألة حساسة هى تحريم وتحليل الغناء فى مقال رائع يستشهد فيه بكتاب الإمام الغزالى «آداب الوجد والسماع» (٢١٤ - ٢٢١). ويعرج فى مقالة أخرى (٢٤١) على تأجج المشاعر الوطنية فى العشرينيات وظهور نزعة استعادة الأمجاد الفرعونية القديمة، حتى أن المطربتين الشهيرتين منيرة المهدية ونعيمة المصرية، تنافستا فى غناء طقطوقتين عن توت عنخ آمون. ولكن المدهش حقا أن يعقد كاتب فى وزن وثقافة كمال النجمى مقالا كاملا عن ظهور اسم توت عنخ آمون فى الغناء، دون أن يعرج على بيت الشاعر أحمد فتحى الشهير فى قصيدته التى لحنها وغناها عبد الوهاب (الكرنك):

أين يا أطلال جند الغالب
أين آمون وصوت الراهب

يعود النجمى فى مقدمة كتابه «سحر الغناء العربى» إلى التأكيد على وحدة الوجدان العربى التى جسدها فن الغناء، وذلك من خلال استعراض الأثر الذى أحدثته جولات أم كلثوم الفنية فى مختلف البلاد العربية، فى بداية حياتها الفنية كما فى نهايتها. ويعرض بعد ذلك لشخصية كامل الشناوى وأثره على الحياة الأدبية والغنائية، ليس فقط من خلال قصائده التى لحنها عبد الوهاب وفريد الأطرش والموجى، وشارك فى غنائها عبد الحليم حافظ ونجاة الصغيرة، ولكن أيضا من خلال أثره المباشر على اكتشاف وإطلاق عدد من نجوم الغناء اللامعة من صالونه الأدبى. كما يستعرض فى أكثر من موقع فى كتابه عن عبد الوهاب، أثر عدد من الشخصيات الأدبية



لابد من الإشارة إلى مقالة جامعة مانعة فى كتابه «الموجة الجديدة وما بعد الثمانينيات» (الصفحة ٤٥٠)، يختصر فيها كل العيوب فى حناجر وأداء نجوم الموجة الجديدة، الذين لم يتدربوا (على حد تعبيره) لا على تقنيات الغناء العربى ولا على تقنيات الغناء الأوروبى

والفنية والسياسية فى تكوين شخصية محمد عبد الوهاب، ويخص بالذكر منها شخصيتى أحمد شوقى والأمير يوسف كمال.

أما فى موضوع الأثر المباشر والعميق لتجويد القرآن الكريم والتواشيح الدينية فى الارتقاء بمستوى الغناء العربى، ورفده بالملامح الأساسية فى تكوين هويته وشخصيته، فلعل كمال النجمى لا يتوقف من بداية كتاباته إلى نهاياتها عن الخوض المفصل فى هذا الموضوع وتقليبه على مختلف وجوهه.

ويسجل النجمى دخولا بالغ الطرافة إلى هذا الموضوع، بمقال فى كتابه «الغناء المصرى» الصفحة ٢١٧، عنوانه «لماذا لا يؤذن»، والمقصود بهذا التساؤل هو محمد عبد الوهاب، فيقول النجمى فى مطلع المقال:

«فى شهر رمضان من كل عام، يتساءل بعض الناس: هل يفى مطربنا عبد الوهاب بوعده ويصعد مئذنة مسجد الحسين، أو مئذنة مسجد الشعرانى ويرفع صوته ـ من خلال الميكروفون ـ مؤذنا لصلاة المغرب أو صلاة الفجر؟».

ثم يستطرد من هذه المقدمة للغوص فى موضوعه، ويعرض للمقالة الشهيرة لخليل مطران التى دون فيها وصفا رائعا لخروج القاهرة للاستماع إلى المطرب عبده الحامولى يرفع الأذان من مئذنة مسجد سيدنا الحسين فى شهر رمضان.

إلى أن ينتقل فى كتاب «أصوات وألحان عربية»، إلى عرض بديع لأداء أعظم مشايخ القرن العشرين، كالشيخ على محمود والشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل، مع وصف درامى مؤثر لليوم الذى سجل نهاية صوت الشيخ رفعت (الصفحة ١٦٦). ثم يعمد فى كتاب «مطربون ومستمعون» إلى مقارنة بليغة بين كلاسيكية أداء عبد الوهاب وأم كلثوم من جهة، وخفة أداء منيرة المهدية من جهة ثانية، فيعيد ذلك إلى استناد أداء منيرة المهدية إلى تدريبها على غناء العوالم، بينما تدرب كل من أم كلثوم وعبد الوهاب على أداء الشيخ على محمود للتواشيح والأذكار، ثم متابعة عبد الوهاب للشيخ رفعت وتأثره بأدائه. ويستطرد النجمى فى مقارنته هذه ليسجل انقطاع العلاقة بين مغنى الموجة الجديدة، وفنون التواشيح الدينية والأذكار.

غير أن كمال النجمى يصل إلى الذروة فى تسليط الضوء على المساحة المشتركة بين تجويد القرآن الكريم والتواشيح الدينية من جهة، وفن الأداء الغنائى العربى الكلاسيكى فى مقال مطول لأحد أشهر القراء (الشيخ عبد الباسط عبد الصمد) يشيد فيه بمزايا صوته فى المساحات الواسعة وطول النفس، ولكنه يسجل افتقاره إلى الميزة الكبرى التى تميز بها سواه من القراء، مثل الشيخ رفعت (الأداء الدرامى). كما يسلط الضوء على الشيخ عبده عبد الراضى الذى توافرت ظروف عديدة محزنة (يشير إليها النجمى ولا يفصلها) حرمت عبد الراضى من الشهرة التى يستحقها فى عصر الشيخ عبد الصمد. وقد تحول هذا الفصل عن الشيخ عبد الصمد، إلى دراسة فى عشر صفحات (من القطع الكبير) يقدم فيها كمال النجمى خلاصة خبرته فى تقنيات أداء التجويد، والمقارنة بين أساليب كبار القراء ومشاهيرهم، ولكن يتضح أن قائمة القراء والمنشدين التى تضمنها هذا الفصل، أثبتت أن الأستاذ النجمى لم يستمع إلى آخر حلقة فى هذه السلسلة من عظماء القراء ومنشدى التواشيح والأذكار، الشيخ محمد عمران، الذى توفى قبل عامين ونيف، قبل بلوغ الخمسين من عمره، وكان صاحب الصوت الأثير والأداء الأثير لدى كبار الملحنين وعلى رأسهم عبد الوهاب، وكمال الطويل وسيد مكاوى وسواهم.

الموسيقى الآلية، وظاهرة التغرب الموسيقى

تتشعب بعد ذلك المواضيع التفصيلية التى يتناولها كمال النجمى فى المسيرة الطويلة الزاخرة للغناء العربى والموسيقى العربية فى القرن العشرين، بما يصعب الإحاطة التفصيلية الكاملة به فى حدود هذا المقال، غير أنه لابد من التوقف عند مسألتين هامتين تناولهما النجمى فى كتاباته الموسيقية، أبدى فى الثانية رأيا مكتملا واضح المعالم، غير أنه فى المسألة الأولى بقى على مدخلها ولم يسبر أغوارها:

* الموسيقى العربية الآلية.
* التغريب فى الموسيقى العربية.

فإذا توقفنا عند المسألة الأولى، فلعلنا نضع يدنا على نقطة الضعف الوحيدة فى الرؤية الشاملة العميقة التى بنى النجمى على أساسها كتاباته النقدية المهمة والأساسية، إذ يبدو أن التربية التذوقية للأستاذ النجمى على الغناء العربى الكلاسيكى القديم، قد أدى لديه إلى شىء من الغموض فى تبين الفارق الأساسى بين الفلسفة الجمالية للغناء العربى فى القرن التاسع عشر، والفلسفة الجمالية للغناء فى القرن العشرين. فبينما يمكن القول أن تاريخ الموسيقى العربية فى القرن التاسع عشر هو نفسه تاريخ الغناء العربى، حيث كان الغناء هو الهدف وهو الوسيلة. أما الفرقة الموسيقية الصغيرة (التخت)، وأما التلحين (التأليف الموسيقى) فلم يكن لهما غاية إلا مرافقة الأداء الصوتى ومساندته وإحاطته بالزخارف والمحسنات والمكملات. أصبحنا فى القرن العشرين أمام تعاظم دور الفرقة الموسيقية، التى تحولت بفعل التراكم والتطور إلى أوركسترا عربية حقيقية، حتى عندما عزف لمرافقة الغناء. وتأكيدا لذلك، يمكننا الملاحظة أنه بينما كان تاريخ القرن التاسع عشر قلما يسمح بالتفريق بين شخصية الملحن وشخصية المغنى، فقد أصبح هذا الفصل واضحا وحاسما فى القرن العشرين، على الرغم من تداخل الشخصيتين عند عبد الوهاب وفريد الأطرش ومحمد فوزى.

وقد يكون فقدان الفنان العظيم محمد عثمان فى القرن التاسع عشر صوته بسبب المرض، هو الفرصة التاريخية التى حرمتنا مطربا عظيما، ولكنها كانت إرهاصة تاريخية ضرورية لظهور شخصية الملحن كمبدع أساسى للموسيقى، وليس كمجرد «خادم لجمال صوت المغنى وإبداعه الأدائى والصوتى». وقد اكتمل تكرس هذه الإرهاصة فى بداية القرن العشرين، مع سيد درويش الذى كان الفارق شاسعا وبيِّنًا بين عظمة وغزارة موهبته الموسيقية، وضحالة إمكاناته كمطرب، فتكرست بذلك النقلة الجديدة الخطيرة فى ظهور الحدود الفاصلة فى التاريخ الفنى العربى المعاصر بين شخصية الملحن وشخصية المطرب.

ومع أن تربع عبد الوهاب على عرش المطرب الأول والملحن الأول فى القرن العشرين قد يبدو خرقًا لهذه القاعدة الجديدة، غير أن ظاهرة عبد الوهاب الفريدة قد أتت لمن يضعها فى إطارها التاريخى الواسع، متصلة بفلسفة القرن التاسع عشر الجمالية (التداخل بين شخصيتى المطرب والملحن)، ومنفصلة عنها فى الوقت نفسه، أو متجاوزة لها بتعبير أدق.

فقد قدر لى، فى أحد اللقاءات المباشرة، التى شرفنى بها الموسيقار منذ نهايات الخمسينيات وحتى ما قبل رحيله بعامين، قدر لى أن أتباسط معه فى هذه المسألة، إلى أن طرحت عليه سؤالا مباشرا وبسيطا: ماذا تعتبر نفسك، فى المقام الأول، ملحنا أم مطربا؟ فرد بلا أى تردد: أنا ملحن قبل أى شىء آخر. ولا أعتقد أن هذا الجواب كان مجرد خاطر عفوى، فحياة عبد الوهاب الفنية طوال مراحلها تؤكد ذلك. برغم تربعه على عرش الغناء الرجالى، ولنلاحظ ـ على سبيل المثال ـ أن توقف عبد الوهاب عن الغناء قبل رحيله بثلاثة عقود لم ينقص شيئا من تربعه على عرش الفن الغنائى، لأنه ظل يمارس التلحين لسواه من الأصوات (أم كلثوم، عبد الحليم حافظ، نجاة، وردة، فايزة أحمد، فيروز) حتى آخر أيام عمره المديد. ولنلاحظ من جهة ثانية، كيف أن ملحنى أم كلثوم العظام من الشيخ أبو العلا، إلى النجريدى، إلى القصبجى، إلى زكريا أحمد، إلى السنباطى، قد ظلوا ملحنين عباقرة، ولم يتحولوا إلى مطربين، برغم جمال صوت السنباطى، وروعة أداء زكريا أحمد. ولنلاحظ من جهة ثالثة أن العبقريات اللحنية الثلاث وراء حنجرة عبد الحليم حافظ (الطويل والموجى وبليغ) قد اكتفوا بصفتهم التلحينية، مع أن بليغ حمدى بدأ فى الإذاعة مطربا، ومع أن أداء الموجى الصوتى كان وراء حساسية أداء عبد الحليم حافظ.

هذه الظاهرة التى تستحق عشرات الدراسات النظرية المعمقة والمطولة، فى عملية تمسح كل ميراث القرن العشرين، لم تكن واضحة على ما يبدو أمام الأستاذ النجمى. فقد انحصر لديه دور الأوركسترا العربية فى القرن العشرين، فى المعزوفات الآلية، وفى المقدمات الموسيقية الطويلة المرافقة للأغنيات الطويلة. وغاب عنه وعن كثير سواه ممن تناولوا هذه الظاهرة، أن التلحين للأوركسترا (وليس للصوت البشرى وحده) كان بارزا، بل طاغيا حتى فى الأغنيات، ولم يقتصر على المعزوفات الآلية، بل إن بعض هذه المؤلفات الفنية العظيمة أبدعت لونا تتميز به الموسيقى العربية المعاصرة، حيث يأتى التأليف الموسيقى فى معادلة مدهشة بين التلحين للأوركسترا والتلحين للصوت البشرى. وإذا كان ذلك أسلوبا مطروقا فى الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية (فى الأوبرا والكانتاتا الكنسية)، فإن إبداع الموسيقيين العرب الكبار فى القرن العشرين قد كرر الظاهرة، ولكن بلغة موسيقية عربية صرفة، سواء فى عزف الأوركسترا أو فى التلحين لصوت المغنى.

ولكن، لأن هذه الظاهرة مازالت أهم وأعظم وأعمق من كل ما كتب حولها حتى الآن من دراسات أو ملاحظات نظرية (وهى شحيحة بل نادرة)، فقد حصر الأستاذ النجمى دور الأوركسترا العربية فى القرن العشرين، فى المعزوفات الآلية والمقدمات الموسيقية، بل اندفع إلى أبعد من ذلك، ففسر تطور أسلوب عبد الوهاب فى التعامل مع الأوركسترا أنه مجرد إخفاء لتراجع صوته مع مرور السنين، ولم يلحظ أبدا أن السبب الأول فى ذلك (قبل تراجع الصوت) هو تطور الفكر الموسيقى لدى عبد الوهاب. ودليلنا على ذلك أن هذا التطور فى تفكير عبد الوهاب الموسيقى قد بدا واضحا جليا حتى عندما كان يحتفظ بصوته الذهبى الأول (على حد تعبير الأستاذ النجمى) فى أعمال مثل «فى الليل لما خلى» و«أهون عليك» و«أعجبت بى». وخلاصة الملاحظة على كتابات كمال النجمى إذا ما نظرنا إليها من هذه الزاوية، أنه إنما اكتفى بكتابة تاريخ الغناء العربى المعاصر، ولم يكتب تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة. وليس فى هذا أى عيب، ولكنه جهد يقف عند حدود معينة، والحاجة ماسة إلى استكماله بالدأب نفسه، والحرص نفسه



في أحد اللقاءات المباشرة، التي شرفني بها الموسيقار منذ نهايات الخمسينيات وحتى ما قبل رحيله بعامين، قدر لي أن أتباسط معه في هذه المسألة، إلى أن طرحت عليه سؤالا مباشرا وبسيطا: ماذا تعتبر نفسك، في المقام الأول، ملحنا أم مطربا؟ فرد بلا أي تردد: أنا ملحن قبل أي شيء آخر

والعشق نفسه للموسيقى العربية، الذي يلف كتابات كمال النجمي.

أما المسألة الثانية: التغريب، فإن رؤية كمال النجمي فيها مكتملة واضحة، مع أنه لم يفسح لها مجالا واسعا في كتاباته.

يجزم كمال النجمي بلا أي تردد، بفشل محاولات التقدم بالغناء العربي والموسيقى العربية، عن طريق الفرض القسري للغناء الأوبرالي بتقنياته الأوروبية الخالصة على الغناء العربي ذي التقنيات الخاصة به.

وبعد أن يخص النجمي بالنقد كل هذه المحاولات من عقد الستينيات إلى نشاط مدام رطل، في مؤلفات جمال عبد الرحيم التي يصفها بـ «الطابع القومي الغائب»، فإنه يشفق من الإصرار على استمرار هذه المحاولات في الطريق المسدود، في مقالات توزعت على جميع كتبه، ويؤكد أن صب الجهود كلها في هذا الطريق المسدود، سيترك جماهير المستمعين العرب لرحمة نجوم الموجة الجديدة الهابطة.

ومع أن معظم كتابات كمال النجمي التحليلية لموجة الغناء الجديد، قد ضمنها مقالاته الصحفية في سنواته الأخيرة، التي لم تجمع في كتاب بعد، فلابد من الإشارة إلى مقالة جامعة مانعة في كتابه «الموجة الجديدة وما بعد الثمانينيات» (الصفحة ٤٥٠)، يختصر فيها كل العيوب في حناجر وأداء نجوم الموجة الجديدة، الذين لم يتدربوا (على حد تعبيره) لا على تقنيات الغناء العربي ولا على تقنيات الغناء الأوروبي.

ولعل خير ما نوجز به خلاصة هذا الجهد الموسوعي لكمال النجمي، هو سطور من الصفحات الأخيرة لكتابه «محمد عبد الوهاب - مطرب المائة عام» يصف فيها بتركيز شديد خلاصة المأزق الحالي للغناء العربي، وخلاصة احتمالات الخلاص.

يقول بعد استفاضة في وصف الموجة الهابطة:

«وإلى جانب هذه الموجة الهابطة، تقف موجة أخرى ليست هابطة، ولكنها غريبة عن الإنسان العربي، متجاهلة لذوقه الذي صنعته عوامل التاريخ العميقة.. وهذه الموجة أيضا كان عبد الوهاب يستنكرها، كما كان يستنكر موجة الغناء السوقي الهابط..

إن الكثيرين من هؤلاء درسوا الموسيقى الأوروبية دراسة حرفة بلا موهبة، وهم يقولون بتطوير الغناء العربي والموسيقى العربية، ولكنهم في الحقيقة لا يريدون تطويرهما، بل يريدون إلغاءهما وإلقاءهما في قمامة الماضي السحيق، ولا يريدون حتى وضعهما في متحف متواضع، ومن المدهش أن يقع ذلك في الوقت الذي أخذ فيه الأجانب يتطلعون إلى الغناء العربي ولوازمه الموسيقية، ويدرسون المقامات العربية، ويستمعون إلى الثروة اللحنية والإيقاعية الطائلة في غناء الأصوات التي غنت في العشرينيات إلى أوائل السبعينيات، وعلى رأسها عبد الوهاب وأم كلثوم (..) وقد لفق الصهيونيون لأنفسهم ما يسمونه «الموسيقى اليهودية»، بينما يحاول بعض «المطورين» العرب إلغاء الموسيقى العربية والغناء العربي، وينظرون إليها بحقد وزراية كأنهم ورثوا التعاليم والأفكار من المبشرين الأجانب».

أما عن احتمالات التطوير الحقيقي فيقول النجمي:

«إنه لابد من سلوك طريق مستقل في تطوير موسيقانا، هذا الطريق يمنع أن تكون الموسيقى البحتة (أي الموسيقى الآلية) معولا يهدم الغناء العربي العريق المتجدد، وينبغي ألا نفرغ أو نخجل من تغلب الغناء في وجداننا على ما عداه من ضروب النغم.

إن الموسيقى الأوروبية يسمونها «الموسيقى العالمية» لأن أوروبا وأمريكا يسيطران على العالم، فموسيقى الأوروبيين والأمريكيين «عالمية» بمعنى من معاني السياسة الاستعمارية، لا بمعنى من المعاني الفنية».

إلى أن يصل إلى ما يشبه الوصية الأخيرة:

«إن الطريق المستقل لتطوير موسيقانا، سيتيح لها أن تحل مشكلات التطور المتعلقة بالتوزيع الأوركسترالي وعلاقته بالآلات الموسيقية العربية التي لا ينبغي أن نتخلى عنها، وتطبيق ما يناسب طريقنا من قواعد الهارموني والكونتربوينت في المؤلفات الغنائية والموسيقية البحتة العربية، وبناء شخصية خاصة للمسرح الغنائي العربي، حتى لا يكون امتدادا ساذجا فاشلا للمسرح الغنائي الأوروبي». ■

كتاب الزاوية

حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٥)
أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام : وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية، وذوى السياسة والدراية، ممن بيدهم حل الأمور وعقدها، وبملكهم شقاء الأمة وسعدها، الناشئين فى مهد المعارف والعلوم، والنابغين فى أشتات المنطوق والمفهوم، والموصوفين بدقة النظر وبعد الهمم، والواقفين على أخلاق وعادات الأمم، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهب الخطوب الداجية وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية.

فوصلنا إلى دار يزهر بياضها، ويبهر إيماضها، قد ضربت عليها المحاسن أطنابها، وخلعت عليها الزخارف جلبابها، فسار بنا الخدم إلى حجرة فى جانب الساحة، أعدت للانتظار والاستراحة، وإذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان، فرأسه كرة والكرى صولجان.

فلما أحس بقدومنا ودخولنا عليه، انتبه يزيح النعاس بإصبعه عن عينيه، فسلمنا فسلم، وهو يتثاءب ويتلعثم، فتخيلناه من ظاهر جملته وهيئته، أنه صانع من الصناع، أو تبع من الأتباع، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام، أنه ذو رحم فى البيت وذو مقام، ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول، بعد أن ذهب الخادم مستأذنا فى الدخول: «قبح الله الخدم، فهم نقمة من النقم، شرهم حاضر، وخيرهم نادر، والعناء بهم ليس له آخر، فكم أغضبوا حليما، وآذوا كريما، وكم كسروا الصحيح وخلطوا الصريح». وكم ارتكبوا جرمًا وإثمًا، وجاءوا إفكًا وظلمًا، وكم فتحوا الأغلاق، واختلسوا الأعلاق، وكم أحدثوا الشقاق، أذهبوا الوفاق، وكم فرقوا بين المرء وأهله، وحالوا بين الفرع وأصله، ولعنة الله عليهم فى الدارين، فقد ذقت منهم الأمرين، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة، إلى ما لا يحمد من الجفاء والقطيعة.

رحيـــل حـــارس مـــن حـــراس

محمـــد ســـليم العـــوا

ذكرت حين علمت بفقد العروبة والإسلام للعلامة الدكتور محمود محمد الطناحي، رحمه الله تعالى، أننا فقدنا، قبله بقليل، شيخه وشيخنا وشيخ العربية، العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر، وفقدنا بينهما أستاذة الأجيال ونابغة الدنيا، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

وقبل أولئك الثلاثة فقدنا في عام واحد، محمد الغزالي، وخالد محمد خالد، والشيخ القابض على دينه وعن رفعة المعهد العظيم الذي بقي يعلّم الناس أصوله وفروعه لأكثر من ألف سنة: جاد الحق على جاد الحق.

وذكرت حين شرعت في إملاء هذه السطور، أننا فقدنا داعية العصر وواعظ العرب محمد متولى الشعراوى.. ثم لم نلبث إلا قليلا حتى فقدنا الأستاذ محمد المجذوب أحد نوابغ علماء الشام، ثم الظاهرتين الفريدتين العلامة الشيخ على الطنطاوى، اللغوى الفقيه القاضي المحدث الواعظ وآخر فقهاء الأحناف الأثبات في المشرق العربي، والقانوني واللغوى الشاعر الكاتب الخطيب، العلامة الدكتور مصطفى أحمد الزرقا..

الطناحى حارس العربية

رأيت محمود الطناحى عاش أكثر قليلا من ستين سنة منغمسًا في بحر الحياة الثقافية العربية، وسابحًا في محيط الفكر العربي، وقد ماج كلاهما ـ في عمره القصير الغزير العطاء ـ بآلاف الأفكار والأحداث التي أدلى الطناحى في كثير منها بدلوه، فكان عدلاً لا يجور، ومنصفًا لا يحيف، وكان ميزان هذه العدالة ومعيار ذلك الإنصاف، يتمثل في عوده الدائب إلى قضية اللغة العربية وحراستها والذود عن مواقعها والرباط في ثغورها، إذ هي عنده مرآة الحضارة وسبيل تجديدها.

وأكثر ما يقف الباحث على هذا الجانب من عطاء محمود الطناحى في مقالاته التي نشرها في الصحف السيارة والمجلات الثقافية والأدبية. وقد زادت هذه المقالات على مائة وعشرين مقالة، كان آخرها مقالته عن على الجارم لغويا نحويا، ثم في مقدمات كتبه المحققة والمؤلفة على السواء.

وقد كنت رجوت أن تجمع هذه المقالات في كتاب الهلال، وكنت أسعد الناس حين صدرت المجموعة الأولى، تضم ثلاث عشرة مقالة في مايو ١٩٩٩، للأستاذ الجليل العلامة الدكتور محمود على مكى.

الطناحى ومحمود شاكر

جعل صانع المجموع المذكور من مقالات الطناحى أول مقالة فيه عن «محمود محمد شاكر ومنهجه في تحقيق التراث»، فإن الطناحى وشاكر كالأصل وفرعه، أو كالابن وأبيه، إذ عظم الشبه حتى أظهر النسب لمن لم يعرفه. وإذ يتحدث الطناحى عن شيخه، مقارنًا بينه وبين أعلام التحقيق في عصره يقول: «وإن اتفق أعلام هذه المرحلة فيما ذكرت، فإن أبا فهر محمود محمد شاكر يقف وحده من بينهم، وينفصل عنهم بأمرين:

الأول: أنه صاحب قضية، صحبته وأرّقته منذ صباه ونشأته الأولى، وهي قضية أمته العربية، وما يراد لها من كيد في لغتها وشعرها وتراثها كله، وقد أبان عن هذه القضية في كل ما كتب، وبخاصة في كتابيه: أباطيل وأسمار، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ثم نثرها فيما دق وجل من كتاباته، وما برح يعتادها في مجالسه ومحاوراته، يهمس بها حينا، ويصرخ بها أحيانا أخرى، لا تفرحه موافقة الموافق ولا تحزنه مخالفة المخالف.

ولقد حكمت هذه القضية أعمال محمود شاكر كلها، وهي التي وجهته إلى تحقيق التراث، فكان عمله في نشر النصوص جزءًا من جهاده في حراسة العربية، والذود عنها، سواءً فيما نشره هو أم فيما حث الناس على نشره وأعانهم عليه.. لقد ألقى هذا الرجل الدنيا كلها خلف ظهره ودُبر أذنيه واستوى عنده سوادها وبياضها، وخلا إلى الكتاب العربي في فنونه المختلفة، فهو يقرأ صحيح البخارى كما يقرأ الأغاني، ويقرأ كتاب سيبويه قراءته لمواقف عضد الدين الإيجي.

ولعمرى إن هذه كانت قضية الطناحى نفسه، وكان منهج شيخه هو منهجه حرفًا بحرف، وانظر إلى قوله في المقالة نفسها: «واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم وإهمالها أو التفريط فيها أو السخرية منها، هدْم لتاريخ الأمم، ومحو لها من الوجود»، أليس هذا دليلا على ما قلت لك من أن الطناحى كان يعيش هذه اللغة وبها ولها.

.. والشيخ الشعراوى

ويكتب الطناحى عن الشيخ محمد متولى الشعراوى، فيقول: «إنه ظاهرة غريبة عجيبة في زماننا، وإن كان له أشباه ونظائر فيما سلف لنا من أيام، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.. وقد سلك في وعظه دربًا غير مطروق، وورد ماءً مهجورًا، وانتجع كلأ غير مرعى.. فإن الشيخ يمثل عندى أنموذجا ينبغي أن نجلوه للناس، بعد أن ندل على جذوره وأصوله، وإن في ذلك كله بعثًا لتاريخ عزيز غاب عنا، أو أريد له أن يغيب.

وإذا كان لكل عالم أو مفكر مفتاح، فإن مفتاح شخصية هذا الشيخ هو اللغة، واللغة هي الباب الأول في ثقافات الأمم، وإهمالها أو التفريط فيها، أو السخرية منها هدم لتاريخ الأمم ومحو لها من الوجود.

والشيخ الشعراوى يعنى عناية باللغة ـ كما يقول الطناحى ـ باللغة في مستوياتها الأربعة، أصواتًا وصرفًا ونحوًا ودلالةً، وفي طريق هذه المستويات الأربعة صال الشيخ وجال، ومما يحسب في موازينه، ويُسجَّل له: هذه الجسارة والجراة في معالجة تلك القضايا، وجمهوره الأعظم من عامة الناس، ولكن الشيخ يرى أن هذا ضرورى لتفسير كلام الله، والكشف عن مراده. وقد استطاع الشعراوى أن يأخذ العامة وأوساط الناس إلى قضايا التذوق والبلاغة واللغة والأدب، وخاض بهم لُجج هذه العلوم، واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء.. إن الشيخ الشعراوى قد نجح فيما عجز عنه غيره، فإننا على كثرة ما كتبنا عن الإعجاز القرآني، وعبقرية اللغة العربية، لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا إلى عامة الناس، وظلت دائرة بيننا، يدخل اللاحق على السابق، وكأننا نحدث بعضنا بعضا.

وبدأة ذى بدء، فإن الشيخ يصرح بضرورة استقبال القرآن، بملكة اللغة ليخرج المستشرقين وأمثالهم من أعاجم العرب الذى كتبوا في الدراسات القرآنية وهم بمعزل عن فقه اللغة، ثم يقول إن هؤلاء أخذوا اللغة صناعة ولم يأخذوها ملكة.

قضية غريب اللغة

وحين يذكر الطناحى عناية الشيخ الشعراوى رحمه الله بالكلام العالى الفصيح الذى يسميه العلماء غريب اللغة، يقول: «إن هذا العلم ـ علم الغريب ـ مما أهمله الناس في زماننا هذا إهمالا يوشك أن يكون تاما، فقد هجره الناس هجرا طويلا، بل إن بعضهم إذا صادف شيئا منه في نص قديم غيره إلى مرادف له مما يسهل على الناس.. وقد أنكر بعضهم استعمال كلمة «لُغوب» لعدم جريانها على الألسنة هذه الأيام، مع مجيئها في القرآن العزيز قال تعالى ﴿وما مَسَّنا من لغوب﴾ سورة ق: ٣٨.

وهكذا ينكر كثير من الكتاب الآن، ألفاظا وتراكيب ضاربة في الفصاحة بعروقها.. وإنك واجدها في علم الأنساب والتاريخ والجغرافيا وكتب الفلك والطب والفلاحة والزراعة وسائر ما كتب الأوائل.

وينادى بعضهم الآن بهجر هذه اللغة القديمة وتبنى لغة واقعية كالتى تقرأ في الصحافة ووسائل الإعلام، حتى لا يشعر التلميذ بفجوة بين الذى يقرؤه في النصوص القديمة، وبين ما يسمعه في واقع الحياة.. إن للغة جانبا تاريخيا يجب الحرص عليه ومعرفته، ثم إن اللغة ممتدة مع أصحابها لا تموت ولا تفنى، وليست اللغة للتفاهم وقضاء المصالح فقط، وإلا لكان القدر اللازم لنا منها محدودا جدا، ولكان الذى يعرف خمسمائة كلمة إنجليزية تلبى احتياجاته في متاجر لندن وشوارعها عالما باللغة الإنجليزية.

ولقد كان غريب اللغة، الذى هو الفصيح الرفيع، مألوفا للناس إلى عهد قريب، في خطبة الجمعة، وفي الكتاب المدرسى والكتاب الجامعى، ثم على ألسنة المحاضرين وأقلام الكاتبين، ثم هجره الناس هجرا غير جميل، ثم جاء الشيخ الشعراوى فردنا إليه ردا جميلا.

إن موقف محمود الطناحى من تاريخية اللغة وامتدادها مع أصحابها وأنها تبقى ولا تفنى، يخالف ما عليه جمهرة علماء اللغة المقلدين لنظريات الغربيين فيها تقليدا غير بصير، ولم يقد الطناحى إلى هذا التعبير شديد الإيجاز عن هذا الموقف المغاير لموقف اللغويين العصريين، إلا إيمانه بأن اللغة هي مظهر الحضارة ودليل الهوية، وسر بقاء الثقافة، ومفتاح باب الحفاظ على الموروث الضخم الذى لا يحاط به من مجدنا الأثيل الأول. فلا عجب أنه وقف حباته، ووهب ثمرة قلمه وعطاء قريحته الفياضة، لتثبيتها في النفوس، والتنبيه عليها لأدنى مناسبة وأوهى ملابسة، كما يقفك على ذلك النظر في منشوره كله. وسوف تراه حين تنظر في مجموع أعماله المنشورة يحتفي بقضية الغريب ويثيرها في كل مناسبة لحرصه على بقاء جمال هذه اللغة الشريفة في تعبيراتها الفصيحة الأصيلة.

ويدفع الطناحى وهما يشيع لدى بعض العامة عن علم الشيخ الشعراوى فيقول: «أما أسرار النظم القرآني وإيثار أسلوب على أسلوب، فهو مما يفيض فيه الشيخ كثيرا، وهو يرجع فيه إلى محصول وافر ومحفوظ واسع من ثقافته الأزهرية الغنية، لا إلى ما يقوله بعض مستمعي الشيخ ومريديه من أنه يلهم به إلهاما، ويحدث به تحديثا، وكأنه غير مسبوق أو مشارك. ونحن لا ننكر أن الله يفتح على بعض عباده فتحا، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لكننا نقرر أن كثيرا مما يذكره الشيخ معروف ومذكور ومسطور في الكتب، وفضل الشيخ أن يذكره إذ نسيه الناس، ويرعاه إذا أهمله الناس، فهو يحيى ما درس وينفخ فيما خمد».

الشعر باب العربية

ويذكر الطناحى الشعر فيقول في مطلع مقالته عن على الجارم لغويا نحويا: «الشعر باب العربية، والشعراء الكبار هم أقدر الناس على معرفة أسرار العربية، والوقوف على دقائقها، ثم الحرص عليها والذود عنها، وما كان ذلك إلا لأنهم قرأوا فأكثروا القراءة، وحفظوا فجودوا الحفظ، ولن تجد شاعرا كبيرا إلا ووراءه رصيد ضخم من القراءة المحيطة الجامعة للغة في مجالاتها المختلفة. ويظهر هذا الرصيد فيما يسميه أهل زماننا «المعجم الشعرى» للشاعر، حروفا وأبنية وتراكيب ودلالة».

وإذا قرأت ذكره الحرص على العربية والذود عنها، فاقرأ ـ مستمتعا مثلى بهذا الكلام ـ قوله: «والشعراء الكبار أيضا من أكثر الناس حرصا على قوانين العربية والإذعان لها، رضًا وبشاشة لا إكراها ولا غلبة، ودعك مما يقال عن سلطان النحاة على الشعراء، وتقييدهم للإبداع الشعرى، فهذا كلام العجزة الخاملين، وهم لا يفتأون يستشهدون على ذلك بتلك النماذج القليلة جدا من خروج الفرزدق على بعض قواعد النحو، ويلوكون قوله لأبى إسحاق النحوى: علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا، وقوله وقد سئل عن رفع ما لا يستحق: علام رفعت؟ فقال: على ما يسوؤك وينوؤك، فالفرزدق شاعر فحل تياه، وهذا الذى خرج به عن جادة النحو لا يعد شيئا بجانب شعره الضخم الذى امتلأت به كتب النحو، شواهد

مستقبل الثقافة العربية

محمود الطناحى

كتاب الهلال، ١٩٩٩



على اللغة والنحو والصرف. وأنت لو أحصيت ما خرج به الشعراء جميعا عن النظام النحوي لوجدته قطرة من بحر شعرهم الجاري على سنن العرب وقوانين اللغويين والنحاة. وهذه المدابرة بين النحاة والشعراء غير صحيحة، فكثير من نُحاة الصدر الأول لم يكونوا منظرين من بُعْد، بل كانوا في قلب الحركة الشعرية وفي الصَّميم منها». وبعد أن يذكر الطناحي أمثلة كثيرة تؤكد ما قال، يقول: «وأحمد شوقي، هذا الشاعر الضخم، متنبي العصر، كان واسع القراءة، ومن أصحاب الحفظ والرواية، وقد حدثني شيخي محمود محمد شاكر، أنه قرأ لسان العرب كله. وهذا يفسر لنا معجم شوقي الشعري والنثري أيضا في «أسواق الذهب» هذا المعجم الذي يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة في الفصاحة بعروقها».

يقول الطناحي ودعوة الجارم إلى استحياء الغريب من اللغة، إنما هي دعوة في حق موضعها، لأن هذا الغريب من صحيح اللغة، والدعوة إلى هجره والتجافي عنه ليست من البر بهذه اللغة الشريفة، بل هي عدوان عليها، وتحيف لشطر كبير منها.. وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة في استحياء تلك الألفاظ التي يتحاشاها الأدباء والشعراء في زماننا هذا، زهادة فيها أو جهلا بها، أو استسهالا للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة، فيقول في واحدة من كريم شعره:

كم لفظة جهدت مما نكررها
حتى لقد لهثت من شدة التعب
ولفظة سجنت في جوف مظلمة
لم تنظر الشمس منها عين مرتقب
كأنما تولى القارظان بها
فلم يؤوبا إلى الدنيا ولم تؤب

الذود عن الحياض

والطناحي ليس ضعيفا أمام التراكيب الجديدة التي تدلف إلى لغتنا الشريفة، فتفسد أصلها وتضعف بنيانها، بل هو واقف لها بالمرصاد يدفعها دفعا خارج المعجم العصري للغتنا المتداولة. يستعمل بعضهم تركيب «موسيقى القرآن»، فيكتب الطناحي وهو يمدح أسلوب الكاتب ويقول إنه «عذب مصفى، لكن عكرته بعض الأوشاب التي تخالط الأساليب الشريفة تتسلل إليها لواذا وكأنها العدوى المهلكة، تتخلل ذرات الهواء، لا تحس بها إلا وقد داهمتك في خلايا بدنك - عافاك الله - فلا تستطيع لها دفعا ولا مردا. ومن ذلك ما جاء في كلام المؤلف الفاضل من هذا التركيب «موسيقى القرآن» وهو تركيب رخو لين لا يليق بجلال القرآن وبهائه، ولا تقل: لا بأس علينا من تقارض مصطلحات العلوم، لأن فيه إثراء للغة، لا تقل هذا ولا تغتر به، لأنه مدخل لبلاء عظيم ولو فتحنا هذا الباب لفسد علينا كل شيء، فإن للكلام حدودا ومعالم ينتهي إليها. أنسيت أن منا من قال: إن القرآن رسم لوحة صفتها كيت وكيت؟ فجعل المولى - عز وجل - فنانا تشكيليا يحمل فرشاة يغمسها في ألوان، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا. لقد غيَّروا النظم القرآني واتساقه فجعلوه «موسيقى القرآن»، ثم غيروا العروض فجعلوه «موسيقى الشعر»، ثم غيروا علم الصرف فسموه «علم الصوتيات»، ثم وثم وثم وبالله تستدفع البلايا»!! (المجموع السابق ص ٩٤ - ٩٥).

الغيرة على بحور الشعر

والطناحي لا يغار على اللغة بنحوها وصرفها وتركيبها فحسب، وإنما يغار منها على الشعر والبيان غيرته على نظامها النحوي والصرفي والبنائي جميعا. فهو يرد على بعض الذين يصفون بحر المنسرح (أحد البحور المعروفة التي استخرجها الخليل بن أحمد باعتبارها تتوزع الشعر العربي)، بأنه بحر قليل الاستعمال لأن فيه عنتًا ومشقة، وقد قلَّ النظم عليه، وكان يُهجر لاختلاف موسيقاه عن جنس الموسيقى الشائعة الأوزان؛ ويرى بعضهم أن إيقاع هذا البحر خافت يكاد يكون كلامًا منثورًا، بل إن بعضهم تنبأ بأنه سينقرض من الشعر في مستقبل الأيام! قال الطناحي ردًا على ذلك: «وهذا كلام من لا يرتاح إلى هذا الوزن وينفر منه بطبعه، فيجعل ذوقه الخاص حكمًا عامًا، ثم هو كلام يرسل إرسالا دون مراجعة أو إحصاء، فإن النظم على هذا البحر شائع في الشعر الجاهلي وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإن لصديقنا الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همام) أنسًا بهذا البحر وولعًا، وقد أنشأ ديوانًا، أداره كله على هذا البحر، وسماه: (من مقام المنسرح)، ثم هو لايزال يتعاهده في شعره بين الحين والحين.

فأنت ترى الطناحي في هذا النص يحرس حتى بحور الشعر العربي من أن ينال من أصالتها واستمرارها، باستمرار هذا اللسان العربي، نائل، مهما كان صادق القصد في نقده. وهو لا يكتفي في الرد عليه بذكر رأيه الشخصي، ولكنه يحشد لذلك ما حفظه ديوان الشعر العربي من قديم عصوره وأوسطها وحديثها على نحو ما ترى في مقالته التي شرح فيها قصيدة العباس رضي الله عنه، في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أزمة البيان العربي

وبعد هذا الكلام النفيس عن قدرة اللسان العربي على البيان الجميل الحسن، يستعرض الطناحي مجالي البيان العربي الشريف، منذ عُرفت هذه اللغة إلى أساتذة جيلنا من أمثال الرافعي، والعقاد، والمنفلوطي، والزيات، ومكرم عبيد، وفتحي رضوان، ومحمد كامل حسين، ومحمد الصياد وغيرهم، ثم يعود إلى وصف حال البيان العربي الآن فيتحسر قائلا:

«وقد ذهبت تلك الأيام بحلاوتها ونضارتها وصرنا إلى هذا الزمان الذي زهد فيه الناس في حسن البيان، وهجروا طريقه هجرا يوشك أن يكون تاما، وأصبحت أساليب كثير من الكتاب، وممن ينتسبون إلى الأدب الآن، تدور في فلك ألفاظ مستهلكة تشبه العملة المعدنية الممسوحة، أو العملة الورقية التي تهرأت أطرافها من كثرة ما تداولتها الأيدي، أو كالعملة الزائفة التي ليس لها رصيد في مصرف النفس، وإنما هي ألفاظ وتراكيب تُسود بها الصحف وتروح وتجيء، تتجاوزها عينك على عجل، لا تقف عندها، لأنك لا تجد فيها إمتاعًا، ولا تحس معها أنسًا، فضلا عما تحسه في بعضها من ثقل وغثاثة تكاد تطبق على القلب وتسد مجرى النفس.. إن كثيرًا مما يكتب الآن لا صلة له بالعربية إلا صورة الحروف والأبنية، من الأسماء والأفعال، أما روح العربية وآمادها الرحبة الواسعة فلا تجدها في أسلوب مما تقرأ، ولا في كلام مما تسمع..». ويحيل الطناحي هذه الأزمة إلى أسباب خمسة، ثم يعقب على الأمر كله بقوله: «.. والرثاء كل الرثاء لشباب هذه الأيام الذين يخدعون عن تاريخهم وعن لغتهم فيما يقرؤون وفيما يسمعون».

التراث في خدمة اللغة

وليس أدل على أن قضية العربية كانت هي قضية الطناحي وأنه اتخذ العناية بكنوز التراث طريقًا للعناية بها وسبيلا إلى خدمتها، من أنه حين دعي للمشاركة في مؤتمر «مستقبل التعليم في مصر»، الذي أقامه نادي أعضاء هيئة التدريس في جامعة أسيوط، قدم إلى هذا المؤتمر بحثا عنوانه «استثمار التراث في تدريس النحو العربي»، ولم تكن حفاوة الطناحي بالبيان العربي وقفا على النصوص المتكاملة، أو الكتب العامرة بمأثور النثر ومصون الشعر، ولكنك تجده يفرح بالكلمة المفردة أو التركيب الوجيز، يراه في كتاب لأحد المعاصرين، فرح الرجل بابن أثير غاب عنه سنين ثم رجع سالما غانما.

إن الباعث على ذلك هو أن الطناحي كان يعيش قضية اللغة، وكأنها قضيته الوحيدة التي تعنيه شخصيا بقدر لا تعنى به سواه. وكان يتمثل تراثها كله، وإنتاج النابغين والنابهين على امتداد حياتها كلها، كتابا واحدا متكاملا تزداد سطوره بكل جديد صالح، فيفرح هو لأن ثروته الخاصة قد نمت، وكثر ثمرها، وطاب جناه. لقد كانت هذه اللغة الشريفة عند الطناحي أهله وعشيرته وبيته، وتاريخه الماضي وعمله الحاضر وأمله المستقبل، بقدر ما كانت - عنده - مرآة ثقافة الأمة، وعنوان حضارتها، وسبيل الرقي بتلك الثقافة وتجديد تلك الحضارة. ولذلك تصدى لكل من عرض لقضية من قضاياها بطريقة تنال منها أو تتهكم عليها أو على أعلامها، ورد خطأ المخطئين وجهل الجاهلين وغرور المغرورين، ردًا أوقف كلا منهم عند حده، وألزمه مكانه وأظهر الناس على مبلغه من العلم، حتى لا يفتتن به ناشئ.

لقد لقي الطناحي ربه وهو مرابط في ثغر اللغة العربية يدفع عنها البلايا، ويصحح لأهلها الخطأ، ويذود عن حياضها المدَّعين، ويكشف زيف العصريين، الذين يرمونها بما ليس فيها عجزا منهم عن ارتياد دروبها، أو جهلا بحقائق نظمها النحوية والصرفية، وأسرارها الدلالية والبلاغية. وكنا - وكان المتابعون جميعا - ينتظرون أن يُختار محمود الطناحي ليشغل في مجمع اللغة العربية، المكان الذي خلا بوفاة شيخه، محمود محمد شاكر، ولكن المنية سبقت. ■

عـــــــروض
مـــــوجــــزة

كتب عربيـــة

الأنبا شنودة الثالث: دنيا ودين



سناء السعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

■ هذا الكتاب حوار طويل مع البابا شنودة، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية، يكشف جوانب عدة من حياة البابا، ومواقفه تجاه قضايا وأحداث عديدة مرت بمصر والعالم العربي وبالبابا شخصيًا، كما يكشف عن موقف الكنيسة تجاه بعض الأفكار والمفاهيم والأحداث الدولية.

يتحدث البابا عن علاقته بالرئيس السادات، والتي كانت متوترة إلى الحد الذي دفع الرئيس السادات إلى إقصاء البابا شنودة وعزله في وادي النطرون، مشيرًا إلى أوجه اختلاف عديدة جرت بين الاثنين، مبعثها أن السادات - وفق ما يرى البابا - أراد أن يثبت أقدامه في السلطة، فأطلق المتطرفين من السجون، وعمل على ملاحقة الأقباط. وينفي أنبا شنودة في موضع آخر الصبغة السياسية للكنيسة، ويعتبر أن نقله مطالب الأقباط ومخاوفهم إلى القيادة السياسية، ليس هدفه أن تلعب الكنيسة دورًا سياسيًا، وإنما أن تحاط القيادة بما يدور في خلد رعاياها. ويفسر لماذا أصدر أوامره بعدم الصلاة على القس إبراهيم عبد السيد، الذي أُعتبر خارجًا على عقيدة الكنيسة ومحرضًا على اتباع الخطأ، ويدافع عن رفض الكنيسة تطليق زوجين إلا لعلة الزنى، معتبرًا أن ذلك من أصول العقيدة التي لا يملك رجل الدين تغييرها، وينفي عن الكنيسة شبهة الدكتاتورية، مؤكدًا أن الديمقراطية هي التي تسمح للأصوات المعارضة للكنيسة بالإعلان عن نفسها، ويميز البابا بين حوار الأديان والجدل في العقائد، ويرى أن الثانية ضررها أكثر من نفعها، ويؤكد أن مصر لا تعرف الفتنة الطائفية، والأحداث التي تقع لا تعبر عن مشاعر الشعب المصري، الذي عاش قرونًا في حب ووئام، ويرى أن المعالجة الأمنية وحدها لن تحل مشاكل التطرف والإرهاب في مصر، وإنما المعالجة الفكرية والوقائية هي الأساس، وينفي البابا أن يكون من تمتد يده بالإثم لأخيه مسلمًا، فالمسلم هو من سلم الناس من لسانه ويده، ويجدد البابا رفضه إقامة حزب للأقباط، ولا يرى في ذلك فائدة للأقباط أو للوطن، ولا يرى أن أقباط المهجر كتلة واحدة صماء يمكن التعامل معها على أساس أنها تحمل الأفكار ذاتها، ويرفض البابا قانون حماية الأقليات، ويرفض الوصاية الأمريكية على أقباط مصر.

هذا بعض ما يتضمنه الكتاب من آراء للبابا شنودة في مختلف القضايا.

□□□

عشر سنوات مع فاروق



كريم ثابت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

■ في هذا الجزء الثاني من مذكرات «كريم ثابت» المستشار الصحفي للملك فاروق، يتناول المؤلف السنوات العشر التي كان فيها شديد القرب من آخر ملوك مصر، وهي السنوات من ١٩٤٢ وحتى ١٩٥٢، وهي سنوات مهمة في تاريخ مصر والعالم، فهي التي شهدت اشتعال الحرب العالمية الثانية وما عانته مصر خلالها بوصفها واحدة من المستعمرات البريطانية، وحريق القاهرة، وحرب فلسطين، وإلغاء معاهدة ١٩٣٦، وحادث ٤ فبراير، وزيادة السخط الشعبي، وتفاقم الغضب على الأوضاع داخل الجيش، وظهور تنظيم الضباط الأحرار، ثم قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

يتضمن الكتاب عشرات الأسرار التي اطلع عليها المؤلف بحكم منصبه وقربه من الملك فاروق، وهي أسرار تبدأ من أخلاق الملك وطبائعه، إلى أسرار السياسة والساسة في تلك المرحلة المهمة.

يلاحظ المؤلف مثلًا، فيما يتصل بطباع فاروق أنه كان كثير الشك، وأنه كان يكره أن ينظر إليه بوصفه حدثًا صغير السن، كما كان شغوفًا بإحاطة أعماله بجو من السرية والكتمان، مع أن هذه الأعمال - كما يقول المؤلف - كانت معروفة للمحيطين به تمامًا.

ويلاحظ المؤلف وهو يكتب عن حادث ٤ فبراير، أن فاروق كان يكره النحاس كراهية شديدة، وكان يعتقد أنه - أي النحاس - أعد نفسه ليكون أول رئيس للجمهورية المصرية، أي أنه كان شديد الطموح، فضلًا عن أنه كان يخاطب فاروق بوصفه والده، وهو ما كان يكرهه كثيرًا.

في الكتاب أيضًا أسرار عن تشكيل وزارة إسماعيل صدقي الذي تولى الوزارة لأول مرة في عام ١٩٣٠، وكان عمر فاروق وقتها عشر سنوات، ويحتشد الكتاب بأسرار عديدة عن تأليف الوزارات وتنحية الوزراء، وكيف كانت تتم، وما الذي استهدفه فاروق في كل مرة، وهل كان ذلك يتم دائمًا برضاه أو رغم أنفه، كما ترد حكايات عن علاقات الملك ونزواته، وخطبته وزواجه وكذلك زواج مصطفى النحاس من السيدة زينب الوكيل. وكيف قضى فاروق وزوجته ناريمان ليل ٢٦ - ٢٧ يناير ١٩٥٢ (أيام حريق القاهرة)، بجوار حقائبهما مستعدين للسفر فورًا، إذا ما تحولت الفتنة إلى ثورة، لكن بعد خمسة عشر يومًا، نسى فاروق كل شيء، واحتفل بعيد ميلاده بحفلتين في يوم واحد، إحداهما نهارية والأخرى مسائية. غير أن احتفالات فاروق لم تدم طويلًا، إذ قام الجيش بثورته في ٢٣ يوليو من نفس العام، فقضى على عهد كان مقضيًا عليه بالانهيار والزوال، كما يقول المؤلف في ختام كتابه.

□□□

البحث عن يسوع



كمال الصليبي

عمان - رام الله: دار الشروق، ١٩٩٩

■ يقدم هذا الكتاب قراءة جديدة في الأناجيل، وهو يبدأ بمعلومات عامة تمهد طريق البحث عن حقيقة يسوع الناصري المعروف بالمسيح، اعتمادًا على ما ورد في النصوص المقدسة عند المسيحيين بشأنه. وقبل الولوج إلى الموضوع الرئيسي للكتاب، وهو الحقائق التاريخية المرتبطة بشخصية يسوع، يبين المؤلف المصادر الأساسية للكتاب المقدس، سواء في العهد القديم أو العهد الجديد، والأخير يتكون من أناجيل أربعة تحمل أسماء اثنين من تلاميذ يسوع هما متى ويوحنا، واثنين من معاوني الرسول بولس هما مرقس ولوقا، وجميعها يبحث في سيرة يسوع، ثم سفر أعمال الرسل الذي يتحدث عن أحوال تلاميذ يسوع وأفعالهم، ثم الرسائل وعددها ٢١ رسالة، ثلاث عشرة منها بقلم الرسول بولس، وهو لم يكن من تلاميذ المسيح، لكنه المصدر الأكثر ثقة فيما يتصل بسيرته.

بعد هذه الخلفية المعلوماتية الأساسية، يناقش المؤلف الجانب التاريخي لظهور المسيح، بادئًا بما جرى لبني إسرائيل في بابل على يد الملك «نبوخذ نصر» الذي قضى على مملكة يهوذا في العام ٥٨٦ ق.م. ثم تعاظم الوجود اليهودي بعد ذلك في فلسطين، ثم ظهور السيد المسيح في الناصرة.

ويفند المؤلف بدءًا من ظهور المسيح مقولات عدة حول شخصية وشخصيات أخرى أحاطت به وارتبطت برسالته، منها مثلًا أن المؤلف لا يراه معدمًا أو فقيرًا بحسب ما توحي نصوص عدة، بل كان بحوزته صندوق مال أوكله إلى «يهوذا الإسخريوطي»، للإنفاق عليه وعلى أتباعه، كما يلاحظ المؤلف تضاربا في نسب المسيح بين الأناجيل والرسائل وأحيانا بين الأناجيل ذاتها.

ويشكك المؤلف فيما يروى عن مسئولية «يهوذا الإسخريوطي» عن صلب المسيح والوشاية به، ويرى أن مرد هذه الروايات إلى تلاميذ المسيح الذين حملوا بغضًا وكراهية ليهوذا.

ويتوقف المؤلف كثيرا عند «بولس» الذي وضع الأسس اللاهوتية للمسيحية كما نعرفها اليوم، كما يناقش مصادر الأناجيل الأربعة وحكاية العشاء الأخير، وعشرات الموضوعات الأخرى التي تقدم قراءة نقدية للأناجيل الأربعة.

□□□

طالبان: العمائم والمدافع والأفيون



عبد الحليم غزالي

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

■ بدأ ظهور حركة طالبان على الساحة الأفغانية عام ١٩٩٤ بوصفها حركة الطلبة الأفغان محدودي التعليم، والآن صارت طالبان تحكم أكثر من ٩٠٪ من الأراضي في أفغانستان.

والكتاب هو ثمرة رحلة ميدانية قام بها المؤلف والتقى خلالها عشرات من قادة الحركة والنشطين بداخلها، بدءًا من الملا محمد عمر، وانتهاءً بالبسطاء من المتحمسين لأفكارها، والذين نكتشف من متابعة ما يرد في حديث المؤلف عنهم، قدرًا لا يمكن تجاهله من التطرف، والانصياع شبه التام لقائدهم «ملا محمد عمر»، الذي ينظرون إليه بوصفه أمير المؤمنين. ومن ثم، فإن طاعته واجبة، والخروج عليه مروق يستوجب العقاب، وهذا المروق لا ينحصر فقط في القضايا الكبرى، وإنما يمتد إلى مسائل من نوع تقصير اللحى ومشاهدة التليفزيون والإقبال على العلوم العصرية (طالبان تقصر التعليم على العلوم الشرعية فقط)، والتحيز للنظم الحديثة في الانتخاب وغيره.

أما الحديث عن زراعة المخدرات في أفغانستان، والتي قدرت وفقًا لإحصائيات برنامج الأمم المتحدة للحد من المخدرات عام ١٩٩٧ بـ ٥٩ ألف هكتار، يبلغ محصولها السنوي من الأفيون نحو ٢٨٠٠ طن متري، فأمر غير منكور حتى من قبل قادة الحركة، الذين اعترفوا بالمسألة، لكنهم عبروا عن عجزهم عن تقديم بدائل للمزارعين يمكنهم أن يتعيشوا منها في حالة تخليهم عن زراعة الأفيون، وإن كان قادة طالبان يؤكدون أنهم يسعون لتقليص زراعته وتجارته عملاً بتعاليم الإسلام وشريعته.

□□□

جوتة العبقرية العالمية



مجموعة مؤلفين

بيروت: دار الجديد، ١٩٩٩

■ يشتهر «جوتة» بين القراء العرب بديوانه الشرقي، الذي عبر عن رؤية إنسانية وروح صوفية شفافة، واستفاد فيه من نصوص القرآن وأعمال صوفية المسلمين الكبار، والسنوات التي عاشها «جوتة» بين منتصف القرن الثامن عشر ونهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وقد كان «جوتة» ثمرة منطقية لهذه الأفكار والتحولات، غير أن أهم ما ميَّز حياته الحافلة وأعماله الأدبية، هو الأبعاد الإنسانية التي اشتملت عليها، ويحمل شاهد قبره أبياتًا ستة تنتهي بالبيت التالي:

وعلى شاهد قبرك سيقرأ الناس
إنك كنت بحق إنسانًا

والكتاب الذي يأتي في ذكرى مرور ٢٥٠ عامًا على وفاة «جوتة»، يشتمل على مقالات عديدة، تتناول جوانب مختلفة من حياته، فيكتب الدكتور

عروض موجزة

مصطفى ماهر عن «جوتة الإنسان»، الذى خبر الحياة بعسرها ويسرها، وتعرض للمرض والحزن والخيبة والخوف. ويكتب الشاعر «سعيد عقل» عن «جوتة الشاعر»، وكيف أن ترحاله بين إيطاليا وفرنسا والصين وإيران، ودراساته العميقة للتراث الإغريقى والعربى والأوروبى، وتأثره بامرئ القيس وحافظ الشيرازى وآخرين من نوابغ الأدب فى كل مكان فى العالم، كانت لها آثارها العميقة فى تكوينه الأدبى ونبوغه الشعرى، كما أن صداقته لـ «شيللر»، أغنت رؤاه وتصوراته للكون والبشر.

ويكتب سمير مينا جريس، عن التأثيرات العربية فى الديوان الشرقى الغربى، وهى تأثيرات مؤكدة تزخر بها أبيات الديوان، وتمتد من النصوص المقدسة فى القرآن الكريم والسنة الشريفة، إلى أبيات شعراء المتصوفة وأغانيهم.

□□□

متاعب الزواج



عادل صادق

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

■ لا تستقيم الحياة الزوجية داخل الأطر القانونية والتشريعات الوضعية التى تبدو ـ ظاهريًا ـ منظمة لهذه العلاقات، واستجابة منطقية لتطور المجتمعات فى مرحلة ما من تاريخها، إنما تبنى على الود والتراحم الذى يترجم عمليًا الآية الكريمة: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾. وهذا الكتاب يسعى لتأكيد هذا المعنى، فهو يقول فى كل سطر، أن ما يعترى الحياة الزوجية أحيانًا من فتور وملل، وما يدب فيها من شقاق ونزاع، ليس سوى عارض سرعان ما يزول، مادامت الرغبة فى التواصل والتفاهم موجودة، والحرص على استمرار الحياة الزوجية قائما.

والكتاب عبارة عن صور قصصية تحكيها زوجات أو أزواج، ومقالات تسعى إلى تحليل الدوافع النفسية لسلوك الزوجين.

ويناقش المؤلف فى ثنايا الكتاب واحدة من القضايا المهمة التى تؤثر على الحياة الزوجية وتهددها فى الصميم، وهى تفوق المرأة على الرجل اقتصاديا أو علميا أو مهنيا أو اجتماعيا. ويرى المؤلف أن تفوق المرأة المادى يحتل أهمية ثانوية، أما تفوقها المهنى أو العلمى أو الاجتماعى، فهو الذى يحدث الخلل فى العلاقة، ويشعر الرجل بعجزه، وخصوصًا ذلك النوع من الرجال الذى يفتقد الثقة بنفسه. والمهم أن هذه الأحاسيس السلبية بين الطرفين، هى التى تؤثر على موقف كل منهما تجاه الآخر، ويناقش فى موضع آخر مسألة هجرة الزوج وتأثيرها على الزوجة والأولاد والكيان الأسرى كله.

عشرات الموضوعات والدقائق فى العلاقة بين الزوجين، يتناولها المؤلف، الذى ينهى كتابه بعشرين وصية، ترسم الطريق لحياة زوجية مستقرة.

□□□

شجون جامعية

سعيد إسماعيل على

القاهرة: عالم الكتاب، ٢٠٠٠

■ يؤكد المؤلف منذ البداية، على رؤيته غير المتفائلة لمستقبل التعليم فى مصر، أما تفسيره لرؤيته تلك فهو.. «بحكم تخصصه التاريخى أبصر صعودًا فى التعليم كميًا، وهبوطًا شديدًا كيفيًا، إلى الحد الذى يملؤنى رعبًا كلما تطلعت إلى المستقبل القريب».

ويتضمن الكتاب عشرات الموضوعات التى تقدم تشريحًا علميًا دقيقًا للأوضاع الجامعية فى مصر، ويلاحظ المؤلف أن التعليم الجامعى فى مصر ولد فى أحضان الوظيفة الحكومية، أى لسد حاجة الدولة تجاه طائفة معينة من الموظفين، ومع تحول الدولة المصرية من الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر وتخليها عن سياسة تشغيل الخريجين، بدات هذه الوظيفة تتضاءل، لكن المؤلف لا يرى اتساقًا بين تخلى الدولة عن سياسة التشغيل، وتحكمها فى الوقت نفسه فى سياسة القبول بالجامعات. وتحت عنوان «لا للجامعات الخاصة»، يؤكد المؤلف رفضه لتلك الجامعات التى يتوقع أن تفرز إلى السوق عشرات الخريجين يتسيدون بحكم الموقع الاجتماعى، وبحكم الإمكانات المتاحة لتلك الجامعات، المواقع القيادية فى سوق العمل، فيما يبقى خريجو الجامعات الحكومية، أسرى الوظائف الحكومية ومرتباتها الهزيلة.

ويرفض المؤلف فى مقال تحت عنوان «تجفيف ينابيع الثقافة بالجامعة» تقييد حرية الفكر والرأى لدى الطلاب فى المرحلة الجامعية، ويرى أن رفع الحظر عن قنوات التثقيف بالجامعة، سيعزز الأمن الفكرى والثقافى لدى الطلاب، وسيمثل ذلك درعًا واقيًا ضد محاولات تخريب الوعى التى تجرى بالجامعة.

وينتقد المؤلف فى مقال آخر، هذه الكثافة غير الواعية فى الجامعات المصرية، ويرى أنها «انفجار طلابى» يؤثر على القدرات التحصيلية للطلاب، كما تؤثر حتمًا على إمكانية أن تضطلع الجامعة بدورها فى تشكيل العقلية النقدية، التى هى عماد التعليم الجامعى.

□□□

دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن



كريم حسنين

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠

■ إعجاز القرآن الكريم لا ينتهى، فى اللغة والعلم وشواهد الكون والطبيعة. وفى هذا الكتاب، يكشف المؤلف عن مدلولات جديدة للتعبيرات القرآنية «نطفة» و«مضغة» و«علقة» و«قرار مكين» وغيرها، ويبين الحكمة من التعبير عن هذه المدلولات فى آيات مختلفة بكلمات أخرى مثل وصف «نطفة» بأنها «أمشاج» فى سورة «الإنسان».

والمنهج الذى اتبعه المؤلف هنا لا يخضع الآيات القرآنية للشواهد العلمية، باعتبار أن الثانية متغيرة والأولى ثابتة. ولذلك يبدأ المؤلف بالقواعد الموضوعية لتدبر آيات القرآن الكريم من وجهة نظره، ثم يبين الحقائق العلمية لخلق الإنسان وعملية الإخصاب وتطور الجنين. ثم يفسر الدلالة العلمية لتعبير «مضغة» فى القرآن الكريم، وهى التى اتفق الباحثون الإسلاميون ـ بحسب قول المؤلف ـ على أنها تعبير عن مرحلة الكتل البدنية بالتعبير الطبى، وهى المرحلة التى تتخلق فيها جميع أجهزة الإنسان. ويفسر المؤلف تعبير «نطفة» و«علقة»، ويرى المفسرون أن «نطفة» هى ماء الرجل وماء المرأة، و«العلقة» هى الدم الغليظ المتجمد. أما الكاتب، فإنه يقترح دلالات جديدة للفظين. ويقول إن التعبير القرآنى «نطفة» له دلالة واحدة، فهو يدل على جرثومة التناسل. وأن «علقة» تدل على البويضة المخصبة المتكونة عقب اتحاد النطفتين وما يليها من مراحل لازمة لإتمام تعلقها ببطانة الرحم، ويدلل المؤلف على ذلك بآيات من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف.

واعتمادًا على الآية الخامسة من سورة الحج، يسعى المؤلف إلى كشف دورة حياة الإنسان، ويرى فى الآية إعجازًا لغويًا وعلميًا يتفق مع جميع الأسس التى وضعتها تفاسير القرآن مسبقًا، ويتفق أيضا مع السياق العام فى الآية جميعها.

□□□

علم نفس الفن وتربية الموهبة



مصرى عبد الحميد حنورة

القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، ٢٠٠٠

■ يقدم هذا الكتاب رؤية علمية موضوعية لفرع من فروع علم النفس، عانى لفترات طويلة من سوء الفهم وسوء التقدير، وإن كان بدأ الاعتراف به حاليًا بوصفه أحد المداخل المهمة فى تناول الظواهر النفسية. وعلم نفس الفن كما يعرفه المؤلف، هو الذى يهتم بدراسة كل ما يتعلق بسلوكيات التعامل مع الموضوعات الفنية، سواء كانت فنونًا جميلة أو تطبيقية، كالموسيقى والنحت والتصوير والزخرفة، أو فنون قول كالشعر والنثر وغيرهما، أو فنون مركبة تجمع بين أكثر من فن.

ويقدم المؤلف فى البداية إطارًا نظريًا للدراسة، يقدم فيه الوشائج بين العلم والفن، وتكاملية السلوك الإبداعى، وماهية القياس النفسى للتذوق الفنى. ثم يناقش فى باب تال عملية الإبداع فى السينما والمسرح. ويخصص الباب الثالث لتطبيق الأطر النظرية لعلم نفس الفن فى فنون التصوير والموسيقى.

وفى فصل آخر يشير المؤلف إلى حوار دار بين الفنان محمود سعيد والدكتور مصطفى سويف، وهو حوار جرى على فترات استغرقت نحو عامين، وامتد لأكثر من عشرين ساعة، وفيه يسأله الدكتور سويف عن علاقة الاسكتش باللوحة النهائية.

ويجيب سعيد: بأنه كثيرًا ما يرسم اسكتشات دون التفكير فى مستقبلها.

ويقدم المؤلف فى فصل تال، قراءة لبعض رسائل المؤلف الموسيقى «تشايكوفسكى»، محاولاً الاقتراب من عملية الإبداع فى مجال الموسيقى، وفى الفصل الأخير يقدم تصورًا تكامليًا لتربية الموهبة، وهو تصور يبدأ من اكتشافها إلى توفير الظروف الاجتماعية المواتية لنموها، إلى بناء المناخ الوجدانى الفعال لتنشيط هذا النمو إلى تدريب الاستعدادات العقلية لتعظيم تطورها.

□□□

أربعون عاما على الوحدة المصرية السورية



باحثون وأكاديميون

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٩

■ تمثل تجربة الوحدة المصرية السورية على قصرها، معلمًا بارزًا من معالم العلاقات العربية خلال النصف الثانى من القرن العشرين، وهذا الكتاب يقدم تقييمًا علميًا موضوعيًا حول هذه التجربة، شارك فيه عدد من الأكاديميين والباحثين والسياسيين، وهو فى الأصل ندوة ضمت محاور عدة، يتعلق أولها بالطريق إلى الوحدة، أى المقدمات التى أفضت إليها. ويتعلق الثانى، بتحليل بعض آليات هذه الوحدة، خصوصًا ما يتصل ببناء المؤسسات وكيفية صنع القرار. ويختص القسم الثالث بقضية الانفصال وما ترتب عليها، وتطورات محاولات الوحدة العربية بعد فشل هذه التجربة فى السنوات الأولى من الستينيات، وينتهى الكتاب بحلقة نقاشية عن مفاهيم جديدة للوحدة العربية فى ضوء المستجدات العربية والعالمية.

وفيما يتصل بالمستقبل، أى مستقبل التجارب الوحدوية العربية، أجمع المشاركون على أن نقطة البداية لتحقيق هذه الوحدة، هى الإصلاح والتقويم داخل الدولة القطرية، الذى ينبغى أن يتوازى

عـــــــــروض
مـــــوجـــــزة

مع محاولات على المسار نفسه بالنسبة للدولة القومية، وقد انتهى المشاركون إلى أن ما يعوق التوجهات الوحدوية العربية هو: ارتفاع حدة الصدام الداخلى بين التيارات السياسية والقوى الاجتماعية فى عديد من الدول العربية، وتعرض عديد من دول المنطقة للتفتيت بفعل هذه الصراعات، كما هو الحال فى العراق والجزائر مثلاً من ناحية ثانية، فإن الحوار بين الشعوب العربية يكاد أن يكون مقطوعًا لأسباب مختلفة، وبدلاً من أن تلعب وسائل الإعلام دورًا إيجابيًا فى وصل هذا الانقطاع، نجدها على العكس، ساهمت فى تعميق الفجوة وافتعال مزيد من الحواجز النفسية الأخرى، وهو ما جعل الثقافة القومية تتراجع لصالح الثقافة القطرية، وعزز فرص الانعزال والتقوقع.

□□□



كيف نصنع المستقبل

روچيه جارودى

ترجمة: منى طلبة - أنور مغيث

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

■ أثار المفكر الفرنسى المسلم روچيه جارودى عشرات الأسئلة فى مواجهة النظام العالمى الجديد، وما يسميه بالإمبريالية الأمريكية، وهو لا يرى أن خطورتها ماثلة فى العالم الثالث فقط، وإنما تمتد إلى أوروبا ذاتها، التى «تأمركت» وصارت مهددة فى ثقافتها وقيمها وحضارتها كما يقول جارودى.

وهذا الكتاب، يتوجه إلى المستقبل، إلى القرن الحادى والعشرين، كيف يمكن بناء المستقبل، فى ضوء معطيات الحاضر التى سادت فى أمريكا وحضارتها التى يرى المؤلف أن قيمها السلبية تتجاوز بما لا يقاس قيمها الإيجابية، وفى البداية يشخِّص المؤلف أحوال العالم فى القرن العشرين، الذى انتهى بتناقض مميت على حد تعبيره، وهو أنه عالم متلاحم وممزق فى الوقت نفسه، وهو متلاحم بفعل الآلة العسكرية ووسائل الاتصال والمعلوماتية التى وحدت بين أجزائه، وهو ممزق، لأن ٨٠٪ من مصادر العالم يسيطر عليها ويستهلكها ٢٠٪ من سكانه.

ويعود جارودى إلى ما قبل الميلاد، حيث جرى الانشطار الأول للعالم - بحسب قوله فى الفترة من القرن السادس إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وبروز مفاهيم الشعوب المختارة التى تبناها الإغريق واليهود، ثم الانشطار الثانى وجرى مع أوروبا المسيحية ذات التوجهات الاستعمارية، وهو انشطار ساد ١٥ قرنًا، أما الانشطار الثالث، فحدث فى منتصف القرن العشرين والحربين العالميتين اللتين دمرتا العالم.

أما كيف نبنى العالم الجديد ونمنع انفجار الكوكب الأرضى، فأمر يتم عبر تحولات فى الاقتصاد، تحقق مزيدًا من العدالة بين سكان الأرض، وتمنع الاستغلال وتحد من وحشية الرأسمالية.

وبتحولات فى السياسة، تخلق نظاما سياسيا أكثر إنسانية، يعيش فى كنفه العالم كله، وينشر الثقافة السياسية القائمة على المشاركة.

وبتحولات فى التعليم، تبدأ من البدايات والأسس، تُعلِّم القراءة التى تعترف بالآخر وإنجازه الحضارى دون استعلاء أو غرور.

ثم وهذا هو الأهم، تحول إيمانى يوازن بين القيم المادية السائدة فى حضارة الغرب، والقيم الروحية التى تجعل لحياة الناس قيمة أكبر، وتمنح التطور البشرى أبعادًا هو فى مسيس الحاجة إليها.

□□□



مدخل إلى السياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية

بيژن ايزدى

ترجمة: سعيد الصباغ

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٠

■ منذ اندلاع الثورة الإيرانية قبل أكثر من عشرين عاما، والتحديات التى تطرحها لا تنقطع، وعلامات الاستفهام تتناثر حول نواياها ومواقفها من جيرانها، ومواقف الدول الكبرى منها، وتأتى أهمية هذا الكتاب من أن كاتبه أستاذ فى العلوم السياسية بجامعة طهران.

ولعل أهم ما يشغل الإيرانيون ويشغل الآخرين بهم، هو ما يرتبط بقضية «تصدير الثورة»، والتى تتراوح أبعادها ما بين أنصار الجبهة الوطنية الذين يرون ضرورة التركيز على تنمية القدرات الذاتية ورفض تصدير الثورة ورفض التعامل دوليا بالمعايير الإسلامية والسعى إلى التكيف مع المجتمع الدولى. أما القوميون الإسلاميون، فيؤمنون بعالمية الإسلام، وبضرورة تصدير الثورة ومقاومة الاستعمار الذى هو سبب تخلف العالم الإسلامى. أما القوميون الثوريون فيرون ضرورة أن يكون الوضع الداخلى فى إيران نموذجا يحتذى، وهم لا يرفضون تصدير الثورة، لكنهم يؤمنون بالتعايش مع الأوضاع حتى تسمح الظروف بتصدير الثورة إلى الدول المجاورة. ويقدم المؤلف قراءة فى الأسس التى تحكم السياسة الخارجية الإيرانية، ومنها الدستور والمؤسسات ومفهوم الدبلوماسية فى هذا الإطار، وموقع المصلحة الوطنية الإيرانية فى سلم أولويات الدبلوماسية الإيرانية، والمصادر الرسمية المسئولة عن اتخاذ القرار وصياغته فى إيران وهى الدستور والمرشد ثم مجلس الشورى والحكومة ووزارة الخارجية.

أما أصول السياسة الخارجية لجمهورية إيران الإسلامية، فهى كما



أرض الميعاد والدولة الصليبية: أمريكا فى مواجهة العالم منذ ١٧٧٦

والتر أ. ماكدوجال

ترجمة: رضا هلال

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

■ هذا الكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، يتناول معضلة السياسة الخارجية الأمريكية بين المثالية والنفعية والتجريبية.. فمؤلفه «والتر ماكدوجال» يستعرض دور الولايات المتحدة فى السياسة العالمية خلال القرنين الماضيين.

وكما هو واضح من عنوان الكتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، يلجأ المؤلف إلى الاستعارة الدينية. فتعبير أرض الميعاد، مستعار من العهد القديم «اليهودى». وتعبير الدولة الصليبية قصد به الإشارة إلى العهد الجديد وإلى الصليب كرمز للتبشير وللتضحية من أجل خلاص البشرية. ومن ثم، فإن أمريكا أرض الميعاد، تعكس فكرة المهاجرين الأوائل، وكذلك الأمريكيين حتى نهاية القرن التاسع عشر عن أمريكا: أما فكرة الدولة الصليبية، فتعكس تصور الأمريكيين عن أنفسهم وسلوك أمريكا فى الشئون العالمية خلال القرن العشرين، من منطلق أن أمريكا لها رسالة لخلاص البشرية.. رسالة لنشر الحرية والتقدم.

وبمعنى آخر، فإن أمريكا القرن التاسع عشر وظفت سياستها الخارجية من أجل الحرية فى أرض الميعاد - أمريكا. أما أمريكا القرن العشرين، فكانت سياستها الخارجية «توسعية» لنشر الحرية فى العالم!

ولجوء ماكدوجال إلى الاستعارة الدينية، لا يعنى أنه يقدم رؤية دينية لدور أمريكا فى العالم، ولكنه يشى بدور العامل الدينى فى السياسة الخارجية الأمريكية، ويركز على التمايز بين العهد القديم للسياسة الخارجية الأمريكية، والذى استهدف الحرية فى الداخل، والعهد الجديد الذى حاولت فيه أمريكا توسيع دورها فى العالم ثم قيادته.

وقد وصف المؤرخ الشهير آرثر شليزنجر التاريخ الأمريكى بأنه دورات من الحرب بين الواقعية والمسيحانية، بين التجريب والقدرية. وتحدث كيسنجر عن الازدواجية بين العزلة والعالمية، بين المثالية والقوة. كما أن المؤرخ مايكل كامن وصف الشعب الأمريكى بأنه «شعب متناقض»، والسياسة الأمريكية بأنها سياسة البراجماتية المثالية.

ولكن هل كان لابد أن تتحول أمريكا أرض الميعاد إلى دولة صليبية؟

يجيبنا ويليام فولبرايت، بأن كلا من تقاليد العهد القديم والعهد الجديد فى أمريكا هى تعبير عن جانبين بارزين فى الشخصية، جانب أخلاقية النقص الإنسانى (الاكتفاء بصلاح النفس)، وجانب أخلاقية الثقة فى الذات الإنسانية (إصلاح العالم). وبعد عام١٨٩٨، أفسحت الأخلاقية الأولى المجال للأخلاقية الثانية (الصليبية). ومع الإمبريالية التقدمية، أصبحت أمريكا بولس الرسول الذى ينشر الرسالة بين الشعوب الأخرى. وبالويلسونية «الليبرالية العالمية»، حاولت أمريكا أن تكون الكنيسة العالمية وليس مجرد إسرائيل الجديدة.

لقد دار الجدل الذى ميز مرحلة ما بعد الحرب الباردة، حول أى تقاليد السياسة الخارجية مازال صالحًا وفاعلاً.

من تقاليد العهد القديم، سيظل تقليد حماية الحرية فى الداخل كوظيفة للدبلوماسية الأمريكية، وتقليد الأحادية بمعنى تأكيد القوة الداخلية قبل الارتباطات الخارجية، ومبدأ مونرو برغم غياب أى قوة أوروبية يمكن أن تهدد الفناء الخلفى للولايات المتحدة. بافتراض عودة روسيا أو صين عدائية أو يابان أعيد تسليحها. أما تقليد المصير المبين، أى التوسعية الذى كان مضمونه «فتح أمريكا»، فقد أصبح هدفه «فتح العالم» تجاريا.

ومن تقاليد العهد الجديد، فإن تقليد الإمبريالية التقدمية، كان انتقاليا بين العهدين القديم والجديد. ولم يزل تقليد الاحتواء الأكثر فعالية، وإن أصبح يطبق على نطاق إقليمى مثلما حدث مع إيران والعراق وليبيا والسودان (الدول المنبوذة)، دون نجاح أكيد. ويبقى تقليدان هما الويلسونية (الليبرالية العالمية) وتحسين العالم بتعديلهما لخدمة التجارة الأمريكية وتطبيق التشريع الأمريكى خارج الولايات المتحدة، بذريعة الديمقراطية وحقوق الإنسان، مثل قانون بيرتون - هيلمز لتشديد الحصار على كوبا، وقانون داماتو لفرض عقوبات على الشركات المتعاملة مع إيران وليبيا، وقانون سبيكتر - وولف للحرية من الاضطهاد الدينى.

لقد كانت - ومازالت - معضلة السياسة الخارجية الأمريكية: أين تلتقى الواقعية بالمثالية، والعالمية بالقومية؟ ومتى تختار بين التوسعية والانعزالية؟

ولكن الاستثنائية الأمريكية، كانت تفرض دائما تناقض السياسة الخارجية الأمريكية.

وقد نجح والتر ماكدوجال فى كتاب «أرض الميعاد والدولة الصليبية»، فى تقديم سيرة ذاتية قومية لأمريكا، من أجل استنباط التقاليد الدبلوماسية التى حكمت الدور الأمريكى فى العالم منذ إعلان الاستقلال الأمريكى عام ١٧٧٦. وبرغم أن الكتاب ينتمى إلى علم تاريخ العلاقات الدولية، فإن ماكدوجال حرص على كتابته كقطعة من الأدب. وفى الحق أننا أمام كتاب يجمع بين التحليل التاريخى الرصين والأدب الرفيع فى آن معًا.

عــــــــروض مــــــوجـــــزة

يقدمها المؤلف: سعادة الإنسان في كل المجتمعات البشرية، وتنظيم السياسة الخارجية للدولة وفقا للمعايير الإسلامية، والدور الأساسي للإمامة والقيادة، ودعم النضال المشروع للمستضعفين ضد المستكبرين في أي بقعة من العالم، والدفاع عن حقوق جميع مسلمي العالم، والاستقلال السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والحيلولة دون وقوع الاقتصاد الوطني تحت السيطرة الأجنبية، ومكافحة النفوذ الأجنبي. أما تطبيق هذه الأصول التي أفاض في شرحها المؤلف، فيبقى متروكًا للواقع والتجربة.

كتــب أجنبيــة



Turks, Moors and Englishmen in the Age of Discovery

(الأتراك، المغاربة والإنجليز في عصر الاكتشاف)

Nabil Matar

Columbia University Press, 1999, 268pp., £21.00

■ في عام ١٦٠٣، قدم الملك المغربي أحمد المنصور اقتراحًا إلى حليفته الإنجليزية الملكة اليزابيث الأولى، كان كفيلا لو تمت الموافقة عليه بتغيير وجه التاريخ الحديث على الإطلاق. وكانت الفكرة بسيطة وهي أن يسمح الإنجليز للمغاربة باستعمار أمريكا. واقترح الملك المنصور أن تقوم قوات إنجليزية ومغربية باستخدام سفن إنجليزية بالهجوم معًا على المستعمرات الإسبانية في أمريكا، وطرد الإسبان منها، وكانوا أعداء ألداء للمغاربة والإنجليز، ثم تملك الغزاة الجدد الأرض. إن مثل هذا الاقتراح يبدو غير عادي اليوم، لكنه كان مثيرًا للاهتمام في زمنه. وهو كما يوضح نبيل مطر مؤلف الكتاب، الذي يتناول علاقات الإنجليز مع المسلمين، يكشف عن التحالف الوثيق بين الإنجليز وكل من المغاربة والعثمانيين آنذاك، لدرجة أن بابا الفاتيكان اعتبر اليزابيث في اتحاد مع الأتراك. إن الإنجليز في تلك الفترة ربما كانت لهم تحفظاتهم على الإسلام، لكن هذه التحفظات لا تقارن بالكراهية والخوف من الفاتيكان. وقد جمع الخلاف مع الفاتيكان كلا من الإنجليز والأتراك والمغاربة على التعاون معا.

وقد أخذ التعاون الإسلامي الإنجليزي أشكالاً عديدة، وكذلك أدى إلى توقيع معاهدات تجارية وصداقات عميقة، بل إنه أدى إلى تنظيم الإنجليز والمغاربة حملات عسكرية مشتركة في عام ١٥٩٦، وساهم أيضا في حركة كبيرة بين السكان في العالمين الإسلامي والإنجليزي.. وكانت في لندن جالية مسلمة من الأتراك وكذلك سفراء معتمدون.

يقول المؤلف إنه إذا كانت هناك جالية مسلمة في لندن، فإن من المرجح على نطاق كبير أنه كانت هناك أيضا جالية إنجليزية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ويؤكد أنه كانت هناك جالية في المغرب أكبر من الإنجليز الموجودين في أمريكا خلال ذلك الوقت.

وكان مطر قد ألف كتابا آخر بعنوان «الإسلام في بريطانيا ١٥٥٨ - ١٦٨٥»، وفيه يكشف عن الإنجليز الذين عاشوا في الشرق العربي، وتحول كثيرون منهم إلى الإسلام. وهناك إنجليز آخرون عادوا إلى بلادهم بحكايات وقصص عن الشرق الإسلامي وعن الرخاء الذي يعيش فيه الأتراك والمغاربة.

وينشر مطر في مؤلفه «الأتراك والمغاربة والإنجليز» صورًا رائعة، تظهر مدى تأثر الإنجليز بالثقافة العربية الإسلامية، ويؤكد أن الغرب والشرق التقيا في ذلك الزمن، وكان اللقاء رائعًا على عكس ما قال الشاعر الإنجليزي كيبلنج بعد ذلك من أن الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا.

□□□



In The Firing Line: Politics, Faith, Power and Forgiveness

(على خط النار: السياسات، الإيمان، السلطة والتسامح)

Brian Mawhinney

Harper Collins, 1999, 270pp., £16.99

■ مؤلف هذا الكتاب هو براين ماويني، أحد زعماء حزب المحافظين البريطاني، خلال فترة حكمه الطويلة لبريطانيا من ١٩٧٩ حتى ١٩٩٧، عندما مني الحزب بأكبر هزيمة في تاريخه، وتولى العمال السلطة على أثرها. وقد شغل ماويني عديدًا من المناصب الوزارية، وفي العامين الأخيرين للسلطة، تولى منصب الرئيس التنفيذي لحزب المحافظين، وهي فترة شهد فيها الحزب وهو يترنح ويتحول إلى جماعات متصادمة ومنقسمة على الملأ، لينتهي الأمر بالهزيمة الساحقة. ورواية رجل مثل ماويني على الأحداث التي شهدها كان يمكن أن تكون مفيدة للغاية، سواء للقارئ أو للباحث، لكنه آثر أن يتناول الأمر من زاوية دينية في الغالب. فقد تحدث عن أن المسيحيين يرون في السياسة بحث عن المجد والسلطة، لكنه يقول في كتابه، إنها يجب أن تكون فعل الشيء الجيد. والمثير للاهتمام، أن ماويني في كتابه الضئيل الحجم، استغرق في الحديث عن هذه القضية لدرجة جعلته ينسى تناول قضايا سياسية مهمة، تعاملت معها حكومته وسببت خلافات شديدة وتدنيا لشعبية هذه الحكومة لدى الرأى العام البريطاني، بل إن ماويني نسي - وهو المهتم بالجانب الديني - تناول قضايا دينية متعلقة بدور الكنيسة، واجهتها حكومة المحافظين.

وللمفارقة، فإن ماويني الذي اختاره جون ميجور رئيس الوزراء البريطاني السابق رئيسا تنفيذيا لحزب المحافظين، لكي ينقذ الحزب من عثرته، كان من بين الشخصيات التي تحملت مسئولية كبيرة عن الهزيمة الساحقة للمحافظين عام ١٩٩٧.

□□□



After Britain: New Labour and The Return of Scotland

(ما بعد بريطانيا: حزب العمال الجديد وعودة اسكتلندا)

Tom Nairn

Granta Books, 1999, 324pp., £15.99

■ مؤلف هذا الكتاب يتوقع منذ عام ١٩٧٧ تفكك بريطانيا، وقد أصدر في ذلك العام كتابا تحت عنوان «تفكك بريطانيا»، لكن ما حدث بعد ذلك جعله يقلع ولو مؤقتًا عن توقعه هذا. وهو يقصد بتفكك بريطانيا، خروج اسكتلندا بالتحديد واستقلالها عن التاج البريطاني. وقد صوّت ٤٠٪ من الاسكتلنديين فقط لصالح نقل السلطات إلى اسكتلندا في استفتاء جرى عام ١٩٧٩، وجاءت تاتشر إلى الحكم في نفس العام، لتتوقف كل محاولات نقل السلطات، وليعود الحديث عن وحدة بريطانيا، مما جعل توم نارين نفسه يتوقف عن الحديث عن هذه المسألة.

إلا أن الحديث تجدد مرة أخرى مع وصول العمال إلى الحكم في بريطانيا عام ١٩٩٧، وهم الذين كانوا قد تعهدوا بالعمل على نقل السلطات المحلية إلى اسكتلندا وويلز، وإقامة برلمان في اسكتلندا، وتم ذلك خلال العامين الماضيين في تغير تاريخي في علاقة اسكتلندا بالتاج البريطاني. وبعدما حدث ذلك، خرج عديد من الخبراء والكتاب والسياسيين بتوقعات جديدة، تؤكد أن المسألة مسألة وقت فقط لاستقلال اسكتلندا، بل إن جون ميجور رئيس الوزراء الأسبق حدد المدة بحوالى ١٠ سنوات فقط.

وكما يوضح المؤلف، فإن العلاقة بين اسكتلندا وبريطانيا فريدة من نوعها، فاسكتلندا لم تدخل التاج البريطاني قهرًا، بل دخلته طواعية في عام ١٧٠٧، ولذلك ظلت معظم المؤسسات الاسكتلندية كما هي، مثل نظم التعليم والقضاء وغيرها، وهناك جنيه اسكتلندي وبنك اسكتلندي. وخلال قرنين ونصف من الزمان، قبل الاسكتلنديون التاج البريطاني، واستفادوا منه كثيرًا، وخاصة عندما أصبحت بريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، ووجدت الطبقة الوسطى الاسكتلندية فرصة كبيرة في المجتمع البريطاني، فحققت طموحاتها في شتى المجالات. لكن مع نهاية الإمبراطورية وتضاؤل مكانة البلاد في أوروبا والعالم والنماذج الكثيرة التي ظهرت لدول متغيرة، استطاعت البروز على ساحة المجتمع الدولي، الذي أيقظ من جديد روح الاستقلال عند الاسكتلنديين.

ويرى مؤلف الكتاب أن بريطانيا نفسها في حاجة لأن تجدد نفسها، حتى يمكنها أن تبقى، فلا يمكن لدولة لا دستور مكتوب لها، أن تواجه - حسب رأيه - تغيرات عالم القرن الحادي والعشرين. وهو يرى أن الأغلبية البرلمانية الكاسحة التي يتمتع بها توني بلير رئيس الوزراء الحالي، يمكن أن تساعده على القيام بهذه الثورة الدستورية، التي تهدف إلى الحفاظ على بريطانيا في قرن جديد وألفية جديدة.

□□□



Root And Branch: African American in New York and East Jersy 1613 - 1863

(الجذور والفروع: الأمريكان الأفارقة في نيويورك وجيرسي الشرقية ١٦١٣ - ١٨٦٣)

Graham Russell Hodges

Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1999, 413pp., £14.50

■ تركز الدراسات والمناقشات حول العبودية في أمريكا الشمالية والأمريكان الأفارقة على الجنوب الأمريكي، خاصة في القرن التاسع عشر، لكن مؤلف هذا الكتاب لا يغير فقط وجهة المناقشات من الجنوب إلى نيويورك وجيرسي الشرقية، بل إنه يمد فترة الدراسة طويلا ليبدأ من مقتبل القرن السابع عشر.

ويدرس هودجيز ظروف الأمريكان الأفارقة في ظل الحكم الأمريكي بعد استقلال الولايات المتحدة. ويعطي معلومات جديدة عن مقاومة السود للاضطهاد الذي تعرضوا له خاصة في الفترة من ١٧١٢ حتى ١٧٤١.

ويتناول الكتاب أنواع التمييز الذي كان يمارس ضد السود، سواء كان ذلك في الريف أو الحضر وتركيبة المجتمع الأسود وخلفيته الدينية.

ويستعرض أيضا العلاقات بين فئات المجتمع الأسود نفسها، فهناك من كانوا يسمون بالأنجلوليين، وهناك الأفارقة والسود وغيرهم، ولكل فئة صفات مميزة.

والكتاب في مجمله محاولة جيدة للبحث في جذور وفروع أقلية مهمة للغاية في المجتمع الأمريكي وخروج من دائرة البحث التقليدية التي كانت تركز على الجنوب فقط.

□□□

عـــروض مـــوجـــزة



India's Nuclear Bomb: The Impact on Global Proliferation

(قنبلة الهند النووية وتأثيرها على الانتشار الكونى)

George Perdovich

Berkeley: University of California Press, 1999, 597pp., £24.50

■ يعتقد مؤلف الكتاب أن المشكلة فيما يتعلق بانتشار الأسلحة النووية، هى أن العالم يميل إلى التعامل معها، باعتبارها مشكلة تنتمى إلى علم الأوبئة وليس استراتيجية. فمصطلح الانتشار النووى الذى نستخدمه فى هذا السياق هو عبارة عن عملية لإعادة الإنتاج من خلال الانقسام فى الخلية. ويتضح هذا التصور من خلال تصريح وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكى فى ١٢ مايو ١٩٩٨، ردًا على مفاجأة إجراء الهند اختبارًا نوويًا، حيث أعرب عن قلقه من أن يسبب الإجراء الهندى سلسلة من رد الفعل، ولم تدخر باكستان جهدًا لتحقيق قلق كوهين على أرض الواقع، فأجرت اختبارًا نوويًا مع نهاية نفس الشهر.

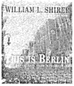
إن من المفترض أن الدول تتحرك مدفوعة بحاجتها للحفاظ على أمنها، لكن هذا التحرك يؤدى إلى عدم أمن الآخرين. ولذلك فإن امتلاك سلاح نووى من جانب دولة ما، من شأنه أن يكون حافزًا فوريًا لدولة أخرى على الأقل لامتلاك هذا السلاح. وقد حدث مثل هذا السيناريو خلال الستين عامًا الماضية. فبسبب الخوف الأمريكى من امتلاك ألمانيا للسلاح النووى، فجرت أمريكا قنبلتها النووية، الأمر الذى تبعه تفجير الاتحاد السوفيتى لقنبلته، وبعد ذلك فجرت بريطانيا وفرنسا والصين قنابلها. ومن جانبها أدت القنبلة الصينية إلى محاولة الهند امتلاك السلاح النووى. ويستعرض الكتاب بشكل كامل تاريخ البرنامج النووى للهند، وهى قصة طويلة تعود إلى السنوات الأولى من الاستقلال، وعزم القادة الهنود على ضمان مكان لبلادهم بين قوى العالم الرئيسية. ووصلت المحاولات ذروتها عام ١٩٩٨، عندما غير اتال بيهارى فاجباى رئيس الوزراء الأسلوب السرى إلى علانية واضحة بشأن امتلاك السلاح النووى.

ورغم أن مناقشات واسعة دارت بين المفكرين والباحثين حول جدوى أو عدم جدوى امتلاك سلاح نووى، إلا أن الشخصيات السياسية الرئيسية فى الهند لعبت الدور الرئيسى فى تقرير مصير البرنامج النووى. وهو يتساءل: هل لعبت الديمقراطية الهندية دورًا فى البت فى مسألة امتلاك السلاح النووى؟ ويجيب أن عوامل كثيرة أثرت فى هذا الموضوع، وتغلبت فى النهاية وجهة النظر الداعمة لامتلاك السلاح النووى.

وينصح المؤلف الهند فى نهاية كتابه، أن تثبت للدول النووية الأخرى التى عملت على معاقبتها لامتلاك الأسلحة النووية، بأنها كانت خاطئة، وذلك بأن تصبح قوة تستهدف سلامة العالم، وأن تبدأ بنفسها من خلال وقف التجارب النووية.

ويحتل الصراع مع باكستان حيزًا مهمًا فى الكتاب، ويتناول الكتاب دور هذا الصراع فى تحفيز البلدين على الإسراع بامتلاك السلاح النووى.

□□□



This is Berlin: A Narrative History 1938 - 1940

(هذه هى برلين: تاريخ قصصى ١٩٣٨-١٩٤٠)

William L. Shirer

Hutchinson, 1999, 450pp ., £20.00

■ بانتقال النظام السياسى الألمانى إلى برلين، عادت العاصمة الألمانية العتيدة إلى واجهة الأحداث فى ألمانيا وأوروبا، وتجددت الذكريات عن تاريخها، والأحداث التى شهدتها.

ومؤلف الكتاب هو الأمريكى وليام شيرر، الذى توفى عام ١٩٩٣، له كتاب شهير صدر عام ١٩٦٠، بعنوان «صعود وسقوط الرايخ الثالث». وقد حقق الكتاب أعلى المبيعات لدى صدوره، وكان شيرر يعمل مراسلاً لشبكة «سى بى إس» الأمريكية فى الثلاثينيات، وقد تمكن من إذاعة تقارير عن أهم الأحداث فى تلك الفترة، وأهمها أزمة ميونيخ، وغزو ألمانيا للسودين، واندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، ثم غزو واحتلال فرنسا.

ويتضمن كتاب «هذه هى برلين» الذى نشر بعد وفاة المؤلف، معلومات مثيرة عن برلين قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بقليل منها أن فيلم «ذهب مع الريح» الشهير الذى ظهر فى أكتوبر ١٩٣٩ حظى بشعبية كبيرة لدى الألمان، أو تأكيد مسئولين ألمان أنهم تحركهم دوافع إنسانية بحتة فى أعمالهم. ورغم أن تقارير شيرر التليفزيونية كانت فى معظمها عرضا لما كانت تقوله الصحف الألمانية آنذاك، كما أنها كانت تخضع لرقابة مشددة، إلا أنها كانت تحظى باهتمام كبير للغاية من المشاهد العادى، كما أنها فى وقت لاحق أصبحت موضع اهتمام الدارسين لمعرفة كيف كانت الحياة فى ألمانيا خلال تلك الفترة.

والمفاجأة أن الكتاب لا يعطى اهتمامًا كبيرًا لمسألة اليهود، فلا ذكر لما حدث آنذاك، فهل لأن الرقابة كانت تمنعه من أن يكتب عن ذلك فى تقاريره، التى يعيد الكتاب نشرها، أم لأن الدعاية اليهودية بعد ذلك ضخَّمت ما حدث من مآسى لليهود.

ويقدم الكتاب لمحات جيدة لأحداث وقضايا كانت مثار اهتمام كبير آنذاك، وكان شيرر يقدمها فى تقارير مطولة، يزيد مدة الواحد منها على ٥ دقائق، مما يعكس أنه كان هناك اهتمام من المشاهدين بمشاهدتها آنذاك، بينما الآن لا يزيد طول التقرير الإخبارى التليفزيونى على دقيقتين أو ثلاث على الأكثر فى المتوسط.

□□□

Khomeini: Life of The Ayatatollah

(خومينى: حياة آية الله)

Baqer Moin

Tauris, 1999, 356pp., £24.95

■ بعد أكثر من عشرين عامًا على الثورة الإسلامية فى إيران، وبعد أكثر من ١٠ سنوات على وفاته، مازال آية الله الخومينى الغائب الحاضر فى إيران، ومازال النظام الإيرانى يستمد شرعيته منه. والخومينى حسب ما يراه الكثير من المفكرين والسياسيين، واحد من قلة من زعماء القرن العشرين، الذين يمكن أن يدعوا أنهم يمتلكون شخصية كاريزمية ملهمة. لقد كان القوة الدافعة وراء تدمير نظام قديم وإقامة آخر جديد على أنقاضه. وزعيم بمثل هذا القدر من الأهمية، من الصعب كتابة سيرة حياته، لكن مؤلف الكتاب «باقر موين»، قدم من خلال كتابه محاولة صلبة وجادة فى هذا الإطار.

ويعد الفصل الخاص بتعليم الخومينى، من أمتع فصول الكتاب وأكثرها فائدة. ويتناول المؤلف بالتفصيل تقاليد الدراسة التقليدية فى إيران واهتمام الخومينى الشاب بالفلسفة الإسلامية، ويشير إلى أن الخومينى كان يعكس خلفيته الإيرانية على ما درسه من فلسفة وفكر وفقه إسلامى، وكان ذلك مثار خلاف مع زملاء له.

ويخوض الكتاب فى العلاقة بين نظام الشاه، وبين العلماء فى إيران، ووصف شاه إيران محمد بهلوى لهؤلاء العلماء، بأنهم رجعيون يمثلون أسوأ ما فى المجتمع الإيرانى من تخلف وبدائية.

كما يتحدث عن الظروف التى جعلت الخومينى يتقدم الصفوف، ويقود الثورة ضد الشاه، وكذلك تعامله مع العالم الخارجى، ويشير إلى الرسالة الشهيرة التى أرسلها عام ١٩٨٩ إلى زعيم الاتحاد السوفيتى سابقًا ميخائيل جورباتشوف، وطلب منه فيها أن يقلع عن الشيوعية، وأن يتجنب الوقوع فى براثن الرأسمالية المادية، وأن يتحول بدلاً من ذلك إلى الإسلام.

□□□

Milosevic: Portrait of A Tyrant



(ميلوسيفيتش: صورة طاغية)

Dusko Doder and Louise Brnson

Free Press, 2000, £17.99

■ بعد شهور من حملة حلف شمال الأطلنطى «الناتو» على يوجوسلافيا، مازال الرئيس اليوجوسلافى سلوبودان ميلوسيفيتش، يقبض بيد من حديد على مقاليد السلطة، بل إن المعارضة التى وجدت فى ضربات الناتو فرصة للإطاحة به، أصبحت أضعف مما كانت، ولم تعد تمثل ـ على المدى القصير على الأقل ـ تهديدًا فعليًا له.

ورغم أن ميلوسيفيتش قليل الظهور، نادر الحديث إلى وسائل الإعلام، لا يكشف عن علاقاته أو روابطه مع المتشددين ومجرمى الحرب، إلا أنه يسيطر ويؤثر على كل ركن من أركان ما بقى من يوجوسلافيا.

وهذا الكتاب يشرح سر بقاء ميلوسيفيتش بإظهار عوامل قوته، فهو دعائى ماهر وكاذب، لا يمكن أن تكتشف كذبه بسهولة، ثم إنه مناور حاذق. وقد تعلم فى بداية حياته العملية من خلال دراسته فى كلية الحقوق وتدرجه فى وظائف بالحزب الشيوعى، كيف يلعب دور الليبرالى والماركسى فى آن، وأن يكون صديقًا للذين فى قمة السلطة أو الذين من المتوقع أن يصلوا إليها. وتعلم أيضا أن يخفى نواياه الحقيقية، وأن يقطع اتصالاته مع زملائه عندما يتجاوزهم فى السلطة، وقد عاملهم بوحشية. وكان الضحية الأكبر لأفعاله زميله رئيس الوزراء اليوجوسلافى إيفان بوليتش.

ويتحدث مؤلف الكتاب مع أولئك الذين عرفوا ميلوسيفيتش ووقعوا ضحايا له، ويتضح من المقابلات أن ميلوسيفيتش لم تتطابق أهدافه مع أهداف الوطنيين المتشددين الصرب الراغبين فى قيام صربيا الكبرى، إلا بعد أن فشل فى السير على هدى زعيم يوجوسلافيا الراحل جوزيف بروز تيتو. ولذلك فإنه انحاز إلى هؤلاء المتشددين لحماية نظام حكمه، ومن هنا، بدأت الحملات الصربية ضد المسلمين والكروات وغيرهم.

ولا يخفى المؤلفان على الإطلاق، مدى احتقارهما لميلوسيفيتش، ويقولان: إن أى دراسة لسلوك ميلوسيفيتش تؤكد أن الرجل لا يعرف سوى الخدم والأعداء، وليس هناك شركاء له فى الحكم. ويعطى الكتاب تفاصيل عن علاقة ميلوسيفيتش بزوجته ميرا منذ أن كانا شابين جمعهما الطموح والشيوعية، وهما محبان لبعضهما البعض، ويعتمد كل منهما بشكل عميق على الآخر.

ويتطرق الكتاب أيضا إلى النفسية الصربية، ولماذا تلقى فكرة صربيا الكبرى دعمًا بين الصربيين. ويخلص المؤلفان إلى أن ميلوسيفيتش سيبقى فى السلطة لبعض الوقت، لأن الزمام لم يفلت منه ولو بنسبة ضئيلة.

□□□

عـــروض موجـــزة



The Earth Shall Weep: A History of Native America
(الأرض ستبكى:
تاريخ أمريكا الأصلية)
James Wilson
Picador, 1999, 466pp., £10.00

■ بينماطرأت على حياة الأمريكيين والأوروبيين خلال السنوات العشر الأخيرة تغيرات شديدة أثرت على نمط الحياة بشكل كبير والذى تحول إلى استهلاكى فى معظمه بصورة غير مسبوقة، فإن حياة السكان الأصليين، خاصة فى الولايات المتحدة ظلت قليلة التغير، بل وغير معروفة على نطاق كبير لدى الأمريكيين أو الأوروبيين.

وخلال السنوات الثلاثين الماضية، نشط بعض الهنود الحمر (السكان الأصليون فى الولايات المتحدة)، فى جمعيات للحقوق المدنية، بهدف الحصول على حق تقرير المصير وتغير العلاقة بين قبائل الهنود وبقية المجتمع الأمريكى.

ومؤلف الكتاب، وهو أحد البارزين فى الحملة الدولية لصالح منح السكان الأصليين فى مناطق العالم المختلفة حقوقهم، وضع لنفسه خطة طموحة هى سرد تاريخ سكان أمريكا الشمالية الأصليين عبر ٥٠٠ عام مضت. ويستعين جيمس ويلسون فى كتابه بمعلومات ووثائق تاريخية وأثرية وأنثربولوجية، مع معرفة عميقة بالتقاليد الشفهية الخاصة بالهنود الحمر. وقد أجرى مقابلات مع بعض السكان تتناول فيها حياتهم ومدى التغير الذى حدث لهم مع اصطدامهم بالحضارة الغربية.

ويعود بنا المؤلف للتاريخ، وكيف التقى السكان الأصليون مع الغزاة البيض، وتعامل هؤلاء الغزاة معهم من خلال العمل على القضاء عليهم، أو جعلهم يعيشون فى مناطق معزولة لا قيمة لهم بعد أن كانوا أصحاب الأرض.

ويمثل الكتاب محاولة للدفاع عن السكان الأصليين وصرخة تطالب بإعطائهم الحق فى حياة كريمة حرة واحترام تقاليدهم وعاداتهم.

□□□

Regulating International Business: Beyond Liberalization
(تنظيم البيزنس
الدولى: ما وراء
التحرر الاقتصادى)
Solpic ciotto
And Ruth Mayen (Editors)
Macmillan / Oxfam, 1999, 277pp., £50.00

■ بعد كثير من الجدل، تخلت منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى (OCED) نهائيا عن اقتراحاتها بشأن اتفاقية دولية متعددة الأطراف حول الاستثمار. وكانت الاقتراحات لهذه الاتفاقيات تمثل محاولة من جانب دول العالم المتقدم التى تمثلها المنظمة التحرير والتخلص من العوائق أمام ممارسات الاستثمار فى عالم يرحب بالأسواق المفتوحة، دليلاً على مدى التأثير الذى تلعبه منظمات اقتصادية غير حكومية كانت تعارض الاقتراحات وكذلك دليلاً على الصعوبات التى تحيط بتنظيم الاقتصاد العالمى.

وهذا الكتاب الذى شارك فيه خبراء عديدون يتضمن هجومًا شديدًا على فكرة أن من الضرورى كبح قدرة الحكومات الوطنية على السيطرة على الاستثمارات الأجنبية فى أراضيها.

كما يتضمن الكتاب حلولاً مبتكرة لبعض المشكلات المتولدة عن العولمة، ومن أهمها كيفية استقرار التدفقات الرأسمالية إلى الدول النامية. كما أن هناك دراسات حول طرق تحسين استغلال الاستثمارات فى العالم.

لكن الكتاب لا يتناول تقريبًا سبل مواجهة مشكلات الفقر المتولدة عن فتح الأسواق أو التمايز الاجتماعى بين الطبقات حتى فى الغرب. ورغم أن المؤلفين يشكلون فى مجملهم جبهة تدعو لقيام هيئة دولية لتنظيم أوسع للاستثمارات، إلا أن هناك فى الوقت نفسه عدم اهتمام بالخسارة التى ستعانيها الدولة فى سيادتها من جراء تدفق الاستثمارات الأجنبية دون رقيب.

□□□

Loyalists
(الموالون فى
أيرلندا الشمالية)
Peter Taylor
Bloomsbury,
1999, £7.99

■ فى وقت تواجه عملية السلام فى أيرلندا الشمالية أزمة عنيفة قد تقوض ما تم تحقيقه خلال الأعوام القليلة الماضية، يقدم بيتر تايلور الصحفى البريطانى مؤلفه الجديد عن الموالين للحكم البريطانى فى أيرلندا الشمالية، وهم البروتستانت الذين يشكلون الغالبية فى الإقليم ويريدون البقاء ضمن المملكة المتحدة، ولذلك يطلق عليهم أيضا الاتحاديون. لكن كلمة «الموالين» يقصد بها المؤلف جماعات العنف التى شكلها الاتحاديون لمواجهة الجماعة المسلحة على الجانب الآخر، أى الكاثوليك «الأقلية»، الذين يريدون الاندماج مع أيرلندا فى جمهورية واحدة.

وقد وضع تايلور قبل عدة سنوات مؤلفًا عن الجيش الجمهورى الأيرلندى، والذى يعرف بالمؤقت، والذى يناضل من أجل وحدة شطرى أيرلندا. ويؤكد المؤلف أن أسماء الجماعات المسلحة تختلف، لكن النظرة القبلية واحدة، والهدف واحد هو إجبار الطرف الآخر بالقوة على القبول بسيطرة خصمه.

وكان تايلور وهو صحفى تليفزيونى، قد أذاع حلقات عديدة فى تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية عن الجيش الجمهورى الأيرلندى جذبت اهتمامًا واسع النطاق قبل أن يحولها إلى كتاب.

□□□

كتـــاب الـزاويـة

حديث عيسى بن هشام
محمد المويلحى

(٦)
العمدة فى الأهرام

قال عيسى بن هشام: ولما وقفت بنا الركاب فى ساحة الأهرام، وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام، قبالة ذلك العلم الذى يطاول الروابى والأعلام، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام، والبنية التى تشرف على رضوى وشمام، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام، وتطوى تحت ظلالها أقواما بعد أقوام، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام، خلقت ثياب الدهر وهى لاتزال فى ثوبها القشيب وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب، مابرحت ثابتة تناطح مواقع النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم، وتحدث حديث المشاهدة والعيان، ماتعاقب الفتيان وتناوب الملوان، عن قدرة هذا الإنسان، فى بدائع الصنع والإتقان، وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل، فى إقامة هذا الأثر الجليل، وكيف جاز لهذا الفانى البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد، وجل صنع القدير الخالق فى تصوير هذا الحيوان الناطق، حيث جعله مصدرا للأعمال المتناقضة، والأفعال المتغايرة المتعارضة، فبينما تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها، ويبحث بفكره فى رسومها ومعالمها، ويسير أقمارها وكواكبها، إذ نراه يعثر عثرة برجله، فيكون فيها منتهى أجله، أو يكبو فى طريقه، فيغص بريقه، ويهوى بإذن الله إلى مكامن الخلد، وهو طامع فى شجرة الخلد، فهو ذاك الذى كبر وصغر، وعظم وحقر، وعز وذل، وكثر وقل، وصعد وهبط، وعلا وسقط، وصلح وفسد، وعرف وجحد، وسعد وشقى، وفنى وبقى، وسبحان القاهر فوق عباده.

ومما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين فى شأنه: أن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى: «إنى ابتنيت هذا البناء فى ثلاثين عاما، فإن جاء بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه فى ثلاثمائة عام»!

قـــــراءات جـــــديدة

اجتمـــاع

سوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية وأزمة علم الاجتماع المعاصر

شادية علي قناوي

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩

تتحدث الدراسة عن نشأة علم الاجتماع عند الغرب، وترجع المؤلفة سببه للحياة العصيبة التي عاشها الأوروبيون، وتضيف الكاتبة شرحًا للمزاوجة التي عقدها وايرك فروم بين الفرويدية والماركسية.

■■■

رعب اسمه الاغتصاب

عزت السعدني

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

دراسة جادة وتحقيقات ميدانية من واقع حوادث حقيقية عن واحدة من أهم الظواهر التي أرّقت المجتمع المصري في الفترة الأخيرة، والتي تتداخل في صنعها عوامل عدة، لتفضي في النهاية إلى هذا الرعب الذي اسمه الاغتصاب.

■■■

Fast Food: Roadside Restaurants in the Automobile Age

(الأطعمة السريعة: مطاعم الطرق السريعة في عصر السيارات)

John A. Jakle and Keith A. Sculle

Johns Hopkins University Press, 1999, 394pp.

يستعرض المؤلفان تاريخ ظهور مطاعم الأطعمة السريعة التي تقام على جانبي الطرق السريعة لخدمة قائدي السيارات، فيبينان كيف أن هذه المطاعم عكست التوتر السائد بسبب التنوع العرقي في المجتمع الأمريكي، ثم كيف أدت بعد ذلك إلى تجانس وانسجام الذوق القومي الموحد، كذلك تجسد تلك المطاعم قيم المجتمع الأمريكي التنافسي الذي يقدس الوقت وتنتشر فيه ملكية السيارات أكثر من أي مجتمع آخر.

■■■

The Imaginary Time Bomb: Why an Ageing Population is not a Social Problem

(القنبلة الزمنية الوهمية: لماذا لا يعد ازدياد نسبة كبار السن من السكان مشكلة اجتماعية)

Phil Mullan

IB Tauris, 1999, 239pp., £24.50

يثبت المؤلف في كتابه، أن الرعب والتشاؤم المسيطر على البعض في أوروبا والولايات المتحدة بسبب زيادة نسبة السكان كبار السن ليس له أساس. فما ينبغي أن يثير الانتباه دائما هو نسبة الإعالة وإنتاجية الفرد، وليست الأعداد المطلقة. فمن الممكن أن تكون تكلفة من هم أقل من سن ١٦ عاما أكبر بالنسبة للدولة ممن هم فوق سن ٦٥ عامًا.

■■■

Shopping For Pleasure: Women in the Making of London's West End

(التسوق من أجل المتعة: النساء ونشأة الأحياء التجارية في لندن)

Erika Diane Rappaport

Princeton, 1999, 323pp.

تربط المؤلفة ظاهرة نمو المحال التجارية الكبيرة في الربع الأخير من القرن الماضي في لندن، ببداية حصول المرأة على استقلالها وحريتها. حيث أصبح للمرأة أخيرًا مكان تستطيع فيه أن تتواجد بمفردها.

إدارة

الإدارة المعاصرة

عبد الحكم أحمد الخزامي

القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٩٩

تقدم هذه المجموعة، والتي سبق أن صدر منها خمسة كتب، خطابا يساعد في مواكبة تطور العصر، فتتحدث عن عالم الإدارة اليوم في جميع جوانبها، حيث تقيم الأداء وسبل تحسينه، وأحدث الوسائل المستخدمة في الإدارة.

■■■

Alliance Competence: Maximizing the Value of Your Partnerships

(كفاءة التحالف: تعظيم قيمة مشاركاتك)

Robert E. Spekman, Thomas C. Mac Avoy

Wiley, John & Sons, 1999, 256pp., $29.95

يقوم الكتاب على نتائج أبحاث وخبرات أساتذة معهد «داردن» المتخصصين في مجال التحالفات الاستراتيجية في إدارة الأعمال. ويوضح الكتاب أن النجاح في الاستثمار العالمي سوف يرتبط بالقدرة على إنشاء التحالفات والاتحادات الناجحة. ويتخذ المؤلفون من تجارب تحالفات فولفو - رينو، وآي بي إم - مايكروسوفت، وشل - إيطاليا نماذج للدراسة والتحليل.

أدب رحــلات

مزايا الذات الأخرى

صبري حافظ

القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٩

يعتبر الكتاب من فن أدب الرحلات، حيث يتناول رحلة الكاتب إلى جنوب أفريقيا، ليس فقط للمكان بل أيضا إلى الذات الأفريقية، التي حصلت مؤخرا على استقلالها على يد مانديلا، حيث يشبه الصراع هناك بصراع فلسطين مع الصهاينة، وكيف يزور البعض التاريخ الأفريقي كما يفعل الصهاينة مع تاريخ فلسطين.

اقتصـــاد

Financing the American Dream: A Cultural History of Consumer Credit

(تمويل الحلم الأمريكي: التاريخ الثقافي للائتمان الاستهلاكي)

Lendol Calder

Princeton University Press, 1999, 377pp.

يؤكد المؤلف أن شعار «اشترى الآن وادفع فيما بعد» كان وراء النجاح الكبير الذي شهده الاقتصاد الأمريكي. حيث إن نظم التقسيط هي سر حياة واتساع الطبقة المتوسطة في الولايات المتحدة، والمحرك الاقتصادي نحو تحقيق مستوى معيشي أفضل. كما أنها تدفع إلى زيادة الحاجة إلى العمل، وبالتالي زيادة إنتاجية الفرد في المجتمع.

■■■

Frankfurt as a Financial Centre: From Medeival Trade Fair to European Banking Centre

(فرانكفورت: من مهرجان التجارة في القرون الوسطى إلى المركز المصرفي لأوروبا)

Carl - Ludwig Holtfrerich

Translated by J.A. Underwood

Munich: Beck, 367pp., DM 68

يتتبع المؤلف التطور التاريخي لوضع مدينة فرانكفورت كمركز مالي دولي. فيتحدث عن دور عائلة روتشايلد منذ قرنين، ثم دور سلطات الاحتلال الأمريكية في الأربعينيات من هذا القرن في تثبيت ذلك الوضع.

ويخلص إلى أنه مازال أمام فرانكفورت طريق طويل تسلكه قبل أن تلحق بمدينة لندن التي تسبقها في مسائل عديدة. ومع ذلك فهي تنافسها على أن تكون المركز المالي الدولي الرئيسي في أوروبا.

■■■

The Trade off Myth: Fact and Fiction About Jobs and The Environment

(خرافة المبادلة: الحقيقي والمختلق عن الوظائف والبيئة)

Dban S. Goodstein

Island Press, 1999, 195pp.

تؤكد المؤلفة عدم صحة الادعاء بأن تطبيق قواعد وإجراءات حماية البيئة سوف يؤدي إلى فقدان العديد من الوظائف في الاقتصاديات المحلية.

تاريـــــخ

المغالطات والافتراءات الصهيونية.. على تاريخ وحضارة مصر الفرعونية

عبد المنعم عبد الحليم

القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩

يتناول الكتاب الفضائح التاريخية والأخطاء التي بدأت إسرائيل في ترويجها في الفترة الأخيرة، وآراءهم في حضارتنا القديمة، ومحاولة نسب هذه الحضارة لهم ولأجدادهم.

■■■

تاريخ اليهود

أحمد عثمان

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

يبحث الكاتب في ثلاثة أجزاء عن تاريخ اليهود، من خلال كتبهم المقدسة، وما ورد عنهم في الحضارات الأخرى. ويحلل هذا التاريخ ودوره في الماضي والحاضر.

■■■

خان الخليلي

سيلفي دونوا وجان شارل ديبول وميشيل تونسيرير

القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار، ١٩٩٩

تتناول الدراسة التي تقع في مجلدين تاريخ خان الخليلي، مع استعراض لبعض الوثائق المهمة له، والتي توضح أهمية كل موقع به، وأهم السلع التي كانت تباع فيه، وما كان يمثله هذا الخان في العصر العثماني وتوضيح لمكانته التاريخية.

■■■

راية التمرد.. مساوئ بلانت

ترجمة: أحمد حسان

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩

دراسة لأهم حركات التحرر والثورات الشعبية في هذا القرن، ورؤية شاملة لجميع النواحي الثقافية التي ربطت الناس بالمجتمع وأطلعتهم على ذواتهم وحياتهم العقلية والخاصة.

■■■

مصر القديمة: دراسات في التاريخ والآثار

مختار السويفي

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

تتناول هذه الدراسة عرضا لتاريخ الآثار المصرية، وترسي القواعد الخاصة لدارسي هذا العلم، وهي محاولة من الكاتب لتطوير المناهج بتاريخ الآثار المصرية.

■■■

Al - Alamein Revisited: The Battle of Al - Alamein and its Historical Implications

(معركة العلمين ومضامينها التاريخية)

Edited by Jill Edwards

American University in Cairo Press, 2000, 72pp., L.E. 35

يشتمل على الدراسات التي قدمها مؤرخون وأساتذة من إيطاليا وبريطانيا وألمانيا في المؤتمر الذي عقد في الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٨، حول الرؤى التاريخية المتعددة في حملات شمال أفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية.

■■■

In The House of Muhammed Ali: A Family Album, 1805 - 1952

(في بيت محمد علي: ألبوم العائلة، ١٨٠٥-١٩٥٢)

Hassan Hassan

Introduction By Elizabeth and Robert Fernea

The American University in Cairo Press, 2000, 160pp., L.E. 75.00

المذكرات الشخصية لأحد أفراد عائلة محمد علي، حفيد الخديو إسماعيل الذي ولد عام ١٩٢٤، ويعيش إلى الآن في القاهرة.

■■■

قـــراءات جـــديـدة

الكتاب يشتمل على وصف للمنازل والحدائق والمتنزهات والقصور ومعالم من القاهرة اختفت الآن، وأحاديث عن عادات طبقة اجتماعية اندثرت. كما يحتوى الكتاب على رسومات وصور فوتوغرافية، معظمها لم ينشر من قبل، لمختلف أفراد العائلة المالكة من خالات وأبناء عم وزوجات.

تراجم وسير

هيكل.. أو الملف السرى للذاكرة العربية
رياض الصيداوى
القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩٩
يتناول الكتاب رحلة هيكل الصحافية والسياسية، حيث شارك هيكل فى صنع القرار مع عبد الناصر والسنوات الأولى للسادات، وبنى صرح الأهرام العملاق، وبعد ذلك تفرغه للكتابة والبحث فى التاريخ السياسى للوطن العربى.

■■■

سالف الأوان
منصور الحازمى
الرياض: مؤسسة اليمامة، ١٩٩٩
يضم الكتاب عدة مقالات حول شخصيات حديثة، ساهمت فى تعديل مسار التاريخ العربى سياسيا وثقافيا وفكريا.

■■■

عازب من الشرق
مصطفى كمال أحمد
أبو ظبى: المجتمع الثقافى، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الحياة العاطفية للكاتب فى جزء منه، حيث يعتبر الكاتب الحب نعمة الحياة، وينفى أن من حرم من نعمة الزواج فهو محروم من الحب، والجزء الآخر يتحدث فيه عن الأنثى بكل ما فيها من مشاعر وأحاسيس، مع عرض لأشهر العزاب فى تاريخ مصر.

■■■

أضواء بوهيمية
بايى أنكلان
ترجمة: ثريا سعد الدين
القاهرة: على نفقة المؤلفة، ١٩٩٩
تعتبر مسرحية أضواء بوهيمية من المسرح الإسبانى المعاصر، وتحكى حياة الإحباط والهزيمة التى عاشها الشاعر الإسبانى الراحل «ماكس استريا»، وتقدم دراسة عن الحياة السياسية والثقافية التى عاشها.

■■■

Chopin in Paris: The Life and Times of The Romantic Composer
(شوبان فى باريس: زمن وحياة المؤلف الموسيقى الرومانسى)
Tad Szulc
Da Capo, 2000, 448pp.
يبرز الكتاب التناقضات فى حياة وشخصية المؤلف الموسيقى شوبان. فقد كان بولنديا، شديد الوطنية، ومع ذلك ترك بلاده نهائيا عند بلوغه الحادية والعشرين.

وبالرغم من ضعفه البدنى والنفسى الذى اشتهر به، إلا أنه عرف بقصة حب دامت سبع سنوات مع الروائية الشهيرة جورج صاند.

ويركز المؤلف على السنوات الثمانى عشرة التى قضاها شوبان فى الدوائر الباريسية، والتى جمعته بمشاهير الأدب والفن فى ذلك العصر، مثل بلزاك وفكتور هوجو وديلاكروا.

رواية

اللعب بالديناميت
فؤاد حسين وعصام الصاوى
القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٩
مجموعة من قصص المخابرات، التى تتارجح بين البطولة والخيانة، بين العمل مع الوطن وضده.

■■■

بيوت وراء الأشجار
محمد البساطى
باريس: دار إكت سود
ليست هذه باكورة أعمال الكاتب التى تنشر بالفرنسية، بل ترجمت له عدة روايات نشرت بعدة لغات منها الإنجليزية والإيطالية، حيث تتناول الرواية أحد عوالم البساطى التى يخترقها ويقدمها مع كل عمل جديد.

■■■

طيور العنبر
إبراهيم عبد المجيد
القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٩
تحلق طيور إبراهيم عبد المجيد فى سماء الإسكندرية بعد حرب السويس، وتحمل الطيور أحلام الناس البسيطة بالحرية والدفء والجمال، ولا تدرى شيئا عما تحمله رياح التغيير لهذه المدينة وأحلامها.

■■■

غير المألوف
قاسم مسعد عليوة
القاهرة: دار المستقبل، ١٩٩٩
مجموعة قصصية تتداخل فيها خطوط الواقع وتتشابك مع الأحلام، لرسم المستقبل. ويشارك الخيال والواقع معا فى رسم هذه الصورة.

■■■

Brief Interviews With Hideous Men
(مقابلات قصيرة مع رجال أشرار)
David Foster Miller
Abacus, 1999, 320pp.
المجموعة القصصية الأخيرة للروائى الذى يمثل جيلا من الأمريكيين ولدوا فى الستينيات. يتميز أسلوبه بالألعاب اللفظية المعقدة المستمدة من مفاهيم وأفكار ما بعد الحداثة. وفى هذا العمل، يرسم ميللر اسكتشات لشخصيات متعددة بغرض تحليل السلوك الإنسانى والدوافع الحقيرة التى تحركها.

رياضة

الرياضة فى حياتنا
صلاح الدين العباسى
القاهرة: دار غريب، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الدور الذى تلعبه الرياضة فى حياتنا، من حيث نشر الصحة والنظام، وكذلك نشر عادات غذائية سليمة تقينا من الأمراض والشيخوخة المبكرة.

■■■

Winning Women in Soccer
(نساء فائزات فى كرة القدم)
Marlene Targ Brill
Barron's Educational Series, 1999, 90pp.
كتاب موجه للفتيات الصغيرات، يشجعهن على ممارسة الرياضة كوسيلة للمتعة، وأيضا لتنمية القدرة على الإنجاز والاعتياد على تحقيق النجاح الذى ينعكس فى أوجه الحياة الأخرى. وذلك من خلال تناول تاريخ كرة القدم النسائية وقواعدها، وتسليط الضوء على قصص بطولة ٤ من نجمات اللعبة حاليا فى الولايات المتحدة.

سياسة

أساسيات أسلحة الدمار الشامل
نشمى الرويلى
الكويت: على نفقة المؤلف، ١٩٩٩
يتحدث الكاتب عن أخطر الأسلحة التى تواجه الجنس البشرى، وهى الأسلحة النووية، حيث يتناول اكتشافها وتركيبها وآثارها المدمرة.

■■■

العولمة
ناهد طلاس العجة
دمشق: دار طلاس، ١٩٩٩
تحاول الكاتبة الوصول إلى الجذور التاريخية لموضوع العولمة، وتسعى للربط بينها وبين التغيير الثقافى الحاصل، والتغيير الصناعى والعلمى على الصعيد العالمى والمحلى.

■■■

الفجر الكاذب
جون جراى
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يتناول الكتاب كابوس تطبيق الرأسمالية الأمريكية على العالم بأسره، حيث المخاطر الرهيبة التى تنجم عن هذا النظام، والتى لا تقل خطرا عن النظام الشيوعى الروسى.

■■■

المواطنية فى لبنان بين الرجل والمرأة
نجلاء حمادة وآخرون
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠
دراسة تتعرض لقضايا المرأة اللبنانية داخل مجتمعاتها، والمواقف المتباينة والحقوق المتفاوتة بينها وبين الرجل.

■■■

تحولات الهوية.. والعلاقات العربية التركية
صلاح سالم
القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٩
يتناول الكتاب الصراع الحضارى والثقافى القائم فى تركيا، بين المجموعات الأتاتوركية والمجموعات الإسلامية، وتأثير هذا الصراع على الحضارة التركية، وكذلك علاقاتها بالدول العربية وإسرائيل.

■■■

Taliban: Islam, Oil and The New Great Game in Central Asia
(طالبان: الإسلام والبترول واللعبة الكبيرة الجديدة فى وسط آسيا)
Ahmed Rashid
IB Tauris, 274pp., £12.95
يرى أحمد رشيد الذى قام بتغطية الأحداث الأفغانية وأحداث وسط آسيا لمدة عشرين عاما، أن أفغانستان قد دمرت تماما بسبب الحروب والتعصب وتجارة المخدرات، وتنافس القوى الدولية.

وهو يعتقد أن السلام لابد من فرضه من الخارج، وبالتحديد من الولايات المتحدة التى طالما ساندت حركة الطالبان وجندت المجاهدين من قبل لأسباب عديدة يفصلها فى الكتاب.

والسلام كما يقول سوف يخدم الجميع فتتمكن كل من باكستان وإيران من استعادة قوتهما الاقتصادية والتجارية. كما سيفرض على روسيا أن تتبنى علاقات متعقلة مع جيرانها. ويمكن للولايات المتحدة الحصول على بترول قزوين فى بيئة أكثر استقرارًا.

شعر

الحب وحده لا يكفى
أحمد فريد
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩
يؤكد الشاعر فى الديوان أن الحب عطاء، منحة للمحبين للحفاظ على السعادة ونقاء المشاعر بين المتحابين، وقصائد أخرى تتحدث عن المشاعر الحالمة والواقع الجميل.

■■■

إلا حبيبى
هدى ميقاتى
القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩
تخاطب الشاعرة فى ديوانها الثالث المشاعر، وتناقش القضايا العاطفية عند المرأة برومانسية واضحة.

■■■

القصيدة أنثى والأنثى قصيدة
سعاد الصباح
الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٩
ديوان شعرى جديد للشاعرة، يداعب العواطف الرقيقة والإحساس الناعم الصادق.

■■■

قــــــراءات جــــــديـدة

جناحان إلى الجوزاء

أحمد سويلم

القاهرة: دار قباء، ١٩٩٩

يبحر الديوان في الخيال، رافعا شعار الحلم والشعور الجميل والإحساس المتناغم بين الحلم والواقع.

■■■

شجر الكلام

محمد إبراهيم أبو سنة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

ديوان جديد لواحد من أهم شعراء الستينيات، ممن لعبوا دورًا بارزًا في الشعر العربي المعاصر. يضم الديوان نحو ١٥ قصيدة أكثرها من النوع العاطفي، وإن تداخل فيها جميعًا الذاتي بالعام.

■■■

في كفي عصفورة زرقاء

ثريا البقصمي

الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٩

تخاطب الشاعرة في ديوانها الجديد، مشاعر الغربة والسفر والمطارات، وبرودة مشاعر البعد والحنين للأوطان.

■■■

كرحـــم غـابـة

خالد أبو بكر

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩

الديوان الأول للشاعر، يفيض بالمشاعر الإنسانية، ويختلط فيه الهم الذاتي بالهم العام وقضايا الذات بالقضايا الإنسانية.

■■■

لا تدعني أرتحل

حنان عبد القادر

القاهرة: المؤلفة نفسها، ١٩٩٩

ديوان حافل بالوجدانيات والمشاعر الرومانسية الفضفاضة، عودة إلى القصائد الحافلة بالشجن والذاتية.

طـب وعـلـم نفـس

The Rise and Fall of Modern Medicine

(صعود وانهيار الطب الحديث)

James Le Fanu

Little Brown, 1999, 490pp.

يقول الطبيب والصحفي جايمز لوفانو، إن ثورة الطب الحديث التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، والاكتشافات التي تتوالى بمعدل جنوني جعلت صدمة الجديد تؤدي تدريجيا إلى غياب الوعي التاريخي بكيفية حدوث بعض الأمراض. الأمر المسبب لكثير من مشكلات الطب المعاصرة، وهو يحذر المؤلف من الاعتماد المبالغ فيه على التكنولوجيا الحديثة.

■■■

الوجيز في العلاج النفسي والسلوكي

محمد الحجار

بيروت: دار النفائس، ١٩٩٩

يتحدث الكاتب عن أهم الطرق الجديدة والوسائل الحديثة في العلاج النفسي، ويحاول ربط السلوك بالمرض النفسي. ويعرض لأهم النظريات التي تناولت هذا العلم.

■■■

Prisoners of Hate: The Cognitive Basis of Anger, Hostility, and Violence

(سجناء الكراهية: الأسس المعرفية للغضب والعدوانية والعنف)

Aaron T. Beck

New York: Harper Collins, 1999, 354pp.

يؤكد أستاذ علم النفس والمعروف بأبو العلاج النفسي المعرفي، من خلال ملاحظته للمرضى، أن هناك نمطًا معينًا من التفكير المرضي، هو الذي يجعل من المرء قادرًا على الضرب أو القتل أو الاغتصاب، وهو نفسه الذي يدفع جماعة ما إلى إبادة جماعة أخرى.

فالمانع الأخلاقي يتوارى كثيرًا حين يفكر الشخص أن من ينازعه مخطئ أوشرير أومصدر للخطر أو أدنى منه مرتبة، بينما يعتقد نفسه أفضل من الناحية الأخلاقية أو أكثر صوابا أو أكثر تفوقا.

■■■

When Bad Things Happen to Other People

(عندما تقع الأمور السيئة للآخرين)

John Portmann

Routledge, 1999, 256pp.

هل الشعور بالسعادة الذي يتأتى من إدراكنا لمعاناة الآخرين دائمًا ما يمثل نوعا من الحقد؟ أم أن هذه العاطفة تعكس احتراما لفكرة العدالة؟

يناقش المؤلف هذا الموضوع من خلال استعراض ما كتبه كانط ونيتشه وفرويد، وكذلك من خلال النماذج الأدبية لدى كافكا وديكنز وامبرتوايكو.

■■■

The Anatomy of Motive

(تشريح الدافع)

John Douglas and Mark Olshaker

Simon & Schuster, 320pp., £16.99

دخل التحليل السيكولوجي في مجال عمل تخصص المحققين والمخبرين في الولايات المتحدة الأمريكية. المؤلف يروي في كتابه خبرته في هذا المجال الحديث أثناء عمله موظفا في جهاز الـ إف بي آي الأمريكي.

ويحتوي الكتاب على المقابلات والتحقيقات التي أجراها المؤلف مع المجرمين، ومنهم الذين اشتهروا أخيرًا مثل قاتل فرساتشي وإرهابي أوكلاهوما. والهدف هو محاولة التعرف على بعض السمات الخاصة التي تجمع بين هؤلاء القتلة، والتي تسهل عملية الاشتباه والتعرف بدقة على المجرمين.

عـلـوم وفلــك

طعامنا المهندس وراثيا

ستيفن نوتنجهام

ترجمة: أحمد مستجير

القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٩

يتحدث عن قضية وصول الأغذية المحورة وراثيا إلى موائدنا، وتسويقها في أوروبا وموضوع استخدام الجينات في إنتاج محاصيل زراعية تحمل مواصفات خاصة، وموقف القانون من هذا كله.

■■■

عالم الفلك العام

ميرفت السيد عوض، مصطفى كمال محمود

القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩

يحتوي الكتاب على مدخل لعلم الفلك بأسلوب علمي، يحاول تبسيط المفاهيم الفلكية وتقديمها للقارئ، وتحتوي سطور الكتاب على معنى الوحدانية من خلال تناسق الكون.

■■■

Off the Planet: Surviving Five Perilious Months Aboard the Space Station Mir

(خارج كوكب الأرض: البقاء خمسة شهور محفوفة بالمخاطر على متن المحطة الفضائية مير)

Jerry M. Lineger

Mc Graw Hill, 2000, 256pp.

رائد الفضاء الأمريكي، يروي تفاصيل أكثر الرحلات الاستكشافية للفضاء خطورة منذ «أبوللو ١٣». فقد أمضى مع أفراد طاقمه ١٣٢ يومًا على متن محطة الفضاء الروسية المتهالكة وغير المستقرة «مير»، واجهوا خلالها كوارث وطوارئ هددت حياتهم أكثر من مرة من مشكلات الطاقة والوقود التي أقعدتهم في ظلمة حالكة، وفقدان التحكم أحيانا، إلى اشتعال النيران في المحطة.

■■■

The End of Time: The Next Revolution in Physics

(نهاية الزمن: الثورة القادمة في علم الطبيعة)

Julian B. Barbour

Oxford University Press, 1999, 362pp.

في نظرية جديدة، يحاول العالم جوليان باربور إثبات أن الزمن ليس له وجود في الواقع، وأنه ما هو إلا تغير، أي أن إدراكنا للزمن يأتي من إدراكنا للتغيرات التي تحدث من حولنا، فإذا لم يحدث شيء سوف يتوقف الزمن، ولكنه يشير إلى أن حل أكبر معضلة في العلم الحديث والمتمثلة في اتحاد نسبية أينشتاين العامة مع ميكانيكا الكم، سوف تؤدي إلى إلغاء دور الزمن نهائيا من أساسيات علم الطبيعة.

فكــــر

كيف صنعنا القرن العشرين

روجيه جارودي

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

صرخة إنذار وصرخة ألم لكل الأحياء، ولكل المهمومين بشئون البشر والناس، حيث يواجه المؤلف بشجاعة سطوة الاستعمار والإمبريالية الجديدة، التي تفرض أفكارها في كثير من الأحيان بسطوة القوة، وقوة السلاح.

■■■

إبراء الذمة

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

يناقش المؤلف في هذا الكتاب عددا من الظواهر التي أرقت الوطن والمجتمع المصري خلال العقود الثلاثة الماضية، يبدي فيها رأيه إبراءً لذمته كمثقف مهموم بقضايا وطنه، وهي قضايا تتوزع بين الأدب والفكر والسياسة والشئون العامة.

■■■

جمهورية الحب.. أوراق عن الفن والثقافة

عمرو عبد السميع

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩

تمتد هذه الجمهورية التي أنشأها الكاتب على صفحات كتابه، لتكون إمبراطورية من المثقفين والمبدعين الحالمين بدنيا الحب والإنسانية، ويتخلل هذه الجمهورية عرض لبعض أعمال أدبية وشخصيات أثرت في حياتنا وتركت بصمات واضحة.

■■■

The Myth of Global Chaos

(خرافة الفوضى العالمية)

Yahya Sadowski

Washington D.C.: Brookings Institution, 267pp.

يرفض الكاتب نظرية الفوضى العالمية، التي شاعت بين المفكرين والمحللين في السنوات الأخيرة. حيث دائما ما ينسب لظاهرة العولمة وعملية التحول الديمقراطي وزيادة الاستثمار الأجنبي، كل ما يشهده العالم من صراعات طائفية وعرقية عنيفة وصدام حضاري.

حيث يرى الكاتب أن الصدام الحضاري والحروب والصراعات الإنسانية موزعة على مدار التاريخ بشكل متساو، وأسبابها تكمن في عوامل إنسانية ثابتة لم تتغير منذ نشأة المجتمع.

فكــــر دينـــي

الأصول المصرية في اليهودية والمسيحية

أحمد عثمان

القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩

تحليل لتاريخ اليهودية والمسيحية على أرض مصر، ويلقي المؤلف الضوء على التأثير المتبادل بين الأديان على أرض الكنانة.

■■■

الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية

محمد عمارة

القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٩

يقع الكتاب في جزأين، الأول منهما يتحدث عن الحضارة الإسلامية، وتأثير علماء الكلام على هذه الحضارة، وتأثير بعض الجماعات الحديثة مثل التكفير والهجرة والجهاد. ويتناول الجزء الثاني شرحا لعدد من المصطلحات الإسلامية، ورأي الدين في الآخر الديني والآخر الحضاري والآخر القومي.

■■■

قـــــــراءات جـــــــديدة

التوراة والأناجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث
موريس بوكاي
القاهرة: مكتبة القرآن، ١٩٩٩
دراســـة لموقع العلم في كل الكتب والشرائع السماوية، من حيث عظمة مكانته وأهميته، وأن الله عز وجل حث على الاهتمام بالعلم، وكذلك تكريم العلماء في الكتب المقدسة.

■■■

إظهار الإسلام
روجيه دوباسكويه
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
دراسة مستفيضة عن الإسلام، بما يحمله من مبادئ، وأثر تطبيق هذه المبادئ في جميع النواحي، وما يمكن أن يؤدي إليه من تحسين ظروف الحياة.

■■■

داود وسليمان في العهد القديم والقرآن
إعداد: عادل المعلم
القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩
يتناول الكتاب قصة النبي داود والنبي سليمان في التوراة والقرآن، حيث تختلف الصورة في كل منهما. فاليهود يؤلهون النبي داود، فهو القوة العليا، أما القرآن فيقدم الصورة الحقيقية للنبيين.

■■■

قصة حياة البابا شنودة
عماد الدين أديب
القاهرة: دار أخبار اليوم، ١٩٩٩
يتناول الكتاب قضايا سياسية وفكرية، شغلت حياة البابا شنودة، من خلال قصة حياته، والمحطات التي استوقفته على الصعيد الثقافي والسياسي، ورأيه في الدور الذي تلعبه الكنيسة حاليا.

■■■

About Religion: Economies of Faith in Virtual Culture (Religion and Post-modernism)
(اقتصاديات الإيمان في ظل الثقافة المادية «الدين وما بعد الحداثة»)
Mark C. Taylor
The University of Chicago Press, 1999, 288pp.
يرى المؤلف أن الدين أكثر مدعاة للاهتمام والدراسة في تلك الأماكن التي لا يظهر فيها بوضوح. هكذا يقوم في كتابه بتتبع أساليب ومظاهر الإيمان في الثقافة المادية المعاصرة، بين شبكات المال العالمية وكازينوهات لاس فيجاس وصور الكمبيوتر والنحت الحديث والأفلام السينمائية.

■■■

Sufism: The Essentials
(مبادئ الصوفية)
Mark J. Sedgwick
American University in Cairo Press, 2000, 96pp., L.E. 40
يتحدث المؤلف عن حياة وعبادات الصوفيين في كل من الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وأوروبا. ويفسر لماذا لا تقتصر الصوفية على العالم الإسلامي، وإنما تمتد أيضا إلى الغرب. كذلك يناقش لماذا أصبحت الصوفية من أكثر وجوه الحياة الإسلامية المعاصرة إثارة للجدل. ويبين الأهمية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي دائمًا ما ارتبطت بوجودها.

فنـــــون

تاريخ وأعمال أعلام الخط العربي
أحمد صبري زايد
القاهرة: دار ابن سينا، ١٩٩٩
يتناول الكتاب أعمال بعض الخطاطين في الوطن العربي، مثل محمد إبراهيم محمود، محمد حسني ومحمد علي المقادي، وتاريخهم في عالم الخط العربي وأهم لوحاتهم.

■■■

Critical Moves: Dance Studies in Theory and Politics
(حركات خطرة: دراسات الرقص في النظرية والسياسة)
Randy Martin
Durham: Dake University Press, 296pp.
استكشاف للعلاقة بين الرقص والسياسة. يتناول المؤلف ألوانا مختلفة من الرقص، ولكنه لا يناقشها بقدر ما يركز على أساليب التحليل وتطورها إلى الآن. وهو يرى أن النقد الحديث في الرقص السائد الآن يتسم بالمحدودية والقصور.

■■■

Margo Veillon: Egyptian Harvest
(مارجو فيلون: حصاد مصري)
Edited With an Introduction by Charlotte Hug
American University in Cairo Press, 2000, 168pp., L.E.120
ولدت الفنانة التشكيلية مارجو فيلون في القاهرة عام ١٩٠٧ ابنة لرجل أعمال سويسري وزوجته النمساوية. وقد فتنت مارجو بالريف المصري وعالم الفلاحين وألوان قراهم الزاهية، والحركة التي تدب فيها باستمرار. يضم الكتاب لوحاتها والصور الضوئية التي أخذتها من مشاهد الفلاحين والفلاحات في الحقول وفي القرى وفي أوقات العمل وأوقات الراحة...

■■■

Possessions: Indigenous Art / Colonial Culture
(مقتنيات: الفنون البلدية والثقافة الاستعمارية)
Nicholas Thomas
Thames and Hiudson, 304pp.
يناقش المؤلف نوعية الفنون التي ينتجها المستوطنون نتيجة لتأثرهم بفنون السكان الأصليين للبلاد التي يستوطنونها. فمن خلال مشاهداته في أستراليا ونيوزيلاندا، يحلل المضامين الثقافية والسياسية التي ترتبط بالفن، وكيف تنعكس هذه التفاعلات على نوعية وأصالة المنتجات الفنية للسكان الأصليين فيما بعد.

■■■

The Mystery of Samba: Popular Music and National Identity in Brazil
(لغز السامبا: الموسيقى الشعبية والهوية الوطنية في البرازيل)
Edited and Translated by John Charles Chasten
North Carolina University Press, 1999, 147pp.
يتتبع المؤلف تاريخ رقصة السامبا، وكيف أدخلت عليها إيقاعات وموسيقى أفريقية، وتقاليد وحركات أوروبية، ثم متى تحولت إلى الرقصة البرازيلية الوطنية الأولى.

نقـــد مســـرحي

الكلاسيكية في مسرح عصر النهضة والتراث المتجدد في مسرح شكسبير وراسين
أحمد عثمان
القاهرة: على نفقة المؤلف، ١٩٩٩
ينقسم الكتاب إلى قسمين: يتناول القسم الأول، أثر التراث في مسرح شكسبير، ويتحدث عن فنون التراجيديا في المسرح الإيطالي والمسرح الإسباني، وكذلك أثر النهضة في الكلاسيكية الألمانية. والقسم الثاني، يتناول دراسة نقدية حول هذه المذاهب المسرحية.

■■■

مسرح الشارع
مجموعة من الكتاب
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩
يحاول هذا الكتاب عرض المسرح على الجمهور في كل مكان، حتى في الأماكن العامة، ويتناول المهرجانات التي تقوم بهذا العمل، لتعرف الجمهور على أهم المذاهب المسرحية الجديدة.

■■■

The Public Mirror: Molière and the Social Commerce of Depiction
(المرآة العامة: موليير والتبادل الاجتماعي للصور الممثلة)
Larry F. Norman
Universiry of Chicago Press, 1999, 216pp.
من خلال قراءاته المتأنية في مسرحيات موليير، وتعرضه للتاريخ الاجتماعي الفرنسي في عصره، يبين المؤلف كيف وظف موليير مسرحه الساخر «كمرآة عامة» للجمهور. الصور الساخرة التي يرسمها لشخصياته والمستمدة من الجمهور، كانت تستفز وتتقابل مع الصور التي يرسمها أفراد الجمهور لأنفسهم ولغيرهم، في تفاعل ديناميكي حقق لمسرحه صفة التأثير.

متنوعـــــات

الخيل العربية في مذكرات السياح والرحالة
أسعد الفارس
الكويت: صندوق التكافل الاجتماعي، ١٩٩٩
دراسة لأهم ما نشر عن الخيول العربية، صفاتها وقوتها البدنية، وسر اهتمام الأجانب بها، ويحتوي الكتاب على صور لمجموعة من هذه الخيول.

■■■

زي الفل
أنيس منصور
القاهرة: نهضة مصر، ١٩٩٩
يتحدث الكاتب عن التساؤلات التي تطرح نفسها داخله، تساؤلات حزينة حول الفقر والغنى وفلسفة الحياة وأهمية الإنسان، علاقته بما حوله وما يحدد هذه العلاقة.

■■■

Classical Cats: The Rise and Fall of the Sacred Cat
(القطط الكلاسيكية: صعود وسقوط القطة المقدسة)
Donald Engels
Routledge, 1999, 227pp., £25.00
يتناول دور القطط ووضعها في الحضارتين اليونانية والرومانية القديمة، من خلال ما يظهر في الآثار الفنية والرسومات، ومن خلال حكايات ايسوب وأحاديث أرسطو.
كذلك يركز على أثر الحضارة المصرية القديمة التي سبقت الحضارتين المذكورتين والتي كان للقطط فيها وضع مقدس.

■■■

The Smoking Book
(كتاب التدخين)
Lesley Stern
University of Chicago Press, 1999, 208pp., $22.00
في أسلوب يمزج بين المقال النقدي والمذكرات الشخصية، تكتب المؤلفة عن علاقتها الرومانسية بالسيجارة، فهي تكتب بصراحة عن كل التفاصيل الدقيقة المرتبطة بإدمانها التدخين، بما في ذلك المتعة أيضا. والكتاب يضم محاولتها للإجابة عن سؤالين رئيسيين: ما شعور المرء حين يدخن؟ وما الذي يعنيه التدخين؟

نقـــد أدبـــي

نزار قباني.. الوجه الآخر
جهاد فاضل
بيروت: دار الانتشار العربي، ١٩٩٩
يتناول الكتاب السياسة في شعر نزار قباني، والقضايا الفكرية التي تبناها، وجهاده سواء في الغربة أو في وطنه من أجل شعبه وبلده.

■■■

سيكولوجيا القهر والإبداع
ماجد موريس
القاهرة: دار فارابي، ١٩٩٩
يشتمل الكتاب على دراسة تحليلية للعلاقة بين القهر والإبداع، ويحاول الإجابة عن بعض الأسئلة التي تتعلق بالعملية الإبداعية.

■■■



الـنــادبــون فــى المـآتم

أشكر لكم فى البداية صنيعكم بإصدار هذه المجلة الغراء، التى وقعت فى حبائل غرامها منذ الوهلة الأولى، وليسمح لى أستاذنا الكبير محمد حسنين هيكل أن أعقب على ملاحظته الأخيرة فى عدد يناير ٢٠٠٠، والتى جاءت تحت عنوان «خريطة العالم العربى اليوم ١ يناير ٢٠٠٠»، وهو تعقيب لايحمل معنى النقد بقدر ما يحمل معنى التأكيد لكل ما جاء فى ملاحظة الأستاذ الكبير من معانى التشاؤم والتفاؤل، والفرق الأول بينهما هو فى شكل التعبير، فقد استخدم الأستاذ فى تشخيصه لحالة العرب فى هذا التاريخ شكل التحليل السياسى ولكنى استخدمت شكل الكتابة الشعرية، ومن ثم فالفرق بيننا هو الفرق بين واقعية التحليل السياسى، ورمزية الكتابة الشعرية، وبين حيادية ألفاظ المحلل السياسى وحرارة التعبير الشعرى:

أيها الباكون على أمتنا
آناء الليل وأطراف النهار
أيها النادبون فى مآتمها
فى كل يوم بالعشى والإبكار
جسد الأمة على الخرائط يبكى
ودموعه صارت محيطات وبحار
يطلب الرفق فى الندب قليلا
قبل أن نغطيه بالتراب وبالغبار
نعم فى الشرق ضرب حصار
ومن الغرب مائة ألف حصار
نعم هناك ملايين الثكالى
فى الصحارى والفيافى والقفار
نعم جفت ضروع و ورود
وغيض الماء فى الآبار والأنهار
نعم نحن نمضى كل لحظة
من انكسار قاتل إلى انكسار
كل هذا أيها النادبون فى المآتم
ليس معناه موتا أو حتى احتضار
فسوف يأتى صدّيق جديد
وفاروق يعيد إلينا الانتصار
وصلاح الدين يوما سوف يأتى
ليرفع الأعلام ورايات الفخار
وإلى حطين أخرى سوف نمضى
لنسحق عدوان المغول والتتار
وطارق بن زياد سوف يبحر
لينشر فى الأرض آيات العمار
وسوف يضاء فى التاريخ نور
ونشعل فى الهزيمة ألف نار

د. أمين سعيد عبدالغنى
جامعة المنصورة



أرض الميعاد هى «أرض الميعاد» .. للفلسطينيين

«أرض الميعاد ليست (أرض الميعاد)»، هو عنوان مقال زياد مونا المنشور فى العدد الحادى عشر، ديسمبر ١٩٩٩، والذى يعرض فيه بشكل مطول كتابات كمال الصليبى وبالأخص كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، الذى ينفى فيه علاقة إسرائيل القديمة بأرض فلسطين.

وكذلك يتطرق زياد مونا إلى ماجاء فى كتاب صدر حديثا لهاورد بلوم «ذهب الخروج: اكتشاف جبل سيناء الحقيقى» الذى يضع الأحداث الموصوفة فى سفر الخروج، الإصحاحات ١٢-١٩ فى منطقة تبوك فى شمال الجزيرة العربية.

وليس الغرض من هذا التعليق رفض أو قبول أى من الأطروحات السابقة، ولانقد مقال زياد مونا، الذى يبدو أنه يستسيغ أفكار كمال الصليبى ومنهجه بشكل عام، وبالأخص افتراضه «صحة التاريخ وخطأ الجغرافيا» بالنسبة للكتاب المقدس.

وكذلك ليس الغرض التدليل على تقصيرنا فى مجال دراسات العهدين القديم والجديد وغيرها من حقول الشرق الأدنى القديم، فذلك لاخلاف عليه، لكن ما يستدعى التعليق هو الانجراف مع تيار يعطى أهمية زائدة لأطروحات كمال الصليبى، فها هو زياد مونا يكتب أن منحى الأخير يساعد على بروز أبحاث جادة فى التاريخ القديم للمشرق العربى، وأن أطروحات الصليبى «قدمت لمن يرغب من الباحثين العرب فى تاريخ المشرق العربى أدوات علمية هامة وأوضحت أن هناك الكثير فى ذلك التاريخ مما يستوجب المراجعة والتصحيح».

وفى مكان آخر يربط زياد مونا أطروحة الصليبى (فى كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب») بمجموعة من الأبحاث الإنجيلية التى ترفض الآراء التقليدية السائدة حول تاريخ إسرائيل القديمة (ابتداء من تومبسون وانتهاء بويتلام)، وكأنها جاءت نتيجة لها. إلا أن الأمر لايقتصر على زياد مونا، فهناك شريحة كبيرة من المثقفين العرب تأخذ آراء الصليبى بجدية، ولهذا يستحق الأمر إيضاح بعض النقاط التى لم تطرح، على ما أعتقد حتى الآن، ضمن النقاش الدائر.

بصرف النظر عن تاريخية بعض أجزاء العهد القديم (التوراة) وفترة تأليفها أو تشكيلها، فهو مرتبط بفلسطين سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. ولو كان الحديث عن مكان آخر غير فلسطين لما اكترث أحد بخيال كمال الصليبى، وليس هذا فحسب، فإنما التراث الذى يعبر عنه الكتاب المقدس مرتبط أيضا بالفلسطينيين، السكان الفعليين، أصحاب الأرض إياها.

ومهما كان تعريف فلسطين جغرافيا، أى إذا كان المقصود بها خارطة الانتداب البريطانى، أو بقعة أصغر أو أكبر حسب الفترة الزمنية، فإن مجموعة السكان الذين كانوا يسكنون فلسطين، هم أولئك الذين كانوا على أرضها، وما زالوا، منذ آلاف السنين ولم يتركوها.

لقد كانت هناك هجرات جماعية من وإلى فلسطين بكثافات متفاوتة، لأسباب بيئية أكثر منها سياسية، إلا أن هذه الهجرات حتما لم تحصل بشكل مفاجئ فى أى وقت من الأوقات، الاستثناء الوحيد حصل فى منتصف القرن العشرين حين أجبر السكان على هجرة مفاجئة جماعية! ولنوضح الأمر أكثر بمثال لتهجير قديم يفهم عادة بأنه جماعى، بما فى هذا الأمر من تبسيط يصل إلى حد المعلومة الخاطئة، أقصد هنا السبى البابلى عام ٥٨٦ق.م، الذى لم يصب كافة سكان يهوذا وإنما فئة مميزة من المجتمع، هى بشكل رئيسى من المدن، وخاصة القدس العاصمة، وفى أول القائمة الملك وحاشيته، كما هو واضح من المصادر التى تغطى الحدث، التى لاتقتصر على العهد القديم، والفلاحون وهم القوة المنتجة الرئيسية فى فلسطين، لم يتركوا فلسطين ولم يجبرهم الغزاة على تركها، وهذا ينطبق على السبى الآشورى فى القرن الثامن ق.م، أو ماحصل نتيجة لتدمير القدس عام ٧٠م.

وكذلك الأمر بالنسبة للاختلاط الذى بالتأكيد، حصل فى فلسطين وقسط كبير منه كان نتيجة للعلاقة الجدلية بين الرعاة والفلاحين التى تمتد لمئات السنين، كتغلغل العرب فى بلاد الشام، ومن بينها فلسطين، وهومالم يحصل بالتأكيد مع انتشار الإسلام فقط.

وبمعنى آخر، فإن سكان فلسطين حافظوا على تجانسهم عبر العصور وبالأخص فى المناطق الجبلية الداخلية البعيدة عن الساحل أو الطرق التجارية، وهذه هى المنطقة التى تشكلت فيها إسرائيل القديمة، وبالرغم أو مع وجود اختلاط، فإن هناك وحدة حضارية تتغير عناصرها بلاشك مع العصور، ولكنها تبقى ثابتة وأساسها هو مجموعة أصلية من السكان تبقى على الأرض، وسيلة الإنتاج الأولى، وهذه الوحدة الحضارية تتمثل فى الحضارة المادية والسلوك الإنسانى المرتبط بإنتاج تلك الحضارة، كالبيوت وأساليب الزراعة والأدوات المنزلية والمهن بشكل عام. وهذه الوحدة الحضارية تتوارث عبر الأجيال فيما نسميه بالتواصل الحضارى، الذى ينعكس ليس فى الحضارة المادية فحسب، بل أيضا فى العادات والتقاليد الشعبية وفكريا فى الفولكلور. وهو أمر أدركه دارسو الكتاب المقدس الأوائل وأولوه أهمية كبرى أى الدراسات الإثنوجرافية لفلسطين لغرض فهم الكتاب المقدس بجزأيه، القديم والجديد.

من الضرورى الآن الاستدراك أن الربط بين الكتاب المقدس والفلسطينيين اليوم يقوم به من لاعلاقة له مباشرة بفلسطين وغير متأصل فيها، وهو لايلغى التاريخ الفلسطينى، وإنما يغيره لحساب غير الفلسطينيين، إلا أن من يقوم بدراسة (أو تفسير) ظاهرة ما، يستطيع بكل ارتياح ادعاء الحق بهذه الظاهرة، وخاصة إذا دمج التقييم ضمن تراثه الخاص به، وهذا ما فعله ويفعله الغرب وما تفعله إسرائيل. والنتيجة لهذا الربط، وغيره من أسس البحث العلمى، هو تصور تاريخى متكامل لاوجود للفلسطينيين فيه يؤخذ كإطار فكرى للتطبيقات السياسية الاستعمارية، وهذا هو التناقض المأساوى فى الموضوع.

وأعود إلى نقطة البداية، أى فيما إذا كان فى كتابات كمال الصليبى ما يمكن أن يساعد العرب أو الفلسطينيين فى مراجعة أو تصحيح تاريخهم كما وصلنا من الغرب (أو من إسرائيل). إلا أن المسألة ليست فى تصحيح ما يكتبه الغرب أو إسرائيل، لسبب بسيط هو أنه صحيح، وذلك لأنه يرتكز على أسس علمية سليمة من أهمها ربط التاريخ القديم والآثار بالفلسطينيين اليوم.

وليست أطروحات الصليبى التى تضع التوراة فى عسير هى ما نحتاج إليه لدى كتابة تاريخ فلسطين، ففى المحصلة النهائية يلتقى الصليبى مع الخطاب الغربى أو الإسرائيلى فى تحريف التاريخ الفلسطينى أو تاريخ الفلسطينيين، الذى يعود إلى آلاف السنين ويشمل إسرائيل القديمة أو مملكتى إسرائيل ويهوذا حتى تاريخ القضاء على الأخيرة عام ٥٨٦ق.م، ويشمل أيضا الفترة السابقة لظهور المسيحية وحتى انفصال اليهودية وتطورها كديانة فى بقاع مختلفة من الشرق أو أوروبا، أى يشمل أيضا تلك الفترة التى بدأت تتطور أثناءها بذور الديانة اليهودية. وهنا لابد من التوضيح أنه لايمكن منطقيا أن يكون هناك دين «يهودى» أو «يهود» فى تلك الفترة، أى قبل المسيح أو حتى قبل تثبيت المسيحية كالديانة الرسمية للدولة فى مطلع القرن الرابع الميلادى، والمسيح ليس «ملك اليهود» وإنما ملك اليهوذيين، أو سكان يهوذا كمقاطعة رومانية أو منطقة من مناطق فلسطين.

وهناك اتجاه آخر يشوه التاريخ الفلسطينى، ولكن هذه المرة من قبل الفلسطينيين أو العرب، يختزل هذا الرأى التاريخ الفلسطينى بالقفز، رجوعا فى الزمن، عن مملكتى يهوذا وإسرائيل ليربط الفلسطينيين بالكنعانيين الذين يفترض هذا الرأى أنهم من العرب.

ومن الواضح أن هذا النموذج هو إسقاط لحالة عجز أو قهر، فليس أفضل للتخلص من هاتين الكلمتين المزعجتين، أى يهوذا وإسرائيل، من حذفهما من التاريخ الفلسطينى والعودة إلى «كنعان» لأن وقع الاسم «أرق» على الأذن والنفس، وينسى أو يتناسى أصحاب هذا الرأى، أو لايدركون أن مفهوم «كنعان»، ماعدا بعض الإشارات هنا وهناك، هو توراتى طور بشكل أساسى من وجهة نظر الإسرائيليين

القدماء، وكذلك الأمر بالنسبة ليبوس، أو القدس قبل الألف الأول ق.م. التى لم تذكر خارج التوراة، وهذا ما يجعل وضعها أسوأ.

إننا لاننكر وجود تيارات فكرية تعود بذورها إلى المسيحية (العهد الجديد) وخلفيته (العهد القديم أو التوراة) أثرت على الفكر الأوروبى فى الفلسفة أو اللاهوت، ولكن هذا لايجعل تراث الكتاب المقدس بعهديه حكرا على الحضارة الأوروبية، وكأن عملية نقله عن طريق آباء الكنيسة الأول جعلته يختفى من فلسطين التى ظهر فيها أصلا، بينما المنطق يقتضى أن ينتقل جزء منه، إن لم يكن كله، وبالأخص ماله علاقة بالحضارة المادية والعادات والتقاليد، عبر الأجيال من سكان فلسطين ليتجسد بالفلسطينيين اليوم.

نعم، لقد سلبت أرض فلسطين من أصحابها وطردوا منها، وهو متعارف على تسميته بالنكبة التى حدثت عام ١٩٤٨، إلا أن النكبة الفعلية قد حصلت قبل هذا التاريخ بوقت طويل ومازالت تحصل، وتتمثل باستلاب تاريخ فلسطين من الفلسطينيين فى جزء هام منه وهو العهد القديم (إسرائيل القديمة) والعهد الجديد (أصول المسيحية)، والتحدى الكبير أمام الفلسطينيين والعرب ليس فى استرجاع الأرض وإنما فى استرجاع هذا التاريخ وغيره.

خالد الناشف
جامعة بير زيت



ملاحظات على هامش تجربة محمد سيد أحمد مع إسرائيل

قرأت فى عدد شهر فبراير ٢٠٠٠ من المجلة مقالة الكاتب الأستاذ محمد سيد أحمد الذى كتبه من وحى تجربته مع إسرائيل، وأود أن أسجل هنا تقديرى واحترامى لصراحته وأمانته، واستقامته الفكرية والأخلاقية، وحرصه على أن يعمل دائما من قلب الصف المصرى والعربى، وإعجابى بقدرته على رصد ما طرأ على معتقداته الفكرية وثوابته الوجدانية من تغيرات أو تحولات، بكل مايترتب على ذلك من نقد للذات واعتراف بالأخطاء وتخلص من الأوهام.

وأرجو أن يسمح لى كاتبنا الكبير بأن أعقب على مقاله بأن أطرح عليه بعض الأسئلة وبعض الملاحظات:

١ ـ ورد فى مقال سيادته فى أكثر من موضع ما يوحى بتعارض ما يصل أحيانا إلى حد التناقض بين الأيدلوجية والثورية وبين ما أسماه بالواقعية. حدث ذلك عند حديثه عن حل الحزب الشيوعى المصرى والتحاق أفراده بالاتحاد الاشتراكى، وعند تسجيله لحواره مع جيفارا واختلافهما حول طبيعة الحوافز الثورية وهل هى مادية أم معنوية، وعند وصفه لتحولاته الفكرية بعد هزيمة ١٩٦٧ وبعد غزو الاتحاد السوفيتى لبراج.

وفى ظنى أن الأيدلوجية والثورية معا لايمكن أن تتعارضا مع الواقعية لأنها فى حقيقة الأمر هى لب الواقعية فى إطارها الشامل والعميق. بشرط أن تكون نابعة من قراءة علمية للواقع المحلى والإقليمى فى امتداده التاريخى والجغرافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى والحضارى، ونابعة من رصد دقيق لمعطيات الحاضر.

من أين إذن ينبع التعارض أو التناقض بينهما؟ ينبع من استيراد أيدلوجية أو ثورية جاهزة، واتخاذ موسكو أو بكين كعبة نطوف حولها ونستمد الإلهام منها ونردد تحليلاتها وشعاراتها ومن ثم نقع فى التناقض بين مايطرحه الواقع وما تفهمه منه منابع الإلهام البعيدة ذات الرؤى والاجتهادات المتسقة مع مصالحها ومشروعاتها وطموحاتها.

٢ ـ يكتب الأستاذ محمد سيد أحمد فى مقاله عن هزيمة ١٩٦٧ أنها نالت من تماسك الأيدلوجية الناصرية، وسؤالى لسيادته : متى كانت لعبد الناصر أيدلوجية بالمعنى الفلسفى أو الفكرى أو النظرى؟ عبدالناصر نفسه أو أحد من حوارييه أو المؤمنين بزعامته لم يزعم ذلك.

٣ ـ يقول سيادته إنه عند تأليف كتابه بعد أن تسكت المدافع واتته فكرة إعادة ترتيب المتناقضات بين العرب وإسرائيل، لابهدف إلغاء المتناقضات فهذا مستحيل، ولكن بهدف تحويلها من تناقضات عدائية إلى تناقضات غير عدائية.

وأرجو أن يعذرنى كاتبنا الكبير لأنى أفهم معنى التناقض العدائى ولكنى لم أفهم معنى التناقضات غير العدائية (هل هو مثلا نوع من خصام المحبين؟) فيما يتعلق بالتناقضات العربية الإسرائيلية الأمر على صعيد الواقع والفكر معا بالغ البساطة والوضوح. ثمة عدو مسلح من قمة رأسه إلى قدميه ومزود بأسنان ذرية، عدو يحتل فلسطين والجولان وجنوب لبنان، ويمارس العدوان على جيرانه، ويسعى إلى الهيمنة على المنطقة، ويخطط لتحويلنا إلى أيد عاملة ورخيصة، وموردين للخامات وإلى سوق من المستهلكين. كيف السبيل إذن إلى تحويل التناقض معه إلى تناقض غير عدائى؟

٤ ـ يقول الأستاذ محمد أن الفرق بين عمل المثقف وجماعة كوبنهاجن هو الفرق بين عمل المثقف وعمل المفاوض، المثقف باحث عن الحقيقة ومسئول عن نفسه وقادر على نقد ذاته، بينما المفاوض ملتزم بموقف الدولة، محتم بالسيادة الوطنية قادر على ممارسة الخداع المشروع لنصرة القضية التى يتفاوض من أجلها. وسؤالى هو: من الذى أعطى لجماعة كوبنهاجن حق التفاوض باسمنا مع ممثلى إسرائيل؟ وإذا كان التفاوض عملا مقبولا من ممثلى الدولة فكيف يكون مقبولا من أفراد لايمثلون سوى أنفسهم؟ وهل المثقف الذى يسافر إلى إسرائيل ويتحاور مع أحزابها ويسعى لتأجيج تناقضاتها أو تدعيم الجماعات التى تبشر ـ على الهامش ـ بالسلام. هل المثقف الذى يقوم بهذا الدور لايزال مثقفا أم تحول إلى سياسى؟

وإذا سلمنا بأنه أصبح سياسيا فماهى مرجعيته؟ ألا ينبغى له العودة إلى قواعد حزبه لتقييم جدوى ما تم واتخاذ قرار بالاستمرار فى هذا السعى أو تجميده أو إلغائه؟ إن وجه المفارقة هنا أن مثقفا راح يلعب دورا سياسيا دون أن ينتبه (بتعبير كاتب المقال) أنه ليس سوى جنرال بلا جيش!

محمود عبدالوهاب
قاص وناقد

نكسة يونيو والنساء!

أعجبنى للغاية التقييم الثاقب البصر الذى قدمه د. عاصم خشبة فى رسالته فى عدد يناير الماضى من المجلة عن الحالة المتردية للمجتمع المصرى عند نهاية القرن، الذى أرجع فيه مشاكل التفكك الأسرى والزواج العرفى وانتشار البانجو والشباب الضائع وزنى المحارم وإلغاء التربية المدرسية والأمية والفقر واستيراد الغذاء وتدخين الشيشة فى المقاهى والنوادى والانحراف والطلاق والمرض والجهل والخرافة والدجل إلى النساء فى مصر ـ والأمهات منهن خاصة.

وهذا يشجعنى على أن أضيف إلى هذه القائمة بعضا من المشكلات والأزمات الأخرى التى نسيها كاتب الرسالة، فكيف يفوته أن يذكر أن النساء فى مجتمعنا قد تسببن أيضا فى :

١ ـ نكسة يونيو ١٩٦٧، واحتلال إسرائيل لسيناء
٢ ـ ثغرة ١٩٧٣.
٣ ـ أحداث ١٨ـ١٩ يناير ١٩٧٧.
٤ ـ حرب الخليج.
٥ ـ تنامى المناطق العشوائية بمصر وفوضى العمارة والبناء.
٦ ـ تلوث البيئة الصناعى.
٧ ـ انتشار أمراض الكبد والكلى وحساسية الصدر بسبب تلوث المياه والهواء.
٨ ـ عدم تنفيذ قوانين المحليات والبلديات فى الغالب.
٩ ـ ازدياد الفجوة بين الطبقات وانتشار الفقر.
١٠ ـ غياب الديمقراطية الحقيقية .
١١ ـ قانون الطوارئ.
١٢ ـ سجناء الرأى.
١٣ ـ التخبط فى سياسات التعليم وهبوط مستواه فى المدارس والجامعات الوطنية.
١٤ ـ الخصخصة والعولمة.
١٥ ـ غياب القاعدة العلمية والتكنولوجية.

وأختم بأن أضم صوتى إلى د. عاصم خشبة وأقول إن أمهات مصر جميعا مطالبات بحل هذه المشاكل وآثارها التى تسببن فيها، وذلك فى موعد أقصاه عيد الأم القادم ٢١ مارس ٢٠٠٠.

د. ندى عبدالرحمن

العام الأول لـ «الكتب.. وجهات نظر»

بمناسبة مرور عام على صدور مجلتكم الرائدة، يطيب لى أن أعرب عن تهنئتى على ما حققته المجلة فى عامها الأول، مما شرف ويشرف الصحافة المصرية حقا.

فقد قدمتم طوال هذا العام، جرعة رصينة فيما اخترتموه وعرضتموه من أحدث إصدارات الكتب فى العالم المتقدم، ولاشك أن القارئ المصرى والعربى كان فى حاجة إلى ماتثريه هذه الكتب من فكر وثقافة وتاريخ وفنون وعلوم وتراث، كما يؤكد أيضا رؤيتكم المستقبلية الهادفة إلى مسايرة الإيقاع السريع لما ينتجه العقل المتطور أجنبيا وعربيا فضلا عن استرجاع تراثه الأدبى المتجدد.

ومن ثم.. أصبحت «وجهات نظر» إطلالة ذات مستوى صحفى رفيع، فتحت نوافذ المعرفة أمام قارئها، تساعده على متابعة ماتنتجه وتقدمه سوق الكتاب الأجنبى لاختيار ما يناسب اهتماماته الثقافية المختلفة.

ولتسمح لى ـ زميلى الفاضل ـ أن أهنئك بالعيد الأول لمجلتكم الرائدة ـ تحريرا وإخراجا ومن يتعاون معكم ـ رئيس التحرير الفنى، وكل طاقم العمل، كما أتمنى أن يشهد العام الثانى هذا فى عمر المجلة، مزيدا من الانتشار توزيعا، وإثراء، وتبوءا للصدارة دائما فى الساحة الصحفية.

ليلى الجبالى

تنويه

ـ تعليقا على مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل فى العدد الأخير من وجهات نظر ـ فإن الصحفى البريطانى «باتريك سيل» ليس يهوديا وليس مولودا فى «حلب»

د. سمير خورى ـ دمشق

ـ هذا التعليق فيه كثير من الدقة، والمعروف أن أسرة «باتريك سيل» كانت واحدة من الأسر اليهودية فى «حلب» أواسط القرن الأسبق، ثم تنصر جده نتيجة نشاط الإرساليات التبشيرية المسيحية على المذهب البروتستانتى، ثم هاجرت الأسرة بعد ذلك أوائل القرن العشرين إلى بريطانيا.

« نون »

الشباب وأسئلة المستقبل

في مراحل العمر المختلفة. تمثل شريحة الشباب أهم مصادر القوة والحيوية في حياة الشعوب، فهي بمثابة المخزون الاستراتيجي الذي تلجأ إليه الأمة في أوقات الأزمات والصراعات التاريخية، وهي مصدر الإبداع والتجديد والإحلال والتغيير في تطور المجتمعات، وهي التي ستؤول إليها مسئولية تشكيل صورة المستقبل وصناعته. ولا يمكن تصور مجتمع يستمر فيه جيل واحد بدون تغيير؛ لأنه سيتحول حينئذ إلى مجتمع محكوم عليه بالجمود والموت، يفتقر إلى الإبداع والابتكار والتجديد في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. تخمد حيويته، وتتبدد طاقاته، وتذوى في أشكال مختلفة من الفساد والتعفن والتحلل.

ومرحلة الشباب هي في عمر الإنسان، مرحلة الفعل والإنجاز وتحقيق الذات لو انتقصنا منها مرحلة الطفولة من ناحية، ومرحلة الشيخوخة من ناحية أخرى.. مرحلة الطفولة التي تمتد إلى سن المراهقة، وينقصها الوعي والإدراك والنضج وتحمل المسئولية. ومرحلة الشيخوخة التي قد تتوافر لديها الحكمة وخلاصة التجارب، ولكن تنقصها القوة والقدرة على المبادرة والتحمل. وفي رأي بعض المفكرين أن كلا من الطفولة والشيخوخة هي مراحل انتظار وترقب، انتظار الشباب والنضج بعد الطفولة، وانتظار الموت بعد الشيخوخة، حيث تصبح حياة الإنسان مجرد وجود على الأرض في حالة انتظار.

وفي النظم الديمقراطية في الغرب، حيث انتهى عصر الثورات الوطنية والتغيرات المفاجئة، والانقلابات العسكرية، والانتفاضات الطبقية.. يعتبر الشباب هو الحامل الطبيعي لعوامل التغيير والتجديد في المجتمع، باعتباره أكثر الفئات حساسية للتغيرات والتحولات، وأكثرها استعدادا لخوض التجارب وتحمل نتائجها، والتمرد على القوالب السائدة ومحاولة صياغة قوالب جديدة، خصوصا في عصر العولمة واقتصاد السوق وسيادة أنماط مغايرة من العلاقات الاجتماعية والرؤى الفكرية والثقافية.

أما في دول العالم الثالث، ونحن منها، فمازالت النظرة إلى الشباب تقوم على الوصاية والحماية الزائدة سواء داخل الأسرة أو خارجها. ولا يهتم المجتمع بأن يوجه إلى هذه الشريحة الهائلة التي تمثل أكثر من ثلاثين بالمائة من أفراد الشعب المصري - على سبيل المثال - أية أسئلة عن اهتماماتها ورؤاها، وهمومها وقضاياها، ونظرتها إلى المستقبل والحاضر.. فهناك قطيعة شبه كاملة بين الأجيال، وانعدام ثقة من جانب الكبار في قدرة الشباب على تحمل مسئولياتهم بأنفسهم، ورعاية مصالحهم، والمشاركة في تحمل الأعباء جنبا إلى جنب مع الكبار.

ولذلك، فبينما تنهج المجتمعات الغربية الصناعية استراتيجية للتقدم على مستوى المؤسسات والأحزاب والشركات والهيئات، ينهض الشباب فيها بدور طليعي رائد، في عمليات التغيير المتسارعة التي تفرضها ثورة التكنولوجيا والمعلومات وقوانين العولمة الاقتصادية والسياسية، تنهج المجتمعات الأخرى - ونحن منها - استراتيجية للتقهقر، يحاط فيها الشباب، فتيانا وفتيات، بغابة كثيفة من الموانع والقيود، والحواجز والمحرمات.. خوفا عليه أو خوفا منه. والنتيجة في كلتا الحالين واحدة، لأنها تبقى على السلطة في يد جيل واحد، يتوهم أنه الأذكى والأقدر والأحكم. ومن ثم تقل القدرة على ملاحقة السرعة التي يسير بها العالم، وتصبح المشكلة الحقيقية لدى المسئولين هي في البحث عن قطارات أبطأ، وأساليب أكثر تدرجا، ومواقف أكثر ميوعة، سعيا وراء الحلول الوسطية. وهو ما يؤدي بالضرورة إلى قتل روح الإبداع والتفكير الحر والتجديد، وكأننا بذلك نسلب جيل الشباب، أهم مؤهلاته بل أهم وظائفه في المجتمع.

سألت ذات مرة صديقا يحتل منصبا رئيسيا في إحدى شركات البترول، كيف يتابع أخبار العالم وتحركات السوق، فقال لي: «إن الشركة تعد لكبار الموظفين كل يوم ملخصا بأهم الأنباء والتطورات في العالم»، ولكنه كثيرا ما يطلب من ابنه أو ابنته أن تحصل له من «الإنترنت» على مزيد من التفاصيل.. وفجأة وعلى غير توقع، انبرى صديقي ينحى باللائمة على هذا الجيل الذي يمضي أمام شاشة «الإنترنت» أكثر مما يمضيه في استذكار دروسه.. بل وفي بعض الأحيان يبادر من تلقاء نفسه إلى إثارة بعض الاقتراحات والأفكار، وكأن الفوارق بين الابن وأبيه قد زالت تماما.. وهو ما لم يستطع هذا الأب وغيره من جيل الكبار أن يتفهمه حتى الآن.

في مراحل سابقة، كان المثقفون هم الذين يقودون حركة التجديد والتغيير في المجتمع، قادها الأفغاني ومحمد عبده، ومن بعدهما لطفي السيد وطه حسين والعقاد وسلامة موسى.. كل منهم - وغيرهم - لعب دورًا أو آخر في حياة الشعب المصري، وفي حركته النضالية من أجل التحرر الفكري والسياسي. ولكن الثابت أن المثقفين في مصر وفي العالم العربي الآن، فقدوا فاعليتهم وتأثيرهم، وأصبحوا يمثلون عبئا على الأجيال الشابة الصاعدة.. بل أضحوا عقبة في الطريق إلى التحام هذه الأجيال الشابة بحركة التجديد التي يشهدها العالم، بسبب ما تعاني منه المجتمعات العربية من قيود الوصاية والاستبداد والأفكار الجاهزة المسبقة، مع استهانة واضحة بدور الشباب في المجتمع، وميل إلى تهميشه، وتشكيك في قدراته. وذلك على عكس ما يجري في العالم من حولنا، حيث يحتل الشباب مواقع متقدمة في السياسة والاقتصاد والعلم والتكنولوجيا.

إن الانقلاب الذي تشهده المجتمعات الغربية المتقدمة، تجعل الطالب من سن العشرين، أكثر تطورا ومعرفة وقدرة على التعامل مع أدوات العصر.. ومع تطور أسلوب إنتاج الثروة عن طريق تكنولوجيا المعلومات، لابد أن يحدث توافق بين الطريقة التي يتم بها إنتاج الثروة، والطريقة التي يحكم بها الشعب نفسه. ومن ثم فنحن نشهد الآن تغيرات حاسمة في المؤسسات الحاكمة في الغرب تقترن بصعود طبقات جديدة من الشباب، ينتمون إلى أفكار واتجاهات لم يكن يخطر ببال أحد أن تصبح جزءًا من المؤسسات الحاكمة، كما يحدث مع أحزاب الخضر وأحزاب اليمين الجديد التي باتت تشكل جزءًا من النسيج السياسي. ولابد أن تشهد الأنظمة الديمقراطية تغيرا مماثلا في مفهوم الديمقراطية لمواجهة الأزمات المتراكمة.

ونحن لا نتوقع أن يحدث في المجتمعات العربية تقدم حقيقي، ما لم تشهد هذه المجتمعات ثورة شبابية تنقل مركز الثقل الاجتماعي من المثقفين التقليديين الذين ظلوا ومازالوا يبحثون عن اليقين المطلق، ويركنون إلى أفكار ومبادئ بالية، إلى فكر أكثر تحررا واحتراما لسلطة العقل. ويكفي أن ننظر إلى ما حدث في الكويت من أحكام بالسجن على كاتبتين اتهمتا بالعيب في الذات الإلهية، وأحداث أخرى مماثلة في مصر ولبنان وغيرهما، جرت فيها مصادرة الفكر ومنع الكتب. ولم تكن الثورة الطلابية الشبابية التي شهدها الغرب في الستينيات، سوى إيذان بانتقال الثقل الاجتماعي من المؤسسات السياسية والنقابية الفاسدة والمتآكلة إلى حركات الشباب الراغبة في التجديد والثورة على القديم. وانتهى الأمر - كما نرى الآن - إلى تجديد شامل واسع النطاق في هذه المجتمعات يساير الانقلاب التكنولوجي والاقتصادي الذي تشهده هذه المجتمعات!!

الصورة المحزنة للشباب العربي في المقابل، هي تلك الرغبة العارمة والكامنة لدى ألوف الشباب في الهجرة إلى الخارج.. وما نتلقاه في بريد القراء من شكاوى الشباب وسطورهم التي تنبض بانعدام الثقة، وعدم تصديق ما يقال، واتساع الهوة بين جيل الكبار والشباب.. وما يحكيه الشباب في رسائلهم عن غياب القدوة، وانتشار المحسوبية والبيروقراطية، ومشاعر المرارة من تعسف السلطة، وانعدام الحرية داخل الجامعات والمعاهد، والإحساس بأن آفاق المستقبل تضيق بهم وعليهم.. تجعلهم يفكرون منذ البداية في انتهاز الفرصة للخروج من أوطانهم بحثا عن المستقبل في مزيد من التحصيل العلمي، وتحقيق الذات.. هذه هي الأحلام التي تراود أي شاب عربي يمتلك ولو قدرا قليلا من الطموح والرغبة في تحقيق أحلامه، وهم يرون في البلاد الأخرى، أن التفوق القائم على امتلاك القدرات الذاتية والاجتهاد في البحث ، يلقى الاعتراف والتقدير، بغض النظر عن القرابة أو الجنس أو الدين.. ودون ما حاجة إلى التصفيق والنفاق والتفنن في المداهنة والمراءاة، أو الانتماء إلى الحزب الحاكم أو شلة المستفيدين.

إن أكثر ما يثير القلق، هو أن الذين يقومون على وضع استراتيجيات للشباب، لا يفكرون إلا في الاهتمام بتيسير ممارسة الأنشطة الرياضية والشبابية، وتلقينهم المبادئ والدروس التي تخدم النظام، وهم يعلمون علم اليقين، أن للشباب أفكاره ومناهجه وطريقة تفكيره، وأنه أكثر اقترابا من الواقع ومن روح العصر من آبائهم. والمشكلة أننا في حاجة إلى تنشئة جيل جديد يتوافق مع المتغيرات، ويتحمل المسئوليات. والأهم من ذلك أن نفسح له الطريق، وأن نكف عن الإفراط في حمايته وتدليله، ومحاصرته بالممنوعات والترهيبات.. فيوما ما سوف يفلت الشباب من قبضة الحصار والتضييق!

سلامة أحمد سلامة

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 17 - June 2000

مجلة شهرية . العدد السابع عشر . السنة الثانية . يونية ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات





محمد حسنين هيكل

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية

حدث سياسى وحّد الأمة

مشروع النهضة المصرى ١٩١١

الخطر القادم..نقص المياه

أم التفوق الاستراتيجى لإسرائيل؟

أعشاب وطحالب فى حياتنا الثقافية!

محمد سليم العوّا

وليمة لإهدار العقل!!

سلامة أحمد سلامة

وردة حمراء لچاهين

الفَجَر.. الأصل والتاريخ

الريحانى .. أضحك الناس ٣٠ عاماً

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد السابع عشر
يونية ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

«كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- أحمد عكاشه .. أستاذ الطب النفسى
- جيمس رايزن .. صحفى أمريكى
- سعد لبيب .. خبير إعلامى
- سمير فريد.. ناقد فنى
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ
- عادل الألوسى .. كاتب عراقى
- عبادة كحيلة .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى
- عبدالعظيم حماد .. صحفى
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد سليم العوّا .. محام
- محمد فؤاد الذاكرى .. باحث فى التراث العلمى، من سوريا
- مرفت عبدالناصر.. أستاذ الطب النفسى فى جامعة ليستر بإنجلترا
- نهلة إمام .. باحثة فى الأنثروبولوجى
- هديل غنيم.. صحفية

رسوم العدد للفنانين: محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١،٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٢٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٥٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

حوار.. لا شجار

نتفق أو نختلف.. سنتيمترات هنا أو سنتيمترات هناك، حول المكان الذى يجب أن نضع فيه الخط الفاصل بين حرية الإبداع وحرمة المقدسات.

ونتفق أو نختلف.. قليلا أو كثيرا، حول المدى الذى تتحدد به مسئولية الكاتب، قانونية أو اجتماعية، ومسئولية الناشر، شخصا كان أو جهة رسمية.

نختلف.. ربما. ولكننا نتفق بالضرورة، على أن «الاختلاف» يُحسَم - إذا كان لا بد أن يُحسَم - بالحوار، ولا شيء غير الحوار.

ولعلنا نتفق أيضا، على أن ما جرى فى مصر، وامتد بالتالى - إذاعيا وصحفيا - إلى محيطها العربى، فى الأسابيع الماضية، لم يكن بحال من الأحوال «حوار».

فى الحوار، يحدد الناس - بداية - حول ماذا بالضبط يتحاورون، وما هى نقاط الاتفاق. وما هى تلك التى ما زالت موضعا للخلاف. ومن ثم للحوار. ثم ما هى المرجعيات المتفق عليها. وما هى التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات. هنا - وهنا فقط - يبدأ تبادل «حقيقى» لوجهات النظر. بين أطراف يُفتَرض أنها تعلم أن «الحوار» يعنى بالضرورة أن هناك «رأيا آخر». ليس لنا - بالتالى - أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض.

كل هذا - للأسف - كان بعيدًا كل البعد عن وصف ما جرى. سواء على صفحات الصحف، أو فى الشارع وعلى منابر المساجد وساحات الجامعة، أو حتى قبة البرلمان. فلأسباب تعددت منابعها، وتباعدت أهدافها، وفى مناخ محتقن حاد الاستقطاب، كان كل هذا الصخب، سياسيا وحزبيا وقضائيا وصحفيا وعلى شاشات التليفزيون. وشهدنا - للأسف - فى أكثر من مناسبة، من يقف فى مربع لا يعكس فى واقع الأمر «رأيه» اللاحق فى الموضوع، بل «موقفه» المسبق من الآخر.

وكان يسيرًا علي من يقف على مسافة مناسبة من المشهد، أن يلاحظ أن جانبًا كبيرًا من «المعركة» لم يكن أبدًا حول الرواية، بل دار فعليا على هامشها، فعلاً ورد فعل، صدىً ورجع صدى. وكان طبيعياً - والحال كذلك - أن يتلون المشهد بالضجيج والصياح. والعراك والشجار، والقنابل المسيلة للدموع.. والدماء.

وحين لم تجد الأزمة - وهى أصبحت كذلك - من يديرها. وحين توارت كعادتها تقاليد الحوار فى خضم الصياح والضجيج، كان طبيعيا أن تتوالى التداعيات، وتختفى القضية الأصلية - إذا كان ثمة من «قضية».

وفى حين يبقى الجميع «منشغلين»، تبقى حقيقة أن الجميع «خاسرون». سواء من اعترفوا بذلك، أو من اعتقدوا بغير ذلك، يستوى في ذلك من قدموا البلاغات - والبلاغات المضادة - ومن أعلنوا البيانات، ومن أصدروا القرارات. ومن كانوا أيضا موضوعا لكل ذلك.

وللأسف، وعلى غير عادة «الحوار»، سينتهى «الشجار» تاركا كل الأسئلة مفتوحة. فالجدل الذى ظنه البعض فكريا، لم ينته إلى إجابة واحدة يقدمها لمجتمع يرقب - فى هدوء أحيانا وانفعال أحيانا أخرى - ساسته ومفكريه.

فى «وجهات نظر» كان قرارنا الأولىّ أن نظل بعيدًا عن ساحة اختلطت فيها كل الأوراق. ثم بدا لنا ، ولعلكم معنا، أن ندلل على موقفنا الثابت من أن الاختلاف فى الرأى لا يتطلب غير «الحوار».

والحوار يعنى في تفسيره النهائي: تبادلا لـ «وجهات نظر». وهذا ما حرصنا عليه بمقالين أحدهما للدكتور سليم العوّا، والآخر لرئيس التحرير.

وإن كنا قد حرصنا أيضا على ألا يجرفنا «الجدل المستنزف للطاقات» وتستغرقنا الأجواء المحيطة. فبقى مقالنا الرئيسى - وهو أيضا يركز على فضيلة الحوار - مشغولا بقضايانا الحقيقية. ففى «حديث مستطرد عن السياسة الداخلية» يكتب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن شواغل ومشاكل مصر.. وعن «الولاية والإدارة».

رغم الرأى القائل بأن الصحفيين ليسوا بساسة، ولاينبغى أن يكونوا، إلا أن الواقع - عبر التاريخ كله - يقول بأن الصحافة لم تكن أبدًا مجرد نافذة على ما يجرى فى معترك السياسة. بل كانت - بإرادتها أحيانا وبإرادة آخرين فى معظم الأحيان - أداة فاعلة فى هذا المعترك.

تشير وثائق وكالة المخابرات المركزية بوضوح إلى محاولات دءوب لمسئولى الوكالة الذين تولوا ملف انقلاب ١٩٥٣ العسكرى فى إيران، لاستخدام الصحافة على نطاق واسع للتعتيم على الدور الأمريكى «الاستخباراتى» فى الإطاحة برئيس وزراء إيران المنتخب، والإيحاء بأن القصة كلها كانت «انتفاضة داخلية ضد الحكومة ذات الاتجاه الشيوعى». وبالفعل لم يذكر أحد من المراسلين الأمريكيين قط أن بعضا من الاضطرابات كان من إعداد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذين تظاهروا بأنهم شيوعيون.

ليس ذلك فقط، فوثائق الاستخبارات تحكى كيف أن ضابطا من ضباط الوكالة - كان يعمل صحفيًا من قبل - استغل صلاته المهنية القديمة ليدس بين برقيات «أسوشيدبرس» مقالا من طهران عن المرسومين الشاهانيين «اللذين كانت الاستخبارات المركزية نفسها قد كتبتهما».

ولكن يبقى للعملة دائمًا وجه آخر. فاليوم، وبعد ما يقرب من خمسة عقود من التعتيم «المتقن والمتعمد»، كشفت «الصحافة» - أيضا هذه المرة - تفاصيل العملية السرية للانقلاب «الأمريكى» ضد مصدق فى طهران، وعلى لسان المخطط الرئيسى للانقلاب.

وتبقى قيمة هذا التقرير الصحفى فى أنه قبل اليوم لم يكن أحد أبدًا يستطيع أن يقطع بالدور الحقيقى للاستخبارات الأمريكية فى تخطيط و«تنفيذ» الانقلاب العسكرى الذى أطاح برئيس الوزراء الإيرانى المنتخب محمد مصدّق ليدعّم الشاه محمد رضا بهلوى قبل نصف قرن من الزمان خاصة بعد أن توالى تقاعد المشاركين أو وفاتهم، دون الكشف عن التفاصيل الأساسية. وكانت الوكالة المركزية الأمريكية قد ذكرت أن السجلات الخاصة بهذا الموضوع قد «أتلفت».

الوثيقة التى مازالت محظورة، والتى تكشف تفاصيل أول عملية ناجحة تطيح بها المخابرات الأمريكية بحكومة أجنبية، نشرتها الـ «نيويورك تايمز» وتنشرها «وجهات نظر» بترتيب خاص.

وجهات نظر

١

عن العمل السياسى ووسائله!

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية



محمد حسنين هيكل

لا يمكن فصل أى مجال من مجالات المعرفة والفكر والفعل عن السياسة باعتبار أن السياسة هى الاهتمام بالشأن العام، وتشخيص وتوصيف ظروفه، وتحديد أولوياته - فكراً ومتابعة ومشاركة، وتصدياً إذا توفر الاستعداد وتحققت الأهلية، لمسئولية إدارة موارده وإمكانياته واختياراته، لتحقيق أقصى المطلوب - أو أقصى الممكن - من المطالب والضرورات الوطنية

■ سألنى كثيرون والسؤال مشروع: «لماذا لا أكتب عن الشئون السياسية المصرية؟ وهل أكتب عن شواغل ومشاكل العالم والإقليم - كما فعلت فى أعداد سابقة من هذه المجلة - ثم أنسى أو أتناسى شّواغل ومشاكل مصر لا أقاربها. فإذا فعلت فمن بعيد ودون تحديد؟

وإحساسى - ولعله لم يكذب علىَّ - أننى مطالب بالرد على هذا السؤال توضيحاً لواقع الحال، واحتراماً للسائلين واعترافاً بحقهم.

وبداية فإن هذه المجلة ليست مجلة سياسية بالدرجة الأولى، وإنما هى بالقصد من إصدارها مجلة ثقافية، أدبية، فنية، ثم سياسية بعد ذلك.

أذكر ذلك عارفاً أنه لا يمكن فصل أى مجال من مجالات المعرفة والفكر والفعل عن السياسة باعتبار أن السياسة هى الاهتمام بالشأن العام، وتشخيص وتوصيف ظروفه، وتحديد أولوياته - فكراً ومتابعةً ومشاركةً، وتصدياً إذا تَوَفَّرَ الاستعداد وتَحَقَّقت الأهلية، لمسئولية إدارة موارده وإمكانياته واختياراته، لتحقيق أقصى المطلوب - أو أقصى الممكن - من المطالب والضرورات الوطنية.

وإذا كان ذلك، فإن كل شأن عام سياسة، بما فى ذلك الثقافة والأدب والفن، وحتى الاقتصاد رغم اجتهادات تتصور أسبقية للاقتصاد على السياسة ناسية أن ذلك ينزع عن القرار الاقتصادى إنسانيته (لأن الاقتصاد فى خدمة بشر)، وناسية أيضا أن ذلك ينزع عن القرار الاقتصادى مشروعيته (باعتبار صدور القرار الاقتصادى - حتما - عن سلطة سياسية تملك شرعية الاختيار النهائى مستندة على إرادة أوسع وأشمل من مذكرة موظف أو حتى رأى خبير قد يرى وجها من وجوه الحقيقة، وتغيب عنه وجوه يتحمل مسئوليتها غيره - وبالتحديد سياسة فوضتها الأغلبية وأناطت بها - دستورياً - مسئولية القرار).

على أنه وحتى إذا استحال فصل السياسة عن مجالات الشأن العام بما فيها الثقافة والأدب والفن وغيرها - فإن لكل مجال مقاديره، ومعاييره، ومواقع التركيز المطلوبة له أكثر من غيرها فى لحظة معينة، أى أنه تركيب تتفاوت فيه المكونات.

وهكذا فإنه مع التسليم بأن السياسة محيط واسع وغير محدود لكل الأنواع والأجناس، فإن هذه المجلة اتخذت لنفسها موضعاً أقرب إلى الثقافة والأدب.

وربما أضفت أننى فيما كتبت لهذه المجلة زدت - ربما أكثر من اللازم - فى جرعة السياسة مقدارا ومعيارا، وتركيزا أيضا، لكنى آثرت أن أفعل ذلك هنا عن أحد طريقين:

■ أولهما طريق أحاديث موصولة على نحو أو آخر بالتاريخ الجارى أو القريب، وقد حاولت ما حاولت مقتنعا بأن التاريخ ليس عملية تسجيل لوقائع ما جرى، لأن الوقوف عند هذا الحد تدوين تختص به السجلات تحفظ ما فيها، ولعلها أيضا تغيبه عن النظر. وأما التاريخ أو الالتفات نحوه، خصوصا ما كان منه مُعاصراً - جارياً أو قريباً - فهو جهد يأخذ على نفسه أن يراجع ويقيم ويضىء إلى أوسع ما يسمح به الزمن من كشف للخفايا، أو يُوَفِّره التقدم من أدوات للتحليل.

[وذلك ما فعلته فى فصول كتبتها لهذه المجلة عن الملك «حسين»، وعن الملك «الحسن»، وعن سوريا، وعن يوجوسلافيا، وعن غير ذلك. ومعظمه التفات إلى التاريخ بمنطق أن السياسة تاريخ فى حالة سيولة وخلق عند مرحلة التكوين وقبل أن تتماسك الكتلة وتشد الحياة قامتها!]

■ وأما الطريق الثانى - الذى حاولت عليه - سياسياً - فيما كتبت لهذه المجلة - فهو اختيار زوايا للحوار مع المصالح العليا للأوطان، وبينها الوطن المصرى بالطبع، ومثاله ما كتبت أخيرا عن المسلمين والأقباط، مُرَكِّزاً فيه على اعتقاد لدىَّ شرحته - أو جَرَّبْت - مؤداه أن المسئولية الأولى لرئاسة الدولة فى مصر مكلفة بقضيتين تسبقان غيرهما بمراحل، وهما: قضية مياه النيل - وقضية الحياة المشتركة لدينين على أرض وطن واحد.

وكل ما عدا ذلك يمكن اللحاق به.

....

....

عندما قرأ الفنان الأستاذ حلمى التونى هذا المقال لكى يقرر نوع الرسم الذى يصاحبه، كان اختياره خارجا عن المألوف، رأى أن يكون التوضيح الفنى للمقال، صورة لتمثال محمود مختار الشهير «الخماسين».

على أننى خارج صفحات هذه المجلة تعرضت للقضايا السياسية الرئيسية ضمن مقالات ومحاضرات ولقاءات صحفية ظهر كثير منها فى مصر، ولقاءات إذاعية وتلفزيونية سُمِعَ بعضها وشوهِدَ هنا قادماً من مواضع خارج الوطن، والأسباب معروفة، ومفهومة، ولا أريد أن أطيل فى أمرها أو أبالغ فى أهميتها!!

ومن تلك المواضع فقد قلت ما أردت قوله فى وقته، وظنى أن فترة صلاحية بعضه ما تزال سارية المفعول!

وإذن فقد كتبت عن الشئون السياسية وقلت - وفعلت ذلك هنا وفعلته هناك!

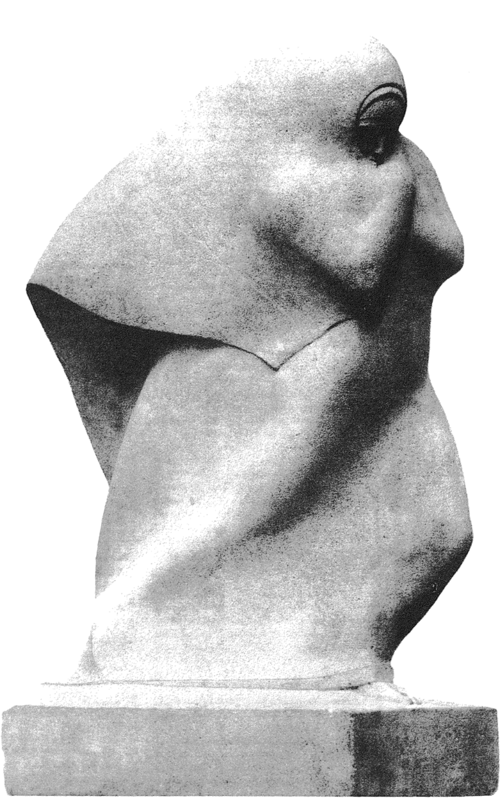
لكنه من الحق أن أشير إلى أننى فى كل ما كتبت وقلت حسبت أنه من واجبى - وواجب غيرى - أن يقول كل منا كلمته ثم يمشى (على حد تعبير للفيلسوف الرومانى الأشهر «لوشيوس أنايوس سنيكا»)، وذلك عن تَصَوُّرٍ يرى أن طبائع السياسة المعاصرة لا تحتمل شدة الإلحاح والتكرار، فنحن أمام أحوال مستجدة تؤثر على العمل السياسى ووسائله، وهى تُبَدِّل فيها وتُغَيِّر، وتفرض عليها مُعَدَّلات سرعة لها قدرة على عبور المسافات خطفاً للبصر بما يستتبعه ذلك من تغييرات متوالية فى المَشاهِد والصور!

وعلى سبيل المثال فإنه منذ قامت الثورة الفرنسية كانت وسيلة العمل السياسى هى تعبئة وعى الجماهير، وتحريك أكبر كتلها ودفعها مباشرة لمواجهة معاقل الطغيان سواء فى قصور الملوك (فرساى) أو فى سجونهم (الباستيل). ثم جاءت تجربة نابليون لتكشف أن «تعبئة أوسع الجماهير وتحريك كتلها يعتمد بالدرجة الأولى على استثارة عواطفها، وتلك مغامرة لأن العواطف المستثارة بالتعبئة تتحرك قبل أن تفكر، وتنطلق قبل أن تُدَقِّق، وهكذا فإن جماهير الثورة الفرنسية التى صرخت بنداء الجمهورية فى وجه «لويس السادس عشر» وهو يعتلى المقصلة كانت نفسها التى هتفت أمام «نابليون» وهو يعتلى العرش إمبراطوراً لفرنسا!

وكان ذلك عصرا فى وسائل العمل السياسى وممارساته.

....

....



وعندما جاءت الثورة البلشفية فى روسيا فقد كان زعيم الثورة وقائدها «فلاديمير إيليتش لينين» يقول أن مهمة الثورة أن تصل بعقائدها وشعاراتها إلى أوسع الجماهير حيث تتواجد. وفى تلك الأيام كانت أوسع الجماهير محتشدة فى المصانع والحقول والجامعات وشوارع المدن الكبرى، ثم أفاقت الثورة البلشفية من نشوتها عندما اكتشفت فى أواخر الثمانينات أن أوسع الجماهير لم تعد موجودة بتجمعاتها فى المصانع والحقول والجامعات وشوارع المدن، وإنما تبعثر الجمع أفراداً يجلس كل منهم وحده صامتا فى غرفة وأمامه جهاز تليفزيون يملأ الغرفة أصواتاً، وألواناً.

أى أنها وسائل الاتصال الحديث وليس هدير الحشود وخفق البنود!

وكان ذلك عصراً ثانياً فى وسائل العمل السياسى وممارساته.

....

....

وجاء الدور على النموذج الأمريكى فى ممارسة السياسة، وهو نموذج يستخدم الإعلام لتوجيه رسالة قصيرة محددة، تختزل العقائد والمبادئ فى عبارة محبوكة يمكن «استهلاكها» بسهولة كأنها قطعة «هامبورجر» جاهزة للبلع، أو زجاجة «كوكا كولا» جاهزة للشرب، وهكذا ترددت فى الولايات المتحدة الأمريكية عبارات لها رنين مثل : «العقد الاجتماعى العادل» (على أيام «روزفلت») - و«الحدود الجديدة» (على أيام «كنيدى») - و«المجتمع العظيم» (على أيام «جونسون») - و«الوفاق الدولى» (على أيام «نيكسون») - و«النظام العالمى الجديد» (على أيام «بوش») - و«رخاء غير مسبوق» (على أيام «كلينتون»).

وكانت هذه الرسائل شحنات موجهة باستمرار إلى ناخب جاهز ... معرض ومكشوف، ثم إنه كان لا بد من زيادة تكثيف الجرعات حتى يستمر المفعول، ولم يستطع الإعلام مجاراة الشوط إلى نهايته، وكان أن أصبح الإعلان حامل الرسائل إلى النهاية سابقاً على الإعلام، وهنا اشتدت حاجة السياسة إلى المال وقودا للحملات الانتخابية وعماداً لفُرَص نجاحها. ولم يعد مُهِمّا أن يكتشف الناخب الأمريكى بعد فوات الأوان أن الرسالة التى وصلته والعبارة المحبوكة التى أخذته كانت عهداً بغير تحقيق ووعداً بغير وفاء. والسبب أن كل رئيس أمريكى يعرف سلفاً أن إقامته فى البيت الأبيض محددة، مقيدة بمدتين اثنتين، ثمانى سنوات لا تزيد بنص دستورى لا يمكن الالتفاف عليه، ولا موضع فيه لثغرة، وكان من تداعيات ذلك ما وصلت إليه الأمور حين اكتشف الرئيس الحالى «بيل كلينتون» أن البيت الأبيض أصبح خالياً إلا منه وحده - فى هذه السنة الأخيرة من إدارته، فزوجته هجرته مُرَشَّحة لمجلس الشيوخ على مقعد نيويورك، ونائبه «آل جور» تركه بحثاً عن فرصة

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية

للعودة إلى البيت الأبيض رئيساً وليس نائباً، ومع زوجته ومع نائبه خرج معظم موظفى البيت الأبيض لأن «كلينتون» فى رأيهم شمس غاربة، بينما «هيلارى» لديها أمَل، و«جور» مستقبل محتمل. وكان أن الرئيس الأمريكى وهو ما زال شاغل المكتب البيضاوى الشهير لتسعة شهور، وَجَدَ نفسه عاطلاً، وارتأى أن يملأ فراغ وقته بتصوير فيلم بعنوان «الأيام الأخيرة - رئيس عاطل» - وفى مشاهده ظهر يغسل سيارته أمام البيت الأبيض، ويكنس الممر المؤدى إلى مكتبه، ويُشَذِّب أوراق الشجر فى حديقة الورد، ويقص الحشائش. ثم تمادى «كلينتـون» بروح المرح - أو ربما المرارة - فعرض هذا الفيلم على طاقم الصحفيين المعتمدين فى البيت الأبيض، وقد جلس من حضر منهم ست دقائق يتفرجون على شريط مضحك لـ«رئيس عاطل»!

وكان ذلك عصراً ثالثاً فى وسائل العمل السياسى وممارساته.

....

....

لكن النموذج الأمريكى مثل «مُستَحدَثات» كثيرة ظهرت فى أمريكا لم يلبث أن طرح نفسه على الآخرين، وخصوصاً فى أوروبا، وبينهم بريطانيا. وبرغم تقاليد عريقة فى وسائل العمل السياسى وممارساته فى ذلك البلد فإن النموذج الأمريكى وَجَدَ من يَتَلَهَّف عليه، وآخره تجربة «تونى بلير» الذى نجح فى الانتخابات قبل أربع سنوات. والحاصل أن «بلير» لم ينجح ويصل إلى الحكم بقوة مبادئ حزب العمال وإلهامها، وإنما على العكس نجح بنسيان هذه المبادئ وإزاحة بقاياها داخلا على الناخبين بعاصفة من العبارات مُحكمة التعبئة، والشعارات سهلة المضغ والبلع، والصور الخاطفة، والانطباعات المؤثرة. وكانت وصفة «بلير» للنجاح فى الانتخابات هى حزب حديدى يلتزم نظاما لا يخرج عنه أحد، ناسياً أن تنوع الآراء داخل حزب العمال كان يعطى لهذا الحزب حيوية ذات مذاق خاص، لكن «بلير» مع الضرورات اللازمة لعاصفة الإعلان الحامل لرسالة واحدة محكمة ومحبوكة أصبح يرى فى تلك الحيوية الخاصة لحزب العمال دعوة للانقسام، وبدلا منها فإن المطلوب هو منهج التليفزيون يحتاج إلى سيناريو مكتوب بحروفه ونبراته، وأدوار مرسومة بحركاتها وإشاراتها، إلى جانب إخراج لا مجال فيه لحوار من خارج النص، ولا لنجوم من خارج المسار كما كان يفعل بعضهم فى الماضى القريب لحزب العمال مثل «إنيورين بيفان» و«مايكل فوت» و«تونى بن».

وقد فرض «بلير» رؤيته للعمل السياسى واستطاع اكتساح حزب المحافظين وحصل على أغلبية لم يسبق لها مثيل فى التجربة البرلمانية البريطانية.

لكن ظروفا أخيرة أثبتت أن النموذج الأمريكى فى السياسة صعب خارج التجربة الأمريكية ودستورها الذى أحسن الآباء المؤسسون للجمهورية صياغة مواده، وتأكيد سلطة نصوصه وقدرتها على المراجعة والموازنة باستمرار.

[وإذا كانت تجربة انتخابات عمدة لندن («كِن ليفنجستون») قبل أسابيع قليلة قد دَلَّت على شىء، فدلالتها التأكيد - مرة أخرى - على أن النموذج الأمريكى فى السياسة غير قادر على النجاح فى غير الولايات المتحدة، ذلك أن عمدة لندن الجديد عمالى أصيل، وصوت ناشز على حروف ونبرات السيناريو المكتوب، ثم هو نجم من خارج المسار، وقد تمرد وأعلن العصيان، وحاول «بلير» أن يمنعه من ترشيح نفسه لعمودية لندن، ووصل إلى حد طرده من الحزب واصفاً نجاحه فى الانتخابات - إذا حدث بمعجزة - بأنه «فضيحة مخزية للحزب وعار»! - لكن «ليفنجستون» خاض معركته مستقلا واكتسحَ، لأن الناخب البريطانى أعطاه من حجم الأصوات ما فاق كل تَوَقُّع حتى تحَوَّلَ نجاحه إلى إهانة لرئيس الوزراء أمام المتمرد المنشق عليه - وفى نفس الوقت فإن مرشح «بلير» لعمودية لندن «فرانك دوبسن» (وكان وزيرا للصحة طلب منه «بلير» وضغط عليه حتى يترك الوزارة ويخوض انتخابات العمودية لإسقاط «ليفنجستون») لم يسقط فقط وإنما جاء ترتيبه الرابع أسفل القائمة، وتوافق ذلك مع انتخابات المحليات وقد خسرها حزب العمال، وأعقبتها استطلاعات للرأى العام فى نفس الفترة أظهَرَت أن الناخب البريطانى أصبح يرى «بلير» رَجُلاً «مبرمجاً» «متكبراً» يطلب السلطة دون سياسة مفهومة يحكم على أساسها، وبغير مبادئ مقبولة يسعى لتحقيقها، ثم إنه ليس «عنده أكثر مما ترى العين منه»، وأكثر مما تسمع الأذن عنه، وكلها مَشاهد مرسومة، وأصوات تدرب عليها صاحبها والتزم كأنها سيناريو فيلم أو مسرحية - سطح بلا عمق، وعنوان بلا موضوع!

زاد - على أوهام الزمن الجديد - ومع مراحل أكثر تعقيداً - أن زعماء العالم الثالث - والشواهد كثيرة فى آسيا وأفريقيا - راحوا يطلبون من رعاياهم أن يتحلوا بكفاءة الزمن الإلكترونى، أما هم - هؤلاء الزعماء - فقد أصروا على الاحتفاظ لأنفسهم بسلطان الزمن القبلى. وكان ذلك تناقضا فى ضرورات الأشياء يضاف إلى تناقض سبقه فى تقليد الأشكال على غير فهم أو على غير اقتناع!

وزاد الحرج حين انكشف أن «بلير» - وقد عَرَفَ أن مُرَشَّحَه لعمودية لندن سوف يسقط أكيداً - أصدر توجيهاته إلى أجهزة الحزب بأن تدعو لانتخاب «ستيف نوريس» مُرَشَّح حزب المحافظين، وبذلك يسقط المتمرد عليه ثم يكون فى مقدوره أن يلومه على ضياع عمودية لندن من الحزب بادعاء أن تنافس اثنين من العمال هو الذى فتح الفرصة لمرشح المحافظين!

وفشلت محاولة الدقيقة الأخيرة، وانكشف موقف رئيس حزب العمال - رئيس الوزراء!

وبان أن اتجاه الرأى العام البريطانى يطالب «تونى بلير» بأن يتواضع، وأن يحد من التَّصَنُّع فى أدائه قولاً وفعلاً، وأن يكف عن تمثيل «الدور». وكان عليه أن يستنتج أن ما جرى له إنذار مبكر، إذا فهم درسه تنفتح أمامه فرصة ثانية فى انتخابات السنة القادمة، وإذا لم يستوعبه فهو أمام خطر أكيد من داخل حزبه أو من خارجه - وهكذا فإن النموذج الأمريكى - الرئاسى - لم يُحَلِّق عالياً فى أجواء السياسة البريطانية!]

ومن الملحوظ أن واحداً من أهم الساسة الأوروبيين فى القرن العشرين وهو «هيلموت كول» (الرجل الذى حقق وحدة ألمانيا بعد الهزيمة الساحقة فى الحرب العالمية الثانية، وبعد تقسيم إلى شرق وغرب دام أكثر من أربعين سنة أوشكت أن تجعل تقسيم الشعب الألمانى أبدياً) - تعثر وأضاع مجده فى مزالق النموذج الأمريكى، وكان المنزلق الذى تدحرج «كول» إليه هو «الإعلان» يُعَوِّض ما يُقَصِّر فيه «الإعلام» من الحملات الانتخابية، ولم يجد «كول» كفايته من مصادر التمويل الظاهرة (الكافية لتمويل الحملات الإعلانية) فاتجه إلى المصادر الخفية وقوداً لمحركات العمل السياسى. وكان ذلك هو الذى أوقع «كول» من قمة المجد إلى هاوية الفضيحة.

وهكذا فى ألمانيا - وحتى قبل بريطانيا - ثبت أن النموذج الأمريكى فى السياسة له شروط أخرى.

وأصبحت أزمة «بلير» و«كول» درساً يستحق القراءة بعناية.

وفى كل الأحوال فإن التجربة فى نهاية المطاف أصبحت عصراً رابعاً فى وسائل العمل السياسى وممارساته.

....

....

وكان أن دول العالم الثالث، أو معظمها، وهى جميعا وافدة على التجارب السياسية، حديثة عهد بنماذجها - صنعت لنفسها خليطا من كل شىء وصل إلى علمها، أو تابعته فاتبعته متوهمة أنه الزمن الجديد. ثم استفحلت الظاهرة بعد غياب المؤسسين الأول لحركات التَّحَرُّر والاستقلال الوطنى، ممن كان شاغلهم الأساسى مطلب تحرير أوطانهم قبل أى اعتبار آخر.

ثم زاد - على أوهام الزمن الجديد - ومع مراحل أكثر تعقيداً - أن زعماء العالم الثالث - والشواهد كثيرة فى آسيا وأفريقيا - راحوا يطلبون من رعاياهم أن يتحلوا بكفاءة الزمن الإلكترونى، أما هم - هؤلاء الزعماء - فقد أصروا على الاحتفاظ لأنفسهم بسلطان الزمن القبلى.

وكان ذلك تناقضا فى ضرورات الأشياء يضاف إلى تناقض سبقه فى تقليد الأشكال على غير فهم أو على غير اقتناع!

وهكذا فإنه فى التجارب السياسية للعالم الثالث اختلط ملوك «البوربون» مع إمبراطورية «نابليون»، وتداخل «آل رومانوف» مع الحزب الشيوعى السوفيتى بقيادة مؤسسه «لينين»، وساح «كنيدى» و«كلينتون» على «بلير» و«كول»، وأصبحت لوحة العمل السياسى فى هذه البلدان من العالم الثالث أشبه ما تكون بلوحة تجريب لكل مدارس الرسم فى وقت واحد، من الكلاسيكية إلى التأثيرية، ومن التكعيبية إلى السوريالية، ومن التجريد ... إلى الكاريكاتور!

وفى هذا المناخ ظهرت فى العالم الثالث نماذج غريبة لشخصيات أغرب، فالنموذج الإمبراطورى لـ«نابليون» استعاره «بوكاسا» فى جمهورية أفريقيا الوسطى، ونموذج «كوميونة باريس» الثورية الأولى استعاره «بول بوت» فى كمبوديا لأوسع حمّام دَم فى التاريخ، ونموذج «ليوبولد» الذى اعتبر الكونجو ملكاً شخصياً له استعاره «موبوتو» بعد مائة سَنة فاعتبر الكونجو مِلكية مطلقة يحكمها هو لنفسه وبنفسه، ونموذج الرأسمالية الليبرالية استعاره الجنرال «بينوشيه» ليصنع حرية السوق بالنارِ والدَم فى شيلى! وغيرهم، وغيرهم (وقد آثرت اختيار النماذج الأصلية وطبعاتها المستجدة لشخصيات من بعيد دَفعاً للظنون).

وكان ذلك عصراً غريباً وعجيباً فى السياسة، ولا تزال معنا بعض نماذجه إلى هذا اليوم من منتصف السنة الأولى من القرن الواحد والعشرين!

على أن هذه النماذج على تنوعها لا تصنع قاعدة عامة تسرى على العالم الثالث كله - فذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً بإطلاق - والصحيح أنه كانت هناك تجارب تطلعت أمامها وأدارت البصر حولها، ولعلها اتعظت وتَرَوَّت!

....

....

وفى كل الأحوال فإن أوضاع العالم الثالث كله، سواء فى ذلك نماذجه الغريبة والعجيبة فى العمل السياسى ووسائله، أو تلك التى حاولت أن تتعظ وتتَرَوَّى - كانت أحوالاً ترجح التأنى فى الحكم عليها، خصوصاً بالنظر إلى تباين مراحل التطور، وضغوط القوى الخارجية، وتزاحم المذاهب الفكرية، وجموح تطلعات البشر.

وذلك كله كان يُزكى منطق الفيلسوف الذى قال منذ قرابة ألفى سنة : «قل كلمتك وامش»!

وقد قالها وَصفَة لنظرية التغيير بالتطور، ولم يقلها وصفة لنظرية التغيير بالانقلاب، فهذه قصة أخرى!

٣

... «الولايــــــة» والإدارة

ربما أضفت أننى ألتزم - ربما - أكثر من غيرى - بمنطق «قل كلمتك وامش»، ولى فى ذلك أسباب.

مقدمة الأسباب أننى أنتمى إلى منهج فى العمل الصحفى هو أقرب إلى التقرير الإخبارى: بمعنى أنه التمهيد لأى موضوع بالوقائع الرئيسية فيه والمستجدة عليه، ثم يتبع ذلك طرح الأفكار الرئيسية المحيطة بهذا الموضوع، وفى الآخر يجىء الدور على استخلاص المعانى والدلالات، وهكذا فهو بالتسلسل المنطقى:

- وقائع - أى خبر أكيد ومُوَثَّق قدر ما هو ممكن.
- تحليل للخبر دقيق وواضح قدر ما هو متاح.
- وفى النهاية تعليق أو رأى صريح - ومسئول - قدر ما هو مُستطاع!

ومثل هذا المنهج بالطبيعة لا يحتمل طول الوقوف ولا شدة الإلحاح لأنه منهج يسعى أو يحاول السعى إلى عقل قارئه، ولعله يستثيره للحوار معه فى إطار متفق عليه، ويشارك معه فى مناقشة هذا المتفق على إطاره - وتحليله، ثم استخلاص رأى فيه قابل لدرجات من التعدد دون الارتداد مرة أخرى إلى الخلاف على مُسلَّمات وبدهيات، وإلى الصراع على مداخل ومقدمات - وذلك ما يحدث معظم الأحيان ويُحَوِّل كل حوار إلى صدام، وكل مناقشة إلى فُرقة تعيد نفسها كل مرة، وتعود لتبدأ قصة الحياة من نبضة الخلية الأولى!

....

....

يلحق بذلك أن الثورة المستجدة على وسائل الإعلام فى زماننا تُزَكى هذا المنهج وتدعو إليه بحقائق الأمور، ذلك أن تعدد المصادر وتدفق المعلومات وقدرة الصور على نقل الوقائع وضخ الإيحاءات - تجعل مناهج أخرى فى العمل الصحفى سلالات معرضة للإبادة فقدت مناعتها فى مناخ لم تعد قادرة على الحياة فيه! ومن ذلك مثلاً منهج «التعبئة»، ومنهج «الإنشاء»، ومنهج «الإثارة» - فهذه المناهج كلها تعتمد لغة الضغط والإلحاح، لكن تعدد المصادر وتدفق المعلومات وقدرة الصور تقتضى تفتحاً وقبولاً واستعداداً يستجيب للمتغيرات.

وإذن فهذا المنهج: «قل كلمتك وامش» يمثل لى - أولا - خياراً مهنياً - ثم هو يتمثل أمامى - ثانيا - منطق عصر.

هناك بعد ذلك عامل ذاتى يكاد يلزمنى بمنهج «قل كلمتك وامش»، وملخصه أننى أستشعر فى أعماقى انحيازاً بجزء من قلبى إلى «زمن معين»، وهذا انحياز لا أخفيه ولا أداريه، وهو انحياز لا يغرينى به حنين إلى ما مضى، وإنما يشدنى إليه اقتناع حقيقى بأهمية تجربة إنسانية كبيرة تمثل المساحة الفعلية لحيوية الأمة العربية فى القرن العشرين.

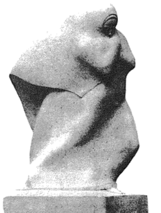
ولعلى فى ذلك متأثر بمدرسة أستاذ التاريخ العظيم «إريك هوبسباوم» الذى يرى أن القرون لا يصنعها تعداد السنين (مائة سنة)، وإنما تصنعها كثافة الأحداث وعمر وعمق التجارب الحية والفاعلة فى حركة المجتمعات الإنسانية، أى أن«هوبسباوم» لا يضع فى حساب التاريخ سنوات الطفولة ولا سنوات الشيخوخة ولا فترات النوم: لأن الطفولة بلا إرادة، والشيخوخة بلا قوة، والنوم - فى أحسن أحواله - أحلام جميلة بلا فعل مفيد!

هكذا فإن القرن العشرين فى حساب «هوبسباوم» (وبالتقويم الغربى) هو الفترة التى بدأت مع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، واختتمَت بنهاية الحرب الباردة سنة ١٩٩١. أى أن القرن العشرين على هذا الأساس وبحساب «هوبسباوم» ليس مائة سنة، وإنما هو ٧٥ سنة فقط - والباقى وهو ٢٥ سنة ليس داخلا فى حساب التاريخ الغربى لأنه مُوَزَّعٌ بين الطفولة والشيخوخة والنوم!

وإذا أخذت بهذه القواعد فى حساب القرون فظنى أن حساب القرن العشرين (بالتقويم العربى) هو الفترة من أعقاب الحرب العالمية الأولى والثورة المصرية سنة ١٩١٩ (وقد تزامنت إلى حد كبير مع الثورة العربية فى الشام وشبه الجزيرة العربية، ومع إعلان وعد «بلفور» بوطن لليهود فى فلسطين) - ثم إن هذه الفترة امتدت إلى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣. وهكذا فإن القرن العشرين (بالتقويم العربى) وفق هذا الظن ليس مائة سنة، وإنما هو خمسون سنة على وجه التقريب، أى أنه نصف قرن من حيوية التاريخ. (وليست هناك حاجة بأحد إلى اصطناع الأدلة وسوق البراهين، ذلك أنه حينما «تقول» أى سياسة و«تتصرف» على أساس «أن أكثر من ٩٩٪ من أوراق أهم قضاياها لم تعد فى يدها» - فمعنى ذلك ببساطة أن إرادتها لم تعد عنصراً فاعلاً فى تقرير مصائرها، وهذا بدوره يعنى أنها هاجرت من التاريخ أو استعفت!)

وربما أضفت أن حيوية التاريخ - فيما أحسب - هى الخروج - بيقظة واستعداد - إلى متغيرات العصور، والتعامل معها، وقبول تحدياتها وصراعاتها، والتفاعل مع أحلامها وطموحاتها، وليس القعود وتجنب المخاطر طلباً للسلامة بظن أن الخروج إلى الطريق العام (مجرى الحركة التاريخية) يُعَرِّض السائرين عليه لمفاجآت القدر ولو تحت عجلات سيارة مسرعة، وبالتالى فإن الاختباء أسلم - وظنى أن الاختفاء من القدر يساوى الاختفاء من التاريخ!

لكنى - وهنا النقطة التى أقصدها بعد هذا الاستطراد - أُذكِّر نفسى دائماً بحقيقة أننى



منحاز - كما قلت - ولو بجزء من قلبى، ومع أنى أحاول ألا أسحب هذا الانحياز على عقلى موقناً أن حركة التطور لا تتوقف - إلا أننى أتَحَوَّط - أو أحاول - ولهذا ألزم نفسى بمنطق «قل كلمتك وامش»، وتحسبى أن الإلحاح إذا جاز من غيرى فهو غير جائز لى (هذا مع العلم بأننى لا أعتقد بوجود إنسان غير منحاز إلى ناحية أو أخرى، فانحياز البشر جزء من طبيعة البشر وإلا فَقَدَ الإنسان إنسانيته وتَحَوَّلَ جماداً لا يحس، ولا يشعر، ولا يُقبل على أشياء ويعرض عن غيرها بوازع شعور أو ضمير، وهذه مسألة يطول الشرح فيها وكذلك التفسير!)

والخلاصة أننى مستعد للاعتراف بانحيازى (حتى وإن أنكر غيرى)، ثم إننى أغالب بالعقل هذا الانحياز (جهد الممكن)، ناظراً إلى مستجدات يتواصل فعلها ويشتد فى حقبة من التاريخ الإنسانى فوارة (بالعلم والتكنولوجيا والمعرفة والثقافة) وبمعدلات ووتائرلم يسبق لها مثيل طوال تجربة البشر فى صنع القرون على مسار التاريخ!

ولعله من هنا أننى أحاول أن أراجع نفسى باستمرار فيما أقوله عن شئون السياسة الداخلية، متمهلاً قبل أن أقول، ماشياً دون تلكؤ بعد القول.

....

....

تضاف إلى أسباب مراجعة النفس أسباب أخرى تدعو إلى منهج «قل كلمتك وامش»، وهى أسباب عاطفية أو تكاد أن تكون كذلك:

— منها أننى قلت كثيرا طول حياتى، وآن أن أجعل من الكثير قليلا!

— ومنها إحساسى بأنه كما أن القرون لها حسابات تطول أو تقصر، فإن البشر لهم أعمار صلاحية افتراضية لا بد أن تحذف منها هى الأخرى سنوات الطفولة والشيخوخة والنوم، ولعله من الخير للمشتغلين بالشأن العام أن يرجعوا بمسافة إلى بعيد (وليس إلى وراء)، وأن يتركوا للناس - إذا شاءوا - أن يسألوهم «لماذا ابتعدوا؟» بدل أن يسألوهم «لماذا يتلكئون بعد فوات الأوان؟». ومن هنا ما قلته فى يوم من الأيام بأننى أفضِّل أن يسأل الناس - إذا سألوا - «لماذا لا يكتب هذا الرجل؟!» - بدل أن يسألوا «لماذا يكتب هذا الرجل؟!»

وهكذا فإننى - ومنذ أكثر من ربع قرن - آثرت أن يصل صوتى إلى الناس من بعيد، وأن يصل رفيقاً بالوقائع والناس والظروف التزاماً بأصول منهج، واقتناعاً بمنطق عصر، واتساقا مع مشاعر ذاتية تختلط فيها التجربة - مع الأمل المتجدد - مع حركة التطور المتقدمة فى الزمان إلى أمام، ولعل ذلك - بدوره - تزكية إضافية - رابعة أو خامسة - لمنهج ومدرسة «قل كلمتك وامش»!

وتظل هناك غير المنهج والمدرسة والذاكرة والمشاعر - حقائق موضوعية هامة تستدعى - ولا أقول تفرض - منطق «قل كلمتك وامش» - فى أى محاولة للاقتراب من الشئون السياسية الراهنة فى مصر.

وأولى هذه الحقائق الموضوعية أن النظام السياسى المصرى الحديث نظام رئاسى له خواص ينفرد ببعضها ويشترك فى بعضها الآخر مع أنظمة مثيلة له معاصرة.

ولعلى أوضح بداية أننى أعنى بالنظام الرئاسى ما يفهمه العالم كله من مدلول هذا التعبير، فالنظام الرئاسى فى الولايات المتحدة مثلاً يعنى الإدارة - فهى «إدارة كلينتون»، وقبله «إدارة بوش»، وقبلهما إدارة «ريجان»، وهكذا.

لكننا فى مصر - وفى العالم العربى - نتحدث عن الولاية ولا نتحدث عن الإدارة، وذلك تعبير شاع - فى مصر على الأقل - أيام الرئيس «السادات» وتكَرَّرَ مراراً بعد سنة ١٩٧٣، واستعاده الرئيس «السادات» فى أكثر من مناسبة قال فيها أنه «منذ ولاه ربه على هذا الشعب» فعل كذا وكذا، أو حدث هذا أو ذاك، أى أن الأساس هو «الولاية» وما بعده ترتيب عليه، وهنا المشكلة.

والشاهد أنه إذا كان فى استطاعة ملوك القرون الوسطى وخلفاء العصور الإسلامية أن يتحدثوا عن ولاية آلت إليهم من الله - وهُم ظله على الأرض - فإن مثل هذا الحديث اسَتحالة فى أزمنة الدساتير والقوانين والمواثيق والعهود الإنسانية الكبرى، وفى أزمنة جرى فيها ترويض أعتى الأنظمة الملكية، ووقع إرغامها على أن تضيف «الدستورية البرلمانية» لاحقة بالملكية فى الوصف وسابقة عليها فى الحقيقة! - ثم قضت على الملكية أن تكون محصورة فى المراسم لا تتجاوزها إلى سلطة الحكم - وهكذا رسمت واستقرت حدود:

■ نظم برلمانية - وبعضها ملكى! - وفيها فإن رئاسة الدولة مختصة بالمراسم، وأما القوة الحقيقية فمع الأغلبية فى المجلس النيابى (وذلك مثلاً ما نراه فى إسرائيل).

■ نظم رئاسية - وفيها فإن رئاسة الدولة هى المسئولة عن الإدارة، مع وجود تمثيل شعبى يختص

بالمتابعة والرقابة دون أن يتدخل فى الإدارة.

والذى يحدث أن العالم المتقدم يعرف ويتصرف على أساس أن السلطة تفويض مؤقت من شعب يملك الولاية - بمعنى السيادة - فى حوزته، ثم هو يُفَوِّض بالانتخاب الحُرِّ بعض تنظيماته وأفراده بإدارة شئونه السياسية، مُتَعَرِّضين طول الوقت للحساب باعتبارهم «إدارة» (وليس ولاية) كما فى الولايات المتحدة الأمريكية - وهكذا فإن الكل : يُحاوِر «الإدارة» - وبالشدة أحياناً كما حدث للرئيس «كنيدى» بعد محاولته الفاشلة لغزو كوبا سنة ١٩٦١ - ويُعارِض «الإدارة» كما حدث للرئيس «جونسون» بسبب حرب فيتنام - ويُحاكِم «الإدارة» كما حدث للرئيس «بيل كلينتون» بسبب تصرفات شخصية تجاوز بها حدود اللياقة ولو لم يتجاوز حدود القانون فى قضية «مونيكا لوينسكى» - ويعزل «الإدارة» كما حدث للرئيس «ريتشارد نيكسون» لأنه خَدَعَ الرأى العام الأمريكى وكذب عليه كما حدث فى فضيحة «ووترجيت»!

لكن مقولة «الولاية» ما زالت تتردد فى مصر (وفى غيرها)! - ومعها تطرأ إشكالية حساسة ومُعَقَّدة فى نفس الوقت.

ذلك أنه إذا أراد أحد أن يتحدث عن السياسة فسوف يجد نفسه - حتى إذا لم يرد - موجهاً حديثه إلى رئاسة الدولة مباشرة، لأنها الإدارة المسئولة عن القرار السياسى طول مرحلة التفويض (وليس الولاية)، وإذا وقع الاتفاق على أن مناقشة القرار السياسى أصلاً وفصلاً هى المنشأ والجوهر فى أى كلام أو كتابة فى السياسة، فإن الإشكالية تطرح - بل تفرض - نفسها!

ومعها مأزق متعدد المستويات :

ـــ المستوى الأول أن اعتبار الرئاسة - إدارة هو الحق الذى يقوم على أصلٍ وسَنَدٍ فى النظام الجمهورى الرئاسى.

ـــ والمستوى الثانى أنه إذا كان ذلك فمن الظلم توجيه الحديث إلى وزير أو إلى وزارة، لأن الواقع متجاوز للاثنين - الوزير والوزارة - وهو منوط بتفويض شعبى ودستورى مُنِحَ للرئيس ولم يُمنَح لغيره، فالآخرون جميعاً رجاله، بما فيهم رؤساء الوزارات، لأنهم اختياره وحده وتحت مسئوليته، وحتى إذا ابتدأ الحديث مُوَجَّهاً إليهم فهو بعدهم واصلٌ بحقائق الأمور إلى الرئيس باعتباره المسئولَ المُفَوَّض بالإدارة.

ـــ والمستوى الثالث أنه مع حديث «الولاية» (وشدة الإلحاح عليه) فإن الحوار والجدل مع «وَلِىِّ الأمور» يبدو غير لائق، ويصبح مُتَجاوِزاً للتقاليد والأعراف - والأدب - (وأحياناً مُتَجاوِزاً للقانون) - وذلك فى معظم الأحوال حاجز - ولو بالمراسم - يباعد بين «الوالى» وبين «الرعية»!

....

....

والشاهد أننى واجهت هذا المأزق بنفسى مع ثلاثة رؤساء، وفى حين قبل منى «جمال عبد الناصر» ما قلته حواراً وجَدَلاً مع سياساته (ولم يقبل بسهولة من زملاء لى فى «الأهرام») - فإن حوار تلك الفترة وجدلها - ليناً وشدةً - كان من أظهر وأشهر قسمات التجربة السياسية والفكرية فى منتصف الخمسينات وحتى معظم الستينات من القرن العشرين!

ثم عدت وواجَهْتُ نفس المشكلة - فى ظروف مختلفة - مع «أنور السادات»، وقد قبل الرجل - منى ومن غيرى - حواراً وجدلاً مع سياساته حتى سنة ١٩٧٤، ثم بدأ يضيق ذرعاً حتى نفد صبره فى أواخر السبعينات وأول الثمانينات، فأحالنى - وآخرين غيرى - إلى المُدَّعى الاشتراكى، ثم اختصر الإجراءات ووضعنى - وآخرين غيرى - فى السجن!

ولقد فعلت نفس الشىء مع «حسنى مبارك» ومن بعيد - لاختلاف الظروف والعصور - ومع ذلك فإن الأمر لم يخل من التباس وتعقيد.

ومع أن الرجل حاول أن يتفهم، وكان فى كل الظروف مجاملاً - فإن الأجواء لم تكن ربيعاً باستمرار. وقد أحسست أن ذلك أمر لا حيلة فيه لأحد، والمسئول التباس سياسى ساد طويلاً وثقلت وطاته على الحياة السياسية فى مصر، وهو التباس عدم التفرقة بين «ولاية الرئيس» و«إدارة الرئيس».

مؤسسة الرئاسة تمارس عملها دون مرجعية تتمثل فى نصوص دستورية قاطعة. فالنص «الأعظم» وهو الدستور نفسه (والذى يُقسِم الجميع يمين الالتزام بطاعته) نص تجاوزه الواقع. فبعض مواده ما زالت تتحدث عن «الاشتراكية»، وعن «تحالف لقوى الشعب العامل»، وعن «قطاع عام يقود التنمية»، إلى آخره.. إلى آخره. وهذا كله وغيره لم يعد له وجود فى الحياة الواقعية. ومعنى ذلك أن المرجعية الدستورية للدولة لم تعد حاكمة

وربما أن جزءاً من هذا الالتباس السياسى ثقيل الوطاة ينشأ من أن القرارات التى تتخذها بعض أجهزة السلطة لا تجد لنفسها حامياً غير الرئيس، وسواء كان ذلك بقصدٍ أو دون قصد فإن قرارات هذه الأجهزة تَجُرُّ ذيولها فى نهاية المطاف وتضعها على أبواب الرئاسة (عارفة ربما بغير وعى أن التفويض الدستورى هناك عند هذه الأبواب وليس عند غيرها).

وللإنصاف فإن بعض المهام التى تكلف بها المؤسسات العاملة فى السياسة باسم وسلطة الرئيس أو إدارته لا تستوعب - فى بعض الأحيان - مقتضى ما هى مُكَلَّفة به، ولعلى أزيد الأمر إيضاحاً وتفصيلاً بالقول أنه «بين كل الوزارات التى تشكلت ضمن إدارة الرئيس «حسنى مبارك» فإن وزارة الدكتور «عاطف صدقى» كانت هى الوزارة الوحيدة التى استوعبت لنفسها - وإن بعد تردد - تكليفاً أو مُهِمَّةً واضحة ومُحَدَّدة.»

كان تكليفها هو الإصلاح المالى (أو ما سُمِّى كذلك)، وقد أنجزته تلك الوزارة بإجراءات كانت ولا تزال موضع جدل - لكن حساب أى تكليف يكون على أساس مرجعيته - وكان الإصلاح المالى هو مرجعية وزارة «عاطف صدقى».

ومع أن إجراءات هذا الإصلاح المالى تَحَوَّلَت فى بعض الأحيان إلى جراحة وَصَلَت لأطراف حية من جسم الوطن (خصوصاً طبقات شعبه العاملة) - فإن وزارة «عاطف صدقى» نَفَّذت ما كُلِّفت به بالأعصاب الباردة لجَرَّاح يمشى فى اللحم بسلاحه لكنه يعرف عمله ويؤديه بمثابرة (أقولها بإنصاف مع العلم أننى لا أعرف الرجل، ولم تَزِد كلمات أى حديث بيننا عن عبارات اجتماعية مُختَصَرة كلما صادَفت الظروف والتقينا).

ثم حَدَثَ فعلاً حين اشتدت المعارضة للإجراءات التى اتخذتها وزارة «عاطف صدقى» بموجب ما استوعبته من تكليفها - أن رئيسها وضع نفسه تحت مظلة الرئاسة طالباً الحماية، وخرج الرئيس بالفعل مُدافعاً بإصرار، رافضاً تغيير الوزارة مهما زاد الإلحاح، ثم استبقى هذه الوزارة عُمراً أطول مما عاشته أى وزارة غيرها فى التاريخ المصرى المعاصر. وعندما وصلت مُهِمَّة الإصلاح المالى إلى قرب نهايتها - وإلى القاع من قدرة الناس على الاحتمال - كان الرئيس هو الذى أبلغ «عاطف صدقى» بأن أوان التغيير قد حان.

لكن انصراف وزارة وحضور وزارة غيرها لا يحل الالتباس ولا يخفف وطاته.

٣

زحام حول مؤسسة الرئاسة

إن مؤسسة رئاسة الجمهورية قضية بالغة الأهمية، وهى فى الواقع العملى هذه اللحظة - وقبلها وبعدها - أهم المؤسسات السياسية وأقواها فى مصر، وأوسعها نفوذاً وتأثيراً، لكنه يضاعف من خطورة دورها الآن - عدد كبير من الاعتبارات :

■ الاعتبار الأول أن مؤسسة الرئاسة تمارس دورها القيادى (فى الداخل وفى الخارج) وسط حشد من الظروف المعقدة اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً، وثقافياً أيضاً.

■ والثانى أن مؤسسة الرئاسة تمارس هذا الدور القيادى منفردة تقريباً، فهى وحدها مصدر القرار، وهى وحدها جهة المتابعة، وهى وحدها سلطة المراجعة فى وقت تشحب فيه قدرة وكفاءة أجهزة أخرى.

■ والثالث أن مؤسسة الرئاسة تمارس عملها دون مرجعية تتمثل فى نصوص دستورية قاطعة، فالنص «الأعظم» وهو الدستور نفسه (والذى يُقْسِم الجميع «مخلصين» يمين المحافظة عليه!!) نص تجاوزه الواقع، فبعض مواده ما زالت تتحدث عن «الاشتراكية»، وعن «مُدَّعٍ اشتراكى» يطارد ويعاقب الخارجين عن مبادئها، وعن «تحالف لقوى الشعب العامل»، وعن «قطاع عام يقود التنمية»، إلى آخره.. إلى آخره - وهذا كله وغيره لم يعد له وجود فى الحياة الواقعية، ومعنى ذلك أن مرجعية النص الدستورى (رغم القَسَم) لم تعد حاكمة لأنها فارقت زمنها أو أن الزمن هو الذى فارقها!

■ والرابع وهو متصل ولصيق بما سبقه أن مصر تخضع منذ سنة ١٩٨١ لقانون الطوارئ، وهو قانون يعطى للسلطة التنفيذية صلاحيات غير مقيدة بأى ضمان، وذلك يراكم فى مكان واحد سلطات غير مسبوقة فى تاريخ مصر الحديث.

■ والاعتبار الخامس أن المؤسسات الأخرى الفاعلة فى تنظيم الدولة (وأولها المجالس النيابية) تَعَرَّضَت لظروف خَصَمَت من شرعيتها حتى قبل أن تتقدم لممارسة سلطتها (وذلك ما حدث لهيئات ومجالس نيابية على سبيل المثال)!

■ والاعتبار السادس أن المشاركة فى السياسات الإقليمية - وكلها فى حالة تغيير وفوران وقلق - احتاجت إلى اتصالات وعلاقات وتحركات معظمها غير ظاهر وغير معروف وغير محدد - وفى ذات الظروف فإن هناك مواقف والتزامات وتصرفات ترتبت على ذلك، وبقوة الضرورات فإن تلك المواقف والالتزامات والتصرفات يجب أن تبقى محجوبة عن الناس. والأسرار فى العادة

تعطى أصحابها سلطة يصعب إخضاعها للحساب.

وذلك كله ـ وربما غيره ـ أدى إلى تشابك فى علاقات القوة وتقاطع فى خطوطها لم يسبق له مثيل ـ وهو واصل كله إلى مؤسسة الرئاسة.

....

....

ولقد سمحت لنفسى ذات مرة، وكان ذلك قبل خمس سنوات، أن أطرح ضرورة إعادة تنظيم جهاز الرئاسة، متوجهاً بالحديث إلى الرئيس، عارفاً مقامه، ومتأكداً أنها مسئوليته. وهكذا وفى سياق خطاب عام فى معرض الكتاب (وكانت تلك آخر مرة أدعى فيها إلى الحديث فى ذلك المعرض) ـ سمحت لنفسى أن أقول ما نصه :

«إن الظروف الآن تتطلب إعادة تنظيم مؤسسات الدولة وفى مقدمتها رئاسة الجمهورية، حتى يستطيع مكتب الرئيس ومعاونوه المختارون أن يؤدوا مهامهم الحيوية. إن رئاسة الجمهورية فى بلد مثل مصر هى مركز الأعصاب الحساسة للدولة، وبالتالى فهى شأن الجميع، ومن حق أى مواطن الآن أن يدقق النظر ليكتشف أنه ليس فى الرئاسة إلا واحد أو اثنان من المستشارين، ومن الأكيد أن ذلك لا يكفى إذا كان للرئاسة أن تتحمل تبعات ما تتحمل به، وبخاصة فى مرحلة قادمة. ولقد كانت هذه قضية ملحوظة باستمرار، ولأنها حساسة فإن أحداً لم يقترب منها مباشرة... ».

ثم وَصَلتُ فى ذلك الخطاب أمام معرض الكتاب سنة ١٩٩٥ ـ إلى أن أقول :

«وربما أضفت أن رئاسة الجمهورية فى مصر لا تحتاج إلى بيروقراطية ثقيلة بجوار الرئيس، لكنها بالتأكيد فى حاجة إلى مجموعة عالية الكفاءة، شديدة اليقظة، قادرة على المتابعة والاستجابة بسرعة، مستعدة لالتقاط الأفكار، وإنشاء المبادرات، وتصور السياسات وبدائلها ووضعها باستمرار تحت عناية الرئيس».

والحقيقة أن ذلك الرأى الذى قلته فى محاضرة عامة بشأن مؤسسة الرئاسة كان صدى متأخراً لحديث سابق مع الرئيس «حسنى مبارك» فى مرة نادرة تفضل فيها كريماً ودعانى إلى لقائه، ووقتها بدا لى وكأن الرجل يدير فى رأسه متغيرات عصره ويحلم بأن يترك على تاريخ مصر بصمة تدل عليه، وشاغله ـ كما بدا فيما قال ـ أن ما يجرى فى عوالم الفكر والفعل يُحَتِّم على مصر أن تبدأ مرحلة جديدة تتسع لطموحات كل الناس، ولمشاركة كل الناس فى ذات الوقت.

وقد استمعت إليه يومها فى يقظة، وناقشت معه بصراحة، مُدركاً أن وقت رئيس الدولة ليس مباحاً للهدر أو الخفة، وإنما هو وقت ـ بمعايير المسئولية ـ غالٍ ... وأتذكر أننى استأذنته أن أتوقف ـ بشىء مِن الإطالة ـ عند مسألة إعادة تنظيم جهاز الرئاسة باعتباره محرك جهاز الدولة («الدينامو» كذلك قلت).

ولا أظننى ـ بما سوف أتطرق إليه من هنا ـ أذيع سراً، فالموضوع عام، والواقعة سابقة من زمن بعيد، لكن القضية ما زالت هامة ـ هذه اللحظة ـ كما كانت هامة قبلها بوقت طويل.

....

....

فى ذلك اللقاء قبل وقت طويل سمحت لنفسى أن أتحدث فى ذلك الموضوع، وتفضل الرئيس واستوضح قصدى، وأوضحت قدر ما أستطيع. ثم وصلت إلى القول بأن تتابع المتغيرات وتداخل القضايا، وأهمية تقليل الفارق الزمنى بين مشاكل تطرح نفسها وقرارات تستجيب لها ـ أصبحت تفرض الآن تنظيماً مؤسسياً كاقدر وأكفأ ما يكون التنظيم المؤسسى. ثم أضفت ما ملخصه أن هناك ثلاثة نماذج لتنظيم «رئاسة الدولة» يمكن دراستها والاستفادة منها. وهذه النماذج الثلاثة هى :

ــ تنظيم العمل فى «البيت الأبيض» حيث يوجد أقوى نظام رئاسى فى العالم.

ــ تنظيم العمل فى «البيت رقم ١٠ داوننج ستريت» حيث يوجد أقوى نظام برلمانى فى العالم وفيه يقوم رئيس الوزراء بقيادة العمل الوطنى فعلاً، بينما رئاسة الدولة الرسمية ـ الملكة ـ قاصرة على «تشريف» المراسم لا تزيد بعدها.

ــ وأخيراً تنظيم العمل فى بيت الرئاسة فى «فوبورج سانت أونوريه» المشهور باسم «قصر الإليزيه» فى باريس، فهناك يوجد تنظيم فريد توصل إليه الرئيس الفرنسى الأسبق «شارل ديجول» ومزج فيه النظام البرلمانى بالنظام الرئاسى.

وكان ظنى أن دراسة تنظيم العمل فى هذه المؤسسات الثلاثة بواسطة أحد رجال الرئيس الأقربين كفيل بأن يعطى تَصَوُّراً جديداً وملائماً لدور مؤسسة الرئاسة فى مصر. ثم تجاوزت حدى بسماح الرئيس وسماحته واقترحت اسما بالذات أعرف ثقته فيه وقربه منه.

وكان رد الرئيس هو «إبداء خشيته من بناء تنظيم كبير للرئاسة لأن مَن فيه قد يتحولون إلى مركز قوة، ويصبح حاجزاً يمنع ـ أكثر منه جهازاً يعاون.

وكان قولى «أن تلك الخشية ليست محققة بالضرورة، والأمر فى النهاية راجع إليه، لكنه إنصافاً له يحتاج إلى جواره مباشرة ما يطمئنه إلى أن هناك فى ميادين التشريع والقانون والاقتصاد والاجتماع والعلاقات الإقليمية والدولية، والاتصالات الشعبية وغيرها ـ مؤسسة مستقلة تتصل وتحاور وتتابع وفق تعليماته باستمرار، عارفة حدودها، فاهمة أنها ليست حكومة فوق الحكومة».

وكان رأيى، وقد عبرت عنه بوضوح كان اهتمامه يشجع عليه، أنه بغير جهاز كفء وقادر على المتابعة فى رئاسة الجمهورية وتحت توجيه الرئيس، فإن أى جهد يقوم به أى واحد من معاونيه جهد فردى محصور ـ وربما محاصر ـ مهما بلغت درجة كفاءته.

وتساءل الرئيس ـ وأشهد أنه كان مهتماً بالحوار ـ «عما إذا لم يكن من الأفضل ولمنع الازدواج فى الحكم أن يكون مجلس الوزراء بكامله جهاز الرئاسة فى التنفيذ والمتابعة؟»

وسمحت لنفسى أن أواصل عرض رأيى قائلاً أنه «نظراً لتعدد اهتمامات الدولة الحديثة، وتعقيدات المشاكل التى تواجهها، والتَمَدُّد المتَرَهِّل فى دواوين الدولة حتى تلك المختصة



منها بالمتابعة والرقابة ـ فقد يستطيع جهاز نشيط ومتحرك فى الرئاسة أن يخدم الرئيس بأفضل من أى بديل آخر». وعُدتُ هنا فاستشهدت بما جرى فى بلاد أخرى دون أن يؤدى إلى ازدواجية فى السلطة خصوصاً والنظام رئاسى.

وعرضت أنه «فى البيت الأبيض مثلاً فإن للرئيس الأمريكى جهازاً للشئون الداخلية يعمل فيه قرابة مائتين وخمسين خبيرا ومستشارا، ثم أن هناك للشئون الخارجية جهازاً آخر هو مجلس الأمن القومى، وفيه من داخل البيت الأبيض عدا من يحضرون اجتماعاته الرسمية عند اللزوم ـ أكثر من أربعمائة مستشار وخبير ـ وهؤلاء جميعاً يمارسون ـ ولعلم الرئيس وإطلاعه ـ مسئولية المتابعة والرقابة، وهم باسم الرئيس أطراف فى الحوار الذى يصنع القرار الأكثر ملاءمة لسياسة الإدارة مع كل وزارات الدولة ـ ومع الكونجرس بمجلسيه. هذا مع العلم أن الكونجرس الأمريكى هو أقوى هيئة تشريعية ورقابية عرفتها التنظيمات الدستورية فى الدنيا».

وأضفت أن «الحوار بين الرئاسة والهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية المتمثلة فى الوزارة هو سرّ النشاط الفوار فى التجربة السياسية الأمريكية، وهو أيضاً ضمان أكبر مشاركة شعبية، لأن حوار هذه المؤسسات ـ وهو بالطبيعة مفتوح أو محسوس بوسائط الإعلام ـ واصل بالتأكيد إلى عامة الناس وقادر على تمكينهم من قدر كبير من المشاركة فى قضايا العمل الوطنى، خصوصاً إذا كان ما يصل إليهم حصيلة علم ومعلومات واجتهادات مؤسسات قادرة».

ثم أبديت تخوفاً مؤداه «أنه فى مصر وبكل السلطة اللا محدودة لرئاسة الدولة ـ مع تزاحم القضايا وإلحاحها ـ فإن رئاسة الدولة سوف تجد نفسها ـ وحتى لا تعطل دولاب العمل، ودون بدائل كافية تحت نظرها ـ مدفوعة بعض الأحيان إلى الموافقة على ما تقدمه الوزارة إليها، ثم تجىء لحظة تفاجأ فيها مؤسسة الرئاسة بأن الأمور تَعَثَّرَت والمشاكل تراكمت من وراء ظهرها، وأن تدخلها فى الدقيقة الأخيرة عاجل لا يحتمل التأخير!!»

وعلى أية حال ففى ذلك اليوم من زمان طويل قلت ما قلت للرئيس بنفس منطق «قل كلمتك وامش». وبالفعل قلته ومشيت. ثم أعدت قوله ـ دون ملابساته ـ فى معرض الكتاب ومشيت، لكن القضية ما زالت مطروحة حتى اليوم، لأن الرئيس فيما ظهر آثر فى نهاية تفكير وتقدير أن تكون الوزارة «جهازه» وأن يكون الوزراء «هم أنفسهم مكتب الرئاسة».

وفى بداية التفويض الذى مُنِحَ لحسنى مبارك فقد مضى الرجل يحاول لَملمة أطراف الدولة على مهل، كما أنه بحَذَرٍ راح يزيل آثار احتقان وطنى تداخل مع الفترة الأولى من إدارته، ولعله مع اقتراب التسعينات توصل إلى خياره الذى كلف بمقتضاه الدكتور «عاطف صدقى» كى يؤلف وزارة تكون بحقائق الأمور مسئولة أمامه، وكان الاختيار كما أظهرت التجربة معقولاً، لأن الهدف كان محدداً لا يحتمل لبساً ولا تأويلاً، وهو التكليف بالإصلاح المالى حتى يمكن لهذا الإصلاح المالى أن يكون بداية تنطلق منها وعلى أساسها مرحلة تنمية شاملة.

وكانت هذه قضية أعقد، لأن الإصلاح المالى مجرى ملاحى واحد، فى حين أن التنمية الاقتصادية بحر واسع عميق لا تظهر شطآنه، ولا تبين تضاريسه تحت الماء!

....

....

وحدث أن وزارة «عاطف صدقى» استهلكت نفسها فى الإصلاح المالى وأعبائه الاجتماعية ـ وانعكس ذلك فى حالة ضيق عام ـ خصوصاً مع توسع وزير المالية وقتها فى حملة جباية للضرائب والرسوم بكل الوسائل قديمة وجديدة ـ ثم ترافق ذلك مع ظهور موجة من العنف والعنف المضاد قاسى منها المجتمع المصرى ـ ولا يزال.

لكن ذلك كله اعتبر مخاطرة مقبولة فى سبيل تحقيق الإصلاح المالى، وحتى تتهيأ الأرض والقاعدة لمرحلة التنمية الشاملة، خصوصًا وقد تحقق ـ للإنصاف ـ إنجاز يستحق التقدير فى تجديد منشآت البنية الأساسية، وهذا تمهيد لم يكن هناك غنى عنه قبل الانتقال بالتغيير إلى مرحلة التنمية الشاملة..

وعندما حان وقت التغيير ـ وأنا هنا أتحدث عن متابعة للحوادث لا أملك وراءها علماً مباشراً أستند إليه ـ فقد وقع اختيار الرئيس على الدكتور «كمال الجنزورى» مسئولاً أمامه عن مرحلة جديدة يحكمها منطق أنه إذا كانت مرحلة الإصلاح المالى هى المدخل إلى المستقبل ـ فإن مرحلة التنمية الشاملة هى المستقبل ذاته.

وكنت ـ وغيرى ـ على استعداد لقبول هذا المنطق من داخل فكره العام وفى إطار سياقه المعروف على أمل أن يتحرك العمل الوطنى وأن تكون حلوله سابقة لأزماته، وأن تجىء إجراءاته سابقة لمنجزاته (حتى لو بدا المنطق وصفة جاهزة من صندوق النقد الدولى ومعه البنك الدولى).

وفى البداية فقد رحت ـ وراح غيرى كثيرون ـ أتابع حركة وزارة الجنزورى.

ولأن معرفتي بالرجل كانت سطحية فقد وجدتني من البداية أستغرب بعض مظاهر أدائه العام أو أداء وزارته، ولقد وجدته ـ مثلاً ـ يحفظ أرقاماً كثيرة عن ظهر قلب، ويتكلم دون ورق أمامه، وكان ظني أن طاقة رئيس الوزراء أهم من أن تشغلها وتثقل عليها حِزَم أرقام وجداول، لأن رئيس الوزراء بطبيعة مهمته السياسية يحتاج أكثر إلى أن تشغله منظومات الفكر والتخطيط، وأما الأرقام والجداول فيمكن أن يحفظها مساعدوه أو تذكره بها أوراقه، وأما هو فاهم من الأرقام والجداول سياسات العمل وخصوصاً توصيف وتحديد وسائلها، ثم متابعة تنفيذها. كذلك فقد كنت أتخوف من الكلام المسترسل دون مَراجِع مكتوبة في شئون العمل العام وضوابطه، لأني أرى الكلام مُنزلِقاً في بعض المرات بأصحابه إلى غير ما يقصدون ـ وأحياناً إلى أبعد مما يقصدون!

لكنه قيل لي ولغيري أن الرَجُلَ «كمبيوتر» متحرك، وأن طاقته على الاستيعاب بلا حدود، وأن المشكلات التي يتناولها على أطراف أصابعه (وكان بعض القائلين رجالاً أثق في صواب رأيهم، وبينهم من عرفه عن قرب).

....

....

ثم راحت تستوقفني ملاحظات...

أولها رقم جرى طرحه مفاجأة عن متوسط دخل الفرد في مصر.

وكنت أعرف من أرقام المنظمات الدولية (البنك والصندوق بالذات) أن متوسط دخل الفرد في مصر ما بين ٦١٢ إلى ٦٤٠ دولارا في السنة، ولكن الدكتور «الجنزوري» خرج فجأة برقم جديد ارتفع به دخل الفرد في مصر إلى الضعف وأكثر ـ أي إلى ما بين ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ دولار للفرد في السنة.

وساءلت نفسي، وسألت غيري، وقيل لي بأن الحساب الجديد جرى على أساس قاعدة جديدة (يسمح بها الصندوق والبنك أحياناً)، وبمقتضاها فإنه يمكن حساب قيمة الدخل «بأي عملة على أساس ما تشتريه هذه العملة في وطنها من سلع وخدمات».

ولم أقتنع بالقاعدة الجديدة في الحساب، ثم سمعت من واشنطن أنه كانت هناك موافقة استثنائية على هذه القاعدة إكراماً لمصر وتشجيعاً لسياسة الإصلاح ـ وأيضاً مجاملة للدكتور «الجنزوري»!

وقد تَفَهَّمْتُ ذلك في حينه وإن لم أقتنع به، ذلك أنه إذا تَغَيَّرَت قاعدة الحساب هذه اللحظة فإن تغيير القاعدة يجب أن يسري قبل هذه اللحظة أيضاً لكي يستقيم القياس، وإلا فإن الأرقام تَتَحَوَّل إلى نوعٍ من خداع البَصَر لا تحتاجه مرحلة تنمية شاملة وجادة.

وكانت الملاحظة الثانية التي استوقفتني أن حديث المشروعات العملاقة ملأ الدنيا وشغل الناس، وصعد بسرعة إلى رأس قائمة الأولويات، وفي الصدارة منه «مشروع توشكي»، وكنت أتابع باهتمام، وفي نفس الوقت بحيرة!

وأتذكر أنني في ذلك الوقت سُئِلتُ (والسائل من الأقطاب الكبار في الإدارة): «لماذا لم نشعر بحماستك لمشروع توشكي (وهو مشروع مثير للخيال) ـ كما شعرنا من قبل بحماستك لمشروع السد العالي»؟

وكان ردي:

«إنني غير قادر على الحماسة للمشروع لأنني لا أعرف عنه ما فيه الكفاية ... بل إن ما أعرفه من قبل يدعوني الآن إلى حيرة أشد، فهيئة تعمير الصحاري بحثت فكرته سنة ١٩٦٤، ثم انتهت إلى العدول عنه.

ولست أعرف ما الذي جَدَّ في أمره، ولكن قيل لي أن الدكتور «الجنزوري» لمح إمكانيات المشروع حين كان محافظاً للوادي الجديد، واختار من يومها أن يحتفظ بما لمحه من إمكانيات المشروع ليوم تكون له فيه كلمة نافذة. وحين أصبح رئيساً للوزراء فقد أحس الرَجُل أن ذلك اليوم جاء».

وكان رأيي أنه «ليكن» ـ لكن المشروع يحتاج إلى دراسة دولية تليق بحجمه وتكاليفه، وبمهام تنفيذه وتشغيله. ثم قلت: «إنني بالطبع لا أفهم في المشروعات الهندسية العملاقة، لكنه فيما يتعلق بالسد العالي فإنني تَحَمَّسْتُ له من واقع دراستين وشهادتين:

حدث أنني قرأت خبراً في إحدى الصحف مؤداه أن البنك الدولي عَرَضَ المشاركة في تمويل مشروع توشكي، وسألت في مقر البنك في واشنطن، وتلقيت ما مؤداه «أن أحداً في البنك لا علم له بما نشِر»....ثم بدأت الأخبار تجيء عن ضرورة تقليص حجم المشروع والنزول به إلى قرابة الخمس أو العُشر من حجمه الأصلي، والذي حدث أن بعض التعاقدات. وليس كلها لحسن الحظ. جرت على ما سبق به التفاؤل

■ الدراسة الأولى قام بها البنك الدولي في واشنطن ومعه خبراء أكثر دول العالم تقدماً وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وكلها توافرت على دراسة المشروع تمهيداً لإمكانية مشاركتها في تمويله.

ـ وكانت الشهادة اللاحقة بهذه الدراسة أن مشروع السد العالي: ممكن هندسياً ـ ومفيد اقتصادياً.

ثم كان أن البنك الدولي والدول الغربية الثلاثة عَدَلَت عن تمويل المشروع لأسباب سياسية معروفة الآن ومشهورة ـ وحُجَّتها المُعلنة في ذلك الوقت أن «حجم المشروع أكبر من أن تستطيع طاقة مصر الاقتصادية حالياً أن تتحمله»!

■ وكانت الدراسة الثانية هي ما قام به الاتحاد السوفيتي (وهو بلد مُتَقَدِّم في بناء السدود)، وجاءت دراسة الخبراء السوفيت للمشروع في مناسبة طلب مصر أن يتعاون الاتحاد السوفيتي معها في بناء السد العالي... وهكذا توافر خبراء الكتلة الشرقية على الدراسة، ثم توصلوا إلى الشهادة.

ـ وكانت الشهادة السوفيتية أن مشروع السد العالي: ممكن هندسياً ـ مفيد اقتصاديا.

ثم إن الاتحاد السوفيتي مستعد!

كان ذلك كله أمامي حين تَحَمَّسْتُ لمشروع السد العالي: دراسة دولية على أوسع نطاق ممكن في الغرب المتقدم ـ وفي الشرق المُجَرِّب..

ثم شهادة دولية من الغرب والشرق تشيد بالمشروع وتُزَكِّيه.

وكان الشرط الوحيد الذي بقي معلقاً ـ هو مدى استعداد الشعب المصري لتَحَمُّل الأعباء والتكاليف.

وأبدى الشعب المصري كامل استعداده، وكانت المعارك السياسية والعسكرية والنفسية الهائلة التي دارت حول بناء السد العالي أوضح تأكيد وتعزيز لذلك الاستعداد».

وكانت خاتمة جوابي على السؤال الذي وُجِّهَ إليَّ عن مشروع «توشكي» العملاق هو أنني بأمانة لا أستطيع تحديد موقفي لأني لا أعرف ما فيه الكفاية، وبرغم أنني تابعت عروضاً وشروحاً قدمها مسئولون كبار، فإن ما تابعته لم يصل بي إلى يقين. وفي النهاية فأنا لا أستطيع رفض المشروع ولا أستطيع تأييده لأني لا أملك ما يسند موقفي في الحالتين، وإن كنت أتمنى أن يُعرَض على محافل الهندسة والاقتصاد في العالم حتى نثق وحينئذ نستطيع جميعاً أن نتحمس.

ثم حدث أنني قرأت خبراً في إحدى الصحف مؤداه أن البنك الدولي عَرَضَ المشاركة في تمويل مشروع توشكي، وسألت في مقر البنك في واشنطن، وتلقيت ما مؤداه «أن أحداً في البنك لا علم له بما نُشِر»....

ثم بدأت الأخبار تَجيء عن ضرورة تقليص حجم المشروع والنزول به إلى قرابة الخُمس أو العُشر من حجمه الأصلي، والذي حدث أن بعض التعاقدات ـ وليس كلها لحسن الحظ ـ جرت على ما سبق به التفاؤل قبل أن يفرض الواقع ضرورة المراجعة!

وازدادت الحيرة عندي، وعَبَّرتُ عن ذلك في مقابلة تليفزيونية أذيعَت من بيروت وشوهِدَت على نطاق واسع في القاهرة، واعتبرت مرة أخرى «أنني قلت كلمتي ومشيت».

ثم توافقت مع ذلك مضاعفات تجلت في سَعَة في الإنفاق هُيِئَ لي معها وكأن مصر قد عثرَت على كنزٍ خبئٍ يفوق «كنوز سليمان» (على فرض أنه كانت هناك بالفعل كنوز من أزمنة غابرة تركها «سليمان» وعثرت عليها حكومة مصر في آخر الزمان).

في تلك الفترة بدا وكأن كل شيء سهل ـ وكل مطلب متاح ـ وكل اعتماد جاهز ـ وكل استيراد مباح ـ وكل مشروع دون انتظار لجدواه مقبول ـ وكل اقتطاع من الثروة العقارية خصوصاً في المحافظات البحرية هدية لا تُرَد. ثم إنه في المضاربات التي تعرضت لها الثروة العقارية فكل طلبات للقروض مقبولة وأحياناً أكثر. ولسنتين أو ثلاث طغت موجة من التفاؤل غامرة، وكنت صادقاً أحاول البحث لها عن أساس وسند.

وكان اللافت للنظر أن حجم الدين الخارجي الذي انخفض ـ نتيجة لإعفاءات أمريكية وأوروبية حصلت عليها مصر بعد حرب الخليج، ونتيجة تحويلات لأرصدة مصرية آثرت في أعقاب هذه الحرب أن تعود إلى أوطانها ـ قابلته من الناحية الأخرى زيادة في حجم الدين الداخلي تبدو متصاعدة بانتظام، وبشهادة تقارير البنك المركزي.

وفي الواقع فإن الدين الخارجي كان قد نزل من قرابة خمسين بليون دولار إلى قرابة ثلاثين، ولكن الدين الداخلي زاد من قرابة ستين بليون جنيه مصري إلى أكثر من ١٨٠ بليون جنيه مصري ـ وفي بلد أخذ بمبدأ حرية العملة ـ فإن الدين الداخلي يصبح له ثقل الدين الخارجي وهمّه.

وكان تزايد الدين الداخلي مؤشراً خطراً خصوصاً إذا نُظِرَ إليه على ضوء ما تحذر منه تقارير البنك المركزي عن نقص في الموارد التقليدية التي كانت تضخ الدولار في النظام المالي المصري، وأهمها: تحويلات المصريين في العالم العربي ـ وعوائد قناة السويس ـ ودخل السياحة ـ والصادرات تقليدية أو غير تقليدية.

وكانت المشكلة الأخطر في الدين الداخلي هي تكاليف خدمته، أي الفوائد التي تُدفع عنه، وقد ظلت هذه الفوائد تتصاعد حتى وصلت إلى ١٧ مليار جنيه سنوياً، وهو عبء خانق لميزانية الدولة ـ ومع ذلك وبرغم مخاوفي فإن المناخ العام ظل ندياً، وكان هناك فيضٌ من الأرقام الرسمية يوحي بأنه ربيع إلى الأبد وهذه نسماته تهب!

وكان يمكن لسباق الآمال أن يتجاوز حدود التفاؤل لولا سباقات من نوع آخر راحت تكشف في تلك الفترة أمام الناس ما يلفت أنظارهم إلى أن شيئاً ما ليس على ما يرام»!

حديث مستطرد عن السياسة الداخلية

كان السباق الأول ظاهرة تفاقمت فى الحياة الاجتماعية المصرية، وتمثلت فى تكالب على الاستهلاك «مُتَوَحِّش» (!)، وكانت مظاهر «الوَحشيَّة» كثيرة وبينها الأفراح التى تقام فى فنادقَ القاهرة الكبرى (وفنادق خارج القاهرة أيضا).

وكذلك راح الناس يقرءون ويسمعون عن أفراحٍ تتَكَلَّفَ ما بين مليونين إلى خمسة ملايين من الجُنيهات - وبينها ما زاد على ذلك - وأحياناً بكثير!

وكان السباق الثانى - ولعله غير بعيد عما سلف - هو التخاطف لأموال النظام المصرفى والحصول على أكبر ما يمكن الحصول عليه منها، وتحويله إلى الخارج، ثم الهرب.

كان الخطف بعشرات الملايين ومئاتها - ودون مساءلة لمن سمحوا وسَهَّلوا - وكان هؤلاء الخاطفين تسللوا إلى خزائن البنوك تحت جنح الظلام وعبثوا - ولم يكن ذلك بالضبط ما حدث!

وتكررت عمليات الهرب حتى أصبحت قصة كل يوم، وأبطال القصص نوعان من الناس رجالاً ونساءً :

■ نوع كان يقيم فى مصر لكنه كان لا يزال غير مطمئن - كما يقول - إلى «ليبرالية» الاقتصاد، وحين اطمأن تقدم. لكن معرفة هؤلاء بالليبرالية كانت من نوع «خاص» -! - فقد تقدموا، وأمسكوا بما استطاعوا، ثم اختفوا من السوق ومن البلد.

■ ثم نوع آخر قيل أنهم نوابغ سوق أفزعهم غياب اقتصاده الحر عن مصر، وكذلك هاجروا إلى بعيد، لكنهم الآن وقد وجدوا وطنهم يتغير قرروا العودة حتى يساعدوه على إنجاح تجربته ويخدموه بأموالهم وبعيونهم!

لكن هؤلاء الآخرين - أو معظمهم - جاءوا - حين جاءوا - على قانون «يوليوس قيصر» : «جئت ورأيت وانتصرت» - فهُم جاءوا - ومدوا أبصارهم وأيديهم - وأخذوا، وعادوا إلى حيث كانوا مرة أخرى!

والشاهد أن الكل راح يغرف من النظام المصرفى ويعبئ.

ونتيجة هذه السباقات - فإن «وُحوش الاستهلاك»، و«أبطال الهرب» بما تراه العين وتطوله اليد، كلاهما لا يعنيه أن يقفل الباب ولا أن يطفئ النور! - وراءه!

وكانت الأبواب التى تركت مفتوحة بالإرهاق بعد السَهَرِ - المتوحش - الصاخب، أو بالعَجَلَة المطلوبة لِلخروج هربا دون التفات إلى الوراء، هى التى أظهرت الحقيقة أمامَ الناظرين حتى قبل أن يطلبوها بأول سؤال!

وعندما تفجرت خفايا ما جرى سابقاً ولاحقاً - فقد تبين أن هناك خمس ظواهر رئيسية لا بد من مواجهتها :

■ الأولى - أن هناك صرفاً على «المشروعات العملاقة» ضغط على كل الموارد وأخذ لصالح الأجل الطويل حجماً من الاعتمادات لا بد أن يؤثر على الأجل القصير - والراهن. هذا على فرض أن «المشروعات العملاقة» مدروسة بعناية ومؤكدة فى فائدتها.

■ والثانية - أنه حدثت عملية نهب واسعة للنظام المصرفى وهى تستوجب حساباً - لكنها مع الحساب تحتاج إلى إعادة ضبط وتنظيم.

■ والثالثة - أن هناك أزمة فى السيولة سببتها مضاعفات ما جرى، ابتداء من الصرف على مشروعات عملاقة - تحتاج الآن إلى إعادة نظر - وحتى مواكب الهاربين بودائع البنوك وأمرهم يحتاج إلى ملاحقة نيابة وقضاء.

وكان محتماً أن أزمة السيولة سوف تفرض نتائجها التلقائية - وتهدد بتوقف المشروعات - وإلى الكساد والبطالة.

■ والرابعة - وهذه ظاهرة نصف خارجية، أن ذلك كله توافق مع أزمة الأسواق الآسيوية وانخفاض عملتها المفاجئ، وهذا أغرى عددًا كبيرًا من المستوردين بإغراق السوق المصرية بسلع آسيوية رخيصة أزاحت وكَدَّست فى المخازن سلعًا مصرية تَحَوَّلت إلى رؤوس أموال عاطلة، ومصانع مُتَعَثِّرة، وعمالة إلى الشارع!

■ والخامسة - أنه فى النتيجة اشتد الضغط على الجنيه المصرى وتأثر موقفه أمام الدولار، وتلك قضية معقدة تتطلب مواجهة غير قابلة للتأجيل طويلاً بغير حسم!

....

....

وكان التشخيص العام للأزمة أنه حدث تسرب غير محسوب للمال العام قاد إليه تفاؤل سابق لأوانه - ثم تَحَوَّل التسرب إلى نزيف ظهرت عوارضه وعواقبه، وهنا لم يعد فى الإمكان حجب الحقيقة أو التستر عليها، وإنما لابد من مواجهة لها، وكانت المواجهة الممكنة واحداً أو أكثر من حلول لكل منها محاذيره :

■ طبع ورق نقد جديد يغطى الحاجة إلى السيولة - والخطر فى ذلك أنه قد يصبح طريقاً إلى التضخم وانفلات الأسعار.

■ أو جذب تدفقات مالية جديدة من الخارج عن طريق تشجيع زيادة الصادرات - والسبيل إلى ذلك تخفيض الجنيه المصرى إزاء الدولار بحيث تقل أسعار السلع والخدمات المصرية (بما فى ذلك السياحة) ويزيد الطلب - والخطر فى ذلك أنه رهان غير مؤكد، فليست هناك فى مصر سلع فائضة قابلة للتصدير ولا تصدر، كما أن أسعار السياحة فى مصر لسوء الحظ عند المستوى الأدنى وأقل.

■ ثم إن مجرد التفكير فى تغطية الحاجة إلى السيولة بطبع بنكنوت جديد، مضافاً إلى إشارات ولو من بعيد عن احتمال تخفيض الدولار - أدى إلى عملية حبس للدولار تواكبت مع اختناق فى سيولة الجنيه المصرى، لأن أى دولار قديم أو جديد آثر أن يقف فى مكانه حتى يعرف إذا دخل - ما هو سعره؟ وفى نفس الوقت لا يجد نفسه مرهوناً - إذا قرر أن يخرج.

....

....

وحدث موقف مزعج .. لأن الحقائق راحت تفرض ضروراتها بصرامة وحزم..

وفى مواجهة أزمة حقيقية فإن محاولة إدارتها جاءت مدعاة لأسى شديد، فلم يكن هناك - فى معظم الأحيان - نقص فى الكفاءة فقط - ولكن كان هناك - فى بعض الأحيان - نقص فى الكبرياء.

....

....

واستعمل البنك المركزى بعض احتياطياته لدعم الجنيه المصرى فى حدود بليونين من الدولارات (كما يظهر من استقراء تقاريره) - لكن الخطير الذى وقع هو أن مطالب دعم الجنيه



تزايدت مع محاولة للتغطية قادت إلى عثرات لم يكن لها لزوم.

وكان ذلك كله نوعاً من ألعاب القمار خطر.

تتوهم أن لديها أملاً - غافلة عن أن مطالب ومصالح الأوطان لا تُحل بأوراق اللعب!

....

....

ولم تكن المشكلة أن هذه الأزمة التى ضربت النظام المصرفى، والوضع المالى، والنتائج المترتبة على ذلك فى الاقتصاد المصرى - هى الأزمة الأولى، ولكنها الخامسة فى الترتيب.

الأولى - هى المشكلة التى جاءت مع ما سُمِّىَ بالانفتاح فى منتصف السبعينات وحتى أواخرها. وكانت هذه المشكلة شاغل الناس فى حينها وقد تابعوها فى الصحافة وفى المحاكم وفى السجون، وجرى ذلك تحت ضغوط رأىٍ عام صَدَمَه أن جسور العبور إلى التضحية فى أكتوبر ١٩٧٣ تَحَوَّلت إلى جسور عبور إلى الثروة بعد ذلك بسنتين أو ثلاث.

والثانية - هى الطريقة التى طاح فيها بعضهم فى الاقتصاد المصرى خالطين بين الخاص والعام (وبينهم أحد الأصدقاء الأقربين من الرئيس «السادات»)، وقد عصف بمؤسسات قابضة كانت تنظم حركة الشركات، وألغى بهمسة منه أجهزة رقابة كانت تستطيع أن تلفت النظر مبكراً وتُنَبِّه، وقام بتوزيع مئات من توكيلات الشركات الأجنبية الكبرى أخذها من حوزة القطاع العام، وكانت تلك عملية «هندسة» لتوزيع الثروة غريبة، فكل واحد من هذه التوكيلات كان قادراً على صُنع مليونير فى نفس الدقيقة والثانية، ولعلها أول مرة فى التاريخ يتم فيها توزيع الملايين على طريقة take away التى تلجأ إليها محلات الوجبات السريعة، فتبيع لزبائنها ما يأخذونه معهم ليأكلوه حيث يريدون، فى مكاتبهم أو بيوتهم أو حتى سياراتهم)!

والثالثة - أن الفلسفة التى جرت عليها سياسة الخصخصة كانت مقولة «أنها خصخصة الشركات الخاسرة التى لم يعد القطاع العام قادراً عليها - ثم تغيرت المقولة فاصبحت بيع الشركات الرابحة مشروطاً ببناء غيرها أكبر وأحدث - من فوائض أموال الخصخصة. ثم وَقَعت الخصخصة فعلاً ومعها استعمال حصيلة بيع مشروعات القطاع العام الرابحة لسداد مصروفات جارية (قيل أنها تسهيل معاش مُبَكِّر لبعض العاملين، وسداد ديون متأخرة لبعض الشركات).

والرابعة - هى الكارثة التى صنعتها بيوت المال الإسلامية من بداية الثمانينات إلى نهايتها.

ثم جاءت الخامسة - وهى الأزمة الراهنة، وقد تُركَت طويلاً تنتظر دون قرار، وزادت تكاليفها كثيراً عندما أضيفت إليها فوائد التأخير مضاعفة ومركبة!

ثم نزل فوق هذا كله جو من الكآبة أشاعته حوادث مزعجة من مذبحة الأقصر إلى مذبحة الكشح!

....

....

وضمن أعراض الأزمة سرى الشعور بنوع من المرارة مبعثه تَوَهُّم البعض أن ما وقع عرض داهمٌ حَلَّ فجأة فأيقظ الأحلام على فزع. والحَقيقة أن الأزمة زحفت من قبل ذلك إلى حياة الناس وضيقت عليهم، لكن المسكنات كانت تلعب دورها بنجاح، وكانت تلك المسكنات موجبة وسالبة فى نفس الوقت.

ــ الموجب فيها هو حالة الحشد التكنولوجى الكثيف، وهو حشد على نحو شديد الكثافة، وكان قادراً ولو لفترة على أن يجعل ظاهر الأمور يُكذب حقائقها باستمرار - و«يبخ» حولها عُطور التفاؤل منعشة ومعطرة.

ــ وأما السالب فهو واقع أنه مع وجود نوع من التعددية الحزبية فإن وسائل هذه التعددية فى الوصول إلى الناس مغلولة اليد، فى حين أن ألوان التليفزيون - وهو وسيلة العصر - تأخذ الناس إلى استرخاء يصاحبهم حتى مضاجعهم!

على أنه حين تجاوز الشعور بالأزمة محسوسة ومُعاشة - طاقة كل ما هو موجب أو سالب - فإن حدة الصدمة لم يعد فى الإمكان تخفيضها مهما كانت قوة المسكنات وحقن البنج نصفياً أو كاملاً!

وهنا اختلط ما هو مالى بما هو اقتصادى، بما هو اجتماعى، بما هو ثقافى، بما هو دينى، بما هو إنسانى! وسَرى شعور بالإحباط .

وكان أن علت الأصوات وزاد القصف الإعلامى وغير الإعلامى، وكان المقصود بالضجة أن تتوه المسئولية بين أطرافٍ كل منها يتهم الآخر بانه السبب فى الأزمة.

ومع إقالة وزارة وتكليف وزارة أخرى وصل الخلط إلى عنان السماء.

وكانت الأزمة أكبر من وزارة سبقت، وأكبر من وزارة لحقت خصوصاً والوجوه هى نفس الوجوه، والأصوات هى نفس الأصوات مع بعض اختلافات طفيفة لا تكاد تُرى! - أى أنها أعقد من أن تلقى على مسئولية «كمال الجنزورى»، وأخطر من أن تترك لمسئولية «عاطف عبيد».

وهنا أيضا - وبرغم كل شىء - فإن التزامى بمنطق «قل كلمتك وامش» ظل قائماً، على ظن أن كل أزمة لها حل.

وهذه الأزمة كذلك.

لكن الأهم من أزمة تَحل (بفتح التاء) وأزمة تُحَل (بضم التاء) هو أنَ تكون «المؤسسات الشرعية حاضرة باستمرار، وأن تكون «النُخَب من قيادات العمل الوطنى» قادرة طول الوقت. وهنا يصل الحديث إلى نقطة هى قلب المستقبل ذاته! ■

٤

الحضانات ـ الحافظات لقيادة العمل الوطنى

في كل ما يُقال ـ أو لا يُقال ـ من أسباب، وما يُشار إليه ـ أو لا يُشار ـ من المشاكل والأزمات ـ فإن تحدى المستقبل هو الأولى بالرعاية والعناية. ليس فقط لكل الدواعى المعروفة والتقليدية عن أهمية المستقبل فوق الماضى والحاضر ـ وإنما قبل ذلك وبعده لأن تحدى المستقبل الجديد فى هذا الزمان لم يسبق له مثيل. وفيه ما يصعب تصوره.

والواضح أن تحدى المستقبل مع بدايات القرن الواحد والعشرين هَمٌّ ثقيلٌ خصوصاً أن العالم العربى ـ وكثيرا من دول العالم الثالث معه ـ ما تزال بحساب التقويم العالمى للتاريخ ـ بعيدة حتى عن القرن العشرين. وربما أن بعضها ما زال بعيداً ـ أيضاً ـ عن القرن التاسع عشر.

والشاهد أن «تحدى المستقبل» أغرق فى الكلام كثيراً وأعرض عن الفهم طويلاً ـ وعندما يحل الكلام محل الفهم فى توجيه الأفعال. فإن أضخم وأفخم الألفاظ تصبح أعلاها. وهكذا فإن صنع المستقبل مهددٌ بأن يصبح صناعة الإنشاء.

وكان ذلك طبيعياً مع غياب دور النخب القائدة فى معظم المجتمعات العربية. ومعها ما تبشر به وتدعو إليه ـ عادة ـ من الطموحات المشروعة ومجموعات القيم الحامية.

وكان غياب هذه النخب عن دورها فى صنع المستقبل وبعيداً عن صناعة الإنشاء ـ ظاهرة مخيفة. ذلك أن غياب النخب القائدة فى أى مجتمع يعنى أنه جيش بلا جنرالات ـ أى بلا قيادة تحشد وتخطط وتزحف.

وفى الماضى، وفى الحاضر، وفى المستقبل، فإن النخب فى أى مجتمع هى قياداته ـ جنرالاته ـ وإذا طلب طالب ممن يعنيهم أمر المستقبل وهَمَّه أن يستطلع شكل ما هو قادم ـ فإن أول ما ينبغى له أن يسأل عنه، ويذهب إليه، ويقيس إمكانياته ودرجة استعداده ـ هو «الحضانات» العامة التى تسمح بظهور النخب، وتقدر على فرزها وعلى دفعها إلى مقدمة الصفوف فى مجتمعاتها.

وهنا فى مصر مثلاً فإن «حضانات» النخب المهياة للقيادة فى العصر الحديث (بالمعيار التقليدى للحداثة فى العالم العربى وهى بداية القرن التاسع عشر) ـ تعرض نفسها على النحو التالى :

■ كان «الأزهر» هو حضانة النخبة الأولى التى لعبت الدور الافتتاحى فى الحركة الوطنية السياسية وفى التنبه الثقافى منذ بداية ذلك القرن التاسع عشر ـ وقد برز من هذه النخبة رجال من طراز ووزن الشيخ «عبدالرحمن الجبرتى» والشيخ «حسن العطار» والشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» (وقرب نهاية القرن كان الأزهر ما زال حضانة نخب من أمثال الشيخ «محمد عبده» والشيخ «مصطفى المراغى» والشيخ «محمود شلتوت»).

■ وكانت ملكية الأراضى الزراعية (طبقة كبار الملاك ومتوسطيهم) هى حضانة الموجة الثانية من النخب المصرية التى تَصَدَّرَت مقدمة الصفوف أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وكان أبناء هؤلاء الملاك الذين تعلموا أو عادوا من بعثاتهم التعليمية إلى أوروبا هُم طلائع الدولة المصرية المستقلة ـ رجال من أمثال «لطفى السيد» و«واصف غالى» و«محمد محمود».

■ وكانت مهنة المحاماة هى حضانة الموجة الثالثة من النخب خصوصاً هؤلاء الذين تصدوا لقضية الاستقلال ـ رجال من أمثال «سعد زغلول» و«مصطفى النحاس» و«مكرم عبيد». وفى الحقيقة فإن هذه النخب من المشتغلين بالقانون ـ وبالذات المحاماة ـ كانوا هُم الذين قادوا العمل السياسى طوال فترة ما بين ثورة سنة ١٩١٩ إلى ثورة سنة ١٩٥٢.

■ وكان الجهاز الإدارى للدولة خصوصاً أواخر الثلاثينات «حضانة» نخب مؤثرة صنعت ـ الموجة الرابعة ـ رجالاً من أمثال «محمود فوزى» و«عبد المقصود أحمد» و«مجدى وهبة».

وكان هؤلاء واقع الأمر من رجال الصف الثانى الذين علت نجومهم، ومن ثم خرجوا إلى مواقع مؤثرة.

■ وفى تلك الفترة وقبل وبعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ـ فقد بدا أن الحركة الشبابية والطلابية هى «حضانة» الموجة القادمة من قيادات العمل السياسى ـ ووقعت الأنظار على شباب من أمثال «نور الدين طراف» و«فتحى رضوان» و«إبراهيم شكرى». لكن مجىء الحرب العالمية الثانية عطل على نحو ما دور هذه النخبة وإن عاد بعضهم إلى واجهة الصورة فى مراحل تالية.

■ وبعد الحرب العالمية الثانية، وربما من آثار الفوران الهائل الذى أحدثته، فإن الدور جاء على القوات المسلحة لتكون حضانة النخب فى مرحلة عاصفة من تاريخ القرن العشرين ـ وظهر رجال من أمثال «صدقى سليمان» مهندس السد العالى أثناء ملحمة بنائه، و«محمود يونس» مهندس الملاحة فى قناة السويس بعد تأميمها، و«محمود رياض» كبير خبراء الصراع العربى الإسرائيلى (ويلاحظ أننى تجنبت أسماء قادة ثورة يوليو جميعاً وفى مقدمتهم «جمال عبدالناصر»).

■ وبعد ثورة ٢٣ يوليو فقد انفتح المجال لنخب جذبها العمل العام من الجامعات ومن النقابات المهنية (المهندسين من أمثال «عزيز صدقى» و«مصطفى خليل» و«سيد مرعى») ـ وأساتذة الجامعات (من أمثال «على الجريتلى» و«عبد المنعم القيسونى» و«رفعت المحجوب»).

> «حضانات» النخب الرئيسية المهيأة لقيادة العمل الوطنى كانت بالترتيب : الأزهر ـ طبقة ملاك الأراضى ـ الأحزاب السياسية ـ الجامعات ـ النقابات (والنقابات المهنية غالباً، وبالذات نقابات المحامين والمهندسين والمعلمين والأطباء) ـ القوات المسلحة ـ الجهاز الإدارى للدولة

مؤدى ذلك أن «حضانات» النخب الرئيسية المهيأة لقيادة العمل الوطنى كانت بالترتيب : الأزهر ـ كبار ومتوسطى ملاك الأراضى الزراعية ـ الأحزاب السياسية ـ الجامعات ـ النقابات (والنقابات المهنية غالباً. وبالذات نقابات المحامين والمهندسين والمعلمين والأطباء) ـ القوات المسلحة ـ الجهاز الإدارى للدولة.

وكانت حركة هذه الحضانات كلها تياراً عريضا يمكن متابعة حركته ورصدها ـ لكن اللافت أن مراجعة تجربة الحياة السياسية والفكرية والثقافية فى مصر ومنذ أوائل القرن التاسع عشر طرحت ظاهرة تدعو إلى الاستغراب، مؤداها أن «النخب المصرية» تتعرض طول الوقت لعملية تسرب واستهلاك عالية السرعة، متواصلة الإيقاع!

وعلى سبيل المثال فإن النخب التى أفرزتها محاولة النهضة التى قام بها «محمد على» فى بدايات ذلك القرن تعرضت لنوع من الإزاحة بالكشط تنزع منها بعضاً من أعلى وأغنى طبقاتها ـ والمجتمعات الحية ليست مثل اللبن تصح أكثر إذا تخلصت من دسمها، وإنما تحتاج المجتمعات باستمرار إلى كل ما توفره وتثريه عوامل الطبيعة والحياة من تراكم مختزن!

[وهكذا فإن الرجال الذين ساهموا فى مشروع ذلك البِنَاء العظيم أو ظهروا على جوانبه، أطيح بهم بعد ضربه. وفيهم «رفاعة رافع الطهطاوى» الذى وجد نفسه منفياً فى السودان. وبينهم قواد البر والبحر ومديرو المصانع الذين قادوا فى عصر «محمد على» وقد وجدوا أنفسهم إما منفيين فى أعماق الريف، وإما عاطلين تحت أسوار القلعة.

وقرب نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تواصلت عمليات كشط النخب وإزاحتها، ثم تكررت مرات متوالية : مرة لتصفية بقايا عهد الخديو «إسماعيل»، ومرة لقطع دابر ثورة «عرابى»، ومرة ثالثة لاستئصال المقربين من الخديو «عباس حلمى» كى يخلو الجو للسلطان «حسين كامل» والسلطان «فؤاد» بعده. ولم تكن هذه مجرد تغييرات طبيعية، وإنما كانت جميعاً عمليات عنف عرفت السجن مثلما جرى للعرابيين ضباطاً ومدنيين بعد الاحتلال البريطانى، وعرفت المنفى مثلما جرى لأنصار الخديو الأخير فى تاريخ مصر حتى بين الكُتّاب والشعراء، وأولهم «أحمد شوقى».

ثم جاءت ثورة سنة ١٩١٩ وشخصية «سعد زغلول» بكل قوتها وعنفها. وقد تَحَوَّلت الثورة فى مرحلة منها إلى عملية كشط وإزاحة قادها «سعد زغلول» نفسه : فخصومه هُم «برادع الإنجليز» ـ وإقدام «عدلى يكن» على المفاوضة معهم معناه أنه «جورج الخامس يفاوض جورج الخامس» ـ ووصل الأمر إلى حد أنه «الاحتلال على يد سعد وليس الاستقلال على يد عدلى» ـ وكانت هذه أكبر عملية كشط وإزاحة للنخب فى تاريخ مصر الحديث. فقد طالت أكثر العناصر استنارة وأوسعها ثقافة وأكفاها استعداداً للخدمة العامة. وكان الذين كشطوا وأزيحوا من حزب «الوفد» فى تلك الفترة من يمكن اعتبارهم بالفعل «صفوة الصفوة» («La crème de la crème») ـ وقد تمكن «سعد زغلول» بشعبيته الكاسحة من وضعهم جميعاً (حزب الأحرار الدستوريين) وراء سور من العزلة لا يقدرون على الخروج منها. فإذا حاولوا فهى محاولة فار فى مصيدة.

وفيما بعد تكررت انقسامات «الوفد» وكشطت وأزيحت مجموعات من «صفوة الصفوة» ـ طبقة بعد طبقة ـ وبينها على سبيل المثال مجموعة «على الشمسى» ورفاقه، و«أحمد ماهر» ومن سانده من حزب «السعديين» ـ ثم جاء الدور على النجم الأكثر سطوعاً فى تاريخ «الوفد» وهو «مكرم عبيد»، ومن انضم إليه فى حزب «الكتلة». وكانت عملية كشط وإزاحة «مكرم عبيد» قاسية، وهى لم تدفع به فقط إلى الهامش وإنما أخذته إلى المعتقل، وأخيراً أزاحته إلى المنفى بالتغييب داخل الوطن!

■ وحتى فى مجال الاقتصاد فقد جرى كشط وإزاحة واحد من أهم البنائين العظام وهو «طلعت حرب» نفسه. فقد حاصره تحالف نظمه «أحمد عبود» (باشا)، وقاده «حسين سرى» (باشا) [رئيس الوزراء حينئذ]- وآخرون، وساندهم من ساند فى القصر، ورضى عنهم من رضى فى السفارة البريطانية. والنتيجة أن مؤسس بنك مصر أرغِم على التقاعد وأسىء إلى سمعته، واعتَزل معه آخرون شاركوه فيما بنى وشيد.

■ وفى ظروف التجربة الحزبية فى مصر فإن عملية كشط النخب وإزاحتها دفعت بكثيرين من ذوى القيمة المحققة أو المحتملة إلى خارج دائرة الضوء. فقد كانت وزارات «الوفد» بدون استثناء تقال. وفى أعقاب إقالتها يُعفى من مناصب الدولة رجالها المحسوبون عليها، ويحل بدلهم من يملأ مواقعهم من أحزاب الأقلية. وإذا ما حدث العكس وجاء «الوفد» (وغالباً ما كان مجيئه فرضاً على القصر سواء بقوة الرأى العام أو بإملاء السفارة البريطانية لحاجتها إلى نفوذ هذا الحزب فى أوقات الشدة) - فإن كل الرجال المحسوبين على أحزاب الأقلية كان عليهم أن يجمعوا أوراقهم وأن يخرجوا من الدواوين إلى الشوارع.

وتزايدت سرعة عمليات الكشط والإزاحة مع تدهور الحياة السياسية عموماً - وحين هوت الأحزاب السياسية جميعاً إلى القاع الذى وصلت إليه وسط أكوام من الرماد تخلفت من حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢.

ثم استمر التمرغ فى القاع والرماد حتى سقط الحكم الملكى فى يوليو من تلك السنة.

[■ وفى تلك الأيام فإن استهلاك النُخَب لم يقتصر على مجالات السياسة والاقتصاد فحسب، وإنما طال الثقافة والأدب حتى أن نجومًا عالية فى سماء الفكر كادت تتهاوى من اختلال قوانين الجاذبية حولها:

«طه حسين» استهلكه حزب الوفد أو كاد.

و«العقاد» استهلكه الدفاع عن القصر أو كاد.

و«سلامة موسى» استهلكه الإهمال أو كاد.]

■ وعندما قامت الثورة سنة ١٩٥٢ فإن الصورة لم تكن أفضل - ذلك إنه بحكم التغيير الكبير الذى كان مطلوباً فإن شيئاً من الكشط والإزاحة كان مفهوما بدواعيه - لكن العجلة واصلت دورانها إلى محطات مختلفة: تطهير جهاز الدولة القديم - حل الأحزاب - الخلاف مع «محمد نجيب» - المعركة مع الشيوعيين - الصدام مع الإخوان المسلمين - تطبيق القرارات الاشتراكية - تصفية الإقطاع.

وبصرف النظر عن أى قصد فإن كل عملية كشط وإزاحة كانت تخصم من رصيد إنسانى يصعب تعويضه (خصوصاً إذا أضيف إليه نزيف العقول المهاجرة، وإن كانت تلك مشكلة لا تخص مصر وحدها).

....

....

والشاهد أنه فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية القرن العشرين تقريباً، فإن «حضانات» النخب كانت قد قدمت أفضل ما بقى عندها، إما لجهاز الدولة بما فى ذلك وزاراته ومجالسه وهيئاته، أو للقطاع العام وقد أصبح هو القوة الضاربة على جبهة التنمية الشاملة خصوصاً بعد معركة السويس. وفى الواقع فإن تجمع هذه النخب فى جهاز الدولة والقطاع العام كان هو الذى صنع معجزة ما بعد نكسة سنة ١٩٦٧.

على الجبهة الداخلية : فإن هذه المعجزة واصلت عملية استكمال التنمية فى ظروف حرب. فاستمر بناء مشروعات ضخمة أولها مشروع السد العالى ومجمع الألمنيوم. وغيرهما - وفى الوقت نفسه تم دفع تكاليف إعادة بناء القوات المسلحة وتجهيزها للحرب - ومع هذه الأعباء الثقيلة جرت المحافظة على أسعار السلع والخدمات كما كانت قبل الحرب.

وكانت لحظة الذروة فى عطاء هذا الحشد من النخب الباقية فى الدولة والقطاع العام هى الأساس الذى جعل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ممكنة بالنسبة للرجل الذى وضعت الأقدار فى يده سلطة القرار وهو «أنور السادات». وقد اتخذه بشجاعة وجسارة عارفاً أن قراره يقف على أرضية مستعدة.

ثم لم تكد مدافع الحرب تسكت حتى عادت عمليات الكشط والإزاحة تمارس دورها وكأنها الآن مهمة مطلوبة وبإلحاح.

وهكذا فإنه بشكل ما بعد حرب أكتوبر حدث تناد سريع إلى فك التعبئة، لكن ذلك التنادى توسع لـ«يفك» ما هو أخطر وأكبر من التعبئة للحرب. ووقتها ترددت فى الأجواء مقولتان رن صداهما وكأنهما صوت نذير.

■ كانت المقولة الأولى : أن «القطاع العام فات زمنه ولم يعد الآن لازماً».

وربما أن العصور كانت قد اختلفت بالفعل - لكن القطاع العام كان معقل الحيوية الاقتصادية فى البلد وقتها، وموطن أهم النخب التى جاءت بها إلى ساحة العمل الوطنى «حضانات» متعددة.

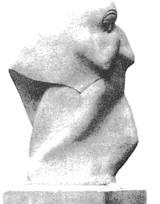
ولأن القطاع العام لم يعد له - وفق هذه المقولة - لزوم، فإن الاستثمارات الجديدة حجبت عن مؤسساته رغم أن الدولة كانت تأخذ فائض نشاطه.

وظل القطاع العام ضحية عملية تجويع حتى بَتَّ الرئيس «مبارك» فى الأمر.

ثم بدأت سياسة الخصخصة - وبالطبع فإن أنشط النخب العاملة فى القطاع العام رأت شكل ما هو قادم، وغادرته مبكراً. وكانت تلك بداية قطاع الأعمال - مجرد البداية.

■ وأما المقولة الثانية فهى أن «حرب أكتوبر هى آخر الحروب».

■ وكان معنى ذلك أن القوات المسلحة، وهى القوة التى كان العمل الوطنى مجنداً لخدمتها بهدف تحقيق قدر كاف من النصر يفتح الباب لاحتمالات أوسع وأبعد فى الإقليم - لم تعد مطالبة بشىء. وعلى نحو ما فقد كان معنى مقولة إنها «آخر الحروب» - أن الوطن لم تعد له استراتيجية عليا يسعى لتحقيقها، وقيل فى هذا الوقت، وما زال يقال حتى الآن، أن السلام هو الاستراتيجية العليا لمصر. والحقيقة أن السلام لا يمكن أن يكون استراتيجية أى بلد فى العالم، وإلا كان معنى ذلك أنه السلام بأى ثمن - وهنا ترخص قيمة السلام! (ومن المفارقات أن إسرائيل تعتبر استراتيجيتها استراتيجية أمن - والسلام نتيجة وليس استراتيجية. وذلك ما تقول به كل قوى الدنيا الفاعلة الحية فى عصرها وزمانها).



(وبدوره فإن السلام كمطلب استراتيجى -! - فتح الباب لفُرقة وطنية فتحت المجال بدورها لعمليات كشط وإزاحة فى كل المجالات من السياسة إلى الثقافة. ومن الجامعة إلى النقابات المهنية، ومن قيادات الأحزاب إلى اتحادات الطلبة - وهكذا.)

ثم كان بعد ذلك أن توالت وقائع.

■ وقع أنه فى هذه الفترة تفجرت حوادث ١٧ و ١٨ يناير ١٩٧٧ - عندما صدرت قرارات برفع أسعار كل السلع مرة واحدة - وخرجت الطبقة المتوسطة (الصغرى) فى اليوم الأول من هذه المظاهرات تحتج على الرفع المفاجئ للأسعار، وووجهت المظاهرات بنزول القوات المسلحة لحفظ النظام، واشترطت قيادة هذه القوات فى ذلك الوقت إلغاء رفع الأسعار قبل أن تنزل قوات الجيش لحفظ النظام، وحدثت استجابة للشرط - مؤقتاً - على نية مبيتة ليوم آخر!

وكان أن شيئا ما فى التركيب الطبقى المصرى ارتبك واختل - ثم وُصِفت حوادث ١٧ و١٨ يناير بأنها «انتفاضة حرامية»، وأعقبها من إجراءات الكشط والإزاحة ما هو لازم للتعامل مع «انتفاضة حرامية»، ومن يومها سكتت الطبقة المتوسطة (الصغرى) فى مصر ولم يعد لها صوت يُسمع - لكن قلبها عليه آثار جرح - مازال!

■ ثم وقع أنه فى نهاية سنوات حافلة بالتوتر جرت اعتقالات سبتمبر ١٩٨١، وجرى اغتيال الرئيس «السادات». وكانت اعتقالات سبتمبر قد طالت مساحة ضخمة من «حضانات» النخب من بين قادة الأحزاب السياسية، ومجالس إدارات النقابات المهنية، وأساتذة الجامعات، والتنظيمات الشبابية والطلابية، وقادة ونجوم الأحزاب السياسية من كل الاتجاهات (وكان الجمع شاملاً إلى درجة أننى رأيت قائد سجون منطقة «طرة» يدخل إلى سجن الملحق وينظر فى باحته ويقول بصوت مسموع تشيع فيه نغمة من الدهشة لم يستطع هذا الرجل المتمرس فى العمل البوليسى كتمانها : «...إن أمامى هنا من المساجين ما يكفى لتشكيل خمس أو عشر «وزارات»!»)

وهكذا فإن حَدَثاً خطيراً (اغتيال رئيس) وتغييراً بالغ الأهمية (مجىء رئيس جديد وسط ظرف خطر) - وقع ومعظم النخب المصرية غَائبة : إما عاطلة بغير وظيفة، أو هاربة تتوقى إجراءات قمع، أو أنها بالفعل وراء قضبان السجن!

....

....

وفى سنوات التسعينات وحتى الآن فقد بان أن قطاع الأعمال الجديد - القطاع الخاص - يطرح نفسه «حضانة» للنخب الجديدة (وتلك على أى حال من قسمات العصر فى كثير من بلدان الغرب) - وكان يمكن الرضى بهذه المقولة بواقع أن هذا القطاع أصبح موطن أو مهجر معظم ما تبقى من نخب الماضى، ومقصد ومطلب معظم القادمين إلى اقتصاد مستجد ومختلف.

لكن المشكلة أن كل ما ظهر من ملابسات سبق شرحها عند نقطة الانتقال من مرحلة الإصلاح المالى - إلى مرحلة الإصلاح الاقتصادى - سحب ضباباً رمادياً على هذا القطاع الجديد أثر على مناخه، والمناخ عنصرٌ هامٌ فى كفاءة ومصداقية «الحضانات» «الحافظات» للنخب.

وهنا القلق المستبد والخوف من آفاق يحجبها الضباب!

(والحقيقة أن تلك كلها ظواهر وأعراض لا تقتصر على مصر، وإنما هى موجودة على نحو أو آخر فى كل بلدان العالم العربى، لكن الصمت هناك سيد الموقف، والشعوب مجبرة عليه بالعنف أو لاجئة إليه بالخوف - وأما مصر - أقولها شهادة حق - فإنها ماتزال قادرة على النظر إلى نفسها فى المرآة، حتى إذا كانت المرآة أحياناً مُقعَّرة تعكس الصور بأقسى من حقيقتها!)

وعلى أى حال فقد قلت ما قلت حتى الآن والمستقبل شاغلى وقصدى بأكثر من الماضى والحاضر.

المستقبل شاغلى وقصدى - وهو قلقى وخوفى - لأنه يطرح سؤالاً رئيسياً لا تصح معه ولا تصدق فيه مقولة «قل كلمتك وامش».

لأن ذلك السؤال الرئيسى - يصل بنا إلى قرب «الحضانات» «الحافظات» للنخب، حيث يكون فى مقدورنا أن نطِل سائلين أنفسنا برهبة:

– هل بقى شىء يقدر على التعامل مع طغيان عصور دخلت علينا فعلاً، وفيها قوى تبغى السيطرة والرضا بهذه السيطرة ارتهان - ومعارف لا غنى عنها وإلا فهو الموت جهلاً - وأدوات يحسن الناس إدارتها فتكون لهم شهادة ميلاد جديد - ومرجعيات سياسية وقانونية تنظم حياتهم فى أوطانهم ويتسق بها النص الواجب احترامه مع الحق الواجب التزامه.

هل بقى شىء؟

وإذا كان فكيف؟ ومتى؟! ■

مؤامرة هزت إيران

جيمس رايزن

طوال ما يقرب من خمسة عقود، كان دور أمريكا فى الانقلاب العسكرى الذى أطاح برئيس وزراء إيران المنتخب وأعاد الشاه للسلطة، مفقوداً بالنسبة للتاريخ، وموضع جدل شديد داخل إيران، وصمتاً مطبقاً فى الولايات المتحدة. وتوالى تقاعد المشاركين أو وفاتهم، الواحد وراء الآخر، دون الكشف عن التفاصيل الأساسية، وذكرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أن سجلات العملية - التى كانت أول عملية ناجحة تطيح من خلالها بحكومة أجنبية - قد أتلفت.

إلا أن نسخة من تاريخ الوكالة السرى الخاص بالانقلاب ظهرت على السطح، لتكشف الأساليب الداخلية لمؤامرة أعدت المسرح للثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩، ولجيل من الكراهية المعادية لأمريكا فى واحدة من أقوى دول الشرق الأوسط.

وتكشف الوثيقة التى مازالت محظورة، الدور المحورى الذى قام به مسئولو المخابرات البريطانية فى بدء الانقلاب والتخطيط له، وتبين أن واشنطن ولندن كانت لهما مصلحة مشتركة فى الحفاظ على سيطرة الغرب على البترول الإيرانى.

ويذكر التاريخ السرى لوكالة الاستخبارات المركزية، الذى كتبه المخطط الرئيسى للانقلاب وحصلت عليه صحيفة «نيويورك تايمز» أن نجاح العملية كان فى معظمه محض صدفة. فالوثيقة تشير إلى أن الوكالة كانت تضمر ازدراء يكاد يكون تاماً للرجل الذى كانت تمكنه من السلطة، وهو الشاه محمد رضا بهلوى، الذى كانت تسخر منه باعتباره جباناً متردداً. وهى تروى لأول مرة جهود الوكالة المضنية لإغراء الشاه وحثه على أن يكون له دور فى الانقلاب الخاص به.

وكانت العملية، التى حملت الاسم الكودى TP-Ajax، هى خطة العمل المفصلة لسلسلة من مؤامرات وكالة الاستخبارات المركزية لتحريك الانقلابات وزعزعة الحكومات خلال فترة الحرب الباردة - بما فى ذلك الانقلاب الناجح الذى رتبته الوكالة فى جواتيمالا سنة ١٩٥٤ والتدخل الكوبى الذى كانت له نتائجه الوخيمة والمعروف باسم خليج الخنازير سنة ١٩٦١ وفى أكثر من مثال، أدت هذه العمليات إلى نفس النوع من العداوة طويلة الأمد تجاه الولايات المتحدة التى حدثت فى إيران.

ويقول التاريخ إن ضباط الوكالة المنظمين لانقلاب إيران عملوا بشكل مباشر مع ضباط الجيش الموالين للشاه، واختاروا بديل رئيس الوزراء، وأرسلوا سيلاً من المبعوثين لتعزيز شجاعة الشاه، ووجهوا حملة من تفجير القنابل التى قام بها إيرانيون تظاهروا بأنهم أعضاء فى الحزب الشيوعى، وزرعوا مقالات ورسوما كاريكاتيرية فى الصحف.

ولكن التاريخ السرى يشير إلى أنه فى الليلة التى حددت لخلع رئيس الوزراء محمد مصدق، لم يسر أى شىء تقريباً وفقاً للخطط التى وضعت بعناية بالغة. فواقع الأمر أن مسئولى وكالة الاستخبارات المركزية كانوا على استعداد للفرار من إيران، عندما سيطر العديد من الضباط الإيرانيين المجندين على مظاهرة موالية للشاه فى طهران واستولوا على الحكم.

ويكشف التاريخ أنه بعد يومين من الانقلاب، أدخل مسئولو الوكالة ٥ ملايين دولار لإيران لمساعدة الحكومة التى أتوا بها فى تدعيم نفوذها.

وكانت الخطوط العامة للدور الأمريكى فى الانقلاب قد كشف النقاب عنها فى إيران فى البداية، ثم فى مذكرات ضباط وكالة الاستخبارات المركزية وروايات أخرى منشورة. إلا أن الكثير من النقاط



المحددة ظلت محظورة. والتاريخ السري الذي حصلت عليه «نيويورك تايمز» هو أول رواية حكومية مفصلة للانقلاب يتم نشرها.

وكانت الولايات المتحدة بطيئة في إتاحة ملفات إيران للاطلاع. وتعهد اثنان من مديري الوكالة، هما روبرت جيتس و ر. جيمس وولسي، بحظر الاطلاع على السجلات الخاصة بأعمال الوكالة السرية، بما في ذلك الانقلاب. إلا أن الوكالة ذكرت منذ ثلاث سنوات أن عدداً من الوثائق ذات الصلة بالانقلاب كانت قد أتلفت في أوائل الستينيات.

وذكر متحدث رسمي باسم وكالة الاستخبارات المركزية أن الوكالة أبقت على حوالي ألف صفحة من الوثائق المتصلة بالانقلاب، إلى جانب التاريخ ورواية تاريخية كتبت في وقت لاحق. كما قال إن الأوراق التي أتلفت في أوائل الستينيات كانت نسخاً وملفات عمل.

وذكر كبير مؤرخي وزارة الخارجية أن مكتبه تلقى نسخة من التاريخ منذ سبع سنوات، إلا أنه لم يتخذ قراراً بعد بشأن رفع الحظر عنها.

وقد تلقت «نيويورك تايمز» التاريخ السري، وكذلك التقييمات العملياتية التي كتبها مخططو الانقلاب، من مسئول سابق كان يحتفظ بنسخة منه.

والواقع أن الانقلاب كان نقطة تحول في تاريخ إيران الحديث، ومازال مصدر ضيق دائم في العلاقات بين واشنطن وطهران. فقد قوى دعائم سلطة الشاه، الذي حكم بقبضة من حديد ما يربو على ٢٦ سنة وهو على صلة وثيقة بالولايات المتحدة. وقد خلعه سنة ١٩٧٩ المتشددون الذين خرجوا في مسيرات إلى السفارة الأمريكية، وأخذوا رهائن من الدبلوماسيين، وأعلنوا أنهم كشفوا النقاب عن «عش الجواسيس» الذين كانوا يتحكمون في إيران على مر العقود.

وأيدت حكومة آية الله روح الله الخميني الهجمات الإرهابية على المصالح الأمريكية تأييداً كبيراً، بسبب التاريخ الأمريكي الطويل في دعم الشاه. وحتى في ظل حكام أكثر اعتدالاً، مازال إيرانيون كثيرون يشعرون بضيق من دور الولايات المتحدة في الانقلاب ومن دعمها للشاه.

وفي كلمة ألقتها في شهر مارس، اعترفت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية بدور الانقلاب المحوري في العلاقة المضطربة مع إيران وكانت أقرب إلى الاعتذار مما كان عليه أي مسئول أمريكي آخر من قبل.

وقالت أولبرايت: «كانت حكومة أيزنهاور تعتقد أن أعمالها لها ما يبررها لأسباب استراتيجية. غير أن الانقلاب كان نكسة بالنسبة لتطور إيران السياسي. ومن السهل أن نرى في الوقت الراهن السبب في أن الكثير من الإيرانيين لا يزالون غاضبين من هذا التدخل من جانب أمريكا في شئونهم الداخلية».

إن التاريخ يوضح الحسابات التي أشارت إليها مادلين أولبرايت في كلمتها. وهو يقول إن بريطانيا هي التي نسجت خيوط المؤامرة سنة ١٩٥٢ وبينما رفضتها حكومة ترومان، قبلها الرئيس أيزنهاور بعد توليه منصب الرئاسة بوقت قصير سنة ١٩٥٣، بسبب مخاوفه بشأن البترول والشيوعية.

الجذور
بريطانيا تحارب تأميم البترول

حقيقة الأمر أن جذور الانقلاب تعود إلى المواجهة البريطانية مع إيران، التي استعصت السيطرة عليها في ظل عقود من الهيمنة البريطانية شبه الاستعمارية.

وكان ما تصبو إليه هو حقول البترول الإيرانية. فقد احتلت بريطانيا إيران في الحرب العالمية الثانية لحماية طريق إمداد إلى حليفها الاتحاد السوفيتي، ولمنع البترول من السقوط في أيدي النازيين - حيث أقصت والد الشاه، الذي رأت أنه لا يسهل قياده، عن الحكم. واحتفظت بريطانيا بسيطرتها على بترول إيران بعد انتهاء الحرب من خلال شركة البترول الأنجلو إيرانية.

وفي سنة ١٩٥١ صوت البرلمان الإيراني لمصلحة تأميم صناعة البترول، وانتخب أعضاء البرلمان المؤيدون للقانون المدافع الرئيسي عنه الدكتور مصدق رئيساً للوزراء.

وردت بريطانيا على ذلك بالتهديدات والعقوبات الاقتصادية. ورفض الدكتور مصدق - وهو محام تلقى تعليمه في أوروبا وكان وقتها في أوائل السبعينيات من عمره ويميل إلى البكاء والجيشان العاطفي - الرجوع عن قراره. ويقول التاريخ إنه في

في كلمة ألقتها في شهر مارس، اعترفت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية بدور الانقلاب المحوري في العلاقة المضطربة مع إيران وكانت أقرب إلى الاعتذار مما كان عليه أي مسئول أمريكي آخر من قبل

الاجتماعات التي عقدت في نوفمبر وديسمبر ١٩٥٢، فاجأ مسئولو الاستخبارات البريطانيون نظراءهم الأمريكيين بخطة تتعلق بعملية مشتركة لخلع رئيس الوزراء المزعج.

ويشير التاريخ إلى أن الأمريكيين، الذين «لم تكن لديهم نية مناقشة هذه المسألة بالمرة»، وافقوا على دراستها. إذ كانت لها جاذبيتها. وكانت معاداة الشيوعية قد بلغت حد الحمى في واشنطن، وكان المسئولون يشعرون بالقلق من احتمال خضوع إيران لنفوذ الاتحاد السوفيتي، الذي كان له وجود تاريخي هناك.

وفي مارس ١٩٥٣ دفع تطور غير متوقع بالمؤامرة إلى الأمام: فقد أورد مركز وكالة الاستخبارات المركزية في طهران أن جنرالاً إيرانياً اتصل بالسفارة الأمريكية بشأن دعم انقلاب يقوده الجيش.

لقد خدعت حكومة أيزنهاور التي بدأت الحكم حديثاً. فالائتلاف الذي انتخب الدكتور مصدق كان في سبيله للتشظي، وأصبح الحزب الشيوعي الإيراني، توده، نشطاً.

ويقول التاريخ إن آلن و. دلاس مدير الاستخبارات المركزية وافق في ٤ أبريل على استخدام مليون دولار أمريكي «بأية طريقة تؤدي إلى سقوط مصدق».

ويمضي التاريخ قائلاً: «كان الهدف هو الإتيان إلى السلطة بحكومة تصل إلى تسوية بترولية عادلة، مما يمكن إيران من أن تصبح قوية اقتصادياً وقادرة على أداء التزاماتها المالية، وتتولى مطاردة الحزب الشيوعي القوي بصورة خطيرة».

وخلال بضعة أيام حدد مسئولو الوكالة ضابطاً كبيراً، هو الجنرال فيض الله زاهدي، ليكون رأس حربة الانقلاب. واقتضت خطتهم قيام الشاه بدور رئيسي.

وكتب المسئولون قائلين: «كانت توليفة الشاه - جنرال زاهدي التي تدعمها الأصول المحلية لوكالة الاستخبارات المركزية ستتمتع بفرصة جيدة لإقصاء مصدق، وخاصة في حالة قدرة هذه التوليفة على استمالة أكبر عدد من الحشود التي في الشوارع، وإذا رفض جزء كبير من حامية طهران تنفيذ أوامر مصدق».

إلا أنه طبقاً لما ذكره التاريخ، فإن المخططين كانت لديهم شكوك بشأن ما إذا كان الشاه يمكنه تنفيذ هذه العملية الشجاعة أم لا. وكانت أسرة الشاه قد استولت على عرش إيران قبل ذلك باثنتين وثلاثين سنة وحسب، عندما قاد والده القوى انقلاباً بنفسه. إلا أن مسئولي الوكالة كتبوا أن الشاه الصغير كان «بطبعه مخلوقاً متردداً، تتملكه شكوك ومخاوف لا وجود لها»، وكثيراً ما يكون على خلاف ما مع عائلته، بمن فيهم الأميرة أشرف، «الأخت التوءم القوية المولعة بتدبير المكائد».

وكان الشاه يعاني كذلك مما أسمته وكالة الاستخبارات المركزية «الخوف المرضي» من المؤامرات البريطانية، وهي عقبة يحتمل أن تقف في سبيل أية عملية مشتركة.

وفي مايو ١٩٥٣ أرسلت الوكالة الدكتور ويلبر وهو أستاذ متخصص في العمارة الفارسية إلى قبرص لمقابلة نورمان داربيشاير، رئيس فرع إيران في الاستخبارات البريطانية، بغرض وضع الخطط الأولية للانقلاب. وكان الحد من مخاوف الشاه يأتي في مقدمة جدول أعمالهما؛ وتشير وثيقة صادرة عن هذا الاجتماع إلى أنه سيتم إقناعه بأن الولايات المتحدة وبريطانيا «تعتبران مسألة البترول أمراً ثانوياً».

وتطرق النقاش في الاجتماع إلى موضوع شائك، وهو هوية العملاء الأساسيين داخل إيران. وذكر البريطانيون أنهم جندوا شقيقين اسم عائلتهما رشيديان.

ويكشف التاريخ أن الأمريكيين لم يثقوا في البريطانيين بشأن هوية أفضل «عملاء» لهم داخل إيران.

وفي الوقت ذاته انقسم مسئولو وكالة الاستخبارات المركزية على إذا ما كانت الخطة التي وضعت في قبرص يمكن أن تنجح أم لا. وحذر مركز طهران القيادة من أن «الشاه قد لا يتصرف بحسم ضد مصدق». كما قال إن الجنرال زاهدي، وهو الرجل الذي اختير لقيادة الانقلاب، «بدا مفتقراً إلى الدافع والحيوية والخطط المحددة».

ورغم تلك الشكوك، بدأ مركز الوكالة في طهران في نشر «دعاية رمادية»، وتوزيع رسوم كاريكاتير معادية لمصدق في الشوارع، وزرع مقالات في غير مصلحته في الصحافة المحلية.

وضع الخطط
محاولة إقناع شاه متردد

كانت المؤامرة قيد التنفيذ، مع أن الشاه كان محارباً متردداً ولم يكن أيزنهاور قد أعطى الموافقة النهائية.

وفي أوائل شهر يونيو، التقى مسئولو الاستخبارات البريطانيون والأمريكيون من جديد، وكان اللقاء هذه المرة في بيروت، حيث وضعوا اللمسات الأخيرة على الاستراتيجية. وبعد ذلك بوقت قصير وصل إلى طهران رئيس قسم الشرق الأدنى وأفريقيا في وكالة الاستخبارات المركزية كيرمت روزفلت، حفيد الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت، لإدارتها.

وكان الشاه يمثل مشكلة منذ البداية. فقد كانت الخطة تقتضي أن يتماسك الشاه عندما تثير وكالة الاستخبارات المركزية أعمال الشغب الشعبية، وبعد ذلك يصدر مرسومين شاهانيين بعزل الدكتور مصدق وتعيين الجنرال زاهدي رئيساً للوزراء.

وجاء في التاريخ السري أن الوكالة سعت إلى «خلق ذلك الضغط على الشاه الذي يجعل توقيعه على الأوراق المطلوبة منه أيسر عليه من رفضه القيام بذلك». وقد لجأ المسئولون إلى شقيقته الأميرة أشرف طلباً للعون.

وفي الحادي عشر من يوليو، وقع الرئيس أيزنهاور التوقيع النهائي بالموافقة على الخطة. وفي الوقت نفسه تقريباً، زار ضباط وكالة الاستخبارات المركزية والاستخبارات البريطانية الأميرة أشرف في الريفيرا الفرنسية وأقنعوها بالعودة إلى إيران وإبلاغ شقيقها العمل بموجب الخطة الموضوعة.

وأثارت عودة الأميرة غير المحبوبة عاصفة من الاحتجاجات من القوى المؤيدة لمصدق. في الوقت الذي غضب فيه الشاه من عودتها دون موافقته ورفض رؤيتها في البداية. إلا أن أحد موظفي القصر - وهو عميل بريطاني آخر، طبقاً لما جاء في التاريخ السري - استطاع الوصول إلى أشرف في ٢٩ يوليو.

ولكن التاريخ لا يكشف ما قاله الشقيقان كل منهما للآخر. إلا أن الأميرة نقلت لشقيقها خبر أن مسئولي وكالة الاستخبارات المركزية أدرجوا الجنرال هـ. نورمان شوارتسكوف ضمن المشاركين في حملة الانقلاب. والجنرال شوارتسكوف، وهو والد قائد حرب الخليج، كانت قد نشأت بينه وبين الشاه صداقة قبل ذلك بعشر سنوات، أثناء قيادته للبعثة العسكرية الأمريكية في إيران، وأبلغ الوكالة «أنه كان متأكداً من الحصول على التعاون المطلوب».

وسعى البريطانيون كذلك للسيطرة على الشاه والتأكيد له على أن عملاءهم يتحدثون

باسم لندن. وفي أواخر شهر يوليو جاءه العميل البريطاني أسد الله رشيديان ودعاه لانتقاء عبارة تتم إذاعتها في أوقات محددة سلفاً ضمن برنامج هيئة الإذاعة البريطانية باللغة الفارسية - كدليل على أن رشيديان يتحدث باسم البريطانيين.

ويبدو أن تلك الممارسة لم يكن لها أثر كبير. فقد أبلغ الشاه رشيديان يومي ٣٠ و٣١ يوليو أنه سمع الإذاعة ولكنه «طلب وقتاً لتقييم الموقف».

وفي أوائل أغسطس زادت وكالة الاستخبارات المركزية من الضغط. فقد هدد العملاء الإيرانيون الذين تظاهروا بأنهم شيوعيون الزعماء المسلمين بـ«عقاب شديد إن هم عارضوا مصدق»، سعياً منهم لإثارة المشاعر المعادية للشيوعية في المجتمع الديني.

وبالإضافة إلى ذلك، يشير التاريخ السري إلى أن منزل شخصية مسلمة بارزة واحدة على الأقل ألقى عليه عملاء الوكالة القنابل باعتبارهم شيوعيين. إلا أنه لم يذكر إن كان هناك من أصيب من جراء هذا الهجوم.

وكانت الوكالة في الوقت ذاته توسع حملتها الدعائية. ومنح صاحب صحيفة كبيرة قرضاً شخصياً قدره ٤٥ ألف دولار «اعتقاداً بأن هذا سوف يجعل صحيفته خاضعة لأغراضنا».

ومع ذلك ظل الشاه على ما هو عليه من عناد. وفي اجتماع عقد في أول أغسطس مع الجنرال شوارتسكوف، رفض التوقيع على مرسومي وكالة الاستخبارات المركزية بإقالة مصدق وتعيين الجنرال زاهدي. فقد ذكر أنه يشك في تأييد الجيش له في أية مواجهة.

وتذكر الوثيقة أنه أثناء الاجتماع كان الشاه مقتنعاً بأن القصر زرعت به أجهزة تنصت، حتى أنه «سار بالجنرال إلى داخل قاعة الحفلات الكبرى، وسحب طاولة صغيرة إلى وسطها بالضبط» وصعد عليها كي يتحدث، وأصر أن يفعل الجنرال الشيء نفسه.

وكما جاء في التاريخ، فإن «هذا الاجتماع أعقبته سلسلة من الاجتماعات التقليدية، بعضها بين الشاه وروزفلت والبعض الآخر بين رشيديان والشاه، حيث مورس فيها ضغط شديد، في محاولات يائسة للتغلب على موقف ثابت يتسم بالتردد والعجز عن اتخاذ أي قرار». وفي تلك الآونة أدرك الدكتور مصدق أن هناك مؤامرة تحاك ضده. وهنا انتقل إلى تدعيم السلطة بالدعوة إلى استفتاء قومي لحل البرلمان.

ومن الواضح أن نتيجة الاستفتاء الذي أجري في ٤ أغسطس زورت لتكون في مصلحته؛ وأوردت صحيفة «نيويورك تايمز» في ذلك اليوم أن رئيس الوزراء فاز بنسبة ٩٩,٩ بالمائة من الأصوات. وكان ذلك بمثابة عون لمخططي المؤامرة، حيث أوجد «قضية يمكن مهاجمة مصدق بشأنها بلا هوادة» من جانب صحافة المعارضة التي تدعمها الوكالة.

كل هذا والشاه يأبى اتخاذ أي إجراء ضد الدكتور مصدق.

وجاء في التاريخ السري أنه «في الثالث من أغسطس كانت لروزفلت جلسة طويلة وغير حاسمة مع الشاه» الذي «ذكر أنه ليس مغامراً، ومن ثم لا يسعه المخاطرة بما يخاطر به أي مغامر. وهنا أوضح روزفلت أنه ما من سبيل غير ذلك لتغيير الحكومة وأن الاختبار بات بين مصدق وقوته والشاه والجيش، الذي كان لا يزال معه، ولكنه قد يفلت من يده عما قريب».



كان الهدف هو الإتيان إلى السلطة بحكومة تصل إلى تسوية بترولية عادلة، مما يمكّن إيران من أن تصبح قوية اقتصادياً وقادرة على أداء التزاماتها المالية، وتتولى مطاردة الحزب الشيوعي القوي بصورة خطيرة» وخلال بضعة أيام حدد مسئولو الوكالة ضابطاً كبيراً، هو الجنرال فيض الله زاهدي، ليكون رأس حربة الانقلاب. واقتضت خطتهم قيام الشاه بدور رئيسي

وأبلغ روزفلت الشاه «أن الإخفاق في العمل لن يؤدي إلا إلى إيران شيوعية أو إلى كوريا ثانية».

فما كان من الشاه الذي كانت لا تزال الشكوك تلح عليه إلا أن سأل روزفلت إن كان بإمكان الرئيس أيزنهاور إخباره بما يفعله.

ويذكر التاريخ السري أنه «بالصدفة المحضة والحظ الطيب، خرج الرئيس، أثناء كلمته التي ألقاها في مؤتمر حكام الولايات في سياتل في الرابع من أغسطس، عن النص المكتوب ليقول ما يوحي بأن الولايات المتحدة لن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترى إيران تسقط خلف الستار الحديدي».

وبحلول العاشر من أغسطس كان الشاه قد وافق في النهاية على رؤية الجنرال زاهدي وعدد قليل من ضباط الجيش المشاركين في المؤامرة. وحينئذ أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية رشيديان كي يقول إن روزفلت «سوف يغادر البلاد وهو في غاية الضيق ما لم يتخذ الشاه إجراء ما خلال أيام معدودات».

وأخيراً وقع الشاه المرسومين في ١٣ أغسطس. وانتشر خبر اعتزامه دعم انقلاب يقوده الجيش بسرعة بين ضباط الجيش المؤيدين للجنرال زاهدي.

الانقلاب
الأيام القليلة الأولى تبدو شديدة السوء

بدأ الانقلاب في ليلة الخامس عشر من أغسطس وعرضه على الفور للخطر ضابط ثرثار في الجيش نقلت ملاحظاته لمصدق.

ويذكر التاريخ السري أن العملية «كان من المحتمل أن تنجح بالرغم من هذا الإنذار المبكر، ما لم يتسم معظم المشاركين بالرعونة وعدم القدرة على اتخاذ القرار في اللحظة الحرجة».

وعلم رئيس أركان حرب الدكتور مصدق، الجنرال تاغي رياحي، بالمؤامرة قبل ساعات من بدايتها وأرسل نائبه إلى ثكنات الحرس الإمبراطوري.

وطبقاً لما جاء في التاريخ، ألقي القبض على النائب هناك في الوقت الذي كان فيه الجنود المؤيدون للشاه يطوفون بالمدينة يقبضون على كبار المسئولين الآخرين. وقطعت خطوط التليفون بين الجيش ومكاتب الحكومة، كما احتل السنترال.

ولكن التليفونات ظلت تعمل بطريقة غامضة، مما أعطى قوات مصدق ميزة كبيرة. كما راوغ الجنرال رياحي الوحدات المؤيدة للشاه، حيث قام بحشد تأييد القادة لرئيس الوزراء.

وألقي القبض على الجنود المؤيدين للشاه الذين أرسلوا لإلقاء القبض على الدكتور مصدق في بيته، بدلاً من أن يقبضوا هم عليه. وفر ضابط الجيش الذي يعمل مع الجنرال زاهدي عند رؤيته للدبابات والجنود الموالين للحكومة في قيادة الجيش.

ويروي التاريخ أنه في صبيحة اليوم التالي أعلنت إذاعة طهران أن الانقلاب ضد الحكومة فشل، وأن الدكتور مصدق سارع بتقوية قبضته على الجيش والمنشآت الرئيسية. وكان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية داخل السفارة يتخبطون؛ ويشير التقرير إلى أنه لم يكن أمامهم «من سبيل لمعرفة ما كان يجري».

غادر روزفلت السفارة وتعقب الجنرال زاهدي، الذي كان مختبئاً شمالي طهران. وما يدعو للاستغراب أن الجنرال لم يكن على استعداد للتخلي عن العملية. واتفق الرجلان على أنه كان لا يزال بإمكان الانقلاب أن ينجح، شريطة القدرة على إقناع الشعب بأن الجنرال زاهدي هو رئيس الوزراء المشروع.

ويبين التاريخ أنه في سبيل تحقيق ذلك كان على مخططي الانقلاب نشر خبر توقيع الشاه على المرسومين.

وبناء على ذلك أرسل مركز وكالة الاستخبارات المركزية في طهران رسالة إلى وكالة «أسوشيتد برس» في نيويورك مؤكداً أن «التقارير غير الرسمية تشير إلى أن قادة المخطط مسلحون بمرسومين من الشاه، أحدهما يقيل مصدق والآخر يعين الجنرال زاهدي ليحل محله».

وأوضح التاريخ أن الوكالة وعملاءها رتبوا كذلك لذكر أمر المرسومين في بعض صحف طهران.

وسرعان ما أحبطت مبادرة الدعاية. فقد ألقي القبض على الكثير من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الإيرانيين أو كانوا مختبئين. وفي ذلك المساء أعد عملاء الوكالة بياناً من الجنرال زاهدي كانوا يأملون في توزيعه على الشعب. إلا أنهم لم يجدوا المطبعة التي لم تكن مراقبة من قبل القوات الموالية لرئيس الوزراء.

وفي السادس عشر من أغسطس تلقت العملية ضربة مميتة، عندما علم أن الشاه قد فر إلى بغداد. وهنا أرسلت قيادة وكالة الاستخبارات المركزية برقية إلى مركز بغداد تحث فيها روزفلت، رئيس المركز، على المغادرة فوراً.

ولكن روزفلت لم يوافق على المغادرة، حيث أصر على أنه لا تزال هناك «فرصة ضئيلة للنجاح»، لو أن الشاه أذاع بياناً من إذاعة بغداد واتخذ الجنرال زاهدي موقفاً شجاعاً.

وكانت أولى دلائل انحسار المد قد ظهرت مع التقارير التي تشير إلى أن الجنود الإيرانيين فرقوا مجموعات حزب توده الشيوعي وضربوها وجعلوها تهتف بتأييدها للشاه. ويروي التاريخ أن «المركز ظل يشعر بأن المشروع لم يمت موتاً تاماً».

وفي تلك الأثناء كان الدكتور مصدق قد أخفق في تحقيق غايته، حيث كان يلعب بين يدي وكالة الاستخبارات المركزية بحله البرلمان عقب الانقلاب.

وأخيراً أعلن الشاه في صبيحة السابع عشر من أغسطس من بغداد أنه وقع المرسومين - مع أنه كان قد تأخر في ذلك كثيراً، الأمر الذي جعل مخططي الانقلاب يخشون أن يكون الوقت قد فات.

وفي تلك اللحظة الحرجة، خفض الدكتور مصدق أعداد حرسه. فبعد أن خدعت الحكومة بمغادرة الشاه وإلقاء القبض على بعض الضباط المشاركين في الانقلاب، استدعت كل القوات التي كانت قد نشرتها حول المدينة، اعتقاداً بأن الخطر زال.

في تلك الليلة رتبت وكالة الاستخبارات المركزية تهريب الجنرال زاهدي وغيره من كبار العملاء الإيرانيين وضباط الجيش إلى داخل مجمع السفارة «في قاع السيارات وفي عربات الجيب المغلقة» من أجل عقد «مجلس للحرب».

وهناك اتفقوا على شن هجوم مضاد في التاسع عشر من أغسطس، حيث أرسلوا رجل دين بارزا من طهران إلى مدينة قم المقدسة في محاولة لتنظيم دعوة إلى حرب مقدسة ضد الشيوعية. (بعد سنوات من ذلك وصفت القوى الدينية، التي كانوا يسعون لاستغلالها، الولايات المتحدة بـ«الشيطان الأكبر».)

وعن طريق أوراق سفر زورتها وكالة الاستخبارات المركزية، ذهب ضباط كبار في الجيش إلى الحاميات النائية لإقناع القادة بالانضمام إلى الانقلاب.

ومرة أخرى خيب الشاه آمال الوكالة. فقد

غادر بغداد إلى روما فى اليوم التالى، فيما يبدو نفياً، وأوردت الصحف المؤيدة للدكتور مصدق أن أسرة بهلوى انتهت، وعزا بيان صادر عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعى محاولة الانقلاب إلى «مؤامرة انجلو أمريكية». وحطم المتظاهرون التماثيل الإمبراطورية - وهو نفسه ما فعلوه بعد ٢٦ سنة أثناء الثورة الإسلامية.

ويومها أبرق مركز وكالة الاستخبارات المركزية إلى القيادة طالباً النصح بشأن «الاستمرار مع عملية TP-Ajax أو الانسحاب».

ونعلم من التاريخ أن «القيادة أمضت يوماً يتسم بالاكتئاب واليأس. وذكرت الرسالة التى أرسلت إلى طهران ليلة الثامن عشر من أغسطس أن العملية تمت تجربتها وفشلت، وأنه فى غياب التوصيات القوية، ينبغى وقف العمليات المضادة ضد مصدق».

النجـــاح
مفاجأة كل من الوكالة وموسكو

فى الوقت الذى كان الأمريكيون يوشكون فيه على التخلى عن العملية، حدث تغير فى الحالة المزاجية فى شوارع طهران.

ففى صبيحة التاسع عشر من أغسطس، نشر العديد من صحف طهران مرسومى الشاه اللذين طال انتظارهما، وسرعان ما تجمعت الحشود المؤيدة للشاه فى الشوارع.

ويذكر التاريخ السرى أن الحشود «كان لا ينقصها إلا القيادة». وهو ما قدمه عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الإيرانيون. وبدون أوامر محددة، قاد صحفى من أهم عملاء الوكالة الإيرانيين حشداً إلى البرلمان، محرضاً الناس على إشعال النار فى مكاتب الجريدة التى يملكها وزير خارجية الدكتور مصدق. وقاد عميل إيرانى آخر من عملاء الوكالة حشداً لتدمير مكاتب الصحف المؤيدة لحزب توده ونهبها.

ويذكر التاريخ أن «خبر حدوث شىء مخيف تماماً انتشر بسرعة كبيرة فى أنحاء المدينة».

وحاولت وكالة الاستخبارات المركزية استغلال الموقف، حيث أرسلت رسائل عاجلة بضرورة قيام الأخوين رشيديان واثنين من كبار العملاء الأمريكيين بـ« استمالة قوات الأمن إلى جانب المتظاهرين».

غير أن الأمور فى تلك اللحظة كانت أسرع من أن تديرها الوكالة. فقد ظهر فجأة عقيد فى الجيش الإيرانى كان مشاركاً فى المؤامرة قبل أيام خارج البرلمان ومعه دبابة، بينما استولى أفراد الحرس الإمبراطورى، الذى كان قد حل فى ذلك الوقت، على الشاحنات وساروا بها فى الشوارع. ويذكر التاريخ السرى أنه «بحلول الساعة العاشرة والربع كانت شاحنات محملة بأفراد الجيش المؤيدين للشاه فى الميادين الرئيسية».

وعند الظهر بدأت الحشود فى تلقى التوجيه المباشر من بضع ضباط شاركوا فى المؤامرة وعدد ممن غيروا مواقفهم. وخلال ساعة سقط مكتب البرقيات المركزى، وأرسلت البرقيات إلى الأقاليم تحث على انتفاضة مؤيدة للشاه. وبعد تراشق قصير، سقطت قيادة الشرطة ووزارة الخارجية كذلك.

وظلت إذاعة طهران الهدف الأكبر الذى يسعون للاستيلاء عليه. وبما أن مصير الحكومة لم يكن معروفاً، فقد كانت الإذاعة تبث برنامجاً عن أسعار القطن. إلا أنه حشداً من المدنيين وضباط الجيش ورجال الشرطة انقض عليها قبل العصر. وتحدث مؤيدو الشاه على الهواء، حيث أذاعوا خبر نجاح الانقلاب وقرءوا المرسومين الشاهانيين.

وفى السفارة، كان ضباط الوكالة يشعرون بالفخر والفرح، وأخرج روزفلت الجنرال زاهدى من مخبئه. وجاء ضابط من الجيش بدبابة وأوصله إلى محطة الإذاعة، حيث تحدث إلى الأمة.

وفى الوقت الذى جرى فيه إحضار الدكتور مصدق وغيره من مسئولى الحكومة، وضع الضباط المؤيدون للجنرال زاهدى «المؤيدين المعروفين لـ "TP-Ajax" على رأس كل وحدات حامية طهران.

فوجئ الاتحاد السوفيتى بما جرى مفاجأة تامة. ذلك أنه حتى فى الوقت الذى كانت تنهار فيه حكومة مصدق، كانت إذاعة موسكو تذيع تقريراً عن «فشل المغامرة الأمريكية فى إيران».

إلا أن قيادة وكالة الاستخبارات المركزية فوجئت قدر مفاجأة موسكو، عندما وصلتها أخبار نجاح الانقلاب. إذ يشير التاريخ إلى أن الأمر «بدا وكأنه نكتة سخيفة، فى ظل الاكتئاب الذى كان لا يزال يخيم نتيجة لما حدث فى اليوم السابق».

وعلى مدار اليوم كانت واشنطن تتلقى معظم معلوماتها من وكالات الأنباء، حيث تلقت برقيتين فقط من المركز. ويبين التاريخ أن روزفلت أوضح فيما بعد أنه لو كان أبلغ القيادة بما يجرى «لظنت لندن وواشنطن أنهم مجانين وطلبت منهم التوقف فوراً».

ومع ذلك كانت وكالة الاستخبارات المركزية تحظى بنفوذ تام داخل الحكومة. وفى العام التالى أطاحت بحكومة جواتيمالا، وظهرت أسطورة تقول إن الوكالة يمكنها الإطاحة بأية حكومة فى العالم. وأثبتت إيران أن صنع ملك من ملوك العالم الثالث أمر قد يتم بسرعة وبعنف.

وجاء فى التاريخ السرى لوكالة الاستخبارات المركزية عند وصف التاسع عشر من أغسطس ١٩٥٣: «كان يوماً ما كان له أن ينتهى. ذلك أنه حمل فى طياته ذلك الإحساس بالفرح وبالرضا وبالابتهاج، حتى أنه من المشكوك فيه أن هناك يوماً آخر يدانيه فى ذلك».

نجاح محدود
لمحاولة استغلال الصحافة الأمريكية

تشير وثائق وكالة الاستخبارات المركزية الداخلية إلى أن مسئولى الوكالة المخططين لانقلاب سنة ١٩٥٣ فى إيران كانوا يأملون فى زرع مقالات فى الصحف الأمريكية تقول إن عودة الشاه محمد رضا بهلوى كانت نتيجة لانتفاضة داخلية ضد الحكومة ذات الاتجاه الشيوعى.

إلا أن تلك الآمال خابت إلى حد كبير. ويشير تاريخ وكالة الاستخبارات المركزية الخاص بالانقلاب إلى أن عملاءها حققوا نجاحاً محدوداً فى توجيه الصحفيين الأمريكيين، وإلى أن أياً من الأمريكيين الذين كانوا يغطون الانقلاب لم يعمل مع الوكالة.

ويبين تحليل للتغطية الصحفية أن الصحفيين الأمريكيين كانوا يبعثون ببرقيات صريحة وتقوم على الحقائق تظهر بشكل بارز دور الشيوعيين الإيرانيين فى عنف الشوارع الذى أدى إلى الانقلاب. ولم ينقل المراسلون الغربيون فى إيران وواشنطن قط أن بعضاً من الاضطرابات كان من إعداد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الذين تظاهروا بأنهم شيوعيون. كما أنهم لم يبرزوا كثيراً التقارير الدقيقة المعاصرة لتلك الأحداث فى الصحف الإيرانية وفى إذاعة موسكو، وكانت تؤكد قيام القوى الغربية بترتيب عودة الشاه فى الخفاء.



كانت الخطة تقتضى أن يتماسك الشاه عندما تثير وكالة الاستخبارات المركزية أعمال الشغب الشعبية، وبعد ذلك يصدر مرسومين شاهانيين بعزل الدكتور مصدق وتعيين الجنرال زاهدى رئيساً للوزراء. وجاء فى التاريخ السرى أن الوكالة سعت إلى «خلق ذلك الضغط على الشاه الذى يجعل توقيعه على الأوراق المطلوبة منه أيسر عليه من رفضه القيام بذلك». وقد لجأ المسئولون إلى شقيقته الأميرة أشرف طلباً للعون

كان ذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بثمانى سنوات وحسب، مما جعل الصحفيين الأمريكيين يدركون المصلحة القومية التى حددتها ست سنوات من المواجهة بين الحلفاء والمحور. وكانت تسيطر على الصفحات الأولى من الصحف الغربية مقالات عن المواجهة الكونية الجديدة مع الاتحاد السوفيتى، وعن تفوق موسكو فى صنع الأسلحة النووية، وعن مزاعم الكونجرس الخاصة بالنفوذ «الأحمر» فى واشنطن.

ويذكر التقرير أنه فى أحد الأمثلة كان من الواضح أن ضابطاً من ضباط الوكالة، كان يعمل صحفياً من قبل، يمكنه استغلال اتصالاته القديمة فى وكالة «أسوشيتد برس» كى يضع بين برقيات الأخبار مقالاً من طهران عن المرسومين الشاهانيين اللذين كانت وكالة الاستخبارات المركزية نفسها قد كتبتهما. إلا أن الوكالة كانت تعتمد فى الغالب على وسائل أقل مباشرة لاستغلال وسائل الإعلام الأمريكية.

وتشير الوثيقة إلى أن قسم إيران فى وزارة الخارجية الأمريكية تمكن من وضع إحدى دراسات الوكالة على صفحات مجلة «نيوزويك»، «باستخدام القناة العادية بين ضابط القسم وأحد الصحفيين». وكان المقال واحداً من تقارير صحفية مزروعة عديدة، حتى أنه عندما أعيد طبعها فى طهران غذت «حرب الأعصاب» ضد رئيس الوزراء الإيرانى محمد مصدق.

ويشير التاريخ إلى أن عملية إيران كشفت نقاط ضعف الوكالة فيما يتصل بتحريك الصحافة الأمريكية. فوكالة الاستخبارات المركزية «كانت تنقصها الاتصالات القادرة على وضع المادة بطريقة لا تجعل الناشر الأمريكى يفطن إلى مصدرها».

ويكشف التاريخ أن أحد ضباط الوكالة، وكان يعمل تحت ستار كونه المسئول الصحفى بالسفارة، نقل بالسيارة صحفيين أمريكيين إلى منزل خارج طهران حيث جرى إطلاعهما على مرسومى الشاه الذى يقيل أحدهما رئيس الوزراء.

وكتب كينيت لاف مراسل صحيفة «نيويورك تايمز» فى طهران أثناء الانقلاب عن المرسومين الشاهانيين فى الصحيفة فى اليوم التالى، دون أن يذكر الطريقة التى رآهما بها. كما ذكر فى مقابلة أجريت معه أنه كان قد وافق على شرط مسئول السفارة الأساسى، وهو ألا يذكر الدور الأمريكى فى تنظيم الرحلة.

وأوضح لاف أنه لم يكن يعرف فى ذلك الوقت أن المسئول كان يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية.

وبعد نجاح الانقلاب، أشار لاف باقتضاب فى أحد المقالات إلى تقارير الصحافة الإيرانية الخاصة بالتورط الأمريكى، ونشرت صحيفة «نيويورك تايمز» كذلك مقالاً من موسكو يتضمن اتهامات سوفيتية بأن الولايات المتحدة كانت وراء الانقلاب. ولكن يبدو أنه لا «نيويورك تايمز» ولا غيرها من الهيئات الصحفية الأمريكية درست مثل تلك الاتهامات دراسة جادة.

وفى بحث كتبه لاف سنة ١٩٦٠ أثناء دراسته بجامعة برينستون، أوضح أنه «كان مسئولاً بصورة مهمة عن التعجيل بالنصر النهائى لأعوان الشاه».

كما قال إنه عندما رأى ست دبابات تقف أمام محطة إذاعة طهران، «أبلغت قادة الدبابات أن أناساً كثيرين كانوا يقتلون وهم يحاولون اقتحام منزل الدكتور مصدق، وأنه يمكن أن تكون لهم فائدة ما بدلاً من بقائهم بلا

عمل عند محطة الإذاعة. وأضاف قائلاً: «ساروا بمركباتهم إلى شارع كوخ ووضعوا الدبابات الثلاثة عند منزل الدكتور مصدق دون أن تشتبك فى قتال».

وذكر لاف الذى ترك « نيويورك تايمز» سنة ١٩٦٢ فى مقابلة أجريت معه أنه حث الدبابات على الاشتباك «لأننى أردت وقف إراقة الدماء».

ويشير لاف إلى أنه بعد عدة أشهر أبلغه روبرت دوتى - وكان وقتها مدير مكتب القاهرة ورئيسه هو - بأدلة عن تورط أمريكا فى الانقلاب.

إلا أن دوتى، الذى توفى سنة ١٩٧٤، لم يكتب عن هذا الموضوع. وبحلول صيف ١٩٥٤، قرر لاف إبلاغ مكتب نيويورك بما يعرفه. وفى خطاب مؤرخ فى ٢٦ يوليو ١٩٥٤ إلى إيمانويل فريدمان، وكان وقتها محرر الشئون الخارجية، كتب لاف قائلاً: «الحالة الوحيدة منذ التحاقى بـ « نيويورك تايمز» التى سمحت فيها للسياسة بالتأثير على مقاربة خبرية صارمة، كانت هى عدم نقل الدور الذى قام به عملاؤنا فى إقصاء مصدق».

وذكر لاف أنه كان يأمل أن يأمره محرر الشئون الخارجية بمتابعة الموضوع. ولكنه يقول إنه لم يتلق أى رد.

كما قال: «كنت أريد أن أدع فريدمان يعرف أننى كنت أعرف أن ثمة تورطا أمريكيا فى الانقلاب، ولكننى لم اكتب عنه. كنت أتوقع منه أن يقول: «اقفز على هذه القصة». غير أنه لم يكن هناك أى رد». وتوفى فريدمان سنة ١٩٧١.

مصدق .. سياسى غريب ينجب تاريخاً غريباً

باستثناء آية الله روح الله الخمينى أبى ثورة إيران، ما من زعيم ترك أثراً عليها أعمق من ذلك الذى تركه محمد مصدق. وما من حدث من أحداث القرن العشرين زاد من شك إيران فى الولايات المتحدة مثل مؤامرة خلعه.

إنه محام غريب الأطوار تلقى تعليمه فى أوروبا، وكان أبوه موظفاً وكانت أمه تنحدر من سلالة ملوك الفرس. وعمل الدكتور مصدق وزيراً ومحافظاً قبل معارضته لاعتلاء رضا شاه العرش فى العشرينيات.

سجن مصدق ثم وضع قيد الإقامة الجبرية فى ضيعته فى قرية أحمد أباد المسورة غربى طهران. وفى نهاية الأمر اشترى القرية وكان يزرع المحاصيل وأسس مدرسة ابتدائية وبدأ مشروعاً للصحة العامة.

وعندما أجبرت بريطانيا وروسيا رضا شاه على ترك الحكم لمصلحة ابنه محمد رضا بهلوى سنة ١٩٤١، أصبح الدكتور مصدق عضواً فى البرلمان. وقد امتدح كبطل بسبب خطبه النارية عن شرور السيطرة البريطانية على صناعة البترول. وفى سنة ١٩٥١، عندما صوت البرلمان لمصلحة تأميم الصناعة، عين الشاه الشاب الدكتور مصدق رئيساً للوزراء، اعترافاً منه بشعبية القوميين.

وفى ذلك المنصب أصبح أسير قوميته، وعجز عن التوصل إلى تسوية بشأن البترول. وحتى عندما تفاوض البريطانيون مع إيران، كسبوا تأييد كبرى شركات البترول لفرض مقاطعة عالمية على البترول الإيرانى.

ومع ذلك أصبح الدكتور مصدر فى العالم النامى رمزاً لمعاداة الإمبريالية. وقد كان يحظى بالاحترام رغم سلوكه الغريب، ومنه إدارة العمل من السرير وهو يرتدى بيجاما صوفية رمادية اللون، وبكاؤه أمام الجماهير وعدم انقطاع شكواه من اعتلال صحته.



لقد جمع الدكتور مصدق كل خيوط السلطة فى يده. وعندما رفض الشاه طلبه السيطرة على القوات المسلحة سنة ١٩٥٢، استقال، ليعاد تعيينه رغم الاضطرابات الشعبية.

وحينذاك أبدى قدراً من الاستبداد، حيث تجاهل البرلمان بإجراء استفتاء قومى للحصول على موافقة بحله. وفى تلك الأثناء انزعجت الولايات المتحدة من قوة الحزب الشيوعى الإيرانى الذى كان يؤيد مصدق.

وفى أغسطس ١٩٥٣ أدت محاولة الشاه عزل الدكتور مصدق إلى نزول أتباعه إلى الشوارع. وهنا فر الشاه، وسط مخاوف فى حكومة أيزنهاور الجديدة من احتمال اقتراب إيران أكثر مما يجب من موسكو.

ومع ذلك فإن الدكتور مصدق لم يعزز مصالح الشيوعيين، رغم حصوله على تأييدهم. ومن المفارقات أن الحزب تخلى عنه فى نهاية الأمر، حيث رأى أنه ليس ملتزماً الالتزام الواجب وأنه شديد القرب من الولايات المتحدة. وفى الوقت الذى أقصاه الانقلاب الشاهانى بعد عدة أيام من الفوضى، كان قد اكتسب عداء الكثير من ملاك الأراضى ورجال الدين والتجار.

وبعد محاكمته أمضى ثلاث سنوات فى السجن وانتهى به الحال إلى الإقامة الجبرية فى ضيعته. وفى مارس ١٩٦٧ توفى مصدق، وكان فى منتصف الثمانينيات من عمره بعد أن أنهكه العلاج بالراديوم من سرطان الحنجرة.

وعندما أتت الثورة برجال الدين إلى السلطة سنة ١٩٧٩، حاول القوميون المعادون للشاه إحياء ذكرى مصدق. وتم تغيير اسم طريق فى طهران من طريق بهلوى إلى طريق مصدق.

إلا أن آية الله الخمينى كان لا يراه داعية للإسلام، وإنما للقومية الفارسية، وكان يحسده على شعبيته. وهكذا أصبح اسم طريق مصدق هو والى أسر، نسبة إلى الإمام الغائب الذى سيظهر يوماً ما حسب اعتقاد الشيعة، وسوف يقيم المجتمع السياسى الإسلامى الكامل. ومع ذلك فإنه حتى الإمام الخمينى نفسه كان حريصاً على ألا يتمادى فى ذلك. فقد أصبحت القاعدة هى تجاهل الدكتور مصدق، وليس تجريحه.

وبعد عشرين سنة، أعيد تبجيل مصدق نتيجة لعودة القومية من جديد والشعور بالإحباط فيما يتصل بالتشدد الإسلامى. ويحرك مصدق الشباب الذى يهفو إلى الأبطال دون أن يعثر عليهم، سواء بين الملوك أو رجال الدين.

وفى الحملات الانتخابية المحلية فى شهر فبراير ١٩٩٩ والانتخابات البرلمانية التى أجريت بعد ذلك بعام، استفادت إعلانات الإصلاحيين من وجه مصدق المستطيل الحزين. وفى كل عام منذ وفاته، يتجمع مؤيدوه فى ضيعته.

ومازال ميراثه يثير قدراً كبيراً من الجدل. وفى شهر أغسطس، أقر البرلمان مشروع قانون يلغى يوم العطلة الذى يوافق يوم تأميم صناعة البترول سنة ١٩٥١، حيث أثار هذا القرار احتجاجات فى الصحافة.

فقد جاء فى صحيفة «خرداد» اليومية الإصلاحية: «وا أسفاه: لقد تجاهل البرلمان أوضح رمز من رموز كفاح الشعب الإيرانى طوال تاريخه ضد الاستعمار».

وفى نوفمبر اضطر أعضاء البرلمان لإعادة يوم العطلة كما كان. ■

ينشر بترتيب مع نيويورك تايمز
The New York Times, April 2000
ترجمة أحمد محمود

عقود من الاضطرابات داخل إيران

● ١٩٤١ بريطانيا والاتحاد السوفيتى يغزوان غربى إيران لمواجهة خطر النفوذ النازى الآخذ فى الاتساع.

● ١٩٥١ محمد مصدق، وهو قومى مغال فى قوميته، ينتخب رئيساً للوزراء فى ظل حكم الشاه. ويثير مصدق غضب البريطانيين بمحاولة تأميم صناعة البترول.

● ١٩٥٢ الاستخبارات الأمريكية والبريطانية تخلع مصدق. الانقلاب يدعم السلطة فيبقى حكم الشاه، مما يضمن التعاون بشأن البترول ويحد من التوسع الشيوعى.

● ١٩٦٣ـ ٦٤ الزعيم الدينى آية الله روح الله الخمينى ينفى إلى تركيا، بعد انتقاده لعلاقة الشاه بالولايات المتحدة.

● ١٩٧٨ الاضطرابات تجتاح إيران. الخمينى يؤسس حركة معارضة فى باريس.

● ١٩٧٩ الثورة الإيرانية تجبر الشاه على مغادرة إيران. يسمح له بدخول الولايات المتحدة بعد شهر للعلاج من السرطان فى كانساس سيتى.

● ١٩٧٩ الخمينى يعود ليعلن قيام الجمهورية الإسلامية.

يحتل الطلاب الإيرانيون السفارة الأمريكية فى طهران بدعم منه. يؤخذ اثنان وخمسون أمريكياً رهائن لمدة ٤٤٤ يوماً. أمريكا تجمد الأرصدة الإيرانية.

● ١٩٨٠ الولايات المتحدة تقطع علاقاتها بإيران، وتحظر الصادرات الأمريكية إليها، وتطرد الدبلوماسيين الإيرانيين.

إجهاض مهمة عسكرية أمريكية سرية لإنقاذ الرهائن بسبب سوء الأحوال الجوية. ثمانية جنود يلقون حتفهم فى حادث طائرة هليكوبتر.

● ١٩٨١ الإفراج عن الرهائن بعد دقائق من انتهاء فترة رئاسة كارتر. عقد محكمة تعويضات أمريكية إيرانية فى لاهاى.

● ١٩٨٦ الكشف عن صفقة أمريكية لإعطاء السلاح للإيرانيين مقابل المساعدة فى الإفراج عن الرهائن الأمريكيين المحتجزين فى لبنان.

● ١٩٨٨ السفينة الحربية الأمريكية فانسن تسقط طائرة ركاب إيرانية بطريق الخطأ على الخليج الفارسى، وتقتل ٢٩٠ شخصاً على متنها.

● ١٩٨٩ وفاة آية الله الخمينى ويحل محله على خامنئى زعيماً روحياً للبلاد. ينتخب رئيس البرلمان الإيرانى على أكبر هاشمى رافسانجانى رئيساً.

● ١٩٩٣ تبدأ حكومة كلينتون حملة لعزل إيران، حيث تتهمها بدعم الإرهاب والسعى للحصول على الأسلحة النووية ومحاولة تعطيل عملية السلام فى الشرق الأوسط.

● ١٩٩٥ الولايات المتحدة توقف كل الأعمال التجارية والاستثمارات مع إيران.

● ١٩٩٦ الرئيس كلينتون يوقع قانوناً يفرض العقوبات على الشركات الأجنبية التى لها استثمارات ضخمة فى إيران أو ليبيا «الإرهابيتين».

● ١٩٩٧ رجل الدين المعتدل محمد خاتمى يفوز فى انتخابات الرئاسة الإيرانية. كلينتون يصف انتخابه بأنه يدعو للأمل، ولكنه يصر على استحالة عودة العلاقات ما لم تشجب إيران الإرهاب ومعارضة جهود السلام فى الشرق الوسط وأسلحة الدمار الشامل.

● ١٩٩٨ خاتمى يقترح التبادل الثقافى كوسيلة لإنهاء عدم الثقة، إلا أنه يستبعد بدء حوار بين الحكومتين.

وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين تدعو الإيرانيين للانضمام إلى الولايات المتحدة فى رسم «خريطة تؤدى إلى العلاقات الطبيعية». إيران ترد بأن مثل هذه الخطوة لا بد أن تتبعها أفعال.

● ١٩٩٩ حكومة كلينتون تعلن أنها سوف تسمح للشركات الأمريكية ببيع الطعام والمواد الطبية لثلاث دول لم تعد ضمن قائمة الدول الإرهابية - وهى إيران وليبيا والسودان.

● ١٩٩٩ كلينتون يطلب من خاتمى المساعدة فى حل مسألة تفجير مبنى سعودى قتل فيه ١٩ جندياً أمريكياً وجرح المئات.

حكومة كلينتون تجدد مسعى إجراء محادثات «على أساس من التكافؤ والاحترام المتبادل». إيران ترفض المسعى بعد يومين.

الولايات المتحدة توافق على تزويد شركة بوينج الخطوط الجوية الوطنية الإيرانية بقطع الغيار لضمان سلامة طائراتها من طراز ٧٤٧.

● ٢٠٠٠ أولبرايت تعلن رفع الحظر الأمريكى عن الواردات الإيرانية من السلع الكمالية. كما تعترف بدور أمريكا فى انقلاب ١٩٥٣، حيث تقترب من الاعتذار عنه أكثر من أى مسئول أمريكى قبلها.

أول وثيقة كتبها الكندى على آلة العود

العرب سبقوا الأوروبيين فى التدوين الموسيقى

عادل الألوسى

لا يكاد يخلو حجر فى جنوبى الجزيرة العربية وقلبها وشمالها من نقش تذكارى، نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين، ويكتبون على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء قبائلهم، وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم.

هذا النوع من التدوين البدائى حفظ لنا الشىء الكثير من المؤثرات عن الأقدمين، وعلمنا الشىء الكثير من جوانب نشاطهم الفكرى والعقائدى وجوانب من تراثهم.

وبالمقابل، فإن تراثًا ضخمًا من الأدبيات العربية قد ضاع وسقط فى مطاوى النسيان؛ لأنه لم يدون، وبذلك قال الجاحظ: «للعرب بديهية ساطعة كأنها الإلهام».

وقد ظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيدونه إلا قليلاً وفى ظروف خاصة، حتى أخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات النبى (ص) وأحاديثه، وفى تقييد بعض الأخبار التاريخية، فدون زياد بن أبيه كتابًا فى المقالب، ودون عروة بن الزبير غزوات النبى (ص)، ومن ثم بدأ تدوين الحديث.

وهكذا بدأت حركة التدوين مع أوائل القرن الثانى، وظهر تدوين الشعر الجاهلى تدوينًا منهجيًا قائمًا على التوثيق والضبط والتسجيل.

ولكننا نتساءل هل انسحب نشاط التدوين عند العرب على مجمل نتاجاتهم الأخرى كالموسيقى والغناء مثلا؟ ولنعد إلى البداية:

فى الموسيقى كوّن الإنسان لنفسه لغة الغناء، ثم كون لنفسه اصطلاحًا لكتابته، وبين العهدين أجيال وعصور، فالاصطلاحات الأولى لتدوين الموسيقى كانت - فيما يبدو - مبهمة وناقصة، وكان الموسيقيون قبلها يحفظون الموسيقى بالنقل والسماع، كما يفعل أكثر الموسيقيين عندنا اليوم؛ ولما كانت الذاكرة لا تكفى لتسجيل كل شىء، وأن الألحان والأنغام تنسى مع الأيام، فقد بدأوا بوضع علامات فوق كلمات الغناء، على أن تلك العلامات لم تكن فى البدء لتعبر عن طبقة الصوت بدقة أو لتعين كميته الزمنية، فكانت إما أن تستنتج استنتاجًا مبنيًا أكثره على المقاطع اللفظية أو تؤخذ نقلاً عن حفاظ الموسيقى!

وقد استعملت شعوب العصور الوسطى كثيرًا من أنواع الكتابة الموسيقية، منها الكتابة على طريقة الحروف الأبجدية، ومنها الكتابة بأشكال وضعية.. وفى أوروبا توجد الآن الكثير من المخطوطات التى دونت فيها الأغانى والأناشيد على الطريقتين. وفى مكتبة أكسفورد يوجد كتاب خطى يحتوى على رواية غنائية، تعود إلى القرن العاشر الميلادى، كتبت فوقها الموسيقى فوق أسطر الشعر بكلا النوعين معا. هذا ما يتصل بالموسيقى الغربية، غير أن لموسيقانا العربية تاريخها الآخر وطابعها المميز.

بدءًا لنستمع إلى ما يقوله أحد الباحثين الغربيين (فى دائرة المعارف الفرنسية) عن تدوين العرب للموسيقى: «إن ما كتب عن الموسيقى العربية اعتبارًا من القرن الثامن للميلاد كان سيئًا كثيرًا، وفى ظل هذه المدونات نجد أثر التدوين الذى تعلمناه نحن الغربيين من العرب..

إن العرب ورثوا حضارات ذات ثراء فكرى مدوّن، وقد سجل ابن النديم فى كتابه المعروف «الفهرست» الكثير من رواة الشعر والنثر. كما نقف على الكثير مما خلفته الحضارات القديمة: السومرية والبابلية والفرعونية مدونا على الحجر والطين والصخور، وكان لابد أن يترك ذلك الموروث أثره الواضح فى العطاءات التى استمرت بدون توقف فى أذهان فلاسفة العرب ومنظريهم الموسيقيين.

عند هذه النقطة نقف أمام حقيقة التدوين عند العرب، ممثلة بوثيقتين تاريخيتين: الأولى: لوحة سومرية تمثل أقدم نوتة موسيقية فى التاريخ، أرجعها العالم الآثارى «وتشن جويمن» إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهى مقطوعة موسيقية تعزف على الآلات الوترية. ومعروف أن السومريين مثل المصريين القدماء كانوا يستخدمون عددًا من الآلات الوترية، كما كشفت هذه اللوحة عن معرفة السومريين بالسلم الموسيقى، وعلى هذا يعتبر السومريون أول من عرف السلم الموسيقى فى التاريخ!

أما الوثيقة الثانية، فقد وصلتنا من القرن الثالث للهجرة، وهى تمثل أقدم وثيقة موسيقية للحن، مدونة لآلة العود، والعود آلة معروفة منذ الألف الثانى قبل الميلاد.

هذه الوثيقة دونها الكندى الفيلسوف العربى (ت ٢٥٢هـ) وهى تمرين للطرب على العود، وقد نشرت هذه الوثيقة بنصها الأصلى المخطوط مع تجسيد اللحن بالعلامات الموسيقية الحديثة ببغداد سنة ١٩٦٢.

وفى إطار هاتين المرحلتين التاريخيتين، نقف أمام جملة من الحقائق تمثل دور العرب والمسلمين فى التدوين الموسيقى.

كتب إسحق الموصلى إلى إبراهيم بن المهدى برسم الصوت، وكتابته (أى تدوينه)، وفى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى الكثير من أسماء الموسيقيين العرب الذين دونوا ألحانهم أو على الأقل عرفوا طريقة كتابية معينة للألحان.



وفى كتاب «الأدوار» لصفى الدين الأرموى، وفى كتاب «الفتحية فى الموسيقى» للاذقى، نماذج من «النوطة» العربية القديمة، فقد وجدت أبيات من الشعر فى تلك المؤلفات ملحنة، والنغمات مدونة بالحروف الأبجدية مع زمان كل نغمة ووقتها مسجلة بالأرقام.

واستعمل الكندى فى أبحاثه الموسيقية وخاصة فى كتابه «فى خبر تأليف الألحان»، الحروف الأبجدية فى تدوين النغمات، واستعمل الأصابع حسب مواضعها، وكانت تلك طريقة الفارابى فى التدوين أيضا، كما استعملها ابن سينا وغيرهما، وكان الموسيقيون العرب يستعملون الخطوط الملونة دلالة على النغمات ودرجاتها.

وقد عثر المستشرق «دير لانجيه» الذى درس المخطوطات الموسيقية العربية القديمة على كتب عربية احتوت على مدونات موسيقية، فدرسها ونشر بعض نصوصها فى المجلات الفرنسية فى الخمسينيات من القرن الماضى.

أما فيما يتصل بتجويد القرآن الكريم، وهل كان لحن التجويد يدون؟ فيمكن لنا أن نعود قليلاً إلى التاريخ: فحين شعر المسلمون بحاجتهم إلى استنباط قواعد مضبوطة لتجويد آى الذكر الحكيم، أسرعوا إلى وضع تلك القواعد لتثبيت طرق القراءة الصحيحة، حتى صار علم التجويد يشبه النوتة الموسيقية تماما، فهو يحدد بوضوح عن بعض الحروف، ومدُ البعض الآخر مدًا منفصلا أو متصلا بحركات مخصوصة تشبه تماما الدورة الزمنية فى علم الموسيقى، وهو بين الحروف التى تقلقل أو تفخم أو ترقق، والتى تشبع مع بيان السكت، ومواقعه ووقته مبينًا بالحركات أيضا، إلى جانب إيضاح مواضع الوقف اللازم والجائز مما يصح أن يعتبر أقرب إلى أساليب الترقيم فى الوقت الحاضر.

وقد أقبل القراء على علم التجويد يتلقون قواعده ويطبقون التلاوة عليها، وما كان يصح لقارئ أن يتعلم تلاوة القرآن إلا إذا أجازه أستاذه بذلك، وهذا الأمر لايزال قائمًا فى مصر.

وهكذا وضعت أسس «النوطة الموسيقية»، ولكن بشكل دينى صرف، حين أخذ العرب والمسلمون منذ وقت مبكر يشبعون حاجاتهم الروحية إلى الموسيقى من خلال تلاوة وترتيل القرآن الكريم.

إذن، فقد سبق العرب الأوروبيين أنفسهم فى معرفة فن التدوين الموسيقى، ولكننا ينبغى - توخيا للدقة - أن نقول أنهم عرفوا شكلاً من التدوين عبروا عنه بطرق مختلفة وبسيطة، تعكس ذلك الطموح المبكر نحو الخلق والإبداع والتوجه الدائم نحو التمدن والرقى.

حرب القنوات الفضائية

لم يمض وقت طويل على إعلان إمارة دبى إنشاء مدينتها الحرة «للإنترنت والإعلام»، والتى تقدم تسهيلات غير محدودة للفضائيات العربية، حتى أعلنت وزارة الإعلام المصرية عن عزمها إصدار القوانين التى تسمح بإنشاء قنوات فضائية خاصة.

وفى الوقت الذى مثَّل فيه الإعلان المصرى مفاجأة للكثيرين، بدا أن مفاوضات جدية تجرى بين عدد من «ملوك» الإعلام العرب، والمسئولين فى مدينة دبى الحرة تمهيدا لنقل محطاتهم إلى هناك.

ورغم أن القوانين المصرية لم تصدر بعد، ورغم أنه لا توجد خطوات «عملية» ملموسة حتى الآن لإنشاء قنوات خاصة تنطلق من مدينة السادس من أكتوبر، إلا أن ملف الفضائيات العربية «وضعها الحالى واحتمالات المستقبل» يبقى ملحًا فى هذه الظروف.

الإعلامى المخضرم «سعد لبيب» يكتب لوجهات نظر» هذا التقرير المفصل:

عدد القنوات الفضائية المتاحة للمشاهدة فى المنطقة العربية أو أجزاء منها وصل إلى ٤٥٢، أربعمائة واثنتين وخمسين قناة فضائية

الفضاء ملك للإنسانية كلها وليس ملكا لدولة أو مجموعة دول ولا يملك أحد أن يمنع شخصاً أو مؤسسة ما من استغلال الفضاء فى الحدود المتفق عليها دولياً. فنحن إذن أمام موقف لا حيلة لنا فيه، وكل ما نستطيعه هو ترشيد استخدامه بحيث نحقق من خلاله أقصى ما يمكن من الإيجابيات، ونقلل ما يمكن أن يترتب عليه من آثار سلبية

سعد لبيب

هالنى وأنا أتابع بعض الدوريات المتخصصة فى البث الفضائى أن عدد القنوات الفضائية المتاحة للمشاهدة فى المنطقة العربية أو أجزاء منها خلال شهر رمضان الماضى وصل إلى ٤٥٢، أربعمائة واثنتين وخمسين قناة فضائية، وهو رقم أقل ما يوصف به أنه فظيع وغير إنسانى لأنه يتجاوز كل مدركات الإنسان وحواسه واحتياجاته والظروف التى نعيشها.

ثم تخرج علينا مصر بقرارها بتحرير عملية بث القنوات الفضائية من مصر وكانت حكراً على الإذاعة والتليفزيون المصرى، وتبدأ استعدادات بعض الهيئات والمؤسسات المصرية والعربية والدولية لبث قنوات جديدة خاصة مستقلة عن أى تدخل حكومى، فيَزيد الفضاء العربى زحاماً على زحام.

وتتواكب هذه الخطوة الجديدة الجريئة مع خطوات مماثلة قررتها كل من الأردن ودبى والبحرين ولبنان - وبصرف النظر عن أى نتيجة أخرى فالمؤكد أن هذه التحركات ستؤدى إلى ظهور قنوات فضائية عربية جديدة غير رسمية فى الأغلب الأعم.

ومفهوم طبعاً أن كل القنوات الفضائية التى تصل إلى المشاهد العربى لا تذيع كلها باللغة العربية بل إن الغالبية العظمى تذيع بلغات بعضها متداول فى المنطقة العربية وبعضها بعيد عن ثقافتها .. كما أن بعض هذه القنوات يتكرر على أقمار مختلفة بمعنى أن نفس القناة تؤجر قمراً معيناً ليركز على منطقة ما، ولكنه يستأجر أيضاً قناة قمرية أخرى ليتوجه إلى منطقة مختلفة .. ويمكن أن تتكرر هذه العملية، ولكنها عند الحساب الأخير تحسب كأنها قناة جديدة.

ومع ذلك يبقى العدد رهيباً .. ويبقى السؤال: ما الذى يمكن أن تقدمه كل هذه القنوات؟ وهل يحتاج المواطن العربى إلى كل هذا الكم من قنوات الترفيه والإعلام؟ والأهم من هذا وذاك، ما الذى يمكن أن نفعله إزاء هذا الوابل الفضائى لكى نستفيد ما وسعتنا الاستفادة منه، وقد أصبح وكأنه قدر محتوم؟

ورغم أن القنوات التليفزيونية الفضائية «الفضائيات» تبث عادة بواسطة الأقمار الصناعية المخصصة للاتصالات، إلا أن تلك الأقمار لا تعدو أن تكون «وسيلة نقل» تملكها مؤسسة رسمية أو غير رسمية، متعددة الجنسيات غالباً، ويقتصر دورها على تشغيل القمر بقنواته المختلفة طوال عمره الافتراضى الذى قد يتراوح من ٧ إلى ١٦ سنة، وإتاحة هذه القنوات لتأجيرها من جانب من يشاء من المؤسسات التليفزيونية، أو مؤسسات الاتصالات العامة والخاصة، لفترات محدودة، ولقاء أجر محدد، يتناسب مع إمكانيات القمر.

تتعدد مؤسسات الاتصالات الفضائية التى تملك أقماراً صناعية بين مؤسسات وطنية وإقليمية ودولية، وهى تقوم على أسس تجارية وفنية، ولا علاقة لها بما تنقل هذه الأقمار من إشارات تليفزيونية أو إذاعية أو تليفونية أو معلوماتية .. فهذه كلها من مسئولية الجهات المستأجرة للقنوات القمرية.

يأخذ كل قمر صناعى للاتصالات موقعه فوق خط الاستواء على ارتفاع حوالى ٣٦ ألف كيلو متر عن سطح الأرض ويدور فى مسار ثابت على هذا الارتفاع، وبنفس سرعة الأرض بحيث يظل موجهاً إلى نقطة ثابتة على الأرض، وبذلك تتوزع الأقمار على خطوط الطول حول الأرض، ويعرف كل قمر بموقعه على خط الطول شرق جرينتش أو غربه. ويفصل كل قمر عن الآخر خمس درجات طول، لضمان عدم تداخل الإشارات بينها، وقد تصل فى المستقبل ومع التقدم التكنولوجى، إلى ثلاث درجات فقط، لكى تتاح الفرصة لعدد أكبر من الأقمار .. وتتولى توزيع هذه المواقع إدارة خاصة تابعة للاتحاد الدولى للاتصالات فى جنيف.

كل قمر له مواصفات خاصة تسجل فى الاتحاد الدولى، وتشمل فيما تشمل عليه مدى الإشارة المرئية والصوتية وقوتها والنطاق الجغرافى للتغطية، والعمر الافتراضى للقمر. ويمكن أن تمتلك المؤسسة القمرية الواحدة أكثر من قمر عامل.. ويعرف كل قمر منها بموقعه بالإضافة إلى رموز أخرى تدل عليه فيقال مثلاً عربسات (1 - C) أى «القمر الثالث فى الشبكة العربية للاتصالات الفضائية، فى الجيل الأول) ٣١ درجة شرقاً/ وعربسات ٢) A (أى القمر الأول فى الجيل الثانى) ٢٦ درجة شرقاً وهكذا.

كل قمر له محطة أرضية للتوجيه والمراقبة، تتولى توجيهه عن بعد حتى يظل فى مداره الثابت، ومراقبة أداء قنواته القمرية، والعمل على ضبطها عن بعد، كما أن له محطة أرضية أخرى للتعامل معه إرسالاً واستقبالاً، وتتناسق معه من حيث الترددات وتوجيه الإشارات وقوتها، فهى التى تبث له البرامج ليلتقطها ويعيد توزيعها، كما تتولى أيضاً استقبال البرامج الصادرة منه، التى غذته بها محطات أخرى تعمل بنفس المواصفات.

وتنقسم أقمار الاتصال إلى نوعين، الأولى تسمى اصطلاحاً أقمار توزيع، وهى التى تلتقط الإشارة من المحطة الأرضية، لتوصلها إلى محطة أرضية أخرى متناظرة، وهذا هو النوع الذى يتعامل مع محطات التليفزيون التى تستقبل عن طريقه المواد التى تغذيه بها محطات أخرى (تقارير إخبارية، مباريات رياضية أو غيرها).

النوع الثانى من أقمار الاتصال هو أقمار البث المباشر، والتى تأخذ الإشارة من مصادرها المختلفة المتناظرة معها، وتبثها إلى أجهزة التليفزيون المنزلية المباشرة دون المرور على المحطة الأرضية للقمر، أو محطات البث التليفزيونى .. ويحتاج جهاز التليفزيون المنزلى فى هذه الحالة إلى هوائى «دش» يتجه ناحية القمر، وجهاز سمى اصطلاحاً «ريسيفر» لتحويل الإشارة بما يتناسب مع جهاز التليفزيون المنزلى .. ويتناسب حجم الهوائى عكسياً مع قوة الإشارة الصادرة من القمر، وكذلك درجة البعد عن بؤرة أو مركز تغطية القمر، فيزيد الحجم عند الأطراف، ويقل فى الأماكن القريبة من المركز.

كما أن البث الذى يصل إلى المنازل ينقسم إلى نوعين: الأول مفتوح، والثانى «مشفر» أى أن الإشارة الصادرة من القمر أو محطة البث - فى هذا النوع - تكون مركبة بطريقة معينة أى بشفرة خاصة، بحيث لا يمكن استقبالها إلا إذا كان لدى المشاهد جهاز لفك الشفرة، وهو يسمى «ديكودر» والمشاهد لا يحصل عليه طبعاً إلا إذا دفع الأجر المحدد لاستخدامه، وقد لجأت كثير من قنوات التليفزيون إلى هذا النظام لضمان الحصول على مقابل مادى أو رسم للمشاهدة، يضاف إلى الموارد الأخرى للقناة، التى قد تتمثل فى حصيلة الإعلان، أو الدعم الحكومى أو من أية مؤسسة أخرى معنية، أو غير ذلك. وكثير من القنوات التى لجأت إلى التشفير بدأت مفتوحة حتى يتعرف عليها المشاهدون ويألفوها، حتى إذا انتقلت إلى نظام التشفير ضمنت قطاعاً من المشاهدين يحرصون على متابعتها ويدفعون مقابل ذلك رسم الاشتراك.

الجديد فى موضوع البث الفضائى، استخدام النظام الرقمى مع ضغط الإشارة. وهو نظام يفتح المجال أمام تقسيم القناة القمرية إلى أربعة أو خمسة أقسام يمكن أن تصل إلى ثمانية، كل قسم منها يصلح لحمل قناة تليفزيونية مستقلة، وبالتالى أصبح القمر الذى يشتمل على ١٢ قناة قمرية مثلاً، يستطيع توزيع ٤٨ قناة تليفزيونية أو أكثر، الأمر الذى أدى إلى خفض تكلفة استئجار القنوات، وزيادة عدد المطروح منها فى سوق الاستخدام الفضائى.

تزامن مع هذا التقدم التكنولوجى، ظهور نظام الحزم البرامجية، ويقوم على أساس تجميع عدد من القنوات التليفزيونية معظمها فضائى وبعضها أرضى، من جانب مؤسسة متخصصة، تتيحها للذين يرغبون فى استقبال هذه المجموعة من القنوات لقاء اشتراك مالى معين، ويتم ذلك باستخدام «ديكودر» خاص بالنظام الذى يتم فيه الاستقبال إما عن طريق شبكة مايكروويف أرضية متعددة الاتجاهات تسمى MMDS، أو عن طريق هوائى متصل بقمر معين هو الذى يحمل حزمة القنوات.

البث الفضائى فى المنطقة العربية

تربط الدول العربية جميعها شبكة فضائية عربية عن طريق القمر العربى «عربسات» الذى أنشأته وزارات المواصلات العربية، وانطلق أول أقماره عام ١٩٨٥ ولكل دولة محطة أرضية أو أكثر مرتبطة بالشبكة، ويتم عن طريقها تبادل الأخبار وفى وقت محدد، بالإضافة إلى نقل الاحتفالات فى المناسبات الدينية والمناسبات الرياضية .. ويجرى التبادل هنا بين الدول العربية جميعها، أو بين الراغبين فى تبادل أحداث معينة، أو يتم بطريقة ثنائية.



كانت أقمار الجيل الأول لعربسات من النوع الذي يطلق عليه أساساً أقمار التوزيع، فقد كانت قنواته من طراز «C» الذي يتعامل مع المحطات الأرضية لتوزيع إشارات التليفزيون والتليفون، ولا تصل إلى المشاهدين فى المنازل، فيما عدا قناة واحدة من طراز «S» كانت تسمى غزيرة الإشعاع وكانت تصلح للاستقبال الجماعى، أو هوائيات صغيرة نسبياً (قطر يزيد على ثلاثة أمتار) وبقيت بغير استخدام لمدة خمس سنوات.

وقد أطلق القمر الأول من الجيل الثانى لعربسات فى منتصف عام ١٩٩٦ بعد انتهاء أعمار الجيل الأول. وقد تم تصميم قمر الجيل الثانى بالاستفادة من التقنيات الحديثة المتطورة، فاضيفت إليه حزمة الترددات «كى يو» ذات الطاقة الإشعاعية القوية التى يمكن استقبالها عن طريق المحطات الأرضية أساساً ـ مع استخدام هوائيات قمرية متطورة تتيح تغطية المنطقة العربية بطاقة عالية، ومع توسيع رقعة التغطية لكى تشمل أجزاء كبيرة من أوروبا وآسيا وأفريقيا. ويضم القمر ٣٤ قناة قمرية (الجيل الأول كان يضم ٢٦ قناة فقط) منها ٢٢ قناة فى الحزمة الترددية «سى» التى تتعامل مع المحطات الأرضية، و١٢ قناة فى الحزمة الترددية «كى يو» ويبلغ العمر الافتراضى لأقمار الجيل الثانى ١٢ سنة، وكانت سبع سنوات فى الجيل الأول.

وقد أطلق أول أقمار الجيل الثالث من عربسات (٣) A فى فبراير ١٩٩٩ واحتل نفس موقع الجيل الثانى (٢٦ درجة شرق) الأمر الذى يتيح لمشاهديه استقبال قنوات القمرين معاً بطبق ثابت واحد. ويستخدم القمر الجديد النظام الرقمى الذى يوفر أكثر من ٣٠٠ قناة فضائية ـ والعمر الافتراضى له ١٢ عاماً.

بالإضافة إلى القمر العربى، كانت مصر أول من أطلق قمرا مصريا خالصا أسمته «نايل سات ١٠١» وذلك فى أبريل ١٩٩٨ ليأخذ مكانه فى الموقع المدارى ٧ درجات غرباً، وهو مشروع عملاق تشكلت له شركة تجمع بين رأس المال العام والخاص وتولت تصنيعه الشركة الفرنسية «ماترا ماركونى» ويضم القمر ١٢ قناة قمرية عاملة. ويستخدم التكنولوجيا الرقمية مع ضغط الإشارة والتى تتيح مضاعفة عدد القنوات التليفزيونية فى كل قناة قمرية إلى ثمانية أضعاف العدد على الأقل، ويمكن أن يصل العدد إلى أكثر من ذلك، وبذلك يتسع «النايل سات» لست وتسعين قناة تليفزيونية. ويمكن استقبال قنواته مباشرة فى المنازل بأطباق صغيرة يقل قطرها عن ٦٠ سنتيمتراً وأجهزة «ديكودر» بأسعار اقتصادية، وهو يغطى المنطقة العربية كلها، وعمره الافتراضى ١٥ عاماً .. وقد أطلق بواسطة الصاروخ الأوروبى «إيريان» من قاعدة «جوانا» الفرنسية.

وينتظر أن يطلق القمر الثانى من أقمار نايل سات فى أغسطس القادم (عام ٢٠٠٠) بإذن الله ويحمل «نايل سات ١٠٢» ١٢ قناة قمرية تغطى نفس منطقة التغطية الخاصة بالجيل الأول «نايل سات ١٠١»، منطقة الشرق الأوسط مع إضافة هوائى جديد للتمكن من التوصيل الصاعد من إنجلترا.

أما عن الخدمات التى يقدمها «نايل سات» شانه فى ذلك شأن عربسات ٣٠٢ فتتمثل أولاً/ فى الإرسال التليفزيونى والإذاعى بالنظام الرقمى من خلال مجموعة من القنوات المصرية والعربية والعالمية، عامة ومتخصصة، مفتوحة أو مشفرة. وثانياً/ خدمات المعلومات، ومن بينها النقل الإليكترونى للمواد الصحفية كالجرائد والمجلات من مراكز التحرير إلى المطابع المنتشرة فى منطقة التغطية، والتعامل مع الإنترنت بسرعة عالية، ومعلومات الأسواق والمال والأحوال الجوية، وتوزيع برمجيات الكمبيوتر لمستخدميها، ونقل ملفات وقواعد بيانات من نقطة إلى أخرى أو إلى عدة نقاط.

ولاتقتصر تغطية المنطقة العربية على القمرين العربى والمصرى إذ تقع المنطقة العربية وفقاً لتصنيف الاتحاد الدولى للاتصالات (ITU) ضمن المنطقة رقم (١) وهى التى تضم المناطق الواقعة بين خطى طول ٦٠ درجة شرقاً و٢٠ درجة غرباً، وتشمل إلى جانب منطقة الشرق الأوسط قطاعات واسعة فى أوروبا وأفريقيا.

والذى يعنينا هنا بالإضافة إلى الأقمار العربية السابق الإشارة إليها، الأقمار الجديدة التالية :

- القمر الأوروبى «يوتلسات» W.2
- والقمر الأوروبى «يوتلسات» ٣
- ثم يوتلسات «هوت بيرد» ٥

وتحمل هذه الأقمار عدداً من القنوات الفضائية العربية التى ترى من مصلحتها تغطية مناطق أخرى فى أوروبا وأفريقيا إلى جانب المنطقة العربية التى تغطيها أقمار عربسات والنيل سات، وباستخدام ترددات أيسر للمشاهدين فى المناطق المستهدفة.

وتجدر الإشارة إلى أن منطقة الخليج والمشرق العربى تدخل كذلك ضمن المنطقة رقم (٣) فى تصنيف الاتحاد الدولى للمواصلات، وهذه أصبحت تغطيها الآن مجموعة الأقمار الجديدة تستخدمها بعض القنوات العربية ولعل من أهمها :

- أقمار آسيا سات ٢ ـ ١ / ٣ A - B
- الأقمار الهندية إنسات ٢ C ٢ ـ B ٢
- القمر بانامسات ٤ ـ ٧
- القمر الدولى NSS 703 وكان يسمى انتلسات ٧٠٣
- القمر الروسى اكسبريس ٦ ـ والقمر الاندونيسى بالابا C_2

القنوات الفضائية العربية

١ ـ القنوات الرسمية

بدأت مصر بإطلاق أول قناة تليفزيونية فضائية باستخدام الحزمة (١ س) غزيرة الإشعاع على أقمار الجيل الأول من «عربسات» فى ديسمبر ١٩٩٠، ثم توالى إطلاق القنوات الفضائية العربية الأخرى حتى أصبح لكل دولة عربية قناة فضائية أو أكثر تابعة للهيئة التليفزيونية الرسمية أو لوزارة الإعلام مباشرة، وانطلقت قنوات أخرى من جانب مؤسسات عربية غير رسمية، من مراكز بث خارج المنطقة العربية وباستمرار مع أقمار أخرى غير عربية، ولو أن مجال بثها يشمل المنطقة العربية أساساً. وتخصصت بعض هذه القنوات فى نوعيات معينة من البرامج. كما تجمع بعضها فى شكل «حزم» ضمت قنوات أخرى غير عربية، ودخل كثير منها فى مرحلة التشفير، وذلك كله على التفصيل الذى سيرد فى الفقرة التالية.

وتختلف أسباب إطلاق قنوات فضائية عربية رسمية، من حالة لأخرى.

فعدد من هذه القنوات يحمل القناة أو القنوات الوطنية ذاتها، بالإضافة إلى بثها عن طريق الشبكات الأرضية، للوصول إلى تجمعات سكانية لا تصل إليها هذه الشبكات.

ويحدث هذا أكثر ما يحدث فى البلاد ذات المساحات الجغرافية الشاسعة (السعودية وليبيا والسودان على سبيل المثال) وهذا لا يمنع طبعاً من وصول البث إلى بقية المناطق التى يغطيها القمر، ولكن الجمهور المستهدف أساساً هو الجمهور داخل الدولة ذاتها.

وهناك دول أقامت نظامها الفضائى لربط محطاتها التليفزيونية المحلية، كلها فى شبكة واحدة للتبادل (سلطنة عمان والجزائر على سبيل المثال) وفى هاتين الحالتين لا تقدم القنوات الفضائية برامج خاصة، بل تنقل ما تحمله القنوات الوطنية.

وهناك عدد آخر من القنوات الفضائية العربية الرسمية، قصد منها التعريف بسياسات الدول وثقافتها خارج حدودها (مصر وسوريا على سبيل المثال) ويدخل

حـــرب القنـــوات الفضـــائيــة

فى هذا الإطار قنوات فضائية عربية فى شمال أفريقيا أساساً، موجهة بالدرجة الأولى إلى المغتربين المغاربة فى الدول الأوروبية.

وفى هذه الحالات تعتمد القناة الموجهة إلى الخارج على نسب تزيد أو تقل من إنتاج القنوات الوطنية، ويضاف إليها ما تنتجه خصيصاً للبث الخارجى.

وقبل أن ينتهى الحديث عن القنوات العربية الرسمية لابد من الوقوف عند «قناة النيل الدولية» إذ أنها القناة العربية الوحيدة الموجهة إلى الجمهور خارج المنطقة العربية باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكان افتتاحها فى ٣١ مايو ١٩٩٤، وتذاع على الأقمار العربية (عربسات) والمصرية (نايل سات) والدولية (انتلسات) والأوروبية (يوتلسات) بالإضافة إلى بثها على قناة UHF وتتضمن خدمة إخبارية شاملة ويصل إرسالها حالياً إلى ٢٣ ساعة يومياً. وتغطى المنطقة العربية والشرق الأوسط ونصف أفريقيا الشمالى، وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

٢ - القنوات العربية الخاصة
(غير الحكومية)

أ - قناة مركز تليفزيون الشرق الأوسط (أم - بى - سى) (mbc).

وهى أول محطة تليفزيونية عربية فضائية مملوكة للقطاع الخاص، أنشئت بتمويل سعودى مقرها لندن، وصدر ترخيصها من هيئة التليفزيون المستقل فى بريطانيا ITV. وبثها مفتوح (غير مشفر) وتعتمد فى تمويلها إلى جانب ما تلقاه من دعم، على إيرادات الإعلان والبرامج المكفولة. وقد بدأت إرسالها فى ١٨/ ٩/ ١٩٩١ وتبث برامجها باللغة العربية لتغطى أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ووصلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. ولذلك فهى تستخدم مجموعة من الأقمار الصناعية هى فى الوقت الحالى :

- عربسات ٢ ٢٦ A شرقاً، الخدمة ٢٠، لتغطية المنطقة العربية.
- الشبكة الأوروبية، يوتلسات ١١ F1
- الشبكة الأمريكية ANA
- الشبكة البريطانية BTIDT

وتستقبل هذه القناة فى أوروبا بصحن قطره ثمانون سنتيمتراً، وفى الأقطار العربية بهوائيات من ٨٠ إلى ١٢٠ سم، بالإضافة إلى الاستقبال بنظام «الكيبل»، أو مباشرة من خلال شبكات البث الوطنية فى بعض الدول العربية (البحرين - قطر - الأردن). أما فى السعودية فقد وسعت القناة خدماتها عبر نظام الكيبل متعدد الاتجاهات مقابل رسوم محدودة، فأصبح لها خمس قنوات هى :

الأخبار - الأفلام - البرامج الثقافية - شئون الأسرة - المنوعات.

وتخطط قناة الشرق الأوسط لتوسيع هذه الخدمة مستقبلاً لتشمل الخدمة منطقة الخليج العربى بأكملها.

وأهم ما يميز القناة، الخدمة الإخبارية الشاملة، التى تغطى مصادرها كافة الدول العربية بالإضافة إلى مراكز النشاط الإخبارى فى العالم، وهى خدمة تمتاز بدرجة عالية من الموضوعية - فيما عدا موضوعات محددة بحكم مصادر تمويلها .. وتشمل إلى جانب نشرات الأخبار، عدداً كبيراً من البرامج الوثائقية والندوات والمناقشات واللقاءات وبرامج المال والاقتصاد، والبرامج المفتوحة بالإضافة إلى استخدامها شبكة خاصة للمعلومات المكتوبة (التليتكست Tele-Text).

ب - قنوات راديو وتلفزيون العرب (ايه - آر - تى ART):

بدأ راديو وتلفزيون العرب بقناة تلفزيونية فضائية واحدة فى ١٨/ ١٠/ ١٩٩٣، على عربسات، من مركز البث فى «فوشينو» بإيطاليا، وهو مركز دولى للمحطات الأرضية المتصلة بالعديد من الأقمار الصناعية .. والقناة يملكها رجل الأعمال السعودى صالح كامل ومجموعة البركة .. وتقوم على أساس تجارى، ولا تقدم نشرات أخبار أو برامج إخبارية، باستثناء وحيد بدا فى سبتمبر ١٩٩٦، ببرنامج مع «حمدى قنديل» وقد تبعت القناة الرئيسية العامة، مجموعة من القنوات المتخصصة :

- قناة الرياضة - نوفمبر ١٩٨٣
- قناة الأطفال - ديسمبر ١٩٩٣
- قناة الأفلام - يناير ١٩٩٤

ومع بداية أبريل ١٩٩٤، امتدت ساعات البث لتصبح على مدار ٢٤ ساعة، باستثناء قناة الأطفال فتذيع ١٢ ساعة يومياً تبدأ بعدها قناة أخرى هى :

- قناة الموسيقى - فتذيع لمدة ١٢ ساعة.

واستمرت القنوات الخمس مفتوحة (غير مشفرة) حتى نوفمبر ١٩٩٦ حيث دخلت ضمن حزمة «الأوائل» على القمر الأمريكى «عربسات A٢» والمصرى «نايل سات ١٠١» اللذان يغطيان المنطقة العربية - ثم أضيفت لمجموعة قنوات ART قنوات أخرى غير مشفرة موجهة إلى أمريكا وأفريقيا واستراليا باللغة العربية.

ج - قناة أوربيت :

وهى إحدى قنوات مجموعة شركات «الموارد» السعودية التى يرأسها الأمير خالد بن عبد الرحمن آل سعود، وبدأت البث رسمياً فى ٢٥/ ٥/ ٩٤. وسيرد ذكرها بقدر من التفصيل عند الحديث فيما بعد عن «شبكة أوربيت» ضمن الجزء الخاص بحزم القنوات التليفزيونية.

د - قناة الجزيرة : ISC

ولها وضع خاص يختلف عن القنوات الفضائية الحكومية وغير الحكومية. فقد أنشاتها مؤسسة لها استقلالها الذاتى، بتمويل من دولة قطر التى يقتصر دورها - حتى الآن - على التمويل دون الإشراف أو الإدارة، ولا تربطها أية علاقة بتلفزيون قطر أو وزارة الإعلام .. وقد بدأت القناة إرسالها من «الدوحة» فى نوفمبر ١٩٩٦. وتخصصت فى الأخبار، والأحداث الجارية، وتقدم برامجها باللغة العربية.

وتبث القناة إرسالها عبر القمر الصناعى العربى «عربسات ٢ A 26 درجة شرقاً»، «والقمر الأوروبى» يوتلسات ١١ F 16 درجة شرقاً «وأخيراً انضمت لها قنوات نايل سات ١٠١ و ١٠٢ ولقناة الجزيرة مراسلون فى أهم العواصم العربية وبعض العواصم الغربية.

هـ - شبكة الأخبار العربية ANN :

قناة متخصصة فى الأخبار والأحداث الجارية تذيع باللغة العربية على مدار ٢٤ ساعة، وتبث برامجها من لندن على أقمار يوتلسات (الاوروبى) ونايل سات (المصرية) وهى غير مشفرة، وتذيع الإعلانات ولو أنها غالباً تعتمد على دعم بعض الأنظمة العربية.

و - قناة «سات ٧» :

وقد تخصصت فى خدمة مسيحيى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بدأت البث عام ١٩٩٦ من قبرص باللغة العربية ولمدة ثلاث ساعات أسبوعياً زادت إلى سبع ساعات ونصف وأدخلت لغات أخرى غير عربية.

ويذاع يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع على القمر الأوروبى يوتلسات Fs بالإضافة إلى بانام سات ٤ يوم الجمعة.

ويعتمد البرنامج فى تمويله على الهبات التى يحصل عليها من الكنائس المحلية والعالمية والأفراد، ويأمل أن يزيد التمويل حتى يتمكن من البث اليومى.

ز - قناة اقرأ الفضائية:

هى قناة عربية إسلامية شاملة مفتوحة (غير مشفرة) بدأت عام ١٩٩٨ تنهل من نبع الإسلام الحنيف، وجمهورها هو كل الناطقين أو الذين يفهمون اللغة العربية داخل المنطقة العربية أو خارجها، وتعتمد التاريخ الهجرى وبجانبه الميلادى، وتوقيت مكة المكرمة بجانب توقيت جرينتش وتعتمد فى تمويلها على الإعلانات ورعاية البرامج وريع الأوقاف المخصصة لها والاشتراكات الشرفية والتبرعات غير المشروطة من أصدقاء القناة.

وتذيع القناة لمدة ٢٤ ساعة طوال أيام الأسبوع منها أربع ساعات لخدمة القرآن الكريم. وتعمل القناة تحت مظلة راديو وتلفزيون العرب ART بالتعاون مع الشركة العالمية للإنتاج الإعلامى GMP القاهرة.

وهناك عدد آخر من القنوات الخاصة ظهر حديثاً (١٩٩٩) مثل قناة «الأندلس» ويمتلكها رجل الأعمال السعودى محمد العشماوى وتبث من «ماربلا» فى أسبانيا، وهناك قناة «المستقلة» تصدر عن دار نشر المستقلة ومركزها لندن.

وأخيراً ظهرت قناة التسوق «تميمة» للإعلان والترويج لبعض السلع والخدمات عن طريق الاتصال التليفونى.



يقولون أن الإعلام الغربى الذى يصلنا عن طريق القنوات الفضائية يبث فينا الدعايات السياسية بطريق مباشر أو غير مباشر، بما يؤثر على مواقفنا السياسية أو انتماءاتنا الوطنية .. وهو أمر لا نريد أن ننكره وإنما هو نوع من التحدى الذى يمر به العالم منذ الحرب العالمية الأولى

ح - قنوات النيل المتخصصة:

ارتبط إنشاء قنوات النيل المتخصصة بإطلاق القمر الصناعى المصرى «نايل سات»، وما يوفره من إمكانيات كبيرة فى البث بعد الأخذ بالنظام الرقمى وضغط الإشارة. وقد أنشئ لها قطاع خاص ضمن اتحاد الإذاعة والتليفزيون المصرى (ومن المحتمل أن تتحول فى المستقبل إلى شركة يساهم فيها القطاع الخاص) ويبلغ عددها سبع قنوات بدأت أولاها بالفعل وهى «قناة النيل للدراما» فى شهر سبتمبر ٩٦ وبدأت بث برامجها مشفرة ولمدة ١٥ ساعة، لمنطقة الخليج والولايات المتحدة الأمريكية باستخدام القمر الصناعى «بنام سات» ثم تم نقلها إلى القمر المصرى وتشاهد حالياً من خلال شبكة الكوابل CNE فى مصر، أما بقية القنوات المتخصصة فهى :

الإخبارية - الثقافية - الرياضية - الأسرة والطفل - والمنوعات .. بالإضافة إلى ٧ قنوات للتعليم العام (بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم المصرية) وهى :

التعليم الابتدائى والإعدادى - الثانوى العام - الثانوى الفنى - قناة محو الأمية وتعليم الكبار - اللغات - وأخيراً قناة التنوير.

وهناك قناتان للتعليم الجامعى (بالتعاون مع وزارة التعليم العالى المصرية) وهما : قناة الجامعات - وقناة المعاهد العليا .

وقناة أخرى للبحث العلمى والتكنولوجيا وهى (بالتعاون مع وزارة البحث العلمى المصرية).

وهناك قناتان للصحة (بالتعاون مع وزارة الصحة المصرية) وهما :

قناة أمنحتب للصحة - وقناة حورس للتدريب المتقدم للعاملين فى المجال الصحى.

«حـــزم» القنـــوات التليفـــزيونية:

بدأ الأخذ بهذا النظام كما سبق القول لتوفير مورد مالى للقنوات التليفزيونية سواء فيها العامة أو الخاصة يضاف إلى مواردها من الإعلان، ويمكن أن تضم الحزمة قنوات أرضية إلى جانب القنوات الفضائية، أما بالنسبة للمشاهد فالمفروض فى كل حزمة أن تقدم عدداً من القنوات قد لا يتاح معظمه لكثيرين من المشاهدين وبأسعار للديكودر (جهاز فك الشفرة) وأجهزة الاستقبال، تقل عن تكلفة اقتناء هوائيات الأقمار المختلفة.

ونعرض فيما يلى أهم هذه الحزم فى المنطقة العربية.

١ - الشركة المصرية للقنوات الفضائية: CNE

تأسست عام ١٩٩١ وهى شركة استثمارية يشارك فيها اتحاد الإذاعات والتليفزيون، بدأت مزاولة نشاطها باستقبال وإعادة بث القناة الإخبارية العالمية CNN لمدة ٢٤ ساعة يومياً، ولها احتكار هذا النوع من البث فى مصر، وتطورت أعمالها وزاد عدد ما تقدمه من خدمات للمشتركين حتى وصل إلى ٦٣ قناة.

تضم قنوات النيل المتخصصة، و١٦ قناة لدول عربية ٩ قنوات مشفرة من مجموعة قنوات راديو وتليفزيون العرب و١٣ قناة من مجموعة «شوتايم» .

٢ - مجموعة الأوائل السعودية ST NET١

وتشترك مع راديو وتلفزيون العرب ART التى أطلقت عام ١٩٩٤ وتضم عدداً من قنوات هذه

الشركة بالإضافة إلى قنوات مصرية وعربية أجنبية ويتم البث بمشاركة الشركة المصرية للقنوات الفضائية CNE.

٣ ـ شبكة أوربت :

وهي عضو في مجموعة شركات «الموارد» السعودية ويرأسها الأمير خالد بن عبدالرحمن آل سعود، وتضم الشبكة مجموعة تتألف في الوقت الراهن من ١٧ قناة تلفزيونية عربية وأجنبية، تعيد بثها إلى جانب ١٢ قناة إذاعية.

وللشبكة قناتان خاصتان بها، وتبث هذه المجموعة من القنوات المشفرة في شكل حزمة تصل إلى المشتركين الذين يدفعون مقابلاً مادياً لاشتراكهم ويزودون بديكودر خاص لفك الشفرة.

وقد بدأ البث رسمياً في ٢٥/ ٥/ ١٩٩٤ من مركز يقع قريباً من روما .. ويقوم بنقله القمر العربي «عربسات ٢ " A وتشمل التغطية الشرق الأوسط وشمال أفريقيا .. كما قامت «أوربيت» باستئجار ثلاث قنوات قمرية على أقمار انتلسات الدولية (٧٠٣ ـ ٢٠٤ ـ ٧٠٢). وفي بداية عمل الشبكة عام ١٩٩٥ وصلت قيمة جهاز فك الشفرة إلى عشرة آلاف دولار أمريكي، خفضت مع بداية عام ١٩٩٦ إلى أقل من (٩٠٠) دولار، هذا بالإضافة إلى رسم اشتراك شهري لكل قناة. وقد صدرت قرارات في كل من مصر والسعودية، تحظر الاشتراك في الحزم التليفزيونية إلا بشروط خاصة، وكذلك استقبال قنوات الأوربيت محظور في البحرين رسمياً، ولو أنه متاح من الناحية العملية.

ومن بين القنوات التي تدخل في هذه الحزمة، القناتان الفضائيتان المصريتان الأولى والثانية.

وكانت حزمة أوربيت تضم شبكة أخبار عالمية باللغة العربية، أنشأتها هيئة الإذاعة البريطانية BBC خصيصاً للشبكة، ولكن حدث خلاف بين الجهتين أدى إلى توقف هذه القناة.

قضايا واقتراحات:

وبعد .. فلعلي أكون قد أوضحت المعالم الرئيسية لغابة القنوات الفضائية التي تغطي المنطقة العربية أو أجزاء منها على الأخص ما يتصل منها بالقنوات العربية، ولا أدعي أنني قدمت الصورة كاملة، فلابد أن تكون بعض الحقائق قد غابت إما لقصور مني، أو لأن جهة ما لم تحاول أن تلملم شتات هذا الموضوع الدائم الحركة والتغير.

وإذا كان الفضاء قد ازدحم بالقنوات التلفزيونية، فقد كانت هذه هي النتيجة الطبيعية لتقدم تكنولوجيا الاتصال وفي مقدمتها الأقمار الصناعية، وما أتاحته من فرص أمام المؤسسات التليفزيونية الرسمية والخاصة العربية أو الدولية لدعم نشاطها في مجالات الإعلام والدعاية السافرة أو التجارة أو الترويج أو الترفيه أو التثقيف العام والتعليم.

والفضاء ملك للإنسانية كلها وليس ملكاً لدولة أو مجموعة دول ولا يملك أحد أن يمنع شخصاً أو مؤسسة ما من استغلال الفضاء في الحدود المتفق عليها دولياً في إطار الاتحاد الدولي للاتصالات، لتحقيق الأغراض السابق الإشارة إليها ما دامت قادرة على تحمل الأعباء التي يتطلبها هذا النشاط، ولكن العبرة أولاً وأخيراً في «الاستقبال» أي في الفرد أو المؤسسة التي تستقبل البث الوافد من الفضاء .. فيستطيع أي إنسان أن يرفض أو لا يهتم باستقبال هذه القنوات أو بعضها، أو يكون غير قادر أو غير راغب في تحمل أعباء هذا الاستقبال مهما انخفضت تكلفته .. وقد يرى استقبال قنوات معينة ولا يستقبل قنوات أخرى حتى لو جاءت من نفس المصدر، فقد أتاح التقدم التكنولوجي التحكم في أجهزة الاستقبال فتقبل البعض وتمنع وصول البعض الآخر.

فنحن إذن أمام موقف لا حيلة لنا فيه، وكل ما نستطيعه هو ترشيد استخدامه بحيث نحقق من خلاله أقصى ما يمكن من الإيجابيات، ونقلل ما يمكن أن يترتب عليه من آثار سلبية.

وأرجو ألا يتبادر إلى ذهن أحد أن هذا التقدم التكنولوجي الذي أدى إلى هذه الطفرة في استخدام القنوات الفضائية في المنطقة العربية هو شر كله .. كما أنه ليس الخير كله، فهذه الظاهرة لها إيجابياتها العديدة، كما تحمل قدراً من السلبيات.

فمثلاً يقول البعض إن التعرض للقنوات الأجنبية بكل ما تحمله من قيم اجتماعية غربية يؤدي إلى شيوع هذه الأنماط الثقافية بين شبابنا، وبالتالي يهدد هويتنا الثقافية العربية بالخطر وينسى هؤلاء أننا نتعرض في كل تاريخنا الحديث لهذه الأنماط عن طريق الأفلام السينمائية والقنوات التليفزيونية الأرضية، بل والروايات المترجمة والتواصل عن طريق السفر إلى هذه المجتمعات واستقبال سياحها والصحف الأجنبية التي تصدر بعض طبعاتها باللغة العربية، ولم يحدث أن اغتربت مجتمعاتنا العربية أو تركت قيمها الاجتماعية والدينية الأصيلة، واستبدلت بها قيماً غربية .. وقد يكون هذا التعرض قد ترك بعض آثار في الملبس أو طريقة السكن أو الغذاء أو التعامل اليومي، ولكنه لم يمتد إلى القيم الأصيلة التي تغذيها الأسرة والمؤسسة الدينية والمؤسسات التعليمية، وهي على كل حال معركة لم تنشأ فقط منذ ظهور وسائل الاتصال الحديثة، فقد عرفناها منذ بداية تاريخنا الحديث، وينبغي أن تظل الجهود موجهة بوعي إلى تدعيم هويتنا الثقافية وانتماءاتنا الوطنية الدينية، لمواجهة تيارات التسطيح الثقافي أو ما يسمى أحياناً بالغزو الثقافي أو العولمة الثقافية.



القنوات العربية لم تستطع أن تقيم فيما بينها وكالة أنباء تليفزيونية عربية تعتمد على المراسلين العرب الموجودين حالياً

ويقولون أن الإعلام الغربي الذي يصلنا عن طريق القنوات الفضائية يبث فينا الدعايات السياسية بطريق مباشر أو غير مباشر، بما يؤثر على مواقفنا السياسية أو انتماءاتنا الوطنية .. وهو أمر لا نريد أن ننكره وإنما هو نوع من التحدي الذي يمر به العالم منذ الحرب العالمية الأولى وما نشأ خلالها من تضخم الآلة الدعائية للأطراف المختلفة، وسلاحنا فيه الآن ينبغي أن يكون في مزيد من الديمقراطية وحرية الإعلام وطرح الآراء والاتجاهات ومناقشتها، وعدم إخفاء الحقائق أو تشويهها ولكن .. وعلى الجانب الآخر تحمل ظاهرة تعدد القنوات الفضائية عدداً من الإيجابيات هي التي ينبغي أن نركز عليها وننميها:

* فقد أتاحت للأنظمة العربية ولفئات الصفوة في المجتمعات العربية المختلفة فرصة التعبير عن نفسها وتوصيل صوتها وإبداعاتها وأفكارها إلى غيرها من المجتمعات العربية، بما لم يتحقق من قبل على المستوى الذي يجري الآن.

* وأعطت للمشاهد العربي فرصة اختيار ما يصلح له ويريد أن يتعرض له، دون أن يكون محتكراً من جانب قناة تلفزيونية أو اثنتين تملكهما السلطة، وهذا نوع من التجدد من شأنه أن يطلق عنان حريات أخرى .. فإتاحة فرصة الاختيار هو اللبنة الأولى في تشكيل الشخصية القادرة على التطور ومواجهة ظروف الحياة بتياراتها المتضاربة.

* وأدى التنافس بين القنوات العربية وعلى الأخص مع القنوات الخاصة إلى إعطاء هامش من الحرية لتلفزيوناتها الوطنية لطرح موضوعات وقضايا لم يكن مسموحاً بعرضها من قبل، كما أتاحت فرصا جديدة لألوان جديدة من الإبداع.

* وأتاح تخصص القنوات بعد تعددها فرصا واسعة لخدمة الأهداف الثقافية والتعليمية والرياضية ونقل الأحداث الجارية على الأخص الرياضية والفنية.

ومع ذلك فمازال ينقصنا الكثير في مجال ترشيد استخدام الفضاء في المنطقة العربية :

* فحتى الآن لم تستطع القنوات العربية أن تتهيأ لتقديم خدمة إخبارية عربية واحدة تعتمد على مساهمات القنوات الأعضاء، وتقدم صورة كاملة، نسبياً على الأقل، لما يجري من أحداث على الأرض العربية .. وهناك نموذج ممتاز يذاع يومياً من إبداعات اتحاد الإذاعات الأوروبية يتمثل في قناة «يورو نيوز» أي أخبار أوروبا، وقد بدأ منذ سنوات ويعتمد على مساهمات الأعضاء، ويذاع بخمس لغات أوروبية وربما أكثر، رغم ما في ذلك من جهد فائق، بينما قناة الأخبار العربية لن تتعامل إلا بلغة واحدة وهي ميزة لم نحسن استغلالها واستغلتها الإذاعات والقنوات الدولية في توجيه بثها إلى كل المنطقة العربية بلغة واحدة، هي اللغة العربية.

* بل إن القنوات العربية لم تستطع أن تقيم فيما بينها وكالة أنباء تليفزيونية عربية تعتمد على المراسلين العرب الموجودين حالياً، لكي يستفيد الجميع من خدماتها، مع إمكان تطويرها، إذا هي شكلت جهازاً واحداً .. وغلبت الاعتبارات القومية على أنانية المنافسة.

* والأهم من هذا وذاك ـ ويرتبط به ـ أن القنوات العربية لم تستطع أن تنشئ قناة للتعامل مع العالم الغربي بلغاته، على الأقل الإنجليزية والفرنسية، وتركت هذه المبادرة «لقناة النيل الدولية» التي أنشأها اتحاد الإذاعة والتلفزيون في مصر ويوجهها إلى مناطق في أوروبا وأمريكا ـ وكان من شأن هذه المبادرة أن تزيد ثراءً بصدورها عن مجموعة القنوات العربية أو عدد منها.

* بل إن القنوات العربية لم تستطع الاتفاق على إنتاج مشترك لبرنامج واحد يسجل الآثار العربية والإسلامية في الأقطار العربية ذاتها ليكون بادرة على إمكان المشاركة فيما بينها لإنتاج عدد من البرامج التليفزيونية يعمل على دعم روح المواطنة العربية ويقف في وجه الخطر الذي يتحدثون عنه كثيراً، وهو خطر العولمة الثقافية أو محاولة اختراق الثقافة العربية، كما يمكن ترجمته إلى لغات أخرى ليذاع في العالم الخارجي.

* وعلى شدة حاجة القنوات العربية لبرامج توجه للأطفال باستخدام الوسيلة الأكثر اجتذاباً لهم، وهي الرسوم المتحركة، وعلى كثرة الاجتماعات التي عقدت في هذا الشأن في إطار مجلس وزراء الإعلام العرب، واللجنة العربية الدائمة للإعلام، واتحاد إذاعات الدول العربية، إلا أنه لم يتم التوصل إلى أي بادرة توحي بإمكان الدخول في هذا المجال، وترك الأمر للقطاع الخاص إذا رأى فائدة له في ذلك.

* وبرغم كثرة الحديث عن أهمية العناية باللغة العربية باعتبارها إحدى الركائز الأساسية للثقافة العربية والهوية القومية، والشكوى المتكررة من ضياع هذه اللغة بين الأجيال الجديدة من المهاجرين العرب في الخارج، وهم مهاجرون من أقطار عربية شتى، إلا أن جهداً مكثفاً ومشتركاً لم يحاوله أحد لإنتاج دروس متلفزة لتعليم العربية بمستوياتها المختلفة، والنماذج كثيرة فيما يفعله الناطقون بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، ولم يزد الأمر في بعض الحالات على برنامج واحد لا تصاحبه مواد مطبوعة وبغير متابعة من أي نوع وهو شرط لنجاح مثل هذه البرامج.

* وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى لا يمكن الحديث عن الاستغلال المنظم لهذه القنوات أو بعضها في برنامج للتعليم المفتوح.. ولا نقول جامعة مفتوحة، فذلك حلم بعيد المنال .. ولا يمكن إلقاء العبء في الوقت الحاضر على قنوات النيل التعليمية. أولاً: لأنها تعد وتبث بالتعاون مع السلطات التعليمية المصرية لخدمة مناهج التعليم المصرية، وثانياً: لأن أجهزة استقبال القمر المصري «نايل سات» لم تنتشر بعد في الدول العربية مما يجعل التفكير في استخدام هذه القنوات على المستوى القومي العربي سابقاً لأوانه .. وأخيراً لأن هذه المسئولية ينبغي أن توزع بالمشاركة مع قنوات عربية أخرى تدعيماً للفكر القومي العربي وتدعيماً للعملية التعليمية الشديدة الحاجة إلى التطوير في المنطقة العربية كلها.

والذي قدمناه هنا مقترحات أو أفكار، ليست جديدة أو ندعي الفضل في ابتكارها، فقد تمت مناقشة أغلبها في اللجان المنبثقة عن اتحاد إذاعات الدول العربية، أو لجنة تنسيق القنوات الفضائية أو مجلس وزراء الإعلام العرب أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ولكن أياً منها لم يجد طريقه إلى التنفيذ المحكم في ظل مشاركة إيجابية من القنوات الرسمية أو الخاصة.

باختصار هناك غياب لإرادة سياسية مشتركة تأخذ مثل هذه الأمور مأخذ الجد ..

أعشاب وطحالب

فى حياتنا الثقافية!!

محمد سليم العوَّا

[١]

أصبح كاتب «وليمة لأعشاب البحر» أشهر شخصية ثقافية عربية فى اللحظة الراهنة. فإعلام الدنيا كلها يتهافت عليه ليدلى بحديث أو يكتب كلمة أو يشارك فى حوار تذيعه قناة تليفزيونية. وهو قليل الكلام مما يزيد الطلب عليه ويكثّف من أضواء الشهرة حوله!

وأصبح هذا الكاتب - كذلك - أحد رجال التاريخ، باعتباره مضطهدًا دينيًا، ينادى «الإسلاميون» بمنع كتبه من التداول والنشر. وباعتباره رمزًا «تنويريًا» للتحرر الأدبى، يدافع عنه حماة الإبداع فى كل مكان من العالم العربى والغربى أيضا!

وهو لم ينل هذا المجد وتلك الشهرة بسبب عمل غير مسبوق فى تاريخ الأدب العربى، أو خدمة فنية أو فكرية قدمها للإنسانية. ولكنه نال ذلك كله - وأكثر منه - بسبب الهجوم علي روايته وانتقاد نشرها في مصر..

وقد انشغلت - قراءة ومتابعة - على مدى الأسبوعين الماضيين، بأمر هذه الرواية، والضجة التى ثارت حولها، والتوابع التى لحقتها. فأوشكت أن تزلزل الطمأنينة المصرية الراسخة - عادةً - مهما يكن من عنف الأحداث وقسوتها.

وتأملت كلام الناطقين والكاتبين فى هذه الفتنة، وتأملت صمت الصامتين فيها. فتيقنت أن من واجب ذلك الكاتب السورى أن يَمْتَنَّ لمهاجميه أعظم المنة فقد صنعوا منه هذا البطل العربى التنويرى المضطهد، وجعلوا روايته «وليمة لأعشاب البحر» من أكثر الكتب شهرة. وستصبح - بغير شك - من أوسعها انتشارًا مدة غير قصيرة من الزمن، وتلك أياد ينبغى أن يذكرها من أصابه خيرها، ويشكرها لمن أسدوها إليه، وإن كانت فى نظر آخرين فتنة عمياء مدمرة كان يمكن أن تأكل الأخضر واليابس، وتذر أعرق عاصمة عربية قاعاً صفصفًا أو يبابًا مُدَمَّرًا.

[٢]

انا تئقٌ وانت مئقٌ فكيف نتفق؟

كانت تلك الحال التى يصفها ذلك المثل العربى القديم أحسن وصف - ولاتزال - هى حال الفريقين المختلفين حول رواية حيدر حيدر. و«التئق»: هو الممتلئ غضبًا، و«المئق» هو الجزوع من ذلك الغضب قليل الاحتمال له.

وقد بلغ ذلك الغضب، وبلغ رد فعله حدًا شغلا معه القضاء المصري والمجتمع الثقافي مشغلة جعلت الإعلام العربي يموج بمناقشة مستمرة للجائز والممنوع، والمقبول والمرفوض، والخطأ والصواب فى جملة ما حدث وتفاصيله على السواء.

وإذا كان الشأن القضائى قريب الانتهاء، أيا ما كانت النتيجة التى ينتهى إليها، فإن الشأن الثقافى والفكرى يبدو مرشحًا لاستمرار الجدل وتفاعل الخلاف: إذ لا يتعلق الأمر عند المثقفين والنقاد والمفكرين برواية نشرت أو منعت، وإنما يتعلق بقضية الإبداع نفسها، وحرية الفكر ومداها، والحق فى التعبير، مبتدئه ومنتهاه، وهى مسائل لا يملك أحد أن يمنع أحدًا من الاختلاف حولها، ويظل شأن الفريقين شأن حالة التنافر المستمر التى يصورها قول العربى القديم: انا تئق وانت مئق فكيف نتفق؟!

[٣]

الرواية المشكلة نص بالغ الطول، وقع فى طبعته المصرية فى ستمائة وتسعين صفحة. وهو يحكى قصة شيوعيين عراقيين فرّا من جحيم الصراع السياسى فى العراق فى بداية الستينيات، والتقيا - مصادفة - فى قرية جزائرية، يعيش أهلها مرحلة التحول فى السياسة الجزائرية التى بدأت بتولى هوارى بومدين الحكم هناك.

يلتقى العراقيان الهاربان بامرأتين جزائريتين، إحداهما كانت تناضل مع الثوار ثم تحولت إلى ساقطة، وجعلت من غرفة فى بيتها فندقا تؤجره بين حين وحين إلى شخص واحد، تفضله من المشارقة، وفيه أقام أحد هذين العراقيين (مهيار الباهلى). والثانية كانت فتاة صغيرة لم تتم دراستها الثانوية، أبوها شهيد تركها وأختًا أخرى فى كنف أمهما التى تزوجت بعد وفاته من تاجر فظ غليظ القلب، لكنه كثير المال والنفوذ.

مهيار تحول بعد مقاومة محدودة إلى عشيق لفلة، شأن من سبقوه إلى الإقامة لديها، ومهدى جواد - الشيوعى الثانى - وقع منذ لحظة لقائه بتلميذته - التى طلبت منه أن يدرسها اللغة الغربية - فى غرامها.

والرواية تحكى ضياع شخصياتها، وانهيار القيم التى تركوها خلفهم، منتمية إلى زمن عاشوه قبل لقائهم فى زمن الرواية.

والرواية منذ الصفحات الأولى تصيب قارئها بالملل والسأم، فلغتها متواضعة، وسرد الأحداث فيها يبدأ ولا ينتهى، وفى بنائها وأسلوبها ركاكة ظاهرة. ذكرتنى بما قاله لى صديق قديم متخصص فى الأدب الإنجليزى عن قراءته لرواية سلمان رشدى (آيات شيطانية)، قال إنه نام مرتين وهو يقرأ الفصل الأول، وأكملها مضطرًا ليقف على المواضع التى أثارت انتقادًا إسلاميًا. وقال لولا الضجة التى ثارت حول تلك الرواية، لما سمع أحد - في العالم العربي - باسم سلمان رشدى، وهذا نفسه هو شأن مؤلف الوليمة!

يَفْجَأ حيدر حيدر قرَّاءَهُ بأنه كاتب غير مكترث، ينسب ما شاء إلى القرآن الكريم دون أن يكلف نفسه أىَّ عناء للتحقق مما يقول لقارئه إنه نص قرآنى (الصفحات ٢٢ و١١٤ و١٤٨ و١٥٢ و٣١٩).

وهو غير معنى برقى التعبير أو بالارتفاع به عن مستوى تعبيرات السوقة فى فحشها وبذاءتها، ويصنع ذلك فى التعبير عن أقدس الأشياء وأعظمها حرمة، وعلى امتداد نصه كله. وهو يتحدث (فى صفحة ٣٢٠) عن «الانفلات من حقل الحرية إلى غابة الفوضى والمزاج العارى»، وهو ما فعله - مخلصا - فى كتابته كلها فى طول الرواية وعرضها.

فأما عدم الاكتراث فى شأن القرآن الكريم، فتراه مثلا فى صفحة (٢٢)، يذكر أن صوتًا يتلو همسًا «قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم»، وليس هذا نصا قرآنيا أصلا. وتراه فى صفحة (١١٤) يقول: «قال الله فى كتابه العزيز: إنا خلقناكم فوق بعض درجات»، وهذا قطعا ليس قرآنًا، ومع ذلك فتعقيب أحد السامعين عليه هو: «لالا (اسم أم إحدى بطلتى الرواية) تردد هواجس ووسوسات يزيد». فما يعتبره نص الرواية (قرآنًا) يعتبره أيضا (وساوس وهواجس)!

وتراه فى صفحة (١٤٨) يقول: «والله تعالى قال فى كتابه العزيز: إذا بليتم بالمعاصى فاستتروا»، وليس هذا بقرآن أيضا! وتراه فى صفحة (٣١٩) يقول: «انطلق تعليق: إن لجسدك عليك حقًا. صدق الله العظيم». وليس فى القرآن الكريم هذا النص كذلك.

وأما التعبيرات السوقية الفاحشة البذيئة، فإنها تنتشر على امتداد الرواية كلها، وليست جملة عارضة فى سياق خاص انتزعت منه لإدانة المؤلف وروايته، بل هي من الكثرة والشيوع بحيث لايمكن فصلها عن الرواية مع بقاء الرواية نفسها.

[٤]

وضياع النماذج التى يقدمها الكاتب فى شخصيات روايته الأربع ينتهى دائما إلى معاقرة الخمر أو إدمانها، وإلى ممارسة الجنس، الفردية والثنائية والمثلية، بصورة تثير التقزز وتدفع إلى الاشمئزاز، لا من فرط التقوى واستحكام الحياء عند القارئ، بل من بشاعة العلاقات والأوصاف والكلمات التى تطالعه بقبحها وسوقيتها. ولا يفلت من هذا المصير أحد، بدءًا من «فُلَّة» المرأة التى قدمت شبابها لثورة الجزائر، ثم انتهت إلى حالة من السقوط الدائم لا هم لها إلا البحث عن رجل شرقى يعاشرها حرامًا؛ ومرورًا «بعمر يحياوى» البطل الذى فرّ من الفرنسيين بعد القبض عليه ثلاث مرات وانضم فى كل مرة إلى الثوار، ثم تحول إلى إدمان الخمر وأحضان العاهرات (ص ٤٨٢ - ٤٨٩)، ووصولاً إلى الفتاة الغضة (آسيا لَخْضر) بنت الشهيد (سى العربى لَخْضر) وشبيهته المعتزة بتاريخه، التى تحولت إلى بذيئة اللسان، لا تتحدث إلا بالألفاظ الجنسية، ولا تنكت إلا بإشارات سخيفة إلى الأعضاء الجنسية للرجال والنساء (ص ٥١٥ وما بعدها)، وذلك كله لا يقارن بما انتهى إليه حال المناضلين الشيوعيين أفرادًا وجماعة: خمرا يدمنونها، وزنى يتباهون باقترافه، ولواطًا يتظرفون بالتمازح الثقيل حوله! (ص٤٩٠ - ٥٠٠). فالرسالة التى تبعث بها الرواية كلها هى انهيار محاولات التحرر الوطنى فى العالم العربى، الدينية منها والشيوعية على السواء!!

والكاتب يمارس هوايته فى عدم الاكتراث فى شأنه كله، فلا تفلت منها الأحاديث النبوية (ص١٤٨، وص٦٦٢). ولا اللغة العربية، فهو يستعمل كلمة «أمثولة» بمعنى القدوة (ص٥٥٩)، وهى فى اللغة بمعنى التمثُّل بالشعر بيتا بعد بيت (القاموس المحيط، ولسان العرب مادة: مثل). ويستعمل كلمة «مُرْبَك» وكلمة «مربكة» فى مواضع كثيرة، بمعنى «مرتبك» و«مرتبكة». ويجعل باء الاستبدال (ص ٥٦٤) تعود علي المستبقى لا على المتروك! ولا عليه! فهو كما يُبدع فى الوصف العجيب فحشه، «يبدع» فى استعمال اللغة كما لم يستعملها أهلها!

وحين أتتنى نسخة من الرواية، تفرغت لها يومين كاملين، فوجدت فيها بالإضافة إلى ما

ذكرته مجملا أكثر من خمسة وستين موضعًا تتراوح بين سطور عدة، وبين صفحات متوالية تتضمن:

١ـ هزءً بذات الله تعالى.

٢ـ سخرية من الدين أو الأنبياء ولا سيما محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام.

٣ـ قرآن مخترع أو محرف.

٤ـ أحاديث مخترعة أو محرفة.

٥ـ بذاءات جنسية مستقذرة يأباها العقلاء ويأنف منها المتأدبون.

ويقع كثير من هذه المواضع تحت طائلة نصوص قانون العقوبات، التى تجرم التعدى على الأديان والمقدسات والشعائر، أو نصوص القوانين التى تحمى القيم من الاستهانة بها أو الاحتراء عليها والآداب العامة من انتهاكها بصورة علنية.

ولهذه الأسباب نفسها، **انتهى مجمع البحوث الإسلامية، إلى أن الرواية مليئة بالألفاظ والعبارات التى تحقر جميع المقدسات الدينية، وتحرض صراحة على الخروج على الشريعة الإسلامية وعدم التمسك بأحكامها، وأنها خرجت عن الآداب العامة خروجًا فاضحًا.. وأنها خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة. (تقرير مجمع البحوث الإسلامية المؤرخ ١٣ من صفر ١٤٢١ = ١٧ مايو ٢٠٠٠).**

[٥]

كاتب الرواية اتهم منتقديها بأنهم «لا يتحركون من تلقاء أنفسهم، بل إنك قد تندهش إذا قلت لك إن العدو الصهيونى الإسرائيلى قد يكون أحد المستفيدين من حملات هؤلاء ضد المفكرين والفنانين والأدباء، الذين يريدون للأمة العربية أن تنهض» (الأهرام العربى، العدد (١٦٤)، ١٣ مايو ٢٠٠٠ صفحة ٦٩).

وقال: «إن روايته تمجِّدُ الإسلام كما لم يمجَّدْ من قبل»!! وإنه يمثل «الاجتهاد والفقه المتنور لأن النَّص حمّال أوجه»!!

وأنصار (الإبداع بلا حدود ولا قيود) قالوا: إن الرقابة على العقول وتفتيشها غير جائزين، وإن مسائل الفن من أعقد الظواهر البشرية ولابد من التفرقة فيها بين القارئ المدرّب والقارئ العادى، وإن الخط الفاصل بين ما يجوز أن ينشر باعتباره إبداعًا، وما لا يجوز، يحدده الفارق بين القارئ السوى والقارئ المعقد، وإن مضمون الرواية مضمون سياسى جيد/ ممتاز/ رائع. بينما قال عنها بعضهم «إنها رواية عادية» وقال أحد كبار النقاد سرًا: «إنها رواية ضعيفة ثم نفى علنا (!) أن يكون قد قال ذلك.

وقال هؤلاء أيضا إن الذى أثار القضية كلها هم من يسمونهم «بالجانب الظلامى من المجتمع»، و«الرجعيين»، و«ذوى الأهداف السياسية»، وإننا لا يجوز أن «نسيِّس» الموضوع ولا أن (نديِّنه)، وإن الطلبة الذين تظاهروا ضد الرواية، سيقوا إلى المظاهرات «كالدهماء»، وإن الرواية ـ على كل حال ـ نشرت عدة مرات وكانت توزع فى مصر من قبل أن تنشرها وزارة الثقافة، وإنه من الضرورى نشر هذه الأعمال الأدبية ليتواصل الأدباء والنقاد المصريون مع «المبدعين» العرب! وإن الأدب العربى القديم وكتب التفسير والفقه وعلم الكلام، مليئة بعبارات وآراء لا تتفق مع صحيح الدين، فهل نكفر أصحابها؟!!

[٦]

والمسألة هكذا تبدو شديدة التعقيد وتحتاج إلى «تحرير محل النزاع»، كما يقول الفقهاء، ولكى يتم لنا ذلك، فإننا لابد أن نقف على عدة أمور:

الأمر الأول: أن الأدب والإبداع لا يعيش فى فراغ ولا ينشأ من فراغ، فهو ليس كلامًا يقال فى الصحراء أو يطلق فى الهواء، ولكنه صناعة اجتماعية تعبر عن حال مجتمع ـ أو أفراد منه ـ وتذاع وتنشر وتقدم إلى مجتمع ليقرأها وينفعل بها، ويرى فيها رأيه إقبالاً أو إعراضًا. والنشاط المتعلق بمجتمع ـ أو ببعض أفراده ـ لا يمكن أن يكون طليقًا فى ممارسته من كل قيد، عصيًا على أىّ حد. إذ ليس فى الدنيا مجتمع بلا نظام. وجزء لازم من هذا النظام أن يلتزم فى الكلام الذى يلقى إلى الكافة منشورا أو متلوًا بحدود ما يقبله المجتمع وما يرفضه، ما يرضاه وما يأباه، ما يجيزه قانونه وما يمنعه، ما يحتمله عرف الناس وما يضيق به، ما يسيغه الذوق العام وما يمجه.

وكل كلام ينشر على الناس لا يلتزم بذلك، فلا يلومن صاحبه إلا نفسه إن جلب عليه سخط الناس، أو سطوة القانون، أو رفض العامة ولو قبله بعض الخاصة.

وليس فى ذلك تقييد لحرية «الإبداع» ولا «تحديد» لحقوق الأدباء، ولا حجر على خيال المتخيلين، لأن تعريفات الإبداع والأدب والتخيل، مهما اشتط أصحابها فى طلب الإفلات من كل عقال، لا تستطيع التفلت من تلك القيود الاجتماعية، وإلا لحقها ما يلحق الخارجين عليها، أيًا ما كان نوع خروجهم أو سببه. وليقرأ القارئ معى قول رجل لا يمكن أن يتهم ـ عند أنصار الرواية ودعاة الإبداع بلا حدود ـ بالظلامية أو الرجعية أو السلفية أو أنه من الدهماء، إنه الدكتور نصر حامد أبو زيد فى آخر كلام نشر له:

يقول: «.. على الفكر أن يلعب دورًا للتحديث والحرية.. ولا يوجد من يسمى مفكرا محايدا، فدعوى حياد الفكر هى دعوى عدم التزام..». (الأهرام العربى، العدد السابق ذكره، ص ٣٧). وليتأمل القارئ قول الدكتور فؤاد زكريا ـ وهو من هو ـ فى المصور (١٩/ ٥/ ٢٠٠٠): «إن هذا الكاتب يفتقر إلى الحس الاجتماعى.. وانعدام الحس الاجتماعى لديه هو الذى أوقعه فى هذا الخطأ، فالكاتب يسعى قبل كل شىء إلى أن يجعل القراء ينحازون إلى وجهة النظر التى يعبر عنها، وهذا يقتضى منه ألا يستعدى القراء باستخدام ألفاظ سوقية بذيئة يعبر بها عن مقدساتهم».

الأمر الثانى: أن هذه اللغة العربية يُتَوَجَّه بما يكتب بها إلى الأمة الناطقة بالضاد، وهى ليست أمة بلا ثقافة ولا تاريخ ولا عقيدة ولا أخلاق، وذلك كله يمثل مرجعية الأمة ومرجعية حضارتها، وإذا كان فيها بعض الضائعين أو التافهين أو بعض الضائقين بثقافتها وتاريخها وعقائدها وأخلاقها، فذلك شأنهم. وليس الناس ـ عامتهم ومتدينوهم والمستمسكون بالأخلاق الفاضلة منهم ـ بملزمين أن يقبلوا تعبيرا يزعم أنه «أدب» و«إبداع»، يهدر فى فحش من اللفظ وقبح من المعنى، وجرأة على المحرمات واستهانة بالمقدسات، أخلاق الناس، ويسخر من عقائدهم ومن أنبياء الله المبعوثين إلى الناس كافة. وغضب الناس لذلك كله أو بعضه مشروع، وقديما قالت العرب «من استُغْضِبَ فلم يغضب فهو حمار»!!

وإعمال القانون فى شأن الذين يكتبون مثل هذا الغثاء أو ينشرونه على الناس واجب، والمجتمعات كلها تصنع ذلك لحماية مقدساتها وقيمها، وليس بعيدا عن أحد ما حدث «لجارودى» فى فرنسا، و«لإيرفنج» فى بريطانيا لإنكارهما «المحرقة» التى تزعم الصهيونية أنها أصابت اليهود على أيدى النازيين. والقانون فى الولايات المتحدة وأوروبا كلها، وإسرائيل ـ طبعا ـ يعاقب على مجرد التشكيك فى الرواية الصهيونية لأحداث اضطهاد اليهود، وهى خرافة سياسية لا عقيدة دينية ولا قيمة أخلاقية.

فهل يلوم أحد ـ فضلا عن أن يتهم ـ طلاب أعرق جامعة دينية إسلامية إن غضبوا لدينهم؟! وهل يجوز وصفهم «بالدهماء»؟!

الأمر الثالث: أن هناك فارقًا لا يجوز إهماله أو تناسيه بين الغضب المشروع وبين الخروج على القانون. كان غضب طلاب جامعة الأزهر مشروعًا، ولكن تحطيمهم السيارات والممتلكات العامة غير جائز. وكانت محاولة الشرطة منعهم من مخالفة القانون مشروعة ـ بل واجبة ـ لكن إطلاق الرصاص المطّاطى عليهم وإلقاء القنابل المسيلة للدموع داخل المدينة الجامعية كان تجاوزا يجب مساءلة الذين أمروا به.

حدثتنى طالبة دكتوراه مصرية محجبة، تدرس فى جامعة كولومبيا فى نيويورك، إنها كانت مع الصحفى «ستيف نيجز» (أمريكى يحرر مجلة كايرو تايمز)، يرقبان المظاهرات، وفجأة قبضت الشرطة عليهما، وادعت «ضابطة» شرطة أنها قبضت على اليهوديين اللذين يحركان المظاهرات!! فهجمت عليها الطالبات ونزعن حجابها وأوسعنها والصحفى الأمريكى ضربا، وتعالت الهتافات ضد اليهود، ولولا أن أنقذهما ضابط شاب، لكانا الآن فى عداد الهالكين! فهل حاسب أحد هذه «الضابطة»؟! وهل كان هذا الموقف هو سر ادعاء حيدر حيدر أن «العدو الصهيونى الإسرائيلى قد يكون أحد المستفيدين..»؟؟

وكان غضب المعترضين على نشر الرواية ـ فى أصله ـ مشروعًا، ولكن التعبير الذى ساقتهم إليه أقلامهم بالفاظ الكفر والفسوق والدعارة والفجور، واتهام «الفاعلين» وآبائهم بذلك كله، ودعوة الأمة كلها ـ فردا فردا بوظيفته أو مهنته ـ إلى الثورة: كل ذلك كان متجاوزا لحد المشروعية التى يقتضى العقل والعدل والشرع ـ جميعا ـ أن يلتزمها كل كاتب وكل قائل. وإذا لم يفرق الناس، لاسيما ذوى الرأى منهم، بين الغضب المشروع والغضب الممنوع، وبين الانفعال الجائز أو الواجب وبين الثورة المجنونة، فإن الخطر ينال الجميع ويجب أن يتكاتف الجميع فى مواجهته مهما تباينت مواقفهم الفكرية من سبب الغضب وموضوعه.

الأمر الرابع: أن أى عمل ينشر على الناس ويتاح للكافة، يكون عرضة للنقد. وليست هناك حصانة لأى إنتاج بشرى منشور أو معروض ضد انتقاد الناقدين مهما كان حاذًا. ومن أراد أن يعصم نفسه من ذلك، فليمسك عليه قلمه ولسانه. فقديمًا قيل: «من ألف فقد استهدف»، يعنى جعل نفسه هدفًا لسهام الناس، تصيبه بما يحب وما لا يحب. ولاريب أن آراء الناس ستتفاوت فى تقويم أى أثر أدبى أو فنى، إلا القليل النادر الذى يجمع على حسنه أو على قبحه. وليس من حق المختلفين أن يحجر بعضهم على بعض، ولا أن يدعى أحد أنه «المختص» وحده دون خلق الله كلهم بالتقويم مدحًا أو قدحًا. وذلك فارق ما بين العمل الأدبى والفنى والفكرى، المبذول للناس كافة يقولون فيه ما يشاءون، وبين العمل العلمى المتخصص الذى لا يفقه حقيقته إلا أهل التخصص وحدهم.

وانتقاد الناس للعمل الفنى والأدبى والفكرى غير الدرس النقدى الذى يقدمه أساتذة الأدب لطلابهم أو الذى يمارسونه فى صالونات الأدب التى لا يشارك فيها إلا أهله، الأول حق لكل قارئ ومشاهد، والثانى لا يقبل فيه إلا قول أصحابه. والأول هو الذى يؤخذ فيه برأى غالبية الناس وجمهرتهم ولو كانوا «معقدين» و«غير مدربين» وليسوا «متميزين» ولا «أسوياء» إذ لهؤلاء تنشر الأعمال الأدبية والفكرية نشرًا عامًا. والثانى يستمع فيه إلى قول أهل الاختصاص، ثم يختار كل امرئ ما يطيب له منها: ولا يجوز أن يظن أحد أنهم متفقون على كلمة سواء أو أن أقوالهم تستعصى على النقد والتمحيص والرد، أو أن أعلاهم صوتًا هو أرسخهم فى فنّه قدمًا أو أطولهم يدًا.

ولذلك لم يشعر أحد أن التوفيق حالف تقرير اللجنة التى شكلها وزير الثقافة، حيث قال ذلك التقرير إن عبارة «لابد أن ربك إذن فنان فاشل» الواردة على لسان بطل الرواية هى عبارة تأتى «على سبيل الدعابة وروح الفكاهة، فى لحظة غزلية... ومن شأن الأدب فى هذه المواقف أن يتطرّف بعبارات غير لائقة...» وإن البطل «يدين ربها هى لاربه هو ولا الذات الإلهية» وإن موقف القراء «يتوقف على مدى شعورهم بالحرج والتحفظ أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة...».

وعدم التوفيق مأتاه أن التطرف لا ينبغى له أن يتجاوز حدود المسموح دينًا وقانونًا ولياقة مع البشر أنفسهم، فكيف يجوز أن يصنع ذلك كله مع رب العالمين؟

وأن مذهب إدانة ربها هى لا ربه هو ولا رب

العالمين يقع بالتقرير من حيث لا يدرى ـ وأظن أن كتابه لم يريدوا ـ فى خطيئة الإقرار بتعدد الآلهة التى تخلصت البشرية منها منذ بعث الله رسله بالتوحيد!

وأن مسألة شعور القراء بالحرج أو الاكتفاء بإدانة الشخصية المتخيلة، تعود بنا إلى قصة القارئ العادى والقارئ المدرب، والقارئ السوى والقارئ المعقد، وهى حلقة مفرغة لا مهرب منها، إلا بترجيح ما تراه غالبية القراء من جمهور المثقفين العريض الذين نشر الكتاب ليصل إليهم بسعره الزهيد (أربعة جنيهات لستمائة وتسعين صفحة).

الأمر الخامس: أن الزعم بأن الرواية «تمجِّد الإسلام كما لم يمجَّد من قبل» زعم متهافت فارغ لا يفوقه تهافتا وفراغًا إلا زعم المؤلف أنه «مجتهد»، «لأن النص حمَّالُ أوجه» وهو مع «الفقه المتنور». فالأمر كله ليس محلا للاجتهاد، بل نحن أمام رواية إذا تأدبنا قلنا إنها متواضعة القيمة جدًا. وهو لا يتعرض لتفسير القرآن حتى يصح الاستشهاد بقول علىّ رضى الله عنه إنه «حمَّالُ أوجه». وليس فى المسألة فقه لا متنور ولا غيره!!

ومع أن مجمع البحوث الإسلامية قد فصل فى هذا الأمر برمته فى تقريره الصادر يوم ٢٠٠٠/٥/١٧ فإنه ليس على القارئ بأس إن وقفنا معه عند المواضع الأربعة التى قال المماثلون لصاحب الرواية ومذهبه إنها تمجِّد الدين.

الموضع الأول منها فى صفحة (٢٢) من الرواية، يحكى مغادرته (مهدى جواد) بيته فى العراق، حيث تمسك أخته بالقرآن (الكريم) فى يد، وبصحن من الطحين (الدقيق) فى اليد الأخرى، وتُتْلى تمتمات وأدعية تؤكد شيعية الأسرة، ويأتى فى نهاية النص كلام منسوب إلى القرآن ـ وهو ليس بقرآن ـ مسبوق بقول المؤلف (لا بقول أحد أبطاله):«ويتلو همسًا» ثم الكلام المزعوم أنه قرآن.

والموضع الثانى فى الصفحات من (٨٥) إلى (٨٧) يبدأ بوصف من المؤلف ـ لا من بطله المتخَيل ـ يقول فيه إن كوكبنا المعتم «خرج من ذاكرة الخالق والخلق» وينتهى بأن البطل (مهيار الباهلى) «يرى فى ماركس أو لينين محمدا جديدًا. محمد القرن العشرين ماركس أولينين العربى. هذا ما نحتاجه فى هذا العصر المضطرب». وفى النص نفسه يرى مهيار الإسلام ثورة عربية، ويصف الإسلام بأنه «تم تدجينه»!!

والموضع الثالث فى صفحة (٥٠٣) يصف المؤلف فيه ثوار حرب التحرير الجزائرية بأنهم هبطوا من الجبال المصبوغة بالدم «يهللون بتكبيرات عصور الفتح الأولى. كل مجاهد علّق على صدره قرآنا عربيًا. كان بمثابة الرقية ضد رصاص المستعمر الصليبى». وهذا الوصف مسبوق بوصف المدينة الجزائرية بأنها «مدينة إسلامية لا ترحم. عيون من النار والفولاذ. مدينة بربرية تتمخض ببطء من رحم الصحراء.. الغتو الإسلامى المظلم يتمدد كحيوان ديناصورى يتأبّى على الانقراض»!!

والموضع الرابع يبدأ من صفحة (٦١٠) إلى صفحة (٦١٥) وهو يحكى رؤيا منامية رآها البطل من ضمنها مشهد جنائزى فيه أدعية دينية وصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وثناء على الله تبارك اسمه، والمشهد (الحلم) ينتهى بأن يذكر لنا المؤلف ـ لا البطل ـ أن مهدى جواد «ما كان ميتًا. كان فى الغيبوبة التى تشبه الموت إثر سهرته قرب المرأة الحميمة». وأنها عندما سألته لماذا كان يصرخ فى نومه قال لها إن الأشباح جاءته فقاتلها، وهى سألته بخبث واستهزاء: كيف لى أن أعيش مع رجل تتقمصه الأشباح؟

ولست مرتابًا قط فى أن القارئ لن يجد فى هذه المواضع الأربعة ما وجده فيها المسرورون بالرواية من «تمجيد للإسلام»: كما أنه لن يجد مهما أعاد قراءة الرواية ذلك الحوار بين جماعتين مؤمنة وملحدة، تنتصر المؤمنة فى آخرها على الملحدة ويعلو شأن الدين، كما زعم بعض المدافعين عنها. وهو يلوم الناقدين لأنهم ينقدون نصًا لم يقرؤوه ولو قرأه هو نفسه لعلم أن بعض الناس يدلِّس عليه، فينسب إلى الرواية ما ليس فيها، ليوهمه أنها تعلى من شأن القيم الصحيحة!! ثم لماذا يلام الناس إذا صدقوا قول آخرين إن النص ردئ، وهل من الضرورى أن يقرأ عشرات الآلاف أو الملايين نصا رديئا ليصدقوا أنه ردئ!!

الأمر السادس: أن تصنيف الناس ـ كلما خالف بعضهم بعضا فى الرأى ـ بأنهم علمانيون، ملحدون، إباحيون، متغربون.. إلخ، أو وصفهم بالظلامية، السلفية، الرجعية، التخلف، الجمود.. إلخ، ذلك كله يدخل فى باب التنابز بالأسماء والألقاب، الذى يورث الضغينة ويؤجج الشحناء، ويقوى مشاعر البغضاء بين الناس، ولا يقدم حلا لأى مشكلة ولا يضع يده على سبب صحيح لها تمكن مواجهته وعلاجه. والذين يفعلون ذلك، يعطون أنفسهم سلطانا ليس لهم، وينصِّبون أنفسهم حكامًا على الضمائر والقلوب والعقول، وهو ما يأبونه جميعا ويرفضونه، وهم يحولون بين أنفسهم وبين فهم الآخرين والالتقاء بهم ـ وإن اختلفت المشارب والطرق ـ فى ساحة الحوار الحرّ المحترم الذى يتبين به الحق من الباطل والرشد من الغىّ.

والذين يذهبون إلى أنه لا يجوز الحكم على العمل الأدبى إلا من المنظور الأدبى فقط، وأننا لا يجوز أن «نديِّن» النظر فى العمل الأدبى، ينسون أن هذه الأمة المصرية أمة متدينة لا يقبل مسلموها ولا أقباطها فصل دينهم عن حياتهم، ولا يردون موردًا يتنافى وروده مع نواهى الدين أو يتضاد مع أوامره. وحكم «الحلال والحرام» فى كل ثقافة فى الدنيا، هو حكم دينى وليس حكما أدبيا أو فنيا. فإذا أخرجنا الدين ـ كما يريدون ـ من معايير الحكم على الفن والإبداع والأدب، فقدنا مرجعية هذا الحكم أصلا، وأبحنا لمن شاء أن يقذف فى حياتنا الثقافية بما شاء، وصارت هذه الحياة ـ الثقافية ـ فوضى لا ضابط لها، يختلط الحابل فيها بالنابل والغث بالسمين، وكفى بذلك فتنة وفسادًا. وليقرأ من شاء بيان الأزهر الشريف الذى أشرت إليه من قبل، وليقرأ من شاء خلاصة محاضرة البابا شنودة فى جامعة لندن (فى الأهرام يوم ٢٠٠٠/٥/١٢).

الأمر السابع: أن النص الذى بين أيدينا ليس وحيدا، إنه واحد من عشرات النصوص التى تنشرها الثقافة الجماهيرية أو (هيئة قصور الثقافة) متضمنة مثل هذه المقاطع التى لا يستطيع عاقل فضلا عن مؤمن ـ أن يقبل نشرها بأموال الشعب المصرى التى تخصصها الدولة لوزارة الثقافة، وقد ذكر بعض علماء الأزهر أن هناك أكثر من ثلاثين عملاً من هذا النوع معروضة فى الأسواق صادرة عن وزارة الثقافة.

- والسؤال الطبيعى هنا هو: لماذا؟؟
- لماذا تنفق الأموال ـ مهما كانت قيمتها المادية ـ على هذه الأعمال التى تحتقر المقدسات أو تستهين بالمحرمات أو تشيع الفاحشة وتكسر الحواجز الخلقية فى نفوس الشباب ـ وهم غالبية قرائها ـ إذ هى زهيدة الثمن، كثيرة العدد، توزع فى كل بقعة من ريف مصر وحضرها؟
- ولماذا الإصرار على هذا التوجه الجامع لهذه الأعمال كلها؟

هل هناك من يريد تغيير الذوق المصرى العام من ذوق يقدر الفن الراقى الجميل،ويحترم التعبير الأدبى المحترم، إلى ذوق يقبل البذاءة، والانحطاط اللفظى، ولا يقيم وزنا لاحترام الخصوصيات والعقائد والأديان؟

- إن الذوق المصرى جزء من خصوصية ثقافتنا، وهى ثقافة راسخة الجذور عميقة التأثير لا فى مصر وحدها، بل فى العالم العربى كله، والمفكرون والنقاد والمبدعون والجمهور فى الوطن العربى كله يجمعون على أن الرقى المصرى فى أى مجال، يمتد فورًا إلى كل الأماكن فى هذا الوطن، ولا شك أن التهافت والتحلل يمتد أيضا، فهل لأحد فى ذلك مصلحة؟؟

والثقافة الجماهيرية، أو هيئة قصور الثقافة تعمل فى بلد فيه مئات القمم الثقافية فى كل مجال. نحن فى الرواية بلد نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويوسف إدريس،ويحيى حقى، ويوسف السباعى، وعشرات الأفذاذ الآخرين، فماذا نشرت لهؤلاء؟ وهل أجرت أى استفتاء بين طلاب الجامعات ـ الجمهور العريض لإنتاجها الزهيد الثمن ـ لتعرف كم واحد منهم استطاع أن يوفر ثمن رواية مصرية عظيمة أو جيدة؟ وهل الأولى أن ينشر بالمال المصرى الإبداع المصرى أولاً ثم غيره أم لا؟ إن الإبداع العربى يجد طريقه إلى المعنيين بالتواصل الثقافى بوسائل شتى، ولايمكن أن يكون هؤلاء هم الجمهور المقصود بالنشر الرخيص ثمنه الذى تقوم به وزارة الثقافة.

وذلك كله يجعل السؤال عن أثر هذا النشر فى تغيير الذوق العام المصرى سؤالا مشروعًا، فقد دافع بعض النقاد عن رواية حيدر حيدر بأنها استعملت ألفاظًا تشيع على ألسنة العراقيين والسوريين والجزائريين. وهذا الدفاع غير صحيح، وغير مفيد فى هذه المسألة. فهو غير صحيح لأن أهل هذه البلدان ـ وكلنا له منهم أصدقاء ـ لا يصدق عليهم هذا التعميم أصلاً، والفئات التى تلك لغتها ومفرداتها فئات معينة يوجد مثلها فى كل بلاد الدنيا دون أن يجوز وصف شعب كامل بأنه هكذا يتحدث.

وهو دفاع غير مفيد ـ حتى لو كان صحيحا ـ لأننا لا يجوز أن نريد لأبنائنا وبناتنا أن يهجروا الفضيلة، ويتحولوا إلى الرذيلة، وأن يتجنبوا المشروع والجائز ليقعوا فى الممنوع والحرام، وأن تفقد ألسنتهم استقامتها وعذوبتها ورقيها، لتصبح لغتها كلها سوقية تعف عنها الآذان، وتستعصى على النطق بها الألسن.

وحين تمارس وزارة ما ـ فى أى دولة ـ عملية النشر، فلا يجوز لها أن تهمل ذلك كله وتغض الطرف عنه ولا تأبه له، مهما زين لها ذلك بعض النقاد وبعض المحترفين. وحين تختار من أدب بلدان أخرى نماذج تحقق بها التواصل الواجب فإنها يجب أن تختار ما يعد إضافة إلى رصيدها الأدبى والثقافى والفنى لا مايعد خصمًا من هذا الرصيد

الأمر الثامن: أن فتنة حيدر حيدر ووليمته أظهرت عيبًا خطيرًا فى حياتنا الثقافية وفى ممارستنا للعمل العام.أظهرت أننا فقدنا فضيلة الشجاعة الأدبية والقدرة على الاعتراف بالخطأ والرجوع عنه. ونحن أمة تملك تراثًا من هاتين الفضيلتين هائلاً. فليس فى التاريخ كله عدد من العلماء قرروا فى كتبهم ودروسهم أنهم أخطأوا فى مسألة وأنهم يرجعون عنها، ولذلك حُفِّظنا ونحن صغار «أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل» و«أن الحق قديم لا يبطله شىء» وأننا إن نقل «أخطأنا كما يخطئ الرجال ونصيب كما يصيبون» خير من أن نصر على الخطأ أو نستكبر عن ترك الباطل.

إن الرقابة على الإبداع والفن كلها بغيضة ، وغير جائزة . ولكنني لست مع الذين يريــدون أن يكمم الأزهــر فــاه فلايعبر عــن رأيــه فيمــا يثــور في البــلاد مــن أحداث ثقافية تقتضى رأيا

* وقد بدا هذا العيب في الفريقين المختلفين جميعًا. فخالفا سلوكا مستقرا في البلدان المتحضرة كافة: أن المخطئ يرجع عن خطئه ويبادر إلي إعلان ذلك دون انتظار لطلب أو رجاء أو أمر، والالتزام الإسلامي يجب أن يقوى مكارم الأخلاق الفردية والجماعية والمهنية لا أن يضعفها أو ينقص منها.

* والوزارة المعنية، كان يجب أن تتبين أن الرأى العام المصرى في واد وهي في واد آخر. والوزير - بوجه خاص - مشهود له برهافة الحس ورقة المشاعر والحرص على الآخر، فكان ذلك كله يرشحه للاستمساك بفضيلة الرجوع عن الخطأ، وإعلان هذا الرجوع، ومحاسبة المسؤولين عن النشر غير المسؤول في وزارته، ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك، فيحمده له الناس، أبى أن يستجيب للرأى العام، ووضع نفسه بذلك في موضع المدافع عن عمل لم يقرأه قطعًا وإلا لكان أول المعترضين علي نشره باسم وزارته.

والمستشارون الذين أشاروا على الوزير بذلك جَنَوا عليه وعلى سياسته في وزارته، وأساؤوا ولم يحسنوا، وكفى دليلا على ذلك حديث شيخ الأزهر في صحيفة «صوت الأزهر» التى يصدرها الأزهر الشريف، يوم الجمعة ٢٠٠٠/٥/١٩.

* وأنا أقول إن الرقابة علي الإبداع والفن كلها بغيضة ، وغير جائزة . ولكنني لست مع الذين يريدون أن يكمم الأزهر فاه فلايعبر عن رأيه فيما يثور في البلاد من أحداث ثقافية تقتضي رأيا. والأزهر - بحكم قانونه - هو مصدر المرجعية الدينية للحكومة والدولة في مصر، ولايجوز له بهذه الصفة أن يمسك عن بيان ما يجب بيانه في كل شأن يتصل بالدين. وهذا شيء والرقابة علي العمل الفكري أو الفني شيء آخر.

الرقابة لا أقبلها ، والبيان أراه واجبا، إن لم يقم به الأزهر، عندما يطلبه منه ذوو الشأن، أو يحتاجه الرأي العام ، أو يقتضيه الحدث الواقع في حياتنا اليومية، فإنه يكون مقصرا أشد التقصير، وتبقي ذمته مشغولة بواجب البيان حتي يؤديه أو يؤديه من تقع به الكفاية من علمائه.

* إن الأزمة التي فجرتها تلك الرواية المتواضعة فنيا وأدبيا ستنتهي كما انتهت سوابق لها كثيرات. ولكن الفتنة التي صنعها نشرها في حياتنا الثقافية والفكرية والسياسية ليست هينة .

وأظن أننا لو أخذنا الأمور التي حاولت إيجازها في الاعتبار لتجنبنا تكرار ما عانيناه بسبب أزمة هذه الرواية.

* ولا يزال الأمر - عندى - قابلا للتصحيح، والأزمة قابلة للاحتواء، لو أن كل الأطراف تنازلوا عن كبر غير مبرر وتمثلوا بقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى موسى الأشعرى «ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس، ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك، أن تقضى بغيره. فإن الحق قديم لا يبطله شيء. والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل».

[٧]

أين نقف إذن؟!

سؤال ووجهت به في كل محفل ومجلس ذكرت فيه فتنة هذه الرواية وتوابعها وكنت اقول فى كل مرة، إن الأمر كله لا يستحق أن يقف الناس فيه جبهات متعارضة أو متقاتلة. نحن أمام رواية قليلة القيمة جدا، سخيفة الأسلوب، متهالكة فى بنائها اللغوى والدرامى معًا، لو تركت فاهملت ما كان أحد قد سمع عنها.

* وقد انتقدت من قبل نقدا هادئا عدة مرات، فلم يلتفت إليها (أى الرواية) أحد، ولو أن الجهة المعنية بالنشر قد استجابت لهذا النقد لكنا قد تجنبنا هذه النازلة كلها.

* ولكن الضجة الكبرى التى أثارتها مقالة تحمل شحنة غضب هائلة هى التى أحيت هذا العمل وهو رميم، وبعثت كاتبه من مرقده فى قريته النائية، فدفعت به إلى صفحات الصحف والمجلات، وإلى قنوات التليفزيون ومحطات الإذاعة!!

* لذلك كان علينا أن نقول: إننا مع الإبداع وحرية التعبير بأقصى ما يتيحه النظام العام الدينى القانونى والأخلاقى للمبدع والمعبر. فإذا جاوز هذه الحدود كلها أو بعضها فكل امرئ بما كسب رهين.

* والعمل الذى يتجاوز هذه الحدود، إذا عرض على الناس فهم الحكم فيه: يسقطونه بإهماله والإعراض عنه، وذلك أحسن من كل حكم بالتكفير والتفسيق ومن كل دعوة للثورة وتحريض عليها.

* وبقدر حرية التفكير والتعبيرتكون حرية الانتقاد والتذكير والتخطئة والتصويب، لاتكفل واحدة دون الأخري، وإلا كانت ثقافتنا خَلْقًا أعرج عاجزا لايعبر بنا جسرا ولايقطع واديا ولاينتهي بنا إلي مستراح!!

* والدولة التى تنفق على نشاطات مؤسساتها من مال شعبها، لا يجوز لها أن تنفقه على ما يعارض عقيدة الشعب أو أخلاقه أو أعرافه المستقرة أو عاداته المتوارثة، فضلا عما يخالف دستورها وقانونها.

ولذلك كان اعتراضى الرئيسى على وليمة أعشاب البحر أنها نشرت للمرة السابعة بمال الشعب، وعُرِضَتْ بسعر زهيد للكافة على الرغم مما وصفْتُه - وَوَصَفَه غيرى - من شأنها، وهى لم تُضفْ، مع أعشابها، إلى حياتنا الثقافية إلا كمية ضخمة مخيفة من الطحالب التى لا يستطيع أحد أن يتكهن - صادقا - متى سنتخلص منها وكيف؟ ومتى تصفو حياتنا الثقافية مما كدرته بها تلك الأعشاب والطحالب جميعًا؟

كتاب الزاوية

ابن حزم

* ولد أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم فى قرطبة فى عام ٣٨٤هـ الموافق ٩٩٤م. شب فى قصر أبيه الذى استوزره المنصور، فقضى طفولة منعمة، ولم يتجه لدراسة الفقه جاداً إلا فى السادسة والعشرين من عمره، وقد شهد ابن حزم فى هذه المرحلة أفول نجم الخلافة الإسلامية، وتفجر الحرب الأهلية فى الأندلس. وقد طالت بعض آثارها بيت ابن حزم الذى كان يجاهر بحق بنى أمية فى الحكم، وهو ما كلَّفه فيما بعد، سنوات فى السجن، خرج بعدها قانعًا بأن يترك ميدان السياسة نهائيًا ويتفرغ لدراساته فى الفقه والأدب، ومن أشهر مؤلفاته «طوق الحمامة»، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي، أستاذ الأدب المقارن بجامعة القاهرة. وتوفى ابن حزم فى ٤٥٦هـ الموافق ١٠٦٣م.

من كتاب «طوق الحمامة»

١ـ فى ماهية الحب

الحب ـ أعزّك الله ـ أوّله هزل وآخره جد. دُقَّت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقَتها إلا بالمعاناة، وليس بمنكر فى الديانة، ولا بمحظور فى الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير؛ منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفُه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس، محمد بن عبدالرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه، وعن جميعهم، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها، ومثل هذا كثير، ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة ـ وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين، وإنما هو شىء كانوا ينفردون به فى قصورهم مع عيالهم فلا ينبغى الإخبار به عنهم ـ لأوردتُ من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل.

«دور الإيمان فى الصحة النفسية» من القضايا التى تطرح نفسها فى حياة الإنسان المعاصر، فى ضوء ما تحقق من تقدم تكنولوچى، وثورة بيولوچية. وفى مجالات علوم الهندسة الوراثية، والدور الذى يلعبه الإنترنت، وما تحقق من اكتشافات طبية.. هذا التقدم العلمى الهائل، أعطى المزيد من الراحة للإنسان، ولكنه عجز عن إعطائه معنى لحياته. وثبت أن ثمة فراغًا فى حياة إنسان القرن العشرين لن يملأه إلا الإيمان.

وفى المؤتمر العالمى للجمعية العالمية للطب النفسى الذى انعقد مؤخرًا فى هامبورج، كان هذا هو موضوع المحاضرة الافتتاحية التى ألقاها الدكتور أحمد عكاشة بمناسبة انتخابه رئيسا لهذه الجمعية.. تنشرها المجلة فى إطار اهتمامها بإلقاء الضوء على رؤية الطب النفسى لدور الإيمان فى حياة الإنسان المعاصر.

«**المحرر**»

الإيمان والصحة النفسية

هل يلعب الدين دورا فى حياة الإنسان المعاصر؟

أحمد عكاشه

أعلن الفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه فى عام ١٨٨٢، أن الله قد مات، وتصور نيتشه أن مجنونا يجوب الشوارع باحثا بجدية عن الله، فانبرى المارة يسألونه ساخرين: أين ذهب الله؟ ويجيب المجنون على سؤال الناس: «نحن قتلناه، أنتم وأنا، نحن القتلة». ويقال إنه منذ هذا الوقت فقد الأوروبيون التوجه الأساسى للحياة وكأنهم فى انتظار الفراغ أو العبث اللانهائى. وأصبح الأوروبيون يعدون الدين ستارا لإخفاء النفاق الجنسى، وقوة تدعم العنصرية، من أيرلندا إلى البلقان، ولكن هذا لا ينفى الالتزام بالدين والإيمان لدى كثير من الناس. ويؤكد الخبراء أن العلمانية وصلت إلى قمتها فى الثمانينيات، وطبقا لإحصائيات معهد تورينو لدراسة الأديان يؤمن ٩٠٪ من الأوروبيين بوجود الله، وهى نسبة تزيد ٢٠٪ عن العقد السابق. أما الشباب الأوروبى، فقد ابتدع إيمان الخلط المناسب Mix and Match، وأصبح يشكل الالتزامات الأخلاقية على هواه. وغدت البلاد الأوروبية التى كانت ملاذا للمسيحية تمر بزمن الإيمان بالله ولكن دون انتماء للدين. وتدل الإحصائيات الأخيرة أن ٣ ـ ٤ ٪ فقط من سكان باريس ترددوا بانتظام على الكنيسة عام ١٩٩٨، وأن ٨٩٪ من البريطانيين لم يترددوا على الكنيسة بانتظام عام ١٩٩٥، وارتفعت النسبة فى ١٩٩٩ إلى ٩٩٪ لم يترددوا على الكنيسة الإنجيلية، وعلى حين ينتمى ٨٥٪ من سكان السويد للكنيسة السويدية، فإن ٥٠٪ منهم لا يؤمنون بالعالم الآخر. ويعتقد الأوروبيون المعاصرون أن الدولة المتحضرة قد تولت دور وأهداف الدين، فبعد الحرب العالمية الثانية وانتشار الرعاية الاجتماعية والصحية، وظهور مجتمع الرفاهية، وخدمة الفرد تقلص دور الكنيسة وما كانت تؤديه من أعمال الخير. ويقول أحد الفلاسفة الأوروبيين: إن دور الدولة المعاصرة فى رعاية القيم والأخلاقيات الإنسانية والخدمات التى تقدمها جعلت الحصول على هذه الخدمات من خلال الكنيسة عبثا. وتقول إحدى الأوروبيات الشابات: «أنا لا أفكر فى الله إلا عند زيارة إحدى الكنائس الجميلة فى إيطاليا، أو عندما أشاهد فى التليفزيون ما يحدث فى كوسوفو أو البوسنة أو رواندا، وأعتقد أن معظم أصدقائى يفكرون بنفس الطريقة. ولكنى أشعر أنى أفتقد شيئا ما كما أحس بخواء داخلى، وأنا على يقين بأن إيمانى بالله سيمنحنى الكثير من القوة والاطمئنان، وإنى لألمس هذه الطمانينة بوضوح عندما أتطلع إلى جدتى!

ولا نستطيع أن نغفل أن الحياة السياسية فى العالم تتأثر بالدين سواء إلى الأفضل أو الأسوأ، فقد نجحت الثورة الإيرانية بفضل عودة نشاط الدعوة الإسلامية، وكذلك نجحت أفغانستان فى طرد الروس من خلال الدعوة الإسلامية، ونرى الآن ما يحدث فى كوسوفو والبوسنة والشيشان وداغستان، كما حاول اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة العودة إلى استغلال الدين، وكذلك متطرفو الصهيونية فى إسرائيل، ولا توجد حكومة فى العالم الآن تستطيع تجاهل الدين، وخير مثال لتأثير التطرف الدينى هو اغتيال السادات فى مصر ورابين فى إسرائيل.

ويعتبر التطرف الدينى محاولة يائسة لعودة الإيمان بالله، فهؤلاء يؤمنون بأن المجتمعات الحديثة تحاول وأد الدين والإيمان ومن ثم ينبغى التخلص منهم، والمتطرفون فى الأديان السماوية (الإسلام، والمسيحية، واليهودية) مقتنعون بأن مجتمعاتهم العلمانية تحاول إبادتهم ومن ثم يجب عليهم الصمود واللجوء إلى الإرهاب.

وللأسف الشديد فإن النجاح العلمى، والعلمانية المنطقية أعطت انطباعا بأن هذا هو الطريق الصواب وبدءوا يعتقدون بأن الله حقيقة موضوعية مثلها مثل الذرة، فإذا لم تثبت النتائج العلمية وجوده يحق لنا أن نفقد الإيمان، ومن هنا أدى عدم اكتراثنا بطمأنينة الإيمان والسلام الداخلى إلى فقدان هذا الإحساس الربانى.

وقد خلق الإنسان تحدوه رغبة ملحة فى التأمل المتسامى والإحساس بعظمة الخالق وأن الحياة لها قيمتها ومعناها وأنه بدون ذلك كله يصبح الإنسان كالحيوان.

إن إهمال الروحانيات والإيمان بالدين والحب والسلام قد كبدت أوروبا أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية ما لا يقل عن ٧٠ مليون نسمة وذلك لصراعات سياسية. ولذا يجب الاجتهاد المستمر فى فقه الأديان السماوية حتى تواكب التغيرات العلمية والتكنولوچية، لأنه من الاستحالة اتباع الفقه الحالى على غرار فقه الأسلاف. فالعالم قد تغير، وإن لم تواكب الأديان السماوية هذه التغيرات بفكر جديد وسماحة مرنة، فستفقد هذه الأديان كثيرا من أتباعها، وستعم العلمانية التى قد تؤدى إلى هلاك الإنسان.

ولاشك أن تغيير مفاهيم الأديان السماوية مع المتغيرات الثقافية والعلمية إنقاذ للبشر من هلاك الكفر والإلحاد. ويخلط العامة بين الروحانيات والدين، فالدين هو ممارسة الطقوس الخاصة بروحانيات العقيدة من قيم وأخلاقيات ومسلك، وتعرف منظمة الصحة العالمية الصحة بأنها ليست غياب المرض أوالعجز، وإنما هى التمتع بجودة الحياة الجسدية والاجتماعية والنفسية، وقد أراد البعض إضافة البعد الروحى ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل حتى الآن، ولو أنى أعتقد (أنها لو أضيفت) فستضيف بعدا هاما فى صحة الإنسان.

وقد كشفت الأبحاث المختلفة فى أوروبا والولايات المتحدة أن الأطباء النفسيين أقل إيمانا من باقى جموع الشعب وأنهم أقل تفكيرًا فى النواحى الروحية والدينية من آبائهم، بينما يظهر العكس فى البلاد الإسلامية. حيث تبين أن الأطباء النفسيين أكثر تدينا من جموع الشعب ولا يختلفون عن آبائهم فى عمق إيمانهم.

ويعود الاختلاف إلى أن الغرب يتبنى نظرية التحليل النفسى لفرويد الذى اتخذ موقفًا خاصًا من الدين، وأن الإيمان بالله يسبب الشعور بالذنب والاتكالية والاعتمادية الضارة ببناء الشخصية. ومن المؤسف أن العاملين بحقل الصحة النفسية يخلطون بين الدجل والخرافات والتطرف وعدم التسامح وبين الدين والإيمان، مما جعل البعض يصف هذا الموقف فى الطب النفسى بـ «كبت الدين». ومن هنا وجب علينا أن نفرق بين الضلال وهو اعتقاد خاطئ مرضى غير قابل للمنطق أو المناقشة. وقد يكون فى هيئة شعور بالعظمة كأن يكون رسولا أو نبيا أو مخترعا. أو فى هيئة شعور بالاضطهاد وأن أجهزة الأمن والمخابرات الأمريكية تراقبه.. أما الفكرة المسيطرة فقد يتبين للفرد أنها فكرة سخيفة ويحاول مقاومتها ولكنها تسيطر عليه.. أما الإيمان الدينى وهو إحساس داخلى ليست له علاقة بالأفكار الضلالية أو القهرية.

ونظرًا للعلاقة الوثيقة بين درجة الإيمان والصحة النفسية، زاد الاهتمام حديثا بالبحوث الدينية والروحية كأحد معدلات العلاج النفسى، والانتحار، والإدمان، والطب الإكلينيكى، وأعنى أن الإيمان له دور متزايد فى تخفيض حدة الألم وتحسين احتمالات الشفاء فى الظواهر السابقة.

إن أهمية المعدل الدينى فى الفحص النفسى يفتقر إلى الاختبارات المقننة لقياس درجة الإيمان أوالتدين، ونحتاج لمثل هذه الاختبارات حتى يكون مقياسنا صادقا وثابتا. وعند استرجاع كل ما نشر فى المجلات النفسية العالمية لمدة ١٢ عاما، وجد أن ٩٢٪ من المترددين على أماكن العبادة، ويؤدون الصلاة بانتظام، ويشاركون فى الطقوس الدينية كان له أثر واضح فى صحتهم النفسية، وكذلك وجدنا فى أبحاثنا فى مصر والبلاد العربية أن التردد على المسجد أو الكنيسة أحد عوامل الحماية ضد التعرض للاكتئاب. فيجب ألا نكتفى بسؤال المريض هل هو متدين ويؤدى الفروض أم لا، ولكن نؤكد: ماذا تعنى العقيدة والدين له؟

لقد آن الأوان ـ ونحن فى مشارف قرن جديد ـ لتغيير فكرة الطب النفسى عن الإيمان وأن يكون أحد المعدلات الهامة لقياس الصحة النفسية، وإذا استعرضنا ٣٧٧٧ مقالا فى الطب النفسى منشورة فى أكبر أربع مجلات عالمية متخصصة، لوجدنا أن ثلاثة فقط من هذه المقالات ذكرت البعد الدينى.

وقد اتخذ التصنيف الأمريكى الرابع للأمراض النفسية موقفا جادا هادفا، إذ أضاف فصلا كاملا عن المشاكل الروحية والدينية علاوة على الفصل الخاص بالاختلافات الحضارية فى الطب النفسى.

إن الفشل فى احتواء الإيمان فى تفكير الطب النفسى سيؤدى إلى ابتعاد هذا التخصص عن تجارب الحياة والفرد اليومية، كما أن المقولة بأن الدين هو أفيون الشعوب هى مقولة غير سليمة ويشوبها كثير من شطحات السلوك السياسى المعوج، فكل الأديان تدعو إلى العمل والثراء والخير ولكن يجب أن يكون للضعيف والمريض الذى لم يؤهله ذكاؤه المتواضع للنجاح الفرصة لتلقى الخير وللأمل فى العالم الآخر، والحق أن العالم يجتاز حالة من الحيرة بسبب المجتمع الاستهلاكى واقتناص اللذة الفورية والإشباع المادى. وإذا نظرنا إلى العقائد المختلفة، فسنجد إجماعا على أن الإشباع المادى ليس هو هدف الحياة.

فالهندوكية تقول: «عندما تمتلك كنز القناعة فانت تملك كل شىء».

وفى الإسلام: «إنه لمن الصعب لمن يمتلك الكثير أن يتسلق طريق الرضا، وأن الغنى غنى النفس ورضاء العقل لا وفرة الملذات».

وفى الطاوية: «الغنى هو من يعرف أنه يملك ما يكفيه».

وفى المسيحية: «حياة الإنسان لا تعنى وفرة ممتلكاته».

وفي الكونفوشية: «تتساوى الوفرة والافتقار في الخطأ».

وفي البوذية: «إن التعطش للثراء يؤدى بالإنسان الغنى إلى تحطيم ذاته وكأنه عدو نفسه».

ونحمد الله على أن الدين في عالمنا العربي هو نسيج حياتنا بغض النظر عن نوعية الدين أو ممارسة الطقوس الدينية أو إهمالها. وتتشكل شخصية الإنسان المصرى أو العربى سواء في المنزل أو المدرسة أو المجتمع من خلال هذا النسيج الديني، ولذا فتأثير الإيمان وممارسة الدين في مجتمعنا له علاقة واضحة بالصحة النفسية.

إن للإيمان والتدين جانبا إيجابيا من ناحية قبول الإنسان لذاته ضعفا وقوة «رحم الله امرءا عرف قدر نفسه»، وكذلك التوكل على الله لا الاتكال والنكوص عن بذل الجهد الكافي، وكذلك امتداد الوعي بالغيبيات والتأمل المتسامي الذى يكفل الطمأنينة. وللأسف فإن الدين قد يستغل أحيانا لأسباب سياسية وعنصرية كالتعصب والتطرف والتطهير العرقى والإرهاب جنبا إلى جنب مع عمليات دفاعية لاشعورية مثل الإسقاط وتناقض المشاعر والإنكار... الخ.

وإذا نظرنا إلى اللغة الهندية، نجد أنه لا توجد كلمة مرادفة لكلمة الدين.. وأقرب المعاني هو «الدارما» وهو مزيج من النظام الكوني، القوانين المقدسة والواجبات الدينية، ففي الأديان السماوية يوجد إله واحد وكتاب واحد، ونبي أخير، على حين تسيطر الفلسفة والأساطير في الهندوكية والبوذية.

ولا عجب أن نجد المسلمين في كل مكان يتعجبون ويتهامسون ولا يستطيعون إدراك التسيب الخلقي في المجتمعات الغربية وانتشار ظواهر مثل الشذوذ الجنسي دون أدنى شعور بالذنب مما جعلهم يؤمنون عن اقتناع أنه ولو أن الغرب قد انتصر اقتصاديا وسياسيا على الشرق إلا أنه غرق في بحر من الظلمات والآثام والتحلل الخلقي.

إن الاختزال العلمي للحياة أصبح غير ذى جدوى حيث أصبح الالتصاق واضحا بين الثقافات الروحية والعلمية خاصة بعد التطور الجديد في نظرية الفوضى وفيزياء الكم «Chaos theory and Quantum Physics». إن وظيفة الصحة النفسية هي خلق التناسق والتآزر بين الفرد وذاته وبين الفرد والآخرين. والصحة النفسية لا تعيش بمنأى عن الصحة الجسدية ولا تستطيع أن تجد صحة جسدية دون نفسية أو صحة نفسية دون جسدية، وكأنما الصحة سراب لا يرى، فهي موجودة دائما حتى في غياب المرض تماما مثل وجود السماء بالرغم من اختفائها تحت السحاب، فالطب الذى يعتمد على العلم فقط دون أساس روحي عبارة عن طب ميكانيكي غير إنساني، وتعني كلمة الروحانية نظاما يؤكد وجود دافع غير مادى لا تدركه الأحاسيس البشرية أو أى فلسفة تؤمن بخلود الروح.

ويلعب الإيمان دورا هاما في تكوين الأعراض النفسية بل وأيضا في العلاج، فالأعراض تختلف حسب النشأة الدينية، وفي أحد أبحاثنا عن مرض الوسواس القهرى، وجدنا أن ٦٠٪ من الأعراض له علاقة بالدين سواء في أعراض الوسوسة في الوضوء، الصلاة، الحلال، الحرام، النجاسة، الطهارة، بل وأحيانا ما تكون الأفكار الوسواسية في هيئة العيب في الذات الإلهية، ويتميز مرض الوسواس بأن المريض يكون على يقين بلا معقولية هذا السلوك وهذه الأفكار. والطريف أن اللغة العربية هي الوحيدة التي تجمع بين الشيطان «الوسواس الخناس» وبين مرض «الوسواس القهرى». ولذلك يخلط المرضى بين المرض والشيطان في المتكلمين بالعربية. حتى المحتوى للضلالات أو الاعتقادات الخاطئة في المريض العقلي يتبع نفس النشأة الدينية. فيعتقد المريض خطأ أنه المهدى المنتظر أو أن عليه رسالة سماوية أو أنه قد نزل عليه الوحي بأفكار معينة. بل إذا نظرنا للاضطرابات الانشقاقية وازدواج الشخصية فعادة ما يؤول ذلك إلى اللبس أو المس بواسطة الجن أو الأسياد، وهنا نستطيع القول أنه من الاستحالة علاج حالة نفسية دون معرفة الثقافة والحضارة والنشأة التي يتبعها المريض النفسي وتأثير الدين في المجتمع المصرى والعربي تأثيرا واضحا. وإذا أردنا النجاح في تنظيم النسل أو مكافحة الإدمان أو زيادة الوعي بالمرض النفسي فعلينا الارتفاع بوعى رجال الدين بهذه المشاكل لأن المواطن المصرى شديد التأثر بالناحية الدينية.

وتوجد فروق كبيرة بين المجتمعات المحافظة التقليدية والمجتمعات الغربية، فمثلا يعتمد المجتمع الأوروبي على أن الفرد له استقلاله الذاتي ولا يهتم إلا بالأسرة الصغيرة أى الزوجة والأولاد وأن مستواه الاجتماعي يعتمد على أدائه الفردى، أما المجتمعات التقليدية مثل المجتمع العربي أو الياباني أو الهندى فالأساس عنده هو الأسرة والمجتمع وليس الفرد، والاهتمام يشمل العائلة كلها أى أنه مجتمع يتمركز حول المجموع وليس حول الفرد.

إن المجتمع الإسلامي على يقين أن المرض وشفاءه هو بإرادة الله، ولذا كان قبول المحن والمآسي والمرض جزءا من الإيمان. ومن النادر أن يؤول المريض في هذه المجتمعات أسباب المرض والوفاة إلى فشل الطب بل هي إرادة الله، ويختلف ذلك تماما عن المجتمعات الغربية التي تؤمن بأن كل الأمراض والشفاء بيد الإنسان دون تدخل من الله، ويجب أن نفرق هنا بين التوكل على الله عند المؤمن والاتكالية التي هي كسل لا يبيحه الإيمان. وقد قمنا بعمل بعض الأبحاث الانتشارية للمرض النفسي، ووجد أن حوالى ٧٠٪ من المرضى النفسيين يترددون على العلاجات الشعبية وشبه الدينية قبل اللجوء إلى الطبيب ولا ننسى أن الرعاية في القرى والمراكز وبعض المدن تتحقق من خلال زيارة المشايخ وعمل الحجاب والقراءات الدينية وعمل الزار... الخ وذلك لانخفاض ثقافة المواطن بالصحة النفسية.

وللأسف فإن الكثيرين حتى الآن يؤولون المرض النفسي خطأ بأنه نتيجة قلة الإيمان وضعف الشخصية وعدم التمسك بأهداب الدين والكسل أو الجنون. ولا يعرفون الطفرة التي حدثت في الطب النفسي، وأن كل الأمراض النفسية ما هي إلا تغيرات كيميائية وفسيولوجية في المخ، وأحيانا حتى في نسيج المخ، وإنه لا يمكن الشفاء إلا بإعادة التوازن لكيمياء المخ.

ومن المعتقدات الخاطئة عن الدين أن ثمة علاقة بين الإنسان والجن، وأن المجنون هو من مسه الجن، وإذا رجعنا إلى اللغة العربية لوجدنا أن كلمة «جن» تعني اختفى أو استتر. فالجن أحد مخلوقات الله الخفية التي لا يراها أو يسمعها أو يتزاوج معها أو يتكلم أو يتقارب منها الإنسان وإلا خالف المعنى القرآني لأن كثيرا من المرضى عندما يذكر الجن سرعان ما يتطوعون بالقول أنه ذكر في القرآن ولكنه سوء التأويل على أيديهم. وكذلك اشتق من كلمة جن كلمة الجنين أى ستار حوله أى الرحم. وقد ذكرت كلمة المجنون في القرآن خمس مرات وصفا للأنبياء وكيف استقبلهم العامة عند قيامهم بإرشادهم ودعوتهم للأديان السماوية، أى أن لفظ مجنون في القرآن يعني من يخالف المجتمع وليس بالمريض العقلي. وأريد أن أؤكد هنا أنه لا يوجد تشخيص في قاموس الطب النفسي يسمى بالمجنون بل يوجد المرض النفسي أو العصابي والمرض العقلي أو الذهاني، ولكن أسئ استخدام لفظ المجنون بواسطة الإعلام وحتى الأطباء لوصف كل الأمراض النفسية.

وأعتقد أن الإيمان يلعب دورا هاما في تغيير كيميائية المخ من مهدئات ومطمئنات وأفيونات مما يعطي الطمأنينة والسلام والأمل، ويخفف من حدة الآلام النفسية والجسدية. ونتعجب عندما نعلم أنه توجد عقاقير ربانية لم نكتشف وجودها بالمخ إلا بعد سنوات من اكتشاف مرادفها. فقد تم اكتشاف المورفين والهيروين والكودايين قبل أن نعرف أن الله قد خلق مستقبلات أفيونية في المخ تفرز الأفيون الداخلي لتخفيف الألم. اكتشفنا الفاليون كعقار مهدئ، وبعدها علمنا أن الله قد خلق مستقبلات الجابا بالمخ التي تفرز موصلات عصبية مهدئة ومطمئنة. واكتشفنا عقاقير للاكتئاب، وبعدها علمنا أن الله قد خلق مستقبلات السيروتونين المسئولة عن المزاج، وأخيرا اكتشف العلماء مستقبلات مخية شبيهة بالحشيش، أى أن عظمة الله سبحانه تتجلى في خلق كل هذه المطمئنات والافيونات لكي يخفف من آلام الإنسان. فالكلمة الطيبة تزيد من مهدئات المخ، والحب الصادق يزيد من مطمئنات المخ، والعمل الصالح يرفع من نسبة هذه المواد، بل ثبت أخيرا أن الغضب والقلق والاكتئاب يقلل من عمل جهاز المناعة ويجعل الإنسان عرضة لأمراض المناعة من الروماتيزم والسكر وأمراض الشريان التاجي وجلطة القلب وسكتة المخ. كما أن الحالة النفسية لها علاقة واضحة بكل أجهزة الجسم.

لقد تقدم العلم، وتطورت التكنولوچيا وأصبح الإنسان ينعم برفاهية مادية استهلاكية ولكن هذا لم يمنع الاغتراب والاكتئاب واليأس، وإذا بنا نعيش في متاهة حياتية وفراغ نفسي وإيمان بعبثية الحياة وعدم وجود معنى لها.

إن العودة إلى الإيمان هي الملاذ الأمثل للصحة النفسية، والصحة النفسية هي إسباغ الجودة على الحياة. إن طول الحياة دون جودتها هو مغنم أجوف. ولن يتمتع الإنسان المعاصر بالصحة النفسية إلا إذا عاد للإيمان، واعني بالإيمان كل العقائد التي تحض على الفضيلة والتضحية والتمركز حول الآخرين والابتعاد عن التمركز حول الذات.

يعتقد الأوروبيون المعاصرون أن الدولة المتحضرة قد تولت دور وأهداف الدين، فبعد الحرب العالمية الثانية وانتشار الرعاية الاجتماعية والصحية، وظهور مجتمع الرفاهية، وخدمة الفرد تقلص دور الكنيسة وما كانت تؤديه من أعمال الخير

يعتبر التطرف الديني محاولة يائسة لعودة الإيمان بالله، فهؤلاء يؤمنون بأن المجتمعات الحديثة تحاول وأد الدين والإيمان ومن ثم ينبغي التخلص منهم، والمتطرفون في الأديان السماوية (الإسلام، والمسيحية، واليهودية) مقتنعون بأن مجتمعاتهم العلمانية تحاول إبادتهم ومن ثم يجب عليهم الصمود واللجوء إلى الإرهاب

في أحد أبحاثنا عن مرض الوسواس القهرى وجدنا أن ٦٠٪ من الأعراض له علاقة بالدين سواء في أعراض الوسوسة في الوضوء، الصلاة، الحلال، الحرام، النجاسة، الطهارة، بل وأحيانا ما تكون الأفكار الوسواسية في هيئة العيب في الذات الإلهية

وردة حمراء

طال انتظارى للربيع يرجع
والجو يدفا والزهور تطلع
عاد الربيع عارم عرمرم شباب
إيه اللى خلانى ابتديت أفزع؟

نعم يأتى الربيع ويأتى أبريل آخر وتزحف يدى هذه المرة بطقوس التذكر إلى رفوف الكتب، لتتلمس رباعيات جاهين وأغانيه وأنغامه السبتمبرية وأيضا قصاقيص ورقه.. وتقول لوجوهه الكاريكاتيرية على الأغلفة.. «وحشتنا نظرة عيونك وبسمة الود فيها».. وحشتنا ياجاهين.. يا عصفور كان يزقزق لينا من جوه قلب الهم!.. بس أمر الله لابد يكون، وإن كان الفراق صعب وانت عارف إننا «شعب قلبه حنون».. لن أنسى هذا اليوم أبدا، يومها كنت فى لندن أتطلع بفرحة لشراء الجرائد المصرية لسحق الغربة جوايا بأى أخبار عن مصر.. أيامها لم تكن هناك قنوات فضائية، وكانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة أى شىء عن مصر هى الذهاب إلى العاصمة البريطانية، حيث تباع الصحف الأجنبية.

كنت أمشى فى شوارع لندن وأنا «متفلحسة».. أبحث عن أكشاك الجرائد المصرية

ايديا فى جيوبى وقلبى طرب
سارح فى غربة بس مش مغترب
وحدى لكين ونسان وماشى كده
بابتعد ماعرفش.. أو باقترب!

لم أكن أدرى أن أول خبر سيطالعنى فى الجريدة هو رحيله عن دنيانا، وأن بموته «تيتم» الشعر المصرى بالثلث.. بعد موت بيرم وفؤاد حداد..

وبالرغم من عشقى لبيرم وحبى الشديد لفؤاد حداد.. إلا أنك أنت يا صلاح كنت حاجة تانية.. لك مكانك فى قلب كل مصرى ولو اختلفت عليك الآراء.. لم أقابل أحدا لا يتبارى فى التعبير عن حبه لك، ولا أعتقد أننى يوما ساقابل واحدا لم يحبك.. بل إننى أشعر أحيانا أننا نتنازع عليك.. مين فينا بيحبك أكثر، وكان هذا الحب يجعلنا أفضل أو أحلى.. كما لو كانت آذاننا لا تسمع غير غنوتك.. «حلوين قوى كده وحياة ربى.. ياحبايبى باقولها من قلبى».. نعم كنت ياجاهين بالفعل أحلى ما فينا.. وجعلتنا نرى أنفسنا «بمبى.. بمبى..بمبى».. يومها «سالت دموعى مطر».. وأنا الطبيب.. لكن «ازاى أنا ما أبكيش لحظة فراق الحبيب»..

آه يا صلاح.. «عرفنا نحسب شعاع الشمس بالخطوة، لكن أوان الوداع ماعملنلوش حسابات»!

وفى وسط بحر الدموع سمعتك بتقول.. «هى الحياة كده.. كلها فى الفاشوش».

بين موت وموت.. بين النيران والنيران
عالجبل ماشيين الشجاع والجبان
عجبى على ده حياه.. ويا للعجب
إزاى أنا - يا تخين - بقيت بهلوان!

وشفت ملامحك جوه نن عيونى بتضحك.. ضحكة تقدر تمسح كل دموع البشر وصوتك يقول.. «أجمل ما فيها العشق والمعشقة..
وشويتين الضحك والتريقة».

آه يا جاهين.. هل قدرت وحدك أن تكشف سر الكون وتعرف فعلا أن الضحكة هى أصل الوجود!

هذه الضحكة الأسطورية التى كانت سببا فى أول حزن وأول فراق.. فراق السماء عن حبيبتها الأرض..

ضحك «رع» كما تحكى لنا الأسطورة.. ضحكة لم تكن عادية، بل كانت «هقهقة».. جعلت الهواء «شو» يخرج من فمه ليفصل السماء «نوت» عن الأرض «جب»، ثم يبكى «رع» فتكون دموعه .. ندى ومطر.. هم أطفال السماء.. هم البشر.. من جاءوا دمعا بالرغم من أنهم نتاج الضحك!

هل يا ترى لهذا السبب نقول على أنفسنا نحن المصريين أننا «ولاد نكتة» وهل لهذا السبب نفسه كان جاهين «الضاحك الباكى» بالنسبة لنا مصريا جدا!

منين أجيب مقص مجنون زيى - بس نص نص

وأجيب ورق وأفضل أقص أقص أقص
أفضل أقص ورد من على كل لون
لحد ما عمل عندى حبه كثير كثير
وأركب لى نسمة وأطير أطير..
واللى فى جنازته فى التابوت يفوت يبص
يلاقى عالم.. كله كله زينة عيد ميلاد!

ولنعود مرة أخرى إلى أسطورة البدء التى يتعانق فيها الضحك مع الدموع لنرى فيها جانبا آخر، ألا وهو ارتباط الجبروت والقسوة بالحنان والرحمة فى شخص «رع»، والذى يبدو لنا ظاهرا بوضوح فى حكايا أسطورية أخرى.. ومنها تلك الأسطورة التى تعرف «بنهاية البشر»، حيث يقال إن رع غضب مرة على البشر: لأنهم لا يسمعون كلامه، ويهزأون به، فأراد أن ينتقم منهم جميعا، واستعان «بسخمت»[1] فهو يعرف مدى حبها للانتقام وتعطشها للدماء.. حكى رع لسخمت عن خيبة أمله فى البشر، ووعدته بأنها ستقضى عليهم جميعا فى فجر اليوم التالى..

والطريف أن جاهين نفسه لم يغفل هذه الأسطورة فى شعره.. فنراه يقول:

«يوم رع ما فات بستاه فى السما
وكل العيون خايفه تنظر إليه
وجاله القمر خلقته معتمه
وعدى قصاده.. وضلم عليه
يا ويل اللى فتح فى أبويا العظيم..
يا ويل من تطاول.. ياويل من ضحك»!

ولكن الأسطورة تقول لنا أن رع غير رأيه، فبعد ما نوى الانتقام من البشر، فكر فى الأمر، وكره منظر الدماء فى مخيلته وبدأ قلبه الرحيم يلين.. ولكن ماذا يفعل ليمنع سخمت من تنفيذ ما نوت عليه، وساعات الليل تجرى وسيحين الفجر بعد قليل.. لم يكن من رع إلا أن اتصل بكهنته فى هليوبوليس وأمرهم أن يرشوا الأراضى المصرية بنبيذ أحمر قبل شروق الشمس، وتقول الأسطورة أنهم استخدموا سبعة آلاف برميل من النبيذ الأحمر لينفذوا تعاليم رع!

وعندما استيقظت سخمت من نومها وجدت الأرض وكأنها مكسوة بالدماء بفعل هذا النبيذ.. فلم تأخذ وقتا لتتبين الأمر، بل أخذت تشرب وتشرب ظنا منها أنها دماء، حتى فقدت وعيها من كثرة النبيذ الذى شربته، وضحك رع ثانيا فلقد أنقذ البشر..

من ضحكة رع الأولى، جاء البشر وبنكتة رع أيضا عاش البشر!

ولا تنتهى رمزية الأسطورة المصرية عند هذا الحد، بل تحكى لنا حدوتة أخرى عن «إيزيس ورع».. تلعب الدعابة فيها الدور الأساسى وتعتبر هى الأخرى نكتة ولكنها نكتة عميقة جدا..

إيزيس.. ابنة «نوت» و«جب» وحفيدة «رع».. أخذت تلعب لعبة شقية مع جدها رع، وتمكر عليه مكرا ضاحكا حتى تعرف منه اسمه الحقيقى، والرمزية هنا تكمن فى الأسرار التى يخفيها هذا الاسم، فهو ليس أى اسم إنه اسم رع نفسه، الذى يدل على كل المعرفة التى تخفى عن البشر، وتريد إيزيس أن تعرفها باستخدام أدوات الدعابة والضحك.. هل من الممكن يا ترى أن تكون الضحكة الوسيلة للمعرفة وهل الكوميديا بالفعل هى المسرح الحقيقى للحكمة؟

هذا هو السؤال الذى حاول الإجابة عنه المفكر الإيطالى الرائع «أومبيرتو أيكو» فى «اسم الوردة».. تعرفت على أمبيرتو أيكو لأول مرة فى عام ١٩٨٦م.. نفس العام الذى مات فيه جاهين!

وأحببت عقله كثيرا بعدما قرأت له «اسم الوردة» التى ترجمت فى ذلك الوقت من الإيطالية إلى الإنجليزية..

أومبيرتو أيكو ليس روائيا و«اسم الوردة» هى قصته الأولى، ومع ذلك لاقت نجاحا منقطع النظير، لدرجة أنها ترجمت لأكثر لغات العالم.. وتحولت أيضا إلى فيلم سينمائى يحمل نفس الاسم قام ببطولته شون كونرى..

تتخفى هذه القصة الذهنية جدا فى رداء بوليسى مثير، وتدور أحداثها فى دير من الأديرة البندكتية[2] فى إيطاليا فى العصور الوسطى، حيث ترتكب سلسلة من جرائم قتل،

طرزان صرخ قال عاعاه
صرخت أنا كمان وراه
ولما قال لشيتا يا أمه زغرطى
وحط رجله ع التعيس فوق التراب
حطيت معاه رجلى بدون جزمه وشراب
ولمحت بعيون الخيال بدل الأسد
محمود أفندى حسين.. مدرس الحساب!

عبثا باقول وأقرا فى سورة عبس
ماتلومش حد إن ابتسم أو عبس
فى ناس تقول الهزل يطلع جد
وناس تقول الجد يطلع عبث..

يروح ضحيتها عدد من الرهبان المقيمين فى الدير.. ويأتى إلى الدير الراهب الإنجليزى المثقف «ويليام» الذى ينتمى لمذهب الفرانسيسكان[٣]، ليستكشف السر وراء هذه الجرائم المحيرة..

ويبدأ فى التوصل إلى أول خيوط هذا اللغز، عندما يجد موانع كثيرة تحول بينه وبين التجول بحرية فى مكتبة الدير الغنية بكنوز معرفية ترجع لعصور الإغريق والرومان والعرب من أمثال ابن سينا والرازى وابن رشد.. ولكن أوامر الدير تمنع الرهبان من قراءتها أو حتى الاقتراب منها.. فهم يقرأون فقط ما يوصى به الراهب الأكبر (رئيس الدير) ويسمح به أمين المكتبة..

وتدور حوارات عدة بين ويليام والراهب الأكبر وأمين المكتبة.. تبدأ بنقاش أول حالة قتل وهى لراهب صغير كان يحلو له أن يزين هوامش الكتب المقدسة بصور منمنمة لبعض الحيوانات التى تبدو أحيانا فى مواقف إنسانية ساخرة.. يشعر ويليام أن هناك شبه إجماع بأن ما فعله هذا الراهب يعتبر خروجا عن نصوص العقيدة وتعاليمها، فهو لا يستخدم الصورة فقط، بل يستخدمها بشكل كاريكاتيرى ضاحك..

ومن هنا يبدأ الجدل حول فن الإضحاك وعلاقة الهزل بالجد.. وكيف تعتبر هذه المداخلات الهزلية نوعا من التطاول على الكلمة المقدسة، والتى من وجهة نظرهم لا يمكن معرفتها إلا فى إطار من الجدية الخالصة.. وبدا من الحوار أن هناك قناعة بأن هذا الراهب قد خرج بالفعل عن تعاليم دينه، ولهذا استحق موتته..

عبثا باقول وأقرا فى سورة عبس
ماتلومش حد إن ابتسم أو عبس
فى ناس تقول الهزل يطلع جد
وناس تقول الجد يطلع عبث..

ووجدتنى وأنا أقرأ الحديث عن هذا الراهب أتذكر كيف استخدم المصريون فى الزمن القديم صور الحيوانات الكاريكاتيرية[٤]، وفيها تقوم الحيوانات بأفعال بشرية كنوع من تخفيف جرعة الحياة الجادة ببعض من الهزل، وكيف استطاعوا أن يستخدموا هذا الأسلوب بحرية شديدة فى تعاملهم مع الساسة والحكام، وأحيانا فى أكثر الأمور جدية.. ألم يصل الأمر إلى رع نفسه ومع ذلك عفا عنهم!

ولاشك أن هذا يذكرنا بلغة جاهين الساخرة من خلال فنه الكاريكاتيرى الذى فجر من خلاله أصالة مصريته وترجم فلسفة هذا الشعب الأزلية فى فن التعامل مع الظلم، وكيف طوع السخرية أداة للتمرد عندما يختزل ثورة بأكملها فى خطوط كاريكاتيرية أو فى مجرد نكتة..

وتعالوا نرى كيف رسم جاهين السخرية بمفردات الشعر:

طرزان صرخ قال عاعاد
صرخت أنا كمان وراه
ولما قال لشيتا يا أمه زغرطى
وحط رجله ع التعيس فوق التراب
حطيت معاه رجلى بدون جزمه وشراب
ولمحت بعيون الخيال بدل الأسد
محمود أفندى حسين.. مدرس الحساب!

***

مانتاش بتلعب ليه يا روح بابا
ولا عسكرى ولا لص فى عصابه
العب أسد أو ديب رهيب أو غزال
دى الدنيا فى نهاية المطاف غابه!

***

وقفت ساعة الصبح باغسل سنانى
قالت لى شايف قوتى ولمعانى
ايش تطلب اليوم منى ضحكة أسد
ولا ابتسامة اعلانات أمريكانى؟

ومرة أخرى نعود إلى «اسم الوردة»، حيث يجادل ويليام مع الراهب الأكبر قائلا له: «ألم يكتب أرسطو[٥] كتابا فى فن الضحك وعبقرية الكوميديا؟

فيجيبه الراهب الأكبر بعصبية شديدة: «نعم. قيل إنه كتب مثل هذا الكتاب، ولكن لم يجده أحد ولا أعتقد أن هذه الحكاية حقيقية، فيطلب ويليام منه التصريح له بالبحث عن هذا الكتاب فى مكتبة الدير ويلح فى طلبه، فهو يعتقد أن المكتبة بثرائها قد تحوى هذا الكتاب، ولكن الراهب الأكبر يرفض، وهذا الرفض يزيد من إصرار ويليام على البحث عن الكتاب، ويقوم بالفعل بعملية بحث سرية محفوفة بالكثير من المخاطر والصعاب، ويبدأ فى الربط تدريجيا بين هذا الكتاب وإنكار وجوده، وأسباب منعه من البحث عنه فى مكتبة الدير وسلسلة قتل الرهبان..

حتى يصل بشكل شبه مؤكد بأن كتاب أرسطو كان بالفعل موجودا فى مكتبة الدير، ولكنه اختفى بواسطة الراهب الأكبر، وأن كل من حاول من الرهبان العثور عليه كان جزاؤه القتل..

ويواجه ويليام الراهب الأكبر بشكوكه سائلا له عن تلك الأسباب التى تخيفه بهذه الدرجة من الضحك.. ويكون الرد: «الضحك يحرر الإنسان من الخوف، ومن هنا لا يكون أمامه مستحيل».. الضحك يجعل المستحيل ممكنا.. الضحك أسلوب احتجاجى راق لا تستطيع مقاومته، يعطى الإنسان فوق كل شىء حرية الشك والتمرد والبحث فى كل البدائل الممكنة.

فيقول له ويليام: «وهل بإخفاء الكتاب ومنع الرهبان من قراءته سوف تمنع الضحك؟»

فيجيبه الراهب: بالطبع لا، ولكن هذا الكتاب بالذات خطير، لأنه يملك قوة لا يملكها الآلاف من العقارب..

فيبتسم ويليام ويقول له: بالله عليك إنه مجرد كتاب.. الكتب تكتب لتقرأ.. إنها لا تصنع من أجل اعتناق ما فيها، ولكن من أجل نقاش أفكارها. الكتاب هو مجرد أداة استفزاز للعقل، التعلم لا يكمن فى التعرف على الأفكار التى تحويها الكتب، وإنما بوصول القارئ إلى ما تحدثه تلك الأفكار فى نفسه..

أنت تحاول أن تكون ذكيا ـ يقول الكاهن

لجاهين

مرفت عبد الناصر



صلاح جاهين بريشته

أنا قلبى كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلت به صحيوا الخدم والحرس
أنا المهرج.. قمتوا ليه خفتوا ليه
لا ف أيدى سيف ولا تحت منى فرس..

أوصيك يا ابنى بالقمر والزهور
أوصيك بليل القاهرة المسحور
وإن جيت فى بالك.. اشترى عقد فل
لأى سمرا.. وقبرى اوعك تزور

الأكبر لويليام ـ ولكنك لا تفهم شيئا، هذا الكتاب خطير لأنه كتب بقلم فيلسوف، لو عرف الناس أن فيلسوفا قد أفرد كتابا بأكمله للضحك، سوف تكون تلك بداية النهاية.. سوف يتسلق الضحك من المعدة للعقل.. ولن يصبح الأمر مجرد «كل واضحك ولا تحمل هما»، وإنما يصبح ضربا من الفلسفة، سيعلو شأن الضحك وترتفع مكانته، ويمتد من مجالس البسطاء إلى مجالس المثقفين والعقلاء، بل سيصبح أهم أدوات الحكماء..

أنا قلبى كان شخشيخة أصبح جرس
جلجلت به صحيوا الخدم والحرس
أنا المهرج.. قمتوا ليه خفتوا ليه
لا ف إيدى سيف ولا تحت منى فرس..

ويستمر الحوار بين ويليام والراهب الأكبر، حتى يرغمه على إخراج نسخة كتاب أرسطو في الضحك من جعبته، ويضحك الراهب الأكبر ويقول له: «لم تكن بعيدا عنه فى بحثك الأول فى المكتبة، ولكنك تركته لأن بدايته بالمصرية القديمة، الصفحات الأولى فى الكتاب تحكى أسطورة ضحكة رع وبداية الإنسان!!

فيقول له ويليام: نعم.. هذا هو جهل اللسان بلغات الإنسان.. كم يحرمه هذا الجهل من معرفة الكثير..

ويأخذ الكتاب منه فيجد صفحاته ملتصقة بما يشبه الصمغ، إذا حاول فصل الصفحات بعضها عن بعض، علق هذا الصمغ بأصبعه أو بلسانه، ويعرف ويليام فى التو والحال أن هذا الصمغ ما هو إلا سُم، وأنه الوسيلة التى قتل بها كل الرهبان.

يسممون أنفسهم فى بحثهم عن المعرفة، ويسرى السم فى جسدهم بقدر عطشهم لقراءة المزيد من صفحات كتاب الضحك!

الدنيا هى الدنيا.. قالها جاهين وفى كل عصر وكل أوان حايكون هناك غربان..

الدنيا هى الدنيا مش كده
الدنيا يا غراب هى هى نعم
اضحك وأنا حاضحك وشوف يابين
مين ضحكته توصل لحد فين..

مرة تانية باقول وحشتنا قوى ياجاهين، وكان نفسى أزورك.. لكنى افتكرت وصيتك..

أوصيك يا ابنى بالقمر والزهور
أوصيك بليل القاهرة المسحور
وإن جيت فى بالك.. اشترى عقد فل
لأى سمرا.. وقبرى اوعك تزور

ذكراك يا فيلسوف الضحك مالها ميعاد لأنك جوه قلوبنا فى كل ميعاد..

ولأنك دايما دايما فى ميلاد وانت اللى قلت إن عيد ميلادك ملوش ميعاد.. «فين الورق والنسمة والمقص والقلم يا واد»!

ولسه فيه لك عندى وردة حمرا من بنت سمرا

بتميل عليك وتقول.. والله ما كانت فاشوش! وبكره أجمل من النهارده..

الهوامش

* فى بعض المواقع استخدمت أشعار صلاح جاهين فى نسيج النص.

(١) سخمت: (ربة البطش والانتقام)، يرمز لها بأنثى الأسد، فى بعض التنويعات على هذه الأسطورة تذكر حتحور فى صورة من صور تحولاتها بدلا من سخمت.

(٢) البنديكتية: (أتباع القديس بنديكت) مذهب يعتمد فى الأساس على الرهبنة والعزلة.

(٣) الفرانسيسكان: (أتباع القديس فرانسيس)، مذهب يدعو إلى الزهد فى ماديات الحياة، ولكنه يتفاعل مع المجتمع، وينص على الرحمة والإحسان، أثّر كثيرا فى فنانى عصر النهضة بداية بجيوتو.

(٤) كاريكاتير الحيوانات يختلف عن رمزية الحيوانات فى الميثولوجيا المصرية القديمة، والكثير منها سجل فى برديات تعرف بالبرديات الساخرة، ما تبقى منها يدل على بدايات الأدب الساخر فى مصر القديمة.

(٥) كتاب أرسطو فى الضحك هو الجزء الثانى من رسالته فى الشعر.

يعيش فى عالمنا اليوم نحو خمسة عشر مليونًا من الغجر، لا يعرف غالبنا من هم؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين يذهبون؟ الأهم لماذا هم غجر؟ ومع ما وصلت إليه الكتابات الحديثة فى علم الغجريات Gypsiology، فما تزال هناك أسئلة وبالأحرى مشكلات فى حاجة إلى إجابات، أو إلى مزيد من الإجابات. وتتناول المجلة هذه المسألة من خلال موضوعين، الأول يتحدث عن الغجر فى العالم، ويناقش الثانى وجود الغجر فى مصر.

الغَجَر

عبــــــادة كحيــــــلة

أول ما يجبه الباحث فى هذا الموضوع هو المعلومات، فنحن لا نستطيع أن نكتب فى موضوع ما، إذا لم تتوافر لدينا معلومات عن هذا الموضوع.

والكتابة عن الغجر تقتضى الرجوع إلى مصادر كتبها غجر أو كتبها جيرانهم من غير الغجر.

لا تتوافر لدينا مصادر تاريخية كتبها غجر، فلم تتوافر لهم لغة مكتوبة، أو أنها توافرت لهم فى أوروبا فحسب وقبل مائة عام.. واللغة ـ كما نعلم ـ أداة اتصال، لكنها وبالقدر نفسه وعاء للمعرفة.

ربما قفز إلى الذهن خاطر، هو أن يكتب الغجر تاريخهم بلغة (أولغات) من يعيشون إلى جوارهم، والرد على هذا بأن الغجر قوم عمليون، لا يعنيهم من لغة غيرهم إلا القدر الذى يتناسب وحجم تعاملهم معهم، ولايزال فى بلاد البلقان ـ وهى المستودع الرئيسى لهم ـ جماعات ـ وإن كانت قليلة ـ لا تستطيع أن تفهم اللغة التى يتحادث بها جيرانهم.

يزيد من ذلك أن الغجر ـ الكثرة الغالبة من الغجر ـ لايزالون أميين، ورغمًا عن جهود بذلت لتعليمهم، فإنهم فى غالب الأحوال لا يستجيبون لهذه الجهود.

يحتج آخرون ويقولون إن هناك شعوبًا ـ بينها العرب ـ كانت كقاعدة أمية، ومع هذا فقد تداولت تاريخها شفاهةً، ثم دونته بعد ذلك.

الرد إنه لم يتوافر لدى الغجر حافز لأن يحفظوا تاريخهم، فليس لديهم فى حاضرهم أرض واحدة، وليس لديهم فى مستقبلهم أرض واعدة، وليس لهم كتاب مقدس يجمع تراثهم ويحافظ عليه، بل ليس لهم ماض يشتاقون إليه فقد نسوه، وتحول هذا الماضى إلى ركام من غموض.

لا ندحة إذن من أن نعتمد فى تقصى تاريخ هؤلاء القوم على الأغيار، ومصادرنا فى هذا الشأن قليلة، وفى أحيان نادرة، لأن الغجر عاشوا حياةً هامشية، فاستحقوا كتابةً هامشية، هى فى جوهرها أحادية، ترتبط فى معظمها باشتباكات بين عالم الغجر والعالم حولهم، مما كان يفضى فى النهاية إلى نتيجة منحازة، أو هى غير موضوعية فى أحيان كثيرة.

لكن والحق يقال إن هذه المادة على نزارتها أوفر فى الغرب منها فى الشرق؛ بحكم أن الهوة بين الغجر والأوروبيين كانت ـ ولاتزال ـ أوسع من الهوة بين الغجر والشرقيين، فظاهرة التمايز كانت أوضح فى الحالة الأولى، وشكلت بالتالى حافزًا للكتابة عنهم.

هناك سبب أهم هو أن وفود الغجر إلى أواسط أوروبا وغربيها فى مطالع القرن الخامس عشر، يتوافق مع صعود المدن الناشئة، وكانت هذه المدن ـ فى سياق تأكيدها لذواتها ـ حريصةً على أن تكون لكل واحدة منها سجلاتها التى تدون بها الأحداث يومًا بيوم.

المشكلة الثانية هى المسمى، فلا يوجد مسمى واحد لهؤلاء القوم، لأنهم تفرقوا فى أقطار عدة فى أزمنة مختلفة، فأصبحت لهم ـ من ثم ـ مسميات مختلفة.

هذه المسميات تصطدم بواقع أن بعض الغجر ينكرون أنهم غجر، كما تصطدم بواقع أن البعض من غير الغجر، يوصفون أحيانًا بأنهم غجر.

على أية حال لدينا فيما يختص بأوروبا مسميان عامان هما Atsínganoi البيزنطية ـ اليونانية، ومرادفاتها فى اللغات الأوروبية مثل Tsiganes الإنجليزية والفرنسية، و Zigeuner الألمانية و Zingari الإيطالية و Cigànyok المجرية.

المسمى العام الآخر يعود فى أصله إلى كلمة Aegyptus أى مصر، ومنها اشتقت Eypsies أو (Gipsies) الإنجليزية و Gitanes الفرنسية و Gitanos الإسبانية و Gúphtoi اليونانية.

أما عن المسميات الفرعية فيصعب إحصاؤها، ويكفينا ذكر أن فى فرنسا ـ وحدها خمسة مسميات هى Gitanes و Tsiganes و Calé (أى سود) و Manouches (أى رجال) و Bohé-miens (لمقدم بعضهم من بوهيميا فى تشيكوسلوفاكيا السابقة) و Romnichels (من روم).

أما عن الغجر فهم يدعون أنفسهم روما ROMA وواحدها روم ROM وتعنى فى لغتهم إنسانًا، ويدعون غيرهم جاجى Gadzé وواحدها جاجو Gadzó.

فى الأقطار العربية وما جاورها لدينا مسمى عام هو الغجر، ومسميات فرعية، منها لوريان أو لوليان (إيران) چنكَنه (تركيا) كاولية وقرج (العراق) نَوَر (بلاد الشام ومصر) حَلَب (صعيد مصر وشمالى السودان) زطوط ـ وواحدها زُطى ـ (سلطنة عُمان)

هناك مسميات أخرى أصغر، وإذا تناولنا مصر كعينة، فلدينا قوم من النور يدعون بالهنجرانية، يدعون الانتساب إلى المجر، وهذا غير صحيح، فاصل الكلمة أهنكَر الفارسية، وتعنى حدادًا، وتجمع أهنكَران أى حدادين، والحدادة مهنة أمّ عند الغجر.

فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية لا يطلق الغجر على أنفسهم مسمى يرتبط بلغتهم، لكنهم يطلقون على غيرهم مسمى خشانة أو أخشان وواحد خُشْنى. ننتقل الآن إلى مشكلة المشاكل وهى أصل الغجر.

عندما حط الغجر رحالهم فى أواسط أوروبا فى مطلع القرن الخامس عشر، ادعوا أنهم مصريون أتوا من مصر الصغرى Aegypto minori، وهو زعم ـ يتضح بعد ـ غير صحيح، وربما انتحلوا هذه النسبة لارتباط مصر القوى بأسفار الكتاب المقدس قديمها وجديدها على سواء.

ظلت أسطورة الأصل المصرى مصاحبةً لتاريخ الغجر حتى أيامنا، والغريب أنها انطلت على بعض من المصريين (المصريين المعاصرين) ويتباهون بأن لهم إخوةً أوروبيين.

على أية حال، فلم تتضح الحقيقة إلا فى أخريات القرن الثامن عشر، ففى سنة ١٧٦٣ التقى شاب مجرى يدرس اللاهوت فى جامعة لايدن Leiden بهولندا، بثلاثة طلاب هنود ينتمون إلى ساحل ملابار Malabar، ولاحظ هذا الشاب ويدعى إشتڤان ڤالى István Vályi أن هؤلاء الطلاب يتحدثون بلغة تشبه لغة مواطنيه من الغجر المجريين، فدون حوالى ألف كلمة من كلامهم، ولدى عوده إلى وطنه، عارضها على هؤلاء الغجر، واكتشف أنهم عرفوا بغير كبير صعوبة تفسير هذه الكلمات.

سجل ڤالى نتائج كشفه فى سنة ١٧٧٦، ولم يلبث أن وصل خبر هذا الكشف إلى علماء آخرين أكدوا هذه النتائج.

لم يقف الأمر عند حدود اللغة، فقد تعامل بعض العلماء مع هذا الموضوع من مدخل أنثربولوجى، أى إنهم اهتموا بالخصائص التشريحية، وهى التى تعنى بمقاييس الجسم وأعضائه خصوصًا الجمجمة، كما أفاد بعضهم بنتائج علم الوراثة، فاكتشفوا بتحليل فصائل الدم لعينات من غجر البلقان أن مورث ب Gene B ينتشر بينهم على نحو قريب من انتشاره بين الهنود، وهو معدل يزيد على معدل انتشاره بين الأوروبيين بمقدار الضعفين.

صار الأصل الهندى للغجر حقيقةً يتفق عليها علماء الغجريات كافة، لكن السؤال الذى يطرح نفسه: إلى أى شعب من شعوب الهند ينتمى الغجر؟

هناك عدة نظريات أشهرها إنهم ينتمون إلى شعب الجت jats، وهو شعب لايزال له حضوره الواضح فى دولتى الهند وباكستان، وعرف العرب هذا الشعب فى فترة ما قبل الإسلام، وعربوا الاسم إلى زُط.

أهم من روج لهذه النظرية هو المستشرق الهولندى الكبير دى خويه De Eoeje (ت١٩٠٩) فى كتاب صغير أصدره فى سنة ١٩٠٣ بعنوان «هجرات الغجر عبر القارة

A History of The Gypsies in Eastern Europe and Russia

(تاريخ الغجر فى أوروبا الشرقية وروسيا)

David. M. Crowe

London. IB. Tauris & Co Ltd. 1995

The Gypsies

(الغجـــر)

Angus Fraser

London, Blackwell Publishers, Ltd. 1995



الآسيوية» Les Migrations des Tsiganes á travers L'Asie، واعتمد فيه على مصادر عربية وفارسية أهمها الشاهنامة للفردوسي شاعر الفارسية الأكبر (ت ٤١١هـ/١٠٢٠م).

يقول الفردوسي - ونحن هنا ننقل من الترجمة العربية - أن بهرام جور ملك فارس (٤٢٠ ـ٤٣٨) «كتب إلى شنكَل ملك الهند رسالةً، أن ينتخب من الهنود ألفي نفس من الذكور والإناث من المخصوصين بحسن الصوت وجودة الصنعة في الغناء، وينفذهم إليه، فامتثل شنكَل أمره ونفذهم إليه. فلما حصلوا عند بهرام، أمر بأن يعطى كل واحد منهم بقرةً وحمارًا، وفرق عليهم ألف حمل من القمح برسم البذر، وفرقهم في القرى والضياع، ليزرعوا ويحرثوا، ويغنُّوا فقراءها بغير أجرة ولا كلفة. فلما حصل البذر في أيديهم أكلوه، وذبحوا البقر، وحملوا رحالهم على الحُمُر، وتفرقوا في البلاد، واشتغلوا بالتلصص والانتهاب والتخطف، وتناسلوا وهم إلى الآن موجودون في أقطار الأرض ذات الطول والعرض، وهم جيل يسمون اللورية، وهم الزط والعشرية ولهم انتشار في كل صوب».

نخرج من هذا النص بأن هؤلاء الزط كانوا عازفين عن الزراعة، بل عن العمل، بدليل إنهم أكلوا البذور التي أعطيت لهم، كما أكلوا البقر، وصاروا عيالاً على المجتمع المحيط بهم، يتلصصون ويتنقلون من مكان إلى آخر. ويبدو أن الفردوسي - على نحو أو آخر - كان يسقط ما يشاهده عند الزط المعاصرين له - أو بالأحرى الغجر - على أحداث وقعت في الماضي.

وجدت هذه النظرية التي أتى بها دي خويه معارضةً قوية من بعض العلماء، لأن الزط - وإذا شئنا الجت - عرف عنهم أمران لا نشاهدهما في زط الشاهنامة، ولا في الغجر المعاصرين لنا، هما كونهم محاربين أشداء، وكونهم مارسوا الزراعة.

الأهم من هذا الاعتراض اعتراض آخر، هو أن لغة الغجر المعاصرين في أوروبا، وهي لغة الرومَني Romani أو (Romany) وإن كانت ذات قرابة بلغة الجت، إلا أنها أقرب إلى المجموعة الوسطى من اللغات الهندية، وتمثلها في العصر الحاضر اللغة الهندية Hindi.

هذا الاعتراض يمكن الرد عليه بأن حدثت هجرة في زمن قديم، لأقوام كانوا يعيشون في وسط الهند، واتجهوا صوب الشمال والغرب. وتشير الدلائل إلى أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين من يعرفون بالدوم Doms الذين اشتهروا في القرن السادس الميلادي بكونهم ذوي بشرة داكنة، ينتمون إلى أصل وضيع، ويعملون كموسيقيين متجولين، ومع أنهم كانوا ينحدرون من الجنس الدرافيدي Dravidian، إلا أنهم صاروا قبل هجرتهم يتحدثون بلغة آرية.

يترجح لدينا أن رواية الفردوسي صحيحة على إجمالها - وليس على تفصيلها - على أننا يمكن أن نضيف إليها أن هذه الطالعة لم تكن تضم الزط وحدهم، إنما ضمت أقوامًا آخرين أهمهم الدوم، أما لماذا أطلق على هذه الطالعة مسمى عام هو الزط، فلأن العرب - في سياق تعميم الجزء على الكل - كانوا يطلقون هذا المسمى على شعوب هندية (وسندية) ليس من بينها الزط.

ولكن متى بدأ الزط خروجهم الكبير من إيران في اتجاه الشمال والغرب؟ وما هي الطريق التي سلكوها؟

تتفاوت الآراء في هذا الشأن، ويذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أنهم بدأوا خروجهم بعد الغزوات التي قام بها السلطان محمود الغزنوي (٣٨٨/٩٩٨ - ٤٢١/١٠٣٠) في بلاد الهند، حيث وجه إلى الجت ضربات قوية. ويذهب بعض آخر إلى أنهم خرجوا في زمن السلطان تيمور لنك (٧٧١/١٣٧٠ - ٨٠٧/١٤٠٥) بعد غزواته في الهند وغير الهند، وقد وصل في بعض هذه الغزوات إلى أطراف أوروبا.

نلاحظ في هذا المذهب تعسفًا واضحًا، فيبعد أن يقطع الجت مسافات تصل إلى آلاف الأميال، ولا يرد خبر واحد عنهم في مصادرنا عربيّة وفارسية.

الصحيح ما يرد في مصادرنا العربية، ومفادها أن أعدادًا كبيرَة من الزط استوطنت إقليم الأهواز (عربستان الآن) وإقليم البحرين (البر الغربي من الخليج العربي) والأهم إقليم البطيحة - أو البطائح - (الأهوار جنوبي العراق)، وعرفهم العرب على نحو ما قبل الإسلام، وأتوا على ذكرهم في بعض شعرهم.

لا نعلم على نحو واضح موقف الزط من الدعوة الإسلامية. ما نعلمه هو إنهم صاروا - جميعهم - مسلمين في أعقاب الفتوح الإسلامية لأراضي الدولة الساسانية، واستقر بعضهم في مدينة البصرة، وصاروا موالي لقبيلة تميم، واتخذوا جانب الإمام علي رضي الله عنه في صراعه مع معاوية، ثم أثاروا قلاقل لبني أمية، مما أفضى إلى أن أجلوا عددا كبيرا منهم إلى بلاد الشام.

فيما عدا ذلك فالأخبار قليلة عن الدور الذي قام به الزط في الحياة العامة خلال المرحلة الأولى من تاريخ الإسلام. لكننا نعلم أن بعضهم ممن لديهم خبرة بالحديد، عملوا سجانين.

يقول الفرزدق (ت ١١٠هـ) مخاطبًا هشام ابن عبد الملك (١٠٥/٧٢٤ - ١٢٥/٧٤٣) يشير إلى سجنه:

أبيت تطوف الزط حولي بجُلجل[1]
على رقيب منهم كالمحالف

وفي أخبار مصر نقف على أسرة زطية، لعبت دورًا هاما في تاريخها، وهي أسرة السَرِي ابن الحكم الذي استطاع وولداه من بعده أن يحكموا مصر مستقلين عن الخلافة العامة ببغداد ما يزيد على العشرة أعوام (٢٠٠/٨١٦ - ٢١١/٨٢٦).

يهمنا من هؤلاء الزط، من استمر منهم مقيمًا في إقليم البطيحة، فقد كثر عيثهم في زمن الخليفة المأمون (١٩٨/٨١٣ - ٢١٨/٨٣٣)، وكان طبيعيًا أن يتجرد لحربهم، ولا تتوافر لدينا معلومات عن هذه الحرب، لكن المعتصم (٢١٨/٨٣٣ - ٢٢٧/٨٤٢) نجح فيما أخفق فيه أخوه، وبعد قمعهم أمر بنفيهم - وكانوا سبعة وعشرين ألفًا - إلى الثغور (أي الحدود) مع دولة الروم، خصوصًا عين زَرْبة، حيث أمضوا عشرين سنةً، إلى أن أغارت الروم على الثغر في العام ٢٤١هـ «فاجتاحوهم فلم يفلت منهم أحد» كما يقول الطبري.

يعد عام ٢٤١/٨٥٥ عامًا فارقًا في تاريخ الزط، ففيه بدأ هؤلاء اقتحام عالم جديد، يختلف عن عالمهم الذي عاشوا داخله سنوات طويلة، من معالمه أنهن كفوا عن أن يكونوا مسلمين.

عاش الزط - وندعوهم منذ الآن بالغجر - داخل العالم البيزنطي في أرمينية، ما يزيد على المائتي سنة، وهذا يتسق مع التأثير الأرمني القوي في لغتهم.

ولدى تقدم الأتراك السلاجقة على حساب الروم في أرمينية، فقد أسفر هذا التقدم عن اضطراب، أفضى إلى عبور أعداد كبيرة من الغجر إلى الأقسام الغربية من الإمبراطورية، في القسطنطينية نفسها، ومنها إلى بلاد اليونان. وبدأ التأثير اليوناني يجد طريقه إلى لغتهم، بحيث غدت اليونانية أكثر اللغات الأجنبية تأثيرًا في الرومنية - لغة الغجر - تليها الأرمنية.

وأول إشارة إلى هؤلاء الغرباء في الوثائق المعاصرة، وردت في النص الكَرجي[2] عن حياة القديس چورچ الناسك، ويعود إلى سنة ١٠٦٨، فنشاهد اسم قوم يدعون Adsincani وهذه الكلمة هي المقابل الكَرجي للكلمة اليونانية Atsinganoi أو (Atzinganoi) وهو الاسم الذي اعتاد الروم أن يطلقوه على الغجر.

والكلمة اليونانية نفسها مشتقة من اسم طائفة متهرطقة، تدعى Athinganoi، ومصدر ذلك هو التشابه بين الغجر وبين هذه الطائفة في ممارسة السحر والشعوذة وقراءة الطالع.

قبل أن نمضي في تعقب قافلة الغجر، تجب ملاحظتان أساسيتان: أولاهما أن الغجر في كل مكان أقاموا به، كانوا يقتبسون جُملاً من مفردات جيرانهم، تدخل في نسيج لغتهم، وهو ما دفع عالمًا كبيرًا من علماء الغجريات هو مارتن بلوك Martin Block لأن يقول «إن عدد الكلمات التي اقتبسها الغجر من بلد ما، يتناسب طرديًا مع المدى الذي قضوه في هذا البلد».

الملاحظة الثانية أننا حين نتحدث عن انتقال الغجر من مكان إلى مكان لا نقصد انتقالهم جميعهم، لأنهم في كل حال، كانت تتخلف عن الركب أعداد تتفاوت حسب مقتضى الحال.

في بلاد اليونان تتواتر الإشارة إليهم بين حين وآخر، لكنها في مجملها إشارات غامضة، إلى أن تصل إلينا في القرن الرابع عشر تقارير لرحالة غربيين، يصفون من شاهدوهم من غجر في جزيرة كورفو Corfu إلى الشمال الغربي، ومدينة مودون Modon (وهي ميتوني Methoni الآن) إلى الجنوب الغربي.

خلال إقامتهم الطويلة في بلاد اليونان، بدأت أعداد كبيرة من الغجر تتسرب إلى بلاد البلقان، مدفوعَة أحيانا بالزحف التركي العثماني المتواصل، بحيث أضحت هذه البلاد منذ القرن الرابع عشر هي المستودع الرئيسي للغجر، وكانوا يحظون في أحيان كثيرة بالترحيب من أهلها، على أنه نظرًا لما تعرض له إقليما الأفلاق Wallachia والبُغدان Moldavia (في رومانيا الآن) من نقص شديد في عدد السكان ناجم عن الصدام مع العثمانيين، فقد تم استرقاق الغجر، من أجل أن يستقروا ويعملوا في الزراعة.. وظلوا على هذه الحال حتى منتصف القرن التاسع عشر.

يعد العام ١٤١٧ عامًا فارقًا في تاريخ الغجر، يعدل في أهميته العام ٨٥٥، ففي هذا العام بدأ اجتياح الغجر - إذا جاز التعبير - لأواسط أوروبا وغربيها، وخلال مدى لا يجاوز السبعين عامًا، كانوا قد اجتازوها جميعها.

كان السبب الكامن وراء هذا الاجتياح هو اجتياح الأتراك لبلاد البلقان، وبداية اجتياحهم لمملكة الغجر، فقد نتج عن هذا الاجتياح، اضطراب لم يشأ الغجر، وهم طارئون يعيشون حياةً مهمشة أن يدفعوا ثمنا له، لذا اختار بعضهم الرحيل إلى الغرب.

لم يتوافر لدى الغجر حافز لأن يحفظوا تاريخهم، فليس لديهم في حاضرهم أرض واحدة، وليس لديهم في مستقبلهم أرض واعدة، وليس لهم كتاب مقدس يجمع تراثهم ويحافظ عليه، بل ليس لهم ماض يشتاقون إليه فقد نسوه، وتحول هذا الماضي إلى ركام من غموض



فرقة موسيقية من غجر البلقان - القرن التاسع عشر

في سنة ١٤١٧ حصل فريق من هؤلاء على خطاب حماية Littera Promotoria من الامبراطور سيجسموند Sigismund (١٣٦٨-١٤٣٧)، ثم حصلوا على خطابات مماثلة من حكام آخرين، بل من البابا نفسه.

كانت خطابات الحماية في العصور الوسطى، أشبه بجوازات السفر في عصرنا، وكانت تكفل لأصحابها إلى جانب حرية المرور، منحهم زادًا وطعامًا ومالاً، وفي أحيان مرقدًا. وكانت الذريعة التي يلجأون إليها طلبًا لهذه الوثائق هي أنهم «مصريون» تخلوا عن المسيحية وتحولوا إلى الوثنية، وبعد توبتهم فرضت عليهم عقوبة، هي أن يترحلوا لسنوات طويلة حول العالم يكفرون عن خطيئتهم.

وصلت إلينا بعض هذه الوثائق، ويتضح منها أن بعضها مزيف، وتزييف الوثائق كان صناعةً رائجةً في العصور الوسطى، ويعود في بدايته إلى عصر الإمبراطور شارلمان Charle-magne (٧٦٨-٨١٤).

على أية حال، فقد كفلت لهم هذه الوثائق سنوات لا بأس بها من الهدوء، رغمًا عما كان يتخللها أحيانًا من صدام بينهم وبين مضيفيهم، لدى جنوح بعضهم إلى السرقة والسحر وقراءة الطالع، مما كان يسفر أحيانًا عن طردهم وربما قتلهم.

هكذا نكون قد وصلنا إلى نهاية الطريق في رحلة الغجر من الهند إلى أوروبا، وهي رحلة طويلة، عبر مئات من السنين ومئات من الأميال، حافظ الغجر خلالها على هويتهم، ومع ما تعرضت له هذه الهوية من تغيرات، تمت على نحو متراكم، إلا أنها ظلت متميزة وفي أحيان متمايزة.

ونقفز إلى السؤال التالي.. وهو لماذا احتفظ الغجر بهذه الهوية؟ وكيف؟

يحاول البعض أن يتلمسوا السبب في نظام الطائفة - الطبقة Caste الذي كان ذائعًا في بلاد الهند - موطن الغجر الأصلي - فهذا النظام يعني أن الـ Caste، تضم جماعة (أو جماعات) متحدة في عرقها ومتحدة أيضا في نسق مهنها، ويزيد من هذا الاتحاد زواج اللُّحْمة (أو الزواج الداخلي) Endogamy، وهو ما كان يؤدي إلى تماسك الجماعة (أو الجماعات) الواحدة، وبقاء الطابع الخاص بها.

نذهب من ناحيتنا إلى أن في هذا الفرض قدرًا من الصحة، لكنه ليس صحيحًا دائما، وكان قمينًا به أن يذوي مع الزمن؛ لأن الغجر تعرضوا لمؤثرات خارجية قوية (اللغة مثلا)، والسبب في بقاء هذه الهوية، نجده عند غير الغجر، فهؤلاء كانوا يعيشون مرحلة متخلفة من علاقات الإنتاج، وهم في حاجة إلى المهن التي تفرد بها الغجر أو مهروا فيها، والتي بدأوا في بيعها، بعد أن بدأت خطابات الحماية تفقد فعاليتها.. هذه المهن وإن كانت هامشية، إلا أنها تتسم بطابع الندرة، والعائد من بيعها يكون كبيرا في أحيان، ويكفل للغجر أن يعيشوا في مستوى اقتصادي أعلى من مستوى غيرهم من عامة الناس بل أوساطهم، وهم عندما لا يجدون مجالاً لمزاولة مهنهم أو يجدون كسادًا لها، يصرون على الحفاظ على هذا المستوى، فينصرفون إلى الاحتيال على رزقهم، وقد يسرقون أو يقطعون الطريق، أو يشغبون على السلطة.

نأتي هنا بمسرد لأهم المهن التي زاولها الغجر في كل العصور وفي كل البلدان، وبطبيعة الحال تتفاوت هذه المهن لدى مزاولتها بين مكان ومكان، وبين زمان وزمان، على أننا نجملها في خمس مجموعات هي:

أ- مهن تتصل بالمعادن:

حدادة، نحاسة، صفاحة، سباكة، صنع الآلات البسيطة وإصلاحها.

ب - مهن تتصل بالحياة في الريف:

تربية الخيول، بيطرة، طب شعبي، صوافة، حذاءة الخيل والحمير، اتجار بالسلع الصغيرة أو النادرة.

جـ - مهن تتصل بالتسلية:

غناء، موسيقى، رقص، ترقيص الدببة أو القرود، أعمال الحواة، بهلوانات.

د - مهن تتصل بالغيب:

سحر، قراءة الطالع، وشم (دق).

هـ - مهن ينفر منها المجتمع:

تسول، سرقة.

لكن هذا النمط من الحياة، لم يكن ليتلاءم مع مجتمعات، بدأت تنمو وتتطور، وتقتحم المهن التي زاولها الغجر، مما سوف يسفر - بطبيعة الحال - عن صدام بين عالم الغجر وبين عالم غير الغجر.

هذا الصدام لابد أن يتفاوت في الزمان، كما يتفاوت في المكان، ونتتبع - باختصار - مراحل هذا الصدام في الغرب، ثم ننتقل إلى الشرق.

في مطالع القرن السادس عشر كانت أوروبا - غربيها على نحو خاص - قد قطعت مرحلة طويلة في نهضتها، وتعاظمت سلطة الدولة، وصارت تتدخل في حياة مواطنيها خاصتهم وعامتهم، ومنهم الغجر.

الأهم هو ما جرى من إصلاح ديني، أفضى إلى أن صار نصف أوروبا خارجًا عن سلطان البابا الذي يتذرع الغجر بحمايته، وسادت قيم جديدة تحفز على العمل والعمل المنتج، وهو ما يفصله ماكس ڤيبر Max Weber (ت ١٩٢٠)، في تحليله للعلاقة بين البروتستانتية وصعود الرأسمالية، ولم يعد للقيم الفرانسيسكانية التي تحبذ الفقر، وتحبذ معه البر إلى الفقراء (ويدخل فيهم الغجر أحيانًا)، لم تعد لهذه القيم أهمية في هذا العصر الجديد.

زاد من ذلك ما ترتب على حركة الإصلاح الديني من حروب دينية، دامت نحو مائة عام، آخرها حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨)، وأسفرت هذه الحروب عن دمار عام وفوضى، خصوصا في ألمانيا. وشرع الغجر - باعتبارهم هامشيين لا يهمهم ما يجري للمجتمعات حولهم - شرعوا في المشاركة في السلب والنهب.

تعد المائتا عام التي تمتد من منتصف القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر، هي العصر المظلم في تاريخ الغجر، إذ تحول المجتمع ضدهم، وصدرت قوانين صارمة، تهدف إلى إدماجهم أو طردهم وربما قتلهم بعد تعذيبهم.

أشهر هذه القوانين هي التي أصدرتها اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا (١٥٥٨-١٦٠٣)، ولويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣-١٧١٥) وماريا تيريزا امبراطورة النمسا (١٧٤٠-١٧٨٠)، على أن أشدها قساوةً هي تلك التي أصدرها فيليب الثاني ملك إسبانيا (١٥٥٦-١٥٩٨) في أواخر القرن السادس عشر.

التفصيلات كثيرة ومروعة، إذ صار تعبير غجري مرادفًا لتعبير مجرم، يشنق دون محاكمة، وشاعت ظاهرة «صيد الغجر» Heid-en Jachten[3].

في إسبانيا حظر الزواج الداخلي على الغجر، وكان يتم فصل أطفالهم عنهم، وإلحاقهم بالخدمة المنزلية، كما كان يتم تسخير الرجال في سفن الأسطول، حيث يجدفون وهم في الأغلال. وبعدما جرى تقدم في تقنيات الملاحة، جرى تسخيرهم في بناء السفن، أو في الحصون الإسبانية Presidios، على الشاطئ المغربي، أو العمل في ظروف غير إنسانية بالمناجم، وفي كل الأحوال هلك منهم آلاف وآلاف.

أما البرتغال، فقد تفردت بكونها رائدة في تهجير الغجر إلى مستعمراتها في أفريقيا والعالم الجديد، واقتدت بها - وإن كان على نحو أقل - فرنسا.

من ناحية الغجر، فقد تعاملوا مع هذه المستجدات على نحو مرن، يكفل لهم بقاءهم، واختار بعضهم أن يقيموا على التخوم بين الدول، بخاصة الدويلات الألمانية، يتحركون عبرها إذا دهمهم الخطر.

أسفرت هذه الإجراءات عن تغييرات في نمط الحياة الغجرية، فعرف بعض الغجر السكنى في البيوت، وألحقوا أولادهم بالمدارس، ووقعت حالات من التزاوج مع غيرهم، بحيث صار لدينا أنصاف غجر وأرباعهم، وبدأوا يتقبلون الديانة المسيحية على أصولها، بل ظهر بينهم قساوسة ومبشرون.

مع ذلك ورغما عما طرأ من تطورات، فإن الغجر في غربي أوروبا، ظلوا محافظين على قدر من خصوصيتهم، ظل يصاحبهم عبر الزمن.

أما في أراضي الدولة العثمانية - حيث كانت كتلتهم الرئيسية - فقد حافظوا على خصوصيتهم كاملة، وتعاملت الدولة معهم على نحو طيب، مما دفع بعضهم إلى أن يتحولوا إلى الإسلام. وعندما علم الصدر الأعظم في أوائل القرن السادس عشر بتفاقم ظاهرة خطف أطفال الغجر وبيعهم، أمر بمنعها وحدد عقوبات لها، كما كان الباشوات (أي حكام الولايات) يفيدون بالغجر كعازفين في احتفالاتهم، وبعضها احتفالات دينية.

في منتصف القرن الثامن عشر، بزغت حركة التنوير في أوروبا، وهي حركة تستهدي بالعقل وتبتعد عن الأفكار المسبقة، لذا حظي الغجر بمكانة لا بأس بها في موسوعة ديديرو Diderot (ت. ١٧٨٤)، وتتوافق هذه الحركة مع نهوض علم الغجريات، وما ترتب عليه من بداية المعرفة الصحيحة بالغجر.

وفي سنة ١٧٨٣، صدر أول كتاب

الغَجَــــر

عنهم، عنوانه Die Zigeuner لهـــاينريش جـريلمـان Heinrich Grellmann، وترجم هذا الكتاب إلى عدة لغات.

فى أواخـر القرن الثـامن عشـر، ظهرت الحـركة الرومـانسـيـة، وسيطرت على الفكر الأوروبى مدى يصل إلى مائة عام، وراجت فى أذهان هؤلاء الرومـانسـيـين فكرة المتـوحش النبيل (الذى يعبر عنه الغجر أحيانا)، وتنامى الاهتـمـام بموسـيـقـاهم، فـدرج النبـلاء على اسـتـقدامـهم، من أجل أن يعـزفوا لـهم، بل إن واحدًا من هؤلاء الغجر عزف للملوك المجتمعين فى مؤتمر فيينا ١٨١٤، وأفاد الموسيقار المجرى الكبـيــر ليـسـت Franz Liszt (ت ١٨٨٦)، بموسـيـقـاهم فى رابسـودياته المشـهـورة، بل اعتبر الموسيقى المجرية موسيقى غجرية.

كـان للإحيـاء الرومـانسى أثره كذلك فى أن ظهرت أعمال أدبية، لأدباء كبـار، جعلوا الغجر موضـوعا لها، فبودلير Baudelaire (ت ١٨٦٧) يعبر فى شعره عن شوقه لأن يصطحب قـافلة غجرية فى الطرق النائية الوعرة، وميريميه Merimée (ت ١٨٧٠) يظهر الغجرية فى صورة طيـبـة فى كـارمن، بل إن هـيـجـو Hugo (ت ١٨٨٥) يجـعل هذه الـغـجـرية مظلومـة فى رائعته أحدب نوتردام.

عند انعكاس هذه الصــورة على الواقع، تحسنت أحوال الغجر، خصوصا أن حقبة القهر السابقة جعلتهم ـ فى غربى أوروبا ـ يتخلون عن بعض السمـات التى صاحـبـتـهم لدى قدومهم، والتى كانت محل سخط الأوروبيين، وصار الاستقرار ظاهرة عامة بينهم، ووصلت الحال إلي أن تزوج بعض شبابهم بفتيات من أسر نبيلة، أو حتي أميرات ووصلت الحال كذلك إلى أن شعـر سـائرهم بقدر من الانتـمـاء إلى المجتمعات التى جاوروها، فشاركوا فى ثورة ١٨٤٨ ببلاد المجر.

على أنه قبل أن ينتهى القرن التاسع عشر، استجد متغيران مهمان:

أولهما: ما جرى من هجرة جديدة لغجر أتوا من بلاد البلقان، وكان الدافع إلى هذه الهجرة، ما جرى من تحسن فى وسائل المواصلات، فضلاً عن تحرير الغجر بولايتى الأفلاق والبغدان. ولم يصادف هؤلاء الغجر ترحيبًا فى مهاجرهم الجديدة. لكونهم أكثر محـافظة من أقربائهم الذين سبقوهم فى الهجرة، وتم استيعابهم على نحو أو آخر.

المتـغـيـر الآخـر: هو ظهـور النظريات العنصـرية القـائمـة على أسـاس بيـولوچى (جوبينو Gobineau ١٨٥٥، ولومبروزو Lom-broso ١٨٧٦)، وبدأت موجة جديدة من العداء تجاه الغجـر، وصلت إلى ذروتها فى الحـقـبة النازية، فاعتبرت قوانين نورمبرج Nuremberg ١٩٣٥، كلا من الغجر واليهود عرقا أجنبيا Fremdrasse، يشكل خطورة على العرق الألمانى النقى، وأمرت بمنع التزاوج معهم. وأنشئت بعد سنتـين إدارة تابعـة لوزارة الصحـة الألمانيـة، مهمتها تقصى نسبة الدماء الغجرية فيهم، بهدف تحديد المعاملة المناسبة لهم، وبدأ الغجر رحلة طويلة من المعـانـاة، وصلت بهم فى نهايتها إلى المحرقة Holocaust.

هلك فى معسكرات الاعتقال ما يتراوح بين ربع المليـون، ونصف المليـون من الغـجـر، وأصيبت أعداد أكبر بعاهات جسمية وعقلية، ومن بين ثمـانيـة آلاف من الغـجـر عاشـوا فى بوهيـميـا ومورافيـا (فى تشيكوسلوفاكيا السابقة) بقى على قيد الحياة ستمائة، كما اختفى معظم غجر صربيا.

الجـدير بـالذكـر، أنه إذا كـانت الدولة الصهيونية قد حصلت على مليارات ومليارات كتعويضات عن ضحايا النازية من اليهود، فإن الغـجر لم يحصلوا على أية تعويضـات على الإطلاق.

أسفرت الحرب العالمية الثانية عن نتائج مهمة، فصارت الحكومات فى غربى أوروبا أكثر لينا معهم، واعترفت بريطانيا بقوافلهم على أن تخـيم فى أماكن حـددتهـا، وصـارت تزودهم بخدمات وإعانات، وشجـعتهم على أن يتعلم أولادهم فى مدارسها، كما حظى الغجر باهتمام المجلس الوزارى لمنظمة الوحدة الأوروبية.

الأهم أن معظم الغـجر فى أوروبا، صاروا يعيـشـون فى ظل أنظمـة مـاركسـية، ترى أن المشكلة الغجرية ترتبط بالمرحلة الرأسمالية، ومـادامت هذه المرحلة قد انـتـهت، فإنه لم تـعد هناك مشكلة غجرية، وعليـه فقد اعترف بهم فى معظم أقطار الكتلة الشرقية كأقلية قومية، بل إن الاتحـاد السوفيتى اعـترف بلغـتهم، وصـار لهم مـسـرح خـاص بهم، كـمـا شكلوا اتحـادا وأصـدروا مطبـوعـات. ولكن كـان عليـهم فى المقـابل أن يـعـملوا بمزارع الدولة أو المزارع التـعـاونيـة، وصـدر فى عـام ١٩٥٦ قـانون يمنعـهـم من الـتـرحل. وأمـرت الدولة فى تشيكوسلوفاكيا بحرق عرباتهم وقتل خيلهم، وعندما ظهر فى بلغـاريا فى الثمانينيات تيار معاد للمسلمين، حظرت الدولة موسيقى الغجر لتأثرها بالموسيقى التركية.

فى سنة ١٩٨٩ سـقطت الشـيـوعـيـة فى أوروبا الـشـرقـيـة، وعـاودت الاتجـاهات العـنصـرية صـعـودها، وكـان الـغـجـر أول ضحـاياها، وزاد من صعود هذه الاتجاهات، ما جرى من فوضى ناجمـة عن اقتصاد السوق الحرة، مما حفز الغجر على المضاربة بالسلع النادرة.. فوقعت اعتداءات أريقت فيها دماء غجرية، ودفعت بأعداد كبيرة من الغجر صوب الغـرب، وألمانيـا على نحـو خـاص، حـيث تعرضوا لمضايقات من نوع آخر.

على أن الغجر جنحوا فى العقود الأخيرة من القرن المنصرم إلى تأكيد هويتـهم، وعقدوا أول مؤتمر لهم فى لندن ١٩٧١، حضره موفدون من أربعة عشر بلدا، واتخذوا لأنفسهم علما، كما اتخذوا شعـارا هو Opré Roma، أى انهضوا ياغجر! وتوالى عقد هذه المؤتمرات. وفى بعض دول الكتلة الشرقيـة السابقة، صـارت للغـجر أحزاب سيـاسيـة، ولـهم فى رومانيـا وحدها سبعة أحزاب.

شرع بعض الغجر يباهون بغـجريتـهم ويزعـمـون ـ بعـد أن أضـحـى أصلهم الهندى حقيـقة مؤكدة ـ أنهم ينحدرون من الطبقة الـثـانيـة فى المجـتـمع الهندى وهى طبـقـة المحاربين Kshatriya، كمـا أن بعض فـتـيـاتهم صرن يرتدين السارى.

ونعاود أدراجنا إلى المشرق.

أتينا على خبر الطبرى من أن الزط لدى غـارة الروم فى عـام ٢٤١ / ٨٥٥، أسـروا «ولم يفلت منهم أحد»، ونحن نصدق الطبرى، ولكن لا يعنى هذا نهاية الوجود الزطى فى تاريخنا؛ لأن هؤلاء المنفيين ثم المسبيين كانوا فريقا من الزط، ولم يكونوا الزط كـافـة، فـلايزال لدينا ثلاثة تجمعات لهم فى بلاد الشام وبلاد الأهواز

تعاويذ وطلاسم وأحجبة لغجر وسط أوروبا



(1) Fragment of baton-sceptre of a Central European Gypsy Chief. (*Drawing by J. G. Séruzier*).

(2) Magical characters inscribed on an amulet. (*Review CIBA*).

(3) Ancient coin bearing the 'Charmer bird' and the three mysterious dots. (*Review CIBA*).

(4)

(5)

(6)

(7)

لغة الغجر السرية





رسم لغجرية من رومانيا. وكان أهل أوروبا يخلطون بين الغجر واليهود - القرن التاسع عشر

وبلاد البحرين، فضلاً عن زط كانوا يتوافدون بين حين وآخر من بلاد السند، ويشاركون في أحداث سياسية بفارس وكرمان وغيرهما من أقطار إيران.

هؤلاء الزط في تجمعاتهم المختلفة، ثم انتشارهم في مجتمعات أخرى بعد ذلك، هم أسلاف الغجر المعاصرين لنا في المشرق.

إذا نحن تتبعنا أخبارهم، نجد الدولة تواصل الإفادة منهم في أمنها، فولى بعضهم منصب صاحب الشرطة في مدينة بغداد في بعض سنوات القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، لكننا لا نلاحظ أنها أفادت منهم في مناصب أخرى.

فيما عدا ذلك تتواتر الإشارة إلى أدوار لعبها الزط، أو فريق من الزط في أزمنة الفتن، مثل فتنة القرامطة الذين زرعوا الفوضى في كل مكان حلوا به، كما شاركوا في بعض القلاقل التي ترتبط بنزاعات على السلطة، داخل الأسرة البويهية الحاكمة في العراق وإيران.

ومن جملة ما عرف عن الزط في هذه المرحلة، وما تلاها من مراحل براعتهم في الموسيقى والغناء، حتى أن الخليفة الراضي (٣٢٢ / ٩٣٤ - ٣٢٩ / ٩٤٠)، كان من المعجبين بغناء «ذُوْدَة الزطي الطُنبوري»، كما اشتهروا أيضا بأن كلامهم غير مفهوم، وهذا مؤشر مهم على لغتهم، فيعيب الصاحب بن عَباد (ت ٣٨٥ / ٩٩٥) على المتنبي (ت ٣٥٤ / ٩٦٥) قبح مطالعه في بعض الأحيان، ويأتي بنموذج من شعره، ويعلق فيقول: «وهذا كلام الحُكْل[٤] ورطانة الزط».

الأهم هو نفور المجتمع منهم، ونظرته إليهم بازدراء، ورميهم بكل نقيصة، وعندما كانت تتردد في بعض مصادرنا أخبار عن أعراب يهاجمون قوافل الحجاج إلى بيت الله الحرام، يوصفون بأنهم زط وأوباش.

وقد تسربت هذه السمعة السيئة إلى كتب الأمثال، فيأتي الميداني (ت ٥١٨ هـ) بمثل يقول: «لا تعلم الشرطي التفحص ولا الزطي التلصص»، وبعده بسنوات طويلة، يأتي شرف بن أسد المصري (ت ٧٣٨ هـ) بمثل آخر يقول: «من كلم الزطي على نفسه يخطي».

في فترة يصعب تحديدها، بدأ هذا المصطلح «زط» يختفي تدريجيا من حياتنا، فلا نشاهده فيما توافر لدينا من موسوعات العصر المملوكي، وبدأت تحل محله مصطلحات أخرى، ولا نجد في عصرنا هذا استخداما واضحا لهذا المصطلح بمعناه العرقي - أي غجر - سوى في سلطنة عُمان، فيقال زطي وتجمع زطوطًا.

في غضون القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، بدأت تظهر في أقطار المشرق، جماعات تعرف ببني ساسان أو الساسانيين، ولدينا مادة طيبة عنهم في كتب الأدب، واختصهم كل من بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)، والحريري (ت ٥١٦ هـ) بمقامة مستقلة، كما اختصهم ابن دانيال الموصلي (ت ٧١٠هـ أو ٧١١) ببابة[٥] من باباته الثلاث، ولصفي الدين الحلي قصيدة تدعى بالقصيدة الساسانية.

ادعى الساسانيون انتماءهم إلى الطبقة الأولى من ملوك فارس، وأن الزمان انحدر بهم وصاروا في عداد السؤال، ثم إنهم في سؤالهم كانوا يلجأون إلى مختلف الحيل، حتى أن صاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧ هـ) يتحدث عن علم بذاته يدعوه «علم الحيل الساسانية».

يتضح لدينا أن بني ساسان هؤلاء مسمى جديد للزط، وفي كتابه عن الفتوة، يعرف ابن المعمار (ت ٦٤٢هـ) الزطي فيقول: «هو المتلصص والقطوى الساساني».

إذا كان الساسانيون أخلافا للزط، فهل هم أسلاف للغجر؟!

نستطيع أن نتوصل إلى هذه النتيجة بتحليل القصيدة الساسانية لأبي دلف، وأبو دُلَف هو مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي (ت حوالي ٣٩٠هـ)، رحالة مشهور وكاتب وشاعر ظريف، وواضح أنه لا ينتمي إلى بني ساسان، لكنه خالطهم، ووصف أحوالهم، واقتبس مفردات من كلامهم، لا نجدها في معجماتنا العربية. والقصيدة الساسانية قصيدة طويلة، انتخب الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) منها مائة وخمسة وتسعين بيتا، ضمنها كتابه يتيمة الدهر وأولها:

جفون دمعها يجرى
لطول الصد والهجر

تتناول القصيدة الحيل التي كان يلجأ إليها هؤلاء الساسانيون، من أجل أن يحصلوا على العطايا والأموال، فهم يسيرون في الطرقات والأسواق يعلوهم التراب، وقد ارتدوا أسمالاً بالية، وحملوا تعاويذ في أعناقهم، أو وضعوا عصابات على وجوههم، ويتعامون أو يدعون المرض أو الجنون، أو أنهم من الزهاد، أو حتى من المجاهدين، وربما ادعوا تعاطي الطب ومداواة المرضى، ومنهم من يعقر نفسه بموسى، أو يزعم أن الروم قطعوا لسانه، أو أنه قطع عليه الطريق وغصب ماله، وقد يقيد نفسه بالسلاسل ثم يفككها، وربما صحب الواحد منهم نساءً وصبية يُكَدِّي (أي يتسول) عليهم، أو يقرد أو يدبب، أو يطحن النوى والحديد بيديه وأضراسه.

الغجـــر

من هذه الألفاظ المشتركة:
كَيْذ: أير. خُشْى: غير الغجرى. جَزارة: عين. سمقون: صبى. كُدَّة: امرأة. مشمول: خبز.
نصل إذن إلى نتيجة هي:
الزط ← الساسانيون ← الغجر.
ولكن متى بدأ استخدام مسمى غجر ومسميات أخرى كنور وحلب؟!

يلوح لنا أن «غجر» مسمى حديث نسبيا، لأن الغين والجيم لا يجتمعان متتاليين فى كلمة عربية واحدة، كما أن هذه الكلمة - وإن صارت دارجة اليوم - لا نشاهدها فى الكتب التى تعود إلى العصرين المملوكى والعثمانى، وربما كان أحمد فارس الشدياق (ت ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٧م) هو أول من ورد عنده هذا التعبير من علماء اللغة العرب.

يذهب الأب أنستاس مارى الكرملى، وهو عالم لغوى عراقى كبير (ت ١٣٦٦ / ١٩٤٧) إلى أن هذه الكلمة، تصحيف للكلمة التركية كوچر وتعنى الرحل أو المهاجرين، ويبدو أن تخريجه صحيح، ويتسق مع ما يذكر عن أن إحدى جماعات الغجر، وفدت إلى مصر من إقليم البغدان، بعد انتصار حققه العثمانيون فى هذا الإقليم فى أواخر القرن السابع عشر.

نستطيع أن نقرر أنه بعد أن وفدت هذه الكلمة مع وفود هؤلاء المهاجرين، صار لها حضورها على المستوى الشعبى، إلى أن تحقق لها الانتشار، فبدأت تتخذ طريقها إلى الكتب.

أما عن النور (وواحدها نورى)، فهى مشتقة من لوريين (وواحدها لورى) أو لوليين (وواحدها لولى)، وتطلق على غجر إيران. وأول ذكر لهؤلاء النور، ورد فى مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ)، ونقله عنه القلقشندى (ت ٨٢١هـ) فى كتابه «صبح الأعشى».

إذا انتقلنا إلى الحلب، فلا نعلم على وجه التحقيق أصل هذه التسمية، ولا نجد فى معاجم اللغة ما يشى بها، وربما دعى هؤلاء الغجر بهذه التسمية، لأنهم انتقلوا إلى مصر من مدينة حلب.

جدير بالذكر أن الجماعات الثلاث: الغجر، النور، الحلب، تعرف جميعها بمسمى عام يجمعها هو غجر، واشتهرت كل واحدة منها - حقا أو باطلا - بنشاط معين تمارسه إلى جانب سائر الأنشطة، فاشتهر الغجر بالرقص، والنور بالسرقة، والحلب بالتسول، وجميعها مهن - إذا جاز التعبير - تدر عائدًا ماديا مجزيا.

وإذا كان الغجر فى أقطار العالم كافة، مارسوا نسقا معينا من المهن، أتينا على ذكرها فى السابق، فإنهم كانوا يكيفون أنفسهم طبقا لظروف كل قطر على حدة. فبينما اشتهروا فى البلقان بترقيص الدببة، فإنهم اشتهروا فى مصر بترقيص القرود، كما أن من جملة المهن التى تفردت بها الغجريات فى مصر كودية الزار وختان البنات.

وثمة مهنة زاولها الغجر فى مصر لعدة مئات من السنين إلى أن اختفت فى غضون القرن التاسع عشر، هى مهنة المشاعلية أو حملة المشاعل، وترد تفصيلات عنها فى بابات ابن دانيال، كما ترد تفصيلات عنها فى كتب التاريخ ابتداءً بالنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ)، وانتهاءً بعجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتى (ت ١٢٣٧ / ١٨٢٢).

تحدد عمل المشاعلى فى حراسة الوالى وهداية التائهين فى الليل، والتسول، وكسح الأفنية، وتجريس المذنبين وضربهم على أقفيتهم، والنداء بأوامر الحاكم ونواهيه، وسلخ جلود الحيوانات، وتنفيذ الحدود فى اللصوص وصلبهم أحيانا، وتجارة الحشيش والنيلة.

وعلى ذكر المشاعلى ووظيفته، فقد درجت الحال فى الريف المصرى، حتى عهد قريب على أن يعهد بمهمة الخفارة إلى خفير من النور، باعتبار أنهم أعرف باللصوص - ومنهم نور - من غيرهم.

وإذا كنا نشاهد فى الغرب صداما عنيفا بين عالم الغجر والعالم حولهم، فإننا لا نشاهد مثل هذا الصدام عندنا، والسبب - كما نذهب - هو أن الهوة لم تكن واسعة بين العالمين فى المشرق، حيث توافر قدر من الحراك الاجتماعى المرن، وهو ما لم يتوافر فى أوروبا قبل عصر الثورة الصناعية، فضلاً عن أن الغجر فى خصائصهم الفيزيقية الظاهرة، لا يختلفون كثيرا عن جيرانهم من أهل المشرق. وقد حاول بعض الدارسين أن يحددوا هذه الخصائص فى مصر، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة.

نضيف إلى ذلك، أن أسلوب الترحل وسكنى الخيام الذى عرفه الغجر، وظل يصاحبهم عبر أحقاب الزمان، عرفته جماعات أخرى غير الغجر، أخصها العربان، مما هيا الفرصة للغجر أو بعضهم، لأن يدعوا الانتساب إلى العروبة، مما كان يفضى فى أحيان كثيرة إلى حجب الصفة الغجرية عنهم.

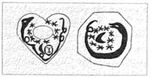
عند انعكاس هذا كله على الغجر تأثر كلامهم - الذى نعرفه باسم السيم - على نحو واضح - وإن كان متفاوتًا - باللغة العربية، مما أدى إلى التباعد بين لغة الغجر (أو لغاتهم) فى مصر وبين لغة الغجر فى أوروبا. واللغة التى تتحدث بها جماعة الغجر هى وحدها - دون لغة النور أو لغة الحلب - أقرب لغات الغجر المصريين إلى الرومنية، وهى لغة الغجر الأوروبيين.

تبقى كلمة أخيرة، هى: إلى أين يمضى الغجر فى عالم يشهد ثورة فى المعلومات، عالم أضحى كقرية كبيرة.

يلوح لنا، بل إنه من المؤكد أن يكون لهذا العالم أثره الواضح وربما الفادح فى نسيج الحياة الغجرية، أما إلى أى مدى، فهذا ما لا نملك إجابة عليه، وربما جاءت الإجابة من علماء المستقبليات Futurology. ■

الهوامش

(١) جرس صغير كناية عن الأغلال.
(٢) نسبةً إلى الكَرج سكان كُرجستان وهى جورجيا الآن، إحدى الجمهوريات السوفيتية السابقة.
(٣) هايدن أحد المسميات الكثيرة للغجر، ويرتبط بالأراضى المنخفضة وما جاورها فى ألمانيا ويعنى وثنيًا.
(٤) العجمة لا يبين صاحبها الكلام.
(٥) أى تمثيلية من تمثيليات خيال الظل.



... وفى مصـــر

■ ■ الاهتمام بدراسة الغجر هو اهتمام بدراسة الجماعات الهامشية داخل المجتمع الأكبر، وهو الاتجاه التقليدى الذى بدأت به الأنثروبولوچيا الثقافية مشوارها، خاصة حين صبت جل اهتمامها على المجتمعات النامية ودول العالم الثالث. وإذا كان الاهتمام بدراسة الجماعات الهامشية مبررًا ومفهوما إذا ما تبنته الدراسات الغربية، حيث كانت الدراسات موجهة إلى إبراز نقاط التفريق والاختلاف؛ حين درست البدو ومجتمعات النوبة والغجر، فإن امتلاك الأنثروبولوچيين الوطنيين ناصية البحث فى بلادهم، تجعلهم يدرسون تلك الجماعة برؤية أخرى وتوجهات تدعو إلى إعادة تكامل هذه الجماعات فى المجتمع الأكبر.

وبدأت دراسات الغجر فى مصر منذ وقت بعيد فى حوالى بدايات القرن السادس عشر، واهتمت هذه الدراسات بوجود الغجر فى مصر، فمثلاً هيمندورف عام ١٥٦٥ قال إنه رأى بين دمياط ورشيد بدوًا أو غجرًا، ولم يكن دقيقا فى وصفه لهم، ثم جاء بولزى عام ١٥٩٨ فأشار إلى وجود غجر فى القاهرة والإسكندرية، بينما سيتزن أشار فى ١٩٠٦ إلى وجود غجر فى المملكة العثمانية وقام بوصف ملامحهم وأعمالهم ومظاهر فقرهم.

وهناك من العلماء من اهتم بأسماء الغجر فى مصر، مثل فيليب وود الذى أطلق عليهم «ججر»، ولين الذى أطلق عليهم غجر أو غچر، ثم مارتن الذى اقترح تسميتهم بالنور.. أما دائرة المعارف الإسلامية، فقد أطلقت عليهم كربات أو غربات.

أما فيما يخص أعداد الغجر فى مصر، فقد أشار الدارسون الأوائل إلى صعوبة إحصائهم، بسبب تهربهم من ضريبة الرءوس، وشك الغجر فى الناس، مما أدى إلى رغبتهم فى تقليل أعدادهم والتنصل من أصلهم. فقد قدر نيوبولد وليلاند فى دراستين عددهم بحوالى ١٧٠٠٠ غجرى، أما ماسينيون فقدرهم بحوالى ٢٪ من السكان.

وقد ركزت بعض الدراسات القديمة على المظهر الفيزيقى للغجر، حيث أشار ليلاند إلى أن الغجر والحلب يتميزون عن سكان مصر من الناحية الفيزيقية، وخاصة النساء منهم. أما كريمر فقد وصفهم بخضار البشرة، وسواد العيون، والشعر الأسود المستقيم، والوشم، وارتداء الأقراط.. كما تعرضت بعض الدراسات إلى وصف المظهر الخارجى والزى، حيث أشارت إلى أن النور - وهم إحدى جماعات الغجر - متميزون، نظرًا لحسن أحوالهم المادية، أما الحلب فهم يشبهون فقراء الصعيد (يشتغلون بالاستجداء). وتعرضت هذه الدراسات إلى هجر ظاهرة الوشم لدى غجر مصر فى ذلك الوقت، وذلك محاولة منهم للتوحد مع المجتمع المحيط والتنصل من أصلهم.

وتشير الدراسات القديمة إلى أن الحجاج بن يوسف الثقفى هو الذى أدخل الزط (الغجر) إلى العراق فى العام السابع الميلادى، وهم يعتبرون أسلاف الغجر، واشتهروا بالسلب والنهب.. وقد أكد نيوبولد فى دراسة له أن أصولهم أجنبية (الهند، وإيران، وبعض مناطق أوروبا). أما كريمر فقد أكد أن نسبهم عربى كما يدعون.. فالحلب أصلهم من اليمن وحضرموت، والنور أصلهم هندى ويتواجدون فى سوريا والأردن وإيران وإسرائيل، وقد اهتم سيتزن فى دراسته التى أجراها عام ١٨٠٦ بتسجيل لغتهم، حيث وجد أنها خليط من اللغة الهندية والعربية.

ومن أهم الدراسات المعاصرة، الدراسة التى أجراها د. نبيل صبحى حنا، وتعد أول دراسة مصرية عن جماعات الغجر فى مصر، واستغرق العمل الميدانى وإعدادها قرابة ست سنوات، ولم تكن تلك الدراسة هى الأولى التى يقوم بها الباحث على المجتمعات الهامشية فى مصر، بل سبقتها دراسته الرائدة لمجتمع بدوى منعزل فى الصحراء الغربية هو جاره أم الصغير.

وقد كانت المهمة الرئيسية لهذه الدراسة:

أولا: تقديم وصف شامل لجماعات الغجر من حيث الأصل والبناء الاجتماعى والنشاط الاقتصادى والثقافى والمعتقدات.

وثانيا: تقديم دراسة متعمقة لأحد المجتمعات كنموذج، ووفاءً للأشخاص الذين أسهموا فى إخراج هذه الدراسة فى صورتها النهائية، أطلق د. نبيل صبحى اسما مستعارا على هذه المنطقة وهو «ست جيرانها».

وقد اهتم صاحب الدراسة بديناميات التكامل الاجتماعى لهذه الجماعات فى المجتمع الأم، وكذلك وصف الجوانب التى تلقى الضوء على طبيعة هذا التكامل؛ حيث اهتم بثلاثة أبعاد أساسية هى البناء الاجتماعى لجماعات الغجر، والثقافة والتصورات الشائعة عن الشخصية، مع مراعاة العامل التاريخى لجماعات الغجر.

كان لاختيار غجر «ست جيرانها» كمنطقة للدراسة، عدة مبررات فنية منها:

* أن غجر «ست جيرانها» يتكلمون لغة غجرية خاصة بجانب اللغة العربية، وينطبق ذلك على أكثريتهم، بحيث تعتبر اللغة لغة جماعة اجتماعية، وليست سيما يرتبط بأفراد يعملون فى مهنة خاصة.

* إن الحرف التقليدية التى يمارسها معظم غجر المنطقة، هى الحرف التقليدية الخاصة بالغجر فى مصر، ويعتبر بعضها حرفًا خاصة بالغجر فى مناطق أخرى من العالم.

* إن الجماعة تمارس الزواج من الداخل على الرغم من وجود حالات قليلة كسرت هذه القاعدة، ولا تتزاوج مع الجماعة المحيطة التى تشترك معها فى مقومات كثيرة.

* ترتبط الجماعة بتاريخ الزير سالم، الذى ترتبط به جماعات أخرى من الغجر فى مصر والبلاد العربية.

* إن غجر «ست جيرانها» يُعرفون فى المنطقة بأنهم غجر، ويطلقون على أنفسهم لفظ غجر، وإن كانوا ينكرون ذلك إذا سألهم أحد الغرباء.

* إن لغجر «ست جيرانها» بعض الخصائص الديموجرافية التى تزكيهم لكى يكونوا نموذجا جيدا للدراسة، فأعدادهم متوسطة ليست صغيرة، بحيث لا تتيح

البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر، دراسة أنثروبولوچية لتأثير البناء والثقافة والشخصية على التكامل الاجتماعى
نبيل صبحى حنا
القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣

لا يتزوجون الغرباء ويلقّبون بالحلب والنور

الفرصة بوجود ظواهر تتطلبها الدراسة، فيقدر عددهم بحوالى ١٠٠٠ غجرى (فى وقت إعداد الدراسة).. كما أنهم منتشرون فى أكثر من مكان، ولهم علاقات مع جماعات محيطة، وهو الأمر الذى يؤدى إلى توافر درجات مختلفة من العلاقات والتكامل مع الجماعات المحيطة. على أن فكرة الانتشار لم تمنع وجود إحساس مشترك لدى غجر ست جيرانها، بأنهم أعضاء مجتمع محلى واحد، فسهولة الاتصال بين قرى المنطقة ووجود العلاقات المشتركة القوية بين الغجر، قد ترتب عليها الإحساس بالجوار النفسى والروحى، وقد ساهمت فى ذلك أيضا روابط القرابة التى تسود بينهم، وهى التى تشكل الحدود الحقيقية للمجتمع المحلى الغجرى.

* إن منطقة «ست جيرانها» تحوى غجرًا من نوعية خاصة، فهم غير مختلطين بجماعات غجرية أخرى كالحلب أو النور، كما أنهم يلتزمون بالتواجد داخل نطاق الإقليم، ويتمثل فيهم قدر من التنوع المهنى، إذ أنهم يعملون فى أكثر من مهنة غجرية تقليدية. كما أنهم مرتبطون أكثر من غيرهم بالمهن التقليدية، ويحتفظون بالخصائص الأساسية للغجر، ولهذا فهم ممثلون لجماعة غجرية نقية.

* اتضح أيضا أن غجر «ست جيرانها» قد حققوا قدرًا من التكامل مع المجتمع المحيط، غير أنه بقيت جَوانب كثيرة من حياتهم لا تقبل التغيير.

* كما اتضح أن مفهوم الغجرى عن نفسه وعن العالم المحيط به، ونظرة الناس إليه تؤثر على العلاقات بين الجماعة الغجرية والمجتمع المحيط.

* بمقارنة جماعة «ست جيرانها» مع جماعات أخرى من الغجر، وخاصة الجماعات الإجرامية، اتضح أن دراسة هذه الجماعة أكثر ضمانا من حيث إمكانية الحصول على المعلومات، فهناك بعض الجماعات الإجرامية التى يبدو من المستحيل الاحتكاك بها احتكاكا مباشرا للحصول على المعلومات.

وقد بلغت أعداد الغجر (وقت إعداد الدراسة) حوالى ٨٥٦ غجريا مستقرا، وهم الذين يقيمون فى «ست جيرانها»، ويعتبرونها موطنهم الأساسى، حتى لو مارس بعضهم الانتقال اليومى إلى خارج المنطقة بهدف العمل.. وهم يقيمون فى القرى، ولا يعيشون فى نجوع العرب بسبب أن نشاطهم المهنى يتطلب الوجود فى القرى أكثر مما يتطلب التواجد فى النجوع البعيدة عن مجال تسويق منتجاتهم، وهم لا يعيشون فى المنطقة التى يعيش فيها البدو ولا يخالطونهم.

أصول الغجر فى المنطقة:

يحاول بعض أهالى المنطقة من غير الغجر، إرجاع أصول غجر المنطقة إلى اليهودية، وفحوى هذا الافتراض أن ست جيرانها هى المنطقة التى عاش فيها يوسف الصديق بعد بيعه فى مصر، وهى المنطقة التى عاش فيها قومه بعده، وقد خرج بنو إسرائيل مع موسى من مصر، ولكن لم يستطع كل اليهود أن يتبعوا موسى وبقية اليهود، نظرًا لأن بعضهم لم يود ترك الأعمال التى ارتبطوا بها مع المصريين، والبعض الآخر كانوا قد تكاملوا مع المجتمع المصرى، وقويت علاقتهم بالمصريين. كما أن فئة أخرى من اليهود لم يكونوا مقتنعين بالخروج من أرض مصر، ربما خوفا من المصير المجهول، وهؤلاء هم البقية المتبقية من اليهود فى منطقة «ست جيرانها»، ونسلهم هم من يعيشون فى المنطقة، ويسمون بالغجر. ويحاول أصحاب هذا الرأى التدليل عليه بقولهم: إن الغجر يتصفون بما يتصف به اليهود. فالغجرى يحاول إخفاء تميزه، وهو قوى فى داره، ولكنه يتصف بالضعف بعيدًا عن مكان استقراره، وهو دائما يحاول تملق الآخرين والتظاهر بالتقرب إليهم لكى يتمكن من الحياة بينهم. على أن هذا الرأى لا يمكن قبوله مادام أنه غير مدعم بأسانيد علمية وشواهد تاريخية واجتماعية.

أما الغجر أنفسهم فى «ست جيرانها»، فهم يحاولون ربط تاريخهم بفترة حكم محمد على، وبنظام الالتزام، ويقول الغجر إنهم كانوا فى ذلك الوقت يمتلكون الأراضى ويزرعونها، وعندما هربوا وتركوا أراضيهم، بدأوا يتعلمون مهنًا جديدة، وهى التى يرتبطون بها حتى الآن. ولكن ليس لهذا الرأى ما يؤيده أيضا، إذ إنه يثير تساؤلات عديدة أهمها: لماذا يحتقر الغجر العمل الزراعى ومن يعملون فيه احتقارا شديدا، إذا كانت مهنتهم الأصلية هى الزراعة والعمل فى الأرض؟

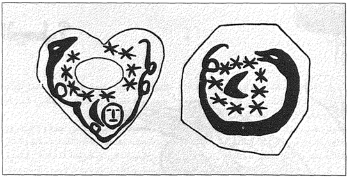
وهناك بعض العوامل التى ساعدت على استقرار الغجر فى تلك المنطقة أهمها:

* ملاءمة البيئة الطبيعية وطابع الحياة الريفية للأعمال التقليدية للغجر، مثل أعمال الحدادة والسمكرة البسيطة التى تتناسب مع احتياجات الريفيين، كذلك فإن تربية الفلاحين والبدو فى المنطقة للأغنام، شجع الغجر الذين يعملون فى جز وغزل الصوف على الاستقرار فى ست جيرانها.

* تشابه طبيعة المنطقة وظروف المعيشة فيها مع المناطق التى كانوا يعيشون فيها، حيث إن معظم الأسر تنتمى أساسا إلى محافظتى بنى سويف والفيوم.

وعمومًا فإن غجر «ست جيرانها»، غجر مستقرون ومرتبطون بالمنطقة، فهم يسكنون بيوتا يستأجرونها، أو يملكونها ويشعرون بالانتماء إلى المنطقة، وحتى مجموعة الأسر القليلة التى تنتقل موسميا بين قرى المركز، فإن ارتباطها بالإقليم ارتباط قوى.

يحرص البدوى على الزواج من غجرية، ويظل الغجر وغير الغجر على السواء، غير موافقين على تخطى هذا الحاجز (إلا أن الدراسة رصدت ١٩ حالة زواج بين الغجر وغير الغجر). وينتشر فى المنطقة أيضا، الزواج بين من يعملون فى مهنة واحدة، ومنها حالات الزواج التى تربط بين أسر الحدادين فى بعض القرى.. كما تبدو القرابة أيضا ذات تأثير قوى.



ومن المعتقدات التى تميز الغجر هى اعتقادهم فى الجن والعفاريت، فهم يعتقدون أن الشخص يمكن أن تلبسه روح أو جن، وعادة ما يُلبس الرجال بأرواح مؤنثة، ويطلق عليها جنية، كما يعتقدون أن وجود الشخص فى أماكن خربة أو خالية فى الظلام، يمكن أن يؤدى إلى أن يلبس الشخص بهذه الأرواح.. كما يعتقدون أيضا فى الحسد عن طريق العين الشريرة، وعن طريق عملية «العد»، حيث ترفض بعض الغجريات كبيرات السن، أن تحدد عدد أبنائها عندما تُسأل عن ذلك، اعتقادًا أن الحسد والعد يُعد سببا فى الوفاة. والغجر يعتقدون أيضا فى «الوحمة»، فالأم التى تشتهى بعض الأكلات أثناء فترة الحمل ولا تأكلها، تظهر هذه الأكلات على شكل وحمة فى بعض مناطق جسم المولود.

أما بالنسبة للثقافة المتعلقة بالمهن والحرف، فقد أوضحت الدراسة أن لهم مصطلحات وتعابير خاصة بمهنهم التقليدية، وهى تعتبر ثقافة خاصة بهم وقاصرة عليهم، حيث يستخدم أصحاب المهنة الواحدة بعض الكلمات التى تدل على معان لا يعرفها إلا من يعملون فى نفس المهنة.

والغجر لديهم لغة خاصة بهم، على الرغم من أنها ليست لغة التخاطب اليومى، إلا أنها تستخدم فى مواقف خاصة ولأهداف محددة، فإنها تستخدم كأداة فعالة للتفرقة بين الغجر وغير الغجر فى هذه المواقف.

وبالنسبة لمجال الممارسات الثقافية بشكل عام، فإن التشابه هو السمة المميزة لما يقوم به الغجر وغير الغجر، ولكن مع وجود هذا التشابه، فمازالت جوانب من هذه الممارسات مقصورة على جماعة دون غيرها، فعلى سبيل المثال، إذا اشترك غير الغجر فى أفراح الغجر التى تماثل فى ترتيبها أفراحهم، فإنهم يظلون على هامش الاحتفال بالمناسبة، لا يشتركون فى عملية دفع النقوط، طالما هى ممارسة تهدف إلى التساند الاجتماعى والمادى بين أعضاء الجماعة الغجرية فقط.

وخلاصة القول، أن الغجر لهم جماعات أساسية هى الغجر والحلب والنور، كما أن هناك جماعات شبه غجرية مثل الغوازى والمشاعلية والرمادية والسماعنة. ومن الخصائص والسمات التى تميز الغجر، أن لهم لغة خاصة هى السنسكريتية (هندية - أوروبية)، أو لغة سرية اسمها (بتيران).. ومن أمثلة مفردات هذه اللغة:

بيانو، صد: اسكت

حوچى: غير الغجرى

خشنى: المغفل (ويقصدون بها غير الغجرى)

بتوكه: الفلوس

الراتى: الظلمة أو الليل

اللهمان: البوليس

يكيف الشاى: يعمل الشاى

يكيف المرعو: يصطاد السمك

البرء: الست

أشفور: فقير

اللى يفشلك: اللى عندك

ومن الأمثلة الشعبية التى جاء فيها ذكر «الغجر»، الغجرية «ست جيرانها»، و«كل حارة ولها غجرى»، و«ألف نورى ولا دمنهورى».

الصورة النمطية للغجر:

والتصور النمطى السائد عن الغجر ،أنهم ياتون أفعالا غريبة لا يمكن تفسيرها إلا فى ضوء مفاهيم الانحراف، وبالتالى فالغجرى شخص منحرف. ومن أهم الظواهر التى يذكرونها أن عادة حرق النقود تنتشر بين الغجر، ويفسرونها بأن الغجر يحصلون على المال بسهولة (عن طريق السرقة وغيرها)..

ومن الصور الشائعة عن الغجر أيضا، أنهم ملعونون ومن أصول غير طبيعية (حام بن نوح)، وأنهم سحرة، ويأكلون لحوم البشر ويخطفون الأطفال، ويجلبون القاذورات، وفاسدو الأخلاق، وموضع تسلية وترفيه عند الناس.

ومن عوامل احتقار الآخر للغجر بشكل عام، سواد البشرة، وغموض اللغة، وعدم وجود ديانة معينة لهم. وتتمثل ردود أفعال الغجر تجاه هذا الاحتقار، فى تحولهم إلى السلب والنهب والجريمة والاحتيال وسكنى المناطق الهامشية.

والدليل على هذه الصورة، أن كلمة غجر أو غجرى التى تشيع بين الشعب المصرى، تستخدم لوصف الشخص الذى يتكلم بطريقة غير مهذبة، فيقال: «إنت غجرى»؟ و«ماتغجرش»، وتستخدم كلمة غجر ومشتقاتها كنوع من السب، مثلما يقال، «آه يا غجر»، لأى جماعة تاتى أفعالا غير لائقة.. وحتى بالنسبة للغجر أنفسهم، فإنهم يستخدمون كلمة «غجرى» لوصف أعضاء الجماعة بصفات غير مرغوبة، فعندما ياتى شخص غجرى أفعالا غير لائقة، أو يعد بشىء ولا يفى به، فيقال حينئذ: «أصله غجرى»، وبالنسبة للجماعة ككل يقال: «أصلهم غجر». ■

نهلة إمام

الخطـــــر القــــــادم

نقـــص الميــــــــاه

أم التفوق الاستراتيجى لإســــرائيل؟

عبدالعظـــيم حمـــــاد

على كثرة ما كتب وقيل حول أزمة المياه العـذبة فى الشرق الأوسط طوال الأعوام العشرين الماضية فى المنطقة، وفى العالم فإن هناك جانبا من جوانبها لم يحظ بعد بالاهتمام الكافى واللازم، ويتمثل هذا الجانب فى المعنى الواجب استنتاجه من أن الوعى الجماهيرى أو العام بوجود هذه المشكلة، وتعبئة الجهود السياسية والبحثية لإيجاد حلول لها، ارتبط بتحول الصراع العربى الإسرائيلى من نزاع مسلح إلى عملية بحث عن تسوية سلمية شاملة ودائمة.

فقد كان من النادر قبل الثمانينيات من القرن الماضى أن يتحدث أحد فى المنطقة أو خارجها عن أزمة مياه، فضلا عن أن يتحدث عن حروب مياه متوقعة، كما يحدث حاليا، ويصل إلى حد النص القاطع على أن هذه الأزمة ستكون السبب الوحيد، وليس الرئيسى فقط للحروب فى الشرق الأوسط وتخومه فى المستقبل القريب، ونحن نعرف أن عملية السلام العربية الإسرائيلية بالطريقة التى تصنع بها الآن كانت قد بدأت باتفاقات كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل تحت الرعاية الأمريكية فى عام ١٩٧٨.

ماهو المعنى الذى قلنا إن من الواجب استنتاجه من ذلك الارتباط؟

سوف يتبادر إلى الأذهان أن الحديث عن مشكلة المياه فى الشرق الأوسط، والبحث عن حلول لها فى سياق عملية السلام العربية الإسرائيلية هو جزء لايتجزأ من خطط التعاون الإقليمى بعد الوصول إلى التسوية السياسية، ولكن المسألة أعقد من هذا الافتراض المباشر والمريح للمدافعين عن مفهوم التعاون الإقليمى الشرق أوسطى، إذ إن الاتجاه الغالب فى تشخيص المشكلة ورسم الحلول ينطوى على مغالطتين كبريين، سوف يؤدى التسليم بهما إلى مخاطر لاسبيل إلى تداركها على مستقبل الوجود السياسى العربى، وهاتان المغالطتان متكاملتان وظيفيا بمعنى أن كلا منهما تكمل الأخرى لدفع الوعى الجماهيرى، والجهود الرسمية فى الاتجاه الذى نخشى منه، والمغالطتان هما:

١ - تغيير المفاهيم والقواعد الحاكمة لأنماط توزيع المياه بين دول المنطقة، وبين هذه الدول ودول الجوار.

٢ - المبالغة فى تغليب منهج الصراع على منهج التعاون فى التنبؤ بالمستقبل، بهدف محدد هو تمرير ذلك التغيير فى المفاهيم والقواعد بسهولة، خوفا من الصراع المحتمل حول مورد هو بطبيعته أهم للوجود الإنسانى من أى مورد آخر، وهو فى ظروف الدول العربية بالغ الحساسية، بما أن أكثر من ٦٥٪ من موارد المياه العربية يأتى من خارج الحدود.

ولنبدأ برصد معالم ونتائج التغيير الذى يجرى الآن فى المفاهيم والقواعد المطبقة على توزيع المياه، أول وأخطر هذه المعالم هو تبنى كل من تركيا حيث ينبع نهر الفرات ودجلة المتدفقان أيضا إلى كل من سوريا والعراق، وإثيوبيا حيث ينبع النيل الأزرق الرافد الرئيسى للنيل المتدفق إلى السودان ومصر لنظرية أو مفهوم النهر العابر للحدود، بدلا من نظرية النهر الدولى «قديما» وحوض التصريف الدولى «حديثا» ومع أن نظرية النهر العابر للحدود ظلت دائما نظرية مرفوضة من أغلب فقهاء القانون الدولى فى الماضى فإنه قد قضى عليها تماما فى مشروع اتفاقية الأمم المتحدة لقانون الاستخدامات غير الملاحية للمجارى المائية الدولية، وهى اتفاقية إطارية وقعت بالأحرف عام ١٩٩٧، وسوف تدخل حيز التنفيذ عندما تصدق عليها ٣٥ دولة عضو فى الأمم المتحدة، فقد اعتبرت هذه الاتفاقية كل مجرى مائى يمر فى دولتين أو أكثر أو بين



دولتين أو أكثر مجرى مائيا دوليا، ولم تستخدم قط تعبير نهر عابر للحدود، ومع ذلك فإن تركيا من أكبر مسئول وحتى أصغر باحث فيها لا تعرّف أيا من نهرى دجلة أو الفرات إلا بوصفه نهرا عابرا للحدود بل إن الإدارة المختصة بالنهرين فى وزارة الخارجية التركية تسمى بإدارة المياه العابرة للحدود.

والنتيجة المترتبة على هذا المفهوم هى اعتبار مياه الفرات ودجلة المتدفقة من روافده فى الأراضى التركية مياها تركية خالصة، أو موردا قوميا تركيا، وليس ثروة مشتركة مع كل من سوريا والعراق، ومن ثم تخضع هذه المياه ونسبتها فى حالة الفرات تصل إلى ٨٨,٧٪ من جملة مياهه، و٦٠٪ فى حالة دجلة، إلى حقوق السيادة التركية المطلقة، أوكما عبر الرئيس التركى السابق سليمان ديميريل عندما كان رئيسا للوزراء بقوله: إذا كان هذا المورد الطبيعى للمياه فى بلادنا، فلنا الحق المطلق فى استعماله بالطريقة المناسبة لنا، وليس لسوريا أو العراق أية حقوق فى المياه التى تنبع من تركيا.

ويترتب على التمسك بالسيادة المطلقة على منابع الفرات ودجلة ليس فقط إنكار الحقوق المكتسبة لكل من سوريا والعراق، ولكن أيضا إقرار حق تركيا فى الانفراد باستخدام هذه المياه إلى حد تخزينها وبيعها وحرمان السوريين والعراقيين منها إذا سار هذا المنطق إلى نهايته.

والحقيقة أيضا هى أن مبدأ الحقوق المكتسبة للدول الواقعة فى حوض النهر الدولى هو مبدأ ثابت فى جميع نصوص ومصادر القانون الدولى، بما فى ذلك اتفاقية الأمم المتحدة الجديدة، والخلاصة فى هذه النقطة هى أن تركيا تنكر ما هو ثابت، وتتمسك بما ليس له أصل بتاتا فى القانون الدولى لكى تغير من نمط توزيع مياه الفرات ودجلة بينها وبين كل من سوريا والعراق.

أو فى أى حكم قضائى دولى، أو فى أى مصدر آخر من مصادر القانون الدولى.

بعد انتهاء المناقشة ، وكانت فى جلسة عامة انتحى بى الدكتور باجيش جانبا، وقال إنه يدرك الوضع الخاص لمصر بالنسبة للنيل، وأنه يقترح عدم المقارنة بين أهمية النيل لمصر، وأهمية الفرات ودجلة لسوريا والعراق، فمصر تعتمد على النيل اعتمادا مطلقا، ولكن سوريا والعراق ليستا كذلك بالنسبة للفرات ودجلة، لأن لديهما مصادر أخرى للمياه، ثم أضاف أنه أيضا لايمكن مقارنة تركيا القادرة اقتصاديا وتكنولوجيا على إقامة مشروعات مائية بإثيوبيا غير القادرة على ذلك عمليا فى منابع النيل، وهنا أيضا اختلفت مع رئيس مركز أبحاث المياه والاستراتيجية التركى، متسائلا: ما الذى يمنع نظريا أن تكتسب إثيوبيا القدرة الاقتصادية والتكنولوجيا على إقامة مشروعات على النيل تماثل المشروعات التركية على

أيضا تعتبر المياه موردا قوميا لابد أن يخضع لشروط التبادل التجارى.

كان هذا التغيير المفتعل فى الإطار القانونى لتوزيع مياه النيل ودجلة والفرات ، مضافا إلى زيادة الطلب على المياه فى الشرق الأوسط الذى يعانى فى معظمه من قلة المعروض عن المطلوب هو المدخل لاستحداث أعراف جديدة حول المياه فى المنطقة، وهذا هو نمط التغيير الثانى والمهم فى قواعد ومفاهيم توزيع المياه فى المنطقة.

وبدلا من ترويج مفهوم التعاون البرئ لزيادة موارد المياه من مصادرها المختلفة بين دول الحوض الواحد فى إطار قواعد القانون الدولى، اخترعت الأدبيات والسياسات الأجنبية خاصة الأمريكية والصادرة عن البنك

١٩٧٩ ، وكان أولوزوروف يشغل من قبل منصب نائب مدير هيئة المياه الإسرائيلية.

وعلى الرغم من أن مصر نبذت نهائيا هذه الفكرة منذ أواخر أيام السادات، ثم نجحت فى إبقاء قضية مياه النيل خارج المفاوضات متعددة الأطراف للسلام فى الشرق الأوسط التى تضم لجنة للمياه بين لجانها الرئيسية ، فإن إسرائيل لم تتخل قط عن حلمها القديم، فعاد بنيامين نيتانياهو رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق مباشرة وكلف هيئة المياه الإسرائيلية بإعداد دراسة عن تكلفة نقل نسبة ١٪ من مياه النيل سنويا إلى إسرائيل.

وكما لاحظنا فإن إسرائيل الحليفة الاستراتيجية لتركيا، والعاملة بنشاط فى إثيوبيا تسعى إلى تقويض مفهوم الملكية الوطنية للمياه، فى حين أن كلا من تركيا وإثيوبيا تحاولان تكريس هذا المفهوم المخالف للقانون الدولى، فكيف نفسر هذا «اللغز» فى ضوء ما هو ثابت من تعاون بين إسرائيل وكل من هاتين الدولتين فى مجال المشروعات المائية؟

التفسير المقبول هو أنه بغض النظر عن الاختلاف فى التفاصيل فالمطلوب هو تغيير القواعد المعمول بها، ولا بأس من أن تأتى الأفكار الأمريكية وأفكار البنك الدولى لتقدم حلا لهذا التناقض عن طريق إنشاء بنك وبورصة المياه فى الشرق الأوسط، بحيث تقبض دول «الملكية» ثمن تصدير المياه للدول التى شاءت «المصادفات» الجغرافية أن تحرمها من المياه على حد تعبير البروفيسور الإسرائيلى فيشزون.

خريطة المياه فى الشرق الأوسط حافلة بالمصادفات الجغرافية، وهذه الظاهرة تقوض مفهوم الملكية وشرعية الاستخدام المحلى للمياه، وتفرض الحاجة إلى اتفاق لنقل المياه إلى المناطق التى لم تشأ المصادفات أن تمنحها إياها

البروفيسور الإسرائيلى جدعون فيشزون

وأذكر بهذه المناسبة أننى دخلت فيما يشبه المناظرة مع الدكتور على إحسان باجيش رئيس مركز أبحاث المياه والاستراتيجية فى أنقرة حول هذه النقطة فى مؤتمر بحثى دولى عقد فى فبراير الماضى بالقاهرة، فقد أراد الدكتور باجيش أن يطمئن الحاضرين من سوريا والعراق على حسن نيات تركيا حيال البلدين فى مسألة المياه، فقال إن بلاده تعى وعيا كاملا أن نهرى الفرات ودجلة هما نهران عابران للحدود، وأنها سوف تستمر فى إطلاق المياه للدولتين عبر هذه الحدود، وكان ردى عليه هو أن الخطر الحقيقى لايكمن فى التدابير والمشروعات التى تطبقها تركيا حاليا فى أعالى النهرين، وإننى أستطيع الاعتراف بأن الحكومة التركية التزمت تقريبا بإطلاق الكميات من المياه المتفق عليها مع سوريا والعراق عام ١٩٨٧ فى ذروة الأزمة المترتبة على ملء خزان أتاتورك، ولكن هذا الخطر الحقيقى يكمن فى تغيير المفاهيم والقواعد بطريقة تجعل المستقبل محفوفا بالمخاطر، ليس فقط فى حوض الفرات ودجلة، ولكن أيضا فى حوض النيل، لأنه إذا راجت نظرية النهر العابر للحدود، ومايترتب عليها من إقرار مبدأ الملكية القومية لمنابع الأنهار الدولية، فماذا سيمنع إثيوبيا وأوغندا فى المستقبل من تطبيق المعايير نفسها على منابع النيل، وخصوصا أن شيئا من هذا قيل بالفعل.

وفى هذه المناقشة طلبت من جميع أساتذة القانون الدولى المشاركين أن يجيبوا عن سؤال ما إذا كان القانون الدولى يعرف شيئا اسمه نهر عابر للحدود، وقد أجمع الأساتذة على عدم وجود مثل هذا التعريف فى أى معاهدة دولية،

الفرات، ولو بعد مائة سنة أو حتى ألف سنة؟ وهل كون تركيا قادرة على إقامة مثل هذه المشروعات الآن يكفى لتغيير قواعد القانون الدولى على هذا النحو الاستثنائى الصارخ، الذى يجعل من تركيا هى الدولة الوحيدة القائلة بنظرية النهر العابر للحدود.

فى اليوم التالى لهذه المناظرة لم يكذب المندوب الإثيوبى فى المؤتمر الخبر، وقال بوضوح إن إثيوبيا لا تعبأ بما يسمى بالأمن المائى العربى ، وأن لها الحق فى استخدام «مياهها» المتدفقة إلى النيل الأزرق كما تشاء، وهى لن تقبل أن تبقى إلى الأبد مصدر ٨٥٪ من مياه النيل ثم لايكون نصيبها من هذه المياه سوى ١٪ .

وبغض النظر عن أننا سواء بصفتى الشخصية أو بفهمى للسياسة المائية المصرية لانعترض على حق إثيوبيا فى الاستفادة بمياه النيل إلى أقصى حد ممكن فى إطار التعاون بين جميع دول الحوض لزيادة موارد النهر، فإن ما يجب أن يستوقفنا هنا هو الحديث عن مياه النيل الأزرق بوصفها ملكية إثيوبية خالصة، وليست ثروة مشتركة مع السودان ومصر، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى إزاء ذلك المفهوم الجديد والخطير.

أما أوغندا فقد مضت ذات مرة أبعد من ذلك، فطالبت فى أحد اجتماعات مجموعة تكونيل، وهى منظمة فنية بين دول حوض النيل، كلا من مصر والسودان بدفع تعويضات مالية لها نظير قيامها بدور المخزن الطبيعى لمياه النيل، حيث تقع فى أراضيها البحيرات الاستوائية التى ينبع منها النيل الأبيض، وهذا يعنى أن أوغندا

الدولى مفاهيم جديدة كلية مثل تسعير المياه، وبورصة المياه، وإنشاء بنك مائى، غير أن البداية كانت فى إسرائيل.

مثلا يشير البروفيسور جدعون فيشزون فى تقديمه لكتاب «الماء والسلام.. وجهة نظر إسرائيلية» إلى أن خريطة المياه فى الشرق الأوسط حافلة بالمصادفات الجغرافية، وهذه الظاهرة تقوض مفهوم الملكية وشرعية الاستخدام المحلى للمياه(لاحظ التناقض مع استمساك تركيا وإثيوبيا بمفهوم الملكية) وتفرض الحاجة إلى اتفاق لنقل المياه إلى المناطق التى لم تشأ المصادفات أن تمنحها إياها.

وليست هذه الفقرة إلا مثلا واحدا على عشرات المحاولات الإسرائيلية لتغيير أعراف قسمة المياه فى الشرق الأوسط، غير أنها تشكل الأساس النظرى لتلك المحاولات، وإضافة إليها هناك حجج أخرى بعضها اقتصادى، وبعضها الآخر سياسى، فمثلا يقول اليشع كالى ـ أشهر المهتمين بقضية نقل مياه النيل إلى إسرائيل ـ إن مصر تبدد ١٠ مليارات من الأمتار المكعبة من المياه فى البحر المتوسط ، وسوف تكسب إذا باعتها إلى إسرائيل المستعدة لشرائها لأن المزارع الإسرائيلى يستطيع أن ينتج بالكمية نفسها من المياه تسعة أضعاف ما ينتجه المزارع المصرى بها من القطن.

وقد ثبت الآن أن الرئيس الراحل أنور السادات لم يتطوع بعرض نقل مياه النيل إلى إسرائيل، وإنما كان يترجم خطة عرضها عليه الخبير الإسرائيلى شاؤول أولوزوروف خلال مفاوضات السلام المصرية ـ الإسرائيلية عام

ولنلقى الآن نظرة سريعة على تلك الأفكار التى تحولت إلى مشروعات، ففى الوقت الذى كان يروج فيه فريق جامعة هارفارد الأمريكية ، ومركز واشنطن للدراسات الاستراتيجية برئاسة جويس ستارا ـ وهذا أيضا اسم مهم فى قضية المياه فى الشرق الأوسط ـ لمفهوم الكارثة المقبلة فى المنطقة بسبب نقص المياه، أصدر البنك الدولى تقريره المعروف باسم «من الندرة إلى الأمان» عام ١٩٩٧، ويرسم هذا التقرير إطارا عاما لسياسة طويلة المدى لإدارة عرض المياه والطلب عليها فى الشرق الأوسط، ويقرر أن الأسلوب الأمثل هو إقامة سوق عالمية وإقليمية للمياه، وهو نموذج تبنته أيضا جامعة هارفارد.

وتظهر خطورة هذا النموذج فى أنه يلبى احتياجات كل من تركيا وإثيوبيا وإسرائيل على حساب الحقوق التاريخية المكتسبة للدول العربية فى أحواض النيل ودجلة والفرات، وبحيث يكون الحل الوحيد لتجنب الحروب حول المياه هو اضطرار الدول العربية لقبول نقل خزين مياهها لإسرائيل فى إطار صفقات شاملة تضرب عرض الحائط بقواعد القانون الدولى، وإلا تعرضت هى نفسها لانتقاص حقوقها المائية، ويكون مقتضى هذه الصفقات دخول إسرائيل فاعلا أصيلا فى مشروعات تنمية موارد الأنهار الكبرى فى المنطقة من خلال تحالفها المائى مع دول المنابع، التى ستلتزم فى هذه الحالة بالربط بين نقل المياه لإسرائيل، وبين التعاون مع دول الممرات والمصبات(سوريا والعراق والسودان ومصر) لزيادة الموارد المائية للأنهار.

نأتى إلى المغالطة الثانية أى: المبالغة فى تغليب منهج الصراع فى المستقبل، يلفت النظر أن الفكر السياسى التركى حول موضوع المياه لم يكن يؤمن بالصراع قبل أن تقفز الخطط الإسرائيلية والأفكار الأمريكية إلى السفينة، ففى ١٨/١/١٩٩٠ قال الرئيس التركى الراحل تورجوت أوزال: «إن الشائعات المتواترة عن إمكان نشوب صراع

«إذا كان هذا المورد الطبيعى للمياه فى بلادنا، فلنا الحق المطلق فى استعماله بالطريقة المناسبة لنا، وليس لسوريا أو العراق أية حقوق فى المياه التى تنبع من تركيا»

سليمان ديميريل الرئيس التركى السابق

«إثيوبيا لن تقبل أن تبقى إلى الأبد مصدر ٨٥٪ من مياه النيل ثم لايكون نصيبها من هذه المياه سوى ١٪» المندوب الإثيوبى إلى مؤتمر المياه الذى عقد بالقاهرة (فبراير ٢٠٠٠)



بين تركيا وجيرانها بسبب المياه تعبر عن رؤية خاطئة ومضللة، ولايمكن قبول الزعم القائل بان سد أتاتورك ستكون له تأثيرات سلبية فى سوريا والعراق، لأنه على العكس من ذلك سيكون مصدر رخاء وازدهار لكل من البلدين».

المعروف أن أوزال كان يتبنى سياسة الانفتاح على الدول العربية، وكان من أقل الساسة الأتراك ارتباطا بإسرائيل، وكان أيضا ملتزما بالتعاليم الإسلامية فى حياته الخاصة، ومما له دلالة أن مشروعات تركيا المائية الحديثة بدأت خلال رئاسته للحكومة التركية، وإذن ففى حدود المصالح التركية الذاتية لايوجد ما يدعو إلى تبنى نموذج الصراع مع سوريا والعراق حول مياه الفرات، ولكن ذلك ليس هو المطلوب لتمرير الصفقات السابق الإشارة إليها لتغيير جميع القواعد والمفاهيم والأعراف وفى توزيع مياه الشرق الأوسط من أجل تلبية مطلب نقل المياه إلى المناطق التى «شاءت مصادفات الجغرافيا حرمانها منها»، أى إسرائيل.

وعلى الرغم من محاولة أوزال مبكرا - أى فى سنة ١٩٩٠ - دحض فكرة الصراع، فقد توالت الكتابات والجهود التى تقودها مراكز الأبحاث والمؤسسات الجامعية والسياسية الأمريكية لتكريس مفهوم حروب المياه فى المنطقة، ثم جاء بعد ذلك تقرير البنك الدولى المشار إليه.

وقد أشرنا فيما سبق، إلى دور مركز واشنطن للدراسات الاستراتيجية ورئيسه جويس ستار ودور جامعة هارفارد ونشير الآن إلى مؤسستين أخريين هما المخابرات المركزية الأمريكية، وصحيفة «هيرالد تريبيون» الدولية.

فى أواخر عام ١٩٩٣ نشرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقريرا حددت فيه عشر مناطق فى العالم ستشهد صراعات ومواجهات حول المياه، ومعظمها فى الشرق الأوسط، وحدد التقرير ٣ مستويات للخطورة كما يلى:

١- مناطق مرشحة للحرب بسبب المياه هى الأردن وفلسطين وإسرائيل.

٢- مناطق محفوفة بالمخاطر، وقد تكون فى دائرة الخطر الفعلى وهى حوضا دجلة والفرات والخليج العربى.

٣- مناطق توترمائى مرشح للدخول فى دائرة الخطر خلال ٢٠ أو ٢٥ عاما وهى مصر والسودان.

المؤسسة الثانية: هى صحيفة «هيرالد تريبيون» الأمريكية التى نجحت بمساعدة حكومية وبالتعاون مع الحكومة التركية سنة ١٩٩٧ (وكانت الأوضاع السياسية فى تركيا قد تغيرت على حساب الانفتاح على الدول العربية)، فى عقد مؤتمر «مياه العالم» فى اسطنبول فى شهر سبتمبر من ذلك العام، وشارك فى هذا المؤتمر البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وهيئات المعونة الأمريكية والأوروبية والكندية، وقد أقر هذا المؤتمر نموذج السوق الدولية للمياه، وأوصى بتعبئة الموارد المالية لتمويل مشروعات المستقبل.

نعم هناك مشكلة مياه فى الشرق الأوسط تتمثل فى انخفاض متوسط نصيب الفرد من المياه عن المعدلات العالمية، وتنتج عن وقوع المنطقة فى الإقليم المناخى الجاف أو شبه الجاف، وعن النمو السكانى المتزايد، لكن هذا شىء، وطرق المعالجة المطروحة شىء آخر، فالطبيعى هو أن تتعاون دول الحوض الواحد أولا فى تنمية موارده، وكان هذا هو السائد كما رأينا فى تصريح الرئيس التركى الراحل أوزال.

كما أن هذا هو السائد فى الفكر السياسى المصرى والسورى والعراقى حول الماء، حتى ظهرت محاولات تغيير القواعد، لاستحداث نماذج ضاغطة فى المقام الأول على الدول العربية، وتلبى أيضا فى المقام الأول احتياجات إسرائيل، وهذا هو الخطر الحقيقى لأنه يتكامل مع أخطار أخرى على الوجود العربى مبعثها إسرائيل وقدراتها الفائقة على توظيف موازين القوى الدولية والإقليمية لمصلحتها.

وفى النهاية ثمة سؤال يلح على الذهن: هل التركيز المبالغ فيه على حروب المياه فى الأدبيات السياسية الأمريكية وصداه فى المنطقة هونموذج آخر من تطبيقات اختراع عدو جديد يحل محل عدو قديم، مثلما قيل فى الغرب إن الإسلام هو العدو بعد زوال الشيوعية، أو مثلما تردد عن صراع الحضارات؟

والمعنى هل تصلح عقيدة الصراع على الماء لملء الفراغ الذى سينجم عن غياب الصراع العربى - الإسرائيلى بعد تسويته بحيث يجد العرب عدوا بديلا عن إسرائيل؟!

وثمة سؤال آخر يتفرع عن السؤال السابق: هل الخطر الحالى على الأمن القومى العربى هو نقص المياه، أم الحياة تحت مظلة التفوق الاستراتيجى الإسرائيلى الشامل دون وجود نظام للأمن الإقليمى يفرض على إسرائيل ما يفرض على الآخرين فى المنطقة؟



مراجع

١. المياه العربية وتحديات القرن ٢١، مركز دراسات المستقبل جامعة أسيوط، ١٩٩٩.

٢. قضايا المياه بين تركيا وسوريا والعراق، وزارة الخارجية التركية، إدارة المياه الإقليمية والعابرة للحدود، أنقرة مايو ١٩٩٧.

٣. المشكلة الأزلية، المياه فى الشرق الأوسط، أشوك سواين، وآل جى فينتر، تعليق عبدالعظيم حماد، المركز العربى للدراسات الاستراتيجية، القاهرة.

٤. المياه مصدر للتوتر فى القرن ٢١، د. محمود أبوزيد، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة ١٩٩٨.

طـــــارق البشــــرى

مشروع النهضة المصرية ١٩١١

أهم حدث سياسى وَحّد الأمة

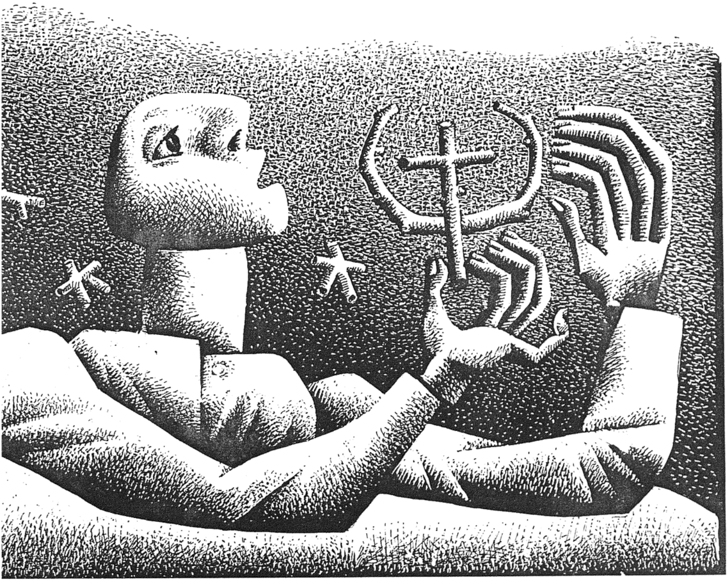
■■ يكاد يكون الذكاء قيمة بذاتها، لولا أن ضرورات الجماعة توجب أن يكون مسخرًا لخيرها. والذكاء قوة، وسعى المرء لخير جماعته أمانة، والقرآن الكريم أوصانا عندما نستأجر أن نستأجر القوى الأمين.

أقول ذلك لأنه كثيرا ما صادفنى وأنا أتصفح أوراق التاريخ المصرى الحديث، وثائق أو عبارات أو أفعال، فيستوقفنى الانبهار من الذكاء الآدمى الذى تدل عليه، والذى صدرت عنه. وقد لا أكون متفقا تماما مع ما تضمنته الوثيقة من وجهة نظر، ولكن تحفظى لا يقلل كثيرا من إعجابى بهذا الذكاء وسعة الحيلة، ولا ينفى لدى شعورا خفيا بالفخر الجماعى بأننى أنتمى إلى هؤلاء القوم، وبالثقة بأننا سنكون قادرين إن شاء الله على تجاوز ما نصادف من صعوبات حاضرة فى زماننا هذا، الذى نحياه فى مفتتح القرن الواحد والعشرين.

من هذه الوثائق مثلا، ما عرف فى تاريخنا الحديث باسم «برنامج الحزب الوطنى القديم». وكان ألفريد بلنت تلقاه من جملة من الزعماء وقتها، منهم محمد عبده، ومحمود سامى البارودى وأحمد عرابى.

وما يلفت النظر فى هذا البرنامج هو الصيغة السياسية بالغة الدقة والتوازن التى صيغ بها، والإدراك الدقيق متعدد الجوانب لمجمل القوى السياسية الخارجية والداخلية التى تحيط بما يمكن أن يسمى وقتها «المسألة المصرية»، والأهداف الواقعية المتوازنة التى رسمها البرنامج بمراعاة التوازنات القائمة.

وأول توازن يشير إليه البرنامج، هو



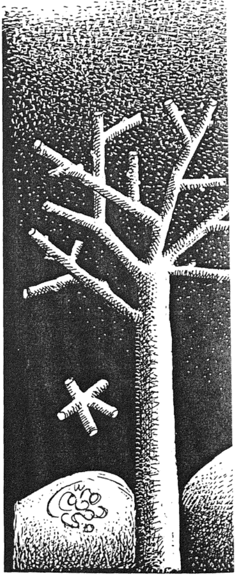
الإقرار بصلة مصر بالدولة العثمانية من حيث إمامتها للمسلمين واستحقاق الخراج والمساعدة العسكرية، مع المحافظة على امتيازات مصر الوطنية ومقاومة أية محاولة لجعل مصر ولاية عثمانية. والتوازن الثانى يتعلق بتأييد سلطة الخديو على قانون العدل والشريعة، مع العزم على عدم العودة للاستبداد والإلحاح فى تنفيذ حكم الشورى وإطلاق الحريات، مع الاستقامة وحسن السلوك. والتوازن الثالث هو الاعتراف بفضل فرنسا وإنجلترا، واستمرار المراقبة الأوروبية وقبول الديون الأجنبية، مع الاعتراف بأن هذه الديون لم تصرف لمصلحة مصر، وإنما صرفت فى مصلحة حاكم ظالم، ومع الأمل فى أن يستخلص المصريون ماليتهم من أيدى أرباب الديون شيئا فشيئا، وأن يخضع الأجانب للضرائب.

والتوازن الرابع يتعلق بالبعد عن القلاقل، مع عدم السكوت على الظلم، وهم يؤيدون مجلس شورى النواب وتحرير المطبوعات، مع تفويض الأهالى أمرهم لأمراء الجهادية (الجيش)؛ لأن رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد، ومتى حصلت الأمة على حقوقها، فإن رجال العسكرية عازمون على ترك السياسة. والتوازن الخامس، أن الحزب سياسى وليس دينيا؛ لأن فيه من النصارى واليهود، ولكن أغلبيته مسلمون لأنهم تسعة أعشار المصريين، والحقوق فى السياسة والشرائع متساوية، إلى آخر هذا النهج.

ونحن هنا أمام نص فى الأدب السياسى، يمكن أن يكون مجال دراسة وتحليل، من حيث ما يعكس من نمط تفكير

فى القرن العشرين

نحن هنا أمام نص فى الأدب السياسى، يمكن أن يكون مجال دراسة وتحليل، من حيث ما يعكس من نمط تفكير لا نجده إلا عند القادة ورجال الدول، المعتادين على اتخاذ القرارات والبحث فى إمكانات إنفاذها وتوقع ردود فعلها وتقدير موازين القوى. والأمر هنا فى النهاية ليس أمر صخب وتجييش عاطفى، ولكنه أمر وزن وحساب وتلفت فى أوضاع البيئة المحيطة



لا نجده إلا عند القادة ورجال الدول، المعتادين على اتخاذ القرارات والبحث فى إمكانات إنفاذها وتوقع ردود فعلها وتقدير موازين القوى. والأمر هنا فى النهاية ليس أمر صخب وتجييش عاطفى، ولكنه أمر وزن وحساب وتلفت فى أوضاع البيئة المحيطة. وآية ذلك كله أن من لم تكن لديه دراية بأوضاع هذه الفترة ويقرأ هذا البرنامج فقط، يمكنه أن يحيط بالخصائص العامة للمرحلة التاريخية، ولطبيعة الحركة السياسية للحزب، ولنوع القادة العاملين فى إطار القوى المتصارعة.

ومن هذه الوثائق أيضا فيما يبدو لى، قرار الجمعية العمومية فى ١٩١٠، بشأن رفض مد امتياز قناة السويس أربعين سنة تالية؛ لانتهاء المدة الأصلية للامتياز. وكان امتياز شركة قناة السويس مخولا للشركة باتفاق مع حكومة مصر لمدة تسع وتسعين سنة، تنتهى فى ١٩٦٨، وأريد سنة ١٩١٠ منح مصر بعضا من ربح الشركة إذا وافقت على مد الامتياز أربعين سنة تالية تنتهى فى ٢٠٠٨.

أثير هذا الموضوع فى عهد وزارة بطرس غالى، وكان لهذا المشروع من شدة الوطء على الرأى العام المصرى، ما جعله بؤرة الصراع السياسى منذ نشر محمد فريد الخبر فى صحيفة اللواء فى أواخر ١٩٠٩، واحتدم الصراع حول المشروع، إلى حد أن اغتيل رئيس الوزراء بطرس غالى فى طيات هذا الصراع فى ٢٠ فبراير ١٩١٠، وأرجع قاتله إبراهيم الوردانى سبب الاغتيال إلى ثلاثة أمور: أسبقها أن بطرس غالى هو من وقع مع بريطانيا فى ١٨٩٩ اتفاقية فصل السودان عن مصر. وثانيها: أنه هو من رأس محكمة دنشواى التى أعدمت ستة من المصريين بغير حق، وكان فى الحالين وزيرا للخارجية. وآخرها، أنه وهو رئيس للوزراء أيد مشروع مد امتياز قناة السويس.

اضطرت الحكومة فى عهد خلفه محمد سعيد، أن تعرض الموضوع على الجمعية العمومية، وهى جهاز استشارى شبه نيابى، تقوم مع مجلس شورى القوانين، وتضم أعضاء هذا المجلس (الاستشارى أيضا) والوزراء وستة وأربعين عضوا آخر، ولم تكن لها سلطة قطعية واحدة، إلا بالنسبة للنظر فى تقرير الضرائب الجديدة، وفيما عدا ذلك، فإن استشارتها غير ملزمة. ولكن ضغوط الرأى العام بالنسبة لمشروع مد امتياز قناة السويس، ألجا الحكومة بعد اغتيال بطرس غالى، إلى أن تقرر التزامها بما تتخذه الجمعية العمومية من قرار فى شأن مد امتياز قناة السويس.

وشكلت الجمعية لجنة من بعض أعضائها لدراسة المشروع، فأعدت تقريرا قدمته إلى الجمعية العمومية، وكان آية فى الدقة والإحاطة وسعة الاطلاع والربط بين الجوانب القانونية والاقتصادية، وبين توقعات المستقبل عن دور قناة السويس فى مواجهة طرق التجارة العالمية، وانتهى الأمر بناء على هذا التقرير إلى رفض الجمعية للمشروع فى ٧ أبريل ١٩١٠.

أحكى ما سبق لأتوصل بالقارئ إلى الكتاب الذى أريد أن أعرضه عليه الآن، وهو ليس كتابا مؤلفا، ولكنه أعمال لمؤتمر لا يكاد المصريون يعرفون عنه اليوم إلا أقل القليل، ولكنه فى ظنى يشكل واحدا من أهم الأحداث السياسية الاجتماعية التى حدثت فى بداية القرن العشرين، وصاحبت آثارها مصر فى العقود التالية على مدى النصف الأول من القرن العشرين بصفة خاصة.

عنوان الكتاب «مجموعة أعمال المؤتمر المصرى الأول، المنعقد بهليوبوليس (من ضواحى القاهرة) من يوم السبت ٣٠ ربيع الثانى عام ١٣٢٩هـ (٢٩ أبريل ١٩١١م) إلى يوم الأربعاء ٤ جمادى الأولى سنة ١٣٢٩هـ (٤ مايو ١٩١١م)، المطبعة الأميرية بمصر». وفى وسط الصفحة الأولى «تنبيه، كل ما عزى إلى المؤتمر المصرى ولم يرد بهذه المجموعة فلا يعتد به. اللجنة التنفيذية للمؤتمر». ومن هذا يظهر أن الكتاب وثيقة، لها حجيتها بالنسبة لما دار فى المؤتمر من أعمال، وما سجل فيه من أقوال، وما اتخذ فيه من قرارات. وقد أسمى المؤتمر المصرى الأول، أملا فى أن تتلوه مؤتمرات من نوعه، ولكن أحداث التاريخ جرت على غير ما يتحقق به هذا الأمل بالصورة التى رسمها منظموه، ولا بالاسم الذى أطلقوه، فلم نعرف انعقادا لمؤتمر «ثان» بعده.

وأول معرفتى بأعمال هذا المؤتمر، كانت عندما كنت أدرس الموضوعات التى تضمنها بعد ذلك كتاب لى باسم «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية». وكنت أتابع وقائع السنوات الأولى للقرن العشرين، إبان ذروة النفوذ البريطانى فى مصر. وكانت فشت الفاشية وقتها بين المسلمين والأقباط، وتابعت الصحف وقتها، وبخاصة الصحافة القبطية التى كانت تتسم بالعنف والحدة البالغة لتهييج الأقباط ضد مواطنيهم المسلمين، وسياسة المعتمد البريطانى «فرق تسد» تفعل الأفاعيل، وبخاصة بعد وفود إلدون جورست، الذى خلف كرومر معتمدا بريطانيا فى مصر، وانعقد المؤتمر القبطى فى الأيام من ٦ مارس إلى ٨ مارس ١٩١١.

أنا هنا لا أحكى قصة هذا المؤتمر، ولكننى أمهد به لحديثى عن المؤتمر الذى تلاه، وأحاول أن أجعل التمهيد مختصرا، وبالقدر الذى لا يخل بالسياق، لتوضيح دلالات المواقف.

وكانت فكرة عقد المؤتمر القبطى قد ظهرت وتحدد موعده فى ٢٤ فبراير ١٩١٠، وذلك لحل المشكلات التى كانت قائمة بين رجال الكنيسة وبين جمهور أعيان الأقباط، وأرجئ عقد هذا المؤتمر لاغتيال بطرس غالى رئيس الوزراء قبل الانعقاد بثلاثة أيام، ثم تحول الهدف من عقده إلى موضوع مطالب الأقباط بعد حادث الاغتيال، رغم أن الحادث كان منبت الصلة بهذه المطالب، على ما سبق البيان.

ولكن ما عرف بأنه «مطالب الأقباط» كانت بدأت إثارته فى صحيفتى «مصر» و«الوطن»، من سنة ١٩٠٨ بعبارات بالغة الإثارة، ثم هدأت قليلا، ثم أعادها حادث الاغتيال عن طريق الصحيفتين إلى أوجها، وتحول هدف المؤتمر.

فى صيف ١٩١١، أصدر «توفيق حبيب» الصحفى فى صحيفة الوطن، كتابا جمع فيه أعمال المؤتمر، وشمل أسباب انعقاده، وظروفه وردود فعل الدعوة إليه وقراراته فى الصحف كلها، صدر باسم «تذكار المؤتمر القبطى الأول»، وقدم له بمقدمة مسهبة «توفيق حنين»، وذكر فيها أن أحد واسعى الاطلاع العارفين

بطبائع الأوروبيين، رأى أن سكوت الأقباط يكون دليلا عليهم فى غير صالحهم أمام الأجانب، وأن الصحيفتين «مصر» و«الوطن» سارتا على خطة عدم السكوت، إثباتا لعدم الضعف. وأنه لما كتب عبد العزيز جاويش مقاله الحاد «الإسلام غريب فى بلاده» فى يونية ١٩٠٨، بدأ يتكون لدى الأقباط رأى عام مستقل، وتفتحت عيونهم «كأمة أو طائفة»، وسافر قرياقص ميخائيل إلى لندن، «لإثارة الرأى العام البريطانى فيما يختص بمطالب الأقباط وحالتهم السيئة».

وبالنسبة لمطالب الأقباط، ذكر توفيق حنين، أنه كان عرض بعضها فى ١٨٩٧، على اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر، وعرض بعضها فى ١٩٠٨ على الخديو، ولكن أول بيان واف لها، هو ما نشرته صحيفة «مصر» فى ثمانية مقالات متتابعة، نشرت فى ٢٧ يناير ثم فى ١، ٢، ٣، ٦، ١٤، ١٨، ٢٨ فبراير عام ١٩١١. وهى المطالب الآتية:

المطلب الأول: عن المساواة فى الوظائف. المطلب الثانى: عن تمثيل الأقلية فى الهيئات النيابية. والمطلب الثالث: عن ضريبة الخمسة فى المائة. والمطلب الرابع: عن راحة يوم الأحد. والمطلب الخامس: عن محاكم الأحوال الشخصية القبطية. والمطلب السادس: عن التعليم الدينى والأولى بين الأقباط. وقد اندمج المطلبان الخامس والسادس أمام المؤتمر فى مطلب واحد، وصار عنوانه: «الإنفاق من الخزينة المصرية على جميع المرافق المصرية على السواء».

إن من الأقباط من كانوا ضد المؤتمر، والصحافة الوطنية كانت ضده أيضا، ولكنها عارضت منع الحكومة انعقاده حمايةً لحرية الاجتماع وتأكيدا لها. أما الحكومة فقد تلقت خبر المؤتمر بتوجس وحذر شديدين، ولكنها قصرت اعتراضها المعلن على الدعوة إلى انعقاد المؤتمر فى أسيوط وزكت انعقاده بالقاهرة. وبذلت الحكومة مساعيها لدى البطريرك ليعلن عدم رضائه عن عقد المؤتمر، وأعد البطريرك بيانا بذلك، ذكر فيه أنه يفرحه اجتماع أبنائه على الخير ويدعو لهم بالتوفيق، إلا أنه يبدى القلق من دعوة جمع غفير وفى مدينة أسيوط، ويخشى من ثوران النفوس والتهييج، ويطلب ألا تكون مساعيهم عرضة للتقول، وأن يستعملوا الحكمة والتأنى. وانتقدت الصحافة القبطية بيان البطريرك، وعارضه مطران أسيوط الذى ينعقد المؤتمر فى مجال مطرانيته.

وانعقد المؤتمر، وحضره ١١٥٠ مشتركا، معهم توكيلات عن نحو ١٠٥٠٠ قبطى من جميع أنحاء مصر، وكان تعداد الأقباط وقتها نحو ٦٠٠ ألف قبطى، ومجموع السكان بمصر كلها ما بين ١٠.٢ مليون نسمة حسب إحصاء ١٩٠٧، وبين ١١.٦ مليون نسمة حسب إحصاء ١٩١٧. ونسبة عدد المسيحيين جميعا سواء الأقباط الأرثوذكس أو غيرهم تبلغ من مجموع السكان ٦.٣٪ فى إحصاء ١٩٠٧، ونسبتهم جميعا من مجموع السكان فى إحصاء ١٩١٧ تبلغ ٨.٣٪، وترد الزيادة من شمول التعداد على الجنود الأجانب وأسرهم إبان الحرب العالمية الأولى التى جرى تعداد ١٩١٧ خلالها.

انعقد المؤتمر بمدينة أسيوط، ورأسه بشرى حنا، وكانت أول كلمة من مطران أسيوط: «قد شرعتم فى عقد هذه الجمعية العمومية، غير أن عدم وقوف البعض على ما أنتم عليه من الحكمة والتعقل والرزانة والإخلاص لمواطنيكم جميعا، حملهم على أن يوجسوا خيفة من اجتماع حضراتكم، لكن اختبارى الطويل مدة إقامتى خمس عشرة سنة بينكم، جعلنى على ثقة تامة وأمان من حسن نواياكم..». ثم جرى التعبير عن الشعب المصرى بعبارة «المجموع المصرى»، ولخصت المطالب الخمسة المذكورة فى البداية، ثم دار الحديث فى جلسات المؤتمر، فتكلم أخنوخ فانوس عن أجازة يوم الأحد، ثم تكلم توفيق دوس عن مبدأ إسناد الوظائف بالكفاءة دون تمييز، إلا ما يتعلق بالوظائف التى تقتصر بطبيعتها على ذوى دين بعينه مثل وظائف القضاء الشرعى.

ثم تحدث مرقص حنا عن تمثيل الأقباط فى المجالس النيابية، وعرض لنظام الانتخاب البلچيكى، وطريقة التمثيل فيه التى تكفل وجود الأقليات دون اختصاص لهم بمقاعد محددة، ثم تكلم حبيب دوس عن أن الضريبة التى تحصل عليها هيئات الحكم المحلى بنسبة ٥٪ من مجموع الضرائب، تصرف على مدارس عامة يدخلها المسيحيون، وعلى رواتب المدرسين الذين يدرسون لطلبة مسلمين وأقباط، وهذا لا اعتراض عليه، وإنما الاعتراض على النوع الثالث الذى يصرف عليه من الضريبة ذاتها، ويمول الكتاتيب، وهى تدرس علوم المسلمين، فلا يدخلها الأقباط. ثم تكلم مرقص فهمى عن إنفاق الخزانة العامة بحديث هادئ، وقال إن مبدأ المساواة مبدأ نظرى، تبنى عليه الوطنية العامة، وأن المساواة الفعلية لا يمكن إدراكها، مهما كان نظامها متقنا محكما، والمهم هو تقرير مبدأ أن الوظائف يجب أن تعطى بالأهلية والاستعداد. وليس معنى المساواة حساب ما يصرف بنسبته، إنما الأهم من ذلك، أن تكون للأقباط محاكم للأحوال الشخصية ذات كفاءة، تماثل المحاكم التى تشرف عليها الدولة. وعلق على ذلك وهيب دوس، مؤيدا أن المحاكم الشرعية الإسلامية هى مورد إيراد لا مورد صرف، فرد عليه تادرس المنقبادى صاحب صحيفة «مصر»، أن فى السنة الأخيرة دفعت الحكومة لميزانية المحاكم الشرعية ١٧ ألف جنيه.

وانتهى المؤتمر بانتخاب لجنة مستديمة من ٧٠ عضوا، وانتخبت اللجنة المستديمة، لجنة تنفيذية من ١٢ عضوا. ومما يذكر أن مرقص حنا كان بعد ذلك من أقطاب الوفد المصرى وثورة ١٩١٩، وكان وزيرا فى وزارات الوفد. وأن مرقص فهمى كان من نجوم المحاماة المصرية فى العقود التالية من السنين، واشتهر بفقهه وفصاحته، وكذلك كان شأن وهيب دوس الذى عرف بعد ذلك بسنين بعلاقة المودة التى جمعته مع مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

إنما استطردت فى ذكر وقائع هذا المؤتمر، لأظهر سياق الحديث من جهة، ولأبين للقارئ المتابع للأحداث، وجود شبه بين ما حدث فى ذلك الوقت، وما يحدث الآن بين ظهرانينا، وأن من يطالع صحيفة «وطنى» التى تصدر فى هذه السنين الأخيرة، ونعايشها اليوم، ويقارن بين ما تكتبه فى نهايات القرن العشرين مع ما كتبته «مصر» و«الوطن» فى بدايات القرن ذاته، يلحظ أن النغمة واحدة، من حيث التهييج والإثارة، كما يلحظ أن العنصر الإثارى الأجنبى واحد، الأول كان بريطانيًا، والأخير صار أمريكيًا. ويلحظ توجه حركة الإثارة إلى الخارج فى الحالين.

وإن من يكون اطلع على وقائع ١٩٠٨ ـ ١٩١١ فى هذه المسألة، ويطالع وقائع ١٩٩٨ حتى الآن، يرى هذا التشابه العجيب، سيما فى الإثارة الصحفية، والدعوة للمؤتمر التى جاءت فى صحيفتى «مصر» و«الوطن»، فى بداية القرن، تماثلها «دعوة لقاء الحكماء» التى تروج لها صحيفة «وطنى» منذ ١٩٩٨، فى عدد من أعدادها، وتجمع التوقيعات وتنشر عشرات الأسماء فى كل عدد منها فى ذيل مقالة تجدد بها الدعوة. وهى قد تبنت المطالب السابقة فيما عدا مطلب أجازة يوم الأحد، وأضافت إليه موضوع بناء الكنائس، والمشاركة فى الإعلام، وتعديل مناهج التعليم، وإعداد مناهج دينية موحدة، حتى سفر قرياقص ميخائيل إلى لندن فى ١٩١٠ يقابله سفر رئيس تحرير وطنى إلى واشنطون فى ١٩٩٨. وحتى الحديث القديم عن الغزو العربى الإسلامى لمصر، يقابله الحديث الجديد عن أن الأقباط مضطهدون منذ أربعة عشر قرنا. (تراجع أعداد «وطنى» على سبيل المثال من أبريل ١٩٩٨ إلى فبراير ١٩٩٩).

أقول ذلك، وأنا أدرك حقيقة أدركتها فى دراستى لموضوع «المسلمين والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية»، وهى أن مثيرى الشقاق كانوا دائما موجودين وخططهم هى هى، وتوجهاتهم هى هى، وعدم مراعاتهم لضوابط الوجود الوطنى، وحدود الصالح العام الذى عبر عنه البعض بعبارة «المجموع المصرى» كل ذلك هو هو. ولكن هذا التوجه نجده فى دوائر الإعلام، وبعض النخب من المثقفين أو الساسة أو رجال الأعمال، وهم يظنون كما ذكر أحد المصريين للمؤتمر القبطى سنة ١٩١١، أن معظم العامة «هم أتباعنا والمستخدمين عندنا». وهذا هو القسم الذى ظهر فى بداية القرن ويظهر الآن فى نهايته. أما القسم الآخر، فهو المندمج فى الجماعة الوطنية الذى يراها حياته ومستقبله، وهم من ظهر من بعد ثورة ١٩١٩، يحاربون الإنجليز ويرفضون حماية الأجانب لهم ويتوحدون مع مواطنيهم.

ولكن كيف حدث ذلك، هذا ما يمكن أن نستفيد فيه من خبرة أسلافنا ومن ذكائهم وفهمهم.

جاء رد الفعل البصير فى المؤتمر التالى الذى عقد فى ٢٩ أبريل، واستمر حتى ٤ مايو سنة ١٩١١، أى بعد نهاية المؤتمر الأول باثنين وخمسين يوما، وعقد فى القاهرة بضاحية مصر الجديدة، فى قاعة للألعاب، هيئت لعقد المؤتمر. كان الداعون له والمنظمون جماعة من الساسة والمفكرين والدعاة من حزب الأمة والحزب الوطنى، ورغم ما أثارته الصحافة من ردود فعل عنيفة وصاخبة ضد المؤتمر القبطى، فقد أمسك هؤلاء بزمام الموقف، ليردوا الجماعة إلى صواب الاستيعاب وهدوء البصر والبصيرة. لم يسموا المؤتمر بالمؤتمر الإسلامى، إنما أسموه المصرى، لأنه «بالمصرية» يمكن استيعاب الموقف، ولم يختاروا لرئاسته شخصا من بينهم، وممن يدخل فى خصومات الحاضر، ولكنهم اختاروا له مصطفى رياض باشا، وهو من رؤساء الوزارات السابقين فى ثمانينيات القرن السابق، ومن المعروف بالاعتدال الشديد الذى يزيل أى هواجس.

هو ليس كتابا مؤلفا،
ولكنه أعمال لمؤتمر لا يكاد المصريون
يعرفون عنه اليوم إلا أقل القليل، ولكنه فى ظنى
يشكل واحدًا من أهم الأحداث السياسية الاجتماعية
التى حدثت فى بداية القرن العشرين، وصاحبت
آثارها مصر فى العقود التالية على مدى
النصف الأول من القرن العشرين



كان من الداعين للمؤتمر والمنظمين له، محمود سليمان، وعلى شعراوى، وإبراهيم الهلباوى، وفتح الله بركات، وأحمد لطفى السيد، وعبد الستار الباسل، وأحمد لطفى، وعبد الخالق مدكور، وأكثرهم يذكر القارئ بتشكيلات الوفد المصرى عندما نشأ فى ١٩١٩، وبعضهم ممن بقى فى أقطاب الوفد على مدى العشرينيات وما بعدها مثل بركات والباسل، وقد عقدوا جلستين تحضيريتين بمنزل على باشا شعراوى، وفيهما تحددت الأطر العامة للمؤتمر، وبدا من هذا الإطار مدى الفهم والذكاء الذى عولجت به الأمور، وتحددت به السياسات العامة.

فهو - أولا - مؤتمر مصرى، لأن مناقشة موضوع الأقباط يثير سؤالا أوليا، وهو من نحن الذين نناقش، ومن هم الذين نناقش موضوعهم، وما علاقتنا بهم، وبأى مقياس أقيس ولأى معيار أحتكم؟ هل أواجههم بحسبى طرفا يواجه طرفا آخر، إن صنعنا ذلك، فقد صرنا فريقين، ونكون خطونا خطوات فى طريق المفاصلة، وهذا ما حدث فى الهند، تكون «المؤتمر» بوصفه تنظيما سياسيا وضم الهندوس فى الأساس، وتكونت الرابطة الإسلامية وضمت المسلمين فى الأساس، وتشكل بذلك جنينان فى رحم الهند، ومع نمو كل من التنظيمين، كانت تنمو المفاصلة، فلما خرج الإنجليز انشقت الهند شعبين وحكومتين.

وعندما يتكلم المسلمون مع الأقباط فى مصر، إنما يجب أن نبحث عن الجامع المشترك، أى عن وحدة الانتماء التى تضم الفريقين وهى المصرية، ونجعل المصرية هى الحكم وهى الإطار الحاكم، ونجعلها مناط الالتزام على المندرجين فيها فى علاقاتهم مع بعضهم البعض، ووحدة الانتماء هى الجامع لهذين. وهى من حيث كونها الجامع لهما، فهى مناط الالتزام فى علاقاتهما المتبادلة، وهى تشكل صالحا مشتركا لهما، يتحاسبون وفقا له. أتصور أن هذا ما كان يجول بفكر هذه اللجنة التحضيرية، أو هو ما يعبر عن إرادتهم المشتركة بصرف النظر عن التوجه الفردى لكل منهم، وهم فى هذا المجلس ذاته أثار بعضهم وجوب مناقشة الربا ومنعه، وأنه محرم فى الشريعة الإسلامية وفى المسيحية. فلم يكونوا ينظرون إلى المصرية بوصفها بديلا عن الإسلام وعن الدين، إنما نظروا للأمر فى إطار الجوامع المشتركة.

وهو - ثانيا - مؤتمر الهدف منه «البحث فى جميع الوسائل المؤيدة لحسن الوفاق بين جميع العناصر المصرية وتحسين حال الأمة المصرية، ولا يجوز للمؤتمر الاشتغال بالمسائل السياسية».

وهنا نلحظ أنه بعد أن تحدد الإطار الحاكم للموضوع، وهو الجامع المصرى الذى يضم المسلمين والأقباط فى مصر، ويحدد الجماعة الوطنية التى يكون عليها المعول فى المحاسبة بين المندرجين فيها، بعد ذلك استبعدت المسائل السياسية المتعلقة بالعلاقات بين القوى السياسية المختلفة ووضع السلطة السياسية. وكان فى هذا الاستبعاد من الحذر ما فيه من البصر، لأنه يتعين عند تحديد موضوع الجماعة الوطنية أن يستبعد من إطار الجدل والحوار بشأنها ما يتعلق بالسياسات الجارية حول السلطة بين الحكومة والأحزاب وقوى الضغط السياسى. وفى مصر وقتها سلطة الإنجليز وسلطة الخديو ومطالب تتعلق بالدستور والحياة النيابية وغير ذلك، والواجب عدم الخلط بين أسس البنية الأساسية الخاصة بالجماعة الوطنية، وبين الأبنية المتغيرة والمتعلقة بالسياسات الجارية والمصالح الآنية، ولكى يسوغ إلزام الغير بذلك، يتعين إلزام النفس به.

وهو - ثالثا - مؤتمر لا يبحث فقط فى «الوسائل المؤيدة لحسن الوفاق»، إنما يتعين أن يبحث فى «تحسين حال الأمة المصرية»، وقصدوا بذلك، أن يناقش المؤتمر الشئون العامة الاقتصادية والاجتماعية، وكان هذا ما يمكن به إخراج المؤتمرين جميعا فى المؤتمر الأول والمؤتمر الآخر، إخراجهم جميعا من حصر المناقشة فى العلاقات المتبادلة، ومن المخطئ ومن المصيب وغير ذلك، إلى ما يتعلق بالأهداف المصرية المشتركة، ومشكلات التنمية وعناصر النهوض. فمادامت المصرية هى الوعاء المشترك، فقد حسن أن تكون التنمية المصرية هى مجال الالتقاء والتعايش والعمل المشترك.

ولما انعقد المؤتمر فى ٢٩ أبريل، افتتحه مصطفى رياض باشا، رئيس المؤتمر بكلمة موجزة جدا، فأشار إلى أن المدعوين هم صفوة أهل المكانة، تهمهم مصالح البلاد العليا ويغارون على رقيها، وأن حالة البلاد لا تسمح بتقسيم المصالح بين أبنائها تبعا لانقساماتهم الدينية، ثم ذكر أنه ستعرض مسائل أدبية واقتصادية للرقى بالتعليم وتنمية الثروة العمومية. وختم حديثه بأن طلب إلى الحاضرين ألا يراعوا فقط العدل والإنصاف، وإنما أن يتصفوا أيضا بالتسامح والتعاطف.

أول ما تُلى فى المؤتمر كان التقرير الذى أعدته اللجنة التحضيرية، وقد تلاه أحمد لطفى السيد، وساعده فى تلاوته أحمد عبد اللطيف وعبد العزيز فهمى، ويمكن ملاحظة لغة لطفى السيد وأسلوبه فى إعداد التقرير.

وهو يتكون من مقدمة وثلاثة أقسام، وتضمنت المقدمة أن المؤتمر انعقد لخدمة المصلحة العمومية، و«للنظر فى التوفيق بين العناصر المؤلفة للوحدة المصرية التى كاد يتصدع بناؤها من جراء مؤتمر الأقباط». وهو هنا يستخدم عبارة العناصر المؤلفة للوحدة المصرية، وليس عبارة «المجموع المصرى»، التى استخدمها مؤتمر أسيوط، ثم عاب على رجال مؤتمر أسيوط إعدادهم له خفية، فلم يفصل بين خبر انعقاده وانعقاده فعلا إلا أيام محدودة، ويقول إن رجال مؤتمر أسيوط يستقلون ما فى أيدى الأقباط من السلطة ويستكثرون ما فى أيدى المسلمين منها. وقال إن هذه الحركة الأخيرة ذات شكل مريب مفض إلى الظن بأن الأقباط عوّلوا على أن يكونوا وحدهم أمة مستقلة «وتذرعوا بهذه المطالب حتى يصلوا بمعونة إنجلترا المسيحية إلى أن يكون لهم فى مصر - وهم الأقلية الضعيفة - حق السيادة على الأكثرية الإسلامية العظمى».

وإنه إشفاقا على الوطن دُعى هذا المؤتمر الأخير ليزن مطالبهم بميزان العدل وليبين النافع منها والضار والممكن وغير الممكن «من غير أن يحوجهم إلى السعى بإخوانهم وشكايتهم إلى غيرهم، فإن المصريين أولى بإنصاف المصريين»، ثم إن اللجنة التحضيرية ترى بعد ذلك التطرق للمسائل الاجتماعية والاقتصادية دون المسائل السياسية.

وتكلم عن مفهوم الأكثرية والأقلية، فذكر أنه من الخطأ تقسيم الأمة المصرية «باعتبارها نظاما سياسيا» إلى عنصرين دينيين، لأن ذلك تقسيم للشىء إلى أقسام تخالفه فى الجوهر، ولكن «لكل أمة دينا رسميا وذلك ضرورى ومشخص من مشخصاتها، ودين كل أمة هو دين حكومتها أو دين الأكثرية فيها».

ثم ذكر أن الحقوق والمرافق فى مصر هى على الشيوع بين جميع المصريين ثم عاب على سياسة الحكومة أن افرزت للأقباط مراكز خاصة فى مجلس الشورى، فظن البعض أنها للدفاع عن مصالحهم، أو صارت لهم صحف خاصة وأندية خاصة وسمتهم صحفهم أخيرا «الأمة القبطية». وبدا من هؤلاء اعتماد على الاحتلال المسيحى، وأشار إلى علاقتهم إلى علاقات البعض بالمبشرين والأمريكان وبعض رجال الكنيسة الإنجليزية، وبعث البعوث إلى إنجلترا لبث شكواهم، وأنهم وضعوا المسلمين فى جانب وأخذوا يساومون الإدارة الإنجليزية فى مصر على الوظائف التى فى أيدى المسلمين، وهم يظنون أن المسلمين يكفيهم فى كل هذه المساومة ألا يرموا بالتعصب الدينى أو أن يشهد لهم بأنهم حسنو السلوك مع إخوانهم الأقباط...».

وكان هذا هو مقدمة حديث أحمد لطفى السيد، ثم تعرض إلى مطالب مؤتمر أسيوط كلها، فذكر عن طلب إجازة يوم الأحد، أن الدافع إليه «هو انتهاز فرصة الاحتلال المسيحى لإبطال التقاليد الإسلامية والاستهانة بالأكثرية وتقسيم الشعائر القومية نصفين متساويين بين أقلية صغيرة بعض أفرادها على دين الإنجليز وبين الأكثرية الكبرى الإسلامية»، وذكر أن هذا الطلب غير ميسور ولا يخلو من الضرر فيجب إغفاله، ثم تحدث عن الوظائف العامة فذكر أن الحكام الإداريين لايكون لهم سلطان على محكوميهم إلا إذا ظن الناس فيهم عدم التعصب، والأقلية الدينية لاتفتأ تعطى كل يوم مثلا على إفراطها فى التضامن، ومع ذلك فمنهم المستشارون ووكلاء وزارات ووزراء ورؤساء وزارات، وذكر أن نسبة الأقباط من سكان مصر هى ٦،٤٣٪ ونسبة ثروتهم هى ١٠٪ من ثروة مصر، وهم فى الوظائف إذا كانت نسبتهم فى التعليم ٦٪ فإن نسبتهم فى وزارة الداخلية ٥٩٪ بنسبة مرتبات تصل ٤٠،٢٨٪، ونسبتهم فى وزارة الحقانية ١٥٪ بمرتبات نسبتها ١٤،٥٪، ونسبتهم فى وظائف وزارة المالية ٤٦٪ غير الصيارف، فإن عددهم ١٨٧٧ صيرفيا منهم خمسون مسلما فقط، وأرفق بالتقرير بيانات شاملة وتفصيلية بعدد الأقباط فى الوظائف ونسبتهم، وبالنسبة لما يصرف من الضريبة على الكتاتيب الأولية ومدارس معلمى الكتاتيب، فإن الجزء الأكبر من هذه الكتاتيب بناها مسلمون وأجروا عليها الأوقاف تعبدا لتعلم القراءة والقرآن وبعض الحساب، ومدارس معلمى الكتاتيب تعلم علوم الدين لهم بمثل ما تعلم الأديرة معلمى الأقباط بشأن المسيحية. واللجنة لاتؤيد تعليم المسيحية فى الكتاتيب الإسلامية.

وذكر بيانات عن كل مديرية ونسبة ما يتقاضى من الأقباط بموجب ضريبة ٥٪ التى ينفق بعضها على الكتاتيب ومدارس معلميها، ففى القليوبية مثلا أكثر من ٤٣٣ ألف مواطن منهم ٨،٧ ألف قبطى، ومجموع الضريبة ١٣،٨ ألف

مما يذكر أن مرقص حنا كان بعد ذلك من أقطاب الوفد المصرى وثورة ١٩١٩، وكان وزيرا فى وزارات الوفد. وأن مرقص فهمى كان من نجوم المحاماة المصرية فى العقود التالية من السنين، واشتهر بفقهه وفصاحته، وكذلك كان شأن وهيب دوس الذى عرف بعد ذلك بسنين بعلاقة المودة التى جمعته مع مؤسس جماعة الإخوان المسلمين



جنيه يدفع منها الأقباط ٦٨٩ جنيها، ومقدار ما يصرف على الطلبة الأقباط من ميزانية مجلس المديرية ألف جنيه، وثمة ثلاثة كتاتيب قبطية ينفق عليها ٢١٠ جنيهات سنويا. وفي أسيوط ٧٩ كتابا منها ٩ كتاتيب للأقباط ينفق عليها جميعا مجلس المديرية، والمدارس الابتدائية ٢٠٪ من طلبتها أقباط.. وهكذا.

والمدارس الابتدائية التابعة لوزارة المعارف بها ٦٦٣٩ تلميذا مسلما، يقابلهم ١٣٤٨ تلميذا قبطيا بنسبة ١٧٪، والمدارس الثانوية التابعة للوزارة بها ١٦٢٨ تلميذا منهم ٥٤١ تلميذا قبطيا بنسبة ٢٤,٦٪.. وهكذا.

ثم ذكر أن «العدل أحق أن يتبع.. ولقد يكون التسامح من أنفع وسائط التوفيق بشرط أن يعترف بانه تسامح، وأن لا يشعر بأنه غفلة أو استكانة لأنه في هذه الحالة يكون عظيم الضرر..».

ثم تكلم بذات الطريقة عن التمثيل بالانتخابات، وعلى الخزينة العمومية ، وذكر أن المحاكم الشرعية توفر للخزينة في السنوات الخمس الأخيرة ٤١٧١ جنيها سنويا، وأن الآثار الإسلامية يصرف عليها من أوقاف المسلمين، بينما الآثار المسيحية يصرف عليها من أوقاف المسيحيين بنسبة الثلث فقط، وتتكفل الميزانية العامة بالثلثين.

هذا في ظني أحسن ما تبدت فيه «مصرية» أحمد لطفي السيد، أي الطابع الجمعي لهذه المصرية، إن المصرية كانت ذات وظيفتين، وظيفة انسلاخية من الجامعة السياسية الأشمل، إسلامية أو عربية، ووظيفة جمعية بين المسلمين والأقباط في مصر، وفي هذا الموقف تبدت الوظيفة الجمعية الأخيرة وحفرت معيار تحاكم بين العناصر المكونة لها.

وقد ختم هذا الحديث بأن الأمة يجب أن تبني علاقة أفرادها على التسامح وعلى التضامن مع المعاملة بالمحبة والرحمة، وأن مصر ليست قليلة الواجبات الوطنية حتى تنشغل بما لافائدة فيه من التنازع على المراكز والتخاصم على شيء من الحقوق التافهة، ودعا إلى انضمام الأقباط إلى أي مؤتمر مثيل لهذا المؤتمر ينعقد مستقبلا، ثم انتقل إلى الحالة الاجتماعية ودعا للحديث عن التعليم، وانتقل إلى الحالة الاقتصادية ودعا المؤتمر إلى الحديث بشانها.

انتهت الجلسة الأولى بهذا التقرير، ثم جاءت الجلسة الثانية وبعض الجلسة الثالثة بالحديث في الموضوع ذاته، وتعرض المتحدثون لطلبات مؤتمر أسيوط وردوا عليها، وكان في ردودهم بعض من حدة، يبدو لي أنها تولدت عن حدة الصحافة القبطية واستفزازها الشديد.

تحدث بعد ذلك محمود أبوالنصر عن عطلة يوم الأحد بما لايزيد عما سبق وأشار إلى دين الدولة الرسمي وأنه غير قابل للتعدد، ثم تكلم محمد حافظ رمضان الذي صار رئيسا للحزب الوطني بعد ذلك، فذكر أن الأقباط استقووا على ضعفهم بالمسيحية الغربية رغم أنهم أقرب إلينا منهم إليها، وأن التمادي في التسامح ضار ولكن العلاج هو ترقية التعليم وعدم التفريق في الحقوق، ثم تحدث صالح حمدي حماد فهاجم الصحافة القبطية وطعنها على المسلمين، ثم إبراهيم غزالي وضريبة ٥٪. ثم تحدث أحمد عبداللطيف عن المجالس النيابية وذكر أن أسباب الحركة الأخيرة هي التهاون وتسامح الحكومة وإغراء جماعة المبشرين البروتستانت وتوهم أن الإنجليز ينصرونهم على المسلمين وأن القائمين على الحركة لم يفكروا في الفلاح القبطي ولا في الموظف القبطي، وذكر أن خير الأقباط في اندماجهم في المسلمين ليشكلوا أمة واحدة ، وأنه إذا اشتدت عصبية الأقباط قل عدد نوابهم في المجالس النيابية وكلما اندمجوا في المسلمين زاد عددهم ونسبتهم، ثم تحدث الشيخ عبدالعزيز جاويش فتكلم عن أوقاف المسلمين والمحاكم الشرعية، ثم إبراهيم الهلباوي وكل ذلك بما يؤكد كلمة اللجنة التحضيرية.

استغرق كل هذا الحديث أقل من سبعين صفحة من القطع الكبير، وذلك من جملة أعمال المؤتمر التي نشرت في ٢٠٤ من الصفحات ، واستمر الحديث بعد ذلك على مدى باقي الجلسة الثالثة والجلسات الرابعة والخامسة والسادسة لعرض أوراق وأبحاث تتعلق بمخططات النهضة المصرية في المجالات المختلفة الاجتماعية والاقتصادية.

لاأكون مغاليا إذا قلت أن من يقرأ هذا القسم من أعمال المؤتمر، وهو القسم الذي يصل إلى الثلثين أو أكثر من أعمال المؤتمر، من يطالعه إنما يجد فيه مشروع النهضة أو مشروع التنمية الاجتماعية الاقتصادية الذي سارت مصر على دربه طوال النصف الأول من القرن العشرين، وإذا كانت ثورة ١٩١٩ حدثت بعد ثماني سنوات من عقد هذا المؤتمر وكان شعارها شبه الوحيد سياسيا بحتا يتعلق في الأساس بجلاء الاحتلال الإنجليزي من مصر والاعتراف باستقلالها وبإعداد دستور لنظام حكمها، وإذا كان تنظيم «الوفد المصري» الذي ظهر من خلال الثورة وحمل شعاريها الأثيرين حتى نهايات النصف الأول من القرن العشرين وحصر هدفيه المعلنين على هذين الشعارين «الاستقلال والدستور» أي الاستقلال والديمقراطية، دون أن يضع برنامجا للنهوض الاقتصادي والاجتماعي يصوغه ويروج له .

إذا كان ذلك كذلك فإن حقيقة الأمر حسبما يبدو لي ، أن أعمال هذا المؤتمر المصري الأول الذي لم يكن له انعقاد ثان، هي ما تضمن البرنامج الاجتماعي الاقتصادي لثورة ١٩١٩، ولتنظيم الوفد. وهي ما صاغ المشروع الذي جرى تطبيقه وتنفيذه في تلك المجالات طوال الخمسين سنة والتي انعقد المؤتمر في أوائلها. وإن تنفيذ هذا المشروع جرى على أيدي الحكومات المختلفة والوزارات التي تناوبت الحكم وعلى أيدي مؤسسي ومنشئي الأنشطة الأهلية وبصرف النظر عن أحزابهم وصراعاتهم السياسية. لاشك أن تنفيذ هذه الأهداف كان أسرع في عهد حكومات الوفد وأن العوائق في مرحلة التنفيذ كان بعضها يزول أو تضعف وطاته من جراء سياسات الوفد. ولكن التنفيذ كان يجري صاعدا ولايتراوح إلا بين الإسراع والإبطاء. وهذا الجانب هو ما أردت أن ألفت النظر إليه فنحن لانجد وثيقة أكثر تعبيرا عن طموحات المصريين في مجالات التنمية خلال النصف الأول للقرن العشرين إلا هذه الوثيقة، ولانجد مجال التقاء بينهم خلال هذه الفترة إلا في العناصر التي تضمنتها.. وأن من يتساءل أين البرنامج الاجتماعي الاقتصادي لثورة ولتنظيم ولحركة سياسية تحريرية، فالجواب: هذه هي مكتوبة مسجلة موثقة من بدايات القرن.

أول ما عرض على المؤتمر خارج موضوع الأقباط، كان تقريرا أعدته وألقته الأديبة المعروفة «باحثة البادية» السيدة ملك حفني ناصف عن موضوع «وسائل ترقية المرأة المسلمة المصرية» أوردت فيه عشرة اقتراحات ، وهي تشجيع النساء على حضور صلوات الجماعة وسماع الوعظ في المدن والقرى باعتباره نوعا من التثقيف، وتخصيص باب للنساء في كل مسجد، وجعل التعليم الأولى إجباريا للمرأة وتكثير المجانية في مدارس البنات وتعليم الدين الإسلامي وتعيين سيدة مسلمة تراقب أحوال التلميذات لأن المعلمات الأجنبيات لايعرفن عادات البلاد، وتوسيع مدرسة الممرضات وإيجاد مدرسة طب للنساء، وتكثير المستشفيات والصيدليات، ومراقبة الشرطة لسلوك الآداب العامة في الطرقات لمنع معاكسة السيدات، والسعي لتقليل تعدد الزوجات لغير داع ماس، فلايتزوج الرجل على امرأته إلا بإذن المحكمة الشرعية، وتعليم المرأة مايلزمها من صناعات ومنع مشي النساء في الجنازات.

وعن التعليم تحدث محمد أبوشادي، فعرض لوجوب السعي لدى الحكومة لتخصيص أكثر ما يمكن تخصيصه من مال للتعليم ، والأمر الثاني تأليف إدارة معارف أهلية حرة لجمع المال من الأمة وتكميل النقص في التعليم الرسمي وإعداد برامج للتعليم غير الرسمي توافق الاشتغال بالأعمال الحرة، وتكلم عن لزوم التعليم لإقامة دولة صناعية، ثم ركز حديثه على «إنشاء الإدارة الأهلية الحرة للتعليم» ، والأمر يقتضي جمع مائة ألف جنيه بالاكتتاب وتلقي الهبات وجمع التبرعات وجمع برامج التعليم من البلاد الأجنبية واختيار أسهلها وأقلها نفقة، ثم عرض لعدم كفاية المدارس ووجود مدرسة واحدة لكل من الطب والهندسة والطب البيطري وشبه مدرسة للصيدلة والصنائع.

وركز على النشاط الأهلي في إتمام النقص إذا لم يسده النشاط الحكومي. ويظهر من حديث أبي شادي إلى أي مدى كانت إمكانات النشاط «الأهلي» مما يمكن الدعوة إليه والتعويل عليه في مجال نشاط أساسي مثل نشاط التعليم، لم تكن الدولة قد آلت إلى قوتها الاحتكارية التي نشاهدها في الأجيال المتأخرة من القرن العشرين، ولا كانت الأمة بمبادراتها الخاصة قد صارت إلى الوهن وفقدان المبادأة بمثل ما اعتاد الناس في نهايات القرن العشرين، لذلك كان غالب حديث أبي شادي يتجه إلى الجماعة، وليس إلى الدولة.

من يطالع صحيفة «وطني» التي تصدر في هذه السنين الأخيرة، ونعايشها اليوم، ويقارن بين ما تكتبه في نهايات القرن العشرين مع ما كتبته «مصر» و«الوطن» في بدايات القرن ذاته، يلحظ أن النغمة واحدة، من حيث التهييج والإثارة، كما يلحظ أن العنصر الإثاري الأجنبي واحد، الأول كان بريطانيًا، والأخير صار أمريكيًا

أما الحديث الثاني عن التعليم فكان حديثا بالغ الطول والتفصيل بدراسة أعدها الشيخ علي يوسف صاحب صحيفة المؤيد وقتها، وكان أبرز صحفيي عصره، وموضوعه كان عن التعليم العام وحظ المسلمين والأقباط منه، ولطول التقرير تلا الشيخ جزءا منه ثم ساعده في التلاوة عبدالعزيز فهمي ثم محمود أبو النصر، وكان يرد فيه من وقائع التاريخ على ما ادعته بعض صحف القبط من أفضليتهم على المسلمين، وأتى ببيانات وإحصاءات تخالف هذا الادعاء، ومنها ما يتعلق بالبعثات الحديثة وطلبة المدارس الحديثة، وتعلم الأقباط في مدارس أوقاف المسلمين، وأن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة،



وهو دين الأغلبية التى تصل إلى ٩٢٪ وفصل فى جداول لإعداد البعوث وخريجى المدارس العليا عبر السنوات، وكذلك تلاميذ المدارس.

وتحدث محمد يوسف عن وجوب ترك بدع المآتم والمقابر وماينفق فيها وما ينفق عليها من مال لا لزوم له قدره بنحو مليون جنيه واقترح إبطال ذلك كله، وتحدث عبدالستار الباسل عن وجوه إصلاح القضاء المصرى وأن ثقة الناس به هى أقل مما ينبغى، وفى هذا الظن ظلم للقضاء وإجحاف بحقه، ولكن الناس معذورون عندما يرون أحكام القضاة تخالف فى كثير منها الواقع المشهود، وأرجع ذلك إلى أن القضاة يعينون من أعضاء النيابة العامة، وأعضاء النيابة العامة لايشتغلون بالمسائل المدنية التى يشتغل بها القضاة ولا يعرفون عادات التعامل المدنى وأعراف الناس، والسبب الثانى كثرة القضايا مما يرهق القضاة، واقترح المقرر أن يعين القضاة من المحامين حسنى السمعة ممن قضوا فى المحاماة عشر سنوات على الأقل، وألا يكون القاضى قابلا للعزل ولايرقى استثناء وأن تصرف إيرادات المحاكم على قضاتها، ويلاحظ أن تعيين القضاة من المحامين حسنى السمعة جرى بعد ذلك فى العشرينيات والثلاثينيات، وأن عدم القابلية للعزل صدرت بقانون استقلال القضاء فى عهد وزارة الوفد سنة ١٩٤٣.

ثم قدم الشيخ عبدالعزيز جاويش تقريرا عن «وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق أحكام الشريعة الغراء». وأشار إلى وجوب الاجتهاد بما يلائم ظرفى الزمان والمكان ويفيد درك المصالح فى إطار ما لايخالف ما أمر الله به ورسوله، ووجوب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية التى قررها نفر من أهل العلم دون رعاية المصلحة العامة، وأشار إلى نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قطع اليد فى حالة الحرب استثناء وعدم إنفاذ عمر حد القطع عام المجاعة وغير ذلك من سوابق التشريع الإسلامى، ثم عرض أمثلة للاجتهادات المطلوبة فى زمانه، ومنها أن عدة المطلقة يؤخذ فى تحديدها بقولها، والواجب عند الريبة الإحالة إلى طبيبة مختصة، ومنها وجوب التيسير فى التطليق بسبب إعسار الزوج، ومنها الطلاق ثلاثا ووجوب وقوعه طلقة واحدة.

ثم تكلم أحمد لطفى عن طرق الوفاق بين جميع عناصر الأمة وطبقاتها، وقصد بذلك أن الوفاق المطلوب لايجوز أن يقتصر على المسلمين والأقباط فقط، إنما يتعين أن يشمل الأجانب المقيمين بمصر وخصصوا عملهم وثروتهم لها وأسسوا بيوتهم فيها واتخذوها موطنا ثانيا لهم، فلم يعد ينقصهم لاستيفاء المصرية إلا التنازل عن جنسيتهم الأصلية، كما تكلم عن الوفاق بين طبقات الأمة.

وقدم على الشمسى تقريرا عن «التعلمى العملى: وفروع العلوم النافعة للصناعة والتجارة». فلاحظ نجاح انتشار الحركة العلمية، بحيث أن الآباء بعد أن كانوا يجبرون على تعليم أبنائهم فى الماضى، صاروا يطالبون الحكومة بنشر المزيد من المدارس، وصار الأغنياء ينشئون المدارس فى الأقاليم، وانشاوا فى القاهرة الجامعة المصرية. ثم تكلم عن تخلف الحرف والزراعة، ومن ذلك اهمال زراعة الفواكه والزهور واهمال تربية المواشى والخيول والأغنام والدواجن. واقترح ادخال مواد زراعة وحرفية فى الكتاتيب، فنعلم الصبية فائدة السماد الكيماوى، واستخدام الآلات، وانشاء مدارس ابتدائية وقانونية ندرس بها مبادئ التجارة وأعمال المصارف. وكذلك ان يضاف إلى المدارس العليا الموجودة وهى الحقوق والطب والهندسة، يضاف إليها مدارس عليا جديدة تدرس الكيمياء والصيدلة والكهرباء والاقتصاد وا لتجارة والمناجم. واقترح أن يدرس فى الكتاتيب أيضا ما يحبب التضامن إلى التلاميذ. وتكلم عن تجارب الدول الأخرى ومنها اليابان.

وكان هذا ما قيل متعلقا بما أسمى الجوانب الاجتماعية.

أما عن الجوانب الاقتصادية ، فقد قدم إبراهيم رمزى تقريرا عن الصناعة فى مصر، فذكر أن هذا المؤتمر لم يسبق له مثيل فى بلادنا، وأن الصناعة هى خيرموضوع أخرج للناس فى هذا العصر، وقال إنه من الغريب أن تاتينا العلوم والصناعات محمولة من أوروبا وفينا من حملة الشهادات العليا ألوف ومن حملة الشهادات المتوسطة مئات الألوف، ومنا الأغنياء ، والذين يتراوح دخلهم السنوى ما بين العشرة آلاف والأربعين ألفا من الجنيهات، ولدينا من الصحف والأحزاب والجمعيات ما يكفى، ولكننا لا نهتم بالماديات ، والزراعة لم تبلغ الأوج فيها، والصناعة نحتاجها صناعة وطنية، وفكرة تاسيس بنك أهلى باموال مصرية هى من الضروريات، وإذا جمعنا نصف مليون جنيه أمكن تاسيس عشرين أو ثلاثين صناعة، وإذا لم يكن لدينا فحم ولامعادن فإن الآلة البخارية التى تبلغ قيمتها ألف جنيه لاتحتاج من الحديد إلا إلى مائتى جنيه ومن الفحم مائة، والباقى عمالة ومهارة، والشركات هى وسيلة تنظيم هذا الأمر، وتضامن العمال مع أرباب العمل هو الوسيلة مثل«شركة التمدن الصناعى» التى أنشئت وصارت ملكا للمساهمين والعمال، وتكلم عن هذه التجربة وهى شركة تشتغل بصنع حروف الطباعة والأدوات المطبعية.

وقدم جبرائيل كحيل اقتراحين، الأول: لتكليف الحكومة بتعديل المعاهدات التجارية مع الدول الأجنبية بشأن تعريفة الرسوم الجمركية، وذكر أن تعداد سكان مصر زاد من نحو ٦٫٨ مليون نسمة سنة ١٨٨٢ إلى نحو ٩٫١ مليون نسمة سنة ١٨٩٧ إلى نحو ١١٫٢ مليون نسمة سنة ١٩٠٧، وأن سكان القاهرة زادوا من ٥٧٠ ألف نسمة سنة ١٨٩٧ إلى نحو ٦٥٤ ألف نسمة سنة ١٩٠٧. وسكان الإسكندرية زادوا من ٣٠٠ ألف نسمة سنة ١٨٩٧ إلى ٣٣٢ ألف نسمة سنة ١٩٠٧، ولم تزد وسائل العمل وطرق الكسب بما يغطى هذه الزيادة فصار فى مصر نحو ٢٫٦ مليون عاطل ومجهول الصنعة من الذكور فقط فى ١٩٠٧. ولاحل لذلك إلا فى الصناعة، والصناعة الأجنبية هى الرائجة لا لعجز المصريين عن الصناعة ولكن لأن الأجنبية أرخص وأجود، والصناعة نوعان تحويلى من الخامة إلى نصف المصنوع، والثانى تصنيع ما يستعمل ويستهلك كالنسيج والملابس، وإذا لم نستطع تصنيع النوع الأول فيمكننا تصنيع النوع الثانى، وكل الممالك تحمى صناعتها الوطنية بتخفيض الرسوم الجمركية على المستورد من المواد الأولية وزيادتها على المواد المصنوعة، ولكن الرسوم فى مصر هى بنسبة ٨٪ أو ٩٪ بغير تمييز. ثم عرض للمعاهدات التى يتعين تعديلها، أما الاقتراح الثانى فهو تعديل تعريفة نقل البضائع بالسكك الحديدية بما يرفع الغبن عن الشحنات الصغيرة حتى نستطيع منافسة أصحاب الشركات الكبيرة.

وقدم عبدالخالق مدكور تقريرا عن ترقية التجارة والصناعة فى مصر، أهاب فيه بذوى اليسار من المصريين الذين يودعون أموالهم الطائلة فى المصارف الأجنبية حتى امتلأت بغير فائدة للمودعين ولا لوطنهم ولا لمواطنيهم، أهاب بهم أن يساهموا بهذه الأموال فى تاسيس شركات تجارية، إن ذلك تزيد به فرص العمل وتتسع حركة التبادل والتعامل، وتحدث عن ترويج الصناعات المحلية والاستعاضة عن الصناعات اليدوية بالصناعات التى تعتمد على الآلات البخارية، وأهاب بالجميع تعضيد مواطنيهم من التجار والصناع، وتشجيع التجارة الوطنية والصناعات البلدية.

ثم قدم يوسف نحاس تقريرا عن «حالة مصر الاقتصادية والمالية» ترجم إلى العربية وألقاه على المؤتمر عبدالعزيز فهمى، فذكر أن الحالة الاقتصادية لمصر صورتها سوداء، وأنه لاقوام لأمة إلا بوفر ثروتها ،وأن الفتح الاقتصادى صار يحل شيئا فشيئا محل فتح الأراضى، والحرب الاقتصادية حلت محل حرب السلاح، وقذائف المدافع استعيض عنها بقذائف التعريفات الجمركية، والمقاطعة الاقتصادية صارت أنكى أثرا وأشد وقعا من جلل المدافع. ثم ذكر أننا نستجلب الأموال الأجنبية لا لنستعملها فى مشاريع جليلة ولكن لنبعثرها هباء، وأن أبوابنا لا رتاج عليها بل هى مفتحة. وعرض لخطرين أولهما سوء استخدام القروض، والاقتراض على المحصول الزراعى غيرمأمون بسبب ما قد يلحق المحصول من أخطار وسعر الفائدة حتى فى صورته المعتادة يبلغ بالمصروفات نحو ٧٪ ويزيد بذلك على قيمة الإيجار التى لا تجاوز وفقا للدراسات المعدة ٦٫٥٪ من قيمة الأراضى الزراعية (واستند فى ذلك إلى كتاب الفريد عيد عن ثروة مصر العقارية وديونها المضمونة بالرهون). وإذا قيل إن القرض لايزيد على ٦٠٪ من قيمة الأرض، فالجواب أن المقترض لايدفع الفائدة فقط ولكنه يدفع قسطا من أصل الدين مما يستهلك قيمة الأرض كلها فائدة وقسطا.

والخطر الثانى، أنه إذا كانت الأموال الأجنبية أدت خدمات جليلة لمصر، ولكننا ابتلينا بمحنة القروض منذ أيام الخديو إسماعيل ونتلقفها من كل فج وأصبحنا بعملنا هذا تابعين لأوروبا التى وضعت أموالها عندنا بفوائد مرضية لها جدا، والاحتلال وضع يده على مالية البلاد لأنه صار مسئولا عن حالة مصر المالية أمام الدائنين الأوروبيين وإيطاليا كانت مدينة فاشترت ديونها شيئا فشيئا. ودعا إلى أن يشترى المصريون ديون حكومتهم التى عليها للمقرضين الأجانب، وذكر أن الأغنياء المصريين يودعون أموالهم بالبنوك على سبيل الأمانة الحرة وتستثمرها البنوك لحسابها لا لحسابهم. وأن البنك الأهلى لدينا هو بنك إنجليزى وليس لدينا أى بنك وطنى للإقراض، والبنك العقارى يرهن أراضينا دون رقابة عليه من الحكومة كما هو شأنه فى فرنسا، والاستيراد من الخارج هو سبب فقرنا، والديون المرهونة بعقارات زادت من ١٢ مليون جنيه سنة ١٨٨١ إلى ٢٠ مليون جنيه سنة ١٨٩١. وهى الآن (فى سنة ١٩١١) تصل إلى ٥٠ مليون جنيه. وثروة مصر العقارية مقدرة بنحو ٣٠٠ مليون جنيه، والرهن العقارى الذى بلغ سدس هذه الثروة لم يمض عليه عندنا أكثر من ثلاثين سنة ولم يفعل أفاعيله إلا من عشر سنوات. وفائدة هذا الدين تبلغ ٤ ملايين جنيه تعبر البحركل سنة إلى الخارج ومعها ٣٫٥ مليون جنيه من ديون الحكومة. وانتهى من ذلك كله إلى أنه من الضرورى إنشاء مصرف وطنى يكون رأس ماله

لم يسموا المؤتمر بالمؤتمر الإسلامى، إنما أسموه المصرى، لأنه «بالمصرية» يمكن استيعاب الموقف، ولم يختاروا لرئاسته شخصا من بينهم، وممن يدخل فى خصومات الحاضر، ولكنهم اختاروا له مصطفى رياض باشا، وهو من رؤساء الوزارات السابقين فى ثمانينيات القرن السابق، ومن المعروف بالاعتدال الشديد الذى يزيل أى هواجس



مصريا صرفا وإدارته العليا مصرية بحتة، وأن القعود عن إنشاء هذا المصرف هو عار عظيم تسود منه الوجوه، ويلزم توصية الفلاحين ألا يلتجئوا للبنوك إلا عند الضرورة، وأن يقاطعوا المرابين مقاطعة كلية وأن ينشئوا النقابات الزراعية لتعين الفلاحين (يقصد التعاونيات)، وإنشاء البنك الوطنى المصرى وتشكيل لجنة لتأسيسه فورا.

ثم تكلم بعده على الفور عمر لطفى رائد الجمعيات التعاونية فى مصر، عن موضوع «التعاون المالى والنقابات الزراعية»، ذكر أن مصادر الثروة هى التجارة والصناعة والفلاحة. والتجارة فى مصر ليست فى أيدى أبنائها ولاصناعة فيها، وبقيت الزراعة وحدها مصدرا للرزق، ويتعين النهوض بهذه المصادر جميعها بتأسيس المصانع وتشجيعها، والسيطرة على التجارة وترقية الفلاحة. ولا تحسين لحالة كبار المزارعين إلا بإنشاء مصرف أو مصارف تقرضهم بفائدة لا تزيد على ٤,٥٪، ولاتحسين لحالة صغار المزارعين إلا بإنشاء النقابات الزراعية وشركات التعاون المالى أو بنوك التعاون، ثم عرض لتجربة إنشاء أول نقابة مصرية زراعية فى قرية شبرا النملة، وذكر أن الأموال الأجنبية كانت تهطل على مصر قبل الأزمة الاقتصادية التى حدثت فى ١٩٠٧، ولو كانت استعملت هذه الأموال لتنمية مصادر الثروة لكانت مصر بعدها فى بحبوحة، وأن فائدة النقابات الزراعية الآن هى مساعدة الفلاح على تحسين المحصول وتخليصه من أسر المرابين واستخدام الطرق الفنية فى الزراعة ومحاربة دودة القطن، ثم شرح دور النقابات الزراعية فى فرنسا وإيطاليا، وأن نقابة شبرا النملة فى مصر قامت بمساعدة الفلاحين فى الحصول على البذرة والسماد والآلات والمواشى وتأجير آلات الرى وتسهيل

لا أظن أن كتابا أو اجتماعا أو برنامج أو وزارة، عكس كل هذه العناصر التى قدر أهل ذلك الزمان أنها تشكل مشروع نهضة بلادهم، لا أظن أن حدث هذا بقدر ماحدث فى هذا «المؤتمر المصرى الأول»، ولعله لم يحدث قط فى مؤتمر آخر، وقد ورد على لسان أحد المتحدثين أن جزى الله الشدائد كل خير، فلولا مؤتمر أسيوط ماكانت تسنح فرصة هذا الاجتماع

بيع المحصول وتشييد المخازن والشون والإقراض وتنمية معارف الفلاح. وذكر أن الأمم الرشيدة تنهض بنفسها وليس بدافع الحكومة وتكلم عن شركات التعاون المنزلى، واقترح تشكيل لجنة مستديمة للبحث فى الأمور الاقتصادية وعلى الأخص مسألة التعاون، ورجاء الحكومة أن تعجل فى إصدارمشروع قانون التعاون الذى قدم لها من الجمعية الزراعية.

وعرض محمود أبو النصر ما أسماه «شركات مستودعات التأمين»، وقال إن هذا ثالث المشروعات العظمى المطلوبة بعد مشروع التعليم ومشروع البنك الوطنى يرد مشروع شركات التأمين، وعرض لمشاكل مصر الاقتصادية وسيطرة البنوك الأجنبية حتى صار الملاك فى أملاكهم أجراء لتلك البنوك على هذه الأملاك، وإن سبب مشاكلنا الاقتصادية هو الجهل بالتجارة والصناعة وانحطاط المحاصيل الزراعية، والفوائد الباهظة على القروض، وأن الربا الفاحش هو الحشرة السامة ،وربا المصارف ظاهره الاعتدال وباطنه الفحش فهى تصل إلى نحو١٢٪ وتزيد على متوسط الربح الذى يصيبه العامل من الزراعة والذى لايزيد على ٦٪، أما مراباة الأفراد فهى تصل إلى ٢٠٪، وإن علة انتشار المراباة هو عدم الثقة المالية لأن فى التسليف على المحاصيل وجه مخاطرة ولاترد الثقة إلا فى كبار التجار، ثم عرض لموضوع التامين بحسبانه ضمانة ومورد للثقة، مما يؤدى إلى تقليل سعر الفائدة.

وعرض لموضوع الربا الفاحش كل من هاشم محمد مهنا ومحمد على علوبة، فاقترح هاشم مهنا سن قانون يضرب على أيدى المرابين مع ضرورة إنشاء مصرف وطنى يقوم بأموال المصريين، وذكر أن الربا الفاحش لم يزل أقوى عوامل ضياع أموال المصريين سيما مع وجود الأزمة الشديدة لسنة ١٩٠٧، وهو إذا كان من مستلزمات العصر الحاضر إباحة الربا والضرورات تبيح المحظورات فإن الربا المباح كان مقيدا بالحد الأقصى الذى سنه القانون الوضعى وهو ٥٪ فى المواد المدنية، و٧٪ فى المواد التجارية، بما لايزيد على ٩٪ و ١٢٪، وهذا الحد لايمنع الربا الفاحش وقد خفض هذا الحد فى فرنسا ونادى بوجوب إنشاء نقابات وجمعيات للتعاون وإيجاد المصرف الوطنى وأن يكون هدفنا هو الاستقلال الاقتصادى.

وعرض محمد على علوبة للربا فى العصور المختلفة من أيام اليونان والرومان، وذكر أن أكثر من يعانى من الربا الآن هم المزارعون لأن ناتج الزراعة أقل من سعر الفائدة، وعرض للقوانين الأوروبية التى تجرم الربا الفاحش الزائد على الحد القانونى، وعرض لصور مما يعانى منه الفلاحون من ذلك منتهيا إلى ذات الطلبات.

ثم كان خاتمة التقارير الاقتصادية هو تقرير «حالتنا الاقتصادية الزراعية» الذى عرضه أحمد الألفى، فعدد سكان مصر بإحصاء ١٩٠٧ نحو ١١,٢مليون نسمة منهم ٢٨٦ ألف أجنبى بنسبة ٢,٥٪، ومساحة الأطيان ٥,٤مليون فدان، يملك الأجانب منها ٦٨٢ ألف فدان بنسبة ١٢,٥٪، ومتوسط ما يملكه المواطن ٤ أفدنة و٧ قراريط سنة ١٩٠١ صارت ٣ أفدنة و١٢ قيراطا سنة ١٩٠٩. أما الأجانب فمتوسط ملكية الواحد منهم ٩٠ فدانا و١٢قيراطا سنة ١٩٠١ صارت ٩٩ فدانا و٤ قراريط فى ١٩٠٩ وعدد كبار ملاك الأراضى

الزراعية الذين يملك الواحد منهم ٥٠ فدانا فاكثر ١٠,٤ ألف شخص يملكون ١,٧ مليون فدان بمعدل ١٦,٢ فدانا و٢٢ قيراطا للشخص سنة ١٩٠١، وصار ذلك فى ١٩٠٩ نحو ٦٠٩ آلاف شخص يملكون ١,٨ مليون فدان بمعدل ١٦٥ فدانا و٦ قراريط للشخص الواحد، أما بالنسبة للأجانب فعدد كبار الملاك الذين يملك الواحد منهم ٥٠ فدانا فاكثر سنة ١٩٠١ نحو ١٤٨٤ شخصا يملكون ٥١٠ آلاف فدان بمعدل ٣٤٣ فدانا و١٩ قيراط للواحد منهم، وارتفع ذلك فى سنة ١٩٠٩ إلى نحو ١٦٠٠ مالك أجنبى يملكون ٦٤٣ ألف فدان بمعدل ٤٠٩ أفدنة و٢١ قيراطا للواحد منهم فنسبة كبار الملاك فى المواطنين ٠,١ ٪ فى الألف وفى الأجانب ٠,٥٦٪.

ولايدخل فى هذه الأراضى أراضى الحكومة (الدومين) ولا الأرض غير المقرر عليها ضرائب. وفضلا عن ذلك فإن الديون المرهونة بها الأراضى بلغت ٤٠ مليون جنيه سنة ١٩٠٧، ومجموع الديون الأهلية يبلغ ٦٠ مليونا سنة ١٩١١، وأقل ربا لهذا الدين يبلغ ٥,٤ مليون جنيه فى السنة، وأن من يعملون بالزراعة حسب إحصاء سنة ١٩٠٧ نحو ٢,١ مليون نفس هم فى أدنى درجات الفقر، وزادت الأراضى الزراعية فى العشرين سنة الماضية نحو ٨٠٠ ألف فدان وتحولت أراض من رى الحياض إلى الرى الدائم، ومع ذلك نقص عدد المواشى من نحو ١,٦٧ مليون رأس فى ١٩٠٣ فصار نحو ١,٤٥ مليون رأس فى سنة ١٩٠٩.

والجهالة منتشرة فى الريف، وخاصة بين الفلاحين، وفى مصر ٧٣٥ مدرسة ليس فيها مدرسة زراعية واحدة، وبها ١٢٤ صحيفة ومجلة ليس فيها واحدة زراعية إلا مجلة وليدة باسم «مصلحة زراعية» صدرت أخيرا. وفى مصر جمعيات شتى وليس من بينها جمعية



زراعية واحدة، ثم طالب بتنشيط مشروع النقابات الزراعية ليعم البلاد، وتأسيس بنك زراعى وتحسين حالة الفلاح المعيشية وترقية الزراعة وتحسين أنواعها، وإنشاء ناد للمزارعين وتكوين جمعية زراعية فنية وتنشر المباحث الزراعية والاقتصادية.

لا أظن أن كتابا أو اجتماعا أو برنامجا أو وزارة ، عكس كل هذه العناصر التى قدر أهل ذلك الزمان أنها تشكل مشروع نهضة بلادهم من جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، لا أظن أن حدث هذا بقدر ماحدث فى هذا «المؤتمر المصرى الأول» ، ولعله لم يحدث قط فى مؤتمر آخر، وقد ورد على لسان أحد المتحدثين أن جزى الله الشدائد كل خير، فلولا مؤتمر أسيوط ماكانت تسنح فرصة هذا الاجتماع، وكان ذكاء القوم أن حولوا هذا الاجتماع من أن يكون رد فعل على اجتماع أسيوط ،وأن يكون طرف خصام أو حوار مع رجال ذلك المؤتمر، حولوه إلى أن يكون حكما بموجب الجامعية، وبدل أن ينحصر الحديث فى إطار العلاقة الثنائية بين المسلمين والأقباط وحدهما، وأن يقفوا متقابلين ، جعلوه مؤتمر نهوض بمصر ليقف المسلمون والأقباط فيه كتفا لكتف متجهين مع بعضهم البعض لبناء نهضة هذه الجماعة، وقد شخصوا من المشاكل ما أملاه عليهم البحث الموضوعى البصير، ووضعوا له من الحلول فى إطار ما سمحت به الثقافة السياسية الاجتماعية السائدة فى مصر والخارج، بما يدل على عمق البحث وشمول الإحاطة ونباهة النظر، وقد طمحوا إلى أن يعقد المؤتمر بعد سنتين على نحو دورى وشكلوا اللجنة التنفيذية المستديمة وهم أعضاء اللجنة التحضيرية ، وهى من ١٢٥ عضوا ، وسجلوا مطالبهم كلها باقتراحها وعرضها والتصويت عليها، رفضوا المطالب التى أبداها أقباط مؤتمر أسيوط ودعوهم إلى الانضمام لهذا المؤتمر المصرى، وقرروا فى البداية:

«أن الأمة المصرية هى فى مجموعها كل لايقبل التجزئة فى الحقوق السياسية، وأنه مع ما لكل طائفة دينية من الحرية التامة فى عقيدتها فإن للحكومة المصرية دينا رسميا واحدا هو الإسلام».

ثم عرضوا فى قراراتهم لمسائل التربية والتعليم والمسائل الاجتماعية ثم عرضوا للمسائل الاقتصادية وكان أول قرار اتخذوه فيها وأهم قرار هو «إنشاء مصرف وطنى مصرى برؤوس أموال مصرية» وقوبل الاقتراح والموافقة عليه بالتصفيق المتكرر وصادف إجماعا، وتحمس البعض فأبدى استعداده للاكتتاب فى الحال، وأعلن على لملوم السعدى أنه وعائلته مستعدون لتقديم ٣٦٠ فدانا ضمانة لأرباب الحقوق الذين يودعون أموالهم فى البنك، وقوبل كل ذلك بالهتاف.

وورد فى المطالب تقرير عقوبة على الربا الفاحش والسعى لدى الحكومة لعدم بيع أملاك الميرى الحرة للشركات الأجنبية، وتعضيد النقابات الزراعية وإنشاء مستودعات التامين وإنشاء نظارة للزراعة، وتحسين الصناعة المحلية وحماية الصناعة الوطنية وتاسيس الشركات الصناعية والسعى لدى الحكومة لإصدار قانون لحماية العمال.

وإذا كان لم يقدر انعقاد المؤتمر بعد سنتين، فقد كانت مطالبه واقتراحاته مما شكل برامج العمل الوطنى فى إطار ثورة ١٩١٩ وفى إطار النهضة التى عرفتها مصر من بعد.

ولعل الفرصة تسنح إن شاء الله من خلال الدراسات التى أعدت عن النصف الأول للقرن العشرين ، لمتابعة تنفيذ هذا المشروع.

والحمد لله.



هيئتهم نظيفة
وحركتهم خفيفة
وعليهم من الزحام أطباق

الطب والأطباء في ليالي ألف ليلة وليلة

محمد فؤاد الذاكري

■ ليالي (ألف ليلة وليلة) تعتبر صورة عن الأدب الشعبي تحكي نشأة الحياة على اختلاف صورها وتقدم ملامح واقعية عن شخوصها وأفرادها بمختلف اتجاهاتهم وأعمالهم. وتبرز شخصية (الطبيب) باعتبارها مفهومًا عامًا في حكايات الليالي لها خصوصيتها وملامحها الخاصة والمتنوعة وإطارها المتميز من خلال رصد مشاكلها وهمومها ومعاييرها وقيمها والدور الذي تلعبه في الحكاية، فهو يتراوح بين وظيفة مركزية أساسية ووظيفة فرعية لا تؤثر مباشرة في مجرى الأحداث لكن وجودها ضروري، إذ لا تكتمل الحكاية إلا بها، ودراسة واقع الطب والأطباء في الليالي يكشف جانبًا هامًا من التقاليد الاجتماعية السائدة مع تبيان المصادر التي استقت منها الليالي مادتها المعرفية والقصصية، كما تظهر درجة الوعي الصحي ومستوى التفكير الطبي على ضوء المبادئ الأساسية للمنظومة الطبية الفلسفية القديمة، وقد يعتبر البعض أن الليالي مثل ما جاء في بعض الكتب التراثية القديمة تقوم على إيجاد الخوارق والمعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة في سبيل الإعلاء من شأن بعض طرق المعالجة أو الأطباء، وهكذا يرتبط بالذهن أن المعالجات الطبية القديمة قائمة على الخلاب والأسطوري وخرق القانون وإدخال الاضطراب إلى النظام الطبيعي، وتعتمد على ترسيخ قانون الأشياء اللاواقعية والمفاجآت، وبهذا ترسخ منهجًا أقرب إلى اللاعلمية منه إلى العلمية واليقين.

هذه النظرة المتعجلة تنبع من قراءة لا تحليلية وغير متفحصة لتراث هو مرآة الماضي وصورة للتاريخ ومدخل لفهم الواقع المعاش بشكل صحيح بعيد عن الطروحات الجاهزة، ومفتاح لسبر أغوار المستقبل، وتستمد هذه النظرة الآنية شرعيتها بنقد الماضي، في محاولة يائسة لاستعادة جوهرها الإنساني المسلوب ثقافيًا وروحيًا، ولا تستطيع التخلص بالوقت نفسه من الخواء المعرفي الذي يلازمها وتدخل في نقاشات عقيمة واختلافات مصطنعة قائمة على استبعاد القدرات الإنسانية الأساسية وتكسبنا إحساسًا زائفًا بالأمان وثقافة مصطنعة منقوصة.

يقول (توماس كون) في مؤلفه بنية الثورات العلمية: «إن الانتقاص من الواقع التاريخي متأصل بعمق وربما عمليًا في أيديولوجية المهنة العلمية ويقول (وايتهيد) إن علمًا يتردد في إغفال ذكر مؤسسيه علم خاسر وضائع».

صورة الطبيب وعلومه:

تعتبر العلة الغائية لعلم الطب هي حصول واكتساب الصحة لجسم الإنسان ومداواة المرض والعلة وكما يقول محمد علي (التهانوي) في كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون»: فبدن الإنسان وأجزاؤه والأغذية والأدوية والأركان والأمزجة وغير ذلك، إذا جعلت موضوعات للطب فإنها تتشارك في كونها منسوبة إلى الصحة التي هي الغاية القصوى في ذلك العلم.

ويلفت انتباهنا بأنه يطلق على الطبيب في الليالي لقب (الحكيم) كناية عن علو شأنه في العلم والمعرفة بحيث كأنه «حصل له الكل» حيث تصدى الحكيم (رويان) لعلاج الملك من مرض (البرص Leprosy) الذي أصابه وعجز الجميع من (أطباء وحكماء) عن مداواته. في البدء كان لابد للقاص الشعبي أن يسرد لنا أنواع العلوم والمعارف التي يتقنها (الحكيم) حتى (ننبهر) بمدى قدرته العلمية ومعارفه الطبية، وهي إتقان «الكتب اليونانية والفارسية والرومية والعربية والسريانية وعلم الطب والنجوم وعالم بأصول حكمتها وقواعد أمورها من منفعتها ومضرتها عالمًا بخواص النباتات والحشائش والأعشاب المضرة والنافعة، قد عرف علم الفلاسفة وحاز جميع العلوم الطبية».

هذه اللائحة الطويلة بالعلوم والمعارف تجعلنا لا نشك مسبقًا في قدرة هذا الطبيب (الحكيم) على علاج مرض عضال مثل (البرص) كان يشكل تحديًا حقيقيًا للأطباء القدامى، ومهما كان جانب الخيال في أمثال هذه الحكايات ومهما تحرر (القاص الشعبي) من قيود التسلسل التاريخي «فالحكاية تجري أحداثها في مدينة الفرس وأرض رومان، أما الملك فاسمه (يونان)، لاحظ الدمج والتماثل...»، إلا أن القاص لا يمكن أن يفسر أو يبرر أحداث الحكاية بطريقته الخاصة، فهناك قدر من المنطق والمعقولية لا بد من وجوده، كما أن تميز (الحكيم) في نهج معالجته المختلف عن تناول الأدوية المعروفة واستخدام الدهون التي لم تعد تنفع، وكانت الطريقة بأن ينزل الملك (يونان) إلى الميدان الفسيح، وهو «قابض بكفه على قصبة الصولجان ومازال يضرب به الكرة حتى عرق كفه وسائر بدنه وسرى له الدواء من القصبة».

هذه الطريقة المبتكرة في العلاج عائدة بالطبع إلى خبرة الطبيب ومعارفه الواسعة، التي مهد لها (القاص) تمهيدًا مفصلاً، هذا هو المحور أو أساس الحكاية، وتساهم معها الأحداث المتلاحقة بعد ذلك في تأكيده، إذ قرر الملك بعد ذلك قتل (الحكيم) - الذي نجح في مهمة علاجه - نتيجة وشاية من الوزير الذي تضايق من المكانة والأموال التي جباها (الحكيم)، هذا الانقطاع قد يعتبره البعض مظهرًا من مظاهر (عبثية العلم) ولا جدواه، وكان لا بد للحكيم أن ينتقم لمقتله، فيحتال بحيلة لطيفة على الملك تؤدي لوفاته أيضًا، وهكذا ينتصر (العلم) أخيرًا على (القوة).

ونحن واجدون تشابهًا شديدًا في محنة العالم العربي (حنين بن إسحق) (١٩٤-٢٦٤هـ) - (٨٠٩-٨٧٧م) مع الخليفة العباسي (المتوكل على الله)، الذي اعتقد بأن (حنينًا) مدسوس عليه من ملك الروم لتدبير أذى له، والمبرر لذلك زيارة (حنين) الطويلة لبلاد الروم لطلب العلم والاستفادة في جمع الكتب القديمة ودراسة الطب. فالعامل المشترك بين (حنين) في القصة الحقيقية والحكيم (رويان) في الليالي، هي أن الأول كان خارج البلاد لفترة طويلة، إذ دامت رحلاته أكثر من ست سنوات والثاني كان غريبًا وافدًا، ليس من أهل البلاد الأصليين مما جعل الملك (يونان) و(المتوكل على الله) يداخلهما الشك في كون الاثنين مجندين لحساب قوة خارجية للقضاء عليهما وإيذائهما، ولا ريب أن التحريض والدسائس من رجال البلاط كانت تفعل فعلها، ولكن المصير كان مختلفًا في الحكايتين. فقد كان السجن نصيب (حنين بن إسحق) وسرعان ما أفرج عنه بعد إثبات براءته، أما الإعدام فكان للحكيم (رويان). وبالنتيجة فإن الأدب الشعبي يجد أحيانًا في القصص الواقعية سندًا ومتكأ له ويبقى الخيال والمبالغة سمة رئيسية له، ولكنه يكشف عن وجود الجمال والقبح في الواقع المعاش مع نزعة ظاهرة إلى الوعظ والإرشاد لغايات أخلاقية تعليمية، وهكذا فقد مات (الملك يونان) بعد سويعات معدودة من إصداره الأوامر بقتل (الحكيم) قائلاً: «لقد سرى فيّ السم» ويعلق القاص الشعبي في الختام: «إن الملك يونان لو أبقى الحكيم رويان لأبقاه الله لكنه أبى وطلب قتله فقتله الله».

بعض المؤرخين يدللون على التقدم الطبي، بأنه كان على مائدة (سيف الدولة الحمداني) أربعة وعشرون طبيبا إذا أكل الطعام، وهؤلاء الجمع من الأطباء ليس مهمتهم العلاج والمداواة بطبيعة الحال، بل تنظيم أوقات وكيفية أنواع أصناف الطعام المقدمة له بحيث تناسب صحته ومزاجه

تودد الجارية:

وقريب من الحكاية السابقة (تودد الجارية) التي استخدمت معارفها المتنوعة ومن ضمنها المعرفة الطبية، كأداة لها أهميتها الاجتماعية والسياسية وبحسب تعبيرها فقد: «وصلت إلى شيء لم يعرفه أحد إلا الراسخون في العلم».

وبغض النظر عن أن هذه الجارية (الموسوعية) كانت تمثل انتصار جماعة السنة على إبراهيم بن سيار النظام (المفكر المعتزلي المعروف) ومعارفها الطبية وغيرها من أنواع المعارف كانت المكافئ الثقافي للسلاح المادي، وهي لم تظهر أي نوع من الممارسة العلاجية، فالزمان والمكان لم يسمحا لها إلا بالمناظرة فقط، وقد اقتصرت في مناظرتها ضد (الطبيب الماهر) المجهول الاسم على ما أوردته من قواعد صحية مقتبسة من الطب النبوي ومن (الوصايا الطبية) المنسوبة إلى الطبيب العربي المشهور (الحارث بن كلدة) في محاورته الشهيرة مع كسرى بعد تحويرها قليلاً وإلباسها طابعًا إسلاميًا.

وما قالته الجارية تودد لا يعدو عرضًا ساذجًا مبسطًا لنظرية العناصر الأولى الشهيرة (النار، الهواء، الماء، التراب)، التي نادى بها الفيلسوف اليوناني (امبادوقليس)، هذه النظرية الفلسفية والتي تطورت فيما بعد لتفسير أمراض جسم الإنسان في ضوء علاقته بالكون وأن حصول العلل والأمراض ناجم عن عدم توازن الأخلاط الأربعة (الدم والصفراء والبلغم والسوداء) في جسم الإنسان، وهو تطوير (جالينوسي) وجد صدى له عند الأطباء العرب القدامى كأساس نظري طبي، والواقع أن تحقيق مشروع نظري عربي خارج عن هيمنة هذه النظرية كان يتطلب جهازًا معرفيًا (منظومة معرفية) لم تكن تتوافر لأحد من الأطباء على اختلافهم وكان ذلك يتطلب (قطيعة) مع المفاهيم الأبقراطية والجالينوسية اليونانية ومخالفة لرأي (السلطة الرسمية) السائدة لم تكن الظروف المادية وغيرها تسمح بها، وهذا ما لم يحققه الأطباء القدامى، بل على العكس حرصوا كل الحرص على تأكيد مشروعية علومهم الطبية بكونها تستجيب للشروط التي يشترطها الطب الأبقراطي اليوناني. والجدير بالذكر أن الأطباء القدامى أثاروا الاعتراضات والاستفهامات والخلافات مع المفاهيم الجالينوسية، ولكن هذه المعطيات كلها لم تترسخ لتشكل نهجًا مستقلاً أو منعطفًا حادًا يسمح بتجاوز سلطة (جالينوس) الطبية والخروج عن وصايته والانفلات الوثيق من سيطرة مفاهيمه. ونعود لنؤكد أن التزام الأطباء القدامى بما ذكرناه لم يكن معيقًا أو مانعًا من الولوج في عالم من الدقة والتفصيل العلمي الرائع مما يعطي الانطباع بأن التزامهم بهذه النظرية كان (شكليًا) في بعض الأحايين وكأنهم يبحثون عن راية يقاتلون تحتها حتى لو لم تكن تلبي طموحاتهم العقلية.

أجور الأطباء:

في حكاية طريفة أن خياطًا وزوجته قد دعوا رجلاً أحدب «رؤيته تضحك الغضبان وتزيل الهم والأحزان» لبيتهم بغية السخرية منه، وأثناء العشاء ألقمت المرأة جزلة سمك كبيرة في فم الأحدب، مما أدى لوفاته اختناقًا، وبغية التخلص من هذا المأزق، حملوه إلى منزل طبيب يهودي تحت ادعائهم بأنه طفل مصاب بالجدري، وطلبوا من خادمته النوبية استدعاء الطبيب بعد إعطائها مبلغ (ربع دينار) سلفًا كأجرة لفحص الطفل ومعاينته، وما كان من الطبيب البائس إلا أن نزل مسرعًا لأرض الدار بدون أن يحمل مصباحًا للإنارة، فالوقت كان ليلاً والظلمة حالكة، فعثرت رجله بالأحدب الميت المسنود على الحائط فوقع إلى أسفل وظن بأنه قد قتله، وتستمر فصول الحكاية الهزلية إلى أن يقوم الحلاق (المزين) باستخراج قطعة السمك من حلق الأحدب بواسطة (كلبتين من حديد) ليستفيق بعدها وقد عادت إليه الروح.

وهذه الإشارة الوحيدة في الليالي التي يشار فيها إلى أجر الطبيب وتحفل بعض المصادر التاريخية بمعلومات دقيقة فيما يتعلق بإدارة المؤسسات الطبية (المشافي أو البيمارستانات) بما فيها مخصصات الأطباء والجراحين وأطباء العيون والعاملين فيها للعناية بالمرضى وتدبير أمورهم... غير أنه لم تصلنا معلومات مفصلة حول طبيعة الأجر ومقداره وشروط العمل بالنسبة للأطباء الذين يتركز نشاطهم بخاصة بين أفراد عامة الشعب وتتركز معلوماتهم فيما يتعلق بهذه القضية بالأطباء المشهورين المعروفين والذين اكتسبوا سمعة جيدة في المضمار الطبي، وأتيح لهم تقديم الخدمات الطبية لرأس السلطة الحاكمة أو أحد أفرادها أو المقربين إليها والدائرين في فلكها، فاستفاد هؤلاء الأطباء في غالب الأحيان من الامتيازات المالية الجيدة التي كانت تغدق عليهم أحيانًا بلا حدود، وتحفل المصادر التاريخية بوقائع كثيرة وعديدة من هذا القبيل، نذكر ما رواه مؤرخ الأطباء الأشهر (ابن أبي أصيبعة) (٦٠٠-٦٦٨ هـ) عن الطبيب (أبو الفرج النصراني) الذي كان في خدمة الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، وطلب معونته لتزويج بناته، فأمر له بنحو ثلاثين ألف درهم.

ألف ليلة وليلة
القاهرة: مكتبة الجمهورية، بدون تاريخ.

وعلى سبيل المثال كان الأطباء فى العصر الفاطمى، يتقاضون مرتبات لقاء قيامهم بالخدمة داخل القصر تتراوح ما بين عشرة دنانير إلى خمسين دينارًا شهريًا.

وبحسب (ابن أبى أصيبعة) فإن الأطباء فى بلاد الشام فى العهدين الزنكى والأيوبى كانوا يتقاضون أجورًا شهرية تتراوح ما بين عشرة دنانير وثلاثين دينارًا، وكان الطبيب العامل فى المشفى أو البيمارستان يتقاضى أجرًا شهريًا يتحدد بأغلب الأحوال بحسب سمعته الطبية ومهارته العلمية، وهى التى تعرف (بالجامكية) مع جراية قمح أو نحوه، فالطبيب (رضى الدين الرحبى) كان يتقاضى خمسة عشر دينارًا ليتردد إلى (البيمارستان النورى) ويقوم بمعالجة المرضى وقد أطلق (صلاح الدين الأيوبى) ثلاثين دينارًا شهريًا للطبيب (عبد اللطيف البغدادى) ما لبثت أن زادت حتى وصل دخله إلى ما يعادل مائة دينار شهريًا.

وأما الطبيب (مهذب الدين عبد الرحيم بن على) والمعروف (بالدخوار) والمتوفى بدمشق (٦٢٨هـ) فقد رفض راتبًا شهريًا مقداره (ثلاثون دينارًا ناصرية) ليكون برسم خدمة العسكر لمعالجتهم من أمراضهم، وذلك لأن صنوه وزميله الطبيب (موفق الدين عبد العزيز) كان يتقاضى مائة دينار شهريًا وهو لا يقل عنه - حسب قوله - معرفة فى المعالجة الطبية.

كما عرض الملك الناصر (داود بن الملك المعظم عيسى) عندما كان صاحب الكرك وأعمال القدس وذلك سنة (٦٣٠هـ) على الطبيب (أوحد الدين عمران بن صدقة) (٥٦١ - ٦٣٧هـ) راتبًا شهريًا مقداره (ألف وخمسمائة درهم) ليكون فى خدمته، وأن يأخذ سلفة مقدارها (سبعة وعشرون ألف درهم) عن سنة ونصف مقدمًا، فلم يرض وفضل البقاء فى دمشق للعمل فى البيمارستان الكبير النورى ولخدمة الدور السلطانية بالقلعة.

وهناك وثيقة أصلية توجد فى مكتبة جامعة كمبردج يعود تاريخ كتابتها للقرن السابع الهجرى، (الثالث عشر الميلادى) وبالتحديد ما بين (٦١١ هـ - ١٢١٤م)، (٦١٦هـ - ١٢١٩م) تتضمن فحواها التماسًا أو عريضة من أحد الأطباء المدعو (مكارم بن إسحق المتطبب) للحصول على وظيفة بأجر شهرى مقداره (ثلاثة دنانير) فى بيمارستان بالقاهرة، وفيما يتعلق بتفاصيل الأجر الشهرى الذى يطلبه الطبيب الملتمس وأسماء الأشخاص الواردة أسماؤهم ضمن الوثيقة يجعلها واضحة ودقيقة ومميزة ومصدرًا هامًا وثمينًا لاستجلاء بعض المعلومات، وهى بالتأكيد أكثر من رسالة مدبجة والجدير بالذكر أن (الملك الكامل الأيوبى) قد أطلق للطبيب (أسعد الدين ابن أبى الحسن) إقطاعات يستغلها كل سنة بالديار المصرية ورسم بانتظامه فى سلك الخدمة وقرر له كل شهر مائة دينار مصرى. وهذا الراتب الشهرى يبدو كثيرًا بمقارنته بمبلغ الثلاثة دنانير المتواضعة التى يطالب بها صاحب الالتماس (مكارم بن إسحق)، كما وصف (أبو على التنوخى) (المتوفى / ٣٢٨هـ) طبيبًا مصريًا يعرف (بالقطيعى) كان يكسب فى الشهر (ألف دينار) من مرتبات أجور كان يتقاضاها من «رؤساء العسكر ومن السلطان وما يأخذه من العامة» ولا بد من الاعتراف بأنه من الصعب تحديد أجر الطبيب العادى بصورة دقيقة فى الماضى.

عيادة الطبيب:

كان الأطباء القدامى فى المدن الكبيرة ببلاد الشام يعملون فى (دكاكين خاصة)، وهى أشبه بالعيادات الخاصة فى ذلك الوقت الحاضر، حيث كان الطبيب يجلس فى دكان يقع فى مركز المدينة التجارى أو أحد أسواقها الكبرى الهامة، ويستقبل المرضى ويعالجهم بحسب احتياجاتهم ويعطيهم الدواء المطلوب الذى يقوم بتحضيره فى غالب الأحيان من مصادره النباتية والحيوانية، ويورد (القاسم بن على الحريرى) وصفًا حيًا لدكان أحد المتطببين وهو (الحجام)، من خلال (المقامة الحجرية) نتبين منها كثرة تردد الناس والزحام الشديد على دكان الحجام، فيصفه بأنه «شيخ هيئته نظيفة وحركته خفيفة وعليه من النظارة أطواق ومن الزحام أطباق».

ويذكر (ابن أبى أصيبعة) عددًا من الأطباء الذين كانوا يعملون فى الدكاكين الخاصة بدمشق فى القرن السادس الهجرى، نذكر منهم:

١ - أبو الحكم عبيد الله الباهلى الأندلسى (ت ٥٩٤هـ): كان متقنًا للصناعة الطبية، مشهورًا بالشعر يزاول عمله الطبى فى دكان يقع بجوار (باب جيرون) أحد أبواب الجامع الأموى الكبير.

٢ - أبو جعفر عمر بن البذوخ (ت ٥٧٦هـ): كان خبيرًا بمعرفة الأدوية ويقوم بتحضيرها وبيعها فى دكان عطارة (باللبادين) يعالج فيها من يقصده أو يستوصف منه، وصنف عدة كتب طبية منها حواشى على كتاب القانون لابن سينا.

٣ - حكيم الزمان عبد المنعم الجليانى (ت ٦٠٠هـ): كان بارعًا بالكحالة «أمراض العين ومداواتها» واشتهر بها وكانت له دكان فى (اللبادين)، وله كتب تتراوح بين البلاغة والشعر ووصفات الأدوية.

٤ - كمال الدين الحمصى (ت/ ٦١٢هـ): اشتغل بصناعة الطب، وكانت له دكان (بالخواصين) بدمشق يجلس بها وله عدة كتب طبية منها: اختصار كتاب الحاوى للرازى.

وفى الليالى يرد وصف حسى لدكان الطبيب فى حكاية (نعم ونعمة)، حيث إن الطبيب الأعجمى الذى يوصف «بإتقان الطب والتنجيم وضرب الرمل» قد افتتح دكانًا فى مدينة دمشق «وملأ رفوفها بالصينى النفيس والأغطية وزركش الرفوف بالذهب والقطع المثمنة وحط قدامه أوانى من القنانى فيها سائر الأدهان ووضع حول القنانى أقداحًا من البلور». ولا ينسى القاص أن يضيف إلى كل هذه الأشياء (الإسطرلاب)، وهى بالتأكيد أداة للفلكى والمنجم تأييدًا لوصف الطبيب بأنه يجيد التنجيم إلى جانب العلوم الطبية والتأكيد مرة أخرى على الارتباط الوثيق بينهما. ومن الطبيعى أن يصيب هذا (الطبيب الأعجمى) شهرة بين أهل دمشق، فلباسه الفاخر عبارة عن قميص من الحرير وقد حزم فوطة حرير على وسطه مزركشة بالذهب، كما كان يجيد الفارسية ويتحدث بها مع مساعده أمامهم، وعلى حد تعبير القاص فهى «عادة أولاد الأكابر»، وكان لا بد أن يتكلم الطبيب بلغة أعجمية حتى يعطى انطباعًا أمام مستمعيه بأنه ذو علم وخبرة وهو تأثير نفسى قد ينسحب حتى عالمنا الحاضر.

وباختصار فقد لبس الطبيب الأعجمى (أثواب الحكمة والطب)، ويرد فى الحكاية وصف لطريقة تشخيص طبية قديمة تعتمد النظر إلى قارورة بول المريض وفحصها ومن ثم تشخيص المرض أو الداء، وهو الاستدلال بالأحوال الحاضرة عن الأحوال الظاهرة وإعطاء العلاج المطلوب.



يقرر (ابن خلدون): «أن الجوع هو الدواء العظيم الذى هو أصل الأدوية» بعد استنتاجه قوانين عامة فى مشروعه الاجتماعى الحضارى. فقد لاحظ أن «أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبًا بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم». أما «المتقشفون فى عيشهم المقتصرون على الشعير أو الذرة.. فتجد هؤلاء أحسن حالا فى عقولهم وجسومهم».

وبهذا الصدد يروى الطبيب الفيلسوف (إسحق الرهاوى) (المتوفى فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى) حكاية طريفة عن طبيب عرضت عليه إحداهن قارورة لأحد أقاربها بغية وصف علاج لمرض يشكو منه، ولكنها اعترفت قائلة بأن جماعة من جيرانها المرضى لما علموا نيتها الذهاب لدكان الطبيب حملوها قواريرهم أيضًا، فاستصعبت حملها، وسرعان ما هداها تفكيرها إلى جمعها كلها فى قارورة واحدة مشتركة، وهى تطلب من الطبيب أن يصف لكل مريض منهم العلاج المناسب، ويعلق (الرهاوى) بقوله: «من الناس من هم قليلو التحصيل فى حال صحتهم، لا يفهمون ما يخاطبون به ولا يعون ما يشار به عليهم فكيف فى حال المرض، لذلك يجب على الطبيب قبل أن يشير على المريض بمشورة أن يختبر عقله وتحصيله وعقل خادمه المتولى لخدمت، فإن وثق بجودتهم أشار بما يراه من الأدوية والتدابير وإن لم يثق بصحتهم أمسك».

وهنالك دلالة أخرى هامة، فقد طلب الطبيب المذكور معرفة اسم المريضة ليحسب نجمها ويستدل منه فى أى ساعة يوافقها شرب الدواء بحسب تأثير قوى الكواكب وأوضاع الأفلاك. هذه الظاهرة كانت منتشرة لدرجة أن (ابن خلدون) هاجمها بقوله: «فينبغى أن تحظر هذه الصناعة على جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار فى الدين والدول ولا يقدم فى ذلك كون وجودها طبيعيًا للبشر بمقتضى علومهم ومداركهم».

وكما يقول الباحث المغربى (محمد عابد الجابرى): «لم يقاوم العقل العربى التجريبى اللامعقول الوافد عبر الترجمة وكان حظ اللامعقول فيها كبيرًا واسعًا مثل العقيدة الهرمسية وحلولية الهند ومجوسية الفرس وقبالية اليهود وغير ذلك من العلوم الروحانية مثل السحر والطلسمات والتنجيم والكيمياء وغيرها..».

إن تفسير (اللامعقول) المتداخل فى العلوم الطبية عملية معقدة وتستدعى الإحاطة بها كثيرًا من المداد، ولن ننسى بأن المعارف الطبية قد تستقل فى اللحظة الزمنية التى تتواجد فيها عن درجة التطور الفكرى للأفراد.

وتبرز حكاية أخرى لها دلالة هامة تتحدث عن طبيب تعلم صنعة الطب فى مدينة دمشق حيث استدعى لمعالجة مريض شاب فجس نبضه ومفاصله وكتب له (وصفة طبية) وطفق يتردد عليه فترة عشرة أيام حتى تماثل المريض للشفاء. والواقع أنه كان لمعرفة النبض وانقباضه وانبساطه وسيلة تشخيصية هامة لدى الأطباء وهذه المعرفة لا تتأتى إلا بعد التعلم والممارسة لفترات طويلة وكانوا يستدلون به على أحوال القلب وأمراضه ويقول (إسحق الرهاوى): «وعلم النبض للطبيب فى حفظ الصحة وفى معالجة المرض علم عظيم النفع لأنه كما قال جالينوس مخبر لا يكذب فلذلك وأشباهه ينبغى أن يتوفر على حفظ القلب».

ويقول الطبيب (هبة الله بن جميع) (ت٥٨٦ هـ/ ١١٩٠م) «وجالينوس يقول إنه أقام سنين كثيرة عديدة يتأمل النبض بحرص شديد واجتهاد عظيم حتى أدرك انقباض العرق إدراكًا يثق به. إدراك انقباض العرق مبدأ من مبادئ علم النبض. وأبو على الحسن بن عبد الله بن سينا يقول: إن فى النبض طبيعة موسيقية مشابهة للأمور التى تتألف منها علم الموسيقى، لأن النسب التى بين أزمنة النقرات والنسب التى بين أحوال النبضات فى القوة

والضعف ومقادير انبساط العرق كالنسب التي تبين أحوال النغم في الحدة والثقل...». وقد كان من جملة المعارف التي ينبغي أن يتقنها الطبيب الحركات الموسيقية وتواترها واختلاف نظامها واختلاف الألحان والأنغام لتمييز الصوت العريض والثقيل الأبح والدقيق والوسط حتى إن (جالينوس) كان يوصي بترويض الأنامل بجس الأوتار. والواقع أن معرفة ذلك وتعلمه ليس بالأمر السهل، وقد يحتاج الأمر إلى سنين كثيرة ويوجد كتابان من تصنيف (جالينوس) في هذا العلم هما: «كتاب النبض الكبير»، «كتاب النبض الصغير».

الطبيب الجوال:

وفي صورة مغايرة نجد حكاية (الطبيب الجوال) الذي يجعل على عاتقه جرابًا فيه بعض الأدوية وينادي في الأسواق والأزقة: من يحتاج إلى طبيب!!! ونفاجأ في الحكاية بأنه طبيب مزعوم وحقيقته لص متنكر هدفه القضاء على أحد التجار وسلبه ماله، وقد أقنعه بشرب دواء كان في حقيقته سمًا زعافًا وانطلت الحيلة وتم المراد للص.

ومن الواضح أن الليالي قد تأثرت بالحياة الراهنة في زمن القاص فقد عقد (ابن خلدون) في مقدمته فصلاً هو «في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع» ولاحظ فيه أثر اختلاف العادات الغذائية على الإنسان وطباعه وأخلاقه حيث يؤكد «هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم».

كما صنف (أبو بكر الرازي) (ت ٣٢٠هـ) كتابًا بعنوان «منافع الأغذية ودفع مضارها»، ذكر منافع ومضار الأطعمة المتداولة في عهده وأثرها في الجسم الإنساني، وحاول تصحيح بعض المفاهيم الجالينوسية اليونانية في هذا المجال. ولقد وافق (ابن خلدون) هذا المعنى «واعلم أن أصل الأمراض كلها إنما هو من الأغذية» ويتابع شرحه قائلاً: «الحميات في الأبدان وهي رأس الأمراض... ولهذه الحميات علاج بقطع الغذاء عن المريض أسابيع معلومة ثم تناوله الأغذية الملائمة حتى يتم برؤه».

هذا المبدأ يجد صداه في (دستور الطب في الجاهلية) الذي قرره طبيب العرب (الحارث ابن كلدة) حين سئل: ما الدواء؟ فقال: «الأزم» يعني الحمية، ويقرر (ابن خلدون): «أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الأدوية» بعد استنتاجه قوانين عامة في مشروعه الاجتماعي الحضاري، فقد لاحظ أن «أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها غالبًا بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم».

أما «المتقشفون في عيشهم المقتصرون على الشعير أو الذرة.. فتجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم وجسومهم». ويستطرد (ابن خلدون) في الاستنتاج والتحليل فيصل إلى «أن الخصب في البدن وأحواله» ينعكس حتى على الدين والعبادة، وأن المتقشفين من أهل البادية والحاضرة «أحسن دينًا وإقبالاً على العبادة من أهل الترف والخصب».

وفي توضيح آخر إن الغذاء الذي يحفظ للإنسان حياته، قد يستحيل إلى «تخمة» وهي «إن بقيت في الجوف قتلت وإن تحللت أسقمت».

كما ذكر (الحارث بن كلدة) طبيب العرب «إن الإكثار من تناول الأغذية يؤدي لكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة التي تولد في الجسم فضلات رديئة وتكسب الفرد بعض الصفات الشخصية السيئة منها: البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة». وعدم



كان لمعرفة النبض وانقباضه وانبساطه وسيلة تشخيصية هامة لدى الأطباء وهذه المعرفة لا تتأتى إلا بعد التعلم والممارسة لفترات طويلة، وكانوا يستدلون به على أحوال القلب وأمراضه ويقول (إسحق الرهاوي): «وعلم النبض للطبيب في حفظ الصحة وفي معالجة المرض علم عظيم النفع لأنه كما قال جالينوس مخبر لا يكذب».

الإفراط في الطعام يؤدي إلى «ذكاء العقول وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم».

وبملاحظة ذكية يقرر أن النفس الإنسانية إذا ألفت شيئًا صار ذلك من عادة طبيعية لها، وكذلك من عود نفسه على الاعتدال، ويعبر عن وجهة نظره الطبية ذات الأصل العربي الإسلامي: «واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الإقلال منها، وإن له أثرًا في صفاء الأجسام والعقول في صفائها وصلاحها كما قلناه...».

وعودة إلى الأطباء الجوالين فهؤلاء يقومون على مبدأ «أصحاب الحيل methodistes» ويعتمد الأطباء الجوالون على مقارعة المرض بأية طريقة كانت لشفائه بدون أي تحصيل نظري وقد سماهم (ابن جميع) «الطبيب العمال». ويعزو سبب وجودهم أنهم «إذا اتفق أن أصاب لم يدر أنه أصاب ولا من أين ولا كيف أصاب وإن أخطأ لم يشعر أنه أخطأ ولا بد من أين ولا كيف أخطأ».

فهو (كالخابط في عشواء) والمقاييس التي يصفها (ابن جميع) للطبيب الماهر تنبع من وجهة نظر (جالينوس) التي أشار بها في أول كتابه «الصناعة الصغيرة» وهي: «بل إنما تحصل تلك القدرة بطول الارتياض والتمرن والتخرج في مباشرة أعمال الطب وكثرة المزاولة لجزئياته بعد حصول المعارف التي تشتمل أولاً معلومة عند المباشر ولا سيما بين يدي الأستاذين والحذاق».

ومع اعتراف (الرهاوي) أن الإنسان استخرج العلوم الدقيقة والصنائع (بطريق الحيلة)، في تحقيق الأشياء العويصة البعيدة النظر، وهو بذلك يقصد (الاستدلال العقلي)، ويربط مثالاً عليها بالمهندسين الذين أخذوا مصادر (إقليدس) من كتابه (الأصول) ثم تطوروا إلى معرفة القوانين الطبية وقد أوضح جالينوس تلك (الطرق اللطيفة) التي استخرجها الأطباء في كتابه (حيلة البرء) وأصحاب الحيل الذين استفادوا من ذلك يصفهم (الرهاوي) بأنهم: «إذا تأمل المتأمل باطن تلك الأعمال وجدها ممزقة وحيلة وباطلاً لا حقيقة له لا في علاج المرض ولا في حفظ الأصحاء، بل على أكثر الأمر إنما تكون أعمالهم سببًا لمرض الأصحاء». ولكنه يقسمهما إلى طبقتين، إحداهما المتشبهين (المموهين) والحذاق التي يكون بدء المريض بفضلها عن طريق الوهم كمعالجة بعض الأمراض النفسية، ويضرب عدة أمثلة لتأييد دعواه، أما (ابن جميع) فيدين هذه الطبقة جميعها بدون استثناء.

قواعد صحية:

في حكاية ذات مغزى تتعلق بالنظافة العامة أن رجلاً أكل لونًا من الطبيخ يتخذ من السكر واللوز والخل هو (الزيرباج) ومسح يده فقط وتجاهل غسلها، وقد تصادف في ذلك اليوم زفافه، فلما شمت عروسه الرائحة المنبعثة من يديه ثارت وغضبت غضبًا شديدًا «وكانت ذات نفوذ كبير لأنها جارية السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد». واتهمت زوجها بالجنون لأن العاقل حسب تعبيرها «لا يأكل من الزرباجة ولا يغسل يده بعدها»، وقد كان عقاب الزوج بعدها شديدًا، إذ تعرض للضرب بالسوط حتى غاب عن الوعي، أصرت بعدها الزوجة على قطع يده عقابًا له، ولكنه بعد الرجاء والاسترحام اكتفت بقطع إبهامي يديه ورجليه بعد تقييده طبعًا، وانقلبت ليلة العرس السعيدة إلى ليلة تعذيب سادية، عاهد الزوج نفسه بعدها ألا يأكل هذا اللون من الطعام إلا بعد أن يغسل يديه أربعين مرة بالصابون.

ويتأكد لنا وجود سلطة قرار مركزية ونظام سياسي ينظم ويشرع للشعب، فالسلطة المقترنة بالوعي المعرفي (الجارية) فرضت إرادتها ضد الزوج الذي لا يستحق بلا ريب هذا العقاب الفظيع الدامي، ولكنه درس مؤثر لناحية صحية هامة لا يجوز إغفالها.

ويبرز لنا (الرهاوي) التدابير الصحية والسياسة اليومية التي ينبغي للطبيب أن يدبر نفسه بها في كل يوم مدة حياته، وهي ترتدي طابعًا إنسانيًا شموليًا لكل الأفراد على حد سواء، فيجب «أن يبدأ في كل يوم باستنظاف ما يبرز من سائر منافذ بدنه كالذي يبرز من منخريه وعينيه وفمه ونظائرها وتزكيتها بالماء، وليس يكثر في هذه المنافذ الفضلات إلا لكثرة الأكل والشرب وسوء ترتيبها».

من الصعب إدراك تفاصيل صورة الطبيب الحقيقية الواقعية من حيث إنها ترسم من خلال عالمها صورة لمجتمعها وخيالها انطلاقا من مبادئها الأخلاقية المتميزة والعلاقات الاجتماعية التي تتخللها، إن بعض المؤرخين يدللون على التقدم الطبي، بأنه كان على مائدة (سيف الدولة الحمداني) أربعة وعشرون طبيبا إذا أكل الطعام، وهؤلاء الجمع من الأطباء ليس مهمتهم العلاج والمداواة بطبيعة الحال، بل تنظيم أوقات وكيفية أنواع أصناف الطعام المقدمة له بحيث تناسب صحته ومزاجه، ويروي لنا (ابن أبي أصيبعة) عدة روايات عن أطباء استحقوا شهرة في زمانهم ونالوا الرتب والإنعام لأنهم استطاعوا بحيلة لطيفة أن يطعموا رأس السلطة الحاكمة بعض أنواع الطعام التي لا تناسبه، إن هذا الهدف المتواضع من وجهة نظرنا كان حيويا جدا في زمنه.

ولكن (الرهاوي) المثالي يقدم لنا اتجاها آخر يتعارض تماما، فهو يذكر أن «الفاضل لا يأكل إلا ما حاجته إليه ماسة وفي الوقت الموافق والمقدار الكافي، وكذلك ما يشربه، وكذلك يفعل في سائر أعماله وحركاته وسكونه ونومه ويقظته، وبالجملة سائر ما يدعو الطبع إلى استعماله، فإن فضيلته في ذلك هي ألا يأخذ منه بحسب اللذة لكن بحسب الحاجة».

ويؤكد ذلك بعامل فيزيولوجي وآخر اجتماعي.

العامل الفيزيولوجي: شرح لأعضاء البدن الإنساني والإجراءات الواجب اتخاذها للعناية بها مثل: الكبد والمعدة والرئة.

العامل الاجتماعي: في التدابير اليومية الجسمانية والأخلاقية.

إن العلم بالتاريخ شرط مسبق للذكاء العلمي، فمن دون تاريخ لا تتوافر للعقل العلمي ذاكرة مشتركة عن مكانته في أزمنة سابقة وعن قيمته المركزية وعن القوانين العلمية التي ظهرت في الماضي ولاتزال صالحة للحاضر. ■

المصادر والمراجع

١ - ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
٢ - ابن خلدون. مقدمة ابن خلدون. تحقيق درويش الجويدي. الطبعة الثانية. المطبعة العصرية. بيروت. ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
٣ - أحمد عيسى. تاريخ البيمارستانات في الإسلام. الطبعة الثانية. دار الرائد العربي. بيروت. ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٤ - إسحق الرهاوي. أدب الطبيب. تحقيق مريزن عسيري. مركز الملك فيصل للبحوث الإسلامية. الرياض ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

عن «المخاخيط»

الذين مزجوا السمو الإنسانى بالعمل اليدوى!

حجر النور: نفر الصامت
كريستيان جاك
ترجمة: ليلى حافظ ومنار رشدى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٣٩٢ ص، ٢٠ جم.

كان كريستيان جاك يستعد للصورة التذكارية التى ستلتقط له مع المطربة الفرنسية سيلفى فارتان، أمام معبد دير المدينة بالأقصر، عندما حاول صحفى من جريدة «الليبراسيون» استفزازه قائلاً: إن علماء المصريات فى العالم يطلقون عليه متهكمين لقب عالم البازار. وحينئذ رأيت كريستيان جاك يخرج عن مظهره الهادئ للمرة الوحيدة خلال الاحتفال الذى أقامه له ناشره الفرنسى فى مدينة الأقصر فى شهر مارس الأخير، بمناسبة صدور روايته الجديدة «حجر النور»، ليرد على محاوره بثقة : «إننى لا أتخيل سوى أن يغار العلماء الكبار منى. . إن هؤلاء العلماء ينبغى أن يمنحونى وساماً، فقد وجهت اهتمام الكثير من الناس إلى التاريخ المصرى القديم».

والواقع أن كريستيان جاك الذى أصبح من أشهر مؤلفى الروايات الفرعونية، وأكثرهم انتشاراً فى الوقت الحالى يستحق أن يغار منه زملاؤه من علماء المصريات. فقد عادت عليه رواية «رمسيس الثانى» التى ألفها فى خمسة أجزاء، صدر أولها عام ١٩٩٥، بأربعين مليون فرنك فرنسى. كما أنه يستحق أيضاً أن يمنح الوسام الذى يتحدث عنه، خاصة إذا عرفنا أن نفس الرواية وزعت ١١ مليون نسخة فى ٢٤ دولة فى العالم مترجمةً بمختلف اللغات. فقد وظف كريستيان جاك خلفيته العلمية والأكاديمية فى كتابة الروايات المستمدة من التاريخ المصرى القديم، وهو الحاصل على الدكتوراه فى الدراسات المصرية من السوربون، كما أنه متخصص فى اللغة الهيروغليفية، و نشر له العديد من الدراسات العلمية فى الدوريات والكتب المتخصصة. ولكن لم يحدث أن اجتذب أى من الكتب ذات الطابع العلمى التى كتبها هو وتناولت مصر القديمة، أو كتبها غيره من العلماء والمؤرخين الذين يفوقونه شهرة، تلك القاعدة العريضة من القراء التى حظيت بها رواياته التاريخية.

فالروايات التى يكتبها كريستيان جاك تعد من النوعية التى تهدف إلى التسلية فى المقام الأول، وتتوجه إلى جمهور واسع من القراء. وعندما تقرأ روايته الجديدة «حجر النور»، تجدها مشتملة على كل عناصر الدراما والتشويق التى قد نراها فى الأفلام الجماهيرية التى تنتجها هوليوود: فهى تبدأ بجريمة قتل، ثم يظهر البطل الذى يخوض سلسلة من المغامرات والصعوبات فى سبيل تحقيق حلم حياته بأن يصبح رساماً محترفاً وينضم إلى جماعة الفنانين التى تسكن فى قرية مغلقة يحيط بها الغموض والسرية، ثم هناك بالطبع البطل الشرير الذى يدبر المؤامرات لتدمير تلك الجماعة المتميزة. وكذلك لا تنقص الرواية بعض المشاهد العاطفية الحارة، وبعض اللكمات العنيفة التى يسددها البطل، الذى تصفه الرواية بالقوة الجسمانية الهائلة والطول الفارع. (ومن المفارقة أن تلك النقطة بالتحديد أزعجت صحفياً يابانياً حضر الاحتفال، قال لى مستوقفاً أن المعلومات التاريخية تؤكد أن المصريين القدماء كانوا قصار القامة).

لكن إلى جانب حكايتها البسيطة، رغم طولها وتشعبها، وشخصياتها المسطحة ذات البعد الواحد، رغم تعددها وتنوعها، تزخر الرواية بكم هائل من المعلومات التاريخية والعلمية يجعل من نجاحها وانتشارها الواسع أمراً يستحق التشجيع. فقد قدم المؤلف من خلال روايته صورة من قريب لحياة الفنانين القدماء فى مصر،هؤلاء الذين احترفوا البناء والنحت والرسم والتلوين، وأبدعوا الروائع الفنية التى نرى بعضها اليوم فى المعابد والمقابر والتماثيل التى خلفوها وراءهم. يقول المؤلف فى مقدمته :

«إن صانعى تلك التحف الفنية لا يمكن أن يكونوا مجرد قطعان من العبيد أو عمال مضطهدين، ولكنهم جماعات، أعضاؤها المختارون كانوا فى الوقت نفسه رجال دين وحرفيين. وعن طريق مزج السمو الروحانى بالعمل اليدوى، قاموا بتكوين جماعة من الصفوة مسئولة مباشرة أمام فرعون».

وتدور أحداث «حجر النور» حول إحدى هذه الجماعات التى كشفت الوثائق أنها عاشت طوال خمسة قرون من عام ١٥٥٠ إلى عام ١٠٧٠ قبل الميلاد فى قرية «ساحة الحقيقة»، المعروفة الآن باسم قرية دير المدينة والواقعة فى البر الغربى من مدينة الأقصر، وكانت المهمة الرئيسية للجماعة هى بناء وتزيين مسكن الأبدية للفراعنة فى وادى الملوك القريب من موقعها. وكانت قرية «ساحة الحقيقة» معزولة داخل أسوار عالية، لا يستطيع أن يدخلها أى شخص لا ينتمى للجماعة إلا بتصريح خاص، أما أفراد الجماعة الذين يكونون صفوة الحرفيين والرسامين والنحاتين، فقد كانوا يعيشون فيها معاً كعائلة كبيرة، متمتعين بمكانة متميزة عند الفرعون، ولهم محكمة خاصة بهم، ومعبد، ومدينة للأموات.

تلك المدينة التى يستطيع أى زائر اليوم أن يشاهد آثارها ويقرأ تاريخها، قام المؤلف فى روايته ببعث الحياة فيما لا يبدو أمام الكثيرين سوى طرقات ومقابر وكتل من الحجارة الصماء، المزينة بكتابات ورسومات لا معنى لها. فقد استغل كريستيان جاك معلوماته التاريخية، ومعرفته بالنصوص الهيروغليفية، فى وصف التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة اليومية لهؤلاء الناس فى ذلك الوقت؛ بدءاً من أزياء النساء والرجال فى المناسبات المختلفة، وأصناف الطعام والشراب، وشكل المنازل ونوعية الأثاث المستعمل، مروراً بلمحات عن أساليب العلاج والتحنيط، والآلهة والطقوس الدينية، والنظم الإدارية، وقوانين الدولة الأساسية..الخ. بل إن الكاتب كان يتحين الفرصة المناسبة ليضع على ألسنة أبطاله بعض العبارات والنصوص الموجودة أصلاً باللغة الهيروغليفية على جدران المقابر وفى الوثائق الأثرية المعروفة.

ولهذا السبب، يقول الناشر الفرنسى للرواية «برنار فيكسو» : إن رواية مثل هذه تستطيع أن تجذب أجيالاً، هجرت - أو فى طريقها إلى هجر - الكتاب، مكتفية بانتشار الوسائط الإعلامية المتعددة multimedia التى تعد بتقديم الثقافة والمعلومة بطريقة جذابة ومسلية، بدون أى جهد أو معاناة.

من المفاهيم التى أثارت اهتمامى فى الرواية، تلك المتعلقة بالمعرفة عند قدماء المصريين. فالمصريون لم يكن لديهم إله خاص بالمعرفة فى صورتها الخالصة، وإنما ارتبط مفهوم المعرفة بالإلهة «ماعت»، إلهة الصدق، والمثالية، والتى تمثل القوة الكونية للتوازن والانسجام والتناسق فى الحياة المصرية. كذلك فإن كلمة ماعت مرادفة لكلمات : الحقيقة، والعدل، والاستقامة، وصفاء القلب.

ففى «حجر النور» مفارقة تتجسد من خلال تباين الشخصيات التى تمتلك العلم والمهارة. فمن ناحية، هناك نموذج «خدام ساحة الحقيقة» الروحانيون، المطيعون لـ«ماعت»، وأصحاب الأسرار العلمية والمهارات العالية، يمثلهم «نفر الصامت» وزوجته «أوبخيت» التى تقول للفنان المبتدئ «بانيب»:

«.. لا يوجد كهنة وكاهنات غير الحرفيين وزوجاتهم. ففى إطار الوظيفة التى يقوم بها كل منا، لا يتم الفصل بين الحياة اليومية والحياة المقدسة. وهذا هو السبب الذى من أجله جاءنى انطباع بأن أحد القلوب الخفية لمصر يخفق بين جدران تلك القرية. ففيها نعايش السر الخفى ونستسيغه ونستمع إلى موسيقاه ؛ هذا القدر نملكه».

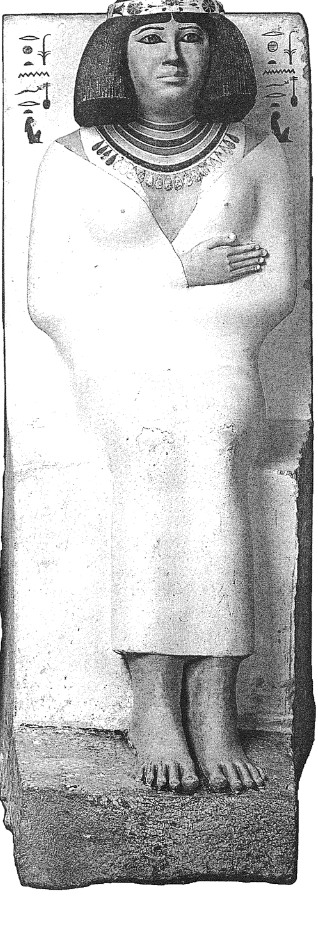
أما من الناحية الأخرى، فهناك العالم الشرير «داكتير»، الذى يشارك فى المؤامرة ضد ساحة الحقيقة للحصول على الأسرار العلمية التى يخفيها أعضاؤها..

«ولد داكتير ابناً لأستاذ رياضيات يونانى، وكيميائية إيرانية، فى ممفيس حيث اشتهر منذ كان شاباً بسبب عبقريته فى الأبحاث العلمية. ولكن لأنه كان يفتقر إلى المبادئ الأخلاقية، فقد فهم بسرعة منذ كان طالباً، أن سرقة الأفكار من الآخرين ستسمح له بأن يتقدم بخطوات عملاقة بأقل مجهود ممكن. ولكن تلك لم تكن إلا استراتيجية وضعها لخدمة هدفه الكبير: أن يجعل من مصر الأرض المختارة للعلوم البحتة، فتتخلص من كل الخرافات، ويهيمن فيها العلم الذى يجعل الإنسان يسيطر على الطبيعة».

إن ارتباط القيم الروحانية والدينية بالمعرفة العلمية، التى هى أساس كل بناء أو عمل فنى شيده المصريون القدماء، الذين اتسمت أعمالهم أيضاً بالدقة الرياضية والتقنيات الهندسية المعقدة، له دلالته فى عالم اليوم، الذى يدور فيه جدل لا ينتهى، بين رجال الدين والعلماء، والحداثيين وما بعد الحداثيين، والشرق والغرب، حول قضايا التقدم العلمى، وما يجب أن يرتبط به من مسئولية أخلاقية ومجتمعية، وما إذا كان يحقق الفائدة للحياة الإنسانية، وخاصة فى ظل القلق الذى يسود الآن بسبب إمكانية تطبيق الهندسة الوراثية المتطورة على المجتمع البشرى.

وقد استوقفنى تواجد العديدمن الشخصيات الأجنبية فى الرواية من سوريين أو يونانيين أو غيرهم. وفى حديثى معه، أبدى كريستيان جاك إعجابه بتسامح المصريين القدماء مع المهاجرين الأجانب فى مصر القديمة، وعدم شعورهم بالتهديد من تواجدهم فى المناصب العامة التى وصلت ذات مرة إلى منصب رئيس وزراء. وهو يرى أن السبب فى ذلك يرجع لانصهار هؤلاء فى المجتمع المصرى واندماجهم فى العادات والتقاليد المصرية. كما أكد أن هذا الأمر ليست له علاقة بالادعاءات والمزاعم التى تخرج من حين لآخر، والتى تنسب الحضارة الفرعونية لشعوب أخرى غير المصريين الذين يعيشون فى مصر المعاصرة. وهو يقول إن مجرد النظر إلى التشابه بين وجوه المصريين الآن والوجوه المنحوتة والمرسومة فى المعابد يؤكد عدم صدق تلك الادعاءات.

ومن المعلومات المهمة التى تظهر بين ثنايا الرواية، تلك التى تصف الأدوات والمعدات التى كان يستخدمها النجارون وصانعو الجلود والرسامون والنحاتون، والتقنيات التى مارسوها فى صناعة أعمالهم، وأساليب القياس غير التقليدية التى طبقوها.. يقول رسام محترف من ساحة الحقيقة للرسام المبتدئ «بانيب المتأجج» :



«إن خطوة أبي منجل تساوي ذراعاً، فهو الذي يجسد «توت» وهو يكشف لنا عن هذا المقياس الرئيسي المسجل في ساعد الإله..».

إذن فأحد أهم أسرار العمل يكمن في جسم أبي منجل الذي شاهده الشاب الضخم كثيراً دون أن يراه. وفهم أن الآلهة تعبر عن نفسها، بلا هوادة، عبر الطبيعة، وأنه يستلزم أن نفتح أكثر عيوننا ونرهف أسماعنا حتى ندرك رسالتها».

أما الطريف فعلاً، فهو عملية اختبار نوع الجنين أثناء الحمل (قبل اختراع السونار) التي كانت تقوم بها النساء في مصر القديمة..

« كانت سيركيتا تتمتع بدورة دموية ممتازة، ويدور الهواء في جسدها بصورة طيبة، وهذا ما كان يجعلها متيقنة بأنها ستنعم بحمل هادئ وولادة هانئة. فقط كان جنس الطفل يعنيها. ومنذ أسبوعين، أصبحت سيركيتا تبول يومياً على كيسين، أحدهما يحتوى على القمح والتمر والرمل،والآخر على الرمل والتمر والشعير، وإذا ما نبت القمح أولاً،فسوف تلد سيركيتا بنتاً، أما إذا حدث ذلك للشعير أولاً، فسوف يكون مولودها صبياً».

ولكن يقع المؤلف في خطأ اصطلاحى رئيسى، عندما يروى على لسان رمسيس الثانى حديثاً يتذكر فيه فرعون مصر خلافه وصلحه مع جيرانه الحيثيين، مستخدماً كلمة «الشرق الأوسط» في الإشارة إلى المنطقة. ومن الجائز أن يكون كريستيان جاك قد كتب تلك الكلمة وهو تحت تأثير جرعة زائدة من البث الإخبارى على قناة cnn.فهو بالتأكيد ليس غافلاً عن أن وصف الشرق بأنه أوسط أو أقصى أو أدنى لم ينشأ إلا في الغرب حديثا جدا، تعبيراً عن موقع تلك المناطق من أوروبا بعد النهضة. وبالرغم من أن المركزية الغربية تعبر حقاً عن واقع حضارى نعيش فيه الآن، إلا أن الأوضاع كانت مختلفة في الماضي. وكل حضارة تنظر إلى العالم من حولها باعتبار أنها واقعة في مركزه، هكذا كان الصينيون وقدماء المصريين، وغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى. لكن المهم أن كريستيان توقف عند هذا الحد، ولم يقل مثلاً أن رمسيس الثانى قام «بتطبيع» علاقاته مع الحيثيين !

كذلك وجد المؤلف الفرنسى صعوبة في التخلى عن فرنسيته حين قام باختيار ملامح أبطاله وبطلاته، فاوبخيت المصرية «عيناها الزرقاوان في لون سماء صيف» و«شعرها مائل إلى الاصفرار»، وعندما سأله الصحفيون في ذلك الأمر، رد كريستيان جاك مرة بأن قدماء المصريين كانوا مخلطين، ثم عاد ورد في مرة أخرى بأنهم كانوا يعرفون صبغات الشعر. وعلى كل حال، فالأمران يمكن تصورهما، مادام لم يقل أن المصريين القدماء عرفوا أيضاً العدسات اللاصقة الملونة.

الجدير بالذكر أن تلك هى المرة الأولى التى ترجمت فيها أحد أعمال كريستيان جاك إلى العربية، بالرغم من أن رواياته بدأت تترجم إلى معظم اللغات الأخرى منذ نجاح روايته «شامبليون المصرى» عام ١٩٨٧ والأمر لا يتعلق بكريستيان جاك بالذات، بقدر ما يتعلق بحجم الاهتمام بمعرفة التراث المصرى القديم بشكل عام. فهناك قطاع كبير من المصريين يتجاهل ذلك التراث بأكمله على اعتبار أن الفراعنة : مساخيط، كفار، عبدوا الأصنام. وعلى الجانب الآخر نجد أغلب العلماء، والأساتذة، والكتاب المصريين قليلاً ما يستخرجون شيئاً من التراث الفرعوني له علاقة بأى من المجالات التى يتناولونها في كتبهم أو محاضراتهم أو إبداعاتهم.وهم إن فعلوا، فذلك يكون مقصوراً على ما هو مشار إليه في المراجع الغربية التى ينقلون منها.وبالتالى يقتصر دور المصريين على حراسة الآثار الفرعونية، مكتفين فقط بالاستفادة المالية التى تأتى من سياحة تلك الآثار.

ولكن من الملاحظ مؤخراً حدوث طفرة جديدة في اهتمام المصريين بتاريخ أجدادهم الفراعنة، ويتضح ذلك في الزيادة الكبيرة نسبياً في حجم ما نشر في مصر العام الماضى من ترجمات ومؤلفات عن حضارة المصريين القدماء، سواء في المجلس الأعلى للثقافة، أو دور النشر الخاصة، بل وفى مراكز البحوث أيضاً. وأظن أن الاهتمام الذى بدأ يتصاعد بالتاريخ المصرى القديم يتصل سببه عند البعض بالخوف من العولمة الثقافية، ومسألة الانتماء، خاصة في ظل انحسار الفكر العربى القومى الذى ساد لفترة من الزمن، كما يمكن أن تكون الثقافة المصرية الحديثة قد تأثرت بالطبقات المسيطرة في مصر في قرون سابقة، أهملت التراث المصرى القديم، نظراً لتكون هذه الطبقات في غالبيتها من عناصر آسيوية وافدة (أتراك، أكراد، مماليك..).

وفي النهاية فإن الأمر ليس في حاجة إلى مفاضلة أو اختيار، ومن المفيد والممتع أيضاً أن تتعدد وتتنوع منابعنا الثقافية والحضارية. أما أصحاب الحضارات التى مرت بنا وساهمت في تشكيلنا، فهم جزء من تاريخ خلا ولن يعود، وما نحن عليه اليوم وما سنكون في المستقبل يختلف ويتمايز حتماً عما كنا عليه في السابق - لهم ما كسبوا ولنا ما كسبنا.

هـديـل غنيـم

نجيب الريحانى

بين المسرح والسينما

سمير فريد

من بين أعمال الريحانى تبقى الأفلام، ومنها ستة تعرض فى قنوات التليفزيون، وتتوافر على شرائط الفيديو، وتبقى نصوص العديد من مسرحياته التى ألفها مع بديع خيرى، فلم يتم تسجيل أى من مسرحيات الريحانى كممثل بكاميرات السينما، ولاحتى مشاهد منها، بل وقل أن توجد منها صور فوتوغرافية

كان ولايزال من الصعب إن لم يكن من المستحيل إنتاج أفلام تمثيلية فى بلد لايعرف التمثيل المسرحى ، ولايسمح للمرأة بالتمثيل على المسرح. ولذلك لم يكن من الغريب أن يكون أغلب صناع الأفلام التمثيلية الأوائل من صناع المسرح، ولا أن يكون أغلب نجوم التمثيل فى السينما من نجوم التمثيل على المسرح. ولايزال وسوف يظل الكثير من الممثلين والممثلات يجمعون بين التمثيل على المسرح والتمثيل أمام الكاميرا.

عرفت مصر التمثيل المسرحى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى، أى قبل نحو نصف قرن من اختراع السينما، ووقفت المرأة على المسرح فى مصر عام ١٨٩٠ (مريم سماط) ، أى قبل خمس سنوات من العرض السينمائى الأول لسينما توجراف لوميير فى باريس، وشهدت مصر نهضة فى التمثيل والإخراج للمسرح وبدايات التأليف المسرحى فى العقد الثانى من القرن العشرين، وفى نفس العقد شهدت إنتاج الأفلام التمثيلية الأولى وكانت قصيرة، ثم تطورت إلى أفلام طويلة فى العقد الثالث.

وكما كان نجيب الريحانى من نجوم المسرح ابتداء من العقد الثانى وإلى العقد الخامس، كان أيضا من نجوم السينما فى نفس هذه الفترة. وبالطبع لايمكن فصل الريحانى المسرحى عن السينمائى، وخاصة أن بعض أفلامه ماخوذة عن مسرحياته وكل أفلامه من تاليفه مع بديع خيرى ويمثل معه فيها أعضاء فرقته المسرحية.

هناك اختلاف كبير بين النقاد والمؤرخين على تاريخ مولد نجيب الريحانى، واسمه الكامل نجيب إلياس الريحانى (وقيل ريحانة، ولكنه فضل الريحانى لسهولته فى النطق). ففى كتابه «تاريخ المسرح العربى» عام ١٩٦٠ يذكر د. فؤاد رشيد (وهو طبيب من هواة المسرح) أنه من مواليد ١٨٨٧. ويؤيد ذلك نعمان عاشور فى كتابه «مع الرواد» الطبعة الثانية عام ١٩٩٦، بينما يذكر أمين بكير فى كتابه «كشكش بك» عام ١٩٩٧ أنه من مواليد ١٨٨٣، وتذكر د. ليلى أبوسيف فى كتابها «نجيب الريحانى وتطور الكوميديا فى مصر» عام ١٩٧٢ أنه من مواليد ١٨٩٢. ويذكر عثمان العنتبلى فى كتابه «نجيب الريحانى» عام ١٩٤٩ أنه من مواليد ١٨٩٠. ولا يشير الريحانى نفسه إلى تاريخ مولده فى مذكراته التى نشرت مسلسلة فى مجلة «الاثنين والدنيا» عام ١٩٣٧، والتى أعيد نشرها من دون إضافات فى كتاب صدر عن دار الجيب عام ١٩٤٩، ومسلسلة فى مجلة «الكواكب» عام ١٩٥٢، وفى كتاب صدر عن دار الهلال عام ١٩٥٩.

الأرجح أن يكون التاريخ الصحيح عام ١٨٩٢ من واقع مشاهدة فيلم «سلامة فى خير» الذى صور عام ١٩٣٧، ومن الصعب تصور أن عمر الريحانى فى الفيلم أكثر من ٤٥ سنة. وفى كتابه «فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى» عام ١٩٧١ يذكر د. على الراعى أن الريحانى بعث برسالة إلى بريد القراء فى جريدة «الأهرام» نشرت عام ١٩٠٨ يقول فيها إنه من خريجى المدارس الثانوية الذين يجمعهم حب التمثيل ويعملون على الارتقاء به.

وفى مذكراته يقول الريحانى إنه «هجر» المدرسة، وعمل فى البنك الزراعى حيث التقى مع الممثل والمخرج عزيز عيد، وكان أول أدواره على المسرح فى مسرحية «الملك يلهو» ترجمة أحمد كمال رياض «بك» . ثم يقول «كنت فى ذلك الوقت صبيا فى السادسة عشرة أو السابعة عشرة»، ثم يقول: «وفى سنة ١٩٠٨ استقال الأستاذ عزيز عيد من عمله فى البنك وألف فرقته التمثيلية الأولى».

وليس هناك خلاف على تاريخ وفاة الريحانى عام ١٩٤٩، كما لايختلف أحد حول مولد الريحانى فى حى باب الشعرية، وهو من أحياء القاهرة الإسلامية التى تأسست منذ أكثر من ألف سنة، وأصبحت بعد إنشاء القاهرة الحديثة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من الأحياء التى تجمع بين كل الطبقات وخاصة الفقيرة. ولاخلاف أيضا حول أن والد الريحانى كان مسيحيا من أب عراقى ، وأن والدته (لطيفة) كانت قبطية من مصر.

وقد عرف عن الريحانى إيمانه بالتسامح الدينى والعرقى، وتعبيره عن ذلك فى العديد من مسرحياته وأفلامه، وربما يفسر البعض ذلك لكونه من «الأقلية» المسيحية، ولكن الواقع أن هذا كان الموقف السائد فى مصر قبل وأثناء وبعد ثورة ١٩١٩، ومن الممكن إدراكه بوضوح فى كل أدبيات «العصر الليبرالى» ، أو ما اعتبر كذلك بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

يذهب يحيى حقى (١٩٠٥-١٩٩٣) فى كتابه «خطوات فى النقد» عام ١٩٧٦ إلى أن الريحانى كان من ضمن «الأجانب الذين أكرمت مصر وفادتهم» ، والواقع أن كل من كان أصل والده من أى بلد عربى فى ذلك الوقت لم يكن يعتبر «أجنبيا» ، لأن كل سكان البلاد العربية فى ذلك الوقت بما فى ذلك سكان مصر كانوا يحملون الجنسية العثمانية، ولم يصدر قانون يحدد الجنسية المصرية إلا عام ١٩٢٩، وكان أول قانون يحدد هذه الجنسية، وإذا اعتبر الريحانى أجنبيا لأنه من أصل عراقى، سوف يعتبر بديع خيرى (١٨٩٣-١٩٦٦) أجنبيا بدوره لأنه من أصل تركى، بل ويحيى حقى ذاته لأنه من أصول تركية أيضا.

ومن اللافت أن الريحانى (العراقى) مثل بيرم «التونسى» (١٨٩٣ - ١٩٦١) من أكثر من عبروا عن سكان أحياء القاهرة القديمة من الفقراء وذوى الأصول الريفية، أو الأحياء «الشعبية» كما يطلق عليها وبلغة هؤلاء الفقراء ، أو بالأحرى لهجتهم العامية.

ويذكر عثمان العنتبلى فى كتابه أن الريحانى تعلم فى مدارس «الفرير» الفرنسية حتى حصل على البكالوريا، وفقد والده فى هذه السن المبكرة، وكان عليه أن ينفق على أمه وإخوته مع شقيقه الأكبر توفيق. ويذكر الناقد والمؤرخ الصحفى أن الريحانى كان من أبرز أعضاء فريق التمثيل فى المدرسة، وأن قنصل فرنسا أشاد بموهبته عندما شاهده فى إحدى مسرحيات الفريق ، ويقول العنتبلى إن الريحانى عمل موظفا فى بنك «كريدى ليونيه»، ولكنه فضل العمل كممثل فى فرقة أحمد الشامى المسرحية التى كانت تتجول فى المدن الصغيرة، ثم عمل فى «البنك الزراعى» حيث التقى مع المخرج المسرحى عزيز عيد (١٨٨٤-١٩٤٢) الذى كان يعمل معه فى نفس البنك، وعملا معا كممثلين فى فرقة جورج أبيض(١٨٨٠-١٩٥٩) عام ١٩١٤، ثم تركا هذه الفرقة وأسسا «فرقة الكوميدى العربى» عام ١٩١٥.

اختلف نجيب الريحانى مع عزيز عيد، فقد كان الريحانى يرى تمصير الكوميديات الأجنبية فيما أطلق عليه «الفرانكو-آراب»، بينما كان عيد يرى ترجمة هذه الكوميديا وتقديمها كما هى، وفى عام ١٩١٦ أسس الريحانى فرقته الخاصة التى تحمل اسمه، وابتكر شخصية كشكش بك عمدة كفر البلاص مع الكاتب أمين صدقى (١٨٨٠- ١٩٤٤) ، ولقيت مسرحيات كشكش بك إقبالا جماهيريا كبيرا جعل الريحانى من كبار نجوم المسرح. وفى عام ١٩١٨ اختلف الريحانى مع أمين

نجيب الريحانى
عثمان العنتبلى
الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٩٩

مذكرات نجيب الريحانى
تقديم: بديع خيرى
دار الهلال ـ القاهرة ١٩٥٩

فنون الكوميديا
من خيال الظل إلى نجيب الريحانى
د. على الراعى
دار الهلال ـ القاهرة ١٩٧١



صدقى حول توزيع الأرباح، وفى نفس العام التقى مع بديع خيرى ولم يفترقا أبدا، وحسب ما ذكرته د. ليلى أبو سيف فى كتابها مثل الريحانى ٨١ مسرحية من عام ١٩١٦ إلى عام ١٩٤٦. ويمكن القول بأن مجموع أعماله بلغ نحو مائة عمل، فهناك عشر مسرحيات تقريبا مثلها منذ عام ١٩١٤ إلى تأسيس فرقته الخاصة عام ١٩١٦، واثنا عشر فيلما مثلها واشترك فى تاليفها من عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٤٩. وقد تزوج الريحانى الراقصة والممثلة اللبنانية بديعة مصابنى (١٨٩٨ ـ ١٩٧٤)، وطلقا ولم ينجبا.

من بين أعمال الريحانى تبقى الأفلام، ومنها ستة تعرض فى قنوات التليفزيون، وتتوافر على شرائط الفيديو، وتبقى نصوص العديد من مسرحياته التى ألفها مع بديع خيرى، فلم يتم تسجيل أى من مسرحيات الريحانى كممثل بكاميرات السينما، ولاحتى مشاهد منها، بل وقل أن توجد منها صور فوتوغرافية.

ومن ناحية أخرى لم يحفظ أرشيف الراديو المصرى التسجيلات الصوتية لمسرحيات الريحانى، والتى يذكر المذيع محمد فتحى فى مقال بمجلة «الكواكب» عدد ٩ يونيو ١٩٨١ أنها كانت تنقل مرة كل شهر أو ثلاثة أسابيع، وأن «طه حسين ذاته كان يسهر الليل بطوله ليستمع إلى مسرحيات الريحانى»، ويذكر أشرف غريب فى كتابه «العصر الذهبى للكوميديا» عام ١٩٩٩ أن فى أرشيف الراديو مسامع من مسرحية «٣٠ يوم فى السجن».

مسرح الريحانى

ما يقال اليوم عن أفلام محمد هنيدى، وفى العقد السابع عن أفلام فؤاد المهندس ومسرحياته، وفى العقد السادس عن أفلام إسماعيل يس ومسرحياته، وما قيل فى العقد التاسع من القرن العشرين عن أفلام عادل إمام ومسرحياته قيل فى العقد الثانى عن كوميديات الريحانى إزاء النجاح الجماهيرى الساحق رغم ضعف المستوى الفنى.

فى البدء عبر الفنان «الشعبى» عن حياة الجماعة التى ينتمى إليها بالرسم على جدران الكهوف، وبالموسيقى والرقص والغناء فى الحقول والمناسبات الاجتماعية المختلفة، ثم بعد ذلك فى المعابد، ثم فى قصور الحكام وكبار ملاك الأراضى الذين كانوا ينفقون على الفن كنوع من الوجاهة الاجتماعية، ولتسلية أنفسهم فى نفس الوقت، تماما مثل «رعاة الفنون» اليوم، وإن اختلفت الوسائل. ومع الثورة الصناعية وجدت الطبقة الوسطى فى المدن، ومعها أصبحت الفنون فى «السوق»، وأصبح لها «جمهور» يدفع ليستمع أو يرى.

ومع وجود الفنون فى «السوق» بدأ تأثير «الجمهور» على الإنتاج الفنى، وأصبح هناك فنان يعمل على إرضاء الذوق السائد لدى الجمهور، وآخر يصنع ما يرضى نفسه، وثالث يحاول التوفيق بين ما يرضيه وما يرضى الجمهور. ولاشك أن هذا النمط الثالث يضمن لنفسه مواصلة الإنتاج، ولحياته مستوى من العيش الكريم. ولكن المشكلة هى مستوى الذوق السائد، فعندما ينحط هذا الذوق لسبب أو لآخر، فإن إرضاء الجمهور أو حتى محاولة إرضائه وإرضاء ذات الفنان يؤدى إلى إنتاج فن يتناسب مع ذلك الذوق، ولذلك فإن ترقية الفن لا تكون إلا بترقية الذوق السائد بكل الوسائل.

لقد بدأ الريحانى هاوى التمثيل ثائرا على الذوق السائد، بل وواصفا إياه بالسقوط فى العقد الأول من القرن. ففى رسالته إلى بريد القراء فى جريدة «الأهرام» المذكورة فى كتاب د. على الراعى يقول: «لما كان فن التمثيل هو الفن الوحيد الذى ينمى الشعور والعواطف، ولما كان هذا الفن ساقطا لا يلتفت إليه فى القطر المصرى، بعكس البلاد الأوروبية، عزمنا بحوله تعالى على إحياء هذا الفن بكل قوانا، نحن بعض المتخرجين من المدارس الثانوية، وبعض المستخدمين فى القاهرة...».

كان الريحانى يقول ذلك فى عام ١٩٠٨، ولكنه بعد سبع سنوات من هذا التاريخ عام ١٩١٥، أى بعد سنة واحدة من احترافه التمثيل ابتدع مسرحيات «الفرانكو ـ آراب» مستسلما لذوق الجمهور السائد الذى كان يصفه بالسقوط، ووصل إلى ذروة الاستسلام لهذا الذوق بابتكار شخصية كشكش بك عام ١٩١٦، وبدأ الهجوم على الريحانى عام ١٩١٨ وهو نجم الكوميديا الأول، وكذلك على منافسه على الكسار (١٨٨٧ ـ ١٩٥٧) الذى ابتكر شخصية الرجل الأسود الفقير الطيب عثمان عبدالباسط فى مواجهة شخصية عمدة كفر البلاص الثرى المتلاف. ففى كتاب «حياتنا التمثيلية» الذى يجمع مقالات محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) وصدر عام ١٩٢٢، نجد مقالا نشره فى«السفور» عام ١٩١٨ يقول فيه إن التمثيل فى مصر فى أزمة «نتيجة سذاجة الجمهور وانحرافه عن الفن الصحيح، والبرهان على ذلك إقباله فى عصرنا الحاضر على الريحانى وعلى الكسار ليرى نوعا من التمثيل يسمى بالفرنسية «الريفو»، وهو عبارة عن مشاهد مفككة العُرى مشوهة التأليف تجمع بين المواقف المخجلة والنكات القبيحة.

ليس فيما يقدمه لنا الريحانى وعلى الكسار من الروايات شيء فنى، فهى خالية من كل بحث أخلاقى. وليس فيها من المواقف التمثيلية ما يصح أن نطلق عليه كلمة رواية، ولكن جمهورنا يقبل عليها إقبالا كبيرا ليقضى ساعة من وقته يغسل فيها قلبه من أدران الهموم والأحزان». ولكن الناقد والكاتب المسرحى يدرك قيمة فن الريحانى كممثل، ولذلك يقول فى نفس المقال: «ما ضر الريحانى لو بدل قليلا فى نوع رواياته، وتحول عن تلك الروايات التى لانرى فيها غير مجموعة من ألحان السوقة. ما ضره لو قدم نوعا يجمع بين الفن واللافن ثم يسير فى طريق التغيير والتبديل إلى أن يصل إلى الفن الصحيح».

ويقول فى مقال آخر فى «المنبر» نفس العام: «ومن أدرانا أن الجمهور المصرى يكره يوما ما نوع الريحانى كما كره نوعه الأول، فيتحول الريحانى من مجرى «الريفو» إلى مجرى الكوميديا الأخلاقية»، وقد كان هذا ما حدث بالفعل فى مسيرة الريحانى.

وعن نفس مشكلة الفن والجمهور يسجل زكى طليمات (١٨٩٩ ـ١٩٨٢) فى كتابه «ذكريات ووجوه» عام ١٩٨١ حوارا جرى بينه وبين الريحانى عام ١٩٢٢ فى مقهى فينكس بشارع عماد الدين (محمد فريد) الشهير بمقهى الريحانى جاء فيه:

ـ أنت بتشتغل فى التمثيل علشان تعمل فلوس.

ـ وعايزنى أشتغل فى التمثيل وألحس صوابعى.

ـ إنت بتضحك على الناس ومن الناس.

ـ طيب ما تعملوا زيى.

ـ ما نقدرش نعمل التهجيص بتاعك.

ـ إنتم لسه بتقدموا فى رواياتكم نابليون ولويس وبلاد تأكل القطط وتركب الأفيال، وأنا أقدم دقدق وسيد وحلويات وشلبية.. الجمهور يريد أن يكون غذاؤه من المسرح مثل غذائه الذى يملأ به بطنه..

ـ الجمهور يحب الطعمية والفسيخ والمش، معدته هزيلة، وذوقه مريض والمسرح أداة إصلاح وارتقاء.

ـ الإصلاح والارتقاء لاياتيان دفعة واحدة، وبمجرد الطلب، وإننى أحاول أن أدخل اللحم الدسم فى سائر ألوان الطعام الذى يتقبله الجمهور، ولكن بمقدار، من غير الانحراف عن توليفة الطبخ المصرى..

بالطبع، فإن الريحانى ليس مسئولا عمن يصفه بالفيلسوف، بل وليس المقصود بهذا الوصف عند من يقول به أن الريحانى مثل أفلاطون أو ابن رشد، وإنما المقصود أنه يتأمل فى أحوال البشر، وليس الفلسفة بمعناها الصحيح، وقد استنكر الريحانى هذا الوصف فى حياته

وفى عام ١٩٦٩، قرأ الشاعر والكاتب صلاح عبدالصبور (١٩٣١ ـ ١٩٨١) مقالا يصف فيه أحدهم الريحانى بالفيلسوف، فاستفز ونشر فى عدد مايو من مجلة «المسرح» ذلك العام «إن إغلاق مسرح الريحانى ليس أمر أزمة مال أو أزمة نجوم، ولكنه دلالة صحية على تطور الحياة المسرحية، فقد أدى هذا المسرح دوره فى حدود الإضحاك، وتناول المشكلات الاجتماعية تناولا سطحيا، وورث هذا الدور فؤاد المهندس وفرقته، بل إن ثنائى فؤاد المهندس ـ شويكار هو نفس ثنائى الريحانى ـ ميمى شكيب، فى نفس الثياب وبنفس نبرات الصوت مع قدر أكبر من الحيوية، ولست عندئذ أفهم مبررا للهجوم على فؤاد المهندس واتهامه بالإسفاف، ثم المغالاة فى تقدير الريحانى، وتقليده وسام الفلسفة، رغم أنهما صورتان متطابقتان».

وبالطبع، فإن الريحانى ليس مسئولا عمن يصفه بالفيلسوف، بل وليس المقصود بهذا الوصف عند من يقول به إن الريحانى مثل أفلاطون أو ابن رشد، وإنما المقصود أنه يتأمل فى أحوال البشر، وليس الفلسفة بمعناها الصحيح، وقد استنكر الريحانى هذا الوصف فى حياته. ففى كتاب نعمان عاشور (١٩١٨ ـ ١٩٨٧) المشار إليه أنه كان شديد الإعجاب بمسرحيات الريحانى، وأنه ذهب إليه وهو طالب والتقى به على مقهى فينكس، ودار بينهما الحوار التالى:

ـ إيه اللى عاجبك فى مسرحياتى..

ـ فيها حاجات كتير من اللى بتحصل فى حياتنا..

ـ حاجات تضحك مش كده.. ماهم كمان بيقولوا عليا فيلسوف وأنا لافيلسوف ولاحاجة..

ـ أنت مصلح اجتماعى..

ـ لا أحب هذا التعبير.. أنا مضحك اجتماعى..

تقول فاطمة اليوسف فى كتابها «ذكريات» عام ١٩٥٣: أخرج عزيز عيد مسرحية «القرية الحمراء» من تاليف أمين صدقى بطلها عمدة كفر البلاص وخفير وابنة الخفير الشابة الجميلة، وقام نجيب الريحانى بدور الخفير، ولكن المسرحية فشلت، فتركه الريحانى، والتحق بكباريه كان يوجد فى شارع ألفى مكان كازينو شهرزاد حاليا، وقدم روايات عزيز عيد ولكن مع تحريفها تحريفا يضمن إقبال جمهور الكباريهات من المصريين والإنجليز على السواء، وهى الروايات التى عرفت باسم «فرانكو ـ آراب»، حيث اقتبس الريحانى شخصية العمدة من «قرية الحمراء»، وجعلها كوميديا وأطلق عليها كشكش بك، وهو اسم التدليل الذى كانت تناديه به صديقته الراقصة لوسى، وهكذا ولدت شخصية كشكش بك الخالدة فى تاريخ المسرح المصرى».

وفى العام التالى ١٩٥٤ نشر يحيى حقى مقاله الشهير عن نجيب الريحانى فى مجلة «التحرير» المصرية» و «الأديب» اللبنانية، وهو المقال الذى أعاد نشره فى «الكاتب» عام ١٩٦٢، وفى «المسرح» عام ١٩٦٩، وفى كتاب «خطوات فى النقد» عام ١٩٧٦، وفى هذا المقال يقول يحيى حقى: «أود قبل كل شيء أن أفرغ من الاعتراف بحقيقة لايجادل فيها إلا أحمق أو مريض، وهى أن الريحانى كان ممثلا هزليا عظيما»، و«لكن هناك فرقا شاسعا بين القول بأن الريحانى ممثل هزلى عظيم ـ وهو مالا نجادل فيه ـ وبين القول بأن فنه خالد لأنه فن مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها، وترجم عنها وأرخ لها، وأن الريحانى هو مصر ومصر هى الريحانى، أو كما قالوا»، و «أجزم وليس فى يدى دليل سوى شعورى بأن الريحانى عاش طيلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين، وهذا سر وحدته الملحوظة فى حياته العامة والخاصة».

وعن شخصية كشكش بك يقول يحيى حقى إنه «كان موضع سخرية سماسرة القطن وأشباههم فى النهار، فلماذا لايكون موضع لهو وتسلية بالليل، وأمام من؟ أمام جمع أغلبه من هؤلاء السماسرة أنفسهم وأشياعهم والمخدوعين وراءهم»، و«كتب لهذه المسرحيات الاستعراضية الرخيصة ـ وهذا من مفارقات الحياة ـ أن تكون من غير قصد ازدهارا لموهبة مصرية صميمة، موسيقى سيد درويش»، «وبفضل ألحان سيد درويش وحدها ـ لابفضل تلك المسرحيات ـ دار اسم كشكش بك على كل لسان وداخل كل دار».

وينحاز يحيى حقى إلى على الكسار ضد نجيب الريحانى، ويقول: «أنشأ الكسار فرقة عاصرت فرقة الريحانى، واعتمد الاثنان على

الغناء والرقص والفكاهة ، ولكن الكسار الذي اختار له شخصية عم عثمان البربري ظل مخلصا لطبيعته لم يحاول أن يخدع أحدا، أو يغرق في التهريج، وفضل أن تكون فرقته مصرية لا فرانكو آراب» . بل إن يحيى حقي يهاجم الريحاني في مرحلة ما بعد كشكش بك أيضا عندما «خلع الجبة والقفطان وارتدى زي الأفندي للتعبير عن الموظف البائس من الطبقة الوسطى»، فيرى أنه اتخذ «شخصية هذا الأفندي ليعبر عن مشاكله ومتاعبه ، ولكن من أين استمد الريحاني فنه وتعبيره، هل ألف الريحاني وبديع خيري قصة واحدة من صميم الحياة المصرية، لا ، لقد عجزا كل العجز وتساقطا كالذباب بلا خجل أو حياء على مائدة المسرح الفرنسي الرخيص، فهل هذا هو الفن المصري الأصيل»، ويقول إن الريحاني «قلد شارلي، وسار على هدى خطاه، ولكنه حبس فنه في تمثيل متاعب طبقة واحدة هي طبقة الأفندية من موظفي الحكومة وأشباههم، ولولا غلبة هذه الطبقة على المجتمع المصري لما توفرت أسباب هذا النجاح السطحي».

وبموضوعية يناقش محمد فكري في كتابه: «المسرح والكوميديا من نجيب الريحاني إلى اليوم» عام ١٩٨١ رأي يحيى حقي، فيقول: «وقد نتفق مع الأستاذ يحيى حقي في بعض ما أورده عن مسرح الريحاني، ولكننا نختلف معه في عدة قضايا، فلم يكن في مصر الكاتب الكوميدي الذي يستطيع أن يثري المسرح الكوميدي بمسرحيات مصرية صميمة، كما أن بعض ما وقع فيه الريحاني له مبررات أملتها ضرورة فنية اجتماعية ، فقد تناول الأستاذ يحيى حقي بعض سقطات الريحاني في مراحل معينة من تطوره وعممها على مسرحه، وأغفل المميزات التي حققها هذا المسرح».

وعن شخصية كشكش بك يقول فكري: «هل كان كشكش بك عمدة كفر البلاص هو رمز مصر الأصيل حقا؟، أم هو رمز سيئ لابن مصر الذي أتاحت له الظروف أن يتسيد وأن يغتني ويملك آلاف الأفدنة، فجمع عرق الفلاحين وراح يريقه في ملاهي أوروبا أو ملاهي القاهرة، ويقدمه لقمة سائغة للسماسرة والمضاربين وقواد الليل والجنس؟

إن رمز مصر الأصيل حقا هو الفلاح الذي ظل يعمل ويعرق ويحمل مصر على كتفيه، أما كشكش بك فكان نموذجا لابد أن يعاقب فنيا، وكانت الكوميديا دائما هي وسيلة العقاب، لقد أدرك هذا الفنان المغامر المتصعلك الذي انصهر في بوتقة مجتمع المدينة، وعمل أحيانا في بعض قرى الصعيد بحسه الكوميدي البحت أن كشكش بك نموذج كوميدي جيد».

ويستطرد الباحث: «ألم يكن وراء كشكش بك مغزى أخلاقي في ندمه وتوبته؟ ألم يكن يحمل بعض العناد والمقاومة، ويستخدم فكرة الساذج ضد الخواجة في السوق أو الملهى؟ ألم يكن يحمل إلى جانب طيبته بعض الكبرياء.. ولسنا نحاول أن نحمل شخصية كشكش بك أكثر مما تحتمل، فنتصورها كما تصورها البعض رمزا للمقاومة أمام الأجنبي الذي يستغل، أو نعتبرها كما اعتبرها البعض شخصية قومية، وبحسبنا أن نقول إنها نموذج كوميدي جيد استطاع أن يعكس روح العصر رغم ما أحاط به من معالجة خشنة وحوار هابط».

و«البعض» الذي يشير إليه محمد فكري هو د. ليلى أبو سيف التي تقول في كتابها عن نجيب الريحاني إن شخصية كشكش بك كانت من رموز «مقاومة الأجانب» وأنه صار عام ١٩١٨ «شخصية كوميدية قومية» ، وأنه «على الرغم من جهله وريفيته وسذاجته، ففي أعماقه كبرياء وعناد واندفاع محموم إلى المشاغبة، وسلاحه في ذلك المكر، وحينما يأتي «الخواجا» المتعجرف لمناقشته على أرضه، في السوق وفي الحانة، فإن الريحاني يكفل دائما الانتصار لكشكش الذي يطالب بحقه فيما يملكه».

لا تناقش د. ليلى أبو سيف رأي يحيى حقي ، ولكنها تنحاز ضد علي الكسار كما ينحاز حقي ضد الريحاني، وتقول «الريحاني كان أقدر على الفكاهة من الكسار وأرحب خيالا، وتعد شخصية كشكش بك أكثر أهمية من شخصية عثمان» . والواقع أن لكل من الريحاني والكسار شخصيته الفنية المستقلة، والناجحة، وهما يتكاملان رغم تضادهما الفني في التعبير عن العصر الذي عاشا فيه.

وعلى النقيض تماما من يحيى حقي يرى محمود تيمور (١٨٩٤ - ١٩٧٣) في كتابه «الشخصيات العشرون» عام ١٩٦٩ أن كشكش بك كان «نواة الملهاة المصرية الصميمة» ، ويقول: « كانت مصر لهذا العهد تخوض محنتها الكبرى في الحرب العالمية الأولى، تعاني أزمات نفسية صعابا من الحماية الإنجليزية



وما إليها من ضائقة وضغط وحكم عرفي وامتهان للكرامة الوطنية وحقوق البلاد. وكان المسرح المصري في أغلب الأمر ، بمعزل عن الاستجابة لما يموج في الأمة من تأثر وانفعال، وإلى جانب ذلك لم يكن للمسرح من طابع إلا طابع الجد والتزمت والوقار، وجل ما يعرض من الروايات أجنبي الروح من نتاج الترجمة، ليس فيه ما يتصل بأهواء الناس، أو يسري عنهم في محنتهم النكراء، فصرف الناس عن المسرح الجدي، وتركوه قاعا صفصفا يعاني الركود والكساد».

ويستطرد محمود تيمور: «وهنا رأينا الريحاني يشق ميدانا جديدا دفعته إليه يد القدر، أو قل بصيرته النيرة التي فطنت إلى ما يعتلج في نفسية الجمهور من مطالب ومنازع، فظهر في منظر مصري على أحد مسارح الاستعراض، وكان ذلك المنظر ساذجا فكها قوامه بعض الشخصيات المصرية الصميمة، يحتشد فيها خليط من أغان شرقية وغير شرقية، وابتكر الريحاني لنفسه تلك الشخصية الطريفة، شخصية كشكش بك العمدة السادر الطروب، فما لبث هذا المنظر أن أخذ بألباب النظارة، وانتزع منهم عصي الإعجاب، وكان في ذلك ما أغرى الريحاني وصاحب مسرح الاستعراض بالتوسع في المنظر، والتفنن فيه، وتعهده بألوان التجديد المرح، وتغذيته بالأغاني الشعبية والمشاهد الراقصة حتى طغى المنظر على المسرح كله، فأصبح رواية مستقلة تنفرد بالمسرح بطلها كشكش بك وقوامها الفكاهة والغناء والرقص، وأحسسنا أن نواة الملهاة المصرية الصميمة قد أخذت تتخلق».

يؤصل د. علي الراعي (١٩٢٠ - ١٩٩٩) مسرح الريحاني فيقول في كتابه عن «فنون الكوميديا» إن «بداية عمل الريحاني في إطار الفصل الواحد المضحك، ثم مواصلة هذا العمل في إطار فرقة جوالة، كان لهما أعمق الأثر على الكوميديا التي خرج بها على الناس بعد ذلك، مبتدئا بالفرانكو آراب، وشخصية كشكش بك، ومنتهيا بالكوميديات الاجتماعية التي قدمها في أوائل الثلاثينيات ممصرة عن الفرنسية، متعاونا في هذا مع زميل عمره بديع خيري» .

ويقول الراعي «كان الريحاني في تطوره يحمل دائما عنصرين أساسيين: الكوميديا الشعبية كما عرفها من إرث الكوميديا المرتجلة وكوميديا الفصل الواحد، والكوميديا الأوروبية التي استطاع أن يحصل على بعض من نماذجها المتفاوتة الحظ من الجودة عن طريق معرفته بالفرنسية، مضافا إلى هذا كله أثر من ألف ليلة وليلة والأدب الشعبي عامة، حمله إليه بديع خيري، شريكه في التمصير الخلاق. وبين هذين القطبين الكبيرين : الكوميديا الشعبية والكوميديا المترجمة ظل فن الريحاني يتأرجح حتى استطاع في أوائل الثلاثينيات أن يثبت في مجال الكوميديا الانتقادية عن أصول فرنسية».

وتقول د. نجوى عانوس في كتابها «المسرح الضاحك» عام ١٩٨٩ أن مسرح أمين صدقي الذي كان أول كاتب تعاون مع الريحاني «خرج من معطفين : معطف التراث الشعبي ومعطف المسرح الغربي، حيث تأثر بالأراجوز وبابات ابن دانيال وحكايات ألف ليلة وليلة والسير والتقاليد والعادات الشعبية واستخدم أيضا الأمثال الشعبية في مسرحياته» . وتضيف إن «تأثر المسرح الفرنسي وخاصة مسرح جورج فيدو (١٨٦٢ - ١٩٢١) بالتراث الشعبي جعل مسرحياته قريبة إلى ذوق الجمهور المصري».

وفي كتابها «شخصية العمدة في المسرح المصري ١٩١٤ - ١٩٥٢» عام ١٩٨٩ تقول د. عانوس «تطورت شخصية العمدة كشكش عند نجيب الريحاني تطورا إيجابيا منذ ١٩١٧، وفي أثناء ثورة ١٩١٩ حيث اتخذ منها قناعا سياسيا لطرح انتقادات وطنية لاذعة لجنود الاحتلال، كما شملت بعض الانتقادات الاجتماعية وعبرت عن آمال المصريين في تحقيق الاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية والرخاء الاقتصادي، كما اتخمت مسرحياته في تلك الفترة بالأغاني والأناشيد الوطنية حتى أصبحت المسرحيات وعاء لها».

وبقدر ما نتفق مع د. عانوس في قولها: «رأينا وقتئذ شخصيتين شعبيتين بارزتين هما كشكش عند الريحاني وعثمان عند الكسار، وكلتاهما تمثل روح العصر وتعبر عن وعي الجمهور بالأحداث وعن آماله وقلقه الاجتماعي»، بقدر ما نختلف معها في أن الريحاني في مسرحياته كان يعبر عن «كراهيته للأجانب، وحقده الشديد على الشوام واليونانيين»، فالكراهية لم تكن للأجنبي لأنه أجنبي، وإنما للأجنبي الذي يحتل البلاد أو يضطهد سكانها، وكيف للريحاني أن يحقد على الشوام ووالده من العراق، والمرأة الوحيدة التي تزوجها، وهي بديعة مصابني من لبنان.

عبر الريحاني في مسرحياته ثم في أفلامه عن التسامح العرقي والديني، ربما كان لم يعبر فنان آخر من فناني العصر الليبرالي في مصر، والذي تجسد في ثورة ١٩١٩، كتب الريحاني في مجلة «الحقيقة» في فبراير ١٩٤٧ «في ثورة ١٩١٩ كان مسرحنا يخرج كل ليلة قرابة الخمسمائة شخص بين رجل وسيدة وشاب وفتاة، وقد تأججوا وطنية وحماسا، وفعلت فيهم المونولوجات التي ألقيت عليهم فعل السحر، وأقض نشاطنا وحماسنا مضاجع الإنجليز، واستدعاني هورن بلور النائب العام الإنجليزي في ذلك الوقت، وفاجأني بقوله: أنت تعرف مالطة؟ فقلت: أظن هواها مش بطال. قال: تحب تغير هوا هناك، قلت: يبقى إذن منفى. واستطردت: ضع نفسك في مكاني، وهب أنك مصري، فماذا يكون موقفك مني؟ هل يلام من يطلب تحرير بلاده من ربقة المحتل. هل ترضى بريطانيا أن تكون في يوم ما محتلة من المصريين، وأن يضرب المصريون الإنجليز بالرصاص في الشوارع، وينفوهم لأنهم يطلبون الجلاء عن بلادهم. لم يرد الرجل، وبعد صمت طويل، طلب مني أن أخفف من نشاطي وحماستي، وإلا سيكون مصيري النفي إلى مالطة، قلت: إنني مصري قبل كل شيء .ولتفعل القوة ما تشاء، وحتى الآن لم أذهب إلى مالطة».

يقول عثمان العنتبلي في كتابه عن نجيب الريحاني: «كان في اجتماع سيد درويش ونجيب الريحاني وبديع خيري قوة إيجابية نفاذة، نشرت سطوتها على الحياة الفنية، وسجلت في التاريخ سطورا مشرقة مشرفة، وقد عبر الثلاثة عن مبادئ ثورة ١٩١٩ في العديد من مسرحياتهم مثل مسرحية «١٩١٨ - ١٩٢٠» التي حضرها زعيم الثورة سعد زغلول (١٨٦٠ - ١٩٢٧) وتضمنت نشيد «مصر أم الدنيا» ومطلعه:

إن كنت صحيح بدك تخدم
مصر أم الدنيا وتتقدم
لاتقول نصراني ولامسلم
ولايهودي ياشيخ اتعلم
اللي أوطانهم تجمعهم
عمر الأديان ما تفرقهم

ومثل مسرحية «حسن ومرقص وكوهين»، والتي يقول بديع خيري في حوار نشر في مجلة «الكواكب» عدد ١١ يوليو ١٩٦١، إن فرقة الريحاني قدمتها لأول مرة على مسرح دار الأوبرا عام ١٩٤١، وكان عنوانها الأصلي قبل العرض «محمد ومرقص وكوهين» ، ولكن الأزهر اعترض

على استخدام اسم النبى عليه الصلاة والسلام، كما اعترضت الكنيسة المرقسية على استخدام اسم مرقس تلميذ المسيح عليه السلام، واعترض حاخام اليهودى على استخدام اسم كوهين لانه يعنى الكاهن الأكبر. ولكننا استطعنا إقناع الكنيسة والحاخامية ولم نستطع إقناع الأزهر.

ويقول بديع خيرى فى نفس المقال إن الريحانى لم يمثل فى المسرحية أيا من الأدوار الثلاثة. وإنما قام بدور عباس الموظف البائس، وقام حسن فايق بدور حسن ومحمد كمال المصرى (شرفنطح) بدور مرقص، وبشارة واكيم بدور كوهين، وأن مضمون المسرحية اتحاد حسن ومرقص وكوهين كعمال فقراء ضد ظلم أصحاب الأعمال، وأن هذه المسرحية كانت تمثل عملا شديد الخصوصية بالنسبة للريحانى حتى أنها لم تقدم بعد وفاته. ومن الجدير بالذكر، أن الريحانى لم يمثل فى الفيلم الذى أنتج عنها.

كان الدكتور طه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٣) أول من أدرك قيمة مسرح الريحانى من كبار الكتاب العرب حين نشر مقاله عن مسرحية «سلاح اليوم» فى عدد مايو ١٩٤٦ من مجلة «الكاتب المصرى» حيث قال: «سلاح اليوم فى قصة الأستاذ الريحانى، ليس جدا، ولاجهدا، ولاكفاية، ولاعملا خصبا منتجا، ولاصدقا فى القول، ولا إخلاصا فى العمل، ولاوفاء للصديق، ولا اعترافا للجميل، وإنما هو كل ما يناقض هذه الخصال من الأخلاق. وهو ليس سلاحا يصطنعه فريق من الناس دون فريق، ولاطبقة منهم دون طبقة، وإنما هو سلاح شائع يصطنعه كل من قدر عليه، والناس جميعا يحرصون على أن يقدروا عليه ويصطنعوا. لأنهم جميعا يريدون أن يغيروا من حالهم، ويخرجوا عن أطوارهم، ويبلغوا منازل أرقى من المنازل التى قدرت لهم.. يريدون أن يصلوا، ولايترددون فى سلوك السبيل التى تنتهى بهم إلى مايريدون مهما تكن شائكة ومعوجة، بل هم يسلكون السبل الشائكة المعوجة لأنها وحدها التى توصل فى سرعة إلى مايريدون.

الأستاذ الريحانى معلم يلقى دروسه الاجتماعية والخلقية على المصريين منذ أكثر من ربع قرن، وهو فى الوقت نفسه صاحب فكاهة رائعة حلوة مرة فى وقت واحد. يسلى المصريين عن همومهم وأحزانهم العامة والخاصة منذ أكثر من ربع قرن أيضا. فليعرف المصريون له ذلك وليقدروه حق قدره وما أراهم يفعلون. وإنه لمن المؤلم حقا أن ينفق الأستاذ الريحانى حياته كلها معلما للمصريين ومسليا لهم عن الهموم والأحزان، وأن يؤثر المصريين أنفسهم بدروسه وفكاهته دون أن يجد من الدولة عناية أو تشجيعا. والغريب أن الدولة تفكر فى إنشاء جامعة شعبية ولتعذرنى الدولة إذا قلت أن مسرح الأستاذ الريحانى هو قسم من أقسام هذه الجامعة».

وعندما توفى الريحانى رثاه عميد الأدب العربى الحديث قائلا حسب النشرة الصحفية لفيلم «غزل البنات»:

لست أدرى أيحقق المصريون هذه الكارثة الفادحة المبهظة التى صبت عليهم ثقيلة بغيضة ملحة مضنية يوم اختطف من بينهم نجيب الريحانى. إن هذا الرجل ذا الخلق السمح والقلب النقى والنفس العذبة والضمير البرئ قد أضحك المصريين نحو ثلاثين عاما. أضحكهم ضحكا نقيا سمحا بريئا من كل إثم مطهرا من كل دنس. أضحكهم حتى أنساهم أنفسهم. أضحكهم حين كانت حياتهم كلها حزنا وهما وألما وعناء فأنساهم هذا كله.. أضحكهم حين كانت الأزمات السياسية والاقتصادية تعصف بحياتهم العامة والخاصة فتنغص نهارهم وتؤرق ليلهم وتقض مضاجعهم.. سلاهم الريحانى عن هذا كله وأعانهم على احتماله وهيأ لهم تجديد النشاط بعد أن كان الفتور يدركهم ويكاد يؤنسهم من كل شيء. أضحكهم الريحانى ثلاثين سنة فكان لهم صديقا وفيا يسلى الهم ويسرى الحزن ويفرج الكرب ويرد إلى الذين كرهوا الحياة حب الحياة.

فمهما يبك المصريون هذا الرجل العظيم ومهما ياسوا لفقده ويحزنوا لفراقه فلن يوفوه من حقه إلا أهونه وأيسره. إن هذا الرجل الذى مات ولم تتقدم به السن إنما أهدى صحته وراحته ودعته وعافية نفسه وجسمه إلى مواطنيه وأهدى إليهم هذا كله فى غير تكلف ولاتصنع ولا تكبر ولا مَنٍّ وإنما كان كالشمس يرسل فنه إرسالا فترضى النفوس وتطمئن القلوب وتسترد الضمائر ثقتها بالحياة كما ترسل الشمس ضوءها وحرارتها فتملأ الأرض حياة ونشاطا وبهجة».

وفى الذكرى الثامنة لوفاة الريحانى أقيم حفل كبير ألقى فيه الشاعر محمود حسن إسماعيل (١٩١٠ - ١٩٧٧) قصيدة جاء فيها:

ضاحكا والأسى يمزق جنبيه
ويأبى لفنه أن يخونه
جعل النفس مسرحا
ومدى النفس بقيد وكلكم تعرفونه
فى أساها، فى مكرها، فى كراها
فى دجى الظن ما أضلت عيونه

وألقى صديق عمره وشريكه فى رحلة الفن بديع خيرى قصيدة أخرى جاء فيها:

لو حد يسألنى يا نجيب
إن ياترى لسه فى نحيب
أفكر وأقول أبدا فرحان
اكمنى شفت بعينى اليوم
اللى اجتمع فيه رأى القوم
على أغلى تقدير للفنان

يقول الراعى «كان الريحانى فى تطوره يحمل دائما عنصرين أساسيين: الكوميديا الشعبية كما عرفها من إرث الكوميديا المرتجلة وكوميديا الفصل الواحد، والكوميديا الأوروبية عن طريق معرفته بالفرنسية، مضافا إلى هذا كله أثر من ألف ليلة وليلة والأدب الشعبى عامة، حمله إليه بديع خيرى، شريكه فى التمصير الخلاق

المسرح والسينما

يتردد كثيرًا أن الريحانى كان يكره السينما، وهذا غير صحيح حتى لو قال الريحانى نفسه ذلك فى بعض الأحيان، بسبب عدم رضائه عن هذا الفيلم أو ذاك من أفلامه. وكيف يكره الريحانى السينما وهو لم يكف عن صنع الأفلام منذ وصوله إلى مرحلة النضج عام ١٩٣٠، حسب إجماع كل نقاد ومؤرخى المسرح، وحتى وفاته عام ١٩٤٩، بل لقد اعتزل الريحانى التمثيل على المسرح عام ١٩٤٦، وقدم أربعة من أفلامه الستة المتوافرة من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٤٩، أى بمعدل فيلم كل سنة.

كتب عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) فى رثاء الريحانى تحت عنوان «رجل خلق للمسرح» فى مجلة «الكواكب» الشهرية عدد أغسطس ١٩٤٩ «إنك تحاول أن تتخيله فى عمل آخر غير عمله المسرحى، فلا تفلح. هو على المسرح كالسمكة فى الماء: دخوله إليه، وحركته عليه، وكلامه، وسكوته، وإيماؤه، وقيامه، وقعوده، طبيعة من صميم الطبيعة تنسيك كل تكلف يحتاج إليه الفنان، حتى ينتقل من العالم الخارجى إلى عالم الفن والرواية». وفى هذه الكلمات يقيم العقاد فن الريحانى، كممثل بدقة فى قوله أنه يمثل بشكل طبيعى، بحيث لا يشعر المتفرج بالتكلف الذى «يحتاج إليه الممثل». ومن المعروف أن التكلف كان واضحًا فى أداء العديد من نجوم المسرح والسينما فى البداية.

وبحس نقدى رفيع كتب محمد عبد الوهاب (١٨٩٨ - ١٩٩١) تعليقًا على مقال العقاد فى العدد التالى من نفس المجلة تحت عنوان: «رجل خلق للسينما» قال فيه: بوسعى كفنان زامل الريحانى فى آخر عمل فنى له وهو فيلم «غزل البنات» أن أقول فى ثقة وحماسة وتأكيد أننى لا أتخيل الريحانى إلا مظلوما على المسرح، فإن خشبة المسرح كانت تسرق الكثير من عبقريته لتدفنها فى جو محدود، وتطويها دون أن يشعر بها أحد، بينما هى فى إبداعها مثل عطر غال نادر الوجود، فإن للريحانى وجهًا معبرًا صارخ الملامح ناطق الرحمة، تكاد كل خلجة فيه تبرز قصة بليغة صامتة، وله لمحات تطفر من عينيه يسجل فيها أروع أحاسيس الفنان الملهم: دمعة كسيرة، أو نظرة مرحة، أو غشاء من ترح أو فرح، يكسبه لونًا إعجازيًا قل أن يكون له نظير فى العالم. وكانت له أيضًا نبرة صوت فيها كل شجن الفنان، تقفز رأسًا من خفقة قلبه، لتخرج من شفتيه أشبه بهمسة واهنة لا تكاد تسمعها الأذن، ولكنها أنفاس حارة تنفخ أجيجًا من نار فى إحساس من يتتبعه».

ويستطرد المغنى والموسيقار: «أقول هذا وأنا لا أكاد أتخيل شيئا غير عين الكاميرا، يمكن أن تسجل فى أمانة هذه القدرة التعبيرية، وأقولها وأنا لا أرى شيئًا غير الشاشة، يمكن أن تعرض ذلك فى إتقان، فتقرب وتبرز لك أدق حركة من حركاته وألمع لمحة من لمحاته وأرق نبرة من نبراته، فالريحانى لم يكن جسمًا يتحرك فقط ليراه المشاهد من مقاعد الصف الأخير أو من أعلى التياترو، كما يراه المشاهد فى الصف الأول، ولكنه كان روحًا يجب أن تلمسها لمسًا بإحساسك، فلا تجهد نفسك معها، وإلا فشلت فى تتبعها. السينما فقط ترفع رأسها فخورة بأنها تقدم الريحانى حيًا مجيدًا».

ويقول عبدالوهاب: «كان هذا الشعور الذى أسجله يجول فى نفسى قبل فقدنا له بشهور، فشعرت متأثرا أن الريحانى لو توفى يوما فلن يترك إلا أوراقا بالية ممزقة، هى مخلفات مسرحيات لن تكون لها قيمة بدونه ودون وجوده، فاعتزمت أن أنفذ مشروعا مع صديقى وشريكى الفنان أنور وجدى، وهو أن أبدأ فى إحياء مسرحياته الخالدة على الشاشة البيضاء، ولكن القدر شاء أن نقف بعد المحاولة الأولى لنا فى «غزل البنات»، ولعل الفقيد العزيز كان يشعر بأنه وشيك الانتهاء أثناء عمله فى هذا الفيلم، فاجتر كل قوت العبقرية الذى كان يختزنه فى نفسه، وسجل فنا يمكن أن نعرضه فى قلب إنجلترا أو أمريكا فنبهرهم به قبل أن نبهر أنفسنا، وبودى حين يعرض فيلم «غزل البنات» أن يشاهده الأستاذ العقاد ليتأكد كم أضاع المسرح علينا من فلتات الفن الإعجازى للريحانى، فإن فى الفيلم منظرا صامتا له وهو يتأمل السيدة ليلى مراد يحدثها فيه بتعابير وجهه، أقسم أنه سوف ينتزع التصفيق القوى من أجمد الناس شعورا، ومستحيل على المسرح وأضواء المسرح وترتيب المسرح أن يشعرك به، ولكن الكاميرا تواجهه عن قرب، فلا تتمالك نفسك إلا الانفعال مع هذا الفنان العبقرى، إن الريحانى مات فى نظر المسرح، أما فى نظر السينما فهو حى فيها إلى الأبد لأنه خلق لها وخلقت له».

لم يكره الريحانى السينما إذن، ولم يكن من الممكن أن يكرهها، ليس فقط بسبب الأفلام التى قام بالدور الأول فيها، وإنما أيضا لأنه كان يدرك ما يقوله عبدالوهاب، مثله فى ذلك مثل أى ممثل فى العالم، فالسينما التى تكشف قدرات الممثل من الناحية الفنية، وخاصة مع استخدام المنظر الكبير (الكلوزآب)، ومن ناحية أخرى، هى التى خلدت فن التمثيل بعد أن كان يندثر فور انتهاء العروض المسرحية ولايذكر إلا فى سطور الكتب، أو فى الصور الفوتوغرافية بعد اختراع الفوتوغرافيا. ولذلك كان الكثير من الأفلام التمثيلية الأولى مشاهد من مسرحيات لكبار نجوم التمثيل المسرحى، وبعد اختراع الفيلم الناطق أصبح من الممكن تسجيل العروض المسرحية بكاميرات السينما.

ولكن ممثل المسرح لايفكر فى السينما كأداة للكشف عن قدراته، أو تخليد أعماله فقط، وإنما أيضا لاكتساب المزيد من المتفرجين بحكم انتشار السينما، وسهولة عرض الفيلم فى أماكن كثيرة فى نفس الوقت، داخل بلاده وخارجها، وهنا تظهر مشكلة نجوم المسرح ونجوم السينما، فالكثير من نجوم المسرح لاينجحون فى السينما، والسينما تصنع نجوما بعضهم يعجز تماما عن التمثيل المسرحى. وبالتالى يمكن لممثل مسرحى قدير أن يرى ممثلا متواضع الموهبة يصبح نجما ويكتسب جماهير أكبر من جماهيره لأن الحضور المسرحى يختلف اختلافا جذريا عن الحضور السينمائى.

كان نجاح أفلام الريحانى فى حياته أقل من نجاح مسرحياته، وكانت هناك أفلام أنجح من أفلامه رغم أن قيمتها الفنية أقل، ومن هنا جاءت فكرة أن الريحانى يكره السينما، وقد كان مقياس النجاح والفشل الجماهيرى للأفلام قبل التليفزيون هو مدى استمرار العرض الأول فى دور السينما، وبعد

التليفزيون أصبح المقياس مرات العرض، وبعد الفيديو أضيف مقياس ثالث وهو عدد النسخ المباعة. وبمقياس التليفزيون والفيديو بعد ٥٠ سنة من العرض الأول لآخر أفلام الريحاني، فإن أغلب أفلامه الستة المتوافرة على قنوات التليفزيون وشرائط الفيديو تكاد تصبح من «المأثورات الشعبية»، وقد ترجم العقاد كلمة فولكلور «مرددات شعبية»، أي ما يردده الشعب في حياته اليومية، مثل الاستشهاد بالأمثال، وبما جاء في السير والحكايات.

الناس يحفظون حوار «غزل البنات» وخاصة في مشاهده المأثورة مثل مشهد التعارف بين الباشا والمدرس الذي جاء يعلم ابنة الباشا اللغة العربية، وعبارة «مرزوق أفندي.. اديله حاجة..» تستخدم في مواقف كثيرة في الحياة على سبيل السخرية، والناس يحفظون حوار «لعبة الست»، ولايملون أغانيه من «ياخارجة من باب الحمام» إلى «الغراب ياوقعة سوده جوزوه أحلى يمامة»، ولاتحصى الأمثلة ولاتعد على مدى نجاح أفلام الريحاني في عصر التليفزيون والفيديو.

يقول أستاذ التمثيل زكي طليمات في تقييم فن الريحاني كممثل، وذلك في مقال نشره في مجلة «الكواكب» عدد ١٤ يونيو ١٩٥٥: «قليل على الريحاني في فنه الكبير أن أقرر أنه كان يحس المعاني قبل أن يخرجها كلاما»، وأنه كان ينفعل بها انفعالا عميقا ومتزنا.. من غير مبالغة أو تقصير، وأنه إذا عبر عنها كلاما، وجد خلفها إطارا من وجه بليغ في التعبير، بل لوجد أعضاء الجسم فيه تتحول إلى عيون مفصحة ووجوه معبرة..

وقليل على الريحاني في فنه الكبير أن أقرر أنه كان على خفة في الظل وجاذبية تضفي على كل ما يبدر منه بهاء وروعة تأخذ بمجامع القلوب..

وقليل أن أقول أن الإشارة منه أو الحركة تكون أبلغ من الكلام، وأن الصمت الذي كان يأخذ به أحيانا أثناء التمثيل، كان يفصح، ويبعث ويثير ويدعم التعبير ويسمو به إلى أفق بعيد من الإجادة..

إن الريحاني في فن الممثل كان أبلغ من هذا وأبعد أثرا!!

ومرجع هذا أن الريحاني كانت تملأه فيوض من الإنسانية تضفي على أدائه طابعا من الرفق واللين.. والدماثة.. ومن أشياء لا أجد لها اسما!!

ومتى اجتمع الإنسان الحق، مع الممثل الحق وقعت هذه الأعجوبة!!

ومرجع هذا أيضا، أن الريحاني كان يحس بنفسه إلى حد بعيد فتبلورت لها معالم في أعماقه فإذا هو ذو شخصية قوية.

سينما الريحاني

يقول خيري شلبي في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب عثمان العنتبلي «نجيب الريحاني» عام ١٩٩٩، إن فن الريحاني لم يلق ما يستحقه من عناية الباحثين. والواقع أن مسرح الريحاني لقى من العناية ما يستحق ويزيد، ولكن سينما الريحاني لم تدرس بأي قدر من العناية، ولا حتى عندما احتفل مهرجان القاهرة السينمائي الدولي بمرور مائة عام على مولد الفنان عام ١٩٩٢، أو عندما احتفل نفس المهرجان بفن الكوميديا عام ١٩٩٩، وأصدر كتابًا عن بديع خيري مؤلف أغلب مسرحيات الريحاني وكل أفلامه.

ومن الغريب أن الدراسات الكثيرةالتي صدرت عن مسرح الريحاني وفنه، كممثل تشير إلى بعض أفلامه إشارات عابرة، بينما عمل الريحاني في المسرح والسينما معًا، ولا يمكن الفصل بين أعماله عندما يكون فنه موضوعًا للبحث، فضلاً عن حقيقة أن الأفلام، أو بعض الأفلام، هي كل ما بقي من آثاره كممثل.

لا خلاف حول الأفلام الستة الأخيرة التي مثلها الريحاني، وهي «سلامة في خير» ١٩٣٧، و«سي عمر» ١٩٤٠ إخراج نيازي مصطفى، و«لعبة الست»، و«أحمر شفايف» ١٩٤٦ إخراج ولي الدين سامح، و «أبو حلموس» ١٩٤٧ إخراج إبراهيم حلمي، و «غزل البنات» ١٩٤٩ إخراج أنور وجدي، وكلها ناطقة، ولكن هناك خلافات كبيرة حول الأفلام التي سبقتها، وبعضها صامت. وترجع هذه الخلافات إلى أن هذه الأفلام مفقودة، أو بالأحرى لم يتم البحث عنها بالأسلوب العلمي المتبع في البحث عن الأفلام المفقودة في العالم.

يذكر إلهامي حسن في كتابه «تاريخ السينما المصرية» عام ١٩٧٦، أن الريحاني بدأ تصوير فيلم صامت عام ١٩٢٩ من تمثيله مع بديعة مصابني، ومن إخراج جاك شوتز، ولكن الفيلم لم يتم. ويؤكد منير محمد إبراهيم



ذلك في كتابه «رواد وأفلام» عام ١٩٨٥، ولكن الباحث مفيد فهيم في دراسة مصورة بالأوفست وزعها على نطاق ضيق يذكر أن الفيلم تم، ولكنه كان «أقصر الأفلام المصرية الصامتة الطويلة»، وعرض بعنوان «الريحاني» وأنه كان من إنتاج شركة الفن المصري ومن تمثيل الريحاني وبديعة وإيمي بروفانزا وياقوت عزيز وبديع خيري.

لا توجد أية إشارة إلى هذا الفيلم في كتاب أحمد الحضري «تاريخ السينما في مصر» عام ١٩٨٩، والذي حاول فيه رصد كل الأفلام المصرية التي تمت والتي لم تتم حتى نهاية عام ١٩٣٠، كما لا يذكر الريحاني الفيلم في مذكراته التي نشرت عام ١٩٣٧. ولكن عدم ذكر الفيلم في هذا الكتاب أو ذاك ليس دليلاً على عدم وجوده، والأفلام غير التامة ليست مثل الأفلام التامة بالطبع، ولكنها جزء من تاريخ السينما. وقد يعتبر البعض أن مذكرات الفنان تختلف عن غيرها من الكتب، وهذا صحيح، ولكن لا يعني أنها «المرجع» بألف لام التعريف، وخاصة أن مذكرات الريحاني التي نشرت لأول مرة عام ١٩٣٧، غير دقيقة وغير موثقة وغير شاملة، وهي أقرب إلى الذكريات منها إلى المذكرات.ومن المنطقي أن يحاول الريحاني صنع أول أفلامه عام ١٩٢٩ في ذروة نجاحه، واللحاق بمنافسه الكبير علي الكسار (١٨٨٧ - ١٩٥٧)، الذي كان قد سبقه في هذا الميدان.

يذكر الريحاني في مذكراته. فيلمه الصامت الوحيد الذي تم «صاحب السعادة كشكش بك» (تكتب أحيانًا كش كش بيه ولكنها في المذكرات كشكش بك) من إخراج إستيفان روستي عام ١٩٣١، ولكنه لا يذكر أن نفس الفيلم أعيد عرضه ناطقًا عام ١٩٣٢ بعنوان «سعادة كشكش بك»، كما لا يذكر فيلم «حوادث كشكش بك» إخراج كارلو بوبا عام ١٩٣٥، مما جعل أشرف غريب في كتابه «العصر الذهبي للكوميديا» عام ١٩٩٩ يعتبرد النسخة الناطقة من «صاحب السعادة كشكش بك». وهناك وثيقة تؤكد وجود فيلم «حوادث كشكش بك»، وهي القائمة الرسمية المطبوعة للأفلام التي وزعتها شركة بهنا فيلم موسم ١٩٣٥-١٩٣٦، وتذكر أن الفيلم تمثيل الريحاني وروستي وعبد اللطيف جمجوم وفوزية منير.

نمطان

نمطان شهيران قدمهما نجيب الريحاني على المسرح: نمط كشكش بك عمدة كفر البلاص المتلاف، الذي يبيع القطن وينفق أمواله في ملاهي الليل أثناء الحرب العالمية الأولى، ونمط الموظف الطيب البائس الذي يعمل في الإدارة أو المحاسبة أو التدريس، وتعانده الظروف، ولكنه ينتصر في النهاية بفضل حرصه على القيم الأخلاقية. وتنقسم أفلام الريحاني بدورها إلى مرحلتين: مرحلة كشكش بك في الفيلم الصامت الذي أعيد عرضه ناطقًا (صاحب السعادة كشكش بك - سعادة كشكش بك) و (حوادث كشكش بك) و (بسلامته عاوز يتجوز)، ومرحلة الموظف الطيب البائس (ياقوت - سلامة في خير - سي عمر - لعبة الست - أحمر شفايف - أبو حلموس - غزل البنات).

كشكش بك

يقول الريحاني في مذكراته أن إستيفان روستي (١٨٩٧ - ١٩٦٤)، زاره ذات يوم ومعه المصور والمنتج توليو كياريني واقترحا عليه صنع فيلم «صاحب السعادة كشكش بك» ويستطرد قائلا: «كان غريبًا أن نبدأ العمل فيه دون أن نضع له فكرة معينة، أو نكتب له سيناريو محدد المناظر والوقائع. وكل ما هناك أننا كنا نخرج في السادسة صباحًا دون أن ندري ماذا سنفعل، حتى إذا جلست لتركيب لحية كشكش، بدأت أفكر في المناظر التي نصورها وفي الحوادث التي نمثلها، فإذا انتهيت من تركيب اللحية أكون قد انتهيت من تفكيري فنبدأ في التنفيذ. يعني في التصوير. وتكلف فيلم «صاحب السعادة كشكش بك» أولاً عن آخر مبلغًا وقدرة أربعمائة جنيه مصري لاغير. يعني أننا أخرجناه بتراب الفلوس، ومع ذلك فقد نجح وجلب فلوس، وأقبل الجمهور على مشاهدته إقبالاً لم يكن يتوقعه أكثر الناس تفاؤلاً». ومن الواضح أن الفيلم كان مجرد استغلال لنجاح مسرحيات كشكش بك. ونفس الأمر بالنسبة للأفلام الكشكشية الأخرى (سعادة كشكش بك - حوادث كشكش بك - بسلامته عاوز يتجوز).

ياقوت

يقول الريحاني في مذكراته: «في أغسطس ١٩٣٣ وصلتني برقية من الأستاذ إميل خوري، الذي كان سكرتير تحرير جريدة الأهرام. يحمل تحويلاً بمبلغ خمسين جنيهًا. ويطلب مني أن أوافيه بباريس. فقمت على عجل بعد أن طلبت من زميلي بديع أن يعد نفسه للحاق بي. حين أرسل برقية باستدعائه. ووصلت إلى باريس وقوبلت بالحفاوة اللازمة. وما هي إلا يومين ثلاثة وبدأت أفهم «الفولة». وإيه هي «الفولة»؟ هي أن عم خوري أخذ المقاولة من شركة جومون لحسابه هو. وجاء يقنعني بقبول الاشتراك معه بنسبة الثلث. ثم قدم لي سيناريو من وضعه هو. وذكر أنه مشرف لمصر. وأنه سينال نجاحًا لا نظير له وأنه إلى آخر الإنهات اللي في الدنيا.

اطلعت على السيناريو، فوجدت أنه لا بأس به، إذا تركت لنا الحرية في وضع الحوار الذي يدور بين ممثليه، وفي الحال أرسلت في طلب بديع، ولكن وقبل أن يصل الزميل، تقدم إلى إميل وأعطاني نسخة من حوار وضعه باللغة الفرنسية، وطلب إلى ترجمته إلى العربية، بحيث لا نخرج عنه قيد أنملة. فلما قرأته وجدت أنه لا يصلح بتاتًا. وخاصة لجمهوري الذي عرفته وعرفني. فحاولت أن أقنع الشريك المخالف بأن هذا الحوار في مقدوره أن يسقط بدل الفيلم الواحد فيلمين أو ثلاثة، ولكنه أصر ولم يصغ لأي اعتراض، فصممت إزاء هذه الصلابة على التوقف عن العمل والعودة إلى الوطن. فظل بديع يهدىء من ثورتي، ويعمل على إقناعي بأن عودتي خاوي الوفاض إلى مصر ستطلق ألسنة الناس بالشائعات والأقوال، وستدع لخصومي فرصة النيل مني، وستكون النتيجة كيت وكيت.

و«خشت» هذه النصائح في مخي. وزادها ثباتًا أن جيبي كان فارغًا حتى من ثمن تذكرة العودة. فقلت لنفسي صهين يا واد يا نجيب وأهو فيلم ويفوت ما حد يموت! وبدأنا عملنا في الفيلم - وقد نسيت أن أذكر لك بأننا اخترنا له اسم «ياقوت» - بدأنا في إخراجه باستوديو جومون يوم الاثنين وانتهينا منه نهائيًا يوم السبت التالي، أي أننا «كروتناه» في ستة أيام. أما الداعي لهذه «الكروته»، فهو أن السيد خوري لم يكن يهمه إلا أن يضغط الميزانية. وقد كان. وبعد أسبوعين انتهت عملية المونتاج وجاء خوري ومن معه يجزلون لي التهنئة ويقسمون أنني فشر هاري بور وشارل بواييه ومش عارف مين ومين كمان، فهززت رأسي وطمأنتهم بأن الفيلم - مع هذا وذاك - لن تقوم له قائمة، ولن يلاقي أي حظ من النجاح.

وعن فيلم «ياقوت» يقول بديع خيري في مقال نشر بمجلة «الكواكب» عدد ٢٤ أبريل ١٩٥٦» وصلتنا رسالة من باريس اعتبرناها إنقاذا من السماء، وكان مرسلها هو الأستاذ إميل خوري وزير لبنان المفوض حاليًا في روما.

وكان الأستاذ إميل خورى يعمل قبيل ذلك سكرتيرًا لتحرير الأهرام. وكان - أمد الله فى عمره - وثيق الصلة بالزعيم سعد زغلول «باشا»، وقد كان يهاجم الإنجليز فى لغة شديدة اللهجة إلى حد أن طالبوا بنفيه، وصدعت حكومة عدلى يكن باشا بالأمر وأخرجت إميل خورى من مصر، فاستوطن فرنسا واتخذ باريس مقرا له، وقد ساهم هناك فى بعض الأعمال التجارية، واستطاع أن ينجح نجاحًا ملحوظًا مما كان سببًا فى ثرائه.

واتفق الأستاذ إميل خورى مع شركة سينمائية فرنسية على إنتاج فيلم مصرى فرنسى يشترك فى تمثيله ممثلون من مصر ومن فرنسا.

وسافر الأستاذ نجيب الريحانى إلى باريس ثم لحقت به. ولم يكن من الممكن أن تسافر معنا بقية الفرقة نظرًا لكثرة المصاريف، فرأينا أن نستعين بالطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون هناك. وقد يسر لنا مهمة العثور عليهم الأستاذ أدمون تويما - وكان يقيم فى باريس منذ خمس سنوات - وقد وجدنا من الطلبة المصريين ترحيبًا كبيرًا وتعاونًا صادقًا طوال فترة تصوير الفيلم. إن من بينهم اليوم قضاة وأساتذة فى الجامعة، وأنا مهما مرت السنون لا أنسى روحهم الطيبة. أما قصة الفيلم، فكانت تدور حول فكرة إنسانية تتلخص فى أن الخلافات الدينية أو العنصرية لا يمكن أن تقف حائلاً بين الناس وحبهم لبعض، وهكذا يمكن أن يتبادل ياقوت أفندى «نجيب الريحانى» الحب مع مس رودى الأمريكية الحسناء «إيمى بريفان» رغم أنه مصرى بسيط الحال وهى ثرية أمريكية.. وحسناء».

هذا ما نشره الريحانى عن الفيلم عام ١٩٣٧، وما نشره بديع خيرى عن نفس الفيلم عام ١٩٥٦. أما ما نشر وقت تصويره عام ١٩٣٣، فينشر صلاح عيسى نموذجًا منه فى جريدة «صوت الكويت» العربية التى كانت تصدر فى لندن عدد ٢٣ أبريل ١٩٩٢، ونصه كالتالى:

«انتهى الأستاذ نجيب الريحانى من تمثيل فيلمه السينمائى «ياقوت» الذى أخرج فى ستوديو جومون بباريس، وكانت الشركة كما قال لنا الأديب والكاتب الأستاذ بديع خيرى، قد اتفقت مع « الريحانى» على أن يمثل لها تسعة أفلام فى مدى ثلاث سنوات بمعدل ثلاثة أفلام فى العام.

ويتكتم الأستاذ «الريحانى» قصة الفيلم، إلى أن يشاهده النظارة، ولكننا علمنا أن شخصية «ياقوت» التى يتقمصها، تختلف اختلافًا بيِّنا عن شخصية «كشكش بك» التى اشتهر بها «الريحانى» وظهر على خشبة المسرح، وأن موضوع الفيلم، هو معارضة للأفلام التى تعودت الشركة السينماتوغرافية الأجنبية إخراجها عن البلاد الشرقية، فالقصة فى فيلمه لا تقوم على أمير شرقى يحب سائحة أوروبية فقيرة، ولكنها تقوم على رجل عربى طيب القلب هو «ياقوت أفندى» يعمل فى وظيفة متواضعة، إلى أن تسوقه الظروف للتعرف بسائحة سويدية تدعى «رودى أريسون» ابنة ملك الكبريت ومن صاحبات الملايين، تقع فى غرامه، فترفع من مكانته وتعلى من شأنه.

وقامت ببطولة الفيلم الممثلة الفرنسية «إيمى بريفان»، وقد سبق لها زيارة مصر والعمل على مسرح الكورسال، كما مثلت به دورًا آخر فنانة مصرية تدعى ناهد كمال، تقيم فى باريس، وقد فازت بلقب فتاة الغلاف فى مسابقة أجرتها إحدى المجلات الفرنسية بين هاويات السينما، وتقوم فى الفيلم بدور طالبة عربية تدرس الطب فى لندن، وتعود مع ابنة ملك الكبريت إلى مصر فى باخرة واحدة، فتتعارفان، وقد مثل فى الفيلم عبد الله صالح والدكتور شكرى رمسيس وأدمون تويما، وقام بديع خيرى - فضلا عن مشاركته فى كتابة السيناريو - بدور مغربى يدعى الحاج حسن، قام بإخراج الفيلم «المسيو روز بيه»، وقد مارس الفن فى ألمانيا وفى هوليوود بأمريكا. وعمل معه كمساعد «أحمد أفندى بدرخان» عضو بعثة شركة مصر للتمثيل والسينما، وصوره جيلمان بمساعدة شاب جزائرى ماهر اسمه طاهر الحنش. ويقول «نجيب الريحانى» إن فيلم «ياقوت» يحوى من المحادثات باللغة الفرنسية ما يكفل حسن تفهمه فى باريس وغيرها، ويضمن الإقبال عليه فى مصر وغيرها، وأضاف أنه يثق أن هذه الرواية سوف تلقى فى مصر إعجابًا لا يقل عن إعجاب الأقطار الأوروبية بها، التى لن ترى فيه تلك الأغلاط العديدة التى طالما تشاهد فى الروايات التى يخرجها الأجانب عن الشرق.

سلامة فى خير

يقول الريحانى فى مذكراته إن نجاح فيلم «الحل الأخير» من إنتاج ستوديو مصر، جعله يطمئن ويقرر عمل فيلم جديد، ويقول: اشتركت مع بديع فى وضع فكرة السيناريو ثم ذهبنا إلى الاستوديو والتقينا الأستاذ أحمد سالم، وعرضنا عليه فكرتنا، ولكنه قص علينا فكرة أخرى لا أجد غضاضة فى التصريح بأن هذه كانت المرة الأولى التى استحسنت فيها قصة لأى إنسان كان، ووافقنى بديع على صلاحية هذه الفكرة، وكان اختيارنا قد وقع على اسم «أفراح». ولكن الأستاذ سالم فضل عليه «سلامة فى خير».

وعن مخرج الفيلم نيازى مصطفى (١٩١٠ - ١٩٨٦) يقول الفنان الكبير: صدمت هذا الفتى فى ذلك الحين بتصريح غير مستحب، لأننى لدغت من مخرجين قبله، ولكن بمرور الوقت عرفت قيمة نيازى، فاعترفت بخطئى فى تقديره، فهو كفء مخلص لفنه. وكانت اجتماعات متعددة متتالية بينى وبين بديع ونيازى عالجنا فيها وضع السيناريو وربط موضوعه وحوادثه. وسرنا فى عمل الفيلم وحولنا جو من التفاهم التام لم يكن لى به عهد من قبل، فقد كان المخرج يعمل فى حدود واجبه، وكثيرًا ما عاوننا بأفكار ثاقبة وآراء ناضجة، فكنا نحن الثلاثة نواصل العمل سويًا، وكل منا يشعر أنه يؤدى فرضًا واجبًا يدفعه إليه الإخلاص والحرص على النجاح.

وأثناء مونتاج الفيلم صرح نيازى لمجلة «المحروسة» عدد ١٩ أكتوبر ١٩٣٧ قائلاً:

«عندما عهد إلى الاستوديو فى إخراج هذا الشريط كان على بطبيعة الحال أن أتصل بالأستاذ نجيب الريحانى لكى نشترك سويًا فى وضع سيناريو الشريط وإعداد مواقفه، وكانت هذه أول مرة أتصل فيها عمليا بالريحانى، فلم تكن لديه فكرة واضحة عنى، ولهذا شعرت عند أول مقابلة لى معه أنه ينظر إلى وكأنه لا يصدق أننى كفء للقيام بمهمة إخراج هذا الشريط الكبير، وجعلنى شعورد نحوى أشك فى نفسى فتولد فىَّ شعور الخوف والوجل مما أنا مقدم عليه، وتضاربت فى نفسى عوامل مختلفة كانت تجعلنى أحيانًا أفكر فى الانسحاب من هذه المهمة الخطيرة.. فليس إخراج شريط كوميدى أمرًا سهلاً، وخصوصًا بالنسبة للأستاذ نجيب الريحانى.

وهكذا تولد شبه سوء تفاهم بينى وبين الريحانى عند بداية العمل، وكانت الظروف تحتم أن أتصل به يوميًا هو والأستاذ بديع خيرى لإعداد السيناريو، وكان من كثرة اتصالنا أن كلا منا بدأ يفهم الآخر، وتغيرت نظرة نجيب إلى ولهذا خرج السيناريو بعد كتابته جامعًا لكل أسباب السيناريو الفكاهى الناجح حتى لقد أطلقنا عليه اسم السيناريو «البدنجانى!» لأنه يجمع بين مواقف فكاهية مثيرة للضحك إلى درجة الجنون!

وقد زاد فهمنا لبعضنا أيضا عندما بدأ العمل فى الإخراج والتمثيل، فقد كان نجيب يؤدى مواقفه أمام الكاميرا بسهولة جعلتنى أطمئن إلى النتيجة التى سيسفر عنها الشريط بعد تمام إخراجه، وهكذا بدأت أعمل فى الشريط وشعورا الخوف والوجل يلازمانى، ولكنى عندما انتهيت منه وجدت نفسى وكلى أمل فى النجاح».

لست أدرى أيحقق المصريون هذه الكارثة الفادحة المبهظة التى صبت عليهم ثقيلة بغيضة ملحة مضنية يوم اختطف من بينهم نجيب الريحانى. إن هذا الرجل ذا الخلق السمح والقلب النقى والنفس العذبة والضمير البرئ قد أضحك المصريين نحو ثلاثين عاما، أضحكهم ضحكا نقيا سمحا بريئا من كل إثم مطهرا من كل دنس، أضحكهم حتى أنساهم أنفسهم

طه حسين

كان فيلم «سلامة فى خير» الذى أنتج وعرض عام ١٩٣٧ أول فيلم تمثيلى طويل من إخراج نيازى مصطفى، وأول فيلم سينمائى يقبل عليه الجمهور من تمثيل نجيب الريحانى وأول كوميديا سينمائية مصرية ناجحة من الناحية الفنية فى نفس الوقت.

تذكر عناوين الفيلم أن القصة من تاليف ستوديو مصر، و السيناريو والحوار من تاليف بديع خيرى، ونجيب الريحانى. وقد كان المقصود من نسبة قصة الفيلم إلى الاستوديو أنها عمل جماعى للعاملين فى قسم السيناريو.

عنوان الفيلم يعنى أن كل شىء أصبح على ما يرام، فعندما كانت تتعقد الأمور ثم تحل يقول أحدهم فى النهاية سلامة فى خير وخير فى سلامة، بمعنى كانت أزمة وانتهت بسلام. وهذا ما يردده بطل الفيلم فى اللقطة الأخيرة مع زوجته. وكما كان مفهوم القصة السينمائية ملتبسا إلى درجة نسبتها إلى الاستوديو، كان مفهوم السيناريو أيضًا. فالمؤكد أن خيرى والريحانى كتبا الحوار، ولكن التقطيع الفنى أى السيناريو صنعه نيازى مصطفى باعتباره ضمن عملية الإخراج، فلم يكن السيناريو المكتوب غير تتابع المشاهد أو بالأحرى تتابع الأحداث مع الحوار.

سلامة (نجيب الريحانى) ساعى فى محلات خليل هنداوى (فؤاد شفيق) يكلف بتوصيل مبلغ كبير من المال إلى البنك، ولكن مجموعة من المصادفات تضطره للعودة إلى منزله، حيث يعيش مع زوجته ستوتة (فردوس محمد) وحماته ومعه المبلغ الكبير، تقول ستوتة إن لصا سرق أدوات المطبخ فى الصباح، فيأخذ سلامة المال ويغادر المنزل، وينصحه أحد أصدقائه بالمبيت فى فندق كبير، وإيداع المبلغ فى أمانات الفندق حتى لا يضيع.

يذهب سلامة إلى الفندق فى نفس الوقت الذى تستعد فيه الإدارة لاستقبال أمير ثرى من بلاد بعيدة يدعى كيندهار (حسين رياض)، وفى نفس الوقت الذى يستعد فيه رستم بك (إستيفان روستى) لاستقبال الأمير على أمل أن يتزوج من ابنته جيهان (راقية إبراهيم). تطلب جيهان من خادمتها ناهد (روحية خالد) فى الإسكندرية أن تاتى لها بمجوهراتها، وفى الطريق تتعطل السيارة التى تقل ناهد وتلتقى مع الأمير كيندهار - الذى يعرض توصيلها إلى القاهرة. وعلى باب الفندق يتصور مديره أن سلامة هو الأمير، ويستظرف الأمير اللعبة، ويراها فرصة لاختبار مشاعر ناهد تجاهه، ويتفق مع سلامة على القيام بدوره لمدة يومين.

يرى بيومى أفندى مدرس اللغة العربية (محمد كمال المصرى) صورة جاره سلامة فى الصحف على أنه الأمير كيندهار، فيبلغ الشرطة، فى نفس الوقت الذى يكتشف فيه خليل هنداوى أن سلامة لم يورد المبلغ إلى البنك، ويجد سلامة فى حقيبة المال عينات من القماش، فتقبض الشرطة على سلامة، ويتدخل الأمير فى اللحظة المناسبة ليقول إنه الذى اتفق معه على تمثيل دوره، ويأتى صاحب حقيبة العينات فى اللحظة المناسبة أيضا، ويفتح الحقيبة فيجد المال الذى يسترده خليل ويدرك أنه اتهم سلامة ظلما، ويحصل سلامة على مكافأة كبيرة من الأمير وصاحب المحلات.

وفى الفيلم شخصيات أخرى مثل شقيق جيهان الساذج الذى يقوم بدوره حسن فايق، والذى يحب ناهد، ولكنها تفضل كيندهار وهى لا تعلم أنه أمير. كما يظهر عدد من الممثلين فى أدوار ثانوية مثل منسى فهمى، وفى أدوار قصيرة أقرب إلى الكومبارس مثل حسن البارودى ورياض القصبجى وجمالات زايد.

للوهلة الأولى تبدو نقطة الضعف الأساسية فى كمية المصادفات، ولكن المصادفات مقبولة فى الكوميديا، ونقطة الضعف الحقيقية فى حبكة السيناريو، وخاصة عندما تتكاثر الخطوط الدرامية ولا يتحقق التوازن بينها. وعندما يستطرد الفيلم فى المفارقات الناتجة عن تصرفات الساعى الفقير وهو يقوم بدور الأمير الثرى. ولكن الإخراج يخفى عيوب السيناريو بالتوزيع الصحيح للأدوار، وإدارة الممثلين الحاذقة، وحركة الكاميرا، والتكوين، والمونتاج المتميز، حتى يمكن اعتبار «سلامة فى خير» ربما أول فيلم مصرى يتخلص تماما من أساليب الإخراج المسرحية فى بدايات الأفلام المصرية الناطقة.

يحاول نيازى مصطفى فى الفيلم، نقد

بعض العادات السائدة مثل صخب الأطفال في المنازل، وعدم مراعاة الجيران بصفة عامة، والثرثرة في الهواتف العمومية، وذلك في إطار مفهوم أن السينما قادرة على تغيير العادات السيئة بتصويرها. كما يعبر الفيلم عن التسامح الديني والعرقي في قاهرة الثلاثينيات، وهي سمة رئيسية من سمات فن الريحاني، حيث نرى علاقة إنسانية حميمة بين الموظف المسلم الفقير سلامة وصاحب المحلات المسيحي، والذي ينزعج من زوجته لرغبتها في إطلاق اسم جوزيف على ابنهما، وبين سلامة وموظف حسابات شركة المياه القبطي أرمانيوس، وبين سلامة وزوجته ستوتة وجارهم اليوناني نيكولا، والذي نرى زوجته هيلين تذهب مع ستوتة إلى قسم الشرطة للسؤال عن سلامة، وتساندها في أزمتها عندما يتم القبض عليه.

سى عمر

أدى نجاح «سلامة فى خير» إلى تكرار التجربة مرة ثانية بين الريحاني ونيازي مصطفى في فيلم «سى عمر» الذي أنتج عام ١٩٤٠ وعرض عام ١٩٤١، وكان من إنتاج ستوديو مصر أيضا. وفي هذا الفيلم يمثل الريحاني دورين (عمر بك الألفي وموظف الحسابات جابر) ويستعرض نيازي مهارته في التروكاج أو الحيل السينمائية المعملية وغيرها، وهي الحيل التي عرف بها بعد ذلك، وكان رائدها في السينما المصرية.

جابر (نجيب الريحاني) موظف أمين في إدارة أملاك عمر الألفي (نجيب الريحاني) الغائب منذ سنوات طويلة، والذي يقوم عمه ضابط الشرطة السابق جميل (شرفنطح) بسرقة أمواله وخداع والدة عمر وخالته نازك (ماري منيب) وأخته لولا (زوزو شكيب). يفصل جابر من عمله لدقته ونزاهته، ويلتقي بالصدفة مع برلنته (ميمي شكيب التي تزوجها عمر الألفي في الهند)، وتخبره أنه يشبه زوجها تماما، وتطلب منه أن يقوم بدور عمر إلى أن يعود. يتورط جابر في مشكلات كثيرة، ولكنه يتمكن من المحافظة على أموال عمر. يعود عمر من الخارج ويعرف مدى إخلاص جابر، وأنه يتبادل الحب مع أخته لولا، فيوافق على زواجهما.

لعبة الست

حقق «سلامة فى خير» ثم «سى عمر» نجاحا دفع شركات السينما أن تتنافس للفوز بإنتاج فيلم من تمثيل الريحاني، ولذلك مثل في السنوات الأربع الأخيرة من حياته (١٩٤٦ - ١٩٤٩) أربعة أفلام، ولم يمثل على المسرح. الفيلمان الأولان في نفس عام ١٩٤٦، ولنفس المخرج ومصمم المناظر الكبير ولي الدين سامح: «لعبة الست» مع الراقصة الأولى تحية كاريوكا، و«أحمر شفايف» مع منافستها الأولى سامية جمال. والأفلام الأربعة تجمع بين الكوميديا والرقص والموسيقى والغناء بخلاف كل ما سبقها من أفلام. وإذا كان الغناء في فيلمي ولي الدين سامح، لأصوات تحية كاريوكا وعزيز عثمان وعفاف شاكر (شقيقة شادية)، ففي الفيلم الثالث «أبو حلموس»، يغني كارم محمود بصوته دون صورته، وفي الفيلم الرابع «غزل البنات» يغني نجم الغناء الأول محمد عبد الوهاب، ونجمة الغناء ليلى مراد أحد أضلاع المثلث الذهبي للمغنيات في السينما المصرية مع أم كلثوم وأسمهان، وأصبح الريحاني من نجوم «الشباك» في السينما في السنوات العشر الأخيرة من حياته.

تدور أحداث «لعبة الست» في القاهرة أثناء الحرب العالمية الثانية، قبل عامين من تاريخ إنتاج الفيلم، حيث يلتقي الموظف العاطل عن العمل حسن أبو طبق (نجيب الريحاني) مع لعبة «تحية كاريوكا» ويتبادلان الحب من أول نظرة. يجد حسن عملا في محلات إيزاك عمير (هكذا يكتب الاسم بالعربية على اللافتة في الفيلم)، فيتزوج لعبة التي تعمل كمغنية وراقصة في فرقة يديرها والداها العازفان إبراهيم نفخو (عبد الفتاح القصري) وسنية جنح (ماري منيب)، رغم أن المغني محمود بلالايكا (عزيز عثمان) زميلها في الفرقة كان يريد الزواج منها.

تصبح لعبة نجمة سينمائية، ويدفع الطمع والديها إلى إقناعها بطلب الطلاق من حسن حتى تتزوج من الثري اللبناني وجيه بك (بشارة واكيم). مع تقدم قوات القائد النازي روميل في العلمين، يقرر إيزاك اليهودي (سليمان نجيب) الهجرة إلى جنوب أفريقيا مثل العديد من أثرياء اليهود في ذلك الوقت. ولأنه يحب حسن لأمانته وطيبة قلبه، يقرر إيزاك أن يبيع محلاته إليه بيعا صوريا يسدد ثمنه من الإيرادات ثم تصبح ملكا له، وهذا ما يحدث بالفعل نتيجة ارتفاع الأسعار أثناء الحرب، يرفض الثري اللبناني الزواج من لعبة عندما يعلم أنها كانت متزوجة، وأن والديها دفعاها إلى طلب الطلاق من زوجها، وتشعر لعبة بالندم وتعود إلى حسن الذي لم ينس حبها أبدا.

مرة أخرى، وكما في «سلامة فى خير»، يعبر الريحاني عن التسامح الديني والعرقي في مصر «الليبرالية» من خلال العلاقة بين حسن المسلم وإيزاك اليهودي، بل إن شخصية اليهودي «الإيجابية» في «لعبة الست»، من الشخصيات النادرة من نوعها في السينما العالمية في ذلك الوقت. ومن اللافت أن هجرة إيزاك إلى جنوب أفريقيا، وليس إلى فلسطين، تعني بوضوح أن صناع الفيلم يفرقون بين اليهودي والصهيوني، ولا يعتبرون الصورة الإيجابية لليهودي دعاية للصهيونية، بل إنهم يعبرون عن موقف متقدم حتى عن موقف بعض الضباط «الأحرار» الذين اشتركوا في ثورة يوليو عام ١٩٥٢ بعد ذلك، والذين كانوا يرون أن انتصار النازي يخدم مصر في كفاحها ضد الاحتلال البريطاني، عندما يقول أحد موظفي محلات إيزاك عمير لزميل له: إذا الألمان دخلوا مصر تبقى مصيبة.

أحمر شفايف

«أحمر شفايف» هو الفيلم الوحيد الذي أنتجه الريحاني بعد أن أغراه نجاح أفلامه الثلاثة السابقة (سلامة في خير، وسى عمر، ولعبة الست)، ولكنه مع الأسف لم يحقق ما حققته هذه الأفلام من نجاح سواء على المستوى الفني أم المستوى التجاري.

تدور أحداث الفيلم في عام إنتاجه (١٩٤٦)، أي بعد الحرب العالمية الثانية، ويحدد الحوار الزمن حيث يقول إبراهيم أفندي بطل الفيلم هو أنا أحسن من ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان.. أنا كمان انهزمت.

إبراهيم أفندي (نجيب الريحاني) موظف ناجح في شركة مياه غازية، يعيش سعيدا مع أسرته المكونة من زوجته نرجس (زوزو شكيب) وابنته الشابة صفية (عفاف شاكر) وابنه الصغير نبيل (نبيل خيري ابن بديع خيري). إحدى عاملات المصنع قمر (سامية جمال) فتاة لعوب، تحاول لفت نظر إبراهيم أفندي، ولكن من دون جدوى، فتتحايل للعمل في منزله كخادمة عن طريق خالها مدبولي (عبد العزيز خليل). تشك نرجس في وجود علاقة بين قمر وزوجها، فيترك المنزل، ويفصل من الشركة التي يملكها خال زوجته. يحاول مدبولي إقناع إبراهيم بضرورة الزواج من قمر، ولكن نبيل ابن إبراهيم يأتي إليه، ويقنعه بالعودة إلى المنزل.



أبو حلموس

مثل الريحاني في سنواته السينمائية الذهبية في فيلمين من إخراج نيازي مصطفى وفيلمين من إخراج ولي الدين سامح، وفيلم من إخراج إبراهيم حلمي (١٩١١ - ١٩٦٤)، وكان الفيلم الأخير من إخراج أنور وجدي.

في «أبو حلموس» ينتقل شحاتة أفندي (نجيب الريحاني) من العمل ككاتب حسابات لدى بائع طيور شرس (رياض القصبجي)، إلى العمل في دائرة الأزميرلي باشا التي يديرها عبد الحفيظ (عباس فارس) من منزله حيث يعيش مع زوجته أزهار (فردوس محمد) وأختها ليلى (ماري منيب) وابنته سوسن (زوزو شكيب) التي تتبادل الحب مع أنيس أفندي (محمد الديب) الموظف بالدائرة، وابنه الطالب الجامعي الفاشل فريد (حسن فايق) الذي يرتبط بعلاقة آثمة مع الراقصة أحلام (هاجر حمدي). تدعي أحلام أن فريد والد طفلها حلموس، وتطلب سوسن من شحاتة ادعاء أنه والد الطفل حتى تتخلص من زواج يريد والدها أن يفرضه عليها، فيوافق لأنه يحب سوسن، يثور الجميع ضد شحاتة، ولكنه يكسب ورقة يانصيب بـ ٦٠ ألف جنيه، فيتوددون إليه، توافق سوسن على الزواج من شحاتة بعد أن تدرك أن أنيس لا يحبها بصدق، ومن دون أن تعلم بالثروة التي فاز بها شحاتة.

غزل البنات

في ذروة نجاحه، استطاع أنور وجدي (١٩٠٤ - ١٩٥٥) أن يجمع في فيلم واحد هو غزل البنات، أربعة من عمالقة الفن ليمثلوا معه في فيلم واحد من تأليفه وإنتاجه وإخراجه، وهم نجيب الريحاني، وليلى مراد، ويوسف وهبي، ومحمد عبد الوهاب، إلى جانب سليمان نجيب، ومحمود المليجي، وزينات صدقي، وإستيفان روستي، وعبد الوارث عسر، وفردوس محمد، بالإضافة إلى فريد شوقي وسعيد أبو بكر، وكانا في بداية حياتهما الفنية.

إنه فيلم «غزل البنات» الذي أصبح جزءًا من الثقافة الشعبية في مصر والأمة العربية كلها، والذي يدور حول قصة الحب المستحيلة بين الطالبة ليلى بنت الباشا ومدرس اللغة العربية، الذي يعلمها في المنزل «الأستاذ حمام»، والذي يكبرها في العمر، ولكنه يجد في حبه لها السعادة التي بحث عنها طوال حياته ولم يجدها. يطلب حمام «نجيب الريحاني» من الضابط الطيار أنور (أنور وجدي) مساعدته في إنقاذ ليلى (ليلى مراد) من شاب أفاق (محمود المليجي) فينقذها، ويقع في هواها. وفي نفس الليلة يلجأ حمام وليلى إلى منزل يوسف وهبي الذي يقوم بدوره الحقيقي في الفيلم، وفي منزله يغني عبد الوهاب الذي يقوم بدوره الحقيقي أيضا في أغنية «عاشق الروح»، فيبكي حمام ويفضح حبه، ولا تدري ليلى ماذا تفعل، ويعلق يوسف وهبي: «ما الدنيا إلا مسرح كبير»، وهي من العبارات التي صارت من الأمثال الشعبية. وفي سيارة أنور وبجوار ليلى، يرى المتفرج الأستاذ حمام بينهما يتذكر من أغنية عبدالوهاب «ضحيت هنايا فداه، وحعيش على ذكراه»، ويضع نجيب الريحاني يده على خده ويبتسم ابتسامته الساخرة.

توفي الريحاني قبل عشرة أسابيع من عرض الفيلم، فاصبح فيلم الوداع، وحقق نجاحًا لم يحققه أي من أفلام الريحاني طوال حياته. وحسب النشرة الصحفية للفيلم، كتب نجيب الريحاني بعد مشاهدة بعض أجزاء الفيلم يوم ٣ مارس ١٩٤٩: «هل وفقت في أن أسيطر على الستار الفضي بمثل القوة التي منحتني إياها خبرتي ومواهبي في السيطرة على زمام التمثيل المسرحي؟

أعتقد أنني لم أوفق تماما.. وكثيرون ممن يعرفون الريحاني قد يشاطرونني هذا الشعور.

ولكن.. ألم تنل أفلامي قسطا وافرا من النجاح؟ نعم.. إنها حازت هذا النجاح، ولكنه في نظري كان نجاحا ناقصا، لأنه لم يظهر تلك الجهود التي بذلتها من صدق العاطفة وحسن الأداء، حتى أنني أحسست أن ضوء الستار الفضي إنما هو كضوء القمر.. جميل.. ولكنه بارد.. لا حياة فيه، ثم شاءت الظروف واجتمعنا، وكلنا من أخلصوا لفنهم، فانسجمنا، واستحال ذلك الضوء الفضي إلى شعاع منعش كله حياة، وكله حرارة، تحقق الحلم المحبب إلى نفسي، الحلم الذي وهبته حياتي، شعرت بوجود عشاق فني أمامي، شعرت بأنني أنفذ بسهولة من وراء الستار فاصل إلى قلوبهم وأصيب مشاعرهم..

هذا ما جال بخاطري عند مشاهدتي لبعض مناظر من فيلم «غزل البنات» الذي أعده وأخرجه عزيزي أنور.. ابني البار الوفي». ■

كتب عربية

عبد الناصر وثورة إيران

فتحي الديب

القاهرة. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ٢٠٠٠، ١٥٠ صفحة. ٩ جنيهات



كان منطقيًا في إطار سياساتها الداعية إلى التحرر من الاستعمار ومناصرة الشعوب العربية والإسلامية ودعمها لنيل استقلالها، أن تصطدم ثورة يوليو ١٩٥٢، بنظام الشاه في إيران، الذي كان يمثل - وفق منطق نظام يوليو وقادته - رأس حربة للاستعمار في المنطقة، بل إنه قاوم نزوع عبد الناصر نحو تحرير الدول العربية والإسلامية من ربقة الاستعمار والاستغلال. والمؤلف لم يكن راصدًا فحسب لما يجري، بل كان مشاركًا فيه ومفوضًا من قبل الرئيس عبدالناصر للاتصال بقيادات حركة الحرية الإيرانية التي تزعمت المعارضة ضد نظام الشاه، بهدف تقويض إمبراطوريته وإزاحته عن السلطة في إيران، وتنصيب نظام حكم وطني أكثر تجاوبًا مع تطلعات وآمال الشعب الإيراني، وانسجامًا مع تطلعات شعوب المنطقة نحو الحرية والاستقلال، ولذلك يتضمن الكتاب وثائق هذه التحركات التي شارك فيها المؤلف، واتصالاته بقيادات حركة الحرية مصطفى تشمران وبهرام راستين وابراهيم يازدي وعلي شريقان وبارفيز أمين، ولم يتوقف دعم عبد الناصر للحركة على التأييد المعنوي، وإنما تجاوزه إلى إعداد برامج لتدريب عناصرها بدءًا من نهاية نوفمبر ١٩٦٤، لممارسة العمل الفدائي في المدن وحرب العصابات في الجبال، وتم تدريبهم على استخدام الأسلحة وتكتيكات الحرب النفسية واستخدام المفرقعات، بالإضافة إلى محاضرات تثقيفية وتنظيمية، وكانت لوفاة الدكتور مصدق في مارس ١٩٦٧، ثم هزيمة يونيو في نفس العام، أبلغ الأثر في تقويض حركة الحرية الإيرانية، التي كانت استقرت في بيروت، وتعرضت لاستقطابات حادة من القوميين العرب وغيرهم، فضلاً عن محاولات اختراقها من عناصر تنتمي للمخابرات الأمريكية.

ويؤكد المؤلف أن وفاة الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ وغيابه عن ساحة النضال الشعبي العربي والإسلامي، كانت نقطة تحول فارقة في علاقة مصر بالثوار الإيرانيين، إذ كان خلفه الرئيس السادات، هو الوحيد الذي رحّب باستقبال الشاه وعائلته، حين ضاقت بهم السبل وقامت الثورة في إيران في نهاية السبعينيات، وكان نجاح الثورة الإسلامية في إيران، هو نهاية حكم الشاه من ناحية، وبداية جديدة لإيران الإسلامية وتفاعلاتها مع محيطها الخارجي من ناحية ثانية.

□□□

التنمية في عالم متغير

إبراهيم العيسوي

القاهرة. دار الشروق ٢٠٠٠، ٢١٣ صفحة. ١٢ جنيها



يميز المؤلف منذ البداية بين مفهومي النمو والتنمية، ويرى للثانية شروطًا تتجاوز تحقيق زيادات في الناتج القومي الإجمالي أو حتى في مستويات الدخول الفردية، التي يمكن اعتبارها نموًا، أما التنمية فينبغي لتحققها أن تتوسع دوائر المشاركة السياسية والإسهام في صنع القرار بين كافة الفئات المساهمة في التنمية والمستفيدة منها في آن، وأن يتحقق قدر من العدالة في توزيع الثروة، يحقق حياة إنسانية كريمة لأبناء الوطن الواحد، ويقرّب الفوارق بين الطبقات، وأن تبنى التنمية اعتمادًا على الذات وليس بمعونات وديون خارجية، تمثل قيودًا على حرية الوطن وتحد من استقلاله، والاعتماد على الذات كما يبين المؤلف، يتسع لأكثر من البعد القطري، بل يتجاوزه إلى النطاق الإقليمي ونطاق العالم الثالث كله وهو ما يطلق عليه الاعتماد الجماعي على الذات، ولذا، لا يرى المؤلف في سياسات التحرير الاقتصادي والخصخصة والارتباط بالنظام الرأسمالي العالمي فرصًا للتنمية، بل إن الانفلات من هذه السياسات هو ما يحقق التنمية ويطرح من هذا الإطار عديدًا من القضايا المستحدثة ذات الصلة بالتنمية، ومنها قضايا الثورة العلمية والتكنولوجية، والتي ينبغي أن يكون للدول النامية فيها دور أكبر من مجرد مستهلك للمنجز الذي يقدمه العالم المتقدم في هذا المجال، وقضية الحفاظ على البيئة، إذ ثبت أن الفقر هو أحد العوامل المتسببة في تهديد وتخريب البيئة في الدول النامية، ويتحمس المؤلف لمفهوم التنمية المطردة التي تسعى لاستغلال موارد البيئة المتاحة، دون أن تجور على حقوق الأجيال المقبلة في البيئة ذاتها، ثم قضية الحريات والمشاركة الديمقراطية وتنمية البشر وإدارة شئون المجتمع والدولة.

هذه هي البدائل التي يطرحها المؤلف في مواجهة سياسات الليبرالية الاقتصادية الجديدة، القائمة على تثبيت الأوضاع الاقتصادية وإعادة هيكلتها وفق وصفة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، والتي يرى أن آثارها السلبية خطيرة على المدى القصير والبعيد، ولن تؤدي إلا إلى مزيد من التبعية التي تهيمن على العلاقة بين البلدان النامية والغنية، وهو ما يقود إلى اتساع الفجوة بين الشمال والجنوب، وغياب فرص التكافؤ المنشود لإقامة علاقات سوية بين أفراد، وليس بين أتباع ومتبوعين، وينتهي المؤلف إلى نتيجة متوقعة أكدتها مقدماته في سطور الكتاب كله، وهي أنه ليس في دروس التاريخ، ولا في تحليل الواقع الملموس ما يدعو إلى الاطمئنان إلى حتمية استمرار العولمة الاقتصادية أو اطراد نموها، بل يرى تناقضات وقوى مضادة للعولمة تهدد مسيرتها بالتوقف، وتشير إلى احتمال تحول الاقتصاد العالمي إلى اتجاه مغاير في المستقبل.

□□□

الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس

عبد العظيم رمضان

القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠، ١٥٥ صفحة. ٢٧٥ قرشا



يأتي هذا الكتاب - كما يقول المؤلف في مقدمته - ردًا على فيلم ناصر ١٩٥٦، الذي رأى فيه افتئاتًا على الحقيقة التاريخية وتزييفًا لها، ويرى المؤلف أن الفيلم كله ليس سوى خطبة بليغة وحماسية عن أحداث تأميم قناة السويس، كان لها ما يبررها في حينها، لكنها أصبحت قابلة للجدل في ضوء الحقائق التي تكشفت في فترات تالية، واعتبر أن عرض ما جرى من أحداث اكتفاءً بتبريرات قدمت في حينها.. «نوع من أنواع تغييب الوعي».

على أي حال، فإن ما يسوقه المؤلف من حجج حول قرار التأميم الذي اعتبره كارثة كبرى، يبقى هو الآخر قابلا للجدل، وسنجد على الضفة الأخرى من ينتصر له ويعده قرارا تاريخيا عظيما، وليس كارثة.

وأول ما يعترض عليه المؤلف، فيما يتصل بقرار التأميم، هو أن عبد الناصر اتخذه منفردًا، دون استشارة وزير واحد في حكومته. يقول المؤلف إن عبد الناصر دعا مجموعة محدودة من وزرائه إلى اجتماع قبل ساعتين فقط من خطبته الشهيرة بالإسكندرية، وقال لهم في اقتضاب.. «إني دعوتكم الليلة لكي أبلغكم بقرار سوف أعلنه في خطابي، هذا القرار هو تأميم قناة السويس».

كما أخفى عبد الناصر القرار عن الجيش، برغم ما يمكن أن يجره قرار التأميم - وهو ما جرى فعلاً - على مصر واحتمال تعرضها إلى ضربة عسكرية من الدول التي أضيرت من تأميم القناة، فلم يعرف عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة بالقرار، إلا أثناء سفره إلى الإسكندرية مع عبد الناصر في القطار.

ويؤكد المؤلف أن حسابات عبدالناصر لما يمكن أن يسفر عنه قرار التأميم، جاءت خاطئة تماما، فقد استبعد قيام فرنسا بشن حرب على مصر لانشغالها في الجزائر، واستبعد كذلك أن تشارك إنجلترا في حرب ضد مصر حرصًا على مصالحها في الوطن العربي، ورأى أن إسرائيل لو حاولت أن تشن عدوانا على مصر فستمنعها بريطانيا، والمحصلة أن قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس بنى على حسابات خاطئة، وعرّض استقلال مصر للخطر. أما الشيء الإيجابي الوحيد فيما جرى، فكان كفاح الشعب المصري الذي ظل صامدًا برغم انهيار قيادته السياسية والعسكرية. أما أفدح الخسائر من وجهة نظر المؤلف لقرار عبد الناصر بتأميم شركة قناة السويس، فكان إتاحة الفرصة للسفن الإسرائيلية بالمرور في مضيق تيران.. «وهو ما جعل منها دولة كبرى تحتل أراضي ثلاث دول عربية بعد أن كانت قبل قرار التأميم مجرد دولة صغيرة تحاصرها مصر بحريا عن طريق إغلاق منافذها الشمالية إلى البحر الأحمر، وهي خليج العقبة وقناة السويس». وقد فشل العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ لأسباب عديدة، على رأسها صمود الشعب المصري والموقف العربي المتضامن وموقف الاتحاد السوفيتي ودول عدم الانحياز الداعم للموقف المصري، ثم التحذير الأمريكي للدول المعتدية بضرورة وقف العدوان. ويبقى كتاب المؤلف عن قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس في ١٩٥٦، اجتهادًا تقابله بالضرورة اجتهادات أخرى في الطريق.

□□□

عروض موجزة

المثقفون العرب والغرب

أحمد الشيخ

القاهرة: المركز العربي للدراسات الغربية، ٢٠٠٠، ٣١٥ صفحة، ٢٥ جنيها



بعد كتابه الأول «حوار الاستشراق»، يقدم لنا المؤلف كتابه الثاني «المثقفون العرب والغرب». وفي هذا الكتاب ينقل المؤلف الكرة أو الحوار إلى ملعب المستغربين العرب ـ إذا جازت التسمية ـ بعد أن حاور في الكتاب الأول كوكبة مهمة من المستشرقين الغربيين.

والطريف في هذا الحوار الجديد أن المؤلف يطرح الأسئلة ذاتها التي طرحها من قبل مع المستشرقين، وكأنه أراد بذلك مواجهته ـ أو مقارنة ـ غير مباشرة بين رؤية المستشرقين ورؤية المستغربين حول الأحكام والمناهج المستخدمة في النظر وتلوين الصور عن الثقافات المغايرة ومدى دقتها ومطابقتها لحقيقة الثقافة موضوع النظر أو الرؤية. يحاور المؤلف هنا كوكبة مهمة تشكل خلاصة الفكر والأدب في ثقافتنا العربية المعاصرة، ويكتسب الحوار قيمته من تنوع الأعلام المشاركة فيه من المشرق والمغرب، ناهيك عن صلتهم بصورة أو بأخرى، بالطريقة التي أدركنا بها الغرب في الحقبة الحديثة والمعاصرة من تاريخنا، ومن بينهم: أنور عبد الملك، فؤاد زكريا، محمد فؤاد الحبابي، لويس عوض، فتحي رضوان، زكي نجيب محمود، علي فهمي الخشيم، مصطفى صفوان، سميح فرسون، أنطوان المقدس، السيد ياسين، الحبيب الحنجاني، أمين معلوف، عز الدين قلوز، رينيه حبشي، علال سيناصر.. وغيرهم.

وتتراوح آراء المفكرين والأدباء العرب في هذا الكتاب، بين من يرى أن خلافنا مع الغرب مبني على وهم متبادل (زكي نجيب محمود)، وكراهيتنا للغرب مشروعة (فتحي رضوان)، والغرب لم يفرض ثقافته، بل نحن الذين سعينا إليها (فؤاد زكريا)، والغرب لا يسمح لنا بدراسته (لويس عوض، علي فهمي خشيم، سميح فرسون)، والاستغراب يؤدي إلى التحرر الوطني (مصطفى صفوان)، وقضايانا أولا والاستغراب ثانيا (الحبيب الحنجاني)، ونعم للاستغراب لكن بشروط (عز الدين قلوز)، ومستغرب بدون استغراب (أنور لوقا).. إلخ.

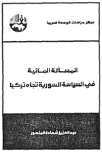
يسعى المؤلف عبر حواراته إلى تنشيط وتجديد رؤيتنا للغرب، ومراجعة قنوات اتصالنا به، بحثا عن معرفة أكثر دقة في مرحلة الصراع الراهن، كما يهدف إلى جذب الانتباه إلى ضرورة تجديد إدراكنا للغرب من خلال تأسيس مراكز بحثية علمية تنهض بهذه المهمة.

□□□

المسألة المائية في السياسة السورية تجاه تركيا

عبد العزيز شحادة المنصور

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ٣٣٨ صفحة، ٣٠ جنيها



ثمة إجماع بين الخبراء العسكريين والمراقبين السياسيين، على أن المياه ستكون واحدة من الأسباب الرئيسية لحروب القرن المقبل، وتكتسب المياه أهمية خاصة في منطقة الشرق الأوسط لندرتها من ناحية، وتعرض المنطقة لموجات من الجفاف والتصحر من ناحية ثانية. ثم النزاعات المحتملة بين الدول المستفيدة من تلك المصادر، وخصوصًا أن العلاقات بينها لم ينتظمها إطار يسمح بدرجات من التعاون بديلا عن الصراع، ومن الأقطار التي تعاني أزمة مائية سوريا، فهي تعتمد أساسا على مياه نهر الفرات الذي تقع منابعه خارجها.

وكما يشير المؤلف، فإن ٨٨٪ من مياه الفرات تأتي من تركيا، كما أن الأحواض الجوفية السورية تقع على الحدود مع تركيا، بالإضافة إلى وقوع سوريا ضمن الحزام الجاف وشبه الجاف، واعتماد خططها التنموية على المياه، ومعدلات الزيادة السكانية المرتفعة (نحو ٣,٨٪)، والتأثيرات السلبية للمشروعات المائية التركية ومنها مشروع جنوب شرق الأناضول (غاب)، والذي يتضمن بناء ٢١ سدًا و١٧ محطة كهربائية على نهري دجلة والفرات وفروعهما، وقد جرَّبت سوريا واحدة من هذه التأثيرات حين قطعت تركيا مياه الفرات عن سوريا والعراق لمدة شهر، ابتداءً من ١٣ يناير ١٩٩٩، مما جعل تدفق نهر الفرات ينخفض منسوبه نحو ٤٠٪ بالنسبة لسوريا. ويدرس هذا الكتاب مشكلة المياه في العلاقات السورية التركية في الفترة الممتدة من ١٩٨٢ وحتى ١٩٩٢، وهي الفترة التي استغرقها بناء سد أتاتورك الذي افتتح في يوليو ١٩٩٢.

ولأن موضوع المياه ليس بحثًا في واحد من الموارد الاقتصادية على أهميتها فحسب، وإنما هو قضية سياسية في المقام الأول، وذات صلة وثيقة باعتبارات الأمن القومي، فإن الكتاب يبدأ بتحليل السياسة الخارجية السورية، ثم يدرس الميزان المائي لدول حوض الفرات والمركز القانوني لنهر الفرات وفق أحكام القانون الدولي، ثم يدرس في فصله الثالث المشروعات المائية التركية وتأثيرها على الموارد المائية السورية، ثم أخيرًا أدوات السياسة الخارجية السورية في التعامل مع المسألة المائية، والتي يرى أنها ينبغي أن تعمل على ثلاثة محاور: عربية وإقليمية ودولية، دون إغفال مد جسور للتعاون مع تركيا، وهو خيار وحيد أمام سوريا، كما يؤكد المؤلف الذي يلح على استبعاد خيار الحرب تماما من النزاع بين الدولتين على المياه.

□□□

النباتات الطبية البرية في سيناء

مجموعة باحثين

القاهرة: مؤسسة الخليج العربي، ٢٠٠٠، ٣٣٨ صفحة



يلقي هذا الكتاب أضواء جديدة على هذه البقعة الغالية من أرض مصر «سيناء»، التي ارتبطت دوما بالصراعات والحروب، ثم بالسلام والهدنة، وأخيرًا بالمشروعات السياحية العملاقة التي تسعى للاستفادة من البيئة السيناوية الخلابة، التي تمتزج فيها الطبيعة البكر والبداوة الصريحة، مع «عصرنة» زمن التسويق والبيزنس.

أما هذا الكتاب، فيعني بموضوع آخر، ربما هو نفسه من مستحدثات الاهتمامات في زمن العولمة والكوكبة، ونعني به البيئة، التي باتت همًا شاغلاً لعشرات من مراكز البحوث في العالم كله، وسيناء التي تصل مساحتها إلى ٦١ ألف كيلو متر مربع أي ما يقارب ٦٪ من مساحة مصر الإجمالية، تطل على أكثر من ٣٠٪ من سواحل مصر الإجمالية، وتتميز بغطاء نباتي طبيعي ويوجد فيها ما يقرب من ١٠٠٠ نوع، وبينها نباتات ذات قيمة غذائية أو تصلح للرعي، ومنها نباتات طبية وعطرية.

وفي سيناء مجموعات من النباتات المتوطنة تقدر بنحو ٦٠ نوعا، وهذه المجموعة ثروة تتميز بها سيناء.

أما المناطق النباتية في سيناء، فهي مرتفعات جبال الحلال والمغارة ويلج بشمال سيناء، والتي توجد بها بقايا النباتات الصنوبرية من العرعر، والمرتفعات الجبلية بجنوب سيناء، ويوجد بها ٣٠ نوعا من النباتات الجبلية القزمية المتوطنة ومنها الصبار البلدي والزهيرة والزعيتر وحقاب القولة وعشب الماء، ثم نباتات المناطق شبه القاحلة في الشمال ومنها الجعدة واللصف والعورور ولحية البدن، ثم العجرم والحاد والسلة والحرمل والقطف والطرفة في المناطق القاحلة أقصى الشمال، ثم نباتات الكثبان الساحلية الرملية ومنها الجزاف والسعد وخبيزة البحر وأراضي السنجة الملحية وبها الزيتية والحطب الأحمر، ومناطق الصحاري الحارة تجاه السواحل الجنوبية التي يوجد بها السيال والطلح والسدر والعشار، ثم المناطق الصحراوية الرملية جنوب المنطقة الساحلية وتتميز بالنخيليات المعمرة ومنها الرتم والعادر.

هذه عينة لبعض المناطق النباتية، أما النباتات الطبية، فقد قسمها الكتاب إلى نحو ٤٦ عائلة، قدم ثبتا بها واستخداماتها، فضلاً عن عشرات الصور لهذه النباتات وأماكن زراعتها.

□□□

أحوال مصر في نصف قرن

عبد المجيد فراج

القاهرة: دار إيجي مصر للنشر، ٢٠٠٠، ٤٤٠ صفحة، ٢٠ جنيها



جمع المؤلف مقالاته واجتهاداته على مدى نصف قرن، منذ أواسط الخمسينيات وحتى اليوم، والتي نشرها في دوريات علمية أو صحف سيارة بين دفتي هذا الكتاب الأول، كما يرد فوق غلافه، بما يعني أن كتبا أخرى في الطريق. وقد قسَّم كتابه إلى محاور أربعة هي مكافحة الاكتئاب الاقتصادي، والتخطيط والتنمية، والمسألة السكانية، ومسألة عدم العمل. وهو تقسيم موضوعي يجمع ما كتبه المؤلف الذي شغل منصب عميد معهد الإحصاء سابقًا، والذي يعمل الآن أستاذا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية. في كل موضوع من هذه الموضوعات على مدى نصف قرن، بما يسمح بمتابعة التطور الذي طرأ على فكره في كل موضوع منها من ناحية، كما

عروض موجزة

يكشف عن مؤشرات الإنجاز فيها عبر الفترة الزمنية ذاتها من ناحية ثانية.

سنلاحظ مثلا أن المؤلف يكتب في المحور الخاص بالمسألة السكانية مقالا عام ١٩٥٨ عن الانفجار السكاني والقاعدة الشعبية في الشرق الأوسط، اعتمادًا على تقرير للأمم المتحدة يتنبأ بوصول سكان العالم إلى ٧ مليارات نسمة في نهاية القرن. ويحذر الدول النامية بالذات من أن معدلات الزيادة السكانية المطردة ستقود حتما إلى مزيد من الإفقار والتخلف، لكننا سنلاحظ أن المؤلف في تعقيبه على التقرير، لا ينساق خلف دعاوى تنظيم النسل، وإن كان لا يرفضها، لكنه يؤكد على أهمية أن تكون سياستنا في هذا الإطار، نابعة من واقعنا واحتياجاتنا و«وحي ضمائرنا» قبل أي شيء آخر، ثم يكتب بعد ٤٠ سنة تقريبا تحت عنوان «أمريكا وتنظيم الأسرة» عن انسحاب أمريكا من دعمها لبرامج تنظيم الأسرة في العالم الثالث، التي ظلت تقدمه لما يقرب من ٣٠ عاما. واللافت أن المؤلف ينهي مقاله بهذه العبارة: «إذا كان كل شيء نابعا من اعتقادنا واقتناعنا واعتناقنا لسياسات نابعة من ظروفنا بغض النظر عن توافر أو عدم توافر العون الأجنبي لنا، فسوف نضمن أن تستمر سياساتنا بغض النظر عن رضا أو عدم رضا دولة كبرى أو دول كبرى عدة».

ونلاحظ هنا أن ما ينهي به المؤلف مقاله هو نفسه ما أكده قبل ٤٠ سنة في مقالة حول الموضوع نفسه، ولعلها الفكرة ذاتها التي يلح عليها في عشرات المقالات التي دارت حول المحاور الأربعة التي أشرنا إليها في البداية، فكرة استقلالية القرار وعدم الاستجابة للضغوط التي تحدد مساراته، أو على الأقل مراعاة التكيف بأقل قدر من الخسائر، وبمراعاة كاملة لظروفنا وواقعنا وقيمنا الثابتة، ونظن أن النموذج الذي قدمناه «دال» تماما على ما ذهبنا إليه.

□□□

من أوراق التسعينيات

فاروق عبد القادر

القاهرة. مصر العربية للنشر والتوزيع ٢٠٠٠. ٢٢٠ صفحة. ١٦.٥ جنيه



بين عشرات الوجوه المبدعة من أمثال عبد الرحمن منيف ونجيب محفوظ وأميل حبيبي وسعد الدين وهبة وأمين معلوف وألفريد فرج ومحمد البساطي وإبراهيم أصلان ولطيفة الزيات وعبد السلام العجيلي وحيدر حيدر وأحلام مستغانمي وعلاء الديب وغيرهم.

يخص المؤلف المسرحي العربي الراحل سعد الله ونوس بدراسة مستفيضة ومهمة يسميها كراسة سعد الله ونوس، وتتضمن قراءة في أعماله الأخيرة «يوم من زماننا» و«منمنمات تاريخية» و«طقوس الإشارات والتحولات» و«أحلام شقية» و«الأيام المخمورة»، وهي الأعمال التي أنجزها «ونوس» في فترات مرضه الطويل، كما لو كان يقاوم المرض بالكتابة، ويلاحظ المؤلف أن علاقات الحب في هذه الأعمال لا تتحقق، بل إن نهاية «أحلام شقية» مثلاً تشير إلى موت الأمل وبقاء القهر على حاله، كما لو أن المسرحي الكبير يئس من إصلاح الحال عبر المسرح أو غيره.

وحين يتناول المؤلف أعمال نجيب محفوظ، التي نشرها في أواخر الثمانينيات والتسعينيات مثل «الفجر الكاذب» و«السهم» و«أصداء السيرة الذاتية» و«القرار الأخير»، يلاحظ أن محفوظ «يستقطر لقارئه خبرات حياته الطويلة، يصفيها ويكثفها ويركزها في بللورات صغيرة مضيئة».

ويرد المؤلف عما أثير من نقد لرواية إبراهيم أصلان الأخيرة «عصافير النيل»، والتي تدور في عالمه الأثير: منطقة إمبابة والكيت كات، مؤكدا أن عالم محفوظ في مجمله دار في بضعة كيلومترات على أرض القاهرة، التي يعرفها وخبر أزقتها وناسها ومفاهيمها، وكذلك أصلان في عملة الأخير، يطأ أرضًا يعرفها ويحدثنا عن ناس خبرهم، وليس عجبًا إذن أن نراهم على صفحات روايته كأنهم شخوص من لحم ودم.

ويرصد المؤلف مسيرة سعد الدين وهبة المسرحية والثقافية، ويرى أن ملمحها الأساسي، هو حرص صاحبها على التواجد المستمر في بؤرة الضوء، عبر المناصب الرسمية أو العمل الإبداعي أو الاشتغال بالكتابة والانشغال بالشأن العام، أي أن وهبة خطط لمسيرته جيدًا وشبع أدوارًا في السينما والمسرح والصحافة والمؤسسة الثقافية الرسمية.

ويقدم المؤلف نقدًا رقيقًا لرواية صنع الله إبراهيم الأخيرة «شرف»، كما يحتفي برواية محمد البساطي «ساعة مغرب» و«أصوات الليل» ويشيد بمسيرة الأديب الفلسطيني الراحل «أميل حبيبي» وبعطاء فؤاد دوارة وفتحي غانم وأمين معلوف وعبد السلام العجيلي، قراءة واعية محبة ناقدة، تعيد للنقد بهاءه ودوره الأصيل في تقديم مفاتيح للقراءة الصحيحة للعمل الأدبي، بعيدًا عن التقعرات التي عمقت الهوة بين النقد والقراء.

□□□

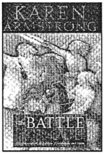
كتب أجنبية

The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and Islam

(المعركة من أجل الله: الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام)

Karen Armstrong

Harper Collins, 2000, £19.99



عندما يثور الحديث عن الأصولية، يتبادر إلى الذهن الأصولية الإسلامية وفتوى الإمام الراحل آية الله الخوميني بهدر دم الكاتب البريطاني الجنسية الهندي الأصل، سلمان رشدي مؤلف «آيات شيطانية»، ومذابح المتطرفين في الجزائر، إلا أن مؤلفة هذا الكتاب الأمريكية كارين أرمسترونج تذكّر الجميع بأن الأصولية ليست ظاهرة إسلامية فقط، بل يهودية ومسيحية، بل إنها تتجاوز الأديان السماوية الثلاثة إلى البوذية والهندوسية وحتى الكنفوشية. ففي كل هذه الأديان والعقائد، هناك من يقاتل باسم الدين، كما أنها - أي الأصولية - ليست ظاهرة القرن العشرين فقط، بل تعود إلى عام ١٤٩٢، عندما جرى طرد اليهود من أسبانيا وأيضا تم اكتشاف العالم الجديد.

وتعرف المؤلفة الأصولي، بأنه الشخص الذي يبدأ في التحرك من أجل تنفيذ فكرة، سواء كانت الدفاع عن الدين أو مهاجمة من يعتقد أنهم ضد الدين أو الدعوة لهذا الدين.

وقد اختارت أن تركز على ٤ ممثلين للأصولية في الأديان السماوية الثلاثة، وهم الولايات المتحدة والأصولية البروتستانتية وإسرائيل والأصولية اليهودية. ومصر، والأصولية السنية الإسلامية وإيران والأصولية الشيعية الإسلامية، وهي ترى أن الأصولية رد فعل للحداثة، فالأصوليون متحيرون ومندهشون من سرعة التغيير، ويرون العالم وهو يمضي كما لو كان بدون إله.

وتأخذنا المؤلفة في رحلة طويلة تمر خلالها بظهور الأصولية في أوروبا وبالاستعمار الأوروبي للشرق الأوسط، وتحول المجتمع الأمريكي من مجتمع ريفي بروتستانتي إلى مجتمع علماني حضري، وتتحدث عن اغتيال الرئيس السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين، وكذلك عن الهجمات على عيادات الإجهاض في الولايات المتحدة. ويعتبر الكتاب محاولة جيدة لفهم أعمق وأكثر موضوعية لظاهرة الأصولية التي جرى تشويهها بكل وسيلة سواء كان ذلك حقا أو باطلا.

□□□

A strange Eventful History.. Democratic Socialism in Britain

(الاشتراكية الديمقراطية في بريطانيا)

Edmund Dell

Harper Collins, 2000, 624pp., £24.99



احتفل حزب العمال الحاكم الذي حمل راية الاشتراكية الديمقراطية في بريطانيا مؤخرًا بمرور ١٠٠ عام على تأسيسه عام ١٩٠٠، وخلال تلك السنوات الطويلة، تغير الحزب كثيرًا سواء في الزعامات أو السياسات أو الأفكار. ومؤلف هذا الكتاب الذي توفي بعد تأليف الكتاب بوقت قصير، انتمى إلى حزب العمال عضوًا عاديًا ونائبًا في مجلس العموم، ووزيرًا في حكومة جيمس كالهان، ثم خرج عن صفوف الحزب خلال عضويته في مجلس اللوردات.

وتكمن قوة الكتاب في أنه يتناول سياسات حزب العمال منذ الثلاثينيات من خلال عدم الاكتفاء بسرد المعرفة الشخصية للمؤلف فقط، بل الاعتماد أيضًا على قائمة كبيرة من المراجع.

ويناقش ديل مقولة أن الاشتراكية الديمقراطية هي الطريق الثالث بين الماركسية والرأسمالية، ويقول إن حزب العمال حاول على مدى تاريخه أن يدير بشكل فعال وجيد، الاقتصاد الرأسمالي في بريطانيا، إلا أنه لم يكن ناجحًا على الدوام. وقد حاول كثير من الوزراء الاشتراكيين أن ينفذوا خططهم لتحويل الاقتصاد إلى اقتصاد اشتراكي قائم على التخطيط، إلا أنهم اصطدموا في الغالب برؤساء وزارات عماليين «خانوا» الاشتراكية على حد تعبير مؤيدي هؤلاء الوزراء.

ويعتقد المؤلف أنه فيما يتعلق بتبني الحزب للاشتراكية الديمقراطية، فإنه نجح في إظهار قدرته على أن

يكون ديمقراطيًا، لكن قدراته على إدارة الاقتصاد طبقًا لمبادئه الاشتراكية كانت ضعيفة.

ويتهم الكتاب حزب العمال القديم، الذى نجح تونى بلير رئيس الوزراء الحالى فى تغيير كثير من أفكاره، ليصبح حزب العمال الجديد، بأنه لجأ إلى الخيارات السهلة، وهى التأميم وفرض الضرائب، لكن منتقدى ديل يردون بأن وزراء الخزانة العماليين حاولوا قدر جهدهم أن يطبقوا سياسات اقتصادية سليمة، وأحدثهم جوردون براون وزير الخزانة الحالى الذى يطبق معايير اقتصادية بحتة، دون النظر إلى تأثيرها شعبيًا.

□□□

Cat Fish and Mandala

(السمكة والمندالة)

Andrew Pham

Flamingo, 2000, £10.99



احتفلت فيتنام الشهر الماضى بالذكرى الخامسة والعشرين لسقوط سايجون، وإعادة توحيد فيتنام بعد الهزيمة المذلة للأمريكيين، والكتاب الذى نعرضه نتاج رحلة مثيرة قام بها المؤلف الأمريكى، وهو من أصل فيتنامى، وهو على ظهر دراجة. وبدأت الرحلة من كاليفورنيا إلى فيتنام، واستغرقت عامًا كاملاً زار خلالها مسقط رأسه فى جنوب فيتنام، ثم توجه فى المرحلة النهائية إلى العاصمة الفيتنامية هانوى. وكلمة المندالة الواردة فى عنوان الكتاب، هى رمز الكون عند الهندوس والبوذيين.

وواجه المؤلف فى رحلته، المرض والإجهاد والتهديدات بالضرب ومحاولات لا نهاية لها من جانب المسئولين المرتشين، وقابل خلالها شخصيات من الصعب أن يلتقطها قلم كاتب أو قاص. إنهم أناس عاديون، لكنهم من النوع الفريد فى طباعه وأخلاقه.

ويقول المؤلف أن أسرته، التى كانت تعيش فى فيتنام الجنوبية، وهى «أسرة فام» هربت إلى الغرب فى قارب بعد انتصار الشيوعيين، وقد مكث والده فى معسكر اعتقال لأنه كان يعمل ضمن الجهاز البرلمانى لحكومة فيتنام الجنوبية قبل انهيارها.

لكن المؤلف يتحدث طويلاً عن الفيتناميين العاديين، عن فقرهم وكرههم وعطفهم، وكذلك عن استعدادهم لقبول الرشوة، ويقول إن فيتنام، هى البلد الذى يعمل فيه البوليس بجد من أجل أن يستمر التهريب. وعلى المستوى الشخصى تحكى فام عن معضلته التى تعيش دائما معه، فهو فى أمريكا من بين المنبوذين، بل إن هناك من يهتف فى وجهه داعيا إياه إلى العودة إلى بلاده، وعندما زار فيتنام اعتبره الفيتناميون أجنبيًا ونظروا إليه على أنه من أسرة ساندت الأمريكيين ضد فيتنام وفى النهاية، يتحدث المؤلف عن جانب مأساوى أكبر فى حياته، فقد غادر كاليفورنيا تاركًا أخته تشى، لكنه عندما عاد وجده يدعى «مناه»، فقد أجرت عملية تحولت بموجبها إلى رجل.

□□□

Parable of The Talents

(حكاية الموهوبين)

Octavia E. Butler

Women's Pren, 2000, £9.99



هذه القصة تدخل تحت تصنيف قصص «الخيال العلمى»، لكنها تمثل صيحة تحذير شديدة على خطر الأصولية الأمريكية، وتوضح أن القرن الحالى، ربما يكون أكثر وحشية وبربرية من القرن الذى سبقه مالم تتم مواجهة الخطر الأصولى.

تدور القصة فى العام ٢٠٣٢، حيث تنهار الولايات المتحدة، نتيجة الفساد، وتصبح البلاد فى حالة فوضى ويتفشى العنف والإخلال بالنظام على سائر المدن الأمريكية، ويتعرض الضعفاء للذبح أو للاستعباد، وتفشل الحكومة الفيدرالية فى استعادة الأمن والنظام، لذا يصوت الناخبون لمنقذ جديد للبلاد، وهو أندرو جاريت رئيس الحركة الأصولية العنصرية «أمريكا المسيحية»، ويؤذن انتخابه رئيسًا للبلاد ببداية مرحلة جديدة من القتل والتطرف، وتحاول المجتمعات الريفية الخروج من الأزمة بشكل منفصل، ومن هذه المجتمعات «أكورن» الذى أسسته لورين أولامنيا وزوجها الطبيب المسن بانكوك، وبالفعل تنتعش الحياة من «أكورن» بعيدًا عن الفوضى، ويعود التسامح من جديد، لكن الأصوليين يهجمون باسلحتهم على «أكورن» ويقتلون زوج لورين، ويحولون «أكورن» إلى معسكر اعتقال ويسمونه «المعسكر المسيحى»، ويجرى تعذيب الناس ومعاملتهم بوحشية تحت شعار إعادة التأهيل والتعليم، ويستمر ذلك لمدة ١٨ شهرًا إلى أن يحدث انهيار أرضى، فيتوقف التعذيب، لكن لورين تفقد طفلها فى هذا الانهيار، وتظل تبحث عنه، وتمضى القصة فى هذه الأجواء المرعبة. ورغم ذلك فإن القصة تؤكد فى النهاية أهمية التسامح والاعتدال، إذا أردنا أن يستمر العالم دون أن ينزلق للفوضى.

□□□

Ramesses: Egypt's Greatest Pharaoh

(رمسيس: فرعون مصر الأعظم)

Joyce Tyldesley

Viking, 2000, 225pp., £16.99

يعد رمسيس الثانى أكثر فراعنة مصر شهرة وإثارة للجدل، ربما لأن آثاره التى تركها مثل معبد أبو سمبل هى من بين الأكثر جمالاً وروعة، وربما للمبالغة فى الادعاء بشجاعته أثناء المعارك، وربما ثالثًا لإعداد أطفاله. وأيا كان السبب فإن رمسيس الثانى جذب لزمن طويل اهتمام وإعجاب المصريين والأجانب، بل أصبح رمزًا دوليًا لمصر القديمة، وناقش بذلك توت عنخ آمون على أنه الملك الطفل، فإن رمسيس الثانى بنيت شهرته على أعماله. فهو قد حكم واحدة من أقوى الإمبراطوريات فى العالم القديم لمدة ٦٧ عامًا، أى أكثر بثلاث سنوات، مما حكمت الملكة فيكتوريا بريطانيا فى القرن التاسع عشر. ولكن أى شخص كان رمسيس، وماذا حقق بالضبط. إن مؤلفة الكتاب وضعت فى السابقة كتابين عن حتشبسوت ونفرتيتى، وبالتالى فإنها مدركة للمشكلات التى تواجه أى شخص يمكن أن يكتب عن مصر القديمة.

وتبدأ المؤلفة كتابها بدراسة موميائه، وهى أحد الكنوز التى يحتفظ بها متحف القاهرة، ويحاط اكتشاف هذه المومياء بأسطورة، فهى قد انتقلت فى موكب ملكى من مكانها الأصلى إلى حيث توجد حاليًا. وفى السنوات الأخيرة ظهرت معلومات جديدة عن رمسيس الثانى، فقد كان طوله ما بين ٥ إلى ٧ أقدام، وكان شعره أحمر، وهو لون غير عادى بالنسبة للمصريين وله أنف طويل وفم ضخم، وكان يعانى من التهاب المفاصل وتعفن الأسنان.

وتتناول المؤلفة شخصية رمسيس الثانى من نواحٍ عديدة، لكنها تفاجئ قراءها، بأنه لم يكن قائدًا جيدًا رغم كل الحديث عن إنجازاته العسكرية. وتقول إنه كان إداريا أكثر منه قائدًا عسكريًا، نجح فيما فشل فيه الملك الذى سبقه، وهو أخناتون فقد استعاد سلطة الإله آمون، وكان رجلاً محبًا لأسرته، خاصة زوجته نفرتارى.

ولكن هناك جانبا مظلما فى حياة رمسيس الثانى، وهو أن طموحه للمجد جعله يلجا للخداع، فقد نسب لنفسه أعمالاً قام بها من سبقوه.

□□□

The Art of the Story

(فن القصة)

Ed.Daniel Halpern

Viking, 2000, £20.00



يضم هذا الكتاب بين دفتيه ٧٨ قصة لكتاب، ينتمون إلى ٣٥ دولة، ويجمع بينهم أنهم ولدوا فى الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٧٠، ولذلك فإن الكتاب عبارة عن معرض كبير لقصاصى العالم، ويتناول شتى القضايا بمختلف المدارس الفكرية والفنية، وعلى سبيل المثال، فإن دور المرأة السياسى والاجتماعى والأسرى يحتل مساحة واسعة من خلال قصص عديدة، تتناوله مثل قصة «هدية من مكان ما» للقاصة «آما آتا ايدو» من غانا، وهى تتناول سيدة من بلدها، تستعد للحمل وتقول بطلة القصة: «إن ذلك يبدو هو الهدف من خلقى.. أن أكون حاملاً ٩ أشهر من كل ١٢ شهرًا من كل عام»!

ويلقى الكتاب ضوءًا جديدًا على كتّاب شهيرين، فهو ينشر قصصًا للكاتب النيجيرى «كين سارو ويوا»، وكذلك «لجانيت وينترسون». ويقول المحرر دانييل هالبرن، أنه اختار القصص المعبرة عن الثقافة الشعبية للبلد الذى ينتمى إليه مؤلفها، لكنها أيضًا لها صلة بالعالم وما يجرى فيه. ويشير إلى أن البعض يمكن أن يختلف فى هذه الرؤية، لكنه يعتقد أننا نعيش فى عالم تشكلت فيه حياة كل شخص تقريبًا بصور أماكن وتقاليد، كانت بعيدة عن مجال خبراته الشخصية. ومادمنا نتحدث عن صور وخبرات وتراث، فإن البعد العالمى يبرز بشدة، كما أن مسألة الترجمة من لغة إلى لغة، لم تكن هى الشيء الأهم فى هذا العمل بالقياس إلى الفهم المشترك للعادات والتقاليد.

□□□

إعلام واتصــــال

الاتصال الإلكترونى
ترجمة: محمد أمين سليمان
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠٠

يتـابع المؤلف التطور الذى حـدث فى عـالم الاتصـالات، لربط أجـزاء العـالم ببعضهـا، وتطور أجهزة البث والإرسال، ويعلق على الاتصـال عن طريق الإنترنت وثورة المعلومات الناتجة عنه.

■■■

حقائق وأسرار.. الكلمة المكتوبة
طارق غنيم
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠٠

الكتابة من أقدم صور التعـبير، فمنذ عـهد السومريين والفينيقيين والفراعنة، كـتب الإنسـان على ألواح الطين والجلود والعظام، ثم تطورت الكتابة وعرف الإنسان الطباعـة والكتابة على الكمبيوتر، ويخـتتم المؤلف كـتابه بسؤال عن الكتابة بعـد ألف سنة.

■■■

رمـيـــة النرد ـ التلفــزة والســيــنمــا والفوتوغرافيا ـ مقالات فى الصورة
الهادى خليل
تونس: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يحلق الكـاتب فى سمـاء الصـورة، ومـا تسببه من نشوة للرائى، وتأثير السـينما والتليـفزيون فى هذا العـالم، وكـيف يمكن للصـورة أن تصور نقـيضـين، فالإنسـان بأحـلامـه وآمـاله، والعـالم بما فـيـه من صراعات تزيل مجتمعات بأكملها، وكيف أن أوروبا غزت عقولنا العـربيـة عبر الصـورة السينمائية.

■■■

قصف العقول
فيليب تايلور
ترجمة: سامى خشبة
الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٠

يكشف الكتاب عن العلاقة الحميمة بين علم التـاريخ وفنون الاتصـال، التى تطورت بشكل جعلهـا ذات تأثير كبـير فى مجـالات السياسة والحرب وغيرها. والكتاب يتتبع تطور الدعـاية للـحرب التى ترتبط فـيـهـا أهداف العـمل الـسـيـاسـى ونوايا الفـعل العسكرى.

■■■

Avatars of the Word: From Papyrus to Cyberspace
(متـجـسدات الـكلمـة: من البـردى إلى الفضاء التخيلى)
James J. O'Donnell
Harvard University Press, 2000

منذ القدم، والكلمة المكتوبة هى حـاملة الثقافة، ولكن هـذا الوضع يتحداه الآن قوة الوسيط الإعلامى الجديد بطريق الاتصال الإلكترونى. يعـالج المؤلف ثورة الاتصالات التى تـحـدث الـيـوم فى ضـوء مـقـارنتـهـا بالثـورات الاتصـاليـة التى سـبـقـتـهـا، منذ التـحــول من الشــفــاهيــة إلى الكـتــابة، ولفافات البردى إلى المخطوطات ومنها إلى الطباعة.

بيئــــــة

دليل الأثر البيئى فى المشروعات الصناعية
صلاح الحجار
القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠

ردًا على المشكلات البـيئـيـة التى نتـجت عن الصنـاعـة ومـخلفـات المصـانع، وضع المؤلف رسـمـا مـتكامـلا لمنطقـة صنـاعـيـة، وراعى أن تكون لها منافذ للمخلفات، واختار موقعها بعناية، بحيث لا تؤثر على السكان والبيئة.

■■■

The Human Impact on the Natural Environment - 5th Edition)
(الأثر الإنسانى على البـيئة الطبيـعـيـة ـ الطبعة الخامسة)
Andrew Gouelie
MIT Press, 2000, 527pp., $29.95

يعـد هـذا الكتـاب، المرجع الكلاسـيـكى للدارسين والمهتمين بـالبيئة، وأثر النشاط الإنسانى فى تغيير الملامح الطبيعية لوجه الأرض.

وفى هذه الطبعة المحدثة، أقسام جديدة أو موسعة تتناول موضوعات مثل السلالات المهـددة بالانـقـراض، والتلوث، وارتفـاع مستوى البحار، وثقب الأوزون، والـتـغيرات المناخية.

تاريــــخ

تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة
لسان الدين ابن الخطيب
تحقيق: مجلس النشر العلمى
الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠٠

يرتد بنا الـكتـاب حـيث بلاد الأندلس الإسـلاميـة، والحضارة العربيـة وسـياسة الحكام، وخـاصـة فى مملكة غـرناطة فى الجنوب الأندلسى والأمـراء المسلمـين والأوضاع الاجتماعية هناك.

■■■

ثمانون عامًا على ثورة ١٩١٩
تقديم: يونان لبيب رزق
القاهرة: دار الكتب والوثائق، ٢٠٠٠

قدم المؤلف مـجـمـوعـة من الأبحـاث والمحـاضـرات التى ألقـيت فى الموسم الثقافى الأول لدار الكتب، حول «إرهاصات ثورة ١٩» لـسـعـد فـخـرى عـبـد النور، والوحـدة الوطنيـة فى ثورة ١٩» لـ د. رمزى ميـخائيل، وتناولت المحاضرات أثر هذه الثـورة على السـودان، وآثارهـا على الشـعب المصرى سيـاسيـا واقـتصـاديا واجتماعيا.

■■■

حضارة مصر الفرعونية
فرانسوا دوما
ترجمة: ماهر جويجان
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يرسم المؤلف صورة عميقة للحضارة المصـريـة، عـبـر تشـريح مـتكامـل لأغلب طبقاتها، يتحدث عن السياسة والاقتصاد والأدب والفن، ويتناول الدين عند الفراعنة وأثره على حضارتنا، وكيف امتدت حضارة الفراعنة، لتصل لجنوب أفريقـيـا ومناطق أخرى من العالم القديم.

■■■

مصر فى العهد العتيق
و. ب أمرى
ترجمة: راشد محمد نوير ـ محمد على كمال الدين
القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٠

تتبع المؤلف حفريات الأسـرتين الأولى والثانية فى عشر مقابر، ليكشف النقاب عن الحياة الفرعونية فى تلك الحقبة الـزمنية، ومن عدة نواح فنية واجتماعية وثقافية من خلال ما ضمته هذه المقابر.

■■■

موجز تطور الحضارات الإنسانية
محمد صادق صبور
القاهرة: دار الأمين، ٢٠٠٠

يرصد الكتاب تطور الإنسان، وصناعته للمـجـتـمـعـات، حـيث بدأ الإنسـان صيـد الحـيـوان، ثم تعلم الزراعـة ثم شـرع فى تكوين النـواة للمـجـتـمـع والحـضـارة الإنسانية.

■■■

مؤرخون مصريون فى عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠

يضم الكتاب عددا من المؤرخين مثل ابن إياس، ابن زنبل والمقريزى، ويعرِّف بعصر الموسوعات، وأثره فى تطور العلم والمعرفة فى مجتمعنا، وتأثير كبار العلماء على هذا العصر.

■■■

Historical Prespectives on Contemporary East Asia
(رؤى تاريخـيـة حـول شـرق آسـيـا المعاصرة)
Edited by Merle Goldman and Andrew Gordan
Harvard University Press, 2000, 352pp., $45.00 / $19.95

يـبحث الكتاب القـرنين الماضيـين فى تاريخ بلاد شرق آسيا، اللذين شهدا عملية دمج النظم السـياسـيـة والاجـتمـاعـيـة الآسـيـوية فى نظام عـالمى يهـيـمن عليـه الغـرب. يبـين المؤلفـون أن هناك تـغـيـرات مهمة كانت فى طريقها للظهور قبل الاتجاه نحو الغرب، وكانت لها منطق داخلى وقوة ثبات خاصة بها.

كذلك يتضح أن «القومية» كانت المحرك الأقوى فى التطور الحديث لتلك البلاد، إلا أن تنوع القوميات التى ظهرت، هوأيضًا الذى جعلها تتصادم فيما بينها.

تراجم وسير

ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان
جيلبرت سينويه
ترجمة: آدم فتحى
لندن: دار الجمل، ٢٠٠٠

يعكس الكتاب وفاء التلميذ لأستـاذه، حيث كـان الجـوزجـانى أشـهر تلاميذ ابن سـينا ومن أخلص النـاس له، فـقـد كـتب حيـاته ومـواقفه المتبـاينة والمخـتلفة مع الملوك والأمـراء، ويضم الكتـاب رحلة ابن سينا من الشرق إلى الغرب طلبًا للعلم.

■■■

Marcel Proust: A Life
(مارسيل بروست: حياة)
William C. Carter
Yale UP, 2000, 946pp., £22.50

فى العقد الأخير من حياته، كان مارسل بروست فى حـالة مرثية، فقد كـان مريضـا بالربو لدرجة ألزمته المنزل، كما فقد أمواله فى استثمارات غير حكيمة بعد أن كان ثريًا جدًا، كذلك فـقد والدته التى كـانت الحب الأول والكبير فى حياته.

كـان بروست أنانيًا ومدللاً لأقصى حـد، وكان مع ذلك كريما ولطيفا. يتناول الكتاب سيرة حياته كاملة مع التركيز على الصلة بين حـيـاة بروست وبين عـمله الـرائع «البحث عن الزمن المفقود».

■■■

Margaret Thatcher - Vol One: The Grocer's Daughter
(مارجريت تاتشر ـ الجزء الأول ـ ابنة البقال)
John Cambell
Cape, 2000, 512pp., £25.00

يتـناول هذا الجـزء من سـيـرة حـيـاة مـارجريت تاتشـر ـ والتى يكتبهـا أحـد أهم كاتبى تراجم الـسـيـاسـيين البـريطانيين ـ كـيف صنعت المرأة الحـديدية أسطورتهـا بنفسها، وتنتهى تلك الفترة بالعام ١٩٧٩.

تربيـــة وتعليــم

التربية بالقصص
حامد القصبى
القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠

يـتـتـبـع المؤلف هـنا الـتـأثـير النـفـسى للقصة على الطفل من سن ٦ سنوات وحتى ١٢ سنة، وكيف تساهم فى غـرس كثـير من القيم والمبـادئ الجـميلة فى عقله ونفسه، فيقدم مجموعة من الحكايات حول العدل وطاعة الله وطاعة الوالدين وغيرها.

■■■

طرق التـدريس الخـاصة باللغة العربيـة.. والتربية الإسلامية
فخر الدين عامر
القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠

مـشكلة اللـغـة العـربيـة فى عـرضـهـا، وطريقة تقديمها للطلاب، مما يصـعب الفهم

بين اللغة ومتعلميها، ينتقد المؤلف طرق تدريس العربية ويعرض لكيفية تبسيطها، كما يعرض بعض قواعد الإملاء والنحو والأدب، ويعرج على التربية الإسلامية مناقشًا قضاياها.

■■■

فى فجوات العدالة فى التعليم

محسن خضر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يصور المؤلف حال التعليم فى مصر، والتفاوت فى مستوى التعليم ما قبل الجامعي، وكذلك مشكلات الخريجين فى مصر والعالم العربي، والاختلاف العقلي والفكري بين خريجي العرب وخريجي الغرب، واستيعاب الغرب للأساليب الحديثة، فى وقت تعاني مجتمعاتنا من تفشي الأمية.

■■■

Changing Minds: Computers, Learning, and Literacy

(عقول متغيرة: الحاسبات الآلية والتعليم والتعلم)

Andrea Disessa

MIT Press, 2000, 293pp., $29.95

ترى المؤلفة أن استخدام الحاسبات الآلية فى تدريس العلوم، قد يحدث ثورة فى حجم المعرفة العلمية التى يمكن أن يحصل عليها الطالب فى سن مبكرة جدا. كذلك فإن طريقة الفهم والتفكير تختلف باستخدام وسائل تعليمية تتضمن الابتكار والتفاعل، عما تكون عليه بمجرد التلقين المباشر.

■■■

رواية وأدب

الفرعون الأخير

فرانسيس فيفر

ترجمة: فاطمة البهلول

سوريا: دار الحصاد، ٢٠٠٠

ينبش المؤلف الفرنسي قبر رمسيس الثالث، ليعيده إلى الحياة ويعيد أمجاده الماضية وحربه ضد الهكسوس، ومحاولته لإعادة أمجاد مصر وتجميعه لشعبه والاستقرار الذى نعمت به البلاد فى عهده.

■■■

فئران بلا جحور

أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يدخل الكاتب عالم الصحراء ليكشف عن كل ما فيه، وما يحويه من صراعات وما يخفيه من مصائر مختلفة، حيث صراع الإنسان مع الجوع والعطش، وكذلك الصراع مع تلك الطبيعة الجافة التى لا تجود.

■■■

القرية الأولى

عبد الله حمد المعجل

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

أخذت الرواية من الواقع الاجتماعي السعودي، فى إحدى مناطقه الساحلية، حيث رسمت مشاهد عديدة حملت فى طياتها سلبيات وإيجابيات الناس فى تلك المناطق.

■■■

نبع الذهب

محمد العشرى

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

تأخذك الرواية إلى عالم البحث عن الكنوز الدفينة فى باطن الأرض، كالبترول والذهب وغيرها، حيث البطل المهندس الجيولوجي الذى يعيش فى الصحراء، ولكنه بحث واكتشف أن الكنز فى داخل الإنسان، فى مبادئه وعقله وأخلاقه وكذلك فى آماله وأهدافه.

■■■

الجنائن المغلقة

برهان الخطيب

السويد: دار بوديوم، ٢٠٠٠

من خلال أبطال العمل الروائي، يتعرض القاص للأحداث الدامية التى حلت بالشعب العراقي، والخلل الاجتماعي والمادي الذى أصاب المجتمع هناك، والهوة التى وقع فيها الشعب نتيجة أطماع السلطة التى راح ضحية استبدادها وتسلطها.

■■■

الحب مع مغامر مرتبك

منى حلمي

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

تتعانق العاطفة مع الصور والأخيلة، لتكون قصصا عاطفية، تتحاور فيها الكاتبة مع قلبها وعقلها، وتكشف أسرار الحبيب المتغير، الذى لا يثبت على حال دائمًا.

■■■

حامل الراية

إيهاب دكرورى

القاهرة: هيئة قصور الثقافة

تلعب المشهدية ورسم المنظر مساحة كبيرة فى قصص حامل الراية، حيث تتنوع المشاهد حين يحاول المؤلف الربط بينه وبين حامل الراية الواقعي، فيرصد المؤلف حياة الناس بكل أبعادها، واضعًا إياها فى مشاهد مكثفة من خلال مجموعته القصصية التى تحوى ثماني عشرة قصة.

■■■

دنسكو

غازي القصيبي

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

تعتبر القصة حلما بالاتحاد العربي فى أبسط أشكاله، حيث إنشاء منظمة عربية وهمية نشأت فى خيال المؤلف، لاسترداد الحقوق وحقن دماء العرب وتوطيد ما تبقى بينهم من صلات.

■■■

رماد اللوحة

يحيى سلام المنذري

سوريا: دار المدى، ٢٠٠٠

تضم المجموعة تسع قصص قصيرة، تدور فى فلك الأحلام والأمنيات الجميلة، وتشوبها عاطفة رقيقة وحالمة تلف المجموعة وتؤثر فى لغتها وصورها الخيالية.

■■■

سقوط ثمرة وحيدة

حسن صبرى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

تدور أحداث المجموعة القصصية حول صخب الحياة وتوتر الواقع، ويحاول المؤلف رسم مشاهد مكتملة لوقائع مختلفة من الحياة والمجتمع، محاولا تحليلها.

■■■

سعادات صغيرة

عفاف السيد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

مجموعة قصصية تقدم رؤية تعبيرية ترصد فيها الكاتبة الواقع، بكل ملذاته ومفاجآته، حيث الحياة بصخبها وهدوئها، بجمالها وصعوبتها بآمالها وأحلامها، والواقع بكل تفاصيله.

زراعة

تمويل الزراعة المصرية

عادل محمد خليفة. عبده حسن جاويش. محمد إدريس

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

تتناول الدراسة المشكلات التى تواجه الزراعة فى مصر، حيث يعد تمويل الزراعة فى مصر بطيئا جدا، إضافة لأن المحاصيل الزراعية تحتاج لرعاية وتخزين، وكذلك تضع الدراسة مجموعة من الحلول المناسبة لحل مشكلة الزراعة.

■■■

The Economics of World Wheat Markets

(اقتصاديات أسواق القمح العالمية)

Edited by J.M. Antle and V.H. Smith

CABI Publishing, 2000, 300pp., $110

يقدم عرضًا مفصلاً للتطورات الحديثة والمتوقعة مستقبلاً فى أسواق القمح العالمية بين الدول المصدرة والمستوردة. يتناول أدوار كل من روسيا والصين، التى تغيرت بسرعة فى أسواق القمح، وكذلك الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وكندا والأرجنتين وأستراليا.

■■■

Safe and Effective Use of Crop Protection in Developing Countries

(الاستخدام الأمني والفعّال لمنتجات حماية المحصول فى الدول النامية)

Edited by John Atkin and Klaus M. Liesinger

CABI Publishing, 2000, 184pp., $65.00

يحتوى الكتاب على نتائج برنامج بحثي استغرق سبع سنوات، تناول أفضل طرق خفض استخدام المبيدات الحشرية بين المزارعين من أصحاب الدخول المنخفضة فى الدول النامية، مع محاولة الارتفاع بمستوى أمان وفعالية تلك المنتجات فى الوقت نفسه.

الدراسة أجريت فى كل من الهند وزمبابوي والمكسيك، حيث تتشابه تلك الدول فى مستوى التطور الاقتصادي، بينما تختلف تماما فى البيئة الاجتماعية - الثقافية، وفى الممارسات الزراعية.

سياسة

الجماعات السياسية الإسلامية والمجتمع المدنى

أحمد حسين حسن

القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٠

يكشف الكتاب قصة تغلغل هذه الجماعات داخل مجتمعنا، وكذلك الآمال السياسية الواضحة لهذه الجماعات، حيث تهدف لنشر أفكارها البعيدة عن الدين وفرض الهيمنة الاجتماعية.

■■■

النظام الإقليمي للخليج العربي

محمد السعيد إدريس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

دراسة للنظام الإقليمي للخليج العربي بتفاعلاته وعلاقاته، يستخدم فيه المؤلف منهج تحليل النظم الإقليمية، وهو منهج حديث فى ميدان العلاقات الدولية. ويوضح المؤلف تأثير التغيرات فى البيئة الدولية على النظام الإقليمي فى الخليج العربي، ويرصد مراحل هذا النظام منذ نشأته عقب الانسحاب البريطاني من الخليج عام ١٩٧١ وحتى اليوم.

■■■

حجية القرار الدولى

على عباس حبيب

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف أهمية وجود قوة حاكمة مثل هيئة الأمم المتحدة، التى ساهم إنشاؤها فى توقف كثير من الحروب، ويوضح أهمية احترام القرارات الدولية، التى تؤثر فى مصائر الشعوب، ولماذا يجب أن تبتعد هذه القرارات عن الأهواء الشخصية أو العداوات الدولية حتى نأمن أخطارًا قد تنشب فى أى وقت.

■■■

تاريخ إيران السياسى

سعيد الصباغ

القاهرة: الدار الثقافية للنشر، ٢٠٠٠

تُعد إيران قوة سياسية إسلامية، وتتميز السياسة داخل إيران بالتوتر وكثرة الخلافات، بين التيار الإصلاحي والتيار الديني. ويتناول المؤلف الجذور التاريخية لهذه الخلافات منذ ١٩٠٠ - ١٩٤١.

■■■

Empire

(إمبراطورية)

Michael Hardt, Antonio Negri

Harvard University Press, 2000, 512pp., $35.00

إذا كانت الإمبريالية الأوروبية التقليدية قد اختفت، وكذلك أشكال التوسع الرأسمالي التي سبقتها، إلا أن الإمبراطورية كنظام عالمي تاريخي تتجلى الآن كما يقول هذا الكتاب في «العولمة».

يقدم المؤلفان عملاً في الفلسفة السياسية، ويؤكدا أن المستقبل القريب سوف يتجاوز المفاهيم التي شكلت أساس السياسة الحديثة مثل السيادة والدولة والشعب. وهذا التحول مرتبط كما بينا، بالتغيرات الثقافية والاقتصادية في المجتمع ما بعد الحداثي، ومن بينها الهجرة، وشبكات الاتصال، والمفاهيم الجديدة المرتبطة بالهوية، والأشكال الجديدة من العنصرية.

■■■

The Breakdown of the State in Lebanon, 1967 - 1976

(انهيار الدولة في لبنان، ١٩٦٧ - ١٩٧٦)

Farid El Khazen

Harvard UP. 2000. 448pp., $49.95

يعمل فريد الخازن أستاذًا مساعدًا للعلوم السياسية في الجامعة الأمريكية ببيروت، ويقوم في هذا الكتاب بتفسير أسباب الحرب الأهلية التي دارت في لبنان، حيث يؤكد أن الشعب اللبناني يتميز عن جيرانه بأنه مجتمع مفتوح ومتسامح، وأفراده متحضرون ومتعلمون. والمسئول عن الحرب التي دمرت الدولة اللبنانية من الأطراف الخارجية، على رأسها منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا. فهي لم تكن حربا أهلية بالمعنى التقليدي كما يقول، وإنما سلسلة حروب صغيرة مرتبطة بتدخلات خارجية.

(الكتاب يباع فقط في أمريكا الشمالية)

شعر

أحاديث سمك

مبارك الخاطر

القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩

ديوان ينتمي للشعر التراثي الخليجي، حيث يضع المؤلف من خلاله ملامح لتاريخ الخليج القديم، ويرسم صورة للمجتمع آنذاك.

■■■

العالي يطلب دائما

حسين جلعاد

عمان: دار أزمنة، ٢٠٠٠

أنات حزينة على الأحداث التي تحل بالعالم مع حلول الألفية الجديدة، حيث يجني العالم ثمار المدنية، شعوب مشردة، آمال وأحلام جائعة. القصائد تقوم على المفارقة في حضارة العولمة، حيث يبدو ظاهرها السعادة والرفاهة، فيما تحل داخلها كل الشرور والآثام.

■■■

خمرة حب عادي

ظبية خميس

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٠

تدور قصائد الديوان في إطار اجتماعي، ويرسم لوحات لوجوه متعددة وملامح مختلفة، تؤثر فينا ونتأثر بها. لوحات وأخرى لأناس قد يعجب المرء من تصرفاتهم.

■■■

فتافيت

عادل الحراني

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

ديوان عن ليالي الدراسة وأدوات المدرسة، والحياة العذبة والطفولة الجميلة، عن مفردات حياة الطفل. تدور قصائد ديوان فتافيت للأطفال.

■■■

في مرآتي يتشهين عصفور الذهب

فوزية شويش سالم

سوريا: دار المدى، ٢٠٠٠

ديوان جديد للشاعرة يحمل عاطفة حالمة، ويرسم صورا للحظات ذات طابع مهم في حياة المرأة، ويعكس الديوان في بعض جوانبه نظرة المرأة لنفسها.

■■■

لكننا لسنا على ما يرام

الشاعر حمدي عابدين

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

تتنوع قصائد الديوان بين العاطفية الرومانسية، والقضايا الاجتماعية، تتحدث عن الحياة ويومياتها، وعن الحب في مجتمعات تئن تحت وطأة ضغوط هائلة.

علوم وطب

كيف تقاوم ضعف النظر

أيمن أحمد الإسكندراني

القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف مجموعة نصائح لكل فئات المجتمع حول ضرورة الحفاظ على النظر لمرضى السكر ومستخدمي الماكياج والأمهات، وكيف يحافظن على سلامة نظر أطفالهن، وكيف كان الأجداد يحافظون على سلامة عيونهم.

■■■

الهندسة الوراثية في موسوعة

وجدي عبد الفتاح

القاهرة: أكاديمية البحث العلمي، ٢٠٠٠

يناقش المؤلف قضية الهندسة الوراثية، من الناحية التاريخية والعلمية منذ عهد الفراعنة وحتى الآن، ما طرأ على علم الوراثة من تغير في أعقاب ثورة الجينات، ويتحدث عما سيقوم به العلماء من استحداث نباتات جديدة للقرن القادم عن طريق تعديل الجينات.

■■■

صبي الساحر.. نماذج من العلم الردئ

سمير حنا

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠

يتابع المؤلف الحركة العلمية في العالم، ويرصد مواقف العلم والعلماء، وكيف أن الحقائق العلمية أخذت تخاريف السر والشعوذة، وكيف أن الاستخدام الخاطئ للعلم لا يجلب إلا الخطر على أنصاف العلماء.

■■■

هكذا تحدث كارل ساجان

سمير حنا

القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف هنا أهم الموضوعات التي تناولها ساجان، حول الوراثة والجينات والبيئة، وأخطار التلوث. كما يتناول ساجان في قسم آخر الحضارة المصرية ومراحل تطورها، ودور مكتبة الإسكندرية هي كأول منارات البحث العلمي في العالم في الإشعاع الحضاري.

■■■

الثقافة النووية للقرن ٢١

ممدوح عبد الغفور حسن

القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٠

تدخلت الطاقة النووية في حياتنا لتقترب حتى من مياه شربنا فتنقيها، وكذلك الحياة العسكرية، حيث ساهمت في إنتاج أحدثها وأكثرها تدميرا، وغيرها من المجالات المختلفة. حول الطاقة النووية، سلبياتها وإيجابياتها يدور هذا الكتاب.

■■■

Smart Medicine for Healthier Living: Practical A - Z Reference fo Natural and Canventional Treatments for Adults

(طب ذكي لحياة أكثر صحة: دليل عملي شامل للعلاجات الطبيعية والتقليدية للكبار)

Janet Zand,Allan Spreen

Avery Pub. Group, 1999, 608PP., $31.00

يبدأ هذا المرجع بمقدمة عامة عن تاريخ وأساسيات الأنواع المختلفة من العلاجات، التقليدية منها والعشبية والغذائية... إلخ. ثم يحتوي على قائمة شاملة بأنواع المتاعب الصحية المختلفة من الهالات السوداء حول العين إلى البرد والسل. ويقدم مع كل مشكلة يتناولها التفسير الواضح لأسبابها ونصيحة محددة عن السبل المتنوعة لعلاجها.

■■■

In the Shadow of the Bomb: Bethe,Oppenheimer, and the Moral Responsibility of the Scientist

(في ظلال القنبلة: بيته وأوبنهايمر والمسئولية الأخلاقية للعالم)

Max Schweber

Princefon University Press, 2000, 256pp., $24.95

المؤلف عالم فيزياء تشغله مسألة المسئولية الأخلاقية للعلماء، لذلك قام بدراسة حياة كل من أوبنهايمر وبيته، وهما العالمان اللذان ساعدا في صنع القنبلة الذرية، ويتضح للمؤلف أن أوبنهايمر كان يسعى للشهرة والنفوذ مما جعله لا يقاوم استخدام السلاح الذري في الحرب، كما وشى بزملائه أثناء الفترة المكارثية، رغم أنه كان يساريًا من قبل. وعلى النقيض أبدى إعجابه ببيته الذي أمضى معظم طاقته بعد الحرب ينادي بخفض التسلح، مما ساهم في عقد الاتفاقية الدولية لمنع التجارب النووية عام ١٩٦٣.

عمارة

Hybrid Modernities: Architecture and Representation at the 1931 Colonial Exposition, Paris

(حداثات مختلطة: العمارة والتمثيل في المعرض الاستعماري بباريس ١٩٣١)

Patricia A. Morton

MIT Press, 2000, 352pp., $40.00

في عام ١٩٣١، أقيم في باريس المعرض الدولي الاستعماري، الذي قدمت فيه فنون شعوب العالم المستعمر، وكان غرضه تجسيد التناقض بين تلك الشعوب، والحضارة الغربية الحديثة، لذلك كان المعرض إشارة لسياسة فرنسا الاستعمارية، وللنظريات الفلسفية والعلمية التي بررت الاستعمار.

ولكن وكما يشرح الكتاب، أبرز المعرض في الواقع عكس تلك الرسالة، حيث ظهر في المعروضات من الجانبين، التأثير المتبادل بينهما. كما قامت المظاهرات المقاومة للاستعمار أثناء المعرض، وأقام السرياليون معرضًا مجابهًا للمعرض الاستعماري يسقط الحواجز الفاصلة بين فنون وإبداعات العالم الأوروبي والشرق.

■■■

Architecture Reborn: Converting Old Buildings For New Uses

(العمارة تولد من جديد: تحويل المباني القديمة من أجل استخدامات جديدة)

Kenneth Powell

Rizzoli International Pub, 1999, 256pp., $60.00

حين يتجاوز عمر البناء المجتمع والغرض الذي قام من أجله، يصبح الحل العملي والايجابي هو إعادة تصميمه للقيام بوظيفة أخرى تناسب المجتمع الجديد، الأمر الذي يتطلب إبداعًا من نوع خاص.

وفي التاريخ نجد المعابد الرومانية واليونانية أصبحت فيما بعد كنائس مسيحية، وتحولت الأديرة الإنجليزية إلى منازل ريفية، كما تحولت القصور الروسية بعد الثورة إلى متاحف.. إلخ.

يضم هذا الكتاب أمثلة معمارية حديثة من ٤٤ مشروعا وتصميما من جميع أنحاء العالم، لتقديم الإبداعات والأفكار الحديثة في هذا المجال.

فكر

الدين والديناميت

أنيس منصور

القاهرة: نهضة مصر، ٢٠٠٠

مجموعة من المقالات في الأدب والسياسة والتاريخ والفلسفة، يجمعها خيط واحد يميز بين الفكر والإرهاب، بين المجادلة بالحجة والصراع بالسيف. ويرصد دوافع الحب والكراهية في كل زمان

ومكان، سواء عبر أعمال الأدباء والمفكرين أو عبر الواقع الإنساني العام.

■■■

الشرق يصعد ثانية
اندريه جوندر فرانك
ترجمة: شوقي جلال
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠
يحكي المؤلف قصة صعود الغرب لقطار الحضارة، على أكتاف كنوز الأمريكيين، ويوضح الرابط بين انحطاط الشرق وصعود الغرب، حيث لم يستفد الشرق من خبراته قدر ما استفاد الغرب من هذه الخبرات.

■■■

ثقافة المصريين
محمد حسين يونس
القاهرة: دار الفسطاط للدراسات، ٢٠٠٠
يحاول المؤلف وضع مجموعة عوامل تاريخية كان لها تأثير فعال في ثقافة المصريين، الحروب التي مروا بها والثورات التي قاموا بها والتحولات التي قادت إلى تغيير شكل المجتمع وأثرت على ثقافته. يبحث المؤلف في حلول جذرية لمشكلات ثقافية يعانيها المجتمع الآن.

■■■

خيانة المثقفين
عبد الحكيم بدران
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠
يرصد الكاتب حال المثقفين في العصر الحالي، ووجهات نظرهم تجاه قضايا بالغة الخطورة، ويحلل الانقسام الذي حدث في مجتمعنا ويعزوه إلى خيانة المثقفين لأحلام مجتمعهم وآماله.

■■■

عالم يتحول.. ووطن يستجيب
تحرير: حمدي أبو كيلة
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠
حول التغيرات العالمية الحادثة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، دارت مجموعة من الندوات والمحاضرات، ضمها هذا الكتاب، حيث موقف بلادنا من هذا التغيير، كيف نواكبه، وكيف نقلل كمية الخسائر الناتجة عن هذه التحولات العالمية.

■■■

كلنا آينشتين
طارق الأجهوري
القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠
يحاول المؤلف اكتشاف النواة الإبداعية داخل كل شخص، التي يحاول من خلالها أن يجد لنفسه مكانًا في المجتمع، ويتحدث المؤلف عن معايير النجاح في كل عصر وعوامل النجاح في عصرنا ومفردات هذا العصر.

■■■

نواحات الغربة
محمد عناني
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠
يرصد المؤلف في كتابه ما جرى خلال عشر سنوات منذ ١٩٦٥ وحتى ١٩٧٥، وهي سنوات عصيبة، فيتحدث عن هزيمة يونيو وتأثيرها على نفسيته ووجدانه، وكذلك الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وهي القضية التي صارت هاجسًا مؤرقا للشعب العربي كله حتى الآن.

■■■

مصر تراجع نفسها
أسامة الغزالي حرب
القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٠
تشريح لمجتمعنا المصري المعاصر، وما طرأ عليه من تغيير، وأسباب هذه الظواهر منذ عهد عبد الناصر وإلى الآن، وما آل إليه حال الطبقة الوسطى، وتأثير الرأسمالية الجديدة على الأوضاع في مصر.

فكر ديني

الابتلاء والدعاء
أحمد الحوفي
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠
يتعرض الكاتب لموضوع الابتلاء والمحن عند الإنسان، وكيف أن هذه الاختبارات تصقل إيمان الشخص وتقوي معرفته بالله، يتحدث عن ابتلاءات الأنبياء والرسل، ودور الدعاء في تخفيف البلاء عن المؤمن.

■■■

الخلفاء الأربعة.. أيامهم وسيرهم
الإمام إسماعيل الشيمي
تحقيق: كرم حلمي
القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠
بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، كثرت الأحداث والفتن، التي جعلت من عصر الخلافة الراشدة، فترة انتقال عصيبة في الدول الإسلامية. يتناول المؤلف هذه الفترة، وكذلك أحداث الفتنة الكبرى في عهد الخليفتين عثمان وعلي، وتأثيرها على مسيرة الفتوحات فيما بعد.

■■■

حركة الإصلاح الديني في عصر النهضة
نعيم إلياني
القاهرة: مركز الإنماء الحضاري، ٢٠٠٠
يستنهض المؤلف الفكر الإسلامي، ليجدد حركة الإصلاح الفكري والديني، التي تخاطب العقل الواعي، وتحاول أن تنشط حركة الاجتهاد الإسلامي في العصر الحديث مرة أخرى.

■■■

History and Ideology in the Old Testament: Biblical Studies at the End of a Millennium
(التاريخ والأيديولوجيا في العهد القديم: الدراسات الإنجيلية في نهاية الألفية)
James Barr
Oxford University Press, 2000, 216pp., $39.95
بالتركيز على «العهد القديم» وتاريخ إسرائيل، هذا الكتاب يجمع أوجه الجدال والخلاف التي تحيط بالكتاب المقدس في نهاية الألفية. ويتساءل المؤلف عما إذا كان الكتاب المقدس يعبر عن أحداث تاريخية حقيقية، أم المطامح الأيديولوجية والدينية لكتاب من عهود لاحقة.

■■■

No God but God: Egypt and the Triumph of Islam
(لا إله إلا الله: مصر وانتصار الإسلام)
Geneive Abdo
Oxford UP, 2000, 240pp., $25.00
تقول المؤلفة أن مخاوف الغرب من دعاوى الحرب المقدسة الإسلامية أو الإرهاب الإسلامي، جعلته يغفل عن دراسة الحركات الدينية الإسلامية الهادئة والسلمية في نفس الوقت، والتي تنتشر على نطاق واسع بين مختلف الطبقات الاجتماعية. والنموذج التي نتناوله هنا هو النموذج المصري، حيث تقوم من خلال مئات من اللقاءات الشخصية، برسم صورة من قريب لمدى نفوذ «الإسلام الشعبي» بين القطاعات المهنية المختلفة: الأطباء والأساتذة وطلبة الجامعات والمحامون، وهم كما تؤكد لا يهدفون إلى التخلص من الحكومة، وإنما يحولون المجتمع المصري ببطء نحو مجتمعهم، من الإطار العلماني إلى مجتمع تحكمه المبادئ الإسلامية التي يعتقدون أنها لا تتعارض مع متطلبات العالم الحديث.

معاجم وموسوعات

معجم مصادر الأفعال الثلاثية في اللغة العربية
أحمد محمد هريدي- أبو بكر علي عبد العليم.
القاهرة: ابن سينا، ٢٠٠٠
يحوي الكتاب مصادر الأفعال الثلاثية في الكلام العربي، وتأثير تغيير المبنى على المعنى، فكلما اختلف التشكيل في أحد الحروف الثلاثة، اختلف معها المعنى في الكلمة.

■■■

موسوعة الحضارة المصرية القديمة
سمير أديب
القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠، ٨٨٣ص، ٦٠ جنيها (عادي)، ٧٠ جنيها (فاخر)
مرجع ميسر، يحتوي على قدر كبير من المعلومات عن مصر القديمة في النواحي التاريخية والاجتماعية والسياسية والعلمية والفنية المختلفة.
جمعت عناصر الموسوعة على الأساس الهجائي، كما تضم بعض الصور والرسوم والخرائط المرتبطة بالمادة المعروضة.

■■■

Dictionary of the Ancient Near East
(معجم الشرق الأدنى القديم)
Piotr Bienkowski and Alan Millard (editors)
Penn Press, 2000, 352pp., $49.95
يتناول المعجم تلك المنطقة من العالم التي تعتبر مهد الحضارة، ونبعت منها الديانات الرئيسية في العالم. فيحتوي على تعريف للأفكار والمؤسسات والشخصيات الرئيسية والأماكن والفنون التي ظهرت في المراكز الحضارية الأولى عند المصريين والحيثيين والبابليين وغيرهم منذ زمن العهد القديم وحتى سقوط بابل على أيدي الفرس.

نقد أدبي

التناص القرآني في شعر أمل دنقل
عبد العاطي كيوان
القاهرة: مكتبة النهضة، ٢٠٠٠
يتناول الكتاب مفهوم التناص بالشرح والتحليل، وكيف استفاد الشعراء من القرآن الكريم وكتبوا نصوصهم مستفيدين من بعض نصوص القرآن الكريم، ويخص المؤلف بالدراسة الشاعر أمل دنقل الذي استفاد من نصوص القرآن أكثر من غيره.

■■■

الزمن الأبدي
وفيق سليطين
دمشق: دار نون، ٢٠٠٠
يحلق المؤلف في فضاء الصوفية، جاعلاً أداته هي القصيدة، شارحًا ما بها من ايحاءات تحكي عن حياة التصوف، وما تحمله من أفكار ومعان مختلفة وما يراه ويشعره المتصوف.

■■■

دراسات نقدية لأعمال قصصية
محمد زكي العشماوي
الإسكندرية: نادي القصة، ٢٠٠٠
تتداخل الآراء حول مدى تأثير الأدب الغربي على أدبنا، من حيث ظهور أجناس أدبية جديدة مثل القصة والرواية، وتطورهما حتى ظهور الواقعية السحرية وما بعدها، وإنتاج جيل جديد من الروايات عبر كبار الكتاب من أمثال يوسف إدريس، ونجيب محفوظ وظهور عوالم جديدة للقصة القصيرة.

■■■

وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية
عائشة حسين فريد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠
تتعرض المؤلفة للأساليب والتراكيب الجمالية المختلفة التي يتزين بها الأسلوب في اللغة العربية، حيث توضح ألوان البديع المختلفة، والصور والأخيلة في أدبنا قديما وحديثا مثل ابن العمدة، والجرجاني، والزمخشري وغيرهم.

■■■

نظرية التأويل
د. مصطفى ناصف
السعودية: النادي الأدبي الثقافي جدة، ٢٠٠٠
أثرى التأويل ثقافتنا وتراثنا وأدبنا، ويقف الكاتب عند معناه، حيث أنه ما خفي من الكلام، وما يستنبطه كل عالم بمفرده، حيث خضع فقهنا وأدبنا للتأويل، مما أدى إلى تنافس حضاري وعلمي ملأت نتائجه موسوعات ومجلدات، ساهمت في تقدم الحضارة الإنسانية.

■■■

البيان، فيما اتفق فيه الشيخان البخارى ومسلم

حرف

أسطوانة مدمجة CD

ويندوز



ما يزيد على ١٧٠٠ حديث من المتفق عليها بين الإمامين البخارى ومسلم، مترجمة إلى ست لغات: الإنجليزية، الألمانية، والإندونيسية، التركية، الفرنسية، الماليزية. هو محتوى هذا الاصدار الذى قدمت به شركة«حرف» لإصدارها الأشمل والأكبر«موسوعة الحديث الشريف» والتى تضم ٦٢ ألف حديث للنبى - صلى الله عليه وسلم - هى كل ماورد فى كتب الحديث التسعة المعروفة.

وكما هو متوقع من إصدار يعتمد على تقنيات«صخر» اللغوية، يتميز«البيان» بإمكانات بحث متعددة. منها ماهو«نصى» من خلال تقنية المحلل الصرفى الذى يقوم بربط كل كلمة بجذرها ووزنها الصرفى فيمكن للمستخدم البحث عن أى كلمة بخيارات متعددة منها: المطابق بنفس الشكل الذى أدخله المستخدم أو مع اللواصق التى تسبق الكلمة كحروف العطف والجر أو تلحق بها كالضمائر، أو كلمة على مستوى الجذر اللغوى، وأيضاً البحث عن مفردات متتالية، أو مفردات متباعدة، أو مفردات مرتبة، أو مفردات متباعدة غير مرتبة، وما إلى ذلك.

كما يمكن للمستخدم بدلاً من ذلك أن يلجأ للبحث«الموضوعى» من خلال شجرة موضوعات تشتمل على ١٤ موضوعا رئيسيا، يتفرع كل منها إلى موضوعات عامة ثم فرعية من خلال ٨ مستويات حتى تصل جملة موضوعات البحث إلى أكثر من ٣٧٠٠ موضوع تغطى جميع الموضوعات التى يحتاجها المسلم فى العصر الحديث.

وبالإضافة إلى عرض النص بدلالة أطراف الأحاديث أو طبقا لتبويب المصدر، يعرض النص مشكلاً مع استعراض الموضوعات التى يعالجها الحديث المعروض.

ويقدم الإصدار الإلكترونى للصحيحين هنا فهارس متعددة، منها ماهو للآيات القرآنية التى وردت فى المتون. ومنها ماهو للأحاديث النبوية. وتشمل أحاديث قدسية وأخرى متواترة أو مرفوعة أو موقوفة. وكذلك فهارس للأعلام. وتشمل أسماء الرسول، والأنبياء والملائكة، والأماكن، والجماعات، والرجال والنساء.

وهناك أيضاً فهارس للأشعار التى وردت ضمن نصوص الأحاديث.

ولايكتفى الاصدار الإلكترونى للصحيحين بهذا كله، فهناك أيضا تخريج الأحاديث ونسبتها إلى موضعها. وكذلك شرح الألفاظ الغريبة الواردة فى نصوص الأحاديث. كما يقوم البرنامج - عند الطلب - بعرض الأحاديث التى لها صلة بنفس موضوع الحديث الذى يختاره المستخدم.

وفضلاً عن أن البرنامج يوفر فرصة الطباعة منه مباشرة، يوفر أيضاً فرصة نسخ النص إلى أى محرر نصوص.

وفوق كل ذلك فإن خدمات الإصدار كاملة تتوافر بعدة لغات: الإنجليزية والماليزية والإندونيسية والتركية والفرنسية والألمانية بحيث يتعامل المسلم غير العربى مع البرنامج بلغته الأصلية ثم يعرض الحديث باللغة العربية وترجمته إلى أى لغة أخرى على نفس الشاشة. كما يمكنه أن يبحث أيضا عن أى موضوع بلغته الأصلية من بين جملة موضوعات الشجرة والمترجمة إلى عدة لغات. ويوفر البرنامج إمكانية البحث عن كلمة أو جملة أو موضوع باللغة التى يختارها المستخدم من اللغات الست المتاحة. كما يقدم شرحا لعلم مصطلح الحديث بكل أقسامه وأنواعه وبلغات البرنامج بالإضافة إلى تدريبات متنوعة فى علم مصطلح الحديث، وفضائل الصحابة والأنبياء ومسائل فقهية، مع حساب نتيجة التدريب.

وحسب ماهو مبين فى الوثائق المرفقة بالبرنامج،فقد تمت مراجعته واعتماده من الأزهر الشريف.

لسان العرب

ابن منظور

صخر لبرامج الحاسب

إنترنت

http://lexicons.sakhr.com

مجاناً



أما بعد فإن الله سبحانه قد كرّم الإنسان وفضله بالنطق على سائر الحيوان، وشرَّف هذا اللسان العربيَّ بالبيان على كل لسان، وكفاه شرفا أنه به نزل القرآن، وأنه لغة أهل الجنان. روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله:

«أحبوا العرب لثلاث: لأنى عربىّ، والقرآن عربىّ، وكلام أهل الجنة عربىّ».

هكذا قدم ابن منظور عبد الله محمد ابن المكرم بن أبى الحسن بن أحمد الأنصارى الخزرجى لمصنفه الأشهر«لسان العرب» والذى يعد أقدم وأضخم المعاجم العربية؛ إذ يحتوى على ثمانين ألف مادة وستمائة ألف مشتق وأكثر من ثلاثة ملايين كلمة. وهو بذلك يأتى فى المرتبة الثانية فى الحجم بعد معجم تاج العروس للزبيدى. وقد قامت «صخر» لبرمجيات الحاسب أخيراً بتطوير نسخة الكترونية من معجمى الغنى ولسان العرب وإضافتهما إلى صفحة المعاجم العربية الموجودة فى موقع صخر على الإنترنت

http://lexicons.sakhr.com

ويعتبر لسان العرب أشبه بالموسوعة اللغوية منه بالمعجم، حيث اهتم بأشعار العرب واللهجات والقراءات القرآنية والنوادر وقواعد اللغة وخلاف النحاة فى الكثير من القضايا وذكر أسماء الرواة الذين اقتبس عنهم.

وقد أورد معجم لسان العرب الكثير من الشواهد على المعانى المختلفة المقتبسة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والأمثال والخطب. كما أورد كل ما وقف عليه من المواد ومشتقاتها ومعانيها، حيث جمع بين طياته خمسًا من أمهات المعاجم القديمة، وهى تهذيب اللغة للأزهرى، المحكم لابن سيده، الصحاح للجوهرى، والحواشى لابن برى، والنهاية لابن الأثير.

ومعجم الغنى للدكتور عبد الغنى أبو العزم، يعد أحد المعاجم العربية الحديثة التى طورتها شركة«صخر ميديا» وهو مقدم على أسطوانة مدمجة ضمن مجموعة برامج الأسرة، وتمت إضافته إلى المعاجم العربية التى يتضمنها موقع صخر مؤخرًا.

وهو يخدم بصورة مباشرة طلاب التعليم الأساسى والثانوى خاصة والمثقفين ومستخدمى المعاجم العربية الحديثة عامة. والمعجم مرتب ألفبائيًا ومشكل تشكيلاً تامًا، ويتميز بسهولة البحث فيه وتعزيز الشروح بتعريفات بسيطة وشواهد أدبية واستشهادات من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ونصوص الكتاب القدماء والمحدثين.

ويضم الغنى عددًا ضخمًا من المصطلحات الأدبية والعلمية والتقنية وألفاظ الحضارة. كما يضم مئات الرسوم والصور الإيضاحية لنباتات وحيوانات وغيرها، ويبلغ عدد مواد هذا المعجم حوالى ٣٠,٠٠٠ مادة، كما يبلغ عدد المشتقات ١٩٥,٠٠٠، وعدد كلماته ٢٠٠٠,٠٠٠ كلمة.

وتحتوى صفحة المعاجم العربية الموجودة فى موقع صخر فى الإنترنت على الكثير من أنواع البحث المختلفة، مثل البحث عن الكلمة كما هى، وهنا يتم البحث عن الكلمة المدخلة كما هى، والبحث بجذور الكلمات المدخلة، والبحث بالمترادفات، إذ يتم توسيع نطاق البحث حتى يشمل مرادفات الكلمة المدخلة أيضًا.

ومن أساليب البحث الأخرى التى يتيحها الموقع، البحث ثنائى اللغة الذى يتيح للمستخدم البحث فى الوثائق العربية والإنجليزية فى آن واحد. ويراعى الموقع الأخطاء العربية الشائعة فى الكتابة، إذ يمتلك القدرة على التعرف على الأخطاء التى يقع فيها معظم مستخدمى اللغة العربية ويتجاوزها.

وعلى الموقع الخاص بالمعجم على الانترنت حرصت«صخر» على إيراد تقديم خاص بقلم الأستاذ الدكتور محيى الدين صابرالمدير العام الأسبق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم«الأونيسكو» ،يتحدث فيه عن أهمية متابعة النشاط المعجمى وتجويده، ويشير إلى الفائدة المرجوة من وراء إتاحة مثل هذا المعجم الكبير فى صورة إلكترونية تتماشى مع احتياجات جيل جديد وعصر جديد. وذلك مع التأكيد على اهتمام العرب تاريخيا بالنشاط المعجمى أحد تلك المجالات التى بدأ العرب السّعْىَ فيها مبكّرًا. على مراحل عدّة، منها جمع المفردات النوعية فى موضوع واحد، مثل كتب الأصمعى فى النّخل والخيْل، ومنها وضع المعجم على نمط خاص فى الترتيب ليرجع إليه من أراد البحث عن الكلمات ومعانيها.

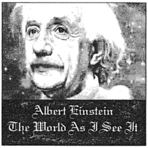
ويسود الاعتقاد لدى الباحثين أن الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥ هـ) كان أوّل من وضع معجمًا لغويًا عربيًا سمّاه (كتاب العيْن) فارْسَى بذلك منهج التأليف المعجمَى. ثم قام بعده من وضعوا المعاجم المتنوعة، منها معجم (الحروف) لأبى عمرو الشيبانى (ت ٢٠٦ هـ) ومعجم (الألفاظ) لابن السكّيت (ت ٢٤٤ هـ) و(الجمهرة) لابن دريد (ت ٣٢١ هـ) و(البارع) لأبى على القالى (ت ٣٥٦ هـ) و(تهذيب اللغة) للأزهرى (ت ٣٧٠ هـ) و(مقاييس اللّغة) و(المُجمل) لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) و(الصّحاح) للجوهرى (ت ٤٠٠ هـ) و(المُحكم) و(المخصّص) لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)

و(لسان العرب) لابن منظور (ت ٧١١ هـ) و(القاموس المحيط) للفيروز آبادى (ت ٨١٧ هـ) و(تاج العروس) للزَّبيدى (ت ١٢٠٥ هـ).

THE WORLD AS I SEE IT

العالم كما أراه

Albert Einstein
Internet
BiblioBytes
www.bb.com
Free



عندما بدأت مجلة «تايم» الأمريكية استفتاءها الشهير قبل حوالى العام لاختيار «شخصية القرن»، كان الكثيرون - رغم الازدحام الكبير لقائمة حوت علماء وزعماء ومفكرين وفنانين - يتوقعون أن يكون هو هذا الرجل «ألبرت أينشتاين» العالم الأمريكى الألمانى الأصل الذى أرست نظرياته الأساس للكثير من نظم التكنولوجيا الحديثة، بما فيها الأسلحة النووية.

يومها وصفت المجلة أينشتاين بالعبقرى، واللاجئ السياسى ذو الحس الإنسانى المرهف، وكاشف أسرار الذرة والكون. وقالت إن أينشتاين يبرز شامخا كأعظم عقل بشرى وقمة لرموز عصر حفل بالفتوحات العلمية والتكنولوجية وذكرت مجلة التايم أن الطبيعة التى عرف بها العالم الشهير ذو الذهن الشارد والشعر الأشعث والعينين الثاقبتين، إضافة إلى نزعته الإنسانية الطاغية وذكائه الخارق، جعلت من وجهه رمزا للعبقرية ومن اسمه مرادفا لها.

وكان مائة من أبرز علماء الفيزياء قد اتفقوا فى وقت سابق على اختيار ألبرت أينشتاين كأعظم عالم فيزياء فى التاريخ.

والمعروف أن أينشتاين، الذى ولد فى ألمانيا عام ألف وثمانمائة وتسعة وسبعين، لم تظهر عليه فى طفولته أية بوادر ذكاء، ولكنه فاجأ العالم بنظرياته حول الفضاء والزمن والمادة، والتى قلبت المفاهيم السائدة عن الكون وأثرت تأثيرا عميقا على المجتمعات الإنسانية.

وشرح أينشتاين فى نظريته النسبية الشهيرة، أن القيمة الثابتة الوحيدة فى الكون هى سرعة الضوء، وما عداها متغير، ويمكن حسابه من المعادلة التى تقول إن الطاقة تساوى الكتلة مضروبة فى القيمة التربيعية لسرعة الضوء.

ولسد بعض ثغرات هذه النظرية، وضع أينشتاين بعدها النظرية العامة للنسبية، والتى تنص على أن التفسير السليم لقوى الجاذبية يستلزم تغيير مقاييس الزمن والفضاء كلما اقتربنا من الأجسام الضخمة كالنجوم والكواكب والثقوب السوداء.

وفى عام ألف وتسعمائة وثلاثة وثلاثين، وبعد ست سنوات من هروبه من الفاشية التى كانت ترزح أوروبا تحت وطأتها، حث أينشتاين، الذى كان من دعاة السلم ونبذ العنف، الرئيس روزفلت على تصنيع القنبلة الذرية قبل ألمانيا النازية لردعها عن استخدامها.

وقد استجاب روزفلت بمشروع مانهاتن، الذى قام العلماء من خلاله، وتحت غطاء من السرية، بتصنيع أول سلاح ذرى، رغم أن أينشتاين لم يشارك فى إنجازه.

والكتاب الذى وجد طريقه أخيراً للانترنت يقدم قراءة حقيقية لتلك الشخصية الفريدة، من خلال تجميعه لمجموعة ذات دلالة من مقالاته وأقواله التى تقدم صورة تكاد تكون كاملة عن الرجل ونظرته للحياة والكون والبشر. وكما قال العرب قديماً: «فالمرء مخبوء تحت لسانه».

تأمل «وجهات نظر» من منتجى البرامج والناشرين والشركات العاملة فى «النشر الإلكترونى» موافاتها بالجديد من إصداراتهم ليتسنى لها عرضها فى هذا الباب.
e-mail: sayyad@mail.com

.. بل أدعو إلى الإسراع بتصدير الغاز الطبيعي

تابعت باهتمام بالغ في مجلة «وجهات نظر» عدد مايو الماضي، دعوة أستاذي الفاضل الدكتور رشدي سعيد بالامتناع عن تصدير الغاز الطبيعي المصري والاحتفاظ به لاستخدامه في عمليات التنمية الحالية والمستقبلية، ولاشك عندي في أن دعوة الدكتور رشدي وراءها حس وطني مرهف لم يقلل منه ولا من انتمائه لوطنه الأم طول اغترابه في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولكني أختلف مع ما ذهب إليه الدكتور رشدي، بل أدعو إلى الإسراع في إجراءات تصدير الغاز، وذلك للأسباب التي سيأتي ذكرها. وقد أعطاني حق الاعتراض على ما دعا إليه أستاذي الفاضل، وأن أدلي بدلوي في هذا الموضوع الحيوي والمهم، أني شغلت خلال حياتي العملية عدة مناصب تؤهلني لهذه المداخلة، منها أني كنت مديرًا للاستكشاف في شركات مختلفة منتجة للزيت والغاز ونائبا لرئيس هيئة البترول للاستكشاف والاتفاقيات البترولية لفترة عاصرت خلالها وشاركت في تطبيق وإنهاء وتطوير اتفاقيات الغاز المصرية.

إن مصر تمر حاليا بفترة حرجة من تاريخها، فهي تسعى إلى التقدم، بينما هي مقيدة القدمين واليدين بمشكلات تحد لدرجة كبيرة من إمكانياتها في الحركة للأمام، بل تسحبها أحيانا إلى الوراء، ولا يخفى على أحد أن مشكلاتنا يقف دون حلها بالدرجة الأولى، عدم توافر الاعتمادات اللازمة للتعامل معها. وكان الدخل العائد من تصدير جزء مهم من حصتنا من الزيت الخام المنتج لفترة، للأسف لم تزد على العشرين عاما الماضية عاملا أساسيا في دعم عمليات التنمية. أما الآن وقد تناقص إنتاجنا من الزيت كما زاد استهلاكنا منه محليا، بحيث إن دخلنا الناتج عن تصدير الجزء المتبقي بعد حصول الشريك الأجنبي على حصته وبعد دفع فاتورة ثمن حصته من الغاز المنتج أصبح هذا الدخل سلبيا. وأصبح قطاع البترول معتمدًا على الحكومة في تمويل جزء من استثماراته والتزاماته بعد أن كانت الحكومة معتمدة لدرجة كبيرة على ما يصلها من قطاع البترول للإنفاق على مشروعاتها التنموية وغيرها. وأصبح قطاع البترول، وبالتالي الحكومة في مأزق. فإنتاجنا من الزيت يتناقص والحقول التي يتم اكتشافها صغيرة، والاحتياطات المضافة تكاد لا تعوض ما ينتج، بحيث إن احتياطي الزيت توقف تقريبا عند الرقم ٣,٣ بليون برميل خلال العشر سنوات الأخيرة.

وأتساءل: هل هناك حل لهذه المشكلة يضطلع به قطاع البترول؟ والإجابة هي نعم لو تم تصدير الغاز.. فلدينا مناطق بها إمكانيات بترولية هائلة محتملة تنتظر البحث فيها واكتشاف ما تحتويه من غازات وربما زيت.

ولكن ما علاقة تصدير الغاز باكتشاف حقول جديدة منه في تلك المناطق؟ والإجابة عن هذا السؤال الأخير سوف تأتي في سياق السرد التالي.

إن دعوة الدكتور/ رشدي سعيد بعدم تصدير الغاز والاحتفاظ به لاستخدامه في عمليات التنمية المختلفة، هو نداء له وجاهته فقط في حالة ما إذا كانت الدولة هي التي تقوم بعمليات البحث عن الغازات وتنمية الحقول المكتشفة والإنتاج منها، أما إذا كانت الشركات المتخصصة هي التي تقوم بهذا الدور، فلا يمكن عمليا ولا منطقيا أن نلبي دعوة الدكتور سعيد، فهذه الشركات تنفق لتربح وليس من شئونها توفير احتياطي أمن لمصر. بناء على ذلك فإن هناك طرحا مؤداه أنه إذا كان ما ينادي به أستاذنا ضرورة، فلماذا لا تتولى الحكومة مهمة البحث عن الغاز، وإضافة الاحتياطيات التي تعطيها الأمان تنتج منها ما تشاء في الوقت الذي تراه مناسبا. أستطيع أن أزعم بمنتهى الثقة أن الحكومة غير قادرة ولا مؤهلة لأن تقوم بهذه المهمة، وذلك لعدد من الحقائق والثوابت يمكن تلخيصها في السطور القادمة.

الحقيقة الأولى: وهي مرتبطة بالمخاطرة برأس المال المستثمر في عمليات البحث عن البترول (زيت أو غاز) وتنمية الحقول المكتشفة والإنتاج منها. فمن المعروف للمتخصصين أن عمليات البحث عن البترول هي عمليات معقدة تتصف بالمخاطرة برأس المال المستثمر فيها، فاحتمال النجاح في العثور على حقل للبترول في المكان الذي تحدده دراسات كثيرة ومختلفة ومعقدة وذات تكلفة مرتفعة هو احتمال تقل نسبته عن ٣٠٪ ولا تزيد في أحسن الظروف عن ٥٠٪. ومعظم الشركات العاملة في مجال البحث عن البترول، تقوم بحفر الآبار المكلفة للعثور على هذه الخامة الهامة، وهي تعلم مسبقا أن احتمال النجاح في العثور عليها تقل نسبته أحيانا عن ٢٥٪.

ومصاريف البحث في مكان معين واللازمة لعمل دراسات جيولوجية وجيوفيزيائية وغيرها من الدراسات، ثم حفر بئر استكشافية واحدة، تتراوح بين ١,٥مليون دولار، إذا كان الموقع المختار يقع تحت مياه بحرية عميقة (أكثر من ١٠٠٠م)، وإذا كان العمق المستهدف الوصول إليه بالحفر يزيد على ٤٠٠٠م. هذا ومن المعلوم أن عمليات البحث في منطقة معينة لا تقتصر على بئر واحدة، ولكن يتم حفر عدد من الآبار وتتضاعف التكلفة مع عدد الآبار المحفورة وكم من شركات أنفقت ملايين الدولارات في مناطق، وخرجت منها دون أن تحقق أي اكتشاف بها. ولكي تقلل الشركات العاملة في مجال البحث عن البترول من حجم الأموال التي تخاطر بها، وكذلك لكي تقلل من معامل المخاطرة فإنها تلجأ إلى عدة طرق منها اشتراك أكثر من شركة في الإنفاق على عمليات البحث في منطقة واحدة، وقيام الشركة مع شركات أخرى بعمليات البحث في مناطق مختلفة في البلد الواحد أو في بلاد مختلفة.

الحقيقة الثانية: وهي مرتبطة أيضًا بمعامل المخاطرة ومتعلقة بالمرحلة التي تجري خلالها عمليات البحث، فعمليات البحث التي تجري في مناطق بكر أو حظيت بمجهود استكشافي متواضع، يكون حجم الحقول المكتشفة فيها كبيرا، ويقل تبعًا لذلك معامل المخاطرة، حيث إن الحقول الكبيرة يسهل التعرف عليها وتحديد أماكنها، وليس أدل على ذلك من أن معظم منطقة الحقول الكبيرة التي تم اكتشافها في أماكن مختلفة من العالم كلها حقول تم اكتشافها قبل انتهاء النصف الأول من القرن العشرين، وكان اكتشافها نتيجة لمجهود استكشافي محدود نسبيا وباستخدام التكنولوچيات المتواضعة، التي كانت متاحة في ذلك الوقت ونفس الشيء حدث في مصر، حيث تم اكتشاف الحقول الكبيرة في خليج السويس والصحراء الغربية والدلتا وفي البحر الأبيض، حينما كان البحث في هذه المناطق في مراحله الأولى، ولم يتأخر اكتشاف الحقول الكبيرة في المناطق مثل بحر الشمال والاسكا وجنوب السودان، حتى أواخر السبعينيات بسبب انتظار تكنولوچيات لم تكن متاحة قبل ذلك، ولكن لأن تكلفة إنتاج البترول من تلك المناطق مرتفعة.

وعلى العكس مما تقدم، فإن الحقول التي يتم العثور عليها في مناطق أو أحواض بترولية حظيت بنصيب وافر من عمليات البحث تكون حقولا صغيرة، حيث إنه يكون قد تم اكتشاف معظم الحقول الكبيرة المتوسطة، وهذه الحقول الصغيرة إلى جانب أن إنتاجها اليومي أو السنوي قليل، فهي قابلة للنضوب بعد فترة قليلة من بدء الإنتاج منها، وتكون اقتصادياتها في معظم الأحيان حرجة. وبسبب صغر حجم هذه الحقول، فإن العثور عليها لا يتم بالسهولة التي يتم بها العثور على الحقول الأكبر حجما، ويزيد تبعا لذلك معامل المخاطرة برأس المال المستثمر في البحث عنها. ولأكون أكثر توضيحًا، فإن معامل النجاح المثبت إحصائيا على مستوى العالم، هو أنه يتم العثور على حقل متوسط أو كبير نتيجة لحفر من ٣ - ٥ آبار استكشافية، كما يتم العثور على حقل صغير نتيجة لحفر من ٧ - ٩ آبار استكشافية.

إن صناعة البحث عن البترول وإنتاجه، لا يجب أن تتولاها الحكومات غير المؤهلة للدخول في هذا النوع من الاستثمارات، حتى لو كان لأسباب استراتيچية وغير المؤهلة أيضًا لاستحداث وتطوير التكنولوچيات المستخدمة في هذه الصناعة، وأن هذا العمل يجب أن يوكل للشركات المتخصصة والقادرة على الاضطلاع به، وإذا نظرنا للواقع البترولي المصري سوف نجد أن الحكومة حاليا وأكثر من أي وقت سابق، لا يجب حتى أن تفكر في أن تقوم بأي أعمال بحث عن الغازات منفردة، فكل مناطقنا البترولية في خليج السويس والصحراء الغربية والدلتا والسواحل الشمالية أصبحت من المناطق التي حظيت بنصيب وافر من عمليات البحث، والحقول المحتمل العثور عليها في هذه المناطق، هي في أغلب الظن حقول صغيرة والبحث عنها تكتنفه كما ذكرنا آنفا مخاطرة عالية برأس المال المستثمر.

على الرغم مما ذكر حتى الآن، فإن الواقع البترولي المصري ما زال مشرقا، والعثور على حقول كبيرة من الغاز وربما من الزيت ما زال ممكنا، واشتراك قطاع البترول المصري بالمساهمة الإيجابية في تمويل خطط الدولة في التنمية خلال السنوات القادمة، مازال احتماله قائما. والسؤال هو كيف؟

ذكرنا سابقا أن العثور على حقول كبيرة يتم في الأحواض البترولية البكر أو التي لم تحظ بقدر كاف من النشاط الاستكشافي فيها، ولدينا في مصر مساحات شاسعة تتسم بهذه الصفة، وهي متمثلة في المياه العميقة لكل من البحرين الأبيض والأحمر، وعلى الرغم من أن العثور على حقول الغاز في هذه المناطق هو الأكثر احتمالا، إلا أن احتمال العثور على حقول كبيرة للزيت في هذه المناطق مازال واردا. والمطلوب للعثور على هذه الحقول هو إقدام شركات البترول على البحث فيها.

ويجب أن أوضح هنا أن عمليات البحث عن البترول تحت المياه العميقة هي عمليات مكلفة. وعمليات تنمية الحقول التي تكتشف تحت هذه المياه ليست فقط ذات تكلفة خيالية، بل إن التكنولوجيات المستخدمة فيها تكاد تكون متاحة لعدد قليل من الشركات العملاقة تعد على أصابع اليد الواحدة. والشركات ومن قبل أن توقع اتفاقيات للبحث في منطقة معينة، فإنها يجب أن تكون مطمئنة إلى أنها سوف تجني ثمار جهودها المالية والفنية. وهذا أمر ممكن التأكد منه بسهولة في حالة مناطق تواجد الزيت، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمناطق التي توصف بأنها مناطق لحقول الغاز. فالغاز لا يمكن تخزينه ولا يتم إنتاجه إلا في حالة وجود مستهلك

فالغاز يذهب من البئر إلى المستهلك. «إذا كانت مصر سوف تكون هى المستهلك الوحيد كما ينادى الدكتور رشدى سعيد، فإن الشركات لن تقدم على البحث فى المناطق المذكورة، فهى لا تستطيع ولا تقبل أن ترقص على إيقاعنا، كما فى المثل الشائع، وهى لا تستطيع أن تكتشف الغاز اليوم وتتركه لمدة ١٠ سنوات» مثلا قبل أن تبدأ الإنتاج منه لأننا لسنا فى حاجة إلى الغاز اليوم قبل ذلك. سوف تأتى الشركات لتوقيع عقود للبحث عن الغاز فى البحر الأبيض وربما البحر الأحمر، إذا اطمانت إلى أن ما سوف تعثر عليه، سوف يجد طريقه للمستهلك بعد فترة وجيزة. وهذا المستهلك يمكن أن يكون محليا أو خارجيا. ولما كانت تغطية احتياج الاستهلاك المحلى من الغاز لا تتطلب إضافة احتياجات كبيرة بعد أن وصل رقم احتياطى الغاز إلى ٤٣ ترليون قدم مكعب، فإن المستهلك الأهم والذى يشكل الدافع الأعظم لشركات البترول لتوقيع اتفاقيات للبحث عن الغازات فى المياه العميقة هو المستهلك الخارجى، والذى لا يصل الغاز إليه إلا عن طريق تصديره، وذلك طبعًا في حالة ما إذا كان سائل الغاز المنتج يستطيع أن ينافس الغاز المنتج من دول أخرى.

وتصدير الغاز ليس بالأمر السهل، فهذا يتطلب إنشاء خطوط أنابيب أرضية أو تحت البحر أو مصنع لإسالة الغاز. ولكل من هذه البدائل اقتصادياته وظروفه. ومن الواضح أن قطاع البترول المصرى قد درس هذه البدائل اقتصاديا وسياسيا، ووصل فيها إلى القرار الذى أعلن عنه وهو اختيار إنشاء مصنع للإسالة، وربما كان هناك اختيار آخر، ولكن الأهم من كل هذا هو وجود المستهلك، وهذا أمر لا يقل صعوبة فى وقتنا هذا، حيث المنافسة شديدة بين المصدرين المحتملين وبيننا، فالغاز الذى سوف ينتج من عندهم تكلفته قليلة نسبيا، وهؤلاء المنافسون موجودون فى قطر وليبيا والجزائر ونيجيريا وإيران. والمنافس الأخطر لغاز هذه الدول وللغاز المصرى هو الغاز المكتشف فى حقول تركمانيا وروسيا. وحجم الحقل الواحد هناك يزيد على ثلاثة أضعاف كل ما تم اكتشافه فى مصر حتى الآن. والحائل دون إنتاجه وتصديره حتى الآن، إلى جانب القلاقل السياسية السائدة فى منطقة القوقاز، هو بعد المسافة بينه وبين المستهلك فى أوروبا وفى شرق البحر الأبيض، وهذه ظروف ممكن التغلب عليها والانتهاء منها فى القريب. ومن هنا فإن من يسرع فى إنهاء اتفاقيات بيع للغاز طويلة الأجل، سوف يكون هو الطرف الرابح، والانتظار والتردد قد يضيع فرصة التصدير إلى الأبد، وهذا سبب ندائى بان نسرع فى كافة الإجراءات والاتفاقيات، وبما يسبقها من مفاوضات حتى يسبق الغاز المصرى الغاز المنتج من دول أخرى منافسة فى الوصول إلى المستهلك فى أوروبا أو شرق البحر الأبيض المتوسط.

وأنا لست على علم بما وصلت إليه الاتفاقيات بين مالكى الغاز المصرى وهم هيئة البترول وشركات أجنبية عثرت على حقول غاز فى مصر وبين المستهلكين سواء فى أوروبا أو تركيا أو شرق البحر الأبيض المتوسط، ولست كذلك على علم بما تم من اتفاق بين الحكومة المصرية والشركة أو الشركات التى ستقوم بإنشاء مصنع إسالة للغاز أو أى وسيلة أخرى للنقل، لذلك فإنى سوف أقدم اقتراحًا قد يكون تم العمل به أو أن يكون متخذو القرار ليسوا فى حاجة إلى الأخذ به لوجود بدائل أخرى. والاقتراح يتلخص فى أننا فى حالة رغبة المستهلك أو الشركة التى ستبنى مصنع الإسالة فى أن يكون هناك حد أدنى من الاحتياطيات المثبتة من الغازات متاحة للتصدير، وأن هذا الحد غير متوافر لرغبة الجانب المصرى فى الاحتفاظ بالاحتياطى المثبت وعدم البيع منه، فإنى أقترح على الجانب المصرى أن يراجع نفسه فى هذا، بل على العكس عليه أن يلتزم ببيع الكميات التى تكون ضرورية لإنهاء المفاوضات والتعاقدات، حتى لو كانت من رصيده الاستراتيجى. وقد يظن البعض أن هذه مخاطرة غير محسوبة وأنا أراها غير ذلك، فمجرد العثور على المستهلك وإنهاء التعاقد معه والاتفاق مع الجانب الذى سينشئ وسيلة التصدير، والانتهاء من النموذج الجديد والخاص بالغاز فى الاتفاقيات البترولية المصرية، فإن ذلك سيتبعه إقبال من الشركات الدولية المتخصصة فى البحث والإنتاج من مناطق المياه العميقة لتوقيع اتفاقيات بحث تخص ما يعرض من هذه المناطق.

وسوف أعرض تاريخا مختصرًا لتطور البند الخاص بالغاز فى الاتفاقيات التى أنهتها الحكومة وهيئة البترول خلال القرن الماضى، وتاثير هذا التطور فى العثور على الغاز فى مناطق مختلفة من مصر.

الاتفاقات البترولية التى انهيت قبل عام ١٩٧٤ سواء منها اتفاقيات مناطق الامتياز Concession Agreement أو اتفاقيات المشاركة Sharing Agree-ments، لم تشتمل على أى بند يحدد كيفية التعامل مع الغاز فى حالة العثور عليه، حيث لم يكن متوافرا أية بنية تحتية فى مصر لاستخدام الغازات محليا، ولم يكن هناك سوق خارجية لتصديره، وبالتالى فإنه لم يكن هناك حافز، حتى ذلك الوقت لشركات البترول للبحث عن الغازات، وعلى الرغم من ذلك فقد تم العثور عليها ما بين عامي ١٩٦٧ و١٩٦٩، وبالصدفة على ثلاثة حقول للغاز وهى حقل أبو ماضى فى شمال الدلتا، والذى عثرت عليه الشركة الدولية للزيت المصرى، ثم حقل أبو الغراديق بالصحراء الغربية، والذى عثرت عليه شركة أموكو، ثم حقل أبو قير شمال الإسكندرية، وعثرت عليه شركة فيلبس.

الاتفاقات التى تم إنهاؤها بعد عام ١٩٧٤، وكلها اتفاقيات مشاركة الإنتاج Production Sharing Agreements اشتملت على بند يحدد أن الغاز إذا وجد فى منطقة متعاقد عليها إذا لم يكن بكميات تسمح بتصديره، فإن ملكيته تؤول للدولة. وهذا البند لم يكن فيه ما يشجع الشركات على البحث عن الغاز. وعلى الرغم من ذلك فقد تم العثور على عدد من حقول الغاز الصغيرة بالصدفة.

وفى النصف الثانى من السبعينيات، وقبل اكتشاف الغازات الطبيعية فى بحر الشمال، كانت السوق الأوروبية متعطشة للغاز الطبيعى، وبناء على ذلك فقد تم إضافة ما أطلق عليه Gas Clause للاتفاقيات البترولية القائمة، وتعتبر هذه الإضافة جزءا لا يتجزأ من الاتفاقيات، وتحل فقط محل المادة المختصة بالغاز فى الاتفاقية الأصلية، وهو تعديل يهدف إلى تصدير الغاز لأوروبا، بعد أن يتم تكوين احتياطى استراتيجى لمصر قدر وقتها بـ ١٣ تريليون قدم مكعب، واشتمل الاتفاق على أن الشركات المختلفة المتمتعة بهذا التعديل، تشترك فى تحقيق الاحتياطى القومى المذكور، وتشترك بعد تحقيقه فى إنشاء وسائل التصدير وإنهاء الاتفاقيات المرتبطة بذلك، وتكون حصة كل شركة فى التكلفة المطلوبة للتصدير متناسبة مع حجم ما تقوم بتصديره من حقولها، واشتمل الاتفاق أيضا على أنه فى حالة عدم رغبة شركة معينة فى الانتظار، حتى تحقيق الاحتياطى الاستراتيجى والاشتراك فى التصدير أن يتم تعويضها عما وجدته وتنازلت عنه للحكومة طبقًا لنظام معين مرتبط بحجم الحقل المتنازل عنه. وللأسف لم يكد يبدأ تنفيذ هذا النوع من الاتفاقيات، حتى تم العثور على حقول كبيرة للغاز فى بحر الشمال وبسرعة أيضا تمت تنمية هذه الحقول، وتم الإنتاج منها لتصل للمستهلك فى وقت قصير، وأصبحت السوق الأوروبية مغلقة أمام الغاز المصرى، وفقدت الشركات الباحثة الرغبة فى البحث عن الغازات لضياع فرصة التصدير.

وفى عام ١٩٨٤ دعت هيئة البترول الشركات الأجنبية للتفاوض بشأن إيجاد بديل للجزء الخاص بالغاز فى الاتفاقيات القائمة والقادمة يؤدى إلى بذل مجهود أكبر للبحث عن الغازات فى الأحواض البترولية المختلفة فى مصر والإنتاج منها، وكان البديل المنطقى المطروح هو أن يتم استخدام الغاز محليا وعلى أن تقوم هيئة البترول بشراء حصة الشريك الاجنبى من الغازات المنتجة. وكان السعر المتفق عليه لشراء غاز الشريك الأجنبى هو ٨٥٪ من سعر المازوت القليل الكبريت والمكافىء حراريا للغاز. وتم إنهاء اتفاقيات تشتمل على هذا المضمون، وأصبح هذا النمط هو المعمول به حتى عام ١٩٩٥، حينما تم الاتفاق على أن يحصل الشريك الأجنبى على ثمن المعادل الحرارى لزيت خليج السويس بدلا من المازوت، وزادت بذلك قيمة ما يحصل عليه من الحكومة. وبسبب هذا الحافز الاقتصادى الهام الذى تضمنه هذا الاتفاق، فقد نشطت شركات البترول فى البحث فى كل مكان محتمل لوجوده ونتج عن ذلك أن قفزت احتياطيات الغاز من ٥ إلى ٤٤ تريليون قدم مكعب فى حوالى عشر سنوات.

ويمكن تلخيص ما سبق فى الأسطر القليلة القادمة:

١ ـ الأحواض البترولية المصرية مازالت تحتوى على كميات هائلة من الغاز والزيت وخاصة تحت المياه العميقة للبحرين الأبيض والأحمر، وهى مناطق لم تحظ بعد بنشاط استكشافى يذكر.

٢ ـ الاحتياطات المثبتة من الغاز فى مصر تكفى وحدها لتغطية احتياج السوق المحلية، ربما للخمسين عاما القادمة.

٣ ـ لا يستطيع غير الشركات البترولية العملاقة المتخصصة القيام بالبحث عن البترول وانتاجه من المناطق المذكورة.

٤ ـ تصدير كل أو جزء مما سوف يتم العثور عليه سيسهم عائده فى تمويل مشروعات الدولة التنموية والخدمية.

٥ ـ المنافسة شديدة بين الدول المنتجة للغاز فى بيع غازها للدول المستهلكة، وهناك دول لديها احتياطيات هائلة من الغاز لن يمضى وقت طويل حتى تنافس هى أيضا وبشراسة فى سوق بيع الغاز.

٦ ـ تعاقدات بيع الغاز طويلة السريان ومن يسرع بالتعاقد فى ظل هذه السوق التنافسية فرصته أحسن ومن يتلكأ فى التعاقد ربما تضيع فرصته إلى الأبد، فمصادر أخرى للطاقة فى الغالب سوف تكون متاحة وباسعار اقتصادية قبل انصرام النصف الأول من هذا القرن.

وأنا أهيب بالسيد/ وزير البترول الشاب المتحمس بعد أن انتهى من ترتيب البيت فى هيئة البترول خاصة فى القطاعات المختصة بالاستكشاف والاتفاقيات البترولية أن يسرع فى الإنتهاء من البت فى العروض المقدمة لهيئة البترول للبحث فى مناطق مختلفة وألا ينحصر اهتمامه بالغاز وبالمياه العميقة، فعلى الرغم مما ذكر آنفا فإنى أعتقد أن فرص العثور على حقول كبيرة للزيت مازالت موجودة، خاصة فى خليج

كتاب الزاوية

من كتاب «طوق الحمامة»
ابن حزم

٢. باب طى السر

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان، وجحود المحب إن سُئل، والتصنّع بإظهار الصبر، وأن يُرى أنه عزهاة خلىّ، ويأبى السرُّ الدقيق، ونارُ الكلف المتأججة فى الضلوع، إلا ظهورًا فى الحركات والعين، ودبيبًا كدبيب النار فى الفحم، والماء فى يبيس المدر، وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف، وأما بعد استحكامه فمحال.

وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة، فيفر منها ويتفادى، وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المسلم أن يعفّ عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة، وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه، إذ القلوب بيد مُقلّبها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين، وأما المحبة فخلْقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة.

وفى ذلك أقول:

يلوم رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى
وسيّانَ عندى فيك لاحٍ وساكتُ

يقولون: جانبتَ التصاونَ جُملةً
وأنتَ عليهم بالشريعةِ قانتُ

فقلتُ لهم: هذا الرِّياءُ بعينِه
صُراحًا وزىٌّ للمرائين ماقتُ

متى جاء تحريمُ الهَوى عن محمد
وهل منعُهُ فى مُحكم الذكر ثابت

إذا لم أُواقِعْ مُحرَّمًا أتّقى به
مَجيئ يومَ البعث والوجهَ باهت

وجهات نظر الكتب رسائل

السويس، حيث إن هناك دلائل تشير إلى أن هناك كميات هائلة منه لم تكتشف بعد وهى تنتظر استخدام أفكار خلاقة والتكنولوجيات المتقدمة المتاحة لتحديد أماكنها.

جمال حنطر
خبير استكشاف واتفاقيات بترولية

أعمال كبار الكتاب العرب

كنت أزور أحد أصدقائى عندما وقع نظرى على مجلة «وجهات نظر». وحدّقت فى هذه المطبوعة عدة مرات لأقنع نفسى بأننى أرى بين يدى مثل هذه المجلة المثيرة للعقل، وأنها مجلة مصرية خالصة شكلاً وموضوعًا. وقد اقترضت المجلة من صديقى لعدة أيام، لاكتشف أن من المستحيل قراءتها فى يوم واحد أو جلسة واحدة.

وليست لدينا هنا فرص متاحة للحصول على كتب عربية ومن هنا فإن مثل هذه المجلة تسد فراغًا مهما، عن طريق استعراض أحدث الكتب، ومتابعة آخر التطورات فى الآداب والكتابات العربية.. كل ذلك فى شكل جميل وصورة أخاذة. وإنه لمن المريح أن يجد المرء بين يديه هذه المجموعة المختارة لأهم الكتب والمطبوعات.

هل لى أن اقترح إضافة قسم إلى المجلة يستعرض ويعرض لأهم الأعمال المشهورة لكبار الكتاب العرب. نحن جميعًا نعرف أسماء طه حسين، والعقاد، والحكيم. ولكن قليلين من أتيحت لهم قراءة أعمال مثل «سارة» و«أديب» و«عصفور من الشرق»

وربما كان فى إعادة نشر بعض مقتطفات من هذه الكتب ما يساعد على استعاده الاستمتاع بهذه الأعمال وكسب المزيد من المعرفة بهؤلاء الكتاب العظام، حياتهم وتاريخهم. نحن نعرف الكثير عن حياة طه حسين طفولته وصباه وماكتبه تلاميذه عنه، وأنه كان ضريرًا. ولكن أشخاصا آخرين مثل العقاد لانكاد نعرف شيئًا عن حياته، وما زال بالنسبة لكثيرين سرًا غامضًا، على الرغم من أنه كان مفكرًا كبيرًا وعلم نفسه بنفسه، وجعل من نفسه شخصًا عظيمًا على الرغم من تواضع تعليمه.

وقد أعجبنى كثيرًا النوعية الحديثة للفن الصحفى فى المجلة، وشجاعتها وجرأتها فى تحليل الأحداث الجارية، بالمقارنة بمطبوعات أخرى لم تحظ بمثل هذا النضج فى معالجة الأحداث الراهنة.

والنقد الوحيد الذى أوجهه إلى المجلة، هو نقص المواد الدينية فيها، والاهتمام بالعقيدة وتذكير الناس بأهميتها فى حياتهم، وقد كنا فى موسم الحج وكان من المناسب لو نشرت المجلة شيئًا عن مناسك الحج، أو الإشارة إلى مفهوم الزكاة، وأنه يسد الفجوة بين الأغنياء والفقراء، والتركيز بأن الصلاة ليست فقط تدريبًا للأبدان والأرواح، ولكنها أيضًا أفضل وسيلة لحماية الشباب غير المتزوج من الانحراف، وأهمية الصيام فى تطهير الجسد والروح.

إننى اتطلع إلى مزيد من النجاح فى مجلة وجهات نظر، ومزيد من الجوائز لهذه المجلة المتميزة.

د. نادر عبد الرحمن
نيوجيرسى

عودة لسؤال الهوية

تعليقًا على الجدل الذى دار على صفحات مجلة وجهات نظر فى عدة أعداد، خاصة عدد شهر ابريل الماضى حول «أسئلة الهوية المصرية.. غزو أم فتح»، أود أن أشارك فى هذا الحوار بهذا التعليق.

ماذا فعل المصريون مع الغزاة؟

المصرى نتاج انصهار أجناس تجمعت من الجنوب والشرق والغرب على شاطئ النهر الخالد العظيم.. كان مقياس حركتها سعيها على أقدامها وراء الماشية طلبا للكلأ، انصهرت جميعها فى بوتقة الوادى الضيق بين جبال الصعيد وعلى ريف مروحة الدلتا الممتدة إلى البحيرات والمستنقعات عند لقاء البر والبحر، وحتى عند لقاء البر المروى بماء النيل بالبر المروى تحت الرمل الثقيل فى الشرق والغرب على طول النهر، والمصرى الجنوبى الأسمر بلون الحنطة وعيونه بلون العسل فى الصعيد هو نفس المصرى الأسمر بعيونه الخضراء فى الشرق أو الزرقاء فى الغرب (كان الليبيون القادمون من الغرب ذوى عيون زرقاء). مصر تصبغ المصريين مهما كان مصدرهم وتحولهم إلى ضمير وقلب وعقل.. بالصبر.

هكذا فعلت فى بدايات الحضارة عندما وحدت المصريين جميعا لشق الترع وبناء السفن، وعندما وحدتهم فى أيام البذر بعد الفيضان، وعندما وحدتهم فى أيام الحصاد قبل الفيضان، وعندما وحدتهم لبناء المصاطب الأولى من الطين بعيدا عن حافة النهر والمصاطب التالية من الحجر عند حافة الجبل ثم بتوالى المصاطب علوا تم بناء الأهرامات الخالدة من الحجر. عذوبة النيل فى دم المصريين سماحة ولينا.. ووفاء النيل كل عام صدق بالوعد والعهد .. وحفظ حق الغير أمانة وطهارة.. هكذا عرف المصريون آخرها من أولها وعاشوا السعادة والدعة فى دفء برد الشتاء وفى نسيم حر الصيف. منذ ذلك التاريخ البعيد يعيش المصريون ساعتهم بين لقمة .. ونكتة .. وحكمة.

كبير العائلة هو عمدتهم ومرجعهم حتى اليوم، لذلك ينظر المصريون إلى لعبة الحكم والحكام باعتبارها لعبة بين فارغى العقول، منذ شيوخ البلد الأول

والولاة والسلاطين والملوك.. ولكن عشقهم للإيمان يجعلهم يحبون دائما أن يقدسوا الفرعون والكهنة والقسس والشيوخ لإشباع ذلك الجانب السامى فى نفوسهم السمحة. والمصرى الحكيم يبدأ بالملاينة (الفلاح الفصيح) فيطمع الذى فى قلبه مرض.. ثم يلهج لسانه بالدعاء.. لعل وعسى.. ثم يشتد فينقلب لسانه بطلب العدل من الرب والانتقام من الظالم.. وعندما يشتد الوعيد - وفى مرات نادرة - يقود المصريين أحد العمد.. ويحول النقمة إلى ثورة على الظلم والظالمين.. وبعدها يجلس مستريحا ويسلم قيادة الأمور لمن يانس فيه القوة والعدل (نموذج اختيار محمد على لحكم مصر)!.

نعم لقد كان دخول الهكسوس إلى مصر غزوا.. وبعد سنوات من الصبر قاتلوهم وطردوهم وكذلك كان دخول الفرس ومن بعدهم الرومان ثم العرب وهو صراع تاريخى طبيعى بين البيئات ولكن ماذا حدث من المصريين تجاه الغزاة؟!

كان أهل مصر قبل الغزو مصريين واستمروا كذلك بعده.. قد يتغير اللسان ولكن لايتغير القلب المؤمن بالله، قد يشتد الظلم فى البداية ولكن بالصبر يتبدل الظلم إلى فهم وتسامح من خلال حكمة المصرى فى الوصول بالظالم إلى منتهاه.. فيبوء بظلمه أمام نفسه.

لقد مصّر المصريون الرومان (راجع نص حجر رشيد) وغيروا أسماءهم وأربابهم.. بالصبر والحكمة.

لقد مصّر المصريون المسيحية، كما وردت بسيطة فى تعاليم مرقص الرسول وحولوها إلى دين له شعائر وطقوس، وهاجروا بها إلى الحصون والأديرة تحت الأرض فى الفيوم، وفى قلب الصحارى فى وادى النطرون، وفوق الجبال فى سيناء.. هربا من بطش البيزنطيين المسيحيين!

كما مصّر المصريون العرب والإسلام، عندما وجدوا أن جوهر الدين لا يختلف عن عقيدتهم الأولى فى التوحيد والبعث والحساب.. فكان منهم شيخ القراء (سيدنا ورش) وظهر وبرع منهم بفطرة الإيمان بالله الإمام الفقيه والشيخ العالم (الإمام الليث).. (راجع فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين).. كما مصّر المصريون عمارة الإسلام، عندما شارك البناءون المصريون فى إقامة المساجد الأولى بالنسق القبطى من الأعمدة والحجارة بدلا من الطين والقش وجذوع النخيل (راجع تاريخ العمارة المصرية د. توفيق عبد الجواد).

نعم لقد كان غزوا.. بدأ كصراع بين البداوة والحضارة (راجع مرة ثانية أنماط من البيئات للدكتور جمال حمدان).. وهو ذلك الصراع الذى راقبه وحلله عمنا الشيخ الحضرمى المغربى أحمد بن خلدون فى مقدمته الرائعة التى كتبها، وهو مقيم على أرض مصر.. وزيرًا بها وكبيرًا لقضاتها.

نعم لقد كان غزوا.. ولكنه لم يلق مقاومة أو عنتا.. كراهة لظلم وقسوة الرومان.. وأملا فى محبة القادمين تحت راية الإسلام.. حتى وصلت الجيوش إلى الاسكندرية التى فتحت لهم أبوابها مرحبة.. تحمل السعف الأخضر وأطباق الحلوى.. ولكن حين اشتدت قسوة الجباة، منعت الجزية وأعلنت الثورة.. فجاءها عمرو وحطم أسوارها وأضرم النار فيها.

المصريون هم المصريون.. تغيرت بعض المبادئ والقيم وبقى الجوهر نقيا..لكن:

لقد أحنى هامتهم وأجدب أرضهم طول ظلم العمد من أبنائهم.. للأسف. وأحدث - ويحدث حتى الآن - تداخل القيم المنقولة بالهجرة المؤقتة إلى بلاد النفط من أجل الدولار (الذى جمعته وشردت به شركات توظيف الأموال)، والقيم الوافدة بالتليفزيون أو الهجرة الدائمة إلى بلاد العالم (من أجل الدولار أيضا)، شرخا فى شخصية المصرى تهدده بفقدان هويته لأول مرة فى تاريخه، وللأسف فإن الشرخ يتسع بفعل الأعلى صوتا ممن يرى جزءا من الحقيقة، فيعمم الأحكام، ويوزع الاتهامات فى غيبة الروية وحيدة القاضى.. التى يجب سماعها من الأكثر حكمة والأخفض صوتا والأبعد عن مراكز السلطة والفعل زهدا وأصالة (راجع تقارير المجالس القومية المتخصصة.. بديلا عن التوجيهات التى يتم العمل بهديها فى جميع التخصصات).

ويذكرنى ذلك بقصة العميان الثلاثة الذين سد عليهم الطريق جسد فيل.. فمد أولهم يده، فلمس الزلومة فقال أمامنا لفات من خراطيم، ومد الثانى يده، فلمس الساق فقال: بل أمامنا أعمدة غلاظ، ومد الثالث يده، فلمس الجسد فقال: بل هو حائط سد.. لقد قال كل منهم الحق لما لمس، ولكن لم يقل أى منهم الحقيقة.

والله أسأل السلامة.

دكتور حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

كيف نصبح؟!

أعجبتنى مقالة مرفت عبد الناصر المنشورة فى عدد ابريل الماضى من المجلة، ولكن بقدر ما أعجبتنى، بقدر ما شعرت بالحزن. كيف يكون فينا هذا الإبداع والوعى ونكون متخلفين، عنوان المقالة «كيف نصبح لكى نكون» عنوان مختار بدقة وذكاء. أما آن الأوان لكى تنتصر الشمس (بل الاثنى عشر شمسًا) على ظلمة الليل الطويل الذى لم نبصر له نهارا بعد،كيف يكون هذا حالنا وفينا من يكتب ويبحر فى أعمق الفلسفات، فلسفتنا نحن المصريين. كيف يكون هذا حالنا وفينا من له هذا الوعى والإدراك. المقالة ليست رائعة فقط فى محتواها العميق، ولكنها أكثر من رائعة فى صياغتها الفنية.

عزت أحمد هلال
مهندس كمبيوتر

كتاب الزاوية

من كتاب «طوق الحمامة»
ابن حزم

٣- باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه، وصرفُه طباعَه قسرًا إلى طباع مَن يحبه، وترى المرء شَرِس الخلق، صعب الشكيمة، جموح القيادة، ماضى العزيمة، حمىّ الأنف، أبىّ الخسف، فما هو إلا أن يتنسم نسيم الحب، ويتورّط غمره، ويعوم فى بحره، فتعود الشراسة ليانًا، والصعوبة سهولة، والمضاء كلالة، والحمية استسلامًا.

وربما كان المحبوب كارهًا لإظهار الشكوى، متبرمًا بسماع الوجد، فترى المحبّ حينئذ يكتُم حزنه، ويكظم أسفه، وينطوى على علته، وإن الحبيب متُجنٍّ، فعندها يقَع الاعتذار عند كل ذنب، والإقرار بالجريمة، والمرء منها برئ، تسليمًا لقوله، وتركًا لمخالفته، وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقى الجلد.

ولا يقولن قائل: أن صبر المحب على دلّة المحبوب دَناءة فى النفس، فقد أخطأ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفوًا ولا نظيرًا فيقارض بأذاه، ولس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان، ويبقى ذكره على الأحقاب، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء، ولا فى مقاعد الرؤساء، فيكون الصبر جارًا للمذالة، وضراعة قائدة للاستهانة، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأَمَته التى يملك رقّها، ولا يحول حائل بينه وبين التعدى عليها، فكيف الانتصارُ منها، وسبل الامتعاض من السبب غير هذه، إنما ذلك بين عِلْية الرجال الذين تُحصى أنفاسهم، وتتّبع معانى كلامهم فتُوجّه لها الوجوه البعيدة، لأنهم لا يوقعونها سدى، ولا يُلقونها هملا، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة، وقضيب مُنآد، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى.

"نــون"

وليمـــة لإهـــدار العقـــــل..

لايكاد يمر الآن فى العالم العربى أسبوع أو شهر ، إلا وتنفجر أزمة أو حملة تقودها قوى شعبية، موجّهة أو مضللة، ضد رواية أو كتاب أو عمل غنائى أو اجتهاد فلسفى تطالب الدولة وتحث السلطة الدينية على اتخاذ إجراءات قمعية تمتد من الرقابة والمنع إلى المصادرة والحرق، ثم المحاكمة والسجن.. تتكرر الظاهرة بإيقاع متسارع ، وتنتشر فى أرجاء مختلفة من العالمين الإسلامى والعربى، على نحو يقترب كثيرا من الاتجاهات التى تدعو إليها وتطبقها جماعة «طالبان» فى أفغانستان، وتجد لها أنصارا فى دول إسلامية مجاورة. وهو ما يحمل على التساؤل عن سبب هذا النكوص المستمر الذى أصاب الحياة العقلية الإسلامية؟ ولماذا ضاقت مساحة التسامح وحرية التعبير وإبداء الرأى؟ وهل أصبح التدين قرين التعصب والغلو الذى يؤدى لامحالة إلى تكفير الآخر والطعن فى عقيدته؟ وهل يعنى تكرار الظاهرة بهذه الوتيرة أن الشعوب العربية ازدادت تدينا عما كانت عليه قبل عدة عقود؟ أم أن اشتداد الهزائم السياسية والاجتماعية ، وتراجع الحريات فى الوطن العربى، والخوف الكامن إزاء العالم الخارجى وتحدياته هى التى ولدت هذه الظاهرة وضاعفت الشعور بالحصار ضد الدين والهوية؟

وعاصفة التكفير المذهلة التى أثارتها رواية «وليمة لأعشاب البحر» هى إحدى تجليات هذه الظاهرة، التى تتخذ صورة الدفاع عن الدين ضد موجات التغريب والإلحاد، وضد دعاة المدنية والتحرر، وضد ما تبديه الدولة من تساهل إزاء ما تعتبره القوى التقليدية تيارات هادمة للعقيدة ومحرفة لمبادئ الدين.. فهى تمثل من ناحية عجزا عن مواجهة التيارات الفكرية الحديثة التى يتعرض لها العالم الإسلامى، كما أنها فى الوقت نفسه تعبر عن قلق شديد من انحسار نفوذها الدينى والاجتماعى والسياسى فى مواجهة قيم زاحفة عبر وسائل الإعلام والترفيه المنتشرة.. وبدلا من العمل على الملاءمة بين التراث القديم وروح العصر والاندماج فى نسيج الحداثة المفروضة باسم التقدم العلمى والتكنولوجى ومبادئ الحرية والإنسانية، فإنها تلجأ إلى استثارة المخاوف الكامنة داخل العقل الجمعى بين صفوف العامة من أفراد الشعب، الذين أقعدتهم الأوضاع السياسية المضطربة فى العالم العربى عن المشاركة فى تقرير مصيرهم، وحكم أنفسهم بأنفسهم، بل ونأت بهم عن التزود بالحد الأدنى من التعلم والمعرفة بمعناها الواسع.

ومن الممكن أن يقال إن هذه التيارات قد نجحت فى أحيان كثيرة فى استخدام أجهزة الدولة وقوانينها وجانب كبير من الرأى العام الذى تغذيه مشاعر دينية موروثة، على حصار الإبداع الفنى الأدبى وقمعه.. بل وتجاوز الأمر فى أحيان كثيرة إلى محاربة الفكر العلمى والفلسفى والترويج للخرافات والغيبيات، والعودة إلى الأساطير الشعبية وأعمال السحر والشعوذة المغلفة بالدين، وتعرض بسبب ذلك كثير من المفكرين والمجددين والعلماء فى مجتمعاتنا العربية للاضطهاد والتنكيل ، والتطبيق المتعسف للقوانين ضد حرية الفكر والبحث والدراسة.. الأمر الذى يفسر دون ريب جانبا من أسباب التخلف المحير الذى سقطت فيه الأمة العربية، فلاتكاد تستطيع منه فكاكا، وأدى إلى هروب أعداد من المفكرين والعلماء للحياة خارج أسوار الوطن العربى.

غير أننا لانستطيع أن نلقى اللوم كله على قوى التخلف والجمود، ولاعلى الأحزاب السياسية التى توظف الغرائز الدينية والإحباطات الشعبية لخدمة أهدافها، بل إن الخلل المتغلغل فى معظم المجتمعات العربية، يرجع إلى الانفصام الشديد الذى تعانى منه النخب السياسية وصفوة المثقفين، من المفكرين والصحفيين والكتاب وأساتذة الجامعات والقانونيين والأطباء والمهندسين والضباط، وغيرهم من الفئات التى تتصدر صفوف المجتمع وتقوده، فهى لاتستطيع أن تفهم أن الديمقراطية معناها أن تطلب الحرية للغير كما تطلبها لنفسك، وأن الحقوق والواجبات متساوية فى أى مجتمع ديمقراطى حر.

ولكن فى حالات مختلفة، لم تتورع فئات الصفوة على اختلافها عن المطالبة باستخدام الإجراءات القمعية ضد خصومهم السياسيين أو خصومهم فى الفكر. واستخدمت السلطة المثقفين فى تبرير أخطائها وانحرافاتها والدفاع عن فسادها، وانخرط المثقفون فى أنشطة واتجاهات معادية للحرية والديمقراطية.. فهناك قوى «علمانية» أو تسمى نفسها كذلك تأبى على الحركات الإسلامية أن تكون جزءا من الحياة السياسية بحجة أنها لا تؤمن بالديمقراطية ، وأنها ما إن تصل إلى السلطة عن طريق الديمقراطية حتى تنقلب عليها، وتفرض حكمها تحت سطوة الدين على زعم أنها تمتلك الحقيقة المطلقة.. وهناك فى المقابل قوى سياسية فاشية تتاجر بالدين، فلاترى فى حرية الفكر والإبداع إلا منافذ للكفر والضلال، وإفساد المجتمع، والدعوة إلى الانحلال، وهى لاتملك علاجا غير التكفير وإهدار الدم أو مصادرة الفكر وإحراق الكتب ومنعها من الأساس..

النموذج الأول تجده فى التجربة الجزائرية بدرجة صارخة، وفى مصر وتونس والأردن بدرجات متفاوتة. والنموذج الثانى تجده فى السودان وإيران على مابينهما من اختلاف ، وكذلك فى عدد من الدول العربية والإسلامية الأخرى.

هناك إذن خلل جسيم فى المجتمعات العربية، يتيح لأطراف عديدة أن تنتزع لنفسها حق مصادرة الفكر، سواء تحت دعوى مخالفة العقيدة أو تحت دعوى الإرهاب السياسى وتهديد الديمقراطية والنظام، وأغرب شيء هو ذلك الميل الواضح فى معظم المجتمعات العربية إلى انتهاج الرأى الواحد، والقبول بمبدأ الفرقة الناجية التى كل ماعداها متهم بالضلال الذى يقود إلى النار، ومن ثم تتعدد مصادر قمع التفكير الحر والتضييق عليه فى معظم المجتمعات العربية، سواء من جانب السلطة ، أو من جانب الدعوات التقليدية المحافظة ، أو من جانب المثقفين أنفسهم.

وهذا العجز الشديد عن أن تُطوّر المجتمعات العربية نفسها، هو الذى يولد الانقسامات داخلها، ويخلق أرضا خصبة للفتن واللجوء إلى العنف، ويضعها أمام تحديات لاتملك غير الفرار منها إلى الخرافات والأساطير والجهالات المنتسبة إلى الدين.

وفى ضوء ذلك المناخ الملتبس بالدعاوى والادعاءات ، جاءت رواية «وليمة لأعشاب البحر» لتشعل حربا أهلية فكرية وسياسية ودينية، امتدت ألسنة نيرانها خارج مصر، لايكاد أحد يعرف فيها الصواب من الخطأ، والقاتل من القتيل، والرشد من الغى، والمؤمن من الكافر، والمدافع عن الدين من المتاجر به.. ولكننا نستطيع أن نجمل الموقف فى عدة ملاحظات قد تساعد على فض الاشتباك فى عقل القارئ الباحث عن الحقيقة:

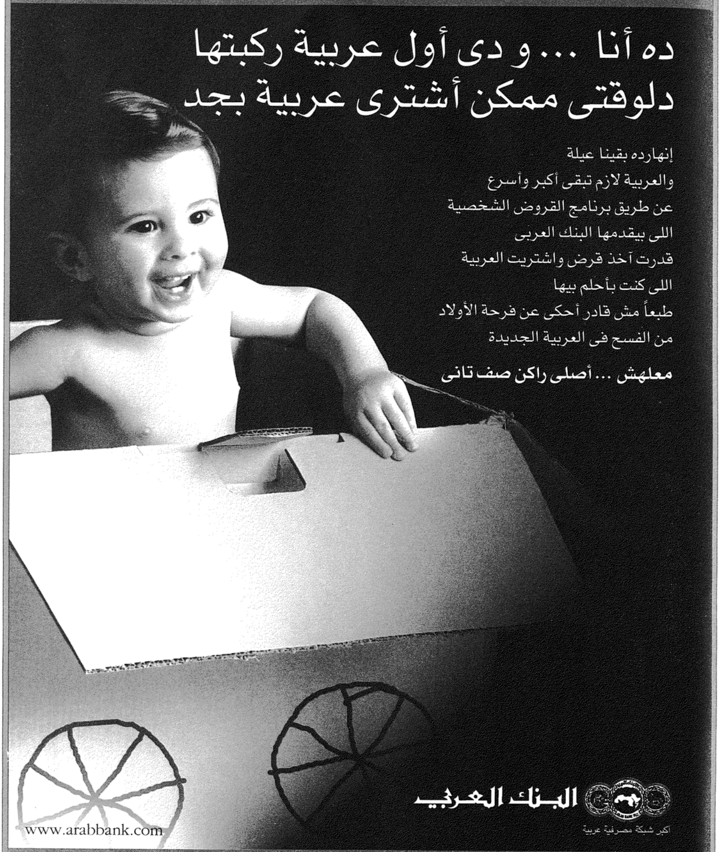
أولا: إن مقاييس العمل الإبداعى تختلف اختلافا بينا عن الدراسات والكتابات الموضوعية، وأن معظم الفنون الأدبية تعتمد على إبداع عالم فنى متخيل، بكل وقائعه وشخصياته وأساليب السرد وطرق التعبير المتبعة فيه. ولاينبغى أن تجتزأ أقوال شخصياته وأفعالها، أو تفهم بعيدة عن السياق فى الشعر والقصة وفنون الإبداع الأدبى على اختلافها. والرواية التى نحن بصددها رواية سياسية بالدرجة الأولى، ليس هدفها الهجوم على الأديان أو الإساءة إليها، وما يمكن أن يكون قد ورد فيها من بذاءة أو خروج بالكلمات والألفاظ التى تجرح المشاعر الإيمانية، ليس مقصودا بذاته، بل إن بعض العبارات تعتبر فى اللهجة العراقية الدارجة من أساليب الخطاب العامة، وإن كانت مكروهة.

ثانيا: إن المحاسبة المنصفة للرواية ومؤلفها، ينبغى أن يترك أمرها للنقاد الذين يحترفون صناعة النقد الأدبى ، وليس لرجال الدين.. ومن هنا فقد يؤخذ على المؤلف أنه لم يتقن حرفية الأديب، التى يمكن أن تجنبه زلل الاصطدام بالمشاعر الدينية والأخلاقية السائدة فى مجتمعه. وهناك أساليب راقية فى الآداب العالمية، عولجت فيها أصعب المواقف والشخصيات دون جموح أو تجاوز أو ابتذال. وكان حريا بالمؤلف أن يراعى ذلك ويحترمه، وعند هذا الحد يجب أن تتوقف المحاسبة ، فلاتتجاوزها إلى التكفير والطعن فى الدين، واستخدام العمل الأدبى فى الإثارة الغوغائية لأهداف سياسية.

ثالثا: إن المؤسسة الحكومية التى سمحت بنشر الرواية قد تتحمل نصيبا من المسئولية، فهى تشكر على جهودها فى نشر الأدب العربى، وتشجيع الإبداع بين الشباب، وتحقيق التواصل الفكرى والثقافى بين أرجاء الوطن العربى، ولكنها ينبغى أن تتحفظ وتتريث كثيرا أمام أعمال أدبية قد تمس المشاعر العامة، أو تطرح وجهات نظر مخالفة للعقيدة، أو مخاصمة لرأى الأغلبية. ذلك أن مهمة التنوير ليست فى صدم المشاعر ولكنها فى إيقاظها والتواصل معها والأخذ بيدها.. وفى مثل هذه الحالات فلا ينبغى أن تحتضن وزارة الثقافة إلا مايساعد على تحقيق هذا الهدف.. وبالرغم من ذلك كله ، فإن الضجة المفتعلة التى أثيرت حول الرواية المذكورة لم يكن ينبغى أن تتحول إلى محاكمة للحياة الثقافية والعقلية فى مصر، ولاتجد الحكومة أمامها مخرجا إلا أن تحيلها إلى الأزهر ليفصل فيها، ويقدم معها المبدعون والكتاب إلى المحاكمة، وتفرض فيها على العقل المصرى وصاية دينية أو أمنية، لأن بعض مشعلى الحرائق المتاجرين بالدين لأهداف سياسية نجحوا فى تحقيق أهدافهم.

رابعا: لابد أن نعترف بأن القمع الفكرى لابد أن يفضى إلى قمع سياسى، وأن القمع السياسى يفضى بالضرورة إلى قمع فكرى، فهما كاليدين تغسل إحداهما الأخرى بدماء الرأى والتعبير المهدرة على كافة المجالات فى الوطن العربى. ولو أن أمورا عديدة فى قضايا العمل السياسى تؤخذ بقدر أكبر من التسامح وسعة الأفق والإيمان بالديمقراطية ، لكان من الأرجح أن يتسع أفق التفكير والتعبير بما يشجع حرية الاختلاف فى الرأى، الذى يسمح بالتعايش والتعددية دون حاجة لهذا الاقتتال المستميت من أجل إقصاء الآخر ونفيه ، وإعدامه وإنكار حقه فى الحياة.. سواء بالتكفير أو التخوين أو الإرهاب والتصفية الجسدية.. ولما كان لمثل هذه الرواية العادية أن تزلزل أركان المجتمع المصرى والعربى هذا الزلزال العنيف، الذى يوشك أن يقوض كثيرا من الإيجابيات ، ويسمم كثيرا من الآبار ويعود بمجتمعاتنا إلى عصور الظلام.

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد العشرون . السنة الثانية . سبتمبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 20 - September 2000

جذور الأزمة فى الاقتصاد المصرى

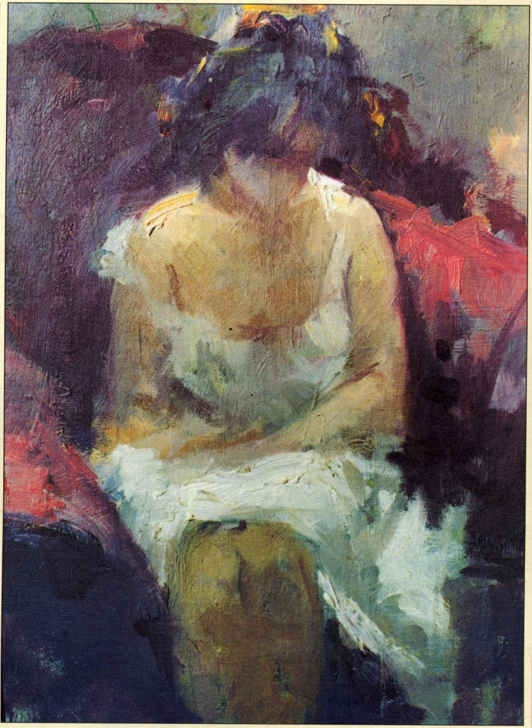
علاج الركود لا يكفى

سوريا والسلام

الوقت لم يتأخر
والزمن لم يفت

رصاصة فى قلبين

مسرحية لم تنشر
لتوفيق الحكيم





طلاق امبراطورة

الملك فاروق
يدبر طلاق فوزية
من شاه إيران



صبرى راغب

رحيل "مايسترو"
البورتريه
والورود

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد العشرون
سبتمبر ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم
عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم

كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.

كتاب العدد:

- **إبراهيم عبدالعزيز** .. ناقد
- **أحمد الغندور** .. أستاذ الاقتصاد الدولى بجامعة القاهرة
- **إيان هاكنج** .. مدرس علم النفس بجامعة تورنتو
- **جون بانفيل**.. كاتب روائى والمحرر الأدبى لجريدة *Irish Times*
- **جلال أمين** .. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- **ديفيد بلانكس** .. أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى
- **صادق جلال العظم** .. مفكر سورى
- **صبرى حافظ** .. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن
- **عبدالوهاب المسيرى** .. أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة
- **عماد الغزالى** .. صحفى
- **مجدى يوسف** .. أستاذ بجامعة بريمن بألمانيا
- **مينا بديع عبدالملك** .. أستاذ الرياضيات بجامعة الإسكندرية

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص.ب: ٣٢ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٣٠ ريالاً ـ الكويت ١٫٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة

اصنـــع عــدوًا

«من لم يكن له أهل.. فليشتر له أهلاً» هكذا يقول معنى المثل المصرى الشعبى الشهير. وبتحريف ـ قليل فى اللفظ، كثير فى المعنى ـ يصبحُ القول: «من لم يكن له عدو.. فليشتر له عدوًا» أو إذا شئنا مزيدا من الدقة: «... فليصنع عدوًا».

المقالة لا تتضمنها كتب التراث، أو المأثورات والحكم. ولكنها ليست بعيدةً تماما عن بعض الأدبيات الأكاديمية فى علم السياسة ونظرياتها. كما أنها ليست بعيدة ـ بالضرورة عن «الخبر» الذى نقلته لنا قبل أيام فقط وكالات الأنباء من موسكو بمناسبة الإعلان الرسمى الذى تأخر كثيرا عن مصرع جميع أفراد طاقم الغواصة النووية الضخمة (١١٨ بحارا) والتى غرقت فى قاع بحر بارنتيس فيما عُدّ كارثة قومية روسية. وكانت آليات الإعلام الدولى المعاصرة قد جعلت ـ على مدى خمسة أيام كاملة ـ من مشاهد محاولات الإنقاذ المتكررة «لسجناء القاع»، ومن التأرجح اليومى الموجع بين الأمل والفشل، «دراما» تلفزيونية وإنسانية شدت إليها الملايين فى أرجاء العالم قاطبة.

الخبر الذى جاء إعلانه مواكبا لإعلان الحداد، ولمشاعر الحزن التى عمت «المشاهدين» بالضرورة، نقلته صحيفة «سيفودينيا» الروسية الرصينة واسعة الانتشار، ويقول ـ مع التأكيدات اللازمة ـ إن المحققين يدرسون احتمال أن تكون الغواصة العملاقة (١٨ ألف طن) قد غرقت نتيجة عمل إرهابى مسئولة عنه غواصة مملوكة لدولة عربية (!)

وبغض النظر عن أن الصحيفة تصدر عن مؤسسة «ميديا بوست» المملوكة لإمبراطور الإعلام الموسكوفى فلاديمير جوسينسكى رئيس المؤتمر اليهودى فى روسيا، وبغض النظر أيضا عن أن الصحيفة لم تحدد الدولة العربية المقصودة، فإن الخبر ـ أو ماسيتبقى منه فى أذهان الجمهور ـ يصب فى الاتجاه ذاته الذى يصب فيه تصريح «رسمى» لوزير الأمن الروسى نيكولاى باتروشيف يتحدث فيه عن «رصد معلومات» فى شأن اثنين من الداغستانيين « أحدهما مسلم» لقيا حتفهما على متن الغواصة.

الخبر والتصريح يعيدان إلى الأذهان بالضرورة المعالجة الإعلامية الروسية لحرب الشيشان الثانية قبل أشهر، والتى قصدت فى حينه حشد التأييد الجماهيرى للحرب تمهيدا للانتخابات الرئاسية الروسية. يومها تركز الخطاب الإعلامى الروسى على أننا «لا نحارب الشيشان.. بل أولئك المسلمين والعرب القادمين من كل مكان».

ومع الأخذ فى الحسبان أن الإشارات الإعلامية «المشرقية» لا تختلف كثيرا عن تلك القادمة مع رياح الأطلنطى الباردة، ومع ملاحظة أننا بصدد صياغة عالم جديد تختلف مفاهيمه وتعريفاته وقاموسه اللغوى، فإنه يبدو للبعض أحيانا أن مصطلح «الآخر» أو ربما «العدو» لن يبقى بلا تعريف. كما أن السؤال الأكاديمى الذى طال بشأنه الجدل، ربما بات ملحا أكثر من أى وقت مضى. وبوجهيه، النظرى والإجرائى: هل لابد من عدو؟ ومن المرشح ـ شاء أم أبى ـ لكى يرتدى العباءة؟

***

وبرغم أن التاريخ لا يتكرر، فإن دايفيد بلانكس (أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية) يعود بنا خمسمائة عام للوراء ليقص علينا فى مقال كتبه «لوجهات نظر» وننشره فى هذا العدد، كيف كانت نظرة الأوربيين فى القرن السادس عشر للمسلمين، بل ولمسيحيى الشرق، وكيف أن طحانا من البندقية أحرقوه على خازوق لأنه «قرأ» أن هناك آخرين متدينين!

يومها ـ والتقرير لدايفيد بلانكس ـ كان الأوربيون يعتقدون أن الاختلاف أمر سيئ، وأن «أى إنسان لا يفكر ولا يعمل ولا يلبس كما يفكرون هم ويعملون ويلبسون، إنما هو زنديق، وأن الشرق موضع للشر .. وأن المسلمين وثنيون يتسمون بالخسة..!». ويحكى كيف تسربت تلك المفاهيم إلى الكتابات الأدبية، بل والخرائط الجغرافية. وكيف ـ وهذا هو الأهم ـ مهدت «دعائيا وإعلاميا» للحروب الصليبية. ثم كيف أدى المثقفون والرحالة الذين تعرفوا على «الآخر» دورا مهما فى التنوير والتصحيح.

***

ليس بعيدا عن ذلك ماكتبه عماد الغزالى من شيراز لهذا العدد من «وجهات نظر» عن كيف مثّل الشاعر الكبير سعدى الشيرازى جسرا للتواصل بين العرب والفرس فى القرن السابع الهجرى. ذلك التواصل الذى تشير أخبار كثيرة إلى أن حيوية بدأت تدب فى أوصاله، ولو فكريا وثقافيا، إيمانا بحقيقة «أن الجغرافيا لا تتغير، وإن تغير التاريخ».

***

الشاهد إذن أن تاريخ العلاقات الفارسية العربية، وإن خطّت معظم صفحاته السياسة والدماء، فإن الكثير من سطوره كتبتها الثقافة والفنون والآداب.. وأشياء أخرى.

«وجهات نظر» تتوقف فى هذا العدد عند محطة على الطريق نفسه، وإن كانت ذات طبيعة مختلفة.

كلنا يعرف ـ أو يذكر ـ أن شاه ايران «الأخير» محمد رضا بهلوى كان متزوجا من فوزية شقيقة فاروق ملك مصر «الأخير». وربما منا من يذكر مشاهد الزفاف الإمبراطورى الفخم، والصورة الشهيرة التى نشرت للمأدبة التى أقيمت بهذه المناسبة. كما أنه من المحتمل أن أولئك الجميع يذكرون يوم أُعلن ـ فى يوم واحد ـ عن طلاق الشاه من الإمبراطورة، وكذلك طلاق الملك «فاروق» من الملكة «فريدة». فتشاغل الناس بطلاق مليكهم عن طلاق شقيقته. ولكن من المؤكد أن أحدا لم يعرف وقتها أبدا الأسباب الحقيقية لذلك الطلاق «الإمبراطورى». بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية، وفوزية أيضا لم تعرفها كذلك. ولكن كريم ثابت الذى عمل مستشارا صحفيا للملك فاروق سجل فى مذكراته الخاصة الملابسات والأسرار الحقيقية لتلك القصة المثيرة الفريدة من نوعها. والتى تنشر «وجهات نظر» فصولاً منها فى هذا العدد. وكان ثابت قد أودع هذا الجزء من مذكراته قبل أعوام طويلة لدى «صديق». وعليه، و «مراعاة لأحياء مازالوا يعيشون بيننا»، لم تتضمنه مذكراته التى نشرت فى كتاب (نشرتها «دار الشروق» فى جزأين)، إلا أنه إدراكا لأن رواية كريم ثابت لاتتضمن أى إساءة للأميرة فوزية، فضلاً عما هو معروف بالضرورة من أن أى مذكرات لابد وأن تكون كاملة ـ وإلا كان الأمر أشبه بلعبة «البازل» ناقصة الأجزاء ـ كانت هذه القصة التى ننشر فصولاً منها، بنص كلمات صاحبها، الذى يؤكد غير مرة أن «ليس فيها سطر واحد من نسيج الخيال».

وأيا ماكان الأمر، فالثابت أن مذكرات «المستشار الصحفى للملك فاروق» تبقى شهادة سياسية بالغة الأهمية، أو هى فى الواقع ـ كما يقول الأستاذ هيكل فى مقدمة الجزء الأول من المذكرات ـ شهادتان. كل منهما ترسم صورة حية ناطقة متحركة كأنها شريط سينمائى:

الصورة الأولى: للرجل، الإنسان الذى قدر له أن يكون آخر ملوك أسرة محمد على. والصورة الثانية: للحياة السياسية فى السنوات العشر الأخيرة من العصر الملكى فى مصر. وكان كريم ثابت فى قلب الصورة الأولى ـ عاشها بنفسه على امتداد عشر سنوات. كما كان أيضا مشاهدا قريبا للصورة الثانية ـ رآها أمام عينيه طوال عشرسنوات.

وبقى لنا أن نقرأ.. القصة.. والكتاب .. والتاريخ.

وجهات نظر

سوريا والسلام

الوقت لم يتأخر.. والزمن لم يفت

في مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، كتب المفكر السوري صادق جلال العظم مقالا يجيب فيه عن السؤال المطروح لدى كثيرين عن مدى الاستعداد السوري للسلام. وبعد وفاة الرئيس السوري حافظ الأسد وتولى ابنه بشار، ولأن السؤال مازال مطروحا، طلبت «وجهات نظر» من د. العظم أن يعيد الإجابة عليه وتصوير المشهد من دمشق، راصدا ما تغير من تفاصيله، إذا كان هناك ما تغير.

صادق جلال العظم

[١]

هل سوريا كسوريا، وليس كحكومة ونظام فقط، مستعدة للدخول في سلام مع إسرائيل في الوقت الحاضر؟ لا بد للإجابة عن هذا السؤال من أن تكون «نعمًا» حذرة ومشروطة.

لنبدأ بالتحول اللافت الذي شهده الخطاب الرسمي السوري بشأن إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي منذ انعقاد مؤتمر مدريد للسلام في أكتوبر ١٩٩١، وهو التحول الذي حافظ على زخمه رغم كل العقبات والتطورات السلبية التي وقعت والتي كان من المرجّح والطبيعي أن تعطله في ظل ظروف من نوع آخر، وبلغ هذا التحول ذروته في عبارات الإطراء غير المسبوقة التي قالها الرئيس حافظ الأسد في مديح رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك في مايو ١٩٩٩، وهي عبارات موجهة للنشر والتداول عربيًا وعالميًا.

وقبل ذلك، كان الرئيس حافظ الأسد قد أعلن للعالم، خلال اجتماع القمة الذي عقده مع الرئيس كلينتون في جنيف في يناير ١٩٩٤، أن سوريا اتخذت «قرارًا استراتيجيًا ثابتًا لصالح السلام مع إسرائيل ولصالح إقامة علاقات طبيعية وسلمية مع العدو السابق. وفي أغسطس ١٩٩٧، كرر الأسد التأكيدات ذاتها بينما كان يلقي كلمة أمام وفد من عرب إسرائيل دعتهم دمشق في أول محاولة للوصول إلى شريحة متعاطفة من الجمهور الإسرائيلي.

وعلى مستوى آخر، كان وزير خارجية سوريا السيد فاروق الشرع قد خرق العديد من المحرمات السياسية السورية الشديدة في خريف ١٩٩٤ بقبوله أسئلة من صحفيين إسرائيليين في مؤتمرات صحفية في لندن وواشنطن، ومن ثم بالموافقة على مقابلة زعماء يهود صهيونيين بارزين في العاصمة الأمريكية، بل إنه أدلى بحديث مطول لبرنامج إخباري كبير في التليفزيون الإسرائيلي أذيع في ٧ أكتوبر ١٩٩٤.

ولم تقتصر هذه التغييرات الجلية على البيانات الرسمية الصادرة عن كبار المسئولين، والبيانات الرسمية الحكومية، والنشرات الصحفية، ولكنها امتدت بقدر مماثل من الشمول إلى الإعلام السوري، وهو مملوك بالكامل للحكومة ويخضع لسيطرتها المحكمة، وكان للأمر مغزاه في الداخل عندما تحولت أجهزة الإعلام السورية فجأة عن خطابها التقليدي البليد والمتيبس والمسبق الصنع (إلى حدود السوريالية في بعض الأحيان) باتجاه الحديث بصورة روتينية وعادية عن إسرائيل والزعماء والمسئولين الإسرائيليين وغيرهم وتسميتهم بأسمائهم الحقيقية وألقابهم الرسمية ووظائفهم ومناصبهم الفعلية بدلا من الاستمرار في استخدام الأوصاف المكرورة إلى حد الابتذال - ولكنها الأنيقة في عرف البلاغة العربية - من نوع «ذلك المدعو رئيس وزراء الكيان الصهيوني».

ولنفكر ثانيًا في الجدل الكبير الذي دار داخل المجتمع السوري، منذ مؤتمر مدريد، بشأن إسرائيل و«عملية السلام» وطبيعة علاقتنا المستقبلية بهذا الجار الجديد، إلى جانب المخاوف ومشاعر القلق والإحباطات والإخفاقات والآمال التي يثيرها الاتفاق المقبل مع العدو القديم، وهو الاتفاق الذي بدا وقتها أنه آت لا محالة. وهنا لا بد من كلمة تحذير من سوء فهم محتمل، فهذه المناقشات المكثفة ليست مناقشات عامة مفتوحة تبثها الإذاعة والتليفزيون، أو تتم من خلال الصحف والمجلات والكتيبات وغيرها، ولكنها عملية تبادل للآراء، مشحونة وشاملة، وسيلتها الرئيسية هي طرق التواصل الشفاهي القديمة، عبر نقاشات بين أناس على مرمى السمع من بعضهم البعض، هذا هو مصنع شائعات دمشق وصحافة الشعب الحرة في الوقت ذاته.

عبر سلسلة من الحلقات العفوية والخاصة والمتداخلة، يناقش الدمشقيون أمور العالم كبيرها وصغيرها، الداخلي منها والخارجي، العربي والمحلي، الإقليمي والعالمي، ويعيدون مناقشتها، ويتحدثون عنها ويعيدون الحديث، ويسخرون منها ويعيدون السخرية، ومن خلال هذه الشبكات الشخصية التلقائية شديدة الفعالية والنشطة دائمًا والقائمة على التواصل وجهًا لوجه ينشأ شيء ما اسمه رأي عام غير رسمي ويتبلور بشأن القضايا الراهنة والأمور الطارئة ومشاكل الساعة كلها، والنتيجة هي وجود رأي عام تضعه مراكز السلطة في اعتبارها دون أن تعترف بذلك صراحة.

على سبيل المثال، إن أحد أسباب حرص الدمشقيين على الإكثار من زيارة بعضهم للبعض الآخر هو المتابعة والاطلاع وتسقُّط آخر الأخبار والبقاء على علم بما يجري من أمور، ولهذا السبب كذلك فإن «الدردشة» في مدينة مثل دمشق ليست مجرد لغو كما أن الأسرار لا تبقى أسرارًا لأية فترة من الزمن، عندما قام بعض الدمشقيين المتمرسين بمراجعة المعلومات التي استقوها من «مصنع الشائعات» الدمشقي هذا على مذكرات هنري كيسنجر بشأن مفاوضاته مع الرئيس الأسد بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، كانوا فخورين ومندهشين لدقة المعلومات التي كانت بحوزتهم وقتها بشأن مفاوضات سرية للغاية كانت تجري وراء الأبواب المغلقة.

والأمر اللافت للانتباه بصورة خاصة هو أن النقاشات الواسعة الجارية في المجتمع السوري منذ مؤتمر مدريد أخذت تتعامل مع إسرائيل على أنها أمر واقع ومسلّم به، وأن السلام معها آت بلا ريب، أما محتوى تلك النقاشات فكان يدور عادة حول قضايا ومسائل من النوع التالي:

هل سوريا مستعدة بالفعل لما سياتي من صراعات ومنافسات ومعاملات مع إسرائيل؟ في ضوء تفوق إسرائيل الاقتصادي وما لديها من تكنولوجيا فائقة، وتقنيات تخطيط متقدمة، ومهارات إدارية من الطراز العالمي، ألن تسيطر بسرعة على المنطقة وتجعل من نفسها دولة من دول المركز تدور في فلكها أطراف عربية أقل تطورًا بكثير؟ ما هو الأثر الذي سيتركه السلام على الحياة الاقتصادية السورية وعلى ترتيباتها السياسية الداخلية ووضعها العسكري وعلى «أوراق اعتمادها» القومية العربية إلخ؟ كيف ستتفاعل التسوية السورية المزمعة مع إسرائيل مع مد العولمة الجارف، والنظام الشرق أوسطي الناشئ حديثًا، والشراكة مع دول الجانب الآخر من البحر المتوسط كما تحددها اتفاقيات برشلونة والتزاماتها؟ ما هي أكثر الإصلاحات إلحاحًا التي يجب على سوريا القيام بها الآن كي تشعر أنها قريبة إلى حد ما من حالة الاستعداد لمرحلة ما بعد السلام؟

من الطبيعي أن تحظى هذه الأسئلة والقضايا بقدر كبير من اهتمام الأوساط التجارية بصورة عامة، وهي الأوساط التي تشكل العمود الفقري للمجتمع المدني السوري، ومن اهتمام الشخصيات البارزة في غرف التجارة والزراعة والصناعة. والرأي الذي يسود تلك الأوساط في الوقت الراهن هو أن سوريا غير مستعدة بالقطع للتحديات التي يفرضها السلام المرتقب بسبب اقتصادها المكبَّل وغياب أي نظام مصرفي جدي فيها بالإضافة إلى التجارة المقيّدة تقييدًا شديدًا، والنشاط الصناعي المكبوت.

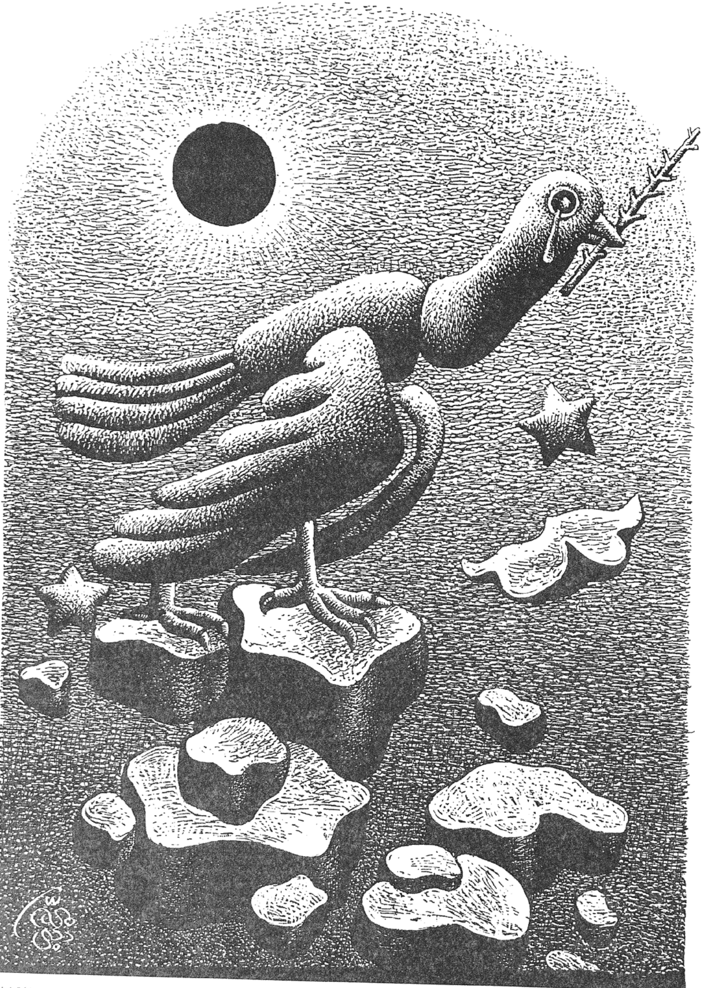
وتتجلى أمارات هذه القيود في تلك الملامح المحلية المتمثلة في قانون الطوارئ، والقطاع العام السائب والمهترئ الذي تشرف عليه إدارة متخلفة، بالإضافة إلى متاهة قيود الدولة التي لا آخر لها، والمعوقات البيروقراطية واللوائح الغريبة العجيبة والنظم التعسفية.

وبناء على ذلك يسود تلك الدوائر مزاج يختلط فيه الخوف والتوجس بالانتهازية والجراة، ومن المؤكد أن البعض بينهم يقول أنه ما إن يتحرر التجار ورجال الأعمال في سوريا - الذين يتباهون بأنهم يعملون في التجارة منذ آلاف السنين - من تلك القيود المصطنعة، سوف يثبتون للعالم أنهم أهل لمواجهة التحديات المرتقبة على كل الأصعدة، وسوف يبينون للإسرائيليين، على وجه الخصوص، أنهم أنداد لهم، إن لم يتفوقوا عليهم. وسوريا هذه التي يتم إحياؤها اقتصاديا - كما يقولون - سوف تنطلق انطلاقة سريعة إلى الأمام، وسوف تكون قادرة على الصمود أمام إسرائيل المتفوقة حاليًا، وسوف تواجه تهديداتها وتحدياتها بما يكفي ويزيد عن طريق وسائل غير تلك التي جربت حتى الآن ولم تحرز أي نجاح ملحوظ.

ويرى رأي آخر أن إسرائيل على أية حال قد لا تكون مهتمة اقتصاديا بالأقطار العربية بخاصة عندما تضع في اعتبارها أن اقتصادها، بما فيه من أساليب إنتاج وسلع وخدمات وغيرها، يتوافق بالكامل مع أكثر الاقتصاديات تقدمًا في العالم. أما الذين لا يحملون هذه المقولة على محمل الجد فإنهم يشيرون إلى أن الرأسمالية الإسرائيلية على قدر كاف من الحركية والقدرة على التكيف، سيكون من الحماقة ألا يتوقع العرب شريكًا اقتصاديا جديدًا يتولى تصنيع تلك المنتجات وينشئ تلك المشروعات التي سوف تخلق له أسواقا تعود عليه بالربح في العالم العربي، وما يقوم عليه هذا الموقف الأخير ليس الخوف كثيرًا من إسرائيل قوية في زمن السلم، بينما جيرانها ضعاف، بقدر ما هو الخوف من ظهور دولة مركزية ديناميكية في المنطقة تستعرض عضلاتها الاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية (في ظل الحماية الأمريكية) لإعادة هيكلة الشرق الأوسط العربي بما يتماشى مع مصالحها الحيوية بعيدة المدى.

إضافة إلى هذه المسائل تناقش الإنتلجنسيا قضايا أكبر تتعلق بمواضع ضعف إسرائيل على المدى البعيد ونقاطها المكشوفة بحكم طبيعة بنيتها واحتمالات تطورها المستقبلية في مواجهة العالم العربي عمومًا والفلسطينيين بصورة خاصة، وفيما يلي أمثلة عن نوع القضايا الكبيرة التي تناقشها الإنتلجنسيا المذكورة:

(١) رغم امتلاك إسرائيل القنبلة الذرية، ورغم تفوقها العسكري الذي لا خلاف عليه، ورغم الدعم والحماية الأمريكيين القويين، بدت إسرائيل أثناء حرب الخليج مرعوبة بسبب أربعين صاروخ سكود عراقيا مصوبة تصويبًا رديئًا مما خلق ما يشبه حالة الذعر بين صفوف شعب أُعد إعدادًا جيدًا من الناحية العسكرية ودُرب على مواجهة الصعاب، ولم يفت مثقفو دمشق أن يقارنوا هذا الوضع المثير للاهتمام بحقيقة أنه لم ترد أو تسجل أية حالات ذعر أو هلع من أي نوع في بيروت الغربية خلال الحصار الإسرائيلي للمدينة الذي دام ثلاثة أشهر في صيف ١٩٨٢، هذا بالرغم من القصف الإسرائيلي المطول والدقيق والمنسق بدقة للعاصمة اللبنانية من الجو والبر والبحر في الوقت ذاته، وبالرغم من عدم توافر أية مساعدات لأهل بيروت الغربية من أي طرف، باستثناء الاعتماد على مهاراتهم الخاصة وغريزة البقاء، في مقابل الملاجئ والغرف محكمة الإغلاق والمؤن الضرورية والإسعافات الأولية والخدمات الطبية الممتازة وغيرها مما كان متاحًا للإسرائيليين أثناء حرب الخليج. سأل أحد الأصدقاء بتهكم عن الإسرائيليين الذين أخافتهم صواريخ سكود: «هل هم بلد أم مستوطنة؟» وفي لحظة تالية لم يغب عن بال هذا الصديق أنه عند اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين كان رد الفعل العفوي الأول لزوجته، السيدة لياه رابين، هو إعلانها أنها ستحزم أمتعتها وترحل، وهو رد الفعل الذي اعتذرت عنه بشدة في وقت لاحق للجمهور الإسرائيلي.





بالجولان أو بدون الجولان، تظل القنبلة الموقوتة الضخمة التي تهدد كل العلاقات المستقبلية والتسويات والاتفاقيات مع الجارة الجديدة هي الفلسطينيون أنفسهم، وخاصة «عرب إسرائيل»، بغض النظر عن كونهم مواطنين إسرائيليين أو بصفتهم ينتمون إلى دولة فلسطينية ذات سيادة اسمية

(٢) في ظل روح إسرائيل الريادية ورغبتها الشديدة في الحصول على المزيد من الأرض، والمزيد من الاستيطان، والمزيد من المياه، والمزيد من الموارد، هل ستكون لدينا على المدى البعيد صيغة للسلام أم لمائة عام أخرى من أشكال غير محددة من النزاع والصراع والعنف؟

(٣) بغض النظر عن عدد معاهدات السلام التي يوقعها العرب مع إسرائيل، ومهما كانت الاتفاقات التي يتوصلون إليها معها، ومهما كان عدد التأكيدات والضمانات التي يقدمونها لها، هل أي من هذا كله قادر بالفعل على تخفيف قلق إسرائيل الوجودي بشأن مكانها ومستقبلها وهويتها في منطقة عربية، أو على تهدئة هذا القلق أو تبديده، وهو القلق الوجودي الذي عقده تراث طويل من الاضطهاد الشديد، والسيطرة الإسرائيلية الحالية على المنطقة والتلاعب بمصائرها كما في الكلبية المفرطة واللامبالاة الصارخة اللتين تتعامل إسرائيل بهما مع ياسر عرفات والفلسطينيين، حتى بعد مصالحة أوسلو المفترضة؟

(٤) تحت السطح، ما هو وضع توازن القوى «التاريخي» بين إسرائيل والعرب في الوقت الحاضر؟ يتساءل مثقفو دمشق أليس من الجدير بالاعتبار أنه في الوقت الذي انتصرت فيه إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ انتصارًا ساحقًا خلال ستة أيام، فقد هزت حرب أكتوبر ١٩٧٣ البلد من أساسه؟ وبعد ذلك، انتهى غزو إسرائيل للبنان سنة ١٩٨٢ واحتلالها القصير لبيروت بكارثة مهولة بالنسبة للغازي على كل الجبهات، حتى في أعين الإسرائيليين أنفسهم. ولم يمر وقت طويل حتى بينت الانتفاضة الفلسطينية في نهاية الأمر ولكل من يهمه الأمر استحالة بقاء الأمر الواقع الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية المحتلة على حاله.

ومرة أخرى فإن عملية عناقيد الغضب، التي أمر بها رئيس الوزراء شيمون بيريس سنة ١٩٩٦ ضد حزب الله في جنوب لبنان، لم تفشل وحسب في ترجمة التفوق الإسرائيلي الكاسح إلى عملية عسكرية تأديبية سريعة ومؤثرة وفعالة على الأرض، ولكنها ارتدت على إسرائيل نفسها مما أدى إلى (أ) ما يعرف الآن باسم مذبحة قانا، حيث قتل مائة مدني (معظمهم من نساء القرى وأطفالها) أثناء القصف الإسرائيلي عند لجوئهم إلى منشأة قريبة تابعة للأمم المتحدة، (ب) إرباك عالمي شديد لإسرائيل بسبب هذه الكارثة وإدانات عربية وإسلامية صاخبة لها، (ج) وقف لإطلاق النار جرى ترتيبه على عجل مما أزعج الجيش الإسرائيلي، (د) إسقاط الناخبين الإسرائيليين لبيريس وحزب العمل من السلطة بعد أسابيع قليلة، (هـ) قيام إسرائيل في آخر الأمر بإقناع نفسها بحكمة الانسحاب من جانب واحد من جنوب لبنان وبأسرع وقت ممكن، ومع أن منحى هذا الخط البياني لا يشي بأي تحول نوعي في ميزان القوى القائم بين العرب وإسرائيل فإنه يثير تساؤلات جدية، أولا، حول مقدرة الجبروت الإسرائيلي العادي على إبقاء كل ما تريد إسرائيل إبقاءه في المنطقة على حاله وعلى فرض كل ما تريد فرضه عليها، وثانيًا حول احتمال أن تكون إسرائيل قد وصلت إلى الحدود الخارجية القصوى لطاقاتها الداخلية في مواجهة عالم عربي مهزوم يحيط بها، ولكنه عالم عربي ما زال يتمرد ويتحدى.

(٥) بالجولان أو بدون الجولان، تظل القنبلة الموقوتة الضخمة التي تهدد كل العلاقات المستقبلية والتسويات والاتفاقيات مع الجارة الجديدة هي الفلسطينيون أنفسهم، وخاصة «عرب إسرائيل»، بغض النظر عن كونهم مواطنين إسرائيليين أو بصفتهم ينتمون إلى دولة فلسطينية ذات سيادة اسمية. وفي هذا الخصوص، هناك شبه إجماع في أوساط الانتلجنسيا في دمشق بشأن النقطتين التاليتين: (أ) لن تؤدي «قضايا الوضع النهائي» التي سيتم التفاوض عليها مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، - مثل القدس والمستوطنات واللاجئين - في واقع الأمر إلى أية نتيجة ترضي الشعب الفلسطيني، لأن إسرائيل لن تقدم إلا الأقل من القليل بشأن هذه المسائل. وأفضل ما يمكن لعرفات أن يأمل به هو تنفيذ اتفاقية واي ريفر التي أعيد الاتفاق بشأنها وأبرمت في أكتوبر ١٩٩٨، لا أكثر. (ب) لن تؤدي ترتيبات أوسلو على الأرض، مقرونة بسياسات إسرائيل الاستيطانية، إلا إلى «فلسطين» تتكون من عدد من الجيوب التي تحيط بها قوات الأمن الإسرائيلية وتخضع لنظام من الفصل العنصري غير الرسمي (آبارتايد)، وفي ظل مثل هذه الظروف سوف يتمتع الإسرائيليون بالديمقراطية، بينما سيكون على الفلسطينيين أن يصارعوا نظام الأبارتايد هذا ويكافحوا ضده. وهكذا فإنه عندما قال لي شاعر ومثقف فلسطيني كبير منذ فترة ليست بالبعيدة: لو يعطينا الإسرائيليون حق المواطنة، فإننا سنقبل بأن نكون «السود عندهم»، كانت تلمع في ذهنه وقتها صور من مسرحية جان جينيه «الزنوج» (Les negres) ودراسة فرانتز فانون «جلد أسود وأقنعة بيضاء» (Peau noire , Masques blancs) حيث يقلب فيهما السود الوضع رأسا على عقب في نهاية الأمر. ولذلك ليس مستغربا أن تبدو مناقشات المثقفين في دمشق في هذه الأيام زاخرة بالتشبيهات والاستعارات المستمدة من التجربة الجنوب أفريقية قديمها وحديثها.

[٢]

لاشك أنه في سوريا رافضون بعمق لوجود إسرائيل مع أنهم يشكلون أقلية في الوقت الحاضر، على ما يبدو لي. لكن موقفهم يحظى بتعاطف عميق، وفي ظل الظروف المواتية قد يعودون للظهور بقوة من جديد ويلمسون وترًا حساساً من أوتار الرأي العام ويتحولون إلى قوة حاسمة مجدداً في الحياة السياسية والثقافية السورية. ويبرز بين هؤلاء التيارات الإسلامية في المجتمع المدني التي تتجمع في الوقت الراهن حول نسخة إسلامية من عقيدة الأرض الموعودة تقول هذه العقيدة بأن فلسطين وقف على الأمة الإسلامية. بعبارة أخرى، فإن فلسطين، وفقا لهذا المنطق، وقف حبسه الله للأمة الإسلامية، وهي كشأن كل الأوقاف لا يمكن لكائن من كان التنازل عنها أو العبث بها أو تبديدها، سواء أكان هذا فرداً أم حكومة أم جيلاً.

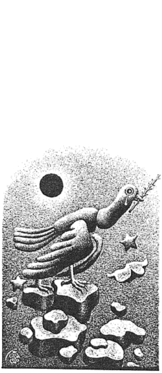
أما النمط الآخر من الرافضين بعمق فهم القوميون المتشددون الذين يتجمعون حول نسخة مخففة وعلمانية من عقيدة الوقف. فهم يقولون إن فلسطين لا تخص جيلنا وحده - أو أي جيل عربي مهما كان - بل تخص الأمة العربية أو الأمة السورية أو كليهما، وتخص كل أجيالها السابقة والحالية والقادمة لذا لا يجوز أن نقر بشرعية اغتصابها، بل يكفي الاعتراف به كأمر واقع فقط. ويعني هذا أن أفضل مسار للعمل حاليا هو الإبقاء على الصراع مع إسرائيل مشرعًا على المستقبل واحتمالاته العديدة والمفتوحة مما سيضمن للأجيال الجديدة التي لم تر النور بعد فرصة استمرار الكفاح العادل ضد الغاصب، مع بقاء الأمل بتحسن ميزان القوى على المستويين المحلي والدولي في الصالح العربي، وطفت على السطح نسخة من هذا الموقف في مؤتمر القمة السورية الأمريكية في جنيف في مارس الماضي. فعندما حاول الرئيس كلينتون إعطاء الرئيس الأسد انطباعاً بأن فسحة السلام تضيق، «رد الرئيس السوري بالإشارة إلى استعداد سوريا للانتظار وحتى تستعيد الأجيال القادمة كامل الأرض».

لنذكر كذلك أنه، إلى جانب الخطاب الحكومي الرسمي ومناقشات الجلسات الخاصة في المجتمع السوري عاشت البلاد فترة رخاء نسبية بين افتتاح مؤتمر مدريد في أكتوبر ١٩٩١ وانتخاب بنيامين نتنياهو رئيسا لوزراء إسرائيل في مايو ١٩٩٦، فعلى سبيل المثال (أ) كانت سوريا الدولة الوحيدة التي خرجت دون أن ينالها أي أذى من أزمة وحرب الخليج بفضل الطريقة الماهرة وبعيدة النظر التي تعامل بها الرئيس حافظ الأسد مع ذلك الوضع الخطير. (ب) جنب البلاد فوائد مادية ملموسة في أعقاب الحرب، بل ونعمت بانتعاش اقتصادي بصورة أو بأخرى. (ج) كان الأمريكيون يخطبون ود الرئيس الأسد باستمرار، في الوقت الذي كان يعاد فيه تشكيل العلاقات الأمريكية السورية وصارت العلاقات مع الاتحاد الأوروبي أوثق من أي وقت مضى. (د) وبينما كانت المفاوضات السورية الإسرائيلية في واشنطن وميريلاند تسير قدما وإن كان ببطء، شعرت سوريا بمقدار لا بأس به من الارتياح والثقة بالنفس، وبدا للمتابعين في دمشق وكأن إسرائيل باتت تدرك أن التوصل إلى اتفاق سلام مع سوريا واثقة من نفسها ومطمئنة نسبيا سوف يكون في مصلحتها تماماً.

أثناء هذه المرحلة أعلن الرئيس الأسد للعالم سنة ١٩٩٣ صيغته الخاصة بـ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» من أجل التوصل إلى حل نهائي للصراع مع إسرائيل. تم إعلان هذا الموقف عبر مقابلة أجراها معه الصحافي البريطاني وخبير الشئون السورية باتريك سيل والتي نشرت بالكامل في مجلة «الوسط» الصادرة في لندن في ١٠ مايو ١٩٩٣، وعلى هيئة مقالة افتتاحية مطولة كتبها سيل نفسه في صحيفة «النيويورك تايمز» في ١١ مايو ١٩٩٣، وكان واضحا للجميع في دمشق أن الرئيس الأسد كان يقصد من خلال هذه المقابلة، أول ما يقصده، أن يوصل إلى أكبر شريحة ممكنة من الجمهور شيئا عن المناقشات والمساومات والعروض والعروض المضادة التي كانت تتم في المفاوضات الجارية وراء الأبواب المغلقة في واشنطن، وأن الأمر الثاني الذي قصده هو دفع الصيغة التي كان قد اقترحها رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين إلى حدودها القصوى، وهي الصيغة القائلة بأن عمق الانسحاب الإسرائيلي من الجولان سيتناسب طرديا مع عمق السلام الذي تعرضه سوريا على إسرائيل مما أدخل للمرة الأولى احتمال الانسحاب الكامل من الجولان ضمن نطاق ما هو قابل للتفاوض.

جاء رد الفعل الإسرائيلي بعد أسبوعين على هيئة مقالة افتتاحية في «النيويورك تايمز» في ١٩ مايو ١٩٩٣ كتبها ايتامار رابينوفتش الذي كان وقتها سفيرًا لإسرائيل في واشنطن ورئيس الوفد المفاوض مع سوريا. رحب رابينوفتش بمقابلة الأسد باعتبارها «واحدة من أهم التطورات في دورة محادثات السلام العربية الإسرائيلية التي انتهت يوم الخميس الماضي» وعلى أنها «العمل الأكثر تأثيرًا حتى الآن من أعمال الدبلوماسية العلنية التي قام بها الرئيس السوري في سياق محادثات السلام مع إسرائيل»، مع ذلك لم يؤيد رابينوفتش صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل»، كما أنه تحدث عن «احتمال تحقيق إنجاز كبير في هذه المفاوضات خلال الشهور المقبلة» وعن «الخطر الذي ما زال قائما بوصولها إلى مازق».

ولم يفت الأوساط العليمة سياسيًا في دمشق ملاحظة أن وصفة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» ابتعدت للمرة الأولى عن الموقف السوري الذي تكرر مرارًا بشأن «إقامة السلام الشامل والعادل والدائم في المنطقة»، ففي حين يعني «السلام العادل والشامل والدائم» إعادة كل الأراضي العربية التي تحتلها إسرائيل وتسوية كل القضايا العربية العالقة معها (بما في ذلك القدس والحقوق القومية الفلسطينية واللاجئون وغيرها)، فإن صيغة «السلام مقابل



إن من بين أبرز المنشقين العلنيين، وإن اتسموا بالحذر عند التعبير عن رأيهم، أدونيس، وهو واحد من أبرز الشعراء والمثقفين العرب وأكبرهم؛ وهانى الراهب الروائى الشهير الذى كان يعمل بجامعة الكويت؛ والدكتور هشام دجانى، الصحفى والناقد والمعلق السياسى الفلسطينى السورى المعروف. وأسوأ ما حدث لهؤلاء المنشقين أنهم طردوا من اتحاد الكتاب العرب الرسمى فى سوريا

الانسحاب الكامل» تنطبق على مرتفعات الجولان وجنوب لبنان فقط.

ونحن نعرف الآن أنه فى مرحلة معينة من مراحل المفاوضات السورية الإسرائيلية حلت صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» فى واقع الأمر محل سائر الصيغ الأخرى، بما فيها وصفة «السلام الشامل والعادل والدائم». وكان يكمن فى هذا التحول ما يعرف فى مصطلح وزارة الخارجية الأمريكية بـ «الغموض البناء»؛ ذلك أن «السلام الشامل» يميل إلى ربط المحادثات السورية الإسرائيلية بمسارات التفاوض الفلسطينية والعربية الأخرى، بينما تميل صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» إلى قطع مثل هذه الروابط لمصلحة تسوية منفصلة «تقف على قدميها» كما يقول الإسرائيليون.

وأظهر هذا «الغموض البنَّاء»، والذى لم يستمر طويلاً، الرئيس الأسد وهو يحاول حتى آخر دقيقة الحفاظ على البقية الباقية من التماسك والتنسيق العملى بين مسارات التفاوض العربى مع إسرائيل، فى الوقت الذى كان يقدم فيه عرضًا بسلام تعاقدى مقابل استرجاع مرتفعات الجولان بالكامل، لكن الكشف فى صيف ١٩٩٣ عن اتفاقيات أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية قضى على هذا الغموض المفيد؛ كما جعلته اتفاقية السلام الأردنية الإسرائيلية التى تلت ذلك غير ذى شأن بالمرة. فلم يعد جيران سوريا أنفسهم يسعون إلى «السلام الشامل» مع إسرائيل.

فى تلك الفترة على وجه التقريب، ثار جدل عام صاخب وواسع المدى فى سوريا بشأن مدلول «السلام الكامل مع إسرائيل» ومضامينه وتطبيقاته بالنسبة للمجتمع السورى نفسه، ويُعرف هذا حاليا بمناقشات «التطبيع»؛ أى تطبيع العلاقات مع العدو السابق، ولم يكن النظام وراء هذا الجدل ولم يرعه ولم يتحكم فيه، بل إن السلطات تتبعته بحرص لتتأكد من أنه لا يهاجم فكرة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» أو يقوضها. ولم تكن الصحافة والتليفزيون السوريان أدوات هذا الجدل الرئيسية، وإن استخدمها المساهمون فى النقاش والمتنازعون حوله استخداما واسعًا، كذلك تم استخدام العديد من المطبوعات الفلسطينية التى تظهر فى سوريا ولبنان، والصحافة اللبنانية الأكثر حرية، والكثير من صحف الخليج ومجلاته ومحطات التليفزيون فيه، بالإضافة إلى الصحافة العربية فى لندن وباريس، وانضمت الصحافة المصرية إلى الجدل كذلك، وخاصة صحف المعارضة.

كان واضحًا لكل المشاركين فى النقاش أن صيغة «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» فَصَلت المفاوضات السورية عن مصير عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية والضفة الغربية والفلسطينيين بوجه عام، وإن لم يكن لسوريا ذنب فى ذلك، واستوعب الناس فى دمشق هذه الرسالة بأسى وليس بغضب، وهوأسى على تبخر آخر آثار التضامن والتعاون العربيين فى المفاوضات مع إسرائيل، إضافة إلى ضمير مستريح لأن سوريا لم تكن هى التى شقت الصف مع شريكاتها العربيات.

ركز جدل التطبيع تركيزًا قويًا ونقديًا وانفعاليًا على قضايا من قبيل: ماذا يعنى السلام الكامل مع إسرائيل غير الاتفاقات والمعاهدات والبروتوكولات بين الحكومات؟ ما الذى ينطوى عليه تطبيع العلاقات مع إسرائيل بالنسبة للمجتمع السورى؟ هل نحن، كسوريين من كل مناحى الحياة، نريد هذا التطبيع للعلاقات، بغض النظر عما يفعله حكامنا فى القمة وعلى المستوى الرسمى؟ وإذا رفضنا هذا التطبيع، كيف تتسنى لنا معارضته؟ كيف تتسنى لنا مقاومة محاولات حكامنا المتوقعة لفرضه علينا؟

كانت هناك جهود عديدة لتشكيل لجان عمل وجبهات متحدة من أجل هدف واحد هو معارضة تطبيع العلاقات مع إسرائيل على المستويات الشخصية والاجتماعية والتجارية والثقافية والسياحية والعلمية. وكان النقاش برمته يدار استنادًا إلى افتراضين هما أن معاهدة السلام مع إسرائيل باتت مسألة لا مفر منها (وعاجلا وليس آجلاً) وأنه من الأفضل للمجتمع السورى أن يفكِّر جيدًا بشأن الطرق المناسبة التى يمكنه أن يتعامل بها مع مضامين المعاهدة ونتائجها بالنسبة للبلاد. إذا وضعنا هذا كله فى اعتبارنا فإن المزاج العام الذى ساد النقاش كان يقول: إن ما تفعله حكومتنا مع إسرائيل هو شأنها الرسمى والسياسى. أما بالنسبة لنا كأشخاص ومواطنين عاديين فعلينا مقاومة التطبيع بأية طريقة نستطيعها وأينما وحيثما مسَّ التطبيع حياتنا. مع ذلك كان هناك الكثير من المواقف وظلال الرأى التى تم التعبير عنها بشأن هذا الأمر، إضافة إلى بعض الآراء المنشقة التى عبَّرت عن وجهة نظرها بحرص أيضًا.

ولا حاجة إلى القول بأن الرافضين المتشددين ظلوا على موقفهم فى النظر إلى الصراع مع إسرائيل على أنه صراع وجودى مؤجل، وليس قتالاً عاديًا على الأرض والحدود والاحتلال والموارد والسيادة، كما بات ينظر إليه، وقبل فصيل آخر مبدأ التسوية السلمية غير أنه رفض نمط الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى أوسلو، قائلا إن «السلام الكامل» مع إسرائيل ممكن فقط بعد تحقيق «الانسحاب الكامل» من الأراضى العربية المحتلة كافة (بما فى ذلك القدس الشرقية)، وليس مجرد مرتفعات الجولان، ونادى رأى ثالث بتأجيل كل أشكال التطبيع حتى تعاد الأراضى المحتلة ويرضى الشعب الفلسطينى، وخاصة فلسطينى الشتات، ومن الناحية العملية، يظل «التطبيع» ورقة مساومة أخرى على طاولة التفاوض السورى الإسرائيلى الأمريكى.

وكان من بين أبرز المنشقين العلنيين، وإن اتسموا بالحذر عند التعبير عن رأيهم، أدونيس، وهو واحد من أبرز الشعراء والمثقفين العرب وأكبرهم؛ وهانى الراهب الروائى الشهير الذى كان يعمل بجامعة الكويت؛ والدكتور هشام دجانى، الصحفى والناقد والمعلق السياسى الفلسطينى السورى المعروف. وأسوأ ما حدث لهؤلاء المنشقين أنهم طردوا من اتحاد الكتَّاب العرب الرسمى فى سوريا، وكان طردهم سببًا فى تفجير جدل عام آخر بشأن إجراء الطرد نفسه ومدى قانونيته وما إذا كانت مهمة الاتحاد هى حماية أعضائه والدفاع عن حقوقهم أم معاقبتهم بسبب التعبير عن آراء لا يحبها الاتحاد، واستعر الجدل الجديد عندما استنكر أبرز كتَّاب المسرح فى سوريا سعد الله ونوس ذلك الطرد وقدم استقالته - برقيًا - من الاتحاد احتجاجًا عليه وهو على فراش الموت، وفى اللحظة ذاتها استنكر واحد من أبرز الروائيين والقصاصين وأكبرهم فى سورية، وهو حنا مينه فعل الطرد ذاته وبصورة لا تقل وضوحًا وأعلن انسحابه الفورى من اتحاد الكتَّاب كذلك.

لا شك أن إسرائيل تتعطش بشبق مشهود لعلاقات السلم العادية، أى التطبيع، مع العرب عمومًا ومع سوريا خصوصًا، لكن علاقات السلم العادية والطبيعية بين دول الشرق الأوسط كما بين الدول العربية نفسها ليست سمنًا وعسلاً كليًا، كما نعرف جيدًا، على سبيل المثال، تعنى علاقات السلم العادية والطبيعية عربيًا وشرق أوسطيًا الوصول بسهولة إلى حافة الحرب أو التهديد بها، ثم الرجوع عنها بسهولة ملحوظة أيضًا إلى خطابات الأخوة العربية وعلاقات الجوار الممتازة وتنمية المصالح المشتركة للشعبين الشقيقين إلخ. تمامًا كما حدث بين سوريا وتركيا مؤخرًا بشأن قضية عبد الله أوجلان، زعيم حزب العمال الكردى. من هنا السؤال: ما الداعى لأن تكون علاقات سوريا بإسرائيل أكثر عادية وطبيعية من علاقاتها مع تركيا أو العراق، مثلا، أو أن تكون أكثر طبيعية وتطبيعًا من علاقات العراق مع إيران أو علاقات المغرب مع الجزائر أو علاقات مصر مع العالم العربى كله تقريبًا مباشرة بعد اتفاقيات كامب ديفيد؟

[٣]

لو حاولت تلخيص مزاج سوريا بجملة واحدة فيما يتعلق بالسلام مع إسرائيل خلال الفترة الممتدة بين مؤتمر مدريد وانتخاب ناتنياهو رئيسًا للوزراء فى مايو ١٩٩٦، لقلت إنه مزاج التسليم الرواقى المترفِّع بشر لا بد منه، وتكمن وراء هذا المزاج مجموعة من الانفعالات القوية مثل: الإحساس العميق بالهزيمة العربية، السخط على كل ما هو قائم، القبول على مضض بما لا بد القبول به، رغبة دفينة فى تحدى كل ما يجرى، الإحساس بالمهانة، الانصياع لقوة قاهرة لا رادَّ لها، الشعور بالخيبة، وبالتأكيد الافتخار العميق فى عد سوريا نفسها ألد أعداء إسرائيل والصهيونية وأشدهم بأسًا وشراسة، من الطبيعى أن تؤثر هذه الانفعالات الحبيسة كلها - بطرق ظاهرة وأخرى خفية - فى تعامل سوريا مع عملية السلام وفى أسلوبها فى التفاوض مع إسرائيل والولايات المتحدة وفى موقفها أثناء محادثات السلام الفعلية، من هنا تصلب سوريا القلق، وتشددها، وشكوكها، وترددها، وحرفيَّتها، ورسمية تعاملها، وعزلتها إلخ.

ومما يزيد الأمور سوءًا بالنسبة لسوريا إصرار إسرائيل المتكرر فى السر والعلن على أن تقوم سوريا بمساعدة الزعماء الإسرائيليين على إقناع شعبهم ليس بأن السلام قاب قوسين فحسب، بل إنه يخدم مصلحة إسرائيل أيضًا، أو كما اشتكى رئيس مفاوضى سوريا وسفيرها فى واشنطن السيد وليد المعلم ذات مرة فى إحدى المقابلات:

«كانت تلك بطبيعة الحال مشكلة قائمة طوال المفاوضات، فقد كنا نشعر دائمًا أن الإسرائيليين يريدون من سوريا أن تقوم بعملهم نيابة عنهم، فكانوا يريدون منا أن نقنع شعبهم بأن السلام فى مصلحتهم، لقد أعددنا شعبنا للسلام مع إسرائيل، وتغيرت أشياء كثيرة فى إعلامنا، إلا أنهم يريدون منا إعداد الرأى العام الإسرائيلى.. واعتبرنا مثل هذا الإصرار علامة سلبية: فأنت عندما لا تعد شعبك للسلام مع جارك، يكون معنى ذلك أنك لست عازمًا تمام العزم على صنع السلام».

أضف إلى ذلك حساسية سوريا واعتراضها على مواقف إسرائيل المصرة (وخاصة من جانب رابين) على اتفاقية جولان مديدة يقصد بها «اختبار نوايا سوريا» وسلوكها عن طريق مقايضة العديد من الانسحابات الجزئية والمحدودة فى الجولان بجرعات مكثفة من «التطبيع» على مدى فترة تصل إلى خمس سنوات. من هنا جاء اقتراح «مجدل شمس أولاً» الذى رفضته سوريا على الفور (مجدل شمس هى أكبر قرى مرتفعات الجولان)، يضاف إلى ذلك خطط إسرائيل التى طنطنت لها على نطاق واسع، وخاصة فى عهد حكومة بيريس، للدخول فى مشروعات اقتصادية ضخمة وكل أشكال المشروعات المشتركة مع سوريا بغرض خلق شرق أوسط جديد تمامًا للعرب.

وطبقًا لما ذكرته بعض التقارير، مضى الإسرائيليون فى جلسة من الجلسات الأخيرة لمفاوضات ميريلاند إلى حد تسليم عدد من المشروعات لتكامل الاقتصادين السورى والإسرائيلى، ولا يمكن

كذلك استبعاد الاستياء العام السورى والعربى من المطالبة الدائمة ليس فقط بأن يقيم العرب السلام مع إسرائيل، بل عليهم كذلك أن يقيموه وهم فى حالة من الفرحة والابتهاج.

وعلى خلاف ذلك كله، كانت الصور التى تتداعى إلى ذهنى فى تلك الفترة تعود جميعًا إلى الممارسات السياسية المعروفة لعصر النهضة: فها نحن أمام مشهد لعروس ذات إرادة حديدية، من ناحية، ولعريس كله كبرياء وأنفة وإباء، من ناحية ثانية، ينتمى كل واحد منهما إلى قبيلة عدوة للقبيلة الأخرى أو إلى سلالة حاكمة فى حرب دائمة مع السلالة الثانية أو إلى عائلة عريقة متخاصمة منذ زمن طويل مع العائلة المنافسة، إلا أنه على العريس والعروس إتمام مراسم الزواج - على الرغم من أن أحدهما لا يطيق الآخر ويكرهه كرهًا شديدًا ويحتقره إلى أقصى حدود الاحتقار - لأسباب قاهرة لا علاقة لها بمشاعرهما الفردية أو مشاريعهما الشخصية أو عواطفهما وميولهما الخاصة وإنما لها كل العلاقة بالمصالح العليا للقبيلتين أو العائلتين أو السلالتين أو بما يسميه الفرنسيون عادة بالـ Raison d'etat. بعد إتمام مراسم الزواج يمكن للزوجين أن يتظاهرا بالعيش معًا أو أن يتكيف الواحد منهما مع الآخر بصورة من الصور، ولكن يمكن أيضًا لكل منهما أن يعيش حياته الخاصة على مزاجه دون اعتبار للشريك المفترض، مع المحافظة على بعض المظاهر الخارجية الضرورية، بعبارة أخرى إن قصة سوريا مع إسرائيل وقصة إسرائيل مع سوريا هى أشبه بحكاية روميو وجولييت معكوسة بالمطلق.

فى الفترة التى سبقت انتخاب نتنياهو لرئاسة الوزراء فى إسرائيل اكتسب الرئيس الأسد المزيد من التقدير والإعجاب فى العالم العربى - رسميا وشعبيا - بسبب من إدارته الحازمة للمفاوضات مع إسرائيل والولايات المتحدة، إدارتها بطريقة حصيفة ورزينة حافظت فى الوقت نفسه على الكرامة الوطنية لبلده، ونتيجة رفضه القاطع الخضوع لأجندة المفاوضات الإسرائيلية ظهر أمام الجميع بمظهر اللاعب والمفاوض الحقيقى بدلاً من مظهر «الحجر» الذى يحركه الآخرون كما هى الحال بالنسبة لمنظر المفاوضين العرب الآخرين، ومما زاد فى قامته عربيًا كونه تمكن من أن يفعل ذلك كله فى ظل ظروف عربية وإقليمية ودولية صعبة جدًا تتمثل فى ميزان قوى مختل كليًا ضد الطرف العربى بأجمعه.



تلقت دمشق - رسميا وشعبيا ودبلوماسيا - نبأ انتخاب نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل فى نهاية شهر مايو ١٩٩٦ بمزيج من الخيبة والارتياح، وراح ظرفاء البلد يتندرون بقولهم كلامًا من قبيل: انظروا إلى ما يفعله «أولاد عمنا» جنوبيًا، قتلوا رابين وخذلوا بيريس وانتخبوا نتنياهو وأريل شارون وما زالوا يقسمون الأيمان بأنهم لا يريدون سوى السلام معنا

فى ذلك الوقت أيضًا كانت دمشق كلها تعرف أن الإسرائيليين يضغطون بشدة، بدعم من الولايات المتحدة من أجل الحصول على «إعلان مبادئ» مع سوريا، واجتماع قمة محتمل مع الأسد يعقبه طريق طويل وشاق من المفاوضات المفصلة بشأن كل القضايا الصعبة التى نعرف جميعًا أنها تقف حائلاً دون السلام بين البلدين، إلا أن دمشق كلها كانت تعرف أيضا أن طريقة الأسد هى التفاوض والاتفاق أولا على كل القضايا وكل تفصيلة من التفاصيل المتنازع عليها؛ وبعد ذلك المضى قدمًا باتجاه إعلان المبادىء واجتماع القمة والمراسم والاحتفالات التى تلى ذلك فى العادة، باعتبارها كلها الإنجاز الذى يتوج العملية التفاوضية بكاملها، ومن المؤكد أنه بدا فى دمشق أن الرئيس الأسد استخلص كل الدروس المناسبة من تجربة السادات المثيرة مع صيغة «إعلان المبادئ الآن، وإجراء المفاوضات لاحقًا».

وتأتى الدروس والنماذج الحية الأخرى التى استفاد منها الرئيس الأسد مما تعرض له ياسر عرفات مرارًا من مهانة وإذلال وتجاهل، بل وإهانات على أيدى العديد من الزعماء الإسرائيليين وكان ذلك مباشرة عقب «إعلان المبادئ» الفلسطينى الإسرائيلى والمصافحة الشهيرة بين عرفات ورابين فى حديقة البيت الأبيض فى سبتمبر ١٩٩٣.

أضف إلى ذلك منظر عرفات المزرى وهو يعيد التفاوض مرات عدة على اتفاقات وبروتوكولات ووعود والتزامات سبق أن أعاد التفاوض عليها بطريقة مضنية وتم الاتفاق والتوقيع عليها بضمانة من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلقت دمشق - رسميا وشعبيا ودبلوماسيا - نبأ انتخاب نتنياهو رئيسًا لوزراء إسرائيل فى نهاية شهر مايو ١٩٩٦ بمزيج من الخيبة والارتياح، وراح ظرفاء البلد يتندرون بقولهم كلامًا من قبيل: انظروا إلى ما يفعله «أولاد عمنا» جنوبيًا، قتلوا رابين وخذلوا بيريس وانتخبوا نتنياهو وأريل شارون وما زالوا يقسمون الأيمان بأنهم لا يريدون سوى السلام معنا («أولاد عمنا» هى الطريقة الساخرة التى يشير بها بعض أهل دمشق إلى الإسرائيليين عندما يتحدثون عنهم فى جلساتهم الخاصة).

قلت إن دمشق تلقت نبأ وصول نتنياهو إلى السلطة بمزيج من الخيبة والارتياح: الخيبة لأن مناقشات التطبيع قامت كلها على التسليم بأن معاهدة السلام مع إسرائيل أضحت أمرًا لا مفر منه - مهما كانت عيوب تلك المعاهدة وسقطاتها من وجهة النظر السورية - وبما أن الأنظار كلها كانت مشدودة إلى قدوم «جودو» السلام هذا، كان من الطبيعى أن ينمو إحساس بالترقب والتوقع والتشويق داخل المجتمع السورى، لكن عندما لم يحدث أى شىء من هذا القبيل بات قدر من الخيبة أمرًا لا مفر منه كذلك، أما الارتياح فسببه تأجيل موعد اتخاذ القرارات الصعبة والتنازلات المؤلمة والتراجعات المحرجة وهو التأجيل الذى لم يكن لسوريا يد فى صنعه، فالتغيير - بغض النظر عن الأسباب - وقع فى الطرف الآخر. إسرائيل وليس سوريا، هى التى انسحبت من مفاوضات واى فى ميريلاند فى ٣ مارس ١٩٩٦، فى الواقع كانت هذه المرة الأولى التى لم يلق فيها أحد باللوم على سوريا - سواء محليًا أو إقليميًا أو عالميًا - بتعمد إعاقة مفاوضات السلام أو السعى للقضاء عليها بشكل صريح، ويمكننى كذلك إضافة أننى لم أر قط الدبلوماسيين الغربيين فى دمشق أكثر صراحة وشدة فى انتقاد إسرائيل مما كانوا عليه فى فترة وجود نتنياهو فى الحكم.

سرعان ما فُهم وصول نتنياهو وسياساته فى دمشق على أنه ارتداد إلى سياسات حكومة شامير وتكتيكاتها المعرقلة، وعلى أنه نكوص إلى فكرة «السلام مقابل السلام» المتشددة لتحل محل فكرة «السلام مقابل الأرض» التى كانت تقوم عليها المفاوضات حتى ذلك الوقت، وشعر الرافضون السوريون بارتياح كبير ورضا نتيجة لتصريحات نتنياهو، خاصة لاءاته الثلاثة الشهيرة: لا للانسحاب من مرتفعات الجولان، لا لدولة فلسطينية مستقلة، لا لحل وسط بشأن القدس الشرقية، وكان الهدف مما أسماها «الترتيبات الفرعية» مع سوريا هو التطبيع التدريجى للعلاقات بين البلدين دون أى انسحاب من الجولان، كما أكدت الخطوط العريضة التى أرسلها إلى الكنيست على أن حكومته «ترى مرتفعات الجولان على أنها ضرورية لأمن الدولة» وأن «الاحتفاظ بالسيادة الإسرائيلية على الجولان سيكون الأساس لأية ترتيبات مع سوريا»، كما اعتبر الرافضون مجئ نتنياهو إلى السلطة تأكيدًا لأطروحاتهم القائلة أنه فى لحظة الحقيقة لا بد لإسرائيل من أن ترتد إلى طبيعتها الأصلية كمجتمع استعمارى استيطانى وكدولة عدوانية محاربة يهمها التوسع والهيمنة والأرض والاستيطان والموارد أكثر بكثير مما يهمها السلام.

وفى الوقت ذاته كان هناك ترقب فى المجتمع المدنى السورى - وخاصة فى أوساط الانتلجنسيا - ما إذا كان التصلب الإسرائيلى الجديد، سوف يؤدى بالنظام الحاكم فى سوريا للارتداد إلى مواقفه وممارساته وخطاباته السابقة على مؤتمر مدريد، إلا أن أيًا من هذه المخاوف لم يتحقق، بل على العكس من ذلك، استفادت الحكومة السورية بدهاء من الفترة التى أمضتها حكومة نتنياهو فى السلطة باستخدام خطاب «سلامى» عاقل ومتوازن رفع الموقف السورى إلى مواقع أرقى سياسيًا وأخلاقيا فى نظر المجتمع الدولى وذلك بالإصرار المتكرر، أولا، على أن الذى انسحب من المفاوضات فى ميريلاند هو إسرائيل وليست سوريا، وثانيا، على أن الذى أعاد النظر فى عملية السلام وبدّل رأيه فيها هو إسرائيل وليست سوريا، وثالثا، على أن سوريا هى المستعدة لاستئناف محادثات السلام فورًا من حيث انقطعت وليس إسرائيل، أما على المستوى المحلى فلم تطرأ أية تغييرات مهمة على الخط الرسمى أو الإعلامى حتى بالنسبة للمواد المعدة للاستهلاك الداخلى فقط، واضح إذن أن سياسات سوريا قد وضعت بمهارة خلال فترة حكم نتنياهو، بحيث تستميل الرأى العام للمجتمع الدولى قدر الإمكان وتجد لها صدى إيجابيا لدى «هيئة المحلفين» الدولية وهى الهيئة المؤلفة عمليًا من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبى والغرب بصورة عامة.

فى مطلع فترة وجود نتنياهو فى السلطة، اتهمت سوريا بتضييع فرصتين نادرتين للتوصل إلى معاهدة السلام مع إسرائيل واستعادة مرتفعات الجولان، ومن المفترض أن تكون الفرصة الأولى قد سنحت قبيل تبنى رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحق رابين الاختراق السرى للغاية الذى كان قد تم التوصل إليه على المسار الفلسطينى فى أوسلو وذلك بدلاً من الاستمرار فى مفاوضات المسار السورى.

أما الفرصة الثانية فسنحت، طبقًا لهذا المنطق، بعد اغتيال رابين وعندما قرر رئيس الوزراء بيريس الدعوة لإجراء انتخابات عامة مبكرة بدلاً من استكمال فترة رئاسة سلفه، ويمضى الاتهام ليقول إن حذر الرئيس الأسد الزائد وتشككه وتسويفه هى المسئولة عن ضياع الفرصتين، وأشار وزير الخارجية الأمريكى وارن كريستوفر إلى هذه التهمة فى مقابلة أجرتها معه صحيفة «ها آرتس» الإسرائيلية فى أواخر أكتوبر ١٩٩٧، فى حين أورد السفير ايتامار رابينوفيتش هذه الاتهامات فى كتابه الجيد: «حافة السلام: المفاوضات الإسرائيلية السورية»: The Brink of Peace: The Israeli Syrian Negotiations كان من الطبيعى أن يتداول مصنع الشائعات فى دمشق هذه الاتهامات كذلك، ولكن دون التوصل إلى أية نتائج هامة أو استنتاجات بينة فى ذلك الوقت.

وطبقًا لما ذكره رابينوفيتش، فقد أرسل رابين فى ٣ أغسطس رسالة إلى الأسد، عبر وارن كريستوفر ودينيس روس، يستكشف فيها إمكانيات الاتفاق على «اتفاقية سلام محددة جدًا» تشمل كلا من سوريا ولبنان، وعاد الوسيطان الأمريكيان من دمشق برد «اعتبراه إيجابيا»، إلا أن رابين رآه مخيبًا لأمله، وجعل هذا الجواب السورى، وفقًا لرابينوفيتش، رابين يتبنى على الفور اختراق أوسلو، الذى كان جاهزًا بسرية تامة، بدلاً من الاستمرار فى المفاوضات مع سوريا.

نعرف الآن أن الرسالة التى بعثها رابين للأسد كانت اقتراحًا بانسحاب الإسرائيليين الكامل من مرتفعات الجولان مقابل التزام

سوريا الكامل بأمن إسرائيل وشروط التطبيع، ونعلم كذلك أن رد الأسد، الذى اعتبره الوسيطان الأمريكيان إيجابيا، بينما رآه رابين مخيبًا للآمال، كان يسعى لتوضيح ما إذا كان الانسحاب المقترح سوف يمتد إلى خط الرابع من يونيو ١٩٦٧ أم أنه سيتوقف عند الحدود الدولية لسنة ١٩٢٣ كما رسمتها سلطات الانتداب الفرنسية والبريطانية فى سوريا وفلسطين على التوالى، وكان الانسحاب لحدود ١٩٢٣ سيمنع سوريا من العودة إلى الركن الشمالى الشرقى من بحيرة طبرية ومن استعادة الأرض التى صارت الآن منتجع المياه المعدنية الحارة المعروف باسم الحمة والذى كان فى الأصل قرية فلسطينية عربية قديمة تحمل هذا الاسم، وطبقًا لما ذكره بعض المراقبين والمحللين لعملية السلام، ضيع الرعاة الأمريكيون فى هذه المفاوضات غير المباشرة فرصة جيدة لتحقيق اختراق هام على المسار السورى الإسرائيلى بعدم متابعتهم مع الجانب الإسرائيلى التوضيح الذى سعى إليه الرئيس الأسد فى حينه.

ويمضى رابينوفتش قائلاً إنه عندما تولى بيريس رئاسة الوزراء، بحث من جانبه فى إحياء المسار السورى من خلال عدد من المقترحات الاقتصادية الاستثنائية والإجراءات السياسية الدراماتيكية (اجتماع قمة مبكر مع الرئيس الأسد، على سبيل المثال) قصد بها تعزيز فرصه الانتخابية حين يحين موعد حملة الانتخابات، إلا أنه طبقًا لما ذكره رابينوفيتش، فإن رد الرئيس الأسد على محاولات بيريس هذه جاء رد إيجابيا بحذر، وشديد التحفظ، ولكنه أخفق فى التحليل الأخير، فى إرضاء بيريس وفى «توفير الشروط اللازمة له لعقد اتفاقية جيدة فى الوقت المناسب» ونتيجة لذلك، لم يقرر بيريس الدعوة لإجراء انتخابات مبكرة فحسب، بل أجاز للجيش القيام بعملية «عناقيد الغضب» العسكرية ضد حزب الله فى جنوب لبنان.

جاء الرد السورى الأول والجزئى على هذه التهم على لسان باتريك سيل فى دراسته المنشورة فى «مجلة الدراسات الفلسطينية» (خريف ١٩٩٦، الطبعة الانكليزية) حيث بين أنه فى حين عرض الرئيس الأسد على رابين إتمام صفقة تتناول الجولان استنادًا إلى مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل»، لم يرد رئيس الوزراء الإسرائيلى وقتها التحية بمثلها، بل كان يربط دومًا مسألة الانسحاب بشروط صريحة وخفية متنوعة مثل إخضاع عملية الانسحاب إلى استفتاء شعبى عام فى إسرائيل وإعادة هيكلة القوات المسلحة السورية مما كان يعطل بدوره الفرصة للتوصل إلى اتفاق.

أما الرد الأكثر إحاطة فقد جاء على لسان سفير سوريا إلى واشنطن فى تلك الفترة ورئيس وفدها المفاوض السيد وليد المعلم فى مقابلة شاملة نشرتها له «مجلة الدراسات الفلسطينية» فى طبعاتها العربية والإنكليزية والفرنسية (شتاء ١٩٩٧). تشكل هذه المقابلة، دون أدنى ريب، أفضل عرض لوجهة النظر السورية الرسمية بالنسبة لمجريات الأمور فى المفاوضات مع إسرائيل وأكثرها تفصيلاً وعمقًا.

فنَّد السفير وليد المعلم التهمة الموجهة إلى سوريا بشأن تفويت أكثر من فرصة ذهبية لاسترجاع الجولان المحتل بتأكيده أن سوريا ما كانت لتدخل فى أية مساومات جدية حول مطالب إسرائيل المتعلقة بالترتيبات الأمنية وعلاقات السلم العادية (التطبيع) والجدول الزمنى لإتمام الصفقة .. إلخ، إلا بعد انتزاع موافقة إسرائيلية على الانسحاب العسكرى والمدنى الكامل من هضبة الجولان. وقد عبَّر رابينوفيتش عن هذا الموقف السورى فى كتابه المذكور سابقا بقوله إنه منذ بدء المفاوضات فى شهر أغسطس ١٩٩٣ رفض السوريون أن يتزحزحوا قيد أنملة عن موقفهم قبل سماع كلمتين: الانسحاب الكامل. ويتابع وليد المعلم قائلاً إن الجانب السورى تفاجأ مفاجأة كاملة مزدوجة عند الإعلان عن اتفاقيات أوسلو وعند متابعته للتطورات السريعة اللاحقة على المسار الأردنى - الإسرائيلى والتى أدت إلى توقيع اتفاق سلام منفرد وسريع بين الدولتين. بعبارة ثانية، إن الذى دمَّر فرصة حدوث اختراق حقيقى فى المفاوضات السورية - الإسرائيلية وقتها ليس التردد أو التعثر أو التعنت السورى، بل خروج اتفاقيات أوسلو السرية إلى العلن وما لحق ذلك من ترتيبات جديدة وحاسمة مع الأردن.

أما فيما يتعلق بالفرصة «الضائعة» الثانية، على أثر استلام بيريس السلطة بعد اغتيال رابين، يؤكد المعلم أن دعوة بيريس لإجراء انتخابات مبكرة وتعليقه لمحادثات السلام فى ميريلاند كانا مفاجئين لسوريا بما لا يقل عن اتفاقية أوسلو. وهو يرجع القرارين لضغوط إسرائيلية داخلية وهموم حزبية وليس لأى فرص سلام سنحت فجأة. وتأييداً لموقفه، يشير المعلم إلى مصادر إسرائيلية اتهمت بيريس نفسه بإضاعة فرصة ذهبية للتوصل إلى سلام مع سوريا. والإشارة هى هنا فى المقام الأول إلى الكشوف الدقيقة بشأن التفاصيل الخاصة بمفاوضات رابين مع سوريا التى أعلنها أورلى أزو لاى كاتز (Orly Azulay - Katz) فى سيرة شيمون بيريس التى كتبها بعنوان: الرجل الذى لم يتمكن من الفوز (The Man Who Could not Win) ويلمح المعلم كذلك إلى مقابلة تلفزيونية أذيعت كثيراً أجريت مع كبير المفاوضين مع سوريا فى عهد بيريس، يورى سافير، وفيها (أ) اعتراف بأن الكثير من التقدم كان قد تحقق مع سوريا فى مفاوضات ميريلاند و (ب) تأكيد أن الجانبين أوشكا بالفعل على الوصول إلى اتفاق عندما انسحب بيريس من المحادثات، و (ج) غياب كل ذكر لأية فرصة ضائعة أو غير ضائعة مع سوريا.

فى الوقت ذاته، تبين لدمشق الناس أنه لم تكن هناك أية فرص ضائعة حقا للسلام واسترداد الجولان الخ، بل مناورات علاقات القوة المعتادة بين الطرفين وتكتيكات كل واحد منهما لتحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافه الصريحة والمضمرة. على سبيل المثال، نحن نعرف الآن أن المبادرة التى قام بها رابين باتجاه سوريا فى اللحظة الأخيرة قبل تبنيه العلنى لخيار أوسلو - أى العرض الذى بعث به إلى الرئيس الأسد بواسطة كريستوفر ودينيس روس فى ٣ - ٤ أغسطس ١٩٩٣ - لم يكن المقصود منها إلا إحراج الرئيس السورى بوضعه أمام أمر واقع ناجز يعرف رابين جيداً أن الأسد سيرفضه إما بلغة ديبلوماسية أو بلغة أكثر فجاجة. بعبارة أخرى، لم تكن مبادرة رابين مبادرة حقيقية غرضها الاستمرار فى المفاوضات أو تعجيلها أو تسهيلها بقدر ما كانت تنطوى على صفقة فجة ومتعالية مطلوب من الأسد إما أن يقبل بها على علاّتها وكما هى أو أن يرفضها على علاّتها وكما هى، معلوم أيضا أن قبول الأسد بهكذا صفقة كان سيضعه فورا فى الموقع الذى وجد ياسر عرفات نفسه فيه بعد أوسلو، أى موقع المحطم للصف العربى والمتخلى عن شركائه العرب فى المفاوضات، بالإضافة إلى تحويل كل الجهود التى بذلها للحفاظ على حد أدنى من تماسك «الجبهة العربية الشرقية» فى التفاوض مع إسرائيل إلى مهزلة لا أكثر. تنطبق اعتبارات مشابهة على المبادرة السريعة التى يفترض أن بيريس توجه بها إلى سوريا عند استلامه السلطة بعد رابين ولكن دون نتيجة جاءت محاولة بيريس هى أيضا مثقلة بالمطالب والشروط التى كان على سوريا تلبيتها بصورة شبه فورية أو أن تتحمل نتائج الانتظار والمجازفات والمخاطر التى يمكن أن تترتب على الانتخابات الإسرائيلية المبكرة. وفيما يلى أبرز المطالب والشروط التى رافقت المبادرة المذكورة:

(١) اجتماع قمة يكاد يكون فوريا مع الرئيس الأسد، على أن ينعقد فى القدس كخيار أول أو فى دمشق كخيار ثان أو فى واشنطن كخيار ثالث. فى الواقع لم يجعل بيريس استمرار المفاوضات الجادة على المسار السورى متوقفة على مثل هذا الاجتماع وحسب، بل مضى إلى حد اعتبار القمة «الاختبار الحاسم» (حسب توصيف رابينوفيتش) لأى اتفاق سلام مع سوريا.

(٢) تحويل هضبة الجولان إلى منطقة اقتصادية حرة أو منطقة تنمية اقتصادية أو كليهما، كجزء من الشرق الأوسط الجديد الذى أخذ بيريس يدعو إليه من جانب واحد.

(٣) إنشاء وتطوير مشروعات اقتصادية ومصالح مشتركة فى المناطق المحيطة بالحدود بين البلدين بحيث تشكل المعيار الأهم لـ «نوعية السلام الآتى وعمقه».

(٤) إنشاء منظمة أمن إقليمية تحت إشراف أمريكا ورعايتها يتم طرحها تحت اسم «خطة كلينتون».

فى دمشق ما كان لمبادرة بيريس هذه أن تجد أية آذان مصغية بسبب من إهمالها لحقيقة بسيطة وهى أن سوريا دولة أمينة على جميع المستويات مما يعنى أن درجة سيطرة الهم الأمنى فيها وعليها لا تقل أبدا عن درجة سيطرته فى إسرائيل وعليها. لذا من الطبيعى أن تجد سوريا استيعاب اتفاقية سلام قائمة على الأمن، الذى تفهمه سوريا وتعرف كيف تتعامل معه جيداً، أسهل عليها بكثير من استيعاب اتفاقية مثقلة بخطط ومشروعات اقتصادية مضخَّمة تعرف سوريا أنها غير جاهزة للتعامل معها. من هنا الاعتقاد الذى ساد دمشق بعدم جدية المبادرات الإسرائيلية هذه كلها لأن إسرائيل نجحت بالفعل فى تفتيت جبهة المفاوضات العربية وفى تعزيز اتفاقاتها على المسارات العربية الأخرى وتثبيتها عازلة بذلك سوريا وتاركة إياها وحيدة حتى نهاية عملية التفاوض مع العرب بأكملها.

جاء رد ثالث على التهم الموجهة إلى سوريا بإضاعة أكثر من فرصة لتحقيق السلام واستعادة الجولان بقلم باتريك سيل مرة أخرى وذلك فى ثلاث مقالات نشرتها له صحيفة «الحياة» (نوفمبر ٢١ و ٢٢ و ٢٣، ١٩٩٩). بعد أن راجع سيل مسار المفاوضات السورية - الإسرائيلية استنتج بأن العرض الذى وجهه رابين إلى الأسد قبل تبنيه العلنى والصريح للاختراق الحاصل على المسار الفلسطينى فى أوسلو لم يكن فى حقيقته إلا «حيلة» أو خدعة سياسية من جانب رابين غرضها تغطية قراره المسبق بالسير قدما على المسار الفلسطينى استنادا إلى أوسلو وترك المسار السورى للمستقبل. كان رابين يحتاج إلى مثل هذه التغطية، وفقا لسيل، أولا لأنه لم يكن يعتبر أن لديه تفويضا من الشعب الإسرائيلى بالانسحاب الكامل من الجولان وثانيا، لأن الطرف الأمريكى كان يضغط وقتها باتجاه تحقيق اختراق هام على المسار السورى.

أما بالنسبة لفرصة استعادة الجولان الثانية والتى يقال أن سوريا أضاعتها عند استلام بيريس السلطة، فإن باتريك سيل يتفق مع وليد المعلم فى الرد عليها مع إضافة ألقى فيها بالمسئولية على عاتق بيريس بالنسبة لجلب الهجمات الانتحارية الإسلامية الشهيرة على الإسرائيليين حين أذن الأخير للمخابرات باغتيال خبير المتفجرات فى حماس يحيى عياش (المعروف بالمهندس) على الرغم من أن المهندس كان قد علّق نشاطاته كلها منذ ما يزيد على السنة.

يجب ألا تفوتنى الإشارة إلى



من الطبيعى أن تجد سوريا استيعاب اتفاقية سلام قائمة على الأمن، الذى تفهمه سوريا وتعرف كيف تتعامل معه جيداً، أسهل عليها بكثير من استيعاب اتفاقية مثقلة بخطط ومشروعات اقتصادية مضخَّمة تعرف سوريا أنها غير جاهزة للتعامل معها. من هنا الاعتقاد الذى ساد دمشق بعدم جدية المبادرات الإسرائيلية هذه كلها



من المؤسف أن لطفي الخولي توفي قبل وصول باراك إلى السلطة في مايو ١٩٩٩، إلا أن هناك إجماعا بين مراقبي عملية السلام في دمشق في الوقت الراهن على أن فكرة كوبنهاجن وما دار حولها من جدل قد خدمت أغراضها بشكل ممتاز. صحيح أنه أثناء الجدل كان الاتجاه العام في سوريا منتقداً للفكرة ومشروعها، بل معاديا لهما. مع ذلك حدث تطور سوري كبير مع بداية الحملة الانتخابية الإسرائيلية الجديدة

صورة معينة للرئيس الأسد يجرى تداولها في الوقت الحاضر في أجواء المفاوضات السورية - الإسرائيلية - الأمريكية. تقدّم هذه الصورة الرئيس السوري على أنه زعيم شديد الحذر إلى درجة إعاقة الذات، وعلى أنه حاكم وسياسي متردد، مليء بالشكوك من كل شيء، مماطل إلى حدود إضاعة الفرص الذهبية لتحقيق أهدافه، مسكون بالشكل والشكليات والاعتبارات الإجرائية أكثر بكثير من المحتوى والجوهر الخ....

من ناحية أخرى، لاشك ان صفات مثل الحذر والشك والتردد والتروي والإصرار على سلامة الشكليات تُعدُّ في دمشق مزايا هامة جداً لابد من التحلي بها عند تعامل رئيس دولة مثل سوريا مع دول مثل الولايات المتحدة وإسرائيل. يضاف إلى ذلك أن مثل هذه الصورة تبقى مُضلِّلة إلى حد بعيد، لأن دمشق كلها تعرف أن الرئيس الأسد كان قادرا في لحظة الأزمات الكبيرة على القرارات الحازمة وعلى المبادرات الجريئة وعلى الأفعال الحاسمة حتى لو كانت كلها غير شعبية داخليا وعربيا. لحظة اتخاذها ووضعها موضع التنفيذ، مع العلم بأن التطورات اللاحقة أثبتت، في النهاية، نجاعتها وفعاليتها وبعد النظر الكامن خلفها لكونها صادرة عن تقدير ممتاز لموازين القوى الإقليمية وميولها وللاتجاهات الدولية ومناخيها المرجحة. أما الأمثلة على ذلك فهي حية في ذاكرة كل سوري وأهمها:

(١) التدخل السوري المسلح في الحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٩٧٦ إلى جانب حزب الكتائب ضد حلفاء سوريا الطبيعيين والتقليديين في لبنان، ومن بينهم الفلسطينيون.

(٢) القضاء بسرعة على التمرد الإسلامي المسلح في أوائل الثمانينيات.

(٣) التدمير الجسور لمعاهدة السلام اللبنانية الإسرائيلية المنفصلة التي رتَّبها وقتها وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز من وراء ظهر سوريا وعلى حسابها سنة ١٩٨٤.

(٤) التحالف الذي لم يتزعزع مع إيران أثناء الحرب العراقية الإيرانية، في وقت كان العالم العربي بأسره والغرب يقفان مع صدام حسين بقوة.

(٥) المشاركة الجريئة في حرب الخليج إلى جانب التحالف الغربي في حملته لتحرير الكويت.

في منتصف ولاية نتنياهو، ثار جدل حاد من جديد في العالم العربي كانت مصر وسوريا بؤرتيه. وهذا هو ما يعرف بمناقشات كوبنهاجن. ومرة أخرى لم يكن للنظام الحاكم في سوريا دخل كبير في بدء الجدل أو في مسيرته وتطوره، وإن استغل المتنازعون الإعلام المحلي في عرض وجهات نظرهم. فما هي معركة كوبنهاجن هذه؟

نتيجة الاستياء العربي الحاد من نتنياهو وسياساته أخذت حقيقة نوعية جديدة تتبين وهي أنه أصبح للطرف العربي الآن مصلحة حيوية في من يحكم إسرائيل وفي أي حزب يمسك بزمام السلطة هناك، حتى في سوريا أخذ إحساس ينمو فينا بأن الحكمة المحلية التقليدية القائلة بأنه لا فارق بين حزبي العمل والليكود في القضايا الجوهرية قد عفى عليها الزمن ولم يعد لها أية صلة بالواقع الجديد في منطقتنا. لذا أخذت شئون إسرائيل الداخلية تحظى باهتمام نوعي جديد وصميم في دمشق مما لم تعرفه العاصمة السورية سابقا.

في هذا المناخ، بدأ عدد من المفكرين المصريين البارزين - على رأسهم الكاتب والصحفي والناشط الشهير لطفي الخولي - بالإعداد لمؤتمر مع زملاء لهم من الفلسطينيين والأردنيين والإسرائيليين يعقد في كوبنهاجن، لمعرفة ما يمكن عمله بشأن التخلص من نتنياهو وإرجاع حزب العمل للحكم وإعادة عملية السلام، بالتالي، إلى مسارها مرة أخرى. وكانت تلك هي المرة الأولى بالفعل التي ينظم فيها العرب علناً وصراحة اجتماعا بغرض التأثير مباشرة على اختيار الحكومة الإسرائيلية. واضح إذن أنه لم يعد بالإمكان تمويه أو تصعيد أو تبديد الإحساس بأن للجانب العربي مصلحة حقيقية الآن في من يحكم إسرائيل. مع ذلك كان الجدل العربي بشأن مبادرة كوبنهاجن وهدفها وبرنامجها كبيرا ومتنوعا وانفعاليا وشرسا في كثير من الأحيان وبلغت هذه المناقشات ذروتها في المواجهة التي تمت على الهواء بين لطفي الخولي من ناحية والأمين العام لاتحاد الكتاب العرب في سوريا علي عقلا عرسان من ناحية ثانية وذلك في البرنامج التلفزيوني «الاتجاه المعاكس» الذي تبثه أنجح المحطات التلفزيونية الفضائية في العالم العربي حالياً، وهي قناة الجزيرة ومقرها دولة قطر.

من المؤسف أن لطفي الخولي توفي قبل وصول باراك إلى السلطة في مايو ١٩٩٩، إلا أن هناك إجماعا بين مراقبي عملية السلام في دمشق في الوقت الراهن على أن فكرة كوبنهاجن وما دار حولها من جدل قد خدمت أغراضها بشكل ممتاز. صحيح أنه أثناء الجدل كان الاتجاه العام في سوريا منتقداً للفكرة ومشروعها، بل معاديا لهما. مع ذلك حدث تطور سوري كبير مع بداية الحملة الانتخابية الإسرائيلية الجديدة: لم يحدث من قبل أن تتبعت سوريا الرسمية والشعبية انتخابات إسرائيلية بهذا القدر من الترقب، وناقشتها بهذا العمق، وراقبتها بهذه العناية كما تتبعت المنافسة بين باراك ونتنياهو وناقشتها وراقبتها، قد لا أكون مبالغا كثيرا إن قلت إن دمشق تتبعت المنافسة الانتخابية الإسرائيلية هذه المرة وكأنها شأن داخلي. ومما أثار سخط البعض أنه بات واضحا للكل أنه حتى سوريا أصبح لها مصلحة حيوية مباشرة في نتائج الانتخابات الإسرائيلية.

استقبلت دمشق انتصار باراك بارتياح غير معتاد مع تحسن في التوقعات المتعلقة بالسلام وعملية السلام. ومما أدهش معظمنا أن تبادل الابتسامات والمجاملات بين الرئيس الأسد ورئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد مرّ مرور الكرام دون استنكار سواء كان في العلن أو في الجلسات الخاصة.

تبين لي في تلك اللحظة أن سوريا ربما تجاوزت مزاج التسليم الرواقي المترفع بشر لابد منه اسمه السلام مع إسرائيل فلو أن الرئيس الأسد مدح رئيس وزراء إسرائيل في مرحلة الاتصالات اللاحقة على مؤتمر مدريد، على سبيل المثال، لدهش المراقبون في دمشق كما لم يدهشوا من قبل، ولتلقوا الخبر باستهجان وقلق شديدين. ولكن عندما مدح الأسد باراك بعد فوز الأخير في انتخابات مايو ١٩٩٩، اندهشت دمشق من نفسها لأنها تعاملت مع الخبر ببرود واعتياد، وكأن الحكاية برمتها مسألة طبيعية. والأمر الأكثر إفصاحاً هو أنه لم يثر أي جدل حتى الآن بشأن قضايا تطبيع العلاقات، على سبيل المثال، كما لم نسمع عن أية استنكارات من النوع الذي واجهته فكرة كوبنهاجن.

في الوقت الراهن تنظر دمشق إلى الفاصل الذي قضاه نتنياهو في الحكم بثلاث طرق مختلفة: أولا: على أنه شر كان لابد منه للجمع بين الطرفين ولتعميق الدرس بأن هناك فرقا كبيرا بين حزبي العمل والليكود عندما يكونان في السلطة، وثانيا: على أنه مخطط امبريالي - استعماري ومؤامرة صهيونية - يهودية لجعل حزب العمل يبدو مقبولاً ومتساهلاً في نظر سوريا والعرب، وثالثا: على أنه مثال على «مكر التاريخ» (كما يقول الفيلسوف هيجل) وهو يشق طريقه في اتجاه تسوية سلمية مع إسرائيل. والآن يفكر بعض الماركسيين الهيجليين في احتمال نشوء تركيب شرق أوسطي أعلى جديد نتيجة التجاوز التاريخي للأطروحة العربية القديمة من ناحية وللأطروحة الإسرائيلية المضادة والأجد، من ناحية ثانية.

كما يرى بعض المثقفين في دمشق أن سقوط نتنياهو يشير أيضا إلى درس من نوع آخر. فعندما دخل هذا الرجل المعترك الانتخابي للمرة الأولى قيل الكثير عنه باعتباره شخصية تلفزيونية هائلة، وعن مقدرة أجهزة الإعلام في الوقت الحاضر على صنع المرشحين والسياسيين والقادة والزعماء أو على تدميرهم بغض النظر عن البرامج التي يحملونها أو القضايا التي يمثلونها أو المواقف التي يتخذونها، أو المؤهلات التي يتميزون بها. قيل الكثير أيضا - وبخاصة من قبل بعض دكاترة الإعلام وخبرائه من البعد حداثيين - كيف أنه لم يعد من شيء مهم في العمل السياسي هذه الأيام سوى الصورة الخارجية، والمظهر التليفزيوني المناسب، والتلاعب الإعلامي الشاطر، والكلام التبسيطي المخاتل لكن ها هو نتنياهو يسقط سقوطًا مدويا على الرغم من كونه صاحب الشخصية الإعلامية الأنجح بامتياز، والصورة الخارجية الأفضل بما لا يقاس، والمظهر التلفزيوني الأكثر روعة، والتلاعب الإعلامي الأرقى، والكلام التبسيطي الأكثر مخاتلة وخداعاً. واضح إذن أنه خلافا لهذا اللغو الإعلامي مازالت البرامج السياسية والقضايا الساخنة والمواقف المدروسة ومسائل الحرب والسلم هي الحاسمة في العمل السياسي في منطقتنا من العالم على أقل تقدير.

معروف أن سوريا متصلبة بشأن استعادة كامل هضبة الجولان - حتى خط يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ - مقابل إبرام اتفاقية سلام مع إسرائيل والموافقة على الترتيبات الأمنية المطلوبة وعلى إقامة علاقات سلم عادية بين البلدين.

أما الجانب الإسرائيلي فإنه يطرح انسحابا من الجولان إلى الحدود الدولية بين فلسطين وسوريا كما رسمها كل من الانتدابين البريطاني والفرنسي سنة ١٩٢٣. وتحتج إسرائيل هنا بسابقة إرجاعها سيناء بالكامل استنادا إلى الحدود الدولية بين مصر وفلسطين كما رسمها الحكم الاستعماري البريطاني في مصر بالاتفاق مع السلطات العثمانية في فلسطين سنة ١٩٠٦. واضح أن الانسحاب الإسرائيلي إلى الحدود الدولية فقط سوف يحرم سوريا من تواجدها السابق في الزاوية الشمالية الشرقية من بحيرة طبريا ومنطقة الحمة المذكورة سابقا.

بالنسبة للجانب الأمريكي في المفاوضات، فإنه يعمل على التوفيق بين هذين المفهومين للانسحاب الكامل من الجولان عبر طرح صيغة من صيغ «الغموض الأمريكي البناء» المعروفة بحيث يتفق الطرفان المتفاوضان على خط مناسب للانسحاب ثم يجرى اعتبار ذلك، أولا بمثابة الانسحاب الإسرائيلي المطلوب إلى خط ٤ يونيو ١٩٦٧ وثانيا، بمثابة الحدود الدولية بين الدولتين على سبيل المثال، ما كان بالإمكان عودة سوريا وإسرائيل إلى طاولة المفاوضات في واشنطن في نهاية العام الماضي لولا لجوء الرئيس كلينتون مرة أخرى إلى صيغة من صيغ الغموض البناء بإعلانه يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٩ استئناف المفاوضات السورية الإسرائيلية «من النقطة التي توقفت عندها» متعمداً عدم ذكر أي شيء محدد أو مفيد عن طبيعة النقطة التي انقطعت عندها مفاوضات ميرلاند في مارس ١٩٩٦. أما الداعي الأساسي لهذا النوع من «الإعلان الغامض» فيكمن في التأكيدات السورية التالية:



فى واحـدة من أكثر الرسائل الصادرة عن دمـشق تفـاؤلا منذ انهـيار المحادثات السـورية الإسرائيلية فى يونيو الماضى، قال نجل الرئيس حـافظ الأسد فى مقابلة معه إن اتفاقا للسلام مازال ممكنا وإن الوقت لم يتأخر والزمن لم يفت بعد، كـمـا أن المواقف التى يجب اتخـاذها والعمل عليهـا معـروفـة بالتفصيل وهناك حـاجـة لاتخـاذ قـرار والوقت المتوفر كاف لاتخاذه (١٨ ابـريـل ٢٠٠٠)

(أ) لو لم يتعهد رئيس الوزراء رابين سنة ١٩٩٣ بالانسحاب إلى خط الرابع من يونيو ١٩٦٧، لما سمحت سوريا أصلاً باستمرار المفاوضات بشأن كل القضايا والتفاصيل الأخرى قيد البحث. (ب) إن هذا التعهد السرى جدا والذى نقله وزير الخارجية وارن كريستوفر للرئيس الأسد، أخذ شكل وثيقة مكتوبة مودعة لدى وزارة الخارجية الأمريكية. (ج) مع أن كريستوفر أبلغ الأسد فى ديسمبر ١٩٩٥ باستمرار تعهد بيريس بـ «وديعة رابين» فقد انسحب بيريس رغم ذلك من مباحثات السلام فى ميرلاند ودعا إلى انتخابات مبكرة. (د) لذلك فإن سوريا لن تستأنف المفاوضات مع إسرائيل إلا من النقطة التى توقفت عندها ـ أى «وديعة رابين» ولابد من النظر إلى هذا الإصرار السورى فى ضوء حقيقة هى أن نتنياهو كان قد انتخب على أساس برنامج يرفض صراحة الانسحاب من هضبة الجولان.

يضاف إلى ذلك موقف سوريا الثابت من أنه مادامت الجولان أرضا محتلة، فإن تسوية مستقبلها يجب أن تنبع من مبادىء القانون الدولى وليس من مبادىء السيادة الإسرائيلية. بعبارة أخرى ليس هناك ما يدعو إلى طرح أية اتفاقية سورية إسرائيلية بشأن الجولان لاستفتاء شعبى أو لإقرار من الكنيست.

جدير بالإشارة كذلك أن باراك لم يعترف علنا ورسميا بوجود وثيقة اسمها «وديعة رابين» وبالتزام بالانسحاب الكامل من الجولان (إلى نقطة قريبة جدا من خط الرابع من يونيو ١٩٦٧) فى مقابل مراعاة سوريا لحاجات إسرائيل الأمنية ومطالبها التطبيعية، إلاّ فى ٢٧ فبراير من العام الجارى. أوردت صحيفة «النيويورك تايمز» خبر هذا الاعتراف على النحو التالى:

«أبلغ اليوم رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود باراك مجلس وزرائه أن إسحاق رابين.. كان قد قدم ضمانات بأن إسرائيل سوف تنسحب انسحابا كاملا من مرتفعات الجولان مقابل التزامات أمنية من سوريا... وبدا السيد باراك وكأنه يؤكد ما كانت قد أكدته سورية طويلاً ـ وهو أن السيد رابين قد ترك «وديعة» لدى الأمريكيين، وهى عبارة عن وعد بإتمام انسحاب كامل إن لبت سوريا مطالب إسرائيل بشأن الأمن». (٢٨ فبراير ٢٠٠٠)

على الرغم من ذلك كله أظهر الجانب السورى مرونة فائقة جداً فى المفاوضات التى جرت فى بلدة شيبردزتاون فى ولاية فيرجينيا الغربية فى مطلع العام الجارى وذلك فى محاولة جديدة لاختبار نوايا إسرائيل بدقة وبالعمق بالنسبة لتنفيذ الشق الثانى من مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل». ويمكننا استشفاف هذه المرونة، ورد الفعل الإسرائيلى السلبى عليها، من مسودة اتفاقية السلام» التى صاغها الطرف الأمريكى، استنادا إلى ما جرى فى المباحثات، وسلّمها إلى الوفدين المتفاوضين قبل مغادرتهما الأراضى الأمريكية.

وجدير بالإشارة هنا أن تسريبا جزئيا لمحتويات الوثيقة الأمريكية جرى إلى صحيفة «الحياة» بتاريخ ٩ يناير، تبعه نشر نصها الكامل فى صحيفة «هاآرتس» الإسرائيلية بتاريخ ١٣ منه. وواضح من هذه الوثيقة أن سوريا تعاملت بمنتهى المسئولية والرزانة والمرونة مع المطالب الإسرائيلية الأساسية وأهمها:

(أ) الاعتراف من جانب سوريا بأن خط الرابع من يونيو ١٩٦٧ هو خط عسكرى وليس حدودا وأنه قابل للتعديل وفقا للطبيعة الجغرافية والطوبوغرافية للأرض (الحياة ٩يونيو٢٠٠٠) لذا علّقت صحيفة «هاآرتس» على هذه المسألة فى تقديمها لنص مسودة المعاهدة بقولها: «وفقاً للوثيقة الأمريكية لا يوجد خلاف بين سوريا وإسرائيل حول عدم وجود خط حدود واضح بين البلدين (١٣يناير٢٠٠٠).

(ب) الموافقة على إنشاء محطة أرضية للإنذار المبكر فى جبل حرمون (جبل الشيخ) تكون تحت الإشراف الأمريكى والفرنسى المشترك بالكامل.. أو وفقا لنص مسودة المعاهدة: «السماح بإمكانيات للإنذار المبكر بما فى ذلك محطة أرضية للإنذار المبكر فى جبل حرمون يجرى تشغيلها من جانب الولايات المتحدة وفرنسا على مسئوليتهما الكاملة وتحت إشرافهما التام». جدير بالذكر هنا أن محطة المراقبة الأرضية كانت محط خلاف حاد بين سوريا وإسرائيل حتى بعد انقطاع مفاوضات ميريلاند فى مارس ١٩٩٦.

(ج) يتناول البند الثالث من مسودة المعاهدة قضية علاقات السلم العادية (أى التطبيع) بين البلدين بتوسع كبير وبأدق التفاصيل وتتراوح النقاط الوارد ذكرها فى النص بين إقامة علاقات دبلوماسية كاملة وتبادل السفراء من ناحية وحرية السياحة والسفر والتجارة من ناحية ثانية. مرورا بالطرقات والسكك الحديدية والمرافىء والشحن والطيران المدنى والبريد والبرق والهاتف والفاكس والتلكس والكهرباء واللاسلكى إلى آخر اللائحة الطويلة الواردة فى البند الثالث من المسودة.

بالمقارنة مع هذه المرونة السورية غير المسبوقة قام الجانب الإسرائيلى:

(أ) بتعطيل اجتماعات وأعمال اللجنة المشتركة المسئولة عن رسم الحدود بين البلدين فى الوقت الذى اجتمعت فيه اللجان الأخرى، أى اللجان المسئولة عن قضايا المياه والأمن والتطبيع. هذا على الرغم من أن مسودة المعاهدة تنص تحديداً وصراحة على أنه تم تشكيل لجنة مشتركة للحدود» ولا تنص على تشكيل اللجان الأخرى. إضافة إلى أن الاتفاق كان قد تم فى واشنطن عند إنشاء هذه اللجان فى ديسمبر ١٩٩٩ على أن تجتمع كلها متزامنة وتقوم بوظائفها فى وقت واحد أى بحيث تعمل كل لجنة بشكل متواز مع باقى اللجان وقد ذكرت بعض المصادر الموثوقة بها والمطلعة أن باراك عطّل عمل لجنة الحدود. بمسايرة من الرئيس كلينتون، لأنه يرفض البحث فى موضوع رسم خط الحدود إلاّ مع الرئيس حافظ الأسد شخصيا. يعنى هذا بدوره بقاء الشرط الإسرائيلى المسبق لحدوث اختراق حقيقى على المسار السورى على حاله، أى موافقة سوريا على عقد اجتماع قمة بين الأسد وباراك.

(ب) بالحئول دون ورود عبارة «الانسحاب» فى نص مسودة المعاهدة كلها وبأى شكل من الأشكال والاستعاضة عنها بعبارة «إعادة تموقع القوات الإسرائيلية» (Relocation) على الرغم من أن عملية التفاوض برمتها كانت تجرى لإيجاد الصيغ العملية المناسبة لتطبيق مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» على الأرض.

(ج) بترك مسألة جلاء المستوطنين من الجولان عالقة وغامضة فى نص مسودة المعاهدة وكأن «الانسحاب» الكامل هو إعادة تموضع عسكرى فقط لايطال بالضرورة الاستيطان المدنى أيضا.

لم أفاجأ على الإطلاق حين رد الرئيس الأسد فى قمة جنيف مع الرئيس كلينتون فى شهر مارس المنصرم الصاع صاعين للطرفين الأمريكى والإسرائيلى بسحبه جملة وتفصيلا المرونة كلها التى كانت سوريا قد أبدتها فى مفاوضات شبردزتاون مما أدى إلى إخفاق الاجتماع وخروجه بلا نتائج ملموسة.

حين كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تصف موقف الرئيس الأسد فى قمة جنيف الأخيرة بـ «العناد» و «التحجر» و «التصلب» و«التمترس» وما إليها. كانت دمشق ترى فى صلابته رداً مناسبا على ما حدث فى مفاوضات واشنطن وشيبردزتاون وتصفية لحسابات ظلت عالقة لغير مصلحة سوريا فى تلك الجولة من المحادثات.

وجدير بالملاحظة كذلك أنه ما أن تمت تصفية الحسابات المذكورة حتى عادت سوريا للتعبير عن رغبتها فى تجديد المباحثات لإيجاد الصيغ العملية الملائمة لتطبيق مبدأ «السلام الكامل مقابل الانسحاب الكامل» على الأرض. خاصة بعد اضطرار إسرائيل المشهود للخروج من جنوب لبنان بقرار من طرف واحد وهو القرار الذى حاولت إسرائيل تجنبه والتهرب منه لأطول فترة ممكنة.. على سبيل المثال. حين اقترح وزير الدفاع اللبنانى أن ترافق قوات سورية الجيش اللبنانى عند دخوله الجنوب للحلول محل قوات الاحتلال المنسحبة قتل وزير خارجية سوريا، السيد فاروق الشرع. الفكرة من أصلها وفى بيروت ذاتها بإعلانه أننا نسير نحو السلام والمفاوضات وليس الحرب.

وفى الفترة ذاتها أجرت مجلة «الوسط» مقابلة مطولة مع الدكتور بشار الأسد تناول فيها عملية السلام بطريقة إيجابية جدا جعلت صحيفة النيويورك تايمز» تكتب عنها وتصفها بالعبارات التالية: فى واحدة من أكثر الرسائل الصادرة عن دمشق تفاؤلا منذ انهيار المحادثات السورية الإسرائيلية فى يونيو الماضى. قال نجل الرئيس حافظ الأسد فى مقابلة معه إن اتفاقا للسلام مازال ممكنا وإن الوقت لم يتاخر والزمن لم يفت بعد، كما أن المواقف التى يجب اتخاذها والعمل عليها معروفة بالتفصيل وهناك حاجة لاتخاذ قرار والوقت المتوفر كاف لاتخاذه (١٨ ابريل ٢٠٠٠).

بعد أن صار الدكتور بشار الأسد رئيسا للجمهورية العربية السورية. تدل المؤشرات كلها على أنه لم يتراجع عن موقفه هذا.

منذ وصول باراك للسلطة يلاحظ متابعو عملية السلام فى دمشق أن عددا من خطوط الاهتمام تتضافر وتتقاطع باتجاه التوصل إلى اتفاقية سلام فى المستقبل القريب. ومن بين خطوط الاهتمام هذه:

(١) تعهدات باراك العلنية بالتفاوض بشأن إطار لتسوية دائمة مع الفلسطينيين وإنهاء مفاوضات الوضع النهائى قبل نهاية عام ٢٠٠٠ بالإضافة إلى انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان بحلول يوليو من العام نفسه، على أساس اتفاق مع سوريا إن أمكن، ومن جانب واحد إذا دعت الضرورة لذلك.

(٢) الموعد النهائى الذى حدده عرفات لإعلان الدولة الفلسطينية قبل نهاية العام الحالى.

(٣) الرغبة الشديدة الواضحة لدى الدول العربية الرئيسية (مصر والمملكة العربية السعودية والجزائر والمغرب) بالانتهاء من عملية السلام فى الشرق الأوسط برمتها بأسرع ما يمكن.

(٤) رغبة الرئيس كلينتون الطبيعية فى إنهاء فترة رئاسته بنجاح كبير ودائم فى منطقة شديدة الاضطراب والحيوية مثل الشرق الأوسط.

(٥) رغبة سوريا فى إنهاء الصراع بشروط معقولة لكى تنتبه لمشاكلها الداخلية وللإصلاحات الملحة المطلوبة فى ضوء الضغوط المتزايدة التى يمارسها النظام العالمى المعولم لما بعد الحرب الباردة.

أخيرا حين يحل السلام، لن يكون ساعتها سلام الشجعان بقدر ما هو سلام المتعبين والمنهكين والمستهلكين. ■

طلاق امبراطورة!

أظهرت لى تحرياتى أن الأسرة المالكة الإيرانية اغتبطت اغتباطا بزواج ولى العهد من فوزية، وأنها رحبت ترحيبا حارا، وأن الشاه الوالد - رضا بهلوى - أحبها حبا جما وأحاطها بعنايته وحنانه، وأنه بلغ من شدة تعلقه بها وحدبه عليها، أنه أضحى يتفاءل بوجودها بالقرب منه

كريم ثابت

«لما أعلن طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية لم يعرف الناس أسبابه، بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية، وفوزية نفسها لم تعرفها كذلك! هذه الفصول تميط اللثام لأول مرة عن هذه القصة الفريدة فى نوعها، وهى قصة تبدو فى بعض أجزائها أقرب إلى القصص الخيالية منها إلى القصص الواقعية، ومع ذلك أؤكد أنه ليس فى هذا العرض سطر واحد من نسج الخيال!

وفى وقائع هذه القصة يتجلى بأجلى مظهر أنه كانت فى فاروق شخصيتان مختلفتان تتنازعان السيطرة على إرادته ومشاعره».

كريم..

كانت للجناح الخاص بفاروق فى قصر «المنتزه» بالإسكندرية شرفة تطل على جانب من الحديقة والبحر معًا، ولا أعرف مناظر طبيعية كثيرة تضارع بجمالها ورونقها، المنظر البديع الذى كنت أراه أمامى كلما وقفت على تلك الشرفة وسرحت الطرف فى أرجاء تلك البقعة الساحرة، وكانت الليالى القمرية تعزز فتنتها وروعتها وتزيدها سناء وبهاء، فيخيل إلىّ أن قطعة مختارة من خليج «نابولى» قد انتقلت وارتمت فى أحضانها.

ولما وصلت فى تلك الليلة إلى «المنتزه» وصعدت إلى الجناح الخاص بالملك، دعيت إلى الانتظار على تلك الشرفة بأمر من فاروق ريثما ينتهى من ارتداء ملابسه، فتمنيت فى تلك اللحظة أن تمضى السهرة فى القصر، ولم تكن هذه أول مرة سألت فيها نفسى كيف يهجر فاروق هذه الجنة الصغيرة مع ما يمكن أن يتوافر فيها من أسباب التسلية ويؤثر عليها الأماكن التى يغشاها فى المدينة!

غير أنه اقبل علىّ «بالروب دى شامبر» ففرحت ورجوت أن يكون قد عدل عن الخروج من القصر فنستمتع بسهرة هادئة، وخصوصًا أن القمر كان بدرًا فى تلك الليلة فزاد ما حولنا فتنة وضياء.

وصافحنى فاروق صامتا، ولم يرد علىّ ما وجهته إليه من تحية، ولم تفتر شفتاه عن ابتسامة ما وأدركت أن هناك ما يهمه ويزعجه، فقد كانت هذه هى عادته فى لقائى متى كان مشغول البال، قلقا.

واتجه إلى سور الشرفة، واتكأ عليه، وحدّق النظر فى الفضاء كمن يتأمل فى شىء بعيد يسترعى انتباهه، ولكن نظراته وملامح وجهه كانت تنم عن أنه شارد الذهن، حزين، ثم أخذ يتأوه بصوت مسموع كالمكلوم، وهو صامت كئيب لا يتفوه بكلمة واحدة.

وكان الهدوء والسكون يخيمان على حدائق «المنتزه» فى تلك الساعة، فلم تكن الأذن تسمع سوى صوت الأمواج وهى تداعب الصخور وتعانقها، وصوت مسامير حذاء الجندى الذى يسير تحت الشرفة ذهابا وإيابا ليقاوم ضجره ويطرد نعاسه، فبدت لى كل دقيقة كأنها حقبة من الزمان، ولأول مرة شعرت فى ذلك المكان بوحشة حجبت عنى جماله وسحره، ولم يلبث هذا الشعور أن اقترن بانقباض شديد إذ أيقن أن فاروق يطوى صدره على نبأ خطير، وأن هذا النبأ ينذر بشر مستطير!

وحاولت أن أعين نوع هذا الشر، فعرضت فى ذهنى جميع «الموضوعات» التى يحتمل أن تنشئ له هذه الأزمة، فلم أجد بينها موضوعًا واحدًا يعلل وجومه ويفسر اضطرابه.

ففى حياته الخاصة كانت القطيعة تامة بينه وبين زوجته فريدة لا ينقصها سوى إمضاء وثيقة الطلاق. فلا يمكن إذن أن تكون علاقاته الزوجية مصدر هذه الكآبة الفجائية.. وكانت صحة بناته على ما يرام، فلا شاغل له إذن من هذه الجهة، ولا همّ.

أما فى حياته العامة، فكان على وفاق مع الوزارة القائمة، وليس فى أفق السياسة الداخلية أو الخارجية ما يزعجه أو يقلقه.

فما الذى يؤلمه إذن، وما الذى يفجعه؟

وإذا هو يقول بالفرنسية فجأة: إن شقيقتى فوزية تعيسة جدًا.

فاه بهذه العبارة من غير أن يلتفت إلىّ، واستمر يحدق فى الفضاء كأنه يخاطب القمر ولا يخاطبنى.

وأذهلنى ما سمعته منه، ولم يسعفنى الفكر فى تلك اللحظة بعبارة مناسبة أقولها.

فلزمت صمتى، واكتفيت بالاقتراب منه، وأرهفت سمعى، فإذا هو يقول بالعربية: «أنا المسئول»! وسكت.

فقلت: إنى لم أر مولانا على هذه الحالة قط.. فما الذى جرى.. وهل هناك شىء لا يمكن معالجته؟

واستهل حديثه عن شقيقته بقوله: إن فوزية تعيسة جدًا، وتعيش عيشة قاسية، عيشة كلها مرارة، وكلها نكد، وكلها شقاء، وكلها بكاء، وأنا المسئول عن ذلك!

فقلت: لنترك الآن الكلام عن المسئولية، فالحديث فيها لا يعالج الموقف، ولنبحث الأخبار التى وصلت إلى جلالتك لعلنا نهتدى إلى ما يمكن عمله.

فقال: لقد لخصت لك الأخبار التى بلغتنى حتى الآن.. إن فوزية تعيش فى جحيم. وهذه هى الأخبار!

فقلت: وهل أنت واثق من صحتها؟

فقال: ثقة تامة!

فقلت: هل هى من سفير مصر فى إيران؟

فقال: لا.. ولا يمكن للسفير أن يعرف المعلومات التى تضمنها التقرير السرى الذى تلقيته!

فقلت: ألا يحسن سؤال السفير عنها لربما أمكنه أن يحققها، ثم يوافى جلالتك بنتيجة تحقيقه، فيكون لديك سند يعتمد عليه.

فقال غاضبا: قلت لك إن لى ثقة تامة بمصدر التقرير!

فقلت: اعذرنى يا أفندم إذا عدت إلى الكلام فى هذه النقطة، فالموضوع خطير جدًا، ودقيق جدًا، ولذلك أعتقد أنه يتعين علينا أن نستوثق من صحة هذه الأخبار قبل أن نخطو أى خطوة، فإن الأمر أخطر من أن..

فلم يطق إلحاحى وقاطعنى قائلا: أنا أعلم غرضك.. أنت تريد أن تعرف اسم كاتب التقرير ولكنى لن أريحك، ويكفيك أن تعلم أنه شاب مصرى مقيم فى طهران ويتصل بالامبراطورة عن طريق آنسة مصرية مقربة إليها.. فهل يقنعك ذلك؟

فقلت: أود أن أقول أنه لو أرادت الامبراطورة أن تبلغ هذه الأخبار لجلالتك لأفضت بها إلى سفير مصر وكلفته إبلاغها لك.

فقال: ربما لم يتيسر لها ذلك.

فقلت: وهناك زوجة السفير. كان يمكنها أن تعطيها رسالة سرية لجلالتك.

فقال: ربما لم يتيسر لها هذا أيضًا. وانت لا تعرف فوزية.. إنها أعجز من أن تلجأ إلى أى حيلة من هذا القبيل.. وحتى لو أتيحت لها الفرصة لمنعتها أنفتها من الإفضاء بشكواها إلى السفير أو إلى زوجته!

فقلت: إذن جلالتك تطلب أن نصدق الأخبار التى وصلت إليك اليوم، كأنها أخبار رسمية ثابتة لا داعى لتحقيقها.

فقال: إن الخبر الخاص بمرض فوزية ليس جديدًا علىّ فإنى أعرف أنها كانت مريضة وأنها ضعيفة جدًا.

ثم استطرد يحدثنى عن ظروف زواجها فقال: كانت فوزية «خام» جدا وهى فتاة ولا تعرف عن الحب إلا اسمه، ومن المحقق أن حديثها مع أى شاب عرفته قبل زواجها لم يجاوز عبارات التحية. ولم يكن لها فى الزواج أو فى الرجل الذى تود أن تكون زوجة له رأى معين. فلما كاشفتها بفكرة زواجها من الشاه (وكان يومئذ وليا للعهد) قالت لى بهدوئها المعتاد: «إذا كنت تريد منى أن أتزوج به فليكن ما تريد». فقلت لها: إننى أود أن يتم هذا الزواج، ولكنى لا أجبرك عليه إن كنت لا تميلين إليه، فقالت: «ما دمت أنت تراه مناسبا، فلابد أن يكون كذلك» ثم أطلعتها على صورته، فابتسمت وقالت: «إنى لا أعرفه ولا أعرف غيره ولكنى أعتمد على رأيك وأعمل به» فقبلتها، وهنأتها، ورجوت لها زواجًا سعيدًا موفقًا، وأبلغت الشاه موافقتى على المشروع.

فصول من كتاب «طلاق امبراطورة» تأليف: كريم ثابت والذى صدر حديثا عن دار الشروق فى ١٣٦ صفحة

وبلما أنهى حديثه عن ظروف زواج فوزية من الشاه قلت له: ولكن ألم توافق فائزة على زواجها من محمد على رءوف بالطريقة نفسها؟

فقال: إننى لم أخف على فائزة يوما واحدا.. إنها ليست كفوزية.. إن فوزية بسيطة وعاقلة وتتحمل وتسكت وترضخ.. أما فائزة فقوية، وعصبية، وتعرف ما تريد، ولا يستطيع زوجها «أن يمشى لها على طرف»!

ولم ينتظر منى تعليقا على حديثه، وعدت إلى الفندق، وأنا أفكر طبعًا فيما سمعت.

وكنت لا أزال أقلب حديثه المحير على كافة وجوهه حين تغلب علىّ النعاس، فنمت وأنا أقول لنفسى: لو عرف الناس أحوال أصحاب القصور على حقيقتها!

انتهزت فرصة وجودى فى القاهرة فزرت بعض المفوضيات الأجنبية التى كان لى فيها أصدقاء تدور الأحاديث بينهم وبينى بصراحة. واستطلعتهم أخبارهم ومعلوماتهم عن الامبراطورة فوزية وحياتها فى طهران وعن نوع العلاقات القائمة بينها وبين زوجها الشاب.

وأظهرت لى تحرياتى أن الأسرة المالكة الإيرانية اغتبطت اغتباطا بزواج ولى العهد من فوزية، وأنها رحبت ترحيبا حارا، وأن الشاه الوالد - رضا بهلوى - أحبها حبا جما وأحاطها بعنايته وحنانه، وأنه بلغ من شدة تعلقه بها وحدبه عليها، أنه أضحى يتفاءل بوجودها بالقرب منه، ويحرص على أن تكون فى مقدمة الجالسين حوله إلى المائدة ساعة غدائه، حتى أنه لما دخل حجرة الأكل يوما وسأل عنها وقيل له أنها متخلفة لوعكة طارئة قطب حاجبيه واستغنى عن غدائه وعاد إلى مكتبه، ولم يهدأ له بال حتى أبلغوه أنها استردت عافيتها.

وكأنما أراد أن يساعدها على التأهب لليوم الذى يخلفه فيه زوجها على العرش فكان يقابل الوزراء أحيانا بحضورها، ويناقشهم فى شئون الدولة على مسمع منها!

هذا من جهة الوالد، وقد كان الوالد «كل شىء» فى إيران كما هو معلوم!

أما من جهة ولى عهده، فإن جميع الدلائل كانت تدل على أنه يحب عروسه، ويقدرها، ويحترمها، وأنه يبذل جهده لينسيها غربتها، وليعودها على حياتها الجديدة فى وطنها الجديد!

ولما ارتقى العرش، وغاب نفوذ الشاه الوالد عن القصر والبلاد، لم يطرأ تغيير ما على علاقات الشاه الشاب بزوجته وقد زادها توثقا تعلقهما بالابنة التى رزقاها.

تلك كانت خلاصة المعلومات التى وقفت عليها فى الدوائر التى زرتها!

وفجأة طاف بذهنى خاطر لا أدرى كيف شق طريقه إليه.

وإذا هذا الخاطر يقول لى: ألا يحتمل أن يكون لأحد مصلحة فى أن يلقى فى روع فاروق أن شقيقته تعيسة وشقية وأن يوقع بينه وبين «جلالة أخيه شاه إيران»! فكلنا يعلم المشكلات التى تواجهها إيران وما يكتنفها من مطامع دولية، وكلنا يعلم ما تعانيه بسبب المؤامرات والدسائس الخارجية، فلماذا لا تكون الأخبار التى نميت إلى كاتب التقرير شطرا من مؤامرة تدبر ببراعة ومهارة لإفساد الجو بين الامبراطورة والشاه، ومن ثم بين مصر وإيران، تحقيقا لأغراض يتوخاها أصحاب المؤامرة ومدبروها!



الشاه محمد رضا،
والأميرة فوزية..
صورة الزفاف

وبعد ما تأملت مليا في الاتجاه الجديد الذي اتجه إليه تفكيري لمت نفسي على استرسالي في الخيال، وحاولت أن أطرد هذا الخاطر من ذهني، فلم أفلح، وأخيرا اهتديت إلى حل يريح بالي: فمن جهة لا أغفل هذا الاحتمال ولا أستبعده، ومن جهة أخرى لا أجعله حجر الزاوية في بحثي.

ولما عدت إلى الإسكندرية، وقابلت فاروق، لاحظت تحسنا جليا في حالته العصبية المعنوية، وخيل إليّ أنه أكثر استعدادا لتحكيم العقل والمنطق في الموضوع الذي بات شغله الشاغل.

وحدثته عن زيارتي للمفوضيات التي تربطني ببعض رجالها صلة صداقة، ونقلت إليه المعلومات التي استقيتها منهم بإسهاب، ومع أنه كان يصغي إليّ بانتباه شديد لم يفتني أن أنوه غير مرة بأن معلومات تلك المفوضيات تناقض المعلومات الواردة في «التقرير» مناقضة تامة!

ولما أفرغت كل ما في جعبتي قال لي: ومن أين للذين زرتهم أن يعرفوا نوع العلاقات التي تقوم بين الشاه والامبراطورة؟

ثم قال: «مع تقديري للمجهود الذي قمت به لا زلت أصدق الأخبار التي وردت في التقرير الذي تلقيته!».

فقلت: ولكننا لا نستطيع أن نعتمد عليها اعتمادا كليا..

فقال: وما السبيل الى التحقق منها؟.. ألم أطلب منك أن تفكر في ذلك؟

فقلت: هناك خطة أخرى أرجو ألا أكون مخطئا إذا قلت أن تنفيذها يكفل معرفة الحقيقة من غير أن يثير شبهة ما، ومن غير أن يفطن أحد إلى الغرض الذي ترمي إليه جلالتك.

فقال: وماهي هذه الخطة؟

فقلت: أن تعلن الأميرة فائزة أنها بمناسبة قرانها، قررت أن تسافر إلى طهران لتزور الامبراطورة شقيقتها، ولتقدم عريسها لجلالتك ولجلالة الشاه.. وفي خلال هذه الزيارة العائلية الطبيعية، سوف يتسنى للأميرة فائزة أن تتقصى كل ما يهم جلالتك معرفته عن أحوال الامبراطورة فوزية وشئونها.

فقال: هذه فكرة حسنة.. سأخاطب الآن فائزة، وأطلب منها أن تحضر لمقابلتي غدا لأكلمها في الموضوع، فتتصل بفوزية وتبلغها عزمها على زيارتها، وتشرع فورا في الاستعداد للسفر إليها!

وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر الغد رن جرس التليفون الخصوصي في حجرتي بالفندق وإذا فاروق يقول لي: تعال حالا.. فقد وصلت إليّ أخبار جديدة!

فقلت: خيرا إن شاء الله.

فقال: سيئة جدا!

وقفل التليفون.

ولما دخلت الجناح الخاص به في القصر، التقيت بأحد حلاقيه فبادرني بقوله: الحمد لله اللي سعادتك جيت.. حاكم إحنا النهاردة في «ثورة»!

فسألته: من إمتى؟

فقال: من ساعتين.. من ساعتين ما شفناش الراحة دقيقة واحدة.

فقلت: وأين الشمشرجي النوبتجي؟

فقال: عند مولانا وسيخرج حالا.

ودخل فاروق فجأة الحجرة التي كنت جالسًا فيها، وقد امتقع وجهه امتقاعًا شديدًا وبدت على قسماته علائم الانفعال والقلق.

وكأنما رأى في السلام والمصافحة مضيعة للوقت فقال لي فورا: إن خطتك لم تعد تنفع، أعني أن سفر فائزة إلى طهران لم يعد ينفع، يجب علينا أن نبحث عن خطة جديدة!

ودعاني إلى الجلوس واستأنف حديثه قائلا: لقد تلقيت اليوم تقريرا جديدا من طهران

كانت فوزية خام جداً وهي فتاة ولا تعرف عن الحب إلا اسمه، ومن المحقق أن حديثها مع أي شاب عرفته قبل زواجها لم يجاوز عبارات التحية. ولم يكن لها في الزواج أو في الرجل الذي تود أن تكون زوجة له رأي معين، فلما كاشفتها بفكرة زواجها من الشاه (وكان يومئذ وليا للعهد) قالت لي بهدوئها المعتاد «إذا كنت تريد مني أن أتزوج به فليكن ما تريد»



الامبراطورة فوزية

من المصدر نفسه، وهو «ألعن» من التقرير الأول بمراحل، وإذا لم أعالج الموقف بسرعة فقد نواجه كارثة من أكبر الكوارث ونكبة من أعظم النكبات!

فقلت: هل أخبار التقرير الجديد خطيرة لهذه الدرجة؟

فقال: أخطر جدا مما تظن. وأخطر جدا مما كنت أنا نفسي أظن، إني حقيقة لا أعلم ماذا جرى لفوزية! ولولا ثقتي بكاتب التقرير لترددت كثيرا في تصديق ما كتبه لي عنها، ولكن يظهر أن تعاستها وخيبة أملها ولدتا فيها يأسًا وأن هذا اليأس دفعها إلى سلوك أخطر المسالك لعلها تنسى الجحيم الذي تعيش فيه!

فقلت: أليس هناك تفاصيل؟

فقال: التفاصيل كلها موجودة، وخلاصتها في كلمتين أن فوزية أحبت المعلم الذي يعلمها، وتعلقت به حتى أصبح له سلطان قوي عليها! فما رأيك في هذه المصيبة، ولكن دعني قبل ذلك أقول لك أن ما سمعته ليس كل شيء، فقد أضاف كاتب التقرير إلى ما تقدم أن فوزية تفكر في الفرار مع المعلم إلى جهة مجهولة، أملا منها بأن تجد في العيش معه السعادة التي هي محرومة منها الآن، فتصور الفضيحة العظيمة التي ستنشأ إذا أقدمت فوزية على ذلك، إن عقلي كاد يطير عند اطلاعي على هذه الأخبار! ولذلك قلت لك أن فكرة سفر فائزة إلى طهران لم تعد تنفع، فإن جميع الدلائل تدل على أن الحالة أسوأ مما قدرنا، وإن الأحداث تسير بسرعة لا تسمح لنا بمواجهتها بخطط بطيئة، فإلى أن تسافر فائزة إلى طهران، وإلى أن تصل إليها، وإلى أن تعود منها، وإلى أن تبلغني نتيجة بحوثها ومشاهداتها، وإلى أن نتخذ عندئذ التدابير

التي تقتضيها الحالة، تكون الكارثة قد وقعت!

فقلت: أية كارثة يا أفندم؟

فقال: إما موت فوزية أو فرارها مع المعلم.

يلوح لي أنك لا تقدر خطورة الموقف لأنك مصمم على التشكيك في صحة الأخبار التي جاءتني!

فقلت: عندي كلمة بسيطة أرجو من جلالتك أن تسمعها، فإما أن تكون الامبراطورة غير مراقبة وإما أن تكون مراقبة، فلو كانت غير محاطة بمن يرصد حركاتها لاستطاعت حتما أن تبلغك رسالة سرية عن الجحيم الذي قيل أنها تعيش فيه سواء كان ذلك عن طريق سفير مصر في طهران أو عن طريق زوجته، أما لو كانت محاطة بعيون تسجل تصرفاتها وتتعقب خطواتها، لما خفي على الشاه سر المعلم الذي يقول كاتب التقرير أنه استهواها.

فقال مدافعا عن التقرير: إن كاتب التقرير أبلغني ما سمعه، وهو يستحق الشكر على كل حال.

فقلت: إذا كان كاتب التقرير قد سمع ما ذكره في تقريره، فلا بد إذن أن يكون هناك من يعرف ما بين الامبراطورة وذلك المعلم، فهل يعقل في هذه الحالة ألا يكون الشاه على علم بالأمر، ثم إن مولانا نفسه أكد لي أن الامبراطورة أبسط من أن تلجأ إلى الحيل والخطط الخفية، فكيف يستقيم ذلك مع ما يعزى إليها الآن. وهل المرأة التي تعجز عن إبلاغ شقيقها رسالة سرية هي المرأة التي تستطيع أن تهرب مع رجل غريب وأن تكفل سلامة خطتها، لا تؤاخذني يا مولاي إذا قلت لك إنني لا أصدق هذه الرواية كلها!

فقال: إن شاء الله يصدق كلامك، وعلى كل حال وبقطع النظر عن هذه الرواية لا أرى ضررًا في أن أعمل شيئا سريعا لأعرف حقيقة حالة فوزية ونوع الحياة التي تحياها في طهران.

فقلت: هل فكرت جلالتك في تدبير معين؟

فقال: فكرت في «قلب» فكرة سفر فائزة إلى طهران، فبدلا من أن تسافر فائزة إلى طهران، لماذا لا نقترح على فوزية أن تستأذن من الشاه في القدوم إلى مصر للاجتماع بشقيقتها بمناسبة زواجها ولقضاء بعض الوقت مع أهلها، فتتيح لي هذه الزيارة أن أجلو حقيقة الموقف بنفسي من غير أن أثير شبهات الشاه وشكوكه، ولكن هل تظن أن الشاه سيسمح لفوزية بالسفر إلى مصر؟

فقلت: أرجح كثيرًا أن يوافق على ذلك، وخصوصًا إذا قالت له أنها تود أن تشاهد شقيقتها بمناسبة زواجها، وإن هذه الرحلة ستساعدها على الاستجمام بعد مرضها الأخير.

فقال: سنرى.

وقبل انصرافي من القصر اتصلت بالأستاذ أحمد يوسف «بك» السكرتير الخاص للملك واتفقت معه على موعد نجتمع فيه.

فقد كان أحمد يوسف أستاذ فاروق وشقيقاته في اللغة العربية، وكنت أقدر علمه وفضله تقديري لسماحته ورزانته.

ولما اجتمعت به طلبت منه أن يحدثني عن أخلاق فوزية وطبائعها كما عرفها منذ حداثتها. فقال: إنها كانت دائما فتاة «عاقلة» و«جد» و«قليلة الكلام جدا» وإنها كانت أكثر شقيقاتها رصانة وهدوءا وأقلهن حركة و«مرحا» حتى أن من يعرفها كان يظن أنها تشكو بعض «الكآبة» ولم يكن أحب إليها من أن تجلس في مكان هادئ منعزل وتمضي في المطالعة!

وأيدت لي مدام «تابوريه» المربية الفرنسية في حديثها عن فوزية ما ذكره لي عنها أحمد يوسف بالحرف الواحد تقريبا!

وسألت أحمد يوسف ومدام «تابوريه» هل يعتقدان، وقد عرفا فوزية معرفة جيدة وخبرا أخلاقها وطبائعها، أنها المرأة التي تقدم على

لم يستوقف نظرى في الامبراطورة عند نزولها من الطائرة سوى ضآلة جسمها، وكنت أعرف مما سمعته عنها أن «حبتها صغيرة» منذ نشأتها، وكنت من جهة أخرى أعلم أن مرضها الأخير أفقدها بعض وزنها، فلم أعر ضعفها اهتماما كبيرا

مغامرة غرامية محفوفة بالخطر والفضيحة، فاتفق رأيهما على أنها ليست المرأة التى تخطو خطوة واحدة فى هذا السبيل بحال ما!

وكانما أرادت مدام «تابوريه» أن تؤكد لى رأيها، فعادت وقالت بالفرنسية: فوزية.. محال.. محال.. ألف مرة محال!

وكان غرضى من هذا الحديث مع الأستاذ أحمد يوسف ومدام تابوريه أن «أقابل» بين فوزية كما وصفها لى شخصان «محايدان» عرفاها قبل زواجها، وبين فوزية كما سأراها عند قدومها إلى مصر، إذ قدرت أن هذه المقابلة لن تخلو من فائدة. وقد أثبتت لى الأيام فيما بعد أنها كانت ذات فائدة عظيمة على نحو ما سيرى القارئ فى الصفحات التالية.

وما كاد الشاه يُكاشف بفكرة سفر الإمبراطورة إلى مصر لزيارة أهلها ومشاهدة شقيقتها بمناسبة زواجها حتى رحب بالفكرة ووافق عليها!

ورأيت فى هذه الموافقة دليلا على أن لا خلاف بين الشاه وزوجته أو شقاق!

بل رأيت فيها دليلا على أن العلاقات بينهما عادية وطبيعية، وإلاّ ما سمح الشاه لزوجته بالسفر إلى مصر فى تلك الظروف!

أو على الأقل لما سمح لها بالسفر «بهذه السرعة»، وقد كان فاروق نفسه أول من دهش لها كما اعترف لى بذلك!

ورأيت فيها أبلغ دليل على كذب أسطورة غرام الإمبراطورة بالمعلم!

ومع أن فاروق لم يكن فى حاجة إلى من يبرر له معنى هذه الدلائل ومغزاها وجدت لذة خاصة فى التنويه بهما أمامه غير مرة.

ولم يمض يومان على وصول نبأ موافقة الشاه على الزيارة، حتى انضمت إلى الدلائل المتقدمة دلائل شتى أخرى، وفى مقدمتها ما أبدى البلاط الامبراطورى الإيرانى من اهتمام فائق ببحث تفاصيل استقبال الامبراطورة فى مصر مع البلاط الملكى المصرى عن طريق السفارة الإيرانية بالقاهرة.

وخطر لفاروق فى بادئ الأمر أن تحل الامبراطورة ضيفة عليه فى قصر «المنتزه» فهمس الجانب الإيرانى فى آذان المتصلين به من رجال البلاط المصرى بانه من الأوفق أن يعد لإقامة الامبراطورة قصر خاص، فتنزله محاطة بالحاشية التى ستصحبها من طهران.

ولما أخبر فاروق برأى الجانب الإيرانى قال: «ما دامت هذه رغبتهم فلنعمل بما يرضيهم «فقد أراد أن يتجنب كل ما من شأنه أن يؤخر الزيارة أو يلغيها، ولذلك كانت جميع أوامره إلى رجاله يذكرهم دائما بوجوب بذل أقصى ما يستطاع بذله لإرضاء السفير الإيرانى وتحقيق رغباته، وللحال شرعت الجهات المختصة فى استيفاء إعداد قصر «انطونيادس» ليكون تحت تصرف الامبراطورة وحاشيتها طول مدة إقامتها فى الإسكندرية، وهو القصر الذى استضاف الملوك والملكات الذين زاروا مصر رسميا فى عهد الملك فؤاد، ثم استضاف الملك فكتور عمانوئيل الثالث، وزوجته الملكة هيلانة، والملك ابن سعود، والملك عبد الله فى عهد فاروق.

وزار فاروق قصر انطونيادس بنفسه ليتحقق من أن جميع أسباب الراحة والرفاهية ستتوافر فيه للامبراطورة وحاشيتها، ولاحظ عند طوافه ببعض الصالونات أن حرير الستائر والمقاعد قد فقد بهجته، إما لقدم عهده أو لقلة العناية به فامر بتغييره، وقال: إنها فرصة حسنة لتجديد رونق أثاث القصر ورياشه.

وقبل أن تصل الامبراطورة إلى الإسكندرية بأيام اتصل بى «الشمشرجي النوبتجي» بالتليفون من قصر «المنتزه» وأبلغنى أن الملك يريد أن أذهب إليه فورًا، فسألته عن «الأحوال عندهم» فقال: «كان مزاجه رايق ثم اتلخبط فجأة بعد اطلاعه على تقرير ما أعرفش مصدره».

وكانت تعليماته هذه المرة أن أدخل عليه «بمجرد حضورى».. فألفيته متمددا على سريره وهو «يسلخ» الجلد المحيط بإبهام إحدى يديه حتى بدا منه الدم، وكنا نعرف فيه هذه الخصلة عندما يكون فى حالة عصبية شديدة، ولا يجد ما يلهيه فيعمد إلى تشويه بعض أصابعه بهذه الكيفية، وكانت «المانوكرست» التى تسوى له أظافره كل أسبوع تشكو هذه الخصلة ولكن بدون جدوى.

ودعانى إلى الجلوس على كرسى صغير قريب من سريره، وقال: أمامنا مصيبة جديدة!

فقلت: ألم ننته من المصائب بعد؟ بلاش ياأفندم كلمة «مصيبة» دى!

فقال: إن فوزية مصابة باضطراب عصبى شديد!

فقلت: اضطراب عصبى؟

فقال: قيل لى أنه اضطراب عصبى، ولكنى أظن أن حالتها أسوأ من ذلك وإن اصطلاح «اضطراب عصبى» استعمل لتلطيف الخبر وتخفيف وقعه فى نفسى.

فقلت: وهل وصل هذا الخبر إلى جلالتك من المصدر نفسه؟

فقال: نعم، فقد تلقيت منه اليوم تقريرًا جديدًا لم يتضمن سوى هذا الخبر المشئوم!

فقلت: من الغريب أنه لم يخبر به جلالتك فى التقريرين السابقين.

فقال: ربما لم يظهر عليها هذا العارض إلا أخيرًا، أو ربما لم يشأ أن يفاجئنى به وفضل أن يعد ذهنى لسماعه بما ذكره عنها فى التقريرين السابقين، أو ربما لما علم أنها ستحضر إلى مصر لم ير مفرا من مصارحتى بالحقيقة،وخصوصًا أنه أراد بهذه المناسبة أن ينصحنا نصيحة يشكر عليها فعلا، وهى أن نبعدها عن الناس فى بادئ الأمر بقدر الإمكان وأن نكون متيقظين لجميع حركاتها خوفا من حدوث أى حادث مكدر!

فقلت: معنى هذا بصراحة أنها مصابة بأكثر من اضطراب عصبى!

فقال: إذن أنت ترى مثلما أرى، أى أنه لابد أن تكون مصابة بأكثر من اضطراب عصبى، وإنما أريد تهوين الخبر علىّ.

فقلت: لا شك أن هذا هو ما يفهم من مدلول كلام المصدر الذى تعتمد عليه جلالتك. أما رأيى الشخصى، فهو أن الامبراطورة تتمتع بجميع قواها العقلية ولا تشكو من اضطراب ما، لا عصبيا، ولا عقليا، فلتطمئن جلالتك من هذه الناحية!

فقال: وعلام تبنى هذا الرأى؟

فقلت: على مدلول الحوادث ومنطقها، فهل تعتقد جلالتك أن الشاه كان يقبل أن تزور الامبراطورة مصر فى هذه الأيام لو كانت مصابة باى اضطراب من هذا القبيل؟ هل كانوا يطلبون أن يعد لها كل هذا الاستقبال وأن تقابل فى المطار بجميع هذه المراسم؟ لو كانوا يعلمون أنها مريضة وأنها بحركة صغيرة قد تخلق لهم فضيحة عالمية، إن هذا وحده لأعظم دليل على أن الامبراطورة سليمة من كل مكروه!

لما ذهبت فى الغد إلى المطار تعمدت أن أطيل الوقوف مع سفير إيران وأنا أتفرس فى ملامح وجهه، فاستوثقت من انشراحه، وقلت فى نفسى أن الأخبار المفزعة التى تلقاها فاروق عن الامبراطورة، لا تستقيم مع هذا الانشراح غير المصطنع، فازددت تفاؤلا واغتباطا.

ووصل فاروق فحيا سفير إيران وسائر كبار المستقبلين الرسميين تحية سريعة تنم على قلقه، وسمعنا أزيز الطائرة فى الموعد المحدد لوصولها، وما كادت تهبط وتفتح أبوابها حتى بدت الامبراطورة على سلمها، ولما شرعت الموسيقى فى عزف السلام الامبراطورى الإيرانى وقفت أمام السلم وقفة وقار وجلال، ثم تقدم فاروق للسلام عليها فتبادلا القبلات، وتقدمت مندوبة «جلالة الملكة» (فريدة)، وقدمت لها طاقة من الورد فتقبلتها وشكرتها، ثم صافحت سفير إيران ومن معه من رجال السفارة الإيرانية، فكبار المستقبلين من المصريين، ولما انتهت مراسم الاستقبال طبقا للبرنامج المقرر لها دعاها فاروق إلى سيارته وأجلسها إلى يمينه، فانطلقت بهما إلى قصر «انطونيادس» بين تحية الجند وقصف المدافع.

ولم يستوقف نظرى فى الامبراطورة عند نزولها من الطائرة سوى ضآلة جسمها، وكنت أعرف مما سمعته عنها أن «حبتها صغيرة» منذ نشأتها، وكنت من جهة أخرى أعلم أن مرضها الأخير أفقدها بعض وزنها، فلم أعر ضعفها اهتماما كبيرا. وكذلك لم أهتم بما كان يبدو على وجهها من علائم التعب، فقد أدخلت فى تقديرى أن الرحلة بطريق الجو من طهران إلى القاهرة ترهق من لم يألف الطيران، وأن الامبراطورة قضت ليلتها فى التاهب للسفر، وأنها غادرت طهران مع الفجر.

أما ما كان فاروق يتوجس منه خيفة فلم أكتشف له أثرا.. لا فى طلعتها، ولا فى مشيتها، ولا فى حركاتها، ولا فى صورتها!

ولا ريب أنه لولا المعلومات التى استخرجتها من حديث الأستاذ أحمد يوسف ومدام «تابوريه» لرأيت مظهرها أنها امرأة غير سعيدة، ولفسرت عدم ابتسامتها بأنها امرأة حزينة، ولعللت انحباس الكلام فى فمها بأنها امرأة فقدت نضارة الحياة، حتى أضحت مخارج الألفاظ لا تجد القوة التى تحركها بين شفتيها، ولكن الصورة التى زودنى بها الأستاذ أحمد يوسف ومدام تابوريه كانت ماثلة فى ذهنى فلما طلع علىّ «الأصل» لم يذهلنى بنظرد!

ومع ذلك فلا الضعف قلل من جمالها، ولا التعب حجب شيئا من دقة ملامحها، فاتفقت آراء الذين كانوا فى المطار على أنها «حقيقة جميلة»، ومع ذلك لم يتجل لى جمالها وحسنها على حقيقتهما إلاّ بعد ما استراحت من عناء السفر ووعثائه.

ولما بلغت قصر انطونيادس كان فاروق والامبراطورة قد نزلا من السيارة ووقفا أمام باب القصر، بينما كانت الموسيقى تعزف السلام الامبراطورى الإيرانى، وما انتهت الموسيقى من عزفه حتى كان التعب المستولى على الامبراطورة قد أنهك قواها، فكادت تتعثر وهى ترقى آخر درجة من درجات السلم الصغير المؤدى إلى داخل القصر، وكانت شقيقتها فائزة فى انتظارها عند الباب فخفت إليها وطوقتها بذراعيها وانهالت عليها بقبلاتها، ثم رافقتها إلى الجناح الخاص بها، وأشرفت على إراحتها من قبعتها، وقدمت لها الشاى بيدها، وهى تكرر تقبيلها بين لحظة وأخرى فى لهفة وحماسة أبرزتا حالا ما بين الشقيقتين من فارق كبير فى الأخلاق والطبائع!

وبعدما استراحت فوزية قليلا، فتحت حقيبة صغيرة حملتها إليها خادمتها المصرية القادمة من طهران، وأخرجت منها صورتين فوتوغرافيتين، إحداهما للشاه والأخرى لكريمتهما، ووضعتهما على منضدة فى حجرة جلوسها، فبهت الحاضرون ونظر بعضهم إلى بعض فى صمت خيل إلىّ فى تلك اللحظة أنه أبلغ من كل كلام، فقد كانوا بعد الذى سمعوه من فاروق عن تعاسة فوزية وشقائها، يتوقعون أن تفاجئهم فوزية بكل شىء إلاّ بأن تزين حجرة جلوسها بصورة زوجها!

وقالت لها فائزة بالفرنسية وهى لا تفكر فيما تقول «إنها صورة لطيفة».. فأجابتها بقولها: «إنه أحسن جدا من صورده»!

ونظرت فى تلك الدقيقة إلى فاروق مستطلعا وقع هذه الكلمات فى نفسه، فإذا هو ينهض ويقول: لينصرف الرجال الآن ولنترك فوزية فى عناية السيدات.

ثم التفت إلى فوزية وقال لها بالفرنسية: «ساتركك الآن يا حبيبتى العمل ينتظرنى.. ثم إنك فى حاجة إلى تنظيم أمورك وستجدينهن جميعا فى خدمتك، فلا تجهدى أنت نفسك.. وساعود إليك بعد قليل». ثم اقترب منها وقبلها، وقال لفائزة بالفرنسية أيضا: اهتمى بها واسهرى على أن تتهيأ لها جميع أسباب الراحة، وإذا رأيت نقصا فى الجناح الخاص بها، فاخبرينى به فورا.

وسار فى الحديقة قليلا ثم نادانى وقال لى: تظاهر وأنا أكلمك بانك تتلقى توجيهات منى، فإن أكثر من عين واحدة تتجه إلينا!



سألت أحمد يوسف
ومدام «تابوريه» هل يعتقدان،
وقد عرفا فوزية معرفة جيدة
وخبرا أخلاقها وطباعها، أنها المرأة
التى تقدم على مغامرة غرامية محفوفة
بالخطر والفضيحة، فاتفق رأيهما
على أنها ليست المرأة التى تخطو
خطوة واحدة فى هذا
السبيل بحال ما!

فسرت إلى جانبه متأخرا عنه نصف خطوة، وقد أطبقت يدا على أخرى كما كان رجال القصر يقفون فى حضرته أو يسيرون بمعيته، ثم قال: ما رأيك؟

فقلت: أظن يا أفندم أن كل شىء قد سار على ما يرام!

فقال: أنا أسألك عن فوزية.. إن أمرها محيّر!

فقلت: هل تعنى جلالتك حكاية الصورة الفوتوغرافية؟

فقال: ليس الصورة فقط.. فقد سألتها ونحن فى السيارة عن أحوالها، فأجابتنى بأنها «مبسوطة!» فسألتها عن علاقاتها بزوجها، فقالت إنها «كويسة» وأنه «ظريف جدا معها!»

فقلت: الحمد لله على ذلك.

فقال: ولكن أنا مرتاب فى هذا الكلام.

فقلت: لماذا يا أفندم؟

فقال: لأنه يخالف كل ما جاء فى التقارير التى تلقيتها!

فقلت: ولماذا نصدق التقارير ولا نصدق الامبراطورة نفسها؟

فقال: ولذلك ترانى متحيرًا!

فقلت: اطمئن جلالتك فإنها سليمة ولله الحمد.

فقال: عندما أتحقق من أنها غير تعيسة وغير «مهزوزة» سيستريح قلبى من كابوس فظيع. وسيكون ذلك اليوم من أسعد أيام حياتى!

وهنا أقبل إلينا أحد خدم القصر وقال لفاروق: إن فلانا يقول لمولانا إن كل شىء جاهز.

فقال له: قل له إننى سأحضر حالا.

وانطلق الرجل عائدا إلى القصر، فقال لى فاروق: عندى «مشغولية» ستشغلنى نحو نصف ساعة فانتظرنى فى «الصالون»، وحاول فى تلك الأثناء أن تتكلم مع بعض رجال حاشية الامبراطورة وأن تعرف رأيهم فى الاستقبال وفى الترتيبات التى عملت لهم، فإنه يهمنى أن يكونوا مستريحين وراضين!

وعند وصولنا إلى القصر قال لى: ادخل أنت من الباب الذى خرجنا منه. أما أنا فسأدخل من باب الخدم لأنى أريد أن أتجنب لقاء الضيوف منعا لتكرر «السلامات» والتحيات.

وفى «الصالون» صادفت بعض رجال حاشية الامبراطورة. فتصافحنا مرة أخرى وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وكان من الطبيعى أن يدور حول الاستقبال الرائع الذى أعد لجلالة الامبراطورة والرعاية والعطف العظيمين اللذين شملهم بهما جلالة الملك. فقلت لهم أنه أمرنى بأن أسألهم مرة أخرى هل هم مرتاحون إلى «الترتيبات»التى عملت لهم وأن أستطلعهم بصراحة هل هناك ما يرغبون فى تعديله فى النظام الذى وضع لخدمتهم. فأجابوا بأنهم عاجزون عن شكر جلالته على ما أحيطوا به من عناية وتكريم!

ولم يزل الحديث ينتقل من موضوع إلى آخر حتى دخل أحد خدم القصر وقال لى:

«عن إذن سعادتك لحظة». فودعتهم أملا أن يتكرر لقاؤنا قريبا، ولما خرجت من «الصالون» قال لى الخادم همسا إن الملك أمره بإبلاغى أنه عاد إلى قصر المنتزه وأنه سيتصل بى فى الفندق فيما بعد!

ولما عدت إلى الفندق قيل لى أنهم سألوا عنى بالتليفون من قصر المنتزه، فاتصلت بالشمشرجى النوبتجى وأعلمته بوجودى فى الفندق، فكلمنى فاروق بعد برهة وجيزة ليخبرنى أن «المشغولية» التى شغلته فى قصر أنطونيادس بعد افتراقنا أخذت من وقته أكثر مما كان مقدرا لها، فاضطر بعد فراغه منها أن يعود إلى «المنتزه» مسرعا وبدون أن يرانى لارتباطه بموعد هام!

ثم أضاف إلى ذلك قوله: ولعلهم لم يتوانوا فى إبلاغ رسالتى إليك، فلم يطل انتظارك بعد انصرافى!

ولم يكن من العسير علىّ وقد خبرت اطواره وبلوتها فى مختلف تقلباتها، أن ألاحظ أن لهجته فى هذه المكالمة التليفونية كانت تنم عن ارتياح من المحقق أنه كان منتفيا أثناء سيرنا فى حديقة قصر أنطونيادس، فما الذى أنشاه بعد ذلك؟

إننا لما تقابلنا فى حديقة قصر أنطونيادس عقب وصول الامبراطورة إليه، كان فاروق قد سمع من شقيقته أنها «مبسوطة» وأن العلاقات بينها وبين الشاه حسنة وأنه ظريف جدا معها، وكان قد ظهر له أيضا أن شقيقته «طبيعية» فى تصرفاتها وحركاتها وأقوالها. فكان كل شىء إذن يدعو إلى مقابلة هذه الدلالات السارة بارتياح، ومع ذلك لم يشأ أن يطرح التشاؤم جانبا، وأبى إلاّ أن يكون متحفظا.

وها هو الآن، ولم ينقض على لقائنا فى حديقة قصر أنطونيادس سوى ساعتين، يكلمنى تليفونيا فى أمور ثانوية تحتمل كلها التأجيل يوما، بل أياما وإذا لهجة كلامه تنم عن ارتياح حاولت منذ قليل أن أبثه فيه فلم أنجح.

فما الذى جدّ فى خلال هاتين الساعتين؟

وما السر فى هذا التحول الفجائى الذى طرأ على حالته النفسية وكيف أفسره؟

وكان من الطبيعى أن أسائل نفسى كذلك، لماذا حرص على مغادرة قصر أنطونيادس من غير أن يرانى مع أنه هو الذى طلب منى أن أنتظره فى «صالون» القصر إلى أن ينتهى من «مشغوليته».

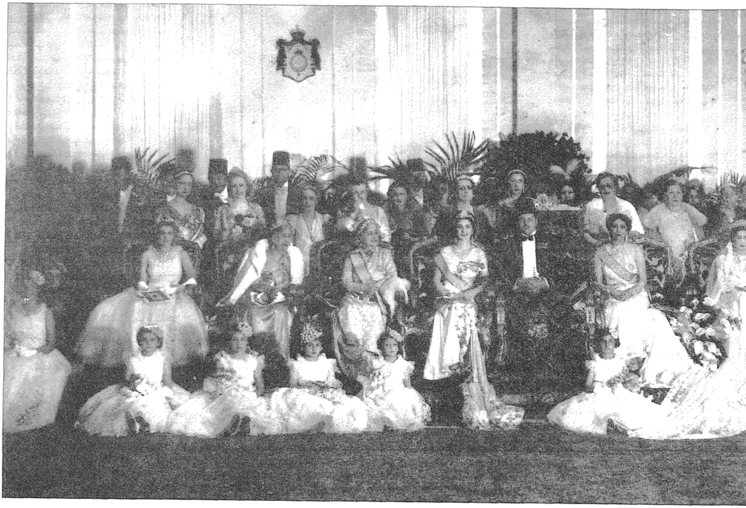
ولم أصدق أن سبب استعجاله هو تأخره عن «موعد هام» أو خوفه من أن يتأخر على «موعد هام»! فقد كنت أعلم أنه لا يبالى بالوصول إلى أى موعد متأخرا مهما كان الموعد هاما!

ثم هل كانت الدقائق التى سيستغرقها استدعائى من «الصالون» هى التى ستعوقه عن موعده، أو تزيده تأخيرا؟

إذن ماذا؟

ولم يتح لى أن أكتشف الحقيقة إلاّ بعد مدة غير قصيرة، فاتضح لى أن فاروق تعمد فى ذلك اليوم أن يغادر قصر أنطونيادس بدون أن يرانى لأنه لم يشأ أن يستصحبنى معه فى سيارته واتضح لى كذلك أن تذرعه «بالموعد الهام» لم يكن عذرا انتحله ليطيب به خاطرى، بل كان زعما زعمه ليتستر على عمل عمله، وأراد أن يحول دون اطلاعى عليه!

ومن اللحظة التى اكتشفت فيها الحقيقة،



الملك فاروق يتوسط أمراء وأميرات الأسرة المالكة

وضح لى اللغز الذى طالما حيرنى وأعنى لغز تحول حالة فاروق النفسية فى خلال ساعتين من تشاؤم إلى ارتياح، فقد كان هذا الارتياح وثيق الصلة بالسبب الذى من أجله انصرف من قصر أنطونيادس من غيرى، بل كان نتيجة له!

فماذا كان السبب؟

أو بعبارة أخرى: ماذا كانت النتيجة التى اكتشفتها؟

وهنا تبدأ قصة من أعجب قصص فاروق: فإنه على أثر وصوله إلى قصر أنطونيادس من المطار بصحبة الامبراطورة استدعى كبير خدم القصور الملكية، وقال: له إنه يريد أن يلقى نظرة على حقائب الامبراطورة عند وصولها إلى القصر من المطار قبل أن يراها أحد ولو كانت الامبراطورة نفسها، وعين له الحجرة التى يروم أن «يحتجزوها» فيها، حتى يتسنى له مشاهدتها من غير أن يفطن أحد إلى ذلك، وأمره أن يخبروه بوصولها عندما ينتهون من «تستيفها» فى تلك الحجرة!

وامتثل كبير الخدم لمشيئته طبعا، ولما أتم نقل الحقائب أنفذ إليه من أنبأه بذلك، وكان فاروق ساعتئذ يحادثنى فى حديقة القصر، وقد ذكرت فى فقرة سابقة أن أحد الخدم جاءه أثناء وجودنا فى الحديقة وأبلغه رسالة غامضة، وأنه على أثر ذلك رجعنا إلى داخل القصر وطلب منى أن أنتظره فى «الصالون» ريثما ينتهى من «مشغوليته».

ودخل فاروق الحجرة التى صفت فيها الحقائب، وخلع سترته، وعكف على معالجة أقفالها بمجموعة من المفاتيح من مختلف الأحجام والأشكال أحضرها من قصر المنتزه، خصيصا لهذا الغرض فافلح فى فتح بعضها وعجز عن فتح أغلبها، فلم ترضه هذه النتيجة وأمر بإحضار آلة حادة، ولم يزل يخلع الأقفال التى عاندته ويهشمها حتى استراح منها كلها!

أخذ فاروق بعد ذلك يتفقد محتويات الحقائب تباعا.

وكان يستخرج من كل حقيبة ما يستوقف نظره، ويحلو له الاحتفاظ به، ويضعه على حدة ثم يقفل الحقيبة وينتقل إلى غيرها.

ولم تمنعه حرارة الحجرة ورطوبتها من المضى فى هذه العملية حتى أتى على الحقائب جميعا، فتركها غير حافل بحالة إقفالها ودلالتها،ولم يهتم إلاّ بما استولى عليه من محتوياتها، فأمر بعض خدمه بنقله إلى سيارته فى رفق وعناية، فأذعنوا وهم لا يصدقون ما تراه أعينهم!

ثم خفّ فاروق إلى سيارته، وانطلق بها إلى قصر «المنتزه» فرجا بما سلبه من الامبراطورة شقيقته وضيفته!

ولما وقفت على تلك المعلومات، وحققتها، وتأكدت من صحتها، أدركت لماذا كتم عنى فاروق فى ذلك اليوم نوع «المشغولية» التى كان مشغولا بها!

وفهمت لماذا تعمد أن يبرح قصر أنطونيادس من غير أن يرانى ومن غير أن يستصحبنى معه، فقد ملأت «الأسلاب» سيارته، وكان يبغى أن يظل أمرها مكتوما عنى، خافيا علىّ!

وفى الوقت نفسه، أزاحت تلك المعلومات النقاب عن التحول الفجائى الذى تحولته حالته النفسية فى ذلك اليوم، فاكتشفت سر الارتياح الذى تجلى فى حديثه التليفونى معى ولم يمض على حديثنا فى حديقة قصر أنطونيادس سوى ساعتين اثنتين!

فقد كان اغتباطه عظيما «بالأشياء» التى زينت له نزواته الاستيلاء عليها، فعاد إلى المنتزه عودة الفاتح الظافر، ولما استوى على سريره ليستريح من عناء مجهوده، أمر بأن يعرضوها أمامه مرة أخرى، فاستحلاها وازداد اغتباطا بها!

وفى غمرة هذا الاغتباط أدنى إليه التليفون وكلمنى ليقول لى إنه اضطر للعودة إلى «المنتزه» مسرعا بدون أن يرانى لارتباطه بموعد هام وأنه يأمل أن تكون رسالته قد بلغتنى فى حينها، فلم يطل انتظارى!

وفى غمرة هذا الاغتباط شعر بالارتياح الذى تجلى فى روح حديثه ولهجته، ولم أدر يومئذ إلى أى سبب أعزوه، وإلى أى عامل أرجعه!

وكنت حتى ذلك الحين أظن أننى «عرفت» فاروق، ولكن اتضح لى يومئذ أن فى نزواته نواحى لم أعرفها بعد، وأنى قد لا أعرف بعضها أبدا.

وقد كان من المحال أن أتوقع أن تسول له نفسه يوما أن يعبث بحقائب شقيقته، وأن يراوده الطمع فى جانب من محتوياتها، ولولا عبارة قيلت أمامى عرضا لظلت قصة هذه الحقائب مجهولة منى، غير أن هذه العبارة التى ترامت إلى سمعى مصادفة استرعت انتباهى، فلم أزل أتعقب ما أغلق علىّ من معاينتها ومراميها، حتى عرفت القصة بحذافيرها وأحطت بها من جميع نواحيها.

واهتممت بمعرفة ماذا صنعت الامبراطورة لما جلبوا لها حقائبها، ولاحظت أن يدا غريبة قد لعبت بأقفالها وامتدت إلى محتوياتها.

فقيل لى أنها وقفت تنظر إليها مذهولة ولم تفه بكلمة واحدة فى بادئ الأمر، ثم قالت أن جميع الأقفال كانت سليمة عند نقل الحقائب من الجناح الخاص بها فى القصر الامبراطورى إلى مطار طهران، فسألتها إحدى السيدتين اللتين كانتا معها ألا يحتمل أن تكون الحقائب قد فتشت بأمر من الشاه قبل نقلها من القصر، فهزت رأسها وقالت بالفرنسية: «مستحيل» ثم أردفت ذلك بقولها: ولماذا يفتشها؟ كأنما أرادت أن تقول أن العلاقات بيننا على ما يرام، وقد غادرت طهران بموافقته ورضائه، فلماذا يقدم إذن على تفتيش حقائبى؟

ولما زال عنها بعض ذهولها، رغبت إلى وصيفتها فى أن تعاونها على تفقد محتويات الحقائب لتحصر ما انتزع منها، وقد تذكرت جانبا منها،ولم تسعفها الذاكرة فى تذكر الجانب الآخر، وبينما كانت تتفقد حقائب الفراء ومعاطف الفراء قالت بالفرنسية كأنها تخاطب نفسها: أنا واثقة من أن هذه الحقائب قد فتحت هنا.

واقترحت عليها إحدى السيدتين أن تستدعى كبير خدم القصور الملكية، وأن تطلعه على أقفال الحقائب وتخبره أن هناك أشياء كثيرة قد أخذت منها، إذ لا يجوز السكوت على ما حدث بحال ما.

وتشاغلت الامبراطورة عن التعقيب على هذا الاقتراح كأنه لم يطرق سمعها.

وبينما كانت غارقة فى تفكيرها استأذن سليمان قاسم رئيس خدم القصور الملكية فى مقابلتها بحجة أنه يود أن يتلقى أوامر جلالتها ورغباتها.

وكانت فوزية تعرفه منذ حداثتها، وتعطف عليه عطفا خاصا، فحيته تحية لطيفة، ولم توجه إليه أي سؤال بشأن الحقائب كأن أمرها لا يعنيها، ولكن رئيس الخدم قال لها من تلقاء نفسه «إن مولانا هو الذي فتح هذه الحقائب بيده!».

وأطرقت الامبراطورة.. فغادر سليمان قاسم الحجرة مهرولا حتى لا يزيد الموقف حرجا.. ليدفع عنه شبهتها وليبرئ نفسه أمامها مع علمه بخطورة سعيه وسوء عواقبه لو نمى خبره إلى سيده!

ولما رفعت الامبراطورة رأسها كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ثم قالت للسيدتين: إننا لم نسمع شيئا!

ولم تنبس السيدتان ببنت شفة، وكانت إحداهما شقيقتها فائزة والأخرى وصيفتها.

ونهضت فائزة وقبلت شقيقتها، وأعطتها منديلها لتكفكف به دموعها.

وأيقنت فائزة أن فوزية لم تذرف الدمع أسفا على ما اختفى من محتويات حقائبها، ولكنها امتثلت لرغبتها، فلم تعقب بكلمة واحدة على ما أنبأها به رئيس خدم القصور الملكية.

ولم تخاطب فوزية شقيقها في هذا الموضوع قط!

وكان من الطبيعي أن يؤدي بي البحث والاستقصاء إلى الاستفسار عن أنواع الأشياء التي اختفت من حقائب الامبراطورة، فعلمت أنها كانت «تشكيلة» من الفراء، ومعاطف الفراء، والمعاطف العادية، وفساتين السهرة، وحقائب اليد، وأدوات الزينة، والروائح العطرية، والطرف الصغيرة على اختلاف أصنافها وأشكالها وبعضها من الذهب، والبعض الآخر من الذهب المرصع بحجارة كريمة.

أما «الخسارة» في المجوهرات فكانت يسيرة، لأن الامبراطورة جمعت أغلاها في حقيبة صغيرة لم تفارق يد خادمتها الخاصة، حتى ساعة وصولها إلى قصر أنطونيادس، فلم تلق مصير الحقائب التي عنى فاروق «بإلقاء نظرة عليها»!

وهنا لا يسع المرء إلا أن يسأل: وهل كان فاروق محتاجا إلى فراء، أو إلى معاطف فراء، أو إلى فساتين وحقائب يد، وإلى أدوات وطرف للزينة، حتى يسطو على الحقائب التي سطا عليها؟ هل كان مفتقرا إلى هذه الأشياء، عاجزا عن شراء ما يماثلها، حتى يزين له الشيطان أن يسرقها من شقيقته وضيفته؟

هل كانت هذه الأشياء فريدة في نوعها، لا يستطيع أن يجد لها بديلا، حتى يحرضه الغرور وحب الاقتناء على ارتكاب ما ارتكب في سبيل الاستيلاء عليها؟

إن الرد على كل سؤال من هذه الأسئلة هو: حتما لا!

فقد كان يستطيع أن يشتري عشرات الفراء ومعاطف الفراء والمعاطف العادية والفساتين وحقائب اليد وأدوات الزينة وطرف التجمل والتبرج، من غير أن يؤثر ذلك في ثروته بحال ما!

بل إن موارده المالية في يوم أو يومين، كانت تكفيه لشراء ما يضارع الأشياء التي خطفها من حقائب شقيقته، أو لاقتناء ما يمتاز عليها نوعا ويبزها عددا!

ولم يكن بين الأشياء التي اغتصبها شيء واحد لا يتيسر له ابتياع مثله أو ما يشبهه، فقد كانت جميعا أشياء يسهل العثور عليها في الأسواق متى توفر المال اللازم لابتياعها!

ألفيته متمددا على سريره وهو «يسلخ» الجلد المحيط بإبهام إحدى يديه حتى بدا منه الدم، وكنا نعرف فيه هذه الخصلة عندما يكون في حالة عصبية شديدة، ولا يجد ما يلهيه فيعمد إلى تشويه بعض أصابعه بهذه الكيفية، وكانت «المانوكرست» التي تسوي له أظافره كل أسبوع تشكو هذه الخصلة

إذن لماذا اقترف ما اقترفه، لماذا أخذ تلك الأشياء؟

كانت «فريدة» لا تزال زوجته الشرعية في ذلك الوقت، ولكن خزائنها كانت تضم بين جوانبها ما لا يحتاج قط إلى مدد من حقائب الامبراطورة أو غير الامبراطورة.

ثم إن الخلاف الذي نشأ بين فاروق وفريدة وأفضى إلى طلاقهما، كان يومئذ في مرحلته الأخيرة، ولم يكن فاروق في أثناء تلك المرحلة يرى فريدة أو يحادثها أو يجتمع بها، فلم يكن غرضه إذن من حرمان شقيقته مما انتزعه من حقائبها أن يهديه إلى زوجته، ليوهمها بأنه اشتراه خصيصا لها!

فنحن والحالة هذه أمام سؤالين لا سؤال واحد!

السؤال الأول: لماذا أخذ فاروق تلك الأشياء؟

والسؤال الثاني: لمن أخذها؟

ومن المعروف أن فاروق كان مصابا بمرض يدفعه إلى «الخطف» كلما تحركت فيه عوامله، فامتداد يده إلى محتويات حقائب شقيقته، لم يكن سوى مظهر من مظاهر هذا المرض، وضرب آخر من ضروب ذلك «الخطف» أما الأساس فكان دائما واحدا!

وأكبر دليل على أن ما وصفته بأنه مرض كان في الحقيقة مرضا، أن فاروق كان يمد يده إلى أشياء هو في غنى عنها، لعدم حاجته إليها، وإلى أشياء يقتني مثلها وأحسن منها، أو إلى أشياء يستطيع أن يجد في السوق ما يضاهيها أو يفضل عليها، من غير أن تتأثر ماليته بما ينفقه على شرائها!

إذن لم يكن فاروق «يمد يده» عن حاجة، أو رغبة في الاستئثار بتحفة نادرة، وإنما كان «يخطف» عن شهوة، وكانت هذه الشهوة في كثير من الأحوال أقوى من إرادته، وهي الأحوال التي كانت نزوات المرض وعوامله تسيطر على مشيئته ومشاعره وتخضعها لتصرفات شهوته.

وكان قضاء هذه الشهوة يبعث فيه غبطة وانشراحا يفوقان بمراحل ما تستحقه «قيمة» الشيء المخطوف. فقد كان فرحه ينشأ قبل كل شيء عن شعوره بأنه نجح في إدراك وطره شأن كل ذي شهوة إذا وفق إلى قضاء شهوته.

ثم إنه كان يفرح لشعوره بأن الشيء المخطوف «مكسب» له ومغنم، مهما قلت قيمته وبخس ثمنه!

ولم يكن، في غبطته وانشراحه، يذكر عواقب مسلكه، أو يقدر ما يخسره كرجل، وكملك، من جراء استهتاره.. ولا جدال في أنه كان لشعوره بأنه «لا يسأل عما يقترف» تأثير كبير في حضه على الاسترسال في غيّه والاستسلام لنزوات مرضه!

فهو إذن لما هشم أقفال حقائب الامبراطورة واستولى على جانب من محتوياتها لم يفعل ذلك إلا مدفوعا بالشهوة التي تحدثت عنها، فلما قضيت أحس بالارتياح الذي أنساه قلقه وانزعاجه على نحو ما رأينا في الفصل السابق، ولا ريب أنه لولا ثقته بأن شقيقته فوزية لن تسأله عما صنع ولن تتكلم، ولن تحتج، ولن ترفع صوتا، ولن تناقشه، ولن تحاسبه - أقول لولا ثقته بذلك لما كان يعرفه عن أخلاقها وطبائعها، لتردد في الإقدام على ما أقدم عليه، ولكنه كان يعلم أن فوزية «ملاك» كما قال لي في وصفها!

ولما امتدت إقامة فوزية في مصر وتعددت الحفلات والمجتمعات التي أصبحت تتردد عليها بصحبة فاروق، كانت تلتقي في بعض مجالسه بنساء من اللواتي أهدى إليهن هدايا «مستخرجة» من حقائبها، ولم ينتبه فاروق لذلك، أو لم يكترث له، فلم يطلب إلى اللواتي آلت إليهن تلك الهدايا أن يمتنعن عن الظهور بها في المناسبات التي تستحضرها الامبراطورة! وكن من جهتهن يجهلن صلة الامبراطورة بهداياه إليهن، فلا يتحرجن في الظهور بها أمامها، بل كن يتعمدن التحلي بها في تلك المناسبات في حرصهن على الظهور بأبهى ما عندهن «في الحفلات التي يشرفها جلالة الملك وجلالة الامبراطورة»، وبخاصة أن أغلبهن كن يعرفن عن فاروق أنه يحب أن تتحلى صديقاته بهداياه إليهن في المجتمعات التي تجمعهن به، إذ كان يرى في ذلك دليلا على تقديرهن «لعطاياه» واعتزازهن بها!



ونتج عن ذلك أنه كثيرا ما كانت الامبراطورة «تكتشف» بعض فرائها ومعاطفها وملابسها وحاجاتها وحليها الصغيرة على بعض السيدات المحيطات بها، فكان منظر هذه الأشياء على غيرها يؤلمها أكثر من تأسفها على فقدها، كما قالت يوما لإحدى المقربات إليها!

والآن، وبعد هذه الصورة السريعة للشقيقتين اللتين أتاحت لي تلك المأدبة أول فرصة للمقابلة بينهما مجتمعتين، أعود إلى ما جرى لي أثناء عشائي، ذلك العشاء الذي أجلست فيه إلى يسار فوزية بأمر من فاروق «لأسهل لها مهمة الكلام».. ولا أذكر أنني عانيت في مأدبة سابقة أو لاحقة مثل التعب الذي عانيته في تلك المأدبة لما بذلت من مجهود في حديثي مع فوزية.

لم تتخلف فوزية عن مأدبة واحدة أو حفلة واحدة من المآدب والحفلات التي دعاها إليها فاروق بعد وصولها إلى الإسكندرية من إيران..

ولم يبد عليها في جميع تلك المناسبات ما يدل على أنها امرأة حزينة تعيسة، يدمي الشقاء قلبها، على نحو ما صورتها تلك التقارير السرية التي تلقاها فاروق من طهران!

ولئن كان وجهها قد احتفظ بتلك المسحة الطفيفة الشبيهة بالكآبة، فإنا لم نستغربها ولم نقلق لها، فقد تجلت فيها منذ طفولتها ولازمتها في جميع مراحل حياتها، كما أجمعت على ذلك أقوال الذين عرفوها في سني حداثتها..

بل إن العين البصيرة تبينت في مظهر فوزية، بعد وصولها إلى الإسكندرية، علامات كثيرة لا تجتمع في المرأة عادة، إلا إذا كانت ناعمة البال، راضية مطمئنة!

ومن تلك العلامات أو الدلالات، أنه مع كثرة الملابس التي جلبتها معها من طهران، وكانت كلها مستوردة من باريس، لم تكد تنزل الإسكندرية حتى جعلت الاتصال بأشهر خياطاتها واستقبالهن، واقتناء أحدث الموديلات منهن، في مقدمة مشاغلها!

وما يقال عن الفساتين يقال عما يتفرع عنها من مقتضيات!

وكان من غير المعقول في نظري أن امرأة قيل عنها أنها تعيش في «جحيم» تقبل على الاهتمام بفساتينها وثيابها بهذه الحماسة العظيمة بين عشية وضحاها، وخاصة إذا كانت في غير حاجة ملحة إليها، وكانت حقائبها على ما علمت تضيق بأحدث «الموديلات» الباريسية وغيرها..

ولم تكن ظاهرة الفساتين الظاهرة الوحيدة التي وقفت عندها متأملا..

ففي كل مأدبة، وفي كل حفلة، كنت أمعن النظر في «تواليت» وجهها، فأسمع صوتا خفيا يقول لي: انظر هذا التبرج وافحص ما في أجزائه وتفاصيله من دقة وعناية وفكر فيما اقتضاه ذلك من مزاج ووقت وجهد، ثم قل هل تصدق أنه من المتيسر لامرأة قيل إن الحزن حرمها النوم أن تبرز هاتين العينين النجلاوين، وأن تعزز جمالهما بهذه المهارة وهذا الإتقان، وهل تصدق أن هذا الوجه الذي أحكمت زينته وجه امرأة أدبر هناؤها وذبلت حياتها؟ وأين تجد في هذا كله ما يؤيد فقرة واحدة من فقرات تلك التقارير السرية وهي كما تعلم ليست المرأة التي تبدي غير ما تبطن، وتظهر غير ما تضمر أو تتكلف حالة ليست طبيعية فيها!

وسألت كيف تمضي الامبراطورة يومها في قصر أنطونيادس؟

فقيل لي إنها تستيقظ من نومها متأخرة، ولا تغادر فراشها، إذ يطيب لها في تلك الساعة أن تعكف على قراءة رواياتها وهي مستلقية

على وساداتها، وتفطر فطورا خفيفا سريعا لا يبعدها عن كتبها ولا يلهيها عنها..

ويتوقف نشاطها بعد ذلك على برنامج يومها، فإذا كانت ذاهبة إلى قصر «المنتزه» لتستحم فى البحر مع فاروق ولتتغدى معه، نهضت واستعدت للذهاب إليه، وإلا آثرت البقاء فى فراشها والاستمرار فى مطالعاتها إلى أن يأزف موعد غدائها، ويندر طلبه قبل الساعة الرابعة بعد الظهر.

ثم تتأهب لاستقبال الخياطات أو بعض الزائرات، وإذا لم تكن مرتبطة بمقابلات تباطأت فى ارتداء ملابسها، وقضت بعض الوقت مع شقيقتها أو مع وصيفتها، إلى أن تحل الساعة التى يتعين عليها فيها أن تبدأ هندامها (التواليت)، ليتسنى لها لقاء فاروق فى الموعد المتفق عليه.

وكان هندامها يستغرق وقتا طويلا، وقلما كانت تفرغ منه فى الوقت المحدد، وكانت وصيفتها تلقى عناءً كثيرا من هذه الناحية، بوصفها المسئولة عن مواعيدها وعن ضرورة تقيدها بها، وكثيرا ما أغضبت فاروق لتراخيها، ووصولها إلى بعض الحفلات متأخرة، مع أنه هو نفسه كان شديد الفوضى فى مواعيده غير الرسمية..

وفى هذا كله أيضا لم أكتشف أثرا واحدا «للشقاء» الذى أكدت التقارير السرية أنه سلبها بهجة الحياة وهدد مصيرها!

أما من جهة حالتها العصبية وقواها العقلية، فلولا ما ذكرته التقارير السرية عنها، ولولا حديث فاروق معى بشأنها، لما اتجه تفكيرى إلى هذا الموضوع بتاتا، ولما شغلت به نفسى لحظة واحدة..

بقى الأمر الآخر، وهو: هل كانت فوزية على خلاف مع الشاه؟

وردى الأول على هذا السؤال أنه فى جميع المناسبات التى جمعتنى بها لم أسمع منها، ولو تلميحا، ما يستدل منه على أن هناك خلافا بينها وبين الشاه، مع أننى أشرت فى خلال أحاديثى معها إلى موضوعات كثيرة كان من العسير عليها أن تقابلها بما قابلتها به، لو كانت علاقاتها بالشاه على غير ما يرام..

بل إن جميع ردودها، سواء كان الرد ابتسامة أو كلمة، كانت «بروح» تلك الحركة التى بدرت منها عقب دخولها الجناح الخاص بها فى قصر أنطونيادس، وأعنى حركة الصورة الفوتوغرافية التى أخرجتها من حقيبتها الصغيرة وعرضتها فى أبرز مكان فى حجرة جلوسها الخصوصية..

وسألتها مرة عن ابنتها وهل تشبه جلالتها أم جلالة الشاه؟

وكان من المعروف أن الأميرة الصغيرة تشبه جلالة والدها شبها كبيرا، فقصدت أن أعلم كيف ستلقى إلىّ ذلك، وبأى «نغمة» ستلقيه، لما كنت أجد فى هذه القرائن الصغيرة من معونة ذات فائدة عظيمة فى استيفاء تحرياتى عن حقيقة الموقف بينها وبين الشاه!

فقالت بدون تردد: فيها ملامح منا نحن الاثنين، ولكنها تشبه زوجى أكثر مما تشبهنى!

وهل يمكن أن تكون هذه اللهجة لهجة امرأة يسود الشقاء حياتها الزوجية؟

وفى كل مرة جاء ذكر الشاه فى أحاديثى، كنت لا أقنع بالكلمة التى أسمعها منها، وإنما كنت أرصد وجهها بعناية، مستطلعا وقع حديثى فى نفسها، فلم أر فى ملامحها قط ما قلل من ثقتى بصدق لهجتها!

وباحثت فى ذلك بعض الذين كانوا على صلة مستمرة بها فى قصر أنطونيادس، فأيدت أقوالهم ما نوهت به من دلالات، وأجمع

سألتها مرة عن ابنتها
وهل تشبه جلالتها أم جلالة الشاه؟
وكان من المعروف أن الأميرة الصغيرة تشبه جلالة والدها شبهًا كبيرًا، فقصدت أن أعلم كيف ستلقى إلى ذلك، وبأى «نغمة» ستلقيه، فقالت بدون تردد:
فيها ملامح منا نحن الاثنين، ولكنها
تشبه زوجى أكثر مما تشبهنى!

رأيهم على أنهم لم يكتشفوا فى أحاديثها وحركاتها ما ينم عن أن هناك فتورا ما فى العلاقات بينها وبين الشاه!

وكانت فائزة دائمة التردد عليها، وكانت كل منهما تحب الأخرى حبا جما وتخلص لها إخلاصا صادقا، ولم تكن فوزية تفتح قلبها إلا لفائزة وحدها، فلو كانت غير سعيدة مع زوجها، ولو كانت تعيسة وشقية كما قيل فى التقارير السرية، لأفضت حتما إلى شقيقتها بأسباب عذابها ومحنتها.. غير أن فائزة أكدت لى مرارا أن ما سمعته منها عن حياتها الزوجية يناقض شائعات التقارير السرية وروايتها، ويدحضها من أساسها!

وأفرحتنى جميع هذه النتائج، فقد كنا فى غنى عن مشكلات جديدة، فضلا عن أنها جاءت مطابقة لما قلته لفاروق من اليوم الأول، فصممت على مواجهته بها، إذا عاد إلى هذا الموضوع وردد ما تضمنته التقارير السرية!

غير أنه أمسك عن كل كلام عنه، فكان آخر حديث لنا فى صدده هو ذلك الحديث الذى دار بيننا فى حديقة قصر أنطونيادس يوم وصول الامبراطورة إلى الإسكندرية..

ولما لاحظت أنه لا يستأنف هذا الحديث، ولا يعود إلى موضوعه، مع أننا نجتمع بفوزية كل يوم تقريبا، لم أشك فى أنه يتعمد عدم إثارته، وعللت مسلكه بأن الأكاذيب والفرايا التى قامت عليها التقارير السرية، قد استبانت له، فاطمأن إلى أن شقيقته لا تعيش فى جحيم، وأن العلاقات بينها وبين زوجها طبيعية لا تشوبها شائبة، واقتنع بأن أعصابها وقواها العقلية سليمة، وأنه ليس هناك ظل من الحقيقة لما ابتكره خيال كاتب التقارير السرية وصانعها..

وكأنما أردت أن أزيد نفسى راحة واطمئنانا، فقلت إنه لو كان فاروق مقيما على قلقه وجزعه، لما صبر علىّ هذا السكوت، ولما كان هذا شأنه معنا، ولما بدا فى الأيام الأخيرة بهذا المرح، وهذا الانشراح..

ولم يدر فى خلدى فى ذلك الحين، أننى بعيد عن الحقيقة، بعد القاهرة عن طهران، وأن السبب الحقيقى لسكوت فاروق يختلف عن السبب الذى عللته به اختلاف الليل عن النهار، وأن بين الباعث الحقيقى لارتياحه وانشراحه، والباعث الذى عزوتهما إليه بونا شاسعا،



الأرض أحد طرفيه والمريخ طرفه الآخر!

كنت أحسب أننى عرفت فاروق، وفهمته وخبرته وبلوته..

وكنت أحسب أننى أحطت بأخلاقه وطويته وأطواره ونزواته..

وعلى هذا الأساس بنيت استنتاجى وتقديرى، فاعتقدت أنه طوى تلك التقارير السرية المشئومة وطوى معها أحاديثه عنها بهواجسها ومخاوفها، وأراحنا من مشكلة اسمها «مشكلة فوزية»!

فإذا الأيام والأحداث تثبت لى أن تفاؤلى كان فى غير محله، وأننى كنت على خطأ مبين!

فقد كان فى فاروق رجل آخر لم أعرفه، ولم يعرفه أحد..

وبينما بنيت استنتاجى وتقديرى على ما أعلمه عن الرجل الذى أعرفه، كان الرجل الذى لا أعرفه يفكر تفكيرا آخر ويعد العدة لخطة أخرى!

وفى ذات ليلة قال لى فاروق همسا: لا تكلم فوزية عن ابنتها ولا تذكرها أمامها..

ولم أكن قد رأيته من ثلاثة أيام، فأذهلنى أمره، وأردت أن أستطلعه سره، فلم يتيسر لى ذلك، فقد كانت فوزية جالسة على مقربة منا..

ولاحظت بعد ذلك أنه فى حالة عصبية شديدة، وأنه يتجنب الانفراد بى، فأدركت أنه لا يروم أن يزيدنى بيانا، ولم يدهشنى مسلكه، فقد ألفته منه فى مناسبات شتى!

ولاحظت من جهة أخرى، أن فوزية أكثر صمتا، وأقل ابتساما، منها فى الليالى الماضية الأخيرة، فربطت بين ذلك وبين ما قاله لى فاروق، وقلت ربما بلغها أن ابنتها منحرفة الصحة، فأزعجها النبأ، ولم أعلق أهمية خاصة على مظهرها فى تلك الليلة!

وفى طريق العودة إلى الفندق، بعد انتهاء السهرة، جعلت أفكر فيما سمعت، وفيما رأيت..

وفجأة عرض لى أن وجوه فاروق وفوزية وفائزة وبعض الآخرين، كانت وجوه أناس يخفون خبرًا مهمًا، أفلا يحتمل أن يكون الخبر متعلقا بشىء أخطر من انحراف صحة الأميرة الصغيرة؟!

وفى الصباح، وقبل أن أغادر حجرتى، اتصلت بى عاملة التليفون بالفندق قائلة إن «ى.ى» يرغب فى مقابلتى لأمر مهم، فدعوته إلى موافاتى فى «الصالون» الخاص، الملحق بحجرة نومى..

كان «ى.ى» ضابط بوليس على جانب كبير من الذكاء والنشاط، وكان بحكم منصبه وعمله مطلعا اطلاعا واسعا على أحوال البلاد الداخلية، وقد اعتاد أن يتردد علىّ بين الفينة والفينة، فأجد فى جعبته من الأخبار والمعلومات السياسية ما لا يرد ذكره فى التقارير الرسمية، فكان من الطبيعى ألا أرى فى زيارته لى فى تلك الساعة ما يوجب التساؤل والدهشة، وخاصة أننى كنت أسر بزيارته فى كل وقت.. أما فى صباح ذلك اليوم فتمنيت لو جاء فى يوم آخر، فلا يؤخرنى حديثه عن الذهاب إلى القصر، وكنت أنوى أن أمضى إليه رأسا، لعلى أتنسم من الأخبار ما يعوضنى عما لم يتيسر لى تسقطه من فاروق فى الليلة السابقة، ويكشف لى عن بعض ما أغلق علىّ..

ودخل علىّ «ى.ى» وعلى وجهه شحوب القلق، وفى عينيه نظرة الحيرة والاستغراب..

وبعد التحية قال لى بصوت خافت مضطرب: هل بلغتك حكاية الامبراطورة؟

فقلت واجما: ماذا حدث لها؟

فقال مرتبكا: خطفها جلالة الملك!

فقلت مشدوها: خطفها؟؟ كيف خطفها؟

فقال: علمت أنه لما استيقظ رجال الحاشية الإيرانية فى هذا الصباح، لم يلقوا فى قصر أنطونيادس أحدا، ولم يجدوا للامبراطورة أثرا، فأسرعت بإبلاغك الخبر لربما لم يبلغك بعد، ويظهر أن ظنى كان فى محله..

فقلت وقد أذهلنى ما سمعت: أشكرك جدا، والواقع أننى لم أخبر به إلا منك.. ولكن من قال لك أن الملك خطف الامبراطورة؟

فقال: ضابط من ضباط البوليس المكلفين بحراسة قصر أنطونيادس، وهو على اتصال وثيق ببعض خدم الملك..

فقلت: وماذا قيل للحاشية الإيرانية؟

فقال: كل ما أعرفه حتى الآن هو أنه استيقظ رجال الحاشية الإيرانية، ففوجئوا بعدم وجود أحد فى القصر..

فقلت: ماذا تعنى بعدم وجود أحد فى القصر؟

فقال: لم يكن هناك موظف واحد أو خادم واحد فى جميع أرجاء القصر.. أما التفاصيل فلم أعرفها بعد.. وقد سمعت أنهم ذهبوا إلى قصر «رأس التين» ليقابلوا كبار رجاله ويسألوهم عن سر هذه المفاجأة!

فقلت: وأين الامبراطورة الآن؟

فقال: فى قصر «المنتزه»..

ثم سألنى بماذا أفسر هذه «الحكاية العجيبة»؟

فأجبته: بأنه لابد لى من معرفة التفاصيل أولا!

فقال: ألا يحتمل أن تكون هناك رغبة فى الطلاق؟

فقلت: كل شىء محتمل، وسأذهب الآن إلى قصر «رأس التين»، فإذا تسربت إليك معلومات جديدة، فأرجو أن تحيطنى بها فى مكتبى فورا!

وأخذت طريقى إلى «رأس التين» مغموما مهموما، وقد وضح لى الاتجاه الذى اتجهه «تفكير الرجل الآخر» فى فاروق..

وعندئذ أدركت أن تفاؤلى كان فى غير محله، وأننى كنت على خطأ مبين، على نحو ما ذكرت قبلا.

ولما بلغت قصر «رأس التين»، علمت أن أعضاء الحاشية الإيرانية، انصرفوا منه قبل وصولى إليه

بدقائق، وإن أحدهم سأل عنى فقيل له إنى لم أحضر إلى مكتبى، وأن حضورى إليه غير مقيد بموعد معين، فلم ينتظرنى وانصرف مع زملائه. فحمدت الله على تأخيرى!

وطفت بمن قابلوا من كبار رجال القصر ووقفت منهم على ما أفضوا به إليهم، فاجتمعت لدى معلومات وبيانات كثيرة، ولما ضممت بعضها إلى بعض، ورتبتها، تألفت منها قصة نادرة ليس فى تاريخ القصور الملكية ما يماثلها!

بل قلما شاهدنا فى أعجب الأفلام السينمائية ما يضارعها!

وهذه هى القصة:

كان رجال الحاشية الإيرانية يقيمون فى الجناح الذى أفرد لهم فى قصر أنطونيادس منذ قدومهم إلى الإسكندرية، ولما عادوا إلى القصر ليلة اختفاء الامبراطورة، لم يستوقف نظرهم أى حركة غير اعتيادية، فقد كان كل شىء تحت سقف الدار يسير طبقا للنظام الذى ألفوه، سواء كان ذلك من حيث ترتيب المائدة وألوان الطعام وانتظام الخدمة، أو من حيث نظام الحراسة العسكرية والمراقبة السرية، فناموا مطمئنين..

ولما استيقظ أولهم فى الصباح، ودق الجرس كعادته، ولم يبادر الخادم إلى تلبية ندائه، دقه مرة أخرى، وانتظر قليلا، فلم يأت إليه أحد، فظن أن فى الجرس خللا، وأن نداءه لا يبلغ سمع من يستدعى، فخرج من حجرته ليكلف أول حاجب يلتقى به أن يوفد إليه الخادم المخصص لخدمة غرفته، فلم يصادف فى طريقه أحدا، فاستغرب أن يتأخر خدم القصر هذا التأخير غير المألوف، ولم يزل يجد فى البحث عنهم، حتى وصل إلى «الأوفيس»، حيث يجتمعون عادة، فلم يعثر على أحد منهم، فعاد أدراجه، وهو يتساءل عما طرأ عليهم اليوم، فحال دون مواظبتهم على مواعيد عملهم.

وكان زملاؤه قد استيقظوا فى تلك الأثناء، ودقوا الأجراس تباعا، وجلسوا ينتظرون قهوة الصباح التقليدية، فأعلمهم بما اتفق له، فاختلفت آراؤهم فى تعليل هذا التأخير، ثم اتفقوا على الانتظار فترة أخرى قبل أن يستفسروا عن علته من الضابط المشرف على نظام الحراسة فى القصر.

وفى خلال تلك الفترة، اتجه أحدهم إلى نافذة حجرته عفوا، وعن غير قصد، وأخذ يسرح الطرف فى أرجاء حديقة القصر، وسرعان ما نادى زملاءه، وقال لهم وهو يشير إلى الحديقة: «لقد استرعى انتباهى الآن أمر غريب.. انظروا إلى الحديقة جيدا، ليس فى جوانبها جندى واحد من الجنود الذين كنا نراهم فيها، أليس هذا أمرا غريبا؟!

فقال الآخرون: لا خدم.. ولا حرس.. ترى ماذا حدث؟

وبدلا من أن يضيعوا الوقت فى الانتظار والتساؤل، أسرعوا إلى ارتداء ملابسهم ليقابلوا ضابط القصر أو من يقوم مقامه..

وبينما كانوا مشغولين بملبسهم، خطر لأحدهم أن يمد بصره إلى «سارية» القصر من شرفة قريبة من حجرة نومه، فإذا العلم الامبراطورى لا يرفرف فى أعلاها، فخفق قلبه قلقا، وخف إلى إخوانه وأنبأهم بالأمر، فشاطروه جزعه، ولم يكن لإنزال العلم الامبراطورى سوى معنى واحد، وهو أن الامبراطورة لا تقيم فى القصر!

ومن المرجح أنه لولا الظواهر غير العادية التى استرعت انتباههم منذ استيقاظهم، لما أذعرهم احتجاب العلم قبل أن يستطلعوا سر احتجابه، أما وقد اكتشفوا اختفاء بعد

بهت الحاضرون ونظر بعضهم إلى بعض فى صمت خيل إلىّ فى تلك اللحظة أنه أبلغ من كل كلام، فقد كانوا بعد الذى سمعوه من فاروق عن تعاسة فوزية وشقائها يتوقعون أن تفاجئهم فوزية بكل شىء إلا بأن تزين حجرة جلوسها بصورة زوجها! وقالت لها فائزة بالفرنسية وهى لا تفكر فيما تقول «إنها صورة لطيفة».. فأجابتها بقولها: «إنه أحسن جدا من صوره»!

اكتشاف اختفاء الخدم، واختفاء الحرس، كان من الطبيعى أن يربطوا بين تلك الظواهر جميعا وأن يلوح لهم أن فى الجو شيئا!

وهرولوا إلى بهو القصر فلم يجدوا فيه مخلوقا، وكذلك لم يلقوا أحدا فى الردهات والصالونات، ولما دخلوا قاعة الأكل، لم يلمحوا على المائدة، أو بجوار المائدة، أثرا لطعام ما، ولما قنطوا من العثور على أحد من خدم الدار، أسرعوا إلى حيث كان رؤساء الحرس يجلسون، فألفوا المكان خاليا من الرؤساء والمرءوسين، سواء كانوا من رجال الحرس أو من رجال البوليس، وأخيرا صادفوا «مخبرا» (بوليسا سريا)، فانهالوا عليه بالأسئلة، فقال لهم، إنه لا يعرف أكثر من أن القصر قد هجر، ولم يبق فيه أحد!

وبعدما تشاوروا فى الأمر، قرروا أن يطرقوا الجناح الخاص بالامبراطورة، لعل خادمتها قد تخلفت عنها لتتولى إعداد حقائبها فتفيدهم بما عندها من أخبارها، فلما بلغوه لم يطرقوا بابا، فقد كانت الأبواب جميعا غير موصدة، والحجرات خاوية إلا من أثاثها، ولا أثر فيها للخادمة طبعا!

ولما فتحوا الخزائن (الدواليب) فى غرف الامبراطورة، اتضح لهم أن جلالتها قد أخذت معها كل ملابسها وحاجاتها، ولم تخلف وراءها حقيبة واحدة، فأدركوا أنها رحلت عن قصر أنطونيادس نهائيا!

وبينما كانوا يتباحثون فى موقفهم، أقبل عليهم ضابط من ضباط البوليس الملحقين بالقصر، وأنهى إليهم فى أدب وكياسة، ما يفهم منه أن قصر أنطونيادس بعد سحب طهاته وخدمه وحجابه، لم يعد فى حالة تتوافر فيها أسباب الضيافة اللائقة بهم!

ثم قال لهم إن التعليمات صدرت إليه بأن يضع نفسه تحت تصرفهم متى أرادوا أن ينقلوا حقائبهم وأمتعتهم إلى مكان آخر، فزادهم هذا الكلام حيرة ودهشة، ولما حاولوا أن يرووا غليلهم بسؤاله عن بعض ما خفى عليهم، أجابهم بأنه لا يعرف شيئا، فقرروا عندئذ أن يتوجهوا إلى قصر رأس التين..

تلك هى قصة ما حدث فى قصر أنطونيادس!

وفى قصر رأس التين دارت أسئلة رجال الحاشية الإيرانية حول:

لماذا رحلت الامبراطورة عن قصر أنطونيادس، ولماذا لم يكاشفهم أحد بعزمها على الارتحال عنه؟

وإلى أين ذهبت، ولماذا لم يخبروا بذلك، ولو على سبيل الإحاطة؟

ولماذا تم هذا كله سرا ومن غير أن يتصل بهم أحد من البلاط المصرى؟

وكيف عدل برنامج الإقامة بهذه الكيفية من غير استئذان البلاط الامبراطورى فى تعديله؟

وماذا سيكون رأى جلالة الشاه فى ذلك؟

ثم قالوا إنهم لا يدرون كيف يفسرون المعاملة التى عوملوا بها على حين غفلة، ولا يرون لماذا يفاجأون بسحب الخدم والحجاب من قصر أنطونيادس، إلا إذا كانت هناك رغبة فى أن يخلوا القصر وفى هذه الحالة كان من المتيسر للجانب المصرى أن يفهمهم ذلك بالحسنى صونا لكرامة الفريقين، أما طردهم على تلك الصورة المزرية، فأمر من المحقق أن جلالة الملك فاروق لن يقره ولن يرضى عنه!

وكان آخر سؤال لهم: والآن ماذا يمكننا أن نقول لجلالة الشاه فى تفسير هذا كله، وفى كل مكتب دخلوه لقوا مجاملة وعناية وإصغاء إلى حديثهم وأسئلتهم، وفى كل مكتب كانت علامات الدهشة والحيرة والارتباك، ترتسم على وجه صاحبه، ولكن فى مكتبى ظل حديثهم بدون تعقيب، وظلت أسئلتهم بدون ردود!

ولم يظفروا إلا بجواب واحد، إنا لا نعلم عن هذا كله شيئا، ونؤكد لكم أن حديثكم هذا هو أول ما سمعنا عن هذا الموضوع، وسنرفعه حالا إلى جلالة الملك لمعرفة أوامره وتوجيهاته وإن شاء الله ينتهى كل شىء بخير!

والواقع أن كبار رجال القصر كانوا صادقين حين قالوا إنهم لا يعلمون عن الموضوع شيئا، فقد كتمه فاروق عنهم جميعا كتمانه عنى، ومع أنه توقع حتما أن يهرع رجال الحاشية الإيرانية إلى قصر رأس التين فى طلب بيانات وإيضاحات لم يهتم بتزويد رجاله بالتعليمات التى تعينهم على مواجهة الموقف المؤلم الذى وقفوه عند زيارة «الضيوف» الإيرانيين لهم!



وكان فاروق شديد الاستخفاف ببعض المواقف الحرجة التى يقفها رجاله لأجله أو بسببه، وكثيرا ما لاح له أنه يغتبط بالحرج الذى يسببه لهم ويفرح بسماع قصص المآزق التى يزجهم فيها، وإن كان من الإنصاف له أن أنوه بأنه لم يجد من كبار رجال القصر فى يوم من الأيام ما يبعثه على عدم الاسترسال فى استهتاره بهم!

وما كاد أعضاء الحاشية الإيرانية يودعون كبار رجال القصر حتى ردّ هؤلاء على أنفسهم الأبواب واتصلوا تليفونيا «بالشمشرجى» النوبتجى فى قصر المنتزه وأبلغوه أحاديث الحاشية الإيرانية وأسئلتها ليعرضها على مولانا ويتلقى تعليماته فى صددها.

وانقضت ساعات العمل فى مكاتب القصر، وتوجيهات فاروق وأوامره لم تعرف بعد. فعاود بعضهم الاتصال، «بالشمشرجى النوبتجى»، واستعلم منه هل تسنى له عرض الموضوع: فأجاب بالإيجاب، فسألوا: وما هى الأوامر والتوجيهات؟ فرد عليهم: بأن مولانا لم يقل شيئا!

فقالوا له: ولكن ألم تذكر لمولانا أننا فى انتظار توجيهات؟

فقال: طبعا ذكرت ذلك.

فقالوا: وماذا كان رده؟

فقال: لم يقل شيئا!

ولما قرب موعد قفل المكاتب، أسرع كبار رجال القصر إلى سياراتهم، وعجلوا انصرافهم، حامدين الله على عدم اتصال «الضيوف» الإيرانيين بهم مرة أخرى فى هذا اليوم، آملين أن يتلقوا «التوجيهات السامية» قبل حلول مواعيد الزيارات فى الغد!

وآثرت من جهتى ألا أحاول الاتصال بفاروق فى هذا الشأن لثلاثة اعتبارات: أولها «نظرى»، وثانيها: «عملى»، وثالثها: «واقعى».

أما نظريا، فلأنه لم يكن لى «دور» فى هذا الموضوع، وبخاصة أنه لم يدر بين رجال الحاشية الإيرانية وبينى أى حديث يمكننى أن أتذرع به لأطلب مقابلة الملك..

وأما عمليا فخشية أن يظن فاروق أننى على أحر من جمر لاستطلاع ما يدبره فى الخفاء، فيحرك هذا الظن بعض نزواته فتحضه على تأجيل مقابلتى ليطيل «أمد» حيرتى وقلقى.. وكان يسره فى أحوال كثيرة أن يشعر أنه وفق إلى إطالة هذا «الأمد»، وأن الشخص الآخر «على نار»!

وأما واقعيا فلثقتى بأنه سيستدعينى من تلقاء نفسه «فى الظاهر» ليقف منى على وقع الخبر فى نفوس الذين عرفوه، وفى الحقيقة ليتباهى بالخطة التى نفذها ولم يعلم أحدا بها إلا بعد تنفيذها!

وتحقق ما توقعته، ففى نحو الساعة السادسة مساء، كلمنى «الشمشرجى النوبتجى» ودعانى إلى مقابلة الملك فى قصر المنتزه..

لما دخلت على فاروق قال لى مازحا ومتهكما: أهلا بالصحفى الكبير!

وكان ذلك بمعنى: أهلا بالصحفى الكبير الذى كان فى غفلة!

فحييته تحية لا كلام فيها ولا ابتسام، وكان يعلم أن هذه طريقتى فى لقائه حينما أكون مستاء من تصرف تصرفه، وعازما على مفاتحته فى موضوعه..

ولما لم أتكلم غيّر ملامح وجهه وأبدل لهجته، وقال بالعربية: لابد أنك عرفت ما حدث، ثم استطرد قائلا بالفرنسية: لقد عملت ما كان يجب عليّ عمله لإنقاذ شقيقتى!

وذكرنى حاله فى تلك الساعة بأولئك الذين يقتلون زوجاتهم أو شقيقاتهم ثم يذهب القاتل إلى البوليس ويسلم نفسه وهو يقول: لقد قتلتها!. وليكن الآن ما يكون!

ولم يقل فاروق: لقد قتلتها! وإنما قال: لقد عملتها، ولكن الآن ما يكون!

وتأملت مظهره ولهجته، فليس هذا مظهر الرجل «الذي أعرفه» في فاروق، وليست هذه لهجته..

بل هذا مظهر ولهجة «الرجل الآخر» في فاروق، الرجل الذي «لا أعرفه» ولن أعرفه!

ونظر إليّ نظرة من ينتظر مني تعقيبا على قوله، فقلت: هل كان حدوث ما حدث ضروريا؟ فصاح قائلا: حتما كان ضروريا، إن شقيقتي كانت مهددة في صحتها وفي عقلها وفي سلامتها، وبعد ذلك تسألني هل ما عملته كان ضروريا!

فقلت: كنت أعتقد أننا اقتنعنا بأنها على أحسن حال، وأن ما جاء في التقارير السرية غير صحيح!

فقال: أنت اقتنعت بذلك، أما أنا فلم أقتنع، ويحسن أن تعلم أن تلك التقارير كانت صحيحة بوجه عام!

فقلت: من الغريب أن جميع المتصلين بالامبراطورة لم يلاحظوا عليها شيئا مما أكدته التقارير المذكورة!

فقال: لأن فوزية تضغط على أعصابها ولا تدع شيئا يظهر على وجهها!

فقلت: ولكن التقارير ذكرت أشياء لا يتيسر إخفاؤها مهما اجتهدت الامبراطورة في ذلك.. ولما تبين له أنني مصمم على مناقشته ومحاجته، خشية أن أضيّق عليه بأسئلتي وحججي فقال: أنت تعلم أنني أحبك وأثق بك، ولكن فوزية انتزعت مني قسما بألا أبوح لأحد بما ستكاشفني به، ولما اطمأنت إلى ذلك، فتحت قلبها لشقيق يحبها ويخلص لها!

وكان معنى كلامه: أن هناك أسرارا لا يجوز لك أن تعرفها، ولو عرفتها لعذرت عملي! ولم أصدق طبعا!

وقلت في نفسي: لو كانت هناك حقيقة أسرار كما يزعم، لما تردد دقيقة واحدة في اطلاعي عليها تعزيزا لموقفه وتبريرا لمسلكه، وليس الرجل الذي لم يحبس عني قبلا أسرار علاقاته بزوجته هو الذي يحرص هذا الحرص الشديد على أسرار شقيقته!

ولما لم أستطع أن أقول له إنني لا أصدقه، تركت تلك «النقطة» وانتقلت إلى نقطة أخرى، فقلت: إذن الامبراطورة عازمة على طلب الطلاق..

فقال: ألم تفهم ذلك بعد؟

فقلت: فهمته منذ هذا الصباح يا أفندم وإنما أردت أن أستوثق..

فقال: هل استوثقت الآن؟ نعم يا سيدي ستطلب الطلاق!

فقلت: مادامت النية منصرفة إلى الطلاق فلماذا تركت الامبراطورة قصر أنطونيادس سرا، ولماذا نقلت حقائبها وأمتعتها في الخفاء؟

فقال: لأنها لم تعد تطيق «أي جو» يذكرها بحياتها في طهران!

وهنا أيضا لم أصدقه..

فقلت: ولكن لماذا تمّ ذلك سرا وفي الخفاء، فيقال إن الملك خطف الامبراطورة!

فقال: لأني أردت أن أتفادى عقبات كان من المحتمل أن يثيرها رجال الحاشية الإيرانية!

وأردت أن أفهمه أنني لا أصدق حديثه، فقلت: وهل كانوا يستطيعون منعها من الانتقال إلى قصر «المنتزه» لو قالت لهم أنها تبغي الانتقال إليه؟

فلم يرد على هذا السؤال، وقال: أحببت أن أواجههم بالأمر الواقع ليعلموا أننا جادون في حركتنا!

فقلت: وحكاية تركهم بدون خدم وحجاب.. ماذا كان الغرض منها؟

فقال: لا شيء، ولكن بما أن فوزية تركت المكان، لم يبق ما يدعو إلى استمرار إقامتهم فيه!

فقلت: أكانت المعاملة التي عوملوا بها السبيل الوحيد إلى إفهامهم ذلك؟

فقال: آه، الآن فهمت سؤالك، لا أخفي عليك أنني تعمدت المبالغة في استفزازهم ليعجلوا الطلاق!

فقلت: كل هذه الأمور أثارت هياجا شديدا في دوائرهم..

فقال بالفرنسية: ليذهبوا إلى الشيطان! إن سلامة شقيقتي وسعادتها مقدمتان عندي على كل اعتبار آخر، وهما الشيء الوحيد الذي أحسب حسابه الآن، إن شقيقاتي أمانة في عنقي مادمن محرومات من الوالدين، وأنت تعلم أنني أعد والدتي في حكم غير الموجودة، فليس لشقيقاتي «ملجأ» غير عندي!

ولم تمنعني ملاحقة أقواله من الانتباه لكلمة تكلف تكرارها في هذه المناسبة، وهي كلمة «شقيقتي»..

وعجبت لضربه على هذا الوتر مع علمه بأنني لا أجهل «مبلغ» حبه الحقيقي لشقيقاته، و«مدى» استعداده الفعلي للبذل في سبيلهن!

ولم يكن فاروق رجلا يعوزه ذكاء أو تنقصه فطنة..

ولكن «الرجل الآخر» في شخصه كان يسدل على ذكائه وفطنته ستارا من الشهوات والنزوات، ويوقف نشاطهما، كلما شاءت المقادير أن يسيطر على إرادته، وأن يسلبه مشيئته!

ولما ظهر له أن حديثه عن سلامة شقيقته وسعادتها، وعن الأمانة التي في عنقه، وعن الملجأ الذي هو ملاذ شقيقاته، لما ظهر له أن هذا الحديث لم يغير شيئا من وقع أقواله في نفسي، قال: وعلى كل حال فإن هياجهم سيزيد كثيرا عندما يعلمون أن شقيقتي ستطلب الطلاق!

فقلت: إنهم يعلمون ذلك يا أفندم، أو بالأحرى أنهم يتوقعون!

ورددت له ما سمعته من الضابط «ى.ى»، فعلق عليه بقوله: الحمد لله، إنهم يسهلون لي مهمتي!

ثم سألني هل ترامى إلى شيء من أحاديث رجال الحاشية الإيرانية في قصر «رأس التين»، فقلت له: إنني عرفتها برمتها. فضحك وقال: كلما تصورت كيف كانت وجوههم لما استيقظوا هذا الصباح ووجدوا قصر أنطونيادس مهجورا، أكاد أموت من الضحك.. وكم وددت لو أتيح لي أن أراهم في تلك الساعة من خلال أحد الأبواب أو من خلف إحدى الستائر!

وأردت أن أشعره بأن الموضوع أخطر من أن يقابله بهذا الاستخفاف فقلت: هل فكرت جلالتك فيما سيكون لهذا الحادث من تأثير في علاقات مصر بإيران؟

فقال وهو يهز كتفيه ازدراء: وما أهمية علاقاتنا بإيران، ولماذا تتأثر علاقاتنا بها إذا حدث طلاق. هل هو أول طلاق من نوعه في التاريخ؟ ومع ذلك إن علاقاتنا بإيران لا تهمنا!

وكنت أعلم أن الرجل «الذي أعرفه» في فاروق لا يشرب ولا يسكر..

أما «الرجل الآخر» الذي كان يكلمني في هذه المقابلة، فكان يتكلم كأنه تحت تأثير سكره، ولكنها لم تكن سكرة الخمر..

كانت سكرة الاقتدار! أو على الأصح: توهم الاقتدار!

وإذا هو يقول فجأة: دعنا الآن من العلاقات الرسمية بإيران، ألا ترى أن خطة هجر قصر أنطونيادس قد نفذت بمهارة وبراعة، بدأت أولا بدعوة فوزية إلى العشاء معي كما تعلم، ولم يكن في ذلك ما يريب رجال الحاشية الإيرانية لأنها اعتادت أن تتعشى في ضيافتي كل ليلة تقريبا. وفي تلك الأثناء كان كل شيء في قصر أنطونيادس يسير في الظاهر سيرا عاديا منتظما، فلم يكن في استطاعة رجال الحاشية الإيرانية أن يلاحظوا شيئا يسترعي انتباههم أو يحرك ظنونهم. ولما انتهوا من عشائهم وسهرتهم، وانتقلوا إلى حجراتهم، شرع رجالي في تنفيذ أوامري وتعليماتي بحذر واحتراس، اتقاء لكل جلبة أو حركة تنبه الضيوف إلى أن هناك شيئا يجري تحت جنح الظلام، وكانت فوزية قد جمعت ملابسها، وأعدت حقائبها



بمساعدة خادمتها، فأنزلها الخدم من الباب الخلفي إلى السيارة التي كانت في انتظارها إلى هنا.. وكان «السفرجية» قد اشتغلوا بعد العشاء بجمع كل ما كان في قصر أنطونيادس من مأكل وشراب، فلما هدأت الحركة في القصر، نقلوا صناديقهم بخفة وسرعة إلى سيارة كبيرة وضعت تحت تصرفهم لهذا الغرض.. ثم ركب جميع الطهاة والخدم والحجاب السيارات التي أعدت لهم. وكانت تنتظرهم في مكان لا يصل منه صوت محركاتها إلى حجرة نوم رجال الحاشية الإيرانية. وكان هؤلاء على كل حال يعلمون أن هناك سيارات تجيء وتذهب في كل وقت لنقل لوازم الضيافة والخدم المعينين لخدمتهم. وإنما اتخذنا هذا الاحتياط كيلا يلاحظوا أن حركة السيارات في هذه الليلة زادت على الحركة المعتادة. وبعدما انصرف الخدم والحجاب، جاء دور رجال الحرس. فاحتشدوا جميعا في جهة واحدة، واستقلوا السيارات الكبيرة، التي أقلتهم إلى ثكناتهم ولم يتركوا أمام باب القصر سوى رجل واحد من رجال البوليس و«مخبر»، لا يعرفان أكثر من أن الأوامر قد صدرت بإخلاء القصر، ونفذت الخطة بإحكام فلم تقع غلطة واحدة، وأخلي القصر في أقصر وقت مستطاع، وحضرات الضيوف غارقون في نوم عميق لا يدرون شيئا عن المفاجأة السارة التي ستنزل عليهم كالصاعقة عند استيقاظهم.. ولعلك أدركت أن فوزية لم تعد بعد العشاء إلى قصر أنطونيادس، فنامت في الجناح الذي أفردناه لها هنا، أما بقية القصة فقد عرفتها من أحاديث رجال الحاشية الإيرانية!

وكان «الرجل الآخر» في فاروق يتكلم عن «خطة» إخلاء قصر أنطونيادس كأنها الخطة التي اختطف بها هتلر حليفه موسوليني من المعتقل الذي اعتقله فيه الملك فكتور عمانوئيل الثالث في أواخر الحرب العظمى الماضية. ويغرق في الضحك كلما ذكر المفاجأة «السارة» التي فوجيء بها رجال الحاشية الإيرانية في الصباح، حتى كان يخيل إليّ أنه لم يفكر في هذه الخطة ولم ينفذها إلا ليبعث في نفوسهم الحيرة والقلق والارتباك فيضحك لذلك!

ولما استتم وصف «خطته» حاولت مرة أخرى أن أشعره بجدية الموقف، فقلت: ترى ماذا سيكون رأي الحكومة؟

فقال على الفور محتدا: وما علاقة الحكومة به؟ ما شأن الحكومة ومسائلنا العائلية؟!

فقلت: ألا ترى جلالتك أن للموضوع ناحية سياسية من الواجب على رئيس الحكومة أن يهتم بها؟

فقال: إني أشفق من الآن على رئيس الوزارة مما سيسمعه مني في اليوم الذي يتجاسر ويكلمني في موضوع لا يعنيه!

وبعدما أطرق لحظة قال: لا أتصور أن رئيس الوزارة «يفقد عقله» ويقدم على ما ذكرت.. لا، لا أعتقد ذلك، فقد «علّمت» رؤساء الوزارات منذ ارتقائي العرش أن يكونوا شديدي الاحتراس في علاقاتهم بي، وألا يتدخلوا في شئون لا تعنيهم وليس لهم أن يتدخلوا فيها!

فقلت: ولنفرض أن رئيس الوزارة قدّر أنه بالتكلم مع جلالتك يؤدي فرضا عليه..

فقال ضاحكا: الحل سهل جدا.. ألحقه بالحاشية الإيرانية!

وهكذا كان يلف ويدور ثم يعود إلى ذكر الحاشية الإيرانية!

وهنا سألته: هل أبلغ المختصين في «رأس التين» توجيهاته بشأن ما يقولونه لرجالها..

فقال: ليس عندي كلام لهم، إن سفير مصر في طهران هو الذي سيتصل بالشاه في هذا الموضوع!

فقلت: وهم.. ماذا يصنعون؟

فقال: لم يعد أمرهم يهمني سواء بقوا في مصر أو غادروها عائدين إلى بلادهم، مادامت فوزية لن

تقابلهم بعد الآن، وماداموا ليسوا ضيوفا علينا من اليوم!

فقلت: وإذا أحب السفير الإيراني مقابلة الامبراطورة؟

فقال: إن الامبراطورة في حالة لا تمكنها من مقابلته، وقد فوضت إليّ أمرها!

ثم قال مستدركا: ولكن هذا لا يعني أن نخرج عن حدود آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة، فإن إنهاء العلاقة الزوجية بين فوزية والشاه، مسألة شخصية وعائلية، ويجب ألا تؤثر في العلاقات العامة والرسمية!

وتساءلت وأنا أسمع هذا الكلام، أي الرجلين في فاروق هو الذي يتكلم الآن؟!

فأين كانت آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة حين فكر في خطة اختطاف الامبراطورة وإخلاء قصر أنطونيادس؟!

وأين كانت آداب المعاملة والمجاملات التقليدية المعتادة حين استيقظ رجال الحاشية الإيرانية وواجهوا تلك المعاملة المشينة الشاذة؟!

وأدرك فاروق معنى الابتسامة التي قابلت بها كلامه فقال: أنا فاهم مغزى ابتسامتك، فأنت لا ترى كيف يستقيم ما سمعته مني الآن مع الذي حدث. فاكرر لك أن الضرورة هي التي حتمت عليّ العمل الذي عملته، ولولا ذلك لما لجأت إلى الخطة العنيفة التي نفذتها، أما التزام حدود آداب المعاملة والتقاليد والمجاملات فيبدأ من الآن..

فقلت: وإذا طلب الآن أحد رجال الحاشية الإيرانية أن يقابلني؟

فقاطعني قائلا: تقابله طبعا بكل أدب وإكرام!

فقلت: وإذا كلمني في الموضوع فماذا أقول له؟

فقال: قل إنك لا تعرف شيئا، ثم تظاهر له بأنه استدرجك في الكلام ودعه يفهم أن الامبراطورة ستطلب الطلاق، وإنك لا تظن أنها سترجع عن قرارها، لا تقل له إنك «تعلم» ذلك، بل قل إنك «تظن».. أي أن هذا هو رأيك الشخصي لأنك لم تكلمني في الموضوع بعد!

فقلت: ولكن عندما سأقول «لا أظن أنها سترجع عن قرارها»، سيفهم أن هناك قرارا، وأنني على علم به!

فقال: لا ضرر من أن يفهم ذلك، وفي الوقت نفسه دعه يفهم أن سفير مصر في طهران هو الذي سيتولى مهمة الاتصال بالشاه، وأنه لذلك ليس لدى رجالي هنا أي توجيهات في هذا الصدد!

وانقضت الأيام التالية من غير أن يطلب أحد من رجال الحاشية الإيرانية مقابلتي، فحمدت الله على ذلك، لأنه ليس أبغض إليّ من أن أواجه رجلا قوى الحجة بحجة أشعر مقدما بأنها واهية وخاسرة!

وأخذت أراقب موقف الوزارة..

وفي كل يوم كنت أسأل: هل تحرك رئيس الوزارة؟ فيقال لي: لا!

وبعد أسبوع كان الرد على السؤال نفسه: لا!

وبعد أسبوعين، وثلاثة أسابيع، وأربعة أسابيع، كان الرد دائما: لا!

***

وتم الطلاق بين الشاه وفوزية ورئيس الوزارة لا يزال يشاور عقله: هل يكلم فاروق أم لا يكلمه؟!

ألم يقل لي فاروق: لقد «علّمت» رؤساء الوزارات!

أبرزت قصة طلاق فوزية بجلاء أنه كان في فاروق شخصيتان أو رجلان. أولهما:

من المعروف أن فاروق كان مصابا بمرض يدفعه إلى «الخطف» كلما تحركت فيه عوامله، فامتداد يده إلى محتويات حقائب شقيقته، لم يكن سوى مظهر من مظاهر هذا المرض، وضرب آخر من ضروب ذلك «الخطف» أما الأساس فكان دائما واحدا

الرجل الذي قلت عنه في الفصول السابقة أنني كنت أعرفه. والثاني: هو «الرجل الآخر» الذي كنت لا أعرفه ولم أعرفه قط!

ولما انتهى موسم الاصطياف وعاد البلاط إلى القاهرة، رجع فاروق إلى الإقامة في قصر القبة، وعادت فريدة إلى قصر عابدين، وخصص للامبراطورة جناح كامل في قصر القبة مع استمرار النظام الذي كان معمولا به في المنتزه..

وكانت فوزية تنفق من مالها الخاص المتوافر لها عند الخاصة الملكية، وكانت الخاصة الملكية هي التي تسدد جميع فواتير مشترياتها مادام على الفاتورة «تأشيرة» منها بأنها تقر قيمتها وتوافق على صرفها..

وكان لها سيارتها الخاصة، وسائقها الخاص، وكانت «الجراجات» الملكية تحت تصرفها في كل وقت..

وبينما كان فاروق يبذل قصارى طاقته لإراحة الامبراطورة وإرضائها، كان من جهة أخرى يصدر أوامره إلى الجهات المختصة بأن تحبس عنها الرسائل البريدية التي ترد من طهران باسمها، وأن ترفعها إليه بدلا من رفعها إليها، وقال في تبرير ذلك أنه يبغي أن يحول بينها وبين كل ما قد يثير أعصابها ويسيء إلى صحتها!

والحقيقة أنه كان يخشى أن تتلقى رسائل وصورا من ابنتها فتهز اشتياقها إليها، فتضعف أعصابها، فتتردد في المضي في الطريق الذي اقتنعت بأن تسير فيه..

وفعلا حجز عنها صورا كثيرة أرسلتها إليها ابنتها، وحجز كذلك الكلمات التي كانت تكتبها إليها وترفقها بها، ولم يطلعها على شيء منها! بل قال لها يوما أن عدم ورود «كلمة واحدة» من طهران ظاهرة خليقة بأن تتأمل في مغزاها!

ومن الطبيعي أن الابنة كانت تنتظر ردا على كلماتها وصورها، فلما طال انتظارها وخاب أملها، كفت عن الكتابة إليها فاستراح فاروق من هذه الناحية..

وأمر فاروق جميع الذين يختلطون بالامبراطورة ألا يذكروا إيران، أو الشاه، أو الابنة في أحاديثهم معها..

وكان يتصفح بنفسه ما يجلب لها من صحف ومجلات محلية وأجنبية ليطمئن إلى خلوها من كل حديث أو صور عن إيران وعن الأسرة الامبراطورية، وكان يهتم بالصور بصفة خاصة!

ونشرت يوما إحدى المجلات المصرية طائفة من الصور للأميرة «نازشاه» كريمة الشاه والامبراطورة فوزية، فأقام الدنيا وأقعدها، وطاف بحجرات «الحرملك» حجرة حجرة خيفة أن تكون نسخة من تلك المجلة قد تسربت إليها عمدا، أو سهوا، ولم يهدأ له بال إلا لما تأكد أن نظر فوزية لم يقع على المجلة التي أزعجته صورها!

وأصدر تعليمات مشددة إلى الموظف المختص بالسينما في القصر أن يستبعد كل شريط يحتمل أن يحتوي على مناظر تذكر الامبراطورة بإيران، ولاسيما الأشرطة الإخبارية..

وحتى موسيقى القصر حُذف من برامج ألحانها لحن مشهور اسمه «السوق الفارسية» (The Persian Market).

وعلى أثر انتقال فوزية إلى المنتزه، جاءت «الأميرتان» الصغيرتان فريال وفوزية لزيارتها، والسلام عليها، وكانتا شديدتي التعلق بها، وكانت هي من جهتها تبادلهما حبهما وتعطف عليهما عطفا كبيرا.

وأوعز فاروق إلى شقيقته بألا تسأل الصغيرتين عن أمهما، وقال لها إن ذكرها لا يرد أبدا عندما تكون «البنات» عنده، ولذلك لن يستغربن عدم سؤالها عنها..

وكان فاروق يشير إلى كريماته تارة بقوله «البنات»، وتارة أخرى بقوله «الأولاد»، وإذا كان يتحدث بالفرنسية قال: "Les Enfants".

وأوعز إلى مربية «البنات» بأن توصيهن بعدم سؤال عمتهن عن ابنتها، أو عن «عمهن» (الشاه)!

وكانت «البنات» في إدراكهن لحقيقة العلاقات بين والديهن لا يطلبن تفسيرا لهذه التعليمات، وقد ألفن وضعهن الشاذ، وتعودنه، و«دربن» عليه، فعرفن أنه ينبغي لهن عند وجودهن في مجلس أبيهن أن يغفلن كل إشارة إلى أمهن حتى إذا رجعن إليها، وجب عليهن أن يمسكن عن ذكر أبيهن، وقد رأيتهن بصحبة والدهن في مناسبات شتى، فلم ألاحظ يوما أن لسان



إحداهن زل ونطق كلمة «ماما» عفوا مع كثرة الموضوعات التي كن يتكلمن فيها، كأن النظام الذي دربن عليه أضحى جزءا من طبيعتهن! فلما وصين بعدم سؤال الإمبراطورة عن الشاه وابنتها لم يرد في الأمر جديد عليهن!

وفي أثناء إقامة البلاط في الإسكندرية، كانت «البنات» يمضين يوم الجمعة برفقة عمتهن في ضيافة والدهن في استراحته البحرية على مقربة من قصر رأس التين، فلما عاد البلاط إلى القاهرة، قلّت اجتماعاتهن بها، إذ كن يقمن مع والدتهن في قصر عابدين ولا يذهبن إلى قصر القبة إلا في المناسبات.

ورأى فاروق أن الحصار الذي ضربه حول فوزية لن يمنعها من التفكير فيما يحجبه عن نظرها، ويحجبه عن سمعها، فقرر أن يشغل ذهنها بزيادة عدد الحفلات والمجتمعات والرحلات التي يستصحبها إليها، فلا يتسع لها وقت للتأمل فيما سيؤول إليه أمرها حتى ينتهي سفير مصر في طهران من تسوية موضوع الطلاق في البلاط الامبراطوري.

وكان يحيطها في كل مجلس وفي كل محفل، بأعظم مظاهر الحب والعطف والعناية، من جهة ليرضيها وينسيها همومها، ومن جهة أخرى ليكتسب تقدير الناس لهذا البر بشقيقته، وليستدر عطفهم على حالته في الخلاف القائم بينه وبين زوجته!

ولكنه بالغ في تمثيل الدور وغالى، وما لبث فريق من الناس أن رأى في بعض المظاهر التي يحيط بها شقيقته ما يجاوز المألوف في العلاقات الأخوية، فاستغل خصومه سوء التأويل وروجوه!

وكان قد فكر من زمان طويل في تنظيم رحلة بحرية في البحر الأحمر لزيارة شواطئه وصيد السمك، فخطر له أن ينفذ هذه الفكرة في تلك الأيام ليسري عن شقيقته ويروح عن نفسها، فقابل الناس نبأ هذه الرحلة باستهجان وعدوها ضربا من ضروب الاستهتار، إذ كانت أخبار مفاوضات الطلاق قد انتشرت في الأندية والمجالس، وانتشرت معها طبعا مجموعة من الشائعات والروايات!

والخلاصة أنه بدلا من أن تكسبه «مظاهره» لفوزية العطف الذي كان يمني به نفسه، جرت عليه سخطا جديدا كان في غنى عنه!

وبعد عودتهم من تلك الرحلة البحرية، لفت بعضهم نظر فاروق إلى «الثروة» التي تنفقها فوزية على شراء الفساتين والملابس، وقالوا له إن رصيدها المتجمد في الخاصة الملكية نقص نقصا كبيرا بسبب المال الطائل الذي أنفقته في هذا السبيل، والتمسوا منه أن ينصح لها بالاعتدال في نفقاتها، فنهرهم وأنبهم، وقال لهم: «إن جلالة الامبراطورة حرة في مالها وفي اختيار الوجوه التي تنفقه فيها»!

والواقع أن فوزية كانت تسرف في ذلك الحين إسرافا لا حد له في اقتناء الملابس، مع عدم حاجتها إلى أغلبها، وكان في خزائنها مجموعة كبيرة من الفساتين لم تلبسها سوى مرة واحدة، بل كان عندها فساتين كثيرة لم تظهر بها قط لزيادة عددها على عدد المناسبات التي يمكنها أن تلبسها لها، ومع ذلك كانت تواصل شراءها وتكديسها بلا انقطاع، دون أن تعلم لماذا تشتريها أو متى سترتديها، ودون أن يخفى عليها أن الأزياء تتغير باستمرار وأن ما تشتريه اليوم لن تلبسه في السنة القادمة!

ومع أن فاروق كان يعلم أن الشكوى في محلها.. وأن شقيقته تبذر المال تبذيرا، تظاهر بعدم الاكتراث لذلك، إذ رأى أن الوقت غير مناسب للتكلم معها في هذا الموضوع، وأنه يحسن به أن يرجئ التعرض له حتى يتم

طلاقـهـا: هذا الطلاق الذى كـان يسعى لاستتمامه بكل وسيلة!

وفى تلك الأثناء، كانت الاتصالات تجرى فى طهران للاتفاق على الطلاق..

ولما كوشف جلالة الشاه بموضوعه، قال إن دهشته عظيمة، فهو يحب زوجته، وزوجته تحبه، والعلاقات بينهما على ما يرام، فما الذى طرأ ؟!

وبعد مفاوضات طويلة تعددت خلالها مقابلات سفير مصر للشاه، وافق جلالته على الطلاق! وقد أبدى الشاه فى جميع مراحل المفاوضات نبلا وكرما عظيمين، وكانت مهمة سفير مصر شاقة ودقيقة، فعالجها بكفاءة ولباقة كبيرتين..

ورضى جلالته أن تحتفظ فوزية بجميع المجوهرات التى أهداها إليها فى مناسبات مختلفة!. وبعدما اتفق الجانبان على الطلاق، واستعد الشاه لإعلانه، أبلغوه رغبة «أخوية» لفاروق وهى أن يرجئ الإعلان قليلا..

وقال فاروق إنه سينفذ قريبا مشروع طلاقه من فريدة، فيود أن يعلن «الطلاقان» فى مصر فى وقت واحد! فلم ير الشاه مانعا من تحقيق رغبته..

وامتد تأجيل الإعلان من شهر إلى آخر، والشاه صابر على هذا الوضع العجيب!

وفى كل شهر كان يقال له: بعد أسبوعين..

وأخيرا طلق فاروق فريدة، فاذيع نبأ طلاقهما ونبأ طلاق الشاه وفوزية فى وقت واحد!

واعتقد فاروق أن إذاعة النبأين سويا سيساعد على تلطيف الجو فى مصر، فكانت النتيجة أن تشاغل الناس عن طلاق الشاه بالتعليق على طلاق فاروق وحده!

واستمرت فوزية بعد إعلان طلاقها تقيم فى قصر القبة..

واستردت لقبها القديم الذى كانت تعرف به قبل زواجها..

وقرر فاروق بعد انقضاء فترة قصيرة على طلاقه أن تقوم «سموها» مقام الملكة، وأن تنهض بمهام السيدة الأولى فى البلاد إلى أن يتزوج مرة أخرى!

وكانت شقيقتها فائزة تشترك معها أحيانا فى الترحيب بضيوفها، أو تنوب عنها فى بعض الحفلات إذا اعتذرت عن عدم حضورها لوعكة طرأت عليها، وكانت فوزية تكره الاستقبالات والحفلات الرسمية، وترحب بكل طارئ يحول دون تمكنها من الاشتراك فيها!

ولما حلّ عيد ميلاد فريال لأول مرة بعد طلاق والديها، أقام لها فاروق فى قصر القبة حفلة شاى عائلية على غرار الحفلة التى كانت أمها تنظمها لها، فكانت أول مرة حلّت فيها فوزية محل فريدة فى حفلة عائلية من هذا النوع، ولم تنجح الابتسامة الصغيرة التى كانت ترتسم على فمها، ثم تختفى بسرعة البرق فى إخفاء ما كانت عليه فى ذلك اليوم من وجوم وقلق، وقد خيل إلىّ طول الوقت أنها كانت تفكر فى ابنتها وفى من سيجلس إلى جانبها عندما ستحتفل بعيد ميلادها!

ولما وافق فاروق على ذهاب فريال وفوزية إلى دار الأوبرا أول مرة لمشاهدة تمثيل إحدى الروايات الفرنسية «الكلاسيكية»، طلب إلى فوزية أن تكون فى صحبتها مع مربيتها..

وكذلك صحبتهما فوزية فى أول زيارة «لحديقة الحيوان»..

وبالاختصار أصبحت تقوم مقام سيدة القصر فى جميع المناسبات الرسمية والعائلية!

غير أنه لم يمض على إعلان طلاقها أمد قصير حتى أخذت معاملة فاروق لها تتحول تحولا ملحوظا!

ففى داخل القصر، قلل من اجتماعه بها، ولم يعد يدعوها إلى مائدته إلا فى فترات غير متقاربة..

وفى خارج القصر، كف عن استصحابها معه إلى الأماكن العامة إلا فى القليل النادر..

وبعدما كان يحيطها بجميع مظاهر العناية والرعاية، صرنا نسمعه يوجه إليها الملاحظات علنا فتقبلها صاغرة فى صمت وطاعة..

وأبطل الإشارة إليها بقولة «شقيقتى»، فإذا تكلم عنها قال «فوزية» أو «فوزية الكبيرة» تمييزا لها عن فوزية الصغيرة، ابنته الثانية.

وأصبحت معظم اتصالاتها تتم بواسطة وصيفتها وعن طريقها!

وذهبتُ إليه يوما لعمل، فما كدتُ أدخل الجناح الخاص به، حتى سمعته يصيح غاضبا: هو ده كلام معقول؟ ١٤ ألف جنيه ثمن فساتين، ده شىء يجنن ويطيّر العقل!

ولم أعلم فى بادئ الأمر لمن يقول ذلك، أو عمن يقول ذلك..

ولكن لما سمعته يقول: «انت فاكرة عندك كام ١٤ ألف جنيه، أنت يظهر عاوزه تعيشى باقى حياتك فقيرة!»، أدركت أنه يخاطب شقيقته فوزية، وخصوصا أننى لم أسمع ردا على كلامه!

وخطوت خطوتين أخريين إلى الأمام، فلمحته قادما من الباب الذى يفصل بين الجناح الخاص به، و«الحرملك»، فقدرت أن فوزية كانت واقفة معه بالقرب من الباب من الجهة الأخرى، فتواريت عن نظره خوفا من أن يقول لى شيئا عنها على مسمع منها، وحسبها الذين سمعوا صياحه من خدمه وخدمها!

وأراد بعض خدمه أن يهدئوا من ثورة غضبه، فاعلموه بقدومى، فما رآنى حتى انفجر مرة أخرى قائلا: اسمع يا سيدى الأخبار، فقد عرفت اليوم أن فوزية اشترت فى أقل من سنة واحدة فساتين بأربعة عشر ألف جنيه، أيوه يا سيدى فساتين بس بـ ١٤ ألف جنيه.. ولولا الصدفة لما عرفت ذلك فى وقته، ولاستمرت فى هذا الإسراف، فهل تتصور ذلك وهل تصدقه؟ فساتين بـ ١٤ ألف جنيه فى أقل من سنة مع كل الفساتين اللى كانت عندها، ليه وعشان إيه؟ علشان شوية عشوات وسهرات تقوم تصرف ١٤ ألف جنيه ثمن فساتين بس، إنت مش شايف إن دى حاجة تجنن؟! هى عندها كام ١٤ ألف جنيه، مش كفاية أختها فائزة! لا هى كمان، علشان يجئ يوم ما يلاقوش مصروفهم.. وتعال يا فاروق ساعدنا، كانه انا ناقص مصاريف والتزامات.. وكان أنا ما عنديش ثلاث بنات لازم أصرف عليهم لما يكبروا، ومصاريف بكام، بكره يطلع الحساب ٢٤ ألف جنيه، حاجة حلوة، حاجة تجنن صحيح!

فقلت: هوّن عليك يا مولانا، ومادمت قد نبهـ

فقاطعنى قائلا: بس أهوّن على نفسى إزاى؟ يعنى إنت موافق على الشغل ده؟

فقلت: اللى فات فات، ومادمت جلالتك قد نبهتها إلى الأمر، فلابد أنها ستمسك يدها من الآن فصاعدا!

فقال: أنا أحب المعقول وما عنديش مانع تصرف على ملابسها ولكن مش بالطريقة دى! وإلا حتروح فين بعدين؟

فتقدمت وقلت له: لابد أنها ستراعى ذلك فى المستقبل..

فقال: لما نشوف!■

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

لن أصغى لمن عذلوا

فافتحْ لنا سبل التوحيد وامض بها
عسى نُحطِّم أصناماً هى البلوى

فَلذَّة الخمر فى عهد الشباب هوى
وفى المشيب نراها عكس ما نهوى

فلا تُضيِّعْ إذا ما كنتَ ذا رَشَد
بغفلة منكَ أياماً هى السلوى

فلن تعود لكَ الأيام ثانيةً
فإنْ تكنْ عاقلاً حاذرْ بها السَّهوا

فإنْ تبختر سَرْوٌ فى حديقته
راحتْ تُجارى بها قاماتُنا السَّروا

أنا المُقيَّد فى حبّى لفاتنتى
أشكو هواها ولم تعرفْ به شكوى

لم تحفظ العهد يوماً لا ولا سئمتْ
عيناىَ مِنْ نظرٍ يُذكى بها النجوى

تعيش آمنةً وهى التى سلبتْ
قلبى، فلا تُخدعَنْ يوماً بما يُروى

أمر المصير

نحن ما زلنا نغنّى طرباً
وليالينا تُنادى للقبورْ

تحفر القبر لنا أيّامنا
دون أن يشغلنا أمر المصيرْ

■■ ثار الحوار العام، حادا، حول نقص السيولة والركود، ثم انتهى الحوار سريعا بإعلان الحكومة لعدد من التدابير العاجلة : حقن السيولة المحلية على مراحل فى حدود ١٨ مليارا من الجنيهات ، تعديل قانون الجمارك - وقد تم فعلا - ليسمح بتعقب السلع المستوردة عقب الإفراج عنها، وعدد من الوعود الحكومية المطمئنة .

لقد فُتح باب الحوار ، ثم أغلق ، تاركا وراءه عددا من التساؤلات أكبر بكثير مما أجاب عليه: هل نقص السيولة والركود وجهان لعملة واحدة ، يؤدى القضاء على أحدهما، بحكم اللزوم، إلى القضاء على الآخر؟ أم أننا أمام ظاهرتين ، لكل منهما أسبابها المستقلة ، و إن ارتبطت الظاهرتان - ككل الظواهر فى عالم الاقتصاد - ارتباطا معضدا أو متنافرا ؟ ثم سؤال آخر : ما هو حجم كل من الظاهرتين؟ إن ما أعلنته الحكومة من تدابير يشير إلى أن الاقتصاد عرف انحرافا يسيرا عن مساره الطبيعى ، غير أن هذا الإعلان سبقه القول أن معدل نمو السيولة ، قد زاد فعلا خلال السنة السابقة على الإحساس بالأزمة ، بما يقرب من ١٢٪ ، وهو - أى المعدل - أكثر من اللازم وفقا للحسابات الاقتصادية، ويبشر - فى الظروف العادية - بوفرة فى السيولة، وليس بنقصها، وبالمثل فإن الوقوف أمام التهريب ، و إن كان إجراء، ضروريا، إلا أنه ليس إجراء كافيا للانتقال من الركود إلى الانتعاش . فما عرفناه من زيادة غير مسبوقة فى قيمة وارداتنا ومن جمود عنيد لقيمة صادراتنا يؤكد، وفقا للتعاليم الاقتصادية الراسخة، أن أمر القضاء على الركود ليس هينا .

كل هذه الأسئلة وأمثالها تعنى أن الحوار حول ظاهرتى نقص السيولة والركود لم يكن شافيا، ولا يمكن النصح بقلب صفحته . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأدب الاقتصادى - بنظرياته ومعامله - يدعو إلى رد الظاهرة إلى جذورها الكامنة فى طبيعة تطور الاقتصاد القومى خلال مدة سابقة طويلة نسبيا. فهذه الجذور هى التى تحدد الإطار الحاكم لمولد الظاهرة وانقضائها ، يصبح واضحا أن أمام المجتمع السياسى - بقواته الضاغطة وأحزابه ومفكريه وحكومته من التكنوقراط - عملا ضخمًا ، يسبقه حوار ضخم، قبل انتخابات تدل كل الدلائل أنها تتجاوز سابقاتها فى المضمون والأبعاد.

ظاهرتان منفصلتان :

من الصعب أن تنحو بنا، النظرة العابرة إلى ظاهرتى نقص السيولة والركود، ناحية القول أننا أمام وجهين لعملة واحدة . فالركود لا يعرف نقص السيولة ، بل يصطحب عادة بالوفرة فى السيولة. ووفرة السيولة - بما تحتويه من انخفاض لسعر الفائدة - تمهد الطريق إلى الانتعاش، والانخفاض معناه الإقبال على الاقتراض من أجل زيادة الاستثمار وزيادة الاستهلاك، وهما يمثلان الخطوة الأولى على طريق الانتعاش. إذا كان ذلك صحيحا - وهو كذلك - فلا مناص من الإقرار بأن الركود لا يتصل بنقص السيولة ، اتصال السبب بالنتيجة، والعكس أيضا صحيح. ومع ذلك فإن المعاصرة بين الظاهرتين لابد أن تزيد من وطأة كل منهما .

وتبدو الحقيقة السابقة أكثر وضوحا متى تذكرنا أن الظاهرتين لم تتحدا فى تاريخ الصعود إلى السطح ، فبينما كان الحديث عن «الركود» مستمرا منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما، لم يتجه النظر إلى نقص السيولة إلا منذ ما لا يزيد على عام مضى . فقد عرفنا «الركود التضخمى» منذ أوائل حكومة عاطف صدقى ، أى منذ ما يقرب من خمسة عشر عاما. وفى تشخيص هذا النوع من الركود ، يبرز التضخم، ذو المعدل المرتفع والمستمر لمدة طويلة نسبيا ، كسبب مباشر للركود . فالتضخم بالتهامه شرائح كبيرة من القوة الشرائية للفقراء ولأصحاب الدخل المتوسط، بل وأصحاب الدخل فوق المتوسط، وإطلاقه العنان لارتفاع دخل الأثرياء ، يجرد جبهة عريضة من أنشطة الجهاز الإنتاجى من عملائها من الطبقة ذات الدخل المتوسط وفوق المتوسط. وهكذا يصبح استمرار الإنتاج أو نموه محصورا فى نطاق سلع الفقراء (الحبوب - البقول - السالامون - الملابس الشعبية) بعد تحول أصحاب الدخل المتوسط وفوق المتوسط إلى شرائها. والأمر كذلك أيضا فى نطاق الأنشطة التى تنتج للأثرياء (الملابس الفاخرة - السيارات - القصور والمنتجعات). ويزيد من سوء الحال أن السلع المذكورة، سواء كانت للفقراء أو الأثرياء، لا ينتجها الجهاز الإنتاجى الوطنى

علاج الركود وحده لا يكفى

فى جذور الأزمة

أحمد الغندور



إن التضخم بالتهامه شرائح كبيرة من القوة الشرائية للفقراء ولأصحاب الدخل المتوسط، بل وأصحاب الدخل فوق المتوسط، وإطلاقه العنان لارتفاع دخل الأثرياء ، يجرد جبهة عريضة من أنشطة الجهاز الإنتاجى من عملائها من الطبقة ذات الدخل المتوسط و فوق المتوسط. وهكذا يصبح استمرار الإنتاج أو نموه محصورا فى نطاق سلع الفقراء (الحبوب - البقول - السالامون - الملابس الشعبية)

الاقتصاد المصرى

بالوفرة اللازمة ، بل يعتمد الاقتصاد ، فى جزء كبير منها ، على الاستيراد.

ثم جاء برنامج الإصلاح الاقتصادى والمالى، وهو فى جوهره ذو طبيعة انكماشية غالبة. فزاد ذلك من مستوى الركود. ويكفى فى تجسيد هذا المعنى أن نذكر أن برنامج الإصلاح قام على أساس رفع أسعار الفائدة إلى مستويات لم يعرفها الاقتصاد القومى من قبل. فقد عرفنا ، لأول مرة فى تاريخنا الاقتصادى ، تكلفة للاقتراض من أجل الاستثمار أو الاستهلاك تبلغ ٢٠٪ ، وقد تصل إلى ٢٢٪ . وسعر فائدة كهذا، وإن ساعد على تصفية التضخم ، إلا أنه يساعد، من ناحية أخرى ، على استمرار الركود. ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر أن بعض جوانب البرنامج خففت كثيرا من أثره الانكماشى ، فتخفيض العملة الوطنية إلى مستواها الحقيقى ، أدى إلى تمدد القطاع الإنتاجى المحلى وزيادة محدودة فى التصدير ، فضلا عن تدفق الاستثمار الأجنبى بمعدلات مرتفعة نسبيا.

إن الظاهرتين ـ إذن ـ تختلفان، فى تاريخ الصعود إلى مسرح الأحداث ، لكنهما تختلفان أيضا فى أسبابهما وامتداد هذه الأسباب إلى الماضى . وإذا كنا قد أرجعنا الركود فى أسبابه إلى ما يقرب من خمسة عشر عاما مضت، فأغلب الظن أن نقص السيولة يمتد ، فى أسبابه ، إلى ما قبل هذا التاريخ بكثير. فالسيولة النقدية ، وهى مجموع الدخل النقدى ، تتكون من تراكم الدخل النقدى ونموه عبر السنين . والسيولة النقدية ، طبقا لهذا التعريف، تنبع من حجم الإصدار النقدى وزيادته سنويا، ومن حجم قروض البنوك لعملائها وزيادتها سنويا ، ومن ثم فإن نقص السيولة لابد أن يرد إلى أحد أمرين: أن حجم الإصدار الجديد وحجم القروض الجديدة من البنوك لم يزد بالقدر الكافى، أو أن حجم السيولة النقدية القائم قبل الإصدار الجديد والإقراض الجديد قد تآكل لسبب أو لآخر .

وإذا كنا قد استبعدنا منذ البداية الأمر الأول ، فلم يبق إلا الأمر الثانى. وحجم السيولة النقدية لا يمكن أن يصيبه النقصان إذا كان تيار ما تقرضه البنوك إلى العملاء ، يقابله تيار عكسى من الأقساط والفوائد يلتزم بدفعها عملاء الأمس القريب والبعيد. غير أن بنيان «قروض» الجهاز المصرفى فى مصر ـ وبنوك القطاع العام أساسا ـ أصابه التركز فى أيد محدودة من العملاء ، كما أن آليات الإقراض فى هذه البنوك تسمح أن يكون الإقراض على أساس استحسان شخصى ـ أيا كان منبعه ـ تجاه العميل الكبير. ومن هنا تزيد مخاطر استرداد البنك لأقساطه ، فضلا عن فوائده. وهكذا أصبح من المقبول منطقيا أن يرد نقص السيولة ـ فى جزء منه ـ إلى امتناع هؤلاء العملاء الكبار عن دفع الأقساط وملحقاتها إلى الجهاز المصرفى .

أضف إلى ذلك ، أن ما استنفدته المشروعات «العملاقة» من السيولة النقدية بطريق مباشر، من خلال بنك الاستثمار القومى، وبطريق غير مباشر ، من خلال قروض البنوك إلى العملاء المستثمرين فى نطاق هذه المشروعات ، لابد أن يكون مسئولا عن جزء من المعاناة . وقد كان للركود أيضا أثره الكبير فى حرمان السيولة النقدية من استرداد جانبى الأقساط والفوائد.

والسيولة النقدية شقان ، يتكون أولهما من النقود الوطنية ، أما الشق الثانى فيتكون من العملات الأجنبية . والتحليل المتقدم ينطبق برمته دون تحفظ على السيولة من النقود الوطنية. أما نقص السيولة النقدية فى شقها الأجنبى ، فهو الوجه الآخر للعجز فى ميزان المدفوعات الدولية، وقصور الاحتياطيات الدولية ـ أيا كان حجمها ـ عن سد النقص فى السيولة الأجنبية أولا بأول. إذا كان ذلك كذلك ، فإن أمانة القول تقضى أن نرد «نقص السيولة» ، فى شقها الأجنبى ، إلى تراكم العجز فى موازين مدفوعاتنا منذ بداية الخمسينيات إلى الآن. ومن ثم كان طبيعيا ألا تؤدى التضحية بما يقرب من ثمانية مليارات من الدولارات ، أى ما يقرب من ٣٠٪ من احتياطياتنا الدولية، إلى وقف نزيف تدهور هذه الاحتياطيات، أو إلى إنعاش الأمل فى وقفه .

والحق أنه إذا كنا لا نزال نعتقد فى سلامة القواعد التى تم على أساسها تصميم برنامج الإصلاح الاقتصادى والمالى، فإن الوقوف أمام تداعيات نقص السيولة والركود يوجب أن تتجه السياسة النقدية للحكومة نحو إجراءين لا ثالث لهما : رفع سعر الفائدة ، العدول عن ثبات سعر الجنيه أمام الدولار من خلال السماح بالتحرك ارتفاعا وانخفاضا فى حدود معينة (٥٪ أو ١٠٪). فالإجراء الأول يؤدى إلى تحجيم الطلب على السيولة وحصره فى نطاق العملاء الراغبين فى تنفيذ مشروعات ذات جدوى اقتصادية عالية، تضيف إلى الاقتصاد القومى إنتاجا جيدا وتخفف من أعبائه . أما الإجراء الثانى ، فإنه يفتح الطريق أمام زيادة إمكانات التصدير وإمكانات تدفق رأس المال الأجنبى ، وتمدد الجهاز الإنتاجى تمددا يحد من اندفاع سيل الواردات .

ولا يستطيع المرء أن يغالب الشعور بحساسية الحكومة البالغة تجاه رفع سعر الفائدة. وإذا كنا نقدر مخاوف الحكومة ـ سياسيا ـ من ارتفاع كبير لأسعار الفائدة ، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أن مثل هذا الموقف ، يلقى العبء كله على تخفيض قيمة الجنيه المصرى، وهو أمر تكرهه الحكومة كراهية شديدة ، وفضلها معروف فى حض الرأى العام على كراهيته!، فاصبح يعتقد خطأ فى ارتباط قيمة العملة بكرامة الاقتصاد الوطنى!! والأمر ليس كذلك على الإطلاق .

ظاهرتان أم ظواهر عديدة؟

إن التفكير المستمر الملح فى ظاهرة نقص السيولة وظاهرة الركود وتداعياتهما، يجب ألا ينسينا ، العديد من الظواهر الاقتصادية ، التى أرقتنا ـ و لا تزال تؤرقنا ـ إلى اليوم .

إن ظواهر الفقر، وتواضع مستوى المعيشة والادخار وتمويل الاستثمار، والعجز المزمن فى ميزان مدفوعاتنا ، وجمود الصادرات ، وتباطؤ التخصيصية والتردد فى الاندماج فى الاقتصاد العالمى، هى ظواهر نعيشها منذ زمن سحيق .

هذه الظواهر الغائبة، والحاضرة دوما ، هى المسئولة فى حالات كثيرة عن غيرها من الظواهر ، التى لا تعدو فى حالات كثيرة أن تكون من قبيل الإفرازات الجانبية لكل أو لبعض الظواهر التى لم تصعد بعد إلى مسرح الأحداث.

بل إن الظواهر السابقة جميعا تتشابك مع بعضها البعض تشابك نسيج العنكبوت، فيصعب التخلص من إحداها دون التخلص من الظواهر الأخرى ، ويصعب أن ننتهى إلى قرار فى تحديد نقطة البداية ونقطة النهاية.

دعنا نطبق ما قلناه على ظاهرة نقص السيولة . إن ظهور النقص فى السيولة لا يمكن أن ينفصل عن حجم تمويل المشروعات وأنماطه فى الاقتصاد ككل، وظهور النقص فى السيولة لا يمكن أن ينفصل عن طبيعة التنظيم المؤسسى للجهاز المصرفى وأسلوبه فى الإقراض. وأخيرا ـ وليس آخرا ـ فإن النقص فى السيولة لا يمكن أن ينفصل عن مسار عملية التخصيصية واستخدام حصيلتها. ولنفصل ما أوجزناه.

المفروض أن توزع الدولة بأسلوب مباشر أو غير مباشر ما فى حوزة الاقتصاد القومى من أموال على مشروعاته. وأيا كان اسم الوثيقة التى احتوت هذه المشروعات : خطة خمسية ، برنامج بنك الاستثمار القومى، برامج الأعمال الخاصة أو العامة. بل وتصريحات رئيس الوزراء والوزراء. والمفروض أيضا أن الدولة فى هذا التوزيع تراعى أولويات معينة ، تمثل قيدا حديديا على «التمويل» فى جوانبه المختلفة، وفى التنسيق فيما بين هذه الجوانب . إذا كان ذلك صحيحا ـ وهو كذلك ـ فلا يتأتى أن تقرر الحكومة السابقة فجاة تمويل عدد من «المشروعات العملاقة» ، لم ترد فى وثيقة الخطة ، دون أن تكلف الحكومة نفسها مشقة تفسير أثر ذلك على ما جاء فى الوثيقة من مشروعات ، وتأثير ذلك على مشروعات قطاع الأعمال العام والخاص .....!! إذا حدث هذا ، فلا يتأتى والحال هذه، أن نشكو من اضطراب السيولة أو نقصانها.

أيضا إن الحديث عن حجم السيولة وزيادتها أو نقصانها. يفترض ابتداء جهازا مصرفيا رشيدا فى الإقراض، وفى المطالبة والتحصيل عند مواقيت معينة . وهذا الافتراض يفترض بدوره ، أن قمة بنوك الجهاز المصرفى سلطة تخضع لحسابات الثواب والعقاب Accountability، وتسعى جاهدة لتعظيم الأرباح ، والأخير لا ينحصر فى النزول بالتكلفة إلى أدنى مستوى ممكن وزيادة العائد إلى أقصى مستوى ممكن ، ولكنه ينسحب ، إلى جانب ذلك ، بل قبل ذلك ، إلى الاطمئنان الكامل إلى عودة أصل القرض. ويختلف الوضع تماما فى بنوك جهازنا المصرفى، وعلى وجه الخصوص فى بنوك القطاع العام ، صاحبة الجزء الأكبر من قروض الجهاز المصرفى. فهذه البنوك تخضع مباشرة فى إقراضها القطاع العام والقطاع الخاص، لأوامر الحكومة ، التى تستقل دون سواها باختيار مجالس إدارة البنوك . فإذا أضفنا إلى ذلك أن آليات الإقراض فى هذه البنوك تنتهى فى الواقع إلى الاتفاق ، أو غياب الاتفاق ، مع رغبة السيد رئيس مجلس الإدارة، وعدد محدود من المديرين ، الذين يخضعون فى ترقياتهم وحوافزهم إلى إرادته المباشرة ، أدركنا على الفور أن الإقراض فى هذه البنوك لا يتم فى حالات كثيرة بما يكفل عودة القروض ـ نتيجة لجودة المشروع وجودة صاحبه ـ إلى تيار السيولة. ولذلك كان طبيعيا، وبعيدا عن المفاجأة ، أن يؤدى انتفاء الموضوعية فى الإقراض إلى استبعاد الآليات والضوابط المسئولة عن ضبط إيقاع تغيرات تيار السيولة ارتفاعا وانخفاضا. ولا يجدى حينئذ فى تعويض نقص السيولة إصدار جديد، أو رفع لسعر الفائدة ، أو تخفيض لقيمة العملة ، ما دام الجهاز المصرفى بإقراضه المشروع الفاسد والعميل الفاسد ، قد صادر على احتمال عودة أصل القرض وفوائده إلى تيار السيولة. ولعل فى ذلك ما يبرئ المؤسسات الدولية، بإصرارها على استبدال الإطار البيروقراطى للجهاز المصرفى بإطار المشروع الخاص، من شبهة التعسف والإضرار.

دعنا الآن ننتقل لمناقشة ارتباط الركود بما أسميناه الظواهر الغائبة الحاضرة . إن ارتباط الركود بهذه الظواهر لا يقل وضوحا ، إن لم يزد. فالفقر وتداعياته هو قيد حديدى على حجم السوق الداخلية، الذى قام جهازنا الإنتاجى

وتطور لإشباعه، بعد أن أوصدت أمامه ـ لسبب أو آخر ـ أبواب التصدير. أيضا وبالمنطق نفسه، فإن الأثر الموجب «للتخصيصية» على الركود لا يقل، إن لم يزد ، عن أثرها في تدعيم السيولة النقدية للاقتصاد القومي . فالتخصيصية ، بتحريرها المشروع الإنتاجي من إسار البيروقراطية اللعين ، دفعة قوية لإنتاجية الاقتصاد القومي، فتزيد إمكانياته في النفاذ إلى الأسواق الدولية، وتزيد إمكانياته كذلك في الاحتفاظ بالسوق المحلية والوقوف أمام الواردات، والأمران من الضربات القاضية للركود. إن كل ما تقدم من قول ، يدفع إلى القول ، باطمئنان ، بأن الاهتمام في معالجة كل من نقص السيولة والركود ، بمعالجة ما يحيط بهما من ظواهر، يجب ألا يقل عن الاهتمام بمعالجة كل منهما في أسبابه المباشرة . وهكذا يصبح التخلص من الظاهرتين أمراً شاقاً وصعباً.

التطور الاقتصادى والاجتماعى ومسئوليته:

والسؤال الآن هو كيف قدر لنا أن نعيش كل الظواهر السابقة بقسوتها وعنادها ؟ هل داهمتنا بين عشية وضحاها ؟ من المسلمات العلمية أن الظواهر السابقة جميعا وأمثالها لا تولد من فراغ، بل هي الميراث الشرعي لتطور ، وبعبارة أدق لتطوير، اتخذ مسارا معينا خلال حقبات عديدة ماضية. ومن ثم يصبح من السذاجة ، أن نقف عند حد التساؤل ، كيف نزيح هذه الظواهر أو بعضها باقتلاع أسبابها المباشرة . إن التساؤل الصحيح المنتج ، هو كيف نقتلع جذور ما نعانيه من ظواهر من مسار تطورنا الاقتصادى والاجتماعى، فهذا المسار هو المسئول الأول والأخير عن مولدها ونموها.

إن الحكم على التطور الاقتصادى والاجتماعى، ومسئوليته عما عانيناه أو نعانيه من ظواهر اقتصادية سلبية ، يتطلب ابتداء ، وقبل كل شيء ، تحديد موقف هذا التطور وأدائه في نطاق ثلاث من القضايا : الإنتاجية – توزيع الدخل – البطالة والعمالة . هذه القضايا قدمها حامل جائزة نوبل الاقتصادى الأمريكى Paul Krugma في مؤلفه «عصر التوقعات المتناقصة / The Age of Diminishing Expectations. كأساس للتقييم الموضوعى للتطور الاقتصادى والاجتماعى ، وكمقدمة ضرورية للحكم على تطور الاقتصاد الأمريكى إبان ولاية كلينتون، أى كمقياس لتقييم الأداء الاقتصادى لرئاسة كلينتون بعد أن اشتهرت برفعة هذا الأداء. فاتجاهات التغيرات الثلاثة، هي المقياس الدقيق لنجاح أو إخفاق تشكيل مضمون التطور، بما يتفق ومقتضيات النمو والتقدم والرفاهة . وهكذا فإن الانشغال ببحث الظواهر الأخرى كالعجز التجارى أو عجز الموازنة العامة أو التضخم أو التنافسية الدولية ، هو من قبيل الانشغال بالفروع دون الأصول، بل إن الانشغال بمعالجة كل أو بعض الظواهر السابقة لن يثمر كثيرا إلا عند مستويات مقبولة وصلدة من النمو والتقدم ومستوى المعيشة. والعكس صحيح ، فالنمو المطرد للإنتاجية ولمستويات الدخول وللعمالة يجنب الاقتصاد القومى ، أو يخفف عنه، حدة الظواهر السابقة .

لقد نجح كلينتون خلال ولايته ، أن يعكس اتجاه الاقتصاد الأمريكى منذ بداية السبعينيات نحو زيادة حدة البطالة. فخلال ولايته نزل حجم البطالة إلى الحدود الآمنة (٥٪). وهذا إنجاز ضخم. غير أن الأمر لم يكن كذلك في نطاق الإنتاجية ، وفى نطاق توزيع الدخل . فقد عرف الجيل الحالى نموا في إنتاجيته أقل بكثير من جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة . فقد كان معدل نمو الإنتاجية ٢,٨٪ خلال الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٧٠ ونزل إلى ١٪ خلال الفترة ١٩٧٠ ـ ١٩٩٩ . وهذا التدهور في الإنتاجية عكس نفسه على دخل الغالبية العظمى من الأمريكيين ، الذى سجل ثباتا واضحا خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية. وفى المقابل عرف دخل الأغنياء ارتفاعا باهظا، وتعاظم الفقر في أبعاده وكثافته . وهكذا لا يرى Krugma في تطور الاقتصاد الأمريكى ما يبشر مستقبلا باستمرار الاتجاه نحو زيادة العمالة ، أو بصلابة أسس النمو والتقدم الاقتصادى والاجتماعى .

وتأسيسا على ذلك إذا كان الرئيس كلينتون قد استطاع ـ في تقدير Krugma ـ أن يكون محل رضاء المواطن الأمريكى ، إلا أن هذا الرضاء لا يستند إلى إنجازات اقتصادية حقيقية شاملة وعميقة . وليس هناك تفسير لذلك ـ في تقدير Krugma أيضا ـ إلا أنه مع نهاية السبعينيات، أصبح واضحا أن الاقتصاد الأمريكى قد استنفد فرص «الظرف التاريخى» الذى جعله يخرج من الحرب سالما ليقود عمليات إعادة البناء الأوروبى وسد احتياجات العالم من السلع والخدمات ورؤوس الأموال. ومنذ بداية السبعينيات أصبح الحال غير الحال ، وأصبح على المواطن الأمريكى، بالتالى ، أن يكون أكثر تواضعا في توقعاته ، وأن يعيش مع Krugma «عصر التوقعات المتناقصة» ، أى أن يعيش برضاء اليائس وليس برضاء الأمل.

دعنا الآن نطرق ، أو بعبارة أدق نتحسس، مجرى المتغيرات الثلاثة في حالة اقتصاد مصر ، بالاستناد إلى عدد من الوقائع التى تسمح باتخاذ موقف محدد من اتجاهات هذه المتغيرات خلال ما يقرب من أربعين عاما مضت:

أ ـ ثمة وقائع ثلاث ـ يكشف عنها دائما تطور الاقتصاد في مصر ـ تميل بنا إلى الاعتقاد أن اتجاه الإنتاجية في الماضى لم يكن اتجاها متزايدا أو ثابتا ، وأن اتجاه الإنتاجية إلى التزايد في المستقبل يدعو إلى تغيير واسع النطاق في مضمون التطور وفى القوى المسئولة عن تشكيله:

ـ لا يختلف الكثيرون في أن مشروع السد العالى كان ولا يزال أحد المحددات الأساسية لإنتاجية الإنسان ورأس المال والأرض. ولا يختلف الكثيرون أيضا في أن تقييم هذا المشروع قد ظلم كثيرا . فقد انقسم المفكرون والاقتصاديون والزراعيون وخبراء الرى إلى أنصار لا يعرفون إلا جوانبه الإيجابية الفاضلة، وأعداء لا يعرفون إلا جوانبه السلبية الرذيلة. وقد استمر هذا الوضع إلى الآن ، وتناسى الأنصار والأعداء أن المشروع قد تم فعلا، وأننا لم نول اهتماما ما لبحث آثاره السلبية والقضاء عليها قضاء مبرما ، فهذا القضاء هو الضمان الوحيد لأن يكون للمشروع «أثر إيجابى صاف» يعضد إنتاجية الإنسان والأرض ورأس المال. لقد اكتمل السد العالى «كبناء» ولم يكتمل «كمشروع».

وفى علاقة نمط التصنيع بالإنتاجية نجد الشيء نفسه . فقد اختارت الثورة نمطا صناعيا يقوم ـ في جزء هام منه ـ على الحديد والصلب وتجميع السيارات والصناعات الهندسية . ويتميز هذا النمط ، ابتداء ، بانخفاض إنتاجيته والحاجة إلى الحماية العالية المستمرة. فالاقتصاد القومى لا يتميز في إنتاج هذه الصناعات منذ البداية ، وهى لم تكتسب بمرور الزمن إنتاجية أعلى ، فأصبحت تحت تهديد مستمر بالزوال فور رفع الحماية أو تخفيضها إلى المستوى المعتدل دوليا.

ـ ويمثل نموذج التوطن الصناعى أخطر العوامل شأنا في تفسير تواضع مستوى الإنتاجية وجموده أو تدهوره. فقد حدث أن توطنت الصناعة في شمال القاهرة وجنوبها (حلوان وشبرا الخيمة) ، ليربط بينهما وبين أطراف القاهرة وقلبها ، شرائط ضيقة من الطرق، شرائط لا تطيق التكدس في الناحيتين . وهكذا أصبح على الاقتصاد القومى أن يتحمل إنفاقا رهيبا لإنشاء المرافق العامة ، كنتيجة لازمة عن طبيعة التوطن والتكدس، وهذا الإنفاق الرهيب لا يزيد من الإنتاجية ، ولكنه يوقف أو يخفف من تدهورها.

ب ـ والآن فلنضف إلى ما تقدم أن اتجاه توزيع الدخل لم يعمل «كرافعة» للتطور الاقتصادى والاجتماعى في مصر. لقد كان موقف ثورة يوليو من توزيع الدخل واضحا . فالثورة ـ في تعبير موجز ـ مع طبقة الفقراء وضد طبقة الأغنياء. أو قل ـ في تعبير رشيق ـ إن الثورة «تنحاز» إلى طبقة الفقراء ضد طبقة الأغنياء . ولنترك جانبا الآن أية محاولة لتقييم مدى التوفيق في تحقيق هذين الهدفين ، ولنعمق النظر في أثر تطور توزيع الدخل على دخول الطبقة المتوسطة ودخول الشرائح العليا للطبقة فوق المتوسطة. فهذه الطبقة وتلك الشرائح تمثل العمود الفقرى «للسلطة» في مصر. وهذه الطبقة وتلك الشرائح تمثل في استهلاكها وادخارها واستثمارها أهم روافع التصنيع والتنمية الاقتصادية عموما.

لقد وجهت الثورة ، في غمار حربها ضد الأغنياء ، إلى هذه الطبقة وتلك الشرائح ضربات قاسية. وما علينا لفهم ذلك إلا أن نسترجع قانون الإصلاح الزراعى ونزوله بالحد الأدنى للملكية الزراعية، وقانون تجميد عقود إيجار الأطيان الزراعية، وقانون تحديد إيجارات المساكن وتأميم المصانع والمشروعات المتوسطة . هذه القوانين وأمثالها جردت الطبقة المتوسطة والشرائح الدنيا من الطبقة فوق المتوسطة من إمكانياتها في الاستهلاك والادخار والاستثمار. ثم جاء الانفتاح وعشوائيته، ثم الموجات التضخمية ليزداد الطين بلة ، على نحو ما أسلفنا بعضه فيما سبق.

ج ـ وأخيرا ولكل ما تقدم ، لم يعد غريبا ما حمله إلينا التطور الاقتصادى والاجتماعى من بطالة ضخمة ، تقدر ـ في أكثر الإحصاءات تلطفا ورقة ـ بالملايين، وتزيد سنويا بمئات الألوف.

التطور المؤسسى ومسئوليته:

إذا كان مضمون التطور الاقتصادى والاجتماعى هو المسئول ـ في التحليل الأخير ـ عن اتجاه الاقتصاد القومى إلى الأفضل ، بلا عائق من الظواهر الاقتصادية السلبية التى توقفه وتشده إلى أسفل، فإن السؤال الطبيعى إذن هو ما هى القوى الدافعة إلى تشكيل هذا المضمون وقيادة التطور. ليس علينا في الإجابة عن هذا السؤال إلا أن نتذكر عددا من الحقائق التى تشكل جوهر علم الاقتصاد :

إن ثمة قوانين اقتصادية أساسية تحكم

إن ما استنفدته المشروعات «العملاقة» من السيولة النقدية بطريق مباشر، من خلال بنك الاستثمار القومى، وبطريق غير مباشر، من خلال قروض البنوك إلى العملاء المستثمرين في نطاق هذه المشروعات ، لابد أن يكون مسئولا عن جزء من المعاناة . وقد كان للركود أيضا أثره الكبير في حرمان السيولة النقدية من استرداد جانبى الأقساط والفوائد





مسار الاقتصاد القومى وتقدمه، وليست هذه القوانين إلا تأصيلا للقواعد التى تحقق التقدم الاقتصادى من خلال إدارة المواجهة بين محدودية الموارد المتاحة والاحتياجات غير المحدودة للمجتمع . وتستمد هذه القوانين شرعيتها من متابعة وملاحظة تفاعل قوى السوق فى النظام الاقتصادى الليبرالى عبر ما يزيد على قرنين من الزمان . ففى خلال تلك الفترة الممتدة من الزمان ، عُمِّدت هذه القواعد ، كأساس لتوجه المتغيرات الاقتصادية جميعا ، وكأساس أيضا للسياسات الاقتصادية فى توجيه المتغيرات هذه الوجهة أو تلك . وإذ نكتفى بمثال واحد فحسب، فلننظر إلى تفاعل قوى السوق فى حالة تحديد سعر صرف العملة الوطنية بالعملات الأجنبية . فهذه العملات هى من الموارد النادرة فى ظروف البلاد النامية عموما ، ومن ثم فإن قوى السوق تؤدى - من خلال الارتفاع بسعر العملة الأجنبية - إلى الاقتصاد الكبير فى استخدامها ، لسد احتياجات المجتمع فى نطاق الاستهلاك وفى نطاق الاستثمار.

إن صياغة السياسات الاقتصادية للدولة ليست إلا تطبيقا للقوانين الاقتصادية ، ومن ثم فإن مخالفة هذه القوانين تستتبع جزاء صادما . فإذا أصرت الدولة أن تبقى سعر العملة منخفضا ، نفدت إيرادات وأرصدة الاقتصاد من العملات سريعا ، وواجهت الدولة فى توفير الاستهلاك والاستثمار المعقول الأمرين. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن الحاجة إلى تخفيض العملة الوطنية دليل على قصور السياسات الاقتصادية للحكومة والبنك المركزى - سواء كان مستقلا أم تابعا - فى مجالات كثيرة أهمها: السياسة النقدية ، السياسة المالية ، دعم الإنتاج المحلى، والنفاذ إلى الأسواق الخارجية. ومن هنا فإن إصرار الحكومة والبنك المركزى على تجنب التخفيض يعد من قبيل الخوف من المساءلة بأنواعها وأطيافها.

- إن نجاح القوانين والسياسات الاقتصادية فى تحقيق مراميها لصالح المجتمع ككل، رهن بسلامة الإطار المؤسسى الليبرالى والمؤسسات المكونة له . ولنسهب بعض الشيء فى عرض هذه الحقيقة.

ليست المؤسسات الليبرالية إلا الديموقراطية كنظام سياسى ، ودولة القانون كنظام قانونى، وتوزيع السلطة الاقتصادية ، بين الفاعلين Actors فى الحياة الاقتصادية والدولة ، كنظام اقتصادى. (سلطة الدولة فى تصميم وتنفيذ السياسات الاقتصادية والرقابة والعقاب من خلال المؤسسة القانونية - سلطة المنتجين فى اختيار المشروع والمنتج - سلطة النقابات فى المساومة على تحديد مستوى الأجر - اتحادات المستهلكين ....)

والحق أن انهيار النظام الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى فى لحظات معدودة، وبعد ما يقرب من قرن من تطبيقه، باعتباره «البديل» الأمثل للنظام الاقتصادى الليبرالى، جاء أبرع «اختبار تاريخى» لمصداقية قوانين ومؤسسات النظام الليبرالى. لقد تنكرت التجربة الاشتراكية « للمؤسسات الليبرالية جميعا»، واعتقدت خطأ أن إحلال السلطة المركزية الشاملة بديل أكثر عقلانية وأكثر عدلا.

وإذا كان الفكر الاشتراكى وتطوره لم يجرؤ على إنكار القوانين الاقتصادية الليبرالية، إلا أنه اعتقد خطأ أن السلطة المركزية الشاملة «وأجهزتها» تستطيع بسهولة أن تتقمص روح هذه القوانين، وأن تصدر القرارات والأوامر التى تضمن تطبيقها واستبعاد ما يشوب هذا التطبيق من شوائب. ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل فى إقامة المدينة الفاضلة. فسرعان ما تبين أن النظام الاشتراكى قد أحل محل «المؤسسات الليبرالية» المؤسسة البيروقراطية ، وأن هذه المؤسسة عاجزة عن تقمص القوانين الاقتصادية الطبيعية القائمة على قوى السوق أو أن تضع بديلا عنها، وليس هنا مجال حديث مفصل عن المؤسسة أو الطبقة البيروقراطية، ولكن يكفى أن نشير إلى حقيقتين، كان الفضل فى إبرازهما لحامل جائزة نوبل الأستاذ Hayek ولأئمة المدرسة المؤسسية فى علم الاقتصاد: وأولى هاتين الحقيقتين ، هى أن الطبقة البيروقراطية تستقل بوجودها وحياتها عن وجود المجتمع وحياته . أما الحقيقة الثانية فهى أن قيادات النظم الاشتراكية والشمولية فى اختيارها للأعوان من الطبقة البيروقراطية تستبعد عادة أفضل العناصر . وتتحيز للعناصر الانتهازية الضعيفة مهنيا وثقافيا . والنتيجة الطبيعية لتفاعل هاتين الحقيقتين هى فى كثير من الحالات أن تتناقض المصالح الخاصة للطبقة البيروقراطية مع المصالح الاقتصادية للمجتمع.

إن التحليل السابق - على إيجازه - يمدنا بكل مقومات مسئولية التطور المؤسسى، على امتداد ما يقرب من أربعة عقود كاملة ، عن طبيعة التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر ، وعما واجهناه ونواجهه من ظواهر اقتصادية واجتماعية ، إيجابية كانت أم سلبية.

منذ بداية الستينيات أزاح النظام الاشتراكى تماما الإطار المؤسسى الليبرالى، وأحل محله الإطار المؤسسى الاشتراكى. ففى

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

أخبار الحبيب

يا مَنْ لديكَ من المحبوب أخبارُ

لا ترو إلا الذى نهوى ونختارُ

ما كان أجمل منه أنْ تُحَدِّثنا

أو كان من سامعيه منكَ إخبارُ!

* * *

إعلام

فيا خليليَّ هل علمٌ بقافلة

حتى نُقَبِّلَ للحادينَ أقداما

إنْ كان بالمال فَدَى الناس مَنْ عشقوا

فنحن بالروح نَفدى عنه إعلاما

* * *

إنى صريع هوى

إنّى صريعُ هواه والذى نظرتْ

عيناه حالى ينادى : يرحم اللهُ

إنْ فزتُ يوماً بوصل صرتُ خادمَهُ

وكلّ ما يرتضى منّى سأرضاهُ

يفارق الناسُ دنياهم بكلّ أسىً

أمّا شهيدُ الهوى فالسعد يغشاهُ

ما مرّ فى قلب سعدى غيرُ فاتنه

وليس يملأه إلاّهُ إلاّهُ

* * *

لا يستطيع المرء أن يغالب الشعور بحساسية الحكومة البالغة تجاه رفع سعر الفائدة. وإذا كنا نقدر مخاوف الحكومة ـ سياسيا ـ من ارتفاع كبير لأسعار الفائدة، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أن مثل هذا الموقف، يلقى العبء كله على تخفيض قيمة الجنيه المصرى، وهو أمر تكرهه الحكومة كراهية شديدة، وفضلها معروف فى حض الرأى العام على كراهيته!

نطاق النظام الاقتصادى كان التأميم، والنزول بالحد الأقصى للملكية الزراعية، والحراسات. وإذ اتسعت ملكية الدولة لوسائل الإنتاج اتساعا شاملا، أقيم نظام التخطيط المركزى الشامل. وهكذا ولدت ونمت البيروقراطية فى مصر لتتولى ـ بالاشتراك مع مراكز السلطة السياسية والاقتصادية ـ قيادة التطور الاقتصادى والاجتماعى.

ويعتبر إعداد الخطة الخمسية الأولى (٦٠ – ٦٥) نموذجا جيدا للسلوك البيروقراطى فى مجال تسيير الاقتصاد القومى. ففى إعداد الخطة الخمسية الأولى تناست البيروقراطية ـ أو لم تستطع ـ دراسة نماذج التنمية وأنماطها، ومن ثم جاءت مشروعات الخطة تجميعا للمشروعات المقترحة من الإدارات الفنية، دون أن تمر بمصفاة الأوليات الاقتصادية القائمة على ما للمشروع من أثر على ميزان المدفوعات والعمالة والقدرة على التصدير والإحلال محل الواردات. وقد سار الأمر على المنوال نفسه فى الخطط التالية. ويضيق المقام عن الاستطراد فى تحليل آثار «السلوك» السابق على التقدم الاقتصادى، ومع ذلك نجتزئ أمرين:

ـ أهملت البيروقراطية المصرية ـ ممثلة فى جهاز التخطيط ـ فى إعدادها للخطة الخمسية الأولى النماذج والسيناريوهات التى أعدها الاقتصاديان الدوليان (Ragner Frisch -Tinbergen) تلبية لطلب جهاز التخطيط ذاته! وليس هناك من تفسير لذلك إلا حرص البيروقراطية المعروف على إقناع السلطة العليا بأنها قادرة دائما على الإنجاز السريع.

إن اختيار مضمون التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر، منذ بداية الثورة إلى بداية الليبرالية الاقتصادية المتواضعة سنة ١٩٧٥، هو اختيار بيروقراطى، فرضته السلطة. وهذا الاختيار يختلف، جملة وتفصيلا، عن الاختيار الليبرالى فى نطاق اتخاذ القرار الاقتصادى. فالقرار الاقتصادى، فى إطار الليبرالية، هو تأصيل «Synthesis» لمصلحة المجتمع، كما انتهى إليها التفاعل الحر للقوى الاقتصادية المتعارضة (رجال الأعمال، النقابات، ....) وبعد تهذيبه، من خلال تدخل الدولة بمؤسساتها، وفى ظل توجيه ومتابعة ورقابة المؤسسة السياسية الليبرالية والمؤسسة القانونية الليبرالية. وهذا التفاعل الحر للقوى الاقتصادية لا يتم اعتباطا، بل وفقا لقوانين اقتصادية موضوعية تستمد أسبابها من الواقع الاقتصادى والاجتماعى والسياسى، وفقا لقوانين اقتصادية عَمَّدتها التجربة الليبرالية خلال ما لا يقل عن قرنين من الزمان. ولقد أثبتت تجربة النظام الاشتراكى، خلال ما يقرب من قرن كامل، أن جزاء الانحراف عن المسار، كما تحدده هذه القوانين، هو الانهيار الكامل.

ومنذ بداية الانفتاح عاودت البيروقراطية سيرتها الأولى، بسلوك ينسجم والظروف الاقتصادية الجديدة. «فالانفتاح» اختيار فرضته السلطة السياسية العليا، ثم أسلمت قيادته للقاعدة البيروقراطية، فاستطاعت أن تغير مساره وأن تطوعه لخدمة مصالحها. وهكذا رأينا قطاع أعمال خاصا يخرج من رحم القطاع العام، ثم يتفقان سرا وعلانية على اقتسام الغنم دون الغرم. وما على القارئ إلا أن يتذكر استئثار رجال القطاع العام، وهم رجال الأعمال الجدد، بالوكالات التجارية الأجنبية للقطاع العام الأم، بالشركات المشتركة فيما بينهم وبين القطاع الأم، بالمقاولات من الباطن، وبالاستيراد ..... !!!

وإذا كانت الثمانينيات والتسعينيات قد رأت بدايات المعالم الأساسية للإطار الليبرالى: الأحزاب، حرية الصحافة، الانتخابات النيابية، أحكام المحكمة الدستورية العليا، التخصيصية، إلا أنها رأت أيضا التفاف البيروقراطية حول أهداف النظام السياسى والاقتصادى لحماية مكاسبها الاقتصادية: صب حصيلة التخصيصية فى محفظة الشركات القابضة لإصلاح الشركات الفرعية التى أفسدتها من قبل، تأجيل التخصيصية فى البنوك وشركات التأمين ضمانا للاستمرار فى الإقراض الفاسد، وفى إنشاء الشركات المشتركة مع رجال الأعمال الجدد .... !!

لقد نجحت البيروقراطية القارضة أن تحل محل الرأسمالية المستغِلة والقوة العاملة المستغَلة، وأن تقتات علىٰ حقوقهما وحقوق الشعب أجمع.

والحق أن استقراء ماضى التطور الاقتصادى والاجتماعى فى مصر يجعل من استكمال بناء النظام الليبرالى، بمؤسساته جميعا، هو الضمان الوحيد لتطور مستقبلى صحى وعادل. فلندع التردد جانبا، ولنذكر دائما أنه ـ بانهيار الاتحاد السوفيتى ـ أصبح الإطار المؤسسى الليبرالى بمؤسساته نوعا من «الحتمية الواقعية». ■

عندما كنت أثير، أنا وغيرى، موضوع الخطر الإسرائيلى على الثقافة العربية، كان يتصدى لنا من يقول بأنه لا خطر هناك بالمرة على ثقافتنا. ثقافتنا قوية وراسخة الجذور، هكذا كان يقال لنا، ولا خوف عليها من إسرائيل أو من غيرها. كان هؤلاء المعترضون على استعداد لمناقشة أخطار إسرائيل الاقتصادية أو السياسية، أما الثقافة فلا، إذ كيف نتصور، هكذا كانوا يقولون لنا، أن دولة بهذا الحجم الصغير من السكان، وبلا تاريخ يذكر، وبلا ثقافة متميزة، تشكل تهديدا لثقافة عريقة، ذات تاريخ ممتد إلى أقدم العصور، أو للغة راقية كاللغة العربية، قدمت إلى الإنسانية أعمالا خالدة فى الشعر والنثر، ويصونها ويحفظها إلى الأبد القرآن الكريم، فهى باقية ما بقى القرآن. فإذا كان المقصود بالثقافة شيئا أوسع من هذا، بحيث تشمل مجموعة القيم والتقاليد والعادات وأنماط السلوك، فكيف نخاف على ثقافتنا، بهذا المعنى، من الإسرائيليين؟ إن الإسرائيليين لا يملكون ثقافة مستقلة بهذا المعنى، فثقافتهم، فى أحسن الأحوال، جزء من ثقافة الغرب. وإذا كان الغرب لم يستطع استئصال الثقافة العربية من جذورها والإطاحة بها، فكيف بالإسرائيليين؟ بل فلننظر إلى الثقافة السائدة داخل إسرائيل نفسها، هكذا ردّ علينا هؤلاء الذين استسخفوا كلامنا عن الخطر الثقافى الإسرائيلى، فإذا كان هناك بعض أنواع الطعام المنتشرة داخل إسرائيل والمتميزة عما يعرفه الغربيون، فهى أنواع من الطعام العربى، وتليفزيونهم يعتمد اعتمادا كبيرا على الأفلام العربية، والعرب داخل إسرائيل لازالوا يمارسون عاداتهم وتقاليدهم العربية، فلم تنجح خمسون عاما من خضوعهم لإسرائيل فى النيل من هذه العادات والتقاليد، فإذا كان الأمر كذلك داخل إسرائيل نفسها، فكيف نستشعر الخطر على الثقافة العربية خارج إسرائيل؟

لم يكن لأىّ من هذه الردود أى أثر علىّ، ولم تنجح فى التخفيف من خوفى من الخطر الثقافى الإسرائيلى قيد أنملة، بل كان خوفى يزداد مع مرور الأيام منذ رفع شعار «التطبيع»، ولم يكن هذا الخطر فى نظرى شيئا يُخشى وقوعه فى المستقبل بل كنت أراه كشىء بدأ حدوثه بالفعل، وكأنه السكين التى أغمد طرفها فى الجسم العربى ويزداد الضغط عليها يوما بعد يوم فيزيد نفاذها فى الجسم شيئا فشيئاً. كنت مثلا أكاد أرتجف عندما أسمع عن زيارة لحاخام إسرائيلى للشيخ الأكبر للجامع الأزهر ثم أسمع بعدها ببضعة شهور عن تخفيض الساعات المخصصة لتعليم اللغة العربية فى المعاهد الأزهرية. كنت أيضا أرتجف خوفا عندما أسمع عن مشروع لتطوير التعليم عن طريق تغيير المقررات لجعلها أكثر اتفاقا مع مقتضيات «عصر السلام» وأكثر تشجيعا على قبول «الآخر»، والآخر بالطبع ليس إلا إسرائيل. (إذ إنى لا أعرف «آخر» آخر يمكن أن تكون له مصلحة فى تغيير مقرراتنا التعليمية على هذا النحو). بل إنى كنت دائما منذ أن رفع شعار التطبيع ثم شعار الشرق أوسطية، أجد نفسى أشتد امتعاضا بكثير من أى خطوة تتخذ نحو التطبيع الثقافى بالمقارنة بخطوات التطبيع الاقتصادى رغم أنى أشتغل بتدريس الاقتصاد وليس بتدريس الأدب أو علم الاجتماع. نعم، كان خبر مثل بيع مصر للغاز الطبيعى لإسرائيل له وقع ثقيل جدا على نفسى، ولكن من المؤكد أن جزعى منه كان أقل من جزعى من العبث بمقررات اللغة العربية فى الأزهر أو خارج الأزهر أو من تطوير التعليم فى المدارس ليتفق مع اعتبارات «السلام» و «قبول الآخر» الخ.

ليس من المستحيل علىَّ تفسير هذا التغليب للثقافة على الاقتصاد، ولكن هذا التفسير كان بالنسبة لى شيئا لاحقا لرد الفعل الطبيعى والتلقائى لما كنت أشاهده من تطبيع فى هذا الأمر أو ذاك. فإذا أراد القارئ منى أن أقدم له حيثيات هذا التغليب للخطر الثقافى على غيره من الأخطار، فها هى ذى بعض هذه الحيثيات.

إن العلاقات الاقتصادية بين الناس تتعلق فى نهاية الأمر بتبادل السلع. صحيح أنها أيضا تتعلق بتبادل الخدمات، ولكن معظم هذه الخدمات التى تدخل فى العلاقات الاقتصادية تتعلق بتسهيل حركة السلع، كالنقل والتأمين وخدمات البنوك، وتجهيز وتوصيل السلع للمستهلك النهائى أو الدعاية للسلع وترويجها..إلخ ونحن نعرف أن عالم السلع شىء مختلف عن عالم الثقافة. صحيح أن لكل منهما تأثيرا لا يمكن إنكاره على الآخر، ولكنهما يظلان مع ذلك عاملين مختلفين أشد الاختلاف. إنه ليس مجرد لعب بالألفاظ القول بأن «المرء يملك السلعة، ولكن الفكرة تتملكه». صحيح أن السلع يمكن، هى بدورها، أن تتملك الشخص إذا زاد شغفه بها عن حد معين، كما أن الفكرة التى قد تتملك الشخص قد تتعلق بحيازة سلعة أوجمع مزيد من المال. ومع ذلك فإن التمييز بين العاملين يظل مفيدا وضروريا، وهذا هو بالضبط ما يجعلنا جميعا نعلق أهمية كبيرة على نوع التعليم الذى يتلقاه أولادنا فى المدارس، ونوع البرامج التى يشاهدونها فى التليفزيون، أهمية كثيرا ما تفوق ما نعلقه من أهمية على زيادة الإنتاج من هذه السلعة أو تلك. فبالتعليم والتليفزيون يمكنك أن تتحكم فى عقول الناس وميولهم بأكثر مما يمكنك تحقيق ذلك عن طريق زيادة أو إنقاص حجم السلع المطروحة فى الأسواق أو تغيير نوعها.

إن الإسرائيليين لا يملكون ثقافة مستقلة بهذا المعنى، فثقافتهم، فى أحسن الأحوال، جزء من ثقافة الغرب واذا كان الغرب لم يستطع استئصال الثقافة العربية من جذورها والإطاحة بها، فكيف بالإسرائيليين؟ بل فلننظر إلى الثقافة السائدة داخل إسرائيل نفسها، هكذا ردّ علينا هؤلاء الذين استسخفوا كلامنا عن الخطر الثقافى الإسرائيلى

من هنا كان أثر الثقافة عميقا وراسخا بأكثر من أثر أى تنظيم اقتصادى. إن من السهل على أية حكومة أن تصدر من القرارات ما من شأنه قلب النظام الاقتصادى فى الدولة رأسا على عقب، بين يوم وليلة، وتغيير نمط العلاقات الاقتصادية تغييرا هائلا فى غمضة عين ـ ولكن ليس من الممكن أن تتصور مثل ذلك فى عالم الثقافة والأفكار والقيم ـ مهما كان توزيع الدخل والثروة ظالماً، فإن من الممكن أن نتصور أن يجرى تصحيحه فى فترة قصيرة، بمجرد أن تتهيأ لأصحاب السلطة الرغبة والقدرة على إصدار القرارات اللازمة، إذ لا يتطلب الأمر أكثر من أن تأخذ من هذا بعض ما يملكه لتعطيه لذاك. أما تغيير رغبات الناس وميلهم إلى نوع من السلع بدلا من نوع آخر، وتحويل أذواقهم من منتجاتهم الوطنية إلى منتجات غيرهم، أو تفضيل عادات أجنبية على عاداتهم وترويضهم على هجر التعبير عن أنفسهم بلغتهم القومية، إلى التعبير بلغة أخرى فامر ليس بهذه السهولة، فإذا حدث فإن من أصعب الأمور إصلاحه – نعم، ليس من السهل إضعاف تملك اللغة العربية لنفوسنا وحبنا لها وشغفنا بها، ولكن متى تم إضعاف ثقتنا بها، وبث الشعور بالاحتقار لها، وتعويدنا على التعبير عن أنفسنا أو حتى التفكير بغيرها، فمن أصعب الأمور أن تستعيد اللغة العربية مكانتها المفقودة.

لهذا كان من أكثر الطرق فعالية للسيطرة على الاقتصاد السيطرة على الثقافة ومن يستطيع أن يسيطر على ثقافة أمة ما، يسهل عليه التحكم فى اقتصادها إن رواج سلعة كالبلوجينز أو الكوكاكولا أو سندوتش الماكدونالد لا يعود إلى الصفات الذاتية لأى من هذه الأشياء، بل إلى سطوة نمط معين من أنماط الحياة هو النمط الذى يرمز إليه كل منها. فارتداء البلوجينز ليس مجرد ارتداء لسروال أو مجرد تغطية للساقين بل هو إعلان للناس بانضمامك إلى ما يمثله البلوجينز من طريقة فى الحياة. والكوكاكولا ليست مجرد طريقة للتخلص من العطش، بل ولا هى طريقة فعالة لذلك إذا قورنت بغيرها، كما أن سندوتش الماكدونالد ليس مجرد وسيلة للتغذية ولكن كلا منهما رمز لنمط الحياة الأمريكى، ومن ثم فإن نجاح كل من هذه الرموز فى الانتشار والرواج يتضمن ترويجا لبقية الرموز الاخرى لنفس النمط من أنماط الحياة، وهزيمة وتراجع بعض السلع الوطنية المنافسة لبعض هذه الرموز يتضمن هزيمة وتراجعا لسلع وطنية أخرى قد لا تكون هناك أى صلة بينها، اللهم إلا انتسابها لنوع معين من الثقافة.

على أن كل ما ذكرته حتى الآن لا يمس إلا مساً خفيفاً المبرر الحقيقى لتغليب الثقافة على الاقتصاد، فهذه الأمور كلها تصب فى نهاية الأمر فى شىء واحد وهو أن الثقافة بمعناها الواسع، الذى يشمل، ليس فقط الإنتاج الفكرى للأمة، بل يشمل أيضا عاداتها وقيمها ونوع نظرتها للأمور وأسلوب تعبيرها عن نفسها، ليست إلا شخصية الأمة نفسها وروحها، بينما الاقتصاد ليس إلا ما تحوزه وتملكه ـ الخسارة الاقتصادية التى قد تصيب الأمة ليست إلا نقصانا فى الثروة، أما فقدانها لثقافتها فشئ أقرب إلى الموت. والثروة يمكن تعويضها أو استعادتها ولكن الموت حاسم ونهائى. صحيح أن كل الثقافات تتعرض للتغيير، ويتأثر بعضها ببعض، وليس هناك من الثقافات ما يبقى على حاله إلى الأبد، ولا حتى هذا بالأمر المطلوب أو المرغوب فيه، تماما كما أن شخصية الفرد تذوى بالعزلة وتقوى بالاتصال بالغير. ولكن تفاعل الثقافات شىء وقهر واحدة لأخرى شىء آخر. وهذا القهر من ثقافة لأخرى هو الذى يشبه الموت، بينما الاتصال الحرّ بين الثقافات، الخالى من أى مظهر من مظاهر القهر والإذلال هو الأمر المطلوب والمرغوب فيه.

عندما أفكر فى ضوء ذلك، فى اعتراضات المعترضين على كل من يحذر من خطر إسرائيل على الثقافة العربية، وفى ادعائهم أن الثقافة العربية راسخة وباقية ولا خوف عليها من إسرائيل أو من غيرها، يتضح لى أن هذه الاعتراضات ليس منشؤها فى الحقيقة ثقة عالية بقدرة الثقافة العربية على الصمود، بل منشؤها الحقيقى قلة الاكتراث بأمر هذه الثقافة أصلا. إن الذين يقولون لنا إنه لا مبرر للخوف على الثقافة العربية إنما يقولون ذلك ليس بسبب ثقتهم بقوة الثقافة العربية وإنما بسبب استخفافهم بامرها. هذا الاستخفاف قد يكون سببه هذا الميل الشائع فى العصر الذى نعيش فيه لتغليب أمور الاقتصاد على كل ما عداها. فإذا كان تطبيع العلاقات مع إسرائيل يساعد على التقدم التكنولوجى، ويزيد من معدل نمو الناتج القومى، كما يعتقد بعض هؤلاء، فما الذى يقلقك بالضبط؟ وما أهمية تلك الثقافة التى تتكلم عنها وتصدّع رءوسنا بسببها إذا قورنت بمعدل النمو الاقتصادى؟

ولكنى أعتقد أن السبب الأهم لهذا الاستخفاف بالخطر الثقافى هو شىء أفظع وأشنع من مجرد تغليب الاقتصاد على الثقافة. إنه فى الحقيقة احتقار هذه الثقافة التى ندعو لحمايتها. فهؤلاء لا يقلقهم مصير اللغة العربية أو الأدب العربى أو القيم الأخلاقية أو الاجتماعية العربية أو الإسلامية ليس بسبب ثقتهم بقدرتها كلها على الصمود أمام القوة الإسرائيلية، ولا حتى فى الأساس بسبب تغليبهم للاعتبارات الاقتصادية على مصير اللغة أو الأدب أو الفنون أو القيم، وإنما لأنهم لا يشعرون بولاء خاص لهذا التراث من اللغة والأدب والفنون والقيم، بل إنهم لو أتيحت لهم فرصة الكلام بمطلق الحرية لأشبعوا هذا التراث استهزاء وتحقيرا.

ولكن ليس كلنا، لحسن الحظ، من هذا النوع من الناس، بل ولا معظمنا، وإن كان بعضنا يهيم حبا بهذا التراث أكثر من غيره. وقد توفى منذ أسابيع قليلة فى القاهرة رجل كان يهيم بجزء معين من هذا التراث، هو تراثنا الموسيقى. اسم الرجل عبدالعزيز عنانى. لم يكن مشهورا، بل ولم تحظ وفاته باهتمام كبير من وسائل الإعلام فى مصر أو غيرها. ذلك أنه لم يكن مؤلفا للموسيقى بل ولا حتى عازفا أو مطربا. ومع ذلك فإن الخدمة التى أداها للموسيقى العربية قد تفوق ما أداه لها كثير من المؤلفين الموسيقيين والعازفين والمطربين، فقد كان ما عكف عليه هذا الرجل طوال حياته ليس أقل من محاولة مستميتة للاحتفاظ للمصريين والعرب بذاكرتهم فيما يتعلق بهذا الفن الجميل.

سمعت عنه لأول مرة من صديق فلسطينى يقيم بالولايات المتحدة، وجاء إلى القاهرة لسبب

الموسيقى العربية والخطر الثقافى الإسرائيلى!

جلال أمين



واحد هو أن يحظى بمقابلة عبدالعزيز عنانى. كان هذا الصديق الفلسطينى موسيقيا موهوبا وعاشقا بدوره للموسيقى العربية ولكنه اكتشف أن هناك دورا لحنه محمد عثمان فى أواخر القرن التاسع عشر ولم يسمعه قط. وقيل له إن أمله الوحيد فى الاستماع إليه هو أن يذهب إلى عبدالعزيز عنانى الذى يملك أكبر مكتبة للموسيقى العربية. فإن لم يجد تسجيلا لهذا الدور عنده، فالأرجح أنه لن يجده لدى أى شخص آخر. أخذت من صديقى عنوان عبدالعزيز عنانى ورقم تليفونه، واتصلت به وطلبت زيارته فقبل ذلك بأدب وذهبت إليه. كان يسكن فى شقة متواضعة فى شارع صغير من شوارع جزيرة الروضة. وكنت قد سمعت من صديقى الفلسطينى عما يعانى منه عبدالعزيز عنانى من الشعور بالاكتئاب بعد حادث سيارة أضعف بشدة من قدرته على الحركة. وقد رأيته يمشى بصعوبة مستندا على عكاز ولا حظت بالفعل قلة ابتهاجه بالحياة وإن كان هذا لم يمنعه من التدفق فى الحديث عن ذكرياته عن بعض كبار الموسيقيين المصريين الذين عرفهم عن قرب. لم يشب حديثه معى أى افتخار أو تباهٍ بمكتبته الموسيقية وإن كان قد أخرج من درجه عددا كبيرا من الكراريس التى دون فيها أسماء ما جمعه من تسجيلات لكل من يخطر ببالك ومن لا تعرفه من المطربين والمطربات والموسيقيين المصريين منذ منتصف القرن التاسع عشر، سواء ما غنوه بأنفسهم أو غناه لهم آخرون بعد وفاتهم وسجلوها بأكثر وسائل التسجيل بدائية، حتى قبل اختراع الأسطوانات فاحتفظوا لنا بالألحان الأصلية.

لم تكن مهنة عبدالعزيز عنانى الموسيقى، بل كان يعمل حتى سن المعاش أستاذا للرياضيات فى بعض المدارس الثانوية ولكن حبّه للموسيقى غلب على أى شاغل آخر، فراح يجمع ويسجل ويقرأ عن تاريخ الموسيقى العربية، وألقى عنها محاضرات وأحاديث فى الإذاعة كلما طُلب منه ذلك، وساعد كل من أراد الحصول على بعض التسجيلات النادرة ولكنه، كما يبدو من شقته المتواضعة وطريقة حياته، لم يجمع ثروة من وراء ذلك ولا كان هذا واحدا من طموحاته.

سألته عن محمد القصبجى ورأيه فى مكانته فى تاريخ الموسيقى العربية بالمقارنة بزكريا أحمد والسنباطى وعبدالوهاب، فقال: إن عبقرية القصبجى ربما فاقت عبقرية الجميع ولكن مشكلته كانت قلة اعتزازه بنفسه، وقد جعله ذلك يقبل معاملة من أم كلثوم لم يكن يقبلها زكريا أو السنباطى. كان الوحيد الذى لم تكن أم كلثوم تجرؤ على إغضابه هو السنباطى، وعندما تجرّأ القصبجى مرة وسألها عن السبب فى إعطائها أجرا للسنباطى على ما يلحنه لها يفوق بكثير ما تعطيه له هو، قالت له أم كلثوم إن لكل امرئ الثوب الذى يناسب حجمه، وسكت القصبجى ولم يعترض.

فوجئت منذ أسابيع قليلة بخبر وفاة عبدالعزيز عنانى مقرونا بالخبر الفظيع التالى، وهو أن إسرائيل عرضت عليه فى أواخر أيامه أن تشترى منه مكتبته الموسيقية، فرفض وليس لدىّ بالطبع ما يؤكد صحة الخبر المتعلق بإسرائيل أو ينفيه ولكنى أصدقه، فهذا بالضبط هو ما أتوقع أن تفعله إسرائيل ليس فقط مع التراث الذى تركه عبدالعزيز عنانى، ولكن أيضا مع كل تراث عربى مماثل، سواء تعلق بالموسيقى أو السينما أو أى قطعة غالية من التاريخ المصرى أو العربى أو الإسلامى. وقد قرأنا منذ بضعة أيام خبرا عن صدور موسوعة جديدة موجهة للطفل المصرى، ولكن تم إعدادها فى أمريكا، تعيد كتابة التاريخ المصرى على النحو الذى يمحو من عقل الطفل المصرى أى اعتزاز يمكن أن يشعر به بحادث قومى، أو شخصية وطنية عظيمة فى تاريخه، ويعيد كتابة أحداث التاريخ بما يتفق مع ما تريد إسرائيل أن يستقر فى العقل المصرى والعربى، بحيث تستقر فى الذهن صورة عن إسرائيل مخالفة تماما للحقيقة، ولكنها متفقة تماما مع مصالحها ومطامحها. عندما قرأت ذلك عدت إلى التفكير فى خبر العرض الإسرائيلى بشراء مكتبة عبدالعزيز عنانى فى الموسيقى، ورأيت الهدف الواحد فى الحالين: السيطرة على العقل العربى وإعادة تشكيل الذاكرة العربية.

ما الذى يمكن أن تحققه إسرائيل بالضبط من وراء هذا أو ذاك؟ ما قيمة التاريخ عندما يكون الغرض السيطرة على الحاضر والمستقبل؟ وما قيمة الذاكرة خاصة إذا تعلقت بشىء كالموسيقى، عندما يتعلق الأمر بمصالح اقتصادية وسياسية ومكاسب مادية ملموسة؟

قد تبدو الموسيقى مجرد فن من الفنون، كما قد يبدو التاريخ وكأنه شىء حدث فى الماضى وانتهى أمره - ولكن الفنون هى التعبير عن روح الأمة، والتاريخ هو ذاكرتها. والأمة التى تحرم من تراثها الفنى والأدبى كالشخص الذى فقد ذاكرته وفقد القوة الدافعة إلى الحركة والحياة، ومن ثم يصبح من السهل توجيهه إلى أى وجهة وتشكيله على أى صورة - ليست المسألة هى فقط فقدانه لمصدر مهم من مصادر اعتزازه بنفسه وثقته بها، بل المسألة أخطر من ذلك. إنها تنطوى على فقدان القدرة على الإبداع فى المستقبل، إذ لا يتصور إبداع بدون استناد إلى تراث وفقدان القدرة على الإبداع يجعل المرء غير قادر إلا على التقليد والمحاكاة، وعلى الانصياع لما يصدر إليه من توجيهات.

ما الذى يمكن أن تفعله إسرائيل بتراثنا الموسيقى أو غيره مما يمكن أن يصل بالعرب إلى مثل هذا المصير؟ هل يمكن أن تمحو بعضه محوا؟ أو تتحكم فيما نسمعه وما لا نسمعه؟ هل يمكن أن تقص علينا قصة تطورنا الموسيقى على النحو الذى يلائمها ويتفق مع رؤيتها لتاريخها وتاريخنا؟ هل يمكن أن تزعم أن أعظم موسيقيينا كلهم من اليهود أو الصهاينة؟ وهل يمكن أن تظل تلح على هذا إلحاحا حتى نصدّقه إذ لن يكون بيدنا حينئذ ما نقدمه لدحض ما تزعمه؟

نعم، كل هذا هو بالضبط ما يجب أن نتوقعه، إذا سمحنا لإسرائيل بأن تضع يدها على تراثنا الموسيقى أو على أىّ جزء آخر من تراثنا.

في رواية جورج أورويل الشهيرة (١٩٨٤) كان بطل الرواية يعمل فى وزارة اسمها وزارة الحقيقة، ولكن وظيفتها الحقيقية كانت هى إعادة كتابة التاريخ بما يتفق مع مصالح اصحاب السلطة فى أى لحظة من اللحظات. وكان هذا البطل مسئولا عن قراءة الصحف والمجلات القديمة ومحو ما قد يجده فيها متعارضا مع ما تقوله السلطة فى هذه اللحظة الراهنة. واستبدال غيره به، حتى يصبح التاريخ متفقا تماما مع ادعاءات الحاضر. وكان المبدأ الذى يحكم سياسة وزارة الحقيقة هذه هو أن «من يسيطر على الماضى يسيطر على المستقبل». وقد حاولت فيما تقدم أن أبين لماذا أعتقد أن هذا المبدأ صحيح تماماً، ولماذا أرجِّح أن إسرائيل تعتقد أيضا فى صحته، وأنها لن تكفّ عن محاولة تطبيقه والإفادة منه، وأنها سوف تنجح فى ذلك ما لم نفق لأنفسنا ونخرج من حالة الغيبوبة التى تسيطر علينا.

لاحظت أنني كلما تحدثت عن تلك الأفكار والرؤى الإنسانية العقلانية، كان حديثي يقابل بالابتسام والسخرية المهذبة ممن كنت أتحدث معهم. فاهتمام كبار مثقفي الولايات المتحدة. كما اكتشفت حينذاك. كان يتركز على موضوعات مثل اللاوعي والأساطير والانتحار والمخدرات والاغتراب واللذة الجنسية.



التفكيكية تحول اللغة إلى أصوات والإنسان إلى صرصار!

عبدالوهاب المسيرى

حينما ذهبت إلى الولايات المتحدة للدراسة عام ١٩٦٣ كان من حسن حظى أننى ذهبت إلى جامعة رتجرز، إذ كانت مجلة البارتيزان ريفيو Partisan Review قد انتقلت لتوها إلى هذه الجامعة، وكانت حينذاك من أهم المجلات الفكرية، يرأس تحريرها البروفيسور وليام فيليبس، وهو مثقف أمريكى تخلى عن توجهاته الماركسية، ومع هذا ظل مؤمنا بالوظيفة الاجتماعية للثقافة والأدب وبالقيم الإنسانية والاجتماعية التى تعد مكونا هاما للماركسية. ولحسن حظى أيضا كان البروفيسور فيليبس يدعونى للحفلات التى كانت تعقدها المجلة كان يحضرها كبار المثقفين الأمريكيين فى منطقة نيويورك، وكان من بينهم دانيال بل وإرفنج هاو ولسلى فيدلر وغيرهم. وكنت مثل كثيرين من أبناء جيلى فى العالم العربى أومن بالعقلانية والاستنارة ومركزيتهما فى التراث الحضارى الغربى، وانطلاقا من ذلك كنا نؤمن بمقدرة الإنسان على أن يغيِّر واقعه وأن ينشر العدل فى الأرض.

ولكننى لاحظت أننى كلما تحدثت عن تلك الأفكار والرؤى الإنسانية العقلانية، كان حديثى يقابل بالابتسام والسخرية المهذبة ممن كنت أتحدث معهم. فاهتمام كبار مثقفى الولايات المتحدة، كما اكتشفت حينذاك، كان يتركز على موضوعات مثل اللاوعى والأساطير والانتحار والمخدرات والاغتراب واللذة الجنسية والشكل الذى لامضمون له أو المضمون الذى لايمكن لشكل أن يحتويه. (ولكن كانت هناك بطبيعة الحال حركة اليسار الجديد التى انخرطت فى صفوفها كانت تدافع عن الإنسان والعدالة، ولكن جماهير هذه الحركة ومثقفيها، رغم كثرتهم، ورغم نجاحهم فى نهاية الأمر فى إيقاف حرب فيتنام، ظلوا خارج ما يسمى «التيار الرئيسى للفكر الأمريكى»).

وقد قابلت فى إحدى الحفلات التى كانت تعقدها البارتيزان ريفيو (بجامعة رتجرز) سوزان سونتاج الكاتبة الأمريكية اليهودية وكانت آنذاك تُعد من أهم الكتاب، فقد اكتسح كتابها «ضد التفسير» Against Interpretation الجميع عند صدوره فاشتريته وقرأته بشغف.

الحضارة التفكيكية الحديثة:

كان الكتاب مثيرا وجديدا ومختلفا تماما عما كنا نعرفه عن الحضارة الغربية، ولذا حينما عدت إلى مصر عام ١٩٦٩، كان أول مقال نشرته هو عرض لهذا الكتاب (حضارة الكامب: دراسة فى مذهب نقدى جديد، المجلة ديسمبر ١٩٧٠)، وأشرت فى المقال إلى اللاعقلانية الفلسفية التى بدأت تمسك بتلابيب الغرب بل وتهيمن عليه (العمل الفنى ليس محاكاة وإنما سحر - الاستجابة الحسية المباشرة للعمل الفنى التى تستعصى على التفسير - مظهرنا هو وجودنا الحقيقى، والقناع هو الوجه - فى عالم الحداثة لا يوجد شكل مفهوم، إذ يفقد الإنسان ما يميّزه كإنسان ويتساوى الرجل مع الشىء، بل تتحرر الأشياء من الإنسان وتسيطر عليه). وأشرت أيضا إلى تحول الجنس إلى موضوع أساسى (الرغبة فى العودة إلى حالة البراءة الأولى قبل أن يسقط الإنسان فى التاريخ - المطلوب هو جنسيات للأدب [إيروطيقا] وليس تفسيرات له hermenutics [هيرمنيوطيقا] - أرستقراطية حضارة الكامب هم المخنثون فالإنسان الخنثى لايمكنه أن ينتمى لمجتمع جاد يحكم على نفسه بمعايير أخلاقية اجتماعية). وقد صدق حدسى بخصوص الكتاب، فكثير من مؤرخى الفكر فى العالم الغربى يعدون تاريخ صدور هذا الكتاب هو أيضا تاريخ مولد ما بعد الحداثة.

مهما كان الأمر، كانت تجربتى فى البارتيزان ريفيو (والولايات المتحدة) مغايرة لتجربة كثير من المثقفين العرب الذين ظلوا ينهلون من معين الفكر الغربى الذى كان يدور فى إطار الفكر الإنسانى (الهيومانى) الاستنارى، ذلك الفكر الذى يمنح مركزية للإنسان ويؤكد عقلانيته ومقدرته على تجاوز ذاته وبيئته، دون أن يدركوا لا عقلانية وعدمية الفكر الغربى الجديد، بل وعداءه للإنسان. ولعل إدراكى المبكر لهذا التطور للفكر الغربى قد غيّر من الصورة الإدراكية التى أنظر من خلالها لهذه الحضارة، فقد لاحظت - على سبيل المثال - أن هذه الحضارة قد تكون قد بدأت بإعلان موت الإله باسم الإنسان ومركزيته، ولكنها انتهت بإزاحة الإنسان عن المركز Decenter لتحل محله مجموعة من المطلقات أو الثوابت مثل: المنفعة المادية - التقدم - معدلات الإنتاج - قوانين الحركة - اللذة الجنسية - مطلقات أو ثوابت يتم اختزال كيان الإنسان المركب إليها.

وقد أدى بى هذا إلى ملاحظة شيوع الأفعال التى تبدأ بالمقطع de فى وصف بعض مظاهر الحضارة الغربية الحديثة، فهناك «دى هيومانيز de humanize» أى ينزع الصبغة الإنسانية، ودى سانكتفى de sanctify والكلمة المرادفة لها دى ساكرالايز descralize أى ينزع القداسة عن، وهناك أيضا «ديس إنشانتمنت أوف ذاورلد disenchantment of the world» أى نزع السحر والجلال عن العالم، وهى عبارة ماكس فيبر التى يستخدمها للإشارة إلى التحديث والترشيد والعلمنة، وقد استخدم رورتى فعل دى ديفينايز dedivinize بمعنى «ينزع الألوهية والقداسة عن» كل شىء لوصف المجتمع العلمانى الحديث، وهناك كذلك دى ميستفى demystify أى «ينزع الأسطورة عن»، وهناك فعل قريب منه وهو «دى بانك debunk»، أى يحطم الأسطورة المثالية، وهناك فعل ميتافيزيكاليز demataphysicalize أى ينظر للظاهرة نظرة غير ميتافيزيقية أى نظرة مادية يُقال لها علمية، ويُضاف إلى كل هذا فعل دى بيرسوناليز depersonalize أى ينزع الصبغة الشخصية عن، ويُستخدم فى الإنجليزية الآن فعل دى كريستيانيز dechristianize أى ينزع الصبغة المسيحية عن، وفعل دى تكستوالايز detextualize أى ينزع عن النصوص - أى نصوص - حجيتها، وهناك بطبيعة الحال أهم الأفعال دى كونستراكت deconstruct أى يفكك أويقوض الذى سنتناوله بالتفصيل فيما بعد.

تفكيك الشكل:

وقد وجدت أن هذا الفعل الأخير يشكل مدخلا حقيقيا لفهم الحضارة الغربية الحديثة، فلننظر، على سبيل المثال، إلى تاريخ الأدب الغربى منذ نهاية العصور الوسطى، سنجد فى حكايات كانتربرى لتشوسر ثم فى مسرحيات شكسبير وكورنيل وراسين، فى عصر النهضة الغربية شخصيات لها أبعاد إنسانية وبطولية مركبة تشغل مركز الكون، قد ينتابها الشك وقد ترتكب أفعالا مأساوية تؤدى بها إلى التهلكة، ولكنها مع هذا تظل لها مرجعية إنسانية (تؤمن بمسئولية الإنسان عن أفعاله وبمقدرته على التجاوز وعلى السقوط) وتدور فى إطار منظومات قيمية ومعرفية قد تخرقها وتتمرد عليها ولكنها مع هذا تظل الإطار النهائى لأفعالها. ويستمر وجود هذا الإنسان فى أدب القرن الثامن عشر والتاسع عشر (وردزورث - فيكتورهوجو - ديكنز - دوستويفسكى - تولستوى) وإن كان يلاحظ تزايد معدلات الفردية والحتمية فى ذات الوقت ومعها معدلات تهميش الإنسان (خاصة مع نهاية القرن التاسع عشر) ، إلى أن نصل القرن العشرين. فيكتب ت. س. إليوت الأرض الخراب (ملحمة القرن العشرين فى رأى البعض) حيث يختفى الأبطال تماما ويختفى الإنسان الإنسان ويظهر بدلا منه «الرجال الجوف» الذين يعيشون فى أرض مجدبة ويتحركون بلا اتجاه مثل الذرات المتناثرة. فى عزلة قاتلة، خاضعين فى الوقت ذاته لحتميات عديدة صارمة. ويكتب كافكا قصصه حيث يخضع الإنسان تماما إلى حتميات لايفهم كنهها فيتحول إلى صرصار ويُحاكم ويُعدم لسبب لايعرفه، ثم يأتى مسرح العبث حيث تجلس الشخصيات فى إحدى المسرحيات فى صندوق قمامة فى انتظار جودو الذى لايأتى، ثم يكتب أنطوان أرتو (صاحب مسرح القسوة) قصيدة عبارة عن أصوات خالصة بلا معنى، ألا يمكن القول إن تحول الإنسان إلى ذرات متناثرة ثم إلى صرصار وجلوسه فى صندوق قمامة ينتظر من لايجئ وخضوعه للحتميات المختلفة وتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد أصوات لامعنى لها، هى عملية تفكيك لهذا الإنسان وإزاحته من المركز ونزع القداسة عنه؟

ولايختلف الأمر كثيرا فى عالم الفنون التشكيلية، فبعد لوحات وأيقونات العصور الوسطى المسيحية فى الغرب، المليئة بالتقوى والورع، تظهر رسوم عصر النهضة، الدينية والعلمانية، ذات الأبعاد الثلاثة والتى ينبع منها الفن الرومانسى والفن الواقعى، ثم يظهر الفن الانطباعى وما بعد الانطباعى. ورغم كل التطورات والتحولات الجوهرية يمكن القول بأن الشكل فى الفن الغربى منذ عصر النهضة (حتى نهاية القرن التاسع عشر) ظل متماسكا يحاكى شيئا ما سواء فى الطبيعة المادية أم الإنسانية، ويضع الإنسان فى مركز الكون. ولكن مع بدايات القرن العشرين يحدث شىء ما، فيتفكك الشكل ويظهر الواقع الإنسانى والطبيعى فى لوحات الفنانين على هيئة مكعبات ومربعات ودوائر وألوان متداخلة. فى آخر عرض للوحات موندريان فى التيت جاليرى ١٩٩٦ فى لندن، والذى كان يهدف إلى توضيح تطور الشكل فى أعماله الفنية تتضح هذه النقطة بشكل جلى. يبدأ المعرض بمنظر طبيعى فيه أشجار ومنازل وينتهى بلوحة مكونة من أربعة مربعات وخطين: واحد أحمر والآخر أزرق، أى أن المضمون يختفى تماما ليظهر الشكل الخالص، فهو شكل بلا مضمون. [أو دال بلا مدلول، كما يُقال الآن].

وتزداد الأمور تفككا إلى أن نصل إلى فنان مثل آندى وورهول الذى يضرب بفكرة الفن نفسها عرض الحائط ويُسقط فكرة الحكم والمرجعية والمعيارية، ويقوم بتوقيع علب شوربة كامبل (ويلون صناديق القمامة) فتتحول بقدرة قادر إلى أعمال فنية تباع بآلاف الدولارات! وإذا كانت سوزان سونتاج قد تحدثت عن إيروتكس (جنسيات) للأدب بدلا من هرمنيوتكس (هرمنيوطيقا أو تفسيرات) له، فقد وصف أحد النقاد أعمال آندى وورهول بأن الاستطيقا (الجماليات) فى أعماله تتحول إلى انستطيقا (بنج - أى دواء مخدر).

ولكن التفكيك الحقيقى نجده فى أعمال جو واتكين، هذا «الفنان» الذى يستخدم جثثا حقيقية فى

صوره الفوتوغرافية وموضوعه المفضل هو قضيب دق فيه مسمار. نحن لانقابل فى هذا العالم الإنسان الذئب ، والإنسان الثعلب، والإنسان الثعبان، (فهؤلاء ينتمون إلى عالم المادية القديمة الصلبة، كما سنبين فيما بعد) وإنما نقابل الإنسان الزئبق والإنسان الزَبَد، والإنسان السائل ، والإنسان الفقاعات، فى هذا العالم لا يُحلّق الإنسان، ولايسبح، وإنما يطفو على السطح ، مثل قطعة من الفلين المليئة بالهواء، مما يجعلنا نتساءل مع صلاح عبدالصبور «أين الإنسان الإنسان»؟

المادية القديمة الصلبة:

من الواضح أن إزاحة الإنسان عن المركز وتفكيكه ونزع القداسة عنه ليست مسالة مزاج شخصى أو أزمة نفسية عارضة وإنما هى ثمرة منظومة حضارية كاملة ، ولايمكن فهم هذه الظاهرة إلا فى إطار تحليل حضارى فلسفى عام. ويمكننا القول إن النموذج المهيمن على الحضارة الغربية هو النموذج العقلانى المادى (ونحن نستخدم كلمة «مادى» هنا بالمعنى الفلسفى، أى الإيمان بأن المادة هى الأصل والمحرك الأساسى للكون، وهى رؤية فلسفية ليست لها علاقة بحب المال. فهناك من الماديين من هم أكثر زهدا من كثير من المؤمنين!) . وقولنا بأن النموذج المهيمن هو النموذج المادى لايعنى أنه النموذج الوحيد. فالمثقفون الغربيون يدورون فى إطار نماذج معرفية أخرى تتحدى النموذج المهيمن . ولكنها مع هذا لاتتمتع بنفس المركزية أو الفعالية فى المجتمع . وهيمنة النموذج المادى لاتعنى أن الجميع فى الغرب قد أصبح ملحدا. فقد ظلت الأغلبية الساحقة محتفظة بإيمانها الدينى، ولكن مع هذا ظل النموذج المادى يتحكم فى كل جوانب الحياة العامة وفى كثير من جوانب الحياة الخاصة. وأولا وأخيرا. فى الخريطة المعرفية التى يدرك الإنسان العادى العالم من خلالها.

والعقلانية المادية هى الإيمان بأن الواقع المادى الموضوعى يحوى داخله ما يكفى لتفسيره دون حاجة إلى وحى أو غيب. وأن هذا الواقع يشكل كلا متماسكا مترابطة أجزاؤه برباط السببية الصلبة، بل والمطلقة. وعقل الإنسان حينما يدرك الواقع فإنه لايدرك أجزاء متفرقة متناثرة وإنما يدرك هذا الكل المتماسك الثابت المتجاوز للأجزاء المتغيرة. ويدرك أن حركة الأجزاء ليست حركة عشوائية وإنما هى تعبير عن الكل الثابت المتجاوز، ولذا فهى حركة لها معنى وهدف، ولها معياريتها ومعقوليتها. فما يحدث يحدث حسب قانون مطّرد ثابت وليس بالصدفة العمياء.

وقد ترجمت هذه العقلانية المادية نفسها إلى ما يُسمّى «حركة الاستنارة» التى ذهبت إلى أن عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كل شىء أو على الأقل معظم الأشياء والظواهر، ويعمق من فهمه للواقع ولذاته. وكان الافتراض أن هذه المعرفة هى التى تضفى على الإنسان مركزية فى الكون، وهى التى ستمكنه من تجاوز عالم الطبيعة بل وذاته الطبيعية، ومن تغيير العالم والتحكم فيه بحيث يصبح الإنسان إلها أو بديلا للإله أو لاحاجة له به، يولد من داخل ذاته معياريته ويصبح ما يريده (على حد قول بيكو ديلا ميرانديلا المفكر الإنسانى [الهيومانى] الإيطالى) ، وهذا هو جوهر النزعة الإنسانية الهيومانية التى تعد، فى تصورنا ، المرحلة الأولى أو التمهيدية لحركة الاستنارة العقلانية



إن تحول الإنسان إلى ذرات متناثرة ثم إلى صرصار وجلوسه فى صندوق قمامة ينتظر من لايجئ وخضوعه للحتميات المختلفة وتحول اللغة الإنسانية إلى مجرد أصوات لامعنى لها، هى عملية تفكيك لهذا الإنسان وإزاحته من المركز ونزع القداسة عنه

المادية، وهذه الرؤية الاستنارية رؤية شاملة للكون (يطلق عليها عالِم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر اصطلاح «دِيانة عالمية» World religion بمعنى أنها تزود الإنسان برؤية شاملة للكون، فهى تحاول أن تجيب عن معظم إن لم يكن كل الأسئلة المباشرة والجزئية الخاصة بتفاصيل حياته، والنهائية والكلية الخاصة بأسباب وجوده ومسار حياته ومآلها، كما تزوده بأنساق معرفية وأخلاقية وجمالية يدير من خلالها حياته، أى أنها ديانة كاملة) . هذه الرؤية الاستنارية تولّد فى الإنسان ثقة بالغة بنفسه وبمقدراته وتزيد من تفاؤله بخصوص حاضره ومستقبله ، ويمكننا أن نسمى هذه الرؤية «الاستنارة المضيئة»، وعندما يتحدث معظم الدارسين ـ خاصة فى بلادنا ـ فهم عادة ما يشيرون إلى هذا التيار داخل حركة الاستنارة.

وقد نجحت الفلسفة العقلانية المادية فى أن تقضى إلى حد كبير على الأساس الدينى وغير المادى للمعرفة والأخلاق خاصة فى مجال الحياة العامة، بأن جعلت المادة المتغيرة وقوانينها هى المرجعية الوحيدة والركيزة الأساسية لأية رؤية للواقع. ولكنها رغم ماديتها الصارمة هذه ، أسست نظما معرفية وأخلاقية تستند إلى نقطة ثبات مثل العقل والطبيعة البشرية والقوانين العلمية... إلخ، وهى مطلقات توجد داخل عالم المادة، خاضعة لقوانين الحركة المادية . إلا أنها مع هذا زُعم أنها تتمتع بقدر من الثبات يجعلها تنفصل عن المادة المتغيرة وعن صيرورة النظام الطبيعى، كما أنها يُفترض فيها أنها تستند إلى وجود كل مادى يتجاوز الأجزاء وإلى مركز تدور حوله الأشياء، كل هذا يعنى أن الفلسفة العقلانية المادية طوّرت رؤية ميتافيزيقية شاملة. ونحن نطلق على هذه الرؤية المادية التى تدور حول مركز «المادية القديمة» أو المادية فى مرحلة الصلابة.

المادية الجديدة السائلة:

ولكن ثمة تناقضا أساسيا فى النسق الفلسفى العقلانى المادى (القديم) كشفه بعض المفكرين الماديين فراحوا يتهمون هذا النسق بعدم الاتساق مع نفسه، وطرحوا العديد من الأسئلة الوجيهة فى تصورى ، من بينها ما يلى: أليس العقل الإنسانى هو الدماغ، وهذا الأخير إن هو إلا مجموعة من الخلايا المادية شأنه شأن كل ما هو مادى؟ لماذا يُنسب للعقل إذًا المقدرة على تجاوز الأجزاء وإدراك الكليات والإفلات من قبضة الصيرورة؟ أليس هو ذاته جزءا من المادة المتغيرة وما ينطبع عليه هو أحاسيس مادية متغيرة وليست ظواهر مترابطة متماسكة لها معنى؟ وإذا كان العقل كذلك ، فالذات الإنسانية ليس لها وجود مستقل عن العالم المادى ، ولايمكنها تجاوزه.

أما بخصوص الموضوع ، فقد ذهب هؤلاء المفكرون إلى أن الكل المادى الثابت المتماسك المتجاوز ذا الغرض هو مجرد وهم إنسانى ، فكيف يمكن للكل أن يكون ماديا والمادة أجزاء؟ وكيف يمكن أن يكون ثابتا ، والمادة فى حالة حركة وصيرورة؟ وكيف يمكن أن يكون متجاوزا ، والمادة لاتعرف التجاوز، وكيف يمكن أن يكون ذا غرض خاضع لسببية صلبة والمادة حركة بلاهدف ولاغاية؟

بل إن الأمر ازداد اتساعا فقد أدرك الماركيز دى صاد، المفكر الاستنارى، فى مرحلة مبكرة أن الطبيعة محايدة ، غير مكترثة بالإنسان لايمكنها أن تمده بمنظومات معرفية وأخلاقية، كما كان الظن والزعم، ولذا كان يتلذذ بتعذيب النساء اللائى كان يعاشرهن ليتغلب على عدم اكتراث الطبيعة وحيادها. وبيّن داروين أن الطبيعة هى عالم الفوضى، غابة ليس لها قانون، أو إن كان ثمة قانون فهو القوة، ثم ظهرت النظرية النسبية ونظريات عدم التحدد والكم والتى تبين للإنسان أن الذات لاتدرك الواقع بشكل دقيق وأن الواقع نفسه متغير متحول لايمكن الوصول إليه.

وهكذا تم ضرب الإنسان أنطولوجيّا (فالإنسان إن هو إلا مجموعة من الدوافع المادية والاقتصادية والجنسية لايختلف فى سلوكه عن سلوك أى حيوان أعجم ولذا لايستحق أية مركزية فى الكون) وإبستمولوجيًا (فإدراك الإنسان للواقع ليس عقلانيا وإنما تحكمه مصالحه الاقتصادية وأهواؤه الجسمية) . وتم تسديد ضربة لفكرة الواقع الموضوعى والمطلقية المعرفية والأخلاقية إذ لا ثبات فى الطبيعة أو المجتمع أو الذات الإنسانية، وإنما هو تغير مستمر وصراع دائم، أى أن كلا من الطبيعة الإنسانية والمادية قد تم تقويضهما كنقطة ثبات لايمكن للأنساق الفلسفية والأخلاقية أن تستند إليها.

ثم طرح هؤلاء الشكاكون الماديون السؤال الجوهرى التالى: كيف يمكن أن نؤسس أنساقا أخلاقية (تتسم بالثبات وبالمطلقية وبالتجاوز) بعد القضاء على الأخلاق المسيحية والتقليدية، وبعد سقوط كل شىء فى قبضة الصيرورة؟ وكيف يمكن أن نفترض وجود معرفة يقينية بالعالم الخارجى وهو فى حالة حركة وتغير دائمين؟ إن الأنساق الأخلاقية الثابتة والمعرفة اليقينية تستدعى فكرة الأصل النهائى الثابت (ربانيا كان أم ماديا) ويشكل عودة للغيبية والثنائية (الدينية) التقليدية بعد أن أخذت شكلا جديدا، ويمثل سقوطا فى ميتافيزيقا التجاوز رغم المادية المعلنة المزعومة. ذلك أن افتراض وجود مثل هذه الثوابت يتناقض مع الرؤية العقلانية المادية الصارمة التى لابد أن ترد الكون بأسره إلى مبدأ واحد كامن فى الطبيعة / المادة لا يتجاوزها، وهذا المبدأ فى حالة حركة دائمة، مبدأ مادى محايد لايعرف الخير أو الشر أو القبح أو الجمال أو الضحك أو البكاء، ولايصلح أن يشكل أساسا لأية فلسفات تجاوز. ولذا اتهم هؤلاء الشكاكون المادية القديمة بأنها «ميتافيزيقا مادية» أو «إنسانية (هيومانية) ميتافيزيقية» أو حتى «مثالية مادية» (والعياذ بالله) . كما بيّنوا أن المنظومات المعرفية والأخلاقية والجمالية المادية، ليس لها أى أساس مادى كما تدعى، فهى من إفراز عقل إنسانى يخدع نفسه بشكل واع أو غير واعٍ لأنه يبحث عن الطمأنينة ويود أن يطبع الثبات على الواقع . ومن ثم على الإنسان أن يقبل وضعه باعتباره كائنا زمنيا مكانيا، محدودا بحدود الزمان والمكان، خاضعا لحتميات الطبيعة ، وأن يكف عن الثرثرة عن التجاوز والقيم والقانون والسببية ، ونحن نطلق على هذا الاتجاه «المادية الجديدة» أو «المادية فى مرحلة السيولة واللاعقلانية المادية».

وقد جعل هؤلاء الفلاسفة همهم تحطيم أوهام الإنسان عن نفسه وتوضيح العنصر التفكيكى الكامن فى المقدمات الاستنارية العقلانية المادية، فقاموا بتوجيه الضربات للإنسان حتى يحطموا صورته المثالية عن نفسه فلايستمد أى عزاء زائف من وهم المركزية والمرجعية الإنسانية، ولايتمسك بأى

أمل وهمي عن مقدرته على التجاوز، ولايتعلق بأهداف أي تصور رومانسي عن طبيعته الخيّرة الاجتماعية وعن مقدرته على التوصل للحقيقة، وبذل هؤلاء الفلاسفة قصارى جهدهم أن يذكّروا الإنسان بتلك الحقائق التي تصوروا أن المفكرين الماديين قاموا بتناسيها مثل زمنية كل الظواهر والقيم، ومادية وجود الإنسان ودوافعه وغرائزه، وأن الإنسان الطبيعي هو ابن الطبيعة وحسب ليس له أي وجود متجاوز لحركة المادة . ولذا ، بدلا من حلم الذات الإنسانية المتماسكة المتكاملة التي تدرك الواقع وتصوغه وتهيمن عليه، ظهرت الذات بعد أن تم تفكيكها وردها إلى عناصر مادية في الواقع، فالإنسان حيوان لايعرف غير التربص والافتراس والصراع وحب البقاء والأنانية والبحث عن المنفعة واللذة ، شأنه في هذا شأن أبناء الطبيعة الآخرين من قوارض وهوام وحشرات، وهو شأنه شأن الحيوان الأعجم يعيش وحيدا منعزلا عن غيره من البشر المتربصين به في كون غير مكترث به أو بهم. ولاتهدف هذه المعرفة إلى تحرير الإنسان من المخاوف والأغلال والظلم.. إلخ، وإنما تهدف إلى تحطيمه وتفكيكه كمقولة ثابتة مستقلة في عالم الطبيعة المتغير. إن دعاة الاستنارة المظلمة ببساطة شديدة ينزعون الخصوصية والقداسة عن الإنسان ويردونه إلى قوانين الطبيعة / المادة، وهي قوانين الحركة العامة التي لاتعرف ثباتا أو استقرارا أو خصوصية أو قداسة، والتي لايمكن للإنسان السيطرة عليها، وبذا يصبح الإنسان جزءا لايتجزأ من الصيرورة المادية التي لاتعرف ثباتا ولا وحدة ولا تجاوزا ولامعنى.

نيتشه والسيولة:

وراث الفلسفة المادية اللاعقلانية السائلة الجديدة بلا منازع هو نيتشه الذي لخص رؤيته في عبارته الشهيرة «لقد مات الإله» ، ويمكننا أن نتجاوز المضمون الديني الإلحادي المباشر لهذه العبارة لنحدد مضمونها ومن ثم تضميناتها المعرفية التي لا تشمل الإله وحسب بل وتشمل الإنسان والكون، ويُلقي الفيلسوف الألماني هايدجر الضوء على عبارة نيتشه بقوله: إن الإله بالنسبة لنيتشه هو العالم المتسامي ، العالم الذي يتجاوز عالمنا، عالم الحواس، الإله هو اسم عالم الأفكار والمثاليات والمطلقات والكليات والثوابت والقيم الأخلاقية.

وانطلاقا من هذا ، أعلن نيتشه أن الإيمان السائد بأن العقل الإنساني قادر على التوصل إلى علم يستطيع أن يزوده بمعرفة يقينية وأنساق أخلاقية (أي أن بوسع العلم والعقل أن يحلا محل الدين) هو وهم ليس إلا، وأن المركزية التي تخلعها الفلسفة الهيومانية على الإنسان مركزية زائفة، فهو كائن طبيعي ليست له أهمية خاصة، بل وأعلن نيتشه أن الطبيعة ذاتها لا قداسة لها، فهي مجموعة من القوى المتصارعة، والحديث عن أي مطلقة - من ثم - هو عبث، فكل الأمور مادية ، وكل الأمور المادية متساوية ، وكل الأمور المتساوية نسبية.

إن الفلسفة الحديثة الحقة (حسب تصور نيتشه) هي فلسفة تصدر عن فكرة موت الإله، أي إنكار وجود أي نقطة ثابتة أو صلبة أو أية مرجعية متجاوزة، هي فلسفة تبذل قصارى جهدها أن «تزيل ظلال الإله» التي تتبدى بالدرجة الأولى في أوهام المادية القديمة، فالواجب - من منظور نيتشه - هو التحرك داخل إطار مادي طبيعي صارم يتسم بالسيولة الكاملة ،يساوي بين الأشياء كلها ويسويها.



ترجمت هذه العقلانية المادية نفسها إلى ما يُسمّى « حركة الاستنارة » التي ذهبت إلى أن عقل الإنسان قادر على الوصول إلى قدر من المعرفة ينير له كل شيء أو على الأقل معظم الأشياء والظواهر، ويعمق من فهمه للواقع ولذاته. وكان الافتراض أن هذه المعرفة هي التي تضفي على الإنسان مركزية في الكون، وهي التي ستمكنه من تجاوز عالم الطبيعة بل وذاته الطبيعية، ومن تغيير العالم والتحكم فيه بحيث يصبح الإنسان إلها أو بديلا للإله أو لاحاجة له به

ولذا جعل نيتشه همه أن يحرر الإنسان من أي أوهام متبقية عن الثبات والتجاوز والكلية، ويطهره من أي قيم وثوابت وكليات وثنائيات وغايات (أخلاقية ومعرفية) تتجاوز المادي والمباشر. إن نيتشه حاول تحطيم كل ما كان الفلاسفة يسمونه في الماضي (أي قبل نيتشه) مقدسا وخيّرا وحقا وجميلا ومطلقا وكليا. وذلك حتى يتم القضاء تماما لا على اليقين المعرفي والأساس الديني للأخلاق وحسب وإنما يتم القضاء أيضا على أي يقين معرفي، بل وعلى مفهوم أو فكرة الأخلاق ذاتها، وعلى أية مركزية لأي كائن، إلها كان أم إنسانا، بل وعلى فكرة الوجود الثابت ذاتها وفكرة الكل الذي يتجاوز الأشياء، أي أن العالم بذلك يصبح نسقا سائلا بلا يقين أو معنى أو غاية أو كينونة أو هوية. والإنسان يصبح بلا ذات ولاحدود ولااستقلال ولامركزية.

إشكالية الدال والمدلول:

من المعروف أن المشروع الإنساني بأسره يستند إلى اللغة كوسيلة للتواصل بين البشر وللاحتفاظ بثمرة تفاعلهم مع الطبيعة حتى لاتبدأ كل تجربة مع الطبيعة وعالم الأشياء من نقطة الصفر (وهذا هو التاريخ والوعي التاريخي) والتواصل اللغوي يعني أن ثمة إنسانية مشتركة وأن ثمة ثقة في أنه يمكن توصيل المعنى وأن ثمة علاقة بين الذات والموضوع والفكر والواقع والدال والمدلول.

وقد ظهر الاهتمام بفلسفة اللغة في الحضارة الغربية باعتبارها واحدة من أهم المباحث الفلسفية ، في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وهذا يرجع إلى اهتزاز فكرة الكليات، فالتواصل بين البشر يفترض وجود مثل هذه الكليات وبغيابها تنشأ مشكلة علاقة اللغة بالواقع والذات المدركة بالموضوع المدرك. وكما قال فوكو إن مشكلة اللغة تحاصر الإنسان في عالم الصيرورة الكاملة.

وقد صرح بول دي مان (الناقد التفكيكي) أن الفكر الغربي الحديث هو فكر لغوي أكثر من كونه فكرا أنطولوجيا أو تفسيريا. وقبلها تنبأ إرنست كاسيرر بأن اللغة ستصبح سلاح الشك العدمي وسلاح العداء للفلسفة بعد أن كانت سلاح الفلسفة. وبالفعل أصبحت اللغة هي هاجس الإنسان الغربي. وأصبح هدف كل العدميين، بعد أن اكتسبت اللغة هذه المركزية، إثبات فشلها ، حتى تُصاب الإبستمولوجيا نفسها بالشلل. فالهجوم على اللغة كأداة للتواصل بين البشر هو هجوم على المشروع الإنساني بأسره وعلى مفهوم الإنسانية المشتركة وعلى مقدرة الإنسان أن يراكم المعرفة وأن يتعامل مع الآخرين من خلال منظومات معرفية وأخلاقية مشتركة، أي أنه تعبير عن العدمية الفلسفية الناجمة عن تبني موقف لاعقلاني مادي سائل.

وقد تمت مناقشة الإشكاليات الفلسفية الكبرى من خلال مناقشة إشكالية قد تبدو وكأنها إشكالية لغوية محضة وهي إشكالية علاقة الدال والمدلول، و«الدال» هو الجانب المحسوس sensible من الكلمة، فهو الصورة الصوتية أو مساويها المرئي ، أما «المدلول» فهو الجانب المفهوم من المعنى intelligible وكان بوسعنا أن نقول ببساطة أن الدال هو الاسم والمدلول هو المسمّى، وأن الدال هو الكلمة التي تشير إلى شيء والمدلول هو الشيء الذي يشار إليه، ولكن حيث إن كلمة «دال» لا تشير إلى الكلمات وحسب وإنما تشير إلى النظم الإشارية «علامات المرور - الرموز - إلخ..) فإننا نؤثر استخدامها لأنها أكثر شمولا.

وقضية علاقة الدال بالمدلول هي في واقع الأمر قضية علاقة العقل بالواقع(والإنسان بالطبيعة / المادة والذات بالموضوع . وفي نهاية الأمر ، الخالق بالمخلوق) . فالبعض يرى أنها علاقة قوية ومركبة. فعلى الرغم من أنه لاتوجد علاقة تطابق بين الواحد والآخر. وعلى الرغم من أنه توجد مسافة تفصل بين الدال والمدلول (أي أن اللغة ليست شفافة تماما) ، فالدال جزء من النظام الإشاري اللاشخصي وله قواعده ومنطقه. أما المدلول فهو جزء من نظام المعنى وتسري عليه قواعد مختلفة ويختلط فيه المنطق باللامنطق. على الرغم من كل هذا إلا أنه توجد وسائل وآليات لتحسين الأداء اللغوي للوصول إلى ما نسميه «الحقيقة» أو على الأقل قدر كاف منها وإلى توصيله للآخرين. وهذا يعني أن العقل قادر على إدراك الواقع وعلى تجريد المعرفة منه وعلى توصيلها للآخرين.

وتشكل إشكالية علاقة الدال بالمدلول المدخل الحقيقي لدراسة فكر عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣) واضع أساس علم اللغة البنيوي (ووارث الثورة البنيوية) الذي ذهب إلى أن علاقة الدال بالمدلول لا تستند إلى أية صفات موضوعية كامنة في الدال. ومن ثم فالعلاقة بينهما ليست ضرورية أو جوهرية أو ثابتة، فهي علاقة اعتباطية أو عشوائية. فلايوجد أي سبب منطقي أو موضوعي لأن تكون كلمة «قطة» العربية ، أو كلمة كات Cat الإنجليزية هي الإشارة الوحيدة الضرورية والمنطقية إلى هذا الحيوان الصغير الذي يشبه النمر ويسير على أربع ويغطي جسده نوع من الفراء.

ويرى دي سوسير أن النظام اللغوي هو نسق إشاري مبني على علاقة الاختلاف بين الثنائيات المتعارضة ، فالاختلاف بين «قطة» و«بطة» ليس هو الاختلاف بين الحيوان الذي يحمل ذلك الاسم والطائر الذي يحمل ذلك الاسم، وإنما هو اختلاف بين الأصوات والإشارات الدالة (بين القاف والباء) تقابلها اختلافات بين الأفكار والأشياء (المدلولات) دون أن تكون هناك علاقة ضرورية (تستند إلى قانون «طبيعي» كامن في طبيعة الأشياء [أنطولوجي أو رباني]) بين الاختلافات القائمة بين الثنائيات في عالم الدوال من جهة والاختلافات القائمة بين المدلولات من جهة أخرى. فاللغة نظام من العلاقات والاختلافات الثنائية المتعارضة ليس لأجزائها هوية أو جوهر أو حتى وجود خارجها.

وطرح دي سوسير لإشكالية انفصال الدال عن المدلول يستند إلى الافتراضات الفلسفية التالية:

١ - اللغة نسق مكتف بذاته. قوانينها كامنة فيها، وهي لاأصلَ لها. أو أنها غير معروفة الأصل (وهذا لايختلف عن قول الفلاسفة الماديين أن أصل العالم هو مادة قديمة ذاتية التنظيم، لم يخلقها أحد، والخلق ذاته عملية غير مفهومة وغير معروفة تمت بالصدفة، وإن وُجد إله خالق، فهو المحرك الأول وحسب).

٢ - اللغة هي التي تنتج الواقع وليس الواقع هو الذي ينتج اللغة (تماما مثل قول الفلاسفة الماديين إن المادة هي التي تشكل الوعي وليس الوعي هو الذي يشكل المادة).

٣ - أسبقية اللغة على العقل الإنساني تعني إزاحة الإنسان عن مركز الكون (وهذا يقابل أسبقية الطبيعة / المادة على الإنسان).

يمكن القول بأن مقولة اللغة حلت محل مقولة المادة، فقد أصبحت المبدأ الواحد (قوة كامنة في الكون [الطبيعة والإنسان] دافعة له تتخلل ثناياه وتضبط وجوده وتوحده، قوة لاتتجزأ ولايعلو عليها أحد، وهي النظام الضروري والكلي للأشياء).

وقد وجدت الفلسفة الغربية

ضالتها فى اللغة فهى نظام مستقل له قواعده المستقلة عن الإرادة الإنسانية (فهى موضوعية) ولكنها تحتاج إلى الإنسان كى تتحقق (فهى ذاتية)، ولكنها رغم هذا تدور فى الإطار المادى، فاللغة تسبق الوعى الإنسانى والإرادة الإنسانية، وكما يقول البنيويون نحن لانتحدث عن اللغة وإنما تتحدث اللغة من خلالنا.

انفصال الدال عن المدلول:

كل هذا يقف على طرف النقيض مما فعله العدميون من الماديين الجدد حينما قالوا: «بانفصال الدال عن المدلول» وهى عبارة اصطلاحية تُستخدم فى علم اللغة ولكنها أصبحت مقدمة فلسفية لكثير من النتائج التى يتأسس عليها النظام المعرفى ما بعد الحداثى بكل ما يضمر من عدمية فلسفية، والعبارة تعنى أن الأسماء لاعلاقة لها بمسمياتها، وأن الإشارات ليس لها علاقة بما تشير إليه، وإن وُجدت مثل هذه العلاقة فهى علاقة واهية خلافية. كل هذا يعنى أن العقل ليست له علاقة كبيرة بالواقع وأنه غير قادر على الإحاطة به كما يعنى أن النسق اللغوى ذاته يسقط فى قبضة الصيرورة والعدم، ولذا لاغرو أن نيتشه، الفيلسوف الأعظم للمادية الجديدة السائلة، كان من أوائل من أشار إلى انفصال الدال عن المدلول، فيأخذ كلمة روح على سبيل المثال، ليبيّن أنها «فى الفلسفات التقليدية» تشير إلى كلِّ متجاوز لعالم الجسد والمادة، وهو مايفترض وجود مسافة بين الروح والجسد، ينكر نيتشه هذا تماما ويؤكد لنا، انطلاقا من رؤيته المادية، أن الروح فى واقع الأمر لاتشير إلا إلى الجسد، والجسد «إن هو إلا» ترتيب لبعض القوى الطبيعية وعمليات تجسد إرادة القوة، فالدال التقليدى «الروح» فقد علاقته تماما بمدلوله واكتسب فى فلسفة نيتشه مدلولا جديدا، مناقضا تماما لمدلوله التقليدى، فالروح حسب الفهم النيتشوى لها إنما هى عنصر من عناصر العالم المادى، أى أن ثنائية الروح والجسد القديمة، ثنائية غير حقيقية من وجهة نظره.

ونيتشه أيضا هو من أوائل الفلاسفة الذين شككوا فى موضوعية أى نص، فالرؤية التقليدية للنص - كما نعلم - تنطلق من ثنائية النص والحقيقة (التى تقابل ثنائية الجسد والروح)، وتذهب هذه الرؤية التقليدية إلى أن النص نسيج يحاول أن يوصل الحقيقة لنا، التى تتبدى من خلال سدة النسيج ولحمته (بنيته).

فالنص بهذا المعنى يمثل، بشكل من الأشكال، الواقع أو على الأقل بعض جوانبه، ومهمة المفسر لذلك هى الوصول عبر النسيج إلى الحقيقة الكامنة وراء النص، يلغى نيتشه المساحة بين النص والحقيقة ويصفى تلك الثنائية تماما، ويقرر أن النص هوفعلا نسيج، ولكن النسيج هو ذاته الحقيقة، والحقيقة إن هى إلا جيش من الصور المجازية القديمة تكلس واستقر، وأصبح الناس يتصورون أنه هو الحقيقة! والذات المبدعة هى ذاتها جزء من هذا النسيج، فهى كالعنكبوت فى بيت العنكبوت.

ولايلغى نيتشه المسافة بين المبدع والنص والحقيقة وحسب، وإنما يلغى المسافة بين نص وآخر، وقد طرح فكرة التناص باعتباره حوارا لاينتهى بين النصوص، فكل ما نعرفه هو النص، والنص لايحيلنا إلى حقيقة متجاوزة له وإنما إلى نص آخر، ولذا



بالفعل، نجد أن المثل الأعلى للوضعية المنطقية هى لغة الجبر التى تتطابق تماما مع مضمونها لأنها لامضمون لها، وقد أصر الوضعيون على أن الجمل الإخبارية هى جمل يمكن التأكد من زيفها أو صدقها من خلال التجربة والاختبار، وما لايمكن التأكد منه بهذه الطريقة هو ليس بجملة. ومن ثم، فإن كل الجمل عن الأخلاق والجمال والإحساس الدينى هى شبه جمل

فإن معرفتنا لا يمكن أن تدّعى لنفسها حالة أكثر استقرارا وصلابة من أن تكون نصا، وهذا يعنى أن كل الحدود تختفى بين الذات والموضوع، وبين الداخل والخارج، والمعنى واللامعنى، والمعرفة والرأى، والحقيقة والخطأ، لكل هذا، يذهب نيتشه إلى أنه لايوجد نص برئ طاهر أصلى، فمثل هذا النص إما لم يوجد أساسا أو فُقد إلى الأبد، وكل ما نقرأ هو التفسيرات وحسب أو الإحالات إلى نصوص أخرى، والتفسير هنا ليس هو الاجتهاد، فالاجتهاد يفترض أن ثمة علاقة اتصال وانفصال بين الدال والمدلول، وأن هذه العلاقة ليست بسيطة ولامباشرة ولارياضية وإنما مركبة (بسبب طبيعة اللغة كأداة مركبة للتوصيل، تستخدم المجاز)، ومن ثم تكون مهمة القارئ المجتهد أن يُعمل عقله ليسبر غور العلاقة المركبة بين الدال والمدلول ليصل إلى معنى النص، معنى ليس هو بالمعنى المطلق أو الوحيد أو النهائى، وإنما هو معنى يقارب الحقيقة وقابل للاختبار من قبل قارئ آخر. الأمر جدّ مختلف عند نيتشه، فالقراءة ليست البحث عن معنى النص وإنما هى فى الواقع استيراد معنى من الخارج وفرضه على النص، فالنص، مع انفصال الدال عن المدلول، لامعنى له فى حد ذاته، ومن ثم لايوجد معنى سوى ما تفرضه إرادة القوة (كما هو الحال دائما فى المنظومة النيتشوية).

أسباب انفصال الدال عن المدلول:

ويحق لنا أن نسأل كيف تأتى أن تصبح إشكالية لغوية هامشية مقصورة فى الماضى على المتخصصين مثل انفصال الدال عن المدلول، إشكالية فلسفية مركزية كبرى فى الوجدان الغربى، أى أننا فى واقع الأمر لن نسأل تلك الأسئلة التى شاعت فى خطاب معظم من ينقلون الفكر الغربى إلى العربية، أسئلة من نوع: ماهو المعنى الدقيق لانفصال الدال عن المدلول؟ وماذا تعنى هذه العبارة أو تلك عند نيتشه أو سوسير أو دريدا أو غيرهم؟ أو «هل نجحنا فى نقل المعنى الموجود فى النص الأصلى الغربى بدقة إلى العربية؟ بدلا من كل هذا سنسأل السؤال التالى: لِمَ يهتم الفكر الغربى أساسا بمثل هذه الإشكاليات؟ أى أننا سنسأل سؤالا عن السياق الحضارى والاجتماعى والفلسفى وعن مركب الأسباب الذى أدى إلى تحرك إشكالية انفصال الدال عن المدلول من الهامش الأكاديمى إلى المركز الحضارى. لِمَ تحول الإنسان الغربى من الهيومانية والاستنارة إلى البنيوية ومنها إلى مابعد البنيوية، وما خفى كان أعظم؟

الإجابة عن هذه الأسئلة ستلقى كثيرا من الضوء على هذه الإشكالية وستجعلنا ندرك مضمونها الفلسفى والحضارى الحقيقى، وبدونها ستصبح العبارات الفلسفية أشباحا لفظية تتحرك على الورق أمامنا، وفى تصورنا أن انفصال الدال عن المدلول فى الحضارة الغربية يعود إلى مركب من الأسباب نذكر منها ما يلى:

١ - يمكن أن نبدأ بالإشارة إلى الأحداث التاريخية الكبرى فى الحضارة الغربية مثل الإمبريالية (تجربة الإنسان الغربى الأساسية فى العصر الحديث ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر) والحربين العالميتين الغربيتين الأولى والثانية، والإبادة الغربية للسكان الأصليين فى بلاد مثل أمريكا الشمالية، والإبادة النازية لبعض العناصر «غير المفيدة» وبعض أعضاء الأقليات الإثنية والدينية والعرقية مثل الغجر واليهود وكبار السن والمعوقين... إلخ والأيديولوجية العنصرية (الداروينية النيتشوية) التى ساندت الغزوة الإمبريالية للعالم، فها هى حضارة العقلانية والإنسانية (الهيومانية) تكتشف أن سلوكها لا تضبطه قواعد العقلانية والإنسانية، وأنها حضارة النهب الإمبريالى والإبادة المتوحشة.

٢ - يمكن أن نشير إلى ما سبقت الإشارة إليه من تقويض للذات والموضوع من خلال الرؤى الفلسفية والفيزيائية والبيولوجية التى ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وعملية التقويض هذه تعنى صعوبة وجود علاقة بين الذات المدركة والموضوع المدرك، أى صعوبة وجود علاقة بين الدال اللغوى والمدلول الذى يشكل جزءا من الواقع.

٣ - تصاعد معدلات الترشيد الإجرائى فى المجتمعات الغربية، أى اكتشاف أنجع السبل لتوظيف الوسائل (أى وسائل) فى خدمة الغايات (أى غايات)، أى أنه ترشيد ينصرف إلى الإجراءات ولايهتم بالغايات. ففى إطار اقتصاديات السوق الحرة أصبحت القضية هى كيف يمكن تحقيق أعلى معدلات الأرباح بغض النظر عن نوعية المنتج (الأسلحة - الأفلام الإباحية - الطعام)، أى أن الاقتصاد انفصل عن الإنسان وأصبح هدفا فى حد ذاته. وقد حدث نفس الشيء فى مجالات أخرى للنشاط الإنسانى (السياسة - الفلسفة - الوجدان - الجنس)، بحيث أصبح كل نشاط مرجعية ذاته يحكم عليه بمعايير مستمدة منه هو ذاته، وهذا يعنى انفصاله عن الواقع الإنسانى المركب.

٤ - وقد واكب كل ذلك تزايد معدلات انفصال العلم الطبيعى عن القيمة، والتجريب عن العقل بحيث أصبح التجريب، المنفصل عن أية غائيات إنسانية أو أخلاقية، هدفا فى حد ذاته، كما تزايدت معدلات الاستهلاك إلى أن تحول الاستهلاك (الوسيلة) إلى غاية وأصبحت الأمور ملتفة تماما، الاستهلاك من أجل الإنتاج، والإنتاج من أجل الاستهلاك (ماهو الدال وماهو المدلول فى هذه الحالة؟)، كل هذا نجم عنه انفصال الحقائق عن القيمة، والحقيقة الكلية والتفاصيل عن المعنى، والوسائل عن الغايات، والأجزاء عن الإطار، وأخيرا الذات (الإنسانية) عن الموضوع (الطبيعى / المادى).

٥ - ويمكن أن نسأل ماذا حدث للإنسان فى إطار الحضارة الغربية الحديثة؟ ماذا حدث لمركز الكون وسيد المخلوقات؟ مع تزايد معدلات الترشيد المادى الإجرائى، تزايد نقل الظواهر الإنسانية من عالم الإنسان إلى عالم الأشياء، إلى أن تم نقل الإنسان بقضه وقضيضه إلى عالم الأشياء، حتى أصبح الإنسان / الإنسان هو الإنسان / الشىء أو الإنسان الطبيعى / المادى، جزءا لا يتجزأ من الطبيعة / المادة خاضعا لقوانينها وحتمياتها، وليس له وجود خارجها، أى أنه إنسان فقد تركيبته وحريته ومقدرته على التجاوز، يُعرَّف على أنه مجموعة من الدوافع والحاجات (البرانية) ليس لها مضمون أخلاقى إنسانى وعلى أنه ليس ذاتا جوانية لها أبعادها وأسرارها، فهو واحد من اثنين: إنسان اقتصادى لا يُعرَّف فى ضوء إنسانيته المتعينة وإنما فى ضوء حواسه الخمسة وجهازه الهضمى ومعدلات إنتاجه واستهلاكه ودخله ومستواه المعيشى وعلاقات أو وسائل الإنتاج (التى تتحكم فيه وفى رؤيته)، أو إنسان جسمانى أو جنسى يُعرف فى ضوء غرائزه واحتياجاته الجسدية والجنسية ويُرد إلى جهازه التناسلى، وهو فى جميع الأحوال إنسان داروين وماركس وفرويد، جزء من سلسلة الوجود الطبيعية، كائن طبيعى من

الداخل ومن الخارج، أى أن الإنسان أصبح إنسانا ذا بُعد واحد (ماركوز) مجرد عقل أداتى رشيد يوظف الوسائل فى خدمة الغايات دون أن يتساءل عن جدواها أو مضمونها الأخلاقى أو الإنسانى (مدرسة فرانكفورت)، شيئا مجردا من القداسة والسمات الشخصية والإنسانية، أى أن الإنسان فقد ما يميزه كإنسان ووقع فى قبضة الصيرورة وأصبح من ثم دالا دون مدلول (إنسانى).

٦ ـ وإذا كان الإنسان دالا بلا مدلول وغاية المجتمع حركة بدون غاية، يلاحظ أن كل الوسائل تتحول إلى غايات وتختفى الغايات تماما. فالدولة (والمؤسسات الخاصة والعامة الأخرى)، تلك الأداة التى ابتدعها الإنسان لتنظيم حياته، تصبح هى التنين الذى يبتلع الفرد، (وتتحقق نبوءة هوبز)، والآلة التى طورها لتقوم على خدمته تصبح هى التى تحدد له إيقاع حياته، وإنتاج السلع الذى كان يهدف إلى إسعاده يصبح هدفا فى حد ذاته يوظفه ويحوسله (أى يحوله إلى وسيلة)، وكما أسلفنا القول يصبح الهدف من الإنتاج هو زيادة الاستهلاك والهدف من الاستهلاك هو زيادة الإنتاج.

٧ ـ فقدت كثير من الدوال مثل «الأسرة» مضمونها التقليدى، فالأسرة لم تعد وحدة اجتماعية من رجل وامرأة وأطفالهما، فقد أصيبت بالتعددية المفرطة، فهى يمكن أن تكون مكوَّنة من رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأتين، ويظهر انفصال الدال عن المدلول فى عبارة مثل التفضيل الجنسى sexual preference وهى العبارة المستخدمة الآن للإشارة إلى طبيعة العلاقة الجنسية التى يختارها المرء، هل هى مع فرد من الجنس الآخر أم مع فرد من جنسه هو، وكأن المسألة مسألة اختيار.

٨ ـ ومع تزايد إنتاج السلع، يزداد التسلع والتشيؤ بحيث تصبح العلاقات بين البشر هى علاقات بين أشياء ذات قيمة تبادلية، ولذلك يصبح عالم الإنسان المفعم بالمعنى خاليا تماما من المعنى، فحياته الإنسانية حياة شيئية، فهى دال دون مدلول. ويمكن القول أن أزمة المعنى فى جوهرها هى اكتشاف الإنسان الغربى أن حياته دال بدون مدلول حركة بلا معنى، ويصل هذا الاتجاه إلى ذروته فى الترشيد الإجرائى وفى أخلاقيات الصيرورة، أى التزام جميع الأطراف بقواعد اللعبة وبالإجراءات دون الاتفاق على الهدف النهائى منها.

٩ ـ تم ترشيد اللغة وتحييدها فى المجتمع الصناعى الحديث مثلما تم ترشيد وتحييد معظم جوانب الحياة. فاللغة فى المجتمع الصناعى أصبحت لغة واحدية تشير إلى أشياء محددة، فهى مجرد أداة للتعبير عن الأفكار العلمية والمعادلات الرياضية وعمليات البيع والشراء والإعلان والتعاقد القانونى والأوامر وأصبحت هى لغة البيروقراطية التى تتعامل مع البشر بشكل تكنوقراطى من خلال نماذج كمية رياضية، ولغة البيروقراطية لابد أن تكون منضبطة تماما ولابد أن تتسم بالدقة البالغة، فهى أداة العقل الأداتى فى القمع والسيطرة والتوجيه، وهى لغة الصحافة الإخبارية والإعلام «العالمى» التى تقول كل شىء ولاتقول شيئا.

وفى هذا الإطار، ظهرت فلسفة الوضعية المنطقية وظهر الفكر الوضعى الضيق الذى يرى أن اللغة لابد أن تكون واضحة ومحايدة تماما، والفكر الوضعى يفترض أن اللغة لابد أن تكون شفافة تماما وموصلة بشكل كامل، وقادرة على تمثيل الواقع، ويمكن للقارئ من خلالها أن يمسك بواقع صلب متماسك ومحدد. بل ويفترض الفكر الوضعى أن مثل هذه اللغة طبيعية. فثمة تقابل بين قوانين العقل وقوانين الطبيعة، وثمة تقابل كامل بين اللغة والواقع إذ إنه لاتوجد أى مسافة بين الدال والمدلول. فكلمة «أسد» تشير إلى الحيوان الذى يحمل ذلك الاسم، الموجود فى الواقع. ومن ثم لايوجد أى لبس أو إبهام. ومثل هذه اللغة هى أقرب إلى لغة التجارب العلمية والمعادلات الرياضية والعلوم الطبيعية ولغة السوق والمصنع. وبالفعل، نجد أن المثل الأعلى للوضعية المنطقية هى لغة الجبر التى تتطابق تماما مع مضمونها لأنها لامضمون لها. وقد أصر الوضعيون على أن الجمل الإخبارية هى جمل يمكن التأكد من زيفها أو صدقها من خلال التجربة والاختبار. وما لايمكن التأكد منه بهذه الطريقة هو ليس بجملة. ومن ثم، فإن كل الجمل عن الأخلاق والجمال والإحساس الدينى هى شبه جمل.

لكن الجمل الإخبارية لاتفيد كثيرا إلا فى التعامل مع الأشياء وللتعبير عن علاقات الإنتاج والبيع والشراء، ولكنها عاجزة تماما عن غيرذلك. أما نشاطات الإنسان الإنسانية فهذه الجُمل غير قادرة على التعبير عنها. فجملة مثل: «إنها تبكى فى قلبى مثلما تمطر [السماء] فوق المدينة» ليس لها معنى دقيق واضح. ولايمكن البرهنة على صدقها أوكذبها. فالدوال لا تشير إلى مدلول محدد، ولذا فهى جملة ـ من منظور الوضعيين المنطقيين ـ لامعنى لها، شبه إخبارية، بل إن عبارات مثل: «الشجرة جميلة» هى الأخرى لامعنى لها لأن الجمال ليست له مقاييس محددة منضبطة، وبالتالى فالدال «جميلة» ليس مرتبطا بمدلول محدد. وباختصار شديد، يحاول التفكير الوضعى اللغوى أن يضيق الثغرة بين الدال والمدلول إلى أقصى حد بحيث تصبح العلاقة بالمدلول علاقة بسيطة ومباشرة، ولكنه فى الوقت ذاته ـ وهنا تكمن المفارقة ـ يفترض انفصال الدال عن المدلول فى معظم المجالات الإنسانية، التى تشكل المسافة الأكبر من الوجود الإنسانى.

١٠ ـ ظهر تمرد على هذا الاتجاه الوضعى المنطقى وعلى التسلع والتشيؤ، فبدلا من اللغة الموضوعية المغرقة فى الموضوعية ظهرت لغة ذاتية مغرقة فى الذاتية مكتفية بذاتها لاتشير إلى عالم الأشياء، وبذلك يكون دعاة اللغة الذاتية قد قبلوا إحدى مقولات الوضعية المنطقية، أى انفصال الدال عن المدلول فى المجال الإنسانى الذاتى، ودفعوا بها إلى نتيجتها المنطقية، وأصبحت هذه اللغة الذاتية هى اللغة الوحيدة المقبولة فى عالم الفن على وجه الخصوص.

فإذا كان المجتمع الصناعى يحاول تسليع وتشييء وضبط كل شىء بما فى ذلك العمل الفنى، فإن الثورة على هذا الاتجاه هى إعلان أن العمل الفنى فريد مكتف بذاته لا علاقة له بالسوق أو المصنع فهو يعبِّر عن عالم المبدع الجوانى ولذا فهو مرجعية ذاته لامضمون له (تعليق المضمون)، ولهذا السبب نجد أن الفن الحداثى يزداد إبهاما وتعقيدا حتى أصبح أدبا نخبويا، رغم ثورته على البورجوازية! وقد عبّرت هذه الثورة عن نفسها فى مجالات المعرفة الإنسانية الأخرى مثل فلسفة العلوم وعلم اللغة. ■

■■ تجرى أكثر المشاهد دهشة في كتاب «اليسون وينتر» في مستشفى «كلكتا الوطني» عام ١٩٤٦، حيث كان جميع الموظفين في المستشفى - بمن فيهم الطاهي - قد تعلموا

Mesmermized: Powers of Mind in Victorian Britain

(المسمرة: قوى العقل في بريطانيا الفيكتورية)

Alison Winter

Chicago Publishing Co., 416pp., $30.00

تنويم المرضى مغناطيسيًا إلى الحد الذى يصبح فيه التخدير أو فقدان الشعور كاملاً: يرقد الرجل على ظهره بينما يجلس المنوم المغناطيسى خلف رأسه ويميل عليه ليصبح فى وضع يواجه فيه المريض وجهًا لوجه.

تصل يد المنوم المغناطيسى اليمنى إلى تجويف معدة (بطن) المريض بينما تقوم يده اليسرى بحركات دائمة أمام وجهه. تتكرر هذه الحركة بشكل رتيب لفترات قد تصل إلى ست ساعات في اليوم.

يستغرق المريض فى نوم عميق باستمرار، وهو مصاب بورم هائل فى كيس الخصية، الأمر الذى كان شائعًا فى الهند فى ذلك الوقت. كان هذا الورم ناتجًا عن تجمع السوائل فى الغشاء المحيط بالخصية بكميات كبيرة. وعندما يبدو أن المريض أصبح بلا وعى تمامًا، بعد تعرضه للتنويم المغناطيسى فترة قد تمتد لعدة أيام، يتم اختباره عن طريق لمسه بقطعة فحم متوهجة لدرجة الاحمرار. فإذا ثبت بجلاء أنه بلا وعى يجرى استدعاء الجراح الأسكتلندى

جيمس إيسديل، وهو جراح علم نفسه بنفسه التخدير بواسطة التنويم المغناطيسى وذلك بقراءة كتيب كان قد جلبه من إنجلترا.

اكتشف جيمس إيسديل بعد ذلك أن خدم المستشفى يستطيعون القيام بعملية التنويم المغناطيسى المضجرة بنفس الدرجة التى يقوم بها هو نفسه. يدخل إيسديل مرتديا معطفا واقيا من الدم ومنتعلاً حذاء بحريا ذا رقبة، ويأخذ فى استئصال كيس الخصية المتضخم ثم يقوم بمساعدة معاونيه الهنود بربط

التنويم المغناطيسى

سلطان العقل على البدن!

إيــــان هــاكــنــج



المنومون المغناطيسيون كانوا في الأغلب رجالا، بينما كان من يتعرضون لهذه العملية (المنومين) من النساء غالبا. وهنا يكمن تفاعل معقد، لأن الغالبية العظمى من المنومين كانوا من فئات اجتماعية متواضعة

الأوعية الدموية.. وفي حالة أحد المرضى كان وزن الورم المستأصل ١٠٣ أرطال، في الوقت الذي لم يزد فيه وزن المريض بعد العملية عن ١١٤ رطلاً.

وعلى مدى ثمانية أشهر من عام ١٨٤٦ أجرى إيسديل ٧٣ عملية جراحية مختلفة على هنود مُنوَّمين مغناطيسيا. تضمنت تلك العمليات بتر الأطراف، وإزالة عتامة عدسة العين (كتاراكت)، غير أن أغلب العمليات كانت استئصال الأورام من كيس الخصية.

وقد قامت لجنة مكونة من ثلاثة أطباء وثلاثة موظفين بمراقبة عشر من هذه العمليات ليتحققوا بالفعل مما يحدث. وأصدرت اللجنة بعد ذلك حكمها الذي شهد بأن معظم العمليات تم بنجاح ودون ألم.

هناك طريقتان لتناول مثل هذه الأحداث، إما أن تتحدث عنها بما تعتقده فيها، أو تصفها بلسان حال أصحابها أنفسهم، وتتحدث وينتر في كتابها بلغة هؤلاء الناس وسأحاول من جهتي أن أفعل نفس الشيء.

وبادئ ذي بدء فإن إيسديل كان يعتقد أنه يستخدم التنويم المغناطيسي (المسمرة) أو المغناطيسية الحية (animal magnetism) وليس التنويم الإيحائي (hypnotism).

وليس لدى أليسون وينتر إلا القليل لتقوله عن التنويم الإيحائي، فالكلمة نفسها «hypnotism» (من الإغريقية hypnos ـ بمعنى النوم) كانت في البداية تُسمى «التنويم الإيحائي العصبي»(nevrohypnotism)، وقد صكها جرَّاح اسكتلندي آخر يعمل في مانشستر هو جيمس بريد (James Braid). كان بريد قد شاهد عرضًا للتنويم المغناطيسي سنة ١٩٤١ وحاول بنفسه ممارسته، وبحلول منتصف الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان بريد قد كوّن آراءه الخاصة حول ذلك.

وكان يعتقد أنه يستطيع إبعاد الخزعبلات التي تحيط بالتنويم المغناطيسي ليتبقى في النهاية التأثير الإيحائي المنهج، أما آلان جولد (Alan Gauld) مؤلف إحدى الموسوعات الحقيقية عن التنويم الإيحائي فكان يفرق بين التنويم المغناطيسي والتنويم الإيحائي، كما كان يمارسه بريد والذين جاءوا من بعده، وقد جعل جولد من هذه المسألة موضوعًا مفتوحًا للنقاش لاستيضاح ما إذا كانت التأثيرات الناتجة هي نفسها في الحالتين ـ أي «وضع إنسان في حالة نوم».

تتفق معظم الروايات على أن جيمس بريد كان أول من استهل الدراسة «العلمية» لظاهرة الغشية أو فقدان الحس (trance)، ولكن ما المقصود بهذه الكلمة «أي العلمية؟».

إنها أحد الموضوعات الفرعية الكبيرة التي تناولها كتاب وينتر، وهو موضوع مناسب تمامًا لكل من الصراع الحديث من أجل الصدق والموضوعية في العلم من جهة ولدراسة بريطانيا الفيكتورية من جهة أخرى، فهي تضع التنويم المغناطيسي في لب الصراع الفيكتوري لتعريف العلم.

ولننظر أولاً في الفرق بين التنويم المغناطيسي mesmerism والتنويم الإيحائي hypnotism. تقول وينتر إن «إيحاء بريد Braid's hupnotism ـ هكذا تضع المصطلح بين أقواس ربما لتعبر عن مدى نفورها منه ـ قد أزاح عن التنويم المغناطيسي السيولة المغناطيسية والأحاسيس الجنسية المترافقة مع حركات اليد والعلاقة الشخصية بين المنوم المغناطيسي وموضوع التنويم وهو الأمر الواضح في الادعاءات بأنه جسم وعقل ورغبات إنسان آخر.

أما التنويم المغناطيسي فعلى النقيض، بدأ بنظرية تفصيلية، وقد سُمّي مسمرة (mesmerism) على اسم الطبيب النمساوي من فيينا فرانس أنطون مسمر (Franz Anton Mesmer ١٧٣٣ ـ ١٨١٥)، والذي كان يعتبر نفسه من أتباع اسحق نيوتن المخلصين، كان ذلك وقت أن كان الأوروبيون والأمريكان قد بدأوا في إلقاء أول نظرة خاطفة على الحقائق الأساسية للكهرباء والمغناطيسية.

كان بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin قد بدأ أبحاثه على الكهرباء سنة ١٧٤٦، لكن الفيزيائي الإيطالي ألكسندر فولتا Alexander Volta لم يتمكن من الحصول على تيار مستمر (باختراع البطارية) إلا في سنة ١٨٠٠. وهو تاريخ مثل البداية لأي شيء يتعلق بالكهرباء والمغناطيسية ـ وارتباطها ببعضها ـ ونعتبره الآن من المسلمات.

لقد كانت بداية مثيرة غير أنها لم تكن سهلة: ظلت العلاقة بين الكهرباء والمغناطيسية أمرًا غامضًا لمدة طويلة، وقد استغرق الأمر عشرين سنة قبل أن يضع العالم الدانمركي هانس كريستيان أورستد (Hans Christian Orsted) إبره البوصلة المغناطيسية تحت موصل يسرى فيه تيار كهربي مما جعل الإبرة تنحرف فجأة، لتصنع زاوية قائمة مع الموصِّل.

وبعد ذلك مباشرة، وفي سلسلة من المحاضرات المثيرة تمكن الفيزيائي الفرنسي أندريه أمبير (André Ampére) من التوصل إلى النظرية الكهرومغناطيسية. وتبعًا لـ «ستيفن وينبرج» (Steven Weinberg) فإن الكهرومغناطيسية في صورة معادلات ماكسويل هي الشيء الذي يمكن أن يكون أول ما تمخض عنه الكون، لكن قبل عام ١٨٠٠ كان كل شيء مستباحًا، فسمح مسمر لنفسه بالاستيلاء على المغناطيسية أو القوة النيوتونية عن بعد.

كانت المغناطيسية الحية (Animal Magnetism)، كما كان يسميها مسمر ـ إشارة إلى الحياة أو الروح (Anima' Soul). وليس من كلمة «حيوان» ـ هي النفوذ أو السلطان الذي يمارسه شخص على شخص آخر عن طريق إجراءات معينة يقوم بها على جسمه، وبالقطع كان المنوم المغناطيسي يستطيع أن يجعل الناس ينامون مستحدثًا سَرْنَمَةً صناعية (السرنمة ـ السير أثناء النوم (Somnambulism) وفي مقدوره علاج أنواع كثيرة من الأمراض وإخضاع أمور كثيرة عديدة لرغبته. كانت الفكرة النيوتونية تنص على أن الفراغ مملوء بالأثير ـ مانع غير مرئي. وكان الاعتقاد السائد أن مغناطيسية حجر المغناطيس، والتي كانت تؤثر عن بعد، فتجذب إليها الحديد، تحتاج إلى شيء من قبيل هذا المانع لتمرر قوتها من خلاله.

و«يروى روبرت دارنتون Robert Darnton في كتابه «المسمرة ونهاية التنوير في فرنسا الصادر عام ١٩٦٨» الذي أصبح من الأعمال الكلاسيكية أنه في الثمانينيات من القرن الثامن عشر كانت الصفوة العلمية الفرنسية قد روّعت بالنجاح الجماهيري لمسمر ومعاونيه (كان مسمر قد انتقل ليعيش في باريس)، فقامت بتشكيل لجنتين بغرض اختبار التنويم المغناطيسي. واشتركت أكاديمية العلوم مع الأكاديمية الطبية في الرد على الادعاء القائل بأن هناك تأثيرًا عن بعد لنوع من المغناطيسية، بينما تركت تمامًا المداواة والظواهر الغريبة الأخرى المرتبطة بمسمر دون مناقشة.

وقد شارك في هذه اللجان أكبر الكيميائيين في ذلك العصر، لكن التنويم المغناطيسي أصبح أمرًا غير مرغوب فيه وبدأت ممارسته سرًا ليصبح موضوعًا للكتيبات التي تطبع للعمال، لقد شجبت التشريعات الرسمية التنويم المغناطيسي، وبذلك أصبح لكل قدراته على إنتاج ردود الأفعال الوجدانية العميقة في الجموع ـ أصبح وبحق له أن يكون قوة مضادة لهذه التشريعات.

التنويم والملكة فيكتوريا:

استمر استخدام التنويم المغناطيسي أحيانا، وربما يرجع ذلك جزئيا إلى أن الناس يصبحون منطلقين غير مقيدين داخل حلقة التنويم المغناطيسي.

لقد كان طريقة للتنفيس عمن لا سلطة لهم في المظاهرات التلقائية وأعمال العنف الثوري. وكان التنويم المغناطيسي هو المضاد للعقل، وبذلك أصبح عاملاً أساسيًا مدمرًا في نهاية عصر «العقل» (Age of reason).

وقد كتبت أليسون وينتر دراسة مماثلة لما كتبه وارنتون، لكن تطبيقًا على بريطانيا فيما بين الأعوام ١٨٣٧ و ١٨٦٢، وكانت ذروة الأحداث قد وقعت في العامين ١٨٤٥، ١٨٤٦. لم يكن هذا زمن عمليات إيسديل فقط، ولكن هناك انطباعا بأن نصف الأحداث المفعمة بالحيوية والتي وردت في هذا الكتاب قد وقعت خلال هذين العامين بالذات. لقد كان ذلك التاريخ الاجتماعي المبكر لبريطانيا الفيكتورية.

ماتت الملكة سنة ١٩٠١، غير أن التاريخ الذي تناولته وينتر عن المغناطيسية الحية كان قد تلاشى قبل ذلك بكثير. وتقول وينتر عارضة أحد آرائها: إن التيارات الاجتماعية للتنويم المغناطيسي في أواخر العهد الفيكتوري قد تحولت لتصير متداخلة في تجارب الظواهر الجديدة الخارقة مثل التخاطر والوساطة الروحية، وفي الحقيقة فإن الكلمة التي تشير إلى جلسة الوسيط الروحي «سيانس» Séance قد تحولت من معناها العادي لتصبح وفقًا على حلقة أو جلسة التنويم المغناطيسي.

وليس عندي أي فكرة عن المدى الذي وصلت إليه المغناطيسية الحية في أمة (يقصد الأمة البريطانية) كانت لفترة قصيرة من الزمن تتحكم في مجريات أمور العالم وتنتج تقريبًا كل الصلب في العالم وتستخرج معظم الفحم وتصنع نسبة كبيرة من الملابس، وتشكل ـ سواء حقيقة أو مجازًا ـ الصورة الغالبة للعصر، القاطرة البخارية، هذا عدا ارتباط بريطانيا ببقية العالم.

وتكتب أليسون وينتر عن الارتباط بين المغناطيسية الحية والنوم والأفيون وكارل ماركس وأفيون الشعوب، ويمكننا إضافة أكثر الأشياء سوءا في تاريخ الإمبراطورية البريطانية وهي حرب الأفيون عامي ١٨٤١و١٨٤٢، وفي اللحظة التي كان البريطانيون يقومون فيها بمحاولة جادة لإدارة شئون العالم بكل القلاقل والجيشان الداخلي الذي كان يزخر به، فإنهم عانوا من قلق شديد تجاه الطريقة غير العادية التي كان يمكن لأحد الناس أن يتحكم بها في آخر بشكل مرعب، وقد اعتقدوا أنهم كانوا يشهدون التأثير المباشر لعقل إنسان على بدن إنسان آخر، وصار التنويم المغناطيسي هو الميتافيزيقا للناس وارتبط بالراديكالية الشعبية في السياسة. (يمكن مقارنة ذلك بحماس العصر الحديث في الولايات المتحدة حيث تتشكل صورة العصر ـ الحاسب الشخصي).

وتظهر المغناطيسية الحية في كل الطبقات، وتستهل وينتر كتابها بقصة جين كارلايل «زوجة أحد السادة المحترمين» وهي في حفل شاي سنة ١٨٤٤ أثناء تعرضها لقوة أحد المنومين المغناطيسيين الذي ينتمي لطبقة اجتماعية أدنى منها، ☜

في الثمانينيات من القرن الثامن عشر كانت الصفوة العلمية الفرنسية قد روّعت بالنجاح الجماهيري لمسمر ومعاونيه (كان مسمر قد انتقل ليعيش في باريس)، فقامت بتشكيل لجنتين بغرض اختبار التنويم المغناطيسي

بينما تصارع سلطان عقله بعقلها حتى يحدث التعادل.

وقد أبدى الكثير من المشاهير اهتمامًا بالمغناطيسية الحية وبعضهم قد مارسها فعلا، وقد أوردت وينتر على صفحات كتابها أسماء مثل ديكنز وداروين وهكسلي وهيربرت سبنسر وجورج إيليوت وجون ستيوارت ميل وويلكى كولينز.

وصل التنويم المغناطيسى إلى لندن للمرة الثانية سنة ١٨٣٧، لأنه كان معروفًا بالطبع منذ الأيام الأولى لمسمر نفسه، أما فى فرنسا فعلى الرغم من الرفض الذى قوبلت به المغناطيسية الحية من قبل الصفوة، إلا أنها لم تنجح كحركة هدامة فقط، بل عادت للظهور بنشاط وحيوية فائقة سنة ١٨١٥، وتقول وينتر في كتابها إن علماء مشهورين مثل لابلاس وكوفيير قد صرحوا بأن ظاهرة المغناطيسية الحية ممكنة فى النهاية، وفى عام ١٨١٦ قام بعض العلماء التجريبيين - من بينهم البارون تشارلز ديبوتيه دى سينيفوى بإقناع الأكاديمية الطبية بتشكيل لجنة جديدة، وقد جاء تقرير هذه اللجنة إيجابيا. ومن الأشياء التى تركت انطباعا جيدا لدى اللجنة بالتحديد كان تقرير بعنوان «عملية بدون ألم» وهو عبارة عن عملية استئصال ثدى سرطانى من مدام بلانتين سنة ١٨٢٨ . وقد أعيدت صياغة الخبرة الفرنسية فى المغناطيسية الحية فى ذلك الوقت فى كتاب ضخم من جزءين كبيرين - بلغ حجمهما ١٢١٨ صفحة - للمؤلف برتراند ميهوست. وتتقارب الأفكار فى الجزء الثانى من تقرير ميهوست مع المشهد الختامى فى كتاب وينتر، وبالأخص ما يتعلق بتحويل المنومين المغناطيسيين إلى وسطاء روحيين.

أصبحت صورة التنويم المغناطيسى شيئا مجازيا، ومن أوائل الرسوم الكاريكاتورية التى ظهرت فى مجلة «بونش» Punch سنة ١٨٤١ رسم عنوانه «المغناطيسية الحية أو سير روبرت بيل ينوم الأسد البريطانى مغناطيسيا» - تشير بيل إلى سير روبرت بيل الذى أصبح رئيسا للوزراء للمرة الثانية سنة ١٨٤١ .

وهناك الكثير من مثل هذه الرسوم، ففى عام ١٨٤٣ ظهرت الملكة البريطانية الشابة فيكتوريا فى رسم كاريكاتورى وهى تحاول تنويم الملك الفرنسى لويس فيليب مغناطيسيا ليوقع على معاهدة فى صف مملكتها وضد مملكته بشدة. كان المفهوم المجازى للتنويم المغناطيسى واضحا للجميع.

غير أن هذا الزمن كان بالنسبة للأطباء والجراحين والصيادلة - الذين لم يكن فى مقدورهم جميعا تقديم الكثير من العلاج - بداية تنظيم أنفسهم على شكل صفوة من الخبراء. بالإضافة لذلك كانت مجموعات كاملة من الخبراء الجدد تقوم بتنظيم صفوفها فى جمعيات علمية مثل: الجغرافيون والإحصائيون وخبراء الأرصاد الجوية وعلماء الحيوان والنبات.

وقد تأسست الرابطة البريطانية لتقدم العلوم بأقسامها المتميزة لفروع العلوم المستقلة خلال الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وسرعان ما ارتبطت فى تعاون وثيق مع رجال الصناعة الجدد. أخذت الجامعات الجديدة تتأسس وهى أكثر حرفة بادئة بالكلية الجامعية فى لندن، والتى كان مقدرا لها أن تكون مركزا للكثير من محاولات التنويم المغناطيسى.

وقد تمت صياغة المصطلح «عالم» Scientist بواسطة عالم اللغة الموسوعى وليم هيويل سنة ١٨٣٤ . نفر واشمأز هؤلاء الناس عندما شاهدوا الدجل والخرافات فى سلوك المنومين المغناطيسيين الرّحل، كانوا كذلك متخوفين من سيطرة بعض الناس على البعض الآخر وعازفين عن تداخل العقل والجسم بالشكل الغامض الذى شاهدوه. وكانوا على وجه الخصوص لا يرغبون أبدا فى إمكانية حدوث فيض حيوى من الناس الأدنى فى الطبقات الاجتماعية يؤدى إلى التأثير فى عقول وأبدان الطبقات الأرفع.

لم يكن الوضع تماما كما لو كان العلم فى جانب يواجهه العلم الكاذب فى الجانب الآخر. المثير أن ذلك الموضوع كان محورا للكتاب الذى أصدره برتراند ميهوست، وليس هناك ما يدعو للاعتقاد بأن أيا من المؤلفين قد سمع بكتاب الآخر. لكن من الواضح أنهما يشتركان فى الدافع المعاصر لهما لإيجاد الكيفية التى أصبح بها العلم هو مجموعة القوانين والمعاهد وهيكل من الخبرات قادر على تعريف صميم طبيعة المعلومات.

ولدى وينتر الكثير لتقوله عن القوة فى هذا الكتاب، فالمنوِّمون المغناطيسيون كانوا فى الأغلب رجالا، بينما كان من يتعرضون لهذه العملية (المنوَّمين) من النساء غالبا. وهنا يكمن تفاعل معقد، لأن الغالبية العظمى من المنوَّمين كانوا من فئات اجتماعية متواضعة على الرغم من وجود بعض كبار ملاّك الأراضى والأطباء والجراحين والمحامين ورجال الدين ضمن من يقومون بمحاولات التنويم المغناطيسى وينجحون أحيانا، لكنهم فى معظم الأحيان كانوا يوظفون لذلك منوِّمين مغناطيسيين.

ويُعَدُّ الألم إحدى المعضلات الصغرى التى تناولها كتاب وينتر. وهى - أى وينتر - تحاول البرهنة على أن التخدير قد غيّر من إحساسنا بالألم، بل وغيّر حتى فى معنى الألم. وفوق ذلك فإن النقطة الأصلية تماما عند وينتر هى أن التنويم المغناطيسى قد لعب دوراً أساسياً فى هذا التحول. والقصة النموذجية هنا هى قصة طبيب الأسنان وليم مورتون من مدينة بوسطن الأمريكية، فقد كان رائداً فى استخدام الأثير عام ١٨٤٦ فى عمليات جراحية صغرى للفك متبوعة بخلع الأسنان. وفى الحقيقة فإن زميله هوراس ويلز، كان يحاول لبعض الوقت التخدير بالتنويم المغناطيسى، لكنه لم يتمكن من تنويم أحد، ناهيك عن خلع أى سن بدون ألم. فبدأ يستخدم أكسيد النيتروز (الغاز الضاحك) مجرباً ذلك على نفسه أولا عام ١٨٤٥، الأمر الذى كلل بنجاح باهر. وعلى الفور قام بإعلان ذلك فى محاضرة عامة قائلاً: «عصر جديد لخلع الأسنان قد بدأ».

وما زلنا إلى اليوم نعانى من مواقف جدّ غريبة فى علاقتنا بالألم، وأفضل ما يصور تلك المواقف ما حدث بالنسبة للماريجوانا (الحشيش) فى ولاية كاليفورنيا، فقد صوّت المواطنون فى تلك الولاية لصالح تقنين استعمال الماريجوانا بناء على وصفة طبية، لذلك لتسكين آلام أمراض الشيخوخة مثل التهاب المفاصل ولمناهضة التأثيرات الجانبية للأدوية القوية المستخدمة فى علاج الإيدز (مرض نقص المناعة المكتسبة).

هل انتــــهى عــــصــــر التنويم المغناطيـــسى؟

لا يستدعى الأمر أن ننظر خلفنا تجاه الفيكتوريين بيقين تام لأننا قد تخلصنا من الألم ومعاناته، لكننا نزعم علي الأقل أننا نملك التحكم فى الألم تحت الظروف المواتية، فحتى الشراب الكحولى القوى أو الأفيون لم يكونا ضمن الخيارات المطروحة حتى سنة ١٨٤٥، وتذكر وينتر أن الطبيب لم يكن يعنى كثيرًا بإيقاف الألم عند المرض، ولم يبدأ الأطباء فى تجربة واستخدام أكسيد النيترور والأثير إلا تحت تهديد التنويم المغناطيسى كمخدر.

كان فى مقدور وينتر أن تقوى من ادعائها بأن الطب لم يكن يهتم بآلام المرضى، وذلك بذكر ما حدث سنة ١٨٠٠، حيث كان أعظم العلماء البريطانيين سير همفرى ديفى يجرى تجاربه علي الغاز الضاحك في محاولة لتخفيف بعض الآلام الموضعية، فقد كتب يقول: «يبدو أن أكسيد النيتروز قادر علي القضاء على الآلام الحسية، لذلك يمكن استخدامه نظرًا لهذه الميزة في العمليات الجراحية التى لا يصاحبها فقد الدم بكميات كبيرة».

كما أن وينتر لم تذكر أن فاراداى، الذى كان مقدرًا له أن يصبح شخصية عامة مثل ديفى، قد بين أن للأثير تأثيرا مماثلا وذلك سنة ١٨١٨، ولم يعط الجراحون هذا الأمر أى اهتمام، وظلت هذه الغازات تستخدم كمواد منعشة أو ترفيهية.

(تورد وينتر بعض الرسوم من حفلات الطلاب) فقط عندما بدأ التنويم المغناطيسى كمخدر ينتشر أكثر فأكثر، تحول الأطباء إلى التخدير الكيميائى: أكسيد النيتروز والأثير والكلوروفورم الذى استخدمه لأول مرة سنة ١٨٤٧، وبذلك فإن وينتر تحاول البرهنة على أن استخدام التخدير أخذ يتنامى لأن الأطباء أرادوا أن يبعدوا المنوِّمين المغناطيسيين عن الطب وليس بدافع ذاتى للتحكم (لتخفيف) في الألم.

والنقطة التالية التى تعرض لها وينتر هى أنه لم يكن للأثير أو الكلوروفورم تاريخ أفضل من التنويم المغناطيسى، ولم يستبعد التنويم المغناطيسي من الجراحة لأنه كان أقل فاعلية. وفقط مع التوصل إلى جهاز استنشاق الأثير سنة ١٨٧٦ أصبح الأثير نسبيًا آمنًا، ثم حل محل الكلوروفورم فى عمليات جراحية كثيرة، وقد قبل الكلوروفورم عددًا قليلاً من الناس، وحتى نتمكن من إصدار حكم حول ما حدث بالضبط، فإننا نحتاج بالطبع إلى معلومات عن أمرين، فعالية طريقة التخدير المستعملة ومعدل النجاة بالنسبة للمرضى بعد الجراحة، ولا تستطيع وينتر أن تمدنا بمقاييس حاسمة لأى من هذين الأمرين، لكنها تلقى بشكوك حادة حول تاريخ التخدير.

ما الذى حدث للتنويم المغناطيسى؟ هل غُلب علي أمره ببساطة من قبل العملية (المذهب العلمى) الجديدة؟

وهل أهمل نتيجة ظهور الأثير والكلوروفورم ليحل محله فى أعظم تطبيقاته وهو التخدير؟ وبلا شك، لا يوجد سبب وحيد مسئول عن ذلك الأمر، ويحاول جوناثان ميلر أن يثبت أن الانتقال إلى التنويم الإيحائى لبريد كان نقطة حرجة وإن هناك طريقًا لا شك فيها تربط مباشرة بين إيحاء بريد والعلم المعرفى الحديث، وعلى وجه التحديد فى تعريف الجهاز العصبى المستقل، وتتبع كل من وينتر وميهوسب مسارات مختلفة.

وقد ذهب التنويم المغناطيسى إلى عالم آخر، عالم مأهول بالأرواح التى جاءت على شكل خبطات في منتصف القرن، ثم أخذت تقلب الموائد وتحل فى الأكورديونات الطائرة والوسطاء والمستبصرين (الذين يبصرون الغيب) والمتخاطرين (الذين يتخاطبون عن بعد) وفى قصص العودة إلى الحياة بعد الموت، وهناك العديد من الأدلة المحددة علي هذا الاتجاه فى الانحدار، وقد لجأت بعض المظاهر المزعومة للمغناطيسية الحية إلى الروحانية، فقد كان الاستبصار أحد أشكال عروض التنويم المغناطيسى النموذجية، وقد ظلت تستخدم نفس الكلمة للدلالة علي مقدرة الوسطاء علي رؤية ما حدث وما سوف يحدث دون استخدام عيونهم، وقد أصرت وأكدت الترتيبات الاجتماعية على إطلاق كلمة «جلسة» علي أمسية يتحاور فيها الوسطاء مع الموتى. ■

فى عام ١٨٤٣ ظهرت الملكة البريطانية الشابة فيكتوريا فى رسم كاريكاتورى وهى تحاول تنويم الملك الفرنسى لويس فيليب مغناطيسيا ليوقع على معاهدة فى صف مملكتها وضد مملكته بشدة. كان المفهوم المجازى للتنـــويم المغناطيسى واضحـــا للجميـــع

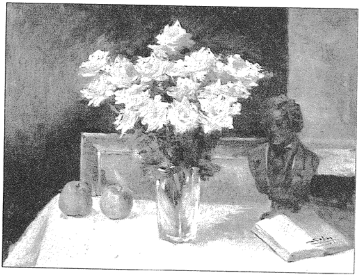
بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: د. فتح الله الشيخ



صـــبــــرى راغــــب

رحيـــل «مايسترو» البورتريه والـورود



مـــجـــدى يوســـف

■ ■ من مآسي هذا الزمان أن نرى ذلك اللهاث وراء آخر الموضات الغربية فى ميادين الفنون التشكيلية، وقد تبنتها الدولة وأغدقت عليها باسم «التحديث»، مما جعل الكثيرين من أنصاف وأرباع المواهب يقبلون على صنع ما يدعى الأعمال الفنية «المركبة»، أو «التجهيزات الفراغية» التى تجمع خليطًا عشوائيا من المرئيات، والمسموعات، والمتحركات والساكنات قد تكون ذات دلالة نقدية بإزاء تراث الفن فى مجتمعاتها الأصلية، ولكنها تصبح تقليدًا هزيلاً خاليًا من المعنى فى ثقافتنا الاجتماعية.

كان صبرى راغب (٣ ديسمبر ١٩٢٠-٢٢ يوليو ٢٠٠٠)، آخر الكبار فى ميدان التصوير، شديد النقد لهذا الزيف الذى عم حياتنا الفنية، وأصبح يتهددها بالانهيار والفناء فلم ينله شىء من أريحية جوائز الدولة التى صارت تغدق على هؤلاء الصغار.

لم يكن صبرى راغب معاديا للتجريد فى فن التصوير بصورة مطلقة، إذ كانت لوحاته خاصة فى المرحلة الأخيرة من حياته الفنية تنطق بهذا التجريد: تجريد تفاصيل وجه وأحيانًا جسد الموديل فى محاولة لتقديم «صورة» لإحساس الفنان ورؤيته له.. ولعل ذلك يبرز من بين ما يبرز فى لوحته التى رسمها لتوفيق الحكيم الذى أطلق عليه عبارة تشير إلى قاموس كاتبنا المسرحى الكبير: «مصور الروح».

ولعل صبرى راغب لم يبدأ حياته الفنية - كما يفعل الصغار المحتفى بهم الآن - بهذا التجريد الذى ختم به رحلة نضجه الفنى، وإنما بدأ أكاديميا محاكيا للموضوعات الخارجية التى يصورها، دارسًا مدققًا لمبادئ التشريح وأصول التكوين ومزج الألوان وأطيافها، حتى أن إحدى لوحات شبابه الباكر التى ما زالت تتصدر حائط منزله تصورد فى العشرينيات من عمرد وفى إحدى يديه جمجمة، كان يتصور آنذاك أن به مرضًا عضالا سيودى بحياته وهو فى تلك السن الغضة، فرسم نفسه فى هذا البورتريه الذى يخيم عليه اللون الرمادى الحزين، إلا أنه ما كان ليستعين - أصلاً - بتلك الجمجمة لتصوير حالته النفسية فى تلك الفترة - أوائل الأربعينيات - إلا لأن الحصول على الهياكل العظمية للموتى كان متاحًا، وبقروش زهيدة آنذاك، لدارسى التشريح من طلبة الطب والفنون التشكيلية.

البدايات (التى لا يعرفها أحد حتى الآن!)

بينما كان صبرى فى منتصف الثلاثينيات من القرن الماضى يستذكر دروسه أمام نافذة مفتوحة، وهو فى الخامسة عشرة من عمره، إذ بريشة تسقط من حمامة طائرة لتستقر فوق منضدة مذاكرته، فراح يرسمها من تلقاء نفسه على الورق مستخدما الحبر الأسود الذى كان يغمس فيه ريشته التى يكتب بها، ليلون صورة لريشة الحمام بمختلف درجات وأطياف الأسود ما بين فاتح وداكن ورمادى، وراح يعرض لوحته هذه على والده فخورًا بها، ففرح الوالد لمهارة ابنه، واستشار قريبًا له كان موجهًا للتربية الفنية بوزارة المعارف العمومية فأثنى عليها وأهدى صبرى علبة ألوان مائية ليشجعه على ممارسة هوايته، وهكذا ما أن حصل الفتى على شهادة التوجيهية حتى أصبح مصيره معروفًا: إلى مدرسة الفنون الجميلة، وعلى الرغم من معارضة أخواله لهذا الاختيار، فقد وقف والده إلى جانبه متحمسًا لموهبته ومدافعًا عنها. وهنا أفتح قوسًا لأسرد حدثًا مقارنًا، قصه على الدكتور حسين فوزى، صاحب السندباديات المعروف،فى هايدلبرج بألمانيا عام ١٩٧٣، حيث جاء يحاضر طلبة الدراسات العربية فى جامعة تلك المدينة الجميلة فى كتابه «سندباد مصرى» بناء على اقتراح منى لاستضافته من جانب الجامعة، قص علىّ الدكتور حسين أنه بينما كان يقطن فى طفولته حارة الوطاويط بالغورية عثر على ورقة بيضاء من أوراق والده الذى كان مهندسًا بالمساحة، فراح يخط عليها صورة فرح بها واصطحبها معه إلى المدرسة ليعرضها على مدرسه فى الفصل وهو فخور بها، فإذا بالمدرس يقول له متهكمًا: «عال، عظيم قوى» وراح يمزق رسمه إربًا، قال لى حسين فوزى وهو يقص علىّ هذه القصة أنه كان يشعر بنفس الألم الذى شعر به وهو طفل فى السابعة من عمره، بينما أصبح شيخا فى الثالثة والسبعين وهو يرويها علىّ (فهو من مواليد ١٩٠٠ كالمهندس حسن فتحى).

ومن يدرى لو أن المدرس شجعه وأثنى عليه كما حدث لصبرى راغب ربما أصبح فنانًا كبيرًا بمثل ما صار واحدًا من أروع كتابنا.. (وهنا أقفل القوس الذى ما فتحته إلا لألقى مزيدًا من الضوء على موضوعنا الأصلى).

فى مدرسة الفنون الجميلة تتلمذ صبرى راغب على أحمد صبرى فى قسم التصوير، وتأثر بأستاذه غاية ما يكون التأثر، فقد ظل على مدى سنوات طويلة يضرب المثل بلوحة «الراهبة» لأحمد صبرى، ولعل اهتمامه الشديد بهذه اللوحة كان يعكس نزعة صوفية غائرة فى ذاته، وتطلعًا مثاليًا بالغ الشاعرية صرنا نراه فى إيقاع متنامٍ فى لوحاته على مدى حياته الفنية، وفى توتر مستمر مع أدائه التصويرى الأكاديمى الذى تعلمه على يد أحمد صبرى.

بعد أن أتقن صبرى راغب أدواته وهو يحاكى كبار الفنانين الذين استهووه، وعلى رأسهم «رينوار» و«رمبرانت»، صار يبهر مشاهدى لوحاته بمهارته الشعرية العالية فى تصوير الضوء والظل على وجوه وأجساد حسناواته وصدورهن المكشوفة.. فقد صار يعرف وهو مغمض أو يكاد.. موطأ عجينة البياض الناصع أو «الكرمزون» الشفاف، ليستثير فى لمسات سريعة وامضة إحساسًا غامرًا بالمتعة لدى المتلقى.

ولكن وراء هذه المهارة «الڤرتووزو» المبهرة دأبًا وجلدًا لعقود من الدرس والبحث والتعلم الجاد، ومع ذلك فما يميز صبرى راغب عن زملائه من جيل الكبار فى مجال التصوير، هو تلك الحمية المثالية شديدة الشاعرية فى أدائه الفنى التى لا











صبري راغب

أجد لها صنوا أشد ما يكون قربًا منها إلا تلك التى تميز بها المايسترو الألمانى الشهير «هربرت فون كارايان» فى قيادته لفرقة برلين السيمفونية،كانت عصا «كارايان» فى قيادته للأوركسترا تذكرنى دائمًا بريشة صبرى، وهو يعزف بها فى فوران وتدفق هادر على سطح التوال، حتى دعاه البعض مصورًا «أرستقراطيًا» فى تناوله لفرشاته ومزجه لألوانه، وإن كان لقب «الأرستقراطية» ـ فى الواقع ـ لصيقًا بـ «كارايان»، إذ يرمز إليه بكلمة «فون» السابقة لاسمه، والتى تعنى بالألمانية النسب إلى أسرة إقطاعية، أما صبرى راغب فلم يكن ذا حسب أو نسب، وإن كان قد ظل على مدى حياته كلها يهفو إلى تصوير الرؤساء، والوزراء، وكبار الكتاب، والنساء المنعمات.. وقد استهوى أداؤه الفنى المثالى ـ أيضًا فى تجميله للواقع، حتى أن قال عن نفسه مرة «لو رسمت شغالة لجعلت منها أميرة!» ـ كان يستهوى أداؤه المثالى هذا أفئدة الطبقة السائدة فى المجتمع التى آمنت به أفضل مصور لها ـ ولولا اصطدامه بفجاجة أدعياء الحداثة فى التوجه الرسمى للفنون التشكيلية فى مصرنا، لما حجبت عنه أكبر جوائز الدولة: تلك التى تحمل اسم «مبارك»، مثلما برع صبرى راغب فى رسم «علية القوم» متخذًا منهم موضوعاته الأثيرة على مدى العقود الأربعة الأخيرة من عمره الفنى الذى يزيد على الستين عامًا، فقد تخصص بالمثل فى تصوير الورود، ولكنه أبدا لم يصورها فى الطبيعة الغنَّاء كأستاذه «رينوار» وإنما فى الأوانى والزهريات، ومع ذلك فتلقائية لمساته طالما أضفت عليها روحًا من البهجة الشاعرية، وكأنها «نؤوم الضحى» كأصحابها، منتشية تكاد أن تتمطى فى نعومة وهى مترعة بالجمال فى أوانيها.

رحل عنا آخر كبار مصورى البورتريه والزهور فى عالمنا العربى بعد أن ملأ حياتنا الفنية بروحه المثالية وشاعريته الطاغية.

كان صبرى راغب يردد دائمًا: سوف يعرف الناس قدرى بعد أن أغادرهم، فهل عرفوا الآن قدره؟ ■





رسم من القرن السادس عشر.. هكذا كان الأوروبيون يتصورون سكان أمريكا الأصليين، مخلوقات غريبة بلا رؤوس وعيونهم فى أكتافهم

ما قبل الاستشراق

ديفيد بلانكس

في أواخر القرن السادس عشر، ألقت محاكم التفتيش القبض على طحان من منطقة جبلية شمال غربى البندقية وأحرقوه على الخازوق. فماذا كانت جريمته التى استحق عليها ذلك؟ كان يكثر من القراءة. أو بالأحرى، لقد قرأ أشياء خاطئة وتوصل إلى نتائج خاطئة. ويبدو أن ذلك الطحان، واسمه مينوكيو، كان قد حصل على نسخة من « *The Travels of Sir John Mandeville* رحلات السير جون مانديفيل»، وهى رواية شعبية عن مغامرات رجل إنجليزى زعموا أنه قام برحلات فى الشرق الأوسط والهند والصين فى منتصف القرن الرابع عشر. وكان هناك الكثير من مثل هذه الروايات التى كانوا يتداولونها فى أوروبا، وأشهرها رواية ماركو بولو، إلا أن «رحلات مانديفيل» هى التى وقعت فى يده، وعندما قرأها وقع هو فى المشاكل: ذلك أن مينوكيو كان يأخذ الأفكار والدين مأخذاً شديد الجد.

وكانت المشكلة هى أن مينوكيو نشأ فى عالم ملىء بسوء الفهم والكراهية، حيث كان الكثير من الأوروبيين يدينون أصحاب العقائد المختلفة، على اعتبار أن الاختلاف أمر سيئ وأن أى إنسان لا يفكر ولا يعمل ولا يلبس كما يفكرون هم ويعملون ويلبسون فهو زنديق أو بلا أخلاق أو الاثنان معاً. وقد علموا مينوكيو أن الشرق موضع للشر، وأن المسلمين وثنيون يتسمون بالخسة، وأن هناك سبيلاً واحداً للخلاص، وأن من لم يتبعوه سيكون مصيرهم السعير الأبدى. وخلاصة القول هى أنه ورث أحكام عصره المسبقة.

ولكن مينوكيو كان يعانى لأنهم علموه كذلك أن يحب الرب وأن يحب جاره. فما الذى جعله يستغرب التعهدات الخطيرة فى أى مجتمع الأولوية فيه للتماثل، وتمضى فيه الافتراضات دون تمحيص، والفرق فيه ضئيل بين المنشق والخائن والزنديق، ويشك فيها؟. لقد اضطرب مينوكيو عندما قرأ فى «رحلات مانديفيل» أن المسلمين أناس متدينون ومخلصون للقانون، ويحافظون على تعاليم القرآن الذى بعث به الله إليهم عن طريق رسوله محمد. فقد اضطر لمواجهة ما ورثه من أحكامه المسبقة. وعندما قرأ أن هناك العديد من العقائد والديانات فى العالم، وأن «الرب يحب دائماً من يحبه بحق ويخدمه بخضوع وصدق»، لم يمكنه أن يمنع نفسه من إعادة النظر فى آراء مجتمعه الجامدة.

وكانت نتيجة ذلك أنه عندما سأل أعضاء محكمة التفتيش الطحان عن رأيه فى الاختلاف الدينى، كان ما رد به بأمانة وحماقة هو أنه مسيحى لأنه ولد لأبوين مسيحيين فى بلاد مسيحية، وأنه كان يمكن ببساطة أن يولد تركياً وكان سيفهم لماذا يرغب التركى فى أن يظل تركياً. وما كان يهمه هو أن هناك ما يكفى من الأماكن فى بيت الرب لكل إنسان. وهكذا حرقوه.

هل تقولون إن هذا ليس مستغرباً؟ ربما لا يكون مستغرباً: فإن أوروبا لها تاريخ فى الكراهية والعنف وعدم التسامح. وكان هناك كثيرون فى غرب ما قبل الحداثة لديهم الاستعداد لأن يتخذوا قراراً بشأن الإسلام والشرق.

وفى رسالة تعود إلى سنة ١٥٣١ تم تداولها فيما بين المصلحين الدينيين فى

ألمانيا وشمال أوروبا، حث سيباستيان فرانك ـ وكان أحد زعماء الحركة الروحية ـ أتباعه على معاملة المسلمين وغيرهم من غير المسلمين على أنهم إخوة. وكان سيباستيان يعتقد أن هؤلاء المطيعين للكلمة الباطنية سينجون بغض النظر عن المكان الذى يعيشون فيه. وقد كتب يقول:

«ذلك أن الرب لا يحابى الأشخاص، وإنما هو لليونانيين كما هو للبرابرة والترك، وللسيد والخادم، ما داموا يحافظون على النور الذى يضىء فوقهم وينيرون قلوبهم بالضياء الباطنى». فقد كان الترتيب الربانى يستهدف عتق البشر كافة وخلاصهم. وكان يقول «كل الناس سواء»، كما قال إنه ما من أحد له الحق فى مراقبة آراء أى إنسان سواه.

ولكن ليس هناك من ينكر حقيقة أن هذا هو عصر مطاردة الساحرات(١)(ومحاكم التفتيش ـ وعصر حروب لم تتوقف بين المسيحية والإسلام. وكان فرانك وأتباعه يُضطهدون، وكانت أصوات منشقة أخرى يتم إسكاتها. فماذا يهم إن نحن وجدنا بعض الأفراد المتسامحين فى عالم غير متسامح؟ إذا كان لا أهمية لذلك فى الماضى، فهو يهم فى وقتنا الراهن. وإذا كنا مهتمين بشأن الاستعمار والعنصرية، ونرغب فى مجابهة الأنماط المقلوبة السلبية الخاصة بالعالم العربى التى تقدم فى الإعلام الغربى، وإذا كنا نأمل فى تحسين التفاهم بين الثقافات واستعادة مكان للشرق فى مسيرة التاريخ العالمى، فمن المفيد لنا أن نفهم السياقات التى ظهرت فيها تلك الأنماط المقولبة والقوى التى أدت إلى تكوينها. وعلى أى الأحوال، فإن هذا هو السبب فى اهتمامنا بخطاب الاستشراق. ومحاولة فهم ما كان قائماً قبل الاستشراق تخدم الغرض ذاته.

وفى كتاب Trading Territories: Mapping the Early Modern World (London: Reaction Books, 1997) يوضح جيرى بروتون أن «الدول ذات السيادة والدول المدن فى أوروبا باكرة الحداثة لم تكن من القوة السياسية ولا الترابط الدبلوماسى بحيث تشكل تخويفاً دائماً وثابتاً للدولة العثمانية» (ص ١٠٧). ولم تكن الحدود بين الشرق والغرب قد استقرت بعد استقراراً واضحاً. وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن أول جغرافى غربى يجسد كتاب بطليموس «الجغرافيا» (وكان قد ترجم حديثاً من العربية) فى هيئة مجموعة من الخرائط المطبوعة كان رجلاً بندقياً لم يهد كتابه إلى الدوج(٢) (أو غيره من الحكام الإيطاليين، وإنما إلى محمد العثمانى، «الأمير النابه وسيد عرش الرب، إمبراطور سائر آسيا وبلاد اليونان وسيدها الرحيم». وكانت الحدود بين الثقافات ـ سواء أكانت خيالية أم غير ذلك ـ أكثر مرونة مما قد نتصوره. فقد كان الصناع البندقيون يعملون فى اسطنبول؛ وكان التجار من إيطاليا وقطالونيا يتاجرون مع طرابلس وتونس واسطنبول؛ وكان باحثو الإنسانيات يدرسون القاهرة وبغداد والإسكندرية؛ وكان القراصنة من كل أمة يصطادون ضحاياهم فى غرب البحر المتوسط: فبغض النظر عن بيانات البابوات وكتّاب الكراسات المناوئة للإسلام، لم تكن هناك حدود ثابتة بين الشرق والغرب، لا فى الأذهان ولا على أرض الواقع. وفى الوقت الراهن لا يمكن لأى محلل سياسى

كان الكثير من الأوروبيين يدينون أصحاب العقائد المختلفة، على اعتبار أن الاختلاف أمر سيء وأن أى إنسان لا يفكر ولا يعمل ولا يلبس كما يفكرون هم ويعملون ويلبسون فهو زنديق أو بلا أخلاق أو الاثنان معاً

مرموق أن يخطئ الخطاب الدبلوماسى المعاصر الخاص بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية للحياة اليومية؛ إلا أننا كثيراً ما نقع فى الخطأ عند حديثنا عن الماضى. فقد كان هناك خطاب خوف وارتياب، إلا أنه كان يخفى وراءه واقعاً يومياً أكثر مرونة وتعقيداً.

وتصور رسالة تتعلق ببايزيد الثانى كتبها تاجر إيطالى إلى زملائه فى فلورنسا سنة ١٥٠٢ الطبيعة الغامضة لعلاقات الشرق والغرب قبل حقبة الاستعمار:

«أبدى السلطان اهتماماً كبيراً بنا ... وبكل أعمالنا، كما أنه يبدى كذلك إعجاباً شديداً بأمتنا كافة، وقبل أن أنهى رسالتى هذه، سوف أحكى لك عن طيبة القلب التى أبداها، وما زال يبديها على الدوام نحو التجار الموتى والمفلسين: حتى أن المرء يمكنه أن يرى أنه يرغب فى أن نحظى بالاحترام والتقدير فى سائر ملكه. بارك الرب فيه».

ولا يبدو هذا بالمرة مثل صورة «التركى قاسى القلب والشهوانى» التى بتنا نتوقعها.

وأرسل إيطالى آخر، وهو سيجيسموندو مالاتيستا، سيد ريمينى، هدية إلى محمد الفاتح عبارة عن كتاب مصور عن الأسلحة والتكتيكات، إلى جانب خرائط مفصلة لإيطاليا والبلقان، وتضمن معلومات مهمة بالنسبة للتقدم العثمانى. ويبين بروتون أن العثمانيين والإيطاليين كانوا يستخدمون هذه الخرائط لتكوين مفاهيم عن المواقف الدبلوماسية والعسكرية التى تتغير بسرعة. وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان ذلك مثالاً تقليدياً لاستيعاب الشرق لما يقدمه الغرب ثم يعكسه على ثقافته هو، إلا أن ترابط القوة والمعرفة كانت مختلفة قبل بداية الإمبريالية الغربية. ويبين بروتون أنه فى الوقت الذى أوجدت فيه خطابات ما بعد التنوير الازدرائية الخاصة بالاستشراق فكرة الشرق فى الخيال السياسى والفكرى الغربى على أنه يبدأ فى مكان ما حول اسطنبول، فإن التبادل التجارى والدبلوماسى والفكرى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر يبرز حقيقة أنه لم يكن هناك وجود لمثل هذا التمييز فى أذهان المعاصرين.

والخرائط مورد لم يُستفد منه الاستفادة التامة ولكن يمكنه أن يروى لنا الكثير عن المواقف الغربية تجاه العالم غير الغربى؛ ولكن لا بد أن نتذكر أنه قبل القرن السادس عشر لم تكن خطوط الطول ودوائر العرض قد وضعت بعد بطريقة يمكن الاستفادة بها -- ولذلك لم تكن الخرائط تهتم كثيراً بالاتجاهات أو خطوط السير، ولم تكن مفيدة كثيراً فيما يتعلق بتخطيط رحلة من الرحلات. وهى بدلاً من ذلك كان تعطى دروساً أخلاقية ودينية. ففى أعقاب الحروب الصليبية، وضع رسامو الخرائط القدس فى منتصف الأرض، والفردوس الأرضى فى الشرق، فى موضع أبعد ما يكون عن أوروبا الآثمة. وكما هو حال الأوصاف السردية الخاصة بالأرض المقدسة التى كانت تكتب فى تلك الفترة ذاتها، كانت الخرائط تصف الأحداث التوراتية المهمة وتصورها دون تحديد مواقعها على وجه الدقة. وإذا أتيحت لأحد فرصة دراسة إحداها، فلن يعرف وحسب أن القدس كانت فى منتصف الأرض، بل كذلك أن المناطق الموجودة داخل الأرض المقدسة وحولها يسكنها المسلمون، وأن وراءهم الوثنيين، وأن بريستر جون(٣)(وبلاد يأجوج ومأجوج كانت لا تزال أبعد من ذلك، وأنه كانت هناك أجناس متوحشة على حافة العالم المعروف.

وهنا نلمح بوادر الاستشراق. فالأجناس المتوحشة كانت مخلوقات خيالية تماماً، ولكن الناس فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر كانوا يعتقدون أنها حقيقية - بنفس الطريقة التى يعتقد بها الناس الآن فى الأطباق الطائرة وسكان الفضاء الخارجى. وهكذا كانت هناك أخبار عن جنس خجول له آذان ضخمة كآذان الفيلة يمكنهم استخدامها فى الطيران عندما يصيبهم الخوف. وكان هناك قوم لهم رؤوس كلاب وقوم بلا رؤوس ولكن وجوههم فى صدورهم. وكان هناك جنس له عين واحدة وجنس آخر الواحد منهم نصفه رجل ونصفه الآخر امرأة. ومن أشهر هذه الجماعات قوم ذوو ساق واحدة وكانوا يناموون على ظهورهم ويقون أنفسهم من الشمس بقدمهم العملاقة الوحيدة. فى البداية، وضع رسامو الخرائط الأجناس المتوحشة فى الهند والصين وخرج المستكشفون للبحث عنهم.

ولا بد أن آمالهم خابت. وعندما أخذت أخبار النتائج السلبية لبحثهم ترد شيئاً فشيئاً إلى أوروبا، رد صانعو الخرائط على ذلك بوضع الأجناس المتوحشة فى أقصى أطراف الأرض. وبذلك أمكن تفسير وحشيتهم وسلوكهم غير الأخلاقى (المفترض): علمياً - على أنه بفعل المناخ؛ ولاهوتياً - على أنه بفعل بعدهم عن القدس وعن الخلاص. وبذلك كان يتم تلك الشعوب الشرقية، بالمعنى الحرفى للكلمة، عن طريق دفعهم من المركز إلى الهامش، وعن طريق توصيفهم من خلال أنماط مركزية إثنية مقولبة وافتراضات تتعارض مع أى اتصال حقيقى أو معلومات صحيحة. إلا أن المكون الاستعمارى لم يكن قد وجد بعد؛ ولذلك لم يكن ذلك هو الاستشراق فى ثوبه الحديث. وعلى أى الأحوال، كانت هناك دائما قلة من الأوروبيين مثل مينوكيو وسيباستيان فرانك تؤمن بأن كل مخلوقات الرب يمكنها الخلاص. وتصور خريطة ابيستورف الشهيرة، المرسومة على جدران إحدى كنائس القرن الثالث عشر، عالماً يحتضنه المسيح، رأسه فى القمة وقدماه ملتصقتان بالقاع، وذراعاه ملفوفتان حول الحواف. وقد جمعت الشعوب المتوحشة فى يده اليسرى بطريقة فيها حماية لها.

ولكن ماذا عن صور الشعوب غير الغربية الأخرى؟ إننا نتحدث حتى الآن عن رجال الدين والعلماء والتجار والرحالة، غير أن الأدب القصصى والفنون تشكل المكون الرئيسى من الخطاب الاستشراقى. وماذا عن السلاطين الطغاة والجشعين، وقصور المتعة التى تتسم بالبذخ، والراقصات المثيرات للشهوة، والثروة، والانغماس فى الملذات وسائر الأنماط السلبية والخيالية المقولبة التى يوظفها الغربيون لتصوير الشرق؟

يمكننا بلا شك العثور عليها فى القرن السابع عشر. فما «عطيل» لشكسبير و«تيمورلنك» لمارلو و«بيجازيه» لراسين إلا أشهر نماذج تراث مسرحى أوروبى صور الشرق على أنه غامض وساحر ومظلم وخطير. وفى «A Christian Turned Turk مسيحى يصير تركياً» لروبرت دابورن، نجد أن الشخصية الرئيسية فيها قرصان إنجليزى يسرق ويقتل ويعتنق الإسلام. وعقاباً له على ذلك يخونه أصدقاؤه المسلمون المخادعون وتحطم قلبه زوجته المسلمة الجذابة ولكنها مخادعة. وفى « The Renegado المتمرد» لفيليب ماسنجر، تغوى أميرة مسلمة جميلة وثرية وشرهة الرجال المسيحيين إلى مخدعها، ويجبر أمير مسلم قاسى وشبق النسوة المسيحيات على دخول مخدعه. غير أنه بينما ينتهى الحال بالقرصان فى مسرحية دابورن بالانتحار، فإن متمرد ماسنجر ينكر الإسلام وينقذ السيدة. وكان الدرس واضحاً فى الحالتين بالنسبة لرواد المسرح فى لندن.

وخلال تلك الفترة كان الإسلام يصور فى الأغانى والقصائد والكراسات والمسرحيات على أنه شر، وكان العرب والترك يصورون على أنهم شخصيات

بغض النظر عن بيانات البابوات وكتاب الكراسات المناوئة للإسلام، لم تكن هناك حدود ثابتة بين الشرق والغرب، لا فى الأذهان ولا على أرض الواقع.. كان هناك خوف وارتياب، إلا أنه كان يخفى وراءه واقعاً يومياً أكثر مرونة وتعقيداً

ما قبل الاستشراق



مضحكة. ولكن ذلك مرجعه إلى أن الغرب كان يشعر بالتهديد! وكان الكتّاب يدفعون الأذى ويحاولون السيطرة على أعدائهم وهزيمتهم من خلال السخرية والإساءة - وهذه هي النقطة التي بدأ من عندها الاستشراق - كما نعرفه - البداية الحقيقية. وخلال تلك السنوات ذاتها بدأ الباحثون الجادون دراسة اللغات والثقافة الشرقية، وازدادت البعثات الدبلوماسية، وجرى التفاوض بشأن الاتفاقات التجارية، وتكونت المنظمات التجارية مثل شركة الهند الشرقية وشركة الشرق الأدنى. وخلقت الشركتان معاً ظروفاً لخطاب الاستشراق الذي نراه يبرز. وفي الأدبين الفرنسي والأسباني على سبيل المثال، ظهر الترك لأول مرة في منتصف القرن السادس عشر. ولكنهم في روايات مثل *La historia del Abbencerrajey de la hermosa Jarifa (1565)* من تأليف فرانسيسكو دي فيلاجاس، يحتفظون بكل الجوانب المتغيرة الخاصة بالناس الحقيقيين: فالفارس المسلم تسبغ عليه أفضل الصفات كافة التي يتمتع بها نظيره المسيحي.

إلا أنه مع بداية القرن السابع عشر اقتصر الأمر على الترك في أعمال مثل *Tragédie Mahométiste* «التراجيديا المحمدية» مجهولة المؤلف والمنشورة في روين بشمال فرنسا سنة ١٦١٢ بأن وصفوا بصفتين يسهل تمييزهما، وهما العنف والخيانة. وهذا الاتجاه يمكن رؤيته حتى داخل أعمال مؤلف واحد واسع الانتشار، هو ميجيل دي سرفانتس. وكان سيرفانتس قد حارب الترك في معركة ليبانتو (١٥٧١). كما أنه أمضى خمس سنوات أسيراً في الجزائر. وكان سيرفانتس يؤيد في العلن إخراج الموريسكيين(٤) من أسبانيا، وكان من المؤيدين البارزين للحملات الحربية الموجهة ضد الترك: وتزخر رسائله بتحية «الرب والبلاد». ومع ذلك فإنه في أعظم نجاح له، وهو رواية « *Don Quixote* دون كيشوت»، نجد الشخصيات المسلمة كائنات بشرية حقيقية، ونجده يعامل من هم مخلصون في عقائدهم باحترام شديد. إلا أن سيرفانتيس مع اقتراب نهاية حياته كان ينشر أعمالاً مثل الرواية الرمزية *Persiles y Segismunda*، التي أصبح الترك فيها أنماطاً جامدة مقولبة - فهم يتسمون بالقسوة والجشع والانحراف الجنسي. ويبدو الأمر كما لو أنه يستسلم لموضة العصر التي هبطت بالمسلمين إلى مجرد شخصيات جامدة.

وقبل عصر الكتب المطبوعة واتساع دائرة القراء، كانت الاتصالات بين الشرق والغرب قليلة ولم تتصف بالتنوع. وكان الخوف الأقل والمعلومات الأقل يعنيان اهتماماً أقل. وكان وصف الشرق يتم تداوله على هيئة مخطوطات، إلا أنها كانت نادرة وغالية الثمن، وقليلون هم الذين كانت لديهم القدرة على قراءتها. وكان الشرق يحتل مكانة مهمة في الخيال الغربي، ولكن أغلب ذلك كان مصدره القصص التوراتية. وبذلك كانت الاتصالات التي تتم بين الثقافات، والطرق التي يجرى بها الإخبار عنها، ذات ترتيب يختلف عن القرنين السادس عشر والسابع عشر، وإذا صح أنه كان هناك خطاب مناوئ للإسلام - وخاصة من جانب الوعاظ - وأنه كانت هناك دعوة لشن حرب صليبية ضد القوم الذين كان يشار إليهم عادة بالكفار العرب، إلا أن ما قد نفكر فيه الآن على أنه هوية أوروبية أو وعي بالذات، لم يكن قد تشكل بعد. ومع أن بعض الصور المهينة قد تبدو مألوفة، فلم يكن هناك خطر مباشر من نقل الأنماط المقولبة إلى العصر الحديث. فقد كان المسيحيون اللاتينيون يوشكون أن يستكشفوا البلاد الواقعة وراء حدودهم.

وحتى في ذروة الحروب الصليبية، كان الكثير من صور الأجانب يخلو بصورة تدعو للدهشة من الغل والحقد. وفي *Chanson de Roland* نجد أن المسيحيين هم الأبطال والمسلمين هم الأشرار، ولكنه يظهر العرب كذلك على أنهم محاربون يتسمون بالشهامة والفروسية؛ ذلك أن النصر لن يكون له معنى ما لم يكن هناك خصوم لهم قدرهم. وفي النص نفسه يصور غير الأوروبيين على أنهم صور معكوسة قاسية وعلى أنهم صور تعكس فكرة المؤلف عن الفارس المسيحي الطيب. وفي العصور الوسطى كثيراً ما كان الكتّاب يستوعبون الأجانب بإبراز تشابههم مع الغربيين؛ أما في عصر الاستشراق فكان التركيز على الفرق والآخرية. وعلى سبيل المثال، جرى تمجيد صلاح الدين - الذي مني الصليبيون على يديه بأكبر هزائمهم - في القصص والروايات المسيحية باعتباره خصماً له قدره ويتسم بالفروسية. وفي بعض الأحيان كان التشابه يتسبب في لحظات من الاضطراب. ففي رواية فلتشر أوف تشارترز الشخصية عن الحملة الصليبية الأولى يطلب من قرائه «تدبر الطريقة التي حول بها الرب في زماننا الغرب إلى شرق والتفكير فيها. ذلك أننا يا من كنا غربيين صرنا الآن شرقيين. لقد نسينا بالفعل أماكن ولادتنا».

وتكرر عودة الرحالة من الشرق بقدر من الإعجاب بغير المسيحيين وبإدانات اكتشفت حديثاً لأبناء بلادهم عند عودتهم. وفي القرن الرابع عشر سافر جون أوف مونت كورفينو حتى الصين وأشار إلى تسامح الحكام المغول وحكمتهم. وكان رحالة آخر، هو جون أوف بين دي كاربيني، يعتقد أنهم كرماء وأمناء وعفيفون ويتمتعون بصحة جيدة، وقد تأثر بعدم محاربة المغول بعضهم بعضاً، وهو

كان العرب والترك يصورون على أنهم شخصيات مضحكة. ولكن ذلك مرجعه إلى أن الغرب كان يشعر بالتهديد؛ وكان الكتاب يدفعون الأذى ويحاولون السيطرة على أعدائهم وهزيمتهم من خلال السخرية والإساءة

عكس ما كان المسيحيون يفعلون. وأعجب جون دى مارينولى، الذى سافر إلى الشرق الأوسط والهند، باهتمام المسلمين الصارم بالصلاة والصوم، مشيراً إلى أن ذلك فاق بكثير الصرامة وإنكار الذات اللذين يمارسهما رجال أوروبا. وفى *Book of Knowledge of the World* «كتاب معرفة العالم» الذى كتبه أحد الفرنسيسكان الأسبان، كان غياب العداوة مذهلاً. فقد امتدح النوبيين والأحباش والبابليين والفرس والهنود لذكائهم. وهو يقول عن سكان تريميك (هل هى التبت؟):

> «إنهم قوم يتسمون بالفهم الصافى والذاكرة الجيدة، متفقهون فى العلوم، ويعيشون حسب القانون. وهم يقولون إن الرجال الذين سمعوا فى البداية عن العلم والتعلم هم هؤلاء، وأن الفرس سمعوا عن تلك الأشياء منهم. ولهذا فإنهم يستحقون الشرف أكثر من سواهم ... لأنهم فى موطن الشرق، وسائر المدن الصغيرة والمدن الكبيرة، وأصل هذه المملكة يعود كله إلى المناخ المعتدل الذى كيّف أجسامهم والخير الذى مده إلى أرواحهم، ومنحهم فهماً أفضل وذاكرة أكثر صفاء».

وفى الشرق الأوسط كانت هناك مجتمعات محلية من المسلمين والمسيحيين تعيش معاً: فى صقلية على سبيل المثال، حيث كان فريدريك الثانى يعقد ديوانه باللغات العربية واليونانية واللاتينية، وحيث كان يسمح للفلاحين المسلمين بفلاحة أراضيهم فى سلام؛ أو فى فالنسيا أو الأندلس، حيث كانت السلطات المسيحية الأكثر تحفظاً تخاف من جاذبية الفكر والأدب الشرقيين. وفى منتصف القرن التاسع، كان بول ألفاروس، وهو راهب من قرطبة، يشعر برهبة شديدة من ثقافة الشرق:

> «يحب المسيحيون قراءة قصائد العرب ورواياتهم، لا ليدحضوها وإنما لتكون لهم لغة عربية صحيحة وطليقة. أين هو ذلك الشخص العادى الذى يقرأ التعليقات اللاتينية على الكتاب المقدس، أو الذى يدرس الأناجيل أو الأنبياء أو الرسل؟ وا أسفاه! إن كل المسيحيين الشباب النجباء يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بحماس: إنهم يجمعون مكتبات ضخمة بتكلفة كبيرة؛ وهم يزدرون الأدب المسيحى باعتباره لا يستحق الاهتمام. لقد نسوا لغتهم. ومقابل كل شخص يمكنه كتابة رسالة باللاتينية إلى أحد الأصدقاء، هناك ألف غيره قادرون على التعبير عن أنفسهم بالعربية وبطلاقة».

وبعد ذلك بألف سنة، وفى منتصف القرن التاسع عشر، كانت مثل هذه الآراء تصب مباشرة فى خطاب الاستشراق. فقد كون طلاب اللغات والثقافة الشرقية - سيراً منهم وراء اهتماماتهم بعصر التوسع العسكرى والاقتصادى الأوروبى - صوراً عن الشرق فى إطار سياق استعمارى عدوانى. وفى تلك الفترة أدخلت تلك الصور من جديد فى الإطار الغربى الخاص بالمرجعية على نطاق واسع، بطريقة جعلت من الشعوب غير الأوروبية مجرد أنماط مقولبة. ولكن قبل أن تبدأ الدول القومية الناشئة فى غرب أوروبا فى الاستواء ودحر الدولة العثمانية فى أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، لم تكن الحدود بين الشرق والغرب محددة تحديداً جيداً كما هى الآن، وكان ترابط القوة والمعرفة الذى يشترطه الاستشراق قد قام بعد. والمؤسف أنه بعد اختفاء التهديد العثمانى فحسب لم يعد هناك خطر واضح وقائم. وكان اندفاع الإمبريالية نحو الخارج قد بلغ مستويات لا سبيل إلى مقاومتها. حتى أن الفضاء الثقافى فى أوروبا كان متاحاً لأصحاب الآراء المنفتحة والمتسامحة من الحضارات الأخرى. وقبل الاستشراق، عندما كان التشابه بين الشرق والغرب أوضح من الاختلاف، وعندما كان هناك تأكد شديد من أن الغرب مقدم على عصر من الاستعمار فى الشرق بدلاً من أية طريقة أخرى، كان انفتاح رجال مثل مينوكيو وسيباستيان فرانك الذى يسع الكل أخطر من أن تتحمله السلطات. ■

ترجمة: أحمد محمود

الهوامش

(١) كانت تلك حركة شاملة - اجتماعية وثقافية وسياسية - قادتها محاكم التفتيش التى أقامتها الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر لمطاردة من تتهمهم بالسحر والهرطقة ومحاكمتهم وإعدامهم. وكان كثيرون من الضحايا علماء ومفكرين أبرياء لا علاقة لهم بشىء. ودامت هذه الحركة حتى القرن السابع عشر. ويقال إن ضحاياها بلغوا أكثر من أربعة ملايين (أكثرهم من النساء) جرى إعدامهم حرقاً. (المترجم)

(٢) كبير قضاة البندقية. (المترجم)

(٣) كاهن مسيحى وملك أسطورى من العصور الوسطى كانوا يعتقدون أنه حكم مملكة مسيحية فى الشرق الأقصى أو الحبشة. (المترجم)

(٤) هذه التسمية مشتقة من كلمة *moros* الاسبانية وتعنى مسلمين أو مغاربة وكلمة *Mriscos* الموريسكيون [صيغة تصغير أو تحقير] ويمكن أن تعنى أشباه المسلمين. والموريسكيون هم بقايا الشعب الأندلسى الذى فرض عليه التنصر بعد سنوات من سقوط غرناطة وقد جرى تهجيرهم بالقوة إلى بلاد المغرب فى أوائل القرن السابع عشر. (المترجم)

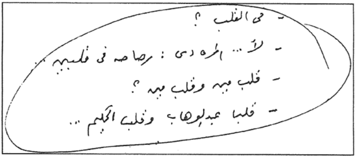
بطلاها عـــدو المرأة ومــــعـــــبــــودها

إبراهيـــم عـبـــدالعـــزيز

حين يختص توفيق الحكيم «رصاصة في القلب» بتقديره الذي قلما يشير به إلى إبداع من إبداعاته، فلا شك أن لذلك دلالاته التي نلمسها حين يقول: «رصاصة في القلب» كتبتها كمسرحية، وهي من كتاباتي الأولى جدا. وأنا أعتز بها كمسرحية» فهي التي أدخلته إلى عالم السينما وجعلته رائدا من رواد الأدب السينمائي، ومن أوائل الذين قدموا الكوميديا الفنية الراقية. ولعل هذا الاتجاه يفسر رفض توفيق الحكيم إعطاء مسرحيته لنجيب الريحاني حين طلبها منه ليمثلها على المسرح بعد إدخال بعض النكت والقفشات، لأن الضحك عند الحكيم في هذه المسرحية نابع من الموقف نفسه، فرفض أن يمثلها الريحاني وفضل عليه عبدالوهاب الذي نجح في إقناعه بتقديمها للسينما بل وإعادة كتابة حوارها مرة أخرى بعد أن وجد الحكيم أنه من الأنانية أحيانا أن يحرم أشخاصه حق الانطلاق لحظة خارج جدران كتبه لتحيا في إطار جديد غير إطار الورق.

وحين أراد الحكيم أن يعيد كتابة أحد إبداعاته تخير «رصاصة في القلب» - مصدر اعتزازه - ليلبسها ثوبًا جديدًا، وجعل من نفسه وعبد الوهاب أبطالاً، ولكن برؤية جديدة غير تلك التي مثلتها «فيفي» بطلة قصة الحب التي تربط بين اثنين يعوقهما عائق حاولت هي من خلاله أن تصنع من حبيبها - الذي أحبها من أول نظرة - شيئا، عندما جعلته يشعر بشيء لم يكن قد عرفه من قبل وهو نعمة الألم، حتى يبتعد العائق عن الطريق كي يفوز كل من الطرفين بالآخر. أما «فيفي» في المعالجة الجديدة لـ «رصاصة في القلب» فهي مصدر الإلهام للأديب الحكيم والموسيقار عبد الوهاب. وبذلك تصبح «الرصاصة في قلبين» لا في قلب واحد. أما الهدف فهو خلاصة أفكار الحكيم في المرأة والديمقراطية والوحدة العربية.

يبدأ الحكيم مسرحيته «رصاصة في قلبين». بصالون نسائي في قصر سيدة شرقية، وكلمة «شرقية» تعني لديه «عربية». ويزيد الأمر وضوحًا أن هذا الصالون يجمع سيدات يمثلن مختلف الجنسيات العربية. ولعله قصد بالمرأة هنا هو قدرتها على تحقيق حلم الوحدة العربية والذي فشل الرجل في تحقيقه سياسيًا، وهو إيمان بقدرة المرأة ينفي ما أشيع عن الحكيم طوال حياته خاصا بالمرأة، وهو ما سوف نتعرض له في حينه، حيث انتهى الحكيم إلى قناعة بأن المرأة تستطيع عاطفيا وفنيا أن تنجح فيما فشل فيه الرجل، وهذا هو موضوع المسرحية الذي يقوم على «مؤامرة» ولكنها «جميلة ومفيدة»، فهل يمكن الوصول إلى المحبة وجمع الشمل بطريق المؤامرة؟ إنها تعبيرات الحكيم التي قد تبدو متناقضة كشخصيته في بعض الأحيان، ولكن الحكيم يراها محققة لوصول رسالته فيما يكتب، وهو ما قصد إليه حين جعل اجتماع النسوة من أجل تدبير الشحن العاطفي لأكبر أديب وأكبر موسيقار، في الشرق لدفعهما إلى الإبداع، ولكن شيخوختهما قد لا تفلح معها مؤامرات الحب والهوى، أو قد تنصرف الجميلة المرشحة لكي يفوز بقلبها من يفوز إبداعه أدبا ولحنا، وقد حل الحكيم هذه المشكلة بأن يعود هو وعبد الوهاب شابين من جديد في صورة «نور الشريف» الذي يمثل الحكيم في شبابه، كما لعب دوره في فيلم «عصفور من الشرق»، ويمثل «محمود ياسين» شباب عبد الوهاب أيضا، حتى يمكن أن يكون هناك تحريض على الحب والإلهام من خلال ترشيح واحدة جميلة العينين لتكون الملهمة لهما، لإبداع شكل فني «له علاقة بالدول والشعوب التي تمثلها النساء الحاضرات.. فيكون لكل بلد عربي مقطوعة شعر منسوبة إليه في إطار شكل قصصي خفيف الروح يكتبه الأديب الحكيم، ويلحنه الموسيقار عبد الوهاب، وبذلك يتعاون الشعر العربي كله ودوله العربية كلها في عمل سينمائي واحد».



- في القلب؟
- لأ... المرة دي: رصاصة في قلبين..
- قلب مين وقلب مين؟
- قلبا عبدالوهاب وقلب الحكيم..

.. من نص المسرحية بخط توفيق الحكيم

أما لماذا الشعر بالذات الذي اختاره الحكيم دون بقية ألوان الإبداع الأخرى، فلأن الشعر هو ديوان العرب، ولأن شعراء العرب هم رمز الوحدة الثقافية العربية، حيث كان الشعر هو أسرع وسيلة تجمع بين الشعوب العربية.

ويتذكر الحكيم أيام زمان حين «كنت تجد شعراء مصر ولبنان والشام لا تفرقهم الحدود، فتجد خليل مطران يأتي لمصر، يبقى مصري ويسمى «شاعر القطرين»، وشوقي يذهب لبيروت فيبقى شاعر لبناني، وبشارة الخوري يكتب قصائد لعبد الوهاب، وكل شاعر له جنسيته، لكن هناك وحدة ثقافية».

ويرى الحكيم أن رجال السياسة في بلادنا هم الذين شوهوا مفهوم العروبة وأساءوا إليها، إنهم يفرضون سياستهم على أهل القلم، ويحثونهم على تكييف آرائهم وفق تقلبات العلاقة السياسية وظروفها.

إن توفيق الحكيم يطالب بالعودة إلى حيث لم تكن السياسة قد ظهر لها أي أثر في هذه الوحدة أو هذا الوطن العربي الثقافي.

وكانت دوافع الحكيم إلى هذه الوحدة الثقافية العربية، هي دوافع موضوعية رأى فيها السياسة تفرق وتمزق، ودوافع شخصية رأى فيها الخلافات السياسية تقطع العلاقات الثقافية وتحرم فيها البلاد العربية قراءة ثقافة البلاد العربية الأخرى التي تختلف معها.

ولن يبعد الحكيم كثيرا في رؤيته للديمقراطية عن رؤيته للوحدة العربية، فهو كما يئس من الرجال في تحقيق الوحدة، يئس أيضا منهم في تحقيق الديمقراطية، فلم يجد إلا النساء تحقيقا للهدفين، فقد خاب أمله في الديمقراطية التي أصابته بخصم خمسة عشر يوما من مرتبه حين كان مديرًا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف، لأنه طالب بحل البرلمان الذي لم يكن إلا واجهة برلمانية مزيفة، حين أقال الملك، النحاس، وحل البرلمان، وجاء بوزاة محمد محمود باشا التي زيفت الانتخابات ونشر الحكيم كتابه «شجرة الحكم» الذي أكد فيه أن النظام النيابي في مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام غيرالصالحين، وفي كتابه «مشكلة الحكم» تبنى الرأي الذي يقول «قد يكون من الأيسر أن نأمل في رؤية جمل يمر من ثقب إبرة على أن نأمل في رؤية رجل عظيم يستكشف عن طريق انتخابات الجماهير»، والخلاصة كما يرى الحكيم أن الشعب لا ينتخب من يريد، ويُشبه ما يحدث في الانتخابات بموسم «الدودة» حيث يعمل جماعة من المقاولين لحساب جماعة من المولين»

ويرى الحكيم أن الديكتاتورية قد تكون الملجأ الأخير حين تفشل الديمقراطية، لكننا لا نعيش أصلا في ديمقراطية حقيقية كاملة لكي نقول إنها قد فشلت.

إذن فما هو السبيل لوجود مجتمع ذي نظام مستقر؟

يلخص الحكيم إجابته في كلمة واحدة هي «الحضارة» إنها التي أنقذت العالم الغربي من انهيار سريع، حيث ظهر في العالم الغربي مفكرون عظام استطاعوا أن يبنوا حضارة عظيمة كونت الفرد تكوينا متينا من الثقافة الواسعة والتربية المتينة، وأخرجتهم من الجهل والظلام، وبعد ذلك ارتدت هذه الشعوب الأردية المختلفة من النظم السياسية سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية أو غيرها، وقد عاني الغرب من الممارسة السياسية لهذه النظم ما عني، ولكنه خرج من كل ذلك قويا منتجا لم تؤثر فيه عيوب هذه النظم، لأنه وجد في المجتمع الغربي شعبا متحضرا يعرف ما له من حقوق وما عليه من واجبات، لذلك أقول لك باختصار: «أعطني شعبا متحضرا واجعله يرتدي أي نظام سياسي يريد».

إذن يعود الحكيم مرة أخرى إلى الثقافة فيجعلها حصنا للشعوب من تقلبات النظم السياسية وعيوبها، كما جعلها من قبل حصنا للوحدة من نزعات السياسة وأهوائها، وهو فيما يتعلق بالوحدة، أو نظام الحكم يرى المرأة محققة لما عجز عنه الرجال، فهي توحد العرب بالشعر والإلهام في «رصاصة في قلبين»، وهي تنجح في ذلك حين تجمع النساء ممثلات للبلاد العربية وتجعلهن يتفقن على هدف واحد في اجتماعهن دون أن يفشل الاجتماع أو تفسده المصالح الشخصية، فكان اجتماع المرأة اجتماعا يمثل الديمقراطية الحقيقية في سعيها للصالح العام وفي قيامها على مبدأ ثقافي وفني يحمي الممارسة ويتسلح الممارسون لها بما أسماه الحكيم «الحضارة»، وهي وجه من وجوه الثقافة.

إن توفيق الحكيم في إبداعاته على امتداداتها يبحث عن المرأة المثالية، فهي الملهمة في «العش الهادئ»، وهي رمز المعرفة والحكمة في «شهر زاد» وهي ذات قلب أقوى من ملك سليمان وقدراته وحكمته في «سليمان الحكيم» وهي التي ترفض الاستسلام وتتطلع إلى المساواة ومشاركة الرجل في العمل في «شمس النهار».

لذلك أدرك سارتر أن المرأة في إبداعات الحكيم أذكى من الرجال.

ولاحظت أمينة السعيد «أننا جنس قريب إلى قلبه وربما قريب جدا ولكن كبرياءه الطبيعية تمنعه من الإفصاح عن ذلك فآثر أن يخطب ودنا مستترا بدعوى العداوة.

ولعل الحكيم نفسه كان مدركا لقيمة المرأة وأهميتها في حياة الرجل وإن تظاهر بغير ذلك فهو القائل «إني إذا تكلمت عن الفن لا يسعني إلا أن أعترف مرغمًا أن المرأة هي روح الفن»، بل يعترف «أن الإلهام الفني نفسه قد خلق على صورة امرأة» وهو ما فعله في مسرحيته التي بين أيدينا «رصاصة في قلبين» حين جعل المرأة هي ملهمة للأديب والموسيقار معًا، بل إنه يذهب إلى أبعد من مجرد الإلهام الذي تنثره المرأة على عقل الرجل وقلبه، حين يؤكد «لا أستطيع أن أتصور الوجود بغير امرأة»، فقد

مسرحية لم تنشر لتوفيق الحكيم

"رصاصة فى قلبين"

كانت المرأة للحكيم أمًا، وزوجة، وبنتًا، وحفيدة.

ولعله بمسرحيته المشار إليها قد أراد تحية المرأة وهو فى عمر لم يعد ينتظر فيه جزاء ولا شكورا، وإن لم يمنعه ذلك من مداعبة المرأة وتذكيرها فى «رصاصة فى قلبين» بتاريخه المعروف مما يجعل «فيفى» المرشحة لإلهامه حين تعرف أنها ستلتقى به تقول «ياساتر»، فيكون جواب زميلاتها لها:

استحملى وصبرى نفسك.. أنت هتعملى عمل وطنى كبير.. البلاد العربية كلها حتشكرك عليه.

وهكذا كعادته دائما يمزج الحكيم آراءه الجادة بسخريته الحادة التى تثير الابتسام والمتعة فى آن واحد. فقد تميز عن أدباء عصره بأنه رجل فن، فجمع بين الحسنيين، وأهدانا والأجيال القادمة إبداعاته القديمة المتجددة، فما بالك بإبداعات أخرى نكتشفها ولم يسبق نشرها كهذا النص الذى كتبه فى ست وعشرين صفحة من القطع المتوسط، وبدأه بثلاث صفحات بخط القلم الحبر، ثم استكمله بخط القلم الرصاص الذى عادة ما يكتب به فى معظم الأحوال، وهو لم يختر له عنوانًا وإنما اخترناه نحن من واقع الحوار الداخلى للمسرحية التى كتبها الحكيم، وجعل الفوز فيها لكل المبدعين وهو أولهم.



مسرحية

"رصاصة فى قلبين"

توفيق الحكيم

■■ صالون نسائى فى قصر سيدة شرقية، تجتمع فيه نخبة من سيدات يمثلن مختلف الجنسيات العربية، فيهن السعودية والسودانية والأردنية والليبية واليمنية والقطرية إلخ إلخ...

تقول لهن صاحبة القصر:

- اسمعوا يا ستات.. إحنا اجتمعنا هنا الليلة علشان نفكر فى مشروع مهم جدا وخطير جدا... الموضوع مؤامرة.

جميع الستات فى صياح:

- مؤامرة؟ يا ساتر!

صاحبة القصر:

- ما تخافوش دى مؤامرة جميلة ومفيدة.. والهدف منها المحبة وجمع الشمل.. أنتم طبعًا شفتم فيلم «رصاصة فى القلب».

الجميع:

- طبعًا.

صاحبة القصر:

- اللى مثله ولحنه الموسيقار عبد الوهاب وألف قصته توفيق الحكيم.. وشافوه فى أول عرض جداتنا وأمهاتنا.. من أربعين سنة!

الجميع: طبعًا طبعًا.. مش إحنا.

صاحبة القصر: إيه رأيكم بقى ناخد الليلة قرار بأن الاتنين الموسيقار والكاتب يعملوا النهاردة فيلم بعنوان «رصاصة»...

- فى القلب؟

* لأ.. المرة دى: رصاصة فى قلبين.

- قلب مين وقلب مين؟

* قلب عبد الوهاب وقلب الحكيم.

- بس دول دلوقت عجزوا.

* دى مسألة نشوف لها حل.. المهم الموضوع.. والموضوع ده بعد موافقتكم جميعًا يتلخص فى إن بنت جميلة تطلق من عينيها الحلوة رصاصة تدخل قلب الاتنين فى وقت واحد.. ونشترط عليهم أنهم ينتجوا عمل فنى، المؤلف يؤلفه والموسيقار يلحنه ويتنافسوا فى الإبداع كل واحد فى اختصاصه.. واللى يفوز منهم فى إبداعه يفوز بقلب الجميلة.. وبالطريقة دى نكون أدينا للفن والأدب أكبر خدمة.. إيه رأيكم؟

الجميع: فكرة جميلة ومفيدة.

صاحبة القصر: الأجمل من كده إن الفكرة خارجة من اجتماعنا هنا كلنا.. وإحنا كلنا هنا نمثل نساء العالم العربى بمختلف دوله وشعوبه.. يعنى كل العرب اتحدوا وتضامنوا فى تحقيق الفكرة.

الجميع: شىء جميل فعلاً.

* ومفيد فعلا.. علشان نثبت إن السياسة يمكن تفرق، لكن الفن هواللى يوحد لأنه خارج من القلب، وقلبنا واحد.

- صحيح.. وننفذ الفكرة دى إزاى؟

* قبل كل شىء مين اللى عليها تطلق الرصاصة.

- لازم نتفق فيما بيننا على اختيارها.

* مش قبل كده ناخد رأى المجنى عليهم.

- حد ياخد رأى واحد فى رصاصة حاتنطلق عليه؟!

* فعلاً.. المفروض إن الرصاصة تنطلق الأول.

- والمفروض كمان إن الرصاصة تصيب القلب

صاحبة القصر: المسألة كده حاتطول.. من رأيى نبدأ حالاً.

الجميع: نبدأ حالاً.

صاحبة القصر: نبدأ أولا بالاجتماع بالطرفين الموسيقار والمؤلف ونعرض عليهم الفكرة لأجل كل واحد منهم يبتدى يجهز نفسه ويستعد للعمل فورًا.. إيه رأيكم؟

الجميع: موافقين.



وقد أعاد توفيق الحكيم كتابة الجزء الأخير من الحوار السابق بعد تغيير طفيف التماسا للجودة ودقة العبارة لكى تصل إلى مرماها من القارئ أو المستمع أوالمشاهد الذى يستهدفه، وقد جاءت الصياغة كالتالى بعد هذه العبارة:

الجميع: شىء جميل فعلا.

* علشان كده اجتمعنا من كل الدول العربية.

- أيوه علشان نثبت أن السياسة يمكن تفرق، لكن الفن والأدب هواللى يوحد لأنه خارج من القلب.. وقلبنا واحد.. مش كده ولا إيه.

* تمام.

- المهم التنفيذ ننفذ الفكرة دى إزاى؟

* قبل كل شىء مين اللى عليها تطلق الرصاصة؟

- مسألة صعبة.. ولازم نتفق فيما بيننا على اختيارها.

* مش قبل كده ناخد رأى المجنى عليهم، قصدى الموسيقار والمؤلف.

- كلام إيه ده؟! حد ياخد رأى واحد فى رصاصة حاتنطلق عليه؟

* فعلا.. المفروض إن الرصاصة تنطلق الأول

- والمفروض كمان إن الرصاصة تصيب القلب.

صاحبة الصالون: لأ المسألة كده حاتطول لغاية ما نختار واحدة تطلق الرصاصة.. والرصاصة تصيب وتفعل مفعولها تاخد وقت طويل. وإحنا عاوزين نبدأ من دلوقت.. الأحسن نجتمع كلنا الأول بالطرفين:الموسيقار والمؤلف ونعرض عليهم الفكرة.. لأجل كل واحد منهم يجهز نفسه ويستعد للعمل فورًا.. إيه رأيكم.

الجميع: موافقين.



ويذهب الجميع إلى صالة اجتماع بعد دعوة المؤلف والموسيقار، ويعرضون عليهما الموضوع باختصار.. وهو أن يعيدوا عهد «رصاصة فى القلب» يوم كان العرب كلهم متفقين ومجتمعين حول الفن والحب المخيم على الجميع، ولإعادة هذا الجو يجب أن يعود نفس المؤلف والملحن للتعاون معا فى عرض سينمائى يؤلف المؤلف موضوعه ويقوم الموسيقار بوضع ألحانه. ولكى يتم تنشيط الاثنين وإثارة حماس كل منهما، نهض كل نساء البلاد العربية، القائم بالنيابة عنهن النساء المجتمعات وقررن ترشيح واحدة جميلة العينين لتكون الملهمة لهما، وفى نفس الوقت القاضية والمحكمة التى تحكم فى النهاية على عمل كل من الموسيقار والمؤلف، ومن ترى أنه قد امتاز وتفوق على زميله فى الإبداع الفنى فاز بقلبها.

وهنا يقول الموسيقار: وما هو الشكل الفنى لهذا العمل؟

أيكون مثلا كوميديا موسيقية.. يعنى قصة يتخللها ألحان زى رصاصة فى القلب؟

وتأخذ النساء المجتمعات فى الجدل والمناقشة على الطريقة النسائية إلى أن تقاطعهن صاحبة الصالون قائلة: إنها تفضل أن يكون الشكل الفنى له علاقة بالدول والشعوب التى تمثلها النساء الحاضرات، فمثلا يكون الشكل الفنى منوعات شعرية مصورة سينمائيا على نسق قصيدة «لست أدرى» للشاعر اللبنانى فى «رصاصة فى القلب».. فيكون لكل بلد عربى مقطوعة شعرية منسوبة إليه، فالشعر العراقى إلى جانب شعر سعودى إلى جانب شعر تونسى وسودانى وسورى إلخ.. إلخ.. ويقوم الموسيقار عبد الوهاب بتلحينها وتصويرها سينمائيا.. وكل هذا بالطبع يجب أن يدخل فى إطار شكل قصصى خفيف الروح يكتبه المؤلف.. وبذلك يتعاون الشعر العربى كله ودوله العربية كلها فى عمل سينمائى واحد، أما القصة فستكون حول الرصاصة التى تطلقها من عينيها الجميلة مصوبة إلى قلبى الموسيقار والمؤلف، ثم التنافس بين الاثنين على الفوز بقلب الملهمة بعد أن تنطق هى بالحكم.

عبد الوهاب: وحكمها ده نهائى؟

الحكيم: يعنى مفيش استئناف ولا طعن.

الجميع: نهائى.. نهائى؟

صاحبة الصالون: طبعًا نهائى لا استئناف ولا طعن.. لأنها تمثل إرادتنا جميعًا وحايزة على ثقتنا كلنا.

الحكيم: وحاتكون هى الملهمة لنا؟

الجميع: طبعًا.

عبد الوهاب: لا بد بقى تقابلنا وتكون على صلة بعملنا.

الجميع: طبعًا.

الحكيم: وكل واحد منا تقابله على انفراد.. لأن طبيعة عمل كل واحد منا مختلفة.. والإلهام أيضًا يكون مختلف.

الجميع: طبعًا.. طبعًا.

عبد الوهاب: يعنى كل ما أحتاج للإلهام تحضر لى الملهمة؟

الجميع: طبعًا.. طبعًا.

الحكيم: بس على شرط تكون مقابلة حضرة الملهمة لكل واحد منا بالعدل والقسطاس.

الجميع: طبعًا طبعًا.

عبد الوهاب: اتفقنا.. مش كده برضه ياحضرة المؤلف.

الحكيم: أيوه اتفقنا.. بس.. مش تعرفونا بقى بحضرة الملهمة.. قصدى حضرة المحكمة؟

الجميع: حايحصل.

***

الموسيقار عبد الوهاب والمؤلف توفيق الحكيم بعصاه يمشيان على ضفاف النيل يتحاوران..

عبد الوهاب: أما فكرة.

الحكيم: أنا مش مرتاح لمسألة الرصاصة دى.

عبد الوهاب: وحايجرى إيه يعنى.

الحكيم: إفرض إن الرصاصة صابت؟

عبد الوهاب: ما تصيب يا أخى.. ولا يهمك.

الحكيم: ولا يهمنى إزاى.. إنت ما عليهش ولا يهمك إنت.. لأن القلب عندك لما ينفتح تخرج منه أجمل الألحان.. لكن أنا بالعكس.

عبد الوهاب: بالعكس ليه؟ ليه ما تقولش إن القلب عندك أنت كمان إذا انفتح خرج منه كلام حلو.

الحكيم: اسمع.. إحنا نسينا شىء مهم هو مسألة السن؟ الجماعة الستات دول نسيوا إننا فى سن الشيخوخة.

عبد الوهاب: هم ما نسيوش.. اللى يهمهم منا أعمالنا الفنية.. وخبرتنا اللى اكتسبناها من السن.

الحكيم: أنا عندى فكرة.. الستات دول عايشين فى جو الأربعينيات.. جو «رصاصة فى القلب».. لا بد نرجع لهم أنا وأنت شباب فى الأربعينيات.

عبد الوهاب: إزاى؟

الحكيم: نبعت لهم عبد الوهاب والحكيم أيام الأربعينيات.



عبد الوهاب: مش فاهم.
الحكيم: دلوقت تفهم.

في الصالون الأدبي وجميلات البلاد العربية مجتمعات حول غادة رائعة الجمال.. وصاحبة القصر تقول لها:

ـ عرفت بقى حاتعملى إيه؟

* واشمعنا أنا بقى اللى حاقوم بالدور ده؟

الجميع: علشان كلنا اخترناك أنت بالإجماع.

* بس أنا مش حاقدر أقول لدول حاجة.

ـ مش حاتقولى حاجة.. عينيك الحلوين دول هم اللى حايقولوا.

* بس دول عجايز قوى.

ـ وتبصى لهم ليه.. إنت حاتسمعى ألحان عبد الوهاب الحلوة بودنك.. أما توفيق الحكيم..

* يا ساتر!

ـ استحملى وصبرى نفسك.. إنت حاتعملى عمل وطنى كبير.. البلاد العربية كلها حاتشكرك.

* كتب التاريخ كانت بتقول الكلام ده عن أسطورة رمى البنت الشابة للنيل والتماسيح.

ـ اطمئنى.. التماسيح دول مالهمش أسنان.

الجميع (ينظرون فى الساعة): هم تأخروا كده ليه؟

ـ أنا خايفة!

صاحبة الصالون: ما تخافيش.. هم مش حايكلموكى.

* أنا حا أغمض عينى.

ـ لأ.. بالعكس.. إحنا قلنا إيه؟ أنت لازم تفتحى لهم عينك الحلوة دى كويس قوى وتبصى لكل واحد منهم النظرة اللى توقعه.

* ربنا يقدرنى.

(جرس الباب)

الجميع: جرس الباب.. أهم حضروا.

صاحبة القصر: استعدى.

* مش قادرة أبص لهم.

ـ تشجعى.

(يظهر من الباب محمود يس بطربوش، ونور الشريف بالعصا والبيريه.. ويفاجأ الجميع.. وتحملق السيدات، ويجمدن بلا حركة.. ويتقدم محمود ياسين مقدما نفسه..

محمود ياسين: محمد عبد الوهاب.

نور الشريف: وأنا توفيق الحكيم.

صاحبة القصر: إيه ده؟

محمود ياسين: لا مؤاخذة.. قلنا نيجى فى سننا اللى كنا فيه يوم ظهور «رصاصة فى القلب».. مش كده أحسن؟

نور: اسمحوا بقى وقدموا لنا صاحبة المسدس.

صاحبة القصر: أقدم لكم الآنسة.. فيفى.

ياسين ونور: تشرفنا.

فيفى: (تنحنى لهما برأسها وقد احمر وجهها وانشرح صدرها) أنا اللى حصل لى الشرف.

صاحبة القصر: إيه بقى رأيكم!

ياسين: عرفتم تختاروا.

نور: بس مكسوفة شوية.

صاحبة الصالون: أصلها اتفاجأت.. زينا كلنا ما اتفاجئنا.

فيفى: كنت فاكراكم أكبر من كده شويه

ياسين: شوية؟ متشكرين.

فيفى: أصل الحقيقة صور الجرائد بتصوركم كبار فى السن.

نور: ماكياج.. بيعملوا لنا ماكياج يكبرنا.. مسألة دعاية صحفية. لكن الحقيقة إننا زى ما أنت شايفة دلوقت..

ياسين: إحنا دلوقت كده أحسن.

فيفى: أحسن قوى.. إخص عليهم.. ليه يخفوا شبابكم ده.

ياسين: ما دمنا كده عاجبينك يبقى الحمد لله.

فيفى: أنا سعيدة اللى شفتكم على حقيقتكم دى.

نور: إحنا كمان سعدا بالحقيقة دى.

صاحبة الصالون: تحبوا تشربوا إيه؟ مش تعزمى عليهم يا فيفى؟

فيفى: أنا أعرف إنهم يحبوا ياكلوا جلاس.

ياسين: وأنت كمان يا آنسة فيفى تحبى تاكلى جلاس.. وسبق أول ما شفتك قلت لك: تاكلى جلاس وتدوبى فى قلوب الناس.

نور: لأ من فضلك.. دا أنا اللى شفتها الأول وقلت لها كده.. مش فاكرة يا آنسة فيفى؟

فيفى: أيوه تمام.

ياسين: إزاى ده؟ دا أنا اللى شفتك الأول وأنت قاعدة تاكلى الجلاس وقلت لك بتاكلى جلاس وتدوبى فى قلوب الناس.. مش فاكرة.

فيفى: أيوه تمام.

نور: إيه الكلام ده؟

صاحبة الصالون: لازم أنتم الاتنين شفتوها فى وقت واحد.

فيفى: أيوه تمام.. زى النهاردة كده.

ياسين: أبدًا أبدًا.. أنا كنت لوحدى وساعة المسدس ما انطلق.

نور: انطلق فى قلبى.

ياسين: لا يا سيدى فى قلبى أنا.

نور: قلت لك قلبى أنا.. بلاش مقاوحة.

ياسين: قلبك؟ فين؟

نور: هنا (يشير إلى الجهة اليمين)

ياسين: أولا القلب مش فى الجهة دى.

نور: أمال يبقى فى أى جهة؟

ياسين: فى الجهة الشمال يا حضرة.

نور: الشمال؟ ليه هو أنا أشول.. أنا بسلم بايدى اليمين وآكل بايدى اليمين لازم كمان قلبى يكون فى اليمين.. مش معقول كده.

فيفى: ما تتخانقوش.. مش مهم الجهة.. المهم القلب.

ياسين: طبعًا المهم القلب.. والقلب ده كان قلبى أنا.

نور: لأ يا سيدى.. أنت طبيب عيون مش طبيب قلب. وغنوتك المشهورة فاكرينها كلنا.. طبيب عيون أفهم فى العين.

ياسين: على كل حال بكرة يا فيفى ألحن لك أغانى كتير عن القلب.. واسمحى لى بنمرة تليفونك علشان أتصل بك وأسمعك أول غنوة.

فيفى: تليفونى.

صاحبة القصر: أيوه يا فيفى إدى له تليفونك.. دا الأستاذ عبد الوهاب لازم يسمعك ألحانه الجديدة.

نور: وأنا رحت فين؟ مفيش نمرة تليفون علشانى أنا كمان؟!

ياسين: ليه؟ ناوى تسمعها إيه؟

نور: مش شغلك دا سر.

ياسين: اسمحوا لى أستأذن عندى مواعيد.. وانت يا آنسة فيفى أنا سعيد اللى شفتك.. وانتظرى منى تليفون.

نور: وأنا كمان زيه.. وانتظرى منى تليفون.. خدنى معاك .

(يخرجان)

السيدات: (يضحكن كلهن)

صاحبة الصالون: شاطرة يا فيفى.. الحمد لله.. المسألة يظهر حاتنفع.

فيفى: دلوقت حا يقولوا علىّ عبيطة.

صاحبة الصالون: بالعكس.. أنت اللى استغْبطيهم.. وعملت إنك صدقت اللعبة دى.

فيفى: والاتنين الكبار اتصرفوا كده ليه؟

صاحبة الصالون: طبعًا سنهم ما يسمحش باللعب ده.. لكن المهم إنهم قبلوا التحدى والمنافسة، والتحمس لفكرة العرض السينمائى وتلحين شعر البلاد العربية.

عبد الوهاب والحكيم ينتظران عودة يس ونور.. وبمجرد حضورهما يسألانهما:

عبد الوهاب: عملتم إيه؟

ياسين: كل حاجة تمام.

نور: حسب الخطة الموضوعة.

الحكيم: عظيم.

ياسين: وإيه المطلوب منا بعد كده.

الحكيم: تتصلوا بالجماعة دول بالنيابة عنا.. وتكونوا أنتم حلقة الاتصال بينا وبينهم.

نور: والآنسة.

عبد الوهاب: مالها.

ياسين: حاتكون علاقتنا بها إيه؟

عبد الوهاب: بعدين.. بعدين أقول لك؟ اتصل بى بالتليفون.

نور: وأنا؟

الحكيم: إبقى أنت كمان اتصل بى بالتليفون.

(يخرجان)

عبد الوهاب: ودلوقت.. إحنا حانعمل إيه؟

الحكيم: نمشى فى المشروع.

عبد الوهاب: إزاى؟

الحكيم: أنا أختار لك الأشعار.. لكن يلزمنا مخرج ينظم العرض.

عبد الوهاب: والآنسة؟

الحكيم: مالها؟

عبد الوهاب: مش هى اللى حاتحكم بينا وقرارها نهائى.

الحكيم: آه صحيح.

عبد الوهاب: واللى يفوز يكسب منا.. حايفوز بقلبها.

الحكيم: والله أنا خايف من العيال دول.

عبد الوهاب: قصدك الحكيم المزيف وعبد الوهاب المزيف.

الحكيم: تحب واحد فيهم وإحنا الأصليين نروح بلاش.

عبد الوهاب: لأ مش حانروح بلاش.. اللى حاتحبه تنحاز له وتحكم له ودا حايكون بالاسم الأصلى.. يعنى لحساب الأصل.. إنت أو أنا.

الحكيم: بالاختصار حانكون إحنا الاتنين الحقيقيين تحت رحمة الاتنين المزيفين.

عبد الوهاب: وماله.. هم وشطارتهم واللى حايكسب قلبها فيهم حايعود علينا إحنا.. قصدى واحد فينا بالجايزة والحكم النهائى.

الحكيم: إنت نسيت إن الحكم النهائى والجايزة هى قلبها.. وقلبها حايكون أخده المزيف وانتهى الأمر.. وطلعنا إحنا بالحكم غير المشمول بالنفاذ.

عبد الوهاب: حانكون طلعنا بالمشروع العظيم.. ويكون صدور الحكم للفائز معناه إن له الفضل فى نجاح المشروع.

الحكيم: يعنى قلبها ما يهمكش.

عبد الوهاب: يهمنى فى إيه؟

الحكيم: والله صدقت.. المرأة تعطيك قلبها وتاخد جيبك.

عبد الوهاب: أهم شىء عندى يقولوا إن ألحانى فازت.. ولذلك حا أعمل كل جهدى فى التلحين ويصدر الحكم ويعلن فى كل مكان إن ألحانى هى اللى فازت.

الحكيم: ربنا يسهل لك.. بس أرجو إن الحكم النهائى بفوزك ما يكونش فيه لعب.



عبد الوهاب: يعنى إيه؟
الحكيم: مجرد خاطر.
عبد الوهاب: تصبح على خير.
الحكيم: وأنت من أهله.

(ياسين ونور يتمشيان على النيل)
ياسين: قل لى.. إحنا مطلوب منا إيه بالضبط؟
نور: نمثل.. إحنا طول عمرنا ممثلين.
ياسين: وإيه هو الدور؟
نور: أنت مش عارف لسه.. أمال أنت تقدمت للستات دول وللبنت الحلوة دى بصفة إيه؟
ياسين: بصفتى الموسيقار عبد الوهاب.. زى ما أنت تقدمت بصفتك المؤلف الحكيم.
نور: خلاص.. آدى الدور.
ياسين: مفهوم.. بس علشان إيه؟
نور: علشان البنت.
ياسين: أما البنت دى حلوة حلاوة.
نور: وعليها عينين.. أخدت بالك وهى بتبص لى.
ياسين: بتبص لك أنت؟
نور: أظن حاتقول إنها كانت بتبص لك أنت؟!
ياسين: طبعا.
نور: لأ بقى.. أنت زودتها.. كل ما تقابل واحدة تقول إنها واقعة فيك.
ياسين: وهى وقعت فعلا.
نور: بس مش فيك أنت.
ياسين: المهم إن المطلوب مننا إن البنت تقع فى حب واحد فينا.. وهى وقعت فى حبى أنا.
نور: لا يا سيدى أنت فهمت الموضوع غلط.. المطلوب إننا إحنا اللى نقع فيها.. مش فاكر لما تكلموا عن المسدس اللى خرجت منه الرصاصة اللى اندبت فى قلبك.
ياسين: فى قلبك إنت
نور: أيوه فى قلبى أنا مفيش مانع، وساعتها قلبى يلهلب ويخرج منه فن.
ياسين: يلهلب ويخرج منه فن.. قلبها كان فرن وفنك رغيف عيش؟
نور: وأنت كمان زيى قلبك يلهلب وتخرج منه ألحان.
ياسين: أنا مفهمتش كده.. أنا فهمت إن قلبها هو الفرن.. الفرن إحنا.. أقصد أنا اللى أولعه ويبقى هو الفرن اللى تنخبز عليه ألحانى وتخرج سخنة.
نور: مش معقول إن الفرن.
ياسين: قلت لك الفرن.
نور: لأ.. أسمع بقى.. الفرن. الفرن كفاية كلام فى الفرن.. إحنا مش خبازين.. إحنا ممثلين.

ياسين: وهو كذلك.. المهم إن الفرن يولع وخلاص.
نور: ولما يولع يجرى إيه؟
ياسين: تخرج منه أجمل الألحان.
نور: ألحان مين؟
ياسين: ألحان عبد الوهاب طبعًا.
نور: مش فاهم لسه.. يعنى لما قلبها هى يولع تخرج الألحان من قلب عبد الوهاب إزاى؟
ياسين: عبد الوهاب مالوش دعوة.. ألحانه حاتخرج بعيد عن الفرن، لكن الفرن اللى هو قلب الحلوة لما يولع حينحاز للى ولعه.. يعنى بالعربى الفصيح إذا أنا ولعت قلبها حاتنحاز لى وتحكم لى باعتبارى عبد الوهاب.. وهو ده المطلوب.
نور: وأنا كذلك بالمثل.
ياسين: وأنت كذلك لاسمح الله.
نور: عاوز تقول إن الفايز فى العرض الفنى هو اللى يفوز بقلبها.
ياسين: أنت مش تعرف إن قلب المرأة هو اللى بيقودها ويوجهها.. المرأة قلب يا حضرة الفاضل.. وهى دايما بتحكم بقلبها.. أمال ليه المرأة ما تنفعش قاضى لأنها إذا استلطفت مجرم ها تعطف عليه ويمكن تبرأه أو تخفف عنه.. وإذا استثقلت واحد طيب يمكن تحكم عليه بالشنق.. زى حضرتك مثلا.
نور: يعنى المسألة استلطاف أو استثقال.
ياسين: كده بالضبط.
نور: واللى شغلونا فى الشغلة دى؟
ياسين: مالهمش دعوة.. هم لهم النتيجة، لهم اللى يكسب.
نور: يعنى يالاختصار أنا وأنت زى خيل السبق.. الحصان اللى يجرى ويكسب، وصاحب الحصان هو اللى الناس تهنيه.
ياسين: تمام كده.
نور: والحصان مصلحته إيه؟
ياسين: مصلحته العناية والرعاية والعلف الكويس والنوم المريح والسكر اللى يتقدم له ويتوضع فى فمه.
نور: على كده صاحبى لازم يوضع فى فمى سكر.
ياسين: ضرورى.
نور: إيه رأيك تحط يدك فى يدى ونشتغل سوا.
ياسين: يعنى إيه؟
نور: يعنى نفكر سوا إزاى نخليهم يشبعونا سكر.
ياسين: بس صاحبك بيقولوا عليه بخيل.
نور: وأنت صاحبك راخر.
ياسين: لأ ما تخضنيش أمال «يعنى عاوز تقول إن إحنا الاتنين وقعنا فى اتنين بخلا؟»
نور: لأ مش بالدرجة دى.. المسألة عايزة شوية تكتيك.
ياسين: ربنا يقدرنا.
نور: كل واحد بقى يعمل بشطارته.
(يفترقان)

شقة فيفى.. وهى مستلقية تسمع موسيقى لعبد الوهاب من جهاز راديو..
جرس التليفون يدق..
فيفى: ألو.. مين حضرتك؟ آه الأستاذ الحكيم.. لأ ما عنديش حد تفضل.
(تنهض وتسوى هندامها وتقول كأنها تخاطب نفسها):
- اللى ما عندى كتاب له.
(يدق جرس الباب. فتذهب وتفتح ويدخل نور بالبيريه والعصا كالعادة)
- أهلا وسهلا.
نور: خايف أكون أزعجتك.
فيفى: بالعكس.. أنا كنت لوحدى.. باسمع فى الراديو الغنوة الجديدة لعبد الوهاب.
نور: آه.. عبد الوهاب.
فيفى: طبعا.. عجبتك.
نور: يعنى.
فيفى: تحب تشرب إيه.. طبعًا ما عنديش هنا جلاس.. فنجان شاى؟
نور: إذا سمحت.
(حالا تخرج)
نور: (قرب جهاز الراديو) وبعدين فى عبد الوهاب ده؟
فيفى: (تدخل بصينية عليها فنجان شاى) كم حتة سكر؟
نور: هو الحصان له كم حتة سكر.
فيفى: (وهى تصب الشاى فى الفنجان وتقدمه له) أنا سبقتك وشربت الشاى بتاعى.. لو كنت عارفة أنك جاى كنت انتظرتك وشربنا سوا.
نور: أنا فى الحقيقة كنت متردد.. خفت تكونى نسيتينى.
فيفى: لا طبعا.. ما أقدرش أنساك.. ما أقدرش أنساك.. مش فيه غنوة بتقول كده.
نور: مش عارف.. أنا فى الحقيقة مش غاوى أغانى.
فيفى: ليه؟ مش عبد الوهاب صاحبك؟
نور: يعنى.
فيفى: يعنى إيه؟ فيه بينكم حاجة؟
نور: بيننا.. أنت!
فيفى: أنا!
نور: أرجوك.. أرجوك ما تبصليش كده.. هو المسدس بتاعك فيه كام رصاصة؟
فيفى: مسدس إيه؟
نور: أنت نسيتينى رصاصة فى القلب؟
فيفى: آه.
نور: آه لو كنت أقدر أغنى.. كنت غنيت لك غنوة بتقول:
عينيك جنة ونار.
فيفى: جنة ونار مع بعض؟
نور: أيوه..عينيك جنة ونار وأنا بينهم محتار.
فيفى: مطلع كويس لغنوة.. لكن بس إزاى تكون الجنة جنبها النار؟
نور: زى نور المصباح اللى بيشعشع وجنبه النار اللى بتلسوع.. والنحلة اللى ريقها عسل تقولى له: الله ومعها شوكة تقولى منها آه.. والحب كله له بابين باب النعيم وباب الجحيم.. والحب له سكتين «سكة السلامة وسكة الندامة» سكة فيها عمود وإشارات.. أحمر وأخضر.. وإذا مشيت فى الأحمر أتصدم.. والأخضر مش فى إيدى.
* فى إيد مين؟
- فى إيد عسكرى المرور.. تعرفى عسكرى المرور مين؟
* مين؟
- أنت.
فيفى (تضحك) عملتنى كمان عسكرى مرور.
نور: فى إيدك تعملى الإشارة أحمر وأتصدم أو أخضر.
فيفى: فعلا.. حاجة تخلى الواحد محتار.
نور: ما فيش فى الحب اختيار.
فيفى: ومين السبب؟
نور: أنت.
فيفى: أنا برضه؟
نور: أيوه أنت.. وقلبك اللى أنا عارفه.
فيفى: عارفة إزاى؟
نور: ما تعرفيش إنى أقدر أقرأ أفكارك وأكشف فى قلبك كل أسرارك.
فيفى: (ضاحكة) حكيم روحانى حضرتك.
نور: لا أنا مش حكيم.. أنا العيان.
فيفى: عيان بإيه؟
نور: وأنا مجنون أقول لك أنا عيان بإيه وحاسس بإيه.
فيفى: لأ خليك عاقل خمس دقائق بس وقولى.
نور: عيان بيكى.
فيفى: وأنا مرض؟
نور: مرض خطير مالوش دوا.
فيفى: أنا عندى الدوا.. تسمح لى أداويك.
نور: لأ.. مش عاوز أتداوى.. عاوز أفضل عيان.
فيفى: فيه عيان فى الدنيا عاوز يفضل عيان.
نور: الدوا من مرض هو إن المرض يزول.. يبعد عنى، وحيث إنك أنت المرض يبقى وجودك هو مرادى.. لا.. أنا متمسك بالمرض يا ستى.
فيفى: (تضحك) أنت ظريف.
نور: يعنى الإشارة خضرة.. وأقدر أمشى فى أمان لغاية باب قلبك.. والا حمرة لا سمح الله وآخرتها انصدم.
فيفى: اترك لعسكرى المرور الفرصة يفكر.
نور وياسين يجتمعان:
نور: (داخلا عليه فرحا) استظرفتنى يا عم!
ياسين: أنت شفتها؟
نور: طبعًا.. زرتها واستقبلتنى بالأحضان.
ياسين: وكمان بالأحضان؟!
نور: طبعًا.. أُمال أنت فاكر إيه؟ المسألة راحت من إيديكم خلاص.
ياسين: إزاى.. إنت عملت إيه؟
نور: وأنا أقول لك ليه.

ياسين: طيب شكرًا.
(يتركه مسرعًا)



(ياسين يسمع ويدخل على عبد الوهاب)

عبد الوهاب (والعود فى حضنه): مالك؟ فيه إيه؟

ياسين: المسألة حاتضيع من إيدينا.

عبد الوهاب: إزاى؟

ياسين: نور أكل بعقل البنت حلاوة.

عبد الوهاب: أكل بعقلها حلاوة.. هو قابلها.

ياسين: راح زارها وقال إنها استقبلته بالأحضان.

عبد الوهاب: كلام إيه ده؟

ياسين: ما هو إذا كان على الكلام.. حايغلبونا.. أنا عندى فكرة.

عبد الوهاب: إيه.. اتكلم.

ياسين: نعزمها على رحلة فى سويسرا.. وهناك البحيرات والغابات والجبال.. والستات يحبوا الفسح الحلوة.. وفى الجو الشاعرى الجميل ده.. وبعيد عن إخواننا إياهم.. وكلامهم الفارغ.. ومع الألحان الحلوة نفوز بقلبها بكل سهولة.

عبد الوهاب: فكرة مش بطالة.

ياسين: المهم نخلصها من أيديهم ونروح بها بعيد.. وفى جو سويسرا ومناظرها وألحانك وروعتها حا تحكم لنا فى الحال.

عبد الوهاب: حا تسافروا أنتم الاتنين؟

ياسين: لو تكون أنت معايا يكون أحسن.

عبد الوهاب: لأ.. أنا حا أكون مشغول هنا.. قدامى السيناريست والمخرج والإنتاج.. كل ده لازم أنا اللى أجهزه.

ياسين: يبقى ما فيش مانع نسافر أنا وهى.. بس.

عبد الوهاب: بس إيه؟

ياسين: إذا طلبت منى فى جو سويسرا الشاعرى أغنى لها غنوة.. باعتبارى عبد الوهاب أعمل إيه؟ أقع فى حيص بيص.

عبد الوهاب: اسمع.. لف رقبتك بكوفية طول الرحلة وقل لها إن عندك التهاب فى الزور.. وسمعها أغانى من الراديو والكاسيت.

ياسين: معقول!

عبد الوهاب: روح بقى شوف شغلك.. وانهى إجراءات السفر ونزلها هناك فى أحسن لوكاندات.. لازم تظهر قدامها بمظهر مشرف.. ما يهمناش الفلوس..المهم ننجح.. وابقى اكتبلى دايما من هناك.. وطمنى.

(نور يدخل على الحكيم)

نور: يادى المصيبة.

الحكيم: يا ساتر.. جرى إيه؟

نور: اختفوا.. أخدها وسافروا على سويسرا.

الحكيم: مين هم؟

نور: عبد الوهاب والبنت.

الحكيم: عبد الوهاب سافر؟ عبد الوهاب نفسه؟

نور: عبد الوهاب الشاب.. قصدى ياسين.. أخد البنت فى رحلة فى سويسرا.. وطبعا هناك حا ياكل بعقلها حلاوة.. وحا ترجع بالحكم النهائى لصالح عبد الوهاب وألحانه.

الحكيم: والعمل؟

نور: ما فيش.. إلا أنى أسافر وراهم.. وأفسد خطتهم.

الحكيم: طيب ما تسافر حد حايشك.

نور: والفلوس؟

الحكيم: فلوس إيه؟

نور: الله.. هو السفر مش لازمه فلوس.. مصاريف طيارات ولوكاندات وفسح.

الحكيم: فسح؟!

نور: طبعًا إذا جيت أنت معايا يكون أحسن.

الحكيم: لا يا سيدى أنا ما بسافرش.

نور: طيب أنا أسافر لوحدى.. بس لازم أكون فى مستواهم.. هم طبعًا حا ينزلوا لوكاندات درجة أولى ممتازة وحا يصرفوا من غير حساب.

الحكيم: من غير حساب إزاى؟

نور: قصدى يعنى علشان يبلفوا البنت ويؤثروا على فكرها وتنحاز لهم.

الحكيم: ما فيش طريقة غير دى.

نور: لأ.. أبدًا.. لازم نلحقهم.. قبل فوات الأوان.. إلا بعدين نرجع نندم.

الحكيم: أمرنا لله.. أهى بلوى وجات فوق دماغى!

***

فى سويسرا.. والكاميرات تصور النزهة فى قوارب البحيرات وفى الجبال والغابات.. والثلاثة: البنت بين ياسين ونور.. ونور يعمل كل جهده لمنع البنت أن تخلو بياسين.. وياسين يحاول التخلص من نور.. بحوادث ومفاجآت يحكيها السيناريست.

***

عبد الوهاب والحكيم والمخرج ينتهون من تنظيم العرض الفنى ويتم اختيار المقطوعات الشعرية من شعراء البلاد العربية جميعها.. ويلحنها عبد الوهاب.. ويجرى عليها البروفات الحقيقية.

***

ليلة العرض الأول:

تظهر صاحبة الصالون لتقدم فى كلمة قصيرة هذا العرض على أنه نتيجة تعاون شعراء الدول العربية كلها.. رمزا لهذا التضافر والإخاء بين الأشقاء العرب.. لأن العروبة الحقيقية تنبت من الأدب والفن.

كما تقدم البنت الحلوة «فيفى» التى كلفت بالتحكيم بين الموسيقى والأديب وأيهما الفائز.. فتعلن أن الفوز للاثنين معا.. لأن الفن والأدب والموسيقى والشعر شقيقان متلازمان. ▪

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

ورد وشوك

لِمَ التناحر فى الدنيا أيا عجباً
ممَنْ يُناحر فيها وهىَ لم تَدُمِ
ما كان أعظم مَنْ لم يَأبهوا أبداً
بخفّة الترب منها شأن كلّ عَمِ
العارفون إلى الباقى قد انتبهوا
وغيره عندهم شىء من العدمِ
فلا تكوننّ فى الدنيا أخا صَلَف
فكم برى اللهَ فى الأكوان من نَسَمِ!
وكلّ مَنْ خُلِقوا لاقوا مصارعهمْ
طوبى لمنْ لم يَحدْ منهم عن الحِكَمِ
إقبالها لم يدمْ يوماً على أحد
وكم أتى منْ هواها سوء مُختَتمِ
والأرض لا لم تكنْ حِكراً عليكَ فكَمْ
غداً سيأتى من الأصلاب والرحمِ
كم يخطف الموت مِنْ أبنائها، ولكمْ
تَرى وجوهاً، وكم تلقى مِنَ الندمِ!
مَنْ كان منزله كِبْراً وغطرسةٌ
فسوف يمشى عليه الناس بالقدمِ
ياليتَ من أدركوا للعمر قيمته
فكان للخير منهم خير مُغتنَمِ!
دنياكَ لا وردَ تلقاه بروضتها
إلاّ وكفّك مِنْه بالقطاف دَمِى
وطيّبو الذكر فيها الورد ليس به
شوكٌ فذكَرى تقاهم ملء كلّ فَمِ
أولاء يا سعدُ أحياء وإنْ رحلوا
والسيئون برغم العيش كالعدمِ

آخر أيام نيتشه



في ٢٥ أغسطس الماضي احتفلت الدوائر الفكرية والفلسفية بذكرى مرور قرن كامل على وفاة الفيلسوف الألماني الشهير نيتشه، ليس فقط باعتباره من أهم روافد الفكر والفلسفة التي حددت معالم القرن العشرين وأثرت علي توجهاته الفكرية والأدبية، ولكن أيضا بحكم تأثيره علي الاتجاهات التي صاغت فكر حركات سياسية جديدة آمنت بفلسفة القوة وقدرة الإنسان على السيطرة علي الطبيعة وعلى جوانب الضعف الإنساني بكل أشكالها.

وكانت حركات النازية والفاشية من أكثر الحركات السياسية التي استمدت فلسفتها من أفكار نيتشه. وترددت أصداؤها في بعض الحركات التي ظهرت في العالم العربي مثل حزب مصر الفتاة (بقيادة أحمد حسين)، وكان المفكر المصري عبد الرحمن بدوي في شبابه من أكثر الذين بشروا بأفكاره وكتاباته، وما زال لهذا الفكر أنصاره الكثيرون في أرجاء العالم.. وما حركات النازية الجديدة التي ظهرت أخيرًا في دول أوروبية عديدة غير تجسيد لها في ثوبها الجديد مع بداية القرن الواحد والعشرين.

المحـــرر

جـــون بانفـــيل

Nietzsche in Turin: An Intimate Biography

(نيتشه في تورينو: سيرة حياة حميمة)

Lesley Chamberlain
Picador, 1997, 256pp, $ 23.00

وُلد فريدريك ڤيللم نيتشه في روكين الواقعة في سكسونيا البروسية في ١٨٤٤. وكان أبوه وجده من الكهنة البروتستانيين، وكانت والدته فرانشيسكا ابنة لراعي أبرشية. وعاد نيتشه إلى صدر والدته الغامضة وهو في الرابعة والأربعين بعد إصابته بانهيار عقلي. وصادف تاريخ ميلاد والد نيتشه نفس تاريخ والده المستقبلي الموسيقار العظيم ريتشارد ڤاجنر، ورحل عن العالم ونيتشه في الرابعة من عمره، وهي خسارة لم يستطع تعويضها أبدا. وترعرع نيتشه في جو أسري تشكل معظمه النساء: جدته، والدته، أخته اليزابيث العنيفة المعادية للسامية وعمتان لم تتزوجا. وتلقى تعليمه في مدرسة شالبفورتا الشهيرة التي تدار بنظام عسكري، حيث كان سعيدا رغم الانضباط الشديد والصرامة، ولم يصادف أية عقبات على المستوى الأكاديمي، رغم أنه لم يكن يحصل على تقديرات عالية. ودرس بعد ذلك في جامعة بون، حيث تخصص في اللاهوت وفقه اللغة، الذي بدأ به حياته الثقافية، لكنه سرعان ما انصرف عنه.

وزار نيتشه كولونيا في ١٨٦٥ وهو لايزال طالبا، وأخذه بعض الأصدقاء هناك إلى ماخور للدعارة، وثار جدل واسع حول تفاصيل هذه الزيارة، لكن الجميع يتفقون على أنه أصيب خلالها بمرض الزهري. وفي ١٨٦٧ بدأ عـــلاج المرض الذي أدى إلى إصابته بانهيار عقلي في يناير ١٨٨٩ وضع حدا لحياته، حيث عاش صامتا وضائعا داخل نفسه حتى ١٩٠٠. وتقدم ليسلي

تشامبرلين وصفا ممتازا لآخر أيام نيتشه في كتابها، حيث تعرض ملخصا للأمراض العديدة التي أصيب بها.

أما عن دراما صحته المعتلة فإنها لم تتحسن أبدا بعد أن وصل إلى منتصف العشرينيات. وحتى في طفولته كان يعاني من الصداع وقصر البصر، ويبدو أن الضعف واعتلال الصحة ذات صبغة وراثية في الأسرة، حيث كانت صحة أخته اليزابيث معتلة، وكذلك أبوها كارل لودفيج الذي توفي وهو في السادسة والثلاثين بسبب مرض في المخ. ولم يعرف نيتشه سبب اعتلال صحته، رغم أنه كان يشك في معاناته عن مشاكل مرضية وراثية، وكان يهنئ نفسه على أنه بقي على قيد الحياة أعواما تفوق التي عاشها والده. ولكن كيف لم يكن يعلم أنه مصاب بالزُهري رغم وجود ندبة في حشفته وفترة علاجية وإن كانت قصيرة؟ من المؤكد أنه كذب على أوتوآيزر طبيب ڤاجنر، حيث كان قد التقط عدوى الزُهري من إحدى العاهرات أيام دراسته، وتعقدت حالته بعد إصابته بالدفتريا والدوسنتاريا أثناء الحرب الفرانكو بروسية في ١٨٧٠.

وظل نيتشه يعاني من سوء الهضم واضطرابات المعدة والصداع النصفي، مع قيء مستمر، وكان يقضي أياما كاملة راقدا في غرفة مظلمة، لايفعل أي شيء.

كان مرض الزُهري في منزلة مرض الإيدز في تلك الأيام، وعندما نقرأ نيتشه وخاصة أعماله الأخيرة، يجب أن تكون حقيقة مرضه واضحة تماما في أذهاننا. وباستثناء العاهرات، لم ينم نيتشه مع أية امرأة في حدود علمنا، رغم أنه كان يتمتع بصداقات عميقة مع عدد من النساء الجميلات، مثل لو أندرس. سالومي. لكن الحب السري في حياته كان كوزيما ڤاجنر، وكان الناقد الفرنسي تشارلز أندلر قد لاحظ أن العلاقات الثلاثية المعقدة بين نيتشه وآل ڤاجنر كانت أعظم رواية حب رومانسية لم تكتب في القرن التاسع عشر. وكانت كوزيما من الناس الذين كانوا يكتبون إليه في أيامه الأخيرة المرعبة، مثل انهياره في بداية يناير ١٨٨٩. ومن بين الرسائل التي كتبها وهو مخبول يضرب في كل الاتجاهات، تأتي الرسالة التي يقول فيها لكوزيما: «كم أحبك يا آريادن ديونيسيوس».

وبعد جامعة بون درس نيتشه في لاينبرج، وجُنِّد إلزاميا في سلاح المدفعية في الجيش البروسي عام ١٨٦٧، وخلت فترة التجنيد الإلزامي من أي نشاط أو حماس زائد، باستثناء حادث سقوطه من على ظهر الحصان الذي آلمه كثيرا، وتطلب شفاؤه فترة نقاهة طويلة. وعندما اندلعت الحرب الفرانكوبروسية في ١٨٧٠، كان نيتشة يخدم في الوحدة الطبية، وعاني من انهيار فسيولوجي وعاطفي مؤلم، بعد رحلة تدريبية استغرقت ثلاثة أيام وليلتين، أمضاها في عربة مغلقة تحمل ستة جنود مصابين بجروح خطيرة.

وكان نيتشه قبل ذلك بعام واحد، وهو لما يتجاوز الرابعة والعشرين، قد عُيِّن رئيسا لقسم فقه اللغات الكلاسيكية في جامعة بازل، حيث التقى بالمؤرخ چاكوب بيركهارت، وعالم اللاهوت اللاأدري فرانز أوڤربيك، الذي صادقه طول حياته. لكن كان هناك مايشغله أكثر من هذه الصداقات وحتى من نجاحه الأكاديمي، وهو مسألة تبني آل ڤاجنر له. وكانت أولى زياراته لڤاجنر الموسيقار في مايو ١٩٦٩ في تريبشن، وكان بيته قريبا من بحيرة لوسيرن، وداوم على زيارات منتظمة، وكان موجودا خلال أعياد الميلاد في العام التالي في أول عرض لـ «زيجفريد ايدل Sieg Fried» في القاعة الأمامية في هذا المنزل.

ووافق ڤاجنر بكياسة على تملق نيتشه. بعد أن اكتشف بدهائه أنه وقع على حواريّ يمكن أن يساهم في نشر العقيدة الڤاجنرية. لكن الواقع أن نيتشه كان ناقدا لا يلين لڤاجنر والڤاجنرية. وكانت كوزيما ڤاجنر في الرابعة والثلاثين عندما زارهم نيتشه أول مرة، وكانت تشعر بانجذاب نحو لياقته وحضوره. وسحر نيتشه عالم قرية تريبشن الصغيرة التي يقع فيها منزل ڤاجنر، وبدد وحدته وانعزاله، وكان يراها كما لو كانت نسخة أخرى من «الفالهالا» (مثوى الشهداء، أو حجرة الخلود التي تُستقبل فيها أرواح الشهداء حسب الميثولوچيا الإسكندنافية) ونجح نيتشه في أن يتجاهل استغراق ڤاجنر الهوسي في شئونه الذاتية وضيق أفقه واهتمامه بالتوافه، وزيادة تلطف كوزيما، والجو العائلي المعادي للسامية



في ١٨٦٩ طلب نيتشه إعفاءه رسميا من الخدمة العسكرية، وكان معنى هذا سقوط المواطنة البروسية عنه. وتقدم بطلب المواطنة السويسرية بدلا عنها، لكنه رُفض. وأصبح نيتشه من ذلك الحين بلا وطن، وكان وضعا يتفق مع أهوائه ونزعاته

الذي يعيش فيه. وعندما انتقد نيتشه اجنر بقسوة وقال إنه متعهد تقديم أفيون محتال، كانت النتيجة مدمرة خاصة لنيتشه، إذا افترضنا أنها لم تدمر ڤاجنر، وبعد أن فقد نيتشه والده الطبيعي واجه مهمة قتل الأب البديل، وهي مهمة مقيتة لم يستطع تحقيقها حتى نهاية حياته العاقلة قبل أن يتمكن منه الجنون.

وفي ١٨٦٩ طلب نيتشه إعفاءه رسميا من الخدمة العسكرية، وكان معنى هذا سقوط المواطنة البروسية عنه. وتقدم بطلب المواطنة السويسرية بدلا عنها، لكنه رُفض. وأصبح نيتشه من ذلك الحين بلا وطن، وكان وضعا يتفق مع أهوائه ونزعاته. وبعد أن عاني من انهيار عقلي عام في ١٨٧٠، أصبح نيتشه يكرس نفسه لوسواس المرض، ويتجول في أنحاء سويسرا وإيطاليا باحثا عن علاج ناجع، ليس فقط لصحته المعتلة، لكن حالة كونه هذا الشخص الذي لايرجى شفاؤه. وكان يحصل على تصريحات طويلة بالغياب عن وظيفته في بازل، ثم هجر كرسي الأستاذية تماما في النهاية، وأمضى بقية حياته يعيش حياة الكفاف في بنسيون صغير جدا. ورغم كل ألمعيته وذكائه أو بسببهما، لم تكن الحياة الأكاديمية مناسبة له. وأعلن ذلك بكل بصراحة مع نشر كتاب "The Birth of Tragedy" «مولد المأساة» في ١٨٧٢، وهو تفسير جديد للمأساة الإغريقية وأصولها صدم نظراءه بسبب تغلب النغمة الشعرية والافتقار إلى الأدوات الجديرة بعالِم.

واثبت نيتشه بهذا الكتاب أن لديه، مثل هانز چورج جادامر، شواهد وجد صوفية، مثلما هو واضح مع شخصية ديونيسيوس ممثل القوة والنشاط في قلب الحياة والفن الإغريقي. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب المبكر ناقص وفيه بعض الخلل، فإنه يحتوي على بدايات تشكل أغلب أفكار نيتشه الفلسفية وأكثرها بقاء. وبالنسبة لنيتشه لم تكن وظيفة المأساة تطهير النفس البشرية (Catharsis) مثلما كان يرى أرسطو، ولكنها تقديم مشهد نموذجي لدمار مجيد، وكما كتب في كتاب (غسق المعبودات):

> «إن إثبات الحياة وتأكيدها حتى في أغرب وأقسى مشاكلها، وإرادة الحياة ببهجاتها التي لا تنفد من خلال التضحية بأعلى أنماطها، هذا الذي أسميته بالديونيسي وهو ما اعترفت به جسرا يؤدي إلى نفسية الشاعر المأساوي وهو ليس لكي يتخلص من الخوف والشفقة، وليس لكي يطهر نفسه من عواطف خطيرة من خلال التخلص منها بعنف ـ هكذا فهم أرسطو الأمر: لكن فيما وراء الشفقة والخوف، ولكي يدرك في نفسه بهجة التحول الأبدية، تلك البهجة التي تشمل الاستمتاع بالتدمير.. وأعود بهذا مرة أخرى إلى حيث بدأت. إن «مولد المأساة» هو أول ما أقيم به كافة القيم.

ورغم كل هذه المواقف المُتكلفة، كان يعلم تماما بأمر ذلك المخلوق الضعيف والمسكين داخله. وكان قد كتب في أحد دفاتره: «وحاولت أنا أيضا أن أجزم وأؤكد، ولكن آه». وكان نيتشه كما لاحظت الناقدة الإيطالية كلوديا ماجريس، مثل المسيح في حالة كونه مشتاقا لأن يكون ديونيسيوس إله الخمر عند الإغريق.

وفي أواسط سبعينيات القرن التاسع عشر، ظل نيتشه لأكثر من عقد من الزمان يبحث عن مكان بين الجبال ومرتفعات انجادين والجنوب الفرنسي لترتاح فيه روحه المرهقة. وتكتب ليسلي تشامبرلين:

> ... عاش نيتشه نحو عشرة أعوام متجولا، بين جنوة والبندقية وجبال الألب السويسرية وزيوريخ ونيس. وعاش تجارب مماثلة لتجارب ديوجين ودانتي في النفي والاغتراب، وأصبح جوالا هائما يتحدث مع ظله. أي مجد في أن تكون بلا مأوى ولا وطن. وكم عمَّق ذلك من إحساسه بكونه أوروبيا!

ومثل عديد من الألمان قبله، خاصة محبوبه جوتة، ما كان على نيتشه إلا أن يخطو نحو التراب الإيطالي ليقع في غرام الريف. وفي تورينو التي وصل إليها في أبريل ١٨٨٨، شعر أنه وجد أخيرا المكان الذي طالما بحث عنه. وكتب إلى صديقه بيتر جاست قائلا: «إلا تورينو!»، كما لو كان سائحا يتكلم بصيغة التعجب.

> «.. يالها من مدينة عريقة لها وزنها. ليست العاصمة الحاضرة على الإطلاق، وليست مدينة حديثة أبدا، مثلما كنت أخشى، إنما هي مقام أميري فخيم من القرن السابع عشر، مدينة ذات ذوق واحد في كل الأشياء ـ البلاط وطبقة النبلاء. الهدوء أرستقراطي يراعى في كل مكان، ووحدة الذوق موجودة حتى في لون البنايات (كل المدينة لونها أصفر أو بني مائل للاحمرار). هي مكان كلاسيكي للقدمين كما للعينين! ياله من ثراء ويالها من أرصفة للمشاة، ناهيك عن الحافلات وعربات الترام، التي يفوق تنظيمها هنا حد الروعة! ويبدو أن المرء يستطيع تدبير حياته جيدا في هذه المدينة، التي تبدو أرخص من مدن إيطالية كبيرة أخرى. أعرف أيضا أن أحدا لم يخدعني في هذه المدينة حتى الآن، وكم هي جميلة قصورها العريقة! وأسلوب العمارة الذي لا ادعاء فيه، ونظافة الشوارع أمور لا تُصدق! كل شيء أكثر جلالا مما توقعت! أجمل مقاهٍ في العالم رأيتها هنا، ويبدو أن هذه العقود و «البوائك» ضرورية مع تقلبات المناخ، إضافة إلى أنها تمنح شعورا باتساع المكان. وعندما يأتي المساء على جسر بو، يجاورك مجد تجاوز منطق الخير والشر».
>
> وبعد تسعة أشهر من كتابته هذا الكلام اصطدم ذراعا نيتشه بعنق حصان جامح، ثم أصيب بنوع من الجنون لم يشف منه أبدا.

وتعلن ليسلي تشامبرلين في كتابها «نيتشه في تورينو» عما تعتزم القيام به في أول سطر من مقدمتها. «إن هذا الكتاب محاولة لمصادقة نيتشه»، ويكون طبيعيا أن يجفل قلب القارئ قليلا، وتشامبرلين تعلم ذلك. وتكتب: «قد يبتسم الفلاسفة، لكن يبدو لي أن الأهم معرفة، ولو على وجه التقريب، كيفية السير مع هذا المفكر المتكلف، الساحر، الحاقد الذي أسيء فهمه، شديد الأهمية للعصر الحالي» وهي تنجح إلى درجة مدهشة في التواصل مع جوانب الرجل والمفكر بكل غرابته. وكان صديقه ايرڤين روده قد قال عنه إنه مثل رجل جاء من بلد لايعيش فيه أحد.

ولاحظ نيتشه ذلك على نفسه، حيث كتب: «إن بعض الناس يولدون بعد وفاة آبائهم».

وكانت الوحدة والعزلة هى حياته، ويقول: «إن ثلاثة وأربعين عاما وراءى الآن، ولا أزال أشعر بالوحدة نفسها التى كنت أعانى منها وأنا طفل صغير» وفى يوليو ١٨٨٨ كتب نيتشه من قرية سيلزماريا التى يلجأ إليها فى أعالى منطقة ابنجادين، بصورة غير عادية مثل هاينريش فون كلايست كاتبه المفضل. وكانت رسالة نيتشه إلى مالفيدا فون مايزنبوج، وهى إحدى النساء اللائى كن يعتنين به ويظهرن اهتماما لا يستطيع أن يفهمه ولايعرف كيف يعبر عن شكره وامتنانه لهن.

وعزلة، ربما لم يكن ممكنا السماح له أن يقول كثيرا من الأشياء. أعتقد وأشك أن نيتشه نفسه كان يعتقد أن صحبة النساء على وجه الخصوص كان يمكن أن تكبح بعض انفعالاته وتلجم لسانه، إن لم يكن تفكيره، إلا أنه أكثر احتياجا إلى تعاطف أنثوى الآن، تماما مثلما كان يحتاجه وهو حى.

ويحصل على التعاطف من ليسلى تشامبرلين، وهى ليست عالمة على الأقل بالمعنى المهنى. وهى على عكس الرجل الذى تكتب عنه لغوية درست الألمانية والروسية فى أوكسفورد، وتستطيع التحدث بخمس لغات. عملت صحافية فى موسكو، وكتبت كتبا عن الطهى، كانت محررة لكتاب« فن الطهى المستقبلى» لمارينيتى (الآن تتحول ابتسامات الفلاسفة إلى سخرية وتهكم) وهى تقدم تعاطفا جيدا، ووجد فيها نيتشه مستقرا وسببا للراحة فى منزل داڤيد فينو وعائلته، رقم ٦ طريق كارلو ألبرتو. وتقول ليسلى تشامبرلين « كانت غرفته فى الطابق الأخير من بناية من أربعة أدوار»، واعتاد نظام حياة اقتصاديا وعمليا: طعام بسيط لا توابل فيه، قليل من الكحول (ويالها من سخرية أن يبدأ تابع ديونيسيوس المخلص الإقلاع عن المسكرات)، وبعض التمارين الرياضية الصارمة.

وفى كل كتاباته كان نيتشه يصمم على الأهمية المتكافئة لوجود فلسفة لكل من الجسم والعقل، فهى تحميه من فلاسفة مثل ديكارت الذى كان على حد اعتقاد نيتشه يحتقر الجسم باعتباره مجرد وعاء للروح. وباستثناء تمارين الجمنازيوم الرياضية، كان نيتشه مشّاءً عنيدا. وكانت تورينو

ومن ناحية أخرى، كان فى موسيقى ڤاجنر بالنسبة لنيتشه سقط متاع ثقيل، وكان نيتشه دائما يقدم «الممثل» كمقابل للرجل فى حقيقته، وهو الآن يرى ڤاجنر على أنه ظاهرة تاريخية ويقول: «إن ڤاجنر كموسيقار لم يكن أكثر مما هو عليه بشكل عام أصبح موسيقارًا، ثم أصبح شاعرا بسبب الطاغية الموجود داخله، واضطرته إلى ذلك عبقريته التمثيلية» وبواسطة خفة اليد النغمية والتفاهات الدرامية «فاز ڤاجنر بالجمهور، وأفسد الذوق».

> كل شىء نما فى تربة الحياة الفقيرة، وصناعة السمو والعالم الآخر الزائفة وجد فى فن ڤاجنر المتحدث الرسمى السامى باسمه - ليس فى الصيغة فڤاجنر أشد مهارة من أن يلجأ للصيغ - ولكن فى قدرته الحسية على الإقناع التى تجهد العقل وتفسده.

وكما توضح تشامبرلين، فإن موقف نيتشه هنا، كما هو فى مختلف المواضع، غامض ومبهم. فهو مؤلف موسيقى فاشل (وعندما أطلق عليه ڤاجنر هذا الوصف اتهمه نيتشه بأنه فيلسوف فاشل)، يظهر إعجابه بأوبرا كارمن ويفضلها على الأوبرا الملحمية «الخاتم». وكان نيتشه بالطبع غيورا من ڤاجنر (موسيقارا وزوجا)، وكان يدرك ذلك ويعيه جيدا. وكتب متهماً «بارسيفال» بأنها عمل عبقرى فى غوايته، واعترف بإعجابه به قائلا «أعبر عن إعجابى بهذا العمل، وتمنيت لو كنت أنا الذى ألفته، فى غياب فهمى لها».



أراد نيتشة أن يقول نعم للحياة بحقائقها العادية، لكن تلك الحقائق نفسها كانت بعيدة عن مناله. وكان واعيا بعجزه على المستويين الروحانى والعقلى، لكنه لم يغفر لنفسه ولم يسمح لنفسه بالراحة من الكفاح لتكوين فلسفة تأخذ المرء بعيدا عن الأوهام

إننى دون أى قصد لا أدين بأية كلمة لأى أحد، لأن رغبتى للسماح لأى شخص بالتعرف على مصاعب وجودى تتضاءل تماما. بالفعل هناك خواء كبير حولى. ولايوجد من يستطيع أن يفهم موقفى. وأسوأ شىء هو بلا شك ألا أسمع كلمة واحدة لمدة عشرة أعوام يمكن أن تدخل قلبى. وأن أكون مدركا لهذا، أى أدركه باعتباره أمرا ضروريا. وقدمت للبشرية أكثر كتبها عمقا فكيف يجب أن يكفر المرء عن ذلك! إنه أمر يضع المرء خارج كل العلاقات والاتصالات الإنسانية. ويسبب توترا ووهنا كبيرين. ويشعر المرء أنه حيوان مفترس يصاب بجروح بشكل مستمر. والجرح لا يسمع أية إجابة، ويجب أن يظل محمولا على كتفى صاحبه، وهذا عبء يفضل المرء أن يشارك آخرون فى حمله، أو أن يذرف الدمع وهل هناك شىء آخر نكتب من أجله؟، ويمكن أن يموت المرء بسبب الشهرة وفكرة الخلود!».

وتعتبر الأعمال التى كتبها نيتشه فى الفترة الأخيرة من حياته فى تورينو صرخات صادرة من أعمق أعماق الوحدة والعزلة. وتوجد أفكار قبيحة هنا. وطبعا بدون الإفراط لا يكون هناك نفاذ بصيرة حاد وغير عادى. لو كانت حياته أقل وحدة

أومبيا وولعا بنيتشه، خلال تقديم لحظات بأسه المتزايد فى الأشهر الأخيرة قبل الانهيار الذى تحول إلى هلع وجنون. ونجده فى الصفحات الأولى من كتاب «نيتشه فى تورينو» يسافرجنوبا من نيس متوجها إلى تورينو فى زيارته الأولى لها، حيث تقول تشامبرلين:

> ربما يكون قد أخطأ فى قراءة لافتة الرصيف وهو فى سافونا، أو أخطأ فى قراءة جهة المقصد المكتوبة على مقدمة القطار. وكان لا يعرف إلا كلمات قليلة من الإيطالية، وكان ثلاثة أرباع أعمى بدون نظارته. ووضع نفسه وحقيبته اليدوية فى القطار المتجه إلى جنوة، بدلا من المتجه إلى تورينو. وآله ذلك فصبّ غضبه على مواطنى سامبيرداردينا، متهما إياهم باستغلاله عن طريق الأسعار المرتفعة التى لا يتحملها ولايستطيع أن يتجنبها. وكانت النتيجة هجوم الصداع النصفى الذى يشل حركة الإنسان. وقال لصديقه فرانز أوفربيك عن هذه الرحلة إنها كانت أسوأ رحلة فى حياته على الإطلاق.

وكانت تورينو، وهى أكثر الأماكن جمالا، بلسما فوريا لقلب نيتشه المتعب. وكانت، ولا تزال، فريدة بين المدن الإيطالية، فيها آثار عصر النهضة باقية. إنها مدينة خُطط لها تبدو وكأنها مصممة للمشى، بطرقاتها ومتنزهاتها الرائعة على طول نهر بو.

ومثلما هو الحال دائما، كان هناك عمل. وفى تلك الأشهر الأخيرة (حيث استقر فى تورينو من أبريل إلى يونيو حين زار قرية سيلز ماريا، ثم عاد إلى تورينو فى سبتمبر)، وكان معترك إنتاجه مدهشا، حيث كتب أولا «حالة ڤاجنر» الذى بلور فيه كل حججه ضد ما كان يراه أحط أنواع الخداع فى موسيقى ڤاجنر. ونجد فى الفصل الذى خصصته تشامبرلين لكتاب «حالة ڤاجنر» ولنظريات نيتشه فى الموسيقى بشكل عام، أعلى مراتب الجمال الفنى. واختار نيتشه أن يضع الموسيقار بيزيه مقابل ڤاجنر، من بين جميع الموسيقيين. وأعلن أن ما أحبه فى أوبرا كارمن لبيزيه هو خفتها وبهجتها الأفريقية، وقال: «ما هو جيد خفيف، وكل ما هو مقدس يجرى على أقدام رقيقة، هذا هو الافتراض الأول للجمال الفنى بالنسبة لى».

> إن ما نفتقده نحن معشر طيور القاوند فى ڤاجنر هو خفة الحركة، وروح الدعابة، والنار والرشاقة، والمنطق الجرئ، ورقصة النجوم، والروحانية الزائدة.

وأثار كتاب «حالة ڤاجنر» جدلا واسعا، ويلاحظ القارئ أن فيما كتبه نيتشه عن الموسيقار ڤاجنر علامات على الاضطراب العقلى الذى بدأ يهاجم نيتشه، بعد أن نجح مرض الزهرى فى القضاء على مخه. وكل كتب نيتشه ما تقول تشامبرلين، فيها إحساس بالارتجال، وهى غير متناسقة وناقصة فى بعض الأحيان، متحدة ومتراكزة لكن دون أن يكون هناك مركز واضح لها»، لكن بالرغم من أعماله اللامعة التى كتبها فى أخريات حياته تشير إلى اتجاهه للجنون خاصة بنغماتها اليائسة والحادة. والنغمة العالية التى كانت تبدو مثل رابسودية رومانتيكية، كانت فى الواقع نتيجة لهذه الحالة من الاندهاش الفلسفى العادى بالنسبة لنيتشه.

وأعلن نيتشه أن برنامجه لم يكن أقل من «إعادة تقييم لكل القيم»، وبهذه العبارة الرنانة يختتم كتابا آخر من الكتب التى ألفها فى تورينو. وفى كتاب «المعادى للمسيح» الذى كان يعتبره المجلد الأول فى برنامجه وضعه تحت عنوان عام هو «إعادة تقييم لكل القيم». وواجه نيتشه الفلسفة الغربية والثقافة الغربية بشكل عام، بالسؤال عن الأصالة، وهو سؤال مشابه للعنوان الفرعى فى كتاب Ecco Homo، وهو «كيف يصبح المرء ما هو عليه». وكما قال نيتشه فى مقاله المبكر «شوبنهاور معلما»، «إن



اللغز الذى ينبغى على أى كائن بشرى حله، لا يمكن حله إلا إذا كان الإنسان فى كينونته الأصلية، وليس أية كينونة أخرى، فى الثبات وعدم التغير» ويكرر نصيحته بأن نحب قدرنا ونعانق مصيرنا، وأن نتبع زرادشت فى رقصة الأكمة المبتهجة. وكان من ينوى إعادة تقييم كل القيم نفسه غير واضح وغير قابل للتحديد أو التصنيف. وكما كتب هيديجر فى سياق آخر«إن الذى يسأل أسئلة ميتافيزيقية يضعه هذا التساؤل موضع السؤال». أراد نيتشه أن يقول نعم للحياة بحقائقها العادية، لكن تلك الحقائق نفسها كانت بعيدة عن مناله. وكان واعيا بعجزه على المستويين الروحانى والعقلى، لكنه لم يغفر لنفسه ولم يسمح لنفسه بالراحة من الكفاح لتكوين فلسفة تأخذ المرء بعيدا عن الأوهام. وهو بالتأكيد مثال رائع لما يمكن تحقيقه وإدراكه، مع أفقر المواد الخام. وتقول ليسلى تشامبرلين: «لقد خلق لنفسه من عجزه عن الحياة حياة بديلة ضخمة وعريضة».

وكتب نيتشه كتب « غسق المعبودات» و«المعادى للمسيح» و Ecco Homo فى الشهور الأخيرة، التى أمضاها فى تورينو. وواضح أنه كان فى حالة اتقاد ذهنى وحماس شديدين، يدفعانه للكتابة بأسلوب صوفى يجعل قراءة هذه الكتب الثلاثة متعة وإثارة. وتترك لنا متابعة توهج عقله انطباعا بأننا نحن الذين نطرح الأفكار، وليس هو، وهذا أمر كان يراه طبيعة مخادعة للذات وتفكيرا غبيا مسيحيا يجعل المرء يعتقد بصحة أمر ما لمجرد رغبة فى أن يكون صحيحا، وهوما قاده إلى أعلى مستويات السخط والغضب فى كتابى «غسق المعبودات» و «المعادى للمسيحية»، كان نيتشه شاعرا بقدر ما هو فيلسوف رغم أن أشعاره مقيتة، وما يقنعنا بمحاجاته - إن كنا قد اقتنعنا - لهى قوة لغته وتأنقها وكذلك صرامة فكره. وقال فى كتاب«غسق المعبودات» إن طموحه أن يقول فى عشر جمل ما يقوله شخص آخر فى كتاب كامل - وما لا يقوله شخص آخر فى كتاب كامل..» ويقول فى مقطع من كتاب Ecco Homo:

«إن كتاباتى صعبة، وآمل ألا يُعتبر هذا اعتراضا. فلكى تفهم اللغة المختصرة التى يستخدمها الفيلسوف، ولايكون فيها اهتمام بالصيغ وتبدو مثل كائن حى وعلى مستوى فنى راقٍ، عليك أن تتبع الإجراء المعاكس لما يتطلبه عموما الأدب الفلسفى. ويجب على المرء فى غالب الأحوال أن يكون مكثفًا وموجزا كى لايصاب بسوء الهضم. لابد أن أخفف، وأسيل، وأخلط بالماء، وإلا أصاب المرء هضمه بالارتباك».

وكان نيتشه قد كتب عن شوبنهاور فى بداية حياته كفيلسوف قائلا: «إن قَدَر العزلة بمثابة الهدية التى يتلقاها شوبنهاور من أقرانه، بغض النظر عن المكان الذى يعيش فيه، فالصحراء والكهف دائما معه». والآن بعد تجواله فى الخريف فى أنحاء تورينو وهو يتدبر أفكاره، يدخل مرحلة فراغ الذات الخاصة به، وتظهر الخطابات الأخيرة مشاعر حزينة، لشخص يطلب العون والمساعدة. وكتب لبيتر جاست فى كتاب Ecco Homo يقول: «إن الأمر يتجاوز مفهوم الأدب، لدرجة أنه لا يوجد ما يوازيه، حتى فى الطبيعة نفسها. إنه مثل تفجير يشطر تاريخ البشرية نصفين، بقدر يزيد مما يمكن أن يفعله الديناميت»...

وكان العلماء فى تورينو ينحنون لنيتشه احتراما فى المكتبات، وكانت عيون كثير من النساء عليه. وكان يتساءل عما إذا كان يجب عليه أن يتنكر أثناء تجواله، كما لو أن هناك من يتعرف عليه بالفعل. وكتب لوالدته:

[لم أعرف حتى الآن معنى أن يستمتع المرء بطعامه، وبأمانة شديدة أنا أتناول أربع وجبات مثلما كان الأمر فى نيس، أدفع نقودا أقل ولا أواجه أية متاعب مع معدتى. وأعترف بأننى كنت أتلقى معاملة تفضيلية وطعاما شهيا. ولكن هذا الوضع لا يتغير فى أى مكان أذهب إليه. فالناس يعتبروننى شخصا مميزا، وقد تندهشين عندما ترين جو التبجيل والاحترام الذى يعيش فيه ابنك».

وكان النهاية وشيكة، إذ بدأ خطه يضمحل ووصل إلى درجة من الرداءة لا يستطيع معها فك رموزه إلا والدته. وفيما يلى مقطع من قصيدة ديونيسية حماسية من ذلك الزمان، تصفها ليسلى تشامبرلين بأنها من «صفاء شعر ريلكه واستبطانه»:

إن العزلة ليست ألما بل هى نضج، تصبح معه الشمس من أعز أصدقائك»

لم يعد لنيتشه من يصادق إلا الشمس، لم يكن ليجد عونا على كوكب الأرض، مثلما قال كليست عنه. وكان يعانى من نوبات بكاء منهكة، مصحوبة برعدة وأمارات تألم على الوجه، كان يختفى عن الأنظار فى غرفته فى طريق كارلو ألبرتو، يراقب قسوة الشتاء. وجاء عيد الميلاد وانتهى، وفى الثالث من يناير عانق فرسا فى طريق بو وسقط منهارا على الرصيف. ووصلت الشرطة التى استدعاها داڤين فيڤو وصاحب البيت الذى يستأجر نيتشه غرفة فيه، وتعرف نيتشه عليه عندما عاد إلى وعيه وهو فى غرفته، حيث ظل وراء بابها المغلق يهذى ويرقص صاخبا وعاريا فى جنونه البانوسى الخاص.

ونقل من تورينو إلى عيادة خاصة فى بازل، حيث عالجه الدكتور فيل الذى اعتبره نيتشه شبحا آخر من تلك الأشباح التى أحاطت به فى نهايته، وبعد ذلك أخذته والدته إلى ناومبرج وبعد وفاتها فى ١٨٩٧ أخذته أخته إلى فايمر حيث استقر معها فى منزلهما (The Villa Silberblick) وكانت شهرة نيتشه قد طبقت آفاق أوروبا، وكانت كتبه تدر دخلا كبيرا استخدمته اليزابيث فى الحفاظ على أسلوب حياة لم تعتده. وزار الكونت هارى كيسلر الفيلا فى ١٨٩٧، وكتب واصفا الحالة المحزنة التى غرق فيها الفيلسوف: «فى وجهه الذى لا أثر لحياة فيه لايزال يمكن للمرء رؤية تجاعيد حفرتها الأفكار وقوة الإرادة. لكنها كانت قد وصلت إلى مرحلة بائسة من الترهل. وكان تعبير وجهه الوحيد إرهاقا بلا حدود».

رغم سوء الفهم الذى تعرض له هذا الرجل، وإساءة فهم أعماله التى أدت إلى أن يعتبره الكثيرون شريرًا، إلا أن نيتشه يظل واحدًا من أعظم وأعمق المفكرين فى العصر الحديث. وبدونه يصعب رسم صورة لخريطة الفلسفة والأدب فى القرن العشرين، من هايدجر إلى بول دى مان، ومن فرويد إلى لاكان، ومن توماس مان إلى ميلان كونديرا

وفى زيارة تالية لكيسلر، أيقظه من نومه فى الليل صوت صرخة ألم رهيب من غرفة نيتشه، يقول عنها: «كنت نصف مستيقظ، وسمعت مرتين نفس صوت الصراخ الأليم بأعلى الطبقات الممكنة».

وفى ١٨٩٩، هاجمته أزمة سكتة دماغية خفيفة، تبعتها أخرى أكثر قوة فى العام التالى، ودب الوهن فى جسم نيتشه، ووجد صعوبة فى الكلام. وذات يوم عندما وضعوا كتابا جديدا فى يده، قال: ألم أكتب أنا كتبا جيدة أيضا؟ وأصيب فى أغسطس من سنة ١٩٠٠ بنزلة برد وضيق فى التنفس. وهاجمته سكتة دماغية فى الخامس والعشرين من أغسطس مات على أثرها. كان لإثبات عقيدته، وفى أوج أزمته فى أكتوبر الأخير له فى تورينو أثناء انهياره العقلى، كتب الفقرة التالية على رأس كتاب Ecco Homo :

«فى هذا اليوم الجميل الذى كان كل شيء فيه قد نضج واستوى، ليس فقط عناقيد العنب الذهبية، بل أشعر أن شعاعا من ضوء الشمس يغمر حياتى. نظرت ورائى وأمامى حيث رأيت أمامى أشياء بديعة لم أرها من قبل.

لم أدفن عامى الرابع والأربعين اليوم هباءً إذن، كنت جديرا بحمله، وما اتصل منه بالحياة لم يدفن لأنه يتمتع بالخلود الذى أنقذه. فى كتب «إعادة تقييم كل القيم» و«أغنيات زارادشت» و«غسق المعبودات» تبدو محاولات لفلسفة الأمور بمطرقة. وكانت هذه الكتب أفضل هدايا من عامه الأخير، بل الربع الأخير منه. بحيث يمكننى أن أعترف بالجميل لحياتى كلها؟ وهكذا أحكى لنفسى عن حياتى.

رغم سوء الفهم الذى تعرض له هذا الرجل، وإساءة فهم أعماله التى أدت إلى أن يعتبره الكثيرون شريرًا، إلا أن نيتشه يظل واحدًا من أعظم وأعمق المفكرين فى العصر الحديث. وبدونه يصعب رسم صورة لخريطة الفلسفة والأدب فى القرن العشرين، من هايدجر إلى بول دى مان، ومن فرويد إلى لاكان، ومن توماس مان إلى ميلان كونديرا.

ويقول ضمن حكمه التى تبدو عرضية «ليست هناك ظاهرة أخلاقية على الإطلاق، لكن هناك تفسير أخلاقى للظاهرة». ولقد دمّر نيتشه جميع جدران بيت الفلسفة الغربية، جاء بكلام مغاير وأنباء عن موت الرب بأسلوب الخيال العلمى، وهاجم أسس العقيدة المسيحية، وشجب احتقار الحياة الطبيعية التى كان يعتقد أنها ذنب اقترفه القساوسة والفلاسفة على حدّ سواء.

وهكذا كان نيتشه يكتب بنثر جميل تفسيرًا شاعريًا للحياة بعظمتها ومجدها. إنه فيلسوف تجاهله معاصروه، وانتهكناه نحن فى عصرنا، ورغم ذلك يظل نيتشه رغم إخفاقاته التى كان يعزوها لكونه إنسانيًا، مفكرًا وفيلسوفًا ثابتًا خمدت أضواء فكره فى فجر قرن تنبأ بكثير من عذاباته ورعبه. ويقول وليام جاس: «هاجم نيتشه قيمنا كما لو كانت عملات مزيفة مشكوكًا فى أمرها، وترك فى كلٍ منها آثار تثليم أسنانه....».

بترتيب خاص مع:

The New York Review of Books

ترجمة: عبدالعظيم الورداني

أغـــانى الحـــب والـــزواج

مينـــا بديـــع عبـد الملك

الإنسان والحيوان يستعملان الصوت كوسيلة للاتصال، وأحيانًا يصعب تمييز الأصوات المنطوقة (أى اللغة) من العناصر الأخرى مثل درجة الصوت وزمنه (التى تكون ما نسميه موسيقى). وكما يقول موريس فريدمان أستاذ علم الإنسان بجامعة أكسفورد بإنجلترا، توجد لغات لها نغمة، ونصوص منغمة، وتركيبات موسيقية شبيهة بلغة الكلام.

وهناك صلات وثيقة بين الإشارات والحديث المنطوق وبين الإشارات والموسيقى، وهذا ما يطلق عليه اسم الرقص.

وفى المجتمعات ذات التقاليد الشفوية، نجد أن الترانيم أو النصوص المنغمة أُستعملت كوسيلة لنقل روايات التاريخ والأساطير، والمنشدون المتخصصون فى هذا الفن ذوو الذاكرة المدربة يعتبرون بحق مكتبات حية.

من هنا كانت دراسات الموسيقى فى المجتمعات غير الأوروبية فى النصف الأول من القرن العشرين هى الغذاء الذى اعتمدت عليه أقسام علم الإنسان فى بعض جامعات الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، مما أدى إلى ظهور علم (موسيقى الأجناس). وعلم موسيقى الأجناس يبحث عن الأصالة بطريقة مماثلة لتلك التى لجأ إليها كثير من الباحثين فى علم أصول السلالات البشرية وأجناس الأمم فى فروع أكثر محافظة من البحوث فى علم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية (علم الإنسان). وقد أصبح علم موسيقى الأجناس حاليًا متعلقًا بمدى واسع من الاهتمامات الاجتماعية ومن يمارسونها وبنوع من علم الأجناس البشرية التطبيقى، إذ إنها تؤدى دورًا فى تحديد شخصية ثقافة المجتمع والمجموعات التى بداخله. ولقد ظهرت وسائل حديثة فى التحليل، ومنها الاستعانة بالحاسب الآلى، مما أدى إلى تطور هام فى استعمال الآلات الموسيقية، وهو تحويل الصوت الموسيقى إلى شكل مرئى، وتسمى هذه الآلات (مدونات الألحان). وقد جرى إعدادها فى جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فى جامعة أوسلو.

وحاليًا تهتم معظم البحوث فى علم موسيقى الأجناس بوصف الموسيقى ومقارنتها، ولكنها لاتستطيع الوصول إلى أساسها كثقافة (مثل ما يحدث فى الأدب والتكنولوجى). لأن تناول الموسيقى لا يصبح كتناول موضوع خاص إذ إنه مرتبط بالفكر والمشاعر والسلوك.

وفى دراسة مهمة للموسيقى الأفريقية صدر عام ١٩٩٩ عن دار النشر «أشجات» Ash-gate كتاب يحتوى على دراسة موسيقى أربعة بلاد أفريقية وهى مصر، وغانا، وأوغندا، وكينيا. وإن كانت الموسيقى قد فقدت معناها فى أفريقيا المعاصرة نتيجة التأثيرات الغربية، إلا أنه مازال أغلب الأفارقة يعيشون وفق أنماط الحضارة الموروثة، وما زالوا يحفظون موسيقاهم التقليدية والتى تمثل تجربتهم الرئيسية للفن الموسيقى.

ويقول آكين أويبا الباحث فى علوم الموسيقى بجامعة Ife النيجيرية، أن الذوق الموسيقى السائد عند الأفريقيين - الذين تلقوا تعليمًا غربيًا، ويتعرضون بحكم أسلوب حياتهم لجوانب مختلفة من الحضارة الغربية - على نوعين، هناك أقلية صغيرة لديها تذوق للموسيقى الغربية الكلاسيكية والدينية والجاز، أما الأغلبية العظمى، فليس لديها أى اهتمام باى نوع من الموسيقى غير موسيقى (البوب). وفى اهتمام بالموسيقى المصرية الفلكلورية، قدم الدكتور: عادل كامل حنا: رئيس المحررين الموسيقيين والمشرف الأول على قطاع الموسيقى بالتليفزيون المصرى والمدرس بأكاديمية الفنون والمعهد العالى للموسيقى العربية، دراسة وافية عن الموسيقى المصرية والغناء الشعبى، فهذا التراث الشعبى يمثل فى حياتنا أهمية كبيرة، فهو حكمة الأجيال ووثيقتها الحية التى تتناقلها عبر العصور، وهو التعبير الحقيقى عن نفسية الأمة وأصالتها بين الأمم.

فالأغنية الفلكلورية فى مصر منذ الفراعنة حتى الآن - كما يقول عادل كامل: تواكب حياة الإنسان المصرى من المهد إلى اللحد معبرًا بها عن أفراحه وأحزانه، مشاركًا بها فى مختلف المناسبات، فمنذ اللحظة الأولى لميلاد طفل مصرى تبدأ الأغنية والترنيمة تأخذ طريقها إلى أسماعه، تهننه وتهدهده لينام، أو ليهدأ على إيقاع الأغنية الحالم الهادئ الرقيق، ثم تؤدى له الأغنيات فى الاحتفال بمرور أسبوع على مولده وسط فرحة العائلة والأبوين من خلال طقوس معينة، ثم تاتى أغنيات المهد وترقيص وملاعبة ومداعبة الأطفال، ولا تمر بضع سنوات قليلة، حتى نجد أن الطفل نفسه أصبح مؤديًا وممارسًا ومبدعًا لنوع مهم من الأغنيات، يؤديه وهو يلعب مع أصدقائه.

ثم تاتى مرحلة الصبا والشباب باغنيات الأعياد والجماعات وأغانى العمل الجماعية والفردية.

وبعد ذلك تكون أغنيات الحب والزواج والأفراح بطقوسها المختلفة.

ثم الأغنيات الدينية الجماعية والفردية فى الموالد والمناسبات الدينية والقومية، ثم أغانى الحجيج والحداد والعديد.

وعلى الجانب الآخر نجد السير والملاحم والمواويل والقصائد والقصص الشعبية ذات الصفات التراثية.

فأغنيات التقاليد الشعبية نجدها فى أغنيات الطفولة، أغنيات الزواج، أغنيات المآتم، أغنيات العمل، أغنيات الحجيج، أغنيات الملاحم.

أغنيـــات الطفـــولة

مثل أغنيات (السبوع)، وأغانى (المهد)، ففى السبوع يضع المصريون الطفل فى غربال مملوء بحبوب القمح والذرة، وبينما يحركونه يمنة ويسرة فى حركة منتظمة تؤدى الأغنية.

فمن أغانى المهد كما سجلتها بهيجة صدقى رشيد فى كتاب (أغانى مصر الشعبية):

ننا ننا نام
ننا ننا هو
دى حبيبة وأنا أحبها
وأحب اللى يحبها
وأحب الورد الأحمر
إكمنه بلون خدها
يا رب تنام يا ربى
تنام وأدبح لك جوزين حمام
باضحك عليك يا دى الحمام
بس علشان حبيبتى تنام
يا حبيبة يا حبيبة
ما جوزكيش غريبة
أجوزك فى البيت عندى
لجل ما تبقى قريبة
يا حبيبى من زمان
وأنت فى برج الحمام
والسنة دى الحمد لربى
فى حضن أمك تنام

ثم أغنيات (الختان)، حيث يطاف بالطفل المراد ختانه فى الشوارع فى حفل شعبى كبير ومعهم الموسيقيون وجماعات راقصة من الجنسين.

أما أغنيات (العيد) فهى من الأغنيات المنتشرة فى كل ربوع مصر، وخاصة فى القرى والأحياء الشعبية فى المدن، وتتعدد مواعيد هذه الأغنيات طبقًا للأعياد التى يحتفل بها الأطفال، سواء أعياد المسلمين أو الأقباط، ويشترك فى هذه الأغنيات مجموعات الصبية والفتيات.

أغنيـــات الزواج

الزواج فى مصر مناسبة شعبية مطلقة، مناسبة يحتفل بها الفقراء قبل الأغنياء، من حيث الاهتمام بالطقوس الشعبية، والشكل الطقسى هنا يكاد يصل إلى شكل درامى مكتمل، ففى الريف المصرى يواجه العروسان أجمل التقاليد الريفية القديمة - وتختلف التقاليد من قرية لقرية أو محافظة لمحافظة، وتتنوع أغانى الزواج فى مصر، فهناك أغنيات لمناسبة الخطوبة أو الشبكة وأغنيات فى ليلة الحنة وللزفاف.

وقد سجلت د. فاطمة حسين المصرى فى كتاب (الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفولكلور المصرى) أغنية تتردد فى الأفراح، تقول:

ومليت له الجلة من لبن البجر
ولا عايز الجلة ولا لبن البجر
ولا عايز الجلة ولا لبن البجر
ولا عايز إلا أنت يا ضى الجمر
ومليت له الجلة من لبن الجاموس
ما عايز إلا أنت يا ضى الفانوس
ومليت له الجلة من لبن الجمال
ما عايز الجلة ولا لبن الجمال
ما عايز إلا أنت يا ضى الهلال

وهناك أغنية أخرى، سجلتها بهيجة صدقى رشيد، تقال فى زفة العروسة:

اتمخطرى يا حلوة يا زينة
يا وردة من جوا جنينة
يا عود قرنفل يا عروسة
والورد ضلل علينا
اتمخطرى وتعالى جنبى
يا حلوة فى البدلة البنبى
يا عود قرنفل يا لفندى
والورد ضلل علينا
اتمخطرى وتعالى لهنا
يا بت سيدنا وسيدنا
يا بت الشيخ العلما
يا عقلة وكاملة المعنى

المـــآتم:

هذا النوع من الأغانى يطلق عليه اسم أغانى (العديد)، تتشابه تمامًا من الوجهة الموسيقية البحتة وأغانى الحجيج وبعض أغانى الفرح، وذلك فى أسلوب البناء والتركيب اللحنى والأداء الغنائى.

وهذا النوع بدأ فى الاندثار وطواه النسيان، وخصوصًا بعد أن اختفت إحدى المهن الشعبية وهى (المعددة أو الندابة) تبعًا لانتشار الثقافة ووسائل التنوير - إلى حد ما - فى مختلف أنحاء مصر، إلى جانب تحريم الأديان السماوية، ممارسة هذا النوع ولا سيما بالصورة المبالغ فيها.

والأداء عبارة عن تنغيم بعض الكلمات أو الأشعار الشعبية من البكائيات، فى قالب حر ارتجالى، معددًا مناقب المتوفى إلى جانب ذكر بعض المعانى التى تدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر.

العـــمـــل:

مثل أغنية (حداء الإبل) وتعد من أقدم الأغنيات القومية الشعبية وأغنية (هلالية)، وهى من أغنيات الصيادين أثناء جذب الشباك من البحر، وهى تحض على تشجيع الجهد الجسمانى الذى تبذله الجماعة، وهم ينادون بلفظ (هيلا.. هيلا)، وفى بعض المقاطع يشيرون إلى رحلاتهم البحرية للصيد، وأغنية (جمع القطن)، وتبدأ بمقطع يمجد فيه الفتيات (الخولى) الذى يقوم على تنظيم عملية جلب الفتيات لجمع القطن ومسئوليته عنهن الإدارية والمالية، وهن هنا فى هذه الأغنية الشعبية يطلقون الزغاريد تحية له.

ومن أمثلة أغانى العمل:

جرحى من المى مكران على
مكتوب يا ناس من الجدع للراس
كتبوا سيدى ونا ايش بيدى
جرحى من المى مكران على
جرحى من المى مكران على
كوانى البين بدل الكى اتنين
جرح الجياد عيان يا ولاد

Composing the Music of Africa

(تصنيف موسيقى أفريقيا)

Edited by: Malcolm Floyd

Vermont: Ashgate Pub. Company, 1999



من وحدات الوشم
.. فن شعبى مصرى

أغنيـــات الحـــجـيـج:

يقوم المسلمون من جميع أنحاء العالم بالحج إلى مكة المكرمة، ويحتفل بهذه المناسبة احتفالاً لا يقل عن حفلات الزفاف، وإن كانت في أيامنا هذه قد تلاشت بصورتها الشعبية، وإن وجدت، فقد تتم على شكل حفل ديني يستعان فيه بأحد المشايخ وتقدم فيه التواشيح والقصائد الدينية والمدائح النبوية.

أما أغاني الحج التراثية، فلم تعد تقدم إلا بشكل نادر في القرى، وكانت تبدأ عندما يقدمون طلباتهم للحج، ثم الاستعداد له بتجهيز متعلقات ومتطلبات الحاج أو الحاجة من المأكولات والملبوسات، وطلاء المنزل وتلوينه وتزيينه بالصور والرسوم الشعبية التي تعبر عن ذلك برسم مركب أو طائرة ورسم للكعبة وكتابة آيات قرآنية وعبارات التهاني والأمنيات بالعودة الطيبة المباركة.

أغنيـــــات الملاحـم

يظهر هذا النوع من الأغنيات غالبًا عند الشعوب التي يمتلئ تاريخها بأقاصيص وأساطير وتاريخ قديم ملئ بقصص الحب والبطولة، أيضًا نجدها عند الشعوب التي واجهت المحن سواء كانت هذه المحن سياسية أو اقتصادية، والشعوب التي واجهت القهر والإرهاب سواء جاء من خارج حدودها أو من داخلها.

ويحفل التاريخ المصرى بالكثير من ملاحم البطولة والحب (أبو زيد الهلالي)، (حسن ونعيمة)... وغيرهما العديد من القصص، وهي ليست مجرد قصص يرويها الكبار للصغار، بل هي قصص مكتملة الحدث الدرامي ثم هي قصص غنائية كاملة، يغنيها شاعر الربابة منذ بدايتها وحتى نهايتها، ولا يمنع أن التراث الشعبي المصرى ملئ أيضًا بنوعيات أخرى من أغنيات الملاحم يدور بعضها حول الثأر مثلاً، والملحمة المعروفة (أدهم الشرقاوى) تدل على ذلك، وهناك ملاحم تعطي لنا نموذجًا مثاليًا حول التحمل والصبر مثل ملحمة (أيوب)، أو كما يسميها البعض (ناعسة وأيوب) وغيرها.

ففى ملحمة (أيوب) ـ كما سجلتها د. فاطمة المصرى ـ يقولون:

غريب يا ولداه عن أهلي وخلاني
راح ليه حبيبي وليه يا رب خلاني
كم شب شملول رماه البين من جبلي
أيوب لما ابتلى واحد وأنا التانى

هذه نماذج فقط من تراث غنائى غزير يمتلئ به تاريخ الفن الشعبي في مصر، ونحن لسنا بأول شعب حاول البحث في تاريخه القديم كي يستغل تراثه بأشكال فنية تقليدية أو متطورة.

ويختتم د. عادل كامل دراسته بقوله: لم تزل أمامنا عملية (المنهجة) العلمية التي نرى بها ما نملكه بين أيدينا، وعليه سنعرف حجم أحلامنا التي يمكن أن تتحول إلى حقيقة. ■

مهرجان أفينيون المسرحي

صبري حافظ

لاشك أن هذا المهرجان المسرحي الكبير مهرجان أفينيون (Festival Avignon) واحد من أكبر المهرجانات المسرحية في أوروبا، إن لم يكن أكبرها جميعا، وهو في الوقت نفسه من أعرقها. فقد بدأه الممثل والمخرج المسرحي الكبير جان ڤيلار عام ١٩٤٧ ليس كمهرجان للمسرح. فلم يفكر عند تنظيمه في أن يكون مهرجانا سنويا، وإنما كان يريد تقديم عروض مسرحية متميزة في موسم صيفي لم تعهده المدينة من قبل. ولكن نجاح هذا الموسم الكبير بصورة لم تكن متوقعة دعاه إلى زيارة المدينة في السنة التالية بفرقته المسرحية، ثم انتظم المهرجان بصورة سنوية، ودعا إليه عددا من الفنانين، والفرق الأخرى. وكانت مسرحيات المهرجان تعرض جميعها على خشبة مسرحية مؤقتة تنصب في قاعة الشرف في القصر البابوي الذي يعد واحدا من المعالم الأثرية الفخمة في المدينة. وسرعان ما أصبح للمهرجان - وخاصة بعدما أسندت إلى ڤيلار إدارة فرقة المسرح القومي الشعبي - أسلوبه الدرامي الخاص، ومنهجه في العرض والإخراج. وما أن حل العيد السنوي العاشر للمهرجان عام ١٩٥٦ حتى كان قد كرس نفسه كواحد من أهم المهرجانات المسرحية الفرنسية، ثم تطور به الأمر حتى أصبح بمرور الزمن وضخامة البرنامج، واتساع نشاطاته، أهم المهرجانات المسرحية الفرنسية قاطبة، وربما أحد أهم المهرجانات المسرحية الأوروبية جميعا.

ومهرجان هذا العام، وهو المهرجان الرابع والخمسون، دليل ساطع على ذلك. لأن المهرجان قد أصبح بحق تظاهرة مسرحية تتجاوز قدرات المشاهد على الإلمام بأطرافها في هذا العام بشكل خاص، لأن هذا العام كان عام الاحتفال بنهاية الألفية الثانية. ومع أنني لم أحضر هذا المهرجان الكبير إلا مرة واحدة قبل خمس سنوات، أي مهرجان عام ١٩٩٥، إلا أنني لاحظت أن مهرجان هذا العام كان أضخم من ذلك الذي حضرته من قبل، وأشد تنوعا، وأكثر خصوبة. وكانت به الكثير من العروض المهمة التي اختارتها إدارة المهرجان للاحتفال بهذه المناسبة المهمة، ولتدعيم مكانة هذا المهرجان المسرحي باعتباره أهم مهرجانات فرنسا المسرحية وأضخمها، بالرغم من كثرة المهرجانات والاحتفالات الثقافية في هذا البلد الذي يهتم كثيرا بالثقافة، ويوليها عناية فائقة، بالصورة التي يتفق فيها الكثيرون على اعتبار أفينيون عاصمة المهرجانات المسرحية لا في فرنسا وحدها، وإنما في أوروبا برمتها.

ويتكون مهرجان أفينيون عادة من برنامجين: أولهما هو البرنامج الرسمي للمهرجان، وهو برنامج محدود، لا يتجاوز العشرين عرضا عادة، ويهتم بأن تكون هناك بالإضافة إلى مجموعة متنوعة من العروض التي لا يجمعها إلا الزخم الإبداعي، والتميز المسرحي، مجموعة أخرى يجمعها محور إقليمي عادة. فقد كان المحور الإقليمي في المرة السابقة التي حضرته فيها هو فنون شبه القارة الهندية. بينما كان محور هذا العام الإقليمي بعنوان «من البلطيق إلى البلقان» وهي منطقة عريضة تبدأ من جمهوريات البلطيق السوفيتية السابقة، وتمتد عبر أوروبا الوسطى حتى البلدان التي تتكون منها فسيفساء منطقة البلقان المتفجرة. وقبل الحديث عن هذا المحور لابد من الإلمام ببقية جوانب المهرجان. فقد انطوى المهرجان الرسمي هذا العام على سبع عشرة مسرحية وعرض راقص، بينما تضمن برنامج «من البلطيق إلى البلقان» عشرة عروض مسرحية. أما البرنامج الثاني فهو البرنامج غير الرسمي، والذي يعرف

Festival d'Avignon

(مهرجان أفينيون المسرحي)

Avignon: 6-30 Juillet 2000

عندما تتحول المدينة

بـ Festivall Off أو Avignon Off وهي تسمية جاءت نتيجة تبني المصطلح الأمريكي الذي يعود أصله الاشتقاقي إلى الشوارع الجانبية المتفرعة من شارع Broadway وهو شارع المسارح التجارية الكبيرة في مدينة نيويورك، ففي تلك الشوارع الفرعية نجد المسارح الصغيرة المعروفة بمسارح Off Broadway، ثم تخلت الكلمة بالتدريج عن معناها التقليدي الذي يعني الشوارع المتفرعة من شارع برودواي، وأصبحت تعني العروض المسرحية التجريبية أو المتقشفة أو عروض المسارح الصغيرة عامة.

وهذا الشق الثاني من المهرجان، هو عندي الشق الأهم، ليس فقط لأنه أضخم من المهرجان الرسمي بما لايقاس، من حيث العدد والتنوع. فقد تجاوزت عروض Festival Off هذا العام السبعمائة عرض لأكثر من خمسمائة فرقة مسرحية. ولكن أيضا لأنه المهرجان الذي يخرج بالمدينة عن وقارها التقليدي، ويغير طبيعة فضائها الحضري كلية. إذ يحيل المدينة برمتها إلى مسرح كبير. ففي برنامج هذا العام مثلا ستة عشر عرضا من عروض مسرح الشارع. لكن هذه العروض الستة عشر ليست هي كل عروض مسرح الشارع التي يمكن للمشاهد متابعتها في شوارع أفينيون أثناء المهرجان، لأن هذه المدينة التاريخية الجميلة عادة ما يتحول فضاؤها بأكمله إلى مسرح كبير طوال ساعات النهار والليل بفضل مهرجان Off. فلا يمكنك أن تمضي ساعة متجولا في شوارع هذه المدينة دون أن تصادف نوعا من العرض المسرحي، ولا يمكنك أن تجلس في أحد مقاهيها أو تعرج على أحد مطاعمها، دون أن يمر عليك بعض العارضين الذين يدعونك لمشاهدة أعمالهم في المهرجان المفتوح أو التجريبي، ويقدمون لك شيئا من هذه الأعمال حتى تتذوق شيئا منها يفتح شهيتك للمزيد.

والواقع أن أكثر ما يمتعني في هذا المهرجان هو تحول المدينة ذاتها إلى مسرح كبير بحيث يصبح وجودك في المدينة خلال أيام المهرجان وجودا مسرحيا خالصا، وكأن الحياة قد انتقلت من مسارها الطبيعي إلى خشبة المسرح الحي هذه المرة. لأن المدينة وهي من المدن الفرنسية الثرية التي تقع في قلب منطقة Provance تتحول إلى مسرح كبير. ويراعي المهرجان غير الرسمي، مهرجان الـ Off والذي أود دعوته بالمهرجان الشعبي المفتوح، أحوال الذين لا يستطيعون الإقامة في المدينة، ولذلك فإن عروضه تستمر طوال اليوم بأكمله. تبدأ العروض في العاشرة صباحا، وتستمر حتى منتصف الليل، بمعنى أنك في أي ساعة من ساعات النهار، حينما يحلو لك مشاهدة عرض، ستجد أن هناك على الأقل عشرين عرضا تبدأ في العاشرة صباحا لتختار منها، وخمسين أخرى تبدأ في الحادية عشرة، وثلاثين تبدأ في الثانية عشرة، وهكذا حتى منتصف الليل الذي تتناقص عنده العروض. لذلك إذا كانت مدة إقامتك محدودة في هذا المهرجان، وأردت أن تغطي أكبر عدد من عروضه فعليك أن تشاهد أكثر من عرض تجريبي واحد في النهار، وعرضا رسميا في المساء. وهذا ما حاولت تحقيقه للإلمام بطرف مما ينطوي عليه هذا المهرجان الكبير والمثير.

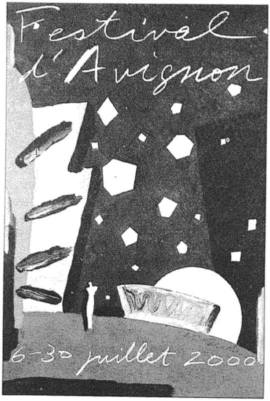
وإذا ما بدأنا بالمهرجان الرسمي سنجد أنه يتكون من شقين كما ذكرت، الشق الرسمي الأساسي، وقد تضمن ١٧ عرضا مسرحيا كان من أبرزها (ميديا) ليوريبيديز، و(لورينزاتشيو) لألفريد دي موسيه، و(مارا - صاد) لبيتر ڤايس، و(أموال القرود) لديدييه جالاس، و(جلجامش)، و(المفتش العام) لجوجول، و(ثلاثية تشيخوف). فضلا عن عرضين من عروض الممثل الواحد، وعدد من العروض ذات الطبيعة التجريبية مثل (الثلاثية) التي تنهض على ثلاثة أعمال موسيقية، وتجري بعض تجاربها المسرحية على الإيقاع والصوت بالدرجة الأولى، أو عرض مثير من كندا بعنوان (كوشيل الصغيرة) لنورمان شاريت. أما الشق الثاني الذي ينطوي على عروض التظاهرة الإقليمية (من البلطيق إلى البلقان) فقد شمل (فندق أوروبا) وهو عرض من الإبداع الجمعي. و(بستان الكرز) لأنطون تشيخوف في عرض من المجر، و(الأمير ميشكين) وهي معدة عن رواية ديستويفسكي العظيمة (الأبله) وقد أعدها وأخرجها البولندي جريجوري يارزينا، و(مأساة الإنسان) وهي مسرحية مجرية من إخراج لازلو هودي، و(عن الموسيقى) وهو عرض روماني، و(الجزة السوداء) وهو عرض تجريبي بلغاري أعدته وأخرجته مارجريتا ملادينوڤا مع إيڤان دوبشيف، وغيرها.

وسأبدأ بتناول عدد من عروض المهرجان الرسمي أولا قبل الانتقال إلى المهرجان الشعبي المفتوح. وكانت (ميديا Médée) بالطبع، والتي قدمت في بهو القصر البابوي الكبير، حيث ولد المهرجان، في طليعة هذه الأعمال.

ليس فقط لأنها واحدة من روائع المسرح في كل زمان ومكان، ولكن لأن نقاد المسرح الفرنسيين، والجمهور الفرنسي قد اهتموا اهتماما كبيرا بهذا العرض، وذلك لقيام النجمة الفرنسية الشهيرة أيزابيل هوبير بدور «ميديا»، وقيام المخرج الفرنسي الشهير جاك لاسال بإخراجه، وتوفرت له إمكانيات كبيرة، وإن لم يحقق النجاح النقدي المأمول منه، بسبب افتقاد الممثلة الفرنسية الشهيرة لأبسط مؤهلات «ميديا» وهي الصلابة والبنية العضوية والنفسية التي تتحدى بنية الرجال. فدور «ميديا» من الأدوار التي تحتاج إلى ممثلة كبيرة، لا نجمة شهيرة. والواقع أن النجمة الفرنسية الجميلة والضئيلة - جسما - قد ظلمت ظلما كبيرا حينما منحت هذا الدور، ولكنها مع ذلك استطاعت في بعض مشاهد المسرحية أن توصل لنا شيئا من تلك الوحشية البربرية التي تعتمل في أغوار «ميديا»، ورغبتها البدائية في الانتقام من جاسون، حتى ولو تحقق هذا الانتقام على حساب فلذات كبدها. فقد ضحت ميديا بكل شيء من أجل حبها لجاسون، خانت والدها، وقتلت أخاها، وهجرت بلدها لتتبعه إلى اليونان، واستخدمت قوتها السحرية لتمكنه من تحقيق الانتقام من أعدائه، وأنجبت له ولدين. أي أنها قامت بكل ما يمكن أن تقوم به امرأة لإرضاء رجل والإعراب عن التفاني في حبه.

لكن جاسون، كأي رجل (وميديا دراسة باكرة عميقة ومستبصرة للاختلاف الجذري بين الرجل والمرأة) يضع مطامحه والمكانة التي يسعى لتحقيقها قبل المرأة التي تفانت في حبه. فما أن يحظى جاسون بمباركة كريون ملك كورنثة حتى يطمح إلى الزواج من ابنته «جلاوس»، والاستمتاع بالسلطة التي يتيحها

إلى مسرح كبير!



له هذا الزواج الملكي. ويقرر التخلي عن «ميديا» التي تدرك أن ولديها مهددان بأن يصبحا أبناء سفاح، فلن يتزوجها جاسون بعد كل ما فعلت من أجله. فتقرر الانتقام. تظهر لجاسون الاستسلام لإرادته، وتبارك زواجه الملكي، فترسل الولدين بثوب عرس مسموم هدية لـ«جلاوس». وما أن ترتدى «جلاوس» الثوب المحلى باللآلىء المصنوعة من دموع «ميديا» وقلقها وتضحياتها، حتى يتهرأ لحمها، وتموت. وينهار حلم جاسون، ويعود إلى «ميديا» لأخذ ابنيه، فتقتل الولدين، وتحرمه حتى من طقوس دفنهما. هذه هي «ميديا» امرأة «قادرة» كما يقول التعبير المصرى الشعبي، لا تستطيع النجمة الرقيقة الجميلة إيزابيل هوبير أن تجسد هذه القدرة الوحشية، والتي تمتزج بحب وحشي لولديها، يفضل موتهما على عارهما، ويترك الأب ضئيلا كما هو بحق، أمام جبروت هذه المرأة القادرة. (وسوف نكتشف في مسرحية «رسائل من الجزائر» التي سأتناولها بعد قليل أن نسوة الجزائر المعاصرات يفعلن ما فعلته ميديا حتى لا تتعرض بناتهن للاغتصاب). بينما تظل «ميديا» التي يتيح لها يوربيديز العظيم الهرب، حرة وجسورة وجبارة. وقد شعرت في بعض لحظات العرض حقا بجسد إيزابيل هوبير الضئيل وهو يضج بعنفوان الغيرة وشهوة الانتقام حتى يوشك أن يتفجر أشلاء، ولكنى مع ذلك افتقدت تلك القدرة التي تتجاوز حدود البشر العاديين، والتي لابد أن يتفجر بها وجود «ميديا» على المسرح لو أرادت حقا أن توصل لنا ما يتوخاه يوربيديز من مسرحيته العظيمة تلك.

أما عرض (المفتش العام L.Inspecteur) لنيقولاى جوجول والذى قدمته فرقة Foots-barn Travelling Theatre الجوالة في خيمة سيركها الشهيرة، فلم يكن أسعد من عرض (ميديا) حظا معي، إذ جاء هو الآخر مخيبا للآمال. وفرقة الحظيرة، فرقة جوالة من منطقة كورنويل بجنوب غرب انجلترا، ولكنها وقد أعادت إحياء تقاليد الفرق المسرحية الجوالة في العصر الإليزابيثي. وكنت قد شاهدت من قبل عرضا جميلا لنفس الفرقة، وهو إعداد درامي لأوديسة هوميروس العظيمة استخدمت فيه الفرقة تعدد اللغات وتعدد المناهج المسرحية التي ينطوى عليها إعداد أعضائها الذين جاءوا من ثقافات مسرحية متنوعة، للارتفاع بالمسرحية إلى آفاق إنسانية عامة، حيث أصبحت مسرحية معاصرة بحق. في زمن أصبحت فيه تجربة الارتحال من التجارب الإنسانية المكرورة في عصرنا الحديث. فليس ثمة من لم يتعرض في حياته لبعد من أبعاد تجربة «يوليسيز» في بحثه عن الطريق الصحيح الذي يقوده إلى غايته. وليس ثمة من المشاهدين من عاد بعد ارتحال ليجد أن الزمن قد تبدل، والواقع قد تنكر، وما تركه وراءه غير ما يعثر عليه بعد الإياب.

ولكنى وجدت أن الفرقة، وقد استقر بها الحال الآن في فرنسا، وأصبحت تجوب مدنها أكثر شهور العام، قد حرصت على إرضاء نوع من جمهور القرى الشعبي الذي يريد الضحك بأي ثمن. فنزلت بمسرحية جوجول الجميلة (المفتش العام) من سماء الملهاة الراقية إلى أرض المهزلة، أو كوميديا الأخطاء. بدلا من الارتفاع بها إلى آفاق النفاق الإنساني المتأصل، والجشع الذى يغرى بعدم المقاومة، وفقدان الأمان. وهي معان لاتزال فاعلة في زمن العولمة بدرجات أكبر مما كانت عليه من قبل في زمن جوجول في القرن الماضي. فمسرحية جوجول التي استطاعت من خلال حبكتها الدرامية الجيدة أن تمس عددا من الأوتار الحساسة في النفس البشرية، تقدم لنا مدينة محلية تنتظر مفتشا عاما سيوفده القيصر، وتستقبل أول وافد إليها، وهو محتال أريب مطارد من السلطات ومفلس، على أنه هذا المفتش فينتهز هذ الفرصة المواتية لاستغلال أعيان المدينة ومسئوليها للحصول على المال الوفير، والطعام الشهي، والمتع الحسية اللذيذة. لكن الفرقة نزلت بهذا العمل الجميل الذى استجمع فيه جوجول خبرة حياته بالمجتمع إلى أرض الإسفاف والإضحاك. برغم أنها بطبيعتها مليئة بالفكاهة الساخرة الراقية. بل لقد تجاوزت الإسفاف إلى حضيض مناوشة المخاوف العنصرية من خلال استخدام ممثل هندى للقيام بدور المفتش المزعوم، فيتمتع هذا الملون بالنسوة البيضاوات بجلافة مستفزة، تبغى الإضحاك المسف وتستثير التحيزات العنصرية السقيمة، والجنوب الفرنسي هو أرض التعصب العنصري والجبهة الوطنية ولوبن.



وإذا كانت كل من (ميديا) و(المفتش العام) قد جاءتا بأقل مما توقعت، فإن إخراج المخرج المسرحي الروسي الكبير، ومدير مسرح «تاجانكا» الشهير يورى ليوبيموف لمسرحية بيترفايس (مارا - صاد Marat Sade) عوضني عن كل ما افتقدته في العرضين السابقين. لأن هذا المخرج الروسي العبقري، وأحد مخرجي العصر الكبار من قامة بيتر بروك وبيتر شتاين وجورج ستريهلر وجورجيو بوركاريتا، جعل مسرح «تاجانكا» واحدا من أشهر المسارح في أوروبا، وجلب بعض عروضه إلى عدد من الحواضر الأوروبية الكبرى، واستطاع أن يشعل بخياله الإبداعي خشبة المسرح بالألق البصري والدهشة والتشكيلات التي تمتع العين والعقل معا. فلهذا المخرج الحساس أسلوب فني جميل سبق لي أن استمتعت به في عدد من العروض التي شاهدتها له على مسارح لندن وباريس، وهي عروض تتسم بالبساطة والعمق والقدرة المستمرة على الإدهاش. وها هو ليوبيموف يعيد الحياة مرة أخرى إلى نص بيتر فايس الجميل الذى تألق في الستينيات، وأصبح إحدى العلامات المسرحية الفارقة. فقد أخرج ليوبيموف هذا العمل من جديد عام ١٩٩٨ بمسرح «تاجانكا» بعد عودته إليه عقب فترة طويلة من التجوال بين مسارح أوروبا الكبرى. وأراد أن يبرهن عبر هذا الإخراج الجديد على أن هذه المسرحية الستينية لاتزال قادرة على التعامل مع الواقع التسعيني ونهايات القرن. فهي مسرحية غيرت بنية النص المسرحي وقواعد الإحالة الدرامية بشكل جذري. إذ تدور المسرحية، في مصحة عقلية من أشهر مصحات فرنسا هي «مصحة شارنتون» حيث كان الماركيز دى صاد الشهير نزيلا بها في أواخر أيام حياته، أو بالأحرى جنونه. ويقود الماركيز دى صاد عددا من النزلاء لتقديم عرض مسرحي ثوري عن اضطهاد جان بول مارا (وهو أحد أهم قادة الثورة الفرنسية، وضحية الانشقاق الدموى بين اليعاقبة والجيروند) من منطلق الدور العلاجي للمسرح والثورة على السواء. فإذا كان المسرح علاجا للفرد عنده من الجنون، فإن الثورة عند بيتر فايس هي علاج المجتمع من الخلل الجوهري الذى يصيب المجتمعات مثلما يصيب الجنون الأفراد.



جاءت إلى هذا المهرجان الفرق المستقلة من كل ربوع فرنسا، بل من جل فجاج أوروبا لتبلور شهادة المهرجان السنوية عن إبداع الأجيال المسرحية الجديدة، وعن مدى حيوية المشهد المسرحي الأوروبي

وكان سر نجاح هذه المسرحية الستيني أن عقد الستينيات قد اشتعل بثورة الشباب التي سعت إلى علاج المجتمع الغربي من جنونه الاستعماري البغيض، التي كانت فيتنام أكثر تجليات هذا الجنون خرفا وبشاعة. وأن المسرحية تعتبر الثورة هي العلاج الناجع لهذا الجنون. لكن هذا كله قد مضى وانقضى، وانشغل الناس الآن بحديث العولمة، وما أدراك ما العولمة! هي التجلي الجديد لنفس الوجه القبيح الذي أسفر عن نفسه في فيتنام، واندحر فيها قبل أكثر من عشرين عاما، ولكنه عاد من جديد بعد تجديد دمائه، واستيعاب دروس الاستعمار القديم، وانهيار أعدائه التقليديين من المعسكر الاشتراكي حتى حركات التحرر الوطنية. لينشر هذا الوعي الزائف بنهاية الأيديولوجيا، وسيادة السوق الاستنزافية المعروفة باسم العولمة. وهذا ما يكشف عنه هذا الإخراج اللامع لتلك المسرحية الكبيرة التي نفض يوري ليوبيموف التراب عنها وأعادها إلى الأذهان بألق جديد، وتأويل جديدين. فقد كشف هذا التأويل عن أن المسرحية هي تراجيكوميدي موسيقي صاخب، يفكك بنية العرض الأمريكية وينقضها في وقت واحد. إذ يتفجر العرض بالرقص والغناء والموسيقى من موسيقى «الجاز» وحتى موسيقى «الراب»، ومن أسلوب «الكباريه» حتى أسلوب «الروك» والتي تعكس كلها المشهد المعاصر في نهاية القرن. وتكشف أقنعته الزائفة في وقت واحد. حتى أصبح الجنون في هذا العرض الجميل «مارا - صاد» معادلا لأرقى صيغ العقل في الفن. وأصبح الفضاء المسرحي كله، مصحة عقلية تشمل المشاهدين والممثلين معا. أو سجنا كبيرا يأسر الجميع وراء قضبانه المرئية واللامرئية. بصورة بدا فيها وكأن أعمال النزلاء المجنونة في تمثيلهم لمسرحية مقتل مارا، هي الوجه العاقل للنقاش الفكري الجاد المجنون معا حول الحرية والمسئولية الفردية وحقوق الإنسان الذي يدور بين جان بول مارا وبين الماركيز دي صاد بفلسفته الذاتية المتطرفة. وانقلبت الآية فأصبح النقاش الجاد هو الجنون الحقيقي، والفعل المجنون هو العقل في عالم انقلبت فيه المعايير، وأصبح الفن هو أداة فتح عيون الإنسان على مايدور في واقعه من جنون يرتدي ثياب العقل والمنطق، ولكنه أشد خطرا من كل جنون.

أما ملحمة (جلجامش Gilgamesh) فهي أولى الملاحم الإنسانية التي وصلتنا من أعمال الأقدمين. وأقدم نص أدبي كامل أبدعه الإنسان. وقد كان عرضها الذي أعده عن نص الملحمة الجديد أونيني، وأخرجه باسكال رامبير عرضا ملحميا بحق، استغرق أربع ساعات كاملة. وبرغم طول هذا العرض فقد حرصت على مشاهدته لسببين، أولهما أنها ملحمة من عندنا، بمعنى أنها بنت حضارات منطقتنا القديمة، حيث تنتمي إلى الحضارة العراقية القديمة وهي رافد مهم من روافد الثقافة العربية وحضارتها الراهنة برغم ما يعاني منه الشعب العراقي من عسف وحصار. وثانيهما أنها مأخوذة عن النص الجديد لهذه الملحمة المهمة. فقد تم اكتشاف عدد من الألواح البابلية القديمة خلال العقدين الماضيين، ساهمت في ملء الفجوات التي كانت تعمر نص الملحمة القديم، وأصبح نصها الجديد أقرب ما يكون إلى النص الأدبي المكتمل، وظهرت لذلك ترجمات أوروبية جديدة للملحمة دون أن تظهر ترجمة عربية للنص الجديد بعد.

لهذين السببين ذهبت لمشاهدة هذا العرض، فوجدت نفسي بإزاء عمل كلاسيكي بكل ما تنطوي عليه الكلاسيكية من صرامة في البناء، وعمق في الرؤية، وشموخ في القصد. فقد استطاع هذا العرض الذي أخلص لتفاصيل الملحمة البابلية الجميلة أن يخلق المعادل الدرامي لجمالياتها الدفينة. بدءا من المشاهد الأولى التي تتضرع فيها الجوقة للآلهة لإنقاذها من بطش جلجامش، حتى خلق الآلهة لقرينه «أنكيدو»، وغواية العاهرة لأنكيدو لاستدراجه إلى «أوروك»، حتى يلتقي بجلجامش الذي كان يراه في أحلامه. مرورا بمشاهد الصداقة التي يجري تعميدها على خشبة المسرح، في واحد من أكثر مشاهد المسرحية حيوية وإيحاء، بالقوة العضوية والبحث المضني عن سر الخلود، وحتى مشهد كوابيس جلجامش التي يؤولها له أنكيدو دائما تأويلا إيجابيا، كما يفعل كل رفاق الحكام، وهم يهدهدون غرورهم، ويساهمون في دق المسامير في نعش غطرستهم، وانتهاء بمشاهد غواية الإلهة «عشتار»، وعثور جلجامش على العشبة السحرية وإضاعته إياها لكبره وحماقته. وقد هالتني معاصرة هذه الملحمة الرائعة التي صدرت عن أرض الرافدين، ورصانتها الكلاسيكية، وقدرتها حتى اليوم على إضاءة فهمنا لما يدور فيها، وفي الوطن العربي كله. إذ تحكي (جلجامش) عن الرغبة في الخلود بمعناها الإنساني العريض والمعقد معا. وعن السعي الإنساني الذي لابد أن يمني بالخيبة. والخيبة هي اللحن العربي الأثير في هذا الزمن الرديء، الذي يجعل خيبة «جلجامش» مرادفا لكل خيباتنا، برغم ما تمتع به من قدرات خارقة. وإضاعته للعشبة السحرية مقابل إضاعتنا المستمرة لكل الفرص السحرية التي نتمرغ بعدها في تراب التبعية والهوان.

هذه هي بعض عروض المهرجان الرسمي، وهناك عروض عديدة أخرى اهتم بعضها بالجانب الراقص من العرض المسرحي، واهتم الآخر بجوانب الإبهار أو التجريب على التنويعات الموسيقية، وغير ذلك من التجارب التي لم أتمكن من مشاهدتها. لكني حرصت على مشاهدة عرض أو عرضين من تظاهرة هذا العام الثقافية «من البلطيق إلى البلقان» والتي ضمت عشرة عروض. شاهدت منها عرضا جميلاً بعنوان (فندق أوروبا) شارك في إبداعه مسرحيون من عشرة بلدان مختلفة هي بلغاريا وفرنسا وليتونيا ومقدونيا وبولندا وروسيا وسلوفينيا والسويد ويوغوسلافيا أو ما تبقى منها. وهو عرض أقرب ما يكون إلى عروض الملاهي الساخرة الحزينة معا. كتبه جوران ستيفانوفسكي، وقدمه ثمانية ممثلين من منطقة البلقان وأربعة وعشرون ممثلا من الدول التسع الجديدة التي بزغت بعد انهيار التجربة الاشتراكية في أوروبا الشرقية من جراء تفتت كل من روسيا ويوغوسلافيا. وقد اختار المهرجان عرض مسرحية (فندق أوروبا) في عنبر أحد المصانع الواقعة على مبعدة عدة كيلومترات من المدينة، وياله من اختيار موفق، فاختيار أماكن العرض في هذا المهرجان يجعل المكان جزءا من العرض يساهم في إبراز رؤاه أو التأكيد على بعض أبعاده.

وكان مجرد مغادرة المدينة المسوّرة هو الخطوة الأولى نحو تجهيز المشاهد للدخول في عوالم هذه المسرحية الشيقة التي يوشك الدخول في عالمها أن يكون مناظرا لمغادرة العالم الأوروبي المستقر الذي يتمتع بالعراقة والتاريخ، والدخول في عالم الضواحي الأقل فخامة واستقرارا. و(فندق أوروبا) في هذا العرض المسرحي هو استعارة موفقة ساهمت في صياغة القضية التي يطرحها، وهي واحدة من القضايا المهمة التي تشغل الوعي الأوروبي الشغوف باستشراف المستقبل. فهو فندق قديم متداع وآيل للسقوط. اجتمع فيه نفر من كل فجاج أوروبا التي كانت تسمى بالشرقية. يتنفسون مع الهواء الشقاء والضيق والاضطهاد، والحسد، والانتظار، والتمرد، والقطيعة. ولكن هذا كله مصحوب كذلك بالرغبات والآمال والسخرية من الذات والعالم. وقد اختار العرض أن يكونوا مجموعة متنوعة الجنسيات الأوروبية، ومن مختلف الأعمار رجالا ونساء، وكذلك من دول أوروبية تفتتت مثل يوغوسلافيا وروسيا، أو لم تتفتت مثل بولندا وبلغاريا، ولكنها لاتقل عن تلك التي تفتتت معاناة. وما أن يدخل الجمهور إلى المصنع حتى يصحبهم أحد موظفي هذا الفندق الذي يتكلم الفرنسية بالطبع في مجموعات إلى غرفة بعد أخرى من الغرف السبع التي يلتقون في كل منها لا بمجرد شخص ينتمي إلى واحدة من دول أوروبا الشرقية السبع، وإنما بتاريخ تجربة أوروبية كاملة، وبلد أوروبي مختلف. وأحلام إنسانية فردية متميزة تميز تجربة كل فرد من هؤلاء الأفراد.

فالمشترك بين كل هذه التجارب لاينفي التباين والاختلاف. لكن هناك لحنا أساسيا في كل هذه المعزوفات المسرحية. فقد ظن الجميع أن وصولهم للغرب هو نهاية رحلة البحث والمعاناة، لكن المسرحية تريد أن تؤكد أنها ليست إلا مجرد بداية، فالطريق لايزال طويلا وصعبا. فأوروبا الثرية حريصة على تجنبهم واستبعادهم بقدر حرصهم على الاندماج فيها. والواقع أن هذه التجربة المسرحية الشيقة هي تجربة فيما يمكن دعوته بالمسرح المتزامن، حيث كل مجموعة من مجموعات المشاهدين تعيش المسرحية بترتيب مختلف عن غيرها من المجموعات الأخرى، وتلتقي المجموعات بعضها بالبعض في الممرات والطرقات. بصورة يصبح فيها المشاهدون جزءا من التجربة المسرحية ذاتها. في نوع من الفوضى المحكومة بنظام مسرحي يتسم بالمرونة والسيولة والجدل المستمر بين ما يراه المشاهد في كل غرفة من الغرف. بمعنى أنك لو ذهبت لمشاهدة هذه المسرحية أكثر من مرة فستراها كل مرة بترتيب مختلف. وبالتالي ستكون النتيجة النهائية للتجربة المسرحية جديدة كل مرة، لا يتكرر فيها إلا العنصر المشترك الذي يربط بين سقوط حائط برلين، والحروب الأهلية في منطقة البلقان، وتفتت الجمهوريات السوفيتية في منطقة بحر البلطيق.

أما العرض الثاني الذي شاهدته من عروض هذه التظاهرة فقد كان العرض البولندي (الأمير ميشكين) المأخوذ عن رائعة فيدور ديستويفسكي العظيم (الأبله). وقد اخترته لسببين أولهما أنني قرأت شيئا عن أن مخرج العرض ومعده جريجوري يارزينا هو أحدث ما أنتجه الإخراج البولندي من إضافات لامعة، فقد ذكر هذا المخرج الكثيرين ببدايات المخرجين البولنديين الكبيرين جيرسي جروتفسكي وأندريه فايدا. وثانيهما أن الإعداد كان سمة بارزة من سمات هذا المهرجان، ويمكن القول أنه أصبح سمة بارزة من سمات المشهد المسرحي الأوروبي المعاصر. ولم أندم على الاختيار بأي حال من الأحوال، لأن جريجوري يارزينا استطاع أن يحتفظ بالجانب الإنساني العام في تلك الشخصية المعقدة التي رسمها ديستويفسكي باقتدار وتمكن، كما جعلها في الوقت نفسه مدخله للتعامل مع واقع أوروبا الشرقية المعاصر الذي يعاني من قسوة التحول نحو الليبرالية والرأسمالية.

والأمير ميشكين، بطل رواية (الأبله) هو شخص محير بحق، لاتستطيع أن تعرف إذا ما كان أبله أم قديسا؟ ولكنك لا تستطيع في هذا العرض أن تخطئ إدانته الدامغة لهذا السعار الاجتماعي الذي أطلقه التحول صوب الرأسمالية المجتمعات التي



عانت من قعقعة انهيار النظام الاشتراكى فيها، وصعود المافيات والفساد وسعار الاستهلاك. فالأمير ميشكين عند جريجورى يارزينا هو أمير معاصر، لا ينتمى إلى الماضى، بل يعيش كلية فى الحاضر الجارح الذى يعرى لنا براءته وسذاجته فى كل مشهد. لأنه يعانى من هذه الازدواجية التى اصطبغ بها كل شىء، ولا يستطيع المواءمة بين مشاعره الأخلاقية المستمدة من تعاليم المسيحية، وبين مواضعات الواقع التى تزرى بأبسط هذه التعاليم وأكثرها بديهية. وقد استطاع المخرج استخدام الموسيقى وتقنيات الڤيديو وشاشات العرض فى موازاة التمثيل المسرحى الذى التزم بأحداث الرواية، بصورة أدارت حوارا شيقا بين الرواية والواقع، وبين المسرح وصيغ العرض البصرية والسمعية الأخرى.

ولننتقل الآن إلى آخر جوانب هذا المهرجان المسرحية، فهناك جانب أخير يتعلق بالندوات وحلقات النقاش العديدة المصاحبة للمهرجان. وهذا الجانب المسرحى الأخير هو بالأحرى مدخلنا إلى المهرجان الكبير الموازى للمهرجان الرسمى والذى يفوقه بعشرات الأضعاف. فلا يمكن مقارنة النشاط المسرحى الذى يدور فى مهرجان Avignon Off بذلك الذى يدور فى المهرجان الرسمى، لا من حيث العدد، ولا من حيث حيوية الطاقة المسرحية التى ينطوى عليها كل منهما. لأنه إذا كان باستطاعتنا استيعاب ما يدور فى المهرجان الرسمى، وكان من الممكن انتقاء عدد من عروضه لمشاهدتها، والإلمام عبرها بأكثر ما ينطوى عليه المهرجان من تيارات، فإن من العسير القيام بذلك بالنسبة لمهرجان Festival Off أو ما يجب مراعاة للدقة والإنصاف دعوته لا بالمهرجان الهامشى، أو حتى التجريبى، كما درجت الحال فى تسمية هذا الجانب من النشاط المسرحى، وإنما بالمهرجان الشعبى المفتوح متعدد الأصوات والثقافات والتجارب المسرحية. فقد كان هذا بحق هو ما ينطوى عليه المهرجان الذى بدأ بدعوة نفسه بـ«خارج المهرجان» ثم أصبح هو شاغل المدينة الأساسى ومهرجانها الكبير.

وقد أقيم مهرجان هذا العام الشعبى المفتوح، وهو مهرجان مواز للمهرجان الرسمى، تحت شعار «كل جماليات المسرح الحى» أو المعاصر. والواقع أن هذا المهرجان هو الذى يجعل مدينة أڤينيون الجميلة تغص عن آخرها بالفنانين والعروض من الصباح وحتى المساء فى الشوارع والشرفات والمقاهى والميادين والأسواق. وهو الذى يملؤها بالجدل والنقاش حول دلالات العروض وأداء الممثلين، ومناهج المخرجين وأصالة تأويلاتهم، ومختلف قضايا المسرح الجديد وإشكالاته. فقد جاءت إلى هذا المهرجان الفرق المستقلة من كل ربوع فرنسا، بل من جل فجاج أوروبا لتبلور شهادة المهرجان السنوية عن إبداع الأجيال المسرحية الجديدة، وعن مدى حيوية المشهد المسرحى الأوروبى. حيث يتبادل الفنانون والمشاهدون الخبرات ومحبة هذا الفن الجميل، ويسعون جميعا لاكتشاف الكتاب والمواهب المسرحية الجديدة التى ستصنع مسرح المستقبل.

وهو مهرجان لا يستطيع المتابع، مهما طالت إقامته فى المدينة، ومهما كانت وفرة وقته وأمواله مشاهدة عروضه جميعا، لأنها عروض تدور على مدار الساعة وطوال اليوم، ولأنها تتسم بالتنوع الشديد والتعدد الخصب. ولأنها تشمل كل فضاء المدينة، سواء منه ما يمكن أن يكون صالحا للعرض المسرحى، من أفنية الكنائس والأديرة، وصالات الاجتماعات فى المدارس، وقاعات المحاضرات فى الجامعات، وباحات الترويح فى المصانع، أو حتى الشارع المزدحم بالحركة الصاخبة والمارة. بل إننى شاهدت عرضا فى قارب شد مرساته إلى شاطىء نهر الرون الذى يلتف حول الضلعين الشمالى والغربى للمدينة، وتحول إلى مسرح صغير يقدم عروضه الشيقة للجمهور فى قلب هذا القارب الطويل. وكان هناك أكثر من قارب تحولت إلى مسارح صغيرة من هذا الطراز.

فإذا ما تأملنا مثلا المؤلفين الذين يتجاوز عددهم أحياء وأمواتا الخمسمائة وسبعين مؤلفا، فإننا سنجد أن استخدام نصوص هذا العدد الهائل من المؤلفين جعل المهرجان قادرا على استيعاب كل مراحل تطور المسرح التاريخية، وكل ثقافاته واتجاهاته وتجاربه. فهناك كل الأسماء التى تخطر على بال أى مهتم بالمسرح، بدءا من مؤسسى المسرح اليونانى الكبار من سوفوكليس ويوربيديز إلى العشرات، بل المئات من المؤلفين المحدثين، مرورا بالطبع بكبار أعلام العصور المسرحية المتتابعة من شكسبير وراسين وموليير وفولتير وجولدونى وهوجو، إلى ماريڤو وستريندبرج وبريخت وميترلينك، وجان أونوى، وتينيسى وليامز، وشنيتزلر، وحتى سارتر وكامى وجان جينيه، وبيكيت ويونيسكو وداريو فو وهارولد بنتر وإدوارد ألبى وغيرهم من كتاب المسرح المعروفين. هذا فضلا عن عدد لا بأس به من المؤلفين الشبان الذين يجربون حظهم فى المسرح لأول مرة أو لثانى مرة.

لكن غلبة المؤلفين الأحياء على الراحلين ليست مصادفة محضة، ولكنها بنت اهتمام هذا المهرجان بالحاضر على حساب الماضى. لأن المهرجان بالدرجة الأولى مهرجان الواقع الحى المعاصر. فإذا كان عدد عروض المؤلفين الأحياء هو ٤٤٨، فإن عدد العروض التى مات مؤلفوها، بما فى ذلك عدد كبير من الكتاب المحدثين هو ١٣١ عرضا فقط. لكن جزءا لا بأس به من هذه العروض الـ ١٣١ يمكن القول كذلك بأنها عروض لمؤلفين أحياء، لأنها اقتباسات أو إعدادات معاصرة لنصوص لمؤلفين رحلوا: من هومير، شاعر اليونان الأول، وحتى نص الشيخ النفزوى الشهير فى كتاب (الروض العاطر) الذى أعد مسرحى عربى مرموق عرضا شيقا عنه. وهناك عروض عديدة أعدت عن قصص أو روايات أو حتى أشعار، من نصوص فلوبير، وبلزاك، وتشيخوف، وموباسان، والكسندر دوما، وستيفان زفايج، وفيلهالم رايخ وفيدريك ميسترال، إلى جون شتاينبيك، ومارجريت دوراس، ومن أشعار ريلكه وأراجون وبول كلوديل إلى إيلوار وجاك بريفيير وهنرى ميشو.

وهى كلها نصوص وأشعار أعدها مؤلفون معاصرون للمسرح. واستخدموها تكأة للتعامل مع عصرنا الصاخب بالرؤى والدلالات، ولوصل ما انقطع بين ماضى هذا الواقع وحاضره فى كثير من الأحيان. لكن تأمل برنامج هذا المهرجان الكبير يكشف لنا حقيقة أخرى، وهى أن النص المسرحى الذى كتبه مؤلف فرد لايزال يحتل المكانة المركزية فى العرض، بالرغم من بروز موجة المعدين وفرق التأليف الجمعى. فقد كان هناك ٣٣٥ مؤلفا مسرحيا كان لبعضهم أكثر من عرض، وأحيانا أكثر من عشرة عروض كما هى الحال بالنسبة لشكسبير وموليير، بينما لم يتجاوز عدد العروض التى كان لها أكثر من مؤلف واحد تسعين عرضا، أما عروض التأليف الجمعى فلم يكن لها بين عروض المهرجان التى تجاوزت السبعمائة عرض أكثر من سبعة وعشرين عرضا. وهو أمر يؤكد أن الكاتب المسرحى لايزال هو سيد العمل المسرحى، أو بالأحرى ركنه الركين.

لكن ما يضيفه هذا المهرجان المفتوح الكبير لمعرفة المتابع للمسرح يتجاوز كثيرا هذا الحشد الضخم من المؤلفين والنصوص والأشعار. فالمهرجان ينطوى على كل صيغ العرض المسرحى من المسرحية الكلاسيكية ذات الوحدات الثلاث، إلى منولوجات الممثل الواحد أو عروض الكورس الجمعى، ومن المآسى التقليدية الكبرى إلى الملاهى الحديثة الساخرة، ومن مسرح الحائط الوهمى الرابع إلى مسرح الحلقة ومسرح الشارع ومسرح المقهى، ومن المسرح الوثائقى وتقنياته التعبيرية الفريدة إلى مسرح الحبكة جيدة الصنع، ومن مسرح الإبهار والتعبير الحركى الصوتى اللونى المجسد إلى المسرح الشعرى الذى يعيد للكلمة جلالها فوق الخشبة، ولا يستعين بغيرها، ومن مسرح الوسائط التعبيرية المتعددة من رقص وإيماء وعروض للفانوس السحرى، حتى مسرح الشاشات السينمائية وأشعة الليزر وأجهزة الڤيديو التى تتحاور مع خشبة العرض. فقد كان برنامج هذا العام كما ذكرت بعنوان «كل جماليات العرض المسرحى الحى» ولذلك كان لكل أجناس هذا العرض مكانها الواضح فى برنامجه.

لكن تغليب المساهمة المعاصرة والاهتمام بكل صيغ العرض المسرحى وبشتى تجلياته لا يستوعب كل السمات التى يمكن أن نصف بها الأعمال التى قدمها هذا المهرجان الشعبى المفتوح. وإنما كان هناك بالطبع تغليب للثقافات الأوروبية على ما عداها، فهذا مهرجان أوروبى أولا. تظهر فيه الثقافات الأخرى بالقطع، ولكنها تظهر كثقافات أخرى لها مكان محدود فى الحضارة الأوروبية التى تتفاعل ثقافاتها وتثرى بعضها البعض، ثم تنفتح بعد هذا التفاعل على الآخر المغاير. فتصور أوروبا لنفسها ينهض على وعيها بمركزيتها الثقافية، وعلى أنها قارة تعتد بنفسها وثقافتها. ومن منطلق هذا الاعتداد تنفتح على غيرها من الثقافات. ولذلك كان المهرجان مليئا بالعروض التى جاءت مباشرة من عدد من بلدان أوروبا، أو أعدها فرنسيون عن نصوص مسرحية أو روائية أوروبية. وكانت هناك نصوص قليلة من اليابان وإيران وأمريكا، ولكن أكثر الثقافات الأجنبية بالنسبة لغيرها من الثقافات غير الأوروبية حضورا كانت الثقافة العربية.

فبالمقارنة بثلاثة نصوص من أمريكا، ونصين من إيران، ونص واحد من اليابان، كانت هناك أكثر من خمسة عشر عرضا قام بها عرب/ فرنسيون، أو أعدوها عن نصوص عربية. فالثقافة العربية ــ بسبب وجود أكثر من أربعة ملايين عربى أو فرنسى من أصل عربى فى فرنسا ــ أصبحت جزءا حيويا الآن فى الثقافة الفرنسية، لها إسهاماتها من لعب الكرة (مايسترو الفريق القومى الفرنسى زيدان) وحتى كتابة الأدب (حصول كاتبين ــ الطاهر بن جلون وأمين معلوف ــ من أصل عربى مغربى ولبنانى على أرفع الجوائز الأدبية الفرنسية: جائزة الجونكور) والمسرح الذى أسعدنى أن أجد للإسهام العربى فيه حضورا متميزا فى هذا المهرجان. فقد تعرفت فيه على أسماء عربية جديدة من عبدالباقى بومعزة وعادل حكيم وكريم عمور وأحمد مدنى إلى مليكة خالدى وكريم معتوق وفريد عمرى وحسين سليمان وموسى البكيرى وغيرهم، وتحاورت مع بعضهم حول تجاربهم وهموم المسرح الذى يسعون لخلقه حتى يستطيعوا من خلاله وضع الشأن العربى على خريطة المسرح الفرنسى أولا، وخريطة الاهتمامات الفرنسية العامة ثانيا.

وهو حضور امتد من استلهام نص كلاسيكى شيق وهو كتاب

> **الثقافة العربية أصبحت جزءا حيويا الآن فى الثقافة الفرنسية، لها إسهاماتها من لعب الكرة (مايسترو الفريق القومى الفرنسى زيدان)، وحتى كتابة الأدب (حصول كاتبين. الطاهر بن جلون وأمين معلوف. على أرفع الجوائز الأدبية الفرنسية: جائزة الجونكور)**



إذا ما تأملنا الذين يتجاوز عددهم - أحياء وأمواتا - الخمسمائة وسبعين مؤلفا، سنجد أن استخدام نصوص هذا العدد الهائل من المؤلفين جعل المهرجان قادرا على استيعاب كل مراحل تطور المسرح التاريخية، وكل ثقافاته واتجاهاته وتجاربه.. بدءا من مؤسسى المسرح اليونانى الكبار.. إلى عشرات، بل المئات من المؤلفين المحدثين..

(الروض العاطر)، إلى تناول واحد من كلاسيكيات المسرح الجزائرى المكتوب بالفرنسية، نص كاتب ياسين الشهير (نجمة)، إلى تجارب عربية معاصرة تمتد من إعداد كتاب يروى خبرة شخصية عن الحرب الأهلية اللبنانية، أو مسرحة مجموعة من الرسائل التى كتبها مواطنون جزائريون عاديون إلى ذويهم وأصدقائهم فى فرنسا، أو حتى تقديم عرض مسرحى راقص يستلهم الرقص الشعبى العربى فى هذا المضمار، والذى تجاوز الاحتكار العربى له. حيث كانت هناك ممثلة / راقصة فرنسية لها فرقتها الخاصة فى مدينة مرسيليا هى «ڤيرجينى ريكولا» قدمت عرضا استلهم الرقص الشرقى، وتصوراته الأندلسية فى عرض شيق بعنوان (حدائق غرناطة)، استخدم موسيقى عازف العود العراقى البارع «نصير شمة»، والتونسى أنور براهم وغيرهما فى تقديم مجموعة من الرقصات الإيمائية والإيقاعية التى تستهدف بعث الجانب الحسى الحركى فى الرقص العربى.

وقبل التريث عند بعض هذه العروض العربية التى تهم القارئ العربى أكثر من غيرها دون شك، لابد من عرض بعض الخطوط العامة لهذا المهرجان الموازى حتى يستفيد منها الذين ينظمون المهرجانات المسرحية عندنا. فقد قدم المهرجان ما يمكن دعوته بتجربة العرضين المتزامنين لمسرحية واحدة. وهى تجربة مثيرة بحق يقدم عبرها المهرجان عرضين مختلفين لمسرحية معينة من فرقتين لا تعرف أيهما عمل الأخرى. ويحرص المهرجان على برمجة العرضين بطريقة تتيح للمشاهد مشاهدتهما فى نفس اليوم إذا ما أراد، أى أنهما يدوران فى مكانين مختلفين وفى زمنين متباينين. ومن أجمل التجارب التى يمكن أن يعيشها المشاهد فى هذا المهرجان أن تحضر عرضين مختلفين ومن فرقتين مختلفتين لعمل واحد. وهى تجربة جاءت بمجموعة من الإشكاليات التى يثيرها هذا التجاور اللصيق لعرضين متباينين لعمل واحد. وبالرغم من أن المهرجان قد قدم أكثر من عشرة أعمال كان لكل منها عرضان متزامنان، فإننى لم أتمكن إلا من مشاهدة عملين فقط من هذه الأعمال العشرة، أى أربعة عروض. وهما عرضا مسرحية (هواية الحيوانات الزجاجية La Ménagerie de Verre) لتينيسى وليامز، وعرضان آخران لرائعة داريو فو (الموت العرضى لفوضوى Most annidentelle d, un anarchiste) وكانت أبرز هذه الإشكاليات التى استخلصتها من خلال مشاهدة عملين فقط من الأعمال الكثيرة التى تنضوى تحت هذه الظاهرة الشيقة، أن المكان، أى الفضاء المسرحى الذى يعرض فيه العمل له دور كبير فى خلق حالة التلقى، وفى إبراز بعض جوانب التأويل الإخراجى أو الجناية على بعضها الآخر. وقد حرصت إدارة المهرجان على ألا يعرض أى تأويلين إخراجيين مختلفين لنفس العمل فى مسرح واحد. بالرغم من أن المكان الواحد يستخدم للكثير من العروض المتتابعة، ما أن ينتهى عرض منها، حتى يخلى المكان للفرقة التالية لتعرض عملها فيه. وربما كان هذا الحرص من مظاهر إبراز العوامل المشاركة فى صياغة التجربة المسرحية، وتأثير كل منها على العرض. فقد تم فى هذه الحالة تثبيت النص، وتركت بقية عناصر العرض حرة يشارك كل منها بقدر فى التأويل الإخراجى له. فتغيير المكان ينطوى عادة على إعادة رسم خريطة الحركة الإخراجية للعرض.

وبالإضافة إلى تجربة العرضين المتزامنين لمسرحية واحدة، كانت هناك تجربة مسرح الممثل الواحد، أو الممثلة الواحدة. وهى حالة خلقت تيارا من التأليف والإعداد المسرحى الذى يرفد هذه الظاهرة بنصوص ملائمة. بل شجعت الكثيرين على الإدلاء بدلائهم ودلائهن فى مجرى التأليف والإعداد. وكان من أمتع العروض التى شاهدتها فى هذا المضمار تجربة تلك الكوميديانة الفرنسية «آجنيس لاروك» التى حصدت العديد من الجوائز فى عرضها الساخر (سولانج Solange) الذى اتخذ من بنية نص كافكا المدهش (تقرير إلى الأكاديمية) إطارا للسخرية من مهنة التدريس، وتعامل الإنسان مع الحيوان. فإذا كان تقرير للأكاديمية يقدم قردا يتحدث إلى أرقى الأكاديميات، فإن «سولانج» تقدم لنا مدرسة تتحدث بجدية علمية متناهية، تضج لها الصالة بالضحك، عما تسميه بالحيوانات المنزلية الأليفة. وهى: البرغوث، والقمل، والصرصار والذباب والفئران، وما تفعله بالبيت والإنسان. فيكتشف المشاهد أنه بالفعل ضئيل أمام زحف هذه الحيوانات وإجبارها إياه على قبولها فى منزله والتعايش معها فى حياته.

أما آخر الملامح العامة التى أود الإشارة إليها هنا فهى الاهتمام بما يمكن تسميته مسرح التجارب الطريفة الحية التى لاتزال جديدة وغضة أو القضايا الساخنة التى تتسم بلمسة سياسية واضحة. وسأشير إلى نموذج واحد على كل نوع. فقد كان ثمة عرض عن «شبكة المعلومات الأليكترونية المعروفة باسم «انترنيت internet» بعنوان (موال على الانترنيت Balade sur internet) لجيرار سافوازى وهو عرض يقيم عنوانه مفارقة واضحة بين شكل الموال بتواريخه الرعوية القديمة فى أوروبا، وأحدث ما وصلت إليه تقنيات الاتصال الحديثة وهو «الانترنيت». ويلعب على المفارقة الناجمة عن كيف أن شبكة المعلومات تلك قد قلصت المسافات بين البشر، ولكنها لم تتغلب على صعوبة عملية التواصل الحقيقى بين الأفراد. فلاتزال لعلاقات الحب التى تدور عبر الانترنيت، والبريد الإليكترونى email، وبرامج التعارف وغرف المحادثة والـ ICQ نفس إشكاليات علاقات الحب فى كل العصور. وكان هناك عرض طريف آخر بعنوان (يورو الأزمنة الحديثة Leuro des temps modernes) لجورج بيردو. يتناول هذه العملة الأوروبية الجديدة «اليورو» التى استغرق ميلادها تسع سنوات بدلا من تسعة أشهر، من خلال التناقض، واستخدام أدوات وتقنيات المسرح المتقشف لتناول العملة التى ستعبر عن أغنى اقتصاد فى العالم، اقتصاد أوروبا الغربية مجتمعة.

أعود الآن بعد هذه الجولة الواسعة فى حصاد المهرجان إلى العروض العربية العديدة فيه. وقد كانت هناك أكثر من عشرة عروض كما ذكرت. بعضها إعداد عن كتب، وبعضها من عرض الممثل الواحد الذى يستقطب اهتمام المشاهد بالتعامل مع مشاكله أو مشاكل جماعته الثقافية بشكل فكاهى ساخر. وبعضها مسرحيات كتبها أو أعدها مخرجوها عن نصوص مختلفة. وبعضها إحياء لنص مسرحى له تاريخه فى الإبداع العربى المكتوب بالفرنسية كما هى الحال مع عرض (نجمة صوت من الجزائر Nedjma: une viox d,Algérie) الذى ينطوى على معالجة معاصرة لمسرحية كاتب ياسين الشهيرة أعدها محمد عدى، بمناسبة مرور عشر سنوات على رحيل هذا الكاتب الجزائرى الموهوب. فلم يكتف هذا العرض بتقديم مسرحية كاتب ياسين الشهيرة (نجمة) كما هى، وإنما انطلق منها لتقديم عرض موسيقى غنائى لا يقدم «نجمة» واحدة، وإنما ثلاث نجمات: «نجمة» الأم، و«نجمة» المرأة المعشوقة، و«نجمة» الوطن، أو بالأحرى ثلاثة تجليات للجزائر فى محنتها المعاصرة، وثلاث تعبيرات عن صوتها الحبيس وراء القهر والدم والرعب والدمار.

أما العرض الذى انطلق من كتاب الشيخ النفزوى الشهير (الروض العاطر Le Jardin des roses et des soupirs) فقد أعده للمسرح، إعدادا حرا، كما يقول لنا فى برنامجه موسى البكيرى عن النسخة التى حققها وعلق عليها بشروحه أحمد التيفاشى. ويطرح هذا العرض كتاب (الروض العاطر) ودراسته الشيقة لتفاصيل العلاقة الحسية بين الرجل والمرأة، فى مواجهة حديث النسوة فى الحمام عن الرجال. فإذا كانت النسوة يتناولن أمور علاقتهن الحسية بالرجل فى الحمام الشرقى القديم، فإن طقس الحمام نفسه، وتعامله الحميم مع الجسد، يتحول إلى نوع من التعبير الثقافى النادر عن قدرة الثقافة على تذوق المتع الحسية، والارتفاع بها إلى آفاق روحية سامية. وعن كيف أن انشغال النسوة بأجسادهن لا ينفصل عن انشغالهن بحالتهن النفسية والعقلية على السواء. وفى مواجهة هذا العالم النسوى، يطرح العرض عالم الرجال وكيف يحرصون، برغم جدية اهتماماتهم، على علاقتهم مع المرأة، ومعرفة أفضل الطرق لتعزيز تجربتهم الحسية معها. فى نوع من الربط بين معرفة الجسد ومعرفة النفس بمعناها الشامل والعميق.

وكانت هناك بالإضافة إلى هذين العرضين مجموعة من عروض الممثل الواحد الكوميدية الساخرة التى تتناول واقع العربى المهاجر، أو المغترب برغم ميلاده فى فرنسا ونشأته بها، فى الواقع الفرنسى أو البلجيكى المعاصر، مثل . و(إنهن يدفعننى لتجنبهن كلية) لفريد عمورى وهو عرض ساخر فاز بجائزة المحكمين وجائزة الجمهور فى عدد من المهرجانات قبل الوفود إلى أفينيون. و(عرض كوميدى) لكريم معتوق، و(برعاية كلب) لحسين سليمان. و (كامل: إنه مكتوب أو مقدّر) للممثل الجزائرى كامل. و(كيف كيف، فلفل كما يتنفس) لموسى البكيرى، الذى أعد نص (الروض العاطر) وهو عرض من الحكايات الشعبية، وبمنهج الراوية، أو الحكاء الشعبى. وهى كلها عروض ضمها البرنامج، ولكنى لم أسع لمشاهدتها. كما كانت هناك عروض أخرى مثل عرض (خطوط عنا) وهو عرض غنائى كتبه كريم عمّور وغناه مع كريستين ديفوا، و(اعترافات إبراهام) لمحمد قاسمى، وهو دراما عن العلاقة بين الأنا والآخر، و(ممر الملائكة) لمليكة خالدى. وكذلك عرض (حذار فأنتم فى حضرة اللحية) لأحمد مدنى عن مأساة الحرب الأهلية الدائرة الآن فى الجزائر. لكن العرض الجميل الذى شاهدته عن نفس المأساة الدائرة الآن فى الجزائر كان (رسائل من الجزائر) وهو العرض الذى سأتوقف قليلا عنده لأهميته.

لأن هذه التجربة المسرحية الشيقة (رسائل من الجزائر Lettres d Algérie) كانت واحدة من أفضل العروض العربية التى شاهدتها فى هذه المهرجان. فهى عرض يتسم بالتركيز والشاعرية، ولا يستغرق عرضه سوى ساعة وأربعين دقيقة، هو واحد من عروض المسرح الجيد بحق. حيث ينتمى إلى ما يمكن تسميته بمسرح المخرج، وهو هنا عبدالباقى بومعزة، الذى يختار النص، ويعده ويخرجه. وتنهض المسرحية، والتى يمكن اعتبارها واحدة من مسرحيات الأصوات

المتقاطعة. على مجموعة من الرسائل التى نشرتها صحيفة (لوموند Le Monde) فى الفترة من ١٨- ٢٤ نوفمبر ١٩٩٧. وهى رسائل عادية لمواطنين ومواطنات جزائريات بعثوا بها لذويهم فى فرنسا، ونشرتها الصحيفة لأنها وجدت فيها خير تعبير عن المأساة الجزائرية الراهنة. وهى بالفعل خير تعبير عن واقع الإنسان الجزائرى العادى، وقد استطاع أن يواصل الحياة فى ظل الموت والعسف والتعصب والدمار. وهى فى الوقت نفسه تجسيد لهذا الموت الرازح الذى يقهر الإنسان. ولكنه لا يستطيع هزيمته أو سحقه كلية. موت جسده العرض بطريقة شاعرية من خلال تلك الإضاءة الخافتة التى تجعل العمل كله يدور فى نوع من العتمة الاستعارية، وهى عتمة يمكن أن تكون استعارة كلية للعمل برمته. فتجسيد العرض لهذا الموت ولمقاومة الإنسان البطولية له هو ما يضفى عليه هذا المزيج من الشاعرية الرقيقة والحيوية العارمة. كما أن اختياراته من بين الرسائل وتجميع أمشاج الرسائل فى شخصيات أربع، هى التى تجعل الإعداد نفسه عملا إبداعيا جيدا ساهم فى إنجاح العرض و بلوره تأثيره.

وينفتح مشهد المسرحية عن مساحة شبه خالية تشغلها شجرة وارفة، وتتناثر فى أرجائها ثلاثة جذوع أشجار اجتثت ولم يبق منها إلا قسم صغير من الساق يستخدم كمقعد. لكن التناقض بين الشجرة الوارفة والأشجار المقطوعة يحدد التناقض الذى ينهض عليه توتر المسرحية ويجسده منذ اللحظة الأولى. ويبدأ العرض بامرأة محجوبة الرأس ليمثل هذا الوجه الأبيض ممسوح الملامح كل النسوة الجزائريات اللواتى لا نعرف وجوههن، وهى عملية مسح توشك أن تكون النظير المرئى لحجب أصحاب الرسائل التى نشرتها (ليموند) أسماءهم، وكأن هذا الحجب يكشف عن هوية خائفة من ناحية ويجسد لنا صوت الفرد النكرة المطموس فى الصراع الدائر فى الجزائر، والذى تهدر فيه أصوات السياسة والتعصب على حساب صوت الإنسان والعقل. وحينما تخلع الممثلة القماش الأبيض عن وجهها تبدأ فى الحديث عن جمال الطبيعة فى الجزائر، ليدخلنا هذا الحديث، الذى يدور على مشهد من الأشجار المجتثة والعتمة، فى قلب التوتر الدرامى والتناقض بين الوارف والمجتث، بين الحى والمقتول، بين جمال الطبيعة وقبح الواقع الجزائرى الراهن فى هذا الزمن الردئ.

وتقدم لنا المسرحية من خلال منولوجات، أو بالأحرى رسائل شخصيات ثلاث، عالما من التفاصيل الصغيرة الناسجة لحقيقة الواقع المأساوى فى زمن الجزائر الردئ. ويتيح تقاطع الرسائل مع بعضها أن يدير حواره الدال والخلاق مع البعض الآخر، بطريقة تثرى فهمنا لما يدور هناك، وتكشف فى وقت واحد عن فداحة الواقع وبطولة الإنسان البسيط الذى لم يسمح بعد لهذا الواقع أن يهزمه. وقد أعجبتنى هذه المسرحية لبساطتها وعمقها معا، وعندما حاورت مخرجها ومعدها بعد العرض اكتشفت أن له تاريخا حافلا فى المسرح المشغول بقضية الجزائر فى فرنسا. فقد بدأ عبدالباقى بومعزة نشاطه المسرحى قبل أكثر من عشر سنوات، وقدم خلال مسيرته العديد من الأعمال التى تستهدف وضع تاريخ فرنسا فى الجزائر وواقع الجزائر الراهن على خريطة الاهتمام الفرنسى العام. فثمة وعى لديه بضرورة الحوار بين الواقع والذاكرة التاريخية، فبدون الوعى بأهمية الذاكرة التاريخية لا أمل للعرب فى أى نهوض حقيقى. وكان هذا الوعى هاديه منذ بداية مسيرته المسرحية. فقد كانت أولى مسرحياته الكبيرة عام ١٩٨٤ مسرحية (صبى الحرب) التى أعدها عن مذكرات سعيد فردى الذى قبضت عليه السلطات الفرنسية بالجزائر وهو لايزال صبيا بتهمة معاونه المناضلين، وعذبته، ثم جندته للعمل ضد أهله فصار «حركيا» كما يدعوهم الجزائريون، أى عميلا لفرنسا وخائنا لبلده الجزائر. وقدم كذلك مسرحية (السؤال) عام ١٩٩٠ عن حياة هنرى آليج الصحفى الفرنسى الذى كان يعمل بجريدة (الجمهورية) الجزائرية واتهم عام ١٩٥٠ بالعمل مع منظمة التحرير الجزائرية وقبضت عليه السلطات وعذبته حتى الموت. كما قدم مسرحية الجثة المحاصرة لكاتب ياسين عام ١٩٩٤، ومسرحية (العادلون) لألبير كامى عام ١٩٩٦. وهى كلها من الأعمال التى تضع الشاغل الجزائرى على خريطة المسرح، وتحفر التاريخ الجزائرى فى قلب الذاكرة الفرنسية المثقلة بأوزاره. والواقع أن مسرحيته الجميلة (رسائل من الجزائر) المشغولة بالهم العربى الرازح استطاعت وهى تجسد على الخشبة أوزاره أن ترفع بالفن الجميل عنا ما يلصقه التخلف بنا من وصمات.

أما المسرحية العربية الأخرى التى أود أن أتريث عندها قليلا فى نهاية هذا المقال فهى (الجلاد الرابع عشر) لعادل حكيم. و(الجلاد الرابع عشر Execu-teur 14) عرض درامى من عروض الممثل الواحد. أتيح له أن يجمع بين نص كتبه لبنانى عادل حكيم عن تجربة الحرب الأهلية اللبنانية، ومخرج جزائرى هو كامل بصلى، وممثل فرنسى عبقرى هو أوليڤييه بورداكار. ومع أن النص مكتوب عن تجربة الحرب الأهلية اللبنانية من منظور المواطن العادى الذى عاش أهوالها وعذاباتها، فإن المخرج جرد النص فى إعداده الدرامى له من كل الإشارات التى تربطه بالواقع اللبنانى، وجعله نصا عن كل الحروب الأهلية الشرسة - من لبنان والجزائر وحتى البوسنة وكوسوڤو - التى تكشف عما ينطوى عليه الإنسان من بربرية ووحشية تفوق وحشية الحيوانات فى كثير من الأحيان. فالنص الذى يحكى أهوال الحرب الأهلية اللبنانية تحول تحت يدى المعالجة الدرامية إلى نص يتناول تجربة الإنسان العادى البسيط فى مواجهة سطوة كل أشكال القهر والتعصب العبثية وغير المنطقية، والتى تتذرع بأوهى الذرائع لارتكاب المجازر وتدمير الإنسان.

لأن العرض هو تجربة هذا الإنسان الذى يواجه الإعدام لكل الأسباب التى يتذرع بها الفرقاء فى الحروب الأهلية لقتل بعضهم البعض، ويحاول أن يقدم لهذا الجلاد الرابع عشر، وهو مجرد واحد من الجلادين، الذين يصبحون فى بعض الأحيان هم المتفرجون الذين يشهدون هذا كله دون أن يهب أحدهم صارخا «كفى!»، والذين يتوجه لهم هذا الممثل الذى يتمتع بقدرة أداء نادرة وهو يجسد الفرد العادى بكل معاناته وتاريخه الإنسانى البسيط. بصورة يشعر المشاهد بعدها بالقلق الشديد، ويغص بإنسانيته نفسها، وقد شوهتها معاناة هذا الإنسان. وكان المسرحية تقول لنا إن معاناة أى إنسان فرد تصم الإنسانية كلها بالتخلف والوحشية. فيخرج المشاهد من العرض وقد لفه الكابوس فى طواياه، ولا يستطيع الخروج منه، أو طرح مسئوليته عن كاهله، إلا بإعادة تأمل كل ما جرى فى الحروب الأهلية التى أصبحت واحدة من آثار العولمة الدائمة فى هذا الزمن الردئ، والتى أصبح مكتوبا فيها على الشعوب الصغيرة والمقهورة أن تدفع ثمن هذا التحول الدامى فى تاريخ الإنسانية. ■

كـتـاب الـزاويـة

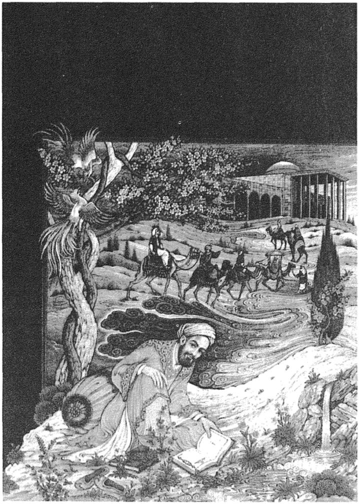
من أشعار سعدى الشيرازى

فى الحكم والمواعظ

إذا تبَّصرتِ يا نفسى بعيشتنا
أثرت فقراً به ما كان أغنانا!
يا أيّها الملك المرهوب جَانبُهُ
غداً ستفقد إمّا مُتْ سلطانا
وسوف تُلقى كباقى الناس مُنْتَبَذاً
فى القبر بعد جلال المُلْكِ عُريانا
دنياك هذى أراها زوجة حسنتْ
وأىُّ حسن سَيبقى مثلما كانا!
فامشِ الهوينى على أبدان مَنْ عبرَوا
فالأرض ليستْ سوى أبدان موتانا
والأرض أمٌّ بمنْ قد أنجبتْ ذهبتْ
هيهاتَ منها نُرجّيِ اليوم نِسيانا
كالغول تبدو خِداعاً وهْيَ قاصرةٌ
تُخادع الناس تضليلاً وبُهتانا
أليس هاروت مَنْ بالسحر مُشْتَهرٌ
بالجُبِّ ألقتْ به ظلماً وعدوانا!
فما الرجولة بطش الكفِّ ظالمةً
لكنّها أنْ ترى الإنسان إنسانا
يجاهد النفسَ بالإحسان يأمرها
ولا يُقيم لغير الحقّ ميزانا

لن نظفر

سوف لن نظفر بالحسنى غداً
فبدنيانا تركنا الحسناتْ
بالذى كنّا بها نعملُهُ
قد جزينا، بالخزى السيئاتْ
لم تُحسِّنْ قبح قرد زنْتَهُ
َلا ولا بالمشط تحلو الهَرِماتْ



سعدى الشيرازى

جسر التواصل بين العرب والفرس

عماد الغزالى

كانت الورود فى استقبالنا حين هبطنا مطار شيراز قادمين من العاصمة طهران، لكل زائر وردة، لم يفهم أكثرنا المغزى، تصورنا أنها حفاوة بضيوف قدموا من عواصم عربية عدة للمشاركة فى الاحتفال بواحد من أهم رموز الأدب الفارسى، لايقل موهبةً وذيوعاً عن نظرائه ممن نعرف: مولاى جلال الدين الرومى صاحب «مثنوى» والفردوسى صاحب الملحمة الخالدة «الشاهنامة».

عرفنا فيما بعد أن الورود مهداة إلى روح الشاعر الكبير سعدى الشيرازى وكُنّا فى الطريق إلى ضريحه الذى أُزيح الستار عنه رسميا فى عام ١٩٥٢، وهو مقام فى سفح جبل «بهذر» على مساحة ٧٧٠٠ متر ويضم تمثالاً من الرخام لسعدى ومكتبة تجمع آثاره ومخطوطاته محاطة ببساتين زهور، وحول ضريح سعدى تبارى أكاديمون وشعراء إيرانيون وعرب فى إلقاء الشعر احتفاءً بصاحب الضريح، الإيرانيون يستعرضون درايتهم بقصائد للمتنبى وزهير وامرىء القيس وعنترة وجرير وأبو العلاء وصولاً إلى شوقى وحافظ والأخطل الصغير، والعرب ممن يعرفون الفارسية، يلقون قصائد سعدى ورفاقه من عيون الأدب الفارسى، تأكيداً للهدف الذى من أجله أقيم ملتقى سعدى الشيرازى فى طهران الشهر الماضى، بالتعاون بين مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى ورابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية فى إيران، وافتتحه الرئيس محمد خاتمى، وهو تأكيد التواصل بين الثقافتين العربية والفارسية الذى بدأ منذ دخول الفرس فى الإسلام، ويحلم كثيرون بدعمه بعدما قَطّعت» السياسة أوصاله على مدى عقود.

ويعرف الدارسون أن الفرس أصحاب نصيب وافر فى الحضارة العربية، أسهم علماؤهم فى شتى تجلياتها، حتى أن من وضع قواعد النحو ونظّم مسالكه «سيبويه» كان «فارسيا»، وكذلك كان العالم اللغوى الشهير «عبدالقاهر الجرجانى»، فإن أضفت إليهما «ابن سينا والرازى»، وكلاهما خط جل إبداعه الفكرى والفلسفى بالعربية، أغناك الأربعة عن عشرات الأسماء الأخرى من علماء وفلاسفة فرس أثروا الحضارة العربية فى عصور ازدهارها.

والحقيقة أننى أوثر قبل الولوج إلى سيرة سعدى وتأثره وتأثيره وآثاره، أن نطوّف سريعاً على أثر الإسلام فى الأدب الفارسى.

فقد رافق انتشار الإسلام فى إيران شيوع اللغة العربية التى كانت لغة الفاتحين الجدد، واكتسبت العربية أهميتها من زاويتين على الأقل، أولاهما أنها لغة الدين الجديد، لغة القرآن بما يمثله من قداسة فى نفوس المسلمين، وثانيتهما أنها لغة النخبة الحاكمة، وعلى الطامحين فى المشاركة فى السلطة أن يتقنوها، ومع زيادة موجات الهجرة العربية إلى إيران، واختلاط الأنساب والتزاوج والجوار، جرت العربية أكثر على ألسنة الإيرانيين، لكنها لم تتحول أبداً إلى لغة حياة يومية، وإن شكلت أساساً لثقافة جديدة عبرت عن نفسها بلسانين عربى وفارسى.

وقد ساعد على انتشار العربية فى ديار الإسلام وبينها إيران، أن الدراسة فى هذه الديار قامت أساسا على الكتاتيب التى عنيت بتحفيظ القرآن الكريم وقصائد الشعر الجاهلى وغيرها. كان الهدف هو مزيد من الفهم لأسرار البلاغة فى القرآن ولذا سميت هذه العلوم بالعلوم «الموصلة»، فضلاً عن تأسيس النظاميات، وهى معاهد للتعليم العالى أنشئت فى المدن المهمة فى إيران دعّم وجودها مكانة اللغة العربية، برغم اعتماد السلاجقة منذ القرن الخامس الهجرى، اللغة الفارسية، لغة سياسة وبلاط وأدب.

هذه الطفرة تعرضت لانتكاسة مع تدهور الخلافة العباسية وتراجع هيبتها. وهنت السلطة المركزية فى عاصمة الخلافة، وتطلعت إمارة ودويلات للاستقلال عنها، وبزغت نزعات استقلالية كانت أولى دعاواها، العودة إلى الفارسية الدَّرية - لغة البلاط - تأكيداً للهوية القومية.

وهكذا وازى الاستقلال الأدبى الاستقلال السياسى، وتحوّل كثير من شعراء الفرس إلى النظم بلغتهم، بعدما نظموا بلغة الخلافة.

ويعترف نقاد الفارسية وشعراؤها بمكانة الشعراء العرب وتأثيرهم عليهم، ويقر «رودكى» المتوفى سنة ٣٢٩ هـ - ٩٤٠ م، وهو موطد أركان الشعر الفارسى بتأثره بشعراء عرب كثيرين، سواء فى الصور والأخيلة أو المفردات أو حتى فى القوافى والأوزان، والمعروف أن علم العروض الفارسى اقتبس من علم العروض العربى وإن اختلف استخدام التفاعيل بسبب انتماء الفارسية إلى أسرة اللغات الهندوأوروبية وانتماء العربية إلى الأسرة السامية.

بدأ الأدب الفارسى - الذى انطلق منذ القرن الثالث للهجرة إذن إسلاميا، وما كان منه قبل الإسلام، لا يتجاوز الأناشيد والألحان التى تنتمى إلى الغناء الشعبى بأكثر مما تنتمى للأدب. وساهمت اللغة العربية فى توسيع رقعة الفارسية وأدخلت مئات المفردات فى نسيجها، بعضها يرتبط بالدين مثل: آية، أذان، ثواب، عقاب، حرام، حلال، سجود، ركوع، محراب، مسجد، مسلم، مؤمن، وبعضها يرتبط بالحكم والحكومة مثل: إمام، أمير، جباية، سلطان، حاكم، طاعة، طغيان، عصيان، قتل، قهر، كاتب، محتسب، وزير، وبعضها مما له صلة بالاستخدامات الآتية مثل: أيام، حرب، حياة، موت، خير، شر، سمح، سهل، صبح، صعب، قليل، كثير..إلخ.

وفيما يتصل بالبناء الفنى، قلد النثر الفارسى أساليب النثر العربى القديم، معتمداً السجع وأشكال البديع السائدة آنذاك، أما شعراء الفرس، فقد قلّد كثير منهم شعراء العرب، بل إن بعضهم نقل عنهم دون مواربة، وكان هؤلاء الشعراء يتفاخرون فيما بينهم بمدى معرفتهم بالشعراء العرب.

وبتأثير الحياة الإسلامية غلب الطابع الدينى على الشعر الفارسى فى بداياته، وتحول الأدب الإيرانى عموماً، إلى أدب دينى عقائدى طارحا قضايا من نوع: فناء الإنسان ومجاهدة النفس واجتناب المعاصى والزهد والتصوف، واشتد هذا الاتجاه مع احتدام الجدل بين السنة والشيعة فى أوائل العهد الصفوى، لتصبح أغراض الأدب الفارسى دينية خالصة، واشتهرت فى هذا الإطار أعمال محتشمى كاشانى وهى مراث خاصة بشهداء كربلاء.

وبرغم ما يمكن أن يقال عن محدودية ذلك التوجه، فإن الدارسين يثمنون هذا الدور الذى انتشل الأدب من الابتذال والتمسح عند أعتاب الأمراء، بعدما اتجه الشعراء إلى كتابة الملاحم الدينية والعقائدية ووصف غزوات الرسول ومعارك على بن أبى طالب.

ويشير بعض الدارسين إلى لون أدبى جديد تمخضت عنه هذه المرحلة يسمى «التعازى»، وفيه يقرأ النص بترديد الأصوات، وهو عادة نص يخص حادثة كربلاء وقد انتشر أكثر فى العهد القاجارى.

حياة نابغة

يشير سعدى ربما أكثر من أى شاعر فارسى آخر، إلى التمازج بين الأدبين العربى والفارسى، فقد أبدع بالعربية كما بالفارسية، وحاكى نماذج من الشعر والنثر العربيين، واحتشدت قصائده ومنثوراته باستشهادات من القرآن الكريم والحديث النبوى، فضلا عن أن حياته مثّلت عملياً جسور هذا التواصل، فقد قضى أكثر من نصفها يجوب أرض الله الواسعة، وكان للبلدان العربية، خصوصاً الشام ومكة والمدينة والعراق ومصر، نصيب من هذا التجوال.

الاسم الذى طالعناه على ضريحه هو: أبو عبدالله مشرف بن مصلح السعدى. أما الاسم الحقيقى لشاعرنا فليس معروفاً على وجه اليقين، فقد ذكر نفر من الدارسين أن اسمه عبدالله، وقال آخرون أنه مشرف، ورجح فريق ثالث أنه مصلح، أما تسميته بسعدى فتتراوح بدورها بين ثلاثة احتمالات: إما نسبة إلى جده سعد بن زنكى أو حفيد ابن زنكى سعد بن أبى بكر، أو إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة.

وكما اختلف الدارسون فى اسمه، اختلفوا حول تاريخ ميلاده، فهناك من أرخ لميلاده بالعام ٥٧١ هـ، وهناك من أرخ له بالعام ٦١٥ هـ، والفارق كما نرى يقترب من نصف قرن، أما وفاته فإن التباين حولها يدور حول أعوام أربعة، مابين ٦٩٠ هـ و٦٩٤ هـ، وهو ما يعنى أن شاعرنا عمّر مديداً ما بين تسعين إلى مائة وعشرين عاماً.

نشأ سعدى فى بيت علم، كان أبوه الذى توفى عنه طفلاً، يحفظه القرآن ويعلمه قواعد اللغة العربية وآدابها، وحين توفى تولاه جده

لأمه، وأرسله إلى بغداد ليلتحق بالمدرسة النظامية التى كانت تعد آنذاك جامعة كبرى، ومنها تخرج دعاة وقضاة وخطباء وفقهاء، وبين من درس سعدى على أيديهم المتصوف الكبير «السهروردى» الذى توفى فى ٦٣٢هـ.

كانت الدراسة بالمدرسة النظامية، التى تنسب إلى نظام الملك الطوسى وزير دولة السلاجقة وكان له شغف ببناء المدارس، تشمل التفسير والحديث والجدل والوعظ واللغة العربية وآدابها والطب والفلسفة، وكانت المدارس تفتح أبوابها لطلاب مراحلها الابتدائية فإذا ما تجاوزوها، تعقد امتحانا للراغبين فى مواصلة الدراسة ولا تقبل سوى المتفوقين الذين تتحمل الدولة الإنفاق عليهم، وقيل إن نظام الملك أوقف عليها أسواقا وضياعا ومخازن وحوانيت. وكان حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى، واحدا ممن درسوا فيها، ثم اختير أستاذاً بها فى عام ٤٨٤هـ. كى يذود عن مذهب أهل السنة فى مواجهة الشيعة الإسماعيلية الذين استفحل أمرهم آنذاك. وكان سفره الكبير إحياء علوم الدين من المواد الدراسية المقررة بالمدرسة.

وقد ترك الغزالى أثره فى الدارسين، وبين هؤلاء سعدى الذى اقتفى سيرة حياة أستاذه، فعاش الشطر الأول من حياته واعظا ناصحاً لكل طالب مشورة. ثم قضى شطرها الثانى فى رحلات بين بلدان العالم الإسلامى ثم عاد إلى شيراز واعتزل الناس بزاوية فيها، وبعد فترة من اعتكافه خرج إلى مريديه يواصل رسالته فى الوعظ والإرشاد.

تنقل سعدى بين مدارس بغداد رغبة فى مزيد من العلم، والتحق بالمدرسة المستنصرية وكانت حديثة التأسيس، وقد جرى عرفها على أن تقبل ٢٤٨ طالباً فقط موزعين بالتساوى على مذاهب السنة الأربعة. وحين اكتسح المغول بغداد وعاثوا فيها تدميرا وحرقا، غادرها سعدى إلى أصفهان ومنها إلى شيراز، وكتب مرثية شهيرة يقول فيها:

حبست بجفني المدامع لاتجرى
فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها
تمنيت لو كانت تمر على قبرى

ما كاد سعدى يستقر فى شيراز حتى غادرها، بعد ما دبت الفتن بين الدويلات الفارسية، ليبدأ رحلة جاب فيها بلدانا عديدة من الهند إلى الشام والحجاز ومصر والمغرب واليمن والحبشة، وقد أطال سعدى المقام فى دمشق حيث اعتلى منابر مساجدها وخطب فى جامعاتها، وأُسر فى طرابلس، وقيل عن سبب أسره، أنه حين ملَّ المقام فى دمشق اتجه صوب صحراء قريبة من بيت المقدس واعتزل فيها متفرغا للعبادة، عازفا عن مخالطة الناس، فوقع أسيراً فى أيدى الفرنجة، وقد افتداه أحد أعيان دمشق وزوّجه ابنته وسافرا معاً إلى حلب، وسرعان ما فشل هذا الزواج لسوء معاملة الزوجة له، فغادر الشام إلى المغرب ثم مصر وأخيراً إلى تركيا، وحين عاد إلى شيراز، كان شيخاً جاوز السبعين، وعندها، بدأ يهذّب مدوناته، فأتم «بوستان» فى عام ٦٥٥هـ وبعدها بعام أتم «كلستان»، وكلاهما درتان تجلى فيهما نبوغ سعدى وموهبته الأدبية الساطعة.

قسم سعدى «الكلستان» إلى ثمانية أبواب على غرار أبواب الجنة هى: فى سيرة الملوك، فى أخلاق الدراويش، فى القناعة، فى فوائد الصمت، فى العشق والشباب، فى الضعف والشيخوخة، فى تأثير التربية، فى آداب الصحبة. وتغلب على «الكلستان» رؤية إصلاحية اجتماعية، وتتضمن قصصاً أخلاقية تنطوى على حكم ونصائح، ويمتزج فيها الجد بالهزل، ويحاكى فيها سعدى مقامات الحريرى وبديع الزمان الهمذانى، دون أن يقع فى فخ تقليدهما.

يقول سعدى فى ختام «الكلستان»:

«إن الغالب من كلام سعدى مطرب فكه، إلا أن ضيقى الأفق وقصيرى النظر يرون فيه مضيعة للوقت دون جدوى، وإتلافاً للعقل عبثاً، ولكن وفق رأى ذوى البصائر المستنيرة، فليس يخاف أنه نظم درر المواعظ الشافية فى عقد العبارة، ومزج دواء النصيحة المر بشهد الظرافة كى لا يحرم طبع أولئك الملول من سعادة الرضا والقبول».

وبشكل عام، فقد استفاد سعدى من أسفاره ومعرفته بآداب أمم شتى وتبحره فى التراث الإسلامى وعلوم القرآن والحديث، فى صياغة فلسفة خاصة عبر عنها فى أدبه، ولخصها هو فى عبارة موجزة: «إن بناء الإنسان على الأرض هو الخطوة التى يجب أن تتم قبل أن يبدأ علاقته بالسماء».

أما كتاب «بوستان» الذى ترجمه الدكتور أمين بدوى فى عنوان: «أريج البستان» فينتمى كله إلى نوع فارسى من الشعر يعرف بـ«مثنوى»، ويتضمن عشرة أبواب: فى العدل والتدبير والرأى، فى الإحسان، فى العشق، فى التواضع، فى الرضا، فى القناعة، فى التربية، فى الشكر على العافية، فى التوبة وطريق الصواب، فى المناجاة.

وينقل الدكتور بدوى عن البروفيسور الإيرانى محمد على فروغى فى مقدمته لتحقيق «بوستان» قوله: لا يوجد فى تاريخ الأدب الإيرانى ما يعادل كتابى البوستان والكلستان سوى «شاهنامة» الفردوس و«مثنوى» جلال الدين الرومى.

ويضيف الدكتور بدوى إلى شهادة فروغى، أن بوستان وكلستان هما أيسر هذه الكتب تناولاً وأكثرها ذيوعا وشهرة.

وقد ترك سعدى ديواناً ضخماً يعرف بالكليات جمع بين دفتيه كل آثاره، ويضم ٦ رسائل نثرية وقصائد عربية وفارسية وغزليات وأشعارا تسمى الطيبات والخبيثات والبدائع والخواتيم، ونوعاً من الشعر يسمى «الملمعات» يتكون من أبيات وشطرات فارسية تتخللها أبيات وشطرات عربية.

يقول الدكتور أمين بدوى عن سعدى: جمع سعدى فى الأدب بين الملك والنبوة، فهو ملك الكلام وأفصح المتكلمين ونبى الغزل.

وقد اختلف النقاد حول القيمة الحقيقية لشعر سعدى بالعربية، فقد رآه بعضهم ركيكاً مفككاً، وبينما رآه آخرون يضاهى أعظم شعراء العربية، أما الدكتور إحسان عباس فيرجح - كما تشير إلى ذلك الدكتورة أمل إبراهيم فى كتابها عن شعر سعدى - أن يكون أكثر ما كتبه سعدى بالعربية قد ضاع، لأن ما تبقى منه لا يتناسب أبداً مع سنوات تجواله فى حواضر عربية عدة، وإتقانه للغة العربية ودرايته بأسرار بلاغتها وكأنه عربى الأصل والمنشأ.

ويلاحظ الدارسون أن سعدى استهل كثيراً من قصائده بالغزل والنسيب وبكاء الأطلال جريا على عادة الشعراء العرب القدامى، واستخدم فى عديد من قصائده تعبيرات وتصاوير وأساطير وحكايات وثيقة الصلة بالثقافة العربية، وهو ما فعله شعراء إيرانيون كثيرون، استفادوا من التمازج بين الثقافتين العربية والإيرانية وقدرتهم على النظم بالعربية والفارسية، خصوصاً فى العصر العباسى الذى نشطت فيه حركة الترجمة.

أما أكثر ما أثير حول سعدى، ذلك الشيخ المتصوف صاحب الرسالة الإصلاحية الأخلاقية، فهو ما انطوت عليه غزلياته، فقد رأى بعض النقاد أن عشق سعدى هو عشق صوفى بحت، فيما رأى آخرون أن غزلياته هى فى العشق والغرام بمعانيها المجردة، وبين الرأيين اجتهاد ثالث، تشير إليه الدكتورة أمل إبراهيم فى كتابها وهو رأى للمستشرق براون يقول: إن سعدى يمثل بوجه عام الشخصية المتزنة التى تعنى بالدين والدنيا فى وقت واحد (....) فقد كان ينحو نحو الحكمة الدنيوية دون التصوفية أو الدينية.

وقد نسخت غزليات سعدى فى حياته، وتضمنتها دواوين حملت أسماء متعددة: الغزليات القديمة، الطيبات، البدائع، الخواتيم، الملحقات، والأخيرة عثر عليها متناثرة بين طيات الكتب.

ولعل إشارة إلى بعض هذه الغزليات ترجح لدينا أياً من هذه الآراء... ■

كتاب الزاوية

من أشعار سعدى الشيرازى

لن يرى

إنّ مَنْ تزرع شوكاً كفُّهُ
ليس يجنى فى غدٍ منه الرُّطَبْ
والذى يغزل صوفاً لن يَرى
غزله يوماً حريراً أو ذهبْ

ضحايا شهوة

لم نسطِّرْ جملة عن ذنبنا
لا ولا بالسيئ أتبعنا الحَسَنْ
فإذا نحن ضحايا شهوة
سوف نبكىَ حسرةً طول الزمنْ

شغلنا بالمحال

آهِ واحزنى على عمر مضى
وكما كنّا بقينا فى ضلالْ
بَيْدَ مَنْ قد عرفوا ما انشغلوا
مثلما نحن شُغلنا بالمُحالْ
فهمو كانوا رجالاً صدقوا
حينما كنّا كأشباه الرجالْ
هذّب الإيمان منهم أنفساً
فمضوا، ما عشقوا غير الكمالْ
لطّف الدين لهم شهواتهمْ
وغدتْ شهواتنا فى جمع مالْ
لم يروْا فى عيشهم منْ قلق
واشتَهينا ساعةً راحةَ بالْ

الصبا يمضى

الصَبا يمضى ويأتى هَرَمَ
مثلما يمضى الدجى بعد النهارْ
كم دجىً ولّى وكم ولّى ضُحىً
دون أنْ نظفر منها باعتبارْ!

قيود

كم تعبنا وتخلّفْنا ولمْ
نفعل الفعل الذى يعطى الخلودْ!
يالَخسرانِ ليالٍ قد مضتْ
قيَّدتْنا بهوى الدنيا القيودْ!

عروض موجزة

كتب عربية

الكتابة والوجود

عبد القادر الشاوى

الدار البيضاء ـ بيروت: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ١٩١ صفحة، ١٢ جنيها



يفترض المؤلف أن جنس السيرة الذاتية لم يحظ في إطار البحث الجامعي بالمغرب بالاهتمام نفسه الذى أولاه الباحثون لغيره من الأجناس كالرواية والشعر، وهو هنا يحاول أن يسد هذا النقص عبر قسمين أساسيين: الأول عنوانه السيرة الذاتية للفقيه والثاني عن السيرة الذاتية للمثقف العصرى. وفي القسم الأول يدرس أربعة نصوص يمتد تاريخ إنتاجها بين عامي ١٨٦٠ و١٩٤٢ لأبي الربيع سليمان الحوات والتهامي الوزاني ومحمد المختار السوسي ومحمد الجزولي، وفي القسم الثاني أربعة نصوص أخرى تمتد من عام ١٩٥٧ وحتى ١٩٩٣ لأربعة من الكتاب المعاصرين هم عبد المجيد بن جلون وعبدالكريم غلاب ومحمد شكرى وليلي أبوزيد. والفرضية العامة التي ينتهي المؤلف إليها وربما بدأ بها، هي أن تعريف السيرة الذاتية ليس أمرًا متفقا عليه، ولذا لجأ إلى نصوص قديمة نسبيًا وأخرى أحدث، كي يحقق الانسجام المفترض لبحثه بين سيرة الفقيه وسيرة المثقف العصرى، ولم تأت هذه السيرة دائمًا واضحة بوصفها سيرة، وإنما تضافرت في بعض الأحيان ضمن إطار أدبي أو روائي، خصوصًا مع التراكم المهني الذي حققه السرد المغربي الحديث.

ويؤكد المؤلف ـ إجمالا ـ أن كتابة السيرة الذاتية تسعى إلى «بناء هوية نصية موازية»، وهي هوية تتبلور عبر عملية الارتحال في النص زمنيا ذهابًا وإيابًا، باستخدام ضمير المتكلم وجعل الذات في بؤرة اهتمام القارئ، والإعلان مبكرًا عن الهدف من عملية الكتابة، وهذه المفاهيم تنطبق أكثر على نصوص القسم الأول.

أما القسم الثاني، ومع الأخذ في الاعتبار التراكم المعرفي والثقافي المغربي عبر سنوات طوال، فإن نصوصه استفادت من التجديد الحاصل في مجال السرد وطرحت أسئلة هي من صميم التحولات التي مرت بها التجربة المغربية في مختلف ميادين العمل والحياة، وأغلبها ينبع من الطفولة أو يلقي أضواء على تجارب بعينها كتجربة السجن مثلاً، أى أنها لا تلقي بالأ بأن يكون السرد متتابعًا أو منطقيًا، بقدر ما تعني بفنيته التي اكتسبها بالضرورة المعاصرون من مثقفي وأدباء المغرب.

□□□

حديث النهايات

على حرب

الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي ٢٠٠٠، ٢٠٣ صفحات، ٢٢ جنيها



لم يحظ مفهوم بقدر من الشيوع والالتباس والتأرجح بين الرفض المطلق والقبول الحذر في السنوات الأخيرة، كما حظى مفهوم العولمة.

المؤلف هنا يدلى بدلوه في الموضوع، انطلاقاً من فرضية أساسية ترى أن الوجود الإنساني هو وجود صراعي وإن اختلفت أشكاله من حقبة إلى أخرى والتعاطى مع صراعات حقبة العولمة يختلف بالتأكيد عما سبقها، والمؤلف يؤكد على أن إدارة العالم مع هذا التطور الجديد تتجنب كثيراً الانفجارات الدموية، وتغلّب عليها منطق التنافس المنتج، فهل يكون بمقدور البشرية أن تستبدل بالتصادم التواصل بما يجنبها تدمير العمران وتخريب الأرض، هذا هو التحدى الكبير كما يراه المؤلف الذى يستبعد من معادلة التفاهم مع آليات العولمة تياراً يخضع تجلياتها إلى مفاهيم وأحكام فقهية وضعها مجتهدون منذ عشرات العقود، تيار غير قادر على أنسنة رؤيته للكون والعالم، يوجه المؤلف في موضع آخر نقداً للمثقفين الذين يدعون مقاومة واقع تعرض فيه كل القيم والثوابت للبيع، يرفضون تسليع الثقافة وعصر السوق في وقت يعملون فيه بكامل طاقاتهم لتسويق بضاعتهم، وهم يدعون أنهم أصحاب رسالة فيما هم في الواقع أصحاب مهنة.. «هم يقدمون أنفسهم بوصفهم دعاة تحرير وتنوير، في حين هم طلاب سلطة وأهل تمايز واصطفاء».

يعطى المؤلف أهمية أكبر للعقل التواصلي كما يركز على مقولة: نعمل ونفكر معاً، وهي مقولة باتت ممكنة التطبيق على نطاق واسع مع تعدد الوسائط التي ابتكرها البشر، والتي أتاحت إمكانات غير محدودة للتبادل بين الناس والمجتمعات.

أما الإشكالية الكبرى التي تتواجه في ندية وصراع دائم مع العولمة فهي الهوية، التي يبدو لكثيرين أن العولمة عدوها الأول، وهنا يدعو المؤلف إلى هوية مولدة، تبدأ بالاسترجاع والاستحضار، لا من أجل الانغلاق على الذات، بل من أجل إعادة البناء والتشكيل.

□□□

الوصفة العجيبة (للأطفال)

أماني العشماوى

رسوم: بهجت عثمان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٧٠ صفحة، ٢٠ جنيها



ثمة قاسم مشترك بين حكايات الشعوب وأساطيرها، حتى لتبدو الجدة التى حكت ـ أحياناً ـ هي أم البشر جميعاً. والأمر لا يقف عند حدود القيمة التى تقدمها الحكاية، والتى غالباً ما تحظى بقبول عام، لكونها تجسد انتصار الخير على الشر، أو قدرة الضعيف الطيب على مقاومة القوى الشرير، أو غلبة الذكاء والحيلة في مواجهة السطوة الغاشمة...الخ.

في هذا الكتاب يمكننا بسهولة أن نرصد هذا الملمح، وأن نكتشف حساً فكاهياً لدى شعوب تشتهر بجديتها ودأبها على العمل المتواصل، نقرأ في قصة «أناتول» عن ذلك الفأر الفرنسي الذى اعتاد التسلل إلى مصنع للجبن، حيث يلتهم قطعاً منها ويترك ملاحظاته التي كانت توليها إدارة المصنع أهمية كبيرة دون أن تعرف أن كاتبها فأر، ويوما ما وهو يؤدى واجبه المعتاد، وجد قطاً أمام باب المصنع، فارتبك وهمَّ بالهرب، لكنه أصر على مواصلة عمله للنهاية، وكتب ملاحظاته، إلا أنها جاءت مرتبكة بسبب فزعه، فكتب ملاحظات غريبة من نوع: اخلطها برجول الضفادع وأضف مزيدا من البصل، وأضف نكهة الرنجة، ومزيدا من قشر الموز والشيكولاتة .. الخ. ولم تتردد إدارة المصنع في الاستجابة لملاحظات الخبير الذى جربت وصفاته من قبل، وكان مدهشا أن بعض هذه الملاحظات أتى بثمرة جيدة، وأقبل الجمهور على شراء هذه الأنواع الجديدة من الجبن ومازالت المصانع الفرنسية تنتجها إلى اليوم.

وفي قصة الوصفة العجيبة، تحدثنا المؤلفة عن «أصلان» ذلك الولد البدين الذى كره بدانته فلجأ إلى صديق له يهتم أبوه بالكيمياء والوصفات الطبية، وتمكن من الحصول على وصفة تجعله خفيفًا وقد جعلته الوصفة كذلك فعلاً، لكنها لم تخفف بدانته وكانت النتيجة أنه بقى دائما معلقا في الهواء لا يستقر على الأرض إلا بمزيد من أحزمة الحديد الثقيلة.

كره أصلان هذا الوضع لكن حريقا وقع في بيت جارتهم وأوشكت ابنتها الصغيرة أن تلقى حتفها بسببه، جعل أصلان يحمد الله على حالته تلك، إذ تمكن من الطيران إلى داخل شقة جارتهم وأنقذ الطفلة وعاد بها سليمة، هتف الناس له وهللوا وقال أصلان لهم: رب ضارة نافعة.

ومن عالم الحيوان تروى لنا المؤلفة قصة ذلك الفأر الذى تصور أنه سيد الغابة، وقد كذب على نفسه حتى صدقها. وما أن رأى الفيل حتى جلس منفوشا يتحداه، نظر إليه الفيل بسخرية وأطلق ماء من خرطومه أطاح بالفار بعيداً، لم يدرك الفار ما جرى بعدما راح في غيبوبة، ولما افاق منها أخذ يحدث رفاقه عن فيضان جارف وسيل غامر ألم بالغابة ولم ينس أن يذكرهم بأن الفيضان جرف الفيل، وأن ذلك من حسن حظه بدلاً من أن أحطم عظامه.

لم يكن الفار قد رأى الفيل من قبل ولم يره بعد ذلك، فصدق قصته وبالغ في كذبته التي تناقلتها الصراصير في أنحاء الغابة.

أكثر من ١٥ قصة جميلة مشوقة، تقدم المعلومة والحكاية في قالب ساخر تزينها رسوم الفنان الكبير بهجت عثمان.

□□□

رشدى سعيد.. رحلة عمر

رشدى سعيد

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠، ٢١٧ صفحة، ١٠ جنيهات



إحساسان متناقضان يصاحبان قارىء سيرة الدكتور رشدى سعيد التى صدرت أخيرًا في مناسبة بلوغ صاحبها الثمانين، وهما ذاتهما ـ الإحساسان ـ يسمان مسيرته ويعبر عنهما بصراحة لا تحتاج معها أن تجهد حواسك كي تقرأ ما بين السطور: الرضا والسخط. الرضا عن جهوده العلمية ومشواره الأكاديمى والعملى وإنجازه الذى تحقق في هذه الحقول، سواء في كلية العلوم أو مؤسسة التعدين أو مركز الأبحاث الجيولوجية

وما ارتبط بها جميعًا من مشروعات كان أشهرها وأكثرها إثارة للجدل مشروع فوسفات أبو طرطور. والسخط من أن ذلك كله لم يقدره أحد داخل مصر، وإن وجد صاحبه التقدير خارجها في كل محفل. السخط من أحوال تبدلت أساءت إلى حال المجتمع المصرى وتدهورت معها مؤسساته التعليمية والعلمية واختلطت أولوياته بما هدد إمكانات التنمية فيه وأصابها في مقتل، ثم السخط الذى يقارب حد المرارة، من مؤامرات حيكت ضده في كل موقع، ولم تجد سوى «قبطيته» كى تبرر أكاذيبها، ماجعل صاحبها يشعر أنه «الآخر» في وطنه، وهو إحساس لازمه منذ عودته من بعثته العلمية في الولايات المتحدة عام ١٩٥١، وتفاقم في سنوات السبعينيات وحتى اليوم، مما دفع صاحبه إلى أن يهجر الحياة العامة ويغادر مصر كلها ليقيم في أمريكا منذ عشرين عامًا.

ينتمى الدكتور رشدى سعيد إلى عائلة قبطية متوسطة تعود أصولها إلى محافظة أسيوط، التى غادرتها إلى القاهرة في سبعينيات القرن التاسع عشر حين أضطر الجد إلى أن «يسف» التراب أمام أعيان البلد كما حكم بذلك «الملتزم»، فقد كان الجد يعمل «قياسًا» للأرض، وهى مهنة احتكرها الأقباط.

وعبر محطات ثلاث، تشكلت مسيرة الدكتور رشدى سعيد وأثارت اهتمامه بالشأن العام:

- ثورة ١٩١٩ التى تربى في أحضان مبادئها وما تمخضت عنه من مناخ ليبرالى.
- وثورة ١٩٥٢ وما أحدثته من تغييرات ديموجرافية واجتماعية وسياسية طالت كل أشكال الحياة.
- ثم صعود اليمين الدينى ودوره في الأجواء التى سادت شكل الحياة في مصر.

والمحطتان الأوليان يورد المؤلف تفاصيل كثيرة بشأنهما في سيرته، لكن القارئ سيلحظ فورًا أن المحطة الأخيرة، كانت هى الأكثر تأثيرًا على الدكتور رشدى سعيد، فقد تلاحظ له كيف أن الأقباط يبعدون عن المواقع القيادية أو مراكز الإدارة وصنع القرار.

ثم يحكى الدكتور رشدى سعيد عن كثير من المؤامرات التى دبرت له في الجامعة وفي مؤسسة التعدين وغيرها، وعن الأجواء المسمومة التى أشاعها التيار اليمينى بحسب تعبيره، ويقيم أحداثًا سياسية جرت في عهدى عبد الناصر والسادات، وسنلاحظ، رغم انتقاداته لإجراءات في عهد عبد الناصر، تقديرًا لدور هذا الزعيم ووعيه الذى جاوز وعى زملائه من أعضاء مجلس قيادة الثورة.

وهذا التقدير لا نرى بعضه حين يقيم عهد السادات الذى ارتمى - حسب قوله - في حضن الأمريكان وقاد مصر إلى تسوية هزيلة عقب نصر أكتوبر العظيم، كان ثمنها الباهظ تهميش الدور المصرى لحساب نظام شرق أوسطى يكون لإسرائيل مكان آمن ومتين فيه، فضلاً عن استشراء الفساد وعمليات النهب التى أهدرت عشرات المليارات.

□□□

الفنون القديمة في بلاد الرافدين

حسن الباشا

القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠، ٢٦٤ صفحة، ٢٠ جنيها



تتنافس الفنون القديمة في بلاد الرافدين من حيث القدم والأصالة، الطرز الفنية في وادى النيل. وتتميز فنون الرافدين بالوقار والفخامة وقواعدها الثابتة شبه المقدسة، وقد عكست بذلك أثر المجتمع وتأثيره، واشتمل الطراز الفنى العراقى على طرز فرعية أخرى أهمها: الطراز السومرى والأكادى والبابلى والآشورى والكلدانى أوالبابلى الجديد، وقد تبادلت هذه الطرز التأثيرات مع الفنون القديمة: مصرية وفينيقية وآسيوية، وترك لنا الفن العراقى واحدة من عجائب الدنيا السبع هى حدائق بابل المعلقة.

ويبدأ تاريخ العراق المكتوب بالسومريين الذين سكنوا جنوبى العراق في الألف الرابع قبل الميلاد، وإن كانت حضارة العراق ترجع إلى آلاف السنين قبل هذا التاريخ، وقد بلغ السومريون درجة متقدمة من الحضارة، تركوا لنا بعض آثارها في صورة نقوش ونصوص كشفت كثيراً من جوانب حياتهم، واستطاع «الأكاديون» أن يسيطروا على بلاد السومريين في حوالى ٢٧٢٠ ق.م ثم لم تلبث الدولة السومرية الأكادية أن تصدعت بدورها فخضعت لسيطرة الحموريين في بابل، وفرض «حمورابى» في سنة ٢١٠٠ ق.م سيطرته على بلاد العراق وأنشأ دولة موحدة شهدت العراق في ظلها ازدهاراً عظيماً وتستمر الصراعات إلى أن نصل إلى الدولة الآشورية التى تركت لنا مجموعة هائلة من الألواح تشمل موضوعات مختلفة منها أسطورة الخلق وجلجامش ومئات النصوص الأخرى في العلوم المختلفة لتليها الدولة البابلية الحديثة.

ويلاحظ المؤلف أن العراقيين اهتموا بعمارة مدنهم وتخطيطها وتحصينها وزودوها بالأبراج المدرجة، وبعض هذه المدن ذكر في التوراة مثل كالح (نمرود الحديثة) وكذلك مدينة سرجون ومدينة بابل التى أعيد بناؤها في عصر الملك نبوخذ نصر الثانى سنة ٦٠٤ ق.م وهى تحتشد بالبوابات والنماذج المعمارية الرائعة.

وبالنسبة لفنون النحت، يؤكد المؤلف أن الحفائر كشفت عن إنتاج ضخم منها يرجع إلى العصر السومرى وما قبله، وقد عبرت هذه المنحوتات عن حياة ذلك العصر وفئاته الاجتماعية.

أما التصوير والزخرفة فقد تزينت بها القصور البابلية، وقد عرف البابليون الألوان واستخدموها، كما برعوا في الفسيفساء، وكانت الأوانى الخزفية والفخارية والحجرية مجالاً خصباً لهذه الفنون.

□□□

سيرة حياة ت.س. إليوت

بيتر أكرويد

ترجمة: باقر جاسم وخالدة حامد

أبو ظبى: منشورات المجمع الثقافى، ٢٠٠٠، ٤٨٠ صفحة، ٢٥ جنيها



ولد ت.س إليوت في عام ١٨٨٨ في سانت لويس، ميزورى، وقد هاجرت عائلته من انجلترا إلى الولايات المتحدة الأمريكية في أواخر القرن السابع عشر، وحققت وجوداً متميزاً منذ هجرتها، وبقيت محكومة بتقاليد اجتماعية ودينية وأسرية راسخة، وقد عاد إليوت مرة أخرى إلى انجلترا في العقد الأول من القرن العشرين، وعاصر تحولات مهمة في أوروبا في تلك الفترة، وشهد فعل الحربين العالميتين بها، وعاش هو نفسه في حالة من الكفاف وضيق العيش دفعته إلى العمل في أكثر من وظيفة في وقت واحد، وبرغم ذلك تمكن من تحقيق مكانة أدبية رفيعة ظل يتبوأها بإنتاجه الشعرى والنثرى والنقدى والاجتماعى مستفيداً من الموروث الإبداعى الإنسانى وساعيا إلى الحداثة في أبهى صورها، مما مكنه من الحصول على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٤٨، واستمر إبداع إليوت وتأثيره حتى وفاته في عام ١٩٦٥.

درس إليوت باجتهاد في جامعة هارفارد، وتأثر بقوة بالفيلسوف وعالم الرياضيات برتراند راسل الذى كان يحرص على حلقاته الدراسية، وانغمس في شبابه في نقاشات ومساجلات مع نفر من مبدعى زمانه من أمثال إزرا باوند وفرجينيا وولف، وزار عشرات المدن في أوروبا باحثا عن المتعة والمعرفة، وبدأت أعماله التى كان ينشرها على حذر بين رفاقه في هارفارد، تأخذ طريقها إلى الذيوع بين الناس، ويمثل عام ١٩١٥ منعطفاً مهمًا في مسيرة إليوت، فهو من ناحية يمثل بداية مستقبله كشاعر، ومن ناحية ثانية شهد زواجه الأول من امرأة شابة تسمى فيفيان هى وود، وهو زواج تعس، فقد كانت فيفيان عصبية المزاج، بفعل أمراض لازمتها منذ الطفولة وأصابتها في أحيان كثيرة بتشنجات وموجات صرع، وكانت وفاة والده في عام ١٩١٩، محنة أخرى ضاعفت من آلامه التى لم يتخلص منها جزئيا إلا مع نشر رائعته «الأرض اليباب» على نطاق جماهيرى بدءاً من العام ١٩٢٢، وقد مثلت آنذاك صدمة لمعاصريه وتفاوتت ردود الفعل إزاءها إلى درجة أن بعضهم رأى فيها كلاسيكية تعود به عشرين عاما إلى الوراء، فيما رآها آخرون وحيا بالحسية الحداثية أو «عملية غسيل دماغ كلية» لكن الأمور لم تسر على النحو الذى أراده، فقد واجه ظروفا بالغة القسوة دفعته إلى العمل مصرفيا لأكثر من سبع سنوات، وفي الوقت نفسه تأزمت الحالة الصحية لفيفيان التى كان عليها أن تتردد على عدة مصحات نفسية في أوروبا.

□□□

الأهرامات المصرية أسطورة البناء والواقع

خالد عزب - أيمن منصور

القاهرة: دار عين، ٢٠٠٠، ٣٢٦ صفحة، ٣٥ جنيها



ما زال بناء الأهرامات لغزًا تحار أمامه عقول العلماء والباحثين، وما انتهى إليه الدارسون يؤكد أن وراء هذه الأبنية الشامخة عقلية رياضية وهندسية فذة، فضلاً عما تشير إليه من قوة معنوية وروحية هائلة، أعانت على إنجاز هرم خوفو مثلاً فيما يزيد على العشرين عامًا، والاتجاه إلى بناء أهرامات، يمثل تطويرًا للمقابر الملكية، إذ كان المصرى القديم في مصر العليا يدفن موتاه في أراض خاصة بالدفن خارج أماكن السكن، فيما كان متوفى مصر السفلى يدفن تحت مسكنه، كى يواصل حياته مع أهله، وتطور الأمر إلى مصطبة حتى بداية الأسرة الثالثة التى بدأت بحكم «زوسر» صاحب الهرم المدرج وهى أول محاولة في هذا الاتجاه، وقد قام بها مهندسه الشاب الموهوب «إيمحوتب» الذى آثر أن يبنى مقبرة ملكية على شكل مصاطب تقل كل واحدة في الحجم عما تحتها، واستمر الفراعنة

على هذا النهج، وظهرت أهرامات عدة فى دهشور وسقارة، حتى إذا ما جاء خوفو خلفًا لسنفرو، كانت الصورة اكتملت، ليكون هرمه ـ أو مقبرته ـ أقصى ما وصلت إليه مجهودات وتجارب بناء الأهرامات. وفى عصر الدولة الوسطى، بدأ ملوك طيبة ـ العاصمة الجديدة البديلة لمنف ـ منحى مغايرًا لبناء مقابرهم الملكية، فهم لم يتخلوا تمامًا عن فكرة الأهرامات، وإنما بنوها بالطوب اللبن، وزودوها من الداخل بممرات معقدة، حتى تبقى مقتنيات الأهرامات، من ذهب وأحجار كريمة ومتعلقات بعيدة عن أيدى اللصوص، فإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث، اندثرت تمامًا فكرة المقابر الهرمية، وسادت المعابد الجنائزية، لكن الهرم ظل فى ذهن المصرى القديم مرتبطًا بمقابر الملوك، حتى أن العامة من الناس، كانوا يدفنون ذويهم ويبنون فوق مقابرهم أهرامًا صغيرة من الطوب اللبن. عشرات التفاصيل يضمها الكتاب عن أهرامات مصر العديدة فى أبو رواش وأبوصير والجيزة وسقارة ودهشور ومزغونة والفيوم، أشكالها وبناتها وتخطيطها الهندسى وخصائصها المعمارية، أما أعظم بناة هذه الأهرامات، الملك خوفو، فلا ذكر له، إلا تمثال من العاج يبلغ حجمه ٥,٥ سم يوجد بالمتحف المصرى.

□□□

المسيح اليهودى ونهاية العالم

رضا هلال

القاهرة، مكتبة الشروق، ٢٠٠٠، ٢٤٠ صفحة، ١٦ جنيها



الفرضية الأساسية التى يثبتها هذا الكتاب، هى أن الانحياز الأمريكى لإسرائيل يستند إلى جذور لاهوتية وثقافية بالأساس، وليست سياسية أو استراتيجية كما يشاع، وقد سبقت المسيحية الصهيونية نظيرتها الصهيونية اليهودية إلى الوجود، ولعبت دورًا هامًا فيما آل إليه حال إسرائيل اليوم.

يؤكد المؤلف أن اليمين المسيحى فى الولايات المتحدة الأمريكية، يستأثر بنحو ٢٥٪ من القاعدة التصويتية، فيما لا يستحوذ الصوت اليهودى سوى على ٢,٥٪ من هذه القاعدة، وهو ما ينفى الادعاءات بأهمية أصوات الناخبين اليهود من ناحية، ويثبت ـ من ناحية ثانية ـ افتراض المؤلف الذى طرحناه فى البداية، والأمر يتجاوز السياسة والاستراتيجية، فالثقافة الأمريكية توصف بأنها ـ كما يقول المؤلف ـ يهو مسيحية، تقوم على التقاليد الأخلاقية والدينية لليهودية والمسيحية، أى التراث اليهودى المسيحى، وهو دعم التوافق القيمى بين أمريكا وإسرائيل، ويشير الكتاب إلى أن تدين أمريكا وتهويدها، ارتبط منذ البداية بنشأتها، فالمهاجرون الأوائل اعتبروا أمريكا هى أورشليم الجديدة، وشبهوا أنفسهم بالعبرانيين القدماء الذين فروا من ظلم فرعون، وهو فى حالتهم الملك الإنجليزى جيمس الأول، وهربوا من أرض مصر (إنجلترا) بحثًا عن أرض الميعاد الجديدة (أمريكا)، وهكذا كان على المهاجرين البروتستانت أن يطاردوا الهنود الحمر فى العالم الجديد، كما طارد العبرانيون القدماء الكنعانيين فى فلسطين.

وقد عاودت المسيحية اليهودية الظهور فى فترة الإصلاح والنهضة فى أوروبا، بعد أن كانت توارت بظهور القديس بولس المؤسس الثانى للمسيحية، لكن الانطلاقة الكبرى للمسيحية اليهودية ارتبطت بحركة الإصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر، وحين وصل المهاجرون إلى أمريكا، كانت أساطير الشعب المختار وأرض الميعاد ومملكة إسرائيل هى مرشدهم، كانوا يصلون باللغة العبرية ويطلقون على أبنائهم أسماء من قصص التوراة، وكان أول كتاب طبعوه فى أمريكا هو كتاب مزامير داود، وهكذا كانت المسيحية التى دخلت أمريكا منذ البداية يهودية، وصار المسيح يسوع الناصرى يهوديًا، أى أحد أنبياء اليهود العديدين، ومع حلول القرن الثامن عشر أصبح الاعتقاد بالبعث اليهودى فى فلسطين يشكل جانبًا مهمًا من اللاهوت البروتستانتى الأمريكى، ومنذ أربعينيات القرن التاسع عشر، انبثقت عن المسيحية اليهودية مسيحية صهيونية، أكدت على الالتزام بإقامة إسرائيل والانحياز الدائم لها، كالتزام لاهوتى وثقافى، ثم سياسى فى نهاية المطاف، وهكذا، سبقت الصهيونية الأمريكية صهيونية هرتزل، وهو ما يفسر دعم أمريكا لقيام إسرائيل عام ١٩٤٨، ثم الانحياز الدائم لها حتى اليوم.

ويشير المؤلف إلى أن أواسط السبعينيات شهدت حركة إحياء دينى فى أمريكا، صعدت معها المسيحية السياسية والأصولية التى ارتبط صعودها بصعود المسيحية الصهيونية، وقد أكد انتصار إسرائيل فى حرب يونيو ١٩٦٧ واحتلالها القدس، هواجس اليهود وتصوراتهم عن قرب مجئ المسيح، وصار تهويد القدس هدفًا أساسيًا بوصفها المدينة التى سيحكم المسيح منها العالم عند مجيئه.

□□□

كتب أجنبية

Magical Urbanism - Latiinos Re-invent the US City

(الحضرية السحرية ـ اللاتينيون يعيدون اكتشاف المدينة الأمريكية)

Mike Davis

Verso, 2000, £12.00



أصبح الأمريكيون من أصل لاتينى يمثلون ظاهرة مهمة للغاية فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية المقرر إجراؤها فى نوفمبر المقبل، ويسعى المرشحان الرئيسيان جورج بوش الابن عن الحزب الجمهورى وآل جور عن الحزب الديمقراطى لإغراء الناخبين من هذه المجموعة العرقية للتصويت لصالحها. وطبقًا للإحصاءات فإن عدد الأمريكيين من أصل لاتينى سيتجاوز عدد السود الأمريكيين مع نهاية العام الحالى، ليصبحوا أكبر أقلية تعيش فى الولايات المتحدة، ويشير مايك ديفز مؤلف الكتاب إلى أن الثقافة اللاتينية فى الولايات المتحدة ثقافة حضرية بشكل طاغ، فهى تتركز فى المدن الكبرى مثل لوس انجلوس وميامى ونيويورك وبوسطن، ويقول إنه من بين أكبر المدن الأمريكية، فإن أعداد اللاتينيين تتفوق على أعداد السود فى ٦ مدن، وهذا التحول الديموجرافى من شأنه إعادة تشكيل المناطق الحضرية الأمريكية، لقد تدفق المهاجرون اللاتين خاصة من المكسيك والسلفادور وبورتريكو ودول أخرى إلى مدن الولايات المتحدة خلال العقدين الماضيين وهم يعرفون باسم الهيسبانك. ونتيجة لهذا التدفق، فإن السكان البيض الأمريكيين تمركزوا فى الضواحى وخرج معظم السود من مراكز المدن ليخلو الأمر إلى حد ما للهيسبانك.

وجاء هؤلاء المهاجرون ومعهم ثقافتهم، وهى ثقافة حية وحيوية تمتد من الملابس إلى الطعام إلى السلوك والموسيقى واللغة مما غير من المظهر الثقافى للولايات المتحدة، ففى لوس انجلوس مثلاً وكما يقول المؤلف، فإن هناك مدينة كبيرة تظهر داخل المدينة قوامها هؤلاء الهيسبانك بثقافتهم المميزة، ولذلك فإن المدينة الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين ستكون مختلفة إلى حد كبير عن تلك المدينة فى القرن العشرين وهى ظاهرة يتعين على السياسيين وعلماء الاجتماع أخذها فى الاعتبار.

ويذكر المؤلف أن ظاهرة الهيسبانك فى الشتات أصبحت ذات تأثير كبير على الدول التى قدم منها المهاجرون، فمثلاً اختار شعب الدومينيكان رئيسهم من بين المهاجرين إلى الولايات المتحدة، وهو ليونيل فيرنانديز الذى نشأ فى نيويورك وهو يعتزم العودة للولايات المتحدة بعد انتهاء فترة رئاسته.

ولا يخلو الأمر من مشاكل وتوترات، فالتدفق الكبير لهؤلاء المهاجرين خلق مصادمات مع فئات أخرى تعيش فى المجتمع الأمريكى وتعتقد أن هؤلاء الناس سيأخذون فرصهم فى العمل والإقامة، كما أن بعض الهيسبانك متهمون بالعمل على إدخال المخدرات إلى الولايات المتحدة.

□□□

Vikings: The North Atlantic Saga

(الفايكنج: ملحمة شمال الأطلنطى)

Ed.William W.Fitzhugh and Elisabeth Ward

Smithsonian, 2000, 432pp., £21.00



لقرون عديدة نظر المؤرخون إلى قبائل الفايكنج فى شمال أوروبا على أنها كانت قبائل مدمرة استهدفت القضاء على الحضارات بعنف وقسوة مثلما كان التتار والمغول فى آسيا. فقد أثار رجال الفايكنج الرعب والإرهاب فى البحار خلال الربع الأخير من الألفية الأولى للميلاد واجتاحوا دولاً عديدة غزوا وسلبًا إلا أن بعض المؤرخين يحاولون حاليا إعادة الاعتبار للفايكنج والتركيز على النواحى الإيجابية التى ميزتهم مثل القدرة الفائقة فى الزراعة والتجديد السياسى وإقامة المؤسسات القانونية والسياسية ومهارة رجال الحكم لديهم وتحضرهم الثقافى وشبكات التجارة التى أقاموها والتى امتدت من صربيا إلى المغرب.

إن مدنًا مثل يورك فى إنجلترا ودبلن فى أيرلندا وريكيافيك عاصمة أيسلندا ومدنًا أخرى فى روسيا كانت تحت سيطرة الفايكنج، بل إن هناك من يعتقد أن رجالاً من الفايكنج هم الذين اكتشفوا أمريكا قبل ٥٠٠ عام من وصول كريستوفر كولومبس إلى هناك وطبقًا لأسطورة تعود للعصور الوسطى فإن ابنا لتاجر أيسلندى وصل إلى الشاطئ

عـــــــــروض مـــــوجـــــزة

الأمـريكي عـام ٩٨٥ مـيـلادية وتعطي الأسطورة تفاصيل كثيرة عن الشاطئ الشرقي لما سمي بعد ذلك بأمريكا، وقد شارك في تأليف هذا الكتاب عديد من المؤرخين والخبراء الذين تحدثوا عن شتى جوانب الحياة لدى الفايكنج، ويضم الكتاب صورًا رائعة وخرائط عن الفايكنج وتاريخهم والأرض التي عاشوا عليها.

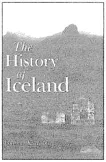
□□□

The History of Iceland

(تاريخ أيسلندا)

Gunnar Karlsson

University of Minnesota press, 2000, $19.95



هناك دول ومجتمعات لا يكاد الإنسان العادي في العالم يسمع عنها لأنها نادرًا ما تتردد أخبارها في وسائل الإعلام العالمية أو المحلية التي يتعرض لها، ومن هذه الدول أيسلندا المجتمع الأوروبي الفريد، وربما كانت آخر مرة تردد اسمها بقوة في ثمانينيات القرن الماضي عندما استضافت عاصمتها ريكيافيك قمة أمريكية سوفيتية على عهد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان والزعيم السوفيتي سابقًا ميخائيل جورباتشوف، لقد ظهرت أيسلندا في عصر قبائل الفايكنج التي اجتاحت أوروبا في نهاية الألفية الأولى من الميلاد، وهناك كتابات وآثار عن هذه الفترة الأولى من تاريخ البلاد.

ومؤلف الكتاب يعتبر من أهم مؤرخي أيسلندا وهو يقدم في كتابه تسلسلاً تاريخيًا لظهور القومية الأيسلندية، وانفصالها عن الدانمرك، وقد كان يغلب على المجتمع الأيسلندي الطابع الفلاحي الفقير إلا أن البلاد شهدت خلال القرن العشرين تطورًا كبيرًا، خاصة على الصعيد الاقتصادي جعلها تواكب النهضة الاقتصادية الأوروبية.

ولأن الظروف المناخية بالنسبة لهذه الدولة التي تقع في أقصى شمال أوروبا شديدة البرودة، فإن الظلام يكاد يكون هو سيد الموقف طيلة شهور السنة ولذلك تتزايد حالات الانتحار والاكتئاب بصورة كبيرة.

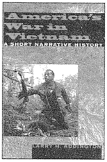
□□□

America's War in Vietnam

(حرب أمريكا في فيتنام)

Larry H.Addingtan

Indiana university press, 2000, 192pp., $29.95



بعد كل تلك السنوات والكم الهائل من الكتب التي صدرت عن حرب فيتنام هل يمكن أن يكون هناك جديد يمكن أن يضيفه كاتب أو مؤرخ إلى ما ورد في الكتب التي صدرت وهي بالمئات إن لم تكن بالآلاف (الكتاب الجديد قليل الصفحات «١٩٢» صفحة) لكنه مع ذلك يتناول المشكلة من جذورها وماذا حدث خلال سنوات الحرب ونتائج التورط الأمريكي غير المسبوق في فيتنام والمؤلف يقدم دليلاً إرشاديًا جيدًا لما حدث وهو يبدأ بالحديث عن تاريخ فيتنام قبل وبعد الاحتلال الفرنسي لها.

ويتحدث عن مقومات الأوضاع الداخلية في الولايات المتحدة على السياسات الأمريكية إزاء الحرب وتطوراتها وكيف أثر الرأي العام الأمريكي على صانع السياسة الأمريكي آنذاك ودور الإعلام في هذا الصدد، والبعض منا يتذكر العبارة الشهيرة التي قالها الرئيس الأمريكي الراحل ريتشارد نيكسون من أن أمريكا لم تنهزم في فيتنام، بل انهزمت على مكاتب رؤساء تحرير الصحف وشبكات التليفزيون في الولايات المتحدة الذين خلقوا شعورًا عامًا مناهضًا للحرب جعل من وقوع أي ضحية أمريكية على مسرح القتال بمثابة كارثة.

ويحلل الكتاب كذلك أسباب الفشل الأمريكي النهائي والانسحاب الذي ما زالت بعض صوره محفورة في الذاكرة الأمريكية والعالمية.

لقد احتفل الفيتناميون مؤخرًا بمرور ٢٥ عامًا على نهاية الحرب، وتحرير سايجون عاصمة فيتنام الشمالية التي أصبحت تسمى باسم «هوشي منه» البطل الفيتنامي الأسطوري الذي قاتل بعبقرية، لكن القدر لم يمهله لرؤية النصر. وقد تغيرت أشياء كثيرة خلال ربع القرن المنصرم من بينها العداوة بين البلدين حتى أن فيتنام تسعى جاهدة إلى جذب الاستثمارات الأجنبية، كما أن الرأسمالية التي حاربها القادة الشيوعيون بدأت في الولوج إلى فيتنام هذه المرة من الباب الرسمي، كما أن الثقافة الغربية أصبحت ملء السمع والبصر خاصة بين الشباب الفيتنامي.

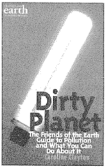
□□□

Dirty Planet

(كوكب قذر)

Caroline Clayton

Livewire, 2000, £4.99



يمثل الكتاب دليلاً إرشاديًا عن التلوث وسبل مواجهته، وهو من تأليف كارولين كلايتون، العضوة في جماعة «أصدقاء الأرض» البريطانية لحماية البيئة.

لقد أصبحت قضية التلوث وحماية البيئة موضوعًا رئيسيًا يتصدر نشرات الأخبار وعناوين الصحف، وتحول إلى حملة وطنية في عديد من الدول، لكن ما النتيجة؟

ترد المؤلفة بأن الأطفال الأمريكيين أقل من ١٥ سنة زادت بينهم نسبة الإصابة بمرض السرطان بنسبة ١٠٪ في الفترة من ١٩٧٤ حتى ١٩٩٣، كما أن أطباء الأسرة في بريطانيا سجلوا زيادة أنواع من مرض الربو لدى الأطفال قبل المدرسة بمعدل ٥ مرات عام ١٩٩٣، بالمقارنة بعام ١٩٧٩. كل ذلك بسبب زيادة معدلات التلوث.

ويتضمن الكتاب فصولاً عديدة عن التلوث الجوي والكيماويات والنزعة الاستهلاكية لدى الناس، مما يزيد لا محالة من معدلات التلوث. وعلى سبيل المثال، فإن رغبة الناس الشديدة في اقتناء السيارات، انقلبت إلى نتائج مرعبة، فهناك في لوس أنجلوس الكبرى سيارات أكثر مما هو موجود في الهند والصين وباكستان وبنجلاديش معًا. وللقارئ أن يتصور مدى التلوث الناتج عن هذا الكم الهائل من السيارات.

ورغم أن المؤلفة تقدم هذه المعلومات المخيفة، إلا أنها لا تبدو سلبية أو متشائمة، ففي نهاية كل فصل هناك اقتراحات ودراسات حالة لتحسين الأوضاع، مثل استخدام الدراجات بدلاً من السيارات، أو استخدام سيارات أصغر بدلاً من تلك الأكبر. والكتاب موجه بالأساس إلى الشباب والمراهقين من الجنسين، ولذلك فإن معالجته بسيطة وحميمية. ولأن المؤلفة تعتقد أن شباب اليوم هم الأكثر اعتمادًا على السيارات أكثر من أي جيل آخر في التاريخ، كان لابد من توجيه الرسالة إليهم.

□□□

The Chief.. The Life of William Randolph Hearst

(الرئيس.. حياة وليام راندولف هيرست)

David Nasaw

Houghton Mifflin, 2000, 687pp., $35.00



في بدايات القرن العشرين وصلت إمبراطورية وليام راندولف هيرست الصحفية في الولايات المتحدة إلى أقصى ذروتها، لكن سمعة الرجل كانت في الحضيض، خاصة بين أبناء الطبقة العليا الذين نظروا إليه على أنه شخصية كريهة، بل إن البعض وصفه بأنه رسول الشر الذي ينفث سمومه من خلال الصحافة الصفراء التي كان أشهر أعلامها. لقد مارس هيرست نفوذًا وربما سلطة أكثر من أي صحفي أمريكي آخر على مدى التاريخ الأمريكي الحديث، لكنه أي هيرست فعل ذلك بشكل فاضح وكان هدفه أن يدعم فرصته السياسية ويروج لآرائه في مجال السياسة الخارجية، ويعتبر هيرست مؤسس الصحافة الصفراء الأمريكية مع جوزيف بولتيزر، لكنه لم يكن ناشرًا فقط، بل صحفيًا ساعد في تحديث الصحافة الأمريكية.

ويحاول مؤلف الكتاب وهو أستاذ في جامعة «سيتي» في نيويورك أن يقدم صورة منصفة لهيرست، فهو كما يقول صناعة أمريكية وليس عصاميًا كما يتصور كثيرون بمعنى أنه كان ابنًا لمهاجر جاء إلى الولايات المتحدة واستوطن في كاليفورنيا، ولم يكن يملك شيئًا، ولكن بالجد والعمل المتواصل تمكن هذا الأب ومن بعده الابن أن يستغلا الفرص غير العادية التي يتيحها المجتمع الأمريكي لكي يكونا الملايين فوق الملايين.

ورغم أن هيرست ستذكره كتب التاريخ على أنه مؤسس إمبراطورية صحفية إلا أن المؤلف يقول أنه أي هيرست عندما تحرك إلى نيويورك عام ١٨٩٥ لمناقشة بولتزر صور نفسه على أنه المعبر عن الطبقة العاملة والمدافع عن قضاياها، ولا يتوقف المؤلف فقط عند الحياة الصحفية والسياسية لهيرست، بل يتناول حياته الاجتماعية وولعه بنجمات هوليوود في بدايات القرن العشرين.

□□□

اجتمـــاع

المقهى الرمادى
سعاد آل خليفة
البحرين: على نفقة المؤلفة، ٢٠٠٠
تحاول المؤلفة أن تحاكى واقع المرأة فى مجتمعنا، تناقش قضاياها وتبحث مشكلاتها عبر الغوص فى أعماق أنثى، تكشف فيه عن واقع مأزوم تنعكس أزمته على المرأة.

فن الزواج
محمد فتحى
القاهرة: دار الخانجى، ٢٠٠٠
عن الحياة الزوجية منذ الزفاف وحتى قدوم المولود الأول، والمشاكل التى تعترض الزوجين خصوصًا فى السنة الأولى من الزواج، بعض هذه المشكلات يتشابه بما يجعل اقتراح حلوله صالحًا لكل الحالات تقريبًا مع اختلاف بيئتها وتفاوت درجاتها الاجتماعية.

The War Against Boys: How Misguided Feminism is Harming our Young Men
(الحرب ضد الصبيان: كيف تؤذى النسوية المضللة رجالنا الصغار)
Christina Hoff Sommers
Simon & Schuster, 2000, 252pp., $25.00 (Pb)
ترى المؤلفة أن الانتشار الكبير للأفكار النسوية فى الولايات المتحدة الأمريكية، قد خلق ثقافة معادية للرجال، حتى أصبحت الرجولة فى حد ذاتها نوعًا من الخطر الاجتماعى وتهديد للنظام الأخلاقى، وعلى العكس ترى المؤلفة أنه فى أغلب الأحوال، يكون انحراف الصبيان راجعًا لغياب الرجل فى أسرهم، أى أن النشأة فى أسرة بدون أب، هى التى تولد نموذج الصبى العنيف المنحرف. وتدعو المؤلفة فى نهاية الكتاب إلى أهمية إعادة الثقة فى الرجال مرة أخرى حماية للمجتمع ككل.

Teenagers: The Agony, The Ecstasy, The Answers
(المراهقون: العذاب والابتهاج والحلول)
Aidan Macfarlane, Ann Mcpherson
Lifhe Brown Company, 1999, 353pp., £9.99
المؤلفتان قامتا بإجراء مقابلات شخصية مع ٤٠ مراهقًا وآبائهم، ويوضح كتابهما كيف يرى الآباء أبناءهم المراهقين والعكس، والغرض هو تمكين كل طرف من تفهم وتقدير وجهة نظر الطرف الآخر. كما يبرز التحليل مناطق الصراع المعتادة، ويقدم نصائح عن كيفية تجنبها أو حلها. وتتنوع الموضوعات التى تتم مناقشتها ما بين الصداقات والجنس واضطرابات الأكل والطلاق والعنف والحرمان.. إلخ.

أدب ورواية

بدون يافطة
محسن مختار
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠
مجموعة قصصية أبطالها من أبناء الطبقة الوسطى الذين تأثروا كثيرًا بالتحولات التى شهدها المجتمع المصرى فى العقدين الأخيرين، وهموم هذه الطبقة من مأكل ومشرب وملبس وتعليم، وسعيها الدائم من أجل تأمين لقمة العيش.

اللى اختشوا ماتوا
عمرو الليثى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠
يناقش المؤلف بأسلوب ساخر أزمات عديدة تواجه الوطن العربى ومصر، وأهمها مشكلة البطالة التى يعانيها الشباب والتى تفرز بدورها عشرات المشكلات الأخرى مثل الإدمان والانحراف وصور عديدة من جرائم السرقة والقتل.

جزيرة اليوم السابق
إمبرتو إيكو
ترجمة: أحمد الصبعى
طرابلس: دار أويا، ٢٠٠٠
لوحة للحياة يرسمها صاحب اسم الوردة، الناس جميعًا فى سفينة واحدة والسعى الدائب لاصطياد الآمال والتغلب على تقلبات البحر، بعضهم ينجح وأكثرهم يقصمه الموج، تلك هى الحياة.

صالح هيصة
خيرى شلبى
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠
يمثل هيصة عصره. حالة من الفوضى والاستهتار والضياع، ترجمة حقيقية لحالة عدم التوازن التى عاشها المجتمع المصرى عبر تحولاته الانتقالية منذ ما قبل الثورة مرورًا بسنوات الخمسينيات والستينيات وحتى اليوم، وما خلقه من اختلال فى المعايير والقيم، وما خلفته من انكسارات فى الروح والوجدان.

عربة تجرها الخيول
حسين عبد الرحمن
القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠
تجوب الرواية أنحاء المكان، فتروى قصص الشوارع والحوارى والأزقة، وترسم وجوها صادفها المؤلف عبر نسيج متكامل عن صراع البشر والحياة.

مرايا النار
بثينة خضر
الخرطوم: ٢٠٠٠
رواية تنهل من عادات وتقاليد المجتمع السودانى الغارقة فى القدم، بطلتها مثقفة وقوية تخفى بداخلها أنثى مستعدة لكشف عيوب المجتمع وتناقضاته.

مشهد على شاطئ البحر
ياسو أوكاشوو تاروه
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٠
تسعة أيام قضاها المؤلف فى صحبة أمه بمصحة للأمراض النفسية والعصبية، فى هذه الرواية يسجل المؤلف بعضًا مما شاهد، عن حياة المرضى ومعاناتهم، وأحلامهم التى لا تتحقق.

هديل اليمام
فاضل السباعى
دمشق: أسبيليه، ٢٠٠٠
عن عالم الطفولة الحالم وعذوبته وبساطته وطموحات الصغار والخوف من المستقبل، مجموعة قصصية تنهل من هذا المعين الخصب.

When I Lived in Modern Times
(عندما عشت فى العصور الحديثة)
Linda Grant
Granta Books, 2000, 260 PP., £9.99
فى أبريل ١٩٤٦ ترحل فتاة يهودية إنجليزية تعمل مصففة شعر فى لندن، إلى فلسطين وعمرها عشرون عامًا. تدور الرواية حول حياة هذه الفتاة الجديدة فى تل أبيب، وتنازع الهوية بداخلها بالإضافة لتناقضات واقع المدينة التى تعيش فيها.

اقتصاد وتجارة

انفجار العجز
رمزى زكى
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠
سبق للمؤلف أن قدم كتبًا عديدة تتناول موضوعات اقتصادية معقدة كالركود والتضخم وأزمات السيولة وصندوق النقد ودوره والمشكلة السكانية وخرافة المالتوسية وغيرها، وهو هنا يتحدث عن العجز الاقتصادى ومشاكل انهيار البورصات التى تعانى منها دول متقدمة وأخرى نامية ويطرح تصورات لحلولها.

Taken For a Ride: How Daimler - Benz Drove Off With Chrysler
(كيف تم الاندماج بين دايلمر - بنز وكريسلر)
Bill Vlasic and Bradley A. Shertz.
New York: William Morow, 2000, 372pp., $26.00
عندما اتحدت شركة السيارات الأمريكية «كريسلر» مع شركة السيارات الألمانية «دايملر - بنز» فى نوفمبر من عام ١٩٩٨، بدا الاتفاق على أنه اندماج بين قوتين متساويتين، ولكن فى أقل من عام ظهر جليًا أن «كريسلر» لم تصبح سوى فرع أمريكى «لدايملر» وتحت قيادة ألمانية صلبة للشركة المتحدة.
يروى الصحفيان الأمريكيان فى كتابهما تفاصيل هذا الاندماج وأسباب تدهور شركة «كريسلر» مع التركيز على الشخصيات الأساسية فى الشركتين، خاصة رئيس مجلس إدارة «كريسلر» السابق، «روبرت أتيون»، فى محاولة منهما لإلقاء الضوء على الطريقة التى تتم بها الاتفاقات التجارية بين الشركات الكبرى فى العالم.

Trading Places
(أماكن للتجارة)
Hattie Ellis
Mitchell Beasley, 2000, 160pp., $14.99(Pb)
تتجول المؤلفة بين أنحاء أوروبا، محتفية بالمحلات التجارية الصغيرة المتخصصة، والتى تهددها الآن سيطرة ثقافة «السوبر ماركت» أو المحلات التجارية التى تبيع كل شىء. يتناول الكتاب بالتفصيل ٥٢ محلاً متخصصًا.. تقع ما بين مدن فينسيا ولندن وباريس، بعضها يعود إلى القرن السابع عشر، وكل منها له شخصيته الفريدة.

Carried Away
(انجراف)
Rachel Bowlby
Faber, 2000, 256pp., £9.99, (Pb)
تحلل أستاذة الدراسات الإنجليزية والأمريكية بجامعة سسكس العلاقة بين التسوق وسيكولوجية المرأة. وتقدم عرضًا لتاريخ أفكارنا عن التسوق والاستهلاك الأنثوى، كما تفحص فى كتابها تطور المحلات التجارية، والخدمة الذاتية فى الشراء، والسوبر ماركت خلال القرن العشرين. وتتنوع مراجعها ما بين صحف تجارية قديمة وكتب عن التسويق وروايات أدبية أيضًا.

تاريخ وآثار

تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر
جمال زكريا قاسم
القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٠
يتناول تاريخ الخليج منذ عهود الاستعمار ويعرج على دراسته جغرافيًا ومناخيًا واجتماعيًا، فضلا عن دراسة لأهم الحرف ومراحل التطور التى مر بها فى كافة مناحى الحياة، ويختم الباحث كتابه الضخم بكارثة الاحتلال العراقى للكويت وتأثيره على المنطقة والعالم.

مصر القديمة.. التاريخ الاجتماعى
مجموعة من علماء المصريات
ترجمة: لويس بقطر
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠
عن الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة وعادات الناس وأفكارهم، كما يتناول العلماء شذرات من النظم السياسية والاقتصادية التى سادت مصر قديمًا وكيف أثرت فى حضارتها.

طيبة.. آثار الأقصر

تشارلز نميسى

ترجمة: محمد العزب موسى، محمود ماهر طه

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠

للأقصر فى التاريخ قيمة خاصة ومتفردة، وهى تضم ثلث آثار العالم، ولذا فإن أهميتها للعالم كله تجعلها محط أنظار المعنيين بالتراث الإنسانى، هذا الكتاب يتناول أهم آثار الأقصر مثل معبد الأقصر والبر الغربى، كما يتناول نتفًا من حياة المصريين القدماء فى هذه المدينة الخالدة.

The Tarim Mummies: Ancient China and the Mystery of the Earliest Peoples from the West

(مومياوات تاريم: الصين القديمة ولغز أقدم شعوب الغرب)

Jp Mallory and Victor Mair

Thames and Hudson, 2000, 352 PP., £28.00

ظل سكان صحراء تاريم الصينية لآلاف السنين يدفنون موتاهم فى الرمال - محافظين على أجسادهم وملابسهم، أما الغريب فى الأمر فهو أن وجوه تلك المومياوات اكتشف أنها تحمل ملامح أوروبية. هذا الكتاب يقدم تفسيرًا لتلك الظاهرة الأثرية العجيبة.

تــراث

التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه

أبى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى

تحقيق: الأب أنطون صالحانى

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

كان أبو عبد الله من أعيان الأندلس وكبار علمائها، وفى هذا التحقيق الذى يلى الطبعة الثانية من الكتاب عام ١٩١١، يصحح المحقق بعضًا من الأخطاء التى وقع فيها المؤلف، ويورد بعضًا مما تضمنه من مقولات معلقًا عليها.

تــراجم وسيــر

شامبليون.. حياة من نور

جان لاكوتير

ترجمة: نبيل سعد

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

عن حياة عالم الآثار الشهير الذى اكتشف حجر رشيد، وعشقه لمصر والمصريين وعلاقته الوطيدة بالحضارة المصرية، ويعتبر المؤلف شامبليون مدخلاً لعلاقات ثقافية استمرت بين مصر وفرنسا منذ عصر محمد على وحتى اليوم، ودور هذه العلاقات فى تحقيق النهضة المصرية.

طه حسين.. قضايا ومواقف

حسنى أحمد جفام

تونس: دار المعارف التونسية، ٢٠٠٠

دراسة تتناول موقف طه حسين من الشعر الجاهلى وكتابه الذى أثار ضجة هائلة وقت صدوره، ثم ترشيح طه حسين لجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٦٧، وموقفه من هذا الترشيح.

The Life and Crimes of Agatha Christie

(حياة وجرائم أجاثا كريستى)

Charles Osborne

Harper Collins, 2000, 246pp., £7.99

قصة حياة أحب وأشهر كاتبة قصص جريمة فى العالم، لم تفق مبيعات قصصها سوى مبيعات الكتاب المقدس وشيكسبير، وترجمت إلى أكثر من مائة لغة. كانت على الجانب الشخصى إنسانة شديدة الخصوصية، ويحاول الكتاب أن يربط بين الأحداث التى جرت فى حياتها الفعلية وبين القصص التى ألفتها.

تعليـــم

الرياضيات التربوية.. دراسات وبحوث

محبات أبو عميرة

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

عن كيفية تهيئة الطفل لتقبل مادة الرياضيات والتعامل مع النظريات الرياضية، واقتراح طرق جديدة لتدريسها فى المدارس، وتفادى المؤلفة إلى جانب ذلك كله، بضرورة إجراء دورات تدريبية لمدرسى الرياضيات لإتقان هذه الطرق.

المتفوقون والرياضيات.. دراسات تطبيقية

محبات أبو عميرة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

تنصح المؤلفة هنا بأن تقوم العملية التعليمية على تنمية القدرات الخلاقة والمبدعة عند التلاميذ، وكيفية العناية بالمتفوقين بوصفهم ركيزة أساسية لتحقيق التقدم فى المجتمع، وترسم المؤلفة طريقًا لتحقيق هذه الغاية ومساعدة المتفوقين على الإبداع وإظهار طاقاتهم.

دراسات أنثروبولوجية

الدليل فى موارد أعالى النيل

وليم جاستن

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

يمثل هذا الكتاب الرحلة التى قطعها المؤلف فى نهر النيل من منشاه إلى مصبه، مسجلاً عادات الشعوب الواقعة على هذا النهر العظيم وحدود التشابه والاختلاف بينها، كما يسرد عشرات الأساطير التى تؤمن بها هذه الشعوب وتوجه كثيرًا من سلوكها.

راية التمرد

ساندى بلانت

ترجمة: أحمد حسان

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

دراسة عن حركات التمرد الراغبة فى الانفلات من قيود التسلط والعنف والاستبداد والظلامية، والتى كانت تظهر عادة عقب فترات الأزمات والحروب بهدف تجاوزها والتخلص من قبضة الحكومات المتسلطة وقيادة المجتمع نحو التنوير.

Brit - think, Ameri - think: A Transatlantic Survival Guide

(دليل النجاة العابر للأطلسى عن الأمريكيين والبريطانيين)

Jane Walmsly

Harrap, 2000, 176 PP., £7.99

يعالج بأسلوب مبسط الفروق الثقافية التى تفصل بين البريطانيين والأمريكيين، بالرغم من اشتراكهما فى لغة واحدة. فإلى جانب الفروق اللغوية والفروق فى العادات، تفحص المؤلفة الاتجاهات العابرة للأطلسى فى مجالات مختلفة تمتد من السياسة والتجارة إلى الحب والطعام والحيوانات الأليفة.

ريــاضـــة

The Olympic Games - Special Guide

(الألعاب الأوليمبية – دليل خاص)

Dorling Kindersley, 2000, 352pp., £20.00

بمناسبة انعقاد دورة الألعاب الأوليمبية هذا الشهر فى سيدنى - وهى المرة الثانية فى التاريخ الطويل لهذه الألعاب أن تقام فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية - يقدم هذا الدليل الشامل كل المعلومات المتعلقة بالدورات الأوليمبية منذ أن أعيد إحياؤها عام ١٨٩٦ فيتناول المدن المختلفة التى وقع عليها الاختيار لإقامة الدورات فيها، والأحداث المهمة التى ميزتها، والأبطال والبطلات الذين برزوا فيها. كذلك يحتوى على قوائم مفهرسة بكل الحاصلين على ميداليات أوليمبية فى جميع اللعبات.

Olympiad

(أوليمباد)

Tom Holt

Little Brown, 2000, 368 PP., £16.99

رواية تاريخية تحكى كيف بدأت الألعاب الأوليمبية، فقد أقيمت أول دورة للألعاب الأوليمبية فى سنة ٧٦٦ قبل الميلاد. تبدأ هذه القصة بعد أربعين عامًا من ذلك التاريخ فى بلاط الملك بلاميدس، حيث يجلس تاجر فينيقى على العشاء ويروى له رجلان مسنان قصة إنشاء هذه الألعاب.

The Great Olympic Swindle

(الغش الأوليمبى الكبير)

Andrew Jennings

Simon & Schuster, 2000, £16.99

يتناول المظاهر المتعددة للفساد فى اللجان الأوليمبية من عمليات شراء الأصوات والجشع المادى إلى الجريمة المنظمة، والتى فى النهاية قامت بتشويه القيم الأوليمبية النموذجية التى من المفترض أن تمثلها هذه الألعاب.

سيـاســة

العرب فى إسرائيل.. رؤية من الداخل

عزمى بشارة

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

على مدى نصف قرن، ومنذ إعلان دولة إسرائيل يعانى الفلسطينيون تحت الاحتلال فى كافة جوانب حياتهم. يكشف المؤلف هنا عن كثير من الأكاذيب التى تروج لها إسرائيل، وينزع قناعها لتتكشف لنا دولة عنصرية قائمة على الخداع والتمايزات غير المبررة.

الفصل فى صحة عضوية البرلمان.. دراسة مقارنة

زكى محمد النجار - حسن محمد هند

القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٠

عن قضية الانتخاب الحر وعضوية البرلمانات، محاولة جادة يرسمها المؤلفان من أجل إنشاء مؤسسات عربية قوية تقوم على أسس نزيهة تمكنها من الاستمرار والبقاء، والإسهام فى بناء مجتمع عربى جديد.

باراك والسلام

عبد معروف

بيروت: دار المنتظر، ٢٠٠٠

لم يكن باراك استثناء مما درج عليه زعماء إسرائيل ورؤساء الدولة العبرية على مر العصور، فهو يلعب اللعبة ذاتها وإن اختلفت الأساليب، إنها نفس الخدعة التى لا تهتم بمقدسات أو حقوق، اللهم إلا حقوق الشعب اليهودى وحده، هذا الكتاب يكشف مواقف رئيس حكومة إسرائيل من عملية السلام.

لغز ٢٣ يوليو

رشاد كامل

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

ما زال كثير من أسرار ثورة يوليو لم يكشف عنه النقاب بعد، والروايات التى تقدمها كل الأطراف تبدو متناقضة ولا تقدم سوى رؤية أحادية للصورة، هذا الكتاب محاولة لفك لغز ٢٣ يوليو ومعرفة خبايا هذا اليوم وإرهاصاته، دون أن يدعى بطبيعة الحال أنه يحل إشكالية التناقض حول يوليو ١٩٥٢.

عبد الناصر وزيرًا للداخلية

محمد صلاح الزهار

القاهرة: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

قضى عبد الناصر ١١٨ يومًا وزيرًا للداخلية فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢، حاول خلالها أن يصلح أحوالاً وأن يحافظ

على الأمن فى هذه الأيام العصيبة من تاريخ مصر، المؤلف يرصد أداء عبد الناصر فى هذه الأيام وأهم المشكلات التى واجهها وكيف تعامل معها.

■■■

عدو السلام

جلال دويدار

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

مقالات عن عملية السلام، وكيف ساهمت المواقف المتعنتة لرؤساء الوزراء الإسرائيليين فى تعثرها، وخصوصًا نتنياهو الذى أصاب تشدده عملية السلام فى مقتل.

■■■

In the Footsteps of Mr. Kurtz: Living on the Brink of Disaster in the Congo

(الحياة على حافة الكارثة فى الكونغو)

Michela Wrong

Fourth Estakte, 2000, 324pp., £13.99

المؤلفة عاشت فى زائير فى السنوات الأخيرة من حكم «موبوتو» أثناء عملها صحفية مراسلة لمجلة الفيننشال تايمز، ويقدم كتابها صورة عن الحكم الدكتاتورى الفاسد الذى تمثل فى مكوث موبوتو ٣٢ عامًا فى الحكم، نهب خلالها ثروات تقدر بـ ١٤ مليار دولار من أموال البلاد - وتمتع بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبلجيكا. وبعد خروجه من السلطة ونفيه وموته لم تتغير الأمور فى ظل حكم كابيلا الذى قاد التمرد ضده، حيث استشرى الفساد فى طبقات كثيرة من المجتمع. ترى المؤلفة أن زائير - أو الكونغو الآن - لم تعط لها فرصة عادلة لكى تحقق النجاح أو النمو، فمنذ الحكم الاستعمارى فى القرون الماضية، وحتى الآن لم ينقطع عنها النهب والاستغلال والاستعباد.

■■■

In Praise of Public Life

(تمجيدًا للحياة العامة)

Joseph . Lieberman,

Simon & Schuster, 2000, 174pp., $21.00

مؤلف الكتاب هو السناتور جوزيف ليبرمان الذى اختاره آل جور مؤخرًا نائبا له فى انتخابات الرئاسة الأمريكية. وقد دفعه لكتابة هذا الكتاب ما يبديه الأمريكيون من شك وعدم ثقة فى شاغلى المناصب العامة، خاصة مع زوال الحدود الفاصلة بين الحياة العامة والخاصة للمشتغلين بالسياسة. يدافع ليبرمان عن حسنات الحياة العامة للسياسى الأمريكى وما تتضمنه من شرف، وذلك من خلال استعراضه لحياته الوظيفية الشخصية.

الكتاب يحتوى على معلومات عن الكيفية التى يتم العمل بها داخل الكونجرس الأمريكى. وأهمية العلاقات الشخصية فى تمرير التشريعات، وأهمية الرحلات الأجنبية الخارجية فى تنمية العلاقات الشخصية.. وأهم الصفات التى يجب أن يتحلى بها السناتور..إلخ.

شعــــر

أجنحة النهار

سعيد الصقلاوى

مسقط: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

قصائد سياسية وفلسفية، ربما تمنح أملاً فيما يتمنى المؤلف أن يؤول إليه حال الوطن العربى بعد كل ما جرى، فكما لليل أستاره الكثيفة، فللنهار أجنحته التى تحلق فى بعض ما نصبو إليه ويتطلع إليه الشاعر.

■■■

معجم الشعر الكويتى المعاصر

طيبة طالع الشذر

القاهرة: دار الكتاب المصرى، ٢٠٠٠

دراسة تتناول الأعمال الكاملة لثلاثة من الشعراء الكويتيين المعاصرين هم عبد الله العتيبى وخليفة الوقيان وأحمد العدوانى، وعبر نتاجهم تقدم لنا المؤلفة صورة للشعر الكويتى المعاصر وموضوعاته وسماته فضلا عن دراسات نقدية وتحليلية لعديد من قصائد الشعراء الثلاثة.

■■■

لم تكن روحى

سعاد الكوارى

بيروت: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠

تدور قصائد الديوان فى عالم الذكريات والحنين للطفولة والأحلام التى يعيشها الإنسان من أجل تغيير واقعه نحو الأفضل.

■■■

معاناة أمة

أنور عشقى

فلسطين: دار المؤيد، ٢٠٠٠

قصائد عن هموم الإنسان فى الوطن العربى ومعاناته اليومية وانكساراته بفعل التشتت الحادث بين أقطاره وعدم القدرة على لم الشمل ووقف هذه المعاناة.

صحــة

ماذا تأكل وأنت مريض

نادية نهاد حامد

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠

عن الأغذية الصحية والغذاء الذى يمكنه أن يجنب الأمراض أو يساهم فى إكساب الجسم مناعة لمقاومتها، ثم وصفه لما يأكله الإنسان فى أوقات مرضه، إنها فكرة عن التوازن الغذائى وأهمية الخضروات والفاكهة الطازجة فى تحقيقه.

■■■

Back in Shape

(عودة اللياقة)

Sally Lewis

Hamlyn , 2000,?? PP., £12.99

برنامج وضعته طبيبة متخصصة يهدف لإعادة اللياقة البدنية والنفسية والمظهر المناسب للأم بعد الولادة. يمتد البرنامج عشرة أسابيع متصلة، وهو معد بشكل يتناسب مع وجود روتين يومى لطفل حديث الولادة.

فــكــر

آراء فلاسفة وعباقرة الغرب فى الإسلام

زكريا هاشم

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف آراء بعض من فلاسفة وكتاب الغرب المسيحى المرموقين فى الإسلام، ويعرض لبعض الآراء السلبية التى قادت حملات للكراهية تنبع عنها فى مرحلة تاريخية معينة الحروب الصليبية، ويعرض فى المقابل لآراء إيجابية فهمت حقيقة الإسلام وحضارة المسلمين.

■■■

أزمة النشر والتعبير فى مصر

عبد الخالق فاروق

القاهرة: دار الكلمة، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب قضيتين بالغتى الأهمية مطروحتين بقوة على الساحة الثقافية، وتتعلقان بالأطراف الأصلية فى عملية الإبداع، الناشر والمؤلف، وكلاهما يتأثر بالآخر وينعكس حالهما على ما يصل من منتج نهائى إلى القارئ، الذى هو الطرف الثالث فى عملية الإبداع عمومًا.

■■■

الإسلام وأصول الحكم

على عبد الرازق

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

هذا واحد من الكتب «الانقلابية» فى تاريخ الثقافة المصرية والعربية بوجه عام، وقد كان صدوره فى عام ١٩٢٥ انقلابًا حقيقيًا على مفاهيم سادت لزمن طويل، ومثلت أفكاره حجر عثرة حقيقية أمام أطماع الملك فؤاد الذى طمح إلى أن يصبح خليفة للمسلمين بعدما سقطت الخلافة فى تركيا عام ١٩٢٤، وبسبب هذا الكتاب طرد الشيخ على عبد الرازق من هيئة كبار العلماء وتعرض لهجوم عنيف من داخل الأزهر وخارجه.

■■■

هموم مصرية

فوزى فهمى

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠٠

مقالات عن عشرات الهموم الثقافية وغيرها مما يعانيه المواطن المصرى، بعض هذه الهموم مما يتصل بالشأن الثقافى العملى الذى يعايشه المؤلف بوصفه رئيسًا لأكاديمية الفنون، وبعضها مما يتصل بالشأن العام الذى يعايشه المؤلف ويعبر عنه فى مقالته الأسبوعية بصحيفة الأهرام.

■■■

ورد وماء

محمد برادة، محمد شكرى

الرباط: وزارة الشئون الثقافية، ٢٠٠٠

مجموعة من الرسائل المتبادلة بين كاتبين، أحدهما ناقد حقق خطوات مهمة فى مسيرته النقدية فضلا عن تجارب روائية فى السنوات الأخيرة، والثانى أحد أشهر كتاب المغرب العربى ممن تميزوا بجرأة التعبير وقسوة التناول فى تشريح الواقع العربى والمغربى الذى عانى هو نفسه من خشونته وتناقضاته الاجتماعية الحادة، ميزة الرسائل أنها تنقل لنا شيئًا من واقع الكاتبين وحياتهما، وترسم لنا من ناحية أخرى صورة للواقع المغربى فى حقبة زمنية ممتدة.

فــكــر دينـى

المرأة بين أحكام الفقه والدعوة إلى التغيير

عبد الكبير المدغرى

الرباط: مطبعة فضالة، ٢٠٠٠

عن حقوق المرأة فى الإسلام التى جاوزت كثيرًا مما حصلت عليه المرأة فى العصر الحديث، لكن كثيرًا ممن يتناولون هذه المسألة يتجاهلون هذه الحقيقة ويتصورون أن تغيير حال المرأة لا يتم إلا بالانقضاض على الشرعية، المؤلف يفند هذه التصورات.

■■■

تجديد الفقه الإسلامى

جمال عطية

بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٠

يمثل تجديد الفقه الإسلامى مهمة كبيرة ومسعى يحدد إلى حد كبير شكل التعامل مع العالم المعاصر، وقد مثلت هذه المهمة دائمًا أرقًا متزايدًا للفقهاء المجددين الذين عليهم أن يجددوا الفقه بما يلائم العصر ويحل كثيرًا من مشكلاته، ويعين المسلم على التعامل معه دون وجل أو خوف من الوقوع فى المعصية.

فلسـفــة

مكانة الخيال فى نظرية المعرفة عند ابن سينا

برهان مهلوبى

الكويت: جامعة الكويت، ٢٠٠٠

دراسة عميقة فى نصوص ابن سينا واكتشاف حدود الخيال والمعرفة فى هذه النصوص، وتحليل نظريات الشيخ الرئيس فى ضوء معطيات العلم والفلسفة الحديثة.

■■■

Wagner and Philosophy

(فاجنر والفلسفة)

Bryan Magee

Penguin, 2000, £20.00

دراسة عن ارتباط التطور الفنى للمؤلف الموسيقى العظيم «فاجنر» بالسياق الفلسفى فى عصره، خاصة أفكار شوبنهاور ونيتشه. وفى النهاية يجد القارئ نفسه أكثر فهمًا لموسيقى فاجنر وأفكار معاصريه، ودور التفكير المجرد فى إبداع المؤلف الموسيقى.

فـنــــــون

Bass Culture: When Reggae was King

(عندما كان الريجاى هو الملك)

Liogd Bradley

Viking, 2000, 572pp., $12.99

يروى الكتاب قصة موسيقى «الريجاى» منذ أن ظهرت لأول مرة فى جزيرة جامايكا فى الخمسينيات، ثم انتشرت فى الولايات المتحدة، ثم فى العالم كله. يتناول المؤلف الإسهامات المختلفة للمنتجين والموسيقيين الذين طوروا من هذه الموسيقى، كما يتناول فى فصل كامل أشهر مطربى «الريجاى» «بوب مارلى» الذى لا يقل نجومية عن جون لينون وبوب ديلان، كذلك يناقش الكتاب الجذور الفلسفية والدينية المرتبطة بتلك الموسيقى وتجسدها فى عقيدة «الراستا فاريان» أو اختصارًا: «راستا».. وهى إحدى الديانات الصوفية المحلية المشتقة من الديانة المسيحية.

Contemporary Ceramics

(الخزف المعاصر)

Susan Peterson

Laurence King, 2000, 176pp., £25.00

نظرة على تطور فن الخزف فى السنوات الأخيرة. يقدم أمثلة من أعمال ٢٦٠ فنانًا من ٣٠ دولة ويناقشها مع الصور. من بين الموضوعات التى يتناولها الكتاب المكونات التى يتم خلطها بالصلصال، والتجارب الجديدة فى مزج الألوان.

Forever Liesl: A Memoir of the Sound of Music

(ليزل إلى الأبد: مذكرات عن صوت الموسيقى)

Charmain Carr

Viking Books, 2000, 245pp., £15.81

تروى الممثلة التى لعبت دور «ليزل فون تراب» فى الفيلم الغنائى الشهير «صوت الموسيقى» الذى أنتج عام ١٩٦٥ ذكرياتها عن فيلم وما دار من أحداث بين الكواليس، وعلاقتها بباقى أفراد طاقم التمثيل، خاصة البطلة «جولى أندروز» التى تكشف عن طبيعة شخصيتها الحقيقية من وجهة نظرها.. وأسباب سوء العلاقة بينهما الآن.

كـتـب للأطـفـال

How Come? Planet Earth

(كيف؟ كوكب الأرض)

Kathy Wolland

Workman Publishing Company, 1999, 332 PP., $ 12.95

أجوبة وتفسيرات قدمتها المؤلفة فى عمودها الأسبوعى بجريدة لوس أنجلوس تايمز - والذى ينشر مترجمًا فى العديد من الصحف حول العالم - لأسئلة متنوعة أرسلها لها أطفال أذكياء وفضوليون وكثيرًا ما يفشل الكبار فى إجابتها، مثل: لماذا لا تنام الأسماك والدرافيل؟ كيف يسجل فيلم آلة التصوير الصور الملتقطة؟ كيف تطير الطائرات النفاثة؟ لماذا تتجعد أصابعى بعد الاستحمام؟... إلخ.

Scholastic Science Dictionary

(قاموس سكولاستك للعلوم)

Meloin Berger, Hannah Bonner (illustrator)

Scholastic Reference, 2000,224 PP., $19.95

للأطفال من سن ٩ إلى ١٢. أداة مرجعية لطلاب المراحل الابتدائية والإعدادية فى مجال العلوم. يحتوى على شرح لأكثر من ٢٤٠٠ مصطلح علمى فى الأحياء والفضاء والكيمياء والفيزياء وعلم النفس والجيولوجيا بمصاحبة الرسومات التوضيحية.

لـغــــة

تحبير الموشين فى التعبير بالسين والشين

الفيروز آبادى

تحقيق: أحمد عبد الله الباجورى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

كتاب فى أحد فروع اللسانيات القديمة، يتناول المؤلف بعض الكلمات التى وردت فى الأحاديث بالسين التى يمكن نطقها بالشين، ويناقش المؤلف فى هذا الإطار بعضًا من اللهجات العربية القديمة، وهو مخطوط لم يسبق نشره وعثر عليه فى مكتبة المخطوطات بالمسجد النبوى.

معجم مصطلحات العلوم اللغوية

صبرى إبراهيم السيد

القاهرة: دار لونجمان وأبو الهول، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف أخطاءً شائعة فى المعاجم العربية مثل استخدام بدائل أجنبية لكلمات عربية، أو كتابة كلمات عربية بطريقة أجنبية، ويحاول المؤلف هنا، تصحيح عشرات الأخطاء الواردة فى معاجمنا.

Language Death

(موت اللغة)

David Crystal

Cambridge Up, 2000, 208pp., £12.95

يوجد الآن فى العالم ما يقرب من ٦ آلاف لغة، ويقدر أنه خلال المائة عام القادمة سوف يهبط هذا الرقم إلى ٣ آلاف لغة فقط. يحلل المؤلف العوامل التى تؤدى إلى موت أو اندثار أى لغة.

فاللغة هى مستودع التاريخ والثقافة - وفى زمن العولمة الحالى تبرز اللغة الإنجليزية وكأنها العملاق الذى سوف يبتلع اللغات الأخرى. يقترح المؤلف فى نهاية كتابه بعض البرامج العملية التى يمكن عن طريقها تجنب هذا الموت اللغوى.

نقد أدبى ومسرحى

دراسات فى الأدب المسرحى

سمير سرحان

القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠

المؤلف له تجارب مسرحية ونقدية وترجمات فى المسرح وعنه، وهو هنا يقدم بعضًا من دراساته فى مسرح شكسبير والمسرح الأيرلندى والروسى، كما يتناول مفهوم النص المسرحى وتميزه عن سواه من النصوص الأدبية والدور الذى يمكن أن يلعبه المسرح فى حياة الناس تأثيرًا وتأثرًا.

ضيوف النار الدائمون

شعراء من فلسطين

إعداد: غسان زقطان

فلسطين: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

يبسط الشاعر رؤيته للشعر الفلسطينى وأهم نماذجه فى العصر الحديث، وقد جاء اختياره ليطرح تساؤلات عديدة عن موضوعات الشعر الفلسطينى وقضاياه ورؤاه فى الكون والحياة، فضلاً عن قيمته النضالية الكبيرة.

سعدى يوسف.. النبرة الخافتة فى الشعر العربى الحديث

فاطمة المحسن

دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠

ترسم المؤلفة، وهى ناقدة وكاتبة عراقية خريطة واضحة المعالم لأحد أبرز الشعراء العرب المعاصرين، وقد عاش منفيًا رغمًا عنه فى أغلب الأحيان، وانعكاس ذلك الاغتراب على تجربته الشعرية، وقضاياه التى تناولها عبر مسيرته.

مقالات نقدية

محمود عبد الوهاب

الأسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٠

نصوص نقدية لإبداعات قصصية وشعرية، بين من يتناولهم المؤلف الشاعر الراحل صلاح عبد الصبور الذى يعد من رواد الشعر الحديث فى مصر والعالم العربى، والناقد الدكتور شكرى عياد وهو إلى جانب دراساته النقدية والفكرية كتب القصة، والقاص جار النبى الحلو وآخرون.

الرواية فى القرن العشرين

جان إيف تارييه

ترجمة: محمد خير البقاعى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

المفهوم الذى يتردد الآن أن الرواية هى سجل حياة الناس، وهى جنس أدبى قادر على صهر التجربة الإنسانية واكتشاف أكثر جوانبها غموضًا وتشابكًا، المؤلف يقارن بين حصيلة هذا الجنس الأدبى فى الماضى والحاضر، وحدود تأثرها بما جرى فى كل مرحلة.

خيانة الوصايا

ميلان كونديرا

ترجمة: لؤى عبد الله

بيروت: دار نينوى

يتحدث الروائى الكبير عن علاقته بالكتابة، وكيف اتسق عشقه للرواية مع رؤاه الإنسانية، ويحاول عبر هذه الرؤى أن يشرح تصوره لمعنى الرواية ومفهومها والمراحل التى مرت بها الرواية العلمية ومراحل ازدهارها وتدهورها، وأهم الأسباب التى وقفت وراء التدهور أو الازدهار.

ست وصايا للألفية

أيتالو كالفينو

ترجمة: محمد الأسعد

الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون، ٢٠٠٠

جمعت زوجة المؤلف محاضراته الأخيرة التى تعد بمثابة وصايا للأدباء وكُتّاب الرواية فى القرن العشرين، حول فنية كتابتها وخصوصية الرمز فيها، وكذلك عن الغموض والوضوح ودلالاته ومدى قدرة الأدباء على استخدام هذه الآليات فى تطوير الفن الروائى.

فن رواية القصة وقراءتها للأطفال

كمال الدين حسين

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

للقصة أهمية بالغة فى التعامل مع الطفل والتأثير عليه وتقريب المفاهيم إلى قلبه وغرس القيم الصحيحة فى نفسه فى مراحل التكوين الأولى، فى هذا الكتاب يشرح المؤلف للآباء والأمهات والمدرسين كيفية رواية القصة للطفل حتى نحببه فيها وننقل إليه الأفكار التى نريد.

نظرية الرواية والرواية العربية

فيصل دراج

بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٠

دراسة من قسمين، يتناول الأول منهما نشأة الرواية فى أوروبا، والاتجاهات التى أسهمت فى بروز هذا الجنس الأدبى وساعدت على نموه وتطوره عبر تناوله لمجموعة من النقاد والمؤلفين الأوروبيين، وفى القسم الثانى يدرس المؤلف نماذج من الأدب العربى (الرواية) وحدود تأثرها بالرواية فى الغرب.

أفول المعنى فى الرواية العربية الجديدة

فخرى صالح

القاهرة: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ثمة إشكال عن معنى الرواية الحديثة ومفاهيمها، يحاول الكاتب هنا أن يزيل الالتباس حول المفهوم عبر قراءات لعديد من الأدباء بينهم الأديب السودانى الطيب صالح والأديب المصرى صنع الله إبراهيم وآخرون.

عودة إلى «سيرة حياتي لعبد الرحمن بدوي»

تعليقًا على موضوع «أنا.. أنا.. أنا ومن بعدى الطوفان» الذى نشرته المجلة في عدد مارس الماضي وتناول مذكرات الدكتور عبد الرحمن بدوى أود أن أقدم هذه المساهمة.

إن من يقرأ مقدمة الكتاب التى جاء فيها عبارة «بالصدفة أتيت إلي هذا العالم وبالصدفة سأغادر هذا العالم» يظن أنه سيقرأ سيرة حياة يكون صاحبها كريشة في مهب الريح أو شظية خشب صغيرة تتقاذفها أمواج بحر عاصف، وصاحب السيرة يدرك أنه رجل تام الرجولة، وعليه أن يتصرف تصرف الرجال الكبار، فلا مجال لأن يحن إلى أسرته التى فارقها في قريته لطلب العلم، أو أن يحن إلي أمه! ولا مجال لأن يميل هواه إلى فتاة يلهيه حبها عن دراسته ويجعله يخيب - هكذا يقول قومه الريفيون - وتشيع قصته، ويشيع معها خزيه وعاره في مجتمع ريفي محدود.

طغى عليه هدفه العلمي، فانساه نفسه، أو تجاهل نفسه، فبهتت صورة المرأة منذ الأم ثم الأخوات ثم الزوجة، بل واختفت تمامًا حتى هوى الشباب وسنى الجامعة لا نجد له أثرًا.

واقبل على علمه وفلسفته ودراساته، ثم مؤلفاته وتحقيقاته التى كانت كل شيء في حياته، وأصبح لا يعى من أمر نفسه إلا أن يعلم ويعلِّم ويؤلف ويحقق ويسافر للمؤتمرات والمكتبات، لكن في بداية حياة الدكتور بدوى تناقضًا! فما هذا التناقض؟

*صلته بالدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق. وهما مجددان يحاول كل منهما أن يكون جسرا بين الحضارة الغربية وبلادنا وهو - أى المؤلف الدكتور بدوى - متمسك بكل ما هو إسلامي وشرقي وعربي ويتجلى ذلك فيما يلي:

رأيه فِي الحوار بين الإسلام والمسيحية فيقول: «أى حوار بين الإسلام والمسيحية هو من نوع حوار الصم لأنه لا يمكن التغلب علي الخلافات الجوهرية التى تفرق بين هذين الدينين، ثم انتقاده لمنظر بابا روما وخروجه يرتدى التاج ويتحلى بالجواهر ويحمله الحاملون على محفة كأنه أحد أباطرة الرومان. وحديثه عن الأب چورج شحاته قنواتي المسئول عن دير الرهبان الدومينكان بالقاهرة، وكيف أنه يلقى محاضرات في روما عن كيفية التبشير بالمسيحية بين المسلمين وحديثه ونقده لمجلة «إيماجوس Imagos» التى تصدرها دار الهلال. والدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق كانا بعيدين عن إثارة مثل هذه الموضوعات.

وها هو ذا ينتقد حركة الاستشراق، فيتحدث عن مؤتمرات كمبردج للمستشرقين في أعوام ١٩٤٨، ١٩٥٤، ١٩٦٤، ١٩٧٣، فيقول إن مؤتمر ١٩٤٨ كان للتعارف، ولكن أبحاثه رديئة المستوى وكذلك باقى المؤتمرات، ولكنه عن مؤتمر ١٩٥٤، يقول إن المستشرقين القدامى قد استناموا لشهرتهم الماضية وجددوا أبحاثًا قديمة دون أسانيد علمية، ويقول عن المستشرقين إنهم يأتون للقاء أمثالهم والتنافس على المناصب.

وأعتقد أن هذا الرأى لا يوافق عليه الدكتور طه حسين بالذات فعلاقته بالمستشرقين إنيلفو وكارس ومرجليوث حتى إسرائيلي ولعشتون المعروف بأبى ذؤيب ورأيه فيهم غير ما يقول الدكتور بدوى.

ويكون الخلاف بين المؤلف من ناحية والدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق من ناحية أخري في انضمام المؤلف لحزب مصر الفتاة ونصح الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق للمؤلف بالبعد عن هذا الحزب خوفًا على المؤلف.

وأنا أرى أن زعيم مصر الفتاة الأستاذ أحمد حسين - رحمه الله - في شبابه وتحمسه واندفاعه كان لا يُرْضى الدكتور عبد الرحمن بدوى، ولكن الذى دفع الدكتور بدوى لدخول مصر الفتاة، هو دراساته في الفلسفة الألمانية، وخاصة ما قرأ وألف عن الفيلسوف نيتشه.

وسبب آخر لدخول الدكتور بدوى مصر الفتاة، هو ميله لكل ما هو إسلامي وشرقي وعربى ونراه يترك مصر الفتاة، ويذهب للحزب الوطنى الجديد الذى يشترك في تأسيسه مع بعض زملائه وأصدقائه. والمعروف عن الحزب الوطنى مبادئه الإسلامية منذ أسسه زعيمه الأول مصطفي كامل باشا، وقد كان الدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبد الرازق من أعلام حزب الأحرار الدستوريين وحزب الأحرار الدستوريين - كما سبق أن قلت - حزب الصفوة والمتنورين والذين كانوا يعيبون على الوفد والأحزاب الأخرى تشددها وربما تعصبها.

وعندما كان الدكتور بدوى يستكمل هيئة التدريس في قسم الفلسفة بجامعة عين شمس نجده يقول عن أحد من يقومون بالتدريس: «وكان طه حسين قد فرض علينا مدرسًا فرنسيًا آخر كان يعمل في «الليسيه فرانسيه»، ولم يكن ذا شأن في العلم ولم ينل الدكتوراه إلا عام ١٩٥٥، وعندما حصل عليها عاد إلي فرنسا».

يتحدث عن الأحوال السياسية للبلد، والقبائل ودورها في الحياة، والمذاهب الإسلامية، وأصل المذهب الأباضى والنشاط الفكرى والسياسى للأباضيين في ليبيا، ويتحدث عن الطرق الصوفية وأعلامها واللغات واللهجات، ويتحدث عن تركيب السكان في بنغازى ومؤلفاته في تاريخ الفلسفة في ليبيا وتاريخ ليبيا قبل اليونان وفى أيام اليونان والرومان وعن علماء ليبيا

الكتب وجهات نظر

رسائل

في العصرين اليوناني والروماني، ثم عن المسيحية ومذاهبها، ويتحدث عن ذلك المذهب الذى حل مشكلة الأقاليم الثلاثة وكان أشبه بالتوحيد، ثم يتحدث عن فتح العرب لليبيا، وأهل العلم في طرابلس وليبيا، والشخصيات الليبية، ونجده يلاحظ أن علماء ليبيا في العصرين اليوناني والرومانى كانوا أكثر من العصر الإسلامي.

هذا ما فعله عند الحديث عن ليبيا، فإذا كانت الدولة غربية أوروبية مثل هولندا وفرنسا وسويسرا نجد حديثه إلي جانب النواحي التى تناولها في حديثه عن ليبيا، يتناول الفنانين ولوحاتهم ومذاهبهم في الرسم والمكتبات والمخطوطات ويشيد بمخطوطات هولندا، ويتحدث عن الأدباء والشعراء ومذاهبهم وأعمالهم، ويتحدث عن الحياة الجامعية وأنظمتها وعن المسرح وكتابه ومخرجيه، وفي فرنسا يتناول انحطاط مستوى مناقشة الرسائل العلمية الجامعية في باريس في الأعوام من ١٩٦٧ ـ ١٩٨٥، فيقول «المناقشون لا يقرأون الرسالة، حتى أن أحدهم اعترف بأنه لم يقرأ إلا نصفها، بل اعترف بذلك أحد المستشرقين! والبعض يعترف أنه لا علم له بموضوعاتها، ويكون كلامهم ـ في مناقشة الرسائل ـ كلاما تافها في مناقشة الأخطاء اللغوية ويكون قمة ذلك الإهمال في الرسائل ذات الموضوعات العربية والإسلامية، والبعض يتباهى بأنه يشرف علي خمسين رسالة، بل إنهم يتساهلون مع الطلاب الأجانب قائلين إنهم سيغادرون البلاد ويذهبون إلى بلدهم فيمنحونهم الدرجات العلمية دون أن يبذل الطلاب جهدًا أو ينالوا علما.

تناول الدكتور بدوى شخصيات ومذاهب وأبدى فيها آراءه، وأنا أرى أن رأى الدكتور بدوى فى تلك الشخصيات والمذاهب، هو حر فيه وقد أخالفه في بعض هذه الآراء، فمثلا ما ذكره عن الزعيم مصطفى النحاس والزعيم جمال عبد الناصر والأستاذ عباس العقاد وأحمد حسين وتوفيق الحكيم والدكتور محمود فوزى، ولست أدرى لماذا كان الأخير هدفا لانتقادات شديدة من الدكتور بدوى حتي أنه وصفه عندما يتحدث بأنه يموء كالقطط وأحسب أن الدكتور بدوى قد غالى في أمر الدكتور فوزى.

إن بعض تحقيقاته قد سبق أن حققت من قبل والدكتور بدوى يعترف بذلك، ولكنه يرى أنه قام بتلك الأعمال لعدم رضاه عما سبق، فهو يقول أنه نظرًا لسوء الترجمة، أعاد ترجمة وتحقيق الشعر عند الفارابى، وابن سينا، وابن رشد. وكذلك ترجم وحقق كتاب الشعر نظرًا لسوء الترجمة العربية أيضا وأصدره بعنوان فن الشعر عام ١٩٥٣، مما أثار حقد ريتشارد كلستر، وكتب ينتقد ولكنه لم يصحح خطأ.

ويقول الدكتور بدوى «وبهذا العمل العظيم يعنى ترجمته وتحقيق ترجمات العرب لمنطق أرسطو الذى لا أجد له مثيلا في تاريخ تحقيق المخطوطات في العالم وبأية لغة أديت مهمة عظيمة الفائدة، فلقد أنقذت الترجمة العربية القديمة الممتازة من الضياع خصوصًا ومخطوط باريس تتحلل أوراقه عامًا بعد عام، إذ مضى عنيه قرابة ألف عام. وورقه هش يتفتت كلما اطلع عليه إنسان رغم محاولات ترميم بعض أوراقه». وشكرًا للدكتور بدوى علي ذلك الجهد.

كان الدكتور بدوى مفيدًا ـ على الأقل بالنسبة لى ـ في كل مؤلف من مؤلفاته التى قرأتها له وكنت أظفر بكل دقيق وجديد، ولكن الشيء الذى أثار إعجابى هو عثوره في إحدى مكتبات المخطوطات فى إيران على مظروف قدمه له أصحاب المكتبة ـ أو بالأصح ورثتها ـ فيه صورة لفتاة ألمانية ورسائل متبادلة بينها وبين جمال الدين الأفغانى الذى يصفه الدكتور بدوى بالمتآمر.

ملحوظات:

أولا: كنت أتوقع أن يتناول الدكتور بدوى الدكتور لويس عوض، ولكن يبدو أن الدكتور بدوى قد عرف الفضل للدكتور لويس عوض، عندما سأل الدكتور لويس عوض العقيد معمر القذافى ـ أثناء زيارة له لمصر ـ لماذا اعتقل الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو من كبار مفكرينا؟

ثانيا: هذا الكتاب يحتاج إلى فصل ثالث يتحدث فيه الدكتور بدوى ـ قواد الله ـ عن فترة عمله بالكويت حتى الآن، ويتناول فيه الثورة الإسلامية فى إيران وحرب إيران مع العراق وحرب الخليج وأحداثًا كحرب الشيشان وإقامة دولة فلسطين.

ثالثًا: للدكتور بدوى اهتمامات شديدة بعالم المخطوطات وأعتقد أن تجاهل تركيا فى حديثه عن المخطوطات أمر يحس الدكتور بدوى بأنه يجب عليه أن يتناوله. أم لعل خدمات هولندا فى ذلك الأمر وإرسالها فى طلب ما يريد من صور المخطوطات إلى سائر دور المخطوطات العالمية قد أغناه عن أن يتناول تركيا.

رابعًا: هناك شخصيات هامة لم يتناولها الدكتور عبد الرحمن بدوى وأنا أعجب لذلك مثل المفكر: سلامة موسى، والمفكر المحقق: محمود محمد شاكر، والأستاذ: مصطفى صادق الرافعي ونجيب محفوظ وكتابًا آخرين، إلا أننى كنت أبحث فى كتابه عن رأيه، وخاصة فى الأستاذ سلامة موسى والأستاذ محمود شاكر.

محمد معوض النجار
مدرس / الإسكندرية

"نــون"

قـــــراءات صــــيفية!

يحمل الصيف معه عادة من الوعود أكثر مما تحتمله حقائق الحياة أحيانًا.. ولكننا إذا تغاضينا عن ألسنة اللهب التى تصب شواظا من حرارة القيظ على كل الموجودات، واحتمينا من سخونة الجو بما يصد لفح الحر، فقد يبقى لنا من مباهج الصيف متعتان كبيرتان: إحداهما الهروب من ألفة البيت بالسفر والسياحة، والثانية قراءة كتاب تمنيت أن يسمح لك الوقت بقراءته.

وكلتا المتعتين ترتبط بالأخرى ارتباطًا وثيقًا، فالسفر من ناحية والقراءة من ناحية أخرى، هما أكثر ما يفتح عيون الإنسان على ما حوله، ويحرره من سجن نفسه وعاداته وروتين حياته وعمله، وإن تلاشى الفارق بين المتعتين: سواء كنت تجلس مع كتابك على شاطئ البحر أو فى ظل شجرة وارفة فى حقل أو حديقة، أو كنت تبحث عن المتعة فى السفر إلى أماكن جديدة ووجوه جديدة ورؤى جديدة.. فهما فى النهاية تجددان طعم الحياة وتبعثان فى الروح وميض الأمل!

بالسفر، يهرب الإنسان من حكم الضرورة الملزمة والكابحة داخل حدود وطنه، ويصبح جزءًا من العالم الأكبر. ومع الكتاب يشعر الإنسان أنّ الغربة بينه وبين العالم المحيط به تتضاءل. وأن التواصل بين تجاربه ومشاعره وتجارب الآخرين ومشاعرهم ليس منبتًا أو مستبعدًا تمامًا، فنماذج الشخصيات الإنسانية مهما تنوّعت واختلفت لن تتجاوز فى تعدادها تنوع البشر.

ولسبب يبدو مفهومًا. فإن ما تولده هاتان المتعتان من متع الحياة من بهجة وتامل وشعور بالسلام النفسى، يقرب بينهما إلى درجة الاقتران والتلازم.. فالإنسان يؤثر القراءة وهو مسافر كما أنه يحب أن يسافر وهو يقرأ. وفى معظم دول العالم المتحضر ترتفع مبيعات الكتب فى مواسم الإجازات والسياحة والسفر، فترشح دور النشر أنواعًا مختلفة من الكتب تلائم مختلف الأمزجة والأعمار والاحتياجات، يصحبها القارئ معه فى رحلته، سواء كانت إلى شاطئ البحر أو إلى بلد آخر.. بحيث أضحت أيام الصيف تنطوى على لون من الميل الصوفى العميق إلى القراءة والعكوف عليها.. يلحق بها المرء ما عجز عن اللحاق به فى سائر أيام العام.

وقد يبدو الأمر عندنا مختلفًا أشد الاختلاف، حيث تتحول ليالى الصيف وعطلاته إلى مهرجانات مستمرة لتضييع الوقت واستهلاكه فى نوبات من الخمول والبلادة والثرثرة بالشائعات والخوض فى سير الناس، أو فى حفلات غنائية تشجع عليها أجهزة الإعلام الرسمية للدولة.. فيها من الإهانة للفن والذوق والغناء ما يهبط بمستوى الذوق العام إلى الحضيض أو ما دونه.

فى هذا الصيف صحبت معى كتابين.. أحدهما تلقيته قبل أيام من السفر إلى الخارج، والثانى عثرت عليه بين عشرات من الإصدارات الجديدة المؤلفة والمترجمة التى تملأ المكتبات الألمانية، وهما - بمحض الصدفة - يمثلان سيرة حياة شخصيتين، تبعد الشقة بينهما بعد السماء عن الأرض، ولكن كلا منهما يثير من الاهتمام فى دائرته ما يتجاوز حدود شخصه وحياته ووطنه، وقد كدت وأنا أقلب فى صفوف الكتب المرصوصة والمعروضة هنا وهناك أن أقع فى جاذبية الكتاب الذى ما زال يتصدر قائمة المبيعات فى العالم، وهو الكتاب الرابع من سلسلة هارى بوتر.. الذى أقام عالم النشر وأقعده دون سبب واضح، مع أنه للأطفال، وقيل أنه للكبار أيضًا، ولكنى كبحت رغبتى الطفولية - لبعض الوقت - يغلبنى ظن قوى بأن آلة الدعاية الضخمة تحمل من المبالغات أكثر مما يحمل من الحقائق.

الكتاب الأول هو نوع من السير الذاتية لأحد أبرز رجال العلم فى مصر، الذين اجتذبتهم أنواء السياسة ودهاليزها، فكادت تغرقهم فى خضمها المتلاطم الذى شهدته مصر فى الستينيات والسبعينيات، ولكنه استطاع أن ينجو بنفسه بعد ذلك، وحين أخلص نفسه للعلم بعيدًا عن تيارات السياسة ومؤامراتها وجد لنفسه مكانًا مرموقًا فى الجامعات الأمريكية، واستطاع أن يقول كلمته فى كثير من قضايا الوطن مبرأة من نوازع العمل السياسى ومقتضياته.

هذا العالم الكبير هو الدكتور رشدى سعيد الذى قدم سيرة حياته فى كتابه «رحلة عمر.. ثورات مصر بين عبد الناصر والسادات». وهى مسيرة لا تعكس فقط طبيعة العلاقة المعقدة بين المثقف والسلطة، ولكنها تضيف بعدًا آخر يكشف عن تحولات المزاج العام منذ السنوات الأولى لثورة ١٩٥٢ فى موضوع الأقباط داخل إطار الجماعة الوطنية، فالرجل من أسرة قبطية يعتز بقبطيته وبجذوره التى تعود به إلى أسيوط، وقد ولد ونشا فى أحضان الحركة القومية المصرية التى اتسمت بالتمازج والتسامح والانتماء الطبيعى المشترك إلى وطن واحد وشعب واحد، وأتاح له تعليمه أن يصل إلى مناصب علمية وسياسية رفيعة وأن يشارك فى العمل السياسى والبرلمانى لمدة طويلة بحكم خلفيته العلمية من ناحية، وبحكم الرغبة فى مشاركة الأقباط فى ميادين الخدمة العامة من ناحية أخرى، بعد أن أثبتت تجربة الانتخابات فى أوائل عهد الثورة وجود بوادر صدع قوى فى صفوف الجماعة الوطنية، ومن ثم أتيح لرشدى سعيد أن يمارس التجربة البرلمانية ثلاث دورات متتالية تحت مظلة التنظيم السياسى الواحد، ولكن بالتعيين.

ويقدم رشدى سعيد لمحات مستفيضة من حياة عامرة بالتجارب، امتلأت بالأمل وبخيبة الأمل، سواء فى مجال الوظيفة العامة أستاذا بالجامعة أو فى مؤسسة التعدين والأبحاث الجيولوجية، وهو المجال الذى وجد فيه متنفسا لإنجازاته العلمية التى حققها بعد ذلك، ومن بينها كتابه العمدة عن «جيولوجية مصر» والدور الذى لعبه فى إنشاء هيئة المساحة الجيولوجية. وهو يتحدث عن سنوات حياته العلمية والعملية بقدر كبير من الرضا والاعتزاز، ويكشف ما جرى فى قضية فوسفات «أبو طرطور» منذ بداياتها. ثم يتوقف طويلا عند سنوات الانحسار والتراجع - فى رأيه - التى بدأت منذ منتصف السبعينيات، والتى تدهورت خلالها مراكز البحث العلمى واختلط فيها العلم بالسياسة، وخرج فيها رشدى سعيد من الوظائف العامة بعد أن أصبح الجو خانقا. وزحفت بوادر الهزيمة على جيل بأكمله، انتهت بالعالم الكبير إلى أن يختار الغربة وطنا، يعود إلى وطنه الأصلى بين الحين والحين، تشده ذكريات المحارب القديم وتؤرقه هموم الحاضر المقيم.

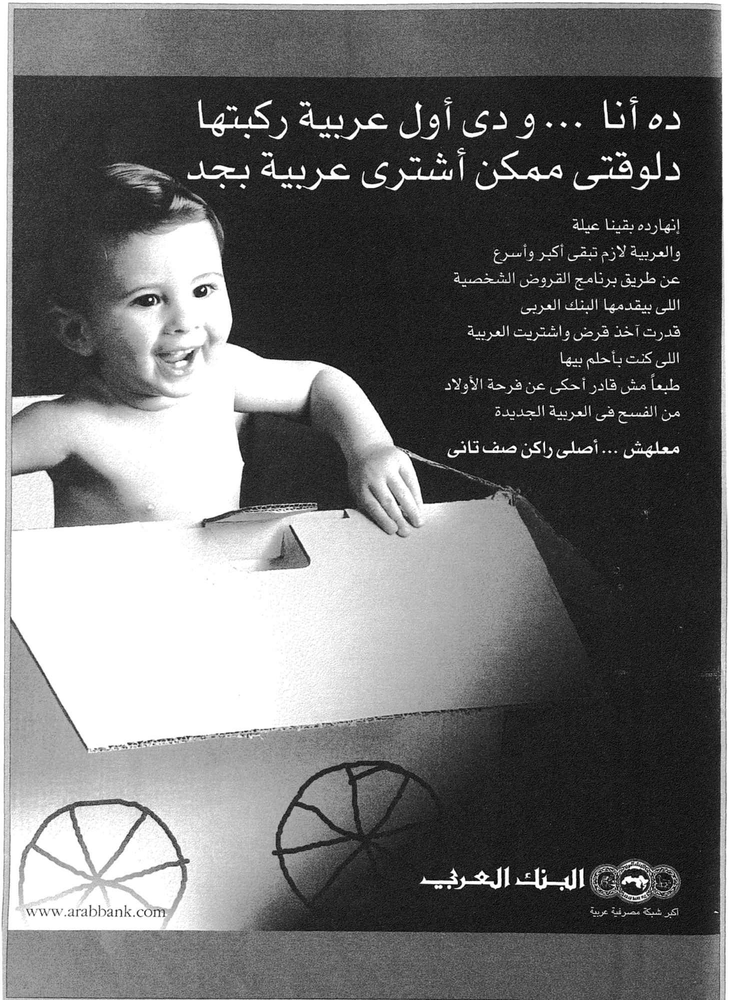
أما الكتاب الثانى الذى أمضيت معه جانبا من عطلة الصيف، فهو أول كتاب يتناول سيرة حياة الرئيس الروسى الحالى فلاديمير بوتن. وقد ظهر أول ما ظهر الكتاب باللغة الروسية أوائل هذا العام، فى صورة أسئلة وأجوبة بين ثلاثة من الصحفيين الروس وبوتن نفسه. وهو نفس الكتاب الذى قرأته مترجما إلى اللغة الألمانية، ثم أعيد نشره بالإنجليزية فى صورة سيرة ذاتية يقدمها بوتن بنفسه. ومن الواضح أن الطبعة الإنجليزية ليست سيرة ذاتية بالمعنى الدقيق ولكنها إجابات مباشرة من بوتن على أسئلة الصحفيين الثلاثة، على امتداد ست جلسات استغرقت كل جلسة منها عدة ساعات. وتم تسجيلها فى أوقات متفرقة امتدت إلى ما بعد منتصف الليل.

وأهم ما يميز هذا الكتاب أن الصحفيين الروس الثلاثة، لم يكتفوا بإجابات بوتن ولكنهم سالوا أصدقاءه وجيرانه وأقاربه وزملاءه الذين عملوا معه فى أجهزة الأمن والمخابرات، أو فى الحكومة المحلية لمدينة بطرسبرج (ليننجراد). وذهبوا بعد ذلك إلى بيته الريفى (الداتشا) فقابلوا الأغلبية النسائية من أسرته وهن زوجته ليودميلا، وابنتاه ماشا وكاثيا، وكلبة الأسرة «البودل» المدللة توسكا!!

ولا يحكى بوتن عن طفولته وأسرته الشىء الكثير. ولكنه يكتفى بالقول بأن جده عمل طباخاً عند لينين ثم فى إحدى الاستراحات الريفية الحكومية التى كان يؤمها ستالين. ولم يكن أبوه غير عامل فقير. وقد عانت الأسرة حياة ضنك بائسة، وبالأخص حين ذهب الأب إلى جبهة القتال فى الحرب العالمية الثانية وبقيت أمه وحدها فى ليننجراد (بطرسبرج) تواجه مصاعب الحياة. وعندما انتهت الحرب عاد الأب للعمل فى أحد المصانع التى تنتج عربات المترو. وعملت الأم فى أعمال صغيرة متفرقة. وكانت الأسرة التى فقدت ولدين قبل بوتن تسكن بأفرادها الثلاثة فى غرفة واحدة بأحد المساكن الشعبية العامة التى تشارك فى مرافقها مع الأسر الأخرى.

ويضيق المجال عن الإفاضة فى قصة صعود بوتن من مجاهل أجهزة التجسس والمخابرات (كى.جى.بى) التى أمضى فيها حياته العملية والوظيفية - وبالذات فى ألمانيا الشرقية - إلى أحد المناصب الرئيسية فى الحكومة المحلية لليننجراد - بطرسبرج بعد ذلك - ليقفز منها فى ظل يلتسن للإشراف على جهاز الأمن القومى الروسى إلى أن اختاره رئيسا للوزراء ثم رئيسا للدولة، خلفا له.. هذا الصعود الصاروخى لبطل الجودو الحاصل على الحزام الأسود، لا يدع مجالا للشك فى أن القيصر الروسى الجديد، يجيد فن المصارعة والمراوغة، ويحمل فى قرارة نفسه كثيرا مما لقنته أجهزة المخابرات السوفيتية من مبادئ عندما كانت بلاده تحتل مرتبة الدولة العظمى الثانية فى العالم. وقد حرص على أن يذكر من بين تجاربه قصة زيارته لإسرائيل عام ١٩٩٣ ضمن وفد لمجلس مدينة ليننجراد. وكيف أعطته أمه صليبا للتعميد والتبريك، وطلبت إليه أن يعلقه فى رقبته، ومازال يعلقه حتى الآن.. على حد قوله. ولكن هذه ليست القصة الكاملة لبوتين!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 21 - October 2000 مجلة شهرية . العدد الحادى والعشرون . السنة الثانية . أكتوبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

محمد حسنين هيكل

سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية



الطائرة المصرية رقم ٩٩٠

تقرير يحاول كشف الغموض

الغرب يعلن الحرب على أوبك

بعد الجينوم

ثورة فى صناعة الدواء

عصر الفساد

من فساد السفح إلى فساد القمة

الأموال والصوت اليهودى

فى معركة الرئاسة الأمريكية

شامبليون

الولع بمصر يتحول إلى علم

الإنجليزية

هل تقضى على اللغات الأخرى؟

من التطرف إلى التأمل

فن الشباب فى صالون الشباب

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الحادى والعشرون
أكتوبر ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«كل المقالات المنشورة في هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

محتويات العدد:

كتاب العدد :

- إيلين سكارى .. أستاذة علم الجمال والنظرية العامة للقيمة في جامعة هارفارد
- جوشوا أ. فيشمان .. أستاذ اللغويات وعلم اجتماع اللغة بجامعة ستانفورد
- حسين عبد الله .. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى
- صلاح عبد الله.. باحث في التراث الإسلامى
- عاطف الغمرى .. صحفى
- فاطمة على .. ناقدة فنية
- ليلى الجبالى .. صحفية
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد حقى .. صحفى مصرى مقيم في واشنطن
- محمد رءوف حامد .. أستاذ علم الأدوية في الهيئة القومية للرقابة والبحوث الدوائية
- محمود المراغى .. صحفى
- نيقولا زيادة .. مؤرخ عربى
- يوسف القعيد .. صحفى وروائى

رسوم العدد للفنانين : **محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١٫٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

حـــديث الوثـــائق

«ليس كتابة فى السياسة ولا فى التاريخ، وإنما هو قراءة فى السياسة وفى التاريخ».. التعبير للأستاذ هيكل، والوصف هو لمقاله هذا الشهر الذى يبدأ به سلسلة «قراءات» فى الوثائق الإسرائيلية. متابعاً لمجرى الحوادث من «الضفة الأخرى» لصراع درامى استغرق نصف قرن كامل من الحياة والسياسة والحرب.. والتاريخ. وربما ـ يعتبره البعض على الأقل ـ قد وصل الآن إلى ذروته.

ألف وخمسمائة ورقة مصورة من ملفات وزارة الخارجية الإسرائيلية، ومن محاضر لاجتماعات مجلس الوزراء الإسرائيلى، بالإضافة إلى مجموعة من ٥٢٠ صفحة مصورة من يوميات مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون» كانت هى «المادة» الرئيسة لتلك «القراءة» بالإضافة إلى تقرير الجنرال «ايلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية إبان حرب ١٩٧٣ والذى يتضمن معلومات ـ تظل مثيرة ـ عن الدور الذى قام به بعض الملوك العرب فى علاقاتهم الخفية بإسرائيل.

ولأن حقائق التاريخ تقول بأن «الأمس هو الأب الشرعى لليوم كما هو للغد»، تأتى أهمية «قراءة اليوم» لمحضر اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسته يوم ٢٩ مايو ١٩٤٩، والتى يعرض فيها بن جوريون مقترحاته لإستراتيجية إسرائيل حيال مصر ودول الجوار، والتى قد لايكون أكثرها إثارة، تأكيده على أهمية التعامل مع «الموزاييك» الإنسانى فى الشرق الأوسط، فيتحدث عن إقامة علاقات مميزة مع «الموارنة» فى لبنان، معتبراً أن «أقباط مصر حالة ميئوس منها لأن حرصهم على حياتهم المشتركة مع المسلمين طغى عندهم على أى اعتبار آخر..» .

ليس بأقل إثارة أيضا ماتذكره الوثائق الإسرائيلية من تفاصيل لمحاولة بن جوريون توسيط السير «دنيس هاملتون» (رئيس تحرير «الصانداى تايمز» وصديق هيكل) فى فتح قناة حوار مع جمال عبد الناصر «الذى لابد أنه يشعر بخيبة أمل فى كل العرب..» على حد قول بن جوريون فى يومياته، التى يعود إليها هيكل فى مقاله معلقاً على مافيها «بما يعرف.. وبما دوّن هو فى أوراقه». وبغض النظر عن أن القصة لم تنته أبداً كما كان يأمل الزعيم الصهيونى بأن تحط طائرته فى مطار القاهرة، فإن وقائعها التى تعود إلى ذلك اليوم البعيد من ربيع عام ١٩٦٣ تظل تفاصيلها التى جاءت فى يوميات بن جوريون وأوراق هيكل حافلة بالإثارة.

والإثارة «الخبرية» التى ترتبط عادة بقصص الساسة والسياسة، قد ترتبط أكثر ـ عند البعض ـ بقصص الفساد والمال. خاصة إذا اقتربت الحكاية من أسماء كبيرة، وإذا فاحت فى تفاصيلها ـ ربما لأسباب قصصية بحتة ـ رائحة النساء. الأمر الذى يدفع عادة بالمدققين المتريثين فى أحكامهم إلى التأنى أو بالأحرى إلى النأى بأنفسهم عن لغط «وخلط» يصاحب عادة مثل تلك القصص والروايات. هذا لاينفى أن الفساد موجود (وإن احتاجت الأحكام دائما إلى التوثيق). والجديد أنه لم يعد ـ وحسب ـ قضية أخلاقية، بل أصبحت له سياساته وعلمه واقتصادياته. وأصبح محلاً لاهتمام مراكز أبحاث محترمة ومؤسسات دولية لها شأنها ومصداقيتها.

بعيدا عن الشائعات وقصصها ـ وما أكثر صخبها وضبابها ـ تعرض «وجهات نظر» لتقرير صادر عن مؤسسة دولية هى «صندوق النقد الدولى». والتقرير الذى يصفه أصحابه بأنه «الأول من نوعه» وُزع فى فبراير ٢٠٠٠ تحت عنوان «الفساد والإنفاق العسكرى».

محمود المراغى الكاتب المتخصص فى الشئون الاقتصادية يقدم لنا قراءته الخاصة للتقرير فى ضوء أوراق أخرى صادرة عن «البنك الدولى» تتناول أيضا قضية الفساد وتخلص إلى حقيقة ملخصها أن «كل الطرق تؤدى إلى السرقة، والسرقة اسمها الآن «بيزنس». أبطال البيزنس قد يكونون هم الأهم فى بلادهم ومواقعهم..إنها لعبة الكبار، وليست لعبة الصغار».

ترتبط «وجهات نظر» باتفاقات نشر مع نظيرتها الأمريكية الرصينة «نيويورك ريفيو أوف بوكس». وفى العدد الحالى وبمناسبة مرور عام على سقوط طائرة مصر للطيران ٩٩٠ (٣١ أكتوبر ١٩٩٩)، تنشر المجلتان تحقيقا موسعاً ومفصلاً، ربما يجد البعض فيه اختلافاً عن لهجة سادت فى بعض وسائل الإعلام الأمريكية الأخرى التى تبعد بها أحياناً ضرورات التنافس التوزيعى والسبق الصحفى ـ وربما عوامل أخرى ـ عن الدقة والتمحيص والدراسة الوافية التى تحرص عليها مجلات مثل New York Review of Books.

ويبين التحقيق الصحفى ـ الأكثر من ممتاز ـ كيف اهتمت صاحبته بتحرى الحقائق بدقة، تصل إلى التمييز ليس بين الدقائق فقط، بل بين الثوانى ذاتها. وكيف كان عليها لكى تكتب هذا التحقيق أن تعود إلى العديد من الوثائق من قبيل السجلات اليومية لإدارة الطيران الفيدرالية، وكذلك السجلات العسكرية الواردة من مراقبة الأسطول فى «فيرجينيا كيبس».

العودة للوثائق ـ مع الاهتمام بتوثيقها والإشارة إلى مصادرها ـ غابت فى حقيقة الأمر عن العديد من الكتابات التى تناولت قضية الطائرة، سواء تلك التى روجت لنظرية المؤامرة ـ أو احتمالاتها ـ أو الأخرى التى تصدت لكتابات اعتمدت على مفاهيم ثقافية ودينية مغلوطة.

وكان مبدأ حرية الاطلاع على المعلومات، والذى دونه لايمكن أن تكون هناك صحافة قادرة وفعالة، قد أتاح لكاتبة التقرير الاطلاع على تقارير لها حساسية خاصة مثل بيانات هوائيات «رادار» القوات الجوية الأمريكية فى «ريفر هيد» بلونج أيلاند. وكذلك على خرائط الطيران العسكرية.

والتحقيق الصحفى «المدقق.. والمتعمق» يعتمد أيضا على العديد من الدراسات المتخصصة ذات الصلة. منها دراسة لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» عن التشويش الكهرومغناطيسى وعلاقته بانفصال أو تعطل الطيار الآلى (١٩٩٤)، ودراسة لمعهد فيينا لطب الطيران وبيولوجيا الفضاء، ودراسة لسلاح الجو الأمريكى (١٩٨٨) عن الموضوع ذاته. فضلاً عن دراسة مطولة لوزارة الدفاع الأمريكية استمرت ثلاث سنوات كاملة.

وينطلق التحقيق الصحفى ـ الأشبه فى دقته وشموله بالتحقيق القضائى ـ من الحقائق «المجردة» التى لاخلاف عليها ويحددها بأربع (ويبقى ماعدا ذلك فى إطار التخمينات) وهى: أن هبوط الطائرة كان حاداً ومفاجئاً، وأن الطيار الآلى كان معطلاً، وكذلك المحركات، بالإضافة إلى أن مجموعة الروافع كانت تعمل بصورة غير عادية..

وفى حين تحرص القصة الصحفية على الإشادة بالموقف «الرائع» للمجلس القومى لسلامة النقل، والذى «يحرص على ألا يدعى معرفة السبب قبل الوصول للأدلة»، تنتقد بعنف الإثارة الإعلامية «غير المتماسكة منطقياً» والتى تذهب إلى اتهام مساعد قائد طائرة مصر للطيران ٩٩٠ بتعمد الانتحار وقتل ٢١٦ راكبا. وفى هذا السياق يعود التحقيق الصحفى ـ كعادته ـ إلى دراسات اجتماعية توضح أن العبارة الشهيرة «يرددها كثير من المصريين حوالى مائتى مرة فى اليوم، وينطقها الأمريكيون المصريون ثلاثين مرة ..».

ولاتدعى كاتبة المقال ـ رغم كل مابذلته من جهد توثيقى ـ أنها قد وصلت للسبب «المؤكد» لسقوط الطائرة، ولكنها توضح أنها «فقط» تلفت الانتباه إلى عوامل ربما كان من المفيد أخذها فى الاعتبار. خاصة فى ظل حقيقة أن الساحل ذاته، فى المنطقة الجغرافية ذاتها، شهد كارثتى طيران سابقتين.

وجهات نظر

سياحة صيف فى

محمد حسنين هيكل



قضيت أسابيع من شهور هذا الصيف الذى يوشك على الانقضاء - تاركاً نفسى لسياحة واسعة وحُرَّة وسط الوثائق الإسرائيلية.

مكاناً: فقد ظللت على سواحل البحر الأبيض المتوسط - مرة على شاطئه المصرى الممتد والمفتوح إلى نهاية الأفق، ومرة أخرى على شاطئه الإيطالى فى جزيرة «سردينيا» وخلجانها المتلاصقة والمتعانقة فى منطقة «كوستا سميرالدا» (ساحل الزُّمُرُّد).

وزماناً - بعد «مكاناً» - فقد قضيت كل الوقت - أو معظمه - على شواطئ البحر الأبيض المتوسط مُستَغرِقاً - أو غارِقاً! - مع مجموعات وَفيرة ومُثيرة من الوثائق الإسرائيلية!

والوثائق الإسرائيلية مادة جديدة بالنسبة لى. فمن زمن طويل تعَرَّفتُ على الوثائق البريطانية، وتَعَوَّدتُ الاطلاع عليها قراءة ودرساً عند اللزوم. ونفس الشىء بالنسبة للوثائق الأمريكية والوثائق الفرنسية. أما الوثائق الإسرائيلية فقد بَدَت لى بعيدة المنال، أو هكذا خَطَرَ لى تحت انطباع (ثبَتَ خطؤه) - بأن الهَوَس الأمنى الذى تبديه إسرائيل (حقيقياً كان أو مُصطَنَعاً) يَضَع على الملفات الإسرائيلية قِفلاً ضاع مفتاحه!

وكنت أعرف أن «موشى شاريت» مسئول السياسة الخارجية فى الوكالة اليهودية قبل إعلان قيام الدولة - وأول وزير لخارجيتها بعد الإعلان - اعتمد - ضمن عملية «إنشاء وترتيب وزارة الخارجية لدولة إسرائيل» - نظاماً للتعامل مع الوثائق فى وزارته يُساير به «ما تجرى عليه الدول المتحضرة».

كذلك كنت أعرف أن واحداً من أبرز مساعدى ومستشارى «شاريت» وهو «روفين شيلواح» سبق غيره فى الاهتمام بمسالة الوثائق، وكانت مقترحاته التى وافق عليها «شاريت» - أن تفتح إسرائيل ملفاتها بعد ثلاثين سنة «حتى تستطيع الذاكرة الإسرائيلية أن تستكمل الحقائق اللازمة لاتصال فكرها العام، وأن تملأ فجوات أو تعيد تصحيح تصورات قد تكون الظروف أثرت بها على سطح وشكل الحوادث، وحتى يكون فى مقدور المهتمين فى العالم أن يطلعوا على عناصر وموجبات صنع القرار الإسرائيلى» (ربما من هنا أن واحداً من أهم مراكز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى إسرائيل اليوم يحمل اسم «شيلواح» تكريماً للرجل وتقديراً لجهده).

وأخيرا فقد كنت أعرف أن مقترحات التعامل مع الوثائق عُرِضَت على رئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت «دافيد بن جوريون»، وقد قبل «بن جوريون» بهذه المقترحات للدولة كلها وليس فقط لوزارة الخارجية - لكنه استثنى من «أجَل الثلاثين سنة» ملفات عدة جهات منها رئاسة الوزراء، والمخابرات العامة (هيئة «الموساد»)، والجيش بما فى ذلك المخابرات العسكرية (هيئة «أمان»)، ولجنة التوجيه العلمى والتكنولوجى لإسرائيل، ولجنة الأمن والدفاع فى الكنيست. وكان قرار «بن جوريون» بالنسبة لملفات هذه الجهات مَد الأجَل إلى خمسين سنة، مع إعطاء مكتب رئيس الوزراء (وجهازه) سلطة إطالته إلى خمسين سنة أو أكثر إذا تعلق الأمر بأسباب للأمن القومى «يكون لها تأثير باق ومستمر».

وبرغم ذلك كله - مما كنت أعرفه - فقد ظل لدىّ ما تلحقه «الانطباعات الخاطئة» بأصحابها حين يركنون إليها حتى تُقعِدهم عن المتابعة والمراجعة!

والذى حدث بعد ذلك هو أن الملفات بالفعل فُتِحَت - على الأقل جزئيا، بمعنى أن الاطلاع عليها قيد بتصريح خاص، ثم إن الاطلاع اقتصر على قلة مختارة، ولعل ذلك كان نوعاً من التجربة لثغرات النظام قبل اعتماد تطبيقه. وكان الدكتور «مايكل بريشر» صانع المراجع القَيِّمة والموثوقة عن صنع القرار فى إسرائيل (وهى حتى الآن أربعة أجزاء) أكثر من استفاد من رخصة الاطلاع المحدود لتجربة نظام التعامل مع الوثائق فى إسرائيل.

وكانت مؤلفات «بريشر» عوناً لا غِنى عنه لأى مشغول بعملية صنع القرار فى إسرائيل، لكنها لا توازى رؤية الصور الأصلية للوثائق الإسرائيلية، والإمساك فى اليد بها، والاطلاع عليها، ودراستها مباشرة ومن موقع نظر قد يختلف عن موقع نظر «بريشر».

وفى الثمانينات من القرن الأخير - القرن العشرين - بدأت بعض الملفات الإسرائيلية تُفتَح - لكن البداية لم تكن مشجعة. فقد كان الاستهلال أكواماً من تقارير للوكالة اليهودية - قبل قيام الدولة - فى موضوعات تتعلق بالهجرة، وشئون الجاليات اليهودية فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، ومشاكل المؤسسات العاملة وسط هذه الجاليات خصوصاً فى علاقاتها مع حكومات البلاد التى تعمل فيها.

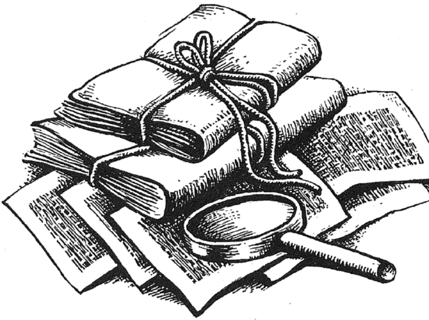
وكانت هذه البداية مُخَيِّبة للأمَل ومُؤَكِّدة لانطباع سبق، لكن حقائق الأشياء مع حركة تعامل دءوبة دَفَعَت خطوة بعد خطوة إلى مسار آخر، خصوصاً مع اطمئنان الدولة اليهودية لقوتها - مقابل ضعف خصومها - وهنا فإن القطرات الأولى المخَيِّبة للأمل تَحَوَّلَت إلى خيط ماء ينزل من صنبور، ثم إن هذا الخيط تَحَوَّل إلى مجرى ماء يمتلئ زيادة مع كل موسم، ثم إن هذا المجرى اتسع عند آخره ليصبح مُسَطَّح ماء قد لا يكون بحراً، ولعله أقرب إلى بحيرة، وبدا ذلك كافياً لإثارة الفضول، ثم الاهتمام. وذلك ما كان بالنسبة لى.

هكذا على شواطئ البحر الأبيض جنوباً وشمالاً كان معى ملء حقيبة كاملة من الوثائق الإسرائيلية - تحتوى أكثر من ألف وخمسمائة ورقة مُصَوَّرة من الوثائق الإسرائيلية، مُستَخرَجة من ملفات وزارة الخارجية الإسرائيلية المدرجة تحت عنوان «Foreign Ministry Record Groups» - أو من الملفات التى يرمز إليها بالحروف «I. S. A.» وهى اختصار «Israel State Archives» أى «أرشيف دولة إسرائيل»، ومن ضمنها محاضر لاجتماعات مجلس الوزراء فى الفترة ما بين سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٦٦. وكانت هذه الوثائق مجموعات مُنتقاة قام على نقلها من العبرية إلى الإنجليزية مكتب للترجمة فى إسرائيل يتعامل مع عدد من الجامعات ومعاهد ومراكز الأبحاث السياسية والإستراتيجية الكبرى فى العالم، مشغولة بالشرق الأوسط وما يجرى فيه!

بالإضافة إلى الوثائق اتسعت حقيبتى لأربعة مراجع كل منها وثيقة قَيِّمة فى حد ذاتها:

● الأولى مجموعة من ٥٢٠ صفحة مُصَوَّرة من يوميات مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون» ومحفوظة فى مكتبته بجامعة

الوثائق الإسرائيلية





«بير سبع»، وقد تُرجِمَت هذه اليوميات إلى الإنجليزية، ولم تُتَرجَم بعد إلى اللغة العربية وتُنشَر كما حدث فى الجزء الأول من يوميات «بن جوريون» الذى نشره مركز الدراسات الفلسطينية فى بيروت، وكانت نهاية هذا الجزء عند سنة ١٩٤٩ بعد إعلان دولة إسرائيل وقيامها، وحروبها الأولى مع العرب، واتفاقياتها للهدنة مع بعضهم سنة ١٩٤٩.

● والمرجع الثانى هو آخر كتب المؤرخ الإسرائيلى القدير والمدقق «آفى شلايم» - الأستاذ الآن بجامعة «أوكسفورد» - والكتاب بعنوان «الحائط الحديدى»، وموضوعه مجرى الصراع العربى - الإسرائيلى طوال نصف قرن (١٩٤٨ - ١٩٩٨)، وقد صدرَ هذا العام (٢٠٠٠).

● وثالثها كتاب «أفنير كوهين» والصادر عن جامعة «كولومبيا» بعنوان «إسرائيل والقنبلة»، والكتاب موضوع تحقيق سياسى وجنائى فى إسرائيل الآن يسأل: كيف تَسَرَّبَت كل هذه الأسرار إلى «كوهين»؟ وكيف سَمَحَ لنفسه بـ«خيانة» الأمن الإسرائيلى حين نَشَرَها (سنة ٢٠٠٠)؟

● ورابعها هو ذلك التقرير المذهل فى معلوماته والذى قدمه الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية أيام حرب سنة ١٩٧٣، وكانت اللجنة الخاصة التى شُكِّلَت برئاسة كبير القضاة «أجرانات» للتحقيق فى أسباب مفاجأة إسرائيل بنشوب القتال يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ قد اتهمت الجنرال «زائيرا» بالتقصير، وردَّ الجنرال على ذلك بتقرير مُضاد تأخر ثلاثين سنة قبل أن يقدمه لأنه ارتأى انتظار مدة سريان قانون الوثائق حتى يكون دفاعه عن نفسه مؤصَّلاً. وكنت قد سمعت عن هذا التقرير الذى قدمه الجنرال «زائيرا» إلى الكنيست، وكنت شديد الرغبة فى الحصول عليه كاملاً أو أجزاء منه، خصوصاً ما يتصل فيه بالدور الذى قام به بعض الملوك العرب فى علاقاتهم الخفية مع إسرائيل.

وقد وَصَلَت الرغبة بى حتى رَجَوت الصديق الكريم الدكتور «عزمى بشارة» - وهو أستاذ ومفكر قومى بارز، وفى نفس الوقت عضو فى الكنيست الإسرائيلى - أن يجد لى وسيلة إلى التقرير. وتَفَضَّلَ الدكتور «عزمى بشارة» وأرسَلَ لى صفحات منه طلبتها ومعها ترجمة عربية قام بها بنفسه عن الأصل العبرى.

ثم كان أن التقرير تُرجِم بشكل ما فى بيروت وطُبِع على الآلة الكاتبة فى نُسَخٍ محدودة، ولم يلتفت إليه أحد بالقدر الكافى على الأقل. ثم تمكن المؤرخ العسكرى المصرى القدير الدكتور «إبراهيم شكيب» من الحصول على صورة له، وحين عرف اهتمامى بالتقرير تَفَضَّلَ وأهدانى «صورة من الصورة» التى كانت فى حوزته، وهى فى قرابة أربعمائة صفحة.

وإذن فهى الآن فى هذا الحديث - وما بعده - سياحة واسعة وحُرَّة وسط الوثائق الإسرائيلية - شاغل صيف بأكمله على شواطئ البحر الأبيض جنوباً وشمالاً!

على أنى قبل التَّوَجُّه إلى الماء والخوض والسباحة فيه إذا توافر العمق - أستأذن فى لفت النظر إلى عدد من الملاحظات:

● الأولى - أن هذا الحديث كله يعتمد بالكامل على الوثائق الإسرائيلية، وسوف أشير إلى بعضها تحديداً خلال السياق إذا كانت الوقائع فيها أساسية، ثم إننى اخترت لهذا الحديث أن يكون «وقفات» سريعة عند بعض المواقع

كانت مصر - ولا زالت - هى الطرف المركزى فى الصراع العربى - الإسرائيلى من بدايته وحتى الآن، وذلك بصرف النظر عن تباين التوجهات والسياسات والخيارات التى إعتمدتها مصر على امتداد أربعة عهود: مرحلة النظام الملكى - ثم المراحل الثلاثة لثورة ٢٣ يوليو - وبعدها - من «جمال عبد الناصر» - إلى «أنور السادات» - وأخيراً «حسنى مبارك»!

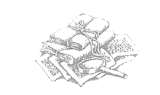
الفارقة، وحتى تتلاحم الصور وتتكامل، وتكون منها فى النهاية «بانوراما» عريضة - أى مشهداً عاماً وكاملاً للواقع كما بان وتبدّى من المنظور الإسرائيلى، ومن الموضع الذى تصرّف منه صانع القرار هناك.

● والثانية - أننى ركزت فى هذا الحديث على ما يخص مصر بالتحديد لأسباب لا يحتاج شرحها تفصيلاً. فقد كانت مصر - ولا زالت - هى الطرف المركزى فى الصراع العربى - الإسرائيلى من بدايته وحتى الآن، وذلك بصرف النظر عن تباين التوجهات والسياسات والخيارات التى اعتمدتها مصر على امتداد أربعة عهود: مرحلة النظام الملكى - ثم المراحل الثلاثة لثورة ٢٣ يوليو - وبعدها - من «جمال عبد الناصر» - إلى «أنور السادات» - وأخيراً «حسنى مبارك»!

● والثالثة - أنه إذا خطر لى أن أتدخل فى سياق هذا الحديث مُضيفاً أو مُعلّقاً - فإن ذلك سوف يكون (كما أفعل عادة) مسبوقاً بسطرين من النقط وملحوقاً بسطرين من النقط حدّاً وفاصلاً - ثم إن أى تدخّل من جانبى سوف يكون دائماً داخل قوسين واضحين حتى يتمايز حديث الوثائق عما قد يلحق به من عندى إضافة أو تعليقاً!

وهذه تقدمة طالت، لكنى ظننتها ضرورية، فقد كان تقديرى - وما زال - أن متابعة مجرى الحوادث من الضفة الأخرى لأى صراع - تجربة غنية، ثم هى تجربة كاشفة إذا جرت المضاهاة والمقارنة بين مواقع النظر من هنا - ومن هناك!

وبعد ذلك فقد أضيف: أن هذا الحديث ليس كتابة فى السياسة ولا فى التاريخ، وإنما هو قراءة فى السياسة وفى التاريخ.



١ «مصـــــرايـــيـم»

يبدو من مجمل الوثائق أن «دافيد بن جوريون» مؤسس الدولة فى إسرائيل وأول رئيس للوزارة فيها بعد الإعلان عن قيامها - كان مسكوناً طول الوقت ببلد اسمه «مصر» («مصراييم» كما كان ينطق الاسم ويكتبه بالعبرية) - وشعوره نحو هذا البلد لا يتغير ولا يتبدل وإن تارجح بين القلق الشديد والكراهية العميقة، وهو يستذكر ويستعيد فى إشاراته إليه ما وَرَد فى التوراة المتداولة فى إسرائيل من نعوت وأوصاف تمس مصر وشعبها، وهى نعوت وأوصاف متمادية فى معظم الحالات إلى درجة الشتم المقذع والسّب!

وفى تجربته هو - وبعيداً عن «المأثورات» التوراتية - فإن إشاراته إلى مصر تَرِد من أول لحظة ضمن تعبيرات من نوع: «باشوية مصر» - أو «دولة الباشوات المصريين» (ولعله أثر باق من فترة دراسته وإقامته فى إستنبول) - لكن التحّيز يَبين حين يذهب إلى تعبيرات من نوع: «الباشوات وخَدَمهم من الفلاحين»، أو «الأمراء الألبان والشركس وعبيدهم من المصريين»، و«شعب مصر هذا المزيج من الذل والادعاء»!

ولم تكن مصر داخلة فى حسابات «بن جوريون» أثناء تفكيره وتخطيطه لإقامة الدولة اليهودية فى فلسطين، فقد كان يراها مُلتهية بأمورها ومشغولة بعلاقاتها مع بريطانيا، كما كان يرى فى أحزابها السياسية مجرد هياكل طبقية تحمى مصالح كبار مُلاك الأرض الزراعية، ويرى أكبر رجالها لعباً فى يد مُتموّلين أجانب ينهبون البلد وسوف يواصلون نهبه!

وحتى حين وضعت مصر توقيعها على ميثاق جامعة الدول العربية (سنة ١٩٤٤)، فقد كان رأى «بن جوريون» أن الجامعة العربية من أولها إلى آخرها «لعبة إنجليزية» - لكنه حين دعا الملك «فاروق» إلى أول مؤتمر قمة عربى فى «أنشاص» بدأ «بن جوريون» يراجع حساباته، فهذا المؤتمر العربى الأول على مستوى الملوك توافقَ مع مجيء مفتى القدس الحاج «أمين الحسينى» لاجئاً إلى مصر ومُحتمياً بالملك «فاروق». ثم كان - أيضاً - أن توافقَ ظهور مفتى القدس وضيوف «فاروق» من الملوك العرب فى نفس الوقت وفى نفس القصر - لكن «بن جوريون» أراح نفسه بأن سَجَّل باستخفاف أن ملك مصر «يلهو بأوهام أكبر من قدرته»، وسوف يعرف يوماً - وعما قريب - «أن كل هؤلاء الملوك والرؤساء الذين جمعهم فى قصره لا يُمثّلون أكثر من حلف كراهية، يحقد أعضاؤه على بعضهم قبل حقدهم على أى طرف خارجى».

لكن «بن جوريون» راح يعتبر «لهو» الملك «فاروق» خطراً مُحتمَلاً عندما تَبيَّن له أن مصر سوف تشارك - رغم ما نقله إليه أصدقاء له من الأجانب والعرب، ومن اليهود المصريين، عن معارضة قوية فى مصر تُعارض اشتراكها فى حرب محتملة فى فلسطين إذا قامت فيها دولة يهودية.

كان «بن جوريون» مُطلعاً على رسائل كتبها الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية فى مصر «حاييم ناحوم» أفندى. ولم يكن الحاخام الأكبر فى مصر يكتب لـ«بن جوريون»، لكنه كان يكتب لصديقه الدكتور «ماجنس» رئيس الجامعة العبرية فى القدس. لكن الحاخام كان يُقدِّر (وتقديره صحيح) أن «بن جوريون» سوف يطلع بوسيلة ما على ما يكتبه.

وكان «حاييم ناحوم» أفندى على صلة بالملك «فاروق»، وبكل رجال القصر الملكى، وبعدد من الساسة المصريين من كل الأحزاب والاتجاهات، وكان مُقرّباً من أغلبهم خصوصاً وقد كان معارضاً للصهيونية ومشروعها، لكن الرجل فى النهاية كان مُنحازاً لأهله، فإذا كانت هناك دولة يهودية على وشك أن تقوم فى فلسطين، فليس أمام الحاخام مفر من تأييدها حتى ولو جاءت خطواته بطيئة مُتثاقلة، على عكس وكيله فى مقر «الحاخامية» الذى كان داعية مُندَفعاً إلى تأييد مشروع الدولة، ويعتبر مناصرة الحركة الصهيونية مُرادفة للصلوات فى المعابد وموازية لها فى ممارسة العقيدة. ومن المفارقات أن نائب الحاخام الأكبر فى مصر كان اسمه «أوفاديا يوسف».

....

....

[وهو الآن الراعى الروحى والسياسى لحزب «شاس» الذى يملك سبعة عشر مقعداً فى الكنيست الحالى، وكان يشارك فى ائتلاف حكومة «باراك» حتى خرج احتجاجاً على مجرد طرح موضوع القدس للمناقشة فى محادثات «كامب دافيد» الثانية فى اجتماع «كلينتون» و«باراك» و«عرفات» خلال شهر يوليو الأخير سنة ٢٠٠٠، ثم كان هو القائل فى مؤتمر صحفى منذ أسابيع أن العرب كلهم «جَراد» و«بهائم» و«وحوش» لا يصح لإسرائيل أن تقترب منهم أو تتصل بهم أو تجتمع بأى منهم فى مكان واحد!]

....

....



٢ إســـــــتراتيـجيـــة

مع دخول مصر سنة ١٩٤٨ فى حرب فلسطين واشتراك جيشها فى المعارك التى دارت على أرضها - راح «بن جوريون» يفكر جدياً فى سياسة يتعامل بها - حسب قوله - مع «جارنا الذى فَرَضه التاريخ علينا منذ أقدم العصور - عند الجنوب»! - وهكذا كان «بن جوريون» (وحزبه) يصلون الماضى «التوراتى» البائد والذى أعيد بعثه - بل واختراعه فى الحاضر والمستقبل - بعد أكثر من ثلاثين قرناً!

أى أن «مصر» ما زالت هى بالضبط «مصرايِيم» التى خرج منها اليهود هرباً من «الفرعون»، وكل ما حدث عبر القرون هو أن الفرعون الآن لم يعد «رمسيس الثانى» وإنما «فاروق الأول»!

وكان ذلك خلطاً خطراً يمزج الأساطير بالتاريخ، لكن «بن جوريون» ما لبث أن حَوَّلَ هذا الخلط إلى إستراتيجية كاملة!

وربما أن أدق وثيقة فى توصيف إستراتيجية إسرائيل إزاء مصر هى الوقائع الواردة فى محضر اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسته يوم ٢٩ مايو سنة ١٩٤٩.

فى هذه الجلسة - وقد خصصها «بن جوريون» لمناقشة «سياسة عامة» حول

من المفارقات أن نائب الحاخام الأكبر فى مصر كان إسمه «أوفاديا يوسف». وهو الآن الراعى الروحى والسياسى لحزب «شاس» الذى يملك سبعة عشر مقعداً فى الكنيست الحالى، وكان يشارك فى إئتلاف حكومة «باراك» حتى خرج إحتجاجاً على مجرد طرح موضوع القدس للمناقشة فى محادثات «كامب دافيد» الثانية

الأوضاع على ضوء ما ظهر من فشل كل المحاولات التى سعت لاستكمال اتفاقيات الهدنة المعقودة فى «رودس» (يناير وفبراير ١٩٤٨) وتَحويلها إلى اتفاقيات صلح ومعاهدات سلام كما كانت إسرائيل تامل وكما كانت بعض القوى الدولية تريد!

ومن أول دقيقة فى الجلسة شرع «بن جوريون» فى الكلام لا يُضَيِّع وقتاً. وطبقاً لمحضر الجلسة (التى جرت فى مقر الحكومة المؤقت فى تل أبيب فى الساعة الثامنة والنصف واستمرت إلى الساعة الواحدة إلا عشر دقائق بعد الظهر) ـ فقد بدأ «بن جوريون» كلامه قائلاً:

«الآن يلزمنا أن نضع سياسة للمدى الطويل مع العرب. فكلنا يعرف الآن أنهم (العرب) مُصَمِّمون على عدائنا، ولذلك فإن السلام معهم بعيد. ولكنى أريد أن أقول إن هذا ليس بالضرورة كارثة لنا، وبالعكس فقد يكون مفيداً ونافعاً..

لماذا؟

لأن جيش الدفاع (الجيش الإسرائيلى) وصل عندما توقفت المعارك إلى أبعد بكثير مما رسمه قرار الجمعية العامة لحدود الدولة اليهودية. فقوات جيش الدفاع احتلت كل ما كان مُخَصَّصاً للدولة الإسرائيلية وأكثر من ٧٠٪ مما كان مُخَصَّصاً للدولة الفلسطينية فى مشروع الأمم المتحدة. وهذا شىء عظيم.

ولو أننا وصلنا إلى حل مع العرب الآن لكان علينا أن نسلمهم أراضى كثيرة هى الآن تحت سيطرتنا، وهُم لم يستطيعوا أن يحتفظوا بها بالسلاح، ونحن لا يصح أن نتركها لهم بحِبْرٍ على وَرَق.

ليس هذا فَقط، بل إننا إذا كنا توصلنا إلى حَلٍّ (مع العرب) لكان علينا أن نقبل عودة بعض اللاجئين لأن القرارات الخاصة بعودتهم ما زالت حَيَّة فى ذاكرة الدول، وقد يفرضون علينا أن نقبل منهم أعداداً نحتار ماذا نفعل بها. بالعكس نحن يهمنا الآن أن يُهاجر عَدَدٌ أكبر من الفلسطينيين خارج البلد حتى يفسحوا المجال لوافدين يهود وصلوا إلى هنا أو هم فى طريقهم إلى الوصول.

هناك أيضاً مشكلة بالنسبة للقدس. فى الوقت الحالى الأمم المتحدة مُتَمَسِّكة بقرار تدويلها، وهذا يَحرِم إسرائيل من مدينة لها وضع خاص فى التاريخ اليهودى، وقد أصبحت الآن نقطة جذب لا تُقاوَم بالنسبة لليهود فى الدياسبوراه (التيه).

ولهذا كله فإننا جميعاً مطالبون ـ وأظنكم توافقوننى على أفضلية أن ننسى الآن موضوع السلام مع العرب ـ على الأقل لعشر سنوات قادمة، وخصوصاً أنه ليس هناك خطر حقيقى يُهَدِّد إسرائيل من جانب العرب، كما أنه ليس هناك ضغط دولى يرغم الدولة على أن تتصرف بعكس ما تراه لازماً لمصالحها!

وفى المحصلة كما أرى فإن الموقف فى المنطقة عموماً ملائم لإسرائيل، فلدينا أقوى جيش، ومعنا انتصار كبير حققه هذا الجيش، وقد قامت الدولة بالفعل، وحدودها كلها تحت السيطرة. وفى الحقيقة فإننا فى موقف شديد القوة فى الإطار الذى يعنينا تامينه حول إسرائيل ولصالحها.

الملك «عبد الله» فى الأردن ـ نحن على اتفاق كَامل معه، وكان يحلم بأن نتقاسم معه الأرض الواقعة تحت الانتداب البريطانى، ولم يكن لديه شىء يعطيه لنا، ولقد حصل على بعض الأرض (فى الضفة الغربية) وذلك مقبول لأننا لا نريد كل هذه الملايين من الفلسطينيين داخل حدود الدولة اليهودية. و«عبد الله» يستطيع أن يبقى فى شرق الأردن إلى آخر عمره، والهاشميون يمكن أن يكونوا أصدقاء لنا تُوَفِّر لهم العلاقة معنا توازناً ضد كراهية السعوديين والمصريين لهم.

سوريا (الجار الآخر فى الشمال) لا خَطَر منها. ليست لديها قوة تُذكَر، وقد انشغل جيشها فى السياسة الداخلية للبلد ولن يخرج منها.

لبنان لم يُمَثِّل على الإطلاق ولن يُمَثِّل إلى الأبد تهديداً لنا يمكن أن نخشى منه ـ ثم إن لدينا أصدقاء فى لبنان».

يواصل «بن جوريون» كلامه وفقاً للمحضر، فيَصِل إلى مصر ويقول:

ـ «مصر مسألة أعقد. فى الوقت الحالى لا خطر منها ـ لكنها فى المستقبل خطر مُحتَمَل. الحقيقة أن مصر هى ما يجب أن نَتَحَسَّب له. لماذا؟ لأن مصر هى الدولة الحقيقية الوحيدة فى العالم العربى حتى الآن، وهذا يجعلها تهديداً كامناً. إن المصريين لا يفهمون أننا لا نريد شيئاً عندهم. كل ما نريده منهم أن يبقوا وراء حدودهم وأن يفعلوا هناك ما يشاءون ـ لكن الفرعون المصرى (الملك «فاروق») تداعبه أحلام من أيام جده «إبراهيم» باشا (ابن «محمد على» والذى كان قائداً لجيوشه فى الشام) ـ وهو لا يُدرك أنه ليس «إبراهيم» باشا، كما أن العصور العثمانية انقضت!

ولست أفهم لماذا لا يكتفى «فاروق» بما لديه ويبعد عنا؟ مصر بلد كبير. ونحن ليس لنا مَطالِب فيها. وبيننا وبينها حاجز حقيقى من صَحراء واسعة. وقد كانت هى الطرف الذى سعينا إلى اتفاق أكيد معه، ولو كنا فعلنا ذلك لكان هذا الاتفاق «غزوة عظيمة». (من المدهش أن «بن جوريون» استعمل فى كلامه عن هذا الوضع تعبيراً عسكرياً كانت ترجمته إلى الإنجليزية بالنص: "a tremendous conquest" ـ وكان استعماله لهذا التعبير العسكرى بما فيه كلمة «الغزو» لافِتاً للنظر).

ويستكمل «بن جوريون» عرضه:

«كنا مُهتَمين بعقد اتفاق صلح مع مصر، ولبعض الوقت تَصَوَّرنا أن ذلك ممكن، ولكن عِناد «فاروق» أظهر لنا أن علينا أن ننتظر.

أى اتفاق صلح مع «عبد الله» (الملك «عبد الله» ملِك شرق الأردن) لا يشغلنى كثيراً. «عبد الله» أعجز من أن يعقد صُلحاً وأعجز من أن يشِنَّ حرباً، ولذلك فالعلاقات معه مضبوطة.

مع مصر المسالة تختلف. نحن لا نريد بالتاكيد حرباً معها. ولا نريد حرباً فى المنطقة كلها لا عندنا ولا على حدودنا، وإذا كان لا بد من حرب فى المنطقة فالأفضل أن تكون هذه الحرب عربية عربية ـ وليس عربية إسرائيلية. هذا رأيى، وكذلك يَتَعَيَّن أن تكون سياسة دولة إسرائيل!

بعض رفاقنا (يقصد وزير خارجيته «موشى شاريت» فى الغالب) يَتَصَوَّرون أننا لا يجب أن ننفض أيدينا من السعى للصلح مع مصر ـ لهم أن يحاولوا، وأما أنا فاعتقادى أن الاحتمال بعيد. مُؤَجَّل على الأقل. لماذا؟ لأن الملِك «فاروق» مجروح فى كبريائه ("amour propre" حسب التعبير الذى استعمله) نتيجة لهزيمة جيشه فى فلسطين. وشابٌ فى سنِّه وملك وأحمق سوف يضع كبرياءه قبل واجباته. هو يرغب فى الاتفاق معنا، لكنه سوف يطلب من الدولة (إسرائيل) ثمناً لا تستطيع الدولة أن تعطيه له. لا نستطيع أن نعطيه دواء لكبريائه المجروحة ـ ليس هذا شأننا!

وإذن فإن السؤال الأهم الذى يواجه إسرائيل الآن وعلينا الإجابة عليه هو: «ماذا نفعل إزاء مصر؟ فى الوقت الحالى لا خطر، ولكن مع وجود إمكانيات لدولة حقيقية هناك فإن علينا أن نَتَحَسَّب لأن إسرائيل دولة صغيرة ومحاطة بالأعداء من كل جانب، وإذا خرجت مصر من وراء حدودها وأقامت تحالفات فى يوم من الأيام، وقد رأينا نموذجاً من ذلك فى حربهم الأخيرة معنا لمنع استقلال الدولة ـ فإن ذلك سوف يكون خطراً كبيراً علينا أن نكون مُستَعِدِّينَ ليومه قبل أن يجىء. نمنع مجىء هذا اليَوم قدر ما نستطيع ـ ونكون مُتَأهِّبين لهذا اليوم إذا جاء».

وكانت مقترحات «بن جوريون» فى عرضه العام لإستراتيجية إسرائيل إذا جاء «ذلك اليوم» كما يلى:

١ ـ يلزم أن تظل مصر وراء حدودها ـ والإنجليز والأمريكان وأوروبا لا بد أن يعرفوا أن ذلك فى صالحهم من الناحية الإستراتيجية ومن ناحية تامين البترول.

٢ ـ يجب منع مصر من إقامة أى تحالفات مع بقية العالم العربى قفزاً فوق إسرائيل، خصوصاً مع سوريا بالذات، ثم مع السعودية والعراق. وهذه مسالة مُهِمَّة.

٣ ـ من الضرورى تَوسيع العازل الصحراوى بين مصر وإسرائيل، وهذا العازل لا بد له أن يشمل سيناء المصرية، وأيضا منطقة النقب (الصحراوية جنوب فلسطين).

٤ ـ عندما تقبع مصر وراء حدودها وتترك إسرائيل وشأنها فإن إسرائيل يتحتم عليها أن تعطى نفسها كل المزايا المتوفرة إستراتيجياً لمصر (والتى دَفَعَت «نابليون» لوصف مصر بأنها «أهم بلد فى الدنيا») وهى:

● الموقع المتوسط بين القارات الثلاثة (أوروبا وأفريقيا وآسيا).

● البرزخ الواصل من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بحيث يمكن أن تُحفر فيه قناة تضاهى قناة السويس، أو تُمتَد عليه خطوط سكك حديدية أو خطوط أنابيب لنقل البترول (وكان تحقيق ذلك الهدف هو الدافع الأول وراء مسارعة القوات الإسرائيلية حتى بعد عقد اتفاقية الهدنة إلى احتلال منطقة «أم الرشراش» وهى موضع ميناء «إيلات» اليوم).

ويواصل «بن جوريون» عَدَّ شروطه فيضيف:

٥ ـ إن إسرائيل عليها أن تحاول العثور على صداقات خاصة، أو حتى علاقة مصلحة متبادلة بينها وبين عدد من العناصر المكَوِّنة للـ«موزاييك» الإنسانى فى الشرق الأوسط.

ويتساءل «بن جوريون»: هل نستطيع إقامة علاقات مع الأكراد فى العراق وإيران وتركيا؟ ـ هل نستطيع إقامة علاقات منظمة مع «الموارنة» فى لبنان؟ ـ لا أتحدث عن علاقات مع أفراد هنا وهناك، ولكن مع كُتَلٍ دائمة وحاضرة باستمرار؟ ـ هل نستطيع مع الدروز خصوصاً وهناك قسم كبير منهم تحت سُلطة الدولة الآن؟ ـ هل نستطيع مع العَلَوِيين فى سوريا؟ ـ فَكَّرتُ أيضاً فى أقباط مصر لكنهم حالة ميئوس منها لأن حرصهم على حياتهم المشتركة مع المسلمين فى مصر طغى عندهم على أى اعتبار آخر (!).

٦ ـ ثم يطرح «بن جوريون» قضية الجاليات اليهودية فى العالم العربى خصوصاً فى مصر متسائلاً: «هل حان وقت تجنيدهم لصالح الدولة أم أن الوقت ما زال مبكراً للمحاولة؟ ـ هُم هناك حيث هُم على أى حال رصيد احتياطى فيه عناصر مستعدة وراغبة أن تستجيب لما تطلبه الدولة منهم».

٧ ـ أن تحقق إسرائيل لنفسها قوة ردع تواجه بها «الكَم البشرى الإنسانى الضخم» فى مصر إذا جاء «ذلك اليوم».

استفاض «بن جوريون» خلال الجلسة طويلاً فى كلامه عن قوة الردع الإسرائيلى والشروط المطلوبة لها:

ـ جيش أقوى من كل الجيوش العربية مجتمعة «لأنهم قد يحاصروننا».

ـ وقادر على نقل المعركة من أول يوم إلى أرض العدو «لأن رقعة أرضنا ضيقة».

ـ ومُهَيَّأ لحسم أى معركة فى عدة أيام «لأنه جيش شعبى، وهو مُطالَب فور انتهاء القتال أن يعود إلى مستعمراته ومصانعه ومكاتبه».

ـ يُدَعِّم هذا الجيش أن إسرائيل يجب أن تكون لها صداقة إستراتيجية مع قوة عظمى «لا تسندها سياسياً فقط وإنما تفتح لها مخازنها للسلاح والذخيرة عند الحاجة وإلى الحد الضرورى».

ويشير محضر جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلى يوم ٢٩ مايو ١٩٤٩ أن «دافيد بن جوريون» خلص

بن جوريون: « .. مصر مسألة أعقد. فى الوقت الحالى لا خطر منها . لكنها فى المستقبل خطر محتمل. الحقيقة أن مصر هى ما يجب أن نتحسب له . لماذا ؟ لأن مصر هى الدولة الحقيقية الوحيدة فى العالم العربى حتى الآن ، وهذا يجعلها تهديداً كامناً. إن المصريين لا يفهمون أننا لا نريد شيئاً عندهم . كل ما نريده منهم أن يبقوا وراء حدودهم وأن يفعلوا هناك ما يشاءون».

من ذلك إلى القول (وكأنه يلقى نبوءة !) بما نصه:

«محظور على دولة إسرائيل أن تقامر بأمنها، ولهذا فإن استباق أى تهديد محتمل بضربة وقائية هو عمل له مبرراته السياسية والأخلاقية حتى وإن ثبت فيما بعد عدم صحته»!!

وفى ذلك الاجتماع، وقبل ذلك فى يومياته سواء فى الجزء الأول الذى تُرجِمَ ونُشِر باللغة العربية، أو فى الجزءين الثانى والثالث وكلاهما ما زال بعد (على حد علمى) محبوساً فى أصله العبرى وإن تُرجِمَت قرابة ألف صفحة منه إلى الإنجليزية والفرنسية ولم تُنشَر بعد - كان «بن جوريون» بادى القلق من احتمال أن «يَظهَر بين العرب رَجُلٌ له قدرات قيادية ولديه الجاذبية الإنسانية (charisma) التى تجعله قادراً على تحريك الحجم العربى ليصبح قوة فعل قادرٍ على نحوِ ما صَنَعَ «مصطفى أتاتورك» فى تركيا !» - كذلك قال وكتب، وأعاد وكرر !

وكان ذلك هاجسه الهائم فى خواطره طوال السنوات من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٢. ■



٣ حـــكايـــة

■ ■ ومن اللافت للنظر أن قراءة الوثائق الإسرائيلية فى المرحلة الأولى لقيام الدولة تُظهِر بكل وضوح أن «القدس» لم تكن على قائمة الأولويات الكبيرة على جدول أعمال مؤسس الدولة «دافيد بن جوريون».

كانت منطقة النقب على رأس الجدول، وأما مدينة القدس فقرب الذيل، والسبب أن «بن جوريون» كان يخاف من القدس على «روح الدولة» - كما تُسَجِّل المحاضر مراراً، وكان رأيه أن روح الدولة الحديثة «علمانية بالضرورة»، وكانت خشيته أن القدس سوف تقلب حركة الموازين لصالح التَدَيُّن والدين، وقد تؤثر على فكرة العلم والتحديث وبناء قواعد القوة المادية لدولة إسرائيل.

كان ذلك رأيه مبكراً ومن قبل قيام الدولة، وفى ذلك الحين لم يكن يمانع فى تقسيم المدينة بين العرب واليهود، ولا فى وضعها كلها تحت سُلطة الأمم المتحدة، كما وَرَدَ فى القرار الصادر عن الجمعية العامة فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ - لكن «بن جوريون» راح يُغَيِّر رأيه ويزيد حرصه على القدس مدفوعاً بضغوط اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد كان هؤلاء اليهود الأمريكيون بالنسبة له سَنَدَ المرحلة، بمعنى أن مشروع الدولة اعتمد على يهود أوروبا ليَنمو جَنيناً ويُوَلَد - والآن - وتحت موازين قوة جديدة - فعليه أن يَعتَمِد على يهود أمريكا ليعيش ويكبر.

ويهود أمريكا لا تحركهم إلى نصرة إسرائيل أن يذكرهم أحد بأبناء دينهم الذين هربوا من أوروبا إلى إسرائيل فى القرن التاسع عشر، ولا تثير خيالهم حياة المستعمرات ضمن حركة الـ«كيبوتز»، ولا يهمهم أن المهاجرين اليهود إلى فلسطين مكشوفون أمام أغلبية عربية فى ذلك البلد تقاوم وجودهم - تلك كلها صُوَر عرفها اليهود حتى فى تجربتهم الأمريكية، وحين كان العالم الجديد (أمريكا) فى خيالهم (وليس فلسطين) هو «أرض الميعاد».

وفى مجتمع مُتَدَيِّن (ومُدَّعٍ بالمثالية التبشيرية) مثل المجتمع الأمريكى فى القرن التاسع عشر، ثم بعد ذلك فى عصر الظهور والخروج إلى العالم فى القرن العشرين - فإن يهود أمريكا استدعاهم إلى نصرة إسرائيل عامل رئيسى واحد هو الدين، وهنا يمكن أن تكون القدس استرجاعا للماضى «اليهودى» (رغم أنها لم تكن فى أى وقت على طول التاريخ عاصمة لأىٍّ من القبائل اليهودية وممالكها قصيرة العُمر فى فلسطين (كنعان القديمة). كانت فى القدس بقايا للهيكل، أو هكذا قيل. لكنه حول هذه البقايا كان لا بد من نحت صَنَم أسطورى مُستَجَد يَدعو ويُنادى يهود أمريكا ويستولى على مشاعرهم.)

وعندما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ فإن «دافيد بن جوريون» بحث فى كل سجلات الدولة الإسرائيلية عن معلومات يستنير بها فى التَنَبُّؤ بما عسى أن تكون عليه تصرفات الرجل الذى ظهر فى مقدمة الصفوف وهو اللواء «محمد نجيب». ولم يعثر «بن جوريون» على ما يفيده، لكن المعلومات الواردة من القاهرة كانت تشير إلى رغبة فى التركيز على الإصلاح الداخلى. ولوَهلة تَصَوَّرَ «بن جوريون أن لديه فرصة للتعامل مع «محمد نجيب». وبتفكيره وبتشجيع من وزير خارجيته «موشى شاريت» بدأت محاولة تبدو ساذجة أو سطحية فى الوثائق الإسرائيلية - إذا قورِنَت بحقائق الأمور زمانها فى القاهرة، والذى حَدَثَ - كما تروى الوثائق الإسرائيلية - هو أن أحد مستشارى سفارة إسرائيل فى باريس سَلَّمَ للوزير المفوض المصرى «على شوقى» (وهو أحد أبناء الشاعر الكبير «أحمد شوقى») خطاباً من «بن جوريون» إلى اللواء «محمد نجيب» - وعندما وَصَلَ هذا الخطاب إلى القاهرة - وكانت وزارة «على ماهر» (باشا) هى القائمة بأمور الحكم فيها خلال الشهور الثلاثة الأولى - كان قرار «على ماهر» (باشا) بعد التشاور مع اللواء «محمد نجيب» وعدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة (بينهم «جمال عبد الناصر») - هو أن هذه المحاولة الإسرائيلية لا ينبغى الرد عليها، ذلك أن الرد بأى جواب يعنى الدخول فى حوارٍ مع إسرائيل لا يريده النظام الجديد ولا يستطيع تَحَمُّل عواقبه، ثم إن الرفض الصريح قد يثير على الجانب الآخر ما لا لزوم لإثارته، خصوصاً فى هذا الوقت المبكر من عمر النظام الجديد، وهو فى كل الأحوال مشغول بفتح باب المفاوضات مع الإنجليز من أجل الجلاء، وليس فى صالحه أن تتقاطع الخطوط وتتداخل بأى شكل فى حوارٍ مهما تكن طبيعته مع إسرائيل.

لكن وجه الغرابة أن الوثائق الإسرائيلية تواصل الإشارة إلى اتصالات ورسائل يجرى تبادلها بين القاهرة وتل أبيب مروراً بباريس.

....

....

[ربما أضفت أننى أعرف عن تحقيقٍ جرى فى شأن هذا اللغز عندما بدأت بعضُ حكاياته تَتَسَرَّب وتصل إلى أسماع الحكومة الأمريكية فى الظروف التى كَثَّفَ فيها الرئيس «أيزنهاور» مساعيه النشيطة لتحقيق «سلام فى الأرض المقَدَّسة» (وهو نفس ما يحاوله «كلينتون» الآن سنة ٢٠٠٠!) - ثم حدث فى تلك الفترة (أواخر سنة ١٩٥٤) أن «روبرت ماكلوى» المبعوث الشخصى للرئيس «أيزنهاور» سأل فى القاهرة عن «نقطة معينة» قال إنها وَرَدَت فى سياق رسائل متبادلة بين القاهرة وتل أبيب عن طريق باريس. وبدا ذلك فى القاهرة مبعث دهشة - وحيرة، ثم تقرر إجراء بحث تَطَوَّرَ إلى تحقيق تبين منه أن بعض «الشُطَّار» من المصريين فى باريس قاموا بعملية لحسابهم الشخصى].

....

....

[ووفق تقرير مكتوب ومحفوظ فى ملفات رئاسة الجمهورية فى مصر (وفى هيئة المخابرات العامة أيضاً) - فقد ظهر أن هؤلاء «الشُطَّار» تطوعوا لعمل سياسى لا يدخل فى اختصاصهم، ثم أقنعوا بعض الجهات فى مصر وقتها بأنهم تمكنوا من تجنيد دبلوماسى مُهِم بالسفارة الإسرائيلية فى باريس، وأنهم يحصلون منه على معلومات سرِّية فى مقابل مبالغ يدفعونها له - وعلى الناحية المقابلة فإن ذلك الدبلوماسى الإسرائيلى جرى إيهامه بأنه فتح خط اتصال مع القاهرة. ودار كلام، وطارت مَبالغ حَوَّلتها المخابرات المصرية وقتها إلى باريس لصالح «عملية مُهِمَّة»، ثم تَبَيَّن فى النهاية أنها أحلام صغيرة على ناحية، وأوهام كبيرة على الناحية الأخرى !]

....

....

[ووجد «جمال عبد الناصر» نفسه مضطراً إلى إبلاغ «ماكلوى» بأن ما وصل إليهم عن اتصالات تجرى فى باريس «هَجص» (حسب تعبيره) لا أساس له - ثم يعترف بأن «بعضهم - لسوء الحظ - وجدها وسيلة لزيادة دخله والاستمتاع بمباهج الحياة أكثر فى باريس، وأن إجراءات مناسبة قد تم اتخاذها». ثم أوضح «جمال عبد الناصر» لـ«ماكلوى» «أنهم» (يقصد الأمريكان) كان يجب أن يَستَدِلّوا بالمنطق العادى على أن نظاماً قام على حركة بدأت من القوات المسلحة، وبدأت كرَدِّ فِعلٍ لتجربة حرب فلسطين التى شارك فيها عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة - كان مُستَحيلاً عليها استحالة كاملة أن تقترب - وفى بداية أيامها - من أى مغامرة مع إسرائيل وراء سيناء، وخصوصاً أن أمامها أزمة مع الإنجليز الذين يحتلون ضفاف قناة السويس. ولا أجد داعياً أن أقول الآن فى ذلك الموضوع أكثر، لكن التحقيق ونتائجه - كما أسلفت - موجودة ومحفوظة فى الرئاسة وفى المخابرات، وبعض التفاصيل ليست مُريحَة!]

....

....

[ثم كان أن محاولات «روبرت ماكلوى» وبعدها محاولات «روبرت أندرسون» وهو مبعوث آخر لـ«أيزنهاور» إلى مصر (سنة ١٩٥٥) - اصطدمت بمشكلة أساسية كبرى هى «النقب»، فقد أصَرَّت مصر - فى عهد الثورة كما كان فى العهد الملَكى من قبل - على أنه من المستحيل عليها قبول أى حل للصراع فى الشرق الأوسط لا يتضمن أن تكون منطقة «النقب» عربية (وضمن قرار التقسيم كما أعَدَّه الكونت «برنادوت» وسيط الأمم المتحدة فى هدنة فلسطين سنة ١٩٤٨) - وداعى الإصرار المصرى أن «النقب» عربياً يكفل استمرار الاتصال البرى بين مصر وبقية العالم العربى فى المشرق، وذلك هو المصدر التاريخى الأكبر فى حياتها بالدين (المسيحية والإسلام) - ثم باللغة (العربية).

وهنا طرأ على قائمة أولويات «بن جوريون» بند آخر سبق اهتمامه بـ«النقب» - بنفس مقدار ما أن «النقب» سبق «القدس»!

ذلك أنه هنا أصبحت الأولوية الأولى لـ«دافيد بن جوريون» هى: «القنبلة» !] ■



٤ القنبـــلـــة

■ ■ تمتلئ الوثائق الإسرائيلية بتقاريرها وشهاداتها ومعلوماتها بإشارات دائمة ومتكررة وملحة إلى ضرورة أن تكون لإسرائيل قنبلة نووية تكون «الحامى النهائى لها وسط جموع العرب المحيطين بها فى كل ناحية، والذين أضمروا لها العداء حتى من قبل قيامها، ثم رفضوا التعامل الطبيعى (التطبيع) معها بعد قيامها، وحتى بعد

كان «بن جوريون» بادى القلق من إحتمال أن «يظهر بين العرب رجل له قدرات قيادية ولديه الجاذبية الإنسانية (charisma) التى تجعله قادراً على تحريك الحجم العربى ليصبح قوة فعل قادر على نحو ما صنع «مصطفى أتاتورك» فى تركيا !»

انتصارها عليهم عسكرياً فى سنة ١٩٤٨.

وتبدأ أولى الإشارات فى الوثائق الإسرائيلية إلى القنبلة النووية حتى قبل قيام الدولة، وتَرِد الإشارة بغير تسمية فى محضر اجتماع للجنة التنفيذية للوكالة اليهودية حضره «بن جوريون» سنة ١٩٤٧ - وقال فيه إنه «عندما تقوم الدولة اليهودية فى وسط هذا البحر من الحِقد العربى عليها فإن ضمانها الوحيدَ هو الحصول على سلاح علمى مُتَطَوِّر من مستوى ذلك السلاح الذى حَسَمَت به الولايات المتحدة حربها مع اليابان (القنبلة الذرية)».

ثم يستطرد «بن جوريون» ليقول:

«الدولة اليهودية عندما تقوم لا ينبغى لها أن تكرر تجربة يهود أوروبا الذين لم ينتبهوا إلا بعد فوات الأوان إلى أن «هتلر» يريد «إبادتهم فى غرف الغاز» !

وإذا لم نقف للعرب من قبل الدقيقة الأولى فإن «المحرقة» (الهولوكوست) التى جرت فى أوروبا سوف تتكرر هنا فى الوطن اليهودى، وذلك لا ينبغى أن نسمح به مهما كانت المخاطر ومهما بلغ الثمن»!

....

....

[وبعد اقتراب «جمال عبد الناصر» من قمة السلطة فى مصر سنة ١٩٥٤ راح «بن جوريون» يتحدث بصراحة أكثر عن «القنبلة».]

....

....

وفى اجتماع للجنة السياسة الخارجية للحزب الذى كان يرأسه وهو حزب «المابام»، وبتاريخ مايو سنة ١٩٥٤ فتح «بن جوريون» عقله وقلبه لأعضاء اللجنة قائلاً - طبق وقائع المحضر:

«إن العرب - كما نرى من حولنا - يظنون أنهم وجدوا زعيماً يُوَحِّد شملهم ويقود صفوفهم إلى حربِ إبادة ضد إسرائيل.

إن العرب لم ينسوا قط إهانة هزيمة جيوشهم بواسطة جيشنا وهُم الأكبر منا عدداً فى السكان، وفى مساحة الأرض، وفى حجم الموارد، وسوف يعودون مرة ومرة لقتالنا، وهُم يَقدِرون على تَحَمُّلِ هزائم يستوعبونها بحجم السكان والأرض والموارد، وأما إسرائيل فإنها لا تستطيع - بمعنى أن إسرائيل إذا خَسَرَت الحرب مرة - خَسَرَت الحياة إلى الأبد !

ذلك ما ينبغى أن تعرفوه جيداً، وأصارحكم أن الأرَق يتملكنى كل يوم ويحرمنى من النوم كل ليلة عندما أفكر فى المصير المظلم الذى يمكن أن يُرَتِّبه «ناصر» ومُشايِعوه فى العالم العربى لنا، ولا يمكن أن أستريح إلا إذا كان لدى إسرائيل سلاح للردع النهائى يكون هو الحماية الأخيرة للشعب اليهودى.

إننا فقراء فى موارد الجغرافيا إزاء العالم العربى، ولكننا أغنى منهم بموارد العقل والعِلم، وأنا أنتظر من رجال مثل «آينشتاين» (صاحب نظرية «النسبية») - و«أوبنهَيْمر» (مدير المشروع النووى الأمريكى) - و«تيللر» (مهندس القنبلة الهيدروجينية) - والثلاثة يهود - أن يقوموا من أجل إسرائيل بما قاموا به من أجل الولايات المتحدة»!

وكان «بن جوريون» قد بدأ يتحرك فعلاً نحو خيار نووى إسرائيلى راح يتحدث عنه باستمرار باعتباره «الضمان النهائى» إذا «بدا أن كل شىء يمكن أن يضيع» !

وكانت أول خطوة لـ«بن جوريون» هى تعيينِ العالم الألمانى اليهودى الشهير «إرنست بيرجمَان» مستشاراً خاصاً له للشئون العلمية !

وكان قراره أن يكون المشروع النووى الإسرائيلى تحت الإشراف المباشر لرئاسة الوزراء - وليس لرئاسة الأركان كما اقترح بعضهم - وكان رَدُّ «بن جوريون» على اقتراحهم بقوله: «رؤساء الأركان يجيئون ويذهبون مرة كل سنتين أو أربع سنوات، ونحن الآن أمام مشروع يتعلق به عُمر إسرائيل إلى آخر الزمن» !



٥ فرنســــــــــا

مبكراً - وفق ما تقول به الوثائق الإسرائيلية - طرح «دافيد بن جوريون» سؤاله الكبير وهو «كيف يمكن لإسرائيل أن تقيم مشروعها النووى - ومن ثم تقوم ببناء قنبلتها النووية (أو «خيار اللحظة الأخيرة» كما كان يسميه).

وقد أحس «بن جوريون» - وفق ما تُظهِره الوثائق - أن هذا السؤال لا يمكن تاجيلُه، وخصوصاً أن خلافاً نَشَبَ فى التقديرات والرؤى بين مستشاره العلمى (الدكتور «إرنست بيرجمان») وهو الأستاذ الأشهر فى علوم الطبيعة، وبين مساعده السياسى الذى اختاره للتشهيل والمساعدة («شيمون بيريز»).

كان موضوع الخلاف أن الدكتور «بيرجمان» يريد أن يبدأ المشروعِ النووى الإسرائيلى من البداية حتى ينهض مُؤسَّساً على أرض صلبة قابلة لتَحَمُّل ثقله، وقادرة على دفع إمكانيات تطوره. وعلى الناحية الأخرى فإن «شيمون بيريز» يقول برأى مخالف مؤداه أن البدء من البداية مضيعة للوقت لا تستطيع إسرائيل تَحَمُّلها، وحسب قوله: «لماذا نعيد اختراع ما سَبَقَنا الغير إلى اختراعه، ولماذا لا نُوَفِّر الوقت ونأخذه جاهزاً؟» !

وهنا بَرَزَ سؤالٌ كبير عما إذا كان ذلك مُتاحاً لإسرائيل؟ - بمعنى: هل هناك طَرَف سبق إلى تحصيل قدرة نووية متطورة يرضى بأن يساعد إسرائيل فيها؟ وإلى أى مدى؟ وتحت أية شروط؟

وظل «بن جوريون» حائراً بعض الوقت بين مستشاره العلمى ومساعده السياسى. كان يرى وجهة نظر العالم («بيرجمان»)، ومن ناحية أخرى فقد بدَا أن رأى مساعده السياسى («بيريز») احتمال لا يصح إهماله - وهكذا طَرَحَ السؤال الكبير نفسه على مستوى لجنة الأمن فى مجلس الوزراء الإسرائيلى، وكانت النتيجة (فى وقتها) غير متوقعة لأن الإجابة على السؤال توصلت إلى أن:

«الدولة الوحيدة التى يُحتَمَل أن تساعد إسرائيل هى فرنسا؟»

والأسباب فى مجملها على النحو التالى:

«بين الدول النووية القادرة نظرياً على مساعدة إسرائيل فى أى مشروع نووى فإن:

١ - الولايات المتحدة لن تقبل (فى المستقبل القريب على الأقل) لأن مصالحها واسعة فى العالم العربى، كما أن شركات البترول الأمريكية تملك نفوذاً على القرار السياسى الأمريكى فى الشرق الأوسط.

٢ - بريطانيا حالة ميئوس منها، فقد قام نفور بينها وبين إسرائيل من قبل إعلان قيام الدولة اليهودية، مضافاً إلى ذلك أن بريطانيا الآن مشغولة بترتيب أوضاعها فى العالم العربى، وهى داخلة فى مفاوضات مع مصر ومع العراق للوصول إلى معاهدات جديدة تحل محل معاهدات قديمة مع البلدين (معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر - ومعاهدة سنة ١٩٣٠ مع العراق).

٣ - الاتحاد السوفيتى لا يمكن حتى مفاتحته فى الطلب الإسرائيلى، فهناك مشاكل معقدة مع الدولة السوفيتية، وهى مشاكل لها جذور تاريخية، كما أن لها امتدادات معاصرة أهمها الآن موجة اضطهاد عارمة ضد اليهود (بسبب قضية الأطباء الذين شارك بعضهم فى علاج زعيم الاتحاد السوفيتى ذلك الوقت «جوزيف ستالين» ثم اتهموا بأنهم حاولوا دَسَّ السم له بتحريض من المخابرات الأمريكية).

وإذن تبقى فرنسا؟

والمعضلة: هل ترضى فرنسا؟ وبأية شروط؟

وكان الرد الذى جرى التوصل إليه وصاغه «شيمون بيريز» فى مذكرة لم يظهر نصها الكامل فى الوثائق الإسرائيلية، وإنما ظهرت إحالات وإشارات لها، هو:

«١ - إن فرنسا تشعر بمرارة من الطريقة التى يعاملها بها حلفاؤها الإنجليز والأمريكان لأنهم لا يريدون - حتى الآن - اعتبارها طرفاً معهم على قدم المساواة فى القرار السياسى الأعلى للدول الغربية.

٢ - وترتيباً على ذلك فإن بريطانيا بالذات تتصرف فى أوروبا وخارجها بمنطق أنها مرتبطة مع الولايات المتحدة الأمريكية بعلاقات خاصة تَجمَع الناطقين باللغة الإنجليزية (تلك كانت إستراتيجية «ونستون تشرشل» فى الحرب العالمية الثانية وبعدها). ومن هنا فإن بريطانيا تتعامل مع فرنسا بنوع من التعالى يستفز الحكومة فى باريس !

٣ - إن استفزاز فرنسا بواسطة بريطانيا - والولايات المتحدة أيضاً - بلغ مداه فى الشرق الأوسط، إذ تآمرت بريطانيا مع بعض «الوطنيين المحليين» على «زحلقة» فرنسا من الشرق العربى (سوريا ولبنان).

٤ - إن الحركة الوطنية العربية أبدت مُعارَضة ومُقاوَمة لمصالح فرنسا رغم «جذور ثقافية فرنسية قديمة ولا تزال حية»، وهذه المعارضة والمقاومة واضحة ليس فقط فى التضامن العربى مع استقلال سوريا ولبنان، وإنما هذا التضامن العربى مستمر الآن وأكثر اندفاعا فى المغرب العربى تاييداً لاستقلال «تونس» و«المغرب» - وحتى «الجزائر»!

وفى وقت ما بين نهاية سنة ١٩٥٤ وبداية سنة ١٩٥٥ جرى تكليف «شيمون بيريز» بأن يبدأ فى استطلاع «الأفق الفرنسى».

وكان أول اتصال استطلاعى أجراه «شيمون بيريز» مع السفير الفرنسى (الجديد وقتها فى تل أبيب) وهو السفير «بيير جيلبرت».

ولم يقل «بيريز» للسفير الفرنسى - طبقاً للوثائق - كلمة واحدة عن «مشروع نووى إسرائيلى»، بل فى الغالب - وكما يبدو من الأوراق - فإنه لم يتحدث أصلاً عن السلاح. وإنما كان مجمل كلامه للسفير الفرنسى أن «فرنسا فى الظروف الراهنة تحتاج إلى صديق موثوق به فى الشرق الأوسط. وهناك صديق جاهز ومُخلِص أيضاً، لكن فرنسا «مشغولة بغيره» !»

وأضاف «بيريز» ما مؤداه: «إن الولايات المتحدة الأمريكية ما تزال تحاول مع «ناصر» وتامل أن تجعله صديقها فى المنطقة. ثم إن بريطانيا تحاول مع الهاشميين فى العراق والأردن، وأيضاً فى سوريا. وذلك يضع إسرائيل وفرنسا فى نفس القارب معاً، وإذا تذكرت باريس، ومن مصلحتها أن تتذكر، أن تل أبيب تقع فى منتصف المسافة بين القاهرة ودمشق - إذن فإنها سوف تكتشف أنه لا بد للبلدين (إسرائيل وفرنسا) أن تكون لهما فى الشرق الأوسط سياسة متفق عليها بينهما وحدهما»!

ومما هو ظاهر فى الوثائق فإن السفير الفرنسى «بيير جيلبرت» كان على استعداد للفهم، وقد اقترح على «بيريز» أن يقصد إلى باريس ويستطلع الأفق هناك بنفسه. وزاد السفير الفرنسى على ذلك بنصيحة أثبتت التجربة أنها كانت صادقة ونافعة إلى أبعد حد. فقد كانت نصيحة السفير الفرنسى لـ«بيريز»: «اذهب إلى فرنسا ولا تُضَيِّع وقتاً كثيراً مع الساسة، وإنما حاول أن تتصل بوكلاء الوزارات الدائمين، فهُم القوة الحقيقية الآن فى باريس

> يهـــود أمريكا اســـتدعاهم إلى نصـــرة إســـرائيل عــامل رئيسى واحــد هو الدين، وهنا يمكن أن تكـــون القـــدس اســـترجاعـاً للمـــاضـى «اليهودى» (رغم أنها لم تكـــن فى أى وقـــت على طـــول التـــاريخ عاصمــــة لأى من القبـــائل اليهـــودية وممـــالكها قصـــيرة العمــــر فى فلســـطين (كنعـان القديمـــة)

لأن السياسة الفرنسية الحزبية تشهد حالة «هزلية» من عدم الاستقرار نتيجة لأزمات «الجمهورية الرابعة فى فرنسا». وهى أزمات مُستَعصيَة جعلت كل الوزراء فى مَهَبِّ الريح. وبالتالى ركزت السلطة الفعلية فى يد البيروقراطية»!

ومن المدهش أن «شيمون بيريز» حمل تقريره عن لقائه بالسفير الفرنسى إلى «دافيد بن جوريون» رغم أنه لم يَعُد فى ذلك الوقت رئيساً للوزراء، بل كان «أباً» غاضباً من جميع «الأولاد» ومُعتَزِلاً فى مستعمرة «سد بوكر». لكن الوثائق تُظهِر أنه من هناك حيث «اعتزل» كان لا يزال يشير ويُوَجِّه ويُدير، وإليه وليس إلى رئيس الوزراء الذى خلفه («موشى شاريت») يعود كل المنفذين فى إسرائيل خصوصاً فى الجيش والمخابرات - وحتى وزارة الخارجية التى احتفظ بها رئيس الوزراء الجديد لنفسه !



٦ استفزاز

طوال سنة ١٩٥٤ كان «موشى شاريت» رئيساً لوزراء إسرائيل، لكن الوثائق الإسرائيلية تشير إلى أن «دافيد بن جوريون» كان الآمر الناهى من وراء ستار عن طريق الثلاثى الشهير من معاونيه «موشى ديان»، و«شيمون بيريز»، و«ييجال آللون».

وكان هؤلاء الثلاثة وغيرهم من رجال «بن جوريون» قد ساورهم القلق مما يجرى فى مصر، فقد بدا أن «رجلاً قوياً» يصعد إلى قمة السلطة بسرعة، وأن هذا الرَجُل بالفعل يقيم نظاماً وطنياً تظهر ملامحه أكثر كل يوم، ثم إن هذا الرَجُل يدير مفاوضات مع بريطانيا يبدو أنها على وشك الوصول إلى اتفاق يتحقق بموجبه جلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس.

وكان رأى الثلاثة - ولم يخالفهم أحد - أن ذلك أمر ينبغى منعه بكل الوسائل لأنه لا بد قبل خروج الإنجليز من قواعد قناة السويس أن يتحقق صلح بين مصر وإسرائيل، لأن عودة قواعد قناة السويس إلى مصر، وما يصحبها بالضرورة من عودة مصرية حُرَّة إلى سيناء - يفتح الباب لاحتمالات مجهولة.

وجرى فى نفس الوقت أن مصر بدأت تخرج إلى العالم العربى وإلى العالم الأوسع، وكان ذلك مُثيراً للقلق تلك الفترة فى إسرائيل - وطبقاً للوثائق - فقد امتدت صلات متينة بين مصر من ناحية وبين كل من الهند ويوجوسلافيا من ناحية أخرى. ثم إن فكرة شديدة الأهمية طرحت نفسها فى ذلك الوقت، وهى إمكانية عقد مؤتمر تجتمع فيه الدول الآسيوية والأفريقية وحركات التحرير الوطنى - ثم تَبَدّى أن مصر من أكثر العناصر النشطة فى الدعوة إلى هذا المؤتمر الذى تقرر أن يعقد فى «باندونج» - إندونيسيا.

وتحتوى وثائق الخارجية الإسرائيلية فى تلك الفترة على إشارات وتحذيرات من أن «ناصر يستعمل علاقات أقامها مع الزعيم الهندى «جواهر لال نهرو»، ومع الزعيم الإندونيسى «أحمد سوكارنو»، ومع الزعيم البورمى «أونو»، لمنع مشاركة إسرائيل فى التحضير أو المشاركة فى أعمال المؤتمر الكبير المقترح، فى الوقت الذى كانت هى (إسرائيل) راغبة فى اعتبار نفسها دولة آسيوية !

وكان من المزعج (لـ«بن جوريون») أن قادة آسيا وأفريقيا اقتنعوا بما قيل لهم فى القاهرة من أنه إذا التزمت إسرائيل بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩١ (قرار التقسيم - بالنقب عربياً، وهو مشروع «برنادوت» - وسيط الأمم المتحدة المكلف بتنفيذ قرار التقسيم) فإن إسرائيل تستطيع حضور مؤتمر «باندونج»، وإلا فإن اشتراكها مع عصيانها لقرارات الأمم المتحدة يصبح رُخصَة لاحتلال غير شرعى لأرض بقوة السلاح !

وتنجح مصر فعلاً فى استبعاد إسرائيل من «تجَمُّع باندونج»، وتَحول دونها ودون المشاركة فى المؤتمر الذى اعتبر فى زمنه «حدثاً تاريخياً ضخماً».

ويُصبِح المزاج فى إسرائيل حاداً فى كل ما يتعلق بمصر، ويَرِد ذكرها فى كل الوثائق الإسرائيلية - من تلك الفترة - ليس باعتبارها عَدُوّاً مُحتملاً، وإنما باعتبارها عَدُوّاً ماثلاً فى الحال وشديد الخطر فى المستقبل.

وتبدأ السياسة الإسرائيلية فى ممارسة العداء مُسَلَّحاً ضد مصر.

● وهناك وثيقة من مكتب رئيس الوزراء «موشى شاريت» تشير إلى أن رئيس أركان الحرب «موشى ديان» اقترح عليه (فى ذلك الوقت من أواخر ١٩٥٤) خطة عمل مسلح هدفه عزل قطاع غزة عن مصر لإفقادها الاعتبار وسط العرب، والتأثير على هيبتها فى آسيا وأفريقيا.

وتشير الوثيقة إلى أن رئيس الوزراء سأل رئيس أركان الحرب: «أليس معنى ذلك أن مصر سوف تجد نفسها مُضطرة إلى حربٍ معنا؟» - ويَرُدُّ «ديان» قائلا: «ولِمَ لا»؟

● وضمن الوثائق الإسرائيلية مجموعات لا داعى للوقوف أمامها طويلاً لأن أمرها مشهور، وهى خاصة بما عُرِفَ باسم «فضيحة لافون»، ومؤداها أن تعليمات صَدَرَت منسوبة إلى مكتب وزير الدفاع فى ذلك الوقت (ربيع وصيف سنة ١٩٥٤) بتنفيذ عمليات تفجير قنابل وإشعال حرائق فى القاهرة والإسكندرية، ومهاجمة مكاتب تابعة لسفارات الدول الأجنبية وخصوصاً سفارات الولايات المتحدة وبريطانيا لإظهار قصور الحكومة المصرية فى السيطرة على الأمن وحماية أرواح الأجانب فى بلدها، ومن ثم تكون غير جديرة بالاستقلال، غير مستعدة لمسئوليته، غارقة فى تَعَصُّب أعمى ضد الغرب !

وقد نجحت محاولة تفجير القنابل وإشعال النار ثلاث مرات، ثم انكشف أمرها فى المرة الرابعة فى دار سينما «مترو» بالإسكندرية حين اشتعلت قنبلة فى جيب عميل يهودى كان يحاول وضعها فى رُكنٍ من ممرات دار السينما، ولم يكن الأمر أمر انكشاف مؤامرة، وإنما تَحَوَّلَ الموضوع كله إلى فضيحة لأنه ثَبَتَ أن «الموساد» (المخابرات العامة) قد قررت (دون توجيه سياسى من أعلى) أن تقوم بتنشيط عملها بين اليهود المصريين، فجَنَّدت عشرات منهم فى تنظيم سرى - مُسَلَّح وإرهابى.

....

....

[وكان ذلك فى الواقع فصل النهاية فى قصة جالية يهودية عاشت طويلاً وازدهرت كثيراً فى بلد عربى إسلامى. وفى الواقع فإنه بسبب هذه الفضيحة تضاءل عدد اليهود فى مصر من ٤٢٠٠٠ قبلها إلى ٣٠٠٠ بعدها، حتى جاءت حرب السويس ولم يَعُد باقياً فى مصر غير عَدَدٍ يقل عن ألف يهودى ويهودية !].

....

....

كذلك تتضمن الوثائق الإسرائيلية رُزَماً كاملة يمكن المرور عليها بسرعة، وهى تَخُص الغارة الشهيرة على غزة، وملابساتها أن مصر كانت تبدى معارضة لفكرة حلف عسكرى غربى (حلف بغداد) وتدعو الدول العربية إلى مقاطعته وإلى التمسك بميثاق الدفاع المشترك بينها، ومن هنا قررت قيادة الجيش الإسرائيلى رغبة منها فى إظهار عجز مصر - نفسها - أمام العالم العربى كله أن تقوم بغارة مسلحة على مواقع الجيش المصرى فى غزة.

وكانت هذه الغارة على غزة - قد جرت بأمر مباشر من «بن جوريون» - يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ - الذى عاد قبلها بيوم واحد من عزلته الاختيارية فى مستعمرة «سد بوكر» وتولى وزارة الدفاع، ثم رئاسة الوزارة.

كانت الغارة على غزة قد أدت إلى استشهاد سبعة وثلاثين من العسكريين المصريين ضباطاً وجنوداً، كما جرحت خمسة وأربعين، مُستهدِفة بالدرجة الأولى معسكراً للجيش المصرى.

وكانت الغارة على غزة إحراجاً شديداً للنظام الثورى فى القاهرة.

وكانت وقائعها وملابساتها هى ما دعا «جمال عبد الناصر» إلى إبلاغ الولايات المتحدة بأنه إذا لم يحصل على سلاح من الغرب يحمى به حدود الوطن وأمن الأمة و«سلامة القوات» فإنه سوف يشترى السلاح من أى مكان.

وكانت تلك بداية صفقات الأسلحة مع الاتحاد السوفيتى.

ويوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ - أعلن «جمال عبد الناصر» عن أول صفقة سلاح مع الاتحاد السوفيتى بواسطة تشيكوسلوفاكيا.



٧ الأرض

عَرَفَت الحكومة الإسرائيلية - كما يَظهَر من الوثائق - بأمر صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفيتى قبل الإعلان عنها رسمياً فى القاهرة يوم ٢٧ سبتمبر.

وراحت أجهزة إسرائيلية مُتَعَدِّدة تنصح بشن حرب وقائية "preventive war" ضد مصر.

ومن المفارقات أن وزارة الخارجية - كما يبين من الوثائق - كانت أول المطالبين، فقد كتب السفيران «أبا إيبان» و«جدعون رافائيل» مذكرة مشتركة يطلبان فيها «ضرورة قيام إسرائيل بعمل عسكرى بقصد إسقاط النظام العسكرى فى مصر الذى يتزعمه ناصر».

وتَظهَر على حافة هذه البرقية تأشيرة تقول: «الحرب الوقائية معناها منع طرف على وشك أن يشن حرباً من اختيار التوقيت الملائم واستباق محاولته بضربة أولى، وهذا ليس متوافراً فيما يحدث الآن من مصر».

لكن إشارة أخرى سريعة وعابرة فى إحدى الوثائق تشير إلى أن «إيسر هاريل» رئيس جهاز المخابرات (الموساد) مُصِرٌ على ضرورة «حرب وقائية».

ثم تجىء وثيقة إسرائيلية أخرى متأنية وواضحة، وهى مذكرة كتبها رئيس هيئة الأركان الجنرال «موشى ديان» إلى وزير الدفاع ورئيس الوزراء (بناء على طلب «بن جوريون» فيما يبدو).

وتقول مذكرة «موشى ديان» بالنص:

أ - إن الحل الكامل الضرورى لمشكلة إسرائيل الأمنية يتطلب إسقاط نظام ناصر فى مصر. وهناك أساليب عدة يمكن بها مواجهة التطورات الأخيرة (يعنى صفقة الأسلحة المصرية مع الاتحاد السوفيتى) - وإذا أريد تأجيل تنفيذ الحل الكامل فى الوقت الحاضر انتظارا لظروف معينة فإنه لا بد أن

بدأ «بن جوريون» يتحرك فعلاً نحو خيار نووى إسرائيلى راح يتحدث عنه باستمرار باعتباره «الضمان النهائى» إذا «بدا أن كل شىء يمكن أن يضيع»! وكانت أول خطوة له هى تعيين العالم الألمانى اليهودى الشهير «إرنست بيرجمان» مستشارا خاصا له للشئون العلمية! وكان قراره أن يكون المشروع النووى الإسرائيلى تحت الإشراف المباشر لرئاسة الوزراء

يكون مُستَقِرا لدى الجميع أنه يستحيل أن يكون هناك حَل نهائى دون إسقاط ناصر من السلطة، فهذا وحده ما ينزع جذور وأسباب الخطر الذى يَتَهَدَّد إسرائيل.

ب - إذا كان من المطلوب إسقاط نظام ناصر فإنه من الضرورى ولتحقيق هذه المهمة السعى إلى مواجهة حاسمة مع المصريين فى وقت قريب ... أقرب وقت ممكن، وإلا فإن التكاليف الأمنية قد تصبح عالية بالنسبة لهذا البلد (إسرائيل) لأننا إذا انتظرنا حتى يتم استيعاب صفقة الأسلحة التشيكية لمصر، فإن أى عمليات إسرائيلية ضد مصر سوف تكون غالية الثمن.

حـ - إن الحكومة (فى إسرائيل) مطالبة بأن تسعى للحصول على مَدَد إضافى كبير من الأسلحة المتطورة وذخائرها قبل أى تاريخ يُحَدَّد للمواجهة، وعلى أى حال فإنه لا يجب ربط الأمرين لزاماً ببعضهما فى التوقيت (أى المواجهة الحاسمة مع مصر - والحصول على مَدَد جديد من الأسلحة المتطورة).

د - إن هذا المفهوم يختلف عن المفهوم الذى ينادى بحرب وقائية ضد مصر لأن «الحرب الوقائية» قد تبدو حرباً عدوانية تشنها إسرائيل مباشرة، والدولة (إسرائيل) لا تستطيع أن تواجه العالم من موقف المعتدى!

هـ - إن إسرائيل لا تحتاج إلى أية خطط لاستفزاز مصر لأن حكومة مصر نفسها كفيلة - بعنادها ورفضها للحلول الوسط دائماً - بأن تقدم أسباباً للاستفزاز تستغلها إسرائيل - أى أن على إسرائيل أن تكون مُتَيَقِّظة لأن تكون المُفَجِّر "detonator" عندما تنشب أى أزمة حتى تستطيع الإمساك بها وتحويلها إلى فرصة قابلة للتفجير إذا رُؤِىَ بأفضلية ذلك، وهكذا فإن التوصية التى تتقدم بها هيئة الأركان هى التَنَبُّه بطريقة واعية لأى استفزاز مصرى، والإمساك به وتكبيره بحيث تكون الفرص مفتوحة أمام صانع القرار الإسرائيلى يَستَغِل منها ما يشاء فى التوقيت الملائم له!

وعندما قرأ «بن جوريون» مذكرة رئيس الأركان كان طلبه أن تعد رئاسة الأركان وتعرض عليه خططاً بديلة:

— خطة لاحتلال غزة وفصل القطاع عن مصر.

— خطة لاحتلال شرم الشيخ والمنطقة المحيطة بها.

— خطة لاحتلال خط العريش - رأس محمد فى سيناء.

— وخطة لاحتلال سيناء كلها.

وهنا تَظهَر فى الوثائق الإسرائيلية لأول مرة بداية شعار «الأرض مقابل السلام»، ليَتَطَوَّر فيما بعد إلى نظرية كاملة.

وقد شرح «دافيد بن جوريون» باستفاضة فى اجتماع لهيئة الأركان فكرة وسياسة (ثم نظرية) «الأرض مقابل السلام» على النحو التالى:

«عندما قامت قوات جيش الدفاع باحتلال منطقة العريش فى مصر فى الأيام الأخيرة من حرب سنة ١٩٤٨ (ديسمبر) - فقد لاحظ أن الملِك «فاروق» ووزارته وكل أركان حكمه كانوا فى حالة يرثى لها. وقد هَرْوَلوا إلى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة يطلبون تدخل حكوماتها بسرعة قبل أن تنكشف الحقيقة، وكانوا على استعداد لدفع أى ثمن حتى يتجنبوا فضيحة علنية أياماً أو أسابيع تبقى لهم فيها أرض محتلة.

العرب يفعلون ما يشاءون لكنهم يخشون من الفضيحة، وهنا فإن الضغط عليهم سهل خصوصاً مصر التى تعتبر نفسها أكبر وأهم دولة عربية. مصر لا تستطيع مواجهة العرب الآخرين وجزء من أرضها تحت الاحتلال خصوصاً إذا كانت القوة المحتلة هى إسرائيل الصغيرة التى يكرهونها ويتعاملون معها بأنفة وازدراء.

وناصر شأنه شأن فاروق، وربما أكثر من فاروق، لن يستطيع تَحَمُّل فضيحة احتلال جزء من أرض مصر بواسطة إسرائيل، بينما هو يحاول إخراج إنجلترا من بلده بعد احتلال سبعين سنة.

نحن هنا - يقول «بن جوريون» - أمام فرصة أو معادلة سياسية جيدة ونافعة.

أرض. جزء من أراضيهم كبير أو صغير حسب الظروف - يتم احتلاله بواسطة قواتنا. وإذا أرادوا أرضهم فعليهم أن يدفعوا الثمن».

ثم يضيف «بن جوريون» فى الخلاصة: «الأرض مقابل السلام» !

(ويصير التعبير مَثَلاً، ثم شعاراً، ثم سياسة ونظرية كاملة طُبِّقَت فى حينه وما زالت تُطَبَّق حتى الآن !).

....

....

[ومن المفزع أن السياسة العربية الراهنة تستعمل الآن هذا الشعار وهذه النظرية وكأن كليهما من اجتهاداتها أو اختراعاتها، غافلة عن الأصل، وناسية تجارب عديدة جرى فيها الإمساك بمواقع متعددة كبيرة وصغيرة من الأرض العربية - رهائن فى مقابل فدية - عودة أرض فى مقابل تراجع حق!].

....

....



٨ الحرب

ومع بداية سنة ١٩٥٦ فإن الوثائق الإسرائيلية تفقد خصوصيتها، ذلك أن الطريق إلى السويس بدأ، وفى طليعته مشت بريطانيا وفرنسا. وفرنسا سابقة بخطوة أو خطوتين وهى المحَرِّض والمنَظِّم لعملية السويس حسب ما تقول به الوثائق الإسرائيلية.

والشاهد أن الطريق العسكرى إلى السويس بدا ظاهراً فى وثيقة ذات أهمية خاصة تحكى تفاصيل لقاء بين «بورجيس مانورى» وزير الدفاع الفرنسى و«آبل توماس» مدير وزارة الدفاع الإسرائيلى. وفى هذا اللقاء فإن وزير الدفاع الفرنسى قام يرحب بضيفه مدير وزارة الدفاع الإسرائيلى، وبدلاً من التحية بادره - طبقا لتقريره ضمن الوثائق الإسرائيلية - قائلا: «والآن قل لى يا عزيزى توماس، ما هو الوقت الذى يلزم للجيش الإسرائيلى لكى يدخل إلى سيناء ويصل إلى قناة السويس؟ - وما هى الطلبات التى نستطيع تقديمها لكم إذا كنتم على استعداد لهذا العمل؟».

ثم راح وزير الدفاع الفرنسى يروى لضيفه الإسرائيلى أن «فرنسا لم تَعُد قادرة على تَحَمُّل انتشار النفوذ المصرى فى شمال أفريقيا، وتحريض ناصر اليومى لشعوب المغرب العربى حتى تتحرر من السيطرة الفرنسية - إضافة إلى أن ناصر فيما يبدو يفكر فى التَحَرُّش بشركة قناة السويس وهى ملكٌ لفرنسا تحرص عليه وتقاتل من أجل الاحتفاظ به !».

وكانت هذه المبادرة هى التى قادت إلى مؤتمر سرى فرنسى - إسرائيلى فى قلعة «فيرمار» (قرب باريس) يوم ٢٤ يونيو ١٩٥٦ وقد تم الاتفاق فيها على أكبر صفقة سلاح حصلت عليها إسرائيل، وكانت مُكَوَّنة من ٧٢ طائرة من طراز «ميستير»، ومائة دبابة من طراز "AMX" - والهدف المشترك هو العمل «لإسقاط ناصر ونظامه» - وكان الإغراء الأكبر الذى قدمته فرنسا لإسرائيل حتى تَقبَل دورها فى مغامرة الوصول إلى قناة السويس - رَدًا تَلَقَّته الحكومة الإسرائيلية بالإيجاب على طلب قدمه «شيمون بيريز» مُلحًا فى ختام مؤتمر «فيرمار»، ووفقاً لهذا الرد الإيجابى فإن فرنسا تَعَهَّدت بأن تعطى لإسرائيل مفاعلا نوويا من طراز «إى. إل. ٣» "E.L.3"، وأن تشارك فى توفير ١٠ أطنان من الماء الثقيل - جاءت فيما بعد من النرويج - ثم إن فرنسا سوف تساعد على تركيب المفاعل وتشغيله !

....

....

[إن الظروف مشت بعد ذلك إلى سحب عرض قدمته الدُوَل الغربية (الولايات المتحدة - بريطانيا - ومعهما البنك الدولى) يَحمل تَعَهُّدًا بالمساعدة فى تمويل السد العالى الذى أصبح حلم الوطنية المصرية. وقد جرى سحب العرض فى ظروف مهينة إذ ادعى البيان الصادر عن وزير الخارجية الأمريكى «جون فوستر دالاس» وقتها أن «المشروع أكبر من قدرة الاقتصاد المصرى على تحمله»!

وردت مصر بتاميم قناة السويس.]

....

....

وطبقاً للوثائق الإسرائيلية فقد ذهب «موشى ديان» يوم ٢٩ يوليو ١٩٥٦ - أى بعد ثلاثة أيام من تاميم القناة - إلى مقابلة مع «دافيد بن جوريون» وبحضور «شيمون بيريز» ليعرض عليه خطط جيش الدفاع للعمل الفورى ضد مصر، ويطلب توجيهه فى شأنها، وأيها أكثر ملاءمة فى الظروف المستجدة: احتلال غزة - أم احتلال شرم الشيخ - أم احتلال سيناء كلها - وفوجئ «ديان» - على حد ما تروى الوثائق الإسرائيلية - بـ«دافيد بن جوريون» يطلب إليه «أن يهدئ أعصابه لأن إسرائيل لم تَعُد فى المقدمة، ذلك أن بريطانيا وفرنسا دخلتا بشدة على خط المواجهة، وإسرائيل الآن تملك «فرصة وترف» أن تفكر على مهلها وتقرر لنفسها كيف تتصرف «لمساعدة الدولتين الكبيرتين».

ثم يلتفت «دافيد بن جوريون» إلى «بيريز» - ويقول له: «المهم أن نحصل على المفاعل النووى الذى وَعَدوك به».

وتمشى الحوادث - كما تروى الوثائق - من مؤتمر «فيرمار» إلى مؤتمر «سيفر» الشهير يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥٦، وقد شاركت فيه بريطانيا مع فرنسا ضمن مؤامرة تواطؤ على غزو مصر تقوم فيها إسرائيل بدور الاستفزاز وتخترق حدود سيناء داخلة إلى عمقها فى اتجاه قناة السويس لكى تعطى للدولتين الكبيرتين فرصة للتدخل بتوجيه إنذار إلى مصر بإخلاء منطقة القناة كلها.

....

....

[وتلك من أولها لآخرها أسرار لم يبق منها فى الخفاء شىء، حتى نصوص معاهدة «سيفر» السرية والمُوَقَّعة من الأطراف - وهى أول مرة توقع فيها الدول فى العصر الحديث مؤامرة - مؤامرة - مكتوبة فى صَك مُمَهور بإمضاء - وقد جرى نشر صورة هذه المعاهدة السرية حين عَثَرَ باحثون من هيئة الإذاعة البريطانية - أثناء إعداد فيلم تسجيلى عن حرب السويس - على النسخة الخاصة بـ«دافيد بن جوريون» من هذه المعاهدة السرية، وكان رئيس الوزراء الإسرائيلى قد طواها بأصابعه ووضعها فى جيبه واحتفظ بها فى أوراقه].

....

....

وربما أن أهم ما بقى فى الوثائق الإسرائيلية من تلك الفترة أنه بعد الغضب الأمريكى من عملية السويس لأن الحلفاء الأوروبيين وإسرائيل تصرفوا دون استشارة واشنطن وإذنها - ثم بعد الإنذار الروسى الذى وجهه «خروشوف» إلى الأطراف والذى كان له أثره - ثم بعد صمود مصرى للإنذار البريطانى - الفرنسى يوم ٢٩ أكتوبر وللحرب فى مواجهة القوى الثلاثة المعتدية من أركان المؤامرة الثلاثية - ثم بعد مُساندة هائلة من الأمة العربية ومن كل بلدان آسيا وأفريقيا - فإن إطلاق النار على جبهات القتال تَوَقَّف يوم ٦ نوفمبر ١٩٥٦، وكانت المؤامرة قد فشلت

هناك وثيقة من مكتب رئيس الوزراء «موشى شاريت» تشير إلى أن رئيس أركان الحرب «موشى ديان» اقترح عليه (فى ذلك الوقت من أواخر ١٩٥٤) خطة عمل مسلح هدفه عزل قطاع غزة عن مصر لافقادها الاعتبار وسط العرب، والتأثير على هيبتها فى آسيا وأفريقيا.

تماماً، وبات على العدوان الثلاثى أن ينسحب.

وكان «بن جوريون» - طبقاً للوثائق - مَمروراً وساخطاً يشعر أنه أدى نصيبه فى اتفاق «سيفر»، لكن الآخرين تخاذلوا ووقفوا فى منتصف الطريق، وسحبوا جيوشهم من بور سعيد، وتركوا إسرائيل وحيدة وسط سيناء.

ثم حدث أن «بورجيس مانورى» وزير الدفاع الفرنسى تولى رئاسة الوزارة بعد سقوط رئيسه السابق «جى موليه». وقام «مانورى» بدعوة «بيريز» إلى باريس ليقول له إن «فرنسا لم تغير أهدافها، وأنها ما زالت مصممة على دعم أمن إسرائيل إلى النهاية، وأنه من ذلك قرر أن المفاعل النووى الذى تقدمه فرنسا لإسرائيل يجب أن يكون بضعف طاقة الأول «حتى تستطيعوا أن تفعلوا ما تريدون».

وكان ذلك أقصى ما يحلم به «دافيد بن جوريون»، وقد أدرك (كما تُوَضِّح الوثائق) أن إسرائيل عليها الآن أن تبتعد عن الواجهة فى الشرق الأوسط، وأن تقبع بعيداً وتنكب صامتة على تشغيل مفاعلها النووى - وإنتاج قنبلتها القادرة على الحسم النهائى قبل الدقيقة الأخيرة.

وعندما أعلن الرئيس الأمريكى «دوايت أيزنهاور» مسئولية الولايات المتحدة عن المنطقة بمقتضى إعلانه الشهير يوم ٥ يناير ١٩٥٧، فقد بدا مُحققاً لـ«بن جوريون» أن انتقالا إمبراطورياً كبيراً تم فى المنطقة، وأن نجم فرنسا قد أفل، وأن الشمس البريطانية على الشرق الأوسط تدحرجت إلى حافة الغروب، وأن عصراً جديداً قد بدأ وقيادته للولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك فإن على إسرائيل أن تخلى الساحة وتنتظر شكل الحوادث المقبلة، وتقرر من مكمنها طريقة تدخلها مستفيدة من الأحوال المستَجَدَّة!



٩ الملوك

تبدو الوثائق الإسرائيلية - أو على الأقل ما هو متاح منها - هادئة وتكاد تكون فاترة على امتداد فترة السنوات من منتصف سنة ١٩٥٧ إلى منتصف سنة ١٩٦٣، والأسباب فيما تقول به الأوراق كما يلى:

١ - أنه فى تلك الفترة كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى التى تقود المعسكر الغربى كله فى التعامل مع حركة القومية العربية، وكان إحساس إسرائيل أن أى ظهور لها فى الحملات السياسية والنفسية الكبيرة المحتدمة على ساحة المنطقة يُعَقِّد المسائل ولا يُسَهِّلها.

٢ - أن إسرائيل - كما يتبدى من الوثائق - تركت قلب العالم العربى للولايات المتحدة وتفرغت هى لما أسمته «محاولة بناء طوق خارجى حول الطوق العربى المحيط بها»، وبذلك فهى تُحَوِّل العرب الذين يحاصرونها إلى عرب محاصرين. وسبيلها إلى ذلك إقامة علاقات تعاون وثيق مع دول الحافة الخارجية للعالم العربى، وبالتحديد: تركيا، وإيران، وإثيوبيا.

٣ - أن تلك الفترة شهدت نشوء واشتداد نوع من الحرب الأهلية العربية - عرباً ضد عرب - كما كان «بن جوريون» يريد ويتمنى. فالملك «سعود» أغضبه تأميم قناة السويس دون تشاور مسبق معه، وكذلك أحرجه التقارب المتسارعة خُطاه بين مصر وسوريا، ثم تَوَرَّط الملك فى محاولة لضرب الوحدة المصرية - السورية، واغتيال «جمال عبد الناصر»، وفشلت المحاولة وانكشفت ونُشِرَت وثائقها، وساءت علاقة مصر بالسعودية. ثم حدث بعد ذلك أن الوحدة السورية - المصرية نفسها انتهت بانفصال شاركت فى الترتيب له ودعمه عناصر عربية مجاورة وقريبة دَفَعَت وجَنَّدَت وحَرَّضَت حتى انفك الرباط بين دمشق والقاهرة. ثم إن النظام الهاشمى الذى سقط فى العراق بثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨، حَلَّ محله حُكم «عبد الكريم قاسم» الذى أثبت بسيطرة الشيوعيين عليه أنه أكثر عداء لحركة القومية العربية من كل العروش!

٤ - وكان أن الحرب الأهلية العربية التى دارت بالتآمر وبالمال وبالتحريض تفاقمت لكى تصبح حرباً مسلحة فى اليمن، وقد جرى استئجار آلاف المرتزقة الأجانب (إنجليز وألمان وأسبان وفرنسيين) لكى يتولوا شن حرب عصابات حديثة ضد القوات المصرية بقصد إنهاكها فى اليمن، وكان أهم الضالعين فى تنظيم حرب إنهاك الجيش المصرى فى اليمن هو اللورد «جوليان إيمرى» وكان وزيراً سابقاً للحرب فى حزب المحافظين (وزوجاً لابنة رئيس الوزراء أيامها «هارولد ماكميلان»)، وهو لم يكن يهودياً فقط، وإنما كان إلى جانب يهوديته صهيونياً مُتَعَصِّباً، وفى نفس الوقت صديقاً مقرباً من بعض الملوك العرب، وقد التقاه الملك «حسين» - باسمه ونيابة عن آخرين - (طبقاً للوثائق) عدة مرات سنة ١٩٦٥، وتَمَّت اللقاءات فى بيت «جوليان إيمرى» فى «إيتون سكوير» قلب بلجرافيا ووسط لندن، وقد وضعت تحت تصرف اللورد «إيمرى» ولجنة من أصدقائه اعتمادات مفتوحة! - وكان لإسرائيل فى العملية دورٌ مُحَدَّد، هو أن يقوم طيرانها بمهمات منتظمة لإمداد قوات المرتزقة الأجانب بالمهمات والذخائر من الجو، وذلك لأن الإمداد عن طريق الجوار اليمنى من عدن الخاضعة لوزارة المستعمرات البريطانية مكشوف - ثم إن اكتشافه (إذا جاء من سهول «تهامة» الجنوبية، أو من «جيزان» و«نجران») مُؤَدٍّ إلى عواقب سياسية مُعَقَّدة!

٥ - والظاهر من قراءة الملفات وما تحمله من إشارات - أن إسرائيل فى تلك الفترة انهمكت فى حملة من نشاط المخابرات يستهدف العُلَماء الألمان الذين استعانت مصر ببعضهم لدعم برامجها فى صنع السلاح غير التقليدى، وهكذا فإن هؤلاء العُلَماء تَعَرَّضوا لحملات من القتل والتشهير والمطاردة. وكان المشرف على هذه الحملات هو «إيسر هاريل» مدير «الموساد».

وتشير الوثائق الإسرائيلية من بعيد إلى أن خلافاً وقع بين مدير المخابرات الإسرائيلية العامة (الموساد) «إيسر هاريل» وبين مدير المخابرات العسكرية (أمان) «مائير آميت» - موضوعه كما يلى:

مدير «الموساد» يرى أن برنامج التسليح المصرى يدخل إلى مناطق أصبحت تشكل خطراً على إسرائيل. ومنطقه:

- أن مصر عَرَفت بأمر مفاعل إسرائيل النووى (الذى حصلت عليه من فرنسا) وبادَرَت تَستَعد مُدرِكَة أن إسرائيل بهذا المفاعل الكبير - سوف تسبق إلى صنع القنبلة، ولهذا فإنها (مصر) من باب التعويض وحتى تتمكن من سَدِّ الفجوة التى يصنعها السبق النووى الإسرائيلى - تُرَكِّز الآن على نوعين من السلاح:

— السلاح الكيماوى (غاز السارين - أو القنبلة النووية للفقراء كما سُمِّىَ السلاح الكيماوى وقتها).

— والسلاح الجرثومى (ابتداء من جراثيم الحُمَّى الصفراء إلى الطاعون).

(ومع أن إسرائيل لديها ما يكفى من هذين السلاحين - الكيماوى والجرثومى - فإن تَوَصُّل مصر إلى هذه الأنواع من الأسلحة، والتَوَسُّع فى إنتاجهما، له على إسرائيل مخاطر هائلة بسبب رقعتها المحصورة وتَكَدُّس الجزء الأكبر من سكانها داخل مُثَلَّث القدس / تل أبيب / حيفا.)

- وبالنظر إلى ما حققته مصر وفاجأت به العالم وإسرائيل معه فى يوليو ١٩٦٢ من إطلاق صواريخ متوسطة المدى تطول كل إسرائيل، فإن تقديرات إسرائيل كانت أن الأسلحة الكيماوية والجرثومية - وفى حال تهديد خطير بالصواريخ - يمكن أن تكون رادعاً حقيقياً يُعَطِّل استعمال القنبلة النووية الإسرائيلية التى لم يتم صنعها بعد، وإنما هى فى قلب المفاعلات سِرٌّ لن تظهر آثاره قبل سنة ١٩٦٨ أو بعدها على الأغلب.

(وتشير الوثائق الإسرائيلية إلى أن الصواريخ المصرية كانت تعانى من مشكلة لم يتيسر حلها، وهى مشكلة أجهزة التوجيه - لكن مشروع الصواريخ كله وإشراف العالم الألمانى الدكتور «بيلز» عليه - كان مرفوضاً من إسرائيل جملة وتفصيلاً - والملاحَظ (طبقاً للوثائق) أن إسرائيل هى الأخرى كانت لديها فى ذلك الوقت مشكلة فى أجهزة التوجيه).

- واستنادا إلى ذلك فإن إسرائيل - كذلك رأى مدير «الموساد» - لا بد لها أن تشن حملة «قتل» ضد العُلَماء الألمان العاملين فى مصر، وإذا أدى ذلك إلى مشاكل مع الحكومة الألمانية وخصوصاً أن بعض هذه العمليات ضد العُلَماء الألمان سوف يتم فى ألمانيا (أثناء وجودهم هناك لمهمَّات أو إجازات) - فإن حكومة إسرائيل يجب أن تكون حازمة وأن تُذَكِّر الحكومة الألمانية إذا «فَتَحَت فمها» بـ«الماضى الأسود» للدولة والشعب فى ألمانيا تجاه اليهود فى التاريخ البعيد والقريب!!

أما مدير «أمان» (المخابرات العسكرية) الجنرال «مائير آميت» فقد كان له منظورٌ آخر:

- فهو لا يقلل من خطر ما تصنعه مصر، لكنه يراه خطراً مؤجلاً لأن تحقيق المشروعات المصرية سوف يستغرق زمناً طويلاً.
- ثم هو يرى أن الولايات المتحدة تشن حرب أعصاب قوية على مصر [تَمَثَّلَت فى تحذيرات من التوسع النووى (ومن الأسلحة غير التقليدية عموماً، وبينها الأسلحة الكيماوية والجرثومية) - وكلها تحذيرات تضمنتها رسائل لم تنقطع من الرئيسين «كنيدى» و«جونسون» إلى الزعامة المصرية!].

وفى هذه الرسائل فقد تَبَدَّى أن قلق الولايات المتحدة من مشروعات الأسلحة غير التقليدية التى تحاول مصر صنعها لا يقل عن قلق إسرائيل. وفى حين أن إسرائيل لا تملك تاثيراً يُذكَر على مصر فإن الولايات المتحدة تقدر على الأقل أن تُهَدِّد عند اللزوم بوقف شحنات القمح الأمريكى إلى مصر.

- وأخيراً فإن إسرائيل فى غِنى عن إغضاب ألمانيا فى هذه الظروف، وخصوصاً أنها قد حصلت على صفقة أسلحة هائلة منها - استكمالا للتعويضات الألمانية، ساعد عليها أن «بون» ضاق صدرها بالسياسة المصرية التى اعترفت بألمانيا الشرقية، وينبغى تشجيعها وليس إحراجها!

وكان القرار على المستوى الإستراتيجى فى إسرائيل حلاً وسطاً بين الجنرالين: رئيس «الموساد» ورئيس «أمان».

أى أن الحل كان تَرْك «إيسر هاريل» يمارس نشاطه فى إرهاب العُلَماء الألمان مُتَجَنِّباً - قدر المستطاع - أن تتم عملياته فى ألمانيا، ومن ناحية أخرى واستجابة لـ«مائير آميت» فإن رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية فى

شرح «بن جوريون» باستفاضة فى إجتماع لهيئة الأركان نظرية «الأرض مقابل السلام» على النحو التالى: «عندما قامت إسرائيل باحتلال منطقة العريش فى مصر فى الأيام الأخيرة من حرب سنة ١٩٤٨ - فقد لاحظ أن الملك «فاروق» ووزارته وكل أركان حكمه كانوا فى حالة يرثى لها. وقد هرولوا إلى سفارات بريطانيا والولايات المتحدة يطلبون تدخل حكوماتها بسرعة قبل أن تنكشف الحقيقة.

إسرائيل عليهما العمل على زيادة التقارب - بكل الوسائل - مع «بون» (عاصمة ألمانيا الغربية) حتى تظل شحنات السلاح الألمانى مُتَدَفِّقة.

وكان هناك سبب آخر لإبقاء الأبواب مفتوحة فى «بون»، فقد عَرَفَت إسرائيل بأمر عقد توشك مصر على توقيعه مع شركة «سيمنس» الألمانية لشراء مفاعل نووى يوازى المفاعل الإسرائيلى فى «ديمونه» ويتفوق عليه، ويحل محل مفاعل «أنشاص» (السوفيتى الصنع) الصغير الذى أدى دوره وزيادة فى تدريب وإعداد كادر إنسانى مصرى قادر كانت إسرائيل تخشى منه حجماً وكفاءةً (وكان لديها رصد دقيق لعدد من عناصره، وخطط للخطف أو الاغتيال يجرى تحضيرها لبعضهم) - وفى طلب إبقاء الأبواب فى «بون» مفتوحة فإن إسرائيل كانت تُرَتِّب لحملة ضغط سياسى وإعلامى على ألمانيا الغربية يَتَصاعَد ويُؤدى إلى وقف عقد شركة «سيمنس» !



١٠ هاملتون

مع بداية سنة ١٩٦٣ عادت إلى الوثائق الإسرائيلية - فى حدود ما وصل إلىَ - كى تصبح نشيطة مرة أخرى ومثيرة، وقد ظهر فيها سياق وتفاصيل قصة تَتَكَشَّف مُقدماتها خطوة بعد خطوة:

١ - كان «بن جوريون» قد بدأ يشعر بالتعب وربما بنوع من الملل سببه إرهاق السنين وضغط المسئوليات، ثم «القَرَف» - على حد تعبيره - من مناورات السياسات الحزبية فى إسرائيل، وقد أحس بها مُثقَلة بالهموم و«تكاد تكون مُشَبَّعة بالسموم» (على حَدِّ قوله) !

٢ - وقد فكر «بن جوريون» أن يبتعد لكى يريح ويستريح، وكان لديه ما يدعوه إلى الاطمئنان إلى أن مشروع إسرائيل النووى يمضى فى طريقه، وأنه مهما كان جنوح وحماقات السياسة الحزبية الإسرائيلية فإن مؤسسة الأمن الإسرائيلية (جيش الدفاع مُمَثَّلاً بهيئة أركان الحرب وفروعها وأهمها التقديرات والعمليات - والمخابرات العامة («الموساد») - والمخابرات العسكرية («أمان») - ومؤسسات العلوم والتكنولوجيا الواقعة تحت إشراف رئاسة الوزراء - ومراكز البحث السياسى الإستراتيجى المعتمدة) هى المسئولة دائماً عن تحديد مطالب «الأمن» فى بلد يحتل «الأمن» فيه أكبر مساحة من اهتمامات السياسة. بمعنى أن الساسة فى هذا الحزب أو ذلك، وفى هذه الحكومة أو تلك، وفى هذا الائتلاف أو غيره، ليسوا هُم المسئولين عن تحديد مطالب «الأمن» الإسرائيلى، وإنما تحديد هذه المطالب - مُتَجَدِّدة مع تغيير الظروف - منوطه بتلك الجهات الباقية والدائمة والمسئولة وراء كل الأحزاب والوزارات والائتلافات من أى - ومن كل - ألوان الطيف على أفق الحياة السياسية فى إسرائيل (عَمَل - ليكود - شاس - ميريتز - وغيرهم جميعاً وبدون استثناء!).

٣ - وعلى نحو ما فإن «بن جوريون» راوده قبل أن يقرر الاعتزال نهائياً حلم التوصل إلى اتفاق مع مصر تَصَوَّرَ أنه إذا حَقَّقه فقد خَلَّدَ اسمه على مدى التاريخ الإسرائيلى، ليس فقط باعتباره بانى الدولة اليهودية وإنما بكونه صانع سلامها أيضاً.

وكان تَقدير «بن جوريون» فى ذلك الوقت سنة ١٩٦٣ قائماً على أساس أن «جمال عبد الناصر» ربما كان مُهَيَّأً الآن كما لم يكن من قبل للوصول إلى تفاهم من نوع ما مع إسرائيل.

وكانت أسباب «بن جوريون» كما شرحها بنفسه فى حديث بينه وبين البارون «إدموند دى روتشيلد» الذى قام بتسجيلها - على النحو التالى:

رأى «د. ب» (دافيد بن جوريون) أن «ناصر» تَعَلَّم الآن بالتجربة ما لم يكن لديه حين سمح لنفسه بمعاداة إسرائيل إلى آخر المدى.

هو الآن (فى رأى «بن جوريون») مجروح من الانفصال بين مصر وسوريا، وهذا الانفصال كان بالنسبة له مفاجأة هَزَّت هيبته. وقد ساعد «ناصر» على قيام ثورة فى العراق لكن زعيم هذه الثورة «عبد الكريم قاسم» انقلب عليه. ثم إنه - أى «ناصر» - لا يثق فى الملوك العرب، وهُم أيضاً لا يثقون به. وقد ذهب إلى مساندة الثورة فى اليمن فاصطاده الملوك العرب وأصدقاؤهم الغربيون وسط جبالها الموحشة وحجزوا ثلث جيشه هناك. وقد تَوَهَّم أن بمقدوره أن يقود حلفاً عربياً كبيراً يواجه إسرائيل، لكنه وجد نفسه فى النهاية يواجه الولايات المتحدة الأمريكية وهى قوة لا طاقة له إزاءها. ثم إن لديه فى مصر مشاكل داخلية لأن هناك من يساعد المسلمين المتعصبين حتى ينشطوا لمعاداة مشروعه داخل مصر نفسها. والواقع - فى تقدير «بن جوريون»، وطبقاً لما كتبه البارون «إدموند دى روتشيلد» وما وَرَدَ فى وثائق إسرائيلية مُتكررة - أن «ناصر» يواجه عداء أهم حركتين منظمتين فى العالم العربى: حزب البعث فى سوريا والعراق والأردن، وحزب الإخوان المسلمين فى عقر داره فى مصر.

وكان رأى «بن جوريون» كما سَجَّلَه عنه «إدموند دى روتشيلد» أن «ناصر» الآن رجل مرهق متعب، ومع أنه ما زال شاباً بعدد السنين إلا أنه أصبح أكبر من عُمره بالهُموم التى يَتَحَمَّلها من الأعداء والأصدقاء على السواء، وهذا يجعله «مُحبَطاً» frustrated - وكذلك فإنه قد يكون مستعداً لأن يصغى لـ«صوت العقل» حتى وإن جاءه هذا الصوت من اتجاه يعتبره معادياً له، ومن ثم يعرف أن «أحلامه العربية وَهْم»، وأن «إسرائيل تملك على الأقل أن تمنحه الهدوء الذى يحتاجه، وتستطيع أن تُوَفِّر عليه الموارد التى يهدرها لكى يلحق ببرامج إسرائيل العسكرية، رغم علمه أنها سبقته. وفوق ذلك كله فإن «ناصر» يمكن أن «يرى» الآن حقيقة أن إسرائيل وحدها تستطيع إصلاح علاقاته مع الأمريكان»!

....

....

[وعند هذا الموضع من الوثائق الإسرائيلية يَظهَر مشهد وَجَدتُ نفسى طرفاً حاضراً فى وقائعه ومشاركاً فى حواراته !

ففى ذلك الوقت (مارس سنة ١٩٦٣) جاء لزيارتى فى القاهرة واحد من أقرب الأصدقاء وهو السير «دنيس هاملتون» وكان وقتها رئيساً لتحرير جريدة «الصنداى تيمس» على عهد ملكية اللورد «روى طومسون» لها.

كان «دنيس» أيامها أهم رؤساء تحرير الصحف البريطانية، فقد استطاع صنع معجزة فى «الصنداى تيمس» قفزت بها إلى صَفٍّ وحدها فى مقدمة الصحافة البريطانية الجادة حتى استحق بالفعل وصف The Innovator أى «المجَدِّد» (وهو الوصف الذى أطلقه عليه سِجِلُّ تاريخ «التيمس» فى القرن العشرين).

وكان «دنيس» شخصية إنسانية بديعة إلى جانب تَميزه المهنى. ثم إنه كان يملك وراءه تجربة ضخمة - وغالية - بدأت معه منذ شارك فى الحرب العالمية كضابط مقاتل التحق بقيادة الماريشال «مونتجمرى» أثناء غزو الحلفاء لأوروبا وِفق عملية «أوفرلورد» وبهدف تحريرها من سيطرة «هتلر». وكان («دنيس») واحداً من أول النازلين على شواطئ «نورماندى»، وأصابته هناك شظية قنبلة استقرت فى رأسه وبقيت معه حتى آخر حياته، وكانت تسبب له مرات نوبات من الصُداع العنيف.

وبرغم صُداعه المزمن كان «دنيس» رجلاً سعيداً فى حياته، محظوظاً بزَوجةٍ ممتازة وأربعة أبناء ناجحين كلٌّ فى مهنته.

وكانت تلك عوامل ساعدت الرجل ليس فقط على تفوقه المهنى وإنما أيضاً على مكانة سياسية واجتماعية مرموقة وغير مُختلف عليها، بالذات لأنه لم يكن صحفياً «يكتب» فيرضى عنه بعض الناس ويغضب عليه بعضهم الآخر، وإنما كان صحفياً «يُدير»، وقد تمكن من صنع النجوم الذين يكتبون حوله وأولهم وقتها - وحتى اليوم - «وليام ريس موج» رئيس تحرير «التيمس» فيما بعد، و«هارولد إيفانز» الذى خَلَف «دنيس هاملتون» على رئاسة تحرير «الصنداى تيمس» نفسها، غير نجوم كبار مثل «فرانك جايلز» و«سيمون جينكينز»، وغيرهم ! - وهكذا فإن «دنيس» كان فى موضع يسمح له بالتأثير على الذين يكتبون، لكنه نفسه لا يكتب، ولذلك فهو لا يُلام على شىء، بل إنه المسئول الذى يُرجى ويُشتَكى إليه من هؤلاء الذين يكتبون إذا جَمَحوا أو لم يَجمَحوا!

وكذلك كانت صلات «دنيس هاملتون» طيبة مع كل القوى فى العاصمة البريطانية - وفى غيرها من العواصم بتأثير نفوذ «الصنداى تيمس» - وكانت الأبواب مفتوحة له من قصر «باكنجهام» إلى مقر رئاسة الوزارة فى «داوننج ستريت»، ومن البيت الأبيض فى واشنطن إلى الكرملين فى موسكو!

وكان ذلك الرجل - «دنيس هاملتون» - هو الرجل الذى جاء لزيارتى فى القاهرة فى مارس سنة ١٩٦٣ - وظهر بعدها بالحجم الكبير فى الوثائق الإسرائيلية، وسَحَبَنى معه إليها - دون أن أدرى - حتى وَصلَت هذه الوثائق الإسرائيلية إلى يدى ومَشَت عيناى على سطورها !]

....

....



١١ السر

....

....

وصل «دنيس هاملتون» إلى مصر (يوم ١٢ مارس ١٩٦٣) ومعه زوجته «أوليف» ضيوفاً علينا، وبَقِيا معنا فى القاهرة أياماً ثم أبدى «دنيس» رغبته فى زيارة الأقصر وأسوان بظَن أنه هناك قادر على أن «ينام فى الشمس» أياماً بغير أن يقاطعه أحد أو يستولى عليه خبر !

ولم نستطع أن نذهب معهما لشواغل ألحَّت. وبعد قرابة الأسبوع عادا، وطلب «دنيس» مقابلة «جمال عبد الناصر». ولم يدهشنى طلبه رغم أنه جاء إلى مصر فى زيارة شخصية، وتقديرى أن «دنيس» حتى وإن لم يكن صحفياً كاتباً فإنه كصحفى «يُدير» يحتاج دائماً أن يكون صحفياً «عارفاً»، كما يحتاج إلى صلة بصُنَّاع الأخبار فى العالم، وكانت القاهرة فى تلك الأيام مصنعاً من أهم مصانع الأخبار فى الشرق والغرب على السواء.

[وهكذا أخَذتُ «دنيس هاملتون» وذهبنا معاً إلى موعد

أخذت «دنيس هاملتون» وذهبنا معا إلى موعد مع «جمال عبد الناصر» فى بيته، وهناك دار حوار عام عن الأوضاع العامة فى المنطقة وفى العالم لم يخرج عن المألوف فى تلك الأيام، إلى درجة أننى لم أسجل من وقائعه فيما دونت عنه أكثر من سبعة سطور. لكن الوثائق الإسرائيلية راحت تقول عن هذا الاجتماع شيئا آخر بدا لى مُستوْجِبا للدهشة

مع «جمال عبد الناصر» فى بيته. وهناك دار حوار عام عن الأوضاع العامة فى المنطقة وفى العالم لم يخرج عن المألوف فى تلك الأيام. إلى درجة أننى لم أسجل من وقائعه فيما دَوّنتُ عنه أكثر من سبعة سطور. لكن الوثائق الإسرائيلية - أوراقا بعد أوراق - راحت تقول عن هذا الاجتماع شيئاً آخر بدا لى مُستَوْجِباً للدهشة حين أتيح لى الاطلاع عليه].

....

....

ويكتب «بن جوريون» فى يومياته ما يلى:

«اتصل بى إدموند دى روتشيلد من لندن يقول إن دنيس هاملتون (صديق هيكل المقَرَّب من ناصر) - قابل الرئيس المصرى وسمع منه قوله إنه «إذا التقى هو وأنا فى غرفة واحدة لعدة ساعات فإنه واثق من أن كل المشاكل القائمة بين مصر وإسرائيل سوف تنتهى إلى حل يرضى الطرفين».

....

....

[ولم يكن ذلك ما حدث.

كان ما حدث، وقد حدث أمامى وحدث بمشاركتى، هو أن مقابلة «دنيس هاملتون» لـ«جمال عبد الناصر» جرت - كما أسلفت - فى الإطار العادى المألوف من قضايا تلك الأيام (تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى - العلاقات بين مصر وسوريا والعراق مع كلام زاد أيامها حول مشروع وحدة فيدرالية مُقتَرَحة بين الثلاثة - ثم عن اليمن وعدن والخليج).

وغداة المقابلة سافر «دنيس» و«أوليف» عائدين إلى لندن.

ومَرَّت خمسة أيام بالضبط وليس أكثر وفوجئت بتليفون من «دنيس هاملتون» يقول لى من لندن إنه «قادم إلى القاهرة مساء غد ويريد مقابلتى فور وصوله»، وقلت له إن سيارتى سوف تكون بالمطار فى انتظاره لتحمله إلى «الأهرام» (مكتبى) مباشرة.

ويدخل «دنيس» إلى مكتبى فيسألنى: «هل المكتب مُؤَمَّن من ناحية الاختراق بالتَّسَمُّع؟».

وأرُدُّ عليه بأن «ذلك ما أظنه». وأضيف «أننى لا أستطيع أن أقطع ولا غيرى فى أى مكان فى العالم بأنه ليس هناك من ينصت إليه؟».

ويقول «دنيس»: «إذن نخرج إلى الشارع، فهو «أفضل مكان مأمون».

واقترحت أن نذهب إلى بيتى، ولم ير «دنيس» أن بيتى أكثر حصانة من مكتبى، وهكذا رحنا - حوالى منتصف الليل - نتمشى على رصيف كوبرى قصر النيل جيئة وذهاباً لمدة أربعين دقيقة، وكان «دنيس» يروى لى قصة أشبه ما تكون بالقصص البوليسية.

سألنى: «هل تعرف أين كنت أول أمس قبل أن أطلبك بالتليفون من لندن؟

وأجبتُ بالنفى.

قال: «كنت فى إسرائيل»!

وأبديت دهشتى.

وعاد «دنيس» يؤكد: «نعم كنت فى إسرائيل مخطوفاً تقريباً. وهناك جلست ساعات مع رئيس الوزراء «دافيد بن جوريون» الذى سألنى عن مقابلتى معك للرئيس «ناصر»، وسألنى عنه، وطلب إلىّ أن أنقل رسالة منه إلى الرئيس !».

ورَجَوتُ «دنيس» أن يتمهل وأن يعود إلى القصة بالتفصيل.

وكانت روايته أنه «التقى فى اليوم التالى لعودته من القاهرة إلى لندن على غداء بالبارون «إدموند دى روتشيلد»، وعَرَفَ منه «روتشيلد» أنه كان قبل يومين مع «جمال عبد الناصر»، وقد وجه إليه «روتشيلد» عدة أسئلة «عادية» و«طبيعية» عن المقابلة وما دار فيها، ثم عن شخصية «ناصر» كما رآها، ثم صداقة «ناصر» بى ومدى عمقها».

وفى مساء ذلك اليوم دُهش «دنيس هاملتون» حين تلقى اتصالا من البارون «روتشيلد» يرجوه فيه أن ينتظره فى بيته على شراب for a drink فى الساعة السابعة مساء.

وفى الموعد المحدد جاء البارون «روتشيلد» ولم يجئ وحده وإنما دخل ومعه السفير الإسرائيلى فى لندن والملحق العسكرى بسفارته.

وقال «دنيس» إنه لدقائق لم يكن قادراً على استيعاب المشهد، ولكن «روتشيلد» شَرَحَ له أنه كان يتحدث تليفونياً مع رئيس الوزراء الإسرائيلى ثم عرض استطرادا إلى ما سمعه من «دنيس» عن لقائه مع «جمال عبد الناصر»، وإذا «دافيد بن جوريون» يهتم ويسأل عما دار، وما هى التفاصيل، و«هل كان هيكل وحده مع هاملتون أم كان هناك غيره؟.

وأبدى «روتشيلد» أنه «هو الآخر» استغرب اهتمام «بن جوريون» إلى هذه الدرجة بلقاء «هاملتون» مع «ناصر»، وأنه عاد بعد أقل من ربع ساعة يطلبه على التليفون ويسأله:

- «هل يستطيع أن يرسل إليه دنيس هاملتون فى تل أبيب، فهو يريد أن يلقاه، وأن يلقاه على الفور وكل شىء ما زال «طازجاً»!

وقال له «روتشيلد»: إنه «لا يستطيع أن يضع «دنيس» فى طائرة ويشحنه إلى إسرائيل، ولا يستطيع أن يوجه إليه دعوة باسم رئيس وزرائها». ورَدَّ عليه «بن جوريون» بأنه «سوف يبعث بتعليمات إلى سفير إسرائيل فى لندن بأن يذهب إلى «دنيس هاملتون» لإبلاغه بطلب رئيس الوزراء الإسرائيلى أن يلقاه فوراً، ثم إن طائرة خاصة سوف تجىء إلى لندن فى الصباح الباكر غداً لتحمل «دنيس» إلى إسرائيل».

وقال لى «دنيس هاملتون» وهو وأنا نتمشى على رصيف كوبرى قصر النيل - حول منتصف الليل - إنه حاول أن يعتذر لـ«روتشيلد» وللسفير الإسرائيلى، وكان موجب اعتذاره الرسمى أن «وراءه غداً اجتماعا هاماً مع نقابة عمال الطباعة فى جريدة «الصنداى تيمس»، وهذه النقابة تهدد بالإضراب إذا لم يستجب لمطالبها». ولكن «روتشيلد» والسفير الإسرائيلى وملحقه العسكرى راحوا ثلاثتهم يقنعون رئيس تحرير «الصنداى تيمس» بأن «سلام الشرق الأوسط وسلام العالم» أهم من السلام بين إدارة «الصنداى تيمس» ونقابة عمال الطباعة فيها!

واستطرد «دنيس» ونحن ما زلنا على كوبرى قصر النيل يقول إنه «توجه إلى مطار «هيثرو» صباحاً فى رفقة الملحق العسكرى الإسرائيلى فى لندن، وعند الظهر كان جالساً على الغداء فى بيت رئيس وزراء إسرائيل «دافيد بن جوريون».

وكان ملخص ما قاله له «بن جوريون» أنه «يعتقد أن الوقت مهيأ للبدء فى صنع السلام بين مصر وإسرائيل»، وشرح له الأسباب [وأولها ما يظنه عن مزاج «جمال عبد الناصر» المفعم بالإحباط، وما يعرفه (بن جوريون) من خيبة أمله فى كل العرب، والمخاطر التى تهدده (ناصر) من ضغوط من الملوك ومن البعثيين ومن المسلمين المتعصبين، واستعداده (ناصر) نتيجة لذلك أن يركز جهوده كلها على الداخل فى مصر، وأن ذلك يجعله مفتوحاً لتقارب مع إسرائيل !!].

ثم قال «دنيس» (ونحن على كوبرى قصر النيل ما زلنا) إن «بن جوريون» طلب منه أن يتوجه إلى القاهرة وأن يتحدث معى، وأن يقابل «جمال عبد الناصر» فى حضورى ويبلغه أن رئيس وزراء إسرائيل لديه ما يريد قوله له، وكله جديد يختلف عما سمعه «منا فى الماضى»، وفيه كثير يهمه «كزعيم ووطنى مصرى» أن يسمعه، وسوف يكتشف (ناصر) بنفسه «إذا التقينا سِرّا فى أى مكان يختاره، حتى عند «صديقه تيتو» - أن أمامه فرصة لا تتناقض مع طموحاته لمصر، بل العكس لعلها تحقق لمصر أكثر مما يحلم به»!

واستطرد «دنيس هاملتون» (على كوبرى قصر النيل بَعد منتصف الليل) أن «بن جوريون» أراده أن يركب الطائرة من تل أبيب إلى القاهرة رأساً، لكنه خشى أن يطلق المصريون عليها النار إذا لم يكن لديهم علم بمهمتها، وإذا وقع إخطارهم مسبقاً بمجىء الطائرة فقد يشعرون أن الموضوع مُناوَرة مفتوحة، وأن القصد منه هو الإحراج - ولهذا فإنه (بن جوريون) يرجوه (دنيس) مهما كان فى ذلك إرهاق له أن يعود إليه فى المساء ويكون قد فكّر فى الأمر، ثم يعود بالطائرة الخاصة غداً إلى لندن. ومن هناك ودون انتظار يَتَوَجَّه إلى القاهرة عائداً إليها فى «مُهِمَّة سلام». وقد كان. وهكذا عاد «دنيس» إلى القاهرة وقد تَغَيَّرَت صفَتُه مَن صديق وصحفى، إلى وسيط سياسى ومبعوث من رئيس وزراء إسرائيل !

وسألنى «دنيس» فى النهاية: «ما رأيك؟» ولم ينتظر ليسمع جوابى، وإنما استطرد قائلاً: «إن بن جوريون أبدى له وهو يُوَدِّعه مساء فى بيته بعد لقائه الثانى معه فى يوم واحد أنه بعث برسالة فى نفس المعنى إلى «ناصر» عن طريق «تيتو»، لكنه يظن أن رسالته عن طريق «دنيس» وفى حضورى (صديق «ناصر» المقَرَّب) سوف تصل مباشرة، وجهاً لوجه، وبدون مراسم!»].

....

....

وفى الوثائق الإسرائيلية وفى يومياته يكتب «بن جوريون»: «لسوء الحظ أن دنيس هاملتون عاد من القاهرة إلى لندن، ثم جاء من لندن ومعه روتشيلد ليقول إن عبد الناصر رفض ما عرضه عليه، وأن كل محاولاته (محاولات «دنيس») لمناقشة تفاصيل رسالتى لم تفلح، وأن ناصر كرر عليه الحجج المألوفة».

ويضيف «بن جوريون»: «خسارة أن تضيع هذه الفرصة الأخيرة. من الواضح أن ناصر غير مستعد لأى اتفاق رغم أنه الأقدر عليه ورغم أن الظروف المحيطة به الآن تجعل اتفاقه معنا أفضل الخيارات المتاحة له».

....

....

[والغريب أن الوثائق الإسرائيلية لا تشرح كيف فهم «بن جوريون» من «روتشيلد» ما فهم - أو ربما كيف فهم «روتشيلد» من «دنيس هاملتون» ما نَقَلَه لرئيس الوزراء الإسرائيلى؟].

....

....

على أنه لم تمض غير أيام على هذه القصة كلها إلا وكان «بن جوريون» قد خرج من رئاسة الوزارة ساخطاً مرة أخرى على كل الناس!

وانتقلت المسئولية منه إلى «ليفى أشكول».

وكان «ليفى أشكول» مُختَلفاً عن «بن جوريون». لم يكن دوره فى الحركة الصهيونية بناء دولة ولا صياغة نظرية أمن، وإنما كانت مسئوليته فى الوكالة اليهودية وبعد قيام الدولة فى مجال توفير وإدارة موارد مياه لازمة لإسرائيل، سواء للمستعمرات الزراعية أو للمدن الصناعية الجديدة.

ومع ذلك ففى عهد رئاسة «أشكول» للوزارة تَعَقَّدَت الأمور ووَصلَت إلى الحرب فى يونيو سنة ١٩٦٧.

وكانت مصادر المياه المطلوبة لإسرائيل هى المدخل إلى شلالات الدم التى سالت فى ميادين القتال تلك السنة ... وعلى نفس المستوى كانت قضية القنبلة النووية الإسرائيلية !

ويَتَبَدّى جليا فى الوثائق الإسرائيلية أن «الماء» و«القنبلة» معاً هما العنصران الرئيسيان فى تحديد موعد الحرب سنة ١٩٦٧.

....

....

وتواصل الوثائق الإسرائيلية عرض خفاياها، كاشفة من الضفة الأخرى مَشهَداً مختلفاً - وموقع نظر مغاير يستحق الذهاب إليه والوقوف عنده بعض الوقت دون أن يكون الوقوف زماناً ضائعاً !

اللغز المحير لسقوط

إيلين سكاري

في السابع عشر من يوليو ١٩٩٦ أقلعت طائرة «تي دبليو إيه» الرحلة رقم ٨٠٠ من مطار جون كنيدي الدولي: وبعد اثنتي عشرة دقيقة ونصف سقطت في المحيط جنوبي لونج آيلاند. وفي الثاني من سبتمبر ١٩٩٨ أقلعت طائرة «سويس اير» الرحلة رقم ١١١ من مطار جون كنيدي: وبعد أربع عشرة دقيقة فقدت الاتصال اللاسلكي بالمراقبين الجويين: وظلت الطائرة محلقة في اتجاه الشمال. وفي النهاية عاد الاتصال وأبلغت عن وجود دخان في كابينة القيادة بينما كانت تقترب من نوفا سكوتيا، ثم هوت في المحيط الأطلنطي. وفي الحادي والثلاثين من أكتوبر ١٩٩٩ أقلعت طائرة مصر للطيران الرحلة ٩٩٠ من مطار جون كنيدي: وطارت الطائرة شرقاً لمدة إحدى وثلاثين دقيقة، ثم هوت فجأة في المحيط شرقي لونج آيلاند جنوبي ناموكيت. ولقي الستمائة وستة وسبعين شخصاً الذين كانوا على متن الطائرات الثلاث حتفهم. وخلال تلك السنوات الثلاثة وثلاثة أشهر لم يحدث أن سقطت طائرة ركاب كبيرة أقلعت من الولايات المتحدة.

إن وقوع تلك الحوادث في منطقة واحدة يوحي بأن المنطقة ذاتها ـ أي البيئة الموجودة خارج الطائرة ـ ينبغي وضعها في كل الحالات ضمن الأسباب التي يتم التحقيق فيها. وقد قطعت الدراسات المهمة التي يقوم بها مركز «جوينت سبيكترم» ووكالة «ناسا» لأبحاث الطيران والفضاء شوطاً طويلاً نحو إعادة بناء البيئة الكهرومغناطيسية للحادث الأول: إلا أن العمل بخصوص رحلة «تي دبليو إيه» رقم ٨٠٠ لم يكتمل بعد، ولا يكاد يكون قد بدأ في حالتي رحلتي «سويس اير» رقم ١١١ ومصر للطيران رقم ٩٩٠.

ولا تبدو الحاجة ملحة لإعادة بناء الظروف المحيطة، بسبب وقوع الحوادث الثلاث في منطقة واحدة فحسب، وإنما ترجع أيضًا إلى عدم وجود أي سبب داخلي محدد: فيعتقد أن رحلة «تي دبليو إيه» رقم ٨٠٠ سقطت نتيجة لانفجار خزان وقود مركزي، غير أنه لم يعثر على مصدر الاحتراق الخاص بذلك الانفجار. (أثناء جلسة الاستماع الخاصة بهذا الحادث في شهر أغسطس، قسم المجلس القومي لسلامة النقل مصادر الاحتراق المحتملة إلى «محتملة» و«غير محتملة» وحدد «ماساً» كهربياً على أنه الأقل من حيث عدم الاحتمال؛ إلا أن المحققين اعترفوا مراراً بأنهم لم يعثروا على دليل محدد على ذلك الماس الكهربي أو حتى على موضع محتمل له).

ويعتقد كل من مجلس سلامة النقل الكندي وشركة «بوينج» أن سقوط رحلة «سويس اير» رقم ١١١ أصله كهربي، إلا أنه ما من نظام على الطائرة، أو قطاع من قطاعات الأسلاك، أو حتى شريحة من الطائرة حكم عليها حتى وقتنا هذا بأنها هي السبب. وطبقاً لما ذكره المجلس القومي لسلامة النقل في الولايات المتحدة، فإن رحلة مصر للطيران رقم ٩٩٠ لم يصبها عطب ميكانيكي يمكن إرجاع هبوطها المفاجئ في اتجاه المحيط إليه: وقد ذكر مجلس السلامة وكذلك الصحافة مراراً عدم وجود أي سبب ميكانيكي كدليل على أنه لا بد أن أحد الطيارين اختار عمداً أن ينهي حياته وحياة كل المسافرين معه (وهي النقطة التي سوف أعود إليها).

اهتم الجزء الأول من هذا المقال بالملامح المشتركة بين رحلة «تي دبليو إيه» رقم ٨٠٠ ورحلة «سويس اير» رقم ,١١١ والذي نشرته مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس في ٢١ سبتمبر الماضي، ويبدو أن كلاً منهما أصابتها كارثة كهربية، إلا أن سبب كل حادث قد ثبت حتى الآن انه يصعب تحديده. كما أن كلاً منهما أقلعت من مطار جون كنيدي؛ واتجهت الطائرتان شرقاً على امتداد لونج آيلاند على مسار «بيت» (الذي يجعل الطائرات تتحاشى منطقة من فضاء المحيط تسمى W-105 وW-106، عندما تكون محجوزة للتدريبات العسكرية)؛ وأقلعت الطائرتان في يوم أربعاء الساعة ٨,١٩ مساء؛ وواجهت كل من الطائرتين أولى صعوباتها بعد اثنتي عشرة إلى أربع عشرة دقيقة من الطيران (صعوبة قاتلة بالنسبة لـ: تي دبليو إيه ٨٠٠، وصعوبة خاصة باللاسلكي تتعلق بجاذبية غير مفهومة حتى الآن بالنسبة لرحلة «سويس اير» ١١١) مع أن مجلس سلامة النقل الكندي لم يحدد انقطاع الاتصال اللاسلكي على أنه مركز اهتمام أكثر أهمية من أي جزء آخر في الطائرة، فهو بالتأكيد من بين مواضع اهتمامهم. وفي ٩ مارس ١٩٩٩ أرسل مجلس السلامة خطاب «توصيات سلامة جوية مؤقتة» إلى ديفيد مايكل وزير النقل الكندي يحث على مد زمن مسجلات الصوت في كابينة القيادة من طوله الحالي، وهو نصف ساعة، إلى فترة أطول من ذلك بكثير. وذكر المجلس أن هناك حاجة إلى شريط مدته أطول من الثلاثين دقيقة التي انقطع فيها الاتصال اللاسلكي في رحلة «سويس اير» رقم ١١١: ذلك أن وجود تسجيلات صوتية ممتدة كان سيسجل «محادثات كابينة القيادة، أو ضوضاء الكابينة، أو محاولات الإرسال التي قام بها طاقم الطائرة» وهو ما كان سيساعد مجلس السلامة مساعدة كبيرة في تقييم الانقطاع. ومع أن جملتين فقط خصصتا للانقطاع الغامض، فإن كون المطالبة بأشرطة ممتدة تقوم على هذا المثال الملموس الوحيد باهميتها المحتملة؛ كما أن كلاً من الرحلتين طارت في ليلة كانت الغواصات وطائرات P3 التابعة للبحرية تعمل قبالة الساحل.

أقلعت رحلة مصر للطيران رقم ٩٩٠، شأنها شأن «تي دبليو إيه» ٨٠٠ و«سويس اير» ١١١، من مطار جون كنيدي وسقطت أثناء الجزء الأول من رحلتها عبر الأطلنطي. وكما حدث لهما، عانت من سلسلة من الأحداث التي تتوافق ـ كما سنرى بعد قليل ـ مع أي حادث كهربي. ولكن لا بد أن نذكر من البداية أن مصر للطيران ٩٩٠ لا تشترك في كل الملامح الخارجية التي تتداخل في حادثي الطائرتين الأخريين. فقد أقلعت في منتصف الليل، في الساعة ١,١٩ صباح يوم الأحد، وليس الساعة ١,١٩ مساء يوم الأربعاء. كما أنها لم تسر، كما سارت الطائرتان الأخريان، في مسار «بيت» الذي يضم ساحل لونج آيلاند لكي تتحاشى الحافة الشمالية من منطقتي التدريبات العسكرية W-105 و W-106. (هاتان هما المنطقتان اللتان المحددتان على خرائط الطيران كما يلي: «تحذير: مناطق عمليات الدفاع القومي، عمليات خطرة على طيران الطائرات داخل هاتين المنطقتين».)

وبدلاً من ذلك فإن مصر للطيران ٩٩٠ وكما تبين الخريطة، دخلت من خلال منطقة التدريب العسكري W-106 ثم تعبرها إلى منطقة التدريب W-105، حيث طارت لمسافة ١٢٠ ميلاً تقريباً قبل أن تسقط سقوطاً لا صعود بعده في اتجاه البحر. ويقع موضع سقوطها بعمق داخل منطقة التدريب العسكري W-105.

سقطت طائرة مصر للطيران رقم ٩٩٠ في نفس المنطقة التي كانت قد سقطت فيها طائرتي «تي دبليو إيه ٨٨٠، وسويس اير ١١١» وبعد وقت قصير من اقلاع كل منهما من مطار جون كنيدي. إن وقوع تلك الحوادث في منطقة واحدة يوحي بأن المنطقة ذاتها ـ أي البيئة الموجودة خارج الطائرة ـ ينبغي وضعها في كل الحالات ضمن الأسباب التي يتم التحقيق فيها

إن مسألة الأهداف تصبح الطائرات المدنية هدفاً خاصاً للمراقبة وفي ظل أي ظروف وفي أي فترة زمنية موضوع لا يناقش على نطاق واسع في الولايات المتحدة، بينما هو موضوع تنبغي مناقشته. هل ينبغي أن يتورط المدنيون في التدريبات العسكرية دون علمهم أو تصريحهم بذلك؟ وبينما يكون من المستحيل بالنسبة للمواطنين أن يعطوا تصريحاتهم على أساس كل رحلة على حدة، فمن المؤكد أن القضية العامة يمكن مناقشتها والجدل بشأنها

وعندما غادرت مصر للطيران ٩٩٠ مطار جون كنيدى، كان قد حدد لها مبدئياً مسار كان سيدور بها حول منطقة التدريب العسكرى W-105، وهو مسار وُصف بأنه Ship Linnd Lacks Dovey

هذه الكلمات وهى تعبير عن التقاطعات التى تمر بها الطائرة استخدمها مراقب جوى نيويورك فى قطاع رادار كنيدى عند الحديث إلى مراقب جوى نيويورك فى قطاع مانتا، الذى كانت مصر للطيران ٩٩٠ تتجه إليه. وتشير الأسماء الأربع إلى تسلسل نقاط التقاطع فى المحيط؛ وكما تبين الخريطة، فإنه لو كانت مصر للطيران ٩٩٠ قد طارت إلى Shippثم إلى Linnd ثم إلى Lacks ثم إلى Dovey ما كانت لتدخل المنطقة العسكرية .W-105. لا حاجة إلى القول بأن مصر للطيران ٩٩٠ ربما كانت ستسقط حتى وإن اتبعت مساراً مختلفاً. إلا أن هذا المقال معنى ببحث إمكانية أن البيئة الموجودة فيها الطائرة – ومن ثم المسار – كان لها دور مهم فى الحادث. وعادة عندما يستخدم المصطلح W-105فإنه يشير، كما هو الحال فى هذا المقال، إلى منطقة تتكون من أربعة قطاعات، هى (١٠٥A, B, C, D انظر الخريطة). والمنطقتان W-105Bو W-106هى الأقل استخداماً فى التدريبات العسكرية. إلا أنه من المعتاد أنه ما إن تصبح الطائرة فى الجو حتى يقدم لها المراقبون الجويون على طول طريقها مساراً مباشراً، إذا كان الطريق الأقصر خالياً من المرور، أو إذا كانت المنطقة، فى حالة مناطق التحذير، قد سلمها الجيش لإدارة الطيران الفيدرالية. وبحلول الساعة ١,٣٥ صباحاً كانت مصر للطيران ٩٩٠ قد مرت من قطاعى رادار نيويورك، كنيدى ومانتا، ووصلت إلى القطاع الثالث، الأطلنطى، الذى يراقب القطاع الأول من الرحلة عبر الأطلنطى. وقبل الساعة ١,٣٦ بثوان سمحت مراقبة الأطلنطى لمصر للطيران ٩٩٠ بالطيران مباشرة إلى نقطة Dovey فى المحيط، دون أن تمر أولاً على Linnd و Lacks:

مراقبة الأطلنطى: مصر للطيران ٩٩٠، ارتفع وابق على مستوى الطيران ثلاثة ثلاثة صفر 33,000. Dovey المباشر خال.

مصر للطيران ٩٩٠: ثلاثة ثلاثة صفر، Dovey المباشر، مصر للطيران٩٩٠.

وعلى الخريطة، فإن هذه هى اللحظة التى تستدير فيها الطائرة المتجهة جنوباً نحو Linnd، فجاة شرقاً وتبدأ فى الطيران عبر المنطقة W-105.

الطائرة المصرية

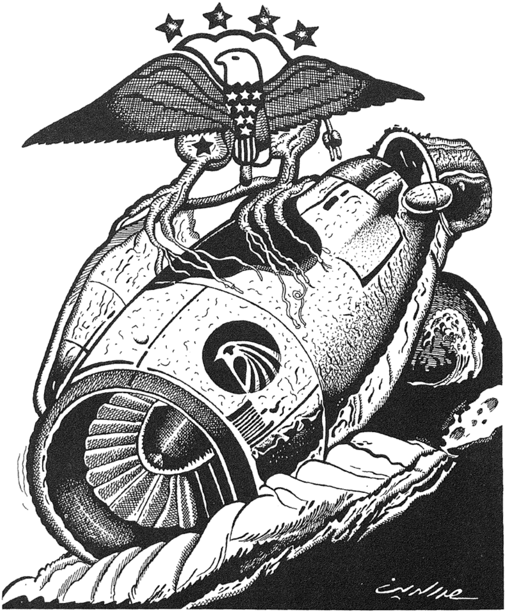
تقرير فني دولي
يطرح احتمالات
لفك غموضه

يبدو لكثير من الناس ـ ومن بينهم كاتبة المقال بكل تاكيد ـ أنه من البديهى عندما تسقط طائرة مدنية ينبغى أن يتم بسرعة تحديد عدد وطبيعة كل الهوائيات الكهرومغناطيسية فى منطقة الحادث. ويبدو من البديهى كذلك أن يتخذ هذا الإجراء بطريقة أتوماتيكية، تماماً مثل الكثير غيرها من أشكال الأدلة ـ فالجمع الفورى يفيد عند وقوع حادث. (فى القسم الأول من هذا المقال، أوصى المدير السابق لمركز جوينت سبكترم بعمل ذلك). وعندما تسقط طائرة مدنية داخل منطقة عسكرية أو بالقرب منها، فإنه من الواضح أن يكون هناك سبب أقوى لضمان أن يتم مثل هذا التحديد الشامل لمصادر الترددات.

وليست هناك حاجة لأثر محدد لوجود مشكلة فى الصيانة، أو مشكلة فى الوقود، أو مشكلة فى كابينة العفش لحث المجلس القومى لسلامة النقل على جمع سجلات الصيانة، وعينات الوقود، ومانيفستو الشحن؛ إن جمع هذه المادة أتوماتيكياً يبدأ فى نفس اليوم الذى تسقط فيه طائرة ركاب. ولا ينبغى كذلك أن يتطلب أدلة أو محاجات خاصة لتحديد مواقع الهوائيات فى البيئة الخارجية.

وحقيقة أنه سُمح لمصر للطيران ٩٩٠ بالطيران داخل المنطقتين W-106و W-105 ينبغى أن يكون معناها أنه لم تكن هناك تدريبات عسكرية تجرى فى هاتين المنطقتين؛ وأتاح المجلس القومى لسلامة النقل للجمهور الاطلاع على السجلات اليومية لإدارة الطيران الفيدرالية التى تؤكد أن مناطق التدريب العسكرى كانت مفتوحة للرحلات الجوية المدنية خلال الساعة (أو ما اتضح فى حالة W-105أنها ربع الساعة) التى كانت تطير فيها مصر للطيران ٩٩٠ هناك. كما أتاح المجلس القومى لسلامة النقل للجمهور الاطلاع على السجل الوارد من مراقبة منطقة الأسطول ومنشاة المراقبة فى فيرجينيا كيبس (عادة ما يكون اختصار اسم هذه المنشاة هو FACFACS VaCapes)، إلا أنها تشير إلى نفسها فى وثائقها الداخلية واتصالاتها مع إدارة الطيران الفيدرالية بـ (GIANT KILLER) أى القاتل العملاق.

وتبين سجلات هذه المنشاة فقط تدريباً واحداً فقط كان مقرراً أن يتم فى المنطقة W-105يوم ٣١ أكتوبر، وهو فى وقت متاخر كثيراً عن رحلة الساعة ١,١٩ صباحاً. إلا أن غياب التدريبات العسكرية المقررة لا يضمن عدم وجود طائرات عسكرية فى الممرات المحيطة بمناطق التحذير أو داخلها. الواقع أن الطائرة الوحيدة الأخرى بخلاف مصر للطيران ٩٩٠ التى اتصلت بها مراقبة الأطلنطى الجوى خلال الفترة السابقة للحادث هى طائرة تابعة للأسطول تحمل علامة Arise 57

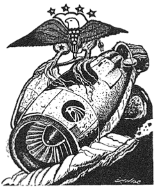


الطائرة المصرية

كانت تحلق في ممر بين مناطق التحذير.(وفي اللحظة التي تصل فيها Arise 57 يعود المراقب الذي كان قد ابتعد لفترة قصيرة عن شاشة الرادار ويدرك أن مصر للطيران ٩٩٠ اختفت من على شاشات الرادار ومن اللاسلكي). ويبدو أن Arise 57 كانت تطير على مسافة بعيدة - حوالي ١٥٠ ميلاً - من مصر للطيران ٩٩٠: ويشير التفريغ إلى ممر طيران من نقطة تقاطع Champ على المحيط إلى موقع المحيط Sea Isle (هاتان النقطتان جنوبي المنطقة المبينة على الخريطة). ولن تظهر الطائرات العسكرية التي تطير داخل المنطقة W-105 على أشرطة المراقب الجوي التابع لإدارة الطيران الفيدرالية لأنها عند نقطة دخول المنطقة تتوقف عن الاتصال بالمراقبين الجويين. ولا تنشأ الأخطار المحتملة داخل مناطق التحذير والممرات من وجود ذخيرة، ولكن من الرادار عالي القدرة أو غيره من الإشارات الكهرومغناطيسية الصادرة عن هوائيات أرضية ثابتة أو من هوائيات على الطائرات التي تمر في المنطقة.

ونحن نعرف (من التقارير الإخبارية خلال الأسبوع التالي للحادث مباشرة) أن هوائيات رادار القوات الجوية القوى كانت تتعقب مصر للطيران ٩٩٠، ولأن هذه المراسلات مصممة بحيث تكتشف صواريخ كروز، فإن لديها قدرات لا تشاركها فيها أية أجهزة رادار مدنية. ويمكن للرادار المدني قراءة ارتفاع أي طائرة فقط في حال وجود جهاز إرسال واستقبال يعمل، وهو الجهاز الذي يحدد موقع الطائرة. وعلى العكس من ذلك، نجد أن هوائيات القوات الجوية مصممة بحيث تتعرف على ارتفاع أي جسم طائر، حتى ولو كان الجسم الطائر نفسه ليس به جهاز إرسال واستقبال، سواء أكان ذلك لأنه يرغب في إخفاء ارتفاعه (كما في حالة صاروخ كروز أو طائرة تابعة للقوات الجوية تنفذ تدريباً ما) أو لأنه فقد القدرة على تشغيل جهاز المرسل المستجيب الخاص به (كما حدث في حالة مصر للطيران ٩٩٠، وكذلك تي دبليو إيه ٨٠٠ وسويس اير ١١١، قبل أن تسقط).

حدث سقوط مصر للطيران ٩٩٠ في البحر على ثلاث مراحل: فقد هوت من ارتفاع ٣٣ ألف قدم إلى ١٦ ألف قدم، ثم حدث ارتفاع مفاجئ إلى ٢٤ ألف قدم، ثم هوت في نهاية الأمر إلى قاع البحر. فقدت مصر للطيران ٩٩٠ جهاز الإرسال والاستقبال الخاص بها قرب نهاية الهبوط الأول. ولأن الطائرة كانت هدفاً للمراقبة من جانب هوائيات القوات الجوية في ريفرهيد بلونج آيلاند وترورو بكيب كود، استطعنا أن نعلم ما حدث في مرحلتي الطيران الأخيرتين - أي الارتفاع المفاجئ والسقوط النهائي. أوردت وسائل الإعلام الأمريكية على نطاق واسع دور مرسلات القوات الجوية في التقاط صورة مصر للطيران ٩٩٠، وكذلك عمل فرقة تقييم الرادار الرابعة والثمانين في قاعدة هيل الجوية في يوتاه، التي تقوم بتجميع الصور الملتقطة من مواقع رادار مختلفة تابعة للقوات الجوية. وكان بيان ريفر هيل بلونج آيلاند وترورو بكيب كود أقل وروداً في وسائل الإعلام. وعلى خرائط الطيران، هناك تحذير مطبوع بالقرب من ترورو بكيب كود: «تحذير: أجهزة رادار القوات الجوية الأمريكية خطر على الطائرات على مسافة ميل بحري واحد.» أي الهوائيات الأخرى كانت تراقب مصر للطيران ٩٩٠ وأيها



كانت تتصل ببعضها بالقرب من مصر للطيران ٩٩٠، سؤالان يحتاجان إلى إجابة!!

اهتم الجيش في السنوات الأخيرة بالحرب «الساحلية»، مقابل الحرب التي تقع في البحار المفتوحة، التي كانت مركز اهتمام التدريب العسكري في فترة سابقة. وإحدى المهام الدائمة للرادارات العسكرية القوية - وهي تلك المحمولة على عبّارات ايجيس، على سبيل المثال - هي الوصول بقدرتها على تعقب الأجسام الطائرة الصغيرة إلى درجة الكمال، ثم، وهو الأهم، التقاط صورة ذلك الجسم الطائرة بما يميزها عن «صخب» حياة الساحل المدنية. وحينئذ يكون من المحتم مراقبة الطائرات المدنية بهذه المرسلات والهوائيات: وهي جزء من صخب الساحل الذي يجب تمييز الأهداف الحقيقية عنه. وإن مسألة أن تصبح الطائرات المدنية هدفاً خاصاً للمراقبة وفي ظل أي ظروف وفي أي فترة زمنية موضوع لا يناقش على نطاق واسع في الولايات المتحدة، بينما هو موضوع تنبغي مناقشته. هل ينبغي أن يتورط المدنيون في التدريبات العسكرية دون علمهم أو تصريحهم بذلك؟ وبينما يكون من المستحيل بالنسبة للمواطنين أن يعطوا تصريحاتهم على أساس كل رحلة على حدة، فمن المؤكد أن القضية العامة يمكن مناقشتها والجدل بشأنها.

ليس من الصعب التفكير في الأسباب التي جعلت مصر للطيران ٩٩٠ هدفاً عادياً. أو حتى هدفاً أكثر من عادي. للمراقبة المكثفة. فقد كانت مصر للطيران ٩٩٠، وقبل كل شيء، طائرة أجنبية قادمة من دولة لا تعتبر على الدوام حليفاً مقرباً للولايات المتحدة. والأمر الثاني هو أنها كانت تحمل ثلاثة من ضباط الجيش المصريين، بينهم ضابط برتبة عميد

وليس من الصعب التفكير في الأسباب التي جعلت مصر للطيران ٩٩٠ هدفاً عادياً - أو حتى هدفاً أكثر من عادي - للمراقبة المكثفة. فقد كانت مصر للطيران ٩٩٠، وقبل كل شيء، طائرة أجنبية قادمة من دولة لا تعتبر على الدوام حليفاً مقرباً للولايات المتحدة. والأمر الثاني هو أنها كانت تحمل ثلاثة من ضباط الجيش المصريين، بينهم ضابط برتبة عميد. ذكرت عميداً واحداً، رغم أن العدد يتباين حسب مصدر الخبر من واحد إلى ثلاثة. وطبقاً لما ذكرته مجلة Jane's Defense Weekly فإن مجموعة من ثلاثة وثلاثين ضابطاً كانت تضم «عميدين من القوات الجوية وعميدين من القوات البرية». وطبقاً لما ذكره كينيث بيكون المتحدث باسم وزارة الدفاع الأمريكية كان الضباط الثلاثة والثلاثون أثناء زيارتهم للولايات المتحدة مقسمين إلى ست مجموعات: كان أفراد إحدى المجموعات يدرسون الاتصالات؛ وكانت مجموعة ثانية تختبر طائرات هليكوبتر تم شراؤها حديثاً؛ وكانت المجموعة الثالثة موجودة هنا لتلقي «تدريب على معدات «عالية التردد»؛ وكانت المجموعة الرابعة تتعلم الاتصال عن بعد؛ وكانت المجموعة الخامسة تدرس إصلاح الصواريخ شاپارال؛ وكان أعضاء المجموعة السادسة ينفذون مشروعات مفردة. وبغض النظر عن مهامهم المنفصلة، فقد تم تجميعهم ليركبوا هذه الطائرة بعينها في عودتهم إلى القاهرة.

الاحتمال الثالث هو أن مرور مصر للطيران ٩٩٠ خلال المنطقة W-105 ربما كان مفاجئاً للجيش وربما أدى هذا إلى استنفار قدر معين من الانتباه. وقد يكون أي من هذه الاحتمالات الثلاثة قد عمل بمعزل عن غيره، ولناخذ الاحتمال الثاني على سبيل المثال: ربما كان مراقبو الجيش الأمريكي على علم بالطائرة وركابها المتميزين قبل وقت طويل من إقلاع الطائرة وعلى طول مسارها. (فقد ذكر كينيث بيكون أن وجود ثلاثة وثلاثين ضابطاً ليس أمراً غير عادي: ذلك أن ألفاً من الضباط المصريين يفدون إلى الولايات المتحدة في كل عام)، أو أن الاحتمالات قد عملت مجتمعة. على سبيل المثال، لو كان قد تم إبلاغ المراقبين العسكريين الأمريكيين باقتراب الطائرة قبل وقت قصير جداً من وصولها، فإنهم كانوا سيولونها مراقبة خاصة. وما إن يبدءوا في المراقبة كانوا سيلاحظون أنها طائرة ركاب مصرية. وهنا ربما كانوا سيولونها قدراً أشد من المراقبة وهم يراجعون خلفية الرحلة ويكتشفون أن على متنها ثلاثة وثلاثين ضابطاً. (وبالطبع ربما قد لا يكون أي من الاحتمالات الثلاثة قد حدث: فربما تكون أجهزة رادار القوات الجوية قد تعقبت الطائرة فقط لأن كل الطائرات المدنية يتم تعقبها هكذا في كل الأحوال).

ولكن ماذا عن الاحتمال الثالث الذي ذكرته: ما السبب الذي يجعلنا نعتقد أن مصر للطيران ٩٩٠ قد فاجأت المراقبين العسكريين في المنطقة (وبالتالي أصبحت هدفاً للمراقبة المكثفة)؟ هذا هو كل ما في الأمر: فاجأت الطائرة مراقباً جوياً مدنياً واحداً على الأقل في تلك الليلة. ولم تكن تقارير الكمبيوتر الآلية، التي كانت ستجعل مرور مصر للطيران ٩٩٠ من قطاع لقطاع التالي مفاجئة تماماً للمراقبين المدنيين، تعمل على الوجه الأكمل؛ وربما كانت الاتصالات بين المراقبين المدنيين والعسكريين كذلك بها عيب.

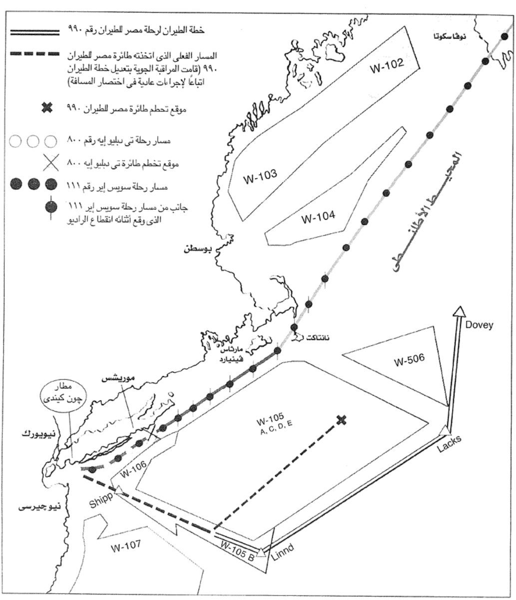
وفي الوقت الذي كان يتم فيه تسليم الطائرة من مراقب نيويورك في مطار كنيدي لمراقب نيويورك في مانتا، يعبر مراقب مانتا عن امتعاضه وفراغ صبره لأن الرحلة لم يتم ادخالها على الكمبيوتر:

مراقب كنيدي: مانتا كنيدي تسليم يدوي، مصر للطيران ٩٩٠.

مراقب مانتا: ألا يعلم أحد في البرج أنهم اضطروا لإعادة خطوط الطيران هذه من جديد؟

يقدم المجلس القومي لسلامة النقل ضمن وثائقه وصفاً لحقيقة أنه، كجزء من إجراء معتاد، أغلقت أجهزة الكمبيوتر لإجراء إصلاح روتيني. صحيح أنه لا يبدو أن المراقبين وجدوا أن موقفهم غير عادي، غير أنهم لا يرونه مقبولاً (إنه مقزز وحسب»). ولا شك في أن التسليم من كنيدي لقطاع مانتا تم تنفيذه بامان: فليس لدى مراقب مانتا خط السير على جهاز الكمبيوتر، إلا أن مراقب كنيدي يتلوه شفاهة (Ahipp Linnd Lacks Dovey)؛ وليس لدى مراقب مانتا ارتفاع الطيار المطلوب، ولكن مراقب كنيدي يقدمه (مانتا: «هل تعلم ماذا نريد في النهاية؟» كنيدي: «لدي ثلاثة وثلاثون ألفاً»).

هذه المرحلة الأولى من شكوى المراقب الجوي تستغرق ما يقل قليلاً عن دقيقة واحدة، وربما رؤيت على خلفية الشكوى في كل خط آخر من خطوط العمل. إلا أن الأمر ليس هو إذا ما كان هناك خطأ يحدث هنا أم لا: فالمسألة هي أنه إذا كانت الطائرة غير موجودة على كمبيوتر مراقب مانتا، فهل ستكون موجودة على أجهزة كمبيوتر GIANT KILLER - بعد عشر دقائق حين توجه مراقبة الأطلنطي الطائرة كي تدور شرقاً لتدخل المنطقة W-105؟ تنص اتفاقية تمت في ١٥ يوليو ١٩٩٩ بين مراقبي إدارة الطيران الفيدرالية على الساحل الشرقي



رسمت تلك الخريطة على أساس المعلومات المقدمة من الوكالة الفيدرالية للطيران الأمريكي ومن المجلس القومي لسلامة النقل لتوضيح مسار طيران رحلات كل من طائرة مصر للطيران رقم ٩٩٠، وطائرة تى دبليو إيه ٨٠٠، وطائرة سويس إير رقم ١١١. وكانت كل من الطائرتين الأمريكية والسويسرية قد طارت عبر مسار Bette. وفى حين كان مقررًا في بداية الأمر أن تطير طائرة مصر للطيران عبر المسار الذى تحدده نقاط Linnd و Shipp و Lacks، ثم مسار Dovey، تم توجيهها للطيران مباشرة إلى Dovey، عبر المنطقة العسكرية W-150، والتى طبقا لسجلات الوكالة الفيدرالية للطيران لم تكن مستخدمة لأغراض عسكرية تلك الليلة.

(ملحوظة: المناطق العسكرية من W-150، وحتى W-107، تشير إليها خريطة العالم لعلوم الطيران ط ٢٧ لعام ١٩٩٧، والصادرة عن وزارة التجارة على النحو التالى: «تحذير: مناطق عمليات الدفاع الوطنى، العمليات خطرة على الطائرات السالكة لهذه المناطق»).

ومنشأة المراقبة على أنه عندما يتم تسليم مناطق التحذير لإدارة الطيران الفيدرالية، فإن الطائرات المدنية «التى تخترق» الفضاء لا بد من الإعلان عنها للجيش من خلال إجراءات صريحة، مثل الإبلاغ بالكمبيوتر.

لقد انقطعت المحادثة بين مراقبى كنيدى ومانتا لأن مراقب مانتا مضطر لتبادل المعلومات مع طائرتين، أولاهما مصر للطيران ٩٩٠، تليها رحلة خطوط كوستاريكا الجوية رقم ٦٦١ وتسمى Lacsa. إلا أنه بعد خمس دقائق لا يزال مراقب مانتا يشعر بالضيق ويعود إلى الموضوع سائلاً مراقب كنيدى: «هل قابلت المزيد من المفاجآت بعد هذا أم هو آخر واحد؟» ويلى ذلك توضيح مهم. ذلك أن ما أغضب مراقب مانتا ليس هو أن كل تقارير الرحلات الجوية لم توضع على الكمبيوتر. فالمشكلة هى أنه تم إدخالها بطريقة غير متسقة:

مراقب مانتا: ... لم يسجل أحد مصر للطيران ولكنهم سجلوا اللاكسا (خطوط كوستاريكا).

يبلغ مراقب كنيدى مراقب مانتا أنه ليست لديه «بطاقات» (معلومات متقدمة) بشأن الطائرات التى سوف يوصلها إلى قطاع مانتا، ولكنه حينئذ يمضى مشيراً إلى أن عدم وجود بطاقة لا يعنى أنه لن يكون هناك المزيد من الطائرات: «إن مجرد عدم وجود بطاقة عن أى أحد لا يعنى أنه ليس هناك شخص آخر.»

مراقب مانتا: ...إذن سنكون نحن الاثنين بلا أية معلومات.

مراقب كنيدى: نعم هو كذلك.

إن عنصر المفاجأة الذى نسمعه فى بيانات مراقب مانتا إلى مراقب كنيدى («هل قابلت المزيد من المفاجآت...؟»؛ «لم يسجل أحد مصر للطيران ولكنهم سجلوا اللاكسا» ; «سنكون نحن الاثنين بلا معلومات») مسجل كذلك على قطاع رادار واحد آخر على الأقل. على سبيل المثال، ليس لدى مراقبة الأطلنطى سجل فى جهاز الكمبيوتر الخاص بها عن طائرة البحرية Arise 57؛ ولذلك يرسل مراقب الطائرات سجلاً إليها بالفاكس.

وتطرأ مشاعر ضيق وعصبية بشأن مسار الطائرة فى أماكن عديدة من سجل المراقبة الجوية. وبينما كانت الطائرة لا تزال على أرض مطار كنيدى، يعبر المراقب الأرضى ببرج كنيدى عن قلقه. فالطائرة تقلع متأخرة عن موعدها بساعتين: هل لا تزال خطة الطيران على ما هى عليه؟ يتم تغيير الساعة فى تلك الليلة من التوقيت الصيفى إلى توقيت الساحل الشرقى، ومع أنه يتم تأخير الساعة فإن تأجيلا لمدة ساعتين يبدو أنه لمدة ساعة واحدة. إنه يستشير المراقب المسئول عن بيانات الطيران («هل لا تزال خطة الطيران هذه صالحة؟») وهو يؤكد له أنها كذلك («نعم. إنها لا تزال صالحة»). هل ينبغى إعطاء الطائرة كود جديدا لجهاز الإرسال والاستقبال المرسل المستجيب؟ ويؤكد له: «الكود الذى لديه صالح» الساعة ١٢,٥٦، بعد ثلاث وعشرين دقيقة (فى الساعة ١,١٩ صباحاً)، عندما يسلم المراقب الأرضى المحلى فى برج كنيدى المراقبة لمراقب الحركة فى نيويورك، يتذكر قلقه الأول: «مصر للطيران ٩٩٠ تطير فوق Shipp ....إنها على مسار قديم؛ يقول مراقبو إدارة الطيران الفيدرالية على الساحل الشرقى إنه لا يزال صالحاً».

وبعد ذلك، وبينما يتم وضع الطائرة بين يدى مراقب مانتا، يعبر مراقب مانتا عن عدم الثقة فى استخدام الكمبيوتر لاختيار مسار إحدى الرحلات: «وهو كذلك. دعنى ابدأ مساراً...هذه المعدات الجديدة - أنا حتى لا أعرف كيف أفعل هذا الشىء. أدخل. هاهو ذا. وهو كذلك. مؤقتاً اثنان ثلاثة صفر ارتفاع ٢٣ ألف قدم .ومرة أخرى، هذه الفقرات لا يستشهد بها للإيحاء بأى انتهاك للقواعد أو انقطاع للانتباه من جانب المراقبين الجويين، الذين يبدون فى حالة يقظة واهتمام، وإنما للإيحاء بأن قلقهم المشترك بشأن إرسال طائرة مصر للطيران فى ليلة يبدو فيها كل شىء «مبهما» إلى حد ما.

هل كانت مصر للطيران ٩٩٠ الطائرة المدنية الوحيدة التى تطير خلال المنطقة W-105، كما يبدو عليه الحال خلال فترة الساعتين التى يغطيها تفريغ اتصالات المراقبة الجوية؟ (هذا السؤال يستحق الطرح لأن دخول طائرة بمفردها المنطقة W-105قد يزعج المراقبين العسكريين بقدر قد لا يحدثه تتابع منتظم للطائرات المدنية). وإذا كانت مصر للطيران ٩٩٠ بحق الطائرة المدنية الوحيدة فى منطقة التحذير، فيبدو أن هناك تفسيرًا بسيطًا ومباشرا: أن هذا الوقت ساعة متاخرة من الليل: وقليل من الطائرات يطير؛ ومعظم تلك الطائرات التى تطير لا تكون متجهة عبر الأطلنطى. وتطير طائرة خطوط كوستاريكا الجوية رقم ٦٦١ جنوباً على امتداد الساحل: أما لوفتهانزا ٨٢٠٢، وهى طائرة شحن كانت قد توقفت فى مطار جون كنيدى أثناء توجهها من فرانكفورت فى طريقها إلى أطلانطا، فإنها تطير الآن فى الاتجاه الجنوبى الغربى فوق روبنزفيل بولاية نيوجيرسى وتمضى جنوباً. إلا أن هناك طائرة أخرى

تستعد للقيام برحلة عبر الأطلنطي، وهي طائرة شحن العال ٢٨١٢، إنها تستعد للإقلاع تقريباً في نفس الوقت الذي تقلع فيه مصر للطيران ٩٩٠، ويبدأ المراقب في توجيه العال ٢٨١٢ المتجهة إلى تل أبيب عن طريق فرانكفورت، كي تخرج من مطار جون كنيدي عن طريق ممر المغادرة رقم سبعة في مطار كنيدي (نفس الممر الذي تخرج منه مصر للطيران ٩٩٠). ولكن المراقب حينذاك يوجه الطيار إلى اتخاذ ممر مختلف:

مراقب برج كنيدي: العال ٢٨١٢، صباح الخير، سمح لك بالإقلاع إلى فرانكفورت عن طريق مغادرة كنيدي سبعة – الواقع أنها مغادرة بيت اثنان وتحول نانتاكت ....

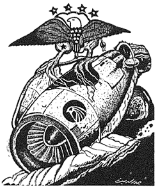
العال ٢٨١٢: روجر، العال سمح لها بالإقلاع عبر بوابة بيت اثنان تحول نانتاكت....

الطريق الجوي من مطار جون كنيدي إلى تقاطع بيت، ومن بيت إلى نانتاكت، هو المسار التي تسلكه الطائرات العابرة للأطلنطي عندما يستخدم الجيش المنطقتين W-106 وW-105 (وهو الطريق الذي سارت فيه تي دبليو إيه ٨٠٠ وسويس اير ١١١) وحقيقة أن هذا المسار يستخدم عند إجراء التدريبات العسكرية لا يعني أن الطريق لا يمكن استخدامه عندما تكون W-106 و W-105 مفتوحتين للطائرات المدنية. إلا أن حقيقة أن خط سير طائرة الشحن كان على طريق بيت ولم يكن خط سير مصر للطيران ٩٩٠ كذلك (مثل حقيقة أن رحلة خطوط كوستاريكا الجوية كانت مكتوبة على الكمبيوتر بينما لم تكن مصر للطيران ٩٩٠ كذلك) تلفت الانتباه إلى عزل مصر للطيران ٩٩٠ في رحلة عودتها في منتصف الليل. كما ذكر آنفاً، طلبت مراقبة الأطلنطي مساعدة الكثير من المصادر المدنية والعسكرية بمجرد إدراكها اختفاء الطائرة من على شاشة الرادار. ومن بينها رحلة لوفتهانزا رقم ٤٩٩ وايرفرانس ٤٣٩، حيث حاولت الأولى العثور على مصر للطيران ٩٩٠ على اللاسلكي، بينما خرجت الثانية عن مسارها كي تحلق فوق جزء من المحيط لترى إن كان من الممكن رؤية أي أثر لطائرة. إلا أنه في الوقت الذي طلبت فيه المساعدة من هاتين الطائرتين، كانت مصر للطيران ٩٩٠ تحت مياه البحر منذ زمن طويل (ثلاثون دقيقة في حالة لوفتهانزا، وخمس وأربعون دقيقة في حالة ايرفرانس).

وعلى فرض أن مستوى الخطر القائم في منطقة التحذير العسكرية أعلى مما هو عليه في البحار المفتوحة، فقد يبدو أن الحرص والدقة الاستقصائية يتطلبان إعادة بناء للبيئة أي الملابسات المحيطة. وقد قدمت تفاصيل عن المسار هنا ليس لأنها تبين أن هناك خطأ ما في المقابل، تظهر أشرطة المراقبة الجوية من سويس اير ١١١ أمراً لا لبس في كونه خطأ، حتى وإن لم يمكننا الحكم على العلاقة بين انقطاع لاسلكي الطائرة لمدة ثلاثين دقيقة وسقوطها في نهاية الأمر، ولكن لأنها تذكرنا بأن العالم خارج الطائرة كان على أقل تقديرٍ بنفس القدر من التعقيد الذي عليه العالم داخل الطائرة التي خضعت لشهور عديدة من البحث والمراجعة.

طبقاً لبيانات متكررة صادرة عن المجلس القومي لسلامة النقل، لا ينطوي سقوط مصر للطيران ٩٩٠ على عطب ميكانيكي، أو على

الطائرة المصرية



من المدهش أن الحقائق المجردة القليلة جداً المعروفة عن سقوط مصر للطيران ٩٩٠ هي نفسها تتسق مع التشويش الكهرومغناطيسي. وهذه هي الحقائق. الأولى: كان الطيار الآلي مفصولاً. الثانية: هبطت الطائرة هبوطاً حاداً مفاجئاً. الثالثة: كانت الروافع الموجودة على ذيل الطائرة تعمل بصورة غير عادية. الرابعة: توقف المحركين

الأقل ذلك العطب الميكانيكي الذي تم التعرف عليه حتى الآن على مسجل بياناتها المتطور. مع أن الأسباب المبدئية لحادثي تي دبليو إيه ٨٠٠ وسويس اير ١١١ لم يتم التوصل إليها، فإن هناك مشاكل مادية يمكن التعرف عليها على الطريق: انفجار في خزان الوقود المركزي في حالة تي دبليو إيه ٨٠٠، وماس كهربائي في عشرين سلكاً بالقرب من كابينة القيادة في حالة سويس اير ١١١، ولم يعثر على شيء مماثل في حالة مصر للطيران ٩٩٠، فيما عدا الأحداث الأربعة التي انطوى عليها السقوط الأخير. ويجب بحث التشويش الكهرومغناطيسي باعتباره سبباً محتملاً، حتى في حالة حوادث الطائرات التي يبدو فيها وجود تفسير ميكانيكي، حيث إن الحدث الميكانيكي ذاته قد يكون وراءه حدث كهربي. هناك مثالان شملا طائرتي بوينج ٣٠٠-٧٦٧، وهو نفس طراز طائرة مصر للطيران ٩٩٠، ففي سنة ١٩٩٣، تعرضت طائرة ٦٧٦ كانت تحاول الهبوط في مطار فرانكفورت لانحراف مفاجئ في الدفة بمقدار ١٦ درجة مما أدى إلى خروجها عن الممر. وكان الحكم على هذا الحدث هو أن ما سببه هو تشويش كهرومغناطيسي. وفي سنة ١٩٩١ سقطت طائرة «لاودا» اير النمساوية طراز ٧٦٧ فجاة سقوطا مميتاً بالقرب من بانكوك عند انبساط أحد عواكس الذيل بها. وخمنت سلطات الطيران البريطانية – التي شاركت في التحقيقات – في تقريرها الصادر سنة ١٩٩٥ أنه ربما يكون تشويش كهرومغناطيسي هو الذي أدى لانبساط عاكس الذيل؛ إلا أن عدم وجود أي تفسير ميكانيكي (وهو ما يبدو صحيحاً حتى الآن بالنسبة لمصر للطيران ٩٩٠) ينبغي أن يزيد الحماس الذي يتم به جمع ودراسة البيانات المتعلقة بهوائيات اللاسلكي والرادار في المنطقة.

ومن المدهش أن الحقائق المجردة القليلة جداً المعروفة عن سقوط مصر للطيران ٩٩٠ هي نفسها تتسق مع التشويش الكهرومغناطيسي. وهذه هي الحقائق الأربع التي نعرفها. الحقيقة الأولى: كان الطيار الآلي مفصولاً. الحقيقة الثانية: هبطت الطائرة هبوطاً حاداً مفاجئاً. الحقيقة الثالثة: كانت الروافع الموجودة على ذيل الطائرة، وهي الأسطح المتحركة التي على الجزء الأفقي من الذيل التي تتحكم في الحركة الصاعدة والهابطة لمقدمة الطائرة (عن طريق تحديد إن كانت مقدمة الطائرة لأعلى أو لأسفل أو في وضع مستوى)، تعمل بصورة غير عادية، حيث كانت تتحرك بشكل مستقل بدلاً من التنسيق مع بعضها البعض. الحقيقة الرابعة: توقف المحركين (قبل وقت قصير من توقف جهاز المرسل المستجيب، ومن المفترض توقف كل الأنظمة الكهربية الأخرى، عن العمل).

يلخص فيه طيارون بشكل منفرد حوادث تسبب في وقوعها التشويش الكهرومغناطيسي. وهذه مقتطفات:

**الطيار الآلي يعطل طائرة ركاب منتظمة عن العمل ...

**الطيار الآلي اليدوي ينفصل... النقل التجاري .... في الطيران المستقر،

** تعطل مفاجئ للطيار الآلي...

كيف ينفصل الطيار الآلي في ظروف التشويش الكهرومغناطيسي؟ هناك طريقتان لحدوث ذلك. قد ينفصل الطيار الآلي أوتوماتيكياً (كما في بعض الحالات المذكورة آنفاً، وكذلك في المرحلة الأخيرة من حادث سويس اير ١١١)، إما لأنه يتلقى أمراً كهربياً شارداً يغلقه، أو لأنه يصبح مرتبكاً بسبب المعلومات العشوائية التي يتلقاها وبذلك يتعطل. والاحتمال الثاني هو أن الطيار البشري يرى أن أمراً لم يصرح هو به بدأ تنفيذه على واحد من أسطح التحكم في الطائرة (مثل الدفة أو الروافع أو الجنيحات أو قلابات الجناح). وعندما يحدث هذا يكون من المناسب – أو بالأحرى من اللازم – أن يفصل قائد الطائرة الطيار الآلي. والأمر المقبول هو أن الطيار الآلي في مصر للطيران ٩٩٠ ربما يكون قد انفصل من تلقاء نفسه. حقيقة أنه لم يصدر إنذار في لحظة انفصال الطيار الآلي أثارتها الصحافة كثيراً على أنها دليل أن الطيار الآلي تم فصله بأيدي الطيارين؛ إلا أنه لا يمكن الوصول إلى مثل هذا الاستنتاج على أساس من عدم وجود إنذار. ويشير معهد فيينا لطب الطيران وبيولوجيا الفضاء إلى أن نفس الحدث الكهربي الذي عطل الطيار الآلي يمكن كذلك أن يعطل الإنذار المسموع؛ كما أنه من المقبول كذلك أن قائد الطائرة، عندما شاهد شيئاً غير صحيح، فصل الطيار الآلي بسرعة وبشكل مناسب.

ويشير مارتن شومان الباحث في ناسا إلى أن انفصال الطيار الآلي، سواء قام بذلك الطيار الآلي نفسه أو قائد الطائرة، يصبح ضرورياً لبقاء الطائرة (حيث إن الطيار الآلي يبدأ في وضع الطائرة على مسار يودي بها إلى كارثة). إلا أنه في الوقت نفسه تعد عملية الفصل هذه في حد ذاتها حدثاً خطيراً إلى حد كبير. وحتى هذه اللحظة، كان الطيار الآلي يتلقى تعليمات غير صحيحة (مثل التكيف مع الروافع، أو انحراف الدفة)؛ ولكن إذا كانت التوجيهات العشوائية غير متوافقة مع الطيران الآمن، فإن الطيار الآلي سوف يبدأ في التعويض عن الأمر الكاذب بعمل أفعال مضادة موازنة. وعندما يغلق الطيار الآلي فجاة، يدخل الطيارون في مواجهة مع مجموعة من الأحداث التي قد تكون مربكة، وقد لا يكون هناك وقت لتعديل الأوضاع التعويضية على أسطح التحكم الأخرى أو إلغاؤها.

هذه الملامح الأربعة الخاصة بكارثة مصر للطيران ٩٩٠ جميعها بارزة في معظم ما كتب عن التشويش الكهرومغناطيسي - دراسة القوات الجوية لسنة ١٩٨٨ عن الطائرات العسكرية ودراسة ناسا لسنة ١٩٩٤ عن الطائرات المدنية التي أجراها مارتن شومان. وسوف أتناولها بالبحث تباعاً، بادئة بانفصال الطيار الآلي.

تتضمن دراسة ناسا لسنة ١٩٩٤ ملحقاً

بعد ثماني ثوان من انفصال الطيار الآلي على مصر للطيران ٩٩٠، هبطت الطائرة هبوطاً حاداً مفاجئاً. وما يدل على هذا الأمر بصورة خاصة هو العمل السابق الذي نفذته القوات الجوية على الهوائيات الكهرومغناطيسية. ومع أن دراسة القوات الجوية لسنة ١٩٨٨، إلى جانب الدراسة التي دامت ثلاث سنوات التي قامت بها وزارة الدفاع الأمريكية وكانت هي الدافعة إليها، لم تطرح بعد للجمهور، فإن أهم ما توصلت إليه

الدراسة لخصه الكولونيل تشارلز كوينزبيري، وهو أحد من قاموا بالدراسة، في أن التشويش الكهرومغناطيسي يمكن أن يدفع بالطائرة إلى التقلب الذي لا يمكن التحكم فيه أو السقوط السريع. ويمكن للتشويش الكهرومغناطيسي أن يتخذ عشرات الأشكال المختلفة. مع أن الكولونيل كوينزبيري لم يذكر عشرات النتائج. فلأنه كان يقدم ملخصاً، فقد ذكر فقط أهم ثلاث نتائج، كانت إحداها السقوط المفاجئ الذي لا يمكن التحكم فيه. والسقوط المفاجئ مسجل كذلك في دراسة ناسا لسنة ١٩٩٤ الخاصة بالطائرات المدنية: سقطت طائرة تجارية من على ارتفاع ٣٠ ألف قدم؛ وسقطت طائرة تجارية أخرى من على ارتفاع ٢٠ ألف قدم.

ويبدو غريبًا أنه بالرغم من زيادة حالات السقوط التي لا يمكن تفسيرها في الحوادث التي يحدث فيها تشويش كهرومغناطيسي، فإن المجلس القومي لسلامة النقل لم يضعه حتى الآن ضمن الأسباب التي تحتاج إلى تحقيق في حالة مصر للطيران ٩٩٠، وخاصة في ظل حقيقة أن هذه المنطقة الجغرافية نفسها شهدت كارثتي طيران سابقتين، مما يزيد احتمال أن سبب الثلاثة جميعاً يكمن في الظروف الخارجية.

والحدث المهم الثالث (وهو وضع روافع الطائرة) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحدث الثاني. فالروافع ضمن الأسطح التي يمكن أن يشوش البث الكهرومغناطيسي عليها. وعندما قال الكولونيل كوينزبيري إن الطائرات يمكن أن تتعرض لسقوط مفاجئ، كان يعني أن بعض أسطح التحكم على الطائرة (وهي الروافع والدفة وقلابات الجناح) يمكن تغييرها بطريقة تجعل الطائرة تخرج عن السيطرة وتبدأ في السقوط. وقد خمن معهد فيينا لطب الطيران وبيولوجيا الفضاء، بعد استشارة الطيارين النمساويين ممن لديهم خبرة كبيرة في قيادة الطائرة بوينج ٧٦٧، أن يكون السبب المحتمل لكارثة مصر للطيران ٩٩٠ «عدم السيطرة على موازن الطائرة» الذي أحدث حينذاك فصلا أتوماتيكيا للطيار الآلي. وموازن الطائرة عبارة عن دفة أفقية على الذيل، وهو كما يدل اسمه يحافظ عادة على توازن الطائرة، ولكنه في حالة فقدان السيطرة يجعل مقدمة الطائرة مائلة للأمام. كما أن الوضع المنحرف للروافع قد يكون جزءاً من فقدان السيطرة، أو قد يعكس الجهود التي يقوم بها الطيارون للتغلب على عدم السيطرة على موازن الطائرة بتعديل وضع الروافع.

والحدث الرابع، وهو اندفاع المحركات المفاجئ لأسفل، جزء بارز مما كتب عن التشويش الكهرومغناطيسي. وإذا عدنا لملخص الكولونيل كوينزبيري لدراسة القوات الجوية، سنجد ضمن قائمته القصيرة للأحداث الأساسية الانقطاع المفاجئ لتدفق البترول إلى المحركات. ويمكن أن يصاغ هذا الكلام بطريقة أخرى على أنه «توقف مفاجئ للمحركات» حيث إنه عندما يوقف أحد الطيارين (أو إحدى الإشارات الكهربية الشاردة) المحرك، فإن ما يفعله في مثل هذا الأمر هو منع تدفق الوقود. وتظهر روايات التوقف المفاجئ للمحركات كذلك في دراسة ناسا لسنة ١٩٩٤: تعطل محركا إحدى الطائرات فجأة وهي تمر مباشرة فوق هوائي قوي لإذاعة «صوت أمريكا» في نورث كارولينا. في هذه الحالة احترقت أجهزة التحكم الكهربية في المحرك، وإن توقفت المحركات في حالات أخرى دون التعرض لضرر مادي دائم. وفي حالة أخرى، توقف محرك طائرة أخرى في نفس الوقت الذي انفصل فيه الطيار الآلي عندما كان في منطقة بث قوي.

ولأن كلاً من البشر والإشارات الكهربية الشاردة يمكنهم إصدار «الأوامر» لأسطح التحكم في أية طائرة، فإنه من الصعوبة بمكان التمييز بينهما، وإن كان التمييز بينهما ضروريا في الوقت ذاته. يمكن للصناديق السوداء وأجهزة تسجيل الصوت داخل كابينة القيادة أن تساعد في التمييز بين حادث من الحوادث التي تسبب فيها الطيارون وتلك التي كان لها مصدر آخر. إلا أنه حتى مصادر المعلومات تلك ليست حاسمة دائماً، وهي في بعض الأحيان خاطئة. ويمكن لمسجل البيانات أن يشير إلى الأحداث التي يعرف المحققون أنها لم تقع. وعلى العكس من ذلك، يمكن ألا تعلن عن أحداث يعرف المحققون أنها وقعت بالفعل: ففي حالة سويس اير ١١١ ليس الدخان الذي ظهر في كابينة القيادة والحريق الذي تلاه مباشرة مسجلاً على مسجل البيانات، طبقاً لما ذكره كبير المحققين فيك جيردن. ولم يكن لدينا الحوار الذي تم بين قائد الطائرة والمراقبين الجويين، لكي نعرف هذه الأحداث المهمة التي وقعت.

والفصل بين الاثنين شديد الصعوبة في مراحل الكارثة المبكرة؛ بل إنه أكثر صعوبة بمجرد أن تقع الكارثة بالفعل. فما أن دخلت مصر للطيران ٩٩٠ في سقوطها الحاد، ربما يكون الطيارون قد أصدروا الأوامر التالية، حيث كانوا يحاولون محاولة يائسة لاستعادة السيطرة على الطائرة واتخاذ أفضل القرارات التي يمكنهم اتخاذها: وربما كانت تلك الأعمال جهداً على قدر عال من الكفاءة لإنقاذ الطائرة، وقد تكون أقل كفاءة، مهما كانت مثيرة للإعجاب. ومن المحتمل أن الأحداث الأساسية الأربعة جميعها - وهي تعطل الطيار الآلي والسقوط الحاد وانحراف الروافع وتعطل المحركات - سببها تشويش كهرومغناطيسي، أو أن بعضاً فقط من الأربعة أحدثه التشويش الكهرومغناطيسي، بينما كان الباقي نتيجة لتدخل قائد الطائرة ومحاولة الإنقاذ. من بين الأحداث الأربعة، نجد أن الحدث الأخير - وهو تعطل المحركات - به أدلة توحي بأنه عمل تسبب فيه الطيارون: ذلك أن صندوق البيانات ومسجل الأصوات يشيران إلى أن توجيهات إيقاف المحركات، أو على الأقل إيقافها جزئياً، كان مصدرها كابينة القيادة. ولأن هذا الحدث بعينه حدث بعد ثلاثين ثانية من بدء السقوط بسرعة وزاوية مخيفتين (٤٠ درجة في وقت من الأوقات)، فقد رأى عدد من المحللين أن إيقاف المحركات ربما كان حدثاً طارئاً - ذلك أن قائد الطائرة ربما كان يمد يده إلى ذراع مختلفة تماما، أو ربما حاول تهدئة سرعة المحركات، وهو إجراء مناسب في حالة الهبوط الاضطراري، ولكنه ربما تمادى في ذلك. وخلال المناقشات العامة لموضوع مصر للطيران ٩٩٠، كان الحديث عن أن إيقاف المحركات (سواء عن طريق الطيارين أو نتيجة عطل فني) هو العامل الذي تسبب في هلاك كل من هم على متن الطائرة. والمعروف أنه ما إن يصبح وقوع الحادث أمراً حتمياً، فإن قائد الطائرة قد يقرر إيقاف المحركات على الفور قبل الارتطام بغرض تقليل خطر الحريق. (كانت مصر للطيران ٩٩٠ على وشك هبوطها الأول عندما توقفت محركاتها؛ وربما كان لدى الطيارين من الأسباب ما يجعلهم يعتقدون أن الارتطام بعد ثوان، مع أنهم نجحوا بعد ذلك في تغيير أوضاع الروافع وبدأت الطائرة في الصعود. وكانت طائرة مختطفة من طراز ٧٦٧ تابعة للخطوط الجوية الأثيوبية قد هبطت هبوطاً اضطرارياً في البحر سنة ١٩٩٦ بعد نفاد الوقود وتوقف محركيها، حيث نجا ٥٣ من بين ركابها وعددهم ١٧٨ راكباً. وبما أنها من نفس طراز طائرة مصر للطيران، فمن المحتمل أن طاقم مصر للطيران ٩٩٠ كان يعرف تاريخ الطائرة الأثيوبية. وما حدث للطائرة الأثيوبية يبين خطأ افتراض أن إيقاف محركات الطائرة المصرية ضمن هلاك كل من كانوا على متنها، تماماً مثلما أنه يبين خطأ افتراض أن قرار إيقاف المحركات لا يمكن أن يكون وراءه سوى الرغبة في قتل النفس والآخرين.



يبدو غريبًا أنه بالرغم من زيادة حالات السقوط التي لا يمكن تفسيرها في الحوادث التي يحدث فيها تشويش كهرومغناطيسي: فإن المجلس القومي لسلامة النقل لم يضعه حتى الآن ضمن الأسباب التي تحتاج إلى تحقيق في حالة مصر للطيران ٩٩٠

ويؤثر التشويش الكهرومغناطيسي على طائرات مختلفة بطرق متباينة وفي بعض الأحيان غير متوقعة، لأنه يتفاعل مع أكثر النقاط الكهربية ضعفاً في طائرة من الطائرات: فإذا كانت الطائرة بها تلامس بين الأسلاك (كما في حالة تي دبليو إيه ٨٠٠)، فقد يؤدي هذا إلى وقوع مشكلة فيها؛ وإذا كانت إحدى الطائرات بها نظام ترفيه شديد للركاب (كما يزعم في بعض الأحيان بشأن سويس اير ١١١، مع أن مجلس السلامة الكندي ذكر مراراً أنه لا يرى في ذلك أهمية في الحادث تزيد على أي نظام كهربي آخر في الطائرة)، فإن المشكلة قد تظهر فيه أول ما تظهر. وإذا كانت طائرة تعتمد اعتماداً كبيراً على الأنظمة الرقمية (كما هو الحال بالنسبة لطراز طائرة مصر للطيران ٩٩٠)، فإنها قد تتفاعل بتقديم أمر كاذب للطيار الآلي أو الإشعال أو الموازن أو غيره من أسطح التحكم.

ويحرص المجلس القومي لسلامة النقل دائماً على ألا يدعي معرفة السبب قبل الحصول على أدلة. وفي بعض الأحيان يمكن انتقاده بسبب بعض النواقص، مثل عدم إعادة بناء البيئة الخارجية، أو عدم فرض نفس معيار التحقيق على الأعمال العسكرية الذي تفرضه على أعمال مصانع الأسلاك أو أفراد الصيانة أو الركاب المدنيين. غير أنه قد يكون من الصعب وصفه بأنه يرتكب عملاً خاطئاً. إن قدرته على الاستمرار أربع سنوات في تحقيق حادث تي دبليو إيه ٨٠٠ دون أن يدعي بغير حق أنه عثر على سبب محدد لأمر رائع.

ولذلك فليس مفهوماً كيف أن هذا المجلس نفسه اقترب بشدة (على الأقل كما انعكست بياناته في وسائل الإعلام) إلى اتهام مساعد قائد مصر للطيران ٩٩٠ جميل البطوطي بتعمده قتل ٢١٦ راكباً. لقد اعترف مسئولو مجلس السلامة أمام الكونجرس وأمام الناس بأنه ليس لديهم حتى الآن الأدلة الكافية على تحميل البطوطي مسئولية الكارثة؛ إلا أن كثيراً من المتابعين لهذا الموضوع (ومنهم كاتبة المقال) يرون أن ما توصف بأنها أدلة «غير كافية» تعادل تماماً عدم وجود أية أدلة

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهورى

*ولد الفقيه الدستورى الكبير عبد الرزاق السنهورى فى ١١ أغسطس ١٨٩٥ بالإسكندرية وتلقى فيها تعليمه الأولى، ثم التحق بكلية الحقوق بالقاهرة (مدرسة الحقوق آنذاك) وتخرج منها فى عام ١٩١٧.

تقلب السنهورى فى وظائف عدة بالمحاكم والقضاء، وتولى رئاسة مجلس الدولة ووزارة المعارف، وتعتبر جهوده في وضع دساتير دول عربية عديدة أشهر من أن يشار إليها.

توفى السنهورى فى أغسطس عام ١٩٦٩. وهذه بعض من مذكراته التى كتبها بخط يده وأعدتها ابنته الدكتورة نادية وزوجها (تلميذ السنهورى) الدكتور توفيق الشاوى وصدرت عام ١٩٨٨ بعنوان «عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية».

١- الصبغة الشرقية الإسلامية فى مصر

آفة الجامعات الشرقية فى مصر فريقان: فريق يتمسك بالماضى الإسلامى تمسكًا أعمى ولا يتطور مع العصر، فيجلب بذلك عداوة العالم المتمدين ويضحى بالأقليات الدينية النشطة المنبثقة فى الشرق الأدنى، وهذه تلجأ إلى أوروبا طمعًا في حمايتها، وبدلاً من أن تبذل مجهوداتها معنا تنقلب علينا. وفريق يريد أن يقطع حبل الماضى فلا يعود له به صلة، وعند ذلك يتمكن من إدخال المدنية الأوروبية في مصر حتى تصبح جزءاً من أوروبا، دون أن يراعى تقاليد البلاد وتاريخها ومزاجها الشرقى. وكلا الفريقين خطر على الجامعات الشرقية. على أنه يجب الاعتراف بأن حاجتنا إلى أوروبا الآن كبيرة، ولكن هذا ليس معناه تضحية بتقاليدنا القومية وإدخال مدنية غريبة عنا فى بلادنا الشرقية فنعدم بذلك روحنا القومية.



الطائرة المصرية

بالمرة. وقد وصفت أولى البيانات العلنية للمجلس القومى لسلامة النقل بشان مسجل الصوت يوم الاثنين ١٥ نوفمبر ١٩٩٩ المحادثات بين الطيارين بانها ودية، وأوردت أن الطاقم تعاون فيما بينه فى محاولة منع حدوث الكارثة. إلا أنه فى الساعة الخامسة مساء اليوم نفسه بدأت رواية مختلفة تخرج من المجلس القومى لسلامة النقل وسيطرت على الصحافة لعدة أشهر، حيث ركزت الانتباه على ثلاث من أربع جمل منفصلة نطق بها قائد الطائرة أو مساعده. فطبقاً لمسئول قانونى لم يذكر اسمه، قال جميل البطوطى «لقد اتخذت قرارى». (ومضى الأمر وكان «قرارى» تعنى قراراً بقتل نفسه و٢١٦ شخصاً على متن الطائرة، وليس قراراً بشان الإجراء الذى يجب اتخاذه عند الإحساس لأول مرة بوجود مشاكل على الطائرة.) وفى يوم ١٩ نوفمبر أعلن جيم هول رئيس المجلس أن شريط الصوت لا يحتوى على جملة تشبه ولو من بعيد جملة «لقد اتخذت قرارى». وما إن مرت هذا الجملة حتى كانت لا تزال هناك جملة ثانية، وهى «عبارة غامضة» صدرت عن قائد الطائرة الذى «تلا دعاء» أو «تمتم بدعاء» وقد فعل ذلك «بالعربية» أو كما ذكرت بعض نشرات الأخبار «بالفارسية». (وبدا تحديد اللغة فى حد ذاته وكانه يوحى بأن هناك خطأ ما، مع أن الطيارين من الدول غير المتحدثة بالإنجليزية عادة ما يستعملون لغاتهم عندما لا يتحدثون مع المراقب الجوى؛ فعلى سبيل المثال معظم تسجيلات الكابينة فى سويس اير ١١١ داخل الكابينة كانت بالألمانية السويسرية.) وقد اتجه القليل من التفكير نحو احتمال أن الطيار ربما لاحظ بعض المشاكل ودعا الله أن يساعده؛إلا أن الدعاء تم تفسيره على نطاق واسع على أنه يعبر عن نية الانتحار والقتل الجماعى. وسرعان ما تلاشت صفة الدعاء «الشريرة» وكذا ما بها من «غموض» أو «إنذار بالسوء». فقد اتضح أن الدعاء جزء من نسيج الحياة اليومية، حيث كان جملة ينطق بها الكثير من المصريين حوالى مائتى مرة فى اليوم، وينطقها الأمريكيون المصريون ثلاثين مرة فى اليوم. وفى بعض الأحيان يجرى الاستشهاد بسؤال قائد الطائرة لجميل البطوطى - «هل أوقفت المحرك؟» - وكان قائد الطائرة يتهم البطوطى بإيقاف المحرك. بينما نجد أن التفريغ الكامل يوحى باحتمال قوى للتفسير العكسى: فقائد الطائرة (سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا) يرغب فى التاكد من أن المحرك أوقف كلياً أو جزئياً. فهو فى البداية يسال «هل أوقفت المحرك؟»، ثم يعيد الكلام بعد ذلك على أنه توجيه: «أوقف المحركات»؛ وعندما يؤكد له مساعده «لقد أوقفت» يمضى إلى التوجيه الثانى «اسحب معى»، وهو ما يبدو أنه مسعى لتغيير وضع الروافع. وعبارة «اسحب معى» التى نطق بها الطيار، فسرت على نطاق واسع وكانها توحى بان البطوطى لم يكن متعاوناً مع زميله الطيار وكان لا بد من حثه على التعاون معه (وطبقاً لوجهة النظر هذه، اعترف الطيار بان البطوطى هوى متعمداً بالطائرة إلى البحر ،ولكنه كان يأمل فى أن يبعده عن عمله الجنونى بالعديد من الأوامر المختصرة). والكلمتان «اسحب...اسحب...» نطق بهما منذ أربع سنوات قائد طائرة لمساعده عندما هوت طائرة يوإس اير ٤٢٧ نحو الأرض بالقرب من بيتسبرج. وحينذاك ذكرت الكلمتان على نطاق واسع فى الصحافة دون أن يستنتج أحد أن مساعد الطيار لم يكن متعاونا أو انتحارياً. ومن المؤكد أنه لا يبدو أن القضية هى أن عمل الطيار المتعمد يمكن أن يؤدى إلى تلك الأحداث المأساوية (انفصال الطيار الآلى والسقوط الحاد وتنافر الروافع الموجودة على ذيل الطائرة وإيقاف المحركات) التى وقعت فى تلك الليلة.

وعن طريق تجميع المجلس القومى لسلامة النقل لتفريغات أشرطة المراقبين الجويين، وسجلات إدارة الطيران الفيدرالية، والاتصالات من منشاة المراقبة فى فيرجينيا كيبس، وكثير غيرها من المواد، وتقديمها للجمهور، بدأ بالفعل فى تنفيذ إعادة بناء أو تركيب لتسلسل الوقائع كما يمكن أن يكون قد حدث. ونامل أن تكون هذه هى الخطوة الأولى لما قد يصبح فى النهاية مراجعة شاملة للبيئة الكهرومغناطيسية الخارجية. ومثل هذه المراجعة لا يزال من الواجب تنفيذها بالنسبة للطائرات الثلاث التى سقطت منذ يوليو ١٩٩٦ بعد مغادرتها لمطار جون كنيدى.

بترتيب خاص مع:

The New York Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

معركة الرئاسة بين بوش وآل جور

تحسمها الأموال الناعمة والصوت اليهودى

تقرير من واشنطن

محمد حقى

شـاءت الظروف أن أعـايش وأتابع الانتخابات الأمريكية سنة ١٩٦٤، بين الرئيس ليندون جونسون، والسناتور بارى جولدووتر، ثم شاءت الأقدار أن أعود للولايات المتحدة سنة ١٩٧٢ لأعايش وأتابع كل الانتخابات الأمريكية منذ سنة ١٩٧٤ وحتى الآن. وقد كانت معظم الحملات الانتخابية مملة وتبعث على التثاؤب، وبالرغم من أن الصحافة الليبرالية كانت تصور السناتور بارى جولدووتر بأنه فاشى النزعة ويمثل أقصى اليمين البالغ الخطورة، فلم يسبق لأية حملة قبل انتخابات هذا العام أن جسدت انقسام المجتمع الأمريكى وابتعاد قطبيه اليمين واليسار بقدر ما حدث هذا العام.

وباستثناء النوادر التى كانت تحدث أثناء المناظرات التلفزيونية، ووقوع بعض المرشحين فى بعض الأخطاء، أوالذين لم تسعفهم سرعة البديهة، أو العكس مثل إتقان بعضهم استخدام بعض «القفشات»، كما فعل الرئيس رونالد ريجان وهو يحاور نائب الرئيس السابق وولتر مونديل عندما قال إجابة على سؤال حول سنه، وكان عمره يومها ٧٦ عامًا. أنه لن يستغل «حداثة سن» مونديل ضده فى الحملة، وضجت القاعة بالضحك. أو عندما قال الرئيس فورد إن بولندا حرّة ولا تسيطر عليها الشيوعية، أو عندما سئل مايكل دوكاكيس - الذى كان يعارض عقوبة الإعدام: ماذا يكون رد فعله - إزاء مجرم اغتصب زوجته ثم قتلها؟ ووقف دوكاكيس «مشدوها» لا يدرى بماذا يجيب.

باستثناء هذه اللحظات، أو المناظرات كلها إن شئت، فإن التصفيات الأولية والحملات عامة لم تكن تشد اهتمام الشعب الأمريكى، وكانت معظم الحملات قبل سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتى، تجرى حول السياسة الخارجية ومن والتصفيات بين سائر المرشحين، ويصل المرشحان إلى مؤتمرى الحزبين، حيث يتحدد برنامج كل منهما، ويختار كل منهما نائبه، غير أنهم كانوا يقولون دائمًا إنه بالتجربة فإن الفيصل يجئ فى عطلة عيد العمال، عندما تنتهى فترة الصيف، وتعود العائلات من المصيف، ويبدأ الناس فى التركيز على من الذى سيختارونه يوم الانتخابات، وكانوا يقولون دائمًا: إن الذى يتفوق فى استطلاعات الرأى يوم عطلة عيد العمال، وهى ٤ سبتمبر من كل عام، تكون له الغلبة يوم الانتخابات العامة فى الأسبوع الأول من نوفمبر.

من هنا فقد تساءل البعض هذا العام: ترى هل نعتبر عيد العمال بداية الحملة الانتخابية أم نهايتها؟ وتشهد الإحصائيات وسجل الاستطلاعات بصدق هذه النظرية، باستثناء ما حدث سنة ١٩٤٨، عندما كان هارى ترومان يتخلف عن منافسه بثمانى نقاط يوم عيد العمال، ولكنه تمكن من مفاجأة الشعب الأمريكى كله بهزيمة منافسه توماس ريوى بنسبة ٥٠ فى المائة مقابل ٤٥ فى المائة من الأصوات. أما فى المرتين الآخريين وهما معركة

---

١ - The Corruption of American Politics: What Went Wrong and Why

إفساد الحياة السياسية

Elizabeth Drew
Overlookpress, 278pp, $ 1595,2000

٢ - Jewish Power
Inside the American Jewish Establishment

القوة اليهودية

J.J. Goldberg
Perseus PR,448 pp,$ 15,1997

بوش الابن



جون كينيدى ضد ريتشارد نيكسون سنة ١٩٦٠، ورونالد ريجان ضد جيمى كارتر سنة ١٩٨٠، فقد دخل السباق «أقصى درجات السخونة» - كما يقولون هنا - يوم عيد العمال.

وبالرغم من متابعتي - دون أية دهشة - لتحيز الصحافة والتليفزيون قاطبة ضد جورج بوش طوال الحملة، وانتقادها له فى كل منعطف، وبعد كل خطاب، فلم أكن أتوقع أن تخرج جميع الصحف يوم عيد العمال لتقول إن «بوش يتفوق على نائب الرئيس ألبرت جور بفارق واسع يتجاوز العشر نقاط، وقالت بعضها إنه يتفوق بنسبة ١٧ نقطة والبعض الآخر إنه يتفوق بنسبة ١٩ نقطة.

ولكنها عادت فى نهاية الأسبوع الأول من سبتمبر وعدلت من أرقامها، وأصبحت المعركة تجرى فى إطار - أقصى درجات السخونة - مرة أخرى.

وقبل أن نسأل: ما الذى حدث هذا العام، يبقى أن نسأل: ما هى الظروف التى تجعل معركة هذا العام كلها تختلف عن أية معركة سابقة؟

وترد لنا أليزابث درو، وهى واحدة من أكثر الصحفيات دراية بشئون السياسة الداخلية، التى كتبت عنها عدة كتب كان آخرها بعنوان: «إفساد الحياة السياسية»، الذى صدر هذا العام.

وتذكر درو عدة تغييرات طرأت على الحياة السياسية الأمريكية خلال ربع القرن الماضى، لعل أهمها تدهور مستوى رجال السياسة خلال هذه الحقبة، وهو تغيير قد لا يحس به المواطن الأمريكى العادى، أو قل أنه يحس به ولكنه لا يستطيع فهم أسبابه أو تحديد ماهيته، فرجال السياسة الجدد ليسوا فقط أقل إلمامًا بالقضايا السياسية، بل إنهم بلا تجربة سياسية سابقة، ذلك أنه بعد أن ساد مناخ عام خلال فترة طويلة معاد للحكومة، أصبح عدم الدراية بأصول الحكم فضيحة.

ووجهت الكاتبة هجومها إلى ما يمكن أن يطلق عليه «انقلاب نيوت جينجر يتش» سنة ١٩٩٤ (رئيس مجلس النواب السابق)، الذى اكتسح فيه الجناح اليمينى فى الحزب الجمهورى الانتخابات العامة، والذى جلب معه أعدادًا من أعضاء الكونجرس الذين يمكن وصفهم بأنهم «عقائديون» متزمتون أكثر منهم متمرسون، فكان ثلثهم بلا أية خلفية سياسية، وبلا أية تجربة سابقة فى الحكم أو الممارسة الحزبية أو السياسية، وقد أدت مقالاتهم وهجومهم الشرس على الكونجرس، إلى إضعاف مؤسسة الكونجرس وأدى تزمتهم الأيديولوجى إلى تفشى الوصولية، وتخرج بعض هؤلاء النواب لينتقلوا إلى مجلس الشيوخ، الأمر الذى نخر فى جسد مجلس الشيوخ بشكل قاس.

تدهور لغة الخطاب السياسى

وتعتقد الكاتبة أن غالبية الناس، أو العناصر الصالحة للاشتغال بالسياسة بدأوا يعزفون عن الخوض فيها لعدة أسباب: ارتفاع نفقات الترشيح الباهظة، وفقدان الحياة الخاصة تمامًا، وخوض وسائل الإعلام فى كل صغيرة وكبيرة عن أنفسهم، وأصبح الحزبان يجدان صعوبة فى تجنيد العناصر الصالحة للعمل السياسى.

بل إن تشارلز لويس مدير مركز «الأخلاق فى الحياة العامة»، فى كتابه «شراء الرئيس سنة ٢٠٠٠»، قال إن نحو ٩٠ مقعدًا من مقاعد مجلس النواب فاز بها أصحابها بالتزكية لأنهم لم ينافسهم فيها أحد بسبب هذه النفقات الباهظة. حتى عزف ١٠٠ مليون أمريكى عن الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات العامة سنة ١٩٩٦، أى أكثر من نصف الأصوات الانتخابية الصحيحة، وهى أعلى نسبة فى تاريخ أوروبا والعالم الغربى كله.

وتحدث الكثيرون من أعضاء الكونجرس عن تدهور لغة الخطاب السياسى، وخلو المناقشات البرلمانية من أى معنى أو رقى، وبعد أن كانت قاعات الكونجرس تمتلئ بأفراد الشعب الذين كانوا يستمتعون بجلسات الكونجرس، وبلاغة الشيوخ والنواب ويتابعون مناقشة الموضوعات التى تهمهم بالدرجة الأولى، فلم

آل جور



ليبرمان





بعد هناك خطباء يعتد بهم، وأصبحت جلسات الكونجرس تكاد تخلو تمامًا من الجمهور.

وقال لويس إن آرشيبالد كوكس المحقق الخاص فى فضيحة ووترجيت التى أدت إلى استقالة الرئيس نيكسون سنة ١٩٧٣ قال: إن فساد تمويل الحملات الانتخابية أسوأ بكثير مما حدث أيام ووتر جيت. كما قال إن الأمور اختلطت إلى درجة أن مساعدى الشيوخ والنواب أصبحوا يتركون مناصبهم ليعملوا فى جماعات «اللوبى» للضغط على أعضاء الكونجرس بمرتبات توازى أضعاف مرتباتهم السابقة، وبعد أن كان عدد العاملين فى هذه الجماعات منذ ثلاثين سنة لا يزيد على ١٠٠، فإن عددهم يصل الآن إلى ١٤ ألفا!

ويمضى لويس ينعى هبوط المستوى السياسى بقوله: لقد أصبح السياسيون يقومون بالدعاية التليفزيونية، مثل قيام آن ريتشاردز حاكمة ولاية تكساس وماريو كومو حاكم ولاية نيويورك بالدعاية للبطاطس المحمرة بينما يقوم السناتور روبرت دول بالدعاية للفياجرا!

أما التغيير الآخر الذى تتحدث عنه اليزابث درو، فهو الذى طرأ على الحزب الجمهورى، الذى كان يمثل تاريخيا ما يسمى «بالمؤسسة» أى المؤسسة الحاكمة، التى تستند أساسًا على المحافظين الذين يمثلون تيار الوسط الذى يتمركز عادة فى الشمال الشرقى، أما الآن فقد أصبح المحافظون يمثلون تيارًا شعبيًا يعتمد على قاعدة أوسع تتمركز فى الجنوب والغرب، وهوالتطور الذى بدأ مع بارى جولدووتر سنة ١٩٦٤، وحظى بقوة دفع هائلة بفوز رونالد ريجان، وكان يعتمد على الاقتصاد والسياسة الخارجية، وينادى بتقليص الحكومة الفيدرالية المركزية، بالرغم من أن استخدام تسمية «السياسة الخارجية» كانت خاطئة لأنها كانت تعتمد على زيادة النفقات العسكرية فقط.

وقالت إنه إزاء النقد المتزايد والمتصاعد لسفر أعضاء الكونجرس المتكرر فى رحلات مدفوعة بسبب وبغير سبب، فقد أصبح الأعضاء لا يسافرون خارج أمريكا، ومن ثم انعزلوا تمامًا وأصبحوا جهلة تمامًا بما يجرى فى العالم.

هذا المناخ العام كله، أدى إلى أهم تغيير حدث فى الحياة السياسية فى واشنطن كلها وهو صعود دور المال، وتمويل الحملات السياسية، بحيث أصبح المال هو العامل الأساسى والأول فى أى معركة،وليس السياسة،أو المبادئ، أو المعتقدات أو أجندة العمل أو أى شىء آخر.

فقد كان قانون الانتخابات الصادر سنة ١٩٧٤، الذى صدر بغرض إصلاح هذا الخلل فى الواقع، يقضى بألا تزيد المبالغ التى يتبرع بها الفرد على ألف دولار، كما كان يقضى بألا تزيد تبرعات «جماعات العمل السياسى» التى أصبحت تعرف بالحروف «PACS» لأى عضو على خمسة آلاف دولار، غير أن القضاء طعن فى هذا الدستور سنة ١٩٧٦، وأصبح فى مقدور أى ممول أن يدفع أى مبلغ ما دامت هذه المبالغ لم تذهب إلى عضو بعينه، وإنما للحملة عامة، وكان من شأن هذا التطور أن أصبح ٣٩ عضوًا من أعضاء مجلس الشيوخ مليونيرات، ١٦ منهم مليارديرات، وأصبحت معظم جماعات الضغط قادرة على التأثير المباشر على الأعضاء وعلى البرامج بشكل مباشر، كثيرًا ما يتعارض مع رأى العضو الحقيقى.

الأمـــوال الناعـــمـــة خـــارج إطار القـــانون

ثم برز عامل أكثر خطورة وهو ما يسمى بـ«الأموال الناعمة»، وهى الأموال التى يجمعها الحزب خارج إطار قانون سنة ١٩٧٤، وكان الأصل فيها أن تنفق فقط على نشاط الحزب عامة وليس لصالح أى عضو بذاته، حتى ولو كان المرشح للرئاسة، ولكن الحزبين بدآ فى حقبة الثمانينيات فى جمع «الأموال الناعمة» على نطاق واسع للغاية، وبحلول سنة ١٩٩٦، ألقى الرئيس بيل كلينتون ونائبه ألبرت جور بكل المقاييس والمعايير من النافذة، وبدآ يستخدمان «الأموال الناعمة» فى حملاتهما الخاصة والإعلانات السياسية بطريقة فجة وبلا أية حدود أخلاقية أو قانونية، بعد أن جمعاها بطرق مشبوهة ومصادر مشبوهة وممارسات غير قانونية، حتى بلغ ما جمع سنة ١٩٩٦ أكثر من ٢٦٢ مليون دولار، وهو أعلى رقم وصلت إليه أية انتخابات، وأكثر من كل الحملات الثلاث السابقة مجتمعة.

وكتب وارين بافيت، وهو رجل أعمال ملياردير فى صحيفة «نيويورك تايمز» يوم ١٠ سبتمبر هذا العام أن مبالغ الأموال الناعمة قفزت من ٨٦ مليون دولار سنة ١٩٩٢ لتصل إلى حوالى ٢٥٦ مليون دولار هذا العام، أى بزيادة قدرها ٢٠ فى المائة سنويًا وهو نمو يفوق نمو الاستثمارات فى وادى «السليكون» للتكنولوجيا المتقدمة!

إن تشارلز لويس مدير مركز «الأخلاق فى الحياة العامة»، فى كتابه «شراء الرئيس سنة ٢٠٠٠». قال إن نحو ٩٠ مقعداً من مقاعد مجلس النواب فاز بها أصحابها بالتزكية لأنهم لم ينافسهم فيها أحد بسبب هذه النفقات الباهظة. حتى عزف ١٠٠ مليون أمريكى عن الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات العامة سنة ١٩٩٦، وهى أعلى نسبة فى تاريخ أوروبا والعالم الغربى كله

واستخدم كلينتون وجور كل وسيلة ممكنة لجمع التبرعات، من تأجير غرف نوم البيت الأبيض إلى السفر على طائرة الرئيس الخاصة، وطائرة نائب الرئيس الخاصة، حتى سمى البيت الأبيض - سخرية - بالموتيل رقم ٦.

وقام أحد أعضاء مجلس الشيوخ، وهو فريد طوسون، بالتحقيق فى عملية جمع التبرعات لسببين، هما: إفساد الحياة السياسية، وتعريض الأمن القومى لأمريكا للخطر.

والأمر الذى يتصل بانتخابات هذا العام بشكل مباشر، رغم أنه وقع سنة ١٩٨٦، هو ما قام به جور لجمع التبرعات فى معبد «هى لاى» بمدينة لوس انجيلوس، وهو معبد بوذى، والمعروف أن المعابد الدينية تتمتع بالإعفاء من الضرائب، ويمنع عليها تمامًا جمع التبرعات لأغراض سياسية، ولكى يدافع جور عن نفسه قال إنه لم يكن يعرف أن الحفل الذى حضره كان بغرض جمع التبرعات، وتحجج بأنه كان يشرب كثيرًا من الشاى وربما فاته وهو يتردد على دورة المياه أكثر من مرة أن الغرض كان هو جمع التبرعات!

واستخدم جور تليفونه ومكتبه بالبيت الأبيض كذلك فى جمع التبرعات، وهو أمر محظور قانونًا، وفى البداية قال إنه استخدمهما «بضع مرات فقط» ثم تبين أنه استخدمهما ٦٥ مرة، ثم قال فى عبارة أصبحت مثار سخرية الولايات المتحدة كلها إنه «ليست هناك سلطة قانونية عليا تمنع ذلك»! وكرر هذه العبارة سبع مرات فى مؤتمر صحفى. وأصبحت نمطًا لتصرف جور وميله إلى الكذب فى كل مرة يجد فيها نفسه محاصرًا.

ومن نوادر الحملة الماضية ما قاله روجر تامراز، رجل الأعمال اللبنانى المطلوب القبض عليه فى فرنسا ويتتبعه الإنتربول أمام الكونجرس، أنه دفع ٣٠٠ ألف دولار سنة ١٩٩٥ لحملة كلينتون / جور، مقابل أن يحضر ست حفلات فى البيت الأبيض - رغم اعتراض عضو فى مجلس الأمن القومى - وكان يسعى إلى مساعدة أمريكا فى الحصول على حق بناء خط أنابيب للبترول من بحر قزوين، وعندما سئل عما إذا كان قد حصل على ما يريد، قال: فى المرة القادمة سأدفع ٦٠٠ ألف!

وفى نفس هذه الجلسة، قال شاهد آخر وهو وارين ميدون، إنه أثناء حفل عشاء دفع كل فرد فيه ١٥٠٠ دولار، ناول ميدون كلينتون وهو يصافحه بطاقة كتب على ظهرها: لدى زميل يهمه أن يدفع لكم ٥ ملايين دولار. وخطا كلينتون خطوتين ثم قرأ الكارت، فعاد إلى ميدون يطلب منه كارتًا آخر، وبعد أيام اتصل به هارولد إيكيس مستشار الرئيس من طائرة الرئيس الخاصة «سلاح الطيران رقم واحد»، وأوضح ميدون لايكيس أن صديقه يبحث عن وسيلة معفاة من الضرائب، ورد عليه إيكيس بفاكس مباشرة يعدد له أسماء المؤسسات المعفاة من الضرائب التى تعاون كلينتون!

وشرح له أحد الأصدقاء الديمقراطيين المقربين من البيت الأبيض: لقد اعتاد الرئيس أن يكسب دائمًا، وهو مستعد لأن يفعل أى شىء فى الدنيا لكى يكسب.

ويمتد هذا الفساد - أو الإفساد - إلى السياسة الخارجية، بل إلى الأمن القومى الأمريكى مباشرة.

شـــركـــات الســـلاح تنفق على الحملات الانتخابية

وهنا يجىء دور شركات السلاح، فقد نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» دراسة فى ٣٠ مارس ١٩٩٨ قالت فيها إن أكبر ست شركات للسلاح أنفقت ٥١ مليون دولار على عمليات «اللوبى» وتوسعت فى نفقاتها على الحملات الانتخابية للكونجرس حتى بلغت ٣٢ مليون دولار فيما بين انهيار الشيوعية سنة ١٩٩١ وحملة سنة ١٩٩٦.

وضربت اليزابث درو مثلاً على دور هذه الشركات فى توسيع نطاق حلف شمال الأطلنطى، لأن ذلك يفتح لهم سوقًا هائلة لمبيعات السلاح، وكان الاقتراح المطروح سنة ١٩٩٨ هو ضم بولندا والمجر وجمهورية التشيك إلى الحلف. وبطبيعة الحال كانت هناك أسباب قوية تمنع من ذلك، أهمها العلاقة مع روسيا التى كانت تتعاون مع أمريكا فى عدة مناطق: مثل (البوسنة وكوسوفو والعراق ونزع السلاح وغير ذلك)، وكانت روسيا تعارض ذلك وترى فيه تهديدًا لأمنها وإهانة لها. ولكن إدارة كلينتون استمرت فى سياستها بحجة أن التراجع سيكون محرجًا ومهينًا أمام حلفائها، فضلاً عن أن كلينتون حرص على ألا تذهب أصوات الأقليات التى تنحدر من هذه الدول إلى غريمه ومنافسه الجمهورى السناتور روبرت دول الذى كان ينادى بتوسيع نطاق الحلف كذلك.

والطريف أنه لما كانت هذه الدول غير قادرة على شراء السلاح، اعتمد البنتاجون ١٥ مليون

أصبح السياسيون يقومون بالدعاية التليفزيونية، مثل قيام آن ريتشاردز حاكمة ولاية تكساس وماريو كومو حاكم ولاية نيويورك بالدعاية للبطاطس المحمرة بينما يقوم السناتور روبرت دول بالدعاية للفياجرا!

دولار لضمان القروض لهذه الدول لشراء الأسلحة المتطورة!

وقالت درو إنه فى بعض الأحيان كانت تختلق القضايا والأزمات اختلاقًا حتى يمكن جمع الأموال لمعالجتها ومقاومة هذه الأزمات المصطنعة من أساسها.

وفى قضية أخرى من أدق وأخطر القضايا التى تمس الأمن القومى مباشرة، هى محاولة الصين التدخل فى الشئون الداخلية عن طريق الانتخابات الأمريكية. فقد كان السناتور فريد طوسون يحقق فى بداية سنة ١٩٩٧ فى هذه القضية، وطلب من وكالة الأمن القومى N S A التى تتنصت على المكالمات التليفونية فى جميع أنحاء العالم عن طريق الأقمار الصناعية، عن حقيقة ما إذا كانت قد التقطت رسالة بين بكين وسفارتها فى واشنطن. فقامت الوكالة بعرض بعض المواد التى فى حوزتها تعود إلى سنة ١٩٩٥، تشير إلى خطة صينية للتدخل فى الانتخابات الأمريكية، وإن هذا القرار اتخذ على أعلى مستويات الحكومة الصينية.

وفى بداية ١٩٩٦، التقطت وكالتا الأمن القومى والأمن المركزى مزيدًا من المعلومات الدقيقة التى تشير إلى هذه الخطة، عن طريق استخدام بعض الوسطاء لتحويل الأموال إلى أمريكا عن طريق بعض المتاجر أو الشركات الصينية. كما التقط مكتب التحقيقات الفيدرالى (المباحث العامة) معلومات أخرى عن أن الصين كانت تطلب معلومات عن أعضاء مجلس الشيوخ والنواب، وخلفيات حول إمكانيات تحويل مبالغ إلى حملاتهم الانتخابية. وتتضمن القصة تفاصيل طويلة انتهت بإدانة ٢٠ ودخول ١٢ إلى السجن، ولكن الطريف فيها أنه عندما طلب تشارلز ران (المحامى القدير الذى أنقذ كلينتون من الإدانة فى مجلس الشيوخ بسبب فضيحة مونيكا لوينسكى) من لويس فريه مدير المباحث الفيدرالية أن يمده بما لديه من معلومات، رفض فريه على أساس أنه يحقق فى جريمة جنائية تمس بعض المتهمين الذين يعملون فى البيت الأبيض، وعلقت درو على ذلك بقولها: إن معنى ذلك بوضوح هو أن مدير المباحث لا يثق فى أعلى قيادات هذا البلد!

مركز الثقل السياسى ينتقل إلى المدن

نعود إلى عطلة عيد العمال، وهى أهم علامة على الطريق للفوز بالبيت الأبيض. فقد جرت العادة فى كل الانتخابات التى جرت منذ أن سجلت قياسات الرأى العام، أن المرشح الذى يكون متفوقًا يوم عيد العمال، هو الذى يفوز فى العادة بالانتخابات فى نوفمبر. ولما كانت القياسات تشير إلى أن المعركة ما زالت فى مرحلة «أعلى درجات السخونة»، فمعنى ذلك أن الناس لم تستقر على رأى بعد. ويعتقد المؤرخ ستيفن آمبروز الذى عاصر كل الانتخابات السابقة منذ عهد الرئيس ترومان «أن الولايات المتحدة كانت تواجه دائمًا إما فترة من الكساد الاقتصادى، أو الحرب، وبالطبع كان اختيار الرئيس يهم كل أسرة، فقد كانت كلمة معارك مصيرية مسألة حياة أو موت، أما ما يميز الفترة التى نعيش فيها أن الرئاسة ليست لها كل هذه الأهمية.

ولاحظت صحيفة «وول ستريت»، (التى أصبحت الوحيدة التى تستحق القراءة فى أمريكا ـ بتوزيع ١,٨٠٠,٠٠٠نسخة يوميًا) فى مقالين مختلفين، أحدهما فى ١٦ مايو الماضى، قالت فيه إن مركز الثقل السياسى بدأ ينتقل إلى المدن، وعُمد المدن، وإن المشتغلين بالسياسة يعتبرون أن انتهاء الحرب الباردة نزعت عامل الرعب النووى الذى كان يضع فى يد رئيس أمريكا كل دراما الحياة أو الموت، فضلاً عن أن فضائح الرئاسة و«هلهلة» الصحافة لبيل كلينتون نزعت عن المكتب البيضاوى (فى البيت الأبيض) كل بريق، أو سحر، أو هالة كان يتمتع بها. ولما كانت المعركة تدور الآن حول تقليص دور الحكومة الفيدرالية، فقد عمل الكونجرس والبيت الأبيض معا على نقل كثير من برامج الضمان الاجتماعى إلى حكومات الولايات والمدن. وقالت الصحيفة أن ثورة المعلومات ونمو آليات عصر المعلومات جعلت ما يستحدث ويدور فى وادى السليكون مركز صناعة تكنولوجيا المعلومات أهم مما يجرى فى واشنطن، من حيث إنه يرتبط مباشرة برفاهية الفرد العادى ومدخراته واستثماراته.

بل إن فيليكس روهاتين الاقتصادى المشهور الذى أنقذ نيويورك من الإفلاس ثم أصبح سفيرًا لأمريكا فى باريس، نصح وزارة الخارجية الأمريكية «بتفتيت» سفاراتها فى الخارج وبعثرتها على المدن خارج العواصم الدولية، لأنه يرى أن هذه الدول تبحث عن «زبائن» لتسويق صادراتها، وأنه يتوقع أن نرى أحد هؤلاء يصبح رئيسًا فى القريب العاجل.

وفى مقال آخر صدر فى أول سبتمبر، قالت الصحيفة: إن وجه الاختلاف فى انتخابات هذا العام أنه ليس هناك رئيس قابع فى البيت الأبيض طرف فى المعركة، (وهذه ثالث مرة فقط منذ سنة ١٩٦٠)، كما أن الرفاهية التى يحس بها الفرد العادى تجعل الناخبين مسترخين مستريحين، الأمر الذى يدفعهم إلى الانتظار حتى يقترب موعد الانتخاب، أضف إلى ذلك أن متابعة الألعاب الأوليمبية سوف تلهيهم حتى شهر أكتوبر، ومن ثم فإن الصورة يوم عيد العمال هذا العام قد لا تكون واضحة أو دقيقة بالقدر الكافى.

وسيمضى المرشحان الفترة القادمة فى السفر المحموم بين الولايات التى مازالت تتأرجح بين المرشحين، كما يرصدان عشرات الملايين من الدولارات للإعلانات السياسية ضد بعضهما البعض، وربما كان مرد صعوبة الاختيار فى هذا الوقت المبكر، هو ما أشار إليه الكاتب الصحفى جول ويتكوفر (فى كتاب: ليست هذه طريقة لاختيار الرئيس) الذى قال إن حملة هذا العام ارتفعت إلى مستوى أفضل من أى عام مضى، لا سيما بعد انتهاء الانتخابات الأولية. فكلا المرشحين يجئ من التيار العريض فى الحزبين الرئيسيين، وكل منهما يجر الحزب نحو الوسط، فقد تبنى بوش شعار «المحافظ الرحيم» وتبنى جور شعار الليبرالى البراجماتى، أى أنه ليس مثاليًا أو متطرفًا فى عقائده وأفكاره، وكلاهما ينحدر من أبناء النبلاء، فبوش هو ابن رئيس سابق للجمهورية، وجور ابن لسناتور سابق. وكلاهما يمثل الصفوة ولا يمثل الجماهير العريضة أو الكادحة. ويعيب ويتكوفر على ذلك أن الدائرة أصبحت مغلقة لا تسمح بأى ثغرة لمرشح مثل رالف نادر أو بات بيركانان للنفاذ إلى الحلبة السياسية. وبطبيعة الحال فقد صدرت عدة كتب عن حياة كل من المرشحين، ربما كان أفضلها ما كتبه المؤرخ دافيد مارانيس عن البرت جور، بعنوان: «أمير من تنيسى»، تتبع فيه حياة نائب الرئيس جور منذ نشأته وهو يعيش فى جناح فندق «فيرفاكس» بحى السفارات فى واشنطن إلى أن عاد إلى بلدته ليعمل فى صحيفة «كوريار قرطاج» التى كانت توزع ٣٢٠٠نسخة، ويحلم بأن يشترى الجريدة ويقضى عمره فى النشر والكتابة. غير أن اعتزال جو ايفينز النائب الديمقراطى من مقعده بالكونجرس ـ الذى كان يشغله والد جور قبل ذلك ـ دفع أصدقاء جور إلى أن يطلبوا منه أن يسعى لشغل هذا المقعد. وشجعه والده الذى كان يعمل فى امبراطورية المليونير اليهودى آرماند هامر التى تضم شركة أوكسيدنتال للبترول وعدة شركات أخرى.

ويقول مارانيس أن مجرى حياة جور تغير تمامًا، واشترى ثلاث بدل زرقاء، وحلق «سوالفه» وانتقل من الشقة التى كان يقطنها فى ناشفيل وينام على حشية مملوءة بالماء (كالبالون) إلى منزل على ٨٨ فدانًا فى الضواحى كان والداه قد اشترياه من شركة أوكسيدنتال، بل إنه قال أنه فى اليوم الذى ألقى فيه أول خطاب له على سلم محكمة قرطاج تغلبت عليه مشاعره وعاد إلى منزله ليتقيأ.

ويصف كتاب مارانيس كيف أن جور كان دائمًا يستميت للفوز بمباريات «البنج بونج» وهو صبى، أو مباريات المصارعة وهو طالب بمدرسة «سانت البانه» لأبناء الذوات فى واشنطن، ولكنه ما أن بدأ فى السباق السياسى حتى بدأ يعرف بانه ياخذ كل شىء مأخذ الجد من التدريبات الرياضية الشاقة كل صباح فى منزله إلى تردده على كل مصنع وكل مكان يتجمع فيه الناخبون.

والمفارقة التى يظهرها تاريخ حياة جور من البداية هى أنه ـ لكى يكسب ـ كان ينبغى عليه أن يضع مسافة بينه وبين والده، الذى فقد مقعده فى الكونجرس لأنه كان ليبراليا معارضًا لحرب فيتنام. وبدأ جور حياته مدافعًا عن نفسه أمام منافسيه الذين كانوا يتهمونه بأنه رجل شركات البترول الذى جاء من واشنطن، ولم يعش فى بلدد قرطاج، ولم يذهب إلى مدارسها، أو يلعب الكرة فى هذه المدارس. وكانت حملات جور كلها تعتمد على ميوله المحافظة، كان يدافع عن حق المواطنين فى حيازة السلاح، ويعتبر الشذوذ الجنسى أمرًا غير عادى، وينادى بإصلاح نظام الضمان الاجتماعى، ويعارض الإجهاض، حتى تساءل مارانيس: هل كان جور يؤمن بذلك كله أم أنه كان يفصل آراءه حتى تتوافق مع المزاج السائد فى بلدته وولايته يومها؟ وقد كان ذلك ما فعله بيل كلينتون فى أولى مراحل حياته فى ولاية أركانسو، حيث كان يسعى لمنصب وزير العدل فيها، فقد أدهش كل أصدقائه بأنه تبنى عدة مواقف يمينية محافظة لكى يكسب.

ونقل مارانيس عن صحف العاصمة ناشفيل التى أجرت أحاديث مع جور فى هذه الفترة وكان يؤكد أنه لا يتبنى هذه المواقف المحافظة لكى يكسب، وإنما لأنه يؤمن بما يقول على حد تعبيره.

وكتب جيمس فالوز، رئيس تحرير مجلة «أتلانتيك» الشهرية ـ وهو من أقطاب الليبراليين ـ فى عدد شهر يوليو عن صفة من صفات جور التى ربما كانت الفيصل فى المرحلة القادمة بينه وبين جورج بوش. وهى أنه بالرغم من أنه «متخشب» مثل اللوح. وقدراته كخطيب أدنى بكثير من رئيسه بيل كلينتون، فقد أثبت خلال عقد التسعينيات أنه من أكثر المبارزين فى المناظرات السياسية على القتال والإجهاز على منافسيه. فهو عدوانى إلى حد الشراسة، ومستعد للىّ القواعد والحقائق إذا اقتضى الأمر، وهو أكثر المرشحين قدرة على استخدام هذه المناظرات لكسب بعض المعارك السياسية.

ففى سنة ١٩٩٣، كان معظم الناس يتوقعون أن يتفوق روس بيرو على آل جور فى المناظرة التليفزيونية بينهما، لا سيما حول قضية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا). بسبب ميل روس إلى تبسيط الحقائق وتصويرها بسهولة للجمهور بجمل قصيرة، ولكن جور سحق روس فى المناظرة، وكسب جور إلى صفه معظم أعضاء الحزب الديمقراطى الذين كانوا يعارضون القانون.

آل جور والصوت اليهودى

كذلك عندما وقف جور والسناتور بيل برادلى الذى كان ينافسه فى الانتخابات الأولية، وأعلن السناتور دانيل باتريك موينهان تاييده للسناتور برادلى لأنه يعتقد أن جور «غير قابل للفوز»، ولا يمكن انتخابه. استطاع جور أن يفقد برادلى توازنه بعدد من الهجمات التى لم يتوخ فيها الصدق أو الحقيقة، الأمر الذى انتهى بان خسر برادلى تفوقه فى ولاية نيوهامبشاير على جور، وفاز جور بكل تصفية بعد ذلك.



ونقل فالوز سيرة لجور أعدها اثنان من الصحفيين هما بيل تورك ومايكل كراولي، بعنوان: «إعادة اختراع جور سنة ٢٠٠٠»، عادة جور في التمسك بادعاءات عن نفسه، كان من السهل دائمًا دحضها. فمنذ أن كان نائبًا حديثًا وحتى الانتخابات الأولية هذا العام، استمر جور في ذكر بعض الروايات والصفات عن نفسه إما «مزوقة»، أو زائفة، أو مضللة، وكثيرًا ما تكون لا أساس لها من الصحة، لدرجة أدهشت حتى بعض مؤيديه. كان يقول مثلاً في أول حملة له لمنصب الرئاسة سنة ١٩٨٨: «إنني وزوجتي وأبنائي الأربعة نعيش في مزرعة خارج قرطاج بولاية تنيسي»، في الوقت الذي كان أبناؤه الأربعة يذهبون إلى المدارس في واشنطن. وهكذا. ويخلص فالوز إلى القول: إنني بعد أن درست تاريخ جور بالتفصيل أجد نفسي أكثر احترامًا لقدراته وأقل حبًا أو ميلاً له.

وقالت صحيفة «لوس إنجيليس تايمز» أن جور لا يقع كثيرًا في أخطاء، ولكنك عندما تستمع إليه يخيل إليك أنه يتمرن أمام المرآة على ما يقوله، وليته يقول: أنا لا يهمني رأيك، فهذه هي مبادئي. ولكنه يصر على أن يبني حملته كلها على أنه شخص لطيف فعلاً، ليس ليقنعك بأنه لطيف، وإنما ليقنعك بأنه سيكون على الصورة التي تريده أنت أن يكون عليها وتتوقعها منه.

وبالرغم من أن ألبرت جور يجيء من إحدى ولايات الجنوب، التي تتفشى فيها إن لم يكن كراهية اليهود، فهم على الأقل لا يثقون فيهم، وعندما فاز جيمي كارتر بترشيح الحزب الديمقراطي له، هاجمته كل المنظمات اليهودية، واتهمته بأنه قسيس إن لم يكن يكره اليهود، فسوف تبقى سحابة قاتمة فوق رأسه بالنسبة لهم حتى يثبت لهم العكس، ولكن جور لا يسعى وراء الصوت اليهودي بالرغم من أنه لا يؤمن به تيمنا برئيسه بيل كلينتون فهو يؤمن بإسرائيل عقائديًا ونفسيًا وتاريخيًا حتى النخاع.

فالواقع أن بيل كلينتون مدين للصوت اليهودي والأموال اليهودية بنسبة تفوق ٨٠ في المائة، وهذا ما يؤكده جيري جولدبرج، ابن القاضي الشهير آرثر جولدبرج الذي خدع العرب بقرار ٢٤٢، وقال إنه لم يتضمن حروف الألف واللام قبل كلمة «أراضي» ليس لأن هناك خلافًا حول انسحاب إسرائيل بالكامل، وإنما لمجرد إجراء «تعديلات طفيفة». وقد كتب جيري جولدبرج أهم كتاب في السنتين الأخيرتين عن الهيمنة اليهودية بعنوان: «القوة اليهودية» قال فيه: إن السعي إلى الصوت اليهودي خلال القرن العشرين أصبح شيئًا مألوفًا، يتبعه المرشحون وهم يلبسون «القلنسوة» اليهودية، ويجري تصويرهم وهم يأكلون الوجبات المعدة على الطريقة اليهودية «الكوشير»، ولكنها تحولت في الآونة الأخيرة إلى إعلان الوله الأبدي بإسرائيل، وتأييدها في كل ما تحتاج إليه، إلى أن يحل موعد الانتخابات.

ويمضي جولدبرج يقول: وما إن يصل المرشح إلى منصبه حتى ينظر إلى الصوت اليهودي من ناحية عملية، ويعمل ألف حساب لكل قرار يتخذه يتعلق بإسرائيل أو بعلاقة الكنيسة بالدولة، وينفق كل مرشح الملايين لكسب الصوت اليهودي، وقد حرص كل مرشح منذ سنة ١٩٧٢ على تأسيس تنظيم يهودي مستقل، بموظفيه وميزانيته ليجوب أنحاء أمريكا وراء أصوات اليهود الذين لا يزيد عددهم على ٢,٥ في المائة من السكان، وهو شيء يبدو بلا معنى!

ويشرح ذلك بقوله: إن الأرقام يمكن أن تكون مضللة، لأنه بالرغم من أن عدد اليهود لا يزيد على ٢,٥ في المائة، فإنهم يمثلون أكثر من ٤ في المائة من الناخبين، ذلك أنهم يمارسون - كجماعة - حقهم في الانتخاب بنسبة أعلى من الغالبية، إذ تبلغ نسبة اليهود المسجلين في قوائم الانتخاب ٨٠ في المائة من مجموعهم، بينما لا تزيد هذه النسبة على ٥٠ في المائة لغالبية السكان، أضف إلى ذلك أنهم يصوتون أيضًا بنسبة أعلى تبلغ ضعفين تقريبًا.

ولكن ذلك لا يعدو أن يكون نصف القصة، ذلك أن ٨١ في المائة من اليهود يتمركزون في تسع ولايات تقريبًا، وهي الولايات المهمة في تحديد «المجمع الانتخابي» - الذي سيجيء ذكره بعد قليل - بمعنى أنها هي الولايات المفاتيح في أي انتخاب وهي: نيويورك ونيوجرسي وفلوريدا وماساتشوستس وميريلاند وكونكيتكت وكاليفورنيا وبنسلفانيا وإلينوي.

الولاية	النسبة المئوية لليهود بين السكان	النسبة المئوية لليهود بين الناخبين
نيويورك	٪٩,٠	٪١٨,٣
نيوجرسي	٥,٥	٩,٩
فلوريدا	٤,٧	٨,٢
ماساتشوستس	٤,٥	٨,٣
ميريلاند	٤,٣	٨,١
كونكيتكت	٣,٠	٦,٢
كاليفورنيا	٣	٥,٨
بنسلفانيا	٢,٧	٤,٩
الينوي	٢,٣	٣,٩

وتتضمن هذه الولايات ٢٠٢ صوت من أصوات المجمع الانتخابي بين ٥٣٥، أي ٣٧ في المائة من المجموع.

ويذكر المؤلف أنه بالرغم من أن اليهود يصوتون لصالح الحزب الديمقراطي عادة، فإن نصفهم صوتوا لصالح كلينتون بصفة خاصة. وطبقًا لتقديره فإن نحو ١,٥ مليون يهودي صوتوا لكلينتون لأنه استطاع أن يستميلهم للتصويت من أجله شخصيًا، وليس فقط لأنه المرشح الديمقراطي.

الدافع وراء اختيار السناتور اليهودي ليبرمان

ومعنى هذا أن اليهود كانوا يمثلون ربع كل الأصوات التي حصل عليها كلينتون في المرتين: ١٩٩٢و١٩٩٦، بل إن التحليل الدقيق لكل ولاية على حدة يظهر أن اليهود استطاعوا في خمس ولايات تجمع فيما بينها ٨٦ في المائة من المجمع الانتخابي وهي: (نيويورك ونيوجرسي وأوهايو وچورچيا ونيفادا) كانت نسبة اليهود فيها ٧٥ في المائة من مجموع الأصوات التي تمثل فارق النجاح الذي حصل كلينتون عليه.

فهل كان هذا هو الدافع وراء اختيار جور للسناتور اليهودي جوزيف ليبرمان؟ إن ما يثير الدهشة في هذا الاختيار أن جور لا يحتاج إلى ممالأة اليهود، فليس هناك على الساحة السياسية حاليًا من هو أقرب إليهم من جور. فهو معروف بأن رجل إسرائيل المفضل، وقد كان اليهود يقولون عن دوائر وولتر مونديل إنهم «يملكونه»، ولكن جور أقرب لهم من ذلك، فقد اختار أن يلقي خطابه أمام الكنيست الإسرائيلي منذ عامين أثناء الاحتفال بمرور ٥٠ سنة على إنشاء إسرائيل باللغة العبرية، الأمر الذي لم يفعله أي سياسي آخر في العالم، بل إنه في خطابه أمام المؤتمر السنوي لمنظمة «أيباك» وهواللوبي الإسرائيلي في واشنطن، وصل - أو قل هبط - جور إلى مستوى من الإسفاف السياسي لم يصل إليه أحد من قبله، إذ قال في خطابه إنه عندما ذهب أول سفير أمريكي لمقابلة دافيد بن جوريون وجد بن جوريون يقف على رأسه لممارسة رياضة اليوجا، ولما كان السفير دبلوماسيا محترفًا، فقد رأى أن يقف هو الآخر على رأسه طوال مقابلته لبن جوريون. ووعد جور بأن تتطابق وجهتا نظر البلدين إذا ما فاز بالرئاسة، حتى ولو أدى ذلك إلى أن تقف أمريكا على رأسها. وهناك أكثر من سبب للدهشة في اختيار ليبرمان، فعندما عرف أن وارين كريستوفر وزير الخارجية السابق يدرس ملف السناتور ليبرمان كأحد المرشحين، كتب دافيد نايهان في صحيفة «بوسطن جلوب» يقول إن ليبرمان محافظ، ويختلف عن جور، وإنه ليس المرشح المناسب لأنه يبدو دائمًا كشخص اكل سمكة «فاسدة» على الغداء ويحتاج إلى حبوب مضادة للحوامض!

أضف إلى ذلك أن ليبرمان يضيف شيئًا إلى التذكرة الانتخابية، لأنه يجيء من ولاية صغيرة - كونكيتكت - لا تتعدى أصواتها ١٤ صوتًا في المجمع الانتخابي. وليبرمان يمثل التيار المحافظ في الحزب الديمقراطي تعد مواقفه أقرب إلى مواقف بوش من جور: فهو يدافع عن مصالح شركات التأمين لأنه يمثل ولاية تقع فيها ٣٦ من كبريات شركات التأمين، كما يدافع عن شركات السلاح، وينادي بزيادة الإنفاق على السلاح، بما في ذلك بناء غواصة «ذئب البحار» التي كانت محل جدل ولغط لمجرد أنها تبنى في ولايته ويتكلف بناؤها ٢,٥ مليار دولار لكل قطعة، وطائرات بلاك هوك وكومانشي الهليكوبتر. كذلك فقد كان ينادي بالتجارة العالمية، والاختراعات التكنولوجية، الأمر الذي أبعده عن قطاع مهم من الحزب وهو نقابات العمال، وكان معظم التأييد والدعم المالي يجيئه من هذه الشركات ومن شارع المال في نيويورك ووادي السليكون في كاليفورنيا وشركات الأدوية، وكثيرًا ما انتقدته إدارة كلينتون - جور لأنه تقدم بعدد من مشروعات القوانين الي وصفتها الإدارة بأنها «سخيفة للغاية» وأنها لا تهدف إلا لخدمة شركات التأمين!

ولكن مواقف ليبرمان المحافظة تجاه بعض القضايا التي تمس السود هي التي أثارت أهم عاصفة معادية له بعد اختياره. فقد سبق أن عارض ليبرمان قانون «العمل الإيجابي» الذي يعتبر ركنًا مهمًا من الحقوق المدنية التي يتمسك بها السود، كما أنه أيد توزيع قسائم التعليم على كل من يرغب في إرسال أبنائه إلى المدارس الخاصة.

وقام السود عقب ذلك مباشرة بمظاهرة تزعمها القس جيسي جاكسون، كما انضمت إليهم باتريشيا آيرلند رئيسة المنظمة

هذا المناخ العام كله، أدى إلى أهم تغيير حدث في الحياة السياسية في واشنطن كلها وهو صعود دور المال، وتمويل الحملات السياسية، بحيث أصبح المال هو العامل الأساسي والأول في أي معركة، وليس السياسة، أو المبادئ، أو المعتقدات أو أجندة العمل أو أي شيء آخر

بحلول سنة ١٩٩٦، ألقى الرئيس بيل كلينتون ونائبه ألبرت جور بكل المقاييس والمعايير من النافذة، وبدآ يستخدمان «الأموال الناعمة» في حملاتهما الخاصة والإعلانات السياسية بطريقة فجة وبلا أية حدود أخلاقية أو قانونية، بعد أن جمعاها بطرق مشبوهة ومصادر مشبوهة وممارسات غير قانونية، حتى بلغ ما جمع سنة ١٩٩٦ أكثر من ٢٦٢ مليون دولار، وهو أعلى رقم وصلت إليه أية انتخابات، وأكثر من كل الحملات الثلاث السابقة مجتمعة

القومية للمرأة، واتهم جاكسون ليبرمان بأنه انضم إلى الحزب الجمهوري، وأنه يقلب قانون «العمل الإيجابي» رأسًا على عقب، ولم يعد «ديمقراطيًا» وإنما أصبح «ديمو جمهوريًا» وهاجم جاكسون مجلس القيادة الديمقراطي الذي يرمز له بالحروف (DLC) الذي أسسه ويرأسه ليبرمان وأسماه «مجلس الطبقة المرفهة».

ولكن ما أن اختار جور ليبرمان، حتى انقلبت كل الموازين، وأصبح الليل نهارًا، وقامت شبكات التليفزيون الثلاث الكبرى، التي قاطعت مؤتمر الحزب الجمهوري كله، واعتبرته خبرًا صغيرًا في نشرات الأخبار المسائية، بتغطية اختيار ليبرمان حيا على جميع محطاتها، وراح كتاب الصحف ومعلقوها جميعًا يهللون لهبوط الوحي على جور، ومنذ ذلك اليوم وهم يقولون إن جور يتفوق على بوش في جميع الاستطلاعات، الأمر الذي ثبت كذبه بعد أيام قليلة إذ أصبحت كل الاستطلاعات - رغم جنوحها إلى جور - تقول إن المسافة أقرب جدًا بين المرشحين، وإن المعركة ما زالت تمر «بأعلى درجات السخونة».

وقد كتب أحد المحللين عمودًا لا ندرى ما إذا كان مديحًا أم عكسه قال فيه: إن الاختيار يعلمنا شيئًا عن اليهود الأرثوذكس، وهو أمر صحى في جميع الأحوال. فهم يحرصون يوم السبت على ألا يركبوا الدواب أو السيارات، أو يردوا على التليفونات، أو يقوموا بالكتابة، وهم لا يمسكون بالفلوس، أو يطبخون الطعام، أو يستمعون إلى الراديو، ولا يشاهدون التليفزيون أو ينظفون البيت، أو يستحمون، أو يأخذون «دش» ولا يوقدون النور أو يطفئونه، ولا يوقدون نارًا من أي نوع!

ونظرًا لأن ليبرمان لا يستطيع أن يركب السيارة يوم السبت (منذ غروب الشمس يوم الجمعة وحتى عشاء السبت) فقد كان يبيت في شقة بجوار مكتبه في الكابيتول يملكها زميله آل جور، وكان جور في الواقع يقوم طواعية بدور «المرمطون» الذي يسمى عند اليهود «شابوس جوى» أي الولد المسيحي الذي يقوم بالخدمات التي لا يستطيع اليهودي الأرثوذكسي القيام بها يوم السبت، مثل إطفاء النور أو القيادة!

من هنا فقد كانت العلاقة بينهما وثيقة، وكانت لهما مواقف متطابقة إذ وقفا معا في تاييد حرب الخليج في صف بوش. وربما أراد جور أن يضع حدًا لعامل «الزهق من كلينتون» وإلغاء المشكلة الأخلاقية بضربة واحدة، فاختار ليبرمان.

وباختيار ليبرمان، وطبع قبلة سينمائية طويلة على شفتي زوجته «تيبر» أمام الجمع الغفير في مؤتمر الحزب الديمقراطي، كسب بها غالبية النساء في صفه، وبخطبة متصلة رائعة غير فيها جور من شخصيته المتخشبة، ألغى جور الفارق بينه وبين بوش، وطبقًا لبعض الاستطلاعات، بدأ يتفوق عليه بفارق ضئيل. وجرت العادة أنه عندما يكون الاقتصاد قويًا، وينمو بأكثر من ٤ في المائة، فإن ذلك يكون في صالح مرشح الحزب الحاكم، والاقتصاد ينمو بقوة بالفعل، بنسبة أكثر من ٥ في المائة في النصف الأول من هذا العام.

ويعتقد السناتور جوزيف بايدين أن المعركة حسمت لصالح جور، وأنه إذا لم يتلق جور لكمة قوية في فكه تفقده توازنه، فقد قضي الأمر. ولكن أحدًا لا يصدق ذلك، سواء من الديمقراطيين أو الجمهوريين، لا سيما أن ما يحسم المعركة في النهاية هو ما يحصل عليه كل منهما من نسبة أصوات هذا المجمع الانتخابي الذي تحدثت عنه في البداية.

المجمع الانتخابي يحدد من الفائز

فالواقع أن الشعب الأمريكي يقوم بعمليتين انتخابيتين، واحدة مباشرة، والأخرى - وهي الحاسمة - غير مباشرة، يقوم بها عدد من المنتخبين الذين يختارون بدورهم الرئيس الأمريكي، وفي هذه الانتخابات غير المباشرة، قد تزيد النسبة التي يحصل عليها المرشح عن الأصوات المباشرة أو تقل. فالشعب الأمريكي يختار ٥٣٨ مندوبًا عنه، يمثلون الولايات الخمسين، وتنقسم هذه الأصوات طبقًا لحجم الولايات وتعدادها، فنصيب ولاية كاليفورنيا مثلا ٥٤ صوتًا، تليها ولاية نيويورك التي تضم ٣٣ صوتًا، وهكذا، أما الولايات الصغيرة القليلة التعداد، فيرصد لها ٣ أصوات لكل منها حتى لو لم يسمح تعدادها بذلك. ويقضي قانون المجمع الانتخابي أن المرشح الذي يحصل على أغلبية الأصوات في أية ولاية، فإنه يغنم جميع الأصوات المخصصة لها في المجمع الانتخابي. ويحدث أحيانًا أن تخدم هذه الأصوات المرشح الفائز وتزيد من نسبة فوزه، كما حدث مع الرئيس نيكسون مثلاً سنة ١٩٦٨، فقد حصل على ٣٠١ صوت من المجمع الانتخابي مما أعطاه نسبة ٥٦ في المائة من المجمع، بينما كانت الأصوات المباشرة تمثل ٤٣،٤ في المائة فقط من الناخبين. كذلك حصل الرئيس جيمي كارتر على ٢٩٧ صوتًا سنة ١٩٧٦ أعطته ٥٥ في المائة من المجمع الانتخابي، بينما لم يحصل إلا على ٥٠،١ في المائة من الأصوات المباشرة. من هنا فقد دارت عدة مناقشات تليفزيونية طوال هذا الصيف حول إمكان فوز أحد المرشحين بغالبية المجمع ولم يحصل على غالبية الأصوات الشعبية، وقال معظم الخبراء إن ذلك ممكن ولكنه مستبعد.

وتختلف آراء المتخصصين حتى حول هذه النقطة بحدة، إذ اعتقد بعضهم - طبقًا لصحيفة «كريستيان ساينس» أن بوش يتفوق بفارق ضخم على جور، إذ إنه يضمن حاليًا نحو ٢٥٠ صوتًا مقابل ١٧٤ لجور، بينما عبرسته من أساتذة العلوم السياسية «نيويورك تايمز» عن رأيهم بأن جور سيكسب بنسبة تتراوح بين ٥٣ و ٥٥ في المائة!

وتنحصر المعركة الدائرة حاليًا كلها حول الاقتصاد، وما الذي ينوي أن يفعله كل من المرشحين حول الفائض الذي يقدر بأنه سيصل إلى ٤،٦ ترليون دولار خلال السنوات العشر القادمة، وبالرغم من إصرار جور على أنه يدافع عن الفقراء وأن بوش يدافع عن الأغنياء، فالواقع أن الخلافات بينهما طفيفة.

أما الذي يدافع عن الفقراء بحق، فهو رجل من أصل عربي، وهو رالف نادر، الذي لم تلتفت له الصحافة العربية أو الأمريكية أو تعطه حق قدره، بينما قالت عنه مجلة «رولينج ستونز» أنه واحد من أكثر الرجال نفوذا في أمريكا، فقد كان هو وراء تمرير العديد من القوانين في الكونجرس بسبب نضاله المتواصل من أجل المستهلكين والمطحونين، قوانين ضد السيارات السيئة الصنع، والمياه الملوثة، والهواء الملوث، وأحوال أماكن العمل والمصانع، والبنوك السيئة، وقد كان وراء تمرير اثنين من أهم القوانين المعاصرة على الإطلاق وهما قانون حرية الحصول على المعلومات (الحكومية) وقانون الهواء النقي.

وبالرغم من تجاهل كل الصحف الكبرى هنا المتعمد لنادر، فما زال يمثل الخطر والأمل في المستقبل معا، فهو إذا حصل على خمسة في المائة من الأصوات العامة، فسيعطيه ذلك ويعطي حزب الخضر الذي يمثله الحق فيما يسمى بالاعتمادات الحكومية المماثلة، أي أنه إذا جمع خمسة أو عشرة ملايين دولار مثلاً، تدفع له الحكومة عشرة مثلها، الأمر الذي يضعه على خريطة الانتخابات القادمة بقوة. وقد أثار ذلك الرعب في قلب الرئيس كلينتون منذ الانتخابات الماضية ١٩٩٦، إذ قال ديك موريس، الذي كان من أقرب مستشاريه أيام فضيحة مونيكا لوينسكي، أن كلينتون طفق يسألني عن نادر عدة مرات، وكان يخشى أن يسبب نادر له فقدان ولاية كاليفورنيا المهمة، وقال موريس أنه غير متأكد ما إذا كان كلينتون قد حاول أن يدفع بنادر خارج عملية الانتخاب ولكنه كان مرعوبًا منه بشكل واضح.

ونادر هو أول مرشح صادق مع نفسه ومع الشعب الأمريكي، وأول مرشح لا يعتمد على الملايين الطائلة التي تنفقها الشركات الكبرى وجماعات الضغط وإفساد الحياة السياسية، والوحيد الذي يمكن أن يهز سفينة جور بعنف، والوحيد الذي ينادي بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، ويعارض نقل السفارة الأمريكية إلى القدس وقد كنت أردد لجميع الأصدقاء من الأمريكيين العرب، أنهم لو أرادوا هزيمة جور، فعليهم أن يصوتوا - ككتلة - لصالح رالف نادر، وساعتها فقط سيلتفت لهم الحزبان الرئيسيان والشعب الأمريكي كله، ويعملون لهم ألف حساب.

ومهما كانت نتائج الانتخابات. فقد استطاع رالف نادر أن يغير الخريطة السياسية لأمريكا إلى الأبد، فرد واحد استطاع أن يعري الحزبين الرئيسيين، ويزرع بذرة بين طلبة الجامعات أنهم هم القادرون على خلق المستقبل الذي يطلبونه، لأن الحزبين الرئيسيين غير قادرين على إصلاح أنفسهما. فقد وصل إفساد الحياة السياسية مداه، وأصبحت العملية السياسية تعتمد على أموال الشركات الكبرى، وأن أبواب الديمقراطية بدأت في الانغلاق في واشنطن لأنها اختطفتها الشركات العالمية التي أصبحت تسيطر على كل قطاعات المجتمع.

أما العامل الثاني الذي سيلعب دورًا كبيرًا في الانتخابات القادمة، فقد ترك بصمات مهمة في هذه الحملة، ولكنه ما زال في بدايته، وهو «الإنترنت». فهناك ٨٠ مليون أمريكي يستخدمون «الإنترنت» على الكمبيوتر يوميًا، ويستخدمها ٢٥ مليونًا حاليًا في الحصول على المعلومات. ولم تعد المعلومات حكرًا على الجريدة اليومية أو القناة المفضلة. وكتب ديك موريس كتابًا سماه بلغة الكمبيوتر: «التصويت. دوت. كوم» ليشرح كيف تتغير الحياة السياسية أمام أعيننا، وقد أصبح أي فرد يستطيع أن يكون ناشرًا، وأن يتعرف كيف يصوت النواب، وخلفياتهم. ومن أين تاتي التبرعات السخية لحملتهم، وكيف تنفق. حتى الاجتماعات التي برع فيها كلينتون في المدن الصغيرة وأصبحت سمة من سمات حكمه، حل محلها اللقاء والنقاش على الإنترنت، ويعتقد موريس أن الاستفتاءات سوف تجرى على الإنترنت، وسيكون لها تأثير أقوى من الحكومة، وسوف يقضي على سيطرة رءوس الأموال التي أفقدت الناس ثقتهم في ممثليهم، وهو يتفق مع نادر في أن الحزبين الرئيسيين ينافقان عندما يتحدثان عن إصلاح النظام الانتخابي. ويؤمن مع نادر أن الإنترنت سوف يقلص أهمية المال في المعارك الانتخابية، ولكنها معركة طويلة الأمد.

الغــرب يعلن الحــرب

الانتعاش الاقتصادى فتح شهيتـه على الطاقة الرخيصة:

■■ تلقى حكومات الدول الغربية مسئولية ارتفاع أسعار البترول الخام فى الآونة الأخيرة على دول أوبك التى لا يزيد نصيبها مجتمعة على ٤٠٪ من الإنتاج العالمى. وفى محاولة لفهم ما يجرى فى السوق العالمية للبترول، ينبغى التفرقة بين العوامل الأساسية التى تحكم تلك السوق وبين الأعراض التى تكشف عن اختلالات وقتية لن تلبث أن تنقشع خلال زمن قد لا يتجاوز الربع الثانى من العام القادم. ولذلك ينبغى أن نبدأ بتوضيح الدور الذى يلعبه كل من الأطراف الأربعة الأساسية المتعاملة فى تلك السوق وهم : الدول المصدرة، والشركات الوسيطة، وحكومات الدول المستوردة، ثم المستهلك النهائى.

خذ بريطانيا كمثال حيث يهدد رئيس وزرائها «تونى بلير» بتشكيل جبهة للتصدى لأوبك بقصد الضغط عليها لزيادة الإنتاج وخفض الأسعار. ففى عام ١٩٩٩ عندما كان سعر سلة أوبك (وهى مجموعة من الزيوت الخام التى تنتجها دول المنظمة) لا يتجاوز ١٨ دولارا للبرميل فى المتوسط، كان المستهلك البريطانى يدفع فى هذا البرميل بعد تحويله إلى منتجات قابلة للاستهلاك مثل البنزين ووقود التدفئة نحو ١٤١ دولارا. أين ذهب الفرق ؟ حصلت الشركات الوسيطة على نحو ٢٧ دولارا (أى ١٩٪) بينما حصلت الحكومة البريطانية فى صورة ضرائب على نحو ٩٦ دولارا (أى ٦٨٪)، وتحملت أوبك نحو ٧ دولارات كتكلفة إجمالية لإنتاج البترول الخام (أى ٥٪) وبذلك لم يبق لها من الـ ١٨ دولارا غير ١١ دولارا لتعويض قيمة الثروة البترولية التى نضبت تلبية لاحتياجات الدول الصناعية ولا يمكن تجديدها مهما طال الزمن. وبعبارة أخرى، فإن صافى ما حصلت عليه دول أوبك من السعر الذى دفعه المستهلك النهائى بعد استقطاع ما تحملته من نفقات لم يتجاوز ٨٪.

وحتى لو امتد الإطار الزمنى ليشمل الشهور التسعة التى انقضت من عام ٢٠٠٠ وقيل إن السعر تجاوز خلالها حد الثلاثين دولارا، فإن سعر البرميل من سلة أوبك لم يتجاوز ٢٧ دولارا فى المتوسط. وباستبعاد تكلفة الإنتاج التى تبلغ ٧ دولارات، فإن ما حصلت عليه دول أوبك كثمن صاف للثروة البترولية التى نضبت لم يتجاوز ٢٠ دولارا أو ما يعادل ١٤٪ من السعر النهائى.

ولا تختلف الصورة عن ذلك كثيرا بالنسبة للدول الصناعية الرئيسية وهى فرنسا وألمانيا وإيطاليا واليابان التى تتراوح معدلات الضرائب التى تفرضها على استهلاك المنتجات البترولية حول ٧٠ و٨٠٪ من السعر للمستهلك النهائى.

ومن دراسة حديثة لمنظمة أوبك يستخلص أن معدل الضرائب التى تحصل عليها الدول الأوروبية مجتمعة يبلغ نحو ٦٨٪ من السعر النهائى للمستهلك الأوروبى والذى يزيد قليلا على المائة دولار، بينما يبلغ ما تحصل عليه الشركات الوسيطة لتغطية نفقاتها وأرباحها نحو ١٦٪، وتحصل على مثلها دول أوبك بما فى ذلك التكلفة الفعلية التى تتحملها لإنتاج البترول.

أما الولايات المتحدة فهى الاستثناء الوحيد من هذا النمط، إذ تبلغ الضرائب البترولية فيها نحو ٣٤٪ ويتراوح متوسط سعر المنتجات للمستهلك النهائى بين ٤٥ و٥٠ دولارا للبرميل. والغريب أنه على الرغم من تدنى السعر فى السوق الأمريكية إلى أقل من نصف نظيره فى أوروبا، فإن الزيادة التى طرأت مؤخرا على أسعار البنزين فيها ولم تتجاوز سنتات قليلة فى اللتر دفعت أسعار البنزين إلى قمة القائمة التى يتنافس على أساسها مرشحو الرئاسة الأمريكية، كما دفعت الرئيس كلينتون للتهديد باستخدام الخيارات المتاحة له للتأثير على أسعار البترول بهدف تخفيضها.

عودة إلى بريطانيا التى تهدد بتشكيل جبهة للضغط على أوبك. فإنها تنتج من البترول الخام أكثر مما تستهلك، إذ بلغ إنتاجها عام ١٩٩٩ نحو ٢,٩ مليون برميل يوميا (ب/ى) بينما بلغ استهلاكها ١,٧ مليون ب/ى، وبذلك استطاعت تصدير نحو ١,٢ مليون ب/ى. وبذلك تستفيد بريطانيا كدولة مصدرة للبترول من ارتفاع سعر البترول الخام، وإن كانت قد رفضت صراحة التعاون مع أوبك لمساندة السعر عندما انخفض فى أواخر ١٩٩٨ إلى أقل من عشرة دولارات. ووجه التناقض فى موقف الحكومة البريطانية واضح، فهى من ناحية تستفيد من ارتفاع سعر الخام، كما تستفيد من ناحية أخرى من الضرائب الباهظة التى تفرضها على استهلاك المنتجات، ثم ترفض بعناد مطالبة شعبها بخفض تلك الضرائب.

وتتناسى الدول الصناعية الغربية فى ضغطها على أوبك لخفض الأسعار أن خسائر أوبك بلغت فى عام ١٩٩٨ وحده نحو ٥٦ مليار دولار، إذ انخفضت قيمة صادراتها البترولية من ١٦٦ مليار دولار عام ١٩٩٧ إلى ١١٠ مليارات دولار عام ١٩٩٨ نتيجة لانخفاض سعر سلة أوبك الى ١٢,٢٨ دولار للبرميل خلال العام المذكور. وإذ لا يتجاوز نصيب أوبك من صادرات البترول العالمية النصف تقريبا، فإن معنى ذلك أن خسائر مصدرى البترول قد بلغت فى العام المذكور نحو ١١٠ مليارات دولار استفاد منها الاقتصاد الغربى بما لا يقل عن ٨٠ مليار دولار عبر وارداته البترولية التى تمثل نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية.

ويتسم البترول، كمورد طبيعى ناضب، بوجود ما يعرف بالريع البترولى، والذى يعتبر توزيعه موضع خلاف رئيسى بين الدول المنتجة للبترول والدول المستهلكة له. إذ كلما انخفض سعر البترول الخام تضاءل نصيب الدول المنتجة من ذلك الريع والعكس صحيح. وقد انتهجت الدول الصناعية، بمساندة شركاتها البترولية العملاقة، من السياسات البترولية ما ساعدها على الضغط نزوليا على أسعار البترول الخام، ومن ثم اقتناص القدر الأكبر من الريع البترولى. ويعرف الريع البترولى بانه الفرق بين التكلفة الكلية (إنتاج ونقل وتكرير وتسويق) وبين سعر المنتجات المكررة فى أسواق المستهلك النهائى. ويتوزع الريع البترولى - بعد استبعاد



علـى أوبــــك!

حســـين عبـــدالله

كافة التكاليف وأرباح الشركات الوسيطة - بين الدول المصدرة (معبرا عن نصيبها بالفرق بين تكلفة الإنتاج وسعر البترول الخام) وبين حكومات الدول المستوردة (معبرا عنه بما تحصل عليه في صورة ضرائب تفرضها على المنتجات البترولية).

وتستند حصة الدول المنتجة للبترول في مشروعيتها إلى أن البترول يعتبر مصدرا طبيعيا ناضبا، وما تحصل عليه كنصيب في الريع يعوضها جزئيا عن نضوب تلك الثروة ويعتبر ثمنا لها مستقلا عن تكلفة الإنتاج. ومن ناحية أخرى، فإن هذا النصيب يساعدها على توفير استثمارات تستخدم في البحث عن حقول جديدة وتنميتها لضمان تلبية الاحتياجات المتزايدة للمستهلكين.

وكان برميل المنتجات المكررة يباع في عام ١٩٧٠ للمستهلك النهائي في دول المجموعة الأوروبية بنحو ١١,٤٢ دولارا. وباستقطاع إجمالي التكاليف، بما في ذلك تكلفة الإنتاج والنقل والتكرير والتوزيع وأرباح الشركات الوسيطة، كان الريع الصافي يقدر بنحو ٦,٠٧ دولار لم تحصل منه الدول المصدرة للبترول على اكثر من ١,٤٢ دولار وهو ما يعادل ٢٣٪ بينما كانت حكومات الدول المستهلكة للبترول تحصل على ٤,٦٥ دولار أو ما يعادل ٧٧٪.

فلما استردت الدول المصدرة للبترول، في ظل حرب أكتوبر ١٩٧٣، حريتها في تحديد الإنتاج والأسعار، تحول توزيع الريع البترولي إلى صالحها وبلغ ذروته في عام ١٩٨٠ عندما بلغ سعر البرميل للمستهلك النهائي نحو ٦٥ دولارا في المجموعة الأوروبية. وقد وزع هذا السعر بحيث حصلت الشركات الوسيطة على نحو ١٢ دولارا (أي ١٩٪) وحصلت الدول المصدرة على نحو ٣٤ دولارا للبرميل (أي ٥٢٪) بينما لم تتجاوز ضرائب الحكومات الأوروبية ١٩ دولارا (أي ٢٩٪) حيث اضطرت لخفض معدل ضرائبها إزاء الموقف التفاوضي القوي الذي كانت دول أوبك ما زالت تتمتع به في ظل انتصارات أكتوبر.

غير أن أسعار البترول الخام لم تلبث أن أخذت في التآكل خلال النصف الأول من الثمانينيات ثم انهارت من نحو ٢٨ دولارا في ١٩٨٥ إلى نحو ١٣ دولارا عام ١٩٨٦، عندئذ لم تسمح الدول الأوروبية بانتقال الانخفاض إلى المستهلك النهائي، مما كان سينعكس أثره في زيادة الطلب على البترول، بل سارعت إلى زيادة ضرائبها البترولية عاما بعد آخر بحيث ارتفعت من نحو ٢٢,٥٠ دولار عام ١٩٨٥ إلى نحو ٦٨ دولارا خلال عام ١٩٩٩ وتجاوز السعر للمستهلك النهائي في أوروبا مستوى المائة دولار. ويأتي مشروع الاتحاد الأوروبي لفرض ضريبة الكربون بحجة حماية البيئة كعبء إضافي على هيكل الضرائب البترولية. بل إن بعض الدول الأوروبية مثل ألمانيا بدأت بالفعل تفرض هذا النوع من الضرائب واستخدمت حصيلته في أغراض لا علاقة لها بحماية البيئة مثل إعانات البطالة أو خفض الضرائب على محدودي الدخل.

أما سعر البترول (معبرا عنه بسلة أوبك) فقد استمر في التآكل بحيث انخفض من ١٨,٦٢ دولار عام ١٩٩١ إلى ١٥,٥٣ دولارا عام ١٩٩٤ وبلغ أدناه عند ١٢,٢٨ دولار عام ١٩٩٨ حيث منيت أوبك بخسائر بلغت نحو ٥٦ مليار دولار كما ذكرنا.

وقد استمر السعر متدنيا خلال الربع الأول من ١٩٩٩ وانخفض أحيانا إلى أقل من عشرة دولارات مما دفع دول أوبك الى خفض الإنتاج منذ مارس ١٩٩٩، وساندتها في ذلك دول غير أعضاء في المنظمة مثل المكسيك وعمان وروسيا والنرويج، فارتفع السعر إلى ١٨ دولارا في يوليو ١٩٩٩ وتراوح حول ٢٤ دولارا خلال الربع الأخير والشهور الخمسة الأولى من ٢٠٠٠. بذلك سجل السعر ١٨ دولارا كمتوسط عام ١٩٩٩. وحتى بعد أن قفز السعر إلى ٢٩ دولارا منذ يونيو ٢٠٠٠ فانه لم يتجاوز ٢٧ دولارا في المتوسط خلال الأشهر التسعة التي انقضت من عام ٢٠٠٠.

وإذ تعتبر المجموعة الصناعية الغربية الشريك التجاري الرئيسي في مبادلة البترول بالسلع التي تصدرها تلك المجموعة إلى دول أوبك، فإن تطور الأسعار في الجانبين يمكن أن يعبر عن القيمة الحقيقية لسعر البترول. وبعبارة أخرى فإن استبعاد أثر التضخم وأثر تقلبات سعر صرف الدولار الذي يستخدم للتعبير عن سعر البترول يمكن أن يكشف عن تطور القيمة الحقيقية لأسعار البترول. وباستخدام ١٩٧٣ كسنة الأساس، فقد استمر تآكل سعر البترول في صورته الحقيقية، إذ أخذ في التراجع بعد أن بلغ ذروته عام ١٩٨١ عند ١٦,٣٩ دولار للبرميل (بدولارات ١٩٧٣) لكي يبلغ ١٥,١٨ دولار عام ١٩٨٥ قبل أن ينهار في عام ١٩٨٦ إلى نحو ٦ ستة دولارات. ولم يتجاوز سعر البترول في صورته الحقيقية (أي بعد استبعاد أثر التضخم وتقلبات سعر الصرف) مستوى أربعة دولارات على مدى الجانب الأكبر من عقد التسعينيات.

في ضوء هذه الخلفية، يصح التساؤل : ما الذي حدث منذ مطلع عام ٢٠٠٠ وما زال يحدث للآن في السوق العالمية للبترول؟

والإجابة ببساطة أن العوامل الأساسية التي تحكم تلك السوق وأدت إلى انهيار السعر عام ١٩٩٨ عادت إلى التوازن عام ١٩٩٩ ثم تحولت إلى الاتجاه العكسي عام ٢٠٠٠ وزاد عليها بعض التعقيدات الفنية. وهذا ما نلخصه في النقاط التالية :

(١) انعكس في عام ١٩٩٩ نمط العرض والطلب الذي ساد منذ منتصف ١٩٩٧ وساد خلال ١٩٩٨. فقد بلغ فائض الإنتاج العالمي الذي لم يستوعبه الاستهلاك نحو نصف مليون ب/ي عام ١٩٩٧ ونحو مليون ونصف مليون ب/ي عام ١٩٩٨ مما تسبب في الضغط نزوليا على السعر كما ذكرنا.

أما في عام ١٩٩٩ فقد انخفض الإنتاج العالمي من البترول بنحو مليون ونصف



الرسمان المرافقان لهذا المقال سبق نشرهما في «وجهات نظر».. ونعيد نشرهما هنا.. لأنه لا شيء يتغير!!



مليون ب/ى تحت مستواه فى عام ١٩٩٨ بينما تجاوز الاستهلاك العالمى مستوى عام ١٩٩٨ بنحو ١.٣ مليون ب/ى.

وقد أدت النتيجة المزدوجة عام ١٩٩٩، وهى انخفاض الإنتاج بنحو ٢.٢٪ وارتفاع الاستهلاك بنحو ١.٦ ٪ إلى الضغط على الأسعار صعودا فحقق السعر نحو ١٨ دولارا للبرميل فى المتوسط خلال ١٩٩٩.

(٢) يرجع انخفاض الانتاج العالمى عام ١٩٩٩ فى جانب منه إلى ما قررته أوبك منذ مارس ١٩٩٩، بمساندة دول أخرى، من تحجيم إنتاجها لامتصاص الفائض الضاغط نزوليا على الأسعار. كما يرجع الانخفاض فى جانب آخر إلى انخفاض بنحو ٠.٤٤ مليون ب/ى فى إنتاج مجموعة الدول الصناعية الغربية وبصفة خاصة الولايات المتحدة التى أخذ إنتاجها فى الانكماش المطرد خلال الأعوام الأخيرة وبلغ الانخفاض عام ١٩٩٩ نحو ٢٥٠ ألف ب/ى.

(٣) أما انتعاش الطلب العالمى على البترول خلال ١٩٩٩ فيرجع إلى الانتعاش الاقتصادى الذى ساد مجموعة الدول الصناعية الغربية OECD والتى يبلغ نصيبها من الاستهلاك العالمى للبترول نحو ٦٣٪ (منها نحو ٢٦٪ للولايات المتحدة). وقد ارتفع استهلاك تلك المجموعة فى العام المذكور بنحو ٦٧٥ ألف ب/ى بلغ نصيب الولايات المتحدة منها نحو ٤٦٠ ألف ب/ى، وبذلك يبلغ الأثر المزدوج للولايات المتحدة الضاغط فى اتجاه ارتفاع الأسعار (انخفاض إنتاج وزيادة استهلاك) نحو ٧١٠ آلاف ب/ى.

كذلك يعزى النمو الذى طرأ على الاستهلاك العالمى من البترول عام ١٩٩٩ فى جانب منه إلى الانتعاش غير المتوقع الذى طرأ على اقتصاديات دول جنوب شرق آسيا والتى يبلغ حجم استهلاكها نحو ١٩٪ من الاستهلاك العالمى (بعد استبعاد نصيب اليابان الذى يدخل فى المجموعة الصناعية الغربية). فبعد أن انكمش استهلاك دول المنطقة من البترول بنحو ٤٢٠ ألف ب/ى عام ١٩٩٨ بدلا من زيادة بنحو ٧٠٠ ألف ب/ى كانت متوقعة قبل الأزمة التى أصابتها، وبعد أن كان المتوقع أن تمتد تلك الأزمة لسنوات عديدة، عادت المنطقة إلى الانتعاش مسرعة لكى يرتفع استهلاكها من البترول بنحو ٦٢٠ ألف ب/ى خلال ١٩٩٩.

(٤) يأتى بعد ذلك من العوامل الأساسية الحاكمة فى السوق العالمية للبترول، دور المخزون العالمى والذى يتم عن طريقه معالجة الاختلال الذى قد ينشأ بين العرض والطلب بالسحب منه أو الاضافة إليه. وتخضع حركة هذا المخزون لنمط شبه منتظم إذ يتذبذب الطلب العالمى على البترول مع اختلاف فصول العام، وتتسع فجوة التقلب لتبلغ أحيانا نحو ثلاثة ملايين ب/ى بين فصل وآخر.

وتعتبر حركة المخزون التجارى فى الدول الصناعية الغربية، والذى تديره شركاتها البترولية العملاقة، من أهم عناصر المخزون العالمى إذ يقرب حجمه من أربعة أمثال نظيره فى باقى العالم. ويعتبر الاختلال الذى قد يطرأ على هذا المخزون الغربى نذيرا باضطراب السوق البترولية. ومن ذلك ما حدث خلال السنوات القليلة الماضية إذ انخفض عدد الأيام التى يغطيها ذلك المخزون من نحو ٦٢ يوما خلال ١٩٩٥ إلى نحو ٥٧ يوما خلال ١٩٩٦ وانخفض ما يغطى منه الطوارىء من ١٢ يوما إلى نحو ٧ أيام. عندئذ أحست الصناعة بالمستوى الحرج الذى تدنى إليه المخزون، فاندفعت الشركات فى محاولة لاستعادته إلى مستوى مريح. ومن ثم تحرك السعر من نحو ١٩ دولارا خلال صيف ١٩٩٦ ليبلغ ذروته فى يناير ١٩٩٧ عند ٢٤ دولارا.

فماذا أصاب مخزون الدول الصناعية الغربية فى الآونة الأخيرة ؟

حافظ على مستوى ٥٧ يوما حتى نهاية الربع الثالث من عام ١٩٩٩ ثم أخذ فى التقلص إلى مستوى ٥٢ يوما خلال الربع الأخير والنصف الأول من ٢٠٠٠، كما تقلص مخزون الطوارىء من مستوى ١٢ يوما خلال الأرباع الثلاثة الأولى من ١٩٩٩ إلى مستوى ٧ أيام خلال الربع الأخير والنصف الأول من ٢٠٠٠.

يضاف إلى عوامل الضغط فى اتجاه ارتفاع الأسعار ما لجات إليه المجموعة الصناعية الغربية من محاولة لإعادة بناء مخزونها بمعدل ١,١٢ مليون ب/ى خلال الربع الثانى وبمعدل ٦٥٠ ألف ب/ى تقريبا خلال الربع الثالث من ٢٠٠٠. ومعنى ذلك أن الجانب الأكبر من الزيادة التى تضخها أوبك فى الأسواق لا يذهب إلى الاستهلاك المباشر وتخفيف الضغط على الأسعار بل يتجه إلى التخزين ولا ينتظر أن ينعكس أثره على الأسعار إلا فى ضوء ما يتحقق من درجة البرودة خلال الشتاء القادم.

فى ضوء ما تقدم نستطيع فهم حقيقة ما يهدد به الرئيس كلينتون من إطلاق جانب من المخزون الاستراتيجى لتخفيف توترات السوق البترولية، إذ الواقع أن إطلاق ذلك المخزون يمكن أن يؤدى إلى زيادة حدة التوترات بدلا من تخفيفها. وقد سبق أن نوقشت تلك السياسة باستفاضة أثناء أزمة الخليج واستبعد هذا الخيار من جانب الدول الصناعية الغربية على هذا الأساس. وحتى لو أقدم كلينتون على تنفيذ تهديده، فإننا لا نتوقع انخفاض السعر فى المدى القصير بدرجة كبيرة. أو على الأقل ليس قبل انقضاء فصل الشتاء.

(٥) تمارس المضاربة على البترول التى ظهرت منذ منتصف الثمانينيات فيما يعرف بالأسواق المستقبلية Futures markets دورا فعالا فى تذبذب أسعار البترول، حيث اقترن ظهورها ونموها مع اتساع ما يعرف بالسوق الفورية Spot markets عقب انهيار الأسعار من نحو ٢٨ دولارا عام ١٩٨٥ إلى نحو ١٣ دولارا عام ١٩٨٦ حيث ظلت تتراوح حول مستوى ١٦ـ١٨ دولارا منذ ذلك التاريخ.

والأصل فى الأسواق المستقبلية أنها تتناول السلع التى يخضع عرضها لتقلبات يصعب التنبؤ بها مثل المنتجات الزراعية التى تتاثر بعوامل غير متوقعة كتقلبات المناخ. وتحقق تلك الأسواق لمن يشترى السلعة بعقد آجل التحوط ضد مخاطر تغير السعر فى المستقبل Hedging، إذ تؤمن احتياجاته المستقبلية من السلعة بسعر يتفق عليه قبل حلول موعد استلامها بفترة زمنية معينة ودون حاجة لاستلامها عند إبرام العقد وتخزينها إلى وقت الحاجة إليها. كذلك تحقق تلك الأسواق للبائع تحوطا مماثلا بتامين سعر للبيع لا يخضع للتغير الذى يمكن أن يحدث مستقبلا عند تسليم السلعة. وكانت أسعار البترول تتمتع بقدر كبير من الاستقرار عندما كانت تتحدد بقرار من أوبك إلى أن تخلت المنظمة فى منتصف الثمانينيات عن نظام تحديد أسعار رسمية وصارت تكتفى بتحديد سقف الإنتاج مع ترك الأسعار لقوى السوق. وكان المفروض أن يقتصر التعامل فى الاسواق المستقبلية على من يبيع ويشترى البترول الحقيقى. غير أن التعامل فى الأسواق المستقبلية لم يعد يقتصر على من يتعامل فى البترول ويعرف اصطلاحا «بالمضارب التجارى»Commercial speculator، إذ أخذ فريق من المضاربين يتعامل فى تلك الأسواق بهدف تحقيق الربح بالمراهنة على سلامة تنبؤاتهم لحركة أسعار البترول. كذلك دخلها لنفس الغرض العديد من شركات البترول العالمية، والتى وقفت منها فى البداية موقف المتردد. ويطلق على من يضارب لمجرد تحقيق الربح «المضارب غير التجارى»Non-commercial speculator. كذلك يطلق على الأموال المستثمرة فى العمليات غير التجارية «أرصدة» Funds. ومن هنا توسعت المضاربة على أسعار البترول بحيث صارت تتم على مدار الساعة باستخدام شاشات الكمبيوتر فى أهم ثلاث أسواق (بورصات) وهى اسواق نيويورك ولندن وسنغافورة، كما يتم فيها من التعامل اليومى على ما يسمى بالبراميل الورقية Paper barrels ما يزيد عدة مرات على حجم التعامل فى براميل البترول السائل Wet barrel. ويطلق على من يقوم بالشراء فى المستقبليات أنه يحتفظ بموقف «طويل» Long position. أما من يقوم بالبيع فيحتفظ بموقف «قصير» Short position. وبالرغم من أن المتداول فى ظل العقود الآجلة لا يعدو أن يكون براميل ورقية إلا أن حركة البيع والشراء يكون لها

من دراسة حديثة لمنظمة أوبك يستخلص أن معدل الضرائب التى تحصل عليها الدول الأوروبية مجتمعة يبلغ نحو ٦٨٪ من السعر النهائى للمستهلك الأوروبى والذى يزيد قليلا على المائة دولار، بينما يبلغ ما تحصل عليه الشركات الوسيطة لتغطية نفقاتها وأرباحها نحو ١٦٪، وتحصل على مثلها دول أوبك بما فى ذلك التكلفة الفعلية التى تتحملها لإنتاج البترول

نفس الأثر المترتب على البيع والشراء فى أسواق البترول الحقيقى.

دروس مستفادة:

أخيرا لا يفوتنا أن نستخلص مما تقدم دروسا ينبغى أن تعيها الدول المصدرة للبترول، وخاصة المجموعة العربية التى سوف يزداد الضغط عليها لسد احتياجات العالم المتزايدة من الطاقة.

(١) فالضغوط التى تمارسها الدول الصناعية الغربية بقصد إرغام أوبك على زيادة الانتاج لتلبية احتياجاتها البترولية وبأسعار متدنية لا يصح أن تمر دون استخلاص مدلولها بالنسبة للمستقبل المنظور. ذلك لأن إلزام دول أوبك القيام بدور المنتج المكمل، أى إلزامها بسد الفجوة بين إنتاج البترول خارجها وبين الاحتياجات العالمية، سوف يعجل بنضوب احتياطيات تلك الدول. وفى داخل أوبك لا يوجد سوى ست دول ممن تسمح احتياطياتها بالتوسع استجابة لاحتياجات العالم والتى يتوقع أن تنمو بمعدل ١,٨٪ سنويا فى المتوسط لكى تبلغ نحو ٩٤ مليون ب/ى عام ٢٠١٠ ونحو ١١٣ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. وهذه الدول الست هى السعودية والعراق والإمارات والكويت وإيران فى منطقة الخليج ثم فنزويلا. ويتوقع وفقا للدوائر الغربية أن يرتفع إنتاج تلك الدول الست من نحو ٢٤ مليون ب/ى عام ١٩٩٦ لكى يبلغ نحو ٣٣ مليون ب/ى عام ٢٠١٠ ونحو ٥٥ مليون ب/ى عام ٢٠٢٠. أما باقى منابع البترول فى العالم، بما فى ذلك باقى أعضاء أوبك، فمن المتوقع أن تبلغ طاقتها القصوى عند حدود الفرق بين احتياجات العالم وبين ما سوف يطلب من الدول الست الرئيسية التوسع لإنتاجه.

إن خسائر مصدرى البترول قد بلغت فى العام المذكور نحو ١١٠ مليار دولار استفاد منها الاقتصاد الغربى بما لا يقل عن ٨٠ مليار دولار عبر وارداته البترولية التى تمثل نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية

(٢) كما أوضحنا من قبل، فقد انهارت أسعار البترول من حيث قيمتها الحقيقية خلال عقد التسعينيات إلى مستوى أربعة دولارات للبرميل بدولارات عام ١٩٧٣ وهو ما يزيد قليلا على مستواه قبيل حرب أكتوبر (٣ دولارات). وتمارس الدول الصناعية الغربية الآن ضغوطها لكى تلزم أوبك بعدم تجاوز السعر حدا أقصى طبقا لما أطلق عليه آلية ضبط الأسعار. وقد حدد هذا السعر بنحو ٢٨ دولارا للبرميل وهو ما يتراوح بين ٦ و ٧ دولارات بدولارات عام ١٩٧٣. ووجه التناقض فى موقف الدول الصناعية الغربية أنها سبق أن اتهمت أوبك بأنها تكتل احتكارى يستهدف رفع الأسعار فوق معدلها «الطبيعى» بالمخالفة لقواعد جات مما يعرقل حرية التجارة. وبالفعل قام الكونجرس بمعاقبة بعض دول أوبك بحرمانها من نظام الأفضليات المعمم الذى يوفر معاملة تفضيلية للدول النامية وفقا لأحكام جات. وكان هذا الاتهام أحد أسباب خروج أوبك على نظام تحديد سعر البترول وتركه لقوى السوق والمنافسة مما أدى إلى تدهوره على نحو ما سبق شرحه. والآن، عندما عملت قوى السوق فى غير صالح الدول الصناعية الغربية، تتحول تلك الدول عن مبادىء حرية التجارة التى تنادى بها لكى تلزم أوبك بألا يتخطى سعر البترول حدودا معينة.

كذلك تتغافل حكومات الدول الصناعية الغربية عن الدور الذى تلعبه الضرائب الباهظة التى تفرضها على استهلاك المنتجات البترولية وتؤدى من جانب إلى تقييد الاستهلاك ومن ثم حرية التجارة فى البترول، كما تؤدى من ناحية ثانية إلى الحيلولة دون وصول أى انخفاض فى أسعار البترول الخام إلى المستهلك النهائى، وتعمل، من ناحية ثالثة، على حرمان الدول المصدرة للبترول من نصيبها العادل من الريع البترولى.

(٣) والسؤال الآن: هل سيكون الضغط الواقع على دول أوبك لزيادة انتاجها فى مصلحتها حقيقة، وهل تستطيع تلك الدول إذا قبلت تلبية المطالب المتزايدة من بترولها أن تحصل على سعر حقيقى عادل يعوض القيمة الحقيقية للثروة البترولية الناضبة، أم أن ذلك الضغط سوف يكرس توظيف تلك الثروة فى خدمة اقتصاديات الدول الصناعية الغربية التى تستورد نحو ثلاثة أرباع الواردات البترولية العالمية.

وبديهى أن تلك الدول لن يفوتها استخدام وتحريض الدول النامية ضد أوبك بدعوى أن ارتفاع أسعار البترول يعرقل جهود التنمية فى تلك الدول ويصيبها بالتضخم.

(٤) ومن الدروس المستفادة ما يتصل بالمدى القصير. فالحركة النشيطة لتخزين البترول التى بدأت خلال الربع الثانى من العام الحالى ٢٠٠٠، يمكن أن تحول دون بلوغ الزيادة التى تضخها أوبك للمستهلك النهائى، ومن ثم يظل الضغط الصعودى على الأسعار سائدا لفترة أطول. ولقد حدث مثل ذلك فى مناسبات عديدة وكان أشهرها التخزين الجبار الذى لجأت إليه الدول الصناعية الغربية أعضاء وكالة الطاقة الدولية عام ١٩٧٩ وكان من نتائجه الضغط على الأسعار نزوليا خلال النصف الأول من عقد الثمانينيات ثم انهيارها عام ١٩٨٦ إلى أقل من النصف كما ذكرنا.

كيف تحول الولع بمصر إلى علم على يديه؟

يوسف القعيد

«الولع بمصر حتى الجنون أو الموت» عبارة تصلح عنوانا لهذه الحكاية بكل أطرافها ابتداء من مؤلف الكتاب الأول: جان لاكوتير عاشق مصر عاش فيها في زمن صعود يوليو وعرف عبدالناصر عن قرب. وألف عن مصر ثلاثة كتب سواء بمفرده أو بالمشاركة مع زوجته سيمون لاكوتير ويتردد على مصر مرة كل سنة على الأقل. وحبة لمصر قبل حبه لشامبليون كان دافعه لتدوين هذا الكتاب الضخم الذى إن قرأته على أنه قصة ستجد فيه تشويقا ينافس الروايات البوليسية. وإن نظرت له على أنه شعر ستجد ملحمة بديعة تسابق الخيال الشعبى فى حب مصر. ذلك الحب الذى لا نسأل القلب عن أسبابه عادة.

أما جان فرانسوا شامبليون فهو العاشق المتيم لمصر وبمصر، أخرج بحبه آلاف السنوات من تاريخ مصر من الصمت والظلام. جعلها تنطق وتحكى وتقول للمصريين كل ما كان وما جرى. بعد قرون من الصمت. لقد استنطق شامبليون التاريخ. وبفضل اكتشافه العبقرى عادت مصر تتحدث عن نفسها. تنظر لماضيها بزهو وفرح ووصل ما انقطع فى تاريخها. الذى دام أكثر من سبعة عشر قرنا توصل شامبليون إلى اكتشافه فى زمن محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة والذى سنقابله - بعد قليل أو كثير - باعتباره أحد أبطال قصتنا الراهنة. وهذا يجعل من اكتشاف شامبليون محاولة لوصل مجد الماضى بعز الحاضر حتى تنهض مصر من جديد. وهذا الحاضر كان زمن حكم محمد على لمصر.

إن عظمة شامبليون - يقول لاكوتير - لا تكمن فى أنه نصب من نفسه صانعاً للمعجزات ولكن فى أنه عرف كيف يجمع ومضات النور. التى كانت تظهر وتختفى خلال الليل ويجمع شملها لتصبح كشفا وفى أنه كان يجمع فى شخصه المكتشف الرائد. والوارث لأعمال أسلافه. هناك من حاول قبله. ولم تثمر هذه المحاولات سوى جسور ضعيفة ورخوة ومهزوزة لأنهم كانوا يعملون فى الظلام.

بالنسبة لى شخصيا. فإن شامبليون صاحب أعظم مشروع فى القرن التاسع عشر مع أنه لم يكمل من سنوات عمره سوى اثنين وأربعين عاما وشهرين ونصف فقط. ان حجم الانجاز وعمقه كان يتطلب من أى إنسان قرناً من العمل. فما بالك بمن لم يتعد العامين بعد الأربعين فقط إن درس حكاية شامبليون بالنسبة لى هو أن إنجاز الإنسان لا علاقة له بعمره أبداً.

سأبدا من شامبليون وسأنتهى به، سموه الصغير تمييزا له عن شقيقه الاكبر وقالوا عنه المصرى الشرقى والعربى وقد أطلق أسماء مصرية على ابنته وابن شقيقه.

والده كان صاحب مكتبة كتب قديمة. يحصل عليها من البلدان المجاورة ويعرضها للبيع وهى مهنة يمكن أن ينمو فى ظلها عاشق للغة ومحب للتاريخ وصاحب خيال يوصل صاحبه إلى مكان بعيد وزمان أبعد.

كان والده يمتلك قطعة من الأرض والمكتبة والمنزل الذى تعيش فيه الأسرة، كان رجلا مرحاً رجل أعمال ناجح وإن كان لم يتم العثور على أى صورة له أو لزوجته فإن المؤلف يعتمد على عقد زواجهما المؤرخ فى ٢٣ يناير ١٧٧٣ بين جاك شامبليون التاجر وفرانسوا جاليو الابنة الطبيعية والشرعية لجاك جاليو التاجر ولم يكن العقد موقعا من الزوجة لانها لم تكن تعرف كيف تفعل هذا.. كانت أمية.

أنجبت الزوجة لزوجها خمسة من الأبناء ثلاثا من البنات وولدين جاك جوزيف ونقدمه على الآخرين لأهميته من حياة بطل قصتنا - ولد فى اكتوبر ١٧٧٨ وهو سيعد لاحقاً الأخ الأكبر والوالد والمشرف ورجل أعمال شقيقه وكانت تيريز قد ولدت ١٧٧٤ وبترونيل سنة ١٧٧٦ وجان مارى ١٧٨٢ وفى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ احتفل آل شامبليون بآخر العنقود جان فرانسوا الذى سيخلد اسم آل شامبليون فى كتب التاريخ. ولد الطفل فى حالة صحية جيدة بشرته سمراء وذلك فى المنزل الكائن بحارة لابود سكورى وصدرت شهادة تعميده فى نفس يوم مولده من كنيسة نوتردام روبوى.

ولد شامبليون الصغير والثورة الفرنسية لها دوى فى كل مكان حولها أصداؤها مسموعة بقوة. بل إن المكان الذى كان يلعب فيه الطفل كانت مقصلة الثورة الفرنسية منصوبة فيه وعندما اقتلعت زرعت مكانها شجرة الحرية التى كانت تقام احتفالات الثورة الصاخبة حولها.

ورغم نبوغ الطفل المبكر ومايملكه من إمكانيات ذهنية غير عادية فلم يكن والده معنيا بتعليمه، ومن مواجهة هذا حاول الاهتداء إلى وسيلة يخترق بها أسرار الكتب وكان شقيقه الذى يكبره باثنى عشر عاما قد اهتم بقضية تعليمه عندما أدرك أن والده غير معنى بها.

عندما كان الطفل فى التاسعة كان قد تحصل على مبادىء راسخة فى اللاتينية والإغريقية والعبرية بالإضافة إلى التاريخ الطبيعى والفلك. وفى العاشرة سافر إلى ليون ومنها إلى جرونوبل حتى يكون مع شقيقه. كانت صورته فى هذه السن هكذا:

صبى متوهج المزاج حاد فى تحركاته وتلقائى فى اندفاعه وسريع فى ردود أفعاله، لون بشرته بنى غامق مائل إلى الزيتونى صعيدى دمه ساخن.

يسجل كل من رآه موهبته الأولى فى إدراكه للغات والميل إلى الرسم وستصبح موهبته حاسمة فى حبه للحروف ومن كثرة المرات التى أعاد بها نسخ الحروف الهيروغليفية باعتناء كبير ورقة متزايدة سينجح فى التعود على هذه الرموز السحرية والسرية ثم التغلب عليها وترويضها.

قال جان كوكتو: الموهبة تفعل ما تريد أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها فعله. وكان شامبليون موهوبا وعبقريا فى وقت واحد.

إن كان شغف الصبى باللغات قد قاده إلى الهيروغليفية فإن هناك من الخيوط المبكرة فى حياته ماربطه بمصير شقيقه الأكبر يقول: إذا كنت قد ندمت على شىء فهو أنى لم أنضم إلى الحملة الفرنسية على مصر وإن كان شقيقه الأكبر لم يذهب فإن ابن عمه النقيب أندريه شامبليون يذهب فى هذه الحملة ويكتب رسالة لشقيق له وهو على متن السفينة المسافرة وإن كان لا يعرف أين.

بعد ذلك بسنوات طويلة سيجد كاتب سيرة جاك جوزيف شقيق الصبى الأكبر مذكرات أخفاها يذكر فيها أن الرجال الـ ٣٦٠,٠٠٠ الذين عملوا لمدة عشرين عاما فى بناء الأهرام استهلكوا مايوازى ٣٦٦,٠٠٠ أكوا «من عملة الامبراطورية الأولى» من الثوم والبصل والفجل وهكذا وصل الاهتمام بمصر عند الشقيق الأكبر إلى الناحية التجارية وما تناوله بناة الأهرام من الأطعمة.

إن كان بطل حكايتنا اسمه جان فرانسوا ويقولون عنه الصغير تمييزا له عن شقيقه الأكبر واسمه جاك جوزيف واسم عائلتهما معا هو شامبليون لكن العلاقة بينهما ستصبح - فيما بعد - شديدة التعقيد وستظل هكذا حتى النهاية. بدون الأخ الأكبر كان الأصغر سيصبح باحثا مغمورا يموت من الغضب من كبت عبقريته وبدون الأصغر فإن الأكبر كان مهدداً بأن تسير حياته العملية فى الجامعات ويكون له حضور اجتماعى فى الدعوات ويسرى عن الحضور بثقافة صالونات سيدات المجتمع.. ولكن تحالف الشقيقين سمح لهما باجتياز العواصف والوصول إلى القمة والاحتفاظ لها. وإن كان صاحب القمة هو الصغير والذى يقف عليها فى ظله هو الكبير.

منذ أن استقر الأصغر مع الأكبر فى جرونوبل والأخير يتولى الأول فى كافة الأمور ورسائل جاك إلى والده تؤكد هذا، فهو يدرس له بنفسه ويحضر له المدرسين ويلحقه بالمدارس، كان يراهن على مستقبل شقيقه الأصغر.

وجان فرانسوا عمره الآن اثنا عشر عاما وقد لفت الأنظار إليه حماسه لدراسة اللغات ثم دفنها فى الذاكرة الإنسانية ووجد فى هذه الدراسة المملة بالنسبة لأى صبى آخر لذة حقيقية، كان يتسلى بفك شفرة هذه الاكتشافات وكان يتجول فى يسر داخل القواميس وكتب قواعد اللغات الأكثر صعوبة للفهم. إن كل هذه علامات للعبقرية وهذا معناه أن جاك فرانسوا عندما وجد نفسه فى مواجهة حجر رشيد بعد ذلك بسنوات كان قد أعد نفسه لتلك المهمة من قبل ولم يبدأ الأمر من لحظة اللقاء مع مستنسخات حجر رشيد.

فى فترة مبكرة من عمره - فى الرابعة عشرة - أدرك جان فرانسوا شامبليون أن اللغة القبطية هى الجسر الذى لا غنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتى تأثرت بدورها باللغة اليونانية التى تحدث بها قدماء المصريين. إن الشراهة الاستشراقية للشاب المراهق قد مرت بثلاث مراحل محور مصرى أولا، ثم محور قبطى، ثم محور هيروغليفى ثالث.

قال جان كوكتو:
الموهبة - تفعل ما تريد،
أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها فعله.
وكان شامبليون
موهوبا وعبقريا
فى وقت واحد

شامبليون: رجل من نور
تاليف: جان لاكوتير
ترجمة وتقديم وتعليق: نبيل سعد
المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
المجلس الاعلى للثقافة - القاهرة
شامبليون فى مصر
الرسائل والمذكرات
ترجمة: عماد عدلى
مراجعة: د. طاهر عبدالحكيم
دار الفكر للدراسات والنشر - القاهرة، ١٩٩١

وجـــــــــدى رشـــــــــــيد



يكتب رسالة مهمة لأخيه:

إنك تسعى لإدخالى كلية تدرس فيها اليونانية والعبرية والعربية والكالدية والسيريانية. إن انخراطى فى المدرسة الخاصة باللغات الشرقية سيتيح لى أن أقبل فى المكتبة الامبراطورية إذ سأتمكن من التفرغ التام لدراسة العربية والسيريانية والعبرية والكالدية والفارسية.

لا يكتب مثل هذا الكلام فى هذه السن سوى إنسان عنده مشروع عملاق.

١٩ يونيو ١٨٠٧ يحمل للشقيقين حادثا يعكر صفو حياتهما وفاة الأم، ماتت عن ستة وثلاثين عاما وهو عمر صغير وابنها جان فرانسوا سيموت بعد ذلك فى سن صغيرة أيضا.

يصل الشاب إلى باريس لأول مرة وعمره ستة عشر عاماً وتسعة شهور، قوى البنيان سريع الحركة تعوزه الرشاقة.

وصوله إلى باريس كان فى يوم ١٣ سبتمبر ١٨٠٧ وهو اليوم الذى انتصر فيه محمد على باشا الكبير والى مصر على الإنجليز بقيادة فريزر. محمد على سيقابل شامبليون بعد ذلك عندما سيزور مصر وسيقدم له الخدمات التى يطلبها تسهيلا لمهمته العلمية النبيلة ولأن خيوط الأحداث تتشابك وتتلاقى وتتباعد وفق قانون لانعرفه بعد هذا التاريخ بأسبوع سيعود شاتوبريان من الشرق حيث حاول أن يقيس عبقريته الشخصية بعبقرية الفراعنة الذين شيدوا الأعمال العظيمة.

يواصل جان فرانسوا تقدمه فى حقول اللغة يكتب رسالة لشقيقه الأكبر:

أصبحت أصرف فى الحديث بالعربية فاصرف الأفعال وأترجم حوارات.

إنه يضع لمساته الأخيرة على كتابه عن جغرافية مصر، رسالة الحب الأولى للمصريين ويواصل أبحاثه فى الموسيقى الكالدية والسريانية لصالح أحد الجنرالات المهتمين بالثقافة ويكتب بعض المقالات للصحف، ويزور كنيسة سان روش لأسباب لا علاقة لها بالتدين ولكن ليقابل القسيس المصرى الشفتيشى ليزيد من امتلاكه للغة القبطية. جان فرانسوا يتقدم فى مشروعه وإن كان لا يبدو سعيدا فى باريس:

أشعر باحتقار يختلط به الكره نحو عاصمة فرنسا القذرة. ماذا يمكن أن أفعل وسط هؤلاء الأدباء مصاصى الدماء؟ وفى هذه الأوكار المثيرة للغثيان.

ويصل به الأمر إلى اليأس من العلم ومستقبل العلماء.

ويكتب لأخيه:

أفضل ما يمكن عمله هو أن تبحث لى عن وظيفة مناسبة فى أى مكان تراه.

حتى أنه يعيد النظر فى مشروع عمره الأول وهو السفر إلى الشرق ولكن السفر إلى مصر: كان قصة أخرى:

هناك أسباب وجيهة جعلت حماسى للسفر إلى الشرق يفتر بعض الشىء، إلا أن هذا لا ينسحب على مصر. فعلى الرغم من أن حالتها أكثر أسى وبؤسا من حقول القسطنطينية وطروادة إلا أن لها فى نظرى من إغراءات قوية لدرجة تجعلنى أتحدى الصعاب.

إنها مصر.

فى فترة مبكرة من عمره. فى الرابعة عشرة. أدرك جان فرانسوا شامبليون أن اللغة القبطية هى الجسر الذى لا غنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتى تأثرت بدورها باللغة اليونانية التى تحدث بها قدماء المصريين

نحن الآن على مشارف حجر رشيد حيث وضع الأب دوتير سان تحت تصرف جان فرانسوا نسخة منه ويكتب فى ١٥ أغسطس ١٨٠٨ رسالة لأخيه يشرح فيها خطته الكاملة لدراسة البرديات. وتبدو الرسالة القريبة من الشعر كما لو كانت افتتاحية أوبرا، وحتى نعرف أثر هذه الرسالة نقرأ رد أخيه عليها:

إن مشروعك يتطلب اعتباره أن أشهر مثقفى أوروبا سيشعر بالزهو بمثل هذا الاكتشاف، ولذا يتحتم عليك الارتباط بهذا المشروع بدون رجعة.

وخلال صيف ١٨٠٨ تفرغ جان فرانسوا لدراسة اللغة القبطية الصعيدية مثلما ينطقها أهلها، وفى ١٨٠٩ يتفرغ لدراسة القبطية:

إنى متفرغ تماما للغة القبطية أود أن تكون درايتى بهذه اللغة كالفرنسية تماما، لأن عملى على البرديات سيقوم على أساسها. أنا لا أحلم إلا بالقبطى. أصبحت قبطيا لدرجة أننى أسلى نفسى بترجمة كل ما يخطر على بالى بالقبطية وأتحدث مع نفسى بالقبطية.

هل سمعت عن فرنسى يحلم بالقبطية؟! هل يمكن التحكم حتى فى لغة الأحلام؟! ولأن جان فرانسوا يدرس العبرية ضمن دراساته، كان من الطبيعى أن أبحث عن موقفه من اليهود. يكتب لاكوتير عن هذه المسألة الجوهرية:

ها هو فجأة يزيح اليهود إلى دور هامشى شاحب يصفهم بأنهم اليهود الجهلة المؤمنون بالخرافات والذين يدعون أن فى استطاعتهم ان ينافسوا حضارة أهل النيل. مناهض لليهود هو مناهضة فولتير لهم. هذا ما فعله شامبليون مع اليهود. ترى ماذا كان سيفعل لو عاصر الصهاينة بعد ذلك؟ إن رسائله ومذكراته التى سيدونها بعد ذلك لا تاتى على ذكرهم أبدا، كأنهم لا وجود لهم.

ويضغط جاك جوزيف على رئيس جامعة ليعين جان فرانسوا مساعد أستاذ للتاريخ القديم وكان التعيين بأثر رجعى اعتبارا من ٢٠ يوليو ١٨٠٩ وينجب الشقيق الأكبر وينجح فرانسوا فى إقناع أخيه أن يكون اسمه على. ويؤكد له أنه اسم أحد القديسين المسيحيين. ويعمل جان فرانسوا أستاذا فى سن العشرين وأمين مكتبة وصحفيا أيضا. وهكذا ينبت حزب كامل من الذين يحاربونه، أعداء النجاح، ومناهضى الناجحين الذين وجدوا فى كل زمان ومكان وإن كان لا يعبأ بهم ولا يتوقف حتى من أجل الرد عليهم.

فى نهاية أكتوبر ١٨١٤ ظهر له أخيرا كتاب مصر تحت حكم الفراعنة فى جزءين يكتب لصديقه أنه مسرور لأنه أنجب طفلين بدينين، قد تكون لهما بعض العيوب ولكنهما يعطيان على الأقل بعض الآمال. سيجنى المرء بعض ثمار عمله حتى لو كانت محاطة ببعض الأشواك.

إن جيبه خال ومرتبه الشهرى بسيط والمجتمع العلمى متخوف منه ونجاحه فى فك شفرة اللغة القديمة ليس بالوضوح الذى يدعيه. ووضعه فى الجامعة أصبح مهددا بسبب وصول أعدائه إلى السلطة. إنه الآن على تخوم اليأس، مع أن كل هذا يحدث له بعد صدور كتابه عن مصر.

فى العاشر من نوفمبر سنة ١٨١٥ يكتب جان فرانسوا لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لا يعتمد سوى على نسختين، واحدة منهما صنعت فى لندن وأنهما غير متطابقتين مما قد يضر بأبحاثه، وإذا تم عمل نسخة من قالب حجر رشيد الجميل لتوضع تحت تصرفه وتصرف مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر هدية لمحبى الآداب جديرة بالجدية والكرم، اللذين تتسم بهما الجمعية الملكية فى لندن.

وينتهى من اتمام مؤلفه المهم عن قاموس اللغة القبطية. وتقدر اللجنة العلمية أن العمل الذى انتهى منه جان فرانسوا شامبليون لا يرقى لأن يطبع على حساب الحكومة الفرنسية.

وهكذا يصبح الأستاذ الشاب صاحب رأس ساخن مع أنه واضح الرؤية. شهم إلى أقصى حد وإن كان ميالا إلى أن يكون عرضة للإحساس بالاضطهاد على طريقة روسو. ولبعض من التعصب العلمى وكذلك لشىء من الحماس مثل ساتندال.. هل كانت به أشياء من السذاجة؟ بالتاكيد. عنيف ؟! مؤكد.

لقد أثار غيرة العديد من الناس لأن نجاحه كان أسرع مما ينبغى!

ابتداء من ٢١ مارس ١٨١٦ يتم نفى الشقيقين بعيدا عن باريس بسبب نشاط سياسى معاد لمن يحكمون البلاد. هناك تقارير أمنية عنهما. ويكون النفى إلى موطنهما الأصلى فى وسط الأهل والأقارب. البعض يتصور أن فى الأمر مؤامرة لإبعاد الشقيقين شامبليون عن باريس.

قضى فى المنفى ١٨ شهرا من نهاية عام ١٨١٧ إلى خريف ١٨١٨ وإن كان قد استغل هذه الفترة فى المزيد من العمل. والعودة إلى نبعه الأول والبحث عن جذوره الأولى. وبسبب إرهاق العمل يبدأ المرض معه. كان يعانى نقصًا شديدًا فى الوزن وحالات من الاختناق ويعانى أزمات سعال طويلة مع ارتفاع مفاجىء فى درجات الحرارة.

هنا يصبح لكل شقيق طريقه الذى يختلف عن طريق الآخر. جاك جوزيف «الأكبر» يتمتع بحضور اجتماعى الذى هو مزيج من الوصولية وتقديم الخدمات والعاطفة الذى يجعله مخترعا لما نسميه اليوم فن العلاقات العامة.

أما جان فرانسوا فقد اكتشف أنه أضاع أربع سنوات من عمره أسير السياسة والتاريخ وأنهما قد استحوذا عليه تماما ثم جاء بعدهما: التعليم ثم ها هو فى سنة ١٨١٨ لا يستغنى عن أيهما ولكنه يديم نظره فى اللغز وذلك من أجل أن يحله.

ويكتب لأخيه فى هذه السنة الحاسمة من حياته:

يجب أن نركز تفكيرنا فى مستقبلنا الجسدى. أما المجد فيأتى عندما يريد. أما الشهرة فإننى أسخر منها بكل عواطفى. إنى لم أعرف حتى الآن، لا راحة الجسد ولا راحة الفكر ولاراحة القلب. هذا هو قدرى.

كتب هذا الخطاب بعد أن بلغ ثلثى عمره القصير. إنها وصية ثلثى العمر الأولى. كان فى الثامنة والعشرين من العمر. لم يبق من عمره سوى أربع عشرة سنة وسيتزوج بعد هذا التاريخ بستة شهور فقط.

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ يقرأ شامبليون أجزاء صغيرة من شرحه لحجر رشيد. ويوضح شرحه على صورة، رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول وحتى السطر الأخير من النص. إنها الشرارة الأولى نحو تاسيس علم: الايجيبتولوجى (المصريات القديمة) فى فرنسا، بل فى العالم كله.

فى ٣ ديسمبر ١٨١٨ تزوج جان فرانسوا من روز وكنيتها روزين بلان فى كاتدرائية جرونوبل. يقول معاصروه عنه إن نقطة ضعفه الأساسية كانت قلبه. فكل الذين أحبهم أصبحوا من أعدائه فيما بعد. يكتب لصديقته الإيطالية انبجيكا باللى:

فى بحثى عن السعادة أخطات مثل كثيرين غيرى. ويلخص موقفه بعد الزواج بعبقرية: تزوجت نعم. أحسست بالاستقرار. لا. إنه زواج تعس. أدى إلى المزيد من التدهور فى صحته. وزاد تكرار نوبات الدوخة والغثيان أكثر من ذى قبل. إنه فى الثلاثين من عمره. منهك قبل الأوان. تلاحقه الأمراض. وإن كان ينصرف بجلد يحسد عليه إلى بحثه جريا وراء أسرار مصر القديمة.

يمكن تقسيم البحث عن فك رموز مصر القديمة - قبل شامبليون - إلى ثلاث مراحل تاريخية.

١) مرحلة أصحاب التخمينات الجزافية.

٢) مرحلة جامعى الرموز.

٣) مرحلة الباحثين فى حجر رشيد.

لقد كان على شامبليون أن يكمل رحلة من سبقوه. وحجر رشيد صاحب القدرة المغناطيسية الفذة، وجده صدفة أحد جنود الحملة الفرنسية على مصر فى مدينة رشيد وقد أدرك الفرنسيون فورا أهميته الفائقة. وأرادوا الاستيلاء عليه. ونقله إلى باريس ولكن الإنجليز المنتصرين هم الذين استولوا عليه وتمكنوا من نقله إلى لندن حيث وضع فى المتحف الملكى البريطانى.

هناك كثيرون حاولوا فك رموزه قبل جان فرانسوا ولكنهم جميعا فشلوا فى ذلك. والحجر كتلة من البازلت الأسود ١,٢ متر فى ٩٠ سم وسمكه ٣٢ سم مكتوب بالقرب منه : تم الاستيلاء عليه من قلعة رشيد القديمة فى مصر بواسطة الجيش البريطانى سنة ١٨٠١. إنه غنيمة حرب استولى عليها الفريق تورز وصادرها من فوق سفينة فرنسية وكتب: غنيمة مجيدة للسلاح البريطانى لم تنتزع من أيدى شعب أعزل ولكن أخذت بشرف وطبقا لقوانين الحرب.

كان جان فرانسوا لغويا ومؤرخا وفنانا، ولذلك استطاع إكمال السير حتى فك طلاسم ذلك الحجر. فى صيف ١٨٢١ . أى قبل سنة كاملة من صرخته: وجدتها. قدم جان فرانسوا أول تجميع للنتائج النهائية الأكثر خصوبة وفى ٢٣ ديسمبر ١٨٢١ - عيد ميلاده الثلاثين - جاءته فكرة. كيف لم تخطر على باله من قبل؟ أن يجرد الرموز الهيروغليفية فى حجر رشيد وعدد الكلمات اليونانية جردا دقيقا. أصابه الذهول عندما وجد فى مقابل ٤٨٦ كلمة يونانية ١٤١٩ كلمة هيروغليفية. ثم ذهب فى حساباته أبعد من ذلك. فوجدها تنكمش فى ١٨٠ رمزا، وبالتالى يوجد فارق دائم بين العلامات والكلمات والمعانى.

كان هدف كولومبس الوصول إلى الشواطىء المقابلة، بعد بحر الظلمات وشامبليون كان يجتهد لحل شفرة اللغة الهابطة لآخر الأسرات فى وادى النيل باعتبارها جسرا نحو معرفة الفترات التاريخية العظمى فانعطف ليجد نفسه فجأة عند قمة الحضارة المصرية.

جاء يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢. وفيه قرأ مكتشف السر - الذى كان سيحتفل بعيد ميلاده الثانى والثلاثين بعد ثلاثة أشهر - الصفحات الثمانى التى اختصر فيها كشفه وقد وصفته - بعد ذلك - الماركيز دوسابيه بانه كان غير قادر على التعبير عن نفسه بسهولة ولا على دعم بريق اكتشافه، ولكن باعتراف الشهود جميعا كانت المحاضرة مثيرة للغاية.

فى طريقه إلى مصر. كان لابد أن يمر بإيطاليا وفيها يقع فى قصة حب من طرف واحد. ويكتب للمحبوبة ثلاثين رسالة فى ثلاثين شهرا. فهو كاتب رسائل من الطراز الأول متدفق مثل الرافعى، صاحب لغة رنانة مثل المنفلوطى فضلا عن أن الزمان كان زمن

فى العاشر من نوفمبر سنة ١٨١٥ يكتب جان فرانسوا لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لا يعتمد سوى على نسختين؛ واحدة منهما صنعت فى لندن وأنهما غير متطابقتين مما قد يضر بأبحاثه. وإذا تم عمل نسخة من قالب حجر رشيد الجميل لتوضع تحت تصرفه وتصرف مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر هدية لمحبى الآداب جديرة بالجدية والكرم

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ يقرأ شامبليون أجزاء من شرحه لحجر رشيد. ويوضح شرحه على صورة. رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول، وحتى السطر الأخير من النص. إنها الشرارة الأولى نحو تأسيس علم؛ الايجيبتولوجى (المصريات القديمة) فى فرنسا بل وفى العالم كله

كتابة الرسائل كفن قائم بذاته يتصدر فنون الكتابة الأخرى.

ومع هذه الرحلة تزداد آلام النقرس لدرجة أنه لا يستطيع الحركة أحيانا. عن مصر لدينا الرسائل التى أرسلها من مصر، ومذكرات الرحلة التى دونها عنها. لقد ظل فى مصر من شهر أغسطس ١٨٢٨ إلى ديسمبر ١٩٢٩. وهى الرحلة التى راودت خياله عشرين عاما. كانت حلم العمر ومشروع العمر. كان يرتقى عتمة القرون السحيقة. كان مسحورا وهو يجد اكتشافه يتحقق على أرض الواقع لحظة بلحظة.

يكتب لشقيقه من صقلية:

دع عنك القلق فآلهة مصر تحفظنا وترعانا.

يرى الإسكندرية من البحر.

كلما اقتربنا من تلك المدينة تزايد إحساسنا بالهيبة.

وينزل على أرض الإسكندرية. التاريخ ٢٠ أغسطس ١٨٢٨:

قضيت ليلتى فى نفس الحجرة التى نام فيها منذ ثلاثين عاماً القائد كليبر الذى فتح مصر فى يوم واحد بفضل شجاعته الحربية، ثم أضاعها بعد ذلك بسبب ضعفه المدنى.

وإن كان الحليب الذى شربه مع الإفطار لا يحبه ومنظر أحياء المدينة لايعجبه. والكلاب المنتشرة فيها لايرضى انها تعيش فى حرية مطلقة وإن كان يكتب:

لقد وطأت أرض مصر التى طالما تاقت نفسى إليها ففى الثامن عشر من أغسطس الماضى. وقد استقبلتنا كام حنون وسأحتفظ بحجة جيدة، كذلك رويت ظمئى من ماء النيل الرطب الذى يأتى عبر ترعة المحمودية التى أمر الباشا بشقها ساتبرك بتراب مصر.

يوم ٢٤ أغسطس يقابل محمد على. يطلق عليه شامبليون الباشا واللقاء تم فى الإسكندرية. إن انتقال الحاكم إلى الإسكندرية صيفا، له جذوره التى تعود إلى أوائل القرن قبل الماضى، لقد وصل شامبليون إلى مصر فى أغسطس وأبهة الحكم جعلت محمد على يقيم فى الاسكندرية.

هكذا هو وصف شامبليون للقاء:

قابلت الباشا فى الثامنة صباحا ويمتلك سموه العديد من المنازل الخشبية الجميلة المشيدة بذوق وإتقان. وتقع هذه العمائر الجميلة فى جزيرة المنار القديمة. وقد قام القنصل الفرنسى باصطحابى أنا وقبطان الباخرة إلى القصر لتقديمنا إلى الباشا فى حنطور يجره حصانان مطهمان، انطلقا بسهولة عجيبة وسط شوارع الإسكندرية الضيقة والمتعرجة بفضل مهارة السايس الكبيرة، كما ارتدى رفاقى الشبان أبهى ملابسهم وأخذوا يركضون خلفنا على ظهر جياد جموحة.

صعدنا السلم الكبير المؤدى إلى قاعة الديوان واجتزنا قاعة فسيحة تكتظ بالموظفين ثم دخلنا إلى حجرة أخرى حيث كان يجلس الباشا فى زاويتها بين نافذتين مرتديا ثيابا بسيطة وممسكا فى يده بنرجيلة مطعمة بالماس. كان قصير القامة يرتسم على ملامحه من البهجة والبشاشة ما لا ينتظر أن نجده عند رجل ينوء تحت وطأة الأمور الجسام، وتثقل كاهله الأعباء الكثيرة. ومن بين قسمات وجهه تبرز عينان متوقدتان بشكل فريد مع لحيته البيضاء الطويلة المسترسلة على صدره.

استقبلنا سموه على الرحب والسعة وسألنا عن أخبارنا وعن برنامج الرحلة. فأخبرته برغبتى فى الذهاب حتى الشلال الثانى والتمست من سموه الفرمانات اللازمة فمنحنى إياها فى الحال وخصص جنديين لمرافقتنا وحمايتنا فى ذهابنا.

وفى رسالة منه إلى شقيقه الأكبر فى ٢٩ أغسطس يتكلم عن الشعب المصرى:

الشعب المصرى متعاطف مع الأوروبيين خاصة الفرنسيين، بسبب أن محمد على لا يحظى بدعم الضباط العثمانيين الذين يحيطون به، فهؤلاء يضطهدون الشعب المصرى الذى يبادلهم مقتاً بمقت، عندما يقارن المصريون البؤساء ما آل إليه حالهم فى ظل حكم الباشا وبين ما يمكن أن يكون عليه حالهم تحت سيطرة الجيش الفرنسى فسرعان مايميلون إلى الوضع الثانى، ولا يعنى ذلك أنهم يتحرقون شوقا لمجيئنا. تدينهم يحول دون ذلك إلا أنه من المؤكد أنهم ينتظرون ذلك دون امتعاض لتخليصهم مما يعانونه.

فى ١٣ سبتمبر يذهب شامبليون لتوديع الباشا وكان ذلك فى الثامنة مساء:

شكرته على ما أنعم به علينا من دعم وحماية وأجابنى سموه فى لطف بان الأمراء المسيحيين يحسنون معاملة رعاياه، لذا فإن واجبه يحتم عليه أن ينهج نهجهم. ثم تطرق بنا الحديث إلى الكتابة الهيروغليفية. وعندئذ طالبنى سموه بنسخة مترجمة إلى التركية لنصوص مسلتى الإسكندرية فوعدته بإرسالها غدا عن طريق موثق العقود فى القنصلية الفرنسية.

وقد أراد محمد على معرفة إلى أى نقطة ستمتد رحلتى فى بلاد النوبة، مؤكدا لى اننا سنقابل فى كل مكان بالكرم والترحيب ثم ودعته بعد أن غمرته بعبارات الشكر والترحيب والثناء التى أخذ يردها بتواضع شديد.

المركب الكبيرة التى سيسافر بها شامبليون إلى الصعيد، كانت قد صنعت خصيصا لمحمد على، يسميها شامبليون إيزيس. و الدهبية الصغيرة يسميها حتحور وشامبليون فى ترعة المحمودية ثم فى النيل حتى القاهرة يدون أسماء القرى التى يمر عليها بدقة وما يميز أى قرية أو مدينة ويبحث عن التشابه بين ما يراه وما يعرفه عن مصر القديمة ويقارن رحلته برحلة الحملة الفرنسية ويستمع إلى شكاوى الناس من حكم محمد على. يكتب عن القاهرة:

تعتبر القاهرة بحق مدينة عملاقة هائلة وأغلب منازلها أو على الأقل الطابق الأرضى منها مشيدة من الأحجار وتزدان أبوابها بالنقوش والتماثيل. كما تكثر فيها المساجد. وقد حازت القاهرة إعجابى بالرغم من الانتقادات العديدة التى وجهت إليها ويبدو لى عرض شوارعها ذات الثمانية أو العشرة أقدام محسوبا بدقة للاحتماء من الحرارة المرتفعة. الشوارع غير مرصوفة إلا أنها نظيفة حتى تمنيت أن تبدو باريس فى مثل تلك النظافة. إن القاهرة مدينة هائلة مترامية الأطراف.

إن شامبليون يبدو سعيدا بمصر لدرجة أنه يقول عن نفسه:

أشعر حقا وكأننى إنسان آخر ولد من جديد، ويقسم رفاقى على أننى أبدو وكأننى مولود فى هذا البلد. وسأتمكن خلال الاسابيع القادمة من إتقان اللغة العربية حتى لا أبدو كمبتدىء.

إن شامبليون يبدو مهتما بمصر المعاصرة له والتى زارها. ولكنه يبدو مهتما أكثر بمصر القديمة من خلال الآثار التى يجدها متناثرة فى كل مكان واهتمامه بالآثار يفوق الزمن الحاضر ألف مرة.

يقف أمام الأهرامات:

من دواعى الدهشة حقا أن الأثر الذى يتركه ذلك البناء الهائل فى النفس يتناقض كلما دنونا منه. وقد شعرت بشىء من الضآلة وأنا أتطلع من على بعد خمسين قدما إلى ذلك البناء الذى لا نستشعر ضخامته إلا بعد حساب أبعاده والذى نأخذ فى التصاغر كلما اقتربنا منه حتى تبدو أحجاره وكأنها من الدبش الصغير.

ويتأمل أبا الهول:

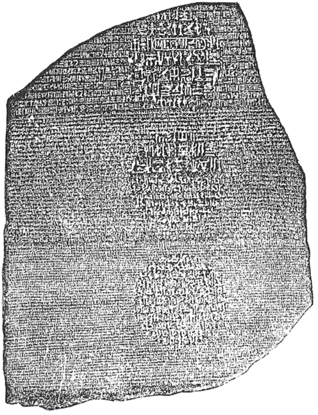
لقد احتفظ وجه أبى الهول. فى الأجزاء الملاصقة للأذنين باللون الأحمر الداكن / الذى كان قدماء المصريين يستخدمونه فى تلوين بشرة الرجال من بنى وطنهم ويبدأ الرحلة إلى الصعيد.

لقد انفطر قلبى عند مرورى أمام قرية الاشمونين حزنا على رواقها الرائع الذى قامت الأيدى الهمجية بتقويضه مؤخرا، لم أر فى الشيخ عبادة سوى الأنقاض بعد أن دمر كل ما فيها ولم يبق سوى بعض الأعمدة الجرانيتية التى لم يقو العابثون على مجرد زحزحتها.

يصل إلى أسيوط لا يهتم سوى بالجبانات التى فيها ومن أسيوط يصل إلى طيبة:

لقد كرست نفسى لمصر حتى أصبحت كل شىء بالنسبة لى، لذلك انشد لديها السلوان والمواساة.

ويصل إلى دندرة



حجر رشيد

حجر رشيد صاحب القدرة المغناطيسية الفذة وجده صدفة أحد جنود الحملة الفرنسية على مصر فى مدينة رشيد. وقد أدرك الفرنسيون فورا أهميته الفائقة. وأرادوا الاستيلاء عليه ونقله إلى باريس ولكن الإنجليز المنتصرين هم الذين استولوا عليه وتمكنوا من نقله إلى لندن حيث وضع فى المتحف الملكى البريطانى

فى دندرة كان ضوء القمر ساحرا. والمعابد على مسيرة ساعة من الزمن فياترى هل كان فى استطاعتنا مقاومة ذلك الاغراء. إما أن يظلننى الناس مفعما بالحماس أو مجنونا إذا نجحت فى إعطاء صورة ولو شاحبة وهزيلة عنها. سأكتفى بالقول أننا فى أوروبا لسنا سوى أقزام وانه ما من شعب قديما كان او حديثا بلغ من فهم وتصور فن العمارة بمثل هذه الدرجة الرفيعة والعظيمة التى بلغها المصريون القدماء. لقد كانوا عمالقة يتجاوزون المائة قدم من تصميماتهم، بينما نحن لا نكاد نتجاوز خمسة أقدام وثمانين بوصة. إن الإبداع الأوروبى الذى يحلق فوق أروقتنا ينقلب خاسئا وهو حسير أسفل المائة وأربعين عمودا التى يتكون منها بهو أساطين الكرنك.

ولأنه سافر إلى مصر محملا بقضية فهو يكتب فى ١ يناير ١٩٢٩ من وادى حلفا:

الآن وبعد أن تتبعت النيل من مصبه وحتى الشلال الثانى أعلن لكم بكل زهو وفخر بأن رسالتنا حول الأبجدية الهيروغليفية صحيحة تماما، ولا تتطلب أى تعديل. إذ يمكن تطبيق تلك الأبجدية الصائبة التى وضعناها بنفس النجاح على الآثار المصرية. التى ترجع إلى العصرين الرومانى والبطلمى، وكذلك - وهو ما يماثل أهمية أعظم - على نصوص كافة معابد وقصور ومقابر مختلف العصور الفرعونية.

ولأن شامبليون فرنسى ورغم حبه لمصر الذى قد نتصور أنه يفوق حبه لفرنسا، إلا أنه لا ينسى أن الحكومة الفرنسية ترغب فى تزيين باريس بمسلتين من مصر.

إن شرف الوطن وعزته يحتم علينا اختيار مسلتى الأقصر وترجع هاتان المسلتان الرائعتان - وهما فى حالة مدهشة من الحفظ - إلى سيزوستريس الذى أمر بنحتهما من كتلة حجرية واحدة. إن الأمر لا يكلف فرنسا أكثر من ٣٠٠ ألف فرنك فقط.

أما كون ذلك يعد قرصنة أو استيلاء على آثار الغير ونقلها خارج البلاد فلا يخطر على باله. كانت إنجلترا قد استولت على حجر رشيد، وها هى فرنسا وها هو شامبليون عاشق مصر يرسم كل خطط نقل المسلتين إلى باريس، بل يصمم السفينة التى ستنقلهما إلى هناك ولا يرى فى ذلك أى تناقض بين واجبات المحب وضرورات اللصوصية.

كان التعب قد تمكن من شامبليون بعد هذه الرحلة المضنية فى صعيد مصر وإن كان حريصا على عدم مصارحة أحد بحقيقة مرضه وبدأت قواه تخور بعد إقامته الطويلة فى وادى الملوك التى امتدت من الثالث والعشرين من مارس حتى الثامن من يونيو، وخاصة الأبحاث المتعددة والمعقدة للغاية التى اضطر لإجرائها وسط الصمت المطبق فى المقابر العتيقة، بهدف التعمق فى تحرى الطبيعة الحقيقية للتسلسل التاريخى والديانة التى كان يعتنقها المصريون القدماء. وقد عثروا عليه ممددا على الأرض أكثر من مرة وسط سراديب الآثار.

وفترة إقامة شامبليون فى قصر القرنة لم تخل من روح الفكاهة والإنسانية التى يتميز بها المصريون، إذ كان سكان القرى الأربعة المشيدة على موقع طيبة العريقة: الكرنك، الأقصر، القرنة ومدينة هابو يحضرون يوميا إليه ومعهم حيوانات حية على اختلاف أنواعها لدرجة أنه أصبحت لديه حديقة حيوانات.

فى طريق عودته من الصعيد يقابل إبراهيم باشا الذى أحسن استقباله:

وقد أطلنا الحديث معه عن منابع النيل. كما وطدت لديه الفكرة التى كانت تراوده فى تخليد اسمه بهذا الاستكشاف الجغرافى العظيم سواء عن طريق تشجيع الرحالة بصحبة عدد من الرجال المسلحين لحمايتهم.

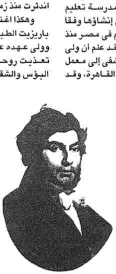
ثم يعود لمقابلة إبراهيم باشا لثانى مرة ووافق إبراهيم على اقتراح إرسال بعثة مصرية لاستكشاف منابع النيل، كما تمت مناقشة موضوع آخر أكثر إلحاحا فى ذلك الوقت وهو بقاء المستشفى ومدرسة تعليم الطب فى أبى زعبل. وكان قد تم إنشاؤها وفقا لتعليمات كلوت بيك الذى أقام فى مصر منذ عام ١٨٢٥ وكان شامبليون قد علم أن ولى عهد مصر قد قرر تحويل المستشفى إلى معمل للحرير مما أثار غضب سكان القاهرة، وقد قابل شامبليون كلوت بيك كبير جراحى الجيش المصرى لمعرفة ماذا يمكن عمله لحل هذه القضية المؤسفة. وقد انتزع «المصرى» من إبراهيم باشا وعدا بعدم المساس بالمستشفى.

ثم يذهب إبراهيم باشا متوترا ومهتاجا - أكثر من المألوف مما حث الفرنسيين على أخذ بعض الأدوية معهم، وحسنا فعلوا ذلك إذ انتابت ولى العهد أزمة قلبية أثناء تناول وجبة العشاء فسقط على الأرض، عندئذ داواه الفرنسيون وأنقذوه من موت مؤكد وقد أخر الفرنسيون سفرهم أسبوعا لعلاج ولى العهد من وعكته.

بكى محمد على - الذى يقول عنه شامبليون فى مذكراته الملك - من شدة التأثر والانفعال وراح يغدق النعم على ضيوفه منذ تلك اللحظة مرددا:

أحدهما قد بعث ابنى إلى الحياة من جديد بينما قام الآخر بإحياء مجد وعزة بلدى التى اندثرت منذ زمن سحيق.

وهكذا اغتنم شامبليون الفرصة ومعه باريزيت الطبيب الفرصة وتحدث أمام الملك وولى عهده عن أوضاع مصر التعسة. لقد تعذبت روحاهما المرهقة من رؤية مظاهر البؤس والشقاء الشديد الذى يطحن الشعب.



يوم ٢٤ أغسطس يقابل محمد على. يطلق عليه شامبليون الباشا. واللقاء تم فى الإسكندرية. إن انتقال الحاكم إلى الاسكندرية صيفا له جذوره التى تعود إلى أوائل القرن قبل الماضى، لقد وصل شامبليون إلى مصر فى أغسطس وأبهة الحكم جعلت محمد على يقيم فى الإسكندرية

كان شامبليون يتصدى لحالة الآثار المصرية التعيسة المهددة بالتدمير النهائى، أما باريزيت فتكلم عن التحسينات الصحية التى ينبغى إدخالها على مصر وانتشال المصرى من ظلمات الجهل والعبودية وإعادة الروح له والنهوض به إلى مستوى الشرف والكرامة الإنسانية.

تحدث شامبليون عن التقدم الذى يحرزه الطلاب الخمسة والأربعون الذين أوفدهم الباشا للدراسة فى باريس تحت إشراف جوهار والأستاذ القبطى عجوب. وكان شامبليون يعرفهم جميعا بما فيهم أبناء الأمراء الزنوج الستة الذين أضيفوا إلى أعضاء البعثة. وكان قد قابلهم قبل مغادرته باريس لرغبته فى توصيل أخبار صحيحة عنهم لمحمد على باشا. كان ولى العهد يطلق عليهم عمداء كليات المستقبل. وقد أرسل الشيخ دشتوتى كتابا فى الطب، فى حين أرسل الشيخ رفاعة الطهطاوى أشعارا من بينها قصيدة القيثارة المهشمة التى قام الأستاذ عجوب بصياغة نصها الأصلى خاصة عن أعمال خاصة بعلم الفلك.

يعودان - شامبليون وزميله - للكلام عن عظمة شعب مصر رغم الظلم الواقع عليه، فيغير محمد على مجرى الحديث ويسأل: هل كان رمسيس حقا أعظم الفراعنة؟! كان محمد على يهوى الاستماع إلى أخبار بونابرت فى مصر. قائلاً له: إن بونابرت كان يستقبل فى باكورة كل صباح علماء الأزهر الذين وعدهم بدخول الإسلام. وبناء مسجد لقواته ولكن رحيل بونابرت وضع حدا لهذه المهزلة.

يحكى الباشا لشامبليون قصة مطران مدينة منف الذى أرسله له مجمع التبشير ليغير دينه وأن يعتنق محمد على المسيحية، فلما علم الباشا بوصول السفينة التى تقل الأسقف القبطى فى كامل زيه الكهنوتى أرسل له قائلا: إن جلادى فى انتظارك. عندئذ ارتعد القس خوفا، وولى هاربا صوب مدينة نابولى الإيطالية ثم بلغ روما واعتصم فى قصر سانت انج ولم يبارحه بعدها أبداً.

يعلق شامبليون على قصة الباشا:

عندما فرغ الباشا من رواية تلك الواقعة أخذت الابتسامة العذبة التى كانت لاتفارق شفتيه تخبو شيئا فشيئا، وراح يقبض بشدة على رأس الأسد المهيب المستأنس الذى كان قابعا بجواره. عندئذ نهض إبراهيم باشا لتهدئة الموقف خوفا من أن يثور الأسد ويقوم بحركة مباغتة نحو الضيفين.

قال إبراهيم باشا:

إشارة واحدة من ملك مصر، تكفى لتهدئة ملك الصحراء.

عندئذ ضحك محمد على بحرارة والتفت إلى شامبليون ليقول له بنبرة فروسية حازمة:

من بين كل المذاهب الأوروبية لا أطالب لى ولشعبى إلا بمذهب فك الرموز الهيروغليفية.

ثم التمس الباشا من شامبليون أن يكتب له موجزا عن تاريخ مصر القديمة. وفى التاسع والعشرين من نوفمبر سلم شامبليون المذكرة المطلوبة ومذكرة أخرى لم يطلبها منه

الباشا حول صيانة الآثار المصرية، أعرب فيها للوالى عن اللوم والعتاب لما يتحمله من المسئولية من إهمال آثار مصر.

وقبل وداعه لهما سلمه إبراهيم باشا علاوة على الهدايا قرارا بالإبقاء على مستشفى أبى زعبل وعدم المساس به وإن كان إبراهيم باشا قد بعث بوعده بعد ذلك. تحت إلحاح مستثمر أوروبى. ولكن بعد إرسال مذكرة احتجاج له. أنقذ المستشفى فى آخر لحظة.

كانت إنجلترا قد استولت على حجر رشيد وها هى فرنسا وها هو شامبليون عاشق مصر، يرسم كل خطط نقل المسلتين إلى باريس بل ويصمم السفينة التى ستنقلهما إلى هناك ولا يرى فى ذلك أى تناقض بين واجبات المحب وضرورات اللصوصية

أما محمد على فى لحظة الوداع فقد أبلغ شامبليون قراره بحسم قضية نقل مسلتى الأقصر اللتين أهداهما الى فرنسا، وقد كلف مدير ترسانة تولون البحرية ببناء مركب عملاق لنقل المسلتين واحدة بعد الأخرى من الأقصر إلى متحف اللوفر. شامبليون هو الذى قام بتصميم مواصفات المركب الذى لم يشهد له العصر مثيلا وقد وافق الوالى وولى عهده على ترتيبات المصرى. معجبين بشمولية معارفه وإن كان شامبليون الذى قابل الوالى وولى عهده كثيرا يقول فى مذكراته أنه أضاع خمسة وسبعين يوما من أجل هذه المقابلات.

هناك مذكرة قدمت إلى الوالى دونها نستورلوت عن الحالة الاجتماعية للفلاح المصرى تتكلم عن النعيم الذى حظى به الفلاح فى زمن الحملة الفرنسية ثم تتكلم عن الظلم الواقع على الفلاح باعتباره ظلما تركيا وإن كانت تصف بؤس الفلاح بدقة وبراعة تنتهى هكذا:

إن مصر تستحق مصيرا أفضل ومستقبلا أكثر إشراقا وسيكون من صالحها أن تاتى قوة أخرى للقضاء على هيمنة الأتراك ووضع حد لهذا الشقاء.

فى حين أن مذكرة الآثار نجد ختامها على هذا الشكل:

لقد آن الأوان لوضع حد لتلك العمليات التخريبية البربرية التى تحرم العلم من آثار فى غاية الأهمية وتصيب الرحالة بالحسرة وخيبة الأمل لاندثار النقوش الفريدة التى تكبدوا مشاق كثيرة فى سبيل القدوم لرؤيتها.

إن مصلحة العلم لا تقتضى إيقاف الحفائر التى تكتسب من خلالها يوميا المزيد من المعارف غير المنتظرة وإنما تقتضى المصلحة إخضاع تلك الحفائر للوائح وقوانين تضمن الصيانة الكاملة لما يتم اكتشافه من مقابر فى الحاضر والمستقبل وحمايتها من كافة التعديات سواء كان مصدرها الجهل أو الطمع أو الجشع الأعمى.

لا توجد فى المذكرة كلمة واحدة عن حق محمد على فى إهداء آثار مصر إلى دول أجنبية مثل مسلتى الأقصر اللتين أهداهما الباشا لفرنسا بناء على مذكرة كتبها شامبليون نفسه. هل رأيت كم تبدو الحقائق نسبية وليس مطلقة.

كان آخر ما كتبه شامبليون عن محمد على وابنه إبراهيم: لقد أكثرت من رؤية إبراهيم باشا فى القاهرة والإسكندرية. وهو رجل فريد على مستوى الحضارة المصرية القديمة. أما والده محمد على باشا فهو رجل عظيم ليس له من مآرب سوى ابتزاز أكبر قدر ممكن من أموال الدولة ولما كان يعلم بان أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة، فإن محمد على لا يتورع عن حلبها وإنهاكها ليل نهار انتظارا لشق بطنها. ونحرها فى وقت قريب. إن مصر تثير فى النفس الرعب والشفقة فى آن، ولا مناص من الاعتراف بتلك الحقيقة بالرغم من السيف الرائع والمطعم بالذهب الذى أهداه لى الباشا.

وتكتب جريدة لافيزودى لاميديترانيه. نقلا عن صحف فرنسية أخرى إن محمد على استولى بالقوة على رسومات شامبليون. فيكتب شامبليون من تولون فى ١٥ يناير ١٨٣٠ إلى رئيس تحرير الجريدة يطلب تكذيب هذا الخبر الذى يتنافى مع المشاعر النبيلة التى تميزت بها علاقات محمد على مع الأوروبيين وبخاصة الفرنسيين.

اقرأ معى ما يكتبه شامبليون عن سفره من مصر. يكتب أول مرة من الإسكندرية فى ٢٨ نوفمبر ١٨٢٩:

أخيرا، وبعد طول انتظار سمح لى آمون العظيم بتوديع أرضه المقدسة وسأغادر مصر فى الثانى أو الثالث من ديسمبر بعد أن غمرنى أهلها القدامى والمعاصرون بكل جميل ومعروف.

ثم يعود ويكتب مرة ثانية من مرفأ تولون فى الأول من يناير ١٨٣٠:

لقد سمح لى آمون رع العظيم بتوديع أرضه المقدسة أما الإلهة حتحور المقدسة فقد تكرمت بتسيير رحلتى البحرية من شواطىء الإسكندرية وحتى سواحل البروفانس.

سفير البرتغال الذى قابل شامبليون وهو عائد لفرنسا كتب عن اللقاء:

رأيت شخصا يسرع الخطى ناحية أبواب الأبدية.

يصل شامبليون إلى فرنسا. يمر بمرحلة احتضار ليست طويلة. فجر ٤ مارس ١٨٣٢ يموت جان فرانسوا شامبليون. كان عمره لحظة وفاته واحدًا وأربعين عامًا وشهرين ونصفًا. جرت مراسم الجنازة صبيحة الثلاثاء ٦ مارس ١٨٣٢ . وأديت الصلاة فى كنيسة سان روش التى كان لها دور مهم فى حياة المتوفى وفى حل شفرة الهيروغليفيات. ذلك أنه قابل فيها القسيس المصرى.

ها هى الأنوار قد خفتت.

كان هذا ما قاله شاتوبريان عن وفاة شامبليون ولكن حكيمًا مصريًا من الامبراطورية الحديثة يقول نقلا عن بردية قديمة:

رجل ذهب. جثمانه مسجى داخل الأرض. جميع معاصريه ذهبوا عن الأرض إلا أن المكتوب سيضع ذكراه على شفاه من سينقلها إلى شفاه أخرى.

لقد مات شامبليون: نعم. لكن الولع بمصر تحول إلى علم. والعلم أصبح مرضا ينعم به الفرنسيون دون سائر البشر. بقى أن يمرض به المصريون أن يحبوا مصرهم. تلك هى القضية الغائبة. ■

من التطرف إلى التأمل

فن الشباب فى صالون الشباب

الغريب يحصل على الجائزة

فاطمة على

على مدى اثنى عشر عامًا، هى عمر «صالون الشباب» للفن فى مصر، أطلق الصالون حرية المنافسة بين الشباب إلى ذروتها وتبارى هؤلاء الفنانون فى إبداع كل ما هو غريب ومتطرف في خاماته وتقنيته وأفكاره التى نادرًا ما وُجدت حتى اصطبغ طابع الصالون بالغرابة والتطرف عن مسار الحركة التشكيلية (ظاهريًا) لكن فى الوقت نفسه كان هذا التطرف فى الفن يحصد الجوائز الواحدة تلو الأخرى. ولهذا شقان خطيرا الأهمية.. أولهما إيجابى لإطلاق خيال الشباب ليقدم إبداعاته كاملة الفكرة دون وصايات قد تفرملها أو تعوقها وهذا مطلوب الإبداع ومهم.. وثانيهما سلبى حيث يجعل خيال الشباب لا يرسو لنقص الخبرة عند وسيلة تعبير تخدمه وتؤكد الفكرة، فتضيع الفكرة وتضيع التقنية.

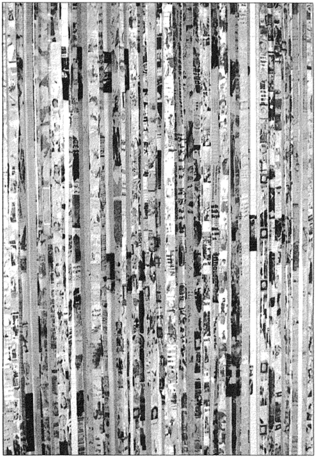
فى صالون العام الحالى وبعد التصفيات والاختيارات بدا التنافس كاشفًا عن الكثير من حالات التأمل الداخلى أو الباطنى لدى الشباب، كما بدا أن الشباب يخوضون التجربة بحالة من التروى كأنهم يراجعون أنفسهم بعيدًا عن الأعمال المتعجلة والإبهار الزائف.. إحدى حالات التأمل الداخلى تلك ظهرت فى العمل المركب للفنان محمد طمان، ففى أنبوب من ستة أنابيب بلاستيكية ضخمة تدلت من السقف أدخل شابًا صغيرًا وسط قليل من الماء وقد أخذ وضع الجنين داخل الرحم فى حركات بطيئة ليديه.. وبدا كما لو أن هذا الفنان خاض بنفسه حالة تأملية لما قبل الميلاد.. وعاش إحساس الجنين داخل محيط مغلق على وسط مائى مصحوب بإيقاع صوتى كضربات قلب الأم.

حالة تأملية أخرى موجهة لما وراء المرئى فى العمل المركب للفنان حنفى محمود تتمثل فى حالة سكونية جسدية تعطى إحساسًا فى وقفة شخص يؤدى الصلاة أمام حائط ذهبى يحمل الكثير من الغموض والريبة وأيضًا الخشوع الشديد الآسر.

وفى التصوير نرى حالة من السكونية المستسلمة أو التأملية فى لوحة الفنان إبراهيم الدسوقى وقد أوقف امراة بعينها فى لوحتين فى أربعة أوضاع واقفة فى كل منها، هى مستغرقة متأملة لأفكارها فى استسلام داخلى والتى من وقوفها أمام نفسها فى اللوحة الواحدة توحى باللاجدوى، وقد كشفت عن سكونية لا مبالية.

صالون الشباب الثانى عشر من ٣ إلى ٢٨ سبتمبر، ٢٠٠٠

القاهرة: قصر الفنون بالجزيرة



عمل مركب للفنانة صباح مصطفى نعيم

كذلك فى لوحة تأمل للنفس وأيضًا رصد للآخر قدمت الفنانة مى رفقى امرأة تجلس أرضًا فى حالة تأمل وتركيز وقد عقدت إحدى ساقيها نراها من منظور رأسي، ونرى من منظور أفقى فى نفس اللوحة رجلاً ممددًا فى راحة فوق مقعد وأخذ وضع السكونية فى مراجعة متأملة مع النفس.

كذلك فى لوحتى الفنان بسام البارونى ورحلة تأمل داخلية مع ذات الفنان فى الشباب وتوقع الشيخوخة فى لوحتين يغمرهما التأمل الفلسفى البعيد.

وهناك نماذج كثيرة من حالات التأمل والرسو مع النفس فى الصالون.

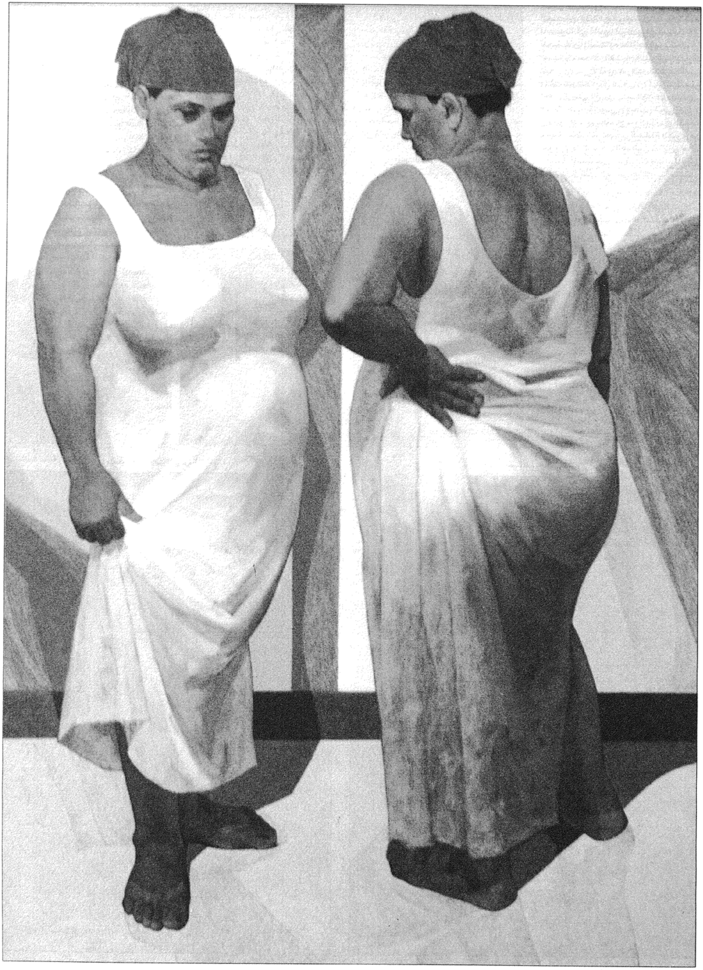
وكى لا نبتعد عن الصالون كفكرة وممارسة عبر اثنى عشر عامًا علينا أن نعود قليلاً للوراء لنرى بشكل أوضح التجربة شبه كاملة، ثم نعود زمنيًا إلى صالوننا هذا الثانى عشر فى مكانه القائم داخل قصر الفنون.

ولأننا على ذكر الشباب نتوقع أحلاما.. تجارب.. ثم محطات وصول، وقد تصطبغ كل من المراحل الثلاث بالتعجل أو ما يسمى ما فوق الواقعية سواء فى لانهائية مساحة الحلم أو محاولة إمساك النجوم، وهذا ليس بسيىء، ولكن مع محاولة إمساك النجوم يجب ألا نترك موقع أقدامنا فوق الأرض.. هذه المعادلة الصعبة نسبيًا والتى تتحقق مع الخبرة ومغادرة زمن الشباب إلى زمن التروى والتمهل نراه قد تحقق إلى قدر كبير رغم عدم انسحاب الشباب كمرحلة عمرية، كما ذكرت فى البداية أن هذا الصالون حمل الكثير من التأمل الداخلى والرسو مع النفس إلى حد ما وذلك بعد تصفيات أسفرت عن خروج ثلاثة أرباع الأعمال المقدمة من العرض.

خلال إحدى عشرة دورة سابقة للصالون ترسخ وبشكل نهائى لدى زائريه والفنانين وحتى الشباب المشاركين أن أى شىء يقدم مهما كانت غرائبيته أو قالبه الفنى ما دام غريبًا ينال جائزة وبالتالى هو شىء رائع ومطلوب ويصبح نموذجًا يحتذى به الشباب فى الدورة التالية حتى ينالوا الجائزة.. حتى لو لم يكونوا راضين أو مقتنعين بما يقدمون (كثير من الشباب غير مجاله الأساسى إلى الأعمال المركبة)، وهذه الحصيلة لا تسىء لفكرة الصالون فقط، بل تسىء لشباب الحركة التشكيلية ولذوق الزائرين.

وسأذكر لكم واقعة حدثت يوم افتتاح هذا الصالون الثانى عشر تُظهر خطورة التمادى والانصياع وراء

على الصفحة المقابلة جائزة الشباب الكبرى - إبراهيم الدسوقى فهمى



كل ما هو غرائبى شاذ حتى لو لم يكن فيه من الفن شىء، وذلك بسبب كثرة ما قدم الصالون طوال دوراته السابقة من أفكار متطرفة فى شططها الفنى تغذى استفزاز الذوق العام.. وهذه الواقعة تظهر أسوأ ما فى تجربة التطرف الفنى غير الواعى رغم أنها بدأت تهدأ كموجة خلال هذا الصالون والصالون السابق له.

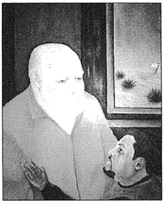
والواقعة التى حدثت وكعلامة خطيرة للغاية حدثت مع العمل الخزفى أو بسببه، وهو العمل الفائز بالجائزة الأولى باسم «التنورة» للفنان حسن رشاد فقد سقط متحطمًا مع الدقائق الأولى للافتتاح وتناثرت أجزاؤه على أرض القاعة.. والمفارقة، وهو ما أقصده منذ البداية ونتيجة لشدة ما شاهد جمهور الصالون من شطط فنى فى الدورات السابقة وقفوا يتأملون بتركيز القطع المتناثرة ويدورون حولها (بشكل جد ماسوى) معتقدين أن هذه الشظايا الخزفية هى المقصود بها العمل الفنى فى شكله النهائى، وأنها وزعت على الأرض بشكل مقصود ومحدد وإلا فلماذا فاز بالجائزة الأولى، وللأسف نشرت إحدى صفحات الفن المتخصصة صورة ركام العمل المتحطم المتناثر مشيرة إلى أن هذا هو العمل الفائز بالجائزة الأولى.

هذا التضارب فى الذوق الفنى والإدراك هو حصيلة السنوات الإحدى عشرة الماضية، فقد آذت الفنانين الشباب تجاربهم، تلك التجارب غير المحسوبة، فظلم المتعجلون منهم الجيدين. لذلك، ونتيجة للتجارب غير المحسوبة فى غالبها فى الدورات السابقة كان للجنة الفرز والتحكيم هذا العام دور فعال فى اختيار الجيد ذى القيمة بعيدًا عن الإبهارات البصرية التى لا تدوم من فعل التطرف الفنى، ولذلك هذا العام تم عرض ٢٦٪ من مجموع الأعمال التى تقدمت للصالون ما دامت لها قيمة فنية، أيًا كان اتجاهها الفنى إن كان واقعيا أو سيرياليا أو حداثيا المهم القيمة الفنية، لذلك كان حجب الجائزة الكبرى من أهم قرارات اللجنة، فالصالون بدا دون حافة إبداعية فاصلة بين مستويات الجيد المقبول وبين فائق الفكر الإبداعى، فالكل بدا مجتهدًا

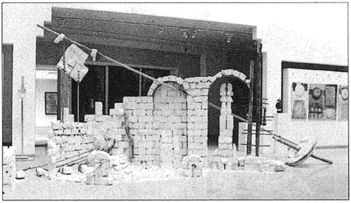
الشرنوبى محمد محمد . الانفجار الفخارى



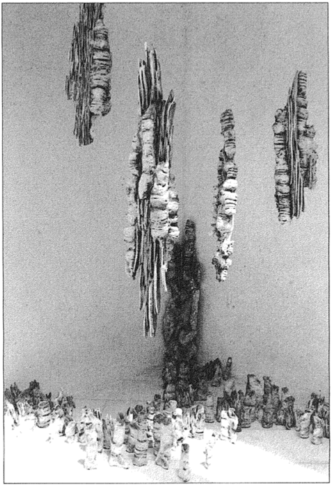
بسام محمد البارونى - جائزة لجنة التحكيم



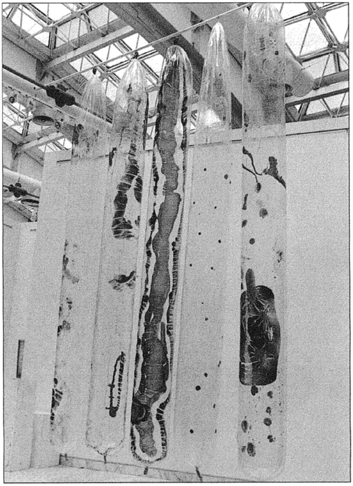
حسن صبحى على - إبراهيم أحمد العطار : عمل مركب



منصور فراج توفيق - الجائزة الثانية خزف



عمل مركب . محمد سامح طمان - جائزة أولى



ومقتربًا من المستوى الإبداعى العادى، ولذلك استنكر البعض حجب الجائزة واستحسن الكثيرون حجبها لأنها ليست من المسلمات الواجبة الصرف، وما دامت الجائزة الكبرى لم تجد ما يليق بها دون وصاية أو مفاضلة أو محاولة تلبيها بأى شكل لعمل ليس جديرًا بها، لذلك أتوقع أن تصبح هذه السابقة صمام أمان للجائزة فى دورات الصالون القادمة، وأيضًا صمام أمان للشباب نفسه.

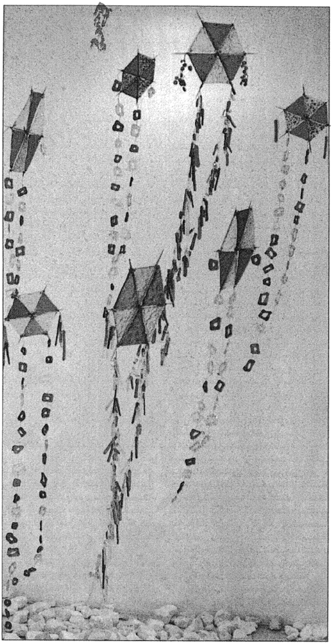
وشباب الفنانين عبر عمر الصالون مروا إلى حد ما بتغيرات واضحة عن بداية الدورات وهى تغيرات تفرض علينا أن نشاهدهم بعدل يعادل قدر التغير، فقد بدأت تهدأ موجاتهم الميلودرامية العالية فى المواضيع الإنسانية وتمزقاتها العنيفة، كذلك محاولات الإبهار الزائف والمعالجات السطحية المتعجلة وحلت محلها محاولات التفكير المتبصر إلى درجة ما، لمواقع أقدامهم فى تجربتهم خلال هذا الصالون والصالون الماضى، وهذا مفيد لمسيرة الصالون حتى لا يصبحوا كراقص الباليه الذى يقدم حركة الجران تور Grand Tour الذى يستعرض فيها مهاراته باللف حول نفسه فى مكان ثابت ليصيب الآخرين بالانبهار المصحوب بالذهول والدهشة ثم لتمنح له جوائز الصالون كبراها وصغراها فى تشجيع مطلق دون أن يكون محسوبًا تمامًا. كل ذلك رغبة من الصالون فى التشجيع، ويبدو أن الصالون بدأ يعيد تفكيره أولاً قبل أن يوجه نصيحة للشباب كى يساعد برؤياه الموضوعية القائمة على القيمة فى وضع مجسات وخطوط عريضة تساعد الشباب على إعادة الرؤية بطريقتهم والتسابق وراء القيمة ولو كان بها بعض من الإثارة.

وليست الجائزة الكبرى فقط هى التى حجبت ولم ينلها أحد، بل أيضًا جائزة النحت الأولى حجبت، فقد بدا النحت فى الصالون الثانى عشر كارثة فنية، فقد تقدم القليل للغاية عددًا وقيمة أو حتى فى الملمح الإبداعى، وتساءل البعض مادام هناك سمبوزيوم نحت فلماذا لم يرتفع المستوى؟

لكن المشكلة أن مستوى النحت لم يكن منخفضًا فى حركتنا التشكيلية، بل كان مرتفعًا بالفعل وللغاية وله أساتذته الكبار منذ العشرينيات وليس من العدل أن نقول أن مستوى النحت لم يرتفع، بل نقول لماذا انخفض مستوى النحت ـ وليس للسمبوزيوم علاقة بهذا ـ ولماذا هذا التراجع عن النحت المباشر وتوجه بعض الشباب إلى النحت متخفين وراء الخزف النحتى أو الأعمال المركبة.

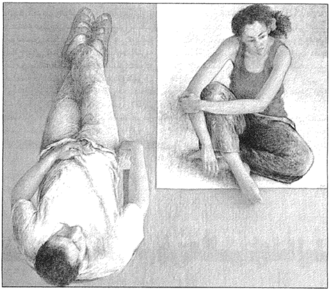
بدخولك قصر الفنون حيث الصالون ستجد المدارس الفنية متجاورة داخل وعاء يضم حصيلة إبداعات الشباب على مدى عام مجسدًا ما تموج به الحركة التشكيلية من أفكار وقدرات وأحلام، حققت معه اللجنة الكيف وليس الكم، مع استضافة فنانين عرب تحت سن ٣٥ من خمس دول عربية دعمًا للصالون كما جرى تخصيص جناح للفنانين التلقائيين فى مصر.

بلغ مجموع الأعمال التى قدمها الشباب للصالون ١٤٥١ عملاً، تم قبول ربعها فقط، ورغم أن هذه النسبة الكبيرة للأعمال المرفوضة تكشف عيوب الحركة الفنية إلا أن الأمر من ناحية أخرى لصالح الشباب، فبعرض الجيد سيدركون أن الجدية هى الشكل والمنهج المقبول والمطلوب وسيفيدهم هذا وحركتهم التشكيلية



هانى فاروق إبراهيم

للفنانة «مى مصطفى رفقى»



وخاصة أن الشباب اعتادوا التقاط إشارات وتوجهات لجان التحكيم واختياراتها من دورة لأخرى راصدين الملامح الرئيسية والمنهج الفنى الذى يأتى بالجائزة، فكما كان يحدث إذا فاز عمل مركب كبير الحجم ملئ بالخامات المتنافرة (حديد، خشب، خيش، أسياخ، قطن، طين) دون حتى مدلول ترى الدورة التالية كلها على هذه الشاكلة، وإذا فاز عمل هو مجرد تراكم لونى فج لا انفعالى ولا جمالى، ترى الدورة التالية كلها تسير على هذا النهج اللونى من أجل الجائزة.

وقد كشف الصالون فى أعماله المقدمة قبل الفرز عن تخبط شديد واضح وسط الشباب فى غياب الأستاذ المعلم الفنان مفتقدين لفكرة تبنى الأجيال لبعضها البعض، فالصالون فى مجمله مادة ممتازة لحالة الفكر الشبابى الفنى فى مصر، أيا كانت درجتها.

كما تميز الصالون بازدياد أعداد المتقدمين خاصة فى التصوير والرسم، وتراجع أعداد المتقدمين فى النحت للغاية، وظهر عمل واحد فى النحت بالليزر الذى قُدم على أنه عمل مركب، وزاد عدد المتقدمين فى تقنية الكمبيوتر جرافيك، أما التصوير الضوئى فلازال مشاركوه هواة، أما الخزف فتحدث له حالة تحول غريب، فهو فن يعتمد على الكتلة والخامة الثابتة فى استمرارية عبر زمان ومكان لكننا نراه هنا يتحول من دوره كقيمة وظيفية إلى تعبيرية وبإدراك غير واع، ونراه وسط تيارات العمل المركب (التنورة مثلاً) مكون من ثلاث قطع مركبة ولا يمكن التعامل تمامًا معه كشكل خزفى فجزء منه معلق على الحائط وجزءان آخران مركبان من أربع قطع يشكلان تنورتين فى حيز فراغى، ولو جزأنا العمل (قبل أن يتحطم فى الافتتاح) لفقد هويته وشكله، وبذلك يكون قد فقد استمراريته كخزف.

وقد تحولت الأعمال المركبة من مجرد عمليات الإبهار والصراخ البصرى والنفسى وخواء الأفكار وتراكم الخامات إلى التعبير عن الموضوعات الفكرية أو شبه الفلسفية المتأملة وهو أمر إيجابى. لكن تداخلاً حدث فى الوقت نفسه بين أفرع الفن الواحد كالرسم والجرافيك، والنحت والخزف والعمل المركب، والتصوير والأعمال التجميعية.. ولا مانع من أن يظهر عمل يضم كل هذه الأفرع لكن بوعى ودون خلط وتشويه للأمور مع الحفاظ على الفرع الأصلى الذى يضاف إليه من معطيات باقى الأفرع.

وتبقى ظاهرة عدم اهتمام الشباب بإنهاء أعمالهم بإتقان وبشكل لائق حتى أن أجزاء من الأعمال كانت تُخلع أو تكسر بمجرد لمسها وكأنهم على عجلة وأن التشطيبات الفنية الدقيقة ليست من مضمون العمل.

إجمالاً.. داخل الصالون الثانى عشر هناك شباب متميز وطموح واتجاهات واعية عديدة متنوعة وخامات وتقنيات متنوعة وهناك تبادل خبرة يحدث على مدى شهر كامل من عام لآخر مع كل صالون، جعل الشباب يهتمون بالخامة إلى أقصى حد دون أن يجيدوا تقديمها فى شكل متقن.. لذلك جاءت الأعمال غنية فى مادتها وأيضًا زاخرة بالبعد الرابع وهو البعد المتعارف عليه كبعد زمنى نراه هنا وقد تركزت عيون الشباب على عائه المتحقق وهو المستقبل فى استكشاف وتوقع، وتصبح التجربة هى الفيصل بين الحلم حين يدخل مجال الزمن.. الزمن الخاص، والزمن العام.

عصر من الفساد .. من فساد السفح إلى فساد

محمود المراغي

كان الفلاسفة ينظرون للفساد كقضية أخلاقية، ولكن هاهم فلاسفة العصر من اقتصاديين وساسة ينظرون له من زاوية «المصلحة».. وبينما كان البعض يقول إن الفساد لازم لتشحيم عجلة الحكومات.. وأنه بالنسبة لقطاع الأعمال إنفاق محدود وعائد كبير.. بينما كانوا يقولون ذلك عن اقتناع باتت المقولة الأكثر شيوعا أنه كارثة تصيب المجتمعات، وتؤثر على نموها، وتضرب اقتصادها في مقتل.. فالفساد لا يتيح فرصة للتنافس العادل لأنه آلية تنحاز لمن يستطيع أن يدفع أكثر!

ورغم أن الفساد كان قائما على مر التاريخ، إلا أنه بات موضع اهتمام أكبر في السنوات العشر أو الخمس عشرة الماضية لقد فرض الفساد نفسه تحت تأثير عدد من العوامل جعلته:

* متاحاً بدرجة أكبر.
* ومستشرياً بدرجة أوسع.

[١]

هو متاح لأن دور الدولة ـ ومنذ الحرب العالمية الثانية ـ قد اتسع، وبات الإنفاق العام يمثل نسبة عالية من الناتج المحلي والقومي.. وباتت نقاط التماس بين العام والخاص قابلة للانفجار في اتجاه (المصلحة الخاصة ـ مقابل الرشوة).. أو في اتجاه انحياز الإنفاق لمناطق أو جماعات مصالح أو تكوينات عائلية.. أو ربما في اتجاه إيرادات الدولة حين تنحاز عبر الضرائب أو الجمارك لفئات دون فئات.

المالية العامة والتي يغذيها دافع الضرائب آلية رئيسية لتوزيع العدل أو الظلم.. وعند أطرافها يقف الفساد أو يبتعد، ففي المعاملات بين (العام والعام) أو بين (الخاص والخاص) يندر أن نجد فسادا.. فالأول لا يستطيع معه ذوو الأمر شيئا.. والثاني تغيب فيه المصلحة على الأرجح.. «فمن يأكل من» لكنها ـ وكما قلت ـ نقاط التماس بين العام والخاص حيث يتم تفريخ الفساد.. وكلما زادت الكعكة المسماة بالإنفاق العام، أو الموازنة العامة.. زادت الفرصة، أيضا كلما اتسعت السلطات الممنوحة للأفراد وغابت الرقابة حدث نفس الشيء.

> تشير أرقام تقرير التنمية في العالم لعام ٩٧ والصادر عن البنك الدولي إلى أن نسبة النفقات الحكومية للناتج المحلي الإجمالي عام ٩٥ بلغت ٤٨٪ في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية و ٢٨٪ في البلدان النامية ويشير التقرير الاقتصادي العربي الموحد الصادر عن الجامعة العربية إلى أن الإنفاق العام للبلاد العربية منسوبا للناتج المحلي قد بلغ ٤٩,٤٪ عام ١٩٨٦.

الكعكة أصبحت كبيرة بنمو دور الدولة الذي مازال قائما رغم انهيار المعسكر الاشتراكي وانتشار الاقتصاد الحر، فقد حلت وظائف الدولة الاجتماعية مكان وظائف الدولة الاشتراكية.. كما لعب الإنفاق العسكري المتزايد دوره دائما.. حتى بعد تراجعه في التسعينيات.

ولكن هل يعني اتساع الكعكة انتشار الفساد بالضرورة، أو أنه بات متاحا بدرجة أكبر؟

هو افتراض قائم تساعد عليه عناصر: ضعف القانون والمحاسبة والشفافية واشتداد التنافس بين وحدات القطاع الخاص.. إضافة لنفوذ جماعات الضغط في العالم الثالث.. أيضا فهو افتراض قائم تؤكده الشواهد الكثيرة والمشاهد الغريبة.

في العقدين الأخيرين بات المشهد العام وكأننا في (عصر من الفساد).

فقد تراجع الفساد الصغير من حيث أهميته النسبية.. وتقدم الفساد الكبير.. لم يعد اللافت للأنظار الفساد على سفح الهرم حيث الرشاوى الصغيرة، أو المجاملات المحدودة.. لكن اللافت للنظر بات فساد القمة واختلاط السياسة بالاقتصاد.

ولندع قصص الفساد الشخصي وحكايات الجنس والساسة والتي انفجرت في وجه كلينتون في الولايات المتحدة، كما انفجرت في وجه نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إسحق موردخاي الذي جرى سحب الحصانة البرلمانية منه ليحاكم بتهمة التحرش الجنسي بثلاث سيدات.. ثم انفجرت وفي نفس الوقت ضد دبلوماسي إسرائيلي يشتبه في تورطه مع شبكة دعارة أطفال في البرازيل.

لندع هذه القصص رغم أن بعضها قد يدخل في التعريف الذي وضعه كل من البنك الدولي وصندوق النقد لكلمة فساد، وهو أنه (اغتصاب السلطة العامة من أجل مصلحة خاصة) .. و.. قصص الجنس عند المسئولين قد يكون فيها شيء من ذلك.. ومع هذا فلنتوقف أمام الفساد المالي والذي يفتح مجرى ملاحياً بين المال العام والمال الخاص.. كما يخلق شريانا يصل بين السياسة والاقتصاد.. مواقع السلطة ومواقع الثروة.

المثال القريب والواضح في حالة سوهارتو الذي عامله صندوق النقد الدولي بخشونة غير مسبوقة حين أجبره على التوقيع على برنامج للإصلاح المالي تنازل فيه عن امتيازات أقاربه ووهب من ماله الخاص (٥) مليارات دولار كمساهمة في إصلاح أحوال البلاد، وظهر في صورة فوتوغرافية تاريخية وهو يوقع.. بينما يرقبه «ميشيل كامديسو» مدير صندوق النقد .. وبعدها تمت الإطاحة به، ويتم تباعا الكشف عن فضائحه المالية.

قبله، وفي مكان غير بعيد كانت قصة ماركوس والذي انهالت عليه الصحف قبل أن يرحل واتهمته بالفساد وتهريب الأموال.. ثم انكشف الأمر أكثر بعد الرحيل وإن عادت زوجته تحاول ممارسة السياسة في البلد المنكوب الفلبين.

وفي آسيا أيضا مازالت أحداث قصة نواز شريف رئيس وزراء باكستان ماثلة للأعين.. ليست قصة خطف الطائرة، ولكن قصة الفساد المالي والتي قد تكون حقيقية وقد تكون مجرد حلقة من حلقات الصراع السياسي.

إنه الفساد عند القمة، سبق إليه رؤساء من أمثال بوكاسا وغيره من رؤساء أفريقيا وأمريكا اللاتينية.. بل إن رئيسا أوروبيا هو جاك شيراك جرى اتهامه أخيرا بأنه خلق ـ حين كان رئيسا لبلدية باريس ـ وظائف وهمية وصرف مرتبات منتظمة لأعضاء في حزب التجمع الديجولي الذي أسسه في السبعينيات.. أي أنه وطبقا للتعريف «اغتصب السلطة العامة ليحقق مصلحة خاصة» وإن كانت سياسية هذه المرة.

وفي عالمنا العربي، والمستور فيه أكثر من المكشوف كانت قصة رئيس وزراء سوريا محمود الزعبي والذي مات منتحرا بعد اتهامه بالفساد.. أيضا، كانت هناك قصة نواب القروض في مصر والتي حركت فيها الحكومة الدعوى وأدان فيها القضاء (٣٢) شخصا بينهم وزير سابق وأربعة نواب في مجلس الشعب، وثلاثة من أسرة واحدة وسرب من مسئولي البنوك، وهي قصة تحكي ميراثا يعود للوراء نحو ربع قرن حين بدأ الانفتاح واختلطت السياسة بالأعمال، واستغل أحدهم علاقته برب العائلة «السادات» فانشأ سلسلة من البنوك والشركات اتخذ بعضها الطابع العائلي فكانت نموذجا للرأسمالية العائلية في مصر، واتخذ بعضها طابع مجموعة المصالح أو الشلة.. وكل ذلك استند فيما استند له للنفوذ، ولأموال القطاع العام، ولودائع الأفراد بالنسبة للبنوك.. ولغياب المحاسبة أيضا.

بدأت القصة في السبعينيات، وانفجرت في التسعينيات ولم يشفع للمتهمين أنهم مشتغلون بالسياسة أو أعضاء في الحزب الحاكم.

في هذه القصة وما قبلها بدرجة أكبر كان التاريخ يطارد أصحابه.. وكان الفساد ـ وعبر آليات سياسية ـ يزحف من السفح إلى القمة.. من رقم الجنيه والدولار إلى رقم المليون والمليار وبواسطة أشخاص لا يرقى إليهم الشك.. فهل كان الأمر مستحدثا، أم أنه المناخ الجديد سمح بكشف الغطاء؟

على أي حال فقد كان ذلك هو التطور الأول ولم يكن الوحيد!

خلال السنوات الأخيرة أيضا انتقل الفساد من قضية ذات طابع أخلاقي ومحلي.. إلى قضية ذات طابع مجتمعي ودولي.

لم يعد الأمر أن الفساد يعني مجرد تكلفة أكثر لبعض المشروعات أو الأفراد الذين يريدون الحصول على صفقة أو خدمة.. ولم يعد الأمر خللا في طابور العدالة (فالبعض يحصل.. والبعض لا يحصل، وفقا لزيوت التشحيم من رشاوى ونفوذ ووسائط بشرية). الأمر ووفقا للأدبيات الحديثة حول الفساد بات ـ كما يقول رئيس البنك الدولي ولفنسون ـ سرطانا يصيب الاقتصاد في الصميم، ويصيب أفقر شرائح المجتمع.. بل إنه ـ وكما تذهب المنظمات الدولية الآن ـ يضرب اقتصاد السوق في مقتل فهو يلغي المنافسة الحرة المتكافئة ..ولأنه كذلك ولأن الاتجاه ـ مع حجم هائل من المعاملات الدولية ـ هو المزيد من التحرير.. لأن الأمر على هذا النحو فقد باتت القضية دولية وباتت محل اهتمام من الأمم المتحدة والبنك الدولي وصندوق النقد والمنظمات الإقليمية معا.

هناك الآن معاهدة أبرمتها منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وبدأ سريانها في فبراير عام (٢٠٠٠) ويلتزم فيها الموقعون على اعتماد قوانين محلية مشددة لمكافحة الرشوة.

وهناك معاهدة لمكافحة الفساد بين الدول الأمريكية، ومعاهدة ثالثة بين دول الاتحاد الأوروبي، وهناك جهد مماثل فيما يسمى التحالف العالمي من أجل أفريقيا.

أيضا، كانت هناك المؤتمرات ومن أبرزها عام (٢٠٠٠) مؤتمر عالمي لمكافحة الفساد دعا له نائب الرئيس الأمريكي آل جور وانعقد في أوائل العام بحضور ممثلي تسعين حكومة وعدد كبير من الأكاديميين.. درس المؤتمر أسباب الفساد الإداري ونماذج لممارسات مكافحته.. وجرى التركيز ـ ربما لأول مرة ـ على فساد القضاة ورجال الأمن فإذا ترك الفساد ـ كما يقول اريك هولدر نائب وزيرة العدل الأمريكية ـ بلا رادع بين رجال القضاء والشرطة فإنه يشكل تهديدا خطرا للحرية والرفاهية التي تحافظ عليها هذه المؤسسات.

وفي المؤتمر، والندوة التي تواكبت معه في واشنطن تأتي مجموعة من الاستنتاجات والتجارب.

منها ما يتصل بشيوع الظاهرة «فالفساد ـ كما يقول وكيل وزارة التجارة الأمريكية ـ يتفشى في البلدان الثرية والفقيرة على حد سواء، ولا توجد شركة كبيرة أو صغيرة محصنة منه».

ومن الاستنتاجات ما يتعلق بالمناخ الذي يسمح بالفساد، والآثار التي تترتب على الفساد «فلا يمكن ـ كما يقول البيان الختامي للمؤتمر ـ أن يتعايش الفساد مع الديمقراطية وسيادة القانون».. ولكن، وحين يسود الفساد، وحين يفوز طرف ما بعقد بسبب الرشوة لا المنافسة العادلة فإن هذا ينال من نوعية المنتجات والخدمات التي يستهلكها الناس».

لذا، ومن تجارب المكافحة: برنامج حكومة كلينتون للحد من رشوة مسئولي الحكومات الأجنبية في العقود والمناقصات الدولية، وضمن هذا البرنامج تجريم القانون لرشوة مسئولي الدول الأخرى مع إلغاء أي خصم في الضرائب كان يجري منحه لتعويض ما يتم دفعه من رشاوى للأجانب مستهلكي السلع والخدمات الأمريكية.

الفساد إذن وعلى ضوء ما جرى في السنوات الأخيرة ليس قضية موظف صغير ينحرف، أو قضية مجتمع يغلق على نفسه الأبواب ويتحمل وحده آثار ما يجري.. الفساد بات له شكل آخر يخرج من دائرة علم الأخلاق لدائرة علم الاقتصاد

١ـ Corruption and Military Spending By : Sanjeev Gupta , Luiz de Mello , and Raju Sharan

وهي من أوراق صندوق النقد الدولي وتم إصدارها في فبراير (٢٠٠٠) كورقة عمل (I.M.F. Working Paper).

٢ـ ورقة معلومات جاءت من البنك الدولي في أبريل (٢٠٠٠) تحت عنوان:

Fact Sheet - the World Bank Fights Corruption

٣ـ ورقة صندوق النقد التي صدرت عام (١٩٩٧) تحت عنوان:

Good Governance - the I.M.F.s' Role

ومن دائرة علم الاقتصاد البحث الى دائرة الاقتصاد السياسى والعلاقات الدولية. إنه وفى حالات كثيرة ـ فساد عابر للحدود!.. أو فساد متعدد الجنسيات! وكأننا نصنع الأمرين معا: تدويل اقتصاديات الدول.. وتدويل الفساد أيضا!

[٢]

فى هذا الإطار صدر تقرير، أو ورقة يصفها أصحابها بأنها «الأولى من نوعها» ورغم أنها صادرة ضمن أوراق صندوق النقد الدولى فقد حرص واضعوها أن يشيروا أن وجهات النظر التى توصلت لها لا تعبر بالضرورة عن الرأى الرسمى لصندوق النقد، والذى قام بتوزيع الورقة على نطاق غير صغير.

عنوان الورقة والصادرة فى فبراير (٢٠٠٠) عن إدارة الشئون المالية فى صندوق النقد «الفساد والإنفاق العسكرى».. وأصحابها هم:

راچو شاران Raju Sharan

سانچيف جوبتا Sanjeev Gupta

ولويزدى ميللو Luiz de Mello

وتحاول الورقة أن تختبر بطريقة إمبريقية ما إذا كانت هناك علاقة بين الفساد والإنفاق العسكرى الكبير.. والتحليل اعتمد على بيانات تم جمعها فى الفترة بين (١٩٨٥ ـ ١٩٩٨) من مصادر مختلفة فى (١٢٠) بلدا.. وهى بيانات اهتمت بالإنفاق العسكرى منسوبا للناتج المحلى وللإنفاق العام.

تبدأ الورقة ـ أو التقرير النهائى ـ بسؤال حول ما هية الفساد، وتشير لفقر الأدبيات التى تناولت هذا الجانب لكنها تنتهى إلى أن (الفساد هو اغتصاب سلطة عامة من أجل منفعة خاصة)، وأنه لذلك كثيرا ما يعتمد على سلوك غير قانونى أو مشروع.. سلوك قد يضحى بالصالح العام والواجبات العامة من أجل أشخاص أو عائلات أو مجموعات. ويذهب أحد التعريفات إلى أن الفساد هو (أن تبيع ماتملكه الحكومة فى المزاد... من أجل صالح خاص... والبائع موظف رسمى).. والصفقة هنا قد تعنى مالا أو خدمة.. وربما قانونا أو قراراً تصدره الحكومة لصالح أشخاص أو مجموعات بعينهم!

وتطرح الورقة بعض الافتراضات كمحددات للفساد منها:

نوعية البيروقراطية التى تحكم، ومستوى الأجور فى قطاع الدولة، ومدى سيادة القانون وما إذا كانت هناك تشريعات تحارب الفساد وهل هناك مصادر طبيعية تلد الثروة.. ومدى انفتاح الاقتصاد وتنافسيته.

وتعرض الورقة لما انتهت له دراسات وتقارير سابقة حول نتائج الفساد وآثاره فهو ينعكس على نمو الدخل القومى، وجودة أو رداءة البنية الأساسية والاستثمارات التى تقوم بها الدولة.. أيضا فهو ينعكس على تدفق ـ أو عدم تدفق الاستثمار الأجنبى ـ كما ينعكس على قضايا: الفقر، والمساواة، والرخاء العام والنمو.

وتفترض الدراسة التى انتهت إلى تقرير شامل أن هناك علاقة بين حجم الإنفاق العسكرى وحجم المشتريات العسكرية وكل من الناتج المحلى والإنفاق الحكومى.. وتشير المعلومات التى تم جمعها أن الإنفاق العسكرى قد يرتبط بالرشاوى والعمولات خاصة فيما يتعلق بالمشتريات العسكرية، ويقدر الخبراء أن



الرشاوى تمثل (١٥٪) من الأثمان التى يجرى أداؤها لشراء الطائرات.

تشير هوامش الدراسة إلى تصريح مارك بيث رئيس منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية فى مؤتمر صحفى بمانيلا يوم (١) أكتوبر (١٩٩٩) والذى قال فيه أن كثيرا من الرشاوى يجرى دفعها فى الدول الصناعية خاصة فى مجال تجارة السلاح.. وتشير الهوامش إلى أن رشاوى يجرى دفعها لاستصدار قرارات أو تشريعات تسمح بالإنفاق على البحث والتطوير ورفع القيود على صادرات الأسلحة ومساندة كبار الموظفين لذلك).

والرشاوى لها ألف باب، لكنها بلغة رجال الاقتصاد تأتى من خلال العرض الطلب.. فموردو الأسلحة قد يرشون الموظفين الرسميين فى البلاد المستوردة لكى يشتروا بضائعهم.. والدول المصدرة قد تمنح تخفيضا فى الضرائب لتعويض الشركات عما تدفعه من رشاوى!

وتعتبر كثير من الدول أن هذه (المصروفات) لا تمثل جريمة وهو ما دفع منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية ومنذ عام ١٩٩٧ لاستحداث نظم تسمح بالشفافية فى مثل هذه الرشاوى المتجهة لدول أعضاء فى المنظمة.

وهكذا فإن من يتولون العرض فى سوق السلاح لهم مصلحة إذن فى أن يبيعوا وأن يقدموا الرشاوى، وقد زادت حدة هذه المصالح منذ منتصف الثمانينيات حين هبطت المشتريات العسكرية وتراجعت الحرب الباردة وسقط الاتحاد السوفيتى.. وتعرضت كثير من الصناعات العسكرية للبوار وخسران ما أنفقته فى البحث والتطوير.. و.. من ثم بات التنافس شديداً.

يشير تقرير آخر لصندوق النقد الدولى وعلى ضوء دراسة عن ثمانين بلدا إلى أن الإنفاق العسكرى كان فى تراجع مستمر بين عامى (٨٥-٩٥) وأنه بينما كان هذا الإنفاق يمثل ٣,٦٪ من الناتج الإجمالى لهذه الدول عام ١٩٩٠.. هبط إلى ٢,٤٪ عام ١٩٩٥ أى بمقدار الثلث!

نفقات الدفاع فى العالم تتراجع، ومشتريات السلاح كذلك.. ومع ذلك يبقى جانب الطلب كما تشير الدراسة جانبا أساسيا فى آليات (فساد الأسلحة).

«فالحكومات هى المورد الوحيد لخدمات الدفاع، والمفوضون بعقود السلاح أفراد قلائل، والمنافسة المحدودة بين موردى السلاح عنصر تشجيع، وطبيعة السرية وغياب الشفافية وتقييد حرية الإعلام فى تناول صفقات السلاح أو النفقات العسكرية عموماً.. كل ذلك يؤثر على انتشار الفساد».. بل إن هناك عنصرا آخر يشير له تقرير الدراسة وهو ما أسماه (الأصول المملوكة للقوات المسلحة).. مثل الأراضى، والمعدات، وأماكن المناورات، ومعدات النقل، والإسكان، ومراكز التدريب.. فالأراضى - وما فى باطنها من ثروات معدنية كالبترول تصبح فى بعض البلاد بمثابة ميزانية خاصة وإضافية تحت إمرة الجيوش!.. بل إن بعض هذه الجيوش مسموح له بالعمل التجارى مثل إنتاج الأسلحة للبيع، وإنتاج الصلب وتجارته، وإدارة المطارات والأسواق الحرة ومنح امتياز التنقيب عن المعادن!

وهناك آلية ثالثة للفساد بجوار الشراء واستثمار الأصول الثابتة.. وهى الإنفاق فى مجال المشروعات المكثفة لرأس المال والتى تسيل لعاب الشركات الراغبة فى الحصول على مناقصة أو عرض، وهو أمر يؤثر على السلوك المالى للحكومات وعلى مكونات الميزانية التى تعطى جانبا أكبر للاستثمار فى هذه المشروعات على حساب المصروفات الجارية الضرورية.

وهكذا، ومن أجل المصالح الخاصة قد يتغير سلوك الحكومات، وقد يلجأ متخذو القرار فى دول فقيرة لشراء تكنولوجيات معقدة لا تتناسب مع احتياجاتها، ولا يتوافر لها فنيون مدربون.. لكنها الرشوة تفعل كل شىء!



الفساد عند القمة، سبق إليه رؤساء من أمثال بوكاسا وغيره من رؤساء أفريقيا وأمريكا اللاتينية.. بل إن رئيسا أوروبيا هو جاك شيراك جرى اتهامه أخيرا بأنه خلق - حين كان رئيسا لبلدية باريس - وظائف وهمية وصرف مرتبات منتظمة لأعضاء فى حزب التجمع الديجولى الذى أسسه فى السبعينيات..

وكل ذلك مما يفسر الإجراءات المضادة الكثيرة التى اتخذتها مجموعات دولية بعينها مثل منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية التى دخلت اتفاقيتها لمكافحة الرشوة والفساد فى المعاملات الدولية فى (١٥) فبراير الماضى والاتفاقية تنص على أنه تعتبر جريمة أن يتم عرض رشوة، أو الوعد برشوة، أو إعطاء رشوة لأحد الرسميين الأجانب للحصول على أو إتمام صفقة وتحظر الاتفاقية - التى انضم لها (١٨) دولة بينها دولة غير عضو هى بلغاريا.. تحظر منح تخفيضات فى الضرائب لتعويض ما يتم دفعه كعمولات ورشاوى.

(أصدرت الولايات المتحدة قرارا شبيها عام ١٩٧٧)

ولكن .. كيف يتم تقديم الرشوة ؟

الدراسة تقول: بالفواتير الزائفة والمبالغ فى قيمتها أو بالمبالغة فى ثمن قطع الغيار التى يحتكرها منتج واحد فى العادة.. أو بالحصول على عقود تدريب على الأسلحة.

كل الطرق تؤدى إلى السرقة، والسرقة اسمها «بيزنس» وأبطال البيزنس قد يكونون هم الأهم فى بلادهم ومواقعهم!.. إنها لعبة الكبار، وليست لعبة الصغار.

وبالرغم من التحفظات التى تضعها الدراسة حول غياب الكثير من البيانات وصعوبة الحصول على معلومات دقيقة حول تجارة السلاح والتى لا تتضمن عادة المشتريات المحلية.. بالرغم من ذلك فإن الورقة تنتهى إلى أن هناك علاقة ثابتة بين حجم الإنفاق العسكرى ونسبته للناتج أو الموازنة وبين الفساد. أيضا، هناك علاقة بين الفساد وحجم المشتريات العسكرية، وإن لم تتم ترجمتها بالأرقام والنسب المئوية.

كيف يمكن التصدى لهذا النوع من الفساد؟

فى خطاب أخير لمادلين أولبرايت وزيرة خارجية الولايات المتحدة حول الفساد بشكل عام تشير «لأهمية التأثير فى عنصرى العرض والطلب.. العرض من جانب الشركات وموردى الأسلحة.. والطلب الذى يتحكم فيه موظفون ممن ينبغى أن يحسوا أنهم قد يفقدون وظيفتهم، وربما يفقدون حريتهم بسبب ما يفعلون.. ولكن وكما تقول أولبرايت - ليس بالإرهاب - وحده يرتدع الموظفون فالأهم أن يكونوا هم أنفسهم أقل تقبلا لفكرة الفساد بأن يحصلوا على أجور تكفيهم، وأن يخضعوا فى نفس الوقت للمحاسبة». ونفس الأمر مع إضافات أخرى ينتهى لها تقرير «الفساد والإنفاق العسكرى» الذى نشره صندوق النقد الدولى هذا العام.

** وذلك بتغيير تركيبة الإنفاق العام لتكون أكثر إنتاجية وأقل اندفاعا نحو (العسكرة)، كما يقول التقرير.

** وبتوفير قدر أكبر من المنافسة بين موردى السلاح.. وقدر أكبر من الشفافية، والعلانية ووضع قواعد معلنة لمناقصات السلاح ومعدات الدفاع بشكل عام.

** مع توفير رقابة من جانب سلطات الجمارك.

** وإدخال مشتريات السلاح ضمن قواعد الميزانية العامة من حيث الاعتماد والرقابة، ووفقا للقواعد الشفافية المالية التى وضعها صندوق النقد لتكون نموذجا أمام الحكومات.

[٢]

هل يمكن تطبيق ذلك على البلاد العربية التى يتزايد فيها الاعتماد على الخارج، بما فيه: السلاح وأنظمة الدفاع؟

كما قلت فإن دراسة صندوق النقد ذاتها تتحفظ بنسبة ما على الأرقام والنسب والنتائج، لكنها وبشكل عام تشير لآليات الفساد ونتائجه..

ويمكن أن نضيف تحفظات تتعلق باتساع الدراسة وعدم تماثل مفرداتها فهى تمتد على مدى (١٢٠ بلدا و ١٤ عاما)، أى أنها لا تحصى لكنها تأخذ بالعينة وتحاول الاجتهاد مع خطورة التعميم وتفاوت الحالات.

رغم ذلك فإننا لا يمكن أن نتجاهل أن الدراسة قد اعتمدت فيما اعتمدت عليه على بيانات مستقاة حول (١٢) بلدا عربيا، أى ١٠٪ من العينة من حيث عدد البلاد وأكثر من ذلك مرات ومرات وفقا لحجم الإنفاق والذى برزت فيه طوال الحقبة موضوع البحث بلاد مثل: العراق والسعودية والإمارات والكويت وسلطنة عمان.. وكلها ضمن الدول التى تعرض لها البحث.

وبعيدا عن تقرير صندوق النقد فإنه يمكن الوقوف أمام الحالة العربية ومنذ أن انفجر مورد النفط فى السبعينيات، فباتت هناك فرصة لزيادة الإنفاق العام، وباتت هناك فرصة لبناء الجيوش.. ثم.. جاءت حرب الخليج (١) وحرب الخليج (٢) بالإضافة للحروب المحلية وحروب الحدود.. جاء كل ذلك ليجعل الشرق الأوسط - فى الصدارة منه البلاد العربية - أكبر مستورد للسلاح فى العالم.. بل إن ميزان الشراء والإنفاق قد انتقل من دول الطوق التى تأثرت بالصراع العربى - الإسرائيلى.. إلى دول الخليج حيث الأزمات مستمرة.

فى تقرير للمعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية بلندن حول الميزان العسكرى أن النفقات العسكرية لدول الشرق الأوسط قد بلغت ٥٦ مليار دولار عام ٩٧ وبما يعادل (٧-٨) بالمائة من الناتج المحلى وبما يبلغ ضعف المعدل العالمى.. وطبقا لنفس التقرير فقد احتلت دول الخليج وإيران والعراق ثلثى هذه الاعتمادات أو بالتحديد ٦٤٪ منها..

بينما لم يزد الإنفاق العسكرى لإسرائيل على ٧ مليارات دولار ودول الطوق ٦ مليارات دولار فى الوقت نفسه يشير تقرير التنمية البشرية الذى أصدره البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة عام ٩٦ إلى أن الدولة العربية الأولى من حيث الإنفاق العسكرى كانت سلطنة عمان فى ذلك العام والتى بلغ فيها الإنفاق (١٦٪) من الناتج المحلى.. تليها العراق (١٤,٦٪).. ثم الكويت (١٢٪).. ثم السعودية (١١٪)..

تزايد الإنفاق العسكرى للبلاد العربية، وبات قانون الأزمة مبررا كافيا لشراء المزيد من الأسلحة وبناء المزيد من القواعد.. ولكن كان هناك عنصر آخر غير الأسلحة والقواعد وهو رغبة الدول العربية بعد الاستقلال وبعد توافر الموارد المالية فى بناء الجيوش كمظهر من مظاهر بناء الدولة وكدرع يحمى الاستقلال.. وهكذا ازداد حجم القوات المسلحة فى سلطنة عمان (١٧) مثلا بين عامى (٨٥-٩٤) وزاد حجم الجيش السعودى فى نفس الفترة بنسبة (٢٥٣٪) والكويت (١٣٨٪).. أما العراق فقد تراجع بسبب غزو الكويت إلى (٧٤٪) مما كان عليه، بعد أن كان جيش العراق هو الأضخم والأكبر حتى أنه ووفقا لبيانات معهد سيبرى بالسويد كان (أكبر مستورد سلاح فى العالم الثالث خلال الثمانينيات) وأ مشترياته حينذاك قد بلغت (٨٠) مليار دولار وبما يفوق كلا من فرنسا وبريطانيا وألمانيا فى نفس الحقبة.

التدفق للأسلحة والنفقات إذن تدفق هائل وهو مصحوب برقابة مالية ضعيفة، وآليات فى اتخاذ القرار تتسم بالسرية.. ومصحوب بكلمة (سرى للغاية) فلا أحد يعرف (من اشترى.. ماذا؟) والحجة هى الأمن القومى، بينما يجرى التعرف على أرقام الصفقات من المصادر الخارجية التى تنشر أرقام مبيعاتها.. وكل ذلك فى غياب المؤسسات وغياب ديموقراطية تبيح المناقشة وفى ظل توترات أمنية وتقدم تكنولوجى سريع يبيحان وجود مبرر للمزيد من الإنفاق، فالتحديث ضرورة، والقديم لا قيمة له!

هل يعنى ذلك أن ندعى أن كل شىء فاسد؟

لا نستطيع أن ندعى ذلك.. ولا نستطيع أن نجيب بشكل قاطع إلى أى حد كانت المنفعة الخاصة وإلى أى حد كانت المنفعة العامة وراء المزيد من الإنفاق العسكرى والمشتريات الحربية.

نحن لا نستطيع، لكننا يمكن أن نتوقف أمام



الفساد ليس قضية موظف صغير ينحرف، أو قضية مجتمع يغلق على نفسه الأبواب ويتحمل وحده آثار ما يجرى.. الفساد بات له شكل آخر يخرج من دائرة علم الأخلاق لدائرة علم الاقتصاد ومن دائرة علم الاقتصاد البحث الى دائرة الاقتصاد السياسى والعلاقات الدولية. إنه وفى حالات كثيرة. فساد عابر للحدود!.. أو فساد متعدد الجنسيات!

بلد واحد سمح فيه النظام بقدر من تداول المعلومات، وبقدر من الديموقراطية التى أتاحت مناقشة أمور الدفاع، أعنى: الكويت.

طبقا لما دار فى جلسات علنية لمجلس الأمة الكويتى، وبعد أن كادت تطوى القضية الشهيرة التى دارت وقائعها أثناء الغزو وهى قضية اختلاسات شركة الناقلات والتى أصدرت فيها محكمة بريطانية حكما بالإدانة.. بعد أن كادت تطوى هذه القضية ومعها قضايا أخرى تتعلق بمشتريات لوزارة الدفاع.. تفجرت قضية صفقة المدفع الأمريكى وحولها أصدر ديوان المحاسبة تقريرا منشورا ملخصه أن المدفع المزمع استيراده أقل من المواصفات المطلوبة من حيث المدى ومن حيث المقارنة مع منافسيه من دول أخرى.. وهو نفس الأمر الذى أشارت له لجان فنية عسكرية زارت الولايات المتحدة.. وقال ديوان المحاسبة إن الصفقة لم تعرض على الديوان طبقا للقانون، أى أنها كانت من وراء ظهره وبينما اتهم رئيس الحكومة الشيخ سعد العبدالله أحد النواب أو بعضهم فى تصريح منشور (بالاتصال بأحد السفراء لتمرير صفقة سلاح).. بينما جاء الاتهام هذه المرة لعضو أو أكثر من أعضاء مجلس الأمة.. تردد فى المجلس كما تردد فى بعض الصحف ما يشير إلى وجود وكلاء غير معلنين فى تجارة السلاح سواء بالنسبة لصفقة المدفع التى جرى الحوار حولها فى عام (٩٩).. وجرى الإعلان عن توقفها عام (٢٠٠٠) أو بالنسبة لاستيراد الطائرات أو ما أسمى نظام التحكم والسيطرة.. كلها ـ كما قالت صحيفة الطليعة ـ لوكيل واحد، على عكس ما قاله مسئول فى وزارة الدفاع من عدم وجود مصلحة أو وجود وكلاء فى هذا المجال لأن الدولة هى التى تستورد.

فى هذه الحالة أيضا لا نستطيع إصدار الأحكام لكننا نتوقف أمام حالة فريده جرى فيها نقاش علنى لمسألة النفقات العسكرية واستيراد الأسلحة.. وهو نقاش دائر فى الكويت منذ تحريرها من الغزو العراقى.

قبلها، كان مكتب المحاسبة الأمريكى (G.A.O) قد أصدر تقريرا فى أول التسعينيات يشير لدول فى الشرق الأوسط ـ فى مقدمتها إسرائيل ـ جرى دفع عمولات لمسئوليها ليتموا شراء صفقات عسكرية.

و.. قبل ذلك وبعده لم تتم إثارة قضية الفساد فى المشتريات العسكرية إلا على سبيل الشائعة والخبر غير الموثق.

ولكن تبقى ـ وبالنسبة للحالة العربية ـ حقيقة أننا أمام نظم مالية وسياسية تغيب فيها الشفافية وتغيب رقابة الرأى العام، وتغيب فيها المحاسبة فى كثير من الأحيان.. ويسيطر على القرار فيها مجموعة أفراد. أيضا، تبقى حقيقة استراتيجية وهى أن الحالة العربية تشهد (إنفاقا أكثر.. وأمنا قوميا أقل). بنينا الجيوش.. واستوردنا الأسلحة وامتلكنا الأحدث والأخطر، لكن الخليج بات أكثر انكشافا، ودول الطوق ـ عدا مصر ـ أقل قدرة على المواجهة.. بل إن كثيرا مما بنيناه فى مجال الجيوش ذهب ضحية حروب طائفية وأهلية.. لقد ذهب مابنيناه مع الريح وبقيت الديون.. والجروح!

لا نتوقف هنا عند فساد الذمم.. لكننا نتوقف عند فساد القرارات ولنتأمل العبارة من جديد «إنفاق عسكرى أكبر.. وعائد أمنى أقل».. كيف تسير المعادلة؟.. التقارير الدولية لا تجيب، والديمقراطيات العربية لا تسمح بالتفسير.. لكن الوقائع ثابتة: نحن أكثر انكشافا رغم هذا الانفاق الهائل على التسليح!

[٤]

منذ نحو عشر سنوات ظهر مصطلح جديد فى عالم السياسة والاقتصاد.. المصطلح هو (Good Governance) وترجمة الكلمة مختلف عليها.

منذ ثلاثة أعوام كان صندوق النقد الدولى قد دعانى لورشة عمل فى بيروت.. وكنا نحو خمسة عشر صحفيا وكاتبا من بلاد عربية مختلفة.. كان الحديث حول (دور الدولة)، وكان البنك الدولى قد فرغ لتوه من نشره تقريره السنوى الذى حمل فى ذلك العام نفس العنوان تقريبا (الدولة فى عالم متغير). وانتقل الحوار من دور الدولة فى ظل سياسة السوق وكيف ينبغى أن يستمر ولكن بشكل مختلف.. إلى دور المنظمات الدولية.. حينذاك جرى طرح هذا المصطلح وتسائل خبير مصرى فى الصندوق حينذاك هو أحمد أبو شادى.. «ماذا تقترحون ترجمة للكلمة»؟ قال البعض إنها نزاهة الحكم».. وقال آخرون: «بل هى جودة الحكم أو حسن الإدارة أو الحكم الرشيد.. وقلت: إن الكلمة لا تعنى نظاما سياسيا أو اقتصاديا بعينه.. لا تعنى وضع أفضلية بين نظام ملكى أو جمهورى مثلا.. لكنها تعنى إدارة النظم. والولايات المتحدة تستخدم كلمة الإدارة كمرادف لما نعنيه نحن بكلمة (حكومة) بل إنهم يستخدمون الكلمة فى أعلى معانيها فيقولون «إدارة ريجان أو إدارة كلينتون» فرئاسة الدولة ورئاسة الحكومة الاتحادية هناك شىء واحد.

وقلت إن أنسب معنى للكلمة هو «إدارة الحكم بشكل جيد» أو هو «الحكم الجيد» وبالتالى فنحن لا نتحدث عن نوع النظام وإنما نتحدث عن كفاءة النظام ومدى التزامه بما تصوره أصحاب المصطلح من شفافية، ومحاسبة، وفاعلية، واستقامة وعدل.. بل وبما ذهبوا له فيما بعد من ارتباط ذلك كله بالديمقراطية، فالنظام الديمقراطى هو الذى يتيح حرية القول وحرية المعلومات أى الشفافية.. والنظام الديمقراطى ومن خلال التفاعل مع الرأى العام والرأى الآخر هو الذى يسمح بالمحاسبة ويحقق الاستقامة ويتوخى العدل.. ومن ثم يصبح أكثر فاعلية.. يصبح مستحقا لكلمة (Good Governance). أى الإدارة الجيدة للحكم.. أو إدارة الحكم بشكل جيد.

ويروى أحمد أبو شادى أن الكلمة قد ولدت قبل أن يستخدموها فى صندوق النقد وفى البنك الدولى على يد الدول المانحة للقروض والمعونات.. والبداية كانت من دول الشمال الاسكندنافى ومن منطلق سؤال شغل المانحين طوال ربع قرن مضى وهو: «إلى أين تذهب المعونات.. وهل تحقق أهدافها أم أن نسبة منها تدخل جيوبا خاصة كما ثبت فى بعض الحالات؟

هكذا كانت البداية كما رواها لى أحد الخبراء الذين شهدوا لحظة الميلاد، وبعدها بات المصطلح شائعا. وبات المصطلح سياسة، وبات ضرب الفساد جزءا مما يستهدفه «الحكم الجيد»..وفى وقت واحد تقريبا تبنت الدول المانحة وهى الأكثر ثراء فى العالم كما تبنى صندوق النقد والبنك الدوليان سياسات وبرامج لترجمة الكلمة.

فى سبتمبر (١٩٩٦) تحدث رئيس البنك الدولى ولفنسون عن سرطان الفساد.. وكان يقصد فساد الأنظمة ولم يكن يعنى ما ذهب له البنك عام (١٩٨٨) من فساد يتصل بأعمال البنك وقروضه. كان المراد هذه المرة ـ ٩٦ ـ دائرة أوسع تتعلق بسلوك الحكومات.. وفى نفس الشهر من نفس العام كانت هناك لجنة فى صندوق النقد الدولى تصدر ما أسمى (إعلان المشاركة من أجل النمو) والذى أشار لأهمية الإدارة الجيدة للحكم من خلال: تأكيد سيادة القانون، وتنمية المحاسبة فى القطاع العام والحكومى، والتصدى للفساد وتحسين الإنتاجية.. وكلها ـ كما قال الإعلان (ضرورات للنمو الاقتصادى).

بعدها، وفى المنظمتين وخلال عام (٩٧) توالت القرارات المتعلقة بوضع ترجمة للكلمة.. وآليات لها.

كانت المنظمتان، وعلى ما أظن تسيران على حبل مشدود.. وكان الوقوع من فوقه يعنى صداما مع الدول الأعضاء فى البنك والصندوق كما يعنى خروجا عن المهمة التى جاءت من أجلها منظمات (بريتون وودز) بعد الحرب العالمية الثانية حيث كان المحور الاقتصادى، لا السياسى، هو الأساس.. فالبنك يعمل فى مجال التنمية.. والصندوق مهمته ميزان الاقتصاد من نظم نقد وصرف وميزانيات وموازين مدفوعات وعلاقات بين العملات.. إلخ.

والمهمة هذه المرة هى: التصدى للفساد وترشيد استخدام المعونات.. فكيف يؤدى ذلك دون أن يكون خبير البنك أو خبير الصندوق بديلا لحكومة هنا وحكومة هناك.. ودون أن يقال: هذا تدخل فى السيادة أو الشئون الداخلية؟.. وكيف تتم المهمة دون أن يقال أن هذا اشتغال بالسياسة وليس عملا اقتصاديا؟

كان الحل واضحا وهو الاتجاه للنظم والسياسات وليس للأشخاص.. لما يؤثر على حالة الاقتصاد وليس لما يقلل أو يزيد من ثروات القائمين على الاقتصاد.

من هنا كان المدخل الرئيسى هو «المال العام» فذلك هو الذى يعنى الآخرين وذلك هو الذى يسيل لعابهم فى نفس الوقت.. والقضية واضحة لأن صاحب القرار يستطيع أن ينحاز لفئة أو مجموعة أو منطقة فيمنحها من الاعتمادات أو المشروعات ما يعزز نفوذه السياسى.. وصاحب القرار يستطيع أن يقرر من خلال السياسة المالية إعفاء ضريبيا أو جمركيا فيكسب منه البعض المليارات.. أو يدفع البعض المليارات. وقد تعلمنا فى علم المالية العامة أن الميزانية ـ وهى التى تصب فيها كل الموارد العامة وتخرج منها كل النفقات الحكومية ـ تعلمنا أن الميزانية ليست مجرد أداة جباية، لكنها أيضا أداة لتوزيع العدل والتأثير فى الدخول ودفع عملية الاستثمار. إنها أداة متعددة الأغراض، وصاحب القرار.. رئيسا كان أو وزيرا أو برلمانيا يحدد الأولويات طبقا لأهداف متفق عليها.

فى هذه المنطقة حاول كل من صندوق النقد والبنك أن يلعب وأن يؤثر سوآء من خلال المساعدة الفنية للحكومات لتضع نظاما أفضل للضرائب، أو الميزانيات، أو الإحصاء، أو لمحاسبة القطاع العام.. أو من خلال سلاح التقارير التى تعدها المنظمتان والتى كانت ـ إلى وقت قريب ـ بمثابة سر حربى، حتى أننا حين كنا نتابع كصحفيين اجتماعات المجموعة الاستشارية للمانحين بشأن الاقتصاد المصرى كنا نتلصص على ما يجرى، ونبحث عما تخفيه الوفود من أوراق. الآن: يطلب صندوق النقد ـ وهو الذى يتعامل مع الحالة الاقتصادية العامة وليس المشروعات ـ يطلب من الحكومات أن تسمح له بنشر كل شىء.. فنستجيب أحيانا، ونرفض أحيانا. يتعامل برقة وحساسية فى بعض الأحيان ويتعامل بخشونة فى أحيان أخرى.. يحث على نظم تحرر المجتمعات من قبضة الحكومات ونفوذ البيروقراطية فيطلب اقتصادا حرا، تمتد فيه الحرية للتجارة والنقد والاستثمار والأسعار.. ينصح فى نفس الوقت بإصدار قوانين ضد الاحتكار، ويطلب الاحتكام لنظام قضائى عادل ومحايد..

ولكن، أحيانا يحدث الصدام فيستخدم التدخل الخشن كما حدث فى أندونيسيا، وكما حاول أن يفعل فى بلدان عدة تزايد فيها الفساد واتضحت آثاره من خلال أزمة جنوب شرق آسيا.. والتى جاءت معاصرة لمشاكل أخرى فى أفريقيا.

فى كينيا، والقصة حدثت منذ حوالى عامين أو ثلاثة جرى اختبار التدخل الخشن فى أمور تتعلق بنزاهة الحكم، فقد قام أحد الوزراء باستيراد صفقات السكر دون دفع رسوم جمركية فقرر الصندوق إيقاف برامج مساعداته (ومعها طبعا برامج البنك والمانحين الآخرين إن وجدوا).. و.. وقال: «تتم المحاسبة أولا».. وبالفعل خرج الوزير من

الحكومة، وتم عزل نائب مدير الجمارك الذى كان مسئولا عن الواقعة.

هناك إذن أسلحة يمتلكها الصندوق وتبدأ بما يسمى مشاورات المادة الرابعة من قانون الصندوق والتى تتيح له إسداء النصح للحكومات.. وتنتهى بالحرمان من المساعدات والتى تخضع لما أسموه (المشروطية) فالسياسة التى تتبعها الدول التى تأخذ العون لابد أن تكون فى إطار سياسات عامة يسعى لها الصندوق ووفق حزمة من الالتزامات المتبادلة.

من جانبه، وضع أيضا البنك الدولى ما أسماه (استراتيجية مكافحة الفساد) وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٩٧ ..ومنذ ذلك التاريخ وحتى أبريل (٢٠٠٠)، طبقا لوثيقة أصدرها البنك شارك خبراء البنك الدولى فى ستمائة برنامج مضاد للفساد.. وهى برامج ممتدة لـ (٩٥) دولة، وكما تقول الوثيقة فقد بات الحديث الآن أكثر صراحة، وإن كانت البداية: المشروعات التى يمولها البنك.. والأنظمة التى يمكن أن يساعد على بنائها.

ووفقا لأدبيات البنك الدولى فإن الفساد:

يضرب الفقراء أولا.

ويؤثر على مستوى الخدمات العامة وقد يوجهها لمن لا يحتاجها.

ويؤثر على نمو القطاع الخاص.

ويقلل أثر المعونات الموجهة للدول النامية كما يقلل أثر الدعم الذى قد تخصصه بعض الحكومات للفقراء.

و.. هكذا وضع البنك ضمن سياسته.. محاربة الفساد والتضليل فيما يتعلق بمشروعات يساهم فيها، أو تحليلات اقتصادية يقدمها.. شكل لذلك لجنة خاصة، وأنشأ خطا ساخنا للإبلاغ عن حالات فساد تتعلق بأعماله، ويرى البنك - طبقا لوثيقة أخيرة - أن (٧٠٪) فقط من القروض كانت تدار بشكل جيد، والآن، وبعد الاستراتيجية الجديدة ارتفعت النسبة إلى ٨٦٪، ويرى البنك أن جهود الإصلاح تذهب سدى إذا لم تكن هناك



والرشاوى لها ألف باب، لكنها بلغة رجال الاقتصاد تأتى من خلال العرض الطلب.. فموردو الأسلحة قد يرشون الموظفين الرسميين فى البلاد المستوردة لكى يشتروا بضائعهم.. والدول المصدرة قد تمنح تخفيضا فى الضرائب لتعويض الشركات عما تدفعه من رشاوى!

مساندة سياسية، لذا فهو يجرى الحوار مع الحكومات والقطاع الخاص والمجتمع المدنى فى وقت واحد.. وهو يقدم فى برامج المساعدات ما تحتاجه كل دولة: إدارة الضرائب فى لاتثيا، أفكار لاصلاح القضاء فى المغرب وجواتيمالا وألبانيا، وإصلاح الخدمة المدنية فى بوليفيا إصلاح مؤسسى شامل فى جورجيا، ونظام للمحاسبة فى بيرو أطلق عليه اسم (المراقب العام).

وكما يقول البنك أنه قد أصبح لديه وضع فريد يتعرف من خلاله على أوضاع الفساد فى العالم، ومن خلال هذا الموقع جاء حديث رئيس البنك فى المؤتمر الدولى التاسع ضد الفساد والذى انعقد فى أكتوبر (٩٩) بجنوب أفريقيا: «ليس هناك أكثر أهمية من قضية الفساد التى تقف جنبا إلى جنب مع قضية الفقر والعدالة.. وهى قضية يساعد فيها المجتمع الدولى لكن الأساس هو المجتمع المحلى.. الداخل أولاً».

أحس أن هناك عزما حقيقيا لدى المؤسسات الدولية لمحاربة الفساد فى الدول التى تتعامل معها، وأحس بدرجة أقل بهذا الأمر بالنسبة لدول مانحة مثل الولايات المتحدة التى تخصص حوالى (١٤) مليار دولار كمساعدات خارجية كل عام، لكننى غير متأكد أن كل هذه البرامج والتدفقات المالية الدولية تجرى.. بلا فساد، بل إن بعضها - وكما أظن - يأتى إلى بلادنا بهدف الإفساد وليس العكس.

إنها لعبة المصالح، وليست لعبة الطهارة.. والمصلحة تقضى بين المتنافسين على السوق الدولية ألا يخرج أحدهم من الملعب، أو يرتكب (فاول) ضد الآخرين.

أ لماذا كانت الحكومات هى المستهدفة بكل هذه المؤتمرات، والأدبيات والمعاهدات المضادة للفساد فالسبب بسيط لأنها (المالك الغائب).. ولأنها تحوز أكبر نسبة من الناتج تتصرف فيه من خلال الميزانيات.. ولأن البيروقراطية تصنع التعقيدات، وتحلها.. ولأنه - كما يقول الأديب الراحل فتحى غانم فى عنوان صحفى قديم «بقرش.. يرقص الفيل».. والفيل هنا هو الحكومات، وهم بعض الكبار وبعض الصغار. الكل يرقص والاقتصاد الأسود تزيد نسبته فى العالم، وفى بلادنا العربية دون استثناء.

هل يكون الحل إقتصاديا كما تقول المنظمات الدولية أو بعضها .. أم يكون سياسيا كما يلمحون احيانا؟.. هل يأتى من خلال ضغط الخارج (والذى يخشى على أمواله ومصالحه) أم من خلال ضغط الداخل.. صاحب المصلحة الأول؟.. وهل تكون البداية : إصلاحا للإدارة وضبطا للنظم.. أم تكون الديمقراطية وتداول السلطة فلا يبقى البعض فى موقعه ردحا من الزمان مهمته الرسمية: ممارسة الحكم أو الإدارة.. بينما تكون مهمته الحقيقيه: حراسة أخطائه.. وحراسة أمواله.

الفساد قضية خطيرة إنه النزيف الذى نطلق عليه ألفاظا عصرية مثل: عمولات - غسيل أموال - مقابل شطارة.. والشطار كثيرون.

english-everywhere
dot com

هل تقضى الإنجليزية على اللغات الأخرى؟

جوشوا أ. فيشمان

حوالى ثلث سكان العالم- يستخدمون اللغة الإنجليزية بصورة أو بأخرى هذه الأيام

رغم لغتك العربية، ربما ـ أنت أيضًا تكون واحدا من حوالى ١,٦ بليون شخص ـ حوالى ثلث سكان العالم ـ يستخدمون اللغة الإنجليزية بصورة أو بأخرى هذه الأيام. فعلى الرغم من أن الإنجليزية هى اللغة الأم لما لا يزيد على ٣٨٠مليون شخص، إلا أنها تستحوذ على نصيب الأسد من كتب العالم وأبحاثه الأكاديمية وصحفه ومجلاته. ومحطات الإذاعة والتلفزيون الأمريكية وكذلك الأفلام المؤثرة تصدر للعالم ثقافة الصخب باللغة الإنجليزية. وهناك أكثر من ٨٠٪ من المواد المتاحة على شبكة الإنترنت باللغة الإنجليزية، بالرغم من أن حوالى ٤٤٪ من مستخدميها يستعملون فى حياتهم لغات أخرى. وليس من عجب إن تضاعف الطلب الدولى على الإنجليزية وكذلك على تعلمها. وسواء اعتبرنا الإنجليزية «لغة قاتلة» أو لم نعتبرها كذلك، وسواء اعتبرنا انتشارها عولمة حميدة أو استعمارًا لغويًا، فإن هذا الانتشار الكبير لا سبيل إلى إنكاره، ولم يقدر أحد على إيقافه حتى الآن. فلم يشهد التاريخ الإنسانى من قبل استعمال (ناهيك عن شبه الاستعمال) لغة على هذا القدر من الانتشار.

وعن طريق هذا الانتشار غير المسبوق، جاءت قوة غير مسبوقة. فعلى الرغم من أن اللغة مرادف إما للأيديولوجيا أو المصالح القومية، إلا أن دور الإنجليزية كواسطة لكل شئ، من الدبلوماسية الرفيعة إلى تنظيم المرور الجوى، تحقق قدرا من الامتيازات للمتحدث بها. وتسهم البلاد التى تتخذ من الإنجليزية لغة أولى لها بحوالى ٤٠٪ من إجمالى الناتج المحلى العالمى. وأكثر فأكثر، يتزايد عدد الشركات التى تجعل من إتقان الإنجليزية شرطا ضروريا للتعيين أو الترقية. كما يتزايد اعتماد الساسة، على مستوى العالم، على إتقان الإنجليزية فى تحقيق النجاح. وعندما التقى المستشار الألمانى المنتخب حديثا جيرهارد شرودر والرئيس الفرنسى جاك شيراك، فى سبتمبر، لمناقشة مستقبل التعاون لم يتحدثا بالفرنسية أو الألمانية، بل بالإنجليزية. والإنجليزية هى اللغة الرسمية للبنك المركزى الأوروبى، بالرغم من أن المملكة المتحدة لم تنضم إلى الاتحاد النقدى الأوروبى، وأن البنك موجود فى فرانكفورت، وأن الموظفين الإنجليز فيه لا تتجاوز نسبتهم ١٠٪. وقد أصبحت هيمنة الإنجليزية مصدر ضيق داخل الاتحاد الأوروبى حتى أن قادة الاتحاد يقدمون الحوافز لطاقم الموظفين لتعلم أى لغة رسمية أخرى.

على أن اللغويين المحترفين يترددون عند التنبؤ بالمدى الذى يمكن أن تصل إليه عولمة الإنجليزية فى المستقبل. فالتاريخ يخبرنا بأن اللغات تصعد وتهبط وفقا للقوة العسكرية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التى تدعمها. وبعيدا عن مد التاريخ وجزره، هناك أسباب أخرى للاعتقاد بأن نفوذ الإنجليزية سوف يتضاءل فى نهاية المطاف. أحد هذه الأسباب هو أن الإنجليزية منتشرة بالفعل ومستعملة من قبل أقلية محظوظة. يضاف إلى هذا أن أشكال التفاعل اللصيقة بالعولمة، من التجارة إلى الاتصالات، شجعت على إضفاء الصبغة الإقليمية ومعها نشر اللغات الإقليمية. فالعربية والصينية والهندية والأسبانية وعدد آخر من اللغات حققت بالفعل قدرا كبيرا من الانتشار- ولازال انتشارها فى تزايد. وأخيرا فإن انتشار الإنجليزية وهذه اللغات الإقليمية مجتمعة ـ ناهيك عن القوى الكاسحة التى تحفز نشرها ـ كانت له آثاره الضاغطة على الجماعات الصغيرة، وأسفر عن ظهور جيوب للنزوع القلق نحو المحلية والإحياء اللغوى المحلى المناهض للعولمة.

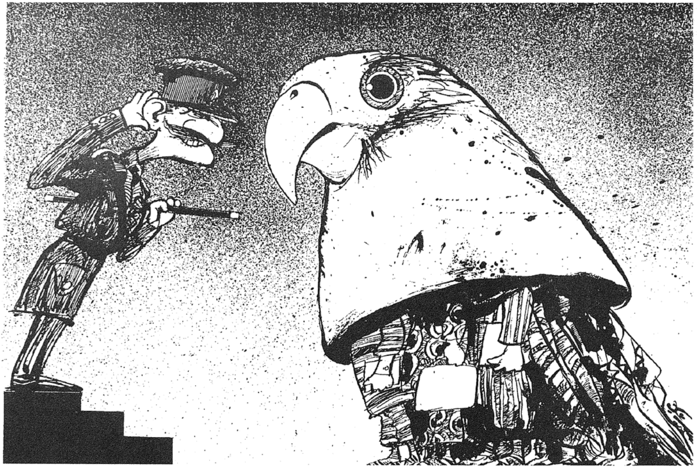
أحب لغة جارك

وفدت الإنجليزية إلى ماساشوستس بنفس الطريقة التى دخلت بها بومباى: على ظهر سفينة بريطانية. فوراء كل تلك النجاحات التى حققها مايكروسوفت وديزنى يقف الانتشار الواسع للإنجليزية، الناتج عن قرون من الاستعمار الناجح بواسطة إنجلترا. فمن بين ١٠٠ من المستعمرات التى حصلت على استقلالها فيما بين ١٩٤٠ـ١٩٩٠ هناك ٥٦ مستعمرة بريطانية سابقة وواحدة كانت تابعة لأمريكا. ومعظم المستعمرات التى استقلت عن بريطانيا إما احتفظت بالإنجليزية كلغة رسمية أو، على الأقل، اعترفت باستخدامها.

وانتشار الإنجليزية المطرد الآن يعتبر سببا ونتيجة، فى آن واحد، للعولمة. وهناك بعض العوامل الواضحة: نمو التجارة العالمية والتعاون بين الأمم، واتساع مدى الإعلام الأمريكى بصورة غير مسبوقة، وتوسع شبكة الاتصال الإلكترونى التى أتاحتها الإنترنت، والنفوذ اللغوى للأغانى والأزياء والرياضة وأساليب الاستجمام الأمريكية. وهناك عوامل أخرى ربما بدت أقل وضوحا، وإن لم تكن أقل قوة، مثل اتساع دراسة الإنجليزية فيما وراء البحار والأعداد الضخمة من الطلاب الذين يسافرون إلى الخارج لدراستها فى البلاد الناطقة بها. وفى عام ١٩٩٢، التحق نصف الطلبة الأجانب والبالغ عددهم أكثر من مليون على مستوى العالم بمعاهد فى ست بلاد لغتها الأم الإنجليزية: استراليا، كندا، ايرلندا، نيوزيلندا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية.

على أن العولمة لم تغير كثيرا من حقيقة أن انتشار الإنجليزية، وبغض النظر عن الموقع، متصل تماما بالطبقة الاجتماعية، والسن، والجنس، والمهنة. ووجود مجموعات كبيرة من الشباب باتساع العالم يمكنهم ترديد أغانى مادونا لا يعنى أنهم قادرون على إدارة حوار صحيح، أو حتى فهم ما تقوله مادونا. فالعلاقة التعليمية الرسمية القصيرة باللغة الإنجليزية التى تتاح لمعظم دارسيها من الهزال بحيث لا يمكنها أن تؤدى إلى معرفة متينة بالقراءة والكتابة أو الطلاقة أو حتى الإنشاء. والحقيقة أنه بفضل الحماس والنقد اللاذع، الناجم عن العولمة الواسعة المدى، انتعشت التفاعلات الإقليمية ـ التجارة، السفر، انتشار الأديان، الزيجات المختلطة الأعراق ـ التى أثرت على قطاعات واسعة من السكان المحليين. وهذه التفاعلات من شأنها زيادة انتشار اللغات الإقليمية.

ولناخذ حالة أفريقيا، حيث يتحدث الناس



هناك ٢٠٠٠ لغة من لغات العالم الحديث البالغ عددها ٦٠٠٠ لغة تقريبا، وحيث يعيش هناك ١٣٪ من سكان العالم. الإنجليزية ليست الوسيلة الوحيدة أو حتى الأفضل لاجتياز هذه العقبة اللغوية. ففي أرجاء شرق أفريقيا، تكون السواحلية هي اللغة الأولى التي يجرب استخدامها اثنان من الغرباء عند اللقاء. والمواطن الشرق أفريقي العادى يصادف السواحلية في سياقات مختلفة، من السوق، إلى التعليم الابتدائي، ونشرات «الإرشاد» الحكومي، وحتى برامج الإذاعة الشعبية والأفلام. والأفلام الهندية الجديدة عادة ما يجرى ترجمتها إلى السواحلية وتعرض في قرى ومدن باتساع كينيا وتنزانيا وأوغندا. وفي غرب أفريقيا، هناك حوالى ٢٥ مليونًا يتحدثون الهوسا كلغة أولى ويستخدمها ضعف هذا العدد تقريبا كلغة ثانية أو ثالثة، ويرجع ذلك في جانب كبير منه إلى انتعاش التجارة الإقليمية والأسواق المحلية في الإقليم. وحيث إن معظم الناطقين بالهوسا من المسلمين، فإن كثيرين منهم من الملتحقين بمدارس لتعليم القرآن حيث يتعلمون اللغة العربية، والتي تعتبر لغة إقليمية رئيسية في شمال أفريقيا. وهكذا، فإن كثيرين من الأفارقة ثلاثيو اللغة على أسس وظيفية: اللغة الأم للحديث «فيما بينهم»، والهوسا للتجارة والتعليم المدنى، والعربية للصلاة ودراسة القرآن. ويعتقد الناطقون بالهوسا اعتقادا راسخا بأن الهوسا تتمتع بإمكانيات كبيرة كلغة لتوحيد حتى تلك البلدان من غرب أفريقيا التي لم تنتشر فيها بعد. والمنافس الرئيسي لها ليست الإنجليزية، وإنما لغات إقليمية أخرى مثل الولوف ـ التي تنتشر أيضا في الأسواق داخل وحول السنغال ـ والإنجليزية البيدجانية.

إن تزايد الاتصال الإقليمي وتفاعل الأسواق غير الرسمي والهجرة، يقود اللغة الإقليمية إلى الانتشار حول العالم مثلما هو حادث في أفريقيا. فالماندرينية الصينية تنتشر في أرجاء الصين وعند بعض جاراتها الجنوبية. والأسبانية تنتشر في الأمريكتين. ومئات التنويعات من الإنجليزية البيدجانية ظهرت بشكل غير رسمي بين جماعات متباينة في استراليا والكاريبي وبابوا بغينيا الجديدة وغرب أفريقيا. ولا يزال استعمال الفرنسية في تزايد في العديد من المستعمرات الفرنسية السابقة، وإن كان بطريقة أشد بطئا من تلك التي شهدتها خلال ذروة نفوذها الاستعماري. والهندية تصل إلى متعلمين جدد في الهند المتعددة اللغات والأعراق. والعربية تنتشر في شمال إفريقيا كلغة للإسلام وكلغة هامة للتجارة الإقليمية.

ويعود انتشار بعض اللغات الإقليمية، في جانب منه، إلى جهود لجان المنظمات واللجان الحكومية. ففرنسا تنفق بلايين الفرنكات سنويا لدعم المؤتمرات والمدارس وأجهزة الإعلام التي تشجع استخدام الفرنسية باعتبارها واسطة لثقافة مشتركة. والمنظمات الإسلامية الشرق أوسطية تدعو إلى الإسلام على نطاق العالم عن طريق كم ضخم من الكتيبات وغيرها، المكتوبة بالإنجليزية، في الوقت الذى تتعامل فيه فيما بينها بالعربية. وفوق ذلك، فإن العديد من الحكومات، في سعيها لنشر الإسلام في نطاق حدودها، تلجأ إلى تعريب الأقليات العرقية المحلية (مثال ذلك، البربر في المغرب والمسيحيون في السودان). وتتولى الحكومة الألمانية تمويل ٧٨ من معاهد جوته، الموزعة من بيروت إلى جاكارتا، والتي تقوم بتدريس مناهج منتظمة في اللغة الألمانية وكذلك عرض الأعمال المسرحية وتنظيم المعارض الفنية والمحاضرات ومهرجانات الأفلام الألمانية. وسنغافورة، وهي بلد صغير يستخدم أربع لغات رسمية، دخلت حملته «تحدثوا الماندرينية» عامها التاسع عشر. وقد خططت سنغافورة الحملة لتشجيع المتحدثين باللهجة الصينية على تبنى لغة مشتركة وتسهيل استعمال الماندرينية كلهجة إقليمية.

ومن المحتم أن تتزايد أهمية اللغات الإقليمية في المستقبل القريب. فالكتاب الشعبيون، والتجار المتجولون، وتجار الأسواق، ودعاة نشر التعليم، ورجال الإسعاف، وصانعو الأفلام، وبعثات التبشير، كل هؤلاء يميلون إلى الاعتماد على لغة إقليمية مشتركة طالما كانت تتيح الفرصة للانتشار الأوسع، حتى وإن كان أقل سرعة، والوصول إلى المزيد من الناس. وفي العديد من المناطق النامية، تسهل اللغات الإقليمية التوسع الزراعى والتجارى والصناعى عبر الحدود الثقافية والحكومية المحلية. كما أنها تدعم مراحل التعليم المختلفة، بما فيها التعليم الأولى، في المناطق المفرطة في تعدديتها اللغوية. وكلما ازداد عدد اللهجات المحلية، كلما تصدرت اللغات الإقليمية.

الوطن وطن اللغة

برغم كل ضغوط ومكافآت الإقليمية والعولمة، تظل الهويات المحلية هي الأكثر تأصلا. وحتى لو أسفرت النتيجة النهائية للعولمة عن جعل العالم أصغر، فإن مداها يعزز، فيما يبدو، الحاجة إلى صلات محلية أكثر حميمية بين كثير من الأشخاص. وكما صرح برنارد بوانانت، عمدة بلدة قيمبر ببريتانى، لصحيفة واشنطن بوست فإن «الإنسان حيوان ضعيف ويحتاج إلى روابطه الحميمة. وكلما ازداد العالم انفتاحا، كلما تزايد ارتباط الإنسان بجذوره وبأرضه».

وفي معظم التجمعات، فإن اللغات المحلية، مثل لغة بوانانت البريطانية تلك، تعد وظيفة رمزية قوية باعتبارها علامة واضحة على «الأصالة». فجوهر الخبرة التاريخية المشتركة للجماعة، والأصالة التي تعكس القاسم المدرك المتصل من الماضى الذى أضفيت عليه المثالية ثقافيا وحتى الحاضر، تحملها اللغة والتقاليد (وبصورة ملتبسة أحيانا) المتصلة بأصول الجماعة. والاهتمام بالأصالة قاد معظم العلمانيين الإسرائيليين إلى إعطاء العبرية الأولوية في الحديث فيما بينهم إلى جانب معرفتهم بالإنجليزية بل والعربية. ونفس هاجس الأصالة هو الذى يدفع يهود الهاسادا في إسرائيل أو الشتات إلى إعطاء الأولوية لليديشية إلى جانب

تعلم العبرية والإنجليزية. وفى كل حالة، فإن الأصالة تدعم جوهر المعتقدات والتفسيرات الثقافية التى لا تقاوم العولمة فحسب بل وتتعزز فعليا بـ «المخاطر» الناجمة عن العولمة، والتى تهدد هذه القيم التاريخية. وقد يرى الباحثون أن الهويات الثقافية تتغير مع الوقت استجابة لنظام مكافأة محدد. لكن المحليين غالبا ما يقاومون مثل هذه التفسيرات ويدافعون عن الأصالة واللغات الأم المحلية فى مواجهة ما يرونه تهديدا من جانب العولمة عن طريق العاطفة الدينية.

وكنتيجة لذلك، وبصورة لم يشهدها التاريخ من قبل، أصبح عدد اللغات المعترف بها كبيرا للغاية : حوالى ١٢٠٠ لغة. فقد استفادت العديد من اللغات الأصغر، حتى تلك التى يستعملها أقل من المليون شخص بكثير، من منظمات الحفاظ على اللغة. سواء تلك التى تشرف عليها الحكومات أو التطوعية. وعلى أكثر المستويات غير الرسمية، هناك جماعات فى ألا سكا وشمال غرب أمريكا تكون مجموعات نقاش على الإنترنت، فى محاولة لنقل اللغات الأمريكية الأصلية إلى الأجيال الأصغر. وفى أقاليم الباسك، وقطالونيا، وغاليسيا الأسبانية، فإن مثل هذه الحركات تبدى مقاومة سياسية شرسة للحكومة الأسبانية فيما يتعلق بالحقوق السياسية واللغوية. وتتراوح المشروعات بين حملة لطبع النقود الأسبانية بأربع من لغات الدولة الرسمية وبين تنشئة الأطفال عليها منذ الحضانة والمدرسة الابتدائية. ويتصدى الزاباتيون فى المكسيك لإحياء لغات المايا كجزء لا ينفصل



من حملتهم السياسية المطالبة بالاستقلال الذاتى.

وبالإضافة إلى الاستنجاد بالأهمية الخالدة للجذور المحلية، يقدم أنصار اللغات المحلية دفوعات عملية عن استمرارهم فى استخدامها. فهذه اللغات تحقق مستويات نجاح مدرسية أعلى، ودرجة أعلى من المشاركة فى الحكومة المحلية، ووعيًا أكبر بالمواطنة، ومعرفة أفضل بثقافة الناس وتاريخهم وإيمانهم. وأطفال النافاجو Navajo، بولاية اريزونا، ممن كانت النافوجية لغتهم الأساسية فى الدراسة، أثبتوا تفوقا فى اللغة الإنجليزية على غيرهم ممن كانت الإنجليزية لغتهم الدراسية الأولى. كما أن بإمكان الحكومات ومنظمات الإغاثة استخدام اللغات المحلية فى نشر المعلومات المتصلة بالتقنيات الصناعية والزراعية وكذلك كوسيط بين متلقين متنوعين للتوعية الصحية. وعلى سبيل المثل، توصل العاملون فى مجال التنمية بغرب أفريقيا إلى أن هذه اللغات المحلية هى أفضل وسيلة لتعليم عدد ضخم من الفلاحين كيفية زراعة ورعاية المحاصيل بما يحقق أعلى إنتاجية. ومن الاستوريين إلى شعب الزولو، فإن اعتماد العالم عمليا هو على تلك اللغات المحلية التى لا تقل أهمية عن أدوار الهوية التى تعبر عنها هذه اللغات. على أن كل من الأقلمة والعولمة بحاجة إلى تعدد لغات أولئك الناطقين باللغات المحلية.

التطلع قدما

حيث إن كل التجمعات الناطقة باللغات الأكبر تتجه نحو الحفاظ على لغاتها الخاصة فى مواجهة العولمة، فلا ينبغى أن نفاجأ إن نهج أصحاب اللغات الأصغر نفس النهج. ولكن إذا كان بمقدور الألمان تبنى العولمة، مع استمرار استخدامهم للغة الألمانية فيما بينهم، فلماذا لا يفعل التليجو فى الهند الشيء نفسه؟

إن التعددية اللغوية تسمح للناس باختيار كهذا. ولكل لغة فى تجمع متعدد اللغات وظائفها الخاصة المتميزة. فاللغة المستخدمة مع الأسرة والمقربين غير تلك التى تستخدم مع الشركاء أو الجيران، وليس من الضرورى استخدام نفس اللغة، أو لغة واحدة، مع الرؤساء أو فى التعامل مع الحكومة. وقد تحتاج قراءة الموضوعات التقنية أو الاقتصادية المتقدمة إلى إتقان لغة أخرى غير تلك التى نقرأ بها مقالات الصحف المحلية. وطالما أن لغتين أو ثلاثا لا تتنافس على نفس الوظيفة الاجتماعية، فإن التقسيم اللغوى للعمل يمكن أن يكون مطلوبا وقادرا على الاستمرار فى آن. وهناك قلة من الهنود الناطقين بالإنجليزية، على سبيل المثال، تنازلت عن الإنجليزية لصالح لغاتهم الأم أو لغاتهم الإقليمية. ونفس الشيء فى بورتوريكو والمكسيك، حيث تستخدم الإنجليزية «أحيانًا»، حتى بين أولئك الذين تعلموها طلبا للترقى الوظيفى أو الدراسى.

وبالطبع، فإننا سوف نشهد صراعا، بغض النظر عن الفائز والخاسر. والصراع اللغوى يحدث عندما يكون هناك تنافس بين لغتين فى سبيل تحقيق الانفراد بوظيفة ذات علاقة بالسلطة - الحكومة أو التعليم، على سبيل المثال. وغالبا ما نرى هذا الخلاف عندما تسعى لغة إقليمية أو محلية إلى انتزاع أدوار كانت تقليديا للغة محلية أخرى. ففى الفترة السوفيتية، اتخذت موسكو موقفا عدوانيا من اللغات المحلية، مؤسسة للروسية كلغة وحيدة للتعليم والمصالح الحكومية فى مناطق البلطيق وآسيا الوسطى. لكن فى التسعينيات، بدأ كثير من هذه الدول إهمال اللغة الروسية تدريجيا فى المدارس وأجهزة الحكومة بل وحتى فى المسرح ودور النشر، لصالح لغاتهم القومية. كما سنت كل من استونيا وليتوانيا ولاتفيا أشد القوانين صرامة، للالتزام - عند كتابة المناهج الدراسية أو العلوم أو الثقافة - باللغات القومية و(حتى وقت قريب) ترك ذوو الأصول الروسية فى العراء.

وحتى بالرغم من أن الأنظمة المحلية والإقليمية غالبا ما تستخدم لأغراض سياسية، فإن اللغات العالمية (بما فيها الإنجليزية، لغة العولمة) يمكن أن تتصارع فيما بينها. وقلق فرنسا بشأن انتشار الإنجليزية موثق تماما. فالحكومة فى باريس تمنع الإنجليزية فى الإعلانات وتحدد عدد الأفلام الناطقة بالإنجليزية المسموح بعرضها فى البلاد. وهناك شخصية على مستوى وزارى، هو وزير الثقافة والاتصالات، مسئولة عن مراقبة سلامة اللغة القومية والأكاديمية الفرنسية، مرجع فرنسا القومى فى اللغة والأسلوب، تحدد الاستخدامات الرسمية للعامية الأنجلو - أمريكية لحماية اللغة الفرنسية من «التخريب».

وغالبا ما يرى أولئك الذين يتحدثون لغات العولمة ويتقنونها أن اللغات المحلية «المزعومة» تشكل خطرا على سلام العالم وازدهاره. وخلال معظم فترات التاريخ المكتوب، كانت اللغات القوية ترفض اقتسام السلطة مع اللغات الأصغر وتتهمها بإثارة المشاكل وزعزعة الاستقرار وتشجيع العنف العنصرى والانفصالية. لكن تخلص ايرلندا من الغاليين فى القرن التاسع عشر لم يقنع كثيرا من الأيرلنديين بروابطهم مع إنجلترا. وهؤلاء الذين يخشون فقدان سلطتهم واندحار لغات أصالتهم المحبوبة لديهم ما يدعو إلى الاعتقاد بأن معظم المتاعب تأتى من النهاية المعاكسة للغة وانقطاع استمرارية السلطة. والتجمعات الصغيرة تدين بهذه الأخوات اللغوية الكبيرة للإمبريالية والانتحار اللغوى والانتحار الوراثى وتوجيه العقل.

www. english everywhere. com

كانت الإنجليزية بالفعل لغة دولية رئيسية عندما بدأت مجموعة من العلماء بوزارة الدفاع الأمريكية تنفيذ شبكة مشروعات البحث المتقدم للوكالة -ARPANET البديل السابق للإنترنت. لكن انفجار شبكات الكمبيوتر، خلال العقد الماضى، أدى على ما يبدو إلى انتشار الإنجليزية بصورة غير مسبوقة.

وتتمتع الإنجليزية عن غيرها من لغات الفضاء الإلكترونى بعدة مزايا. فبرامج تشغيل الكمبيوتر الأولى قام بتصميمها الأمريكيون. الذين اتخذوا من الأبجدية الإنجليزية أساسا لنظام العلامات لأول كمبيوتر، وللشفرة القياسية الأمريكية لتبادل المعلومات .ASCII وتظل الإنجليزية اللغة الوحيدة التى يمكن استعمالها بالفعل على أى كمبيوتر فى العالم دون تحريف. والغالبية العظمى من مراكز تبادل المعلومات serversعلى شبكة الإنترنت. فى جميع أنحاء العالم - ٩٠٪ حسب مصادر إى ماركت، المؤسسة الاستشارية للشبكة - لازالت متمركزة فى البلدان التى تستخدم الإنجليزية كلغة أم. كما تقدر المعلومات المخزنة باللغة الإنجليزية على أجهزة الكمبيوتر فى أرجاء العالم بـ ٨٠٪ من إجمالى هذه المعلومات.

لكن تفوق الإنجليزية هذا لن يقدر له أن يدوم طويلا. فالبرامج الجديدة تمكن مستخدمى الإنترنت بالتخاطب بكل اللغات، من الألمانية إلى العربية إلى الصينية إلى الروسية. ومعظم أدوات تصفح الإنترنت الآن تتيح «تفضيلاً لغويًا» عند الاتصال بمواقع نائية بما يسمح لها بتمييز اللغات وعلامات الأنظمة المختلفة. أما أكثر التغييرات أهمية فهو تنامى استخدام الإنترنت فى البلدان النامية. وحسب تقدير مؤسسة Nua الايرلندية لاستشارات الإنترنت. فإن نسبة تطور استخدام الإنترنت سنويا تبلغ ٤٠٪ فى الولايات المتحدة، بينما تصل إلى ٢٠٠٪ فى البرازيل، و٣٠٠٪ فى الهند، وتتجاوز النسبة ٥٠٠٪ فى الصين. ومع نهاية هذا العام، فإن الأمريكيين - حسب تقديرات إى ماركت - سوف يصبحون أقلية على الشبكة.

ما الذى يعنيه هذا بالنسبة للإنجليزية؟ يشير متخصص اللغات دافيد جرادول إلى أن أكثر من ٥٠٪ من استخدام الإنترنت فى الولايات المتحدة «محلى» : مراسلات إلكترونية بين الأصدقاء، على سبيل المثال. ومن هنا، فإن سيادة الإنجليزية ستتراجع مع دخول المزيد من غير المتحدثين بالإنجليزية على الشبكة. لكن الإنجليزية من المحتمل أن تظل اللغة الوحيدة التى يشترك فى استخدامها أكبر عدد من الناس على الإنترنت فى المستقبل المنظور - وقد يكون السبب الوحيد هو أنها تظل اللغة الأكثر فهما من جانب أكبر عدد من الناس.

هل تتحدث الأوروبية؟

يحث الاتحاد الأوروبى أمم أوروبا على الحديث بصوت واحد. فما هى اللغة التى سيتحدث بها هذا الصوت؟

لقد كان على الاتحاد الأوروبى دائما أن يسير على خيط دقيق بين تشجيع الاندماج وبين إثارة المشاعر القومية عند أولئك الحذرين بالفعل من «المواطن الأوروبى». وفى الذكرى الأولى لتأسيسها عام ١٩٥٨، طرحت الجماعة الاقتصادية الأوروبية سياسة للتعددية اللغوية لضمان تمثيل لغة قومية لكل بلد من أعضائها فى المنظمة الجديدة. واليوم، فإن هناك ١١ لغة رسمية للاتحاد الأوروبى يمكن لأعضاء البرلمان الأوروبى استخدامها فى النقاش أثناء الجلسات.

إن العولمة والأقلمة والمحللة localization، كلها ظواهر جديدة. لكنها تتفاوت فى قوتها باختلاف مناطق العالم والزمان. وبإمكان كل منها أن تلعب دورا مؤثرا فى التغيير الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، بل والسياسى. فقد اختار التاميل الهنود الراغبون فى التواصل مع الشماليين الناطقين بالهندية، اللغة الإنجليزية، أكثر من مرة، كواسطة لتحقيق هذا الاتصال. ومن المفارقات أن اللغة الإنجليزية كانت، بالنسبة لكثيرين من التاميل - التى تسود البرودة علاقتهم بالسلطة المركزية فى دلهى - تبدو لغة أقل استعمارية من الهندية. أما فى إندونيسيا، فإن اللغة الإنجليزية ترتبط بالحكم العسكرى وإنكار الحقوق المدنية واستغلال العمال، حيث تؤيد الولايات المتحدة الأمريكية، منذ زمن، نظام جاكارتا الأوليجاركى. وعلى الرغم من انتشار الإنجليزية فى أوساط الفئات العليا من إندونيسيا، فإن الحكومة تؤكد على استخدام لغة إندونيسيا الرسمية (بهاسا اندونسيا) فى مخاطبة الجمهور. أما اللغات المحلية فهى محرومة حتى من الاعتراف الرمزى. والزعماء التقليديون والعامة فى جاوا، ورثة التقاليد الأدبية القديمة لسكان جاوا الأصليين، يستاءون من تفضيل الإنجليزية والإندونيسية على لغتهم. ونشر اللغات غالبا ما يكون ممقوتا لأنه يمكن أن ينزل الضرر بكثير من اللغات فى الوقت الذى تحقق فيه المزايا للبعض الآخر منها.

وقد اتخذ مسئولو الاتحاد الأوروبى مجموعة من الإجراءات التى من شأنها دفع التنوع اللغوى فى أوروبا. ففى ١٩٨٤، أنشأ البرلمان الأوروبى المكتب الأوروبى للغات الأقل استخداما، وهو ما يضمن الحفاظ على الحقوق اللغوية لحوالى ٥٠ مليون مواطن أوروبى ممن يتحدثون لغة أو أكثر من لغات الأقليات الأوروبية الأربعين المعترف بها. ومنذ فترة قصيرة للغاية، بدأ الاتحاد الأوروبى مشروع LINGUA، وهو برنامج تعليمى يدعم تدريب المدرسين والمشروعات التعليمية المشتركة، ويطور الأدوات اللازمة للتعليم. وعلى الرغم من أن المشروع يمثل كل لغات الاتحاد الأوروبى الرسمية، بالإضافة إلى الغالية والأيسلندية واللوكسمبورجية والنرويجية، فإن هناك تفضيلاً لتلك اللغات الأقل استخداما وتعليما.

ولربما كان ميثاق اللغات الإقليمية ولغات الأقليات هو أهم معالم السياسة اللغوية الأوروبية. وهذا الميثاق، الذى تبنته، فى ١٩٩٢، الدول الأربعين الأعضاء بالمجلس الأوروبى، يلزم الموقعين عليه بتسهيل استخدام لغات الأقليات فى التعليم وإجراءات التقاضى والمصالح الإدارية والعامة وأجهزة الإعلام. وقد وقع الميثاق حتى الآن فنلندا وهولندا، مع بريطانيا وألمانيا، وينتظر انضمام أسبانيا.

وبالرغم من المبادرات الكبيرة لهذه القارة، فأن الجهود المبذولة فى سبيل المساواة فى التعامل مع كل اللغات الرسمية داخل إدارة الاتحاد قد باءت بالفشل. وعلى الرغم من أن ١٥٪ من عدد أعضاء المبعوثية الأوروبية أل ١٧٠٠٠ هم من المترجمين والمتخصصين فى اللغات، فإن مؤسسات الاتحاد لا تستخدم سوى عدد محدود من «اللغات العاملة» لتصريف الأعمال اليومية. ويأتى فى مقدمة هذه اللغات الإنجليزية، اللغة الأساسية المستخدمة فى شبكة المشروعات المشتركة (المسئولة عن تنظيم المشروعات المشتركة بين شركات الاتحاد الأوروبى) التابعة للاتحاد، والبنك المركزى الأوروبى، والعديد من نشرات الاتحاد، ومعظم المخاطبات الاقتصادية الأخرى. والإنجليزية تهدد كذلك بالحلول محل الفرنسية كلغة للدبلوماسية داخل الاتحاد الأوروبى. فقد أظهرت دراسة أجريت عام ١٩٩١ أنه بالرغم من أن الفرنسية لازالت أكثر استخداما من الإنجليزية فى المبعوثية الأوروبية، فإن الإنجليزية لازالت مفضلة عند شباب الموظفين.

وذات مرة، تساءل هنرى كيسنجر، مازحا: «عندما أود التحدث مع أوروبا، أتصل بمن؟». الأوروبيون لازالوا مختلفين حول الإجابة. لكن أيا كانت هذه الإجابة، فمن المحتمل أن تكون قادرة على تلقى المكالمة بالإنجليزية.

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهورى

٢- روابط شعبية لتنمية العلاقات العربية

يجب التفكير في ربط الأمم الشرقية بروابط اقتصادية ولغوية وقانونية قبل التفكير فى ربطها بروابط سياسية، فإن هذه تأتى تالية لتلك ومثل ذلك الدول الألمانية. ولتطبيق ذلك علميًا يمكن البدء بالنهضات الآتية:

١- نهضة تتناول الشريعة الإسلامية وجعلها مطابقة لروح العصر وهذه النهضة تنتشر في كل الدول الشرقية.

٢- نهضة تتناول اللغة العربية وإدخال ما يجب إدخاله عليها من التعديلات وتوحيد اللهجات المختلفة فيها بقدر الإمكان، وهذه النهضة تنتشر في البلاد العربية كمصر والشام وبلاد العرب والعراق وبلاد المغرب.

٣- نهضة اقتصادية وتتناول ربط البلاد المستقلة بمعاهدات تجارية واقتصادية واتحاد جمركى أو ما يشبهه وهذه النهضة لا تتيسر إلا فى البلاد المستقلة كما تقدم كتركيا والعجم والأفغان والحجاز ومصر عندما يتم استقلالها.

٤- نهضة لإحياء العلوم والمعارف الشرقية وبخاصة الإسلامية وهذه تتناولّ جميع الدول الشرقية كما تناولت حركة إحياء العلوم في أوروبا أمم الغرب التى كانت مستعدة لذلك.

ومن المفيد جداً أن يبدأ في تولى هذه النهضات جمعيات مؤسسة على مجهودات الأفراد فإن كل عمل من هذا القبيل يبدأ دائمًا بمجهودات أفراد قبل أن تفكر فيه الحكومات، والواقع أن الأفراد هم الذين يؤسسون الجمعيات وهذه هى التى تدرس الخطوات العملية للوصول إلى غرضها وتأتى الحكومات من بعد ذلك وتأخذ بالنتائج التى وصلت إليها الجمعيات، وأرى أن هذه الجمعيات يجب أن تتعدد بتعدد الأغراض.

ثورة فى صناعة الدواء بعد اكتشاف الجينوم

محمد رءوف حامد



■■ المتتبع للمقال الجميل والمهم جدًا للدكتور أحمد مستجير في «وجهات نظر» (بعنوان: «الجينوم» قراءة في سفر الإنسان) في يوليو الماضى يمكنه أن يدرك أن الجينوم البشرى كشف علمى أمثل. وتقوم أمثلية هذا الكشف العلمي - في تقديرنا - علي الاعتبارات التالية:

- أن موضوعه يتعلق بالإنسان فى كل مكان (وزمان).

- أن الإنجاز فيه جاء من خلال «فرق عمل» تشكلت من خلال جهود علماء من عدة دول، أى فرق عمل «عبر دولية».

- أنه كمشروع يتضمن جنبا إلى جنب جزءًا «معرفيًا» محضًا، وهو الخاص بالتعرف على «خريطة» الجينوم، مع جزء «تكنولوجى» محض، هو الذى يتعلق بتطوير جذرى في طرق فحص سلسلة القواعد على شريط الـ (دنا).

إن الجانب التكنولوجى في المشروع قد تقدم بسرعة أسية، حيث تمكن المشروع من تقصير الزمن الخاص بفحص سلسلة من عدد ١٢٠٠٠ قاعدة من «أكثر من عام» قبل بدء المشروع إلى «٢٠ دقيقة» عام ١٩٩٧، ثم إلى دقيقة واحدة عام ٢٠٠٠. هذا بالإضافة إلى السعى إلى إحداث تطوير محدد فى الدقة (من ٩٩,٩٠٪ عام ٢٠٠٠ إلى ٩٩,٩٩٪ عام ٢٠٠٣)

- إتاحة الكشف لعموم البشر يومًا بيوم علي الإنترنت، وهو أمر مثالى فى مجال العلم، حيث يؤدى ذلك إلى منع المتاجرة بنتائج العمل العلمى، وكذلك إتاحة فرصة الاستفادة من هذه النتائج لكل من يستطيع.

- الاعتراف بالجميل للكشف العلمى الأساسى الخاص بالجينوم وهو اكتشاف التركيب الدقيق للـ (دنا) بواسطة جيمس واطسون وفرانسيس كريك عام ١٩٥٣، وذلك من خلال الترتيب للاحتفال بنشر الخريطة النهائية للجينوم عام ٢٠٠٣ في ذكرى مرور نصف قرن على نشر بحث واطسون وكريك.

إن الأمثلية الكامنة في الكشف العلمى الخاص بالجينوم تتعدى الاعتبارات المنهجية الظاهرة السابق الإشارة إليها لتتجلى في المعانى والانعكاسات الفكرية والمعرفية الناتجة أو التى يمكن أن تنتج عن هذا الكشف. فمن ناحية، ليس من قبيل المبالغة القول بأن العديد من الأشياء والتوجهات والمجالات ستُرى وتُحس ويُخطط لها بعد اكتشاف الجينوم بطرق مختلفة عما كان عليه الحال قبل اكتشافه. وهكذا، في إطار أمثلية وأهمية الجينوم البشرى تصبح هناك حاجة لإعادة التقييم والاستكشاف بخصوص المسارات والاحتمالات والممكنات الخاصة - ربما - بكل شيء. ومن الأشياء أو المجالات التى يستشعر الكثيرون ما تمثله من أولوية عند إعادة التقييم والاستكشاف من صناعة الدواء، وهذا هو ما يصبو هذا العرض إلي تقديمه.

طبيعة صناعة الدواء:

يعرف «الدواء» بأنه «أى مادة في منتج صيدلى تستخدم لتغيير أو استكشاف نظم فسيولوجية أو حالات مرضية لصالح متلقى هذه المادة». ونظرًا لأن حاجة الإنسان إلى الدواء نشأت مع وجوده وتستمر مع استمرار تواجده فى هذا الكون، فإنه يشار إلى الصناعة الدوائية باستمرار على أنها أقدم صناعة أمكن لها تجنب الركود والتراجع. كان المصدر الرئيسى للدواء علي مدى التاريخ هو المواد الطبيعية، وخاصة النباتات وخلاصاتها. استمر هذا الوضع دون طفرات كبرى حتى عام ١٨٩٧ عندما أمكن لفليكس هوفمان أن يحدث تعديلاً كيميائيًا بسيطًا لمادة مستخلصة من قلف شجرة الصفصاف هى حامض

الساليسيل. كانت نتيجة هذا التحول الكيميائى الحصول على الأسبرين، وكانت نتيجته أيضًا تحول شركة باير والتى كان يعمل بها هوفمان من مجرد صنع الصبغات إلى أول شركة «عصرية» لصناعة الدواء. المقصود بتعبير العصرية بالنسبة لصناعة الدواء هو التحول من تحضير المواد المستخلصة من مصادر طبيعية إلى استخدام التخليق الكيميائى في اشتقاق مواد دوائية جديدة من المستخلصات النباتية أو في تخليق مواد كيميائية جديدة تمامًا. وكان من شان هذا التحول بزوغ «التغيير» أو «الابتكار» كقيمة وكعامل حرج بالنسبة لصناعة الدواء. وسرعان ما تواصلت المسيرة التقانية العلمية من أجل اكتشاف أدوية جديدة، فظهرت الأدوية المعجزة (مثل السلفا والبنسلين) فى النصف الأول من القرن العشرين، وتطورت الاهتمامات الخاصة بالحصول على مواد دوائية جديدة وتصنيع المواد الخام وتحضير الأدوية فى أشكال صيدلية مختلفة. ومع الخمسينيات والستينيات صار للتنافسية في صناعة الدواء آليات ومسارات خاصة (التحوير في المنتجات ـ التوصل إلي مواد دوائية جديدة ـ براءات الاختراع ـ الأسماء التجارية للأدوية.. إلخ).

لقد تنامى الإدراك للدور الرئيسى الذى يلعبه البحث العلمى في تعظيم القيمة المضافة في صناعة الدواء، وصار من الواضح أن هذه الصناعة تقوم على العلم، وبالتالى يرتكز تقدمها علي أنشطة البحث والتطوير. وهكذا، تطورت مخصصات البحث والتطوير بالنسبة للمبيعات من ٣,٧٪ (فى المتوسط) عام ١٩٥١ لتتعدى الآن ٢٠٪ في بعض الشركات، وأن حجم الإنفاق السنوى علي أنشطة البحث والتطوير قد فاق المليار دولار فى العديد من شركات الأدوية العالمية الكبرى. وتجدر الإشارة إلى أن قائمة أعلى مائة شركة في العالم من حيث الميزانيات المخصصة للبحث والتطوير تتضمن عدد ٢٩ شركة لصناعة الدواء.

إن الأهمية القصوى لأنشطة البحث والتطوير كأساس للتنافسية فى صناعة الدواء دفعت اللاعبين العالميين الكبار في هذه الصناعة لأن يشكلوا قوة دافعة رئيسية وراء إصدار اتفاقية حقوق الملكية الفكرية (تريبس) كواحدة من اتفاقيات التجارة العالمية، وذلك بعد أن كانت شئون الملكية الفكرية فى العالم تنظم أساسًا من خلال المنظمة العالمية للملكية الفكرية (الوايبو WIPO)، وكما هو معروف، مع اتفاقية «التريبس» أصبحت براءة الاختراع تضمن الحماية ليس فقط للعملية الابتكارية (أو الإنتاجية) ولكن أيضًا الحماية للمنتج، وذلك بمعنى أن مجرد التوصل بطريقة ما إلى ابتكار منتج دوائى معين من شانه منع قيام الآخرين بالتوصل ـ تجاريًا ـ لنفس المنتج بأية طريقة أخرى. إنه أمر يتعارض عند الكثيرين مع المعايير الأخلاقية، خاصة مع الأدوية المعتمدة على المعارف الجينومية، كما سنشير فيما بعد.

الوراثة والدواء فيما قبل اكتشاف الجينوم:

من المفارقات المهمة في تاريخ علم الأدوية (الفارماكولوجى) أن الباحثين في هذا العلم كانوا قد قطعوا شوطًا مهمًا فى استكشاف أثر العوامل الوراثية علي التاثيرات العلاجية والسامة للأدوية، وذلك قبل سنوات عديدة من بزوغ تقنيات توليف الـ(دنا) عام ١٩٧٣ والشروع في تطبيقها في المجالات الطبية والصيدلية.

لقد بدأت ظاهرة انعكاس العوامل الوراثية على فاعليات الأدوية تجذب انتباه علماء الفارماكولوجى منذ أواخر الخمسينيات حيث نشر موتولسكى مقالا عام ١٩٥٧ في المجلة الطبية الأمريكية «جاما»، يشير فيه ولأول مرة إلى أن آثارًا جانبية معينة للأدوية تنتج عن اختلافات في أيض الأدوية (أى تحولها وتكسرها كيميائيا داخل الجسم) بسبب اختلافات وراثية. وسرعان ما أخذ الاهتمام النظرى والمعملى لعلماء الفارماكولوجى بهذا الموضوع يتسارع ويتاصل حيث صاغ الألمانى فوجل مصطلح فارما كوجينيتيكس (أو الوراثيات الدوائية) للدلالة علي الظاهرة الجديدة أو العلم الجديد وذلك في مقال كتبه عام ١٩٥٩ بعنوان «مجال حديث في علم الوراثة الإنسانى».. بعدها تعددت الاكتشافات في مجال علم الوراثة (علم الوراثيات الدوائية أو الفارماكوجينيتكس) بحيث يعرف الآن المتخصصون من خبراء وعلماء الطب والصيدلة أكثر من مائة مثال لأثر غير عادى للأدوية (سواء نقص في التاثير العلاجى أو حدوث أثر جانبى.. إلخ) نتيجة لاختلافات فردية وراثية.

ومن أهم الأمثلة ذلك الذى اكتشف بالمصادفة في كلية الطب بمستشفى سانت مارى فى لندن عام ١٩٧٧ بخصوص أحد أدوية علاج ارتفاع ضغط الدم وهو عقار دبريسوكوين، حيث كانت تجرى دراسة علي مجموعة مع المرضى، وحدث أن كان أحد الباحثين القائمين علي الدراسة يعانى من ارتفاع ضغط الدم فاجرى على نفسه ذات البحث الذى كان يجريه علي مرضاه. كانت الجرعة المقررة أقل من الجرعة العلاجية، ورغم ذلك حدثت مفاجاة غير سارة، إذ كاد الباحث المريض يفقد حياته فقد أحدثت له الجرعة المعطاة (برغم انخفاضها عن الجرعة التقليدية) هبوطًا شديدًا في ضغط الدم أكثر بكثير مما حدث لزملائه من المرضى، وكان الحارث بالتاكيد غير متوقع طبقًا للمعلومات المتوافرة عن هذا الدواء عندئذ. قادت هذه المفاجاة الباحث وزملاءه القائمين علي الدراسة إلى محاولة اكتشاف السبب، وسرعان ما اكتشف الباحثون السر الذى كاد أن يودى بحياة زميلهم. لقد وجدوا في الزميل الباحث خللاً بخصوص أيض دواء الدبريسوكوين، فبينما يتحول هذا الدواء عادة داخل الجسم بالأكسدة في الكبد إلى مادة أخرى مشابهة ليس لها تاثير في الضغط، إذا بهذا التحول لا يحدث في جسم زميلهم، مما جعل الدواء يظل في جسمه بتركيز أعلى من المطلوب ولفترة أطول من العادى، فكانت النتيجة هبوطًا شديدًا في الضغط يمكن أن يؤدى إلي الوفاة. وبتكرار الدراسة علي عدد كبير من المرضى في أوروبا تبين وجود هذه الظاهرة في حوالى واحد من كل عشرة من المرضى بحيث أمكن تقسيم المرضى بخصوص تفاعلهم مع الدواء المذكور «دبريسوكوين» إلي نوعين: نوع ذى أيض ضعيف للدواء Poor Metabolizers مثل الباحث الذى كاد يلقى حتفه، وهؤلاء يمثلون ٩٪ وأما النوع الثانى (٩١٪) فهم ذوو أيض شديد للدواء Extensive Metabolisers وهؤلاء يخرج الدواء من أجسامهم بسرعة. وهكذا اتضح أن الجرعة يجب أن تنخفض بقدر كبير عند المرضى ذوى الأيض الضعيف، وإلا فإن الدواء يتحول عندهم إلى مادة سامة، ووجد أن هذه الخاصية تخضع لقواعد علم الوراثة وأنها ناتجة عن اختلاف وراثى في عامل وراثى (جينى) محدد. وكانت المفاجاة التالية أن المسالة بخصوص هؤلاء المرضى لم تعد تختص بهذا الدواء (الدبريسوكوين) فقط، بل أصبح من الواضح أن هذه الظاهرة عند نفس النوع من المرضى تنطبق على قائمة تضم عشرات من أدوية القلب والأعصاب وأدوية أخرى.

وهنا نود أن نجذب الانتباه إلي وجود تباينات عرقية للتفاعلات الوراثية للأدوية بمعنى اختلاف نسبة المرضى الذين يتفاعلون ـ مثلاً ـ مع الدبريسكوين بأيض شديد أو بايض ضعيف نتيجة لاختلافات عرقية. فبينما تصل نسبة ذوى الأيض الضعيف للدبريسوكوين عند الأوروبيين إلى ٩٪ فهى عند العرب ١٪.



إن حجم الإنفاق السنوى علي أنشطة البحث والتطوير قد فاق المليار دولار فى العديد من شركات الأدوية العالمية الكبرى. وتجدر الإشارة إلى أن قائمة أعلى مائة شركة فى العالم من حيث الميزانيات المخصصة للبحث والتطوير تتضمن عدد ٢٩ شركة لصناعة الدواء

التطور الطفرى فى التصميم الدوائى يعتمد على «التوليف» بين تكنولوجيات راقية، هى على وجه الخصوص المعلوماتية والمواد الجديدة والبيولوجيا الجزيئية. وقد أمكن لهذا التوليف بين التكنولوجيات الراقية أن ينتقل بصناعة الدواء من عهود التصميم اليدوى Crafting لمركب كيميائى مفرد تلو الآخر إلى عهد جديد لم يُعرف من قبل

تقانات التوصل إلى أدوية جديدة:

فيما يلى يمكن الإشارة إلي عدد خمسة أنواع من التقانات (أو المداخل والطرق) الرئيسية المستخدمة للتوصل إلي أدوية (أو مستحضرات صيدلية) جديدة.

(١) التصميم أو التشييد الكيميائى:

بدأ التصميم الكيميائى في مرحلته الأولى من خلال إحداث تحويرات فى مواد كيميائية مستخلصة من مصادر طبيعية مثلما حدث بخصوص الأسبرين. ذلك بالإضافة إلي التشييد المعملى لمواد دوائية مشابهة تمامًا في التركيب الكيميائى لأخرى مستخلصة من هذه المصادر، وذلك مثل عقار الثيوفيللين والذى يستخدم لتوسيع الشعب الهوائية ـ علي وجه الخصوص ـ في الأطفال. ارتقى التشييد الكيميائى في مراحل تالية إلي محاولة تصميم مركبات كيميائية من خلال توقع للاحتمالات الخاصة بالعلاقة بين شكل المركب الكيميائى من ناحية وتاثيره البيولوجي من ناحية أخرى. وبينما اعتمد هذا الاتجاه في البداية ـ إلى حد ما ـ علي التجربة والخطأ، فإنه مع الوقت تراكمت الملاحظات والمعلومات والمعارف في اتجاه تكوين رؤي أكثر يقينية بخصوص العلاقة بين الشكل الكيميائى والفعل البيولوجى (من حيث الخواص العلاجية والآثار الجانبية)، ومع بداية التسعينيات بزغت طفرة تقانية كبرى في عمليات التصميم الكيميائى للأدوية، تسمى الكيمياء التوافيقية، والتى فيها يتم تشييد المركبات الكيمائية بالاعتماد علي مفهوم حساب «التوافيق»، وذلك بعمل «توافيق» بين مدخلات من مواد كيميائية بسيطة، بحيث تتفاعل مع بعضها البعض بترتيب توافيقى لتعطى مركبات كيميائية جديدة. إن تكرار التفاعل التوافيقى بين الوحدات الكيميائية يؤدى إلي تزايد هائل في عدد المركبات الناتجة، بالمئات، والآلاف، وحتى بالملايين. الأمر المهم هنا، هو أن كل ذلك يتم فى غضون فترة زمنية وجيزة جداً (دقائق أو ساعات)، وبمعرفة باحث أو اثنين أو ثلاثة. وأكثر من ذلك فان الغربلة البيولوجية، بمعنى التعرف على أكثر هذه المركبات قدرة على الالتحام بـ (أو التفاعل مع) المستقبل البيولوجى، تتم أيضا فى فترة زمنية مشابهة. أو فى نفس الوقت، وربما بنفس العدد القليل من الأفراد الباحثين. إن الأساس التكنولوجى الذى أدى إلى حدوث هذا التطور الطفرى فى التصميم الدوائى يعتمد على التوليف» بين تكنولوجيات راقية، هى على وجه الخصوص المعلوماتية والمواد الجديدة والبيولوجيا الجزيئية. وقد أمكن لهذا التوليف بين التكنولوجيات الراقية أ ينتقل بصناعة الدواء من عهود التصميم اليدوى Crafting لمركب كيميائى مفرد تلو الآخر إلى عهد جديد لم يُعرف من قبل، وهو عهد الحصول على دواء فعَّال من خلال تصميم وغربلة أعداد هائلة من المركبات فى مجموعات، وفى غضون ساعات. إن مقارنة تصميم الأدوية باستخدام الكيمياء التوافيقية بعملية

التصميم التقليدى لمركبات مفردة تشبه إلى حد كبير المقارنة بين صيد السمك بـ «شبكة كبيرة»، والصيد بـ «سنارة».

(٢) الطبيعة كمصدر للأدوية:

يمكن القول أن نصف الأدوية المستعملة فى العلاج هى من مشتقات لمواد من مصادر طبيعية، والاشتقاق أو التحوير الكيميائى هنا يكون فى العادة لتحسين صفات الدواء، وذلك على سبيل المثال - بزيادة الفعالية العلاجية وتقليل الآثار الجانبية.. الخ.

إن الفوائد الدوائية التى يجنيها الإنسان من الطبيعة ممثلة فى مختلف الأنواع من الكائنات فوق الأرض وفى البحر تتعدى مجرد الحصول على مواد علاجية من خلال استخلاص المواد الفعالة وتجريبها إلى درجة المساعدة فى اكتشاف وصياغة مفاهيم وآليات جديدة بشأن كيفية حدوث الأمراض واختلال وظائف الجسم، ومن ثم إمداد علم الدواء (الفارماكولوجى) بآفاق نظرية وتطبيقية جديدة تساعد فى علاج الأمراض والوقاية منها. من الأمثلة المهمة على ذلك اكتشاف الآثار الفارماكولوجية لسم ثعبان الـ Pitvpiper، والتى أدت بدورها إلى اكتشاف إنزيم خاص بهذا السم يعمل على تسريع تحويل مادة موجودة داخل الجسم إلى مادة أخرى تسبب رفع ضغط الدم. تم ذلك فى النصف الثانى من الستينيات وتتابعت الأنشطة البحثية الرامية إلى اكتشاف أدوية توقف نشاط الإنزيم المذكور بحيث يمكنها خفض ضغط الدم المرتفع، وفى عام ١٩٧٧ أمكن بالفعل التوصل إلى تصميم كيميائى لنوع من المركبات يمكنه إيقاف التحول الإنزيمى المشار إليه. وفى عام ١٩٨١ كان النجاح فى نزول أول دواء من هذه المركبات إلى السوق الدوائية، وهو عقار «كابتوبريل»، والذى جرى بعد ذلك تطوير تصميمه الكيميائى إلى مواد أكثر فعالية ومأمونية. وهكذا توالت الاكتشافات - ولا تزال - فى هذه المجموعة الدوائية الجديدة، والتى تلعب الآن دوراً رئيسياً فى التعامل مع أمراض القلب والأوعية الدموية.

ومن الأمثلة الأخرى الدالة على دور الطبيعة فى إمداد الإنسان بمفاهيم وآليات دوائية جديدة اكتشاف الكسندر فلمنج للبنسلين عام ١٩٢٨، كإفراز لفطر البنسيليوم، وبهذا الاكتشاف بدأ التعامل مع الطبيعة (ممثلة فى بعض الكائنات الدقيقة) كصاحبة فضل كبير فى إمداد الإنسان بواحدة من أهم المجموعات الدوائية وهى المضادات الحيوية لقد تتابعت الاكتشافات والبحوث الخاصة بالمضادات الحيوية والمضادات الميكروبية، كما توالت الاكتشافات والتحويرات والتصميمات الكيميائية بحيث أدت المضادات الحيوية والبكتيرية إلى خفض مذهل لنسبة الوفيات نتيجة الامراض المعدية، حتى أنها عُرفت فى البداية بالأدوية المعجزة، كما توالى النمو فى المعارف الخاصة بآليات فعل هذه المضادات وكذلك آليات الإصابات الميكروبية.

وبالاضافة إلى كل ما سبق ذكره عن أوجه النفع الدوائى من المصادر الطبيعية، نجد أن التطورات التكنولوجية الهائلة والتى تسارعت - على وجه الخصوص - مع الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين تفتح آفاقاً ومناحيا جديدة تماما بخصوص الاستفادة من المصادر الطبيعية. من أهم الاتجاهات فى هذا الصدد نشير الى الاتجاهين التاليين:

* استخدام التنوع البيولوجى القائم فى الموارد الطبيعية (على اليابسة وفى البحار والمحيطات، وربما الفضاء مستقبلا) فى الحصول على مواد جديدة تماما من حيث البناء الكيميائى، وهو الأمر الذى سيكون من شأنه المساعدة عن طريق الكيمياء التوافيقية (والتى أشرنا إليها من قبل) فى التوصل إلى

.. بعد اكتشاف الجينوم



من الأمثلة المهمة على ذلك اكتشاف الآثار الفارماكولوجية لسم ثعبان الـ Pitvpiper، والتى أدت بدورها إلى اكتشاف إنزيم خاص بهذا السم يعمل على تسريع تحويل مادة موجودة داخل الجسم إلى مادة أخرى تسبب رفع ضغط الدم

استخدام تقنيات الهندسة الوراثية فى إحداث تعديلات فى التشفير الوراثى فى الكائنات الدقيقة يؤدى فى النهاية أن تفرز هذه الكائنات مواد كيميائية لم يكن من الطبيعى أن تفرزها. إنها منتجات غير طبيعية منتجة بالاعتماد على الطبيعة

تراكيب كيميائية لم تكن فى خيال الباحثين فى علوم الدواء والكيمياء، بحيث ان هذه التراكيب ستكون عونا فى اكتشاف أدوية جديدة.

* استخدام تقنيات الهندسة الوراثية فى إحداث تعديلات فى التشفير الوراثى فى الكائنات الدقيقة وبحيث يمكن فى النهاية أن تفرز هذه الكائنات مواد كيميائية لم يكن من الطبيعى أن تفرزها. إنها منتجات غير طبيعية منتجة بالاعتماد على الطبيعة unnatural natural products، ويمكن من جديد أن تكون لها أو لمشتقاتها آثار بيولوجية وفارماكولوجية مهمة.

(٣) التوصل إلى تخليق المادة الدوائية فى أنقى صورها الفعالة:

أكثر من ٣٥٪ من الأدوية المعروفة لا يزال خليطا من صورتين مغايرتين متطابقتين فى الشكل الكيميائى لكن مختلفتين فيزيائيا (وهى ظاهرة تسمى الأيدية Chirality)، وذلك بينما إحدى الصورتين فقط هى الفعالة علاجيا (بمعنى الأكثر فعالية و/ أو الأكثر أمانا)، ويعتبر التوصل إلى إنتاج دواء من الصورة الفعالة علاجيا دونا عن الصورة الأخرى إنجازا تكنولوجيا مهماً طبياً واقتصاديا وإن كان هذا المجال من العمل مازال - نسبيا - فى بداياته.

(٤) التوصل إلى أنظمة جديدة لتناول الدواء وضبط إتاحته داخل الجسم:

توضع المادة الدوائية الفعالة داخل شكل (أو نسق) صيدلى مثل القرص والكابسولة والمرهم.. إلخ. إن الهدف الأساسى للأشكال (أو الأنظمة) الصيدلية هو توصيل الدواء بالشروط الأنسب (خاصة من حيث التركيز والزمن) إلى المكان المقصود داخل الجسم، بحيث تزيد الفعالية وتقل الآثار الجانبية ويسهل استخدام الدواء. ومن أمثلة ذلك وضع هورمونات منع الحمل تحت الجلد فى أنظمة صيدلية يكون من شانها استمرار ضخ الهورمونات ومنع الحمل لعدة أشهر. وبوجه عام يمكن القول أن التطوير فى الشكل الصيدلى أو التوصل إلى أنظمة جديدة لتناول الدواء وضبط إتاحته داخل الجسم هو إنجاز يزيد من قيمة الدواء. إن الزيادة (أو الإضافة) فى القيمة هنا تكون ذات ثلاثة جوانب رئيسية. الجانب الأول يختص بالفوائد الطبية التى يتيحها التطوير الجديد، وأما الجانب الثانى فإنه يتعلق بتمديد فترة حياة مستحضر دوائى تكون الحماية التى تتمتع بها براءة اختراعه قد قاربت على الانتهاء. بعد ذلك ياتى الجانب الثالث وهو استثمارى بحت، حيث نجد أن التطوير فى الشكل الصيدلى لمادة دوائية موجودة بالفعل يتكلف أقل كثيراً من عمليات التوصل إلى مادة دوائية جديدة لم تكن موجودة من قبل، وفى نفس الوقت يحقق - نسبيا - قيمة مضافة مقارنة أو - أحيانا - أعلى بعض الشىء. إن الأهمية الخاصة بالتوصل إلى أنظمة جديدة قد أدت فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة إلى تكثيف النشاط البحثى فى هذا المجال، بحيث نشأت شركات جديدة تهدف فى الأساس إلى تطوير و/ أو استحداث أنظمة صيدلية معينة.

(٥) التوصل إلى أدوية جديدة باستخدام التكنولوجيا الحيوية:

يقصد بالتكنولوجيا الحيوية استخدام الكائنات الحية أو الإنزيمات فى إنتاج مواد مفيدة. وفى تعريف أكثر دقة يشار إلى التكنولوجيا الحيوية بانها أى تقنية تستخدم الكائنات الحية (أو أجزاء منها) لتصنيع أو تحوير بعض المنتجات. وهكذا يتضح أن مصطلح التكنولوجيا الحيوية يطبق على مدى واسع من التكنولوجيات القديمة والحديثة والتى تشترك جميعها فى خاصية استخدام الكائنات الحية فى عمليات إنتاجية (أو خدمية)، فهناك - على سبيل المثال - تكنولوجيات حيوية تستخدم فى إنتاج المشروبات الكحولية، وأخرى تستخدم فى إنتاج أنواع شتى من الجبن، وهناك أيضا تكنولوجيات حيوية خاصة بالتخمر تصنع بواسطتها أدوية المضادات الحيوية... إلخ...إلخ. إن ما يهمنا الإشارة إليه هنا هو أن التطبيقات الخاصة بالتكنولوجيا الحيوية فى مجال الأدوية، ويطلق عليها التكنولوجيا الحيوية الدوائية (أو الصيدلية)، تعد مصدراً أساسيا للتوصل إلى أدوية جديدة. وإذا كان التطبيق الأشهر والأكثر ذيوعا فى هذا المجال يختص بإنتاج المضادات الحيوية، فإن توصل هربرت بوير وستانلى كوهين عام ١٩٧٣ إلى التقانة الخاصة بنقل وحدة وظيفية محددة من شريط الـ (دنا) من كائن حى إلى شريط الـ (دنا) الخاص بكائن حى آخر، مع التحكم فى (أو ضبط) التعبير (أو النشاط) الوراثى الخاص بالجزء المنقول إلى الكائن الجديد، قد أدى إلى إحداث طفرة فى مجال التكنولوجيا الحيوية الدوائية. وكان من نتائج هذه الطفرة (والتقانات التى صاحبتها) التوصل إلى أدوية جديدة (أو تحت التجريب) باستخدام تقانات حيوية ابتكارية لم تكن موجودة من قبل، وفيما يلى نشير إلى أهم هذه التقانات الحيوية الدوائية:

التقانة الأولى:
الـ (دنا) المؤتلف:

تعتبر هذه التقانة أساسا للعديد من التطبيقات الدوائية. أول هذه التطبيقات هو استخدام كائنات حية دقيقة - مثل البكتريا - كوسيط لإنتاج جزيئات حيوية كبيرة الحجم (بروتينات) ينتجها جسم الإنسان أو تنتجها أجسام حيوانات ما. لقد شهد عام ١٩٧٨ ظهور الأنسولين البشرى كأول مادة دوائية يتم إنتاجها بواسطة الميكروبات نتيجة استخدام الهندسة الجينية الخاصة بتوليف الـ (دنا). بعد ذلك ظهرت مواد دوائية عديدة منتجة بنفس التقانة من هذه المواد هورمون النمو، ولقاح الالتهاب الكبدى الوبائى ب، والإنترفيرونات، وعقار التيبليز (أكتيفيز) والذى يستخدم فى علاج الانسدادات الشريانية فى القلب والرئة، وغيرها الكثير.

التقانة الثانية:

إنتاج أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ: ظهرت هذه التقانة فى منتصف السبعينات، وفيها يجرى استخدام حيوان صغير (مثل الفار Mouse) وتقنيات زرع الخلايا لإنتاج أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ، وذلك بغرض علاج بعض الحالات المرضية (مثل: بعض حالات السرطان - زرع الأعضاء - بعض الأمراض المعدية...إلخ)، أو بغرض التصوير التشخيصى فى بعض الحالات المرضية عن طريق ربط الجسم المضاد بمصدر مشع، كما يمكن استخدام هذه الأجسام وحيدة الاستنساخ فى توجيه المادة العلاجية (سواء كانت مادة كيماوية أو مادة مشعة) إلى مكان محدد داخل الجسم.

التقانة الثالثة:

التكبير الأسى التكرارى لعامل وراثى معين. تعرف هذه التقانة بتفاعل بوليميريز المتسلسل PCR، وتعتمد على تكبير أسى لتكرارية عامل وراثى معين على شريط الـ (دنا)، وذلك بحيث يجرى استنساخ هذا الجزء المكبر من شريط الـ (دنا) باستخدام طريقة الـ (دنا) المؤلف، ومن

خلال عمليات التعبير الجينى فى خلية العائل الجديد الذى يحمل الـ (دنا) المؤلَّف يمكن التعرف على مدى وجود تتابعات جينية دقيقة جداً. ولهذه التقانة استخدامات فى غاية الأهمية فى مجالات تشخيص الأمراض المعدية (مثل الالتهاب الكبدى الوبائى - سى)، وكذلك تشخيص الأمراض التى تحدث نتيجة طفرة جينية (طفرة وراثية) مثل مرض التليف الكيسى.

التقانة الرابعة:

منع أو تقليل التعبير الجينى الخاص بجين معين: الغرض من هذه التقانة هو منع جين معين من ممارسة نشاطه أو على الأقل تقليل قدرته والمقصود بنشاط الجين هنا هو تعبيره عن نفسه من خلال تخليق البروتين الذى يُشفّر له هذا الجين. وترتكز الفكرة الأساسية لهذه التقانة من الناحية العملية على تشييد نيوكليوتايد قليل العدد (مركب يحتوى على عدد قليل من الوحدات المشابهة للوحدات المكونة للـ «رنا»، بحيث يكون هذا النيوكليوتايد قابل للاتحاد مع جزىء الـ (رنا) الرسول mRNA الخاص بالجين المقصود. ونتيجة لذلك يتعطل الـ (رنا) الرسول عن أداء مهمته (والتى تختص بحمل الرسالة الموجهة لعملية بناء البروتين)، وعليه تتوقف (أو تقل) قدرة الخلية على تخليق البروتين الناتج عن نشاط الجين المقصود. يطلق على هذه التقانة النيوكليوتايدات ويمكن تسميتها معطلات التعبير الجينى. ويجرى الآن تطبيق هذه التقانة - تحت التجريب - فى مجالات العلاج من الفيروسات والسرطانات وأمراض المناعة الذاتية.

التقانة الخامسة:

العلاج الجينى Gene Herapy: الغرض من العلاج الجينى هو إدخال جين صحيح فى الخلايا (خلايا الإنسان) ليحل محل جين مفقود أو جين معيب. وبالإضافة إلى ما ينتظر من العلاج الجينى كثورة ممكنة فى علاج الأمراض الوراثية والأمراض المستعصية، فإن العلاج الجينى يمثل أيضا نوعاً من طرق الإتاحة الحيوية الدائمة للدواء داخل الجسم، وذلك حيث يقوم الجين الجديد الذى يدخل الجسم بممارسة نشاطه والذى يعبر عنه فى النهاية بإنتاج البروتين (الذى يشفر له الجين). وهكذا، إذا كان المرض يتمثل فى عدم قدرة جسم المريض على إنتاج بروتين ما (مثل الأنسولين أو هورمون النمو أو أحد عوامل التجلط...إلخ) بسبب عدم وجود الجين المسئول أو عطل به، فإن من المنتظر من العلاج الجينى أن يجعل الجسم قادراً على تخليق البروتين المطلوب بالكميات التى يحتاجها الجسم دون الحاجة إلى إعطاء البروتين بالحقن أو بأية طريقة أخرى من وقت لآخر. هنا نجذب الانتباه إلى أن الجين قد يُستجلب إلى خلايا تؤخذ من الإنسان (تكون عادة من الخلايا الليمفاوية)، ثم يتم زرعها فى مزارع خارج الجسم، ثم يجرى إدخالها إلى جسم الإنسان مرة أخرى. هذا النوع من العلاج الجينى يطلق عليه ex - vivo اى العلاج خارج الجسم. فى هذه الحالة يكون الجسم قادراً على إنتاج البروتين المطلوب من خلال النشاط الجينى فى الخلايا التى تم إدخالها إلى الجسم طوال فترة حياة هذه الخلايا. وهناك نوع آخر من العلاج الجينى، وهو العلاج داخل الجسم in - vivo وذلك بإدخال الجين إلى خلال جذعية stem cells فى النخاع العظمى. فى هذه الحالة فإن خلايا الدم الجديدة والتى يكوّنها النخاع العظمى بعد إدخال الجين فيه سوف تكون على الدوام حاملة للجين الجديد وستنتج باستمرار البروتين الذى كان الجسم فى حاجة إليه. هنا تجدر الإشارة إلى أن الطريقة الأخيرة تحمل قدراً من المخاطرة، حيث إذا ثبت أن جسم المريض يتفاعل تفاعلاً ضاراً مع الجين الجديد، قد يلزم - فى هذه الحالة - تعقيم النخاع العظمى للمريض وإعادة زرع النخاع، وهى عملية معقدة لا تخلو من خطورة. وفى حالات يكون البروتين المطلوب إفرازه داخل الجسم ليس من البروتينات التى تؤدى مهامها من خلال الدوران مع الدم وإنما من خلال التواجد فى أماكن محددة داخل أنسجة معينة فى عضو محدد (مثل الرئة). هنا يكون إدخال الجين البديل إلى النسيج المطلوب عن طريق حامل فيروسى، مثل الأدنيوفيروس adenovirus. والجدير بالإشارة أن جهوداً بحثية وتجريبية كثيرة (على الإنسان) تجرى فى محاولة للتوصل إلى علاج جينى لأمراض مثل مرض نقص إنزيم أدينوسين ديامينيز (ويسبب نقصا فى المناعة)، ومرض التليف الكيسى وكذلك الهيموفيليا وإرتفاع الكوليسترول فى الدم.

التقانة السادسة:
مقلدات الببتيدات:

نظراً لبعض الصعوبات التى تتعلق بإدخال الأدوية التى تكون فى شكل بروتينات أو ببتيدات إلى الجسم وكذلك صعوبات خاصة بثبات وفترات صلاحية هذا النوع من المستحضرات، فقد اتجه العديد من العلماء إلى اختزال هذه البروتينات أو الببتيدات إلى مركبات مقلدة لها لكنها أصغر جداً فى الحجم وبالتالى يسهل التعامل معها. إن التوصل إلى التشييد الكيميائى لهذه المقلدات يعتمد أساسا على فهم «التداخل» بين البروتين العلاجى من ناحية، والمادة البيولوجية التى تمثل المُستقبِل receptor الخاص بهذا البروتين من ناحية أخرى. المقصود بالتداخل هنا هو ذلك الالتحام الكيميائى أو الفيزوكيميائى والذى تنتج عنه سلسلة من الأحداث البيولوجية التى تؤدى إلى الفعل الفارماكولوجى (أو العلاجى) المطلوب. إن فهم هذا التداخل (والذى يتم التوصل إليه بالاستعانة بتقانات البيولوجيا الجزيئية والتكنولوجيا الحيوية) يساعد باحثى الكيمياء الطبية على تشييد جزىء أصغر من البروتين أو الببتيد الأصلى، وفى نفس الوقت يقوم بمهامه العلاجية بكفاءة أعلى، كما يمكن تحضيره فى الشكل الصيدلى الأكثر مناسبة. النموذج الرائد فى هذا المجال هو مركب يسمى أوكتريوتايد oc-tereotide والذى يسوق تجاريا بإسم ساندوستاتين. إن هذا المركب الكيميائى يقلد فعل هورمون السوماتوستاتين والذى يقوم بمهام علاجية معينة تختص أساسا بمنع الإسهال الشديد الذى يحدث فى بعض الأمراض المستعصية نتيجة تنشيط إفراز هورمونى معوى معين. ويتفوق الدواء الجديد على الهورمون الأصلى فى طريقة الحقن حيث يعطى تحت الجلد بينما المركب الأصلى يعطى فى الوريد. كما أن للمركب الجديد قوة علاجية أكبر وأيضا فترة بقاء داخل الجسم أطول، حيث لا يتكسر بسرعة (بالأيض) داخل الكبد.

التطويرات الدوائية المحتملة نتيجة المعارف الجينومية الجديدة:

يمكن القول أن صناعة الدواء هى إحدى الصناعات التى ستظل «عطشى» إلى التقدم باستمرار، وذلك مهما يكن قد تحقق فيها من

..بعد اكتشاف الجينوم



العلاج الجينى يمثل أيضا نوعاً من طرق الإتاحة الحيوية الدائمة للدواء داخل الجسم، وذلك حيث يقوم الجين الجديد الذى يدخل الجسم بممارسة نشاطه والذى يعبر عنه فى النهاية بإنتاج البروتين وهكذا، فإن من المنتظر من العلاج الجينى أن يجعل الجسم قادراً على تخليق البروتين المطلوب بالكميات التى يحتاجها الجسم

من هذه الحوادث أيضا وفاة ٣٨ من عدد ٤٨ مريضا بنوع من أنواع سرطان الرئة كانوا قد شاركوا فى تجربة للعلاج الجينى فى اكتوبر ١٩٩٩ وتوفوا فى الفترة ما بين بدء التجربة ونهايتها. وقد أدى الموضوع برمته إلى أن يتدخل الرئيس الأمريكى كلينتون ويطلب مراجعة الإرشادات والنظم الخاصة بالعلاج الجينى

تقدم، لسببين رئيسيين يكمنان وراء هذا الاعتبار. السبب الأول هو الاحتياج المستمر والمتزايد للإنسان بشأن التوصل إلى علاجات جديدة تتفوق على العلاجات الموجودة، أو تجابه أمراضاً جديدة لم تكن موجودة، أو لم يكن قد تم التعرف عليها وعلى آلياتها الباثولوجية من قبل. وأما السبب الثانى فهو اقتصادى محض ويختص بالقيمة المضافة الكبيرة المتحققة فى هذه الصناعة وهكذا نجد أنه بسبب «العطش» الذى أشرنا إليه، فإن صناعة الدواء قد دخلت فعلاً إلى عصر الجينوم البشرى حتى قبل الإفصاح عن مسودة خريطة الجينوم فى يونيو ٢٠٠٠، بل أكثر من ذلك. فقد ظهر فعلاً العديد من المشكلات النوعية الخاصة باكتشاف أدوية جديدة تعتمد على المعارف الجينومية، وبدأ التنقيب عن التعامل العلمى مع هذه المشكلات. كما أن عمليات استشراف الجديد فى عالم (أو صناعة) الدواء بعد التعرف على الجينوم كانت بالفعل قد بدأت على مدى سنوات النصف الثانى من تسعينيات القرن العشرين. إنها كلها أمور توضح قدر العجلة فى تعامل صناعة الدواء مع المستقبل كما سيتضح للقارىء من خلال النقاط التالية:

أ) تطويرات جارية بالفعل منذ زمن:

فيما سبق قد أشرنا إلى تقنيات التوصل إلى أدوية جديدة باستخدام التكنولوجيا الحيوية. لقد إستطاعت صناعة الدواء منذ سبعينيات القرن العشرين أن تنجح فى إنتاج عشرات الأدوية الجديدة باستخدام التقانة الخاصة بالـ (دنا) المؤلَّف عن طريق استنساخ جين إنسانى معين ليقوم بوظيفته فى تشييد البروتين العلاجى داخل كائن حى دقيق مثل البكتريا. وكان الأنسولين البشرى والذى ظهر عام ١٩٧٨ وبدأ تسويقه عام ١٩٨٢ هو باكورة هذا الاتجاه الصناعى الجديد. والجدير بالإشارة هنا أن التحول الجينى (أو التحول الوراثى) باستخدام جينات بشرية قد أمكن إحداثه ليس فقط فى الكائنات الدقيقة، وإنما أيضا فى حيوانات كبيرة، وذلك مثلما تم فى إحداث تحول جينى لأنثى الخنزير بحيث تدر فى لبنها كميات وفيرة من البروتين البشرى سى، وهو بروتين علاجى يستخدم فى بعض الأمراض الوراثية الخاصة بتجلط الدم وكذلك فى حالات مرضية أخرى. هناك أيضا المواد التشخيصية الجديدة والتى يمكن باستخدامها التعرف على الأمراض الفيروسية المعدية، وكذلك تشخيص الأمراض التى تحدث نتيجة طفرة جينية. كما أن هناك التقانة الخاصة بإنتاج أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ، والتى أمكن بواسطتها مؤخراً التوصل إلى دواء «هربستين» والذى قد تم بالفعل قبوله (لعلاج سرطان الثدى) فى بعض البلدان وعلى رأسها سويسرا. هذا، وقد نُشر مؤخراً (فى مارس ٢٠٠٠) أن شركة بحثية تسمى «شركة دراسات المنطق الجينى» قد انتهت من التحليل الخاص بالتعبير (أو النشاط) الجينى فى عدد ٤٠ نسيجا من أنسجة جسم الإنسان. هذا، وتقوم هذه الشركة حاليا باستخدام هذه التحليلات الجينية فى التوصل إلى أدوية جديدة، وذلك بالتعاون (أو التحالف) مع خمس من كبرى شركات صناعة الدواء فى العالم. وكما أشرنا من قبل فإن التكنولوجيات الجارى استخدامها بالفعل من اجل التوصل إلى أدوية جديدة إعتمادا على المعارف الجينومية تتضمن - كما أشرنا من قبل - العلاج الجينى، وهى تكنولوجيا تثير العديد من المشكلات الخطيرة - كما ستاتى ذكره فيما بعد - بنفس القدر الذى تثير به الطموح والآمال، كما تتضمن هذه

التكنولوجيات أيضا تلك التقانة الخاصة بمنع أو تقليل التعبير الجيني الخاص بجين معين (مضادات الحس). إن شركات بحثية عديدة تحاول التوصل من خلال هذه التقانة إلى أدوية جديدة ومن أبرز هذه الشركات شركة إيزيس (في الولايات المتحدة) والتي نجحت على مدى العام ونصف العام الأخير في تسجيل أكثر من ستين براءة باستخدام هذه التكنولوجيا. غير أنه لم يتم بعد قبول تسويق أي دواء من هذا النوع، والجدير بالإشارة هنا أن شركة بحثية أمريكية أخرى، هي شركة «لوراس» قد نجحت في تجريب مركبين من مضادات الحس على خلايا سرطانية (من بروستاتا بشرية مزروعة في الفئران. وقد نتج عن ذلك ارتفاع قيمة أسهم الشركة بنسبة ٢٢٪. وأمكن مؤخراً البدء في التجريب الإكلينيكي (أي التجريب على الإنسان) لأحد هذين المركبين وهو GTI - 2040.

وفي تقديرنا أن من أهم المنجزات الدوائية الوراثية التي قد بدأ التعرف عليها عشرات السنين قبل الإعلان عن مسودة خريطة الجينوم البشري تلك الخاصة باكتشاف العوامل الوراثية المؤثرة في درجة فاعلية و/ أو مأمونية العديد من الأدوية (أو ما يعرف بالفارماكو جينتكس Pharmaco genetics). إن من شأن المعارف الجينومية الجديدة المزيد من التدقيق (أو التدقيق شبه المطلق) بشأن وصف الأدوية بالأخذ في الاعتبار للاختلافات الوراثية على المستويات الفردية، وهكذا نجد أن تكنولوجيات عديدة قد بدأت الصناعة الدوائية بالفعل في استخدامها أو تجريبها من أجل التوصل إلى أدوية جديدة بالاعتماد على المعارف الجينومية، وقد تم إحراز نجاحات حقيقية في بعض المجالات.

ب) مشكلات يجرى التعامل معها بالفعل:

بقدر إقدام صناعة الدواء على الدخول إلى مجالات جديدة تماما، بقدر ما تجابه من مشكلات، وبقدر ما تكون هناك الحاجة إلى الجهد والمثابرة ورأس المال والزمن من أجل التغلب على هذه المشكلات. وإذا كانت الخبرات الطويلة المتراكمة داخل الشركات الدوائية العملاقة وفي مراكز البحوث الدوائية الكبرى يمكنها الإسهام الفعال في حل المشكلات الخاصة بالتشكيل الصيدلي للأدوية المشتقة من (أو التي تستخدم) تقنيات التكنولوجيات الحيوية إلا أن هذه الخبرات التراكمية خلت - إلى حد كبير - من المجالات الخاصة بالتعبير الجيني والعمل مع الجينات.

لقد بدأت أول تجربة على الإنسان باستخدام العلاج الجيني عام ١٩٩٠ في المعهد القومي للصحة بالولايات المتحدة، وكانت على فتاة تبلغ من العمر أربع سنوات وتعاني من نقص وراثي لإنزيم معين، ورغم تعدى هذه التجارب العلاجية الرقم ٢٠٠ على مدى السنوات العشر الماضية، إلا أنه لم يتم التوصل بعد إلى علاج جيني يمكن الاعتراف به بواسطة جهات الرقابة الدوائية، ومن ثم قبوله في أسواق الدواء. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعاهد القومية للصحة في الولايات المتحدة قد أصدرت عام ١٩٩٥ تقريرا ينقد الاندفاع تجاه إجراء تجارب العلاج الجيني على الإنسان وينصح بأن «هذا المجال من التجارب في حاجة إلى وقت أطول ليصل إلى النضج العلمي اللازم للتوصل إلى تقديم علاجي مناسب». ومما يذكر أن التحدي الرئيسي الذي يعرقل النجاح في العلاج الجيني يختص بإيجاد ناقلات آمنة Asfe Vectors قادرة على نقل الجين بكفاءة إلى الخلايا المستهدفة، وكذلك قيام الجينات بنشاطها (أي بالتعبير عن نشاطها بشأن

.. بعد اكتشاف الجينوم



يمكن توقع العديد من الانعكاسات المهمة على النظم والتعاملات الخاصة بتسجيل وتسعير ورقابة الأدوية وكلها قضايا مهمة، خاصة بالنسبة للدول النامية والتي نتوقع أن يكون معظمها ولزمن ليس بقصير خارج إطار الدول المنتجة للأدوية المعتمدة على المعارف الجينومية

من أحدث الممارسات في هذا الشأن قيام الحكومة اليابانية بوضع خطة لزيادة حجم قطاع التكنولوجيا الحيوية الصحية بقدر ٢٥ ضعفا على مدى السنوات العشر القادمة (حتى ٢٠١٠)، كما اتخذت الحكومة الأسترالية خطوة مشابهة خصصت فيها حوالي نصف مليار دولار أمريكي لإنشاء هيئة حكومية تختص بدفع بحوث التكنولوجيا الحيوية

تشييد البروتينات) بمجرد دخولها إلى الخلايا. لقد ازداد الحذر بخصوص مأمونية التجارب التي تجريها الشركات على الإنسان - باستخدام تكنولوجية العلاج الجيني - على وجه الخصوص في سبتمبر الماضي بعد وفاة الشاب جيسي جلسينجر في تجربة بالعلاج الجيني. كان هذا الشاب البالغ من العمر ١٨ عاما والذي يدرس بالجامعة يعاني مرضا نادرا يختص بنقص إنزيم معين (إنزيم orni-thine trans - carbamylase) يؤدي إلى نوع من الأنيميا التي تجد صعوبة في العلاج. لقد تطوع جيسي في تجربة علاجية تجرى بمعهد العلاج الجيني البشري بجامعة بنسلفانيا، وبعد ٤ أيام من استقدام الجين الناقص (أو المعيب) والخاص بالإنزيم المذكور إلى داخل الكبد في جسم جيسي إذ بجهازه المناعي يتوقف عن العمل، مؤديا إلى توقف وظائف عدد من أعضاء الجسم ثم الوفاة. لقد جذب الحادث اهتمام عضو بالكونجرس الأمريكي هو هنري واكسمان، والذي راح ينقب في الموضوع. واتضح له أن حوادث مثيلة قد وقعت من قبل في المعاهد القومية للصحة وفي بعض الجامعات الأمريكية. من هذه الحوادث وفاة ٣ من كل ٤ اشتركوا في تجربة مثيلة عام ١٩٩٦. ومن هذه الحوادث أيضا وفاة ٣٨ من عدد ٤٨ مريضا بنوع من أنواع سرطان الرئة كانوا قد شاركوا في تجربة للعلاج الجيني في أكتوبر ١٩٩٩ وتوفوا في الفترة ما بين بدء التجربة ونهايتها. وقد أدى الموضوع برمته إلى أن يتدخل الرئيس الأمريكي كلينتون ويطلب من وزيرة الصحة التعجيل بقيام إدارة الدواء والغذاء الأمريكية FDA وكذلك المعاهد القومية للصحة NIH بمراجعة الإرشادات والنظم الخاصة بالعلاج الجيني. وفي ٧ مارس من العام الحالي صدر إعلان من كل من المعاهد القومية للصحة وإدارة الدواء والغذاء باتخاذ بعض الإجراءات الخاصة بتحسين حماية المرضى المتطوعين في تجارب العلاج بالجينات، وهي إجراءات تتعلق بالدقة في متابعة التجارب ومناقشتها مناقشة «علنية».

وعموما يمكن القول أنه مهما كانت هناك من مشكلات في التوصل إلى أدوية وعلاجات جديدة باستخدام التكنولوجيات الحيوية المعتمدة على المعارف الجينومية، فإن الإصرار (من قبل الشركات والحكومات) على مجابهة هذه المشكلات سيكون من شأنه ليس فقط التوصل إلى الحلول المناسبة، ولكن أيضا المزيد من التخيل والاكتشاف لتقانات جديدة بالإضافة إلى التحويرات الجديدة الممكنة في التقانات القائمة.

جـ) آفاق جديدة أمكن استشرافها في السنوات الأخيرة:

لقد أمكن بالفعل لعلماء الدواء التوصل - في أواخر التسعينيات - إلى استشرافات محدودة بشأن التطورات الدوائية المستقبلية، وهي استشرافات تعتمد - فكريا - على المعارف الجينومية وإمكانيات الاستفادة منها، وقد تضمنت هذه الاستشرافات ما يلي:

*) تقسيم كل مرض إلى أنواع فرعية اعتمادا على الخصوصيات الجينية المميزة لكل نوع فرعي، ثم التشخيص الجزيئي الدقيق لكل نوع فرعي على حدة.

*) التعرف على التغييرات الجزيئية المسببة والمصاحبة للأمراض، وكذلك التعرف على آلية الاستجابة على المستوى الجزيئي للعلاجات الدوائية المختلفة.

*) تفصيل الدواء طبقا للبنية الجينية للشخص الفرد.

*) بدء العلاج قبل ظهور أعراض المرض.

*) العلاج بضمان كفاءة الدواء بمعنى تأكيد وضمان نفعه للفرد الذي يستخدمه وكذلك تأكيد وضمان عدم صدور آثار جانبية (معينة) عن استخدام الدواء (المعين) للفرد (المعين) الذي يصرف له الدواء.

*) خفض كميات الدواء المستخدمة، حيث سيقصر استخدام الدواء فقط على الشخص المناسب تماماً، طبقا للاعتبارات والمعارف الجينومية والتشخيصية الجديدة المرتقبة.

*) العودة - أحيانا - إلى أدوية الماضي والتي ربما كانت تتمتع بكفاءة عالية وتكون قد سحبت من الأسواق وتوقف استخدامها نتيجة حدوث آثار جانبية حادة أو خطيرة في أشخاص كانوا من الناحية الجينية (أي الوراثية) غير مناسبين للتداوي بهذه الأدوية.

د) احتمالات وممكنات مستقبلية جديدة:

ماذا يمكن أن يكون قد جدَّ من استشرافات أو توجهات أو خيالات بعد ما تم بالفعل الإعلان عن مسودة خريطة الجينوم البشري؟ في إطار محاولة البحث عن إجابة لهذا التساؤل قد يكون من المناسب الإشارة إلى ما يلي من احتمالات وممكنات مستقبلية:

*) تصبح الاستشرافات السابق الإشارة إليها في البند السابق (جـ) أكثر قربا للتحقق حيث يمكن توقع بزوغ العديد من البرامج والتحالفات التي تسعى للمساهمة في تحقيق هذه الاستشرافات.

*) وربما من خلال المعارف الجينومية الجديدة وكذلك باستخدام التكنولوجيات ما بعد الراقية (الموجود فعلا منها مثل الكيمياء التوافيقية، وما يمكن أن يستجد) تكون هناك إمكانية لمضاعفة أعداد الأدوية المتاحة لعلاج أمراض الإنسان بقدر كبير (أكثر من عشرة أضعاف ما هو قائم). وهو أمر قد يغير من شكل وحجم أعمال صناعة الدواء تغييرا جذريا. إن هذا الاحتمال يرتكز على معلومة رئيسية مهمة، وهي أن آلاف الأدوية التي تم اكتشافها منذ بدء تسويق دواء الأسبرين (عام ١٨٩٩) وحتى الآن تعمل على ما يزيد على ثلاثمائة جزيء بيولوجي مختلف. هذا بينما يُعتقد بوجود ما بين ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ مُنْتَج (بفتح التاء) بروتيني من جينات الإنسان والجينات المرضية التي يمكن أن تهاجمه (وذلك طبقا لرؤية عرضت لها د. كلارا سانسون في عدد يوليو / أغسطس ٢٠٠٠ من المجلة العالمية لشئون الدواء «سكريب»)، وهي جزيئات تصلح لأن تكون مواضع (أو مستهدفات) بيولوجية لعمل الأدوية إن هذا التصور يعني أن المستقبل - ربما القريب - سيشهد تصاعدا كبيرا في « أعداد الأدوية وكذلك تدقيقا كبيرا في المعارف الخاصة بآليات عمل الأدوية بوجه عام. وفي نفس الوقت يمكن توقع تحسن كبير في عملية تصويت الدواء للموضع البيولوجي المستهدف، وبالتالي التخلي عن (ومنع) استخدام رصاصات (نقصد أدوية) طائشة لا تصيب الموضع البيولوجي المقصود التعامل معه تعاملاً إيجابيا لإزالة المرض.

*) توسيع عمليات التجريب الدوائي على كائنات أخرى. هنا لا ننسى أن مشروع الجينوم البشري قد تضمن التعرف على الخرائط الجينية لخمسة من الكائنات الأخرى (هي بكترية القولون، وخميرة الخباز، ودودة سينورايديتيس، وذبابة الفاكهة، والفأر)، ويمكن القول أن الامتداد المتوقع لعلوم الباثولوجي والكيمياء الحيوية والفارماكولوجي في التعامل مع الكائنات الأخرى على أساس من المعارف الجينية وبهدف علاجي قد يساعد ليس فقط على رفع كبير في كفاءة الدراسات الخاصة بتطوير وتجريب العلاجات الجينية بالمفهوم السائد حاليا (وهو إحلال جين صحيح محل جين معيب أو مفقود)، وإنما في تحقيق استفادات

علاجية ما باستخدام جينات كائنات أخرى أو بالانتفاع بالمعارف المتولدة عن التعامل الجينى مع هذه الكائنات.

وإذا كانت الجينات تشكل فقط ٣٪ من شريط الـ (دنا)، فماذا عن الـ ٩٧٪ الباقية؟ هل لها مهام فسيولوجية؟ وهل من شان أى خلل فيها حدوث تغييرات فسيولوجية أو مرضية ما ؟.. ربما فى زمن ما قادم يتضح أن الـ ٩٧٪ الباقية من الـ (دنا) تساهم فى تشكيل أهمية صحية ما، ومن ثم تُعدُ مصدراً لأنواع ما من العلاجات أو من الوسائل التقويمية الخاصة (أو المتعلقة) بالإنسان.

ومن هنا يمكن القول أن التطورات العلمية والتكنولوجية الخاصة باكتشاف وتفسير آليات فعل الأدوية وبتصميم أدوية جديدة سوف تؤدى فى غضون زمن قريب (٧ـ١٠سنوات) إلى إحداث تغييرات جذرية فى مفاهيم ومناهج العمل فى علوم الفارماكولوجى والباثولوجى والكيمياء الطبية (وكذلك فى علوم أخرى متعلقة بالأدوية).

انعكاسات الجينوم البشرى على نظم واقتصاديات وسياسات صناعة الدواء:

مع قدوم تطويرات جذرية فى المواد الدوائية بالاعتماد على المعارف الجينومية يمكن توقع العديد من الانعكاسات المهمة على النظم والتعاملات الخاصة بتسجيل وتسعير ورقابة الأدوية وكذلك الإجراءات والاهتمامات الخاصة بتقييم فاعلية الادوية ومتابعة آثارها الجانبية، ذلك فضلاً عن ترشيد عمليات تسويقها وكلها قضايا مهمة، خاصة بالنسبة للدول النامية والتى نتوقع أن يكون معظمها ولزمن ليس بقصير خارج إطار الدول المنتجة للأدوية المعتمدة على المعارف الجينومية، وهى أمور تحتاج إلى معالجة خاصة منفصلة، وعلى جانب آخر فإنه يمكن سرد أهم الانعكاسات الخاصة بالصناعة الدوائية العالمية كنتيجة لتطورات الجينوميات الدوائية، كما يلى:

١) طبقا لدراسة حديثة جداً أعدها معهد كامبريدج لتكنولوجيا الصحة (بالولايات المتحدة) وبثت على الإنترنت فى يوليو الماضى، فقد بلغ عدد التحالفات الدوائية الخاصة بالجينوم على مستوى العالم عام ١٩٩٩ فقط بـ ٣٨١ تحالفاً. وقد كان ٦٧٪ من المشاركين فى هذه التحالفات شركات أو معاهد أمريكية، وأما المشاركات الأوروبية فقد بلغت ٢٠٪ فقط (منها ٦,٢٪ فى المملكة المتحدة، ٥,٦٪ فى ألمانيا، و٢,٣٪ فى فرنسا، و٠,٨٪ فى سويسرا)، ذلك بينما توقف حجم المشاركات الآسيوية عند ٤٪.

وهكذا، طبقا لهذه الدراسة يتضح مبلغ الفجوة الكبيرة التى تفصل بين تقدم الولايات المتحدة من ناحية، والتواضع النسبى لأوضاع أوربا وآسيا من ناحية أخرى، وذلك بخصوص كثافة وحركية أنشطة البحث والتطوير الدوائى فى مجال الجينوميات، وهى فجوة تنذر بقدر كبير من السيطرة الأمريكية فى مجال الجينوميات الدوائية (أو الصيدلية) Pharmaceutical genomics .

٢) أدت الاهتمامات المتزايدة بالجينوميات الدوائية إلى اتجاه الشركات البحثية العاملة فى هذه المجالات لأن تفتح الباب للاكتتاب العام فى أسهمها باحجام مالية كبيرة فى الشهور الأولى من عام ٢٠٠٠ خصيصاً للصرف على مشروعات جينومية دوائية جديدة.

٣) كما أن التأخر النسبى فى أنشطة بحوث الجينوميات الدوائية فى بعض البلدان (بالنسبة للولايات المتحدة) قد حفز حكومات هذه البلدان لأن تقوم بأدوار فاعلة فى دفع ومساندة هذه الأنشطة، ومن أحدث الممارسات فى هذا الشأن قيام الحكومة اليابانية بوضع خطة لزيادة حجم قطاع التكنولوجيا الحيوية الصحية بقدر ٢٥ ضعفا على مدى السنوات العشر القادمة (حتى ٢٠١٠)، كما اتخذت الحكومة الأسترالية خطوة مشابهة خصصت فيها حوالى نصف مليار دولار أمريكى لإنشاء هيئة حكومية تختص بدفع بحوث التكنولوجيا الحيوية، وكان الاتحاد الأوربى قد اتخذ خطوة مماثلة عام ١٩٩٥، كما شهدت تسعينيات القرن العشرين اتجاهات مماثلة من حكومات عديدة من ابرزها فى هذا الشأن حكومات الهند وانجلترا وألمانيا والبرتغال وسنغافورة.

٤) بدأت ظاهرة التكتلات تدخل مجال بحوث الجينوميات الدوائية، حيث أُعلن فى نوفمبر الماضى عن تكوين تكتل عالمى (يضم عشره شركات دوائية كبرى وخمسة مراكز بحثية أكاديمية) يهدف إلى تكوين خريطة للاختلافات الجينية، وهى اختلافات تساعد على فهم العمليات المرضية وتسريع عمليات اكتشاف أدوية جديدة. وبقدر ما يساهم هذا التكتل (الكونسورتيوم) فى دفع عمليات البحث والتطوير، فإن من شأنه أيضا تجنب التكرار فى الجهود البحثية.

٥) أن الزيادات المتوقعة فى حجم أنشطة البحوث والتطوير والإنتاج فى مجالات الجينوميات الدوائية فى العقود الأولى من القرن الواحد والعشرين ستكون مصدرا متميزا لفرص جديدة كثيرة للعمل وللبيزنس.

٦) أن الحاجة الملحة للشركات الدوائية الكبرى للمزيد من الأنشطة البحثية فى مجال الجينوميات الدوائية تدفع هذه ا لشركات إلى التعاون مع الشركات البحثية والمعاهد العلمية فى إجراء مشروعات بحثية محددة. إن اتجاه الشركات الكبرى لهذا التعاون يمتد إلى معاهد ومراكز البحث العلمى حتى خارج الولايات المتحدة وأوربا واليابان حتى وإن كانت معاهد ومراكز ناشئة ومن احدث اتفاقات التعاون البحثى فى هذا الخصوص الاتفاق الذى وقع مؤخراً بين شركة روس السويسرية للأدوية والمركز القومى الصينى للجينوم البشرى، وهو المركز الذى أسس عام ١٩٩٨ ويعتبر واحداً من المشاركين فى المشروع العالمى للجينوم البشرى.

٧) وفى أثناء الاهتمام الدولى العام بالتوصل إلى المسودة الأولى لخريطة الجينوم البشرى إذا بالرأى العام العالمى يشهد عددا من الحركات والنداءات المناوئة للاستغلال التجارى للمعارف الجينومية (المبنية على جينات الإنسان) من أهم هذه النداءات ذلك الذى صدر عن المجلس الأوربى والذى نادى فيه بإعادة التفاوض بشأن البراءات الخاصة بالتكنولوجيا الحيوية. كانت النقطة الرئيسية التى أثارت المجلس وجعلته ينادى بإعادة التفاوض هى تلك التى تسمح بالحصول على براءة على «جين» عند فصله من جسم الإنسان. فى نفس الوقت تاسست فى أوربا مجموعة جديدة تحت مسمى «الحملة المضادة للهندسة الوراثية البشرية». الجدير بالإشارة أن هذه التوجهات الجديدة قد ظهرت نتيجة حملة تبث على الإنترنت بواسطة برلمانى فرنسى هو جين فرانسوا ماتيه ومعه باحث ألمانى اسمه د.فولفجانج فودارج. وترفع هذه الحملة شعار «أن جسم الإنسان بما فيه من جينات ليس سلعة»، وتنادى بمواقف قومية فى هذا الخصوص وتعارض هذه الحملة منح براءات على جينات بشرية، وتطالب بعدم تضمين التشريعات القومية لأية مواد تتضمن منح أية براءات تعتمد على الجينوم البشرى، وكذلك إيقاف العمل بأية مواد قانونية تسمح بذلك. هذا، وتلقى هذه الحملة دعم الكثير من الهيئات والشخصيات، والتى تضم بينها عددا من الحاصلين على جائزة نوبل، والصليب الأحمر، وحركة السلام الأخضر.



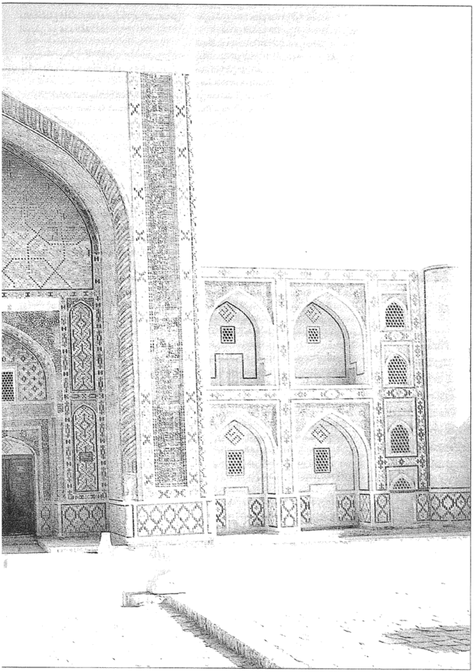
حملة تبث على الانترنت بواسطة برلمانى فرنسى هو جين فرانسوا ماتيه ومعه باحث ألمانى اسمه د. فولفجانج فودارج. وترفع هذه الحملة شعار «أن جسم الإنسان بما فيه من جينات ليس سلعة»، وتنادى بمواقف قومية فى هذا الخصوص وتعارض هذه الحملة منح براءات على جينات بشرية

هذه الحملة تزيح النقاب عن ظلم وقع وسيقع على كل إنسان موجود أو سيوجد فى المستقبل. الظلم يختص بتحويل الاكتشافات التى تتم فى جزيئات وجينات جسم الانسان إلى أداة للتجارة عن طريق البراءات وهو الأمر الذى يضر الإنسانية أضرارا بالغة

ومن أبرز الاعتراضات التى تثيرها حملة ماتيه ـ فودارج الاعتراض على إحلال المنطق التجارى مكان الاحترام الضرورى للمعايير الأخلاقية. لقد خاطب ماتيه (والذى هو فى نفس الوقت أستاذ فى علم الوراثة الطبى) المجلس الأوربى قائلا: «إن الشركات الأمريكية بحصولها على براءة بخصوص التتابعات الجينية المسئولة عن سرطان الثدى إنما تحصل على احتكار يهدد كل امرأة على سطح الكوكب».

إن الاعتراضات الحيوية التى تثيرها حملة ماتيه ـ فودارج وما تبعها من مؤازرة عدد من الهيئات والشخصيات تستحق بحق أن تكون نواة لصياغة رأى عام عالمى مؤثر بخصوص تعديل عملية منح البراءات على الجينوميات البشرية، فكما أثار ماتيه موضوع البراءة الخاصة بالجينات المسئولة عن سرطان الثدى عند النساء، هناك بالفعل احتكار مشابه بخصوص سرطان البروستاتا عند الرجال لقد توصلت شركة بحثية صغيرة وهى شركة (يورو جنسيس) إلى اكتشاف بروتين يوجد على سطح جميع خلايا البروستاتا ويوجد بكميات أكبر على سطح الخلايا البروستاتية المتسرطنة، إن الشركة الصغيرة المشار إليها والتى تحتكر البراءة الخاصة بهذا البروتين ذى الأهمية الباثولوجية والدوائية البالغة (حيث يمكن بالعمل البحثى عليه التوصل إلى أدوية أو أجسام مضادة وحيدة الاستنساخ لعلاج سرطان البروستاتا) لا تملك القدرة المادية أو العلمية أو ربما الاثنين معا لمواصلة العمل الذى بدأته لذا، فقد باعت هذه الشركة حق اكتشاف علاجات خاصة بسرطان البروستاتا على مستوى العالم (بالاعتماد على الجسم المضاد) لشركة أخرى هى جينيتيك، وذلك مقابل ٣٣ مليون دولار. وهذه الأخيرة تتطلع إلى تحالفات تستغل من خلالها هذا الحق. وهكذا يوقف اكتشاف أدوية جديدة فى مجال معين على حق براءة منحت للمكتشف الأول البروتين مرضى يوجد عند كل رجل مريض بهذا المرض على سطح الكوكب.

الأمر إذن يعنى أن المصير الصحى لكل إنسان على سطح الكرة الأرضية، رجلا كان أم امرأة، طفلا أم شيخا يصبح مرهونا ليس بإنجازات البحث العلمى، وإنما بتوجهات وتحالفات محتكرى البراءات. هنا تجىء الأهمية الإنسانية العالمية لحملة ماتيه ـ فودارج، حيث إن هذه الحملة تزيح النقاب عن ظلم وقع وسيقع على كل إنسان موجود أو سيوجد فى المستقبل. الظلم يختص بتحويل الاكتشافات التى تتم فى جزيئات وجينات جسم الإنسان إلى أداة للتجارة عن طريق البراءات وهو الأمر الذى يضر الإنسانية أضرارا بالغة من زاويتين. الزاوية الأولى تظهر فى تعطيل تواصل وتنافسية البحث العلمى على الجزيئات والجينات المكتشفة، والزاوية الثانية تختص باحتكار العمل على جزيئات وجينات موجودة داخل جسم كل إنسان وتحويل هذا العمل إلى مصدر للاتجار والإثراء بصرف النظر عن المصالح البشرية والاحتياجات الإنسانية. ■



ينتسب إليها صاحب الصحيح والخوارزمى وابن سينا

زيـــارة جـــديـــدة

كان ذلك فى شهر نيسان / أبريل سنة ١٩٧٥. كان الصباح قد ارتفعت شمسه، لما وقفتُ وصحب لى، على نشز صخرى مرتفع إلى جانب ما تبقى، مما عفى عليه الزمن، من قلعة «قُهنْدَز» بخارى.

أجلت نظرى فيما حولى، وكان مجال امتداد النظر واسعا، فرأيت حقولا خضراء يداعب نسيم الصباح ما نما فيها من صغار الزروع وأوراق ما كبر من الشجر. انتعشت وانقبضت نفسى. انتعشت لما بعثته النظرة والتأمل فى حواسى من آيات الجمال. وانقبضت نفسى إذ رأيتنى تحيط بى بقايا مهشمة من شىء كان عظيما، كان عظيما إذ كان جزءا من الحضارة العربية الإسلامية عميقة الجذور، واسعة الانتشار، كبيرة الأثر هنا وهناك وهنالك.

ولما عدت، وقد احتفظت لنفسى وفى نفسى بالشعور المنعش والانقباض، قررت أن أتعرف إلى ما كانت عليه بخارى قبل نحو ألف سنة من وقوفى على أنقاضها.

وكان أول ما فعلت أن عدت إلى ابن حوقل، صاحب صورة الأرض، الجغرافى الرحالة، الذى زار بخارى فى أواسط القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى. قال ابن حوقل: «ولم أرَ ولم أسمع فى الإسلام بظاهر بلد أحسن من ظاهر بخارا. لأنك إذا علوت قُهنْدَزها (قلعتها)، لم يقع بصرك من جميع النواحى إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء، وكان السماء مكبة زرقاء على بساط أخضر: تلوح القصور فيما بين ذلك... كالكواكب العلوية بياضا ونورا بين أراضى ضياع مقوّمة بالاستواء مُهَنْدَمة كوجه المرآة بغاية الهندسة. وليس بما وراء النهر (أى وراء نهر جَيْحون) من البلاد ولا غيرها من البلدان أحسن قياما بالعمارة للضياع منهم، مع كثرة متنزهات فى سعة المسافة وفسحة المساحة من أرضهم..

«... ويحيط ببخارا وقراها ومزارعها سور قطره اثنا عشر فرسخا فى مثلها، كلها عامرة زاهرة ناضرة».

لكن وصف الرحالة وتقرير الجغرافى، هو فى غالب الأحوال، آنى، أى أنه يدون الخبر فى حينه، فهو أشبه بتقرير لفترة معينة. فكان لابد من العودة إلى التاريخ لاستطلاع الأخبار، لعلنا نصل إلى خبر موثوق به لهذه المدينة التى وصفها البعض، ممن عاصر أيام ازدهارها، بأنها كانت «قبة الإسلام» فى الشرق، تشبيهًا لها بقبة الإسلام الأصلية (فى الغرب) أى بغداد.

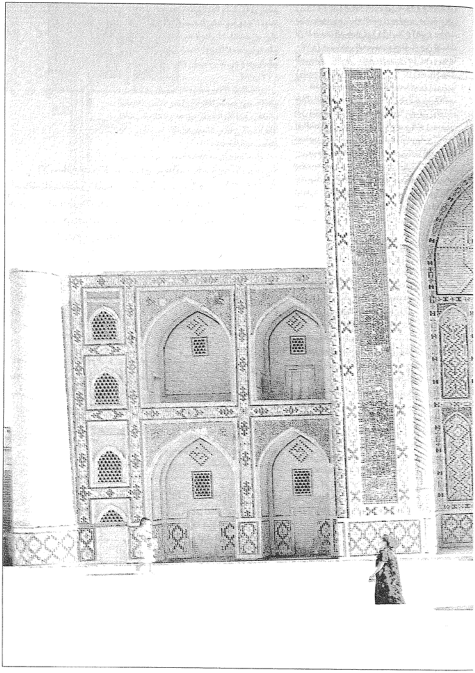
المنقبون عن الآثار، برفشهم ومعولهم قبلا، وبالأساليب التكنولوجية حديثا، لا يألون جهدا فى سبيل الكشف عن مآسى الإنسان فى بقاع الأرض المختلفة، سعيا وراء اكتشاف بيت أو سور أو معبد أو قطعة فنية أو حجر منقوش عليه صورة إله قديم أو بشر يعمل فى الأرض أو يتلقى الشريعة من إله مدينته. والمؤرخ طلعة فى عمله، فهو يتقصى المصادر ويلاحق الوثائق ويستنطق الأدب، أملا فى أن يصور فترة زمنية فى بلد أو رقعة، كبيرة أو صغيرة. ونحن الذين يهمنا أن نعرف أخبار الأولين وتطور الشعوب وقيام الدول وانحطاطها وصور الحياة فى الريف والمدينة وإنجازات أهل الفكر والفن والمعمار، نتلقف ما يكشفه لنا الفريقان بكثير من الشوق.

والمنطقة الممتدة من حدود إيران الغربية حتى الصين بلاد فيها صحارى متسعة، تنقطها واحات متعددة. وبقدر ما كانت هذه الواحات مراكز للزراعة والتجارة والحكم والإدارة، بحيث تقوم فيها عناصر حضارية مهمة، فإنها كانت معرضة لغزوات البدو أهل المنطقة الفقراء الذين يقصدون الواحات للحصول على خيراتها، إشباعًا لجوعهم وطمعا فى الاستقرار فيها.

والمنطقة التى أشرنا إليها كانت فى تاريخها الطويل تقطعها قوافل التجار، ناقلة بضائع الشرق إلى الغرب ومنتجات الغرب إلى الشرق.

وكانت الواحات محطات لهذه القوافل: فيها يقيل التجار دوابهم وينعمون بقسط من الراحة ويتبادلون سلعهم ويضمنون الحصول على سلع جديدة تاتى من الشمال أو الجنوب.

ولم تكن المنطقة، على بُعدها، بمنأى عن طمع الفاتحين يأتونها من كل صوب. فالإمبراطورية الإيرانية الأولى (القرن السادس قبل الميلاد)، توسعت شرقا، فاحتلت من أواسط تلك المنطقة رقعة لا يستهان بها. والإسكندر وصل فى فتوحاته (القرن الرابع قبل الميلاد) تلك المنطقة واجتازها شرقا. وأقام خلفاؤه السلوقيون دويلات فيها نكهة يونانية قوية فى بكتيريا (الصفد) وما سواها. والساسانيون الذين أسسوا ملكهم فى القرن الثالث للميلاد، كانت لهم هناك غزوات واحتلال.



نقـــــولا زيـــــــادة

إلـــــى بخــــــــارى

وكانت جماعات تاتى من الشرق فى الفترات نفسها وقبلها فتقيم ملكا تطول مدته أو تقصر.

ومع هذه الجيوش والغزاة، كانت تصل المنطقة أساطير وقصص وأفكار وآراء دينية مختلفة ولغات متباينة مع ما تضمه من أدب وسواه. فكان أن عرفت المنطقة فى حياتها أديان الشرق الأقصى وعباداته، ووصلتها فى القرنين الرابع والخامس للميلاد المسيحية آتية من أجزاء الدولة البيزنطية الشرقية، لما أُخرِج النساطرة من رقعة هذه الدولة، فاتجهوا شرقا ووصلوا برا إلى الهند.

من هذه الواحات بخارى (بخارا) التى تقع شرقى نهر جيحون (أموداريا أو أكْسوس) فيما سماه العرب، بعد فتحهم البلاد «ما وراء النهر».

ظهرت أهمية بخارى للمرة الأولى فى أواخر القرن الخامس أو أوائل القرن السادس للميلاد. وقد ورد اسمها هذا للمرة الأولى فى مدونة رحالة صينى اسمه هْزُوان ـ تْسانْغ الذى مر بها حوالى سنة ٦٣٠م.

وفى هذه الفترة، كانت بخارى وواحتها يدور بهما سور طوله ٢٥٠ كيلومترا منعًا للرمال من الطغيان عليها، ودفعا لغزوات الطامعين. أما المدينة بالذات فكان لها سور داخلى وكانت فيها قلعة للحاكم ومساعديه وجنده. وكانت أسرة أرستقراطية تسمى «بخار خُذَه» تدير شئون المدينة.

كانت الواحة تفيد من مياه نهر يمر على مقربة منها اسمه زَرْفشان (قديما عرف باسم السفد)، وقد حفرت القنى المتعددة كى يصل الماء إلى كل بقعة فى الواحة.

بعد أن قضى العرب على الدولة الساسانية (٦٥١م)، هاجمت جماعات مختلفة عربية مناطق فى الرقعة الشرقية. إلا أنه حتى ولا حملات أمية بن عبد الله (٧٣ـ٧٨ / ٦٩٢ ـ ٦٩٧) لم تؤسس للعرب موقعا قويا فى «ما وراء النهر». لكن لما عهد الحجاج بن يوسف، والى خراسان، إلى قتيبة بن مسلم بالأمر تبدل الوضع، فاحتل بخارى (٧٠٩/٩٠) وسمرقند بعيد ذلك. هنا بدأ العرب حملاتهم التى أوصلتهم حتى إلى شمال الهند من جهة والى فرْغانة وما وراءها من جهة ثانية.

وانتهى أمر الخلافة الأموية، وقامت خلافة العباسيين، واستمر توطين السلطة العربية الإسلامية فى هذه المناطق النائية. لكن المنطقة كانت واسعة جدا وكانت تضاريسها ـ الصحراوية والجبلية ـ متعبة كما كان سكانها القبليون مزعجين. لذلك نجد أنه حتى، والدولة العباسية لها قوة وزخم، لم يكن من اليسير على بغداد أن تدير أمور هذه المنطقة إلا عن طريق حكام أقوياء، لا يلبث الواحد منهم أن يقيم أسرة حاكمة حتى يستبد بالأمر مستقلا عن الخلافة.

وكان طبيعيا أن ينتشر الإسلام فى المناطق التى يستولى عليها العرب.

والإسلام هو الذى ربط تلك المناطق النائية بأقطاره الغربية ـ أرض الرافدين وما بعدها. والإسلام أعطى تلك الرقعة الرابطة الروحية والثقافية التى بدلت الكثير من شئونها. لكن الإسلام فى تلك الديار كانت له صيغة فيها بعض ما كان القوم هناك قد اقتبسوه فى التاريخ السابق الطويل. فالطبقات الچيولوچية الاجتماعية التحتية لا تفقد جميع مقوماتها بسبب تكون طبقة چيولوچية اجتماعية حضارية دينية جديدة. ومثل هذا الأمر كان واحدا من أسباب تكون حضارة عربية إسلامية متميزة فيما تلى من القرون.

لما ولى طاهر بن الحسين أمر الرقعة الواسعة فى المشرق، كانت خراسان و«ما وراء النهر» جزءا منها. ويبدو أنه بدءا من سنة ٢٠٥ / ٨٢١، أصبح لبخارى إدارة مستقلة عن بقية ما وراء النهر.

كان سامان دهقانا من منطقة تقع فى شمال أفغانستان الحالية، وكان قد اعتنق الإسلام وقامت أسرته، ممثلة بأحفاده الأربعة، على خدمة المأمون عسكريا، فولاهم على مناطق «ما وراء النهر» وما إليها. وكان شأن الطاهريين قد تضعضع فى مناطق حكمهم، ونال بخارى من ذلك أذى، فطلبت جماعة من دهاقنتها من نصر بن أحمد بن سامان، الذى كان الخليفة العباسى قد أوكل إليه أمر المنطقة عام ٢٦٣ / ٨٧٥ (وكانت عاصمته سمرقند)، أن يبعث إليهم من يمكن أن يتدبر أمر المدينة. فبعث إليهم بأخيه إسماعيل (بن أحمد)، الذى يعتبر مؤسس الدولة السامانية فى بخارى.

وكان دخوله المدينة حوالى عام ٢٦٢ / ٨٧٥. وفى السنة نفسها، عين الخليفة العباسى الأخ الأكبر نصر، واليا على «ما وراء النهر». ولما توفى نصر، أصبح إسماعيل والى المنطقة وسلطانها، وتوسع غربا فى خراسان وشرقا وشمالا فى غرب، بحيث أصبحت الدولة واسعة، وقد امتد حكم إسماعيل السلطان من سنة ٢٧٩ / ٨٩٢ إلى عام ٢٩٥ / ٩٠٧.

في أيام إسماعيل، بدأت بخارى تستقطب لا كبار التجار وجهابذة الصيارفة فحسب، بل أخذت تجذب إليها العلماء والأدباء والشعراء الذين أموها من نيسابور والشاش (على مقربة من طشقند الحديثة) وحتى من بغداد. وقد اتسع نطاق قصادها فيما بعد بحيث وصلها علماء أندلسيون.

نمت بخارى وكبر شأنها مع السامانيين، كما أن السامانيين عظم أمرهم بنمو بخارى، ففي العقود الأولى من القرن العاشر، حكم بخارى إسماعيل وابنه أحمد ونصر (ابن أحمد) ونوح بن نصر (٢٧٩ - ٣٤٣هـ / ٨٩٢ - ٩٥٤م)، وكانت هذه فترة العز الاقتصادى والسياسى للاثنين. فقد كانت الواحة وسواها من الأجزاء الداخلة فى حكم السامانيين، تنتج القمح والحبوب الأخرى والأرز وأنواعا مختلفة من القطن، وترتع في ربوعها الأغنام والماعز وتربى فيها الخيول. وكان نهر زَرَفْشان يزود الأرض بحاجاتها من المياه عبر قنى حفرت منذ القديم وحوفظ عليها وأصلحت باستمرار. وكان الكاغد (الورق) يصنع في سمرقند وفي بخارى (قلة)، كما أن الفحم الحجرى كان يستخرج من الأرض فى فرغانة وسواها. وكانت بخارى مركزا تجاريا كبيرا، يحمل إليها من شرق أوروبا الفراء والعنبر والعسل والجلود، وهذه تبادلها بخارى بالحرير الممتاز والأقطان والأوانى الفضية والنحاسية والأسلحة والمجوهرات. وقد ازدهر طريق الحرير أيام السامانيين، فكان التجار يحملون من الصين الحرير والأفاوية والقيشانى، وينقلون إلى الصين الخيول والزجاج. وكانت الخانات تقوم على الطرق الرئيسية، بحيث يجد التاجر مكانا لإقامته والتحفظ على تجارته والعناية بدوابه. وقد كانت القوافل يبلغ عدد المشاركين فيها الآلاف، فإن مثل هذا العدد الذى قد يكون معه حماة وحراس، للسلامة أقرب وللنظام أدعى.

إن الحركة العلمية في بخارى، التي بدأت أيام إسماعيل وجدت ظروفا ملائمة لها في أيام نصر بن أحمد (٣٠١ - ٣٣١هـ / ٩١٤ - ٩٤٣م).

فالثروة ومصادرها كثيرة، وثمة تقليد لدعوة العلماء وتشجيعهم على الاستيطان في بخارى. وكان الوزيران اللذان أعاناه على الحكم، الجيهانى والبلعمى، حريصين على استزادة العلماء في بخارى؛ لأنهما كانا من العلماء.

ولم تقتصر الحياة العلمية والأدبية في بخارى على البلاط، فقد كانت المدينة تحوى من الوراقين عددا كبيرا. ودور الوراقة لم تكن أماكن لبيع الكتب فحسب، بل كانت مجالس لأهل الفكر والأدب. فقد كان أصحابها أنفسهم ممن يتصلون بالحركة الفكرية اتصالا وثيقا، كما كان بعضهم من العلماء والأدباء والشعراء.

ولعل مما يلفت النظر هو جمهرة العلماء الذين كانوا يقيمون في بخارى.

كما كان للشعر مقام كبير في بخارى، وقد نظم الشعر بالعربية والفارسية. وهناك من نظم في اللغتين. لكن من المهم أن نذكر أن الكثير من الشعر العربى المبكر قد نقل إلى الفارسية، وكان الفرزدق وابن الرومى عزيزين على قلوب المترجمين. على أن النثر العلمى العربى نقل إلى الفارسية.

أما في النواحى العلمية، فقد ظهر في بخارى علماء في الرياضيات والفلك والعلوم، لكنهم كانت تغلب عليهم الناحية النظرية، أما النواحى التجريبية، فقد كانت قليلة الأهمية عندهم. إلا أن شئون الرى، من حفر القنى وتنظيم توزيع الماء، فقد كانت أمورا عملية برع فيها البخاريون.

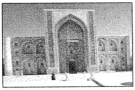
وكان من الطبيعى، وقد ضمت بخارى نخبة كبيرة من أهل المعرفة فى التفسير والحديث ورجال الاعتزال والصوفيين، أن تثار قضايا خلافية حول هذه القضايا وما يتفرع عنها.

وعلى نحو ما احتوت بخارى على عناصر العلم والمعرفة المتنوعة وعملت على الإفادة منها، فقد قيست العناصر والأساليب الفنية التى عرفتها المناطق المجاورة والتى انتقلت إليها وأصابت هناك موطنا من مواطن انصهارها فتيًا لتخرج منها منظومة فنية متقنة جميلة أنيقة. فكان ثمة الأثر الكوشانى (الهندى الذى حمل من الجنوب)، وكان هناك العنصر الذى جاء من شرق إيران ومعه النموذج الإسلامى العباسى المتمثل بما كانت عليه الفنون فى سامراء. وبما أن الكثير الكثير من أبنية بخارى كان يستعمل الخشب فيه، فقد كانت تتعرض للحرائق ولذلك لم يبق الكثير منها.

لكن ثمة تربة الأمير إسماعيل، وهى لا تزال قائمة آثارها: مخططها أساسه معابد النيران المربعة القاعدة تعلوها قبة منخفضة جميلة مزخرفة الألوان. وهذه الألوان المتمازجة على نحو غاية فى الجمال، ومثلها فى آثار «ما وراء النهر» متعدد، تبين التمازج الفنى بين الألوان الصفراء على تنوع قوتها، والزرقاء على تعدد أصبغتها. وأحسب أن هذا الفن يمثل اقتباس اللون الأصفر من الصين ومزجه بالأزرق الذى تكثر آثاره فى إيران الشرقية.

ويبدو الزخرف بشكل خاص فى المساجد والمآذن. وجدران الأولى كانت تزخرف من الداخل بالخزف السامانى المزين بكتابة كوفية المنوع الأشكال والزخارف والألوان؛ وكان ذلك ينطبق على جدران بعض المآذن الخارجية. وقد أتقنت فنون الخط زخرفة إلى مدى بعيد.

وقد غنى المغنون ولعب الناس على الآلات الموسيقية - العود وسواه، وكانت لهم في الموسيقى آراء نظرية لا تطبيقات عملية فحسب، ولنذكر أن الفارابى كتب فى الموسيقى العربية.



الإسلام هو الذى ربط تلك المناطق النائية بأقطاره الغربية - أرض الرافدين وما بعدها. والإسلام أعطى تلك الرقعة الرابطة الروحية والثقافية التى بدلت الكثير من شئونها

يبدو لنا كأن بخارى التى تطورت ونمت وتوسعت وقوى نفوذ أهلها وقامت بأدوارها الأدبية والعلمية خلال القرن العاشر، قد انتظرت سنة ٩٩٩ كى تقفل دفتر المجد وكتاب العلم وديوان الشعر وتودع سنة ١٠٠٠ فى حزن وأسى!

فى أواسط القرن الرابع / العاشر تعثرت شئون بخارى السياسية والمالية بسبب اضطراب البلاط ومن حوله، وأوقف البويهيون تجارة السامانيين مع الغرب. ويلاحظ الباحثون أن السلطة انتقلت تدريجيا إلى أيدى العسكريين وكانوا من الأتراك. وبسبب قيام قوى جديدة إلى الشرق والجنوب من السامانيين التى أخذ أصحابها ينتزعون من المملكة السامانية أجزاء منها الواحد تلو الآخر، بحيث إن الحكم السامانى بالكاد أصبح يسيطر على ما وراء النهر؛ وحتى هنا على كثير من الضعف. وفي أواخر القرن الرابع / العاشر كان السامانيون على وشك الخروج من التاريخ.

لكن مع ذلك، كان ثمة تطورات أدبية وعلمية مهمة في بخارى وخوارزم وسمرقند وسواها.

ولنذكر على سبيل المثال أن موسى بن محمد الخوارزمى (توفي ٣٨٧/٩٩٧) كان يعمل فى بلاط السامانيين، وهو كما يعرف القراء واضع أسس علم الجبر ومبادئ اللوغريتم، وهومولود في خوارزم (خيوه اليوم).

ومع أن البيرونى ولد فى طوس (٣٦٢/٩٧٣) فإنه أقام فى خوارزم مدة فى بلاط خوارزم شاه المأمون، وليس من شك في أن المحدث البخارى (١٩٤ - ٢٥٦هـ / ٨١٠ - ٨٧٠م) صاحب الصحيح ثقة من ثقات الحديث، على أن نجم بخارى هو ابن سينا (راجع فيما بعد).

قطعت أوصال أملاك السامانيين تدريجا خلال النصف الثانى من القرن الرابع / العاشر، بين انتزاع أجزاء منها على يد الجيران الأقوياء أو اقتطاع أجزاء أخرى على يد حكام محليين يستبدون بالأمر دون السلطة المركزية.

يبدو لنا كأن بخارى التى تطورت ونمت وتوسعت وقوى نفوذ أهلها وقامت بأدوارها الأدبية والعلمية خلال القرن العاشر، قد انتظرت سنة ٩٩٩ كي تقفل دفتر المجد وكتاب العلم وديوان الشعر وتودع سنة ١٠٠٠ فى حزن وأسى!

لا. كان لايزال فيها، وفي المدن التي قامت حولها ومعها، روح فيه ما تعطيه، وقد أتيح لها ذلك على يد الألكخانات الذين حكموا ما وراء النهر وتركستان الشرقية (٣٨٢ - ٦٠٧هـ / ٩٩٢ - ١٢١١م).

صحيح أن الشعر دالت دولته إلى درجة كبيرة، لكن النثر أصبح موضع الاهتمام في البلاط، وممن ظهر في ذلك الوقت محمد عوفى مؤلف «لباب الألباب» وهومجموعة شعرية، و«جواهر الحكايات» وهو مجموعة قصص، كما عاش في بخارى محمد بن عمر الرادويانى الذى وضع ترجمان البلاغة، ونقل كتاب النرسخى فى تاريخ بخارى إلى اللغة الفارسية، فالعصر كان عصر جمع وترجمة، ومما يلاحظ في هذه الفترة هجرة أهل العلم من بخارى إلى الغرب (مثل ابن سينا) وإلى الهند مثل الزمخشرى النحوى (توفي ٥٣٩/ ١١٤٤) بعد أن عاد إلى بخارى.

وفى أيام أرسلان خان (٤٩٥ - ٥٢٣هـ / ١١٠٢ - ١١٣٠م)، الذى كان تحت إمرة السلاجقة فعليا، قامت فى بخارى حركة بناء كبيرة، فقد عمرت منارة بخارى الكبرى، وهى التى شاهدناها لما زرنا المدينة، كما أنه أعاد تعمير المسجد الكبير وإيوان الصلاة خاصة، كما أنه بنى حمامات وقصورا وعنى بإعادة عمارة أسوار المدينة.

ويمكن أن نلخص الوضع العام في المنطقة التى كنا نتحدث عنها في أيام الألكخانات في الأمور التالية:

١ - أصبحت ما وراء النهر وما إليها جزءا من آسيا الوسطى، وصارت جزءا من العالم التركى الإسلامى، وبعد أن كانت تتصل ببغداد وما إليها، اتجهت نحو كَشْغَر.

٢ - دخلت اللغة التركية إلى المنطقة، إلى جانب الفارسية، لغة محكية ومكتوبة جزئيا، وظهر مع ذلك أدب إسلامى تركى، حلَبَة المنافسة مع اللغة الفارسية. ومن أمثلة ذلك كتب «مرآة الأمراء».

٣ - ظلت اللغة العربية لغة العلوم الدينية والعلوم عامة، وكان ثمة الكثير من كتب الفقه والشرع والمنطق والفلسفة.

٤ - قامت في بخارى أقدم مدرسة، ولعلها كانت النموذج الذى اتبعه نظام الملك، الوزير السلجوقى، لما أنشأ ما عرف باسم المدرسة النظامية.

٥ - أصبحت بخارى في هذه الفترة ملتقى ثلاث ثقافات: ثقافة إيران الغربية وثقافة

تركستان الشرقية والثقافة العربية الإسلامية التى رفدت الثقافتين الأخريين بما كانت قد بلغته من الرفعة والنضج والتجديد.

فى سنة ٦١٧/١٢٢٠ اجتاحت جيوش جنكيز خان المنطقة، وكان أن أحرقت أكثر أجزاء المدينة، قبل أن تصل مع ورثته إلى بغداد وتهدمها سنة ٦٥٦ /١٢٥٨.

حرى بالذكر، ونحن نصل فى قصتنا إلى ما يشبه النهاية، أن نشير إلى أن تيمور لما أقام أسرة جديدة فى «ماوراء النهر» (٧٧١ - ٩١٢هـ /١٣٧٠ - ١٥٠٦م) واتخذ من سمرقند عاصمة له، قام هو وخلفاؤه ليس فقط بجعل سمرقند مدينة كبيرة، بل عنوا ببخارى أيضا، فبنوا فيها الكثير وأحيوا من شئونها المدرسية والعلمية ما يذكر لهم بالخير، وكان حفيده أولوغ بك، الذى حكم «ماوراء النهر» (٨١٢ - ٨٥٠هـ /١٤٠٩ - ١٤٤٦م)، عالما فى الفلك، الذى كان يعلمه أيضا، وأنشا فى سمرقند مرصدا كبيرا، وقد شاهدنا آلة المسدس الكبيرة للمرصد الذى أنشأه لما زرنا المنطقة.

أثناء حديثنا عن بلاط السامانيين ذكرنا أهم الشعراء الذين ظهروا فى بخارى، ذلك بأن الشعر كان، من قبل على الأقل، بحاجة إلى رعاية أهل البلاط، لذلك تحدثنا عن دقيقى وردكى والفردوسى، وكان البلاط السامانى حريصا على الاهتمام بعلماء الشرع والفقه، فلمع من هؤلاء جماعة فى ذلك البلاط.

لكن ثمة فئة من أهل العلم والفكر وحتى من الشعراء كان ظهورهم وكانت أعمالهم نتيجة العمل الفردى، ونحسب أنه آن الأوان للتحدث عن بعض هؤلاء لتتم الصورة البخارية والماوراء النهرية.

وأول من نريد التحدث عنه هو محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفى صاحب جامع الصحيح المعروف بـ«صحيح البخارى»، والمعروف هو بالبخارى.

ولد البخارى فى بخارى سنة ١٩٤/ ٨١٠ وتوفى فيها سنة ٢٥٦/ ٨٧٠، بدأت عنايته بالحديث دارسا له وهو فى الحادية عشرة من عمره، ولما بلغ السادسة عشرة أدى فريضة الحج حيث سمع عن كبار محدثى مكة المكرمة والمدينة المنورة، ثم زارمصر وبعدها قضى ست عشرة سنة متنقلا فى طلب الحديث، كانت حصة البصرة وحدها منهاخمس سنوات، وما تبقى كان تنقلا وسفرا فى أقطار آسيوية.

بعد هذه الجولات التى زودته بكم كبير من الأحاديث عاد إلى موطنه وانكب على درس هذه الأحاديث محاولا التاكد من صحتها على أسس سليمة الأسلوب واضحة الطريقة، ولم يكن الأمر سهلا، لكنه أتم عمله قبل وفاته بإخراج «جامع الصحيح» المعروف باسم «صحيح البخارى»، وقد نظّم الأحاديث حسب نواحى الفقه المقبولة، ومع أنه لم يتمكن على ما يقول الباحثون فى الصحيح، من العثور على أحاديث صحيحة لجميع مناحى الفقه والشريعة، فقد بذل الجهد الكبير الذى حفظه له السلف، بحيث أصبح «صحيح البخارى» الكتاب الذى يتبرك بقراءته فى الملمات، مثل بدء حملة عسكرية وسوى ذلك.

ونسخة جامع الصحيح الذى يعتمد اليوم هى التى أعدّها على بن محمد اليونينى (توفى ٧٠١/ ١٣٠٢) وقد أعانه فى ذلك اللغوى العالم ابن مالك (توفى ٦٧٢/ ١٢٧٣)، وهو صاحب ألفية ابن مالك فى اللغة.

على أن النجم الساطع الذى ظهر فى بخارى فى أيام السامانيين هو الرئيس ابن سينا. وهو أبو على الحسن بن عبدالله بن على بن سينا، كان أبوه عبد الله من أهل بلخ، وقد تولى عملا للدولة السامانية، وعاصمتها بخارى، و فى خَرْمَيْثَن ولد ابن سينا سنة ٣٧٠/ ٩٨٠.

وانتقلت الأسرة فيما بعد إلى بخارى، وهناك جئ بمعلم للقرآن وآخر للأدب للعناية بالطفل، ولما أتم العشر من عمره كان قد حفظ القرآن وأتى على كثير من الأدب، حتى كان يُقضى منه العجب.

وأراد أبوه أن يعلمه حساب الهند، فوجهه إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند كى يتعلمه منه.

واشتغل ابن سينا بالفقه وتردد على إسماعيل الزاهد، وكان من أجود السالكين، وفى هذا التردد ألفَ الفتى طرق المطالبة ووجوه الجدل والنِّقاش وأساليب الاعتراض على المجيب على النحو الذى جرت به عادة القوم، من أهل الشريعة والكلام.

وهبط بخارى أبوعبدالله الناتلى، وكان يُدعى المتفلسف، وأراد الوالد أن يتعلم ابنه من الناتلى هذا فانزله دَارَهم.

وعلى كل فإن هذه التجربة الأولى مع كتاب الإيساجوجى ومع الناتلى فى المنطق حفزت الفتى على السير قدما فى قراءة الكتب على نفسه وأخذ يطالع الشروح حتى أحكم علم المنطق، وعندها انتقل إلى الهندسة.

وكان الفتى قد مرّن على القراءة فى الكتب الصعبة وحذق أساليب فهمها وحل ألغازها ورموزها، فلم يُقعده عن العمل انعدام «المعلم»، فاشتغل بتحصيل المعرفة من النصوص والشروح مباشرة معتمدا على نفسه، فكانت كتب العلم الطبيعى والإلهى فى جملة ما أتقنه، وصارت أبواب العلم تنفتح عليه.

ورغب ابن سينا فى علم الطب، فأخذ يقرأ المصنفات فيه، ولم يجد فى ذلك صعوبة قط، إذ إنه برز فيه بحيث أن فضلاء الطب أخذوا يقرأون عليه علم الطب، وتعهد المرضى فاتاح له ذلك تجربة فريدة للتعرف إلى أبواب من المعالجات العملية ما كانت تتاح لغيره.

إلى هنا، وابن سينا، لم يبلغ الثامنة عشرة من حياته، أصبح صاحب درجة متميزة فى العلم والمعرفة، فاستحكمت معه العلوم جمعاء، مدركا إياها بحسب الإمكان الإنسانى.

وبعد رحلة حافلة بالعلم، مات والد ابن سينا، وتولى هو شيئا من أعمال السلطان، لكنه لم يجد بدا من الخروج من بخارى.

مراجع مفيدة بالعربية

١ـ الاصطخرى. المالك والمسالك
تحرير محمد جابر عبد العال الحينى. القاهرة ١٩٦١.
٢ـ زامباور. معجم الأنساب والأسر الحاكمة فى التاريخ الإسلامى. ترجمة زكى محمد حسن. بيروت ١٩٨٠.
٣ـ زكى محمد حسن. الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى. القاهرة ١٩٤٥.
٤ـ فيليب حتى وإدور جرجى وجبرائيل جبور تاريخ العرب. بيروت ط٧ / ١٩٨٦.
٥ـ لسترانج، كى. بلدان الخلافة الإسلامية. ترجمة (مع تعليقات) بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط٢ بيروت ١٩٨٥.
٦ـ المقدسى. أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦.

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهورى

٣ـ إحياء الفقه الإسلامى

* أرى أن الأساس الذى ينبى عليه إحياء الشريعة الإسلامية يجب أن يكون كما يأتى:

(١) تميز الاعتقاد الدينى المحض عن الشريعة باعتبارها قانونًا لتنظيم علاقات البشر بعضها بالبعض. (الفقه أو علم الفروع).

٢ـ في نطاق الفقه يؤخذ الجزء الخاص بالقانون (خالصًا من الجزء الخاص بالعقائد والعبادات). ويستخرج منه القواعد العامة للشريعة الإسلامية وهى قواعد تصلح لعموميتها أن تطبق في كل زمان ومكان وتعتبر هذه القواعد أصولاً للشريعة الإسلامية.

٣ـ هذه الأصول لا تتغير باعتبارها أصولاً ولكن تطبيقاتها تختلف (أولاً) باختلاف الزمن (ثانيًا) باختلاف الأمم. وعلى ذلك تكون هناك أصول للشريعة الإسلامية لا تتغير. وتفاصيل الشريعة الإسلامية تتغير بتغير الزمان والمكان ويكون من المعقول مع بقاء الأصول واحدة أن تكون هناك تفاصيل قررت في قرن معين وفى بلد معين، وهذا هو المعنى الذى يجب أن يعطى للمذاهب المختلفة فى الشريعة الإسلامية كمذهب الإمام أبى حنيفة مثلاً. أى أنه يجب أن يفهم هذا المذهب على أنه مذهب لتطبيق أصول الشريعة الإسلامية في الزمن الذى وجد فيه والإقليم الذى انتشر فيه وأنه يعبر عن الشريعة الإسلامية بهذين القيدين، فيقال إن التفاصيل التى ارتضاها زمن كذا وإقليم كذا هى كذا وكذا. وهذا لا يستتبع أن هذه التفاصيل يجب أن يرتضيها كل زمن وكل إقليم، بل لكل من هذين أن يستنبط من التفاصيل ما ينطبق على ظروفه الخاصة، وليس معنى هذا أن يطرح التفاصيل التى تعب فى استنباطها الأزمنة والأقاليم الأخرى بمجهودات تستوجب الإعجاب، بل يجب ربط الحاضر بالماضى ربطًا لا يقيد الحاضر فيغله ويوقف تقدمه، ولا يقطع صلته بالماضى فتنعدم وحدة الشريعة الإسلامية فى مجموعها.

من يقهر الآخر.. الإنسان أم الطبيعة؟!



ليلى الجبالى

أقوياء العالم بما حققوه من تقدم علميّ وتكنولوجى مذهل، عاجزون عن تغيير آليات الطبيعة التى تغيّر المناخ نتيجة لما يحدث فى الأرض من تنوع فى عمليات أنشطة الكوكب التفصيلية، مثل السحب ومكوناتها الإشعاعية، والترابط بين المحيطات والغلاف الجوى، والثورات البركانية

ظل الإنسان منذ فجر التاريخ فى صراع مع الطبيعة. فى حركة جدلية لا تنتهى. توصل الإنسان بالعلم والمعرفة إلى اختراعات تكنولوجية بالغة التقدم. وسيظل يواصل كشف أسرار الكون ما بقيت الحياة على سطح الأرض. لكن الإنسان خَلق غروراً طامعاً، فكلما زادت قوته وثراؤه وعلمه زادت أنانيته. وها هو قد وصل إلى درجة العَوْلمة أى (الهيمنة) يريد فيها أن يمتلك الأرض وما عليها. شبكة رأسمالية أخطبوطية عالمية تؤمن بأن الإنسان الفرد هو غاية الكون. تُقاس القيم البشرية عندها بالقيم النَّقْدية. ومن ثمّ، تصبح الطبيعة إما موارد ذات ربح. أو موارد بلا قيمة.

فهل استطاع الإنسان بتكنولوجياته بالغة التقدم أن يتحدى كوكبنا الجميل؟.. الكوكب الذى جعله الله ملائما لحياة الإنسان. غاية فى الجمال، جمع بين الطقس المعتدل، والماء السائل، والجو الأكسوجينى..؟ تكيف البشر مع بِنْيَة أمنا الأرض. فأخذت الكائنات العضوية على سطحه ترتبط بعلاقات وثيقة فيما بينها. ومع علم «البيولوجيا الحديث» عرفنا أن جميع أنواع الحياة على كوكب الأرض قائمة على خطة أساسية مشتركة للكيمياء الحيوية، وأننا جميعا نتكون من خلية واحدة موجودة فى العامل الوراثى الـ (DNA)...؟

منذ بدء الخليقة صارع الانسان الطبيعة ومازال يصارعها فلم تستسلم له. قاومت عدم احترامه لوظيفتها فى هذه الدنيا وجهت للإنسان صفعات مناخية يعجز عن ردّها. غيّرت مناخ الكرة الأرضية مع تغيّر نظامها «الإيكولوجى» بفعل الإنسان «والإيكولوجيا - Ecology » هى علم البيئة الذى يُعنى بالعلاقات بين النباتات، والحيوانات، والإنسان، وبين بيئتها غير الحيّة.

فهل يمكن التنبؤ بمستقبل هذا المناخ..؟

هذا ما يحاول «أندرو جودى» أن يجيب عنه فى كتابه «مستقبل المناخ» بمقارنة بين الماضى والحاضر، واستعراض القوى الدافعة لتغيير المناخ، والآثار المناخية المترتبة عليها، وما قد يحدث من تغيرات فى المستقبل بعد ارتفاع درجات الحرارة فى الكرة الأرضية كلها.

تطورت الدراسات المناخية والتقنيات الحديثة الخاصة بالتنبؤ بالطقس منذ الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. وقد تأسست هيئة دولية تهتم بأحوال المناخ فى العالم عام ١٩٨٨ تحت اسم هيئة الحكومات المشتركة حول تغير المناخ - The inter-vernmental Panel Climate Change (IPCC).

وكانت النماذج المناخية هى الوسائل الأساسية لعرض مستقبل أحوال المناخ، وتعرف باسم (نماذج الدورات المناخية العامة - GCMS) وقد تأسست هذه النماذج على القوانين الفيزيقية التى تصف ديناميات الغلاف الجوى، والمحيطات، والطبيعيات. كما تأسست على علاقاتها التجريبية، ووضعها فى صورة معادلات رياضية يتم حلها رقميا باستخدام أجهزة كمبيوتر ضخمة جداً. غير أن معظم نتائج هذه الدورات المناخية الظاهرية، غير مؤكدة تأكيدا تاماً. لأنها تنبثق من وجود سحب، ومكونات إشعاعية، وازدواج بين الغلاف الجوى والمحيطات، وعمليات تفصيلية تحدث على سطح الأرض. هذه العمليات المناخية تستدعى سلسلة من التصورات لا تستطيع (الهيئة الدولية المشتركة حول تغير المناخ) أن تقدم من خلالها تقديرات مستقبلية مؤكدة نتيجة لما يحدث من تأثيرات خارجية غير متوقعة مثل الثورات البركانية التى تؤدى إلى تحولات مفاجئة سريعة نسبيا فى النظام الإيكولوجى.

الإنسان جزء من الطبيعة ومسئول عن تغير المناخ الى حدّ كبير..؟! فالارتباط وثيق بين التغيرات المناخية والمعرفة البيئية العلمية والثقافية وها هم أقوياء العالم بما حققوه من تقدم علميّ وتكنولوجى مذهل، عاجزون عن تغيير آليات الطبيعة التى تُغيّر المناخ نتيجة لما يحدث فى الأرض من تنوع فى عمليات أنشطة الكوكب التفصيلية، مثل السحب ومكوناتها الإشعاعية، والترابط بين المحيطات والغلاف الجوى، والثورات البركانية التى قد تؤدى إلى تحولات مناخية سريعة فى النظام الإيكولوجى. تحولات تحتاج إلى وعيّ بالمشاكل الناجمة عن التغذيات المرتدة المعقدة فى منظومة الأرض الإيكولوجية.

لنسترجع إذن ما حدث منذ بداية الثورة الصناعية منذ حوالى (٣٠٠عام). كان الناس فى ذلك الزمن يستخدمون الكربون المستخرج من وقود الحفريات المحترقة لإنتاج الفحم، والغاز الطبيعى، والبترول، فينتج عنها كربون الديوكسيد CO_2 + الحرارة + بخار الماء + كميات قليلة من أكسيد الكبريت أو الميثان، وغيرها من الغازات. ولأن الإنسان لم يكف أبدا عن مهاجمة الطبيعة، فقد أسهم فى إحداث تغييرات خطيرة فى مناخ هذه الدنيا. غيّر النظم الايكولوجية الأرضية. غيّر تغييرا جوهريا فى مستوى كربون الديوكسيد على مستوى الكرة الأرضية. الذى ارتفع من (٢٨٠ جزئ فى المليون فى كتلة الهواء المتحركة، إلى ٣٦٠ جزيئا فى المليون حاليا). لماذا..؟ لأنه اقتلع الغابات الباسقة المتوجهة إلى السماء تحصد أوراقها الكثيفة ضوء الشمس لتقوم بعملية التركيب الضوئى. تأخذ طاقتها من ضوء الشمس الذى تولده آلة حرارية نوويّة ضخمة فى أعماق جوف الشمس ليتدفق فى جميع الاتجاهات. وتأخذ الماء من الأرض، وثانى أكسيد الكربون من الهواء. هذه الغابات تحوّل كل هذه المواد إلى غذاء لها تستخدمه هى ذاتها، ونستخدمه نحن البشر - فالنبات يستخدم الكربوهيدرات بوصفها مصادر للطاقة يؤمن لها الاستمرار فى عملها الوظيفى. أما الإنسان فيأخذ من النبات الكربوهيدرات بالأوكسجين الذى نتنفسه من الهواء، وبالتالى نستمد الطاقة التى نتحرك بها. وفى هذه العملية نزفر نحن البشر ثانى أكسيد الكربون، فتأخذه النباتات من الهواء تصنع منه المزيد من الكربوهيدرات فى أعجب تعاون إلهى بين

The Future of Climate

مستقبل المناخ

Andrew Goudie

Phoenix , 1997 , 60pp

النباتات والإنسان الذى يتنفس أحدهما ما يزفره الآخر. عملية متبادلة من فم الإنسان إلى فم النبات على امتداد كوكبنا الجميل، مستمدا طاقته من الشمس (النجم) الذى يبعد عنا (١٥٠ مليون كيلو متر).

فهل احترم الإنسان هذه المنظومة الإلهية الإيكولوجية..؟ أبداً. لم يحترم كبرياء الطبيعة وشموخها مستنداً إلى اكتشافاته العلمية بالغة التقدم. تماماً كما لم يحترم أقوياء العالم، المستعمرين، والاحتكاريون السابقون، والعولميون المهيمنون الحاليون، حرية البشر وحقهم فى الحياة الإنسانية الكريمة، فاستعمروهم ونهبوا أراضيهم وثرواتهم. فعلوا نفس الشىء مع الطبيعة غيّروا بنْية الدنيا الإيكولوجية فتغيّر المناخ. تجاهلوا أنّ البيئة تعنى العلاقات بين النباتات، والحيوان، والتربة، والماء، والبشر، والعوامل الجوية، وخاصة مبادلات الطاقة، والمادة التى تترتب عليها الديناميات السكانية. هذا المفهوم الإيكولوجى لا يتوقف على الحجم، بل ينطبق على قطرة ماء فى فرع شجرة، بقدر ما ينطبق على كوكب الأرض فى مجموعة.

اغتال الإنسان الشره الأنانى، الغطاء الشجرى من الغابات فى المناطق الغابيّة فى الأمازون والمناطق الاستوائية، فزادت تركيزات الكربون على نحو لا يمكن التنبؤ بما لا يبشر بالخير للإنسان.

فماذا كانت النتائج المناخية...؟

تغيّرت مكونات الغلاف الجوى الكيميائية وجزيئياته. زادت سموم الأرض الصناعية. زادت الغازات المنبعثة وكل المواد التى تهاجم طبقة الأوزون التى تقى الغلاف الجوى. تغير الضوء وما يعكسه سطح الأرض من أشعة. زادت انبعاثات الإنسان من الكلورو فلورو كاربون» التى لم تهاجم طبقة الأوزون المحيطة بالغلاف الجوى فقط، بل كان لها أثر أيضا فى ارتفاع النسبة الكامنة غير المتجانسة من غاز الصوب الذى يساعد على ارتفاع درجة الحرارة بزيادة تاثيره على غاز النترو أوكسيد.

ويشير تقرير هيئة الحكومات المشتركة حول تغير المناخ (IPCC)، إلى أن التنبؤ الممكن لاحتمال تغيّر مناخ العالم فى الفترة ما بين الحاضر وعام (٢١٠٠)، هو تاثير ارتفاع درجات الحرارة بسبب ارتفاع غازات الصوب. وانخفاض درجات الحرارة نتيجة لزيادة غازات الهباء الجوى الكبريتى الـ (Oerosol)، فيما قد يؤدى ذات يوم بعيد، الى عصر جليدى كامل يحوّل العالم إلى مناطق واسعة غير ماهولة بالسكان. وتؤدى طبقات الثلج إلى طمس كامل لكل شمال أمريكا إلى أوهايو، وحوض المسيسبى، والبلاد الاسكندنافية، وسويسرا، والجزر البريطانية، وسيختلف ارتفاع درجات الحرارة فى مناطق مختلفة من العالم تبلغ أقصى ارتفاع لها فى المنطقة الواقعة أقصى شمال خطوط العرض، أما التقديرات التى اتفق عليها علماء المناخ اتفاقا نسبيا حول ما سيحدث فى المناطق الاستوائية فهى استمرار الارتفاع الحاد فى درجات الحرارة فيما سوف يخلق مشاكل صحية، مثل ضيق التنفس، ونقل الأمراض المعدية مثل الملاريا، ومن المؤسف حقا أن ٤٥٪ من سكان العالم يعيشون فى مناطق مناخية ينقل فيها الناموس الملاريا وهى نسبة ستصل إلى ٦٠٪ فى النصف الثانى من هذا القرن الحادى والعشرين.

ومع استمرار ارتفاع درجات حرارة الكون نتيجة لتزايد انبعاث غازات الصوب، ستتاثر الزراعة، وتوازن المياه، ومكونات الغلاف الجوى، وتنتشر الأوبئة شديدة القسوة، والأمراض، والحرائق وتتغير جزيئيات التربة. كما أن المناطق الواقعة عند خطوط العرض المنخفضة ستتعرض لنتائج مناخية أكثر سلبية، وهى للأسف المناطق التى تعيش فيها أكثر الأمم فقراً لأنها تعتمد على قطاع الزراعة للبقاء على قيد الحياة.

ومع ارتفاع درجات الحرارة، ستتغيّر مكونات الغابات، وتصبح الصحارى الأكثر حرارة منعدمة الرطوبة لا تبشر بالأمطار وسيرتفع سطح البحر، وتتغيّر ديناميات العواصف، وتتدمّر الشواطئ، وتزداد ملوحة مصبات الأنهار، وتتغير درجات المدّ والجزر، ورواسب الأنهار، ونماذج التلوث الكيميائى والميكروبيولوجى فى المناطق الساحلية، وتزداد فيها الفيضانات. وقد تهاجر أجناس من خطوط العرض عند خط الاستواء إلى النظم البيئية الأقل حرارة.

ويشير التقرير الذى صدر عام ١٩٩٦ إلى أن التنبؤ بمستقبل المناخ فى العالم لا ينطبق على المدى الزمنى القصير ومع ذلك ها نحن البشر نعيش فى الزمن الحالى، وسيعيش أولادنا وأحفادنا فى العقود القريبة القادمة.. نكابد قسوة النتائج المناخية القاسية الناجمة عن عدم احترام الإنسان بعلمه وقدراته الفائقة، لمنظومة البيئة الطبيعية الإلهية ودورها فى خلق التوازن بينها وبين البشر. لم يستطع الإنسان بكل قدراته، أن يهيمن على الطبيعة ويقهرها. اغتال غطاء الكوكب الأرضى النباتىّ الجميل فافسد جوه واختل التوازن بين الطبيعة والإنسان. اختار الرفاهية المادية لمجتمعاته على حساب صحة وشقاء شعوب العالم الفقيرة بسبب هيمنته السابقة واللاحقة. إننا نتحدث عن إنسان حكومات الدول الصناعية المتقدمة القادرة المقتدرة. لكن الطبيعة أقوى منه. حرمها من دورها الربانىّ على سطح أمنا الأرض لتجمل لنا الحياة بفتنتها وشموخها، فحرمتنا من الاستمتاع بجمالها وعطائها. وها نحن نقاسى من ارتفاع درجات الحرارة غير المألوف التى ستزداد ارتفاعا عاما بعد عام، وآخرون فى مناطق أخرى من الكرة الأرضية سيقاسون من شدة البرودة. ■



تجارب ١٠ من أكبر المؤلفين المعاصرين

**عندما حلت أواخر الخمسينيات من القرن العشرين،
كان المسرح الأمريكى يعيش حالة أزمة. فبعد فترة من الازدهار
شهدت سلسلة من المسرحيات الرائعة، تتصدرها أسماء كتاب أحدثوا
صحوة مسرحية كبرى، على رأسهم آرثر ميللر وتنيس ويليامز،
بالإضافة إلى عروض مسرحيات يوجين أونيل، بدا وكأن برودواى-
عاصمة المسرح الأمريكى- لم يعد لديها ما تقدمه**

في شهر مارس ١٩٩٨، تصادف أن شاهدت على أحد المسارح فى نيويورك، آخر مسرحية كتبها آرثر ميللر - أهم كاتب مسرحى معاصر على مستوى العالم بشهادة كبار النقاد والمؤلفين.

أن تكون هناك مسرحية جديدة لآرثر ميللر فهذا إغراء لايقاوم، لمشاهدتها. لكن ما أثار اهتمامى أكثر، أنها لا تعرض فى برودواى - الساحة الرئيسية لأهم العروض الفنية، لكنها تقدم على خشبة مسرح صغير يسع ١٦٠ مقعدا فقط. وهو مسرح متخصص فى تقديم العروض التجريبية.

المسرح اسمه سيجنيتشر Signature واكتسب سمعة جيدة، بتقديمه أرقى العروض التى تحمل سمات التجريب، واستكشاف الجديد من ناحية الشكل، أو الموضوع، أو لغة الحوار، سواء لمؤلفين جدد، أو لكتاب راسخى القدم مثل آرثر ميللر.

وتساءلت: هل بعد هذا العمر، وذيوع الصيت فى أرجاء العالم، وبعد أن ترجمت مسرحياته لمعظم اللغات، وعرفتها شعوب فى كل القارات، وبعد أن تربع على القمة كأحد أعظم كتاب المسرح. منذ أن أرسى لاسمه وجودا محسوسا، حين عرضت أولى مسرحياته «كل أبنائى» عام ١٩٤٧، بعد هذا كله، يكتب ميللر مسرحية من نوع التجريب، لاتزيد مدة عرضها على ٩٠ دقيقة، وفى قاعة عرض صغيرة؟!

من أول مشهد فى المسرحية ينتقل إليك الانطباع بأن ما تشاهده مختلف تماما عن كل مسرحياته السابقة، وهو لا يجعل الأحداث وحركة الشخصيات، والصراع فيما بينها، يجرى على خشبة المسرح، لكنه يدور داخل عقل الشخصية الرئيسية فى المسرحية وهو «مستر بيتر» الذى يحمل عنوان المسرحية «علاقات مستر بيتر» Mr. Petera' Connections.

وهى نوع من دراما الحالة النفسية، وتقع الأحداث فيها فى المساحة بين النوم واليقظة. وتركز المسرحية على رجل يواجه الموت، ويواجه الحياة أيضا. ففى اللحظات التى تقترب فيها حياته من النهاية، بعد أن تقدم فى العمر، ورحل كل رفاقه وأصدقائه، ومعارفه، فهو يستدعى إلى ساحة عقله، هؤلاء الذين كانوا مقربين للغاية منه. متلهفاً من خلال الحوار معهم، على أن يستكشف معنى وجوده، أو معنى الوجود ذاته. واللهفة يزيدها التهابا، غروب سنوات شبابه وكهولته الأولى، بعد أن سحبت معها الإحساس بالهدف، والتوجه نحو شىء محدد. ومع إحساسه بدنو الأجل، فإن حاجته تزداد لفهم ما الذى تعنيه الحياة.

وفى حواره مع الآخرين، فإنه فى الحقيقة يتكلم مع نفسه، إلى أن يكتشف مستر بيتر أن هناك أكثر من صورة، وأكثر من معنى للموت تتراوح بين اللامبالاة، والسأم والتبرم، والفشل المزمن، وتقطع الصلات تماما بينك وبين كل المحيطين بك، والأكثر من ذلك انقطاع الصلة والعلاقات بين الناس وبعضهم البعض.

بعد مشاهدتى للمسرحية بشهرين، وبالتحديد فى مايو ١٩٩٨، أتيح لى أن التقى آرثر ميللر فى بيته - بعد اتصالات لترتيب هذا اللقاء - وحين سألته عن التجريب فى هذه المسرحية قال: إننى كسرت الحاجز بين الماضى والحاضر، طالما أننا فى حضرة رجل فى حالة عقلية، هو فيها أشبه بنصف نائم ونصف مستيقظ. وهو فى هذه الحالة يتحرك بحرية تسمح له بإقامة كل أنواع العلاقات التى لا نستطيع ونحن فى حالة الوعى أن نقيمها، أى أن مستر بيتر يتحرك فى أرض التجريب.

وآرثر ميللر الذى عكست مسرحياته الشهيرة بعضا من ملامح التجريب، يصل بعد أن بلغ عمره حينذاك اثنين وثمانين عاما (فى عام ١٩٩٨)، إلى خيار بأن تكون «علاقات مستر بيتر» تجريبية فى بنائها الكلى، وهو هنا لايسبح فى المجهول، لكنه يدخل إلى فروع تجرى فيها مياهه، ويكرس أدواته، وأعمدة بنيانه المسرحى المعروف، فى طرح شكل آخر مختلف لكنه فى النهاية متصل بالأصل، ومستند إلى نفس الأساس.

انطلاقا من هذا المشهد، تحولت بنظرى إلى الساحة الحية بالعروض المسرحية المهمة فى برودواى، أتامل أعمال عشرة من بين أهم وأكبر كتاب المسرح الأمريكى المعاصرين، لأنى لاحظت أن كلا منهم بدأ يكتب للمسرح فى أول الستينيات، فى القاعات الصغيرة التى كانت تقدم التجريب، فى مجموعة من الأماكن التى حملت اسم أوف أوف برودواى Of Of Broad-way ولم تكن محصلة أعمالهم حين اكتملت خبرتهم ونضجت شخصياتهم، وأصبح لكل منهم وجوده المتميز. هى التجريب كنمط. فكل منهم وهو يجرب، كان يحفر للتجريب قناة تتفرع من النهر الأصلى من المسرح التقليدى إلى أن يشكل لنفسه عالمه المتفرد، ويعود ليصب بمياهه فى المجرى الرئيسى - برودواى.

تاملاتى لهؤلاء العشرة، كانت عبر خمس سنوات متصلة أمضيتها فى الولايات المتحدة، حرصت خلالها على أن تكون فرجتى لكل عرض مسرحى جديد تتيح لى الظروف والوقت مشاهدته، هى على رأس أولويات المتعة الذهنية التى أنشدها، كلما أتيحت لى الفرصة، إما فى نيويورك، أو فى واشنطن حيث يوجد عدد لا بأس به من المسارح، أو حولها فيما يمكن أن نسميه واشنطن الكبرى - فى الأحياء القريبة منها بولايتى فيرجينيا وميريلاند.

ومن خلال المتابعة ذات البعد الأوسع، استوقفتنى تجربة هؤلاء العشرة ضمن عدد من كبار الكتاب المعاصرين فى المسرح الأمريكى الذين بدأوا الكتابة فيما سمى بالمسرح التجريبى، ليصبح كل منهم بعد ثلاثين أو أربعين سنة، واحدا من الكتاب المنتمين إلى المسرح بعالمه ذى الخصائص المشيدة كالبنيان الراسخ، أو السابحين فى بحر كان التجريب فيه موجة من موجاته، فمن أين جاءت البداية؟

عندما حلت أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، كان المسرح الأمريكى يعيش حالة أزمة. فبعد فترة من الازدهار شهدت سلسلة من المسرحيات الرائعة، تتصدرها أسماء كتاب أحدثوا صحوة مسرحية كبرى، على رأسهم آرثر ميللر وتنيس ويليامز، بالإضافة إلى عروض مسرحيات يوجين أونيل، بدا وكأن برودواى - عاصمة المسرح الأمريكى - لم يعد لديها ما تقدمه. فلقد نضب منجم أونيل، وخيم الصمت الإبداعى على ميللر، وكان ويليامز أكثر صمتا وسكونا.

على الناحية الأخرى من المجتمع الأمريكى، كانت رياح تغيير تقترب فى السياسة وفى الثقافة. فلقد غادر البيت الأبيض الرئيس أيزنهاور الذى كان يعكس قيم وأفكار الماضى، وحل محله رئيس جديد، هو جون كنيدى، بشبابه غير المألوف وسط الوجوه التى اعتادت أن تسكن البيت الأبيض، وبتفكيره الذى عكس نمطا مغايرا فى تناول قضايا الداخل والخارج، ممثلا لجيل جديد من القيادة فى أمريكا.

كان الساكن الجديد فى البيت الأبيض - جون كنيدى - مختلفا أيضا عن سابقيه مهتما بالفنون، اعتاد أن يرتاد دور الأوبرا والمسارح وهو قارىء للكتب والمؤلفات خاصة الجديدة، واعتاد أن يدعو مؤلفى هذه الكتب على العشاء فى البيت الأبيض يتحدث ويناقش ويتبادل

---

١. **Contemporary Ameican Playwrights**
(كتاب المسرح الأمريكى المعاصرون)
Christopher Bigsly
Cambridge university Press, 1999

٢. **The New Theatre**
(المسرح الجديد)
By Robert Corrigan
Delta Publising - Boston,1999

.. المســـــرح التجـــــريبى فى أمريكـــا

عــــاطـف الغمـــــرى

الأفكار.. شهدت هذه الفترة اهتمام رجال الاعمال بدعم المسارح، وحين حل منتصف الستينيات كانت المسارح قد عرفت منافذ الدعم المالى لها من الحكومة الفيدرالية وحكام الولايات ومسئولى المدن الأمريكية.

وسط هذه الظروف كان المبدعون الجدد أصحاب المواهب الواعدة كامنين خارج المجرى الرئيسى للحركة المسرحية لكنهم كانوا قد شقوا لأنفسهم مجارى صغيرة تجرى مياههم فيما بدأ يحمل اسم «أوف أوف برودواى».

وحول هؤلاء بدأت تنمو ثمار مكملة لزهور الحديقة من ممثلين ومخرجين ومصممين للديكور ولخشبة المسرح بل وأيضا من ينظفون الموائد ويبيعون التذاكر. وكان هذا المسرح غنيا بملكات الذين يحملون عبئه، لكنه ليس غنيا فى أى شىء آخر من وسائل الإبهار والضخامة والتكنيك المسرحى. هذه المجموعة من الكتاب، جاء كثيرون من أفرادها إلى نقطة الجذب فى «أوف أوف برودواى» جاءها سام شبرد مثلاً من كاليفورنيا، وجاء من نفس الولاية، أيضا لانفورد ويلسون، وغالبيتهم بدأوا التجريب فى محاولة لخلق شكل جديد للمسرح، فى إطار المسرحيات ذات الفصل الواحد وهم وإن كانوا قد أبحروا فى مياه التجريب إلا أن كلا منهم كان يسبح لمسافة، لكنه لا يبتعد عن الشاطىء أو عن البحيرة الرئيسية محاولا أن يعود إليها مساهما فى تحريك المياه التى قد سكنت فيها.

ومن المنطقة التى بدأوا فيها ولم تكن أسماؤهم معروفة فقد اقتربوا مسافة من قلب برودواى بوجودهم فى الحزام المحيط بها، الذى حمل اسم أوف برودواى والتى ازدهر فيها المسرح على يد التجارب غير التقليدية لهؤلاء المؤلفين، وبدأ جمهور المسرح يعرف طريقه إلى هناك، يملأ قاعات هذه المسارح الصغيرة أو يشهد فى عام ١٩٥٩ مثلا مسرحية «قصة حديقة الحيوان» لإدوار ألبى التى افتتحت فى مسرح شيرى لين، ومسرحية «العلاقة» لجاك جلبر فى مسرح ليفنج ثيتر.

واتفق النقاد فى حينها على أن كلا منها تستلهم روحها من المسرح الأوروبى، لكنها تعيد شق طريق جديد لها فى الوسط الأمريكى.

وكان المسرح هناك فى تلك الفترة حريصا على أن يستقى من نوعية جمهوره الأفكار والقيم والاهتمامات التى تشغله ومخاطبة جمهور جاء إلى «أوف أوف برودواى» وإلى «أوف برودواى» يتطلع لمشاهدة أشكال مختلفة من التجارب المسرحية غير التقليدية وكان يبدو فى تلك الفترة وكأن هذا التيار المسرحى الجديد يقف فى طريق الصدام مع المسرح التقليدى، الذى كان قد شيد لذاته وجودا مهماً ويحاول أن يتشكل فى صور ثقافية، تحاول أن تعكس تغييرات سياسية واجتماعية لم تكن قد تواجدت قبل ذلك بعشرين عاما أو عن طريق خلق لغة مسرحية مستلهمة من خطاب اللحظة الراهنة، وبمعنى آخر من الأحداث الجارية يوما بيوم وحتى يجد المتفرج الذى جاء لمشاهدة هذه العروض غير التقليدية نفسه وأفكاره وشواغله حية على خشبة المسرح أمام عينيه، وإن هذا التجريب ليس تيارا معزولا منغلقا على ذاته بعيدا عن الواقع المحيط به، ولاحظ النقاد أن هذا التيار التجريبى كان أداة تسهم فى استكشاف المجتمع واستطلاع جوانب منه ذات أهمية حيوية ولكنها ليست تحت الضوء أو موضع الاهتمام، وبمعنى آخر فإن التجديد لم يكن قاصرا على الشكل المسرحى، لكنه كان أشمل من ذلك فى دعوته لتجديد المجتمع نفسه من خلال الأفكار والكلمة واللغة التى يستخدمها.

ولعل من نتائج تيار «أوف أوف برودواى» أنه ساعد مرة أخرى على ازدهار مسرحيات الفصل الواحد، ولعلنا نذكر أن المسرح الأمريكى كان قد عرف فى بدايات القرن العشرين، ما سمى بتيار المسرح الصغير وذلك بظهور مجموعات صغيرة من هواة المسرح مثل فرق The Washington Square Players و The Provincetown Players والتى أتاحت الفرصة لبروز أعداد من الكتاب الذين وجدوا أمامهم مجالا للتجريب فى المسرحيات القصيرة، وهو شىء لم يصل عندئذ أو بعد ذلك إلى برودواى.. أما الآن فى بداية الستينيات فقد كانت الفرصة متاحة للكتاب لاستطلاع وسائل استخدام تكنيك ولغة وشخصيات مغايرة للمألوف فى إطار مسرحيات الفصل الواحد، واختبار مهاراتهم الخلاقة وإبداعهم، فى صياغة الحركة المسرحية فى أمريكا.

والملاحظ أن عددا كبيرا من المؤلفين الذين بدأوا فى المقاهى وقاعات المبانى والمؤسسات أو الكنائس وغرف العرض الصغيرة فى «أوف أوف برودواى»، ثم تواصل تواجدهم فى «أوف برودواى» ومسارح أخرى فى الولايات فى السبعينيات والثمانينيات، والتسعينيات، أصبحوا يمثلون اليوم كبار كتاب المسرح الأمريكى، والملاحظ وهذا هو الأهم أنهم سلكوا دروب التجريب ليدخلوا منها إلى أرض المسرح الحقيقية إلى مسرح الكلمة بحيث يضيفون إليه ويطورونه من خلال التجارب التى قاموا بها بما يقوى من صلابة البنيان الأصلى، فهم ليسوا خوارج، أو متمردين على المسرح التقليدى، لكنهم مجددون له، بالرغم من أن بداياتهم الأولى فى شوارع التجريب، وبمعنى آخر فإن التجريب عندهم هو موجة من موجات البحر تعلو بهم إلى حين، لكنها تعود بهم إلى سياق باقى الموجات فى نفس بحر المسرح وهذا واضح فى أعمال العشرة الذين بدأوا بالتجريب، وأصبحوا اليوم، ضمن أهم كتاب المسرح الأمريكى المعاصر وهم:

جـــــون جــــــور

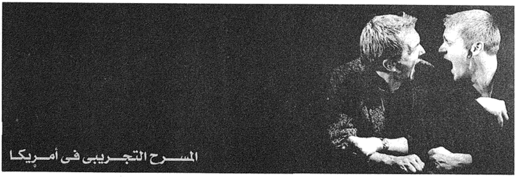
وكان واضحا تركيزه فى أعماله على قيمة الحوار والعودة بالمسرح إلى اللغة الشعرية وعدم الخضوع لسيطرة فكرة الواقعية التى تسمح باستخدام اللغة على إطلاقها جميلها وقبيحها وهو كان يضفى قوة على اللغة التى تنطق بها شخصياته وكأنه ينهج لنفسه طريقا يقترب من عالم الكاتب المسرحى النرويجى الشهير هنريك إبسن، وأحيانا يكاد يلامس أرض الدراما اليونانية، ونجد هذا فى مسرحياته «جاردينيا Gardinia» و «النساء والماء Woman and Water» و «وماركو بولو يغنى سولو» و«مشهد الجسد»، ومنزل أوراق الشجر الزرقاء» و«ست درجات للانفصال»، وغيرها.

حتى أن اللغة أو الكلمة فى مسرحه كانت محورا أساسيا شغل النقاد لما تثيره من خيال رحب وقوة جمالية مؤثرة.

تينا هاو Tina Howe : يمكن اعتبار المسرحيات الشهيرة التى كتبها تيناهاو هى من نتاج فترات السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات بالرغم من أنها بدأت الكتابة للمسرح فى عام ١٩٥٩، لتيار حركة المسارح الصغيرة، فى نفس الوقت الذى كانت فيه المسارح «أوف برودواى» تخلق إمكانية تقديم عروض لمؤلفين من الشباب الذين لم يكن فى قدرتهم الوصول بأعمالهم إلى العالم الرئيسى للمسرح، وكان أول عروضها فى أوف برودواى هو «العش the nest» عام ١٩٦٩ وتعترف تيناهاو نفسها بأن مسرحها يحمل مذاقا أوروبيا. وهنا تشير إلى أن المسرح الأمريكى قد شهد فى أوائل الستينيات تجارب تتأثر بالحركة المسرحية الجديدة فى أوربا، من ناحية الشكل وليس من ناحية الفلسفة أو المضمون.

وفى بدايتها كان لدى تيناهاو رفض للواقعية فى المسرح، لكن التجريب الذى سلكت طريقه طور أعمالها حتى أن اقترابها من النجاح تحقق حين بدأت كتاباتها تميل بقدر ما نحو الواقعية، واستمرت خطوة خطوة فى هذا المسار، حتى أحرزت الاعتراف بها من الحركة النقدية.

وفى أعمال تيناهاو كان للمكان الذى تجرى فيه الأحداث سطوته وتأثيره على العمل بكامل تفصيلاته، ففى مسرحية المتحف، تشكلت من المكان طبيعة الشخصيات ولغة الحوار، والبناء الدرامى، وتطور الأحداث. واستقر هذا فى كثير من أعمالها مثل «طلاء الكنائس Pointing Churches» و «فن الطعام Art of Dining» وفى هذه المسرحية الأخيرة كان المطعم هو مكان الأحداث، وقد صمم على شكل غاية فى الجمال، كل شىء فيه ناطق بالحياة وإن أوحى بقدر من



المسرح التجريبى فى أمريكا

الغموض المحبب وكان المكان بتشكيله وتصميمه يلعب دورا رئيسيا فى خلق أجواء القلق والتوتر، ورافق جو تناول طعام العشاء انفراج أزمة العلاقات وتكشف الغموض شيئا فشيئا.

وتدريجيا وحتى بلوغها مرحلة متقدمة فى الثمانينيات والتسعينيات فهى قد أخذت تدفع بشخصيات مسرحياتها نحو اكتساب سمات كلاسيكية فى أحيان كثيرة وعلى وجه الخصوص فى مواقف التوافق مع الموت أو مع الحياة على السواء.

إميلى مان

خلقت إميلى مان نمطا من التأليف المسرحى، أعتبر من الفنون الصعبة، فهى لجأت إلى اختيار أحداث يومية جارية، أو نص تفصيلى لمناقشات تتناول قضية مهمة، لكى تحولها إلى دراما تجرى أحداثها حية على خشبة المسرح. حتى أنها جعلت من المناقشات الخاصة حدثا علنياً جماهيريا بحيث أعادت تسكين الأحداث والشخصيات فى مناخ مختلف تم تشكيله دراميا، بعد انتزاعها من الإطار الذى وجدت أصلا فيه، وأضفت على هذه الشخصيات تاريخا، وظروفا اجتماعية وتكوينا نفسيا واجتماعيا يعطيها ديناميكية الفعل الدرامى، بحيث يصبح مسرحها فى النهاية انعكاسا للإطار الاجتماعى الأوسع، وليس للشخصية التى استخلصت منها مادتها. وفى أعمالها تبدت مهارة المؤلفة فى صياغة الشكل والإطار والبناء لعملها، وفى تطور الشخصية من خلال الفعل والحدث واللغة، بطريقة تبنى جسرا موصلا بسهولة بين الشخصية على المسرح وبين المتفرج الذى انطبعت فى خياله من قبل صورة أخرى لهذه الشخصية، حين كان لها وجود فعلى بعيدا عن عالم الدراما وخشبة المسرح.

ولو أننا تأملنا مسرحيتها «مازالت الحياة هى» «Still Life is» فإنه رغم أن موضوعها مشتق مباشرة من الحياة كما يدل عليه اسمها - فإنها بدت وكأنها صنعت تمثالا من المادة التى كانت فى يدها فهى تضفى عليه من إحساسها ورؤيتها ووجهة نظرها وموقفها، وفى صلب العمل تبدو الكلمة أو اللغة لها سطوتها الجمالية المخاطبة للعقل والحس.

وكانت قوة مسرحيات إميلى مان تبرز من خلال الموضوع الذى تختاره، والبناء النفسى والاجتماعى الجديد لشخصيات معروفة للمتفرج وهو ما يكثف من انتباه ومتعة الجمهور فى نفس الوقت.

ريتشارد دنيلسون

اهتم ريتشارد نيلسون فى بداياته بالعلاقة بين المسرح والتجريب، واعتبر أن الفن فى حد ذاته مبرر لابتداع أشكاله، لكنه لم يترك هذا المفهوم يجره بلا وعى إلى منطقة تنقطع فيها الخيوط بينه وبين العالم الذى دخله من أوسع أبوابه وليس تسللا من النافذة وهو عالم المسرح كما هو معروف. فعاد يؤكد أنك لكى تتحدث إلى العالم، فيجب أن تكون طرفا فى هذا العالم. وأن السياسة ليست مثل رحلة إلى المحيط، تعود منها لتبدأ حياتك، بل السياسة هى وسيلة للحياة واعتبر أن الكتابة ليست فقط شيئا يجرى فى إطار أخلاقى، أو التعبير عن قيمة أخلاقية لكنها فى ذاتها فعل له نتيجة أخلاقية.

ولعل تشكيل شخصيته ككاتب مسرح فى الستينيات قد ساعد عليه أن المجتمع فى تلك الحقبة كان قد بدأ يجعل من المسرح جزءاً مهماً من تكوينه وكانت أعماله انعكاسا لرؤيته التجريبية ولتحولات المجتمع فى الوقت ذاته، كما اعترف بانبهاره بالدراما الكلاسيكية، حيث مال إلى إضفاء ملامح شكسبيرية واضحة على بعض مسرحياته الكوميدية، كما اعترف بتأثره ببريخت ليس من ناحية التكنيك، وإنما من ناحية فهمه للمسرح كمنتدى للحوار والمناقشة.

وكان أبرز انعكاس لهذا قد ظهر فى مسرحيته «غابة المدن» «The Jungle of the Cit-ies» التى عرضها عام ١٩٨٧ على مسرح الأكاديمية الموسيقية فى بروكلين.

ويلاحظ أن تجربته فى عام ١٩٨٣ بكتابه معالجة جديدة لمسرحية تشيكوف «ثلاث أخوات» «Three Sistere» قد عززت لديه الرباط بين التجريب والكلاسيكيات فهو اضطر لأن يقرأ أعمال تشيكوف ويكتشف فيها عناصر تزيد من وعيه بأعماله هو شخصيا.

مارشانورمان Marsha Norman : ربما تكون مارشا نورمان قد سلكت فى بدايتها نفس الطريق الذى سارت فيه إميلى مان ككاتبة للدراما التسجيلية. فهى لجأت إلى صياغة المسرحية من خلال مشكلات سياسية واجتماعية مهمة، مستفيدة من قدرتها على الخيال فى إثراء موضوعها ونسجه بخيوط الدراما الواعية. لكن مارشا نورمان تمردت على هذا الشكل بعد وقت قصير من تواجدها فى عالم «أوف - أوف برودواى» وبدأت تبحث عن شكل مختلف.

وتشرح مارشا نورمان أنها فى لحظة سيطر عليها فيها شعور بالرعب، وبأن خطرا حقيقيا يهددها، قفز إلى عقلها فى هذا المناخ من المزاج النفسى، خاطر عن فتاة صغيرة كانت قد التقت بها قبل عشر سنوات فى أحد المستشفيات، وهى فتاة فاقدة السيطرة تماما على زمام نفسها، وحدث أن قضت سنوات فى السجن جزاء ارتكابها جريمة قتل ولم يكن ما يشغل بال مارشا فى هذه الرواية العنف الذى اتسمت به شخصية الفتاة فى حد ذاته، ولكن كيفية الخلاص للفتاة من وضع وجدت فيه نفسها، نتيجة ظروف اجتماعية من ناحية، ونتيجة غريزة عدوانية فى طبع الفتاة. وكيف يمكن لها أن تقدم هذا الخيط الرفيع الحساس فى قالب درامى. ووجدت مارشا أن موضوعها سوف يكون تقليديا، مالم تفتش بنفسها عن ماضى هذه الفتاة وجذورها، وأنها طالما اكتشفت ما وراء الوجه المرئى للشخصية، سهل عليها أن تدفع بها إلى خشبة المسرح، وكانت النتيجة هى مسرحية حملت اسم «الخلاص» «Getting Out» والتى كتبتها على أساس وجود شخصية للفتاة الأولى حسبما كانت فى ماضيها والثانية المرأة التى صارت عليها الآن والعلاقة بين الاثنين وتتطور الأحداث لتكشف بعدا إضافيا عن الحياة الاجتماعية للمرأة بشكل عام، وهو بعد قد يكون موجودا فينا نحن المتفرجين، أى أنها جعلت للشخصية، شخصيتين تتصارعان ولكل منهما ذاتيتها.

ولأن نجاح المسرحية فى قوة بنائها وقدرتها على أن تجعل لكل من الشخصيتين إرادتها الخاصة، فى حين تجمعها روح واحدة، وكيف أن الفتاة أنزلت نفسها بنفسها إلى داخل السجن، بينما المرأة استطاعت الخلاص منه، والبراعة فى وضع الماضى والحاضر معا فى لحظة واحدة، رغم أن الماضى دائما ما يتوارى عن العيون، ولا يظهر لنا من مواقف الشخصيات سوى ما يتصل بالحاضر.

وحين تحدثت عن تجربتها ككاتبة مسرحية فى عام ١٩٩٥، قالت ان الهدف من الفن هو أن نعبر عن أشياء مشتركة تجمعنا معا، الحياة التى نحياها معا، والحياة التى يمكن أن نعيشها سويا، لو استطعنا أن نهرب جميعنا من ظروفنا الراهنة. الفن هنا هو وسيلتنا للتعبير عن علاقاتنا مع بعضنا.. مع الذين قاسمناهم النصر، والهزيمة، والهدف، بصرف النظر عما إذا كنا قد قاسمناهم البيت أو الفراش، أو حتى يكون قد جمعنا قرن واحد. وكانت هذه الكلمات بمثابة تشخيص عام لأسلوبها فى الكتابة.

وعن فن الكتابة قالت إنه محاولة للفهم. وتقديم معنى محرك للعقل، من خلال قوة الخيال، والإحساس بالعلاقة مع الذين قد تبدو تجاربهم مختلفة عن تجاربنا، لكننا نقترب من بعضنا ونحن واقفون على خشبة المسرح، أو جالسون فى صفوف المتفرجين نتابع ونشارك.

ديفيد ريب

فى عام ١٩٦٣ عرضت مسرحية اسمها الجسور من إنتاج ورشة عمل مسرحية وكان المؤلف هو ديفيد ريب وقد حظى بالاعتراف كمؤلف مسرحى عندما عرضت له مسرحية «اليتيم» «The Orphan» على مسرح جامعة ڤيلانوڤا فى فيلادلفيا عام ١٩٦٨ .

وتصادف أن جند ديفيد ريب فى حرب فيتنام، وحين عاد فى أول السبعينيات من الحرب إلى بلاده الولايات المتحدة، وجد نفسه فى مجتمع شعر أنه غير مهتم بفيتنام وما جرى فيها. وقد شرح شعوره فى عام ١٩٧٣، فقال إن الكتابة هى نتيجة لحافز يسيطر عليك لتفسير واقع نعيش فيه، وليس التجرد من أى شعور تجاه هذا الواقع أو الارتباط به.

ولهذا كانت المسرحيات التى كتبها بعد عودته من الحرب، هى محاولة للفهم، ولإيجاد صيغة ولغة يمكن من خلالها أن ينفذ إلى عمق تجربة، لم يكن فى استطاعته ان ينفذ إليها أو يعبر عنها عندما كانت جزءا من حياته اليومية وقت أن كان يعيشها.

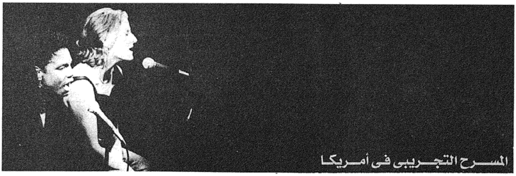
ويعترف بانه لم يكن يبحر خارج المياه الإقليمية ويقصد المسرح الكلاسيكى - بل كانت تجاربه متاثرة بما حولها من أعمال يوچين أونيل، خاصة مسرحية «رحلة يوم طويل فى الليل» «Long Day Journey Night» أو إدوارد ألبى فى مسرحيته «الحلم الأمريكى» «The Omerican Dream» وكذلك مسرحيات آرثر ميللر بعد السقوط، ومنظر من الجسر، ووفاة بائع متجول، وإن كانت تمثل بالنسبة له منبع إلهام فكرى وأخلاقى، وليس من ناحية التكنيك والبناء الدرامى.

ويتحدث عن الكلمة واللغة فى أعماله التى بدأت تجربته ثم عادت إلى المسار الأقرب إلى الكلاسيكية، ويقول: أشعر أن اللغة فى الحياة، وفى الدراما على وجه الخصوص هى شىء يستخدمه الناس لخلق الحقائق، ولخلق وسائل للتعامل مع الواقع بقبوله أو برفض. والكلمة تخلق واقعا أكثر من كونها تعكس هذا الواقع.

باولا فوجيل

فى عام ١٩٩٧ وصفت باولا فوجيل مسرحها بانه عملية تقوم على إغراء المتفرجين

هذه المجموعة من الكتاب، جاء كثيرون من أفرادها إلى نقطة الجذب فى «أوف أوف برودواى» جاءها سام شبرد مثلاً من كاليفورنيا، وجاء من نفس الولاية، أيضا لانفورد ويلسون، وغالبيتهم بدأوا التجريب فى محاولة لخلق شكل جديد للمسرح، فى إطار المسرحيات ذات الفصل الواحد، وهم وإن كانوا قد أبحروا فى مياه التجريب إلا أن كلا منهم كان يسبح لمسافة لكنه لا يبتعد عن الشاطىء أو عن البحيرة الرئيسية محاولا أن يعود إليها



بان أصطحبهم في رحلة، ليست فقط للوصول بهم إلى حالة من الفانتازيا والخيال، ولكن لتحرير عقولهم في اللحظات التي يقضونها معنا من قيود النمط اليومي للتفكير.

على هذا النحو كتبت مسرحيتها «قصة حديقة الحيوان» The Zoo Story» ثم كانت أشهر مسرحيتين لها بعد ذلك يقوم بناؤهما الدرامي على رحلة وهما: «فالسا بالتيمور» «The Boltimore Woltz» و «كيف تعلمت القيادة» «How I Learned to Drive».

وهي كانت تختار أفكارا عن أشياء صارت بمثابة مسلمات لا تمس ولا تتغير في الحياة السياسية وقد سئلت ذات مرة: هل المسرح عمل سياسي؟ وأجابت: هو سياسي في المقام الأول.

ولما حصلت باولا فوجيل في عام ١٩٩٨ على جائزة بوليتزر عن مسرحيتها كيف تعلمت القيادة؟ How I Learned to Drive . بعد أن حصلت قبلها على خمس جوائز من مؤسسات مختلفة عن نفس المسرحية، فإنها تكون قد أكدت وضعها كواحدة من أهم كتاب المسرح الأمريكي الذين عرفت أعمالهم من خلال عروضها في الثمانينيات والتسعينيات، بالرغم من أن بداية الكتابة لديها كانت أسبق من ذلك بكثير، حيث وصل عدد المسرحيات التي كتبتها إلى حوالي ٢٥ مسرحية.

ويوصف مسرحها بانه حوار عقلاني مع ثقافة المجتمع وتاريخ المسرح نفسه، وأن شخصياتها تتنفس جو المشاكل الراهنة والمتغيرة في المجتمع، وصارت مسرحيتها انعكاسا لواقع المجتمع، وإن تناولته بأشكال من الواقع والخيال.

ويندي ويسرستين

كانت أول كتابات ويندي ويسرستين هي مسرحية «إني امرأة لا تستطيع؟» «Any Woman Can't» وهي عن امرأة تسعى لتحقيق استقلاليتها في عالم يسيطر عليه الرجل، وهو موضوع عادت إلى تناوله في مسرحية عيد ميلاد سعيد Happy Birthday .

ولكن أنجح أعمالها جاء في عام ١٩٧٥ وهي مسرحية «نساء غير عاديات وأخريات» «Uncommon Women and Others».

وفي تصورها للكتابة أنها تكتب مسرحيات جادة لكنها مرحة، وقد تكون قاسية لكن قالبها الكوميدي يذيب أي شعور بقسوتها.

اعتمدت ويندي ويسرستين في التجريب الذي سلكته على الشكل، وقد لجأت إلى هذا النجاح في مسرحيتها (وعرضت في عام ١٩٧٢) «it Romantic». التي أقامت بناءها على ١٣ مشهدا مختلفا، تعكس طبيعة الموضوع، الذي يتضمن تشرذم طبيعة الشخصيات وحياتها. بحيث كانت المشاهد القصيرة للغاية انعكاسا من حيث الشكل، للمضمون وتفسيرا له، وربما تكون قد جربت نفس النسق بصورة أخرى في مسرحيتها «يوميات هايدي» «The Heidi Chronicles» التي تأخذ المتفرج على طول فترة سنوات تمتد من ١٩٦٥ إلى ١٩٨٩، مع تداخل عضوي للسنوات في بعضها، وهي أرادت بهذا أن تظهر كيفية تغيير القيم والسلوكيات في مجتمع.

لانفورد ويلسون

يتذكر لانفورد ويلسون أنه شاهد في عام ١٩٥٥ وكان عمره ثمانية عشر عاما، مسرحية وفاة بائع متجول لآرثر ميللر وكانت شيئا ساحرا، لم أشهد مثيلا له في حياتي. ومنذ هذه اللحظة تعلقت بالمسرح.. هذا الساحر الذي سيطر على تفكيري.

وبعد عام واحد ذهب ويلسون إلى ولاية سان دييجو، ثم انتقل إلى شيكاغو هناك قرر أن يصبح فنانا. وبدأ يحضر برامج للدراسات الحرة عن الكتابة للمسرح. وأخيرا وصل إلى نيويورك وعمره خمسة وعشرون عاما. وكان ذلك في عام ١٩٦٢، تشده لهفة ليس فقط للكتابة، بل أيضا لمشاهدة المسرح.

ولخيبة أمله لم يجد عروضا لأونيل أو ميللر ولم تكن برودواي تعرض على مسارحها سوى الكوميديات. وأخذ يتحسس طريقه إلى أن وجد له مكانا في القاعات الصغيرة في «أوف أوف برودواي» وعرضت أول أعماله عام ١٩٦٤ وكانت مسرحية من فصل واحد باسم Home Free .

ويعترف ويلسون أنه أخذ يجرب أشكالا مختلفة حتى استقر على تشكيل أسلوبه الخاص به، بعد أن تعمق في دراسة الريبرتوار، فقرأ نصوص هزيك إبسن (النرويجي)، وتشيكوف (الروسي)، وترسب لديه إقتناع بأن إبسن وتشيكوف هما وجهان لعملة واحدة، حتى أنه درس اللغة الروسية، حتى يترجم مسرحيات تشيكوف وهو يشعر بنبض كلماته.

كانت البداية الحقيقية لويلسون في عام ١٩٦٩ بعد أن كان قد فرض وجوده في أوف أوف برودواي، وذلك عندما دعاه مجلس إحياء الثقافة الدولية في نيويورك لتقديم أعماله على مسرح المجلس، وكان ذلك مجالا يقدم عليه تجاربه التي حاول من خلالها الوصول بافكاره وإبداعاته إلى الجمهور. وبعدها اقترب من برودواي ليقدم عليها إنتاجه بعد أن كان قد خاض تجارب في مختلف دروب المسرح الأمريكي.

وشهدت برودواي نجاح مسرحية Our Town لما تعمله من بناء درامي قوي، ولغة شعرية شديدة الحساسية.

وفي بداياته في الكتابة شغل ويلسون مثل غيره من أقرانه في أوائل الستينيات بالتساؤل عن معنى الفن، ومحاولة صياغة إجابة من خلال أعمالهم وكان تفكيرهم حافزا للتجريب، واستطلاع آفاق جديدة، لكنهم حتى مع التجريب كانوا يجدون أنفسهم مهمومين بالمجتمع ومشاكله وبالنسبة لويلسون تبلورت قضيته في الجماعة، والمجتمع، وعكست أسلوبه المسرحي في بداياته الأولى، هذه الحقيقة عندما كان يحشد الشخصيات العديدة على خشبة المسرح ليجعل منهم صورة المجتمع الذي يريد تناوله دراميا.

ولكن ويلسون توقف في مرحلة لاحقة عن حشد عدد كبير من الشخصيات في أعماله، بعد أن شعر بمسئوليته عن الممثل الذي يتحمل عبء تقديم عمله، فاخذ يركز على عدد قليل، يبلور كل شخصيته في ملامح وقسمات وبناء مشيد بقوة وإحكام، وكانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه مسرحيته Brontosaurus التي عرضت في عام ١٩٧٧ .

ويلاحظ مع ثبات ورسوخ وجود ويلسون في برودواي، أن أعماله عادة ما تصور عوالم تضمحل، ومجتمعات تتفتت نتيجة الفساد، وعلاقات تهددها الأنانية. وأن أمريكا في نظره بلد تخون أحلامها ومثلها.

سام شبرد

يتصدر سام شبرد أسماء أهم الكتاب العشرة المعاصرين في المسرح الأمريكي الذين بدأوا مسارهم من القاعات التجريبية في «أوف أوف برودواي» وكانت بدايته هناك في عام ١٩٦٤، عندما عرضت له في عام واحد مسرحيتان قصيرتان هما الكاوبويز وحديقة الصخور Theroche Garden و Cowboys في قاعة عرض صغيرة. وتعتبر هذه البداية مع بقية مسرحيات الفصل الواحد التي تتابعت لشبرد حتى عام ١٩٦٧، الأساس لأعماله التي جاءت بعد ذلك في سعيها جميعا لاستكشاف آفاق أوسع للغة المسرح، واستخدامها بشكل مثير للخيال.

وكتبت عنه النيويورك تايمز في عام ١٩٦٥، وكان عمره وقتها ٢٢ عاما، أنه أصبح واحدا من النوابغ في الدراما المسرحية في ساحة «أوف أوف برودواي».

ولقد أصبح لمسرح سام شبرد سمات تميزه فهو يتصف بالتوترات والتناقضات الداخلية، والنهايات المفتوحة والتطورات غير المؤكدة، ويطرح التساؤلات دون تقديم تفسير أو إجابة عنها، وهو مايجعلها تحتمل أكثر من معنى وأكثر من تفسير من وجهة نظر المتفرجين على اختلافهم.

وفي رأي شبرد عن مساره في عالم التجريب أن ما كان يسمى بخصوصيته الفريدة في أعماله الأولى، إنما هو شيء ناتج عن الجهل، فهو لم يحاول أن يسير على نهج الأفكار التقليدية لكتاب المسرح قبله، وكان اختياره المخالف للبناء الدرامي ولهيكل الشخصيات متعمدا. وإن كان هذا لم يمنع من تأثره في أولى مسرحياته The Cowboy بصمويل بيكيت شأنه شأن كتاب المسرح التجريبي في بدايات الستينيات. وقد أشار عدد من النقاد الأمريكيين إلى أن أعمال شبرد الأولى وكذلك أقرانه في تلك الفترة تندرج تحت مسمى التجريدية، وكان هناك سبب آخر مهم أثر على الشكل الذي اتخذه المسرح على يد هذه المجموعة من المؤلفين الجدد - وقتئذ - وهو ظهور «أوف أوف برودواي» كساحة توفر أماكن للعروض، وتستوعب وتشجع التجارب الجديدة مما خلق مناخا يساعد على ازدهار التجريب وكانت الفرصة سانحة لأي مؤلف مادام ما يقدمه يمثل شكلا جديدا.

وشهدت نهاية الستينيات تغيرا هيكليا في كتابات شبرد من حيث الشكل واللغة، عكست مرحلة النضج التي ظهرت بظهور مسرحية Lo Turista وإن ظل محافظا على النمط الذي اختاره لأعماله والذي يترك موضوعه يتحرك على مستويات مختلفة يتلقاها كل متفرج حسبما يتراءى له، وبدون وضع نهاية قاطعة وراحت مسرحياته تغوص في عالم الحياة المعاصرة.

لاحظ النقاد أن هذا التيار التجريبي كان أداة تسهم في استكشاف المجتمع واستطلاع جوانب منه ذات أهمية حيوية ولكنها ليست تحت الضوء أو موضع الاهتمام وبمعنى آخر فإن التجديد لم يكن قاصرا على الشكل المسرحي، لكنه كان أشمل من ذلك في دعوته لتجديد المجتمع نفسه من خلال الأفكار والكلمة واللغة التي يستخدمها

هكذا ازدهر المسرح الأمريكي، ليس بالخروج عليه، أو التمرد على الأصل، أو هدم البناء راسخ البنيان، وإقامة منشآت أخرى مكانه، وإنما كان ازدهاره، بالانتماء إليه، وحبا فيه، ومن مفهوم هذا الانتماء، كان لحركة التجديد التي بدأ ظهورها في قاعات التجريب منذ أربعين عاما، تأثيرها في دعم المسرح وتطوره، وانتعاشه، وعودة الروح إلى برودواي لتصبح واحدة من أهم وأكبر عواصم المسرح في العالم.

قـــراءة جـــديـدة فى كـــتـب قـديـمـــة

نظـــرة فى التراث الجنسى عند العرب

صـــلاح الدين عبدالله

لم أزل منذ سنوات بعـيـــدة أتطلع إلى كتابة بحث مفصل عن قاع الحياة فى القرن الرابع الهجرى، ذلك القرن الذى يعده الباحثون عصر النهضة فى الإسلام، بحث لاتجد فيه إلا نزرا يسيرا عن الخلفاء والأمراء والقواد والوزراء، على حين يضم تفاصيل كثيرة تتعلق بالباعة والشحاذين واللصوص والمقامرين وما يجرى داخل بيوت القمار، كما تجد فيه ذكرا للقوادين والبغايا والطقوس التى يتم العمل بها داخل بيوت البغاء، فضلا عن الغلمان الذين يمارسون الشذوذ بأجر معلوم. أجل كنت أريد أن أكتب بحثا عن أولئك الذين لايملكون ما يدفعونه ثمنا للمؤرخين كيما يزيفوا لهم تاريخا خاصا قد أثقلته المساحيق التى إن كانت تبقى لعصور عديدة فلابد أن تسقط بظهور الحقائق، ولكن لما كان بحث كهذا متشعب المسالك إلى حد يحتاج من الفراغ ما لاطاقة لنا به، فقد جعلت أمسه برفق بين حين وحين، وهأنذا أقدم إلى القراء منه ما يسمح به المجال، ولكن قبل ذلك، أى قبل الكتابة عن هذا الكتاب لابد أن نتعرض لبعض الأمور التى نراها مهمة.

أولا: هناك ثلاث نقاط يجب أن توضع فى الاعتبار قبل أن نكتب ما نريده عن التراث الجنسى عند العرب.

١ - إن هناك فرقا شاسعا بين الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية، فالدين هو تلك المنظومة التى تأخذ على عاتقها رسم المُثل العليا التى يجب أن يتطلع إليها المتدينون، أما الحضارة فهى ذلك النشاط البشرى المتنوع بتنوع الذين يمارسونه، ولم تخلق قط تلك الحضارة التى يمكن أن تكون تعبيرا حرفيا عن المثل العليا التى تتربع على قمة وعيها الأخلاقى، ومن هنا فسلبيات الحضارة الإسلامية تحسب على الإسلاميين - أى المسلمين والذين يعايشونهم - لا على الدين.

٢ - إن الكتابة عن التراث الجنسى عند العرب لايمكن أن تكون موضع إثارة من أى نوع، لأن طلاب الإثارة أعدوا لها أنفسهم سلفا فراحوا يطلبونها بإلحاح عبر القصص المستنفدة والمشاهد المبتذلة، فهم لن يقبلوا بوجه من الوجوه على مثل هذه الكتابة التى نقدمها إلى القراء المهتمين بتحليل شتى عناصر التراث الإسلامى.

٣ - إن الكتابة عن التراث الجنسى بنزعة تحليلية لاتمثل نَيْلاً من المعايير ولا إنزالا للقيم عن عرشها الذى اتخذته على قمة الوعى الإنسانى باعتبارات مختلفة، لأن أولئك الذين نكتب عنهم بوصفهم تعبيرا عن قاع الحياة إنما يقدمون بين يدى خطاياهم آلاف القرابين فى شكل مبررات ومغالطات، وهم بهذا يتزلفون إلى أية شبهة يمكن أن يتسم بها المنطق البشرى داخل مجال كهذا، كما يعترفون ضمنيا بكون القيم فى مكان الصدارة، فإن لم يسعهم كل ذلك قالوا صراحة بجلالة القيم وأرجعوا تخاذلهم عنها إلى ما فى نفوسهم من ضعف بشرى، بهذا يتضح أن الكتابة عن التراث الجنسى كالكتابة عن أى عنصر من عناصر الحضارة يجب أن يتوفر عليه من الباحثين مؤرخون ومحللون بغية الكشف عن خصائصه الجوهرية.

ثانيا: لقد اتخذ العرب القدماء مداخل شتى إلى الكتابة الجنسية، فمنهم من دخل إليها من باب الطرائف والفكاهات على نحو ما نجده فى الكتب الأدبية العامة، مثل كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«الأغانى» للأصفهانى، و«البصائر والذخائر» لأبى حيان التوحيدى، و«نهاية الأرب» للنويرى، ومنهم من عالجها من خلال التراث اللغوى مثل «المخصص» لابن سيده، و«لسان العرب» لابن منظور. ومنهم من سلك إليها سبيل الطب أى أن يوضح علاقة الجنس بالصحة إقلالا وإكثارا على نحو ما نجد فى كتابات محمد بن زكريا الرازى وابن سينا وغيرهما، وهناك آخرون قد تناولوها برفق شديد خلال حديثهم عن الحب العذرى كابن داود فى «الزهرة»، وابن حزم فى «طوق الحمامة» و«السرّاج فى مصارع العشاق» وابن القيم فى «روضة المحبين» ، وداود الأنطاكى فى «تزيين الأسواق» وغيرهم، وإنما كان مقصدهم أن يوضحوا مظاهر السلب و الإيجاب فى العلاقة بين الحب والجنس.

هذا إلى جانب الكتب التى عُنيت بتمحيص الجدلية الكائنة بين الجنس والشريعة، أو بقول آخر تنظيم الشرع للعملية الجنسية ككتاب «أحكام النساء» لابن الجوزى، و«أدب النساء» لـ عبدالملك بن حبيب الأندلسى، و «تحفة العروس» للتيجانى، كما أن كتب التفسير لم تجد بدا من التعرض للمسألة الجنسية بأنحائها المختلفة، سواء ما كان منها سويا أو غير سوى، خصوصا عند تفسير قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، وقوله تعالى: ﴿واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم..﴾ وقوله تعالى فيما يتعلق بالعلاقات الشاذة: ﴿ واللذان يأتيانها منكم..﴾ وقوله عز وجل ﴿والزانية والزانى..﴾ ، هذا فضلا عن الكتب التى عالجت الجنس بوصفه فنا ذا قواعد ومعايير نذكر منها على سبيل المثال «الإيضاح فى أسرار النكاح» للجاحظ، و«رشف الزلال من السحر الحلال» ، و«نواضر الأيك» و «شقائق الإترنج» وهذه الكتب الثلاثة للسيوطى أو على الأقل منسوبة إليه و«رجوع الشيخ إلى صباه» المنسوب خطأ لابن كمال باشا وهو للتيفاشى، ولاشك فى أن القارئ المطلع لن يحتاج إلى عناء حتى يدرك أن هناك قدرا من التداخل بين هذه المجالات، لأن الكتابة التراثية على العموم لم تكن تخضع لمنهجية صارمة تتحكم فى سيرها.

ثالثا: لقد أهمل كثير من الباحثين المعاصرين تناول التراث الجنسى بما هو فى أمس الحاجة إليه من الوصف والتحليل، بغية الكشف عن خصائصه الجوهرية التى يمتاز بها داخل الحضارة الإسلامية منه داخل الحضارات الأخرى، فمهما يكن الجنس قاسما مشتركا بين شتى شرائح النوع الإنسانى فما من شك أنه يكتسب مقومات محددة داخل كل حضارة تبعا للظروف والمكونات الخاصة بهذه الحضارة، من هنا فإن الذين قرأنا لهم من الباحثين تتباين مواقفهم بين الظلم والإهمال والتعسف.

ونضرب للفريق الأول مثلا بالمرحوم «فخرى أبوالسعود» الذى كتب فى مجلة «الرسالة» سلسلة مقالات يقارن فيها بين الأدبين العربى والأوروبى والتى سمى فيها التراث الجنسى بالأدب المكشوف، وكان تفسيره لنشأة هذا الأدب وتطوره تفسيرا غريبا. فقد رأى أن أكثر الذين كتبوا هذا الأدب لم يكونوا عربا، وبالتالى لم تأخذهم الغيرة على الثقافة العربية وكان الأصلاء فى كل حضارة قد ترفعوا عن ذكر هذا، وأحسب أنه لم يقرأ مثلا كتاب «كاما سُترا» تأليف مالانيجا فاتسيانا وهو يعالج التراث الجنسى عند الهنود، أو لم يقرأ الكتب المختلفة لأوفيد الشاعر الرومانى وهى تعالج نفس الموضوع داخل الحضارة الرومانية.

إذ من الإنصاف أن نقرر أن الكُتاب الإسلاميين كانوا صادقين مع أنفسهم بحيث أشعروا من يقرأ لهم أنه يشهد أعالى الحياة وأسافلها على السواء، فانحازوا بذلك إلى نبض الحياة الذى يسرى فى شرايين كل أمة من الأمم وقدموا لنا بهذا اللون من الكتابات ثروة أنثروبولوجية يتقاسمها علماء العلوم الإنسانية المختلفة.

وأخيرا، فإن أبرز من يمثلون الإهمال هم أولئك الذين أرخوا للبغاء والعلاقات الجنسية دون أن يلتفتوا إلى تلك التفاصيل الثرية التى يزخر بها التراث العربى والتى من شأنها أن تعدل من رؤية علماء الاجتماع لمنحنيات هذه المهنة القديمة الجديدة، فمن هؤلاء:

أ - الفريد بوكانان فى كتابه: «العلاقات الجنسية والشذوذ عبر التاريخ» ترجمة كاتيا مراد.

ب - سلام خياط فى كتابها: «البغاء عبر العصور».

ج - د.صادق صبور فى كتابه عن «تاريخ العلاقات الجنسية».

ومبعث هذه الأزمة من وجهة نظرنا أن العرب الذين يكتبون فى هذا الإطار، قلما يعتمدون على قراءات خاصة فى التراث العربى، فضلا عن اعتمادهم على المؤرخين الأجانب ومن هنا جاءت كتاباتهم لغير عالمنا فى الأغلب الأعم، والآن نظن أننا قادرون على أن نتحدث ولو بإيجاز عن ذلك الكتاب الذى هو موضوع مقالنا هذا، يتألف الكتاب من اثنى عشر بابا تدور كلها - ما عدا الباب الأول - حول طوائف من المجتمع يرتبطون بأنماط جنسية شاذة أو عادية لكنها غير مشروعة، فمن حديث عن العاهرات المهنيات، إلى حديث عن المولعين باصطياد النساء، إلى حديث عن أولئك الشغوفين بالغلمان وما يتعلق بهذا من الغلمان المتهتكين مقابل أجرة معلومة، إلى حديث عن الجنسية المثلية داخل المجتمع النسائى وموقف المجتمع من هذه الطوائف، ذلك الموقف الذى يتراوح بين التشدد والتساهل.

وصاحب الكتاب لاينسى أن يسوق خلال حديثه عن هذه الطوائف قصصا وأخبارا وأشعارا تجمع ماهو متداول فى كتب الأدب والتاريخ وماهو محلى تنضح به بيئته الخاصة، وقبل أن نتحدث عن مادة الكتاب نحب أن نقرر أن التيفاشى كان عبقرية تصنيفية سابقة لعصرها، لأنه حول تلك المادة التى كانت تعتبر هامشية - يرغب عنها الناس إما لترفعهم عنها أو لشيوعها فى حياتهم - إلى علم ذى أسس وتفاصيل، فاحتفظ كتابه بما اعتاد الناس أن يضيعوه، وهذا هو ما انتبه إليه الفولكلوريون المحدثون حين راحوا يلتقطون من فم الشعوب ما تنطق به من قصص وأمثال وأغان إلى شتى مظاهر الحياة الشعبية، ونحن لانستطيع أن نستعرض مع القارئ كل مافى الكتاب، ولكن حسبنا أن نقرر فى شأنه أنه مرآة تنعكس عليها عدة من القيم منها بقاء مقدار من الثبات فى جوهر الحياة البشرية. فمسألة التداعيات النفسية التى ينقاد إليها المولعون بالنساء كانت وما زالت شركًا تنصبه

نزهة الألباب فيما لايوجد فى كتاب
مؤلفه شهاب الدين أحمد التيفاشى. تحقيق جمال جمعة
طبعة دار الريس. الطبعة الأولى. يونيو ١٩٩٢.



النساء البغايا لأولئك المولعين، ولنر ما يذكره التيفاشي عن أصناف العاهرات المهنيات فهو يقسمهن إلى سبعة أصناف هي :

١ـ الغيرانة	٢ـ السكرانة
٣ـ الحيرانة	٤ـ الشاطرة
٥ـ المسافرة	٦ـ المغنية
٧ـ المظلومة	

وقبل أن ناخذ في بيان هذه الأصناف يجب أن نلاحظ أن الضحايا يتمتعون أولا: بالقابلية وثانيا: بالاستعداد النفسي المسبق. ولنرجع إلى الحيل التي ذكرها التيفاشي: فاما الغيرانة فهي فاسقة تلبس إزارا وتتنقب تنقبا غير محكم وتظهر في مشيتها اضطرابا وتتصفح وجوه الرجال، فإذا رأت رجلا تظنه يصلح صيدا قربت منه مارة عليه ثم قالت بحيث يسمعها وهي تدعي أنها غير ملتفتة إليه وتقول: «اللهم العن الشيطان فقد أوشكت أن أكون مثله»، ثم تذهب وترجع كأنها تعيب على نفسها وتلومها، فيعجب الرجل من حالها ويقول لها:«ما شأنك أيتها المرأة؟». فتقول له:«ومالك والسؤال عما لايعنيك؟ دعني فيما قضى الله عليّ» فيلح عليها فتقول له: « أنا امرأة متزوجة والله ماعرفت قط غيره ولا انكشفت لمخلوق سواه وهو رجل قليل المروءة ميال للزنى، فلما كان الآن خرجت من منزلي للحمام ثم عدت والباب مفتوح فوجدت معه امرأة على فراشي، رأيتهم من حيث لايرونني،وأنا امرأة غيرانة شديدة الغيرة، فخرجت على وجهي وآليت على نفسي ألا أعود إلى منزلي حتى أفعل مثل فعله، ثم رجعت على نفسي بالملامة ولعنت الشيطان وقلت أكون خيرا منه»، ثم تنصرف عنه. فلابد أن ينشأ في قلب الرجل من كلامها شهوة فيتبعها ويستعيدها فتأبى، فيلحّ عليها ويبذل لها أضعاف ما تستحقه مثلها ويطمع في دوام صحبتها بما ينشأ في قلبه من الشهوة لها، فتعود معه على نيل ما تطمع فيه من قلبه.

وأما السكرانة، فهي امرأة منحلة تشرب أقداحا من الخمر بحيث تفوح منها رائحتها، ثم تمشي مشية من غلب عليه السكر مستطلعة وجوه الرجال، حتى إذا لاح لها من تظنه صيدا سهلا أخذت بخناقه، وقالت له يافلان أتتركني إلى امرأة أخرى، وهي تناديه باسم غير اسمه،كانما التبس عليها أمره، فإذا نبهها إلى خطئها اعتذرت إليه بأنها سكرانة، ثم انصرفت عنه ببطء وجعلت تقوم وتقعد، هنالك تتحرك على الرجل أطماعه فيدعوها إلى منزله فلا تجيبه حتى تحصل منه الأجر الذي أرادت.

أما الحيرانة، فهي امرأة تتفقد دور العزّاب والمغتربين حتى إذا وقع اختيارها على واحد بعينه طرقت باب داره ، فإن كان الباب مفتوحا دخلت وأخذت تنادي يا أم فلان! حتى إذا خرج إليها الرجل ونبهها أنها أخطأت في العنوان اعتذرت إليه وألانت له القول بما يمكنها في نفسه ، فإن همت بالخروج دعاها إلى البقاء معه، فتستعصي عليه حتى تحصل منه أجرها المعلوم.

ونحن نمسك عن ذكر الباقيات لأن حيلهن تشابه ما مر بنا، ونضرب مثلا لتراكم الخبرات الذي يجعل الأمور العشوائية أمورا مقننة، فاعتداء شخص على غلام أمرٌ يكفي في حدوثه ما يستولي على نفس الرجل من ضعف دائم وتوهج مفاجئ، ثم يؤول الأمر بعد ذلك إلى الصدفة التي تسلمه إلى النجاح أو إلى الفضيحة.

ونحن نستطيع أن نتعرف على قدر من الثبات في جوهر الحياة البشرية داخل هذا الكتاب من خلال حديثه عن مقومات الجاذبية التي يجب أن تتوافر في الرجل، فإذا نفس المقومات التي كان يعرفها القدماء هي هي التي يتداولها المعاصرون، يتضح هذا من قول الشاعر:

ماذا يُظَنُّ بسلمى إن ألم بها
مُرَجَّلُ الرأسِ ذو بردين مَزَّاحُ
حلوٌ فكاهته خزٌ عمامتهُ
في كفه من رُمَىَ إبليس مفتاحُ

إنها نفس المقومات: الجمال والغنى وخفة الظل والأناقة، ويضيق بنا المجال لو مضينا نعدد أصناف القوادين والغلمان الذين يتخذون أجرة معلومة، وما يضطرون إليه من الحيل، لكن الكتاب على العموم كنز أنثروبولوجي نادر المثال، يكشف عما يحتاج إليه الفلاسفة وعلماء الاجتماع من مادة يرصدون من خلالها منحنيات العقل الجمعي والتفاوت الطبقي داخل المجتمع.

إن كثيرا من المعاصرين الذين يتعاملون مع التراث الجنسي ما زالوا يتعاملون معه ـ قراءة وكتابة ـ بوصفه مزيلا لرائحة الأرق، وهم بهذا يصدرون عليه حكما مسبقا بالتفاهة، لأن تحليل عناصر الوعي الجنسي لأمة من الأمم في زمان ومكان معينين هو أحد السبل الرئيسة التي نسلكها كي نقف على الدرجة الحضارية لهذه الأمة من خلال فحص ما يتم داخلها من علاقات، كما يمكن رصد التطور النوعي للغة من خلال فحص المصطلحات الدائرة في هذا المجال، كما هي الحال في مجالات أخرى، ونحن حين أقدمنا على التعريف بهذا الكتاب، إنما أردنا أن نعرف القارئ كيف يتأتى له استخراج أشد الجد من أشد الهزل!

عـــــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

محمود درويش.. المختلف الحقيقى

دراسات وشهادات

عمان، رام الله، الشروق، ١٩٩٩، ٣٦٠ صفحة، ٢٧ جنيها



يتضمن هذا الكتاب عددًا من الدراسات والشهادات والحوارات التي أجريت مع الشاعر الكبير، ساهم فيها ما يقرب من أربعين مثقفًا وشاعرًا وناقدًا بطول الوطن العربى وعرضه، بينهم سميح القاسم وفخرى صالح وأمجد ناصر وعلى الشرقاوى وعباس بيضون ومحمد نبيس وهاشم شفيق ويحيى يخلف وإدوارد سعيد وقاسم حداد ورسول حمزاتوف وآخرون.

يكتب إدوارد سعيد عن التلاحم العسير بين شعر محمود درويش وذاكرة شعبه، فيستعرض مسيرته منذ ميلاده عام ١٩٤٢ فى قرية البروة الفلسطينية التى دمرها الإسرائيليون عام ١٩٤٨، ومعاناته فى السجون الإسرائيلية ودرايته بثقافتهم، ثم انخراطه فى العمل السياسى وقربه من الرئيس عرفات وحرصه على استقلاله دائمًا بعيدًا عن التحزب، وهو الاستقلال الذى دفعه إلى رفض إعلان المبادئ مع إسرائيل فى عام ١٩٩٣، ويستعرض فى هذا الصدد دلالات قصيدته الشهيرة «أحد عشر كوكبًا» التى تشير إلى ما جرى فى الأندلس، وتحرص فى الوقت نفسه على التأكيد علي دور الـ «نحن» فى مواجهة واقع ترفضه الجموع.

ويكتب فخرى صالح عن درويش وصناعة الأسطورة الفلسطينية، ويلخص تجربة محمود درويش الشعرية بأنها تطمح إلى كتابة الحكاية الشخصية المعجونة بالحكاية الجماعية الفلسطينية من خلال تصعيد التجربة الفلسطينية والكشف عن البعد الملحمى فيها، ويستعرض صالح هذه التجربة بدءًا من ديوان أوراق الزيتون ١٩٦٤، وحتى «سرير الغريبة» ١٩٩٩.

ويكتب أمجد ناصر تحت عنوان «اعتراف متأخر»: أحتاج كإنسانٍ قارئ قبل أن أكون شاعرًا إلى شعر محمود درويش، محتاج إليه لأنه ليس من الضرورى أن يوجد، بل لأننى لا أستطيع أن أتصور الشعر من دونه، فعندما أفكر فى الشعر العربى أفكر بمشهد فى قلبه محمود درويش.

ويكتب هاشم شفيق تحت عنوان «طيران محمود درويش» مؤكدًا أن درويش أسس رمزًا استثنائيًا في الشعر العربى والعالمى، ويضيف: من هنا لا غرو في القول أن محمود درويش قد بنت فلسطين مجدها عليه. وهو مثله مثل لوركا وغرناطة، چيكور والسياب، أوكتافيوبات والمكسيك، بابلو نيرودا وتشيلى، فلا معنى لهذه المدن دون هؤلاء، فهؤلاء هم عمادها ومانحوها المعنى والمجد والدلالات الرمزية ذات الثراء الكبير.

وعن «القلق الدرويشى العظيم»، يكتب محمد على شمس الدين محللاً أبياتًا من قصيدته الديوان «سرير الغريبة» وينتهى إلى قدرة درويش علي الإمساك بقيادة سفينته الشعرية بما يجعل من قصائده قلقًا موسيقيًا وهندسيا بالكلمات، متحررة من كل شىء سوي ذاتها، تذوب فلسطين والسياسة والسياسيون والوطن والمنفى والحب والحبيبة والسرير والغريبة والذات والآخر والتراث والحاضر، كل شىء يذوب فى دوران القصيدة ولا يبقى لدرويش سوى الشعر.. إرثه الجميل من الأوطان والمنافى والحبيبات. أما عنوان دراسة عباس بيضون فقد حملها الكتاب «المختلف الحقيقى»، يقول فيها بعد أن يستعرض تجربته مع شعر محمود درويش: يحملنا درويش على ألا نصدق أنفسنا، حين نسأم القوافى ونتأكد من أنها باتت عبئًا على الشعر، وحدها قوافيه تسلم من سامنا وتبقى عند نفسها وعندنا طلقة حرة (...) لا يهتم درويش كثيرًا بنقد الشعر، ما يهمه هو الإنجاز، وقد أنجز كثيرًا، لا يحتاج إلى دفاع عن شعره، فقد ولد شاعرًا.

□ □ □

ليالٍ أخرى

محمد البساطى

بيروت، دار الآداب ٢٠٠٠، ١٧٨ صفحة، ١٢ جنيها



هذه واحدة من المرات القلائل التى يخرج فيها البساطى من عالمه الأثير، عالم القرية وناس البحيرة والنهر، يجرب هنا أن يكتب عن المدينة وتحولاتها في زمن الانفتاح الذى اجتاحت سماته سنوات السبعينيات وبقيت آثاره إلى اليوم، بطلة روايته «ياسمين» جاءت من الريف بعد ما فقدت الأب لتلتحق بكلية الآداب بالقاهرة، ودرست الاجتماع وتخصصت في الفنون الشعبية، تشتبك - وحيدة - مع المدينة بكل ما فيها، تتزوج من مصرى مقيم في إيطاليا، جاء إلى القاهرة ليدرس العربية ويفترقا بعد رحيله، تضغط عليها الوحدة وصخب المدينة، لا تفلح اهتماماتها وجولاتها في ربوع مصر فى التخفيف من آثار ما جرى في تلك السنوات العاصفة، وتزيدها ثرثرة المثقفين المحبطين في مقاهي وحانات وسط المدينة عزلة، تطلق للجسد عنانه في شبق لا نهائى أملاً في الانعتاق وفك حصار الروح، لكن الروح التى انطفات ما عاد ممكنًا استعادتها بجموح الجسد، وفيما بين انطفاء الروح وابتذال الجسد، تسقط قناعات كثيرة، وتتهاوى رواسى كانت تظن أنها تقيم الكون كله، تقاليد تشربتها صغيرة في قريتها، وشعارات تاهت معها فى سنوات الستينيات، عن العدل الاجتماعى واستقلال الإرادة وسيادة الوطن والحفاظ علي الذاكرة القومية ضد أى اختراق، فجاة، وفى سنوات قلائل، توصف هذه الشعارات بأنها أكاذيب، وتحال الأفكار الكبرى إلى الاستيداع، ويتضاءل أمام عينيها كل ما ظلت يومًا أنه مبدئى لا يقبل الجدل، وأمام هذا السقوط المدوى تسقط ياسمين وتتحول حياتها إلي فواصل زمنية فحسب: صباح، ظهيرة، مساء، ليل، لكننا نكتشف أن هناك من يرقبها، يعد عليها أنفاسها، ويلاحق كل من يضاجعها، وتقرأ هى مزهولة فى صحف اليوم التالى خبر قتله، لا يقترب القاتل منها، ربما ليقينه أنها ضحية، وأن مستغليها واللاعبين علي مواطن ضعفها هم من يستحقون القتل، تستمر ياسمين فى غيها، تمنح جسدها لمن يطلبه، وتتواصل حالات القتل التى لا نعرف حتى نهاية الرواية من يقف وراءها، هل هما أخواها اللذان سمعا عن أخبارها، فقررا أن ينتقما على طريقتهما، وإذا كانا هما، فإن قتلها هو ما يغسل عارهما - بحسب اعتقاد أهل الريف - لا قتل عشاقها؟ هل هو شخص مجهول أحبها دون أن يصارحها وقرر أن يقتل كل من تعرف؟ لا إجابة يقدمها المؤلف، الذى يترك لنا النهاية مفتوحة علي هذا الأفق المحير، ليتركنا نفكر في السقوط ودوافعه وآثاره، الذى لم ينل «بطلته» فحسب، وإنما طال دوائر عدة في دنياها.

□ □ □

فجر العلم الحديث

توبى أ. هف

ترجمة: محمد عصفور

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠٠، ٤٠٠ صفحة، ٣,٥ جنيه



على الرغم من أن هذا الكتاب يسدى خدمة جليلة للثقافة والحضارة العربية، كونه يعترف بفضلها وتقدمها على حضارة الغرب من الناحية العلمية، فإنه - تلميحًا وأحيانًا تصريحًا - يتساءل عن الأسباب التى أدت إلى تفوق الغرب علميًا فى العصر الحديث، حتى صارت الحضارات القديمة، ومنها الإسلامية وحضارة الصينيين، تلجأ إليه وتستهلك دون مساهمة حقيقية، المنجز الغربى العلمى في وجوه عديدة. أول ما يشير إليه المؤلف من أسباب فى هذا الإطار، هو نشوء فكرة المؤسسات المستقلة في الغرب، مما أوجد فضاءً محايدًا وحرية ضرورية للبحث العلمى، لم يتوافرا لحضارة الإسلام والصين. يرى المؤلف أن العلم العربى منذ القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، كان أرقى علم فى العالم، وكانت إسهامات العلماء العرب في كل حقل تقريبًا، فى العلوم والرياضيات والطب والفلك وغيرها، وكانت النظريات والتصورات التي تتضمنها رسائلهم العلمية هى أرقى ما يمكن الوصول إليه في أى مكان فى العالم، ويرجع ذلك لسببين: أولهما إطلاعهم على تراث اليونانيين كله عبر حركة ترجمة هائلة خصوصًا في القرنين الثانى عشر والثالث عشر، فيما كان هذا التراث مجهولاً في الغرب منذ سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس، وثانيهما - فيما يتصل بتفوق العرب علي الصينيين في هذا المجال - أن الصينيين لم يحتكوا بالعالم كما فعل العرب، ومن ثم لم يعرفوا أرسطو أو إقليدس أو بطليموس أو جالينوس، وكانت معرفة هؤلاء بالنسبة للعلماء العرب بداية مهمة لتطوير معرفتهم وعطائهم فى علوم الفلك والرياضيات، واعتبر المسلمون أن هذه العلوم أجنبية تمييزًا لها عن العلوم الشرعية والفقهية الإسلامية.

ويشير المؤلف إلى إنجازات مهمة حققها علماء عرب من أمثال ابن الهيثم والبطروجى وعلماء مدرسة مراغة فى غرب إيران ومنهم الأردنى والطوسي وقطب الدين الشيرازى وابن الشاطر، وجهود علماء الأندلس ومنهم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد وموسى بن ميمون، لكن العلم العربى بدلاً من أن يخطو خطوة أوسع نحو العلم الحديث كما يقول المؤلف، بدأ يتدهور وبسرعة، بسبب تداخل الأدوار بين العالم والفقيه، فابن رشد كان فيلسوفًا طبيعيًا وقاضيًا شرعيًا، وكان العالم الفلكى ابن الشاطر إمامًا بالمسجد الأموى بدمشق، وهو ما قصده المؤلف فى البداية من عدم وجود مؤسسات علمية مستقلة عن المؤسسة الدينية، فيما اتجه الغربيون منذ انحسار ظلام القرون الوسطى إلى تحقيق نهضتهم العلمية معتمدين على العقل وحده، وأسسوا المؤسسات والمراكز البحثية والأكاديميات التى يمكنها الاضطلاع بهذا الدور بعيدًا عن سلطة الكنيسة.

وإلى جانب هذا السبب الجوهرى يشير المؤلف إلى عيوب أساسية فى نظام «الإجازة» الذى كان شخصانيًا يربط الطالب بأستاذه دون الاستناد إلى معايير

موضوعية في التقييم وهو ما انتبهت إليه الجامعات والمعاهد العلمية في الغرب، ويشير أيضًا إلى التحيز ضد السماح للعامة بالحصول على المعرفة دون قيود، على اعتبار أن كثيرًا من المسائل يعد البحث فيها محرمًا، وقد نصح فلاسفة وعلماء كثيرون، منهم ابن ميمون وابن رشد، بالصمت حيال المسائل المحيرة، وهو ما دفعهم إلى رفض المطبعة بعد ظهورها في أوروبا في القرن الخامس عشر حتى لا تصبح المعرفة ميسورة في أيدي العامة.

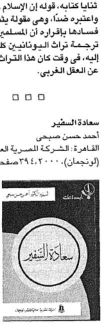
لكن أخطر دعوة يبثها المؤلف بين ثنايا كتابه، قوله إن الإسلام خاصم العلم واعتبره ضدًا، وهي مقولة يثبت هو نفسه فسادها بإقراره أن المسلمين سعوا إلى ترجمة تراث اليونانيين كله وأضافوا إليه، في وقت كان هذا التراث غائبًا تمامًا عن العقل الغربي.

□ □ □

سعادة السفير

أحمد حسن صبحي

القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ٢٠٠٠، ٣٩٤صفحة.



يروي المؤلف نتفًا من رحلته الطويلة التي امتدت نحو ثلاثين عامًا في السلك الدبلوماسي المصري، جاب فيها دولاً عديدة، واحتك بحضارات وشعوب مختلفة إلى حد التضاد، في أفريقيا والهند وكندا وإيطاليا وتايلاند والمجر، وما يكتبه المؤلف ليس أدب رحلات بالمعنى المفهوم، وليس دروسًا في الدبلوماسية يقدمها مختص إلى جيل الشباب من الدبلوماسيين أو الطامحين إلى الانخراط في هذا المجال. كما أنها ليست انطباعات شخصية صرفة ولا آراء سياسية حادة، إنها خليط من هذا كله، حيث ينصهر اليومي وما يشغل المواطن العادي، بالوطني السياسي الذي يؤرق موظفًا يعبر عن بلاده خارجها، ويتفاعل في الوقت نفسه مع ما يموج فيها وحولها من أحداث.

يروي المؤلف شيئًا من ذكرياته في العاصمة التنزانية دار السلام، وفيما أنت مستغرق في حكاياته المثيرة عن الأفيال والأسود والتماسيح وغابات أفريقيا الفسيحة، ينقلك فجأة إلى أحداث دامية جرت في العام ١٩٧٠، إذ انتشرت حوادث العنف والسرقة ولم تعد شوارع دار السلام آمنة، وصار المؤلف وأسرته محددي الإقامة، وهكذا، فقد العمل بهجته وصار محفوفًا بالمخاطر.

وفي كندا التي يسميها المؤلف «بلاد الدنيا الجديدة»، بدأت رحلته التي لم يخطط لها أبدًا، وانتهت تقريبًا عند شلالات نياجرا التي يصف مشاهدها بأسلوب أدبي بديع، وقبل هذا المشهد الختامي، ثمة حوار دال مع واحد من المصريين المقيمين هناك، جاءه ثائرًا من رغبة ابنته في أن تتزوج كنديًا كاثوليكيًا، فلما أبدى المؤلف، وكان وقتها قنصلاً عامًا في كندا دهشته من موقف الرجل وهو مصري قبطي، قال له في حدة: وهل الأقباط انتهوا لتبحث عن كندي كاثوليكي؟

فيرد الرجل: لا، إنها مصرية أولاً وأخيرًا.

وفي إيطاليا التي يتواجد بها عدد كبير من الشباب المصري الباحثين عن فرص للعمل والرزق، واجه المؤلف بوصفه قنصلاً، عشرات المشاكل حين أصر أن يفتح باب القنصلية ويقابل كل من يطلب المساعدة، ولاحظ القنصل أن الواردين إليه جميعًا هم من الشباب المصري المغامر، وأن أكثرهم يسردون قصصًا خيالية، تتفوق فيها مساحة الكذب على الحقائق، لكنه كما يقول استطاع أن يهدئ من روعهم ويكسب ثقتهم، فقد كان يحنو عليهم بوصفهم من المظلومين المضطهدين، يبحثون عن عمل شريف، وسط ظروف قاسية، اضطرتهم إلى مغادرة بلدهم والبحث عن عمل في هذه البلاد الغريبة.

في المجر والهند وتايلاند، حكايات عديدة يختلط فيها العام بالخاص، والشخصي بالموضوعي، وجميعها تقدم صورة عن مسيرة دبلوماسي دامت أكثر من ثلاثين عامًا.

□ □ □

ضد التعصب

جابر عصفور

القاهرة: هيئة الكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ٤٦٥ صفحة، ٣ جنيهات



يرد المؤلف على كتابات عديدة ظهرت في السنوات الأخيرة تعبر عن تعصب وتفتقد الموضوعية في أحكامها، وتستبدل تسامح العلماء بتزمت من يتصورون امتلاكهم للحقيقة المطلقة، الذين لم يكتفوا بمهاجمة وتسفيه آراء مخالفيهم، ممن يرى المؤلف أنهم تنويريون، وهو يتابع هنا على سبيل الحصر قضايا أربعة: قضية نصر حامد أبو زيد التي انتهت بتكفيره والتفريق بينه وبين زوجته واضطراره على إثر ذلك إلى الهجرة والعيش في هولندا، حيث يعمل بجامعة ليدن، وقضية تكفير حسن حنفي أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، وهي المسألة التي تبنتها جبهة علماء الأزهر، لكن الأمور لم تصل إلى ما وصلت إليه في حالة نصر أبو زيد، ثم تكفيرات أخرى نالت الدكتور سيد القمني بسبب كتابه «رب الزمان»، والدكتور أحمد البغدادي الأستاذ بجامعة الكويت الذي حكم عليه بالسجن بسبب اجتهاداته عن جهود الدعوة في المرحلة المكية، والفنان الموسيقي مارسيل خليفة الذي حوكم بسبب قصيدة لحنها وغناها من تأليف محمود درويش قيل إنها تتناول قصة سيدنا يوسف عليه السلام، ثم الحكم الذي صدر في الكويت بسجن الكاتبتين ليلى العثمان وعالية شعيب بتهمة نشر كتب تسيء إلى الأخلاق والدين، ثم أخيرًا الضجة الكبرى التي أثارتها رواية الكاتب السوري حيدر حيدر في القاهرة، والتي تفاعلت آثارها من مظاهرات طلاب جامعة الأزهر إلى ردود الأفعال الصاخبة في مجلس الشعب (البرلمان) المصري، والسجال حول الرواية على صفحات الجرائد المصرية بين مؤيد ومعارض، والنهاية المأساوية لحزب العمل وصحيفة «الشعب» التي أثار أحد كتابها الضجة حول الرواية منذ البداية.

والمؤلف بتصديه لهذه الحملات، إنما يواجه - من وجهة نظره - تيارًا يهدف إلى تقويض المجتمع المدني وقيمه المحدثة تحت شعارات دينية وتبريرات اعتقادية، بما يؤدي إلى تدمير أحلام التقدم والعودة بالمجتمع كله إلى وهاد التخلف، إن الزمن كما يقول المؤلف، هو زمن التعصب الذي علينا أن نمضي في الكتابة ضده، إيمانًا بأن حرية التفكير والإبداع هي جزء لا يتجزأ من حرية الإنسان الاعتقادية والسياسية والاجتماعية، وهي مسئولية عقلية لكل من يرى في الابتكار والابتداع سبيلاً لوعود المستقبل، والنظر إلى حق الاختلاف في الفكر وحق التجريب في الإبداع بوصفهما شرطًا للإضافة الكيفية التي نعني بها معنى التقدم في التاريخ وبالتاريخ.

رصد المؤلف لما جرى في السنوات الأخيرة على صعيد الفكر والإبداع من تداعيات سلبية، يلقي أعباءً إضافية على المثقفين والمفكرين الذين عليهم أن يعيدوا من جديد تأسيس الأفكار التي قادت الأمة في عصور ازدهارها وانفتاحها على المنجز العالمي إلى أرحب الآفاق.

□ □ □

السياسة والدبلوماسية

فؤاد شاكر

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠، ٢٦٠ صفحة، ٣٠ جنيهاً



يمثل هذا الكتاب بداية لمشروع طموح يسعى فيه المؤلف إلى تفسير مجريات السياسة والدبلوماسية في القرن العشرين، لا يعني ذلك إهماله لمنعطفات القرن خصوصًا الحربين العالميتين، اللتين تركتا ندوبًا واضحة في قسماته، وأثرتا - حتى اليوم - في تحالفاته الدولية وخيارات شعوبه، فالحرب هي أحد أوجه الدبلوماسية، وهي تبدأ أحيانًا حين تستنفد الدبلوماسية حيلها أو تعجز أدواتها، يقول المؤلف: الحرب الشاملة لا تنشب فجأة، ونشوب الحرب يعني تراجع - إن لم يكن فشل - الدبلوماسية وحل المشكلات أو الأزمات بالتراضي والحسنى.

يبدأ المؤلف كتابه الثاني من الجزء الأول من عام ١٩٠٠ بداية القرن تمامًا والبداية من فرنسا.

لا نعرف لماذا؟ - وهو يبدأ بمقارنة بين ألمانيا التي مثلت في أذهان الأوروبيين المعاصرين ثلاث دعائم لدولة قوية ناهضة: النظام والاتحاد والتقدم، فيما غلبت الخلافات السياسية والفساد والعجز على فرنسا التي بدت على السطح، غارقة في رفاهية الريفيرا والشانزليزيه، ويستعرض المؤلف بالمقابل أحوال إيطاليا التي رسمتها فاشية موسليني بسمات محددة، وبريطانيا التي أرقها السؤال عن بقاء الامبراطورية أو زوالها مع بداية القرن، وكانت ألمانيا مسرحًا لشعارات كبرى وروح بروسية تنادت بالوحدة والتفوق العرقي، ومكنت النازية أن تسيح في عقول العامة، وكانت روسيا على فوهة بركان أججته الثورة البلشفية الكبرى في عام ١٩١٧، طارحة أسئلتها - وأجوبتها كذلك - على مجتمع يمور بالغضب والاحتراق. تلك كانت أحوال الدول العظمى قبل اندلاع الحرب الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨، والتي يصفها المؤلف بأنها كانت حرب احتكاك أكثر منها حرب مواجهة أو تلاحم ويضيف: قدمت التكنولوجيا ما يحقق الغرض: خسائر فادحة، ودمارًا شاملاً في سرعة وعنف، وهو ما لم يسبق له مثيل من قبل.

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهوري
٤ - مقتطفات

الغرور

الغرور مفيد للشباب، بل هو منه فى منزلة الملح للطعام قليله ضرورى، وكثيره مفسد.

الإيمان

الإيمان والأمل. لا أستطيع السير دون أن أتزود منهما بما يقوى عزمى.

الفضيلة

من المتعذر أن نعيش في الدنيا سعداء، فلنعش فيها أقوياء ولنستمد قوتنا من الفضيلة بقدر ما نستطيع.

الخير

الخير إذا كان ضعيفًا فأولى به ألا يتكلم، وإذا كان قويًا فلا حاجة به إلى الكلام.

الإيمان بالله

أومن بالله، بتلك القوة الخفية التى تحيط بى والتى أعتمد عليها في كل الظروف التى لا أستطيع فيها الاعتماد علي مخلوق. ليس فيما يحيط بى من أشياء وأشخاص وليس فيما يكمن في نفسى من ضعف وقوة، ما أستطيع الاعتماد عليه في قطعى مرحلة هذه الحياة. وشعورى أنى في سيرى متجه نحو تلك القوة الإلهية الخفية يجعلنى أشد العزم وأستأنف السير كلما تعثرت في طريقى.

الإحسان

ليس من النادر أن ترى من غُـرسَت في قلبه عاطفة الإحسان ولكن من النادر أن ترى مَن يحسن ويعرف كيف يحسن.

عوامل التفوق

تفوق الرجل بقلبه ثم بأخلاقه ثم بذكائه ثم بعلمه، وما عدا ذلك فمظهر قيمته وقتية أو خداعة.

عروض موجزة

ويتابع المؤلف بالصور والإحصاءات وبيانات الخسائر ما آلت إليه الأمور، فقد انهارت امبراطوريات وتداعت قوى، وبزغت إلى الوجود قوى جديدة ومفاهيم جديدة في إدارة الصراع العسكرى وكيفية استثمار نتائج القتال في ميادين السياسة، فقد حولت الحرب العظمى الأولى - بحسب قوله - الثورة الصناعية الأولى إلى ميدان حقيقى داخلى للمعارك، فالذى ينتج أسلحة أفضل وأكثر، وذخائر أفتك وأوفر، كان كأنه يقاتل في ساحات الوعى، ويحقق بإنتاجه ما شاء وابتغى، وينتهى بنا المؤلف إلى مؤتمر السلام ومعاهدة فرساى ويرصد في النهاية نتائج اللعبة الخطيرة التى راح ضحيتها ملايين البشر، بالتحديد: ٨,٦ مليون جندى و٦,٥ مليون من المدنيين وآلاف من صور الخراب التى ما زالت ماثلة في أذهان الناس.

ثم يعرض المؤلف بعد ذلك تأثيرات الحرب العظمى الأولى علي العرب ومنطقة الشرق الأوسط وكيف سارت الأمور فى أعقابها خصوصًا مع الأزمة الاقتصادية العالمية عام ١٩٣٠، ثم يستعرض أحوال مصر فيما بين الحربين العالميتين قبل أن يستعرض قوى النظام الجديد الذى أسفرت عنه الحرب.

وينتهى الكتاب بالحرب العالمية الثانية التى راح ضحيتها ما يقرب من ٤٠ مليونًا، وكذلك يعرض لنتائجها فى السياسة والاقتصاد، وآثارها فى الأوضاع الدولية ونشوء منظمات اقتصادية وسياسية جديدة تعبر عن موازين القوى التى تغيرت، والتى طالتها تغيرات أخرى كنتائج مباشرة للحرب الباردة.

□ □ □

ثقافة النفط

زهير محمد جميل كتبى

السعودية: على نفقة المؤلف، ١٩٩٩، ١٤٥ صفحة



كُتب الكثير عن الآثار السلبية للنفط على المجتمعات العربية خصوصًا على الصعيدين الاقتصادى والاجتماعى، وقيل الكثير عن تأثير الهجرة إلي دول النفط علي الدول التي يضطر مواطنوها إلى العمل فى الدول النفطية، وهكذا أصبح النفط - الذى يفترض أنه نعمة إلهية - نقمة، ليس فقط علي من وجدت فى أراضيهم آباره، وإنما أيضًا على من سعوا إلى الاستفادة من عائداته. المؤلف هنا، يلقى أضواءً علي ثقافة النفط من داخلها بوصفه مثقفًا ينتمى إليها، وهو ما يمكنه من تقديم تحليل نقدى لا تعوزه الصراحة، إذ يبدأ صفحاته الأولى بسطور يقول فيها إن ثقافة النفط انبهرت بالتجربة الغربية وأساءت استخدامها، فتحققت الرفاهية للإنسان الخليجى دون أن يصاحب هذه الرفاهية تطور نوعي وكيفى يدفع المجتمع فى اتجاهات أكثر إيجابية، ويعتقد المؤلف أن الثقافة التى ترزح تحتها المجتمعات الخليجية، هى ثقافة مزورة، آثرت الاقتراب من الثقافة الغربية على حساب الثقافة الإسلامية، مما جعلها فى نهاية المطاف مشوهة ومزيفة، ولا يفوت المؤلف أن يشيد بالتجربة السعودية التى يعتبرها نموذجًا فريدًا ومميزًا، حافظت على البنية الإسلامية الثقافية، وارتقت بإنسانها وفق هذه الأسس، وأهم ما أثمرته ثقافة النفط من تاثيرات على جيل الشباب، أنها لم تحقق له التوازن المطلوب بين الحقوق والواجبات، مما أدى إلى انحرافات سلوكية تعانيها تلك المجتمعات ولا صلة لها بالثقافة العربية الإسلامية، كما يقول المؤلف.

أما كيف نحقق هذا التوازن، وكيف نتخلص من سيطرة الثقافات الغربية علي سلوكنا وتشويهها لقيمنا الإسلامية الأصيلة، فبالجدل والحوار البناء، يقول المؤلف: لا بد أن يكون من مرتكزات هذا المنهج الإصلاحى، أن يعطى الإنسان الخليجى فرصة الرقابة الموضوعية الراشدة التى يفرضها الضمير الإسلامى الحر على أعمال السلطة.

ويقدم نماذج من التراث الإسلامى تعزز هذا التصور، ويهاجم المؤلف المثقفين الخليجيين بعنف مقررًا.. «إن ثقافتكم النفطية فيها طفولة ومراهقة (...) إن شهوة الطعام والجنس أقوى من شهوة الثقافة وشهوة التطور فى ذات المثقف الخليجى، فتجمعهم طاولة طعام وتفرقهم عصا صغيرة».

ويواصل المؤلف اتهاماته فيراها ثقافة قائمة على الخوف والعصبية والعجز وتدنى الوعى، ويقدم فى نهاية كتابه وصفة من «٤٨» نقطة، يرى فيها الخلاص مما أفرزته الثقافة النفطية، وروشتة علاج لأمراض المجتمع الخليجى.

والحقيقة أن قارئ الكتاب، يشعر بجنوح مؤلفه الذى لا تنقصه الشجاعة وملكات التحليل النقدى، لكننا نشعر أن الرغبة فى تعذيب الذات تتجاوز فى كثير من المواضع، رغبة المكاشفة والنقد.

□ □ □

عــــروض مــــوجــزة

كتب أجنبية

Second Term

(فترة ثانية)

Simon Walters
Politico's, 2000, £16.99



لم يستطع حزب العمال البريطاني الحاكم أن يمضى فى الحكم فترتين متتاليتين وذلك منذ وصوله إلى السلطة للمرة الأولى فى الربع الأول من القرن الماضى ويحاول تونى بلير رئيس الوزراء الحالى أن يكسر سوء الحظ هذا وأن يفوز بفترة حكم ثانية فى الانتخابات المتوقع إجراؤها فى وقت ما من العام المقبل، ورغم أن كل المؤشرات تشير إلى أن حزب العمال فى طريقه لتحقيق هذا الحلم بالنظر إلى الوضع الاقتصادى الجيد وعدم قدرة حزب المعارضة الرئيسى وهو حزب المحافظين على أن يمثل تهديداً حقيقياً للعمال إلا أن الخلافات بين كبار قادة الحكومة العمالية تثير مخاوف من أن ينفرط عقد الحزب أو أن يتعرض لنفس ما تعرض له المحافظون قبيل انتخابات ١٩٩٧ من انقسامات واتهامات بالفساد من طول فترة البقاء فى الحكم.

وأبطال هذه الرواية الخيالية من كبار مسئولى حزب العمال الطامحين للترقى فى ماكينة الحزب أو فى الحكومة وعلى سبيل المثال فإن هناك نائب رئيس الوزراء الأعزب الطموح لرئاسة الوزارة، وهى شخصية تماثل فى الواقع جوردون براون وزير الخزانة الأعزب، الذى تزوج مؤخراً، أى بعيد صدور الرواية. لكن المؤلف غير من سمات الشخصية بناء على نصيحة المحامين حتى لاتقع تحت طائلة القانون. إلا أن الشخصية الرئيسية فى الرواية «العمالية» هى شيرلى ريدبات المتحدثة الصحفية لرئاسة الحكومة، والتى رسمها المؤلف بحيث تجمع بين سمات شخصية التركامبل المتحدث باسم بلير واماندا بلانتل المتحدثة باسم وليام هيج زعيم حزب المحافظين المعارض. وبينما تعد شخصية كامبل مسيطرة وهجومية فإن أماندا رومانسية وهادئة.

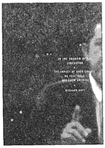
ويتحدث المؤلف عن محاولة شيرلى رسم قناع غير حقيقى لما يدور داخل الحكومة والتقليل قدر الإمكان من حدة الخلافات والمناقشة بين الوزراء وخاصة بين بلير وبراون كما تحاول أن تصلح ما يفسده السياسيون بتصريحاتهم .

□ □ □

in the Shadow of the Liberator: Hugo Chavez and the Transformation of Venezuela

(فى ظلال المحرر: هيوجو شافيز والنهوض بفنزويلا)

Richard Gott
Verso, 2000, £16.00



لا يكاد كثيرون يعرفون شيئا عن فنزويلا، تلك الدولة البعيدة سوى أن بناتها جميلات وأن نسبة كبيرة من الفائزات بلقب ملكة جمال العالم من فنزويلا، لكن فنزويلا كانت مثار اهتمام العالم خلال الشهرين الماضيين وتلك المرة من خلال رئيسها الجديد هيوجو شافيز الذى تحدى أمريكا وقام بزيارة للعراق كأول رئيس دولة يزور صدام حسين منذ حرب الخليج الثانية قبل حوالى ١٠ سنوات. ورد شافيز بقوة على الانتقادات الأمريكية للزيارة قائلا إنه يعرف مصلحة بلاده. وكان شافيز قد زار العراق ضمن جولة فى دول منظمة الأقطار المصدرة للبترول «أوبك» وفنزويلا عضو فيها لدعوة قادتها لحضور قمة عقدت الشهر الماضى بمناسبة الذكرى الأربعين لتاسيس المنظمة.

ظهر شافيز على واجهة الأحداث عام ١٩٩٢ عندما كان عقيدا بالجيش وقاد انقلاباً فاشلاً سعى من خلاله لإحداث ثورة اجتماعية ثم فاز خلال العام الحالى بالرئاسة فى انتخابات ديمقراطية ويقول المؤلف، الذى يبدو من خلال الكتاب أنه متعاطف مع شافيز: إن الزعيم الفنزويلى لديه شعور بأنه مثل المحرر العظيم سيمون بوليفار بطل القرن التاسع عشر الذى ساعد فى وضع نهاية للحكم الاستعمارى لأمريكا اللاتينية وجاهد من أجل وحدة القارة ويشير المؤلف إلى أن شافيز قال خلال زيارة له إلى كوبا: «باسم كوبا وفنزويلا فإننى أدعو لوحدة الشعبين وباسم ثورتى البلدين اللتين قادهما بوليفار فى فنزويلا ومارتى فى كوبا أناشد أن نقيم وحدة بينهما». ويتمتع شافيز بقدرة مؤثرة على حشد الجماهير وعلى محاربة الفساد والمحسوبية والفشل البرلمانى لكن شعوره بأنه محرر بلاده وتجاوزه المؤسسات فى الدولة يجلب عليه الانتقادات ويثير الكتاب جدلا كبيرا حسمته دول عديدة فهل الشعوب فى حاجة إلى شخصية وطنية قوية تتجاوز المؤسسات وتفعل ما تعتقد أنه صحيح للبلاد والناس أم أن الحاجة ملحة لنظام

كتاب الزاوية

من أوراق عبد الرزاق السنهورى
٥- مقتطفات

السعادة- العدالة

١- من يحاول أن يعتمد على سعادة يستمدها مما حوله لا يلبث أن يشقى . السعادة الحقيقية هى التى يستمدها الإنسان من دخيلة نفسه .

٢- القانون لا يوجد إلا في تنظيم العلاقات فيما بين اثنين متكافئين في القوة أو فى الضعف . أما حيث يتفاوتان قوة وضعفًا فالقانون هو القوة .

السعادة مستحيلة

شيئان يجعلان السعادة الدائمة فى حكم المستحيل : أولهما أن الإنسان لا يقدر النعمة حق قدرها إلا عند زوالها ، فهو لا يعرف السعادة إلا في ذكرى الماضى ، والثانى أن الإنسان إذا تمنى شيئًا يسعد به فناله لا يلبث أن يزهد فيه .

غاية الحياة

كل من يشعر بشيء من حقيقة نفسه يجب أن تكون له غاية شريفة في الحياة يسعى إليها ، وأن يكون لديه شيء من الثقة بمقدرته على الوصول إلى هذه الغاية .

الأصدقاء

من كان جميع الناس أصدقاءه فليس له أصدقاء .

حتى ينتصر الخير

حارب الشر بالشر حتى يندحر . عند ذلك ينتصر الخير .

العقل

العلم لا يوجد إلا بالمعنى الذى يوجد به العقل ، وهو محدد بحدود ذلك العقل البشرى . لا يوجد علم وإنما يوجد عقل .

الحب

يميل الإنسان إلى أن يصور من يحب مثالاً للكمال ، وهو أعرف الناس بما فيه من نقائص ، ولكن لذة الحب فى ذلك التصوير .

عروض موجزة

ديمقراطي قائم على المؤسسات التى تستطيع أن تعالج أمراض الدولة من خلال احترام القانون والدستور وفى هذا الكتاب يبدو المؤلف منحازا إلى الرأى الأول.

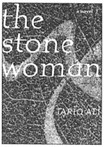
□ □ □

The Stone Woman

(المرأة الحجر)

Tariq Ali

Verso , 2000 , £15.00



مؤلف هذه الرواية المثقف والمفكر البريطاني المسلم البارز طارق علي، وهو من أصل هندى، وقد كان طارق على فى نهاية الستينيات أحد أهم زعماء الثورة الطلابية فى بريطانيا. وكان يساريا وخطيبا مفوها ويطلق عليه محارب الشوارع، وعديدة هى المرات التى اعتصم فيها طارق على أمام مقر رئاسة الحكومة البريطانية فى ١٠ دوانتج ستريت بلندن دفاعا عن آرائه واحتجاجا على سياسات الحكومة.

وخلال العقود الثلاثة الماضية عمل طارق على فى عديد من المهن فقد كان صحفيا وسينمائيا ومؤلفا مسرحيا ومؤرخا وفى كل ذلك كان مبدعا ومنذ عام ١٩٩٠ دخل عالم الرواية وبدأ مشروعا طموحا لإعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر إسلامية يقدم من خلالها الجانب الآخر لما حاول المؤرخون والكتاب الغربيون أن يطمسوه. وأصدر طارق على بالفعل من هذا المشروع روايتين هما «ظلال شجرة الرمان» وكتاب «صلاح الدين» وتأتى هذه الرواية «المرأة الحجر» لتكون ثالث كتاب فى المجموعة ويجسد طارق على من خلال هذه الرواية الصراعات بين الغرب والإسلام خلال فترة بالغة الأهمية وهى بداية سقوط الامبراطورية العثمانية فى نهاية القرن التاسع عشر وتدور الرواية حول نبيل وقائد عثمانى متقاعد هو اسكندر باشا وأسرته وشخصيات أخرى جاءت إلى قصره المطل على البحر والواقع خارج اسطنبول لقضاء إجازة صيف ويتحدث أفراد هذه النخب عن الفلسفة وأحوال الامبراطورية المتداعية وسبل علاجها ولا يخلو الأمر من نمائم ونكات.

ومن خلال هذه الحوارات يكتشف القارىء كثيرا من المعلومات وأنماط التفكير بين النخب العثمانية آنذاك وكيف كانت ردود افعالها على ما يحدث، كما يكشف أيضا الحياة الرغدة التى كانت تعيش فيها والفساد الذى اعترى بعضها.

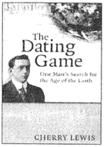
□ □ □

The dating Game
Searching for the Age of the Earth

(بحثاً عن عمر الأرض)

Chery Lewis

Cambridge up, 216pp, 2000, £17.95



واحد من الأسئلة العلمية التى شغلت العالم أو بالأحرى العلماء لقرون طويلة خاصة القرن العشرين هو كم عمر الأرض. وقد توصل مجموعة من العلماء إلى أن عمر الأرض التقريبي ٤،٥ مليار سنة، وجاء ذلك الاستنتاج بعد جهود شاقة بذلها علماء الجيولوجيا فى القرن العشرين ومن بينهم العالم الجيولوجي البريطاني آرثر هولمز الذى أطلق عليه لقب «أبو قضية عمر الأرض» وتتناول المؤلفة شيرى لويس فى كتابها حياة هذا الجيولوجي وجهودها لتطوير تكنيك يمكن من خلاله قياس عمر الأرض. درس هولمز فى الكلية الامبريالية فى لندن وأمضى أحد مواسم الصيف خلال الدراسة فى موزمبيق حيث أصيب بالملاريا. وكان ذلك من حسن حظه واعتبر اصابته بالملاريا إنقاذا لحياته، فقد كان ذلك يعنى أنه لا يستطيع الانضمام للجيش البريطاني فى الحرب العالمية الأولى حيث إن جميع زملائه فى الكلية الذين انضموا للجيش عام ١٩١٤ لقوا مصرعهم فى الحرب. وقد حاول هولمز أن يشق لنفسه طريقا أكاديميا مميزا فعمل فى بورما مع شركة بترول لكن سلوكه الشخصى أثار عليه الانتقادات.

أما عن مشواره العلمى فقد كان من أوائل من حاولوا استخدام تكنيك اشعاعى لقياس عمر الأرض وخاصة الصخور القديمة، وبوسائله تلك تمكن من زيادة عمر الأرض، الذى كان العلماء يعتقدون فيه، من مئات الملايين من السنين إلى آلاف الملايين. وفى عشرينيات القرن الماضى كان هولمز واحدا من بيولوجيين قلائل تحدثوا عما يسمى بالتصدع القارى كما أنه تحدث عن أن الحرارة الموجودة فى قلب الأرض توفر القوة الدافعة لعمليات انتقال الحرارة من جزء من السائل أو الغاز إلى جزء آخر والتى عملت على تحريك القارات حول سطح الأرض.

ويوفر الكتاب معلومات جيدة عن وسائل قياس عمر الأرض من خلال الحديث عن سيرة حياة هولمز، وهكذا الكتاب يدخل ضمن ما يسمى بتاريخ العلم.

□ □ □

Asummer Without Dawn

(صيف بلافجر)

Agop J. Hacikyan

Jean - Yves Soucy

Saqi Books, 2000, £15.99



من يتذكر اليوم مذابح الأرمن على أيدى العثمانيين الأتراك.. تلك كانت مقولة هتلر الشهيرة عند أراد أن ينفذ مذابح مماثلة ضد اليهود فى الحرب العالمية الثانية.. لكن يبقى السؤال ملحاً الآن لأن اليهود لم يتركوا بشراً أو حجراً إلا أبلغوه بشتى السبل بوجهة نظرهم فى مذابح هتلر ضدهم أو ما يسمى بالهولوكوست ولكن من يذكّر العالم بالمذابح ضد الأرمن والتى لا تريد تركيا حتى الآن الاعتراف بها.

وهذا الكتاب عبارة عن رواية قائمة على أساس قصة واقعية حدثت لجد أحد مؤلفى الكتاب وهو آجوب هاكيان ويعيش هذا الكاتب حاليا فى مونتريال بكندا وهو أرمنى ولد فى تركيا ودرس وتخصص فى قضية الشتات الأرمنى فى العالم. وتدور الرواية حول قصة حب معقدة على خلفية ترحيل الأرمن من أراضى الامبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى وبطل القصة طبيب وضابط احتياطى فى الجيش التركى وكان يعمل أيضا صحفيا يرسل أخباراً سرية إلى الصحافة العالمية، وعندما بدأت المذابح ضد الأرمن يتمكن هذا الطبيب من الهرب لكن زوجته وابنه يعانيان من الاضطهاد والتعذيب وتتجنب الرواية اتهام الأتراك مباشرة بالمسئولية عن المذابح لكنها تلقى بالمسئولية على نظام الحكم العثمانى بل إنها تشير إلى أن الزوجة يتم إنقاذها على أيدى مسلم يعمل لدى حاكم عثمانى يدعى رضا بك، هو نفسه كان أحد المسئولين عن المذابح.

ويبدو من الرواية أنها تحاول أن تعيد تذكير العالم بالمأساة الأرمنية دون أن تتورط كثيراً فى أمور سياسية قد تعقد الأمور. وقد صدرت فى البداية باللغة الفرنسية وحققت نجاحاً كبيراً فى فرنسا وكندا ثم جرت ترجمتها إلى الانجليزية.

□ □ □

Something New under the Sun

(هناك جديد تحت الشمس)

John Mcneill

Allen Lane, 2000, 448pp., £20.00



إن قدرتنا كبشر على حماية البيئة غير كفء.. هذه هى النتيجة التى يخلص إليها هذا الكتاب القيم حول التاريخ البيئى للقرن العشرين. وكما يقول المؤلف فإن معظم جهودنا لجعل العالم فى متناولنا كانت نتيجتها خاطئة فى غالب الأحيان وحتى الوسائل التى استخدمناها كانت هى الأخرى خاطئة ويجب أن نغير هذه الوسائل ليس لأنها عالية الكفاءة بدرجة تضر بالبيئة بل لأنها غير كفء.

وخلال القرن الماضى، تدخل الإنسان فى البيئة كما لم يتدخل آباؤه وأجداده من قبل ومن الانفجار السكانى والتصنيع الهائل وتحويل الريف إلى مدن وغير ذلك فإن الإنسان غير تماماً صورة العالم ورغم أن الحقائق التى يقدمها المؤلف فى كتابه ليست جديدة إلا أنه يعرضها بشكل مبسط للقارىء العادى غير المتخصص من خلال لغة بسيطة وتصنيف جيد للمعلومات وعرض صور رائعة تساعد فى فهم القضية. والمشكلة كما يثيرها المؤلف أن الإنسان فى أوقات كثيرة من القرن الماضى اعتبر نفسه فى معركة مع البيئة وأنه لا بد أن يقهرها وينتصر عليها سواء كانت تلك المعركة مع الغابات أو الأنهار أو الحيوانات أو غير ذلك وبعد سنوات طويلة ثبت أن هذه المعركة كانت خاطئة وبالتالى فإن نتائجها كانت مدمرة. وارتفاع درجة حرارة الأرض بشكل لم يسبق له مثيل أوضح دليل على أن تدخل الإنسان له آثاره المدمرة. وقد شارك فى هذا التدمير الافراد العاديون والنخب المتعلمة التى كان هدفها المشترك هو جعل الطبيعة فى خدمة الإنسان بأى وسيلة سواء بشكل مباشر أو من خلال اختراع الآلات أو الأجهزة أو حتى المبيدات التى تساعد فى ذلك، ولا حاجة لتكرار الحديث عن نتائج ذلك.

□ □ □

اجتمـــــــاع

موسوعة علم الاجتماع
جوردن مارشال
ترجمة: مجموعة باحثين
القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٠

أكثر من ٢٥٠٠ مدخل عن علم الاجتماع ونظرياته ومناهجه، بعد ما انفتح على جميع العلوم الأخرى وتجاوز حدوده الضيقة، وهو ما يؤكد عليه الدكتور محمد الجوهرى الذى قدم للموسوعة، مؤكدًا على الدور المهم الذى يمكن أن يلعبه علم الاجتماع فى قضايا التنمية.

■■■

هجرة المغاربة إلى الخارج
محمد الكتاني وآخرون
الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٠

يجاوز عدد المغاربة المهاجرين إلى الخارج المليونين، يعيش معظمهم فى فرنسا وأسبانيا، وهما دولتان تربطهما علاقات ثقافية وتاريخية وثيقة بالمغرب العربى، فضلاً عن تواجدهم فى دول أوروبية عديدة، ومؤخرًا تعالت فى أوروبا صيحات العنصرية التى ترفض المهاجرين وتلاحقهم، ويتعرضون بشكل مستمر لصدامات وتحرشات، فهل ثمة تدابير تحمى حقوق المهاجرين وتصون إنسانيتهم؟ هذا بعض ما يناقشه الكتاب.

■■■

A Little Too Close to God: The Thrills and Panic of Life in Israel
(الرعب والإثارة فى الحيـــاة فى إسرائيل)
David Horovitz
Knopf, 2000, 311 PP., $26.00

هاجر المؤلف - وهو صحفى إنجليزى - إلى إسرائيل عام ١٩٨٣، ولكن بعد عشرين عامًا يكتب عن مخاوفه من الاستمرار فى العيش هناك. فمن خلال التعليق على الحياة اليومية فى المجتمع الإسرائيلى يقدم هوروفتز رؤية إنسانية عن مدى العنف والتحلل الأخلاقى الذى انحدر إليه، والذى يعتقد المؤلف أنه بدأ تدريجيًا منذ حرب ١٩٦٧، حتى وصل إلى الذروة مع حادثة اغتيال رابين. فقد زادت حدة التوتر بين اليهود والعرب من جانب، وبين اليهود العلمانيين واليهود الأرثوذكس من جانب آخر. وأصبحت الأسر فى حالة قلق وخوف دائم، والأفراد يسرفون فى التدخين وفى القيادة المسرعة وينفقون جزءًا كبيرًا من وقتهم فى الجدال مع أنفسهم. وفى النهاية يرى المؤلف وهو ليبرالى ومؤيد للسلام مع الفلسطينيين، أنه لا يعتقد أن إسرائيل بإمكانها عدم التنازل.

■■■

You're Too Kind: A Brief History of Flattery
(أنت بالغ اللطف: تاريخ مختصر عن الإطراء)
Richard Stengal
Simon & Schusler, 2000, 315 PP., $25.00

يبين المؤلف من خلال كتابه أن الإطراء أو التملق يمكن اعتباره هدفًا إرتقائيًا أساسيًا لمعظم السلوكيات الاجتماعية عند البشر منذ فجر التاريخ. فهو سلاح لا غنى عنه فى مباشرة جميع الصراعات الشخصية والسياسية على كافة المستويات. فالأضعف يداهن الأقوى ليحصل على مكاسب استراتيجية أو ليتقى شره، والأقوى يطرى الأضعف ليتمكن من إدارته واستغلاله.

إدارة

نهاية عهد الوظيفة
جيرمى ريفكن
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٠

يتحدث كثيرون من أساتذة الإدارة وخبراء التنمية البشرية عن نهاية عهد الوظيفة مع شيوع الخصخصة والاستثمارات ذات الطبيعة المؤقتة، بحيث تصبح الوظيفة ذاتها مربوطة بزمن تنفيذ المشروعات بما يعنى زوال فكرة الوظيفة الدائمة.

■■■

Hidden Value: How Great Companies Achieve Extraordinary Results from Ordinary People
(القيمة الخفية: كيف تحصل الشركات العظيمة على نتائج غير عادية من أشخاص عاديين؟)
Charles A. O'Reilly
Harvard Business School Press, 2000, £17.99

يوضح كيفية خلق نظام إدارى وثقافة إدارية قادرة على جعل العاملين يستخدمون مواهبهم. ويدلل المؤلف على تلك القواعد من خلال تجارب واقعية لبعض الشركات التى قام ببحثها.

■■■

The Mind of the CEO
(عقلية المدير التنفيذى)
Jeffrey Garten
Penguin Press, 2000, £20.00

المؤلف قام بإجراء مقابلات شخصية مع ثلاثين مديرًا من أكبر الشركات العالمية فى العالم، محاولاً استنتاج صفاتهم المشتركة وأسباب نجاحهم.

أدب

عام الفيل
ليلى أبو زيد
القاهرة: المؤلفة نفسها (ط٤)، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب رواية قصيرة، وهى التى يحمل الكتاب اسمها «عام الفيل» وثمانى قصص قصيرة هى بيت فى الغابة ورحلة استجمام والمتذمر والصمت والطلاق وعشاء فى السوق السوداء والغريب وبطالة. وهى تعد من بواكير القصة النسائية المغربية، يقول عنها الناقد عبد العلى بوطيب أنها معضلة المرأة العربية بعامة، والمرأة المغربية خاصة فى إطارها الصحيح، بوصفها إفرازًا موضوعيًا لمعطيات تاريخية.

بيئـــــة

مريوط.. بحيرة فى خطر
عادل أبو زهرة
الإسكندرية: جمعية أصدقاء البيئة، ٢٠٠٠

يتزايد بشكل مطرد الاهتمام بقضايا ومشكلات البيئة، وبين هذه القضايا المخلفات التى اختلفت الآراء بشأن التخلص منها فى البحر أو حرقها فى مواضع خاصة بذلك، وتتعرض بحيرة مريوط لخطر حقيقى بسبب اعتبارها مصرفًا للتخلص من المخلفات، والمؤلف هنا يناقش القضية من كافة جوانبها.

■■■

All our Relations
(كل أقاربنا)
Winona Laduke
South End Press, 1999, 256PP., $14.40

مؤلفة الكتاب اختارها رالف نادر مرشح الرئاسة الأمريكية - والذى ينحدر من أصل عربى - لتكون نائبته فى حزب الخضر. وتنتمى وينونا للسكان الأصليين لأمريكا الشمالية، وتعمل بنشاط من أجل حماية البيئة الأصلية للأراضى الأمريكية. وفى هذا الكتاب تتحدث عن اعتداءات الدولة على البيئة الطبيعية والتى تهدد ما تبقى من ثقافة الهنود الأصليين، حيث تعتمد حياتهم وهويتهم على البيئة الطبيعية المحيطة بهم.

تـاريـــخ وآثـــار

فلسطين فى ضوء أوراق البردى والنقوش
مجموعة باحثين
القاهرة: مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، ٢٠٠٠

يجمع هذا الكتاب بين دفتيه أعمال المؤتمر الذى نظمه المركز عام ١٩٩٨، والأبحاث فى مجملها تعالج التراث الفلسطينى ومكوناته، والثقافة الفلسطينية وروافدها، وصلاتها بالحضارات والثقافات القديمة.

■■■

Sydney: The Story of a City
(سيدنى: قصة مدينة)
Geoffrey Moorhouse
Harcourt Brace, 2000, 296 PP., $25.00

فى الوقت الذى تتجه فيه أنظار العالم كله إلى مدينة سيدنى لمتابعة الألعاب الأوليمبية، يأتى هذا الكتاب ليروى التاريخ الحافل لهذه المدينة منذ أن وصل إلى مينائها الطبيعى الشهير عام ١٧٨٨ أول أسطول بريطانى محمل بسجناء المملكة ليلقى بهم على أرضها. يتناول المؤلف تطور العلاقات بين المستوطنين البيض والسكان الأصليين «الأبورجين»، وفيض المهاجرين الذى أتى من جنوب شرق آسيا.

كما يتناول الجوانب الفنية والمعمارية والسياسية المتعلقة بالمدينة وباستراليا بشكل عام، ليستنتج فى النهاية أن استراليا قد انتهت من فترة المراهقة بمشاكلها لتدخل الآن مرحلة النضوج والتألق مع بداية الألفية الثالثة.

■■■

Hirohito and the Making of Modern Japan
(هيروهيتو واليابان الحديثة)
Herbert P. Bix
Harper Collins, 2000,784 PP.,$35.00

أثار هذا الكتاب منذ ظهوره الشهر الماضى اهتمامًا كبيرًا لما يقدمه من رؤية مختلفة عن تلك التى كانت سائدة حول دور الامبراطور اليابانى هيروهيتو فى الحرب العالمية الثانية وفى تاريخ اليابان فى القرن العشرين. فيؤكد المؤلف أن الصورة التى شاعت عن الامبراطور بعد الحرب العالمية الثانية - والتى ساهمت فى إرسائها الولايات المتحدة الأمريكية والجنرال ماك آرثر - وتظهر الامبراطور فى صورة الجد المسالم البعيد عن السياسة، الذى لا يهوى سوى عالم البحار، صورة مخالفة تمامًا لما كان عليه هيروهيتو وقت الحرب. حيث كان له حضور فى كل جانب من جوانب الحرب وتسبب فى إطالتها بسبب طموحه الامبراطورى وعناده. ويتساءل المؤلف لماذا لم ينتحر الامبراطور مثلما فعل هتلر ومثل رئيس وزرائه المخلص توجو؟

■■■

Strange Victory: Hitler's Conquest of France
(انتصار غريب: غزو هتلر لفرنسا)
Ernest R. May
Hill & Wang Pub, 2002, 384PP., $30.00

مؤرخ عسكرى أمريكى يعيد النظر مرة أخرى فى أسباب الهزيمة السريعة لفرنسا والحلفاء أمام الجيش الألمانى فى ربيع ١٩٤٠ والتى استغرقت ستة أسابيع فقط. فهو لا يعتقد أن سبب الهزيمة راجع للتفوق العسكرى الألمانى، حيث كان الجيش الفرنسى أفضل رجالاً وعتادًا، ولكن الهزيمة وقعت حسب تحليله بسبب التفوق الألمانى على المستوى التكتيكى والتخطيط الاستراتيجى.

تربيـــة وتعـــليم

أولادنا والقراءة
سمير يونس
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠٠

عن الدور الذى تلعبه القراءة فى حياة أبنائنا، حيث يدخل الطفل معها عوالم متعددة، ويتعرف على بيئات ومجتمعات جديدة، ويسافر خياله فى الفضاء وفى أعماق البحار مما يزيد خبراته ومداركه وينمى قدراته المعرفية والتخيلية، كما يناقش المؤلف الدور الذى تلعبه الأسرة فى

تنمية عادة القراءة عند الطفل، وكيف يمكن الاختيار بين أنواع متعددة من الكتب.

■■■

مجموعات المصادر بالمكتبة المدرسية
حسن عبد الشافى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يطرح المؤلف سؤالاً أساسيًا يتعلق بكيفية تكوين المكتبة المدرسية، بوصفها واحدة من آليات تطوير التعليم، وهى برأيه محور العمليات التعليمية والتربوية بالمدرسة المعاصرة، أما مجموعات المصادر التى يقترحها المؤلف، فينبغى أن تكون متنوعة، قوية ومتعددة، بحيث تلبى احتياجات الطلاب فى كافة فروع المعرفة.

■■■

مهارات القراءة
فهيم مصطفى
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

عن المناهج الدراسية فى المرحلة الابتدائية ودورها فى تنمية مهارات القراءة وتطوير الحصيلة اللفظية عند الطفل، وكيفية تدريب الطفل على معرفة المعانى وأشكال الحروف والحركات.

■■■

Gone for Good: Tales of University Life After the Golden Age
(ذهب إلى الأبد: حكايات عن حياة الجامعة بعد العصر الذهبى)
Stuart Rojstaaczer
Oxford University Press, 1999, 210PP., $22.00

المقصود بالعصر الذهبى فى تاريخ الجامعات الأمريكية هو ذلك الوقت الذى كانت تنفق فيه الحكومة الأمريكية على البحوث العلمية بسخاء، لتنافس دول المعسكر المقابل، ولكن ومنذ انتهاء الحرب الباردة قل التنافس وقل الدعم الحكومى المالى وكان على الجامعات البحث عن التمويل من مصادر أخرى. يتحدث المؤلف وهو أستاذ جامعى عن تلك المشكلة وغيرها من المشاكل التى تستشرى فى المناخ الجامعى فى الولايات المتحدة، مثل الكسل الطلابى وتضخم الدرجات والتقديرات وتبسيط المناهج الدراسية لجذب عدد أكبر من الطلاب.. إلخ.

■■■

The Teaching Gap: Best Ideas from the World's Teachers for Improving Education in the Classroom
(الفجوة التدريسية: أفضل الأفكار من مدرسى العالم من أجل تحسين التعلم داخل الفصل)
James W. Stigler, James Hielbert
Free Press, 1999, 210PP., $23.00

من خلال تحليل نتائج «الدراسة الدولية الثالثة للعلوم والرياضيات»، يقدم الكتاب دراسة مقارنة عن الفروق الثقافية فى طرق التدريس، خاصة فى اليابان وألمانيا حيث أفضل النتائج. وقد أظهرت الدراسة أن الولايات المتحدة نتائجها منخفضة للغاية وتقع فى مستوى يضم قبرص وكولومبيا وجنوب أفريقيا والكويت وإيران.

رواية وقصص

الطريق إلى المدن المستحيلة
أبكر آدم إسماعيل
القاهرة: مركز الدراسات السودانية، ٢٠٠٠

رواية عما جرى فى السودان عبر أبطال يحلمون بتغيير هذا الواقع، والمؤلف جيل جديد من أدباء السودان يلى أجيالاً يتقدمها رائد الرواية السودانية المعاصرة الروائى الكبير الطيب صالح.

■■■

شبرا
نعيم صبرى
القاهرة: دار الحضارة، ٢٠٠٠

اشتهر حى شبرا فى القاهرة دومًا بكثافته العالية، وبشهامة أبنائه من أولاد البلد الذين تتمثل فيهم القيم الأصيلة للشعب المصرى بطوائفه ودياناته وطبقاته، هل تغيرت الحال عبر العقود الأخيرة، ما الذى آلت إليه العلاقات بين أبناء هذا الحى الشهير؟ هذا ما تناقشه الرواية.

■■■

كما يليق برجل قصير
وحيد الطويلة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

ثمانى عشرة قصة قصيرة جميعها كما يشير المؤلف فى نهاية كل قصة، كتبت على المقاهى، تمامًا كما كانت مجموعته السابقة خلف النهاية بقليل، الاختلاف فقط فى أسماء المقاهى، والقصص إجمالاً تختصر لحظات إنسانية بالغة الثراء والشفافية من حياة المؤلف.

■■■

Wild Kids (Modern Chinese Literature from Taiwan)
(أولاد متوحشون، أدب صينى حديث من تايوان)
Chang Tochun, Michael Berry
Columbia University Press, 2000, 280PP., $22.95

أول ترجمة إنجليزية لروايتين لأشهر روائى معاصر فى تايوان، ويتناول فيهما حياة المراهقين فى حقبة الثمانينيات.

■■■

Norwegian Wood
(غابة نرويجية)
Haruki Murakami
Jay Rubin (Translator)
Vintage Books, 2000, 320PP., $13.00

نشرت هذه الرواية لأول مرة فى اليابان عام ١٩٨٧ وباعت ٤ ملايين نسخة وجعلت من المؤلف رمزًا شهيرًا للثقافة الشبابية فى اليابان. تدور الرواية ما بين عامى ١٩٦٩و١٩٧٠، عندما كان المؤلف فى الجامعة وكانت الانتفاضات السياسية والاضطرابات الطلابية على أشدها. ولكن الرواية تغوص أيضًا فى قصص الحب، والألم والمتعة والخسارة التى تأتى مع فترة الشباب حيث التوقعات الكبيرة والأحزان الكبيرة.

■■■

Daughter of Fortune
(ابنة الحظ)
Isabel Allende
Margaret Peden (Translator)
Harper Collins, 1999, 399PP., $26.00

آخر رواية كتبتها إيزابيل الندى،وتدور أجواؤها بين بيئتين مختلفتين عاشت فيهما المؤلفة بالفعل، الأولى فى تشيلى موطنها الأصلى، والثانية فى كاليفورنيا حيث تسكن الآن. تدور الأحداث فى منتصف القرن التاسع عشر حول الصراع الدائر داخل عائلة متعددة الأجيال ومتعددة الجنسيات.

سياسة

أسرار سياسية عربية
عبد الهادى البكار
القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف أسرارًا تنشر لأول مرة عن وقائع عاشها وكان طرفًا فى بعضها، وهى أسرار تفسر عشرات الألغاز السياسية العربية، ويقدم المؤلف شهادته عن عقود من السياسة العربية وتحولات هذه السياسة ربما من النقيض إلى النقيض.

■■■

العرب بين قمع الداخل وظلم الخارج
تحرير: بهى الدين حسن
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب أعمال المؤتمر الدولى الأول للحركة العربية لحقوق الإنسان الذى عقد فى الدار البيضاء فى أبريل من العام الماضى، وشارك فيه عشرات من الباحثين العرب الذين وضعوا تصوراتهم لمهمات وأولويات حركة حقوق الإنسان فى العالم العربى على مشارف قرن جديد.

■■■

المخاطرة
عبد الرحيم على
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٠

عن الدوافع الحقيقية لمبادرة وقف العنف التى أطلقها أمراء الجماعة الإسلامية فى عام ١٩٩٧، كما يكشف المؤلف عن التغيرات الاستراتيجية فى موقف الجماعة، وهل تمثل هذه المبادرة تغيرًا جذريًا فى فكرها أم مجرد تكتيك مرحلى.

■■■

تمكين المستضعف
مجموعة باحثين
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٠

يحمل الكتاب عنوانًا فرعيًا هو: نحو منظور عربى لتعليم ونشر ثقافة حقوق الإنسان ويفسر المشرف على التحرير مقصد الدراسات، فبحسب قوله، ثمة مصيدة تفرز آليات مسئولة عن إعاقة انتشار ثقافة حقوق الإنسان، وهذا الكتاب يفضح هذه الآليات ويقدم آليات بديلة تساهم فى نشر ثقافة حقوق الإنسان.

■■■

حقوق الإنسان فى فكر الإسلاميين
الباقر العفيف (محرر)
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب دراسة رئيسية قام بها المحرر وتعقيبات عليها شارك فيها باحثون من مدارس فكرية متنوعة، والقضية التى يطرحها الكتاب هى كيفية تفاعل الخطاب الإسلامى التقليدى مع قضايا حقوق الإنسان، بين المشاركين فى التعقيبات: وحيد عبد المجيد وسيف عبد الفتاح وهيثم مناع وغانم جواد.

■■■

لبنان والصراع العربى الإسرائيلى
إلياس سابا
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠

تمكن اللبنانيون أخيرًا من انتزاع استقلالهم برحيل الإسرائيليين بعد مقاومة باسلة عن الجنوب اللبنانى، لكن لبنان رغم ذلك لم يخرج من معادلة الصراع العربى الإسرائيلى، بل يظل ورقة مهمة وفاعلة فى هذا الصراع، الكتاب الذى يقدم له رئيس الحكومة السابق سليم الحص، يبحث هذا الموضوع.

■■■

Eyewitness to Power: The Essence of Leadership, Nixon to Clinton
(شاهد عيان على القوة: جوهر القيادة من نيكسون إلى كلينتون)
David Genger
Simen & Schuster, 2000, 382 PP., $26.00

يكتب مستشار البيت الأبيض المخضرم ملاحظاته عن أحوال القيادة السياسية الراهنة فى أمريكا، وهو يزعم أن انتخابات الرئاسة الأمريكية التى جرت فى عام ١٩٨٠ كانت آخر انتخابات حقيقية شهدتها البلاد. ويقارن المؤلف مقيمًا الأساليب المختلفة التى تميزت بها الإدارات السابقة فى البيت الأبيض، وخاصة فى بناء الصورة العامة للرئيس وفى التعامل مع الصحافة والإعلام. كما يكتب نصائحه للمتقدمين لمنصب القيادة الأمريكية فى المستقبل.

سيرة

ابن عروس
مسعود شومان
القاهرة: دار سما، ٢٠٠٠

دراسة عن شاعر العامية المصرى ابن عروس، عبر تحليل نقدى للروايات التى نقلت عنه أو الحكايات التى تعرضت لشخصيته وحياته بما يفيد فى معرفة أكثر دقة به.

■■■

البابا شنودة شاعرًا

عادل البطوسي

القاهرة: دار يوحنا الحبيب، ٢٠٠٠

عُـرف عن بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية الأنبا شنودة الثالث اهتماماته المتنوعة، بالأدب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والشئون العامة، وبين اهتماماته وهواياته كتابة الشعر. والمؤلف هنا يتحدث عن أحد هذه الجوانب المهمة في شخصية البابا شنودة وهو كتابة الشعر.

■■■

الشيتى على كرسى الاعتراف

أحمد أبو سيدو

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يجمع الكتاب مقالات للصحفي الراحل عبد الله الشيتى في السياسة والثقافة والشئون العامة، وقد عرف المؤلف بأسلوبه الساخر ورؤيته الشاملة لقضايا الوطن العربي كله، كما يضم الكتاب مقالات كتبت في رثائه.

■■■

حياتى فى الصحافة

عبد الله إمام

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

يروى المؤلف هنا محطات عن تجربته الصحافية الممتدة لأكثر من ٤٠ عامًا قضى معظمها في روز اليوسف ومجلاتها المتعددة، ثم تجربته أخيرًا رئيسًا لتحرير جريدة العربي الناصرية، وهي تجربة ترصد من زاوية شخصية تغيرات وتحولات المجتمع المصري خلال هذه السنوات في السياسة والاقتصاد والصحافة.

■■■

ذكريات وخواطر

أسعد الكوراني

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

سيرة ذاتية للمؤلف يطل من خلالها على المجتمع السوري بإيجابياته وسلبياته طوال عقود مضت. ويبدى آراءً في السياسة السورية وتوجهاتها المعاصرة.

■■■

مى زيادة.. أسطورة الحب والنبوغ

نوال مصطفى

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

ما تزال الأديبة مى زيادة مثيرة للجدل، بحياتها الثرية وضيوف صالونها الذى ارتاده كبار المفكرين والأدباء من طه حسين إلى العقاد إلى أحمد لطفى السيد وآخرين، وعشاقها الكثيرين وولعها بالأديب المهجرى الأشهر جبران خليل جبران، المؤلفة تسعى إلى اكتشاف جوانب جديدة من حياة مى وفصول من أسباب نبوغها.

■■■

I Love You Ronnie
The Letters of Ronald Reagan to Nancy Reagan

(أحبك يا رونى: خطابات رونالد ريجان لنانسى ريجان)

Nancy Reagan

Random House, 2000, 188 PP.,$24.95

مجموعة من الخطابات الرقيقة التى كان يرسلها الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان لزوجته نانسى في مناسبات عديدة مختلفة، تبدأ منذ عام ١٩٥١، عندما تقابلا لأول مرة وإلى أن أصيب بمرض الزهايمر منذ بضع سنوات.

■■■

The Spencer Family

(عائلة سبنسر)

Charles Spencer

Viking, 1999, 368 PP., £20.00

يروى تشارلز سبنسر شقيق الأميرة الراحلة ديانا سبنسر تاريخ عائلته منذ أن كانوا يملكون مزارع للأغنام في القرن السادس عشر وقصة صعود نفوذهم التدريجي في مراتب الجيش والوزارة. كذلك يروى المؤلف ما تميزت به العائلة من رعاية خاصة للفنون والثقافة والكتب بشكل خاص، كما يتحدث عن أهم الشخصيات النسائية في العائلة على مر التاريخ واللاتى كن صاحبات الفضل في تشكيل سمعة العائلة. الكتاب يقدم صورة من الداخل عن الأرستقراطية الإنجليزية الشهيرة.

شـــعــر ونـثـر

أعمال ياسين الفيل

الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٠

دراسة تحليلية للأعمال الشعرية لياسين الفيل من خلال رسالة ماجستير أعدت مؤخرًا عن هذه الأعمال وهي أربعة دواوين: حصاد الإيمان، الإبحار على سفن اليقين، صخب الأقنعة، همسات الصدى.

■■■

قصائد قصيرة

كمال نشأت

القاهرة: جماعة الجيل الجديد، ٢٠٠٠

قصائد بالغة القصر لشاعر مخضرم تتنوع موضوعاتها وتنهل من معين الذكريات، ويغلب عليها ما يميز المؤلف عمومًا من صوفية وإنسانية تحتفى بالإنسان الأشمل وتحيل الذات إلى دوائر أكثر اتساعًا وإحاطة، أكثر من ٦٥ قصيدة تدور في هذا الفلك.

■■■

علاج المسافة

قاسم حداد

تونس: دار تبر الزمان، ٢٠٠٠

يطوِّف بنا الشاعر في المسافة التى أحيانا ما تكون شاسعة بين أحلامنا وواقعنا، وهو يسعى إلى تقريب تلك المسافة برؤى شعرية وفكرية ليست طوباوية تمامًا، لكنها تلمس مواطن الجرح العربي.

■■■

منتهى الطلب من أشعار العرب

تحقيق: د. حسين نصار

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

الجزء الثانى من الكتاب الضخم الذى ألفه ابن ميمون، ويتضمن قصائد لعشرين شاعرا من كبار الشعراء العرب.

■■■

نبش الذاكرة

حامد طاهر

القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٠

نصوص تحار في تصنيفها، فكاتبها أستاذ في الأدب وعميد لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، لكن نصوصه حداثية تحاكى كتّاب قصيدة النثر من الشباب بمعانيها الطازجة ومشاغباتها التى لا تخلو من ذكاء وسخرية.

طـفـل

اليد والبرعم. دراسات في أدب الطفل

على حداد

عمان: مركز عبادى للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

يجول المؤلف بين الأعمال الإبداعية التى كتبت خصيصًا للطفل، ويرى أن الاهتمام بأدب الطفل في الثقافة الغربية لم يبرز إلا في نهاية القرن السابع عشر، وقد تم ذلك بفعل عوامل عديدة منها الأفكار التحررية والإنسانية التى شاعت آنذاك، واكتشاف الأدباء لمساحة خصبة تتيحها الكتابة للطفل. وعلى الرغم من اهتمام الواقع الاجتماعي العربي بالطفل، فإن ذلك الاهتمام لم ينعكس على الأدب بصورة واضحة.

عـلـوم

أشعة الليزر

أحمد عبد الرحمن

الكويت: دار سعاد الصباح، ٢٠٠٠

دخلت أشعة الليزر مجالات عديدة في حياة الناس، في الطب والزراعة والصناعة وغيرها، هذا الكتاب يناقش تأثير أشعة الليزر على الأنسجة الحية وتطبيقاتها في الطب، كما يعرض من ناحية أخرى لمخاطرها وآثارها السلبية.

■■■

A Fly for the Prosecution: How Insect Evidence Helps Solve Crimes

(ذبابة من أجل الدعوى: كيف تساهم الحشرات في حل الجرائم)

M. Lee Goff

Harvard University Press, 2000, 225PP., $22.95

حول الاستخدام الحديث لعلم الحشرات في الكشف عن جرائم القتل. المؤلف أستاذ في علم الحشرات وتتم الاستعانة به منذ سنوات في تحليل ملابسات جرائم القتل من خلال معاينة الحشرات العالقة بالجثث المقتولة والبيئة المحيطة بها، مما يكشف عن أدلة مهمة. ويحتوى الكتاب إلى جانب التفاصيل العلمية على مجموعة من قضايا جرائم القتل التى حدثت بالفعل وشارك في بحثها المؤلف شخصيًا.

■■■

Nonzero: The Logic of Human Destiny

(اللا صفرية: منطق المصير البشرى)

Robert Wright

Pantheon Books, 1999, 435PP., $27.50

المؤلف له نظرية في التطور تتلخص في أن تطور الكائنات الحية تمامًا مثل تطور البشرية، يحدث من خلال التعاون - وليس الصراع - في صورة مباريات لا صفرية. فالفرق بين الكائنات البسيطة والكائنات الأرقى يرجع للتعقد النابع من تعاون واتحاد الأجزاء المختلفة داخل هذا الكائن. ونفس الشيء بالنسبة للتطور الإنساني، حيث يتضح أن العولمة والميل للاندماج والاتحاد وازدياد الاعتماد المتبادل بين أفراد المجتمع الواحد وبين المجتمعات المختلفة هو دليل على استمرار عملية التطور والارتقاء البشرى.

فـكـر

حضارة العرب

جوستاف لوبون

ترجمة: عادل زعيتر

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

عن فضل الحضارة العربية الإسلامية على تمدين أوروبا وحضارتها الحديثة، وقد بات مستقرًا الآن في مناهج البحث الأوروبية، الدور المهم للحضارة العربية في نهضة أوروبا وإيقاظها من غفوتها في عصور الظلام الوسطى.

■■■

في ذكرى غالى شكرى

وائل غالى

القاهرة: أكاديمية الفنون، ٢٠٠٠

لم يكن الدكتور غالى شكرى ناقدًا أدبيًا فحسب، كان باحثًا اجتماعيًا ومحللًا سياسيًا ومؤرخًا مدققًا، كان حالة استثنائية لمثقف منشغل بالشأن العام ومهموم بقضايا أمته وبعثها بإحياء قيم الاستنارة والتقدم، هذا الكتاب يقدم شهادات لمحمود أمين العالم وأحمد عبد المعطى حجازى وجورج بهجورى ورفعت السعيد وحلمى سالم وسمير سرحان وآخرين، عن دور غالى شكرى وإنجازه الثقافى على مدى نصف قرن تقريبًا.

■■■

The Guilt of Nations: Restitution and Negotiating Historical Injustices

(ذنب الأمم: تعويض ومفاوضة المظالم التاريخية)

Elazar Barkan

W.W Norton, 2000, 418PP., $29.95

يناقش الكاتب النقاط الخلافية التى تثيرها مسألة دفع تعويضات مالية للشعوب أو الأمم التى تعرضت لمظالم

تاريخية على يد دول أخرى، مثل تعويض الأبورجين فى أستراليا أو الهنود الحمر فى الولايات المتحدة وكندا، والكوريين الذين تعرضوا للعبودية على يد اليابانيين، واليهود بالطبع... إلخ. ويحاول الكاتب أن يبرز فوائد وأضرار هذه العملية بالنسبة لتلك الشعوب وغيرها من النواحى الأخلاقية والعملية.

■■■

The Myth of Matriarchal Prehistory: Why an Invented Past will not give Women a Future

(خرافة السلطة الأموية ماقبل التاريخية: لماذا لن يعطى الماضى المخترع مستقبلاً للنساء)

■■■

Cynthia Eller

Beacon Press, 2000, 304PP., $26.00

تنفى المؤلفة ما تؤمن به الكثير من الكاتبات النشيطات فى مجال الدعم النسوى، وهو وجود عصر ذهبى فى وقت ما قبل التاريخ، حكمت فيه النساء الأرض، وكان العالم كله يعبد الإلهة. وهى تقوم فى هذا الكتاب بهدم تلك النظرية على أساس تاريخى وأثرى، كما تؤكد على أن الخرافة لا تصلح كاساس لأى حركة اجتماعية لأنها أساس ضعيف لن يجنى أى تقدم.

فلسفة

تاريخ فلاسفة الإسلام

محمد لطفى جمعة

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠

دراسة لسيرة وعطاء عدد من أهم الفلاسفة فى تاريخ الإسلام مثل الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم ومحى الدين بن عربى وابن مسكويه وإخوان الصفا، والمؤلف يقدم إلى جانب سيرة حياتهم، بعضًا من آرائهم وتصوراتهم للكون والحياة والوجود وبقية القضايا التى شغلتهم.

فنون

خمسون عامًا من الثقافة السينمائية

ناجى فوزى

القاهرة: المركز الكاثوليكى المصرى للسينما، ٢٠٠٠

دراسة عن دور المركز الكاثوليكى فى تشجيع الثقافة السينمائية الجادة ونشرها بين الجمهور، خصوصًا أن هذا المركز يقدم جوائز سينمائية سنوية لأفضل الأعمال السينمائية وأفضل النجوم وفق معايير منضبطة تهتم بالقيم التى يبثها العمل وانعكاساتها على الجمهور.

■■■

دراسات تشكيلية

صبرى منصور

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

مجموعة من الدراسات تلقى أضواءً على عديد من القضايا التشكيلية عن مصر منذ عصور الفراعنة وحتى بدايات الفن الحديث وكيف تداخلت السمات الفرعونية والقبطية والإسلامية كى تعطى الفن المصرى المعاصر شخصيته المتميزة، ثم عن الفن الأوروج ومدارسه المختلفة وأهم رموز هذه المدارس.

■■■

مسيرة الفن التشكيلى السعودى

عبد الرحمن سليمان

السعودية: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ٢٠٠٠

حقق الفن التشكيلى السعودى قفزات مهمة فى مسيرته خلال العقود الأخيرة، واجتذب فنانين من الشباب من الجنسين مزجوا مدارس الفن الأوروج ومذاهبه بمعطيات البيئة السعودية وتراثها المتميز. المؤلف ـ وهو فنان تشكيلى ـ يعرض لهذه المسيرة ويتوقف عند أبرز الأسماء فى سماء الفن التشكيلى السعودى.

■■■

Rap Music and the Poetics of Identity

(موسيقى الراب وشعرية الهوية)

Adam Crims

Cambridge University Press, 2000

الكتاب يناقش بالتفصيل كيف يتم تركيب موسيقى الراب وكيف تساهم موسيقى الراب فى تكوين الهويات الثقافية لكل من الفنانين والجمهور. ويتناول بالدراسة موسيقى فرق محددة من أمريكا وكندا وهولندا للوقوف على الخصائص المحلية والعالمية المختلفة لموسيقى الراب فى العالم.

■■■

The Beatles Anthology

(مختارات البيتلز)

By the Beatles

Chronicle Books, 2000, 468PP., $60.00

لأول مرة يوافق كل من بول مكارتنى وجورج هاريسون ورنجو ستار ـ الأعضاء السابقين لفريق البيتلز ـ على التعاون معًا لتدوين السيرة الذاتية لفريق البيتلز، كذلك تتعاون معهم يوكو أونو زوجة الراحل جون لينون.

ويحتوى الكتاب إلى جانب ذكرياتهم الشخصية كل على حدة على مجموعة من التصريحات والأحاديث الصحفية وصور لم تنشر من قبل ووثائق مختلفة أخرجها أعضاء الفرقة من أرشيفاتهم الخاصة خصيصًا لهذا الكتاب.

قانون

دراسات فى القانون الدولى الإنسانى

باحثون ومتخصصون بإشراف: مفيد شهاب

القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٠

استجدت مشكلات عديدة على كوكب الأرض كان حتمًا على الإنسان أن يواجهها بالقانون بوصفها مشكلات ذات طابع إنسانى ولا تختص بمنطقة دون

أخرى، ومنها المشكلات الناجمة عن انتشار السلاح النووي وكيفية التخلص من النفايات النووية، ومشكلات نقص الماء والغذاء، ومشكلات البيئة وتلوثها، كيف يمكن حماية الإنسان والكوكب الأرضي ووضع القوانين التي تنظم الحياة فيه لدرء هذه المخاطر؟ هذا ما تجيب عنه دراسات الكتاب.

موسوعات ومعاجم

كتاب فلسطين في القرن العشرين

أحمد عمر شاهين

فلسطين: المركز القومي للدراسات والتوثيق، ٢٠٠٠

موسوعة تضم عشرات المبدعين الذين أجبروا على الخروج من ديارهم في فلسطين، وواصلوا إبداعهم خارجها، وآخرين استمروا يبدعون برغم ظروف الاحتلال القاسية، وبين هؤلاء: محمود درويش وسميح القاسم وفدوى طوقان وإميل حبيب وإدوارد سعيد وغيرهم.

■■■

معجم ألفاظ الشخصية

أحمد محمد عبد الخالق

الكويت: مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ٢٠٠٠

كالبصمة، لا تتكرر الشخصية، مكوناتها النفسية والثقافية والبيولوجية والبيئية، وجميعها تنعكس على فكر الشخصية وتصوراتها للكون والحياة، ولغتها التي هي وعاء هذا الفكر، هذا المعجم يبحث في ألفاظ الشخصية الإنسانية وفق هذه الاختلافات، وهو الأول من نوعه في العالم العربي.

■■■

موسوعة فن العمارة الإسلامية

جمعة قاجة

بيروت: دار الملتقى، ٢٠٠٠

ارتبطت فنون العمارة الإسلامية بالتاريخ الإسلامي على امتداده وبعواصم الخلافة والخلفاء أنفسهم، بحيث يمكن التمييز بين عمارة إسلامية فاطمية وأخرى أيوبية وثالثة عثمانية وهكذا، وإن جمعت بينهما سمات مشتركة، فضلاً عن التأثير الجغرافي للعمارة الإسلامية، ويستعرض المؤلف هنا العمارة الإسلامية وتمايزاتها ومدارسها.

■■■

The Rider Encyclopedia of Eastern Philosophy and Religion

(موسوعة رايدر في الأديان والفلسفات الشرقية)

Stephen Schumacher (editor)

Rider, 1999, 483PP., £14.99

تقدم مسحًا شاملاً للتعاليم وللمفاهيم التي تحتويها الأديان والفلسفات الشرق آسيوية مثل التاوية والهندوسية. كما تعرض تعاليم وأفكار أهم الصوفيين والمفكرين والفلاسفة في شرق آسيا وسيرهم.

■■■

The Dictionary of Human Geography

(قاموس الجغرافيا البشرية)

Derek Gregory et.al (editors)

Blackwell Publishers, 2000, 969PP., £19.99

مرجع للجغرافيين ولدارسي العلوم الاجتماعية وللمجالات العابرة للتخصص. يحتوي على شرح للمفاهيم والمصطلحات والنظريات المستخدمة في الجغرافيا البشرية.

■■■

York Dictionary of Phrasal Verbs and Their Idioms, English - English Arabic

(معجم يورك الأفعال العبارية، إنجليزي - إنجليزي - عربي)

Tom Mcarthur, Beryl, Atkins
Mohammed M.H. Heliel

Egyptian International Pub. Co. - Longman, 2000, 313PP., £28.00

مرجع مهم لكل المتعاملين مع نصوص إنجليزية خاصة المترجمين والصحفيين والدارسين. يختص بتقديم شرح للمعاني المختلفة للأفعال العبارية الإنجليزية، ويأتي بمقابلها العربي والإنجليزي.

نقد أدبي

الهجوم على الأدب

رينيه ويليك

ترجمة: حنا عبود

دمشق: الأهالي للنشر، ٢٠٠٠

هل يمكن أن يعيش الناس في عصر الحضارة الإلكترونية وثورة الاتصالات والبرمجيات والصناعات الدقيقة والميكروسوفت دون أدب، ماذا لو انتهى الأدب وتوارى دوره ونُكست راية الخيال، كيف يمكن أن يكون شكل العالم؟

■■■

زمن للشعر والشعراء

فاروق شوشة

القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف بالتحليل عددًا من أبرز شعراء العربية في العصر الحديث من أمثال صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتي ومحمد الفيتوري وأدونيس وأحمد رامي وغيرهم ممن ينتمون إلى مدارس شعرية متمايزة، لكنها إجمالاً تكمل الصورة الشعرية في عصرنا الحاضر.

■■■

لطفي جمعة في الأدب والنقد

رابح لطفي جمعة

القاهرة: دار الكتب، ٢٠٠٠

دراسات أعدها باحثون عن الكاتب الرائد لطفي جمعة، ويتضمن مقالات كتبها في الأدب والنقد ونشرت في الصحف والمجلات العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومعروف أن لطفي جمعة واحد من الرواد الذين أثروا حياتنا الثقافية خلال نصف قرن، وإن لم يحظ بالشهرة التي تناسب عطاءه.

■■■

" نون "

الدورة الأوليمبية وثقافة الرياضة

تحتل ثقافة الرياضة فى حياة الشعوب، مساحة أوسع بكثير من المساحة التى تحتلها أنواع أخرى من الثقافات.. أدبية كانت أم سياسية أم اجتماعية، وقد لا تضاهيها فى ذلك غير ثقافة الغناء والموسيقى وفنون السينما والمسرح. وإن كانت ثقافة الرياضة تظل هى الأقرب إلى فطرة الإنسان وميوله، بحكم أنها تعبير عن محاولة الارتقاء بنزعات الفرد العدوانية المكبوتة، وصراعاته ومنافساته الحياتية اليومية، إلى مستوى أعلى من التنافس الرياضى. ولا يحتاج الإنسان مع هذا النوع من الثقافة الرياضية إلا لمستوى تعليمى متواضع، ومتابعة لفنون الحركة والأداء، والسرعة والإتقان فى مجالات التنافس الرياضى المختلفة، على المستوى الفردى أو الجماعى للعبة أيا كانت.

ومن هنا يأتى هذا الاهتمام الواسع الذى تحظى به دورة الألعاب الأوليمبية من جانب أعداد من المشاهدين تمثل ما يقرب من نصف سكان الكرة الأرضية، وقد تحظى بعض اللعبات بحماس الجماهير أكثر من بعضها الآخر، وتصل درجة التعصب والتشجيع لفريق بعينه دون فريق فى المباريات الرياضية، إلى حدود تتجاوز المنطق والعقل، وتتنافى مع السلوك السوى فى الانتماء والتشجيع.. وتمثل لعبة كرة القدم قمة الألعاب ذات الجماهيرية الشعبية الواسعة النطاق، والتى يمكن أن تعبئ مشاعر الملايين خلف فريق أو ضد فريق. كثيرًا ما ينتهى بها الأمر إلى حدوث انفجارات من العنف التلقائى غير المخطط.. تستوى فى ذلك شعوب أكثر الدول الأوروبية تقدمًا وشعوب أكثر الدول تخلفًا فى أفريقيا أو أمريكا اللاتينية. وهى ظواهر لا تحدث فى أى مجال من مجالات التنافس فى الثقافات الأخرى كالغناء والموسيقى، أو التنافس الأيديولوجى والعقائدى ذى الطابع السياسى أو الدينى. إذ يحتاج الأمر فى مثل هذه الحالات الأخيرة إلى مراحل متدرجة من التخطيط والتعبئة التى تسبق تفجير الصراع عند مستوى معين من مستويات العنف.

والأصل فى فكرة الألعاب الأوليمبية هو تفادى الصراعات الإنسانية التى تفضى إلى نشوب الحروب، والارتقاء بالمنافسات بين الشعوب إلى منافسات رياضية بين الأبطال والمتفوقين فى لعب مختلفة، تظهر القدرة على بلوغ أرقى درجة من درجات اللياقة البدنية والمهارة الحركية والسرعة. ولا يعرف التاريخ متى بدأت الألعاب الأوليمبية ولكن أول سجل لها فى التاريخ يرجع إلى ٧٧٦ ق.م. وكانت مقصورة على اليونانيين.. تعقد كل أربع سنوات ويجرى إعلان هدنة مقدسة وقت انعقادها، حتى يتاح للمشاركين فى المباريات السفر والانتقال دون تعريض حياتهم للخطر أو للأسر. ولم تكن الجائزة التى يحصل عليها الفائز تزيد على غصن أخضر من أغصان الزيتون.. تخلع عليه ألقاب البطولة وأناشيد المديح من الشعراء والموسيقيين، يتغنون بشجاعة البطل ومهارته، ولياقته البدنية وقدرته على التغلب على خصمه.

لم يعد الأمر كذلك الآن..

انتهى زمن الهواية، وأغرقت الرياضة فى الاحتراف.. ولم يعد الأمر مقصورًا على جمع أكبر عدد من الميداليات الذهبية أو الفضية، بل اقتحم التطور العلمى والتكنولوجى مجالات الرياضة المختلفة، ودخلت التجارة والبيزنس دنيا المسابقات، وتسللت العقاقير والمنشطات إلى أجسام الرياضيين، وطغت الاعتبارات السياسية على المبادئ الأخلاقية، وأصبح تحقيق الأرقام القياسية هو المعيار، ليس فقط على مستوى المتنافسين ولكن أيضًا على مستوى المدن والدول التى يقع الاختيار عليها لتنظيم الدورة الأوليمبية.. أيها يحقق أعلى درجة من النجاح فى التنظيم والإدارة وتأمين اللاعبين، ويحقق فى الوقت نفسه أعلى عائد من الدخل والرواج التجارى والمالى للبلد وأهله، ويستغل الزخم الإعلامى الهائل فى الدعاية والترويج السياسى والسياحى والاقتصادى.

وراء الثقافة الرياضية إذن يمتد عالم واسع، تتنافس الدول والشعوب على الإحاطة به وبأسراره وبتقنياته.. وهذا العالم هو الذى يصنع ما يمكن أن نسميه الثقافة الأوليمبية التى تحوى بين دفتيها - إلى جانب الثقافة الرياضية - أنواعًا مختلفة من المهارات والقدرات التنظيمية والإدارية والفنية والتكنولوچية.. وقبل كل شىء كفاءات بشرية، يمكن أن تعمل وتنتج فى ظل قوانين ونظم جماعية. لا يكفى أن تتوافر الملاعب والمنشآت وصالات الچيمنازيوم والمدرجات وأماكن الإقامة والمواصلات والاتصالات لعدة ألوف من اللاعبين والإداريين والإعلاميين، بل يحتاج الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك.. إلى ما يمكن أن نسميه «معايشة العصر»، والقدرة على الإبهار والابتكار والمنافسة الحضارية.

ولهذا السبب لم يحدث أن أقيمت دورة أوليمبية فى أية دولة عربية، ولن يحدث ذلك فى القريب.. على الرغم من ادعاءات دول عربية بأنها تتوافر لديها الإمكانيات المادية لإقامة المنشآت والملاعب، وشراء الكفاءات التى تقوم على شئون التنظيم والإدارة.. وربما تكون لديها بعض فرق رياضية متميزة فى لعبة أو لعبتين. ولكنها تفتقر إلى الروح الرياضية أو الثقافة الرياضية التى ترتقى بالألعاب الجماعية (مثل كرة القدم أو السلة) إلى ذرى الإتقان، الذى يسمح بتميز الفرد داخل إطار الجماعة أى الفريق، ويسمح بتفوق الفريق من خلال الاعتراف بالمهارة الفردية!

أما اللعبات الفردية التى تعتمد على تربية مهارات بدنية وعضلية ونفسية، يحركها الطموح الفردى المشروع، ويستجيب لها المجتمع بالحوافز المادية والتقدير الأدبى، فقلما ينجح فى المجتمعات العربية، التى عادة ما يذوب فيها الفرد تحت وطأة القبيلة أو الأسرة أو الجماعة أو النظام السياسى. وفى وقت من الأوقات تفوقت مصر أوليمبيا فى المصارعة ورفع الأثقال وسباحة المسافات الطويلة. ولكنها كانت أشبه بالاستثناء الذى يؤكد القاعدة. وقد ظهر أن كثيرًا من البطولات التى تحققت فى لعبات فردية فى ظل الأنظمة الشمولية، كانت تعتمد على المنشطات والعقاقير. واضطرت الصين فى الدورة الأوليمبية الراهنة إلى سحب أكثر من ٣٥ من أبطالها المتفوقين فى لعبات فردية مختلفة، فى ظل اشتداد الرقابة التى تفرضها اللجنة الأوليمبية للتأكد من عدم تناول اللاعبين لعقاقير غير مسموح بها.

لم تعد الثقافة الرياضية بمعناها الواسع أو الثقافة الأوليمبية بمعناها الأوسع، قصرًا على تربية الكفاءات الرياضية والكوادر الإدارية والتدريبية التى تكفل لها حصد الجوائز والميداليات الذهبية والفضية، وامتلاك المهارات القادرة على تنظيم الدورات الأوليمبية وجنى ثمارها.. ولكنها أصبحت تولى اهتمامًا مساويا للتعرف على سلوكيات الجماهير الواسعة من المشجعين بجميع درجاتهم، الذين تتصاعد لديهم مشاعر الحماس والتأييد إلى درجة التعصب، الذى يفضى إلى انفجار الطاقات المكبوتة فى أعمال عنف وشغب فى المدرجات والملاعب لكى تنتقل بعدها إلى الشوارع، بصورة تهدد الأمن والنظام.

وتمتلئ الأدبيات الخاصة بالأبحاث العلمية التى تجرى فى هذه المجالات، بدراسات عميقة، تتناول التغيرات والتحولات النفسية والجسمية والمزاجية التى تطرأ على مشجعى لعبة رياضية بعينها، أو فريق بعينه، أو بطل من الأبطال المتسابقين.

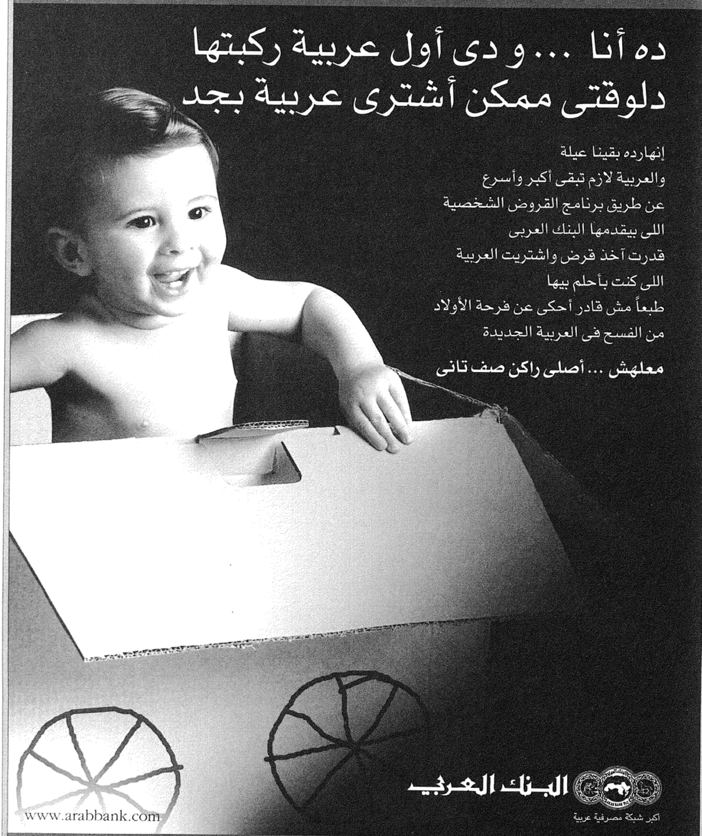
ولا تزال هذه الأبحاث فى بداياتها الأولى، بعد أن أدى انتشار الرياضة وتغلغلها فى مختلف الطبقات الشعبية، إلى ظواهر مرضية أو غير طبيعية لم تكن ملحوظة من قبل. وفى هذا الصدد تثور تساؤلات مثل: لماذا يرتبط شخص ما بفريق رياضى هذا الارتباط العميق؟ ولماذا تكون نتيجة مباراة فى لعبة ما مثار شعور بالفخر والاعتزاز وتقدير الذات، أو شعور بالهزيمة والإحباط والإذلال؟

هناك نظريات عديدة تفسر هذه السلوكيات، هى جزء من الثقافة الرياضية السائدة الآن، ويتم على أساسها مراعاة قواعد معينة فى تنظيم المباريات، ومواجهة الجماهير الزاحفة فى الملاعب الكبيرة التى تحتشد بعشرات الألوف من المشجعين دفعة واحدة، تفاديا لوقوع حوادث طارئة يصعب السيطرة عليها.

وبعض هذه النظريات يعود فى تحليله لسيكولوجية المشجعين إلى الجذور الأولى، عندما كانت التجمعات الإنسانية مجرد تجمعات قبلية، تعتمد فى حمايتها والدفاع عن أمنها ضد القبائل الأخرى والأخطار الخارجية، على عدد من المحاربين الأشداء. وهو ما يحدث الآن فى المجتمعات الحديثة المتحضرة، التى يمثل فيها الرياضيون الأبطال دور المحاربين القدماء ولكن فى ساحات الملاعب والصالات المغطاة.

ما نريد أن نخلص إليه هو أن الثقافة الرياضية أصبحت تشتمل على مجالات أوسع كثيرًا مما درج عليه المسئولون عن الرياضة فى بلادنا. وأن تنوع الثقافات لا يعنى فقط اختلاف الثقافات باختلاف الشعوب، ولكنه يعنى أيضًا أن لكل نشاط إنسانى ثقافته الخاصة به، وأن التفوق فى هذا النشاط الإنسانى - الرياضة فى هذه الحالة - يقتضى إلمامًا كاملاً وإحاطة شاملة بثقافة الرياضة. فالتفوق الذى تحرزه بعض الدول فى الدورات الأوليمبية أو المباريات الدولية لا يأتى من فراغ، وليس ضربة حظ أو رمية بغير رام. بل هو استنفار لكل ما فى الإنسان من مواهب ومميزات عقلية وجسدية ومهارات تكنولوچية ومعرفية.

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 22 - November 2000

مجلة شهرية . العدد الثانى والعشرون . السنة الثانية . نوفمبر ٢٠٠٠ . الثمن عشرة جنيهات

سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية

مياه.. وقنابل ذرية!

محمد حسنين هيكل

اعترافات يهودية : تدمير فلسطين شرط قيام إسرائيل

سلمان أبو سنة

ظاهرة تلبيس الطواقى بين رجال الأعمال!

محمود عبد الفضيل

أزمة الإنسان والكتاب فى العالم العربى

قاسم عبده قاسم

اعادة تفسير السقوط السوفيتى

جلال أمين

سلام يقتل السلام

سلامة أحمد سلامة



الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الثانى والعشرون
نوفمبر ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها طالما عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

كتّاب العدد:

- أبو زيد راجح .. رئيس الهيئة العامة لبحوث الإسكان والبناء والتخطيط العمرانى سابقا
- جلال أمين .. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية
- حسين الواد .. أستاذ الأدب العربى بجامعة تونس
- حسن عبدالبصير .. مساعد مدير منطقة آثار الجيزة
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- سلمان أبو ستة .. باحث فلسطينى
- عبدالرءوف الريدى .. سفير مصر الأسبق فى واشنطن
- عمرو كمال حمودة .. مدير مركز الفسطاط للدراسات بالقاهرة
- قاسم عبده قاسم .. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق
- كولين ماكجين .. أستاذ الفلسفة بجامعة رتجرز
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد فخرى الوصيف .. أستاذ فى التاريخ الأندلسى
- محمد يوسف عدس .. باحث فى الشئون السياسية والتاريخية مقيم فى إنجلترا
- مرفت عبدالناصر .. أستاذ الطب النفسى بجامعة ليستر فى إنجلترا
- وديع فلسطين .. صحفى وعضو مجمعى اللغة العربية بدمشق والأردن

رسوم العدد للفنانين محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولى
٣ ميدان طلعت حرب . القاهرة . جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا . باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص . ب : ٣٣ البانوراما . مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ . *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

محتويات العدد:

كلمة..

ما يجرى.. وما جرى

«أسمع عجيجا ولا أرى طحناً» .. لربما كان المثل العربى القديم ـ وهو «عربى» لأنه جدير بأن يكون كذلك ـ ينطبق اليوم على كثير مما يجرى حولنا. إذ نسمع .. ولانرى أثراً على الأرض . ففى غياب آليات واضحة لترجمة «الكلمات»، تفقد حتى الكلمات ـ فضلاً عن قداستها الأزلية ـ تعريفها الإجرائى الذى ينحصر بالضرورة فى «الفهم.. والوصف.. والقرار». وتبقى فى النهاية فقاعات فى الهواء، أو زَبداً فى بحر مائج.

لهذا كان العرب القدامى يفرقون دائما بين الكلام ـ الذى له علم مختص به ـ وبين العجيج الذى هو مجرد صوت. أو حسب الفيروزابادى، صاحب القاموس: «الصياح والصخب والغبار والدخان..».

وكما يخفى الدخانُ عادةً حجمَ النار ونقطةَ اشتعالها، تضيعُ فى غبار الصخبِ وضجيج الصياح، حقائقُ الأشياء وجذورُ كل ما يبدو أعلى الركامَ من فروع. وفى قصّتنا ـ أو ملحمتنا الشرق أوسطية ـ تمتد بعض الجذور، فى الحقيقة والأسطورة، إلى آلاف السنين. كما يعود بعضها الآخر، فى التاريخ والسياسة، إلى أكثر من نصف قرن من هذا الزمان القريب.

وإذا كانت الصحيفة اليومية تقدم الحدث «متابعة»، والأسبوعية تقرأه «وصفا وفهماً وتحليلاً»، فإن «تأصيل» مايجرى، والبحث المتمهل فى جذوره وأبعاده، ربما كان المهمة التى يجب أن تضطلع بها شهرية مثل «وجهات نظر».

وفى تلك الأيام التى تموج فيها المنطقة بأحداث و«محاولات» .. ودماء. اخترنا فى «وجهات نظر» ـ بعد نقاش وتحاور ـ أن نقف على مسافة «مناسبة ومطلوبة» من الحدث وتفصيلاته. لنميزَ قدر المستطاع، ما قد تختلط ألوانه على «العابرين» من قريب. فنبدأ «قراءة فى التاريخ». ونتابع «قراءة فى الوثائق».

سلمان أبو ستة، الباحث الفلسطينى المتخصص، يقدم «عرضا ورؤية» لكتاب يحكى فيه كاتبه ـ الإسرائيلى هذه المرة ـ ميرون بنفينستى كيف قام الإسرائيليون قبل نصف قرن بأكبر عملية تطهير عرقى لم تجد حظها أبدا فى إلقاء الضوء أو الاهتمام التاريخى.

يحكى الكتاب الإسرائيلى وقائع النزوح القسرى للفلسطينيين قبل خمسة عقود. يومها ـ كما هو معروف ـ أصدرت الأمم المتحدة توصيتها بتقسيم فلسطين إلى دولتين: يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين مُنحت لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ تركها القرار لمن يملكون فعلياً ٩٥٪ من الأرض. ويومها استقبل العرب القرار «الظالم» بالاحتجاجات والتظاهرات، فى حين استقبله اليهود، الذين صار اسمهم «الإسرائيليون»، بعمل منظم، وتنفيذ لخطة كانت تفاصيلها بين أوراق «بن جوريون» قبل سنوات. وقد لا يكون مصادفة ـ فالتاريخ لا يعرف المصادفة عادة ـ أن الأسلوب لم يختلف كثيرا عن ما نراه اليوم على شاشات الفضائيات. يومها حاصروا القرى الصغيرة، ونسفوا المنازل العربية فى أبو كبير ودير أيوب تطبيقاً «لمبدأ الردع بالترويع» الذى دأب الإسرائيليون ومازالوا على انتهاجه. ويومها ـ وليس فى الأمر أيضاً مصادفة ـ لم يكن اسم «إريل شارون» بعيداً عن ما يجرى.

ويمضى المؤلف الإسرائيلى ليحكى وقائع الأيام الستة والثلاثين، والتى كان على اليهود أن ينهوا فيها الجزء الأكبر من عمليتهم، قبل أن ينهى البريطانيون انتدابهم فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وكيف نجح بن جوريون فى طرد ٤١٠,٠٠٠ من سكان القرى الفلسطينية. ويصف المذابح التى كان الإسرائيليون يقومون بها لترويع سكان القرى. وكيف كان المستوطنون والجنود يقتلون الشباب الفلسطينى بعد اعتقالهم فى مجموعات بحيث تدفن المجموعة التالية من سبقها «قبل أن تقتل بدورها». وكيف شحنوا النساء والأطفال فى سيارات لرميهم ـ كدرع بشرى على خطوط القوات العربية ـ ثم كيف أجلسوهم فى منتصف الطريق على أكوام حصيد القمح الناشف، وصبوا عليهم بنزيناً .. وأحرقوهم.

على الناحية الأخرى من النهر، والنهر هنا هو «التاريخ» الذى ـ لأسباب جغرافية ـ يموج مجراه الشرق أوسطى عادة، بوقائع وأحداث متلاحقة متسارعة، يتابع الأستاذ محمد حسنين هيكل قراءته للوثائق الإسرائيلية. والتى هى فى الوقت ذاته للكثيرين «قراءة للحاضر فى ضوء الوثائق الإسرائيلية».

نقرأ فى هذا الجزء (الثانى) كيف يتعاطى الإسرائيليون مع «القمم العربية»، وكيف تمكنت «الموساد» من التسجيل الكامل، بالصوت والصورة، لمناقشات ومساجلات قمة دار البيضاء (سبتمبر١٩٦٥). وتفضح الوثائق عن الكثير مما رتبته إسرائيل على ما سمعته وعرفته من داخل جلسات هذا المؤتمر (الأخير قبل حرب ١٩٦٧).

وتشرح الوثائق أيضاً كيف يرى بن جوريون أن «العرب، المثقلين أصلاً بتناقضاتهم الداخلية، نفسهم قصير.. فهم قد يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم، وضعفت حماستهم، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جمعت بينهم..».

ويحكى هيكل حواره مع الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» حول اتفاق أوسلو بعد أسابيع من إعلانه عام ١٩٩٣ والذى عبر فيه الرئيس الفرنسى ـ رغم أجواء التفاؤل الاحتفالية وقتها ـ عن اعتقاده بأن الطرفين لن يصلا إلى حل قبل خمس أو ست سنوات «رغم كل ماقدمه عرفات يومها» لأن الإسرائيليين سيلجئون إلى تدويخ الفلسطينيين حتى يخفضوا سقف توقعاتهم قبل الدخول فى التفاوض الجاد. وذلك بإضاعة الوقت و«الجهد» كليهما فى الاقتراب من مائدة المفاوضات ثم «الابتعاد» عنها.. وطرح الصيغ الواسعة المطاطة، التى تصبح كفيلة بإضاعة وقت إضافى فى تفسيرها. فضلاً عن إغراق المفاوض الفلسطينى فى بحر من الأفكار والمقترحات، والوسطاء والوساطات.. ثم الالتفاف حول كل شىء للعودة دائماً لنقطة البداية.

المثير أن الوثائق الإسرائيلية تكشف عن المنابع الأصلية للتكتيك الإسرائيلى الذى أشار إليه ميتران. والقائم على «التدويخ والاستنزاف السياسى»، والذى يعرفه جيدا الصحفيون الذين تابعوا عن قرب مباحثات طابا الماراثونية، والتى ازدحمت ملفاتها فى حينه بعدد لانهائى من القضايا الجانبية. بدءاً من المعاملة التى يلقاها مهرب المخدرات الإسرائيلى يوسف طحان فى سجنه، وحتى نوع الطلاء المخصص لمقبرة «أبى حصيرة» فى دمنهور.

إذن فالقراءة فى التاريخ، كما فى الوثائق «القديمة» ـ إن كان التعبيرُ جائزاً ـ لاتكون بالضرورة عودة إلى الماضى. «فبعض القراءة» إنما يكون فى حقيقته محاولة «لفهم مايجرى.. فى ضوء ماجرى».

وجهات نظر

٢

محمد حسنين هيكل



مياه .. وقنابل ذريّة!

ساءلت نفسى مع موسم العودة من الشواطئ: لماذا كان استغراقى إلى درجة الغَرَق مع الوثائق الإسرائيلية أسابيع صيف مُمتدَّة على سواحل البحر الأبيض جنوباً وشمالاً؟ كان داعىَ إلى مُساءلة نفسى أن أستوثق من أن وقتى لعدَّة أسابيع من هذا الصيف لم يكن مجرد تَعَلُّق بالماضى لسبب من الأسباب التى تدعو الناس للعودة إليه، وهى مختلفة:

- ذلك أن هناك الحنين بالطبيعة إلى ما مَضى حتى إذا كانت العودة إليه مُرهقة، فالعودة إلى الماضى هى فى نفس الوقت عودة إلى زمن .. أى عودة بالحَنين إلى سنوات من عُمر كان يملك قُدرَة الشباب على كل شىء، بما فى ذلك احتمال الأزمات.

- بعد ذلك فإن هناك العودة إلى الماضى بقصد إجراء نوع من ترميمه، أو تلوينه، وربما إعادة رسمه بأثر رجعى ثم تكون من ذلك، بتصميم أو بمصادفة، خِدمة لسياسة أو لموقف.

- وأخيراً فهناك عودة إلى الماضى بقصد الهرب أو التَهَرُّب من الحاضر، لأن الكلام عن الماضى ميسورٌ بينما الحاضر خطر، والمستقبل مجهول! وبعد تفكيرٍ طال، وتأمُّل الزَمْته بالإنصاف أو جَرَّبتُ حازماً - فإن أياً من هذه الأسباب الثلاثة لم يكن ضمن أسبابى لمساحة الزمن التى صَرَفتها فى قراءة الوثائق الإسرائيلية. بعد تفكير وتأمُّل وَجَدتُ عندى نوعين من الأسباب، أولهما موضوعى، والثانى مبدئى:

□ بالنسبة للأسباب الموضوعية فقد وَجَدتُ أن القراءة فى الوثائق الإسرائيلية ليست من الأصل عودة إلى الماضى، وإنما هى وقوف مع الحاضر بذاته وصفاته وباعتبار أن كل مَخفى عندما يظهر حَدَثٌ، وكل سرٍ عندما يُذاع خَبَرٌ، وكل حقيقة تضاف إلى ما نعرف - صالحة للنشر ومن ثم للقراءة فى أى وقت من الأوقات، وتلك كلها من الناحية الصحفية قواعد مهنية سليمة.

وضمن نفس الأسباب الموضوعية أن قراءة الوثائق الإسرائيلية تستكمل الدائرة فى الإلمام بوقائع الصراع العربى الإسرائيلى، وهو حياة هذه الأمة العربية طوال نصف قرن، وأكثر. والحاصل أننا على امتداد هذه المسافة من السنين كنا نعرف من جوانب الصورة ما تقول به الوثائق العربية بقدر ما تَيَسَّر منها، وما تقول به مصادر أخرى خارجية كالوثائق البريطانية والأمريكية والفرنسية بقَدرِ ما حصلنا عليه - لكننا لم نكن نعرف شيئاً مما تحويه وثائق الطرف الآخر أمامنا فى هذا الصراع الذى شغل الأمة واستحوذ على الجزء الأكبر من طاقتها. وبالتالى فإن قراءة الوثائق الإسرائيلية تقفل الدائرة، ومن ثم تخلق تكامُلاً وتوازناً فى الصورة العامة كلاهما كاشفٌ ومُبَيِّنٌ.

□ أما بالنسبة للأسباب المبدئية فإنه يخطر ببالى أن قراءة الوثائق الإسرائيلية بدليل المبدأ لا تقل أهمية عن قراءتها بدليل الموضوع، لأن الأسباب المبدئية تندَرِج جميعاً تحت مطلب «المعرفة» بكل ما تعطيه «المعرفة» لأصحابها من إضافات:

- بينها أن معرفة الناس بما جرى حولهم - وما زال يجرى - تُحَرِّكهم إلى المشاركة فيه ولو بالتفكير، وهذه خطوة نحو الديمقراطية.

- ثم إن تَحَرُّك الناس إلى التفكير فيما جرى حولهم - وما زال يجرى - كفيل بأن يدفعهم إلى الحوار معه، وهذه خطوة ثانية.

- وأخيراً فإن حوار الناس مع ما جرى حولهم - وما زال يجرى - وعلى أساس من المعرفة يمنح هذا الحوار شرعية التأثير فى مجرى الحوادث، وهذه خطوة ثالثة.

وتلك كلها إضافات إلى الحيوية العامة للأمة تستحق!

....

....

وربما أذكُر بأننى بدأت تسجيل وقائع هذه السياحة فى الوثائق الإسرائيلية - فى العَدَد الماضى من «وجهات نظر» - عارضاً لمراجعى التى استندت إليها، ثم ماشياً مع الوثائق من إعلان إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين (١٩٤٨) - إلى معركة السويس (١٩٥٦) - ثم واصلاً بعد السويس إلى مداخل معركة ١٩٦٧ كما وَرَدَت فى الوثائق الإسرائيلية، ومن الموقع الذى تَبَدَّت منه الحوادث أمام صانع القرار الإسرائيلى، ومن زاوية النظر التى رآها وتَصَرَّفَ بمُقتضاها.

ولقد أشرتُ فى التقديم لهذا الحديث إلى الأسلوب الذى اتخذته فى قراءة الوثائق الإسرائيلية من حيث:

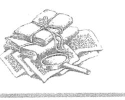
١ - اعتماده بالكامل على الوثائق الإسرائيلية.

٢ - والتوقف فى سياقه عند بعض المواقع الفارقة لتكون منها «بانوراما» أو صورة عريضة وعميقة لمشهَد كامل.

٣ - والاهتمام بالدرجة الأولى بمصر ودورها المركزى الذى كان فى ذلك الصراع وفى الفترة التى تغطيها الملفات الإسرائيلية التى جرى الإفراج عن بعضها، مع أن الأكثر خطورة ما زال مكتوماً.

٤ - ثم التَمَسُّك فى كل الأحوال بأن يكون الحديث قراءة فى السياسة وفى التاريخ أكثر منه كتابة فيهما.

وفى الجزء الأول من الحديث «سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية» - فإننى قلت وأعَدتُ القول بأن رؤية صورة أحداث التاريخ الكبرى من الضفة الأخرى تجربة مفيدة ومثيرة رغم أنها قد تكون فى بعض المواقف تقليباً للمواجع، هذا مع اقتناعى أن «المواجع» لا بد أن تُواجَه بما هو أنجع من المسَكِّنات وعقاقير الألَم .. فذاكرة الأمم ينبغى أن تظل يقظى، وأن تتحمل مواجعها بإرادة المعرفة وليس بحُقَن التخدير! وذلك تمهيد لحديث اليوم ..



١ الاستنزاف

■■ في تفاصيل عشرات الوثائق الإسرائيلية خصوصاً بعد معركة السويس ١٩٥٦ - وفي أعقابها حتى سنة ١٩٥٨ - إشارات تظهر ولمحات تُومِئ إلى إستراتيجية من نوع «خاص» - يجرى اعتمادها وتقنين العمل بها يوماً بعد يوم. وكان بين ما لفت نظرى أثناء قراءة الوثائق إلى هذه الإستراتيجية من «نوع خاص» - تلك الحوارات الضَيِّقة والمحصورة التى دارت فى دوائر صنع القرار الإسرائيلى ، والتى شاركت فيها جهات وهيئات مسئولة ومتنفذة - ظاهرة وخفية :

□ وعلى سبيل المثال فإن بعض هذه الحوارات الضَيِّقة والمحصورة دار فى وكالة الطاقة النووية الإسرائيلية «I. A. E. C. (Israel Atomic Energy Commission)» التى عَهَدَ بها رئيس الوزراء الإسرائيلى الأول والأكبر «دافيد بن جوريون» إلى العالِم اليهودى الألمانى «دافيد بيرجمان».

□ وبعضها الآخر دار بين هذه الوكالة ومؤسسات أخرى منها رئاسة الدولة الإسرائيلية نفسها (والقائم عليها فى ذلك الوقت «حاييم وايزمان» ، وهو بالمهنة ومن قبل السياسة «عالِم كيمياء» مرموق).

□ وبعضها الثالث دار بين -ومع- لجان فى الكنيست وفى أحزاب كبرى مثل حِزب الـ«ماباى» ، حِزب «بن جوريون» وقتَها ، وهو حِزب كان يعتقد - واعتقاده صحيح إلى حَدٍّ كبير - أنه تَحَمَّلَ بالمسئولية الكبرى فى إقامة الدولة ، وذلك يعطيه أكثر من غيره حقاً فى مناقشة قراراتها المصيرية.

□ وأخيراً فإن بعض هذه الحوارات دار بين عُلماء من إسرائيل وعُلماء من خارجها أثناء أخذٍ ورَدّ ، ولومٍ ودَفْع ، مدعاته أن الضمير العلمِى العام كان ما زال تحت تأثير عُقدة الذنب فى أعقاب مأساة استعمال السلاح النووى - لأول مرة - على «هيروشيما» و«ناجازاكى» لإرغام اليابان على الركوع أمام قوة جَبَّارة وَظَّفَت عناصر الطبيعة ذاتها فى خدمة صراعٍ إمبراطورى ! وفى جميع هذه الحوارات الضَيِّقة والمحصورة فقد بدا من الوثائق أن عُلماء من داخل هيئة الطاقة النووية الإسرائيلية ، وأن رئيس الدولة الإسرائيلية بنفسه ، وأن رؤساء لجان مُهِمَّة فى الحزب الحاكم وفى الكنيست ، وأن عُلماء خُبَراء فى شئون الطاقة النووية - عرفوا بما وَصَلَ إليهم مباشرة ، أو أحَسُّوا به أو استنتجوه من الإشارات الطائرة فى الريح - أن إسرائيل على وشك الدخول خِفيَة فى مشروع يصل بها إلى صنع سلاحٍ نووى.

ثم إن ذلك الذى عَرَفَه هؤلاء جميعاً أو أحَسُّوا به أثار لديهم مَخاوف تَتَعَدَّد مصادرها:

□ مخاوف مادية من تَحَسُّب أن مشروعاً نووياً تقوم به دولة جديدة مُؤَدٍّ على وجه اليقين إلى إرهاق لمواردها يرغمها مهما حاولت على قبول أولويات فى تخصيص الموارد يتراجع معها الاجتماعى لصالح الحربى.

□ ومخاوف أخلاقية من فكرة أن تَتَوَرَّط الدولة التى تَدَّعى تمثيل شعب أفلتَ من المحرقة النازية Holocaust بمعجزة - فى امتلاك قوة شِرِّيرة هى الأعنف والأعتى من أى سلاح آخر عَرَفَه تاريخ الحروب بين المجتمعات أو بين الدول.

□ ومخاوف أمنية من احتمال أن تُصبح محاولة إسرائيل لصنع السلاح النووى دعوة لسباقٍ على هذا النوع من ترسانات الدمار الشاملِ فى الشرق الأوسط ، ذلك أن بعض الدول العربية سوف تكتشف فى يوم قريب خبيئة ما تحاوله إسرائيل ، ومن ثم تُقَرِّر مجاراتها على الأقل. وكان التقدير يومها أن التسابُق إلى سلاح نووى هو جزء من الطريق إلى استعماله. وفيما تقول به الأوراق فإن الدكتور «دافيد بيرجمان» تلقى من بعض زملائه وأصدقائه داخل إسرائيل وخارجها ما يُعَبِّر عن استغرابهم لأن يَقبَل رَجُل مثله بوَضعِ كفاءته العِلمية فى خدمة مشروع سلاح نووى.

ولكى يريح ضميره ويتمكن من الرَدِّ على زملائه وأصدقائه فقد ذَهَبَ «بيرجمان» يحمل هواجس الجميع وهواجسه تاثراً بهم إلى «بن جوريون» ، وتَوَلى «بن جوريون» إقناعه مُركِّزاً على حُجَّتين :

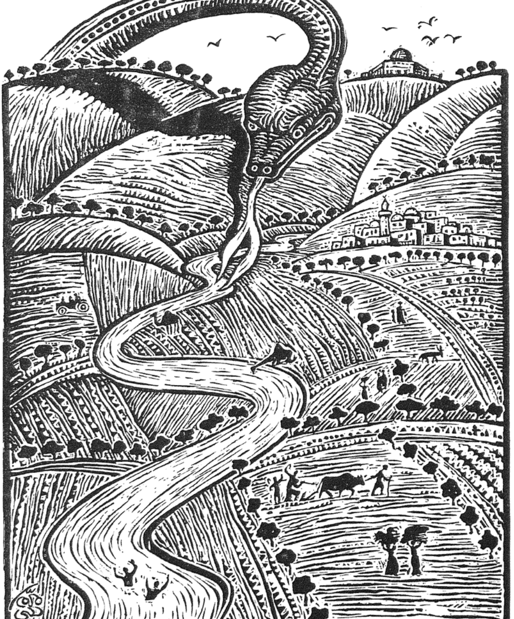
□ الحجة الأولى أن خطر إبادة الشعب الإسرائيلى بحصار وسلاح أعداء محيطين بدولة إسرائيل من كل ناحية - يفرض على «الدولة» أن تُرَتِّب لنفسها «قوة ردع تقدر على كبح نزعات العدوان».

ولعل مَقدِرة «بن جوريون» على الإقناع هى التى أمْلَت علَى الدكتور «بيرجمان» أن يكتب خطابه السِرِّى الهام إلى صديقه «مائير يارى» ، وهو واحد من أبرز قادة حِزب الـ«مابام» (وكان زعيم الجناح اليسارىَ فيه) - يقول له بالنص :

«إننى مُندَهش أن رَجُلاً مثلك على استعداد لأن يُغمض عينَيه عن الحقائق العملية ، ويفكر فى الدنيا كما يَتَمَنَاها وليس كما نراها أمامنا. واعتقادى أنه ليس هناك شخص فى هذا البلد لا يأمل ولا يدعو - على عكس المنطق الذى يحكم العالم اليوم وغداً - أن لا تدعو الحاجة إلى شىء لا نحبه جميعاً ولا نريده. لكنه يا عزيزى ليس مسموحاً لأىٍ منا أن يستبدل المعرفة اليقينية لديه بتَصَوُّرات لا تسندها غير الأوهام. إننى لا أستطيع أن أنسى الـ«هولوكوست» وكيف انقضت على شعبنا مفاجاة وعلى غير انتظار. واعتقادى أن الشعب اليهودى لن يسمح بأن تتكرر المفاجاة - أو الوَهْم - مرة ثانية !»

□ وكانت الحجة الثانية التى تمكن بها «بن جوريون» من إقناع «بيرجمان» هى قوله له (كما يُسَجِّل العالِم الإسرائيلى - وزير العلوم فيما بعد - «يوفال نيمان» - وكان حاضراً فى اجتماع «بن جوريون» و«بيرجمان») :

- «لك أن تطمئن إلى أن «القنبلة» عندما نصنعها لن



عندما سألت ميتران إذا كان يتوقع قريباً نتائج تتوافق مع كل هذه الآمال المعلقة على اتفاق «أوسلو»؟ ردّ بما مؤداه «أنه سوف يكون راضياً إذا توصل الطرفان إلى حل خلال خمس أو ست سنوات وليس شهور»!

تُستعمَل ، لأن مجرد معرفة العرب أو شكهم فى أنها عندنا سوف يفرض عليهم أن يَتَعَقَّلوا ويلزموا الحَذَر. وإذا خابت تقديراتنا واستبد بهم الجنون ، إذن فإننا نكون فى حلٍّ من حماية أنفسنا ضد الإبادة. هذه هى المسألة.» ويزيد «بن جوريون» على ذلك فى حديثه للدكتور «بيرجمان» (بشهادة «يوفال نيمان»):

ـ «إننى أتعهد لك وللجميع بأن القواعد التى سنضعها لاستعمال القنبلة سوف تَفرِض على أى مسئول إسرائيلى يكون فى السلطة يومها أن لا يلجأ إلى هذا السلاح إلا عند اللحظة الأخيرة.»

ثم أضاف «بن جوريون» بالعبرية : «ميكرع ها كول» ـ أى عندما يكون «كل شىء مُهَدَّداً بالضياع». وفى الوثائق الإسرائيلية فقد أصبح احتمال استعمال القنبلة هو سيناريو «ميكرع ها كول» (سيناريو «قبل ضياع كل شىء»)!

وفى اجتماعٍ لـ«بن جوريون» مع الدكتور «دافيد بيرجمان» حضره «شيمون بيريز» ـ المساعد السياسى لرئيس الوزراء فى متابعة تنفيذ برنامج «ميكرع ها كول» ـ كان «دافيد بن جوريون» أكثر صراحة فى شرح سياسته ، ويظهر أنها تَبَلوَرَت فى ذهنه بالفكر بعد أن طبقها بالفعل من زمن سبق. وطبقاً لرواية «شيمون بيريز» عن هذا الاجتماع ـ فإن «دافيد بن جوريون» قال للدكتور «بيرجمان» وقد أحَسَّ أن الهواجس ما زالت تُراوده عن أخلاقية ما يفعله تحت استمرار إلحاح زملاء له بين العُلماء ظَلَّ يُؤرقهم أن يُوضَع العلم فى خدمة سياسة قد تكون غير ناضجة أخلاقياً ـ ما يكاد نصه أن يكون على النحو التالى :

ـ «أريدك أن تعرف ـ يا عزيزى البروفيسور ـ أن ما أطلبه منك هو أن تساعد على أن يكون لهذا البلد (إسرائيل) رادعٌ نهائى ، وأنا أريده بالدرجة الأولى رادعاً نفسياً وليس رادعاً حربياً.

وأطمئنك إلى أننا لا ننوى الإعلان عنه إذا توصلنا إليه ، والسبب أننا إذا أعلنا فسوف يُهَرول العرب على نفس الطريق ، وهُم يملكون من الموارد ما يزيد كثيراً عما نملكه ، ثم إن السوفييت قد يتقدمون لمساعدتهم كما حَدَثَ فى حالة السلاح التقليدى. ونحن لا نريد أن يصل هذا السلاح إلى يَدِ العرب بأى ثمن ، لأنه سوف يغريهم باستعماله غير مُقَدِّرين للعواقب وخصوصاً أنهم لم يتأهلوا لثقافة الردع.

إسرائيل تفهم بشكل أفضل. تعرف أن وجود هذا السلاح ـ يغنى عن استعماله. ثم إن شك العرب فى وجوده لدى إسرائيل مفيد أكثر من يقينهم أنه هناك. الشك يوقعهم فى حيرة خصوصاً إذا تذكروا حجم الجهد المطلوب علمياً ـ وحجم الموارد المطلوبة مالياً».

ويستطرد «بن جوريون» فى محاولته للتغلب على ما بَقى من هواجس الدكتور «بيرجمان»ـ وحسب ما ينقله «شيمون بيريز» الذى كان حاضراً مُشاركاً فى اجتماعهما ـ ليقول مُوَجِّهاً كلامه للعالِم الألمانى اليهودى :

ـ «أريد أن أطمئنكَ أكثر ـ يا عزيزى البروفيسور ـ إلى أن إسرائيل لا تفكر من الأصل فى حل عسكرى حاسم ينهى عداء العرب لها.

سوف أقول لك لماذا ؟

الحقيقة الأساسية فى أوضاعنا أننا لا نستطيع توجيه ضربة قاضية للعرب لأن لديهم ميزتين لا تملك إسرائيل أيتهما !

الميزة الأولى عند العرب أننا إذا ضربناهم بكل قوة تراجعوا إلى أعماق أوطانهم ـ ولاحظ أن العكس ليس صحيحاً فى حالتنا لأن إسرائيل بلا عمق.

والميزة الثانية عند العرب أننا لو قتلنا من جنودهم عشرات ألوف ـ حتى مئات ألوف ـ فإنهم قادرون على تعويض خسائرهم من البشر فى ظرف شهور ـ وإذا حدث ذلك لإسرائيل .. (وخاف «بن جوريون» من نذير الشؤم فيما يبدو فاضاف : «حماها الله») ـ فإن هذا البلد ليس فيه فائض بشرى يمكن التضحية به ـ يهود العالم كلهم كما تعلم أقل عدداً من سكان بلد عربى واحد مثل سوريا.

مُحَصِّلة ذلك ـ لكى تكون الحقائق ماثلة فى فكرك وضميرك طول الوقت :

١ ـ أننا لا نستطيع هزيمة العرب بضربة قاضية ـ وهُم يستطيعون إذا تمكنوا.

٢ ـ أن لدى العرب موارد هائلة خصوصاً من البشر ـ ونحن فى الدم أمام حساب عسير لأن الدَمَ اليهودى نادر !

وإذن ففكرة معركة عسكرية حاسمة بالأسلحة النووية يجب أن تخرج من كل التقديرات.

نحن مُعَرَّضون لها ، ويجب ألا نسمح للعرب بفرصة تمكنهم منها.

وهُم يَقدِرون عليها ، بينما نحن لا نستطيع فرضها عليهم مهما حاولنا.» ويصل «بن جوريون» إلى نوع الحرب التى يراها ممكنة مع العرب فيقول :

ـ «نحتاج مع العَرَب إلى «مفهومٍ فى الحرب جديد» ، ورأيى أنه يجب أن يكون حرب استنزاف متواصلة ونشيطة فى كافة المجالات. وهذه الحرب يجب أن تكون سياسية ، ونفسية ، واقتصادية ـ وعسكرية إذا اقتضى الأمر، شرط أن نعرف أن للسلاح حدوداً فى حالتنا مع العرب.



العرب بالطبيعة نَفَسُهُم قصير ، وهُم يستطيعون تعبئة جهودهم لفترة زمنية محدودة ، لكنهم إذا طال الوقت تراخت تعبئتهم ، وضعفت حماستهم ، وأخذتهم شواغل أخرى غير تلك التى جَمَعَت بينهم.

هناك حقائق أخرى (السياسى ما زال يفضى إلى البروفيسور) تخص العرب. تناقضاتهم الداخلية بينهم وبين بعضهم عميقة. علاقاتهم بالعالم حولهم سيئة خصوصاً مع القوى الكبرى. هُم فى مشاكل مع الإمبراطوريات القديمة التى خرجوا بالكاد من مجال سيطرتها. وهُم على خلاف مع القوة الإمبراطورية الجديدة (الولايات المتحدة) يتهمونها بالرغبة فى السيطرة عليهم. وهُم برغم علاقاتهم العملية المهِمَّة مع الاتحاد السوفيتى لا يعرفون الروس ولا يحبونهم ، لأن الحكام العرب يخشون على مصالحهم من الشيوعية ، ثم إن الفقراء العرب يخشون على دينهم من الإلحاد. وفى الإجمال فإن بعض الحكام العَرَب يعتقدون أن موسكو تُعَبِّئ لهم الثورة ، وبعضهم الآخر يظنون أنها تُعَبِّئ لهم الكُفر ـ داخل صناديق الأسلحة.

هذه الأحوال كلها تساعدنا على حرب استنزاف متواصلة ونشيطة.

وتَرتيباً عليها فإن الأفضل لنا أن نَصِل بهم إلى حيث يسقطون من الإعياء ما دمنا لا نستطيع أن نفرض عليهم بالسلاح قبول وجودنا.

فى نفس الوقت فإن سقوطهم من الإعياء سوف يتولى تحييد معظم أسباب قوتهم مالية أو سياسية أو معنوية. لأنهم فى حالة السقوط من الإعياء سوف «يَغلَطون» مع الجميع ـ يوجهون المسئولية إلى كل الأطراف ، ويُجَنِّبوا أنفسهم أى نصيب منها ، وهذا يكفل ألا يكون سقوطهم من الإعياء لمجرد الإرهاق المادى ، ولكنه فى هذه الحالة الإرهاق المعنوى وهو أقرب وسيلة إلى فقدان الثقة بالنفس ـ وذلك أفضل الأوضاع بالنسبة لنا !

حرب استنزاف متواصلة ونشيطة ـ هذا هو الحل ، وهذا هو النوع المطلوب من الحرب.»

ثم يصل «بن جوريون» إلى بيت القصيد فيقول لـ«بيرجمان» :

ـ «هذا النوع من الحرب لا يحتاج إلى ما يمكن أن تعطيه (يا سيدى البروفيسور) لإسرائيل ـ لكن ما يمكن لك أن تعطيه يساعدها من حيث هو يُطمئنها ويريح بالها ضد أية مفاجآت لم تكن قد تاهبت لها. تلك سياسة إسرائيل شرحتها لك ، لم أخف عنك شيئاً !»



٢ الصـــدى!

....

....

قد أضيف هنا أننى سمعت بنفسى تاكيداً مباشراً لإستراتيجية حرب استنزاف العرب.

كان ذلك فى نهاية عام ١٩٩٣ ـ أى بعد أسابيع من إعلان اتفاق أوسلو.

أيامها كانت آمال القيادة الفلسطينية فى السماء ، مُتَصَوِّرة أنها أخيراً امسكت فى يدها بزمام قضيتها ، وتَوَلَّت بنفسها إدارتها بعد عهود ناب عنها غيرها فى تصريف الشأن الفلسطينى.

ثم حَدَث أثناء لقاء مع الرئيس الفرنسى «فرانسوا ميتران» ـ تلك الأيام ـ فى قصر «الإليزيه» فى «فوبورج سانت أونوريه» ـ أننى سألته إذا كان يتوقع قريباً نتائج تتوافق مع كل هذه الآمال المعلقة على اتفاق «أوسلو»؟ ـ ورد «ميتران» بما ملخصه أن ذلك يتوقف على ما أعنيه بكلمة «قريباً»؟ ـ وقلت : «إننى لا أتحدث عن غد أو بعد غد ، ولكن عن شهور خمسة أو ستة». ورَدَّ «ميتران» بتؤدة بما مؤداه «أنه سوف يكون راضياً إذا توصل الطرفان إلى حل خلال خمس أو ست سنوات وليس شهور» !

واضاف «ميتران» بنبرة أقرب إلى التساؤل منها إلى السؤال : «فهمت أن عرفات متفائل بنتائج سريعة.. ؟»

....

....

وكان الرئيس «ميتران» يعرف الكفاية عن صداقة قديمة تربطنى بـ«ياسر عرفات». فقد كان لى حظ أن أقدم الرجلين أحدهما للآخر فى مكتبى أوائل سنة ١٩٧٤ ، ووقتها كان «ميتران» ـ بوصفه رئيس الحِزب الاشتراكي ـ ضيفاً علينا فى مصر ، وكان قادماً إلىّ نهارٍ باكمله معى فى الوقت الذى كنت أوَدِّع فيه «ياسر عرفات» الذى كان زائرى فى الصباح الباكر قبله. وقَدَّمتُ كليهما للآخر ،

ملاحظة:

تفضل مدير تحرير «وجهات نظر» وسألني إذا كنت أنوى الكتابة عن صدام «الحقوق» و«الحقائق» الذى دهم أجواء المنطقة بوهج حريق حاول بعضهم إطفاءه بخراطيم دم. ثم جرب غيرهم «إنقاذ عواقبه» بمؤتمرات «إسعاف» هرولت على عجل تجرب طبا ينقصه العلم وتنقصه الوسائل. وفى بعض الأحيان تنقصه الإرادة!

وقد جرى ذلك كله على مرأى من جموع عربية راحت مأخوذة تطل على ما يحدث أمامها منقسمة حتى على نفسها ما بين ساخط بالغضب، أو ساكت على مضض، أو متفهم لـ«الضرورات» بالأمر الواقع؟

....

....

وكان ردى على سؤال «وجهات نظر»: «اننى مستمر فى سياحة صيف مع الوثائق الإسرائيلية»، ومنطقى كما عرضته:

١ - ان هذه المجلة - وإذا سمحت لى هيئة تحريرها - ليست مطبوعة مشغولة بمتابعة الشئون الجارية أولا بأول، فهكذا فهمت من فلسفة إصدارها، والذنب على إذا كنت أسأت الفهم.

٢ - أن هذه المجلة بطبيعتها - بصرف النظر عن فلسفتها - مطبوعة شهرية، والإيقاع الشهرى ليس مهيأ لملاحقة الحوادث - مع توقيت وقوعها. وإلا قطع أنفاسه فى سباق مستحيل.

٣ - إن قراءة الوثائق - وضمنها الوثائق الإسرائيلية - تظل فى تقديرى - إذا توافرت لها الشروط - أكثر اتصالا بالحقيقة مما يجرى الآن ظاهرا على مسرح الحوادث، ومعظمه تداعيات لأسباب نسيناها أو آثرنا أن ننساها، وظنى أن قراءة الوثائق هذه اللحظة - عودة إلى أصول الصراع أعتبرها الآن لازمة، فالفروع فيما أخشى ألهتنا عن الجذور، وخليط الأصوات والألوان وتضارب الصور أنسانا جميعا أن هناك أسسا وقواعد محددة - وحاكمة - وأن العودة إلى هذه الأسس والقواعد مطلوب، والوعى بها حيوى، وإلا تواضع المعنى وتنازلت القيمة وأصبحت القدس أرضا عقارية متنازعا عليها، وتحول الأقصى إلى مسجد آخر بناه أحد طلاب التوبة - على تلك الناصية هناك!

وحين أحسست أن «ياسر عرفات» وجدها فرصة ليتحدث ولو لدقائق مع «ميتران» عُدتُ بالاثنين إلى المكتب لفرصة تجعل اللقاء أكثر من تعارف بالمصادفة، وتسمح للرجلين بحديث مُباشِر ولو لربع ساعة. وذلك ما كان.

ومضت سنوات وأصبح «ميتران» رئيساً لفرنسا، ثم حَدَثَ قرب نهاية سنة ١٩٨٨ أن أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية اعترافها بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و ٣٣٨.

....

....

وعلى سبيل الاستطراد والتَّذكرة فلعلى أقول أننى لم أكن مُتَحَمِّساً لاعترافِ منظمة التحرير بقرارى مجلس الأمن رقمى ٢٤٢ و٣٣٨، فكلا القرارين لا يخص المنظمة، ثم إن كليهما مُثقَلٌ بأعباء عشرين سنة من ١٩٤٧ إلى ١٩٦٧ لم يكن للفلسطينيين فيها رأىٌ مُؤثر فى شئونهم وقضاياهم، وفى أحسن الأحوال فقد كان هناك مَن يستوحى مواقفه من فلسطين على ما يَتَصَوَّره صالحاً للشعب الفلسطينى، وذلك لم يكن كافياً ولا عادلاً.

وفى اجتماع مع قيادة منظمة التحرير فى تونس فى بداية شهر أكتوبر ١٩٨٨ وبدعوةٍ من السيد «ياسر عرفات» وبطَلَبه أبديت رأيى أمام قادة المنظمة جميعاً، وقد تَلَخَّصَ فى نقطتين:

١ - أن ما تستطيعه المنظمة الآن هو الاعتراف بقرار التقسيم (القرار ١٨١ الصادر فى نوفمبر ١٩٤٧) فهذا هو القرار الذى يَخصُّها والمعَبِّر - رغم ما ينطوى عليه من ظلم - عن نوع ما من مرجعية الشرعية الدولية (إذا صَدَقَ التعبير!) - وتأسيساً عليه فإنها تستطيع إعلان قيام دولة فلسطينية.

٢ - أن المنظمة الآن، وعلى أساس ما حققته الانتفاضة من تعاطف دولى هائل مع قضايا الشعب الفلسطينى، فى موقف يسمح لها، بل ويعطيها الحق فى مطلب مراقبين دوليين يتواجدون فى الأرض الفلسطينية المحتلة. وكان ظنى أن هذا الاقتراح، فوق كونه وسيلة لرقابة دولية على التصرفات الإسرائيلية، من شأنه أن يخلق سابقة وجود للأمم المتحدة على الأرض الفلسطينية، لأن الأمم المتحدة التى أنشأت إسرائيل بقرار منها عليها مسئولية سياسية وتاريخية لكى تكون على الأقل شاهداً على تنفيذ قراراتها.

....

....

وأتذكر أن القائد الفلسطينى الشهيد «أبو إياد» وهو المسئول يومها عن «الرصد»، والقائد الفلسطينى «أبو مازن» وهو المكلف بالتفاوض مع إسرائيل من يومها وحتى الآن - قاما بمناقشتى طويلاً فى حضور السيد «ياسر عرفات» وقيادة المنظمة مُجتمِعة..

وكانت القيادة الفلسطينيَة أيامها شديدة الثقة بالولايات المتحدة الأمريكية، وراغبة بكل سبيل فى كسب تأييدها. وكان قرار المنظمة أن تعترف بالقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨.

....

....

وقد تم هذا الاعتراف ضمن محادثات جَرَت فى جنيف بين رئيس منظمة التحرير «ياسر عرفات» ووزير الخارجية الأمريكية «جورج شولتز» - وبعدها اتصل بى السيد «ياسر عرفات» وظنه أن الوقت قد حان الآن لمقابلة رسمية بينه وبين الرئيس الفرنسى، وبينه وبين رئيسة الوزراء البريطانية فى ذلك الوقت «مرجريت ثاتشر». وتصادف فى ذلك الوقت قرب نهاية سنة ١٩٨٨ أننى كنت فى زيارة عَمَل للندن واتصل بى السيد «ياسر عرفات» يسألنى - رمزاً - إذا كان فى مقدورى أن أساعد فى ترتيب موعد بينه وبين الرجل الذى التقاه فى مكتبى قبل سنين طويلة؟ - وفهمت قصده بعد تلميحات إضَافية تكاملت بها الرموز لتنقل إشارة مفهومة!

وكان أن اتصلت بالرئيس «ميتران» من لندن، ووافَقَ، وربما أضيف - للأمانة - أن طلب لقاء بينه وبين «عرفات» وَصَلَ إليه من مَصدَر آخر - فى نفس الوقت - أظنه «مدام منديس فرانس» زوجة السياسى الاشتراكى الكبير الذى سبق «ميتران» إلى رئاسة الحزب الاشتراكى، وكان «منديس فرانس» يَهودياً، وكذلك كانت زوجته التى نشطت بعده فيما كانت تقوم به الجالية اليهودية فى فرنسا تلك الأيام.

....

....

والآن - سنة ١٩٩٣ - كان «فرانسوا ميتران» الذى تقابل مرات من قبل مع «ياسر عرفات» - يرى أن الذين يتوقعون نتائج قريبة لـ«أوسلو» عليهم أن ينتظروا سنوات وليس شهوراً.. خمس سنوات أو ستا.



ويومها قلت للرئيس الفرنسى مندهشاً: «إننى لا أتصور أن عرفات بعد كل هذا الذى قدمه قادر على الانتظار خمس أو ست سنوات».

ورَدَّ هو بسرعة قائلاً: «وهذا بالضبط ما يريدونه».

ثم راح يروى لى طرفاً من تفاصيل حوار بينه وبين «شيمون بيريز» قبل أيام.

قال لى إنه بنفسه سأل «بيريز»: «هل لديكم ما تقدمونه لعرفات بعد هذه المخاطرة التى أقدم عليها باتفاق «أوسلو»؟» - ورد عليه «بيريز» بـ«أنهم لم يفكروا بعد!» - ولم يُصَدِّق «ميتران» أن ذلك يمكن أن يكون صحيحاً، فسأل «بيريز» بما معناه: «ألم يكن لكم تَصَوُّر لمشروع تطرحونه على الفلسطينيين عندما دخلتم معهم فى مُفاوضات سرية فى أوسلو؟»

ورَدَّ «بيريز» بأن كل «تَصَوُّرهم كان أن يتعاملوا مع قيادة منظمة التحرير نفسها، وليس مع وفد يحمل ورقة تفويض «بالكلام» نيابة عنها فى مدريد أو واشنطن».

وأضاف «بيريز» إيضاحاً قال فيه: «إننا شعرنا أن الفلسطينيين يتحتم عليهم تخفيض سقف توقعاتهم، وأن أى وفد يحمل تعليمات من القيادة الفلسطينية لن يستطيع القيام بهذه المهمة، وعلى فرض أن وفداً فلسطينياً فهم هذه الضرورة وتَصَرَّف بالتجاوز مع تعليماته، فاسهل الحلول تغييره بوَفد آخر. وأما إذا كانت القيادة نفسها هى المفاوِض فمعنى ذلك أن الجالس أمامنا هو الذى يملك القرار، وحينئذ يكون الباقى علينا». وطبقاً لرواية الرئيس «ميتران» فإنه حين طلب من «شيمون بيريز» مزيداً من الشرح، سمع من «بيريز» ما معناه «أنهم يحتاجون وقتاً طويلاً يأخذون فيه الفلسطينيين إلى مائدة المفاوضات ثم يعودون بهم من قرب المائدة، ويطرحون عليهم صِيَغاً واسعة مفتوحة لكل الاجتهادات، ثم يأخذونهم معهم إلى تمارين فى الصياغة قد تكون مفيدة فى تعليمهم دون أن تكون بالضرورة مؤدية إلى اتفاق معهم، ثم إنهم سوف يعرضون عليهم وساطات ووُسَطاء يذهبون بأفكار ومقترحات ويجيئون بأفكار ومقترحات، ويتركونهم يذهبون إلى واشنطن ونيويورك ويعودون من واشنطن ونيويورك، ثم يكون من هذا الجهد كله أن يُؤقلِم الطرف الفلسطينى نفسه تدريجياً على كيفية تخفيض سقف توقعاته.»

....

....

وحين لاحظ الرئيس «ميتران» أننى أسمعه باستغراب، اختصر الطريق ليقول بسرعة: «اعترف لى بيريز صراحة أن علينا جميعاً أن نعطيهم فرصة لعملية «تحضير» سياسى يؤدى إلى تخفيض سقف توقعات الطرف الفلسطينى». ثم وضعها «على بلاطة» كما يقولون ليضيف: «كيف أقولها لك؟.. هُم يريدون عملية تدويخ قبل الدخول فى الكلام الجَدّ!»

وكان المعنى واضحاً، وقد جاء إلىّ ناطقاً وفصيحاً وبلسان رئيس الجمهورية الفرنسية - لكنى نَسَبتُ «التخطيط» فيه - وقتها - إلى سوء نوايا «شيمون بيريز»، وكان علىّ أن أنتظر سنوات طويلة حتى أعرف أثناء «سياحة صيف فى قراءة للوثائق الإسرائيلية» أن المصَمِّم الحقيقى لهذا الأسلوب فى إدارة الصراع مع العرب كان «بن جوريون»، وكل ما فَعَلَه «بيريز» أنه استلهم تنويعة منه وطبقها فى إدارته للمفاوضات مع الفلسطينيين: التدويخ عن طريق الاستنزاف السياسى!

أى أن «التلميذ» (شيمون بيريز) كان مجرد صدى لصوت «الأستاذ» (دافيد بن جوريون).



٣ ثوابت

يَشعُر أى قارئ للوثائق الإسرائيلية طول الوقت بأن سياسة الدولة اليهودية تمشى على خطوط ثابتة مُحَدَّدة لا تتأثر بتغيير الحكومات، ولا بحلول مسئول خلفاً لمسئول سبقه فى منصبٍ من المناصب الكبرى فى الدولة. ثم يستنتج قارئ الوثائق الإسرائيلية من كل ما يراه أمامه أن هذه الخطوط السياسية الثابتة

إن قراءة الوثائق - وضمنها الوثائق الإسرائيلية - تظل في تقديري - إذا توافرت لها الشروط - أكثر اتصالا بالحقيقة مما يجرى الآن ظاهرا على مسرح الحوادث، ومعظمه تداعيات لأسباب نسيناها أو آثرنا أن ننساها

والمحَدَّدة ليست فى اختصاص الأحزاب المتصارعة على الساحة السياسية فى إسرائيل ، ولكنها مَوكولة إلى قوى أخرى يَتَجَلّى نفوذها واضحاً فى كل موقف ، وتظهَر بصمات أصابعها على كل قرار. ثم يَصل قارئ الوثائق الإسرائيلية إلى مُحَصِّلة تظل مَحسوسة فى إدراكه طول الوقت ، وهى أن «مؤسسة الأمن» - وليست الحكومات أو الوزارات المتعاقبة على الحكم - هى صاحبة القول الأول والأخير فى الطريقة التى تَتَصَرَّف بها إسرائيل سواء فى ممارسة إدارة شئون الأمن كل يوم ، أو عندما تقع الأزمات أو المخاطر. الساسة فى إسرائيل - كما يبدو من الوثائق - مثلهم مثل الساسة العرب دون حاجة إلى قراءة وثائق !! - يكرهون بعضهم إلى درجة أن كثيرين منهم حتى فى مجلس الوزراء الواحد لا يطيقون الجلوس فى ذات المكان مع زملاء لهم. إلى جانب ذلك فإن رباط الحزبية بين أعضاء الحزب الواحد هو اشتباك مُستَمِر بين مجموعات مُتَفَرِّقة ومُتَناحِرة ، بل إنَ إطار الحزب الواحد المحيط بالكل هو فى الواقع سور حول حلبة مصارعة هدفه مَنع الآخرين من التدخل لإنقاذ المصابين أو تخليص المتشابكين ، أو حتى تهدئة الخواطر بينهم إلى حين يُفرِغ كل منهم شحنة ما لديه من كراهية وعُنف إزاء رفيقه أو زميله فى الحِزب الواحد ! وعلى سبيل المثال فقد كان شَعور «دافيد بن جوريون» تجاه خلفه على رئاسة الوزارة عندما تركها أول مرة (سنة ١٩٥٤) - وهو «موشى شاريت» - مُتَجاوِزاً الكراهية إلى درجة من الاحتقار ، وكان شعور «دافيد بن جوريون» تجاه خلفه عندما ترك الوزارة للمرة الثانية (سنة ١٩٦٣) - وهو «ليفى أشكول» - نوعاً من الاستخفاف واصلاً إلى حَدِّ الازدراء. وعلى نمط ساسة إسرائيل كان جنرالات إسرائيل : «موشى ديان» لم يكن يطيق «إسحاق رابين» والعكس صحيح. و«ييجال يادين» يكره «ييجال آللون» والعكس صحيح. و«حاييم بارليف» سَيِّئ الظن فى قدرات «دافيد إليعازر» والعكس صحيح .. وهكذا ، وهكذا.

والراجح أن التفسير المعقول لهذه الظاهرة على مستوى الجماعات وعلى مستوى الأفراد فى إسرائيل كامِنٌ فى ظروف وملابسات نشأة الدولة اليهودية وقيامها. وهذا التفسير المعقول لهذه الظاهرة مُؤداه أن الأحزاب السياسية العاملة بعد قيام الدولة كانت كلها فى الأصل وعند الجذور الأولى جماعات نشأت فى أوطان بعيدة ، ونشأت بطريقة سِرية ، وكان عملها الرئيسى تجنيد وشحن الرجال والنساء والأطفال المستعدين للهجرة إلى الوطن اليهودى المأمول ، وهذه العملية تقتضى جَمع التَبَرُّعات والحصول على الأموال بكل سبيل للصرف على التنظيمات وعلى رحلات العودة إلى أرض الميعاد «عاليا» (Aliya). والتكوينات السياسية عندما تنشأ فى بيئة معينة ، وتضطر إلى ممارسة عملها فى هذه البيئة سِراً وتحت الأرض فى كثير من الأحيان ، ثم يكون من ضمن مهامها الحصول على تبرعات مالية أو عينية (أسلحة أو مُهِمَّات مثلاً) تدخل - وتَجُر معها المنتسبين إليها فى اتجاه علاقات يصعب أن تكون سَوِيَّة ، خصوصاً مع تَنَوُّع الخلفيات الطبقية والثقافية التى تستمد منها هذه التكوينات السياسية أعضاءها وأنصارها ومُشجِعيها. وما ينطبق على التكوينات السياسية ينطبق بشكل من الأشكال على الأفراد ، فالأجيال الأولى من زعماء إسرائيل السياسيين ، وقادتها العسكريين ، وحتى الرجال الذين برزوا فى مجالات العمل الحكومى والنشاط الاقتصادى والتوجيه الفكرى ، كلهم مهاجرون من أوطان مُتَعَدِّدة ومن خلفيات مُتباينة ، وبأمزجة لم يُرَوِّضها مناخ عام سائد يرسى بالتَراكُم التلقائى أصولاً فى التعامل بين الناس ، وتقاليد تُنَظِّم العلاقات داخل بَلَد جديد يتسابق كل مَن وصلوا إليه نحو النفوذ والسُلطة ، فهما وحدهما ومهما كانت الوسائل ما يُمَيِّز كل واحد من المهاجرين عن غيره ، والبَلَد بالطبيعة صغير ، ومواقع النفوذ والسُلطة فيه بالضرورة ضَيِّقة لا تحتمل ذروتها ولا حتى سفوحها غير مواقع محصورة تسكن فيها الأحزاب ، ومربعات محدودة ينحشر فيها الساسة ! لكن «مؤسسة الأمن» خارج هذا كله ، ويبدو أنه فى بلد يعتبر «الأمن» (بالمعنى الأوسع الذى يشمل الوجود والنمو والتوسع) هاجسه الأكبر وشاغله الحقيقى، فإن الظروف فَرَضَت فى نطاق «الأمن» نوعاً من النظام الصارم له قانونه وله سلطانه مُطاعاً من الجميع وفوقهم. وهنا فإن شواغل وسياسات رئيس وزراء إسرائيل الأول (دافيد بن جوريون) لم تختلف عن شواغل وسياسات رئيس الوزراء الثانى (موشى شاريت)، بل إنه حين تَصَوَّرَ «شاريت» أنه يستطيع أن يُجَدِّد ويبتكر ضمن نطاق «مؤسسة الأمن» - فإن المؤسسة تَصَرَّفت طوال عام رئاسته للوزارة دون رجوع إليه، واكتشف «شاريت» أنه يحتل مقعد رئيس الوزراء دون أن يمسك بسَلطة رئاسة الوزارة، وفى ظرف شهور كان مُعتَزِلاً فى بيته، مجروحاً فى كبريائه ، ومَمروراً حتى قتله الكمد ! وعندما جاء «ليفى أشكول» (رئيس الوزراء الثالث فى تاريخ إسرائيل) فقد كان عارفاً بحدوده مُلتزماً بها (ولعله كان مُتَّعظاً أيضاً بدرس ما جرى لـ«موشى شاريت»). ■





٤ المياه

■■ لعل التجديد الرئيسى الذى أسهم به «ليفى أشكول» فى شواغل وسياسات إسرائيل - وكما يبدو من قراءة الملفات - هو الأولوية التى أعطاها لقضية «المياه». وقد بدا «أشكول» منطقياً فى تقرير هذه الأولوية لقضية «المياه» :

□ من ناحية فإن خبرته السابقة وعمله كانا فى مجال توفير المياه اللازمة «للبلد» ، وفى وقت من الأوقات كان «أشكول» مديراً لمشروع المياه الكبير «ميكوروت» (Mekorot)، وكذلك كانت العبارة المتكررة دائماً على لسانه فى كل اجتماع حَضَرَه قبل رئاسته للوزارة وبعدها هى قوله إنه «بدون مياه فإن الحلم الصهيونى لا يمكن تحقيقه. فمن غير مياه لا تتسع زراعة ، وبدون اتساع الزراعة لا يمكن أن يكون هناك أساس لحياة الشعب اليهودى فى أرض إسرائيل».

ولم تكن «مؤسسة الأمن» على خلاف مع «أشكول» ، بل إن قضية «المياه كانت على رأس قائمة اهتماماتها» ، وكان مما يساعد على ربط الأمن مباشرة بالمياه فى بداية رئاسة «أشكول» للوزارة أن فيض بحيرة «طبريا» بدأ يَصل إلى منطقة النقب حاملاً معه الكثير من إيراد أنهار عربية عديدة مثل «الأردن» و«الليطانى» و«الوزانى»، وكان ذلك - على الأقل نفسياً - عُنصُراً مُساعِداً يؤدى إلى رفع درجة التوتر على الحدود إلى درجة التَحَرُّش مع دول عربية يعنيها الأمر مباشرة وأولها سوريا.

□ ومن ناحية أخرى فإن «أشكول» - كما تُظهِر قراءة الوثائق - لمح أمامه نتائج ملموسة لما اعتمده «بن جوريون» من إستراتيجية الاستنزاف السياسى للعرب. وبشكل إجمالى فإن العرب جميعاً راحت تَظهَر عليهم فى ذلك الوقت مع بداية رئاسة «أشكول» للوزارة الإسرائيلية (١٩٦٣) أعراض الإرهاق :

● أول العرب وأكبرهم وهى مصر ظَهَرَت - من المنظور الإسرائيلى - مُثقَلة بالهموم : كبرياؤها مُهتَزَّة بعد الانفصال بينها وبين سوريا (١٩٦١) - وجهدها مُشَتَّتٌ فى معارك وسط جبال اليمن الذى ذَهَبَت لمناصرة ثورته (١٩٦٢) - وهى فى خُطاها السياسية تبدو حائرة بين نظامين «ثوريين» فى دمشق وبغداد - والتقدير الإسرائيلى يرى العلاقة بينها (مصر) وبين المملكة العربية السعودية شديدة التوتر بسبب تمويل المملكة للعناصر المعادية للثورة اليمنية - يُضاف إلى ذلك أن إسرائيل تُتابِع خلافاً بين القاهرة وبين موسكو بسبب الأحوال فى العراق وما يَظهَر هناك من محاولات الشيوعيين للاستيلاء على السلطة فى بغداد - وفوق ذلك كله تعرف إسرائيل وتُتابع مباشرة خلافاً بين القاهرة وواشنطن لأن الولايات المتحدة الأمريكية راحت تطالب برقابة على برامج التسليح المصرى فى المجالات غير التقليدية ، وخصوصاً فى مجال إنتاج الأسلحة الكيماوية والجرثومية ، إلى جانب رغبة أمريكية فى احتواء مُبَكِّر لأى احتمالات نووية تَلوح فى مصر .

....

....

وكانت واشنطن قلقة من ظهور كادر إنسانى مُؤَهَّل فى المجال النووى ، وقد حاوَلَت أن تسأل عن القصد ، ولم تسترح عندما كان رَدُّ القاهرة هو الإشارة إلى ما يَجرى فى إسرائيل. ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية ذهَبَت إلى القول بأنها تطلب فى تل أبيب نفس ما تطلبه فى القاهرة ، فإن التمييز الأمريكى لإسرائيل كان مرئياً للعيان وكان ذلك يُسَبِّب حالة ضيق فى القاهرة تضاف إلى الشعور بالإرهاق.

....

....

لكن الوثائق الإسرائيلية كما يبدو من قراءتها كانت تلاحظ - وتَتَخَوَّف من أن فى مصر شيئاً آخر غير الشعور بالإرهاق ، وهو يتمثل فى شواهد من القُدرة على الإنجاز مرئية فى مواقع بناء السد العالى فى أسوان ، وفى عمليات واسعة لإصلاح الأراضى الصحراوية ، وفى مراكز للتصنيع لافتة للنظر ، إلى جانب تَوَسّع ملحوظ فى التنمية الاجتماعية وبالذات مجالات التعليم والصحة والثقافة. وكان حساب إسرائيل على أى حال أن كل حقيقة لهَا وجه آخر ، بمعنى أن هذه البرامج المصرية فى التنمية - ومهما كان ما تثيره من حماسة - تَتَطلَّب مَجهودات ومَوارِد تراها إسرائيل أثقل مما تستطيع مصر احتماله دون عَناء وإرهاق ! ولم تكن مصر - من مُطالعَة الملفات الإسرائيلية - هى وحدها المرهَقة ، وإنما كان ذلك حال كل البلاد العربية وإن اختلفت الأسباب :

● السعودية تبدو مُتَوَجِّسة من انفراط الحلف التقليدى بينها وبين مصر بسبب انفراد مصر بقرار تأميم قناة السويس وما سببه ذلك من إحراج للمملكة فى علاقاتها بشركات البترول - ثم زاد الانفراط بسبب الوحدة بين مصر وسوريا ، وقد وجدتها السعودية انقلابا فى موازين النفوذ الإقليمى - ثم كانت السعودية ضِمنَ من سعوا إلى

كان «ليفـى أشـكول» يتصـوَّر أن المسـرح أصبـح جاهـزاً لكـى تتقـدَّم إسـتراتيجية الميـاه علـى غيـرهـا من أولـويـات «الأمـن» الإسـرائيلى وكـان تقـديـر «أشـكول» بعمـوم أن نقطـة المـاء فى الشـرق الأوسـط لا تقِـل قيمتهـا عن نقطـة الـدَم!

مُقاوَمة الوحدة والترحيب بالانفصال. وبَلَغ انفراط الحلف المصرى السعودى ذروته بالتوجهات الاجتماعية التى تَبَدَّت ملامحها فى مصر بشكل لافت بعد معركة السويس (وكان من أثر هذه التوجهات أن المملكة اضطرت لأول مرة إلى إصدار قانون بتحرير العبيد، وكانت العبودية مُقَنَّنة فيها حتى أواخر الخمسينات من القرن العشرين) - وفوق ذلك كله جرى ما جرى فى اليمن.

ولم تكن السعودية - من منظور الوثائق الإسرائيلية - مُرهَقة فقط ولكن مُهَدَّدة - فقد كان التقدير أن الأسرة الحاكمة فى الرياض على حافة انقسام خطير، إذ وَقَفَ الأخ ضدَّ أخيه - أى «سعود» ضدَّ «فيصل» - وبظَنٍّ يَتَأكَّد كل يوم بأن المَلكة لم تَعُد تَتَّسِع للاثنين، وأن أحدهما يجب أن يذهب (وبالفعل فقد ذَهَبَ «سعود»!)

● ومن المنظور الإسرائيلى فإن العراق كان أكثر من مُرهَق، لأن (عاصمة الحضارة العباسية) - كانت تعيش حالة فوضى بنظام «عبد الكريم قاسم»، وفوضى بعد سقوط نظامه.

● وأما سوريا (وعاصمتها الواقعة تحت المراقبة الإسرائيلية المباشرة) فقد كانت الأمور فيها هى الأكثر تَعقيداً، بكَونها الموقع الأكثر حساسية فى العالم العربى، ثم بدرجة التَوَتُّر والتَرَبُّص التى استحكمت فيها بعد سلسلة من الانقلابات صامتة أو صاخبة!

● وفى الأردن تَبَدَّت عَمَّان على أطراف أصابعها من القلق والشك لأن الملك «حسين» فوجِئ بأن سلاح الطيران الأردنى - بطائراته وضباطه وقياداته - لجأ إلى القاهرة عندما تلقى أمراً بمساعدة الملكيين فى اليمن استجابة لطلب سعودى - وتَنَبَّه الملك «حسين» ذات يوم وإذا سلاح الطيران الأردنى - أو الجزء الأكبر منه - يُقلِع من عَمَّان ويَحُطُّ فى القاهرة منحازاً إلى قوى التغيير فى العالم العربى.

وكانت تلك بالضبط هى الظروف التى أرهقت الملك «حسين» إلى درجة اعتلال صحَّته، وقد ذَهَبَ للعلاج فى لندن. وهناك اقتَرح عليه أحد أطبائه، وهو الدكتور «إيمانويل هربرت»، دَواءً رآه شافياً، والتركيبة «السحرية» فيه هى لقاء سرِّى مع مبعوث إسرائيلى تَتَجَدَّد به العلاقات المباشرة وبدون وُسَطاء بين الأسرة الهاشمية وبين قادة إسرائيل، ووافق الملك على الوَصفة. وكان «ليفى أشكول» سَعيداً بـ«حالة إرهاق عربى عام» دَعَت ملكاً عربياً إلى الموافقة على لقاء مبعوث إسرائيلى حتى وإن كان اللقاء سرًا (كما حَدَثَ فى تجربة جدِّه الملك «عبد الله»). واختار «أشكول» مدير مكتبه الدكتور «ياكوف هيرتزوج» لكى يقابل الملك باسمه ويسمع منه. وقد روى الملك وقائع هذا اللقاء بصوته وعلى شريط سَجَّلَه الدكتور «آفى شلايم» (كتاب «الجدار الحديدى» صفحة ٢٢٠) قائلاً لـ«هيرتزوج» ما نصه:

«كان علىَّ أن أكسر الحاجز وأن أبدأ حواراً «معكم» (الإسرائيليين) سواء وَصَلَ هذا الحوار إلى نتيجة أو لم يصل. كان لا بد أن ألتقى «معكم» مباشرة دون وُسَطاء آخرين قد يتلاعبون بنا. وبالمصادفة فإن صديقى الطبيب الدكتور «هربرت»، وهو الذى يرعى صَحَّتى هنا، اقترح علىَّ فكرة لقاء مباشر «معكم»، وقد رددت عليه بالترحيب قائلاً Fine، وقد نَجَحَ الدكتور «هربرت» وأثبَتَ لى قُدرَتَهُ على الوصول إلى مراكز التأثير فى إسرائيل، وعَقَدنا ذلك اللقاء». ومن ناحية أخرى - وكما يَظهَر فى الأوراق - فقد روى الدكتور «هيرتزوج» فى تقرير قدمه لرئيسه ورئيس وزراء إسرائيل «ليفى أشكول» - وقائع لقائه مع الملك «حسين» فى عيادة الدكتور «إيمانويل هربرت» فى لندن على النحو التالى:

«إننى أبلغت الملك حِرص حكومة إسرائيل على سلامَة وسيادة مملكة الأردن وعلى مصالحها، وطمانتُه إلى أن لدينا من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن «ناصر» (جمال عبد الناصر) يأخذ فى حسابه أن نشوب أزمة بينه وبين الأردن قد يؤدى إلى تدخل إسرائيلى فى صَفِّ الملك!»

وبدا الملك «حسين» - علَى نحو لافت - مُتَفهِّماً للإستَراتيجية الإسرائيلية، فقد قال (لـ«هيرتزوج») : «إن التوصل إلى تسوية نهائية بين العرب وإسرائيل سوف يأخذ زمناً طويلاً، ولهذا فإن الواجب التاريخى يَفرِض على حكومَتَىَّ الأردن وإسرائيل أن تحتفظا وتُطَوِّرا علاقات من التعاون الوثيق إلى حين تَتَهَيَّأ الظروف».

وقال «هيرتزوج» فى تقريره لـ«أشكول» إن «الملك حسين طلب منه نقل شكره وعرفانه إلى حكومة إسرائيل لمساعدات قدمتها له فى الماضى حين أوصلت إليه عن طريق أصدقاء مُشتَرَكين - معلومات وتحذيرات عن مؤامرات تُحاك ضده وضد نظامه!». كان العرب بالفعل فىِ حالة إرهاق، وقد تفاوتت ردود فعلهم تجاهه، وأفلتت بعض ردود الفعل حتى ظهرت آثارها فى عيادة طبيب يهودى فى لندن!! وهكذا كانت «إستراتيجية الاستنزاف» على المدى الطويل والمتواصل تفعل فعلها وبنجاح ملحوظ!

ومع نجاحها كان «ليفى أشكول» يَتَصَوَّر أن المسرح أصبح جاهزاً لكى تَتَقَدَّم إستراتيجية المياه على غيرها من أولويات «الأمن» الإسرائيلى - والهدف ضمان أكبر قدر من مياه الأردن ومنابعه وفروعه للدولة اليهودية، ويَتَّصِل بذلك ضرورة منع أية محاولات عربية - سورية بالذات - من إقامة مشروعات تنتقص مما يمكن أن تحصل عليه إسرائيل. وكان تقدير «أشكول» بعموم أن نقطة الماء فى الشرق الأوسط لا تَقِل قيمتها عن نقطة الدَم!



٥ قمم

كان مَجرى الماء المتَدَفِّق من سوريا إلى بحيرة «طبريا» وإلى نهر الأردن هو بنفسه مَجرى الدم الذى سال فى معارك سنة ١٩٦٧. والوثائق الإسرائيلية هنا شديدة الوضوح وقاطعة!

....

....

كانت الحكومة السورية فى ذلك الوقت تبدى اهتماما بمشروعات تفكر أو تحاول تنفيذها لبناء سدود تحجز المياه النابعة أو الجارية فى أراضيها كى تُستَخدَم فى الزراعة السورية بدلاً من ذهاب هذه المياه إلى إسرائيل - لكن حكومة دمشق وَجَدَت أن المدفعية الإسرائيلية تُغَطِّى بقذائفها معظم المواقع التى تريد أن تعمل فيها، هذا فى الوقت الذى يظهر على الجانب الآخر - الجانب الإسرائيلى للخطوط - نشاط كَثيف يُرى بالعين المجرَّدة وهو يُسابق الأيام لإقامة مشروعات إسرائيلية مقابلة تختزن المياه السورية وتقوم بتوزيعها. وهكذا لجأت سوريا إلى تقديم طلب لبحث الموضوع فى جلسة خاصة يعقدها مجلس الدفاع المشترك فى جامعة الدول العربية.

وحين انعقد المجلس تقدمت القيادة السورية بمشروع يقضى بأن تقوم الجيوش العربية بمهاجمة المشروعات الإسرائيلية وتدميرها.

ووَجَد مجلس الدفاع المشترك أن هذا المطلب السورى يَتَعَدَّى اختصاصه، ومن ثم أوصى بانعقاد مؤتمر استثنائى لرؤساء أركان حرب الجيوش العربية.

وبدوره انعقد هذا المؤتمر الاستثنائى (أكتوبر ١٩٦٣) وبحث إمكانيات الجيوش العربية وقدرتها على شن هجوم ضد مواقع المشروعات الإسرائيلية، وتبين أن هذه الجيوش ليست مستعدة لمثل هذا العمل!



وحَدَثَ أن الرئيس «جمال عبد الناصر» اطَّلع على مُداولات مؤتمر رؤساء أركان حرب الجيوش العربية وتوصياتهم، وقام بالفعل بدعوة بعض رؤساء الأركان ليسمع منهم، وكان رأيه فى النهاية «أن أى عمل هجومى على إسرائيل لا منطق له إذا كانت الجيوش العربية غير قادرة على حماية مشروعات تقوم بها داخل حدودها». وكان تقديره بعد ذلك أن توفير حرية العمل للحكومات العربية داخل حدودها هو الأولوية التى تستحق الاهتمام، وغير ذلك ضَربٌ من المغامرات الخطرة لا لزوم له».

وكان من هنا أنه دعا إلى أول مؤتمر عربى على مستوى القمة فى مقر جامعة الدول العربية فى القاهرة لبحث مسألتين:

١ - مسألة مساعدة الدول العربية على تصميم وتنفيذ أكفأ المشروعات الممكنة للاستفادة بمواردها المائية.

٢ - مسألة حماية المشروعات العربية داخل حدود الدول العربية المعنية.

وانعقد المؤتمر على مستوى القمة فعلاً فى مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة فى الفترة ما بين ١٣ إلى ١٧ يناير سنة ١٩٦٤.

....

....

ومن المفاجآت التى تطل على أى قارئ للوثائق الإسرائيلية - حجم الاهتمام الذى أعطته إسرائيل لمؤتمرات القمة العربية وقتها: أولها الذى انعقد فى القاهرة يوم ١٣ يناير ١٩٦٤ - والثانى الذى انعقد فى الإسكندرية يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٤ أيضاً - ثم المؤتمر الثالث الذى انعقد فى الدار البيضاء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٦٥.

كان المؤتمر الأول قد أحدث دهشة فى إسرائيل لمجرد انعقاده، فقد كانت كل التقديرات الصادرة عن وزارة الخارجية وجهاز الـ«موساد» - كما يَظهَر من الملفات - قاطعة فى أنه «من غير المحتمل فى المناخ العربى السياسى الراهن أن ينعقد مؤتمر عربى على مستوى القمة تلبية للدعوة التى وَجَّهَها «ناصر» - وإذا انعقد مثل هذا المؤتمر فإن عَدَداً من الدول العربية لن تشارك فيه، وأولها المملكة العربية السعودية، والسبب أن الخلافات بين القاهرة والرياض اتسعت طولاً وعَرضاً وأصبحت «جرحاً» يصعب دواؤه أو شفاؤه، وإضافة إلى ذلك فإن صراع القوة بين الملك «سعود» ووَلِىِّ عهده الأمير «فيصل» بلغ أشده، والملحوظ أن الميزان فى هذا الصراع يميل إلى «فيصل» لأن الولايات المتحدة تعتقد أنه أقدر على قيادة المملكة فى الأجواء العاصفة للعالم العربى من الملك «سعود» الذى «حَرَقَ أصابعه فى مؤامرة لاغتيال «ناصر» لكى تَسقط دولة الوحدة بين مصر وسوريا». ومعنى ذلك أن «سعود» لن يترك العاصمة خالية لـ«فيصل» ويَتَغَيَّب أسبوعاً على الأقل فى القاهرة - كما أن «فيصل» لن يسمح للملك بسهولة أن يذهب ويُقَوِّى مركزه بالاشتراك فى مؤتمر قمة عربى، ولمصالحة سوف تَستوجِبها الظروف بينه وبين «ناصر»، وهذا بدوره تدعيم لقوة «سعود» لا يَقبَل به «فيصل».». وأخيراً «لأن الأمير «فيصل» لا يريد مؤتمراً يَجمَع مَلك السعودية مع رئيس مصر، لأن مثل هَذا المؤتمر قد يكون فرصة تَتَجَمَّع فيها على السعودية وساطات عربية تفرض عليها تسوية مع المصريين

الغريب أن الوثائق الإسرائيلية كان فيها ما يُطمئن إسرائيل - بالحقائق العملية - إلى أن قلقها من بيانات القمة العربية مُبالغ فيه، إذ تشير الوثائق وتؤكد الشهادات أن الملك «حسين» مَلِك الأردن الذى غادر الإسكندرية بعد مؤتمر القمة الثانى قاصداً باريس فى زيارة عَمَل قصيرة كان فى حقيقة الأمر على مَوعِد مع «جولدا مائير» وزيرة الخارجية الإسرائيلية

فى اليمن ، بينما الأمير «فيصل» من رأيه أن يستمر «تَوَرُّط الجيش المصرى فى اليمن» لأن ذلك يربك السياسة الثورية للقاهرة من الناحية السياسية والأمنية - المالية والنفسية ، ثم إن استمرار الوجود العسكرى المصرى فى اليمن كفيل بتنبيه شركات البترول العاملة فى السعودية وفى الخليج بصفة عامة إلى أن شبه الجزيرة العربية مُعَرَّض لمخاطر لا بد أن تُواجَه عند المنبع فى القاهرة ، وليس عند المصَبّ فى صنعاء!».

لكن القمة العربية انعقدت ، وأحدث انعقادها دهشة فى إسرائيل ، ثم تَحَوَّلَت الدهشة - كما تقول الملفات - إلى نوع من القلق يطلب على الأقل مراجعة للمسلَّمات التى اعتمدت عليها التقديرات الإسرائيلية السابقة.

وضاعف من أهمية مراجعة التقديرات السابقة أن مؤتمر القمة العربى تَوَسَّع فى قراراته ، بمعنى أنه تَوَصَّلَ - كما لاحظت وزارة الخارجية ورئاسة الأركان فى إسرائيل - إلى إقرار خطة لتحويل مياه نهر الأردن ، ومياه الشبكة المائية المتصلة به فى سوريا ولبنان والأردن ، ثم عَهَدَ بهذه الخطة إلى هيئة عليا تُحَوِّلها إلى مشروعات مُفصَّلة رُصِدَت لها اعتمادات شاركت فيها الدول العربية القادرة وأولها المملكة العربية السعودية (التى مَثَّلَها الملك «سعود» والذى انتهزها فرصة - كما كانت التقديرات الإسرائيلية تشك (وتَستَبعِد) - لمصالحة مع «جمال عبد الناصر». كما أن بعض التلميحات أشارت إلى جهود تُبذل وراء الستار بغية التَّوَصُّل إلى تسوية تعيد السلام الأهلى بدلاً من الحرب الأهلية لليمن ، وبالتوازى مع ذلك كله فإن الوفد السعودى إلى القمة انتهزها فرصة لشَنّ حملة علاقات عامة مع بقية القادة والزعماء العرب ، هدفها تقوية مركز «سعود» فى مواجهة «فيصل».).

فوق ذلك (مما رَصَدَتهُ الوثائق الإسرائيلية) فإن ضرورات حماية مشروعات المياه العربية - كما رآها مؤتمر القمة العربى - اقتضت الاستعداد بقوات عربية ، وهكذا أنشئت قيادة مُوَحَّدة تحت قيادة ضابط مصرى كبير هو الفريق «على على عامر» ، ثم عُيِّنَت لهذه القيادة العامة هيئة أركان حرب - وهيئة عمليات - وهيئة تسليح - رَصَدَت لها معظم الدول العربية قوات بحجم مُعَيَّن تُوضَع فى اختصاص القيادة المُوَحَّدة وتتحرك بأوامر منها.

ولَفَتَ نظر الجهات الأمنية فى إسرائيل، وبالذات جهاز الـ«موساد» ، أن المؤتمر أنشأ كياناً سياسياً مستقلاً باسم «منظمة التحرير الفلسطينية» (تَوَلَّى رئاسته الأستاذ «أحمد الشقيرى») ليكون رمزاً لوجود الشعب الفلسطينى ، وليكون لفلسطين مقعد مستقل فى كل مؤسسات الجامعة العربية ، بما فى ذلك مؤسسة القمة.



٦ تحـــــولات

لكن الذى أثار التَّوَجُّس وإلى حَدٍّ مبالغ فيه (من قراءة الوثائق الإسرائيلية) كان مُقَدِّمة إعلان بيان القمة العربية الأولى الذى وَقَّعَه الملوك والرؤساء العرب جميعاً ، وكانت هذه المُقدِّمة - فى الترجمة المعتَمَدة لوزارة الخارجية الإسرائيلية - تقول «إن قيام إسرائيل هو التهديد الرئيسى الذى يواجه الأمة العربية ويتطلب جهدها لمواجهته. إن إقامة إسرائيل خطر على الأمة العربية ، وسوف يضاعف من هذا الخطر أن ينهض العرب مُصَمِّمين على حماية مياه الأردن حمايةً للوجود العربى ذاته ، وعلى هذا الأساس فإن الدول العربية ينبغى لها أن تكون مستعدة بالخطط الضرورية للتعامل مع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية بحيث تكون جاهزة لمواجهة أية عراقيل تقوم بها إسرائيل ، وأن تكون جاهزة بالقوة العسكرية مُتأكدة أن استكمال هذه القوة يمثل الوسيلة الوحيدة لتحقيق الهدف النهائى بتصفية إسرائيل». وكان من المصادفات أن هذا البيان صَدَرَ بعد خمسة عشر يوماً فقط من تولى الجنرال «إسحاق رابين» منصب رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى (١ يناير ١٩٦٤). وفى اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى لمناقشة بيان مؤتمر القمة العربى ، لاحظت وزيرة الخارجية الإسرائيلية «جولدا مائير» أن «هذه أول مرة يعلن فيها القادة العرب أمام الدنيا كلها وصراحة أن هدفهم النهائى تدمير إسرائيل» ، ورَدَّ الجنرال «إسحاق رابين» الذى كان حاضراً الجلسة ومُشارِكاً فى المناقشة العامة بأنه «أخذ علماً بذلك» ، وهو يعتقد أن «هذا الإعلان نقطة تَحَوُّل رئيسية فى الصراع العربى الإسرائيلى». وعندما انعقد مؤتمر القمة العربى الثانى فى الإسكندرية يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٤ وبحضور الأمير «فيصل» وَلِىّ عهد السعودية (وكان فى ذلك الوقت قد أتم عملية تطويق الملك «سعود» تمهيداً لعزله ، ثم تَوَجَّهَ إلى الإسكندرية يحضر القمة العربية الثانية نائباً عن الملك ، ليكون ذلك إعلاناً صامتاً لكل العرب ولكل الدول أن السُلطة فى المملكة قد انتقلت رسمياً إليه رغم أن أخاه الأكبر كان ما يزال رسمياً جالساً على العرش !) - بدا ذلك فى الوثائق الإسرائيلية - على الأقل - مُوحياً بأن العرب (ربما) كانوا على وشك ترتيب أولوياتهم وتسوية خلافاتهم تمهيداً لتوحيد جهودهم ، ونتيجة ذلك أن إمكانيات العمل العسكرى ضدّ إسرائيل اتسعت واستحوذت على الجزء الأكبر من وقت المؤتمر (وكانت القيادة السورية لحزب البعث يومها هى قائدة تصعيد النبرةَ العسكرية فيما صَدَرَ عن المؤتمر) - وكذلك فإن البيان النهائى له أشار إلى «أهمية تحرير فلسطين من الاستعمار الصهيونى» ، ولم يكتف بـ«التأكيد على مَهام حماية مشروعات المياه العربية».

ويَظهَر فى الوثائق الإسرائيلية أن مجلس الوزراء الإسرائيلى فى جلسته العادية رأى تقديم مُذكِّرة إلى مجلس الأمن تُلفت نظره إلى «أن ثلاث عشرة دولة عضوًا فى الأمم المتحدة اتخذت قراراً بأن تمحو من الوجود دولة أخرى عضو فى الأمم المتحدة ، وتلك مخالفة خطيرة لميثاق الأمم المتحدة ترفضها إسرائيل ، وتُعتَبِر رفضها واجباً تلقيه عليها مبادئ ميثاق الأمم المتحدة».

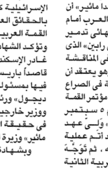
ثم اجتمع مجلس الوزراء الإسرائيلى على هيئة «لجنة أمن» لبحث الموقف (يوم ١٢ مارس ١٩٦٤) ، وتَعَدَّدَت الآراء ، ولكنها كانت جميعاً تسابُقاً إلى نوعٍ من المواجهة - كما تُصَوِّر الوثائق.

كان رأى «ليفى أشكول» رئيس الوزراء أن الموقف العربى تَحَوَّلَ بسرعة من بيانات جوفاء إلى خطط عملية وراءها مشروعات وقوات وأسلحة وأموال ، وذلك تَحَوُّلٌ لا يمكن أن تَسكُت عليه إسرائيل.

ووضع «ديان» النقط على الحروف أكثر قائلاً : «إن هذه المشروعات لا يوقفها إجراء أقل من الحرب الشاملة».

وطلب «رابين» (رئيس الأركان) إذناً بشن غارات جوية متواصلة على مواقع المشروعات العربية ، وخصوصاً على حشد كبير من المعدَّات الهندسية يَتَجَمَّع «الآن» وراء الحدود السورية. والغريب أن الوثائق الإسرائيلية كان فيها ما يُطمئِن إسرائيل - بالحقائق العملية - إلى أن قلقها من بيانات القمة العربية مُبالَغٌ فيه ، إذ تشير الوثائق وتؤكد الشهادات أن الملك «حسين» مَلِك الأردن غادر الإسكندرية بعد مؤتمر القمةَ الثانى قاصداً باريس فى زيارة عَمَل قصيرة يلتقى فيها بمسئولين فرنسيين بينهم الرئيس «شارل ديجول» ورئيس وزرائه «جورج بومبيدو» ووزير خارجيته «كوف دى مورفيل». لكن الملك فى حقيقة الأمر كان على مَوعِد مع «جولدا مائير» وزيرة الخارجية الإسرائيليةَ.

وبشهادة الملك «حسين» مُسَجَّلة بصوته أمام الدكتور «آفى شلايم» - فإن الملك تَحَدَّث عن لقائه بـ«جولدا مائير» قائلاً:



«لقد كان اجتماعا طيِّباً. وبحق فإنه اجتماع كَسَرنا فيه كل الثلوج حتى يعرف بعضنا البعض عن قرب. ولقد تَحَدَّثنا عن أحلامنا وآمالنا أن نرى أبناءنا وأحفادنا يعيشون فى الإقليم عهداً من السلام. وقد قلت لها أننى واثق أنه سوف يجىء يوم نلقى فيه جميعاً أسلحتنا ونصنع تمثالاً للسلام نقيمه فى القدس ليُعَبِّر عن رفضنا لصراع عقيم..»

ولم يقل الملك أكثر من ذلك ، لكن وثائق إسرائيلية أخرى تُظهِر أن هذا الاجتماع مع «جولدا مائير» كان بداية لاتفاقيات تعاون بين المخابرات المدنية والعسكرية فى البلدين ، تضمن ضمن تَعَهُّدات أخرى - أن تتولى المخابرات الإسرائيلية مُتابعة أعداء الملك داخل المملكة وخارجها، وإبلاغه بما لديها من معلومات تمس أمنه وأمن العرش ، وتساعده على إفشال خططها العدائية. وقد أضيف إلى ذلك اتفاق «جنتلمان» بأن الملك مهما كان من أمر مشروعات تحويل مياه الأردن المقررة فى بلاده - لن يتجاوز حصته المقررة من مياه الأردن طبقاً لمشروع «جونستون» .

....

....

وكان مشروع «جونستون» واحداً من المشروعات التى قدمتها الولايات المتحدة الأمريكية ابتداء من سنة ١٩٥٠ - بدعوى الرغبة فى المساعدة على حَلّ مشاكل الشرق الأوسط وفتح الفُرَص لتنميته ، وكان أولها ما عُرِفَ باسم مشروع «كلاب» الذى يسمح بترحيل اللاجئين الفلسطينيين المشرَّدين بعد حرب فلسطين، وإعادة توطينهم فى سيناء ، وقد عرضه الدبلوماسى الأمريكى المكلف به وهو المستر «إدوارد كلاب»، ورَفَضَتهُ مصر فور تقديمه فى العصر الملَكى وخصوصاً أن بريطانيا لم تكن مُتَحَمِّسة له لأنه - كما هو واضح فى الوثائق البريطانية - كان يخلق أوضاعاً قلقة وراء ظهر القاعدة البريطانية فى قناة السويس ذلك الوقت. وكان مشروع «جونستون» هو الثانى بين المشروعات الأمريكية ، وكان هَدَفُه تَعاوُن دول المشرق العربى، وبالذات سوريا ولبنان والأردن ، وإسرائيل بالطبع ، لاقتسام مياه نهر الأردن وشبكة موارده المائية بغَرَض التَّوَسُّع فى الإعمار (تحضيراً لمناخ السلام) ، وكان لإسرائيل النصيب الأوفر من مياه الأردن طبقاً لهذا المشروع. ولم تقبل الدول العربية بمشروع «جونستون»، لكن إسرائيل بدأت فى تخطيط وتنفيذ سياستها المائية على أساسه.

....

....

وتشير وثيقة أخرى إلى أن الملك «حسين» فى ذلك الاجتماع مع «جولدا مائير» طلب سلاحاً من إسرائيل ، وحين سألته وزيرة الخارجية الإسرائيلية عما إذا لم يكن ما تعطيه له الولايات المتحدة ، وآخره صفقة دبابات ، يكفى ؟.. كان رَدُّ الملك «حسين» بما مؤداه «أن الاتفاق العسكرى الذى حصلت به مملكته على ثمانين دبابة أمريكية يرافقه تَعَهُّد مكتوب ومُوَقَّع منه شخصياً بأن «الحكومة الأردنية لا يحق لها استعمال هذه الدبابات فى الضفة الغربية»!»

....

....

كان بين ما نشرته (نقلاً عن هذه التصريحات والتقارير فى الصحافة الإسرائيلية) سماح الملك «الحسن» لجهاز الـ «موساد» الإسرائيلى بتركيب ميكروفونات تسمع وعدسات ترى كل شىء داخل قاعات اجتماع القمة العربية فى الرباط

واللافت للنظر أن هذا الحوار بين الملك «حسين» وبين وزيرة خارجية إسرائيل وَرَدَ بالفاظه تقريباً ونُشِر فى دراسات جادة : دراسة «شاهام» عن «تاريخ نصف القرن الأول من حياة إسرائيل» (صفحة ٢١٥) - وتَكَرَّر نشره مرة أخرى فى دراسة الدكتور «آفى شلايم» (صفحة ٢٢٨)!

....

....

ويتصل بذلك ويلفت النظر أكثر ما وَرَدَ فى المذكرة النهائية التى قدمها الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى السنوات من ١٩٦٩ وحتى سنة ١٩٧٣ - إلى الكنيست الإسرائيلى فى رده على تقرير لجنة التحقيق الخاصة برئاسة رئيس المحكمة العليا القاضى «أجرانات» . وذلك أنه فى صفحة ١٣٦ من «الترجمة العربية المحدودة» لهذه المذكرة الضافية كَتَبَ ما يلى بالنص :

«لسنوات طويلة كنا نعقد بين الحين والحين اجتماعات منتظمة مع شخص رفيع المستوى وذى مكانة مُحتَرَمة فى منطقتنا . وسوف أسميه هنا «المشار إليه» (الرجل المرموق) . وفى الحقيقة فإنه لم يكن يعطينا معلومات بالمعنى المعروف للكلمة . ولكنه بسبب مكانته الرفيعة كان مَصدَراً مستمراً لمتابعة التَوَجُّهات والنوايا على المستويين السياسى والأمنى . وكانت ثقتنا فيه عالية بسبب مكانته الرفيعة . وكان فى مقدورنا عن طريقه أن نفهم ما يجرى فى العالم العربى . والواقع أنه كان مَصدَراً حيوياً لزعماء إسرائيل الذين يهمهم إيجاد سُبُل للتفاهم والتعايش مع العرب المحيطين بإسرائيل.» ومع أن الجنرال «إيلى زائيرا» أخفى اسم المصدَر العربى الرفيع المستوى ورَمَزَ إليه فى كلامه عنه (صفحة ١٣٦ من الترجمة العربية للتقرير) - فإن مدير المخابرات العسكرية السابق على صفحتى ١٤٠ و ١٤٤ قام بتسميته صراحة بصفته «الملك حسين» ، وكان ذلك بالإحالة إلى شهادة السيدَة «جولدا مائير» أمام لجنة «أجرانات» وبخصوص لقاءاتها مع مَلك الأردن أثناء رئاستها للوزارة . وقبل أيام من حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

....

....

وكان هذا اللقاء بين الملك «حسين» وبين «جولدا مائير» قبل أيام من حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ مَوضع أخذ ورَدّ فى تحقيقات لجنة «أجرانات» ، ودواعيه اتهام «جولدا مائير» بأنها لم تاخذ جَداً بدرجة كافية تحذيرات الملك «حسين» عن استعداد مصر وسوريا لشَن حرب على إسرائيل فى ظرف أسابيع ، ولو أنها أخَذَتها جَداً لما كانت مفاجأة قيام الحرب ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

....

....

وفيما أورده الجنرال «زائيرا» فإن عدداً مَحدوداً من صُنّاع القرار فى إسرائيل (رئيس الوزراء ، ووزير الدفاع ، ورئيس هيئة أركان الحرب ، ومدير المخابرات العسكرية ، ورئيس الـ«موساد») كانوا يعقدون جلسات مُنتَظمة مع الملك «حسين» تتم فى أماكن مُؤَمَّنة مُختارَة على جانبى الحدود ، وفيها يسمعون من الملك «حسين» تقييماً عاماً لرؤيته للأحوال ، ثم يقومون بعد ذلك بتوجيه أسئلة مُحَدَّدة إليه ، وكان الملك يجيب ! .. (مُعتَبِراً أن ذلك داخلٌ فى نطاق التَنسيق الأمنى المُتَّفق عليه مع إسرائيل)!

....

....



٧ خبايا

كان مؤتمر القمة العربى الثالث - فى الدار البيضاء يوم ١٢ سبتمبر ١٩٦٥ - هو آخر سلسلة «القِمَم» فى الفترة التى سبقت معركة يونيو ١٩٦٧. وربما أن هذا المؤتمر كان الأخطر فى السلسلة رغم أنه كان الأقل جَدْيَّة بينها ! وبشكل ما فإن الوثائق الإسرائيلية - فى حدود ما رأيت وقرأت - تَتَجَنَّب الإشارة إلى هذا المؤتمر بالتفصيل وكأنها تُحاذر الاقتراب منه رغم أن أجهزة الأمن الإسرائيلية كلها وأولها الـ«موساد» كانت موجودة فى قاعة المؤتمر مُراقبة لما يجرى فيه ومُستَمعة لمناقشاته ومُساجلاته وقد وَصَلَت أحياناً إلى دَرَجَة المشادة !

....

....

وكنتُ قد نَشَرتُ (فى عَدَد «وجهات نظر» - أكتوبر ١٩٩٩) تفاصيل عن هذه الواقعة الخطيرة فى مقال لهذه المجلة استندت فيه إلى تصريحات وتقارير فى الصحافة الإسرائيلية فى رثاء الملك «الحسن» وتكريمه - عندما ذَهَبَ إلى رحاب الله.

وكان بين ما نَشَرتُه (نقلاً عن هذه التصريحات والتقارير فى الصحافة الإسرائيلية) سماح الملك «الحسن» لجهاز الـ«مَوساد» الإسرائيلى بتركيب ميكروفونات تَسمَع وعَدَسات ترى كل شىء داخل قاعات اجتماع القمة العربية فى الرباط - لكننى حتى بعد النشر ظللت حائراً فى الطريقة التى أمكن بها إتمام هذه المهمَّة بنجاح ، ودون أن يلحظها أحد من المدنيين أو العسكريين المغاربة من خارج الدائرة الضيقة التى تحيط بالملك «الحسن» ، ثم أن تَتَواصَل هذه المهمَّة من أول المؤتمر حتى نهايته - دون مُقاطعَة ؟!

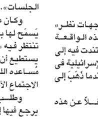
لكنه من يوم أن نَشَرتُ ما نَشَرت (عَدَد «وجهات نظر» - أكتوبر سنة ١٩٩٩) وحتى الآن (نوفمبر ٢٠٠٠) أتيح لى أن أعرف ما ينهى الحيرة ويبطل سؤالها.

والحقيقة أن الخطة التى اعتمدت بالفعل لتمكين الـ«موساد» من المتابعة بالصُورة والصوت ، وحتى بالإشارة والإيماءة ، لمؤتمر عربى على مستوى القمة - كانت خطة بالغة الذكاء ، شديدة البساطة.

كانت فترة منتصف الستينات هى الفترة التى بلغ فيها التعاون بين المخابرات المغربية والمخابرات الفرنسية (وغيرهما من أجهزة الأمن) - ذروته. وقبلها وبعدها كان الجنرال «محمد أوفقير» وزير الداخلية الدَمَوى فى حكومة الملك «الحسن» وموضع ثقته ومأمن سره - هوَ المسئول بالطبع عن هذا التعاون الحميم خصوصاً فى مُطاردة أعداء الملك «الحسن» وأولهم فى ذلك الوقت الزعيم الاَشتراكى الأسطورى «المهدى بن بركة». وفى باريس . وفى أحد أيام الأسبوع الأول من مايو ١٩٦٥ (أربعة شهور قبل مؤتمر القمة فى الدار البيضاء) عُقِدَ فى باريس اجتماع أمنى على مستوى عَال فى إطار التنسيق بين أجهزة الأمن السرى الفرنسية والمغربية ، وانضم إليه مندوب من المخابرات الإسرائيلية ، وهو فى الغالب الجنرال «مائير آميت» مدير الـ«موساد» الذى تَوَلى منصبه قبل شهور. وفى هذا الاجتماع طرح مدير الـ«موساد» فكرة أن إسرائيل يهمها أن تعرف معرفة يقين نوايا الدول المعادية لها (مصر وسوريا بالذات) - ويَتَّصل بذلك أن اكتفاء إسرائيل بمعلومات مكتوبة تصلها من «الأصدقاء» أو حتى بنُسَخ من مَحاضر جلسات القمة ليس كافياً ، لأنه فى معرفَة النوايا فإن «تعبيرات الوجوه تقول أكثر مما تفصح عنه الأوراق ، كما أن نبرات الصوت تُعَبِّر بأكثر مما يمكن أن تعرضه محاضر الجلسات».

وكان معنى ذلك أن إسرائيل تطلب ترتيباً يَسمَح لها بأن ترى وتَسمَع ما يهمها مباشرة، لا تنتظر فيه «بوحٍ» صديق. وكان ذلك أكثر مما يستطيع أن يَبِتَّ فيه الجنرال «محمد أوفقير» أو مُساعده اللواء «أحمد الدليمى» الذى شارك فى الاجتماع الأمنى إلى جواره.

وطلب «أوفقير» أن تُترَك له «المسألة» يرجع فيها إلى «جلالة الملك». وفى اجتماعٍ تال فى نهاية شَهر مايو ١٩٦٥ عُقِدَ اجتماع أمنى آخر فى ميناء «مارسيليا» الفرنسى ، وفيه أبلغ الجنرال «أوفقير» زملاءه «بأنهم «فى المغرب» لا يعرفون كيف يمكن تدبير الطلب الإسرائيلى دون أن يؤدى ذلك إلى انكشاف فى موقف الملك تكون له عواقب لا يستطيع الملك قبولها». والغريب أن مدير المَخابرات الإسرائيلى



وبموافقة مسئول هيئة الأمن الخارجى الفرنسى المكلف بحضور الاجتماع - هو الذى عَرَضَ اقتراحا لتذليل العقبات بما يدرأ العواقب ، وكانت الخطوط الرئيسية فيما عُرِضَ على النحو التالى :

- أنه فى الأعراف المعمول بها فى الجامعة العربية فإن جهاز الأمانة العامة لجامعة الدول العربية هو الذى يتولى الإجراءات الإدارية الخاصة بعَمَل المؤتمرات ، وتنظيم الجلسات ، بما فى ذلك كتابة المحاضر وصياغة مشروعات القرارات.

- لكنه فى مؤتمر القمة العربى الأول فى القاهرة ، ونظراً لعدم كفاية جهاز الأمانة العامة للجامعة العربية للخدمات المطلوبة منه لمؤتمر على مستوى القمة (لأول مرة) شارك فيه جميع ملوك ورؤساء الدول العربية - فإن الدولة المضيفة وهى مصر (وقد تصادف أنها أيضا دولة المقر) - تَوَلَّت عن الأمانة العامة للجامعة العربية وبواسطة مسئولين من رئاسة الدولة ووزارة الخارجية مُهِمَّة توفير الخدمات الإدارية المطلوبة للقمة.

- وفى ذلك الوقت ومع غَلَبة الشك وسوء الظن على السياسة العربية فإن وزارة الخارجية المصرية اقترحت على الأمانة العامة للجامعة العربية (وزيادة فى التأكيد على سلامة صياغة المحاضر وحُسن تعبيرها بأقصى قدرٍ من الدِقَّة عن المناقشات) أن يتم تسجيلها صَوتاً وصَورة ، وبشكل سِرّى (وإن يكن رسمياً).

....

....

وبالفعل فإنه فى ذلك الوقت ، وأثناء التمهيد لانعقاد مؤتمر القمة العربى الأول ، قال السيد «محمود رياض» وزير الخارجية المصرى للسيد «عُمَر السَقَّاف» القائم بأعمال وزير الخارجية السعودى أن فكرة تسجيل الجلسات صوتاً وصورة هى الطريقة الحديثة لضمان دقَّة المحاضر بما لا يَحتَمل ذَرَّة شك ، ثم إن السَرِّيَّة ممكنة إذا كانت أجهزَة الدولة (وِحدة خاصةَ فى التليفزيون المصرى) - هى التى ستقوم بالعَمَل. وحين لاحظ «محمود رياض» أن نظيره السعودى يبدى تَرَدُّداً قال له (طبقاً لتقرير كَتَبَه «محمود رياض») ما مُؤَدّاه : «لا داعى لأن تَشُكُوا وأن تَتَصَوَّروا أن هَدَفَنا مجرد تسجيل الجلسات - لو كان ذلك ما نريد ففى مَقدورنا أن نضع الميكروفونات خفيَة فى قاعة الاجتماعات ، وأظنكم أيضاً تُقَدِّرون احتمال أن غيرنا وغيركم من الوفود سوف يدخلون قاعة المؤتمر وفى حقائبهم أو فى جيوبهم أجهزة تسجيل مُخَبَّاة فى حقائب أوراقهم أو فى جيوبهم ، ونحن لا نستطيع أن نضع نظام تفتيش يمس الملوك والرؤساء أو يقترب من رجالهم المشاركين معهم فى وفودهم ، وإلا فهى أزمة.

لذلك ولصالح الجميع - ولمصلحة الحقيقة - فإنه من الأفضل أن تكون الميكروفونات فوق الموائد وليس تحتها ، وأن تكون الكاميرات أمام عيوننا جميعاً وليس خلف ظهورنا». وبعد مُشاورات ومُداولات

الذى يستوجب الملاحظة ويستحقها هو وجود اختلاف فى السياسات المتبعة إزاء مصر وتلك المتبعة إزاء سوريا - بينما كلاهما مجاور لإسرائيل - بالالتصاق - وكلاهما معاد لها - بالمبادئ والتصرفات

جرى قبول الاقتراح المصرى وعلى أساس أن تتلقى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية نُسَخاً من شرائط التسجيل «صورة وصوتاً» بعَدَد الملوك والرؤساء المشاركين فى القمة، وفوقها نُسخَة للمحفوظات السرِّيَّة للأمانة العامة لجامعة الدول العربية. وهكذا تكون «الوثيقة الكبرى» للاجتماع محفوظة لدى الجميع، مرجعية يمكن الاطمئنان بالكامل إلى أمانتها على كل قول وكل نص - وحتى كل تعبير!

وكان ذلك بالفعل ما جرى تنفيذه بالنسبة لمؤتمر القمة العربى الأول فى يناير ١٩٦٤ - وبعده فى مؤتمر القمة العربى الثانى بالإسكندرية فى سبتمبر ١٩٦٤.

....

....

والآن وفى «مارسيليا» أواخر شهر مايو سنة ١٩٦٥ - كان رئيس الـ«موساد» الإسرائيلى يعرف تفاصيل الإجراءات التى اتفق عليها فى اجتماعات القمَم العربية - وعليها رَتَّبَ مقترحاته التى راحَ يعرضها على زملائه من الأمن الفرنسى والأمن المغربى. وهكذا (مايو ١٩٦٥) يَستَطرِد رئيس الـ«موساد» فى عرض الخطوط الرئيسية لفكرته: «- إن الحكومة المغربية - وهى المضيف الرسمى لمؤتمر القمة الجديد - تستطيع أن تأخذ بالسوابق التى جرى إقرارها والعمل بها فى مؤتمرات القمة فى القاهرة والإسكندرية وتَطلُب - ولن يُعارضها أحد - أن تكون هى المسئولة عن الإجراءات المطلوبة لخدمَة مؤتمر القمة، بما فى ذلك تنظيم الجلسات وكتابة المحاضر وصياغة القرارات. وهى فى هذا الصَدَد تستطيع ودون مُنازعة أن تتولى بأجهزتها الرسمية عملية تسجيل وقائع الاجتماعات صوتاً وصورة، وترسل نُسَخاً منها - كما فعَلَت مصر قبلها - وبعَدَد الملوك والرؤساء، بالإضافة إلى نُسخَة إضافية برسم الأمين العام لجامعة الدول العربية).

-وبما أن التليفزيون المغربى مؤسسة وليدة - لا يملك الوسائل الفنية ولا المهارات الضرورية لأداء العمل بكفاءة (تليق بمقام اجتماع يُشارك فيه الملوك والرؤساء العَرَب) - فإن الحكومة المغربية من حقها وحدها وبدون اضطرار إلى إخطار غيرها - تستطيع مُبَكِّراً - يُساعدها أصدقاؤها! - تأليف شركة خاصة لخَدَمات التليفزيون تكون جاهزة - بمُعداتها وخبراتها - للمهِمَّة قبل الموعد المحَدَّد.».

....

....

وهكذا كان. وبالفعل تألفت وسُجِّلَت شركة فى مدينة «ليون» الفرنسية - تحت اسم «أطلس» - وكانت الواجهة فيها مغربية. ولكن ما وراء الواجهة كان شيئاً مختلفاً تماماً - وعلى أية حال فإن الشركة الجديدة انشغلت وانهمكت من أول يوم (مُستَعينة بالتلفزيون المغربى للدولة أحياناً) فى وضع مُعداتها وتدريب خُبرائها على دخول القاعات والخروج منها، وتركيب الميكروفونات وتمرير أسلاكها، وتوجيه الكاميرات وفتح زواياها. ومنذ اللحظة التى بدأ فيها الملك «الحسن» خطابه فى القمة قائلاً: «بسم اللَه الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين..» - كانت الميكروفونات تَعمَل والعَدَسات تُضاء بينما عناصر من الـ«موساد» والأمن الفرنسى وزملائهم من المغاربة جالسون باطمئنان فى غرفة التَحَكُّم control room يرون ويسمعون باعتبارهم «موظفين فى الدولة»، وتحت اختصاص الجنرال «أوفقير» الذى كان المسئول العام عن نظام وتامين المؤتمر. وقد ظلت شركة «أطلس» تواصل عملها حتى جرت تصفيتها وإنهاء وجودها القانونى فى وقت ما من سنة ١٩٩١!

....

....

وكان مؤتمر القمة العربى الثالث فى الدار البيضاء فى ١٢ سبتمبر ١٩٦٥ هو المؤتمر الذى عُرِضَت عليه بضغط وإلحاح من القيادة السورية البعثية وقتها «خطة عسكرية لتصفية إسرائيل»، ولم يكن هناك من أبدى اقتناعه بالخطة أو بكفاءتها، أو بإمكانية تنفيذها بالقُدرات العربية الراهنة، أو فى ظل الأوضاع الدولية القائمة.

والملاحظ فى الجلسة الثانية من جلسات هذا المؤتمر الثالث على مستوى القمة العربية أن «جمال عبد الناصر» تَدَخَّلَ فى المناقشات مُبدِياً استغرابه لأن «الوفد السورى» الذى كان يرأسه الفريق «أمين الحافظ» «يجُرُّنا إلى مُزايَدات قد تؤدى إلى مغامرات لا تأخذ فى حسابها الطاقات الحالية للأمة».

ولقى ما قاله «جمال عبد الناصر» استجابة من الملك «فيصل». وكان أن اقترح رئيس وزراء السودان السيد «أحمد محمد محجوب» ترك موضوع الخطة العسكرية التى تَصَوَّرها رئيس الدولة السورى وقتها (الفريق «أمين الحافظ») لتصفية وجود إسرائيل - والانتقال إلى جَدوَل الأعمال، واعترض الفريق «أمين الحافظ»، لكن القمة وافقت على اقتراح رئيس وزراء السودان.

وإذن فإن إسرائيل كانت تعرف كل الحقيقة فيما دار داخل مؤتمر القمة الثالث فى الدار البيضاء سنة ١٩٦٥.

ومن المدهش أن حكومة المغرب احتفظت عندها بكل الشَرائط التى تم تسجيلها صورة وصوتاً لوقائع جلسات مؤتمر القمة العربى الثالث فى الدار البيضاء، ولم تصل أى نسخة منها إلى القاهرة باسم الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ولا إلى مكاتب أو دواوين رؤساء الدول العربية المعنية. وحَدَثَ أن قامت وزارة الخارجية المصرية باستعجال الشرائط، ورَدَّت أمانة الجامعة العربية بأنها لم تتسلمها بعد، ولكنها بعثت إلى الرباط تطالب بها لأن عواصم عربية أخرى شاركت فى المؤتمر مثل القاهرة تريد أن تكون محفوظاتها كاملة - وذلك هو الوضع حتى هذه اللحظة!



٨ الصواريخ

لا تحتوى الوثائق الإسرائيلية على تفاصيل كثيرة عن مؤتمر القمة العربى فى الدار البيضاء، لكنها تُفصِح عن الكثير مما رَتَّبَتهُ إسرائيل على ما عَرَفَتهُ وسَمِعَتهُ سواء من داخل جلسات هذا المؤتمر أو من كافة مصادرها القوية والمنتشرة فى كل أرجاء العالم، سواء على مستوى السياسة والدبلوماسية، أو على مستوى المخابرات والأمن، أو على مستوى النفوذ والنفاذ إلى مواقع التأثير بواسطة جالياتها القوية المناصرة و«التنظيمات المتعصبة» وسط هذه الجاليات. وفى مجمل ما يبدو من الوثائق الإسرائيلية خصوصاً سنة ١٩٦٥ أن إسرائيل:

١- ماضية فى تنفيذ مشروعاتها للحصول على أكبر قدر من مياه الأردن.

٢- وهى لا تَعتَبِر التهديدات السورية خطرة أو حالَّة، وتَعتبِر أن النظام السورى كما هو وقتها «عَصَبِى» من ناحية منه، ومُختَرَقٌ من ناحية أخرى خصوصاً من مخابرات صديقة (تَبَيَّنَ فيما بعد أنها المخابرات البريطانية الخارجية «M.I.6»، وكان الاختراق على أعلى مستوى فى القيادة العسكرية الحزبية (الحزب القومى السورى) وهى وقتها الأقرب من المسئولية السياسية داخل قيادات وتشكيلات الجيش السورى).

٣- أن مصر بكل ما تُمَثِّله وتَتَحَصَّل عليه فى ذلك الوقت ما زالت هى الخطر الذى يمكن أن تخشى منه. وهكذا فإن الوثائق الإسرائيلية فى ذلك الوقت تَظهَر من خلالها خطة حركة:

- حرب نفسية على سوريا (وبالتحديد على القيادة الحزبية التى تبدو عَصَبِيَّة فيها) لإفقاد قرارها السياسى والعسكرى توازنه الضرورى.

- ثم حرب تطويق سياسى وعسكرى ضدَّ مصر، تَستَغل ما يبدو على مصر من إرهاق استنزاف طويل عَكَس نفسه فى النهاية على صورة تَرَدُّ يكاد يصل إلى حَدُّ المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية (التى أوقفت بالفعل فى ذلك الوقت مبيعات القمح إلى مصر بمُقتَضى القانون ب.ل. ٤٨٠) - تحت ضغط شديد من الكونجرس



الأمريكى بمجلسيه، وفى عهد رئيس أمريكى لا يحتاج إلى مَن يُحَرِّضه على مصر وهو «ليندون جونسون» (الذى خَلَفَ «جون كنيدى» بعد اغتياله أواخر سنة ١٩٦٣) - ثم فاز فى انتخابات سنة ١٩٦٤ دون اعتماد على بريق عصر «كنيدى» وأحلامه الواسعة!

....

....

وكان «ليندون جونسون» نوعاً من الرجال يختلف عمن سبقوه من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية، فهو لم يكن القائد المنتَصِر فى الحرب مثل «أيزنهاور»، ولا كان الحالِم بآفاق إنسانية جديدة مثل «كنيدى»، وإنما كان سياسياً أمريكياً محلياً - وعملياً - وفلاّحاً من تكساس كما يقول، يفهم فى مشاكل استزراع الأرض وتوفير المياه، ويعرف حسابات الانتخابات المحلية والفيدرالية على أطراف أصابعه. ثم إنه فى واشنطن وأثناء رئاسته للكونجرس أصبح الصديق الذى تُعتَمد عليه جماعات الضغط (اللوبى) اليهودى، وفوق ذلك فإن دائرة الأصدقاء الأقرب إلى قلب «جونسون» كانوا من اليهود (وبينهم «إيب فورتاس» وهو قانونى مشهور وله تاثير واسع فى الأجواء السياسية لـ«جورج تاون» (عاصمة القوة السياسية فى واشنطن) - ثم إن هوى «جونسون» ومشاعره كانت مع سيدة مجتمع يهودية، ذكية وجميلة هى «ماتيلدا كريم».

....

....

وتشير الوثائق الإسرائيلية إلى معرفة سابقة بين «أشكول» وبين «جونسون» عندما كان نائباً للرئيس (مع «كنيدى») وقام بزيارة لإسرائيل التقاه فيها وسمع منه وتأثر به، ووَجَدَ نفسه مُستَريحاً له أكثر مما استراح لرئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت «دافيد بن جوريون» الذى بدا له «شخصية من شخصيات التوراة المتَوَعِّدة والمنذِرة بالعَذاب الأليم»! ومن المفارقات - كما يَتضح من قراءة الملفات - أن «جونسون» أعطى لـ«أشكول» فرصة تَمَنّاها «بن جوريون» ولم يحصل عليها، وهى القيام بـ«زيارة دولة» إلى الولايات المتحدة - خلافاً لـ«زيارة رسمية»، أو «زيارة عَمَل». وأهمية «زيارة الدولة» أن رئيس الولايات المتحدة يكون هو المرافق للضيف الممتاز فى كل تَحَرُّكاته واتصالاته. وكانت «زيارة الدولة» دَفعَة تأييد قوى لـ«أشكول» قبل الانتخابات العامة القادمة فى إسرائيل.

....

....

كانت زيارة «أشكول» للولايات المتحدة «زيارة دولة» - تالية فى التوقيت لمؤتمر القمة العربى الأول، وسابقة على مؤتمر القمة العربى الثانى. وفى الاستعداد للزيارة فإن «أشكول» عَقَد اجتماعا مع مجلس الأمن القومى، وكان أمام المجلس تقرير من

كان من المثير بالنسبة لى أن أقابل نفسى مرة أخرى فى الوثائق الإسرائيلية، فقد وَجَدتُ ضمن ملفاتها عن تلك الفترة تقارير وتعليقات مُستفيضة عن مقالات كتبتها فى التنبيه إلى مشروع إسرائيل النووى

الجنرال «موشى ديان» ملخصه أن «مشروعات تحويل مياه الأردن لا سبيل إلى وقفها إلا بالحرب». وكما يَبين من الأوراق فإن «إيزر وايزمان» قائد سلاح الطيران الإسرائيلى الذى حَضَرَ اجتماع مجلس الأمن القومى عرض إلى دور «سلاحه» فى أى مواجهة قادمة دون دخول فى التفاصيل الكاملة لخطة أطلق عليها الاسم الرمزى «موكد» (الموقد) - وقد ظهَرَ فيما بعد أن أساس الخطة (التي انفرد فيها الطيران وحده بـ : ٥٢٪ من جُملة الاعتمادات المقرَّرة للدفاع) هو «توفير قوة جوية إسرائيلية تستطيع تدمير كل الأسلحة الجوية فى الدول الملاصقة لإسرائيل (مصر وسوريا) - بضربة واحدة» - وكانت قائمة طلبات «وايزمان» لتحقيق هذا الغرض على النحو التالى :

□ ٤٥طائرة من طراز «فانتوم» (أ.٦٠) - مع العلم أن سلاح الطيران الإسرائيلى كانت لديه بالفعل ثلاثون طائرة من هذا الطراز.

□ ١٦٥ طائرة من طراز «سكاى هوك» المقاتلة - مع العلم أن سلاح الطيران الإسرائيلى كانت لديه بالفعل ١٢٠ طائرة من هذا الطراز. أى أن المجموع الإجمالى كان ٢١٠ طائرات هى الأحدث فى جيوش العالم فى ذلك الوقت. وفى الحقيقة - وكما يَرِد فى الأوراق بالنص - فإن «وايزمان» كان يريد أن يجرى «عملية تجديد كاملة لسلاح الجو الإسرائيلى الذى كان حتى وقتها يعتمد على الطائرات الفرنسية من طراز «ميستير» ثم طراز «ميراج»». وكان الجنرال «إسرائيل تال» قائد سلاح المدرعات يطلب ٣٢٠ دبابة من طراز «م ٤٨»، وكانت ميزتها فى حسابه أنها تقدر على العَمَل دون حاجة للتَزَوُّد بالوقود لمدى يزيد مرتين عن مَدى عَمَل دبابة الـ «سنتوريون» البريطانية التي كانت معروضة على إسرائيل ! وهكذا تَوَجَّه «أشكول» إلى زيارة صديقه «جونسون» (رئيس الولايات المتحدة) وفى «زيارة دولة» - ومعه قوائم الطلبات التى أعَدَّها جنرالاته.

وقد أضاف «أشكول» إلى هذه القوائم طلباً من رئاسة أركان حرب الجيش الإسرائيلى تسأل فيه عن إمكانية الحصول على صواريخ. وفى مَحاضر ذلك اللقاء بين «أشكول» و«جونسون» يَرِد حوار يقول فيه «أشكول»:

«إن إسرائيل تريد أن تكون لها قوة فى الصواريخ توازى القوة التى بَنَتها مصر. فـ «ناصر» لديه مائتا صاروخ ، وإسرائيل على استعداد لأن تتوقف عن طلب صواريخ أمريكية إذا تَمَكَّنَت الولايات المتحدة من إقناع «ناصر» بتدمير صواريخه». ثم يُضيف «أشكول» عبارة فى الحوار تستحق الاهتمام قال فيها بالحرف الواحد مُوَجِّهاً كلامه لـ «جونسون»:

«إن إسرائيل على استعداد لأن تنتظر سنة أو سنتين على أكثر تقدير ، ولكن الحاصل أمامها أن «ناصر» يواصل تَجاوُز العَقَبات التى ما زالت تُؤَثِّر على فاعلية صواريخه (مشكلة جهاز التوجيه) - لكنه على وجه اليقين سوف يَتَمَكَّن من حَلِّ هذه المشكلة فى سنتين أو ثلاث، وحينئذ فإنه يُصبح فى وَضع يمكنه من الهجوم على إسرائيل. وإذا حَدَثَ أن مصر هاجَمَت إسرائيل فإن بقية البلاد العربية سوف تحذو حذوها».

ثم يَضَع «أشكول» فى صوته أقصى ما يستطيع من حرارة التأثر ، ويقول بالحرف - طبقاً لمحضر الاجتماع بينه وبين «جونسون» :

«إن إسرائيل لا تحتمل أن تخسر معركة واحدة أمام العرب يا سيدى الرئيس. وإذا حَدَث ذلك فسوف تكون نهاية التاريخ اليهودى. والشعب اليهودى لديه رسالة مازال يؤديها للعالم المتحَضِّر ، وإذا نظرت ياسيدى الرئيس إلى التاريخ الإنسانى وعَدَدتَ ما قدمه اليهود للحضارة الإنسانية لتَبَيَّنَ لك على الفور أن هذه الحضارة الإنسانية تحتاج إلى اليهود ، وذلك ما أتمنى أن يكون واضحاً أمامك !»

وطبقاً لمحضر الجلسة فإن «ماك جورج باندى» مستشار الأمن القومى للرئيس الأمريكى (وكان «كنيدى» هو الذى عَيَّنَه فى منصبه ، وطلب «جونسون» إليه أن يواصل الخدمة العامة معه وفى نفس منصبه) - أبدى ملاحظة قال فيها ما مؤداه أن «ناصر يضغط بشدة فى استكمال برنامج الصواريخ المصرية لأنه يعلم أن إسرائيل لديها مشروع نووى يراه خطراً عليه . وهو لا يريد أن يفاجأ يوماً بأن إسرائيل تَمَكَّنَت من تحقيق اختراق نووى وهو أمامها بغير سلاح ردع».

ورَتَّبَ «ماك جورج باندى» على ذلك سؤالاً وجهه إلى «أشكول» عما «إذا لم يكن مفيداً أن تقول الولايات المتحدة لـ «ناصر» - بموافقة إسرائيلية - بأن مشروع إسرائيل النووى فى «ديمونة» مدنى فى كل تطبيقاته وليس مُوَجَّهاً إلى صنع سلاح نووى ، ثم إنه قد لا يكون ضرورياً أن يعرف «ناصر» أن «هذا الإخطار يُقَدَّم إليه بموافقة إسرائيلية حتى لا يكون فى ذلك شبْه تعهد من حكومة إسرائيل».» وطبقاً لمحضَر الجلسة - أيضاً - فإن «أشكول» رَدَّ على هذا الاقتراح بغضب قائلاً بالحرف:

«لا أستطيع أن أوافق على إخطار «ناصر» بأى شىء عن «ديمونة». إن «ناصر» عَدُوٌّ لنا. ومادامت الجمهورية العربية المتحدة عدوّاًلإسرائيل فإنها سوف تظل مُلتَزِمة بتدميرها. ولذلك فإن إسرائيل تُعارض تقديم أى تأكيدات ولا حتى بالوساطة فى مثل هذه الموضوعات (يقصد الموضوعات النووية).

وبالإضافة إلى هذا فإن «ناصر» يُكَرِّس الجهود منذ سنوات لكى يجعل من مصر قوة نووية ، وسوف يواصل تكريس الجهود. وأى شىء تقولونه له عن مفاعل «ديمونة» لن يكون له أثر من أى نوع».

واستطرد «أشكول» طبقاً للمحضر :

«لماذا نقول شيئا لـ «ناصر» عن أى شىء ؟ - هو لا يقول لنا ولا يقول لكم - هل قال لكم كلاماً مُحَدَّداً عن مشروعه لبناء الصواريخ؟»!

....

....

وكان من المثير بالنسبة لى أن أقابل نفسى مرة أخرى فى الوثائق الإسرائيلية، فقد وَجَدتُ ضمن ملفاتها عن تلك الفترة تقارير وتعليقات مُستَفيضة عن مقالات كتبتها فى التنبيه إلى مشروع إسرائيل النووى. وكان التركيز فى الملفات الإسرائيلية على مقال (فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٥) قلتُ فيه «إن إسرائيل سوف تكون جاهزة فى سنتين أو ثلاث سنوات لصُنع قنبلة ، وهى عندما تقترب من هذا الحد سوف تقترح على مصر أن تَدخُل معها فى اتفاق لحظر الأسلحة النووية فى البلدين ، وبطبيعة الأحوال فإن مصر لن تقبل الدخول فى اتفاق من هذا النوع مع إسرائيل ، وحينئذ يكون هذا الرفض ذريعة لمشروعية صُنع قنبلة نووية إسرائيلية». وبعد شهرين تعود التقارير الإسرائيلية فتُرَكِّز على مقال آخر كتَبتُه فى ذلك الوقت (١٥ أكتوبر ١٩٦٥) - وتُظهِر الوثائق الإسرائيلية أن هذا المقال وُضِعَ تحت دراسة عميقة ومُفَصَّلة ، خصوصاً فقرة منه تقول : «إن إسرائيل تحاول أن تبنى لنفسها قدرة نووية تستطيع أن تُعطيها قنبلة فى ظرف سنتين أو ثلاث سنوات ، وعلى الدول العربية أن تكون مُستَعِدَّة بطريقة جماعية لمواجهة هذا الخطر. لأنه فى مواجهة إمكانية صنع سلاح نووى فإن الدول لا تنتظر حتى تجىء اللحظة الحرجة ، وإنما هى مُطالبة بأن تُعَبِّئ مواردها استعدادا لهذه اللحظة مسبقاً». ثم يُسَجِّل أحد التقارير الإسرائيلية وبإلحاح أن «هيكل» طالب بإنشاء قيادة جوية عُليا مُوَحَّدة ، وبجهد مُرَكَّز ونشيط فى المجال النووى.

....

....

ومن اللافت أن هذه الملفات الإسرائيلية فى تلك الفترة حافلة بأخبار وبيانات سورية رسمية تقول «إن الأسلحة النووية ليست مُهِمَّة لنوع الحرب الذى لا بد للعرب أن يشنوه لتحقيق هدف إزالة إسرائيل ، وهو حرب التحرير الشعبية !»

وتَتَضَخَّم هذه الملفات بتقارير عن لقاءات عربية شارك فيها زعماء بعثيون سوريون كبار ، وضباط عسكريون ينتمون إلى الحزب القومى السورى ، وأهم ما فيها شكوى هؤلاء جميعاً إلى زملاء لهم فى العالم العربى مؤداها «أن مصر تتحدث عن أهمية صُنع قنبلة نووية عربية لأنها تريد أن تجعل ضرورات المواجهة مع إسرائيل صعبة ، وبذلك تعفى نفسها من المسئولية مادامت هذه المواجهة شِبْه مُستَحيلة !»





٩ الصيد

هناك ظاهرة تَستَوقف النظر ، ولا بد أن يلاحظها كل قارئ مُهتَم يمسك بالملفات الإسرائيلية ويقرأ فيها قراءة تحقيق وتدقيق.

خلاصة هذه الظاهرة أن لإسرائيل تجاه العالم العربى أكثر من سياسة ، وهذا مفهوم فى جزء منه ، بمعنى أن إسرائيل يمكن أن تكون لها سياسة مع دول عربية ليست لها حدود مباشرة معها - وتكون هذه السياسة مُختلفة عن سياستها مع دول ملاصقة لها - وبالتالى فإن إسرائيل مع دول مثل السعودية وغيرها من دول الخليج تستطيع أن تتخذ سياسة حرص من بعيد عارفة حَق الفواصل الجغرافية ومُحَدَّداتها. كذلك فإن إسرائيل يمكن أن تكون لها سياسة خاصة لها اعتباراتها وخلفياتها مع بلد مثل الأردن رغم ملاصقته لها فى الجوار. لكن الذى يَستَوجِب الملاحظة ويَستَحقها هو وجود اختلاف فى السياسات المتَّبَعة إزاء مصر وتلك المتَّبَعة إزاء سوريا - بينما كلاهما مُجاوِر لإسرائيل - بالالتصاق - وكلاهما مُعاد لها - بالمبادئ والتصرفات.

ومع أن عَداء إسرائيل للبلدين - مصر وسوريا - مُحَقَّقٌ ومُؤَكَّد ، إلا أن التعبير الإسرائيلى عن العَداء فى الحالتين مُتَباين : ففى حالة سوريا يُعَبِّر العَداء عن نفسه بأسلوب ، بينما هو فى حالة مصر يَتَّخذ أسلوبا غيره. وفى بعض الأحيان يبدو الخَلاف فى السياسات الإسرائيلية إزاء مصر وسوريا مُوحياً بأن مَطالب إسرائيل فى الجنوب ، غير مطالبها فى الشمال. ومن ثم فإن طريقة مواجهتها للطرف العربى - الجنوبى الأفريقى فى مصر - مختلفة عن مواجهتها للطرف العربى - الشمالى الآسيوى فى سوريا.

والحاصل أنه مع سوريا فإن العداء الإسرائيلى يَعتَمد أسلوباً يكاد تركيز ضغطه أن يكون على الأعصَاب ، بحيث يستثيرها ويُفقدها التوازن. وإزاء مَحدوديَّة القُدرة على رَدّ الفعل فإن الضغط على الأعصَاب - كذلك التقدير - يُحَوِّل كل التفاعلات إلى احتقان يَرتَدّ أثره إلى الداخل السورى قبل أن يَنفجِرَ ناراً على الحدود.

وأما مع مصر فإن العداء الإسرائيلى يَظهَر منذ اللحظة الأولى تصميماً على القتل ، فالعَداء على الجبهة المصرية باستمرار حرب لسفك الدَم دون أى اعتبار أخلاقى أو إنسانى ، ولكسر الإرادة وليس لمجرد استثارة الأعصاب أو الاعتماد على احتقان داخلى !

ثم لا يلبث القارئ المحقق المدقق أن يكتشف أن وراء اختلاف

هناك إدراك إسرائيلي عميق يرى أن مصر بحجمها ومواردها هى مفتاح الحرب لأنه بغيرها لا يملك العرب إمكانية القتال - وأما سوريا فهى بموقعها وبدورها مفتاح السلام، وبغير توقيعها على صكه النهائى تظل بؤرة الصراع ومحيطها فى حالة توتر وقلق

التعبيرات عن العداء فى الحالة المصرية عنها فى الحالة السورية أسباباً منطقية تكشف عن نفسها دون عناء كبير :

١ - عداء إسرائيل لمصر يهدف إلى إبعادها وإخراجها من الصراع العربى الإسرائيلى. ويُعَزِّز ذلك اعتقادٌ بأن عودة مصر إلى ما وراء حدودها فى أفريقيا هدَفٌ ممكن.

وأما فى الحالة السورية فإن سوريا موجودة بالجغرافيا والتاريخ داخل البؤرة المباشرة للصراع العربى الإسرائيلى - حتى تكاد فلسطين أن تكون جزءاً من سوريا (وقد كانت فلسطين بالفعل هى سوريا الجنوبية (الشام الجنوبى) بفعل الحقائق الجغرافية فى الإقليم، وتلك حقائق أكَّدَت نفسها لزَمَنٍ طويلٍ فى تاريخ هذا الإقليم. وإذن فإن سوريا - على عكس مصر - لا يمكن إخراجها - وإذا كان ذلك فهى باقية - مهما حَدَث - جزءًا من جسمه الحى).

٢ - وعلى هذا الأساس فإن أقصى العنف ضرورى مع مصر لأن الهدف هو قطع اتصالها بالمشرق العربى - وإذن فهى الجراحة دَمَوِيَّة وحتى بدون تطهير للجَرح أو تضميد. وأما مع سوريا فإن الجراحة ليست ضرورية، والجَرح ليس مَطلوباً - وإذن فالترويض أنفع من العُنف، والتطبيب أنجَع من الجراحة، إلا فى الحالات القصوى وفى أضيق الحدود.

٣ - يتصل بذلك أن إسرائيل لا تَدَّعى لنفسها مَطالب من أى نوع (أسطورى، أو تاريخى) فى مصر، وكل ما تريده من مصر هو أن تَحِلَّ عنها وتُرَتِّب حياتها ومُستقبلها بعيداً عَنها فى أفريقيا.

وأما سوريا فإن مَطالب إسرائيل على أجنابها. كما أن بعض المطالب فى أطرافها مباشرة خصوصاً مَطلب المياه.

٤ - ومعنى ذلك أن إسرائيل لا تُمانع أن تقطع كل الصلات مع مصر إذا هى انعزلت، لكنها لا تستطيع أن تقطع صلاتها بسوريا وهى قلب الشام، بينما فلسطين فى الواقع الجغرافى والتاريخى جزء من هذا الشام - لأنها بالضبط جنوبه.

وهكذا فإن إسرائيل جاهزة لاستعمال أقصى درجات العنف لإبعاد مصر حتى وإن خَلَقَت ثارات فى الدَم تَستَوجِب القصاص - لكنها مع سوريا لا تريد لثار الدَّم أن يَتعَمَّق - وقصارى ما تَسمَح به - من جانبها - مع سوريا عُقَد نَفسِيَّة مُستَحكَمَة يمكن حلها ذات يوم إذا انسلَخَت الأجواء (كذلك يُقَدِّرون؟!).

٥ - وأخيراً فإنه مما يُزَكِّى هذا التباين فى السياسات الإسرائيلية بين أسلوب التعامل مع مصر وأسلوب التعامل مع سوريا - وجود إدراك إسرائيلى عميق يرى أن مصر بحَجمها ومواردها هى مفتاح الحرب لأنه بغيرها لا يملك العرب إمكانية القتال - وأما سوريا فهى بموقعها وبدَورها مفتاح السلام، وبغير توقيعها على صَكِّه النهائى تظل بؤرة الصراع ومحيطها فى حالة تَوَتُّر وقلق.

وفى سياق الحوادث المؤدية إلى ظروف سنة ١٩٦٧ وملابساتها فإن الجنرال «أهارون ياريف» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية («أمان») كان هو الأدق فى تصوير الفارق بين تعبيرات السياسة الإسرائيلية فى عدائها لسوريا، وبين تعبيراتها فى عدائها لمصر. وقد وَرَدَ وصف الجنرال «ياريف» فى مذكرة ضمن أوراقه التى أودعَت فى مركزٍ للدراسات الإستراتيجية أطلقَ عليه اسمه بعد وفاته. ويَظهَر أن الجنرال «ياريف» قَدَّمَ مذكرته إلى اجتماعٍ سياسى على مستوى عالٍ فى أوائل سنة ١٩٦٦، وفى هذه المذكرة حاول «ياريف» أن يطرح تقديراته للموقف على ضوء التطورات التى أعقبت مؤتمر القمة العربى الذى عُقِد فى الرباط فى ١٢ سبتمبر ١٩٦٥. وفى مقَدمة ورقته ذكر «ياريف» أن اللواء «أمين الحافظ» كان أعلى الأصوات المنادية بحرب إسرائيل إلى النهاية فى مؤتمر «كازابلانكا» - فى حين أن الرئيس «ناصر» رَدَّ عليه بنبرة تَعَقُّل أوضح فيها أن سوريا ينبغى عليها أن تراعى فى تصرفاتها أقصى درجات الحَذَر لأن العرب فى اللحظة الراهنة عليهم أن يزيدوا من دَرَجة استعدادهم ومن إمكانية التنسيق بينهم ليكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم وعن مشروعاتهم داخل حدودهم».

ثم يمضى الجنرال «ياريف» ليقول فى الخُلاصة :

«مع أن دمشق هى نداء الحرب فى هذه اللحظة والقاهرة هى صوت الحَذَر - فإن تقديرات إسرائيل لتصرفاتها لا بد أن تقوم على أساس أن الخطر الرئيسى على إسرائيل من الجنوب وليس من الشمال» ! وفيما بعد (بسنين طويلة) شارك الجنرال «ياريف» فى مؤتمر خاص رَتَّبَته كلية الدفاع والأمن القومى الأمريكية الشهيرة «ليفنورث» (سنة ١٩٧٥)، وكان موضوع المؤتمر هو «مستقبل الصراع فى الشرق الأوسط» - وأثناء إحدى مُداخلاته فى مَسار المناقشة طَرَحَ الجنرال «ياريف» تقديراته مرة أخرى فى تَشبيه مُعَبِّرٍ وحَىٍّ كأنه صورة مُلَوَّنة. فقد قال ما مُؤدَّاه إن «السلام سوف يُداوى كل جراح الحروب السابقة بيننا وبين العرب. وصحيح أننا لجأنا إلى العنف مع المصريين أكثر من غيرهم، لكنكم تعرفون أنهم الطرف الأقوى والأخطر. ولقد كان أسلوبنا فى الحرب مع العرب إذا أخذنا بفنون الصيد فى البحر وتَنَوّعها هو :

- فى الشمال - مع سوريا ولبنان - كنا نصطاد بالشَبَكة - تحاول الإمساك بالسَمَكة دون أن تجرحها.

- أما فى الجنوب - مع مصر - فلم يكن مأموناً أن نصطاد «الوَحش» بالشَبَكة، ولذلك كان ضرورياً أن نستعمل الـ«هاربون» Harpoon (الرُمح أو الحَربة المُثَبَّت على بندقية قاذفة والذى يُستَعمَل للصيد فى الأعماق، وهو يلحق جراحاً غائرة - وأحياناً قاتلة - بالسَمَك الكبير الذى يصيبه). والحقيقة أن التجاء الجنرال «ياريف» فى التشبيه إلى فنون الصيد : الصيد بالشَبَكة أو الصيد بالحَربَة (الـ«هاربون») - دقيق، وهو قادر على شرح الكثير من تصرفات إسرائيل على الساحات السياسية وميادين العَمَل العسكرى.



١٠ خطوط

تكشف قراءة الوثائق الإسرائيلية حتى نهاية سنة ١٩٦٦ (وهى الفترة التى جرى الإفراج عن عَدَدٍ لا بأس به من وثائقها) أن القيادة الأمنية (سياسية وعسكرية) فى إسرائيل تَتَوَقَّع مع بداية عام جديد - وقوع تَطَوُّرات لا يظهر شكلها واضحاً فى التقديرات كما تعكسها الأوراق - لكن بعض الإشارات هنا وهناك تُنبئ عن عَدَدٍ من الخطوط يمكن مُتابعتها :

١ - خط تجاه الأردن يعترف بأن هناك مشكلة مع الملك «حسين» بسبب غارة قامت بها القوات الإسرائيلية ضدَّ قرية «السموع». وقد أفلتت السيطرة على هذه العملية فجاءت أكثر «فظاظة مما كان مطلوباً منها». ولقد شعر الملك «حسين» بالإحراج، وعندما قيل له بأن إسرائيل وَجَدَت نفسها مُضطرة إليها بسبب نشاط جماعات من الفدائيين تجاوز حَدَّه واقتضى ضربة ردع - فإن الملك رَدَّ بقوله إن «إسرائيل أول من يعرف أنه لا يستطيع ضبط بعض العناصر فى بلاده بنفس ما أن إسرائيل لا تستطيع أن تَمنَع عملياتهم وهى محدودة». وقد قال الملك إنه «لا يفهم أن تَرُدَّ إسرائيل بهذه الطريقَة على قنبلة خائبة تحت جسرٍ صغير أو طلقة هاون طائشة على طريق مُنعَزِل».

وكان هناك توجيه سياسى وأمنى (يَظهَر جَلِيّاً فى الملفات الإسرائيلية) مُلِحّاً على ضرورة إصلاح ما فَسَد مع الملك بسبب غلاظة الغارة على «السموع»، وأن المحافظة على العلاقة معه «ضرورية»، وعلى إسرائيل أن تفكر فى نوعٍ من التعويض أو شكلٍ من أشكال الاعتذار تستريح به أعصاب الملك.

٢ - أنه تجاه سوريا فإن التَوَتُّرات العَصَبِيَّة سوف تستمر ،لأن إسرائيل عليها استكمال مشروعاتها لمياه الأردن، والآن فإن الجزء الأقرب منها إلى الحدود (فى منطقة «الحولة») على وشك الانتهاء. لكن بعض الضرورات، وأولها ضرورة الاستيلاء على بعض المواقع المنزوعة السلاح (من هُدنة سنة ١٩٤٩) لا بد أن يستمر حثيثاً، ولكن فى تُؤدَة وهدوء، ودون داعٍ لفرقعات على الحدود تُؤدى إلى تعاطف أو تضامُن عربى أوسع مع النظام السورى.

(وكان من رأى الجنرال «إسحاق رابين» رئيس الأركان - ومعه الجنرال «دافيد إليعازر» قائد الجبهة الشمالية - أنه من الأفضل تحقيق ما تريده إسرائيل فى المنطقة المنزوعة السلاح بخُطى أسرع لأن «النظام فى دمشق لا يحظى بأى تأييد له قيمة فى العالم العربى، ثم إن هذا النظام - وهو يعرف أنه معزول - لن يستطيع المغامرة باحتمال مواجهة، وإنما سوف يضطر إلى التراجع والتخفيف من صُراخِه الدعائى المزعِج» !

ومن المفارقات أن يقول وزير الدفاع الإسرائيلى فى جلسة مناقشة أمنية عامة تعليقاً على رأى «رابين» أن «رئيس الأركان لديه غيظٌ شخصى من سوريا، وهو لا يَستَلطِف السوريين» !).

٣ - وكانت التقديرات - تجاه ما يمكن تَوَقُّعه على الجبهة المصرية فى الشهور القادمة - مما يمكن تلخيصه بسرعة فى «ضرورة الحَذَر».

وكانت دواعى الحَذَر الضرورى كما يبدو من الأوراق الإسرائيلية مختلفة :

□ أهمها أن إسرائيل كانت بقرب المرحلة الهامة من مشروعها النووى. وطبقاً لوَصفٍ وَرَدَ على لسان «روبرت كومار» أحد مستشارى الرئيس «جونسون» فإن «الحَمْل (حَمْل الخطيئة !) وَصَلَ إلى شهره السابع أو الثامن - وأعراض نمُوّه فى بطن دَيْمونة لن تعود بعد قليل قابلة للإنكار أو الإخفاء».

□ وفى هذا الصَدَد فإن القيادة الأمنية لإسرائيل فى ذلك الوقت (أواخر سنة ١٩٦٦) كانت أمامها ولا زالت فى ملفاتها وأوراقها تقارير أمريكية بعضها مما كتبه «ماك جورج باندى» مستشار الرئيس «جونسون» للأمن القومى، وفى أحد هذه التقارير قال «جورج باندى» بالحرف :

«إن ناصر أوضح لسفرائنا أكثر من مرة أنه لا يستطيع أن يقف ساكتاً إذا تأكَّد من أن إسرائيل على وشك أن تحصل على سلاحٍ نووى. وأنه فى هذه الحالة قد يلجأ إلى شَنْ حَربٍ وقائية.

وطبقاً لتقديرات «لوك» (يقصد السفير الأمريكى فى القاهرة وقتها لوشيوس باتل) - فإن ناصر قد لا يحارب بالضرورة بسبب مشروعات نهر الأردن، لكنه إذا تأكَّد من حصول إسرائيل على سلاح نووى فإنه سوف يكون فى وضعٍ يُحَتِّم عليه التدخل العسكرى حتى لو بَدا له التدخل عملية خَطِرة وإلى دَرَجَة انتحارية !»

....

....

والوثائق الإسرائيلية ما زالت تبوح، وفيها الكثير مما يستحق التفكير والتَأمُّل رغم انتهاء سياحة الصيف معها، وظهور طلائع من السُحُب على الأفُق تُؤذِن بأن موسم الخريف جاء إلينا، وأن موسم الصيف سافر جنوباً !



ظاهــرة تلبيــس الطواقــى بــين رجــال الأعمـــال

أزمــة البنـــوك

مخــاطر الائتـمان أم مخــاطر الفسـاد؟

محمـود عبـدالفضـيل

١ الجهاز المصرفى في أى بلد هو جهاز حسّاس للغاية، ويمثل أحد مكوّنات الجهاز العصبى للاقتصاد القومى. فهو يشكل حلقة الوصل بين المدّخرين، من ناحية، والمستثمرين من ناحية أخرى. وهو المسئول عن ضخ السيولة في عروق الاقتصاد القومى، بما يساعد على تحريك دولاب الحالة الاقتصادية من خلال تمويل حركة رأس المال الثابت ورأس المال العامل. كما تتعدد الأدوات الائتمانية التى يتحكّم فيها القطاع المصرفى مثل خطابات الضمان، وفتح الاعتمادات المستندية، التى تؤثر بدورها على دورة النشاط الاقتصادى.

وبإيجاز، فإن وحدات القطاع المصرفي، وعلي رأسها البنك المركزى، تمثل إحدى ١ أهم القمم المسيطرة "Commanding Heights" التى تشرف من علٍ علي ساحة الاقتصاد القومى وتراقب حركة «الدورة الدموية» للاقتصاد القومى في صعودها وهبوطها. ونتيجة هذا الوضع المتميز للقطاع المصرفى في بنية الاقتصاد الوطنى، يكون القطاع المصرفى أكثر حساسية لنبض الاقتصاد واتجاهات الركود والانكماش والنمو والتوسع.

وقد لا نغالى كثيرًا إذا قلنا أن الذى يجلس علي رأس أجهزة الائتمان في البنوك الكبرى، يكاد يرى أحشاء الاقتصاد الوطنى، وكأنها ماثلة أمامه في إناء زجاجى.

وعادة ما تدور السياسات التوظيفية لأموال البنوك حول ثلاثة محاور رئيسية:

أ ـ السياسات التوظيفية المتعلقة «بمحفظة القروض»، أى تلك المتعلقة بسياسات الإقراض، وما هى فروع النشاط الاقتصادى التى تحظى بتفضيلات البنوك في مجال الإقراض ومنح التسهيلات الائتمانية بأنواعها.

ب ـ السياسات الاستثمارية المتعلقة بتكوين «محفظة الاستثمارات المالية»، التى تقوم علي الموازنة بين الأوراق المالية الحكومية والأوراق المالية التى تصدرها الشركات الخاصة، من ناحية، وبين الأوراق المالية المحلية والأجنبية، من ناحية أخرى.

جـ ـ المساهمات المباشرة في الشركات والمشروعات الجديدة. ويرتبط هذا النشاط بعمليات «ترويج الاستثمارات وتحفيزها» لتحقيق مزيد من التنمية في الاقتصاد الوطنى.

ومن الواضح، أن سلامة السياسات المتبعة من قبل البنوك في كل محور من هذه المحاور الثلاثة له انعكاسات وتاثيرات مهمة علي سلامة أداء الاقتصاد الوطنى في مجمله. ولذا فإن جودة أو سوء أداء «القطاع المصرفى» سوف ينعكس علي مجمل أداء الاقتصاد الوطنى، سواء في مجال تجميع المدخرات (الودائع) أو سياسات التوظيف والاستثمار.

وهكذا فإن سياسات «توظيف الودائع» وأموال البنوك يمكن أن تلعب دورًا مهمًا في تمويل عمليات الاستثمار الحقيقى التي تؤدى إلي التطوير والتحديث للاقتصاد المصرى. كما يمكن أيضًا أن تنزلق سياسات الإقراض والاستثمار للبنوك إلي توظيفات ليس لها عائد إنمائى أو «منافع عمومية»، علي حد تعبير الراحل العظيم «طلعت حرب».

ولقد تعددت مؤخرًا ردود الفعل حول تعثر عملاء البنوك وتوقّف العديد منهم عن سداد فوائد القروض خلال السنوات الثلاث الأخيرة. وحاول البعض رد كل ما حدث من مخالفات وتجاوزات وضياع للأموال إلى المخاطر التقليدية للائتمان المصرفى، فكل ما حدث ـ وفقًا لهذا الرأى ـ لا يخرج عن كونه مسألة عادية وطبيعية في عمليات التسليف ومنح الائتمان المصرفى، وأن كل بنوك العالم إنما هى عرضة لمثل هذه المخاطر نتيجة إعسار بعض العملاء الكبار، ورغم ذلك، فكل الوقائع تلقى ظلالاً من الشك حول أساليب منح ومتابعة «حدود الائتمان المصرح به» لدى معظم بنوك القطاعين العام والخاص خلال السنوات الأخيرة.

وليس هناك من شك أن هناك ضرورة لإعادة نظر شاملة في أوضاع الجهاز المصرفى وأسلوب منح الائتمان لرجال الأعمال في ظل الظروف الراهنة للاقتصاد المصرى، فالكل يعلم أن هناك خللاً بينًا في طبيعة العلاقة بين الجهاز المصرفى ومجتمع رجال الأعمال، وذلك يستدعى بدوره إعادة النظر في مجمل العلاقة بين أنشطة الاستثمار وأساليب الإقراض المصرفى وسلوكيات رجال الأعمال عمومًا.

وفي تقديرنا أن أسباب الأزمة الراهنة لتعثر رجال الأعمال في سداد القروض المصرفية وبعض حالات الهروب أو تصفية النشاط لبعض رجال الأعمال الذين تضخمت مديونياتهم للقطاع المصرفى خلال الآونة الأخيرة، تحتاج إلي وقفة تأملية ونظرة تحليلية لعناصر ومسببات تلك الأزمة، وكيف يمكن معالجتها لتصحيح عناصر الخلل التي نشهدها.

ويمكن لنا إرجاع جذور تلك الأزمة إلى أسباب عديدة، يجئ علي رأسها:

أولاً: التوسع الزائد في أنشطة رجال الأعمال المقترضين من القطاع المصرفى، حيث أغرت ظروف الرواج والكسب السريع التى سادت في بعض مجالات النشاط (مثل بعض الأنشطة التجارية والعقارية) إلي التوسع الشديد في العديد من الأنشطة بما يفوق طاقة رجال الأعمال علي تمويل وإدارة تلك الأنشطة دون سابق خبرة. إذا اتسمت سلوكيات بعض رجال الأعمال بالتنقل من نشاط إلي آخر،

وبشكل يأخذ أحيانًا طابع المغامرة، جريًا وراء الربح السريع.

وقد أدى هذا بدوره إلي التوسع في الاقتراض من القطاع المصرفى، دون أن يلعب القطاع المصرفى دوره في ترشيد سلوكيات رجال الأعمال والتدقيق في فرص نجاح الأنشطة التي تم التوسع فيها. إذ أن نجاح أحد رجال الأعمال في نشاط بعينه له معرفة وثيقة بدخائله، ليس معناه أنه يستطيع النجاح عندما يقحم نفسه فى أنشطة أخرى رائجة، ليس لديه الخبرة الكافية لكى يتعامل معها بنجاح.

ويؤدى هذا بدوره إلي ما يسميه رجال الاقتصاد «بالمغالاة في المتاجرة» (Over - Trading)، حيث يسىء رجال الأعمال تقدير أوضاع السوق وحجم الطلب المتوقع علي السلع والخدمات التي يتاجرون فيها، وبالتالى عندما تخفق التوقعات ويصعب تصريف الإنتاج (أو السلع المستوردة)، يتراكم المخزون الراكد وتضعف قدرة هؤلاء علي سداد مديونياتهم للقطاع المصرفى.

ثانيًا: عدم كفاية الضمانات للقروض المصرفية. إذ تشير العديد من التقارير والتحقيقات إلي أن العديد من عمليات الإقراض المصرفى تمت دون وجود ضمانات كافية، ولا سيما الضمانات العينية في شكل أصول ملموسة وبضائع مرهونة رهنًا حيازيًا لدى البنك، إذ إنه في العديد من الحالات، تم الاكتفاء بما يسمى «بسمعة العميل الجيدة في السوق»، والاكتفاء بتحرير شيكات وكمبيالات لتكون بمثابة ضمان للقرض. ومن المعروف أنه إذا تعثرت أحوال العميل تصبح هذه «الشيكات والكمبيالات» غير قابلة للدفع، وينكشف مركز العميل تمامًا.

وتشير بيانات الجدول (١) إلي أن نسبة القروض «بدون ضمانات عينية» بلغت نحو ٦٤٪ من جملة القروض والسلفيات لدى البنوك التجارية في نهاية يونيو ١٩٩٨، ولا شك أن تلك النسبة قد ارتفعت خلال السنتين الأخيرتين.

والأدهى من ذلك، أنه حتى في حالة استيفاء الضمانات العينية للقروض، يتم التلاعب في عملية تقييم الأصول والبضائع المقدمة علي سبيل الضمان، ففى أحوال كثيرة تم تقييم الأصول والعقارات (الضامنة للقرض) بأعلى من قيمتها بالتواطؤ مع مديرى الائتمان في فروع البنوك مقابل عمولة نقدية أو عينية.

وكل ذلك يؤدى إلي انكشاف مراكز العملاء، وعدم كفاية الضمانات لتغطية مديونياتهم، مما يؤدي إلي ارتفاع حجم الديون الرديئة والمشكوك في تحصيلها من جملة محافظ القروض لدى البنوك.

٢ ولعل المشكلة الأكبر تكمن في تركز جانب مهم من القروض في القطاع المصرفى بين مجموعة محدودة من كبار العملاء، مما يزيد من مخاطر الائتمان نتيجة عدم توزيع المخاطر فيما بين قاعدة أوسع من العملاء، وحيث تكون السقوف الائتمانية أدنى.

وتشير حالات كبار العملاء المتعثرين الذين انكشفت مراكزهم المالية مؤخرًا مثل: (حاتم الهوارى، الجارحى، مارك فهمى (دوارف)، لكح جروب)، وغيرهم، إلى ارتفاع مديونية «العميل الوحيد» إلي قرابة المليار جنيه أو ما يفوق. الأمر الذى يعرض القطاع المصرفى لمخاطر كبرى لا تتفق مع شروط الأمان وفقًا للأعراف المصرفية السليمة.

ويشير الجدول (٢) إلي توزيع أرصدة القروض والتسهيلات الائتمانية الممنوحة للقطاع الخاص في نهاية يونيو ١٩٩٨، حسب حجم القرض. وتفصح تلك البيانات عن درجة عالية من التمركز، إذ يستحوذ ٢٠ عميلاً من كبار العملاء علي نحو ١٠٪ من جملة التسهيلات والقروض الممنوحة للقطاع الخاص. وأغلب الظن أن تلك النسبة قد ارتفعت خلال العامين الأخيرين.

ومن ناحية أخرى، فإن اختلال الهياكل التمويلية بين نسب رأس المال المملوك وحجم القروض والالتزامات للغير (The Gearing Ratio)، تشكل أحد عناصر المشكلة.

إذ يلاحظ أنه في العديد من الأنشطة يوجد اختلال واضح في الهياكل التمويلية، حيث يتم التوسع والإفراط في الاقتراض من القطاع المصرفى أو من الغير في شكل سندات أو غيرها من مصادر التمويل، فإذا قلنا أن النسبة «الآمنة» بين رأس المال المملوك وحجم الاقتراض من خارج المشروع يجب أن تتراوح ما بين ١:١ أو ٢:١، نجد أن الوضع الراهن تصل فيه النسبة في بعض الأحيان إلي ٤:١ أو ٥:١ حسب فروع النشاط المختلفة، ولا شك أن هذا الخلل في الهياكل التمويلية يزيد من مخاطر الائتمان لدى القطاع المصرفى ولا سيما في حالة التصفية، أو إعلان إفلاس المشروع.

ويؤثر ذلك الخلل في الهيكل التمويلى بدوره على الصحة المالية للمشروع ذاته، إذ إن التمويل المفرط بالاقتراض لعمليات التوسع في الأنشطة يؤدى بدوره إلى تضخم حجم «الفوائد» التي تدفع علي القروض المصرفية وغيرها من مصادر الإقراض، وكلها يُقتطع من وعاء الربح، وبالتالى تؤدى إلي ضعف الربحية الصافية للمشروع، ومن ثم تضعف جدارته الائتمانية.

كذلك فإن من خصائص السوق المصرية تلك الطبيعة العائلية لمعظم مشروعات كبار العملاء المقترضين، وبإلقاء نظرة سريعة علي أسماء شركات كبار المقترضين، نجد أنها تشير بوضوح إلي الطبيعة العائلية «المغلقة» لمعظم أنشطة كبار العملاء المقترضين، وتكفي الإشارة فقط إلى العملاء الذين انكشفت مراكزهم المالية مؤخرًا، وعلي رأسهم: لكح جروب، مجموعة البليدى، الهوارى، الجارحى، لكى ندرك مخاطر «الطابع العائلى» الضيق لتلك الشركات والمجموعات.

بيان	بنوك الاستثمار والأعمال		البنوك التجارية	
	القيمة بالمليون جنيه	٪	القيمة بالمليون جنيه	٪
جملة القروض والسلفيات	٢٣٦٥٢	١٠٠	١٢٩٧٨٢	١٠٠
أ ـ تستحق الدفع خلال سنة:	١٨٠٦٢	٧٦,٤	٩٦٦٠٨	٧٤,٤
١ ـ بضمان بضائع	٦٢٠	٣,٤	٨٨٩٤	٩,٢
٢ ـ بضمان أوراق مالية	٣٠٠	١,٧	١٩٦٦	٢,٠
٣ ـ بضمان ذهب وودائع	١٧٥٠	٩,٧	٥٤٦٧	٥,٧
٤ ـ بضمان رهن عقارى	٢٤٤	١,٤	١٩٩٥	٢,١
٥ ـ بضمان كمبيالات	٥٦٢	٣,١	٣١٢٥	٣,٢
٦ ـ مقابل التنازل عن ديون أو عقود	٢٤٢	١,٣	٢١٣٠	٢,٢
٧ ـ بضمانات عينية أخرى	٢٥٦٧	١٤,٢	١١٣١٦	١١,٧
٨ ـ بدون ضمانات عينية	١١٧٧٧	٦٥,٢	٦١٧١٦	٦٣,٩
ب ـ تستحق الدفع بعد سنة:	٥٥٩٠	٢٣,٦	٣٣١٧٣	٢٥,٦
١ ـ بضمان رهن عقارى	٢٠٧	٣,٧	٢٥٧٤	٧,٨
٢ ـ بضمانات عينية أخرى	٤٥٢٠	٨٠,٩	٣٠٥٩٩	٩٢,٢
٣ ـ بدون ضمانات عينية	٨٦٣	١٥,٤	٠٠	٠,٠

جدول (١)

توزيع القروض والسلفيات للبنوك التجارية وبنوك الاستثمار والأعمال.
حسب نوع الضمان (فى نهاية يونية ١٩٩٨)



لا نغالى كثيرًا إذا قلنا أن الذى يجلس على رأس أجهزة الائتمان فى البنوك الكبرى، يكاد يرى أحشاء الاقتصاد الوطنى، وكأنها ماثلة أمامه فى إناء زجاجى

وتؤدى تلك «الطبيعة العائلية المغلقة» إلى ارتفاع حجم المخاطر لدى القطاع المصرفى في حالة الوفاة (سواء الطبيعية أو المفاجئة)، نظرًا لما قد يعقبها من نشوب نزاعات عائلية بين الورثة مما يلقى بظلاله علي مدى استمرارية النشاط ونجاحه، لا سيما أن معظم تلك الأنشطة تعتمد علي شخص واحد أو شخصين فقط يديران النشاط ويتمتعان بالعلاقات والصلات المهارات اللازمة لإدارة النشاط وتوسعه.

ويزيد الطين بلة أن هذا النوع من التركيب القانونى للشركات الكبرى العاملة في السوق (ذات المديونيات الكبرى)، يساعد علي انتشار الشائعات من حين لآخر حول وفاة أو هروب أحد كبار رجال الأعمال، مما يؤدى إلي تاثيرات سلبية في السوق، نظرًا لكبر حجم هذه الأنشطة وأوضاعها الاحتكارية في بعض مجالات النشاط الاقتصادى.

٣ وتعتبر حالة كل من «محمد الجارحى» رئيس شركة ميجا للاستثمارات و«رامى لكح» رئيس مجموعة لكح للاستثمارات نموذجًا للعلاقات المختلة بين القطاع المصرفى ورجال الأعمال، وللخروج عن قواعد السلامة والأعراف المصرفية، حيث يصعب تفسير كل ما حدث ورده إلي مخاطر الائتمان وحده، فقد بلغ إجمالى قروض «محمد الجارحى» قبل مغادرته البلاد نحو نصف مليار جنيه مصرى تم اقتراضها من بنوك: بنك مصر ـ مصر إكستيريور ـ المصرى المتحد (الدقهلية سابقًا)

وقد بدأ «الجارحى» حياته في عالم الأعمال «كوسيط تجارى» لحديد التسليح عام ١٩٨٢، وسرعان ما توسع في العديد من الأنشطة في كل الاتجاهات، إذ نجح في الحصول على توكيلات لتجارة وتوزيع أجهزة الكمبيوتر ومستلزماته والغلال، بالإضافة إلي توكيل سيجار يباع لحسابه بمحلات الفنادق الفاخرة، كما تاجر في كل شىء بدءًا من الاتجار في ديون مصر إلي الاتجار في الحبوب والخضروات والفواكه، وأخيرًا توّج نشاطه، مثل معظم رجال الأعمال الجدد، بإنشاء منتجع سكنى للصفوة علي طريق مصر الإسكندرية الصحراوى.

كما أصبح الجارحى من أكبر المساهمين في بنك مصر إكستيريور بنسبة ٣٢٪، حيث تم تمويل جانب من عملية شراء أسهم هذا البنك من خلال الاقتراض من بنك مصر، وتلك عملية تسمى بلغة أهل السوق «تلبيس الطواقى». ورغم كل ذلك

توقف عن سداد قروضه للبنوك، كما توقفت شركة «ميجا» التي يرأسها عن سداد أول كوبون مستحق لحملة سنداتها المصدرة في مايو ١٩٩٩ بقيمة ٢٠٠ مليون جنيه.

وإذا ما انتقلنا إلى حالة «رامي لكح»، فنجد أنه قد توسع في الاقتراض من البنوك خلال السنوات الأخيرة، وارتفع حجم مديونياته بشكل كبير لدى البنوك وعلي رأسها بنك القاهرة، ونتيجة اضطراب أوضاعه المالية أصبح يصعب عليه إصدار ميزانية تعبر عن المركز المالي الصحيح «لمجموعة لكح» في ٣٠ يونية عام ٢٠٠٠.

ويحاول «رامي لكح» كل مرة السفر إلي الخارج ومساومة البنوك الدائنة لإسقاط الفوائد وجانب كبير من مديونياته، بل يحاول ابتزاز الحكومة المصرية ذاتها عن طريق سلسلة من التهديدات الفارغة!

فلقد أرسل السيد «رامي لكح» خطابًا إلي السيد رئيس الوزراء يعلن فيه أنه في حالة عدم الوصول إلي حل سريع وفوري، فإن شركات مجموعته المتخصصة في المجال الطبي التي تقوم بصيانة وتوريد قطع الغيار لمعظم الأجهزة الطبية الدقيقة للمستشفيات والمراكز الطبية العامة والخاصة والاستثمارية في مصر وبعض دول الشرق الأوسط سوف تتوقف عن العمل، الأمر الذي سوف يترتب عليه انهيار وشلل كل الخدمات الطبية في مصر!



الفئة	عدد العملاء	رصيد التسهيلات (بالمليون جنيه)	النصيب النسبي من إجمالي التسهيلات	متوسط نصيب العميل (بالمليون جنيه)
أقل من ١٠٠ مليون جنيه	٩٨٦٦٥	١٠٠٤٢٢	٦٤٪	١
١٠٠-أقل من ٥٠٠ مليون جنيه	٢٢٤	٤٠٤٥٠	٢٦٪	١٨١
٥٠٠-أقل من مليار جنيه	١٧	١١٥٣٥	٧٪	٦٧٩
مليار جنيه فأكثر	٣	٥٣٤٩	٣٪	١٧٨٣
الإجمالي	٩٨٩٠٩	١٥٧٧٥٦	١٠٠٪	

جدول (٢)
التوزيع التكراري للتسهيلات الائتمانية الممنوحة للقطاع الخاص (في نهاية يونيو ١٩٩٨).
المصدر: البنك المركزي المصري، الإدارة العامة لتجميع مخاطر الائتمان.

وهذا يثير بدوره التساؤل حول من الذي ساعد السيد «رامي لكح» (وشركته العائلية المغلقة) علي الوصول إلي هذا المركز الاحتكاري في مجال صيانة وتوريد قطع الغيار لمعظم الأجهزة الطبية الدقيقة للمستشفيات العاملة في مصر؟

ورغم المبالغات التي يحويها «خطاب السيد لكح»، إلا أنها تشير إلي نوع من الفساد الخفي الذي ساعد شخصًا مثل «رامي لكح» علي أن يحتكر جانبًا مهمًا من هذا النشاط في غضون سنوات قليلة تعد علي أصابع اليد الواحدة؟

وفي ضوء كل ما سبق فمن الواضح أن هناك ضرورة لإعادة الانضباط للقطاع المصرفي بالتوازي مع إعادة الانضباط لسلوكيات رجال الأعمال، إذ أن الملاحظ أن هناك تراخيًا واضحًا في عملية متابعة حركة المديونية، في حالة العديد من كبار العملاء، مما أدى لتضخمها الشديد رغم إعسار العميل.

ومن ناحية أخرى، فإن وجود بيانات مجمعة لدى البنك المركزي عن حجم التسهيلات الائتمانية الممنوحة للعميل الواحد من كافة البنوك العاملة في مصر، يضع البنوك المختلفة التي تتعامل مع العميل أمام مسئوليتها من حيث تقدير حجم المخاطر التي تحيط بعملية إقراض العميل، وذلك من خلال تحديد «درجة انكشاف» المركز المالي للعميل، أو «درجة مغالاته» في نشاطه التجاري.

وتعليمات البنك المركزي واضحة وصريحة بهذا الصدد، إذ جاء في المنشور الدوري للبنك المركزي المصري (سبتمبر ١٩٨٧): ضرورة قيام البنوك بالاطلاع علي البيانات المتاحة التي تعدها الإدارة العامة لتجميع مخاطر الائتمان المصرفي بالبنك المركزي المصري عن العملاء، وذلك قبل التصريح لأى عميل بتسهيلات ائتمانية سواء كانت جديدة أو تجديد القائم منها أو رفع الحد

المصرح به، ويعتبر البيان المذكور مستندًا إلزاميًا يتعين على السلطة المانحة الاطلاع عليه قبل إقرار منح الائتمان.

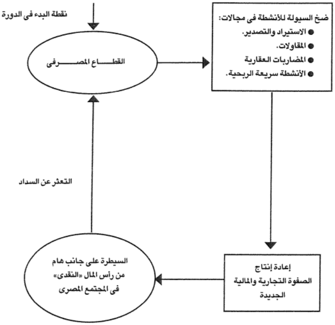
وفي ضوء ما سبق، فإنه من الصعب رد كل شيء وكل ما حدث إلى مخاطر الائتمان وحده، فتلك بلا شك محاولة لطمس الحقيقة، وفي تقديرنا، أن مخاطر الفساد هي التي قادت لهذا الوضع الفريد، وليس مخاطر الائتمان.

ولعل ما انكشف مؤخرًا من مشاكل وتجاوزات، قد يكون دافعًا وحافزًا للتخلص من مخاطر ومكامن الفساد في النشاط المصرفي، درءًا لآثاره السلبية على مجمل النشاط الاقتصادي وعلى سلامة أداء الاقتصاد المصري عمومًا، إذ إن القول بوجود مخصصات كافية للديون المعدومة والديون المشكوك بها في البنوك يعتبر حجة واهية لا تعفي من المساءلة، إذ إن حجم الديون المعدومة المتصاعدة هو في واقع الأمر اقتطاع من المدخرات القومية كان من الواجب عدم تبديدها، وأخذ كل التدابير اللازمة للحفاظ على سلامتها.

٤

وبمناسبة أزمة تعثر كبار عملاء البنوك، رجعت إلى كتاب «بنوك وباشوات» من تأليف المؤرخ الأمريكي دافيد لاندز ـ الذي توجد له ترجمة عربية ودقيقة من إعداد الدكتور عبد العظيم أنيس ـ ووجدته يتحدث عن نفس الظواهر والمضاربات المصرفية التي شهدها الاقتصاد المصري خلال السنوات الأخيرة، ولاسيما في مجال الاقتراض «دون ضمانات»، وحيث تم التوسع في استخدام كمبيالات المجاملة لضخ السيولة للمغامرين من رجال الأعمال الأجانب والمصريين في منتصف القرن الماضي.

مخاطر الائتمان .. أم مخاطر الفساد؟



جدول (٣)

دورة اعادة الإنتاج الموسع لأنشطة «رجال الأعمال» من خلال الجهاز المصرفي

ويتحدث «لاندز» في مؤلفه عن الاستعمال واسع النطاق لكمبيالات المجاملة، إذ يشير إلى أن: «الكمبيالات» قد سميت بهذا الاسم لأنها عبارة عن مجاملة من أحد رجال الأعمال لآخر، أي أن أحد رجال الأعمال يقبل كمبيالة مسحوبة عليه من تاجر آخر عن عملية تجارية لم تحدث على الإطلاق، و«كمبيالة المجاملة» هذه لا تختلف عن الكمبيالة العادية في مظهرها، أما في حقيقتها فهي لا تخرج عن كونها سندًا إذنيًا موقعًا عليه من شخصين دون أن يكون غطاؤها صفقات تجارية حقيقية.

وكل تلك الأدوات والأساليب والحيل يتقنها المحترفون المحتالون من رجال الأعمال للاستئثار بأكبر قدر من التمويل المصرفي، للإثراء السريع على حساب سلامة أوضاع الاقتصاد القومي، ومن خلال إهدار الأعراف والتقاليد المصرفية، ولهذا يكون من قبيل العبث ـ بل من قبيل الاستخفاف بالعقول ـ رد ما حدث في السنوات الأخيرة في القطاع المصرفي المصري إلى مجرد تزايد «مخاطر الائتمان»، أو مجرد ضعف رقابة «البنك المركزي»، فالمسألة أكبر من ذلك بكثير، والآليات المستخدمة تشير بوضوح إلى سياسة انحراف «الائتمان المصرفي» في حالات كثيرة عن مساره السليم، من خلال «تكتيكات» وعمليات «تمويه» يتقنها بعض رجال الأعمال، وبالتواطؤ مع بعض العاملين في الجهاز المصرفي.

ولو قدر «لدافيد لاندز» أن يكتب كتابًا جديدًا عما حدث في القطاع المصرفي منذ منتصف السبعينيات في مصر، فلعله لا يجد عنوانًا لكتابه الجديد أفضل من «بنوك ومافيات»!

نظرة أخرى إلى العولمة

إعادة تفسير السقوط السوفيتى والانتصار الأمريكى!

جلال أمين

كل جوانب ظاهرة العولمة قد أشبعت بحثًا وتمحيصًا، إلا أهم هذه الجوانب وأخطرها، وهو مغزاها الحضارى.

إن من المؤكد أن العولمة ظاهرة اقتصادية وسياسية وتكنولوجية وثقافية، وأنها سبب ونتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات، ولكن ما مغزى هذا كله من حيث ارتفاع أو انخفاض درجة «التحضر»؟ ومن حيث التقدم أو التأخر فى مضمار «القيم الإنسانية»؟ ومن حيث الزيادة أو النقصان فى «آدمية الإنسان»؟

لا أظن أن هذه الجوانب حظيت بما تستحق من الاهتمام، مع أن من المؤكد أن ظاهرة العولمة، أو تسارعها فى العقود الأخيرة، تمثل تطورا مهما فى مسار الحضارة الغربية، ليس فقط فى مدى انتشارها الجغرافى، ولكن أيضًا فى طبيعة ما يصدر عنها من منتجات مادية وغير مادية. فما هو التشخيص الصحيح لهذا التطور الحديث فى مسار الحضارة الغربية؟ أى كيف يبدو هذا التطور الحديث (العولمة) فى سياق المسار الطويل للحضارة الغربية منذ بزوغها قبل نحو خمسة قرون؟ هذا هو ما أحاول إثارة الاهتمام به فى هذا المقال، وتقديم سبق الأخطار التى قد تصلح بداية لمناقشة قضية مهمة.

الحضارة الأوروبية حضارة بورجوازية:

نقطة البداية هى أنه مهما كان استعدادنا للاعتراف بالجوانب الإنسانية العامة فى الحضارة الغربية، فمن المؤكد أيضا أن لهذه الحضارة خصوصية تاريخية وسمات معينة اكتسبتها من ظروف الزمان والمكان اللذين نشأت فيهما، وتنفرد بها عن سائر الحضارات التى عرفها الإنسان.

من أهم هذه السمات التى أقصدها بوصف «الخصوصية التاريخية» للحضارة الغربية، أنها كانت فى نشأتها الأولى وظلت لعدة قرون «حضارة بورجوازية». إن من أسهل الأمور بيان الجذور الاقتصادية والطبقية لنشأة الحضارة الغربية منذ بدايات عصر النهضة قبل نحو خمسة قرون، سواء فيما يتعلق بتطور الفكر السياسى والاقتصادى والفلسفى، أو فيما يتعلق بالتطور الذى لحق مختلف الفنون والآداب وأنماط السلوك الاجتماعى، أو فيما يتعلق بالفكر الدينى وظهور الحركة البروتستانتية والإصلاح الدينى، أو حتى فيما يتعلق ببواعث النهضة العلمية والتطبيقات العملية التى سُخّر التقدم العلمى لإنجازها، أى ما يسمى بالتقدم التكنولوجى. كان وراء كل هذه التطورات بزوغ ونمو طبقة البورجوازية، وما ارتبط به من نمو طموحات جديدة، وخصائص نفسية جديدة، وأنماط جديدة للسلوك، ومن ثم أفكار وأيديولوجيات جديدة أيضًا.

إن أرنولد توينبى، صاحب الكتابات الشهيرة فى فلسفة التاريخ، يقولها بصراحة تامة:

«إن المجتمعات الغربية أصبحت مجتمعات (حديثة) بمجرد أن أفرزت طبقة بورجوازية قادرة على أن تصبح هى الطبقة السائدة فى المجتمع. إننا نضيف ذلك الفصل الجديد من تاريخ الغرب والذى بدأ مع نهاية القرن الخامس عشر فإنه بداية العصر (الحديث) بسبب أنه حدث فى ذلك الوقت، فى المجتمعات الغربية الأكثر تقدمًا، أن بدأت الطبقة الوسطى فى الإمساك بمقاليد الأمور. يترتب على ذلك، أنه خلال هذا العصر الحديث من تاريخ الغرب، تتوقف قدرة الشعوب غير الغربية على (التغرب)، أو التشبه بالغرب، على مدى قدرتها على اقتباس نمط حياة الطبقة المتوسطة فى الغرب»*.

من الممكن إذن أن يزعم المرء أن جزءا كبيرًا من جاذبية الحضارة الغربية للشعوب الأخرى يرجع بالضبط إلى هذه الخصيصة: إنها حضارة بورجوازية. صحيح أن الشعارات العامة التى اقتربت بها إنجازات هذه الحضارة كانت لها أيضًا جاذبية مستمدة من إنجازات الإنسانية العامة، كشعارات الحرية والمساواة والديمقراطية والتنوير والتقدم وتحرير العقل من الخرافات والثورة على القديم والسيطرة على الطبيعة...الخ، وهى شعارات لا تفصح عن أى مضمون طبقى، ولكنها فى التطبيق الواقعى كانت تستخدم فى الأساس لخدمة هذه الطبقة بالذات. وإذا كانت الطبقات الدنيا قد حققت بعض المكاسب من تطبيق هذه الشعارات فقد كانت هذه المكاسب - لعدة قرون على الأقل - محدودة للغاية، وأشبه بالفتات المتساقط من الموائد، سواء فى الدول الغربية نفسها أو فى الدول التى خضعت للاستعمار الغربى أو حاولت تقليد الغرب.

ولكن الأمر لم يستمر على هذا المنوال طوال الخمسة القرون الماضية. وللكاتب الفرنسى الشهير ألكس دى توكفيل، كلمة بالغة الدلالة وعظيمة المغزى تشير إلى هذا التغير الذى أقصده. يقول توكفيل فى أكثر كتبه شهرة «الديمقراطية فى أمريكا» (١٨٣٥):

«إذا نحن تأملنا ما حدث فى فرنسا منذ القرن الحادى عشر، لا يسعنا إلا أن نلاحظ حدوث ثورة مزدوجة فى حالة المجتمع كل خمسين عاما. فنجد طبقة النبلاء تنحدر على السلم الاجتماعى بينما يصعد العامة بضع درجات على هذا السلم، فإذا بهما، فى نهاية الخمسين عاما، وقد أصبحت كل منهما أقرب إلى الأخرى مما كانت، وكادتا أن تلتقيا. بل إن هذه الظاهرة ليست قاصرة على فرنسا. إن التطورات المختلفة التى لحقت بمختلف المجتمعات كانت فى كل مكان لصالح مسيرة الديمقراطية. وقد ساهم الجميع فى دعم هذا التطور وتقويته، سواء هؤلاء الذين سعوا إلى ذلك عن وعى، أو أولئك الذين لم يكن مثل هذا الهدف فى حسابهم أصلا، سواء هؤلاء الذين كافحوا لخدمة الديمقراطية، أو أولئك الذين جاهروا بمعاداتها. كلهم دفعوا المجتمع للسير فى هذا الاتجاه...».

قال توكفيل هذا منذ أكثر من قرن ونصف، ولكن ما يشير إليه استمر دون توقف، كما يجب أن نتوقع، إلى يومنا هذا . فبعد أن أنجزت الثورة البورجوازية مهمتها فى معظم دول الغرب، كان لابد أن تمتد «العولمة الاجتماعية» إلى شرائح أدنى فى السلم الاجتماعى. يمكن أن نعتبر هذا التطور نتيجة حتمية لمنطق التطور الاجتماعى، أو نتيجة حتمية لمنطق التطور التكنولوجى، والأرجح أنه نتيجة حتمية لتفاعل الاثنين: المطالب الاجتماعية الحديثة تحتم ظهور تطورات تكنولوجية معينة، والتطور التكنولوجى يحتم نشوء مطالب اجتماعية معينة .. وهكذا. المهم أن النتيجة كان لابد أن تكون عاجلا أو آجلا، ما يمكن تسميته «بثورة بروليتارية»، بمعنى أن يحدث ما من شأنه حصول الشرائح الدنيا فى السلم الاجتماعى على حقوق لم تكن قد حصلت عليها، من حيث التمتع بطيبات الحياة والتخفيف من أعباء العمل.

لقد استخدم شعار (ثورة البروليتاريا) فى وصف ثورة سياسية معينة قامت فى روسيا باسم تطبيق الاشتراكية الماركسية، ولكن الحقيقة أن «ثورة البروليتاريا» هذه، قد شهدتها كل الدول الصناعية فى العالم الغربى بما فيها، بل وعلى رأسها، الولايات المتحدة الامريكية، التى كانت تحرم تمام التحريم استخدام هذا الشعار.

هل الحضارة الأمريكية «حضارة البروليتاريا»؟

إذ ما الذى حدث بالضبط، خلال العقود التالية للحرب العالمية الأولى، وعلى الأخص فى النصف الثانى من القرن العشرين، فى دولة بعد أخرى من الدول الصناعية؟ الذى حدث هو حصول الرجل العادى والمرأة العادية على طيبات الحياة، بعد أن كان التمتع بها مقصورًا على الطبقات العليا والوسطى. ولابد لنا هنا أيضًا من أن تتذكر تحذير ماركس من الحكم على عصر ما طبقا للأوصاف التى يطلقها هذا العصر على نفسه. نحن نعرف الآن أن الثورة الروسية التى قامت باسم البروليتاريا كانت وظيفتها الحقيقية تمكين روسيا من اللحاق بالغرب. ولكننا لازلنا نصدق الكثير مما تقوله تجارب أخرى عن نفسها. فلازلنا مثلا نتردد كثيرًا فى رؤية الخصائص البورجوازية للحضارة الغربية، ونقرأ مبادئها وشعاراتها وكأنها مبادئ وشعارات إنسانية عامة. وقد يكون من قبيل ارتكاب نفس الخطأ أننا لازلنا نستخدم وصف «الحضارة الغربية» للتعبير عن تجربة أوروبا وأمريكا الشمالية فى القرون الخمسة الأخيرة، بينما قد يكون من الأنسب الآن، بعد أن رأينا ما فعلته الولايات المتحدة بالتجربة الأوروبية، أن نميز تمييزًا صارما بين المساهمة الأوروبية والمساهمة الأمريكية فى الحضارة الغربية، وأن نرى الفوارق المهمة بين طبيعة الطبقة الاجتماعية التى جاءت النهضة الأوروبية لخدمتها وتحقيق آمالها، وتلك التى جاءت

التجربة الأمريكية لخدمتها. إن كثيرًا من السمات التي تتميز بها التجربة الأمريكية عن التجربة الأوروبية يمكن تفسيرها ويمكن فهمها بسهولة بتبين الفارق الطبقي بين هاتين التجربتين: كانت التجربة الأوربية ثمرة ثورة البورجوازية، والتجربة الأمريكية ثمرة «ثورة» البروليتاريا.

إن من الطريف حقا أن نلاحظ الفارق الشاسع بين الحقيقة وبين الشعارات المستخدمة لوصف ما دار بين ما سمى بالعالم الاشتراكى والعالم الرأسمالى. لقد تعودنا أن ننظر إلى الثورة الروسية على أنها ثورة اشتراكية جاءت لتحقيق آمال البروليتاريا ولكنها سقطت بعد سبعين عاما، بعد أن تبين أن النظام الرأسمالى، وإن كان يقوم على تحقيق مصالح طبقة صغيرة تستغل البروليتاريا، هو النظام الأكفأ والأصلح فى المدى الطويل. أليس من الممكن جدا أن تكون عكس هذا بالضبط هو الأقرب إلى التشخيص الصحيح؟

الثورة الروسية جاءت لتحقيق آمال الطبقة الوسطى التى قامت باستغلال الطبقات الدنيا فى المجتمع طوال سبعين عاما، هى عمر النظام السوفيتى، ثم أسقطها تضافر البروليتاريا داخل الاتحاد السوفيتى، التى طال حرمانها من ثمار التقدم التكنولوجى، مع قوى خارجية فى الغرب، كانت قد حققت من قبل مصالح البروليتاريا ومكنتها من التمتع بهذه الثمار.

العولمة عصر الجماهير الغفيرة:

إذا كان بهذا التحليل قدر لا بأس به من الصحة، فإنه يصبح من الممكن جدا أن نرى الوظيفة الاجتماعية (أو التاريخية) التى تحققها تلك الظاهرة التى نسميها «العولمة».

إن من الممكن بالطبع أن نرى فى ظاهرة العولمة امتدادا وانتشارا لحضارة على حساب حضارات أخرى، أو اكتساحا من جانب النظام الرأسمالية والليبرالية الاقتصادية لسائر النظم الاقتصادية. ولكن من الممكن أيضا، فى ضوء ما قلناه حالا، أن نرى فى ظاهرة العولمة امتدادا وانتشارا لثورة البروليتاريا أو الجماهير الغفيرة، إلى أجزاء جديدة من العالم لم تتجاوز حتى الآن ثورة البورجوازية، بل وربما لم تسر إلا خطوات قصيرة فى تحقيق هذه الثورة البورجوازية، كما هى الحال مثلا فى كثير من الدول الأفريقية.

إذا نظرنا إلى العولمة من هذه الزاوية قد يكون من السهل أن نفهم كل هذه الجاذبية التى تتمتع بها، والصعوبة البالغة التى تواجهها أى محاولة لمقاومتها. فالعولمة من هذه الوجهة من النظر، تعبير عن آمال الجماهير الغفيرة فى التمتع بالثمار الاقتصادية للتقدم الاقتصادى. بل إن كثيرا من سلبيات العولمة التى كثيرا ما نعبر عنها بالتهكم على رموزها الشهيرة، من سندوتش الماكدولاند إلى زجاجة الكوكاكولا، إلى أفلام العنف والجنس، إلى السوقية والابتذال فى وسائل الإعلام ..إلخ، قد لا تكون كلها أكثر من سلبيات الاستسلام لرغبات الجماهير الغفيرة ولميولها وشهواتها. قد يكون بعض سلبيات العولمة ليست إذن سلبيات «النظام الرأسمالى» وقد زحف على بقية أنحاء العالم ليقهرها الواحدة بعد الأخرى، بل مجرد سلبيات «عصر الجماهير الغفيرة»، أى عصر الرضوخ لميول وأذواق وأهواء هذه الجماهير وقد تكون سلبيات ما نسميه «بالمجتمع الاستهلاكى»، ليست بالضبط سلبيات الاستسلام لنزعة الاستهلاك على حساب النزعات الأكثر سموًا، بل هى السلبيات المقترنة بشيوع المستوى العالمى للاستهلاك لدرجة وصوله إلى أيدى الجماهير الغفيرة.

الاستغلال فى عصر العولمة:

قد يكون هذا جزءا من الحقيقة ولكنه ليس الحقيقة كلها. فللعولمة سلبيات أخرى غير مجرد أنها تعبير عن «ثورة الجماهير الغفيرة»، أو «ثورة البروليتاريا». فدول العالم ليست بالطبع على نفس الدرجة من التطور الاقتصادى والتكنولوجى، ولا لها نفس الدرجة من القوة العسكرية.

ومن ثم فمن الطبيعى أن تقوم بروليتاريا الدولة الأقوى باستغلال بروليتاريا الدول الأضعف، بل باستغلال شعوب الدول الأضعف برمتها. لقد حدث مثل هذا من قبل. فى الاستعمار الأوروبى قام بلا شك لاستغلال الشعوب المستضعفة لصالح بورجوازية هذه الدولة الأوروبية أو تلك، والاستغلال الروسى للشعوب الخاضعة للاتحاد السوفيتى (وقد لا يبخل البعض عليه بوصف الاستعمار الروسى) كان فى الأساس لصالح الطبقة الوسطى فى روسيا. أما الاستغلال الأمريكى للشعوب التى خضعت لنفوذ الولايات المتحدة، فربما بدأ كذلك أيضا، استغلالا لهذه الشعوب لصالح الطبقة الرأسمالية الأمريكية، ولكنه تحول شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح استغلالا لهذه الشعوب لصالح البروليتاريا الأمريكية، كما فى صورة شراء النفط العربى بأبخس الأثمان لتمكين العامل الأمريكى من حيازة سيارة فارهة أو سيارتين. كما تحول شيئًا فشيئًا إلى أن يصبح استغلالا للأقليات العرقية داخل أمريكا نفسها لصالح البروليتاريا الأمريكية ذات البشرة البيضاء.

وتسارع ظاهرة العولمة فى العقود الأخيرة سوف يعنى انتشار هذا النوع الأخير من الاستغلال على نطاق العالم بأسره: شعوب مستضعفة (بما فيها شعوب الاتحاد السوفيتى المهزوم) تستغل لصالح البروليتاريا فى الدول «المنتصرة»، أى فى الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية واليابان. وقل مثل هذا على الشعوب العربية المستضعفة التى انهزمت فى معركتها مع إسرائيل، لصالح البروليتاريا اليهودية فى إسرائيل.

فى كل هذه الحالات، سواء فى ظل حضارة البورجوازية، أو فى ظل حضارة البروليتاريا، لابد أن يتساقط بعض الفتات للطبقات والشعوب الخاضعة للاستغلال، ولابد أن ينهض البعض ليصدر الأمر لهذه الطبقات والشعوب المستضعفة وكأننا على أبواب عصر جديد من الحرية والرفاهية للجميع، كما حدث من قبل على يد مروجى مبادئ الثورة الفرنسية، ثم الثورة الروسية، ثم على يد مروجى شعارات «التنمية الاقتصادية»، وأخيرا على يد مروجى العولمة. ولكن الأرجح أن ذلك العصر الجديد المزعوم من الحرية والرفاهية للجميع لن يتحقق إلا عندما تستنفد هذه الحضارة الحالية طاقتها، وتتم وظيفتها التاريخية.



هامش

(Toynbee, A.: A Study & History, Abridgement of volumes VII - X, by D.C. Somervell, Oxford University press, london 1960, p. 185).

اعترافات

المؤرخين الجدد:

حمل العرب، والفلسطينيون خاصة، جرحاً غائراً في صدورهم وهو نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، لن يشفى ولن تبرأ كل آثاره حتى لو أزيلت آثار هذه الجريمة غير المسبوقة في التاريخ الحديث. لقد أدت النكبة إلى سقوط عروش واغتيال زعماء وتغيير أنظمة. وعندما طردت القوات الإسرائيلية أهالي ٥٣٠ مدينة وقرية من ديارهم عام النكبة، خرج حوالي مليون لاجئ إلى أماكن اللجوء فيما تبقى من فلسطين والدول العربية المجاورة، وحملوا معهم ذكريات موجعة عن فقدان الوطن والذبح والتشريد، وأصبحت هذه التجربة الإنسانية مادة لأدبيات اللاجئين ثم أدبيات الثورة، ثم أصبحت مخزناً للذاكرة الجماعية للفلسطينيين، تدعمها السير الذاتية والقصص والأشعار، دعك من كتب التاريخ والجغرافيا والاجتماع التي تعيد تركيب المجتمع الفلسطيني في الشتات بكامل صفاته ولكن في مكان جغرافي آخر، وتعيد تركيب الوطن الذي حرموا منه بكل ما يحمله الشوق والخيال والحسرة والإصرار على العودة من تضاريس وألوان.

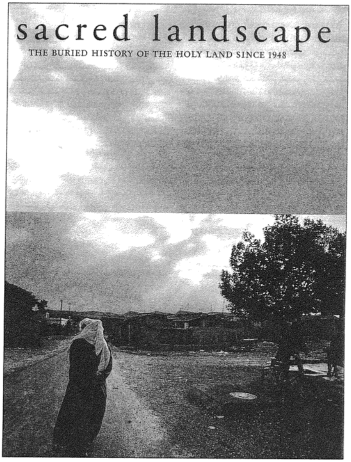
وفي نفس الوقت، أقام اليهود، الذين أصبحوا يسمون إسرائيليين، ستاراً حديدياً حول الوطن الضائع، تجسيداً لمقولة جابوتنسكي بأنه لا يمكن لإسرائيل أن تعيش إلا إذا طردت العرب وأقامت حول نفسها ستاراً حديدياً من القوة.

لم يعرف العرب بعد النكبة ماذا يدور خلف هذا الستار، بسبب العزل الكامل الذي فرضه كل طرف على نفسه. عاش اليهود خلف هذا الستار الواقي محتمين بقوة عسكرية صدّت العرب، وبلغة ميتة بدأت تعود إلى الحياة لا يعرفها العرب، فأصبحت أشبه بشفرة سرية يتكلمها أفراد العدو بينما يعرف هذا العدو لغة العرب، وبأسلوب حياة غريب على العرب، وحتى على الأوروبيين، على شكل حياة جماعية شيوعية المبدأ تمجد الجندي / المزارع الذي يحارب في الليل ويزرع في النهار.

ولم يعرف العرب، عن جهل أو تجاهل، ماذا حدث للوطن الضائع، ماذا حدث لمئات القرى والمدن، ماذا حدث لتلك البيوت التي هُجرت تحت القصف وترويع المذابح، وبها الصور على الحائط، الطعام لايزال ساخناً في المطبخ، الفراش المبعثر، الزهور التي تركت دون أن تسقى، القطة أو الكلب الذي بقي دون صاحبه. ماذا حدث للمساحات الشاسعة من الأراضي المزروعة، للمحصول الذي نضج ولم يحصده صاحبه، لبساتين البرتقال والزيتون الذي ينتظر القطاف، لآلاف الماشية والأغنام التي تركت هائمة دون ماء تشرب أو طعام تأكل.

خرج الناس وفي قلوبهم «نكبة» النفس، وتركوا خلفهم «نكبة» المكان، حياة ومجتمعًا وتاريخًا انتزعت منه الجغرافيا وبقيت في مكان آخر.

بعد نصف قرن، يأتينا هذا الكتاب: «المكان المقدس» يشرح فيه ميرون بنفنيستي، كيف تم



إسرائيل قامت بأكبر عملية تطهير عرقي

سلمان أبو ستة

تدمير «المكان المقدس» الفلسطيني ليقام على أشلائه مكان إسرائيلي يستجدون له ثوباً من القداسة، واسعاً مهلهلاً كثير الثقوب لا يخفى معالم الخطيئة الأولى التي صنعت مكانهم هذا.

يجب أن نعترف أن ميرون بنفنيستي يكتب عن المكان بعاطفة جياشة نحوه، وبصراحة غير معهودة عن الجرائم الإسرائيلية في حق الفلسطينيين. أكاد أحياناً أتخيل أن المؤلف فلسطيني، لولا أن الصهيونية تطفو من وقت لآخر على السطح عندما يتوقف عن وصف الفظائع وينكر الحقوق عند حاجز لا يعبره إلا بتبرير أو تفسير. ولاغرو، فالكاتب لا ينسى طفولته عندما كان أبوه، الصهيوني العتيد، يأخذه للطواف في كل أنحاء فلسطين، ليعرّفه على «بلادنا»، وعندما كان أبوه يكتب كتباً لتدريس الناشئة الصهيونية عن "أرض إسرائيل». ربما كانت لديه عاطفة عن المكان وهو اليهودي السفاردي الذي عاش أجداده بين العرب في الأندلس أزهى عصورهم. هذه العصور أنجبت فيلسوفهم الفذ موسى بن ميمون (ميمونيدس)، الذي لم يجد له مأوى، عندما طرد الكاثوليك الأسبان سكان البلاد من عرب ويهود، إلا في القاهرة ليموت فيها، مفضلاً إياها عن صفد الفلسطينية ذات المدارس الدينية اليهودية. يقول المؤلف إنه تعلم حب البلاد منذ صغره، ويوحي كتابه بأنه لا يتفق مع كل المبادئ الشمولية الصهيونية التي تعلمها صغيرًا، ولكن بقي له من هذه المبادئ ما يكفيه لأن يعيش في إسرائيل على أرض فلسطينية، إن لم يكن فعلاً فمجازاً، ولأن يرفض عودة صاحب الأرض، الذي يعطف عليه في كتابه، إلى «المكان المقدس» الذي يملكه هذا اللاجئ المحروم من العودة، ويسكنه الآن أغراب عن هذا المكان وعن طبيعة الحياة التي سادته قروناً عديدة.

عمل المؤلف في جهاز الاحتلال الإسرائيلي الذي سيطر على الضفة الغربية، وقام بأول جرد علمي يسجل مظاهر الحياة فيها من سكان واقتصاد وتعليم، وكان نائباً لرئيس بلدية القدس، التي تفخر بضم القدس العربية لها وإنشاء مساكن وخدمات لأكثر من ١٥٠ ألف مستوطن يهودي بينما لا تخجل من أنها لم تقدم شيئاً على الإطلاق لسكانها الفلسطينيين الذين يتجاوز عددهم ٢٠٠,٠٠٠ .

هو إذن يعرف أين يقع الخطأ والصواب، ويقف إلى جانب الخطأ الإسرائيلي ويمتنع عن الدفاع عن الصواب الفلسطيني. هو واحد من هؤلاء المؤرخين الإسرائيليين الجدد - هل نقول المعترفين الجدد- الذين يجهرون لأول مرة بما كان يردده الفلسطينيون منذ خمسة عقود ولا مجيب. لماذا يقولونه الآن ؟ هل يشعرون بأن قوة الباطل تغلبت على ضعف الحق ؟ ربما. لكنهم يذكرون الحقائق كسرد تاريخي مجرد، في فضاء عقيم، ويتراجعون عن استخلاص العبرة منها والمسئولية عنها والدعوة إلى إصلاح خطيئة إسرائيل الأولى. نستثني من هؤلاء المؤرخين. إيلان بابي، ونورمان فنكلشتين إلى حد ما، اللذين يصفان الجريمة ويصفان مرتكبها ويدينانه.

يبدأ الكتاب بسرد وقائع النزوح منذ قرار الأمم المتحدة بالتوصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين: دولة يهودية على ٥٤٪ من مساحة فلسطين، لمن يملكون ٥٪ فقط منها، ونصف سكانها عرب، ودولة عربية على مساحة ٤٦٪ لمن يملكون ٩٥٪ منها ولا يوجد بين سكانها يهود. هذا الظلم الفادح قابله العرب

Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948

(المكان المقدس: التاريخ المطمور للأرض المقدسة منذ عام ١٩٤٨)

translated from Hebrew by Meron Benvenisti
University of California Press, 2000.
365pp.

بالاحتجاجات والمظاهرات، وقابله اليهود الذين كانوا يستعدون لهذا اليوم من زمن، بنسف البيوت العربية فى أبوكبير ودير أيوب، واقترفوا أول مذبحة فى الخصاص وأجلوا أهالى قرية عزّون. كل هذا فى أول شهر بعد التقسيم ولم ينقض عام ١٩٤٧ بعد.

يقول المؤلف أن هذا كان بداية نشوء «مبدأ الردع» أو الانتقام فى السياسة الإسرائيلية الذى استعملته إسرائيل لترويع الأهالى وتدمير القرى، خصوصا فى الخمسينيات عندما اقترف مجرم الحرب آريل شارون مذابح قبية والبريج والعزازمة. لم يكن هذا المبدأ نتيجة عارضة للصراع، كما يذكر المؤلف، لأن نظرية الصهيونية كانت، وما زالت، تقوم على أساس الاستيلاء على الأرض وقتل السكان أو طردهم أو التخلص منهم بأية طريقة. وحيث إن عدد العرب كبير وإمكانياتهم الاستراتيجية كبيرة، ترى إسرائيل أنه يجب ألا تتاح لهم فرصة الاستفادة من هذه المميزات أو تقوية روحهم المعنوية بإمكانية استعمالها. ولذلك تضرب إسرائيل أماكن صغيرة بقوة كبيرة فى وقت ومكان تختاره لتعطى المثل على قوتها التى لا تقهر.

فى نهاية مارس ١٩٤٨، قبل أن يبدأ الغزو الإسرائيلى، تمكن اليهود من طرد ٥٠٫٠٠٠ لاجئ من ديارهم واقترفوا مذبحة فى سعسع قتل فيها ستون شخصاً. بعد ذلك مباشرة، فى أوائل أبريل ١٩٤٨ نفض بن جوريون الغبار عن خطته لغزو فلسطين التى أعدها قبل ٤ سنوات، ومرت بأربعة تعديلات آخرها خطة «دالت»، وأصدر أوامره لجيش قوامه ٦٥٫٠٠٠ جندى صهيونى مدرب، ضباطه خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية، بتدمير المجتمع العربى فى فلسطين، بأهله ومؤسساته وقراه ومدنه، وباختصار إزالة كل آثار المكان الإنسانية والعمرانية، لا يبقى لليهود فيها إلا قاع صفصف ليس فيها ديّار أو نافخ نار.

تقضى الخطة دالت، التى نشرها بالعربية المؤرخ الفلسطينى وليد الخالدى، ويشرحها المؤلف، بتدمير القرى وطرد السكان إلى خارج «الدولة» (لم تكن دولة إسرائيل قد أعلنت بعد)، والقضاء على أية مقاومة مسلحة والإبقاء على قوات فى القرى المحتلة (لمنع عودة أهلها). حددت الخطة بالتفصيل القرى التى ستحتل فى كل منطقة ومراكز الشرطة والمؤسسات العامة والمواصلات وغيرها.

ومن يقف أمام هذا كله ؟ الجيش البريطانى، الذى يلزمه صك الانتداب بحماية الأهالى ورعايتهم إلى أن تقوم دولتهم فى كل فلسطين، حزم حقائبه وبدأ فى الانسحاب من فلسطين لكى ينتهى منه فى ١٩٤٨/٥/١٥. لم يتحرك هذا الجيش لحماية الأهالى حتى عندما استغاث به الأهالى أثناء مذبحة دير ياسين التى حدثت على بعد ٥ كم من مكتب المندوب السامى البريطانى.

كان الاستعداد لتدمير فلسطين شاملاً لأدق التفاصيل، يسرد المؤلف قصة «ملف القرى» الذى أعده الصهاينة لكل قرية على مدى عدة سنين سابقة. لقد سجلت فى هذا الملف خصائص كل قرية: مساحة أرضها واقتصادها وماذا تزرع، وأسماء المختار (العمدة) وأقاربه وأصدقاؤه وأعداؤه، ومكان مضافته وتشويش المحصول وبئر الماء. وكان ذلك يتم خلال ما يبدو أنه زيارة بريئة للمستعمرين الذى يرتدون الزى العربى ويتحدثون اللغة العربية. يدخل هؤلاء إلى القرية للزيارة أو الضيافة أو لشرب الماء، ويسجلون كل صغيرة وكبيرة. (لا تزال فرقة المستعمرين تعمل حتى اليوم، ويسمونها فرقة الموت، إذ يتغلغل وتهتف وتغتال قادتهم).

كان بن جوريون ينتظر، وخطته جاهزة منذ ٤ سنوات، إلى أن يتأكد أن خروج بريطانيا من فلسطين مؤكد، ويتفرغ لمواجهة شعب أعزل، يدافع عنه ٢٥٠٠ مناضل شعبى موزعين على عدة مئات من القرى والمدن دون سلاح فعال أو قيادة موحدة، وانضم إليهم فيما بعد ٥٠٠٠ متطوع سورى ومصرى وآخرون من العرب دخلوا قبل أفول شمس الانتداب بقليل.

هذا هو الوقت الذى ينتظره بن جوريون ليضرب ضربته ويفوز بالغنيمة قبل أن تدخل القوات العربية النظامية التى منعها الإنجليز من الدخول أثناء الانتداب. كان تحسبه من هذه القوات مجرد زيادة فى الحذر، لأن ضباطه وتقارير الدول الغربية (وحتى تقرير اللواء إسماعيل صفوت قائد قوات الجامعة العربية) أكدوا فى بداية عام ١٩٤٨ أن اليهود منتصرون لا محالة. لكن الحكام العرب تغاضوا عن هذه الحقيقة وفضلوا الزج بقواتهم، خوفاً من غضبة الجماهير وهى ترى ضياع فلسطين، لكى يقرر ميدان المعركة مصير هذا البلد المسكين.

يبذل المؤلف، مثل غيره من الإسرائيليين ومنهم بنى موريس المشهور، جهداً كبيراً لإثبات أن «تدمير القرى» و «طرد السكان» ليس عملية تطهير عرقى منظمة فى هذه الفترة على الأقل، وإنما هى من عوارض الحرب. لكن المؤلف يسلّم بأن طرد الفلسطينيين كان عملية تطهير عرقى فيما بعد، ويحمّل هذه المسئولية إلى دولة إسرائيل بعد إعلانها، ورفعها عن نفس القادة والجيش قبل إعلان الدولة. وهذه فذلكة تاريخية. والدراسات الجدية، حتى تلك التى اعتمدت على موريس، أثبتت أن ٨٩٪ من القرى هُجّرت بسبب عمل عسكرى مباشر وأن ١٠٪ هجرت بسبب الحرب النفسية. وتبرير المؤلف جهد ضائع، لأنه بفرض أن تبريره فيه شىء من الصحة، لماذا لا يعود أصحاب البيوت إلى بيوتهم، ولماذا يقتل اللاجىء العائد إلى بيته بصفته متسللاً ولماذا تدمر القرى الفلسطينية، ولماذا توسع الاحتلال ليشمل الأرض العربية فى الضفة وسيناء ولبنان وسوريا ؟ حرب فلسطين ١٩٤٨ لم تنته حتى اليوم، ولن تنتهى إلا بانتهاء الصهيونية.

كان أمام بن جوريون ٣٦ يوماً قبل انتهاء الانتداب وخروج الإنجليز (الذين لم يقفوا فى طريقه على أية حال) ودخول القوات العربية التى سيدخل معها حرباً نظامية، نظريا على الأقل. كان عليه فى هذه الفترة الاستيلاء على كل الأراضى العربية الواقعة بين المستعمرات لتوسيع الرقعة اليهودية وتواصلها وعليه فتح ممر بين تل أبيب والقدس (التى كانت منطقة دولية حسب مشروع التقسيم) وتدمير كل القرى فى هذه المناطق وطرد جميع الأهالى من ديارهم، لجعلها خالية من العرب (عبارة تذكر بمقولة النازيين لجعل ألمانيا خالية من اليهود)، ولإعاقة تقدم القوات العربية فعلياً ومعنوياً بمنظر هذه القوافل الإنسانية من اللاجئين تتقدم نحو القوات العربية التى جاءت لإنقاذها.

بعد نصف قرن، يأتينا هذا الكتاب:
«المكان المقدس» يشرح فيه ميرون بنفنيستى،
كيف تم تدمير «المكان المقدس» الفلسطينى ليقام على
أشلائه مكان إسرائيلى يستجدون له ثوباً من القداسة،
واسعاً مهلهلاً كثير الثقوب لا يخفى معالم الخطيئة
الأولى التى صنعت مكانهم هذا

نجح بن جوريون فى تنفيذ خطته نجاحاً باهراً رغم تعثره فى الاستيلاء على كامل مدينة القدس وهذه كانت خارج مشروع التقسيم. ودمر كثيرا من القرى العربية (بعد المعركة)، وتوّج انتصاره بمذبحة دير ياسين عندما عُرض الناجون من المذبحة بملابسهم الرثة وحالهم البائسة فى شاحنات تطوف بشوارع القدس الغربية ليتفرج عليهم اليهود ويشتموهم ويحقروهم ويبصقوا عليهم، فى مشهد من أفظع مشاهد بربرية العصور الوسطى.

شاهد المؤلف نفسه هذا الموكب البربرى، وكان فتى يافعاً ولم يثر هذا المشهد فى نفسه من تعليق إلا وصفه بأنه «منظر مقرف» ويسارع إلى ذكر إحساس الغضب والعار الذى تمكن من غالبية سكان القدس اليهود الذين أصدروا بيانات استنكار. ونسى أنه ذكر فى السطر السابق أنه شاهد هذا «المنظر المقرف» مع «آلاف من سكان القدس اليهود». ولا ندرى إن كانت هذه الآلاف هى نفسها التى أصدرت بيانات استنكار.

حصيلة هذه الأيام الستة والثلاثين من الغزو اليهودى، ولا نقول الحرب لأن هذه فيها طرفان، كانت احتلال ٢١٣ قرية وطرد ٤١٠٫٠٠٠ من سكانها (أرقام المؤلف أقل من الحقيقة خلال الكتاب كله كما هو متوقع، فهو يذكر ٢٠٧ قرى و ٣٨٠٫٠٠٠ لاجىء فقط) ومضاعفة الأرض التى سيطر عليها اليهود ٣ مرات (من ١٥٠٠ كيلو متر مربع إلى ٥٠٠٠)، وبذلك أعلنت دولة إسرائيل على ١٣٪ من فلسطين.

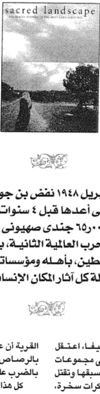
لقد حُسمت المعركة لصالح إسرائيل فى هذا الوقت المبكر وطردت أكثر من نصف اللاجئين قبل دخول القوات العربية المنقذة. هل كانت إسرائيل تخاف على وجودها من قوة العرب الهائلة؟ كلا. يخبرنا المؤلف، أنه حتى فى مارس، بدأ اليهود فى الاستيطان فى القرى التى طرد أهلها. بدأوا أولاً بحصد المحاصيل التى خلفها اللاجئون وراءهم ومُنعوا من العودة إليها بقتل كل من يعود إلى بيته، ثم حرقوا كل المحاصيل التى لم يتمكنوا من حصادها. قبل الحرب بكثير، فى بداية ١٩٤٨، كانت اللجان الصهيونية قد وضعت خطة لاستيطان ١٫٥ مليون يهودى استعداداً لتدمير فلسطين وإحلال اليهود محل الأهالى الفلسطينيين. ولتسهيل ذلك أعطى بن جوريون أوامره لاحتلال القرى فى مجموعات، وليس فرادى لكى تتكون «قطاعات محررة » يتم فيها الاستيطان على أرض الأملاك العامة وأملاك اللاجئين المطرودين.

لقد كان بن جوريون واعياً لحساب التاريخ المكتوب، ويعلم تماماً أن عملية التطهير العرقى وطرد السكان والمذابح وصمة فى التاريخ الإنسانى، وليس اليهودى فقط. ويذكر المؤلف حوادث عديدة، لم يسجل فيها بن جوريون أوامر مكتوبة بل كان يجهر فى السجلات بعكس ما ينوى، وكان يعطى الأمر الحقيقى بإشارة من يده أو نظرة من عينيه أو السكوت، ولم ينسب لنفسه عملاً إجرامياً (لعله كان يحسب حساب محاكم جرائم الحرب التى عقدت فى نورمبرج قبل سنتين). فكان يحيل عمليات الطرد وإجلاء السكان وكافة عمليات التطهير العرقى فى أوامر غير مباشرة إلى ضباط الجيش، ويحيل عمليات الاستيلاء على الأراضى العربية واستيطانها إلى لجان من الصندوق القومى اليهودى والوكالة اليهودية «لعمل اللازم ». بإشارة من يده، أصدر أمره إلى رابين بإجلاء أهالى اللد والرملة بعد احتلالهما. وهكذا خرجت قافلة إنسانية من ستين ألفا فى عز الصيف اللاهب، فى رمضان / يوليه ١٩٤٨، ومن يتوقف لشرب ماء يطلق عليه الرصاص. تساقط المتاع على جانبى الطريق ثم تساقط الأطفال ثم الشيوخ. هذه الجريمة البشعة بقيت ولاتزال محفورة فى صدور الآلاف، وتركت أثراً لا يمحى فى حياة الكثيرين منهم الشهيد خليل الوزير، والدكتور جورج حبش، والفنان إسماعيل شموط والروائى رجائى بصيلة، ولكنها لا تستحق سطراً واحداً فى كتاب المؤلف.

فى فبراير ١٩٤٨، قبل شهرين من بداية الغزو الإسرائيلى، قال بن جوريون لقادة الصندوق القومى اليهودى الذى يستولى على الأراضى: «الحرب ستعطينا الأرض. انسوا مقولة هذه لنا وهذه ليست لنا (أرض عربية). هذه كلها تعبيرات السلام. فى الحرب تسقط هذه المعانى. وفى النقب لن نشترى أرضاً، سنحتلها، لا تنسوا أننا سنكون فى حالة حرب » (ص١٢٠). كان بن جوريون يخطط لحرب شاملة، ليست مقصورة على القوات العسكرية، ولا تفرق بين المحارب والأعزل، حرب تدور حول كل بيت وكل قطعة أرض وكل كيلو متر من الطريق كما يقول. كانت حربه عسكرية واقتصادية ومدنية، يُقتل

فيها الأطفال والنساء والشيوخ، وتسمم آبارها وترمى فيها جراثيم التيفود، ويُقتلع أناس من ديارهم ويتشردون. لم يتردد فى اقتراف أى عمل يؤدى إلى تدمير المجتمع الفلسطينى تدميراً كاملاً كشرط ضرورى لإنشاء دولة إسرائيل على أنقاضه واستيطان المهاجرين فى بيوت اللاجئين وعلى أرضهم.

لم يكن فى هذا الواقع الدموى أى صفة من صفات تلك الأساطير والدعايات التى رددها الغرب نقلاً عن اليهود، وأشهرها داود الصغير المسالم المكافح بكل قواه الضئيلة ليبقى على قيد الحياة فى بيته الصغير أمام جحافل قوات جوليات العربية التى ستأتى لسحق هذا المخلوق. كان بن جوريون يمارس كل أنواع التطهير العرقى فى نفس الوقت ومن نفس المكتب الذى تصله فيه برقيات وتقارير مكاتب إسرائيل فى الخارج عن الدعاية الصهيونية التى تشنها فى الغرب، دون أن يهتز له جفن من هذه المفارقة.



فى أوائل أبريل ١٩٤٨ نفض بن جوريون الغبار عن خطته التى أعدها قبل ٤ سنوات، وأصدر أوامره لجيش قوامه ٦٥٫٠٠٠ جندى صهيونى مدرب، ضباطه خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية، بتدمير المجتمع العربى فى فلسطين، بأهله ومؤسساته وقراه ومدنه، وباختصار إزالة كل آثار المكان الإنسانية والعمرانية

يصف المؤلف فى سرد تفصيلى يخلو من المبالغة والتعاطف فى آن، كيف أن القوات اليهودية أجلت أهالى ٦٠ قرية فى الجليل الشرقى، قبل نهاية مايو، لتربط المستعمرات اليهودية بنهر الأردن وبحيرة طبرية، ولتكون جموع اللاجئين المطرودة سداً فى وجه القوات السورية والعراقية التى ستتقدم نحو فلسطين.

وفى قرية صفصاف جمع اليهود الأهالى واختاروا ٧٠ من شبابها صفوهم على حائط وقتلوهم بالرشاشات. وتكرر الأمر فى سعسع والصالحة وغيرها. وعلى مرأى من أهالى صفد، دمر اليهود بيوت قرية عين الزيتون المجاورة وذبحوا أهلها، لتتحطم روحهم المعنوية. وعندما سقطت صفد فى ٩ مايو سقطت حولها قرى كثيرة وطرد أهلها، بمن فيهم هؤلاء الذين وقعوا معهم اتفاقية بالمسالمة (مثل قرى الجاعونة وقيطية والخصاص)، وبدأوا على الفور بحصاد ١٥ ألف دونم (الدونم ١٠٠٠ متر مربع) من الأراضى العربية، وبدأ اليهود باستيطان القرى فى ١٠ يونية والحرب لاتزال قائمة.

وتكرر الأمر بنفس الأسلوب وفى نفس الوقت ولنفس الغرض فى القرى المحيطة بطبرية ومرج ابن عامر والجليل الغربى، وكلها مناطق ذات وجود يهودى فى مستعمرات متفرقة غير مترابطة. والغرض كان ولايزال توسيع الرقعة اليهودية وطرد السكان العرب منها. كان الجنود الإسرائيليون يتقدمون وخلفهم بخطوات رجال الاستيطان الذين كانوا أحيانا يوجهونهم نحو الأراضى المرغوبة. طلب بعضهم من الجيش تدمير قرية البطيمات لأن أرضهم امتداد لأرض يهودية وطلبوا تدمير قرية إندور لأن أراضيهم مناسبة لتوسعهم. دمروا كل القرى بين أم خالد (نتانيا) وزمارين (زخرون يعقوب) لزيادة الاتساع الجغرافى، وارتكبوا عدة فظائع فى أم زريق وقيسارية وزرنوقة، ولم يفرقوا بين من حاربهم ومن استسلم لهم حتى الذين كانت بينهم علاقات جيرة جيدة. عندما قيل إنه ليس لليهود عهد، لم يكن هذا من فراغ، فهو أمر يتكرر تجديده فى كل آن.

وتبقى قصة قريتى طيرة حيفا والطنطورة مثلاً فى الوحشية الإسرائيلية. نجد المؤلف هنا ينسى ذكر الأولى ويسرد وصفاً مبتوراً فاتراً للثانية. بعد سقوط طيرة حيفا، اعتقل الإسرائيليون الشباب وقتلوهم فى مجموعات بحيث تدفن المجموعة التالية من سبقها وتقتل بدورها، وأخذوا الباقى إلى معسكرات سخرة، وشحنوا النساء والشيوخ فى سيارات لرميهم على خطوط القوات العربية. وهناك، وكان الوقت مساء يوم رمضان، طلبوا ماء للشرب، فأجلسوهم على أكوام حصيد القمح الناشف، وصبّوا عليهم بنزينا وأحرقوهم، وبينما كان هؤلاء الضحايا يصرخون ويستغيثون ولا يدرون أين يتجهون فى الظلام كان الإسرائيليون يضحكون. قتل ٥٥ شخصاً فى هذه الفاجعة. أما الطنطورة، فقد قاومت حتى الصباح، وأخذ اليهود يجمعون النساء والأطفال ليشاهدوا جثث أهلهم، ثم أخذوا الشباب، وقتلوهم فى مجموعات كل مجموعة من ٤٠ شخصا، يقتلون وتدفنهم المجموعة الثانية بنفس الأسلوب الذى كرروه فى كل المذابح حتى بلغ عدد الشهداء أكثر من ٢٠٠. وقد تداولت الأخبار فى بداية ١٩٩٩ قصة مذبحة الطنطورة لأن باحثا إسرائيليا، «تيدى كاتس»، كتب عنها مع أن محمد نمر الخطيب نشر فى كتابه عام ١٩٥١ كامل التفاصيل ونقلها عن شاهد عيان كان أحد الناجين من المذبحة. ولكن لم يهتم أحد بالخبر الذى رواه عربى.

تعرض الجليل إلى ٢٥ مذبحة من أصل ٣٥ مذبحة أمكن تسجيلها. ذلك لأن الجليل كان عربياً فى اقتراح التقسيم وأرضه خصبة وسكانه رفضوا النزوح. لا تكاد قرية تكون قد سلمت من مذبحة صغيرة أو كبيرة، فى سعسع وجش ومجد الكروم وعيلبون والبعنة وديرالأسد وغيرها كثير. وفى الجنوب، حيث لا يوجد إلا القليل من اليهود (نصف فى المائة من السكان) متناثرين فى أماكن متباعدة، قرر بن جوريون الاستيلاء على الجنوب بأكمله، الذى دافع عنه المناضلون إلى أن دخل الجيش المصرى. فاحتل اليهود ١٢ قرية فى الربيع قبل دخول القوات المصرية، و٣٤ قرية فى الصيف عدد سكانها ٦١٫٠٠٠ حسب المؤلف (والصحيح ١٥٠ قرية عدد سكانها ١٩٣٫٠٠٠). بهذا الاحتلال أضيفت إلى مساحة إسرائيل ١٥ ألف كيلو متر مربع، أى تسعة أضعاف الأرض اليهودية، معظمها بعد توقيع اتفاقية الهدنة مع مصر.

واقترف الإسرائيليون مذابح فى بئرالسبع وبرير وغيرهما، لكن أبشع مذبحة فى تاريخ فلسطين كانت فى قرية الدوايمة. يقول مختار القرية أن عدد الضحايا وصل إلى ٥٠٠، قتلوا بالرصاص والحرق فى المسجد، وقتل الأطفال بالضرب على رءوسهم بالشواكيش.

كل هذا مسجل فى صدور الناجين وفى الكتابات الفلسطينية، وظهر أخيراً فى ملفات الأمم المتحدة والصليب الأحمر (الأخيرة فتحت ملفاتها بعد ٥٠ سنة). والآن تظهر هذه القصص فى كتب المؤرخين الجدد مثل بنى موريس. ويذكر المؤلف بعض هذه الفظائع بألم وأسف لكنه لا يرقى إلى درجة الإدانة أو المطالبة بالجزاء كما يفعلون مع أمثالهم من مجرمى الحرب الألمان.

ودائماً تمارس إسرائيل مسرحية المظاهر الحضارية، ففى معظم الحالات، تتكون لجان تحقيق فى هذه المجازر، ولا تجد أدلة كافية أو تعاقب بعض المسئولين بعقوبة تافهة. كتب العقيد هندرسون أحد مراقبى الهدنة التابعين للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٨: «إن هذه الفظائع كثيرة وليس لدينا الوقت والجهاز لمتابعتها ». وقال إنه عندما يطلب المراقبون استدعاء ضابط مسئول عن مجزرة لا يعثر عليه الإسرائيليون.

وبالطبع يشارك بن جوريون فى هذه المسرحية بإدانة «الأعمال المشينة »، ويرتل أبياتاً من قصائد الشاعر المشهور ناثان ألترمان الذى استنكر هذه المجازر. وهذا الأداء الرخيص لم يمنع أن كل هذه الجرائم كانت معروفة لكبار المسئولين فى الحكومة ولقادة الجيش بالطبع وحتى للشعب (ص ١٥٣). بل إنها تمت بأوامر منهم، كما بيّن موريس بعد مراجعته لكتابه الأول.

«وتعرج الطريق بين الجبال
وبدا لى بهاء الجليل فى أروع صورة،
فى ابتسامته القرمزية،
وخضرته الناعمة.
لم أره من قبل مثل ذلك.
كان مفعماً بالحياة.
قطعان الماشية تصعد الجبال
وتهبط الوديان، أجراسها تدق،
والرعاة خلفها،
يغنون ويصيحون كشخوص
من الماضى السحيق.
والآن ساد صمت رهيب على هذه الجبال، تنبعث خيوطه من قرية خالية.
قرية خالية ! ما أفظع هذا ! حياة تجمدت،
تحولت إلى همسات فى الريح،
إلى طابون انطفأت ناره،
إلى مرآة مكسورة،
إلى كومة من التين المجفف فى الشمس،
إلى كلب نحيل يمشى وحيداً فى الطرقات الخالية....
وفجأة انبعث من داخلى شعور عميق الجذور،
الشعور بالنصر،
الشعور بالسيطرة،
الشعور بالإنتقام.
لقد رأيت هذه البيوت الخالية خير مكان لاستقبال إخوتى
اليهود الذين تشردوا من جيل إلى جيل ».

هذه الكلمات الشاعرية التى تحولت فجاة إلى شعور بالانتقام ونشوة النصر، كتبها يوسف فايتز فى مذكراته بعد أن أخذ يجول فى القرى المهجورة التى طُرد أهلها بالسلاح فى جنح الظلام. لقد تحول الشاعر إلى جلاد، وهو الذى امتاز بين قادة الصهاينة بانه أول وأهم منفذ لعملية التطهير العرقى فى أكبر عملية منظمة فى القرن العشرين. فايتز هو مسئول الأراضى فى الصندوق القومى اليهودى، وأول رئيس للجنة الترانسفير (الترحيل).

كانت أول مظاهر «النصر » تدافع اليهود الجنونى لنهب البيوت العربية، وهو الأمر الذى كانوا يتكتمون عليه إلا فى كتاباتهم الأولى بالعبرية. يقول الكاتب المشهور موشى سيملانسكى: «لقد أخذتهم حمى النهب: أفراداً وجماعات، رجالا ونساء وأطفالاً، وانقضوا كالجوارح على الضحية، يحملون كل شيء: الأبواب والشبابيك والملابس والبلاط.. الخ ». يقول المؤلف: دخلوا البيوت الجميلة وحملوا منها ما يستطيعون من أثاث ومتاع وأدوات منزلية، وفكوا ما يمكن فكه حتى الأنابيب والمضخات فى بيارات (بساتين) البرتقال، وساقوا الماشية أمامهم. على أن أكبر غنيمة لهم هى مدينتى اللد والرملة بعد إجلاء سكانها، حمل منها الجيش الإسرائيلى حمولة ١٨٠٠ شاحنة، وانضم إلى موكب الناهبين قائد الكتيبة الخامسة بكل قواته إذ حوّل مساره إلى الرملة للمشاركة فى النهب. وذهب بن جوريون نفسه ليرصد هذه الثروات كما جاء فى مذكراته فى ٢٠ يولية. وفى القدس وزعت عشرات البيوت الحجرية الجميلة على قادة حزب الماباى وكبار قادة الجيش (يعلن اليوم عن بيع هذه البيوت فى الصحف الإسرائيلية: «بيت عربى جميل » بملايين الدولارات). وكما ذكر سيجيف، جاء فى تقرير أولى للحارس على أملاك العدو: «سجلنا ٤٥٫٠٠٠ بيت، و ٨٠٠٠ محل تجارى و٥٠ مصنعا، لكن معظم موظفى دائرتى هم من اللصوص الذين يسرقون هذه البيوت ». وما لم يستطيعوا حمله، حطموه أو أحرقوه. كان هذا مصير مئات الدونمات من محصول القمح، وذلك لمنع اللاجئين من العودة وكجزء من الحرب الشاملة التى تحرم العدو من الغذاء.

حتى برتقال يافا المشهور عبر القرون لم يسلم من يد التدمير. بعد أن سرق اليهود الأنابيب والمضخات، لم يعد بالإمكان سقاية الشجر، خصوصاً أن العمال العرب أصبحوا لاجئين، واليهود مشغولين بجمع الغنائم. وهكذا أهملت بساتين البرتقال العربية فى يافا التى تبلغ مساحتها ١٥٠٫٠٠٠ دونم. وبعد أن استقرت الأمور لم

تستطع إسرائيل إحياء أكثر من خُمس هذه المساحة.

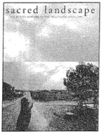
وأشجار الزيتون التاريخية، رمز السلام وتاريخ فلسطين، مورد زيت الزيتون، عماد الغذاء والصحة، اجتثت على مساحات عشرات الآلاف من الدونمات (ص١٦٥) فى أكبر جريمة تاريخية بيئية، وزرع مكانها محاصيل يفضلها اليهود ويعرفون كيف يزرعونها. هذه هى الحقيقة وراء أسطورة «تحويل الصحراء إلى جنة».

وعندما بدأ تدمير القرى قبل نهاية الانتداب كان على يد النهابين واللصوص، وغالبيتهم من سكان المستعمرات القريبة والجيران اليهود فى المدن الذين يعرفون مسبقاً أين توجد الغنائم. ثم أصبح سياسة عسكرية بعد الانتداب. لكن بن جوريون تراجع عن الأمر العلنى خوفاً من الشجب الدولى الذى يعتبر تدمير القرى من جرائم الحرب. فأصدر قراراً بمنع التدمير إلا لأسباب عسكرية وأمنية، وترك تفسير ذلك للجيش دون مراجعته. ونعرف بالطبع نهاية القصة.

كان تدمير القرى واحداً من ثلاث طرق استعملتها إسرائيل كوسيلة لمنع عودة اللاجئين، كأنما تدمير البيت يمنع صاحب البيت أن يبنى بيتاً جديداً على أرضه لو عاد. وكانت الطريقة الثانية سياسية. بعد خروج الإنجليز وانتصار إسرائيل فى الجولة الأولى على العرب وشعورها بالقوة، أصبح منع عودة اللاجئين هدفاً سياسياً معلناً منذ يونية ١٩٤٨، اتخذته إسرائيل فى مراسلاتها الدبلوماسية، خصوصاً عندما رأى الوسيط الدولى برنادوت بنفسه هول مأساة اللاجئين وأصر على عودتهم. أما الطريقة الثالثة التى اتبعتها إسرائيل فهى الإسراع بإحضار مهاجرين يهود من البلاد العربية وتوطينهم فى القرى العربية (والادعاء فيما بعد أن هذا استبدال شرعى للسكان).

يصف المؤلف هذا الاستيطان بصراحة غير معهودة. نقل هؤلاء المهاجرون من مخيم الوصول (فيما يسمى بالمعبرة) إلى القرى العربية الخالية باعتبارها أقرب إلى طريقة معيشتهم فى البلاد العربية. لقد قرر القادة الأشكناز العنصريون أن هؤلاء المهاجرين من اليهود العرب يناسبهم هذا المكان فهم «متخلفون، ليس لديهم تعليم على الإطلاق، وليس لهم إدراك ذهنى، ومن المؤكد أنهم أقل مستوى حتى من العرب الذين طردناهم». بدأ موظفو الاستيطان بتدريبهم على الزراعة وكيف يحملون الفأس والمنجل وكيف يسقون النبات، وأعطوهم منحة مالية ليتدبروا أمورهم، وتركوهم فى القرية العربية. جلس هؤلاء فى حلقات «يلبسون معاطف ثقيلة ويتبادلون كلمات قليلة وتبدو عليهم مظاهر التعاسة». لم تكن لديهم ثقة فى الاشكناز ولا فى الآخرين. لم يناموا الليل. رأوا ما بقى من متاع أهل البيت العرب ومظاهر حياتهم السابقة، وتملكهم الفزع خوفًا من أن صاحب البيت سيهجم عليهم فى منتصف الليل. قالوا لهم أن المتسللين (أصحاب البيت العائدين) قد يذبحونكم فى الليل، وها نحن نذهب إلى قراهم فى الضفة (قبية) وفى غزة (البريج) ونذبحهم هناك قبل أن يأتوكم.

(الآن بعد ٥٠ سنة، انتقم اليهود الشرقيون (المزراحيم) من أسيادهم السابقين بأن انتخبوا القصاب (الجزار) رئيساً لدولة إسرائيل).



يبذل المؤلف جهداً كبيراً لإثبات أن «تدمير القرى» و«طرد السكان» ليس عملية تطهير عرقى منظمة فى هذه الفترة على الأقل وإنما هى من عوارض الحرب. لكن المؤلف يسلم بأن طرد الفلسطينيين كان عملية تطهير عرقى فيما بعد، ويحمّل هذه المسئولية إلى دولة إسرائيل بعد إعلانها

لكن مصاعبهم لم تنته. إذ كان الاشكناز سكان المستعمرات اليهودية القديمة أول من نهب البيوت العربية واستولى على أحسن الأراضى الزراعية حولهم، حتى قبل أن توزع الحكومة هذه الأراضى عليهم. والآن يريد هؤلاء الاشكناز أن يعمل المهاجرون الشرقيون عمالاً زراعيين لديهم، لأنهم لا يصلحون لشىء آخر.

وعندما حاول المهاجرون الذى استوطنوا قرية عاقر بناء مساكن لهم بالطوب الأسمنتى على أرض مجاورة للقرية، هب المستوطنون فى مستعمرة جفعات برينر معترضين على هذا التبذير فى تلك الأرض الزراعية الخصبة التى تصلح لهم فقط، وما هؤلاء المهاجرين إلا عمال عندهم. وقام شبابهم بتكسير الطوب وبضرب المهاجرين.

وبالمقابل، لم يسمح للأهالى العرب الذين بقوا تحت حكم إسرائيل بالعودة إلى بيوتهم نفسها، فصنع هؤلاء لأنفسهم مأوى تحت الأشجار وبين الصخور على قرب من بيوتهم، يراقبونها من بعد. وكلما نقلوهم إلى مكان، عادوا إلى حدود القرية أملا فى العودة. وكما تملكت المهاجرين خيالات الرعب من عودة أصحاب البيت وهم فيه، تملكت هؤلاء الذين يراقبون بيوتهم من التلال المجاورة، خيالات من نوع آخر. تصوروا أن الشياطين والعفاريت ستسخط هؤلاء المهاجرين، وخيل لهم أنهم يرون فى ظلام الليل عيوناً للشياطين تنتقل بين المنازل، وأنهم يرون رأى العين أن أصحاب البيت سيعودون إلى بيوتهم لا محالة بعد الخلاص من هذه الشياطين.

أما الأرض الزراعية فقد استولت عليها المستعمرات القريبة منها، قبل أن تبدأ الحكومة فى إقامة سلسلة مزيفة من القوانين التى تحلل ذلك. ضمت إسرائيل كل أراضى «الغائبين»، وهم السكان العرب الذين طردوا ولم يتواجدوا فى قراهم فى تاريخ معين والذين منعوا من العودة إلى ديارهم فأصبحوا لاجئين. وامتدت التسمية إلى الباقين فى إسرائيل حتى لو تواجدوا يوم الإحصاء فى قرية مجاورة أو لو غابوا يوم الإحصاء ولو ليوم واحد. هؤلاء يسمونهم «الغائبين الحاضرين»، وصودرت أراضيهم أيضا رغم أنهم يحملون الجنسية الإسرائيلية، وعددهم اليوم ٢٥٠٫٠٠٠ أى خُمس الفلسطينيين فى إسرائيل.

ويتم الاستيلاء على الأرض بطرق أخرى منها قانون الأرض غير المفتلحة، الذى يقضى بالاستيلاء على أى أرض لم يفلحها صاحبها لمدة ٣ سنوات. لكن كيف يفلحها صاحبها وهو مطرود منها وممنوع من العودة، ولو عاد لاعتبر متسللاً تطلق عليه النار على الفور؟ ولو طمعت الحكومة فى أرض وتواجد صاحبها فيها، أعلنتها منطقة «مقفلة» لأسباب عسكرية وأمنية، وهذا معناه أن صاحبها ممنوع من دخولها. وبعد فترة تستولى عليها الدولة باعتبارها أرضاً غير مفتلحة حسب القانون.

هذا النهب الصريح المبرر بسلسلة من القوانين المخادعة أدى إلى مصادرة ما يزيد على ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ دونم (١٧ ألف كيلو متر مربع) منها ٤٫٥ مليون دونم فى وسط وشمال فلسطين و١٢٫٥ مليون فى اللواء الجنوبى. هذا عدا حوالى ١٫٥ مليون دونم هى أرض الفلسطينيين الباقين (صودر الآن ثلثاها)، فيكون مجموع الأرض الفلسطينية ٩٢٪ من مساحة إسرائيل، تديرها الآن «دائرة إسرائيل للأراضى» وتؤجرها لليهود، ويمنع تأجيرها أو تطويرها أو الإقامة فيها لأى شخص أو جهة غير يهودية.

كان الكيبوتز عماد الفكر الصهيونى يمثل سكانه حتى اليوم نخبة المجتمع الإسرائيلى فى الجيش والكنيست. لذلك خصصت لهم أجود الأراضى، وهم الذين يستغلون معظم الأراضى الفلسطينية. إلا أن أسطورة اليهودى المزارع تبخرت، ورغم جودة الأراضى، وتخصيص ثلاثة أرباع المياه فى إسرائيل لهم بسعر أقل من التكلفة، ورغم المعونات المالية وإسقاط الديون المتراكمة عليهم، لم ينجحوا فى إنتاج أكثر من ١٫٨٪ من الناتج القومى. ولذلك عمدت إسرائيل إلى بيع أراضى اللاجئين المؤجرة لهم لإقامة عمارات سكنية يشتريها أى يهودى فى العالم. وقد أثارت الثروة المفاجئة التى هبطت عليهم حفيظة سكان المدن. وهذا البيع والتصرف بالأملاك الواقعة تحت الحراسة مخالف للقانون الدولى بالطبع، بجانب كونه علامة على الإفلاس الأيديولوجى للصهيونية.

أما المستوطنون فقد وجدوا أنه من المريح لهم العيش فى حالة من فقدان الذاكرة الجماعى بتجاهل وجود الضحية. وذلك بإزالة الآثار المعنوية، وليس المادية فقط، لكل مظاهر الحياة التى عاشها ضحاياهم، لكى تكون عملية التطهير العرقى كاملة. لأنه لو وجدت الضحية لوجد المجرم. لذلك أصبح أى تذكير بوجود الضحية من المحرمات. ووصلوا فى ذلك إلى درجة كبيرة من خداع النفس. مثلاً، تملك عائلة الماضى الغنية فى قرية إجزم قصراً بنى فى القرن السابع عشر، حوله المستوطنون إلى متحف ثم أصبح مسكناً لعائلة يهودية هامة وأصبحت المدرسة كنيساً يهودياً، والمقبرة متنزها عاماً. ثم ادعى اليهود أن هذا القصر الفلسطينى هو بقايا قلعة صليبية، وأسبغوا هذه الصفة وغيرها على معالم عمرانية أخرى، لإنكار أنه بالإمكان أن يكون هذا المبنى الجميل عمارة فلسطينية طرد صاحبها منها. ويذكر المؤلف أن ٤٠ مسجداً من أصل ١٤٠ (العدد الحقيقى حوالى ١٥٠٠) بقيت دون هدم، لكنها تركت مهملة ومنع ترميمها. ولكنه لم يذكر أن بعضها تحوّل إلى متحف مهمل مثل مسجد بئرالسبع الذى رفضوا السماح للمسلمين بالصلاة فيه وتحول البعض الآخر إلى مطعم وبار، أو اسطبل للخيول مثل جامع الكوفخة.

والقرى العربية ذات الآثار التاريخية تم ترميمها وإزالة الآثار العربية فيها واختراع تاريخ إسرائيلى مجيد لها، إذا كان ذلك مناسباً، وإلا فتطمس تلك الآثار وتدمر القرية. حدث هذا فى قيسارية وكوكب الهوا. أما قرية عين حوض الجميلة فقد تحولت إلى قرية للفنانين، مثلها مثل الحى القديم في يافا، وأهل القرية الذين بقوا فى إسرائيل منعوا من الإقامة فيها، فانشأوا مساكن لهم قرب قريتهم يراقبونها عن بعد، واعتبرت مساكنهم قرية «غير معترف بها»، أى لا تظهر على الخرائط ولا تصلها المياه والكهرباء وخدمات التعليم والصحة.

وفى حمى تدمير العمارة الفلسطينية وبناء علب خرسانية قبيحة لاستقبال المهاجرين على أنقاضها، دمرت إسرائيل جزءا لا يعوض من تاريخ فلسطين. يقول الزوجان عالما الآثار دوثان، أنهما اكتشفا بالصدفة تدمير تل مُرّة قرب إسدود، أثناء إنشاء طريق نحو الميناء. وتل مُرّة هذا يحتوى على آثار لا نظير لها للبالشتيين (الفلسطينيين القدماء الذين استوطنوا فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد). وحدث مثل هذا التدمير فى كثير من المستوطنات، عند حفر الأساسات أوحرث الحقول على عمق كبير. وكما يقول دوثان، لقد تحطمت كثير من الآثار وضاعت سجلات تاريخية للأبد، إلا ما تمكن اللصوص من اقتنائه، ومن أهمهم موشى ديان، الذى حصل لنفسه دون إذن أو تسجيل، على مجموعات تكفى لمتحف صغير.

ولم يقتصر التدمير على قطع أثرية، بل أزيلت من الوجود ٤١٨ قرية عربية التى أمكن معاينتها من أصل ٥٣١ قرية، دمر الثلثان منها تدميراً كاملاً والثلث الباقى دمر بدرجة أقل وتعيش فيه بعض العائلات اليهودية. وبعض القرى التى أزيلت كانت منارة مضيئة فى التاريخ الفلسطينى بتراثها العريق المتمثل فى أسمائها القديمة مثل: عمواس ويالو وبيت نوبا وأكارون وسيفورس واليثروبوليس وكريثتيس وشافير وبيت داجون وجمزو وجابيل وأزتياد ونبلات وإيتام وجبعة. هذا هو الوجه البربرى للصهيونية!

«اختلاق التاريخ الإسرائيلى وتغييب التاريخ الفلسطينى» الذى وصفه كيث ويتلام فى كتابه الشهير، لم يقتصر على التاريخ القديم. يصف المؤلف فى

كتاب الزاوية

١. بطاقة هوية

محمود درويش

سجل!.. أنا عربى

أنا اسمٌ بلا لَقَب

صَبُورٌ فى بلادٍ كُلُّ ما فيها

يعيش بفَوْرة الغضب

جذورى . . قبل ميلاد الزمان رستْ

وقبل تفتُّحِ الحقب

وقبل السرو والزيتونْ

. . وقبل ترعرع العشبِ

أبى . . من أسرة المحراث

لا من سادة نُجُب

وجدى كانَ فلاحًا

بلا حسبٍ . . ولا نسب!

يُعلمنى شموخ الشمس قبل قراءة الكتب

وبيتى، كوخُ ناطورٍ

من الأعواد والقصبِ

فهل تُرضيك منزلتى؟

أنا اسمٌ بلا لقب!

سجل . . أنا عربى

سلبتُ كروم أجدادى

وأرضًا كنتُ أفلحها

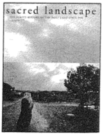
أنا وجميع أولادى

ولم تترك لنا . . ولكل أحفادى

سوى هذى الصخور . .

فهل ستأخذُها

حكومتكم . . كما قيلا!؟



لقد كان بن جوريون واعياً لحساب التاريخ المكتوب، ويعلم تماماً أن عملية التطهير العرقى وطرد السكان والمذابح وصمة فى التاريخ الإنسانى، وليس اليهودى فقط. ويذكر المؤلف حوادث عديدة، لم يسجل فيها بن جوريون أوامر مكتوبة بل كان يجهر فى السجلات بعكس ما ينوى، وكان يعطى الأمر الحقيقى بإشارة من يده أو نظرة من عينيه أو السكوت

فصل ممتع كيف تكونت لجنة من الخبراء أشرف عليها بن جوريون نفسه فى مطلع إنشاء الدولة لكى تزيل من الخرائط كافة الأسماء العربية والإسلامية وتخترع لها أسماء عبرية، لكى تعطى الأماكن المحتلة شهادة ميلاد شرعية، تنفى عنها صفة اللقطاء. كان هذا صعباً جداً لأنه حتى الأسماء المذكورة فى التوراة كنعانية نقلت إليها كما كانت معروفة فى ذلك الحين. استمرت اللجنة فى عملها حوالى ٨ سنوات (ولازالت موجودة لتسميات جديدة) لتطمس الأسماء التى وجدتها فى خرائط فلسطين البريطانية. ومع ذلك، كانت حصيلة عملها أن اختارت ٣٣٣ اسما (من أصل ٥٣٣) إما محرّفة من العربية أو وضعت لها أسماء عبرية مشابهة صوتياً للأسماء العربية - كل هذا النحت والتزويق والتزوير لإعطاء صبغة عبرية لأرض لم تكن، لا فى زمان أو مكان لهما شأن فى تاريخ فلسطين الطويل، أرضاً عبرية. ووصل الأمر إلى حد مضحك، فتحول وادى ردادى إلى ناحال روديد، وأبوجروال إلى جورال، وأبو روثة إلى روث، وبيت دجن إلى بيت داجون، وفرادية إلى فارود، ودلاته إلى دالتون، وزرعين إلى يزرائيل، وكسلا إلى كسالون وبينه إلى يافنه. كان هذا جهداً يائساً لطمس تاريخ عريق امتد ٤ آلاف عام، وكان جهداً كبيراً أيضا لأنه عندما بدأت اللجنة عملها فى إزالة وتغيير الأسماء كما ظهرت فى الجريدة الرسمية لحكومة الانتداب لم يكن أكثر من ٥٪ من الأسماء عبرياً، والباقى عربيا، رغم الاستيطان اليهودى لمدة ٣٠ عاماً تحت المظلة البريطانية.

أعترف بأن هذا الكتاب ممتع ومشوق ومؤلم أيضًا، ربما لأنه يأخذ القارىء العربى فى جولة فريدة مليئة بالتفاصيل والمفارقات والمآسى لفلسطين التى تركناها بعد النكبة. ولا يملك المرء بعد قراءته إلا أن يشعر للمرة الألف، إن لم يكن يشعر كل يوم بعد عام النكبة، بفداحة هذه النكبة وعظيم جرمها وهول بشاعتها.

يصف الكتاب، عن غير قصد طبعاً، الحوادث التى تبين دون شك أن تدمير فلسطين بناسها وعمرانها وتاريخها كان شرطاً أساسياً فى الخطة الصهيونية لإنشاء دولة إسرائيل. فإجلاء الأهالى عن ديارهم، فى أكبر عملية تطهير عرقى منظمة فى التاريخ الحديث، كان خطة سارية وإن كانت غير معلنة قبل نهاية الانتداب البريطانى، نفذتها العصابات الصهيونية التى أصبحت تسمى فيما بعد جيش «الدفاع» الإسرائيلى. كانت هذه أول مرحلة. وبعدها بدأت الثانية فى ٨ يونية، عندما قررت الحكومة المؤقتة لإسرائيل أن تتخذ قراراً سياسياً بمنع عودة اللاجئين، أبلغت به الدول الأجنبية والأمم المتحدة، بحجة أن العائدين إلى ديارهم سيكونوا طابورا خامساً يهدد سلامة إسرائيل. والمرحلة الثالثة عندما أسرعت «بتطفيش» اليهود من العراق والمغرب واليمن، ليسكنوا فى القرى الفلسطينية - رغم أن هؤلاء لاقوا من سوء المعاملة مالو عرفوه لم يهاجروا من ديارهم أبداً.

كان بن جوريون يعلم حق العلم أن السلام ضار بإسرائيل، فهو يريد تأمين غنائم الحرب، ولو وافق على السلام لخسر الأرض وعاد اللاجئون (ص ١٥١). لذلك أفشل جميع محاولات الصلح فى لوزان (١٩٤٩ - ١٩٥١) وخطّط لحرب العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ليحول خط الهدنة إلى حدود دائمة مقبولة.

إذن لولا إجلاء الفلسطينيين وتدمير قراهم وإحلال مهاجرين يهود مكانهم لبقى أهالى ٥٣١ مدينة وقرية فى ديارهم وهم الآن لاجئون عددهم الآن خمسة ملايين، ولبقى ٩٢٪ من إسرائيل (لوقامت) أرضاً فلسطينية، ولبقى الفلسطينيون ثلثى السكان واليهود الثلث، وهؤلاء اليهود معظمهم مهاجرون، شرعيون وغير شرعيين دخلوا البلاد خلال عهد الانتداب، ووجدوا أمامهم نسل ٥٦ ألف يهودى فقط كانوا فى فلسطين عندما دنس اللنبى أرض فلسطين بجيشه ودنس بلفور تاريخ فلسطين بوعده.

وإذ نكتب هذا اليوم، ونرى على شاشة التليفزيون جريمة اغتيال الطفل محمد جمال الدرة إذ يحتمي بوالده من الوحشية الصهيونية، ندرك أن حرب فلسطين لم تنته بعد، وأن الصهيونية لا تزال ماضية في مشروعها لتدمير ما تبقى من فلسطين بشرًا وعمرانًا وتاريخًا وجغرافية. لكن الانتفاضة الفلسطينية، التى وجدت صداها فى الهبة العربية والإسلامية والعالمية فى صورة لم يتصورها أحد، أثبتت أن هذا الشعب حى لن يموت، وأن حقه في وطنه لن يضيع، وأن عودته إلي «المكان المقدس» لا ريب فيها مهما طال الزمن، وبإزالة رجس المحتل يعود المكان مقدسًا فعلاً.

كيف تغيرت النظرة إلى العربى المسلم

فى إسبانيا المعاصرة؟

محمد فخرى الوصيف



مع حلول عام ١٤٩٢م (=٨٩٧هـ) دخل فرناندو (Fernando) وإيسابل (Isabel)، ملكا إسبانيا الكاثوليكيان، غرناطة ليضعا بذلك نهاية للعملية السياسية الحربية طويلة المدى المعروفة بحرب الاسترداد (لاريكونكستا La Reconquista)، والتى كان هدفها الأول قطع دابر دولة الإسلام من شبه جزيرة إيبريا، أو بعبارة أخرى القضاء الكامل على الأندلس. ومنذ ذلك الوقت، بدأت عملية أخرى، ثقافية هذه المرة، تعد واحدة من أكثر عمليات التحول الثقافى القسرى فى التاريخ. منذئذ شرعت جهود حثيثة فى اتجاه تحقيق هدف أساسى، ألا وهو الوحدة الثقافية. وهذه الوحدة كما فهمها ونفذها ملوك إسبانيا الكاثوليك ورجال الدين، ودافع عنها لفيف من المثقفين الإسبان، لا تكون إلا بإقامة دولة كاثوليكية إسبانية تحكم شعبا واحدا كاثوليكيا إسبانيًا. وبالتالى «تطهير» إسبانيا من كل ما ومن هو دخيل، أو من «الآخر» المختلف، الذى يدين بغير الكاثوليكية ويتكلم ويكتب بغير الإسبانية. وكان «الآخرون» - فى غالبيتهم - مسلمى الأندلس. وعليه، بدأ قرن طويل من الاضطهاد والتغريم والتعذيب، ثم التنصير والكثلكة والأسبنة، وذلك من خلال «ديوان التفتيش» الرهيب، وأخيرا الطرد فيما بين سنتى ١٦٠٩ و١٦١٤م. والمدهش أن «التطهير الثقافى» امتد حتى إلى مظاهر ثقافية أندلسية أخرى مثل الكتب واللباس والغناء والطعام، وغير ذلك، بل طال هذا فى أحيان بعض الإسبان الذين لحقتهم «شبهة» الاتصال بأحد مظاهر الثقافة العربية الإسلامية.

وخفت حدة الملاحقة منذ منتصف القرن السابع عشر، ورغم هذا استمرت أسس هذه السياسة الثقافية قائمة خاصة فى مناهج التعليم. فقُدِّمت - ولا تزال تقدم - القرون التسعة من الوجود الأندلسى (٩٢ - ١٠٢٢هـ = ٧١١ - ١٦١٤م) فى كتب التاريخ المدرسية الإسبانية ملخصة فى صفيحات، وبطريقة مبتورة مخلة، وفيها تحول الأجداد الأندلسيون إلى أغراب دخلاء محتلين، أو إلى «آخر» مغتصب هزم وطرد ليحتل موقعه فى الذاكرة القومية الـ «نحن» الذى تصدى وقاوم وانتصر. وعلى هذا الفكر تربت عشرات الأجيال الإسبانية.

مع بزوغ عصر الديمقراطية فى إسبانيا على إثر موت الجنرال فرانكو سنة ١٩٧٥م، تحولت أشياء كثيرة، وأصاب التغيير مناطق عديدة فى العقلية الإسبانية. وكان من المؤمل أن يلحق الذاكرة العدائية تجاه ما هو عربى وإسلامى شىء من التغيير الإيجابى، ولكن هيهات! فمع الديمقراطية تسارع الاتجاه نحو الأوربة، والتأكيد على انتماء إسبانيا للحضارة اللاتينية، وبالتالى إلى غرب أوروبا، وذلك بغية اللحاق بقطار السوق الأوروبية المشتركة (الجماعة الأوروبية فيما بعد، ثم أخيرًا الاتحاد الأوروبى). وبالفعل تم انضمام إسبانيا والبرتغال إلى هذا التجمع الأوروبى الهائل سنة ١٩٨٢.

من النتائج الثقافية لهذا الالتحاق أن «النحن الإسبانى» أصبح ينتسب إلى «نحن» أوسع، هو الغرب الأوروبى الغنى القوى المتحضر، والذى بدوره يلتقى مع الجناح الآخر من الأطلنطى، أى الولايات المتحدة الأمريكية، مشكلا «النحن الغربى الكبير» الجبار المنتصر. ولأن هذا «النحن» له نفس الرؤية عن «الآخر»: العربى المسلم، وهى رؤية سلبية بوجه عام، فقد تلاقت الرؤيتان مكونة نظرة واحدة هى تقريبًا السائدة فى كل «الغرب الكبير»، والمتأججة اليوم بفعل دوافع سياسية واجتماعية معينة، مع بعض الاختلافات والتنويعات الشكلية حسبما تمليه ظروف كل بلد.

من ثم، فإن هذا «الآخر»: العربى المسلم مختلف مثير غرائبى، متخلف فكريا وحضاريا، متعصب إرهابى، هو الجار الفقير المتنمر، عدو الأمس ومنافس الغد. هذه النظرة تقريبًا هى ذاتها المتحكمة فى الأفق الإسبانى رغم وجود أصوات حرة تمجد الأندلس وعظمة حضارتها ودورها الإنسانى العالمى، بل وتناصر القضية العربية، مثل الكاتب الروائى خوان جويتيصولو (Juan Goytisolo)، والكاتب الروائى المسرحى أنطونيو جالا (Antonio Gala). ولكن هذه الأصوات فى المحصلة الأخيرة تبدو خافتة وسط هدير الماكينة الإعلامية التى تردد فى الغالب نفس الصوت الغربى، إن لم تكن صداه.

قد تدهش هذه الرؤية القارئ العربى الذى يحمل لإسبانيا ودًا خاصا لكونها - مع البرتغال توأمتها الإيبيرية - أرض «الأندلس» وحاملة جيناته إلى ربوع أوروبا. ولكن كما أصبحت الأندلس أثرًا بعد عين، أو «فردوسا مفقودًا»، كما يحلو للبعض أن يقول، تحولنا «نحن» - العرب المسلمين - إلى «آخر» يكاد أن يكون مجهولاً، إن لم يكن معاديا، مثلما هو الحال فى باقى «الغرب الكبير».

وليس أكثر دليلاً على استقرار هذه الرؤية السلبية فى البنيان الإسبانى من تغلغلها فى نظام التعليم العام، بل إنه يسهم بدوره فى ترويجها وترسيخها، ربما بقدر يفوق أجهزة الميديا: لأن ما يعلم فى مراحل العمر الأولى يبقى ويثبت. فمنذ حوالى عامين (مدريد ١٩٩٨) صدر كتاب إسبانى مهم بعنوان الإسلام والعالم العربى: مرشد تعليمى للمعلمين والمربين (El islam y el Mundo Arabe. Guia dida`ctica para brofesores y formadores)، صادر عن AECI، وهى هيئة حكومية، هذا الكتاب يفحص ويحلل المناهج التعليمية التى تتناول موضوع الإسلام والعرب فى مراحل التعليم ما قبل الجامعى، ويقدم فى ذات الوقت الرؤية البديلة الإيجابية من خلال عرض موضوعى شامل وموجز لتاريخ العرب والمسلمين الوسيط والحديث والمعاصر.

مؤلفات هذا الكتاب وهن: خيما مارتين مونيوث (Gema Martin munoz) وبيغونيا باييه سيمون (Begona Aalle Simon) ومارية أنخليس لوبث بلاثا (M. Angeles Lopez Plaza) يرين بوجه عام أن الكتب المدرسية الإسبانية تعالج الموضوعات الخاصة بالعرب والإسلام بشكل سطحى ومشوش، فضلاً عن ضآلة المادة التى تدرس الحياة الاجتماعية والأدبية، مما يؤدى إلى أن الطالب ما قبل الجامعى ينهى دراسته بتعليم غير صحيح وغير كاف عن العرب والمسلمين.

ويشير الكتاب إلى اتجاهين يسيطران على المادة المقدمة. الأول: الميل إلى تعميم ما يحدث فى بلد معين وفى فترة زمنية معينة على كل العالم الإسلامى. والثانى: اتخاذ المفاهيم والمبادئ الغربية كأسس وحيدة لدراسة الإسلام. كما لا يُدْرس الإسلام بنفسه، بل من حيث علاقته بالغرب. فعلى سبيل المثال، تتركز دراسة الخلافة الإسلامية من حيث علاقتها بالدولة البيزنطية، والأندلس من جهة علاقتها بالممالك المسيحية الإسبانية، والإمبراطورية العثمانية من خلال علاقتها بالدول الأوروبية وكذلك تأخذ موضوعات العالم الإسلامى طابعا انتقائيا حسبما تمليه مصالح الغرب، مثلا يحظى موضوعا البترول والتطرف الإسلامى بأهمية كبرى على حساب باقى الموضوعات.

وأيضًا يأخذ الكتاب على مؤلفى الكتب المدرسية إدلاءهم بآرائهم المنحازة ضد العرب والمسلمين من خلال استخدام معجم منحاز وألفاظ مغرضة من قبيل: «الخطر» - «الغضب» - «الخوف» - «التهديد» - «التعصب» - «الأصولية».

والنتيجة أن الانطباع الذى يخرج به الشاب حديث السن عندما يكمل تعليمه العام أن الإسلام مصدر أول وأساسى للصراعات السياسية والاجتماعية فى مناطق متعددة من العالم. وهذا بالطبع يؤسس لدى الطالب رؤية سلبية عن المسلم والعربى، وأن العالم العربى الإسلامى هو المثال الحى على الرجعية والجمود وعدم الأهلية على الحداثة وذلك بسبب تعصبه الدينى ومواجهته العدائية مع الغرب. ومع الأسف تظل هذه الرؤية هى المتحكمة فى فكر وسلوك الإسبانى تجاه العربى والمسلم، أو تجاه «الآخر»، وقليل من يبحث عن الحقيقة بدافع شخصى، وتظل الأغلبية على ما أخذته، ثم تأتى الميديا لترسخ هذه الرؤية السلبية، وينتهى الأمر بـ «الآخر» إلى أن يصبح مجهولاً ومخيفًا فى ذات الوقت، وبالتالى يصبح من المنطقى تجنبه والاستعداد لمواجهته.

وقد قدمت مؤلفات الكتاب عشرات الأمثلة التى تدل على تلك النظرة المغلوطة تجاه العرب والمسلمين، وهى أمثلة مأخوذة من ٥٣٣ كتابًا مدرسيًا من الكتب المقررة فى مراحل التعليم العام، وهذه الكتب جميعها صادرة فيما بين سنتى ١٩٧٩ و١٩٩٣، أى خلال عصر الديمقراطية الحالى. وهذه إشكالية يمكن أن تعبر عنها الأسئلة التالية:

أليست الديمقراطية فى بعدها الأعلى انفتاحًا على «الآخر»؟

أليست رفضا للتقوقع داخل الذات التى تكون هنا الدائرة الثقافية الغربية؟

أليست رفعًا للقيود التى تحجب «الآخر» على نحو موضوعى؟

وأخيرًا فإنه من المأمول أن يكون موضوع النظرة السلبية تجاه العالم العربى الإسبانى، وأخالها تقريبًا نفس النظرة فى باقى دول غرب أوروبا، ضمن الموضوعات المطروحة للحوار فى عملية برشلونة بين الاتحاد الأوروبى ودول حوض البحر المتوسط غير الأوربية، وأن يكون هذا ضمن إطار أوسع وأشمل بين الغرب من جهة والعالم العربى الإسلامى من جهة أخرى. ولا ريب أن الدعوة لمثل هذا الحوار بات من الهموم الثقافية التى تشغل اليوم بال جماعة من المثقفين فى الشرق والغرب على السواء: فاللقاء المستمر والحوار المتبادل بين «الآخر» و«الآخر» هو السبيل الصحيح للتخفيف من حدة - ولا أقول إزالة - حجب الجهل والتجاهل والخوف والعداء.

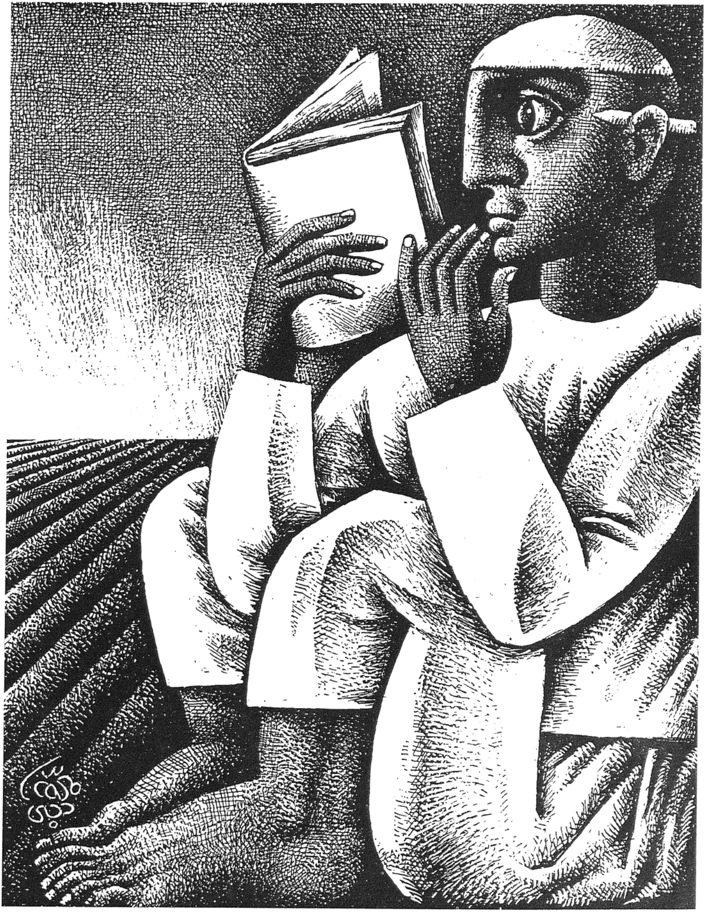
El islam Y El mundo Arabe.

الإسلام والعالم العربى.

Gema Martin Munoz, Begon Valle Simon, M. Angeles plaza.

دار نشر AECI - مدريد ١٩٩٨.

أزمـــــة الإنســـــان والكتـــــاب



قاسم عبده قاسم

كانت الكتابة أهم اختراعات الإنسان على الإطلاق. ثم كانت الطباعة نقلة نوعية هائلة فى الأدوات المعرفية للإنسان؛ ومن هنا نشأت العلاقة بين الإنسان والكتاب وتطورت واتخذت شكلاً حميميًا لم ينشأ بين الإنسان وأى من اختراعاته الأخرى. وعلى الرغم من تطور الأدوات المعرفية، السمعية والبصرية التى اخترعها الإنسان، فإن الكتاب يظل صاحب الحظوة فى علاقته الخاصة بالإنسان لأنه يصحبه فى أى مكان، ولأنه يترك لخياله مراحًا مناسبًا من ناحية أخرى. ولكن العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى تشهد حاليًا تراجعًا مخيفًا يوازيه تراجع مخيف فى مستوى الوعى العام وفى مستوى البناء المعرفى لدى الفرد. وهذه الدراسة تحاول رصد الظاهرة وتفسير بعض جوانبها من خلال قراءة ما جرى.

ولنبدأ القصة من أولها...

كان وجود الجماعات البشرية، ولايزال، مرتبطًا بوجود اللغة. ولا يمكن أن نتصور، طبعًا، أن توجد جماعة إنسانية دون وجود لغة تربط بين أفرادها برباط من التفاهم والاتصال والتواصل. ومن البديهى أن لغات الجماعات الإنسانية الأولى كلها كانت شفاهية؛ إذ كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لنقل المعلومات والمعارف والأفكار داخل الجماعة الإنسانية. ومن الأمور التى تلفت النظر فى قصة اللغة أن معظم اللغات التى تكلم بها البشر ظلت شفاهية ولم تعرف الكتابة أبدًا. بل إن علماء اللغة يخبروننا أن البشر فى عالم اليوم يتحدثون حوالى ثلاثة آلاف لغة ليس من بينها سوى ما يقرب من ثمان وسبعين لغة لها أدب مكتوب. ومن ناحية أخرى، فليست هناك وسيلة متاحة، حتى الآن، يمكن أن نحصى بها اللغات التى اختفت تمامًا قبل أن تعرف الكتابة (انظر تفاصيل هذه المناقشة فى: أونج، الشفاهية والكتابية، ترجمة حسن البنا عز الدين، عالم المعرفة ١٨٢، سنة ١٩٩٤م، ص ٢٤ وما بعدها).

ثم عرف الإنسان الكتابة التى كانت أهم إبداعات الإنسان التكنولوجية على الإطلاق، بيد أننا يجب أن نلاحظ أن الكتابة جاءت بعد تطورات كثيرة فى تاريخ الإنسانية المعرفى والثقافى. فقد ظل الإنسان زمنًا طويلا يعتمد على التواصل الشفاهى من ناحية، ثم بدأ يعتمد على الكتابة التصويرية من ناحية أخرى. وقد كانت الكتابة التصويرية تعانى من نقص إمكانيات التطور الذاتى بسبب قيامها على أساس من تصوير معانى الكلمات. ولكن أجدادنا فى المنطقة العربية تمكنوا من ابتكار الأبجدية التى وضعت رموزًا شفرية لكل الأصوات التى تشكل الكلمات التى ينطق بها البشر. وبذلك زادت إمكانيات اللغة زيادة هائلة.

هكذا، إذن، كانت الكتابة نقلة معرفية هائلة. إذ إنها جاءت بحروف نقلت الكلمة من حيز المسموع إلى حيز المرئى. والكتابة عبارة عن نظام شفرى من العلامات البصرية التى يستطيع الكاتب من خلالها أن يقدم الفكرة والمعلومات إلى قارئ يشترك معه فى فهم هذه الشفرة. ولهذا السبب أمكن للإنسان أن يتواصل مع إنسان آخر لا يعيش معه فى نفس المكان أو نفس الزمان. وإذا كانت الشفاهية قد قيدت حدود التواصل الإنسانى داخل زمان بعينه وفى إطار مكان محدد، فإن الكتابة كسرت هذه الحدود وأطلقت الفكر البشرى فى رحابة الزمان والمكان. وهذا هو السبب فى أننا نقول إن الكتابة كانت أخطر ابتكارات الإنسان التكنولوجية. فقد أدت الكتابة إلى إعادة بناء الحياة الإنسانية وربطت الإنسان بتراثه وتاريخه، كما أدت إلى أنماط من التراكم المعرفى كانت من أهم أسباب تقدم البشرية. وإذا كان هذا يصدق على الكتابة عمومًا، فإنه يصدق بشكل خاص على الكتابة بالحروف الهجائية، أو الأبجدية.

ويرى بعض العلماء أن عمر الإنسان على الأرض حوالى خمسين ألف سنة، على حين كان ظهور أول كتابة حقيقية سنة ٢٥٠٠ ق.م، أى منذ حوالى أربعة آلاف وخمسمائة سنة. ويلفت النظر هنا أن إنجازات البشر كلها قد تمت فى الفترة التى عرف فيها الكتابة على الرغم من أنها تمثل عشرة بالمائة من عمر الإنسان على الأرض. وهو ما يوضح لنا مدى التأثير الإيجابى الذى تركته الكتابة على الحياة الإنسانية والكيفية التى أدت بها إلى إعادة بناء الحياة الإنسانية.

وإذا كانت الكتابة، بحد ذاتها، نقلة من الكلام الشفاهى إلى الكلام المكتوب، أى نقلة من عالم الصوت إلى الفراغ المرئى. وما نتج عن ذلك بالضرورة من تطورات إيجابية فى تاريخ الإنسانية، فإن الكتابة هى التى ساعدت أيضًا على تطوير وتحسين إمكانيات اللغة بشكل لا يمكن قياس مداه. إذ إن الكتابة تعيد بناء الفكر الإنسانى من خلال رصيدها المخزون من ناحية، كما أنها تمنح اللغة قوة ذاتية لا تدانيها قوة أية لهجة شفاهية خالصة من ناحية أخرى. وتفسير ذلك أن الكتابة تتيح للغة أن تختزن رصيدًا من الكلمات يزيد زيادة مطردة مع امتداد تاريخ هذه اللغة، كما أن الكتابة تتيح لنا معرفة التطور التاريخى لدلالات الكلمات عبر عصور استخدام اللغة. ومن هنا تزداد قدرة اللغة على تطوير ذاتها وإعادة استخدام رصيدها المخزون من الكتابة.

فإذا ما أخذنا اللغة الإنجليزية الرسمية مثالاً، لوجدنا أنها تضم حوالى مليون ونصف مليون كلمة تستخدم حاليًا، على الرغم من أن مفردات كثيرة فى هذه اللغة تمت استعارتها من الفرنسية التى كانت لغة الحكم والإدارة والأدب منذ أن قام وليم الفاتح بغزو إنجلترا سنة ١٠٦٠م. وفضلاً عن ذلك، فإن الباحثين المتخصصين يعرفون المعانى الكثيرة التى كانت هذه الكلمات تحملها فى الماضى. وتنسحب هذه الحقيقة، مع اختلاف الأرقام، على اللغة العربية واللغة الفرنسية .. وكافة اللغات المكتوبة. وفى المقابل، لا نجد أية لهجة شفاهية تمتلك من المفردات ما يزيد على عدة آلاف كلمة ولا يمكن معرفة التطور التاريخى لهذه الكلمات.

ويطول بنا الحديث كثيرًا إذا فكرنا فى رصد التأثيرات الهائلة التى تركتها الكتابة على الحياة الإنسانية. ولكن الانتقال من الكتابة إلى الطباعة (منذ اختراع طباعة الحروف المنفصلة فى أوروبا القرن الخامس عشر على أساس من تطوير الطباعة الصينية التى كانت معروفة قبل ذلك التاريخ) قد خلق تأثيرات بعيدة المدى على كيفية استخدام الفراغ المرئى بطريقة أفضل من الكتابة اليدوية. وهو ما أدى بدوره إلى استبعاد الشفاهية وعالم الصوت من الصورة تمامًا. ذلك أن الكتابة لم تستطع أن تزيح الشفاهية عن عرشها سوى بعد الطباعة. إذ كانت الكتابة اليدوية تستخدم الفراغ المرئى بشكل جمالى أحيانًا، ولكن خدمة للأداء الشفاهى للغة فى معظم الأحيان. كما أن الطباعة قضت على ما بقى من قيمة للشفاهية بفضل تطور أساليبها. ففى عصور ما قبل الطباعة كانت الكتابة لا توفر سوى عدد قليل من النسخ المخطوطة من أى كتاب، إذ كان عدد الذين يعرفون الكتابة قليلاً تمامًا فى كل مكان. كما كان عدد الذين يعرفون القراءة أكثر من عدد أولئك الذين يحسنون الكتابة: فالكتابة كانت، ولا تزال، أصعب كثيرًا من القراءة. وهذا هو السبب فى أن الشفاهية وعالم الصوت ظلت هى الحيز المناسب للعلم والثقافة والمعرفة فى العصور القديمة وفى العصور الوسطى على حد سواء.

فقد كان الكاتب يملى كتابه على ناسخ محترف، أو يكتبه بنفسه، ولم يكن ممكنًا إنتاج عدد من النسخ يزيد على أصابع اليد الواحدة فى حياة المؤلف. ومن ثم كان طبيعيًا أن النصوص كانت تكتب بطريقة تتيح قراءتها على جمهور من السامعين، وأدى ذلك بالضرورة أن صار «الحفظ» و«الرواية» من الفضائل العلمية والثقافية. ومن يقرأ المخطوطات الكثيرة التى حفظها الزمن من تراث الحضارة العربية الإسلامية سيكتشف هذه الحقيقة من خلال العبارات الدالة: مثل عبارة «تأليف فلان برواية فلان» أو من خلال

إن إنجازات البشر كلها قد تمت فى الفترة التى عرف فيها الكتابة على الرغم من أنها تمثل عشرة بالمائة من عمر الإنسان على الأرض. وهو ما يوضح لنا مدى التأثير الإيجابى الذى تركته الكتابة على الحياة الإنسانية والكيفية التى أدت بها إلى إعادة بناء الحياة الإنسانية

كان الكاتب يملى كتابه على ناسخ محترف، أو يكتبه بنفسه، ولم يكن ممكنًا إنتاج عدد من النسخ يزيد على أصابع اليد الواحدة فى حياة المؤلف. ومن ثم كان طبيعيًا أن النصوص كانت تكتب بطريقة تتيح قراءتها على جمهور من السامعين، وأدى ذلك بالضرورة أن صار «الحفظ» و«الرواية» من الفضائل العلمية والثقافية

مع اختراع «النظارة» عند بداية القرن الرابع عشر، زاد معدل «عمر القراءة» عند الإنسان؛ وبالتالى زادت عوامل الألفة والخصوصية فى العلاقة بين الإنسان والكتاب. ورويدًا رويدًا تخلى الناس عن عاداتهم فى القراءة بصوت عال (على الرغم من أن بعض الطلاب لا يزالون يصرون على هذه القراءة المسموعة)

أزمة الإنسان والكتاب

بعض الدول العربية تعامل الكتاب على أنه عدو محتمل ولا يمكن السماح بدخوله إلا بعد أن يثبت أنه حسن السير والسلوك، وبعض دول العرب تعامله معاملة الضيف الثقيل، على حين أن البعض الآخر يتعامل مع الكتاب باعتباره سلعة استهلاكية يمكن أن تكسب الدولة من فرض الرسوم والجمارك عليها في كل مرحلة من مراحل تصنيعها



الطرائف وقصص الخوارق والمعجزات التي تعترض سياق النص. وهي كلها أشبه بالتوابل التي تزيد من انتباه السامع إلى النص المقروء وسط حلقة من السامعين.

وفي أوروبا العصور الوسطى، في الفترة ما بين سنة ٨٠٠ وسنة ١٢٠٠م تقريبًا، ارتفعت تكاليف إنتاج الكتاب كثيرًا؛ إذ كانت لفافة البردي المستوردة من مصر قد اختفت وحلت محلها جلود الرق الغالية الثمن والتي كان يتم تجهيزها على شكل رزم تخاط سويًا وحولها غلاف سميك يحفظها من التفكك. واختفى العبيد المتمرسون على أعمال النسخ الذين عرفتهم الإمبراطورية الرومانية، وصار الكتاب بحد ذاته شيئًا نفيسًا يمكن تداوله من خلال الهدايا أو التبادل، أو البيع بأثمان باهظة. وفي ذلك الحين كانت حجرات النسخ Scriptoria التي انتشرت في الأديرة والكاتدرائيات هي مراكز إنتاج الكتاب الرئيسية. وفي بعض الأحيان كان الرهبان والقساوسة يستأجرون النساخين والفنانين المحترفين لنسخ المخطوطات وتوشيتها بالرسوم التوضيحية. ومع هذا فإن المؤلفين كانوا يتوقعون أن تقرأ كتبهم بصوت عال لحلقة من السامعين؛ ولذلك كان المؤلف يضع في اعتباره، منذ اللحظة التي يبدأ فيها تأليف كتابه، الكيفية التي سيتم بها «الاستماع» إلى هذا الكتاب. (انظر مزيدًا من التفاصيل في: بيرل سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف ١٩٨٤م، ص ١٣-٢٠).

هكذا، كان للشفاهية تأثيرها المباشر على الكتاب قبل اختراع الطباعة. إذ إن التعامل مباشرة مع جمهور السامعين كان له تأثيره على مضمون الكتاب بقدر ما كان له تأثيره على شكل هذا الكتاب أيضًا. فالقارئ الذي لا نراه قد يغلق الكتاب متثائبًا إذا ما أحس بالضجر، ولكن المستمعين الذين نراهم يعبرون عن ضجرهم بطريقة واضحة. فالكاتب الذي يخاطب الأذن لابد أن يلجأ إلى كل حيلة ممكنة لكي يحوز رضاء سامعيه ويجذب انتباههم. وسواء كان يخاطب جمهوره مباشرة، أو يتخيل أن أحدًا غيره سوف يقرأ لهم كتابه، فإنه كان يتوخى التأثير البلاغي في سامعيه. لقد كان الكتاب والمؤلفون، قبل الطباعة، يخاطبون جمهورهم باعتبارهم «قراء» وباعتبارهم «مستمعين» في آن واحد.

من هنا اكتسبت الطباعة أهميتها وخطورتها؛ إذ إنها أتاحت نشر المعرفة والعلم على نطاق واسع لم يعرفه العالم من قبل، كما تركت تأثيرات إيجابية متزايدة على الوعي الإنساني، فضلاً عن أنها ساعدت بشكل غير مسبوق على نشر معرفة القراءة والكتابة. بل إن البعض يذهب إلى أن الطباعة هي التي جعلت نهضة الغرب نهضة دائمة. وعلى أية حال، فإن ما يهمنا في هذه الدراسة هو أن الطباعة هي التي خلقت الفرصة للعلاقة الحميمة بين الإنسان والكتاب. فقد وفرت الطباعة إمكانية إنتاج كتاب زهيد الثمن وبأعداد كبيرة بحيث يمكن للإنسان أن يشتري نسخة خاصة به، يقرأها وحده، وقتما يريد وحيثما يشاء، دون أن يضطر إلى مشاركة الآخرين في المكان والزمان «للاستماع» إلى الكتاب. ومع اختراع «النظارة» عند بداية القرن الرابع عشر، زاد معدل «عمر القراءة» عند الإنسان: وبالتالي زادت عوامل الألفة والخصوصية في العلاقة بين الإنسان والكتاب. ورويدًا رويدًا تخلى الناس عن عاداتهم في القراءة بصوت عال (على الرغم من أن بعض الطلاب لا يزالون يصرون على هذه القراءة المسموعة). ومع مرور الزمن صار من عادات القراءة أن يجري القارئ بعينيه فوق سطور الكتاب دونما صوت، وهو الأمر الذي يدل مرة أخرى على خصوصية العلاقة بين الإنسان والكتاب.

ولأن المعرفة ضرورة اجتماعية لكل الجماعات البشرية، فإن الكتاب صار من أهم الوسائل التي يستخدمها الإنسان لتلبية هذه الحاجة الاجتماعية الضرورية. وعلى الرغم من وجود الوسائل الشفوية والسمعية والبصرية، قبل ظهور الكتاب وبعده، فإن الكتاب انفرد بالعلاقة الحميمة مع الإنسان. ولعل ما يلفت النظر حقًا في هذا الموضوع أن الكتاب يتربع على قمة الوسائل المعرفية في المجتمعات التي ابتكرت الوسائل السمعية والبصرية الحديثة (الراديو، والسينما، والتليفزيون، والكمبيوتر ..وغيرها)، على حين تتعرض العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي لتراجع مزعج ومخيف!!

ويثور سؤال يطرح نفسه بإلحاح : لماذا؟

هذا السؤال طرح نفسه في العقود الأخيرة بأشكال متعددة ولكنها تصب جميعًا فيما اصطلح على تسميته «أزمة الكتاب» في العالم العربي. وقد أريق الكثير من الحبر وسودت عشرات الصفحات، وعقدت ندوات ومؤتمرات تحاول الإجابة عن الأسئلة المتعلقة بما اتفق على أنه «أزمة الكتاب». وعلى الرغم من أن هذه المحاولات قد أثمرت بشكل طيب، فإن جانبًا مهمًا قد غاب عن المناقشات والمساجلات؛ وهو الجانب الذي يبحث «أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي» بدلاً من أزمة الكتاب.

والمسألة، في تقديري، ليست مجرد تغيير في عنوان موضوع مهم، بقدر ما هي محاولة للنظر إلى الموضوع من زاوية جديدة. كما أن هذه الدراسة ليست نفيًا، أو رفضًا، لاجتهادات سبقت في الموضوع؛ وإنما هي محاولة إضافة تعزز الاجتهادات السابقة، ودعوة إلى مناقشة أوسع وأكثر رحابة لموضوع يمثل نقطة ارتكاز حيوية في بناء مستقبل أجمل نحلم به، ولكننا لا نبذل من الجهد ما يكفي لبنائه.

وكثيرًا ما تطرقت المناقشات حول «أزمة الكتاب» في العالم العربي إلى الجوانب الاقتصادية والإدارية والمالية والسياسية والأمنية التي تعوق ازدهار صناعة الكتاب في العالم العربي. وهذه كلها أمور حقيقية لا شك في أنها تقف حجر عثرة أمام قيام علاقة جيدة بين الإنسان والكتاب؛ إذ إن بعض الدول العربية تعامل الكتاب على أنه عدو محتمل ولا يمكن السماح بدخوله إلا بعد أن يثبت أنه حسن السير والسلوك، وبعض دول العرب تعامله معاملة الضيف الثقيل، على حين أن البعض الآخر يتعامل مع الكتاب باعتباره سلعة استهلاكية يمكن أن تكسب الدولة من فرض الرسوم والجمارك عليها في كل مرحلة من مراحل تصنيعها.

هذه الأسباب، إلى جانب التأثيرات السياسية الناجمة عن حالات المد والجزر في علاقات الدول العربية ببعضها، من أهم الأسباب التي أدت إلى عدم ازدهار صناعة الكتاب في العالم العربي حقًا، كما أنها تركت تأثيراتها السلبية على العلاقة بين الإنسان والكتاب. بيد أن هناك بعدًا آخر يمكن أن يساعدنا على تفسير «أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي». فعلى الرغم من كثرة عدد السكان النسبي، وعلى الرغم من أن نصفهم على أقل تقدير قد أفلتوا من براثن الأمية، فإن أوسع الكتب انتشارًا في العالم العربي لا تطبع منه سوى عدة آلاف قليلة لا تتناسب مع عدد الملايين القارئة في البلاد العربية. وإذا ما استثنينا الكتب الدراسية، فإن توزيع الكتاب في العالم العربي يعاني أزمة حقيقية على الرغم من كثرة عدد المعارض وأسواق الكتب.

ولأن هذه الدراسة لا تحاول رصد «أزمة الكتاب» وتفسير أسبابها فإن الإشارة السريعة إلى بعض جوانب الأزمة وأسبابها يمكن أن تكون كافية في هذا المجال. ولكن هذه الدراسة تحاول فهم العلاقة بين الإنسان والكتاب من خلال القراءة الاجتماعية والنفسية لهذه العلاقة.

ولأن العلاقة بين الإنسان والكتاب علاقة متعددة الجوانب من ناحية، ولأنها تعبير عن تراث المجتمع وثقافته ونظامه القيمي والأخلاقي من ناحية ثانية، ولأن هذه العلاقة حصاد تفاعل تاريخي طويل بين الكلمة المكتوبة والفكر الإنساني من ناحية ثالثة، فإن بناء العلاقة بين الإنسان والكتاب يبدأ مع بداية تعلم الإنسان القراءة والكتابة. وهذه البداية هي التي يمكن أن تشكل علاقة الفرد بالكتاب طوال حياته. وتفسير ذلك أن الإنسان الفرد يبدأ بناء علاقاته بالعالم، وتشكيل رؤيته لمفردات هذا العالم، من خلال بيئته والثقافة السائدة بها ومنظومة القيم والمثل العليا السائدة. وهذا كله هو الذي يحفز الإنسان الفرد على بناء علاقات إيجابية في اتجاه ما، ونبذ علاقات أخرى في اتجاه غيره. وينسحب هذا الكلام، بطبيعة الحال، على الإنسان في العالم العربي.

فما هي حكاية العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي؟ وأين وصلت؟

تبدو علاقة الإنسان العربي بالكتاب المطبوع متأخرة زمنيًا عن علاقة الإنسان الأوروبي بالكتاب، على الرغم من أن علاقة العرب بالكتابة قديمة قدم الكتابة نفسها. ومع أن العرب، أو بعضًا منهم على الأقل، عرفوا إنجازات تكنولوجية أقل في أهميتها من الطباعة بعد استخدامها في أوروبا بسنوات قليلة (مثل القطار والسيارة والترام والسينما .. وغيرها) فإن معرفتهم بالطباعة تأخرت عن أوروبا بحوالي ثلاثة قرون. وربما يمكن تفسير ذلك في ضوء الظروف التاريخية الموضوعية التي حكمت العالم العربي آنذاك. ومع هذا، وربما بسبب هذا، حاول العرب في مصر وبلاد الشام تعويض ما فاتهم في مجال الكتاب المطبوع، وتمكنوا في وقت قصير من بناء علاقة راسخة الأركان بين الإنسان العربي والكتاب؛ اعتمادا على تراثهم الوفير من المخطوطات التي شملت كل نواحي المعرفة الإنسانية في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وعلى مفاهيم وقيم العلم الكامنة في مجتمعاتهم برغم تخلفهم السياسي وتدهورهم الاقتصادي. وتجلت هذه الحقائق في الآلاف من عناوين الكتب التي طبعت في العالم العربي، أو خارجه، تحمل جوانب من التراث العربي، أو ترجمات للفكر الأوروبي الحديث، أو مؤلفات تتناول الجوانب المتنوعة والمثيرة للحياة العربية في ذلك الحين.

وعلى الرغم من محنة الاحتلال الأوروبي لبلدان العالم العربي، فإن الاهتمام بالعلم والتعليم اتخذ شكلا إيجابيا متصاعدا بلغ ذروته في قيام الجامعة المصرية بجهود أهلية وتبرعات فردية. وكان قيام الجامعة المصرية عملا من أعمال المقاومة الوطنية ضد الاحتلال بكل المعايير. وقد لعبت الجامعة دورا مهمًا في توطيد العلاقة بين الإنسان والكتاب في العالم العربي لاسيما بعد أن توالى بناء الجامعات في شتى أرجاء المنطقة العربية.

ونشأت أجيال عديدة من أبناء العرب على احترام الكتاب وعلى تقدير قيمة العلاقة الحميمية بين الإنسان والكتاب. وحين بدأ التعليم يأخذ شكله الحديث في مرحلة ما قبل الجامعة كان الكتاب عماد هذا التعليم الحديث بطبيعة الحال، وكانت العلاقة بين الإنسان والكتاب تأخذ شكلا جيدا وإيجابيا بسبب نجاح المدرسة في بناء علاقة إيجابية ومحترمة بين الإنسان والكتاب: فمن حيث الشكل كان الكتاب مقبولا بمقاييس ذلك الزمان وحسب الإمكانيات الفنية للطباعة آنذاك، ومن حيث المضمون كانت

الكتب تحتوى على مادة مقبولة وجميلة فى موضوعات القراءة والأدب والعلوم فى سنوات التعليم الأولى، وكانت وراءها فلسفة لبناء معرفى متكامل من خلال الكتاب؛ إذ لم يكن الكتاب وسيلة تعليمية فحسب؛ وإنما كان وسيلة تثقيف وترفيه أيضا. كذلك كانت هناك فرصة طيبة للاستمتاع بالكتاب خارج نطاق الدروس، سواء كان الكتاب يضم بين صفحاته رواية، أو مجموعة قصصية، أو معارف عامة. فقد كانت المدارس توفر نظاما تعليميا متكاملا يتيح للتلاميذ وقت الفراغ المناسب لممارسة هواياتهم المختلفة.

وخارج أسوار المدرسة والجامعة كانت البيئة الثقافية حافزة ومشجعة، إذ إن دور النشر الكثيرة تنافست فى تقديم الكتاب زهيد الثمن جيد المضمون حسن الإخراج. وخلال فترة الستينيات من القرن العشرين بلغت العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى ذروتها؛ وتنافست العواصم العربية على النشر والقراءة. وربما كان المد القومى الحماسى والمشروع القومى الذى تعلقت به آمال العرب من أسباب رواج صناعة الكتاب وازدهار العلاقة بين الإنسان والكتاب.

ثم جاءت فترة السبعينيات من القرن الماضى بأعاصيرها السياسية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية. وجرى ما جرى... وتدفقت فى نهر الحياة العربية مياه كثيرة وعنيفة غيرت البيئة الثقافية والتعليمية فى معظم بلاد العالم العربى. وتبدلت المفاهيم والقيم والمثل العليا، وابتليت المنطقة العربية بحالة من السيولة الفكرية والثقافية. وخضع نظام التعليم لهزات عنيفة وتجارب عشوائية. وكان طبيعيا أن تتأثر العلاقة بين الإنسان والكتاب بهذه الظروف التاريخية السلبية، لكن أخطر ما حدث فى هذه السنوات الرمادية أن الإنسان العربى، لا سيما فى مصر، قد وقع فريسة لنظام تعليمى يجعل من الكتاب عدوا، أو على الأقل رفيقا إجباريا ثقيلا.. كيف؟

مع تغير منظومة القيم الاجتماعية بسبب عواصف السبعينيات وأعاصيرها، سادت المجتمع المفاهيم الاستهلاكية بكل تداعياتها القبيحة، وصار التباهى والتظاهر والتفاخر من علامات هذا المرض الاجتماعى الجديد. وتصاعد شعور بالدونية إزاء «الآخر» زاد من وطأته أن الشرائح التى استطاعت اقتناص الثروات فى سنوات الانفتاح الاقتصادى كانت تفتقر إلى الوعى والفهم وظنت أن التباهى بالثروة يمكن أن يغنى عن الاغتناء بالعلم والمعرفة. ونتجت عن ذلك أمور كثيرة يهمنا منها ما حدث فى مجال التعليم والثقافة.

ظهرت المدارس الخاصة لتقوم بدور مهم فى خدمة أبناء الشرائح الاجتماعية الجديدة مع تغير النظرة الاجتماعية للمدرسة الخاصة. وظهرت نزعة التعليم باللغات الأجنبية للصغار لتبرير الرسوم والمصروفات الباهظة التى يدفعها الآباء وهم فخورون بأن أبناءهم ليسوا ضمن تلاميذ المدارس «الحكومية» التى لا يدخلها سوى الغلابة. وزادت نغمة التباهى والتفاخر على حساب التعليم نفسه. ولأن المدرسة الخاصة «مشروع تجارى» بمفاهيم زمن الانفتاح. فلابد من زيادة نسبة الربح بفصول الحضانة التى تعلم الأطفال كلمات أجنبية يفرح بها الآباء والأمهات فى تطلعاتهم الطبقية.

فى هذه السنة الباكرة «يصطدم» الطفل بالكتاب. فعليه أن يقرأ ويفهم ويستذكر، فإذا ما وصل إلى سن السادسة كان جاهزا لرحلة عذاب وعداء مع الكتاب. فالتلميذ يذهب إلى مدرسته حاملا حقيبة ثقيلة ينوء بها كاهله الصغير، وداخلها عدة كتب عليه أن يحملها فى رحلتى الذهاب والإياب. فإذا وصل المدرسة وجد نفسه مسئولا عن محتوى الكتاب، ومطالبا بالواجبات الثقيلة وإلا تعرض للمهانة، وعندما يرجع إلى المنزل يطارده الكتاب بمحتواه وبالواجبات التى يلاحقه الأب والأم بضرورة إنجازها. وفى ظنى أن هذه المرحلة هى التى أساءت إلى العلاقة بين الإنسان والكتاب، فقد جسد الكتاب كل عوامل القهر والإحباط لدى الطفل المحروم من طفولته فى ظل نظام تعليمى يفتقر إلى أية فلسفة أو هدف واضح ويقوم على تسديد الخانات.

ففى هذه المرحلة المهمة من عمر الإنسان تتشكل علاقاته بالكون وبالأشياء من خلال مقاييسه الخاصة، وتبدأ علاقات المحبة والكراهية والضرورة بالتجارب التى يخوضها الطفل فى سنى عمره الأولى. وإذا تحول الكتاب إلى رمز للمعاناة الجسدية والنفسية بسبب تهافت العملية التعليمية، كانت العلاقة بين الإنسان والكتاب هى الضحية الأولى.

وعندما يخطو الإنسان خطوات أبعد فى طريق العمر، يكتشف أن الكتاب فى المرحلة الإعدادية والثانوية ليس سوى عقبة يجب أن يجتازها، فمضمون الكتاب ثقيل ومنفر، ولابد من الكتب الخارجية التى تقدم «البلابيع» الدراسية، وتقدم التدريب على تخطى الحواجز والعقبات لأن الامتحان فى آخر العام يتبنى فكرة الحفظ والاسترجاع. وهكذا صار الكتاب، مرة أخرى، ضحية للعبة قفز الحواجز وجمع الدرجات فى نظام تعليمى لا يقوم على البناء المعرفى. ثم تطور الأمر نحو ما هو أسوأ، فقد بدأ المدرسون - ضمن نشاط الدروس الخصوصية - يقومون بعمل الملخصات وملخصات الملخصات. ومن ثم، زادت العلاقة بين الإنسان والكتاب تدهورا وتنافرا. فإذا أضفنا إلى ذلك كله ما تخلقه «حالة الثانوية العامة» - وهى حالة مرضية على أية حال - فى مصر من سباق محموم على جمع الدرجات من خلال الدروس الخصوصية والملخصات، أدركنا أن الكتاب وقع ضحية تحت الأقدام المهرولة سعيا وراء الحصول على المجموع.

ومن الطبيعى أن الطالب الذى يطحنه هذا السباق لن يجد الوقت الكافى لكى يقرأ خارج «المقررات» الدراسية. لاسيما أن الكتب التى فرضت عليه تفتقر إلى جاذبية المضمون والشكل.

فإذا دخل الطالب الجامعة كان قد وصل إلى سن يصعب فيها إعادة تشكيل علاقاته الوجدانية والعاطفية والعقلية. فنجد بعض طلبة الكليات لا يجدون الوقت للقراءة ولا يحاولون أن يقرءوا لأنهم لم يعرفوا هذه «العادة» منذ الصغر، كما أن فكرة «الكتاب المقرر» قد سادت فى أوساط التعليم الجامعى بحيث نجد هناك نوعا من الإجبار على عدم البحث، بل إن المجالس الجامعية تجتمع سنويا لبحث الجوانب المختلفة تكريسا لفكرة «الكتاب المقرر» على الرغم من كل آثارها السلبية على العلاقة بين الإنسان والكتاب. وتحولت بعض كليات الجامعات إلى أسواق من نوع غريب لبيع الكتب. فبسبب تدنى رواتب أعضاء هيئة التدريس عامة، لجأ البعض إلى فرض كتابه على الطلاب لتعويض النقص فى دخله بطريقة يظن أنها مشروعة. وبدأت سياسة فرض الكتاب على الطالب بأساليب متنوعة، وعلى الجانب الآخر بدأت محاولات الهروب من الكتاب بأشكال مختلفة. واتخذ الأمر شكل الحرب المضحكة المبكية... ومرة أخرى كانت العلاقة بين الإنسان والكتاب هى الضحية. فقد صار الكتاب سلعة إجبارية مفروضة على «زبائن» لا يريدونها لأسباب اقتصادية ونفسية.

ولعل هذا يفسر لنا جانبا من الأسباب التى جعلت قسما كبيرا من الشباب يخاصم الكتاب ويقبل على الوسائل السمعية والبصرية الأخرى باعتبارها مصادر الترفيه والتعليم بعد الخروج من الجامعة. وربما تكشف الدراسات التى ينبغى إجراؤها على سوق الكتاب أن نسبة من يشترون الكتب من الشباب أقل كثيرا مما ينبغى. وتوضح الملاحظات الأولية أن معظم الذين يشترون الكتب من الرجال فوق سن الأربعين.

إن جانبا كبيرا من جوانب «أزمة الكتاب» فى العالم العربى يرجع، فى تصورى إلى تدهور العلاقة بين الإنسان والكتاب. وعلى الرغم من تسليمنا بأن الجوانب الاقتصادية والإدارية والسياسية تلعب دورها فى هذه الأزمة، فإن انحسار التقدير الاجتماعى لقيمة الكتاب، رفيقا وصديقا نافعا ربما يفسر لنا الأسباب الرئيسية وراء هذه الأزمة. فالنظام التعليمى يتطلب إصلاحا جذريا، والبيئة الثقافية تستوجب إعادة النظر وإعادة البناء، ونظام القيم والمثل العليا يحتاج إلى زرع قيمة المعرفة فى نفوس الناس منذ خطواتهم الأولى فى الحياة. وفى هذا السياق يجب أن نعترف أن هناك جهودا كبيرة تبذل لكى تعود عادة القراءة وصحبة الكتاب، ولكن هذه الجهود الحميدة تحاول إصلاح أعراض الأزمة دون التنبه إلى جذورها. وبعبارة أخرى، فإن الجهود المبذولة لنشر القراءة وخلق علاقة جيدة بين الإنسان والكتاب توجه إلى الأطفال والشباب الخاضعين لنظام تعليمى (من الابتدائى إلى الجامعة) يجعل الكتاب عبئا ورفيقا ثقيل الوطأة.

فالكتاب المدرسى، كما أسلفنا القول، غير مريح فى شكله وفى مضمونه على السواء. والمكتبات المدرسية لا تلقى العناية الكافية وربما لا تلقى عناية على الإطلاق، والقراءة الحرة تكاد تكون نوعا من المحظورات أو المحرمات بسبب سباق المجموع وحشو المعلومات فى الكتب المدرسية. وعلى الرغم من جهود بعض الجهات فإن الأمر يحتاج إلى خطة قومية لكى يعود الكتاب إلى عرشه باعتباره من أهم مصادر المعرفة والتثقيف والترفيه. وفى هذا كله ينبغى أن ينصب الاهتمام على الذين يبدأون الطريق من أوله، أى من الأطفال.

وهناك من المؤشرات الإيجابية ما يدعونا إلى التفاؤل بهذا الصدد، فالعلم قيمة هامة من قيم المجتمعات العربية عامة. والكثير من العائلات يمكن أن تضحى فى سبيل تعليم أبنائها بضروريات حياتها. كما أن المخزون الحضارى والثقافى الذى أفادت منه الأجيال العربية الأكبر سنا يصلح قاعدة ارتكاز مهمة ينطلق منها الإصلاح الثقافى والعلمى. كما أن مؤسسات حكومية مهمة فى بعض الدول العربية (مثل مصر والكويت، وعُمان... وغيرها) تنفق بسخاء على سلاسل الكتب التى تحمل المعرفة والعلم والثقافة بأثمان زهيدة إلى الجمهور العريض من القراء. فضلا عن أن التيار الطارئ الذى أفسد حياتنا الثقافية قد أوشك على الانحسار بدليل أن الشكوى منه أصبحت عامة وعلنية، وبدليل أن عددا من «نجوم» هذا التيار الفاسد قد هوى أو خبا بريقه. ومع مؤشرات مفرحة فى الموسيقى والغناء والمسرح والشعر هنا وهناك تبدو بشائر أفق جديد لبيئة ثقافية يمكن أن تزدهر (انظر إلى احتفاء الناس بالمطبوعات الجادة التى تنشر العلم والمعرفة هنا وهناك).

إن الخوف الحقيقى من أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب لا يكمن فى الحاضر، فمازالت الأجيال التى نشأت وتربت على العلاقة الحميمية بين الإنسان والكتاب قادرة على القراءة وقادرة على صون العلاقة مع الكتاب. ولكن الخوف الحقيقى على المستقبل حين يخرج إلى الحياة ملايين الشباب الذين فسدت العلاقة بينهم وبين الكتاب للأسباب التى طرحناها وغيرها.

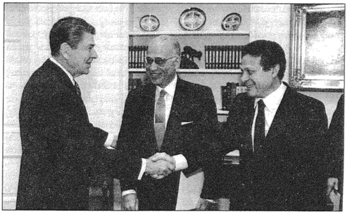
فهل فات أوان الإصلاح؟ لا أظن. ■

خلال فترة الستينيات من القرن العشرين بلغت العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى ذروتها؛ وتنافست العواصم العربية على النشر والقراءة. وربما كان المد القومى الحماسى والمشروع القومى الذى تعلقت به آمال العرب من أسباب رواج صناعة الكتاب وازدهار العلاقة بين الإنسان والكتاب





الرئيس الأمريكى السابق "بوش" يتحدث مع د. "الزيات" ومعهم السفير "الريدى"



الكاتب مع الرئيس الأسبق "ريجان" ود. "عصمت عبد المجيد"

ذكريات دبلوماسية

عبدالرءوف الريدى

إلى الضوء، وبعد زمن طال بمقاييس الكثيرين، عادت الجامعة العربية أو على الأقل عاد الاسم إلى مانشتات الأخبار. الثابت أن جغرافية المنطقة تعاد صياغتها بحدود ترسمها آليات. ظاهرة وغير ذلك. لمعايير عالم «كوكبى» جديد.

يتولى قيادة المركبة. أو بالأحرى مسؤولية أمانتها. فى وقت تقرر فيه تفعيل دور الجامعة وتثبيت دورية لانعقاد قمتها، دبلوماسى مخضرم هو د. عصمت عبدالمجيد الذى له فى ميدان الدبلوماسية، أكثر من نصف قرن حفلت بأحداث ومشاهد بعضها على المسرح وبعضها فى الكواليس.

ولأن أكثر الذكريات ثراء، ذكريات الدبلوماسيين. يسترجع سفير مصر السابق فى واشنطن ذكرياته مع وعن عصمت عبدالمجيد.

المحرر

١

عبر رحلة العمر فى الخارجية المصرية تلاقت الطرق بين الدكتور عصمت عبدالمجيد الأمين العام للجامعة العربية وبينى فى ظروف السلام وفى ظروف الحرب.. فى أوقات الأزمات.. وفى أوقات الصفاء.. وبعد العودة إلى أرض الوطن فإننى ألتقى به من حين لآخر..

ينتمى الدكتور عبدالمجيد إلى جيل بدأ رحلته مع الدبلوماسية فى الخارجية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة وبالتحديد عام ١٩٤٥، بينما بدأ جيلنا رحلته بعد ذلك بعشرة أعوام.

التقيت به لأول مرة فى يوم من أيام شهر مايو ١٩٥٥ بمبنى وزارة الخارجية الذى يقع فى الطريق إلى كوبرى قصر النيل فى مواجهة جامعة الدول العربية. فى هذا اليوم لم يكن قد مضى على التحاقى بوزارة الخارجية أكثر من أسابيع قلائل، وكان النظام يقضى بأن يتدرب الملحقون الجدد فى إدارات الوزارة المختلفة، وذهبت إلى الإدارة السياسية التى كان يديرها المرحوم السفير محمد عوض القونى فرأى أن أتدرب فى قسم بريطانيا وكان يديره سكرتير أول دكتور عصمت عبدالمجيد العائد من العمل فى سفارة مصر فى لندن، هناك كان لقائى الأول معه، وكان لقاء اتسم بالود الذى أصبح سمة العلاقة بيننا عبر السنين.

كانت فترة التدريب فى كل إدارة لا تتجاوز أسبوعا.. وما أن انتهت فترة التدريب بديوان الوزارة، حتى وجدت نفسى منقولا إلى بعثة مصر لدى الأمم المتحدة بنيويورك لأشغل هناك وظيفة ملحق دبلوماسى وهى أولى درجات السلك الدبلوماسى. وصلت إلى نيويورك مع زميلى يوسف شرارة (سفير مصر فى لندن فى منتصف الثمانينيات) يوم ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥، وتصادف أن كان هذا هو يوم الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية التى كانت واحدة من سلسلة الأحداث المتلاحقة فى عام ١٩٥٥، الذى بدأت مصر فيه ممارسة سياسة خارجية نابعة من دورها الإقليمى فى المنطقة، أما فيما قبل ذلك فقد كانت كل طاقات مصر بالنسبة للخارج مركزة على القضية الوطنية والنزاع مع انجلترا والكفاح من أجل إنهاء الاحتلال البريطانى للأراضى المصرية. وما أن جاءت حكومة الثورة وتوصلت إلى اتفاق الجلاء عام ٥٤ حتى بدأت فى انتهاج سياسة إقليمية نشطة والتى توالت أحداثها بدءاً من عام ١٩٥٥.

جاءت بداية هذه الأحداث فى الغارة الإسرائيلية التى شنتها إسرائيل على غزة فى ٢٨ فبراير مستهدفة بذلك إحراج مركز عبدالناصر الذى كان نجمه قد بدأ يسطع.. وقد ترتب على هذا الهجوم أن حاول عبدالناصر الحصول على السلاح من أى من الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة حتى تكون لديه القدرة على ردع إسرائيل عن تكرار مثل هذه العملية، ولكن محاولته باءت بالفشل مما اضطره بعد ذلك إلى عقد صفقة الأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا وهو ما كان له بدوره تداعيات وانعكاسات كبيرة على علاقاته مع الولايات المتحدة بعد ذلك.

سرعان ما تلاحقت التطورات بعد ذلك فى عام ١٩٥٥ بدءا بالحملة المصرية ضد حلف بغداد، ثم ظهور عبدالناصر كشخصية دولية فى مؤتمر باندونج فى أبريل من نفس العام الذى كان مقدمه لظهوره بعد ذلك كواحد من قادة حركة عدم الانحياز فى العالم.

فى عام ١٩٥٥ تأرجحت سياسة عبدالناصر بين خيارين، كان الخيار الأول هو أن يعمل على إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية وأن يتعاون فى ذلك مع الدول الغربية وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة، وكان هذا الخيار يتطلب منه القبول بوجود إسرائيل والصلح معها. أما الخيار الثانى فكان يقضى بأن يعمل على تعبئة الرأى العام العربى وبناء قوة عسكرية تردع إسرائيل وتساعد يوما ما فى حل القضية من مركز قوة وقد سارت الأحداث فى طريق الخيار الثانى.

وعبر رحلة العمر مع الخارجية المصرية فإن هناك الكثير من الذكريات التى ترتبط مع دكتور عصمت تأتى إلى الذهن عدة مشاهد أختار منها ثلاثة من محطات تاريخية مختلفة.

٢

وصلت إلى نيويورك أثناء انعقاد الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة (الدورة التى ستعقد فى سبتمبر ٢٠٠٠ هى الدورة الخامسة والخمسون) حيث علمت أن الدكتور خيرت سعيد نائب وزير الخارجية الذى كان يعمل مستشارا بمجلس الدولة من قبل سيصل بعد أيام ليتولى رئاسة وفد مصر بعد عودة وزير الخارجية الدكتور محمود فوزى، وأن نائب الوزير الجديد قد اختار دكتور عصمت عبدالمجيد مديرا لمكتبه سيصحبه إلى نيويورك.

عندما وصل نائب الوزير الجديد وجد رئيس البعثة زميلا قديما له فى مجلس الدولة هو السفير عمر لطفى الذى أبلغه بأن جمعية مراسلى الأمم المتحدة تدعوه للغداء والتحدث أمامها عن السياسة الخارجية المصرية.. فما كان منه إلا أن قبل الدعوة.. التى حضرها أيضا أعضاء البعثة والوفد القادم لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكانت تلك أول مناسبة من نوعها أحضرها، وأرى كيف يتعرض المتحدث لسيل من الأسئلة الصحفية التى تحاول أن تستدرجه إلى مزالق الخطر ويكون هدفا لكل الأسئلة الصعبة والمحرجة.. ودائما ما يستعد الساسة الأمريكان لهذه اللقاءات بعمل بروفات للأسئلة المتوقعة وما ينبغى أن تكون عليه الإجابات.

عصمت عبد المجيد واحد من الدبلوماسيين المصريين الذين أتاح لهم الحظ أن يعملوا مع الدكتور محمود فوزى الذى ينظر إليه باعتباره أبا للدبلوماسية المصرية، وكان يطلق عليهم «أولاد فوزى». وقد عملت هذه المجموعة مع الدكتور فوزى فى مواقع مختلفة

انعقد اللقاء حول موائد الغداء فى أحد المطاعم الكبيرة القريبة من مبنى الأمم المتحدة وما أن انتهينا من تناول الطبق الرئيسى حتى بدأ الحوار وجاء سؤال وهو: «لماذا ترفضون التفاوض مع إسرائيل حول ما بينكم وبينها من خلاف؟!» وجاءت إجابة نائب الوزير بأن ذلك يرجع إلى رفض إسرائيل تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين؟، فكان السؤال التالى هو: «هل أنتم مستعدون للتفاوض معها إذا قبلت إسرائيل إعادة اللاجئين؟» وجاءت إجابته بأنه فى هذه الحالة سيكون من الممكن التفاوض معها.. لم يكن فى هذه الإجابة بمنطق هذه الأيام أى خطأ، إلا أن الجو فى الخمسينيات كان مغايرا تماما لأجواء هذه الأيام... فالتفاوض مع إسرائيل كان محظورا كبيرا.

خرجنا من الغداء وبينما كنت أحاول أن أستوقف «تاكسى» للعودة إلى البعثة وجدت سيارة السفير عمر لطفى وهى خارجة من مبنى المنظمة الدولية، فتوقف بسيارته وأشار إلىّ بالركوب معه وكان يجلس بجانبه المرحوم خيرت سعيد وكان فى روح معنوية عالية، ويشعر أن أداءه فى الإجابة عن أسئلة الصحفيين كان أداء ممتازاً. إلا أننى عندما وصلت إلى البعثة التقيت بزميل قديم ووجدته يقول لى أن ما ذكره نائب الوزير لا يتفق مع الموقف المصرى التقليدى، لأن مصر لاتقبل التفاوض المباشر مع إسرائيل بأى حال من الأحوال، فهل هناك سياسة جديدة أم أن نائب الوزير قد خرج عن الخط؟.. ولم يمر وقت طويل حتى جاءت الإجابة عن هذا التساؤل... فبعد يوم أو يومين نشر الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير آخر ساعة (قبل أن يشغل منصب رئيس تحرير الأهرام) مقالا رئيسيا حول الموضوع وكتب ما يعنى أنه لو كان خيرت سعيد قال فعلا ما نسبته إليه وكالات الأنباء فإنه لا ينبغى أن يبقى فى منصبه لأن هذه الإجابة تخالف سياسة الدولة، أما إذا لم يكن قد قال ذلك فإن عليه أن يصدر تكذيبا لما نقلته وكالات الأنباء، وما أن أذيع هذا المقال حتى سرى فى البعثة أن الدكتور خيرت سعيد سيعود إلى القاهرة على الفور.. وعاد الدكتور خيرت بالفعل دون أن يكمل مهمته فى رئاسة وفد مصر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. عاد إلى القاهرة وإن لم يعد لوزارة الخارجية، ولم يكن خيرت سعيد قد بقى فى منصبه أكثر من عدة شهور بعد أن كان قد ترك السلك القضائى وكانت تلك الواقعة هى نهاية خدمته العامة، ودفع خيرت سعيد ثمنا غاليا لكى يعمل لعدة أشهر نائبا لوزير الخارجية بعد أن ترك عمله السابق الذى تألق فيه كمستشار فى مجلس الدولة، كما خسرت الخارجية أيضا شخصية كان يمكن أن تثرى عملها لأعوام كثيرة تالية.

٣

أما المشهد الثانى فكان بعد أن أصبح الدكتور عصمت مندوبا دائما لمصر فى الأمم المتحدة، وكان بطله المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية أثناء حرب أكتوبر والذى اختاره الرئيس السادات لهذا المنصب ليقوم بإعداد المسرح السياسى والإعلامى لحرب أكتوبر... فقام بهذه المهمة خير قيام إلى أن جاءت حرب أكتوبر وهو يرأس وفد مصر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة وكنت من فريق العمل الذى رافقه فى هذه المهمة إلى نيويورك.

التقى الدكتور الزيات مع هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة يوم ٥ أكتوبر، وكان دكتور عصمت يصاحبه فى هذا اللقاء كما صاحبه أيضا السفير أحمد توفيق خليل رئيس قسم رعاية المصالح المصرية بواشنطون آنذاك، ودار الحديث حول أزمة الشرق الأوسط كما كانت تدعى آنذاك.. الا أن كيسنجر الذى لم يتصور أن حربا كبيرة قد تنشب فى اليوم التالى، أبلغ وزير خارجية مصر أن الولايات المتحدة لا تعتزم أن تفعل شيئا لحل هذه المشكلة فى الوقت «الراهن»، حيث إنه شخصيا مازال مشغولا بقضية فيتنام وأنه عندما ينتهى من ملف فيتنام فإنه سينتقل إلى ملف الشرق الأوسط. إلا أن هذا الموقف المتسم بالغرور من جانب كيسنجر انقلب رأسا على عقب فى أقل من أربع وعشرين ساعة عندما أيقظت جولدا مائير كيسنجر من نومه فى فندق وولدورف استوريا لتبلغه بأن المصريين على وشك الهجوم على جبهة القنال، فاتصل كيسنجر بدوره بالدكتور الزيات الذى كان يقيم فى نفس الفندق.. وأترك الدكتور الزيات هنا ليحكى قصة هذا الحديث.. يقول الدكتور الزيات:

«فى الساعة السابعة والدقيقة الثانية عشرة من صباح السبت السادس من أكتوبر (العاشر من رمضان) دق جرس التليفون فى غرفتى وكان المتكلم هو وزير خارجية الولايات المتحدة الدكتور هنرى كيسنجر، يتحدث من غرفة نومه فى الطابق الخامس والثلاثين من نفس الفندق الذى كنت أقيم فيه. (فندق والدورف استوريا بشارع بارك أفينيو).

قال إنه اضطر لإزعاجى فى هذه الساعة المبكرة لأنه تلقى رسالة من إسرائيل بأن مصر وسوريا على وشك القيام بهجوم عليها، وأضاف أنه اختصارا للوقت وحرصا على الدقة فإنه سيقرأ علىّ الرسالة التى تلقاها من الحكومة الإسرائيلية.

وقرأ الدكتور كيسنجر نص الرسالة بسرعة وعندما استعدته أعاد القراءة ثم طلب الاتصال بالقاهرة لإبلاغها بحديثه هذا معى ثم إبلاغه بما تطلب القاهرة إبلاغه إليه، وقال إن الخطأ الذى يمكن أن يقع فيه أحد الأطراف فى تصوره لنوايا الطرف الآخر يمكن أن تنتج عنه نتائج خطيرة غير مقصودة وغير منظورة، وأن عنصر الوقت لذلك شديد الأهمية، ونظرا لما يعلمه من صعوبة إتمام الاتصال التليفونى بالقاهرة فإنه يضع تحت تصرفى شبكة الاتصالات الخاصة بالبيت الأبيض وواشنطون وأعطانى اسم الضابط المشرف على هذه الشبكة ورقم تليفونه فى البيت الأبيض وقال إنه يرجو أن يعرف نتيجة اتصالى بالقاهرة، وأنه ينتظر ردى عليه فى الجناح المخصص له فى الفندق.

طلبت الاتصال برئيس الجمهورية فى القاهرة عن طريق شبكة اتصال البيت الأبيض، ثم طلبت السفير عصمت عبد المجيد فى منزله ورجوته الحضور إلى الفندق، كما طلبت منه دعوة جميع اعضاء البعثة الدائمة وأعضاء وفدنا فى الجمعية العامة للاجتماع بدار البعثة فى أسرع وقت ممكن، وسألت صلاح زكى (سكرتير الدكتور الزيات) الذى أسرع إلى غرفتى تلبية لطلبى عن إذاعات الليلة الماضية وهذا الصباح، فذكر أنه ليس فيها أى أخبار تهمنا غير أن وكالة الأنباء الفرنسية قد أذاعت فى الليلة الماضية خبرا لمراسلها فى تل أبيب، قال فيه إنه قد علم من السلطات هناك «أن القوات الإسرائيلية تراقب بيقظة بالغة النشاط العسكرى المصرى على الضفة الغربية لقنال السويس، وأن الإسرائيليين قد اتخذوا الإجراءات اللازمة توقعا لأى عملية عسكرية مصرية.

طلبت استمرار تسجيل كل الإذاعات وتخصيص من يستمع إلى راديو القاهرة باستمرار. وفى الساعة الثامنة وعشر دقائق بتوقيت نيويورك قطع رنين التليفون حديثى مع صلاح، وقيل لى إن رئيس الجمهورية على التليفون.

ولكن المتحدث - فى القاهرة - لم يكن الرئيس، بل كان السيد حافظ إسماعيل (مستشار الأمن القومى)، وقد نقلت إليه حديث الدكتور هنرى كيسنجر معى منذ ساعة وأجاب بأن اتصالى بالسيد الرئيس غير ممكن فإن إسرائيل قد بدأت منذ ربع ساعة هجوما تصده الآن القوات المصرية والسورية، والرئيس موجود حاليا فى غرفة العمليات وإننى سأتلقى قريبا بيانا رسميا «عن وقائع هذا اليوم» وكانت الساعة فى القاهرة عندما انتهى حديثى مع حافظ إسماعيل قد قاربت الثانية والربع بعد الظهر بتوقيت القاهرة.

وبمجرد انتهائى من الحديث طلبت الدكتور كيسنجر فى الجناح المخصص له فى نفس الفندق وكانت الساعة الثامنة والربع صباحا بتوقيت نيويورك وأبلغته بمضمون ما أبلغنى به من القاهرة مستشار الأمن القومى، فقال: إن أشد ما يخشاه أن يحدث سوء تقدير من أى من الجانبين الإسرائيلى والعربى أو من كليهما لنوايا وتحركات الطرف الآخر ورجانى ألا أغادر الفندق حتى يعود للاتصال بى بعد أن يعرف من السلطات الأمريكية فى واشنطون، ومن القائم بأعمال سفارة إسرائيل فيها حقيقة الموقف فى منطقتنا فى الوقت الحاضر، وقال إنه سيتصل بالقائم بالأعمال الإسرائيلى لأنه مقرب من رئيسة الوزراء وطرق اتصالاته بها فورية، فإنه لا يبالى فى مثل هذه الأحوال بقواعد البروتوكول التى ربما كانت توجب عليه أن يتصل بوزير الخارجية أبا إيبان الموجود حاليا فى نيويورك.

ولم أكد أضع سماعة التليفون حتى دق تليفون آخر وأبلغنى المتحدث من دار بعثتنا أن القاهرة تذيع البلاغ الأول عن عمليات اليوم.

كان نص البلاغ كما يلى «قام العدو فى الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا فى منطقة الزعفرانة والسخنة فى خليج السويس بواسطة تشكيلات من قواته الجوية، بينما كانت بعض زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربى من الخليج وتقوم قواتنا حاليا بالتصدى للقوات المغيرة».

وانفجرت محطات الإذاعة ومحطات التليفزيون فى نيويورك بالأخبار الواردة من إسرائيل ومن لبنان ومن سوريا ومن مصر، وصدر بلاغ ثان من القاهرة بعد عشر دقائق من إذاعة البلاغ الأول، ثم أوقفت محطات الإذاعة الأمريكية إذاعاتها وأعلنت أن الجيش المصرى قد نجح فى عبور قناة السويس وأن طلائعه تحارب الآن على أرض سيناء». (مذكرات لم تنشر للدكتور الزيات).

فى عام ١٩٥٥ تأرجحت سياسة عبد الناصر بين خيارين: الأول هو أن يعمل على إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية وأن يتعاون فى ذلك مع الدول الغربية. وعلى وجه الخصوص الولايات المتحدة وكان هذا الخيار يتطلب منه القبول بوجود إسرائيل والصلح معها، أما الخيار الثانى فكان يقضى بأن يعمل على تعبئة الرأى العام العربى وبناء قوة عسكرية تردع إسرائيل وتساعد يوما ما فى حل القضية من مركز قوة

٤

أما المشهد الذى أود أن أتحدث عنه هنا فهو يتصل بأجهزة الإعلام الأمريكية وقصتها مع الدكتور الزيات فى هذه الأيام التاريخية، فكما كان خيرت سعيد

ضحية لوسائل الإعلام الأمريكية التى أوقعته فى كمين «التفاوض مع إسرائيل» فقد كان الزيات أيضا ضحية للإعلام الأمريكى ،وكان ذلك بعد أن بدأت معركة أكتوبر بوقت قصير.. فقد ظهر الدكتور الزيات على برنامج تليفزيونى لا أذكر اسمه الآن.. سأله المذيع : «هل أنتم واثقون من النصر؟»... فأجاب الدكتور الزيات بما يعنى أننا لا نحارب لأننا واثقون من النصر ولكننا نحارب لأننا أصحاب حق.. أراد الزيات بهذا الرد أن يركز الانتباه على حقنا وتصميمنا على تحرير أرضنا مهما كانت الظروف. كان الهدف هو أن نرسخ فى أذهان المجتمع الدولى أننا أصحاب حق... ومن أجل ذلك طاف الزيات على دول العالم يشرح القضية ومدى ما بذلته مصر من جهد للتوصل إلى حل سلمى ويوضح مدى الصلف والغرور الإسرائيلى وذلك ليكسب تعاطف الدول وتأييدها لنا.. كان تصريح الزيات محل انتقاد فى داخل مصر، وأخذ عليه البعض أن رده يؤدى إلى إضعاف الجبهة الداخلية ويشكك فى قدرة قواتنا على النصر... والواقع أن ثمة إشكالية عندما تتحدث فى التليفزيون الأجنبى لأنك تخاطب كلا من الرأى العام الخارجى والداخلى وعليك أن تراعى حساسيات كل منهما فى نفس الوقت، وليس من السهل دائما التوفيق بين الاثنين، ومما يزيد من هذه الصعوبة أنه لا يكاد يوجد لديك وقت للتفكير المتانى واختيار الكلمات، فأنت على الهواء يسمعك القاصى والدانى.. وهنا تأتى أهمية الإعداد المسبق لمثل هذه الحوارات.. ولكن الزيات كان واثقا من نفسه فى مجال الإعلام... ولقد نجح نجاحا باهرا فى هذا المجال عندما عينه الرئيس عبدالناصر متحدثا رسميا بعد حرب ٦٧ عندما كان الرأى العام الدولى معبأ ضد مصر ومنحازا لإسرائيل... التى نجحت آنذاك فى تصوير مصر على أنها المعتدية وأن إسرائيل هى الضحية... وكانت المؤتمرات الصحفية للزيات هى بداية تصحيح الصورة.. وما أن انتهت حرب أكتوبر حتى انتهى دور الزيات كوزير للخارجية ولم يكن قد مضى عليه فى المنصب إلا عام.

٥

والواقع أننى عندما أعود بذاكرتى إلى هذه الأيام فإن شخص الزيات يظهر وكأنه بطل لمسرحية درامية إغريقية. لقد جاء الزيات إلى نيويورك قبل حرب أكتوبر بأيام وهو وزير للخارجية وغادرها يوم ٢٩ أكتوبر وقد فقد منصبه وأصبح المرحوم إسماعيل فهمى وزير السياحة هو وزير الخارجية الجديد.

وطوال شهر أكتوبر الذى دارت فيه الحرب فإن الزيات رغم أنه كان رسميا مازال وزيرا للخارجية إلا أن وزير الخارجية الفعلى كان إسماعيل فهمى، الذى ترك مكتبه كوزير للسياحة وانتقل إلى الخارجية بناء على تعليمات الرئيس السادات وأصبح يقود وزارة الخارجية فى فترة الحرب ويصدر التعليمات للسفراء بينما تحول الزيات من الناحية العملية إلى مجرد رئيس لوفد مصر لدى الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك.

ولا أعرف على قدر اليقين إلى أى حد كان الزيات نفسه مسئولا عن هذا الوضع. فمن غير المتصور أن يكون قد بقى فى نيويورك بعد بدء الحرب ما لم تكن لديه تعليمات بأن يفعل ذلك.. ولكننى لا أستبعد أن يكون هو نفسه قد أساء تقدير الموقف بحيث اعتبر أن وجوده فى نيويورك أهم من وجوده فى القاهرة فى وقت الحرب، وربما يكون قد تصور أن الأمم المتحدة ستكون هى ساحة العمل الدبلوماسى فى أثناء هذه الحرب مثلما كانت فى حربى ٥٦ ، ٦٧ . وربما لم يكن يتصور إلى أى حد كان الرئيس السادات يعتبر أن ساحة العمل الدبلوماسى فى هذه الحرب لن تكون الأمم المتحدة بل الولايات المتحدة.

ولقد تبين فيما بعد أن الرئيس السادات بعد ثمان وأربعين ساعة من بدء الحرب، فتح خط اتصال مباشر مع واشنطون ببرقيته المشهورة التى نشر نصها كل من الأستاذ محمد حسنين هيكل فى كتابه «اكتوبر السلاح والسياسة»، والسفير حافظ إسماعيل فى كتابه «أمن مصر القومى»، وتواصلت الاتصالات بين القاهرة وواشنطون، إلا أن الزيات بقى فى نيويورك بعيدا عن صنع القرار ومشغولا باجتماعات الأمم المتحدة التى لم يكن لها دور محورى فى مسار الأحداث.

وفى حديث لى معه بعد الحرب بسنوات، وبينما كنا نتمشى فى إحدى ليالى الصيف على شارع النيل فى رأس البر، ذكر لى واقعة لم أكن أعرفها ومفادها أنه بينما كان يتناول العشاء فى إحدى الأمسيات أثناء فترة الحرب فى مطعم Tavern on the green فى نيويورك اتصل به وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر يقترح عليه أن يلتقيا فى واشنطون وقد وافق الدكتور الزيات واقترح على كيسنجر أن يتم اللقاء فى مقر سكن رئيس قسم رعاية المصالح المصرية آنذاك السفير أحمد توفيق خليل بواشنطون كما تم تحديد الموعد، ثم اتصل الزيات بعد ذلك بالقاهرة وأبلغ مستشار الأمن القومى حافظ إسماعيل بما اتفق عليه مع كيسنجر إلا أن حافظ إسماعيل رد عليه بأن القاهرة لا ترى داعيا لهذا اللقاء، واضطر الزيات إلى إلغاء اللقاء مع كيسنجر.

وما أن انتهت الحرب حتى كان وزير الخارجية بالنيابة إسماعيل فهمى فى واشنطون موفدا من الرئيس السادات لمقابلة الرئيس نيكسون، ووزير خارجيته كيسنجر وما أن وصل إلى واشنطون حتى حدد له على الفور موعد لمقابلة الرئيس نيكسون، هذا فى الوقت الذى كان فيه الزيات «وزير الخارجية» فى نيويورك لا يعلم شيئا عما يدور من محادثات بين الرئيس الأمريكى ومبعوث الرئيس السادات، وكان الاتفاق الذى تم التوصل إليه بين إسماعيل فهمى ونيكسون وكيسنجر هو الأساس الذى بنى عليه اتفاق ٦ نوفمبر الذى أعلنه كيسنجر بعد ذلك فى أول زيارة له لمصر بعد وقف إطلاق النار.

عندما جاءت أنباء لقاء واشنطون بين نيكسون وإسماعيل فهمى كنت مع دكتور عصمت عبدالمجيد فى الصالون المواجه لمجلس الأمن فى مبنى الأمم المتحدة.. وأذكر أنه سألنى تفسيرى لإيفاد الرئيس السادات للوزير إسماعيل فهمى للتفاوض مع الرئيس الأمريكى بينما يوجد وزير الخارجية فى نيويورك، وأذكر أننى أجبته بأننى أعتقد أن الرئيس السادات اختار الزيات لمرحلة معينة توشك على الانتهاء، إن لم تكن قد انتهت بالفعل وأن هناك مرحلة أخرى اختار لها إسماعيل فهمى. وأصبح السؤال هو: كيف سينتهى هذا الموقف الغريب الذى يوجد فيه وزير الخارجية فى نيويورك بينما وزير السياحة هو الذى يتفاوض مع الرئيس الأمريكى فى واشنطون، وما إذا كان الزيات سيستدعى للقاهرة أم سيبقى فى نيويورك؟ وهل سيحدث لقاء بين الوزيرين فى نيويورك أو واشنطون أم ماذا؟ وهنا لعب القدر دورا كان بمثابة إنقاذ لماء وجه الزيات، فقد جاء خبر وفاة الدكتور طه حسين والد زوجة الدكتور الزيات، وكان طبيعيا إذن أن يغادر الزيات إلى القاهرة على الفور، وأرسل الرئيس السادات طائرة خاصة إلى روما ليستقلها الدكتور الزيات ويعود بها إلى القاهرة حيث لم تكن خطوط الطيران الدولية قد انتظمت بعد فى مطار القاهرة الدولى، وخرجنا جميعا إلى مطار كيندى لنودع الدكتور الزيات الذى ما أن وصل للقاهرة حتى علم بأنه لم يعد وزيرا للخارجية بل أصبح مستشارا للرئيس وأن وزير الخارجية الجديد هو إسماعيل فهمى.

ظل الزيات يتذكر فى مرارة وقائع هذه الأيام حتى وافته المنية فى عام ١٩٩٥. ولقد ظل الزيات وزيرا للخارجية لمدة ثلاثة عشر شهرا، ومن المعروف أن الرئيس السادات عندما اختاره وزيرا للخارجية فقد اختاره ليقوم بالتمهيد لحرب أكتوبر، ولقد قضى الزيات فعلا مدته كوزير للخارجية فى القيام بهذه المهمة، وكان من بينها نجاحه فى مجلس الأمن فى التوصل إلى مشروع قرار يطالب بالانسحاب من الأراضى المحتلة فى إطار اتفاق للسلام وقد وافقت كل الدول الأعضاء فى مجلس الأمن على هذا القرار باستثناء الولايات المتحدة التى استخدمت حق الفيتو لإجهاض القرار.. وظهر أمام الرأى العام العالمى أن العالم كله فى جانب مصر وأن الولايات المتحدة وحدها فى الجانب الآخر.

وللأسف فإن المعركة الدبلوماسية التى سبقت حرب أكتوبر والتى قادها الزيات لم يكتب عنها شىء.. والواقع أن هناك الكثير مما لا زال لم يكشف عنه النقاب عن هذه الفترة الهامة فى تاريخ مصر.. ولذا يتعين على الذين عاصروها وشهدوا أحداثها أن يكتبوا شهاداتهم عنها. ولقد كتب الزيات مذكراته إلا أنها للأسف لم تجد طريقها للنشر.

٦

عدت فالتقيت بالدكتور عصمت فى ديسمبر ١٩٧٧، بعد زيارة الرئيس السادات لإسرائيل حيث تم استدعاؤه من نيويورك ليرأس وفد مصر فى أول مباحثات رسمية تجرى بين مصر وإسرائيل والتى انعقدت فى فندق ميناهاوس، وكانت الخارجية تمر بأزمة بسبب استقالة وزير الخارجية إسماعيل فهمى، ووزير الدولة للشئون الخارجية محمد رياض، وقد أعقب ذلك تعيين بطرس غالى وزير دولة للشئون الخارجية الذى لم يكن من أبناء الخارجية.. وكان من أول القرارات التى اتخذها هو تشكيل مجموعة عمل تقوم بالإعداد لاجتماع مينا هاوس وقد ضمت هذه المجموعة كلا من أسامة الباز وعبدالرءوف الريدى ونبيل العربى وعمرو موسى والمرحوم أحمد الزنط والمرحوم صلاح هنداوى وأحمد أبو الغيط.

وكان هذا الاجتماع أول اجتماع يلتقى فيه دبلوماسيون مصريون مع دبلوماسيين إسرائيليين، وكان موضوع التفاوض هو عقد مؤتمر دولى للسلام ورأس دكتور عصمت الوفد المصرى كما رأس الوفد الإسرائيلى الياهو بن اليسار... والواقع أن هناك الكثير مما كان يستطيع الدكتور عصمت أن يورده فى مذكراته عن هذا الاجتماع.. الذى تمثلت أهميته الحقيقية فى مجرد انعقاده حيث أراد الرئيس السادات أن يعلن عن بدء صفحة جديدة مع إسرائيل... ولم تكن هناك مفاوضات حقيقية فى هذا الاجتماع رغم أن الاجتماع شكل لجنة فرعية كنت والسفير نبيل العربى ممثلى مصر فيها، كما مثل إسرائيل مائير روزين مدير الإدارة القانونية. وكان الهدف من اللجنة هو التوصل إلى مشروع جدول أعمال متفق عليه لمؤتمر السلام، وكما كان متوقعا فإن المناقشات بيننا لم تنته إلى نتيجة، وفى يوم من الأيام حضر روزين متاخرا عن موعد الاجتماع حوالى نصف ساعة.. واعتذر بأن تاخيره راجع الى أن أعضاء الوفد الإسرائيلى ذهبوا إلى خان الخليلى لشراء بعض الهدايا وأن أصحاب المحلات هناك أصروا على استضافتهم، بل وكان من بينهم من رفض أخذ ثمن البضاعة وأنهم لم يستطيعوا أن يغادروا المكان إلا بصعوبة.. ثم ذكر أنهم يعتزمون زيارة قرية ميت أبو الكوم فى اليوم التالى.

سأل الصحفيون نائب وزير الخارجية: «لماذا ترفضون التفاوض مع إسرائيل؟».. حول ما بينكم وبينها من خلاف؟!» وجاءت الإجابة نائب الوزير بأن ذلك يرجع إلى رفض إسرائيل تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين، فكان السؤال التالى هو: «هل أنتم مستعدون للتفاوض معها إذا قبلت إسرائيل إعادة اللاجئين؟» وجاءت إجابته بأنه فى هذه الحالة سيكون من الممكن التفاوض معها...

تداعى الذكريات

بعد انتهاء اجتماع مينا هاوس دعا الرئيس السادات مناحم بيجن إلى اجتماع في الإسماعيلية، وقد حضر الدكتور عصمت هذا الاجتماع، وهناك وقعت المشادة المشهورة بينه وبين بيجن حول موضوع حق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وبعد هذا الاجتماع أخذ بيجن يهاجم الخارجية المصرية ويتهمها بأنها تعرقل مبادرة الرئيس السادات، وعلى هامش اجتماع الإسماعيلية تم تنصيب محمد إبراهيم كامل وزيرا للخارجية.. وبدأت الأحوال تستقر بعض الشيء في وزارة الخارجية لتعيين محمد إبراهيم كامل وزيرا للخارجية. كان الوزير الجديد سفيرا لمصر فى ألمانيا الاتحادية وحضر للقاهرة للإعداد لزيارة هيلموت شميث مستشار ألمانيا الاتحادية آنذاك، وبينما هو فى القاهرة إذا به يعلم عن طريق الإذاعة بنبأ تعيينه وزيرا للخارجية.. وقد كان تعيينه فى هذا المنصب راجعا إلى الصلة التى تربطه بالرئيس السادات منذ كانا متهمين فى قضية اغتيال أمين عثمان عام ١٩٤٦.

وبعد اجتماع الإسماعيلية اتفق الرئيس السادات مع بيجن على تشكيل لجنتين إحداهما سياسية تجتمع فى القدس والثانية عسكرية تجتمع فى مصر.. وبطبيعة الحال رأس محمد إبراهيم كامل الوفد المصرى فى اجتماع اللجنة السياسية الذى ضم أيضا بطرس غالى وعصمت عبدالمجيد وكل أعضاء الوفد المصرى الذى شارك فى اجتماعات مينا هاوس.. وهنا أيضا كان الهدف الرئيسى من هذا الاجتماع هو الاجتماع فى حد ذاته.. وخلق الجو الذى يتعود فيه الطرفان والرأى العام على النقلة الخطيرة التى حدثت على يد الرئيس السادات فى العلاقات بين مصر وإسرائيل ... وكان السفر إلى إسرائيل أمرا فظيعا بالنسبة لأعضاء الوفد المصرى. وكان يتنازعنا عاملان، الأول هو الواجب الوطنى والمهنى حيث إن الظروف قد وضعتنا فى موضع المفاوض باسم مصر، وهو ما يتطلب أن نبذل أقصى جهدنا لأداء هذه المهمة بغض النظر عما إذا كان القرار السياسى الذى أدى إلى هذه الخطوة سليما أم خاطئا، فالحكم على ذلك للتاريخ.. أما العامل الثانى فهو عامل المشاعر الشخصية.. فلقد عشنا منذ الصبا ورأينا إسرائيل تغتصب هذه الأرض التى سنزورها بعد أن أصبحت دولة يهودية وتغيرت هويتها.. هؤلاء هم «الأعداء» الذين حاربناهم وحاربونا لثلاثين عاما.. وقضينا حياتنا المهنية فى الخارجية المصرية نحاربهم ويحاربوننا على المستوى الدبلوماسى، وأغلب أعضاء مجموعة العمل هذه كانوا يعملون فى بعثة مصر لدى الأمم المتحدة، حيث كانت الحرب سجالا بيننا وبين الإسرائيليين فى اجتماعات الأمم المتحدة.. كيف سنذهب إليهم.. وكيف ينعقد هذا الاجتماع فى القدس وهى أرض محتلة.. عشرات الأسئلة والهواجس التى كانت تتفاعل فى داخلنا.. أى العاملين وأى الاعتبارين يتغلب على الآخر؟ هل يمكن أن يحدث شيء ما يمنع وقوع هذا الاجتماع؟ ولكن ما الذى يمكن أن يحدث وقد تقرر الاجتماع على لسان رئيس الجمهورية وتحدد الموعد!!! وأصبح السفر إلى إسرائيل أمرا لا مفر منه!!

كان وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل هو أكثر من عاشوا هذه «المأساة»... فهو لم يتصور فى يوم من الأيام أن يكون «هو» الذى يختاره القدر ليكون أول من يذهب إلى إسرائيل ويصافح بيجن وديان ووايزمان.. ويكون هو الذى يقود الوفد الذى يذهب إلى «القدس»... و«القدس» بالذات وهو صاحب التاريخ القديم والمعروف بحماسه الوطنى منذ أن كان فتى يافعا فى منتصف الأربعينيات.

وكنا نشفق على محمد إبراهيم كامل.. الذى جاء «من الدار إلى النار» فى سياق العاصفة التى أطلقها الرئيس السادات بمبادرته.. وكان هاجس «القدس» هو أكثر الهواجس إلحاحا علينا.. وقبيل السفر أطلعنى المرحوم صلاح هنداوى على مشروع بيان أعده ليلقيه وزير الخارجية محمد ابراهيم كامل لحظة نزولنا من الطائرة فى مطار بن جوريون.. وقد أعجبنى البيان فى قوته.. وإن كنت قد توقعت أنه بالتأكيد سيسبب أزمة مع الإسرائيليين وهو ما كان.

عندما أقلعت الطائرة وأصبحت فى السماء وأعلن قائدها أننا سنصل إلى مطار بن جوريون بعد أقل من خمسين دقيقة، شعرت بأنه قد حسم الأمر ولم يعد هناك مجال للعودة.. ونظرت إلى الوجوه التى حولى ورأيتها جميعا واجمة، أما محمد إبراهيم كامل فقد كان عابسا طول الوقت.. ولكن سرعان ما أعلن أن الطائرة قد بدأت فى الهبوط وعندما حطت الطائرة على الأرض كان ديان وزير خارجية إسرائيل ومرافقوه فى استقبالنا. وأمام كاميرات التليفزيون وعدسات المصورين وجمع غفير من الصحفيين والمراسلين وقف محمد إبراهيم كامل وأخذ يقرأ البيان السياسى المعد.. وكان بيانا قويا متضمنا كل عناصر الموقف العربى بما فيه الموقف العربى بالنسبة للقدس.. استمع ديان إلى البيان بوجه جامد، ولم يعلق عليه واتجه الجميع إلى السيارات التى كانت مخصصة لنقل الوفد إلى فندق هيلتون، وركبت أنا والمرحوم أحمد الزنط سيارة واحدة رافقنا فيها أحد موظفى إدارة الشرق الأوسط بالخارجية الإسرائيلية كان يعمل من قبل فى القنصلية الإسرائيلية فى اسطنبول... وأخذ يشرح معالم الطريق الذى لم نكن نرى فيه سوى أنوار السيارات.. كانت رحلة طويلة وكئيبة تلك التى قضيناها بين مطار بن جوريون وفندق هيلتون حيث استقبلنا جمع من الإسرائيليين ببهو الفندق بالتصفيق الذى لم أجد له معنى.. وفى الغرفة وجد كل منا فى انتظاره مجموعة من الكتيبات الملونة وهى كتيبات دعائية تشرح المواقف السياسية الإسرائيلية، أذكر من بينها كتيبا يصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها الخطر المميت على إسرائيل.

كان من المقرر أن تعقد اللجنة السياسية أول اجتماعاتها فى اليوم التالى لتستمع إلى البيانات التى سيلقيها رؤساء الوفود محمد إبراهيم كامل وسيروس فانس عن الولايات المتحدة وموشى ديان عن إسرائيل.. وكان المقرر أن ينعقد الاجتماع فى إحدى قاعات الفندق.. مر علىّ أحمد الزنط واتجهنا سويا لحضور الاجتماع وأخذنا المصعد الذى توقف فيما بين الطوابق ليأخذ آخرين، وكان من بينهم وليم كربى من الوفد الأمريكى، إلا أن المصعد توقف فى أحد الطوابق وانغلق علينا ولم يعد يتحرك إلى أعلى أو أسفل وتعطل بالكامل.. وظللنا على هذه الحال حوالى أربعين دقيقة وعندما وصلنا إلى قاعة الاجتماع كان الاجتماع قد بدأ وانفض دون أن يناقش أى شيء فى الموضوع. وذهبنا بعد ذلك إلى غداء دعانا إليه وزير الخارجية موشى ديان. كان الجالس إلى جانبى على مائدة الغداء ايلى روبنشتاين مدير مكتب ديان والذى أصبح فيما بعد نائب السفير الإسرائيلى فى واشنطون أثناء فترة عملى بواشنطون ثم سكرتير عام الحكومة وهو حاليا المستشار القانونى للحكومة حيث أصدر تصريحه المشهور مؤخرا بأن القرار ٢٤٢ لا ينطبق على الأراضى الفلسطينية!!.. كان جو الغداء كئيبا وكانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها ديان عن قرب. وكان محمد إبراهيم كامل هو ضيف الشرف إلا أنه ظل متجهما وعابسا وكان ديان لذلك يوجه حديثه إلى بطرس غالى وفانس أكثر مما يوجهه إلى محمد إبراهيم كامل.

فى المساء كنا مدعوين للعشاء وكان المضيف فى هذه المرة هو رئيس الوزراء مناحم بيجن.. وقد ضم العشاء حشدا كبيرا من المجتمع الإسرائيلى من مختلف الشرائح. واختار بيجن هذه المناسبة ليرد فيها على خطاب وزير الخارجية المصرى الذى ألقاه فى المطار لحظة وصوله.. وقف بيجن الذى كان مفتونا بقدراته الخطابية، ورحب بالضيوف، وتحدث عن السلام

التقى الدكتور الزيات مع هنرى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة يوم ٥ أكتوبر، ودار الحديث حول أزمة الشرق الأوسط إلا أن كيسنجر الذى لم يتصور أن حربا كبيرة قد تنشب فى اليوم التالى، أبلغ وزير خارجية مصر أن الولايات المتحدة لا تعتزم أن تفعل شيئا لحل هذه المشكلة فى الوقت «الراهن»، حيث إنه شخصيا مازال مشغولا بقضية فيتنام وأنه عندما ينتهى من ملف فيتنام فإنه سينتقل إلى ملف الشرق الأوسط

ومبادرة الرئيس السادات.. ثم بدأ يتحدث عن إسرائيل والشعب اليهودى ثم استطرد إلى الحديث عن القدس التى اعتبرها العاصمة الأبدية لإسرائيل، ثم واصل حديثه عن حق تقرير المصير وأشار إلى أن هذا الحق أسيء استخدامه بواسطة ألمانيا النازية فى دول شرق أوروبا وأشار إلى محمد إبراهيم كامل وذكر أنه صغير السن وبالتالى لا يعرف هذا التاريخ.. كان خطاب بيجن بصفة عامة بعيدا تماما عن أصول الدبلوماسية، ولو كان بيجن يريد أن يرد على خطاب محمد إبراهيم كامل الذى ألقاه فى المطار فكان يمكنه أن يفعل ذلك من خلال بيان يصدر باسمه أو باسم وزير خارجيته وليس فى حفل مقصود به أن يكون حفل تكريم للوفد المصرى ورئيسه.

كنت أراقب وجه محمد إبراهيم كامل وأرى فيه الغضب والضيق فضلا عن التجهم الذى لم يفارقه منذ لحظة ركوبنا الطائرة إلى إسرائيل.. ولم أكن أعرف ما الذى يعتزم أن يفعله إزاء هذا الخطاب المفاجيء أمام هذا الجمع الحاشد ورجال الإعلام، إلا أنه ما أن انتهى بيجن من خطابه حتى وقف محمد إبراهيم كامل وارتجل كلمة دخل فيها مباشرة إلى الرد على بيجن دون أية مقدمات.. فذكره بأننا فى مناسبة اجتماعية ولسنا فى مؤتمر سياسى وأن حديث رئيس وزراء إسرائيل كان المفروض أن يكون حديثا ذا طابع اجتماعى ولكنه اختار أن يتحدث عن السياسة، وأنه يأسف لأن يكون بيجن قد سلك هذا المسلك غير المألوف فى تقاليد الدبلوماسية.. وأنه إذا كان لديه ما يريد أن يقوله سياسيا فكان عليه أن يختار لذلك قاعة اجتماعات اللجنة السياسية وليس حفل العشاء.. كان خطابا قصيرا وعفويا ولكنه جاء قويا وحاسما وما أن جلس محمد إبراهيم كامل على مقعده حتى جاء تصفيق الوفد المصرى مدويا ومعربا عن أنه كان يتحدث بما أشفى غليلنا جميعا... وذهبنا جميعا لتهنئته.. وانفض العشاء.. وكأنه كان العشاء الأخير.

لم تجتمع اللجنة السياسية فى اليوم التالى وإنما دارت مشاورات بين رؤساء الوفود الثلاثة وكنا نحن فى غرفنا ننتظر استدعاءنا لحضور اللجنة إلا أنه بدلا من أن نستدعى لحضور اجتماع اللجنة جاء الخبر أن الرئيس السادات قرر استدعاء الوفد كله للقاهرة، وما أن بلغنا هذا الخبر حتى عم الفرح أعضاء الوفد جميعا وانقلب الوجوم إلى ابتهاج.. وشعر الجميع بأن الكابوس قد انزاح، وعلى الفور بدأ سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكى اتصالاته مع محمد إبراهيم كامل لإقناعه بالاتصال بالرئيس السادات حتى يعدل عن قرار الاستدعاء إلا أن محمد إبراهيم كامل لم يستجب لهذه المحاولات.

وفى دقائق حزم أعضاء الوفد حقائبهم وانطلقت السيارات إلى المطار وساد رحلة العودة جو من المرح وتبادل الأحاديث والضحكات.. على خلاف الوجوم الذى ساد الرحلة من القاهرة إلى القدس.

ولقد زرت القدس بعد هذه الرحلة بثمانية عشر عاما بدعوة من الجامعة العبرية لإلقاء محاضرة عن مسيرة السلام.. ورغم مرور هذه الأعوام.. فلقد شعرت وأنا أستقل الطائرة بمشاعر مماثلة ولم يخفف منها سوى الاستقبال البشوش لسفيرنا فى إسرائيل محمد بسيونى ومستشار السفارة محمد العرابى عندما وجدتهما فى استقبالى على سلم الطائرة بالمطار. فجيلنا هو الذى

عاصر هذه الأرض وهو تؤخذ بالقوة من أهلها وسمع عن المدن العربية التى دارت على رحاها حرب فلسطين الأولى والتى أخذت بعد ذلك أسماء إسرائيلية وسمع عن كفاح المجاهدين الفلسطينيين مثل عبدالقادر الحسينى وحسن سلامة.

بعد هذه الزيارة عاد الدكتور عصمت إلى موقعه فى نيويورك وتواصلت عملية السلام مع وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل الذى كون فريق عمل لمساعدته وكنت واحدا من أعضائه، وظل هذا الفريق يعمل معه حتى اجتماع كامب دافيد الذى شهد استقالته من منصبه كوزير للخارجية ثم انفرط عقد هذا الفريق، فذهب نبيل العربى الى نيويورك كمندوب مناوب لدى الأمم المتحدة فى نيويورك نائبا للدكتور عصمت عبدالمجيد وعينت أنا سفيرا فى باكستان وبقيت هناك سنة نقلت بعدها مندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة فى جنيف... وعاد التواصل مرة أخرى بينى وبين الدكتور عصمت الذى كان ما زال مندوبا دائما فى نيويورك وذلك بحكم صلة العمل بين بعثتى مصر لدى الأمم المتحدة فى نيويورك وجنيف، أما محمد إبراهيم كامل ـ أمد الله فى عمره ـ فقد ظل بعد ذلك يعيش مأساة هذه الشهور التى قضاها كوزير للخارجية.. ثم كتب مذكراته بعد ذلك بعنوان «السلام الضائع».

٧

قبل خروج دكتور عصمت إلى المعاش بقليل فى عام ١٩٨٣ خلا مقعد الدول الإسلامية فى محكمة العدل الدولية بوفاة المرحوم الدكتور عبدالله العريان فرشحت مصر الدكتور عصمت عبدالمجيد لشغل هذا المنصب، كما رشحت الجزائر الدكتور محمد بدجاوى مندوب الجزائر الدائم لدى الأمم المتحدة إلا أنه بسبب القطيعة العربية لمصر آنذاك، تكاتفت الدول العربية على إنجاح المرشح الجزائرى، وبالتالى رجحت كفته وتم انتخابه وعاد الدكتور عصمت عبدالمجيد إلى مصر وعاد إلى مهنة المحاماة التى أحبها منذ البداية، وكان من حسن حظه أنه لم ينجح فى انتخابات محكمة العدل الدولية، فما هى إلا عدة شهور بعد عودته للقاهرة حتى خلا منصب وزير الخارجية بتعيين وزير الخارجية آنذاك الفريق كمال حسن على رئيسا للوزراء، فاختار الرئيس مبارك الدكتور عصمت ليكون وزيرا للخارجية فى سبتمبر ١٩٨٤ حيث بقى فى هذا المنصب لسبعة أعوام إلى أن تم انتخابه أمينا عاما للجامعة العربية فى مايو ١٩٩١.

كانت المحطة التالية التى تلاقت فيها مسيرتنا عندما عينت سفيرا فى واشنطون وتصادف أن تزامن ذلك مع تعيينه وزيرا للخارجية، وطوال هذه الأعوام كانت علاقتى به على أفضل ما تكون عليه العلاقة بين وزير للخارجية وبين سفير لبلاده فى عاصمة هامة مثل واشنطون.. كنت على اتصال شبه يومى به فى كل ما يطرأ على العلاقات المصرية الأمريكية سواء فى مجال العلاقات الثنائية أو بالنسبة لعملية السلام، حيث شهدت هذه السنوات العديد من المحاولات التى قامت بها إدارة ريجان وإدارة بوش لإطلاق عملية السلام، أو بالنسبة للمفاوضات مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى حول الإصلاح الاقتصادى أو بالنسبة للأزمات التى ما كانت لتنتهى إحداها إلا لتبدأ الأخرى، لنتفق على أسلوب التعامل معها ومع انعكاساتها على الساحة الإعلامية وعلى ساحة الكونجرس، ولقد كان عصمت عبدالمجيد محل احترام الجانب الأمريكى، وكان أسلوبه الهادىء محل تقدير وزيرى الخارجية شولتز وبيكر، كما كان هناك عامل العلاقة السابقة بينه وبين جورج بوش عندما كانا مندوبين دائمين لبلديهما لدى الأمم المتحدة وكان بوش سواء كنائب للرئيس ريجان أو كرئيس يستقبله دائما فى بشاشة ومودة.

وفى أثناء هذه الفترة وقع الغزو العراقى للكويت وكنت فى أجازة فى مصر وتحديدا فى قرية الدبلوماسيين بالساحل الشمالى، ولم أعلم بالغزو إلا من خلال مكالمة تليفونية كان على الطرف الآخر منها مدير مكتب وزير الخارجية آنذاك السفير أحمد عادل (مدير مكتبه حاليا فى الجامعة العربية) الذى طلب منى أن آخذ سيارتى على الفور وأحضر إلى القاهرة لأشارك فى الاجتماع الطارىء الذى سيعقد اليوم (٢ أغسطس ١٩٩٠) لوزراء خارجية الدول العربية للنظر فى العدوان العراقى على الكويت، وكانت هذه الجلسة تاريخية بكل المقاييس كما كانت جلسة عاصفة حيث كان العراق والذين مالؤوها يعملون على الحيلولة دون إصدار قرار عربى ويعملون على أن ينتهى الاجتماع دون اتفاق بين الوزراء، وبذلك يتفتت الموقف العربى بما كان يمكن «صدام» من التعامل مع كل دولة عربية على حدة بسلاح الترغيب أو الترهيب حسب الأحوال، بينما كان الموقف المصرى يتمثل فى ضرورة أن ينتهى الاجتماع إلى قرار بغالبية الآراء مادام أنه لا يمكن صدور قرار إجماعى، وكانت مصر ترى أن عدم صدور قرار عربى فى الوقت الذى صدر فيه قرار بمجلس الأمن سيعنى أن العالم العربى فى حالة عجز كلى عن أن يتعامل مع قضية تمس كيانه فى الصميم.. كانت هذه الجلسة وحدها كافية أن يكتب عنها الدكتور عصمت عشرات الصفحات فى كتابه فيما احتوته من مواقف ومفارقات ولكنه آثر للأسف أن يعالجها بكثير من الاقتضاب.

كان عصمت عبدالمجيد نجم هذه الجلسة بلا منازع فهو الذى وقع عليه مع الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية عبء الدفاع عن الموقف المعارض للغزو العراقى. وكان أداؤه الدبلوماسى على أعلى مستوى، استخدم فيه كل خبرته القانونية السابقة واستطاع أن يتصدى لمختلف المناورات التى لجأ إليها الوفد العراقى برئاسة دكتور سعدون حمادى وغيره من رؤساء الوفود الذين ساندوا العراق فى هذه الجلسة فاستطاع فى النهاية أن يخرج بقرار يطالب العراق بسحب قواته من الكويت وبعودة الشرعية.. وكان هذا القرار هو بداية تبلور الموقف العربى الذى عارض الغزو العراقى وكان بمثابة المقدمة للقرارات الهامة للقمة العربية التى انعقدت يوم ٨ أغسطس برئاسة الرئيس مبارك.

آثر عصمت عبدالمجيد أن يكتب عن هذا الفصل فى مذكراته بدبلوماسية شديدة لم تنصف دوره الدبلوماسى بل لم يعط للمؤرخين المادة التى من شأنها أن تلقى الضوء على هذا اليوم الهام فى تاريخ العرب وأن يشرح كيف تبلور الدور المصرى فى هذا اليوم وكيف كان له أثره الكبير فى توجيه مسار الأحداث، إلا أن الكتابة عن هذه الجلسة بصراحة كانت ستتطرق بالضرورة إلى بيان مواقف الدول العربية المختلفة من العدوان العراقى على الكويت، والمناورات التى لجأ إليها البعض حتى لا يصدر قرار عربى، ومواقف تلك الدول التى أمسكت العصا من الوسط.. كما كان سيتعين عليه أن يصف الحالة البائسة التى كان عليها وزراء خارجية الدولة العربية خاصة من منطقة الخليج.. وكيف ساد هذه الجلسة مناخ الإرهاب والتخويف الذى فرضته واقعة الغزو عليهم.. فلاذوا جميعا بالصمت التام باستثناء الوزير السعودى والمندوب الكويتى بطبيعة الحال.. ولاشك أن عصمت عبدالمجيد وهو يشغل منصب أمين عام جامعة الدول العربية قد وجد حرجا كبيرا فى أن يتحدث عن هذه الدول بالاسم، وهو الذى يدعو الآن بحكم منصبه إلى بدء صفحة جديدة فى العلاقات العربية. والواقع أن جلسة وزراء الخارجية العرب يوم ٢ أغسطس ليست إلا بداية لقصة طويلة ينبغى أن تكتب فى يوم من الأيام عن الموقف المصرى فى معارضة الغزو العراقى للكويت. لقد كانت هذه الجلسة بداية التعامل مع الإعصار الذى لف المنطقة العربية كلها حتى تم تحرير الكويت وكان الدور المصرى فى تسلسل الأحداث دورا كبيرا وحاسما.

عندما أعود بذاكرتى إلى هذه الأيام فإن شخص الزيات يظهر وكأنه بطل لمسرحية درامية إغريقية. لقد جاء الزيات إلى نيويورك قبل حرب أكتوبر بأيام وهو وزير للخارجية وغادرها يوم ٢٩ أكتوبر وقد فقد منصبه وأصبح المرحوم إسماعيل فهمى وزير السياحة هو وزير الخارجية الجديد

٨

عصمت عبدالمجيد واحد من الدبلوماسيين المصريين الذين أتاح لهم الحظ أن يعملوا مع الدكتور محمود فوزى الذى ينظر إليه باعتباره أبا الدبلوماسية المصرية، وكان يطلق عليهم «أولاد فوزى». وقد عملت هذه المجموعة مع الدكتور فوزى فى مواقع مختلفة وكان من ألمعها إسماعيل فهمى الذى عمل مع فوزى فى البعثة المصرية لدى الأمم المتحدة فى نيويورك والذى صعد سلم الخارجية حتى تقلد منصب وزير الخارجية فى حرب أكتوبر وظل لمدة أربع سنوات وزيرا للخارجية وكانت لديه الشجاعة أن يستقيل من منصبه عندما اختلف مع الرئيس السادات حول مبادرة زيارة القدس، وكان منهم المرحوم محمد رياض الذى أصبح وزير دولة للشئون الخارجية بينما كان إسماعيل فهمى وزيرا للخارجية، وغادر الوزارة فى نفس الوقت الذى غادرها فيها إسماعيل فهمى. ومن بينهم أيضا أحمد المسيرى أمد الله فى عمره، وكان قد عمل مع الدكتور فوزى عندما كان فوزى رئيسا للبعثة المصرية فى فلسطين وشغل منصب قنصل مصر فى حيفا أثناء الحرب العالمية الثانية. ومن بين أولاد فوزى أيضا عبدالحميد عبدالغنى أو عبدالحميد الكاتب الذى رحل عن عالمنا منذ وقت قريب، وقد جاء إلى الخارجية من مجتمع الصحافة، فقد كان صحفيا معروفا وكان يكتب فى أخبار اليوم تحت اسم عبدالحميد الكاتب وكان قريبا من المرحوم محمود عزمى الصحفى والكاتب المعروف الذى اختارته الثورة ليكون مندوبا دائما لمصر لدى الأمم المتحدة خلفا للدكتور محمود فوزى، وسرعان ما تالق محمود عزمى فى منصبه الدبلوماسى كمندوب دائم.. على أنه لم يعمر طويلا فى هذا المنصب حيث وافته المنية فجاة أثناء إلقائه خطابا فى مجلس الأمن بينما كان يدافع فيه عن الموقف المصرى فى قضية منع إحدى السفن الإسرائيلية من المرور فى قناة السويس، وكان من حسن حظى أننى عملت مع هذه المجموعة منذ بداية التحاقى بالعمل فى وزارة الخارجية.. والدكتور عصمت هو واحد من أصحاب أطول فترة عمل فى الخارجية وذلك بدءا من التحاقه بالخارجية فى عام ١٩٤٥ وانتهاء بعمله كوزير للخارجية لسبع سنوات اختتمها فى عام ٧١ وخلال هذا المشوار عمل رئيسا لهيئة الاستعلامات ومتحدثا رسميا باسم مصر، كما عمل أيضا وزيرا لشئون مجلس الوزراء مع الدكتور محمود فوزى أثناء فترة رئاسته للوزارة فى الستينيات.

وقد سبق أن كتبت أن الرئيس الأمريكى جورج بوش كان يريد أن يرشح دكتور عصمت لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة إلا أن مصر كانت قد رشحته بالفعل لمنصب أمين عام جامعة الدول العربية، ثم جاء ترشيح دكتور بطرس غالى لمنصب أمين عام الأمم المتحدة والذى أيدته الولايات المتحدة بناء على دعم مصر له كما سبق أن شرحت فى مقال سابق. ■

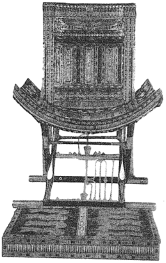
قصة الأثاث في حياة الإنسان من فجر التاريخ إلى ما بعد الحداثة

عمرو كمال حمودة

الحديث عن الأثاث لا يستقيم بغير استكمال مكونات أخرى مثل أقمشة التنجيد والسجاد واللوحات والستائر والنجف والأباجورات.. وأى طراز من المفروشات تتفاعل نغماته مع بعضها البعض، فإذا أردنا على سبيل المثال أن يكون طراز الأثاث فى إحدى الحجرات حديثاً فعلينا مراعاة الحداثة فى بقية المكونات، علاوة على ضرورة أخذ عمارة المكان فى الاعتبار. وما نتحدث عنه هو الذوق ومسألة التذوق، تحتاج إلى تربية بصرية وحسية وشعورية على المستوى العام والخاص وهو ما نفتقده إلى حد كبير، وينقلنا ذلك إلى نقطة أخرى تحتاج إلى نقاش أوسع وهى مسألة التقليد الأعمى فى أسلوب تأثيث بيوتنا ومكاتبنا، فنحن لا نختار قطع الأثاث وفقاً لأسس فنية وذوقية وإنما يسود التقليد بشكل مجحف ومخل. ويثور السؤال: لماذا نعزف عن أشكال وخطوط جمالية قد تراكمت عبر سنوات التاريخ المصرى؟ فالأثاث الفرعونى والأثاث الأرابيسك لماذا لم يستمرا حتى الآن؟ هل كان التشبه بالغرب العامل الأساسى فى حدوث قطيعة بين فنوننا القديمة فى الأثاث والانتقال نحو التغريب فى تأثيث بيوتنا ومكاتبنا بأسلوب لوى كانز ولوى ساز والستيل الأمريكى؟ فى حين اتجه الكثيرون من صناع الأثاث فى الغرب لاستلهام الخطوط الجمالية للطرز الفرعونية والعربية لتميزها فى التصميم.

كان لافتاً للنظر منذ عصر محمد على باشا وإلى النصف الأول من السبعينيات من القرن العشرين أن توقفت عملية التزاوج بين الطرز المصرية والعربية الحميمة للشخصية والبيئة المصرية والمزج مع التطورات العصرية فى صناعة الأثاث.. ولم تحدث أى إضافة حقيقية سوى على أيدى مصممين مبدعين مثل «حلمى التونى» الذى استلهم الخطوط الجمالية للتراث المصرى الشعبى والريفى على الأخص فى إنتاج أثاث عصرى حديث بتيمات وموتيفات أصلية.. وهناك الفنان «مهيب» الذى أعاد فن الأرابيسك إلى دائرة الاهتمام، لكنه لم يدخل أى تطورات عصرية عليه، فقد تمسك بجمال خطوط الماضى لأنها تعبر عن الجذور الأصلية للشخصية العربية. ولا ننسى أعمال «أسعد نديم»، ذلك الفنان المبدع الذى مزج بجرأة الخطوط الجمالية لفن الأرابيسك بالتصميمات الحديثة لفن الأثاث.

ولكن هذه المحاولات الثلاثة رغم تميزها وإبداعها تنتج أثاثاً للقلة الغنية المترفة ولم تتمكن حتى الآن من الانطلاق لآفاق أوسع فتغطى احتياجات طبقات أوسع، ولهذا نقول أنها محاولات تحتاج لقوة دفع أكبر على أصعدة مختلفة، أى فى الحقل الثقافى وفى التطبيقات عند إنتاج الأثاث وعند تأثيث بيوتنا ومكاتبنا.



كرسى الملك توت عنخ آمون



الكرسى المصرى الشعبى فى العصر الفرعونى

وقف «هوارد كارتر» مكتشف مقبرة توت عنخ آمون مشدوهاً والعمال يخرجون من جوف المقبرة قطع الأثاث التى وجدت داخلها. فلأول مرة يرى العالم بأسره «سريراً» سليماً من العصر الفرعونى، له طلاء من الذهب الخالص، قواعده منقوشة عليها زهرة اللوتس بألوانها المتميزة، وعلى ظهر السرير حفر النجار المصرى الفنان بمنتهى الدقة تمثالين للآلهة الحارسة للفرعون عندما يغشاه النوم. تمثال للإلهة «إيزيس» على الجانب الأيمن وتمثال الإلهة «نفتيس» على الجانب الأيسر.

وبجوار هذا السرير - الموجود حالياً بالمتحف المصرى - توجد عدة موائد أنيقة، بعضها صمم خصيصاً لممارسة بعض الهوايات الترفيهية للفرعون والحاشية، إحداها لها قاعدة شبيهة برقعة الشطرنج.

وهناك «الكرسى» الذى كان يجلس عليه توت عنخ آمون أثناء الحكم، وقد صنعه النجار المصرى الفنان من خطوط انسيابية بسيطة ومستقيمة باستخدام شجر الأبنوس المكفت برقائق الذهب وقطع الزجاج الدقيقة والمرصع بالحجارة الفيروزية الزرقاء والزبرجدية الخضراء.

كان ذلك أثاث الفرعون.

أما عامة الناس، فقد استعملوا أثاثاً بسيطاً من الحجارة أو الأخشاب العادية تدل على رقة الحال. ولكن اللافت للنظر ذلك الكرسى الخشبى الذى صنعه النجار المصرى القديم لاستخدام عامة الشعب. فقد صنعه من «جملة» هندسية محكمة ومستقيمة، فجاء مريحاً للغاية وبات نموذجاً أولياً للإنتاج المصرى من الأثاث خلال فترات طويلة، وصلت فى شكلها النهائى عند نموذج الكرسى «الأسيوطى» الشهير فى أوساط الطبقة الوسطى المصرية الحضرية والريفية على السواء.

و «الأثاث فن جميل» وصناعة حميمة صاحب الإنسان منذ تعلمه الحضارة.

فإذا كان الاحتياج والضرورة قد صنعا الكرسى والمائدة والسرير والدولاب والمكتب وخزانة الكتب، فإن القدرة الإبداعية للإنسان طورت من «الوظيفة الاستعمالية» للأثاث وحولتها إلى قطع فنية تشهد لأصابع الفنان الذى صممها ثم شكلها بالتمكن والرقى.

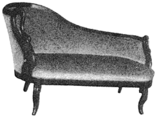
ولأستاذ تاريخ الثقافات الإيطالى «ماريو براز» مقولة ثاقبة. فقد كتب: «الأثاث يعكس روح العصر. والفكرة الأساسية تكمن فى حدوث التقدم فى هذا الفن مع التطور الحضارى وترقى الإنسان ودخول المفاهيم الثقافية فى الحياة اليومية للبشر».

ومن ثم فما نشاهده أو نشتريه اليوم من قطع «الموبيليا» ثمرة لعناصر كثيرة تداخلت مع بعضها البعض على مدى حقب وظروف تاريخية عديدة.

عن الفورم والستيل والعناصر التى أثرت فى صناعة الأثاث

ساهمت «ثورة الاتصالات» وكتابات ومشاهدات الرحالة القدماء بتعريف العالم بالبرفان الهندى وقطع الأثاث الكشميرى العجيبة وبالدواليب الصينية ذات الأدراج المتعددة ورسوماتها الأخاذة. كما أن التكنولوجيا نقلت صناعة الأثاث من طور لآخر، ساعد طبقات اجتماعية مختلفة على إشباع طموحاتها من تملك أنواع متعددة من «الموبيليا» لم تكن قادرة على الوصول إليها لو بقى الوضع قاصراً على التصنيع اليدوى.

ولكن «الوضع الطبقى» كان من العوامل الجوهرية فى دفع صناعة الأثاث للنمو والتطور. فسواء كان المسمى «الطبقة الأرستقراطية» أو «البرجوازية الكبيرة»، فإن إمكانيات الطبقة الثرية، رعت هذا الفن وكان سبيلها لإبراز قوتها ونفوذها وتفوقها. وهناك نماذج من الأثاث شديدة الفخامة والمبالغة فى البذخ، فسرها البعض بأنها تعبير عن الثروة من ناحية، وتعظيم للثروة من ناحية أخرى بسبب القيمة المادية لقطعة الأثاث ذاتها.



شيزلونج جوزفين الذى ابتكره نابليون بونابرت خصيصاً لها

ولعنصر «الأيديولوجيا» مساهمته هو الآخر، فإذا كان الفكر الرأسمالى لم يساعد على تصميم وإنتاج أثاث رخيص للملايين فإن الفكر الاشتراكى الديمقراطى للدول الإسكندنافية.. فعل ذلك. حتى أن الأثاث الدنماركى والسويدى قد أصبح علامة على البساطة والراحة والبعد عن الزخرف الذى لا لزوم له. ناهيك عن البحث وراء المواد الرخيصة التى تدخل فى صناعة الأثاث مثل الخشب المفروم وخشب قش الأرز والخشب المضغوط ولدائن البلاستيك.

وأخيراً «الحب» الذى كان سبباً فى تطوير صناعة الأثاث تحية للعشق والعشاق.

فلولاه لما أمر نابليون بونابرت صناع الأثاث فى فرنسا لإبداع الشيزلونج الرقيق الذى طلبه خصيصاً لزوجته وعشيقته جوزفين التى تدله فى حبها وأراد أن يراها وهى تجلس ممددة قدميها على الشيزلونج فى استرخاء ودلال تنصت لحديثه وتدفق أشواقه. (لقد كان صاحب مزاج عال).

والفنان الذى يقوم بتصنيع قطعة الأثاث يبدأ بـ«الفورم» أى التشكيل. فشكل القطعة هو وحدة العمل الأساسية. ويتكون الفورم من عناصر بسيطة وتكنيك فنى بالإضافة للمواد المستخدمة. وعندما يكون المصمم تقليدياً حذراً فهو لا يدخل على الفورم المعاصر سوى تعديلات طفيفة، بينما تأتى تشكيلات المصمم الجرىء جانحة عما هو تقليدى عندما يبدع فى إدخال عدة أساليب مع بعضها أو يطعم الفورم بتفاصيل كثيرة.

والفورم لا يعمل وحده، إنما يتآلف معه «الستيل» أى الطراز. فطراز كل عصر يضع بصماته على تكوين الفورم الذى يلعب عليه الفنان عندما يصمم قطعة الأثاث.

والطراز (الستيل) عبارة عن عدة عناصر وقواعد عامة تتناغم لإنتاج منتج معين. وللطراز مظهر وجوهر وأبعاد ونسب بالإضافة للثقافة السائدة. أى أن «الطراز» له بعد هندسى علمى وآخر ثقافى. ويتغير الطراز من عصر لعصر بسبب حب الإنسان للتجديد وكسر الرتابة وأيضاً بسبب الروح القلقة عند الفنان المصمم ورغبته المستمرة فى كسر الأمر الواقع وتغييره نحو الأرقى والأجمل.

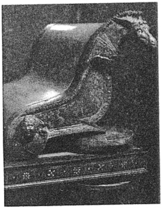
من وحى الطرز العتيقة
.. كرسي عرش بزخارف
خيالية ـ ايطاليا ١٤٥٠



هل تفرش بيتك على طراز لويس الخامس عشر أم الروكوكو؟

وأحياناً ما يكون الطراز الجديد مبتكراً تماماً.. وفى أحيان أخرى يكون توليفة من طرز سابقة مع إدخال «موتيف» جديد عليها. ويحدث التأثر هنا بالموضة. ويحضرنا مثال واضح، عندما أقيم معرض توت عنخ آمون بالعاصمة الفرنسية باريس فى أواخر عقد الستينيات من القرن الماضى حيث سادت موضة الفراعنة فى الملابس وتزيين واجهات المحال والمطاعم. ولحقت هذه الموضة بصناعة الأثاث آنذاك وظهرت «موتيفات وتيمات» فرعونية بابتكارات جديدة فى تصميم دواليب ومناضد وكراسى عصرية.

والطريقة التى يتم بها تصميم قطعة الأثاث تحتاج إلى فن وإلى استخدام الرياضيات مع قدر من الفكر الهندسى ثم القدرة على التصور وإعمال الخيال. لو نظرنا لعمل المصمم لوجدناه يبدأ بطرح أفكاره على الورق راسماً خطاً مستقيماً وآخر



قطعة أثاث تمثل كرسى رومانى يظهر فيها عنصر الضخامة فى التفاصيل

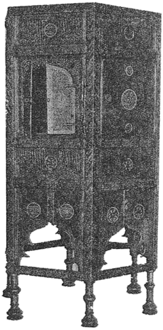
دائرياً مستديراً ثم يقوم بتجميع الخطين على ثلاثة أبعاد. بعد ذلك يبدأ فى حشو الفراغ القائم. وهو لا يختلف فى عمله عن فعل النحات أو الفنان التشكيلى. فالأثاث قطعة فنية فى النهاية. وهناك عبارة جميلة لمصمم الأثاث الفرنسى «فونتين» فى هذا الصدد: «إن التصميمات الرائعة لقطع الموبيليا، ثمرة للتعانق الكامل بين عبقرية وإبداع المهندس المعمارى والنحات والفنان التشكيلى».

لقد ظهر بجلاء تميز الأثاث فى الحضارتين الفرعونية والصينية بالدقة فى الخطوط والبساطة فى التفاصيل، على عكس الأمر بالنسبة لتراث الحضارة الرومانية، فقد تميزت التصميمات بالضخامة والمبالغة فى إبراز التفاصيل وكان قطعة الأثاث قد نحتت من الحجر وليس من الخشب الأكثر رقة وليونة. هذه «الضخامة» تركت آثارها على تصميمات الأثاث الأوروبى لفترات طويلة امتدت حتى نهاية القرن السادس عشر.

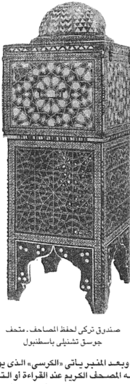
أما عن الشرق فكانت الصورة مختلفة تماماً بسبب تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية على الفنون والآداب. فالفنان المسلم أبدع فن «الأرابيسك» فى تزيين وزخرفة المساجد والبيوت السكنية وقصور الطبقة الحاكمة.

البداية كانت فى صناعة «المنبر». ويقول العلامة الألمانى «أرنست كونل» فى كتابه المرجعى «الفن الإسلامى»:

«كان المنبر أهم قطعة ضرورية بين الأثاث الذى لعب دوراً جوهرياً فى تأثيث الجامع. وللمنبر جانبان مثلثان من الخشب بينهما سلم ضيق ذو دربزة ومدخل. وجسم المنبر به حشوات ذات مواضيع نباتية فى تشكيلات هندسية تدل على ابتكار خصيب مدهش إلى أبعد حد».



كرسى السلطان الناصر
المتحف الإسلامى - القاهرة



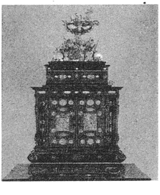
صندوق تركى لحفظ المصاحف. متحف جوسق تشنيلى باسطنبول

وبعد المنبر يأتى «الكرسى» الذى يوضع عليه المصحف الكريم عند القراءة أو التلاوة. ولدينا كذلك «الصندوق» لحفظ المصحف.

ومن أجمل الكراسى، تلك الخاصة بالسلطان قلاوون والسلطان الناصر الموجودة بالمتحف الإسلامى (باب الخلق - القاهرة). أما أشهر صناديق حفظ المصاحف فتوجد بمتحف «جوسق تشينيلى» بمدينة إسطنبول التركية.

وقد برع الفنان المسلم فى الزخرفة والتكفيت بقطع العاج والعظم والفضة والذهب، وذلك عند صناعة الكنب والكراسى والموائد المسدسة الشكل، كما استخدم الأشعار وأبيات الحكمة والآيات القرآنية فى زخرفة قطع الأثاث، وكلها من بدائع نجارى بغداد والموصل ودمشق والقاهرة، الذين برعوا فى فن الأرابيسك، ومنها انتقل إلى المغرب العربى ثم إلى الأندلس.

طوال القرون من الخامس عشر حتى السابع عشر ساد الطراز الكلاسيكى فكانت التصميمات أكثر تعقيداً والأثاث شديد الزخرفة،



خزانة من العصر الكلاسيكى مصنوعة من خشب الأبنوس مليئة بالزخارف

ووشى الحفر اليدوى كافة أرجاء القطعة الواحدة فازدحمت بالرسوم وقطع العاج وفصوص الزجاج والحجارة الكريمة مثل الياقوت والجاد، ناهيك عن ثقل وزن قطعة الأثاث ذاتها حتى بات من الصعب تحريكها من مكان لآخر.

وعندما جاء الملك لويس الرابع عشر إلى سدة الحكم فى فرنسا، كانت له رؤية فنية للدور الحضارى لمملكته، وقد تمتع بذوق كبير وقوة إرادة وتصميم على أن يكون لفرنسا طراز معمارى وطراز خاص فى الأثاث. فالطراز والذوق تعبير عن رؤية الأمة لنفسها.

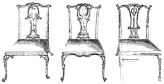
سكن لويس الرابع عشر قصر التريانون فى فرساى، وقاد من هناك معركته ضد الطراز الكلاسيكى سواء مع المعماريين أو صناع الأثاث واستطاع طرح مفاهيم جديدة لطراز جديد أطلق عليه «باروك» فيه تخلصت قطع الأثاث من الضخامة مع العناية بالرقة والانسياب فى الخطوط، واستخدام إبداعات الطبيعة من زهور وأوراق شجر فى تشكيل جوانب القطعة ذاتها، دون التنازل عن الفخامة، فتلك سمة الطبقة الأرستقراطية. وقد اهتم لويس الرابع عشر بعنصر «التنجيد» وكان وراء تطوير صناعة أقمشة التنجيد فى مدينة «ليون» لينافس الصناعة الإيطالية. وفى عهده بدأ تنجيد أطقم الصالونات بالجوبلان أى الرسوم المشغولة بخيوط الحرير على القماش.

وفى مقابل «الباروك الفرنسى» ظهر طراز «الروكوكو الإنجليزى» فى نفس الفترة. ولعل أهم قطعة أثاث أنتجت فى إنجلترا وقتئذ،



رسم لسرير ملكى بقصر التريانون فرساى فى عهد لويس الرابع عشر

كرسى فوتيل «كوين آن» الذى كان صيحة جديدة فى عالم الأثاث، لأن الكرسى أصبح



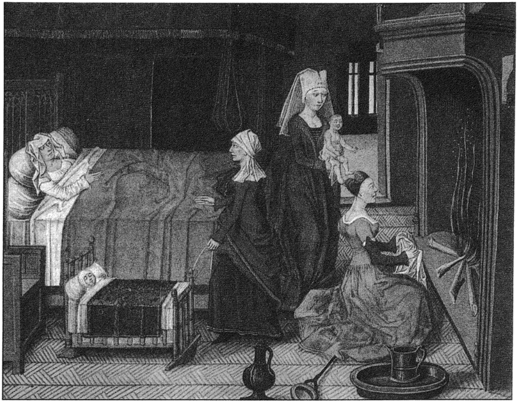
كرسى من تصميم شيبنديل

قطعة رشيقة، الظهر عال والمقعد واسع والذراع مسحوبة فى انسياب وبانحناء لطيف، أما الأرجل فقصيرة وعلى هيئة قوائم الأسد، بالإضافة إلى تنجيد الكرسى بالكامل من الجلد الطبيعى.

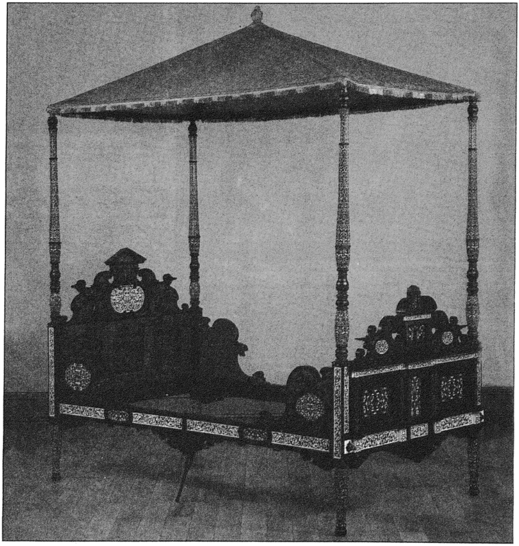


المكتب الخاص للملك لويس الخامس عشر بقصر فرساى

وتصعب الكتابة عن عصر الروكوكو دون الإشارة لفنان ونجار عظيم هو «توماس شيبنديل» ذلك العبقرى المبدع، فقد أدخل تنويعات متعددة على صناعة الموبيليا، ونشر كتباً عن تصميمات الأثاث حوت ١٦٠ تصميماً لا تزال تمثل قاعدة أساسية لطرز الأثاث الأمريكى الفاخر، حتى أن مائدة الإفطار الرئاسية فى البيت الأبيض من طراز شيبنديل».



سرير ومهد طفل عن لوحة مولد يوحنا المعمدان ـ فرنسا ١٤٧٥

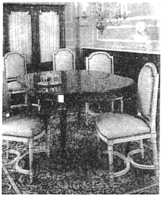


سرير نقال للرحلات له قبة .. مصنوع من الأبنوس ومطعم بزخارف مغربية ـ ألمانيا ١٥٨٠.

أما لويس الخامس عشر ملك فرنسا والذى عرف طراز عصره بـ(لوى كانز) أو «تروبادور» فقد اهتم بأن تستمر سياسة سلفه فى إعلاء شأن الذوق الفرنسى، وقام بإدخال بعض التجديدات على تصميم الأثاث بنفسه، فقد عكف على توجيه أهم مصممى عصره وهو الفنان «بيير كونتون إيفرى» لتصميم بعض القطع لإضافتها إلى مفروشات قصر فرساى، أجملها مكتبه الخاص الذى استغرقت صناعته عشر سنوات وصنعه أشهر نجارى عصر لويس الخامس عشر وهما «أوين» و «ريزنر».

ومن المثير للدهشة اهتمام الناس بطراز لويس السادس عشر (لوى ساز) رغم نشازه.

فهذا الملك كان صاحب شخصية غير ثابتة وأفكار غير واضحة ولم يهتم بأن تكون ثقافته ذات قيمة أو تميز، ولذلك جاء طراز عصره منطبعاً بتلك السمات. وإشكالية طراز (لوى ساز) عدم إضافة جديد بل العودة لاستلهام موتيفات من الحقبة الرومانية، وتركيب قطع متناقضة من المفروشات لا تمثل وحدة فى نهاية الأمر وأكبر مثال لذلك غرفة الطعام التى طلب تصميمها وسار الناس على طلبها حتى وقتنا هذا، فهى مثال للتناقض الفج أو اللاتناسق. فالمائدة والبوفيه باللون البنى



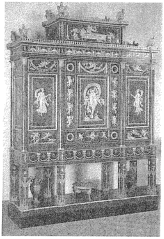
مائدة طعام طراز لويس السادس عشر

الداكن وبرسوم رومانية، أما كراسى المائدة فقد دهنت باللاكيه الرمادى الفاتح وتم تشبيك الأرجل الأربعة بأطواق نصف دائرية جعلت الكرسى أشبه بالمقبوض عليه!

عندما قامت الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر، وانتشرت أفكارها الثورية فى القارة الأوروبية انتشار النار فى الهشيم، سقطت معها مرجعيات فكرية ومنظومات قيم وفى نفس الوقت أطرزة وأساليب حياة. وبدأ الواقع فى طرح آراء ورؤى جديدة، أخذت وقتاً حتى تتبلور وتستقر. وهنا يأتى دور الفرد فى التاريخ. الفرد المناسب الذى يلتقى بالظروف المناسبة. فجاء نابليون بونابرت.

لقب بونابرت بالإمبراطور، فأطلق اللقب على طراز فترة حكمه. ولأنه قائد حربى متقف، كانت لديه رؤية لمستقبل فرنسا فى قيادة القارة الأوروبية فى جميع المجالات، ولذلك اعتنى ببناء الجمهورية الفرنسية الجديدة، فكان اهتمامه بتشييد مجموعة من المبانى التى تتميز بالطابع

الإمبراطورى، واهتم أيضاً بإصدار «القانون المدنى» الذى يحكم العلاقات بين أفراد الشعب وفقاً لقواعد منظمة وفى إطار التغيرات الطبقية التى أوجدتها الثورة الفرنسية، ثم أتى الدور على طراز المفروشات، وهنا وجه نابليون عنايته لتحديث الأثاث الفرنسى وفقاً للطراز الأمبير (الإمبراطورى)، وعمل معه اثنان من نوابغ فرنسا فى التصميم وأعمال النجارة وهما «بيرسييه وفونتين». كان تصور نابليون أن تكون التصميمات مستحدثة ومبهرة، وبالفعل فإن قطع الأثاث الأمبير كان لها حضور مؤثر، وجاءت دهاناتها باللون الأحمر الداكن، مع إضافة بعض الموتيفات الفرعونية بسبب تأثر بونابرت بالحضارة المصرية القديمة من جراء حملته على الشرق.



خزانة مجوهرات خاصة بالإمبراطورة جوزفين
طراز أمبير

استبعدت من تصميمات الأثاث تلك القوائم الكابريول التى كانت تنتهى بأرجل الحيوانات، واختفت تدريجياً الزخارف غير المتناسقة، وأصبحت الخطوط مستقيمة بلا انحناءات أو انثناءات إلا فى أضيق الحدود.



المكتب الخاص لنابليون بونابرت
طراز أمبير

وخلال تلك الفترة كان الطراز الإنجليزى المقابل لطراز أمبير قد أطلق عليه «ريجينسى» نسبة للأمير ريجنت. وصاحب التسمية مصمم المفروشات «جون ناش» الذى أقام عام ١٨١٥ بافليون فى برايتون للأثاث افتتحه الأمير ريجينت تعبيراً عن طراز إنجليزى يواجه النماذج الكاسحة للأثاث الفرنسى الأمبير.

وقد تميزت تصميمات «ناش» بالأناقة واستخدام دهانات اللاكيه سواء الأبيض أو الرمادى الطبيعى والمجزع (كراكليه) مع إدخال الخشب البامبو كعنصر جديد فى المفروشات الإنجليزية.

لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة عن تأثيرات الطرز الأوروبية فى ذلك الوقت، ولكنها كانت تحث الخطى لاكتشاف طرز خاصة بها تصوغ من خلالها الذوق الأمريكى الصاعد. وقد توصل مصمم الأثاث «هنرى بلتر» عام ١٨٣٠ إلى ما أطلق عليه الطراز «الكولونيالى» الذى كان فى حقيقة الأمر إعادة صياغة لطراز الروكوكو مع بعض التجديدات التى ابتكرها «بلتر». وإليه يعود الفضل فى التمكن من صقل خشب البلاى وود، وساعد ذلك على الحفر والنقش (الأويمة) بدلاً من لصق الرسوم على الخشب.



الكرسى الذى صنعه تونيه لإمبراطور النمسا

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم يكن مصمم للأثاث أو نجار يبارى فى السمعة والصيت وعظمة الفن.. الفرنسى «ميشيل تونيه» لقد حفر هذا النجار الذى اتصف بالوداعة والهدوء، اسمه فى تاريخ صناعة الأثاث حتى اليوم بقدرته الفذة على صناعة قطعة أثاث بفورم بسيط ولكن فى منتهى الجمال والرشاقة. لقد أحال بالفعل البساطة إلى أنشودة للجمال حسب التعبير العبقرى للأديب يحيى حقى.

تميزت مهارة «تونيه» فى قدرته غير المحدودة على التحكم فى الخشب وثنيه بالنيران وتطويعه لكافة الأشكال. وفى عام ١٨٤٠ اتصل به امبراطور النمسا طالباً منه صناعة كرسى فريد الطراز والصنعة ليضعه بقصره ليخنشتين فى فيينا. وقد ذهلت الأوساط الثقافية والفنية الأوروبية عندما قام «تونيه» بتسليم الكرسى ومعه تشكيلة كاملة مكونة من مائدة صغيرة ومهد لطفل. لازالت حتى الآن تعد من كلاسيكيات فن صناعة الأثاث والمفروشات.

وخلال النصف الثانى من القرن التاسع ساهمت الثورة الصناعية فى تعميق «الوظيفة الاستعمالية» للأثاث. فالآلة قدمت أشكالا جديدة من التعامل مع الأخشاب الصلدة الصعبة، وساهمت فى توفير إنتاج كبير من الحشوات والحليات والزخارف وتقديم تصميمات طرز القرن الثامن عشر بكميات كبيرة فاتسع السوق وتمكنت الطبقة الوسطى من إشباع رغباتها التى أعاقها صنع الأثاث بواسطة العمل اليدوى.

وبسبب الثورة الصناعية، تسارعت وتيرة ظهور أطرزة متعددة من الأثاث وتداخلها واستمرار عدة طرز مع بعضها البعض. فتواجد طراز ريجنسى بجوار الطراز الفكتورى والإدواردى الإنجليزى مع الفيدرال الأمريكى ثم الأرتس أند كرافتس مع غروب القرن التاسع عشر.

آرت نوفو وعصر الحداثة ثم ما بعد الحداثة

خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، دارت حوارات بين أهل الفن والعمارة فى أوروبا بحثاً عن طراز مختلف يلائم القرن العشرين ويكون جديداً تماماً فى كل شىء. وكانت كلمة «الفن الجديد» عنواناً لأربع مدارس فنية ظهرت فى فرنسا باسم (آرت نوفو) وفى انجلترا (مودرن ستيل) وفى ألمانيا (خوجون ستيل) وأخيراً فى إيطاليا تحت اسم (ستيل ليبرتى).

ويعود الفضل الأكبر للمصمم الفرنسى الفنان «أميل جاليه» فى إبداع هذا الطراز الجديد.

أقام«جاليه» ما يسمى «بالتعاونية أو ورشة عمل» ضمت معماريين ورسامين ونحاتين ومصممى ديكور، تعاونوا مع بعضهم ليل نهار لإنتاج تصميمات خاصة بطراز (آرت نوفو).

وكانت فكرة أصحاب الورشة الاعتماد على التبسيط واستخدام الخطوط الأفقية والرأسية المستقيمة، ومن هنا استوحوا تشكيلات الأرابيسك كما استلهموا عناصر الطبيعة كجذوع وأوراق الشجر وزهور الزنبق والإيريس



غابة اللورين المكتب الجميل من إبداعات حالية

والتيوليب. فقطعة الأثاث لدى مدرسة الأرت نوفو يجب أن تماثل الطبيعة، لأن الإنسان يشعر بالراحة والألفة مع مكونات الطبيعة لأنه جزء منها. وعندما طلب أحد البارونات – وكان من مدخنى السيجار – من «جاليه» تصميم وعمل منضدة خاصة لغرفة التدخين، فإنه استوحى شجرة التبغ الكوبى عند حفر جوانب وقوائم المنضدة.

ومن خلال تعلق جاليه بأشعار شاعر فرنسا المجدد «بودلير» جاءت أعماله مثل القطع الشعرية.

وهل يمكن لأى متذوق لروائع الأثاث أن يمل من تأمل المكتب الذى أبدعه وأطلق عليه «غابة اللورين»؟



كرسى صنعه ماكنتوش مستوحياً الطراز الفرعونى

وكان تأثير مدرسة الأرت نوفو على فنانى الولايات المتحدة الأمريكية كبيراً، ولعل أبرزهم، «شارلز ماكنتوش» الذى عمل مع المعمارى العظيم «فرانك لويد رايت» وكونا (دويتو) متناغماً لتصميم المبانى وتأثيثها بتصميمات وقطع من إبداعاتهما الخاصة.

وقد تأثر ماكينتوش بالفن المصرى الفرعونى القديم واستوحى خطوطه فى أعماله لأن هذا الفن ـ فى رأيه ـ قدم للعالم «البساطة» متحدة مع الراحة وقد اعتمد فى تصميماته على الاستخدام الأكبر للرياضيات والأفكار الهندسية.

أما فرانك رايت فقد ألغى الزخارف تماماً وشطب الحليات والحشوات من قاموسه واعتمد على المستطيلات والمربعات والدوائر والمثلثات وكان يرى ضرورة التخفيف من مسألة (تنجيد) ظهر الكرسى والكنب لأن ذلك يعوق رؤية الإنسان لما وراء القطعة من لوحات أو سجاجيد وأصص زرع، بل يعوق ويقطع الرؤية عن جماليات المكان نفسه من الناحية المعمارية.

وسواء رايت أو ماكنتوش، فإن تأثيث المنزل فى نظرهم جزء من المنظور الكلى لعمارة المكان. وهنا يقول رايت: «كل قطعة أثاث يجب تصميمها مع المكان الذى ستستقر فيه، ويجب أن ندرك ما للمساحات والفراغ من جمال، فعند تأثيث المنزل يترك ثلث المكان للأثاث والثلث الآخر للوحات والزرع أما الثلث الأخير فيترك للفراغ».

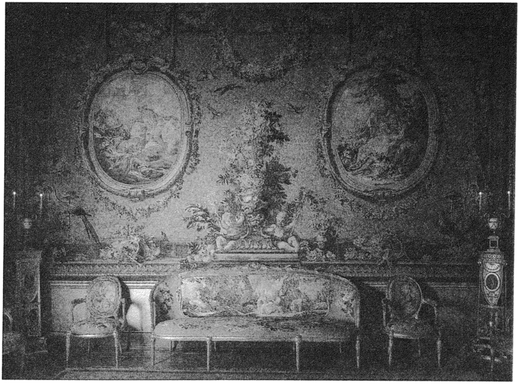
وعلى الرغم من نشأة طراز «آرت نوفو» فى أوروبا إلا أن التطبيقات الواسعة له كانت فى الولايات المتحدة الأمريكية، بسبب حماس مصانع الأثاث فى شيكاغو وكاليفورنيا التى

وجدت عطشاً لدى الفئات الوسطى للحصول على قطع الأثاث من الأرت نوفو.

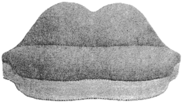
وكان هناك نوع آخر من الأطرزة قد ظهر فى الأوساط الأمريكية خلال الربع الأول للقرن العشرين ولا يزال مستمراً حتى الآن.. وهو طراز «ميشن، أى الرسالى. ويعود إلى «جوستاف ستيلكى» الذى عمل محرراً بمجلة «كرافتسمان ماجازين» لمدة ستة عشر عاماً ثم فتح ورشة للنجارة وتصنيع الأثاث وانتقل بالطراز الكولونيالى الأمريكى إلى الميشن - (الرسالى)»، وعندما سئل لماذا اختار هذا الاسم قال ستيكلى «الكرسى والمكتب والسرير يجب أن تكون لها رسالة ألا وهى الوظيفة الاستعمالية»

وخلال تلك الفترة بان الصراع بين الرؤيتين الأوروبية والأمريكية فى صناعة الأثاث.

فالمدرسة الأمريكية تفضل الفورم البسيط والتقليل من الزخارف والاعتماد على الآلة بشكل كبير من أجل الإنتاج الكبير والتسويق لأوسع الفئات فى المجتمع.

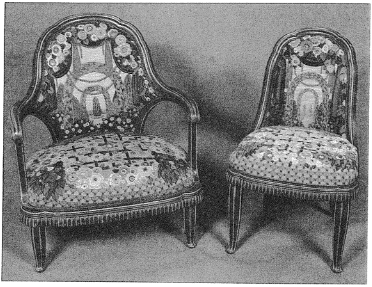


من غرفة السجاد سجاد الجوبلان فى كل مكان على الحوائط وعلى المقاعد - فرنسا ١٧٧٥.



الكنبة شفايف فن سوريالى تصميم سلفادور دالى

أما المدرسة الأوروبية فقد عبر عنها الناقدان جون راسكين ووليم موريس بقولهما: «نريد إعادة الاعتبار لقيمة العمل اليدوى فى قطعة الأثاث». وقال موريس: «قطعة الأثاث الجميلة تقودنا إلى المحيط البيئى المتناغم وتطرح عنا الشعور بالاغتراب الذى أوجدته الميكنة، فشياطين الآلة قضت على الروح الطيبة فى العمل اليدوى».. (وجهة نظر!).



كرسى فوتيل بلون اللاكيه الأخضر مع تذهيب ومغطى بالسجاد فرنسا ١٩٢٥.

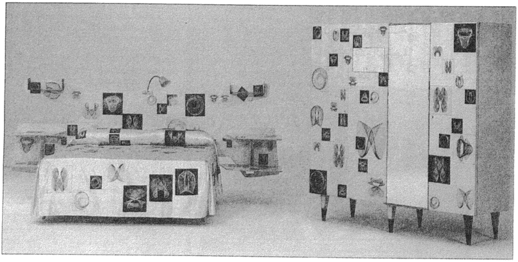
ونعود لما ذكرناه فى مقدمة حديثنا عن ملامح طرز الأثاث فى القرن العشرين، لنؤكد على سمة تسارع معدل الطرح فى الطرز المختلفة وتداخلها مع بعضها فى نفس الوقت.

ففى عام ١٩٢٥ ولد فى معرض باريس الدولى لفنون التصميمات الداخلية طراز جديد تميز بالشياكة والأناقة البازخة وهو طراز «أرت ديكو» حيث تعانق الزجاج مع الأخشاب والمعادن فى صيغة فنية جميلة أخذت بقلوب عشاق الأثاث، خاصة تصميمات «أندريه جرو «وجاك رولمان» و «جاك لولو».

كان هناك سخاء فى استخدام جلود سمك القرش «شاركسكين» وغطاء السلحفاة (تورتوازشل) وفصوص أحجار الجاد وجلود الفهود وأخشاب الأبنوس والأمارانت مع الكروم والبرونز.

والشاهد أن أثاث أرت ديكو كان غالياً جداً بسبب صناعته بالكامل بواسطة العمل اليدوى وللمواد الثمينة التى استخدمت فيه، وهو طراز عبر عن الثروة والثراء ولم يتملكه أو يتمتع به سوى الأغنياء.

وفى مقابل «الأرت نوفو» و «الأرت ديكو»



طراز حديث
سرير وخزانة ملابس من ألياف الخشب المضغوط. الأرضية بلون الذهب مطبوع عليها أشكال هندسية باللون الأسود - ايطاليا ١٩٥١.

جاء معرض العمارة والفنون التطبيقية» الذى أقيم بمتحف المتروبوليتان بولاية نيويورك عام ١٩٢٩ . وقد اعتبر المعرض حدثاً فنياً كبيراً تقاطر عليه الزوار لمدة ستة أشهر، وقد بلغ عدد الزائرين كل يوم عشرة آلاف.

تضمن المعرض ثلاث عشرة حجرة ضمت عدداً كبيراً من المفروشات، وأطلقت الصحافة عليه «عصر الجاز» فالقطع المعروضة كانت صاخبة وبها استخدام عميق للنيكل والكروم والألمونيوم والزجاج، وكلها من ابتكارات هندسية غريبة. وقد وصفت مجلة «كوليير للأثاث» المعرض بأنه يقدم النظرة الأمريكية الحديثة فى المفروشات، فهى مريحة، سهلة الاستخدام، متينة، وأخيراً عصرية. وقد لوحظ استفادة طراز الجاز من مؤثرات الفن المصرى القديم ومن حضارة الأزتك والحضارة الآشورية.

وأعقب معرض «الجاز» ظهور مدرسة «الباو هاوس» فى الفن التشكيلى بألمانيا، معلنة عصر الحداثة فى الثقافة والفن والأدب، وتركت آثارها على تصميم الأثاث عن طريق «والتر جروبيوس» الذى صمم كرسيا حديثا أطلق عليه «فاسيلى» وهو اسم صديقه الفنان التشكيلى الحداثى «فاسيلى كاندنسكى».

وقد تميزت خطوط «الباو هاوس» بالفورم الحديث، وجاءت براقة، موحية، تبرز الجديد مع استخدام الألوان الفاتحة، وإدخال المشمع بديلاً للجلد فى التنجيد. بالإضافة لغرابة التصميمات مع استلهام أفكار الفنانين التشكيليين السرياليين فى التصميمات، ولعل الكنبة المسماة «شفايف» التى صممها الرسام سلفادور دالى تؤكد ذلك.

ولكن تفردت دول إسكندنافيا (السويد، النرويج، والدانمارك) بطراز خاص، كان تأثير الأيديولوجيا عليه جوهرياً كما ذكرنا من قبل، وهى تجربة لها خصوصيتها، لأن فئات الشعب الإسكندنافى تمسكت بهذا الطراز المتميز بالبساطة والمتانة والراحة.

ومن أهم مصممى الأثاث الإسكندنافى، «ألفار آلتو» و«سورين هانسن» و «فرنر بانتون».

وقد أدخل بانتون خامات الفيبر جلاس ولدائن البلاستيك فى المفروشات الدانماركية عام ١٩٥٠، وكان يؤكد على ضرورة خلو قطع الأثاث من الزخارف أو الرتوش التى لا لزوم لها.

وقد عرف العالم على يد الدانماركيين الخشب المضغوط والخشب المفروم مما انعكس على أسعار الأثاث بالرخص دون الإخلال بالجودة.

فى الستينيات ظهرت مدرسة فى إيطاليا هى «جماعة ٦٥» التى قدمت رؤية عصرية حداثية فى الفن والديكور وتصميم الأثاث، وعرف الطراز الذى قدمته بـ«البلو آب» أى الانفجار، وأرادت الجماعة التعبير عن سخطها من الصراع المحتدم للحرب الباردة، والتعبير عن الأفكار المتفجرة وقتئذ.. سواء الماركسية أو الوجودية أو العبثية واللامعقول. كانت فترة غنية بالبحث عن الحقيقة وكسر طوق الزيف ونشدان الحرية ومن أشهر مصممى الأثاث من هذه الجماعة، «طوبيا» و «سكاربا» و«ماركو زانوسى» و «فرانكو البينى» والفنان الأمريكى «ويندل كاسل» عاشق أدب أنطوان تشيكوف. ومن حبه العميق للأديب الروسى كان لا يستخدم فى قطع الأثاث سوى خشب أشجار الكرز اعتزازاً ومحبة لمسرحية «بستان الكرز»!

وفى كلمة موجزة فإن العناصر الأساسية للأثاث الحديث.. الراحة ومراعاة الأوضاع الصحية للجسد الإنسانى عند الجلوس أو الانحناء أو الاسترخاء.

وإذا كانت أفكار «مابعد الحداثة» قد بدأت فى غزو الثقافة والأدب، فإنها تجلت فى التصميمات المعمارية وفى المفروشات.. وذلك من خلال جماعة «ممفيس ميلانو»، وهم مجموعة من الفنانين التشكيليين ومصممى الأثاث الإيطاليين، أطلقوا شحنة هائلة من الأفكار الجريئة الراديكالية عن الفورم والألوان والنماذج. وبدت أعمالهم صدامية ومليئة بالغرائب وتحمل روحا متمردة ضد التصميمات الحديثة ذاتها.

عميد الجماعة الفنان «إيتوروسوتساس» ومن نجومها.. «أندريا برانزى» و«ماركو زانينى» والفنانة «ناتالى دى باسكييه».. لقد هاجموا النسب المعتادة وجاءت الأبعاد عندهم غير متوازنة، وكسروا كل القوالب.

وخطوط جماعة ممفيس ميلانو المابعد حداثية هى السائدة والمتفوقة حتى الآن ولم تجارهم أى جماعة أو مدرسة أخرى سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية، وهم يرددون أن المفروشات والأثاث فى زمننا ستصبح «كاجوال» مثل ملابس «بنتون» و«كالفن كلاين» و «سكادا».

أما بعد...

هل تتذكرون حيرة حسن أرابيسك فى المسلسل التليفزيونى الذى كتبه أسامة أنور عكاشة حول الهوية المصرية؟

لا تزال الأسئلة التى طرحها المسلسل قائمة ولم تجد حلاً، خاصة فى الطريقة التى نفرش بها بيوتنا. فطراز الأرابيسك مستخدم فى حدود، ولم تدخل عليه تطويرات تجعله عصرياً أو فى متناول فئات اجتماعية أوسع. ثم إننا فرشنا بيوتنا كيفما اتفق دون مراعاة العلاقة بين الطرز المختلفة أو الاعتماد على ثقافة أو ذوق مستمدين من قدر من الاهتمام بفن الأثاث. وقد يعود السبب الجوهرى إلى سوء ثقافة النخبة والفقر الثقافى لدى الرأسمالية الجديدة والافتقار لمنظومة قيم تحدد الرؤية البصرية والفنية للمجتمع ككل.

لكم أن تتصوروا قرية سياحية معمارها فائق الجمال فى شرم الشيخ، رفض صاحبها المفروشات والأثاث الذى قدمه له استشارى الديكورات، رغم توافقها مع طبيعة المكان من بحر وشاطئ خلاب وطبيعة بسيطة مع خلفية صحراوية.. فإذا بصاحب المنتجع يفرش الغرف الرئيسية بأثاث من الطراز الفكتورى الإنجليزى!

لا نتعامل مع بيوتنا أو أماكن عملنا باحترام.. فللمكان روح، وفرش البيت أو المكتب يحتاج إلى فن وثقافة تحتوى الأصالة والمعاصرة معاً فى رقة وبساطة مع احترام المساحة والفراغ.. فالثلث من الشقة أو المكتب يجب تركه فارغاً حتى لا تخنقه الكتل من الأثاث. ■

كتاب الزاوية

زهرة المدائن

الأخوين رحبانى

لأجلك يا مدينة الصلاة أصلى

لأجلك يا بهية المساكن يا زهرة المدائن

يا قدس يا قدس يا مدينة الصلاة

عيوننا إليك ترحل كل يوم . . تدور فى أروقة المعابد

تعانق الكنائس القديمة . . وتمسح الحزن عن المساجد

يا ليلة الإسراء يا درب من مروا إلى السماء

عيوننا إليك ترحل كل يوم وإننى أصلى

الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان

لأجل من تشردوا . . لأجل أطفال بلا منازل

لأجل من دافع واستشهد فى المداخل

واستشهد السلام فى وطن السلام . . وسقط الحق على المداخل

حين هوت مدينة القدس

تراجع الحب وفى قلوب الدنيا استوطنت الحرب

الطفل فى المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان وإننى أصلى

الغضب الساطع آت وأنا كلى إيمان

الغضب الساطع آت سأمر على الأحزان

من كل طريق آت بجياد الرهبة آت

وكوجه الله الغامر آت آت آت

لن يقفل باب مدينتنا فأنا ذاهبة لأصلى

سأدق على الأبواب وسأفتحها الأبواب

وستغسل يا نهر الأردن وجهى بمياه قدسية

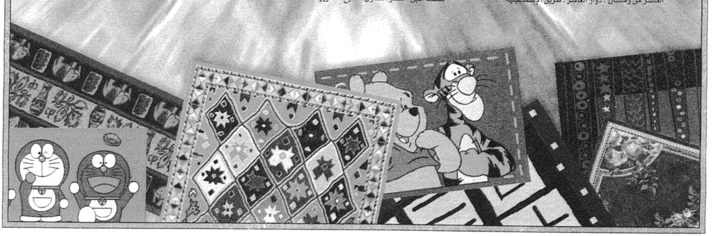
وستمحو يا نهر الأردن آثار القدم الهمجية

الغضب الساطع آت بجياد الرهبة آت

وسيهزم وجه القوة

البيت لنا والقدس لنا . . وبأيدينا سنعيد بهاء القدس

بأيدينا للقدس سلام آت



جـديـد الأنـدلـس الأمـريـكى

مدرسة شعراء المهجر لم تغلق أبوابها بعد!

وديـع فلسـطين

هناك محاولات جادة للتعريف بشعراء مهجريين جدد يقوم بها نعمان حرب بنشره سلسلة من الدواوين بعنوان «قبسات من الأدب المهجرى» لعدد من شعراء المهجر الجنوبى منهم جورج يوسف شدياق فى فنزويلا وفارس بطرس وشفيق عبد الخالق ونبيه سلامة وشكيب تقى الدين وابراهيم سلمان فى البرازيل وحنا جاسر فى الأرجنتين وشربل بعينى ونعيم خورى فى استراليا

في الرابع عشر من يوليو ١٩٩٤ توفى الشاعر زكى قنصل (المولود عام ١٩١٦) فى الأرجنتين وأُحرق جثمانه إنفاذاً لوصيته وبوفاته انتهى جيل كبار الشعراء فى المهجر الأمريكى بشماله وجنوبه، وكادت تنطوى صفحة «الأندلس الأمريكى» لولا ظهور جيل جديد من الشعراء يحاول رفع الراية وبعث الحركة المهجرية من رقادها. وإذا كان المهجر الشمالى قد ران عليه الجمود بعد وفاة أعلامه الكبار، فإن المهجر الجنوبى فى أمريكا اللاتينية انتفض مؤخراً يحاول أن يثبت وجوده فى الحياة الأدبية المعاصرة.

فقد اكتشفت أن هناك محاولات جادّة للتعريف بشعراء مهجريين جدد يقوم بها نعمان حرب بنشره سلسلة من الدواوين بعنوان «قبسات من الأدب المهجرى» لعدد من شعراء المهجر الجنوبى منهم جورج يوسف شدياق فى فنزويلا وفارس بطرس وشفيق عبدالخالق ونبيه سلامة وشكيب تقى الدين وإبراهيم سلمان فى البرازيل وحنا جاسر فى الأرجنتين وشربل بعينى ونعيم خورى فى أستراليا. أى أن ما توهمناه من انحسار الحركة الشعرية فى المهجر الجنوبى هو ضرب من ضروب سوء الفهم والتقدير. والعبرة طبعاً بالكيف لا بالكم، أى أن يثبت هؤلاء الشعراء الجدد أنهم جديرون بالانتماء إلى دولة الشعر المهجرى العظيمة التى دالت بتساقط روّادها الأعلام واحداً بعد واحد.

وقد بدأت حركة الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية فى أواسط القرن التاسع عشر، وكانت فى بادىء الأمر هجرة فردية، ثم تحولت إلى هجرة كثيفة عندما أشيع وأذيع أن العرب المهاجرين قد أصبحوا على ثراء واسع، وأن الحياة الأمريكية البكر تهيىء فرصاً واسعة لكل من يستطيع العمل بيديه، سواء فى الزراعة أو فى المصانع أو فى التجارة. وكان هناك منادون يطوفون بقرى جبل لبنان ومعهم أبواق يعلنون منها أن السفينة كذا رابضة فى ميناء بيروت، وأنها ستحمل المهاجرين إلى أرض الثراء والرخاء. فكان يستجيب لهذه الدعوة عشرات أغلبهم من الشباب الذين يعانون من شظف العيش أو الذين نالهم ضيم من الحكم العثمانى المسلّط على العالم العربى، والرحلة لن تكلفهم سوى دريهمات تُدفع للسفينة الناقلة، وعند الوصول إلى الوجهة النهائية «يدبّرها الله».

وطبيعى أن أمريكا الشمالية كانت أقل جذباً للمهاجرين من أمريكا الجنوبية التى كانت مازالت بكراً، وكانت الأيدى العاملة مطلوبة فيها لمساعدة الأيدى المحلية.

والذى يهمنا من كل حركة الهجرة العربية إلى الخارج، سواء إلى الأمريكتين أو إلى بلدان أخرى فى آسيا كالفيلبين مثلاً التى قصدها الروائى اللبنانى سعيد تقى الدين (١٨٩٤-١٩٦٠) أو فى أفريقيا أو فى غيرها من ديار الهجرة، هو هجرة الأدباء والشعراء الذين أنشأوا للضاد مدرسة جديدة تعرف بالمدرسة المهجرية تكاد تُحاكى إنْ لم تَفُقْ المدرسة الأندلسية التى خبا نجمها. وكانت الغالبيةُ الكبرى من المهاجرين الأوائل تجهل اللغات الشائعة فى بلاد المهجر، وهى الإنجليزية فى الولايات المتحدة والإسبانية والبرتغالية فى أمريكا اللاتينية، إلا من قلة قليلة نالت حظوظاً متفاوتة من الثقافة قبل هجرتها مثل ميخائيل نعيمة (١٨٨٩-١٩٨٨) وجبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١) وإيليا أبى ماضى (١٨٨٩-١٩٥٧) وأمين الريحانى (١٨٧٦-١٩٤٠) فى الشمال والشاعر القروى رشيد سليم الخورى (١٨٨٧-١٩٨٤) وجورج صيدح (١٨٩٢-١٩٧٨) وشفيق معلوف (١٩٠٥-١٩٧٦) ونظير زيتون (١٨٩٦-١٩٦٧) فى الجنوب. وكانت البلاد العربية فى ذلك الوقت جزءاً من الامبراطورية العثمانية، ولهذا كان السكان الأصليون فى أمريكا الجنوبية يُعيّرون المهاجرين بأنهم «توركو» - أى ترك. وفى هذا قال الشاعر القروى موضحاً أن هذا الوصف المهين يلاحق المهاجر حتى لو وطىء الثريا وحتى لو شيّد ناطحات السحاب:

أنت توركو، ولو وطئت الثريا ... وأقمتَ السُّهَى ببابك حاجبْ
مُستضامٌ مهما اعتزَزْتَ، فقيرٌ ... ولئن شِدْتَ ناطحات السحائبْ

وكان من المألوف أن تعيش الجاليات العربية المهاجرة فى أماكن تجمعهم مثل حى بروكلين الفقير فى نيويورك، كما كانوا ينشئون لهم أندية وروابط تحفظ لهم ما بقى من وشائج القربى العربية واللسان العربى، مثل «الرابطة القلمية» وبعدها «رابطة منرفا» فى نيويورك، ومثل «العصبة الأندلسية» و «الرابطة الوطنية السورية» و«الرابطة الأدبية» و «الندوة الأدبية» و «النادى الحمصى» و «جامعة القلم» و «منتدى البردونى» و «النادى الحلبى» و«نادى راشيا الوادى» و «النادى السورى اللبنانى» و «نادى جبل لبنان» و «النادى الفلسطينى» و «النادى السورى» و «النادى العربى» و «نادى الاتحاد العربى» وكلها فى دول أمريكا اللاتينية.

وعلى النقيض من الصورة الوردية التى رسمها المبشرون بالهجرة، فقد عاشت كثرةٌ كاثرة من المهاجرين فى فقر مدقع وزاولت أعمالاً خسيسة. ولعلّ أشْيَعَ هذه الأعمال التى مارسها معظم كبار الشعراء المهجريين فى حياتهم هو عمل «القومسيونجى»، حيث كان كبار التجار المحليين فى أمريكا الجنوبية يستعينون بالمهاجرين فى ترويج بضائعهم، فيزودونهم بالكشّة (وهى صندوق من الصفيح يضم عينات من البضائع يشدُّ إلى الظهر) فيطوف القومسيونجى بأنحاء المدينة وضواحيها محاولاً عقد صفقات لحساب التاجر يتقاضى عنها عمولة. وكان بعضهم يسافر بمركبات تجرّها الخيل وسط مناطق صحراوية أو موحلة أو عبر الغابات، ومعهم بضائع يرغبون فى تصريفها لحساب التجار. وقد وصف الشاعر إلياس فرحات (١٨٩٣-١٩٧٦) مغامراته فى بيع البضائع فى قصيدة طويلة عنوانها «حياة مشقات» نجتزىء منها هذه الأبيات الصارخة:

أغرّبُ خلفَ الرزق، وهو مُشَرّقٌ ... وأُقسم لو شرّقتُ، رَاحَ يُغرّبُ
ومركبةٌ للنقل راحت يجرُّها ... حصانان مُخْمَرٌ هزيلٌ وأشهب
لها خيمةٌ تدعو إلى الهزء شدَّها ... غرابيلَ أدعى للوقار وأنسب
جلستُ إلى حُوذيِّها ووراءنا ... صناديقُ فيها ما يسر ويعجب
حَوَتْ سلعاً من كل نوع يبيعُها ... فتًى ما استحلَّ البيعَ لولا التغرّبُ
وراحت كأنَّ البرّ بحرٌ نجاده ... وأغواره أمواجُه وهى مركب
وتدخل قلب الغاب والصبحُ مُسْفِرٌ ... فتحسبُ أنَ الليل لليل مُعْقِبُ
نبيتُ بأكواخ خلت من أُناسها ... وقام عليها البُومُ يبكى ويندب
مفككةٌ جدرانها وسقوفها ... يُطلّ علينا النجمُ منها ويغرب
فنمسى وفى أجفاننا الشوقُ للكرى ... ونضحى وجَمْرُ السُّهد فيهنَّ يُلهب
ومأكلنا مما نصيد، وطالما ... طَوَيْنَا، لأن الصَّيْدَ عنّا مُغَيَّبُ
ونشربُ مما تشرب الخيل تارة ... وطوراً تعافُ الخيلُ ما نحن نشرب
حياةُ مشقات ولكن لبعدها عن ... الذلّ تصفو للأبى وتَعْذُبُ

والقصيدة، وهى طويلة طويلة، تحكى ماعاناه هذا الشاعر الكبير وأمثاله من المهاجرين من مشقّات فى سبيل الرزق، ولكنها مشقات تهون وتُحتمل وتَعْذُبُ للأبىّ لبعدها عن الذل القاتل.

ومع ذلك استطاع عددٌ من المهاجرين أن يصبحوا على ثراء واسع مثل شاعر عبقر شفيق معلوف الذى أنشأ امبراطورية من مصانع نسج الحرير، والشاعر نعمة قازان (١٩٠٨-١٩٧٩) الذى كان صاحب مصنع للأحذية، أما مؤرخ المهجر توفيق ضعون (١٨٨٣-١٩٦٦) فقد كان يتاجر فى البيض ويتخذ شعاراً له هو «بيضات ضعون من ذيل الدجاجة إلى فم الزبون»!

وهناك مَنْ اشتغل بالصحافة مثل الشقيقين نعوم (١٨٦٤-١٩٣٢) وسلوم مُكرزل (١٨٧٩-١٩٥٢) اللذين أصدرا جريدة «الهدى» فى

نيويورك ،وكانت أطول الصحف العربية عمراً، إذ عاشت أكثر من ٧٥ عاماً، ومثل عبدالمسيح حداد (١٨٩٠ـ١٩٦٣) صاحب جريدة «السائح» ونسيب عريضة (١٨٨٧ـ١٩٤٦) صاحب مجلة «الفنون» وراجى ضاهر (ت١٩٦٣) صاحب جريدة البيان» وإيليا أبى ماضى صاحب مجلة «السمير» وغيرها وغيرها من الصحف التى صدرت فى الشمال الأمريكى وقد اندثرت كلها بعد عمر طال أو قصر، ولعلّ آخر الصحف المحتجبة هى «الإصلاح» لصاحبها الدكتور الفونس جميل شوريز الذى ظل يصدرها حتى بعدما تجاوز التسعين من العمر.

أمّا فى الجنوب فقد صدرت صحفٌ مثل «العالم العربى» لعبداللطيف الخشن (١٩٠٤ـ؟) و «الوطن» للدكتور عبداللطيف اليونس أطال الله بقاءه و «الشرق» لموسى كُريّم (١٨٩٤ـ١٩٧٤) و «المراحل» للسيدة مريانا دعبول فاخورى (١٩٠١ـ حوالى ١٩٩٠) ومجلة «العصبة» لمحررها حبيب مسعود (١٨٩٩ـ١٩٧٧) ومجلة «فتى لبنان» لمحررها نظير زيتون وغيرها وغيرها، وقد احتجبت هذه الصحف جميعاً.

هذا وقد عاش شعراء المهجر جميعا غرباء فى بيئاتهم المباشرة، لأن عائلاتهم جهلت اللغة العربية تماماً حتى إن الشاعر إلياس فرحات كان يقول لى إنه يرطن بلغة لا يفهمها أحد من ذوى قرباه ولا حتى زوجته العربية الأصل، وهى من أسرة جبران خليل جبران. ولهذا تعرّضت مقتنياتُ الشعراء من كتب وصحف وأوراق للإهدار بعد وفاتهم لأن الورثة لم يعرفوا لها قدرها.

والغالبية العظمى من أدباء المهجر بقيت تعيش فى مهاجرها إلى آخر العمر، وربما تهيأت لبعضهم الأسباب لزيارة الوطن الأم لفترات قصيرة، ولكن الحنين إلى الوطن ظلّ يستبدّ بالمهاجرين، يعبّرون عنه فى قصائدهم ويحلمون به فى يقظتهم ومنامهم. ولكن هناك مَنْ ضاقوا بالحياة المهجرية، وقرروا العودة النهائية إلى الوطن مثل ميخائيل نعيمة الذى لم يطق العيش فيما سمّاه «الدردور الأمريكى» فعاد إلى لبنان، وأقام فى بسكنتا حيث أُطلق عليه اسم «ناسك الشخروب» ومثل جورج صيدح الذى أنهى إقامته فى فنزويلا والبرازيل وعاد أولا إلى بلاده سورية وانتقل بعد ذلك إلى لبنان وبسبب الاضطرابات السياسية، سافر إلى باريس واتخذ منها موطناً جديداً قائلاً:

بلادُ اللّه أفسح من بلادى
تضيقُ بما تفجّر من فؤادى

ومثل أمير السجع والخطابة نظير زيتون الذى عاد إلى مدينته حمص تلبية لرجاء أمه، ومثل الشاعرين الشقيقين شكر الله وعقل الجر، أما شكر الله فقد عاد إلى لبنان على قدميه، وأما شقيقه فقد عاد ليدفن فى ثرى الوطن، ومثل الشاعر الناقد الدكتور عبداللطيف اليونس الذى عاد إلى مدينته صافيتا فى سورية، ومثل الأديب حبيب مسعود الذى عاد إلى لبنان، ومثل الشاعر القروى رشيد سليم الخورى الذى كان دائم الشوق والحنين إلى قريته البربارة فى لبنان وعاد إليها بعد هجرة استمرت نصف قرن وأقام فيها إلى آخر يوم من حياته. وهو قد عاش هو وميخائيل نعيمة نحو قرن كامل، إذ مات نعيمة عن ٩٩ عاماً ومات القروى عن ٩٧ عاماً.

أما اللقاء بين الشاعر المهجرى وبين تراب وطنه بعد غيبة ممتدة فقد عبر عنه الشعراء أجمل تعبير. فعندما عاد إيليا أبو ماضى إلى لبنان زائراً رأى من طائرته المحلقة فوق جبل لبنان أنواراً متناثرة تغمر الضياع وكانها نجوم، فقال:

وطنَ النجوم، أنا هنا
حدِّقْ أتعرف مَنْ أنا؟
أنا ذلك الطفل الذى
دُنياه كانت ههنا
أنا من مياهك قطرةٌ
فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرةٌ
ماجت كواكب من مُنى
أنا من طيورك بلبل
غنىّ بمجدك فاغتنى

أما الشاعر شفيق معلوف فقال مخاطباً نفسه وهو يزور دمشق:

أراكَ رجعت تفتقد العرينا
فهاك الغوطتين وقاسيونا
وأرضاً كلما انتفضت بشبر
تُهدهد تحتَه بطلاً دفينا
ونهراً كم على ظمأ نراه
كأنَّ على الشفاه لنا عيونا

وعندما اقتربت السفينة حاملةً الشاعر القروى من ميناء اللاذقية فى سورية، أخذ يردّد:

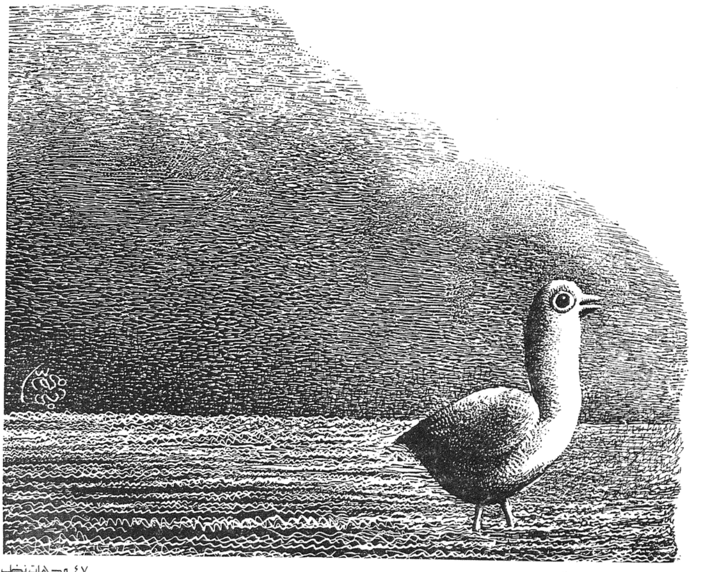
بنتَ العروبة، هيئى كفنى
أنا عائد لأموت فى وطنى
أأجود من خلف البحار له
بالروح، ثم أضن بالبدن؟

فلما سمع الأديب فؤاد الشايب (١٩١١ـ١٩٧٠) الذى كان منتدباً من الحكومة السورية لمرافقته على السفينة هذا القول، خاطب القروى قائلا: بل كان عليك أن تقول:

بنت العروبة هيئى سكنى
أنا عائد لأعيش فى وطنى

وقد اختار القروى لنفسه هذا الاسم عندما عيّره وهو فى المهجر واحد من الناس قائلا: ما أنت إلاّ قروى، فاستطاب الشاعر هذا اللقب وجعله كنيته تحدّيا لهذا الماجن. أما شقيقه الشاعر قيصر سليم الخورى (١٨٩١ـ١٩٧٧) فقد اتخذ لنفسه كنية «الشاعر المدنى».

وعندما أقيم للقروى حفل تكريم ضخم فى دمشق الفيحاء، عبرّ عن سعادته بلقاء الوطن متصوّراً أن العروبة هى التى تخاطبه قائلة له:



هيهاتَ تحسبُها أضغاث أحلام
سبِّح لربك وانْحر، أنت فى الشام
لم يأذنِ الله يابوقَ العـــروبة أن
تقضى الحياة غريباً بين أعجام
وكنتَ فى أبعد الأمصار أقربَ من
أهلى إلىّ، وأخوالى وأعـمـامى
أضناكَ طول السُّرىَ والسير ياولدى
فاطرح رداءك وامسح جُرحك الدامى
هذى عيونى وجنّاتى وفاكهتى
فـامـلأ يدّيك وبرّد قلبك الظامى
وارتع بقلبى واسبح كالشعاعة فى
عينى، ونَمْ بين أهدابى وأحلامى

وهى قصيدة طويلة افتخر فيها بأنه كان للعروبة بوقاً فى المهجر، وختمها بقوله:

أمـا رجـعـت؟ ألم أنشق هواك؟
ألم ألثم ثراك؟ ألم أسمعك أنغامى؟
أحسّ بالراحة الكبرى كـأنىً قـد
طرحت فى البحـر عنىَ كل آثامى

ولكن الشاعر نسيب عريضة، ابن حمص «ذات الحجار السود» لم تكتحل عيناه برؤية بلدته العزيزة، فأوصى بأن يُنقل جثمانه إليها ويدفن فيها، وهو ما لم يتحقق ومما قاله فى هذه الوصية المهُدَرَة:

يادهرُ قد طال البعـاد عن الوطن
هل عودة ترجى وقد فات الظّعن
عُدْ بى إلى حمص ولو حَشْوَ الكفن
واهتف أتيتُ بعـاثر مــردود
واجعل ضريحى من حجار سود
ياجارة العاصى إليك قد انتهى
أملى، وأنتِ المبتغى والمشتهى
قلبى يرى فيك المحاسنَ كلها
وعلى هواك أدين بالتوحيد
ياحمص يا أم الحجار السود

تجددت الهجرة الدافقة إلى الأمريكتين منذ نكبة فلسطين فى عام ١٩٤٨ حيث هاجر آلاف من اللاجئين، تبعتهم آلاف أخرى بسبب الأوضاع المضطربة والثورات الجائحة فى البلدان العربية، فقصد العالم الجديد مهاجرون أغلبهم من أصحاب المهن كالمهندسين والأطباء ومَنْ إليهم جاءوا من لبنان ومصر والعراق والسودان وفلسطين وكذلك من إيران. وهؤلاء توفروا على العمل فى تخصصاتهم دون أى احتفال بالأدب أو الشعر، ومعظمهم يريد الاندماج اندماجا عضويا تاما فى المجتمع الأمريكى فى أسرع وقت ممكن. فلم تكن لهجرتهم أية آثار فى إنهاض الأدب المهجرى من عثاره، أو حتى فى مدّآجال الصحف العربية الصادرة هناك التى تساقطت الواحدة بعد الأخرى لانقراض قراء العربية، ولكن هناك حالات قليلة لشعراء هاجروا إلى أمريكا بقصد الانضمام إلى ركب الشعراء هناك. فالشاعر أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢-١٩٥٥) رائد جماعة أبولو هاجر من مصر إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٦ وبقى هناك إلى وفاته، وشارك فى أنشطة المهجريين وأنشأ رابطة منرفا وجعل رياستها للشاعر نعمة الحاج (١٨٨٩-١٩٧٨) وأحدث نهضة حقيقية فى الأدب المهجرى، وإنْ كان الشاعر إيليا أبو ماضى استقبله بمقالة فى مجلة «السمير» عنوانها «ليس منا» كما أن الشاعر اللبنانى فؤاد الخشن المولود فى عام ١٩٢٥ هاجر إلى فنزويلا فى عام ١٩٥٣ ولكنه لم يحتمل البقاء فى المهجر أكثر من ست سنوات عاد بعدها إلى لبنان حيث أصدر ديوانه «سوار الياسمين» و «غابة الزيتون».

ولئن كان صوت الشعراء المهجريين زاعقاً فى خدمة قضايا الأمة العربية التى كانت ترزح تحت أثقال الاستعمار بأسمائه ومسمياته المختلفة (الانتداب والحماية والحكم الثنائى والوصاية) فإن هذا لم يمنعهم من ترديد أناشيد الحبّ والخوض فى ميادين الوجدانيات. وكان الشاعر إلياس فرحات قد قال لى إنه عُرِفَ فى كل حياته بشعر الوطنية، فهل يجوز له بعدما بلغ أرذل العمر أن ينشر شعره العاطفى، فقلت له: مادام هذا الشعر هو ابن شرعىّ لك، فلم تحجبه؟ وعندئذ دفع إلى المطبعة بديوانه الموسوم «فواكه رجعية» وحمّلنى وزْرَ كتابة مقدّمة له قائلا: أنت المسئول عن نشر قصائد الحب وقد نازعته وقتها فى عنوان الديوان، ولكنه أصر عليه قائلاً: إن الفواكه الرجعية فى لبنان هى التى تنبت فى غير أوانها.

وكان فرحات قبل هجرته يحبُ قريبة له اسمها «أنيسة» قطع معها عهداً بالإخلاص الأبدى، إذْ أنه سيعود قطعاً من مهجره ميسور الحال فيتزوجها. وتأكيداً لهذا العهد أهدته أنيسة خصلة من شعرها. ولكن العروس لم تطق صبراً على غياب الحبيب، فتزوجت أول طارق. وعندما علم فرحات بذلك وهو فى مهجره نظم قصيدة قال فيها:

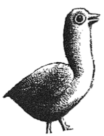
خصلة الشعر التى أعطيتنيها
عندما البَيْنُ دعانى بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها
وسأتلوها إلى اليوم الأخير
خُنت عهد الحب، لا بأس، فإنى
مكتف بالأثر الغالى الثمين
لستُ بعد اليوم أحيا بالتّمنى
بعد أن منيتى عشر سنين

وختمها بقوله:

نَشْقَةٌ من خصلة الشعر تليها
قبلةٌ تُخمد ذياك السعير
فتخوض النفس بحر الأنس تيهاً
ويزول اليأس عن قلبى الكسير

وأما الشاعر القروى، بوق العروبة، فقد أحب فتاة إنجليزية اسمها «مود» وكم كان يتمنى أن يتزوجها لأنه عاش عزباً طول حياته، لولا أنه تذكر أن هذه الحبيبة تنتمى إلى دولة المستعمر، فعالنها بالانفصال قائلا:

ولو لم تكونى فرنجية
لكنت سُعادى قبل سُعاد
ولكننى عربى المنى
عربىّ الهوى، عربى الفؤاد



لعـــــمـــــرك يامــــود لولا ذووك
لما مَــيّــزَ الحبُّ بين العــبـــاد
ولا أكــرهوا شــاعــراً أن يقــول
هذى البـــلاد وتلك البـــلاد
فــــإنــىَ حـــــرامٌ علــىَّ هـواك
وفى وطنى صـيـحــةٌ للجـهـاد

وهناك ظاهرة يكاد ينفرد بها شعراء المهجر، وهى أن عائلات بأسرها خرجت شعراء بارزين، ولعل أكبرها عائلة معلوف التى ظهر فيها الشاعر شفيق معلوف وشقيقه الشاعر فوزى معلوف (١٨٩٩ ـ ١٩٣٠) صاحب المطولة الشعرية «على بساط الريح» وشقيقهما الثالث رياض معلوف المولود عام ١٩١٢ والذى قطع هجرته إلى البرازيل فى عام ١٩٤٧ وعاد إلى مدينته زحلة المشهورة بكرومها يقيم فيها فى «كوخه الأخضر» حتى اليوم قيّما على تراث والد الشعراء الثلاثة العلامة المجمعى عيسى اسكندر المعلوف (١٨٦٩ ـ ١٩٥٦).

وعندما دعى شفيق معلوف إلى زحلة لإزاحة الستار عن تمثال شقيقه فوزى خاطبه قائلاً:

فوزى! ومالى فى الخطوب يدانِ
أوَهَكذا الأخَـوانِ يلتقـيـان؟
قدمت صدرى للعناق فلم يقع
إلاّ على حجـر من الصـوان!

ومن الشعراء فى أسرة معلوف شاهين معلوف مؤسس العصبة الأندلسية (ت ١٩٥٤) وقيصر معلوف (ت١٩٦٣) ونقولا معلوف وهو من مواليد ١٩١٣.

ومن الشعراء الأشقاء فى المهجر الشاعر القروى رشيد سليم الخورى والشاعر المدنى قيصر سليم الخورى، والشاعر زكى قنصل وشقيقه الشاعر والروائى إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) والشاعران شكر الله وعقل الجرّ والشاعران ندره حداد (١٨٨١ ـ ١٩٥٠) وعبدالمسيح حداد الذى كان ينظم الشعر ويكتب الأقصوصة ولكنه تفرغ لجريدته «السائح» ولأعدادها الأدبية الممتازة، وكذلك الشاعر أحمد سليمان الأحمد (المولود عام ١٩٢٦) وهو شقيق الشاعر السورى الكبير محمد سليمان الأحمد المكنى ببدوى الجبل (١٩٠٤ ـ ١٩٨١). ويبدو أن الشعر فى المهجر يعدى.

وقد عانى شعراء المهجر من طبع دواوينهم لقلة عدد المطابع العربية فى البرازيل والأرجنتين وشيلى وفنزويلا وبوليفيا وما إليها. وفى محاولة لتذليل هذه المشكلة ورغبة فى الانتشار فى العالم العربى أعرب لى الشاعر زكى قنصل عن رغبته فى نشر ديوان فى كل عاصمة عربية، ورجانى أن أسعى لدى من أعرف من الناشرين فى القاهرة لطبع واحد من دواوينه فيها. ولكننى أخفقت فى هذا المسعى، وإنْ كان هو نجح فى طبع ديوانه «هواجس» فى تونس وفى طبع جزء من ديوانه الكامل فى دمشق، وفى طبع خماسياته فى الرياض إلى أن ظهرت المجموعة الكاملة لشعره فى ثلاثة أجزاء عن دار الأريحى السعودى عبدالمقصود خوجة.

كما أن الشاعر إلياس فرحات قال لى إنه يتنازل عن جميع حقوقه فى دواوينه وكذلك حقوق ورثته من بعده إذا قام ناشر فى مصر أو فى بلد عربى بطبعها، وللمرة الثانية أخفقت فى مسعاى وإنْ كنتُ وفقت فى إقناع صديقى منير البعلبكى (١٩١٨ ـ ١٩٩٩) صاحب دار العلم للملايين فى إعادة طبع ديوان «أحلام الراعى».

وكان الشاعر نعمة الحاج قد خشى على شعره من الضياع بعدما علت سنّه وكلّ بصره، فأخبرنى أنه باع جزءا من الأسهم التى كان يمتلكها فى بورصة نيويورك لتغطية نفقات سفره إلى لبنان لطبع ديوانه هناك. ولكن الحرب الأهلية جعلته يُرجىء هذا المشروع ولم يمهله القدر حتى ينجزه. ولا أستبعد أن تكون مخطوطة الديوان قد أهملت لأن «ورثته» كانوا يجهلون اللغة العربية.

وأخبرنى الدكتور ألفونس جميل شوريز صاحب جريدة «الإصلاح» فى نيويورك أنه كان يقوم بنفسه بتنضيد حروف جريدته من صندوق الحروف، ثم إحكام كل صفحة فى إطار حديدى وحمله على كتفه ـ وهو فى التسعين من العمر ـ إلى المطبعة لتقوم بطبع الجريدة. وكان ينشر فى الجريدة صورته حاملاً هذا الإطار الحديدى الثقيل.

وبفضل عناية صفية أبى شادى، كريمة رائد أبولو الدكتور أحمد زكى أبى شادى أمكن إنقاذ دواوينه المخطوطة الأربعة، فطبع منها جزءان فى مصر وجزءان فى بيروت ووقفتُ بنفسى على إخراج هذه الدواوين المهجرية وإنقاذها من الضياع.

ويجرّنا حديثُ الهجرة والمهاجرين إلى الرواية الجميلة التى ظهرت للأديبة اللبنانية إملى نصر الله بعنوان «الإقلاع عكس الزمن» وهى تصوّر مغامرة أسرة ريفية لبنانية وهى تسافر للمرة الأولى فى حياتها بالطائرة لافتقاد البنين فى المهجر الأمريكى، وتعرض المواقف الطريفة لهذه العائلة الريفية فى مدن تناطح عمائرها السحاب، وتهدر فيها الحياة الصاخبة ليل نهار. فشتان بين الريف الهادىء فى الكورة اللبنانية وبين الحياة المجنونة فى العالم الجديد. ■

ولا نعرف لظاهرة العائلات الشعرية فى الوطن إلا قلة قليلة. ففى مصر، أنجب الشاعر محمود عماد (١٨٩١ ـ ١٩٦١). شاعراً يترسم خطى والده هو محمد محمود عماد. كما أن الشاعر ناصيف اليازجى (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) أنجب الشاعر إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) والشاعر سليمان البستانى (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) مترجم إلياذة هوميروس إلى العربية شعراً هو نسيب الشاعر وديع البستانى (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤) مترجم رباعيات عمر الخيام وملحمة المهابهارته الهندية إلى اللغة العربية شعراً.

■■ المتابع لما يجرى فى العالم خلال السنوات الأخيرة والوتائر التى يجرى بها، يدرك مدى العزلة التى تتهدد العربى، حتى أننا بتنا على وشك العيش فى جيتو منقطع الصلة بما يجرى حوله.

ومن حسن الحظ فإن إمكانات تجاوز هذا المازق المصيرى ممكنة، فى حدود الإمكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن الارتباك والتفكير التقليدى، وتحلينا ببعض اليقظة والسلوك الإبداعى.

ماطبيعة الجيتو المعرفى الحضارى الذى يتهددنا؟ وما هو الطريق لتجاوزه، حتى لاينتهى مآل العربى إلى زاوية من زوايا النسيان؟

لابأس من حكايات تمهيدية لازمة للإجابة.

دراسة تاريخ الفن:

أتاحت لى ظروف الحياة أن أدرس تاريخ الفنون الجميلة ثلاث مرات. والطريف أن ذلك حدث رغم إتمامى الدراسة من المرة الأولى فى واحد من المعاهد الأكاديمية المصرية بدرجة «امتياز»، كما أن المرات الثلاث لم تغننى عن السعى إلى دراسة تاريخ الفن مرة رابعة هذه الأيام. وبديهى أنه ماكان لى أن أتجشم عناء دراسة جديدة لموضوع سبق أن درسته، إلا مع الإحساس بأن الدراسة الجديدة ستضيف إلىّ مالم أحصله من دراستى السابقة.

فى المرة الأولى درست تاريخ الفن وسط زحام من الطلاب المرهقين الذين ساقتهم الرغبة إلى ركوب قطار مواصلة التعليم، بصرف النظر عن وجهته أو عن «تاريخ الفن» بحد ذاته، وسجنت الإمكانات الأمر فى نطاق سردى، لم نتطرق معه إلى مشاهدة الإبداعات التى نتحدث عنها، إلا من بعض صور على البعد فى كتاب مطبوع بالأبيض والأسود فى يد الأستاذ. ولاجدال فى أن هذا الوضع كان يؤثر على حماس وأداء كل أطراف العملية التعليمية أساتذة وطلابا و.... كما أن الاقتصار على الحديث عن نواح فنية كالتكوين ودراما اللون والإيقاع والهارمونى و... بالألفاظ ينطوى على صعوبة شبيهة بتلك التى تواجه الحديث عن الموسيقى.. إذ أن لذلك «لغات» خاصة غير لغة الكلام، ومهما قيل، فلن تزيد قيمة القول على قيمة تعليق مكتوب بصدد مقطوعة موسيقية لم يسمعها المرء!

أما المرة الثانية (١٩٧٤م) فقد قادتنى ملابسات متعددة إلى التحمس لخوضها.. كنت أقيم فى موسكو، وسمعت إعلانا عن محاضرة موضوعها الفن المصرى القديم، فشغفت لمعرفة مايقوله هؤلاء الأجانب عن شيء يخصنى. وجدتنى فى قاعة مسرح تتسع للآلاف مكتظة بالرواد الذين جاءوا مختارين، واكتشفت أن المحاضرة تتناول جانبا واحدا من فنون مصر القديمة، وأن هناك جزءًا ثانيا يلقيه محاضر آخر، وجزءا ثالثا يلقيه غيرهما، وأن هذه الأجزاء ليست إلا فصلا من برنامج متكامل، يقدم للجمهور العادى بتذاكر منفصلة أو «أبونيه شامل» مقابل قروش قليلة، عن الفن منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر، يقوم بكل حلقة من حلقاته أستاذ متخصص حاصل على درجة الدكتوراه فى المرحلة المعنية، زار بلاد الفنانين واطلع على أعمالهم. كما أن المحاضرة تقدم مسلحة بأرقى الإمكانات التقنية فى حينه، وموشاة بكم هائل من المستنسخات الملونة، وبتوصيات لزيارة متاحف قريبة ترى فيها جانبا مهما من هذه الأعمال، وملحقة بإجابة عشرات من أسئلة الرواد. ولما كنت قد بهرت بالروح العامة، وبما يتاح من رؤية مسهبة للأعمال التى يجرى الحديث عنها، وبمدى الإلمام والتعمق بموضوع المفروض أنه فن بلادى وأننى درسته دراسة أكاديمية، ولما كنت قد أدركت ذلك كله فقد قررت مواصلة دراسة تاريخ الفن من جديد.

المرة الثالثة (١٩٨٠م) كانت حين أُتيحت لى الفرصة لمتابعة تاريخ الفن فى سلسلة برامج قدمتها محطة كبيرة من محطات التلفاز. جندت أفضل المحاضرين إلى جوار أفضل المعدين والمخرجين، وجرت وراء أفضل الأعمال الفنية وأكثرها تعبيرا عن مقتضى الحال فى جنبات الدنيا الأربعة، و... وأتاحت الإمكانات التقنية للتلفاز، إلى جوار كل ماسبق درجة هائلة من المناورة.. اختار الفريق أفضل زوايا تصوير الأعمال الفنية، وقرب وكبر واجتزأ و«منتج» وقدم وأخر وضاهى و... ،كما أنه لم تكن هناك أعباء مضجرة سواء من ناحية الوقت أو «وسيلة الانتقال»، فكان الأمر متعة لاتبارى.

أما المرة الرابعة ففرضتها التطورات التى طرأت على إمكانات الكمبيوتر، فنهضت بسرعة عمله وسعة ذاكرته، وجعلته قادرا على تناول الصور، مما أدى إلى ظهور مجموعة من البرامج، مسجلة على أقراص ضوئية (CD-ROM) لايزيد وزن الواحد منها على جرامات، ويحوى آلاف الصور لأهم وأرقى الأعمال الفنية فى مختلف العصور، إلى جوار وجهات نظر نقدية مختلفة راجعت هذه الأعمال، وأداء مبدعيها وسيرتهم الفنية، بالإضافة إلى مواد وفيرة من أشهر موسوعات الفنون الجميلة. ويستطيع مستخدم البرنامج، فى أى وقت يريد، وفى يسر بالغ، بمجرد لمسة إصبع، أن يتجول بين عناصر شبكة مترابطة متكاملة من المرجعيات..

(كأن ينتقل مثلا، بصورة اختيارية وبأى ترتيب يعن له، ومن واقع المادة التى يتعامل معها، من سيرة بيكاسو الفنية إلى لوحته «الحياة»، فقراءة نقدية لها، وقراءة ناقد ثان، وثالث، ثم إلى مرحلة بيكاسو الزرقاء، فمرحلته الوردية، فزوجته فيرناند أوليفيه، فلوحة فتيات أفنيون، فقراءة نقدية لها، ثم مفهوم المنظور، فسيرة براك، فـ التكعيبية ـ التكعيبية التحليلية ـ الهارمونى ـ الفورم ـ الموسيقار أريك ساتييه ـ دياجليف ـ الباليه الروسى ـ جان كوكتو ـ سوبر رياليزم ـ سرياليزم ـ دالى ـ بريتون... ، ومئات غير ذلك من اللوحات والمفاهيم والسير والآراء النقدية المتشابكة).

كما أن مثل هذه البرامج تمكن المرء من التعامل بحرية مع الأعمال الفنية.. فتتيح له أن يقرب صورها ويركز على أجزاء منها و...، بل ويغير ألوانها ويزيل ـ بقدر محسوب ـ آثار الزمن التى تراكمت على صفحتها، ويكمل ماضاع من العمل الفنى، ليراه وكأنه قد خرج للتو من بين يدى الفنان.

بل وتمكن برامج من هذا النوع المرء من الاجتراء على هذه الأعمال وتحويل أى رسم يريد من المدرسة التى نفذ وفقا لمفاهيمها إلى مدارس فنية أخرى كالتنقيطية أو التجريدية أو...، كما تمكنه من إكساب صور أعمال النحت البعد الثالث لتبدو مجسمة، و....

ذلك فضلا عن أن هذه البرامج تفى ـ ولا تكتفى بالإشارة ـ بالمعارف التى تعامل الفنون بصفتها أحد تجليات الأجواء الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، التى تحيط بظهورها، وتتيح نظرة موسوعية بانورامية عن ذلك.

لقد تعودنا ربط أسماء انشتين وبلانك ومنكوفسكى و... بتاريخ الفنون الجميلة، لكن يجب عدم خداع النفس فى هذا الصدد، فمعظمنا يمارس بذلك تمارين يتذكر فيها ماسمع أو ماقرأ، وهذا شيء مختلف تماما عن تمارين المعرفة والفهم والفكر والتذوق الحقيقى. لأن كثيرين ممن يرددون هذه الأسماء لايعرفون حقيقة إنجازات أصحابها، ولا كيف ارتبطت على وجه الدقة بالتطور المعنى فى الفن.

باختصار إن مثل هذه البرامج هى ورش فنية حقيقية يشاهد فيها المتذوق، ويقتطف مما يشاهد ويسمع (التعليقات)، ويكرر المشاهدة والسماع والتمحيص والتأمل وهذه الإمكانات لاتتيح فرصة حقيقية لتذوق حقيقى فقط، بل تؤدى إلى انقلاب عدد من عيوب النقد إلى مزايا.. فقصور الأدوات فى الماضى أدى إلى أن تتحول معلومات سياقية فنية حقيقية، مثل سيرة الفنان ومجمل لوحاته والمعارض التى شارك فيها، تتحول إلى أوبئة، لأنها بالصورة التى كانت تساق بها لم تكن تحمل قيمة فنية حقيقية للجمهور، الذى لم ير غالبا قوائم الأعمال والمعارض التى تتكرر الإشارة إليها، ولا يمكن أن تكون حية فى ذاكرته بأية درجة من الدرجات. ويستحيل أن يكون لها على هذا النحو قيمة أكثر من كونها تدريبات ساذجة لاستخدام الأرشيف أو للذاكرة فى أفضل الأحوال، ولاعلاقة لها بحس أوذوق.

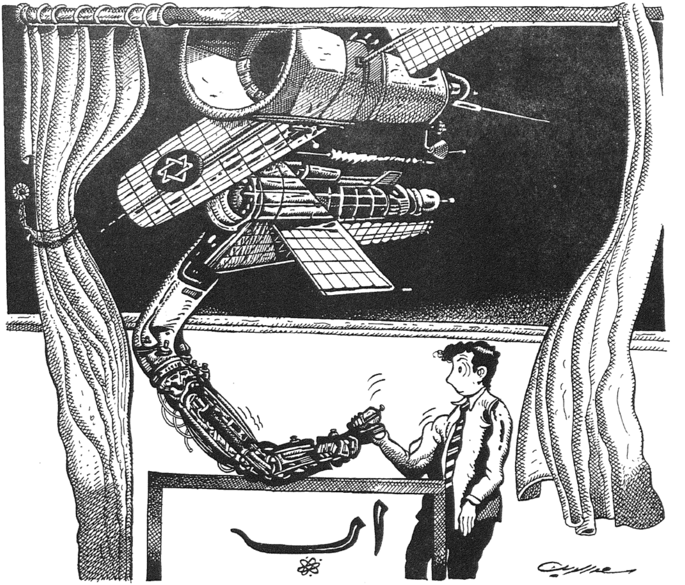
لكن هذه السياقات تأتى مع الأدوات الجديدة وسط كوكبة من الإمكانات الملتصقة بالحس الفنى، التى تمثل الجسد الحى الذى يجرى التعامل معه، مما يجعلها نافذة على مايربى الحس والذوق وعلى ما يرقى بهما، مما يفتح الباب لوثبة هائلة فى عالمى التذوق والمعرفة.

وقد يتصور البعض أن التفاوت بين حصيلة مرات درس الفنون الجميلة أمر يكتسب منطقيته من طبيعة موضوع «تاريخ الفن»، وكون الصورة تلعب دورا أساسيا فى المسألة، ولا يشكل ناموسا عاما فيما يخص كل مجالات المعرفة. لهذا لابأس من الانتقال للحكاية الثانية.

بطالة التعليم المقنّعة: أين

محمد فتحى

نعم لدينا نواة ينبغى تطويرها آخذين بعين الاعتبار أن بيت القصيد فى سعى الإنسان وتقدمه لم يعد تذكره للمعلومات المختلفة التى يجاب عنها بأدوات استفهام مثل من (اكتشف، وفعل، وقال، و...) ومتى وأين، وإنما صار هذا التقدم يرتبط بما يجاب عنه بأدوات مثل لماذا (اكتشف، وفعل، و...) وكيف، لأنها هى التى تحث على التفكير وتقود إلى الإبداع. وقد بتنا نخلط كثيرا بين التذكر والتفكير، ولأن كل برامجنا التعليمية والتلفازية، وحتى البرامج التى تتخذ من التفكير عنوانا لها، تدور معظم أسئلتها، إن لم تكن كلها، بعيدا عن التفكير وتقف عند حدود التذكر



نحـــــن مــــن الـعــــالــم؟!

النظرة للثقافة العلمية:

عام ١٩٧٠ كنت أرأس أحد الأقسام بمجمع الحديد والصلب. وأوفدني المجمع في مهمة هندسية دامت ستة شهور، في واحد من مصانع الحديد والصلب الكبيرة. وجعلتني تجربة العمل مع الروس في المجمع أرفض من اللحظة الأولى فكرة أن تصاحبني طوال الشهور الستة مترجمة، تتيح لي أن أتعامل خلال عملي وإقامتي باللغة الإنجليزية. وبدلا منها طلبت مدرسا يساعدني على التقدم في لغة من ساعيش وأعمل معهم. وفي أول لقاء طلبت أن نبدأ مباشرة في التعلم عن طريق قراءة الشعر. واختارت مدرستي، تأثرا بطبيعة الموقف، أشعارا طالعت فيها علاقة بالتكنولوجيا والصواريخ. ورغم تنحيتي لأشعارها ظللت أسميها دعابة «تانيا الفضائية»، ففوجئت بها تحكي عن اهتمامات فضائية فعلا، قادتها إلى «السجن» في طفولتها..

كانت في حديقة المدينة الصغيرة البعيدة المعزولة التي نعيش فيها قبة سماوية، وكان يخلب لب الأطفال حضور عروضها. ويوما قرأ الصبية في إحدى المجلات العلمية، المخصصة لهم، عن الحضارات الكونية الأخرى، والإشارات التي ترسل بها إلى الأرض. وخلال النقاش اختلف الأطفال حول مواقع بعض النجوم التي ورد ذكرها في المادة العلمية، وأخذتهم الحمية، وكان الليل قد حل، فقرروا عدم الانتظار حتى الصباح، واخترقوا أسوار الحديقة ومبنى القبة السماوية وقاموا بتشغيلها. وبينما انهمكوا في نقاشهم كان البوليس قد حاصر المبنى الذي دبت فيه الحركة على غير العادة، وتم القبض عليهم. وكان من بينهم مدرستي الموقرة. التي لم تتمالك نفسها أمام لوم الضابط:

- ياتانيا أنت بنت. مالك والصبيان الأشقياء هؤلاء؟

- هل يعني كوني بنتا ألا ضرورة لمعرفة مكان النجم «س» و....

- ياتانيا الصباح رباح، وكل شيء له نظام شغل، ويمكن أن تتلف الأجهزة باللعب فيها.

- ماذا تقول؟! بالطبع لايمكن أن تتلف فأنا التي كنت أديرها.

- والله عال. أنت من كنت تديرينها، ونحن نضرب أخماسا في أسداس ونقول أي غزاة من الفضاء الخارجي حطوا على القبة السماوية.

حدث ذلك مع تانيا في الستينيات المبكرة، ولعله نقل للقارئ المزاج العام للطفل الأوروبي آنذاك، وبيننا وبين ذلك أكثر من ٣٠ سنة، نهض فيها الطفل الأوروبي إلى ذرى أرقى كثيرا. حتى أنه بات في بيت أكثر من نصف هؤلاء الأطفال قبة سماوية كاملة، أرقى وأكثر إبهارا وثراء، على الأقراص الضوئية الكمبيوترية إياها، يتعامل معها في أي وقت يريد، وبإمكانات شبيهة للإمكانات التي فصلناها سابقا. وذلك طبعا إلى جوار مئات المطبوعات والدوريات المكرسة لتوسيع آفاقهم ومتابعة تطلعاتهم العقلية بالري والنماء، ناهيك عن مئات البرامج التلفزيونية و...!!

(بالمناسبة كان لدينا في مصر كلها قبة سماوية واحدة في أرض المعارض بالجزيرة وعز علينا ألا نستأصلها ونلقي بها في مستودعات القمامة ليجلس هذا أو ذاك من الموظفين المهمين مكانها).

ولعله المكان المناسب للإشارة إلى أن التقنيات الحديثة خطت بأطفال العالم المتقدم خطوات بعيدة في مجالات كثيرة، ربما كان بليغ الدلالة أن نذكر منها هنا مجال اللعب(!؟). فلعبة مثل «مدينة سيم» (Sim City) تعطي الطفل ميزانية كاملة لبناء مدينة، مع صلاحيات مطلقة لإدارتها

وحمايتها، وتظهر على الشاشة أمام الطفل مدينة مجسمة كاملة ينفق عليها من ميزانيته بعناية. فما أن يقصر فى اعتمادات الشرطة وتعيين وتدريب كوادرها حتى يفاجأ بارتفاع مستوى الجريمة فى المدينة. وما أن يقلل فى الاعتمادات الخاصة بمحطات الطاقة حتى تغلق المصانع أبوابها وتزداد البطالة، والطريف أن لهذه المدينة إضافة تجعلها تنطبق مرة على باريس ومرة على لندن وثالثة على طوكيو ورابعة على «سيم ٢٠٠٠».. وهذه مجرد لعبة من اللعبات التى يلعبها كثير من أطفال الغرب اليوم.

لقد صار للعب المحض (دون وعظ مدرسى) قيمته التربوية والاقتحامية والإبداعية، فالأطفال باتوا يتدربون من خلاله على مواجهة مشكلات الحياة. والأجيال الجديدة من اللعبات الكمبيوترية المتطورة تحفز وتنمى إلى جوار مهارة حل المشكلات، مهارة اتخاذ القرار، كما أنها تزيد من قدرة الطفل على التركيز وتشحذ خياله و....

هذا كما أن إمكانية «الأخذ والرد» - أو التفاعل - مع البرامج الكمبيوترية الراقية وسيلة فعالة للتخلص من آفة التلقى السلبى (الناتج عن تعليم التلقين ومتابعة التلفزيون)، مما يساهم فى تنمية المهارات الذهنية لدى الصغار ويزيد من قدرتهم على التفكير المنهجى المنظم، ويحثهم على التفكير المجرد، ويجعلهم أكثر إدراكا للكيفية التى يفكرون بها ويتعلمون من خلالها. كما أنه ينمى قدراتهم الإبداعية والابتكارية، ويقلل من تأثير رقابة الكبار الكابحة عليهم، ويعزز فى نهاية المطاف نزعتهم إلى التبكير بالاستقلال.

لكن ذلك ليس نهاية المطاف لذا لابأس من حكاية جديدة.

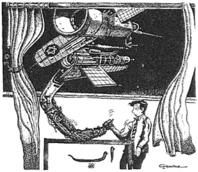
أطفال يتفوقون على مربيهم:

قبل ١٥ سنة كان فى المدارس الأمريكية كمبيوتر واحد لكل ١٢٥ تلميذا. لكن عدد الأجهزة صار فى عام ١٩٩٥ واحدا لكل ١٠ تلاميذ (غير الأجهزة الخاصة الموجودة فى البيوت). ومع ذلك لم تنته مشكلة الأمريكيين مع عصر المعلومات. ذلك أن التطور التقنى مستمر على نحو عاصف. ولم يعد المهم أن يجلس الطفل إلى جهاز كمبيوتر، بكل المناهل المعرفية التى أشرنا إلى طرف منها سابقا، وإنما الآفاق التى تتجاوز الإمكانات الذاتية للجهاز وبرامجه.. الآفاق التى يمكن أن يصله الكمبيوتر بها، وتفتح أمامه بانوراما المعرفة الإنسانية، عن طريق الارتباط بشبكات الاتصال العالمية، التى تنتشر هذه الأيام بسرعة البرق، وتعرف بـ«طرق المعلومات السريعة».

ونسبة عالية من التلاميذ الأمريكيين باتوا على اتصال بشبكة «إنترنت»، التى تطوى بين جوانحها كل الشبكات العالمية، ومن خلالها صار بإمكانهم القيام بزيارة كاملة لمتحف اللوفر فى باريس والأرميتاج فى بطرسبرج - وغيرها طبعا - وهم جلوس فى منازلهم، والاتصال بالمكتبات الأوروبية الكبيرة، وبنوك المعلومات اليابانية، و«الثرثرة» مع الخبراء والنجوم، فى كافة المجالات وفى مختلف أنحاء العالم المتمدين.

وهكذا لم يعد الشعار الشعبى فى المدارس الأمريكية هذه الأيام «دجاجة فى كل وعاء» ولا حتى «جهاز كمبيوتر على كل مكتب»، بل «توصيل جهاز كل طفل بالشبكة العالمية». وليس هناك من يستطيع التنبؤ بما ستؤدى إليه تربية أطفال على هذا النحو، يتفوقون بما لايقاس على مربيهم: أهليهم ومدرسيهم و....

أين نحن من العالم؟



ولابأس بعد ذلك من الانتقال إلى الحكاية الأخيرة.

أقمار إسرائيل الصناعية:

عصر الخامس من أبريل ١٩٩٥، كانت البروفيسورة (!؟) آليسا شنهار سفيرة إسرائيل فى موسكو، تستعجل سائق السيارة الروسية فى تغيير إحدى عجلاتها على الطريق بين مطار «بليستسك» وقاعدة إطلاق الأقمار الصناعية، حتى تلحق باللحظة الحاسمة لإطلاق القمر الصناعى الإسرائيلى «جوروين - ١»، بينما كان المهندس أناتولى فولفوفسكى، الروسى الذى هاجر هو وأسرته إلى إسرائيل قبل سنوات (ليس هناك مايمنع أن يكون واحدا من عصابة تانيا مدرستى)، والذى عمل مايقرب من ثلاث سنوات فى بناء القمر الإسرائيلى، يعبر - للصحفيين - عن سعادته بالعودة للمرة الأولى إلى روسيا، وبصفته عالما إسرائيليا(؟!)، للمشاركة فى إطلاق القمر الإسرائيلى، ويبين كيف قضى الليلة السابقة مع الرفاق الروس يغنون بالروسية والعبرية، وكيف أن علاقات التكامل بينهم تمضى بصورة ممتازة، وكيف أنه يحس برضاء عميق، بعد أن تكلل الجهد المتواصل الذى بذله فى إسرائيل بالنجاح. ذلك بينما كان زميله الروسى الذى يشرف على استعدادات الإطلاق يعبر عن سعادته بالتعاون رفيع المستوى مع الزملاء الإسرائيليين، وبتحويل الصاروخ الحربى الرهيب «إس إس - ٥٢»، بمعاونة الأصدقاء إلى صاروخ يستخدم فى الأغراض السلمية(؟!)، كإطلاق القمر الصناعى الإسرائيلى.

والقمر الصناعى المعنى، قام بصناعته، وبتكلفة بلغت ثلاثة ملايين ونصف مليون دولار، طلاب(!؟) معهد من معاهد «تخنيوم» - أقدم الجامعات الإسرائيلية (!؟) - بالاشتراك مع عشر من شركات التقنيات المتقدمة فى إسرائيل، بدعم مالى كانت هناك استحالة لإكمال المشروع بدونه، من رجل الأعمال الأمريكى جوزيف جوروين، الذى حمل القمر «جوروين - ١» إلى جوار اسمه رقم «١» اعتبارا لما هو آت (؟!).

وفى المؤتمر الصحفى الذى عقده الوفد الإسرائيلى فى مطار موسكو، بعد الإخفاق فى إيصال القمر إلى مداره ليقوم بمهمته، ولعطب أصاب عمل الصاروخ، قال البروفيسور جورا شافيف رئيس «معهد أبحاث الفضاء» فى أقدم الجامعات الإسرائيلية (تخنيوم): «سنحاول تحرير القمر الصناعى من بقايا الصاروخ». واستطرد البروفيسور زئيف تدمر رئيس وفد الجامعة: «وحتى إذا لم ننجح فى ذلك فإننا لن نفقد سوى جسد القمر.. لقد حققنا أهدافنا الأكاديمية التعليمية فيما يخص إعداده وتجهيزه. وتصاميمه وخبرات صنعه باقية لم تضع معه، ويمكن أن ننخرط للتو فى صناعة نموذج ثان له، بتكاليف أقل كثيرا، وعلى الروس تحمل تكاليف عملية إطلاق بديلة. والأكيد أن ماحدث لن يؤثر سلبيا على صناعة الأقمار الصناعية فى إسرائيل، و....

ويمكن أن يكمل خطوط الصورة السابقة أن إسرائيل لم تستطع الصبر على تأكيد أن الفشل لم يكن سوى فشل روسى، فقد أطلقت، بعد أيام فقط، قمر التجسس «أفق - ٣» بصاروخ إسرائيلى طورته بـ«علمائها» من الألف إلى الياء هو الصاروخ «شافيت»، ومن قاعدة إطلاق إسرائيلية، وفى مسار من أصعب مسارات الإطلاق (عكس اتجاه دوران الأرض).

لكن الصورة ستبدو أكثر اكتمالا مع التصريحات التى أعقبت إطلاق القمر والتى أكد فيها أكثر من مسئول إسرائيلى كبير على: «أن إسرائيل أصبحت تملك بشكل مستقل إمكانية الحصول على المعلومات الإستراتيجية التى تحتاجها دون الاعتماد على بلدان أخرى»، مشيرا إلى تجاوز تحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المعلومات أيام حرب ١٩٧٣ وحرب الخليج.

إن مجمل التفاصيل السابقة يكشف عما هو أخطر من امتلاك إسرائيل أداة لاستطلاع مايجرى فى أرض الجيران، وهو امتلاك مخطط محكم للتعامل من موقع ريادى مع عصر الفضاء:

- قدرة على تصميم وتصنيع صواريخ تصعد بحمولات كبيرة، منها حمولات ذرية، وليس أقمارا صناعية فقط، إلى الفضاء الخارجى.
- قدرة على تصميم وصنع أقمار صناعية مختلفة الأغراض تتناسب مع احتياجاتها.
- امتلاك ميدان للتجارب والإطلاق، ومحطات أرضية للمتابعة.

وربما كان الأهم من ذلك كله وعيا فعالا بمسار التقدم العلمى والتكنولوجى بإمكاناته الحالية وآفاقه المستقبلية، ووجود مؤسسة متخصصة لقيادة العمل فى هذا المجال (مؤسسة الفضاء الإسرائيلية) لها استراتيجية محددة وأهداف واضحة، يساندها فى أداء

كما أن هذه القناة تمكننا من تلافى العيوب التى تضرب نظام التعليم المصرى فى مقتل. وأحد هذه العيوب هو مايفرضه هذا النظام من إكمال المرء تعليمه فى نفس واحد، العالى بعد الثانوى، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم، بعد فترة توقف لأى سبب كان، الأمر الذى يؤدى إلى تعلق الجميع بأهداب «قطار التعليم الطوالى» حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية. فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق

وظيفتها نظام تعليمى متخصص (معهد أبحاث الفضاء فى «تخنيوم»)، وتوزيع الجهد الصناعى على من يستطيع المشاركة (شركات ومؤسسات اقتصادية وعسكرية و...)، وتعاون عالمى أقل مايقال عنه أنه يجرى على قدم المساواة مع المتقدمين، ومصادر تمويل سخية لهذا النشاط (٣٫٥ مليون دولار لتدريب التلامذة فى تجربة حية!؟)، بالإضافة إلى منافذ وعلاقات وسياسات ناجعة لتسويق نتاج نشاطهم.

وترجع أهمية ذلك كله إلى أن أنشطة وتكنولوجيا الفضاء نوع من التكنولوجيات الشاملة لاتقتصر مجالاتها على التجسس العسكرى، بل تمتد كما بات واضحا للجميع اليوم إلى الاستطلاع المدنى والطقسى، والاتصالات، ونقل أحداث القارات الأخرى، و...

وقد لايكون واضحا بنفس القدر أن تكنولوجيا الفضاء تنطوى على حلول للمشاكل الملحة فى الزراعة والغذاء، بالاستعانة بقدراتها على الاستشعار عن بعد والتنبؤ بالطقس والآفات، والمساهمة فى زيادة الإنتاج الزراعى وتعمير الصحارى والحفاظ على الثروات الطبيعية، وربما التكاثر فى ظروف الفضاء، و...

وإن كانت هذه التكنولوجيا تتمتع بمثل هذه القدرات فيما يخص نشاطا تقليديا كالزراعة، فعلينا أن نتصور مايمكن أن تتيحه من تقدم فى مجالات الصناعات التقليدية والصناعات الإلكترونية والاتصالات والتجارة، أو من خدمة لأهداف التقدم الاقتصادى والاجتماعى عامة، وبالتالى نمو ورفاهية التجمعات البشرية.

إنها باختصار تكنولوجيا تترك أثرها على كل نشاط بشرى، بل وتعيد صياغة رؤية الإنسان وموقفه بالنسبة لمجتمعه وبيئته وإقليمه وعالمه والكون المحيط به. صحيح أن الخطوات الأولى فى عالمها تستفيد من احتياجات الأمن والدفاع العسكرى كمدخل، لكن سرعان مايصبح للأمن القومى الأولوية فى الأمر، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مفهوم هذا الأمن قد تغير واتسعت ضفافه لتشمل ماهو سياسى وثقافى واقتصادى واجتماعى.

ولا يمكن إنهاء هذه الحكاية دون إشارة إلى أن إسرائيل ورثت جل التراث العلمى والفنى السوفيتى، فبعد هجرة فرق فنية كاملة إليها، فإن التعاون العلمى الصناعى العسكرى هو محور التعاون مع بلدان الاتحاد السوفيتى القديم وفى مقدمتها روسيا وأوكرانيا، بالذات وقطاع من صفوة العلماء السوفييت ذهبوا إلى إسرائيل ويعملون فيها.

ولا يقتصر الأمر على بلدان الاتحاد السوفيتى القديم فقد سبق التعاون على مستوى لم يتحقق لأحد مع الولايات المتحدة وأوربا من قبلها، ومنذ ١٩٥٨م؟!، وفى أرقى مجالات العلم والتسلح والتقنية، ونكتفى هنا بالإشارة إلى تطوير الصاروخ «حيتس أو آرو» (السهم) بالاستعانة بالتمويل والخبرة الأمريكيتين فى إطار مشروع حرب الكواكب(!؟). هذا كما أعلنت الصين مؤخرا عن أنها تبنى واديا للتكنولوجيا المتقدمة بالتعاون مع إسرائيل.

وكنتيجة لذلك كله باتت إسرائيل تصمم وتطور وتصنع وتبيع كثيرا من معدات «عصر المعلومات والفضاء» حتى للبلدان المتقدمة(؟!).

ولاأعتقد أننى بعد الحكايات السابقة فى حاجة إلى تفصيل أكثر عن طبيعة الجيتو الحضارى الإبداعى الذى يتهددنا، بالذات إذا أدركنا أنه ليس هناك إبداع حقيقى فى مختلف مجالات المعرفة دون إلمام بتراث الإنسانية، حتى لانعاود اختراع «ماسبق اختراعه»، وبعد ظهور مايتخطاه ويحد كثيرا من قيمته النسبية. وليس هناك إبداع حقيقى دون أن نكتسب المهارات والقدرات التى تمكن من العمل الصحيح المثابر، والوجود فى حالة من اللياقة الإبداعية.

نعم إن التثقيف الذاتى والدأب الذاتى بين العوامل الحاسمة فى تحصيل الدربة الإبداعية وتراث الإنسانية معا، إلا أن ذلك يكاد يكون مستحيلا إن لم تتوافر مناهل التراث الإنسانى، إلى جوار إمكانات معقولة للتعليم والثقافة العامة الراقيين.

ولعل السؤال المنطقى هنا: وهل من طريق لتجاوز هذا الجيتو؟

منارة للتثقيف والتعليم والحث على الإبداع:

ونحن نبحث بالطبع عن حلول واقعية، ليست من قبيل العمل على إشاعة استخدام الكمبيوتر والأقراص إياها والاتصال بالشبكات العالمية و...، بل تعتمد على إمكانات متيسرة فى هذه اللحظة لأوسع فئات المجتمع، ولا تحتاج إلا إلى القرار والمواءمة.

صحيح إن التلفاز يمكن أن يمارس دوره على الطريقة التى أوجزها المثل العربى ببلاغة منقطعة النظير: «هبله ومسكوها الطبلة». لكنه يمكن أن يكون أيضا، أعظم وسيلة للتاثير على جميع جوانب الحياة. وقد أدركت تجمعات بشرية كثيرة ذلك فصارت توظف التلفاز فى عملية الترقى والنهوض، بعد أن دخل كل بيت. وهذه عملية يسيرة فوق أنها سهلة.

فأغلب الجامعات التى نتداول الحديث عنها حاليا «دقة قديمة»، بينما الجامعات الحديثة جامعات تلفازية تذيع «مناهجها» على الهواء، توفر على الدارسين كثيرا، لأنها تتيح لهم أرقى المضامين والوسائل التعليمية، بأكثر الأدوات إبهارا، وتجسد هذه الوسائل والمضامين على مدار اليوم، دون أن تكبد الطالب عناء الزحام فى المواصلات والشوارع والمدرجات، وعلى أهمية هذا الدور التعليمى للتلفاز فهو ليس كل مايعنينا هنا، لأن برامج المدارس والجامعات لم تعد الوسيلة المثلى لاستيعاب التراث الإنسانى وتجاوزه، ولأن مايعنينا إلى جوار حفز الناس العاديين (المتفرجين) هو أن هذا التراث، وفى مختلف المجالات الفكرية والفنية والتقنية، صار مجسدا بأشكال درامية وتعبيرية مبهرة على شاشات التلفاز.

وأى إنسان يقظ تتاح له متابعة محطة تلفاز ذكية لابد أن تزلزله البرامج الكثيرة التى تقدم جماع المعارف البشرية. والجيد منها لايقتصر على عرض هذه المعارف، وإنما يقدم منطق تتابع اكتشافات هذه المعارف، مما يصيب «المتفرج» بالعدوى، ويربى قدراته الابتكارية. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، لأن الأكثر أهمية هو سعى هذه البرامج إلى أن يتخذ بعض لعب وترفيه المتفرجين الوجهة نفسها، إذ صارت هناك برامج جذابة تشجع وتدرب وتحث الناس على النظر بصورة انتقادية لما يشاهدونه عامة ومنه هذا التراث، وتحفزهم على تجاوزه ناهيك عن الاستفادة منه.

وقد يرى البعض أن بين قنوات تلفزيوننا المتخصصة مايقوم بهذا الدور. لكن التمعن فيما سقناه من مقدمات يدرك البعد التام عن ذلك. إن الحل الذى نراه لتجاوز الجيتو المعرفى هو تكريس قناة عامة مجانية يغطى إرسالها مصر كلها لـ«التثقيف والتعليم والحث على الإبداع»، وأن توظف لها أرقى الإمكانات الفنية والمعرفية والتربوية لتتحول إلى منارة حقيقية تسخر معطيات المعرفة فى تشكيل وعى الناس، وتتيح لهم الفرصة لممارسة حياتهم اليومية بأكبر قدر من الموضوعية والإبداع، وتحدث نفسها دوما بما يتناسب مع مسيرة العصر وإنجازاته.

وهذا يتطلب منا وقفة مسهبة أمام مايمكن أن تعطينا مثل هذه القناة؟

تعليم على أرقى مستوى:

إن برامج هذه القناة لابديل لها فى إتاحة أفضل فرص التعليم لكل المصريين، وبطريقة تتجنب كل ما يعوق التعليم المصرى عن صناعة المبدع.

وكلنا يعرف كيف يتبارى الناس فى إلحاق أولادهم بالمدارس النموذجية وبفصول المتفوقين فيها على وجه التحديد، ومثل هذه القناة لاتمكننا من جعل مصر كلها فصلا حقيقيا للمتفوقين فقط، ولا من القضاء على الدروس الخصوصية - الآفة التى تكاد تغتال العملية التعليمية برمتها لأنها تجعل الكثير من المدرسين يتخلون عن واجباتهم الأصلية - فقط، وإنما تساعدنا على إتاحة فرصة التعليم على أرقى مستوى إبداعى للجميع، وبالتالى إشاعة ديمقراطية حقيقية فى نظام التعليم، بل وتتيح مرونة هائلة فى التطوير المستمر لبرامج التعليم، وبما يمكن أن يتضمن حتى توفير خلاصة منجزات الأقراص الكمبيوترية - إياها - للجميع بصورة مركزية. هذا كما أن هذه القناة تساعدنا على مايمكن أن نسميه التعليم العلاجى أو التكميلى للمتخصصين الذين تخرجوا بتعليم تجاوزه واقع تطور المعارف كثيرا، وللمدرسين الذين تسابقهم المعرفة، ذلك بالإضافة إلى العمل على حث الإبداع وحفزه؟

كما أن هذه القناة تمكننا من تلافى العيوب التى تضرب نظام التعليم المصرى فى مقتل. وأحد هذه العيوب هو مايفرضه هذا النظام من إكمال المرء تعليمه فى نفس واحد، العالى بعد الثانوى، دون أدنى فرصة لاستئناف التعليم، بعد فترة توقف لأى سبب كان، الأمر الذى يؤدى إلى تعلق الجميع بأهداب «قطار التعليم الطوالى» حتى دون أن تتواءم وجهته مع ميولهم الحقيقية. فناهيك عن معمعة المجموع والتنسيق، أين الفرصة لمن شغلته الشهادات والدروس الخصوصية، ولم يصل للعشرين بعد، فى أن يكتشف ميله الحقيقى، وعلى مهل وبالتجربة، وبصوره تجعله محبا مهموما بشئون وشجون التخصص الذى يريد أن يقضى حياته معه ويبدع فيه؟

وفى كل الأنظمة التعليمية المتقدمة ليست هناك قيود على عودة من قطعوا رحلة تعليمهم، بل إن فترة العمل تحسب لصالحهم عند القبول مجددا فى التعليم العالى، لأنه ينظر لذلك فى إطار النضج العام للفرد، وتزيد فرص هؤلاء إن كانوا قد احتكوا خلال عملهم بالمجالات التى يسعون لإكمال دراستهم فيها، بل وتقدم لهم التسهيلات والإغراءات، من منطلق معرفتهم الواقعية لما هم مقدمون عليه.

ولعل الأخطر فى نظام التعليم المصرى أن الرغبة فى عدم فوات «قطار التعليم الطوالى» تؤدى إلى سلسلة من التداعيات الشاذة، فمن التزاحم (المشروع بالطبع)، إلى قضاء غالبية الطلاب لسنوات التطلع والتكوين فى حالة من البطالة المقنعة، تحت وهم التعلم، وإلى أزمة فرص العمل بل وطبيعة العمل ذاته، لأنه فى هذا الإطار يكون مرحلة مبتوتة الصلة تقريبا بما قبلها، ذلك على أحسن تقدير.. حيث إن للعطالة تأثيرا مدمرا يكتسبه الإنسان ويظل يتحكم بتوجهاته فيما بعد، مكرسا سلسلة هدر الإمكانات.و....

مجمل القول أن الرغبة فى مواصلة التعليم والترقى المعرفى رغبة مشروعة وضرورية فى عصرنا، وينبغى تلبيتها على أوسع نطاق مع الخروج من دائرة الهدر الجهنمية، بالذات وقد قدم العصر حلولا ناجعة لذلك، تتمثل فى «الجامعات التلفزيونية الحرة» التى تقبل أى راغب فى الالتحاق بها (بصرف النظر عن اعتبارات السن أو تاريخ الحصول على شهادة ما أو ...)، وهى توصل

بدت الصورة أكثر اكتمالا مع التصريحات التى أعقبت إطلاق القمر والتى أكد فيها أكثر من مسئول إسرائيلى كبير على: «أن إسرائيل أصبحت تملك بشكل مستقل إمكانية الحصول على المعلومات الاستراتيجية التى تحتاجها دون الاعتماد على بلدان أخرى»، مشيرا إلى تجاوز تحكم الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه المعلومات أيام حرب ١٩٧٣ وحرب الخليج

مقرراتها للطلاب في بيوتهم عن طريق الإذاعة المرئية والمسموعة أساسا، ولا يؤم الطالب مركزها الرئيسي إلا فترة محدودة لاتتجاوز الشهر كل سنة (خلال عطلة الجامعات العادية للاستفادة بإمكاناتها ومدنها الجامعية) لبعض التدريبات العملية وأداء الامتحان. وهي توفر خدماتها (حتى نيل درجة الدكتوراه) برسوم رمزية. ذلك أن تكلفة التعليم فيها لاتتجاوز ٢٠ في المائة من مثيلاتها في الجامعات العادية. وتقل هذه التكلفة كلما زاد عدد الطلاب. لأن الجزء الأكبر منها يذهب إلى إعداد المقررات.

وجدير بالذكر أن الوقت الذي ينفقه طالب الجامعة الحرة في الدرس والبحث يقل كثيرا عن الوقت الذي يقضيه طالب الجامعة العادية في المواصلات، وإنها أرقى من الجامعة التقليدية، إذ يسهل نتيجة لمركزيتها أن تعكس «مناهجها» على نحو أكبر أهم سمات التعليم الجامعي الإبداعي، مثل حث الميل إلى البحث الذاتي والاعتماد على النفس، والارتباط بمشاكل الواقع (الدارسون فيها يعملون في مجالات مختلفة). كما أن ظروفها: من اتساع القاعدة والمركزية ومرونة إمكانات التطوير تتيح فرصة تحديث المقررات باستمرار، للالتزام بأرقى المستويات. ذلك مع توافر الرقابة الاجتماعية عليها (تذاع مقرراتها على الهواء). هذا كما تتيح المركزية الاستفادة من الأساتذة أصحاب القدرات المتميزة و...، وكل ذلك يجعل العملية التعليمية فيها أرقى من وجهة النظر الإبداعية.

هذا كما يمكن جعل القناة التلفزيونية الجديدة أداة ناجعة لإشاعة اللغة العربية وإجادتها بوصفها أداة تنظيم الوعي، لأن

لقد صار للعب المحض (دون وعظ مدرسي) قيمته التربوية والاقتحامية والإبداعية، فالأطفال باتوا يتدربون من خلاله على مواجهة مشكلات الحياة. والأجيال الجديدة من اللعبات الكمبيوترية المتطورة تحفز وتنمي إلى جوار مهارة حل المشكلات، مهارة اتخاذ القرار، كما أنها تزيد من قدرة الطفل على التركيز وتشحذ خياله و...

عدم إجادة استخدام هذه الأداة يعرقل كثيرا من قدرة المرء على التعبير وبالتالي على التفكير. وهذه قضية بالغة الأهمية لأن ماتتعرض له اللغة العربية يكاد يجرنا إلى كارثة واسعة الأصداء. لكن ذلك لايعني عدم الاهتمام بإجادة اللغات الأجنبية، فقد صار من البلاهة، التي تنال كثيرا من المرء نفسه، الاعتقاد في إمكان تجاهل متابعة النتاج المعرفي العالمي، ويجدر بالذكر في هذا الصدد أنه رغم اعتزاز البلدان المتقدمة بلغاتها وغيرتها عليها، فقد باتت هذه اللغات تعرف قواميس ضخمة للكلمات الأجنبية التي دخلتها، وجزء كبير منها ينتمي إلى مجال العلوم الحديثة.

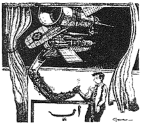
إن الهدف من القناة التلفزيونية التي نطالب بها ليس إتاحة الفرصة لتعليم على أرقظي مستوى وإشاعة المعرفة بالثقافة العلمية والتراث الإنساني فقط، لأن موادها يمكن أن تكون حثا وترشيدا لمناهل معرفية أخرى مثل عملية القراءة، وذلك عن طريق البرامج التي تتطرق بشكل أو بآخر للكتب. لكن لعل الأهم الذي يقود إليه ذلك كله هو عمل برامج هذه القناة عملا مباشرا على الحث الإبداعي. والمسألة ليست غريبة علينا تماما فقد اطلعنا على أطراف من برامج حث الإبداع الأجنبية في برامج المسابقات والجوائز الشائعة في تلفازنا. لكن كثيرا منها ابتُسر حتى أفرغ تماما من أية قيمة تطورية حقيقية.

وقد يتصور البعض أننا أخطأنا العنوان فهذه برامج منوعات فكاهية خفيفة. وحث الإبداع والتفكير لابد أن يكون مسألة «بايخة ثقيلة الدم» يختص بها أفراد ثقيلو...، لكن الهدف الأول من حديثنا ليس إلا مثل هذه البرامج خفيفة الدم والحضور، لأنها هي التي تناسب طبيعة الإبداع الحقيقية، وليس أحوال متفرجينا فقط.

نعم لدينا نواة ينبغي تطويرها آخذين بعين الاعتبار أن بيت القصيد في سعي الإنسان وتقدمه لم يعد تذكره للمعلومات المختلفة التي يجاب عنها بأدوات استفهام مثل من (اكتشف، وفعل، وقال، و...) ومتى وأين، وإنما صار هذا التقدم يرتبط بما يجاب عنه بأدوات مثل لماذا (اكتشف، وفعل، و...) وكيف، لأنها هي التي تحث على التفكير وتقود إلى الإبداع. وقد بتنا نخلط كثيرا بين التذكر والتفكير، ولأن كل برامجنا التعليمية والتلفازية، وحتى البرامج التي تتخذ من التفكير عنوانا لها، تدور معظم أسئلتها، إن لم تكن كلها، بعيدا عن التفكير وتقف عند حدود التذكر.

والتحلق والدوران حول أسئلة التذكر أمر عقيم، ليس فقط لأنه يقود مع الفهلوة إلى «فلسفة البرشام» و«قيم البرشام» و....، بل لأنه يحط أيضا، في النهاية، من قدر الإنسان الذي وهبه الخالق نفحة من قدراته الخلاقة واستخلفه في الأرض.. يحط من قدره

أين نحن من العالم؟



ويسخطه إلى «آلة متذكرة» متواضعة الإمكانات والقدرات، إذا قارناها بالأدوات التى صنعها الإنسان نفسه لتساعده على التذكر، مثل القواميس والموسوعات وبنوك المعلومات و.... وهذا مادفع الجديرين حقا بصفة «من استخلفه الله فى الأرض» لأن يعلموا أولادهم طرق تحرير أمخاخهم من تذكر المعلومات، حتى تتفرغ للتفكير والخلق.

ديمقراطية مناهل المعرفة:

إن مثل هذه القناة المجانية العامة هى الحل الأمثل لديمقراطية التعليم والتثقيف والمعرفة، وتلبية رغبة الأعداد الكبيرة فى الترقى والاستفادة من إمكانات العصر. فوق دورها فى التنشيط الفكرى العام، وكل ماسبق مما لايمكن تركه لقانون أسعار السوق والعرض والطلب.

إن ديمقراطية التعليم ليست مسألة أخلاقية فكل المجتمعات الواعية لمستقبلها تعمل على إتاحة ذلك. ويكفى فى هذا الصدد الإشارة إلى أن عملية اكتساب وتطوير المعرفة، التى صنعت التجربة اليابانية، تبدأ بالتعليم الإلزامى فى المدارس التى تشرف عليها الدولة، وفى إطار تكافؤ تام للفرص يسقط الحواجز الاجتماعية، ويتيح إمكانات التقدم أمام الجميع، مما يؤدى إلى الاستفادة من أفضل العناصر البشرية دون تمييز. ويستمر هذا التكافؤ فى الفرص حتى المراحل الدراسية المتقدمة، فالمعاهد العليا مفتوحة هى الأخرى دون حواجز اجتماعية. وذلك تطبيقا لما يشيع فى العلوم التربوية الحديثة من أن عدم تكافؤ الفرص بين كل أفراد المجتمع فى هذا الصدد ليس إلا إعادة لإنتاج الظلم الاجتماعى والتخلف الحضارى.

ومن المهم هنا أن قناة تلفزيونية من هذا النوع ستجعل المدرسة الراقية والجامعة الراقية تصل إلى المناطق الريفية والمعزولة والنائية من البلاد، بل وإلى التلاميذ ذوى الظروف الخاصة (المرضى مثلا).. كما أنها ستقلل من اعتماد نظم التعليم على الأداء المتواضع لكثير من المدرسين، وتقضى على شكاوى العجز فى أعدادهم وإعدادهم بفتح وكسر الهمزة على حد سواء.

وقد انتشرت الجامعات الحرة من هذا المنطلق فى بلدان كثيرة من بريطانيا إلى الصين إلى إسرائيل. كما دفع ذلك التوجه عددا من البلدان «النامية» إلى توظيف استثمارات هائلة فى مجال الاتصالات، فعلى سبيل المثال سعت الهند إلى ربط مناطقها الريفية بشبكة اتصالات هائلة، إدراكا منها للدفعة التى ستقدمها الشبكة الجديدة للتعليم والتقدم، فى إطار خطة تحديث طموحة تقف بالهند على مشارف طريق المعلومات السريع.

الإمكانات متيسرة:

بقيت إشارة إلى أن الخبرات العالمية (بل والمحلية) الخاصة بمواد مثل هذه القناة وفيرة ومتاحة، كما أن مقتنياتها التقنية لاتعز علينا، وهى لاتحتاج إلا إلى ٨ ـ ١٢ ساعة إرسال يوميا، لدينا حاليا عشرات أضعافها. أى أنه لا ينقصنا فى هذا الصدد إلا تحديد الفلسفة والهدف والمنهج ثم العمل الواعى المتقن، الذى تحدونا فيه المساعى الإبداعية، وعلى نحو متواصل.

إن إنشاء مثل هذه القناة قضية أمن قومى من الدرجة الأولى، يجب أن تحظى بالأولوية الفورية المطلقة.. ولأنه سيكون علينا وعلى أطفالنا فى نهاية المطاف مواجهة معضلة العيش مع أجيال من المؤهلين بالتقنيات الحديثة، والذين يتعاملون معنا مستندين إلى خدماتها. ولأن القضية لن تكون قضية اختيار فيما يخص الكيانات البشرية، فهذه المستحدثات من نفس«نوع» الأسلحة الذكية التى حسمت حرب الخليج حتى قبل أن تبدأ.

إننا ضمن العالم على أبواب عصر جديد تقوم ثقافته على أسس عالمية وهموم إنسانية مشتركة، والاستخدام المبدع لفتوحات التقنية المتقدمة بات يلعب دورا مهما فى تقرير النتائج النهائية للصراعات الحضارية المعاصرة.

يبقى تنويه أخير وهو أن القضية فى هذه العجالة ليست فقط كيف تساعد مثل هذه القناة على صنع المثقف العصرى المبدع، بل كيف تساعد على خلق العقل الناضج المتفتح القادر على رؤية مالا يعتقد فيه، وعلى الحوار والتطور واستيعاب مايحيط به من حقائق، وذلك بدلا من تعليم التلقين والحفظ والإملاء والترديد، الذى يرسخ من صنع المتعصبين ذوى الأفق المحدود الذين يخاصمون روح التغير والإبداع.

كتاب الزاوية

وقفت بوجه ظلامى

توفيق زيّاد

أُنَادِيكُمْ . .

أَشُدُّ عَلَى أيَادِيكُمْ

أبُوسُ الأرْضَ تَحْتَ نِعَالِكُمْ

وَأقُولُ: أفْدِيكُمْ . .

وَأهْدِيكُمْ ضيَا عَيْنِى

وَدِفءَ القَلبِ أُعْطِيكُمْ . .

فَمَأسَاتِى الَّتى أحْيَا

نَصِيبِى مِنْ مَآسِيكُمْ

أُنَادِيكُمْ . .

أَشُدُّ عَلَى أيَادِيكُمْ

أنا مَا هُنْتُ فى وَطَنِى

ولا صَعَّرْتُ أكْتَافى

وَقَفْتُ بِوَجْهِ ظُلاَّمِى

يَتِيماً، عَارِياً، حَافِى . .

حَمَلْتُ دَمِى عَلَى كَفِّى

وَمَا نَكَّسْتُ أعْلاَمِى

وَصُنْتُ الْعُشْبَ فَوْقَ قُبورِ أسْلاَفِى

أُنَادِيكُمْ . .

أَشُدُّ عَلَى أيَادِيكُمْ . .

يســـرق الجمـــال ليأخـــذ

فنجان شاى مع موسولينى

مــرفــت عبــد النــاصـــر



نعيش اليوم فى صحراء من الفكر.. لم تعد هناك ثوابت، فقط كثبان من رمال متحركة.. المواجـــهــة الآن مع النفس.. من نحن وإلى أين ذاهبون؟

ليست كلماتى وإنما كلمات المخرج الإيطالى «برتولتشى» عندما سُئل عما أراد أن يقوله من خلال فيلمه الأخير «سرقة الجمال» والذى أنتج من حوالى أربع سنوات (١٩٩٦).

سرقة الجمال ـ هو فيلم عن هؤلاء الذين عاشوا حلم الستينيات، وفى التسعينيات اكتشفوا أنهم ما زالوا يعيشون نفس الحلم!

حلم الستينيات الذى عاش فيه كثيرون فى أنحاء العالم (ومنهم برتولتشى نفسه). هذا الحلم الذى ترجم إلى لغة سياسية تنادى بالمساواة والعدالة الاجتماعية فى ظل الأنظمة الاشتراكية أو حق الإنسان فى مجتمع الرفاهية فى أطر الديمقراطيات الصناعية، حلم تجسد فى الأدب والفن وأبجدية الشعر، حلم جيل بأكمله أراد أن ينقل الجمال من الخيال إلى أرض الواقع، ليدرك فى التسعينيات أن مفرداته لم تعد قادرة على فهم اللغة الجديدة «لغة السوق»، فيقرر أن يهاجر بحلمه ليعيش متوهمًا أنه نجح بالفعل فى تحقيقه فى مكان ما.

فى فيلم سرقة الجمال ـ تقرر مجموعة من مثقفى هذا الجيل قطع أواصرها بمجتمعاتهم الصناعية «السوقية»، يأخذون ثرواتهم التى حققوها فى زمن الرفاهية أو زمن التواطؤ مع منظمات الربح فى أوروبا وأمريكا ويهربون بحلمهم المجعد إلى ريف إيطاليا، إلى «توسكانا» لكى يخلقوا يوتوبيا الجمال، وهل هناك مكان آخر فى العالم يسع تجسيد فكرة الجمال على الأرض أجمل من توسكانا؟

تبدأ أحداث الفيلم بوصول «لوسى» إلى «سيينا» قلب توسكانا، هذه الفتاة الأمريكية ابنه التاسعة عشرة التى يتملكها إحساس معتم بأن جزءًا منها يحمل رائحة هذه الأرض، تأمل أن تزيل شمس توسكانا الغمامة عنه، حتى تعرف من هى!

تصل لوسى لترى مجتمعًا من مهاجرى أوروبا وأمريكا من أدباء وشعراء وفنانين يعيشون حياة «كوميون» بوهيمية يحاولون من خلالها تجميد الزمن والعودة إلى الوراء، هجرة عقلية يعيشون فيها حلمهم عرايا فى جزيرة صناعية تسمح لهم بالخروج من أشكال وأحكام الحياة العادية، وتحيط بهم تماثيل صنعتها أيديهم وكأنها ظل من كانوا.

أجساد من الطين وأجساد من اللحم، فى حالة ابتهال لشمس «سيينا» أملا فى أن تنبت من الحلم واقعًا ما!

جيل يختلف تمامًا عن جيل «لوسى» الأمريكية التى تملؤها حياة حقيقية على الرغم من صراعاتها الداخلية: أصولها مشكوك فيها ورؤيتها للمستقبل غامضة، وبالرغم من تطلعها للحياة ، فهى تخطو إليها بحذر نابع من البعث الجديد لأخلاقيات وأعراف أصولية وتقليدية تخيف من مجرد الاقتراب الحقيقى منها.

ولا يلبث أن يصادفها الحب ـ فى إيطاليا ـ مثل ما صادف أمها الشاعرة المزاجية يوما ما والذى كانت لوسى وليدته (كما تكتشف فى نهاية الفيلم).

تحب لوسى شابًا إيطاليًا، يدعى أنه يبادلها الحب لأن حلمه الوحيد هو السفر إلى أمريكا! فهى «كارته الأخضر» لدخول أرض الأحلام التى يحلم بها كل شباب إيطاليا، بل كل شباب العالم!

أمريكا، حلم شباب التسعينيات مثلما كانت اليوتوبيا حلم شباب الستينيات!

ولكن ماذا يحدث إن لم يجد شاب التسعينيات أمريكية تحبه ولم تكن هناك بطاقة خضراء تنتظره؟ هل يموت حلمه هو الآخر، وهل من الممكن أن نعيش بالرغم من المسافات التى تفصل بيننا وبين الحلم، أو بمعنى آخر أن نعيش فى حالة مؤقتة من اليأس ولا نموت؟

سؤال يطرحه البرتو مورافيا فى بداية قصته الرائعة (١٩٣٤)، والتى تدور أحداثها فى كابرى مع بدايات تورط إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية.

وهى نفس الفترة التى تدور فيها أيضا أحداث فيلم «فنجان شاى مع موسولينى» للمخرج الإيطالى زفاريللى والذى أنتج فى العام الماضى (١٩٩٩)، ويحاول «زفاريللى» فى هذا الفيلم أن يجيب عن سؤال مورافيا بطريقته الخاصة، نعم من الممكن أن نعيش فى يأس ولا نتمنى الموت، عندما يتحول اليأس إلى نوع من العناد المتحضر أو الرفض الشيك! .. كيف؟ هذه هى قصة الفيلم!

القصة فى الواقع حقيقية وهى زفاريللى نفسه عندما كان صبيًا فى فترة الحرب، قصة طفولة ممزقة بين كل هؤلاء الذين يريدون وضع أيديهم على الجمال، وكل منهم يرى أنه يملك الأيديولوجية المناسبة لتحقيقه، تدور أحداث الفيلم فى توسكانا أيضًا، وفى فلورنسا بالذات عندما تقع ثلاث سيدات إنجليزيات فى غرام توسكانا ويقررن البقاء فيها لتكملة حياتهن هناك.

ثلاث سيدات فى خريف العمر، الأولى هى «جوان بلورايت[*]» التى فقدت فى الحرب العالمية الأولى الرجلين الوحيدين فى حياتها ـ الأب والحبيب ـ فكان عزاؤها السفر إلى إيطاليا التى أحبتها من فرط حبها لشكسبير، فلقد نسج الكثير من أحداث مسرحه الشعرى فى أرجائها!

تعمل «جوان بلورايت» سكرتيرة لصاحب محل أقمشة فى فلورنسا يتاجر فى الصوف والتويد الإنجليزى، له ابن (زفاريللى أو لوقا كما يسمى فى الفيلم) لا يناديه أبوه باسمه ولكن بلقب «غير الشرعى»، وتحاول سكرتيرته الإنجليزية أن تفهمه تكرارًا بأنه لا يوجد فى الدنيا أطفال غير شرعيين، فقط آباء غير شرعيين!، ولكنه لا يريد أن يستوعب هذا، يضع ابنه فى ملجأ ومع ذلك يقول لسكرتيرته كل صباح أنه يريده أن يصبح «جينتلمان إنجليزيًا كاملاً» فى يوم من الأيام!، فينتهى الأمر بأن تأخذه السكرتيرة الإنجليزية رحمة به من أجل أن تربيه وترعاه!

تجلس معه كل مساء لتقرأ له حكايات شكسبير من خلال تلك الكتب المجسمة للأطفال (والتى كنت أحبها كثيرًا وأنا صغيرة)، تفتح الكتاب فيظهر مشهد الفراندة الشهير فى روميو وجولييت وتقرب الأباجورة إليه كى يبدو القمر فى صفحة الكتاب ساطعًا وتعيش مع الطفل كلمات جولييت لروميو: «أرجوك لا تقسم على حبك لى بالقمر، أخشى أن يكون مثله متغيرًا يتضاءل فى مداره مع الأيام!».

ويشارك جوان بلورايت فى تربية الطفل باقى السيدات، «جودى دينش» التى تعشق الفن وتقوم بترميم بعض جداريات الكنائس والتى تأخذ الطفل يوميًا لزيارة جوهرة الفن الإيطالى «متحف الأوفيتس» مرورًا بأكاديمية الفنون فى فلورنسا ليتأمل عبقرية مايكل أنجلو فى تمثاله الشهير «دافيد».

و«ماجى سميث» الإنجليزية الثالثة.. أرملة السفير البريطانى السابق والتى ترى أن دورها فى الحياة أن تجعل البشر متحضرين مثلها! ولهذا فكل ما تقوم به تجاه الطفل ينحصر فى تعليمه آداب التعامل فى الأوساط الراقية!

وسرعان ما تتغير الأحوال، يعلو نجم ألمانيا ويخبو نجم بريطانيا ويهدد شبح الحرب إقامة السيدات الثلاث فى فلورنسا.

يستغنى تاجر الأقمشة عن خدمات سكرتيرته الإنجليزية وعن التويد الإنجليزى وعن شكسبير ويقرر أنه يريد لابنه أن يكون الآن «الجينتلمان الألمانى الكامل»! يأخذ الطفل من سكرتيرته الإنجليزية ويبعث به للدراسة فى النمسا.

تبدأ أعمال العنف والشغب الموجهة إلى الجالية البريطانية وتصر ماجى سميث أرملة السفير السابق بأن موسولينى لا يعرف شيئًا عن تلك الهمجية والفوضى وتطلب لقاء معه لتحكى له عن معاناتهن ويستقبلها «الدوتشى» بترحاب يحقق من خلاله خبطة إعلامية! يطمئنها بأن الأمن والأمان سوف يعودان إلى فلورنسا وأنها وباقى السيدات الإنجليزيات فى حمايته الخاصة، وتظهر صورتها فى اليوم

التالى فى الصحف وهى تتناول فنجان الشاى مع موسولينى!

وما هى إلا أيام قليلة بعد هذا اللقاء التاريخى مع موسولينى، حتى تواجه أولئك السيدات قرار ترحيلهن إلى بريطانيا أو تحديد إقامتهن تحت عين السلطات الإيطالية إن رفضن الرحيل.. ويفضلن بالفعل البقاء ويقررن أنه لن يفرض أى واقع مهما كانت مرارته عليهن، ولن تتحكم الظروف فى اختيار نوع أو أسلوب حياتهن، وتحتجز السلطات الإيطالية السيدات الإنجليزيات فى مكان لا يليق أبدًا بهن، خاصة بأرملة السفير البريطانى ولا بوعود موسولينى لها بأنها فى حمايته الخاصة!

ويستمر الوضع بصورته المهينة، حتى تأتى «شير» الأمريكية الثرية إلى فلورنسا لتعلم بما حدث للسيدات الإنجليزيات، فلقد كان لها معرفة سابقة بهن حيث كانت تأتى كثيرًا لفلورنسا لشراء أعمال فنية للجاليرى الذى تملكه فى نيويورك، وكانت تربطها علاقة صداقة مع أم الطفل لوقا (زفاريللى) قبل أن تموت.. تصل شير إلى محطة القطار فى فلورنسا فى نفس اليوم الذى يعود فيه لوقا (زفاريللى) من النمسا ليلتحق بأكاديمية الفنون هناك، هذا بعد أن حددت الأمريكية «شير» جزءًا من ثروتها لتضمن له الأمان الاقتصادى وتعهدت أيضًا بكل مصاريف تعليمه.

وتعمل شير على نقل السيدات الإنجليزيات إلى فندق فخم تتحمل هى أيضًا مصاريف إقامتهن فيه، ولكن الأمور تزداد تعقيدًا بالتدخل الأمريكى فى الحرب، وتصبح شير هى الأخرى مهددة أكثر منهن (فهى يهودية الأصل) خاصة بعد ما سلبت كل أموالها هناك.

يستغل لوقا (زفاريللى) الوديعة التى تركتها له شير من أجل ضمان مستقبله ليساعدها ويساعد بقية السيدات وتنتهى أحداث الفيلم لصالح السيدات، أو لصالح ما هو جميل وإنسانى فى أى واحد فينا.

تستمر جوان بلو رايت فى تعليم الشعر للأطفال، وجودى دينش فى ترميم الجمال فى كنائس إيطاليا، ولكن هل من الممكن أن أنهى الحدوتة التى يلعب الجمال دور البطولة فيها وتلعب كل من أمريكا وإيطاليا دورى السنيدة بدون أن أذكر مصر!! (اعذرونى)!

نعم تأتى إيطاليا لمصر لترميم أول بيوت الجمال فى الدنيا، جاءت بنقود أمريكية لتنقذ المكان الذى يخلد إليه الجمال، بيت أخروى، مقبرة، هى مقبرة جميلة الجميلات نفرتارى.

تلك المقبرة التى تعتبر أجمل مقابر الملكات، بل ربما أجمل مقابر مصر القديمة جمعاء، وهى تحفة فنية عمرها يزيد على الثلاثة آلاف عام، اكتشفها العالم الإيطالى «أرنستو شيباريللى» عام ١٩٠٤، ومنذ لحظة اكتشافها وهى فى حاجة إلى ترميم!

أخذت عملية ترميمها ستة أعوام بدأت فى عام ١٩٨٧، وحرص فيها علماء الترميم على الحفاظ على الجمال كما كان، تكلف الترميم ثمانية ملايين دولار تحملها معهد «بول جيتى» الأمريكى.

وبول جيتى صناعى أمريكى اهتم كثيرًا بالآثار المصرية القديمة وأيضًا اليونانية والرومانية وقضى حياته فى جمع الكثير منها، وكان هذا نواة متحفه الذى يضم مجموعة فنية نادرة، ولقد أوصى بول جيتى بإنشاء معهد خصص له جزءًا كبيرًا من ثروته من أجل الحفاظ على تلك الآثار القديمة.

هل الخلاصة إذًا من هذه الحدوتة الطويلة هى تقديم الشكر والتبجيل لحامية الإنسانية وراعية الجمال فى العالم.. أمريكا، والتى لن تستوى الحياة بدونها! بالطبع لا.

لا شك أن القوة الاقتصادية مهمة جدًا، ولكنها لا تكفى وحدها، لا بد أن يكون هناك من يعشق شكسبير ويريد أن يعلم الشعر للأطفال، ولا بد أيضًا أن يكون هناك من يحب فنانى النهضة فى إيطاليا ويؤرقه الخوف من احتمال زوال إبداعاتهم بعوامل الزمن والتعرية.

وفوق كل هذا لا بد من إدراك أزلية الجمال الذى هو جزء لا يتجزأ من إنسانية البشر، هذا الجمال الذى عاش به أناس منذ آلاف السنين لنعيش نحن به الآن بعد أن رحلوا.

لن يعود الجمال أبدًا بالحسرة ووضع الأيادى على الخدود، ولن يعود أيضًا بهجرة الفكر والعيش فى الماضى، ولا باستمرار الحرب مع طواحين الهواء.

يقول «فاروق جويدة» فى إحدى قصائده:

لماذا نكره الأحياء والموتى
ونكره كل ما فينا
كأن الأرض لم تنجب
سوى زمن يعادينا.

سيعود الجمال، إذا لم نستسلم لكراهية أنفسنا وكراهية العالم من حولنا، سيعود الجمال بالإصرار عليه ورفض القبح الإنسانى، بكل أشكاله.

سيعود بمواجهة النفس، وبالتعامل مع الرمال المتحركة، بالتمرد البناء، التمرد المتعقل، التمرد المتحضر، التمرد الشيك، الذى يمكن بالفعل أن يعيد خلق الجمال.

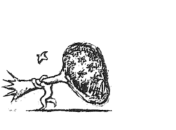
يقول «كارلوس فونتيس(**)» ـ الأديب المكسيكى عن علاقته بأمريكا:

هل كان هذا الماضى فعلاً حقى..
وهل حلمى هو حلم بلد حقيقى
أم أنه فعل سياسى
بلدى، قد تحدد عمره كتب التاريخ
ولكن مازال البحث مستمرًا
ولن أهدأ..
إلا إذا أدركت هذا القدر المشترك
هذا المصير، الذى يجمعنا مع مجتمع آخر
مجتمع الزمن الحقيقى
مجتمع أمريكا
التى أقنعتنى بضرورة أن أكون
وأن أكون، بكل شراهة
أن أحيا من أجل المستقبل
مستقبلاً معجونًا بكبرياء حقيقى
تمتد جذوره قرونًا منسية
وقرونًا قادمة
سوف أحقق هذا
إذا نجحت الآن
فى اصطياد تلك اللحظة. ■

هامش

* أسماء السيدات الإنجليزيات والسيدة الأمريكية هى أسماء الممثلات الحقيقيات اللاتى لعبن هذه الأدوار. ومن الجدير بالذكر أن الثلاث: جوان بلو رايت، وماجى سميث، وجودى دينش من أقطاب التمثيل فى بريطانيا وحاصلات على لقب «سيدة الإمبراطورية» وهو لقب مماثل للقب «فارس» الذى يمنح للرجال.

** ذكرت فى مقدمة كتاب كارلوس فونتيس: «أنا والآخرين».



كتاب الزاوية

ثلاث صور من غزة

صلاح عبدالصبور

- ١ -

لم يكُ فى عيونه وصوته ألمْ
لأنه أحسّهُ سنهْ
ولاكَهُ.. استنشقه سنهْ
وشاله فى قلبه سنهْ
وطالتْ السنونَ أزْمَنَهْ
فأصبحت آلامُه- فى صدْرِه- حقدا
بل أملاً ينتظر الغدا

- ٢ -

يا أيها الصغارْ.. عيونُكُمْ تحرقنى بنارْ
تسألنى أعماقُها عن مطلعِ النهارْ
عن عودةٍ إلى الديار
أقول.. يا صغارْ.. لننتظر غداً
لو ضاع منا الغد، يا صغارُ.. ضاعَ عُمْرُنا سدى

- ٣ -

كانت له أرض وزيتونهْ
وكرمةٌ، وساحةٌ، ودارْ
وعندما أوْفَتْ به سفائنُ العمرِ إلى شواطىء السكينة
وخطَّ قبره على ذُرى التلالْ
انطلقت كتائبُ التَتارْ
تذودُهُ عن أرْضه الحَزينَة
لكنّهُ خلفَ سياجِ الشوكِ والصبّارِ ظل واقفاً.. بلا ملال
يرفضُ أن يموتَ قبلَ يومِ ثارْ
يا حُلْمَ يومِ الثّارْ

العمران فى مصر
فى أواخر القرن العشرين

أبو زيد راجح

[الفصل الأول : «أحداث حول عام ١٩٩٩»]

المشهد الأول :

الجرائد اليومية تعلن على كامل صفحاتها وفى ملاحق خاصة عن إنشاء أحياء سكنية عالية المستوى تتكون من فيلات فخمة ذات حمامات سباحة خاصة ومقامة وسط حدائق غناء. وكل مجموعة من هذه الفيلات خططت لتشكل دائرة حول مساحة خضراء كبيرة تتوسطها بركة صناعية . وقد صممت الفيلات بطرز معمارية متنوعة وجذابة . وتحتوى هذه الأحياء بجانب الفيلات على عمارات فاخرة ذات وحدات سكنية واسعة وتحيط بها أيضا مساحات خضراء كبيرة . وقد زودت هذه الأحياء بكل ما يحتاجه ساكنوها من مراكز تجارية وترفيهية ونواد وملاعب وعلى الأخص ملاعب دولية للجولف. كما خصصت بها أماكن لممارسة رياضة ركوب الخيل لهواة هذه الرياضة . وجاء فى هذه الإعلانات أن ساكنى هذه الأحياء سوف يستمتعون هم وأسرهم برغد العيش بعيدا عن ضوضاء المدن وتلوثها وزحامها . وأطلقت عليها أسماء أجنبية لها سحرها مثل: بيفرلى هيلز ودريم لاند وجولف السليمانية . ولم يقف الإعلان عن هذه الأحياء المتميزة على الجرائد والمجلات بل أعدت حملات مكثفة بالتليفزيون شارك فيها كبار الممثلين والممثلات للإعلان عنها.

المشهد الثانى:

معرض كبير لمشروعات الأحياء الفاخرة الجديدة يقام فى المركز الدولى للمؤتمرات بمدينة نصر ويعد إعدادا جيدا. ويحضر افتتاح هذا المعرض جمع كبير من كبار المسئولين فى الدولة. أخذ المسئولون ينتقلون من مشروع لمشروع ويقوم المستثمرون أصحاب هذه المشروعات بشرحها لهم على ماكيتات مجسمة وعلى لوحات رسم ملونة بمناظر للفيلات والعمارات وهى متناثرة على المساحات الخضراء وتتخللها البحيرات والملاعب ويبينون مزاياها وما سوف تحققه لقاطنيها من حياة رفيعة المستوى. وينقل التليفزيون على الهواء مباشرة تفاصيل هذه الزيارة التى استغرقت ما يقرب من ساعتين ويشاهدها أبناء مصر فقراؤهم وأغنياؤهم.

المشهد الثالث:

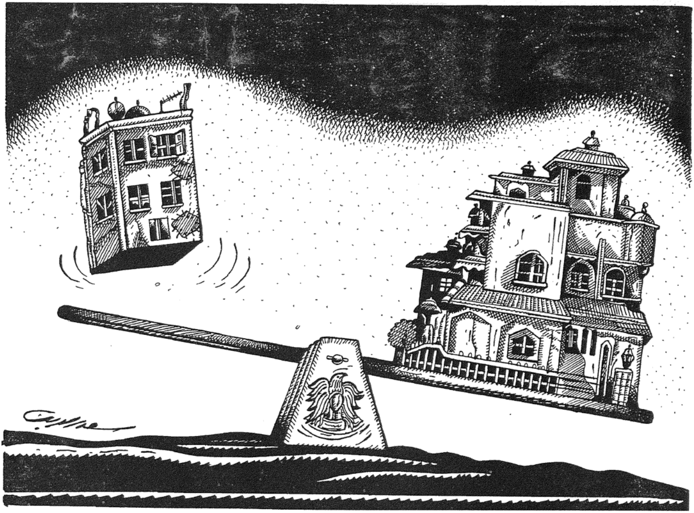
يستضيف أحد أصحاب هذه المشروعات نفس كبار المسئولين لزيارة ومعاينة مشروعه على الطبيعة . ويرى مشاهدو التليفزيون هؤلاء المسئولين وهم يتنقلون بين أرجاء هذا الحى الفاخر الفسيح معجبين كل الإعجاب بمساكنه وملاعبه وخدماته التى لا يوجد لها مثيل إلا فى أماكن محدودة على الكرة الأرضية والتى لا يقصدها إلا أثرياء العالم ومشاهيره. وتستمر هذه الزيارة ساعتين ويشاهدها أيضا أبناء مصر فقراؤهم وأغنياؤهم. ربما كانت المرة الأولى التى يشاهدون فيها هذا الوافد الجديد الذى كثر الحديث عنه أخيرا والمسمى بالجولف، وهم لا يفهمون لهذه اللعبة معنى أو هدفًا إلا أنها قد تندرج تحت باب التسلية التى يمارسها مجتمع الرفاهية أو مجتمع التخمة فى أوقات فراغهم.

شاهد المتفرجون هذا الفصل باندهاش شديد وقد أثارت مشاهده فيهم الكثير من التساؤلات التى لا يجدون لها جوابا. فهل حققت مصر كل احتياجاتها الأساسية من مسكن وملبس وعلاج وكل احتياجاتها الثقافية والتعليمية حتى تسعى إلى تحقيق احتياجات الرفاهية بإقامة مثل هذه الأحياء. وهل يعيش بين ظهرانيهم هذا الكم الهائل من الأثرياء والمليونيرات القادرين على امتلاك مثل هذه القصور والعيش فيها . ولماذا تبارك الدولة إقامة هذه الأحياء بهذه الكثرة فى شرق القاهرة وغربها ويقوم كبار المسئولين بزيارتها والتجول فيها، وفى ذلك إعلان بطريق غير مباشر عنها فى الوقت الذى لم تطأ فيه قدم أى من هؤلاء المسئولين أحياء الفقراء والأحياء العشوائية ليروا بأعينهم كيف تعيش غالبية المصريين. ألم يكن من الأجدى صرف المليارات التى أنفقت على هذا الإسكان الفاخر فى إقامة إسكان أكثر تواضعا لفقراء مصر وما أكثرهم وعلى الأخص هؤلاء الذين يشاركون الموتى سكناهم والأسر الكثيرة التى تحشر كل منها حشرا فى غرفة واحدة ضيقة مظلمة وتشترك مع عدة أسر أخرى فى دورة مياه واحدة.

[الفصل الثانى «أحداث حول عام ١٩٨٠»]

المشهد الأول :

مجموعة من الخبراء يبلغ عددهم حوالى أربعين خبيرا فى كل مجالات الإسكان تجتمع حول مائدة مستديرة بالقاعة الرئيسية بوزارة الإسكان . تكونت هذه المجموعة الممتازة فى عهد رئيس الوزراء النابه دكتور مصطفى خليل والدكتور مصطفى الحفناوى



وزير الإسكان بهدف وضع سياسة قومية للإسكان وتحديد احتياجات مصر من الإسكان حتى عام ٢٠٠٠ . استمر عمل هذه اللجنة ما يقرب من عام، وكونت فيما بينها مجموعات عمل كل منها تبحث جانبًا من جوانب الإسكان المتعددة. انتهت اللجنة من عملها في الميعاد المحدد لها بوضع سياسة متكاملة للإسكان في مصر وخطط مرحلية لتنفيذها، وأصدرت دراساتها وتوصياتها في عدة مجلدات . أسفرت الدراسة عن أن حاجة مصر من الوحدات السكنية حتى عام ٢٠٠٠ تبلغ ثلاثة ملايين وحدة نصفها خصص لمحدودي الدخل والنصف الآخر خصص للشرائح الاجتماعية الأخرى وعلى الأخص الطبقة الوسطى من المجتمع .وقد تحددت في هذه الدراسة كميات مواد البناء اللازمة لتنفيذ هذه الخطة والتمويل المطلوب لها وكذلك حجم العمالة ونصيب الحكومة والقطاع العام من ناحية والقطاع الخاص من ناحية أخرى في تنفيذها. كذلك شملت الدراسة الأراضي والمرافق اللازمة لهذا الكم من الوحدات السكنية. وقد أطلق على هذه الدراسة «الخطة القومية للإسكان حتى نهاية القرن العشرين».

المشـــــهـــد الثـــانـي:

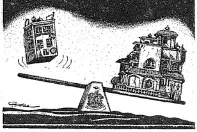
تجتمع مجموعة من خبراء التخطيط الفرنساوية على درجة عالية من الكفاءة والخبرة استقدمتهم الحكومة المصرية للاشتراك مع خبراء الهيئة العامة للتخطيط العمراني لإعداد مخطط عام لإقليم القاهرة الكبرى وقد شارك بعض من هؤلاء الخبراء الأجانب في تخطيط إقليم باريس. ويمر التخطيط الحضري عادة بثلاثة مراحل : التخطيط الاستراتيجي وتحدد فيه أهداف ومبادئ التخطيط، ثم التخطيط الهيكلي وفيه توضع الخطوط العريضة للتخطيط شاملة مواقع الأحياء والمجاورات والطرق والشوارع الرئيسية ومحاور الامتدادات في المستقبل ثم، التخطيط التفصيلي وفيه تحدد الكثافات البنائية والسكانية والارتفاعات واستعمالات الأراضي للأنشطة السكنية والصناعية والتجارية والمالية والمهنية وغالبا ما يقن هذا التخطيط حتى يكون بمناى عن عبث العابثين من ذوي السلطة والنفوذ. ولا توجد مدينة في عالم الغرب إلا ولها مثل هذه التخطيطات. أما القاهرة العاصمة التاريخية فلم يكن لها تخطيط يحدد هيكلها العمراني ولذا فقد اختلطت فيها الأنشطة وارتفعت فيها الأبراج واختفت المساحات الخضراء العامة والخاصة وامتدت عشوائيا في كل اتجاه وارتفعت فيها الكثافات السكانية حتى صارت من أعلى كثافات مدن العالم. وبمعنى آخر فقد تشوهت القاهرة وفقدت طابعها المعماري والعمراني الأصيل. بعد ثلاث سنوات من العمل الدءوب أتم خبراء التخطيط الفرنساوية والمصريون وضع استراتيجية لتخطيط القاهرة تتمثل في ثلاثة محاور: أولها إقامة عشرة تجمعات حول القاهرة لإسكان محدودي الدخل وذلك للحد من امتداد الإسكان العشوائي والتهامه الأراضي الزراعية الخصبة، وكذلك ينقل إليها سكان الإسكان الهامشي وسكان المقابر وبعض الأنشطة الحرفية والصناعية وذلك بهدف تخفيف الكثافة السكانية داخل المدينة . وثانيها إنشاء طريق دائري حول القاهرة الكبرى أسوة بطريق باريس الدائري وثالثها تقسيم القاهرة إلى قطاعات متجانسة يكتفي كل قطاع ذاتيا بأنشطته الحياتية الأساسية.

المشـــــهـــد الثـــالث:

تكلف وزارة التعمير والإسكان عدة مكاتب عالمية بوضع سياسة قومية للتنمية الحضرية على مستوى الجمهورية وشاركت المكاتب الأجنبية مجموعة من المكاتب المصرية مشهود لها بالكفاءة والخبرة. درست هذه المجموعة المدن المصرية الحالية دراسة متعمقة شملت تاريخها وخصائصها وأنواعها وأحجامها ومعدل نموها كما درست ظاهرة التحضر في مصر وتضخم بعض المركز الحضرية الكبرى.وقد حددت احتياجات مصر مستقبلا من المدن والمجتمعات الجديدة ثم درست البدائل المختلفة للتنمية الحضرية وأساليب امتداداتها. وانتهت الدراسة إلى التوصية بأن أنسب البدائل للتنمية الحضرية في مصر هو الامتداد التدريجي من الحيز المعمور الحالي في الوادي والدلتا إلى الصحراوات المجاورة على الجانبين . وستمد المدن الحالية المجتمعات الجديدة المجاورة لها بما تحتاجه من عمالة ومرافق وبذلك فإنها ستكون أقل تكلفة من المجتمعات التي تنشأ بعيدا في قلب الصحراوات إذ أنه يصعب تزويدها بالعمالة والمرافق إلا بتكلفة باهظة. كذلك أوصت الدراسة بجانب الزحف التدريجي للحيز الحالي بتنمية أقاليم تنموية مثل إقليم سيناء وإقليم بحيرة السد العالي والساحل الشمالي وساحل البحر الأحمر . وصدرت هذه الدراسة في عدة مجلدات تحت عنوان «التنمية الحضرية في مصر».

المشـــــهـــد الرابع:

قام البنك الدولي بالاشتراك مع الهيئة العامة لبحوث البناء والإسكان بإجراء دراسة مستفيضة لمستقبل قطاع التشييد في مصر حتى عام ألفين. وشملت الدراسة الوضع الراهن لشركات المقاولات العامة والخاصة والمناط بها



تنفيذ مشروعات الدولة فى كافة المجالات من حيث أحجامها وأنواعها وكفاءاتها الفنية وهياكلها الإدارية والمالية ونوعيات العمالة بها وقدراتها فى استخدام تكنولوجيات البناء الحديثة. وانتهت الدراسة إلى أن شركات المقاولات فى مصر فى حاجة ماسة إلى تطوير جذرى على كافة الجبهات . ويتمثل الإصلاح الذى اقترحه خبراء البنك الدولى والخبراء المصريون فى العمل على الارتقاء بمستوى العمالة الفنية وتدريبها على استخدام المعدات الحديثة وتنفيذ المنشآت بدرجة عالية من الجودة وفى هذا السبيل أقترح إنشاء مراكز تدريب عالية المستوى . كذلك شمل الإصلاح ضرورة استخدام التكنولوجيات الحديثة والآلات والمعدات المتطورة فى عمليات البناء. وعرض البنك الدولى تمويل شراء هذه المعدات. وأوصت الدراسة بإعادة الهيكلة الإدارية والمالية لشركات المقاولات وتشجيع المنافسة ومنع الاحتكار فى هذا القطاع الهام كما أوصت بإنشاء مركز معلومات على مستوى عالمى لخدمة شركات المقاولات. وبمعنى آخر فإن الهدف من هذا المشروع كان تأهيل شركات المقاولات المصرية لتنفيذ مشروعات العمران بدرجة عالية من الكفاءة الفنية وكذلك إعدادها لكى تقف على قدم المساواة مع الشركات العالمية فى نهايات هذا القرن.

المشهد الخامس:

قام البنك الدولى بالتعاون مع الهيئة العامة لبحوث البناء والإسكان مرة أخرى بدراسة ظاهرة الإسكان العشوائى فى مصر والتى بدأت تظهر مثل البثور على وجه المدن المصرية. ويطلق الإسكان العشوائى على الإسكان الذى بنى بدون تراخيص بناء وعلى مواقع غير مخططة. وقد فتحت هذه الدراسة الباب على مصراعيه على عالم غريب غير مألوف من بيئة عمرانية متردية تنقصها الخدمات الاجتماعية من مدارس ومستشفيات ومراكز بوليس ومطافئ؛ وكذلك تنقصها الخدمات البلدية من نظافة وجمع قمامة. ويبلغ عرض الشوارع بها من مترين إلى ثلاثة أمتار وبالتالى فلا تستطيع العربات الدخول إليها، وقد أقيمت مبانيها بدون قيم معمارية وتنقصها التهوية والإنارة الطبيعية . والمجتمع العشوائى يعانى من الكثير من الأمراض البدنية والنفسية وتعتبر الأحياء العشوائية مرتعا خصبا للجريمة بكل أنواعها خصوصا الجرائم الاجتماعية كما تعتبر وكرا للتطرف والإرهاب. ويسكن المناطق العشوائية المهاجرون من الريف إلى الحضر بحثا عن عمل بعد أن ضاق بهم العيش فى قراهم وكذلك تسكن بها الشرائح الاجتماعية ذات الدخول المحدودة. لقد تناست الدولة محدودى الدخل طويلا فاخذوا الأمر بأيديهم وحلوا مشكلتهم السكانية بأنفسهم بطريقة بدائية وبدون اتباع أية قواعد للتخطيط والعمران . وقد تم حصر الإسكان العشوائى وتبين أنه يمثل ٨٤٪ من مجموع الإسكان الذى بنى فى القاهرة فى فترة الستينيات وقد بنى على الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن وفى الفراغات الخالية داخلها. ولسرعة انتشار هذا الإسكان فقد سمى بالإسكان السرطانى . وتعيش مجتمعات هذه الأحياء تقريبا خارج النطاق الرسمى للدولة .

لقد سعد المتفرجون بمشاهدة هذا الفصل وأيقنوا أن مصر أخيرا قد وضعت قدمها على الطريق الصحيح وأنها بدأت فى استخدام العلم والبحث والدراسة والتخطيط فى تحديد مشاكلها العمرانية وإيجاد الحلول الملائمة لها. وفى سبيل ذلك لم تكتف بالخبراء المحليين من أبنائها بل استقدمت خبراء متخصصين من بلاد الفرنجة ليشاركوا خبراءها فى هذه الدراسات وهو أمر لا بأس به بل هو مطلوب. وقد سبق أن استخدم الوالى محمد على الكبير الخبراء الأجانب فى بناء دولته ونجح فى ذلك نجاحا كبيرا، كما سار على طريقه حفيده الخديوى إسماعيل فاستعان بالمخططين الفرنساوية فى تخطيط قاهرته . فما أشبه الليلة بالبارحة. لقد وضعت خطة قومية للإسكان حتى نهاية القرن وأعدت دراسة للتنمية الحضرية على مستوى الجمهورية ووضعت استراتيجية للتخطيط الحضرى لإقليم القاهرة الكبرى حيث يعيش ربع سكان الجمهورية . كما أعدت دراسة لتطوير الجهاز التنفيذى الذى سيقوم بتنفيذ هذه الخطط والدراسات . كما حددت أبعاد مشكلة من أهم وأخطر المشاكل الاجتماعية والإسكانية فى مصر وهى مشكلة الإسكان العشوائى . وبعد إتمام هذه الدراسات والخطط لم يبق إلا أن تنفذها مصر حتى تتبوأ مكانا مرموقا بين الدول التى تأخذ بأسباب الحضارة المعاصرة.

[الفصل الثالث

«أحداث ما بين ١٩٨٠ و١٩٩٩»]

المشهد الأول:

تقوم وزارة الإسكان والمرافق والمجتمعات الجديدة بدراسات لم يعلن عنها وتتم فى صمت وفى النهاية تصدر تباعا عدة قرارات أصدق ما توصف بها أنها قرارات انقلابية . أول هذه القرارات خاص بالتجمعات العشرة المقترح إقامتها حول القاهرة . لقد غيرت الوزارة الهدف الأصلى من إقامة هذه التجمعات فبدلا من أن تخصص لسكن محدودى الدخل للحد من انتشار العشوائيات على الأراضى الزراعية وبدلا من أن تستخدم لتفريغ القاهرة من بعض الأنشطة ومن سكان المقابر والمساكن الجوازية كما كان مقررا لها من قبل ، بدلا من ذلك فقد خصصت لسكنى الشرائح فوق المتوسطة والعليا من المجتمع. لقد أعيد تخطيطها وقسمت إلى قطع كبيرة وطرحت هذه التقسيمات للبيع فاقبل عليها المشترون إقبالا شديدا وهم فى أغلبهم القادرون من المجتمع والمصريون الذين عملوا فى بلاد البترول أو فى بلاد الغرب لمدد طويلة وكونوا مدخرات كبيرة. وقد سعوا للحصول على هذه المواقع إما لإقامة مساكن لهم أو لاستغلالها كنوع من الاستثمار العقارى الأكثر عائدًا من الاستثمار فى أى مجال آخر. وأغلب هذه التقسيمات لم تصل إليها بعد المرافق الأساسية من مياه وصرف وكهرباء وطرق ولا يعلم أحد متى تصل إليها هذه المرافق الحيوية .

أما القرار الثانى فهو تخصيص مساحات كبيرة تقدر بآلاف الأفدنة لبعض كبار رجال الأعمال الذى يعملون فى الصناعة لإقامة الأحياء الفاخرة التى ظهرت فى مشاهد الفصل الأول، لقد امتد اهتمام رجال الأعمال هؤلاء من الصناعة إلى الاستثمار العقارى ذى الربح الوفير. وقيل إن هذه المساحات قد خصصت لهم بسعر زهيد وهو خمسة عشر جنيها للمتر المربع ثم حصلوا على قروض من البنوك لتمويل إنشاء هذه المشروعات على أساس أن سعر المتر ٣٥٠ جنيها، أى أن تمويل الأحياء الفاخرة المخصصة لعلية القوم إنما تم عن طريق مدخرات المصريين البسطاء فى البنوك. وهذا القرار شأنه شأن القرار الأول إنما يعنى انحياز وزارة الإسكان لسكنى الشرائح العليا من المجتمع بدلا من الاهتمام بسكنى الشرائح الدنيا منه.

أما القرار الثالث فهو الإعلان عن إنشاء مدينة شرق الطريق الدائرى تسمى «بالقاهرة الجديدة» على مساحة بلغت ٤٥٠ ألف فدان ويمكنها أن تستوعب ما يقرب من خمسة ملايين نسمة يضافون إلى الاثنى عشر مليونا من سكان القاهرة الكبرى الحاليين وهذا يعنى تغيير المسار السكانى من الاتجاه نحو الانتشار من المراكز الحضرية الحالية إلى الاتجاه نحو مزيد من التركيز فيها. إن التوجه القومى العام يسعى إلى توزيع الاستثمارات على أقاليم مصر المختلفة وتنميتها مثل إقليم جنوب الصعيد وسيناء والوادى الجديد لخلق فرص عمل بها تحد من هجرة السكان إلى المراكز الحضرية الكبرى وعلى الأخص إقليم القاهرة. ومشروع إنشاء القاهرة الجديدة بالحجم المعلن عنه يسير عكس هذا التوجه العام ومثل هذه الإضافة الكبيرة من السكان والأنشطة سوف تضاعف من المشاكل العمرانية للمدينة والتى تعانى منها حاليا أشد المعاناة.

المشهد الثانى:

على أرفف مكتبة وزارة الإسكان وضعت عدة مجلدات تشتمل على دراسة الخطة القومية للإسكان حتى عام ٢٠٠٠ ودراسة مستقبل التشييد فى مصر ودراسة التنمية الحضرية على المستوى القومى ودراسة استراتيجية تخطيط إقليم القاهرة الكبرى. ومن الواضح أن هذه المجلدات قد تجمعت عليها طبقة رقيقة من الأتربة الناعمة مما يؤكد أنه لم يلمسها أحد منذ وقت طويل. فقد طويت صفحة الخطة القومية للإسكان يوم أن ترك الدكتور مصطفى خليل رئاسة الوزراء والدكتور مصطفى الحفناوى وزارة الإسكان . ولم يعد أحد يلتفت إليها أو حتى يتذكرها فكانت الخطة الأولى والأخيرة من نوعها وذهبت توصياتها أدراج الرياح. أما نوعية الوحدات السكنية التى أنشئت فى مصر منذ إعداد الخطة وحتى عام ١٩٩٩ فلا علاقة لها بنوعيات الإسكان التى أوصت بها هذه الخطة. فمعظم ما أنشئ كان إسكانا متوسطا وفوق المتوسط وأقل القليل كان لإسكان ذوى الدخول المحدودة بخلاف ما جاء بتوصياتها التى أعطت اهتماما كبيرا لإسكان هذه الشريحة التى تمثل فى الواقع نصف المجتمع.

أما دراسة مستقبل التشييد فى مصر فقد طويت أيضا هى الأخرى وبقيت شركات المقاولات على حالتها المتردية من حيث كفاءتها الفنية وانخفاض مستوى العمالة بها وعدم قدرتها على الأخذ بأسباب تكنولوجيا البناء الحديثة. وقد تدهورت هياكلها المالية حتى أصبحت الآن مثقلة بديون باهظة بلغت عدة مليارات من الجنيهات وبالتالى فلا يمكنها أن تكون ندأ لشركات المقاولات الأجنبية التى بدأت تغزو بشدة الأسواق المصرية . وبعد انتهاء الدراسة عرض البنك الدولى تمويل شراء المعدات الحديثة اللازمة لتطوير أداء شركات المقاولات المصرية، ولكن بقى هذا العرض دون أن يجد من ينظر إليه.

أما استراتيجية تخطيط القاهرة الكبرى والتى أعدها الخبراء الفرنساوية مع الخبراء المصريين فلم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام . لقد كان من المفروض أن تتحول هذه الاستراتيجية إلى تخطيط هيكلى . وهذا بدوره يتطور إلى تخطيط تفصيلى يصدر به تشريع يحميه من التغيير والتبديل حسب أهواء السياسة أو المال. بقيت القاهرة كما

كانت دائما مدينة بلا تخطيط ، مدينة بلا حول ولا قوة أمام عوامل التشوه وأمام عشوائيات القرار مثل تغيير الغرض من إنشاء عشرة تجمعات حول القاهرة لإسكان ذوى الدخول العالية بدلا من إسكان محدودى الدخل ومثل إقامة مدينة جديدة ذات خمسة ملايين نسمة بجانب المدينة الحالية ذات الاثنى عشر مليون نسمة.

أما دراسة التنمية الحضرية على المستوى القومى والتى أوصت بالامتداد التدريجى للعمران فلم تلق قبولا من المسئولين فى وزارة التعمير حينئذ التى كانت تنتهج فى إنشاء المدن والمجتمعات الجديدة منهجا آخر، إذ كانت تأخذ بمبدأ القفز إلى الخارج بدلا من الزحف التدريجى الآمن.

المشـــهـــد الثـــالـث:

بعد نشر الدراسة الأولى للعشوائيات توالت الدراسات العلمية لهذا الموضوع الخطير والتى قامت بها الجامعات ومراكز البحوث ولكن ظل الأمر محصورا بين الأكاديميين لسنوات طويلة ولم يلتفت إليه أحد من المسئولين أو صانعى القرار إلا عندما تبين لهم أن مرتكبى الجرائم السياسية من الإرهابيين يتخذون من المناطق العشوائية أوكارا لهم وهذا ما حذرت منه الدراسات العلمية جميعها الاجتماعية والهندسية إذ أنها أكدت من سنوات طويلة أن الأحياء العشوائية أرض خصبة للجرائم بكل أنواعها وعلى الأخص الجرائم الاجتماعية وأنها تمثل قنابل موقوتة قابلة للانفجار وهذا ما حدا بأحد الباحثين لأن يقول بأن القاهرة مع هذا الكم الهائل من المناطق العشوائية أصبحت مدينة بركانية تعيش فوق فوهة بركان . وأمام تفشى ظاهرة الإرهاب فى هذه الأحياء اضطرت الحكومة إلى اتخاذ قرارات عاجلة لمواجهة هذا الموقف فرصدت مليارات الجنيهات لتحسين هذه العشوائيات فمدت المرافق إلى بعضها وشقت الطرق بداخلها وزودتها ببعض الخدمات الاجتماعية . ولكن هذه الإجراءات وغيرها هى إجراءات علاجية محدودة الأثر وليست إجراءات وقائية ، فما زالت أسباب قيام العشوائيات وامتدادها قائمة وكان من الأجدى وقف الامتداد العشوائى أولا وذلك بإتاحة مواقع ومساكن لمحدودى الدخل بشروط ميسرة ثم ثانيا محاولة تحسين البيئة العمرانية للأحياء القائمة، وبدون مثل هذه الخطة لمواجهة المشكلة من جذورها ستظل العشوائيات من أهم وأخطر المشاكل الاجتماعية التى ستواجهها مصر فى المستقبل القريب والبعيد.

المشـــهـــد الرابـع:

توقف اهتمام الدولة بإسكان محدودى الدخل منذ أمد بعيد واتجهت الدولة إلى الاهتمام بالإسكان المتوسط وفوق المتوسط منذ بداية الستينيات وحتى الآن فاقامت له الأجهزة الإدارية من شركات وهيئات لإنشائه وإدارته ورصدت له مليارات الجنيهات لدعمه. وبعد أن تم توفير ما تحتاجه هذه الفئات من إسكان أصبح لديها مخزون سكنى كبير منه غير مستخدم يقدر بنحو مليونى وحدة سكنية . وفى السنوات الأخيرة أبدت الدولة اهتماما واضحا بالإسكان الفاخر. وظل محدودو الدخل وهم نصف المجتمع بلا رعاية تذكر وظلت ١٨٪ من الأسر المصرية بالمدن تعيش فى غرفة واحدة وظلت مئات الألوف من الأسر تتخذ من المقابر مقاما لها.وبعضها ضاق بها الأمر فاقامت من ألواح الخشب ومن الورق المقوى ومن أكياس البلاستيك شبه غرف فى أزقة وحوارى الأحياء الشعبية لتأوى إليها. ولم تقم الدولة حتى الآن بإعداد سياسة واضحة لإسكان محدودى الدخل تشتمل على تحديد الفئات الاجتماعية المستهدفة وأنماط الإسكان الملائمة لها والمواقع اللازمة لإقامة هذا الإسكان مع ترشيد الدعم وتوجيهه لمستحقيه . إن ما تعمله الدولة الآن فى هذا المجال ليس إلا مشروعان أحدهما أطلق عليه إسكان الشباب والآخر أطلق عليه إسكان المستقبل . أما إسكان الشباب فقد أعلن أن ما سوف توفره الدولة سنويا للشباب سيكون فى حدود ٦٠ ألف وحدة ، هذا بينما عدد الأسر المكونة حديثا فى مصر يزيد على ٦٠٠ ألف أسرة سنويا . وبدراسة أنماط هذا الإسكان وتكلفته ، فإنه سيذهب حتما إلى أغنياء الشباب وليس إلى فقرائهم. أما إسكان المستقبل فقد ترك لأريحية رجال الأعمال ولتبرعاتهم إن شاءوا أقاموه وإن شاءوا توقفوا عنه. كل ذلك لا يغنى عن ضرورة تبنى الدولة لسياسة قومية تلبى حاجة نصف المجتمع من السكن والعيش الآمن.

[المشهد الخامس والأخير:]

يظهر شبح مارى أنتوانيت وهى تقول: لماذا يشكو المصريون من أزمة الإسكان . لماذا لا يذهبون ليعيشوا فى بيفرلى هيلز ودريم لاند ويقضون أشهر الصيف فى مارينا ومرابيلا وفينسيا. ■

كتاب الزاوية

قصيدة: وتريات ليلية

مظفر النواب

من باع فلسطين وأثرى بالله
سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام
ومائدة الدول الكبرى؟
فإذا أجن الليل
تطق الأكواب بأن القدس عروس عروبتنا
أهلاً أهلاً
من باع فلسطين سوى الثوار الكتبة؟
أقسمت بأعناق أباريق الخمر وما فى الكأس من السم
وهذا الثورى المتخم بالصدف البحرى ببيروت
تكرش حتى عاد بلا رقبة
أقسمت بتاريخ الجوع ويوم السغبة
لن يبقى عربى واحد إن بقيت حالتنا هذى الحالة
بين حكومات الكسبة
القدس عروس عروبتكم
فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب
لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم . . وتنافختم شرفا
وصرختم فيها أن تسكت صونًا للعرض . . فما أشرفكم
. . . .
لست خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم
. . . .
تتحرك دكة غسل الموتى أما أنتم
لا تهتز لكم قصبة

حان وقت إخضاعه للتحليل النفسي

نظريات فرويد

خليط مثير من أنصاف الحقائق والبدع!

كولين ماكجين

إذا كانت نظريات فرويد ضعيفة الأساس إلى هذا الحد، فلماذا لا يزال يتمتع بكل هذه الشعبية؟ من أين تأتي جاذبيته التي لا سبيل إلى إنكارها؟ إنه كاتب شديد الغواية للغاية، يزاوج بين التوسل والوعيد، قادر بسهولة على جعل القارئ يشعر بأنه كئيب وظالم في أحكامه وخائف من الحقيقة

شهدت نيويورك مؤخرا معرضين من وحى فرويد: «فرويد، الصراع والثقافة»، برعاية مكتبة الكونجرس، والذى أقيم بالمتحف اليهودى والثانى: «السريالية، نظرتان خاصتان» بمتحف جوجنهايم، وهو ما يشير إلى أن فرويد لا يزال موضع اهتمام وتقدير كبيرين. ويهدف المعرضان إلى توصيل أفكار فرويد الأساسية عبر أقوى تأثير بصرى - لم يقتصر هذا على معرض السريالية، بل امتد كذلك إلى معرض مكتبة الكونجرس، الذى تضمن صورًا سينمائية وأفلاما منزلية عن فرويد نفسه، وتذكير بأعماله، وعروض فنية مستمدة من مقولاته.

والحقيقة أن أثر فرويد على الفن كان دائما أكبر من أثره على العلوم. وإن كان معرض السريالية لا يسعى إلى التأكيد على عبقرية مقولات فرويد، والصور (بريشة ماجريت ودالى، وغيرهما) يمكن أن يكون لها قيمتها الفنية التى لاشك فيها بعيدا عن حقيقة هذه النظريات. وكان معرض فرويد: الصراع والثقافة قد أثار قدرا من الجدل خلال فترة الإعداد له، أساسا بسبب ما اعتبره البعض تسليمًا بنظريات فرويد، وهو ما دعا إلى إضافة مقالات لمنتقدى فرويد المعاصرين إلى الكتاب (فرويد: الصراع والثقافة) المصاحب للمعرض.

لكن ذلك الجدل لم يكن أكثر من كونه الأحدث فى تاريخ الخلاف المتصل بالتحليل النفسى، والذى بدأ على يد عديدين من الزملاء الأقرب إلى فرويد نفسه، ولاشك فى أن أعماله ستظل تثير الجدل لسنوات قادمة. ويعود هذا إلى الصورتين شديدتى التضارب لوضعية فرويد كمفكر ومجدد: هل هو عالم شجاع مثير للإعجاب تحدى الأفكار التقليدية، فاصبح من ثم عرضة للتشهير، أم هو مؤسس انتهازى لمذهب غريب الأطوار على قدر ضئيل من المصداقية الفكرية أو بدون أى قدر منها؟ أم أن الحقيقة قائمة فيما بين هذين النقيضين؟

إننى لست مهتما بالإجابة عن هذا السؤال. فأنا، مثل كثيرين من أطفال القرن العشرين، تشربت المعرفة الفرويدية من الثقافة، وفى سنى المراهقة بهرتنى كتابات فرويد. لكنى لم أخضع فى حياتى للتحليل النفسى، ولا - على عكس فلاسفة جيدين كثيرين - حددت موقفى من صحة نظريات فرويد المنشورة. وكتاب فرويد: الصراع والثقافة يتيح لى الفرصة لإعادة قراءة أعمال فرويد بعين نقدية. وما يلى تقييم لأفكار فرويد من منظور آمل أن يكون شاملا.

[١]

لكى نفهم المبتكرات الفكرية التى قدمها فرويد لدراسة العقل البشرى فإن علينا أن نفهم الطريقة العادية فى تفسير السلوك الإنسانى، لأن البنى التفسيرية لفرويد امتداد أساسى لهذه الطريقة العادية. وجوهر فهمنا السيكولوجى العادى يدور حول مفهوم الدافع: الرغبة، والاحتياج، والتوق، والعلة. فنحن نفهم الفعل إذا فهمنا الدافع وراءه. ودوافع الفعل عادة ما تكون واضحة، حيث إن الفعل بحد ذاته عادة يشير إلى الدافع إلى حدوثه. لماذا أدفع النقود لموظف الخزينة فى السوبرماركت؟ لكى أتمكن من شراء الطعام ومن ثم تناوله. ونحن، بصفة عامة، نتحرك فى اتجاه الوفاء بحاجاتنا المعلنة. وأحيانا ما يكون الدافع وراء الفعل مبهما، مثلما عندما ترانى أفتش بعصبية فى درج عن نقود تركتها فيه ولا أجدها الآن. فالدوافع هى حالات عقلية داخلية ترتب الفعل وتضفى عليه معنى ما، أى أن الفعل تُدرك عقلانيته على ضوء الدافع الذى أدى إليه.

ومن الواضح أن لدينا أنواعا كثيرة ومتعددة من الدوافع، وهى التى تقدم تفسيرا لما نفعل. والفعل، بالأساس، محاولة لتلبية الرغبات. ونحن، فوق هذا، على بينة من دوافع أعمالنا: فنحن كائنات مدركة لذاتها، وعلى دراية بالحالات العقلية الداخلية التى توجهنا. وهكذا، فإننا نتمتع بقدر كبير من فهم أنفسنا: نحن نعرف تفسير أفعالنا لأننا، ببساطة، على إدراك بدوافعنا. وكما نقول، فإن هذه الدوافع واعية. وهذا ملمح غريب من ملامحنا كبشر: الأشياء لا تعرف ما الذى يجعلها تتصرف على النحو الذى تصرفت به - مثال ذلك الكواكب أو النباتات. ونحن، بالطبع، ليس لدينا تفسير كامل لكل ما نأتى به من أفعال. فكلنا مررنا، على سبيل المثال، بخبرة نسيان الأشياء أو فقدها بلا مبرر، وقد نرد ذلك إلى الدخول فى عمليات غير واعية. لكننا نعرف عادةً، الجانب الرئيسى للتفسير السيكولوجى لأفعالنا. فنحن نمتلك معرفة ذاتية بدوافعنا.

ومن الضرورى، بالنسبة لمفهوم السيكولوجية الإنسانية عند فرويد، التميز بين هذين الملمحين من ملامحنا العقلية - وجود الدوافع وإدراكنا لها. فمن الممكن أن تكون هناك دوافع للفعل تعمل داخلنا ونحن على غير دراية بها. وعن طريق فصل الدافع عن الوعى الذاتى، تحديدا، استطاع فرويد توسيع مجال التفسير القائم على الدافع بطريقة جذرية. ففكرته المتصلة باللاوعى هى فكرة وجود مخزون للدوافع التى تفسر الأفعال وتجعل لها معنى، وإن كانت لا تشكل جزءا من الفهم الذاتى لدى الشخص نفسه. وهناك ثلاثة أنواع رئيسية من الخبرات يرتكز إليها هذا التوسيع للتفسير القائم على الدافع، يستغلها فرويد: الأحلام، وزلات اللسان أو التصرفات غير المتعمدة التى يطلق عليها الهفوات para-praxes، والأعراض العصابية.

وبالنسبة لكل من هذه الخبرات، يكرر فرويد الحديث عن إضفاء المعنى على ظاهرة تبدو بلا معنى - تلك التى لا تبدو أنها تمثل دافعا معروفا من دوافع الفاعل. فعندما نفحص حلما أو زلة لسان أو عرضا عصابيا، مثل وسواس غسل اليدين، عادة ما نكون غير قادرين على تبين الدافع وراء تكرار ذلك - فليس هناك رغبة أُشبعت. إن الأمر يبدو بلا معنى أو جدوى أو مبرر. والشخص الذى مر بهذه الخبرات نادرا ما يمدنا بالدافع وراء هذه الوقائع الغريبة. ومقولة فرويد الأساسية هى أن ذلك هو مظهر سطحى: هناك، فى الواقع، دوافع تكشف المعنى الكامل لهذه الأحداث التى تبدو عشوائية، لكن الفاعل غير واع بها. وكل أفكار فرويد الأساسية تنبع من هذه الفرضية الجوهرية - شمولية التفسير القائم

على الدافع. وضعف أفكار فرويد وعدم مصداقيتها يكمن، فى رأيى، فى منطلقها الأساسى هذا. أضف إلى هذا أن فرويد لم يعد إلى مناقشة هذه الفرضية بجدية على الإطلاق؛ فمن الواضح تماما بالنسبة له أن الفعل الإنسانى دائما ما يتعرض لقدر من العقلنة. وعليه، فإن مبدأه المرشد الأساسى هو: إشباع الرغبات هو منشأ كل منتج عقلى.

ودعونا نتأمل نظرية فرويد الخاصة بالأحلام. إنها تتألف من عدد من الفرضيات الشديدة الارتباط ببعضها البعض: النوم انسحاب مرغوب من العالم. فنحن نريد أن نظل نياما فى مواجهة الاضطرابات الداخلية والخارجية. ووظيفة الأحلام هى الإبقاء على النوم. إن لدينا رغباتنا التى يمكن أن تقلق النوم، والأحلام تجعلنا قادرين على تحقيق هذه الرغبات فى الخيال دون الاضطرار للاستيقاظ. لكن ليس من الواضح دائما أى من الرغبات تلك التى يحققها هذا الحلم أو ذاك. ولتحليل الحلم، ينبغى أن تكون الرغبة غير واعية، وأن لا تظهر ضمن مكونات الحلم. ومن هنا، ينبغى أن يكون للحلم محتوى كامن، وظاهر فى الوقت ذاته.

لكن لماذا هذا التمييز بين محتوى الأحلام؟ لأن بعض الرغبات، حسبما يرى فرويد، مرفوض من العقل الواعى للفاعل، بسبب طبيعتها الجنسية. ومن ثم فإن مبدأ كبت هذه التابوهات يستبعد من الأحلام، ويتلاشى «الرقيب» الذى هو جزء من مساحيقنا الخارجية، ويجرى إشباع الرغبة بشكل رمزى ومشوه. ولهذا، لابد أن تتضمن الأحلام رموزا لموضوعات الرغبات المكبوتة. وهذه الرغبات نابعة من الطفولة - من فترة الخبرات المكبوحة الآن بأمان، فى معظم الأوقات على أقل تقدير- وتعكس الأحاسيس الجنسية لتلك الفترة. وهكذا، فإن الأحلام هى بالأساس إشباع مشوه لرغبات الطفولة المقموعة.

إن ما يدعم هذه النظرية هو افتراض أن الأحلام إشباع ثابت لا يتغير للرغبات؛ أفعال وراءها دوافع - كما هو الحال بالنسبة للرغبة فى ممارسة الجنس مع الأم. و«تفسير» الحلم معناه استشفاف هذا الدافع غير الواعى. لكن هذه النظرية تثير عددا من الأسئلة المزعجة: لماذا توقظنا الأحلام فى بعض الأحيان إذا كانت وظيفتها الإبقاء علينا نائمين؟ كيف يمكن للحلم أن يشبع الرغبة فى نوم قد يكون مضطربا دون عمل أى شىء بالفعل لإشباعها - الرغبة فى الطعام أو الجنس، على سبيل المثال؟ وما الحال بالنسبة لأحلام القلق الشائعة التى تحوى أشياء مخيفة، غير مرغوب فيها؟

والباعث على هذه التساؤلات هو ما يعتقده فرويد بأن إشباع الرغبات يعتمد دائما على محتوى الأحلام: الرغبة فى النوم هو السبب الذى تبدأ به الأحلام فى الحدوث؛ والأحلام يفترض أنها تشبع الرغبات عن طريق الإيهام بإشباعها؛ ولابد أن تكون هناك رغبات غير واعية وراء حتى أكثر أحلام القلق وضوحا. لكن أيا من ادعاءات فرويد هذه لا تلقى القبول فعليا. فمن المؤكد أننا نستطيع النوم دون أن نحلم - وهو ما يحدث غالبا - لدرجة أننا نادرا ما نحتاج إلى الأحلام لمجرد البقاء نائمين (أم أننا، عندما لا نحلم، تصاب رغباتنا غير المشبعة بما يشبه الخمول؟). إن الأحلام قد تكون ضرورية لصحتنا العقلية، لكن ليس



لقدرتها على جعلنا ننام بحد ذاتها. ومن الغريب أن نفترض أن مجرد إشباع الرغبات بالطريقة التى تقوم بها الأحلام قد أشبعها بالفعل. فاندماجى فى حلم يقظة حول مائدة عامرة وأنا أشعر بالجوع يمكن أن يزيد من شعورى بالجوع، بدلا من أن يقلله. ألا تشعل أحلام اليقظة الجنسية الرغبة الجنسية بدلا من أن تشبعها؟ إن الحلم بأن رغبة ما قد تحققت وتحقيق الرغبة فى الحلم ليسا الشىء نفسه.

ثم، لماذا الإصرار على أن كل الأحلام هى أحلام لرغبات مشبعة فى وقت يبدو كثير منها غير مشبع بوضوح؟ إن هذا الإصرار هو الذى يؤدى بالناس إلى البحث عن الرغبات اللاواعية ورمزية الحلم، وغيرها. فلماذا لا نتقبل، ببساطة، أن بعض الأحلام تمثل رغبات واعية وبعضها الآخر يمثل مخاوف واعية؟ فالناس تحلم بأنها نجحت فى امتحان المدرسة وكذلك بالرسوب فيه. ومن الممكن أن يروا أنواعا من الأحلام أكثر غموضا وعلاقتها بحياة اليقظة عند صاحبها وخبراته الماضية غير واضحة على الإطلاق. فلماذا، على سبيل المثال، نحلم أحيانا بامتحانات المدرسة التى أخفقنا فيها بعد مرور زمن طويل عليها؟ هل يعود هذا إلى حالة حالية من القلق ارتبطت بمثال مبكر لها؟

لكن لماذا يجب أن نتخذ من الطبيعة المحيرة للكثير من الأحلام دليلا على رغبات خافية تم إشباعها؟ إننا يجب، حقا، أن نكف عن ترديد القول بأن وظيفة الأحلام هى الاحتفاظ بالنوم عن طريق إشباع الرغبات؛ ألم نتوصل للتو إلى أمثلة مضادة واضحة لهذه النظرية على هيئة أحلام القلق البسيطة؟ إن نظرية فرويد تفرض على الأحلام وحدة سيكولوجية لا تتحقق لها على الإطلاق.

ولنا أن نتساءل أيضا: لماذا تكون آلية القمع ضعيفة إلى هذا الحد أثناء النوم فى الوقت الذى تكون غاية فى القوة خلال ساعات اليقظة؟ علينا أن نتوقع أن آلية قمع ذات كفاءة تمنع، ببساطة، الاتصال بين الوعى واللاوعى؛ لكنها، أثناء النوم، تفقد، بصورة غامضة، قبضتها الحديدية وتترك الأشياء، التى من الطبيعى أن تقمعها، تمر. هل معنى هذا أن الرقيب نفسه قد دخل فى سبات أثناء النوم فسمح بالمرور لرغبات كان من الطبيعى أن يمسك بها ويقمعها؟

ومرة أخرى نقول إن هذه المشكلة ناجمة عن افتراض فرويد لضرورة وجود رغبة وراء كل حلم، وهو ما يضطره إلى التسليم بأن الرغبات غير الواعية تتجلى بصورة جزئية فى محتوى الحلم. فليست الأحلام هى التى تقودنا بإصرار إلى فكرة اللاوعى، بل إن الفكرة تُفرض علينا بمجرد أن نفترض ضرورة وجود رغبة مدفوعة وراء كل حلم، سواء كانت واضحة أمام الفاعل أم لا. إننا لن نكون بحاجة إلى اللاوعى لتفسير أحلام القلق إذا ما اعتبرنا الحلم، ببساطة، يتعلق، مثلا، بشىء يثير قلقنا، وليكن اجتياز امتحان ما. فالمخاوف تفترس العقل فى النوم واليقظة على السواء؛ وأحلام القلق، من ثم، ليست وسيلة إشباع لبعض الرغبات الخفية البعيدة. إنها الخوف نفسه يسيطر على عقولنا.

ولناخذ أحلام الحيوان: فرويد يفترض أنها لا تتضمن رغبات جنسية مكبوتة من الطفولة، فهل تتعلق كلها، من ثم، بالرغبات الواعية التى يشبعها الحيوان بصورة رائعة؟ من الواضح أن هذا قول غير صحيح: المسألة يمكن أن تتضح، على سبيل المثال، من سلوك كلب نائم يحلم بشىء يسبب له القلق، ومن السخف أن نفترض أنه حتما مجرد محتوى لحلم ظاهر يخفى رغبة لا واعية يشبعها الحيوان بواسطة الحلم. لماذا لا ينطبق أمر كهذا علينا؟ وعلينا أن نلاحظ مرة أخرى أننا إذا ما قبلنا بالتولد التلقائى للأحلام فإن الحاجة للاوعى تزول؛ فلا شىء فى الأحلام نفسها يجبرنا على القبول باللاوعى وآليته القامعة. وذات مرة روت لفرويد إحدى مريضاته أحد أحلام القلق التى تنتابها ويتصل بشىء تتمنى نسيانه بشدة، وهو ما يجعل نظريته حول إشباع الرغبات بالحلم خاطئة. وكان رده أنها حلمت بذلك الحلم لدحض نظريته، ولكون رغبتها فى مضايقته رغبة غير واعية. ومن الواضح أن هذه ليست طريقة جيدة لإثبات أن الأحلام دائما ما تمثل إشباعا لرغبات غير واعية.

ولا ينبغى أن نخلط بين اللاوعى الفرويدى وبين الذكريات القابلة للاستدعاء preconscious - وهو التعبير الذى يستخدمه للإشارة إلى تلك الحالة العقلية حين تكون الذكريات غير حاضرة فى الذهن الآن لكن من الممكن استدعاؤها عند الحاجة - أو بين ذلك النوع من العمليات العقلية دون الواعية subconscious التى يفضلها علم الإدراك الحديث، مثل العملية التى يتم عن طريقها تحويل أنماط الضوء والظلمة إلى صور بصرية مفهومة. والحقيقة أن كل حالات الأداء العقلى تشهد عمليات غير واعية، حيث يعمل العقل بطريقة لا واعية لتوليد حياتنا العقلية الواعية. وفى حالة الفهم الواعى للكلام، على سبيل المثال، يرى ناعوم شومسكى بصورة مقنعة أن رؤوسنا تحوى نظاما غير واع ومعقد البنية لقواعد النحو. والذاكرة نفسها تعمل فى إطار عمليات لا ندركها عن وعى. لكن هذه العمليات غير الواعية تختلف فى نوعها عن مفهوم فرويد عن اللاوعى. فاللاوعى الفرويدى هو بالأساس منظومة من الرغبات والذكريات والمشاعر المكبوتة بشكل فعال - تلك المتهمة بـ«التأثير السلبى»، الذى يعنى به فرويد القمع الشعورى لنوع أو آخر منها. ولقد اعتدنا فكرة الكبت هذه التى نميل إلى التسليم بها كآلية عقلية راسخة، برغم ما يكتنفها بالفعل من صعوبات.

كلنا، بالطبع، على علم بالفعل العقلى لقمع الرغبة، وإحباطها. وهذا يحدث عندما تكون لدينا رغبة (واعية) فى أن نرغب، لا أن نحصل - مثل الرغبة فى تناول كمية كبيرة من الآيس كريم الممزوجة بالرغبة فى ألا تكون لدينا هذه الرغبة. لكن ليس هناك ما هو غير واع فى أى من هذا: نحن نعرف ما نرغب فيه ونشرع فى قمعه، ومنعه من العمل ونحن على علم بذلك. فالحياة العقلية عامرة بمثل هذه الأفعال المحكمة لقمع الرغبة. لكن القمع الفرويدى لا يعنى شيئا من هذا؛ إنه معنى بأن يكون غير واع تماما. فمقولة فرويد ترى أنه عند الشعور بأن الرغبة أو الذكرى غير محببة أو مخجلة أو تتعارض مع غيرها من الرغبات، فإن هناك آلية فى رؤوسنا تعمل على جعلنا على غير وعى بهذه الحالة العقلية.

إن الكبت والجنس يتلازمان بقوة عند فرويد. ومجمل نظريته عن التطور الجنسى تقوم على الادعاء بأن الطفل كائن جنسى تعرض لكبح طبيعته الجنسية على يد قوى أبوية بالأساس. وهنا نلتقى بالمراحل الشفاهية والشرجية والتناسلية الشهيرة، وعقدة أوديب، والقلق الخصيى، والحسد القضيبى



إنها فكرة محيرة للغاية عندما نتعامل معها عن قرب. فليس صحيحا، فى المقام الأول، أن الرغبات والذكريات غير السارة تخضع للقمع كأمر مفروغ منه. فكلنا لنا ذكريات مؤلمة ورغبات مخجلة واعية، وهى راسخة ومؤلمة. فلماذا يُقمع البعض دون الآخر، من منظور فرويد؟ إن وجود«أثر سلبى» لا يمكن أن يكون السبب. وفى حدود ما توصلت إليه من تأملاتى الخاصة، من المستحيل تماما بالنسبة لى أن أسلم بأن تلك الحالات العقلية المزعجة لا واعية - ليت هذا كان ممكنًا!

ومن المفترض، عند فرويد، أن الأطفال على وجه الخصوص ماهرون فى التعامل مع عملية القمع. لكن لماذا ينجزون بسهولة ما أعجز عن تحقيقه أنا البالغ؟ هل أنا لا أسيطر غالبا على حياتى العقلية أفضل من الطفل؟ إننى على يقين من أننى نسيت كثيرا مما عرفت، لكن علىّ أن أقرر أننى لم أعرف رغبة أو ذكرى واحدة قُمعت، بالمعنى الفرويدى. وليس لدى الدليل، سواء من الفجوات الظاهرة فى ذاكرتى أو من شهادة الآخرين، على أننى عانيت مثل ذلك النسيان المدفوع. وسوف يرد الفرويديون بأن إعلانا كهذا يتجاهل الجوهر، وأن ما أقمعه لا يمكن، بشكل عام، تذكره، إلا فى حالة الخضوع للتحليل. على أن التساؤل بشأن الكبت ليس بهذه البساطة. فلا ينبغى، بالطبع، أن نخلط بين كونى أعرف أننى نسيت شيئا وبين كونى أتذكر بالفعل ما لايزال منسيا. ومن الممكن تماما الحصول على دليل مباشر على انحرافات الذاكرة المتنوعة الأشكال، ومن ثم معرفة أن شيئا ما جرى نسيانه. افترض، على سبيل المثال، أن كلينا رأى نفس الفيلم وأنك لازلت تتذكره بعد مرور الأعوام وأنا لا؛ فعليك حينئذ أن تخبرنى أننى لابد وقد نسيت ما تذكرنى بملاحظته، وهكذا أعلم بأننى نسيت أننى شاهدت الفيلم.

ما أود قوله إذن هو أننى لم أعرف، من جانبى، حالة يمكن فيها أن نعزو مثل انحراف الذاكرة هذا، بصورة جزئية، للكبت. فبعض الذكريات والرغبات تذوى مع مرور الزمن، والبعض ينسحب إلى المركز؛ لكننى لا أعرف حالة كان لى فيها رغبة أو ذكرى وأنها مكبوتة الآن بصورة آمنة. ومن المؤكد أن الكبت لو كان يتمتع بخاصية الانتشار، كما يقترح فرويد، فعلى أن أفكر من حين لآخر:«يرتبط (س) دائما عندى بذكرى سيئة، لكنى لا أتذكرها الآن بصورة من الصور» - تماما كما أعرف الآن أن معرفتى باللغة الإيطالية كانت جيدة دائما لكننى أتذكر القليل منها اليوم. والحقيقة أن الذكريات المؤلمة تبدو بالنسبة لى ذات إلحاح خاص وحضور واع.

ولا أجد أن الرغبات الجنسية وحدها هى التى أفضل عدم كبتها، أو مجرد قمعها (فى أفضل الأحوال)، أى الحيلولة بينها وبين التحقق. إننى أتشكك فى مجمل فكرة الكبت الفرويدى وأراها محض خرافة، بالرغم من شعبيتها. لكن إذا كان الكبت فرضية غير مؤكدة، فيكون الحال كذلك، من ثم، بالنسبة للاوعى الفرويدى، حيث إنه يُعرف بأنه حصيلة ما جرى كبته: فكرة إناء الفقاقيع

العقلى نصف المغطى خرافة أيضا. فالفقاقيع كلها تخرج بمجرد تكونها.

وهناك ـ ثانيا ـ مشكلة مفاهيمية عميقة تتعلق بفكرة الكبت اللاواعى بحد ذاتها، كما ألمح سارتر منذ وقت طويل فى الوجود والعدم. ففرويد يعتقد بوجود وكالة خاصة للكبت متجذرة فى مكان ما من الجهاز العصبى. وعلى الرقيب أن يتحرى عن الرغبات الواجب كبتها وتلك المسموح لها بالوصول إلى الوعى، كما هو الحال عندما يعمل لتقرير محتوى الأحلام. لكن كيف يتاتى للرقيب القيام بهذه العملية وهو نفسه ليس واعيا بالرغبات التى يتولى كبتها؟ فالرقيب فى الحياة الواقعية على دراية بما يمرره وما يمنعه، أما رقيب فرويد فمن المفترض أنه يعرف، إلى حد ما، ما يمنع ولا يعرفه فى ذات الوقت. وهكذا، تبدو فكرة الكبت مشوشة. وهذا الجدل بشأن تناقضات الرقيب يقوم، فيما يبدو، على التحليل المنطقى البحت. لكنك كلما تاملتها كلما تبينت أن فكرة الكبت اللاواعى مستحيلة: أنت لا يمكن أن تكبت شيئا لا تعلم بوجوده، لكنك إذا علمت بهذا الوجود فإنه لا يعود لا واعيا. وإذا كان لابد أن يعرف الرقيب محتوى اللاوعى، فما هو دور الكبت ـ إذا لم يكن إعاقة مثل تلك المعرفة؟ أم أن الرقيب نفسه له آلية قمع تحميه فى مواجهة الرغبات التى يقمعها؟ لكن السؤال نفسه يثور، من ثم، مرة أخرى بشأن هذا الرقيب داخل الرقيب. ففكرة اللاوعى لا يمكن أن تنسجم مع فكرة الرقيب، وبالتالى مع المفهوم الفرويدى الخاص بالكبت.

على أن المفترض فى الكبت، تحديدا، هو أن يساعد على إبراز اللاوعى. فليس هناك لاوعى فرويدى بدون كبت، لكن الكبت يستلزم وعيا، إذن فالمفهوم ينطوى على تناقض. وقد تعتقد أن باستطاعتك تفادى هذه المشكلة من خلال التمييز بين الأنا ـ الذات الواعية ـ والرقيب، حتى يصبح الأخير على وعى بالرغبات المكبوتة دون الأول. لكن الرقيب فى خدمة الأنا، يحميها، بحيث لا يمكن فصله عن أولوياتها. فماذا عن حماية الأنا من هذه الحالات العقلية غير السارة إذا كان على الرقيب أن يتحمل عبء إدراكها على أى حال؟ ناهيك عن الطبيعة الغريبة لنظرية المراكز المتعددة للوعى القزمى فى رأس كل شخص.

ثم هناك أيضا إمكان خطأ الكبت، الذى يعترف به حتى فرويد نفسه. ما كل هذا الضعف فى أداء الكبت؟ إنه قادر على جعل الرغبات غير واعية، لكنه يعجز عن منعها من الانفجار فى الأحلام وزلات اللسان والعصاب.

الإجابة الوحيدة التى يفهمها فرويد ـ عن هذا السؤال هى أن الرغبات اللاواعية تتمتع بنوع من الطاقة العقلية تضغط من أجل التنفيس، مثل البخار فى حلة ضغط غير محكمة الإغلاق. لكن هذا النوع من النموذج الطاقى ليس أكثر من مجاز (Metaphor) باى وحدات يمكن قياس مثل هذه الطاقة؟)، وهو يستدعى، فى كل الأحوال، السؤال حول الطريقة التى يمكن للكبت بواسطتها استدعاء بعض هذه الطاقة من مثل هذه الرغبات الممنوعة، لكن ليس بما يكفى لإبقائها تحت السيطرة. كيف يتمتع هذا الكبح بتلك القوة المدهشة لتحويل حالة عقلية واعية إلى غير واعية ولا حيلة له فى منع تلك الحالة العقلية من الوقوع فى زلات اللسان؟ أنا شخصيا وجدت أن بإمكانى أن أمنع حالاتى العقلية الواعية، بسهولة تامة، من الوقوع فى زلات اللسان، وإن كنت عاجزا تماما عن جعلها لا واعية. إن قوة الرقيب الكابح وترديه غريبة ولا تفسير لها، وتمليها النظرية الدوجماتية بأكثر ما تمليها الملاحظة الفعلية والترابط المنطقى الداخلى.

[٢]

إن الكبت والجنس يتلازمان بقوة عند فرويد. ومجمل نظريته عن التطور الجنسى تقوم على الادعاء بأن الطفل كائن جنسى تعرض لكبح طبيعته الجنسية على يد قوى أبوية بالأساس. وهنا نلتقى بالمراحل الشفاهية والشرجية والتناسلية الشهيرة، وعقدة أوديب، والقلق الخصيى، والحسد القضيبى، وفترة الحضانة ـ أى «سيكودراما» الحياة الجنسية المبكرة للطفل التى يترتب عليها إما حياة جنسية صحية وناضجة، أو عصابية. وعند قراءة شرح فرويد نفسه لأسباب اقتراح هذه النظرية المعقدة، يصطدم المرء دائما بالتضليل اللغوى، والقفزات التخمينية غير الحذرة، والانحراف غير القابل للتصديق للكثير من ادعاءاته.

وليس القول بأن الطفل نشط جنسيا هو سبب الهجوم؛ إنه اهتزاز النظرية التى يروج لها فرويد، والتى تفتقد أى دليل مقنع على ادعاءاته الجريئة. وأحد ادعاءات فرويد الحاسمة هى أن الأعضاء التناسلية ليست الموضع والموضوع الوحيد للإشباع الجنسى للطفل: الفم والشرج أيضا متهمان جنسيا.

والاعتراض الطبيعى على هذا الادعاء، الذى يتوقعه فرويد فى نقاشاته، هو أنه يبدو وكأنه يخلط بين المتعة بشكل عام وبين متعة الجنس تحديدا. فإذا سلمنا بأن الطفل يحقق المتعة عن طريق الفم والشرج، أثناء الرضاعة والتنظيف، فلماذا الإصرار على تسمية ذلك متعة جنسية، خاصة أن الأعضاء التناسلية، فى تلك المرحلة، لا تكون قد ارتبطت بعد بأحاسيس الطفل ونشاطاته الجنسية؟ والوصف البديل الواضح هو أن الفم يفى بالمتعة المصاحبة للأكل، والشرج بالمتعة المصاحبة للتبرز. وهذه المتع لا تكون ذات طبيعة جنسية فى مرحلة البلوغ، فلماذا تكون كذلك فى مرحلة الطفولة؟ إنها حقا متع مرتبطة بأعضاء جسمانية، لكنها ليست متعا جنسية تحديدا باى معنى من معانى الكلمة.

وفرويد لا يفسر لنا أبدا، بطريقة مقنعة، لماذا يعتبر هذه النشاطات الشفوية والشرجية مراحل فى التطور الجنسى: أفضل ما يمكن أن تتوصل إليه هو هذا الاقتراح الكسيح بأن الأطفال يبدون وكأنهم بلغوا قمة النشوة or-gasm بعد الانتهاء من عملية الرضاعة. ومن الصعب أن يكون مرد الأمر ذلك أن الفم والشرج يمكن أن يكونا متاهبين خلال فترة البلوغ الجنسى، حيث إن فرويد على قدر من الحساسية يجعله يدرك أن هذا لا يمكن أن يكون جزءا من عالم الطفل؛ فادعاؤه بالأحرى هو أن الطفل عندما يرضع أو يخضع للتنظيف يمارس جنسا غير عضوى. وفرويد يرفض، ببساطة، التميز بين المتعة الجنسية وغيرها من المتع التى تستند إلى أساس جسدى، مضحيا، على ما يبدو، رغبة فى الوحدة النظرية (كما يفعل بالنسبة لإشباع الأحلام والرغبات).

برغم سيطرته على عقلية القرن العشرين، وكل ما أبدى من حداثة والحاد وشك، فإن نظريات فرويد لا تزيد على كونها أسطورة أخرى تضاف إلى غيرها من الأساطير المتصلة بالطبيعة الإنسانية. خليط مثير من الحقائق وأنصاف الحقائق، والبدع المضللة



ويرى فرويد أن الأطفال يدخلون مرحلة الكمون الجنسى كنتيجة للكبح، وقد تتلازم معها عقدة أوديب السيئة السمعة. وهو يستشهد بفقدان ذاكرة الطفولة ـ نسيان الإنسان للسنوات الأولى من حياته ـ كدليل لتأكيد فكرته المتعلقة بالكبت، دون أن يلاحظ أن معظم ذكرياتنا عن هذه الفترة لن تكون من ذلك النوع الذى يدعو إلى القمع. فمن المؤكد أن الطفل ليس لديه من الأسباب ما يجعله يقمع كل الخبرات التى مر بها خلال الثلاث سنوات الأولى من حياته. وعقدة أوديب التى يقال أنها تعجل بهذا الكبح المزعوم لها من الرسوخ النافذ عن الطفولة والجنس ما يجعل من الصعب الآن التراجع عنها وفحصها بصورة نقدية؛ لكن إذا ما فعلنا هذا، أعتقد أن الدهشة ستصيبنا عندما نكتشف أنها تقوم على غير أساس. فهل صحيح أن الأولاد الصغار لديهم الرغبة ـ الرغبة الواعية ـ فى إقامة علاقات جنسية مع أمهاتهم ويعتقدون بأن آباءهم ينوون خصيهم لكبح هذه الرغبة؟ ما هو الدليل على صحة اقتراح مثير كهذا؟ (لاحظ أن كل هذه الأفكار والانفعالات يفترض أن يكون الطفل واعيا بها؛ وهذه الحالات العقلية لا تنتقل إلى اللاوعى إلا مع ظهور القلق من الكبح). والمطلوب هنا، على أقل تقدير، هو تقص امبريقى دقيق لرغبات ومخاوف الأطفال من الذكور، بحيث يكون قابلا للتعميم بيسر من حيث المبدأ. فلا يكفى أن نقيم هذه المقولة على اعترافات مرضى العصاب البالغين فى فيينا أوائل القرن أمام محللهم النفسى المسلم به نظريا.

وبالنسبة للادعاء بأن الفتيات الصغيرات يعانين من الحسد القضيبى وما يترتب عليه من استياء من الأم التى لم توفر لهن قضيبا، وتحول التركيز الجنسى على الأب، فإن ذلك يجب أن يكون على رأس أكثر الأفكار المطلوب مراجعتها حيث إنها محل تبن جاد من قبل أناس أذكياء. ومرة أخرى نتساءل: ما هو الدليل الدامغ على شىء كهذا من خلال ملاحظة أطفال من الإناث؟ فرويد لا يقدم هذا الدليل. ولماذا لا نفترض أن الأولاد يعانون، بدلا من ذلك، من الحسد الثديى؟ أو من الحسد المهبلى ـ البظرى؟ لماذا هذا التفكير فى القضيب باعتباره كنز الكنوز؟ وهل تبدى إناث الحيوان نفس مشاعر الانسحاق هذه تجاه الأعضاء الذكرية؟

كان يمكن لفرويد، فى سعيه للخروج بنظرية عن التطور الجنسى، أن يقدم عملا جيدا لو أنه اهتم أكثر بسيكولوجيا الحيوان؛ فعلى الرغم من اعترافه بالداروينية إلا أنه يفترض مسبقا وجود انقطاع جذرى بين سيكولوجيا الإنسان وسيكولوجيا الحيوان، خاصة فيما يتصل بالجنس. ومن المؤكد أن من المعقول جدا أن نفترض أن البنات والصبيان يدركون، باعتبارهم جنسين

نظـــريـــات فـــرويـــد

فرويد يستحق التقدير على إبلاغنـا بـأن الأطفـال كائنات جنسيــة، لكن لا ينبغى أن نمـلأ رؤوسهم بأفـكار إيروتيكيـــة لا تتوصـل إليها عقولهـــم البسيطـــة ولا دلـيل يدعونـــا إلى الاعتقاد بمعرفتهـــم لهـــا. ولا مـــن المعقـــول أن نفتـــرض، كمـــا فعــــل فرويــــد، أن تلك الأوضاع النفسية المـدعـــاة تقـــف وراء أشكـــال العصـــاب

مختلفين، أن من الطبيعى أن تكون لهم أنواع مختلفة من الأعضاء الجنسية؛ وأن البنات لسن خصاة castrati بطبيعتهن، يصبن الأولاد بالخوف من الخصى والاستياء من عجزهم. وفرويد يستحق التقدير على إبلاغنا بأن الأطفال كائنات جنسية، لكن لا ينبغى أن نملأ رؤوسهم بأفكار إيروتيكية لا تتوصل إليها عقولهم البسيطة ولا دليل يدعونا إلى الاعتقاد بمعرفتهم لها. ولا من المعقول أن نفترض، كما فعل فرويد، أن تلك الأوضاع النفسية المدعاة تقف وراء أشكال العصاب. وهنا يسرف فرويد مرة أخرى فى التعميم: نعم، الانضباط الجنسى الزائد والصدمات النفسية يمكن أن تؤدى إلى العصاب فيما يأتى من العمر، لكن هذا لا علاقة له بالادعاء بأن كل الكوارث العقلية لها جذورها الجنسية التى ترجع إلى مرحلة الطفولة.

وماذا عن الهو idوالأنا والأنا العليا ـ أليست اكتشافات مهمة؟ إن عرض فرويد لهذا التقسيم الثلاثى داخل العقل يبدو متهافتا للغاية: إنه يتحدث عنها كما لو كانت ثلاث ذوات كاملة داخل العقل، تتنافس كل منها لجذب الانتباه، كما لو أن العقل ساحة حقيقية لفرقاء متحاربين. لكن هذا شىء لا يمكن أن نقبل به إلا على سبيل المجاز. فنحن بالفعل نتمتع بمخزون من الغرائز والميول الفطرية (الهو)، وذات تستجيب للواقع الخارجى وتساومه (الأنا)، وضمير يتحكم فى إحساسنا بالقيمة الأخلاقية (الأنا عليا). وقول كهذا قد يساعد بعض الناس، لكن، من الواضح، أنه لا يضيف شيئا جديدا أو مهما: بالطبع، يتمتع الكائن الإنسانى بمجموعة من الرغبات الفطرية وأخرى من المعتقدات الأخلاقية، التى يمكن أن تتصارع مع بعضها البعض، وكذلك بذات تراقب مثل تلك الصراعات.

ولفرويد بعض الأفكار المميزة حول محتوى وتكون هذه الأجهزة العقلية، أقل ما توصف به هو أنها مبتذلة. فهو يفترض أن غرائزنا تضم غريزة للموت وكذلك للحياة، وهذا من الصعب تصديقه على أساس بيولوجى، حيث يصعب على حيوان يحمل غريزة للموت أن يحسن الأداء فى لعبة البقاء والتكاثر. وهل يفترض أن تحمل حيوانات أخرى غريزة الموت تلك؟ وبالنسبة لرغبتنا فى تدمير الذات، إلى أى مدى يمكن اعتبارها جزءا من مواهبنا الغريزية البيولوجية؟ ومن الأشياء التى لا يمكن الوثوق بها عند فرويد كذلك نظريته الخاصة بالضمير، وبالتحديد اعتباره آلية داخلية ناتجة عن المحرمات الأبوية والمجتمعية. فهذا قد ينطبق على المرحلة قبل العقلانية من نمو الطفل؛ إذ من الواضح أن التحريم والعقاب فى الطفولة له أثره الكبير على تكوين شخصيتنا. لكن من المؤكد أن ذلك ليس مسئولا عن كافة الاختيارات الأخلاقية للكائنات الناضجة المولعة بالتفكير، التى يتطلع معظمنا إلى الوصول إليها. إن ملكتنا الأخلاقية متحررة من النفوذ الأبوى بأكثر مما يسمح فرويد، وهو ما يجعلنا، عادة، نرفض فى مرحلة البلوغ الأخلاقيات التى يفرضها علينا آباؤنا وجيلهم. ومرة أخرى، نجد فرويد يتجاوز ويتعسف فى إدخال كل شىء فى إطاره النظرى الضيق. وعلى عكس رأى فرويد ليس صحيحا أننا لا نريد أن نصدق نظرياته؛ كل ما فى الأمر أننا لا نرى سببا للقبول بها.

وإذا كانت نظريات فرويد ضعيفة الأساس إلى هذا الحد، فلماذا لا يزال مفكرا يتمتع بكل هذه الشعبية؟ من أين تأتى جاذبيته التى لا سبيل إلى إنكارها؟ إنه كاتب مغو للغاية، يزاوج بين التوسل والوعيد، قادر بسهولة على جعل القارئ يشعر بأنه كئيب وظالم فى أحكامه وخائف من الحقيقة. كما أنه كاتب ملهم: يبدو وكأنه يفتح ثغرة فى عالم الدراما والبناء غير المرئى، طبقة من الحياة الإنسانية شديدة الخفاء؛ ونبدو، فى ظل تقصيه الدقيق، أكثر عمقا مما نعتقد. كما أنه يقدم لنا زخما من المعرفة التفسيرية الشاملة: نرى فى شىء ما أنه محير ولا معنى له، ثم يتبين أن قدراتنا التفسيرية أكبر بكثير مما نتوقع ـ هو جعلنا على هذا القدر من المعرفة بالناس.

كما أن تركيزه على الجنس، بحد ذاته، أمر مضلل. فقد لاحظ ويتنجشتاين أن الصورة البغيضة التى قدمها فرويد للروح الإنسانية تتمتع بجاذبية لا سبيل إلى إنكارها. فالفكرة فيها ما يلح على أننا جميعا تمور بداخلنا دوافع صامتة ملحة، لا نكف عن محاولة احتوائها. وإنه لشىء جذاب أن نعتقد أننا نكافح قوى الكبح الجنسى وانعدام الأمانة ـ كما لو كان الاختلاف مع فرويد إقرارا للرؤية التصحيحية للسيكولوجيا الإنسانية التى كانت تروج لها الأخلاق الفيكتورية الوجدانية. ففرويد يجعلنا نشعر بأننا مشاركون فى حقيقتنا المظلمة المهتزة، وأرواح شجاعة فى عالم أعمى. كل شىء جذاب، ومحكم وينتشر باتساع العالم. لكن برغم سيطرته على عقلية القرن العشرين، وكل ما أبدى من حداثة وإلحاد وشك، فإن نظريات فرويد لا تزيد على كونها أسطورة أخرى تضاف إلى غيرها من الأساطير المتصلة بالطبيعة الإنسانية ـ خليط مثير من الحقائق وأنصاف الحقائق، والبدع المضللة. ■

بترتيب خاص مع:

ترجمة: بدر الرفاعى

تجلت فيها أشواق مصر القديمة

الموسيقا والألحان القبطية

حسين عبد البصير

من ضمن مفردات المرحلة القبطية الحضارية المضيئة، الموسيقا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، والتي أبدعها الإنسان المصري؛ ليمارس عليها طقوس التعبد والتدين، المتضمنة عادة النص (قبطيا أو عربيا) مصحوبا بلحن موسيقي. وتحتل هذه الموسيقا مكانة متفردة بين موسيقات العالم الكنسية

تمتاز التجربة الحضارية المصرية بالثراء والتراكم والتعدد؛ فبعد أن أُسدل الستار على حضارة المصريين القدماء عقب دخول الإسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢ ق.م، ثم تحولها التدريجي إلى مملكة بطلمية يحكمها الغرباء (٣٠٥ ق.م - ٣٠م)، بدأت شخصية مصر الثائرة تستتر حينًا وتظهر أحيانًا، وتجلت عبقريتها فيما يمكن أن أسميه بـ «بعث أشواق مصر القديمة»، كمحاولة جادة للرد على المستعمر الذي أراد طمس شخصية مصر الحضارية العريقة.

وكان من نتائج هذا التوجه، أن حاول المصريون خلال هذه الحقبة الدخيلة على حضارتهم، التعبير عن أنفسهم بما يؤكد خصوصيتهم في مواجهة الاقتلاع الذي أراد العصف بهم وبتاريخهم وحضارتهم، وكانت اللغة أول مظاهر هذا التعبير الجديد عن الذاتية المصرية الصميمة، في أصعب مراحل احتكاك المصريين بمستعمر قوي وعنيد وطويل الإقامة؛ بحسب اللغة أحد أهم المكونات الأساسية لأية حضارة، خصوصًا الحضارة المصرية الموغلة في القدم، فتحولت اللغة المصرية القديمة من آخر أشكالها الخطية: الخط الديموطي (أي الخط الشعبي) إلى الخط القبطي (وليس اللغة القبطية كما يُكتب عادة)، والذي يعد المرحلة النهائية من تطور اللغة المصرية القديمة، وقبل دخولها مرحلة الأفول بمجيء «الفتح العربي» وتواري لغة أهل البلد الأصليين إلى مرحلة أشد خفوتا، في مقابل ازدهار لغة الوافد القادم من شبه جزيرة العرب، وسيادة اللسان العربي بين المصريين: مسلمين ومسيحيين. وتم التعبير عن القبطية بأحرف الألفبائية اليونانية مضافًا إليها سبعة أحرف مأخوذة من الديموطية المصرية، تخصها وتلتصق بها، وليس لها ما يقابلها من الناحية الصوتية في اللغة اليونانية وهي الأحرف التالية: (شا، ف، خا، ح، جا، ك، ديت). واضطر المصريون إلى ارتياد هذا السلوك حتى يحدث نوع من التفاهم بينهم وبين المستعمر اليوناني الوافد الجديد.

ولعل أبرز ميزات القبطية، هو احتواؤها حروف الحركة التي لم تكن موجودة من قبل في اللغة المصرية القديمة؛ مما ساعد إلى حد كبير في التوصل إلى أقرب صيغة أو قراءة للنطق الصحيح لمفردات اللغة المصرية القديمة. وتعددت لهجات القبطية من صعيدية إلى بحيرية وفيومية وأخميمية. وتؤرخ بدايتها عادة في القرن الأول قبل الميلاد. وعاشت حتى بعد دخول الإسلام أرض مصر وتحول اللغة الرسمية إلى العربية، وبقيت كلغة للصلوات وللترتيلات المقدسة في الكنيسة القبطية. وتعني كلمة «قبطي»، «مصريًا»، على عكس ما يشيع حاليا من إطلاقها على مسيحيي مصر في أدبيات العصر الحديث، فهي تشمل المصريين: مسلمين ومسيحيين، وجاءت من التعبير المصري القديم، «حوت كا بتاح» (ويعني اسم معبد الإله «بتاح» في مدينة «منف» الفرعونية العريقة)، والذي تحول عند الإغريق إلى: «آيجوبتوس»، وإلى «آيجيبتوس» عند الرومان، وجاءت منها تسمية مصر في اللغات المعاصرة مثل: Egypt, Egypte, Aegypten, Egitto, في اللغات الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية على الترتيب.

ومن ضمن مفردات المرحلة القبطية الحضارية المضيئة، الموسيقا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، والتي أبدعها الإنسان المصري؛ ليمارس عليها طقوس التعبد والتدين، المتضمنة عادة النص (قبطيا أو عربيا) مصحوبا بلحن موسيقي. وتحتل هذه الموسيقا مكانة متفردة بين موسيقات العالم الكنسية: إذ هي ذات صبغة مصرية خالصة تبعت من الأرض المصرية معبرة عن الإنسان المصري الذي عاش عليها في بيئة ملأت صدره بفيض من الإيمان العميق بدينه ووطنه، وجاش بها صدره كاشفًا عن حالة من الوجد الصوفي قلما أن تتكرر مع شعوب أخرى. فجاء تميزها عن نظائرها الأخريات مثل الموسيقا العربية والعبرية والأرمنية واليونانية والتي تزخم بها المنطقة قاطبةً. وتمثل الألحان والموسيقا القبطية التراث الروحي العظيم الذي قامت عليه الكنيسة المصرية العريقة منذ دخول المسيحية أرض مصر في القرن الأول الميلادي وإلى الآن؛ أي أنها استمرت حية في صدور المصريين أكثر من عشرين قرنًا من الزمان.

والكتاب الذي نعرضه مجلد ضخم (يقترب من ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير)، جاء ثمرة جهود سنوات طوال من العمل الدءوب المستمر، بلغت أكثر من سبعين عامًا، قضاها العلامة المصري الكبير الدكتور راغب مفتاح - رئيس قسم الموسيقا والألحان في المعهد العالي للدراسات القبطية في القاهرة - في تجميع وتصنيف الموسيقا الكنسية القبطية الأرثوذكسية، هذا فضلاً عن أنه أفنى حياته في خدمة الموسيقا القبطية بكل ما تعني الكلمة من معان في محراب الموسيقا القبطية منذ شبابه الباكر إلى أخريات حياته العلمية الحافلة.

وقد بدأ التفكير في هذا المشروع العملاق، حينما لاحظ راغب مفتاح منذ حداثته، الحاجة إلى حفظ تراث الكنيسة القبطية الموسيقي من الضياع، وشرع من فوره في البحث عن المرتلين الأكفاء الذين يحفظون الألحان، وقام بتسجيلها موسيقيًا، وتدريب مرتلين جدد، وهكذا تحولت هذه الألحان من مرحلة «الشفاهة» المتداولة من جيل إلى آخر عبر القرون العديدة والطويلة إلى مرحلة «الكتابة» الثابتة ضبطًا وتدوينًا.

ويعتبر عام ١٩٢٦م، هو نقطة البداية الحقيقية نحو تسجيل هذا التراث الضخم، حين شرع راغب مفتاح في رحلة البحث عن مرتلين أكفاء يحفظون ألحان الكنيسة بطريقة موثوق بها. وفي عام ١٩٢٨م، جاء إلى مصر الدكتور «إرنست نيولاند سميث»، أحد أبرز موسيقيي الأكاديمية الامبراطورية الموسيقية في لندن، بدعوة من «مفتاح»؛ ليقوم بتدوين موسيقا الألحان القبطية والليتورجية (النص القبطي). ووقع اختيار «نيولاند سميث» على المعلم «ميخائيل جرجس البتانوني» من بين المرتلين؛ ليرتل الليتورجية كاملةً، وفيما بين الأعوام ١٩٢٨ - ١٩٣٦م، كان قد فرّغ ١٦ مجلدًا مع التسجيلات الحية التي تضمن أحدها «ليتورجية القداس الباسيلي».

وعيب على مدونات «نيولاند سميث» - على أهميتها القصوى - أنها جاءت خالية من الزخارف الموسيقية، وأصبحت - فيما بعد -

---

The Coptic Orthodox Liturgy of St. Basil

(الليتورجية القبطية الأرثوذكسية للقديس باسيليوس)

Ragheb Moftah

AUC Press,1998, 697p.

مجرد وسيلة هادية للعلماء؛ ليتمكنوا من استخدام هذه التسجيلات كأساس صحيح لمدوناتهم اللاحقة، مع إمكانية إعادة الاستماع لهذه التسجيلات بسرعات بطيئة بغية إعادة إنتاج التدرجات الفعلية في الأنغام الموسيقية.

وبحلول عام ١٩٥٤، أسس قسم الموسيقا في معهد الدراسات القبطية وترأسه «مفتاح»؛ تكليلاً لجهوده الدءوب في حفظ التراث الموسيقي القبطي من الضياع ولفت الأنظار لذلك، وتم أيضًا افتتاح استوديو خاص بالتسجيلات. وبدأت إجراءات تجميع التسجيلات من الموسيقا الكنسية على قدم وساق.

وعادةً، يتم أداء صلوات الليتورجية القبطية ملحّنة، وليتورجية القديس «باسيليوس الكبير» هي الأكثر شيوعًا بين مسيحيي مصر واستخدامًا طوال العام، فيما تُستخدم الليتورجية الخاصة بالقديس «أغريغوريس» في الأعياد الأربعة الكبرى: أعياد الميلاد، والغطاس، والقيامة، وعيد الخمسين (البنديكستي) أو حلول الروح القدس. وعلى عكس الليتورجيتين الأخريين، لا تستخدم الليتورجية الثالثة الخاصة بالقديس «كيرلس» إلا نادرًا؛ وذلك نظرًا لضياع موسيقاها تدوينًا وشفاهة بالمثل.

وتأتي محاولة «راغب مفتاح» هذه لتكون هي المرة الأولى التي يتم فيها نشر موسيقا ليتورجية القديس «باسيليوس الكبير» كاملة، بعد أن كانت تتداول شفاهة من قبل.

يعتبر القديس «باسيليوس الكبير» (٣٣٠ - ٣٧٩م) أحد آباء الكنيسة البارزين في عصره. وعلى كونه راهبًا ناسكًا، فقد كان لاهوتيًا حازمًا وأسقفًا من الطراز الأول. وقام خلال حياته القصيرة برحلات عدة إلى سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى، وكان اهتمامه الأول ينصب دائمًا على الرهبان ومجامعهم، وقوبلت ليتورجيته بالتقدير الوافر والاحترام اللائق، وتعد أساس الصلوات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. فعلاوة على استخدام الموسيقا والنص في الأعياد الكبيرة في الكنيسة، فإن كل يوم من أيام التقويم الكنسي يحمل تذكارات لأحد القديسين أو أهم الأحداث في تاريخ الكنيسة، مثل يوم ٢٢ طوبي في التقويم القبطي الموافق ٣٠ يناير، وهي ذكرى نياحة القديس الأنبا «أنطوني» العظيم (٢٥١ - ٣٥٦م)، أول رهبان المسيحية، فيؤدي الألحان الكاهن ومساعده والشمامسة والشعب بقيادة كورس الشمامسة، فيما تضاف بعض القطع للألحان في الخدمة الأساسية في حالة حضور البطريك أو الأسقف.

ويعد طقس ليتورجية القديس «باسيليوس»، إحدى ثلاث ليتورجيات يضمها كتاب الصلوات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المعروف بـ«الخولاجي» (نشر جمعية أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، القاهرة، ١٩٦٠، الطبعة الثالثة، المعتمدة من قداسة البابا «كيرلس السادس»، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية آنذاك). و«الليتورجية» هي اللهجة البحيرية في «القبطية» وأضيفت الترجمة العربية في بداية الفتح العربي لمصر، وتنقسم حاليًا كل صفحة من صفحات الكتاب «الخولاجي» إلى عمودين: أحدهما للقبطية، والآخر للعربية، ويستخدم الكاهن إحداهما بالتبادل مع الأخرى ضابطًا اللحن مع النص.

وكانت النصوص الأولى لليتورجية مكتوبة باللغة اليونانية، ثم تُرجمت إلى القبطية فالعربية. وكُتبت المخطوطات القبطية القديمة دون تنسيق، وفي مرحلة مجهولة من تاريخها، أعيد تنسيق المخطوطات في مقاطع أو أجزاء قصيرة تحوي جملتين أو أربع.

وتتكون «الليتورجية» من ثلاثة أجزاء رئيسية هي: صلوات الاستعداد، وقداس المعوظين، والتقديس أو الأنافورا، ولكن أداء الليتورجية يتم كوحدة كاملة متكاملة للصلاة والشكر دون فصل بينها، ويؤدي الكاهن عددًا كبيرًا من الصلوات سرًا، فيما يقود الشماس الشعب لأداء الألحان. ويحتوي قداس المعوظين على قراءات من النصوص المقدسة القبطية والعربية والترجمة الإنجليزية للنصوص من ترجمة «الملك جيمس الحديثة New King James Version»، وهي الترجمة المفضلة لدى قداسة البابا «شنودة الثالث»، بابا الإسكندرية وبطريرك الكرسي المرقسي للكنيسة القبطية في مصر.



أما بخصوص الموسيقا، فيقوم الكاهن والشماس بأداء ألحان طقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وتؤدي الموسيقا بالأسلوب «اللحن المفرد Homophonic Style» وينفذ دون مصاحبة أية آلات موسيقية، وتتميز بشيوع استخدام عنصرين موسيقيين هما: «الميلزما» و«الزخارف». و«الميلزما» عبارة عن امتداد لحني لحرف متحرك خلاف الكلمة بعكس مد مقاطع النص في اللحن الأساسي. وبعض الزخارف تشكل جزءًا من اللحن نفسه، وهي الزخارف التقليدية، وأضاف الكاهن المرّتل بعضها الآخر، حسب أسلوبه الزخرفي الخاص. ويحتوي كل لحن على عدد من النغمات بدرجات معروفة، ويُعرف كل مرتل بأسلوبه المميز الذي يطوع اللحن لإمكانيات أداء حنجرته الصوتي.

وتؤدي أواشي الكاهن والنصوص الكتابية وتنبيهات الشماس بلحن آخر، أما معظم ألحان الشعب التي يقودها كورس الشمامسة، فتؤدي بإيقاع عادي منتظم. وعادة يتكون كورس الشمامسة من الرجال فقط، ويصطفون في صفين متقابلين، وتؤدي بعض الألحان بالتبادل بين الجهتين القبلية والبحرية.

والآلات الوحيدة المستخدمة الآن، هي زوج من الصنوج يعرف في اللغة العربية بـ«الناقوس»، والمثلث المعروف بـ«التريانتو»، وتحدد الحواشي والألحان المصحوبة بالصنوج، ويعزف على هذه الآلات اثنان من الشمامسة بضروب إيقاعية مركبة تعطي أساسًا قويًا لألحان كورس الشمامسة وأصوات الشعب.

ولن أجد أفضل مما أختم به حديثي عن الليتورجية القبطية الأرثوذكسية وموسيقاها، سوى بنص من ضمن نصوصها الثرية والعذبة المعنى في الوقت نفسه، حتى نستطيع تفهم روح هذا الدين ومحتواه الروحي وقيمه الإيمانية. يقول الكاهن ضمن ما يقول في صلاة الاستعداد: «أنت يا رب، علمتنا هذا السر العظيم الذي للخلاص، أنت دعوتنا، نحن الأذلاء غير المستحقين عبيدك، لنكون خدامًا لمذبحك المقدس. أنت يا سيدنا، اجعلنا مستوجبين، بقوة روحك القدوس، أن نكمل هذه الخدمة لكن بغير وقوع في دينونة، أمام مجدك العظيم، نقدم لك صعيدة البركة، مجدًا وعظم بهاء في قدسك.. اذكر يا رب ضعفي أنا المسكين، فاغفر لي خطاياي الكثيرة».

وهكذا، لم تندثر الموسيقا في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وليتورجيتها؛ لأنها تحمل الإيمان والاتباع لهذه الجماعة المسيحية عبر العديد من القرون الطويلة؛ فالاستمرارية والتواصل صفتان ملازمتان لكل شأن من شئون الحضارة المصرية العريقة.

"شـعريات عربيــة"

حســــين الـــــواد

■■ من الأحداث البارزة فى مجال الدراسات الأدبية بتونس إقدام الأستاذ توفيق بكار على نشر أعماله الكاملة، فقد صدر منها الجزء الأول فى شهر أبريل ٢٠٠٠ موسوما بـ «شعريات عربية» من عمل دار الجنوب بتونس فى ١٥٣ صفحة.

والذين لهم اطلاع على واقع الدراسات الأدبية بتونس ومتابعة لها يدركون، لا محالة، ما لهذا الحدث من أهمية ومدى القيمة التى يكتسبها.

فالأستاذ توفيق بكار وجه ثقافى بارز فى تونس، إلا أنه وإن كان مشهورا معروفا فى الأوساط الجامعية ولدى المثقفين، لا يكاد يعرف له القراء - عدا بعض المقالات - كتبا منشورة يمكن أن تتجلى فيها القيمة التى يستمد منها مكانته، ويستدل بها على عمق تأثيره فى الثقافة الأدبية بتونس وفى التعامل مع عيون التراث الأدبى العربى وروائع نصوصه المعاصرة.

والأستاذ بكار كان قد أمضى عمره المهنى مدرسا بالجامعة التونسية، تخرجت عليه أجيال وأجيال من الأساتذة والباحثين، وأسهم، إسهاما فعالا، رفقة زملائه الأساتذة مؤسسى هذه الجامعة، فى إرساء تقاليد جامعية فى التدريس والدراسة والبحث والتاطير تجاوز إشعاعها حدود البلاد التونسية.

ثم إن هذا الأستاذ قد اختار أن يكون مثقفا مهتما اهتماما كبيرا بالأدب التونسى المعاصر وبما يجرى فى ما يصطلح عليه بالساحة الثقافية، فكتب عن القصاص من أمثال على الدوعاجى والمسعدى والبشير خريف وعن الشابى وشعراء الطليعة والشعر الحديث، وترجم نصوصا عديدة من هذا الأدب إلى اللسان الفرنسى، ودرّس أعمالا جديدة كثيرة ما كانت لتلقى، لولا إصراره وكفاءته، طريقها إلى الجامعة، وعقد بين أصحابها وبين الطلبة حلقات نقاش، ونشط منابر كثيرة اعتنت بدراسة الأدب التونسى المعاصر والحديث فتناولته بالدرس والتقييم ولفتت الأنظار إلى ما فيه من كنوز بعد ما كان يقابل بالاستهانة والازورار متى لم يشك فى وجوده أصلا.

والأستاذ بكار يقترن ذكره بالمناهج الحديثة فى الدراسات الأدبية، فمن السنة ١٩٦٩ بدأ قسم العربية بالجامعة التونسية ينفتح على علم اللسانيات وعلى الاتجاهات الجديدة فى التعامل مع الأدب، وأول بحث جامعى فى هذا المجال أنجزه صاحبه (صاحب هذا المقال) بإشراف الأستاذ بكار. كان ذلك سنة ١٩٧٢، فكان أول استعمال للمناهج الحديثة فى العالم العربى فى ممارسة نص قديم، نعنى الدراسة التى صدرت تحت عنوان «البنية القصصية فى رسالة الغفران»، إلى جانب دراسة أخرى وضعها، فى التاريخ نفسه، الأستاذ سالم ونيس عن قصص البشير خريف القصيرة.

وعندما تقرر إدراج المناهج الحديثة فى الدراسة الأدبية مادة من المواد المقررة كان الأستاذ بكار هو الأستاذ الذى عهد له زملاؤه بتدريسها. لم يكن بعض الأساتذة من مؤسسى الجامعة التونسية راغبين آنذاك فى أن يأخذ تعليم العربية بها بهذه «البدع» التى يقوم بين الأوروبيين أنفسهم حولها جدال كبير، إلا أن ثقتهم فى كفاءة زميلهم وتقديرهم لأخلاقه العلمية العالية، قد يسر لهذه المؤسسة الفتية أن تستقبل المناهج الحديثة مهيئة بذلك لروادها من الطلبة فرصة الاطلاع على النصوص المؤسسة فى لغتها الأصلية لاستعمالها فى ممارسة الإبداع الأدبى، واختبارها على الأعمال العيون فى الأدب العربى قديمه وحديثه. وكان لذلك، فى نطاق التكوين المؤهل للحصول على الأستاذية والتكوين المؤهل لمزاولة البحث العلمى، آثار طيبة على الدراسات الأدبية بتونس.

لهذه الأسباب، ولغيرها مما لم أذكره إذ السياق ليس سياق وضع ترجمة شخصية لهذا الأستاذ، أعتبر إقدامه على الشروع فى نشر أعماله الكاملة، ما نشر منها فى المجلات والصحف وما لم ينشر، حدثا مهما. والذى يعرفه، أهل الثقافة فى تونس، أن من دروسه ما عمد بعض المتهافتين على الربح المادى ممن درسوا عليه إلى انتحالها وإظهارها ولو كان ذلك على حساب الالتزام الأخلاقى.

ومع أنى أعرف جل هذه الأعمال، فقد سبق لصاحبها أن هم بإعدادها للنشر فى بعض السلاسل التى أدرتها، وسبق أن نظرت فى الكيفيات التى يمكن أن تجتمع بها بين دفتى كتاب، فإنى قد اطلعت على الجزء الأول منها بكثير من الاهتمام والفضول.

أما الاهتمام فيعود إلى السنوات التى كان يشرف فيها على بحثىّ الجامعيين الأولين. كان قد أتعبنى، وإنى لمدين له بذلك، عندما كان يحرص على مناقشة التصور العام والأفكار وجزئيات التركيب. فهذه فكرة لم تأخذ حظها من الدرس، وهذا رأى فى حاجة إلى مزيد من التثبت، وهذه جملة رديئة ركيكة. وهذا لا يقال هكذا فى العربية.

وأما الفضول فمن معرفتى بأنه كان يتهيب النشر ويخشاه. وكأنه كان ينظر دائمًا إلى قول ابن المقفع، إن اللفظة تمتلكها ما دامت فى الضمير، فإذا نطق بها اللسان ملكتك. فالنصوص تظل لديه مدة ينقحها ويراجعها ويعيد فيها النظر، دون أن تصل إلى الفوز برضاه.

كنت أتساءل عن الصيغ التى ارتضى أن يطيرها فى الناس لأعمال فرغ منها ولمّا، منذ أكثر من ربع قرن من الزمان؟



يستوقفك، أول ما يستوقفك، من هذا الجزء الأول، قول صاحبه فى الفاتحة التى خصه بها: «هذه نصوص من شعرنا، قديمه وحديثه، شدتنى كلها بشىء فيها من سرها، وسحرها، معنى، أو رنة، أو صورة، أو فاتن من لعب الفن ماكر (..) امتحنت بها وفيها، مناهج النقد الحديث، فأربت على كل منهج، وتمنعت لا ترضى غير قراءة من وحيها، تلائم روحها».

فهذه الفاتحة تستوقف باقتضابها، إذ الاقتضاب من شانه أن يستغرب من أستاذ أمضى سنين طويلة يدرس العوامل التى أسهمت فى نشأة النقد الأدبى الحديث ويعرف فيها بالمنهج الشكلانى والبنيوى الاجتماعى والبنيوى اللسانى وبالإنشائية، واقفا، متريثا عند حركة الشكلانيين الروس ومدرسة براغ وعند قولدمان ولوكاتش وجاكوبصون وبارت وتودوروف وجان جينيت وكلود بريمون وجوليا كريستفا وبيار ماشيرى، معرجا على ميشال فوكو وأمبرتو أيكو ويورى لوتمان.

فما الذى حمله على العزوف عن وضع المقدمات التمهيدية التى تعرض لهذه المدارس وتلك الاتجاهات والنزعات بالتعريف فى النظرية والإجراء والنتائج؟ وخاصة أن المادة موجودة لديه أغلبها محرر تحريرا كاملا أو جزئيًا.

وإنك لتستعرض الكتاب من أوله إلى آخره فلا تصادفك فيه فقرات طويلة يتحدث فيها المؤلف عن المناهج الحديثة مكاسب نظرية ومزايا إجرائية ونتائج خطيرة تمكن منها. وفى ما عدا الصفحات الخمس التى سماها «مدخلا نظريا» فى مستهل التحليل الأول، فإنه يبدو حريصا على ألا يتحدث عن المناهج الحديثة حديث المنظر لها.

ويرجع هذا، فى ما أقدر، إلى ما لا يقل عن أمرين اثنين: الأول أن صاحب هذه القراءات لا ينظر إلى المناهج إلا من حيث هى وسائل يستعين بها النظر فى ممارسة النصوص. فالنص يستدعى المنهج وليس المنهج هو الذى يتسلط على النص. ثم إن المناهج فى نظره، إرث إنسانى عام لا يلغى بعضها بعضا إلغاء تاما، ولا تهم من حيث هى فى تجادلها بقدر ما تهم من حيث ما يمكن أن نصل إليه منها. لذلك لم يكن ولوعا بالدخول فى نقاشات نظرية حول المناهج الحديثة أيها أصلح بادبنا العربى.

أما الأمر الثانى فيتعلق بالأعمال التى يشرحها نفسها، فهذه نصوص قد اختبر بها المناهج الحديثة، وإذا بالمناهج الحديثة تضيق عن تلك النصوص مثلما ضاقت عنها من قبل سائر المناهج التقليدية والعتيقة.

ووراء هذا الموقف تكمن تلك القضية الأم، قضية النصوص الإبداعية البديعة وهى تفيض دائما عن كل قراءة، فالنص الفذ هو النص الذى لا تستهلكه القراءات. وكان بالنصوص الروائع طاقات شتى مقدرة فيها فنيا لا ينجز منها القارئ إلا اليسير الذى يؤهله له زمانه أو يتطلبه منه ومنها الحال.

وهذا الموقف، وإن كانت مناهج حديثة كثيرة قد بنت عليه كيانها النظرى والإجرائى، قريب مما كان قد ذهب إليه ابن خلدون فى مقدمته، متى أحسنا تدبر كلامه. قال ابن خلدون متحدثًا عن علم الأدب: «هذا العلم لا موضوع له ينظر فى إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته، وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور» (ص ٥٥٣، طبعة مصطفى محمد. القاهرة. د. ت).

فأمر النصوص الإبداعية إلى التراكم أقرب منه إلى أى شىء، وليس النص من الشعر الجاهلى باقل تحريكا للضمائر المثقفة المرهفة من النص الحديث والمعاصر مَتى توافرت فى كل منهما الجودة.

إذا كان هذا بعضًا من شان النصوص، فما شان القراءة التى تخرج بها من الصمت إلى النطق، ومن الكمون إلى التوهج والفعل؟

يجيب الأستاذ بكار عن هذا السؤال إجابتين متكاملتين.

الأولى يلفت النظر إليها الشاهدان اللذان

شعريات عربية
توفيق بكار
دار الجنوب: تونس، ١٥٣ صفحة، ٢٠٠٠



صدر بهما هذا الجزء الأول من أعماله. أخذ الشاهد الأول عن عبد القاهر الجرجاني، وأخذ الثاني عن رومان جاكوبصون.

وإذا كانت بين العالمين الكبيرين حرمة من نسب مردها العناية بالتفقه في «فن الأقاويل» وحرمة من إبداع مردها أن كلا منهما وضع في المجال الذي يعنى به جهازًا نظريًا فذا، فإن الجمع بينهما جمع بين فذاذة الشرق وفذاذة الغرب وفذاذة القديم وفذاذة الحديث، وإنها لتتجسم في أن كلا منهما قد جعل استغراق الإنصات إلى النصوص في صمتها الناطق بالآسر من أسرار جودتها الفنية وبكل ما يهم الإنسان في وجوده ومصيره، في صدارة الأولويات. والإنصات إلى ذلك الصمت الناطق في النصوص البديعة هو الذي فطن له علماء الدراية ودأبوا على الأخذ به. يلقى منهم الخلف باكتشافه ما كان قد اكتشفه السلف، فاطرد في التحاليل التي وضعها الأستاذ بكار على النصوص التي انتقاها ذكر أعلام أئمة ممن كان لهم تأثير بالغ في الدراسات الأدبية والبلاغية من القدامى والمعاصرين شرقا وغربا.

أما الجواب الثاني فهو هذه القراءات التي أقامها على محاورة النصوص، وهو «السامع المحترف» الذي يعتقد أن «النص الأدبي لا يأخذنا إلا ليردنا إلى ما حواليه، ولا يدخلنا إلى ذاته إلا ريثما يخرجنا منها إلى غيره عبر كافة جدلياته» (ص ١٠٦).

فالنص الأول قصيدة تنسب إلى عنترة بن شداد العبسي مطلعها:

يا طائر البان قد هيجت أحزاني
وزدتني طربا يا طائر البان

وأما النص الثاني فقصيدة لبشار بن برد طائرة الصيت في المنتقيات والمنتخبات والاختيارات والمقررات الدرسية ذكر فيها مجلسا غنائيا ومطلعها:

وذات دلّ كأن البدر صورتها
باتت تغني عميد القلب سكرانا

وأما النص الثالث فمقطوعة أو قصيدة تتكون من أبيات سبعة للحسن بن هاني أبي نواس مطلعها:

نضت عنها الرداء لصب ماء
فورّد وجهها فرط الحياء

وليس النص الرابع سوى بيت واحد من قصيدة لأبي الطيب المتنبي شهيرة.

أما مطلع القصيدة فهو:

ملومكما يجل عن الملام
ووقع فعاله فوق الكلام

وأما البيت فهو:

ذراني والفلاة بلا دليل
ووجهي والهجير بلا لثام

وأما النصان من الشعر الحديث فأولهما لأبي القاسم الشابي وهو «صلوات في هيكل الحب». ومطلعه:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام
كاللحن كالصباح الجديد

والثاني قصيدة لمحمود درويش عنوانها: «لحن غجري».



بين هذه النصوص الستة أكثر من جامع. فهي، وإن تباعدت أزمان إنتاجها واختلفت ثقافات مبدعيها، تلتقي أولا في دورانها في فلك الغناء والتغني والطرب، إذ هي إشادة بالصبابة وأوجاعها وبالجمال ترتل له «الصلوات» وبالأنا تنتشي منه بالامتلاء أو يشجيها اغتصاب الأوطان. إنها قصائد وجدانية لا أثر فيها للحكمة أو المديح أو الهجاء أو الإخوانيات ... محورها الأنا صب بالحب شهيد وعاشق لما في الوجود مشتاق منه إلى اللوعة والوجد، تهزه المواجد والمواجع هزا.

ثم إنها من ذلك الكلام الذي لا نفع ولا ربح ولا غاية ظاهرة لا لقائله ولا لمتلقيه منه، غير ما يجده فيه المبدع من قدرة على إبداع الفن ترتفع به إنسانيته وترقى إلى مصاف الإبداع ويلقاه فيه متقبله من إمتاع جمالي.

أليس أن الفن يعرف، من بين ما يعرف به، بأنه غير غائي وغير استعمالي وغير نفعي ولا يأتي عليه الاستهلاك. فهو ليس بضاعة من البضاعات أو منتوجا صناعيا من المنتوجات التي تشبع من جوع أو تكسو من عرى أو تحمي من ضرّ أو تروى من ظمأ. وإذا كان كثير من الناس ممن لم يتبينوا للفن وظيفة في الوجود ولم يروا له فيه غاية خاصة به، قد حادوا به إلى ساذج الالتزام فحشوه مذاهب وأيديولوجيات ومرغوا جلاله في وحل المصالح وقضاء الأوطار، فالذنب ليس للفن ذنب، إذ هو ذنب الذين لم يعرفوا لوجوده وجوبا فجعلوه بهلوانا يلعب لهم ما شاءوا من الأدوار. وليس يعقل أن تجهد الشعوب في الولع بالفن وتعنى فيكون ولعها به من العبث أو من هوس الترف. وليس يعقل أيضا أن تكون الفنون غائية نفعية أو مفهومية وللغائيات النفعية والمفاهيم مجالات خاصة بها.

هذه النصوص التي تجمع بينها قواسم مشتركة أخر واجهها قارئها بطرائق في الإنصات إليها من اقتراحها، وهي طرائق يجمع بينها أيضا أكثر من جامع.

فهي تشترك، من بين ما تشترك فيه، في أنها تعتمد للشعر ذلك المفهوم الذي يعده كائنا من كلام تحكمه في علاقة بعضه ببعض الأحكام التي تحكم نظام اللغة، وتحكمه في علاقته بالعالم والوجود. الأحكام التي تحكم علاقة نظام اللغة بالعالم والوجود، ولكن الشعراء وهم «جهابذة الكلام» يتصرفون، إلى ذلك، في اللغة التي يستعملونها أو «يتلاعبون بها» تلاعبا هو كاللعب وإن كان جدا في جد. وهذا المفهوم الذي اشتهر منتسبا إلى المناهج الحديثة منذ شرع أصحابها في تساؤل الأدب والشعر عما إذا كان لهما كيان في استعمال اللغة خاص بهما، إنما يضرب، في الحقيقة، بجذور عميقة في التاريخ. يدل على ذلك، من بين ما يدل عليه، أن الأذهان اللطيفة لم تفتأ، منذ شغلت بالكلام على جمال الكلام، تجهد في وضع الصيغ المفهومية تطلب بها النفاذ إلى الكيفية التي يكون بها الكلام الجميل، في آن واحد، من الكلام وبائنا عنه بأسرار ما فيه من جودة وجمال. ومن أقرب الصيغ (وهي كثيرة) التي وضعها العلماء في مختلف الأزمان ومتباعد الأمصار، إلى روح المناهج الحديثة وأمتنها صلة بالكلام الذي حلل به الأستاذ بكار النصوص التي حلل، نذكر، على سبيل التمثل، ما ذهب إليه الشيخ الرئيس ابن سينا في ما تحدث به عن الخطابة والشعر فقال: إن الشعر «هو الكلام على ما وجوده في اللغة فقط». يعني بذلك أنه كلام على ما ليس له وجود على الحقيقة. ولكن الكلام على ما ليس له وجود على الحقيقة، وهذا من إعجاز الشعر وسحره الحلال، مؤثر فعال في كل ما له في الوجود وجود على الحقيقة.

قد أقام الأستاذ بكار كلامه على هذه النصوص على التجاوب الشديد مع مقالة الشيخ الرئيس ابن سينا ومقالات أعلام آخرين جاءوا بعده من قبيل رولان بارط ورومان جاكوبصون وبول فاليرى فقال في سياق الحديث عن قصيدة عنترة: «ومما زاد في وحدة المعنى والمغنى أنه لم يحدث في هذه القصيدة سوى الخطاب، وهو مزدوج، خطاب مبطن في خطاب: مناجاة العاشق لطيره ومناشدة الشاعر لغيره، وهو إلى ذلك، إلا في البيت الأول، خطاب إنشائي وليس خبريا، لا يحاكي شيئا صار بل شيئا حبذا لو يصير» (ص ٣٣). وقال متحدثا عن قصيدة بشار: «مجلس القصيدة بلا ريب، من محض الاختراع، قوامه الكلام، ولا مرتب لشئونه إلا ضوابط النظم من بحر وحرف ومن بيان. فن من قريحة هو لا شيء من حقيقة. وإن يكن له عيار فجمال الإنشاء، ولا يهم بعده ما قد يكون فيه، أو لا يكون، من مطابقة الحال إن كانت حال. فمتى كان الشاعر، أي شاعر، موكلا بحكاية الواقع فنطالبه بالوفاء» (ص ٣٨ ـ ٣٩).



وتشترك القراءات التي وضعها صاحبها لهذه النصوص، من بين ما تشترك فيه أيضا، في أنها ترى القارئ المختص لنصوص الأدب مدعوا لأن يعتبرها أندادا يحاورها محاورة الأنداد للأنداد. فالنص الجيد، إذ يبهرك بقوة الفن فيه، يدعوك إلى تساؤله عما بهرك به مثلما بهر غيرك وفاز بإعجابك مثلما فاز بإعجابهم، وعما جعل الشعوب، في مختلف الحضارات ومتباعد الأصقاع، تنتقي من كلامهما كلاما تمحضه الهوى فيسهر منها من يسهر الليالي في حفظه والحفاظ عليه. ومثلما كان النص الجيد «إنتاج اللسان والذهن والوجدان ونتاج تجارب شتى وجودية واجتماعية وسياسية وثقافية»، ينبغي أن تكون قراءته باللسان والذهن والوجدان وشخصية القارئ من حيث هو ابن من أبناء عصره منغرس في حضارة ينتمي إلى ثقافة ويحمل هوية.

فالقراءة التي يتضمنها هذا العمل «قراءة خلاقة» (ص ١٠٧)، وهي، لدى المختص الذي يتحمل مسئولية تنشئة الأجيال التنشئة التي تشدهم إلى أصولهم الثقافية وترسخهم في هويتهم الحضارية، وتزودهم بالعلم ليتربى منهم العقل وتهذب النفس ويرهف الإحساس، تحتاج

كتاب الزاوية

البيان قبل الأخير

سميح القاسم

يا أيّها الآتون من عذابكُم

عودوا على عذابنا

عودوا إلى صوابنا

الشَّمْسُ في كتَابنا

فأيُّ شيء غيرَ هَذا الليل في كتابِكُم

يا أيّها الآتون من عذابكُم

لا . . لا تعدّوا العشرَةْ

وغازلوا قاذفةً . . وعاشروا مدمِّرةْ

وأتقنوا المكائدَ المُحكَمةَ المدبَّرَةْ

خُذوا دمى حبرًا لكم

ودبِّجوا قصائدَ المديح في المذابح . . المُظَفَّرةْ

وسمِّموا السنابلْ . . وهدِّموا المنازلْ

وأطلقوا النارَ على فَرَاشَة السلامْ . . وكسِّروا العظامْ

لا بأس لو تصيرُ مزهريةَ

عظامُنا المكسَّرَةْ

لا . . لا تعدّوا العشرَةْ

* * *

مَنْ أوصَدَ السِّحرَ على قلوبكم؟

مَنْ كدَّسَ الألغازَ في دروبكَم؟

مَنْ أرشَدَ النصل إلى دمائنا؟

من دَلَّ أشباحَ الأساطير على أسمائنا؟

من أشعَلَ الفتيلْ؟

من لاطَمَ القتيل بالقتيل؟

لا تسألوا . . لا تَقْبَلوا

لا تعبَأوا بالدمعة المفكِّرة

ولا تعدّوا العشرَةْ



إلى منهج صارم وإلى قدرات توليدية إبداعية.

ومن هنا اتجهت القراءات التى وضعها صاحبها على هذه النصوص إلى اعتماد الإجراء المخبرى الذى يهتم فيه القارئ بكل ما فى النص من دقائق يذكرها ذكرا علميا واصفا. فهو إزاء هذه العناصر المادية التى تتكون منها النصوص يتخذ الموقف الذى يتخذه العلماء من الظواهر التى يدرسون فيتأملونها ويذكرون الخصائص التى يبصرونها فيها. وفى هذا القسم من قراءته يتنزل وقوفه على القوافى والبحور والإيقاعات وعلى اللغة أصواتا ومفردات وتراكيب وعلى ما يقوم بينها من علاقات التناظر والتنافر.

إلا أن للقراءة، فى عمله، وجها آخر يتمثل فى الإفصاح عما يحدث به النص القارئ ويحدث به القارئ النص. وفى هذا الموطن يسترسل القارئ مع ثقافته ويغرف من شخصه ومن عصره ومن وحى النص، فيدعو السؤال السؤال ويستدعى الجواب الجواب، وتعود للنصوص أرواحها. وإذ كانت الثقافة العربية الإسلامية تنتهك من أبنائها جهلا، والجهل أم الكبائر، ومن خصومها تشكيكا فيها وطمسا لمحاسنها، جرت على لسان المؤلف فى تضاعيف تحاليله عبارات منها، متحدثا عما فى بعض التحديث من خرق: «وما عجبى، مرة أخرى، إلا من رءوس المحدثين اليوم، اتهموا القصيدة العربية، أول ما طلعوا، بأنها شعر أبيات، تعوزها «الوحدة العضوية» فى التركيب، وبأن خيالها «لفظى بيانى» لا «فنى أسطورى» كخيال اليونان، ورتيبة اللحن لوحدة القافية، لا تعرف التأليف السنفونى كشعر الغرب.



رب «حداثة» تعمى وتصم. أم بات ازدراء الذات عندنا، شرطا واجبا لكل دعوى من دعاوى التجديد؟» (ص ٨٧).

ومنها، مشيرا إلى العولمة وما يثار حولها من ضجيج، فى سياق الحديث عن الشعر العربى الذى ترقى إنسانيته المحلية إلى الإنسانية الكونية، إن «مادته البشرى الحميم، ولا عربى إلا الإهاب، وبعض الألوان وكل اللسان. فما انتظرت لغتنا عولمة المتعولمين من أعقاب هذا الزمان لتعبر عن الإنسانى الشامل وبقحها من اللفظ» (ص ٥١).

والذى يشرّع لهذه القراءة، أن صاحبها يعتبر: «الشعرمن اللغة بلا ريب، ولكنه نظام فوق نظامها، تعبير بالدرجة الثانية، كلام مخصوص ينطلق من الكلام العام ويتجاوزه فينفيه ليكون. هو «لغة فى اللغة» كما يقول فاليرى، إحداهما مقيدة بضابط المعجم وضوابط الصرف والنحو وليس للأخرى من قاموس إلا لا نهاية الدنيا ولا لها من نحو إلا تلاقى عناصرها بصدفة الخلق» (ص ١٠٩).

يمكن للناظر فى هذه القراءات أن يتفق مع صاحبها فى الوصف الذى تحدث به عن النصوص فى مظهرها المادى الملموس فى أبنيتها، وليس هذا بالموطن الذى يفترق فيه أهل النظر، ويمكن له أيضا أن يتفق معه فى التخريجات الإيحائية والدلالية التى تهمس له بها تلك النصوص، كما يمكن له ألا يتفق معه فى هذا الموطن بالذات مع هذا الموقف أو ذاك، ولكن الذى لا شك فيه أن النصوص، بهذه الطريقة فى التحليل والفهم، تكتسب حياة تخرج بها من الوجود «المتحفى التراثى» من حيث هى وثائق شاهدة على التاريخ، إلى الوجود الفاعل فى صنع التاريخ. فالإبداع على الإبداع فى هذا الكتاب إبداع، فيه من موضوعية الأدوات الفنية، وهى موضوعية نسبية، أشياء، ومن ذاتية المبدع، وهى ذاتية نسبية أيضا، إذ هى أيضا موضوعية، أشياء.

لهذه الأسباب، مفردة ومجتمعة، يتراءى شروع الأستاذ توفيق بكار فى نشر أعماله الكاملة، حدثا، فى واقع الدراسة الأدبية، مهمًا، بصرف النظر عن اتفاق القارئ معه أو اختلافه معه. فالدرس الأدبى، فى بلادنا العربية، ما رفع منه لواء الأخذ بالمناهج الحديثة وما ظل منه يدور على نفسه فى مجال الدرس التاريخى، يفتقر، فى معظمه، افتقارا شديدا إلى النظر الجاد والواعى إلى طبيعة المواضيع والمسائل والقضايا التى يعنى بها، ذلك أنه، كثيرا ما يخلط، خلطا عجيبا، بين المنطق والغاية والموضوع والمنهج والمسلمة والاستدلال والكلام العادى والكلام الأدبى الفنى والواقع والخيال والمجاز والحقيقة، وينتج، فى الغالب دائمًا، خطابا عقيمًا تافه العبارة يتبرأ بعضه من بعض وتصدأ له الأذهان والأذواق. والذى لا شك فيه أن إظهار الأعمال المؤسسة مما يساعد الأذهان على اختصار المسافة إلى ما ينفع فى تقويم الفكر فى اللسان وتهذيب الوجدان.

الكتب وجهات نظر
رسائل

هيكل يقود عملية منظمة لترشيد الوعي العربي

كعادته جاد علينا الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل في الشهور الأخيرة بسلسلة من المقالات البالغة الأهمية حول الأوضاع العربية والمصرية، هي ومضات حق استلهمت التاريخ واستشرفت المستقبل.

وأعتقد أنه قد آن الأوان أن تقوم دعوة قومية وعربية لإنشاء «مؤسسة أو معهد هيكل للدراسات المصرية والعربية» تواصل وتطور العطاء الفذ الذي أثرى به هيكل - ولايزال - الحياة السياسية في مصر والعالم العربي على مدى نصف قرن. ففي العشرين سنة الأولى كان في الطليعة من قيادة الثورة، رفيقاً لقائدها، مشاركاً في بلورة توجهاتها وفي كثير من الأحيان في صناعة قرارها، إلى أن رحل القائد بعد أن صرعته مؤامرة الإمبريالية والصهيونية، وانكسر الحلم الوطني المصري وتعطل المشروع الوطني العربي. فراح هيكل - منفرداً - على مر الثلاثين عاماً التالية يقود عملية علمية ومنظمة لترشيد الوعي الوطني العربي والمصري ويفتح عيون مواطنيه على دقائق التاريخ الدامي للمنطقة العربية مفنداً ما فعله الغرب بالعرب وما فعله العرب بأنفسهم، ومحللاً لدقائق الصراع، وواضعاً العلامات على الطريق لمن يريد أن يرى ومن يريد أن يسمع.

وأهمية دور الأستاذ هيكل تكمن في أمرين، أولهما أنه يتعامل مع تفاصيل تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي بمنهج علمي وعقلاني وبأسلوب موسوعي يعتمد فيه على الوثائق المحلية والدولية وعلى أرشيفه الضخم فتحققت لإسهامه بذلك مصداقية يندر تحققها في عالمنا العربي.

أما الأمر الثاني فذلك أنه مع موضوعية التناول يرتكز الأستاذ هيكل في رؤاه وتحليلاته على المعطيات الأساسية لأهداف الدور المصري والطموح العربي كما أفرزتها تجربة ثورة يوليو من خلال تفاعلاتها في مصر وفي العالم العربي والعالم الخارجي وفي ضوء الدروس المستفادة من محنة الهزيمة وتراجع الانتصار.

وهكذا لايزال الأستاذ هيكل يحاول إرساء المفاهيم لما يجب أن ترتكز عليه إستراتيجيتنا في الصراع مع العدو الصهيوني ويمكن القول في هذا المجال أنه بذلك يؤطر الأساس المعرفي إن صح التعبير لاستمرار ثورة يوليو ولكن باستنارة من التاريخ ومن التجربة وفي إطار تراث هذه الثورة المتحرك.

إن المسيرة مستمرة والقضايا التي فجرتها ثورة يوليو لم تمت مع جمال عبدالناصر وإنما تثبت الأيام أن ما واجهته لازال خطراً تاريخياً يحدق بالأمة وليس مجرد خطأ تاريخي وقع فيه الزعيم. من هنا فإن استمرارية هذا الجهد الفريد تصبح واجباً قومياً، فمصر لازالت تعاني من مشاكل التنمية والتطور ولازالت مستضعفة في مقابل الجبروت الأمريكي والصلف الصهيوني.

ولازال دورها في المنطقة يقابل كثيراً بالتشكيك، بينما لازال العالم العربي محاصراً ومستهدفاً.

ورغم مرور ثلاثين عاماً على رحيل عبدالناصر فلازالت قضاياه وأحلامه هي التعبير الحقيقي عن قضايا وأحلام الأمة، ولازالت هناك أسئلة وقضايا كثيرة وهامة تحتاج للمعالجة بمنهج الأستاذ هيكل وأسلوبه المتميز والذي أصبح مدرسة يجب أن يتخرج فيها جيل جديد من الباحثين والدارسين يتناول تلك القضايا ويتابع المسيرة مع الأستاذ.

إن مؤسسة هيكل للدراسات المصرية والعربية ستساعد على ترسيخ هذه المبادىء وتزويد العالم العربي بالأساسيات الإستراتيجية لإدارة الصراع وستكفل الاستمرار لمنهج هيكل ولفكر وتراث ٢٣ يوليو.

وإني أتوجه إلى «وجهات نظر» لكي تتبنى هذه الدعوة وتطرح القضية لحوار بنّاء يبلور الأفكار التي عبّرت عنها ويطورها.

دكتور صلاح الدين رشوان أبوالفضل
استشاري الطب النفسي - بريطانيا

لماذا لا يكتب الأستاذ هيكل سيرته الذاتية؟

لقد أعجبتني مجلتكم الموقرة التي جاءت بعد طول غياب وأيضاً بعد طول انتظار للقارئ العربي، وليس للقارئ المصري فقط، جاءت هذه المجلة لكي تسد فراغاً ثقافياً كان شاغراً قبل صدورها.

فقد جاءت المجلة تحمل أعدادها آراء كثيرة ورؤى جريئة ومستنيرة يحكمها التعدد والاختلاف في وجهات النظر لكوكبة من الأقلام العملاقة.

وأعتقد أن أغلبها قد انتزع ليس حب القارئ المصري، بل القارئ العربي على كل الأرض العربية من سباته العميق وأيقظه على بعض، بل كل ما يموج به العصر من حقائق ومتغيرات وتيارات مختلفة ورؤى جديدة.

فضلاً عن عروض الكتب في شكل عروض موجزة وقراءات جديدة، فإنني أقدم بالغ شكري وتقديري لكل القائمين على هذه المجلة.

وفقكم الله جميعاً لخير كل العرب والمثقفين والباحثين وأسأل الله أن يلهمكم السداد والتوفيق دائماً.

كما أنني أهيب بالسيد الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يكتب سيرته الذاتية، كما كتب الدكتور / طه حسين، والدكتور / زكي نجيب محمود، وكثيرون غيرهم.

مهندس / عصمت السروجي
كلية الهندسة جامعة الزقازيق

«وجهات نظر» واحتياجات القراء

عندما طالعتنا «وجهات نظر» لأول مرة ومن بعدها مرات عدة، لمسنا شيئاً جديداً يغزو طموحنا الثقافي والفكري وبمستوى رفيع عز نظيره، ويثري مفكرتنا السياسية بوقائع كانت في حينها تتحكم في رسم مستقبلنا، والذي هو حاضرنا اليوم الذي نعاني فيه «الأمرين»، تلك الوقائع التي ما كانت طبيعة الظروف وعلى امتداد نصف القرن المنصرم لتسمح بكشف سرائرها مما تركنا وبشكل دائم في وضع معلوماتي متخلف خلق لنا إشكالية في وعينا السياسي ورمى بنا في العديد من المطبات المفصلية التي ولدت عندنا بالتالي حالة من الإحباط وعطلت فينا القدرة على الحركة.

وبقينا نتهافت على شراء «وجهات نظر» أو تصويرها وكأنها وجبة إفطار لصائم في رمضان، نقرؤها بعناية فائقة ونتمنى لو كانت قد عاصرت مسيرتنا الجماهيرية منذ عدة عقود كأحد المصادر التثقيفية والتوعوية في وقت كنا فيه بأمس الحاجة إلى ذلك.

وبالطبع ما زلنا ننتظر نهاية الأسبوع الأول من كل شهر لنلتقي بـ «وجهات نظر» لنرى ما استجد من الفكر والثقافة والسياسة.

ولكن على عكس ما تمنينا، فقد فاجأتنا «وجهات نظر» بمجموعة أعدادها الأخيرة، خاصة عدد سبتمبر «أيلول» ٢٠٠٠، بموضوعات لا تمت إلى هذه الحقبة الزمنية بصلة، وكأنها مقتطفات من أدبيات صحفية كتبت في الماضي، فلا أعتقد أن قصة «طلاق امبراطورة» وفاروق ومعاطف فوزية على سبيل المثال قبل ما يربو على النصف القرن، تهم القارئ العربي الآن.

ولا أعتقد أن «آخر أيام نيتشه» قبل قرن ونصف من الزمن تجيب على التساؤلات التي تؤرقنا حول أوضاع أمتنا في الوقت الحاضر، ولا أعتقد بأن «أغاني الحب والزواج في حياة المصريين» مادة تناسب «وجهات نظر» بكل المعايير.

ولا أعتقد أيضاً أن معظم ما جاء في هذا العدد هو ما كان القارئ العربي المهتم من المحيط إلى الخليج يتمنى أن يجده في «وجهات نظر».

إننا في الوطن العربي - ولا أزعم بأنني أعلم منكم في هذا المجال - وبحكم الظروف القاسية التي تمر بها أمتنا من تمزق واختراق وانحدار نحتاج وبشكل ضروري ودوري إلى المزيد من الوعي السياسي والقدرة على قراءة الظروف على ضوء المعطيات القومية والإقليمية والدولية في جميع المجالات، خاصة السياسية منها والاقتصادية والثقافية والمجتمعية، وهذا لا ولن يتأتى إلا بالجهود والخبرة من أهل العلم والمعرفة القادرين على العطاء.

إننا بحاجة إلى جسور ثقافية وتربوية تربط الماضي بالمستقبل لتنير الطريق أمام الجيل الصاعد كي لا تضلله أشباح ما يسمونه بالحداثة والعولمة والاحتكار.

إننا بحاجة إلى دراسات وأبحاث فيها رؤى واضحة تكمن فيها القدرة على استنهاض الطاقات الدفينة في أبناء شعبنا، والتي جمدتها القوى المعادية.

إننا بحاجة إلى استعادة الثقة بالنفس والعمل على تجميع مكونات هويتنا القومية قبل أن يعفي عليها الزمن.

إننا بحاجة إلى من يتكلم لغتنا ويسهم، بل ويثري حوارنا ويعيش معاناتنا، ولا أبالغ إذا قلت بأنه يكاد لا يخلو بيت أو متجر أو مطعم أو مقهى أو مكتب أو حتى صالون حلاقة من حديث في السياسة أو الاقتصاد أو إسرائيل أو العولمة أو الخصخصة أو النفط أو التضامن العربي أو الديمقراطية إلى ما هنالك من القضايا الساخنة على امتداد الوطن.

إننا نقدر لكم هذا الجهد الكبير الذي تبذلونه في إصدار «وجهات نظر»، ولكن في الوقت ذاته نرجو ألا يغيب عن بالكم أن الإصدارات الصحفية إنما هي ملك للقراء وقراؤنا في هذه المرحلة المأزومة من تاريخنا المعاصر يتلهفون دائماً لقراءة المزيد من البحث حول القضايا الساخنة ودور الأنظمة في معادلة التخلف التي تعاني منها أمتنا وأنجع السبل للخلاص من ذلك.

د. خليل حمدي
علوم سياسية - الأردن

** منذ صدور العدد الأول لمجلة «الكتب وجهات نظر» حرصت إدارة التحرير على أن تحدد أهدافها.. مؤكدة أنها ليست مجلة سياسية فحسب، ولا هي ثقافية فقط، ولا هي مقصورة على ما يثار من موضوعات تشغل المفكرين وأهل الصفوة.. بل هي مزيج من ذلك كله. تستهدف إشباع حاجات مختلفة، تنهض بوعي القارىء وتكون ساحة تفاعل بين القيم: القديمة والجديدة، الوافدة والأصيلة، الماضي والحاضر. وحرصت المجلة أكثر من ذلك - فيما صدر من أعدادها حتى الآن - على أن تواكب الأحداث قدر ما تستطيعه مجلة شهرية، وأن تستجيب لحاجات أجيال تتباين ثقافاتها واهتماماتها.. وسوف تواصل «وجهات نظر» هذه السياسة، دون أن تضيق بالنقد والتوجيه، فهي بالفعل ملك لقارئها كما يقول القارىء العزيز.

«وجهات نظر»

عـــــــروض مــــوجــــزة

كتب عربية

جنوب السودان.. آفاق وتحديات

چون قاى نوت يوه

عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠، ٢٦٧ صفحة، ٢٥ جنيهًا



يصور البعض مشكلة جنوب السودان وكأنها حرب بين المسلمين فى الشمال، والمسيحيين فى الجنوب، ويتغافلون - ربما دون قصد - عن الأبعاد التاريخية والثقافية للصراع، مضافًا إليها البعد الاقتصادى بطبيعة الحال، فالجنوب يحتوى على معظم الأراضى الخصبة، ويحوى فى جوفه ذهبًا وبترولاً، وفى مراعيه ثروة حيوانية هائلة تحفها أنهار عديدة لا يتوقف جريانها.

والجنوب على لسان قادته لا يسعى إلى الانفصال، بل يريد أن يحيا فى ظل وحدة فيدرالية حقيقية، متمتعًا بقسط من الحكم الذاتى يحفظ له تميزه ويصون إرثه الثقافى وتراثه، وبفعل الفشل المتوالى فى حل مشكلة الجنوب، فتح الباب على مصراعيه لتدخلات أجنبية وأطماع من جهات عديدة، تريد أن تستثمر ورقة الجنوب، لتعبث بأمن السودان واستقراره عبر رؤيتها الضيقة المغرضة للصراع بوصفه صراعًا دينيًا.

والمؤلف مثقف من أبناء الجنوب، يدعو منذ البداية لحوار جنوبى جنوبى، يقضى على النزاعات القبلية ويحد من تطلعات زعماء صغار تقف حائلاً دون موقف موحد للجنوب، وإن كان يرى أن الحركة فى جنوب السودان يميزها غياب البعد الأيديولوجى الذى يغفل الواقع البشرى وتطلعات الإنسان البسيط، ويشير إلى الواقع الجديد الذى أفرزته اتفاقيتا أسمرا فى يونيو ١٩٩٥، والخرطوم فى أبريل ١٩٩٧، وكلتاهما أكدت على حق تقرير المصير لشعب الجنوب، وهو ما يعنى احتمال انفصال الجنوب فى حالة إجراء استفتاء صحيح، فماذا سيكون شكل دولة الجنوب، وكيف ستقيم علاقاتها، وماذا ستكون أولوياتها فى مجال السياسة الخارجية، وما هى فرص التنمية المتاحة لها.

هذه الأسئلة وغيرها تبقى أفقًا مفتوحًا لاجتهادات أبناء الجنوب أنفسهم، ومنهم أكاديميون ودارسو علوم سياسية كما هو حال مؤلف الكتاب، وربما تكون مشكلة الصراع الآن، هى اتساع رؤية العقيد «چون قرنق» الذى ساهم فى تاسيس الجيش الشعبى لتحرير السودان، فقد أعلن «قرنق» أن هدفه هو تحرير السودان كله، وليس الجنوب فقط، بالسعى إلى إقامة «سودان جديد» عماده العلمانية والديمقراطية والوحدة والاشتراكية، فى الوقت الذى تمسك بزمام الأمور الآن فى السودان سلطة تزعم انتماءها لمبادئ الإسلام، وتؤكد عزمها على بسط شريعته على كل أرض السودان وخارجه إن أمكن.

أسئلة عديدة يطرحها المؤلف الذى يميل منذ البداية لحق الجنوب فى الانفصال، ويدعو إلى حوار شمالى جنوبى سيكون شاقًا بالتأكيد، بالنظر إلى هذا التنوع فى بلد يضم نحو ١٩ مجموعة عرقية رئيسية وما يقارب ٥٩٧ قبيلة بما يعنيه ذلك من تنوع فى اللغات واللهجات، والتمايز بين ذوى الأصول العربية والأفريقية من زوايا التاريخ ومشاعر الانتماء والهوية، مضافًا إليها التمايز بين من يدينون بالإسلام ومن يدينون بالمسيحية، والأخيرون ترتفع نسبتهم وفقًا للجنوبيين إلى نحو ٢٠٪ من إجمالى السكان، فيما تقف بهم تقديرات الشماليين عند ٨,٢٪.

□ □ □

مصر القديمة.. التاريخ الاجتماعى

ترجمة: لويس بقطر

مراجعة: مختار السويفى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠، ٤٢٣ صفحة، ٢٤ جنيهًا



يعالج هذا الكتاب نمو المجتمع المصرى منذ عصور ما قبل التاريخ، متتبعًا أوجه نشاطه وآدابه، مستفيدًا من نماذج العمران وفنون الصناعة التى تطورت عبر هذه الحقبة الزمنية، وحتى مجئ الإسكندر المقدونى.

ساعد وادى النيل بما احتضنه من سهول خصبة على استقرار الإنسان فى هذه المنطقة من العالم، وما أن وصلنا إلى نهاية ما قبل الأسرات، حتى كان السكان يعتمدون كليًا على الزراعة والرى فى إنتاج طعامهم، وقد جرى هذا فى مصر العليا بصورة أسرع مما جرى فى الدلتا، مما شجع على نمو سكانى هائل، أما جنوب مصر العليا، فقد شجع اقترابها من مصادر الثروة المعدنية فى الصحراء الشرقية على نمو مجتمع متشابك العلاقات، ويرى بعض الدارسين أن الذهب مثلاً صار سلعة مهمة فى التجارة مع جنوب غرب آسيا، وقد شجع التبادل التجارى على نشوء مراكز اقتصادية وسياسية مهمة، وفتح الباب فى الوقت نفسه لبروز صراعات بين هذه المراكز رغبة فى حماية التجارة مع فلسطين ودول جنوب غرب آسيا، وعرفت مصر منذ وقت مبكر حكومة مركزية قوية، وحدد البلاط الملكى المقاييس الحضارية للبلاد، وصار الملك هو المنبع الأساسى للسلطة، وكانت هذه التقاليد هى التى حمت مصر أثناء فترات الغزو الأجنبى وانعدام الاستقرار الداخلى لأكثر من ثلاثة آلاف سنة، وهو ما يعده المؤلف، أكبر إنجاز فى عصر مرحلة ما قبل الأسرات.

وحين وصلنا إلى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى، كانت أركان الدولة توطدت ومعالمها اتضحت تمامًا، ويشير المؤلف فى هذا الجزء إلى مسألة مهمة، إذ اتضح له أن المؤسسات الخيرية كانت جزءًا أساسيًا من المجتمع المصرى القديم، كان الهدف منها أن تضمن المحافظة على مراكز العبادة التى تضم تماثيل للآلهة والملوك، كانت عبارة عن صناديق ينفق منها على الأشخاص العاملين فى هذه المراكز، وقد ضمت المؤسسات الخيرية إلى نفوذها معابد الأهرام، ويشير المؤلف إلى أن هذه المؤسسات إلى جانب تدعيمها للمعابد الإقليمية، صارت ركنًا من أركان السلطة المحلية.

وفى فصل تال، يتحدث المؤلف عن فلسفة الحياة عند المصريين، كما تبدت له من نقوش وعمارة وفنون الدولة الحديثة، ولا يرى فى تلك الفلسفة تغييرات جوهرية عما كانت عليه فى الدولتين القديمة والوسطى، فالتقاليد مثلت عنصرًا مهمًا للغاية فى حياة الناس، وتمتعت مصر بوحدة حضارية ولغوية ربطت ماضيها بحاضرها، تدعمها عقيدة دينية راسخة ومتميزة، وساهمت كثافة السكان فى خلق بيئة مواتية لتبادل وتوصيل الأفكار، وتمتع النظام الحكومى بسلطة هائلة حققت نوعًا من الاستقرار ارتضاه الناس ودافعوا عنه، وقد كان النظام الدينى وما تميز به من أساطير وشعائر تغلغلت فى كل طبقات المجتمع المصرى، مصدرًا أساسيًا لما اتسمت به فلسفة الحياة عند المصريين من تماسك.

ويكشف المؤلف فى الفصل الأخير الذى يتناول السنوات من ٦٦٤ ق.م، وحتى ٣٢٣ ق.م عن الوسائل التى واجهت بها المدينة المصرية ظروف اندحارها وتحولها إلى مستعمرة أو مقاطعة فى إطار الامبراطورية الإيرانية، كانت هذه الوسائل مزيجًا من الإذعان والمحافظة على الروح القديمة، وكانت التغير الأساسى فى نهاية هذه المرحلة، يتصل بصورة الملك الذى لم يعد إلهًا منزهًا عن الخطأ، بل كيانًا ربما ارتكب أفعالاً لا ترضى عنها الآلهة، وهو ما كان له تاثيره على المدنية المصرية إجمالاً.

□ □ □

الفردوس الدامى.. ٣١ يومًا فى الجزائر

نورى الجراح

بيروت، رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠، ٤٦٥ صفحة، ٤٨ جنيهًا



عين المثقف تلتقط ما وراء الحدث، فما بالك بعين الشاعر؟

المؤلف، وهو شاعر سورى معنى بثقافة أمته وتحولاتها فى زمن التحولات، زار الجزائر وتجول بين مدنها: قسنطينة وتيبازة وعنابة والجزائر العاصمة، قابل أناسًا عاديين، بشرًا ممن ينعكس عليهم الواقع الجزائرى المحبط والدامى نقصًا فى الرزق وتضييقًا فى العيش، ومثقفون ممن يعايشون هذا الواقع بوطأته التى تنالهم قبل غيرهم، بدأ المؤلف رحلته فى عام ١٩٩٨، أى بعد عشر سنوات من اندلاع الأزمة الدامية فى الجزائر، والتى بدأها شبان «الحيطيست»، وهى تسمية لهؤلاء الذين كانوا يسندون ظهورهم إلى الحائط طوال النهار فى شوارع الجزائر يائسين بلا عمل ولا أمل فى أى شىء، اندلعت الأزمة فى ٥ أكتوبر ١٩٨٨، وكل من التقاه المؤلف من مثقفين جزائريين، يحمل السلطة مسئولية اندلاع العنف فى البلاد الذى كانت حصيلته الأولى من القتلى حسب البيان الرسمى فى ١١ أكتوبر ١٦١ قتيلاً و١٤٥ جريحًا، فيما أكدت مصادر المستشفيات أن القتلى جاوزوا الخمسمائة، أما الجرحى فبالآلاف ويبقى الفساد أحد عوامل الأزمة ومحركها.

ملاحظة لافتة يرصدها المؤلف فى تجواله بالشارع الجزائرى الذين يملك تراثًا من الوطنية والمقاومة يشهد به العالم، فيما تغمره مشاعر من الولاء والاستلاب تجاه المستعمر «فرنسا» ولغته، وهو ما يطرح بقوة إشكاليات الهوية والذات الثقافية فى مواجهة الآخر، الذى يشير بعض المثقفين الجزائريين إلى دوره فيما جرى ويجرى.

كان منطقيًا والحال هكذا، أن يتعاظم دور التيار الإسلامى الأصولى فى مواجهة حالة الاستلاب الحضارى التى يعيشها الشارع الجزائرى، وقد فجر فوز جبهة «الإنقاذ» فى الانتخابات البلدية، ثم

عـــــروض مـــوجـــزة

التشريعية عداءً سافرًا تجاهها، إذ تم إيقاف المسار الانتخابى ووضع قيادات الجبهة فى السجن ليتخذ الصراع مسارات جديدة دموية، تلعب فيها أطراف عديدة داخلية وخارجية، ليصل الحال إلى ما آل إليه الآن، وتتحول «عروس المتوسط» إلى مرتع للنار والدم.

الشارع الجزائرى المنقسم بين أغنية «الراى» بشكلها البذئ العنيف الذى يدور حول الحرمان العاطفى والكبت الجنسى، وخطاب الجماعات الإسلامية المتشدد الذى يوسِّع دوائر المحرمات، ويحيل حياة الناس إلى كابوس يومى، يغوص فيه المؤلف برؤاه الشعرية واهتماماته الثقافية، يحضر ندوات، ويقابل عشرات الروائيين والصحافيين والشعراء والمسئولين، ويقدم سجلاً بالشهداء من رجال الإعلام فى الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية، ليقدم عبر ذلك كله سببًا أكيدًا - وإن كان لا يحظى بمكانة يستحقها فى تحليلات الإعلام - للأزمة فى الجزائر، إنه الفراغ الثقافى الهائل الذى عاناه، ويعانيه المواطن الجزائرى.

□ □ □

سيكولوجية السياسة العربية- العرب والمستقبليات

محمد أحمد النابلسى

بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٩٩، ٣٧٥صفحة



علم المستقبليات حديث نسبيًا، وتطبيقاته فى مجالات العلوم الإنسانية ما زالت فى طورها الأول، فهل يعنى هذا العلم بالاحتمالات والظنيات، أم بالإمكان الاعتداد بقياساته بعيدة المدى؟

أطروحات عديدة ظهرت فى الآونة الأخيرة تختص فى معظمها بعلم السياسة، ربما كان أشهرها أطروحة «نهاية التاريخ» لفوكوياما و«صراع الحضارات» لصموييل هنتنجتون، المؤلف يعرض لهما إضافة إلى دراسات أخرى بينها «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» للمفكر الفرنسى روجيه جارودى، أكثر من ثلاثين كتابًا من أهم الكتب فى الفكر السياسى المعاصر، يحللها المؤلف ويبدى فيها رأيًا نقديًا، مخصصًا بعض فصول كتابه لدراسة سيكولوجية السياسة العربية والشائعات، مشيرًا إلى الصراع العربى الإسرائيلى وعبثية الخطاب العربى العاجز عن التواصل فى زمن العولمة.

إن علم المستقبليات كما يقدمه المؤلف ويسعى إلى تعريفه، يبحث عن قوانين للمصادفة، فالحوادث التى تتكرر لا تحدث اعتباطًا، ومن ثم لا بد من البحث عن قوانين حاكمة تحكم هذا التكرار، من ناحية ثانية، وفيما يتصل بالسيكولوجيا، يعرض المؤلف فى فصوله العشرة لإساءة استخدام السيكولوجيا فى السياسة، خصوصًا فى مجالات الجاسوسية والشائعات والانتخابات والشعارات والإحصاءات ذات الأهداف المسبقة، ويقدم المؤلف أمثلة تطبيقية على هذه الاستغلالات.

لكن ثمة خطرًا - أو جانبًا سلبيًا على الأقل - لبعض تطبيقات علم المستقبليات، فالاستنتاجات الخاطئة لهذا العلم - وهذا أمر وارد حتمًا - تؤثر على الحاضر وتوجهه وفقًا لتصوراتها الخاطئة تلك، ولأن علم المستقبليات يرتبط أساسًا بالمعلومات، فثمة من يروج إلى أن من يملك المعلومات يملك الحقائق ويملك القدرة، بالتالى على التنبؤ بالمستقبل، وهى مقولة يرفضها المؤلف الذى يعطى أهمية أكثر لحسن توظيف المعلومات، وليس كميتها، ومن ثم، فإن عصر المعلومات سيكون ملكًا للقادرين على الاستفادة من المعلومة بتصنيعها، ثم توظيفها فى الاتجاه المناسب.

أفكار عديدة يطرحها المؤلف تحت عنوانه الكبير الذى مزج بين السيكولوجية والمستقبليات، وناقش تحته تحولات النظام العالمى الجديد فى السياسة والاقتصاد وغيرها.

□ □ □

لورانس.. ملك العرب غير المتوج

مايكل أشر

ترجمة: فاطمة نصر

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٠، ٥١٠ صفحات



«إن أفضل وسيلة لإخفاء الحقيقة، الإتيان بتعبيرات محيرة ومتضاربة ومضللة».

هذه واحدة من تعبيرات «لورانس» التى وردت فى أوراقه ونقلها عنه مؤرخوه وكاتبو سيرته، والتى مثلت برأى المؤلف دستور حياته.

كان «نيتشه» فيلسوف لورانس المفضل، هو الذى قال: إن كل روح عميقة تتطلب قناعًا، وقد ارتدى لورانس قناع المفارقة، فكان عزوفه عن الشهرة والأضواء، يخفى ميلاً شديدًا إليهما، وربما ذلك ما أضفى على سيرته تلك الهالة الأسطورية، التى دعمها لورانس بأكاذيب عديدة تضمنتها رسائله إلى أصدقائه ومجايليه.

زار المؤلف الأماكن التى زارها لورانس، واطلع على ما كتبه هو وما كُتب عنه، ووجد فى المحصلة، قدرًا لافتًا من التناقض، هدفه إضفاء بطولة زائفة على لورانس الذى كان مثليًا ومازوكيًا وغريب الأطوار وعميلاً للمخابرات البريطانية، وهى صفات سعى المؤلف إلى تأكيدها وإبرازها ليخدش الأسطورة، وليتحول «لورانس» من قائد مغوار ومحارب شجاع ناصر الهاشميين منذ ثورة الشريف حسين أمير الحجاز فى العام ١٩١٦، كى يتحرروا من قبضة الحكم التركى، وخاض معارك واجه فيها خطر الموت فى سبيلهم، إلى مجرد فتى شاذ يعانى فصامًا، ويحمل ميولاً استعراضية، وإن تخفّت تحت قناع زائف من التواضع الجم.

يتوقف المؤلف مثلاً عند خطابين أرسلهما لورانس إلى اثنين من أصدقائه تناول فيهما حادثة واحدة، تحدث فى أحدهما عن ركوبه جمالاً، وفى الآخر صارت الجمال بغالاً، ويستنتج من هذا التناقض أن لورانس كاذب.

وفى موضع ثان يخبرنا المؤلف أنه قطع مسافة فى الصحراء سالكًا نفس الطريق الذى سلكه لورانس دون نوم أو راحة، فوجد أن رواية لورانس كاذبة لكونه تفوق سرعته بمقدار الضعف عما استغرقته الرحلة من المؤلف برغم ثبات المسافة، وحين رفض لورانس الأوسمة والنياشين التى منحها له الملك جورج الخامس فى احتفال رسمى بقصر باكنجهام، لاعتراضه على اتفاقية «سايكس بيكو» التى رآها ظالمة للعرب، فإن المؤلف لا يرى فى هذا الموقف سوى «مبالغة استعراضية».

وسياحته المرهقة سيرًا على الأقدام فى صحراء شبه الجزيرة كذبة أخرى، فقد كان لدى لورانس دائمًا من يخدمونه ويرافقونه فى رحلاته تلك بعكس ادعاءاته، كما أن ارتداءه الزى البدوى - إلى حد أنه حضر به مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٩ - وإتقانه العربية كأهلها، فليس سوى جزء من إتقانه لدوره كضابط مخابرات ناجح.

أما اعتزازه بالأمير فيصل ابن الشريف حسين وملازمته له، فليس سوى انعكاس لميله نحو الجمال الذكورى، الذى رأى فى فيصل تمثيله الحقيقى، وكان أسلوبه للتوحد مع العرب عبر معاشرتهم ومحاكاة طريقتهم فى العيش والحياة، هو طريقه المضمون للتحكم فيهم، فقد رأى نفسه فى بلاد العرب، وكما يقول المؤلف: «سيدًا فى نظام إقطاعى» باختصار، ثمة ثأر بين المؤلف ولورانس، كما يقول الدكتور عاصم الدسوقى فى تقديمه للكتاب، سعى الأول إلى أخذه، حتى أن شجاعة لورانس فى ميادين القتال وقدراته العسكرية التى شهد لها معاصروه، لم تكن سوى طريقة لمواجهة الخوف الشديد من الألم، الذى يرى المؤلف أنه والمازوكية - برغم تعارضهما - لازما لورانس طوال حياته، وهذه من تناقضات شخصيته المركبة.

كان لورانس يملك قصة وحيدة، حاول استثمارها ويضيف إليها ما جعلها دراما بكل المقاييس، لقد حول لورانس حياته كما يقول المؤلف إلى ملحمة، رواها بمهارة وروعة. وأوجد لنفسه ركنًا بين العظماء والفنانين وكتاب العصر، وحين حاول أن ينتمى إلى تلك الفئة بكتابات أخرى لم يحقق نجاحًا من أى نوع، فهل سعى هو إلى ذلك، أم أن المؤلف حمل لورانس أكثر مما يطيق، انطلاقًا من دوافعه الثأرية.

كان لورانس «أكثر بريطانى على قيد الحياة إثارة للاهتمام»، كما وصفته الصحف البريطانية عام ١٩١٩، كان «حديث المدينة»، كما وصفه جورج برنارد شو، وقد وضع ونستون تشرشل كتابه «أعمدة الحكمة» فى مصاف أعظم الكتب الإنجليزية.

فهل كان كل ما فعله لورانس الذى مات فى حادثة دراجة بخارية عام ١٩٣٥، مرجعه رغبته فى أن يصبح «أكثر إنسانية» كما عبر بنفسه؟، أم «استجابة لميوله الاستعراضية العكسية، التى هى التعبير الاجتماعى عن المازوكية»، كما يقول المؤلف؟

يبدو أن كلا التفسيرين صحيح، وتلك غواية التاريخ.

عماد الغزالى

□ □ □

آفاق الفن التشكيلى على مشارف القرن الحادى والعشرين

مختار العطار

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٣٠ صفحة، ١٥ جنيهًا



الذين يتابعون ما آل إليه حال الفنون التشكيلية فى السنوات الأخيرة، أدهشهم حتمًا هذا التداخل «المربك» لأجناس أخرى ضمنتها فنون الرسم والنحت والتصوير، فلم تعد اللوحة ألوانًا وظلالاً وتعابير فوق مسطح محدد، صارت موسيقى ورقصًا وإضاءة وتمثيلاً وفوتوغرافيا، صار «العمل المركب» عنوان

عروض موجزة

المرحلة الجديدة، وأُدخلت خامات هى مما يستخدم فى حياة النّاس اليومية، ضمن العمل الفنى، صار التمييز بين الفن واللافن عملية معقدة، خصوصًا أن الاتجاهات المستحدثة تلك، وجدت من يدافع عنها ويفلسف توجهاتها.

يتضمن الكتاب فصولاً أربعة، يعرض المؤلف فى الأول منها لاتجاهات فنية جديدة، انتعشت مع بداية السبعينيات لتزيح من طريقها «فلول الرواد» بحسب تعبير المؤلف، وكانت الانطباعية، هى الإرهاصة الأولى للتطورات المتلاحقة التى تشهدها فنون التشكيل فيما بعد، فمعها، بدأ إهمال الموضوع والتركيز على سطح اللوحة وكيفية تلوينه، ويعتبرها المؤلف، الجذر الحقيقى لأحدث الاتجاهات التصويرية التى اتخذت شكلها النهائى مع نهاية السبعينيات. وهو فن «المنيمال» ويعنى: أبسط أنواع الرسم التجريدى وأكثره اختصارًا واختزالاً.

وكان عقد السبعينيات هو الذى شهد تبلور ما اصطلح على تسميته بالفن الحديث، ورتبت مدارسها الفنية بحسب ظهورها على النحو التالى: الفن التجريدى التعبيرى، الفن الجماهيرى أو البوب آرت، الفن البصرى أو الأوب آرت، الفن المتحرك، الفن الإدراكى، الفن الأرضى، الفن الجسدى.

هذه المدارس، انخرط فيها مخضرمون وشباب، لكن بقيت أسماء كبيرة مثل سلفادور دالى فنان السريالية الأشهر، يبدع وفق خياراته حتى وفاته قبل سنوات. ومع تلك المدارس ظهرت توجهات أخرى يشير المؤلف إلى بعضها ويحلل طرائقها فى الإبداع، ومنها التشخيصية الروائية والفن الشبقى والفن السياسى والسوبريالزم والبنائية، وهى آخر صيحات الفن التشكيلى.

ويقدم المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب ما يشبه «جولة المعارض» فى مصر وخارجها، وهى مقالات نقدية يمكن اعتبارها نماذج تطبيقية لبعض المذاهب والمدارس الفنية.

وفى فصل بعنوان «مداخل الحداثة التشكيلية يتناول المؤلف مفاهيم الأصالة والمعاصرة فى الفن، ويعرض لبعض إشكاليات الفن الحديث، ويؤكد فى دراسة عنوانها «بانوراما الفن المصرى الحديث» أن هذا الفن غابت عنه الهوية فى الآونة الأخيرة، إذ صارت السمة الغالبة للإبداع المصرى تتفق مع المفاهيم الغربية من حيث البعد عن الطبيعة، فقد صار أكثر اهتمامًا بالشكل، وتغافل إلى حد بعيد المضمون الاجتماعى والإنسانى.

ويخصص المؤلف الفصل الأخير من كتابه لعمليات «القرصنة» التى تتعرض لها عشرات المتاحف فى العالم كله، فقد انتعشت مافيا الفنون الجميلة وتعددت أساليبها، صارت كنوز العالم - بحسب قوله - محاطة باللصوص.

□ □ □

دوريات

أمكنة
العدد الثانى ٢٠٠٠



لعل أجمل ما فى هذه الدورية موضوعها، الذى يبدو جديدًا ومغايرًا، وعنوانها يشى بما تنطوى عليه صفحاتها التى أخرجت بعناية ودقة بالغتين، فهى تعنى بثقافة المكان، وتذكرنا بمقولة بديعة للأديب الكولومبى الأشهر حائز جائزة نوبل فى الآداب «ماركيز»، يقول: للأشياء حياتها الخاصة بها، علينا فقط أن نوقظ روحها. فإلى جانب محتواها القيم، وفكرتها البديعة، فإن «أمكنة» تقوم على أقلام شابة واعدة، مواهب فى الكتابة والتصوير والفنون البصرية إجمالاً، تصدر بجهود تعوّض المحبة والإيمان عوارها، فهل يكفى ذلك لاستمرار مطبوعة بهذا المستوى؟ لا نراهن على الإجابة، ونبقى خارج دوائر التمنى.

تقوم «أمكنة» على جدل الإنسان مع المكان، فيكتب علاء خالد عن حى مارجرجس الشهير بالقاهرة القديمة تصاحبه عدسة سلوى رشاد، فيجرى حوارًا مع عم مكرم أيوب الذى يقيم بالحى منذ أربعين عامًا، فيحكى عن صداقاته القديمة وناس الحى الذى ضم يهودًا عاشوا جنبًا إلى جنب المسلمين والأقباط لعقود طويلة، وحوار آخر مع السيدة عايدة زكى التى تقيم فى الحى منذ نصف قرن وآخرين، والحوارات جميعها تؤكد العلاقة الحميمة التى تربط الإنسان بالمكان، إذ لا يصبح الأخير مجرد وعاء يضم بشرًا يعيشون بين جنباته، فهو جزء أصيل منهم يستحيل فصله عنهم أو نزعهم منه.

تتضمن الدورية أيضًا محورًا تحت عنوان «سيرة الصحراء» يضم مقالات للورانس العرب ومايكل آشر وأحمد حسنين بك وحوارًا مع صبرى موسى، وفى قسم بعنوان «ضرورة الخيال» يجرى محمد أبو النجا حوارًا مع الفنان الكبير حسن سليمان الذى جاوز الخامسة والسبعين ومازال يمسك براية الخيال ويمتشق حسام التمرد.

دراسات عديدة تضمها «أمكنة» التى حررت بلغة حداثية رفيعة، وصيغت موضوعاتها بحميمية تؤكد الجدل بين الإنسان والمكان، وهو جدل يقاوم حالة اليأس التى أشاعت درجات من اللاانتماء بين الأجيال الجديدة.

□ □ □

كتب أجنبية

Life in the Jungle: My Autobiography

(الحياة فى الغابة - سيرتى الذاتية)

Michael Heseltine
Hodder, 2000, 304PP.,
£20.00



ظل مايكل هيزلتاين نائب رئيس الوزراء البريطانى السابق وأحد زعماء حزب المحافظين، يرفض الحديث لأى وسيلة إعلامية بعد هزيمة حزبه فى انتخابات مايو عام ١٩٩٧، أمام حزب العمال، وذلك على أساس أنه سيصدر كتابًا عن سيرته الذاتية، وسيقول فيه كل شىء عن حياته السياسية ومعاركه باعتباره أحد أهم زعماء المحافظين الذين لعبوا دورًا شديد الأهمية فى الحزب وفى الدولة، وكان قاب قوسين أو أدنى من رئاسة الحكومة.

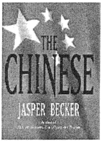
ثم صدر الكتاب فاشبعته الصحف البريطانية نقدًا وتشريحًا، فالكتاب الذى طال انتظاره لم يقل الكثير الذى يمكن اعتباره جديدًا، وأول الانتقادات التى تعرض لها الكتاب أنه يفتقر إلى «الروح»، فهيزلتاين صاحب المشروعات الاقتصادية الكثيرة، لم يكن لديه الوقت للكتابة فعهد إلى صديق له وخريج جامعة أكسفورد مثله، هو الصحفى البارز انطونى هوارد بكتابة الكتاب من خلال الأفكار التى وضعها له، وقد حاول هوارد بامتياز أن يجعل ما هو غير مقروء أمرًا يمكن قراءته، لكنه لا يمكن أن يختلق شيئًا ما دام ليس لديه مادة تدعمه، وقد تحدث هيزلتاين كثيرًا عن حياته خلال الدراسة الجامعية وعمله فى القطاع الخاص قبل أن يدخلنا معه إلى عالمه السياسى الذى للمفاجأة لم يكشف عنه الكثير غير ما هو معروف، لقد ظهر هيزلتاين فى غابة السياسة بشكل مؤثر فى سبعينيات القرن الماضى، ثم دخل الوزارة مع تولى المحافظين السلطة بزعامة مارجريت تاتشر عام ١٩٧٩، وكان من المتميزين بين الوزراء وأطلقت عليه الصحافة لقب طرزان، وهو لقب يناسب «غابة السياسة» لكنه اختلف بشدة مع تاتشر فى النصف الثانى من الثمانينيات وتحداها على زعامة الحزب عام ١٩٩٠، وهو التحدى الذى أجبر تاتشر على الاستقالة من رئاسة الحكومة والحزب، لكنه فشل فى الفوز بزعامة الحزب والحكومة عندما دخل التحدى مرة ثانية بعد استقالة تاتشر ليفوز جون ميجور بالسلطة، وعاد هيزلتاين بعد ذلك إلى الحكومة إلى أن أصبح النائب الأول لرئيس الوزراء قبيل هزيمة الحزب، ودخل فى معارك عديدة، لكن الكتاب لا يكشف الكثير من الأسرار، بل يتجنب الحديث بصراحة عن الخلافات مع تاتشر.

□ □ □

The Chinese

(الصينيون)

Jasper Becker
J murray, 2000, 464pp., £25.00



الخلاصة التى يخرج بها قارئ هذا الكتاب هو أنه لا جديد تحت شمس الصين، فسواء كانت تحت الحكم الامبراطورى أو تحت الحكم الوطنى أو الشيوعى، فالنتيجة واحدة، وهى أن الطغيان هو العملة السائدة فى دولة يرجع تاريخها إلى ٤ آلاف عام.

وطبقًا للمؤلف، فإن أحوال الصينيين لم تتحسن سواء بعد انهيار الامبراطورية عام ١٩١٢، أو بعد الثورة الشيوعية عام ١٩٤٩، بل إن الأحوال تسوء ولا فرق بين الموظفين فى العهد الامبراطورى أو فى العهد الشيوعى لأن المتضرر فى الحالتين هم الناس العاديون، وكما نرى فإن هذا الحكم قاس، لكنه يأتى من متخصص فى الشئون الصينية يعمل مديرًا لمكتب إحدى الصحف الغربية فى بكين، وقد سبق للمؤلف أن وضع كتابًا بعنوان «أشباح جائعة.. سر المجاعة الصينية»، وهو فى هذا الكتاب يستأنف القصة متحدثًا عن عصر ما بعد «ماو» بعد أن أشبع حكم «ماو» نقدًا فى الكتاب الأول.

ويقول جاسبر بيكر إن أحوال المواطنين العاديين فى الريف لم تتحسن، بل إن الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها فى عهد «ماو» مثل الرعاية الصحية والتعليم، توقفت بعد إصلاح دينج شياو بنج، كما أن النهضة الاقتصادية العملاقة فى الصين التى يتحدث العالم عنها فاسدة، ويقول: إن على المرء أن ينظر بشكل معمق، فالمشروعات معظمها مدينة وعلى وشك الإفلاس، وهناك مشروعات أخرى تحرم العمال من أبسط حقوقهم.

أما الأقليات، التى سافر المؤلف إلى مناطقها وتعرف على مشاكلها عن قرب، فهى محرومة من أى نوع من الحقوق.

عروض موجزة

ومواطنوها يبلغ متوسط دخل الواحد منهم ٢٠ دولارًا فقط فى العام. والحكومة المركزية فى بكين غير مهتمة فى الأساس بحل مشاكلهم.

هل بالغ المؤلف فى تصوير مشاكل الصين.. ربما. فالمشاكل التى يقول إنه كصحفى يعانيها قد تجعله يقسو فى حكمه على الأوضاع، ويكفى أنه يقول: إن الأمر يستغرق يومًا، لكى تتمكن من إجراء مكالمة تليفونية واحدة، فالبيروقراطية لا تزال لها الكلمة العليا فى الصين.

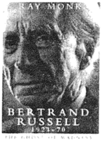
□ □ □

Bertrand Russell, 1921-1970: The Ghost of Madness

(برتراند راسل ١٩٢١ـ١٩٧٠: شبح الجنون)

Ray Monk

Jonathan Cape,2000, 574pp., £25.00



يشن مؤلف الكتاب راى مونك، وهو أستاذ بريطانى للفلسفة هجومًا صاعقًا على الفيلسوف البريطانى الشهير برتراند راسل، فهو من وجهة نظره لم يفعل شيئًا ذا قيمة خلال أعوامه الخمسين الأخيرة، لقد تناول مونك حياة راسل قبل عام ١٩٢١ فى كتاب سابق، ويعد الكتاب الجديد هو الجزء الثانى بشأن سيرة حياة راسل، لكن الكتاب ليس سيرة حياة عادية بقدر ما هو نقد مرير لأفكار راسل وآرائه السياسية وحياته الخاصة، فالمؤلف يعتقد أن راسل ليس سوى كاتب متوسط المستوى وسياسى فاشل وساذج وهو بارد الإحساس وزوج غير آدمى وأب سيىء غير قادر على الحب، ويقول مونك أن راسل لم ينتج شيئًا مفيدًا خلال تلك السنوات من ١٩٢١ حتى ١٩٧٠، أى عام وفاته، وكل ما سبق تهم خطيرة تتعلق بأحد أبرز رموز الفلسفة فى العصر الحديث والفائز بجائزة نوبل.

ويتناول الكتاب ٣ مجالات رئيسية لنشاط راسل، الأول: هو أفكاره الفلسفية، حيث يجادل مونك أنه ليس هناك جديد فى هذه الأفكار وأن مؤلفات راسل التى وضعها منذ بداية القرن وحتى ١٩٢١ تمتاز بأصالتها وجديتها بعكس ما تلاه، ثم يكتب مونك عن حياة راسل الزوجية الفاشلة (تزوج مرتين بعد ١٩٢١) ويقال إنه كان على علاقة بزوجة ابنه، أما أنشطة الفيلسوف السياسية فكانت مثار انتقاد، فقد وقف ضد التسلح وانضم للجنة مكافحة التسلح النووى وشارك فى مظاهرات عديدة مناهضة للتسلح النووى وللولايات المتحدة.

وقد يتفق أو يختلف البعض حول ذلك النشاط أو التوجه إلا أن المشكلة أن مؤلف الكتاب يتخذ من كل ذلك ذريعة للهجوم الشديد على راسل، بل إنه حاول فى الكتاب تأويل كتابه لاتهامه بأنه معاد للسامية.

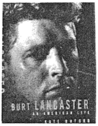
□ □ □

Burt Lancaster: An American Life

(برت لانكستر: حياة أمريكية)

Kate Bufard

Alfred A.Knopf, 2000,447PP., £27.50



معظم مشاهدى السينما الأمريكية يعرفون النجم الأمريكى الشهير برت لانكستر القوى الذى بدأ حياته كلاعب سيرك، ثم تحول إلى هوليوود ليصبح واحدًا من أهم نجومها.

ويتناول الكتاب أدق التفاصيل فى حياة لانكستر، الذى يقترب حاليًا من عامه الثمانين، ومثل فى أكثر من ٧٠ فيلمًا، وقد أشاد كثيرون بقدرات لانكستر والتزامه، إلا أن الكتاب يقتبس عن المخرج سيدنى بولاك قوله إن عظمة لانكستر تكمن فى أنه عرف من هو وماذا يساوى أكثر من ممثل أمريكى آخر.

ولم يكن لانكستر يتردد فى رفض أى عمل لا يروق له رغم أن ذلك يمكن أن يضر بمسيرته الفنية.

بعد دراسة قصيرة فى جامعة نيويورك ترك لانكستر الجامعة ليعمل فى السيرك مع صديق طفولته نيك كوكيا، وفى عام ١٩٤٥، وبعد أن انضم لمدة قصيرة إلى الجيش عمل فى مسارح برودواى لتلتقطه هوليوود، وسرعان ما أصبح بطلاً سينمائيا. وقد رفض لانكستر بطولة فيلم «عربة اسمها الرغبة» رغم أن الفيلم حقق شهرة كبيرة إلا أنه لم يندم على قراره، لكن أراد أن يلعب بطولة فيلم «الأب الروحى» وفاز بالرهان مارلين براندو.

ويقول الكتاب: إن الفرق بين لانكستر وبراندو أن الأول لم يشوه سمعته وعمله، بل ظل ملتزمًا بمهنته وهو دائمًا يفتخر بكونه ممثلاً، وله رأى جيد بشأن السينما فقد قال ذات مرة: كلنا منسيون عاجلاً أم آجلاً، لكن الباقى هو الأفلام.

وعلى عكس الممثلين الذين نفختهم الأنا أو أضاعهم الفشل فإن برت لانكستر لا زال يعمل ويتمتع بصحة جيدة، وهو يتبع نصيحة زوجته بأن يعمل فى فيلم واحد فى العام.

□ □ □

Own Goal: How Egotism and Greed Are destroying Football

(كيف تدمر الأنانية والطمع كرة القدم)

Simon Freeman

Orian Publishing Co., 2000, £9.99



ينظر كثيرون إلى كرة القدم على أنها لعبة مجنونة، وهذا ليس بجديد إلا أن الأمر كما يقول مؤلف هذا الكتاب زاد بشكل مثير، بحيث وصل الجنون إلى ذروته، فالأرقام الفلكية التى يتم بيع اللاعبين بها وانتقالهم من ناد إلى آخر لا يمكن تصديقها، كما أن المدربين يجرى طردهم من وظائفهم خلال أسابيع، ففى حمى الرغبة فى الفوز، يتم تحميل المدربين المسئولين، ولذلك فإن من النادر أن يبقى مدرب لفترة طويلة فى عمله.

أما سلوك الجماهير، خاصة فى بعض دول أوروبا مثل بريطانيا وألمانيا وتركيا، فقد تحول إلى العنف بصورة غير مسبوقة، ولم تنفع حتى الآن كل الإجراءات المشددة، بل والقمعية فى بعض الأحيان فى إعادة النظام والأمن إلى ملاعب كرة القدم، ويتناول الكتاب قضية النجوم فى عالم كرة القدم فهم حسب رأى المؤلف ليسوا قدوة بأى حال من الأحوال والأمثلة لا تعد ولا تحصى على سلوك سيىء لكثير من النجوم داخل وخارج المستطيل الأخضر، ثم إن النجوم الأجانب الذين تشتريهم الأندية يحرمون البراعم المحلية الصغيرة من النمو والظهور، وقد قضى هؤلاء النجوم أو كادوا على مدارس تنشئة اللاعبين، فالأندية تحتاج إلى اللاعب الجاهز، وليست على استعداد لإضاعة الوقت والمال فى تربية لاعبين جدد.

ويحتشد الكتاب بأسرار كثيرة بعضها غير سار وغير أخلاقى عن سلوك اللاعبين، فالمؤلف الذى كان رئيسًا لقسم التحقيقات فى صحيفة صنداى تايمز البريطانية تابع عن قرب عالم كرة القدم فى بلاده وفى أوروبا وأخرج لنا هذا الكتاب المثير.

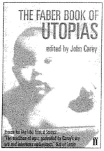
□ □ □

The Faber book of Utopias

(كتاب فابر للمدن الفاضلة)

Edited by John Carey

Faber and Faber, 2000, £9.99



يطوف بنا مؤلف الكتاب فى عوالم المدن الفاضلة التى تصورها المفكرون والفلاسفة الغربيون فى أذهانهم، ثم وضعوها فى كتب ظلت على مدى مئات السنين تثير الحنين والشوق إلى هذه المدن.

لقد حرم أفلاطون فى مدينته الفاضلة الشعراء من دخولها، كما أن جيرار وينستانلى زعيم حركة الخناجر الأوروبية فى القرن السابع عشر، قال إنه يجب اعدام كل المحامين وإبعادهم عن المدينة الفاضلة.

ويبدأ جون كارى تاريخه للمدينة الفاضلة من ٢٠٠٠، قبل الميلاد.

وهو يقول إن المدينة الفاضسة قديمة قدم الإنسان الذى كان يحلم بمكان لا وجود فيه للحقد أو الضغينة يسيطر عليه العقلاء والمفكرون.

وكان لفظ «يوتوبيا» أو المدينة الفاضلة قد نحته المفكر الإنجليزى الشهير توماس مور عام ١٥١٦، عندما وضع كتابًا تحت اسم «يوتوبيا».

وقد أخذ مور تلك الكلمة من اللغة الإغريقية، وهى تعنى «لا مكان» أى أنه لا مكان فى الأرض لمثل هذه المدينة.

إلا أن «لا مكان» سرعان ما تحولت إلى «مكان جميل» استخدمه الأدباء والمفكرون فى أعمالهم مثل عمل جورج أورويل الشهير «١٩٨٤».

ويعرج كارى فى كتابه على المؤلفات التى تناولت أو تحدثت عن المدينة الفاضلة مثل مؤلف رديارد كبلنج «كتاب الغابة».

كما يتضمن الكتاب حديثًا عن الشعراء الذين تصوروا المدينة الفاضلة. وبالطبع فإن المؤلف تحدث فقط عن المدينة الفاضلة من وجهة نظر غربية، فليس هناك فى كتابه مكان لوجهات نظر أخرى مع أن هناك مؤلفين كثيرين من حضارات أخرى تحدثوا أيضًا عن المدن الفاضلة.

□ □ □

اجتمــاع

التحولات فى الشخصية المصرية

عزة عزت

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

بسبب التغيرات الانقلابية التى شهدتها مصر فى ربع القرن الأخير، حدثت تحولات فى الشخصية المصرية طال أحيانًا بعض ثوابتها. فهل ما زال المصريون على ما كانوا عليه قبل هذه التحولات، ما الذى تغير، ما الذى استمر، هذا ما تناقشه المؤلفة، مستندة إلى ملاحظات شخصية وبحوث ميدانية، ومتابعة للأمثال الشعبية بوصفها تعبيرًا دقيقًا عن قناعات الشخصية وأسلوبها فى التكيف فى مرحلة زمنية معينة.

■■■

The Unexpected Legacy of Divorce: A 25 Year Landmark Study

(الميراث غير المتوقع للطلاق: دراسة فارقة على مدار ٢٥ عامًا)

Judith Wallerstein, Julia Lewis, and Sandra Blakeslee

Hyperion, 2000, 347 PP., $24.95

هذا هو الجزء الثالث من دراسة بدأت عام ١٩٧١، تبحث حالة ٦٠ أسرة بعد وقوع الطلاق فيها، متتبعة أثر الطلاق على مستقبل الأبناء. فى عام ١٩٨٩ كتبت المؤلفتان جوديث والرستين وساندرا بليكسلى عن حالة هؤلاء الأبناء بعد ١٠ إلى ١٥ سنة من حدوث الطلاق، وكيف أن نصفهم اتسم فى مرحلة المراهقة بالقلق والغضب وتواضع مستوى النجاح العلمى. ولكن فى دراستها هذه تستنتج والرستين شيئًا آخر لم يكن ببالها، وهو أن الأثر الرئيسى للطلاق لا يظهر على الأبناء فى مرحلة الطفولة أو المراهقة، وإنما يظهر فى سن النضوج ومرحلة تكوين أسرة وعلاقات رومانسية جادة. فقد وجدت المؤلفة فى هؤلاء الأبناء الذين تتراوح أعمارهم الآن بين أواخر العشرينيات وأوائل الأربعينيات أن ٦٠٪ منهم لم يتزوج مطلقًا، أما المرتبطون منهم فيجدون مشاركة الحياة مع شخص آخر أمرًا فى غاية الصعوبة.

■■■

Changed Identities: The Challenge of the New Generation

(هويات متغيرة: تحدى الجيل الجديد)

Mai Yamani

Brookings Inst Press, 2000, 176PP., $19.95

دراسة عن جيل الشباب فى المملكة العربية السعودية أعدتها الباحثة السعودية المتخصصة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية «مى يمنى» فقد حاولت التعرف على رؤية الشباب أنفسهم من خلال مقابلات شخصية مع شباب سعودى تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٣٠ عامًا ويشكلون نصف عدد السكان فى المملكة ومعظمهم من الطبقة المتوسطة الحديثة وبعضهم من الأسرة المالكة - ووجدت أنهم يختلفون عن جدودهم الذين عاصروا الحياة البدوية، كما يختلفون عن آبائهم الذين تعودوا على الوفرة الاقتصادية، حيث يوجد لديهم شعور بأن هذه الوفرة بدأت تنتهى. وأغلبهم يريد مساحة أوسع للتعبير وقيودًا اجتماعية أقل، كما ينتقدون انتشار نظام «الواسطة» الذى توزع عن طريقه الوظائف. ولكنهم أيضًا رغم سفرهم واطلاعهم على الخارج لا يريدون التخلى عن الدين والتقاليد، ولكنهم يرغبون فى تفسير أكثر ليبرالية للإسلام.

تاريخ وآثار

الأرقام العربية

جريتا حيدر

الكويت: دار سعاد الصباح، ٢٠٠٠

حول أصل الأرقام التى نستخدمها اليوم، هل هى عربية أم أجنبية، ثمة اختلافات فيما يتصل بأصول هذه الأرقام توردها المؤلفة وتقدم وجهة نظرها فى القضية.

■■■

أهل الكهف.. قراءة فى مخطوطات البحر الميت

هالة العورى

بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

وثائق قمران وفلسطين دونت تحت الاحتلال الرومانى، وكانت المفارقة أن اكتشافها جاء بعد ألفى عام، وفلسطين ترزح تحت الانتداب البريطانى والاستيطان الصهيونى على أشده، وهذا الكتاب يعرض لسيرة هذه المخطوطات ومحتوياتها التى فجرت خلافات حادة فى الأوساط الدينية انطلاقًا من حقيقة تهويد المسيحية فى بلاد الغرب.

■■■

الجمال والتجميل فى مصر القديمة

محمد فياض وسمير أديب

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠٠

كانت المصريات هن أول من استخدمن الكحل للعيون، والينسون لتعطير الفم، كما استخدموا أملاح الحديد وغيرها لتجميل البشرة وتلوينها، كما افرطت المرأة فى استخدام الحلى المصنوعة من الذهب لتبرز مفاتنها.

■■■

نظرات فى آرنولد توينبى

السيد أمين شلبى

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

ارتبط اسم توينبى بعمله الضخم «دراسة للتاريخ» الذى يقدم رؤية بانورامية للتاريخ ومفهومًا شاملاً للوجود الإنسانى، وهذا الكتاب لا يسعى لانتقاد أو إعادة قراءة ما كتبه توينبى، إنما يبحث فى مصادره ومكوناته الفكرية، التى مكنته من تتبع الحضارات القديمة والمعاصرة وملاحقة تطوراته، وكذلك فيما وجه إليه من نقد، ومكانته فى التاريخ الثقافى والإنسانى.

■■■

قبيلة شمر.. متابعة وتحليل

مشّال بن عبد العزيز الخريص

المؤلف

توزيع: دار الساقى، ١٩٩٩

تاريخ لمسيرة هذه القبيلة وعاداتها وتقاليدها وجذورها الأصيلة الممتدة فى منطقة الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلى، ثم العهد النبوى، فعهود الفتوحات الإسلامية، وقد تعرضت هذه القبيلة للتمزق فيما تلى ذلك من عهود، لكن بقيت سماتها الأصيلة تلف كل المنتسبين إليها، وهى الشموخ والتواضع والرفق والمروءة، إنها السمات العربية الأصيلة التى يسعى المؤلف إلى استعادتها فى الجسد العربى عبر دراسته لتاريخ قبيلة شمر.

■■■

The Last Kaiser: William the Impetuous

(القيصر الألمانى الأخير: ويليام الطائش)

Giles Macdonogh

Weidenfeld & Nicolson, 2000, 544 PP., £25.00

حول الامبراطور الألمانى الأخير الذى يلام على وقوع أوروبا كلها فى الحرب العالمية الأولى. ويعتبره المؤرخون الأوروبيون نموذجًا ساخرًا لمآسى الحكم بالوراثة. «لولا أنه ورث العرش كان لا يمكن أن يتولى مثل هذا الشخص أى منصب مهما كان» هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب فى مجال استعراضه لتصرفات ويليام الثانى وسمات شخصيته التى اتسمت بالضعف والتردد والعجرفة فى آن واحد.

■■■

Valley of the Golden Mummies

(وادى المومياوات الذهبية)

Zahi Hawass

Auc press, 2000, 211pp, L.E.175, $49.50

يعد الاكتشاف الحديث لوادى المومياوات الذهبية بالواحات البحرية أهم كشف أثرى منذ مقبرة توت عنخ آمون. فلم يحدث أن وجد هذا العدد الهائل من المومياوات فى مكان واحد؛ عشرة آلاف مومياء لعائلات كاملة ومجوهرات وخزفيات واقنعة مرصعة من العصر الرومانى. هذا الكتاب الذى كتبه الدكتور زاهى حواس قائد عملية التنقيب، يتحدث عن الحياة والعادات والمعتقدات الدينية التى ارتبطت بهذا المجتمع. كما يحتوى الكتاب على أكثر من ٢٥٠ رسما وصورة فوتوغرافية، أغلبها لم ينشر من قبل.

■■■

The Pre - Islamic Middle East

(الشرق الأوسط قبل الإسلام)

Martin Sicker

Praeger Pub, 2000, 240pp., $65.00

يتناول المؤلف التاريخ السياسى للشرق الأوسط من العصور العتيقة وحتى الفتح العربى من منظور سياسى/ جغرافى. ويحاول التدليل على أن العوامل الجغرافية والدينية التى يخضع لها القرار السياسى كانت دائمًا وراء تقديم حلول عسكرية للمشاكل السياسية.

ومن اللافت أن المؤلف بجانب تدريسه للعلوم السياسية بجامعة جورج واشنطون يعمل مستشارًا فى حكومة الولايات المتحدة، كما شغل فيها مناصب تنفيذية عليا.

تراجم وسير

العقد الفريد (١٩٤٣-١٩٥٢) عشر سنوات مع حسن البنا

حسان حتحوت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

سيرة ذاتية للدكتور حتحوت الذى عرفه الأطباء أستاذًا متميزًا فى طب النساء، وعرفه أهل القلم كاتبًا متميزًا وشاعرًا مجيدًا، وعرفه الإسلاميون الحركيون معلمًا جمع - كما يقول عنه الدكتور محمد سليم العوا - بين السعى الدءوب لنصرة الإسلام وفكرته والفقه العميق بتنزيل أحكامه على واقع الناس. يقدم الكتاب رؤى عميقة كتبها المؤلف لعديد من القضايا التى ما زالت تشغلنا حتى اليوم مثل العلاقة بين الإسلام والديمقراطية، والعلاقة بين الحركة الإسلامية والحكم، إنها تجربة خصبة فى العمل الإسلامى والحركى معًا.

■■■

سيرة السيد يعقوب المضبح

توفيق خليل

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

حوارات أجراها المؤلف مع صاحب السيرة، أضاء جوانب كثيرة من حياته وروافده الثقافية والإنسانية.

■■■

فن الترجمة

محمد عنانى

القاهرة: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ٢٠٠٠

بعض حصاد التجارب التى مرّ بها دارس مارس الترجمة على مدى أكثر من ثلاثة عقود، تصدى فيها لنصوص فى المسرح والشعر والرواية والنقد وغيرها، وهذا الكتاب لا يقدم آراء نظرية، وإنما تطبيقات عملية لمشكلات الترجمة، إنه كما يقول المؤلف، فى صلب عملية الترجمة.

■■■

وليم سليمان قلادة.. مدرسة الوطنية المصرية

مقالات ودراسات

القاهرة: أصدقاؤه وتلاميذه، ٢٠٠٠

بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل المستشار الدكتور وليم سليمان قلادة، يقدم أصدقاؤه وتلاميذه مجموعة من الدراسات تتناول جوانب مختلفة من حياته. فيكتب المستشار طارق البشرى «وليم قلادة الذى عرفته»، ويكتب أنور عبد الملك «المواطنة فى القلب»، ويكتب محمد سليم العو «فى وداع وليم سليمان قلادة».

بين المشاركين في الكتاب الأنبا موسى ورفعت السعيد ونبيل عبد الفتاح وجمال الغيطاني ورشدي أبو الحسن وموريس أسعد. والمقالات جميعها تتناول سيرة الدكتور وليم وعطاءه الوطني والإنساني.

■■■

Hegel: A Biography

(هيجل: سيرة حياة)

Terry Pinkard

Cambridge University Press, 2000,780 PP., $39.95

في مجال عرضه لحياة الفيلسوف الألماني ويلهايم فريدريش هيجل (١٧٧٠-١٨٣١) يتناول المؤلف وهو فيلسوف أيضًا، الأسباب التي جعلت الفلسفة تحتل تلك المكانة المركزية في ألمانيا مع بداية القرن التاسع عشر.

■■■

Doris Lessing: A Biography

(دوريس لسنج: سيرة حياة)

Carole Klein

Caroll & Gral, 2000,283 PP., $26.00

سيرة الروائية الإنجليزية الشهيرة صاحبة روايات «المفكرة الذهبية» ١٩٦٢، و«الطفل الخامس» ١٩٨٨، والإرهابي الطيب ١٩٨٥. وقد ولدت الكاتبة في روديسيا البيضاء في أفريقيا قبل أن تغادر إلى إنجلترا عام ١٩٤٩. ومعروف عنها تأثرها الشديد بالصوفية، وعشقها للقطط واهتمامها أخيرًا بالخيال العلمي.

■■■

Bellow: A Biography

(بيلو: سيرة حياة)

James Attas

Ranelom House, 2000,686 PP., $35.00

قصة حياة الأديب الأمريكي الحاصل على جائزة نوبل في الآداب سول بيلو، والذي لا يزال على قيد الحياة في سن الخامسة والثمانين. يكتبها المؤلف جيمس أتلاس في شكل دراسة موسعة، حيث قام بمقابلة كل معارف سول بيلو وقرأ كل أعماله محاولاً تقديم تحليل لشخصية الأديب بكل جوانبها السيكولوجية الغريبة التي تفسر الطريقة التي عاش بها الأديب حياته، وعلاقاته بزملائه، وعلاقاته بزوجاته، كما يحاول ربطها بنوعية الشخصيات التي ظهرت في أعماله الروائية.

■■■

Einstein in Love: A Scientific Romance

(إينشتاين محبًا: قصة حب علمية)

Dennis Overbye

Viking, 2000,416 PP., $27.95

حتى وقت قريب، لم يكن معروفًا الكثير عن حياة إينشتاين المبكرة، ولكن منذ عشر سنوات تقريبًا، ظهرت في المزادات الرسائل الشخصية المبكرة لإينشتاين الصغير. وظهر فيها خيانته لزوجته الأولى وخيانته لزوجته الثانية أيضًا وإهماله لأولاده.

كاتب هذه السيرة الجديدة لإينشتاين، وهو يعمل محررًا علميًا لجريدة نيويورك تايمز، لا يكتفي بكتابة تفاصيل حياة إينشتاين الخاصة، وإنما يعرض أيضًا الصعوبات الرياضية والمفاهيم التي واجهت إينشتاين في طريقه لإبداع نظرياته العلمية التي حولت فهمنا للعالم، كما يربط بين مراحل عمله ونشاطه ومراحل الاضطراب في حياته. فقد تبين أن عظمته كانت تتجلى في الظروف الأسرية المنهارة.

■■■

Greek Fire: The Story of Maria Callas and Aristotle Onassis

(حريق يوناني: قصة ماريا كالاس وأرسطو أوناسيس)

Nicholas Gage

Khopf, 2000, 384pp., $26.95

حول قصة غرام مغنية الأوبرا الاسطورية ماريا كالاس بالمليونير اليوناني أوناسيس والتي استمرت حتى أثناء زواج أوناسيس من جاكلين كيندي. الجديد في الكتاب هو أن ماريا التي فشلت في الإنجاب من زوجها العجوز، أنجبت سراً طفلاً من أوناسيس ولكنه لم يعش سوى ليوم واحد، ولولا موته لكانت أصبحت هي السيدة أوناسيس بدلاً من جاكي.

تعليم لغات

الألمانية في الفندقة والسياحة

عليا عزت عياد. ماجدة عبد المنعم حسين

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يشكل السياح الألمان نسبة كبيرة من مجمل عدد السياح القادمين إلى مصر على مدار العام، يقدم المؤلفان دليلاً لاستخدام الألمانية ببساطة، أهم العبارات المستخدمة في حجز الطيران والفندقة والمطاعم وغيرها، مما يفيد المرشدين والمتعاملين مع السياح عمومًا.

■■■

Rick Steve's French Phrase Books Dictionary

(قاموس وكتاب ريك ستيفز للعبارات الفرنسية)

Rick Steves

Avalon Travel Publishing, 1999, 180pp., $6.95

من أكثر الكتب شعبية وسهولة في مجال تزويد المسافر إلى فرنسا أو المتعامل مع فرنسيين بالعبارات والكلمات اللازمة للتفاهم والتخاطب بغير بذل جهد كبير. كذلك يقدم للمسافرين إلى فرنسا خرائط للطرق والسكك الحديدية.

تنمية

تجارب ناجحة للتنمية في مصر

نجوى عبد الله سمك

القاهرة: مركز دراسات وبحوث الدول النامية، ٢٠٠٠

يقدم هذا الكتاب خلاصة ندوة أجراها المركز حول تجارب ناجحة في التنمية تعرض فيها لبعض الشركات المصرية التي حققت طفرات جيدة وأغلبها شركات صناعية للتأكيد على دور الصناعة في تحقيق التنمية في الدول النامية ومنها مصر بطبيعة الحال، شارك في الندوة أكاديميون ورؤساء شركات وممثلون عن وزارة الصناعة في مصر.

■■■

Woman and Human Development The Capabilities Approach

(النساء والتنمية البشرية: منهج القدرات)

Martha C. Nussbaum

Cambridge University Press, 2000, 312PP., $24.95

تدافع المؤلفة عن مبدأ النسوية العالمية، حيث ترى المساواة قيمة عالمية في مقابل ادعاءات النسبية الثقافية، وتدعو الحركات النسائية الأمريكية للاهتمام بقضية المرأة في العالم الثالث.

وهي تتبنى في نظريتها منهج القدرات الذي وضعه عالم الاقتصاد البريطاني - الهندي الأصل - أمارتيا سين، والذي يعني أن السياسة الاجتماعية يجب أن تركز على تنمية القدرات البشرية لكي توظفها في مواجهة الحياة. وفي تطبيقها لنظريتها الليبرالية هذه على مواقف محددة في الهند، أثناء دراستها لمشروعات المرأة التنموية هناك، توصلت إلى مجموعة من القدرات البشرية الأساسية التي تحتاج إلى رعاية اجتماعية لتحقيق التنمية الشاملة في النهاية: منها الحياة والصحة والتكامل الجسدي والإنجاب الاختياري والمشاركة السياسية والمساواة في حقوق العمل وحقوق الملكية.

رواية وأدب

الغلامة

عالية ممدوح

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

ليست تجربة امرأة بعينها، إنما هي مسيرة النساء والرجال المضطهدين في أقبية التعذيب والمعتقلات، وإن كانت تعكس عذاب المرأة في بنى اجتماعية وسياسية وحزبية يديرها ويسيطر عليها الرجال.

■■■

أنا هي أنت

إلهام منصور

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

سهام بطلة الرواية تعرضت للاغتصاب على يد أبيها في سن الطفولة، مما دفعها منذ وقت مبكر إلى إقامة علاقات مثلية شاذة مع مثيلاتها من النساء. رواية صدامية على كل حال، وزمنها هو زمن الحرب الأهلية في لبنان.

■■■

سمر الليالي

نبيل سليمان

اللاذقية: دار الحوار، ٢٠٠٠

رواية جديدة للروائي صاحب المشروع اللافت في مسار الرواية العربية، تدور داخل سجون النساء والأحاديث المتبادلة عن المنظمات السياسية التي يحلم أعضاؤها وهم شباب في عمر الزهور بتغيير العالم، ونشر رؤاهم في الإصلاح والتقدم.

■■■

Eclipse

(خسوف)

John Banville

Picador, 214pp, 2000, £15.99

الرواية الأخيرة للكاتب والناقد الأيرلندي الشهير جون بانفيل المعروف بمفرداته ولغته الدقيقة.. تدور حول ممثل مسرحي في منتصف العمر يترك عرضاً كلاسيكياً في منتصفه ويذهب لمنزل طفولته ليتوقف عن «التمثيل» ويبدأ في أن «يكون» فقط. الرواية تبحث المساحة التي تقع بين كل من الحلم، والمظهر السطحي، والواقع الحقيقي.

■■■

I Saw Ramallah

(رأيت رام الله)

Mourid Barghouti

Translated by Ahdaf Soueif

Forword by Edward said

AUC Press, 2000, 180 pp., L.E60/$17.95

قرأ الجمهور العربي رواية الشاعر الفلسطيني المعروف مريد برغوثي «رأيت رام الله» عندما نشرت لأول مرة في القاهرة عام ١٩٩٧ والآن- وفي وقت مناسب تماماً- تظهر الترجمة الانجليزية للرواية وقامت بها الروائية المصرية التي تعيش في إنجلترا أهداف سويف. كما قام المفكر الأمريكي الجنسية الفلسطيني الأصل إدوارد سعيد بكتابة المقدمة.

الرواية وهي الأولى لمؤلفها - تروي من خلال مذكراته الشخصية عن عودته لموطنه في فلسطين المحتلة في زيارة عام ١٩٩٦ بعد ثلاثين عاماً من الشتات والغربة.

سياسة

حكاية فيصل

خالد زيادة

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

كان الأمير فيصل ابن الشريف حسين هو الذي حمل راية الثورة العربية بعد والده الشريف حسين الذي قاد الثورة العربية في الحجاز ضد الحكم التركي عام ١٩١٩، وقد كان يراه «لورانس» كما جاء في مذكراته البطل المؤهل لتحقيق حلم التحرير، هذا الكتاب يروي حكاية فيصل وصراعه في مواجهة الأطماع الإنجليزية والفرنسية، وما آل إليه هذا الصراع.

■■■

صناعة الهولوكوست

نورمان فنكلشتاين

ترجمة: جعفر هادي حسن

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠

حوّل اليهود معاناتهم التي عانى مثلها

وربما أضعافها على يد النازى، شعوب عديدة فى أوروبا، إلى وسيلة مستمرة للابتزاز، سواء من مضطهديهم أو غيرهم، وتحولوا هم أنفسهم إلى نازيين جدد، هذا الكتاب يكشف عملية صناعة الهولوكوست وتضخيمها لكسب تعاطف الرأى العام العالمى وابتزازه، والتعمية على الممارسات الوحشية التى يمارسونها فى الأراضى العربية المحتلة.

■■■

فى انتظار المخلص

رءوف مسعد

القاهرة: مدبولى، ٢٠٠٠

عن زيارة المؤلف إلى إسرائيل، وهى الرحلة التى تفاوتت ردود أفعالها إلى حد الغضب والاتهام بالخيانة لدى الرافضين، بحثًا عن حلول بديلة، واختيارًا للوعود الوهمية المسفوحة عبر وسائل الإعلام، كانت رحلة المؤلف.

■■■

كردستان ودوامة الحرب

محمد إحسان

لندن: دار الحكمة، ٢٠٠٠

تحليل للظرف الدولى الذى أفرزته التجربة الكردية فى إطار المنطقة الآمنة الجديدة، وتقييم لمسيرة التجربة وآفاق نجاحها، ودعوة لاستنفار الطاقات من أجل صياغة السلام فى كردستان العراق.

■■■

وصيتى

أنور السادات

القاهرة: المكتب المصرى الحديث، ٢٠٠٠

لعب السادات دورًا بالغ التأثير فى مسيرة المنطقة، منذ تولى الحكم عقب وفاة الرئيس عبد الناصر، فى هذا الكتاب أهم أفكاره التى ساهمت فى تغيير وجه الحياة فى مصر والمنطقة العربية كلها.

■■■

Failed Crusade: America and the Tragedy of PostCommunist Russia

(الحملة الصليبية الفاشلة: أمريكا ومأساة روسيا ما بعد الشيوعية)

Stephen F.Cohen

W.W Norton & Company, 2000, 304 PP., $21.95

يتحدث المؤلف عن الكارثة الاقتصادية والاجتماعية التى تعم روسيا منذ بداية التسعينيات، والتى وصلت حدها الأقصى فى الكارثة المالية عام ١٩٩٨، ويلقى المؤلف اللوم على الولايات المتحدة وخبرائها ومثقفيها الذين أوقعوا روسيا فى هذا المأزق، بسبب نصائحهم الخاطئة المدفوعة بروح الانتصار.

■■■

Sale of the Century: Russia's Wild Ride From Communism to Capitalism

(صفقة القرن: رحلة روسيا الجامحة من الشيوعية إلى الرأسمالية)

Shrystia Freeland

Crown Business, 2000, 305 PP., $27. 50

المؤلفة عملت رئيس مكتب مجلة «الفاينشنال تايمز» فى موسكو لعدة سنوات، وتعتمد فى كتابها على مدى معرفتها بالاقتصاد والمجتمع الروسى.

تفسر فريلاند كيف ضعفت روسيا بسبب بيع الشركات الوطنية الكبيرة على أيدى المصلحين الجدد فى الحكومة لمجموعة صغيرة من كبار رجال الأعمال.

تقول فريلاند: «سرقت روسيا فى وضح النهار عن طريق رجال أعمال لم يخرقوا أى قوانين، وبمساعدة الإصلاحيين الشبان أصدقاء الغرب فى الكريملن»

■■■

This House Has Fallen:Midnight in Nigeria

(هذا المنزل قد سقط: منتصف الليل فى نيجيريا)

Karl Maier

Public Affairs, 2000, 237pp., $26.00

ولدت أزمة نيجيريا منذ تخطيطها أثناء الاستعمار البريطانى، فقد رسمت حدودها حول عدد من المجموعات العرقية المتباينة: الهوسا والفولانى فى الشمال، واليوروبا فى الغرب، والإجبو فى الشرق، إلى جانب القبائل الأخرى التى تمثل أقليات ثانوية. وبعد سلسلة من الحكومات الدكتاتورية العسكرية التى قمعت الشعب لم يعد أحد يتوقع لها أن تصبح قوة أفريقية عظمى، بل تستغلها الولايات المتحدة الآن لتقوم بدور الشرطى الفاسد فى غرب أفريقيا. ولكن وكما يقول مؤلف الكتاب مازالت نيجيريا مهمة، من الناحية الاقتصادية، فهى الشريك التجارى الرئيسى للولايات المتحدة فى أفريقيا وخامس مصدر للبترول لها. كما تعتبر سوقًا مستقبلية هائلة بهذا الحجم الكبير والمتنوع من سكانها.

■■■

From Herzel to Rabin: The Changing Image of Zionism

(من هرتزل إلى رابين: الصورة المتغيرة للصهيونية)

Amnon Rubinstein

Hdmes & Meier, 2000, 283pp., $32.59

يعمل أمنون روبنستين أستاذًا فى الحقوق، وهو أيضًا عضو بارز فى الكنيست الإسرائيلى، كما عمل وزيرًا للتعليم أثناء حكومة إسحق رابين فى منتصف التسعينيات. ويقوم فى كتابه هذا بتتبع تاريخ الفكر الصهيونى والمراحل المهمة التى شكلته وأعادت صياغته. وهو يعترف بأن اليهود اليوم يتمتعون بالثقة والقوة أكثر من أى وقت مضى. فهم مندمجون تمامًا فى المجتمعات التى يعيشون فيها ويؤثرون سياسيًا وأكاديميًا واقتصاديًا.

أما عن الصهيونية داخل إسرائيل فهى متشعبة، وتختلف حدتها وصياغتها من مجموعة لأخرى. فالأرثوذوكس المتشددون يعتبرون الهولوكوست عقابًا من الله على الصهيونية ويرفضون مبدأ الدولة الإسرائيلية ويرفضون الانضمام للعسكرية ومع ذلك هو من أكثر المعادين للعرب. ومن ناحية أخرى هناك الأكاديميون أصحاب تيار «ما بعد الصهيونية» الذين يلومون اليهود على كل شىء ويبرئون العرب تمامًا، ويريدون إزاحة الصبغة اليهودية عن إسرائيل، كذلك هناك المجموعات القومية الدينية المتطرفة والتى تعتقد فى التفوق اليهودى وترغب فى سحق العرب. أما المؤلف نفسه فيؤمن بالمشروع الصهيونى ويرغب فى حياة متمدنة فى إسرائيل تجمع ما بين اليهودية المعتدلة والتسامح الليبرالى مع الآخر.

شعر

القصيدة الحديثة فى الخليج العربى

مجموعة من الكتاب والنقاد الخليجيين

البحرين: إدارة الثقافة والفنون، ٢٠٠٠

مجموعة من الدراسات تلقى أضواءً على مسيرة القصيدة الحديثة فى منطقة الخليج العربى، كتبها نقاد خليجيون خبروا هذا الشعر وتعمقوا فيه وغاصوا فى جمالياته.

■■■

السيدة البيضاء فى شهوتها الكحلية

جوزف حرب

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

ديوان جديد تحتل المرأة فيه ركنًا مهمًا، بوصفها ملهمة ومصدرًا للإبداع، الذى يخاطب أحيانًا أقصى درجات الطهر والصوفية فى الإنسان، وأحيانًا شهوانيته ورغباته الجسدية.

علوم وتكنولوجيا

الثورة الجينية.. الفكرة والإعصار

محمد عفيفى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف تاريخ الثورة الجينية واكتشاف التركيب الأساسى للحامض النووى «دنا»، وكيف تطورت استخدامات هذا الفرع العلمى فى علاج العديد من الأمراض، ثم تطوير استخدامه فى مجالات الهندسة الوراثية وكشف الخريطة الوراثية للإنسان، كما يتعرض المؤلف للجوانب الأخلاقية والدينية المرتبطة بالموضوع.

■■■

Heroes, Rogues and Lovers: Testosterone and Behavior

(أبطال ومتشردون وعشاق: التستوستيرون والسلوك)

James Mcbribe Dabbs

Mcgraw lhill, 2000, 284 PP., $24.95

بغير هرمون التستوستيرون يصبح الجميع إناثًا، بالرغم من أن الإناث أيضًا لديهم نسبة من هذا الهرمون. ولكن الدراسة التى يقوم بها المؤلف تركز على تأثير الفرق فى نسبة تواجد هذا الهرمون بين الرجال على شخصياتهم وسلوكهم فى الحياة ونجاحهم المهنى.

ويخرج المؤلف بنتائج عديدة من تجاربه، منها أن مستوى التستوستيرون لا يظل ثابتًا، فهو يقل بنسبة ٥٠٪ على مدار حياة الشخص ويكون أعلى فى الصباح، كما يتأثر بالفصول وخبرات الحياة المختلفة. كذلك تؤدى المشاعر الإيجابية والأفكار الإيجابية إلى ارتفاعه، بينما ينخفض بالأفكار والمشاعر السلبية أو الانهزامية.

ومع ارتباط هذا الهرمون بصفات الشجاعة والإقدام والعنف والسيطرة إلا أنه فى عصرنا الحالى المتمدن يرتبط ارتباطًا عكسيًا بالنجاح المهنى والاجتماعى على عكس العصور الأولى من التطور البشرى.

■■■

Computers Ltd: What They Really Can't Do

(الحاسبات الآلية «محدودة»: ما لا تستطيع أن تفعله)

David Harel

Oxford University Press, 2000, 240 PP., $25.00

المؤلف عالم رياضيات فى معهد وايزمان للعلوم بإسرائيل، ويقوم فى كتابه بشرح المشاكل الرياضية التى لا «ولن» يستطيع الحاسب الآلى أن يحلها أبدًا. وذلك راجع للنظرية الرياضية التى يقوم عليها أصلاً الحاسب الآلى.

■■■

Genes, Peoples, and Languages

(الجينات والشعوب واللغات)

Laigi Laca Cavalli - Sforza

Penguin, 2000, 240 pp., £ 18.99

كتاب جديد لعالم الأحياء الإيطالى الشهير «كافالى» الذى كان أول من استخدم شفرة الـ DNA فى معرفة الصفات المميزة لشعوب العالم المختلفة ومسيرة هجراتهم عبر آلاف السنين. فبالرجوع إلى الآثار واللغويات والجينات، يؤكد كافالى النظرية القائلة بأن الإنسانية بدأت منذ عشرة آلاف سنة فى أفريقيا ثم إلى آسيا ثم إلى بقية العالم. كذلك فإن اكتشافاته العلمية لها مغزى سياسى، حيث توصل إلى عدم وجود أساس جينى وراثى للتصنيف العرقى أو اللونى بين البشر. وإنما أفضل الطرق فى تحديد الأصل الجينى هى مقارنة فصائل الدماء، والتى تفسر الفروق الثقافية واللغوية بين البشر. والواقع أن كل التساؤلات التى يثيرها كافالى لها أهمية سياسية واجتماعية وعلمية: متى وأين نشأ البشر؟ كيف انتشرت المجتمعات الإنسانية عبر القارات؟ كيف أثرت الابتكارات الثقافية فى نمو وانتشار الشعوب؟ ما هى الصلة بين الجينات واللغات؟

■■■

Secrets and Lies: Digital Security in A Networked World

(أسرار وأكاذيب: الأمن الرقمى فى عالم متشابك)

Bruce Schneier

John Wiley & Sons, 2000, 432 pp., $29.99

المؤلف خبير فى أنظمة أمن الحاسبات الآلية، أما الكتاب فموجه لكل من يتعامل مع الحاسب الآلى فى التسوق عبر الإنترنت أو فى التجارة الإلكترونية.

فقد اكتشف بعد سنوات من الخبرة

والتمرس فى هذا المجال أنه لا يوجد نظام آمن تمامًا، وأن الأنظمة الآمنة للحاسبات الآلية تعتمد فقط على التقليل من المخاطرة. ويعدد الكتاب الأنواع المختلفة من الهجوم والتلصص والتخريب التى قد تصيب أنظمة الحاسبات الآلية الشخصية.

كذلك يعرض للأنواع المختلفة الموجودة من أنظمة الأمن وإمكانياتها المتنوعة. وأخيرًا يقدم نصائحه للشركات فيما يمكنها أن تقوم به من اجراءات حمائية.

فكر

أمتنا بين قرنين

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

ماذا سيكون حال المسلمين فى الألفية الجديدة؟

سؤال يتبادر، بل ويشغل ذهن كل مسلم، وخصوصًا أن الألفية الثانية مضت، والمسلمون فيها فى ذيل قافلة العالم، يستهلكون ولا ينتجون، يستوردون ولا يبدعون، يقلدون ولا يجددون.

المؤلف يرى بحصافة تلك المعانى، لكنه لا يشارك المتشائمين انقباضهم، ويرى أن ثمة مسحة من الأمل والتفاؤل تشير إليها مبشرات دينية ودنيوية، لكن تحقيق هذا الأمل يستلزم عملاً دءوبًا حتى تتحول الأحلام إلى حقائق.

■■■

أيديولوجيا الحداثة بين المثاقفة والفصام الحضارى

عريجوا مارشو

دمشق: دار الأهالى، ٢٠٠٠

يركز المؤلف على الآليات التى تشكل أيديولوجيا الحداثة العربية، باتجاهاتها العلمانية والليبرالية والقومية والماركسية، متسائلاً عن كيفية النهوض الحضارى، سواء اعتمادًا على هذه الآليات أو خروجًا عليها جميعًا.

■■■

توظيف المحرم

سليمان حرتيانى

دمشق: دار الحصاد، ٢٠٠٠

عن الدور السلبى الذى ينتج عن توسيع دائرة التحريم خصوصًا فى مجال الحريات الفردية، ثمة ثوابت لا يجوز إغفالها، لكن توظيفها فى خدمة أغراض ضيقة تسعى إلى وأد الإبداع وحصار المبدعين، هو ما يفرضه المؤلف.

■■■

ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠

ما هى الثقافة التى نرجوها لأمتنا، حتى تتجاوز أزمتها الحضارية، هل هى ثقافة منفتحة بلا حساب على العالم كله؟ هل هى ثقافة منغلقة على ماضيها وتراثها؟ هل هى ثقافة تأخذ من الطرفين بحساب، هذه الدراسة تؤصل للمعنى الثالث شرعيًا، وتؤكد أن الثقافة التى نحتاجها تأخذ من العالم بما لا يمس جوهرها وثوابتها الأصيلة.

■■■

حديث صحافى مع الإمام على بن أبى طالب

رياض نجيب الريس

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

يحاول المؤلف من خلال حواره المتخيل مع الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، أن يزيل نغمة التشاؤم الجاثمة على صدور الشعوب العربية، ويكشف مواضع الخلل التى تقود إلى مزيد من الركود والتخلف، سعيًا إلى النهوض بالأمة.

■■■

دفاعًا عن إدوارد سعيد

فخرى صالح

عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

تحاملت بعض الكتابات، وأكثرها لا يخفى نوازعه الصهيونية ضد المفكر الفلسطينى الكبير، المؤلف يرد على هذه الدعاوى ويؤكد الدور المهم الذى لعبه إدوارد سعيد فى نصرة القضية الفلسطينية والوقوف بقوة فى وجه الدعاوى الصهيونية.

■■■

وليمة للإرهاب الدينى

حلمى النمنم

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يتضمن الكتاب ملفًا عن واحدة من القضايا الفكرية التى أثارت ردود أفعال هائلة فى مصر أخيرًا، إذ كانت القاهرة مسرحًا لسجال فكرى حول رواية الأديب السورى «حيدر حيدر» وليمة لأعشاب البحر، التى وصفها بعضهم بالإلحاد، فيما اعتبرها البعض تنتصر لقيم الإسلام فى العدالة والحرية الفكرية والمساواة، والمؤلف يعرض لكافة وجهات النظر حول الرواية، وينتصر لوجهة النظر الثانية.

■■■

يا فؤادى

محمد سويد

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

نداء آس ربما على زمن بيروت الذى ولّى، وقت أن كانت بحق عاصمة للثقافة والفنون فى الشرق العربى، حتى جاءت الحرب الأهلية فبدلت أحوالها، وتأثرت فنونها من سينما ومسرح وإبداع أدبى تحت وطأة هذه الحرب الغاشمة، لكن ها هى بيروت تنهض لاستعادة مكانتها ودورها.

■■■

The Missionary and the Libertine: Love and War in East and West

(المبشر والفاسق: الحب والحرب فى الشرق والغرب)

Ian Buruma

Random House, 2000, 319pp., $25.95

يعد الكاتب إيان بوروما من المستشرقين المعاصرين، وينصب اهتمامه بالتحديد على بلاد شرق آسيا. فقد أمضى معظم حياته دارسًا ومتجولاً فى أنحائها خاصة فى اليابان. وفى هذا الكتاب يكتب بوروما عن ثمانى دول آسيوية؛ حول رؤى المثقفين والساسة الآسيويين للشرق والغرب ورؤى الكتّاب والساسة الأمريكيين والأوروبيين عن آسيا.

واستنتاجه الأساسى فى الكتاب أن الغرب ما زال يرى الشرق من خلال القوالب التقليدية، وأن آسيا متأثرة بعمق بالغرب، ولم تعد مختلفة كثيرًا عنه. أما مسألة «القيم الآسيوية» فهى مقولة روجها السياسيون الآسيويون المتسلطون لكى يفلتوا من محاسبة الغرب لهم على حقوق الإنسان.

■■■

The Way of All Flesh: A Celebration of Decay

(احتفاء بالاضمحلال)

Midas Dekkers

Farrar, Straus and Giroux, 2000, 288pp., $25.00

يقدم لنا ميداس دكرز عالم الأحياء الهولندى كتابًا يحمل فكرة جمالية وطبيعية فريدة، فهو ينتقد البلاد الصناعية الحديثة التى لا تسمح بترك الأشياء تذبل وتضمحل بلطف. فالبناء القديم يجب تجديده أو هدمه، والإنسان العجوز يزرع شعرًا ويحقن بالكولاجين. وعلى العكس يحب «دكرز» الوجوه المسنة، حيث إنها أكثر تشويقًا وتحمل الكثير من الحياة التى عاشها أصحابها. وكذلك المنازل العتيقة.

وهو يرى أن تساقط الكائنات سواء كانت عضوية أو غير عضوية يشجع على تفجر النماء الجديد. كذلك يعدد «دكرز» فى كتابه الحقائق العلمية عن عمليات التحلل المستمرة التى تحدث من حولنا كل يوم؛ التحلل الطبيعى فى الهواء الذى تستنشقه والماء وتحلل أجسامنا وجلودنا اليومى.

الكتاب يحمل دعوة لأن نتخذ موقفًا أكثر حكمة فيما يتعلق بحقيقة الموت الذى هو جزء من الحياة نفسها ووجه آخر لها.

فنون

غواية الصور

زينات بيطار

بيروت: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٠

شهدت الفنون التشكيلية دومًا ثورات وانقلابات، بات فيها الحديث كلاسيكيًا والمعاصر متحفيًا، وكانت ثورات الفنون ومدارسها ومذاهبها الفنية، مواكبة، وربما سابقة على تحولات أخرى فى السياسة والاقتصاد والأوضاع الاجتماعية، والآن تتعايش كل هذه المدارس معًا، ويعايشها المتذوق وفق رؤاه وتفضيلاته الجمالية.

■■■

الفن الإسلامى فى المصادر العربية.. صناعة الزينة والجمال

شربل داغر

الكويت: دار الآثار، ٢٠٠٠

لم ينطلق الفن الإسلامى من فراغ، بل كان تعبيرًا عن فلسفة واضحة ورؤى متميزة للكون والحياة وموقع الإنسان منهما، وهكذا كان فيما يتصل بصناعة الزينة والجمال.

■■■

موسوعة عناصر العمارة الإسلامية

يحيى وزيرى

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

كان للمسلمين وسائلهم فى إضفاء طابع خاص على عمارتهم فى شبه جزيرة العرب، وتطورت هذه الوسائل والطرز المعمارية من العهد النبوى إلى عصور الخلافة واكتسبت سمات جديدة، دون أن تغفل سماتها الأصلية الأساسية.

نقد أدبى

العين والإبرة

عبد الفتاح كيليطو

ترجمة: مصطفى النحال

مراجعة: محمد برادة

المغرب: دار الفنك، ٢٠٠٠

يزيح المؤلف الستار عن ألف ليلة وليلة، ويقدم اجتهاده فيها بيانيًا وجماليًا، بما يعنى أن ألف ليلة وليلة، ذلك الأثر الأدبى الخالد، ما زالت قادرة على إثارة الجدل والإلهام لدى المبدعين والشعراء والنقاد مهما مضى عليها من زمن.

■■■

النص وتجليات التلقى

سالم خدادة

الكويت: مركز النشر العلمى، جامعة الكويت، ٢٠٠٠

بتطور نظريات النقد الأدبى، صار للتلقى دور أكثر فعالية عن ذى قبل، صار المتلقى مشاركًا أصيلاً فى عملية الإبداع مما حرك سواكن النشاط اللغوى، وضاعت مستويات النص وجمالياته حسب فعالية واندماج المتلقى.

■■■

لونجين والجرجانى

عدنان عبد الله

أبو ظبى: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠

عرض للجهود النقدية للناقدين اللذين ينطلقان من مواقع فكرية وجغرافية مختلفة، لكنهما متشابهان فى بعض الطروحات ويختلفان قطعًا فى أخرى، المؤلف يعرض لبعض كتاباتهما ويحلل ما انتهيا إليه.

■■■

وأد مقومات الإبداع

إبراهيم البليهى

السعودية: سلسلة كتاب المعرفة، ٢٠٠٠

للمبدع دور لا يغفل فى النهوض بمجتمعه والأخذ بيد ناسه فى دروب الرقى والتقدم، وللظروف المجتمعية واستعداد الناس للتفاعل مع رغبة المبدعين دورها أيضًا، عن الإبداع والمناخ الذى ينشطه ويدفعه يدور الكتاب.

■■■

نــون

سـلام يقـتل السـلام

خمسون عاماً من الأكاذيب المصنوعة، والاتفاقات المضروبة، والوعود المنكوثة، والخداع السافر للشعوب، هي الحقبة الزمنية التي تغطي تاريخ الأحداث الدامية في الشرق الأوسط.. والتي راح ضحيتها مئات الألوف من الضحايا والشهداء، وأهدرت على عتباتها آمال أجيال تلو أجيال، وأهرقت على رمالها دماء العُزَّل والأبرياء.. ثم ضاعت في خضم ذلك أوطان ومقدسات، وضاعت معها القدرة على مواجهة الحقائق بلا مواربة ولا ادعاء.

تتراءى لنا جميعاً تفاصيل هذه القصة بجلاء كامل، مع الأحداث التي أمسكت بخناق العالم العربي خلال الأسابيع الأخيرة. وهو يرى كيف وصل الزحف اليهودي المخطط، والمدعوم بقوى خارجية مهيمنة، إلى محاولة وضع يده على بيت المقدس بعد أن وضع يده على أوطان عربية عديدة، من خلال مؤامرات تبدأ خيوطها من تل أبيب إلى واشنطن. تمتد بكل الحرص فوق الفضاءات الملغومة لدول عربية غارقة في شئونها وشجونها الصغيرة، عاجزة عن قراءة التاريخ واستخلاص عبره، مسرفة في حسن الظن بزعمائها وبنفسها وبالآخرين، مستكينة لأوضاع مهترئة لا تملك تغييرها أو الفكاك منها.

وحين خطا الإرهابي العتيق اريل شارون بأقدامه النجسة فوق أرض الحرم الشريف، كانت كل مشاعر الإحباط المتراكمة عبر سبع سنوات من الجري وراء سراب السلام، والغيظ المكظوم من مسلسلات الخداع التي وقع فيها قادتهم وأوقعوهم فيها، والدماء التي راحت هدراً تحت وطأة القمع ووراء أسوار السجون، قد فاقت درجة الاحتمال لدى الملايين، ليس فقط من أهالي الأرض الفلسطينية المحتلة، ولكن أيضاً من جماهير الشعوب العربية والإسلامية.. التي اكتشفت فجأة أن خطط السلام التي جرى التفاوض حولها كانت قائمة على شفا جرف هار.. فانهار به فعلاً.

وعلى الرغم من أن انفجار مشاعر الغضب والسخط قد عبرت عن نفسها في البداية في صورة مظاهرات عادية قرب الحرم الشريف. لا تختلف كثيراً عن تلك المظاهرات التي وقعت في شوارع بلجراد ضد ميلوسوفيتش وباركتها وسائل الإعلام الغربية واحتضنتها، إلا أنها بالنسبة للمحتل الإسرائيلي كانت بمثابة تمرد لا يصح السكوت عليه، ولا ينبغي أن يمر بسلام حتى لا تهتز سيطرة الوضع الإسرائيلي المفروض على القدس وما حولها. وهي المشكلة التي برزت بالغة الصعوبة والاستعصاء في مفاوضات كامب ديفيد قبلها بأيام قليلة، وكانت سبباً في فشلها على الرغم من الضغوط والجهود التي مارسها الرئيس الأمريكي كلينتون.. فقوبلت مظاهرات الاحتجاج الفلسطينية بكل ما تميزت به قوات الأمن الإسرائيلية المدربة من وحشية وقسوة، لتنطلق بذلك دائرة عنف دامية، استخدمت فيها القوات الإسرائيلية الرصاص المطاطي وغير المطاطي والقنابل، في مواجهة متظاهرين عُزَّل لم يجدوا بين أيديهم ما يدافعون به عن أنفسهم غير سلاحهم القديم من الطوب والحجارة.. ليتصاعد العنف بعد ذلك إلى حرب صريحة بالطائرات والدبابات ضد الفلسطينيين في غزة والضفة لتكون بذلك نهاية مرحلة، وبداية مرحلة.. نهاية مرحلة سلام زائف مسموم، استخدم في قتل مبدأ السلام العادل الذي حلمت به الشعوب العربية طوال الحقبة الأخيرة منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣.

في كل مراحل الصراع العربي- الإسرائيلي، كان هدف السلام العادل الشامل هو الهدف النبيل الذي تسعى إليه الشعوب العربية.. فلم تكن هذه الشعوب مهيأة لصراع دموي طويل، يطرح حقها في الوطن الذي تعيش فيه منذ آلاف السنين موضع التساؤل أو يولد لديها الحاجة لإثبات حقها فيه.. وذلك في مواجهة جماعات يهودية استيطانية، تميز تاريخها بالانعزالية والعنصرية والتعصب، ونجحت في أن تصبح جزءاً من الامبريالية العالمية. تعبر عن التراث الفكري الاستعماري الغربي وتصبح شريكاً فاعلاً في وضع استراتيجياتها العالمية، وقد أثبتت أحداث التاريخ أن ثمة اتفاقاً جوهرياً في نظرة الغرب والصهيونية العالمية إلى عالمنا العربي.. فالشرق الأوسط لا يعدو أن يكون في نظر الغرب والصهيونية مصدراً هائلاً للمواد الخام الرخيصة وعلى رأسها النفط، ومجالاً خصباً للاستثمارات، وسوقاً استهلاكية، وقاعدة استراتيجية في مواجهة الأعداء القائمين أو المحتملين في آسيا (روسيا أو الصين). ومن ثم فقد اعتبرت الصهيونية فلسطين «أرضاً بلا شعب» أو مساحة من الفراغ يمكن ملؤها، وساعدتها الامبريالية العالمية على تحقيق أهدافها الأسطورية التوراتية التي اعتبرت فلسطين أرض الميعاد.

ومنذ بدأ الصراع على فلسطين بوعد بلفور الذي أعطت بريطانيا بمقتضاه لليهود الحق في إقامة دولتهم.. وقع العرب ضحية سلسلة طويلة من الألاعيب والخداع السياسي لم تتوقف، لأن الشعوب العربية لم تنجح في اكتشافها وتعريتها لأسباب عديدة.. ليس أقلها ما كانت تعانيه من سيطرة الاستعمار والتخلف الاقتصادي والسياسي والثقافي. وظن العرب في وقت من الأوقات أن هذه الدولة «المزعومة» مآلها إلى الزوال والتفكك، لأنها قامت على خليط متناثر من الأجناس واللغات، ولن يكتب لها الاستمرار إلا بفضل المساعدات الخارجية التي تدفقت عليها من أمريكا وأوروبا. وهو مالم يحدث حتى الآن.

وفي كل المواجهات والحروب التي وقعت بين الدولة اليهودية والدول العربية، والتي كانت دائماً ما تنتهي بهدنة مؤقتة، تكون إسرائيل بفضلها قد توسعت ووطدت أركانها وأعادت بناء قواتها العسكرية مستعينة بمهاجرين جدد.. كانت أدوات الصراع تزداد تقدماً وتعقيداً، لتفرض إسرائيل بقوة السلاح- مدعومة بتأييد غربي مطلق- ما يعجز العرب عن الدفاع عنه أو استرداده.. وظل الخطأ القاتل الذي ارتكبه العرب مرة بعد أخرى على مدى الخمسين عاماً الماضية، هو القبول بالتفاوض مع إسرائيل، بطريقة مباشرة أو بالوساطة، في ظل الاحتلال، على أمل تحقيق تسوية سلمية. وقد رفضت إسرائيل دائمًا أن تسحب قواتها من أي أرض احتلتها عسكريًا، نتيجة للمفاوضات أو الاتفاقات.. وذلك باستثناء حالة واحدة عندما انسحبت من سيناء في أعقاب حرب أكتوبر ٧٣، لأسباب استراتيجية وعسكرية ودولية بالدرجة الأولى، تتعلق بالخطط الدفاعية عن إسرائيل نفسها.

لم يتغير التفكير العربي كثيرًا عبر مراحل الصراع المختلفة. وظل أسلوب التفاوض في ظل الاحتلال هو آخر ما تبقى من أساليب الصراع المعتمدة عند العرب، بعد أن أعلنت الدول العربية الكبرى - وعلى رأسها مصر - أن السلام خيار استراتيجي، وأن حرب أكتوبر آخر الحروب، وعندما كف الفلسطينيون عن الانتفاضة الأولى التي انطلقت عام ٨٧، وذلك في أعقاب حرب الخليج، لم يكن السلام الذي سعوا إليه في مدريد وأوسلو هو سلام الشجعان، بل سلام المتعبين الضائعين.. بعد أن تفككت الجبهات العربية، وانهارت الروح المعنوية، وغابت القيادات ذات الوعي والبصيرة.. كما أن الظروف العالمية نفسها تغيرت تغيرًا جذريًا بانتهاء الحرب الباردة، وصعود نجم الهيمنة الأمريكية.

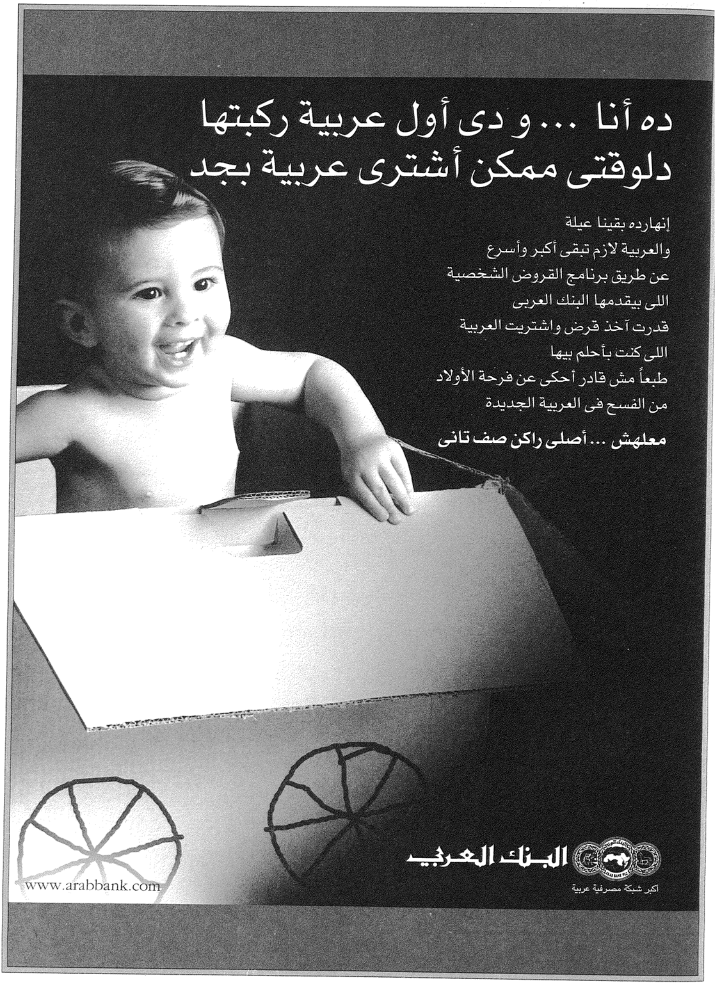
وغني عن البيان أن مفاوضات أوسلو وما أعقبها من جولات تفاوضية بين الفلسطينيين وإسرائيل، ذرعت العالم طولاً وعرضًا، كانت تتم بين طرفين غير متكافئين، تحت وطأة احتلال إسرائيلي شبه كامل للأراضي الفلسطينية، ومن ثم فلا بد أن تسفر عن اتفاقيات مليئة بالثغرات والحيل والخدع اللفظية. وأن ينجم عنها ذلك النوع من السلام المراوغ الذي يفتقر إلى روح السلام الحقيقية، والذي نجحت إسرائيل في استخدامه لتحقيق أغراضها كاملة، فقضت بذلك على مفهوم السلام القائم على العدل وجعلت منه نكتة ومدعاة للسخرية.

وهكذا فإن ما حدث في القدس أخيرًا، وما أعقبه من انفجارات شاملة للأوضاع في الأراضي الفلسطينية، فاجأت الكثيرين وأذهلتهم بما انطوت عليه من عنف وقسوة، هو النتيجة الطبيعية لسلام مسموم.. ظل الشعب الفلسطيني يتعاطاه طوال السنوات السبع الأخيرة. وقد ظن الإسرائيليون والأمريكيون - بل وبعض القيادات الفلسطينية والعربية - أن اعتياد الجسم الفلسطيني لهذه الجرعات المحسوبة من سموم السلام، كفيل بتحصينه ضد الثورة على الاحتلال الإسرائيلي، وترويضه للقبول بالأوضاع المهينة التي فرضت عليه. وربما كان أكثر ما أثار دهشة الإسرائيليين أنفسهم، هو الانتفاضة العنيفة التي صدرت عمن يسمون عرب إسرائيل أو عرب الداخل.. هؤلاء المليون فلسطيني الذين عاشوا جنبًا إلى جنب كمواطنين للدولة الإسرائيلية.

بعض الذين يفكرون في نموذج «حزب الله» في لبنان، لا بد أن يقودهم التفكير إلى ما يسمى «تاريخ الوقائع البديلة»، فيما لو اختلف سياق الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، على نحو يتيح للفلسطينيين أن يقاوموا وينزلوا من الضربات الموجعة بقدر ما ينزلها بهم الإسرائيليون، على نحو ما يحدث في لبنان.

وفي أحداث العنف الأخيرة، كانت المبررات التي ساقها باراك لتعليل الضربات الوحشية التي وجهها إلى المظاهرات السلمية للانتفاضة الفلسطينية هي أن هذه هي اللغة التي يفهمها الفلسطينيون.. فمتى يدرك الفلسطينيون ومعهم شعوب العالم العربي حاجتهم إلى لغة مشتركة يفهمها الإسرائيليون؟

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد الثالث والعشرون. السنة الثانية. ديسمبر ٢٠٠٠. الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 23 - December 2000

محمد حسنين هيكل

موعد مع الحرب!

ومقال آخر..

أزمة السياسة فى انتخابات الرئاسة

مياه النيل فى سوق التجارة العالمية! / رشدى سعيد

عزمى بشارة / تحرير فلسطين.. تحرير الإنسان العربى

أدب المقاومة.. من المنفى إلى الإنتفاضة / فاروق عبد القادر

مصطفى عبد الرزاق نوفل / الآثار الصحية للعولمة.. غزو الهامبورجر!

الجمود السياسى.. وانتحال الديمقراطية! / سلامة أحمد سلامة

يوسف القعيد / فاتن حمامة.. فنانة من نور

«رمضان فى كتابات المؤرخين المصريين / قاسم عبده قاسم»



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الثالث والعشرون
ديسمبر ٢٠٠٠

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.»

كتّاب العدد:

- رشدى سعيد ..أستاذ جيولوجيا مصرى، مقيم فى الولايات المتحدة
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى
- عبد العظيم أنيس..أستاذ الإحصاء الرياضى المتفرغ بجامعة عين شمس
- عزمى بشارة.. مفكر فلسطينى ونائب فى الكنيست الإسرائيلى
- فاروق عبد القادر.. كاتب
- قاسم عبده قاسم ..أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق
- محمد حسنين هيكل .. صحفى
- محمد فؤاد الذاكرى ... باحث في التراث العلمى، من سوريا
- مصطفى عبد الرزاق نوفل...أستاذ علوم وتكنولوجيا الغذاء بجامعة الأزهر
- ناصر الرباط...أستاذ تاريخ العمارة الإسلامية بمعهد ماستشوستس للتكنولوجيا (M.I.T)
- يوسف القعيد... صحفى وروائى

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

الـــرجـــل.. والـــوطـــن

قـــراءة للانتـــفـــاضـــة

«اسمه عزمي بشارة. إنه عضو في الكنيست... وهو مفكر فصيح وديماغوجي من الطراز الأول. وهو كاره لإسرائيل من نوعية أكثر خطرًا بكثير من حسن نصر الله (زعيم حزب الله) الذي يعلن أنه من مؤيديه... إن يوم «نهايتك» سيأتي يا بشارة الأفعى. وسيكون يومك أقرب مما تعتقد. سيزال قناعك وستكشف الحقيقة...». السطور التي تحمل تهديدًا سافرًا بالقتل، تضمنها بيان تحريضي نشره موقع إسرائيلي على الإنترنت قبل أيام.

وكان منزل بشارة قد تعرض لمحاولة إضرام النار فيه، عندما هاجم اليهود الهوليجانز «مواطنيهم» من عرب ١٩٤٨ في الناصرة. بالضبط مثلما كان أعداء السامية يهاجمون اليهود في أوروبا. ولقد دشن هؤلاء نشاطهم بمسيرات مشاعل ليلية لإحراق بيوت العرب من دون خشية التشبه بعصابات كلوكس كلان الشهيرة. وتعددت أنواع الاعتداءات من تحطيم السيارات ونهب المتاجر وإحراقها - كما حصل في ذلك المطعم في تل أبيب لشبهة أن عربًا هم من بين رواده - وحتى القتل نفسه.

ووصلت الفضيحة إلى ذروتها عندما تدخلت الشرطة، لتفصل - رسميًا - بين الطرفين، فلا يسقط برصاصها «الحي» إلا العرب! والذين هم بموجب الأوراق الثبوتية، وادعاءات الديموقراطية اليهودية «إسرائيليون». الأمر الذي كشف عن تصدع يبقى من أبرز علامات الأحداث الأخيرة. وفي مواجهة تيار تنامى بعد «أوسلو» توهم إمكانية «الدمج المتنور» لعرب ١٩٤٨، أثبت القائلون باستحالة ذلك في مجتمع عنصري بطبيعة تكوينه الديني، صحةَ حجتهم. وكان في مقدمة هؤلاء دكتور عزمي بشارة.

و بشارة الذي هو الآن عضو في الكنيست الإسرائيلي، بدأ نشاطه السياسي سنة ١٩٧٦، وعمره ١٩ عامًا، عندما شارك في تنظيم يوم الأرض احتجاجًا على مصادرة السلطات الإسرائيلية الاف الفدادين من أراضي الفلسطينيين في الجليل. وقتل في تلك الاضطرابات يومها ستة فلسطينيين وجرح مئات، والأهم أنها ألقت الضوء فعليًا على جانب لا يمكن إغفاله من جوانب الصراع المعقد في المنطقة، رغم النجاح الإسرائيلي في تكريس التجاهل الإعلامي - بل والتفاوضي - لذلك الجانب.

ذهب عزمي بشارة إلى برلين حيث حصل على دكتوراه في الفلسفة السياسية، ورغم أن أحدًا لا يحتاج إلى أن يكون فيلسوفًا ليعرف أن العرب في إسرائيل مواطنون من الدرجة الثانية، أو العاشرة، إلا أن النائب الأكاديمي، يوضح - بلغة يفهمها الجميع شرقًا وغربًا - أن ثمة تناقضًا في وصف إسرائيل بأنها يهودية وديمقراطية، ويقول بأن المهم في المعادلة هو أن تثبت أنك الطرف صاحب الحق. ويسهل إثبات ذلك إذا تم التعامل مع القضية الفلسطينية كآخر حالة أبارتهايد كولونيالية عنصرية. هذه لغة يفهمها العالم ولكنه لا يفهم لغة «الصراع مع اليهود الأنجاس» ومع «كيان إسرائيل الملعون» التي تسود الخطاب العربي أو بعضه على الأقل.

وبشارة الذي تطلبه الشرطة الإسرائيلية للتحقيق بتهمة التحريض وتأييد الانتفاضة، يمثل فعليًا إجهاضًا لأفكار «الاجتثاث الواقعي» لفلسطينيي الداخل من جذورهم الحقيقية، وهو أحد قادة التجمع الوطني الديموقراطي وهو حزب «إسرائيلي» حديث التكوين، ورغم أنه بطبيعة الحال من الأعداء التقليديين لليمين الأشد تطرفًا والأقوى في إسرائيل «بدعوى أنه قومي متشدد وأحد أعداء الدولة»، إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يرشح نفسه لرئاسة الوزارة في مايو عام ١٩٩٩.

ويرى عزمي بشارة أن القضية الفلسطينية برزت أساسًا كقضية لاجئين، ولكن على نحو ما قُلبت إلى أراضي العام ١٩٦٧ التي قُلبت إلى قضية القدس التي قُلبت إلى قضية دينية. وعلى نحو ما نسي بعض العرب والفلسطينيين - أو أنساهم الهادفون إلى ذلك - أن قضية اللاجئين هي جوهر القضية الفلسطينية. ويحذر من أن تضيع قضية اللاجئين وسط ضجيج الكلام «المعقول واللا معقول» حول السيادة على الأماكن المقدسة.

في «وجهات نظر»، اعتدنا أن يقدم كتابنا قراءتهم الخاصة لكتاب أو لوثيقة. إلا أن «قراءة في الواقع» المتعيش والمتفاعل، تظلُ لها أهمية خاصة. عزمي بشارة النائب الذي يحملُ همومَ «أهله» ومواطنيه، إلى جانب شهادة للدكتوراه، وأوراق هوية إسرائيلية، يكتب لنا من الداخل، قراءة لما يجري هناك ويتداعى هنا. محاولا التذكير بحقائق تضيع - عمدًا أو سهوًا - وسط التباسات قضية شديدة التعقيد، وأمام خصم - بحكم الإرث التاريخي على الأقل - يدمنُ المساومة، ويجيدُ المناورة، مثلما هو محترفٌ لخلطِ الأوراق.

ينبه بشارة إلى خطورة اختزال ما يجري إلى حد وصفه بأنه «حربٌ دينية» إذ لا يوجد في الحرب الدينية ظالمٌ ومظلوم، ولا مستعمِر ومستعمَر، بل صراع بين حقّين مطلقين لا يستطيع التمييز بينهما إلا المؤمنون بهما. وعليه فإنه لا ينبغي تصوير الأمر على أنه صراع بين الأقصى وحائط المبكى بل بين الشعب الفلسطيني والاحتلال. فالحرب ليست بين المسلمين واليهود بما هم كذلك، وإنما بين دولة إسرائيل كدولة احتلال وبين العرب كواقعين تحت الاحتلال. ويذكر بأن الأقصى كان تحت السيادة العربية الإسلامية في العام ١٩٦٤، عندما وُلدت منظمة التحرير الفلسطينية من رحم النضال من أجل عودة اللاجئين وتحرير فلسطين.

ويؤكد بشارة على أهمية وجود إستراتيجية تمثل مشروعا سياسيًا للانتفاضة «وإلا ضاع الدم المراق هدرًا». فالتجاوب الذي لا تخطئه عين لابد وأن يجد من يترجمه في النهاية إلى مشروع سياسي يتجاوز مجرد المساواة والتعاطف والتضامن والوعيد.

وإذا كنا نتفق جميعًا - الآن على الأقل - على أن سنوات ما بعد أوسلو الانتقالية (الثماني) والتي كان من المفترض أن تبنى الثقة بين الطرفين أدت في الواقع إلى العكس، فإن أسئلة أوسلو (الخمسة) : اللاجئين، السيادة، الحدود، القدس، الاستيطان، ينبغي ألا تغيب عن الأذهان ونحن نقرأ في «أبعاد الانتفاضة، وسيناريوهات تداعياتها».

ويوضح بشارة في مقاله كيف أن هناك إجماعا صهيونيا (كاملا) حول الإجابة على أسئلة أوسلو الخمسة (قضايا الحل النهائي) في مواجهة غياب لمشروع قومي عربي - أو حتى وطني فلسطيني - يتضمن إجابة محددةً أو واضحة. وأنه «حين احتفلنا بهزيمة نتانياهو، لم نلتفت إلى أن لاءاته الأربع انتقلت حرفيًا إلى برنامج باراك». ويُذكر بشارة بأنه في الوقت الذي اضطر فيه نتانياهو إلى تجميد البناء في مستوطنة جبل أبو غنيم جنوبي القدس تحت ضغط دولي ومحلي إسرائيلي وفلسطيني، فإن باراك عاود البناء في هدوء. ويتم حاليا تسويق شقق هذه المستوطنة للبيع دون ضجة تُذكر.

لاءات نتانياهو التي انتقلت إلى باراك مع حقيبة الوزارة، والتي تمثل الإجابات النهائية للطرف الإسرائيلي عن أسئلة أوسلو تتلخص في التالي: لا عودة للاجئين الفلسطينيين إلى حدود عام ١٩٤٨، لا انسحاب إلى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧، ولا سماح بدولة فلسطينية «ذات سيادة»، ولا تخلي عن القدس «موحدة». وأن غالبية المستوطنات باقية تحت السيادة الإسرائيلية.

وهنا يطرح عزمي بشارة سؤالا محوريًا: «هل أصر الطرف الفلسطيني المفاوض على موضوع القدس لأنه اختلف عليه وحده ووافق على جميع الأفكار الأمريكية - الإسرائيلية الأخرى، أم أنه تمترس خلف هذا الموضوع ذي الأبعاد والمعاني الرمزية من أجل إفشال الأفكار الأخرى كافة؟! ما زالت الإجابة عن هذا السؤال ضرورية لأنها تحدد كيفية استخدام رصيد الانتفاضة النضالي».

يطرح بشارة سيناريوهين لتطور نتائج الانتفاضة يُرجح في أحدهما «أن يتحول الدم المسفوك في هذه الانتفاضة المنطلقة من الأقصى إلى ضمان لعدم قبول الإملاءات الأمريكية - الإسرائيلية»، وإن كان يخشى «أن الاحتمال مازال قائمًا لكي تستخدم الانتفاضة لتصوير العجز عن تغيير موازين القوى، وتخاذل الموقف العربي. مما يسوِّغ العودة إلى قبول ما لم يقبل في كامب ديفيد بعد أن بذلت القيادة الفلسطينية ما بوسعها دون فائدة».

يبقى أن قراءة بشارة لأحداث «اليوم» لا تكتمل إلا بقراءة هيكل لأوراق «الأمس» إذ يبقى صحيحًا تمامًا أن «متابعة» أوسلو، وواي بلانتيشن، وكامب دافيد، لا يمكن أن تنفصل عن «مطالعة» مشاهد تشكيل خارطة المشرق العربي في منتصف القرن.. فضلا عن تفصيلات ما سبق وما تبع ١٩٦٧ وتداعياتها.

إدراك هيئة تحرير «وجهات نظر» لهذه الحقيقة، دفعنا إلى تعديل في حساباتنا بعد أن كنا فكرنا في تأجيل «الحلقة الثالثة» من قراءة هيكل للوثائق الإسرائيلية، لنضع بدلا منها «قراءته» للمسرحية المثيرة - ثنائية البطلين - التي نتابع مشاهدها على الضفة الأخرى من الأطلنطي، والتي هي متصلة بطريقة أو بأخرى بما يجري هنا. فخلصنا - بعد نقاش - إلى أنه وإن كان «تكامل» الصورة يبقى مطلوبًا دائمًا، فإن «تتابع» الحلقات - بلا انقطاع - في دورية شهرية، تبقى له ضرورته.

وجهات نظر



سياحة صيف فى الوثائق الإسرائيلية ٣

موعد مع الحرب



محمد حسنين هيكل

أخذتنى الوثائق الإسرائيلية فى رحلة معها طالت عما قَدَّرت، ومع أنها كانت قراءة صيف فإنها تَحَوَّلت إلى كتابة خريف وشتاء، فهذا هو الشهر الثالث الذى أتَوَقَّف فيه مع هذه الوثائق دارساً وفاحصاً بالقدر المتاح لرَجُلٍ لا يَزعُم لنفسه اختصاصا فى كتابة التاريخ، لكنه يعرف فى نفسه اهتماما بقراءته.

ولقد أشرت فيما سبق إلى أن الميزة الأساسية للوثائق الإسرائيلية أنها تضيف إلى قارئها ما يمكن اعتباره خَطاً يزيد ويُكمِل الدائرة. بمعنى أننا اطلعنا على ما كانَ عندنا عَرَبياً (ومصرياً بالدرجة الأولى). ثم جاءت الوثائق البريطانية والفرنسية والألمانية والتركية (إلى حَدٍّ ما) - فوَسَّعَت الأفق وفَتَحَتهُ، ومع ذلك ظلت هناك بُقَعٌ أشبه ما تكون بالثقوب السوداء فى السماء - تلك التى يعتبرها عُلَماء الفَلَك مقابر للنجوم، وبسبب هذه البُقَع فإن الحقيقة ظلت ناقصة بعض الشىء، لأن طرَفاً من أهَمِّ أطراف صُنع التاريخ فى الشرق الأوسط الحديث كان يَحتفِظ بشهادته وراء صَمت كلى أو جزئى!

وعندما أتيح لغَيرى ولى أن نُطلَّ على الوثائق الإسرائيلية - أو بعضها - فإن خَطَّ الأفق المعرفى حولنا بانت عليه - ولو بخطوط شاحبة أحياناً - دائرة تحيط به، وترسِم له ما يمكن اعتباره شكلاً عاماً لما جرى وما زال يجرى مُتَّصِلاً مع بعضه لدرجة لم تكن مُتاحة من قبل، وتلك قيمة ما تَحويه الوثائق الإسرائيلية: خطٌّ واحِدٌ زائد لكنه يقفل الدائرة!

وهنا فإن مجال النظر يُصبح قادراً أكثر من ذى قبل على رؤية «الأرضية» التى مَشَت وتَمشى عليها الوقائع تاركة مَواقِع أقدامها أثراً يمكن تَتَبُّعه فى صحارى الرمل والصخر، ومرات فى حُقول الطين والدَّم!

وربما أضفتُ أن لى مَنطقاً فى قراءة التاريخ أوثره، وقد أشرت إليه مرات من قبل - مؤداه أن «التاريخ» ليس «ذيل» الماضى بقدر ما هو «مُقَدِّمة» المستقبل، ولعلى هنا مُتأثر بالفكرة التى طرحها «دين أتشيسون» وزير الخارجية الأمريكية الذى حضر مع الرئيس الأمريكى «هارى ترومان» مرحلة نهاية الحرب العالمية الثانية وبداية «الحرب الباردة». وكان ذلك عصراً شهد ظواهر عديدة راحت جميعها تتفاعل لتصنع فترة من أكثر فترات التاريخ الإنسانى حَيَويَّة وخصوبة. وعندما قرَّرَ «دين أتشيسون» كتابة مُذكراته عن وقائع ما عاشه، فقد اختار لها عنواناً يستحق التأمل نصه «الحاضر عند مرحلة الخلق الأولى»، وتَوَقَّف عنوان كتاب «أتشيسون» عند هذا الحد، والتكمِلة المنطقية بعده «والمستقبل عند مرحَلة الطفولة» - وكلا القولين مُتَناغِم مع الآخر، وكلا القولين فيما أظن صادق.

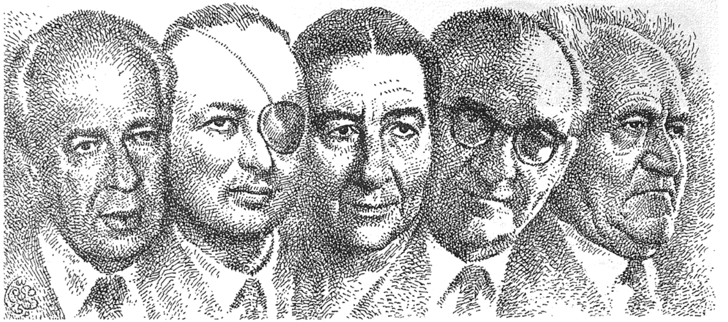
بمعنى أن ماضينا هو بالطبيعة حاضرنا - عندما كان يتخلق..

ثم إن حاضرنا هو بالفِعل مستقبلنا - عندما بدأ الآن يحبو!

والحقيقة أن منطق الفصل بين الماضى والحاضر والمستقبل مُصطلح زَمَن أكثر منه حقيقة موضوع.

وبصرف النظر عن «الحاضر عندما كان يَتَخَلَّق»، وعن «المستقبل عندما بدأ يحبو» - فقد يكون مُفيداً إدراك أن ما نراه «الآن» هو خير «كشف» لما لمحناه «من قبل» ولم نتمكن من رؤيته جَلِياً، لكنه عندما جاء الظهر بان فى الحاضر جَسَداً ما كان فى الفجر ظِلاً. ونفس الشىء صحيح بالنسبة للمستقبل، فإذا استطعنا فى عِزِّ الظهر أن نتطلع إلى المستقبل بهداية النور الساطع لذلك الظهر، فإن خياراتنا تُحَصِّن نفسها باستعداد يضيف إلى قوتها آخر النهار وهى تُرَتِّب ليَوم جديد.

يتداعى من ذلك فى اعتقادى أن التاريخ ساحة دراسة قصدها المعرفة الواسعة،



وليس ساحة مَحكَمة مَطلبها العقاب الصارم، ولكي لايكون هناك لبس فإن المحاكمة جائزة في نطاق السياسة، وهناك يصح أن يقال عن «سياسي» إنه جديرٌ بالثواب، أو مُستَحِقٌ للعقاب ـ لكنه عندما تَتَحَوَّل السياسة إلى تاريخ فإن منطق الثواب والعقاب يفقد فاعليته حتى بالتقادُم أو انتهاء الصلاحية. وإذا لم يَقَع ذلك فإن ساحة التاريخ تَتَحَوَّل إلى ثارات قبائل (فيها من يَتَشيَّع لـ«علي» وفيها من يَنتصر لـ«معاوية»، وتلك فتنة طارَدَت الضمير العربي والإسلامي وما زالت تُطارده). وفي كل الأحوال فإنه إذا ظلَّ هناك من يسوغ «الفتنة المستمرة» في مجال العقائد الدينية، فإن الفتنة في مجال خيارات البَشَر تَعَسُّفٌ في التعامُل مع المستقبل يُحَوِّله إلى فِعلٍ ماضٍ حتى نهاية العُمر!

....

والحقيقة أنني أمَهِّد بهذا القول لتساؤلات تكشفها أو تثيرها قراءة الوثائق الإسرائيلية، وقد يكون فيها ما يثير حساسية بعضهم هنا أو ضيق آخرين هناك.

لكنه إذا وَقَع الاتفاق على أن التاريخ ساحة دراسة للمعرفة الشاملة وليس ساحة تحقيق للمُحاكَمة الصارمة ـ وحتى على فرض أن السياسة خَلَّفَت وراءها جراحاً، فإن أي جرح يطلب أول ما يطلب مُطَهِّراً ورباطاً ومُضاداً حيوياً، فلا يمكن للجرح ـ ولا يعقل ـ أن تكون أشواكه دائمة إلى سكِّين أو خنجر أو حتى شظية زجاج حادة تغوص فيه من جديد، ثم تَتَحَوَّل الندوب المتخلفة عن جراح قديمة إلى تَهَتُّك في الأنسجة يعود به نزيف الدم سيَّالاً، يَدفع بالأمة إلى فراش المرض غائبة عن الوعي، عاجزة عن الفعل.

وذلك مرة أخرى ـ ثالثة ـ تمهيد وَجَدتُ مناسباً أن أعود به إلى هذا الحديث المتصل عن «سياحة صيف مع الوثائق الإسرائيلية».



١ مفاتيح

قراءة الوثائق الإسرائيلية تجربة مُفيدة ومثيرة، وهي في نفس اللحظة تجربة مُرهِقة ومُحزِنة خصوصاً عندما تَدخُل الحوادث إلى ذلك المنحَنى المتَّجِه مباشرة إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧.

ويَستحق الملاحظة أن أي قارئ للوثائق الإسرائيلية تطالعه أثناء القراءة علامات وإشارات دالة ولافتة للنظر، داعية لإطالة الفكر. ويخطر على بالي أن هذه العَلامات والإشارات الدالة تَستحق الوقوف أمامها قبل الدخول في تَسَلسُل التطورات والوقائع، والسبب أن ذلك قد يُوَفِّر نوعاً من «المفتاح» لقراءة خريطة ما جرى منذ بداية سنة ١٩٦٧ وحتى قُرب منتصفها (في يونيو). وبمقدار ما أن مفاتيح الخريطة الطبيعية تظهر المساحات، والمسافات، وتقاطعات الطُرُق، ومَواقع المدن، وتضاريس الأرض: الزراعة بألوان خضراء، والصحارى بألوان صفراء، والجبال وقِمَمها وسفوحها بألوان بُنِّيَّة مُتَدَرِّجة من الثقيل إلى الخفيف ـ فإن الخريطة السياسية لها نفس الكفاءة على الكشف والإبانة إذا أمكن تحديد الرموز بما يجعلها مُعَبِّرة بأمانة عن النوايا، والخطط، والوقائع، والتصرفات، والاحتمالات بما فيها آمال تَتَحَقَّق أو آمال تَخيب!

ومفتاح قراءة الخريطة السياسية لما جرى على الطريق إلى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ـ وكما هو مكشوف ومَقروء صراحةً، أو ما هو محسوس وملموس ضمناً ـ يرسم مجموعة من العَلامات والإشارات الدالة واللافتة تملك من الدقَّة ما يكاد ينقلها من رَسم بالقلم والريشة إلى صورة بالفيلم والكاميرا لا تكتفي بتثبيت لوحة طبيعة، وإنما تمسك أيضاً ـ وهذه ميزة الفيلم والكاميرا ـ بلحظة أو لحظات من الحياة يَتَّحِد فيها المكان والزمان!

ومجمل العلامات والإشارات التي تقول بها خريطة الطبيعة وخريطة السياسة ـ خريطة المكان وخريطة الزمان ـ كما أطلَّ عليها صانع القرار الإسرائيلي ـ وكما يَتَبَدَّى من ملفاته وأوراقه ـ تُنبِئ بما يلي:

١ ـ أن العرب أضعَفُوا أنفسهم بأكثر مما أضعَفَتهُم قوة إسرائيل سنة ١٩٦٧، وأن التَصَدُّع بدأ في عقول الناس قبل أن تَتَصَدَّع جَبَهات القتال. وكان ساسة إسرائيل وجنرالاتها أوَّل من ذُهِل لما جرى على الناحية العربية من الخطوط، ولم يكن بينهم من تَوَقَّعه على الأقل بهذه السرعة وبهذه السهولة. ولأيام بعد انتهاء معارك الأيام الستة (٥ ـ ١١ يونيو ١٩٦٧) فإن قادة الحكومة الإسرائيلية وقُوَّاد الجيش الإسرائيلي ظلوا جميعاً غير قادرين على استيعاب حجم ما تَحَقَّق لهم، وعندما أفاقوا من «صَدمة النصر» ـ إذا جاز التعبير ـ فقد هالهم أن «انتصارهم أضخم من أن يكون حقيقياً» too good to be true ـ وكان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي الجنرال «إسحاق رابين» أول من سَجَّلَ في محاضر مجلس الوزراء تقديره للموقف في جلسة بتاريخ يوم الأحد ١١ يونيو ١٩٦٧ ـ بقوله: «إنني أشعر بالحُزن رغم ذروة الفرح التي نعيشها لأني أعتقد بأمانة أن ما حصلنا عليه جاء أكثر مما أردناه، واعتقادي أنه ليس أمامنا غير إعادته أو مُعظمه إلى أصحابه بشروط معقولة ـ والسبب «الحاكم» أننا لا نستطيع ولا نقدر على الاحتفاظ به كله بتكاليف مقبولة!».

٢ ـ أن مؤسسة الأمن ـ وهي صانع القرار الحقيقي في إسرائيل ـ كانت على وَعي كامل بواقع أن الخلافات والصراعات بين الساسة العرب نوع آخر غير الخلافات الواقعة بين الساسة الإسرائيليين. وفي حين أن رجلين مثل «ليفي أشكول» (رئيس الوزراء الإسرائيلي سنة ١٩٦٧) و«دافيد بن جوريون» (مُؤسِّس الدولة وأول رئيس لوزرائها) يستطيعان الإمساك بتلابيب بعضهما وحتى النهاية دون أن يُؤثر ذلك على إستراتيجية الدولة اليهودية ـ فإن خلافات الساسة العرب تَتَحَوَّل بطبائع السُلطة في العالم العربي إلى نزاعات دُوَل تصل بالمختلفين إذا أمسكوا بتلابيب بعضهم إلى درجة الحرب المسلحة (الحرب الأهلية ـ عربية عربية) كما حَدَث بين «جمال عبد الناصر» من ناحية والملك «سعود» ثم الملك «فيصل» من ناحية أخرى بسبب الثورة في اليمن (١٩٦٢): وكانت مصر تؤيدها والسعودية تعاديها، ثم أصبح الخلاف بين الطرفين تحريضاً وسلاحاً ودَماً وخزائن مال بغير حساب، وأطرافاً خارجية تتدخل في الشأن العربي أو تُدعى باستماتة إلى التدخل فيه!

ولقد كان تناقض الأفكار والمبادئ والرؤى بين الساسة العرب هو الذي قاد مباشرة إلى اتصال على مستوى القمة بين العرب وإسرائيل (هو الأول من نوعه بعد اغتيال الملك «عبد الله» ملك الأردن في القدس سنة ١٩٥١)، ثم إنه في إطار هذا التناقض ونتيجة له فإن الملك «حسين» قَدَّمَ نفسه في لندن ممثلاً لجبهة أوسع من الأردن (على حَدِّ ما قال بنفسه للزعيم البرلماني المحافظ «جوليان إيمري» عندما التقى به في بيته في «إيتون سكوير») ـ وهي جبهة طلبت معاونة إسرائيل في حرب اليمن لمهمة عاجلة هي إسقاط مُعدات ومُؤَن على مواقع المرتزقة الأجانب الذين يحاربون مع الملكيين في جبال اليمن)، وقد استجابت إسرائيل فعلاً، وقامت طائراتها بالمهمة ثلاث مرات، ثم تَوَقَّفَت العملية لأن انكشاف أمرها إذا وقع مُحرج لأصحابه فوق أي حَد، وقد رَتَّب صانع القرار الإسرائيلي على ما استخلصَهُ طُرُقاً وأساليب في إدارة الصراع مع العرب وصَلَ مفعولها إلى المساس بالمحرم أو المقدس العربي، أو شيء شديد القرب من ذلك!

٣ ـ نقطة أخرى لاحظتها مؤسسة الأمن الإسرائيلية وهي تتصل بالجيوش العربية، ومُلَخَّص هذه النقطة (كما يَتَبَدَّى في تحليلات وتقديرات مُستفيضة تملأ الوثائق الإسرائيلية) أن الجيوش العربية لا تربطها بمهامها نظرية



موعد

أمن قومي تَرَسَّخَت على المستوى الوطني بالجغرافيا وبالتاريخ، وإنما رباط هذه الجيوش الصق بحقائق الأمور مع سُلطة الدولة. وسُلطة الدولة في العالم العربي : تقليدية أو غير تقليدية (ثورية مثلاً أو انقلابية مَوروثة) هي سُلطة أمر واقع - أي أنها سُلطة فرد حاكم أو مجموعة أفراد يشاركون إلى جواره بنصيب أو آخر في صُنع القرار، وذلك لا يعطي الجيوش العربية ثقتها في قرار الحرب عندما تتخذه السُلطة الحاكمة، لأن قرار الحرب في هذه الحالة - وفي غياب نظرية أمن قومي تَرَسَّخَت بالجغرافيا وبالتاريخ - تُصبح مصلحة نظام يقوده فرد أو مجموعة أفراد - وكلهم - فرداً أو مجموعة أفراد - يَصعُب اعتبار قراراتهم صياغة دقيقة لنظرية أمن قومي، ثم إن تقدير هؤلاء - فرداً أو أفراداً - يَصعُب اعتباره مَرجعية نهائية لمحددات هذا الأمن القومي. وذلك في التقدير الإسرائيلي يجعل الجيوش العربية مُتَحَمِّسَة للقتال عندما تدعوها الدواعي لممارسة دورها المرسوم في ميادينه، لكنها وهي تفعله (وفي الظروف العربية الراهنة) تُقبل عليه مُستجيبة لأوامر أو لأجواء أكثر منها مُستجيبة ليَقين تَرَسَّخَ بالجغرافيا وبالتاريخ، وهنا فإن هناك مسافة بين الحماسة وبين اليَقين. وهذه المسافة (في الحسابات الإسرائيلية) «تُؤثر على كثافة وعُمق الجهد العسكري للجيوش العربية، وعلى مدى تَواصُل هذا الجهد إلى المدى الذي تطلبه الضرورات».

٤ - إن صانع القرار العربي - من منظور الملفات الإسرائيلية - «يقترب من قرار الحرب المسلحة مُتردداً، وأحياناً مُضطراً»، والسبب أن صانع القرار العربي ليس واثقاً من أن لديه القدرة العسكرية القادرة، أو الاحتياطي الإستراتيجي الكافي، أو المدد الدولي المضمون والمؤكد - في حين أن صانع القرار الإسرائيلي يملك التعامل بثقة وجراة مع ظروف مُؤدِّيَة إلى قرار حرب مُطمئناً إلى أن الأسباب كلها مُتوافِرة ومُستعِدَّة في مواقعها.

بمعنى أن صانع القرار الإسرائيلي :

- متأكد من تفوق جيشه في أي حرب مع العرب (ولذلك فإن حساباته هي كيفية تقليل خسائر المعركة وليس الشك في نتيجتها).

- وهو عند اللزوم واثقٌ أنه يستطيع استعمال كل احتياطيه الإستراتيجي في ميدان المعركة عارفاً أنه يستطيع تعويض كل خسائره من السلاح وبقدر ما يلزمه (في حين أن الطرَف العربي «يمد ساقه بقدر لحافه» كما يقولون، وفي نفس الوقت فليس هناك ما يَضمَن أن لديه من الأصل «لحاف».

- ثم إنه بعلاقات إستراتيجية دولية خصوصاً مع الولايات المتحدة لديه اليقين بأن هناك حَدّاً أدنى مضموناً يستحيل أن تسوء بعده أي ظروف ! - بينما الطرَف العربي خائف في دخيلة نفسه من أنه إذا وقع المحظور مُعَرَّضٌ للسقوط في فراغ بغير قاع.

....

....

● وكان ذلك ما تأكدت منه إسرائيل واختَبَرَتهُ عملياً في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، فحين خَسَرَت ١٠٤ طائرات وأربعمائة دبابة في الأيام الثلاثة الأولى من القتال (على الجبهة المصرية وعلى الجبهة السورية) - لم تتردد القيادة السياسية الإسرائيلية في الأمر بفتح مخازن الاحتياطي الإستراتيجي كي يخرج ما فيها على الفور إلى التشكيلات الإسرائيلية المقاتلة تعويضاً ومَدَداً. وحَدَثَ في بعض المرات أن طائرات الجسر الجوي الأمريكي عَبَرَت الأطلنطي وعَبَرَت البحر وأنزلت بعض سلاحها - خصوصاً من الدبابات - في مطار العريش مباشرة، ثم تَوَجَّهَت هذه الدبابات مباشرة إلى المضايق تشارك في معركة «بالوظة» يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ - لكن الحقيقة أن معظم ما حمله الجسر الجوي الأمريكي دخل إلى المخازن ليُعَوِّض الاحتياطي الذي استعملته إسرائيل منذ اليوم الرابع للمعركة، مُطمَئِنَّة إلى أن استعمالها له فجوة ساعات وأيام قبل أن يتم استعواضه، ليعود احتياطيها الإستراتيجي إلى مستواه المطلوب والمقَرَّر في الجيش الإسرائيلي.

....

....

٥ - ويتصل بذلك وفي مُقابله أن القيادة الإسرائيلية كانت تَعرِف (بشهادة الأوراق والملفات) أن العرب في حروبهم يعتمدون على سلاح من الاتحاد السوفيتي (ولم يكن لديهم غيره يستطيع ولو نظرياً أن يقاتل إسرائيل) - لكن العرب الذين يعتمدون على السلاح السوفيتي لم يكونوا في أي وقت من الأوقات على علاقة إستراتيجية ثابتة مع الاتحاد السوفيتي، بل إنهم حرصوا أن يجعلوا علاقاتهم بالدولة السوفيتية علاقة «مشتري» السلاح بـ«تاجر» السلاح، وهذا نوع من العلاقة مُرتبك وأحياناً مهين للأطراف، في حين أن صانع القرار الإسرائيلي كان ينام راضياً على رباط وثيق مع الولايات المتحدة يَشتَمل على تَعَهُّد يجعلها ملتزمة بأن تضمن للسلاح الإسرائيلي تَفَوُّقاً على سلاح كل الدول العربية مُجتمعة.

وبسبب الخلافات بين صُناع القرار - وتَحَوُّل هذه الخلافات بطبائع السُلطة العربية إلى نزاعات دُوَل - فإن صانع القرار الإسرائيلي كان يملك ميزة إضافية هامشية لكنها هائلة - مُؤداها أن إسرائيل لن تواجه كل العرب في ميادين قتال مهما قيل أو يقال، ومهما كان أو يكون، وإنما هي على أسوأ الاحتمالات سوف تواجه دولة عربية واحدة، أو دولتين على أكثر تقدير !

٦ - ويتداعى من هنا على نحو ما أن مسئول الحرب النفسية في الجيش الإسرائيلي في ظروف سنة ١٩٦٧، وهو الجنرال «يوشفاط هاركابي»، كان له رأيٌ استطاع تَرويجه في أوساط صانع القرار الإسرائيلي، مُؤداه «أن العَرَب - كل العَرَب - كفوا عن تجربة الحرب من قرون، وعلى الأقل منذ عَهَدوا بالمسئولية عن أمنهم إلى المماليك، ثم إلى العثمانيين، وتلك حقيقة واقعة ظلَّت قائمة حتى زَمَنٍ قريب». وضمن آراء «هاركابي» أن العَرَب عرفوا في تاريخهم ألواناً من المقاومة ضد الاستعمار والاحتلال الأجنبي، لكن تلك تجربة أخرى تختلف عن تجربة الحرب كما عاشتها الشعوب الأوروبية، وكما عرفتها وعاشتها لندن وباريس وفيينا وبرلين مثلاً، أو غيرها من حواضر إمبراطوريات عظمى. وعليه فقد كان تقدير الجنرال «هاركابي» أنه «إذا كان مُواطنو الدولة العبرية يخيفهم نزيف الدم اليهودي، فإن مواطني الدول العربية يخيفهم سقوط القنابل حتى قبل أن تسيل قطرات الدم!» ■

في حين أن رجلين مثل « ليفي أشكول »
و« دافيد بن جوريون » يستطيعان الإمساك
بتلابيب بعضهما وحتى النهاية دون أن يؤثر
ذلك على إستراتيجية الدولة اليهودية . فإن خلافات
الساسة العرب تتحول بطبائع السلطة في العالم
العربي إلى نزاعات دول تصل با لمختلفين
إذا أمسكوا بتلابيب بعضهم
إلى درجة الحرب المسلحة



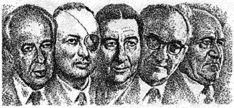
٣ توقيت

■ ■ لا تكشف الوثائق الإسرائيلية (في حدود ما اطلعت عليه) - عن كثير جديد يُضاف إلى ما كان معروفاً لغيري ولي عن قرار إسرائيل بالحرب سنة ١٩٦٧.

والمفاجأة الكبيرة، وربما الوحيدة، أنه لم يكن في نِيَّة إسرائيل لأي عمليات تفكر فيها تلك السنَة أن تدخل إلى الضفة الغربية والقدس [رغم كل هذا التعصب في شأنها الآن]، ولا أن تُوَجِّه ضربة إلى سوريا، ولا أن تحتل هضبة الجولان [رغم تَمَسُّك إسرائيل بها اليوم أرضاً ومَوقعاً ومَورد ماء]. والسبب الذي يَتَبَدَّى من الأوراق والملفات هو نفسه ما وصفه الجنرال «أهارون ياريف» عن الفارق بين سياسة «الصيد بالشباك» في الشام (سوريا - لبنان - الأردن) - وبين سياسة «الصيد بالرُمح المقذوف» Harpoon في سيناء - والداعي إلى اختلاف أساليب الصيد، أو أساليب العمل، أن إسرائيل في منطقة الشام كانت تقصد إلى أن «تَنتَشِر» أو «تأخذ» أو «تستولي» دون أن تزرع عوامل ثأر باقية في منطقة تريد أن تعيش وسطها بغير عوائق مادية أو نفسية، ولذلك فهي تطلب أن تكون حياتها فيها حاضراً ومُستقبلاً حياة مَحدودة المخاطر، مقبولة التكاليف، وخصوصاً أنها - كما تَتَصَوَّر - لا تُقابِل في هذه المنطقة دُوَلاً يمكن في يوم من الأيام أن تمثل خطرا قاتلاً لها - والعكس من ذلك الصيد بـ«الرُمح المقذوف» Harpoon مع مصر لأن القصد في هذه الحالة هو الإصابة الشديدة قتلاً أو عاهةً مُستديمة حتى يمتنع طرفٌ يقدر على التهديد في يوم من الأيام - عن أن يفكر أو يحلم بالخروج من سيناء إلى المشرق العربي في آسيا (بالتحديد إلى الشام الكبير أو الهِلال الخصيب شامِلاً العراق).

كان هناك ما هو أكثر من ذلك بالنسبة لتفكير إسرائيل في خطوط حركتها الإستراتيجية في منطقة الشام، بما في ذلك التفرقة ما بين دواعي الصيد بالشبكة فيها، مقابل استعمال الرُمْح المقذوف والقاتل ضِدَّ مصر.

كانت هذه الخطوط الإستراتيجية للحركة الإسرائيلية شديدة الوضوح خصوصاً في



القدر المتاح من أوراق «بن جوريون» الخاصة، وما ظهر من أفكاره مُسَجَّلاً في يومياته، ومُلخصه:

● لا تحتاج إسرائيل إلى ثارات دَم على نطاق واسع في فلسطين - عليها أن تأخذ قرار التقسيم - ١٩٤٧ - كخطوة أولى، وتحاول استخلاص مساحته كلها (وحولها) دون جراحة كبيرة، وتُقيم عليها بناءً متيناً لدولة قوية، يُساعدها على ذلك أن قرار التقسيم الذي أنشأ إسرائيل أعفاها من بناء دولة على أرض خلاء. فقد كان هناك في فلسطين بلدٌ منْ أكثر بُلدان المنطقة نُمُوّاً في مجالات الزراعة - وتَقَدُّماً في هياكل البنية الأساسية اللازمة بما في ذلك الطرق والموانيء والمطارات [وكانت هذه البنية الأساسية (حتى من قبل قيام دولة إسرائيل) مطلوبة لحركة الجيوش البريطانية الإمبراطورية في منطقة ما بين وادي النيل ووادي الفرات، ونفس الشيء من وقت الإمبراطورية العثمانية قبل الظهور البريطاني شرقي البحر الأبيض].

● ومع أن «بن جوريون» وَجَدَ مشروع دولته اليهودية يُواجَه بنوع من المقاومة المحلية يَنْشط أحياناً ويَخمد أحياناً، فقد كان ظنه أنه يستطيع تهدئة الأمور داخل الدولة اليهودية بينما تستطيع هذه الدولة «قضم» و«هضم» ما تَحقَّق لها وهو في النوايا غير المعلنة بداية صالحة للتَوَسُّع والاستيلاء على ما هو أكثر، وكان «بن جوريون» على يقين كامل بأن الدولة العربية (الفلسطينية) - إذا قامت (وفق قرار التقسيم) - سوف تلتهي بصراعاتها الداخلية بين القوى والأحزاب والعائلات (التي ظهَرت في الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية والثقافية، أثناء الحُكم العثماني لفلسطين - وبعده إبان الانتداب البريطاني).

● ولعرقلة إمكانية قيام دولة عربية في فلسطين (وفق قرار التقسيم) فقد وافق «بن جوريون» دون تَرَدُّد طويل على قيام الملك «عبد الله» ملك الأردن في ذلك الوقت - ١٩٤٨ - بضَمِّ غَرب فلسطين (الضفة الغربية) إلى مملكته. وقد وَجَدَ «بن جوريون» بعد تفكير أن ذلك «أسلم» لإسرائيل من قيام دولة فلسطينية تتناحر فيها القوى والأحزاب والعائلات، وكان تقديره أن «المملكة الأردنية الهاشمية» التي أعلن الملك قيامها بضَمِّ ضفتي الأردن - شرقاً وغرباً - يجعَل من هذه المملكة جسراً بين الدولة اليهودية وبين شرق وجنوب الشام.

أوطبقاً لنفس الإستراتيجية فإن «بن جوريون» أثناء تنفيذ مشروع الدولة اليهودية حرص على بناء عِدَّة جسور إضافية تُساعد ذلك الجسر عبر الأردن:

وقد خطر له أن الأقلية العربية الباقية في إسرائيل يمكن أن تكون جسراً إلى الفلسطينيين حيث كانوا.

وخطر له أن يكون «الدروز» سواء في جنوب سوريا أو في جَبَل لبنان جسراً إلى داخل سوريا ولبنان.

وخطر له أنه إذا أعطى لبعض العناصر المارونية في لبنان وَقتاً فإنها في الوقت المناسب «مشروع جسر» - مُؤدٍ إلى ميادين فسيحة من حول لبنان.

وكان حسابه أن تكون هذه الجسور كلها مفتوحة لحركة تفاعُل تنشط يوماً بعد يوم، وتساعد عملية «الصيد بالشباك» بغير حاجة إلى سلاح كثير أو دَمٍ غزير.

لكن قرار مصر في العصر الملكي بالاشتراك في حرب فلسطين أفسد على «دافيد بن جوريون» بعض حساباته.

ثم حَدَث سنة ١٩٥٢ أن النظام الملكي سقط في مصر، وكانت المفاجأة أن النظام الجديد الذي حَلَّ محله تَشَدَّد أكثر في تَمَسُّكه بهوية مصر العربية والقى بكل ثقله في الشام بما خَلَق حالة تَوَحُّد عربي زادت قوتها حين جاءت الثورة الجزائرية بالمغرب إلى قلب المشرق، وأدى ذلك إلى انقلاب في الموازين داخل المنطقة وحولها، وذلك أفسح الطريق لحالة فَوَران شديد أطاحت بأوضاع تقليدية بدت من قبل ثابتة ومُستقِرَّة. وفي نفس الوقت فإن هذه الحالة من الفَوَران الشديد سَبَّبَت هَزَّات عنيفة جَرَت في الشام ومن نتائجها أن الجسور التي حسبتها إسرائيل طرُقاً مفتوحة للصيد بالشباك راحت تتقطع.

ومع أن الانفصال بين مصر وسوريا - سنة ١٩٦٢ - وتَعَثُّر مفاوضات الوحدة بين مصر وسوريا والعراق - سنة ١٩٦٣ - قد أثبتت لإسرائيل أن تحقيق الوحدة العربية صعب، فإنها في نفس الوقت أثبتت لها أن استمرار الانفصال مستحيل، وأن تيار الوحدة العربية غالب برغم ما يجري في دمشق (بعد الانفصال)، وما يجري في بغداد (بعد تَتابُع الانقلابات). وكان التَحَسُّب الإسرائيلي أن ذلك الفوران الشديد في الشام قد يساعد مصر على صياغة جديدة لحركة القومية العربية. وكانت سلسلة مؤتمرات القمة العربية التي انعقدت بالذات سنة ١٩٦٤ - مُؤشراً إلى احتمال أن تصبح تلك الصياغة مُمكنة إذا تَحَوَّلت هذه المؤتمرات إلى مفردات جديدة لها.

ولحسن حظ إسرائيل (سوء حظ العَرَب) فإن ما كانت تتحَسَّب له من مؤتمرات القمة العربية (رغم ضآلة احتمالاته) - لم يَتَحَقَّق. ولم تتمكن مؤتمرات القمة المتلاحقة من صُنْع مُفردات جديدة تصلح لإعادة صياغة حركة القومية العربية من معدن أكثر صلابة.

وسنة ١٩٦٦ كان النظام الذي قام بعد الانفصال في دمشق يتخبط - وكان النظام الذي قام على أنقاض العرش الهاشمي في العراق يَتَرَنَّح خصوصاً بعد أن قام بدوره المعروف في عرقلة عودة وحدة بين مصر وسوريا، أو إقامة نوع مختلف من الوحدة ينضم فيه العراق إلى سوريا ومصر (١٩٦٣) - وكانت المملكة الأردنية الهاشمية في أوضاع قلقة بتأثير تيار وطني قوي، ولم يَسقُط ذلك التيار الوطني في عَمَّان رغم ضربات مُوجعة وُجِّهَت إليه، لكنه اضطر إلى السكون مؤقتاً حتى عَبَّر عن نفسه لاحقاً في التجاء سلاح الطيران الأردني كله تقريباً إلى مصر رافضاً المشاركة في ضرب ثورة اليمن - ثم كان الأخطر من ذلك كله (والإشارات إليه واضحة في الملفات والأوراق الإسرائيلية) هو التفاعلات التي جرت في المملكة العربية السعودية نتيجة لثورة اليمن، وأبرزها في ذلك الوقت التجاء الملك «سعود» ملك السعودية السابق إلى مصر غَضَباً من أخيه الذي رَتَّب لعزله عن العرش: الملك «فيصل».

ولم يكن التجاء الملك «سعود» إلى مصر أواخر سنة ١٩٦٦ حَدَثاً كبيراً في حَدِّ ذاته، لكنه كان إشارة إلى أن القاهرة مازالت تستطيع برغم التَوَتُّرات الشديدة في العلاقات العربية أن تكون قوة جذب لا تُقاوَم.

صانع القرار العربي - من منظور الملفات الإسرائيلية - «يقترب من قرار الحرب المسلحة مترددا، وأحيانا مضطرا»، والسبب أن صانع القرار العربي ليس واثقا من أن لديه القدرة العسكرية القادرة، أو الاحتياطي الإستراتيجي الكافي، أو المدد الدولي المضمون

وزاد على ذلك في ربيع سنة ١٩٦٧ أن الملك «سعود» كان بنفسه في اليمن يحاوِل مُساعَدة الثورة اليمنية على كسب تأييد قبائل مناطق الحدود الشمالية مُناوأة لأخيه. ومع أنه كان يفعل ذلك بالطريقة التقليدية - أي توزيع أكياس الذهب - إلا أن رنين الذهب مُتفاعلاً مع نداءات الثورة كان يمكن أن يصنع مزيجاً يَصعُب حساب تفاعلاته في شبه الجزيرة العربية.

وكان أول المخاطر وأهمها أن إسرائيل سوف تجد نفسها - إذا وَصَلَت هذه التداعيات إلى نهاياتها المنطقية - مُضطرَّة إلى الصيد بالـ«هاربون» في الشام أيضاً كما هي مُضطرَّة له في حالة مصر، وذلك آخر ما كانت تريده.

في الشام ظَلَّ اعتقادها أن الجراحة ليست لازمة - والمخَدِّر يكفي.

على عكس حالة مصر حيث الجراحة كانت في اعتقادها لازمة - والمخدِّر ليس ضرورياً.

وكان من شأن ذلك إذا تُرِكَ وفعله أن يفسد الإستراتيجية الإسرائيلية التي تريد - على المدى الطويل - أن تتعايش مع الشام، وأن تتسلل وتنفذ وتتحكم فيه بأقل قدر ممكن من التكاليف خصوصاً في الدَم، وأملاً في يوم تنطفيء فيه نيران الفتنة والكراهية والثأر داخل البيت الواحد أو داخل الحَيِّ الواحد (كذلك كانت الظنون).

ومن نتيجة ذلك وغيره فقد بدا على نحو عام أنه مع نهاية سنة ١٩٦٦ وبداية سنة ١٩٦٧ أصبحت إسرائيل على اقتناع بأن «الصيد بالرمح المقذوف» مُصَوَّباً إلى مصر قد حان موعده ووَجَب.

ومن المفارقات التي تثيرها قراءة الوثائق الإسرائيلية أن النظام السوري لحزب البعث في ذلك الوقت (وقبل الحركة التصحيحية لـ«حافظ الأسد») كان هو الذي يَملأ أجواء المنطقة بضرورات حروب التحرير، وحقوق العودة، وأهمية العَمَل «الثوري» و«الفوري» ضد إسرائيل - في حين كانت مصر هي الطَرَف المطالب بالحرص والحذر (وقد اختار «جمال عبد الناصر» في تلك الظروف وأمام وفد فلسطيني برأسه الأستاذ «أحمد الشقيري» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية - أن يقول للجميع صراحة في نوفمبر ١٩٦٦: «سوف أخدعكم إذا قلت لكم إن لدينا خطة لتحرير فلسطين. ذلك هَدَف مُؤَجَّل الآن، وما يهمني الآن بالدرجة الأولى هو أن تكون الدول العربية قادرة على الدفاع عن نفسها، مالكة لحرية العمل في مشروعاتها (يقصد مياه الأردن) داخل حدودها. وأما ما هو أكثر فأنا لا أعد به الآن لأنه يحتاج إلى ما هو أكثر مما لدى الأمة من قوة وإرادة ووحدة عَمَل - لكنه حين «تؤذن الحقائق» فلن تكون الجمهورية العربية المتحدة في حاجة إلى من يُحَرِّضها، أو يُذَكِّرها»).

برغم ذلك ومع بداية سنة



١٩٦٧ كان الشعور السائد فى مؤسسة الأمن الإسرائيلية - وكما تظهر الوثائق الإسرائيلية - أن الوقت قد حان للتفكير فى ضربة «رُمح مقذوف» Hárpoon إلى مصر (وليس إلى غيرها) - مع الإصرار على أنه كلما كان الجرح أعمق - كلما كان ذلك أفضل !

وهكذا فإنه فى بداية سنة ١٩٦٧ لم يَعُد السؤال المطروح على مستوى صنع القرار فى إسرائيل هو سؤال بـ«هل ؟» - وإنما كان السؤال بـ«متى ؟» ثم بـ«كيف ؟»

أى أن عنصر التوقيت أصبح النقطة المركزية فى القرار، ثم تَبَدى أن سنة ١٩٦٧ هى ذلك الموعد مع «متى ؟» - وكانت الأسباب التى تطرحها الوثائق الإسرائيلية مُتَعَدِّدة :

١ - أن مشروع إسرائيل النووى بدأ تشغيله سِراً، وقُدِّرَ إنتاجه من البلوتونيوم بما طاقته ٢٥ كيلوجراماً. وفى تقرير تلقاه رئيس وزراء إسرائيل فى ديسمبر ١٩٦٦ من هيئة «رافائيل» المشرفة على برامج التسليح الإسرائيلى وَرَدَ بالنص «أن مشروعاً معيناً له أولوية خاصة سوف يُصبح قادراً على الأداء فى ظرف شهور أقصاها نهاية ١٩٦٧».

وأشار تقرير آخر إلى أنه بالتوازى مع ذلك فقد «جرى حسم التَرَدُّد فى شأن وسائل «حَمل» و«تَوصيل» هذا السلاح إلى أهدافه - وقد جرى حَسمه لصالح الصاروخ (وضدَّ الطائرة)»، وبالتحديد لصالح صاروخ مُعَيَّن جرى تطويره بالتعاون مع شركة «داسو» الفرنسية، وأطلق عليه اسم «جيريكو» (أى «أريحا»).

وعلى هامش تقرير «رافائيل» وَرَدَت ملاحظة تنبيه تقول «أن تركيب «المطلوب» لـ«الأداء» عند إتمام المهمَّة - نهاية ١٩٦٧ - يمكن أن يستغرق ستة أسابيع من صدور قرار سياسى بذلك !»

وعلى الناحية السياسية فقد كان هناك تقرير للـ«موساد» مفاده أن هذا «التطور» يَصعُب أن يظل سِراً، ومن المُهِم والحال كذلك أن تَضَع الحَكومة الإسرائيلية فى حسبانها وتتذكر أن «ناصر» سبق له أن أبلغ الأمريكيين أن «مصر سوف تجد نفسها مُضطرَّة لشن حرب وقائية إذا تأكد لها أن إسرائيل على وشك أن تدخل مجال إنتاج الأسلحة النووية حتى لو بدت الحرب عملاً انتحاريا».

وللدقة فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية (طبقاً للملفات) كانت واثقة من أنها تستطيع رَدَّ أى «ضربة وقائية» تُوجِّهُها مصر استباقا للخطر النووى، لكن حساب التكاليف جَعَلَ «رئاسة الأركان» توصى أن تأخذ إسرائيل فى يدها زمام المبادأة وتضرب، وتختار هى التوقيت ولا تنتظر غيرها يفرضه عليها، وذلك لتَجَنُّب الخسائر الزائدة لهجوم مصرى مُباغت يمكن رَدُّه وإحباطه - لكنه سوف يَستَوفى ضرائبه قبل حرمانه من تحقيق مطلبه !

وبشكل ما فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية دَخَلَت فى سباق لكسب الوقت، فنصحت رئيس الوزراء «بخطوة سياسية لتحويل الأنظار تَغطيَةً للنوايا إلى حين اتِّخاذ قرار»، وهنا (أواخر ١٩٦٦) وقف «ليفى أشكول» فى الكنيست الإسرائيلى يقول ما نصه:

«إن رئيس مصر (يقصد «جمال عبد الناصر») يحاول إبعاد الشبهات التى تحيط ببرامج التسليح المصرية بإشارات مُتَكرِّرة إلى أسلحة نووية إسرائيلية. وأريد أن أعلن أمام الكنيست أن هذه الأسلحة لا وجود لها فى منطقة الشرق الأوسط، ونحن لا نريد أن نراها هنا. ولقد قلت من قبل، وأؤكد الآن، أن إسرائيل لا تملك سلاحاً نووياً، ثم إنها لن تكون البادئة بإدخال الأسلحة النووية إلى المنطقة !».

ثم تَقَدَّم «أشكول» من منبر الكنيست بمبادرة عامة عرض فيها نزع السلاح على الجانبين العربى والإسرائيلى، واقترح إنشاء «نظام للمراقبة تُقَرِّر فيه القوى الكبرى ما هو المسموح وغير المسموح به فى المنطقة»، ثم أعلن عن «استعداد إسرائيل للمشاركة مع العَرَب فى نظام للمراقبة قائم على تبادل المعلومات وتحديد الموازين المقبولة بين الطرفين !».

٢ - وبالتوازى مع ذلك فإن قيادة الأركان، ومعها المخابرات العسكرية والمدنية، أخذت تُلِح على أن ضربة إسرائيل الاستباقية لأى ضَربة وقائية مصرية لا بد أن تَحدُث «الآن» (نهايات ١٩٦٦ وبدايات ١٩٦٧) وأثناء وجود الجيش المصرى (الجيش المصرى «الثالث» كما تُسَمِّيه الوثائق الإسرائيلية) فى اليمن، لأن الجيش المصرى فى هذا الوضع انقسم نصفين، بين أحدهما والآخر أكثر من ألفى كَيلومتر - علاوة على أن طول مدة عمل الجيش المصرى فى اليمن طالت (ما بين ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٧) قرابة خمس سنوات، وقد أحدثت التجربة اليمنية فى الجيش المصرى ما أحدثته التجربة الفيتنامية فى الجيش الأمريكى. وكان الجنرال «موشى ديان» الذى تابَعَ الحرب فى جنوب شرق آسيا (وزار ميادينها فيما بعد) قد أدرَكَ أنه (فى فيتنام) أمام تجربة قتال يمكن أن تُقاس عليها أحوال الجيش المصرى فى اليمن، مع الفارق الكبير فى الحجم وفى الإمكانيات المادية والعلمية والتكنولوجية بين الجيش الأمريكى بمَوارده الهائلة وجيش بَلَد عربى يعتمد على السلاح السوفيتى.

٣ - يَتَّصِل بذلك أن هذه الضربة الاستباقية لمصر قبل احتمال ضربة وقائية منها - سوف تكون حرباً مع مصر وحدها على نحو شبه مؤكد، فذلك ما تقول به أوضاع المنطقة وأحوالها.

وكان ما تخشاه إسرائيل وتَتَحَسَّب له وتريد أن تسبقه «هو أن «ناصر» قد يجد لنفسه مَخرَجاً من حرب اليمن ينهى تَوَرُّط الجيش المصرى هناك ويُقَلِّل من العبء المعنوى والنفسى الذى يتحمله هذا الجيش».

ووفقاً للتقديرات الإسرائيلية فإن الخيارات المفتوحة أمام «ناصر» كانت ثلاثة :

- أن يستطيع «ناصر» «بطريقة ما» تحقيق انتصار حاسم يحشد له أكبر قدر من القوة، وينهى «ورطة اليمن»، ويُعلِى من هَيْبَتِه.

- أن يصل «ناصر» إلى اتفاق مع الملك «فيصل»، وذلك احتمال يُزَكِّيه أن الملِك يشعر بضغوط رأى عام تطالبه برفع يده عن اليمن، ثم إن أحوال الملَكيين الذين يناصرهم الآن (وهو يَكرَههم من الأصل) غير مُرضيَة، بدليل أنهم يعتمدون الآن بالكامل على مُرتَزَقة من الأجانب (إنجليز - فرنسيين - ألمان - أسبان) والملك هو الذى يدفع أجورهم ويتكلف بسلاحهم وإمدادهم. بينما الإمام «البدر» فى معركة مع عَمِّه الأمير «الحسن»، كلاهما يَدَّعى لنفسه أحقية فى إرث أسرة «حميد الدين»، أولهما بحقه عن والده (الإمام «أحمد»)، والثانى بأحقية بدئه بمقاومة الثورة.

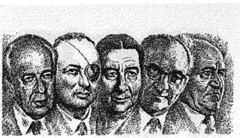
- والخيار الثالث أن يُصاب «جمال عبد الناصر» بيأس كامل من أعباء النظام الثورى فى اليمن، ويُقَرِّر الانسحاب تاركاً هذا النظام لمصائره بعد أن يُزَوِّدَه بما يكفيه للصمود «فترة تَفصِل ما بين الانسحاب المصرى المطلوب والسقوط المحَتَّم للنظام الثورى اليَمَنى، ويكون هذا الفاصل الزَمَنى ذريعة لإنقاذ ماء الوجه لا أكثر ولا أقل». - ومعنى ذلك أن السعودية بمواردها (النفطية والمالية) لن تكون مع مصر إذا حاربتها إسرائيل الآن، لكنه إذا تَغَيَّرَت الأحوال فقد تختلف الاحتمالات !

وبعيداً عن اليَمَن فقد بدا فى نفس الوقت أن صانع القرار الإسرائيلى مُقتَنِع بأن القيادة الحاكمة فى سوريا لن تحارب، لأسباب أولها أنها ليست قادرة على الحرب. ثم إن لبنان له وضعٌ خاص. والأردن ظرف مختلف. وأما البلاد العربية فى النطاق الثانى وراء الدُوَل العربية المجاورة مباشرة لإسرائيل فحُجَّتها قائمة على أنها لا تستطيع الوصول إلى إسرائيل على فرض أنها كانت تملك وسائل جاهزة تسمح لها بالعمل المباشر ضدَّ إسرائيل. ومن المحزن أن سفارة إسرائيل فى لندن كتبت (يناير ١٩٦٧) تقول «إن دُوَلاً عربية معنية «لن تُصاب بانهيار عَصَبى إذا استطاع جيش الدفاع (الإسرائيلى) توجيه هزيمة ساحقة لناصر» ! - وتُكرِّر الأوراق والملفات الإسرائيلية استشهادها بعبارة مأثورة عن الملك «فيصل» مَلك السعودية قال فيها إنه «سوف يجعل مَن اليمن مَقبَرة للجيش المصرى».

٤ - إن الموقف الدولى - فى تلك الظروف - بدا لصانع القرار الإسرائيلى مُلائماً، وأول أسباب الملاءَمة أن حكومة حزب العُمَّال البريطانية أعلنت عن سياسة أطلقت عليها سياسة «شرق السويس»، وبمقتضاها فإن القوات البريطانية سوف تنسحب من الخليج كما انسحبت من مناطق أخرى فى العالم لأن لندن لم تَعُد تَتَحَمَّل أعباء الإمبراطورية.

ولأن الانسحاب الإمبراطورى البريطانى من قواعد الخليج، خصوصاً قواعد الشارقة والبحرين وعُمان - سوف يُحدث بالتأكيد فراغاً فى القوة تراه الولايات المتحدة مُهَدِّداً لموارد البترول وطُرُق مواصلاته - فإن الولايات المتحدة سوف تبدأ فى طَرقِ أبواب المنطقة طالبةً دخولها لملء الفراغ من ناحية، والحفاظ من ناحية أخرى على مصالح حيوية للغرب عموماً وللولايات المتحدة خصوصاً. والمشكلة أن هناك نداءً عربياً مسموعاً وعالياً يُطارد خروجاً بريطانياً من الخليج، ويُعَرقِل دخولاً أمريكياً فى أعقابه، وهذا النداء صادر من القاهرة، وبالتالى فإن الخطوة المنطقية الأخيرة للإمبراطورية البريطانية قبل الخروج هى صَدُّ هذا النداء عن أسماع أهل المنطقة (وربما تسوية حسابات السويس وإغلاق دفاترها) - كما أن الخطوة المنطقية الأولى للإمبراطورية الأمريكية قبل الدخول هى «كتم» هذا النداء تماماً وخنق حنجرته إذا أمكن. وكانت الولايات المتحدة قريبة من الاقتناع بأن التعامل مع القاهرة باللين مَضيَعة للوقت. وكان منطقياً بالنسبة للاثنتين (بريطانيا والولايات المتحدة) أنه إذا ظهر طرف ثالث، ومن قلب المنطقة، قادر

لعرقلة إمكانية قيام دولة عربية فى فلسطين (وفق قرار التقسيم) فقد وافق «بن جوريون» دون تردد طويل على قيام الملك «عبد الله» ملك الأردن فى ذلك الوقت - ١٩٤٨ - بضم غرب فلسطين (الضفة الغربية) إلى مملكته. وقد وجد «بن جوريون» بعد تفكير أن ذلك «أسلم» لإسرائيل من قيام دولة فلسطينية تتناحر فيها القوى والأحزاب والعائلات



على الفعل فقد يكون مناسباً أن تُترَك له الفرصة ليقوم بنزع إبَر النحل ويترك لهم العَسَل بعد أن يقتطع لنفسه قسطاً منه. وذلك هو العدل بعينه.

وقد وَرَدَ تعبير «إبَر النحل وعَسَله» على لسان الوزير «المخضرم» أيامها «إسرائيل جاليلى» فى مناقشة لمجلس الوزراء المصَغَّر جرت (مارس ١٩٦٧) فى بيت «ليفى أشكول»، وسَجَّلَتهُ صاحبة البيت «مريم أشكول». رواية شاهد أصلى.

والترتيب الزَمَنى المعقول على هذا الأساس أن نزع «إبَر النحل» (لاستباحة عسله) يجب أن يتم قبل الموعد المقرر لسياسة «شرق السويس» والتى يتحقق بمقتضاها إكمال الانسحاب الإمبراطورى البريطانى من الخليج قبل سنة ١٩٦٨.

٥ ـ وكان هناك بالزيادة على ذلك كله سببٌ أخير يَرُدُّ على السؤال : «متى ؟» بجواب: «١٩٦٧» . وملخص هذا السبب أن برنامج التسليح المصرى غير التقليدى يُكثف جهوده فى مجال الصواريخ. وقد بدا للمخابرات الإسرائيلية أن «مصر» عرفت بأن السبق الإسرائيلى فى المجال النووى زادت وتيرته، واتسعت المسافة بينه وبين المشروع الإسرائيلى فى معظم التقديرات (الظاهرة فى الملفات) بما يُقَدَّر بخمس أو ست سنوات لصالح إسرائيل، وترتيباً على ذلك فإن «مصر» (كما رَصَدَت أجهزة الأمن الإسرائيلية) قررت «سَدَّ الفجوة بتكثيف إنتاج الأسلحة الكيماوية والجرثومية لكى تكون رادعاً ضدَّ الخطر النووى» ـ على أن كفاءة سَد الفَجوة كانت لا تزال مُتوقفة على قُدرة مشروع الصواريخ المصرى على حَلِّ مشكلته الأساسية وهى مشكلة دِقَّة جهاز التوجيه.

ثم كان أن عَلمَت المخابرات الإسرائيلية أنه «بعد أن جرى تخويف عدد من العُلماء الألمان (ودفعهم إلى السفر أو إلى الهرب من مصر، وعلى رأسهم الدكتور «وولفجانج بيلز» الذى قصد إلى الصين ووَضَع خبرته تحت تصرفها) ـ أن القاهرة بدأت فى بحث مُعضلة أجهزة التوجيه مع الاتحاد السوفيتى، وبالتَحديد مع عناصر فى وزارة الدفاع السوفيتية يشجعها الماريشال «أندريه جريتشكو» وزير الدفاع، والأميرال «جورشيكوف» قائد الأساطيل السوفيتية، وكلاهما كان شديد الاهتمام والحِرص على البحر الأبيض وما حوله، وموازين التواجد العسكرى والبحرى من البحر الأحمر إلى القرن الأفريقى إلى المحيط الهندى.

وكان التَخَوُّف الإسرائيلى من «أن الماريشال والأميرال ـ كليهما أو أحدهما ـ قد يمارس ضغطاً أو يقوم على مسئوليته بمبادرة تؤدى فى أى لحظة إلى حل مُعضلة جهاز التوجيه فى الصواريخ المصرية، ومِن ثم تكتَسِب إستراتيجية الردع المصرية مصداقيةَ فى اعتمادها على الأسلحة الكيماوية والجرثومية كمُوازن ومُعادِل ـ ولو مُؤَقَّت ـ للقنبلة الذرية الإسرائيلية.»

....

....

كان ذلك مجمل الأسباب التى وَضَعَت رقم «١٩٦٧» مرصوداً ومحسوباً أمام عيون صُنَّاع القرار الإسرائيلى وقتها ـ كما تقول به الملفات والأوراق الإسرائيلية !



٣ ملابســـــات

■ ■ إلى جانب الأسباب التى أعطت لموعد سنة ١٩٦٧ أهمية خاصة، تَواجدت مُلابسات دَفَعَت هى الأخرى ـ وكما يتضح من الملفات والأوراق ـ فى اتجاه نفس التوقيت بحيث أصبح هذا الموعد نقطة لقاء لاتجاهات كثيرة تَتَطلع كلها نحوه بأسبابها ودواعيها :

□ أولى الملابسات ومن أكثرها تاثيراً على مسار الحوادث أن الخلافات استحكمت فى إسرائيل بين القيادة السياسية التى يمثلها رئيس الوزراء «ليفى أشكول»، وبين القيادة العسكرية التى تَتَلمَذت فترة إنشاء الدولة على سَلَفه فى رئاسة الوزارة «دافيد بن جوريون»، وتلكَ علاقة رَبَطت كثيرين منهم بأستاذهم فراحوا ياتمرون بأمره رغم ابتعاده عن السُلطة، وكان الجنرال «موشى ديان» هو الأول على كافة الفصول فى هذه المدرسة، والآن أصبح هو المُحَرِّك من وراء ستار فى الضغط على رئيس الوزراء الجديد، وتطويقه بمطالب للمؤسسة العسكرية وَصلَت به مرات إلى درجة الغضب ودَفَعَتهُ فى إحداها إلى أن يطلب من زوجته «مريم» أن تُسَجِّل نقلاً عنه فى مذكراتها رسالة اعتبرها نوعاً من الوصية. وقد سَجَّلت «مريم» فى مذكراتها بالفعل عن زوجها قوله : «مريم.. سجلى أننى أول رئيس لوزراء إسرائيل أجيء إلى هذا المنصب من خارج الجيش وبعيداً عن نفوذه المباشر، وفوق ذلك فإننى أول رئيس وزراء لا يقبل أن يكون لعبة فى يَدِ العسكريين». ليلتها كان «أشكول» قد عاد مَن مكتبه مُرهَقاً وفى مزاجٍ دَفَعَه إلى أن يُفضى لزوجته بهمومه [وكانت «مريم أشكول» هى الزوجة الثانية لرئيس الوزراء، وكانت سكرتيرة لمكتبة الكنيست حين تَعَرَّف «أشكول» عليها وأحَبَّها وتَزَوَّجها (رغم فارقٍ فى السن يجعل عمره ضِعف عمرها)]. وبالفعل سَجَّلَت «مريم»، ودخلت شهادتها المسَجَّلة فى وثائق الدولة اليهودية وملفاتها وأوراقها.

لكن الخلاف بين «أشكول» وبين المؤسسة العسكرية زادَت أثقاله عندما راح الكبار من أعوانه العسكريين يختلفون أيضاً فيما بينهم حول طلباتهم من السلاح، وكذلك تقاتل الجنرالات «إسحاق رابين» (رئيس الوزراء)، و«إيزر وايزمان» (قائد الطيران)، و«حاييم بارليف» (مدير العمليات)، و«أهارون ياريف» (مدير المخابرات العسكرية)، و«إسرائيل تال» (قائد القوات المدَرَّعة). ثم بدأت الأمور تاخذ منحى خطيراً حين اتفقوا جميعاً ـ ورغم خلافاتهم ـ على طلب واحد قَدَّموه إليه وهو «نقل «مشروع مُعَيَّن» (صنع القنبلة الذرية) من رئاسة الوزارة إلى اختصاص جيش الدفاع». وعندما حاول رئيس الوزراء تذكيرهم بأنه هو نفسه وزير الدفاع، وأن المبدأ المتَّفَق عليه من الأصل هو أن يُوضَع «المشروع المعَيَّن» تحت اختصاص رئيس الوزراء، فإن الجنرالات تمسكوا برأيهم، وحُجَّتهم أن هناك فارقاً بين وضع مشروع فى مرحلة الإنشاء تحت إشراف رئاسة الوزارة لزيادة دعمه وإضفاء أكبر قدر من قوة الدفع السياسى وراءه ومن حوله ـ وبين أن يَظَلَّ هذا الإشراف وضعاً نهائياً ودائماً، لأنه وقد قارَب المشروع درجة مُحَدَّدة (أى قارَب الاكتمال) ـ فإن «هذا السلاح» لا بد له أن يأخذ مكانه مع غيره من الأسلحة. هذا مع التسليم بضرورة إبقاء استعماله مُقَيَّداً مَرهوناً بقرار سياسى. وكان رَدُّ «أشكول» أن «كل سلاح مُقَيَّد بِقرار عسكرى وليس فقط ذلك السلاح «المعَيَّن» ـ وبالتالى فهو لا يرى الآن داعياً للتغيير».

وأصرَّت المؤسسة العسكرية.

ولم يكن «أشكول» مُستَعِداً لحلِ وسط.

....

....

[وربما بدا لـ«أشكول» وموعد سنة ١٩٦٧ يطرح نفسه على الجميع ـ أن الحل الوسط النمَوذجى يكمُن فى توجيه ضربة إلى مصدر التهديد الرئيسى لإسرائيل، وحينئذ تنتهى الحاجة إلى تنازع اختصاصات الإشراف على القنبلة الذرية ـ فى الوقت الراهن على الأقل !]

....

....

□ وكان البند الثانى فى الملابسات ـ الملحَّة على موعد سنة ١٩٦٧ ـ أن التعامل الإسرائيلى مع فرنسا أصبح مُثيراً للانزعاج يوماً بعد يوم.

والسبب أن الجنرال «شارل ديجول» رئيس فرنسا لم يَعُد يخفى ضيقه بالسياستين الأمريكية والبريطانية، فالدخولِ الأمريكى فى جنوب شرق آسيا إلى الحَدِّ الذى جرى فى فيتنام كان يثير لديه شكوكاً تضاف إلى هواجسه السابقة ـ والمستمِرَّة ـ فى أن الولايات المتحدة ورثت بالفعل إمبراطورية فرنسا، ثم إن فرنسا لم تَعُد قادرة بسبب عراقيل ـ أمريكية ـ على أداء ما يُسَمِّيه الجنرال «رسالتها الحضارية» إزاء الشعوب التى ارتبطت بها سابقاً (فى شمال أفريقيا ـ وسوريا ولبنان ـ بالإضافة إلى جنوب شرق آسيا وفى قلبه فيتنام ولاوس وكمبوديا).

وفيما يتعلق بالشرق الأوسط فقد تَبَدَّى للجنرال «ديجول» أنه «إقليمٌ» آخر يهم فرنسا، لكنه يَرى الآن عملية توريثه ـ بسياسة شرق السويس ـ من الإمبراطورية البريطانية إلى الإمبراطورية الأمريكية ـ بينما باريس لا رأى لها ولا مشورة تُطلَب منها.

وزيادة على ذلك فإن «ديجول» المهتم بمشروع أوروبا الموَحَّدة ـ متمثلة فى مشروع السوق الأوروبية ـ لم يَعُد يعتبر أن بريطانيا ما زالت جزءاً من أوروبا، بل إنها هى قبل غيرِها لم تَعُد تَعتَبر نفسها كذلك، فقد تَصَرَّفت طول سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية وكأنها مُرتَكَزٌ على هذه الناحية من المحيط لأمريكا الشمالية (للولايات المتحدة).

والهاجس الذى بدأ يُؤرق ممثلى إسرائيل فى باريس «أن قصر الإليزيه (مَقَر الرئيس الفرنسى) بدأ يُوَجِّه أسئلة لوزارة الدفاع لم تكن تُسمَع من قبل، ويطلب إجابات بطريقة غير مُعتادة (حتى من شركات صُنع سلاح مثل شركة «طومسون» وشركة «داسو»)». وبدا من تصرفات قصر الرئاسة «أن الجنرال «ديجول» تساوره شكوك

للدقة فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية (طبقا للملفات) كانت واثقة من أنها تستطيع رد أى «ضربة وقائية» توجهها مصر استباقا للخطر النووى، لكن حساب التكاليف جعل «رئاسة الأركان» توصى أن تأخذ إسرائيل فى يدها زمام المبادأة وتضرب، وتختار هى التوقيت



فى أن إسرائيل تتصرف داخل «المؤسسة الفرنسية» مُعتَمِدة على مسالك تعرفها وعلى مواقع موالية لَها حتى فى جمهوريته الخامسة».

وكانت إسرائيل (وهو واضح فى الأوراق والملفات) تشعر أن «ديجول» يتصرف بتقدير أنها (إسرائيل) ملحق بالتحالف البريطانى (الخارج) من شرق السويس والأمريكى (الداخل) إليه، وقد بَدَرَت عن الجنرال إشارات يمكن تفسيرها بوجود نزعة لديه تُغريه بأن يتخذ لفرنسا سياسة مستقلة فى المشرق العربى. وعندما وَجَّه الجنرال «ديجول» دعوة خاصة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» لزيارة باريس (قام بها المشير «عبد الحكيم عامر» نيابة عنه) - فإن تقديرات وزارة الخارجية الإسرائيلية تَوَصَّلَت إلى أنه «يصعب على فرنسا أن تضع نفسها خارج التحالف الغربى الأمريكى الأوروبى مهما كانت حساسيات الجنرال «ديجول»، وأن قصارى ما يمكن أن يصل إليه الرئيس الفرنسى فى الواقع الإستراتيجى الأطلسى هو «أن يُعَبِّر بحُرِّيَّة الخطابة عما لا يقدر عليه بحُرِّيَّة الفعل»..».

لكن صانع القرار، خصوصاً إذا كان قرار الحرب والسلام - كان عليه أن يضع إشارات الجنرال «ديجول» بمقتضى ما يلمحه منها، وذلك كان يجعل تل أبيب بادية التَوَجُّس مما تُسَمِّيه الوثائق الإسرائيلية «خطر إغلاق الأبواب - أو حتى مواربتها - على ضَفَّتَى نهر السين» !

□ وكان البند الثالث ضمن الملابسات - الملحَّة على موعد سنة ١٩٦٧ - أن إسرائيل أحَست ومنذ منتصف سنة ١٩٦٥ أن هناك مناقشات جادة تدور فى الكرملين حول السياسة السوفيتية فى العالم العربى، وكان بين مَسوغات الانقلاب على الزعيم السوفيتى «نيكيتا خروشوف» فى أكتوبر ١٩٦٤ - إسرافه الزائد فيما قَدَّمَه للعرب، وقد اتُّهِمَ بأنه ربط الاتحاد السوفيتى ببرامج مساعدات اقتصادية وعسكرية ضخمة لمصر والجزائر وسوريا والعراق واليمن، ثم وَصَلَ إلى دَرَجة الهرطقة بأن أهدى وسام «بطل الاتحاد السوفيتى» فى سنة واحدة لثلاثة من الساسة العرب («بن بيللا» و«جمال عبد الناصر» و«عبد الحكيم عامر») دون استحقاق عقائدى يبرره، بل على العكس فإن الثلاثة كانوا من «القوميين» المتَعَصِّبين فى مُعاداة الشيوعية .

....

....

وكان ذلك الرأى رائجاً فى موسكو بالفعل تلك الأيام. وأتذكر مرة فى الكرملين وأثناء حوار مع وزير الخارجية السوفيتى «أندريه جروميكو» أنه قال لى دون لَفٍّ أو دَوَران :

[«هل تعرف ماذا يقولون لنا ؟

يقولون إن غرامكم الأول هو أمريكا، وعندما لم تبادلكم أمريكا الغرام واختارت غيركم فقد كنا نحن (السوفييت) «زواج» المصلحة الذى فرضته عليكم الظروف.

يقولون لنا إنكم تعتبرون أن «أمريكا» هى «الخيار المطلوب أولاً باعتبار الرغبة»، وأما نحن فإننا «الخيار الباقى باعتبار الضرورة» !

ماذا تقول فى هذا الذى نسمعه منهم ؟!]

....

....

والوثائق الإسرائيلية فصيحة فى الإبانة عن حجم ما كان مُتَوَفِّراً لإسرائيل من مصادر المعلومات فى موسكو رغم أن سفارتها هناك كانت تحت المراقبة (حتى أغلقت فى ظروف حرب سنة ١٩٦٧)، لكنه مِن الواضح أن إسرائيل كانت تُتابع بكفاءة ما يجرى فى الحِزب وفى الحكومة وإلى حَدٍّ ما فى الـ «كى. جى. بى»، وربما أن الموقع الذى ظلَّ عَصِيّاً عليها - إلى وقتٍ مُتَأخِّر - هو وزارة الدفاع ومؤسساتها.

وطوال سنة ١٩٦٥ و١٩٦٦ تبدو الوثائق الإسرائيلية وتركيزها على السياسة السوفيتية دَءوب. وفى تلك الفترة - وكما يبدو من الأوراق والملفات - فإن المخابرات الإسرائيلية كانت مأخوذة بمتابعة ما رأته خلافاً بين مدرستين فى القيادة السوفيتية الحاكمة :

● مدرسة يقودها «ليونيد بريجنيف» رئيس الحِزب، وهى بتأثير المؤسسة العسكريةَ التى يقودها «جريتشكو» ترى أن السياسة السوفيتية فى العالم العربى تُبَرِّر تكاليفها وزيادة بما تحققه من مزايا إستراتيجية واقتصادية وعسكرية ومعنوية، وهذه المزايا لا تقتصر على الشرق الأوسط وحده، لكنها منه واصلة إلى أفريقيا وإلى شبه القارة الهندية.

● ومدرسة يقودها «أليكسى كوسيجين» رئيس الوزراء (وهو فى الأصل مهندس) ترى أن السياسة السوفيتية فى الشرق الأوسط زادت تكاليفها عن كل حساب، خصوصاً أن دُوَلاً كثيرة فى «المجموعةَ الاشتراكية» - حتى فى أوروبا - أخذت تشكو من أن تُعامِل موسكو مع «الأبعد» أكثر كرماً منه مع «الأقرب».

وفى دورة اللجنة المركزية فى سبتمبر ١٩٦٦ وَقَفَ «كوسيجين» يطالب بضرورة إعادة تقييم السياسة السوفيتية فى العالم العربى على أساسٍ من الأرقام وليس على أساسٍ من الأوصاف المطاطة التى تقبل التفسيرات الواسعة للحِزب أو للجيش !

وكانت إسرائيل تحَسب أن المدرسة التى يمثلها «بريجنيف» سوف يرجح رأيها، وأن احتدام النقاش حول «دراسة الجدوى» و«حساب التكاليف» قد يفتح «نافذة فرصة» تطلق يدها لعَمَل فى الشرق الأوسط - لأن هذه النافذة قد تُغلَق فى زَمَنٍ قريب، ومن ثم يكون هناك إجماع داخِل القيادة السوفيتية على خطٍّ مُوَحَّدٍ وقد يكون مُؤيداً دون تردد للعرب.

□ وكان البند الرابع ضمن الملابسات - فى الإلحاح على موعد سنة ١٩٦٧ - أن الفترة ما بين سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٦ شهدت تَوَقُّفاً ثم تراجعاً فى مسيرة حركة التحرر الوطنى التى كانت مصر تقوم فيها بدور رئيسى وتعتبرها واحدا من مصادر طاقاتها الحيوية فى حركتها الدولية - فقد توفى «جواهر لال نهرو» وانفسح المجال لخصمه العنيد «مورارجى ديساى». وكان قنصل إسرائيل فى بومباى بالغ النشاط وزائراً لبيت «مورارجى» ومكتبه مرة ومرتين كل شهر.

(وراح هذا القنصل الإسرائيلى يُسَجِّل فى كل واحد من تقاريره إعجاب «مورارجى» بالتجربة الإسرائيلية).

وفى نفس الفترة كان «أحمد سوكارنو» مضيف مؤتمر «باندونج» الشهير يواجه شبه حصار يفرضه عليه الجيش الإندونيسى، بينما قنصلية إسرائيل فى «هونج كونج» تراقِب وتتابع عن قرب ما يجرى فى إندونيسيا.

(وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قريبة، تدير وتُوَجِّه من هونج كونج).

وكانت رياح التغيير فى أفريقيا قد عكست اتجاهها، فإذا القيادات التى قادت معركة الاستقلال الوطنى، وأولهم «باتريس لومومبا» فى الكونجو، و«قوامى أنكروما» فى غانا، و«أحمد سيكوتورى» فى غينيا، و«موديبو كيتا» فى مالى - يختفون من الساحة بالاغتيال والانقلاب، أو بالشحوب والغياب، ثم إن المخابرات الإسرائيلية كانت موجودة فى كل هذه العمليات : ظاهرة فى ظروف اغتيال «لومومبا» وظروف الانقلاب على «أنكروما» - ومن وراء الستار فى الظروف الضاغطة على «سيكوتورى» و«كيتا».

والوثائق الإسرائيلية - على الأقل ما وصل إلىَّ منها - لا تتحدث عن مشاركة إسرائيل مباشرة فى هذه العمليات الأفريقية (فيما عدا عملية اغتيال «لومومبا»)، لكن السعادة التى تعكسها الأوراق والملفات توحى بأن إسرائيل فى هذه «الأفراح» لم تكن مجرد مدعو فيها وإنما هى ضمن أصحاب الفرح !

وفى إشارة لـ«باتريس لومومبا» تشير فقرة فى مذكرة عن السياسة الإسرائيلية فى أفريقيا إلى أن «لومومبا كان يَعتَبِر «ناصر» أستاذه ومُلهِمه». ثم تقول عن «أنكروما» إنه «الرجل الذى كان صديقاً لنا ثم أقنعه «ناصر» بتغيير رأيه عندما قدم له إسرائيل بوصفها مشروعاً استيطانيا عنصرياً من نوع مشروع «الأفريكانس البيض فى جنوب أفريقيا».

وهكذا فإن دائرة من الدوائر الهامة التى تحيط بمصر بدت مع نهاية سنة ١٩٦٦ مليئة بالثغرات ومكشوفة، لكن السؤال المطروح هو : هل يترسخ هذا الوضع أو تنجح السياسة المصرية على نحوٍ ما فى تغطية مواضع الانكشاف؟!

□ وكان البند الأخير فى الملابسات - الملحَّة على موعد سنة ١٩٦٧ - هو ظهور حرَكة المقاومة الفلسطينية «فتح».

ولا يَظهَر فى الوثائق سنة ١٩٦٦ أن العمليات الصغيرة والمحدودة التى قامت بها المقاومة الفلسطينية سواء من الأردن أو من سوريا سَبَّبَت قلقاً زائداً لإسرائيل، لكن بعض الإشارات بدت مُتَحَسِّبة من تأثير هذه العمليات على منظمة التحرير الفلسطينية [التى أنشأها مؤتمر القمة العربى الأول (١٩٦٤)]، والخوف من أن العَمَل الفدائى قد يؤدى إلى «تثويرها» - وإلى جانب ذلك كان هناك التأثير المحتمل لهذه العمليات على المواطنين العرب الذين يعيشون داخل حدود دولة إسرائيل، وأخيراً - وهو الأهم فيما يبدو من كل الإشارات فى الوثائق - فإن عمليات المقاومة الفلسطينية راحت تُؤَثِّر على العلاقات بين إسرائيل وبين الملِك «حسين» ومملكته الأردنية الهاشمية.

وقد جاءت الغارة التى قام بها الجيش الإسرائيلى على قرية «السموع» الأردنية (جنوب الخليل) انتقاما من عملية فدائية محدودة لكى تكشف صعوبة المأزق الذى يَعتَرِض علاقات إسرائيل مع الملك «حسين».

وفى حالة الغارة على «السموع» (١٣ نوفمبر ١٩٦٦) فإن رئيس الوزراء «ليفى أشكول» وافق على قيام القوات الإسرائيلية

عندما وجه الجنرال «ديجول» دعوة خاصة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» لزيارة باريس فإن تقديرات وزارة الخارجية الإسرائيلية توصلت إلى أنه «يصعب على فرنسا أن تضع نفسها خارج التحالف الغربى، وأن قصارى ما يمكن أن يصل إليه الرئيس الفرنسى هو «أن يعبر بحرية الخطابة عما لا يقدر عليه بحرية الفعل»



مع الحـــــرب

الخاصة بـرَدٍّ محدود، لكن الملفات الإسرائيلية تظهره شديد الغضب مُستفَزاً عندما عَرَف بحجم العملية التى قامت بها قوات «جيش الدفاع» ضِدّ الأردن انتقاما للعملية، بل إن إحدى المذكَرات تصف مشاعر «أشكول» فى قوله قاصداً جنرالاته : «إنهم خانونى وقصدوا إحراجى وإفساد سياساتى وعلاقتى مع الملك حسين» !

ويبـدو مَلِك الأردن نفسـه مُـتَّـفِـقـاً فى التقدير مع رئيس وزراء إسرائيل، ويسَجل الملك «حسين» بصوته أمام الدكتور «آفى شلايم» أثناء لقاء بينهما فى لندن فيقول بالنص :

«إن الغارة على السموع كان لها تأثير مُدَوٍّ فى الأردن. والحقيقة أننى لم أستطع فهم التصرف الإسرائيلى فى هذا الموضوع. وعلى فرض أنه كان هناك عمل معين قام به «أحدهم» أو «جماعة منهم» (يقصد المقاومة الفلسطينية) انطلاقا من الأراضى الأردنية ـ فقد كان من الواضح للجميع أن ذلك لا يمكن أن يحدث بموافقة أو برعاية أو بتأييد منا بأى شكل من الأشكال. وبحسب تفكيرى فإنى لا أستطيع أن أفهم كيف أن ضرراً بسيطاً يلحق بقناة رَىّ أو بأنبوب ماء ـ على فرض أن ذلك حَدَث ـ يُـبَرِّر أن تتصرفوا على هذا النحو معنـا ؟ ـ وهل كان هناك أى قدر من التوازن بين العمل وبين الرَدّ عليه ؟ ـ لماذا لم تفكر إسرائيل فى الرد بطريقة أخرى ؟ ولماذا لم تُنسِّق معنا ؟ ـ لقد كان تصرفكم صدمة لى، خصوصاً وقد جاءت فى يوم عيد ميلادى، ولم يكن فى مقدورى أن أعتبرها هدية مُناسبة!».

ويَظهر فى الملفات والأوراق الإسرائيلية أن رئيس أركان الحرب الجنرال «إسحاق رابين» انزعج من الغضب الذى ظهر من رئيس الوزراء أثناء مناقشة دارت فى لجنة الأمن والدفاع. وفى محاولته للتنصُّل من المسئولية ـ فإن رئيس الأركان ألقى اللوم فى اتساع نطاق عملية «السموع» على الضابط المسئول عن تنفيذها، وقال «رابين» فى نفس الاجتماع: «إن تعليماتى كانت مُشدِّدة للوحدات التى قامت بالعملية أن تتجنب إصابة ضباط الجيش الأردنى». لكن القائد الميدانى ترك نفسه ينقاد لعواطفه وفتح نيرانه بحيث أصاب وقتل أكثر من عشرين ضابطاً وجندياً فى الجيش الأردنى غير آخرين من سكان قرية «السموع»، ثم أمَرَ قواته قبل انسحابها من القرية بتدمير أكثر من خمسين بيتاً !

وهكذا فإن التداعيات التى نشأت عن عمليات «فتح» حرَّكت عقارب الساعة خطاً أو خطين فى اتجاه موعد بدأ يعرض نفسه، ثم يطرح نفسه، ثم يَفرض نفسه على مسار الحوادث فى الشرق الأوسط.

ويلفت النظر أن سجلات مجلس الوزراء الإسرائيلى عن شهر فبراير ١٩٦٧ تبين أن «ليفى أشكول» قام بزيارة مفاعل «ديمونة» لأول مرة، واستمع مُطوّلاً إلى تقرير من مدير مشروع «رافائيل» وإلى شرح تفصيلى لإمكانيات «السلاح المعين» الذى تَحقَّق لإسرائيل. وكان انطباعه الأول، وكما سجله الدكتور «نيمان»، هو صوت صَدَرَ عنه بما يعنى انبهاره بما رأى وسمع، قائلاً : «ياه». ثم كان أول تعليق مفهوم له بعد ذلك : «لقد حققنا حلماً باهراً». ثم واصَل كلامه قائلاً : «مع أن «بن جوريون» هو صاحب الفكرة فى إقامة هذا المشروع ـ فإن المقادير شاءت أن أكون أول رئيس وزراء لإسرائيل يدير صراعاً يدخل السلاح النووى عنصراً فى خططه!». ■



٤ ألـــــــوان

■■ كانت إسرائيل مُطلَقة اليَد فى اختيار توقيتها، ولم تكن فى حاجة (طبق النظرية المعروفة للجنرال «ديان» ـ تلك التى كتبها فى مذكرة إلى رئيس الوزراء «دافيد بن جوريون» سنة ١٩٥٥ ـ إلى اصطناع الذرائع لأن العَرَب يتكفلون بصنعها دائماً)، وتكون مهمة صانع القرار الإسرائيلى فى التحضير لما يريد أن يختار فرصة من الفرص ويُحَوِّلها إلى أزمة، مُضيفاً إليها ما يستطيع أن يسوقه (ساعتها) من مضاعفات وتعقيدات، وعندما تصل الأزمة إلى حافة الهاوية، يكون الخيار مفتوحاً أمام صانع القرار الإسرائيلى وفق ما يُقَدِّر من حسابات اللحظة الأخيرة : يتراجع عن حافة الهاوية، أو يدخل ويدفع الكل إليها.

وكان العنصر الأكبر والأهم فى حسابات اللحظة الأخيرة من أيامها وحتى اليوم، هو موقف الولايات المتحدة ونوعية لون الإشارة التى تظهر فى واشنطن : حمراء تُؤخِّر السير.. ـ أو صفراء تطلب الانتظار.. ـ أو خضراء تأذن بالانطلاق !

وحتى أوائل سنة ١٩٦٧ كان الضوء من واشنطن أمام إسرائيل أحمر اللون، معناه : انتظر !

وتُظهر قراءة الوثائق الإسرائيلية نقلة نوعية بالغة الأهمية فى العلاقة بين إسرائيل وبين الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة ما بين سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٧.

وفى ظاهر الأوراق إيحاء بأن جزءاً مما طرأ على هذه العلاقات نشأ ونما فى جو من القرب جَمَع بين رَجُلين وَصَلا إلى القمة فى تل أبيب وواشنطن فى ذات التوقيت وذات المناخ، وهما «ليفى أشكول» رئيس وزراء إسرائيل، و«ليندون جونسون» رئيس الولايات المتحدة، ثم إن الظروف بينهما تشابهت، وحوارهما معاً لم يَعُد لغة مصالح وتأثيرات نافذة، وإنما زادت على الحوار نبرة دفء إنسانى، متبادل وحميم، وهو ما يَمكن تفسيره بتشابه الظروف بين الرَجُلين.

وتشابُه الظروف بين الرَجُلين أوجدته مجموعة عوامل :

ـ كلاهما جاء بعد شخصية غير عادية بلغت درجة «البطل» أو درجة «النجم». وفى حالة «أشكول» فإن «البطل» قبله كان «بن جوريون» مؤسِّس الدولة ـ وفى حالة «جونسون» فإن «النجم» قبله كان «كنيدى» الرئيس المُبَشِّر بحدود جديدة. new frontiers

ـ وخلافاً لـ«البطل» و«النجم» فقد كان الرَجُل الذى لحق بكل منهما («أشكول» و«جونسون») رَجُلاً عادياً تفاعلت مَلَكاته الكامنة مع المناخ الذى أحاط به ومع السُلطة المستجَدَّة عليه، ثم إن هذا الرَجُل العادى استطاع أن يثير فى الداخل آمالاً عملية وغير أسطورية مثل زيادة موارد المياه فى حالة إسرائيل، ومثل سياسة الضمان الاجتماعى التى قدمها «جونسون» فى برنامجه المشهور تحت شعار «المجتمع العظيم» The Great Society.

ـ ولم يكن بين الرَجُلين ذلك التنافس ـ إلى درجة التنافر ـ مما يَحدُث عادة بين «الأبطال» و«النجوم» تنازعاً على مساحات الاهتمام والضوء العام التى يحتلها كل واحد منهم ـ بل ربما كانت الحقيقة على العكس، فقد احتاج كل منهما (الرَجُل الذى لم يكن «بطلاً» والرَجُل الذى لم يكن «نجماً») للآخر : أى أن«جونسون» (احتاج إلى «أشكول») فى زيادة اعتماده على يهود أمريكا ـ وأن «أشكول» (احتاج إلى «جونسون») فى زيادة المساعدات العسكرية لإسرائيل.

ـ ومن اللافت فى التشابه بين تجربة الرَجُلين وشخصيتهما أن الناخب فى البلدين (الولايات المتحدة وإسرائيل) شجعهما بما يوحى بأن هذا الناخب فى البلدين معاً سئم عصر «البطل» و«النجم»، وفَضَّلَ ـ على الأقل فى تلك المرحلة ـ أن يعطى صوته لصالح الرَجُل العادى : «أشكول» و«جونسون». ففى انتخابات (نوفمبر) سنة ١٩٦٤ حصل «جونسون» على أغلبية لم يكن يحلم بها «كنيدى». ونفس الشىء جرى فى انتخابات إسرائيل (ديسمبر) سنة ١٩٦٥، وفيها حصل «أشكول» على أغلبية تمكن حزبه («الماباى») من الحكم بيُسْر (لأول مرة فى تاريخ إسرائيل)، فى حين أن الحزب المنشق من «الماباى» وهو حزب «رافى» الذى رعاه «بن جوريون» نفسه انكمش إلى أقلية هزيلة ـ ثم لم يلبث أن اختفى بالكامل من الساحة السياسية الإسرائيلية.

ـ وكان بين الرَجُلين وجه شبه آخر تظهره الوثائق الإسرائيلية بشدة، وهو أن كليهما وَقَعَ تحت ضغوط المؤسسة العسكرية فى بلده بما جَعَله يَجهَر بالشكوى :

«جونسون» يضغط عليه العسكريون الأمريكيون (وأولهم الجنرال «ويستمورلاند») يطلبون تدخُّلاً أوسع وأعمق فى فيتنام، بما فى ذلك ضرب فيتنام الشمالية لإسقاط نظام «هوتشى منه».

و«أشكول» يضغط عليه العسكريون (وبالذات «ديان» و«رابين» و«وايزمان») وكلهم يطلب إليه استعمال القوة بسرعة للخلاص من حركة القومية العربية كما يمثلها «ناصر».

ـ وأخيراً فقد كانت تَجمَع بين الرَجُلين نوازع إنسانية كامنة فى نفس كل منهما تلح عليه كى يثبت نفسه فى مجال السياسة الخارجية مثل سلفه سواء كان «بطلاً» أو «نجماً» («جونسون» إزاء «هوتشى منه» فى فيتنام ـ و«أشكول» إزاء «ناصر» فى مصر).

ـ ويستحق الملاحظة أن كلاً من الرَجُلين كان يعتبر نفسه فلاحاً يفهم فى الزرع، وفى الماء، وفى الأرض الصحراوية ذات التربة الرملية (تكساس لـ «جونسون»، والنقب لـ«أشكول»).

ـ ومن المفارقات أن كلا الرجلين فى تلك الفترة كان واقعاً فى غرام امرأة أصغر منه :

طبقـا للوثـــائق الإســرائيلية،
فإن «جونســون» وجــه إلى «الســادات»
تحذيرا شـديدا طلب منه نقله إلى الرئيس
«ناصــر» مــؤداه أن الوقــت قـد حــان لكى تـراجـع
الجمهـورية العربيــة مواقفهـا مـن الولايات المتحــدة
وأصــدقائها، وبينهــم الســعــوديــة
«التى ترتبـط معهــا بتــاريخ طويل
من التعــاون المثمــر للطـرفين»



«أشكول» في غرام زوجته الثانية «مريم» (هى ٣٥ سنة وهو ٦٩)، وقد نسى من أجلها زوجته الأولى ووجد السعادة معها لأول مرة فى حياته (على حَدِّ قوله).

و«جونسون» في غرام «ماتيلدا كريم» (هو ٦٥ سنة وهى ٣٤ !!) وهى نجمة مجتمع يهودية كانت بالفعل جميلة (كما يصف الذين عرفوها).

وربما كان ذلك كله صحيحاً، لكن دوره فى الغالب كان من تأثير «عامل كيميائى مساعد» catalyst.

والحقيقة أن الأوراق تُؤكد ذلك الاستنتاج. ولعل التوافق بين شخصيتى الرَجُلين فَعَلَ فعله لأن العوامل الموضوعية فى التعامل بين البلدين (الولايات المتحدة وإسرائيل) دَعَت إلى تقارب أكثر (ومن هذه العوامل الموضوعية درجات عالية من التعاطف النفسى، والتلاقى السياسى، والاتصال المؤسسى تربط إسرائيل بالولايات المتحدة) وقد دَفَعَت كلها إلى ضرورة الفعل المباشر فى توقيت مُحَدَّد بالذات إزاء هَدَف مُحَدَّد بالذات فى منطقة مُحَدَّدة بالذات : يُهَدِّد مصالح حيوية لأحدهما (البترول للولايات المتحدة)، ويُهَدِّد أمن الثانى (وهو أمن بمعنى التَفَوّق والتَوَسُّع).



٥ السادات

وفى بداية الفترة التى حدثت فيها النقلة النوعية فى العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة (توافق «أشكول» و«جونسون») بدا واضحاً من الوثائق الإسرائيلية أن الرئيس الأمريكى لم يَتَحَمَّس بعد لكى يمنح إسرائيل «حرية العمل» فى الشرق الأوسط - بما فى ذلك إدخال السلاح النووى إلى المنطقة.

وفى الملفات الإسرائيلية رسالة من «جونسون» إلى «أشكول» بتاريخ ١٩ مارس ١٩٦٤ يقول فيها ما نصه :

«إننى لست مقتنعاً بأن سعى إسرائيل إلى صُنع سلاح نووى يمكن أن يَردَع «ناصر» عن مهاجمتها. والعكس قد يكون هو الصحيح، والمعلومات المتوافرة لدينا تظهر أن «ناصر» يخشى من احتمال قيام إسرائيل بصنع سلاح نووى لأنه سوف يجد نفسه فى هذه الحالة أمام خيارين :

- الاندفاع بكل قوته فى تطوير برنامجه العسكرى.

- أو المغامرة بضربة وقائية ضد إسرائيل حتى ولو كانت يائسة.

وكلا هذين الاحتمالين مُؤثر على أمن إسرائيل. ونحن نعتقد أن سياستكم الخاصة بإبقاء «ناصر» فى الظلام بشأن خططكم سياسة هشة إذا قورنت بالمخاطر التى قد تتعرضون لها. إننا أيضاً نخشى أن يستغل «ناصر» جهودكم النووية - حتى لو طمأناه جميعاً بأن مقاصدها سلمية - فى الإضرار بإسرائيل، وتعبئة العالم العربى ضدَّ مخاطر وجودها. ولقد سبق لنا أن أخطرناه بشىء من هذا القبيل، لكن الواقع بعد ذلك قد يفرض أحكاماً أخرى».

وفى ١٥ أبريل تُظهِر الوثائق الإسرائيلية رَداً من «أشكول» إلى «جونسون» يقول فيه ما نصه : «إنك لا تستطيع أن تَتَصَوّر مدى انكشاف إسرائيل وتَعَرُّضها، فالمجال الجوى للبلد محصور، والتكدس السكانى فيه مُرَكَّز فى منطقة محدودة تجعل خطر أى هجوم مفاجئ مسألة حياة أو موت. وأريد أن أضيف - بكل أمانة - إلى ذلك أن أى تَعَهُّد بالحماية تقدمه لنا الولايات المتحدة لن يكون كافياً عندما نحتاجه. ونحن لا نمانع من أن يستنتج «ناصر» ما يريد أن يستنتجه بشأن ما نقوم بصنعه، لأن قوة الردع الكامنة فيما يمكن أن نصنعه سوف تفعل فعلها بأكثر من أى اعتبار آخر».

....

....

[كانت الولايات المتحدة الأمريكية - طبقاً للوثائق الأمريكية وليس الإسرائيلية (للحظة واحدة) - قد مشت مراحل متعددة ومُختلفة فى علاقتها مع النظام الثورى فى مصر : فى البداية وفى عصر «أيزنهاور» كانت هناك مرحلة من «الغواية». وبعد السويس، وفى أعقابها دَخَلَت الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط بمقتضى مبدأ «أيزنهاور» (يناير ١٩٥٧) - وكانت تلك مرحلة من «الاحتواء». وفى عهد «كنيدى» كانت سياسات البيت الأبيض مزيجاً من مَرحَلَتَى «الغواية» و«الاحتواء»، يمكن وصفها بمرحلة «الحصار». وعندما جاء «جونسون» كانت مرحلة «الحصار» فى أوجها لأن أسباب الخلاف بين القاهرة وواشنطن زادت وتراكمت فوق بعضها، وتَحَوَّلت إلى «قطار» واحد متحرك، وهو فى حركته يَجُر وراءه كل حمولاته : من رفض القاهرة للأحلاف العسكرية - إلى رفضها لمشروع «أيزنهاور» - إلى إقامة علاقات قوية مع الاتحاد السوفيتى، ضمنها صفقات سلاح متزايدة، إلى بناء مشروعات ذات أثر بعيد المدى (السد العالى) - ثم إلى تلك النزاعات التى تشتعل مرة وتخبو مرة بين النظام الثورى فى القاهرة ونظم تقليدية صديقة للولايات المتحدة ومُعتَمدة عليها فى الحماية - ولدى هذه النُظم مصالح بترول أصبحت مكشوفة عندما تحقق تواجد مصرى - سياسى وعسكرى - فى شبه الجزيرة العربية بعد ثورة اليمن.

ثم أخيراً - وأولاً فى الواقع ضمن هذا القطار المتحرك بكل حمولاته على خط واحد - فقد كان هناك رفض مصر عَقد اتفاقية صلح وسلام مع إسرائيل تنفتح بها منطقة الشرق الأوسط لخريطة جديدة بالكامل (أمريكية - إسرائيلية فى الواقع).

على أن «جونسون» ظلَّ حتى قرب نهاية سنة ١٩٦٦ يحاول مع مصر، ويشجعه على استمرار المحاولة - وتأجيل الضيق ونفاد الصبر (من وجهة نظر أمريكية) - مدرسة «مشرقية» لها مجموعات مؤخرة فى وزارة الخارجية ووزارة الدفاع، وحتى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (وهذه مدرسة تُخَصص لها الوثائق «الإسرائيلية» صفحات بعد صفحات مُتَوَهِّمة نفوذاً لها بأكثر من الحقيقة، وحاملة على أفرادها - كما تَتَصَوَّرهم - بأكثر مما يستحقون، ومُتَعَقِّبة لهم إلى درجة المطاردة - أحياناً بأكثر مما هو إنسانى) - وكان ملخص آراء هذه المدرسة «المشرقية» الأمريكية كما تُصَوِّره الوثائق (الأمريكية) :

١ - أن البديل لحركة القومية العربية إذا ضُرِبَت فى القاهرة واحدٌ من اثنين : إما التيار الشيوعى الموالى بالكامل لموسكو، وإما التيار الدينى الذى يحلم بخلافة جديدة تقوم على الكتاب والسيف !

٢ - أن حركة القومية العربية فى نهاية المطاف قوة تحديث فى العالم العربى، وأن العناصر التقليدية المعادية لها فى المنطقة لا تستطيع صنع «عالم عربى جديد» - بل على العكس فإنها سوف تأخذ منطقة الشرق الأوسط كلها إلى الوراء، وهذا يُحَوِّلها إلى ساحة فراغ يقبل كل الاحتمالات.

٣ - أن مشروع «ناصر» الطموح ما زال ممكناً «إغراؤه» بأن «يدعم» نفسه فى مصر «ويَكُف عن التَدَخُّل فى شئون بلاد أخرى» إذا أوفت الولايات المتحدة بوعدها لمساعدته فى عملية تحديث تُساير أحلامه وتُغَطى على «أوهامه الإمبراطورية» (فكذلك كان تَصَوُّر الولايات المتحدة لحركة القومية العربية).

وفى الواقع أن هذه المدرسة لم تتوقف عن «تذكير «جونسون» حتى قرب اللحظة الأخيرة بأن «ناصر» فى كل ما قام به كان فى موقف «رَدِّ الفعل» وليس «الفعل» - كذلك كان فى مقاومَته للاحتلال البَريطانى لبلاده، وفى تأميمه لقناة السويس، وفى التعويض عن التخلف بالفقر إلى التقدم سواء كان ذلك بالسد العالى الذى دارت حوله معركة السويس، أو ببرامج التصنيع التى تبدو مُتَخطِّيَة لقدراته أحيانا - وحتى «غزو ناصر لليَمَن !!» كما تُسَميه الوثائق الأمريكية فإن المدرسة «المشرقية» فى وزارة الخارجية اعتبرته نوعاً من «الرَدِّ على مؤامرة الانفصال بين سوريا ومصر» !

٤ - أن التدخل علناً ضِدَّ «ناصر» كفيل بأن يُحَوِّل «الشارع العربى» إلى شلال نار يهدر عَداء للولايات المتحدة، وذلك معناه أن الولايات المتحدة سوف تجعل نفسها العدو رقم (١) للأمة العربية، فى حين تتراجع إسرائيل إلى دور العدو رقم (٢)، وذلك وَضعٌ لا مصلحة فيه له، فضلاً عن أنه خطر مُحقق على المصالح الأمريكية فى المنطقة وعلى الرعايا الأمريكيين فيها، وحساب ذلك سوف يوضع عليه («جونسون») شخصياً فى حال وقوعه - بل إن التهديد الناشئ منه واصل بالتأكيد إلى المصالح الغربية ومُواطنى دول الغرب جميعاً، وذلك سوف يَستوجِب لَوْماً للولايات المتحدة حتى من أقرب أصدقائها وأخلص حلفائها.

٥ - أن مثل ذلك أيضاً سوف يؤدى للإساءة إلى صورة الولايات المتحدة فى العالم الثالث نظراً لصداقات «ناصر» القوية فى الهند وفى الصين، وبصفة عامة فى آسيا وأفريقيا - وصورة الولايات المتحدة لا تحتاج إلى تشويه زائد لأن فيتنام تكفلت بما هو كافٍ وأكثر.

....

....

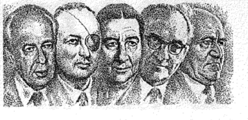
ويتوقف الآن هذا الاستشهاد (للحظة واحدة) بالوثائق الأمريكية.]

....

....

ثم تعود الوثائق الإسرائيلية (وهى موضوع هذا الحديث أصلاً) لتكشف متابعة إسرائيلية من قريب لزيارة قام بها إلى

الحقيقة أن هناك كنزا من المعلومات والأسرار عن السياسات والتقديرات والخطط الإسرائيلية موجود معظمه الآن فى المخابرات المصرية العامة، وفى المخابرات العسكرية المصرية، وكذلك أيضا فى مجموعة أوراق «جمال عبد الناصر» التى كانت فى منشية البكرى والتى نقلت إلى محفوظات قصر «عابدين»



الولايات المتحدة - رئيس مجلس الأمة المصرى «أنور السادات»، وهو عضو فى مجلس قيادة الثورة و«واحد من «أعوان» و«أصدقاء» «جمال عبد الناصر»».

وفى برنامج زيارة «أنور السادات» لواشنطن فإن الرئيس «ليندون جونسون» اجتمع به لأكثر من ساعة، ودعاه للغداء معه فى البيت الأبيض.

وطبقاً للوثائق الإسرائيلية [بالذات مجموعة ملخصات لوقائع جلسات مجلس الوزراء المصَغَّر برئاسة «أشكول» (ديسمبر):] فإن «جونسون» وَجَّه إلى «السادات» تحذيراً شديداً طلب منه نقله إلى الرئيس «ناصر» مؤداه أن الوقت قد حان لكى تُراجع الجمهورية العربية مواقفها من الولايات المتحدة وأصدقائها، وبينهم السعودية «التى ترتبط معها بتاريخ طويل من التعاون المثمر للطرفين»، و«بتعهدات أمن لا سبيل إلى التحلل منها». ثم إن مصر عليها أن تُغَيِّر سياستها تجاه إسرائيل، وأن «تكف عن إرهاق نفسها وغيرها ببرامج تسليح تؤدى إلى زيادة التوتر فى منطقة لا ينفعها غير السلام وأوله السلام بين العرب وإسرائيل»، وأخيراً فإن تعاون مصر مع الكتلة السوفيتية قد «يخدمها فى أسلحة الحرب لكنه لن يساعدها فى ضرورات السلام»، إلى جانب أن «تعاطف العرب الظاهر مع الفيتناميين يثير ضيق الشعب الأمريكى، وأن هذا الضيق هو الذى دفع به إلى «الوقف المؤقت» لشحنات مبيعات القمح الأمريكى لمصر وفق القانون «ب.ل.٤٨٠» !

ثم أضاف «جونسون» قائلاً لـ«أنور السادات» (وفق ملخصات مَحاضر مجلس الوزراء الإسرائيلى المصَغَّر) إنه «فى الفترة القادمة سوف يراقب ما يجرى فى المنطقة ويأمل أن تجد الأطراف وسيلة للتَصَرُّف بحِكمة وتَبَصُّر».

....

....

[وفيما أعرف فإن السيد «أنور السادات» قَدَّمَ بعد انتهاء رحلته تقريراً عن وقائعها (كتبه السيد محمد عبد السلام الزيات) من ست صفحات - لكنه لم يضع فى هذه الصفحات الست أى تفاصيل عن المحادثات بين «جونسون» و«أنور السادات»، مشيراً إلى أن «السيد أنور السادات سوف يَتَحَدَّث فيها مع الرئيس جمال عبد الناصر». ثم أشار التقرير إلى أن «السفير مصطفى كامل (سفير مصر فى واشنطن وقتها) حضر اللقاء وكتب محضراً بوقائعه أرسله بالشفرة إلى القاهرة».

وأذكر أننى قرأت برقية السفير «مصطفى كامل» عن وقائع اللقاء.

كما أنى - ولو لم أحضر لقاء «جمال عبد الناصر» مع «السادات» عندما عاد من رحلته - سمعت من الاثنين تفاصيل وتعليقات على المقابلة بين «السادات» و«جونسون»، ولم أشعر مما سمعت أنه كان هناك تحذير صريح، أو ما يُشبِه التحذير!] ■

....

....



٦ كنز

....

....

■ ■ إن ما أذيع من الوثائق الإسرائيلية وانفتح من الملفات والأوراق يخف، أو يجف - بشكل ملحوظ مع نهاية سنة ١٩٦٦ - والسبب أن الأكثر من وثائق وملفات وأوراق ما بعد هذا التاريخ بقى مختوماً محجوباً حتى الآن رغم انتهاء أجل السرية، وبرغم ذلك فإن عَدداً من الباحثين (وبينهم الأستاذ «مايكل بريشر») عثروا على محفوظات قَيِّمة فى مجموعات الأوراق الخاصة لعدد من السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، إلى جانب مُذكَّرات كتبها بعضهم - وشهادات بالغة الأهمية وَرَدَت فى أقوال صَدَرَت عن مسئولين كبار من وزراء وسُفراء وجنرالات، وحتى مسئولين عن الأمن فى «الموساد» و«أمان».

والحقيقة أن هناك كنزاً من المعلومات والأسرار عن السياسات والتقديرات والخطط الإسرائيلية موجود معظمه الآن فى المخابرات المصرية العامة، وفى المخابرات العسكرية المصرية، وكذلك أيضاً فى مجموعة أوراق «جمال عبد الناصر» التى كانت فى منشية البكرى والتى نُقِلَت إلى محفوظات قصر «عابدين».

وكانت الظروف التى جمعت مقتنيات هذا الكنز من المعلومات والأسرار - هى فى الواقع ظروف ما بعد وقف إطلاق النار ليلة ٩ يونيو ١٩٦٧، وعندما فوجئت إسرائيل (حكومةً وجيشاً وشعباً) بحجم الانتصار الذى تحقق «لهم» فى حرب الأيام الستة - وقد فاق غاية الخطط وتَجاوَزَ سَقف الأحلام!

كانت ردة الفِعل الأولى لدى الجميع ساسة وجنرالات، دبلوماسيين وخبراء (وقد أشرت إلى ذلك من قبل) - نوعاً من الذهول إلى درجة عدم التصديق too good to be true تعبير «رابين» نفسه. لكن هذا غير القابل للتصديق - كان أمراً واقعاً على الأرض لا بد من تصديقه بقوة الأشياء. وهكذا فإن القيادات الإسرائيلية السياسية والعسكرية كان عليها أن تقتنع بأنها قامت بعَمَلٍ عبقرى، ومن ثم فإن كل مُشارك فى النصر خصوصاً من العسكريين لا بد أن يكون معجزة بَشريَّة خارقة للعادة، وكذلك بدأ كلٌ منهم يتصرف «على هذا الأساس»، وبداية تصرفه «على هذا الأساس» أن يحكى للدنيا وللخلود ما قام به فى الحرب على طريقة «يوليوس قيصر» : «جئت ورأيت وانتصرت».

وللإنصاف فإن اللواء «حسن البدرى» (وهو وقتها المؤرخ الرسمى للجيش المصرى) - كان أول من تنبه إلى أن القادة السياسيين والعسكريين الإسرائيليين، وبتأثير النشوة التى أخَذتهُم، تركوا ألسنتهم تَتَحَرَّر من أى ضوابط وتتخلى عن أى قيود وهُم يتحدثون عن تجربة الحرب. وفى طوفان الكلام فقد أفلتت آراء وتَوَجُّهات وسياسات ووقائع وقرارات هى بطبيعتها سرية.

ولم يلتزم «حسن البدرى» بتسلسل القيادة، وإنما كتب مباشرة إلى «جمال عبد الناصر» يقترح أن تتولى المخابرات جمع كل ما قاله القادة العسكريون (والسياسيون) الإسرائيليون فى «نشوة النصر وسكرته» مكتوباً على ورق، أو منطوقاً وراء ميكروفون، أو مُصَوَّراً أمام عدسة، حتى يُوضع كله «تحت المجهر لدراسة مُعَمَّقة» يمكن منها - حسب تعبير «حسن البدرى» - استخلاص «دروس مُستفادة، وربط وقائع مُتفرِّقة، وفَهْم «سيكولوجية» الجيش الإسرائيلى (والحكومة الإسرائيلية والرأى العام بالتبعية) فى هذا الظرف الذى اعتبره «البدرى» فى مذكرته «بداية وراءها ما وراءها» (يقصد حتمية عودة مصر إلى ساحات القتال).

وكان اللواء «البدرى» مسئولاً فى نفس الوقت عن وحدة الدراسات العسكرية فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الأهرام، وكان وجوده فيها يسبب حساسية زائدة لدى عدد من القادة العسكريين، بمن فيهم القائد العَام للقوات المسلحة فى المرحلة المستجدة بعد يونيو ١٩٦٧ وهو الفريق أول «محمد فوزى». وكان ظنُّ الجميع - وهو إلى حَدٍّ ما مَنطِقى - أن وجود اللواء «البدرى» فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الأهرام معناه أن لديه خطاً واصلاً مباشرة إلى «الرئيس جمال عبد الناصر».

وقبل «جمال عبد الناصر» باقتراح «حسن البدرى»، بل وتحمس له مُقَدِّراً فائدته فى الإعداد لمرحلة جديدة من العَمَل العسكرى. وفى ظرف أسبوعين كانت كل إمكانيات الدولة المصرية فى الخارج قد استطاعت الحصول على أوراق بالأكوام، وتسجيلات بالصوت تزيد على ستمائة ساعة، وشرائط مُصَوَّرة تَزيد المدة اللازمة لعرضها على ١٣٠ ساعة، وضمنها ١١ مقابلة تلفزيونية للجنرال «موشى ديان» (وزير الدفاع الإسرائيلى)، و٨ مقابلات للجنرال «إسحاق رابين» (رئيس هيئة الأركان)، و٨ مقابلات للجنرال «موردخاى هود» (قائد الطيران)، و٦ مقابلات للجنرال «إيزر وايزمان» (مهندس الضربة الجوية، وهو يومها مدير العمليات)، و٣ مقابلات للجنرال «إسرائيل تال» (قائد المدرعات)، ومقابلتان للجنرال «حاييم بارليف» (مدير عمليات الجبهة الجنوبية)، ومقابلتان للجنرال «دافيد إليعازر» (قائد الجبهة الشمالية)، ومقابلتان للجنرال «أوزى ناركيس» (قائد الجبهة الوسطى)، ومقابلة واحدة للجنرال «جوزيف أفيدان» (رئيس عمليات الجبهة الوسطى)، وغير ذلك كثير بما فيه مقابلات مع الملاحق العسكريين الإسرائيليين فى واشنطن ولندن وباريس.

وكانت حظوظ السياسيين الإسرائيليين تحت الأضواء أقل من العسكريين، ومع ذلك فقد تكلم كثيرون منهم وأفاضوا، وبينهم «أشكول» نفسه رغم إيثاره بطبيعته للصمت، ثم كان أكثرهم

يمكن أن يقال باطمئنان شديد
أنه فى الفترة ما بين أوائل سنة ١٩٦٧ وحتى
منتصف أبريل من هذه السنة - استطاعت
إسرائيل إقناع «ليندون جونسون» بأنها قادرة،
ولديها الإرادة، وتملك الاستعداد (حسب تعبير «رابين»)
للقيام بعملية عسكرية قوية ضد مصر
تؤدى إلى إسقاط «نظام ناصر»
أو على الأقل «إسقاط هيبته»



كالعادة وزير الخارجية «آبا إيبان» - بطبيعة غرام دائم له مع الكلام .

....

[وقد لقيت هذه «المواد الوثائقية» التي وصلت إلى القاهرة مقروءة ومسموعة ومرئية اهتماما مُرَكَّزاً من «جمال عبد الناصر»، وطلب تخصيص قاعة في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة في «مدينة نصر» تكون جاهزة بالأوراق والملفات، والشاشات وآلات العرض، ثم تكون هذه القاعة مفتوحة للقادة المصريين الذين اختارهم لرئاسات الجيش وتشكيلاته المقاتلة، وهُم طلائع معركة إزالة آثار العدوان - وبالنسبة للأفلام التلفزيونية المصوَّرة خصوصاً مع العسكريين الإسرائيليين - فقد حضر بنفسه مع الفريق «محمد فوزي» القائد العام، والفريق «عبد المنعم رياض» رئيس أركان الحرب، وقرابة عشرين ضابطاً من كبار قادة القوات المسلحة المصرية - وراحوا يتابعون، ويُسَجِّل بعضهم (ومعهم «جمال عبد الناصر») ما يلفت اهتمامهم فيما يسمعون ويرون.

وأذكر أنه بعد إحدى الجلسات، وكانت الشرائط المصوَّرة ثلاثة أحاديث مُتَواصلة لـ«موشي ديان» - أن الفريق «عبد المنعم رياض» أخذني جانباً وسألني هامساً : «ما الذي يفعله «الرَّجُل الكبير» بنفسه - لماذا يُصِر على سماع ورؤية كل هذه التسجيلات والصُّوَر ؟».

وأضاف «عبد المنعم رياض» : «هذه جرعات من السم يعطيها لنفسه كل يوم - وبصرف النظر عما فيها من معلومات فإنها تحوى الكثير من المبالغات، وأيضاً الكثير من الأكاذيب».

وكان رأيي «أن التجربة مهما كان عذابها مفيدة، فإذا لم يجلس «هو» ليرى هذا كله بنفسه فإن الجميع سوف يعفون أنفسهم منه، وتلك لو سُمِحَ بها خسارة - ثم إنني أعتقد أن «جمال عبد الناصر» يستفيد كثيراً من مُلامَسة جانب آخر من الوقائع مهما كان كئيباً وغليظاً». - ولم يَظهَر على «عبد المنعم رياض» ما يشير إلى أنه اقتنع !].

....

وفي كل الأحوال فإنه إذا اعتبرت نشوة الفرح وسكرته داعية لنوع من البوح فإن هذا البوح يمكن إلى درجة ما قبوله في عداد الوثائق، وإذا أضيف إليه ما جرى الكشف عنه في مجموعات الأوراق، والمذكرات - إذن فنحن أمام إضافة يمكن قبولها مُلحَقة بالوثائق الإسرائيلية ومُكَمِّلة لها ولو مؤقتاً، وحتى تسقط المحاذير وتنكسر الأختام عن مَلَفَّات أخرى.

والشاهد أن هذه الإضافة يمكن الاعتماد عليها خصوصاً إذا ساندها أو أكدها مصدر وثائقي مُعتَمَد، مثل الوثائق الأمريكية بالتحديد !■



٧ متغيرات

■■ ويمكن أن يقال باطمئنان شديد أنه في الفترة ما بين أوائل سنة ١٩٦٧ وحتى منتصف أبريل من هذه السنة - استطاعت إسرائيل إقناع «ليندون جونسون» بأنها قادرة، ولديها الإرادة، وتملك الاستعداد able, willing, and ready (حسب تعبير «رابين») للقيام بعملية عسكرية قوية ضدَّ مصر تؤدى إلى إسقاط «نظام ناصر» أو على الأقل «إسقاط هيبته»، وأن ذلك سوف يكون في صالح الولايات المتحدة كما هو في صالح إسرائيل.

وتبدو الإشارات المتوافرة والعلامات الظاهرة من مجمل «الوثائق المؤكد والمحقق والمتاح» - أنه في تلك الشهور تمكنت إسرائيل من الرَّدِّ على تحفظات الرئيس الأمريكي القديمة (بتأثير المدرسة «المشرقية» في واشنطن) تحفظاً بعد تحفظ :

١ - أنه لا داعي للقلق من أن يكون البديل لحركة القومية العربية واحداً من اثنين (الأحزاب الشيوعية - أو الأحزاب الدينية)، فذلك قلق لا مبرر له (طبقاً لتقرير كتبه «لوك باتل» سفير الولايات المتحدة في القاهرة في فبراير ١٩٦٧) لأن «عملية الحراك الاجتماعي التي جَرَت نتيجة لعملية التنمية الشاملة في مصر - أدت إلى خلق قوى اجتماعية وسياسية موجودة الآن على الساحة، وهي قوى مُتَنَوِّرة لا تُقنعها الدعاوى الشيوعية بضرورة سيطرة البروليتاريا، ولا يكفيها في العصر الحديث أن «تُصَلِّي وتَصوم» (فتلك ناحية مُهِمَّة في حياتها، لكن حياتها في هذه الدنيا لها مطالب وشروط أخرى).

٢ - إن مخاوفه من حركة القومية العربية هذه اللحظة لا داعي لقبولها قَدَراً مَحتوماً، لأن العالم العربي تَحَوَّل في السنوات الأخيرة إلى مُعسكرات وفِرَق مُتَقاتلة فكرياً وسياسياً وحتى عسكرياً.

وبالتالي فإن الشارع العربي يعيش الآن حالة تَمَزُّق في ولاءاته تساعد عليها زيادة الثروة النفطية لدى الدول العربية التقليدية الصديقة لواشنطن، وبالتالي فإنه الآن - وليس غداً - يمكن الوثوق إلى أن موازين التأثير لا تسمح بتعبئة شعبية من الخليج إلى المحيط كما كان يَحدُث من قبل (وكان «آبا إيبان» وزير خارجية إسرائيل أكثر الشارحين «فصاحة» لهذه النقطة) .

٣ - وكانت لدى «جولدا مائير» (التي انتقلت من رئاسة الوزارة إلى رئاسة الحزب) فتوى بأن «ناصر» في «حال مواجهته لصدمة قوية» لن يجد بجانبه نظاماً عربياً يسنده، بل إن أنظمة عديدة، وبينها أنظمة تُبدى الصداقة والود حياله، سوف تكون سعيدة إذا وجدته يختفي من الساحة، أو إذا وجدته «مَسخوطاً» في حجم أصغر - على فرض أنه بقى في مكانه بعد الصدمة. ورَوَت «جولدا مائير» أنها سمعت نقلاً عن الملك «الحسن» ملك المغرب أنه «لن يذرف دمعة على «ناصر» إذا واجه مصيره المحتوم!»

(وفيما بعد نقل الجنرال «ديان» في مذكراته عن الملك «الحسن» قوله له مباشرة «إنه لم يشعر طُول عمره بتعاطف مع «جمال عبد الناصر» لأنه رجل لم يكذب على أعدائه فقط وإنما كذب على أصدقائه أيضاً !)

٤ - إن تقديره («جونسون») لـ«مشروع ناصر التحديثي» قضية تستحق إعادة المراجعة، فهذا المشروع إذا حقق أهدافه حتى داخل حدود مصر «وحدها» سوف يَتَحَوَّل بقوة الأشياء إلى «مشروع نموذج» يُحتَذَى من بقية العرب، وذلك يعيد تأثير مصر على العالم العربي ولا يُقَلِّصه، وأي شيء آخر «سراب» يتوهمه بعض «الموظفين» في وزارة الخارجية الأمريكية من بقايا موظفي شركات البترول العربية القدامى الذين فقدوا اتصالهم بآخر التطورات (وكان السفير الإسرائيلي «جدعون رافائيل» أنشط دُعاة هذه الفكرة) .

٥ - إنه حتى شركات النفط الأمريكية العاملة في المنطقة (التي كانت تخشى على مصالحها وتُراعيها) - بدأت تأخذ لنفسها منحى آخر، فقد تغيرت الظروف من زَمَن كانت هذه الشركات تحرص فيه على مشاعر الرأى العام العربي وتدعو إلى تَجَنُّب استثارته (ولو عَلَناً) - إلى زَمَن تجد فيه هذه الشركات أن النظم العربية التي مَنَحَتها امتيازات النفط تواجه - هي نفسها - من الرأى العام العربي ضغوطاً تثير هواجسَها وتدفعها أحياناً إلى التَّرَدُّد وإلى التَّشَدُّد مع الشركات - والتحريض المولِّد لهذه الضغوط قادم من القاهرة (وتظهر في الوثائق الإسرائيلية مجموعات تقارير متواصلة لشركة «جولف» وهي من كبريات الشركات الأمريكية العاملة في الخليج - تشكو من مظاهر عدائية تواجه نشاطها في المنطقة و«تُشَوِّش عليه» حتى على مستوى الدول - وبخاصة في الكويت حيث أصبحت عائلة «الصباح» تخاف من نفوذ القوميين العَرَب !) .

٦ - ثم قدم الجنرال «موشي ديان» أكثر الحجج إقناعاً لـ«ليندون جونسون» (في لحظة نفسية قاسية)، وكان عرض «ديان» لحجته الحاسمة بما معناه : «إن الجيش الإسرائيلي قادر على إلحاق هزيمة مُؤَكَّدة بالجيش المصري في الظروف الراهنة، وهذه حقيقة أقرَّها «رؤساء أركان حرب القوات الأمريكية» أنفسهم وفي حضور «روبرت ماكنمارا» وزير الدفاع في أكثر من مؤتمر مشترك (١٩٦٦ - ١٩٦٧) في إطار التنسيق الإستراتيجي بين الولايات المتحدة وإسرائيل.

وما يعرضه الجنرال «ديان» أنه «إذا تكفلت الولايات المتحدة بمنع الاتحاد السوفيتي من التدخل في مسار معركة في الشرق الأوسط بين إسرائيل وبين مصر، وهذا ممكن في رأيه، بل إنه سهل نظراً للأحوال السياسية والاقتصادية في الاتحاد السوفيتي (وأيضاً نظراً لسوء علاقات الاتحاد السوفيتي بالصين وتَوَجُّسه منها، إلى جانب كل أعباء حرب فيتنام التي تتحملها موسكو وهي فادحة) - فإن إسرائيل تستطيع حسم المعركة لصالحها بسرعة».

وبالإضافة إلى ذلك (وهنا الذروة) فإن انتصار إسرائيل المحقق سوف يؤدي بالضرورة إلى هزيمة الاتحاد السوفيتي، بمنطق أن هزيمة أصدقائه هزيمة له - وليس في مصر وحدها وإنما في كل مكان، بما في ذلك فيتنام».

وهكذا (يلوح «ديان» أخيراً) «فإن «جونسون» الذي يُزعِجه دور الاتحاد السوفيتي في جنوب شرق آسيا، لديه فرصة لضرب الاتحاد السوفيتي ذاته في الشرق الأوسط ضربة تصل موجاتها عائدة إلى فيتنام».

وكان «جونسون» يَتَحَرَّك كل يوم - وحسب ما رواه أحد مُعاونيه في مجلس الأمن القومي وهو «ويليام كوانت» - بعيداً عن منطقة الضوء الأحمر (انتظر) - مُقتَرِباً من منطقة الضوء الأصفر (استعد).■

كانت لدى «جولدا مائير» فتوى بأن «ناصر» في «حال مواجهته لصدمة قوية» لن يجد بجانبه نظاما عربيا يسنده، بل إن أنظمة عديدة، وبينها أنظمة تبدى الصداقة والود حياله، سوف تكون سعيدة إذا وجدته يختفي من الساحة، أو إذا وجدته «مسخوطا» في حجم أصغر - على فرض أنه بقى في مكانه بعد الصدمة





٨ تحـــذيـر

■■ ومما هو ظاهر فى كل «المواد الوثائقية الإسرائيلية» ـ أنه فى وقت ما ـ بين فبراير ومارس ١٩٦٧ ـ اتخذت إسرائيل قراراً بأن هذه السنة لا يجب أن تمُرَّ دون حرب مع مصر، ثم إن الولايات المتحدة عَرَفت بما تَقَرَّر، وكان قصداً مقصوداً أن تعرف به وأن تأخذ لنفسها الفرصة الكافية لتَتَقَبَّله وتُرَتِّب نفسها إزاءه.

ويَظْهَر من كل الشواهد ما يَدُل ـ بطريقة لا تَحتَمل كثرة الظنون ـ على أن هذا «القرار» الذى وَصَلَ إلى الولايات المتحدة تَسَرَّبَ وقتها أو بعدها بقليل إلى أطراف أخرى عَرَفت على نحو أو آخر أن هناك «نيَّة عَمَل كبير»، إسرائيلى مُسَلَّح ومباشر، مُوَجَّهَ إلى مصر بالذات ـ ومصر وحدها!

....

....

وكان الدليل دامغاً على أن القرار اتُّخذ، وعلى أنه وَصَلَ إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى أن أطرافاً أخرى فى المنطقة وخارجها عَرَفت به! ـ والشاهد أنه فى يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٦٧ تلقى «اللواء» عبد المنعم رياض، الذى كان رئيساً لأركان حرب القيادة العربية المُوَحَّدة رسالة من الملك «حسين» مَلك الأردن تستدعيه لمقابلته فى أَسرع وقت ممكن.

وكان «عبد المنعم رياض» قد ارتبط من خلال عمله فى القيادة العربية الموحدة بعلاقة عن قُرب مع الملك «حسين». ومع ذلك فقد بَدا ذلك الاستدعاءَ غير متوقع لأن حكومة الأردن كانت قد اتخذت قراراً بتجميد التعاون مع كل مؤسسات العمل العربى المشترك التى أنشأتها مؤتمرات القمة العربية، بما فى ذلك القيادة العربية المُوَحَّدة.

وبالطبع فإن «عبد المنعم رياض» عندما تلقى رسالة الملك عَرَضَها على رئيسه فى القيادة الموحَدة الفريق «على على عامر» ليسأله: كيف يَتَصَرَّف؟ ـ وتشاور القائد العام للقيادة العربية الموحدة مع المشير «عبد الحكيم عامر» وهو رئيسه الفعلى (بصرف النظر عن الرسميات الشكلية) ـ وتلقى «عبد المنعم رياض» إذناً بأن يقبَل دعوة المِلك ويتوجه إلى عَمَّان.

ويوم أول مايو أذاعت وكالة «رويتر» البريطانية للأنباء برقية من بيروت نصها:

«استقبل المِلك حسين اليوم الفريق عبد المنعم رياض رئيسَ أركان حرب القيادة العربية الموحدة الذى وصل اليوم فى زيارة مُفاجِئة للأردن. ولم يَعرِف أحد لماذا حضر وإلى مَتى يبقى؟ وقد أعرب المراقبون فى بيروت عن دهشتهم لهذه المقابلة لأن الملك حسين كان قد أعلن أنه لن يتعامل مع أية مَنظمة أنشأتها مؤتمرات القمة السابقة. والقيادة العربية الموحدة هى إحدى ثلاث مؤسسات أنشأتها المؤتمرات السابقة (منظمة التحرير الفلسطينية ـ هيئة تحويل روافد الأردن ـ والقيادة العربية الموحدة)».

....

....

وقد حكى لى «عبد المنعم رياض» بنفسه وقائع لقائه مع الملك «حسين»، ونشرتُه بالفعل فى كتاب «الانفجار ١٩٦٧» (صفحة ٤٣٧). ثم حَدَث بعد سنوات، وفى لقاء مع المِلك «حسين» (فى شهر فبراير ١٩٩٢ ـ وفى حضور مستشاره السياسى وقتها السيد «عدنان أبو عودة»، وهو الآن أحد مستشارى الملك «عبد الله» الثانى) ـ أن أكد لى المِلك «حسين» بنفسه رواية «عبد المنعم رياض».

وكانت تلك الرواية وبلسان «عبد المنعم رياض» على النحو التالى:

«حينما دخلت إلى مكتب المِلك واتخذت مقعدى بدعوة منه أمامه، لاحظت على الفور أنه مهمومٌ ـ أو هكذا أحسست. كان سؤاله الأول لى عن «الأحوال». وانصرف ذِهنى إلى أنه يسألنى عن الأحوال العامة. وكَان ردى «أن الأحوال تبدو لى فى منتهى الخطورة. فعدا ما يعرفه المِلك بالتفاصيل عن أوضاع العمل العربى الموحد ـ فإن الأحوال فى إسرائيل نفسها لابد أن تثير قلق كل من يهمهم أمر العالم العربى ومستقبله. فهناك أزمات بدأ ظهورها فى الاقتصاد أدت إلى زيادة عدد العاطلين فى إسرائيل. ثم إن هناك ظاهرة هجرة من يهود إسرائيل إلى مَواطِنهم الأصلية التى جاءوا منها. كما أن هناك خلافات داخلية على مستوى السياسة العليا فى إسرائيل، يتعلق بعضها بمشكلة الأمن. وهذا من شأنه أن يجعل الإسرائيليين فى حالة عصبية يحتمل معها أن يُقْدِموا على أية مغامرة».

ومرة أخرى لاحظتُ أن المِلك كان شارداً حتى عما أقول له. وسكتُ منتظراً أن أسمع منه. وكان ما سمعته مفاجئاً لى. وكان الملك فى بداية حديثه متردداً تجىء كلماته بطيئةً وكأنه يفكر فى كل كلمة يقولها وفى كل حرف. وأحسست أن ما أسمعه خطير، واستأذنت المِلك أن يسمح لى بكتابة بعض النقاط مما أسمَع حتى لا يضيع منه شىء. وسَمَحَ المِلك مع طلبه معاملة ما يقوله بأقصى درجات السَرية، وأن يكون نقله إلى شخصٍ واحدٍ فقط وهو الرئيس «جمال عبد الناصر».

وكان مُجمَل ما قاله الملك «حسين» لـ «عبد المنعم رياض» على النحو التَالى:

«إن الفريق رياض يعرف ويتابع بلا شك كل أسباب ودواعى الخلافات القائمة بينه وبين القاهرة. لكن هناك موضوعات تعلو على أى خلافات لأنها تمس الأمن القومى فى الصميم. وباختصار فإن المِلك لديه الآن ما يدعوه إلى اليقين بأن هنَاك فخاً يُدَبَّر للجمهورية العربية المتحدة وللرئيس «جمال عبد الناصر». فهناك محاولة لتوريطهم فى حرب مسلحة لا تلائمهم ظروفها. و(الحقيقة) أن «الجماعة» فى سوريا مخترقون، وبعضهم متواطئ مع جهات لديها خططها. والفكرة الأساسية فى هذه الخطط هى إشعال الموقف على الجبهة السورية بما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجدة سوريا، وهنا تصبح مصر هى الهدف الأول للمؤامرة ويجرى ضربها. وهو (المِلك) يريد أن تصل رسالته هذه إلى الرئيس «جَمال عبد الناصر» بأسرع ما يمكن، ويرجو أن يتأكد الرئيس أن دافعه إليها هو واجبه القومى وليس أى سبب آخر. وهو يتمنى أن تؤخذ رسالته جَدّاً ولا تُحمل على محمل موقفه من بعض الأطراف المعنية فى دمشق».

وحاول الفريق «عبد المنعم رياض» أن يستوضح الملك أكثر، فقد بدا له أن الملك يتحدث بمقتضَى معلومات يعرفها أكثر مَما يتحدث بوحى شكوك تراوده. ولكن المِلك لم يُبدِ أى استعداد لتجاوز ما قاله.

وتَوَجَّه الفريق «عبد المنعم رياض» من المطار عائداً من عَمَّان إلى مكتبه فى القيادة العليا الموحدة لجيوش الدول العربية، وجلس يكتب تقريراً بخط يده إلى الرئيس «جمال عبد الناصر»، ثم تَوَجَّه إلى مكتب الفريق أول «على على عامر» يستأذنه (طبقاً للتقاليد العسكرية وتسلسل مراتب القيادة) أن يتولى إرساله مُغلَقاً إلى الرئيس. وطبقاً لنفس التقاليد فإن الفريق أول «على على عامر» بعث بالخطاب إلى المشير «عبد الحكيم عامر» طالباً إرساله إلى مكتب رئيس الجمهورية (كان ذلك يوم ٥ مايو). لكنه حتى يوم ١٣ مايو لم يكن هذا الخطاب قد وصل إلى يَدِ الرئيس «جمال عبد الناصر».

....

....

[وشاءت الظروف أن ألتقى بالفريق «عبد المنعم رياض» فى قاعة المحاضرات بالأكاديمية العسكرية العليا وكنت فيها مع الماريشال «مونتجمرى» قائد معركة «العلمين» الأشهر (وقد دارت وقائعها فى صحراء مصر الغربية، وفيها بدأت هزيمة القائد الألمانى الأسطورى «روميل»).

كان «مونتجمرى» وقتها يزور مصر وفق ترتيبات خاصة شارك فيها «الأهرام» مع «الصنداى تيمس» فى مناسبة مرور ربع قرن على معركة «العلمين» (١٩٤٢). وبعد أن انتهت محاضرة قدمها ماريشال «العلمين» جاءنى الفريق «عبد المنعم رياض» («يريدنى لمسألة هامة» ـ حسب تعبيره)، وتوجهنا معاً إلى مكتبى فى «الأهرام» وهناك قال لى إنه يريد أن يتأكد أن تقريراً كتبه بخط يده للرئيس «جمال عبد الناصر» قد وصل إليه وأنه اطلع عليه لأهمية ما فيه. واتصلت تليفونياً بالرئيس أسأله إذا كان قرأ تقريراً كتبه له «عبد المنعم رياض» بخط يده. ولم يكن التقرير قد وَصَل إليه].

....

....

كان ذلك مساء ١٣ مايو ١٩٦٧. وظُهر اليوم التالى ١٤ مايو كان تقرير «عبد المنعم رياض» على مكتب الرئيس «جمال عبد الناصر»، وقرأه، وكانت عجلة الحوادث قد بدأت دورانها.

فقد كان الفريق «محمد فوزى» رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية ساعتها فى الطريق إلى دمشق يتقصى أخبار «حشود إسرائيلية» تُهَدِّد بضرب سوريا وبالزحف إلى دمشق!

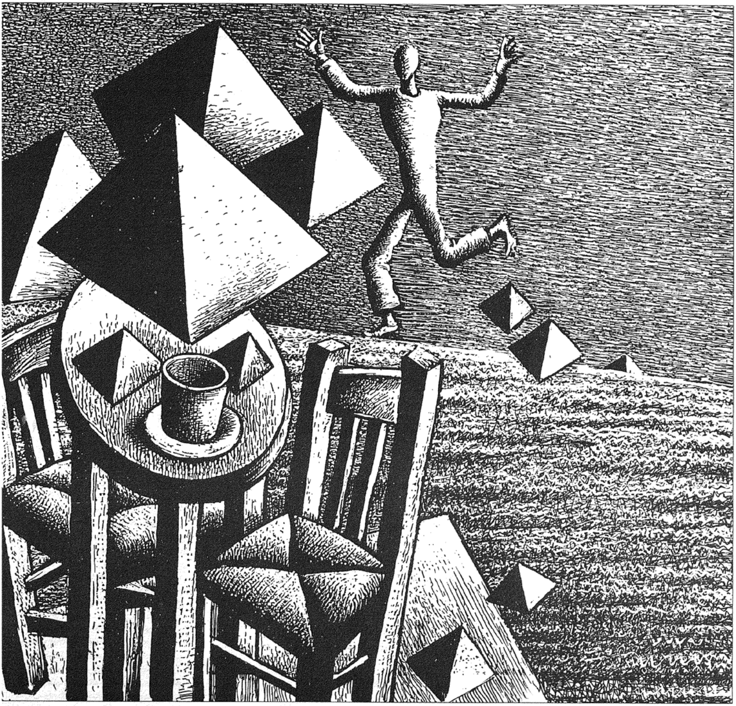
الملك «حسين» فى عمان
كان يعرف بخطة ما هو مدبر.
ولم يكن معقولا أن يكون هو وحده
الذى يعرف. والواقع أنه طبقا للوثائق
الإسرائيلية ـ فقد كان هناك آخرون غير الملك
«حسين» ـ داخل المنطقة ـ يعرفون
شكل ما هو قادم ـ
وفى الغالب نتيجته!

هكذا فإن الملك «حسين» فى عَمَّان كان يعرف بخطة مَا هو مُدَبَّر. ولم يكن معقولاً أن يكون هو وحده الذى يعرف. والواقع أنه طبقاً للوثائق الإسرائيلية ـ فقد كان هناك آخرون غير الملك «حسين» ـ داخل المنطقة ـ يعرفون شكل مَا هو قادم ـ وفى الغالب نتيجته!

كان الشرق الأوسط كله على برميل بارود، وكان اللهَب يجرى بسرعة فى الفتيل المشتعل إلى برميل البارود، وتوقيت وصوله: الساعة ٨ و١٧ دقيقة صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧. ■

هذا مقال أعرض فيه للخطط التى تدبر فى الوقت الحاضر لضبط مياه النيل بغرض إعادة توزيع أنصبتها بين دول الحوض. وهى الخطط التى يجرى إعدادها فى الوقت الحاضر تحت رعاية المؤسسات الدولية وشركات صناعة المياه العالمية بعيدًا عن الأنظار، ودون مشاركة من أحد فيما عدا قلة من الخبراء الدوليين والمحليين من ممثلى حكومات دول الحوض، يجرون أعمالهم فى سرية ودون أن يكونوا مسئولين أمام أحد. ويبدو من الأخبار التى تسربت من عديد من الاجتماعات التى جرت بهذا الشأن منذ تأسيس مجلس وزراء الموارد المائية لدول حوض النيل فى سنة ١٩٩٨، بأن هذه الخطط على وشك الاستكمال، وأنها تشمل عددًا من المشروعات التى سيتم عرضها على مجموعة من الدول المانحة التى وافقت على حضور اجتماع سيعقد بمدينة چنيف بسويسرا تحت رعاية البنك الدولى فى شهر فبراير سنة ٢٠٠١ بغرض البحث فى تمويلها تمهيدًا لإقامتها على نهر النيل.

وتثير السرعة المذهلة التى تم بها الوصول إلى هذا الاتفاق على المبادئ والمشروعات المنظمة لمياه النيل بين دول الحوض، الكثير من التساؤلات والشكوك فى الأهداف الحقيقية وراء هذه المشروعات التى جرى إعدادها فى سرية ودون مشاركة أو تغطية إعلامية، تتناسب والأبعاد التى ستأتى بها على حياة شعوب هذه الدول. ومما يزيد من مصداقية هذه التساؤلات والشكوك أن هذه المشروعات تجئ فى إطار الحملة التى يقوم بها البنك الدولى منذ سنوات لكى يجعل من المياه، والتى كانت منذ القدم حقًا طبيعيًا للبشر، سلعة من السلع شأنها شأن أى سلعة أخرى لها سعر وسوق وشركات عالمية تعمل فى الإتجار فيها. وجاء تتويج هذه الحملة وإقرار هذا المبدأ فى المؤتمر العالمى الذى نظمه البنك الدولى وعدد كبير من المؤسسات الدولية فى مدينة لاهاى بهولندة فى شهر مارس سنة ٢٠٠٠، حضره وزراء الموارد المائية لعدد كبير من الدول وما لا يقل عن ثلاثة آلاف خبير فى شئون المياه من مختلف أرجاء العالم يمثلون بلادهم والهيئات العاملة فى حقل المياه والشركات التى تتجر فيها، والتى يجئ فى مقدمتها شركة السويس ـ ليون الفرنسية (وهى من مخلفات الشركة العالمية التى كانت تدير قناة السويس منذ إنشائها فى آخر ستينيات القرن التاسع عشر وحتى تأميمها فى سنة ١٩٥٦) ـ وفى هذا المؤتمر تمت مناقشة تقرير اللجنة العالمية للمياه (World Water Commission) التى كان مقررها الدكتور إسماعيل سراج الدين نائب رئيس البنك الدولى والتى تشكلت من عشرين خبيرًا من خبراء المياه فى العالم. وأبرز تقرير هذه اللجنة وبشكل درامى الأزمة التى تعانى منها الكثير من دول العالم فى الوقت الحاضر من نقص فى إمدادات المياه العذبة فيها وهوًل منها، وحاول أن يثبت أنها ستلحق بمعظم الدول إن لم يكن اليوم فغدا حين يزيد البشر وتزداد الاحتياجات. واقترح التقرير حلاً لهذه الأزمة النظر إلى المياه كسلعة يجرى تنظيم استخدامها بواسطة القطاع الخاص الأكثر كفاءة من القطاع الحكومى أو العام، ويجرى تسعيرها حتى يتم ترشيد هذا الاستخدام، وأثار تقرير اللجنة اعتراضات كبيرة من الكثير من المشتغلين بشئون المياه والبيئة الذين كانت لهم تحفظات كثيرة على ما جاء فيه من بيانات أو نتائج. ومن الكثير من المنظمات غير الحكومية التى رأت فى التقرير أنه معد بواسطة ولصالح الشركات العملاقة متعددة



الجنسيات ممن تخطط لتوسيع أعمالها على حساب المستهلكين، وشاركت الكثير من هذه المنظمات فى احتجاجات صاخبة صاحبت المؤتمر وبنفس الطريقة التى صاحبت اجتماعات منظمة التجارة العالمية التى عقدت فى مدينة سياتل الأمريكية بعد ذلك، وعلى الرغم من هذه الاعتراضات والاحتجاجات، فقد وافق المؤتمرون من ممثلى الحكومات على التقرير وعلى مبادئه، وكانت مصر والتى مثلها وفد كبير برئاسة الدكتور محمود أبو زيد وزير الأشغال والموارد المائية من أكثر الدول حماسًا وتأييدًا لتقرير المؤتمر، وكان وزيرها أحد أهم من شاركوا فى إعداده وفى تنظيم المؤتمر وفى رئاسة جلساته، وجاءت موافقة مصر على التقرير على الرغم من أن الكثير مما جاء فيه يتعارض وما فتئت تردده على طول تاريخها من أنها ضد تسعير الماء بأى شكل من الأشكال وأنها ضد تحكير توزيع المياه لشركات القطاع الخاص.

وجاء تقرير اللجنة العالمية للمياه مؤكدًا للدور المؤثر الذى أصبحت تلعبه اليوم شركات صناعة المياه العالمية والتى توسعت أعمالها فى العقود الأخيرة بفضل تصاعد موجتى الخصخصة والاتجاه إلى العولمة وامتداد أعمال هذه الشركات إلى أسواق أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. والقارئ للتقرير الذى أصدرته هذه الصناعة (واشنطن سنة ٢٠٠٠) والذى يباع بسعر النسخة ٨٩٥ دولارًا، سيرى الحجم الكبير لهذه الصناعة التى أصبحت لها اليوم سوق بازغة، تقدر فى الوقت الحاضر بحوالى ٨٠٠ مليار دولار، ينتظر أن ترتفع إلى ضعف هذا المبلغ خلال العشرين سنة القادمة بدخول دول العالم الثالث فى سوقها. ويسيطر على هذه الصناعة فى الوقت الحاضر ما لا يزيد على خمس عشرة شركة عملاقة تقع معظمها فى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وتعمل فى توزيع المياه وبيعها وفى إدارة الخزانات وإقامة المشروعات العملاقة على الأنهار.

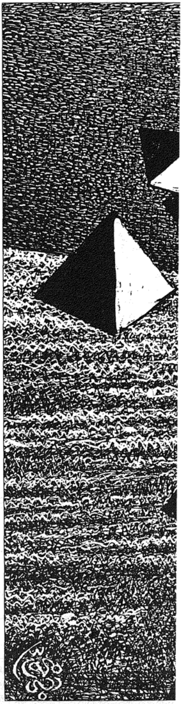
حقيقة أزمة المياه فى العالم

كان من أهم ما جاء فى تقرير اللجنة العالمية للمياه التأكيد على أزمة المياه العذبة فى العالم والتى تحيق اليوم ببعض البلاد وخاصة تلك التى تقع فى حزام الصحارى المدارية فى كل من نصفى الكرة الأرضية الشمالى والجنوبى، وأصبحت هذه الأزمة حديث الناس ووجدت تصديقًا بسبب الظروف المناخية التى حاقت بالكثير من البلاد النامية التى تزايد سكانها وفسدت أنظمة حكمها وظهرت فيها أزمة الغذاء بشكل بارز أثار عطف الناس عندما أذيعت مآسيها على شاشات التليفزيون عبر العالم.

وليس هناك من خلاف حول ما جاء فى تقرير اللجنة حول أزمة المياه فى هذه البلاد ذات المصادر المحدودة منها، ولكن الخلاف يقع فى الحل الذى اقترحه التقرير للخروج منها عن طريق ترشيد استخدامها وإيقاف التبذير فيها بإعطائها سعرًا كأى سلعة أخرى من السلع التى تنظمها قوى السوق، وهذا الحل بالإضافة إلى تعارضه مع الكثير من ثقافات وحضارات العالم فإنه لا يحل أزمة المياه، بل لعله يساهم فى تفاقمها ويزيد من متاعب مستخدميها كما حدث فى الحالة الوحيدة التى تم تطبيقه فيها وهى حالة دولة بوليڤيا، عندما صمم البنك الدولى على خصخصة مرفق المياه فى إحدى مقاطعاتها وبيعها للناس بتكلفتها مما تسبب فى رفع سعرها وإحداث قلاقل أدت إلى المصادمات الدموية والمظاهرات والإضرابات العامة.

وقد وجدت الكثير من البلاد حلولاً أخرى لأزمة المياه فيها لم تنل من تقرير اللجنة أى اهتمام. فعلى سبيل المثال، هناك الحل الذى أخذت به دول شبه الجزيرة العربية ذات المصادر المحدودة من المياه العذبة والتى وجدت فى استخدام التقنيات الحديثة لتحلية مياه البحر سبيلاً لزيادة مواردها المائية لمقابلة المتطلبات الأساسية للحياة كالاستخدام المنزلى وإدارة أقل القليل من الأنشطة التى تحتاجها أساسيات العيش وأبطلت كل تفكير فى ممارسة النشاط الزراعى الذى يستخدم الماء بوفرة، وهو الأمر الذى لم يكن صعبًا بسبب أن هذا النشاط لم يكن يمثل شيئًا مهمًا فى حياة شعوب هذه الدول على طول التاريخ، وقد حدث فى سبعينيات القرن العشرين تفكير فى بعض دول هذه المنطقة للبدء فى نشاط زراعى فيها، سرعان ما هُجر بسبب عدم جدواه وجوره على مخزون المياه الأرضية فيها. وغنى عن البيان أن الذى أتاح هذا الحل لهذه البلاد إمكانياتها المادية الكبيرة التى توافرت لها بوجود النفط بكميات هائلة، مما جعل إدخال هذه التقنيات ممكنًا ومما جعل الماء الناتج عنها متاحًا وبسعر مقبول لبعض الاستخدامات الأساسية للإنسان، وأتاح وجود البحار حول شبه الجزيرة سهولة تركيب محطات تحلية المياه بحيث تكون على بعد مقبول من التجمعات السكانية فيها.

وفى بلاد الشام (سوريا وفلسطين / إسرائيل والأردن) أزمة فى المياه العذبة يزيد من حدتها كمياتها المحدودة والتى لا يبدو أن فرص زيادتها كبيرة فى ضوء البحث العلمى الكثيف الذى أجرى على مصادرها وتزايد السكان الذين يعيشون على رقعة محدودة المساحة من الأرض، وفى هذه البلاد فإن حل هذه الأزمة يكمن فى القدرة على ترشيد استخدام المياه المتاحة، وتطوير نهج الحياة للعيش فى حدودها بالاستغناء أو بتقليل الأنشطة الكثيفة الاستخدام للمياه كالزراعة المروية التقليدية والاعتماد على التقنيات الجديدة لبناء مجتمع معلومات حديث تتولد فيه الثروة بطرق الإنتاج الإلكترونية الجديدة التى تتطلب أقل القليل من الماء. وللحق فإنى لا أرى من بين بلاد الشام من أدرك هذا الطريق غير إسرائيل التى هى فى طريقها لهجر الزراعة التقليدية والانتقال إلى مجال الإنتاج والخدمات الإلكترونية الجديدة، ويمكن للراغب فى معرفة تبعات هذا الطريق أن يراجع البحث الذى كنت قد قرأته أمام مؤتمر «أزمة المياه فى الوطن العربى» الذى نظمه مركز البحوث العربية بالقاهرة فى سنة



تساؤلات وشكوك

حول «المبادرة»

مياه النيل فى سوق التجارة العالمية

رشدى سعيد

اقترح التقرير حلاً لهذه الأزمة النظر إلى المياه كسلعة يجرى تنظيم استخدامها بواسطة القطاع الخاص الأكثر كفاءة من القطاع الحكومى أو العام، ويجرى تسعيرها حتى يتم ترشيد هذا الاستخدام، وأثار تقرير اللجنة اعتراضات كبيرة من الكثير من المشتغلين بشئون المياه والبيئة الذين كانت لهم تحفظات كثيرة على ما جاء فيه من بيانات أو نتائج

١٩٩٨، ونشر فى كراسة المركز رقم ٧، كما نشر ملخص له بمجلة الهلال فى شهر يناير سنة ١٩٩٩.

ومن التجارب التى تستحق الاهتمام فى مجال ترشيد استخدام مياه الأنهار فى البلاد التى تقع فى أحواضها، تلك التى حاولت فيها كلٌ من سوريا وأثيوبيا الاستفادة من هذه الأنهار دون اللجوء إلى بناء المشروعات الكبيرة التى تدعو إليها شركات صناعة المياه العالمية، والتى عادة ما تأتى بالمشكلات التى تصاحب بنائها، كالاقتراض والدخول فى المفاوضات المطولة مع غيرها من دول الحوض. لقد لجأت هاتان الدولتان إلى بناء السدود الصغيرة على أنهارها التى أقامها فلاحوها بأقل التكاليف ودون الحاجة إلى تدخل أحد.. وقد بدأت سوريا إقامة هذه السدود على نهر اليرموك واستطاعت أن تحصل على كميات إضافية من مياهه دون الدخول فى مجابهة مع إسرائيل التى تشاركها فيه، ولحقت بها أثيوبيا التى أقامت أكثر من مائتى سد على فروع نهر النيل التى تنبع من أراضيها استخدمت بواسطتها حوالى نصف مليار مترٍ مكعب من المياه دون أن يثير إنشاؤها إزعاجًا لأحد أو أثرًا يذكر فى انسياب مياه هذه الأنهار أو أن تمد يدها إلى أحد.. ومن قبل تسببت إقامة سد صغير على نهر فنشا - أحد فروع النيل الأزرق - بموافقة البنك الدولى فى كثير من الإزعاج على الرغم من أنه لم يستخدم إلا أقل من خمس كمية المياه التى دبرتها أثيوبيا من سدودها الصغيرة التى أقامتها دون القيام بأية مفاوضات مع أحد، وتنوى أثيوبيا إقامة مئات أخرى من هذه السدود على أنهارها.

على أن هذه التجارب الصغيرة والناجحة ليست فى جدول أعمال البنك الدولى أو كبار المقاولين أو شركات صناعة المياه العالمية، ولذا فلم يكن مستغربًا أن يجئ فى إحدى توصيات تقرير اللجنة العالمية للمياه دعوة دول أحواض الأنهار المشتركة لإقامة المشروعات على النهر الذى تقع فيه لحسن استخدام مياهه، وهى الدعوة التى تمت بعد صدورها وفى إطارها الاجتماعات المتسارعة والمحمومة لوزراء الموارد المائية لدول حوض النيل للنظر فى ضبط مياه النهر بغرض إعادة توزيعها فيما بينها والتى انتهت بموافقتهم على ما سمى بمبادرة حوض النيل، وبقبول مصر المشاركة فى هذه المبادرة تكون قد حادت عن موقفها التاريخى بعدم فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل ووافقت على ما درجت دول أعالى الحوض على المطالبة به لاعتبارات سياسية كانت تؤججها بيوت الخبرة الأجنبية وشركات المقاولات والمياه العالمية بسبب أن مصر تحصل على النصيب الأكبر من مياه النيل ولا تترك إلا القليل لغيرها من دول الحوض.

وجاء تمرير هذه المبادرة وطمأنة المصريين والمسئولين فيها على أنها لن تمس كمية المياه التى تصلهم بالإعداد لحملة بدأها وزيرَ الرى والموارد المائية المصرى بتقرير فاجأ به الناس فى شهر فبراير الماضى نشرته الجرائد فى صفحاتها الأولى وقام بعرضه على المسئولين ورئيس الجمهورية، بين فيه أن إيرادات نهر النيل هائلة لا تحصل مصر إلا على أقل من ٥٪ منها، وأنها تتبعثر فى كل مكان فى حوض النيل، وعلى الرغم من مبالغات الأرقام عن إيرادات النهر التى جاء بها التقرير، فقد كان المعنى الباطن لهذا الإعلان المفاجئ وفى هذا الوقت بالذات هو إقناع السلطات المصرية لتغيير سياستها المائية التى درجت عليها لتسمح بالمضى قدمًا فى الموافقة على مبادرة حوض النيل التى كان العمل يتقدم فيها فى ذلك الوقت تحت رعاية البنك الدولى ولقبول تنفيذ المشروعات على نهر النيل لضبط مياهه وهى المشروعات التى درجت مصر على طول تاريخها على الاعتراض عليها والنظر بعين الريبة إليها.

مبادرة حوض النيل

مبادرة حوض النيل هى المبادرة التى وافق عليها المجلس الوزارى لوزراء الموارد المائية لدول حوض النيل، والذى تأسس فى سنة ١٩٩٨ بهدف دراسة وتنمية الحوض لصالح دوله، وكون المجلس بمجرد تأسيسه آلية لتنفيذ هذا الهدف هى اللجنة الفنية الاستشارية التى ضمت خبيرًا واحدًا (زيد إلى اثنين فى اجتماع لاحق) من كل دولة من دول الحوض وسكرتارية دائمة اتخذت مقرًا لها فى مدينة عنتيبى بأوغندة عين لها سكرتير بعقد لمدة سنتين قابلة للتجديد، وقد تم الاتفاق على المبادرة ووضعت خطوطها الأولى فى اجتماع عقد بمدينة دار السلام فى شهر فبراير سنة ١٩٩٩، ووفق على صيغتها النهائية فى اجتماع تال عقد فى مدينة أديس أبابا فى شهر مايو من نفس العام، وفى هذا الاجتماع الأخير اتفقت مصر وأثيوبيا والسودان على إنشاء برنامج خاص فى الجزء الأكبر من مياهها من المرتفعات الأثيوبية.

واستهدفت مبادرة حوض النيل وضع المشروعات المشتركة التى تعالج النهر كوحدة متكاملة بما يكفل الفائدة لجميع دول الحوض ودعوة البنك الدولى لإنشاء «كونزوريتوم» من الشركات والمؤسسات الدولية العاملة فى حقل المياه لتمويل هذه المشروعات، وتواصلت اجتماعات المجلس الوزارى لوزراء الموارد المائية لدول حوض النيل على فترات متقاربة حتى وقع الثامن منها فى مدينة الخرطوم فى شهر أغسطس سنة ٢٠٠٠، ولما تمض سنتان على إنشائه، وفى خلال هذه الاجتماعات المتسارعة تم وضع المشروعات التى قاربت اليوم على الإعداد للعرض على مؤسسات التمويل الدولية التى تقرر عقد اجتماعها فى شهر فبراير سنة ٢٠٠١، وتثير السرعة المذهلة التى تم بها وضع هذه المشروعات والموافقة عليها والتى تم فيها قبول الدول المانحة والمؤسسات الدولية تمويلها دون تردد أو نقاش يذكر، الكثير من التساؤلات، فقد حدثت كل هذه الأمور فيما لا يزيد إلا قليلاً على العامين. ومما يزيد من مصداقية هذه التساؤلات التحول المفاجئ لكثير من دول الحوض التى رحبت بالمبادرة ووافقت على حضور اجتماعاتها وهى التى كان يصعب الحصول على قبولها الاشتراك فى أية مبادرة أو مشروع مشترك فى السابق.

ولم ينشر حتى اليوم أى شيء عن شكل مشروعات هذه المبادرة والتى قيل أنها ستمس تنمية الموارد الطبيعية والزراعة والطاقة والبيئة والتنمية البشرية لدول الحوض كما أنها ستشمل دراسة لأثر التغيرات المناخية المرتقبة نتيجة الارتفاع المتوقع لدرجة حرارة الجو العالمى على إيرادات نهر النيل، وتحاط تفاصيل هذه المشروعات بكتمان شديد، وهذا أمر يدعو فى حد ذاته إلى أشد القلق نظرًا لتعلق هذه المشروعات بمستقبل إمدادات مصر من المياه، وهو الأمر الذى يشكل القلب فيما يخص مصالح مصر الحيوية وأمنها القومى، ولذا فإن ترك البت فى هذا الأمر فى يد حفنة من الخبراء المعينين من قبل الحكومات وغير المسئولين أمام شعوبهم هو ما يبعث على الشك، ومهما كان شكل هذه المشروعات التى ستحتويها مبادرة حوض النيل وبغض النظر عن تفاصيلها فإن مجرد الدخول فيها يشكل تحولاً كاملاً فى سياسة مصر المائية التى درجت عليها منذ وقت طويل، وهو التحول الذى جاء دون تبرير مقبول غير ذلك الإعلان المفاجئ الذى جاء على لسان وزير الموارد المائية فى شهر فبراير الماضى، والذى أبلغنا فيه أن مياه النيل كثيرة جدًا تبرر الدخول فى مشروعات لتنظيمها لصالح جميع دول الحوض، ولم يعرض إعلان الوزير أوالنتائج المترتبة عليه للمناقشة العامة.

وتقع خطورة الدخول فى مبادرة حوض النيل والمشروعات والمخططات الناجمة عنها فى أنها جاءت من خارج دول الحوض وفى أن مصر وافقت فيها ولأول مرة على مبدأ إعادة توزيع مياه النيل بين دول الحوض وإن كانت قواعد توزيع أنصبة كل دولة حسب ما عرف مما تسرب من اجتماعات اللجان التى انبثقت عن هذه المبادرة لم يتحدد بعد بسبب اختلاف الآراء حولها وعما إذا كانت ستتحدد حسب مساحة الدولة أو حسب مساحة ذلك الجزء القابل للزراعة فيها أم حسب عدد السكان، وبدخول مصر هذه المبادرة تكون مصر قد وافقت أيضًا وبطريقة ضمنية على مبدأ اعتبار المياه سلعة تحكمها قواعد السوق واتفاقية الجاتس (Gats) لتجارة الخدمات وهو مبدأ قد تكون له تبعات خطيرة عليها كدولة مصب تصلها المياه من دول أخرى قد تجد فى هذا المبدأ أساسًا للمطالبة بثمن المياه التى تأتى منها فى مستقبل الأيام.

وبقبول هذين المبدأين تكون مصر قد حادت عن ثابتين من أهم الثوابت التى حكمت سياستها المائية عبرالتاريخ، فقد كانت مصر وحتى قبولها مبدأ إدخال مياه النيل فى سوق المياه العالمية تعتبر المياه التى تصلها حقًا وهبة من الله ليس للبشر سلطان عليها أو سلطة منعها عنها ولم يدر بخلد أحد أن يأتى يوم ينفتح فيه الكلام عن تسعير المياه التى تصلها أو التى تطلقها فى حقولها، أما عن مبدأ إعادة النظر فى توزيع مياه النيل بين دول الحوض وعلى الأخص بين دول شرق النيل، فقد تم قبوله على الرغم من أن مصر ستكون الخاسرة فيه تحت كل الظروف.

ماذا وراء إعادة فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل؟

ولا بد هنا أن نؤكد ومن البداية على أن الملف الذى نقصده هنا والذى يثير موضوع إعادة فتحه أكبر المخاوف، هو ذلك الذى يتعلق بالمياه النابعة من المرتفعات الأثيوبية، فهى محدودة وليست كتلك التى تنبع من هضبة البحيرات الاستوائية والتى يتوافر فيها ماء كثير يتبدد أكثره ويتبعثر فى منطقة السدود وأحواض نهر السوباط وبحر الغزال، وينبغى هنا ألا نخلط بين الملفين، فحياة المرتفعات الأثيوبية والتى تشكل المصدر الأساسى لإمدادات المياه لمصر وشمال السودان ليس فيها فضاء كبير يسمح بزيادتها وهى مقسمة اليوم بين مصر والسودان. وأى كلام عن إدخال أثيوبيا كشريك فيها لا بد أن يكون على حساب



كانت مصر - التى مثلها وفد كبير برئاسة الدكتور محمود أبو زيد وزير الأشغال والموارد المائية - من أكثر الدول حماسا وتأييداً لتقرير المؤتمر، وكان وزيرها أحد أهم من شاركوا فى إعداده وفى تنظيم المؤتمر وفى رئاسة جلساته، وجاءت موافقة مصر على التقرير على الرغم من أن الكثير مما جاء فيه يتعارض وما فتئت تردده على طول تاريخها من أنها ضد تسعير الماء بأى شكل من الأشكال وأنها ضد تحكير توزيع المياه لشركات القطاع الخاص

مصر أو السودان أو كلتيهما معًا، وليس هناك من طريق آخر.

وقد يقول قائل وماذا عن طريق تعويض ما سوف يؤخذ من نصيب كل من مصر والسودان من مياه المرتفعات الأثيوبية فى حال إعادة توزيعها من فائض المياه الكثيرة والمتوافرة فى أحواض هضبة البحيرات الاستوائية ما دمنا نتكلم عن تنمية حوض النهر ككل، والرد على ذلك أن هذا أمر صعب التحقيق ليس فقط بسبب التكاليف الباهظة التى سيحتاجها توفير هذا النصيب من المياه، بل بسبب صعوبة نقله عبر شريان النيل الأبيض القليل الانحدار والمحدود القدرة على حمل المياه، هذا بالإضافة إلى صعوبة حماية هذه المشروعات كما أثبتت تجربة قناة چونجلى التى شاركت مصر السودان فى إقامتها ووجداها مثيرة للنزاع، وفى الحقيقة فإن الكلام عن أية مشروعات مشتركة فى هضبة البحيرات الاستوائية هو كلام سابق للأوان ولا يمكن أن يؤخذ بأية جدية قبل تسوية عديد من النزاعات السياسية سواء فى جنوب السودان أو فى دول الهضبة نفسها.

إن السياسة المائية التى سارت عليها مصر فى معالجة موضوع توزيع مياه النيل النابعة من المرتفعات الأثيوبية وقبل أن يصبح للبنك الدولى وغيره من المؤسسات الدولية قول، هو المحافظة على نصيبها من المياه وعدم الدخول فى أية مفاوضات بشأنها إلا فى إطار يأخذ فى الاعتبار كافة المصادر الأخرى للمياه المتاحة لدول الحوض، ولم تحد مصر عن هذا الموقف مع كل دول الحوض وعلى الأخص مع أثيوبيا التى تشقها أنهار أخرى غير نهر النيل لم يتم ضبطها حتى اليوم والتى تطولها أمطار كثيرة مما يجعل مصادرها من المياه كبيرة، يمكن أن تفى باحتياجاتها دون الحاجة إلى مشاركة مصر فى مصدر مياهها الوحيد، وبالإضافة إلى ذلك فإن إقامة السدود الكبيرة على فروع النيل النابعة من أثيوبيا هى من المشروعات المشكوك فى فائدتها لأى من الدول التى ستتأثر بها فهى بالإضافة إلى النزاعات وحالة عدم الاستقرار التى ستتسبب فيها، فإن ضررها أكيد على كل دول الحوض، وهو أمر واضح وأكيد فى حالة مصر لأنها ستقلل من نصيب مصر من المياه وهى العطشى إليها، أما فى حالة أثيوبيا فإن مثل هذه المشروعات باهظة التكاليف والتى ستقام على أنهار شديدة الانحدار وسريعة الإطماء سيكون بغير جدوى ولن يكون مردودها سواء استخدمت فى توسيع رقعة الزراعة أو فى إنتاج الطاقة مبررًا لإقامتها، فلم تعد الزراعة المروية اليوم ذات عائد يمكن أن يبرر الإنفاق الكبير عليها، كما أن إنتاج الطاقة الضخم الذى سينجم عنها لن يكون اقتصاديًا بسبب أنه لن يكون لها مستخدم محلى نظرًا لأن أثيوبيا وكل البلاد المحيطة بها بلاد غير صناعية تستخدم القليل من الطاقة مما سيجعل أمر تصديرها إلى البلاد النائية بما يستتبعه ذلك من تبذير بلا فائدة تذكر، هذا بالإضافة إلى أن تصدير الطاقة هو من المكروهات لما يسببه من حرمان الأجيال المقبلة من إمكان استخدامها نظرًا لأن عقود تصديرها عادة ما تمتد إلى سنوات طويلة، وقد أثبتت التجربة العملية لأهل أثيوبيا ذاتهم عقم وضع الآمال على هذه المشروعات الكبيرة على الأنهار، فبدأوا وبسواعدهم وكما بينت فيما سبق فى بناء السدود الصغيرة عليها التى وجدوا فيها فائدة سريعة ومحققة وغير مثيرة للنزاع، فالمياه التى يستقطعونها بواسطتها ليست من الكبر بحيث تسبب خللاً مؤثرًا فى ميزان إيرادات النهر.

ولمصر تاريخ طويل وتجربة كبيرة مع دول الحوض منذ أن بدأت تتشابك علاقاتها معها حين دخلت زراعة القطن فى السودان فى عشرينيات القرن العشرين مما دعا إلى مطالبة السودان بحصة من مياه النهر الذى كان وحتى ذلك الوقت نهرًا مصريًا خالصًا تتم دراسته ووضع خطط الاستفادة منه فى القاهرة وفى وزارة الأشغال المصرية التى كان يعمل بها فى ذلك الوقت بعض من أكفأ خبراء المياه فى العالم، وعندما أدخلت زراعة القطن بالسودان احتاج أمر تزويدها بالماء إلى استقطاع جزء من المياه التى كانت تنساب إلى أرض مصر تم تحديد حجمها بعد أخذ وعطاء استمرا منذ توقيع اتفاقية سنة ١٩٢٩، وحتى سنة ١٩٥٩ عندما تم حسم الأمر بالاتفاقية التى وقعت بين مصر والسودان بمناسبة بناء السد العالى لتوزيع مياه التخزين فيه، ولم تعترف أثيوبيا بهذه الاتفاقية على الرغم من أنها لم تكن تستخدم مياه روافد النيل التى تنبع منها.

وفى ستينيات القرن العشرين رأت الولايات المتحدة استخدام ورقة مياه النيل للضغط على مصر التى كانت تنتهج فى ذلك الوقت نهجًا استقلاليًا لم تكن الولايات المتحدة راضية عنه، فأوفدت بعثة كبيرة من خبرائها لدراسة منابع النيل بأثيوبيا واقتراح المشروعات المناسبة لاستغلال مياه هذه المنابع، ولم تكن أثيوبيا فى ذلك الوقت أو فيما تلى ذلك من أوقات فى حاجة إلى بناء السدود على النيل الأزرق بغرض الزراعة، فليس حول هذا النهر أراض صالحة كثيرة، كما أن انحدار النهر الكبير واندفاع مياهه وكثرة الرواسب التى يحملها يجعل بناء السدود صعبًا والاستفادة منها فى الزراعة باهظ النفقة، ولكن الدراسة تمت لأن الغرض منها لم يكن خدمة أثيوبيا قدر ما كان توصيل رسالة إلى مصر الستينيات بأن الإضرار بها سهل وأن حياتها مرهونة بمن يحكمون منابع النيل.

وهذه الرسالة فى حد ذاتها كانت حرية بأن تبين العواقب الوخيمة التى يمكن أن تنجم من تدخل طرف من خارج النهر فى شئونه وأن تقنع صاحب القرار فى مصر على تفادى الدخول مع طرف ثالث عند الكلام مع دول النهر، وللحق فإن الباحث وراء الكثير من المشاكل التى تثار بين دول الحوض حول توزيع مياهه يجد وراءها بيوت الخبرة الأجنبية وكبار المقاولين الدوليين وشركات صناعة المياه العالمية التى تسعى لأن تفتح لها طريقًا وسوقًا فى هذه الدول البكر فترسل لها المندوبين والخبراء لتهول لها مشاكلها فى نقص المياه التى تحدث بسبب استيلاء مصر على الجزء الأكبر منها وهى المالكة لمصادره، هذه المقولة بلا أساس فأثيوبيا من أغنى البلاد الأفريقية فى المياه مما يحق معه وصفها بالنافورة، ولا تمثل روافد النيل إلا نصف مصادرها منها، أما النصف الآخر فهو فى صورة أمطار ومياه جوفية وأنهار أخرى كثيرة يصب بعضها فى البحر الأحمر وأكثرها فى المحيط الهندى ولهذه الأنهار ميزة كبرى فهى قليلة الانحدار تسهل إقامة السدود عليها وتجعل من الاستفادة من مياهها التى تذهب اليوم هدرًا إلى البحر فى الزراعة أكثر رشدًا وفائدة، هذا بالإضافة إلى أن استخدامها لن يتسبب فى خلق نزاع مع أحد، ومع ذلك فإنك لا تجد الخبراء يوجهون جهودهم لهذه الأنهار أو لتعظيم عائد الزراعة المطرية أو تلك المعتمدة على المياه الجوفية.

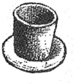
وينطبق الشيء نفسه على السودان ذى المساحات الشاسعة ومصادر المياه المتنوعة والذى تشتغل فيه النخبة الحاكمة من أهل الشمال بتنمية الجزء القاحل الذى تعيش عليه وهى ترصد الأموال وتوجه المياه وكافة مصادر الثروة إلى هذه الأرض دون اعتبار لمناطق السودان الأخرى مما يتسبب فى نشوء النزاع الذى وصل إلى حد الحرب الأهلية مع غير سكان أرض الشمال.

ليس هناك إذن من سبب يلح على أى من دول أعالى حوض النيل لخلق نزاع حول مياه النهر فلدى هذه الدول بدائل كثيرة لزيادة مياهها وتوسيع رقعة أراضيها الزراعية، ولكننا نجدها وتحت ضغط توصيات الخبراء الذين يفدون عليها سواء من الشركات العالمية أو المؤسسات الدولية والتى أصبحت اليوم تعمل فى رباط وثيق معها تتزاحم على نهر النيل وتندفع فى خلق النزاع مع جيرانها، وبقبول مصر الدخول فى مبادرة حوض النيل تكون قد سلمت بتوصيات هؤلاء الخبراء وهى التوصيات التى لن تؤدى فى محصلتها النهائية إلا للإضرار بمصالح مصر الحيوية وإذكاء النزاع بين دول الحوض، ولا عجب لذلك أن يكون من بين طاقم الخبراء الذين يوفدون لبلاد حوض النيل خبراء فيما يسمى بعلم إدارة وحل النزاع وهو علم جديد استحدثه الإسرائيليون فى سبعينيات القرن العشرين لتقنين وضبط حالة النزاع المستمر الذى تؤججه إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط وتنوى العيش فى ظله، وأغلب الظن أن هؤلاء الخبراء يتوقعون أن تحل بدول حوض النيل حالة مماثلة من النزاع المستمر.

ومما يزيد من مخاوفى مما قد تتمخض عنه مبادرة حوض النيل مسلك مجموعة الخبراء الذين يقفون وراء البنك الدولى، المحرك الأساسى لهذه المبادرة فهم مجموعة محدودة العدد، مغلقة على نفسها تدبر أمورها فى سرية ودون إعلان وهى وثيقة الصلة بمخابرات الدول الكبرى ومراكز التمويل الدولية ووسائل الإعلام العالمية ولها صلات واسعة بإدارات دراسة وصنع القرار فى جميع دول الحوض وعلى الأخص بمراكز الأبحاث فيها والتى يتم تمويل معظم بحوثها عن طريق المعونات الأجنبية التى تنفق فى معظمها على صورة مكافآت مجزية لموظفيها، ويعتبر مركز بحوث النيل فى مصر واحدًا من أكثر هذه المراكز تلقيًا للمعونات والمنح، ومما يزيد من المخاوف قلة المعلومات التى تنشر عن المبادرة والتى تجرى دون أى مشاركة وبواسطة فنيين جرى اختيارهم دون أن يعلم أحد شيئًا عن مدى خبرتهم أو ثقافتهم السياسية.

نهر النيل هو حياة مصر لا يجوز أبدًا أن يترك أمر تنميته والحفاظ عليه إلى غير أهله، ولمصر فى هذا المجال دور مهم، فهى الوحيدة من بين دول الحوض المؤهلة لتقديم مشروع جديد ومتكامل وقابل للتصديق لتنمية حوض النيل يمكن أن يجعل من النهر جسرًا للصداقة بدلاً من مصدر للنزاع بين دوله.

وقد أعطيت فى هذا المقال بعضًا من الأمثلة لما يمكن أن يحل مشاكل توزيع المياه دون الحاجة إلى تدخل أجنبى أو اللجوء إلى الاقتراض، فقد أثبتت التجربة أن للمشروعات والسدود الصغيرة أثرًا كبيرًا فى الاستفادة من مياه الأنهار، وأن حسن الاستفادة من مصادر المياه المتاحة خارج وادى النيل مما يمكن أن يقلل فرص النزاع ويزيد من إمكانيات كل بلاد الحوض. ■



بقبول مصر المشاركة فى هذه المبادرة تكون قد حادت عن موقفها التاريخى بعدم فتح ملف إعادة توزيع مياه النيل ووافقت على ما درجت دول أعالى الحوض على المطالبة به لاعتبارات سياسية كانت تؤججها بيوت الخبرة الأجنبية وشركات المقاولات والمياه العالمية بسبب أن مصر تحصل على النصيب الأكبر من مياه النيل ولا تترك إلا القليل لغيرها من دول الحوض

كتاب الزاوية

المسحراتى
من أشعار فؤاد حداد

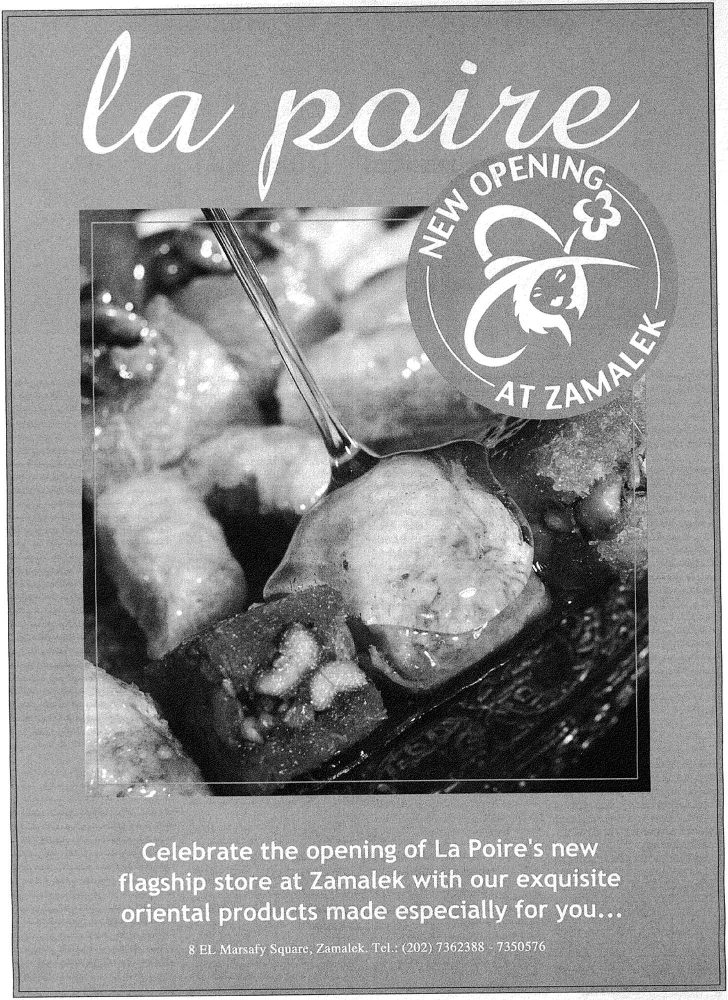
فؤاد حداد أحد شعراء العامية الكبار فى مصر، ومن الذين طوروا قصيدة العامية ونقلوها من مرحلة الزجل المباشر إلى مرحلة القصيدة.. عبّرت قصائده عن آمال قومية ورؤى حضارية جسورة، بدا ذلك واضحًا منذ ديوانه الأول «أحرار وراء القضبان» ثم فى دواوينه التالية: «حنبنى السد»، «بقوة العمال وبقوة الفلاحين»، «كلمة مصر»، «من نور الخيال فى صنع الأجيـال» وديوانه الذى نعرض لمختـارات منه «المسحراتى». توفى فؤاد حداد فى ١٩٨٥.

١ - يا هادى

إصـحى يا نـايم
وَحّـِدْ الـدايم
وقـول نـويت
بكره إن حـيـيت
الشـهـر صـايم
والفـجـر قـايم
إصـحى يا نـايم
وَحّـِدْ الـرزّاق
رمـضـان كـريم

**

مـسـحّـراتى
مـنـقّـراتى
وانـا بـانـادى
بعـلـو حـسّـى
يا دنـيـا حـسّـى
الحـق بـيّـن
ومـصـر أولى
حـقـقـنا ثورة
وقـمنا صـخرة وعـرقنا زيّن



la poire
NEW OPENING
AT ZAMALEK
Celebrate the opening of La Poire's new flagship store at Zamalek with our exquisite oriental products made especially for you...
8 EL Marsafy Square, Zamalek. Tel.: (202) 7362388 - 7350576

تحرير الإنسان العربى

عزمى بشارة

في إحدى تلك الليالي العربية التي جمعت هذه الأمّة أمام شاشات التلفاز ظهر حشدٌ من عشرات آلاف العراقيين وهو يستقبل في مطار بغداد جرحى من شبابِ وأطفالِ فلسطين قدموا للعلاج في العراق. ظهر الشعب العراقي وهو يحمل الشباب والأطفال الفلسطينيين على الأكتاف ويهتف من أجل فلسطين. جرى ذلك في عراق الحصار والظلم ونقص الأدوية والأغذية.

تفوق رمزية القضية الفلسطينية بالنسبة للعرب كل تصور، إنها القضية التي تبرِّر التظاهر في دولٍ لا يبرّر فيها الجوع التظاهر، ولا يشفع فيها الظلّم للصراخِ ضده. ولكن القضية الفلسطينية، التي تتحوّل إلى قضية إجماع قومي عندما يقرر الفلسطينيون أن يواجهوا (وفقط في هذه الحالة)، تضع الحد بين الحقِ وبين الباطل في أعينِ العرب وتشقُّ في المجتمع السياسي المتصحِّر أخدوداً تتدفق فيه كل الإحباطات وكل النقمة وكل مشاعر الظلم، مشاعر الظلم المحلي التي أُسقِطَت نحو الخارج، ومشاعر الظلم الخارجي التي أقلقت راحة الداخل. الاحتجاج العربي يؤمن بالحق الفلسطيني إلى درجة اللجوء إليه من التناقضات الداخلية وإلى درجة تجعل لغة الألم التي تُتَرجَم إليها كل الآلام، مثل لغة الصلاة العربية أو اللاتينية التي يُترجم إليها شوق العذارى وتضرعات العجائز وآمال الفقراء.

ولكن الاحتجاج لم يكن عادياً بل عاصفاً ومنتشراً يرافقه الغضب الليلي الذي تثيره الفضائيات العربية ويصلح على الأقل مؤشراً لما يجري على الساحة العربية، سواء كان ذلك بالنسبة للأنظمة العربية أو بالنسبة للسفارات الأمريكية. ولذلك كان انعقاد القمة العربية الأخيرة والزعماء يشعرون في مؤخرة رؤوسهم بنفس المتظاهرين الساخن ولهاثهم وهتافاتهم أكثر أهمية وأعظم مغزى مما تعود الناس على الاعتقاد. فالزعماء لا يحبّون الاجتماع بضغط من الجماهير.

كان اجتماع القمة تنازلا من قبل الأنظمة، وانضواء العراق تحت لوائه تنازل منها أيضاً، وتاكيد الثوابت العربية إنجاز جماهيري. ومطالبة القمة العربية بإعلان الجهاد والحرب والتعامل مع انعقادها كمؤامرة تفريغ للانتفاضة من معناها وغير ذلك من ضروب الثرثرة هي من باب تحوّل العامية السياسية العربية ذات الطابع الخرافي الشعبوي إلى بث تليفزيوني حي بواسطة الهاتف، فـ«للديموقراطية الفضائية» وجهان، وجه حرية التعبير واجتياز الحدود القطرية والتحدث بالعربية الفصحى ووجه الشعبوية والخرافية والغيبية.

تحوّلت الانتفاضة بفعل العنصر الأول إلى قضية عربية حاضرة في كل بيت وأعادت للقضية الفلسطينية أبعادها العربية، ولكن العنصر الثاني كاد يحوّلها إلى قضية دينية جعلت قضية الأقصى جوهر الصراع. ليست معركة التحرر الوطني الفلسطيني حرباً دينية ولا انتفاضة القدس والأقصى حرباً عقيدية رغم بعدها الديني ورموزها الدينية. لا يوجد في الحرب الدينية ظالم ومظلوم، ولا مستعمِر ومستعمَر، بل صراع بين حقَّين مطلقينَ لا يستطيع التمييز بينهما إلا المؤمنون بهما. ومع ذلك تكاد لا توجد حرب تحررية دون بعد ديني أو رمزي يُضاف إلى دوافع المجاهدين المقاتلين وإلى رموز الوطن والوطنية ولا يخلو الأمر حتى من بعد عقيدي في بعض الحالات وذلك عندما تصبح العقيدة من مكوّنات الهوية. لا تلغي هذه الأبعاد ويجب ألا تلغي خصوصية التحرر الوطني كتحرر من الاحتلال أو الاستعمار أو الأبارتهايد. معركة الفلسطينيين هي معركة مستعمَر بمستعمر، وقد وُلدت منظمة التحرير الفلسطينية من رحم النضال من أجل عودة اللاجئين وتحرير فلسطين في القدس الشريف عندما كان الأقصى تحت السيادة العربية الإسلامية في العام ١٩٦٤.

ليست انتفاضة الأقصى انتفاضة دينية بل انتفاضة وطنية شاملة اتخذت من الحرم القدسي الشريف رمزاً لها. والأقصى مقدّس للمتدينين وغير المتدينين كرمز وطني فلسطيني، والخلاف مع إسرائيل ليس على قدسيته للمسلمين بل على احتلاله من قبل إسرائيل، ليس الصراع بين الأقصى وحائط المبكى بل بين الشعب الفلسطيني والاحتلال، وليست الحرب بين المسلمين واليهود بما هم كذلك، وإنما بين دولة إسرائيل كدولة احتلال وبين العرب كواقعين تحت الاحتلال أو كدول وشعوب معتدى عليها، شعوب تعتبر إسرائيل عائقاً أمام تطورها.

الانتفاضة صراع بين ظالم ومظلوم، بين ضعيف وقوي. ولكن صورة المظلوم الضحية غير كافية لإثارة التضامن. فمن أجل أن يتحول التعاطف من مجرد شفقة إلى تضامن يجب أن تكون الضحية ذات سياسة فاعلة وصاحبة مشروع. هذا هو التضامن السياسي، إنه تضامن مع مشروع سياسي. الضحية الضعيفة تستدر الشفقة، ومن أجل التضامن لا يكفي أن تكون الضحية صاحبة حق، بل يجب أن تكون أيضاً صاحبة إرادة سياسية لإحقاق هذا الحق.

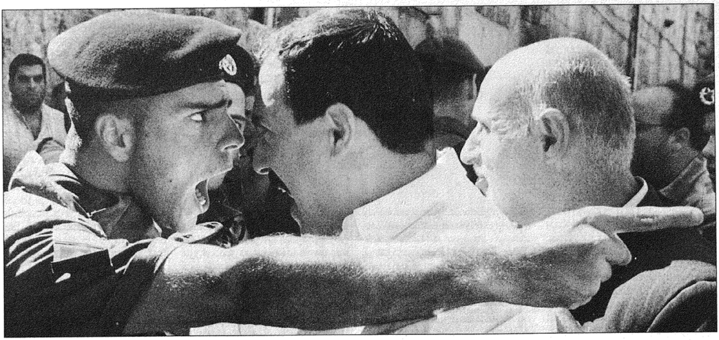
لا توجد قوات إسرائيلية داخل المدن الفلسطينية (عدا الخليل والقدس) منذ انتهاء المرحلة الانتقالية ولقد تكرّست في الأذهان أكثر مما ينبغي صورة الشبان الباحثين عن الجنود الإسرائيليين خارج المدن الفلسطينية لا من أجل مقاتلتهم بل من أجل الاستشهاد بتزويد القناصة الإسرائيليين بأهدافٍ متحركة.

كانت مسيرات الملايين في المغرب واليمن وسوريا والعراق وفلسطين وعمان واتحاد الإمارات العربية ومصر تعبيراً عن غضبٍ وسخط وتضامن. كانت هذه باختصارٍ مسيراتَ احتجاج. ووجود أو غياب مشروع سياسي عربي على المستوى المحلي في كل بلد على حدة وحده يقرِّر إذا ما كان الغضب العربي، وإذا ما كانت مسيرات الاحتجاج مجرد سيلِ عربيٍ صحراويٍ لا يكاد يروي ظمأ الأرضَ التي شقها حتَى يختفي مخلّفاً وراءه شقاً أكبر من شقوق الجفاف العادية.

انتفاضة الأقصى

انتفاضة وطنية شاملة اتخذت من الحرم القدسي الشريف رمزاً لها. والأقصى مقدّس للمتدينين وغير المتدينين، والخلاف مع إسرائيل ليس على قدسيته للمسلمين بل على احتلاله من قبل إسرائيل

لقد استشهد في انتفاضة الأقصى خلال أول أسبوعين أكثر مما استشهد خلال أربعة أشهر من الانتفاضة الأولى، وذلك ليس فقط لأن أجهزة إسرائيل الأمنية قد استنتجت ما استنتجته من استمرار الانتفاضة الأولى سنين طويلة فواجهت المظاهرات الغاضبة بنيرانها الغزيرة إلى درجة التعامل معها كأنها خصم مسلح يمثّل مباشرةً الكيان الفلسطيني الناشيء، وإنما أيضا لأن الشباب الفلسطينيين قد خرجوا للمواجهة بصدور مشرعة. كان هذا النمط من النضال صالحاً في المواجهات مع الجنود الإسرائيليين داخل المدن التي سرعان ما كانت تتحول إلى ملاحقات بين الأزقة، على الأقل في السنة الأولى للانتفاضة الأولى عندما كان المجتمع الفلسطيني بأسره في مواجهة مع الاحتلال



بأشكال مختلفة ما لبثت أن تحوّلت إلى تنظيم خلايا مسلحة.

هذه المرة انطلقت مظاهرات الاحتجاج الشبابية لملاقاة الجنود خارج التجمعات السكنية مقدمة للجنود الإسرائيليين دون أن يتحركوا من مواقعهم أهدافاً للقنص. ولأن الكيان الفلسطيني الوليد قائم وحي يرزق بأربعين ألف شرطي فلسطيني مسلح فإن معنى تنظيم الخلايا المسلحة هو مبادرة إسرائيل لتحويل المواجهة إلى ما يشبه الحرب غير المتكافئة والتي يصعب تحويلها إلى حرب عصابات دون عمق عربي تلجأ إليه. فإسرائيل تحيط المناطق الفلسطينية من جميع الجهات كما أنها قادرة على محاصرة كل مدينة وقرية فلسطينية على حدة، وسوف يكون من الصعب جرها لمعاودة احتلال التجمعات السكنية الفلسطينية لتعود المواجهة المسلحة وغير المسلحة المباشرة ضد من يحكم المجتمع الفلسطيني مباشرة.

استراتيجية الانتفاضة غير واضحة إذاً، ويصعب تحويل التعاطف العربي الحقيقي إلى تضامن سياسي فعال مع ما يبدو كاستمرار للمواجهات على نقاط التماس مع إسرائيل كما كان الحال في كل أزمة تفاوضية في الأعوام الأخيرة مع الفرق أنها على نطاق أوسع وأشمل، ولكن التفاوض هذه المرة يدور حول الحل الدائم والعناصر الأساسية المكونة للقضية الفلسطينية.

لا يقارب التحرك الجماهيري العربي ولا يشبه باتساعه وصدقه وحماسه إلا التحرك العربي عام ٥٦ تضامناً مع مصر. ولكن في حينه لم يكن التضامن مع ضحية عدوان فحسب بل مع مشروع وطني قومي بدا مبشراً بالخير وبالنصر وبالكرامة، وربما أيضاً مع نموذج يبشر بحياة أفضل في كافة أرجاء الوطن العربي. هل كان هذا الإيمان الحقيقي وهماً؟ ربما، ولكنه غير متوافر حالياً. لا يوجد إيمان بمشروع لأنه لا يوجد مشروع. وما يعوض عن غياب المشروع هو رمزية ومركزية القضية الفلسطينية والقدس والأقصى التي حولت محمد الدرة إلى شهيد ليس ككل الشهداء. لقد استثارت الانتفاضة الجماهير العربية بفضل البعد القومي للقضية الفلسطينية، ولكن الانتفاضة ليست تعبيراً عن مشروع قومي فهل هي تعبير عن مشروع وطني فلسطيني على الأقل؟

انتفاضة الأقصى والقمع الإسرائيلي الدموي هي استمرار للصراع الذي دار في مفاوضات كامب ديفيد بوسائل أخرى. لقد انتهت المرحلة الانتقالية من مفاوضات أوسلو دون أن يتوصل «الطرفان» إلى اتفاق حول المبادئ التي يجب أن يصاغ على أساسها الحل الدائم للقضية الفلسطينية، وذلك كتسوية تاريخية «بين الطرفين». ولقد حدد اتفاق أوسلو في حينه قضايا الحل الدائم بالعناصر التالية: اللاجئين، السيادة، الحدود، القدس، الاستيطان.

ولكن اتفاق أوسلو حدد الأسئلة ولم يجد الأجوبة. وتجربة الثماني سنوات الانتقالية التي كان من المفترض أن تبني الثقة بين الطرفين أدت في الواقع إلى العكس. فقد حاول الطرف الإسرائيلي أن يستغلها لتحويل وجهة نظره حول الحل الدائم إلى وقائع على الأرض، وتحولت الإجابات الإسرائيلية حول مسائل الحل الدائم بالتدريج إلى قضايا إجماع صهيوني تجلت في برنامج باراك الانتخابي الذي لم يأخذه العرب بالجدية الكافية إذ كانوا مشغولين بالاحتفال بهزيمة نتانياهو.

وقد قلنا وكتبنا في حينه أن باراك ونتانياهو يمثلان وجهتي نظر متقاربتين بالنسبة لعدم جدوى «التنازلات» الإسرائيلية في المرحلة الانتقالية، أي دون التزام فلسطيني بوجهة الحل الدائم. وهذا يعني أن نتانياهو وباراك لم يرغبا بتطبيق أي التزامات لها علاقة بالانسحاب وإعادة الانتشار أو إطلاق سراح السجناء «مجاناً» في إطار المرحلة الانتقالية ودون تنازلات فلسطينية فيما يتعلق بالحل الدائم. وقد حاول نتانياهو عرقلة «إعادات الانتشار»، الأمر الذي أدى إلى أزمات متوالية وإلى ضغط دولي ومحلي إسرائيلي عليه، أجبره على تنفيذ بعض منها في اتفاقيات «واي». ولكن باراك الذي يشارك نتانياهو وجهة النظر هذه لم ينفذ أي إعادة انتشار سوى ما التزم بها نتانياهو. مع الفارق أنه لم يوجه لباراك أي ضغط دولي ولا محلي، بل على العكس فالضغط المحلي الموجه لباراك يأتي من اليمين. لقد اضطر نتانياهو إلى تجميد البناء في مستوطنة جبل أبو غنيم جنوبي القدس تحت ضغط دولي ومحلي إسرائيلي وفلسطيني، ولكن باراك عاود البناء. ويتم حالياً تسويق شقق هذه المستوطنة للبيع دون ضجة تذكر.

النقاش بين شقي المجتمع الإسرائيلي الأساسيين لا يحتدم حول التزامات المرحلة الانتقالية إذاً، وكان هذا موضوع التظاهرات السابقة على نقاط التماس طيلة الأعوام الماضية، كما أنه لا يدور حول مبادئ الحل الدائم، وإنما يدور النقاش حول الحل الدائم ذاته تحت سقف هذه المبادئ. أي إذا اتفق الليكود وحزب العمل على أنه لن تكون عودة للاجئين الفلسطينيين إلى حدود عام ١٩٤٨، وأنه لا انسحاب إلى حدود الرابع من حزيران ٦٧، وأن القدس الشرقية لن تكون تحت السيادة الفلسطينية وأن غالبية المستوطنين باقية تحت السيادة الإسرائيلية، يبقى الخلاف على مساحة الدولة الفلسطينية ونوع صلاحياتها وطبيعة علاقتها بإسرائيل وبالدول العربية المحيطة. ولا شك أن النقاش على حجم ومساحة الدولة ومدى ممارستها لسيادتها على الحدود هو النقاش الأكثر أهمية. وضمن هذا النقاش ذهب باراك بعيداً إلى درجة طرح سيادة فلسطينية على أحياء عربية في القدس وإلى توسيع مساحة الكيان الفلسطيني مع بقاء ٨٠٪ من المستوطنين تحت السيادة الإسرائيلية على مساحة لم تحدد بعد من الأرض تتراوح بين ٨ ـ ١٥٪ من أرض الضفة (دون القدس)، وبقاء مساحات أخرى تحت سيطرة أمنية إسرائيلية خاصة في الأغوار.

لم يطرح باراك هذه الأفكار في كامب ديفيد بل طرحتها الولايات المتحدة التي تفاهمت مع إسرائيل قبل طرحها، أي أن أمريكا في كامب ديفيد فاوضت لأول مرة باسم إسرائيل. ولم ترغب إسرائيل بالالتزام بهذه الأفكار قبل أن تسمع الرد الفلسطيني عليها كاقتراحات أمريكية أولاً.

هكذا اعتقد باراك ومعه ائتلافه الحاكم أن هذه الأفكار التي كلفت فك الائتلاف الحاكم وانسحاب وزير الخارجية وكتلة المهاجرين الروس منه سوف تلقى قبولاً إن لم يكن ترحيباً لدى القيادة الفلسطينية. لأن الحسابات التي يجب أن تتم من وجهة النظر الفلسطينية برأيهم هي حسابات منطق عملية السلام ذاتها، أي حسابات موازين القوى المحلية والإقليمية والعالمية.

وبموجب هذا المنطق يحسب «الفلسطيني المُفتَرَض» إسرائيلياً ما يلي: (١) لا يمكن تحصيل ما هو أفضل من هذه الاقتراحات ضمن الخارطة السياسية الإسرائيلية القائمة؛ (٢) لا يمكن تحصيل ما هو أفضل منها ضمن الخارطة الأمريكية القائمة؛ (٣) قوى التسوية العربية أكبر وزناً وأهمية من القوى المعادية للتسوية، والقوى العربية المؤيدة للتسوية (مصر والأردن) تقبل هذا المنطق وتفهمه، بل وتدفع من أجل قبوله. وفعلاً لم تبذل أي دولة عربية مؤيدة أو معارضة للتسوية جهداً يذكر لإثناء الفلسطينيين عن قبول هذه الاقتراحات في كامب ديفيد، وسادت حالة انتظار عربية أن يوقع ياسر عرفات، أو حالة تكهن في أفضل الحالات ودون محاولات جدية للتأثير على القرار.

ولكن مشكلة الإسرائيليين أنهم يفاوضون «فلسطينياً مفترضاً»، تماماً كما حاولوا مفاوضة سورياً مفترضاً طيلة العام المنصرم. ومقابل اليمين الإسرائيلي يشعر اليسار أنه أكثر أهلية لافتراض نوايا ودوافع الطرف الآخر ضمن عملية التسوية. يفترض اليمين أن العرب هم خصم لا يمكن أن يسلم بوجود إسرائيل وبالتالي فإن التسويات تفرض عليهم فرضاً، بغض النظر عن النوايا، أما اليسار الصهيوني فيفترض تاريخياً أنه قادر على إقناع الشعوب العربية بوجاهة منطقه. والمشكلة برأيه تكمن دائماً عند «الزعماء المتطرفين» أو «المتخلفين» الذي يستخدمون القضية الفلسطينية كوسيلة لتقوية نفوذهم بصرف أنظار شعوبهم عن مآسيها الداخلية وعن تخلف ممارسات الأنظمة والزعامات.

وعلى أية حال فقد افترض باراك أن سوريا سوف تقبل ما يعرضه عليها، أي الجولان بأكمله ما عدا الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة طبريا. هكذا وضع باراك خيارين أمام السوريين، إما قبول ما يقترح أو الانسحاب من لبنان من طرف واحد. وقد بلغت صورة السوري بأعين الإسرائيليين من اتساع الانتشار وعمق القناعة أن بعض العرب صدقوا أن المقاومة اللبنانية ليست بنظر السوريين إلا ورقة تفاوضية في الجولان. وثارت شائعات لم يعتذر عنها أحد لسوريا، إن سوريا عملياً قد اتفقت مع إسرائيل وما على الفلسطينيين إلا المسارعة بدورهم لقبول ما يطرحه باراك.

وانتهت الأمور كما انتهت. لم تغير سوريا موقفها بشأن ضرورة انسحاب إسرائيل إلى حدود الرابع من حزيران وانسحبت إسرائيل من طرف واحد من لبنان.

وهنا فى هذه الحالة بالذات يظهر أن المفاهيم الإسرائيلية والعربية فى الصراع يأتيان من سياقين مختلفين لا علاقة بينهما. فقد تصور باراك أن انسحابه من لبنان من طرف واحد يشكل ضغطاً على العرب، كما اعتقد مخطئاً أن الانسحاب من طرف واحد يشكل انتصاراً لإسرائيل لمجرد أنه قطع وعداً للناخبين الإسرائيليين والتزم به.

ولكن فى ذلك العالم الآخر الذى لم يلجه باراك إلا مقاتلاً، بل قل قاتلاً، بدا الانسحاب الإسرائيلى من طرف واحد كهزيمة مادية، وكهزيمة معنوية تبلغ قيمتها أضعاف تلك المادية. وقد ثبت بدرجة عالية من اليقين أن انتصار المقاومة اللبنانية المعبر عنه باضطرار إسرائيل إلى الانسحاب دون اتفاقيات كان عاملاً أساسياً فى نشوء الحالة العربية الشعبية التى نراها، وفى تصليب الموقف التفاوضى الفلسطينى وفى رفع معنويات الشعب الفلسطينى الكفاحية. كان باراك قادراً لو تفاوض مع السوريين واللبنانيين الحقيقيين إلى الخروج باتفاقيات سلام مع سوريا ولبنان، ولكنه تفاوض مع بشر من صنع خياله وليس مع العرب الفعليين. وهذا هو الفرق بين السياسى فى المفاوضات والقائد العسكرى فى الحرب. القائد العسكرى يفترض نوايا الطرف الآخر ويضع خططه وبرامجه بناءً على تقدير لنوايا وخطط الطرف الآخر. ولكن المفاوض السياسى يستطيع أن يحاور الطرف الآخر والتشكيك بنواياه ويتعرف عليه. لقد أصر باراك أن يتصرف فى المفاوضات كقائد عسكرى. وتتكرر هذه الحالة فلسطينياً مع فارق واحد: أن بعض الفلسطينيين فى القنوات المتعددة التى فتحت مع الإسرائيليين أثناء التفاوض جعلوا الطرف الإسرائيلى يعتقد أن اقتراحاته مقبولة، وكان هؤلاء مشغولين فى عملية تنافس فلسطينى داخلى على الزعامة. ومن مقومات الزعامة الأساسية فى حقبة أوسلو اكتساب القبول الإسرائيلى الأمريكى. وفى الحالة الفلسطينية يضيع الفرق بين موظف الخارجية الذى يفاوض وبين السياسى، وتتحول القنوات المختلفة للتفاوض إلى علاقات متشعبة لنخب سياسية فلسطينية متنافسة على ود أمريكا وإسرائيل. ويبدو أنه حتى النخب الفلسطينية المتنافسة فى قنوات تفاوضية متنافسة، لم تدرك حتى لقاء كامب ديفيد حقيقة موقف صانع القرار الفلسطينى، ومدى قدرته على الصمود أمام الضغوطات الأمريكية والإسرائيلية. وحتى هذه اللحظة ورغم تفجر الانتفاضة الشعبية لا يستطيع أحد أن يفصل بيقين حقيقة الموقف الرسمى الفلسطينى، خاصة فيما يتعلق بالحدود والمستوطنات واللاجئين.

هل أصر الطرف الفلسطينى المفاوض على موضوع القدس لأنه اختلف عليه وحده ووافق على كافة الأفكار الأمريكية ـ الإسرائيلية الأخرى، أم أنه تمترس خلف هذا الموضوع ذى الأبعاد والمعانى الرمزية من أجل إفشال كافة الأفكار الأخرى؟! ما زالت الإجابة عن هذا السؤال ضرورية لأنها تحدد كيفية استخدام رصيد الانتفاضة النضالى.

مطالبة القمة العربية بإعلان الجهاد والحرب والتعامل مع انعقادها كمؤامرة تفريغ للانتفاضة من معناها وغير ذلك من ضروب الثرثرة هى من باب تحول العامية السياسية العربية ذات الطابع الخرافى الشعبوى إلى بث تليفزيونى حى بواسطة الهاتف

والأرجح أن يتحول الدم المسفوك فى هذه الانتفاضة المنطلقة من الأقصى إلى ضمان لعدم قبول الإملاءات الأمريكية الإسرائيلية، ولكن مازال الاحتمال قائماً لكى تستخدم الانتفاضة لتصوير العجز عن تغيير موازين القوى، وتخاذل الموقف العربى، وعدم قدرة الشعب الفلسطينى على احتمال هذه الضحايا اليومية دون إنجازات ملموسة. وهذا يبرر العودة إلى قبول ما لم يقبل فى كامب ديفيد بعد أن بذلت القيادة الفلسطينية ما بوسعها دون فائدة، والمطلوب فى هذه الحالة أن تتعاون أمريكا لتعديل بعض الاقتراحات الخاصة بالسيادة على الحرم القدسى الشريف. هكذا قد تتحول قضية الحرم من أصعب القضايا إلى أسهلها مقابل موضوعات مثل اللاجئين والحدود وليتبين أن الصراع فى نهاية المطاف ليس مجرد صراع على السيادة الإسلامية على الحرم.

بعد أن طرحت الأفكار الأمريكية فى كامب ديفيد «انتقلت الكرة» باللغة الأمريكية إلى الملعب الفلسطينى، وهذا يعنى أن رفضها من قبل الفلسطينيين يعنى رفض «السلام». وقد اتخذت الإدارة الأمريكية موقفاً واضحاً بعد المؤتمر يحمل الفلسطينيين مسئولية الفشل. واعتبرت إسرائيل كما هو متوقع هذه المرحلة إنجازاً دبلوماسياً لها. وبعد أن «خذل» عرفات باراك تبين أيضاً أن الموقف الأوروبى ليس مناصراً للسلام العادل وإنما لعملية السلام فحسب، هذا عدا تضامنها شبه الغريزى مع تيار حزب العمل فى السياسة الإسرائيلية.

الائتلاف الحاكم فى إسرائيل فى عهد باراك ومعه أوروبا الغربية التى تعتبر مجرد وجود هذا الائتلاف إنجازاً يجب أن يحافظ عليه العرب لا يكتفيان بوضع تصور خاطئ للعرب بل يشعران بخيبة الأمل والمرارة عندما لا يتصرف العرب بموجب صورتهم المتشكلة فى ذهن «قوى السلام» الإسرائيلية والأوروبية.

هذه العناصر الذهنية والنفسية لدى «قوى السلام» الحاكمة حالياً فى إسرائيل تضيف إلى القمع الاحتلالى الدموى ضد الانتفاضة عنصراً جديداً هو الغضب والنقمة وتصفية الحسابات وخيبة الأمل وتلقين الفلسطينيين درساً على «إفسادهم لعملية السلام» وإحراج «قوى السلام» الحاكمة أمام شعبها. فقد حاولت هذه أن تقنع الإسرائيليين بقبول كل «التنازلات» فى كامب ديفيد لأن الفلسطينيين يريدون السلام، وتأتى أحداث الانتفاضة لتثبت أن الفلسطينيين لا يريدون السلام. بهذه الفجاجة يتم التعامل مع الموضوع.

ولكن على أية حال لم تترك مفاوضات كامب ديفيد والحملة الدبلوماسية والإعلامية الإسرائيلية التى تلتها من مخرج أمام الشعب الفلسطينى إلا أن تلجأ لشعبها وفى هذه الصورة تبدو زيارة شارون غير المرحب بها فى الأقصى مجرد تفصيل.

ومع ذلك بالإمكان تخيل قدوم شارون إلى الحرم القدسى الشريف مستفزاً لعملية السلام دون انتفاضة تتلوه. ولكنه جاء فى فترة الأزمة بعد أن اتضحت المواقف، وربما أتى كنوع من ممارسة استفزازية للسيادة الإسرائيلية على الحرم. «والزيارات البريئة» دون هدف، أى بهدف الزيارة فحسب تثبت السيادة أكثر مما يثبتها الاحتلال العسكرى. ولكن شارون أراد أن يثبت السيادة كأمر مفروغ منه إلى درجة القيام بزيارة «بريئة» دون مناسبة فأثبت العكس، أى أنه لا توجد زيارة كهذه إلا وتتحول إلى إعادة احتلال عسكرى للحرم.

وبهذا الاحتلال أراد شارون أن يمتحن نوايا باراك. هل سيحرس باراك زيارة زعيم المعارضة إلى الحرم مثبتاً السيادة رغم أنف العرب أم سيتنازل عنها خوفاً من رد الفعل العربى، وقد نجح باراك فى امتحان شارون.

لقد اعتبرنا الانتفاضة والرد الإسرائيلى الحربى عليها، أو الاستفزاز الإسرائيلى والرد الفلسطينى النضالى عليه استمراراً للصراع الذى دار فى كامب ديفيد بوسائل أخرى. إنها تعبير عن صراع إرادات بين الحد الأدنى المقبول فلسطينياً كتسوية تاريخية ضمن الشرعية الفلسطينية والحد الأقصى المقبول ضمن الإجماع الوطنى الإسرائيلى، والذى يصر باراك أن يحافظ عليه عندما يتم الحديث عن تسوية دائمة مع الفلسطينيين. وما «لاءاته» التى فضحنا أمرها فى خضم معركته الانتخابية لرئاسة الحكومة إلا تعبيراً عن هذه السياسة.

بدأت الانتفاضة الفلسطينية كتعبير عن طلب الشعب الفلسطينى حق الكلام وكملجأ لجأت إليه القيادة الفلسطينية بعد أن حاصرها «الكرم» الإسرائيلى الباراكى دبلوماسياً، وبعد أن عُرضت أمريكياً بعد كامب ديفيد من أعلى مصدر ألا وهو الرئيس الأمريكى كرافضة «للسلام»، أى للأفكار الأمريكية المنسّقة مع باراك سلفاً وغير المتعارضة مع الإجماع الصهيونى الإسرائيلى.

وقد أفرزت شرنقة هذه الانتفاضة منذ بداياتها، خيطاً حديدياً يربط الشعب والقيادة الفلسطينية، لا فكاك منه دون المساس بقدس الشعب الفلسطينى وحرمه الشريف، وهى وحدته الوطنية فى مرحلة التحرر الوطنى. لقد أصبح من غير الممكن القبول بإملاءات باراك ـ كلينتون من كامب ديفيد حتى مع تعديلات وتغييرات فى التسميات.

ويخشى بعض الفلسطينيين أن الدم الفلسطينى المسفوك بسخاء (والإسراف بدم الشعب من قبل القيادة أمر غير محمود)، لن يمنع البعض الآخر من استخدامه لتبرير العجز. خاصة وأن حجة عدم تحرك العرب رسمياً كدول جاهزة دائماً، والحجة والتبرير حاضران: «حاولنا ولم يسعفنا أحد، ولا نستطيع الاستمرار بهذا العدد من الشهداء يومياً ـ وما علينا إلا قبول ما لم يُقبل قبل الانتفاضة»، وبهذا تتحول الانتفاضة من سند لرفض الإملاءات إلى مبرر لقبولها. والحقيقة أنه على من يريد الاستمرار فى النضال والكفاح، وعلى من ينشد حلاً عادلاً لا مجرد تسوية ناجمة عن موازين القوى اللحظية وعن براجماتية لحظية، أن ينطلق من بعض المسلمات من أجل وضع استراتيجيته: (١) أنه لا يوجد حل عادل ودائم للمسألة الفلسطينية على المدى القريب؛ (٢) هذا الأمر لا يستثنى تسويات مؤقتة لا تنهى الصراع شريطة ألا تحمل توقيعاً فلسطينياً يتنازل عن حق العودة أو عن القدس؛ (٣) إن الصراع من أجل حل عادل ودائم هو صراع طويل الأمد وموضوعه ليس «الأقصى» المبارك أو القدس الشريف بل موضوعه هو العدالة للشعب الفلسطينى والتحرر من آخر استعمار واحتلال سافر، وبهذا المعنى فإن الأقصى والقدس هى أراضٍ واقعة تحت الاحتلال وأن قدسيتها هى حافزٌ للنضال من أجل تحريرها. ولكن قدسيتها لا تجعل احتلال أراضٍ فلسطينية أخرى والاستيطان فيها أموراً مبرَّرة بغياب القدسية؛ (٤) أنه إذا لم يتم إيجاد أو فرض حل مقبول لقضية الاحتلال بواسطة تقسيم فلسطين بين دولتين سينشأ تقسيم جديد هو بين شعبين على نفس الأرض وفى نفس نطاق الهيمنة، أى فى نظام الأبارتهايد.

على هذه المسلمات تبنى استراتيجية التحرير التى لا تفصل بين تحرير الوطن وتحرير الإنسان. ولا تستطيع إسرائيل أن تحافظ على نظام أبارتهايد مع الشعب الفلسطينى فى الضفة والقطاع دون استيراده إلى داخل الخط الأخضر.



تحرير فلسطين

كل من يستعجل الحل حالياً يعنى القبول بالاقتراحات الأمريكية الإسرائيلية وقد عدلتها الانتفاضة الفلسطينية فى بعض نواحيها إيجابياً، وسلبياً فى نواحٍ أخرى متعلقة بالاحتياطات الأمنية الإسرائيلية. رفض الاقتراحات الإسرائيلية المعدلة والتى سوف تتعدّل سلباً مع كل خطوة تنفيذ وكلما اقتربت من ملامسة الواقع ذاته، رفض هذه الاقتراحات يعنى الاستعداد للنضال على المدى البعيد. والنضال على المدى البعيد يعنى عدم تبذير جاهزية الشعب الفلسطينى الكفاحية بسرعة وقصر نفس نضالى يرافقه عدد كبير من الضحايا وإنجازات لا تتناسب مع حجم التضحيات وصولاً الى اليأس والقنوط. واليأس والقنوط يعنى القبول بالتسويات غير المقبولة سابقاً، أى الاستسلام. فى حين يعنى النفس الطويل ترشيد التضحية ووسائل النضال وتوزيع العبء على فئات اجتماعية واسعة.

من الممكن تحويل الجاهزية الكفاحية العلية للشعب الفلسطينى إلى نضال مستمر ترافقه حياة وإنتاج مادى وروحى وفكرى، دون تمكين الاحتلال الإسرائيلى من محاصرة المدن والقرى الفلسطينية لا واقعياً ولا مجازياً، بل بالإمكان محاصرته هو على الارض كاستيطان، وعالمياً كمحاولة استعمارية بقيت مدللة حتى اليوم.

يجب أن نعلم العالم، والمقصود ليست ملكة السويد ولا آل جور، بل الشعوب ومؤسسات المجتمع والقوى السياسية الفاعلة فيه أن إسرائيل هى نظام أبارتهايد يقمع حقوق الإنسان والمواطن. ولا تستطيع الدول العربية أن تقنع أحداً بذلك لأنها بذاتها لا تحترم حقوق مواطنيها تحديداً. المجتمع الفلسطينى والمجتمعات العربية هى القادرة على إقناع العالم بشرط أن تفرز قواها الاجتماعية والسياسية خطاباً سياسياً إعلامياً متنوراً ووطنياً صلباً فى الوقت ذاته، وليس غيبياً ومزايداً على مستوى الشعار ومتقاعساً وواقعياً إلى درجة تغييب كل شىء عدا المصلحة المادية المباشرة عند التطبيق.

وبإمكان هذه القوى الاجتماعية أن تبتز الدول العربية والإسلامية ذاتها لتضع إمكانيات كبيرة تحت تصرفها.

تصعب الانتفاضة حتى مجرد البحث عن بنية لها. ويبدو واضحاً أنها تفتقر إلى بنية هرمية على الأقل. إذ لا توجد قيادة ميدانية واحدة توجه فعالياتها فى كافة الأقاليم، واشك إذا كانت توجد قيادة ميدانية واحدة على مستوى المدينة الواحدة. إذ يبدو واضحاً ان التنافس بين الاجهزة الامنية الفلسطينية قد انتقل إلى صفوف تنظيم فتح ذاته. وإذا سلمنا بوجود قيادة سياسية واحدة متفق عليها ألا وهى السلطة الفلسطينية أو ياسر عرفات تحديداً، فلا يبدو أن الانتفاضة تفجرت بناء على استراتيجية محددة أو أن هنالك استراتيجية سياسية تحكم استمراريتها.

اتفاق أوسلو حدد الأسئلة ولم يجد الأجوبة. وتجربة الثمانى سنوات الانتقالية التى كان من المفترض أن تبنى الثقة بين الطرفين أدت فى الواقع إلى العكس. فقد حاول الطرف الإسرائيلى أن يستغلها لتحويل وجهة نظره حول الحل الدائم إلى وقائع على الأرض

وإذا توافرت استراتيجية سياسية تتعامل مع الانتفاضة كتكتيك يهدف إلى تحسين الموقع الفلسطينى التفاوضى من أجل تعديل الاقتراحات الأمريكية فمن الواضح أن الهدف يكون تكثيف الانتفاضة والتلويح بعدم الاستقرار الذى تثيره لكى تؤدى إلى ضغط عالمى على إسرائيل. وإذا تم التعامل مع الانتفاضة كاستراتيجية بعيدة المدى، أى كنضال مفتوح بغض النظر عن صوره وأشكاله يكون المهم هو ديمومة الانتفاضة، وهذا يتطلب التقليل من حجم الخسائر الفلسطينية مما يناقض التباهى بعدد الشهداء، والقيام بنشاطات نضالية تؤذى إسرائيل دون جرها إلى محاصرة القرى والمدن الفلسطينية.

ولا أعتقد أن السلطة الفلسطينية قد اختارت أحد الخيارين ولذلك فإن الانتفاضة تدار من يوم إلى آخر بانتظار الفرج، أو بانتظار تغيير إقليمى أو دولى، أو بانتظار حدث عظيم يقع نتيجة لديناميتها الداخلية مثل أن ترتكب إسرائيل حماقة كبرى. ومع ذلك يبدو أن السلطة الفلسطينية فى فترة إدارة الأزمات هذه، تحمل الرأى العام الفلسطينى على محمل الجد وتضطر إلى مسايرته أو تختار التجاوب معه بشكل لم يسبق له مثيل. وحتى فى المراحل التى تجاوبت فيها القيادة الفلسطينية مع دعوات دولية للتهدئة مثل قمة شرم الشيخ واجتماع عرفات - بيريز وغيرها، حتى هنالك تبين أن إدانة هذه الاجتماعات جاءت متسرعة وأن القيادة الفلسطينية كانت فى الواقع فى كل مرة تمتص ضربة عسكرية إسرائيلية محتملة وتجهضها. ولكن هذا التجاوب مع الرأى العام الفلسطينى لم يكن تعبيراً عن استراتيجية بقدر ما هو تشخيص لحالة الانسداد التى تواجهها المفاوضات وبالتالى عدم توافر مبرر للصدام مع الرأى العام الفلسطينى.

لقد اتضح فى كامب ديفيد وطيلة سنوات التفاوض السابقة أن القيادة الفلسطينية تفهم التسوية التاريخية فى الواقع على أنها مبادلة حقوق الشعب الفلسطينى من العام ١٩٤٨، بحقوق الشعب الفلسطينى فى العام ١٩٦٧، أو المساومة بين الغبن الذى لحق بهذا الشعب عام ١٩٤٨ بالغبن الذى لحق به عام ١٩٦٧، وبهذا المعنى تتنازل القيادة الفلسطينية عن حق العودة إلى فلسطين فعلياً وتطالب إسرائيل بالاعتراف به رمزياً، كما تتنازل عن أى مطلب متعلق بأرض فلسطين فى العام ١٩٤٨، كل هذا مقابل تطبيق إسرائيل لقرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و ـ ٣٣٨ وإقامة دولة فلسطينية وعاصمتها القدس الشريف.

ولكن القيادة الفلسطينية وجدت نفسها تفاوض على أراضى عام ١٩٦٧ بما فى ذلك قبول ٨٠٪ من المستوطنين على الأرض تحت السيادة الإسرائيلية، دون تحقيق سيادة فعلية فى القدس الشريف أو على الحدود. وهكذا تبين أن إسرائيل لا تتنازل عن كل ما احتلته عام ١٩٦٧، من أجل تثبيت شرعية وجودها بأمن وسلام فى حدود ١٩٤٨، وإنما تطمع لتثبيت بعض مما احتلته فى عدوان ٦٧، كما تبين أن إسرائيل تتعامل مع موضوع اللاجئين ليس كموضوع تفاوض وتنازل فلسطينى، وإنما كموضوع مفروغ منه ويكاد يكون خارج التفاوض.

تفاوض إسرائيل من أجل تحقيق فصل ديموغرافى يحافظ على الدولة اليهودية، ولديها أسبابها للاعتقاد أن هذا الفصل الديموجرافى على أساس دولتين واحدة يهودية والأخرى عربية يتنافى تماماً وحق العودة. وحق العودة لا يعنى العودة بقوة التحرير بل يعنى التزام الأطراف بالعودة فى اتفاق، أى عودة اللاجئين إلى دولة إسرائيل، وهذا أمر مستحيل التحقيق فى المبنى السياسى القائم.

على أية حال لا تفاوض إسرائيل من أجل إحقاق العدالة للشعب الفلسطينى، وإنما بغرض إحقاق الشرعية والأمن لها فى المنطقة ضمن أكبر فصل ديموغرافى ممكن مع العرب يحافظ على يهودية الدولة اليهودية. وهى تعلم أن الثمن الذى عليها أن تدفعه هو قبول الدولة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات ومحاولة تحديد سيادتها قدر الإمكان.

وقد تجذرت فى الآونة الأخيرة فى السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية قناعة مفادها أن أولوية القيادة الفلسطينية الأساسية هى قضية الدولة، وأن الدولة تحول بقية القضايا إلى تفاصيل ثانوية يمكن الوصول إلى حل وسط بشأنها، مثل قبول ضم ١٥٪ من الأرض إلى إسرائيل مثلاً وعليها ٨٠٪ من المستوطنين (وبالإمكان تضييق الرقعة أكثر فى المفاوضات «كتنازل إسرائيلى» وزيادة عدد المستوطنين عليها)، وبدون سيادة فلسطينية على عاصمة دولة فلسطين شرقى القدس، تسمى أحياء معينة باسم القدس ويمنح الفلسطينيون فيها إدارة ذاتية.

ما الذى يحصل هنا؟ إسرائيل تفاوض على الحل الدائم بتجزئة القضايا بمنطق المرحلة الانتقالية. والفلسطينيون بدأوا المفاوضات بالحد الأقصى من التنازلات وبعد قبول مبدأ التسوية التاريخية على أساس خطوط ٦٧. وهذا يعنى أن أى تفكيك وتجزئة لما تبقى ولم يتنازل عنه الفلسطينيون فى وثيقة أوسلو ذاتها هى عبارة عن قطع باللحم الحى بالنسبة للشعب الفلسطينى.

لا يمكن التوصل إلى حل دائم بين هذين المنطقين المختلفين. أى أن التسوية التاريخية تتطلب إما تنازل أحد الطرفين عن نهجه التفاوضى ومنطقه أو تنازل كليهما. والطريق إلى مثل هذا التنازل حالياً هو كسر الإرادة الفورى أو استنزاف الطرف الآخر على المدى البعيد. ولا يستطيع الفلسطينيون كسر إرادة إسرائيل فورياً وإنما إجراء بعض التعديلات على اقتراحاتها.

ما يلزم إذاً هو استراتيجية بعيدة المدى. وهذا يتجاوز مجرد لعب دور الضحية. وكل إنجاز اقتصادى وإدارى واجتماعى وسياسى على الأرض دون التوقيع على تنازل عن حقوق الشعب الفلسطينى هو إنجاز ضد إسرائيل وضد الاحتلال.

وسوف يكون لزاماً على أى قيادة فلسطينية شرعية أن تجد السبل لترك القضية الفلسطينية مَفتوحة دون توقيع على تنازل عن أى مركب من مركباتها، وفى الوقت ذاته أن يتاح للشعب الفلسطينى بناء ذاته واقتصاده وتطوير نفسه كمجتمع وأن يتواصل النضال ضد الاحتلال. والمطلوب هو وضوح الهدف وتوفر عنصرى الإرادة والمثابرة من أجل تحقيق هذا الهدف دون البحث عن طرق مختصره ووعرة.

وتتطلب هذه الاستراتيجية النضالية استراتيجية إعلامية ترافقها على مستوى الرأى العام العالمى. ولدى العرب بشكل عام ميل للاستخفاف بالرأى العام العالمى كونه منحازاً بصورة قبلية لإسرائيل. والواقع أن هذا الموقف العربى الشعبوى لا يتجاوز «فشة الخلق» بالعامية الفلسطينية، وهو فى الواقع العملى اعتراف بالعجز، أو تعبير عن عدم رغبة بتوفير متطلبات الصراع مع إسرائيل على الرأى العام. فالذى يريد أن يدافع عن حقوق الإنسان الفلسطينى لا بد ان يسأل عن مدى احترامه هو لحقوق الإنسان والمواطن فى بلده.

لا تستطيع الأنظمة العربية أن تدافع عن حقوق الإنسان الفلسطينى التى ينتهكها الاحتلال الإسرائيلى، وليست لديها مصداقية لذلك، وهى لن تغير تعاملها مع حقوق المواطن فى بلدها من أجل تحسين صورتها ليصبح بإمكانها الدفاع عن حقوق الإنسان الفلسطينى. وهى تفضل، لو

أمريكا فى كامب ديفيد فاوضت لأول مرة باسم إسرائيل. ولم ترغب إسرائيل بالالتزام بهذه الأفكار قبل أن تسمع الرد الفلسطينى عليها كاقتراحات أمريكية أولا. هكذا اعتقد باراك ومعه ائتلافه الحاكم أن هذه الأفكار التى كلفت فك الائتلاف الحاكم وانسحاب وزير الخارجية وكتلة المهاجرين الروس منه سوف تلقى قبولاً إن لم يكن ترحيباً لدى القيادة الفلسطينية

استطاعت، أن تنهى الصراع مع إسرائيل على أن تقف أمام هذا الخيار.

إن القوى القادرة على مواجهة العالم بحقوق الإنسان الفلسطينى فى ظل الاحتلال الذى يتخذ شكل نظام فصل عنصرى «أبارتهايد» هى القوى الاجتماعية والسياسية غير الرسمية العربية. فتضامنها مع الشعب الفلسطينى هو تضامن مشروع عربياً، ولا تستطيع الأنظمة العربية أن تواجهه بالقمع، وفى نفس الوقت يعتبر نضالها التضامنى مع الشعب الفلسطينى، ومع حرية الإنسان الفلسطينى، نوعاً من التحرير الذاتى ونوعاً من التمرن والتمرس على النضال من أجل حرية الإنسان العربى. فالدفاع عن حرية الإنسان الفلسطينى لا بد أن يؤدى فى النهاية إلى تطوير الانعتاق الذاتى كهدف وكحلم.

وحتى على مستوى المعارك القومية العامة فإن إقامة جهاز إعلامى عربى مشترك ومستقل عن الأنظمة العربية رغم اضطرارها لتمويله، يهدف إلى اختراق الرأى العام الغربى ويجند خيرة المثقفين العرب من أوروبا والولايات المتحدة فى جهد مشترك لاختراق الخطاب الغربى السائد حول القضية الفلسطينية، إن إقامة مثل هذا الجهاز تخدم فى نهاية المطاف قضايا عربية مشتركة أخرى مثل قضية العراق وغيرها.

والأهم من هذا كله أن التوجه نحو الرأى العام العالمى يجبر القوى السياسية والاجتماعية العربية المؤهلة لذلك أن تعقلن وترشد خطابها السياسى ليصبح مقنعاً ومثيراً للتعاطف وليس فقط مهيجاً أو مثيراً. إذ لا يمكن التوجه إلى الرأى العام العالمى بشعار مثل «خيبر خيبر يا يهود، جيش محمد على الحدود»، وعلى فكرة لا علاقة لهذا الشعار بأهداف الانتفاضة أو بواقعها أو حتى بمزاجها السياسى. الانتفاضة الفلسطينية المجيدة ما زالت تبحث عن الخطاب الإعلامى والسياسى الناضج الذى يرافقها ويصل إلى مستوى تضحياتها. والقادر على استثمار هذه التضحيات لا تضييعها.

يقود التضامن العربى مع تحرر الإنسان الفلسطينى إذا ما تم بناؤه على استراتيجية صحيحة ليس فقط إلى تحرير القدس ولا الإنسان الفلسطينى فحسب وإنما أيضا الى تحرير الإنسان العربى. وبهذا المعنى فإن الشعب الفلسطينى يتحرر عندما يتحرر الإنسان العربى والعالم العربى من فلسطينيته.

لقد وقع الشعب الفلسطينى تحت الاحتلال فى نفس الحقبة التاريخية التى شهدت انعتاق الشعوب الأخرى من الاستعمار، وكلما تقدمت حركة التحرر من الاستعمار فى العالم الثالث كانت القضية الفلسطينية تزداد تعقيداً. ولا شك أن هنالك عناصر مشتركة عديدة تجمع القضية الفلسطينية ببقية القضايا الوطنية فى العالم الثالث، ولكن تعقيدها كامن فيما يميزها:

(١) تشابكها دولياً مع المسألة اليهودية؛

(٢) تشابكها مع المسألة القومية العربية.

لقد أدى تشابكها مع المسألة اليهودية إلى صعوبة التعامل معها دولياً كقضية استعمار

كان باراك قادراً لو تفاوض مع السوريين واللبنانيين الحقيقيين على الخروج باتفاقيات سلام مع سوريا ولبنان، ولكنه تفاوض مع بشر من صنع خياله وليس مع العرب الفعليين. وهذا هو الفرق بين السياسى فى المفاوضات والقائد العسكرى فى الحرب

لغياب دولة استعمارية أم، ولأن اليهود يشكلون قضية أقليات فى كافة أنحاء العالم بما فى ذلك ما يسمى بمسألة العداء للسامية التى وصلت حد محاولة إبادة يهود أوروبا. وأدى تشابكها مع المسألة القومية العربية إلى عدم وضوح التميز الفلسطينى كشعب واقع تحت استعمار استيطانى مباشر وهو جزء من قومية ذات ٢٢ دولة ذات سيادة. مع عدم تمكن الأمة العربية من التعامل مع فلسطين المحتلة كجزء محتل من أراضيها لأنها لم تنجح بالتشكل من قومية إلى أمة ذات سيادة على أرضها.

هذا مع التأكيد أنه من الخطأ الاستخفاف بالرابط القومى المعنوى واللغوى والعاطفى وعناصره الدينية ايضاً. وقد بينت وسائل الاتصال الحديثة أهمية الرابط اللغوى العربى فى توحيد السوق الإعلامية ومعها توحيد أجندة الناس السياسية. وقد ثبت أيضاً أن الرابط القومى لا يكفى لتحويل الاحتجاج والتعاطف مع الشعب الفلسطينى إلى مشروع سياسى دون وجود مؤسسات عربية فاعلة فى مجال الإعلام نحو الخارج وفى مجال تقديم الدعم المادى والمعنوى للشعب الفلسطينى.

قضية النضال ضد الأبارتهايد هى قضية منتصرة. وقد انتصرت فى جنوب أفريقيا على المستوى الدولى رغم أن غالبية الدول الأفريقية التى يحكمها الأفارقة السود لم تكن دولاً ديموقراطية ذات مصداقية فى قضايا حقوق الإنسان. انتصرت قضية الشعب فى جنوب افريقيا دولياً، ونجحت بإثارة كل هذا التعاطف الدولى القاطع والواضح والذى لا يفسر على وجهين، ولا يحاول الموازنة بين طرفين، كما يتم فى حالتنا الفلسطينية. لم نسمع ادعاءً غربيًا أن الأمهات الأفارقة يرسلن أولادهن إلى الموت فى سويتو، كما لم نسمع عن مطالبة «الطرفين» بوقف العنف، كما تتعامل اللغة الأوروبية والأمريكية مع انتفاضة الشعب الفلسطينى كحالة من العنف تجر عليها عنفاً إسرائيلياً مضاداً، لا يمكن فهم هذا التعامل مع الفلسطينيين دون فهم مشكلة أوروبا مع ذاتها ومع المسألة اليهودية.

وبدل أن يطرح الفلسطينيون أن عنفهم هو عنف الضعفاء وأصحاب الحق فى الوقت ذاته، وهو عنف مبرر،نرى بعضهم ينكر العنف والنضال ويعتبره مجرد دفاع عن النفس، والبعض الآخر ينجر إلى مقارنة بين الشباب الفلسطينى وبين جيش الاحتلال، وكأن الموضوع هو أن تثبت أنك الطرف الأضعف. ولكن المهم فى المعادلة هو أن تثبت أنك الطرف صاحب الحق. ويسهل إثبات ذلك إذا تم التعامل مع القضية الفلسطينية كآخر حالة أبارتهايد كولونيالية عنصرية. هذه لغة يفهمها العالم ولكنه لا يفهم لغة «الصراع مع اليهود الأنجاس» ومع «كيان إسرائيل الملعون» التى تفوه بها رئيس وفد عربى فى مؤتمر القمة الإسلامى الأخير فى الدوحة، فى عملية قلب كلى للأدوار إذ يتظاهر الضعيف بالقوة ويتخلى عن لغة الحق لصالح لغة العداء للسامية التى تحول الصهيونية مباشرة من قاتل الى ضحية. لم يعد بالإمكان فهم تعقيدات المسألة الفلسطينية دون الإحاطة بتعقيدات المسألة اليهودية، هذا الكلام ليس منصفاً ولا عادلاً، ولكنه مع ذلك واقع.

قضية فلسطين كما تطرحها الانتفاضة هى قضية أبارتهايد وإذا لم يتم التوصل إلى حل دائم فإن حلها برأى إسرائيل هو تثبيتها من طرف واحد، أى تثبيت الانفصال من طرف واحد، بحيث يبقى الفلسطينيون فى كانتونات ليست ذات سيادة ومنفصلة عن إسرائيل. وغنى عن القول أن خطوة إسرائيلية من هذا النوع لعزل الفلسطينيين ومحاصرتهم فى اقل من ٤٠٪ من أرض الضفة (وهى خطة شارون الأصلية، والأساس للتفاهم بينه وبين باراك فى حكومة وحدة وطنية) لا يمكن أن تستقر أو تؤدى إلى استقرار، لأن التماس مستمر على محاور الطرق وعلى الحدود الفلسطينية العربية وبالاقتصاد وبغيره، وأخيراً بالنضال ذاته الذى يستمر ضد الجيش وضد المستوطنات «لمن استطاع إلى ذلك سبيلا». الانفصال من طرف واحد ليس حلاً إذاً، وإنما تثبيت لحالة أبارتهايد، أقول هذا حتى لو تم الانفصال بإعلان دولة فلسطينية من طرف واحد. فمثل هذا الإعلان بالظروف الحالية لا يقيم دولة فلسطينية، بل يثبت نظام الأبارتهايد القائم شرعياً.

ولا تستطيع إسرائيل أن تثبّت نظام أبارتهايد خارج الخط الأخضر دون استيراده إلى داخل الخط الأخضر بشكل يجمع الفلسطينيين على جانبى الخط الأخضر (السكان الأصليين) فى النضال ضد «شعب الأسياد». وهذا سبب آخر يمنع إسرائيل من المحافظة على هذا الشكل من النضال لفترة طويلة. من الواضح إذاً أن الدولة العبرية بحاجة إلى حل دائم والوقت ليس لصالحها إطلاقاً، أقول هذا حتى لو استمر بناء الاستيطان الذى يتخذه العرب حجة من أجل الإسراع بالتوصل إلى حل ولو بالشروط الأمريكية. فالاستيطان المستمر يعقد فى نهاية المطاف قضية الفصل الديموجرافى الضرورية للدولة اليهودية إلى حد جعلها مستحيلة.

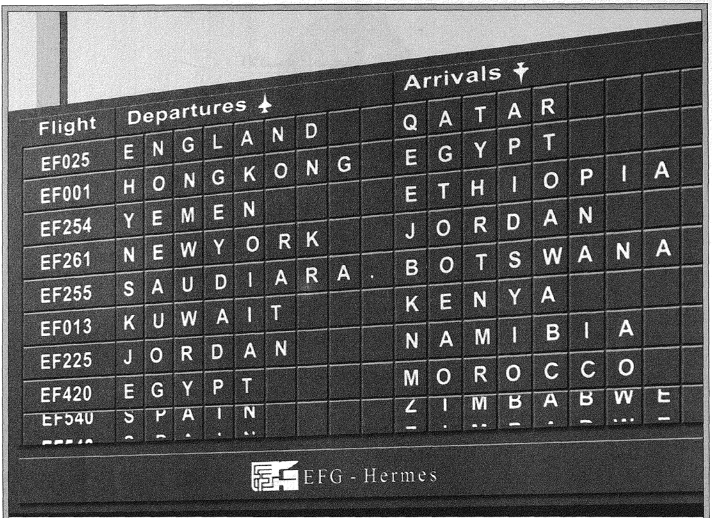
فى هذه المرحلة يجب التأكيد أن إسرائيل بحاجة قصوى إلى حل دائم وشرعى، وهى المعنية بالإسراع. ليست العجلة إذاً من الشيطان فى هذه المرحلة وإنما من إسرائيل.

قد تتخذ الانتفاضة أشكالاً عديدة قادرة علي إجبار إسرائيل دفع ثمن احتلالها، المهم أن يبقى الصراع مفتوحاً وأن يظهر الشعب الفلسطينى والقيادة الفلسطينية قدرة على الصمود والاستمرارية وأن يبقى بمقدور الشعب الفلسطينى أن يستمر بعملية بناء الذات من النظام السياسى إلى الاقتصاد إلى الثقافة.

لا يمكن أن يدوم نظام الأبارتهايد طويلاً إذا طرح كذلك، وتم التعامل معه على هذا الأساس، كما لا يمكن إنهاؤه إلا بأحد خيارين: (١) إقامة دولة فلسطينية مستقلة بشكل يمكن اعتباره تسوية تاريخية وليس مجرد ترجمة لموازين قوى لحظية، لكى يتم هذا يجب أن يأخذ عنصر العدالة النسبية والإنصاف بعين الاعتبار؛ (٢) التحول نحو دولة ديموقراطية تعترف بوجود قوميتين فى إطارها، وهذا حل قابل للتحقيق على المدى البعيد إذا فشل خيار الدولة الفلسطينية بأن يكون خياراً منصفاً وواقعياً فى الوقت ذاته.

وربما قد آن الأوان لمواجهة الخداع الذاتى الذى مارسته حركة التحرر الوطنى الفلسطينى مع ذاتها طيلة المرحلة التى تم الحديث فيها عن حل الدولتين (دولة عربية وأخرى يهودية) وتقسيم فلسطين مع الإصرار على إلصاق حق العودة للاجئين بهاتين الدولتين كأن «واو» العطف كافية لتشكيل رابط منطقى. لا توجد إمكانية لتطبيق حق عودة للاجئين فلسطينيين إلى دولة يهودية!! وهنالك تناقض بنيوى بين حل الدولتين وحق العودة للاجئين الفلسطينيين الذين يغيرون الطابع الديموجرافى للدولة اليهودية كمواطنين وبحيث يتم هذا بإذن وبموافقة الدولة اليهودية ذاتها. على حركة التحرر الوطنى الفلسطينى أن تقرر فيما إذا كانت الدولة الفلسطينية دون حق العودة تشكل تسوية تاريخية ما دامت صاحبة سيادة فى المسجد الأقصى المبارك، وما دامت تسمح للاجئين بالعودة إلى حدودها هى. أو تزودهم بجواز السفر وبحق المواطنة فيها.

أما إذا كانت هذه التسوية التاريخية متعذرة وغير قابلة للتحقيق فلسطينياً وإسرائيلياً، فأمامنا صراع مستديم ضد الأبارتهايد أساسه عنصر المواطنة الواحدة فى بلد واحد لشعبين، بحيث يلتقى تحرير الوطن مع تحرير الإنسان. وعلى أى حال فقد تفضل إسرائيل خيار الحرب الشاملة على هذا الخيار الأخير. هذا ما سوف توضحه الانتفاضة. ■


Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND
EF001 HONGKONG
EF254 YEMEN
EF261 NEWYORK
EF255 SAUDI ARA.
EF013 KUWAIT
EF225 JORDAN
EF420 EGYPT
EF540 SPAIN
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
MOROCCO
ZIMBABWE
EFG - Hermes

الآثار الصحية للعولمة

غزو الهامبورجر!

مصطفى عبدالرزاق نوفل

العولمة الغذائية تعتبرها الدول المتقدمة طريقا لزيادة مصالحها الاقتصادية بفرض سيادة تسويق منتجاتها الغذائية في أسواق الدول النامية، بينما تهدف الدول النامية بدورها إلى استخدام العولمة الغذائية كوسيلة للخروج من المشاكل التي تواجهها مثل نقص الغذاء وضعف مستويات التغذية بين المواطنين وزيادة معدل انتشار الأمراض وما يصاحبها من مظاهر وقيود الفقر والتخلف

مع انتشار استخدام كلمة العولمة فى مختلف المجالات والأنشطة العالمية، إلا أن ارتباطها بمجال الأغذية والتغذية أصبح يمثل أكثر صور العولمة وضوحًا فى مفهوم المواطن العادى فى كل دول العالم.

لذلك لم يكن غريبا أن تستخدم الأغذية كأهم وسيلة تعبير فى الاحتجاجات المتكررة لدول العالم المعادية للعولمة. فمثلاً اختتمت أعمال الاجتماع السنوى لصندوق النقد والبنك الدوليين مبكرًا عن موعدها المحدد فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ فى العاصمة التشيكية براغ، وذلك عقب تصاعد أعمال العنف والاحتجاجات المناهضة للعولمة والتى كان من أهم مظاهرها تحطيم نوافذ عدة مطاعم أمريكية شهيرة بوسط العاصمة التشيكية.

وقبل ذلك، أصدرت محكمة فرنسية حكمًا بالحبس لمدة ثلاثة أشهر ضد جوزيه بوفيه الفلاح الفرنسى الشهير المعادى للعولمة، وذلك بسبب قيامه مع آخرين بتحطيم أحد المطاعم الأمريكية الشهيرة قيد الإنشاء فى وسط فرنسا بوصفه أحد رموز الغزو الأمريكى تحت ستار العولمة الغذائية.

وكان بوفيه قد ذهب مع الوفد الفرنسى إلى الولايات المتحدة أثناء انعقاد مؤتمر «الجات» الفاشل فى «سياتل»، وكان يحمل معه الجبن الفرنسى الشهير وبعض نوعيات أخرى من الأطعمة الفرنسية كوسيلة اعتراض ضد العولمة، وأيضًا للدفاع عن خصوصية كل دولة- ليس فقط فى مجال الاقتصاد والسياسة، ولكن أيضاً فى مجال الأنماط الغذائية وعادات التغذية والتقاليد المرتبطة بها والمتوارثة محليًا- منذ القدم- فى كل دولة من دول العالم.

العولمة الغذائية

ومن أهم أسباب اعتراض الدول ضد العولمة، أنها لا تمكن جميع الشعوب من الاستفادة من مكاسبها، ويرجع ذلك أساسًا إلى الاختلاف القائم بين دول العالم حول تحديد الأهداف الحقيقية لمفهوم العولمة.

فالعولمة الغذائية مثلاً، تعتبرها الدول المتقدمة طريقًا لزيادة مصالحها الاقتصادية بفرض سياسة تسويق منتجاتها الغذائية فى أسواق الدول النامية، بينما تهدف الدول النامية بدورها إلى استخدام العولمة الغذائية كوسيلة للخروج من المشاكل التى تواجهها مثل نقص الغذاء وضعف مستويات التغذية بين المواطنين وزيادة معدل انتشار الأمراض وما يصاحبها من مظاهر وقيود الفقر والتخلف.

ومن الخطأ أن ننظر إلى انتشار الأغذية الأمريكية والغربية فى أسواق الدول النامية- تحت ستار العولمة- باعتباره يفيد المستهلك صحيًا، لأن نوعيات هذه الأغذية غالبًا ما تكون مستحدثة ومنخفضة القيمة المغذية وتختلف كثيرًا عن مثيلاتها التى تقدم فى أسواق الدول المتقدمة. ومما يؤكد هذه الحقيقة ذلك الخلاف الحاد الذى نشب فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ بين هيئة حماية المستهلك الكينية والسفارة الأمريكية فى نيروبى حول المعونات الأمريكية من الأغذية المقدمة للدول الأفريقية- ومن بينها كينيا- التى تتعرض لموجة قاسية من الجفاف منذ عدة سنوات. حيث ذكرت صحف كينيا أن الإدارة الأمريكية قامت بإرسال شحنات من الذرة المعالجة بالهندسة الوراثية والضارة بصحة الإنسان عن طريق الأمم المتحدة إلى الدول الأفريقية للتخفيف من حدة الآثار السلبية للجفاف المنتشر حاليًا فى عدد منها.

ومع وضوح اختلاف أهداف دول العالم من انتشار العولمة الغذائية، فإن أمريكا والدول الغربية فقط هى التى قطعت شوطًا كبيرًا لتحقيق أهدافها من العولمة، بينما نجد أن موقف الدول النامية مازال ضعيفًا وغير مؤثر فى اتجاه العولمة الغذائية، مما يحرمها من التمتع بأى مميزات أو مكاسب من انتشار هذه العولمة.

ويمثل الاختلاف بين دول العالم فى تحديد أهداف العولمة جانبًا واحدًا من المشكلة العالمية التى أصبحت أكثر تعقيدًا بظهور جوانب أخرى، وهى الجوانب التى قد يمكن وصفها بالاتجاهات المتناقضة للعولمة الغذائية. فمثلاً تدفع العولمة الغذائية الدول النامية إلى تغيير الكثير من تشريعاتها ومن أنماط استهلاكها الغذائى المعتادة محليًا، بهدف تسهيل تسويق منتجات العولمة الغذائية بها وتأكيد سيادة تواجدها فى الأسواق المحلية لدول العالم النامى.

وفى الجانب الآخر، تعمل الدول المتقدمة على إيجاد تشريعات لديها لمنع دخول أى منتجات غذائية من الدول النامية، مالم يتبع فى إنتاجها نفس النظم المطبقة فى الدول المتقدمة، وحيث إن الوضع الاقتصادى المتواضع للدول النامية لا يسمح بذلك، فإن العولمة تظل قائمة فى اتجاه واحد نحو مصالح الدول المتقدمة.

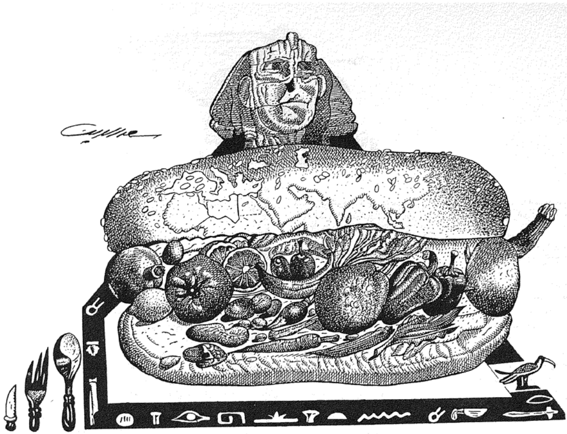
هرم الغذاء الأمريكى

ومن أهم صور تناقضات العولمة الغذائية أنها تعمل على استخدام الإعلام الأمريكى والغربى لنشر مأكولاتها المختلفة مغلفة بثقافة وعادات غربية أمريكية تزيد من قوة اختراقها لأسواق الدول النامية، مما يعمل على هدم الهوية الغذائية المحلية وبخاصة ما يرتبط منها بحضارات قديمة. بينما من جانب آخر تقوم الدول المتقدمة باستخدام مأكولات هذه الحضارات كنظم غذائية صحية تقدمها لمواطنيها، وتعمل على تطوير هذه المأكولات لإنتاج أغذية صحية ووقائية.. بل وعلاجية أيضًا فى أسواقها التجارية فقط.

ولقد بدأ هذا الاتجاه المتناقض فى مجال العولمة الغذائية خلال النصف الأخير من عقد الثمانينيات، عندما اهتمت المؤتمرات والندوات العالمية الغذائية بضرورة إيجاد وسيلة مبسطة توضح قواعد التغذية السليمة للمستهلك، وتحدد له مكونات الوجبات الغذائية الصحية وكمياتها المناسبة التى يجب أن يتناولها من كل مادة غذائية. وكانت المفاجأة أن تتفق جميع هذه المؤتمرات على أن هرم قدماء المصريين هو أفضل شكل يمكن استخدامه كوسيلة لنشر قواعد التغذية الصحية للمستهلك.

وقامت الولايات المتحدة بأول تصميم فعلى لهرم غذائى يمكن استخدامه كدليل يرشد المستهلك إلى مكونات الوجبة الصحية اليومية. وعندما قدّم وزير الزراعة الأمريكى هذا الهرم الغذائى الصحى فى مؤتمر عالمى فى عام ١٩٩٢، كانت المفاجأة الثانية أن تعتمد الوجبة الصحية فى هذا الهرم الأمريكى على تناول الخبز والأرز والبقول كالعدس وغيرها، وأن تتساوى اللحوم والدواجن والأسماك مع البقول والبيض ليصبح للمستهلك حق اختيار تناول أى مادة غذائية منها مع تمتعه بنفس الفوائد الغذائية التى تتكامل مع تناول بقية أغذية الهرم.

وعندما وجد خبراء التغذية فى الدول المتقدمة أن هناك تقاربًا بين ما يدعو إليه هرم الغذاء الأمريكى الذى صمم فى عام ١٩٩٢ مع وجبات أغذية قدماء المصريين التى كانت متبعة منذ حوالى ٤٥٠٠ عام،



قامت الإعلانات التجارية لأغذية العولمة– فى المجلات العلمية الأمريكية– بوضع صورة «أبوالهول» فوق هرم أمريكا الغذائى تأكيداً على أن أحدث نظم التغذية الصحية فى أمريكا– فى عصر العولمة– تعتمد أساسًا على الغذاء الصحى لقدماء المصريين. ومع ذلك تنتشر فى الأسواق المصرية منتجات العولمة الغذائية التى تنتجها أمريكا والدول المتقدمة، والتى تبتعد فى تكوينها وفى فوائدها المغذية عن أسس التغذية الصحية المرتبطة بالحضارة المصرية القديمة، والتى بدأت أمريكا– منذ عام ١٩٩٢– فى إعادة اكتشافها وتقديمها إلى المستهلك الأمريكى. ولعل فى ذلك تأكيدًا آخر يوضح الجوانب المتناقضة فى مجال العولمة الغذائية.

والوجبة الصحية– طبقًا لأحدث قواعد التغذية الأمريكية– يجب أن تتضمن تناول المواطن الأمريكى مادة غذائية واحدة على الأقل– يوميًا– من كل مجموعة من المجموعات التالية والمرتبة تنازليًا تبعًا لزيادة كميتها المتناولة يوميًا.

* المجموعة الأولى: الخبز والأرز والمكرونة والحبوب ومنتجاتها والنشويات وهى تمثل أكبر كمية فى الوجبة اليومية.
* المجموعة الثانية: الخضروات
* المجموعة الثالثة: الفواكه
* المجموعة الرابعة: الألبان
* المجموعة الخامسة: اللحوم والدواجن والأسماك والبقول والبيض
* المجموعة السادسة: الزيوت والدهون والحلوى

ويلاحظ أن اللحوم والدواجن والدهون والحلوى التى يجب أن تمثل أقل الكميات المتناولة يوميًا طبقًا للتغذية الصحية الأمريكية، تعتبر أساس منتجات العولمة الغذائية التى تقدمها أمريكا إلى مواطنى العالم النامى، مما يؤكد على تناقضات مفهوم العولمة الغذائية وخطورة تأثيرها الغذائى والصحى.

غذاء البحر المتوسط

ولقد قامت مؤسسة المحافظة على الأصول القديمة للطعام الصحى (وهى مؤسسة علمية مقرها كامبريدج بولاية ماساشوسيتس الأمريكية) بدراسة تفاصيل قواعد التغذية الصحية التى ارتبطت عبر الحضارات القديمة الأخرى غير المصرية، بالصحة الجيدة للإنسان. وتوصلت فى عام ١٩٩٤ إلى أن الوجبات التقليدية والمعتادة لدول البحر الأبيض المتوسط تمثل نظمًا صحية متميزة للتغذية. ويرجع ذلك إلى ما سجلته التقارير العلمية القديمة من انخفاض معدل الإصابة بالأمراض المزمنة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط مقارنة بمناطق العالم الأخرى، مع ارتفاع متوسط عمر الفرد فيها– فى ذلك الزمن البعيد– بالرغم من أن الخدمات الطبية كانت محدودة فى ذلك الوقت.

وكان من المثير للانتباه، أن هذه المؤسسة العلمية الأمريكية قد قدمت أسس وجبات دول البحر الأبيض على شكل هرم غذائى حتى يسهل للمستهلك أن يستخدمه فى تكوين وجبات يومية منه.

وتعتمد الوجبة الصحية التى كانت متبعة فى دول البحر الأبيض المتوسط، والتى أعادت اكتشافها دراسات الدول المتقدمة، على ثلاثة أسس رئيسية:

أولاً: تناول مادة غذائية واحدة– على الأقل– يوميًا من كل مجموعة من المجموعات الغذائية التالية:

١ ـ الخبز والأرز والمكرونة والبرغل والكسكسى والبطاطس والحبوب الأخرى ومنتجاتها
٢ ـ الخضروات
٣ ـ الفواكه
٤ ـ البقول والمكسرات
٥ ـ زيت الزيتون
٦ ـ الجبن والزبادى

ثانيًا: تناول كميات قليلة وبمعدل أسبوعى ـ وليس يوميًا ـ من مادة غذائية واحدة من المجموعات التالية:ـ

١ ـ الأسماك
٢ ـ الدواجن
٣ ـ البيض
٤ ـ الحلوى

ثالثًا: تناول اللحوم بكمية صغيرة جدًا فى الوجبة، وأن يكون معدل تناولها الشهرى قليلاً.

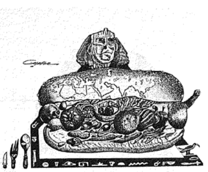
رابعًا: استخدام كميات صغيرة جدًا (أو فى المناسبات الخاصة فقط) من الزبد والكريمة، مع تناول الحلوى ومشروبات المياه الغازية بمعدل قليل أو يقتصر تناولها على المناسبات الخاصة فقط.

وفى عام ١٩٩٥، أضافت الدكتورة أرتيميس سيموبيولوس رئيس مركز الجينات والتغذية والصحة بالولايات المتحدة تفاصيل لقائمة الأغذية الصحية التى كانت معتادة منذ القدم فى وجبات دول البحر الأبيض المتوسط، والتى منها زيت الزيتون والليمون والخل والزيتون والخبز والجبن والزبادى والفواكه وعصائرها والمكسرات والثوم والبصل والخضروات والأعشاب والتوابل والمكرونة والأرز والبطاطس. ويلاحظ أن ترتيب ذكر هذه الأغذية تم تبعًا لأهميتها الصحية، وأنها تخلو من أنواع المسلى والمرجرين والدهون المشبعة الأخرى.

ومن أهم مميزات الوجبة الصحية لدول البحر الأبيض المتوسط اعتمادها أساسًا على الأغذية النباتية، بينما تعتبر أغذية المنتجات الحيوانية مكونات ثانوية فى الوجبة. لذلك تنتشر فى المنطقة وجبات البطاطس مع الخضروات، ووجبات البقول بأنواعها المختلفة، ووجبات الكسكسى، ووجبات المكرونة المختلفة وغيرها. كما ينتشر تناول الفاكهة والمكسرات مثل الفول السودانى وغيرها والبذور الغذائية المختلفة والزيتون.

ومن المثير للانتباه أنه بينما تقرر المؤسسة الأمريكية للمحافظة على الأصول القديمة للطعام الصحى أن دراسات الوجبة الصحية التى كانت قائمة فى منطقة دول البحر الأبيض المتوسط قد حققت فائدة كبيرة لدول العالم فى مجال فهم المزيد من قواعد التغذية الصحية، تنتشر فى أسواق المنطقة نوعيات منتجات العولمة التى تتعارض غذائيًا وصحيًا مع أسس التغذية الصحية التى كانت سائدة فى هذه المنطقة من العالم منذ القدم. ويعمل ذلك على حرمان شعوب المنطقة من التمسك بأصول قواعد التغذية السليمة التى ارتبطت بتاريخهم القديم.

لذلك لم يكن غريبًا– فى ظل تناقضات العولمة الغذائية– أن تعلم هذه المؤسسة العلمية الأمريكية أن نشر دراسات إعادة اكتشاف قواعد التغذية الصحية لدول منطقة البحر الأبيض المتوسط يجب أن يكون دافعًا لشعوبها للمحافظة على تراثها الغذائى الأصيل وإعادة إحياء تقاليدها الغذائية القديمة المفيدة التى ارتبطت– فى التاريخ القديم– بمقومات السلامة الصحية لهذه الشعوب.



النمــوذج الآســيــوى

وإذا كانت الدراسات قد اتجهت أولاً للأغذية التى عرفتها حضارة قدماء المصريين ومنطقة البحر الأبيض المتوسط بحثًا عن قواعد التغذية الصحيحة للإنسان، فهى لم تهمل قارة آسيا التى تمثل مساحة عريضة وتضم نوعيات مختلفة من البشر والثقافات والحضارات والعادات الغذائية التى ارتبطت تاريخيًا بالصحة الجيدة للإنسان القديم فى آسيا.

ولقد تم تحديد نموذج الوجبة الغذائية الآسيوية الصحية وتقديمها- فى عام ١٩٩٥- على شكل هرم غذائى أيضًا، وهى تعتمد أساسًا على ما يلى:

أولاً: تناول مادة غذائية واحدة يوميًا من كل مجموعة من المجموعات الخمس التالية:-

١- الأرز ومنتجاته والمكرونة والخبز والذرة وغيرها من الحبوب، وهذه الأغذية تمثل أكبر مكون فى الوجبة
٢- الخضروات
٣- البقول والمكسرات والبذور الغذائية
٤- الفواكه
٥- الزيوت النباتية

ثانيًا: اختيار غذاء واحد من الأسماك أو الأسماك القشرية أو منتجات الألبان ليتم تواجده فى الوجبة اليومية.

ثالثًا: يجب أن يكون تناول البيض والدواجن والطيور بصفة عامة والحلوى بمعدل أسبوعى وليس يوميًا.

رابعًا: يجب أن يتم تناول اللحوم الحمراء بمعدل شهرى، وليس يوميًا، ويمكن زيادة عدد مرات تناول اللحوم فى الشهر بشرط أن تكون كمية اللحوم المتناولة فى كل مرة صغيرة جدًا.

ومن الغريب أنه رغم الفوائد الصحية للأنماط الغذائية التقليدية التى عرفتها آسيا منذ القدم، يحدث لها الآن تحول غير صحى بسبب كثرة انتشار مطاعم الهامبورجر والوجبات السريعة ومنتجات العولمة فى مناطق آسيوية متعددة وبخاصة فى اليابان والصين وغيرها.

ولعل ظهور الهرم الغذائى الآسيوى الصحى على مائدة البحث العلمى كنموذج للوجبات الصحية، يكون دافعًا لشعوب آسيا- فى ظل العولمة الغذائية- لإعادة الاهتمام بوجباتهم الصحية التقليدية التى ارتبطت تاريخيًا بمقومات الصحة الجيدة عبر تاريخهم القديم.

واستمرارًا للدراسات الغذائية الحديثة التى تبحث عن قواعد التغذية الصحية المرتبطة تاريخيًا بالحضارات الإنسانية القديمة، قامت جامعة بايلور الأمريكية فى عام ١٩٩٦، وبالتعاون مع مدرسة هارفارد للصحة العامة والمؤسسة العلمية الأمريكية للمحافظة على الأصول القديمة للطعام الصحى، بتقديم هرم غذائى آخر يوضح الوجبة الغذائية الصحية التى كانت تتناولها- عبر التاريخ القديم- شعوب دول أمريكا اللاتينية.

وتعتمد مقومات هذه الوجبة أساسًا على ما يلى:

أولاً: تناول مادة غذائية واحدة على الأقل فى الوجبة اليومية من الخضروات (مثل الباذنجان أو اللفت أو السلق أو الكوسة أو البصل أو البامية أو السبانخ أو الخس أو الطماطم أو الفلفل)، ومن البقول مثل الفاصوليا أو الحبوب مثل الذرة والأرز والخبز أو الدرنات مثل البطاطس أو البطاطا أو القرع العسلى أوالخرشوف أو المكسرات مثل الفول السودانى أو البيكان، ومن الفواكه (مثل الليمون المالح (البلدى) أو الموز أو البرتقال أو التفاح أو الجوافة أو المانجو أو البطيخ أو التمرهندى).

ثانيًا: تناول مادة غذائية واحدة على الأقل بمعدل أقل من التناول اليومى من الدواجن والطيور بصفة عامة، ومن الزيوت النباتية (مثل زيت الذرة والزيتون وفول الصويا) أو من منتجات الألبان مثل اللبن أو الزبادى، ومن الأسماك والأسماك القشرية.

ثالثًا: تناول اللحوم والحلوى والبيض بكميات صغيرة أو فى أغذية المناسبات فقط.

ولعل ذلك يوضح أيضًا أن نوعيات منتجات العولمة التى تنتشر حاليًا فى أسواق أمريكا اللاتينية على حساب منتجاتها (المحلية) تتعارض مع القواعد الصحية للتغذية المعتادة التى كانت سائدة منذ القدم بين شعوب هذه الدول.

هل نسينا النبات ؟

ومن الدراسات الحديثة التى تمت حول التأثيرات الوقائية والعلاجية التى تتصف بها بعض الأغذية الطبيعية ضد العديد من الأمراض وبخاصة المزمنة منها والتى فشل القرن العشرون فى علاجها، أعلن عن اكتشاف مكونات نباتية جديدة أطلق عليها اسم مركبات «الفيتو» والتى أصبح من الضرورى تناولها يوميًا ضمن الوجبات الغذائية. ولقد اعتبر هذا الاكتشاف بداية حقيقية للعصر الذهبى الجديد للتغذية الصحية المواكب لبداية القرن الحادى والعشرين.

ومن بين أهم الأغذية التى تمت دراستها وتكونت منها أول قائمة غذائية متميزة بمحتواها المهم من مركبات الفيتو المفيدة صحيًا فى منع الأمراض المزمنة: الثوم والعرقسوس والموالح (البرتقال والليمون المالح البلدى وغيرها) والسمسم والزنجبيل والبصل والطماطم والكرنب والجرجير والقرنبيط والفجل والكرات والكركم والجزر والكرفس والشاى الأخضر وحبوب البن وغيرها، وهى أغذية معتادة ومألوفة على المائدة المصرية منذ القدم.

ولقد أدى اكتشاف مركبات الفيتو النباتية إلى تزايد الاهتمام العالمى بالتغذية النباتية. وتم فى عام ١٩٩٧ فى كاليفورنيا تقديم أحدث دليل غذائى للتغذية الصحية النباتية، وكان هذا الدليل أيضًا على شكل هرم غذائى يعتمد فى وجباته الصحية النباتية على الأغذية التالية..

أولاً الحبوب: ومنتجاتها وهى تمثل أكبر جزء فى تركيب الوجبة وتضم حبوب القمح والذرة والأرز وغيرها، ومنتجات الحبوب مثل الخبز والمكرونة بأنواعها المختلفة وغيرها.

ثانيًا البقول: وهى من الأغذية المكونة الأساسية فى الوجبة النباتية وتضم الفاصوليا الجافة والعدس واللوبيا والحمص والفول وفول الصويا ومنتجاتها المختلفة.

ثالثًا الخضروات: وهى تمثل ثالث أكبر مكون فى الوجبة النباتية (بعد الحبوب والبقول).

رابعًا الفواكه: وهى تلى مباشرة الخضروات فى كميتها كمكون أساسى أيضًا فى الوجبة النباتية مع التأكيد على أهمية تناولها على صورتها الكاملة أكثر من مجرد تناولها عصائر.

خامسًا المكسرات والبذور الغذائية ومنتجاتها: وهى أيضًا من الأغذية الأساسية فى الوجبة النباتية ولكن يتم تناولها بكميات تقل كثيرًا عن بقية مكونات الوجبة.

سادسًا أغذية اختيارية فى الوجبات النباتية: ومنها الزيوت النباتية الغنية بنوعية الدهون المفيدة وحيدة عدم التشبع مثل زيت الزيتون وزيت السمسم (المعروف فى مصر منذ القدم باسم زيت السيرج)، مع ضرورة تحديد كمية ما قد يستخدم من الزيوت الاستوائية (مثل زيوت جوز الهند وزيوت النخيل) وتفادى تناول أو استخدام الدهون المهدرجة مثل المسلى بأنواعه المختلفة.

كما تمثل الألبان ومنتجاتها والبيض والحلوى أغذية اختيارية أخرى يمكن إضافتها إلى مكونات الوجبة النباتية الصحية.

ومع اهتمام أمريكا- والدول المتقدمة- بالتغذية النباتية ونشر إرشاداتها المبسطة للمستهلك ليسهل عليه تطبيقها، تعمل على زيادة تسويق منتجات العولمة ومطاعمها السريعة التى تتعارض مع كل قواعد التغذية الصحية النباتية، فى أسواق الدول النامية.

وبالرغم من أن الوجبات السريعة ومطاعمها المنتشرة فى العالم قد ارتبطت بأمريكا وبالدول المتقدمة، إلا أن هناك حملات توعية فى هذه الدول تهدف للحد من استهلاك الوجبات السريعة وتدعو إلى تناول المزيد من الخضروات والفواكه فى الوجبات اليومية مع خفض تناول الدهون وزيادة تناول البقول والأغذية الغنية بالحبوب ومنتجاتها.

ومن المثير للانتباه أن هناك دعوة غذائية أمريكية حديثة تهدف إلى إنتاج أغذية سريعة جديدة ومبتكرة تعتمد أساسًا على الخضروات والفواكه، كما تتضمن هذه الدعوة ضرورة العودة إلى نوعيات الأغذية السريعة الأصيلة التى كانت سائدة فى مجتمع الحضارات الإنسانية القديمة، والتى كان يستخدم فى تحضيرها ما يتوافر فى هذه المجتمعات من خامات غذائية طبيعية تتناسب مع احتياجات بيئة المجتمع الإنسانى.

وفى هذا المجال، ذكرت المجلة العلمية الأمريكية لتكنولوجيا الغذاء فى مايو ٢٠٠٠ أن دراسة الدكتور بول لاتشانس من جامعة رتجرز عن الأغذية التى تتميز بأعلى قيمة

تدفع العولمة الغذائية الدول النامية إلى تغيير الكثير من تشريعاتها ومن أنماط استهلاكها الغذائى المعتادة محليًا، بهدف تسهيل تسويق منتجات العولمة الغذائية بها وتأكيد سيادة تواجدها فى الأسواق المحلية لدول العالم النامى. وفى الجانب الآخر، تعمل الدول المتقدمة على إيجاد تشريعات لديها لمنع دخول أى منتجات غذائية من الدول النامية، مالم يتبع فى إنتاجها نفس النظم المطبقة فى الدول المتقدمة

وفائدة غذائية عند تناولها بكمية معتادة ومألوفة، تشير إلى تربع الجزر والبطاطا على قمة الخضروات من ناحية احتوائها على أعلى نسب من الفيتامينات والمعادن المهمة مقارنة بالخضروات الأخرى.

وتأتى هذه الدراسة بعد سنوات قليلة من الدعوة التى قام بها أحد العاملين فى وزارة الزراعة الأمريكية والتى تهدف إلى جعل البطاطا غذاء أساسيًا على المائدة الأمريكية، وليس مجرد غذاء موسمى. ولقد أدى ذلك إلى توافر منتجات عديدة من البطاطا فى الأسواق الأمريكية على صورة مجمدة (مثل قطع الحلوى المجمدة من البطاطا) وعلى صورة صوابع مقلية أو على صورة شيبسى، أو على صورة فطائر (بطاطا باتيه)، أو على صورة رقائق، أو على صورة دونتس بالبطاطا، وأخيرًا على صورة سجق بطاطا.

وهذه النوعية من المنتجات- التى تهتم بإنتاجها الصناعات الغذائية الأمريكية- تمثل التحول الصحى نحو منتجات أغذية سريعة مفيدة للمستهلك الأمريكى، وإذا كانت الدول النامية التى تستهلك البطاطا على صورتها الطبيعية، ليست فى حاجة إلى منتجات العولمة المصنَّعة من البطاطا، إلا أنها تحتاج إلى ضرورة التأكيد على أن تناول ما يتوافر طبيعيًا فى بيئتها المحلية يتفوق غذائيًا وصحيًا على أى منتجات تغزو أسواقها تحت ستار العولمة.

غذاء العولمة الصحى.. أصله مصرى

وكما ذكرت المجلة العلمية الأمريكية لتكنولوجيا الغذاء فى أغسطس ١٩٩٩، ثم أكدته مرة أخرى فى يونيو ٢٠٠٠، فإن أهم عمل نفسى يؤثر على اتجاه نوعيات المنتجات الغذائية فى القرن الحادى والعشرين هو مدى اعتبار الطعام مألوفًا ومعتادًا بالنسبة للمستهلك فى بيئته المحلية، وبخاصة من ناحية نكهته (رائحته ومذاقه). ومعنى ذلك فإنه فى ظل العولمة- وطبقًا لما حددته المجلة الأمريكية- سوف يُحد من انتشار سلسلة المطاعم الأجنبية التى ترتبط بمذاق أطباق خاصة بدول معينة مثل المطاعم الصينية والمكسيكية واليابانية والإيطالية وغيرها، فيصبح عددها محدودًا بعد انتشارها الكبير فى كل دول العالم. وسوف يُفسح ذلك- بالطبع- المجال لتسويق منتجات العولمة دون منافسة من هذه المطاعم المرتبطة بهوية غذائية أصيلة.

إن ما تؤكده المجلة العلمية الأمريكية لتكنولوجيا الغذاء من أن المستهلك سوف يعود إلى تفضيل منتجات الطعام ذات النكهة المألوفة والمعتادة له محليًا، بل سوف يبحث عن نوعيات الأطعمة التى تمثل هويته التى كانت ترتبط بتراثه الغذائى فى الماضى البعيد، ليوضح بعض أسباب غزو الأسواق المصرية بمنتجات العولمة المصنَّعة من الفول المدمس والطعمية والعدس وغيرها من المأكولات المصرية المرتبطة بهوية المائدة المصرية منذ القدم.

ولعل ذلك يوضح سبب سرعة واهتمام أخصائي الصناعات الغذائية الأمريكية لإعداد وتحضير أنواع جديدة من الأغذية باستخدام المأكولات الشعبية للحضارات القديمة- وبخاصة الحضارة المصرية- للاستفادة من نكهتها المألوفة والمميزة ومن فوائدها الصحية والمغذية، وتقديم هذه المأكولات فى صورة منتجات تغزو أسواق العالم تحت ستار العولمة.

ومن هذه المأكولات- كما حددتها المجلة العلمية الأمريكية- البقدونس والزنجبيل والكركم والحلبة والنعناع والعرقسوس والثوم والبصل والبطاطا والترمس والرجلة والتين الشوكى، والحبهان والكسبرة والتمر هندى والسمسم وطحينة السمسم وزيت السمسم والزعتر والنعناع والعدس والبقول والريحان وخلطة توابل الدقة وروائح الأزهار وبتلاتها الطازجة وزهورها الجافة.

الهوية الغذائية

.. إن استعراض جملة هذه التناقضات فى اتجاهات العولمة الغذائية، ليؤكد على ضرورة المحافظة على هوية طعامنا المصرى الأصيل الذى ثبتت حديثًا فائدته الصحية، وبخاصة أن أى سياسة غذائية فى أى دولة أو منطقة يجب أن تعتمد أولاً على طبيعة الغذاء المألوف محليًا ونظم التغذية المعتادة وتركيب الغذاء المتاح فى البيئة المحلية، وأن تتفق بالتالى مع العادات الغذائية السائدة بين المواطنين فى الدولة.

ولن تتحقق المحافظة على هوية الطعام المصرى إلا بمساعدة المستهلك بكل وسائل الإعلام لكى يحتفظ بثقافته الغذائية المحلية وبعاداته وتقاليده المتوارثة التى يجب أن تتواجد- دائمًا- إعلاميًا فى وضعها اللائق.

كما يجب أن يتطور الطعام المصرى بما يناسب احتياجات ورغبات المستهلك لكى يستطيع أن يواجه بقوة المتغيرات السريعة فى منتجات العولمة الغذائية التى يراها فى أسواقه المحلية.

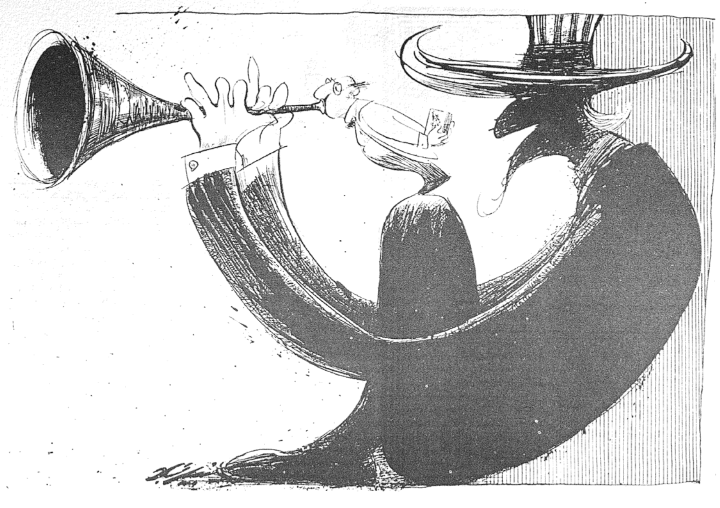
إن سيادة تواجد الطعام المصرى فى السوق المحلية يعتمد أساسًا- فى ظل العولمة- على المستهلك صاحب الكلمة الأخيرة فى فرض نوعية المنتجات الغذائية التى تعرض فى أسواقه.. فهل نساعده على ذلك.. أم نتركه يلهو مع الإعلانات الجذابة وجوائز وهدايا المسابقات التى تغير من هوية طعامه المصرى المفيد.. وتدفعه إلى طعام العولمة.. الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع. ■

كتاب الزاوية

المسحراتى

د. صاحب ندا

مسحراتى صاحب ندا
منقراتى كدا وكدا
فى إيدى طبلة مِجَوّدَه
أمشى على ريحة الندى
والنسمة فى الجو منشدة
توالى موالى والحدا
يا مصر يا واحة مسعدة
نطقت والفجر كان صدى
حتى الشجر فى الحجر شدا
لما بدأت التاريخ بدا
لحمه وطول الزمن سدى
أنت الأميرة المجاهده
الإنسانية أم الفدا
أم الحضارة يا والده
ضميت الأزهر والسيده
وألف مادنة يدًا يدا
سياج لأمه موحده
يا مصر عيشى على المدى
واهدينا ثانيه مخلده
إما الشهادة أو الهدى
النصر الأكبر على العدى
يا كحل عينى يا منجدة



هذا التعبير هو عنوان هذا الكتاب، الذى يعنى فى حقيقة الأمر السؤال عمن يقف وراء العازف.

والمقصود بالعازف هنا، مجموعة الكتاب والفنانين والمجلات الثقافية التى صدرت فى الغرب بعد الحرب العالمية الثانية كجزء من نشاط الحرب الباردة الثقافية ضد المعسكر الاشتراكى وأيديولوجية الشيوعية. وسوف يرى القارئ من قراءة هذا العرض أن المخابرات الأمريكية هى التى كانت تقف وراء هذا النشاط الثقافى تمويلاً وتوجيهًا، ولذلك فإن العنوان الفرعى لهذا الكتاب هو:

«المخابرات الأمريكية فى الحرب الباردة الثقافية»

والكتاب استغرق من مؤلفته سنوات فى الحصول على الوثائق ودراستها. ويقول الدكتور إدوارد سعيد فى تعليقه عنه فى مقال له فى مجلة London Review of Books إنه عمل رئيسى من أعمال البحث التاريخى.

والقيادات الأساسية التى بدأت النشاط الثقافى للحرب الباردة كانت فى الغالب الأعم عناصر من روسيا أو أوروبا الشرقية هاجرت عائلاتها من الشرق إلى أمريكا، إما زمن القيصرية أو بعد ثورة ١٩١٧، وهم من يهود هذه المناطق.. وقد التحق بعضهم بالجيش الأمريكى خلال الحرب، وعملوا ضمن سلطات الاحتلال الأمريكى لألمانيا عقب انتهاء الحرب، وقد تم تجنيدهم فى المخابرات الأمريكية تباعًا بعد ذلك.

وغنى عن البيان أن العداء للاشتراكية وللاتحاد السوفيتى هو الذى كان يجمع بينهم جميعًا.

ومن أمثلة هؤلاء، وربما أهمهم جميعًا، مايكل جوسلسون Josselson.. وهو ضابط أمريكى من أصل ليتوانى، يتحدث أربع لغات بطلاقة، وقد عمل ضمن قوات الاحتلال الأمريكى فى برلين، يهودى ابن تاجر أخشاب فى ليتوانيا. وصل إلى برلين لأول مرة بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧، وقد عادى معظم أقاربه الثورة فاعتقلوا أو أعدموا، ولذا لم تعد الأسرة إلى ليتوانيا أبدًا. ومن عمله فى قوات الاحتلال الأمريكى تم تجنيده فى المخابرات الأمريكية، وأصبح مسئولاً بعد ذلك فى باريس عن نشاط «مؤتمر حرية الثقافة» وأحد المسئولين الرئيسيين عن مجلة «مواجهة» Encounter، وهى المجلة التى كانت المخابرات الأمريكية تمول إصدارها فى لندن بعد الحرب، وكان رئيس تحريرها زمنًا طويلاً الشاعر الإنجليزى ستيفن اسبندر.

ومن هؤلاء أيضًا نابوكوف، روسى أبيض يهودى عاش فى برلين قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٣، عمل مع سلطات الاحتلال الأمريكى فى برلين بعد انتهاء الحرب، فنان وموسيقار له مقطوعات مشهورة، وكان يتردد على شقته فى برلين مجموعة من المثقفين المعادين للدولة السوفيتية وفى مقدمتهم مايكل جوسلسون، وقد عمل ضابطًا بقسم المخابرات فى هيئة الاحتلال الأمريكى فى برلين.

ثم هناك ثالثهم ميلفن لاسكى تعلم لغة اليديش من جده اليهودى أصلاً، هاجرت عائلته إلى أمريكا بعد ثورة أكتوبر، ولد فى نيويورك وتعلم فى جامعتها، وتميز بأنه حاد فى مواقفه الفكرية، عمل أيضًا ضابطًا فى وحدة المخابرات الأمريكية فى برلين، وهو أول من نادى بالحرب الباردة الثقافية ضد السوفييت، أنشأ مجلة Der Monat كجسر أيديولوچى بين المثقفين الأمريكيين والألمان المؤيدين للفكر الرأسمالى، وقد عمل محررًا لمجلة «مواجهة» Encounter بعد استقالة ستيفن اسبندر من المجلة عام ١٩٦٧، بعد أن ذاعت فضيحة قيام المخابرات الأمريكية بتمويل المجلة وتوجيهها.

تصاعدت الحرب الباردة بين الشرق والغرب إثر إعلان موسكو عن نجاحها فى صناعة القنبلة الذرية فى أغسطس عام ١٩٤٩، وبعد إنشاء الكومنفورم عام ١٩٤٧ كهيئة تنسيق بين الأحزاب الشيوعية وتبادل المعلومات والخبرات، وازداد الموقف حدة بعد إدانة موسكو لتيتو قائد يوغسلافيا عام ١٩٤٩، وسحب خبرائها العسكريين وإيقاف معوناتها الاقتصادية لبلجراد.

وقد تمثل الرد البريطانى على هذا فى إنشاء إدارة جديدة، تتبع رسميًا وزارة الخارجية البريطانية، سميت «إدارة البحث الإعلامى» Information Reseach Dep. ورغم اسمها البرىء، فإن هذه الإدارة التى كان مهندسها وزير الخارجية إيرنست بيفن كانت إدارة سرية للحرب الباردة، وقد اعتمدت فى ميزانيتها على المصروفات السرية للحكومة البريطانية، وكان بيفن يقول: «لا نستطيع أن نامل فى هزيمة الشيوعية على أسس مادية فقط، إنما ينبغى أن نضيف إلى ذلك نداءً إيجابيًا على أسس المبادئ المسيحية والديمقراطية، ينبغى أن نقدم أيديولوچية منافسة للشيوعية».

ولقد كانت مشكلة الإعلام البريطانى هى أنه رسم خلال الحرب صورة وردية للاتحاد السوفيتى ولستالين، وأصبحت المشكلة بعد الحرب هى: كيف يمكن التخلص من هذه الصورة القديمة وإحلال صورة معادية لها. تلك كانت مهمة «إدارة البحث الإعلامى».

ومن أول خبراء هذه الإدارة كاتب هنغارى الأصل، كان شيوعيًا فى الماضى ثم تحول إلى العداء للشيوعية، وكتب رواية «الظلام وقت الظهر» عن قسوة النظام السوفيتى. هذا الكاتب هو آرثر كوستلر، وقد اشترت الإدارة البريطانية من كتابه ٥٠ ألف نسخة وزعت عن طريق المجلس البريطانى.

وقد قام كوستلر بإلقاء العديد من المحاضرات فى بريطانيا وأمريكا، هى بمثابة دعوة للمثقفين للتعاون مع قادة السلطة فى بلادهم والتخلى عن الأفكار «الساذجة» التى تدعو إليها الماركسية، وكانت محاضراته هذه وزياراته هى فرصة للتعرف على خبراء الخارجية الأمريكية ومساعدى الرئيس والصحفيين وأخيرًا بالطبع موظفى المخابرات! وكانت المخابرات الأمريكية مشغولة آنذاك بفكرة أن أفضل وسيلة لمحاربة الشيوعية هى استخدام الشيوعيين السابقين الذين تخلوا عن فكرهم. وبالنقاش مع كوستلر أخذت هذه

Who Paid the Piper

(من كان يدفع لعازف المزمار)

By Frances Stoner Saunders

Granta, 1999,

تجنيد الكتاب والفنانين

أثناء الحرب الباردة

من يدفع للزمار؟!

عبد العظيم أنيس

> كانت مشكلة الإعلام البريطاني هي أنه رسم خلال الحرب صورة وردية للاتحاد السوفيتي ولستالين، وأصبحت المشكلة بعد الحرب هي: كيف يمكن التخلص من هذه الصورة القديمة وإحلال صورة معادية لها. تلك كانت مهمة «إدارة البحث الإعلامي»

الفكرة ثوبًا جديدًا.. هو محاربة الشيوعية عن طريق اليسار غير الشيوعي. وأصبحت هذه الفكرة هي الأساس النظري لعمل الوكالة خلال عقدين بعد الحرب.

ناقش كوستلر الفكرة مع ريتشارد كروسمان النائب العمالي البريطاني الذي عمل رئيسًا لإدارة الحرب النفسية خلال الحرب، واتفقا على نشر كتاب يضم مقالات الشيوعيين السابقين الذين تحولوا ضد الشيوعية بعنوان «أوهام ضائعة»، وكان من الطبيعي أن يتصل هذا العمل بميلفن لاسكى المسئول الإعلامي الأمريكي في ألمانيا، وقد أسهم في تحرير هذا الكتاب كل من إنجازيو يوسيلوني، أندريه جيد، ريتشارد رايت، آرثر كوستلر، ستيفن اسبندر، لويس فيشر، أندريه مالرو.. إلخ.

وكل هؤلاء عبروا عن خيبة أملهم في التجربة الشيوعية، وقد نشر الكتاب بعنوان «الإله الذي فشل»، وبالطبع قامت المخابرات الأمريكية بتمويل إصدار هذا الكتاب مع وزارة الخارجية الأمريكية، ووزع الكتاب على نطاق واسع في بريطانيا وأمريكا ودول أوروبا الغربية.

وبينما كان الكتاب يوزع على نطاق واسع قام آرثر كوستلر بمقابلة ميلفن لاسكى وناقش معه مشروعًا أكثر طموحًا وأعظم دوامًا.

لقد كان الكومنفورم يستعد لمؤتمر السلام في باريس عام ١٩٤٩، وكان السؤال هو: كيف يمكن مواجهة هذا المؤتمر وآثاره الدعائية؟

وكانت المخابرات الأمريكية ووزارة الخارجية مشغولتين بنفس هذه القضية. وكان الاقتراح الذي تبناه ويزنر Wisner مسئول العمل المخابراتي في الخارجية الأمريكية هو ترتيب يوم يدعى «يوم المقاومة» في مواجهة مؤتمر باريس، يشترك فيه قادة الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية.

كانت المهمة صعبة، فمؤتمر باريس للسلام تشترك فيه أسماء عالمية كبيرة مثل إيليا إيهرنبرج، وألكسندر فادييف، والمغني الزنجي الأشهر بول روبسون والكاتب الأمريكي هوارد فاست ورئيس الطاقة الذرية الفرنسية فردريك كوري والكاتب الدانمركي مارتن أندرسون والاشتراكي الإيطالي بيترو نينني إضافة إلى رسائل تأييد من الفنان الكبير بيكاسو والممثل العظيم شارلي شابلن، وقد أطلق بيكاسو حمامته المشهورة بهذه المناسبة.

تمثل الرد على مؤتمر باريس للسلام في تنظيم «اليوم الدولي لمقاومة الدكتاتورية والحرب» في ٣٠ أبريل عام ١٩٤٩، وجاءت رسائل التأييد لهذا الاجتماع من آبتون سبنكلر، جون دوس باسوس، وجوليان هكسلي، وريتشارد كروسمان. ومن العناصر التي وصلت لحضور هذا اليوم على نفقة المخابرات إنجازيو سيلوني وكارل ليفي وسيدني هول وجيمس فارلو وفيني برموكواي.

وعلى الرغم من الإعداد الدقيق لهذا اليوم إلا أنه كان عملاً فاشلاً بكل المقاييس، ففي المساء استولى الفوضويون على الميكروفون وأدانوا الاجتماع وهاجموا سياسة الولايات المتحدة، وبالطبع أصيب ويزنر مسئول الخارجية الأمريكية بخيبة الأمل، وأعد هول دراسة عن جهل المثقفين الأوروبيين بحقيقة الأوضاع في أمريكا في محاولة لتهدئة ويزنر.

وفي ضوء هذا أخذت مجموعة من المثقفين الألمان والأوروبيين المتعاونين مع قوة الاحتلال الأمريكي في برلين في الاجتماع لوضع خطة جديدة في مقاومة الشيوعية .. خطة تقوم على إقامة بناء ثابت للمقاومة الثقافية للفكر الشيوعي. وقد تم الاجتماع في فندق في فرانكفورت، حضره ميلفن لاسكى، روث فيشر، فرانز بوركينار، كما حضره مايكل جوسلسون، وفي هذا الاجتماع نوقشت فكرة إقامة مؤتمر لحرية الثقافة Congress for culture freedom، وعرف هذا الموضوع باسم «اقتراح جوسلسون».

ولم تكن هناك مشكلة في تمويل هذا العمل، فأموال مشروع مارشال كانت بمثابة الصندوق الدائم المستخدم من المخابرات الأمريكية في كل مكان في أوروبا. واعتمدت ميزانية متواضعة مبدئية لهذا العمل، قدرها خمسون ألف دولار فقط، وأرسل المشروع إلى ويزنر في واشنطن الذي وافق عليه فورًا.

وكان لا بد من عمل للترويج لهذا المشروع، وهكذا عقد اجتماع في برلين حضره مثقفون أمريكيون كُثْر، منهم علماء وصحفيون وأدباء، وفيه تشكلت سكرتارية للإعداد للمشروع من مايكل جوسلسون ولاسكى وكوستلر وبراون وسيلوني واتخذ مقرًا مؤقتًا لها منزل لاسكى في برلين.

لقد ادعى البعض أن سيلوني لم يكن يعرف أن المخابرات الأمريكية وراء هذا العمل، لكن أرملته قالت فيما بعد إنه كان مترددًا في قبول فكرة المؤتمر، لأنه كان يشك في أنها عملية وراءها وزارة الخارجية الأمريكية.

دعى إذن لأول اجتماع لهذا المؤتمر في ٢٥ يونيو عام ١٩٥٠ بالمنطقة الأمريكية من برلين، وجاء من فرنسا ريمون آرون وأندريه فيليب، أندريه مارلو، ومن بريطانيا حضر جوليان إمرى وهربرت ريد، وهيو تروفر روبر، وهارولد ديفز وآخرون، وافتتح المؤتمر بخطاب من عمدة برلين الغربية إيرنست روتير، ولمدة أربعة أيام دار الحوار حول الموضوعات الآتية: العلم والشمولية، الفن والفنانون والحرية، المواطن في مجتمع حر، الدفاع عن السلام والحرية، ثقافة حرة في عالم حر.

وبدا في المؤتمر اتجاه حاد يدعو إلى تعبئة الانتلجنسيا الأوروبية ككتيبة نضال ضد الشيوعية، كما بدا هنا الاتجاه في بحث بيرنهام الذي ميز بين قنبلة ذرية طيبة (أمريكية طبعًا) وقنبلة ذرية شريرة (روسية)، وفي الهجوم على سارتر ومورلي بونتي لرفضهما حضور الاجتماع.

وكان بعض أعضاء الوفد البريطاني (وبخاصة هيو تروفر روبر) منزعجين من اللهجة الاستفزازية التي بدأها كوستلر وآخرون في المؤتمر، وقال هيو فيما بعد إنه لم يكن هناك في المؤتمر إلا القليل الذي يمكن مناقشته وأنه تذكر خطب جورنج ضد الشيوعية، وهو يسمع عددا من المندوبين.

ولم يفت هيو أن يفكر أن جهة حكومية أمريكية لابد أن تكون وراء هذا المؤتمر، وبعد ذلك بسنوات قال توم برادى من رجال المخابرات الأمريكية معترفًا: «إن التفكير البسيط كان كافيًا لإدراك من وراء هذا المؤتمر، إذ علينا أن نتذكر أنه عندما عقد هذا المؤتمر كانت أوروبا فيَ حالة إفلاس».

ولقد أوضح موقف الوفد البريطاني أمام جوسلسون ورؤسائه في المخابرات أنه لا بد من بذل مجهود جديد لكسب المثقفين البريطانيين لهذا المشروع.

كانت الخارجية الأمريكية - وويزنر على وجه الخصوص - راضية عما تم تحقيقه في المؤتمر، لقد أصبح لدى المخابرات مخزن من المثقفين الأوروبيين يمكن الاعتماد عليهم في أي موقف تود اتخاذه، لكن ظهور ميلفن لاسكى بشكل بارز في المؤتمر، وهو المسئول الإعلامي المعروف في سلطة الاحتلال الأمريكي أغضب ويزنر، وكان من رأيه أنه مالم يستبعد لاسكى من مؤتمر حرية الثقافة فإنه يستحيل أن تستمر المخابرات الأمريكية في دعم المؤتمر، وأرسل مذكرته إلى ألمانيا بذلك، واضطر جوسلسون إلى قبول هذا الوضع على أن يظل لاسكى مستشاره الأول - بشكل غير رسمي - في كل قضايا المؤتمر.

وكان ويزنر هو في الحقيقة المنظم الخفي لكل أعمال المؤتمر، فهو الذي عرض على جوسلسون وظيفة إدارة أعمال المؤتمر، وهو الذي أصدر قرار نقل مكان المؤتمر من برلين إلى باريس، كما عين في اللجنة الإدارية لمؤتمر حرية الثقافة جيمس بيرنهام (تروتسكى سابقا) الذي كان يمثل خبرة في فهم الأحزاب الشيوعية، والغريب أن يتكشف من هذا الكتاب أن بيرنهام هذا لعب مع كيرميت روزفلت دورًا رئيسيًا في عملية Ajax التي أزاحت مصدق عن كرسي السلطة في طهران وأعادت الشاه!

اجتمعت اللجنة الإدارية وبعد مناقشات طويلة تم تبني الهيكل الذي اقترحه لاسكى وجوسلسون: لجنة دولية من ٢٥ عضوًا، خمسة رؤساء شرف للجنة الإدارية، لجنة تنفيذية من خمسة، مدير تنفيذي عام، مدير تحرير، مدير لمكتب باريس، مدير لمكتب برلين، أمين عام للمؤتمر مماثل للأمين العام في تنظيمات الشيوعيين.

وكانت المشكلة الأولى التي تواجه المؤتمر هي كيفية كسب المثقفين المترددين والمحايدين. إن تحدى الأساس الفكرى للحياد كان أحد الأهداف الأساسية



لسياسة الحرب الباردة الأمريكية. وكان من رأى جوسلسون أن المنظمة فى حاجة إلى نغمة معتدلة لكسب المترددين والمحايدين. وأغضب هذا كوستلر الذى تميز بالعنف فى جميع مقولاته، وقد أدى قبول رأى جوسلسون فى المخابرات إلى إزاحة كوستلر الذى أخذ يرقب مؤتمر حرية الثقافة بمرارة وهو يبتعد عن أفكاره.

وبدأت سياسة إنشاء فروع المؤتمر فى العواصم الأوروبية المختلفة، فتم إنشاء «الاتحاد الإيطالى لحرية الثقافة» فى أواخر عام ١٩٥١، تحت قيادة سيلونى، لكنه سرعان ما انهار وأرسل نابوكوف لمعرفة السبب فتبين أنه رئاسة سيلونى لهذا الاتحاد.

وسافر نابوكوف إلى لندن لتأسيس فرع للمؤتمر فى بريطانيا، وقابل من أجل ذلك اليوت، وايزيا برلين، ورؤساء المجلس البريطانى والمسئولين عن البرنامج الثالث فى B.B.C وريتشارد تروسمان الذى كان آنذاك الأمين العام لحزب العمال، وأبلغ نابوكوف زملاءه فى باريس أنه وجد تأييدًا وتشجيعًا واسعًا فى بريطانيا، لكنه أبلغ مسئولى المخابرات أن الكثير من البريطانيين يعتقدون أن المؤتمر منظمة أمريكية يقودها هذا المسئول، وبالتالى فإن أهم عمل فى رأى نابوكوف هو أن يوضح للمثقفين الأوروبيين أن مؤتمر حرية الثقافة ليس منظمة سرية أمريكية.

ولقد تشكل الفرع البريطانى فى نهاية الأمر وعلى رأسه ستيفن اسبندر ومالكون ماجريدش، ومع ذلك فقد ظل المثقفون البريطانيون يرتابون فى مصادر تمويل هذا الفرع، حتى أن بعض الأعضاء كانوا يقولون: عندما كنا ندعو أحدًا للعشاء ويعرض أن يدفع الحساب نقول له: لا تقلق.. فدافع الضرائب الأمريكى هو الذى يدفع الحساب!

فى أوائل عام ١٩٥١ اقترح نابوكوف عمل مهرجان للفنون تقدم فيه أعمال الفن الأمريكى والأوروبى لإثبات أن ما يدعيه البعض عن هبوط الفن الأمريكى غير صحيح.

ومع أن الاقتراح قوبل بتردد من جانب براون وجوسلسون ولاسكى إلا أن «وحدة المنظمات الدولية» فى المخابرات بقيادة توم براد، كانت متحمسة لهذا الاقتراح. فى ١٥ مايو عام ١٩٥١ أصدرت اللجنة التنفيذية لمؤتمر حرية الثقافة أمرًا لنابوكوف بالإعداد لهذا المهرجان.

وفى أول أبريل عام ١٩٥٢، افتتح المهرجان فى باريس، فى البداية لأوركسترا بوسطن السيمفونية، ولمدة شهر كامل هبطت على باريس مئات السيمفونيات والأوبرات لحوالى سبعين من مؤلفى القرن العشرين.

كما نظمت معارض لأعمال النحت والرسم، ولقد حقق المهرجان بعض النجاح إلا أنه هوجم من الصحافة الشيوعية فى فرنسا باعتباره جزءًا من الخطة الماكرة للاحتلال الأيديولوجى الأمريكى لفرنسا.

على أن من أهم التطورات التى ارتبطت بهذا المهرجان فى جانب التمويل هو ظهور مؤسسة تدعى مؤسسة «فارفيلد» تولت عملية التمويل

والحقيقة أن هذه المؤسسة لا تزيد على مسئول وحساب فى البنك، أما الممول الحقيقى فهو المخابرات الأمريكية، ولقد دأبت المخابرات الأمريكية على إنشاء مثل هذه المؤسسات لتسهيل عمليات التمويل، فمؤسسة فارفيلد ليس لها مكان محدد، ويكفى أن تتفق المخابرات مع مليونير تثق فيه وتضعه على رأس هذه المؤسسة بعد تمويلها حتى تنساب الدولارات باسم غير اسم المخابرات، لكن المثير للضحك أن نابوكوف ادعى فيما بعد أنه لم يكن يعرف أن تمويل المهرجان قد تم من مؤسسة للتجسس!

ولقد اتضح أنه خلال السبعة عشر عامًا التالية ضخت المخابرات الأمريكية عشرات الملايين من الدولارات لمؤتمر حرية الثقافة هذا، فكأنها كانت بمثابة وزارة ثقافة أمريكية، ولم يقتصر ضخ هذه الأموال عن طريق مؤسسات وهمية مثل مؤسسة فارفيلد، بل استخدمت المخابرات مؤسسات حقيقية مثل مؤسسة فورد ومؤسسة روكفلر ومؤسسة كارينجى كغطاء للعديد من عمليات التمويل، وكانت وجهة نظرها أن هذا الأسلوب ملائم تمامًا لمنظمات ديمقراطية لأنه يؤكد للمستفيدين من هذا التمويل أن مصادرهم فى التمويل بريئة ونظيفة.

رغم الجهد الذى بذل فى تنظيم مهرجان الفنون كانت هناك حيرة حول اتجاه العمل فى الحرب الثقافية ضد الشيوعيين، لكن رجلاً واحدًا كان له الجهد الأكبر فى وضع أجندة الحرب الباردة الثقافية، هو جاكسون C.D. Jackson، وقد عمل مع إيزنهاور خلال الحرب العالمية الثانية، وبعد انتخاب إيزنهاور رئيسًا للجمهورية فى يناير عام ١٩٥٣ عين جاكسون «المستشار الخاص للرئيس فى شئون الحرب النفسية». وأعطى تعيين جاكسون لمؤتمر حرية الثقافة زخمًا قويًا، فإذا احتاج المؤتمر إلى غطاء فى مجلات يمولها تكفل جاكسون بذلك، وإذا احتاج المؤتمر إلى أموال خاصة سرعان ما يتصل جاكسون برجل من رجال الأعمال من أصدقائه لضمان التمويل وهكذا. وفى هذا الإطار ازدهرت مجلات أمريكية تقف المخابرات الأمريكية وراءها مثل مجلة Partisan Review التى رأس تحريرها سيدنى هوك ومجلة New Leader التى رأس تحريرها ليفيتاس Levitas، وهو مهاجر روسى عمل مع تروتسكى وبوخارين فى السنوات الأولى لثورة أكتوبر، ومن المفيد أن نذكر أن تمويل المخابرات لمجلات تصدر فى أمريكا هو أمر يخالف نص ميثاقها الذى ينص على عدم مساعدة أى منظمات داخلية.

على أن أهم مشروع ثقافى أسسته المخابرات الأمريكية (بالاتفاق مع المخابرات البريطانية) هو مشروع مجلة «مواجهة» En-counter التى صدرت من لندن عام ١٩٥٣، واستمر صدورها حتى عام ١٩٩٠.

لقد كانت المخابرات الأمريكية حريصة على تأسيس مجلة تتصدى لمجلة نيو ستيتسمان New Statesman البريطانية اليسارية، وكانت هذه المجلة قادرة على الصمود فى السوق لأنها كانت توزع مائة ألف نسخة أسبوعيًا، فقامت المخابرات بتأسيس مجلة «القرن العشرون» بهدف الدخول فى محاورات ومساجلات مع «نيو ستيتسمان». ولم تنجح فكرة هذه المجلة.

كانت المخابرات الأمريكية مشغولة آنذاك بفكرة أن أفضل وسيلة لمحاربة الشيوعية هى استخدام الشيوعيين السابقين الذين تخلوا عن فكرهم. وبالنقاش مع كوستلر أخذت هذه الفكرة ثوبًا جديدًا.. هو محاربة الشيوعية عن طريق اليسار غير الشيوعى

عين فى اللجنة الإدارية لمؤتمر حرية الثقافة جيمس بيرنهام (تروتسكى سابقا) الذى كان يمثل خبرة فى فهم الأحزاب الشيوعية، والغريب أن يتكشف من هذا الكتاب أن بيرنهام هذا لعب مع كيرميت روزفلت دورًا رئيسيًا فى عملية Ajax التى أزاحت مصدق عن كرسى السلطة فى طهران وأعادت الشاه!

ومن هنا نشأت فكرة تأسيس مجلة أنجلو أمريكية تعبر عن تيار يسار الوسط، بشرط أن تكون رسميًا بعيدة عن مؤتمر حرية الثقافة، إذ أن أمريكا كانت قد التزمت بالا تقوم بأى نشاط دعائى داخل بريطانيا.

ولقد نوقش مشروع المجلة بين المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية، وقام ويزنر بالاتصالات الأولى فى هذا الميدان، وفى لندن تم اجتماع ضم وود هاوس Wood House (لعب دورًا أساسيًا فى إسقاط مصدق بإيران) وجوسلسون ودى نيفيل. واتفق على إنشاء مجلة ثقافية تصدر من لندن ويكون رئيس تحريرها بريطانيا تدفع بريطانيا راتبه، على أن تشترى الخارجية البريطانية عددًا متفقًا عليه من النسخ يتم توزيعه عن طريق المجلس البريطانى British Council. وبالإضافة إلى ذلك سوف يتولى مؤتمر حرية الثقافة تمويل المجلة سرًا. وأكد جوسلسون أن الأموال التى ستصل المجلة ستكون عن طريق مؤسسة فارفيلد. كما اتفق على أن يكون هناك محرر أمريكى مشارك. وكان المرشح البريطانى لرئاسة التحرير هو الشاعر ستيفن اسبندر، أما الأمريكى المشارك فقد اتجه الترشيح إلى إيرفنج كريستول.

لقد اختير اسبندر لأنه شاعر وأديب معروف من خريجى أكسفورد، كان عضوًا بالحزب الشيوعى البريطانى فترة قصيرة من حياته، ثم انشق عن الحزب وعرف بمقالاته بعد الحرب فى اتجاه الحرب الباردة.

نشرت المجلة العديد من المقالات لكتاب معروفين فى أوروبا والولايات المتحدة، وكان لها وضع رئيسى فى التاريخ الثقافى بعد الحرب العالمية الثانية. فقد نشرت فيها نانسى مينفورد مقالها الشهير «الديمقراطية الإنجليزية» كما نشر بها إيزيا برلين أربع مقالات عن الأدب الروسى، ونشرت فيها مقالات نابوكوف عن بوشكين، كما نشرت مقالات بأقلام أودن وتوينبى وهربرت ريد.. إلخ. وهم من أعظم عقول أمريكا وبريطانيا، لكن المجلة اتسمت بالصمت الكامل فيما يتعلق بالقضايا السياسية.

على أن المجلة واجهت مشكلة الخلافات فى الرأى بين اسبندر وكريستول من ناحية، وبين جوسلسون وكريستول من ناحية أخرى، فقد كتب جوسلسون من باريس بعد صدور العدد الأول إلى كريستول يقول إن «العدد ليس به سياسة بالقدر الكافى» ويرد كريستول من لندن قائلاً: «إننا فى لندن أقدر منكم فى الحكم على محتويات المجلة».

على أن أول أزمة حقيقية واجهت المجلة كانت بسبب مقال أعد للنشر فيها حول مسألة إعدام جوليوس وإيثيل روزنبرج. إنه مقال كتبه فيلدر Fielder للمجلة يلوم فيه الشيوعيين على ما حدث للزوجين، وهو يتحدث عن الزوجة بعد إعدامها حديث المتشفى وإن كان يعترف بتنامى الشعور المعادى لأمريكا فى أوروبا بعد تنفيذ أحكام الإعدام.

وقد انزعج سيدنى هول (وهو أحد أعضاء مجلس التحرير) عندما رأى بروفات المقال، واقترح أن يضاف إلى المقال فى النهاية شبه اعتذار بأن المقال لا ينبغى أن يفسر بأنه هجوم على موتى. إنه لا يقدم تحليلاً لشخصيات سياسية وإنما لأسطورة سياسية.

على أن هذا المقال فجر خلافًا حادًا بين المثقفين حول هذا الموضوع وكتب الأديب البريطاني فورستر خطابًا إلى اسبندر محتجًا على ذلك المقال عن الزوجين روز بنرج «ليس لما ورد به من وقائع فقد تكون صحيحة وإنما للقسوة والازدراء اللتين عالج بهما المقال الأيام الأخيرة لإيثيل روز نبرج» حتى الشاعر إليوت كتب ردًا على طلب اسبندر له بالمساهمة بمقالات وقصائد يقول: «إن لدى شكوكًا حول فعالية هذه المجلة Encounter فمن الواضح لى أنها منشورة تحت إشراف أمريكى». وقال أنتونى هارتلى فى مجلة Spectator: «إن من الأسف أن تصبح مجلة Encounter مجرد سلاح فى الحرب الباردة». وكتب الأستاذ الجامعى والناقد جراهام هيو مشيرًا إلى المجلة بقوله «هذا الرضيع الأنجلو أمريكى».

وكما أدى هذا المقال إلى انقسام الرأى حول هذه المجلة، فإن الخلاف حول سياسة التحرير بين اسبندر وكريستول قد ازداد وكتب اسبندر إلى جوسلسون شاكيًا من تجاهل كريستول لمقترحاته.

وفى هذا الجو المحموم ظهرت مشكلة السناتور مكارثى الذى قاد حملة صليبية عمياء ضد المثقفين الأمريكيين تحت ستار البحث عن النشاط المعادى لأمريكا فأدين العشرات من العلماء والفنانين وتحول عدد من الفنانين إلى مخبرين عن زملائهم أمام لجنة مكارثى، وفشل الفرع الأمريكى لمؤتمر حرية الثقافة فى الدفاع عن حرية الفكر أو التصدى لأعمال مكارثى ولجنته.

وعلى عكس ذلك فإن مؤتمر الدفاع عن حرية الثقافة فى باريس تحت قيادة جوسلسون اكتسب عضوية هامة مثل جوليان هكسلى وأندريه مالرو وهربرت ريد! وأنشأ مجلة Forum فى فيينا تحت قيادة ثوربرج، كما أسس مجلة «العلم والحرية» فى يوليو عام ١٩٥٣ بتمويل من مؤسسة روكفلر، ثم أصدر مجلة Soviet Survey عام ١٩٥٥، ورأس تحريرها والتر لاكير الذى كان فى نفس الوقت الممثل الرسمى للمؤتمر فى إسرائيل، وفى أبريل عام ١٩٥٦ ظهر فى روما أول عدد من مجلة Tempo Presant يحررها سيلونى كمجلة مفتوحة لمن تركوا الحزب الشيوعى الإيطالى، كما بدأت فى الظهور فى استراليا مجلة Quadrant بتمويل من المؤتمر وفى الهند مجلة Quest ، ثم ظهرت مجلة «حوار» فى بيروت بعد ذلك.

كانت المخابرات الأمريكية فخورة بصدور هذه المجلات وبتمويلها. وبلغت الأموال التى أنفقتها عام ١٩٦١ أكثر من ٥٦٠ ألف دولار، ارتفعت إلى ٨٨٠ ألفا عام ١٩٦٢

لقد كانت المخابرات الأمريكية فخورة بصدور هذه المجلات وبتمويلها. وكمثال على الأموال التى أنفقتها المخابرات، فى عام ١٩٦١ بلغ مجموع ما دفعته جهات المخابرات للمجلات أكثر من ٥٦٠ ألف دولار، ارتفعت إلى ٨٨٠ ألف دولار عام ١٩٦٢، وقد بلغ ما دفعته مؤسسة فار فيلد للمؤتمر عام ١٩٦٢ نحو مليون دولار.

على أن الأزمة التى عصفت بمجلة En- counter بدأت بوادرها عندما أرسل دوايت ماكدونالد مقالاً إلى المجلة بعنوان «أمريكا أمريكا» ضمنه انتقادات للحياة الأمريكية، وقد قبله اسبندر دون أن يقرأه جيدًا.

لكن كريستول انزعج من المقال وقال إنه يشبه كتابات جون أوزبورن وقال إن مقال ماكدونالد أوسع نقدًا للحياة الأمريكية مما كان يظن فى أول الأمر. لكنه فى النهاية وافق على النشر تجنبًا للخلاف مع اسبندر، على أن فرع باريس للمؤتمر ضغط لمنع نشر المقال، وقد تم هذا بالفعل، فلجأ ماكدونالد إلى نشر المقال فى صحيفة أخرى وكتب إلى اسبندر شاكيًا من الرقابة فى المجلة. وبدأت بعض المجلات تتساءل علنًا: هل يجوز للمخابرات أن تمول مجلات رأى، وهل من المناسب أن تدفع مبالغ كبيرة لشعراء روس يمكن اعتبارها كرشاوى؟

ثم بدأت تظهر مقالات تقول علنًا إن مؤتمر حرية الثقافة ومجلة «مواجهة» Encounter ليست إلا أدوات فى يد المخابرات الأمريكية.

على أن الموقف قد تفجر عندما ألقى كونر كروز أو براين محاضرة فى جامعة نيويورك اتهم فيها المثقفين فى الغرب بأنهم خدم لهيكل السلطة، جاء هذا فى زمن الحرب الفيتنامية، وكان هذا بداية تمرد المثقفين على سياسة الدولة الأمريكية فيما يتعلق بالحرب الفيتنامية، فبدأت مواقف سناتور فولبرايت ضد هذه الحرب، وجاءت كتابات نورمان ميللر فى نفس الاتجاه.

وفى ٢٦ أبريل عام ١٩٦٦ ظهر مقال جديد يؤكد ما قاله أوبرين من أن مجلة «مواجهة» هى من تمويل المخابرات الأمريكية، وقد رد لاسكى (باسم مستعار) على أوبرين مشككًا فى سلوكه عندما كان ممثلاً للأمم المتحدة فى الكونغو.

وقام أوبرين برفع قضية قذف على مجلة مواجهة، وكسبها. ولقد كانت هناك مجلة تصدر فى كاليفورنيا تدعى رامبارتس Ramparts بدأت تهتم بدراسة حقيقة وضع المنظمات التى تعمل كواجهة للمخابرات، وقامت بنشر سلسلة من المقالات عن هذا الموضوع وعن العمليات السرية للمخابرات، وأكدت المجلة فى هذه المقالات أن المخابرات الأمريكية تمول مجموعة من المجلات الثقافية فى مقدمتها مجلة «مواجهة»، وهكذا ثبت أن كل ما قاله أوبرين عن المجلة صحيح.

كان اسبندر فى الولايات المتحدة عندما ظهر كل هذا وكان المحرر الفعلى للمجلة فى لندن هو لاسكى رغم وجود كيرمود كمحرر أمريكى مشارك، وقد اقترح اسبندر أن يصدر المحررون بيانًا يقولون فيه إنهم لم يكونوا على علم بمصادر التمويل، وهذا ما تم بالفعل، ثم اجتمع مجلس التحرير فى لندن وأعلن اسبندر وكيرمود استقالتيهما من عملهما فى المجلة، وفى مايو عام ١٩٦٧ خرجت «نيويورك تايمز» بما نشرته فى صفحتها الأولى نصه «ستيفن اسبندر يترك مجلة «مواجهة». بيان من اسبندر».

ولقد استمرت مجلة «مواجهة» بعد ذلك، حتى أغلقت عام ١٩٩٠، وكان سحب تمويل المخابرات لها قد عرضها لأزمات مالية متتالية، خصوصًا بعد انهيار الثقة فيها. وهكذا كانت نهايتها وكانت قد سبقتها نهاية مجلات أخرى مماثلة مثل مجلة «حوار» التى كانت تصدر بالعربية فى«بيروت» والتى كانت تمول من المخابرات الأمريكية أيضًا. ■

في طب الأسنان القديم

الأشباح والأرواح تسكن الفم!

محمد فؤاد الذاكري

تاريخ الطب قديم جدا، إذ إن الطب وثيق الارتباط بحياة الناس التي تعود إلى أزمان موغلة في القدم، والأمراض قديمة العهد قدم الحياة ذاتها، ولا غرابة في ذلك، فما الأمراض إلا جزء من الحياة نفسها تحت عوامل وظروف متغايرة متباينة تظهر نتيجة لرد فعل الجسم ضد الطوارئ والملابسات المحيطة به.

وآلام الأسنان قديمة أيضا، وقد خشيها الناس في كل زمان ومكان، وسعوا إلى التخلص منها بمختلف الوسائل وشتى الأساليب. والواقع أن الخطوات الأولى في طبابة الأسنان بدأت مترافقة مع مثيلاتها من باقي الفنون والعلوم. ومما لاشك فيه أن الإنسان القديم كان يسعى إلى العلاج بكل ما يملك من إمكانيات تؤطرها له حدود معرفته، وعندما يعجز عن الشفاء يعزو ذلك إلى قوى خارقة، ولذا لم يجد بداً من التماس المعونة من آلهته عن طريق الكهان والسحرة الذين نسبوا الأمراض إلى غضب الآلهة، فلعلها ترضى عنهم وتهتم بهم وتبعد عنهم شر الشياطين، كما التمسوا وساطة الكهان سعيا وراء الحصول على رضى الآلهة، وهكذا فإن الشخص المعالج هو كاهن البلدة أو ساحرها. وتشير المكتشفات الأثرية بأنهم كانوا في كثير من الحالات يصفون الأدوية بالإضافة إلى الطقوس السحرية أو الدينية التي يمارسونها على مرضاهم. وكان أكثر تلك الأدوية من الأعشاب. ولا شك أن بعضها كان مفيدا وفيه ومضات من المعالجة السليمة.

وبالنسبة لأواسط آسيا ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، فقد قدمت لنا المكتشفات الأثرية معلومات عن حضارات قديمة تمتد إلى ستة آلاف عام قبل الميلاد، وأبرز هذه الحضارات حضارة وادي الرافدين، وتضم «سومر» و«أكاد» و«بابل» و«آشور» وحضارة وادي النيل، أي حضارة قدماء المصريين.

وبالنسبة لوادي الرافدين، فإن اللوحات المسمارية المكتشفة والمتضمنة نصوصا طبية، فهي بمثابة الكتب الطبية والمراجع للمشتغلين في المعالجة والذين يتعلمون فن التطبيب والعلاج.

أمراض الأسنان

في الحضارة الآشورية - مثلا - كان المعالجون يمزجون المعتقدات الخرافية بالمعالجة المادية بشكل وثيق، وبالنسبة لآلام الأسنان والالتهاب اللثوي، فقد جاء في إحدى اللوحات المسمارية (إذا أصبحت أسنان الإنسان مخلخلة وأصابها النخر فزنْ مقادير متساوية من الحبة السوداء والخلة والجرجير وحجر الزرنيخ (كبريتيد الزرنيخ) ومسحوق الشبّ والصبر واصحنها، ثم افرك جذور أسنانه [ويقصد اللثة] بقطعة من الخبز الجاف حتى يسيل دمها، ثم ضع المسحوق على الأسنان وسوف يشفى).

من الواضح أن الحالة المرضية تتحدث عن التهاب لثوي حاد نجم عنه حركة في الأسنان بسبب الترسبات الكلسية القلحية (CALCULUS) والتشخيص صحيح وكذلك مبدأ المعالجة وهو إزالة هذه القشور الكلسية المتجمعة على سطوح الأسنان وذلك بواسطة (قطعة الخبز الجاف) وتقوم مكان (المجرد SCALPER) وهي الأداة المعدنية المستخدمة لجرد الأسنان وتنظيفها ثم استخدام المسحوق المكوّن من جملة أعشاب طبية ومواد معدنية المنشأ حصل عليها المعالج من خلال التجربة والملاحظة.

بجانب هذه المعالجة المادية كانوا ينسبون الأمراض ومن جملتها أمراض الأسنان إلى الأشباح والأرواح التي أرسلت إليهم المرض عن طريق السحر، ومنها هذه التعويذة لألم السن مقدمة إلى أحد الآلهة المدعو (شماش) حيث تقول:

(دعاء: أيا شماش عرفت من سنّي الذي يؤلمني أن بعض الأشباح التي لم تدفن غضبانة لأني لم أقدم لها الخبز والماء، أصلي إليك أن تجيزني بحبسها وتغطيتها مثلما تغلق الحبة على ما بداخلها، لكي يذهب ألم سنّي وأكون كالفراشة التي لا تؤلمها أسنانها).

نخر الأسنان

داء يصيب الأسنان بتأثير ما تتعرّض له البيئة الفموية من العوامل الكيميائية والجرثومية، فتتكون حفرة على سطوح الأسنان، لا تلبث أن تمتد نحو الداخل، إذا لم تعالج العلاج الكافي، إلى أن تبلغ حجرة اللبّ (Pulp cavity) والموجودة في مركز السن، حيث يصاب اللب المؤلف من مجموعة ألياف عصبية وأوعية دموية بالالتهاب والموات، وإذا استمر النخر ازداد عمق الحفرة واتساعها فتتداعى السن وتتفتت وتندثر، فلايبقى منها غير الجذر. أما المظهر السريري للنخور السنية فيبدأ بظهور بقعة واحدة أو أكثر على سطح السن، يتراوح لونها ما بين الطبشوري والأسمر، ثم يتلو هذا التحول في اللون خشونة السطح بسبب تخرب النسج السنية بفعل النخر الذي يستمر متغلغلا نحو الداخل، وتتكون حفرة النخر السوداء اللون، ومن خلال النظر إلى الأسنان يمكن بسهولة ملاحظة السن الموؤف المسود من بين مجموعة الأسنان الأخرى البيضاء اللون، وهكذا نشأ الاعتقاد بأن نخر الأسنان (السواد) مرده إلى دودة ساكنة تحت الأسنان أتت بإذن من الآلهة ولاتخرج إلا بإذنهم، وهي التي تقوم بقضم وتخريب طبقات السن وإحداث فجوة فيه مسببة الآلام الشديدة. وكان لابد من تقديم السبب أو المبرر لهذا الأمر بحسب التصورات الدينية السائدة، وهو ما تشرحه لنا إحدى اللوحات المسمارية والتي تعود بتاريخها إلى عام (٦٠٠ ق.م)، حيث تقول:

(بعد أن صعد أنو إلى السماء صنعت السماء الأرض، وصنعت الأرض الأنهار، وصنعت الأنهار القنوات، والقنوات الأهوار، والأهوار الديدان، ثم جاءت الديدان باكية إلى «شماش» وإلى «أيا» وكانت دموعها غزيرة، وقالت: ماذا ستعطيني لطعامي ماذا ستعطيني لأدمره؟ إني ساعطيك التين المجفف والمشمش. في الواقع لن يفيدني التين المجفف ولا المشمش، أرسلني وسط الأسنان دعني أعيش في اللثة لكي أتلف دم الأسنان واللثة وأمضغ قشاشاتهم، ولكي أمسك بيدي مزلاج الباب).

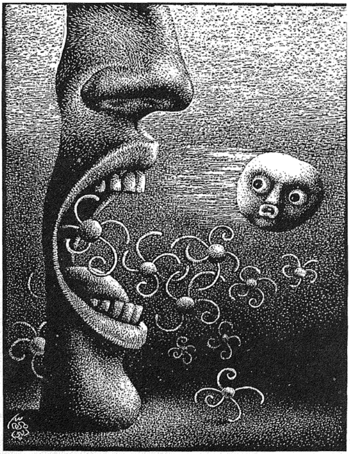
ومن أجل إخراج هذه الدودة وطردها من السن يجب على من يتلو هذا الدعاء أن يختمه بقوله:

(أيتها الدودة ليقتلك «أيا» بقبضته الجبارة).

هذا «الاعتقاد» نجده في أغلب المصادر الطبية القديمة وارتبط بأسطورة الخلق والتكوين الإنساني، وفي نص هندي قديم يعود تاريخه إلى ألفي عام تقريبا يقول:

(عندما يصبح السن متآكلا ويمتلئ بالأطعمة والأوساخ، فسرعان ما تنشط الديدان الدقيقة من خلال التآكل مسببة آلاما مختلفة).

وامتد هذا الاعتقاد إلى الرومان القدماء فحوالي سنة (٤٨ق.م) اقترح «لارجوس



Largus» طبيب الإمبراطور الروماني «كلوديس» إحراق (بذور البنج Henbane Seeds) وتبخير الفم بالأبخرة المتصاعدة للقضاء على دود السن وطرده، ثم كتب بعد ذلك بأنه ينبغي غسل الفم، حيث يمكن أن تظهر أشياء دقيقة تماثل وتشابه الديدان الصغيرة في ماء الغسل، ومع اتصاف «لارجوس» بالحذر فقد حزم أمره أخيرا، وأعلن بشكل قاطع لايتطرق إليه الشك بأن هذه (الأشياء) هي بالتأكيد (ديدان).

الطب اليوناني القديم

كان الطبيب اليوناني الشهير جالينوس (١٢٩ ـ ٢٠١م) من أشهر المؤيدين والمتحمسين لتبخير الفم بغية طرد الديدان السنية منه واشتهر بذلك لدرجة أن بعض المدعين المحتالين استغل طريقته وجعلها سببا لخداع جمهور العامة وسلب أموالهم عن طريق وضع مادة القار (الزفت) والقطران السائل على جمر النار وتبخير الفم ، فلا يجد المريض بدّا من إغلاق عينيه أمام تصاعد الأبخرة الكثيفة، وهنا تظهر براعة المحتال وخفة يده ، إذ يقوم بطرفة عين بدس (دود) حقيقي قد أعده خصيصا في حُق مُخبأ، ثم يخرجه مرة أخرى أمام جمهور المشاهدين والنظّارة ، مبرهنا على نجاعة معالجته وجدواها في إخراج (الدود) من الأسنان الموؤفة ، مع حرصه على الإعلان بأنه تعلم هذه الطريقة من «جالينوس» بالذات ، الذي شاءت المصادفات أن يشاهد هذه (المسرحية) عن كثب أثناء مروره بمدينة «روما» ويكشف الموضوع للسلطات ، عن هذا المحتال الذي يدعي التلمذة له، ومع ذلك فإن إيمانه بوجود (دود السن) لم يتزعزع قط ، ولا عجب فإن الأطباء والفلاسفة اليونانيين ، وفي مقدمتهم أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) الشهير كانوا يقترحون مختلف المعالجات للتخلص بزعمهم من التأثير الضار للدود على صحة الأسنان وسلامتها.



جاء في إحدى اللوحات المسمارية:
(إذا أصبحت أسنان الإنسان مخلخلة وأصابها النخر فزن مقادير متساوية من الحبة السوداء والخلة والجرجير وحجر الزرنيخ (كبريتيد الزرنيخ) ومسحوق الشبّ والصبر واصحنها، ثم افرك جذور أسنانه [ويقصد اللثة] بقطعة من الخبز الجاف حتى يسيل دمها، ثم ضع المسحوق على الأسنان وسوف يشفى).

الأطباء العرب القدامى

انتقلت عدوى الاعتقاد بدود السنّ ـ عبر التأثير اليوناني ـ إلى الطبّ العربي الناشيء، وكان لابدّ لبعض الأطبّاء القدامى أن يناقشوا وسائل التخلّص من الدود الأكّال واعتباره أحد الأسباب القويّة المسبّبة للآلام الفظيعة التي تنتاب المريض المصاب بنخر سنّي عميق نافذ.

ولابدّ من التنويه بأنّ فئة من الأطبّاء القدامى قد ساورهم الشكّ وعبّروا عن معارضتهم لهذا (الاعتقاد) الذي كان يجد الكثير من المناصرين، كما أنّ دحضه يستلزم أدلّة وبراهين قويّة كانت في ذلك الوقت خارج حدودهم المعرفية، وتوزّعت مواقفهم كالتالي:

أولاً: موقف التجاهل التامّ، وفي مقدّمتهم العالم الطبيب العربي الشهير «حُنين بن إسحق» (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م)، ففي كتابه المعروف (في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها) والذي يعدّ أوّل كتاب علمي منهجي مستقلّ عن طب الأسنان في الحضارة الإسلامية والتراث الطبي العربي، نلاحظ بوضوح أنّه لم يتطرّق لهذا الموضوع قطّ عند إيراده الأمراض والآفات التي تصيب الأسنان ومعالجتها، ويتجاهل الحديث عن (دود السنّ) تماماً، فهو يعبّر عن موقف معارض وعدم قناعة، فاغفل ذكره ولم يتعرّض إليه، وإن لم يشأ دحضه لاعتبارات معرفية كما أسلفنا. كما حذا حذوه «ثابت بن قرة» (٢٨٨هـ / ٩٠١م) في كتابه (الذخيرة في علم الطب) فهو لا يذكر أي شيء عن دود السنّ، وكذلك «عليّ بن العبّاس» (٤٠٠هـ / ١٠١٠م) والطبيب الفيلسوف «أبو بكر محمد بن زكريا الرازي» (ت٣١٣هـ / ٩٢٥م)

ثانيا: موقف الرفض والتشكيك من وجهة نظر منطقية وعقلانية، وأبرز مَنْ يمثّل هذا الموقف هو «أبو الحسن الطبري» من أطبّاء القرن الرابع الهجري، ويذكر مناقشة موضوعية مهمّة بخصوص عدم وجود أي قدر من المصداقية في هذا الاعتقاد بوجود الدود في حفرة (التآكل) السنّي، فيذكر بأنّ حركة الأسنان أثناء مضغ الأطعمة المختلفة والتي يدخل فيها (الملح والخل) وهي من الموادّ المطهرّة والحافظة التي تمنع تواجد الدود، وفي إشارة وقياس موفق يقول بأنّ (التدوّد) يحصل في المواضع العفنة فقط والتي تتعرّض لتماس هذه المواد الكاوية. لقد اقترب «أبو الحسن الطبري» أو كاد من الرفض الكامل لهذه الأسطورة القديمة، لكنّه يذكر بعد ذلك طائفة من (الأدوية التي تقتل الدود وتغسل الوسخ المتجمّع في الحفر والثقبة) ومنها (القطران يُجعَل منه في الثقبة فإنّه يقتل ما فيه من الديدان من وقته).

ونلاحظ بأنّه يمثّل حيرة العقل الإنساني العلمي ومحاولة إيجاد منهج ملائم رغم كلّ الإعاقات (المعرفية)، فحرص «الطبري» على ذكر الآراء وما يخالفها مع عدم التقرير الصريح، وإن كان يسجّل بأنّه أوّل طبيب مسلم في التاريخ الطبّي لايجوز إغفال أهمية محاولته أن يصل إلى تصوّر خاصّ به، مستقلّ عمّا كان لمعاصريه الذين تمسّكوا بأقاويل القدماء من اليونانيين وأن يحوز من هذه الزاوية تقديرنا وإعجابنا.

لكنّ هذه الأسطورة حول (دود السنّ) كانت تلاقي القبول والترحيب وترسّخت أكثر في عقول الأطبّاء والمعالجين في العصور الوسطى، واستمرّت التوصيات والمعالجات المقترحة بالتعرّض لأبخرة (المرّ واللُبان) المتصاعدة بعد تعريضهما للنار بغية مضايقة وطرد الدودة المختبئة بين جدران السنّ تقضم تكوينه وتسبّب الألم والإزعاج، ولا ريب بأنّ شدّة الألم ودرجته كانت ترتبط بالأذهان بحركة الدودة ونشاطها، ولكن الأدوية والعلاجات التي قدّمها الأطبّاء العرب القدامى باعتراف الجميع كان لها أثرها المهدّيء والفعّال في تسكين آلام النخر السنّيّ المبرحة وطريقة العلاج تكون بوضع الموادّ الكاوية (الزيوت المغلية) والأدوية المحلّلة مثل (الحرمل) ولبذوره خواص مهدّئة ومسكّنة للألم، فهي إذا غليت في (ماء الفجل والزيت) أزالت وجع الأسنان. كما يقول «داود الأنطاكي» (١٠٠٨هـ / ١٦٠٠م) في تذكرته، ونبات (السَمق) وغيرها.. في حفرة النخر (التآكل) بتماسّ مع النسيج اللبّي المكشوف ممّا يؤدّي إلى إماتته وحفظه في حالة عقيمة ويتبع ذلك زوال الألم بطبيعة الحال، هذا الإجراء العلاجي الفعّال كان يُطلَق عليه في الماضي تسمية (كيّ الضرس) وغنّي عن البيان أنّ (الكيّ) كان ومازال وسيلة علاجية مرجوّة تحتلّ مكانة خاصّة في الطب القديم، ويشرح «ابن سينا» (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) طريقة الكيّ وينبّه إلى اتّخاذ الإجراءات الوقائية التي تحمي الأسنان واللثة من الضرر وذلك بوضع مادّة واقية مثل الشمع أو العجين، حول السنّ الموؤف المراد كيّه، بغية ضمان عدم تسرّب أي شيء من المواد الكاوية إلى وسط الفم، ويقول في ذلك:

(تؤخَذ مِسنّة تُحمى وتُغمَس في ذلك الزيت وتنفذ في تجويف أنبوب مُتهَندم على السنّ الوَجعة حتّى تبلغ السنّ وتكويه، وقد يُجعَل على ما حواليه شمع أو عجين أو أي شيء آخر يحول بين السنّ وما حواليه من الأسنان والعُمور وقد يُقطّر أيضا في الأنبوب، الدهن المغلي).

وبحلول عام (١٧٠٠م) بدأت أسطورة دود السنّ تهتزّ في عقول العلماء والباحثين بعد تقارير الهولندي «فان لوفنهوك Van Leeuwenhoek» والذي يوصَف بأنّه (أبو المجهر) وقد نفى أية علاقة للدود المزعوم بحصول النخر السنّي، بعد فحصه عدداً من الأسنان الموؤفة تحت المجهر، وعلى الرغم من الاعتراضات على هذه النتائج مثل رئيس (الجمعية الملكية) في لندن والذي يعتبر أرفع منصب علمي في وقته، وقد أرسل بعض الديدان التي (اكتشفها) في أحد الأضراس المقلوعة إلى «لوفنهوك» لفحصها وتحديد ماهيّتها الذي لم يجد صعوبة في اكتشاف مصدرها وهو (الجبن الفاسد)، ولكنّ حملات التشكيك لهذا الاعتقاد الخاطيء تفشل، وذلك لأنّه حسب «بير فوشارد Pierre Fauchard» الذي يعتبر مؤسس طبّ الأسنان الحديث: إنّ هذه الديدان على فرض وجودها داخل الفم فإن مصدرها الأطعمة الفاسدة التي يتناولها الإنسان ليس أكثر، وماتت هذه النظرية تدريجياً، وفي القرن التاسع عشر دُحضتْ تماماً بعد أن ظلت تعشّش في العقول لأكثر من ٤٠٠٠ عام.

أول كتاب عن طب الأسنان في الحضارة الإسلامية

يعدّ كتاب «في حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها» لمؤلّفه «حنين بن إسحق العبّادي» (٨٠٩ ـ ٨٧٣) أوّل كتاب مستقلّ يتناول طب الأسنان عند العرب، وتنبع أهميّته من أنّ المؤلّف قد قام بتدوينه بعد أن بلغ قمّة نضوجه العلمي والطبي، وتوفّرت لديه حصيلة متنوعة من التجارب الطبية، وفي طبّ الأسنان تحديداً. فقد قدّم مادّة طبّيّة أساسية بفضل تفهّمه العميق لتشخيص ومعالجة أمراض الأسنان واللثة؛ ثمّ إنّ النزعة التجريبية التي تبنّاها قد جعلته قادراً على تعديل علاجات ومفاهيم خاطئة متوارثة، وذلك بمعرفته الكاملة بما توصّل إليه الأطبّاء اليونانيون القدامى على وجه الخصوص، ولم يمنعه ذلك من النقد والإضافة والابتكار.

وقد ولد (حنين بن إسحق) المكني بأبي زيد العبادي في مدينة (الحيرة) في العراق سنة (١٩٤هـ ـ ٨١٠م) واتجه لدراسة العلوم الطبية منذ يفاعته وأظهر نبوغا وتفوقا جعله الطبيب الخاص للخليفة العباسي المتوكل على اللّه وتوفي سنة (٢٦٠هـ ـ ٨٧٣م) بعد أن قضى حياته في خدمة العلم والمعرفة.

واشتهر (حنين) عند المؤرخين القدامى أمثال: ابن النديم. ابن خلكان. ابن أبي أصيبعة. بتاليف كتب طبية كثيرة ومتعددة من أشهرها: كتاب العشر مقالات في العين وكتاب المسائل في الطب.. وغيرها. كما كان مترجما قديرا بارعا من اللغة اليونانية إلى العربية، أبرز قدرة اللسان العربي الموافق لكل العلوم والمعارف فأصبح من رواد حركة الترجمة والتعريب في القرن الثاني والثالث للهجرة ومارافقها من شروح وتحليلات تكاملت مع نهضة علمية شاملة ميزت الحضارة الإسلامية، والجدير بالذكر أن اللغة العربية لم تكن وسيلة ترجمة بل كانت أداة خلق وتأليف صالحة

للتعبير عن جميع العلوم والمؤلفات العلمية.

ومن الصعب تحديد زمن دقيق ومحدد لتاليف كتاب (فى حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها) ويمكن اعتباره من مؤلفات (حنين بن إسحق) المتاخرة التى دونها فى زمن الخليفة المتوكل، أى بعد أن بلغ نضوجه العلمي والطبى وتوفرت لديه حصيلة متنوعة من التجارب الطبية ونستدل على ذلك من خلال بعض الإشارات القليلة الواردة فى الكتاب عند ذكره لدواء يستخدمه فى معالجة اللثة حيث وصفه بقوله :(وقد جربناه فحمدناه).

ولكن اهتمام (حنين) بطب الأسنان - حسب المصادر - يرجع إلى زمن الخليفة الواثق بالله، توفى (٢٣٢هـ) الذى كان محبا للإشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم، بحسب (المسعودى) الذى ذكر تفاصيل أحد مجالس العلم التى حضرها مجموعة من الأطباء المعروفين فى زمن الخليفة الواثق، وقد أجاب (حنين) عن مسائل عامة تناولت موضوعات علمية مختلفة فى الرياح والبلدان والجغرافيا والكواكب والأنواء واللافت للنظر أن (الواثق) خص (حنينا) وحده بسؤال يتعلق بالأسنان وكانت إجابته واضحة تدل على تفهمه العميق لتشريح الأسنان وبنيتها ووظائفها ودورها وتتضمن مقدمة تمهيدية أساسية لطالب العلوم الطبية، مما يدل على أنه كان معروفا بخبرته ومزاولته العلمية لطبابة الأسنان واشتهاره بذلك فى عصره. وتنبع أهميته من خلال تقديمه مادة علمية للأطباء القدامى كانت قاعدة وتوطئة استندوا إليها للانطلاق فى بحوثهم وابتكاراتهم، كما ذكر المحقق أن اهتمام (حنين) وتفهمه العميق لتشخيص أمراض الأسنان واللثة والنزعة التجريبية التى تبناها جعلته قادرا على إضافة شىء مبتكر فى هذا المجال ويدور مضمون الكتاب حول محورين:

الأول: يبحث سبل وقاية الأسنان وحمايتها أو ما يعرف بطب الأسنان الوقائى.

الثانى: علاجى دوائى باستعراض ووصف أمراض الأنسان واللثة مع ذكر العلاج الدوائى المناسب.

ويبتدىء (حنين) بتقديم قواعد وقائية وتعليمات صحية لمن أراد حفظ أسنانه أهمها:

* تجنب التخمة لأن فساد الطعام فى المعدة يسبب لها الضرر مما ينعكس سلبا على سلامة الأسنان ويسبب فسادها.
* الحذر من كسر الأشياء الصلبة بالأسنان.
* عدم تناول الماء البارد والثلج سيما بعد تناول الطعام الحار.
* تفريش الأسنان بالسواك باعتدال



في طب الأسنان القديم

دواء السنون Dentifrice

كان الأطباء القدامى يعتقدون أن لكل دواء فعلا وقوة تؤثر فى الجسم ومن الممكن معرفة قوة كل دواء أو مادة على حدة ثم مزجها معا بنسب معينة للحصول على أدوية ذات فعل جديد وقوة جديدة. والسَنون دواء مركب مؤلف من عدة أنواع من الأدوية المفردة مختلفة المصادر فهى عقاقير نباتية ومعدنية أو حيوانية المصدر.

وتعريف السنون هو : ما يستن به من دواء لتقوية الأسنان وتنظيفها .

ويقسم السنون بحسب قوامه الصيدلانى إلى سنون جاف Powder ويتكون من مساحيق العقاقير الدوائية وآخر رطب Paste يدخل فى تركيبه العسل أو الخل أو القطران.

وقد ذكر (حنين) أنواعا مختلفة من السنونات بحسب غرض استخدامها فهى لعلاج اللثة والأسنان وتسكين آلامها، أو سنونات تطيب نكهة الفم وتزيل رائحة (البخر) الكريهة وطريقة العرض تقوم على تعداد العقاقير وأوزانها الداخلة فى تركيب السنون المطلوب مع ذكر الغاية والهدف المطلوب منه بالإضافة للحالة المرضية التى توافق استخدامه. وعلى سبيل المثال فقد ورد ذكر سنون منسوب إلى الطبيب اليونانى (جالينوس) ويتكون من (١٩) عقارا دوائيا كما يحتاج تحضيره إلى عدة عمليات صيدلانية معقدة مثل تجفيف وتحميص بعض النباتات الطبية وسحقها ومزجها بالعسل، وهنا تتجلى الأصالة الطبية لدى (حنين) الناجمة عن خبرته العملية المكتسبة، فكثرة عقاقير سنون (جالينوس) أضف إلى احتمال فقدان بعضها وعدم توفره فى كل الأوقات جعلته يلجا لاختصارها وإيجاد بدائل كافية عنها على ألا يمس بالنفع الناجم عنها فقدم (سنون قليل الاختلاط، خفيف المؤونة، فوجدته يبلغ مبلغا حسنا) حسب تعبيره، وبذلك يبرهن على مقدرته كطبيب أسنان ماهر والجدير بالذكر أن الأعشاب والنباتات الطبية كان يعتمد عليها فى المداواة والمعالجة، فقد ورد فى الكتاب أسماء ما ينوف على المائة نبات وعقار طبى كانت تستخدم فى المعالجات السنية بالإضافة لأدوية متنوعة ذات مصدر حيوانى أو معدنى.

وقد قدم المؤلف خلاصته المفيدة عن طبابة الأسنان فى زمنه (القرن الثالث الهجرى) مع صورة واضحة لأدويته المعتمدة ومعالجاته وأمراضه الشائعة وطرق تشخيصها، ومن الواضح اعتماده المنطق العلمي واستناده على الملاحظة الحسية والتجربة العملية وابتعاده عن المعالجات الزائفة اللامنطقية كما أن النصائح الوقائية المذكورة لازالت صالحة حتى عصرنا الحالى. ■

المصادر والمراجع:

١ - عبداللطيف البدرى: من الطبّ الآشورى. مطبوعات المجمع العلمى العراقى. بغداد. ١٩٧٦م.

٢ - ابن الجزّار (٣٢٠ / ٤٠٠هـ): طبّ الفقراء والمساكين. تحقيق: سلمان قطاية. باريس. (غير منكور دار النشر). ١٩٨٤م.

٣ - حنين بن إسحق (٢٦٤هـ / ٨٧٧م): فى حفظ الاسنان واللثة واستصلاحها. تحقيق ودراسة محمد فؤاد الذاكرى. دار القلم العربى. حلب. ط ١. ١٩٩٦م.

٤ - Malvin Ring: The Legend of the tooth worm - C.C.E.D - Vol. XIII,No.4


فيتراك
Vitrac®
فيتراك
تهنئ الأمة الإسلامية
بحلول شهر رمضان المبارك
الفاكهة
فاكهة
STRATEGIES
Vitrac
فيتراك
Fig Preserve
Vitrac
فيتراك
Vitrac
Vitrac
فيتراك

شهر رمضان

قاسم عبده قاسم

اتخذ شهر رمضان في التاريخ الاجتماعي المصرى سمة خاصة جعلت شكل أيام هذا الشهر ولياليه تختلف في مصر عنها في أى بلد آخر من بلاد المسلمين. وقد تحول شهر الصوم من مناسبة دينية خالصة إلى مناسبة دينية / اجتماعية مصرية تشكلت ملامحها عبر عصور تاريخ مصر الإسلامية. ولسنا نعرف على وجه اليقين متى، وكيف، تحولت مناسبة شهر رمضان إلى مناسبة دينية / اجتماعية. لكن الذى نعرفه بدرجة معقولة من اليقين هو أن نهار رمضان كان مخصصًا للصوم والعبادة، وأن أمسياته ولياليه- بعد الإفطار وحتى انتهاء السحور- كانت للعبادة والمرح والسرور والولائم التى ميَّزها البذخ على الدوام. ولا تمدنا المصادر التاريخية المتاحة بصورة كاملة عن تطور احتفالات شهر رمضان على امتداد التاريخ الاجتماعى المصرى، وإنما نجد أمامنا لقطات وصورًا تاريخية متفرقة نحاول جمع شتاتها.

في العصر الفاطمى

أولى الصور التاريخية عن شهر رمضان تظهر في العصر الفاطمى (٣٥٨-٥٦٤هـ/ ٩٦٩-١١٧١م) نقلها المؤرخ تقى الدين المقريزى عن مصادر تاريخية فاطمية مفقودة. وقد نقل المقريزى فى خططه (جـ٢، ص ٤٩١، ص٤٩٢) ما كان الخلفاء الفاطميون يفعلونه فى هذا الشهر. وربما يكون مناسبًا أن ننقل ما كتبه هذا المؤرخ لنرسم الصورة التاريخية الأولى ثم نحاول شرحها وتفسيرها:

«موسم شهر رمضان: كان لهم **(الفاطميون)** فى شهر رمضان عدة أنواع من البرّ؛ منها كشف المساجد. قال الشريف الجوانى فى كتاب النقط: كان القضاة بمصر إذا بقى لشهر رمضان ثلاثة أيام، طافوا يومًا على المشاهد والمساجد بالقاهرة ومصر **(هذا تعبير شائع فى المصادر التاريخية عن العاصمة التى كانت تضم القاهرة والعواصم القديمة الفسطاط والقطائع والعسكر)**؛ فيبدأون بجامع المقس، ثم بجوامع القاهرة، ثم بالمشاهد، ثم بالقرافة، ثم بجامع مصر **(جامع عمرو بن العاص)** ثم بمشهد الرأس (**الحسين**)؛ لنظر حصر ذلك وقناديله وعمارته وإزالة شعثه. وكان أكثر الناس ممن يلوذ بباب الحكم والشهود والطفيليين يتعينون لذلك اليوم والطواف مع القاضى لحضور السماط».

هكذا، كان المرور على الجوامع والمساجد لتفقدها وتنظيفها وتجهيزها استعدادًا لشهر رمضان يبدأ قبل الشهر بثلاثة أيام، وكان الاهتمام بهذه الأمور من عوائد الدولة الفاطمية، ويلفت النظر هنا اهتمامهم بالقرافة، فقد كانت من أهم مُتنزهات أهل القاهرة وقد قال عنها الرحالة «ابن جبير» (ق٦هـ/١٢م) إنها إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء، وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهّاد والأولياء «.. ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة...»، وقد استرعت القرافة- وهى منطقة المقابر العامة للعاصمة المصرية آنذاك- انتباه كل الرحالة الذين زاروا القاهرة. وقد حرصت السلطات الفاطمية على أن يقوم بمهمة التفتيش قضاة مصر لضمان دقة العمل. ومن الطريف أن عددًا كبيرًا من الطفيليين كانوا ينتهزون الفرصة للطواف مع القاضى فى أثناء عمله فيما يشبه الموكب حتى يكون لهم نصيب فى الوليمة التى يحضرها القضاة بعد انتهاء مهمتهم.

ثانية هذه الصور التاريخية نقلها المقريزى عن ابن المأمون تحت عنوان واضح «إبطال المُسكرات: قال ابن المأمون: وكانت العادة جارية من الأيام الأفضلية (أى **وزارة الأفضل بن بدر الدين الجمالى**) فى آخر جمادى الآخرة من كل سنة أن تُغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر، وتُختم، ويُحذَّر من بيع الخمر؛ فرأى الوزير المأمون لما ولى الوزارة بعد الأفضل ابن أمير الجيوش أن يكون ذلك فى سائر أعمال الدولة **(أى فى جميع انحاء الدولة الفاطمية فى مصر والشام)** فكتب به إلى جميع ولاة الأعمال، وأن يُنادى بأنه من تعرض لبيع شىء من المُسكرات، أو شرائها، سرًا أو جهرًا، فقد عرَّض نفسه لتلافها، وبرئت الذمة من هلاكها».

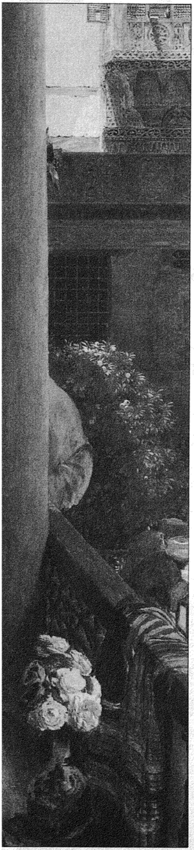
الصورة الثالثة ربما تعطينا مؤشرًا عن تحول المناسبة الدينية إلى مناسبة دينية - اجتماعية؛ لاسيما إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الناس يقلدون حكامهم وأعيانهم. يقول المقريزى:

«غُرة رمضان: وكان فى أول يوم من شهر رمضان يُرسَل لجميع الأمراء وغيرهم من أرباب الرتب والخدم، لكل طبق، ولكل واحد من أولاده ونسائه طبق فيه حلواء، وبوسطه صُرَّة من ذهب؛ فيعم ذلك سائر أهل الدولة ويقال لذلك غُرة رمضان».

الصورة الرابعة عن اهتمام الخلفاء الفاطميين بالاحتفال بقدوم شهر رمضان فى موكب جميل يشق القاهرة، وكان ركوب أول شهر رمضان عند الفاطميين معادلاً لموكب رؤية هلال رمضان عند السُنَّة. يقول ابن الطوير (نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين، تحقيق الدكتور أيمن فؤاد سيد، جمعية المستشرقين الألمانية ١٩٩٣، ص ١٧١-ص١٧٥).

«فإذا انقضى شعبان اهتم بركوب أول شهر رمضان، وهو يقوم مقام الرؤية عند المتشيعين، فيجرى أمره فى اللباس والآلات والأسلحة والعرض والركوب والترتيب والطرق المسلوكة، كما وصفناه فى أول العام لا يختل بوجه **(فى أول العام الهجرى كان الخليفة الفاطمى يشق القاهرة بموكب حافل ومهيب وحوله الجنود والفرسان بأعلامهم وبيارقهم)** ويكتب إلى الولاة والنواب والأعمال بمساطير مُخلَّقة **(أى مُعطَّرة)** يُذكر فيها ركوب الخليفة».. «فإذا انقضى ركوب أول شهر رمضان استراح الخليفة فى أول جمعة، فإذا كانت الجمعة الثانية ركب الخليفة إلى الجامع الأنور الكبير فى هيئة المواسم وما تقدم ذكره من الآلات ولباسه فيه لباس الحرير البيض، توقيرًا للصلاة من الذهب، والمنديل والطيلسان المقور الشعرى، فيدخل من باب الخطابة والوزير معه بعد أن يتقدمه فى أوائل النهار صاحب بيت المال وبين يديه الفُرُش المختصة بالخليفة إذا صار إليه فى هذا اليوم، وهو محمول بأيدى الفراشين المميزين، وملفوف فى العراضى الدبيقية فيُفرش فى المحراب ثلاث طراحات؛ إما سامان وإما دبيقى أبيض أحسن ما يكون من صنفهما كل منقوش بالحُمرة فتجعل الطراحات متطابقات، ويعلق ستران يمنة ويُسرة وفى الستر الأيمن كتابة مرقومة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة أولهما «البسملة» و«الفاتحة» و«سورة الجمعة» وفى الستر الأيسر مثل ذلك.. ثم يصعد قاضى القضاة المنبر وفى يده مدخنة لطيفة خيرزان يحضرها إليه صاحب بيت المال فيبخر الذروة التى عليها الغشاء كالقبة لجلوس الخليفة للخطابة ويكرر ذلك ثلاث مرات. فيأتى الخليفة فى هيئة لطيفة من الطبل والبوق وحوالى ركابه خارج أصحاب الركاب القُراء، وهم قُراء الحضرة يُطرِّبون بالقراءة نوبة بعد نوبة يستفتحون بذلك من ركوبه من الكرسى على ما تقدم على طول طريقه إلى قاعة الخطابة من الجامع **(أى انهم يبدأون قراءة القرآن طوال الطريق من القصر حتى قاعة الخطابة فى الجامع)**.

«فإذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة فقال: «السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله» فيخرج الخليفة ماشيًا وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ومن يليهم من الخواص وبأيديهم الأسلحة من صبيان الخاص، وهم أمراء وعليهم هذا الاسم، فيصعد المنبر إلى أن يصل إلى الذروة تحت القبة المُبَخرة، فإذا استوى جالسًا والوزير على باب المنبر ووجهه إليه فيشير إليه بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ثم يُزرر عليه تلك القبة لأنها كالهودج.. فيخطب الخليفة خطبة قصيرة من مسطور يُحضر إليه من ديوان الإنشاء.. فيطلع إليه من زرَّر عليه ويفك التزرير وينزل القهقرى.. فينزل الخليفة ويصير على تلك الطراحات الثلاث فى المحراب



١ - عادات وتقاليد المصريين المحدثين

تأليف: إدوارد وليام لين - ترجمة: سهير برسوم

القاهرة: مكتبة مدبولى، ١٩٩١.

٢ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

تقى الدين أحمد بن على المقريزى

طبعة دار صادر «نسخة مصورة عن طبعة بولاق» بدون تاريخ.

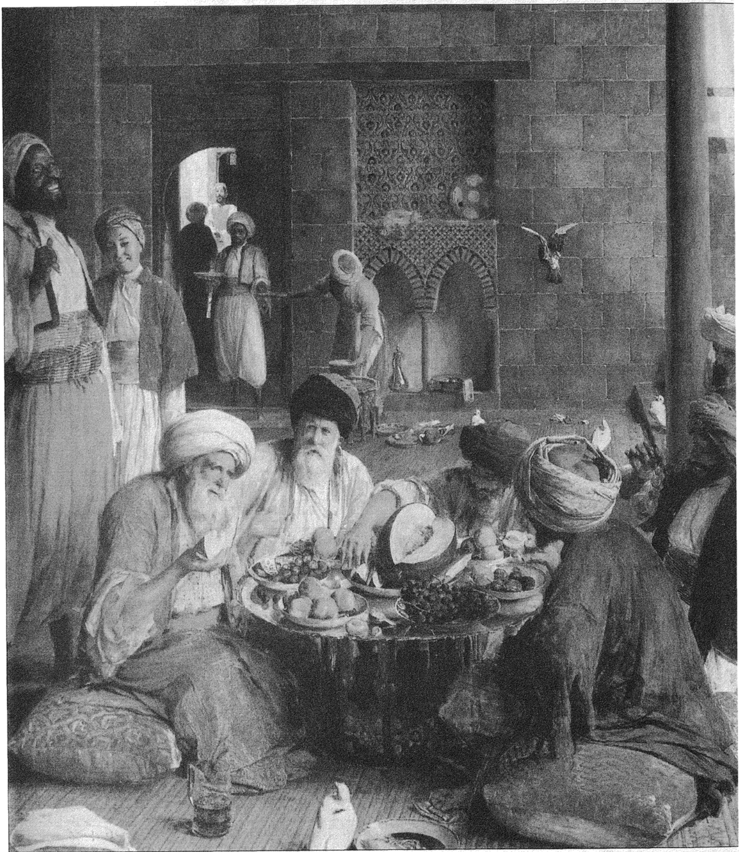
٣ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور

محمد بن أحمد بن إياس المصرى

تحقيق: الدكتور محمد مصطفى

القاهرة: جمعية المستشرقين الألمانية (٥ مجلدات).

صورة تاريخية مصرية

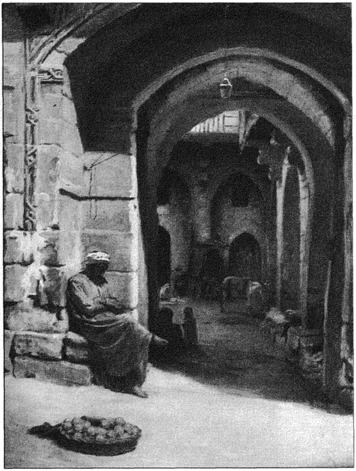


وحده إمامًا.. فإذا فرغ خرج الناس وركبوا أولاً فأول.. وعاد طالبًا القصر والوزير وراءه وضربت البوقات والطبول فى العود».

«فإذا أتت الجمعة التالية ركب الخليفة إلى الجامع الأزهر من القشاشين (**مكانه اليوم شارع الصنادقية بالأزهر**) على المنوال الذى ذكرناه والقالب الذى وصفناه».

«فإذا كانت الجمعة الثالثة أُعلم بركوبه إلى مصر للخطابة فى جامعها (**المقصود الفسطاط وجامع عمرو بن العاص، وكانت الفسطاط حتى ذلك الحين بضواحيها هى العاصمة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية**) فيزين له أهل القاهرة من باب القصر إلى جامع ابن طولون، ويُزين له أهل مصر من جامع ابن طولون إلى الجامع بمصر، يرتب ذلك والى مصر كل أهل معيشة فى مكان فيُظهر المختار من الآلات والستور والمثمنات، ويهتمون بذلك ثلاثة أيام بلياليها، والوالى مار وعائد بينهم وقد ندب من يحفظ الناس ومتاعهم. فيركب يوم الجمعة المذكور شاقًا لذلك كله على الشارع الأعظم إلى مسجد عبدالله، إلى دار الأغاط إلى الجامع بمصر فيدخل إليه من المعونة (**أى مقر الشرطة**) ومنها باب متصل بقاعة الخطيب بالزى الذى تقدم ذكره فى خطبة الجامعين وعلى ترتيبهما. فإذا قضى الصلاة عاد إلى القاهرة من طريق بعينها شاقًا بالزينة إلى أن يصل إلى القصر ويعطى أرباب المساجد التى يمر عليها كل واحد دينارًا».

هذه الصورة تعكس جانبًا رسميًا فى الاحتفال بالشهر وتعكس جانبًا اجتماعيًا فى الاحتفال الذى يرتبه الوالى على حساب أصحاب الحرف والصناعات لتزيين الطريق الذى يمر به موكب الخليفة، لاسيما فى الفسطاط التى كانت قصبة البلاد آنذاك.



جوزيف فاركارسون.
قيلولة بائع البرتقال فى السوق

فرانك ديلون.
قيلولة الحريم فى بيت الشيخ السادات

الصورة الخامسة من داخل قصر الخلافة الفاطمية تتحدث عن مدى البذخ الذى مَيَّز الولائم الرمضانية التى كان الخلفاء الفاطميون يقيمونها يوميًا لإفطار الأمراء وكبار رجال الدولة. يقول المقريزى:

«سماط رمضان، قال ابن الطوير: فإذا كان اليوم الرابع من شهر رمضان رُتِّب عمل السماط كل ليلة بالقاعة بالقصر إلى السادس والعشرين منه. ويُستدعى قاضى القضاة ليالى الجُمع توقيرًا له (**حتى لا يكون استدعاؤه يوميًا سببًا فى حرمانه من الإفطار مع أهله**) فأما الأمراء، ففى كل ليلة منهم قوم بالنوبة (**نوبة الخدمة بالقصر**) ولا يحرمونهم الإفطار مع أولادهم وأهاليهم. ويكون حضورهم بمسطور يخرج إلى صاحب الباب واسفهلاره (**أى أن هناك قائمة بمواعيد الخدمة لكل منهم لدى المسئول عن القصر ومساعده**) فيعرف صاحب كل نوبة ليلته، فلا يتأخر. ويحضر الوزير ويجلس صدره (**أى يتصدر المائدة**) فإن تأخر كان ولده أو أخوه، وإن لم يحضر أحد من قبله كان صاحب الباب.

ويهتم فيه اهتمامًا عظيمًا تامًا بحيث لا يفوته شىء من أصناف المأكولات الفائقة والأغذية الرائعة، وهو مبسوط (**أى أن السماط، أو المائدة ممتدة**) فى طول القاعة، مادٌّ من الرواق إلى ثلثى القاعة الذهبية، والفراشون قيام لخدمة الحاضرين، وحواشى الأستاذين (**أى المشرفين على القصر**) يحضرون الماء المُبخَّر فى كيزان الخزف برسم الحاضرين.

ويكون انفصالهم العشاء الآخرة فيعمهم ذلك ويصل منه شىء إلى أهل القاهرة من بعض الناس لبعض. ويأخذ الرجل ما يكفى جماعته. فإذا حضر الوزير أُخرج إليه مما هو بحضرة الخليفة، وكانت يده فيه تشريفًا له وتطييبًا لقلبه. وربما حمل من سحوره من خاص ما يعين لسحور الخليفة نصيب وافر، ثم يتفرق الناس إلى أماكنهم بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين. قال ومبلغ ما ينفق فى شهر رمضان لسماطه مدة سبعة وعشرين يومًا ثلاثة آلاف دينار».

هل كانت هذه الولائم الرمضانية بداية لموائد الرحمن؟ ربما كانت هى البداية ولاسيما أن عادة إقامة موائد الإفطار ظلت سارية فى مصر وانتقلت من قمة الحكم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة والتجّار والأعيان والأثرياء. فى هذه الصورة التى نقلها المقريزى عن مؤرخ معاصر للفاطميين هو ابن الطوير، نجد أمرين يلفتان النظر بشدة: أولهما الاهتمام بأن تحتوى المائدة (السماط) على كل أصناف الطعام، وثانيهما أن الذين كانوا يحضرون «سماط رمضان» كانوا يأخذون معهم كميات كبيرة من الطعام الذى كان يصل بعضه إلى أهل القاهرة «من بعض الناس لبعض». كذلك كانت مكانة الوزير عظيمة بحيث كان له امتياز خاص وهو أن يأكل من طعام أكل منه الخليفة نفسه. لقد كانت وليمة الإفطار تمتد من المغرب حتى بعد العشاء وهى فترة طويلة كانت تتيح تبادل الأحاديث والآراء والمعلومات.

الصورة السادسة أيضًا من داخل قصر الخليفة الفاطمى، وتتحدث عن سحور الخليفة وكيفية قضائه الوقت ما بين الإفطار والسحور. يقول المقريزى:

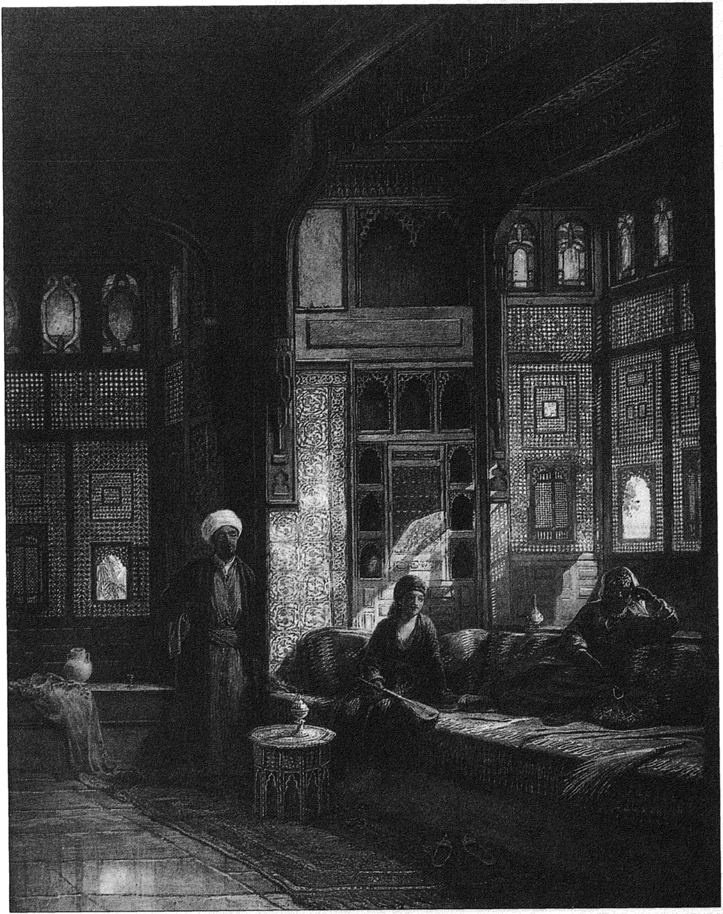
«سحور الخليفة. قال ابن المأمون وقد ذكر أسمطة رمضان وجلوس الخليفة بعد ذلك فى الروشن إلى وقت السحور (**الروشن مقصورة مرتفعة تحجب الخليفة عن الموجودين**) والمقرئون تحته يتلون عشرًا ويطرِّبون بحيث يشاهدهم الخليفة، ثم حضر بعد ذلك المؤذنون وأخذوا فى التكبير وذكر فضائل السحور وختموا بالدعاء. وقُدمت المخاد (**الوسائد**) للوعَّاظ فذكروا فضائل الشهر، ومدح الخليفة، والصوفيات (**المدائح الصوفية**) وقام كل من الجماعة للرقص (**يقصد الرقص مع إيقاعات الذكر كما يفعل المتصوفة**)، ولم يزالوا إلى أن انقضى من الليل أكثر من نصفه، فحضر بين الخليفة أستاذ بما أنعم به عليهم وعلى الفراشين. وأُحضرت جفان القطائف، وجرار الجلاب (**شراب بالعسل**) برسمهم فأكلوا وملأوا أكمامهم، وفضل عنهم ما تخطفه الفراشون، ثم جلس الخليفة فى السدلا (**مكان أسدلت عليه ستارة**) التى كان بها عند الفطور وبين يديه المائدة معبأة من جميع الحيوان وغيره. والقعبة الكبيرة الخاصة مملوءة أوساطه بالهمة المعروفة، وحضر الجلساء واستعمل كل منهم ما اقتدر عليه، وأومأ الخليفة أن يستعمل من القعبة؛ فيفرق الفراشون عليهم أجمعين، وكل من تناول شيئًا قام وقبّل الأرض وأخذ منه على سبيل البركة لأولاده وأهله؛ لأن ذلك كان مستغاضًا عندهم غير معيب على فاعله. ثم قُدِّمت الصحون الصينى مملوءة قطائف فأخذ منها الجماعة الكفاية. وقام الخليفة وجلس بالمقصورة وبين يديه السحورات المطيبات من لبئين (**ألبان**) رطب ومُخَض، وعدة أنواع عصارات وسويق ناعم وجريش وجميع ذلك بقلوبات محشية وموز (**أى أن العصائر والحلويات المصنوعة من الدقيق الناعم والخشن محشوة بالمكسرات والموز**) ثم تكون بين يديه صينية ذهب مملوءة سفوفًا، وحضر الجُلساء وأخذ كل منهم فى تقبيل الأرض والسؤال بما ينعم عليه، فتناوله المستخدمون والأستاذون وفرقوه فأخذه القوم فى أكمامهم، ثم سلم الجميع وانصرفوا».

الصورة السابعة من العصر الفاطمى هى الصورة الأخيرة التى أمدتنا بها المصادر التاريخية عن الاحتفال بشهر رمضان وهى عن ختم القرآن الكريم. يقول المقريزى:

«الختم فى آخر رمضان: وكان يعمل فى التاسع والعشرين منه. قال ابن المأمون: ولما كان التاسع والعشرون من شهر رمضان خرج الأمر باضعاف ما هو مستقر للمقرئين والمؤذنين فى كل ليلة برسم السحور بحكم أنها ليلة ختم الشهر، وحضر الأجلّ الوزير المأمون فى آخر النهار إلى القصر للفطور مع الخليفة والحضور على الأسمطة كالعادة، وحضر إخوته وعمومته وجميع الجلساء، وحضر المقرئون والمؤذنون وسلّموا على عادتهم وجلسوا تحت الروشن، وحمل من عند معظم الجهات والسيدات والمميزات من أهل القصر (**هذه كلها ألقاب لنساء القصر الفاطمى**) ثلاجى وموكبيات مملوءة ماء ملفوفة فى عراضى ديبقى (**أى أثواب القماش الديبقى الفاخر**) وجعلها أمام المذكورين لتشملها بركة ختم القرآن الكريم. واستفتح المقرئون من الحمد إلى خاتمة القرآن تلاوة وتطريبًا.

ثم وقف بعد ذلك من خطب فأسمع، ودعا فأبلغ، ورفع الفراشون ما أعدوه برسم الجهات، ثم كبَّر المؤذنون وهللوا، وأخذوا فى الصوفيات إلى أن نُثر عليهم من الروشن دنانير ودراهم ورباعيات، وقُدمت جفان القطائف على الرسم (**حسبما جرت العادة**) مع البسندود والحلواء؛ فجروا على عادتهم وملأوا أكمامهم، ثم خرج أستاذ من باب الدار الجديدة بخِلَع خلعها على الخطيب وغيره، ودراهم تُفرَق على الطائفتين من المقرئين والمؤذنين».

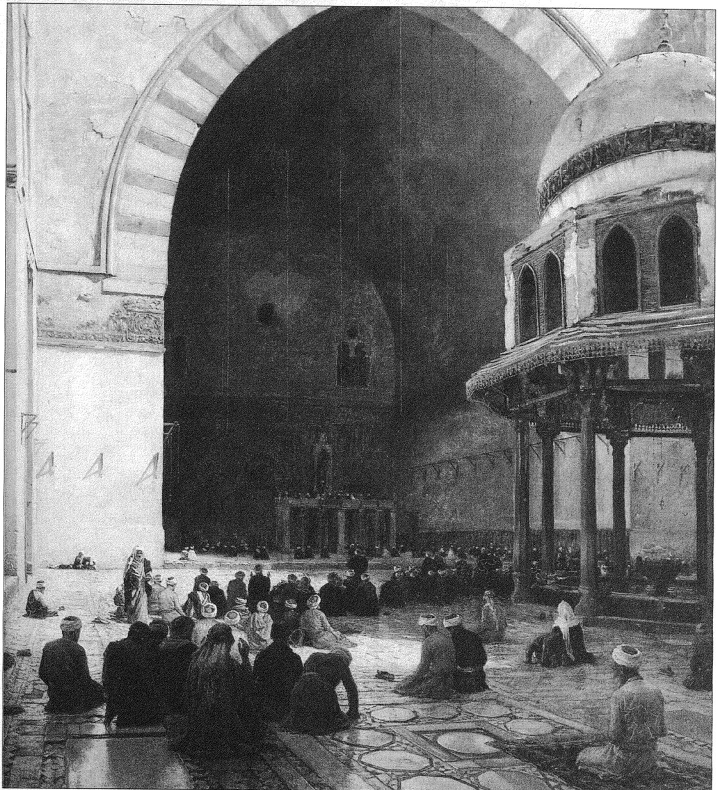
هذه الصور السبع من العصر الفاطمى لاحتفالات رمضان تأتينا من قصر الخليفة ولسنا نملك صورًا شعبية من هذا العصر، عن احتفالات رمضان بين الناس فى مصر عامة، وإذا ما تذكرنا أن القاهرة ظلت حتى ذلك الحين عاصمة سياسية وإدارية يسكنها الخليفة وحاشيته وحاميته، أمكننا أن نفهم سر اهتمام المؤرخين برصد أحوال الحكام والانصراف عن متابعة تطورات الحياة الاجتماعية بعيدًا عن العاصمة.



فى عصر المماليك

الصور التاريخية الأولى عن الاحتفال بشهر رمضان يقدمها الرحالة الأشهر «ابن بطوطة» الذى زار مصر فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة من سنة ٧٠٩هـ/١٣١٠م إلى سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م) شهد ابن بطوطة الاحتفال باستطلاع هلال شهر رمضان فى مدينة أبيار، بالقرب من المحلة الكبرى وقدم لنا هذه الصورة:

«وعادتهم أن يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضى. ويقف على الباب نقيب المتعممين **(كان العلماء والقضاة والفقهاء يعرفون بأهل العمامة، أو المتعممين)**، وهو ذو شارة وهيئة حسنة. فإذا أتى أحد الفقهاء، أو أحد الوجوه تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه قائلاً: باسم الله سيدنا فلان الدين، فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له، ويجلسه فى مجلس يليق به فإذا تكاملوا هناك، ركبوا جميعًا وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان، وينتهون إلى موضع مرتفع خارج المدينة، وهو مُرتقب الهلال عندهم. وقد فُرش ذلك الموضع بالبُسط والفرش، فينزل القاضى ومن معه، فيرقبون الهلال ثم يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس. ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع، ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون. هكذا فعلهم فى كل سنة». (رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق د. على المنتصر الكتانى،



بيروت ١٩٨١م - الطبعة الثالثة - جـ١، ص٤٦).

لاشك فى أن هذه الصورة التى ترسمها كلمات «ابن بطوطة» لاحتفالات رؤية هلال رمضان كانت قريبة الشبه بما حدث فى جميع أنحاء البلاد المصرية، وفى العاصمة كان موكب رؤية هلال رمضان يكتسب أهمية أكبر بطبيعة الحال. وقد حدث سنة ٨٨٢ هجرية اضطراب بسبب الرؤية، يقول ابن إياس (بدائع الزهور، جـ٣، ص١٣٦):

«فى رمضان سنة ٨٨٢هـ وقع بالقاهرة بعض الاضطراب، وسبب ذلك أن مضى الثلاثون من شعبان ولم يُرَ الهلال فأكل غالب الناس فى أول يوم من أيام رمضان؛ فنادى القاضى الشافعى بالإمساك، فثار عليه العوام وقصدوا الإخراق به **(أى أرادوا إيذاءه وإهانته)** فثبت برؤية الهلال قريب الظهر، ولكن فطر غالب الناس فى ذلك اليوم».

تشترك عدة مصادر تاريخية فى رسم تفاصيل الصورة الثانية. فحين يتم التأكد من رؤية هلال شهر رمضان يصعد القضاة ومشايخ العلم والفقهاء إلى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر، وربما يكون السلطان كريمًا فيمنح هؤلاء مالاً وهدايا بمناسبة الشهر مثلما فعل الأشرف قايتباى:

«فى رمضان سنة ٨٧٦هـ رسم السلطان للقاضى عبدالغنى بن الجيعان بأن يغدق على العلماء والفقهاء توسعة فى رمضان لعيالهم. واستمر ذلك عملاً فى كل شهر رمضان مدة أيام الأشرف قايتباى إلى أن مات، ثم تناقص من بعده» (ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٦٨ - ص٦٩).

كذلك كان يتم ختم قراءة البخارى بالقلعة وبعدها ينعم السلطان على قضاة القضاء ومشايخ العلم والفقهاء بالخلع وصُرر المال. وحدث مرة واحدة أنه فى شهر رمضان «.. ختم قراءة البخارى بالجامع الأزهر، وحضر القضاة الأربعة، وفُرقت هناك الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء.. وكان قراءة البخارى من أول شهر رمضان بالجامع الأزهر. وعند الدعاء يدعون للسلطان بالسلامة» (ابن إياس: بدائع الزهور، جـ٣، ص١٣٧) كان ذلك سنة ٨٨٢هـ ولكن قراءة البخارى عادت بعدها إلى القلعة حسبما جرت العادة.

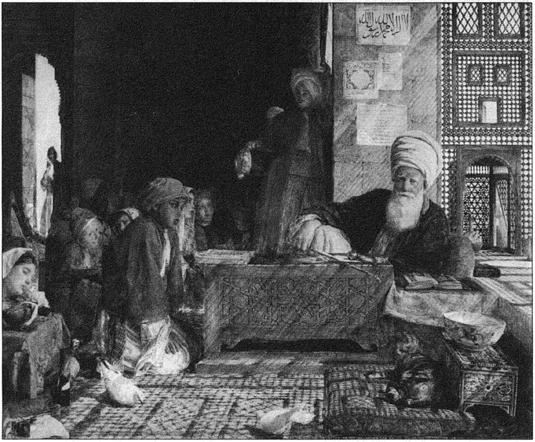
كان هذا شكل احتفال أهل الحكم، ولكن احتفال أهل البلد كان له شكل آخر. فقد كانت القاهرة والمدن المصرية تسبح فى الأضواء طوال ليالى شهر رمضان بسبب كثرة المشاعل والفوانيس والشموع فى الحوانيت والأسواق وعلى الحبال الممتدة بين البيوت عبر الشوارع وبأيدى الناس. وهو الأمر الذى لفت انتباه الرحالة الأجانب الذين زاروا القاهرة أيام المماليك. كذلك فإن ابن الحاج المغربى (الذى أقام بالقاهرة فترة وهو فى طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج) لاحظ أنه كان من عادة المصريين فى شهر رمضان أن يعلقوا الفوانيس على الحبال الممدودة بين مآذن المساجد والجوامع «... التى جعلوها علمًا على جواز الأكل والشرب وغيرهما مادامت معلقة موقودة...».

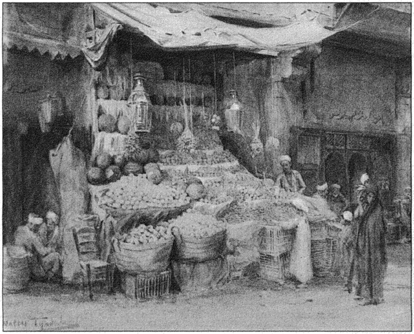
وفى ليالى شهر رمضان كانت أسواق القاهرة والمدن المصرية الأخرى تزدهر وتدب فيها الحياة احتفالاً بالشهر الكريم، وقد لاحظ الرحالة الأجانب أن المطاعم والمطابخ فى العاصمة كانت تظل مفتوحة من الغروب حتى الفجر طوال شهر رمضان لكى تستقبل زبائنها. والحقيقة أن معظم سكان القاهرة فى تلك العصور لم يكونوا يطهون طعامهم فى بيوتهم، وإنما كانوا من رواد المطاعم التى قدرها البعض باثنى عشر ألف مطعم فى القاهرة. من ثم كان طبيعيًا أن يعتمد القاهريون من أبناء الشرائح الوسطى والدنيا على المطاعم والمطابخ فى وجبتى الإفطار والسحور.

كذلك ارتبطت بعض الأسواق بشهر رمضان ارتباطًا خاصًا، ومنها «سوق الحلاويين» و«سوق الشماعين». ففى شهر رمضان كانت سوق الحلاويين تمتلىء بجميع أشكال التماثيل السكرية التى كانت تُصنع على هيئة تماثيل الحيوانات من قطط وسباع وغيرها. وكانت هذه التماثيل السكرية تُعرف باسم «العلاليق» (ومفردها عُلاَّقة) لأنها كانت تعلق بخيوط على أبواب الحوانيت وحوائطها، ويتراوح وزن الواحدة ما بين ربع رطل وعشرة أرطال.

أما سوق الشماعين (أى تجار الشموع) فقد ارتبطت أيضاً بشهر رمضان، ففى ليالى هذا الشهر كانت حوانيت السوق تفتح أبوابها إلى ما بعد منتصف الليل، وقد تلألأت السوق بأضواء مختلف أنواع الشموع الموكبية والفانوسية والطوافات. يقول المقريزى (الخطط، جـ٢، ص٩٢، ص١٠٦).

«وأدركت سوق الشماعين من الجانبين معمور الحوانيت بالشموع الموكبية والفانوسية والطوافات لاتزال





فردريك لويس.
كتّاب فى ضواحى القاهرة.

والتر تيرزال.
بائع الفاكهة فى بولاق

جوزيف فاركارسون.
داخل مسجد السلطان حسن

حوانيته مفتحة إلى منتصف الليل.. وكان به في شهر رمضان موسم عظيم لكثرة ما يُشترى ويكترى من الشموع الموكبية التي تزن الواحدة منهن عشرة أرطال فما دونها، ومن المزهرات العجيبة الزى المليحة الصنعة، ومن الشمع الذى يُحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار وما فوقه، كل ذلك برسم ركوب الصبيان لصلاة التراويح؛ فيمر في شهر رمضان من ذلك ما يعجز البليغ عن حكاية وصفه...».

كان موكب صلاة التراويح في كل حارة (حى) من حارات القاهرة من علامات شهر رمضان البهيجة، فقد كان هذا الموكب يتجمع حول إحدى الشموع الضخمة التي يجرها الأولاد على عجلات وقد أمسك كل منهم بفانوسه وهم يهزجون بأغنيات جميلة خاصة برمضان ويطوف الموكب الجديد الدروب والأزقة من بعد المغرب حتى موعد صلاة التراويح.

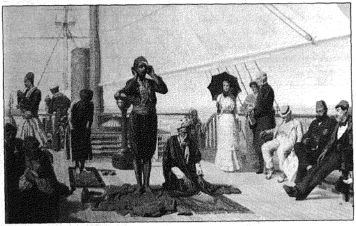
كان المسحراتي من أهم رموز رمضان وقد حدثتنا المصادر التاريخية عن هذا الرجل الذى كان يطوف شوارع الأحياء ودروبها وأزقتها في الشطر الأخير من الليل بطبلته الشهيرة وفي ليالي الصيف كان يصحبه عدد من الأطفال وهو يردد أهازيجه وأغنياته الدينية ويدق على طبلة مناديًا أصحاب البيوت الذين يعرفهم بالاسم. وقد ذكر «ابن الحاج» أن المسحراتي في الإسكندرية كان يدق على بيوت الناس ويطلب منهم القيام لتناول السحور.

الصورة الثالثة قبل سقوط دولة سلاطين المماليك بعامين ترسمها كلمات المؤرخ ابن إياس (بدائع الزهور جـ٤، ص٣٩٧)، يقول:

«في يوم الخميس كان مستهل شهر رمضان سنة ٩٢٠هـ فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر، فجلس السلطان بالميدان وطلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب، وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على رؤوس الحمالين. فأخلع السلطان عليهما وأخلع على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة، الخلع السنية- وأما في ليلة رؤية الهلال حضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصورية **(نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون)** وحضر الزينى بركات ابن موسى المحتسب، فلما ثبت رؤية الهلال وانفض المجلس ركب الزينى بركات بن موسى من هناك فتلاقاه الفوانيس الأكرة والمناجنيق والمشاعل والشموع الموقودة، فلم يُحص ذلك لكثرته، ووقدوا له الشموع على الدكاكين وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين إلى سوق مرجوش إلى الخشابين إلى سويقة اللبن عند بيته، فارتجت له القاهرة في تلك الليلة، وكانت من الليالي المشهودة، وأطلقوا له مجامر البخور بطول الطريق. وكان ذلك يعادل المواكب السلطانية».

رؤية غربية

آخر صورة نقدمها للاحتفال بشهر رمضان نأخذها من كتاب «إدوارد وليم لين»، الذى بدأ زيارته لمصر سنة ١٨٢٥م وتعلم العربية واندمج في المجتمع المصرى على مدى ثلاث سنوات ثم عاد إلى بلاده سنة ١٨٢٨م، وزار مصر ثانية لمدة عامين (١٨٣٣-١٨٣٥م) ألَّف أثناءها كتابه «عادات المصريين المحدثين وعاداتهم». كانت مصر في تلك الفترة تحت حكم محمد على.



والتر هورسلي.
صلاة البحار على ظهر سفينة تحمل افندية وسواحا

فردريك لويس.
في خدمة سيدة الحريم

يقول هذا المستشرق الانجليزى:

«تُعرف الليلة التي يُتوقع فيها بدء شهر رمضان بليلة الرؤية. ويتوجه في فترة بعد ظهر اليوم السابق، أو قبلاً، العديد من الأشخاص إلى الصحراء حيث الجو الصافى لرؤية الهلال القمر؛ ويبدأ الصوم في اليوم التالى بعد رؤية الهلال. وإذا استحالت رؤية الهلال نتيجة لتلبد صفحة السماء يبدأ الصوم عند انقضاء ثلاثين يومًا من بداية الشهر السابق. وتكفى شهادة مسلم واحد في رؤية الهلال لإعلان الصوم. وينطلق المحتسب وشيوخ بعض الحرف (الخبازون والطحانون والجزارون والزياتون وبائعو الخضروات) ولفيف من أتباعهم، وفرق الموسيقى، والصوفية بقيادة بعض العسكر في هذه الليلة في موكب من القلعة إلى دار القاضى وهناك ينتظرون عودة الشخص الذى ذهب لاستطلاع الهلال، أو شهادة أى مسلم آخر رأى الهلال. ويحتشد الناس في الشوارع التي يمر بها الموكب. وجرت العادة أن تكون في الموكب طائفة من الجياد المغطاة سروجها باقمشة مزركشة؛ بيد أن العرض العسكرى حل محل الأبهة الدينية المدنية التي كانت تشهدها ليلة الرؤية. واقتصر موكب ليلة الرؤية على الجنود المشاة. ويتقدم حاملو المشاعل كل مجموعة من الجنود، كما يسيرون خلفهم لإنارة الطريق لهم عند عودتهم، ويتبعهم الشيخ وبعض أرباب الحرف ومعهم العديد من العامة وهم يهتفون: «بركة، بركة، بارك الله عليك يا رسول الله، عليك الصلاة والسلام». وتمر الفرق في بضع دقائق ثم يجيء المحتسب ومعاونوه في نهاية الموكب.

«وبعد أن يصل الخبر اليقين بانه تمت رؤية القمر إلى بيت القاضى ينقسم الجنود ومن احتشدوا معهم في الموكب إلى عدة فرق، يعود فريق منهم إلى القلعة بينما تطوف الفرق الأخرى أنحاء المدينة وأحياءها المختلفة وينادون «يا أتباع أفضل خلق الله، الصيام الصيام» أما إذا لم تثبت رؤية الهلال في تلك الليلة يصرخ المنادى «بكرة شعبان، مافيش صيام.. مافيش صيام». ويمضى المصريون شطرًا كبيرًا من تلك الليلة يأكلون ويشربون ويدخنون وترتسم البهجة على وجوههم إذا ما أعلن أن الصيام في اليوم التالى. وتتلألأ الجوامع بالأنوار التي تظل على هذا الحال في الليالى التالية، وتُعلق المصابيح عند مداخلها وفوق المآذن».

«ولا نصادف خلال شهر رمضان الناس في الشوارع يحملون أدوات التدخين كما هو الحال في الأوقات الأخرى؛ بل نراهم يمشون فارغى اليدين، أو يحملون عصا أو مسبحة. ولم يكن النصارى في محلاتهم يدخنون على مرأى من المسلمين الصائمين. وتكتسى الشوارع بالنهار منظرًا كئيبًا وتغلق معظم المحال أبوابها. ويكون المسلمون طوال صيامهم نهارًا نكدى المزاج، ثم يتحولون ليلاً بعد الافطار إلى أشخاص ودودين ومحبين بشكل غير عادى. ومن عادة الأتراك وغيرهم في القاهرة أن يتوجهوا في شهر رمضان إلى جامع الحسين في فترة ما بعد الظهر للصلاة والراحة. ويعرض بعض التجار الأتراك الذين يعرفون باسم «التُحفجية» بضاعتهم في مثل هذه المناسبات في باحة الميضاة للبيع، وهى تنم عن ذوق رفيع وتلبى حاجات مواطنيهم. ومن الشائع في رمضان رؤية التجار في متاجرهم يتلون آيات القرآن الكريم أو يؤدون الصلوات، أو يوزعون الخبز على الفقراء. ويصبح المتسولون قبيل المغرب وأحيانًا بعد الإفطار مصدر إزعاج وصخب. وفي هذه الأوقات يتوافد أبناء الطبقات الدنيا إلى المقاهى، ويفضل بعضهم كسر صيامه بفنجان قهوة وتدخين البيبة. وقليلون هم الفقراء الذين يكسرون صيامهم، وقد يعمد بعض أبناء الطبقتين الغنية والمتوسطة إلى التوقف عن الصيام سرًا.

«يضع أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية طوال شهر رمضان كرسى الإفطار في الحجرة التي يستقبل فيها رب المنزل زواره قبل الغروب بدقائق، وتثبت صينية مطلية فوق هذا الكرسى تزينها أطباق «النُقل والمكسرات» المختلفة مثل الزبيب والتمر والتين المجفف والكعك والبندق والجوز وبعض أوانى الشربات المصنوع من السكر والماء.. ويتناول رب المنزل بعد أذان المغرب كاسًا من «الخشاف» أو الشربات مع بعض أفراد عائلته أو أصدقائه، ثم يؤدون صلاة المغرب ويأكلون بعدها شيئًا من «النُقل والمكسرات» ويدخنون، وبعد ذلك يتناولون «الفطور» الدسم من اللحم وغيره من أطايب الطعام، ثم يؤدون صلاة العشاء وبعدها صلاة التراويح...».

«يتناول المسلمون فطورهم في منازلهم بشكل عام، وبعد ذلك بساعة أو ساعتين يمضون إلى منزل أحد الأصدقاء، ويرتاد بعضهم المقاهى حيث تتم اللقاءات الاجتماعية، أو يستمعون إلى رواة السير والحكايات الشعبية، أوعزف الموسيقى من الموسيقيين الذين يسلونهم في كل ليلة من ليالى رمضان. وتمتلىء الشوارع بالناس طوال شطر كبير من الليل وتظل محلات بيع المشروبات والماكولات مفتوحة.. ويقيم بعض علماء القاهرة حلقات الذكر في منازلهم كل ليلة طوال شهر رمضان...».

يدور المسحرون كل ليلة في شهر رمضان أمام منزل كل مسلم لينبهوا إلى موعد السحور في ساعة متاخرة. ولكل «خط» (حى) في القاهرة مسحرها الخاص فيحمل في يده «بازًا» صغيرًا أو ما يعرف «بطبلة المسحراتى» وفي يده اليمنى عصا صغيرة أو قطعة من الجلد يدق بها على طبلته، ويرافقه في جولته صبى يحمل قنديلين على عود من جريد النخل. ويتوقف أمام كل منزل ويضرب طبلته ثلاث مرات وهو ينشد مناديًا بالصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام وبعبارات التوحيد ويقول «إصح يا فلان وحد الرحمن»...

«... ويتجول المسحر قبل الإمساك بساعة ونصف تقريبًا ليوقظ الناس أو يذكرهم بتناول الطعام في المنازل التي تقع في دائرة اختصاصه فيقرع الأبواب وينادى حتى يسمع سكان المنزل نداءه...».

هذه الصور التاريخية التي قدمناها لشهر رمضان في مصر خلال عصورها التاريخية المختلفة تتفق جميعها في أن شهر الصوم قد أصبح مناسبة اجتماعية / دينية تتجلى فيها خصائص الثقافة المصرية التي جمعت بين ثنائيات كثيرة تبدو متناقضة من ناحية، كما تكشف عن أن الاحتفال بشهر رمضان كان وسيلة «سياسية» يتوسل بها الحكام للتواصل مع رعاياهم، كما كان وسيلة «اجتماعية» يتوسل بها الناس للتقارب الاجتماعى والثقافى.

كان شهر رمضان، ولايزال، في مصر مناسبة اجتماعية / دينية تعبر عن مدى حيوية التراث الثقافى المصرى. ففى هذا الشهر نجد الجانب الدينى متمثلاً في قراءة القرآن وحلقات الذكر وملازمة المساجد، ونجد الجانب الاجتماعى في الزيارات واللقاءات في المنازل والمقاهى وأماكن التجمعات المعتادة، ويتجلى الجانب الفنى في سماع الموسيقى والاستماع إلى السير والحكايات الشعبية ومواكب الصبيان بفوانيسهم وأغانيهم الجميلة، وطواف «المسحراتى» بطبلته ذات الإيقاع المخصوص وأهازيجه ومدائحه الشجية، ويظهر الجانب السياسى في حرص الحكام على الظهور في مناسبات مثل صلاة الجمعة، أو رؤية الهلال، أو صلاة عيد الفطر، ويظهر الجانب الشعبى في قائمة الطعام الغنية المتنوعة والتي حوّلت شهر الصوم إلى مناسبة للأكل.

أو ليس رمضان في مصر مختلفًا عن شهر رمضان في أى مكان آخر؟!! ■



"أزمة السياسة"

محمد حسنين هيكل

المعنى الحقيقى لما جرى فى الانتخابات الأمريكية، هو أن الناخب وجد نفسه مطالبا بالاختيار بين السيئ والسيئ

١

لقد خطر ببالى - وحتى لا أقاطع حديثاً ذهبت معه بعيداً إلى سياحة فى الوثائق الإسرائيلية - أن أستعير هذه الصفحات من هيئة تحرير هذه المجلة لمرة واحدة لعلها لا تتكرر. والحقيقة أننى أردت إبداء رأى يبدو من ظاهره أنه شأن جارٍ لا يدخل فى الاهتمام المباشر والآنى لهذه المجلة - لكنى وجدته من وجهة نظرى شأناً مقيماً وليس شأناً جارياً - أعنى أنه ليس مجرد حدث، وإنما هو قضية.

والقضية التى أريد إبداء رأى فيها تتصل بذلك المأزق الذى اعترض انتخابات الرئاسة الأمريكية وعَطَّلَ ظهور نتائجها مدة تُحسَب بالأسابيع ضاعت فى الفرز، وإعادة الفرز، ثم إعادة الإعادة مرات ومرات - بينما أمريكا تنتظر على نار كى تعرف اسم رئيسها الجديد، والعالم وراءها ينتظر فى تَوَجُّس حتى يتأكد من هو ساكن البيت الأبيض القادم؟ وما هى درجة لياقته لمسئولياته بعد كل ما جرى؟ وما الذى يمكن توقعه تحت رئاسته؟!

٢

وما أريد أن أقوله أن ذلك المأزق الذى أحاط بأهم مواقع السلطة فى التاريخ وفى العالم لا يعكس أزمة انتخابات فى الولايات المتحدة الأمريكية بالذات، لكنه يعكس «أزمة فى السياسة» على مستوى أوسع بكثير من أمريكا، وأبعد بكثير من اللحظة الراهنة فى انتخابات الرئاسة الأمريكية وتداعياتها ومضاعفاتها!

وحتى يسهل تأصيل المسائل من البداية فقد يمكن الاتفاق - وبصفة إجمالية - على أن العمل السياسى هو فكرة أو مصلحة عامة، تشد المؤمنين بها أو الراغبين فيها، وتدعوهم للعمل من أجل التأسيس لها، ونشرها، وترسيخ قبولها بما يضمن لها شرعية تؤهلها لكتابة القانون.

وإذا كان ذلك صحيحاً فإن العمل السياسى يصبح فى الأمر الواقع «خطاباً» مُطالباً بأن يملك من قوة التأثير ما يُحَوِّل رسالته إلى مؤسسات لها قواعد ومرتكزات، ويكون فى «الخطاب» من مقدرة الإقناع ما يُحَوِّل الإيمان به إلى حيوية تلهم وتدفع المجتمعات. مع الأخذ فى الاعتبار أن «الخطاب» لا يكون مُؤثراً إلا بمقدار ما هو مُعَبِّر، ولا يكون مُعَبِّراً إلا بمقدار ما هو قادر على فتح الطريق الطويل والصعب من «مصداقية الدعوة» إلى «شرعية كتابة القانون».

٣

وإذا وقع الاتفاق على أن العمل السياسى بالدرجة الأولى «خطاب» ، فقد يكون مناسباً الاتفاق فى نفس الوقت على أن أى «خطاب» هو بحقائق الأشياء وعاء يأخذ حمولاته (اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية) كى يعرضها على الدائرة الأوسع من جماهير وقوى وتيارات تَقدِر على تحويل العمل السياسى من «خطابٍ» يقنع إلى «قانون» يحكم.

ومن المقبول طبيعياً أن أى وعاء يؤثر بهيئته على شكل حمولته، فكل حمولة مضطرة إلى أن تأخذ صورة وعائها، وهنا فإن الوسائل تؤثر فى الغايات.

٤

وباختصار، وبسرعة، فإنه عندما كان «الخطاب السياسى» كلمة تقال لجمع صغير من الناس، فقد كانت تلك فترة تَوافُق الصفوة وتراضيها باتفاق عناصرها على مناطق وحدود.

ثم إنه عندما اتَّسَعَت دائرة «الخطاب السياسى» وأصبح أداؤه استنهاضاً أمام حشد أكبر من الناس ، فإن وسيلة «الخطاب» أصبحت بلاغة الخطابة ، وتأثيرها فى السامعين، وقدرتها على توجيه الفعل والتحريض عليه ، وكان ذلك ما حَدَث - مثلاً - فى الهجوم على «الباستيل» السجن الأشهر فى باريس (وهو الموقعة الكبرى للثورة الفرنسية)، وما حَدَث فيما بعد أمام قصر الشتاء الملكى فى «سان بيترسبورج» (وهو الموقعة الكبرى للثورة البلشفية).

والشاهد أنه فى تلك الفترة، وعلى امتداد قرابة قرن وربع القرن من «الباستيل» فى باريس إلى قصر الشتاء فى «سان بيترسبورج» ، كان «الخطاب السياسى» - خطابة تَستَنهِض الفعل وتُحَرِّض عليه !

٥

وعندما اكتُشف اللاسلكى وظهر الميكروفون فإن «الإذاعةَ» أحدثت تطوراً هائلاً فى الخطاب السياسى بما وَفَّرَت له من اتساع وانتشار . وفى عصر «الإذاعة» ظهرت سطوة رَجَل مثل «أدولف هتلر» فى ألمانيا النازية - وفى نفس العصر اتسع نفوذ رَجُل مثل «فرانكلين روزفلت» فى الولايات المتحدة الأمريكية . وفى حين أن خطاب «هتلر» لـ«ميكروفون الإذاعة» كان من نار ولَهَب ، فإن «روزفلت» اختار أن يكون خطابه : أخذاً وعطاءً، أو تفكيراً بصوت عال كما كان بنفسه يقول . ونتيجة لذلك فإن الساحة الأثيرة لخطاب «هتلر» النارى الملتهب كانت فى عروض الجيوش ووسط خفق الرايات وهدير الحشود ، فى حين أن «روزفلت» اختار لخطابه عنوان «حديث المدفأة» ، وكان يأخذ «ميكروفون الإذاعة» فى يده ويجلس بجوار مدفأة بيته مساء يوم الجمعة الأول من كل شهر ويتحدث للناس ، وأحياناً يهمس.

وكذلك كان وعاء «الخطاب» يتداخل مع مضمون «الخطاب» .

٦

وفى عصر التليفزيون وقد لحق نشيطاً بعصر الإذاعة - فإن سلطان الصورة طغى لأن «الخطاب» لم يَعُد «كلمة» ، وإنما تَحَوَّل إلى ألوان وأصوات ومؤثرات تصنع مشاهد قادرة على الإقناع حتى بالخداع ! ويوماً بعد يوم لم تصبح العلاقة بين وعاء «الخطاب» ومضمون «الخطاب» متداخلة فقط ، وإنما غلب الوعاء على المضمون لأن الصورة راحت تفرض مطالبها ، وأولها «أكبر شحنة من قوة الإيحاء» ، وليس «أكبر قدر من قوة الإقناع» .

وهنا فإن «الخطاب السياسى» لم يَعُد يحتاج إلى صفوة تتفق عناصرها على المواقع والحدود - ولم يَعُد «الخطاب السياسى» يحتاج إلى حناجر لها القدرة على التحكم فى طبقات صوتها ، سواء كان الخطيب هو «فلاديمير إليتش لينين» فى موسكو ، أو «سعد زغلول» فى القاهرة ! - وأخيراً فإن «الخطاب السياسى» لم يَعُد يحتاج ميكروفونات «هتلر» الساخنة ، أو ميكروفونات «روزفلت» الهامسة !

ومع أزمنة جديدة أصبح «الخطاب السياسى» عملية مسرحة تحتاج إلى كُتَّاب النصوص والمخرجين والمصَوِّرين ، وإلى الأضواء والعدسات ، وإلى حَبْكة المؤثرات وقوة الإبهار !

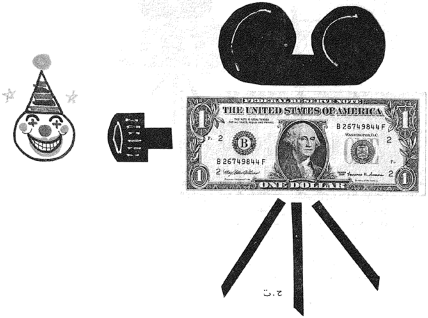
٧

وقد أتيح لى أن أشهد هذه الثورة فى أسلوب «الخطاب السياسى» أيام طفولتها ، وفى عَهد براءتها ، وعندما كانت تصرفاتها تبدو نوعاً من «شقاوة» بواكير العُمر تدعو للابتسام - ولا تشد الأعصاب كما يَحدُث الآن بعد أن كبر الطفل التليفزيونى البرىء وأصبحت حمولته شحنات مُكثفة وضاغطة - خصوصاً فى مجال «الخطاب السياسى»!

وجاءت الفرصة التى أتيحت لى مع انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ١٩٥٢ (وقد غطيتها صحفياً) ، وكان المرشحان المتنافسان فيها هما : الجنرال «دوايت أيزنهاور» عن الحزب الجمهورى، و«أدلاى ستيفنسون» عن الحزب الديمقراطى .

كانت تلك آخر حملة انتخابية للرئاسة الأمريكية تُستعمل فيها خطوط السكك الحديدية طريقاً إلى ميادين المعارك الانتخابية، وكان ذلك أسلوباً ابتكره «ثيودور روزفلت» فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وقد أطلقوا عليه وصف «القطار الذى يُصَفِّر فى المحطة» Stop whistle train.

فى انتخابات الرئاسة



وملخص إجراءاته أن المرشح للرئاسة يستقل قطاراً خاصاً يطوف به أرجاء الولايات المتحدة، وفى بعض المحطات المهمة فإن القطار يطلق صفاراته مُعلناً وصوله براكبه المنتظر، ثم يتوقف فى المحطة ويخرج المرشح ليقف فى شرفة العربة الأخيرة من القطار ويراه الناس ويسمعونه واقفاً هناك، وحَوله وحَول الكل حصار من ميكروفونات الإذاعة وعَدَسات التلفزيون أشبه ما تكون بأسلحة نارية مُصَوَّبة!

فى ذلك الوقت كان لى حظ أن أكون ضمن مجموعة الصحافة الأجنبية التى دُعِيَت إلى متابعة الحملة الانتخابية للرئاسة أسبوعاً على قطار مرشح الجمهوريين الجنرال «أيزنهاور»، وأسبوعاً على قطار مرشح الديمقراطيين «أدلاى ستيفنسون».

٨

وعلى قطار «أيزنهاور»، وفى محطة مدينة أمريكية فى ولاية «إلينوى» (اسمها «أتاوا» - على اسم المدينة الكندية الشهيرة) قابلت طفولة عصر التليفزيون كما أسلفت، وشهدت بداية دوره كوعاء حامل للخطاب السياسى فى أزمنة متغيرة!

يومها كانت العربة قبل الأخيرة - كما هو التقليد - مخصصة لمجموعة الصحافة الأجنبية المرافقة للمرشح الجمهورى الجنرال «دوايت أيزنهاور»، وكذلك كان المرشح يَمُرّ منها قبل أن يَصِل إلى شرفة العربة الأخيرة ليطل على الجماهير والميكروفونات والعَدَسات المحتشدة فى محطة «أتاوا - إلينوى» تنقله صوتاً وصورة ليس إلى القريبين منه حول شرفة القطار، وإنما إلى البعيدين عنه فى كل أرجاء الولايات المتحدة ومنها إلى بقية العالم.

ووقفنا جمعاً من الصحفيين فى انتظار أن يَمُرّ بنا «أيزنهاور» فى طريقه إلى شرفة العربة الأخيرة من القطار، وربما أن بعضنا كان يتوقع أن يستوقفه لسؤال أو سؤالين. لكن ما وقع اختلف بعض الشىء عما كان متوقعاً، فقد تصادف يومها أن الصحفى الأشهر الحاضر للمناسبة كان اللورد «بيفر بروك» صاحب أكبر مجموعة من الصحف البريطانية (وكان فوق نفوذه كصحفى ومالك مجموعة كبيرة من الصحف - أقرب الصحفيين إلى «ونستون تشرشل»، الذى اختاره عُضواً معه فى وزارة الحرب البريطانية طوال رئاسته لها بين ١٩٤٠ إلى ١٩٤٥).

وعندما دخل «أيزنهاور» عربة الصحفيين الأجانب عابراً منها إلى الشرفة الأخيرة للقطار كانت دهشة الجميع شديدة، ذلك أن الجنرال الذى قاد جيوش الحلفاء للنصر فى أوروبا ظهر ووجهه مغطى بطبقات كثيفة من الأصباغ والألوان المطلوبة لتجميل الصورة وتلوينها (حتى لا تكشف عَدَد سنوات عمره) - ولتغطية تجاعيد الوَجه (حتى لا تُجَسِّمها عدسات التصوير القريبة) - ولإعادة رسم الحواجب ثقيلة بالخطوط السوداء (بعد أن نحل شعرها بعوامل التعرية على مَرّ السنين) - ثم إن الشفتين كستهما مسحة واضحة من صُنع قَلَم أحمر (حَاول أن يسكب عليهما لمسة من نضرة تخفى جفافاً حَلَّ عليهما مع الكهولة!)

وبدا أن أشدنا دهشة كان اللورد «بيفر بروك»، والذى ظهر أنه يعرف «أيزنهاور» من قبل معرفة وثيقة (وفى الغالب منذ كان «أيزنهاور» مقيماً فى بريطانيا بين سنة ١٩٤٣ - ١٩٤٤ يُحَضِّر لتحرير أوروبا ولكسر قبضة ألمانيا النازية المطبقة عليها).

وبَلَغَت دهشتنا جميعاً ذروتها عندما رأينا أحد خبراء التجميل يندفع فجاة وراء «أيزنهاور» ويناديه لينتظر لحظة حتى يَرُشّ سائلاً من نوع معين (spray) فوق صَلعَة رأسه قبل أن يصل إلى شرفة القطار، وغرضه أن يُطفئ لمعان صَلعَة مُرَشح الرئاسة حتى لا تعكس الأضواء وتؤثر على نقاء الصورة!

وكنت (وكان زميل لبنانى لى هو الأستاذ سمير سوقى) نرقب ما يجرى فى ذهول شرقى ربما فاق ذهول الآخرين - ثم كان اللورد «بيفر بروك» هو الذى بادر وسأل الجنرال الذى أقبل يصافحه: «أيك (اسم التدليل لـ«ايزنهاور») - ماذا فعلت معك السياسة؟»

ورَدَّ «أيزنهاور» - ونحن جميعاً شهود لا نكاد نصدق ما نرى ونسمع - «يا صديقى إننى الآن أخوض حرباً مختلفة بغير السلاح والنار، وإنما بالأبيض والأحمر» (ولعله كان يعنى مساحيق البودرة وأصابع أحمر الشفاه) - قالها الجنرال المنتصر فى أكبر حروب التاريخ، ثم مشى إلى العربة الأخيرة من قطار حملته الانتخابية يواجه جمهوراً جاء يلقاه، وجمهوراً لم يجىء، وهو الجمهور الأوسع الذى ينتظر بعيداً فى بلاده ومُدُنه وقُراه - ليَسمَع المرشح صوتاً، ويراه على شاشات التليفزيون صورةً!

٩

منذ تلك الأيام من سنة ١٩٥٢ وانتخابات الرئاسة الأمريكية فيها بين «دوايت أيزنهاور» و«أدلاى ستيفنسون»، وحتى هذه الأيام من سنة ٢٠٠٠ وانتخابات الرئاسة الأمريكية التى جَرَت فيها بين «آل جور» و«جورج بوش» - تَلاحَقَت ثورات هائلة فى وسائل الاتصال ركبت أعالى النجوم السابحة فى الفضاء، وحَوَّلَت كرة الأرض إلى شاشة كبيرة يظهر عليها كل شىء، فى أى مكان، فى نفس اللحظة.

وباختصار - لأن الواقع الراهن الآن يعرض نفسه على الناس جميعاً بما يغنى عن إطالة الشرح - فإن الخطاب السياسى المعاصر تَحَوَّل إلى صورة يصنعها مُخرج يملك كل وسائل - تكنولوجيا - المسرحة صوتاً وضوءاً، وحركة ولوناً، ومؤثرات وخِدَعا ذهبت بعيداً حتى فَقَدَ الشكل علاقَته بالأصل، ثم وَصَلَ الحال فى الولايات المتحدة - مَرَّة - إلى الإتيان بممثل سينمائى محترف هو «رونالد ريجان» لكى يؤدى فى الحياة - وليس على خشبة المسرح - دور رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. وللحق فإن الرَجُل أدى دوره بامتياز، وبَذَل فيه أكثر مما بَذَل فى أى دَور أسند إليه، ثم أنهكه الجهد بعد انتهاء الدَور فغاص (مع مَرَض «ألزهايمر») فى أعماق النسيان!

١٠

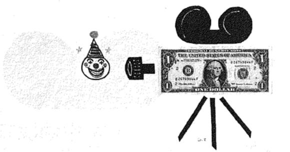
إن الوسائل طغت على الغايات حتى استهلكتها تقريباً، وهنا ظهرت الأزمة التى تجلت بعض عوارضها فى المأزق الذى وصلت إليه المنافسة الانتخابية على الرئاسة الأمريكية بين «جور» (مرشح الديمقراطيين) و«بوش» (مرشح الجمهوريين).

كانت الأزمة التى طغت فيها الوسائل على الغايات حتى استهلكتها - أنه عندما أصبح «الخطاب السياسى» أسيراً للوسائل، وأصبحت العملية الانتخابية أسيرة لفنون وتكنولوجيا المسرحة - أن الأفكار والمصالح وهى صميم السياسة كان عليها أن تبحث لنفسها عن مواقع أخرى تمارس فيها «قوة» من نوع آخر تمكنها من «كتابة القانون».

وفى لحظة حاسمة من التاريخ الحديث (بين الستينات والسبعينات من ذلك القرن العشرين) وقع افتراق - لا يؤدى إلى طلاق - بين الوسائل السياسية وبين «الأفكار والمصالح» التى هى صميم السياسة.

منذ تلك اللحظة تُرِكَت الوسائل السياسية لفنون وتكنولوجيا «المسرحة»، وللمخرجين والمصَوِّرين والنجوم الكبار والصغار، وخبراء الماكياج، والمدربين على نطق الكلام والإشارة بالأيدى والتعبير بالعيون. وأما «الأفكار والمصالح» فقد أخذت نفسها بعيداً ورَكَّزَت فعلها فى مواقع أخرى، والسبب أن هؤلاء الذين «مثلوا الأفكار والمصالح» لم يكونوا على استعداد لدفع التكاليف الباهظة (والمبتذلة إلى درجة الإهانة أحياناً) للوسائل السياسية الجديدة، وهكذا فإن أفضل العقول وأكفأ الخطط قصدت إلى المجالس التشريعية فى الكونجرس - وإلى الشركات العاملة فى الداخل أو العابرة للقارات - وإلى الجامعات ومراكز البحوث - وإلى الخدمة المدنية والعسكرية لأجهزة الدولة الأمريكية.

« أزمة السياسة » في انتخابات الرئاسة



ومع ظروف وملابسات عويصة مُعَقَّدة فإن الفراق بين «أساليب الخطاب» و«جوهر الخطاب» اتسعت مساحته .

١١

وكان بين أخطر نتائج الفراق أن الأساليب أصبحت تحتاج إلى كلفة مالية كثيرة لا تستطيع «الأفكار والمصالح» - وربما لا تريد - أن تتحمل أعباءها وحدها ، وهكذا فإن جمع المال للحملات الانتخابية أصبح أهم ضرورات العمل السياسي (بعد الفراق - بغير طلاق - بين «الوسيلة» من ناحية وبين «الفكرة والمصلحة» من ناحية أخرى) .

وكان أن دخول المال عنصراً رئيسياً في وسائل العمل السياسي زاد من أزمة السياسة إلى درجة تدعو للقلق على صحة وسلامة العمل العام في حياة المجتمعات وتقدمها .

ذلك أن طلب المال - لسد حاجات الوسائل السياسية وكل فنون وتكنولوجيا المسرحة التي استولت عليها - فتح الباب أمام رياح مسمومة من كل ناحية ، فقد حسب كثيرون - حتى خارج الولايات المتحدة - أن نفاذهم إلى القرار الأمريكي ميسور عن طريق المال يقدمونه للتكاليف الباهظة للمشاهد الانتخابية الباهرة .

بل إن اللهفة على طلب المال زادت حتى انفتحت فيها خروقات نَفَذَت منها عصابات المافيا إلى السياسة داخلة - مشاركة ومَرجُوَّة - في مزادات الانتخابات !

....

....

[وأتذكر في صيف سنة ١٩٧٢ أن الرئيس «أنور السادات» اتصل يدعوني إلى لقائه فوراً لأمر هام ، وقصدت إليه في استراحة المعمورة وإذا هو يسألني «ما إذا كان الوقت لم يحن لكي نفعل ما يفعله اليهود وندخل لمساعدة المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة ونضمن من بينهم صديقاً لديه الرغبة في مساعدتنا ؟» - ثم زاد الرئيس «السادات» سؤاله توضيحاً حين استطرد يخبرني «أن هناك الآن اقتراحاً بأن ينشط العرب إلى دعم الرئيس «ريتشارد نيكسون» لمدة رئاسة ثانية ينجح فيها «بمساعدتنا» ولا يكون له بعدها بحكم القانون أمل في مُدَّة رئاسة ثالثة ، ومن ثم يكون في مقدوره أن يتحدى سطوة اليهود في واشنطن ويسندنا» . ثم يضيف الرئيس «السادات» : «لقد عرفوا (لم يقل لي مباشرة مَن هُم الذين عرفوا) أن حملته تحتاج ١٢ مليون دولار عاجلة لتكملة المصاريف ، والسؤال: لماذا لا نقدمها له بدلاً من أن يسبقنا إليه اليهود ؟» .

ولاحظ الرئيس «السادات» أن ما قاله لم يُثِر حماستي بقدر ما أثار دهشتي ، فاستدرك يقول : «لا تخش من العبء المالي فنحن لن ندفع كثيراً . سوف يجري تقسيم المبلغ المطلوب بيننا : خمسة على السعودية ، وخمسة على الكويت ، واثنان فقط علينا ، ويكون لنا صديق شاكر ومُمتَن في البيت الأبيض».

وبرغم شكوك وتحفظات أبديتها فإن مبعوثاً عربياً (السيد «عدنان خاشقجي» وهو رجل أعمال عربي اشتهر في مجال تجارة السلاح) حمل بالفعل على طائرته الخاصة حقيبة - أو حقائب - رُصَّت فيها أوراق نقد بقيمة ١٢ مليون دولار برسم التسليم في المكتب البيضاوي في البيت الأبيض في واشنطن .

وبالطبع فإن هذا المبلغ - وفي أحسن الأحوال - ضمن لـ«ريتشارد نيكسون» شراء ساعات إضافية من الأصوات والألوان والمؤثرات، تدعو لانتخابه على شاشات التليفزيون - لكن هذا المبلغ لم يشتر للعَرَب نفوذاً سياسياً ، بل حَدَث العكس لأن «ريتشارد نيكسون» رئيساً للولايات المتحدة - ومعه «هنري كيسنجر» وزيراً للخارجية - كانا أكثر من حاول تطويق وحصر أهم نصر حققه السلاح العربي ضد إسرائيل في أكتوبر سنة ١٩٧٣ - وذلك بعد أقل من سنة واحدة على نجاح «نيكسون» في انتخابات نوفمبر سنة ١٩٧٢] .

....

....

ومنذ تلك الأيام وحتى الآن تكرر الظن بوجود أموال عربية وصلت بوسيلة أو أخرى إلى حملات إنتخابات الرئاسة الأمريكية، ويقدر واحد من رجال الأعمال العرب العارفين بدخائل الأمور حجم المساهمات العربية في المعركة الإنتخابية الراهنة بين «بوش» و«جور» بما يتراوح بين ١٥٠ إلى ١٨٠ مليون دولار، وكان النصيب الأوفر منها موجها إلى حملة «بوش» إعترافا بفضل والده في حرب الخليج، وإمتنانا لعدد من كبار مناصريه وبينهم «ديك تشيني» و«جيمس بيكر» و«كولين باول» وكلهم كانوا من نجوم تلك الحرب، ومن أساطين الحملة الإنتخابية للحزب الجمهوري سنة ٢٠٠٠].

....

....

هكذا كانت «أزمة السياسة» تشتد لأن مساحة الفراق بين الوسائل والغايات اتسعت ، وزاد اتساعها .

١٢

والمزعج أن أزمة السياسة امتدَّت إلى «مجالات» أخرى قريبة منها على نحو أو آخر، وضمنها : مجال القانون، وحتى مجال الأخلاق .

* ومثلاً في مجال القانون فإن الوسائل الجديدة التي دخلت على السياسة وامتدت إلى غيرها - تمكنت من تحويل محاكمة رياضي مشهور («أو. جي. سمبسون») - قتل زوجته وعشيقها إلى صُوَر في شبه «مسلسل تليفزيوني» تمكن شهوراً من شدّ اهتمام الناس في أمريكا وفي العالم ، ثم انتهى المسلسل دون خاتمة (وفق تكنولوجيا المسرحة الجديدة) تاركاً للناس أن يختار كل منهم خاتمة تلائم مزاجه - بصرف النظر عن حقوق القانون .

* وفي مجال الأخلاق حَدَث شيء مماثل حين تَحَوَّلت فضيحة معيبة لرئيس أمريكي جَرَت وقائعها داخل مكتبه في البيت الأبيض وهو مصدر القرار الأهم في العالم - لتصبح «الفضيحة» بعد «الجريمة» مسرحية تشد اهتمام الناس في أمريكا وفي العالم ، ثم انتهت (هي الأخرى) دون خاتمة تاركة للناس أن يختار كل منهم خاتمة تلائم مزاجه - بصرف النظر عن حقوق الأخلاق .

وهكذا انزلقت السياسة إلى أحوال فَقَدَ فيها القانون والأخلاق هيبتهما ، لأن الغَلَبَة أصبحت لما يسميه خبراء الزمن الجديد : ومضة الضوء flash، وقضمة الصوت sound bite - كيف تلمع الأولى في العيون ، وكيف ترن الثانية في الآذان !

١٣

كان استسلام السياسة لفنون وتكنولوجيا المسرحة في الولايات المتحدة الأمريكية قد دَفَعَ إلى الساحة برَجُلين : «آل جور» (نائب الرئيس) و«جورج بوش» (حاكم تكساس) .

كلاهما تَوَفَّرت له بعض المواصفات المطلوبة لوسائل العمل السياسي في الظروف الطارئة .

وكانت المواصفات التي حددها أصحاب الاختصاص في فنون وتكنولوجيا الوسائل الجديدة تطلب أولاً أن يكون المرشح : شاباً (له نشاط بطل رياضي) قادراً على العمل ليل نهار - وأن يكون - ثانياً - شاباً وسيماً (له ملامح نجم سينمائي) بحيث يبدو في الصُوَر موحياً بغَدٍ مُقبل ، وليس مُذَكِّراً بماضٍ تَوَلَّى ، وأنْ تكون له - ثالثاً - ابتسامة عريضة (تدعو للتفاؤل ، ولا تستحضر المشاكل) .

وكانت تلك مُحَصِّلة خبرة استخلصتها صناعة الانتخابات من تجربة «بيل كلينتون» الذي تمكن بشبابه أن يقفز بين المشاكل والقارات دون تعب ، وتمكن بوسامته أن يكتسح كل منافسيه على الرئاسة، وأن يحصل على الغفران لكل الذنوب. وتمكن حتى في مواجهة محاولة لعزله أن يجعل الابتسامة آسرة حاضرة دواماً على شفتيه !

....

....

[وربما أن عصر «كلينتون» شهد اكتمال الفراق - دون طلاق - بين وسائل السياسة وغاياتها . كما أنه أظهر المواقع التي ذهبت إليها «الأفكار والمصالح» متباعدة عن فنون وتكنولوجيا المسرحة التي استولت على العمل السياسي .

بمعنى أنه يستحق التأمُّل أنه وإن كان عصر «كلينتون» أكثر العصور رخاءً في التاريخ الأمريكي الحديث فإن التأثير الأكبر لـ«الأفكار والمصالح» - وهي جوهر العمل السياسي - لم ينشأ في البيت الأبيض ، وإنما نشأ فكرة لـ«آلان جرينسبان» رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي ، وقد تمكن من توصيلها إلى الرئيس عن طريق صديق مُشترك رَتَّبَ دعوة على شراب بين الاثنين خارج مجال العمل وبعيداً عن إطار المؤسسة!]

....

....

على أي حال فإنه بالاستفادة من تجربة «كلينتون» ظهر على الساحة «آل جور» و«جورج بوش».

كلاهما شاب (يستطيع أن يحتمل) ، وكلاهما وسيم (أو هكذا يظن بعضهم) ، وكلاهما يستطيع أن يضع على وجهه ابتسامة (يُرجَى أن تكون مُوحِية بغَدٍ وليست مُذَكِّرة بأمس) .

ثم أضيف إلى ذلك أن كليهما كانت له خلفية سياسية تساعد فنون وتكنولوجيا المسرحة من حيث تختصر الوقت ولا تبحث عن نجمها وتستدعيه من مكان قصي كما حَدَث في حالة «كلينتون» وقد جاء غريباً إلى واشنطن قادماً إليها على وَجَل من ولاية «أركنسو» !

لكنه عند التجربة الحقيقية ، وعندما احتدمت المعركة الانتخابية ، انكشفت «أزمة السياسة» انكشافاً كاملاً لم يَعُد ممكناً التغطية عليه .

ذلك أن الرَّجُلين الواقفين على الساحة نقلا إلى السامعين والمشاهدين في كل مكان شعوراً بخيبة الأمل فشلت في تغطيته كافة «الوسائل» السياسية الجديدة من فنون وتكنولوجيا .

ظهر أن أحد الرَّجُلين تنقصه الجاذبية.

والثاني ينقصه الذكاء .

ومع الانكشاف جاء الحَرَج ، وبعد الحَرَج استحكم المأزق !

وعلى سبيل المثال فإنه فجر يوم الأربعاء السابع من نوفمبر تَوَرَّط «آل جور» واتصل بـ«بوش» يهنئه بالفوز مُعترفاً بالهزيمة في حضور معظم مستشاريه ، لكنها دقائق ثم

فى العـــادة يكــــون عـــــلى «الصـــــــورة» أن تتبــــع القـــرار الســــياسى. لكنــــه فى زمـــن جـــــديد أصبــــح عـــلى القـــــرار الســــياسى أن يتبــــــع «الصـــــــورة»

إذا «جـور» يَتَّـصـل بـ«بـوش» يسـحـب اعـترافـه ويلمـح إلى مُـخـالفـات وتجـاوزات وعمليات غش قد يلجـأ فيها إلى المحاكم - وقد حَـدَث ! - وكان بين أول مُحَرِّضيه على سحب اعترافه مدير حملته الانتخابية «بيل ديلى» ، وهو نجل عُمدة شيكاجو لربع قرن متصل عندما كانت شيكاجو عاصمة أمريكية للجريمة الدولية المنظمة . وأكثر من ذلك دَعَت إدارة حملة «جـور» بأسرع ما يمكن خبيراً تَخَصَّص فى «قضايا فرز الأصوات الانتخابية» وهو «كريس سوذر» ، وقد بادر «سوذر» بطرح مجموعة من الخطوات تُتَّخَذ على عَجَل لتحريك الدفوع والاعتراضات. وروى بعض الشهود أنه راح يقول لمجموعة المحامين المحيطين بـ«جـور» : «لا وقت لدينا لطبخ مذكرات مسبوكة ، والأفضل أن نقوم بتسخين ما لدينا بسرعة فى فُرن «إشعاعى» microwave !

وعلى سبيل المثال أيضاً فإن أركان حملة «بوش» حاولوا فى لحظة من اللحظات تأكيد فوزه بإعلان من «كاترين هاريس» وزيرة الدولة لولاية فلوريدا ، وهى من أنصار الحزب الجمهورى، والغريب أن وزير الخارجية الأسبق (مع والد المرشح) وهو «جيمس بيكر» نَصَحَ بالمبادرة فوراً إلى إعلانٍ يأخذ الجميع بقوة المفاجأة ويَفرض الأمر الواقع - لكن نصيحة جاءت فى اللحظة الأخيرة (قيل لى أن صاحبها هو الجنرال «كولين باول») - حَذَّرَت «بوش» من أن القفز على هذا النحو واستناداً إلى نتيجة أولية منحته بضع مئات من الأصوات تطاولها الشكوك - سوف يعطى الانطباع بأن إعلانه عن فوزه بالرئاسة «نوعٌ من الانقلاب بالقوة» (!) - ثم يتأكد ذلك الانطباع حين يَظهَر «هو» فى الصُوَر مُدَّعياً بالرئاسة،ثم تَظهَر - فى نفس اللحظة - صُوَرٌ أخرى لعمليات فرز لم تكتمل بعد لأن إعادة فرزها بدأت بالفعل!

وهكذا كان على الولايات المتحدة باستهلاك الكثير من الصبر - أن تنتظر ..

وهكذا - أيضاً - كان على العالم باستهلاك الكثير من حُسن النية - أن يُتابع!

ولم تكن عواقب هذا التخبط والهوان - فى لحظة يُفتَرَض أن يبدأ فيها تاريخ سياسى جديد لأمريكا - كافية لتوقظ لدى المشاركين فى هذه العمليات على الجانبين قدراً ولو محدوداً من الشعور بالمسئولية والحرص على مَعانٍ تستحق الالتزام بها من باب احترام «الجمهورية» (أقوى إمبراطوريات التاريخ) .

والحقيقة أن ذلك لم يكن له أن يثير استغراب أى مراقب متابع - يضع فى اعتباره مجمل الأحوال .

فالمستشارون والمساعدون الأقرب من حول المرشحين فى تلك اللحظة كانوا خليطاً من خبراء العلاقات العامة والتصوير والتجميل ، والمحامين ومؤلفى الكتب عن قضايا فرز الأصوات ، وكلهم لا يتحمل مسئولية ، أو يخضع لحساب .

ثم إن مطلب الفوز فى مسابقة الرئاسة أزاح غيره من الاعتبارات لأن العملية الانتخابية تَبَدَّت نوعاً من الاستثمار وصلت فيه تكلفة الوسائل المالية إلى حدود فَلَكِيَّة (ما بين ٣ إلى ٥ مليارات دولار) . وإلى جانب ذلك فهناك طموحات أعوان كل مُرَشح فى مناصب ووظائف فى إدارته إذا فاز فى السباق وأصبح رئيساً ، وبعض هذه الطموحات مشروع وبعضها غير مشروع ، وكان المنطق من أوله إلى آخره معكوسًا :

فى العادة يكون على «الصورة» أن تتبع القرار السياسى - لكنه فى زمن جديد أصبح على القرار السياسى أن يتبع «الصورة» .

والنتيجة أن العملية الانتخابية للرئاسة الأمريكية أصبحت مسلسلاً أقل إثارة من عرض «أو. جى. سمبسون» ، وأقل تشويقاً من «بيل ومونيكا» - رغم وجود زحام هائل حول الرَجُلين من مُخرجين ومُصَوِّرين وخبراء ماكياج . وإضافة إلى ذلك ومعه - وكما كان الحال فى مسلسلات سابقة - فقد كان هناك حشد من قضاة ومحامين ، ومقدمى برامج ، وخبراء علاقات ، وخبراء استطلاعات للرأى العام ، ومتحدثين رسميين وغير رسميين يُقَدِّمون الفتوى كل ثانية دون سياق ودون اتساق !

١٤

والمدهش برغم ذلك كله ، والذى يستحق الالتفات - وربما التقدير - أن النتيجة التى توصل إليها الناخب الأمريكى جاءت صائبة ومزكية للديمقراطية ، بصرف النظر عن أزمة السياسة فى أزمنة جديدة .

والشاهد أن المعنى الحقيقى لما جرى فى انتخابات الرئاسة الأمريكية هو أن الناخب الأمريكى وَجَدَ نفسه مُطالباً بالاختيار بين : السيئ والسيئ. ثم راح بمشاعره وبغير تصميم مُسبق يُبدى رأياً يستحق الدراسة.

والراجح أن الترجمة السليمة للنتائج التى أسفرت عنها العملية الانتخابية تعنى أن التساوى فى عدد الأصوات تقريباً وبالطريقة التى ظهر عليها ، يعترف بأوضح عبارة :

* أن الأصوات التى حصل عليها «آل جور» لم تكن تزكية لصالحه ، وإنما كانت اعتراضاً بالرفض على : «جورج بوش» .

* وبنفس المقدار فإن الأصوات التى حصل عليها «جورج بوش» لم تكن تزكية لصالحه، وإنما كانت اعتراضاً بالرفض على : «آل جور».

ومن الصعب أن تكون هناك ترجمة لنتائج التصويت غير هذه الترجمة ، فتلك كلمة ناخب يشعر بما آلت إليه «وسائل» السياسة - ثم إنه لم يجد فى مرشحى الحزبين الكبيرين خياراً مُقنعاً يرضيه . وقد أبدى رفضه للرجلين حين أعطى نصف أصواته بالعدل تقريباً ضدِ أحدهما ، وبالعدل تقريباً ضدِ الثانى .

١٥

ولأن مسلسل الانتخابات (خلافاً لمسلسل «أو. جى. سمبسون» - ومسلسل «بيل ومونيكا») لابد له من نهاية لأن هناك موقعاً لابد له أن يجد من يشغله فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض - فإن المحاكم - وليس الناخب - هى التى انتهى إليها عِبء اختيار رئيس جديد للولايات المتحدة .

ولم يكن ذلك من الأصل اختصاص محاكم، ولم تكن المحاكم نفسها تريده درءاً لشبهة الخلط بين السلطات - لكن ناخباً ضاق ذرعاً بالسياسة فى عصور جديدة رأى استعمال حقه الديمقراطى بالرفض الكلى تاركاً للقضاء (بحساب مئات من الأصوات وليس آلافها أو ملايينها) أن يَبعَث بأحد المرشحين إلى البيت الأبيض : قليل الجاذبية - أو قليل الذكاء .

ولسوف يدخل هذا المرشح الذى يَبعَث به القضاء إلى البيت الأبيض ومعه شرعية مجروحة يصعب أن تكون لها قوة كتابة القانون .

لكن الأهم من هذا كله أن القوى الأخرى التى ابتعدت بـ«غايات» السياسة عن «وسائلها» فى العصور الحديثة سوف تجد أنها أمام ضرورة قصوى تفرض عليها «إنقاذ السياسة» بإنقاذ «الوسائل» حماية لـ«الغايات» ، ذلك أن الخطر أصبح داهماً إذا كان لابد لشرعية عملية الانتخابات وهى عماد الديمقراطية ، أن تظل هى كاتبة القانون وكافلة الشرعية .

وهكذا فإن مازق «آل جور» و«جورج بوش» مقدمة لها ما بعدها ، وأوَّله إعادة النظر فى المسافة بين «وسائل» السياسة فى عصور مُستَجَدَّة و«غايات» السياسة فى كل العصور أو تنقسم (الولايات المتحدة الأمريكية) لكى تصبح (الولايات غير المتحدة الأمريكية)، على حد تعبير المؤرخ الأمريكى «آرثر شليزنجر» وبما يترتب على ذلك من عواقب وعقوبات.

١٦

ولم أتطرق إلى الحديث عن السياسة فى العالم الثالث ، ولا اقتربت من خطابها (أسلوبها) ولا «أفكارها ومصالحها» (غاياتها) - فتلك قصة مُعَقَّدة ، وهى كذلك مُلغَّمة!

ملخصها - لكى لا تبدو نهاية الحديث هَرَباً أو تَهَرُّباً - أن السياسة فى العالم الثالث بعموم بدأت ممارسة فعلها فى الزمن الحديث مع تَنَبُّه بلدان هذا العالم الثالث فى بداية القرن العشرين إلى حقوقها فى تقرير مصائرها .

وكانت «غايات» السياسة (فكراً ومصلحة) فى المرحلة السياسية الأولى مُوَجَّهة إلى طلب الاستقلال الوطنى ، والتقدم إلى درجة أو درجات من النمو الاقتصادى والاجتماعى والثقافى يَتَّسِع ويَتَعَمَّق . لكن مشكلة هذه البلدان أو معظمها أن تركيبها الطبقى كان قاصراً أو مُشَوَّهاً ، ثم إن مواريثها الثقافية المشوشة تعارضت دون داع حقيقى مع آمالها فى التقدم . والنتيجة أن الانطلاقات الأولى التى قادتها حركات ثورية وطنية ذات تَوَجُّهات اجتماعية استنفدت طاقتها مع تَعاقُب الظروف - ثم لم يتبق على الساحات السياسية لمعظم دول العالم الثالث بديل غير سلطة الدولة تقوم عليها بيروقراطيات عائلية أو قبلية - مدنية أو عسكرية .

وهنا فإن الخطاب السياسى (حتى مع الثقة فى حُسن نيته) انحصر ليصبح نوعاً من الإملاء يصدر عن طرف واحد يساعده على الإملاء أنه يسيطر على كل الوسائل ، ثم إنه بحكم الظروف يتحكم أيضاً فى الغايات - وهذا الإملاء فى بعض الأحيان على استعداد لأن يترك غيره يتكلم، لكنه فى النهاية يفعل ما يريد!

ثم حدث أن وسائل السياسة الحديثة التى طغت على «الخطاب السياسى» فى العصر العالمى الجديد - وصلت بالعدوى إلى هذا العالم الثالث فأصابته فنون وتكنولوجيا الوسائل الجديدة بومضة الضوء ، وقضمة الصوت يَتَصَوَّرها رداءً أو غطاءً لكافة المشاكل.

وترتب على ذلك أن «أزمة السياسة» فى العالم الثالث أصبحت أقسى وأشد ضرراً من كل ما تَبَدَّى فى الولايات المتحدة وما أظهره مازق الانتخابات بين «جور» و«بوش» . والسبب فى زيادة القسوة والضرر أن «المصالح والأفكار» فى حالة العالم الثالث لم تكن لديها الفرصة لتصنع ذلك الافتراق - وليس الطلاق - بينها وبين «الوسائل» السياسية - وكذلك اختلط الحابل بالنابل كما يقال !

لكن الأمل يبقى فى أنه إذا كانت وسائل السياسة الجديدة قد وصلت إلى العالم الثالث بالعدوى ، فإن محاولة إعادة الاحترام والاعتبار إلى السياسة ، وهى ضرورية الآن وحتمية بعد ما جرى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد يكون لها تأثير من العالم الأول يصل إلى العالم الثالث .

لكن المخاوف تسبق الآمال لسوء الحظ لأنه ثبت أن المرض مُعدٍ ، ولم يثبت بعد أن الصحة مُعدِية ! ▪

أدب المقاومة

من المنفى إلى الانتفاضة

فاروق عبد القادر

(١) البداية: التحدى والاستجابة

قد يصعب أن نتناول الحياة الفكرية للشعب الفلسطيني دون أن نضع في الاعتبار خصوصية تجربته. وأول ما نشير إليه بهذا الصدد هو التشتت الذى أصابه بعد عام ١٩٤٨: جانب بقى فى الأرض المحتلة لم يبرحها، وتميزت حياته ونضاله - وبالتالى فكره وإبداعه - بسمات المواجهة اليومية للعدو الصهيونى ومحاولات القمع والتذويب المتلاحقة. وجانب آخر اكتظت به المخيمات وأكواخ الصفيح فى غزة والأردن وسوريا ولبنان، يعانى أفراده المرارة، ويعيشون مستوى غير إنسانى من حيث شروط الحياة جميعها. يتململون أحيانًا، ويحلمون بالرجوع أحيانًا، ويتشكل وعيهم حسب وطأة النظم التى يعيشون فى ظلها فى كل الأحيان. ثم جانب ثالث أفلح فى الانطلاق إلى العالم الخارجى، وشَكَّل فى المجتمعات التى عاش وعمل فيها أقلية لها سلوك النخبة. من بين هؤلاء ظهر أكاديميون وكُتاب وسياسيون ونقابيون وسواهم.

هذا بالإضافة لأن تجربة النضال الفلسطينى قبل عام ١٩٤٨، وتفرُّد هذا الشعب بخصوصية مواجهة غزو استيطانى مسلَّح ومنظم ومدعوم من قوى خارجية، ومتواطئ مع عناصر داخلية، قد أسهم فى خلخلة أسس المجتمع التقليدى بحيث لم تحدث أحداث عام ١٩٤٨ إلا ووجدت مجتمعًا تحالفت كل العوامل على خلخلة جذوره وتقويض أبنيته ومؤسساته. وحين وَقَّعت الدول العربية اتفاقيات الهدنة - فيما بين فبراير ويوليو عام ١٩٤٩ - كانت إسرائيل قد أقامت دولتها على أكثر من ثلاثة أرباع أرض فلسطين. وأصبح الفلسطينيون يشكلون جماعات متناثرة، غير متجانسة من حيث التكوين الاجتماعى والمستوى الثقافى والاتجاهات السياسية.

والناظر لمجمل التطور الفكرى سيلحظ وجود مرحلتين متمايزتين: الأولى: من أحداث عام ١٩٤٨ - ما قبلها مباشرة وما بعدها - وتستمر ملامحها العامة حتى منتصف الستينيات على وجه التقريب. والثانية تبدأ من ذلك التاريخ. بعبارة أخرى: إن منتصف الستينيات، الذى شهد بداية انطلاق العمل الفلسطينى المسلَّح يجد مقابله فى تطورٍ يصيب الفكر الفلسطينى كما يُعبر عنه إبداعه الأدبى، غير أن ملامح هذا التطور ستتحدد أكثر بعد عامين من هذا التاريخ، أعنى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧.



اليقظة التى شهدتها أقطار المشرق العربى - منذ القرن التاسع عشر - لم تكن بعيدة عن فلسطين بطبيعة الحال. كانت القاهرة وبيروت مركزى هذه اليقظة التى تركت آثارها على النخبة المتعلمة فى أقطار المشرق، وكان بين هؤلاء عدد من الفلسطينيين الذين عرفوا الحركات القومية والتيارات الثقافية أثناء دراستهم خارج فلسطين، ثم رجعوا إليها معلمين وتربويين وفنيين. كان من بينهم مؤرخون اهتموا بدراسة تاريخ بلادهم **(عارف العارف ورفيق التميمى)** ومترجمون عكفوا على ترجمة نماذج من الفكر الغربى إلى العربية **(عادل زعيتر)**. ومن تحدى الحركة الصهيونية بوجه خاص تطورت كتابات الفلسطينيين، وخلال فترة الانتداب (١٩٢٠-١٩٤٧) تبلورت ملامح ثقافة قومية فلسطينية، هى ذاتها تيار من التيارات الثقافية السائدة فى المشرق العربى بوجه عام.

ويجب أن نشير - إشارة سريعة - إلى أن عاملين قد لعبا دوريهما فى تهيئة الوعى بين الفلسطينيين: نظام التعليم الذى نشأ فى فترة الانتداب، ثم الجمعيات والنوادى التى كان يتجمع فيها المتعلمون الفلسطينيون، وقد أسهم هذان العاملان فى إيقاظ الوعى بين متعلمى فلسطين، وتجلى هذا فى مساهمات الطلاب فى الهَبَّات والانتفاضات التى حدثت فى ١٩٢٩ و١٩٣٣ و٣٦-١٩٣٩، وفى التنظيمات المتعددة التى قامت فى الأربعينيات لمقاطعة الصناعات اليهودية، ثم محاولات الاستعداد لصراع وشيك ضد الصهيونية فى السنوات التالية على الحرب العالمية.

وبطبيعة الحال كانت الكتابات السياسية والفكرية أسبق إلى الظهور من الإبداع الأدبى - أيًا ما كان حظ الأعمال التى تنتمى لهذا اللون الأخير من الإجادة الفنية. كان التركيز على الحكايات الشعبية والقصائد الملحمية والأهازيج. ولعلنا لا نستطيع أن نتحدث عن أعمال أقرب للقصة والرواية قبل سنوات الثلاثينيات. كانت معظم القصص تعرض - إلى جانب أحداث من خلفيات مؤلفيها - أثر الاحتلال الأجنبى وهجرة اليهود، وأثر بيع الأراضى على العائلات الفلسطينية. ولعل عرض بعضها أن يعطينا فكرة عن اهتمامات مؤلفيها، فواحدة من أشهر المجموعات التى عُرفت فى فلسطين خلال الأربعينيات هى **«الأخوات الحزينات»** لنجاتى صدقى (القدس ١٩٤٨). وهى تحتوى على ثمانى عشرة قصة، خمس منها تدور حول أحداث فلسطينية، وبقيتها تصور آثار الاحتلال الغربى على الأقطار العربية المختلفة. كان صدقى - وهو مفكر ومؤرخ - يهتم، على نحو خاص، بالجوانب الاجتماعية والسياسية التى أفرزتها الحياة الفلسطينية المتوترة والقلقة فى تلك الفترة.

وكان طبيعيًا أن تعكس الرواية أهداف مؤلفيها السياسية المباشرة - وسوف نقتصر فيما يلى، وبغية التحديد، على الإبداع الروائى. ونشير إلى روايتين لكاتبين شملت اهتماماتهما وكتاباتهما مدى أشمل من هذا الشكل الفنى: **«الملاك والسمسار» لمحمد عزة دروزة** (نابلس ١٩٣٤) و**«مذكرات دجاجة» لإسحق موسى الحسينى** (القاهرة ١٩٤٣). الأولى - كما نحدس - تصور قصة عربى من فلسطين وقع فى براثن منظمة صهيونية استدرجته إلى بيع أراضيه، كان أُميًا فى الأربعين، قضى حياته فلاحًا لم يعرف إغراءات المدينة، وتحت تأثيرِ سمسار يهودى قام بأول زيارة لتل أبيب، وقدَّمه الرجل إلى فتاة أغرته بإنفاق القليل الذى يملك، ولم تكن غلة أرضه تكفيه للاستمرار فى هذه الحياة الجديدة، فقدَّم له السمسار قرضًا.. إلى آخر الحكاية المعروفة التى انتهت به إلى التسول والجنون. ورغم أن الموضوع مكرور فى كل الآداب تقريبًا، إلا أن المؤلف - وهو واحد من الرعيل الأول للكُتاب القوميين الفلسطينيين - حرص على أن يضفى على روايته طابعًا محليًا خالصًا، كما حرص على أن يوضِّح هدفه الرئيسى حين وصف - فى دقة وتفصيل - الطريق الذى قررت القرى الأخرى اتباعه لتوفير المال الضرورى من أجل إنقاذ الأرض التى يتهددها ذات المصير.

من الناحية الأخرى، فإن «مذكرات دجاجة» تنحو منحى رمزيًا لتقديم الواقع من خلال عيني دجاجة تملكها أسرة ريفية، فهي تستطيع أن تتحرك في كل مكان، الحياة رخية والطعام وافر، وتصف الدجاجة حياة مالكيها، واستقلالهم بأرضهم، وسعادتهم بعملهم واجتماعهم، لكنها، يومًا، تجد أسلاكًا تمتد أمامها، وقطعة أرضٍ قد بيعت، وتَلَتها أخرى ثم أخرى، وتُباع ـ هي بدورها ـ لتاجر في المدينة، يضعها في قفص مع أخريات، هاته الأخريات تتحدثن لغة لا تفهمها، لكنها بعد فترة تدرك أن ثمة خطة وضعتها الدجاجات الجديدات للتخلص من القديمات والفوز بالطعام كله. وتنتهي رواية الحسيني ودجاجته في تفكير عميق لتجد أفضل الطرق لوضع خطة محددة، لكنها تفتقد اليقين في المستقبل، ولا تعرف ما يخبئه لها الغد.

ولعل الروائي الذي تقدم خطوة نحو تصوير الواقع من خلال العلاقات الاجتماعية والعاطفية هو عبد الحليم عباس في روايته «فتاة من فلسطين» (عمان ١٩٤٩)، وهي تتناول العلاقات العربية ـ اليهودية، والاشتباكات التي دارت بين الجانبين قبل نهاية الانتداب ـ وقد شارك الكاتب في أحداث ١٩٤٨ ـ ويمتد زمنها من أوائل عام ١٩٤٧، حتى توقيع اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل، وقد بنى عقدتها على علاقة بين شاب وفتاة في قرية ستصبح على خط الحدود بين الأردن والأرض المحتلة، وتتوالى أحداثها أثناء اشتباكات السنة الأخيرة، ثم أثناء حرب الجيوش العربية وإسرائيل، وبداية تدفق اللاجئين في الشهور الأولى بعد وقف إطلاق النار، ويشارك البطل في اللجنة السرية التي تتولى تهريب السلاح استعدادًا لجولة مقبلة من الصراع، وتنتهي باستشهاده على أرض قريته.

هكذا تقف رواية عبد الحليم عباس قبل وبعد ما حدث في عام ١٩٤٨، وهو يعتبر أكثر تقدمًا من سابقَيْه اللذين أشرنا إليهما، سواء من حيث فنية روايته أو اختيار زمن أحداثها، وهي كذلك تكشف عن الاتجاهات السائدة بين الفلسطينيين وحماستهم لاستعادة أرضهم فور ضياعها، ويحدد الكاتب هدفه بوضوح في حديث البطل إلى شباب قريته عن ضرورة استقلال الدول العربية وحتمية الوحدة بينهما، ويأمل أن توافق الحكومات العربية على تكوين قيادة عسكرية موحدة للحرب القادمة، ويرى أن تكوين هذه القيادة هو ما سيحمي شخصية بلده من الضياع، وهو الخطوة العملية الأولى قبل الوحدة الكاملة.

فهل كان استشهاد البطل على أرض قريته وهو ينقل السلاح إشارة إلى طريق جديد، أم إشارة إلى ضرورة اعتماد الفلسطينيين على أنفسهم قبل غيرهم؟ هذا ما يتركه الروائي لقارئه كي يجيب عنه.

غير أن واحدة من أهم روايات هذه الفترة هي رواية جبرا إبراهيم جبرا **«صراخ في ليل طويل»** ـ سيرد الكثير عن جبرا فيما يلي ـ يذكر الكاتب أنه كتبها في عام ١٩٤٧، لكن طبعتها الأولى لم تصدر إلا في عام ١٩٥٥. والحقيقة أن هذه الرواية ـ بموضوعها وفنيتها المتقدمة على السواء ـ تُلقي بعض الشكوك حول تاريخ كتابتها، وقد داخَلت هذه الشكوك ناقدًا متحفظًا مثل الدكتور شكري عياد، فألحقها بروايات الخمسينيات، ثم عقَّب: «وينبغي ألا نُعد ذلك غريبًا، فكثير من الأعمال المتقدمة يضطر أصحابها إلى الانتظار حتى يتهيأ الجو العام لتقبلها، و«صراخ في ليل طويل» واحد من هذه الأعمال..». («الرواية العربية المعاصرة وأزمة الضمير العربي، مجلة «عالم الفكر» الكويتية، أكتوبر ١٩٧٣).

«أمين» بطل الرواية واحد من جماعة من المثقفين الساخطين، وكثير من صفحات الرواية ـ الى لا تبلغ المائة ـ تشغلها الحوارات التي لا تنتهي بين أولئك المثقفين المحبطين، يقول لهم واحد منهم فيُحسن وصفهم: «إنكم تتغاضون عن كل ما يعجب به الإنسان، ولا تنتبهون إلا إلى العيب والاعوجاج، ثم تزيدون الطين بلة بمنطقكم المعكوس وبرفضكم القيم الصحيحة.. لا ريب في أن أذهانكم مسرح للصراصير..».

«أمين» كان فقيرًا، لكنه استطاع ـ عن طريق الكتابة ـ أن ينتقل لطبقة أخرى، وتزوج ـ عن حب ـ ابنة تاجر ثرى، وكانت تجربتهما معًا عشقًا طاغيًا للجسد والحواس، لكنه عاد يومًا فوجدها قد هجرته دون كلمة واحدة، وفي المدينة ـ عن طريق كُتُبه ـ عرف «عنايت هانم» وأختها «ركزان»، وهما الباقيتان على قيد الحياة من

مذكرات دجاجة» تنحو منحى رمزيًا لتقديم الواقع من خلال عيني دجاجة تملكها أسرة ريفية، فهي تستطيع أن تتحرك في كل مكان، الحياة رخية والطعام وافر، وتصف الدجاجة حياة مالكيها، واستقلالهم بأرضهم، وسعادتهم بعملهم واجتماعهم، لكنها، يومًا، تجد أسلاكًا تمتد أمامها، وقطعة أرض قد بيعت، وتلتها أخرى ثم أخرى، وتباع ـ هي بدورها ـ لتاجر في المدينة، يضعها في قفص مع أخريات

أسرة غنية قديمة في المدينة. أعجبت الأولى، الكبرى، بمقدرته على بعث التاريخ في رواياته، فدَعَتْه لكتابة تاريخ أسرتها، وانتزاع هذا التاريخ من قبضة العدم، أما «ركزان» فهي لا تشارك أختها هذه الحياة المترهبة في الماضي، لكنها تشارك أسلافها ما في دمائهم من شهوة فائرة. وتموت عنايت فجأة فتستدعيه «ركزان» لتنهي إليه أنها قررت التوقف عن المضيّ في هذا الكتاب، ثم تعرض عليه مشروعها: أن تحرق الأوراق، ويتزوجا، وتبيع الأرض والبيت، وتقيم بيتًا جديدًا في حي جديد، ويعيشا معًا في الحاضر.

يرجئ «أمين» إجابة عرض «ركزان» ويمهلها إلى الصباح، لكنه يتنبه فجأة إلى أنه ظل عامين كاملين ـ منذ هجرته امرأته ـ وهو يعيش الماضي: ماضيه وماضي المدينة معًا، ويحلم بجسد امرأته كما اعتاد أن يحلم، لكن ما يحدث هذه المرة هو أنه يصحو من حلمه على جسد امرأته بالفعل، لقد عادت إليه نادمة مستغفرة، لكنه يطردها حين يذكر خيانتها، ثم هو يبصر من النافذة دخانًا ولهبًا: إن «ركزان» تحرق ماضيها، وينطلق إلى الخارج فيرى «ركزان» قادمة إليه بسيارتها في سرعة رهيبة، وتدعوه للركوب إلى جانبها لكنه يعتذر، فتبتعد، وتبتعد امرأته أيضًا، ويظل يسير على مهل في الطريق الخالي والنهار الجديد..

«غير أن الطريق لم تظل خالية طويلاً، ما هي إلا فترة قصيرة حتى كانت شوارع المدينة تمتد وتتشعب أمامي، تملؤها جموع الناس، ولم يكن من العسير عليَّ ـ حين حَدَّقت في عيونهم ـ أن أدرك أن الكثيرين منهم كانوا هائمين على وجوههم، كما كنت هائمًا لسنتين عديدتين، يبحثون عن نهار لليلٍ طويل وبداية لحياة جديدة...».

هذه «صراخ في ليل طويل». ولعل السؤال الذي يعنينا هو: أي ماضٍ كان البطل يود التخلص منه؟ لقد صحبناه طويلاً في أفكاره وذكرياته ومشاعره وحكايات طفولته، ورأيناه يقضي ساعات الليل وحيدًا يقرأ حتى تكلَّ عيناه، ثم رأيناه وسط هذه الحفنة من المثقفين الضائعين، وعرفنا عشقه لجسد امرأته، لكننا لم نعرف شيئًا عن أسباب فرارها، ولم نر ما يكتب أو نعرف عنه شيئًا، بل رأينا له وجهًا آخر هو أوضح الوجوه: وجه الذي لا يرى في المدينة غير العَفَن والنَّتَن والأزقة التي تملؤها الأقذار والقمامة، وهو يقول بوضوح عن نفسه وعن المدينة:

«كنت أعرف المدينة من الداخل والخارج، بل إنني قبل أن أخلص من شبكة الفقر الذي عانته عائلتي منذ قرون، كنت قد اشتركت في عدد كبير من معارك المدينة، وشَممتُ جزءًا سخيًا من نَتَنِها..».

إنما لهذا يريد البطل أن ينتزع ماضيه، كل ماضيه، وأن يتجه غربًا، إلى حيث يخلع عنه أوحال المدينة، ويبدأ حياة جديدة في ضوء النهار.

رواية جبرا ـ سواء كتبها بالفعل في ١٩٤٧/٤٦ أو في فترة لاحقة وشاء إسقاطها على تلك الفترة من حياته ـ نموذج بالغ الدلالة لإبداع تلك الفئة من الفلسطينيين التي انطلقت إلى العالم الواسع، وحاولت الاندماج في مجتمعات أخرى، وشكَّلت نخبة ذات سلوك متميز، يبدو إبداعها ـ على وجه العموم ـ حنينًا باهتًا لماضٍ انتهى ـ عندهم ـ لغير رجعة، وتبريرًا لهروبهم والتماسهم سبل الخلاص الفردي. إنها افتتاحية لحن الخروج والتخلي. وربما رأينا في أعماله التالية مصداقًا لهذا الحكم.

ولعل خير سبيل لمتابعة الرواية الفلسطينية وتطورها، اتساقًا مع تحولات الواقع الفلسطيني والعربي هو أن نلقي نظرات ـ سريعة وموجزة ـ إلى إبداع «الثلاثة الكبار» فيها: **غسان كنفاني** (٣٦ـ١٩٧٢) **وإميل حبيبي** (٢١ـ١٩٩٦) ثم **جبرا إبراهيم جبرا** (٢٠ـ١٩٩٤).

وقبل أن ننظر في إبداعهم يحسن أن نثبت ملاحظة خاصة بالاختلاف بينهم: إنهم يمثلون ثلاثة مواقف متباينة: خرج غسان صغيرًا حين سقطت يافا، إلى دمشق ثم الكويت حتى استقر في بيروت، وقد غاص غسان في العمل السياسي والحزبي، من تنظيم «القوميين العرب» إلى تنظيم «الجبهة الشعبية» قضى حياته القصيرة. ولعل هذا النشاط بالذات هو ما جعله هدفًا لمحاولات الاغتيال من جانب إسرائيل، والتي انتهت بنسفه وتناثره أشلاءً في ٨ يوليو ١٩٧٢. إميل حبيبي كذلك غاص في العمل السياسي والحزبي، ولكن من موقع مختلف، فقد أصرَّ على البقاء في الأرض المحتلة، ومن ثم ناضل في الحزب الشيوعي الفلسطيني حتى اختلف مع قادته في ١٩٨٩، فاستقال من لجنته المركزية، وقد نشر وقائع هذا الخلاف ووثائقه في كتاب يحمل عنوان **«عالم بلا أقفاص»** في ١٩٩٣. أما ثالثهم فقد اختلفت حياته عنهما كل الاختلاف: منذ استقر في بغداد وحصل على الجنسية العراقية لم يعرف له أحد نشاطًا سياسيًا أو حزبيًا، فقد انصرف إلى الكتابة والترجمة وشتى وجوه العمل الثقافي، وظل ـ حتى رحل في ١٩٩٤ ـ وكثيرون من قرائه يحسبونه عراقيًا أصيلاً. لكنه بقي ـ في أعماله الإبداعية بوجه خاص، كما سنرى ـ يحمل القدس في قلبه حتى الرمق الأخير.

(٢) غسان كنفاني: من صيغة اللاجئ إلى صيغة المقاتل

يكاد غسان أن يكون أهم الكُتاب الذين عبروا في إبداعهم عن تطور الشخصية الفلسطينية من النكبة حتى حتمية الثورة المسلحة، وأن تبدو في إبداعه تلك النقاط المحورية التي ترافق تطور فكر الفلسطينيين عبر تلك المرحلة الممتدة من ١٩٤٨ حتى مصرعه ـ الذي يضفي على مجمل إبداعه دلالات لا يمكن إغفالها ـ في ١٩٧٢.

وحياة غسان نموذجية لفلسطيني من هذا الجيل: ولد في عكا في سنة ١٩٣٦، وكان أبوه محاميًا، وبعد سنة ١٩٤٨ هاجرت الأسرة إلى دمشق، وعمل غسان عاملاً في مطبعة وهو يسعى لإكمال دراسته حتى حصل على الثانوية العامة والتحق بكلية الآداب، لكنه تركها وسافر ليعمل مدرسًا في الكويت (٥٦ ـ ١٩٦٠)، وهناك عرف تنظيم «القوميين العرب» فانضم إليه، واختار أن يعمل محررًا بجريدته «الحرية» منذ أول صدورها في بيروت، ومن هذا التاريخ استقر ببيروت وبالعمل الصحفي والكتابة حتى نهاية حياته. كان غسان يكتب دائمًا ـ بالإضافة لمهام العمل السياسي والتنظيمي، فكتب القصة القصيرة (ثلاث مجموعات مكتملة: «موت سرير رقم (١٢)، ١٩٦١»، و«أرض البرتقال الحزين، ١٩٦٣»، و«عالم ليس لنا، ١٩٦٥» بالإضافة لأعمال قصصية أخرى حوتها مجموعة أعماله الكاملة). والرواية (ثلاث روايات: «رجال في الشمس، ١٩٦٢»، «ما تبقى لكم، ١٩٦٦»، «عائد إلى حيفا، ١٩٧١»،

كما وجد بين أوراقه عملان روائيان لم يكتملا: «الأعمى والأطرش» و«العاشق» وعملين آخرين يمكن الاختلاف حول نسبتهما لأي من الشكلين: «عن الرجال والبنادق، ١٩٦٨» و«أم سعد، ١٩٦٩» ومسرحيتين: «الباب، ١٩٦٤» و«القبعة والنبي، ١٩٦٧»، وثلاثة كتب: «أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، ١٩٦٦»، «في الأدب الصهيوني، ١٩٦٧»، «الأدب الفلسطيني المقاوم ٤٨-١٩٦٩،٦٨». وكما هائلاً من المقالات السياسية والأدبية، باسمه الصريح، أو بالاسم الذي كان يكتب به أحيانًا: فارس فارس.

وليست غزارة ما قدم غسان في حياته القصيرة فقط هي مبعث الاهتمام، فهناك أيضًا المستوى الفني الذي بلغه كثير من هذه الأعمال، والذي لم يكن يقل عن أفضل النماذج في الأدب العربي، بل إنني أعتقد أن الإحكام الفني الذي توفر لعمل مثل «ما تبقى لكم» كان يتجاوز كثيرًا من نماذج الرواية العربية وقت صدورها. هذه الأسباب الثلاثة إذن: وفرة إنتاج غسان، المرتبط بقدرته على التعبير عن الشخصية الفلسطينية وتطورها فكرًا وشعورًا، والذي يقدمه في أشكال فنية ناضجة هي ما تمنحه هذه القامة السامقة في الإبداع الفلسطيني.

وبهدف التحديد فقط، سنقتصر هنا على أعماله الروائية الثلاثة: **«في سوق البصرة»، «العبق برائحة التمور» و«السلال»** التقت خيوط مصائر هؤلاء: «أبو الخيزران»: سائق ماهر، كان محاربًا في ٤٨، واشتهر بأنه خير من يصلح العربات المعطلة ويقودها. خسر أبو الخيزران الحرب وخسر رجولته: انفجرت قنبلة بين ساقيه أفقدته رجولته، هاجر إلى الكويت حيث يعمل سائقًا ومُهربًا، ويتحدث لنفسه من حين لآخر: «ها قد ضاعت فلسطين وضاعت رجولتك، صرفت حياتك مغامرًا وهاأنت أعجز من أن تنام إلى جوار امرأة.. ليكسر الفخار بعضه فلست أهتم الآن: إلا بمزيد من النقود». التقط ثلاثة فلسطينيين يريدون عبور الصحراء إلى الكويت، اتفق معهم على أن يُهربهم في سيارته مقابل أجر على أن يختبئوا في صهريج المياه عند نقاط التفتيش. «أبو قيس» كان أول هؤلاء: عجوز اختلطت في رأسه الشعرات البيض بالسود، كانت له أمنية: أن يبني سقفًا يعيش تحته، وحين قالت له أم قيس يومًا: لم لا ترحل مع الراحلين؟ نمت أمنيته فطمع في أن يملك عرق زيتون أو عرقين ويعلم «قيسًا» في المدرسة. وكان «أسعد» هو الثاني: جاء من الأردن إلى العراق عبر الصحراء، وهو يريد الآن أن يقطع صحراء أخرى، وراءه معتقل «الجفر» وقهر النظام والبطالة والحياة القاسية، ولعينيه يتخايل حلم الكويت «حيث يستطيع المرء أن يجمع نقودًا في مثل لمح البصر..». الثالث: كان «مروان»: ترك وراءه بقايا أسرة ممزقة، تخلى الأب فيها عن أمه وإخوته الأربعة وتزوج بامرأة شوهاء، لأنها تملك سقفًا يمكن أن يؤويه، كان الأخ الأكبر يرسل للأسرة ما يقيم أودها، لكنه انقطع، وأرسل إلى مروان يقول له: اترك هذه المدرسة السخيفة التي لا تعلمك شيئًا، وغُص في المقلاة مع من غاص.

هكذا.. «انطلقت السيارة الضخمة تشق الطريق بهم وبأحلامهم وعائلاتهم ومطامحهم وآمالهم وبؤسهم ويأسهم وضعفهم وقُوتهم وماضيهم ومستقبلهم، كما لو أنها آخذة في نطح باب جبار لقَدَر جديد مجهول..»، لكن كويتيًا عابثًا يصر على أن يستبقي «أبا الخيزران» في آخر نقطة من نقاط التفتيش، فيختنق الرجال حيث هم داخل الصهريج الملتهب. حزن أبو الخيزران لحظة على رفاق الطريق، لكن الحزن لم يُنسه واجبه الأخير نحوهم، فجردهم من ساعاتهم ونقودهم القليلة قبل أن يلقي جثثهم على أكوام القمامة في جنة الكويت.

نعم، إن هؤلاء الرجال الذين يختنقون داخل صهريج جاف تحت وطأة شمس لا ترحم وسط صحراء تلتهب بالقيظ والغبار، يقدمون بموتهم معادلاً له ألق هذه الشمس الساخنة وحدتها. نعم. هذه مأساتهم: وراءهم قوى القهر والتشتيت والإذلال، وأمامهم تتخايل أشباح الخلاص. والنتيجة: أن تحظى جثثهم بمزبلة الكويت!

حياة كل فلسطيني حساب للخسائر والبقايا، فليس له من العالم سوى شيء صغير: فتات أمنية أو بقايا حلم أو كهف وهمي يُعده ليلوذ به إنْ أتى يوم عسير. وحين سقطت يافا محترقة في أيدي اليهود غادرها مَن بقى من أهلها في قوارب صغيرة، وانتهى المطاف بحامد وأخته الكبيرة «مريم» إلى أكواخ الصفيح في أطراف غزة، بعد أن تركا الأب ذكرى مضرجة بالدم في يافا، وضاعت الأم، ثم عرفا أنها تعيش على الطرف الآخر من الصحراء: في الأردن. وأصبح حامد شابًا في عنفوانه، ومريم مازالت جميلة وإن بدأت خطاها تدِب نحو الذبول، وطوال هذه السنوات لم ينقطع حامد عن التفكير في لقاء أمه، ظل هذا اللقاء هو الكهف الذي يُعده ليلوذ به حين تأتي الفاجعة.

«أتت الفاجعة. حبلت مريم من زكريا»، وأرغم حامد على تزويجها له وهو يعلم، يقينًا، أنه خائن يرشد اليهود عن الفدائيين، ثم انطلق نحو الصحراء - بوحشتها الغامضة وصمتها المليء بالمجهول والترقب - وحيدًا أعزل، ليلقى أمه: كل ما تبقى له. في حساب الخسائر: ماذا بقي لحامد؟ حين سقطت يافا كان صغيرًا فلم يحمل السلاح فيمن حمل، وعاش أعوام شبابه لا يعرف النساء، ولا يسمح لنفسه بالتفكير في الزواج إلا بعد أن يجمع شمل العائلة المتناثرة، لهذا لخَّص موقفه لمريم في جملة واحدة: «لم يبق لي شيء.. أنت ملطخة وأنا مخدوع..»، فَلْيَتْ مريم منحت نفسها لرجل آخر، ولكن زكريا! إنه رمز عار حامد وذله. جاء إليه «سالم» يومًا وقال: «اسمع يا حامد.. إنْ كنت تريد أن تنتقم فتعال معنا.. لدينا كل شيء..»، لكنه قبل أن يفكر كان سالم قد قُتل.

يا للذكرى! صف الرجال متماسك، صامت لا يجيب حين كان اليهود يسألون عن سالم، وقبل أن يعرف أحد ما سيحدث كان زكريا خائنًا بالفعل: أنا أدلكم على سالم. إلا أن «سالم» - في تلك اللحظات من الصفاء التي تسبق الموت - لم يشأ أن يجعل من زكريا خائنًا أكثر مما هو، فتقدم ثلاث خطوات وسلَّم نفسه. ومن وراء الجدار جاء صوت طلقة واحدة، فانحنى زكريا كأنها أطلقت عليه من العيون المتوجهة نحوه في صمت.. «هذا هو زكريا يامريم. صهري الذي قبلتُ أن أزوجك له بمهر قدره عشرة جنيهات، كله مؤجل. كل شيء مؤجل. ليس في حساب البقايا إلا الفتات».

لكن اللحظة الحقيقية تأتي كقَدَر: في ظلمة الصحراء ووحشتها يلتقي حامد بيهودي وحيد ابتعد عن معسكره، يتلاحمان في الصمت والظلام، ويتمكن حامد من نزع سلاح عدوه، ويبقى في مواجهته ينتظران معًا عدوهما المشترك: ضوء النهار. أي لقاء رائع ومروِّع بين العدوين!، هنا فقط يوضع حساب البقايا في ميزان جديد، ويروح حامد يتحدث لنفسه في مواجهة العدو: «لا يمكن أن يكون الوقت ضدنا، نحن الاثنين، بصورة متساوية، فقد يكونون أقرب إليك مما أتصور، لكنك أقرب إليَّ مما يتصورون، المسافة ليست إلا زمنًا، وهي في صالحي. وهناك قضية أخرى لها أهميتها: أن تُقتل أنت هنا، على بعد خطوات من معسكرك ربما هو عمل أخطر من أن أُقتل أنا: مجرد عدو اقتحم عليكم قلعتكم، وكان وحده تمامًا بلا سلاح، الأمور هنا نسبية وهي لصالحي أيضًا، وهذا شيء غريب، فقبل دقائق فقط كان كل شيء في هذا الكون ضدي تمامًا، وكنتُ أقف هنا بالضبط: رقعة محاطة بالخسائر من كل جانب، فتعال أقل لك شيئًا مهمًا: ليس لديَ ما أخسره الآن، ولذلك فاتت عليك فرصة أن تجعلني ربحًا..».

وفي غزة ترتفع الأزمة بين مريم وزكريا لقِمة دامية: هو يريد أن يتخلص من الجنين، وهي متمسكة به تمسكها بالقليل الذي بقي لها، فيندفعان إلى عراك عنيف. وكأنما على موعد خفي: تمتد يد حامد بالنصل إلى جسد اليهودي، وتمتد يد مريم بالنصل إلى جسد زكريا. وتشرق شمس يوم جديد.



بعد فتح الحدود في أعقاب حرب ١٩٦٧ يعود «سعيد» إلى حيفا التي غادرها قبل عشرين عامًا، وهو يقود سيارته في شوارعها تندفع الذكرى: ٢١ نيسان ١٩٤٨: جاء القصف من الكرمل وانصبَّت القذائف فوق الحي العربي واجتاح الرعب المدينة. حاول سعيد أن يرجع لبيته لكنه وجد طريقًا وحيدًا مفتوحًا أمام حركة الجماهير هو الطريق المفضي إلى الميناء. «كان الناس يتدفقون من الشوارع الفرعية نحو ذلك الشارع الرئيسي المتجه نحو الميناء،

لعل خير سبيل لمتابعة الرواية الفلسطينية وتطورها، اتساقًا مع تحولات الواقع الفلسطيني والعربي هو أن نلقي نظرات - سريعة وموجزة - إلى إبداع «الثلاثة الكبار» فيها: غسان كنفاني (١٩٧٢-١٩٣٦) وإميل حبيبي (١٩٩٦-١٩٢١) ثم جبرا إبراهيم جبرا (١٩٩٤-١٩٢٠)

رجالاً ونساءً وأطفالاً يحملون أشياء صغيرة أو لا يحملون، يبكون أو يسبحون داخل ذلك الذهول الصارخ بصمت كسيح..»، ولم يستطع سعيد أن يبلغ بيته، وفي ذات الوقت استبد الفزع بزوجته الصغيرة فنزلت للبحث عنه، والتقى الاثنان في الميناء، تاركين وراءهما طفلهما الصغير «خلدون» في شهره الخامس، وغابت حيفا وراء غبش المساء وغبش الدموع.

ولم ينطق أحدهما الاسم بعدها أبدًا. ظل همسة ممزقة على الشفاه الجافة. والآن استبدت بهما الرغبة في البحث عنه. ماذا كانا يتوقعان بعد أن تركا وراءهما طفلاً في شهره الخامس؟

بعد أن ترك سعيد منزله جاء إليه مهاجر بولوني هو «افرات» وزوجته «ميريام». كان الرجل يرى في فلسطين مجرد مسرح ملائم لأسطورة قديمة، أما المرأة فقد فقدت أباها وأخاها أيام الاضطهاد النازي، وكان أول ما رأته في فلسطين جنديين يهوديين يلقيان بطفل عربي ميت إلى شاحنة، وأصرَّت المرأة على الرجوع لولا أن مُنحت بيتًا مستقلاً في حيفا، وطفلاً في شهره الخامس.

هكذا أصبح خلدون هو «دوف». وحين تلتقي الأم اليهودية بالأبوين يتفقون على أن يتركوا لدوف أن يقرر ما يشاء، فهو الآن شاب في العشرين. يقول سعيد لامرأته: «أي قرار ياامرأة؟ لقد علموه عشرين سنة كيف يكون، يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، مع الأكل والشرب والفراش. لقد سرقوه وانتهى الأمر. كان علينا ألا نترك شيئًا: خلدون والمنزل وحيفا..».

ويأتي «دوف» في بزته العسكرية ليقول إنه لا يعرف لنفسه أمًا غير ميريام، أو أبًا غير افرات، ويتساءل: كيف يستطيع الأب والأم أن يتركا رضيعهما ويهربا، وكيف يستطيع من هو ليس أباه ومن هي ليست أمه أن يربياه عشرين سنة. ثم يلقي في وجه سعيد باتهاماته: «كان عليكم ألا تخرجوا من حيفا، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا فقد كان عليكم، بأي ثمن، ألا تتركوا طفلاً رضيعًا في السرير، وإذا كان هذا أيضًا مستحيلاً فقد كان عليكم ألا تكفوا عن محاولة العودة. أتقولون إن ذلك أيضًا كان مستحيلاً؟ لقد مضت عشرون سنة يا سيدي، عشرون سنة، ماذا فعلت خلالها كي تسترد ابنك؟ لو كُنت مكانك لحملت السلاح.. هل تقول إنك أمضيت عشرين سنة في البكاء؟ لكن دموع العالم كلها لا تستطيع أن تحمل زورقًا صغيرًا يتسع لأبوين يبحثان عن طفلهما المفقود.. أهذا سلاحك التافه المغلول؟..».

جبناء؟ نعم. هذا صحيح، ولا يجدي إنكاره. لكن.. هل يبرر هذا شيئًا؟ لو كان كذلك لكان كل ما فعله النازيون صوابًا. يقول سعيد لدوف: «متى تَكُفون عن اعتبار ضعف الآخرين وأخطائهم مجيرة لحساب ميزاتكم؟ مرة تقولون إن أخطاءنا تبرر أخطاءكم، ومرة تقولون إن الظُلم لا يُصحح بظلم آخر. تستخدمون المنطق الأول لتبرير وجودكم هنا، وتستخدمون المنطق الثاني لتتجنبوا العقاب الذي تستحقونه.. وأنت.. أتعتقد أننا سنظل نخطئ؟ وإذا كففنا ذات يوم عن الخطأ.. فما الذي يتبقى لديك؟..».

كانت ذكرياتهما عن خلدون قبضة ثلج ذابت تحت شمس حزيران وفي طريق العودة بدت الأشياء التي يذكرها سعيد أقل أهمية. إنه هو الذي فاخر «دوف» بأبوته لابنه «خالد»، قد حال بينه وبين الانضمام للفدائيين رغم أن هذا هو الشرف الوحيد الباقي. لكم يتمنى أن يرجع فيجد خالدًا قد ذهب. سأل سعيد نفسه: ما هو الوطن؟، وأجاب: إنني أفتش عن فلسطين الحقيقية التي هي أكثر من ذاكرة. إن «خالد» لا يعرف عن فلسطين من الذكريات مثل ما نعرف، لكنها بالنسبة له تستحق أن يحمل السلاح ويموت في سبيلها.. «لقد أخطأنا حين اعتبرنا أن الوطن هو الماضي فقط، أما خالد فالوطن عنده هو المستقبل. وهكذا أراد خالد أن يحمل السلاح، وعشرات الألوف مثل خالد لا تستوقفهم الدموع المفلولة لرجال يبحثون في أغوار هزائمهم عن حطام الدروع وتفل الزهور، لذلك هم يصححون أخطاءنا وأخطاء العالم كله..».

تلك رحلة غسان مع الرواية. لنرجئ ملاحظاتنا حتى نعرض للروائيين الآخرين.

(٢) إميل حبيبي: طرقات على جدران الزنزانة الإسرائيلية

عاش إميل حبيبي حياة طويلة ممتلئة، كان - كما سبق أن وصفته - رجلاً تمشي بين يديه العواصف. وُلد في حيفا في عام ١٩٢١، وأتمَّ دراسته الثانوية فيها وفي عكا، واشتغل عامل بناء زمنًا، ثم انتقل للعمل مذيعًا بإذاعة القدس، واستقال منها ليعمل موظفًا في معسكرات جيش الانتداب، ثم محررًا في جريدة «الاتحاد»، وأصدر مجلة اسمها «المهماز» في حيفا في سنة ١٩٤٦، وقد كان واحدًا من مؤسسي «الحزب الشيوعي الفلسطيني» في سنة ١٩٤١، وناضل نضالاً متصلاً ضد الانتداب البريطاني، ثم ضد ممارسات الدولة الإسرائيلية بعد قيامها، واختاره الحزب كي يمثله في «الكنيست» مع بقية أعضائه من الشيوعيين، وبقي عضوًا به حتى عام ١٩٧٢ حين قدم استقالته ليتفرغ للكتابة، وفي عام ١٩٩٠ أهداه ياسر عرفات «وسام القدس»، أرفع وسام فلسطيني، وفي عام ١٩٩٢ منحته إسرائيل «جائزة الإبداع» فثارت حوله الزوابع من جديد، وارتفعت الأصوات تطالبه برفضها، لكنه بقي على موقفه فقبل الجائزة، ثم أعلن تبرعه بقيمتها المادية (حوالي ثمانية آلاف دولار) لجمعية «المقاصد الإسلامية - هو المسيحي - التي تتولى علاج مصابي وجرحى الانتفاضة. وفي العام الأخير من حياته انشغل بإصدار مجلة أدبية أسماها «مشارف» (صدر عددها الأول في أغسطس ١٩٩٥). رحل إميل في مايو عام ١٩٩٦، وأوصى أن تُكتب على قبره هذه الكلمات: «باق في حيفا».

ولا شك عندي في أن ما حدث في عام ١٩٦٧ كان الدافع الأول وراء اتجاه إميل حبيبي نحو الكتابة الأدبية: ها قد هُزمت الجيوش العربية مرة أخرى، والأرض الضائعة تتسع حدودها إلى الغرب والشمال والجنوب، وفتحت الحدود بين الأرض التي ضاعت أخيرًا وتلك التي ضاعت قبل عشرين سنة، ولم تعد «بوابة مندلبوم» - رمز المنفى القديم - قائمة. فُتحت الحدود من الجهة الأخرى الخاطئة. في هذا المناخ بدأ إميل كتابة عمله الأول **«سداسية الأيام الستة»**. (جاءت الإشارة الأولى لأدب إميل على قلم غسان كنفاني. في أحد هوامش كتابه «الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال» وردت إشارة إلى عمل أدبي جديد بدأ كاتب مجهول اسمه «أبو سلام» نشره في مجلة «الجديد» التي تصدر في حيفا، وعلَّق غسان على هذا العمل: «مما لا شك فيه أن وراء هذه السداسية - التي يمكن ببساطة اعتبارها نموذجًا للقصة المقاومة - موهبة ممتازة، وهي تشكِّل أبرز علامة في العمل النثري العربي داخل الأرض المحتلة حتى الآن..»). كان إميل في السابعة والأربعين حين نُشر عمله الأول، بعده تتابعت الأعمال: «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، ١٩٧٤»، «لكع بن لكع، رواية مسرحية، ١٩٨٠»، ثم «أخطية، ١٩٨٥، وأخيرًا «خرافية سرايا بنت الغول، ١٩٩١».

تلك الأعمال القليلة جعلت صاحبها أحد أهم المبدعين العرب. ولحُسن قراءة إميل حبيبي وفهمه يجب أن نضَع في اعتبارنا دائمًا أنه يكتب من داخل الزنزانة الإسرائيلية، وهو، من ثم، يفتقد القدر الكافي من الحرية ليقول - مباشرة - ما يريد، وعليه أن يلجأ إلى الرمز والكناية والإيماءة والإشارة من بعيد. انظر لأجمل لوحات السداسية، عندي، وهي اللوحة الثالثة «أم الروبابيكيا»، ملكة وادي حيفا غير المتوجة، رفضت الخروج الأول مع زوجها وابنها، وظلت عشرين عامًا مع الأشياء التي تركها أصحابها ورحلوا، لكن أحدًا من هؤلاء الذين عادوا لم يسألها شيئًا، فهم لا يدرون أنها احتفظت لهم بكنوزهم. وهي تصف أولئك العائدين - بعد أن فتحت الحدود - فتُحسن وصفهم.. «يعبرون أزقتنا في صمت، ويتطلعون نحو الشرفات والنوافذ في صمت، وبعضهم يطرق الأبواب، ويسأل في أدب أن يدخل، فيلقي نظرة ثم يمضي في صمت، فقد كان هذا بيته.. (..) وبعضهم لا يطرق الأبواب، بل يجول بعينيه باحثًا عن صاحب سحنة سمراء عابر يستوقفه فيسائله: هل كان يقوم هنا بيت من حجارة مُكحلة؟، فإما أن يقف عابر سبيل، صاحب السحنة السمراء ويستذكر، ويتذكر، وإما أن يقول: لقد وُلدت بعدها يا عمَّاه..». وسرعان ما سيوقن هؤلاء جميعًا - مثلما أيقن بطل «عائد إلى حيفا» - أن ذكرياتهم حفنات ثلج ذابت في لهب حزيران، وأن الوطن ليس الماضي، لكنه المستقبل.



وما أكثر ما كُتب عن **«أبي النحس المتشائل»** حتى كاد أن يصبح أشهر من صاحبه وخالقه! في تلك الرواية الفذة لم يسلك إميل أيًا من السبل المطروقة في الرواية العربية أو العالمية، بل أسَّس إبداعًا جديدًا يقوم على دعائم راسخة من استلهام التراث الفلسطيني والعربي، وحُسن استخدام اللغة، والجرأة في التعامل معها، والاستعانة بالأمثال والحكايات، ثم اللجوء إلى السخرية أو الفكاهة السوداء لو صح التعبير. وجوهرها هو وصول «سعيد» - ومن قبله صاحبه وخالقه - إلى حتمية صيغة الفداء والمقاومة المسلحة. هو في «الكتاب الأول» باحث عن «التكيف»، ملتمس للأمن والأمان، مستعد لتقديم كل التنازلات التي تطلبها منه الدولة العنصرية الباطشة. ثم يقف - في نهاية

«الكتاب الثانى» ـ ممزقًا فى ازدواجيته اللعينة تلك. وقد حمل ابنه ـ الذى أسماه «ولاء» إمعانًا فى البحث عن السلامة ـ السلاح ضد الدولة ولاذ بكهف بعيد (هذه الازدواجية تجد جذورها فى شخصية «الأستاذ م». صاحب اللوحة الثانية فى «السداسية»: «صاحبنا الذى كنت وإياه نتنغم سوية بفتوحات خالد بن الوليد، وبمثانى المتنبى وبكفرانيات أبى العلاء ـ العروبة: قد تزوج الوظيفة، فكيف وشانه أن يحافظ عليها فى إسرائيل، حيث من مستلزمات ذلك أن تنكر كل صلة بصديقك وبقريبك إذا كان من المشاغبين على السلطة، ولو كان أخاك، ابن أمك وأبيك..).

وفى «الكتاب الثالث» يلتقى سعيد فى السجن بفدائى جريح جاء ـ عبر الحدود ـ من لبنان. رأى فيه الجلال المسجى، وحين حاوره

> «خمدت جراحى بالحديث عن جراحه، ظل يُوَسّع فى الكوة الضيقة الوحيدة حتى رأيتها فى عرض الأفق الذى لم أره من قبل، وأصبحت قضبانها المتشابكة جسورًا نحو القمر، وما بين فراشه وفراشى حدائق معلقة. كنت أحدثه عن نفسى بما أحلم به عن نفسى، وما كنت كاذبًا، إنما خشيت أن أدنس جلال هذا المقام بخصوصيات جردنى منها السجانون حين جردونى من ملابسى الخصوصية»،

وينتهى الأمر بسعيد إلى الجلوس على قمة العمود، يرفض النزول عنه، صحيح أنه تغير، وأيقن أن تنازلاته كلها لم تُجْده شيئًا، لكنه عاجز عن النزول إلى الناس والمشاركة فى نضالهم، ولا يجد أمامه سوى الاستنجاد بالكائن الفضائى الذى يستجيب له فيحمله إلى حيث أَلِفت: هو الجنون أو الموت. وتكون كلمة «يعاد الثانية» خير ما يقال فى وداع «أبى النحس»: لقد أراح واستراح!

إن شئنا ترجمة هذه الطرقات على جدران الزنزانة الإسرائيلية إلى كلمات واضحة، قلنا: إن العمل كله يؤكد سقوط صيغة «المتكيف» أو «مزدوج الولاء» داخل إسرائيل، وصعود صيغة «الفدائى» الذى يحمل السلاح فى وجه الدولة. لا سبيل سواه.

العملان الأخيران لإميل حبيبى **«أخطية» و«سرايا»** توأمان أو كأنهما توأمان.. «أخطية»: رواية الحنين إلى حيفا فى حيفا، رواية استعادة «أيام العرب» حين كانت الفاكهة حلوة المذاق لا حد لحلاوتها، وكانت الدنيا واسعة لا حد لاتساعها.. «كانت دنيانا كلها مشاعة لنا، حلالاً زلالاً علينا، كانت الدنيا والآخرة هى بلادنا..». إنما من هذه الدنيا التى ضاعت يستدعى الروائى أحداثًا وشخوصًا، يرويها لنا فى غنائية عذبة، واستخدام خاص للغة، وتطوير خصب لأساليب الكتابة العربية وجمالياتها، لكن هذا ليس كل شىء فى «أخطية»، عنها يكتب صاحبها وقد قاربت نهايتها: «إنى أجدها تشرف على حديقة جديدة أو شاطئ جديد.. (..) إن حالى فيها كحال الوالدة حين كانت تفك الكنزة الصوفية العتيقة خيطًا خيطًا، كانت تعقد أطراف هذه الخيوط فتصبح خيطًا واحدًا تنسج منه..». هذا أقرب وصف لها، هى خيوط: بعضها من الذاكرة وبعضُها من الواقع، بعضها من التراث العربى وبعضها من الممارسات الفلسطينية القديمة، بعضها من الداخل (داخل الذات والحدود معًا) وبعضها من الخارج (بالمعنى نفسه)، والروائى يحاول أن يجعل من هذه الخيوط نسيجًا لا تتنافر ألوانه، وأن يُحكم سداه ولحمته.

ولا أزعم أننى فككت كل حروف الشفرة التى كُتبت بها «أخطية»، لكننى أستطيع القول بأن «التخلى» هو السبب وراء ضياع «أخطية»، ومن بعدها «سروة». ولكل «أخطيته»: هو الذى أضاعها وهو الذى يركضُ وراءها، وحين يراها ـ يُخيَّل إليه أنه يراها ـ لن تكون سوى وهم خُلَّب، فهو إنما أضاعها يوم تركها وتخلى! إنما مثلُها مثل معالم حيفا القديمة كما يقدمها ذاكرتها وراويتها وشاهدها: «تلك الأماكن كلها لا تذهب عنكم، بل تذهبون عنها، لا يأخذونها منكم بل يأخذونكم منها، يرحلون عنها ولا يعودون، أما هى فلا تعود لأنها لا ترحل..».

ثم إن «أخطية» قطعة رائقة ورائعة من فن القص، جوهرة صقيلة استطاع صائغها أن يخفى عنا عرقه وهو يصوغها، وبقيت ـ فى وجوهها المتعددة ـ مثقلة بهموم الباقين داخل الزنزانة الكبيرة، من شانهم، إن شاءوا التواصل، أن يدقوا على جدرانها فى لغة خاصة، موجزة وبليغة، تستعين بالرمز والصورة واللفظة الموحية، وتحميل الكلمة الواحدة أكثر من معنى واحد، والإحالات الكثيرة إلى المأثور وطاقته الوجدانية الهائلة.

* قل مثل هذا وأكثر عن «**سرايا**»: إن صاحبها يبلغ فى استخدامه للغة حدًا غير مسبوق فيما أعرف من أدب العربية المعاصرة، حدًا يجعل من نَصِّه عملاً بالغ الإجهاد لقارئه، بالغ الإمتاع له فى الوقت ذاته. ولئن جاء النص مجهدًا للقارئ فلا شك فى أنه كان أتونًا حقيقيًا احترق فيه الكاتب مع كل فقرة وجملة ولفظة. أكثر من مرة لا يقوى على احتمال بلواه فيتخفف منها. ها هو يشكو لقارئه: «هذا الأتون هو هذه «الخرافية» السيرة المُسَيَّرة، كدتُ أن أصف الأتون بنار جهنم الحمراء من شدة ما أقاسيه من آلام محرقة..». حين صدرت «سرايا» فى ١٩٩١ كتبتُ عنها (راجع من فضلك: «خرافية سرايا بنت الغول» ـ عن عذاب الكتابة وعذوبتها» فى «من أوراق الرفض والقبول، ١٩٩٣»، ص ـ ص ١٥٣ـ١٥٨): «بعبارة من عندنا، ثمة هاجس يهجس للكاتب بأن هذا آخر أعماله، وأنه قد لا يقوى بعده على «مجالدة» عمل آخر. وربما كان هذا الهاجس وراء ما نجده فى «الخرافية» من حضور واضح لذات الكاتب وحياته وعائلته، على نحو يجعل منها شيئًا أقرب إلى «سيرة ذاتية مُفَنَّنة»، ليست سيرة تنحو منحى تاريخيًا أو موضوعيًا أو تلتزم إطارًا محددًا سلفًا، لكنها فوضى من الصور والحكايات الصغيرة والوقوف أمام الأماكن ونبش الذكريات، ومحاولة صياغة هذا كله فى سياق متسق. زد على هذا إحالات الكاتب وتضميناته التى تمده بها جعبة ثرية: جنبًا لجنب تجد استلهام أسفار التوراة وإصحاحات الإنجيل وآيات القرآن وترانيم أخناتون. تجد المعرى والمتنبى والنواسى والبحترى. تجد ابن الأثير وابن طفيل وابن جبير وأسامة بن منقذ. تجد أفلاطون ولينين وجوركى وأوسكار وايلد، لكن أثمن ما ستجده هو وصف أرض فلسطين: عكا وحيفا والكرمل والزيب وشفا عمرو والناقورة.. هو ليس وصفًا فاترًا تقدمه عين محايدة، لكنه استنطاق للمكان، والكاتب ـ شأن أسلافه من الشعراء الذين يحبهم ويستشهد بهم ـ يقف أمام الأماكن التى عرفها من قبل فى طفولته وصباه، والتحمت بصميم حياته ووجدانه، إنه يبحث عن المكان القديم المحفور فى الذاكرة، وينظر إلى ما أصبح عليه، ثم تغلبه اللوعة فلا يقوى على كتمانها..».

وفى «خرافية» إميل لحن باطنى متردد، قوامه مساءلة الذات ومحاسبتها، والقسوة فى تلك المساءلة، والنظر فى اختيارات الماضى، والتوْق الحارق لفرصة عذراء تتاح له كى يختار ما سبق له أن اختار سواه. قسوته على الذات تتمثل فى تبنيه استهلال ابن الأثير لرواية ما شاهده من غزو المغول: «فيا ليْت أمى لم تلدنى، ويا لَيْتَنى مِت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا..». ما تلك الاختيارَات؟ فى «خطبته» يحدثنا إميل أنه لم يهتد إلى حقيقة «سرايا» إلا فى الصفحات الأخيرة من العمل، وأنه ذُهل من الحقيقة التى تكشفت لعينيه «ولكننى لم أسمح لنفسى بإخفائها مع أنها جاءت مناقضة للنهج الذى اخترتُه لحياتى من حيث اعتقادى أنه من الممكن، ومن المفيد «حمل بطيختين بيدٍ واحدة»: الانشغال بالسياسة والانشغالَ بالأدب!»، وهاهو الآن ـ فى يقظته المتأخرة ـ يتمنى أن تتاح له فرصة اختيار ما سبق له أن اختار سواه: الانشغال بالأدب بدل الانشغال بالعمل السياسى اليومى، ولعل إحساسه بتأخر تلك اليقظة هو ما يدفعه لاحتمال هذا الأتون، ومواصلة السير على درب الآلام بحثًا عن «سرايا».

ولعله من التَزَيُّد ـ بعد ذلك ـ التساؤل عمن تكون «سرايا». إنه يشبه تمامًا التساؤل عمن تكون «أخطية»، وقد سبق القول إن بين العملين من التشابه ما يكون بين توءمين، سواء فى طريقة القص (فات عليك القول عن «أخطية» إن صاحبها ما أن يبلغ نهايتها حتى يجدها تنفتح على حديقة جديدة) أو فى المعنى العام الذى يربط أجزاء كلٍ من العملين (فى «الخرافية» يقول عن سرايَا: لكلٍ منا، باختيار، سراياه الهائمة على وجهها كما هامت يمامة سيدنا نوح بحثًا عن الأرض. كذلك لكل أخطيته: عظم من عظامه ولحم من لحمه) أو فى الوقوف أمام الأماكن واستنطاقها، أو فى استخدام اللغة وظلال الكلمات وتطوير أساليب الكتابة العربية، الاستطراد بوجه خاص، والحساسية الفائقة فى تناول الألفاظ، حتى ليصبح للحرف الواحد أهميته ودلالته (فى شتى صور الجناس والطباق والسجع والاختصار والتصحيف).

لكن إميل حبيبى ـ وهو يفنّن سيرته الذاتية فى هذه اللغة الخاصة، وهو ينبش فى أعماق الذاكرة، لا ينفصل لحظة واحدة عن الواقع المعيش: واقع هؤلاء الذين يعيشون فى الزنزانة الكبيرة «داخل حدود الدولة التى لا تكف حدودها عن الانتشار»، معرضين ـ فى حياتهم اليومية ـ لشتى صنوف القهر والبطش والملاحقة والتضييق فى الرزق والحركة، يُسرق منهم تاريخهم وتراثهم، وتُشَوه معالم الأماكن التى ألفوها وعاشت فى ذاكرتهم. إنما لهذا يستخلص إميل ـ من قبضة العدم الوشيك ـ كل ما يقوى على استخلاصه من صور المكان والحياة والممارسة، يود أن يحفرها عميقًا فى وجدان أهل وطنه، فلا ينساها منهم أحد.

هكذا عاش إميل حبيبى وأبدع ومات وبقى فى حيفا.

(٤) جبرا إبراهيم جبرا، لحن التخلى ودائرة النار..

جبرا فلسطينى مقدسى، قضى طفولته وصباه وأول شبابه بين بيت لحم والقدس، وعرف أدب الغرب وثقافته فى «هارفارد» و«كيمبريدج»، ورجع يعمل بالتدريس فى القدس حتى خرج مع الخارجين بعد أحداث ١٩٤٨، ألقى مرساته على شط دجلة، يعمل بالتدريس والإدارة، ويشارك فى الثقافة العراقية مبدعًا ومترجمًا وناقدًا، ثم تزوج بسيدة من أسرة عراقية قوية وعريقة، وأبدل مسيحيته بالإسلام، وحصل على جنسية البلاد التى اختار أن يزرع جذوره فيها، وبقى مشاركًا نشطًا فى حياتها الثقافية، جَوَّابًا لعواصم العالم، متابعًا الجديد من آدابه وفنونه. كتب الشعر (له ثلاث مجموعات) والقصة القصيرة (له مجموعة أضاف إليها عددًا من القصص فى طبعتها الثانية) والسيرة الذاتية (أصدر منها جزءين: «البئر الأولى» و«شارع الأميرات»)، كذلك ترجم

يكاد غسان أن يكون أهم الكتاب الذين عبروا فى إبداعهم عن تطور الشخصية الفلسطينية من النكبة حتى حتمية الثورة المسلحة، وأن تبدو فى إبداعه تلك النقاط المحورية التى ترافق تطور فكر الفلسطينيين عبر تلك المرحلة الممتدة من ١٩٤٨ حتى مصرعه ـ الذى يضفى على مجمل إبداعه دلالات لا يمكن إغفالها ـ فى ١٩٧٢

لحسن قراءة إميل حبيبي وفهمه يجب أن نضع في اعتبارنا دائما أنه يكتب من داخل الزنزانة الإسرائيلية، وهو، من ثم، يفتقد القدر الكافي من الحـرية ليقـول ـ مباشـرة ـ ما يريد، وعليـه أن يلجـأ إلى الرمـز والكنـايـة والإيمـاءة والإشارة من بعيد

عددًا كبيرًا من الأعمال الأدبية (له ترجمة شهيرة لرواية فوكنر العسيرة «الصخب والعنف»، إضافة لعدد كبير من مسرحيات شكسبير و«سونيتاته») والدراسات النقدية. أما مقالاته ودراساته في الأدب والمسرح والموسيقى والتشكيل والعمارة فقد جمعها في عدد كبير من الكتب، صدر آخرها بعد رحيله في عام ١٩٩٤.

على أنني أعتقد أن ما أنجزه جبرا في عالم الرواية هو أهم إنجازاته. كتب ست روايات: «صراخ في ليل طويل، ١٩٥٥» ـ سبق أن عرضنا لها ـ و«صيادون في شارع ضيق» (كتبها بالإنجليزية وصدرت في لندن في ١٩٦٠، ولم يترجمها هو، بل واحد من تلاميذه، وصدرت بالعربية في ١٩٧٤) و«السفينة، ١٩٧٠» و«البحث عن وليد مسعود، ١٩٧٨» ثم «الغرف الأخرى، ١٩٨٦» وأخيرًا «يوميات سراب عفان، ١٩٩٢». كما اشترك مع عبد الرحمن منيف في كتابة عمل روائي واحد هو «عالم بلا خرائط، ١٩٨٢».

قلتُ إن «**صراخ في ليل طويل**» هي افتتاحية لحن خروج الفلسطيني بعد أن احترقت مدينته فأحرق ماضيه ومضى يبحث عن طريق جديد. «**صيادون..**» روايته التالية، ولا بد من تساؤل حول ضرورة كتابتها بالإنجليزية، إن هذا يعني شيئًا واحدًا لا شك فيه: إن الكاتب يحدد الجمهور الذي يريد أن يصل إليه عمله، وهو يعرف هذا الجمهور وكيف يتوجه إليه: خرج بطلها «جميل فران» وهو فلسطيني مقدسي ـ شأن جبرا ومعظم أبطاله ـ للعمل بالتدريس في بغداد ١٩٤٩ بعد أن سقطت القدس، وترك تحت أنقاضها حبَّه الأول، ووراءه في «بيت لحم» عائلة تنتظر العون. وهذا ما رآه في بغداد: مدينة قذرة متخلفة، تنضح شوارعها وأزقتها بالقذارة والقمامة، مثقفوها ضائعون تائهون، متخبطون، يهزمون أنفسهم قبل أن تهزمهم القوى المعادية، الأصالة عندهم جحود وتحجر ورفض لكل تقدم، والمعاصرة عندهم انفلات جامح لا يبالي باحترام الجسد أو كبرياء الإنسان، قوم لم يرثوا سوى مجد غابر انتهى لغير رجعة في حاضر مضطربٍ يفوح بالتفسخ والتحلل، وليس للناس الذين يحاولون الارتفاع فوق الفقر والتعاسة سوى الثرثرة حتى الإملال، والسُّكر حتى القيء، هَبّاتهم انتفاضات عابرة، بَصَقات صغيرة ما أسرع ما تجف تحت شمس بغداد اللاهبة (لاحظ أن هذه انتفاضات ١٩٤٩/٤٨ التي لعبت دورًا مهمًا في تحول الأحداث وتصاعد العنف والعنف المضاد في عراق الأربعينيات). وليس لجميل أصدقاء بين أولئك «الصيادين»، فهو متعالٍ عليهم، مترفع عنهم، لا يجد نفسه إلا في حفلات «الكوكتيل» التي يدور الحديث فيها ـ بالانجليزية طبعًا ـ حول الفن والحضارة، أو على مائدة عشاء مترفة (مع كثير من النبيذ الأبيض ـ بالنص) وحديث ناعم بين عدد من العاملين في السفارة البريطانية وغيرهم من المتسترين وراء دراسة الأركيولوجي أو العمل بالمصارف والمؤسسات البريطانية. سوى تلك الحفلات، ليس ثمة سوى الضجيج والتخلف والعفن. أما إنْ جاء الحديث عن فلسطين فإنه ـ جميل ـ يرى أن الاعتماد على «الرعاع» كان السبب في ضياع ما ضاع، وهو في نقاش مع «عدنان» يفشي له سرًا صغيرًا.. «سرًا غير مهم أبدًا في الحقيقة: حين كان الصهاينة في وطننا يذبحوننا كالخراف.. اجتمعنا وقررنا أن نرد عليهم، أن نتسلل خلف خطوطهم، أن ننسف بيوتهم وشوارعهم كما نسفوا بيوتنا وشوارعنا، ولكن.. مَن كان يستطيع الاستغناء عن فلس واحد لشراء طلقة؟ لذا قررنا الذهاب إلى الخارج لجمع المال سرًا لتنظيم المتسللين وتدريبهم.. ثم انتهى الأمر إلى لا شيء. كانت مبادرة تلقائية فانتهت إلى لا شيء. فما لم تُنظَّم على نطاق واسع، وكان لنا وكلاء في أوروبا وأمريكا، وحصلنا على تأييد حكومة أو حكومتين، فمن السخف حتى أن نبحثها..» هذا هو الأمر إذن: مالم يحصل الفلسطينيون على تأييد حكومة أو حكومتين في أوربا وأمريكا (فقط) لما كان أمامهم أي أمل، لا في استعادة ما ضاع، بل لمجرد الرد على العدو!

أرأيتَ لماذا كتب جبرا روايته بالإنجليزية، ولم يعمد إلى ترجمتها بنفسه؟ «صيادون.. بطاقة بريد سياحية، يبعث بها فلسطيني «مستغرب»، يخاطب فيها رفاق «كيمبريدج» ومن إليهم، بطاقة تقف عندما يروق لعين السائح المتعجل، وهي عين لا تود ـ ولا يعنيها ـ أن تعي جوهر الحاضر، فتكر راجعة إلى أطلال سومر وبابل وآشور، ولا تلتقط من الواقع المعيش إلا ما يؤكد تفوقها وتفوق «النخبة» التي تنفصل عن تلك الكتلة الغوغائية في الفكر والسلوك معًا.

«**السفينة**» رواية مركزة مكثفة، استطاع الكاتب في صفحاتها ـ التي تقارب المائتين والخمسين ـ أن يقدم لقارئه عددًا كبيرًا من الشخصيات الرئيسة والتابعة، في حاضرها وماضيها، في جدها ولهوها، في صَحْوها وسُكرها، في تمردها على تكويناتها النفسية وفي استسلامها لها، وأن يشد خيوطها معًا بحيث يجعل «بؤرة أحداثه» فوق ظهر إحدى السفن الصغيرة التي تطوف بموانيء المتوسط، حملت في إحدى رحلاتها تلك الشخصيات التي لا يبدو اجتماعها محتملاً إلا عبر سلسلة طويلة من المصادفات، وزمن الرواية لا يتجاوز الأيام القليلة التي تقضيها السفينة بين بيروت ونابولي، أيام قليلة لكنها عاصفة، تتفجر فيها الشهوات والأحقاد والعواطف، وتنبثق الذكريات القديمة وتتدافع، وكالمألوف في عالم جبرا لا يكف الأبطال عن النقاش والتفلسف حول كل شيء من تاريخ الإنسان والحضارة والفن، إلى الواقع العربي وقضية فلسطين، وتتناثر حولهم أسماء دوستويفسكي وتوما الأكويني وكامي ولوركا وفيدياس وسيلّينا وبلزاك وكافكا وبوتشيلي، وتتساقط كلمات الحرية والثورة والطغيان والأيديولوجيا، وهم جميعًا مؤهلون لأن يطلقوا كل تلك الأسماء والكلمات دون أن يبدو هذا نابيًا عن تكويناتهم الفكرية وخبراتهم الحياتية.

ولن يعنينا ـ هنا الآن ـ سوى «وديع عساف» وهو يبدو أهم هذه الشخصيات وأكثرها حضورًا، ثم إنه يحظى من المؤلف بالاهتمام الأوفى، فيكاد القارىء يعرف كل شيء عن ماضيه وحاضره وآرائه في كل تلك القضايا، وفي بقية شخصيات السفينة: فلسطيني مسيحي مقدسي، نُفي عن جذوره يوم ضاعت أرضه، وكوفىء عن ذلك بمكتب استيراد وتصدير ناجح في الكويت، أعزب في الثالثة والأربعين، يقرأ ويرسم ويطوف عواصم العالم مطاردًا اللذة والنساء، ويحلم بالعودة إلى القدس: «الأرض التي اشتريتُها في مرتفع وراء كروم حلحول أفضل من ألف امرأة.. سأزرعها بيدي، سأهجر بغاء التجارة، سأزرع الكروم وأشجار الصنوبر (...) هذه العشرون ألف دينار التي جمعتها ستكفي لأن أمد لي جذرًا عميقًا في أرضي من جديد (...) سأخفي في بيتي بندقيتين وبضع قنابل، ومن هنا سأعمل على تقريب الساعة الحاسمة..». ما تلك الساعة الحاسمة؟ لا نجد في فيض كلمات وديع جوابًا مقنعًا، لكنها تخايلنا مثل الرؤى التي تخايل «وديع» ذاته. وهو يوحي إلينا ـ من طرف خفيٍّ وحذر ـ أنه مشارك في نشاط خاص يَعمل على حشد فدائيين فلسطينيين وتدريبهم للقيام بأعمال في الأرض المحتلة.

لكن المشكلة الحقيقية هنا ـ وهي القضية الأساسية في «السفينة» ـ أن «وديع عساف» لا يستطيع أن يقنعنا بأنه ماض في تحقيق حلم العودة. الأمر أقرب لأن يكون كهفًا من تلك الكهوف التي برع نموذج «الفلسطيني المتخلي» في إعدادها، بديلاً للأرض التي ضاعت وللإنسانية التي انتُهكت، ليلوذ بها إن هَجَس في خاطره هاجس الوطن. هو هارب يُسقط هروبه على الآخرين: «للهرب أشكال لا تحصى، ومأساتنا الحقيقية أننا هروبيون.. تغرينا الأخيلة فنلحق بها حيثما تأخذنا..» وهؤلاء الآخرون عنده ليسوا سوى «أدوات» لتطهير روحه من خطيئتها، والحقيقة أنها خطيئة مزدوجة، لو صح التعبير: خطيئة «أصلية» يحملها بين جنبيه من حيث هو مسيحي مازالت عواطفه تتحرك لموسيقى الكنيسة.. «الألحان التي تتصاعد أليمة جريحة من حناجر المرتلين، وألحان الأرغن تحت السقوف الشاهقة، وهذه الإشارات الضارعة الخاشعة إلى الله رب الأرباب وملكوت السماء وحمل الله خطايا العالم.. هذه كلها تغمرني بأحاسيس كالهستيريا»، ثم خطيئة أخرى طازجة من حيث هو فلسطيني هارب، لا تفلح كل الوسائل في تحقيق أمنه الداخلي. إنه ـ على التحليل الأخير ـ يحاول مراوغة شعور طاغ بالذنب، فيملأ لحظات حياته بمطاردة المال واللذة وعشق النساء وصداقة الرجال والتلاعب بالعواطف والعزف على أوتار الكلمات. إن «وديع عساف» عاجز عن التماس السبيل الحقيقي للخلاص، لأنه في قوقعته المترفة تلك، لا يرى جماهير الناس الساعية نحو الهدف نفسه، لكنها لا تهرب إلى الحلم أو الوهم أو الجنون.

في ١٩٧٠ قال جبرا لقرائه: هذا فلسطيني اليوم وهذه همومه وهواجسه. وتلك نقطة الضعف الرئيسية في



«السفينة».. على أننى أمْيَل للاعتقاد بأنها مكتوبة قبل ١٩٦٧، حين كانت القدس مدينة منشطرة بالفعل، وتلك فكرة مهمة فى تكوين شخصية «وديع» وحين كانت الانطلاقة المسلحة مازالت تعانى آلام المخاض.

وكانت السنوات العشر التالية على ١٩٦٧ حاسمة بالنسبة لتطور هذه الانطلاقة: أُسقطت فلسطين كلها من النهر إلى البحر، وانكشف عجز النظم وتواطؤها، وقدر معرفة هذه الانطلاقة لسبيلها وسط التناقضات وحطام الدمار، قدر ما يتزايد حولها إحكام الحصار: فى «أيلول» عمان وجرش والأحراش،فى معارك لبنان جنوبه وشماله منذ ١٩٧٣، وإسرائيل بالمرصاد، تمد ذراعها ـ وسط الخانعين والمتواطئين ـ فتصل ضربتُها إلى حيث تريد، وتمضى بمنجاة من العقاب، ودماء الفلسطينيين مازالتْ ـ كما كانت ـ سلعة التجّار والمزايدين وباعة الدم المسفوك.

وفى ١٩٧٨ أصدر جبرا روايته الرابعة المهمة **«البحث عن وليد مسعود»** والسؤال الذى يعنينا فى هذا السياق هو: هل يمثل «وليد مسعود» تجاوزًا لنموذج الفلسطينى الذى قدمه صاحبه من قبل؟ أبادر إلى القول بأنه ـ مثلهم ـ واحد من «النخبة» التى خرجت إلى العالم الواسع بعد ١٩٤٩، ومثل «جميل فران» ألقى مرساته فى بغداد، ومثل «وديع عساف» عمل بدنيا المال والأعمال، ومثلهما تظل القدس هى الرؤية العالقة بين جفنيه، ومثلهما أيضًا هو متوجه نحو الغرب، ومثلهما هو مسيحى الأعماق وإنْ بدا غير ذلك، ومثلهما هو مولع بالكلمات، عازف ماهر على أوتارها فى الكتابة والحديث (يقول فى شريط تسجيله الأخير، مبدلاً كلمة واحدة من كلمات المتنبى: «أنا الغنى وأموالى الكلمات»). ومثلهما لابد من مأساة خاصة تفتح عينيه على المأساة الشاملة، ومثلهما ـ أخيراً ـ هو محط شبق للنساء وعواطف الرجال. وكل التفاصيل فى الرواية توحى لنا بأن حياته كانت سلسلة متصلة الحلقات من الغزوات المعطرة، وإن كان فى هذه العلاقات ـ ومثل سابقيه ـ موضوع الطراد وليس المطارد!

الاختلاف الجديد والدال هو أن الروائى يحاول أن يُدخِل بطله الفلسطينى دائرة النار: فهذا رجل شاركَ فى عمليات ١٩٤٨، وانضم إلى «جيش الإنقاذ» وأقام علاقة مع «فتح» لم تنقطع، وهو يحكى لنا عن الترتيب لضرب العدو المرة بعد المرة، لهذا اعتُقل وعُذِّب بعد ١٩٦٧، وشارك فى «مذابح أيلول» ١٩٧٠ (ترد هذه المشاركة فى جملة عرضية لا يكاد ينتبه لها القارىء، ودون أية تفاصيل!)، وعشيقته «وصال» مؤمنة بأن اختفاءه الغامض عن حياته وعمله وأصدقائه جميعًا إنما يعنى تسلله إلى الأرض المحتلة، وهى على ثقة من يقينها هذا حتى أنها تقرر اللحاق به، فتنضم إلى تنظيم «الجبهة» فى بيروت. فهل يبدو هذا التحول مقنعًا فى شخصية وليد مسعود؟ هل نجح المؤلف فى أن يزج ببطله إلى دائرة النار؟

إن ثمة غيابًا كاملاً ـ على كثرة ما عرفنا عن وليد وتعدد الصور التى رأيناها له ـ لتلك الفترة الحاسمة التى أدت لتحول الفلسطينى من صيغة «اللاجىء» إلى صيغة «الفدائى»، من الشتات إلى حتمية المواجهة. تلك السنوات التى انقضت ووليد مشغول بمراكمة ثروته والتنقل وراء أعماله بين مدن الخليج وعواصم العالم، والعمل فى صفوف ثورة مسلحة، خاصة الفلسطينية بعد ٦٧، ٧٠: ثورة بلا أرض، لا يتسق والصورة التى يبدو بها، ومن ثم يبدو وليد مسعود ـ من وراء أقنعته المتعددة ـ وجهًا جديدًا من تلك «النخبة» الفلسطينية (للمرة الأولى فى أعماله يورد جبرا دفاعًا واضحًا وصريحًا عن تلك النخبة واتهامها بالتخلى، راجع ص٣٢٠ وما بعدها من الرواية)، يشحنه المؤلف بطاقة (نرجسية) هائلة: هو المحبوب دائمًا، القوى القادر دائمًا، عاشق الحياة والنساء والأفكار، المؤمن بالإنسان على نحو مثالى وغامض ومرتبك، الثرى الناجح ـ لحد التخمة ـ فى حياته العملية والعاطفية (ونعرف على نحو عرضى كذلك، أنه نشر أربعة كتب أو خمسة، لكننا لا نعرف عن مضمونها أى شىء!).

ولأن هذا النموذج لم يعد يتلاءم والهموم الفلسطينية بعد ٦٧ ـ ٧٠، فقد حاول الروائى أن يجعل لبطله ماضيًا نضاليًا وحاضرًا نضاليًا ومستقبلاً نضاليًا محتملاً كذلك.

تنافرت الألوان والعناصر فى هذا «الكولاج» وبقى وجه الفلسطينى المتخلى أوضح الوجوه.

لإكمال الصورة نعرض ـ فى إيجاز ـ لروايتيه الأخيرتين: **«الغرف الأخرى»** ليست سوى «نزوة كافكاوية» كما سبق أن وصفتها: رواية من روايات التحولات، نظل حتى النهاية، ونحن لا نعرف من بطلها: الطبيب الشهير أم الكاتب المعروف، وهؤلاء الذين احتشدوا له: هل جاءوا ليستمعوا إلى محاضرته ويكرموه، أم لإدانته ومحاكمته والحكم عليه. الأهم أنه، هو ذاته، لا يعرف، فهو يجد هواجسه الخاصة مسجلة على ورق مطبوع فى كتاب يحمل اسمًا لا يعرف إن كان له أم لغيره، وبعض النساء اللائى عرفهن فى ماضيه يعدن للظهور، والتحولات لا تنتهى، وهو هنا وهناك معًا وفى الآن نفسه، من غرفة لغرفة يساق، كأنه «جوزيف كاف» أو «المسَّاح» أو «روبرتسون» يتخبط فى دهاليز السفينة، لا يستطيع أن يتفهم كُنه الشراك التى تُنصب له بإحكام، ولا يستطيع أن يلتقط أنفاسه وسط التحولات التى يتسارع إيقاعها ويزداد وقعها، والجو كله كابوسى خانق، تتفجر فيه مشاهد من البذاءة والعنف والقبح والشهوات المحبطة والملل والكآبة، ولا خصوصية فى الأحداث، ولا إشارة تدل على زمان أو مكان.

حتى النهاية التى تنتهى إليها «الغرف الأخرى»، والاسم الأخير الذى ينتهى إليه بطلها، قد لا يكونان غير تحولين جديدين فى تلك التحولات التى لا تنتهى، فهذا اللون من الكتابة يمكن أن يدور فى دورات مكرورة لا تنتهى لشىء، ولأى شىء تنتهى مادام الإنسان ـ على هذا النحو ـ مُحاصرًا، ومُحاطًا به، ومسوقًا على رغمه، لا يملك من أمر نفسه شيئًا؟

ولئن كان لأبطال جبرا من الرجال «ثوابتهم»، فإن لبطلاته «ثوابتهن» كذلك. و«سراب عفّان» صاحبة «اليوميات» تشاركهن صفاتهن الأساسية: التوق الجامح لأن تفنى فى تجربة عشق مجنون، والاندفاع لتحقيق هذا التوق. وهى ـ مثلهن ومثلهم ـ عاشقة للكلمات، تتلهى بالعزف على أوتارها، تعشق الكاتب فى الرجل قبل أن تعرف الرجل، وهى ـ مثلهن ومثلهم ـ تحيا حياة رخية، فأبوها طبيب ثرى شهير،وهى ليست بحاجة للعمل، لكنها تعمل «للتسلية وقضاء الوقت»، وأخيرًا هى ـ مثلهن ومثلهم ـ أجادت اللغات والموسيقى، وقضت عامين فى انجلترا، رجعت بعدهما تواصل دراسة المسرح فى بلدها، ومن ثم يحق لها أن تتحدث عن شكسبير وراسين وكورنى وابسن وأوفيليا وهايدا جابلر وراسكولينكوف.. إلخ.

والكاتب يتعمد الحرص على عدم تحديد البلد العربى الذى تدور فيه أحداث روايته، لكن المؤكد أن «سراب» ليست فلسطينية، وإن كانت لها جدة من القدس، يرد الحديث عنها مرة أو مرتين، غير أن هذا هو المبرر الوحيد ـ أكرر: الوحيد ـ لماسيلى: تتعرف سراب إلى أحد أصدقاء حبيبها «نائل» ـ شريكها فى تجربة العشق الجارف ـ من العاملين «بالنشاط الفلسطينى السرِّى».. فتقرر الانضمام إلى التنظيم الذى ينتمى إليه «تأكيدًا على إعجابى



ببطولة هؤلاء الذين يتحدُّون قوى الظلم والظلام الوافدة من الخارج..»، وهكذا: تختفى سراب دون أن تخبر أحدًا بمكانها أو تكتب لأحد.

وتبقى المشكلة عند سراب تمامًا كما كانت عند وليد مسعود، حتى لكأنها «مكافئه الأنثوى»: إن العناصر «النضالية» تتنافر تمامًا وبقية العناصر التى تحدد شروط شخصية كل منهما: التكوين العقلى والنفسى وتاريخ الحياة ودلالات السلوك، حتى لتبدو ـ تلك العناصر ـ وكأنها قد ألصقت، عمدًا، بهذا التكوين ولم تتسق معه.

(٥) الثـــورة المحـــاصَـــرة فى الخـــارج والداخـل

يمكن القول ـ دون تجاوز كبير ـ إن الرواية الفلسطينية ـ منذ بداياتها غير المكتملة، وبعد أن دفعها غسان كنفانى دفعة قوية نحو الاكتمال ـ استطاعت أن تواكب الهم الفلسطينى، وأن تبقى ـ فى مجملها ـ على ارتباط حار ومباشر بقضيتها الواحدة (الاستثناءات نادرة)، وكان من الطبيعى أن تدور أفضل الأعمال حول تلك النقاط المحورية فى النضال الفلسطينى والعربى: ١٩٤٨، ما قبلها وما بعدها: حدَّثنا الروائيون والقاصون عن تخلف الواقع وتناحر الزعامات وتواطؤ النظم وندرة السلاح والجبن والخيانة والتخلى عن أفواج النازحين فى البر والبحر، وراءهم رعب الإبادة، وأمامهم ـ عبر الأهوال ـ أكواخ التنك المرمية ـ كالخِلَق الرثة ـ خارج العواصم الآمنة.

وعلى وجه العموم، فقد سادت أعمال ما بعد ١٩٤٨ مباشرة خصائص ما يمكن أن نسميه «أدب المنفى»: الحنين الطاغى للوطن باعتباره الفردوس المفقود، والرغبة فى الرجوع إلى الماضى، حين كان الشمل مجتمعًا، والحياة هانئة فلا غربة ولا تشتت ولا إذلال، واستدرار الشفقة على أولئك المرميين فى المخيمات، فى عالم يسوده البؤس والشقاء، يقتتل فيه الرجال من أجل حفنة دقيق أو كسرة خبز. ومن الناحية الفنية سادت كثيرًا من النماذج نبرة زاعقة وجهارة فى الصوت وإلحاح على المشاعر وإيصال مضمون مفروض سلفًا. فى هذه النماذج ما أكثر من يحتفظون ـ فى أعز مكان ـ بمفاتيح البيوت التى تركوها وراءهم، أو حجج ملكيتها، أو صرر صغيرة تحوى حفنات من تراب الوطن.

ومنتصف الستينيات التى شهدت انبثاق العمل الفدائى تجد مقابلها فى الأدب. مرة أخرى: عَود إلى غسان: إن أعماله الأولى (مجموعاته الثلاث وروايته الأولى) هى حيثيات ما سيأتى بعدها، هى الإطار الواسع الذى ستنبثق عنه ـ بالضرورة ـ حتمية الفداء. هؤلاء هم الفلسطينيون: أطفال بعيدون عن طفولتهم قدر بُعدهم عن أرض البرتقال، فالبُعد عن فلسطين بُعد عن كل شىء يحمل نسمة الإحساس بالأمن، بُعد عن أية قوى غيبية يمكنها أن تحمل الخلاص لهؤلاء الضائعين. وحين يبلغون أول الشباب عليهم أن «يغوصوا فى المقلاة».. هذا التعبير الذى أحبَّه غسان

ما أكثر ما كتب عن «أبى النحس المتشائل» حتى كاد أن يصبح أشهر من صاحبه وخالقه! فى تلك الرواية الفذة لم يسلك إميل حبيبى أيا من السبل المطروقة فى الرواية العربية أو العالمية، بل أسس إبداعا جديدا يقوم على دعائم راسخة من استلهام التراث الفلسطينى والعربى.

واستخدمه أكثر من مرة ليصف حياة الفلسطيني المنفى، اللاهث أبدًا وراء لقمة تسد رمقه وقروش قليلة تقيم أود المنتظرين وراء الحدود. ثم هم كهول ينوءون بحمل سنوات العمر والمذلة وطحين الإعاشة وبؤس المخيمات، لذا تجد الفلسطيني عنده، دائمًا، فى طريق أو على طريق أو باحثًا عن طريق، أبطال روايته الأولى يلقون مصارعهم فى تلك البادية الممتدة بين العراق والكويت، وبطل الثانية يضيع وسط بادية أخرى بين غزة والأردن.

يؤكد هذا النظر غياب العدو عن روايته الأولى. إننا لا نرى إسرائيليين فى «رجال فى الشمس»، لكننا نرى آثار ما فعلوه، ذرات من المأساة الشاملة التى تطايرت إلى كل مكان. وتأتى كلمات «أبى الخيزران» لهم قبل أن يلقى بهم على مزابل الكويت: «لماذا لم تدقوا جدران الخزان؟.. لماذا؟..» مثقلة بالدلالة. فقد آن أن يدق الفلسطينيون على كل الجدران، آن أن يتحولوا من الاستسلام إلى المقاومة. وأجرى الفلسطيني حساباته من جديد: إنه يعيش على البقايا والفتات، وقضيته سلعة ثمينة بأيدى المزايدين والانتهازيين من القاعدين على عروشهم، باعة الدم والوهم بأن عملاقًا لابد سينبت من قلب العجز والخرافة ليعيد الأرض التى ضاعت. وقرر الفلسطيني شيئًا: إن مواجهة العدو - فى الداخل والخارج - مواجهة حقيقية وصادقة، والالتحام به، وقتله، هو - فقط - ما يقلب ميزان الخسارة، ويحيل البقايا والفتات حقائق كاملة.

وجاءت ١٩٦٧ تزيد يقينه رسوخًا: الدودة فى أصل الشجرة، وزواج العم بالأم خدعة ثقيلة، سقطت فلسطين كلها وإلى جانبها سقطت أرض أخرى. ورأينا - فى الأدب الذى كُتب بعد ١٩٦٧ مباشرة - أفواج الفلسطينيين تمضى فى اتجاهين متعاكسين: هؤلاء القادمون ليلقوا نظرة على أرض الذكريات الضائعة أو يزوروا الأهل الذين لم ينزحوا (أم الروبابيكيا - عائد إلى حيفا)، وهناك - فى الاتجاه الآخر - أفواج النازحين - تحت الرعب والنابالم - من الضفة إلى عمان فى الخروج الكبير الثانى. هذا «رشاد أبوشاور» يصف بعضهم فى روايته «ذكرى الأيام الماضية، ١٩٧٠»: «شمس حزيران الحارة تغرب، وتكبر ظلال البيوت وأشجار الحور الباسقة، تسكت الحياة ويلوح كأن كل شىء قد انتهى، كأن الحياة هنا لم تكن إلا زيفًا تهاوى دون عناء أو مقاومة، ومرَّت قافلة جديدة، على الرؤوس بقج محشوة بالملابس الضرورية، بعضهم يحمل صفائح ماء، الصغار يتعثرون فى سيرهم، لكن الجميع يتطلعون إلى الشرق، يقيسون المسافة التى تفصلهم عن النهر بوَجَل الغريق..»

وانطلقت العربة الفلسطينية المسلحة بعد ٦٧، محملة بكل آلام المخاض الدامى، مثقلة بكل آفات وتناقضات الواقع الذى خرجت منه وأحاطها، تحمل ثوارًا بلا أرض: مسلمين وماركسيين، مقاتلين ومتفلسفين، واقعيين وحالمين، صادقين ومهرجين، مزايدين أمام أعواد المنابر ومحترقين فى صمت ونبل وكبرياء. بكل هؤلاء، وبغيرهم، انطلقت العربة الفلسطينية محاولة أن تجد الطريق.

ولم يطل الوقت حتى حدثنا الروائيون عن أيلول ١٩٧٠: لم تكن مهارة صياد متربص فقط، ولكن غفلة سرب من النعام كذلك، قُتل من قُتل وذُبح من ذُبح، وكان خروج الباقين مشهودًا: لا زهو ولا أمجاد، والقلق على المصير يحيط الراحلين والباقين جميعًا. هنا عملان أساسيان: رواية فيصل حورانى الأولى «المحاصرون، ١٩٧٣» ورواية رشاد أبى شاور «البكاء على صدر الحبيب، ١٩٧٤»، وبين العملين من التشابه - فى الموقف الفكرى وملامح الشخصيات - ما يجعل التجربة التى يعبِّران عنها.. وقد خاضها كلٌ من الكاتبين حتى أطراف الأصابع.. نموذجية فى مسيرة الثورة الفلسطينية: ثورة محاصرة بين الجلادين والمزايدين: والإنسان الفلسطيني مصدر خطر لأنه شبَّ عن الطوق، وتقدم حاملاً النار والتحدى، لكنه ليس بلا أخطاء. حدثت أخطاء لاشك فيها، وهذا «خالد» بطل «المحاصرون» يقول لنا: «لابد من التضحيات لبناء المستقبل، الذين ساروا بغير استعداد وفى الطريق الخاطىء سقطوا.. علينا أن نستعد طويلاً، أن نقوم بالتنظيم، ننشر الوعى، بلا مزايدة، بغير تهريج أو كذب..».

وحملت الثمانينيات همومًا جديدة: بيروت: ملحمة القتال البطولى والصمود ثم الخروج إلى المنافى البعيدة. هذا فى الخارج، أما فى الداخل فقد شهدت نهايات العقد تفجر الانتفاضة التى سرعان ما أصبحت ايقاع الحياة اليومية فى كل أرض فلسطين. فى «نشيد الحياة. ١٩٨٥» يحدثنا يحيى يخلف عن اجتياح الجنوب صعودًا إلى بيروت. من موقعه فى «الدامور» يصف ما رأى: «من جديد جاءت الطائرات المزمجرة تواصل القصف، ترك الرجال خنادقهم، أخلوا المواقع المكشوفة، أصيب بعضهم بجراح بليغة، حرقت الطائرات الأخضر واليابس ولم تتوقف.. أصيبت المدافع إصابات مباشرة.. اشتعلت النيران بكل شىء.. وتقدمت الدبابات.. ثم أطلت من على سطح البحر ناقلات الجنود البرمائية.. تراجع المقاتلون إلى داخل البلدة..» نعم.. هى معركة غير متكافئة كما قال قائدهم «حمزة»، هُزموا فيها لكنهم لم يستسلموا، وضع حمزة خطة لاقتحام مقر القيادة المؤقت الذى أقامه العدو فى الدامور، وأطلقوا النار على مَن فيه، قتلوا عددًا من القادة والضباط وأصابوا الباقين. وتواصل الحياة نشيدها رغم الهزائم والحصار.

ويحدثنا رشاد أبوشاور عن النهاية، عن الخروج إلى المنافى من جديد، فى «الرب لم يسترح فى اليوم السابع، ١٩٨٦»: جاءت الباخرة القبرصية «سولفرين» تحمل الراحلين إلى تونس، ومعهم الكاتب الذى لا يجهد فى إخفاء نفسه، ولعله لا يريد. وهى - مثل سفينة نوح - حملت شتى أنواع الكائنات: منهم سارق الثورة ومنهم حارس الروح، منهم العقداء والعمداء الذين سبقوا إلى الاستيلاء على كبائن السفينة الفاخرة وتركوا للباقين النوم فى العراء، منهم المخمور الذى لا يفيق أبدًا وينطلق فى مونولوج متصل لا يخلو من نفاذ لقلب الحقيقة الجارح، منهم مناضلون حقيقيون مهتمون بالحاضر والمستقبل، ومنهم من لا يتوقفون عن لف سجائر الحشيش ومنهم... ومنهم...، وهم جميعًا فلسطينيون، هم «عَيِّنة ممثِّلة» - لو صح التعبير - لأولئك الذين التحقوا بالعربة الفلسطينية فى بحثها الدامى عن الطريق. وهذه مرحلة جديدة من النفى والشتات، لكن الفارق الأساسى بينها وبين الشتات الأول، إنما يتمثل فى هؤلاء الذين تطعموا بالنار، وعرفوا طعم الرفض المسلح، وأولئك الذين لا يزالون يعملون ويخططون لمواجهة العدو.

ومع نهاية الثمانينيات كانت أرض فلسطين كلها تلتهب بالانتفاضة. من الأعمال التى كُتبت عن الداخل وفى الداخل أقف عند عملين: «زغاريد المقاثى (فى جزءيها الأول والثانى) لمحمد وتد، ١٩٨٨» و«الجراد يحب البطيخ لراضى شحادة، ١٩٩٠».

الرواية الأولى - بجزءيها - تصور الحياة فى قرية من قرى قطاع «جنين» اسمها «خربة الزبداوى». واحدة من مئات القرى الفلسطينية بعد اندلاع الانتفاضة، وتكشف عن تغير إيقاع الحياة فى ظلها: أصبح للصبيان دور يعرفونه، وللشباب دور، وللنساء دور، الجميع يعملون ويؤدون أدوارهم، يَكرون ويفرون، ينصبون الكمائن للعربات ويهاجمونها، ولا يتوقفون عن رشق الجنود بالحجارة، وشباب المناضلين يلوذون بالمغارات والكهوف، ويستخدمون خبراتهم بأرض بلادهم، ويخزنون السلاح ليوم قريب.

سادت أعمال ما بعد ١٩٤٨
مباشرة خصائص ما يمكن أن نسميه
«أدب المنفى»: الحنين الطاغى للوطن
باعتباره الفردوس المفقود، والرغبة فى
الرجوع إلى الماضى، حين كان الشمل مجتمعًا،
والحياة هانئة فلا غربة
ولا تشتت ولا إذلال

لكن الرواية لا تقف عند حدود «الخربة»، بل تتجاوزها إلى قريب وبعيد: إلى المدن القريبة (نابلس بوجه خاص)، وإلى عمق صحراء النقب حيث سجن «أنصار ٢». وإلى بعيد تنتقل الرواية: إلى باريس ومدريد وروما والجزائر. فى «زغاريد المقاثى» طموح إلى تصوير جانب من ذلك الصراع الضارى بين الفلسطينيين والاسرائيليين فى العواصم الأوروبية، ذلك الصراع الذى يدور متسترًا بالظلام والتخفى، معتمدًا على الرصد والمراقبة وتحليل المعلومات ووضع الخطط، واستخدام المقاهى والأقبية والفنادق والمحطات والبيوت المستأجرة والواجهات البريئة وجوازات السفر المزيفة، فى هذا الصراع - وبالنظر إلى طبيعته الخاصة - يتلبس الحق بالباطل، وتُستغل حماسة الشباب وحاجتهم للمال واللهو للدفع بهم إلى أهداف زائفة وعمليات مشبوهة، ويقدم الكاتب مثالاً لهذا النشاط ذى الوجه المزدوج فى «خلية يافا»: باسم النضال الفلسطيني تقود ضحاياها إلى تنفيذ عمليات تؤدى إلى تشويه هذا النضال بالذات، وتقدم عنهم المعلومات لأجهزة الأمن الإسرائيلية.

هذا الأفق المنفسح فى «زغاريد المقاثى» يتيح لصاحبها.. من خلال الوصف والسرد من ناحية، ومستدعيات أبطاله وذكرياتهم من ناحية ثانية - أن ينقل قارئيه إلى أجواء وممارسات فلسطينية خالصة: «أم العابد» تستحم قبل أربعين يومًا من استشهاد زوجها، العشاء الاحتفالى الذى يقيمه الشيخ لعودة «سامح» من سجنه، الشروط القاسية التى يعيشها المسجونون فى «أنصار» والمناقشات الدائرة بينهم، ووسائلهم فى المقاومة والتحدى، و«ثوار الصالونات» فى نابلس وما يتحولون إليه تحت ضغط جماهير الانتفاضة، مظاهرات «حماس» فى المدينة.. الخ.

وينهى الكاتب الجزء الثانى من روايته (ثمة إشارة لجزء ثالث) عن طريق «مزج أخير» بين خطاب «الختيار» الذى أعلن فيه قيام الدولة الفلسطينية، وقائمة بأسماء شهداء الانتفاضة حتى ذلك التاريخ، وما يحدث فى مستشفى نابلس، حيث لا ينقطع تدفق الجرحى والمصابين، ولا ينقطع احتفال الفلسطينيين بقيام دولتهم.

ولئن كانت «الزغاريد..» تنتهى إلى تلك النهاية، فإن «الجراد..» تنتهى إلى نهاية مفتوحة تمامًا: عند لحظة فى السياق يقف الراوى - الحكواتى - مثل سَلَفه القديم، ليقول لنا - وهو يطوى كتابه ويحمل ربابته ويتهيأ للرحيل: «لم تتم بعد. وللشعب القرار الأخير فى شكل ومضمون نهايتها..» وليس مهمًا ما ينتهى، أو لا ينتهى، إليه العمل، فتلك حركة حياة متدفقة فى عنفوانها، وهى لا تكرر ذاتها، ولا تمضى فى دورات مقفلة، لكن عوامل جديدة تتدخل كل يوم لتغيِّر مجرى الأحداث أو تعدِّل مسارها.

وراضى يسمى عمله «تغريبة فلسطينية»، ويضع - عن عمد - بعض التشابهات التى تحيل قارئها إلى تغريبة الهلالية (هو اسم الأسرة الرئيسة فى العمل، والبطل يتردد وصفه بأبى زيد الهلالى)، ونجح راضى فى أن يقدم «سيرة» الشعب الفلسطينى

أيام انتفاضته. اختار موقعًا من أرض فلسطين (مخيم الشابور فى رفح) يشبه أى موقع آخر. يقول عنه «بركات» أو أبوزيد الهلالى: «فى مخيمنا هذا كل يوم عَم بيصير أساطير وملاحم: عساكر، غاز، بارود، قتل، نفى، سجن، صحرا، هدم، جوع، حرمان، حصار، منع، طوق خوف، عدم استقرار، غموض المستقبل، إحباطات الماضى، نشرات عربية محبطة، نشرات إسرائيلية مسممة، تشرد..» تلك عناصر الحياة اليومية هناك. فى مواجهتها يطوِّر الشعب الفلسطينى أساليب مقاومته، ويبتكر أساليب جديدة، مستعينًا بأرضه وتراثه وممارساته، كى يجد لمشاكل الواقع المعاصر حلولها الملائمة. وتنفسح البانوراما الهائلة فى هذا العمل (مع الخروج الضرورى للأبطال إلى غزة والقدس وجنين ورام الله) كى تتيح التعرف على مختلف تلك الأساليب، ومن جماعها يتحقق الانتقال لطور أرقى ـ أى أكثر عنفًا ـ من أطوار المقاومة.

كان راضى شحادة طموحًا لأن يقول الكثير. لهذا احتشد عمله بالتفاصيل، لكن أغلبها لم يات مجانيًا أو مكرورًا، كان طموحه أن يقدم «صورة الحياة كاملة، لا أقل»، وكان طموحه أن يضع ظاهرة الانتفاضة فى سياقها الموضوعى والتاريخى: حلقة من حلقات النضال الطويل والممتد، تضرب بجذورها فى الماضى وينفتح أفقها على المستقبل. بعد سهرة طويلة حكى فيها الحكاءون الفلسطينيون عن ٣٦ و٤٨ و٦٧، وما بينها وما بعدها، أوجز «جابر الهلالى» الأمر فى كلمات قليلة: «يعنى الانتفاضة إجَت من العدم؟ هى تراكمات داخل كل واحد: اضطهاد، ظلم، سجن، جوع، ضرائب، هدم بيوت، نفى، تعذيب، مصادرة أراضى. الإسرائيليين بِدُّهم إيانا ناكل لقمة الخبز ونظل عايشين ميتين، أكثر من هيك.. لأ».

ألست ترى ـ مثلى ـ أنه يتحدث عما تشتعل به أرض فلسطين الآن؟

على هذا النحو تكتمل رحلتنا مع الرواية الفلسطينية منذ بدايتها حتى آخر ما عرفت من أعمال التسعينيات. وهى ـ قدر ما أتاح لنا هذا الحيِّز ـ تقف عند أهم المعالم، مسقطة كثيرًا من الأسماء والأعمال والتفاصيل.

بقيت عندى ملاحظات قليلة حول الرواية الفلسطينية فى هذا العقد الأخير بوجه خاص، أسوقها بإيجاز:

* إن من «النطاعة النقدية» ـ لو صح التعبير ـ أن يستدعى النقاد والدارسون مقاييس جاهزة وصارمة ينظرون من خلالها للرواية الفلسطينية (الإبداع الفلسطينى) بمعزل عن سياقها الذى يشمل ـ بين ما يشمل ـ الواقع الذى تصدر عنه لتعود فتتوجه إليه، والهدف أو الأهداف الفلسطينية التى تتوخاها، والشروط الموضوعية التى يعيشها مبدعوها. بعبارة أخرى: إن الرواية تصبح ـ فى سياقها الصحيح ـ أداة من أدوات النضال، وقد لا نجرؤ على أن نطلب إلى صاحبها الاقتصار عليها أو التفرغ لها. أو اعتزال العالم فى قوقعة يلوذ بها كى ينتج «الرواية» ـ بالألف واللام ـ التى لا ياتيها النقد من أى مكان. لو افترضنا أن مثل هذا الكاتب يمكن أن يوجد فلاشك فى أنه مُقَصِّر بما هو فلسطينى، وبما هو إنسان كذلك!

إننى أجد فى كثير من الأعمال اهتمامًا كبيرًا بإثبات «المأثور» الفلسطينى فى القول (الأغانى، الأهازيج، الأمثال، القصائد، البكائيات، أغانى السجون... إلخ) والفعل (الممارسات، الطقوس، العادات، الشعائر... إلخ)، ولست أرى فى هذا الاهتمام خروجًا على الموضوع الروائى، أو نتوءات يضيق بها البناء الروائى، قدر ما أرى فيه حرص أولئك المبدعين على أن ينتزعوا تراثهم من قبضة الضياع والاستلاب، فمن استولى على الأرض يسعى للاستيلاء على مأثورها وتراثها لتبرير ماضيه المزعوم فيها، من هنا يصبح الاهتمام بتلك الجوانب مُبررًا ومشروعًا ومفيدًا كذلك.

* من ناحية ثانية، فإننى أرى فى بعض هذه الأعمال لونًا من القص أقرب إلى تسجيل أحداث واقعية معاصرة لنا تحدث الآن. لكننى لا أرى أن تلك الأحداث لا تصلح موضوعات للأعمال الروائية لأنها تحدث الآن. إن تسجيلها الفنى يتيح لها أن تثبت كنصوص تتحدد أهميتها فى ضوء تاريخ كتابتها. وهذا يعنى ـ فى أحد وجوهه ـ لونًا من التواصل وانتقال الخبرة، ولعل هذا ما تكشف عنه بعض الشخصيات فى تلك الأعمال، فنحن نرى ـ على وجه العموم ـ حفاوة خاصة بكبار السن، وتقديرًا لهم، واهتمامًا بخبراتهم، وسعيًا للإفادة منها، ولا يكاد يخلو عمل من «شايب» أو «ختيار» أو «حارس للروح».. الخ، يحنو على الشباب، وينقل إليهم ما رأى وعرف، فى رغبة حميمة للاتصال، لا الانقطاع.

* من ناحية ثالثة، فإننى أرى بعض هذه الأعمال يجمع بين أساليب مختلفة فى فن القص، قد يصل بعضها حد «التحقيق» أو «الريبورتاج»، وقد يميل بعضها إلى «غنائية مفرطة»، لكن اختلاف الأساليب وحده لا يكفى دليلاً ضدها، فالسؤال يأتى بعد ذلك، وينصرف إلى كل عمل، أو عمل كل مبدع على حدة: هل أدى اختلاف الأساليب وتنوعها إلى خلخلة وتنافر فى بناء العمل ونسيجه، أو إلى تشتيت قارئه، أو تكرار ما سبق قوله، أو إثقاله بشروح وتفسيرات زائدة، أم أن الكاتب استطاع أن يقدم مزجًا متناسقًا بين تلك الأساليب المختلفة فى كلٍ واحدٍ، ممتع ومفيد؟

وأخيرًا يمكن القول ـ بضمير مرتاح ـ إن الرواية الفلسطينية ـ على وجه الإجمال ـ استطاعت أن تكون حادية للنضال الفلسطينى من المنفى والشتات، إلى حتمية المواجهة وضرورة الفداء، إلى هموم الثورة المحاصرة فى الداخل والخارج جميعًا. ■


جديد
وبعطر رائع
B Fresh
TOILET SOAP
فى قلب الطبيعة زيوت غنية بتنساب بنعومة فى قلب صابون بى فريش
لينعش البشرة ويغذيها ويرجع نضارتها ليها.
صابون تواليت
بى فريش
جاذبيتك .. فى نضارة بشرتك

العمـــــارة والذاكـــــرة

دعـــوة للتفكير

ناصـــــر الربـــــاط

■■ العمارة والذاكرة مفهومان قد يبدوان للوهلة الأولى معدومى الصلة ببعضهما البعض، بل وواقعين على طرفى نقيض فى العالم الحسى والإدراكى. فالعمارة منتج إنسانى ومادى، موجودة وقائمة بذاتها ومرئية لكل ذى عينين، ذات وظائف حياتية وطبيعية ومعنوية وأبعاد جمالية وفراغية ودلالات اجتماعية وتاريخية واقتصادية وسياسية ورمزية. والذاكرة، تلك الخاصية الإنسانية الواضحة / الغامضة، مكنونة فى الذهن، تومض بصور ومواقف وكلمات ومشاعر مخزونة يدل على وجودها شعورنا بتأثيرها وتفاعلنا معها، ولكنها عدا عن ذلك كائنة فى مكان ما فى تلافيف دماغنا لم تتمكن أجيال من باحثى العلوم الإدراكية والعصبية من تحديده بدقة.

هذا على الصعيد الفردى، أما على الصعيد الجماعى فالحالة أكثر تعقيدًا؛ فهناك، بالإضافة إلى الذاكرة كخاصية فردية وحميمية تعريفًا، الذاكرة الجمعية التى يتشارك بها أعضاء أى مجموعة بشرية والتى تعتبر مكونًا من مكونات هويتهم ودلالة من دلالات خصوصياتهم. ومع ذلك فالعمارة والذاكرة، ببعديها الفردى والجمعى، مترابطتان فى تاريخ التجربة الإنسانية ترابطًا تبادلى التأثير: العمارة تؤطر الذاكرة، تجذرها وتعطيها شكلاً، وهى أيضاً تعكس ما اختزنته الذاكرة المبدعة من صور ومفاهيم وتجارب، وما أسقطته عليها الذاكرة الجمعية من مواقف ومشاعر ومعتقدات.

والذاكرة تستعمل صور العمارة، الواقعية والخيالية، التاريخية وغير المتكونة فى آن واحد، كمنافذ لتعبيرها عن نفسها. وهى أيضًا تجد تأطيرًا وتأصيلاً لوجودها فى العمارة كفعل إدراكى فردى وجماعى وكموجود مادى وحسى. أو هذا ما يفترض أن العمارة كانته عندما كانت تتربع على عرش التعبير والوجدان الإنسانى الجماعى كما مثلتها أوابد الأقدمين التى اعتبرت عجائب قبل أن تزيحها الكتابة عن هذا العرش، خاصة بعد اختراع الطباعة فى القرن الخامس عشر مما جعل نشر الفكر والمشاعر عن طريق الكتابة سهلاً ومتوافرًا واقتصاديًا. هذا هو على الأقل الرأى الذى افتتح به الروائى الفرنسى الرومانتيكى الخالد فيكتور هوجو (Victor Hugo) مناقشته للعلاقة بين العمارة والكتابة فى الفصل النظرى الذى خصصه للموضوع بعنوان «هذا سيقتل ذاك» (Ceci tuera cela) فى منتصف رائعته الروائية «نوتردام دوپارى» (Notre Dame de Paris). ما قصده هوجو هو أن انتشار الكلمة المكتوبة عن طريق الطباعة سيقتل دور العمارة كحاملة للمعنى وكموئل للذاكرة الجمعية بما أنها تؤدى الوظائف نفسها بطريقة أبسط وأوضح وأسرع وبكلفة أقل.

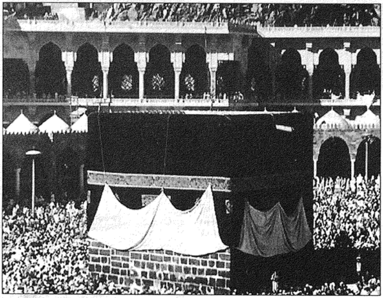
ومع أن هوجو كان بلا مراء سابقًا لعصره، فى تحليله للعلاقة بين العمارة والذاكرة الجمعية. فإن تحليله يبقى ابتدائيًا وعامًا فى ملاحظته وحديًا فى استنتاجاته. فالبحث فى مجال العلاقة بين العمارة والذاكرة قد خطا مؤخرًا خطوات فعالة ودقيقة منهجيًا ونظريًا أضافت الكثير من الوضوح وعمق الرؤية لفهم العلاقة بين العمارة والذاكرة الجمعية. بل إننا اليوم نشهد صعود فرع جديد فى الدراسات المعمارية يعنى بشكل مباشر بمواضيع الذاكرة الجمعية فى العمارة وبالعمارة كذاكرة جمعية، ويعتمد فى تنظيره على التقدم الهائل الذى حققته دراسات علم التحليل النفسى (Psychoanalysis) والعلوم الإدراكية (Cognitive Sciences) بالإضافة للفلسفة والاجتماع والأنثروبولوچيا والدراسات النقدية والثقافية المقارنة ودراسات الذاكرة الجمعية نفسها التى أسسها عالم الاجتماع الفرنسى «موريس هالبواشز» (Maurice Halbwachs) الذى كان واحداً من أنجب تلاميذ عالم الاجتماع الفرنسى الأشهر إميل دركهايم (Emile Durk-heim). ويقف على رأس الباحثين المحدثين الذين أثروا دراسات العمارة والذاكرة بنظرياتهم المعمقة الباحث الفرنسى الذى توفى السنة الماضية «بيير نورا» (Pierre Nora) الذى اقترح مفهومين مترادفين للتعبير عن العلاقة بين الذاكرة والعمارة: مفهوم المكان كـ«محيط للذاكرة» (Milieu de memoire) أى كموجود فعلى فراغى ومعاش ومستعمل، ومفهوم المكان كـ«موئل للذاكرة» (lieu de memoire) أى كصورة أو انطباع أو إحساس عما كان أو ما يمكن أن يكون أو ما يهفو الرائى إلى أن يكون ولكن مع غياب الإطار المعمارى الذى تنحفر فيه الذاكرة.

وقد طوَّر نورا مدلولات هذين المفهومين من خلال كتاباته العديدة والمفعمة ميولاً شوفينية فرنسية عن العلاقة بين المبانى العامة والصروح فى فرنسا وما تختزنه من الذاكرة الجمعية وبين فكرة «فرنسا» نفسها كما طرحتها النظريات القومية خاصة فى القرن التاسع عشر. ولكن العلاقة بين هذين المفهومين بقيت غامضة ومرتبكة منهجياً حتى بعد وفاة مقترحهما نورا: هل هما فعلاً مفهومان منفصلان، وإن كانا مترادفين، يحددان حالتين مختلفتين نظريًا ووجوديًا، أم أنهما وجهان تعبيريان لمفهوم واحد تتغير طبيعته بتغير طبيعة العمارة فى العلاقة من كونها هى نفسها حاملة الذاكرة أو من كونها قد أصبحت مكونًا من مكونات الذاكرة من دون وجود مادى حقيقى لها، أي عندما تكون العمارة قد أصبحت جزءًا من الذاكرة، وبما أنى أجد الرأى الثانى أدق منهجيًا ومنطقيًا، فإنى سأستخدم المفهومين «النورايين» فيما يلى كمفهومين متلازمين يعبران عن علاقة متغيرة تبعًا لتغير واحد من عناصرها فيما أود أن أطرحه هنا من دعوة للتفكر فى معنى العلاقة بين المكان (والعمارة كمحدد للمكان) والذاكرة بمداها الفردى والجمعى باعتبارهما عنصرين وجوديين فعالين فى تشكيل هوية كل إنسان على حدة وهوية المجموعات والشعوب والإنسانية جمعاء، بنهاية الأمر.

فالعمارة، بالإضافة لوظائفها المعروفة والمباشرة من حيث كونها غلاف الحياة الإنسانية الخاصة والاجتماعية، هى ذلك الفرع من النشاط الحرفى والفكرى والمادى الذى طورته الإنسانية لحفظ ذاكرتها، الخاصة والجمعية، بطريقة يترك فيها الكثير للخيال الشخصى وللرغبة الشخصية فى صياغة علاقة فردية ومتميزة مع موضوع الذاكرة التى تضم أكثر من فرد واحد، أى الذاكرة الجمعية. ولعل هذا هو سر استمرار العلاقة الوثيقة بين العمارة والذاكرة بعد خمسة قرون من اختراع الطباعة– وبعد ربع قرن من اختراع الكمبيوتر– على الرغم من نبوءة هوجو البتارة بأن الطباعة ستقتل الخاصية الحاملة للمعنى فى العمارة. فهذا الفضاء غير المحدد والموجود فى كل عمارة فعلاً وتخيلاً. والمهيأ لتمثل أو اكتشاف المعنى من قبل الفرد المتلقى والمستعمل للعمارة. يخلق نوعًا من الحميمية فى العلاقة بين هذا الفرد المتلقى وبين الشىء نفسه الذى هو مصدر الرسالة، أى العمارة نفسها. هذا الهامش من الغموض والعشوائية، وبالتالى من الحرية فى الصياغة، هو ما يسمح لكل متلق على حدة بأن يصنع معناه الخاص على الرغم من أنه يشارك الآخرين بمعنى جمعى تحدده أطر انتماء أوسع من الفرد ذاته تمتد من العائلة إلى القرية أو المدينة فالوطن والأمة وبالنهاية إلى الإنسانية جمعاء. ولأشرح ما أقصده من خلال نماذج محددة نعرفها كلنا، تقيم فى مخيلتنا وذاكرتنا وتتمتع بإعجابنا وترمز عادة لمعانٍ محددة وواضحة يعرفها كلٌ منا وإن كنا، كأفراد، نضيف إليها دائمًا أبعادًا خاصة وشخصية. تجعلها لنا ومنا، بالإضافة لكونها إطارًا لذاكرتنا الجمعية التى تربطنا بالأطر الاجتماعية التى اخترنا أن ننتمى إليها أو التى وعينا على أنفسنا منتمين إليها من دون خيار.

نموذجى الأول هو البيت، أى بيت، ومن بعد ذلك البيت الخاص بأى منا. البيت هو مأوى العائلة ومركز حياتها ومجمع نشاطاتها وموئل ذكرى الراحلين عنها ومرتع الصبا لمن شب فيه وانفصل عنه ليؤسس لنفسه وأسرته بيتًا جديدًا يختزن ذكريات حياته الخاصة المنفصلة عن العائلة الأولى والمرتبطة بعائلته هو أو هى.. والبيوت تتشابه معماريًا، خاصة فى المدينة الواحدة وفى الفترة الزمنية الواحدة، فالحاجات الوظيفية والشروط البيئية والاجتماعية متشابهة. ولكن البيوت تختلف أيضاً، ولست أعنى هنا الاختلافات المعمارية والشكلية الظاهرية التى تعكس اختلافات طبقية وعقائدية واثنية واقليمية. وإنما أقصد الاختلافات التى تجعل من بيت ما بيتى أنا. فهنا ملعب الذاكرة، وهنا تصبح البيوت محيطًا للذاكرة وموئلاً لها فى نفس الوقت. هنا تنعدم أحيانًا الفروق بين ماهو موجود فى البيت ومستوعب لذاكرة أحملها عنه وما هو متخيل، أو بالأحرى متذكر، مما لم يعد موجودًا أو لم يكن قط موجودًا ولكن ذكراه مازالت تثير فىّ، أى الفرد المتلقى، نفس الارتعاشات والاحساسات، التى أثارها الشىء نفسه عندما كان موجودًا أو عندما تخيلت أنه كان موجودًا. وهنا تبرز تلك الخاصية الفضفاضة للعمارة كموئل للذاكرة الجمعية، أى ذاكرة أفراد الأسرة أجمعين، والذاكرة الشخصية، الأليفة، الحميمة، والخاصة جدًا فى آن واحد.

أنا شخصيًا مثلاً يمكننى أن أنظر إلى أى عمارة أسمنتية فى بيئة متوسطية (من البحر الأبيض) من ثلاثة أو أربعة طوابق مع شرفات



الكعبة المشرفة فى مكة

واسعة وأصص نباتات فخارية وشبابيك ذات أرتجة خشبية ملونة وأقول عنها «بيت». أى إطار حياة أسرية لا على التعيين ولكنها تحمل بالنسبة لى مفهوم وصورة البيت. ثم أنتقل إلى شارع الروضة فى دمشق وأنظر إلى الطابق الثانى فى عمارة معينة ذات كلسة بنية فاتحة وأرتجة خضراء مغبرة وشرفات طويلة فيها أصص مزهرة ومتنوعة وأقول «بيتى» الذى فيه كبرت، وإليه أحن. وأحس بذلك الإحساس نفسه كلما تذكرت البيت أو رأيت صورته أو تكلمت عنه واصفًا إياه بعينى ذاكرتى وليس بعينى الواقع بالضرورة. وفى كل مرة تستثار فىَّ مشاعر قوية وخاصة، لا يشاركنى فيها غيرى مع أن مصدرها هو البيت نفسه الذى يراه الكثيرون غيرى، والذى عاش ويعيش فيه أفراد أسرتى قبل أن أنفصل عنهم لأكوِّن بيتى فى الطرف الآخر من الكوكب، والذى يراه كل منهم وفقًا لذاكرته هو أو هى. هذا هو الهامش المعنوى والمتحرر الذى تمنحنا إياه العمارة والذى تكلمت عنه: إنها تحمل فى نفس الوقت الذاكرة الجمعية التى تجعل من البيت بيتًا فى الأساس. الشكل والفراغ، التزيين والإشارات المعمارية، اللون والمواد (ولنتذكر أن كل الأطفال فى بيئة محددة يرسمون البيوت بشكل متشابه). ثم تمنحه خصوصية عائلية يتشارك فيها الفرد مع أفراد عائلته أو مجتمعه الصغير. وبالنهاية تخبئ لهذا الفرد زواياه الخاصة وفراغاته الخاصة التى يحملها بذكرياته الخاصة مما يجعل من البيت ككل، بيته هو بالمعنى الكيانى الأنطولوجى للكلمة، بالإضافة لكونه بيته بالمعنى الاجتماعى للكلمة، أى حيث يقيم وينتمى لوحدة أوسع منه، العائلة، يعرف بها وفى غالب الأحيان يحمل اسمها.

فإذا انتقلنا من الخاص إلى العام، ومن الحميمى إلى الاجتماعى، ومن الفردى أو العائلى إلى المدينى فالوطنى أو القومى ثم الأممى، يمكننا أن نميز تدرجات من أنواع العمارة بحسب اختزانها للذاكرة الجمعية وبحسب حملها للمعنى الفردى والعام. لا يعنى هذا بالضرورة أن أبهة العمارة هى ما تزيد من قدرتها على حمل المعنى، وإن كان هذا هو الوضع السائد فى أغلب الأحيان. فكل مبنى عظيم باذخ مكلف يقترح فائضًا من المعنى لا تملأه كله وظائفه الفعلية مما يستدعى بالتالى تحميله بوظائف رمزية ومعنوية وعقلية لكى تحتوى على فائض المعنى المبثوث فى فائض الفراغ وفائض التكلفة والجهد والبذخ والمواد المستعملة. هذه هى العناصر التى استعملها كل عظيم وكبير ومتكبر فى التاريخ لكى يحفظ ذكراه أو ذكرى قومه. ثم أتى هوجو لكى يرسم عبرها علاقة العمارة بالذاكرة الجمعية ولكى يستنتج أنها قد خسرت أمام زحف الكلمة المطبوعة كوسيلة التواصل المعنوى ومرآة للتفاخر القومى.

ولكن النماذج القليلة المغايرة، بسيطة العمارة ومتواضعتها. هى التى تؤكد لنا أن معنى العمارة لا علاقة له مباشرة بأبهتها وحجمها ودقتها ودرجة البذخ فيها. فالعمارة المؤثرة برأيى، العمارة المحملة بالمعنى بحق، هى العمارة التى لا تفرض على المتلقى معناها بتشكيلاتها المكتملة والمتألقة والمتكبرة والفائضة، بل تستدعيه إليها وتلفت نظره لكونها إطارًا لمجموعة من المعانى الممكنة والمحتملة وغير المفروضة تشكيليًا أو وظيفيًا. العمارة الناجحة رمزيًا ومعنوياً هى التى تقترح ولا تفرض، التى تساير ولا تجبر، والتى تومىء إلى معناها من دون أن تمليه إملاءً. إنها بنهاية الأمر العمارة الفاعلة التى تغوص فى أعماق النفس الإنسانية وتستخلص منها أبسط الأشكال الأولية والطبيعية والمتوازنة بصريًا وهندسيًا، وتبنى منها مجموعًا مركبًا مثقلاً بالفراغات المتروكة خصوصًا من دون وظيفة ولا معنى محدد لكى يتمكن كل متلقٍ من اقتباسها لنفسه ليمنحها مدلولاته الخاصة ومعانيه الخاصة التى تجعلها فى نهاية الأمر عمارته هو، موئل ذكرياته هو، مع ما هى عليه أصلاً من عمارة ذات وظائف جمعية. ومعان جمعية طبعًا، وذكريات جمعية تؤدى رسالتها من خلال تواصلها مع ذلك الهامش الفردى الخاص الذى بناه كل متلق لنفسه فيها.

ولعل المثلين الأروع فى تراثنا العربى الإسلامى، والأبسط معماريًا، اللذين يتركان مجالاً للخيال الفردى وللرغبة الشخصية بالتواصل معهما، هما البيتان الأولان: بيت الله الحرام بمكة المكرمة وبيت الرسول الكريم بالمدينة المنورة. الأول نموذج قائم بذاته متعال عن التقليد إلا فيما ندر، كما حصل مؤخرًا فى نموذج وحيد فى بنجلاديش، وإن لم ينجح مقلدوه فى تحقيق التوازن الدقيق بين الشكل الحامل للمعنى وبين المعنى نفسه. والثانى هو النموذج الأولى والأبسط والأمثل لما أصبحته كل مساجد المسلمين فيما بعد: بيوت صلاة وعبادة واجتماع وتواصل محملة بذكريات المؤسس ولحظات التاسيس فى عمارتها وفى فراغاتها ووظائفها وتفاصيلها، على الرغم من اختلافها اللاحق بالضرورة بسبب اختلاف مناطقها الحضارية والبيئية ومؤثراتها الثقافية والتاريخية والتكنولوجية.

الكعبة المشرفة، ذلك المبنى السحيق القدم الذى كان أول بيت وضع لعبادة الله، تشكيل رائع فى مدلولاته وارتباطاته الإيمانية والحسية والإدراكية، وبالتالى بحمله لمعان بدئية قبل- دينية وذكريات إنسانية أولية وشاملة، قبل أن يصبح موئلاً لذكريات مشتركة بين المسلمين كما لقنهم إياها فى البداية القرآن الكريم والرسول العربى، عن تاريخ الكعبة قبل الإسلام وعن التضحية الإبراهيمية فيها، وكما تجمعت هذه الذكريات على مر العصور وتناقلها المسلمون فى مروياتهم وكتبهم وقصصهم الشعبى. ولكن الكعبة أيضاً، ذلك المكعب البسيط، أمثل فراغ لحمل المعنى المجرد وأكثرها طواعية لفعل الذاكرة الفردية عليه، على الرغم من ثباته ببساطته التشكيلية والهندسية كرمز أصلى للإسلام. فالكعبة بحقيقة الأمر هى الاختزال الأكمل لمفهوم البيت كما يشعر به غالبية البشر بشكل عفوى: المكعب، أكثر الأشكال الهندسية الكاملة إنسانية وأرضية، على عكس الدائرة، أكثرها سموًا وتصعدًا وكمالاً. المكعب فى الذاكرة الإنسانية العامة هو الشكل البدئى للبيت، المأوى والملجأ وملتقى الأحباب ومحط الذكريات. وهى، أى الكعبة، تحمل بالتالى فى بساطتها وفى تكعيبها شبه الكامل هذه الذكريات الأليفة المغروسة فى عمق ذاكرة الإنسانية الجمعية كلها منذ بدأ الناس بالخروج من الغابة والكهف للعيش سويًا فى بيوت مبنية ولينتظموا فى أسر تربطها قرابة الدم والمصاهرة.

ومن هنا قوة الكعبة الرمزية فوق - الدينية، فهى بألفتها وبساطتها ووضوحها واحتوائها المحتمل على كل المعانى المتعلقة بنشأة وترعرع واكتمال نمو الفرد كفرد فى أسرة، تستدعى المتلقى وتهدهده فى بحر ذكرياته الخاصة هو عن بيته، عن مأواه، عن ملجئه، عن موئل ذكرياته الخاصة والخصوصية، وبالتالى تربط نفسها به كفراغ فردى حميمى، مع أنها أيضًا وفى الوعى العام للمتلقى، الفراغ المشترك بين أفراد الأمة الإسلامية كلها والصلة الأرضية التصعدية بالسماء، ومن هنا ياتى نجاح الكعبة كرمز للإسلام. فهى فى الآن نفسه بيت العبادة للرب الأوحد الصمد والمتعالى الكلى القدرة والوجود، أى بؤرة الوجود الإنسانى من منطلق الفهم الإسلامى لهذا الوجود، وهى أيضًا أمثل وأبلغ ذكرى شكلية للبيت الخاص بكل منا وأكثرها عالمية وشمولية على المستوى الإدراكى. وبالتالى فالكعبة فى الآن نفسه موطن الذاكرة الجمعية بمعناها الأشمل، أى ذاكرة الأمة الإسلامية التى تطمح لأن تكون أممية. وبسبب استخدامها للشكل البدئى للبيت، مخبأ الذاكرة الفردية بكل تداعياتها البسيكولوجية من إرهاصات الطفولة إلى فورانات المراهقة ومعاناة الشباب وتجليات الكهولة. ولعل هذا هو سبب فشل مقلديها فى التقاط مدلولاتها المعنوية وصبها من جديد فى مبنى مشابه، أى أن اجتماع الذكرى الإنسانية المتصعدة عن الرب الأوحد والتجربة الأعمق فى التاريخ مع الذكرى الإنسانية المتفردة عن البيت الخاص المغروسة فى كل منا لا يمكن إطلاقًا أن يتكررا فى أكثر من نموذج واحد حصرًا، وبالتالى لا يمكن للكعبة أن تقلد ويحتفظ التقليد بنفس القوة الإيحائية للأصل.

أما بيت الرسول الكريم فى المدينة المنورة.. الذى كان أيضًا مسجده، فهو بحكم انتفاء الصلة الإلهية عنه وبحكم استخدامه الجماعى كملتقى للمسلمين الأوائل وموضع لصلاتهم الجامعة والتقائهم بزعيمهم الروحى والمدنى، قد تطور سريعًا بعد وفاة الرسول لكى يصبح النموذج الأمثل للمساجد معماريًا ووظيفيًا حتى اليوم. أى أن بيت الرسول على عكس بيت الله الحرام نموذج قد صمم أساسًا وهيأ للاستنساخ والنقل والتقليد. وهذا عينه ما فعله المسلمون عندما انداحوا شرقًا وغربًا فى حركة الفتح الأولى. فكل مساجد المسلمين الأول فى سورية والعراق ومصر وفارس واليمن والخليج وأفريقية والأندلس تنبع فى عمارتها من مسجد الرسول

شكلاً وموضوعًا. ولم يكن اتباع هذه المساجد الأولى للنموذج الدينى نابعًا حصرًا من القيمة المثلية والتذكارية لمسجد الرسول، المؤسس الذى غاب، فى المدينة. بل إن عمارة مسجد الرسول نفسها فى الأساس عمارة مهيأة وظيفيًا لتلبية احتياجات الجماعة المسلمة الأولى الدينية والاجتماعية والسياسية تهييئًا شبه تام. وبالتالى فقد كان سبب تقليد عمارة مسجد الرسول فى المناطق المفتوحة على الغالب تذكاريًا ووظيفيًا وعمليًا فى الآن نفسه.

ولو أنى أظن أن الاعتبارات الثلاثة كانت قد اختلطت فى أذهان المسلمين الأوائل بحيث إنها كلها دلت على المنبع وأججت ذكراه فى قلوب ونفوس المسلمين الأوائل الذين ما فتئوا يرنون إلى مسجد الرسول كالمأوى الأصلى للأمة المسلمة والإطار الناظم لتعامل أفرادها مع بعضهم البعض كأعضاء فاعلين فى الأمة. وعلى هذا حملت المساجد المقامة تبعًا لمسجد الرسول ملامحه المعمارية وذكرى مؤسسه وأوائل المسلمين. وأصبح بيت الرسول الذى كان أيضاً مسجدًا لعموم المسلمين، حاملاً للذاكرة الجمعية بشكله وتنظيم فراغاته وبعناصره المعمارية كالمنبر والمحراب، والمئذنة فيما بعد، وهى كلها عناصر تطورت عن نماذج بدائية أضيفت لمسجد الرسول فى حياته أو مباشرة بعد وفاته لأسباب مختلفة، ثم انتمت لمحيط الذاكرة الجمعية الإسلامية مما منحها أبعادًا معنوية ورمزية لم توجد فيها أصلاً. وحتى عندما ظهرت نماذج مختلفة معماريًا عن مسجد الرسول، كالمساجد الفارسية ذات الأواوين أو المساجد العثمانية ذات القباب المركزية أو المساجد الأندونيسية ذات السقوف المائلة (والتى تختفى بسرعة فى محاولة جاهلة لتوحيدها مع النماذج السائدة من دون أى احترام لتطورها الثقافى والتاريخى). فهى قد حافظت فى استعمالها للفراغ على الفكرة الأولى خلف بناء المسجد الأول- أى بيت الأمة المفتوح لكل أفرادها- وإن أدخل إليها تراتبية طبقية فى توزيع المصلين داخلها. وحافظت هذه المساجد أيضًا على ذكرى مسجد الرسول فى المدينة عن طريق تفخيمها للعناصر المعمارية الثلاثة، المنبر والمحراب والمئذنة، التى كانت قد اكتسبت عبر الزمن مدلولات رمزية نبوية ودينية قوية وفاعلة. أى أن المساجد كلها. بمختلف طرزها وأساليبها المعمارية المتغايرة والمختلفة، اعتمدت ومازالت تعتمد على الوظيفة الأولى للمسجد كحاوى للذاكرة الإسلامية الأولى، فى تمييز نفسها عن طريق العناصر المعمارية المساعدة للذاكرة بسبب من المعانى المرتبطة بها، كالمنبر والمحراب، وعن طريق محافظتها على وظيفتها الفراغية الأساسية كملتقى المؤمنين وموضع تعبيرهم عن عبادتهم للخالق الواحد وانتسابهم للمؤسس والمثل، الرسول الكريم محمد.

صحيح أن البيتين الأولين فى التاريخ الإسلامى، المسجد الحرام والمسجد النبوى، قد تميزا بعمق وجسامة الأحداث المؤسسة التى حصلت فيهما وحولهما مما أثقلهما بالمعانى الإيمانية القوية والذكريات المتجذرة فى الوعى الإسلامى، ولكنهما، برأيى، قد حققا أيضًا من خلال عمارتهما الذكية ذلك التوازن الدقيق والصعب بين كونهما محيطًا وموئلاً للذاكرة فى آن واحد، أى بين وجودهما المعمارى والفعلى ووجودهما المعنوى، الإيمانى، والرمزى. وهما أيضًا قد احتويا، بسبب من بساطة وعمق



بناء مسجد الرسول فى المدينة: تفصيلة من مخطوطة عثمانية من القرن السادس عشر محفوظة فى متحف الفن التركى والإسلامى فى استنبول.



بيت الكاتب فى شارع الروضة فى دمشق

عمارتهما، على آفاق للمعنى تسمح لكل فرد يتعامل معهما بأن ينسج علاقته الخاصة بهما من خلال تركيب ذكرياته، عن بيته ومأواه هو بالدرجة الأولى، على فراغاتهما وصورهما المهياة أصلاً لاستقبال هذا النوع من الذكريات. وهما بالتالى قد سمحا لكل فرد بخلق صلته الحميمة بهما من دون أن يفقدا ولو ذرة من قوة إيحائهما المعنوية والعقائدية الجمعية.

وإذا سمحت لنفسى بأن أحوِّر مفاهيم پيير نورا قليلاً، فساقول أن البيتين الأولين للإسلام على بساطتهما معبران معماريًا لأنهما يسمحان بكرم وتواضع وانفتاح لكل إنسان بأن يجعل منهما «ملعبًا» ينتقل فيه ببصره وبصيرته بين الذاكرة الجمعية التى تعطيه الإحساس بالانتماء للأمة، وبين الذاكرة الفردية التى تجعل علاقته بالعمارة نفسها علاقة خاصة ودافئة. وهما لذلك مازالا يتحديان نبوءة هوجو أكثر بكثير من غيرهما من المبانى الحديثة التى فقدت ارتباطها بالذاكرة بسبب اندفاع مصمميها إلى ملء كل فراغ فيها بوظيفة ومعنى محددين ومسبقى التعريف مما جعلها عاجزة عن التكيف مع المتلقى الفرد الذى يبحث فيها عن معناه الخاص النابع من فهمه الخاص لها واستعماله الخاص لفراغاتها. أما البيتان الأولان الإسلاميان فهما مازالا يتواصلان معنويًا وإيمانيًا ولكن أيضًا فراغيًا وشكليًا مع المسلمين الذين يؤمونهما أو أولئك الذين يتصورونهما عندما يحلمون بزيارتهما أو عندما يبنون مسجدًا جديدًا أو يرسمونهما على حوائط الحجاج العائدين من زيارة بيت الله الحرام أو مسجد نبيه. وفى كل واحدة من هذه التجارب الحسية، يسمح هذان البيتان للفرد الحاج أو الزائر أو الحالم أو المصمم أو المنفذ أو الرسام بأن يشعر أن تواصله معهما يتجاوز الأطر المؤسسة والجماعية لكى يتخذ صبغة فردية وحميمية تقربه منهما. وهذا هو أنبل ما يمكن لأى عمارة إنسانية حقة أن تحققه. ■

مـــائـة فيــــلم
فى ستـين عـامـاً مــن الفــن الجـمـيـل

فاتن حمامة
فنـانة مـن نـور!

يوسـف القعـيـد

فاتن حمامة لا تعرف اللون الرمادى. ولا تميل إليه. ربما كانت تميل إليه فى ملابسها لا فى مواقفها. فهى إما أن تحب أو أن تكره. لا تعرف الحلول الوسط. ولا الموقف الذى يرضى كافة الأطراف. وإن كانت لا تحب أن تعلن عن مواقفها وآرائها السياسية بصورة مباشرة. ذلك أنها تراعى جماهيرها فى كل تصرف تقدم عليه. أو رأى تعلنه. ولكن من السهل إدراك مدى إيمانها بالليبرالية السياسية والاقتصادية. وعدم توافقها مع ثورة يوليو ١٩٥٢

.. رأيت فاتن حمامة قبل أن أراها..
وعرفتها قبل أن أتعرف عليها ..

ولذلك قصة. فى نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضى. سافرت إلى دمنهور طلباً للعلم. يومها. حذرنى والدى ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ من خلال أمى ـ أمد الله فى عمرها ـ من أمرين يخشى علىّ منهما فى المدينة. الأول هو بنات البندر والثانى: دخول السينما. حتى الآن لم أفهم العلاقة بين الأمرين. ولكنى عندما وصلت إلى دمنهور. كان كل همى أن آكل من هاتين التفاحتين المحرمتين علىّ. حتى لو أعادنى والدى من دمنهور. خاصة أنها لم تكن جنة ولا يحزنون. أنحى قصتى مع بنات البندر جانباً. فليس هذا وقت روايتها. ولكنى عند وصولى إلى دمنهور كان يعرض فى سينما دار البلدية ـ تحولت إلى أطلال الآن ـ فيلم «بين الأطلال». وكان أطلال الفيلم. كانت نبوءة بأطلال السينما.

فى مساء يومى الثانى. فى دمنهور كنت هناك فى قلب السينما. سينما دار البلدية. وفى الحقيقة كانت جزءاً من مجمع ثقافى فوقها مكتبة البلدية، والسينما كانت تتحول إلى مسرح وقت اللزوم .

كانت السينما أقرب إلى ماكيت من دار الأوبرا التى احترقت بعد ذلك بسنوات. ويومها شاهدت فارس الستينيات المهزوم عماد حمدى والفتاة مكسورة الجناح فاتن حمامة.. وكان اللقاء الأول .. ولكنه لم يصبح الأخير . يومها وأنا أشاهدها على الشاشة. لم أتصور أنه سيأتى يوم أتعرف عليها فيه. وأزورها فى بيتها. ونتكلم معاً. تتكلم فأنصت وأحكى فتستمع إلىّ. كان قد لفت نظرها لاسمى بعد ذلك بسنوات فيلم المواطن مصرى المأخوذ عن رواية «الحرب فى بر مصر». وقد أثنت عليه بكلمات عامة.

ولكن فى اللقاءات التالية. قالت لى أنها أقرب إلى واقعية بركات منها إلى واقعية صلاح أبو سيف. ذلك أننا يمكن أن نقدم واقعاً حقيقياً لا يؤذى العين ولا يصيب الإنسان بالقرف.

وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد لفت نظرها إلى رواياتى. فبدأت فى قراءة البعض منها. وهكذا ذهبت إلى شقتها لأول مرة فى إحدى العمارات الكبرى بحى الزمالك بالقاهرة.

ورغم أن والدها المرحوم أحمد حمامة ليس فلاحاً. وهى لم تأت إلى القاهرة من الريف. بل جاءت من المنصورة. المدينة المشهورة بجمال بناتها الفتان. ومع هذا فإن أول ما يقابلك فى مدخل شقتها بمجرد نزولك من المصعد غابة أشجار حقيقية. أشجار عالية تقودك إلى الباب عبر طرقة بين صفين من الأشجار. وكلمة الغابة لا تزيد فيها. والشقة نفسها بعد أن تدخلها. من شقق زمان. براح. ذكرتنى بالسماوات المفتوحة والمدى البعيد فى ريف مصر. وإن كانت الشقة تطل على النيل.

إلا أن فاتن ـ فقد أصبحت أكبر من كل الألقاب ـ قالت لى أنها لا تستطيع أن تتمتع بالنيل. لأنه بسبب الارتفاع الشديد، فهى عندما تنظر إلى النهر، عليها أن تدلى رأسها من الشرفة. وهذه عملية متعبة. تفقدها القدرة على تأمل النيل. إن ما تستطيعه فقط هو النظر إلى الناحية الأخرى من النهر حيث تشاهد حى العجوزة.

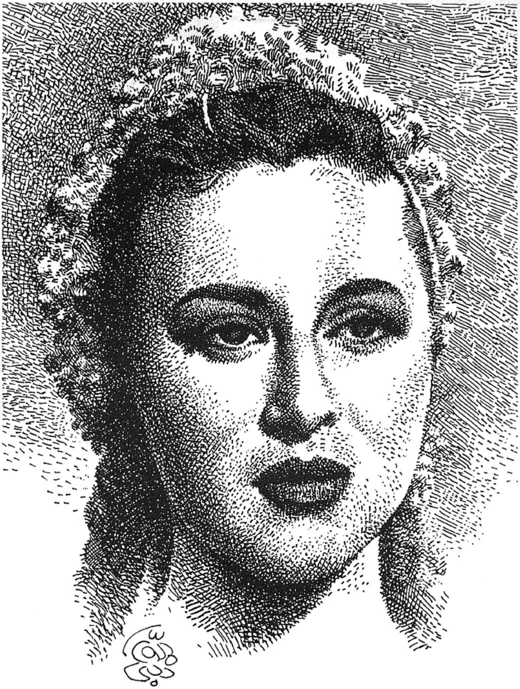
وهكذا تمكنت فاتن بهذا الذكاء وحده أن تضيف لعمرها الفنى عمراً جديداً. عندما قلت لها أن ذكرها جاء فى مسلسل أم كلثوم. عندما كان يعرض فى مثل هذه الأيام من العام الماضى. فسألتنى: كيف؟ قلت لها أن هناك من أخبر أم كلثوم عن الطفلة الصغيرة التى ظهرت مع عبد الوهاب فى فيلم يوم سعيد. وإن أم كلثوم وصفت إحضار عبد الوهاب لطفلة لا يعرفها أحد بالذكاء. قالت فوراً: إن المنافس الحقيقى لأم كلثوم كان عبد الوهاب. ودعك من كل ما يقال عن فنانات أخريات فى حياة أم كلثوم. كانت علاقتهما معقدة. ولكن لابد من القول أنه كان التنافس الخلاق الإيجابى. الذى يدفع كل طرف إلى الإجادة أكثر من الطرف الآخر. أما التنافس السلبى الذى يؤدى إلى تحطيم الآخر والحقد والغيرة فلم يعرف طريقه إليهما. فاتن حمامة لا تعرف اللون الرمادى. ولا تميل إليه. ربما كانت تميل إليه فى ملابسها لا فى مواقفها. فهى إما أن تحب أو أن تكره . لاتعرف الحلول الوسط. ولا الموقف الذى يرضى كافة الأطراف. وإن كانت لا تحب أن تعلن عن مواقفها وآرائها السياسية بصورة مباشرة. ذلك أنها تراعى جماهيرها فى كل تصرف تقدم عليه. أو رأى تعلنه. ولكن من السهل إدراك مدى إيمانها بالليبرالية السياسية والاقتصادية . وعدم توافقها مع ثورة يوليو ١٩٥٢. وهذه نقطة خلاف دائمة ومستمرة بينى وبينها . ولكنها تختار موقفها بعناية. وبعد أن تقلبه على كافة الوجوه. فهى سعيدة بالسلام فى المنطقة. لكنها ليست مستعدة للذهاب إلى فلسطين المحتلة. رغم أن ذلك قد يسعد الفلسطينيين. وفى منتصف أكتوبر الماضى كانت تحرص على العودة من تصوير مسلسل «أوراق الخريف» مبكراً إلى بيتها حتى تتابع أخبار انتفاضة الأقصى. لحظة بلحظة. بل وطلبت من التليفزيون إحضار مشاهد منها ليتضمنها المسلسل. بدلاً من المشاهد القديمة التى كانت موجودة . فمواقف الفنان الذى يتمتع بشعبية فاتن حمامة لابد أن تكون محسوبة بعناية. فاتن حمامة دقيقة فى مواعيدها. تأخذ عملها بأكبر قدر من الجدية . ترى كافة مكونات العمل الفنى: السيناريو. الملابس. الديكور. الموسيقى. من وجهة نظر امرأة. تهتم فى عملها وسلوكها بالبعد الأخلاقى. وتراعى متطلباته لحد التزمت. أيضاً

ـ فاتن حمامة
سمير فريد
١٢٥ صفحة
صندوق التنمية الثقافية ١٩٩٥

ـ فاتن حمامة
خمسون عاما من العطاء
بدون سنة نشر
مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الخامس عشر
إعداد : منير محمد إبراهيم

ـ نجوم بها تهتدون
خميس الخياطى
ميديا كوم للنشر والتوزيع
تونس ١٩٩٨
١٧٠ صفحة

ـ مصطفى أمين
مسائل شخصية
أخبار اليوم . قطاع الثقافة
١٩٩٦
٢٨٠ صفحة



فهى معنية بصورتها الذهنية عند الجمهور. عند الاستعداد لعمل فنى جديد تصبح فترة الإعداد له أطول من وقت تنفيذه. تهتم بالتفاصيل الصغيرة. التى تصنع الصورة النهائية للعمل. تقرأ السيناريو بعناية فائقة. كثيراً ما تعدل وتبدل وتغيير. « نمكية» تبدأ من الشخصية التى ستؤديها. ويصل الأمر إلى أن تقول رأيها فى الشخصيات التى توجد فى العمل معها. وفى بعض الأحيان تشارك فى اختيارهم. لا تتسرع فى العمل. تأخذ وقتها فى إقامة صداقة مع الشخصية التى ستمثلها. تتعمقها. تدخل تحت جلدها. بقدر كبير من الصبر والأناة والمثابرة لدرجة أننى أستطيع أن أؤكد من الآن « ديسمبر ٢٠٠٠ » أن فاتن حمامة ستتحول - إن عاجلاً أو آجلاً والأدق عاجلاً - إلى الاخراج. هى لم تقل لى ذلك لا تلميحاً ولا تصريحاً. ولكن معايشتها عند تحويل العمل الذى تؤديه من كلمات على الورق إلى صوت وصورة. تؤكد أن هذه الفكرة قد راودتها أكثر من مرة. وأنها بعد تقليب الأمر على وجوهه المختلفة أصبحت أميل إلى ذلك. تعرف كيف تصون حياتها الخاصة بعيداً عن فضول الآخرين. وتصد لهاثهم من أجل أن يعرفوا عنها كل شيء، وأى شيء.

عندما تجلس مع فاتن حمامة. تفصل بينك وبينها كلمة صحفى. تستيقظ قرون الاستشعار بداخلها. تقول لك كشرط أولى أو كعقد اتفاق مبدئى: لن أتكلم معك فى أى أمر من أمور حياتى الشخصية. وتظل متيقظة طوال الوقت لهذا الشرط. فإن انزلق الكلام إلى الأمور الشخصية توقفت فوراً. مع أنها تنسى كونها شخصية عامة. تلهث الناس وراء أخبارها الشخصية. وإن لم يعرفوها. لا بد أن يتطوع الكثيرون منهم بتأليفها. كما لو كانوا يعرفونها بصفة شخصية. وهذا جزء من الخيال الشعبى وما ينسجه حول الفنان من قصص وحكايات. ربما كانت بعيدة عن الحقيقة. تحاول فاتن أن تبدو شديدة التحفظ. ولكن ما إن يأخذها الكلام حتى تعود إلى طبيعتها. إنسانة بسيطة. ولذلك فإن اللازمة التى ترددها كثيراً فى كلامها. هى: هذا الكلام ليس للنشر. هذا الكلام لك بشكل خاص، أو أن تطلب منى نسيان ما قالته. وإن كانت لا تعرف أننى بمجرد العودة إلى مكتبى أو منزلى. بعد أى لقاء معها، أدون جميع ما سمعته منها.

القلب صياد وحيد:

حسب ما جاء فى دليل الممثل العربى فى سينما القرن العشرين. من تاليف محمود قاسم ويعقوب وهبى أنها مولودة فى ٧/ ٥/ ١٩٣١ واسمها فاتن أحمد حمامة. وهى ابنة أحمد حمامة. قال محمد كريم عنه فى مذكراته. أنه كان يعمل مدرسا وكان يعيش فى مدينة المنصورة. تعلمت فاتن حمامة فى المدارس الثانوية. وفى معهد التمثيل. ولكنها - كما يقول سمير فريد - تمكنت من تثقيف نفسها ثقافة واسعة وعميقة باللغتين الانجليزية والفرنسية. تزوجت فاتن حمامة ثلاث مرات. الأولى من المخرج عز الدين ذو الفقار وأنجبت نادية. مثلت نادية عز الدين ذو الفقار فيلماً ولكنها لم تستمر فى التمثيل. المرة الثانية من الفنان عمر الشريف وانجبت طارق. عمل طارق عمر الشريف ممثلاً فى فيلم دكتور زيفاجو مع والده ولكنه لم يكمل هذا الطريق. وتزوجت مرة ثالثة - ولاتزال - من الدكتور محمد عبد الوهاب وهو أحد كبار الأطباء المصريين. وقد هاجرت فاتن حمامة من مصر فى الفترة من ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧١ حيث عاشت فى بيروت ثم فى لندن.

فى ٧/ ٤/ ١٩٥٤ كتب جليل البندارى تحت عنوان: سر طلاق فاتن حمامة:

- اتفقت فاتن حمامة وزوجها المخرج عز الدين ذو الفقار على أن يفترقا كصديقين، وترك عز الدين ذو الفقار الشقة بناء على رغبة زوجته ليقيم فى مقصورة باليخت « قاصد خير» بجوار كوبرى قصر النيل. وسوف تظل فاتن حمامة فى الشقة هى وابنتها والمربية حتى تعثر على شقة لها، ثم تتركها لزوجها. وهكذا انتهت قصة زواج فاتن حمامة وعز الدين ذو الفقار. وقد حاول أصدقاء الزوجين - قبل الطلاق وبعد الطلاق - أن يصلحا بينهما دون جدوى. فقد ركبت فاتن حمامة رأسها فى هذه المرة. وأصرت على عدم الصلح.

إلى أن يقول:

- إن جميع أفلام فاتن حمامة تنتهى دائما بزواجها من البطل. أما قصة حياتها هى. فقد بدأت بالزواج وانتهت بالطلاق.

يقول عز الدين ذو الفقار:

- أنا السبب

وتقول فاتن حمامة:

- هو السبب

وفى ٥/ ٢/ ١٩٥٥ كتب على أمين فى «الجيل»، تحت عنوان: دموع فاتن حمامة: أنا أريد من كل قارئ أن يخرج منديله ويجفف معى دموع فاتن حمامة. ماذا فعلت فاتن حمامة؟ إنها أحبت عمر الشريف بعد طلاقها من زوجها الأول. وتزوجت منه. وكان الشاب الذى أحبته مسيحيا فأسلم ليتزوجها. فلا هى خرجت من دينها لتتزوج. ولا هى خرقت تقاليد الشرع فتركت زوجها يحتفظ بدينه القديم. وأنا لا أشجع زواج المسلمة من مسيحى. ولا زواج المسيحية من مسلم. فإن هذا الزواج يخلق أطفالاً حائرين بين أسرة الأب وأسرة الأم. ويحدث ارتباكات لهؤلاء الأطفال فى المستقبل. فإذا كبر الطفل اضطرته الأيام أن يدفن خاله فى الإمام الشافعى وعمه فى كنيسة مارجرجس. إن الادعاء بأن حياة الفنانة هى ملك للجمهور هو كلام فارغ ونفاق رخيص. فإن حياة كل إنسان هى ملكه الخاص. ولا يجوز أن يتدخل فيها أحد. ولقد استعملت فاتن حمامة هذا الحق ومن واجب كل الذين أحبوها أن يخرجوا اليوم مناديلهم، ويجففوا لها دموعها، ويقولوا لها: مبروك.

البدء من القمة:

تقدمت فاتن إلى مسابقة فيلم يوم سعيد أمام محمد عبد الوهاب. ونجحت فى هذه المسابقة. يقول محمد عبد الوهاب عنها:

- شعرت وأنا أتكلم معها كأنها امرأة عندها أربعون سنة. ولأن تعليمها فرنساوى. فقد كانت تنطق حرف الراء. بشكل يصعب معه أن تكون بنت الشيخ مصطفى حسب دورها فى فيلم يوم سعيد. فقلت لها: لكن الراء عندك ياحبيبتى ياصغيرة،

فاتن حمامة



غير معقولة تتكلمين بها بالشكل الفرنساوى. ونحن لسنا فرنسيين. وبالفعل فإن هذه البنت وهى فى مثل هذه السن الصغيرة. كانت تستطيع أن تملك قوتها وأعصابها وفهمها وإدراكها. إنها من يومها لها قيمة. وواضح من خطواتها إنها وصلت إلى القمة ليس من فراغ ولكن عن قوة كافية أعطاها لها ربها. وبفضل مساعدة زكى طليمات بعد ذلك. تخلصت من عيب فى النطق، كانت تعانى من لثغة فى حرف الراء، كانت تنطقه غيناً.

عن هذه اللحظة نفسها يقول المخرج محمد كريم:

ـ كان نبوغها منقطع النظير. وكانت إلى جانب ذلك عملاقة فى طاقتها التى فاقت الحدود. كانت تعمل من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء دون أن يبدو عليها التعب.

لقد أيقنت وأدرك الجميع أننا إزاء موهبة. فاشرت على عبد الوهاب أن يتعاقد معها لأكثر من فيلم. ولكن للأسف مضى شهر وسنة وسنتان بل سنوات كثيرة. ولم تظهر الطفلة العبقرية فاتن فى السينما. لقد مضت هذه الطفولة الرائعة دون أن يستغلها أحد. مضت كطيف جميل سريع الظهور سريع الاختفاء. فرغم النجاح الرائع الذى أحرزته فى دور أنيسة لم يعن أحد بإظهارها حتى عبد الوهاب الذى تعاقد معها. كان يجب أن تظهر لفاتن الطفلة عشرات الأفلام. فقد كانت هذه الطفلة صاحبة عبقرية تمثيلية.

فاتن نفسها. تقول بعد ذلك بسنوات طويلة. فى منتصف الثمانينيات. عن هذه التجربة:

ـ التمثيل بالنسبة لى هواية. والإنسان لا يتحول عن هوايته التى يحبها. فمن يهوى الرسم أو صيد الأسماك يظل على هوايته.

يقول سمير فريد عن فاتن الطفلة:

ـ لقد اكتسبت فاتن حمامة منذ دورها السينمائى الأول عدم الخوف من الكاميرا. وأدركت بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة أنها لا بد أن تحتفظ بشجاعتها أمام الكاميرا. أدركت فاتن أن التمثيل مهنة مثل كل المهن. وأن التفوق فى هذه المهنة هو القدرة على الإيهام بصدق ما هو غير حقيقى. وأن ذلك يتم عن طريق الوقوف على الخيط الرفيع بين الواقع والإيهام بالواقع. وهنا تكمن الحرفة أو الصنعة أى المهنية. أدى نجاح فاتن حمامة منذ الأربعينيات إلى تحولها إلى مدرسة غير مسبوقة فى التمثيل السينمائى.

تقول فاتن حمامة عن التجربة الأولى فى حياتها. التى تبقى دائما وأبداً التجربة الأكثر أهمية:

ـ كانت مرحلة الطفولة. من أروع وأسعد فترات حياتى الفنية. كنت محاطة بالتدليل والرعاية والاهتمام من جميع من كانوا فى الاستديو. خاصة المخرج محمد كريم. والبطل محمد عبد الوهاب. محمد كريم خصص لى فى الاستديو حجرة مستقلة. رغم أنها لم تكن تخصص سوى للممثلين الكبار. وفى هذه الحجرة كانت هناك لعب كثيرة. كنت أجرى إليها فى أوقات الراحة بين التصوير. وكنت أقضى مع هذه اللعب أسعد أوقاتى. خلال العمل كنت أسمع الكلام جيداً وأعطى انتباهى للتعليمات التى تصدر من المخرج محمد كريم. وأذكر أننى عندما كنت أجيد العمل. كان الفنان محمد عبد الوهاب والمخرج محمد كريم. يكافآننى بلعبة جديدة. أو قطعة حلوى. لقد تعلمت من هذه المرحلة أهمية وضرورة الاجتهاد فى العمل. لابد أن ياخذ الانسان عمله بأكبر قدر من الجدية. لابد أن يقدم الإنسان للناس ما يحبون منه. وأن يكون دائما عند حسن ظن الناس به. إن ذلك هو كلمة السر فى أى نجاح فى العمل. لا نجاح بدون جهد واهتمام وإجادة. وهو الدرس الذى آخذ نفسى به حتى الآن.

ـ بدأت فاتن التمثيل قبل أن تتعلمه فى فيلم يوم سعيد عام ١٩٤٠، وكان عمرها تسع سنوات. وعندما تخرجت من معهد التمثيل سنة ١٩٤٧ كانت قد مثلت ١١ فيلما. أى إن موهبة فاتن حمامة سبقت دراستها. تقول إن حجم الدور ليس مهما ولكن المهم هو عمل الدور بشكل جيد أم لا.

مشروع العمر:

فى الكتب الثلاثة المكتوبة عنها. هناك ثلاثة مناهج للتعامل مع نتاجها الفنى. سمير فريد يركز على تمثيلها للمرأة المصرية فى كافة مراحل حياتها. ابتداء من الطفلة. ثم الشابة والزوجة وهذا ما قدمته فى أفلام الأربعينيات والخمسينيات وأخيراً: الأم والجدة فى أفلام السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات. وبذلك تكون فاتن حمامة هى الفنانة الوحيدة التى جسدت حياة المرأة المصرية بدءا من الطفلة وحتى الجدة. أما منير محمد إبراهيم، وعاطف فتحى ورفيق نصر الله ويوسف شريف رزق الله فى كتاب «فاتن حمامة.. خمسون عاماً من العطاء». فيتم التركيز على تطور مراحلها الفنية. أولاً: مرحلة التكوين الفنى وصقل الموهبة من ١٩٤٥ حتى ١٩٥١ وهى السنوات السبع الأولى من عمرها الفنى. وكانت قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها. وكانت قد التحقت بمدرسة الأميرة فوقية بالجيزة بعد انتقالها وأسرتها للاقامة فى القاهرة. فى نفس الوقت الذى التحقت فيه بالدراسة فى المعهد العالى لفن التمثيل العربى.

والمرحلة الثانية: هى فترة التكوين والبحث عن الذات من عام ١٩٥٢ وحتى ١٩٥٨ وهى السنوات السبع التالية من عمرها الفنى. وقدمت فيها أكثر من ثلاثين فيلما. وفى هذه المرحلة لم تكن ارادتها فى اختيار أدوارها كبيرة. إذ لم تكن قد تبلورت بعد. والمرحلة الثالثة: هى مرحلة النضج من عام ١٩٥٩ وحتى ١٩٦٥.. وابتداء من هذه المرحلة لم تعد تقبل الأدوار المعروضة عليها، ولكنها بدأت تختار أدوارها بعناية، وتدرسها جيداً، معتمدة فى الغالب على نصوص أدبية لأدباء مشهورين. ومثلت فى هذه المرحلة عشرة أفلام. والمرحلة الرابعة من ١٩٧١ -١٩٨٨ هى مرحلة أفلام الرسالة الاجتماعية. وهى المرحلة التى ركزت فيها على قضايا المرأة. وبعض أفلام هذه المرحلة مثل: «أريد حلاً» تسببت فى حل الكثير من مشاكل المرأة المصرية. قد انقطعت فاتن حمامة عن العمل مرتين؛ الأولى من ١٩٦٦ إلى ١٩٧١ بسبب هجرتها خارج مصر. والثانية من عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨. أما كتاب محمد الصاوى «فاتن حمامة مائة وجه فى السينما المصرية» فيركز على أفلامها فى شكل فصول متتابعة، والأدوار التى قامت بها فى هذه الأفلام.

وإن كان لا يوجد أى اتفاق بين الذين كتبوا قصة حياتها على عدد الأفلام التى قدمتها. أكثر من أن الفيلم الأول هو يوم سعيد ١٩٤٤.. وأن الأخير هو: أرض الأحلام سنة ١٩٩٣. أى منذ سبع سنوات مضت. لكن عدد هذه الأفلام يتراوح بين ٩٥ فيلماً و٩٧ فيلماً ومائة وثلاثة أفلام. لأن بعض من أرخوا لها استبعد الأفلام التى قدمتها خارج مصر مثلا. ولأنه لا توجد فى مصر جمعية توثق ما قدمه الفنان خاصة عندما يكون فى مستوى فاتن حمامة. ويترك الأمر للاجتهادات.





أستطيع أن أؤكد من الآن «ديسمبر ٢٠٠٠» أن فاتن حمامة ستتحول- إن عاجلاً أو آجلاً والأدق عاجلاً- إلى الإخراج. هى لم تقل لى ذلك لا تلميحاً ولا تصريحاً. ولكن معايشتها عند تحويل العمل الذى تؤديه من كلمات على الورق. إلى صوت وصورة. تؤكد أن هذه الفكرة قد راودتها أكثر من مرة

الزوج مخرجاً المخرج زوجاً

يقول الناقد السينمائى طارق الشناوى فى كتابه: «عز الدين ذو الفقار شاعر السينما»:

- يؤمن عز الدين ذو الفقار بالفريق الواحد. وقد قال ذلك نظرياً وطبقه عملياً. ولكنه رغم إيمانه بذلك. فإنه يقول فى نفس الوقت: «إن فاتن حمامة هى رقم واحد بين كل نجمات السينما المصرية. وأنه لا توجد فى الترتيب من تحقق المركز الثانى أو الثالث. ونبدأ العد من المركز الحادى عشر. رأى غريب فيه شىء من التطرف فى الحب والاقتناع الفنى المغرض الذى ربما يظلم مواهب أخرى. إلا أننا فى الفن نمنح المخرج حقه المشروع فى تلك القناعة. حيث أن فاتن هى التى تعبر عن أفكاره التى يطرحها على الورق. وأنا أشعر أن عز فى تعامله مع فاتن يشبه تعامل الأخوين رحبانى مع فيروز. وكأنها المنبع والمصب. كذلك فاتن بالنسبة لعز الدين ذو الفقار فهو يكتب ويختار القصة السينمائية وتبدو فيها فاتن هى الملهمة الفنية التى ينفعل فنياً من أجلها. وهى المنبع والمصب لأفكاره وإحساسه ولهذا كانت لها تسعة أفلام أى حوالى ٣٠٪ من أفلامه. وفاتن على الجانب الآخر كانت ترى نفسها أيضاً فى سينما عز الدين ذو الفقار. ولهذا فإن الطلاق بينهما لم يؤد إلى أن ينطلق كل منهما بعيداً عن الآخر. حيث يعاودان اللقاء بعد ثلاث سنوات من الانفصال فى فيلم طريق الأمل عام ١٩٥٧، ثم بين الأطلال عام ١٩٥٩، ثم نهر الحب عام ١٩٦٠.. كانت فاتن حمامة بالنسبة لعز الدين ذو الفقار مثل عازف الكمان السوليست فى فرقة أوركسترالية. العازف ماهر. الموسيقى موحية. والمايسترو يحتاج إلى العازف المنفرد السوليست المبدع. وأيضاً العازف لا يبدع إلا مع مايسترو يجيد فن قيادة الفريق ويعرف بالضبط الجمل الموسيقية التى يحلق بها إبداعاً هذا العازف. لهذا كانت بينهما علاقة تبادلية صنعا من خلالها أفلاماً أدخلتهما -معاً- التاريخ: فى فيلم طريق الأمل يسند عز إلى فاتن حمامة دور امرأة تبيع جسدها لمن يدفع. حتى ولو كانت شخصية المومس الفاضلة - فإن هذا ولا شك يمثل جرأة لا تتوفر إلا لمخرج له وزن ورؤية عز الدين ذو الفقار. إن الجمهور يضع كبار فنانيه. خاصة الذين يعشقهم فى مصاف الملائكة. الذين لا يخطئون. وفاتن حمامة على قمة الفنانات اللاتى ارتبطن بما يقرب من التقديس الشخصى لدى جمهورها. على الجانب الآخر فإن الفنان نفسه يفكر ألف مرة قبل أن يحطم هذه الصورة الثابتة. ولكن عز الدين ذو الفقار غامر ورشح فاتن لهذا الدور. وفاتن أيضاً لم تخش القبول وقررت أن تتحدى كل هذه المحاذير على هذا الدور الشائك. فى فيلم «بين الأطلال» مشهد تبدو فيه عبقرية فاتن حمامة فى الأداء وهى على السرير تستمع إلى حديث روحية خالد عن عماد حمدى وكيف استطاعت فاتن أن تقدم تعبير الدهشة المجروحة بعينيها وملامح وجهها وروحية تخبرها عن عماد حمدى وهى التى ينبغى أن تبدو محايدة. وإن دهشتها لما تسمعه هى دهشة إنسان محايد لا يعرف شيئاً.

لم يكن عز يفضل فيلماً معيناً من أفلامه على أفلامه الأخرى. ولكنه كان يحب مشهداً من فيلم نهر الحب لفاتن حمامة. وكانت ترى فيه ابنها فتنظر إليه وتبكى. فكان إذا ما رأى هذا المشهد يوقف العرض ويبكى. وكان عز فى حياته الشخصية إنساناً جميلاً رائعاً. فرغم طلاقه من فاتن. إلا أن علاقتهما استمرت جيدة جداً بعد الطلاق على المستوى الشخصى. وعلى المستوى الفنى أيضاً. فعندما عرض عليها بطولة فيلم «بين الأطلال» وافقت على الفور. بل وسعدت بالعمل معه. ودعوناها على الغداء هى وعماد حمدى فى منزلنا وتمت قراءة السيناريو عندنا. لقد كان يجد متعة كبيرة فى العمل مع فاتن. فهى كانت طيبة جداً وكل ما كان عز يريده كان يجده لديها. ولم يكن هذا التسامح بين عز وفاتن فقط. بل كان مع عمر الشريف أيضاً. فقد اخرج لهما فيلم نهر الحب وأيضاً تم التحضير للفيلم وقراءة السيناريو فى منزلنا. وأثناء التصوير كان عز يطلب منها إعادة بعض المشاهد العاطفية لتكون أكثر عمقاً والقبلات لتكون أكثر سخونة ولا يستطيع أحد أن يلقى باللوم على أحدهما. وينسب له خطأ فشل حياتهما الزوجية. فقد كان اختلاف شخصيتيهما هو السبب. فقد كان عز إنساناً بوهيمياً. يفعل كل ما يروق له بلا نظام. ولم تحتمل فاتن. ولكنها كانت تتحامل على نفسها.

ثلاثية المرأة:

بركات هو المخرج الأقرب إلى فاتن حمامة. من بين الأفلام التى أخرجها لها. قدم معها أهم ثلاثية سينمائية عن المرأة المصرية: دعاء الكروان والباب المفتوح والحرام. يقول بركات لهاشم النحاس فى كتابه عنه:

- فاتن تعد أكثر بطلة قدمت لها أفلاماً. أول فيلم اشتركت معى فيه كان الهانم ١٩٤٦، دور صغير لمدة يومين أو ثلاثة. ولم يكن ذلك كافياً لإقامة المعرفة بيننا. ابتدأت المعرفة فى فيلم العقاب ١٩٤٨، وإن لم تتم من خلال عمل هذا الفيلم «التكة» التى تربط ممثلا بمخرج. لكن اقتربنا أكثر من بعضنا. على الأقل كان الاعجاب بعملها من ناحيتى. أما هى فكانت تعمل مع كثير من المخرجين غيرى. ثم حدثت «التكة» التى تربطنا معاً فى فيلم لحن الخلود ١٩٥٢. وعندما حدثت هذه «التكة»، شعر كل من الطرفين بالراحة فى العمل مع الآخر. وبدأت أفكر أن تكون بطلة أفلامى. وبدأت هى تفكر فى أن أكون مخرج أفلامها. أما الذى أحدث هذه «التكة» فى لحن الخلود. فقد كانت كلمة السر فيها هى الأداء. أداء فاتن فى دور فتاة تعيش مع أختها. وهى مريضة بالقلب وتقع فى حب فريد الأطرش. دور من نوع سندريلا قادر على الوصول إلى الناس بفضل أداء فاتن. ومن وقتها أصبحت بدون تعمد كلما أقرأ رواية أو أفكر فى عمل فيلم، أجد نفسى أفكر فى فاتن حمامة باعتبارها بطلة الفيلم.

النجم والممثل:

يعرِّف صلاح أبو سيف لخميس خياطى الفارق بين النجم والممثل. فالنجم هو صاحب الاسم الكبير الذى يفترض به أن يجر المتفرج إلى السينما. بمعنى أن الأفلام تصنع من أجله. قد يكون النجم ممثلاً جيداً وقد يكون ممثلاً غير جيد. ومع هذا فإن شهرته وحب الناس له، يدفعان المنتجين إلى الاستعانة به. فتكون الأفلام مصنوعة له وانطلاقا منه. أما الممثل فهو الذى بإمكانه أن يتقمص أى دور. وأحيانا يتحول الممثل إلى نجم بسبب شهرته واسمه الكبيرين. مما قد يجعل منه اسم شباك تذاكر. لكن الكثير من الممثلين ليسوا نجوماً. والكثير من النجوم ليسوا ممثلين.

وينتقل صلاح أبو سيف إلى فاتن حمامة الممثلة التى أصبحت نجمة:

- من أدوات التعبير لدى فاتن حمامة وجهها ثم صيغة نطقها







فاتن  حمامة

للحروف. وهذه ميزة كبرى عندها. إذ تمتلك القدرة على أداء أدوار بنت البلد. والبنت المائعة. وعندها إمكانية أداء الأدوار التى تتناسب مع سنها وشكلها وجسمها. لأنها رقيقة فى الحجم. والأكثر من ذلك أن دمها الخفيف. ولاننسى أن فاتن أدت أدوار الكوميدى مثل الأستاذة فاطمة . ثم إن فاتن لها أحسن الأخلاق فى الوسط الفنى المصرى. فهى إنسانة تحترم عملها خلافا عن الفنانات الأخريات. تحترم مواعيد الشغل. تعتنى بالعمل مع المخرج. تنظر إلى الديكور مثلا من وجهة نظر نسائية. إنها تعتنى بالأشياء الأخرى وبالآخرين. كذلك علاقة فاتن بالطاقم الفنى. وبالرغم من نجوميتها «المكتسحة» فهى بعيدة عن التوتر والتشنج . تأتى إلى البلاتوه قبل الفنيين حافظة لدورها. علاقتها بالعمال وأصغر المساعدين علاقة جيدة. لا تتعالى عليهم. تحترم نفسها وتحترم الآخرين. تهزر معهم ولكن فى حدود اللياقة. إنها إنسانة يحب أى مخرج العمل معها. إلا أنها ككل امرأة، لا تحب أن تكون بجانبها امرأة أجمل منها. فاتن إنسانة جميلة. امرأة عصرية. وحينما تكون بجانبها امرأة جميلة تتوتر. إن الذى ترك بصماته الفنية على فاتن فى شخصية البنت الغلبانة هو حسن الإمام. لأنه عمل معها فى العديد من الأفلام. وكلها على ذات النمط. ولذلك أحبها الجمهور المصرى والعربى. فرغبت دائما فى أن تستمر على ذلك النمط. بينما هى كممثلة لا كنجمة بإمكانها أداء أى دور. والجمهور شبع من أدوار البنت المسكينة.

صورة تذكارية:

فى سنة ١٩٩٦ وفى إطار الاحتفالات بمرور قرن على السينما المصرية. قام مهرجان القاهرة السينمائى الدولى بعمل استفتاء ضخم. أشرف عليه أحمد رأفت بهجت. عن أهم الأفلام فى تاريخ السينما المصرية. وقد جاءت الأفلام التى قامت ببطولتها فاتن حمامة فى المرتبة الأولى. تليها سعاد حسنى مباشرة. مع أنه لم يفز فيلم واحد لإسماعيل يس فى هذا الاستفتاء.

يقول نادر عدلى فى دراسة ملحقة بهذا الاستفتاء: كانت فاتن حمامة صاحبة أعلى رصيد فى الأفلام كممثلة ونجمة وهى نتيجة صادقة ومريحة أيضاً. جعلتها أهم النجوم فى تاريخ السينما المصرية. فجعلتها سيدة الشاشة العربية. لقد جاءت فاتن حمامة بأسلوب جديد فى الأداء يعتمد على التلقائية والبساطة والقدرة على التعبير دون افتعال. والصدق فى تقمص الشخصيات المختلفة. هذا الصدق هو الذى جعل شخصيات أفلامها تلقى كثيراً من التعاطف. وكان حضورها الطاغى على الشاشة سبيلها إلى تحقيق حالة فريدة للممثلة النجمة التى استطاعت أن تحتفظ بمكانة الممثلة الأولى منذ أواخر الأربعينيات وحتى الآن.

يقول عنها الناقد السينمائى الفنان كمال رمزى فى كتابه. « نجوم السينما المصرية : الجوهر والأقنعة » : فاتن فنانة فوق العادة. تمثل وكأنها لا تمثل. تعتمد على حساسية داخلية رهيفة. تسيطر على عواطفها أثناء التمثيل. وقدرة صوتها على منح الكلمات معانيها. إنها الثروة الهائلة التى لم تبدد شطراً كبيراً فيما لا يفيد. يتجلى سحر فاتن حمامة فى أن تجعل المشاهد يرى ويلمس ويتفهم انفعالها الحقيقى. الذى وإن كان لا يظهر على الشاشة. إلا أن الأستاذة الفنانة تستطيع أن تنقله بجلاء ووضوح إلى المشاهدين. وهذا حقيقة المجد الفنى. لديها احساس مرهف بالمسئولية تجاه نفسها واسمها وإنجازها. إن فاتن لا تملأ الفيلم بفنها فحسب ولكنها تصبح هى الفيلم ذاته.

يقول المؤرخ السينمائى أحمد كامل مرسى: إن فاتن فى حياتها الخاصة ليست تلك الفتاة المسكينة المظلومة التى تظهر على الشاشة فى معظم أفلامها. إنها فتاة عاقلة فى الحقيقة والواقع. لا تندفع فى تصرف. تمتلك إرادة من حديد ونظرة كاملة. إذا أرادت شيئا حققته. دون حساب الصعاب والأقاويل. لعبت دور حمامة السلام بين الطبقات. وإن كان يؤخذ عليها تفصيل الأدوار لها. أو الكتابة من أجلها خصيصاً. وموقفها المتجنى على ثورة يوليو وحرب السويس فى فيلم ليلة القبض على فاطمة. وموقفها المتجنى على الجماهير. التى تقدمها كقطعان بلاعقل.

يقول عنها سمير فريد: حين نقول السينما العربية نعنى فاتن حمامة. وحين نقول فاتن حمامة نعنى السينما العربية. فهى أكبر رموزها الشعبية. مثل سيد درويش فى الموسيقى. وأم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ فى الغناء. ومحمود مختار فى النحت. ونجيب محفوظ فى الرواية. ويوسف إدريس فى القصة القصيرة. ومحمود سعيد ويوسف كامل وراغب عياد فى الرسم. وطه حسين وعباس العقاد. وتوفيق الحكيم فى الأدب. ويوسف وهبى فى المسرح. ويقول الناقد السينمائى التونسى خميس خياطى: بقيت فاتن حمامة على عرش السينما العربية ممثلة لا يحبها الجمهور فقط . بل ويحترمها.

يقول عنها مصطفى أمين:

ـ فى سن الثالثة عشرة عاشت فاتن أكثر سنوات حياتها إرهاقا. كانت طالبة فى مدرسة الأميرة فوقية الثانوية للبنات فى السنة الأولى. وكانت بعد الظهر تلميذة منتسبة بمعهد التمثيل المسرحى. لأن الطالبة المنتظمة يجب أن يكون عمرها ١٦ سنة. وكانت تمثل فى الإذاعة مع سيد بدير. وفوق ذلك كانت تشترك فى تمثيل الأفلام . حياة شاقة مرهقة لفتاة صغيرة مراهقة . تمثل الحب ولا وقت عندها للحب. تقوم بدور فتاة مرفهة وهى تعيش فى عمل متواصل. تستيقظ مبكرا لتجرى إلى المدرسة. وتسهر مع النجوم باعتبارها نجمة. ولكنها كانت تعشق عملها. تؤديه بمتعة ولذة. كان وجهها دائما أصغر من سنها. وزادت شهرتها من سن السادسة عشرة إلى سن الحادية والعشرين. وعندما قامت الثورة عام ١٩٥٢، كانت فاتن تمثل فى فيلمين فى وقت واحد. الفيلم الأول من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الثالثة بعد الظهر. والفيلم الثانى من الساعة الثالثة بعد الظهر إلى الساعة العاشرة مساء.

عندما عرضوا عليها أن تقوم بدور آمنة فى دعاء الكروان وقرأت كتاب طه حسين . ودعاها الدكتور طه حسين لمقابلته وقال لها بسخرية واستهزاء:

ـ وانت تقدرى تفهمى دور آمنة ؟!

قالت فاتن :

ـ فهمته كويس.

وهز طه حسين رأسه سخرية.

وخرجت فاتن من عند طه حسين باكية مجروحة مطعونة. وراحت تقول لمنتج الفيلم : لماذا اخترتمونى لهذه البهدلة؟ وتم تصوير الفيلم. وعرض فى عرض خاص. حضره دكتور طه حسين وقرينته وابنه وابنته. وانتهى العرض. وفوجئت فاتن بطه حسين يقول لها:

ـ إن خيالى وأنا أكتب صورة آمنة «فى القصة هو بالضبط ما فعلته أنت».

وخرجت فاتن حمامة وهى أسعد امرأة فى العالم.

ـ **سؤال من الكاتب** : طه حسين لم يكن يرى فهل استمع إلى الحوار فقط ؟ ! وقرينته لم تكن تعرف العربية رغم حياتها مع عميد الأدب العربى. فهل شاهدت الصور فقط؟ وابنه مؤنس عاش كل حياته فى فرنسا. فهل كان فى زيارة لمصر وقت عرض الفيلم ؟ !

يكمل مصطفى أمين : ولكن الشيء الغريب فى حياة فاتن أنها لم تتأثر فى حياتها الخاصة بأدوارها السينمائية. فثارت وهى فى السادسة عشرة على أهلها. وخاضت معركة هائلة من أجل أن تختار الرجل الذى تتزوجه واصطدمت بأسرتها. وقالت يومها كلمتها المشهورة: « إننى قبلت على مضض أن تختاروا لى ملابسى. ولكنى أرفض أن تختاروا لى زوجى». واختارت زوجها برغم معارضة كل أهلها. ولكن هذا الزواج فشل. فظهر أن أهلها كانوا على حق. كانت أمنيتها أن تتزوج لتهرب من والدتها الشديدة القوية الشخصية. التى ترى أن وقوف البنت فى النافذة قلة أدب تستوجب قطع رقبتها. وأن تأخرها بضع دقائق عن العودة إلى بيتها عمل شائن لا يليق. وعندما دخلت الجنة . فوجئت أنها دخلت العنوان الخطأ. ليست هذه هى الجنة التى كانت تحلم بها.

سؤال النهاية:

والآن : كيف تكرم مصر فاتن حمامة فى حياتها ؟ لقد حصلت أم كلثوم على جائزة الدولة بعد أن تدخل عبد الناصر . عندما قال المسئولون عن الجوائز أن أم كلثوم مؤدية وليست مبدعة . فلم لا تحصل فاتن حمامة على جائزة مبارك للفنون. أو جائزة الدولة التقديرية للفنون. وخاصة أن حصول الفنان محمود مرسى عليها فى العام الماضى قد فتح الباب لذلك. قالت لى فاتن إن بعدها عن المسئولين وعدم الاتصال بهم والظهور معهم فى المناسبات العامة. يجعلها بعيدة عن هذه الجوائز. وتكفيها جائزة حب الناس لها. ■



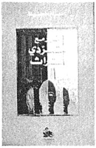
عـروض موجـزة

كتب عربية

حوار مع متمردي التراث

عصام محفوظ

بيروت، رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠، ٢١٤ صفحة، ٢٨ جنيهًا



يحاور المؤلف أعلامًا في تراثنا الفكري والأدبي والفلسفي، وهو حوار متوهم بطبيعة الحال مع السهروردي وابن المقفع والجاحظ وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء المعري وابن رشد وابن خلدون ورفاعة الطهطاوي وعبد الرحمن الكواكبي. وقد استفاد المؤلف من موهبته المسرحية في الاسترجاع الزمني، وتوليف الأحداث بما يمكنه من إبراز فكرته، وبما لا يخل بأفكار الشخصية التاريخية في آنٍ معًا، فهو يسأل مثلاً ابن المقفع: ألا تعتقد سيدي، أن ما شجع خصومك على اتهامك بالزندقة كونك، عندما تذكر الدين في كتابك لا تقرنه بالإسلام؟

فيجيبه ابن المقفع:

أصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، والمؤمن بشيء من الأشياء، وإن كان سحرًا خير ممن لا يؤمن بشيء ولا يرجو معادًا.

فيسأله: لكنك تؤمن بالله الواحد

فيجيبه: إن كل ما في الدنيا يهدي إلى الله.. إلخ.

على هذا المنوال تسير أحاديثه الافتراضية، فهو يذهب إلى الجاحظ محملاً بأسئلته التي تبين كثيرًا من شخصية الجاحظ وأدبه بل وحياة معاصريه ونظم الحكم والسياسة في عصره، فيسأله مثلاً عن الأدب عند العرب، فيجيبه الجاحظ: عند العرب الكلام بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وهم أميون لا يكتبون ومطبوعون لا يتكلفون عملاً. وحين يسأل الفيلسوف المغربي «أبا حيان التوحيدي» عن حياته، يجيبه أبو حيان: كان شبابي هرمًا من الفقر، استولى على الحرف وتمكن مني نكد الزمان، وأزلني السفر من بلد إلى بلد، وخذلني الوقوف على باب وباب، إلى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية والقميص المرقع، إلى متى التأدم بالخبز والزيتون، قد والله بح الحلق وتغير الخلق، الله الله في أمري، قد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، مستأنسًا بالوحشة، ملازمًا للحيرة، محتملاً الأذى، يائسًا من جمع من ترى، فشمس العمر على شفا، والحياة إلى نضوب. أما السهروردي الذي شاء حظه التعس أن يختار مدينة حلب لإقامته ولدعوته بصوفية بالغة إلى التقريب بين الأديان، في أسوأ فترات الحروب الصليبية، وفي مدينة عرفت بتعصبها الديني الشديد، وبعدما يجري المؤلف حواره مع السهروردي متضمنًا محاكمة لأفكاره، ينهي بملاحظته عن مسئولية صلاح الدين الأيوبي، القائد العربي الأشهر، في قتل السهروردي، ويشير إلى أن مدينة حلب التي قتلت السهروردي، هي التي تحتفظ اليوم بذكراه وتخلد مقامه وإن كتب على حي يحمل اسمه «بوابة الساواردي» وهم يعنون في الحقيقة بوابة السهروردي.

□ □ □

سليمان العيسى..

٨٠ عامًا من الحلم والأمل

مجموعة باحثين بإشراف د. عبد العزيز المقالح

دمشق - صنعاء: دار الرائي، ٢٠٠٠، ٤١٥ صفحة



يجمع الكتاب بين دفتيه دراسات لأكثر من ٣٥ باحثًا وأكاديميًا، في إبداع الشاعر السوري الكبير سليمان العيسى، الذي يعد أحد رواد القصيدة العربية المعاصرة، والذي تمتد تجربته لنحو ستين عامًا، وهي فترة شهدت تحولات عديدة، سياسية واجتماعية وأدبية، كان العيسى شاهدًا عليها، وقد عكسها شعره وتناولها في قصائده، ويلاحظ دارسوه أنه ما زال مثابرًا على إيمانه بقضية أمته الواحدة دون أن ينتابه اليأس لما أصابها من نكبات، بل توجه إلى المستقبل، فأنشد للأطفال قصائد بسيطة يمكنها أن تغني وتعلمهم في تلقائية محببة معنى الوحدة ومحبة الأوطان.

ويشير أحد المشاركين في الكتاب أن سليمان العيسى ماهَى بين وقائع الحياة التي أرادها أن تكون مادته الخام، وبين اللمسات الرقيقة التي توخاها انطلاقًا لخياله الخصب.

ويلاحظ باحث آخر أن العيسى طرق كل أبواب الشعر بأصالة واضحة، وهو لم يغنِ لغير أمته ولم ينشد لغير أطفالها، ويشير ثالث إلى قصيدة «جزيرة السندباد» التي غنى فيها لعواصم عربية عدة: القاهرة وبغداد وصنعاء ودمشق وتونس وغيرها، فالأرض العربية كلها عنده نسيج واحد من الذكريات والشعر والحب والتاريخ.

والذي ميَّز العيسى الذي احتفل بعامه الثمانين منذ شهور قلائل، أنه - كما يقول أحد الباحثين المشاركين - عذب العبارة، إنساني النزعة، لم يعاد التجديد أو يبتعد عنه، بل هو في عديد من قصائده يتفوق على الشعراء المجددين «الحداثيين» دون أن يفقد أصالته، واستمر العيسى حتى اليوم يكتب الشعر العمودي إلى جانب الشعر الحر.

□ □ □

أمتنا بين قرنين

يوسف القرضاوي

القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٦٥ صفحة



استقبل المسلمون، كما استقبل العالم ألفية جديدة، وكان عليهم أن يتوقفوا ليقيموا حالهم في الألفية الماضية، ويتساءلوا عما سيكون عليه حالهم في الألفية الجديدة. المؤلف، وهو ذو باع طويل وصوت مسموع في مجال الفقه والفكر الإسلامي، سعى إلى الإجابة عن السؤالين، وبدأ بتقييم القرن الماضي، ورآه قرنًا للإنجازات العلمية الكبرى، ولإقرار الحقوق والحريات (مع التأكيد على إزدواجية المعايير فيما يتصل بهذه الحقوق والحريات، ثم هو قرن انهيار القيم الإيمانية والأخلاقية، فالشيوعية قامت - كما يقول المؤلف - على تفريغ الحياة من الإيمان بالله. واعتبار الدين أفيون الشعوب، أما الليبرالية فهي وإن لم تمجد الله صراحة فإنها لا تعترف له بمكان في نظامها الفكري الحالي، وأخيرًا، فقد كان القرن الماضي هو قرن الحروب والدماء، إذ قامت فيه حربان عظيمتان، وتفجرت في نهايته حروب عرقية ودينية ومذهبية، حصدت في طريقها مئات الآلاف.

فماذا عن إنجازات أمتنا العربية والإسلامية في القرن العشرين؟

يرى المؤلف أنها خمسة، أولها التحرر من الاستعمار، غير أن هذا التحرر لم يزل ناقصًا، إذ مازالت أممًا إسلامية ترزح تحت نير الحكم الشيوعي، كما أن فلسطين والقدس، مازالتا تحت ربقة المحتل الصهيوني، فضلاً عن أن رحيل الاستعمار العسكري لم يعن نهاية الاستعمار، فقد بقي الاستعمار الاقتصادي والثقافي وغيره.

وكان انتشار التعليم هو ثاني انجازاتنا، غير أن هذا الانتشار عابه الكثير مما جعل كثرته طحنًا بلا عجين، فلم نعرف كيفية توظيف قدراتنا البشرية والاستفادة من عقولنا النابغة، بل والتخلص من بعض مثالب نظمنا التعليمية.

وثالث إنجازاتنا ظهور حركات التجديد والإحياء الإسلامي، وإن عاب المؤلف على بعضها لجوءها إلى العنف وإراقة الدماء لتحقيق أهدافها، وانشغالها بصراعات جانبية تؤثر على تماسكها في أمور فرعية بطبيعتها.

أما رابع هذه الإنجازات فهو مقاومة التغريب والغزو الفكري، وعجز الاستعمار عن مسخ مجتمعاتنا الإسلامية وتحويلها إلى كيانات شائهة تابعة له.

وخامس هذه الإنجازات هو انطلاق الصحوة الإسلامية، وإذا كان المؤلف قد عدَّ خمسة إنجازات، فقد رأى مثليها من الإخفاقات، وهي: ضياع الخلافة والهزيمة أمام المشروع الصهيوني والإخفاق في مسيرة التقدم والتنمية والفشل في التحرر عن التبعية والإخفاق في مجال الشورى والحريات وفي توحيد الأمة وفي تحقيق العدالة الاجتماعية وفي مجال قضايا المرأة، وفي مجالات التربية الإيمانية والأخلاقية للأمة الإسلامية.

ويطرح المؤلف أخيرًا التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية على عتبات قرن جديد وهي: تحدي الهوية والمرجعية والتخلف والتنمية والعدالة وحقوق المرأة والاستبداد والتحدي الصهيوني والتحدي الأخلاقي وتحديات التجزئة وأخيرًا تحدي العولمة.

□ □ □

كيف لا أبكي

أنيس منصور

القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠٠، ٢٤٠ صفحة ١٥ جنيهًا



يبكي المؤلف ضياع بهجة الحياة ودفء الصديق وقوة العافية وغياب الحبيب، وكما يقول، فإن من لم يعرف البكاء، لم يعرف الحياة.

بعض من تجارب المؤلف وخبايا من حياته، أضاع فيها حبًا حقيقيًا لأنه شغل

عروض موجزة

ذاته بذاته، آملاً في تحقيق حلمه الكبير، أن يصبح شيئًا في المجال الذي اختاره: الكتابة والأدب، وإلى أن يتحقق هذا الحلم، فلا وقت للحب أو الزواج أو أي شيء آخر يمكن أن يعوق أو يؤجل تحقيق الحلم، وكانت النتيجة أنه حين تحقق الحلم أو بعضه، كان الحب راح، ولم يعد هناك أمل إلا في القليل، أو أقل القليل.

كان المؤلف يبحث في كل حب عن دلالة أدبية، عن تجربة تثرى موهبته، وتتحول من جسد وقلب وعقل، إلى سطور في كتاب يضيف إليه ويسهم في صعوده واتجاهه لتحقيق هدفه.

يحدثنا المؤلف عن «فيكي» و«هيلجا» و«ماتيلدا» و«فرانشيسكا»، كما يحدثنا عن خالته ومصطفى أمين وعلي أمين ويوسف السباعي ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم، وجميعهم ممن أحب، وجميعهم مات، وبموتهم ضاقت الدنيا في وجه المؤلف، وصارت الوحدة كابوسًا يؤرق مضجعه.

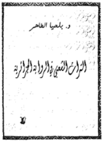
لكن ثمة مقالات أخرى تتناول موضوعات مختلفة مما اعتاد المؤلف على كتابته بالصحف، ما يقطع الخيط الذي يجمع- أو يبدو أنه يجمع- الكتاب عبر صفحاته الأولى، لأنك ما أن تفرغ من المقدمة، وصفحات قليلة بعدها، حتى تداهمك مقالات في السياسة والفن والأدب وعروض الكتب والتعليق على الأحداث والشئون العامة، فما علاقة هذا كله بعنوان الكتاب ومقدمته، وما الذي يجمع بين موضوعاته التي ينفرط عقدها بعد صفحات قليلة، حتى ليشعر القارئ أن ثمة خطأ في التنسيق، «حشر» موضوعات كتاب إلى جانب مقالات أخرى لا تخصه.

□ □ □

التراث الشعبي في الرواية الجزائرية

بلحيا الطاهر

الجزائر: منشورات التبيين/ الجاحظية، ٢٠٠٠، ٢٠٠ صفحة، ٢٢٢ دينارًا



هذا الكتاب، يركز أساسًا على توظيف التراث الشعبي في النصوص الأدبية الجزائرية عبر ثلاثة فصول يقدم فيها نماذج تطبيقية لفروضه النظرية، فيدرس في الفصل الأول المثل الشعبي وكيفية توظيفه في النص الأدبي من خلال تحليل لروايات «زمن النمرود» للحبيب السائح، و«ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة و«اللاز» للطاهر وطار. ويلاحظ أن هذه الأعمال استخدمت ما يقرب من سبعين مثلاً شعبيًا، اختلفت فيها أسباب الاستلهام حسب غاية كل كاتب، ويشير مثلاً إلى استخدام المثل الشعبي «ما يبقى في الوادي غير أحجاره» في رواية الطاهر وطار «اللاز» ثلاث عشرة مرة، وفي كل مرة أعطى دلالة مغايرة، وإن احتفظ في كل الأحوال بدلالته العميقة من أن الشعب فقط هو الوريث الأوحد لجميع المكتسبات التي يحققها أبناؤه. كما يلاحظ في رواية بن هدوقة مزجًا بين المثل الشعبي بوصفه الذاكرة الشعبية الخصبة، وصناعة الفخار تعبير عن العمل المتقن (التأصيل) لأهل الجنوب، والناي بوصفه الصوت الشعبي الحزين، كما يرى أن الحبيب السائح استخدم الأمثلة الشائعة والمناسبة لحياة أهل الريف والبوادي الذين كتبت الرواية عنهم.

ويدرس المؤلف في الفصل الثاني صورة البطل في الرواية الجزائرية المعاصرة، من خلال نموذج ملحمي: رواية الطاهر وطار «الحوات والقصر»، ونموذج تاريخي: «معركة الزقاق» لرشيد بوجدرة، ونموذج خرافي: حمائم الشفق للجيلالي خلاص.

ويلاحظ المؤلف بشكل عام، أن فكرة البطولة الخارقة في التراث الشعبي وليدة الأوضاع السياسية والاجتماعية التي سادت المجتمعات العربية عمومًا، والجزائر على وجه الخصوص، وبالذات في مراحل التمزق والصراع ضد أعداء داخليين وخارجيين، وهو إما بطل ملحمي يحمل معه الخلاص لشعبه كما في رواية وطار، أو بطل تاريخي مثل طارق بن زياد كما في رواية بوجدرة، أو بطل خرافي يقيم سياجًا يحمي به مجتمعه من التفتت والانحلال.

أما في الفصل الثالث، فقد درس المؤلف استخدام الأغنية الشعبية في الرواية الجزائرية عبر ثلاثة نماذج، وخلص منها إلى أن الأغنية الشعبية ساعدت الروائي على تشكيل معمار نصه جماليًا، وعكست في الوقت نفسه ما تحمله الذاكرة البسيطة من معتقدات، فهذه الذاكرة هي التي أنتجت الأغنية وأشاعتها.

□ □ □

الفنان والجمهور

محسن عطية

القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٠، ٢١٠ صفحات، ٢٥ جنيهًا



ثمة مشكلة لا يمكن إغفالها بين الفن وجمهوره زادت الهوة، وفقدت وسائل التعبير الفني قدرتها على التواصل مع

المرأة والدين والأخلاق

نوال السعداوي، هبة رءوف

الناشر- دار الفكر، دمشق/ دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠٠، سلسلة: حوارات لقرن جديد، ٢٢٧ صفحة



مشروع ثقافي بالغ الأهمية، ذاك الذي يحمل عنوان «حوارات لقرن جديد». من قبل قدمت السلسلة ذاتها سجالاً حول قضايا ساخنة وخلافية، شارك فيها مفكرون بارزون، كانت تلك بعض عناوينها: الإسلام والعصر، الربا والفائدة، ما العولمة، الديمقراطية بين العلمانية والإسلام، الخصخصة آفاقها وأبعادها، الاجتهاد بين النص والواقع، تجديد الفقه الإسلامي، الاقتصاد الإسلامي بين الوهم والعلم.. وغيرها. وجميعها اجتهادات لا يزعم أصحابها أنهم يقدمون عبرها إجابات شافية وحاسمة عن كل الأسئلة، إنما هم يبسطون الرؤى والحيثيات أمام القارئ كي يشحذوا عقله وملكاته النقدية والمعرفية، ويختار الجانب الذي يريد بإرادة واعية ودون وصاية.

ولم يكن مقبولاً ألا تكون «المرأة» بين شواغل المشروع، ليس فقط بسبب الاهتمام العالمي بقضاياها واعتبار تحررها وتحققها أحد معايير التحديث والعصرنة، وإنما لأن موضوع المرأة إشكالية في الفكر العربي، يختلط فيها المقدس بالأسطوري، والحقيقي بالمتوهم، بما يستدعي «فض الاشتباك» واستجلاء الصورة.

المتحاورتان هنا تنطلقان من منصتين مختلفتين إلى حد التمايز، نوال السعداوي تبدأ من الشك، وترفض اليقين، وتنزع القداسة عن كل مقدس، وهي تمزج بين الديني والسياسي في ترابط مقصود، وكأنهما يعملان بالتوازي، يدفع أحدهما الآخر وينجز «مخططاته»، والفرد عندها - الفرد الأنثى لا الذكر - هو الهدف، حريته الجسدية والروحية، وانفلاته - انفلاتها - من أسر مجتمع ذكوري يحجبها عن كل فعل ومشاركة، أمل يستحق النضال في سبيله، ولذا فهي لا تعطي اعتبارًا كبيرًا لمفاهيم الأسرة وقيمها، وتسعى إلى تفكيكها كي لا تبقى قيدًا يحد من انطلاق المرأة، وهي ترى أن الأديان كانت - ومازالت - ورقة سياسية تلعب بها النظم من أجل مزيد من إحكام قبضتها على شعوبها، وتلجأ السعداوي للبرهنة على ما تذهب إليه، إلى التاريخ - وربما الأساطير - وكذلك إلى خبراتها العملية والنظرية.

«هبة رءوف» تبدأ من اليقين، من أرضية إسلامية إيمانية، تمثل مرجعيتها الحاكمة عند كل خلاف، والفرد عندها مهم، والمرأة كذلك، لكن أهميته تنبع من دوره في إطار الجماعة، ولذا فهي تناهض المفاهيم السلبية للحداثة، وتقاوم تجلياتها التي قادت إلى تفكك الأسرة وتداعي قيمها، باعتبارها الفرد مرجعية ذاته، ومصدر القيم والأخلاق.

تبحث «هبة» عن «المشترك الأخلاقي» الذي لا يحققه انفلات الفرد في اتجاه تحقيق أقصى إشباع لحاجاته وملذاته، وإنما مرجعية دينية - إسلامية في هذه الحالة - مع الاعتراف بإمكانية أن يسيء البعض فهم مقاصد تلك المرجعية، أو يوظفها بما يحقق أهدافًا وأغراضًا خاصة.

وعبر هذه المرجعية تصحح ما أسيء فهمه عن «القوامة» في الإسلام، وهي ليست أبوية أو ذكورية كما بينت، وتناقش مفهوم «النسوية» الذي تعرفه بأنه «حركة التمركز حول الأنثى»، كما عرفه الدكتور عبد الوهاب المسيري، وتفنّد كثيرًا مما ذهبت إليه نوال السعداوي استنادًا إلى التاريخ والأساطير.

وكان لافتًا أن المتحاورتين سفّهت كل منهما منهج البحث الذي اتبعته الأخرى، إذ اعتبرت نوال منهج «هبة» أكاديميا مملاً بعيدًا عن الواقع ومعطياته، ورأت هبة في منهج نوال غير العلمي ما يبعث على السخرية والرثاء.

وفي سبيل ردودها - التي لا أخفي انحيازي إليها تمامًا - على ما ساقته «نوال السعداوي»، تقع «هبة» في خطأ «اصطلاحي»، إذ تقول إن د. «نوال» أشارت إلى الحديث النبوي «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى بوصفه آية قرآنية، والحق أن د. نوال لم تفعل، بل قالت: إنه حديث شريف.

أما المفارقة برأيي، فهي المسافة الشاسعة بين الحلول التي تقترحها الدكتورة نوال لمشكلات المرأة العربية والواقع، برغم زعمها أن بحثها ينهل أساسًا من هذا الواقع وخبراتها فيه، وقد نبعت المفارقة من استجدائها الحلول من بيئات مغايرة، وقيم لا تنتسب إلى مجتمعاتنا بحال.

عماد الغزالي

عروض موجزة

الجمهور، لم تعد رسالة الفنان تفهم بوضوح، لأن الفن ببساطة فقد وضوحه، وصارت الكتابة فى الفن أشبه بالأحاجى من قبل النقاد الذين يفترض أنهم وسيط جيد بين الفنان وجمهوره. تلك هى الاشكالية الكبرى التى يعالجها المؤلف الذى يرى أن الكتابة فى الفن لاتعد رسالة ذات معنى إلا إذا تلقاها من يستطيع فك رموزها وفهمها.

يعالج المؤلف هذه العلاقة عبر عديد من الدراسات التى يعول بعضها على دور مهم لوسائل الاتصال الحديثة فى تعميق الوعى الجمالى والفنى، وعلى دور المتحف فى تنمية الذوق الفنى، إذ لم يعد المتحف مجرد مكان يزود الجمهور بأفكار معرفية وأيديولوجية، وإنما تحول إلى مكان ثقافى استكشافى.

وينقلنا المؤلف فى دراسة أخرى إلى ما بعد الحداثة، حين أراد الفنان أن يعيد الفن إلى طبيعته التاريخية، وأن يتحول من عالم النخبة والفوقية إلى ما بات يعرف بديمقراطية الفن، أى قدرته على مخاطبة قطاعات واسعة من الجماهير بلغة بسيطة، محققًا ديمقراطية التذوق عبر انتشاره فى الساحات العامة والشوارع وعلى الجدران، متحررًا من قيود أصحاب المعارض ساعيًا إلى جعل الثقافة عالمًا مستقلاً، واتصفت لغة فنان ما بعد الحداثة بأنها هجينة، فيها الاتجاه القصصى التمثيلى، والاتجاهات التقليدية بتقنياتها المبسطة، إن فن ما بعد الحداثة برأى المؤلف يمثل حقبة ما بعد زوال الهيمنة الغربية بنزعتها الفردية، حيث احتلت الثقافات اللا غربية مكانتها فى العالم، وزاد الاتجاه نحو التعددية الثقافية والتنوع.

□□□

التدخل الدولى بين الاعتبارات الإنسانية والأبعاد السياسية

عماد جاد

القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٠٠، ١٥٤ صفحة، ٧ جنيهات



كانت حملة حلف شمال الأطلنطى على يوجوسلافيا «مرحلة فارقة فى التفاعلات الدولية» كما يقول المؤلف.

فحالة كوسوفو فى الأصل، شأن يوجوسلافى خالص، لكن توازنات القوى التى تمخضت عنها الحرب الباردة، لم تدع الأمر يجرى على هذا النحو، وبدلاً من الاحتكام إلى قواعد اللعبة الدولية قانونيًا وإجرائيًا، وحل المشكلة عبر مجلس الأمن الدولى، تمت «تسوية» المسألة بعيدًا عن هذا الإطار الذى كان سيخضع حتمًا لعرقلة روسية ضد أى قرار يصدر عن المجلس، وتم التركيز على حق «التدخل الإنسانى» الذى ينتقص بالضرورة من سيادة الدولة، لكنه من ناحية ثانية، يعبر عن توازن قوى جديد، السيادة فيه للمعسكر الرأسمالى، سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا.

ثمة صراع إذن بين تيارين.. أحدهما خرج مهزومًا ومفتتًا من الحرب الباردة يدعو إلى تحكم الهيئة القانونية الدولية التى تعارف المجتمع الدولى عليها لحسم الصراعات، والثانى خرج فائزًا، ويدعو إلى تقنين التدخل وانتهاك سيادة الدول تحت ذرائع الحماية الإنسانية.. المؤلف يناقش فى فصول سبعة هذا الصراع تاريخيًا وقانونيًا، كما يعرض لنماذج من التدخل الدولى تحت مسميات مختلفة.

سنلاحظ مثلاً أن حق التدخل الإنسانى يستند إلى القانون الدولى الإنسانى والقانون الدولى لحماية حقوق الإنسان، والأول يعنى بحماية الإنسان وحقوقه فى أوقات الحروب والنزاعات المسلحة، فيما يشمل الثانى حماية حقوق الإنسان فى زمن السلم وزمن الحرب، وتعد اتفاقية باريس ١٨٥٦، أقدم النصوص القانونية التى تحدثت عن حقوق المحاربين وقواعد معاملة الأسرى، بعد ذلك توالت الاتفاقات والمعاهدات.

وشهد العقد الأخير من القرن العشرين تطورات متسارعة فى تطبيق مبدأ المساءلة الجنائية عن الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان، وجرى إقرار النظام الأساسى للمحكمة الجنائية الدولية الدائمة فى منتصف عام ١٩٩٨، وقد كشفت مداولات إقرار نظام هذه المحكمة- كما يقول المؤلف- عن التداخل الشديد ما بين الانسانى والسياسى فى مجال عملها.

يختار المؤلف نماذج تطبيقية لحق التدخل الدولى، ويبدأ بالعراق، حيث يرى أن الدول المتحالفة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، تجاوزت التفويض الممنوح لها بموجب حق التدخل الدولى، وبدلاً من الاقتصار على تحرير الكويت كما ادعى الخطاب الإعلامى الغربى، صار الهدف هو التدخل فى الشأن العراقى الداخلى، لحسابات تتعلق برؤية هذه الدول للنظام الإقليمى فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة، ومصالحها فى المنطقة.

ويقارن المؤلف بين الحشد الدولى والتجييش الذى شهدته حالة كوسوفا، والإحجام إلى حد التخاذل فى حالة الشيشان، بما يعنى أن القضية ليست حقوق إنسان ولا تدخلات إنسانية، وإنما هى- وقبل كل شىء- حسابات سياسية.

□□□

كتب أجنبية

Tank:The Progress of A monstrous War Machine

(الدبابة.. مسيرة آلة حربية رهيبة)

Patrick Wright

Faber, 2000, 499PP., £25.00



أطلق عليها المراسلون الصحفيون عند أول مشاركة لها فى حرب على الإطلاق اسم فرس البحر الرهيب، وكان الجنود البريطانيون يموتون فى الحرب وهم يضحكون عند رؤيتهم الدبابة للمرة الأولى وهى تشارك فى المعارك.. إنها الدبابة التى كان دخولها عام ١٩١٦ أى فى منتصف الحرب العالمية الأولى محاولة بريطانية لكسر الجمود على الجبهة الغربية فى الحرب.

وينقل الكتاب عن ستيفن فوت أول صحفى رأى الدبابة للمرة الأولى فى ميدان المعركة أن الجنود انتابهم شعور بالمرح الصاخب والإثارة، وكان بعضهم يضحك ويجرى حول الدبابة وبعضهم كان يصرخ فقد كانت سلاحًا جديدًا يُستخدم لأول مرة أمام أعينهم وسيكون له شان آخر فى التاريخ.

لقد أصبحت الدبابة، أيقونة من أيقونات الحرب الوحشية فى القرن العشرين بالرغم من أنه فى البداية اعتبرها اللورد كيتشنر أحد قادة أركان الجيش البريطانى فى بداية الحرب العالمية الأولى بأنها ليست سوى لعبة، وأن الجانب الأهم هو الهجوم بالمشاه وتلك كانت عقلية الحرب القديمة التى تعتمد على الأفراد وليس العتاد.

ويتناول المؤلف فى هذا الكتاب المثير تاريخ الدبابة خلال القرن العشرين والأدوار التى لعبتها فى الحروب الكبرى حتى حرب الخليج وكذلك الأدوار التى لعبتها فى قمع المظاهرات والانتفاضات الشعبية كما حدث فى ميدان السلام السماوى فى بكين فى ثمانينيات القرن العشرين.

لقد كانت الدبابة عند بداية اختراعها مثار ضحك وسخرية حتى من الجنود أنفسهم لكن الشىء المؤكد أنها لم تعد كذلك على الإطلاق بعد ما سببته من موت الملايين من الناس سواء فى الحروب أو فى الشوارع.

□□□

America's Queen: The life of Jacqueline Kennedy Onassis

(ملكة أمريكا: حياة جاكلين كينيدى أوناسيس)

Sarah Bradford

Viking, 2000,704PP., £20.00



بعد ٦ سنوات من وفاتها عن عمر ناهز ٦٤ عامًا، مازالت جاكلين كينيدى أيقونة دولية، ومازال العالم، خاصة أبناء جيل الستينيات، يتذكر كيف دخلت البيت الأبيض مع زوجها الرئيس جون كينيدى وكان عمرها ٣١ عامًا فقط وخرجت منه حزينة مقهورة بعد اغتيال زوجها، وكان عمرها ٣٤ عامًا.

وقد أظهرت جاكلين فى الأيام الثلاثة التى فصلت حادث الاغتيال عن الجنازة الرسمية، شجاعة واحترامًا للنفس جلبا لها إعجابًا عالميًا منقطع النظير، واستمرت جاكلين تمثل ضمير الشعب الأمريكى ومحط إعجابه وكذلك شعوب العالم الأخرى. إلا أنه بعد سنوات من ذلك انزلها الشعب الأمريكى من عرش محبته وإعجابه بعد أن تزوجت امبراطور سفن نقل البترول الملياردير اليونانى أوناسيس. ولم يغفر لها المواطن الأمريكى هذا التصرف الذى كان بمثابة طعنة من جانب زوجة أحد أكثر الرؤساء فى التاريخ الأمريكى شعبية وإعجابًا.

ويحاول الكتاب أن يجد الأعذار لهذه الخطوة من جانب جاكلين، فقد نشأت فى أسرة فقيرة وظلت طيلة حياتها تخشى الفقر بشكل هستيرى ولذلك وجدت فى عرض أوناسيس فرصة كبيرة للاستمرار فى حياة راغدة ومليئة بالأضواء كان زواجها من كيندى قد وفره لها.

وتتناول المؤلفة حياة الطفلة جاكلين وكيف تزوجت أمها للمرة الثانية من رجل ثرى لكن هذا الغنى لم ينعكس على حياة جاكلين، ويعود الكتاب مرة أخرى إلى جاكلين النجمة والشخصية العالمية ليقول: إن سحرها وجمالها ووداعتها الظاهرة كانت تخفى شخصية حادة للغاية.

لقد انتهت سنوات الشهرة والمجد لجاكلين مع وفاة أوناسيس لكن أضواء هذه الشهرة كانت تحيط بها من حين لآخر، فقبل كل شىء كانت السيدة الأمريكية الأولى، بل أجمل سيدة أولى فى التاريخ الأمريكى الحديث وبقيت رمزًا لفترة أشبه بالرومانسية عاشتها أمريكا والعالم فى الستينيات من القرن العشرين.

□□□

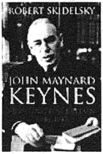
عــــــــــروض
مــــوجــــزة

John Maynard Keynes: Fighting for Britian 1937- 46

(جون ماينارد كينز.. القتال من أجل بريطانيا ١٩٢٧-١٩٤٦)

Robert Skidelsky

Macmillan, 2000, 624PP., £25.00



أمضى مؤلف هذا الكتاب روبرت سيكدلسكى ٢٠ عامًا فى جمع مادة موضوعه وهو سيرة حياة الاقتصادى البريطانى الشهير جون مانيارد كينز صاحب كتاب «النظرية العامة فى النقود» والذى أحدث انقلابًا فى عالم الاقتصاد منذ ثلاثينيات القرن العشرين بحيث أصبح المؤرخون الاقتصاديون يتحدثون عن الثورة الكينزية.

وسبق للمؤلف أن أخرج مجلدين من السيرة الذاتية لكينز وكان المجلد الأول بعنوان «خيانة الآمال» وصدر عام ١٩٨٣، وهو يتحدث عن إسهام كينز الأساسى حتى عام ١٩٢٠، والذى يتركز حول بحثه الضخم: «الآثار الاقتصادية للسلام بعد الحرب العالمية الأولى» والذى انتقد فيه الشروط المجحفة التى تم فرضها على ألمانيا محذرًا من أنها لن تستطيع الوفاء بهذه المتطلبات.

وقد أطلق المؤلف على هذا المجلد «خيانة الأمانة» لأنه صدر فى وقت عادت فيه الأفكار الاقتصادية الكلاسيكية «دعه يعمل.. دعه يمر» للانتشار فى عهد مارجريت تاتشر فى بريطانيا ورونالد ريجان فى أمريكا، واعتبر المؤلف ذلك خيانة لأفكار كينز. والمؤلف الثانى صدر عام ١٩٩٢ فهو بعنوان «الاقتصادى كمنقذ» ١٩٢٠-١٩٣٧.

أما هذا المجلد الثالث والأخير فيتناول إسهام كينز الأكبر وهو «النظرية العامة فى النقود»، والتى دعا من خلالها إلى ضرورة توسيع دور الدولة فى الإنفاق على المشروعات العامة للقضاء على البطالة. ويؤكد كينز فى هذا الصدد أن المشكلة مع الاقتصاديات الكلاسيكية هى أنها تفتقد وجود نظرية للطلب الفعال وهو خطأ قاتل والنتيجة أن نظام اقتصاد السوق معرض للانهيار والوقوع فى كساد مزمن. كما يتناول ظروفه الصحية حيث إن معظم الفترة التى يغطيها هذا المجلد كانت بمثابة صراع بين كينز وبين المرض الذى نجح فى النهاية فى هزيمة اقتصادى غير عادى كان ملء السمع والبصر وترك بصمة شديدة الأثر على اقتصاد العالم.

□ □ □

Iraq under Siege

(العراق تحت الحصار)

Antony Arnof

South end Press,Canada, 2000



كتاب العراق تحت الحصار (الآثار القاتلة للعقوبات والحرب) من الكتب التى تحظى بأهمية فائقة لسببين رئيسين. أولهما: أهمية الموضوع الذى تناوله وخطورة ونتائج آثار الحصار الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والبيئية والسياسية بعد عشر سنوات من فرضه.

وثانيًا: لأهمية ومكانة مجموعة الأكاديميين والكتاب والأدباء والإعلاميين والموظفين الدوليين وأعضاء جمعيات ناشطة الذين شاركوا فى تحريره باعتبار أكثرهم شخصيات غربية لها نشاط بارز، لذا جاءت مقالاتهم قوة فى الحجة والمنطق ومدعمة بأرقام وشهادات شهود عيان، عاشها بعض هؤلاء مع العراقيين فى مواقع المؤسسات الصحية والخدمية، كما جاءت مفندة لمبررات ودوافع الحصار وفضحًا لطيش السياسة الأمريكية والبريطانية تجاه العراق والمنطقة.

فى أحد فصول الكتاب مقابلة مع دنيس هاليدى المنسق الأسبق لأنشطة الأمم المتحدة فى العراق والذى استقال من عمله احتجاجًا على استمرار الحظر على العراق. ذكر هاليدى فى معرض إجابته عن أسئلة الإعلامى ديفيد بارسيمين أنه لم يكن هدف برنامج النفط مقابل الغذاء مطلقًا حل الأزمة الإنسانية، لقد وضع لإيقاف التدهور. لقد صمم هذا البرنامج على غرار ما تقوم به الحكومة العراقية، إذ أن لديهم برنامج توزيع الغذاء المستقل لذوى الدخول الثابتة واليتامى والأرامل.

وفى رده على سؤال عن استخدامه مصطلح (إبادة) فى وصف العقوبات قال إنه بالتأكيد يصلح استخدامه عندما نجد الآلاف يموتون شهريًا بمجموع يتراوح بين مليون ومليون ونصف خلال التسع سنوات الماضية، فإذا لم تكن هذه إبادة لا أعرف إذن بالضبط ما هى الإبادة؟ وأضاف لا تحضرنى كلمة أفضل منها عندما تمارس الإبادة كل يوم فى المدن العراقية.

وفى فصل آخر كتب (روبرت فسك) عن الحرب الخفية فقال: تظل فضلات قنابل الحلفاء من اليورانيوم الناضب فى التربة عبر رمال جنوب العراق بدون علاج، إلا أنه فى بريطانيا تبذل الحكومة جهودًا جمة لحماية مواطنيها من آثار اختبار مثل هذه الأسلحة. وقد شك الأطباء العراقيون منذ أمد طويل من أن الأطفال الذين يعانون من السرطان فى جنوب البلاد التقطوا المرض من جراء استخدام الحلفاء اليورانيوم عام ١٩٩١ بنسبة أربعة أضعاف عما كانت عليه سابقًا.

وفى الفصل الأخير الذى كتبته شارون سميث المنسقة الوطنية لحملة جمع التوقيعات للمطالبة بإنهاء الحصار والناشطة فى معارضة حرب الخليج تقول: توفى أكثر من مليون عراقى أغلبهم من الأطفال نتيجة لعقوبات الأمم المتحدة ضد العراق، وبعد أن تشير الكاتبة إلى فشل الحملة الجوية التى قامت فيها القوات الأمريكية والبريطانية ضد العراق فى أواخر عام ١٩٩٨، تنتقد الصمت الذى يخيم على الإعلام الأمريكى وقالت إن هذا لا يثير الدهشة إذا ما عرفنا الدور الذى لعبته وسائل الإعلام الأمريكية خلال حرب الخليج.

□ □ □

The Keys of Egypt: The Race to Read the Hieroglyphs

(مفاتيح مصر.. السباق لقراءة الهيروغليفية)

Lesley and Roy Adkins

Harpercollins, 2000, 335PP., £16.99



عام ١٧٩٨، كان حاسمًا فى تاريخ الصراع الفرنسى الإنجليزى، فقد قرر قادة فرنسا ما بعد الثورة إلغاء إصرار بلادهم الطويل الأمد على غزو إنجلترا وبدلاً من ذلك غزو مصر، واستهدف هذا التحرك إعطاء فرنسا مجالاً فى الشرق والوقوف ضد الطموحات البريطانية، وخاصة فى الهند.

لكن الحملة لم تكن كما هو معروف عسكرية فقط، بل كانت ثقافية، فقد قال أحد مساعدى نابليون بونابرت قائد الحملة: إننا ذاهبون لاكتشاف مصر القديمة والمعاصرة. وخلال القرن التاسع عشر زاد الاهتمام بمصر وكانت حصيلة الاهتمام كتاب «وصف مصر» الذى جمع فيه علماء الحملة معلومات غير مسبوقة عن مصر فى شتى المجالات. ويتناول الكتاب قصة اكتشاف حجر رشيد وفك رموزه على يدى العالم الفرنسى فرانسوا شامبليون، ويتطرق إلى حياة شامبليون والصراع الإنجليزى الفرنسى للسيطرة على الحجر.

ويناقش الكتاب القول بأن مصر منذ ذلك التاريخ أصبحت معروفة للعالم الأوروبى، رغم أن متخصصين فى علم المصريات أشاروا إلى أن مصر قبل ذلك لم تكن مجتمعًا مغلقًا على نفسه، بل هناك من زار مصر من الأوروبيين وتحدث عنها.

والكتاب واحد من عشرات الكتب التى تصدر سنويًا فى دول العالم عن مصر وحضارتها الفرعونية بشكل خاص، وهى كتب تلقى رواجًا شديدًا بين القراء نظرًا للاهتمام الشديد بعلم المصريات فى الغرب.. وقد أسست جامعات عديدة منذ زمن طويل أقسامًا لعلم المصريات بها. وهناك دوريات عديدة تصدر فى لندن ونيويورك وباريس وغيرها عن علم المصريات والآثار المصرية.

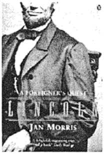
□ □ □

Lincoln

(لنكولن)

Jan Morris

Penguin, 2000, 216PP., £7.99



ليس هناك أشهر من الرئيس الأمريكى إبراهام لنكولن فى التاريخ الأمريكى. وتضعه عديد من استطلاعات الرأى على رأس قائمة أهم الزعماء الأمريكيين فى التاريخ، وقد أضاف اغتيال لنكولن، الذى يُعرف فى التاريخ بأنه محرر العبيد فى أمريكا، مزيدًا من السحر والجاذبية إلى هذا الزعيم الجمهورى الذى تردد اسمه كثيرًا الشهر الماضى خلال الحملة الرئاسية الانتخابية، وذلك على ألسنة زعماء الحزب الجمهورى.

وهذا الكتاب هو سيرة ذاتية أمينة كتبها جين موريس، تناولت فيه شخصية لنكولن وأسلوبه فى التعامل وتشير إلى أنه خلال الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة فى بداية ستينيات القرن التاسع عشر كان لنكولن قائدًا عسكريًا متحجر القلب ليس لديه أى رحمة. وقد زارت المؤلفة مسقط رأس لنكولن وتحدثت عن الأماكن التى عاش فيها، كما تحدثت عن زوجته التى وصفتها بأنها كانت سليطة اللسان بشكل غير عادى.

ويورد الكتاب نص نصيحة من إبراهام لنكولن إلى جندى كان طوله يتجاوز طول الرئيس الأمريكى الراحل مع أن لنكولن كان يتمتع بطول كبير جدًا.

يقول لنكولن: تجنب تعاطى الكحول والحلوى وعندما تنام يجب أن يكون رأسك أكثر انخفاضًا من مكان صدرك.

ورغم أن الكتاب قليل الصفحات، إلا أنه يقدم المعلومات بشكل طريف كما لو كان حديثًا وديًا عن زعيم شهير للغاية فى التاريخ الأمريكى.

□ □ □

قــــــراءات جـــــــديدة

اقتصاد وتجارة

الصهيونية تلتهم العرب

محمد دويدار

القاهرة: دار سطور، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف نشـــأة المشـــروع الاقتصادى الصهيونى، وكيف تطور هذا المشروع وفق مخطط شديد الدهاء، ومع بروز فكرة الشرق أوسطية، اكتسب المشروع الاقتصادى الصهيونى أبعادًا أكثر خطورة وأوسع مدى، تهدد العرب ربما فى وجودهم.

■■■

The Business of Books

(تجارة الكتب)

André Schiffrin

Verso, 2000, 181pp., $23.00

كتب أندريه شفرين الناشر المرموق هذا الكتاب ليروى قصة صعود وسقوط دار نشر «بانثيون» المتخصصة فى الأدب والسياسة، والتى انضم إليها عام ١٩٦٢ وأدارها حتى أزيح عنها بفعل مناورات الشركة الأم عام ١٩٨٩. وقد عمل والده أيضًا فى مجال النشر فى باريس، حيث أنشأ سلسلة الكلاسيكيات الفرنسية «بلياد» ثم باعها إلى دار نشر «جاليمار».

يعبر شفرين الآن عن قلقه إزاء مستقبل عالم النشر بسبب منافسة الإنترنت وبسبب سيطرة عدد محدود من العمالقة الكبار على السوق وهم لا يهتمون سوى بالكتب الأكثر مبيعًا.

ولكنه أيضًا لا يغفل الأمل الذى يبعثه تعدد دور النشر الصغيرة المستقلة، ومن بينها الدار التى يمتلكها الآن «نيوبرس».

■■■

Salula: The World of Secondhand Clothing and Zambia

(سالولا: عالم الملابس المستعملة وزامبيا)

Karen Tranberg Hansen

University of Chicago Press, 2000, 298pp., $22.50(Pb)

قدرت الأمم المتحدة قيمة صادرات العالم من الملابس المستعملة عام ١٩٩٥ بما يقرب من ١,٤ مليار دولار، وتذهب ربع هذه الصادرات إلى منطقة جنوب الصحراء فى قارة أفريقيا. وفى أوائل التسعينيات مثلث صادرات الولايات المتحدة من الملابس المستعملة ثامن أكبر صادراتها إلى المنطقة.

تقول المؤلفة والباحثة الأنثروبولوجية فى الكتاب إنه حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت تجارة الملابس المستعملة تجارة كبيرة فى الغرب أيضًا، ولكن واردات الدول النامية الرخيصة أنهت الحاجة إلى هذه التجارة.

ويزدهر فى زامبيا هذا النوع الغريب من التجارة الدولية والذى يتهم أحيانًا بتدمير الصناعة المحلية. ويصف الكتاب كيف تصبح الملابس التى يتخلص منها الناس فى الغرب هى الطريقة الوحيدة أمام أفراد الطبقة المتوسطة فى زامبيا للحفاظ على مظهر لائق فى ظل تدهور دخولهم.

بيئـــــة

التلوث الضوضائى وإعاقة التنمية

حسن أحمد شحاتة

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

صارت الضوضاء أحد أشكال التلوث التى تؤثر بقوة على صحة الإنسان وقدراته وإنتاجيته، وهى بذلك تمثل معوقًا حقيقيًا للتنمية. المؤلف يناقش الظاهرة مستندًا إلى ما انتهى إليه الفقهاء من النهى عن كل ما من شأنه إلحاق الأذى بالإنسان وتقويض العمران.

■■■

Hotspots: Earth's Biological Richest and most Endagered Terrestrial Ecoregions

(مناطق ساخنة: أكثر مناطق الأرض ثراء بيولوجيًا وأكثرها تعرضًا للخطر)

Russell A. Mittermeier and Norman Myers

University of Chicago Press,2000, 432pp., $65.00

المناطق الساخنة هى تلك المناطق القليلة نسبيًا فى الأرض التى تتميز بثرواتها الحيوانية والنباتية الكبيرة. وهذا الكتاب حدد ٢٥ منطقة فى العالم ينطبق عليها ذلك التعريف. وعلى الرغم من أن مجموع مساحتها لا يتجاوز ١,٤٪ من مساحة الأرض، إلا أنها تحتوى على ٦٢٪ من أنواع الحيوان و٦٥٪ من أنواع النبات الموجود فى الكوكب كله. وتقع هذه المناطق فى جنوب ووسط أمريكا وفى أفريقيا وآسيا وفى بعض الجزر، وفى المناطق القوقازية من روسيا.

يحذر العلماء المشاركون فى هذا الكتاب من أن هذه المناطق الطبيعية سوف تصبح مجرد ذكرى مع نهاية العقد الأول من القرن الجديد بسبب المخاطر الشديدة التى تتعرض لها كل يوم.

تاريخ وآثار

أراضى فلسطين بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ

هند أمين البديرى

القاهرة: جامعة الدول العربية، ٢٠٠٠

يؤكد الكتاب خطأ المزاعم الصهيونية التى تقول: إن الفلسطينيين باعوا أراضيهم لليهود، ترد المؤلفة على هذه المزاعم بالأرقام، وتشير إلى خاصية نفسية مهمة تحول بين الفلاح وبيع أرضه مهما كان الثمن.

■■■

أسفار العهد القديم فى التاريخ

توماس تومسون

ترجمة: عبد الوهاب علوب

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يفند المؤلف أباطيل ومزاعم اليهود حول العهد القديم، وجميعها مما حرفه الأحبار والسياسيون الذين أرادوا أن ينسقوا تاريخ فلسطين ليؤكدوا أنهم هم أصحاب الأرض والحق فيها.

■■■

مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر

ريمون فلاور

ترجمة: سيد أحمد الناصرى

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يغطى المؤلف حوالى ١٧٢ عامًا من تاريخ مصر الحديث، وهى فترة شديدة الخصوبة، إذ يؤرخ عادة لتاريخ مصر الحديث بقدوم نابليون إلى مصر وهبوطه على شواطئ الإسكندرية فى عام ١٧٩٨، وقد مثلت الحملة الفرنسية صدمة حقيقية للثقافة التقليدية التى كانت سائدة آنذاك، كما أنها فتحت آفاقًا واسعة أمام المصريين تمكنوا عبرها، ومن خلال طموح محمد على باشا أن يجادلوا ثقافة العصر، كما أن فترة عبد الناصر هى الأخرى، شهدت صعود وانكسار أحلام القومية العربية فى التحرر والتخلص من التبعية والتعبير عن رؤية مستقلة بعيدًا عن التحالفات، وحين رحل عبد الناصر، أصر خلفه «السادات» على سياسات بديلة، ربما إلى حد التناقض.

■■■

The Prime Minister: The Office and it's Holders Since 1945

(رئيس الوزراء: المنصب وشاغلوه منذ ١٩٤٥)

Peter Hennessy

Penguin, 2000, 720pp., £25.00

يؤرخ المؤلف بيتر هنسى لكل من شغل منصب رئيس الوزراء فى بريطانيا منذ عام ١٩٤٥. ويقوم بتقييم كل منهم حسب معيار الفعالية التنظيمية. ويشغل المكانة الأولى بالنسبة لبيتر هنسى كل من «كلمنت أتلى» و«مارجريت تاتشر» ويليهما كل من «إدوارد هيث» و«تونى بلير» ثم تشرشل وكالاهان.

تراجم وسير

جوانب من سياسة الملك عبد العزيز

خيرية قاسمية

الرياض: دار الملك عبد العزيز، ٢٠٠٠

يعرض الكتاب لسيرة مؤسس المملكة العربية السعودية، والسياسة التى اتبعها حتى تحققت وحدة شبه الجزيرة العربية وبرزت السعودية على خريطة العالم.

■■■

زويل أمير الكيمياء

هشام الحديدى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

كان فوز أحمد زويل بجائزة نوبل فى الكيمياء حدثًا مصريًا وعربيًا لافتًا، فأن يفوز مصرى للمرة الثانية بجائزة نوبل بعد نوبل الأدب التى حصل عليها نجيب محفوظ فهذا إنجاز كبير، وأن تكون نوبل الثانية فى العلوم، فهذا إنجاز أهم، وهذا الكتاب لا يتوقف عند زويل عالم الكيمياء، وإنما يتناول زويل الإنسان، متتبعًا خطواته حتى وصوله إلى أعلى قمة علمية.

■■■

سعيد النورس.. رجل القدر فى حياة أمة

أورخان محمد على

القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

كان سعيد النورس صوفيًا وحركيًا فى آن معًا، وأتباع حركته فى تركيا يعدون بالآلاف، وقد لعبت الحركات الصوفية فى تركيا دورًا مهمًا فى الإبقاء على الإسلام فى تركيا برغم سياسات أتاتورك وثورته العلمانية، وكانت النورسية، أحد أهم هذه الحركات.

■■■

جوانب أخرى من حياتهم

مجموعة من المؤلفين

ترجمة: أشرف الصباغ

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف لجوانب خفية فى حياة خمسة من أهم المبدعين الروس هم إيفان جونتشاروف وألكسندر بوشكين، ومكسيم جوركى، وفلاديمير مايكوفيسكى، وفالانتين راسبوتين، وهى جوانب تكمل الصورة الإبداعية لهؤلاء المبدعين.

■■■

مرشد المترجم

محمد عنانى

القاهرة: دار لونجمان، ٢٠٠٠

يضم الكتاب بين دفتيه خبرة المترجم وهو أستاذ فى اللغة والأدب الإنجليزى، مارس الترجمة للمسرح والشعر من الإنجليزية وإليها، وهو يقدم هنا خلاصة هذه الخبرة النظرية والعملية للدارسين والمحترفين فى مجال الترجمة.

■■■

مقـــاومة

ترجمة: أنطوان أبو زيد

لندن: دار الساقى، ٢٠٠٠

عن قصة حياة سهى بشارة، وحياتها داخل المعتقل، كيف عاشت سنوات عشرا من الحزن والإجهاد والعذاب، كيف قُدِّر لها أن تحلم على صوت المدافع والقتل.

■■■

Dora Maar: With and Without Picasso: A Biography

(دورا مار: مع أو بدون بيكاسو: سيرة حياة)

Mary Ann Cows

Thanves & Hudson, 2000, 224pp., £24.95

استمرت العلاقة بين دورا مار وبيكاسو عشر سنوات، وأشهر ما يذكره العالم لدورا مار هى لوحة «المرأة الباكية» التى رسمها بيكاسو وتحمل وجهها.

هذا الكتاب يروى قصة حياتها منذ أن ولدت فى باريس لأب كرواتى يعمل مهندسًا معماريًا عام ١٩٠٧، ثم احترافها التصوير الفوتوغرافى، وعلاقتها بجورج بتاى، وأخيرًا علاقتها ببيكاسو التى ما أن أنهاها بيكاسو من أجل امرأة أخرى، حتى أصيبت دورا بانهيار عصبى وعاشت فى

قـــــــراءات جـــــــديـدة

عزلة كاثوليكية بعد أن كانت يسارية متعصبة.

وفي المزاد الذي أقيم بعد موتها عام ١٩٩٧، وجدت في حوزتها متعلقات كثيرة وغريبة لبيكاسو من بينها قطعة قماش عليها آثار بعض قطرات من دمائه.

رواية وأدب

إذا الأيام أغسقت
حياة شرارة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر

ثمة حياة أشبه بالكابوس، يعيشها الناس في العراق، حيث وطأة الضغوط الداخلية والخارجية، معتقلات وحصار وتضييق، تتوق النفس الحرة أن تتحرر منه وأن تنهي عذابات الخوف والصمت وإن بالموت البطيء أو بالانتحار، هذا بعض ما تقوله له هذه الرواية.

■■■

تطفل ميريل ستريب
رشيد الضعيف
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠٠

بعد روايته التي حققت نجاحًا كبيرًا في العالم الماضي «ليرننغ إنجليش»، تأتي هذه الرواية التي يشرح فيها المؤلف عالم العلاقات الجسدية، والاضطرابات النفسية الناشئة عنها من خلال بطل روايته.

■■■

بنات.. بنات
جمال حسان
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

ترصد الكاتبة في روايتها تغيرات عديدة طالت المجتمع المصري، وانعكست بالضرورة على شريحة مهمة منه هي الفتيات، فترصد أحلامهن وتحولاتهن من خلال أسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى.

■■■

Die Brucke Vom Goldenen Horn
(جسر الهلال الذهبي)
Emine Sevgi Ozdamar
Kiepen Heuer & Witsch, 2000, 333pp., DM 19.90

الرواية تلقي الضوء على حياة العمال الأتراك في ألمانيا والصراع القيمي بين الشرق والغرب. يدور زمنها ما بين عامي ١٩٦٦ و١٩٧٥. أما الجسر الذي يذكره العنوان فيصف جسرًا يقع في اسطنبول يصل بين الجانب الأوروبي من المدينة والجانب الآسيوي، الذي تعيش فيه عائلة بطلة الرواية. وتعيش البطلة سنوات ما بين برلين وباريس وتشترك في تمرد الستينيات والسبعينيات، ولكنها تظل تنظر إلى الجانب الآسيوي من اسطنبول باعتبار أن تآلفها معه هو الذي سيحررها. هي لا تخون وطنها، وإنما تجبره على الاعتراف بشرعية الذات التي اكتشفتها في نفسها.

■■■

The Hiding Place
(المخبأ)
Trezza Azzopardi
Picador, 2000, 282pp., £14.99

انضمت هذه الرواية لقائمة الروايات المرشحة لنيل جائزة بوكر في الأدب لهذا العام، وهي تدور حول مهاجر مالطي يعيش ويتزوج في ويلز. راوية القصة إحدى بناته الست، واللاتي عانين من إدمانه للقمار ويتناول الجزء الثاني من الرواية الحياة المؤلمة التي عاشتها كل فتاة منهن. الجدير بالذكر أن الرواية تحمل شيئًا من السيرة الذاتية، حيث إن المؤلفة ابنة لمهاجر مالطي وأم من ويلز، كما أن لديها ست أخوات.

سياســة

أحزاب المناقصة
نديم محسن
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠

تبدو لبنان حالة فريدة من حيث التنوع الديني بالذات، وهو ما فرض عليها تركيبة خاصة فيما يتصل بتداول السلطة والمناصب في أجهزة الحكم، وقد كانت الحرب الأهلية اللبنانية التي استمرت ما يزيد على ٢٠ عامًا تعبيرًا عن خلل أو عدم رضا في هذه الفسيفساء الغنية. وهذا الكتاب عن السياسة في لبنان، والأحزاب ذات الغطاء «العقائدي»، والتي باتت تلعب دورًا مهمًا في المسيرة اللبنانية.

■■■

فلسطين.. كشف المستور فيما آلت إليه الأمور
هالة العوري
القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠

تشير المؤلفة إلى حقيقة يدركها العرب عن أسباب قيام دولة إسرائيل، التي وضعت لبناتها خطوة خطوة قبل أكثر من قرن، والعرب غافلون عن هذا التخطيط لا يتحركون، وإذا تحركوا فبصيحات جوفاء وعبارات إنشائية لا تتجاوز التنديد والاستنكار والشجب.

■■■

قضايا خاسرة من الإسكندرونة إلى البلقان ومن عمان إلى الشيشان
رياض نجيب الريس
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

رؤية صحافية تحليلية ونقدية لقضايا عديدة، يقدم فيها المؤلف تصوراته للأخطاء والخطايا، ويطرح ما يراه ممكنًا من حلول، فهل كان ممكنًا ألا تصل الأمور في بعضها إلى ما وصلت إليه من تردٍ؟ يجيب المؤلف بالإيجاب.

■■■

مثقفو المشرق العربي من درايفوس إلى جارودي
حازم صاغية
بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

محاولة لاستكشاف الذات العربية عبر مثقفيها أو المتحمسين لأفكارها، التي يرى المؤلف أنها تنطوي على بعض العنصرية وسوء الفهم والتشكك غير المبرر في كثير من الأحيان في نوايا الآخر وأهدافه، حتى وهو يمد يدًا للمساعدة.

■■■

هاربون بمليارات مصر
عادل حمودة
القاهرة: دار الفرسان، ٢٠٠٠

يفتح المؤلف الملفات السرية والشخصية لأشهر الهاربين بأموال القروض التي هي في الأساس أموال الشعب المصري، وبين من يسلط عليهم الأضواء: رامي لكح وعلية العيوطي ومحمود وهبة وأشرف السعد وهدى عبد المنعم ومصطفى البليدي وآخرون.

■■■

هل يشكل انتشار الأسلحة النووية عامل ردع
إدريس خليل وآخرون
الرباط: أكاديمية المملكة المغربية، ٢٠٠٠

يقوم مفهوم الردع على توازن القوى دون استخدامها، سواء كانت هذه القوى عسكرية أم لا، ويمثل انتشار الأسلحة النووية وبقاؤها في يد أطراف بعينها، خللاً كبيرًا في موازين القوى، وهكذا يبدو سؤال المؤلف مشروعًا عما إذا كان امتلاك الأطراف كلها للأسلحة النووية يمثل عامل ردع أم لا.

شعــــر

تحية الرجل المحترم
سامر أبو هواش
بيروت: دار الانتشار العربي، ٢٠٠٠

هذا هو الديوان التالي للشاعر، وفيه يذهب أعمق مما ذهب إليه في ديوانه الأول، وما يميز قصائده هنا اعتماده على السيرة والذاكرة والصورة والتفاصيل والأفكار الشخصية التي تمثل إجمالاً مكونات القصيدة عنده.

■■■

حورية العاشق
علي عبد الله خليفة
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ديوان جديد للشاعر يغلب عليه الطابع الرومانسي، وبحثًا عن ومضات حب مضيئة وسط أمواج واقع بالغ القسوة.

طعــــام

The Cambridge World History of Food
(كتاب كمبريدج عن تاريخ الطعام في العالم)
Kenneth F. Kiple, Kriemhild Ornelas (editors)
Cambridge UP, 2000, 1958 pp., 2Vol. $150.00

هذان المجلدان هما نتاج سبع سنوات من البحث والكتابة والتحرير من جانب أكثر من ٢٠٠ مؤلف، لإخراج ما سيعده كل من علماء الاجتماع والمؤرخين والاقتصاديين وأيضًا المتذوقين المرجع الرئيسي لتوسيع معلوماتهم وتعميق معرفتهم بكل ما يتعلق بتاريخ الطعام في العالم.

ومن ضمن الرسائل التي يحملها الكتاب ما مؤداه أن اختراع الزراعة منذ ١٠,٠٠٠ سنة كان أسوأ حدث أصاب معدة الإنسان، حيث قلت القيمة الغذائية لطعامه منذ ذلك الوقت، لأن ما كان يحصل عليه الصيادون في عصور سابقة كان يفوق في قيمته الغذائية وفي سعراته الحرارية أضعاف ما تقدمه الخضروات والبقوليات ومنتجات الألبان التي وفرتها الزراعة. كذلك يبين الكتاب أثر استحداث الأكل في المطاعم والذي بدأ في منتصف القرن السابع عشر في فرنسا على اختراع التركيبات المختلفة لأصناف الطعام للحصول على الجديد دائمًا. كذلك يشرح تميز القرن العشرين بعامل التسويق والإعلان الذي كان ذا تأثير حاسم على ما يتم تناوله من غذاء في العالم كله. إلى جانب عوامل أخرى مثل التركيز على جمال الجسد النحيل وأثر ذلك على شيوع منتجات الريجيم، وثورة الستينيات التي نادت بالعودة إلى الطبيعة، وأخيرًا العولمة وسلاسل مطاعم الأكل السريع.

■■■

How to Cook Without a Book: Recipes and Techniques Every Cook Should Know by Heart
(كيف تطبخ بدون كتاب: وصفات وأساليب يجب على كل طباخ أن يحفظها عن ظهر قلب)
Pam Anderson
Bantam Doubleday, 2000, 290pp., $25.00

تعتقد بام أندرسن أن الاعتماد المتزايد على كتب الطبخ والوصفات الجاهزة لإعداد الوجبة الرئيسية يوميًا أمر غير عملي على الإطلاق، لذلك يركز كتابها على كيفية إعداد وجبة متكاملة بالمكونات المتاحة في أي يوم من الأيام بدون حاجة لشراء المزيد أو التسوق. كما تبين الطرق الواحدة التي يصلح تطبيقها لإعداد أنواع عديدة ومتشابهة من الطعام.

■■■

Pickled, Potted and Canned: The Story of Food Preserving
(مُخَلل ومَحفوظ ومُعلَب: قصة حفظ الطعام)
Sue Shephard
Headline, 2000, 368pp., £15.99

يؤكد هذا الكتاب مقولة أن الحاجة أم الاختراع. فما نعرفه اليوم من سلمون مدخن وطماطم مجففة ومربى وحتى الفواجرا (كبد الأوز) جاء من الحاجة لحفظ الطعام الطازج لحين استهلاكه في أوقات الافتقار. ويبدأ تاريخ حفظ الطعام بالاستخدام البدائي للملح والشمس، ثم تطورت التقنيات إلى أن وصلت إلى التدخين،

ثم التبريد. وتربط المؤلفة بين النكهة التى تميز طعام الشعوب المختلفة وبين أساليب الحفظ التى يستخدمونها. فالبهارات التى تميز طعام جنوب شرق آسيا فى الأصل كانت تستخدم فى تجفيف الطعام المحفوظ، كما أن النكهة الحمضية أو اللاذعة لطعام شمال أوروبا وشرقها ناتجة عن عمليات التخمير الشائعة هناك. كذلك تروى المؤلفة التواريخ المحددة التى اخترعت فيها أساليب الحفظ الحديثة، ففى ١٨١٠ مثلاً اخترع ثلاثة مهندسين بريطانيين أسلوب التعليب، الذى بفضله أصبح من الممكن تعليب اللحم البقرى المفروم واللبن المكثف والفول المطبوخ. وفى نهاية العشرينيات من القرن العشرين اخترع أمريكى من بروكلين أسلوب التبريد أو التثليج الميكانيكى. كذلك تشرح دور الحرب العالمية الثانية فى إحداث ثورة فى الطعام الذى يجهز فوريًا والذى يسهل حمله، ومن أطرف الرواد فى هذا المجال جنديان أمريكيان اخترعا طريقة للحصول على الآيس كريم فى طائرتهما الحربية.

علوم وتكنولوجيا

الإعجاز الإلهى فى أجهزة المناعة والمقاومة فى جسم الإنسان

محمد السيد أرناؤوط

القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف حركة هذه الأجهزة أتوماتيكيًا فى جسم الإنسان، وهى أجهزة لديها قدرة فائقة على استشعار أى جسم غريب وإبعاده، وتبنى أسلوب المقاومة الملائم، وهذا دليل قوى على عظمة الخالق وقدراته.

■■■

الأسلحة البيولوجية والكيمائية بين الحرب والمخابرات والإرهاب

عبد الهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يرى المؤلف أن الأسلحة البيولوجية من أقوى أسلحة الدمار الشامل، وهذه الأسلحة يطلق عليها، قنبلة الفقراء الذرية، وهى متاحة لدول العالم النامى التى لا يتاح لها إنتاج قنابل ذرية أو هيدروجينية. المؤلف يناقش دور هذه الأسلحة وتاريخ استخدامها وعلاقة المخابرات والإرهاب بها.

■■■

المعلومات وتكنولوجيا المعلومات على أعتاب قرن جديد

محمد فتحى عبد الهادى

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

تمثل المعلومات قوام المجتمع المعاصر، مما يجعل الحديث عن أسس مجتمع المعلومات وركائز الإستراتيجية العربية للمعلومات، وأخلاقيات المعلوماتية فى المكتبات ودور مراكز المعلومات، مهمًا للغاية فى هذه المرحلة، وهذا ما يركز عليه الكتاب.

فكـــر

هل أنتم مخطئون ضد الحريم

فاطمة المرنيسى

الرباط: المركز الثقافى العربى، ٢٠٠٠

تطارد المؤلفة حلقات تاريخية من تجنى الاستشراق، ومن الفهم المغلوط لعلاقة الرجل والمرأة فى المجتمعات الشرقية التى تلصق خطأ سوء فهمها إلى تعاليم دينية، وتحيل الرغبة الذكورية فى السيطرة والاستبداد إلى قوانين لأفكاره منها.

■■■

مصر.. التنوير عبر ثقب إبرة

رفعت السعيد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠

لا يبدو أن ثمة اتفاقًا حول معنى التنوير بين التيارات السياسية والمثقفين فى مصر، فالبعض يراه زائفًا لا يعكس سوى استلاب تجاه الغرب، فيما يرى آخرون - ومنهم المؤلف - أن أعداء التنوير من الظلاميين والمتأسلمين يحولون دون تحول الاجتهادات التنويرية الحقيقية إلى واقع يعيشه الناس.

■■■

الأمة والدين فى الشرق الأوسط

فريد هاليداى

ترجمة: عبد الإله النعيمى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

لأن منطقة الشرق الأوسط كانت مهبطًا للديانات والرسالات السماوية، فإن هذه الديانات تفاعلت بقوة مع مجتمعات الشرق الأوسط، بحيث صار الارتباط بينهما عروة لا تنفك، وأثر على مفهوم الأمة وعلى طبائع الأديان معًا.

■■■

هوامش صحفية

عبده بورجى

صنعاء: منشورات ٢٦ سبتمبر، ٢٠٠٠

مقالات صحافية تتناول اليمن سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، وهى مقالات سبق نشرها تعليقًا على الأوضاع اليمنية.

فكر دينى

استخدام الرسول للوسائل التعليمية

حسن بن على البشارى

قطر: مركز البحوث والدراسات، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف للوسائل التى استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم لتوضيح الحكمة من فرض عبادات بعينها، عبر الاستدلال بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف.

■■■

آفاق حضارية للنظرية السياسية للإسلام

محمد بحر العلوم

لندن: معهد الدراسات العربية والإسلامية، ٢٠٠٠

مقالات عن الدور الحضارى للإسلام عبر التاريخ، وكيف بنى المسلمون مدنهم الحضارية ومجتمعاتهم التى استرشدت باسس المدنية فى الإسلام، وفى هذا كله لم يكن الإسلام بعيدًا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

■■■

اليهود بين القرآن والتوراة

عبد الرحمن غنيم

دمشق: دار الجليل، ٢٠٠٠

ورد ذكر اليهود فى القرآن والتوراة، وقد جاء ذكرهم بما يبين حقيقتهم ودوافعهم وسلوكهم فى المجتمعات التى عاشوا فيها، وهو ما تؤكده الحوادث المعاصرة.

■■■

صناعة القرار السياسى فى الخلافة الراشدة

محمد بغداد

الجزائر: منشورات الجاحظية، ٢٠٠٠

تمثل الخلافة الراشدة النموذج الراقى الوحيد بعد دولة النبى، فهل يمكن تكرار هذا النموذج بحذافيره كما يريد البعض اليوم؟ المؤلف يؤكد استحالة ذلك ويطرح مبرراته.

■■■

Islam: A Short History

(الإسلام: تاريخ متحضر)

Karen Armstrong

Modern Library,2000, 144pp., $19.95

آخر كتاب يصدر لكارين آرمسترونج مؤلفة كتاب «محمد» «والقدس» و«المعركة من أجل الله». وفيه تروى آرمسترونج قصة الإسلام منذ نزول الوحى على النبى محمد، ثم التطور الذى لحق بالديانة الجديدة حتى تحولت إلى امبراطورية سياسية شملت فارس. كذلك تروى آرمسترونج السياق التاريخى الذى حدث فيه انشقاق السنة والشيعة وبقية الفرق. كما تتناول التاريخ الأحدث للإسلام منذ حروب الصليبيين والتتار وحتى الاستعمار الأوروبى وإلى الحاضر. وهى تضع المد الأصولى الإسلامى المعاصر فى سياق أنه جزء من ظاهرة عالمية.

■■■

Reason, Freedom, and Democracy in Islam: Essential Writings of Abdolkarim Soroush

(العقل والحرية والديمقراطية فى الإسلام: الكتابات الأساسية لعبد الكريم سوروش)

Mahmoud Sadri (Editor)

Oxford University Press, 2000, 272pp., $29.95

برز فى السنوات الأخيرة عبد الكريم سوروش باعتباره أحد أهم قادة الفكر الإسلامى التجديدى. يقدم هذا الكتاب لأول مرة بالإنجليزية مقدمة نقدية لأهم أفكار سوروش التى تدمج الفكر الإسلامى الدينى مع الفلسفة الحديثة، بالإضافة إلى مقابلة معه تكشف عن سيرته الثقافية. كما يقدم الكاتب آراء سوروش فى أمور مثل حتمية التغيير فى الدين، وضرورة الحرية فى الاعتقاد، وتوافق الإسلام مع الديمقراطية.

فنـــون

انشطار التاج

محمد أحمد محمد

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠

مسرحية تدور أحداثها فى أواخر عهد رمسيس الحادى عشر (آخر ملوك الأسرة العشرين)، والذى استمر حكمه ٢٧ عامًا، والذى انتهى بموته عصر الرعامسة، وقد قفز جندى مغمور إلى سدة الحكم، لتبدأ مرحلة جديدة فى حكم مصر.

■■■

Global Interests: Renaissance Art Between East and Eest

(مصالح عالمية: فن عصر النهضة بين الشرق والغرب)

Lisa Jardine and Jerry Brotton

Cirnell UP., 2000, 224 pp., $39.95

يتناول تاريخ الفن من منظور اقتصادى، حيث يربط الرأسمالية الدولية والمصالح التجارية التى كانت سائدة فى الفترة ما بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ بفنون عصر النهضة. فمثلاً لوحة «السفراء» الشهيرة لهانز هولباين كان المراد بها تزكية الفرنسيين فى تنافسهم مع التجار البرتغاليين فى أفريقيا والعالم الجديد.

الكتاب ملئ بمثل هذه الأمثلة التى تحاول البرهنة على أن الطموحات التجارية والمصالح الكونية لدى الأوروبيين كانت وراء تميز فن عصر النهضة بمؤثرات من الثقافات الأفريقية والصينية وغيرها.

نقـد أدبى

المتخيل والسلطة.. فى علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية

علاء سنقوفة

الجزائر: منشورات الاختلاف

يلاحظ المؤلف، أن الخطابات السياسية عملت فى النص الروائى الجزائرى بآليات متشابهة، حيث سيطر الإلغاء والعنف المعنوى والتشويه المتعمد للآخر فى هذا الخطاب، ويقدم المؤلف نماذج تطبيقية على صحة افتراضه.

■■■

محمود تيمور رائد الأقصوصة العربية

فتحى الإبيارى

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

عاش تيمور فى بيئات متعددة، شعبية وريفية وأرستقراطية، وسافر إلى أوروبا، حيث تعرف على أفكار جديدة ظهرت فى كتاباته، وهذا الكتاب عن حياة هذا الأديب الرائد وإنتاجه الفكرى والأدبى.

■■■

كتاب الزاوية

المسحراتى

٣ـ نفس ترياق

مسحراتى ينادى فى الأحياء
منقراتى من الألف لليـاء
صرف القسيمه على بسيمه وعلاء
والمكوجى بيكوى هدوم العيد
والبيت دا هو مقبل على الزغاريد
والصاجه رايحه وجايه بالمواعيد
ريحة المخابز من هنا لبولاق
والسهرانين فى الحى منتشرين
حتى الساعاتى منوَّر البتارين
وأنا دورى نمرة أربعة وعشرين
فى محل الأسطى سيد الحلاق
وبامد رجلى عترت فى القصاقيص
دا ترزى بدله وجاره ترزى قميص
قفطانى الأخضر أسعد الأزياء
وجناحى الأخضر لو أمرته يطير
دا أنا ألف ليلة وجلّة الأساطير
يا عمّ يا اللى بتدرس الأشياء
والطفل دا اللى فى قلبى لسّه حاويه
يرجع يغنى ع الفانوس وَحَويه
أبوك صغر يا ابنى يعنى خاوية
أصل الكريم رمضان نَفَس ترياق

وجهات نظر – رسائل

العرب والأصول والأعراق!

استوقفنى فى العدد التاسع عشر من «وجهات نظر» ما ورد «حول نسب الرئيس الراحل حافظ الأسد».. كما لفتنى من قبل الجهد الذى يبذله المهندس الزراعى محمود فردوس العظم فى تحقيق جمهرة النسب لابن الكلبى للوصول فى نسب الرئيس فى النتيجة إلى «أنه من العرب الأقحاح» دحضًا لما جاء فى تلخيص يوسف القعيد لكتاب بتريك سيل أن جد حافظ الأسد ليس عربيًا، بل من أصول تركية.

وأيا ما كان المراد من وراء ذلك وكان المطلوب.. فالعرب لا يقيمون الحكم ولا أقاموه قط على العرق وعلى الأصول.. كانت الأصول دليلهم إلى المضمون فى عصورهم الحيوية: «لسنا وإن كرمت أوائلنا يومًا على الأنساب نتكل».. إذ كانت العرب ترى فى النسب مرقاة لعلو الهمة واصطفاء الشمائل وتسامى الأخلاق. فتمسك المرء بانتسابه لقبيلة دون أخرى ما هو إلا انتساب لما لها وعرف عنها وسجله شعراؤها من سجايا وصفات تميزها وتتفاخر بها. ومن هنا كان اعتقاد «الجاهليين» أن من لا نسب له أو المشكوك فى نسبه أو «الأعجمى» سيان، لا يمكن أن يرقى إلى هذا المستوى إلا بالتشبث بالـ«مثل» وإرادة تنظيم هذا التشبث. إذ ما كان يعيب الفرد من القبيلة يعيبها. ومن هنا حرص القبيلة على ألا يتصعلك أحد منها.

وهناك مثلان: أحدهما فى الجاهلية والثانى فى الإسلام، واضحان، يشيران إلى أن مضمون النسب هو المرقاة إليه، لا مجرد النسب: فعنترة العبسى لم يتبوأ المقام الذى يستحقه، بالوراثة لو كان صريح النسب إلا بعد أن أثبت بالعمل جدارته به.

ولم يلحق معاوية بن أبى سفيان ـ وهو خليفة ـ روح بن زنباع، أخاه سفاحًا، بنسبه، إلا بعد أن ظهرت جدارته فى القيادة وبالتالى أهليته بالنسب. فالعمل هو محتوى حياة المرء، مضمونها، وهو معيار التقدير. وهذا هو جوهر الإسهام الذى يقدمه العرب فى الإسلام. كان عمل الفرد ينبئ به فيندب لما هيئ له، فكثيرًا ما نرى فى العشيرة الابن الأحق، من حيث مكانه فى النسب، يتولى الشئون المعاشية، فى حين يتقدم غيره للقيادة والعلاقات العامة.. وهو أمر واضح لا تخطئه العين فى سيرة من لايزالون يعيشون عيشة العشائر حتى الآن، فالأمير فواز الشعلان لم يكن كبير أولاد الشعلان إلا أنه كان دائمًا نائبًا منتخبًا إلى البرلمان. والشيخ فارس، الأخ الأكبر، الذى ارتضى البقاء فى البادية وانصرف لشئون العشيرة فيها.

ولقد شدد الإسلام على خاصية العرب هذه: العمل، فلم يعتبر الإيمان مستكملاً ومكتملاً إلا بها. فإننا لا نجد آية فى القرآن الكريم تدعو إلى الإيمان وتحض عليه إلا مقترنة بالعمل الصالح.. وكاد الإسلام أن يجعل من سوء فعلة «أبو رغال» فى خيانته للعرب، بقيامه بمهمة الدليل لجيش أبرهة إلى الكعبة، سنة يرجم قبره بالحجارة، قاربت شعائر الدين، وكان عمر بن الخطاب، ثانى الخلفاء يقول: «لست معلمكم إلا بالعمل».

وهاهنا، لعمرى، مصدر التمسك بالـ«سنة» فى الإسلام، أى بالقدوة فى العمل، وليس بالتقليد الجامد كما آلت إليه الأحوال.

وكان الأقوياء من حكام الإسلام، القادرون على الالتزام بالكلمة ومضمون الكلمة، حريصين على هذا المعيار فى التطبيق الإسلامى ويقفون صراحة وبقوة ضد استغلال العمل، الذى راحت تجنح إليه بعض القوى المتنفذة منذ أيام الخليفة عثمان. نعثر على ملامح ذلك فى سيرة الإمام على. ففى رسالة له إلى عامله «قرظة بن كعب» قال: أما بعد، فإن قومًا من أهل عملك أتونى فذكروا أن لهم نهرًا قد عفى ودرس، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم وقووا على كل خراجهم وزاد فئ المسلمين قبلهم.. وسألونى الكتابة إليك لتأخذهم إليك بعمله، وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه. ولست أرى أن أجبر أحدًا على عمل يكرهه، فادعهم إليك. فإن كان الأمر فى النهر على ما وصفوا، فمن أحب أن يعمل فمره بالعمل، والنهر لمن عمل دون من كرهه، ولأن يعملوا ويقووا أحب إلى من أن يضعفوا والسلام». وكان شعار بعض الحركات الثورية التى جاءت فى أعقاب تردى الإسلام والحكم العربى فيه: «من يعمل يأكل ومن لا يعمل لا يأكل».

فى عصور الحيوية تلك من التاريخ العربى لم يكن الذهن مخزن ألفاظ وكلمات وصيغ. كانت الكلمة تعبر عن كامل الشخصية وكانت الشخصية متماسكة. كان المرء يلتزم تمام الالتزام بالقول، يقوده إلى المخاطر: «وقلت لها وقد طارت شعاعًا من الأبطال ويحك لن تراعى». ثبت لمجرد أن تذكر بيت هذا الشعر فكسب المعركة. وواجه المتنبى الموت وصمد له لمجرد تذكيره بقول قاله، فارتد يواجه مصيره.

حينئذ كان لفظ العرب المشتق من الإعراب وهو البيان، أخذًا من قول العرب الرجل أعرب عن حاجته إذا أبان والثيب تعرب عن نفسها.. فى زمن لم يكن كامل الشخصية فيه ينفصل عن اللغة. فهى واللغة المعبرة عنها واحد، ولعل هذا هو عين ما عناه الرسول «عليه الصلاة والسلام» وهو أفضل من عبر عن العروبة فى عصورها عندما بلغه أن أحدهم يعرض بأعجمية بعض المسلمين.. لأصولهم العرقية فيطلب أن ينادى بالناس الصلاة جامعة ثم يصعد المنبر فيقول: «أيها الناس.. إن الرب واحد والأب واحد.. وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، إنما هى اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى»، ولعل هذا هو ما يعنيه التزام الصلاة بالعربية ووجوب عدم ترجمة القرآن إلى غير العربية.

ولا غرو فالعروبة التى تميزت بالعرب وتميزوا بها لم تكن بالشكل ولا بالعرق، بل بالمعانى والشيم.. بالعمل بمحتوى لسانها ومضمونه المكتمل بالإسلام، الذى أنضج أسمى ما كان بلغه العرب فى جاهليتهم وعممه وشمله، كسائر قيمه فصارت مفاهيمه الجديدة مفاهيم المجتمع الإسلامى العربى الواحد الموحد المنسجم لا يختلف عن هذا مضمون رسالة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو من خير من عبر عن وجهة نظر العرب فى وجه تلك النزعات الأعجمية التى كانت ترمى إلى التعريض بمكانة العرب، وهى الرسالة الشهيرة برسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان عرب قحطان العاربة وعدنان المستعربة، واستمر التوفيق فى إطار هذا المفهوم لدى المسلمين غير العرب حتى القرن الحادى عشر، فقد كان البيرونى المنحدر من أصل فارسى (٩٧٣ ـ ١٠٤٨) يقول: «ديننا والدولة عربيان توءمان.. وكم احتشدت طوائف من النوابع فى الباس الدولة جلابيب العجم فلم يتفق لهم فى المراد سوق»، ورغم أنه خدم فى الدولة الغزنوية وهى من أصول غير عربية إلا أنه لم يغير موقفه ولم يتغير وهو القائل: «إنه لأحب إلى أن أُهجى بالعربية من أن أمدح بالفارسية» (انظر: مبادئ الإسلام: أبو الأعلى المودودى ـ القاهرة، دار الأنصار، بلا تاريخ ص ٤٧ ـ ٤٨).. إلخ.

ثم لدواع شتى داخلية وخارجية تكاثرت فى الناس حالات العجز عن التوفيق بين العمل والقول وكثرت الأحاديث التى تصف عذاب العلماء الذين لم يوقفوا عملهم على علمهم أو فعلهم على قولهم، اقتبسها وأوردها دانتى فى جحيمه وخلاصتها فى الأصل العربى على ما ذكره المرحوم عمر فاخورى فى (آراء غربية فى مسائل شرقية) إن هؤلاء العلماء العاجزين «يدورون فى جهنم بلا انقطاع كحمار الرحى ويراهم تلاميذهم الذين عرفوهم ويطلون عليهم من الجنة فيدورون معهم قائلين: ما آل بكم إلى هنا وأنتم الذين علمتمونا كل شىء؟ ولماذا أنتم فى النار ونحن لم ندخل الجنة إلا بما علمتمونا؟» (دار الكاتب العربى، بيروت ١٩٥٥).

لنتذكر للحق وللتاريخ، أن التعريفات القومية كانت من أهم ما يشغل بال الشباب فى المشرق العربى على الأخص فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. شباب ناشئ غير متزود بثقافة قومية ـ تراثية، تترنح ثقته فى مناخ جديد كل الجدة، تهب عليه فيه رياح نجاح ثورة أكتوبر وبروز قيام أحزاب موالية لها فى أقطار العالم من جهة وهجمة غربية استعمارية شرسة على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، وثورات محلية فاشلة وغياب الأقلام القومية، أو تكاد تطل برؤوسها على استحياء، وليس فى الساحة حزب قومى عربى واحد..! يرافق ذلك كله تيارات إسلامية تستمد أفكارها من وحدة إسلامية مفترضة، وكل جهة من هذه الجهات تشكك لحسابها فى «تعريفات» القومية المتفتحة الآخذة بالتفكك من روابط امبراطورية عثمانية دامت أربعمائة عام!

فى زحمة نشوء الأحزاب القومية فى المشرق العربى كان التساؤل المهم القلق: من هو العربى؟ ولم يخطر ببال أحد أن تكون من صفات هذا الإنسان نقاء العرق، خصوصًا بعد معرفة سلوك جنوب أفريقيا ومعرفة صفات دولة إسرائيل التوراتية، وبعد أن تكشفت فى البلاد العربية الأحداث عن شخصيات ووجوه سياسية مشكوك فى صفاء أصولها العرقية قدمت وتقدم للقضية العربية ما يشير إلى أنها أكثر التزامًا بها من كثيرين من أولئك الذين يرفلون فى جلابيب اللباس العربى ويدعون الانتماء للأصول العربية. وأصبح المعيار هو العمل ومدى اقتران القول بالفعل.

ذوقان قرقوط ـ سوريا

«وجهات نظر» والمغرب

بحثت فى المكتبات وأكشاك بيع الصحف والمجلات فى مدينة «الرباط» عن عدد شهر نوفمبر الماضى من مجلة «وجهات نظر»، إلا أننى لم أجده كما تعودت، فلعل المانع خير، مع ملاحظة أن المجلة تحظى باهتمام كبير وإقبال من جانب القراء المغاربة.

عبد القادر بن عبد الله
الرباط ـ المغرب

* نعتذر لعدم تمكن القارئ العزيز من الحصول على نسخة من عدد نوفمبر الماضى من «وجهات نظر» لكننا نود إبلاغه أن هذا العدد جرت مصادرته فى المغرب.

المحرر

استدراك

وقعت بعض الأخطاء المطبعية فى مقال د. جلال أمين المنشور فى العدد الماضى من «الكتب.. وجهات نظر» تحت عنوان «إعادة تفسير السقوط السوفيتى والانتصار الأمريكى»، نصوب منها فيما يلى ما قد يؤدى إلى تغيير فى المعنى المقصود من الكاتب:

جاء فى العامود الثالث من صفحة ٢٠ «العولمة الاجتماعية» وتصويبها «الديمقراطية الاجتماعية». كما جاء فى العامود الثانى من الصفحة ٢١ فى عنوان فرعى «العولمة عصر الجماهير الفقيرة» وتصويبها «الجماهير الغفيرة».

كتاب الزاوية

المسحراتى

٤ ـ حبوا الوطن

مسحراتى منقراتى أنادى
كل الولاد فى بلادى
أنادى بنتى ايناس
ألاقى خدى انباس
أنادى ابنى حسن
ألاقى صدرى اتحضن
عايز أهادى ولادى
بغنوه أجمل غنوه حبوا الوطن
حبوا الوطن فى الغيط أبوالفدادين
وفى حصة العربى ودرس الدين
حبوا الوطن
حبوا الوطن فى الجبهة والميادين
يوم الجهاد الكل مجتهدين
حبوا الوطن
وتعملوا من قبل ما تقولوا
حبوا الوطن بالحق واشقوا له
لولا العرق ماكانش نور الجبين
حبوا الوطن
حبوا الوطن فى المطرح الدافى
الأم تسقيك الحنان صافى
والأب ما يحبش يشوفك حزين
حبوا الوطن

نــون

الجمود السياسى وانتحال الديمقراطية

شهد العالم مع العقد الأخير من القرن العشرين، ألوانًا من التجارب الحديثة فى الديمقراطية. انتشرت فى بعض المناطق بخطى أسرع من مناطق أخرى، وبالأخص فى منطقة شرقى أوروبا.. التى انهارت النظم الشمولية فيها بمجرد انهيار النظام السوفيتى وحلت محلها نظم ديمقراطية نوعًا، وفى بعض دول أمريكا اللاتينية والآسيوية التى تأثرت بالنموذج الأمريكى تأثرًا شديدًا. ولم يكن نصيب العالم العربى من هذه التطورات الديمقراطية غير النزر اليسير. حيث طغى الجمود الفكرى الذى اجتاح العالم العربى فى موجات متعاقبة على الأوضاع السياسية. فظلت حركة التقدم السياسى مرهونة بالقدرة على التوفيق بين العقل والنقل، بين الإيمان بحرية الفرد والسعى الدائم للمحافظة على تماسك الجماعة واستقرارها، بين الاجتهاد والتجديد من ناحية، والجمود على الموجود من ناحية أخرى.

وإذْ لم تنجح معظم المحاولات التى شهدها العالم العربى للخروج من هذه الدائرة المفرغة، فقد عبرت موجة الديمقراطية الحديثة فى أواخر القرن العشرين من فوق رأس العالم العربى، مخلفة وراءها كثيرًا من الفقاعات والرغاوى التى تصنع زبدًا لا غناء فيه ولا جدوى منه. وشُبِّه للشعوب العربية فى بعض الحالات أنها دخلت بوابة الديمقراطية، حين انتحلت بعض أشكالها ورسومها وأسمائها، دون أن تتشبع بقيمها، وتستوعب غاياتها وفلسفاتها، وضاعت حرية الفرد وأهدرت ملكاته وقدراته الإنسانية، بين طاعة الأمير والخضوع للمؤسسة الدينية.. فأصبح من الصعب بل من المستحيل فى كثير من الأحيان إقامة مؤسسات سياسية مستقلة ثابتة الأركان واضحة المعالم، تضع مصلحة المجتمع فوق مصلحة الحاكم، وشرعية العقل فوق شرعية النص.

بل إن عددًا غير قليل من الشعوب العربية لم ينل شيئًا حتى من أكثر أشكال الديمقراطية بدائية، ولم يقترب منها إلا كما يقترب الظمآن من السراب. وانتهى بعضها إلى الخضوع إلى لون من أكثر ألوان الطغيان قسوة ووحشية. فلم تنجح كل ضغوط العالم الخارجى، ومؤثراته الساكنة والمتحركة، فى أن تخلص هذه الشعوب من براثن حكام وضعوا أنفسهم فى مرتبة الألوهية، واستغلوا أحدث أدوات العصر فى إحكام قبضتهم على شعوبهم والتخلص من معارضيهم دون رحمة. وفى معظم الأدبيات الحديثة التى تتعرض لأحوال الديمقراطية فى العالم، يكاد لا يوجد ذكر للعالم العربى وما يجرى فيه من ممارسات وأنشطة شبه ديمقراطية.. فسجل الفشل الديمقراطى فى العالم العربى، سجل حافل بالجرائم والخذلان والنكسات.

فلئن كانت الديمقراطية - فى أبسط تعريفاتها - هى الوصول إلى السلطة بالوسائل السلمية، عن طريق انتخابات حرة، نزيهة، شفافة، محوطة بالضمانات التى تكفل سلامتها.. فإن من الصعب تطبيق هذه المعايير على معظم الأوضاع فى العالم العربى. وقد جرت فى بعض البلدان العربية أخيرًا انتخابات برلمانية توافرت لها بعض الشروط، وعجزت عن تحقيق بعضها الآخر.. مثال ذلك الانتخابات التى أجريت فى الكويت والجزائر وفى لبنان ثم أخيرًا فى مصر، وقد يبدو من السابق لأوانه فى الوقت الراهن استخلاص نتائجها كاملة ومدى تأثيرها على تطور الأوضاع الديمقراطية على المدى الطويل. فالحاصل حتى الآن هو أن أيًا من هذه البلاد لم تبرأ العملية الانتخابية فيها من الشوائب ومن أوجه القصور الفادحة. ومازالت المثالب التى تحول دون تحقيق تمثيل حقيقى كامل للشعب بجميع قواه وتياراته السياسية الرئيسية تضفى على التجارب البرلمانية فيها ظلالاً قاتمة، تحول دون تداول السلطة بين الأحزاب بطرق سلمية، وتحول دون إيجاد آلية مضمونة للاستخلاف فى رأس النظام، بغير تدخل أو مساندة أو مباركة من السلطة العسكرية.

ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الشعوب سئمت أو يئست أو كفَّت عن المطالبة بالديمقراطية.. بل يمكن الادعاء بقدر كبير من الصحة أن معظم الأنظمة السياسية فى العالم العربى قد وصلت إلى مرحلة الأزمة. تتساوى فى ذلك الأنظمة التقليدية الملكية الوراثية، والأنظمة الجمهورية ذات الأشكال البرلمانية أو الشبيهة بها. ويبدو مثيرًا للاستغراب أن الأزمة المستحكمة فى جميع النظم السياسية القائمة فى العالم العربى، ترجع بالدرجة الأولى إلى عدم قدرتها على استيعاب كل أو معظم القوى السياسية والاجتماعية المختلفة معها أو التى استجدت على الساحة.. وهى تتخذ من ذلك سببًا للجوء إلى اجراءات استثنائية، أو لتبرير انتهاج أشكال من الديمقراطية الناقصة، بحجة تعبئة الطاقات لمحاربة أعداء الحرية والديمقراطية.. متناسية أن أنظمة الحكم الحديثة عالجت هذه الإشكالية بالالتزام المطلق بتحقيق توازن دقيق ومُحكم بين الحرية والقانون.. باعتبارهما أساس الديمقراطية.

وعلى العكس من ذلك فقد نجحت الأنظمة السياسية الثلاثة التى تحيط بالعالم العربى وتتداخل معه فى دوائر من التماس المباشر، فى تحقيق قدر أرفع من الأداء السياسى المتميز، وفى تطوير معطياتها السياسية نحو قدر أكبر من المرونة. ففى تركيا ذات النظام العلمانى تتخذ المبارزة مع التيار الدينى أشكالاً ودرجات تتراوح بين الاستيعاب والمواجهة. وفى إيران أبدى النظام الجمهورى حيوية شديدة فى تمثيل القوى السياسية الصاعدة على مستوى البرلمان ولم يلجأ إلى أساليب القمع والتزوير للحيلولة دون بروز قوى معارضة. وفى إسرائيل تحتدم التناقضات الحادة بين اليمين الدينى المتعصب واليسار الليبرالى، ثم تنفرج بمرونة بالغة تضع مصلحة إسرائيل وأمنها وتفوقها فوق كل اعتبار دون أن تفقد وجهها الديمقراطى، مهما تكن التحفظات فى تعاملها العنصرى مع الفلسطينيين العرب داخل إسرائيل.

ما الذى حال حتى الآن دون فتح أبواب الاجتهاد لتحريك حالة الجمود الديمقراطى والتجديد السياسى فى العالم العربى؟ وما هى جوانب القصور التى ساعدت على إغلاق الباب فى وجه جميع القوى السياسية بدون استثناء، والإبقاء على نخبة حاكمة أعطت لنفسها الحق فى أن تنوب عن الجميع وتفرض استمرارها بالقوة الجبرية؟ ولماذا تتقدم التجارب الديمقراطية فى معظم الحالات العربية خطوة ثم تتقهقر إلى الوراء خطوتين؟

لقد ظل الخوف من التيار الإسلامى هو الهاجس المفزع الذى أقض مضاجع النخبة الحاكمة وأعاقها عن اتخاذ الخطوات السليمة فى الاتجاه الصحيح. وبدلاً من العمل على احتواء هذا التيار واستيعابه وتحجيمه بالطرق السياسية فى إطار ديمقراطى ليبرالى يلزم الجميع، ظل التهديد باحتمال تسلل هذا التيار تحت ستار «التقية» لتخريب التجربة الديمقراطية من الداخل، كابوسًا مزعجًا تذكيه المؤسسات الأمنية، وتضخمه القوى الحزبية العاجزة عن النزول إلى القواعد الشعبية.

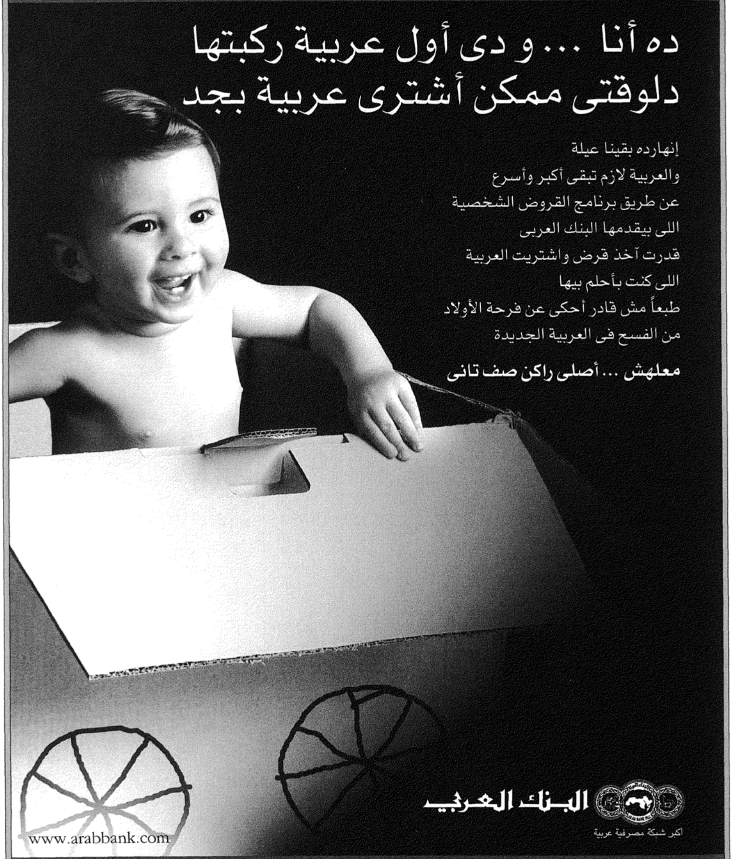
ونَجُمَ عن هذه الرؤية غير الواقعية، أن ازدادت النخبة الحاكمة استئثارًا بالسلطة، وإقصاءً لأية عناصر جديدة تسمح بالتداول والتغيير، وإغلاقًا لأبواب الاجتهاد والتجديد السياسى.. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هى إضعاف المجتمع المدنى وإحكام الحصار حوله بسلسلة من الأغلال القانونية التى أوهنت القدرة على الحوار وحق الاختلاف. وتلاشى دور النقابات المهنية وازداد عجزها تحت وطأة التدخلات الأمنية والخلافات الحزبية. ومن ثم فقدت قطاعات شعبية واسعة أى رغبة فى ممارسة العمل السياسى والمشاركة فى تحمل المسئولية. وهو ما دعا كثيرًا من المفكرين الغربيين إلى القول أن الأمم الشرقية عرفت الدولة ولم تعرف المجتمع المدنى بمفهومه الحديث.

وتولَّد عن هذا العجز بعض الحلول والاتجاهات البديلة فى مجالات الإعلام.. فأعطيت الأحزاب السياسية صحفًا تنفس فيها عن معارضتها وانتقاداتها.. ثم حلت ديمقراطية القنوات الفضائية محل الممارسات الديمقراطية الحقيقية.. وأصبح من السهل أن تمارس القوى السياسية حريتها، سواء عن طريق الصحف، أو عن طريق الانغماس فى مكلمات ومجادلات وحوارات فضائية، تستنفد الطاقات، وتمنح الإحساس بالرضى الوقتى والإشباع الذاتى والاستسلام إلى الأمر الواقع.

من هنا بدت الانتخابات البرلمانية الأخيرة فى مصر محاولة تجريبية جادة لتصويب الأوضاع، وتجديد النظام السياسى، وتهيئة الفرصة لانفتاح ليبرالى على الأوضاع المتغيرة فى العالم المحيط بنا. واعتبرت مبادرة الإشراف القضائى الذى أمرت به المحكمة الدستورية العليا بمثابة خطوة حذرة إلى الأمام. يمكن قياس نتائجها فى غمار الممارسة العملية للبرلمان القادم، الذى ضم - على مضض من النخبة الحاكمة - معظم إن لم يكن كل ألوان الطيف السياسى من اليمين واليسار والإسلاميين وغير الإسلاميين. ربما ليس بالنسب الحقيقية التى تمثلها فى الشارع السياسى، ومع قدر من التدخل المحكوم الذى يضمن عدم إفلات الزمام داخل البوتقة، فهى أشبه بتجربة معملية قد تنجح وقد تفشل. تحددت شروطها سلفًا واختارت النخبة الحاكمة أن تضع لها سقفًا لا تعلو عنه.. بحيث يمكن لو نجحت أن تأخذ التجربة مداها بعد خمس سنوات قادمة، أو يوضع المريض فى «قميص المجانين» مرة أخرى.

وعيب مثل هذه التجارب التى يغلب فيها التوجس والحذر المفرط على الاقتحام والمبادرة أن نتائجها تظل محصورة كامنة تحت السطح. تؤتى أكلها بصعوبة بالغة وقد تموت الشجرة قبل أن تثمر. ولكن تبقى أهميتها أنها قد تشجع الأحزاب والقوى السياسية المتعددة على المضى قدمًا فى بناء قواعدها، وربما تدفع بالتجربة إلى آفاق الديمقراطية الحقيقية، وتتغلب على مخاوف الذين يكرهون التغيير ويتوجسون من عواقبه. فلا أحد ينتظر الخائفين والمترددين فى عالم اليوم!

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الرابع والعشرون . السنة الثانية . يناير ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 24 - January 2001

قراءة فى الوثائق الإسرائيلية

عند ساعة الصفر!

محمد حسنين هيكل



الفنان وسؤال الهوية

فى معرض حلمى التونى

تحية إلى الفن القبطى

عز الدين نجيب

هارولد إيفانز / كلينتون فى حديث الوداع!

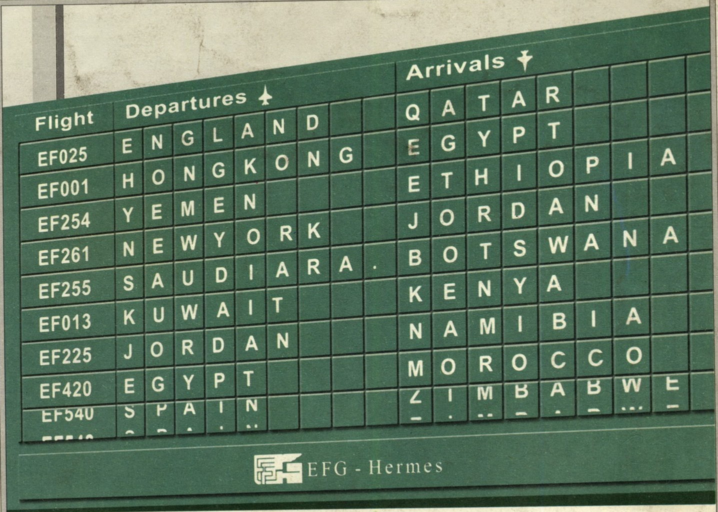
الطبقة العليا فى مصر .. ومحاولة لرد الاعتبار / ماجدة بركة / عاصم الدسوقى

لندا كولى / ابنة البقال .. قصة حياة مارجريت تاتشر

بترول السعودية ومذهب ابن حنبل .. وأوناسيس! / وديع فلسطين

حسام زكريا / أزمة الموسيقى الجادة .. إبداع أم تذوق؟

عام ٢٠٠٠ .. جنون البقر وجنون السياسة! / سلامة أحمد سلامة



Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND QATAR
EF001 HONGKONG EGYPT
EF254 YEMEN ETHIOPIA
EF261 NEWYORK JORDAN
EF255 SAUDIARABIA. BOTSWANA
EF013 KUWAIT KENYA
EF225 JORDAN NAMIBIA
EF420 EGYPT MOROCCO
EF540 SPAIN ZIMBABWE
EFG - Hermes

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الرابع والعشرون
يناير ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

•• كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها. ••

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- حسام زكريا.. باحث فى العلوم اللغوية والموسيقية.
- حسن أبو طالب.. مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- حسين عبد الله.. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- عاصم الدسوقى.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة حلوان.
- عز الدين نجيب.. فنان تشكيلى.
- كلود روسون.. ناقد أدبى.
- لندا كولى.. أستاذ البحوث التاريخية بكلية لندن للاقتصاد.
- ماجدة بركة.. باحثة فى العلوم الاجتماعية.
- محمد حسنين هيكل.. صحفى.
- محمد يوسف عدس... باحث فى التاريخ والشئون السياسية، مقيم فى انجلترا.
- محيى الدين اللباد... فنان ومصمم جرافيك.
- هارولد إيفانز... صحفى بريطانى.
- وديع فلسطين... صحفى، عضو مجمعى اللغة العربية فى سوريا والأردن.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - سعد الدين شحاتة**

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عددًا) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٢٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهمًا ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالاً ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمة..

عامان..

«وجهات نظر».. هذا هو العدد الرابع والعشرون.. عامان مرا على ولادة تلك المجلة التى استقبلها قراء العربية على تنوعهم، استقبالاً تفاوت بين الترحيب والقلق.

رحبَ بها من كانوا ينتظرون - ولا نقول يفتقدون - مطبوعةً عربيةً تدققُ اللفظَ والمعنى.. واختيارَ الموضوع، وتفضلُ النظر من مسافةٍ مناسبةٍ تسمح برؤيةٍ أعمق. تنظر «فى» المشهد، ولا تكتفى بالنظر «إليه». ولا تضطرُ إلى اللهاث خلف تدافع الأحداث، متأثرةً بالضرورة بلفح توهجها الآنى، فتدفع ثمنا حتميا من تحرٍ لدقةٍ مطلوبة، والتزامٍ بموضوعية واجبة.

وأشفقَ عليها - مبديا قلقه الطبيعي المشروع - أصدقاءٌ ظنوا أن الأصوات «الهادئة» قد لا تجد صدى فى ساحة امتلأت بالصخب والأصوات العالية.

وكان أن توسط «عِقد» كتابنا الكرام؛ محمد حسنين هيكل عميد كتاب الصحافة العربية المعاصرة، صديقا «دائما» للمجلة، وقلما يتصدر أقلامها. وفى حين رأى البعض فى ذلك حسما حتميا ومبكرا لمنافسة مفترضة مع مطبوعة جديدة، رآه القائمون على تلك المطبوعة تحديا يفرض عليهم صرامة الالتزام بمستوى مهنى «يليق».

وكمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية والأصول والمنابع والمرجعيات تُعنى «وجهات نظر» بشكل رئيسى بالكتب، والتى تمثلُ جزءا عزيزا من اسمها، إلا أنها لم تقصد ولم تحاول - أن تكون مجرد نافذة تقليدية لـ «عروض الكتب» بالمفهوم أو المعنى الذى استقر طويلاً فى صحافتنا العربية. فتلك حالةٌ قد تغنى فيها مطالعة الكتاب ذاته عن قراءة عرضه. «فوجهات نظر» - وهى بحكم الاسم و«الهدف» ساحة لـ «الرؤى المتمعنة» - عندما تعرض لكتاب أو «لوثيقة»، فإنما تقدم «قراءة» للأوراق تتضمن بالضرورة رؤية القارئ (الكاتب)، والتى يتصور القائمون على تلك المجلة أن لها خصوصيتها بالضرورة، بحكم تباين طبيعى فى الخبرة، واختلافٍ واردٍ فى زاوية النظر.

يفترض القائمون على تلك المجلة إذن أن «القراءة» التى تسعى إلى تقديمها هى فى التحليل النهائى «خلاصة» لمزيج متفاعلٍ حى بين الكاتب والكتاب.. أو لعلنا قائلون بين فكر «الكاتب» وأفكار «الكتاب».

و«الكتاب» لدى هذه المجلة هو كل ما كان مخطوطًا بحبرٍ على ورق، أو ومضات تلمع على شاشة، سواء طبعه الناشرون، أو بثته الشبكات، أو احتفظ به أمناءُ السر - بحكم وظيفتهم - وثائقَ فى ملفاتٍ تحمل أختاما حمراء، وترقد - إلى حين - خلف أبوابٍ مغلقة. و«الكاتب» عند تلك المجلة، لا ننتظر منه عادة أن يقدم لنا «ما فى» الكتاب، بل نتوقع دائما أن يقدم لنا «قراءته» هو لذلك الكتاب. ويبقى أن «المقال المستطرد»، وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية، قدمته «وجهات نظر» على الدوام فى مقالها الرئيس، وفى بعض من مقالاتها الأخرى. وفكرته الأساسية أنه يقف فى مكان وسط بين المقال الصحفى المقيد بحجمه المعتاد وبين الكتاب اللامحدود بطبيعته. وفكرة تقديم نموذج «المقال المستطرد» للقارئ العربى تعود إلى الأستاذ هيكل الذى رأى - ورأينا معه - «أن الومضة السريعة الآن للصورة وليست للكلمة، ذلك أن أى مهتم بالشأن العام سوف يتابع الخبر صورا متلاحقة على الشاشات المضيئة، لكنه يريد من الكلمة أن تذهب إلى ما وراء الصور. وأن تقول له على مهل ما الذى يجرى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ وأن تروى ذلك له على مهل..».

ورغم أن «وجهات نظر» تحرص - وكذا كتابها - على أن تمتد «قراءتهم» لتشمل «واقعا معاشا» لا يمكن إغفال أهميته أو تأثيره، إلا أنه - ويبقى للاستدراك هنا أهميته الخاصة - فبحكم طبيعتها أولاً، وبحكم دوريتها ثانيا، تستميح المجلة قراءها عذرا حين لا تَعُدّ أن من واجبها تقديم ما يجرى أو حتى التعليق الآنى عليه «والذى ربما كان متعجلاً بحكم عوامل توقيتٍ حاكمة، أو متأثرا بهوى مشاعر قربٍ غالبة»، و إنما تحاول تلك المجلة أن تقف - كلما كان ذلك ممكنا - على مسافة مناسبة من الحدث تسمح لها برؤية أوسع وأعمق.. وبالتالى أكثر وضوحا.

فى «وجهات نظر» كان قرارنا المبدئى أيضا - بحكم الاسم والهدف مرة أخرى - أن ندلل على الموقف الثابت من أن الاختلاف فى الرأى لا يتطلب غير «الحوار». وأن الحوار يعنى فى تفسيره الوحيد: تبادلاً لـ «وجهات نظر». فالمتابع للمجلة من عددها الأول لابد أن يلاحظ أنه ما من «رؤية» ضلت طريقها للنشر، فى حال توافر شروط «مهنية» لا ننكر صرامتها. إذ يعتقد القائمون على تلك المجلة صادقين بأن «للنظر زوايا مختلفة»، وأن رؤية مكتملة للمشهد - مع افتراض إمكان ذلك - لا تتأتى أبدا إلا بمطالعته من مختلف الزوايا.

ففى مواجهة ما بدا مرة - أو مرات - فى المشهد الثقافى والفكرى العربى، من أن الحوار «الحقيقى» يفسح مجاله عادة لصخب الخلط والصياح والضجيج والشجار، كان ضروريا أن تكون هناك «محاولة» لإزاحة غبار كثيف تراكم على تقاليد الحوار فى ثقافة سبقت فجعلت «للكلام» علما خاصا قبل عدة قرون. ولعله كان ضروريا أيضا أن تؤكد «وجهات نظر» أن للحوار آلياته. حيث يحدد الناس - بداية - حول ماذا يتحاورون، وما هى نقاط الاتفاق. وما هى تلك التى مازالت محلاً للخلاف. ومن ثم للحوار. ثم ما هى المرجعيات المتفق عليها، وما هى التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات. هنا - وهنا فقط - يبدأ تبادل «حقيقى» لوجهات النظر بين أطراف تعلم بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالى أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح.. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض.

يخرج هذا العدد من « وجهات نظر» للنور قبل أيام فقط من خروج الرئيس الأمريكى الوسيم بيل كلينتون من البيت الأبيض، وبعد عشرة سنوات كاملة من خروج مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء «الحديدية» من ١٠ داوننج ستريت. الرجل «الأمريكى» والمرأة «البريطانية»، على اختلافهما - ورغم تباين الأسباب - مثَّلا نموذجا غربيا لزعامات ما بعد عصر الزعامات. فكلينتون رغم كل ما هاج وماج حوله طوال ثمانى سنوات فى الحكم، لم يترك موقعه - ربما - إلا لأن القانون لا يسمح له بفترة رئاسة ثالثة. وتاتشر التى تركت مقر الحكم دامعة فى لقطة فوتوغرافية شهيرة، مازالت الغائب الحاضر فى الساحة السياسية البريطانية.

فى هذا العدد تقدم «وجهات نظر» قصة حياة ابنة البقال التى وصلت إلى سدة الحكم فى بريطانيا صاحبة الديموقراطية «الإمبراطورية» العريقة. كما تنشر بترتيب خاص مع «التيمس» اللندنية حوارا - ربما يكون الأخير - مع الرئيس الأمريكى الذى يترك مقعده فى العشرين من هذا الشهر. والحوار أجراه واحد من أكبر الأسماء فى الصحافة العالمية هو «هارولد إيفانز» (٧٢ سنة) والذى يعد رائدا لصحافة التحقيقات المعمقة، ومدافعا عن حقوق الإنسان. والذى تمكن مع زوجته «تينا براون» من أن يغزوا الصحافة الأمريكية فى عمق دارها «نيويورك»، فيصبح هو رئيسا لمجلس إدارة دار النشر الكبرى «راندوم هاوس»، فى حين تولت زوجته رئاسة تحرير الـ «نيويوركر» قبل أن تنشئ مجلتها الجديدة «توك».

ولأن معرفة الحقيقة فيما كان، ضروريا لفهم ما هو راهن، ولتَحسُّب ما هو قادم، فى وقت تتدافع فيه أمواج الأحداث والوقائع فى كل اتجاه باحثة عن شاطئ - ربما كان نهائيا - لتستقر عليه، يواصل هيكل «قراءته» فى هذا العدد للوثائق الإسرائيلية. ليختتم إطلالة أرادها، وأردناها معه فى هذا الوقت بالذات، على خفايا كواليس صنع القرار الإسرائيلى: الإستراتيجية، والتفاعل مع الداخل و«المحيط»، والمناورة.. وطول النفس. إطلالة ربما تقدم - لمن يريد - فهما لبعض ما يجرى فى ضوء كثير مما جرى. وتُذَكِّرُ - مع ما يجرى - بما نبه له الأستاذ قبل أشهر من خطورة اتجاه بدا حريصا - بقصد أو بدونه - على أن «تظل الأمة حبيسة لإحساس الهزيمة وأسيرة لذلها حتى تقبل فى أمورها الداخلية والخارجية ما هو مقبول منها أن تقبله، دون مراجعة أو احتجاج..».

وجهات نظر



محمد حسنين هيكل

عند ساعة الصفر

" معرفة الحقيقة فيما كان، ضرورى لفهم ما هو راهن ولفهم ما هو قادم "



١ إستراتيجيات

أشهد أننى أشعر بالحرج إذ أجد نفسى للمرة الرابعة واقفاً أمام الوثائق الإسرائيلية، وهاجسى أننى ربما أثقلت على قارئٍ تَفَضَّلَ واهتم.

لكنى من ناحية أخرى أواجه الشعور بالحَرَج مُتَعَلِّلاً بأن «سياحة صيف» فى الوثائق الإسرائيلية و«كتابة خريف وشتاء» عنها - لم تكن وقوفاً مع الماضى وذكرياته، وإنما كانت دراسة للمستقبل واشتراطاته.

ظني أن معرفة الحقيقة فيما كان، ضرورىٌ لفهم ما هو راهن ولفهم ما هو قادم. وأنه نادراً فى أى صراع ما تتاح الفرصة لطرفٍ كى يعرف كيف فَكَّرَ خصمه ودَبَّر ؟ وكيف خَطَّط لصراعاته وأدار مواقعها ؟ - فإذا أتيحت تلك الفرصة لطرف حتى يعرف، ثم يُطابق، ثم يستخلص، ثم يُزَوِّد إدراكه بما عرف وطابق واستخلص - إذن فالحَرَج من طول الوقوف مرفوع، والهواجس - أياً كانت دواعيها - غير مُبَرَّرة!

وهذه بطاقة توضيح، أو اعتذار، أسوقها استغفارا عن السفر - أو السياحة - مع الوثائق الإسرائيلية، والعودة المتكررة إلى أحاديثها أربعة شهور عبرت عليها الفصول صيفاً وخريفاً وشتاء!

□

ولأن هذا هو الحديث الرابع فى قراءة الوثائق الإسرائيلية - ولأنه الحديث الواصل بروايته مباشرة إلى ذلك الموعد مع الحرب فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ - فقد يكون مناسباً تلخيص وتركيز الرؤى الأساسية للصراع كما بَدَت للقيادات الإسرائيلية، وكما تَبَدَّت فى الوثائق الإسرائيلية، مَلَفّاً بعد مَلَف، ووَرَقَةً بعد وَرَقة، وتاشيرةً بعد تاشيرة!

□ وابتداء، وتحديداً - وبقصد التوصيف الذى يضمن قدراً لازماً من توافق الآراء مع مسار الحديث، ويَتَوَقَّى العودة إلى تكراره مرة أخرى بالتنازع مع بدهيات - فقد يمكن الاتفاق على مبدأ أن كل طَرَف مُؤَثِّر فى أى صراع يمارس بإرادته وفى فعله ثلاثة مستويات من السياسة :

— مستوى الإستراتيجية العليا - أى (وبصفة عامة وإجمالية) الهدف النهائى الذى تطلبه الإرادة ويحققه الفعل.

— ثم مستوى الإستراتيجية - أى الخطة أو الخطط القادرة على الطلب وتحقيقه.

— ثم مستوى التاكتيك - أى العمليات المباشرة التى تعتمدها الخطة أو الخطط فى حركتها نحو طلبها وتحقيقه.

□ □ □ فإذا أمكن الاتفاق على المبتدى وجرى تطبيق ذلك التوصيف ومقتضياته على الحالة الإسرائيلية فإن الصورة تظهر مبينة وشديدة الوضوح فى الوثائق :

□ على مستوى الإستراتيجية العليا - تطلب السياسة الإسرائيلية أن تستولى الدولة اليهودية بـ«الحق» الأسطورى على كل أرض فلسطين، ومُهِمَّة القيادة الإسرائيلية أن تُزَوِّد «الحق» الأسطورى



بالسلاح (من الرصاصة إلى القنبلة الذرية)، وبالمال (من شراء الأراضى إلى طرد ملاكها)، وبالنفوذ الدولى (من برلين وموسكو إلى لندن ونيويورك).

والدولة اليهودية بعد أن تقوم سوف تفهم بعُمق أنه وإن كانت حدودها الرسمية هى كامل أرض إسرائيل (كل فلسطين)، فإن حدودها الفعلية لا بد أن تنتشر فى كل منطقة الشام التاريخية، وإمكاناتها الإنسانية والثقافية، ومواردها الطبيعية والاقتصادية. وبدون ذلك الانتشار فإن الدولة اليهودية تصبح قلعة مُحاصَرة وليست مشروعاً تتأكد حيويته بانتشار قوته ونفاذ سلطانه.

□ على مستوى الإستراتيجية فإن مطالب الإستراتيجية العليا لدولة إسرائيل تقتضى عزل الشام التاريخى عن الواديين الكبيرين فى الشرق والغرب : فى الشرق وادى الفرات (العراق) وفى الغرب وادى النيل (مصر) - وذلك لأنه فى هذين الواديين تُوجَد إمكانيات كبيرة، وعُمق واسع وعريض يمثل امتدادا للشام فسيحاً بالجغرافيا وبالتاريخ معاً، ومَدَداً للقوة يصعب أن ينضب.

وكان نزوع العراق ومصر إلى الشام هو مُحَرِّك تاريخ المنطقة فى مراحل استقلالها، على أنه فى بعض الأحيان تَحَوَّلَ النزوع من وادى الفرات أو وادى النيل إلى نزاع بين الواديين، مع ملاحظة أن الشام لم يكن فراغاً بين الواديين - وإنما كان الشام طَرَفاً حَيّاً نشيطاً وفاعِلاً يميل إلى هذه الناحية أو يميل إلى تلك، ومع ميله على هذه الناحية أو تلك تتحرك موازين القوة فى المنطقة.

وفى العصور الحديثة - وفى واقع الأمر منذ عهد «محمد على» - فإن نزوع مصر نحو الشام زاد - كما أن ميل الشام إلى مصر لاقاه، وكانت النتيجة فَوَراناً فى الإقليم شديد تواصلت تاثيراته من أيام «محمد على» إلى أيام «جمال عبد الناصر».

وعلى طول هذه المساحة من الزَمَن فإن كل قوة طلبت السيطرة على المنطقة أو فيها - اعتمدت أو كان عليها أن تَعتَمِد إستراتيجية عزل الشام عن مصر أو عزل مصر عن الشام.

وبما أن المطلوب كان الحصول على منطقة الشام صحيحة وسليمة فإن الوسيلة الإستراتيجية المثالية - حَدَّدَت نفسها فى مطلب عزل مصر، فإذا استحال عزلها تَوَجَّبَ ضربها.

وكان صميم المشكلة أن حركة مصر فى حالة يقظتها عائدة باستمرار إلى الشام، فمن هناك تلقت الحضارة المصرية بعد انطلاقاتها الفرعونية الأولى كل المؤثرات التى صاغت شخصيتها فى التاريخ الوسيط والحديث، فمن ناحية الشام أو عن طريقه جاءت إلى مصر الديانتان الرئيسيتان فيها : المسيحية والإسلام. ومن ناحيته جاءتها لغتها العربية بكل حمولاتها الثقافية والحضارية - الشرعية والقانونية - الأدبية والفنية.

ثم إن هناك فى الشام تَرَكَّزَت ضرورات الأمن الوطنى والقومى لمصر، فتلك هى البَوَّابة التى جاءت منها الإمبراطوريات الغازية من «قمبيز» الفارسى إلى «سليم» الثانى «العثمانى» إلى «فيكتوريا» البريطانية - ومنها جاءت كل الحملات العسكرية مُتَنَوِّعة شعاراتها وأعلامها!

هناك أيضاً أنه فى الشام وحوله تَرامت المصالح التجارية الكبرى، سواء تلك المسافرة جيئةً وذهاباً على طريق الحرير من أقصى الشرق إلى حَلَب - أو تلك المسافرة جيئةً وذهاباً على طريق السويس من أقصى الشمال إلى بومباى - وكانت تلك هى طُرُق التجارة القديمة. وزاد عليها فى الأزمنة الحديثة تَفَجُّر البترول، وكذلك تَحَوَّلت المنطقة إلى حُقول لإنتاجه أو مَمَرَّات ومَعابر لنقله.

□ وعلى مستوى التاكتيك الإسرائيلى - أى مستوى العمليات - وترتيباً على كل ما سَبَق فإن الجبهة المصرية فى سيناء أصبح مُحَتَّماً عليها أن تكون الجبهة التى تتلقى أول الضربات وأوجع الضربات : حتى تتوقى الخطر وتخاف، أو تُصاب بالعاهة إذا هى أقدمت، أو تُعَرِّض نفسها للقتل إذا أصَرَّت وعانَدَت.

والشاهد أن ذلك كان الأساس الذى بنى عليه الجنرال «أهارون ياريف» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية صيغته البليغة فى شأن أى عَمَل عسكرى إسرائيلى مُحتَمَل :

فى الشام : صَيْدٌ بالشَبَكة لا تَقتُل ولا تُسيل دَماً.

فى مصر : صَيْدٌ بالـ«هاربون» Harpoon (الرُمح المقذوف) : يَجرَح أو يَقتُل!

□

ويمكن القول إنه لعدة قرون فإن حروب السيطرة ضدَّ شعوب آسيا وأفريقيا وغيرها كانت ولاتزال تجملها صيغة تلخص المطلوب بأنه : الفصل بين الجغرافيا والتاريخ - أى الفصل بين الأرض والبَشَر داخل الوطن المستهدَف بالحرب - فإذا وَقَعَ ذلك فإن كل الأهداف تَتَحَقَّق لطلابها تلقائياً - واحداً بعد الآخر.

□ لأنه إذا انفصلت الأرض (الجغرافيا) عن التاريخ سقطت مناعتها. فإذا كانت أهميتها الإستراتيجية سابقة على غيرها من المزايا - فُتحَت لاحتلال الجيوش. وإذا سبقت أهميتها الاقتصادية - انفتحت لهجرة المستوطنين أو لسيطرة البنوك.

□ ثم إن الناس (التاريخ) إذا انفصلوا عن الجغرافيا سقطوا فى الضياع - وتَمَّ بسهولة إخضاعهم بالجيوش، أو جَرى - ولو بصعوبة - تطويعهم بأنواع من الاستلاب - أهمها استلاب الهَوِيَّة.

وكانت تلك بالضبط - وكما يشهد كل مَلَفٍّ وكل ورقة وكل سطر - فيما أتيح لغيرى - ولى - من الوثائق الإسرائيلية - هى إستراتيجية الدولة اليهودية :

● الفصل بين الجغرافيا والتاريخ داخل فلسطين - لتخلو الأرض ويَتَشَرَّد السكان - وتثبت قوة الاحتلال الجديد، ويَهتَز رباط الهَوِيَّة القديمة.

● والفصل بين الجغرافيا والتاريخ حول فلسطين - لينقسم العالم العربى على تباعُد قارتين : آسيا وأفريقيا - ويغيب التاريخ مَنفياً عن الوَعى!

ولعل ذلك كان بالضبط - أيضاً - هو المنطق الذى أملى على إسرائيل سياسة الصيد بالشَبَكة فى الشام، والصيد بالـ«هاربون» Harpoonn (الرُمح المقذوف) فى مصر.

هناك - فى الشام - لم تكن ضرورات الفصل بين الجغرافيا والتاريخ - تقتضى قتلاً ودَماً - وإنما إعادة رسم خريطة (طرد فى فلسطين وانتشار حولها).

وهنا - فى مصر - كانت ضرورات الفصل بين الأرض والناس - تقتضى قتلاً ودَماً - لأنه مع استحالة رسم خرائط جديدة، فإن خطوط الحدود ينبغى تثبيتها بحيث لا يكون وراء خطوط الحدود خروج للاثنين : لا للمكان (الجغرافيا) ولا للبَشَر (التاريخ).

وربما أن الفشل فى الفصل بين الجغرافيا والتاريخ فى الحالة العربية هو الذى جَعَلَ نتائج الحرب فى يونيو سنة ١٩٦٧ - نجاحاً كبيراً دون أن يكون انتصارا كبيراً - وبكل الفوارق الواسعة بين النجاح (success) وبين النصر (victory).

ذلك أن طَرَفاً من الأطراف يستطيع أن ينجح فى «فعل» الحرب - لكن ذلك لا يضمن له «معنى» النصر.

لأن «النجاح» شىء و«النصر» شىء آخر، وليس من الضرورى أن يتطابق الشيئان!

ولعل المسئول الأول عن الفشل الإسرائيلى فى الفصل بين الجغرافيا والتاريخ بما أدى إلى تنازل «الفعل» الإسرائيلى من «نصر» إلى «نجاح» سنة ١٩٦٧ - هو حماقة القوة وغرورها مما اعترى العسكريين الإسرائيليين فى ذروة معارك سنة ١٩٦٧ - فإذا هم ينسون الإستراتيجية العليا للدولة اليهودية كما وضعها المؤسسون الأول (وعلى رأسهم «دافيد بن جوريون») - وينساقون وراء خيالات زَيَّنَها لهم وأغراهم بها «نجاح» بدا حجمه أكبر مما تَوَقَّعوا وقَدَّروا وقاتلوا.

على أن قراءة واستقراء الوثائق الإسرائيلية - من يناير إلى يونيو ١٩٦٧ - قادرة أكثر على إيضاح وجلاء ذلك الفارق الهائل بين «النجاح» و«النصر»!



٢ الطعم !

من الحقائق التى تؤكدها قراءة الوثائق الإسرائيلية - إذا كانت هذه الحقائق تحتاج إلى تأكيد جديد - أن السياسة من ألفها إلى يائها عملية إنسانية، يفكر فيها بَشَر، ويُخطط لها بَشَر، ويديرها بَشَر. وعلى هذا الأساس فكل سياسة مهما كانت دِقَّة تصميمها، ومهما كانت كفاءة الوسائل التى توضع تحت تصرفها، ومهما كان وضوح وجرأة المطلوب منها - تبقى مكشوفة ومُعَرَّضة لكل ما يعترى الفعل البَشَرى من قوة وضَعف، ومن هِمَّة وقُصور، ومن حَذَر وجُموح.

ومن ذلك ما تكشفه الوثائق الإسرائيلية من مفارقات فى شأن موعد إسرائيل مع الحرب فى صيف سنة ١٩٦٧.

والمفارقة الأكبر أن عشرات العوامل الموضوعية كانت تشير وتُوَجِّه وتدفع إلى معركة مع مصر فى ذلك الموعد (من صيف سنة ١٩٦٧) - لكنه عندما اقترب الموعد بانَ شىء من التَرَدُّد فى اللحظة الأخيرة قبل اتخاذ القرار.

والتفسير المنطقى لهذه المفارقة هو «إنسانية» الحرب، وسببه قيام البَشَر على كل أمورها وأولها اتخاذ القرار، ذلك أن أى بَشَر - أى إنسان - قد يحزم أمره على شىء - حتى الحرب - ويمضى فيه إلى قرب آخر الشوط. لكنه عندما يقترب من اللحظة الأخيرة يُعاود التفكير لأن الخطر اقترب، ولأن العواقب وشيكة، ولأن احتمال المفاجأة حالٌ، ولأن ظنون اللحظة الأخيرة تَزوره هواجسها لتسأله : إذا لم تكن لديه وسائل أخرى غير ما انتوى - تكون أقل مخاطرة وتكلفة - وكافية لأن تُحَقِّق له ما يريد ؟

يحدث ذلك للبَشَر العاديين وغير العاديين، بمعنى أن التصميم المسبق، والتخطيط الموثوق فيه لا يمنع أى قيادة مسئولة أن تعاود النظر فيما صَمَّمَت عليه وخَطَّطَت له قبل أن تجىء القفزة الأخيرة - خصوصاً إذا كانت هذه القفزة الأخيرة واسعة وعبر بحور من النار، قد يسهل إشعالها بعود ثقاب واحد، ولكن قد يصعب التَحَكُّم فيها إذا لم تكن السيطرة عليها مُحكَمة ومُؤَمَّنة حتى ضدَّ هَبَّة ريح من اتجاه خاطئ إلى اتجاه خَطَر!



الفشل الإسرائيلى فى الفصل بين الجغرافيا والتاريخ فى الحالة العربية هو الذى جعل نتائج الحرب فى يونيو سنة ١٩٦٧، نجاحا كبيرا دون أن يكون انتصارا كبيرا

□

وفى ربيع سنة ١٩٦٧ - ما بين مارس إلى مايو - كانت الخطة الإسرائيلية لتوجيه ضربة قوية إلى مصر بالرُمْح المقذوف (harpoon) شبه جاهزة، وكان الطُعم الذى تَقَرَّرَ استعماله لاستدراج «الصَيْد الكبير» بعيداً عن مكامن الصخر - يَسبح فعلاً فى الماء، أو هو على وشك السباحة!

كانت أسباب الملاءمة قد رجحت أن يكون الطُعم الذى يستدرج مصر خارج مكامن الصخر - طُعماً سورياً. وهذه الأسباب كما يلى :

- أن هجوماً مباشراً على مصر لابد أن تكون له ذريعة مقبولة سياسياً - على المستوى الدولى. ومصر فيما يبدو من تصرفاتها على حدودها حريصة تلك الأيام - على الأقل - بسبب وجود جزء من قواتها فى اليمن.

- أن الأحوال العامة فى سوريا مُتَهَيِّجة : سواء بسبب شعلة الحماسة المتَوَقِّدة تقليدياً فى دمشق، أو بسبب اندفاعات عناصر مُعَيَّنة فى القيادة السورية بدَت وقتها مستعدة للمغامرة، وضمنها من يعرف إلى أين يقصد ؟ وضمنها من يسوقه التيار إلى حيث لا يعرف وربما لا يريد.

- أن طُعماً سورياً ينسجم تمام الانسجام مع مطلب إبعاد مصر عن الشام وحصرها فى أفريقيا : وراء سيناء أو وراء قناة السويس. ذلك أنه إذا تَرَدَّدَت مصر فى ابتلاع طُعم سورى تَبَدَّى عجزها، وإذا ابتلعته وحاولت أن تهرب به تَبَدَّى ضعفها، وإذا ابتلعته ولم تَهرَب ووَصَلَ الرُمح المقذوف إلى جسدها فجرح أو قتل فذلك هو المطلوب لإقناع الشام أنه ليس لها أن تتوقع من مصر نجدة أو تنتظر سَنَداً - أو أى شىء!

وكذلك فإنه فى أوائل شهر أبريل ١٩٦٧ - كان الطُعم السورى جاهزاً - سَمَكة حَيَّة تَلمَع قشرتها فى مياه بحيرة «طبرية»!

□

كانت بحيرة «طبرية» والمياه المنجَدِرة

إليها من المرتفعات السورية واللبنانية مصدر تَوَتُّر جاهز للتصعيد على مستوى المنطقة وحسب الطلب!

ويَستَشهِد الأستاذ «آفى شلايم» فى كتابه الهام عن علاَقات إسرائيل بالعالم العربى - بوثيقة واضحة الدلالة منسوبة إلى الجنرال «إسرائيل ليور» وهو وقتها المستشار العسكرى لرئيس الوزراء الإسرائيلى «ليفى أشكول» - وَرَدَ فيها قول الجنرال «ليور» (صفحة ٢٢٩) بما نصه :

«لم يكن لدىَّ شك أن ما يجرى على الجبهة السورية من أفعال وردود أفعال سوف يؤدى بالمنطقة إلى الحرب الشاملة فى أى وقت!»

ويضيف الجنرال «ليور» :

«كانت هناك بالفعل عند شمال إسرائيل حرب يقودها رئيس الأركان الجنرال «إسحاق رابين» ويساعده فيها قائد الجبهة الشمالية الجنرال «دافيد إليعازر». وكان «رابين» و«إليعازر» لا يَكُفان عن تحريك عمليات قتالية حول منابع المياه، وفى طلب السيطرة على المناطق المنزوعة السلاح. وقد أصبحت هذه العمليات جزءاً من حياة كل يوم فى تلك المنطقة».

ويضيف «شلايم» إلى هذه الشهادة تعزيزاً لها على لسان الجنرال «موشى ديان» ضمن حديث لصحيفة «يديعوت أهارونوت» (صفحة ٢٣٥) حيث يقول «ديان» ما نصه :

«لم يكن السوريون مسئولين بصفة عامة عن نشوب العمليات فى الشمال. نحن كنا نَستَفِز السوريين عَمْداً. وفى ٨٠٪ من عمليات القتال كنا نحن الذين بدأنا. كان أسلوبنا فى استفزازهم عندما نريد سَهْلاً. فى العادة كنا ندفع بجَرَّار يحرث أرضاً، أى أرض فى المنطقة المنزوعة السلاح. عارفين مقدماً أن السوريين سوف يطلقون النار على الجَرَّار. وعندما كان رد الفعل السورى يتأخر كنا نأمر قائد الجَرَّار أن يتقدم أكثر نحو المواقع السورية حتى يصبح الاستفزاز إثارة لا تُحتَمَل. وعلى أى حال فإنه إذا تأخر السوريون فى إطلاق النار كنا نحن نُطلِق. وعندما يَرُدون - مُضطرين! - تتدخل المدفعية الثقيلة والطيران لتوسيع نطاق المعارك إلى الحَدِّ الذى يُلائِم أهدافنا السياسية!»

□

يوم ٧ أبريل سَبَحَ الطُعم السورى - عبر بحيرة «طبرية» - بعيداً فى المياه الواسعة الزرقاء!

فى الصباح الباكر من ذلك اليوم اندفع جَرَّار إسرائيلى إلى الحرث فى المنطقة المنزوعة السلاح فى مواجهة مستعمرة «هاأون» على الشواطئ الشرقية لبحيرة «طبرية». ولم تَرُد المواقع السورية فى البداية، وتَقَدَّم الجَرَّار الإسرائيلى أكثر. وأطلقت المواقع السورية دفعة طلقات من مدفع رشاش واحد، وصَدَرَ الأمر (من قائد الجبهة الشمالية الجنرال «دافيد إليعازر» وبالتنسيق مع رئيس الأركان «إسحاق رابين») - بأن تتحرك وحدة مدرعات وأن تقوم دباباتها بتدمير الموقع السورى الذى أطلق النار (وكان هذا الموقع بشهادة الجنرال «ليور» قد سَكَتَ قبلها بنصف ساعة!)

وعندما تَقَدَّمَت الدبابات الإسرائيلية لدَكّ الموقع السورى - فإن مواقع أخرى قريبة منه حاولت منع الدبابات الإسرائيلية من الوصول إليه. وفى نفس اللحظة اتصل الجنرال «إسحاق رابين» رئيس الأركان. برئيس الوزراء «ليفى أشكول» يطلب إذنه باستعمال الطيران الإسرائيلى لمعاونة الدبابات، وحين ظهرت الطائرات الإسرائيلية وبدأت تضرب المواقع السورية فإن الطيران السورى حاول التصدى لها، ولكن الطيران الإسرائيلى كان مستعداً بكمين جوى تمكن فى دقائق من إسقاط ست مقاتلات سورية وَقَعَ حطام طائرتين منها فى وسط العاصمة السورية التى لا تبعد عن الجبهة بأكثر من أربعين كيلومترا على الأرض!

وارتفعت الحرارة إلى قرب درجة الحُمَّى وبَلَغَت حَدَّ الخطر عندما لحق بمذبَحَة الطائرات سيلٌ من التهديدات الإسرائيلية مُتَّجِه نحو دمشق. وفى تلك الفترة - أوائل مايو - كانت معظم التهديدات خارجة من قيادة الجبهة الشمالية، والصوت الذى يُزيد فيها ويُعيد حتى بدون مناسبة هو الجنرال «دافيد إليعازر» قائد الجبهة الشمالية. لكنه بعد أيام انتقل صوت النذير من قيادة الجبهة الشمالية إلى رئاسة الوزارة فى تل أبيب وبصوت رئيس الوزراء «ليفى أشكول»!

□

ويوم ٩ مايو (وطبقاً للمَراجع الإسرائيلية العلنية وليس الوثائق السرِّية فقط) كانت تصريحات «ليفى أشكول» بمثابة ضوء أخضر سياسى أعطاه رئيس الوزراء لقادته العسكريين قائلاً فى تصريح صحفى نُشِرَ ذلك اليوم : «إننا قد نحتاج فى المستقبل القريب إلى تلقين السوريين درساً أقسى من الدرس الذى تلقوه قبل شهر» (إسقاط ٦ طائرات سورية يوم ٧ أبريل).



ديان:
«نحن كنا نستفز السوريين عمداً .
وفى ٨٠٪ من عمليات القتال
كنا نحن الذين بدأنا . كان
أسلوبنا فى استفزازهم
عندما نريد سهلاً»

ثم دخل رئيس الأركان «إسحاق رابين» إلى الحلبة ووَصَل بصوت التهديد إلى الذروة فى الفترة ما بين ٩ إلى ١٢ مايو مُنذِراً بأن «جيش الدفاع على استعداد لاحتلال العاصمة السورية دمشق وإسقاط النظام فيها عقاباً له على تشجيعه لعمليات تخريبية تجرى من الأراضى السورية ضدَّ المستوطنات الإسرائيلية شمال إسرائيل»!

وفى يوم ١٣ مايو عادَ «أشكول» بقوة - لتعزيز إنذار رئيس أركان حربه. فأدلى بتصريحات نقلتها كل الصحف الإسرائيلية فى ذلك اليوم قال فيها : «على الجماعة الحاكمة فى دمشق أن تعرف أن خطوط الحدود الدولية لا تعطى حصانة لطَرَف يَتَصَوَّر أنه آمنٌ وراءها. إن جيش الدفاع جاهزٌ فوْر صدور الأمر له باقتحام الحدود الدولية و دخول دمشق نفسها. ونقل درس ٧ أبريل من الجو إلى الأرض. وإسقاط النظام الحاكم وإزاحة بقاياه تماماً».

وبشهادة الجنرال «ديان» فقد كانت هناك «تحركات شملت مجموعات كتائب وألوية راحت تقترب من الحدود السورية، ثم تلتف عائدة. وكانت هناك تعزيزات للجبهة السورية متواصلة. بعضها أقام فى الجبهة، وبعضها زارها وعاد!».

وضمن هذه الأجواء وَصَلَت التحذيرات السوفيتية إلى القاهرة بوجود خطر وحشود عسكرية إسرائيلية ضدَّ دمشق، وكانت تلك هى التحذيرات التى أبلغها رئيس الوزراء السوفيتى «أليكسى كوسيجين» لرئيس مجلس الأمة المصرى «أنور السادات»، الذى مَرَّ بموسكو ذاهباً إلى كوريا الشمالية وعائداً منها.

هكذا صَدَرَ الأمر إلى الفريق «محمد فوزى» رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالتَوَجُّه فوْراً إلى دمشق يوم ١٣ مايو فى مُهِمَّة بحث وتقصِّى. وعندما عاد الفريق «محمد فوزى» فى ساعة متأخرة من مساء نفس اليوم يقول إنه «على حَدِّ ما سمع ورأى لا توجد الآن حُشودٌ على الحدود السورية» - لم يكن هناك فى القاهرة من يستطيع تجاهُل تدافُع الحوادث على الجبهة السورية. ولا تجاهُل سَيْل التهديدات التى يُوَجِّهها قادة إسرائيل إليها كل يوم وكل ساعة وتأثيرها على الوضع العربى العام.

وحتى عندما وَصَلَت رسالة الملك «حسين» إلى «جمال عبد الناصر» عبر الفريق «عبد المنعم رياض»، فإن هذه الرسالة لم تستطع أن تُغَيِّر شيئاً. ومع أن الرسالة جاء فيها أن «الملك لديه ما يدعوه لليقين بأن هناك فخاً يُدَبَّر للجمهورية العربية المتحدة وللرئيس جمال عبد الناصر. وأن هناك محاولة لتوريطهم فى حرب مُسَلَّحة لا تُلائمهم ظروفها. وأن «الجماعة» فى سوريا مُختَرَقون وبعضهم مُتَواطِئ مع جهات لديها خططها. والفكرة الأساسية فى هذه الخطط الآن هى إشعال الموقف على الجبهة السورية بما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجدة سوريا. وهنا تصبح مصر هى الهَدَف ويجرى ضربها..» - فإن هذه الرسالة عندما قُرِئت فى القاهرة كان الوقت مُتأخِراً جداً. لأن الجيش المصرى بدأ حركته بالفعل داخلاً بقوات كثيفة إلى الجبهة عبر سيناء!



٣ خطط

إن الأسباب التى دَعَت إلى دخول حشود قوات الجيش المصرى فى سيناء لم تكن سراً مفاجئاً لإسرائيل - لا للقيادة السياسية فيها مُمَثَّلة فى الوزارة برئاسة «ليفى أشكول» - ولا للمؤسسة العسكرية هناك كما تمثلها هيئة الأركان بقيادة «إسحاق رابين».

ويشير تقرير للجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء الإسرائيلى مُسَجَّل فى الملفات بتاريخ ١٦ مايو ١٩٦٧ إلى أنه «لم يكن فى مقدور القيادة المصرية أن ترى الأجواء السياسية المسيطرة على دمشق والمحيطة بسوريا ثم تقف ساكتة. ولو أنها فعلت ذلك لفَقَدَت ليس فقط دورها القيادى فى العالم العربى، وإنما مصداقيتها كدولة مُؤثرة فى هذا العالم العربى. إن القيادة المصرية كانت تحت ضغوط لا تُحتَمَل، وقد اشتدت هذه الضغوط منذ العمل العسكرى الذى قمنا به (إسرائيل) على منطقة «السموع» فى الأردن. وقد كثف خصوم مصر السياسيون فى الأردن والسعودية حملاتهم ضدَّ مصر لما اعتبروه تَقاعُساً من جانبها عن مساعدة الجيش الأردنى فى «السموع»، وقد وَصَلَ هؤلاء الخصوم إلى حَدِّ اتهام مصر بـ«الخوف والجُبْن والتوارى وراء قوات الطوارئ فى سيناء». وأمام هذه الحملات فقد كان من المستحيل سياسياً وإنسانياً على القيادة

المصرية أن تقف موقف المتفرِّج حيال ما يجرى حول سوريا!».

وقد كانت استجابة مصر على هذا النحو لأحداث سوريا هى بالضبط ما أرادته إسرائيل وما بنت عليه خططها لموعدها مع الحرب فى صيف ١٩٦٧، وما راحت من أجله تعد الطُعم، وما جَهَّزَت لتنفيذه برمحها المقذوف (Harpoon) ينطلق مُوَجَّهاً إلى مصر فيُصيب. يَجرَح على الأقل، أو يَقتُل إذا غاصَ سِنُّه فى موضع للقتل!

□

ومع ذلك فإن الطبيعة الإنسانية لقرار الحرب راحت فى تلك اللحظة تُمارس دورها فإذا إسرائيل تَتَرَدَّد.

ولم يكن التَرَدُّد «خوفاً» من الحشود العسكرية المصرية فى سيناء لأسباب يسهل حسابها :

ـ فهذه الحشود لم تكن عَمَلاً مصرياً «مُفاجئاً» ـ وإنما عَمَلاً مُتَوَقَّعاً (وفى الغالب مطلوباً).

ـ ثم إن هذه الحشود لم يكن لديها ـ فيما تعرف إسرائيل ـ سلاح جديد قادر على قلب الموازين.

ـ وأخيراً فإن «نيَّة» هذه الحشود بدت سياسية فى طابعها العام أكثر منها عسكرية، ذلك أن طريقة دفعها إلى سيناء والإعلان الواسع عن تحركاتها لم يدع لأحد مجالاً للشك فى أن الهَدَف كان «التحذير» وليس «الردع».

ومن باب ما هو «مُؤَكَّد»، وليس من باب «الظن» فإن هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية («آمان») بعثت إلى مكتب رئيس الوزراء صباح يوم ١٥ مايو ١٩٦٧ (أى بعد تَدَفُّق القوات المصرية إلى سيناء) ـ تقريراً ـ تَحفظه الملفات ـ عن تقديرها لـ«نوايا مصر» جاء فيه بالنص :

«لا يخالجنا شك فى أن هذه الحشود الضخمة ليست إجراء عسكرياً على نحو ما عرفنا عن العملية «روتم» سنة ١٩٦٠.

....

....

[وكانت هذه إشارة إلى دخول سابق لقوات كثيفة من الجيش المصرى إلى سيناء سراً سنة ١٩٦٠، وكان دخولها فى ظروف غارة إسرائيلية على منطقة «التوافيق» فى سوريا، وقد بلغ حجم القوات المصرية التى دَخَلَت سيناء سراً قرابة فرقتين (أكثر من أربعين ألف مُقاتل) ـ ولم تشعر إسرائيل بدخولها إلا عندما قامت الولايات المتحدة بإخطارها بناء على معلومات لديها بأنها «نائمة فى العَسَل»! لا تعرف ما يجرى على حدودها.»]

....

....

ويستطرد تقرير «آمان» يوم ١٥ مايو ١٩٦٧، وهو بتوقيع الجنرال «أهارون ياريف»، ليقول : «هذه المرة تختلف الحشود المصرية عن المرة السابقة. وهذه المرة لا يخالجنا شك من أى نوع فى أن هذه الحشود الحالية سوف تُعاد إلى مواقعها الأصلية غرب قناة السويس إذا بدا أن حدة التوتر على الحدود الشمالية مع سوريا تَخِف».

ومن الملاحَظ أن هذا التقرير الذى كتبته هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية «آمان» يحمل على هامشه تعليقاً بتوقيع الجنرال «إسحاق رابين» رئيس هيئة أركان الحرب يقول فيه أن «هذه الحشود المصرية ليست مُفاجِئة لى».

وإذن فإن إسرائيل كانت تعرف «بالحساب»، لكنها لبعض الوقت تَرَدَّدَت بما هو «إنسانى» ـ يَتَصَرَّف به البَشَر ويصنعه البَشَر!

□

وطبقاً لأوراق الجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء ـ وهى من أهم الوثائق عن وقائع الأيام التالية لظهور الحشود المصرية فى سيناء وحتى قرار إغلاق خليج «العقبة» ـ فإن الصورة من مكتب «ليفى أشكول» بدت على النحو التالى:

يوم ١٥ مايو عُقِدَ اجتماع لمجلس الوزراء على هيئة مجلس أمن قومى وتَقَرَّرَ :

١ ـ أن العدو الرئيسى هو مصر، وتوجيه ضربة قوية و«مُهينة» ضدَّ هذا العَدُو الرئيسى هو هدف «عمليات الردع» التى يَتَوَجَّب أن تقوم بها إسرائيل ضِدَّ «الاستفزازات المصرية»!

٢ ـ تَمَّ بحث وإقرار خطتين بديلتين للعمل العسكرى الإسرائيلى ضدَّ مصر :

● الخطة الأولى (واسمها الرمزى «آتزمون») وهى تقضى بقيام القوات الإسرائيلية باحتلال قطاع غزة، والالتفاف داخل الحدود المصرية والاستيلاء على العريش وقطعها (هى ورَفَح)، ثم رَدٍّ وتدمير أى هَجَمات مُضادة تقوم بها القوات المصرية فى هذا القطاع.

● والخطة الثانية (واسمها الرمزى «كاردوم») وهى تقضى بقيام القوات الإسرائيلية بتوسيع هجومها باحتلال شمال سيناء حتى «جبل لبنى»، والتمسك بهذه المناطق (غزة والعريش وشمال سيناء حتى جبل لبنى) حتى يتغير الموقف المصرى.

٣ ـ تَقَرَّرَ تنفيذ الخطة الأولى واعتبارها كافية لتوجيه ضربة قاسية إلى الجيش المصرى ـ وإلى هيبة السياسة المصرية وإظهار عجزها عن حماية أرضٍ فلسطينية (قطاع غزة) تحت مسئوليتها ـ وعجزها عن حماية حدودها نفسها (رغم كل دعاواها بالقُدرة على حماية الأمة العربية).

....

....

[ويستحق الإشارة هنا أن المخابرات المصرية تَلَقَّت معلومات عن ثلاث خطط إسرائيلية مُعتَمَدَة للتنفيذ :

ـ خطة لاحتلال قطاع غزة (وتُعَزِّز الوثائق الإسرائيلية صحَّة هذه المعلومات).

ـ وخطة للتَوَغُّل فى سيناء إلى منطقة «جبل لبنى»، وكانت المعلومات التى وَصَلَت إلى المخابرات المصرية تشير إلى أن التَوَغُّل الإسرائيلى سوف يصل إلى «شرم الشيخ» (وتُعَزِّز الوثائق الإسرائيلية صِحَّة هذه المعلومات أيضاً).

ـ ثم كانت هناك خطة ثالثة وَصَلَت إلى المخابرات المصرية من نيويورك، وكان مُؤدى هذه الخطة أن إسرائيل «جَهَّزَت» لعملية تَستَهدف احتلال منطقة «السد العالى»، وقطع مَوارد الكهرباء ـ على الأقل ـ وتبديد كميات من مياه النيل المحتَجَزة وراءه عن طريق تصريفها فى مفيض «توشكى» إذا أمكن، إلى جانب نسف بعض المنشآت. وكانت تلك المعلومات هى السبب فى وصول تعزيزات بَرِّية كبيرة إلى مواقع السد العالى (ما بين ٢٥ إلى ٣٠ مايو) وتكثيف بطاريات الصواريخ التى تحميه بما يكفل تحويل المنطقة إلى «ميدان قتل» مُؤَكَّد لأية قوات إسرائيلية تحاول العمل فيه أو بقربه (ولم يظهر فيما رأيت من الوثائق الإسرائيلية ما يُشير إلى صَحَّة المعلومات عن هذه الخطة التى وَصَلَت إلى القاهرة من نيويورك وعن مصدر أعتبر فى ذلك الوقت مَوثوقاً به!)]

....

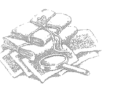
....

وطبقاً لمحضر نفس الاجتماع لمجلس الوزراء على هيئة مجلس أمن قومى وتكملة للقرارات السابقة :

٤ ـ على الجبهة السورية هناك تصريح بعمليات دفاعية عند الضرورة، وتكون محصورة فى الحدود اللازمة لا تَتَوَسَّع فيها!

(وكان ذلك غريباً بالنظر إلى أن الجبهة السورية كانت فى تلك الظروف بؤرة القلاقل التى تَصاعَدَت معها الأزمة كلها).

٥ ـ على الجبهة الأردنية حَذرٌ وتَرَقُّبٌ دون التَوَرُّط فى أية اشتباكات إلا بإذنٍ خاص من وزير الدفاع (وهو نفسه حتى تلك اللحظة رئيس الوزراء «ليفى أشكول»!)



٤ لغز

يوم ١٧ مايو وقع تطور يظهر فى الوثائق الإسرائيلية على أنه حَدَثٌ «بالغ الخطورة» ـ إلى درجة أن بعض التقارير الإسرائيلية تجعل منه «نقطة التَحَوُّل الرئيسية فى مجرى حرب يونيو سنة ١٩٦٧»، وضمن هذه التقارير ما كتبه الجنرال «إيزر وايزمان» (مدير العمليات) والجنرال «موردخاى هود» (قائد الطيران) ـ فى حين أن الجنرال «إسحاق رابين» (رئيس هيئة أركان الحرب) احتار ولم يكن قادراً على تقدير درجة التهديد المتمثلة فى هذا «التَطَوُّر»!

ومن المثير للدهشة أن هذا «التطوُّر» الذى أحدث هَزَّة داخل المؤسسة العسكرية الإسرائيلية فى تلك اللحظات «الخطيرة» لم تَبْدُ له نفس الأهمية فى دائرة صنع القرار فى مصر.

كان مؤدى «التطوُّر الخطير» (كما بدا فى تل أبيب) ـ أنه بعد الظهر الباكر من يوم ١٧ مايو ١٩٦٧ قامت طائرتان مصريتان من طراز «ميج ٢١ S» بالتحليق بسرعة فوق منطقة «النقب» من جنوبها إلى شمالها. ومع أن وسائل الدفاع الإسرائيلية تَصَدَّت لهما فإن أياً من الطائرتين المصريتين لم تُصَب بأذى!

والحقيقة أن قراءة الوثائق الإسرائيلية فى هذا الشأن كانت (بالنسبة لى) مفاجأة حقيقية، فذلك الذى بدا فى تل أبيب «نقطة تَحَوُّل» بدا فى القاهرة «داخل السياق» ـ بحيث يَصعُب اعتباره ـ كما وَقَعَ فى إسرائيل ـ «نقطة تَحَوُّل»!!

وتلك ظاهرة تتكرر أحياناً فى التاريخ وسببها «اختلاف مواقع النظر بين الأطراف» و«اختلاف الظروف النفسية المحيطة بهم فى أجواء صُنع القرار»، ثم «علمهم الداخلى بما لا



هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية («آمان») إلى مكتب رئيس الوزراء صباح يوم ١٥ مايو ١٩٦٧ :
«لا يخالجنا شك فى أن هذه الحشود المصرية الضخمة ليست إجراءً عسكرياً .. وأنها سوف تعاد إلى مواقعها الأصلية غرب قناة السويس إذا بدا أن حدة التوتر على الحدود الشمالية مع سوريا تخف»

يعلمه غيرهم من الخارج، لأن العلم الداخلي يُوَسْوِس أحياناً باحتمالات قد لا يكون لها أساس».

وظني الآن - ومن قراءة الوثائق الإسرائيلية! - أن ذلك ما حَدَثَ - وبآثار واسعة المدى - في الأيام الحاسمة من أزمة سنة ١٩٦٧.

....

....

[وسوف أبدأ بذلك «التطوُّر الخطير» كما بدا في القاهرة، وقد سمعت عنه من الرئيس «جمال عبد الناصر» مباشرة في لقاء معه (صباح يوم ١٨ مايو)، في غرفة مكتبه في بيته، وسَجَّلتُ ما سمعت في أوراقي بعد اللقاء ضمن حديث طويل:

«قال الرئيس إنه «انشغل» بشيء جرى عصر الأمس!

يظهر أن حكيم (يقصد «عبد الحكيم عامر») وصدقي (يقصد «صدقي محمود» قائد الطيران) أرادا اختبار قوة الدفاعات الجوية الإسرائيلية، ولذلك أرسلا طائرتي استطلاع لاختراق المجال الجوي الإسرائيلي من «إيلات» إلى «بير سبع» إلى «الخالصة» إلى «سد بوكر» - ثم عادت الطائرتان بسلام. لم تَتَعَرَّض لهما الدفاعات الإسرائيلية بالكفاءة التي كنا نَتَصَوَّرها. كما أن طلقات المدفعية الإسرائيلية المضادة كان بينها وبين طائراتنا مسافة كبيرة. وقد خرجت المقاتلات الإسرائيلية بعد ذلك للمطاردة، لكنها خرجت مُتأخرة ١٤ دقيقة بعد لحظة الاختراق. وأكملت الطائرتان مهمتهما وعادتا، وجاءتني قبل قليل مجموعة من الصُوَر» (أطلعني الرئيس على ثلاث منها).

استطرد «جمال عبد الناصر»:

«إنني أستغرب ما حدث. ولا أصَدِّق أن الدفاعات الجوية الإسرائيلية ليس عندها المدى الذي يسمح لها بالوصول إلى الارتفاع الذي كانت عليه الطائرتان. وفي نفس الوقت فإني لا أتصَوَّر أن هناك تقصيراً في الدفاعات الإسرائيلية يسمح لطائراتنا أن تَخْتَرِق «النقب» للاستطلاع وتعود.

«حكيم» و«صدقي» كانا سعيدين - ولكني لم أتَحَمَّس كما تَوَقَّع الاثنان. الحكاية دعتني إلى الشك والتساؤل عما إذا كان الإسرائيليون يريدون إقناعنا بأنهم ليسوا مستعدين - أو ماذا؟

استطرد «جمال عبد الناصر»:

«اتصلت بعد ساعة بـ«صدقي». أبديت له شكوكي، وبدا لي أنه ما زال مأخوذاً. سعيداً بما فعله أولاده (الطيارون) - لكني في الحقيقة أفضِّل أن أتَحَفَّظ!».

....

....

[ومن المفارقات أنه بعد أيام قليلة - يوم ٢٦ مايو - وربما بقصد إقناع «جمال عبد الناصر» - فإن المشير «عبد الحكيم عامر» والفريق «صدقي محمود» رَتَّبا لغارة استطلاع ثانية عَبَرَت نفس المنطقة واستطلعت وصَوَّرَت، ورَصَدَت قذائف مضادة للطائرات تنفجر في الأجواء تحتها ولكن المدى لا يطولها.]

....

☐

كان ذلك في مصر، وأما في إسرائيل فقد كانت الصورة أشد ما تكون اختلافاً.

● يَظهر في الملفات - أولاً - تقرير من الجنرال «إسرائيل ليور» بأن «عمليات الاستطلاع الجوي المصري (أثناء اختراقها لمنطقة «النقب» الجنوبي) مَرَّت فوق منطقة «ديمونة»، وذلك (في تقدير الجنرال «ليور») يَكشف أن «التسهيلات النووية» (ities) ear facio nuco) الإسرائيلية قد وُضِعَت كأولوية أولى في خطط مصرية للحرب، ومجلس الوزراء المصَغَّر سوف يبحث هذا الأمر الخطير - ولدينا مذكرة من رئاسة الأركان - وقد طلبنا تقريراً جديداً من المخابرات العسكرية عن حسابها للاحتمالات بعد ما حدث!»

● وتَظهر في الملفات - ثانياً - مذكرة كتبها الجنرال «ييجال آلون» وهو عضو رئيسي في لجنة الأمن والدفاع في مجلس الوزراء - تقول:

«من الواضح الآن أن مفاعل ديمونة على رأس قائمة الأهداف المصرية، وهذا في حَدِّ ذاته يفرض على إسرائيل أن تقوم بشن حرب وقائية ضد مصر لأن أي تهديد لـ«ديمونة» تهديدٌ للرادع النهائي الضامن للأمن الإسرائيلي».

● ثم يَظهر في الملفات - ثالثاً - «تقرير مراجعة» قامت به هيئة المخابرات العسكرية «آمان» وهو بتوقيع الجنرال «أهارون ياريف» - جاء فيه بالنص «أنه يبدو الآن أن النوايا المصرية لا يمكن اعتبارها «مُظاهَرة سياسية» وإنما «عملية عدوانية»!»

● وطبقاً لأوراق الجنرال «إسحاق رابين» - رابعاً - فإنه حين قرأ رئيس الوزراء الإسرائيلي «ليفي أشكول» هذا «التقرير بالمراجعة» لهيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية - التفت إلى ناحيته وقال له: «إنها الحرب.. أقول لك إنها الحرب سواء أردنا أو تَرَدَّدنا»!

☐

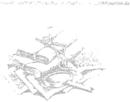
وعندما صَدَر في مصر قرار إغلاق خليج «العقبة» مساء ٢١ - ٢٢ مايو كان «رئيس وزراء إسرائيل يُرَجِّح أن هذا القرار هو «الذريعة» لضرب مفاعل «ديمونة»..».

وطبقاً لمحضر اجتماع للجنة الأمن والدفاع في مجلس الوزراء، فإن أول تعليق لـ«ليفي أشكول» على القرار كان قوله: «أظن أن نواياهم الحقيقية ليست في خليج العقبة، فهم يعرفون أن بواخرنا العابرة من مضايق «تيران» تكاد «لا تُظهِر هناك»، ولذلك فإن الحصار الذي ضربوه على المضايق غير مفيد في الواقع العملي. والتفسير المقنع في رأيي هو أن هذه الخطوة (إغلاق الخليج) تَصاعُدٌ مقصودٌ يريد خلق الأعذار لعَمَل من جانبنا - يَرُدُّون عليه بضرب «ديمونة» - والغالب أن ذلك هدفهم من التصعيد!»

وفي ذلك الاجتماع للجنة الأمن والدفاع طلب الجنرال «رابين» رئيس هيئة أركان الحرب «توجيهاً جديداً من القيادة السياسية بعد هذه التطورات الأخيرة». وكان تقديره أن «هذه التطورات تقتضي عمليات أوسع بكثير وأشد عنفاً من الخطط السابقة التي أقرَّت في اجتماع يوم ١٥ مايو، وأنه لذلك يريد تعليمات أكثر تحديداً».

وأثناء المناقشة أبدى «رابين» أن الضرورات الآن تفرض البدء - ودون العودة إلى مجلس الوزراء لطلب ترخيص آخر. والبدء أن تقوم القوات الإسرائيلية وفق الخطة المعَدَّة بهجوم جوي واسع على كل المطارات المصرية في سيناء والي غرب قناة السويس في ضربة استباقية قبل أن تقوم مصر التي استطلعت «ديمونة» مرتين بتوجيه غارة واسعة النطاق إلى «قدس الأقداس» (Holly of the Hollies) الإسرائيلي.

وبعد مناقشات طالت في لجنة الأمن والدفاع يظهر في التقرير المكتوب عن الاجتماع أن الرأي اتجه إلى تَجَنُّب بحث خطوات عسكرية مُحَدَّدة في الاجتماع الكامل للجنة الأمن والدفاع على اعتبار «أنه ما دام هناك اتفاق على الإطار العام فإن رئيس الوزراء «مُفَوَّضٌ من اللجنة» بأن يتدارس مع رئيس الأركان في الخطوة أو الخطوات الواجب اتخاذها. وفي توقيت هذه الخطوة أو الخطوات».



«تقريباً»!

وفي تلك الساعات الخطيرة أحس رئيس الأركان «إسحاق رابين» أنه في حاجة إلى جلسة يستنير فيها بآراء «المعلم» - كما كانوا يُسَمُّون «دافيد بن جوريون» مُؤَسِّس الدولة. وتَوَجَّه «رابين» مساء ٢٤ مايو إلى مُستعمرة «سد بوكر» في وسط «النقب» حيث اعتكف «المعلم» مُعتَزِلاً لا يريد المشاركة في سياسات يعتقد أن أعوانه السابقين (خصوصاً «ليفي أشكول» و«جولدا مائير») قد أفسدوها.

وعَرَضَ «رابين» (طبقاً لشهادة مُسَجَّلة بصوته محفوظة في مكتبة «بن جوريون» في جامعة «بير سبع») تطورات الساعات الأخيرة.

وكان «بن جوريون» من أول لحظة بادي الغضب، ولعله أحس أن «الآخرين» في تل أبيب تجاهلوا استشارته، ولم يجيء إليه أحدهم إلا بعد أن قاربت الأزمة ذروتها.

وطبقاً لشهادة «رابين» المسَجَّلة فإن «بن جوريون» رَدَّ عليه قائلاً:

«أنا لا أظن أن الظروف الآن مُهَيَّأة لحرب. وأنا استغربت أنك تَسَرَّعت في دعوة قوات الاحتياطي».

وقاطعه «رابين» (طبق شهادته) قائلاً:

«لقد كنا نريد أن نجعل درجة استعداد القوات عند الحَدِّ الملائم لتطورات الأزمة».

وعلا صوت «بن جوريون» يسأل:

«مَن الذي صَعَّد الأزمة إلى هذه الدرجة؟ ومَن الذي أصدَر إليك الأمر بدعوة الاحتياطي؟ الذي أعطى لك الأمر لا يفهم تبعات ما أمر به، وأنتم جميعاً بتصرفاتكم الحمقاء وضعتم الدولة في مأزق، وأمامكم الآن عِدَّة جيوش عربية تحيط بإسرائيل».

ورَدَّ «رابين»:

«إننا قَدَّرنا الوضع العسكري للجمهورية العربية المتحدة، ونعتقد في صحة تقديراتنا. وأريدك أن تعرف «أن ناصر يَستَهدف مفاعل ديمونة»، لكن اللغز الذي يواجهنا الآن هو «ما الذي يدعو ناصر ويشجعه على هذا النحو على استهداف مفاعل ديمونة بضربة يبدو أنها قادمة بعد أن تَمَّ استطلاع الموقع؟ - إن المصريين قاموا مرات قبل ذلك بالاستطلاع فوقه سنة ٦٤ وسنة ٦٥، لكن الظروف الآن مختلفة بسبب وجود حالة طوارئ. والاستطلاع في هذه الحالة لا يمكن إلا أن يكون مقدمة لشيء؟»!



عندما صدر في مصر قرار إغلاق خليج «العقبة» مساء ٢١ - ٢٢ مايو كان «رئيس وزراء إسرائيل يرجح أن هذا القرار هو «الذريعة» لضرب مفاعل «ديمونة»

وتساءل «بن جوريون» مُوَجِّهاً كلامه لـ«رابين» (طبقاً لروايته):

«هل يمكن أن يكون الروس قد أعطوهم تَعَهُّدات مُطَمئنة تشجعهم على المخاطرة ؟»

وقال «رابين : «لا أظن، ولكننا على اتصال بالأمريكيين لأنهم فى الغالب يعرفون أكثر عن هذا الأمر».

وتساءل «بن جوريون»: «هل الأمريكان معكم بالكامل فى خططكم؟»

ورد «رابين» : «لا أستطيع أن أقول «بالكامل»، ولكنهم معنا «تقريبا»..»

ورد «بن جوريون» منفعِلاً :«إيشا» (كذلك كان «بن جوريون» يختصِر اسم «إسحاق» («رابين»).. «ليس هناك فى الحرب شىء اسمه «تقريباً»!»

ثم زاد «بن جوريون» كلامه تأكيداً :

«فيما يتعلق بمصير إسرائيل ليس هناك شىء اسمه «تقريباً»!»

وسكت «رابين» وعاد إلى قيادته تلك الليلة شبه مريض، وانتابته حالة تَقَلُّص فى الأمعاء وقىء. وسارع مدير العمليات «إيزر وايزمان» إلى الاتصال بالجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء لإبلاغه «أن رئيس الأركان أصيب بانهيار تحت وطأة الظروف، وأنه لابد الآن من قيادة عسكرية جديدة للحرب»!

□

وبتوجيه مباشر من رئيس الوزراء (وطبقاً لملفات الجنرال «إسرائيل ليور» مدير مكتبه العسكرى) تَوَجَّه الجنرال «مائير آميت» (رئيس «الموساد») فى نفس اليوم إلى مَقَرِّ محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى تل أبيب ومعه سؤال يريد من رئيس المحطة أن يساعده فى جواب عليه، وهو «هل يقوم الروس بتشجيع المصريين على شَنِّ الحرب بدءاً بغارة واسعة على مفاعل ديمونة؟» ـ وطلب الجنرال «آميت» من مدير المحطة أن يبعث بالسؤال الإسرائيلى إلى مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «ريتشارد هيلمز» ـ ومنه بعد ذلك إلى رئيس الولايات المتحدة «ليندون جونسون» بنفسه.

وأضاف الجنرال «آميت» فى حديثه مع رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إشارة لم تخف دلالتها على سامعها، فقد قال الجنرال «آميت» :

«إن مصير إسرائيل مُعَلَّق فى الميزان. وإذا كان ذلك هو الوضع، وإذا لم يكن تَحَرُّك الولايات المتحدة على المستوى المطلوب ـ فإن إسرائيل لن تَتَرَدَّد فى «فتح أبواب الجحيم» وتقول للعالم ما قاله «شمشون الجبار» من أنه «علىَّ وعلى أعدائى»».

وكانت الإشارة واضحة إلى استعداد إسرائيل للزَجِّ على «سلم التصعيد» بسِرِّها النووى، سواء بالتلويح به أو باستعماله فعلاً.

والواقع أن الجنرال «آميت» لم يترك تلميحه لذكاء أحد، وإنما أضاف :

«إن قيام الطيران المصرى بضرب «مفاعل ديمونة» لن يؤدى إلى تدمير هذا المشروع «السلمى»! لأن بناءه مُجَهَّزٌ للطوارئ، لكن الضرب قد يؤدى إلى تَسَرُّب لمواد إشعاعية سوف تُسَمِّم الأجواء المحيطة بالمشروع فى عُمق «النقب» وحتى داخل الحدود المصرية!»

ومن المعلومات الأكثر إثارة فى الوثائق الإسرائيلية تلك الفترة ـ وطبقاً لمذكرات «ماردور» وهو المسئول عن مشروع «رافائيل» فى ذلك الوقت ـ أن الجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء اتصل به يسأله عن الموقف «هذه اللحظة» داخل المشروع، وهل هناك «مُنتَج جاهز» أو يمكن تجهيزه بسرعة. وسَجَّلَ «ماردور» فى مذكراته أنه قد يكون ممكناً وبسرعة «توضيب» (improvise) «جهازين» قابلين للعمل على نحو ما!



٦ مضاعفات

كان تقدير «والت روستو» مستشار الأمن القومى الأمريكى، وهو مُسَجَّل فى مذكرة مُقَدَّمة لرئيسه، ومحفوظة ضمن ملفات مكتبة «تكساس» التى تحمل اسم «جونسون» ـ هو أنه «من الصعب تَصَوُّر أن الروس يمكن لهم تشجيع «ناصر» إلى هذا الحَد. وعلى أى حال فإنه من المهم الاتصال بهم وتحذيرهم إلى خطر أية مغامرة غير محسوبة يقومون بها وتؤدى إلى زيادة تصاعد الأزمة فى الشرق الأوسط».

وكانت تل أبيب ما زالت تبذل أقصى جهدها فى استعجال واشنطن حتى تَتَحَرَّك لتثبيت موقف الاتحاد السوفيتى وضمان احتواء رَدِّ فعله.

وفى تلك الساعات كان الهجوم على مصر هو «المهمة» الوحيدة والمحددة للسلاح الإسرائيلى. وفى محاولة «أشكول» أن يَستَعجِل الولايات المتحدة حتى تقطع لإسرائيل عهد الحماية الذى تطلبه ضِدَّ أى تَدَخُّل سوفيتى مُحتَمَل فى ظروف قتال مع مصر ـ فإن رئيس وزراء إسرائيل بادر (كما هو ظاهر فى الوثائق الإسرائيلية) فطلب من السفير السوفيتى فى موسكو «ديميترى شوفكين» أن يَزور الجبهة الشمالية وأن يتأكد بنفسه من أنه ليست هناك حشود إسرائيلية «غير عادية» أمام السوريين. واعتذر «شوفكين» لعِدَّة أسباب ـ طبقاً لرواية «أشكول»:

□ أنه ليس فى مهمته أن يُفَتِّش على مواقع عسكرية.

□ وأنه على فرض أن ذلك طُلِبَ منه فهو رَجُل عملى يعرف أن الجبهة واسعة، وأنه إذا زار مَوْقِعاً أو مَوْقِعَين فإن ذلك لا يعنى أنه قام بتفتيش الجبهة.

□ وأخيراً فإنه يعرف مقدماً أن زيارته للجبهة سوف تُستَغَل فى حرب نفسية ضِدَّ «أصدقائنا العرب».

وقد بَعَثَ «أشكول» (طبقاً لسِجِلات مكتبه) بتفاصيل ما دار بينه وبين السفير السوفيتى إلى واشنطن، لكن واشنطن لم تُعَلِّق عليها أهمية كبيرة لأن سؤالاً آخر كان يشغلها فى تلك اللحظات، وهو : «لماذا أصدر «ليونيد بريجنيف» السكرتير العام للحزب الشيوعى بياناً يوم ٢٤ أبريل الماضى ـ أى قبل بداية أزمة الحشود فى سيناء بثلاثة أسابيع ـ يُطالب فيه بسحب الأسطول السادس الأمريكى من البحر الأبيض بمنطق أن وجود قِطَعه فيه ومناوراتها الدورية وتحركاتها المستمرة تُشيع فيه جَواً من القلق والتوتر!».



وكان تَساؤل واشنطن بعد ذلك لنفسها ولغيرها : هل كان «بريجنيف» يعرف شيئاً لا تعرفه الإدارة الأمريكية بكل أجهزتها من وزارة الدفاع ـ إلى المخابرات العسكرية ؟!

وصَدَرَت تعليمات من واشنطن ـ أخطِرَ بها مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلى ـ إلى السفير الأمريكى فى موسكو تطلب إليه أن يسأل «أندريه جروميكو» وزير الخارجية مباشرة وبدون لَف أو دَوَران : «هل كانت الحكومة السوفيتية على علم مسبق بقرار «ناصر» إغلاق خليج العقبة ؟» و«هل يؤيد الاتحاد السوفيتى هذا الإجراء؟» ـ ورَدَّ «جروميكو» بالنفى على السؤال الأول ـ «الاتحاد السوفيتى لم يكن يعرف مسبقاً» ـ ولم يَرُد على السؤال الثانى صراحة مُكتَفياً بالقول «أن الاتحاد السوفيتى لا يَتَدَخَّل فى قرارات أصدقائه عندما يتخذونها بدواعى الحرص على أمنهم القومى»!

وتحتوى الملفات الإسرائيلية على صورة خطاب سرِّى وعاجل بَعَثَت به الحكومة الإسرائيلية إلى الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون»، والغَرَض أن يبعث «جونسون» بمحتواه إلى القادة السوفييت. وجاء فى هذا الخطاب وهو بتوقيع «أبا إيبان»: «إن هناك فيما يبدو لنا انطباعا خاطئاً فى القاهرة ودمشق بأن التأييد السوفيتى لمصر وسوريا مضمون، وبالتالى فإن البلدين ليسا فى حاجة إلى أى قدر من ضبط النفس».

وكان السفير السوفيتى فى واشنطن («أناتولى دوبرينين») مَوجوداً للتشاور فى موسكو. وقام مستشار الأمن القومى فى البيت الأبيض «والت روستو» باستدعاء القائم بالأعمال السوفيتى «تشرنياكوف» ليقول له: «إن لدينا معلومات مُؤَكَّدة من دمشق منقولة عن أعضاء رفيعى المستوى فى النظام تؤكد اطمئنان السوريين الكامل إلى «تأييد غير محدود» من الاتحاد السوفيتى لسوريا ـ وهذا نَوعٌ من «التحريض» له عواقبه!

وقال «تشرنياكوف» إنه سينقل الرسالة إلى موسكو.

وكانت تل أبيب تُشَدِّد من ضغطها على واشنطن، ووَصَلَت فى ذلك إلى درجة أنها أبلغت الملحق العسكرى فى السفارة الأمريكية فى تل أبيب بأن «الأسطول السوفيتى فى شرق البحر الأبيض قام بعملية استطلاعية على الشواطئ الإسرائيلية حول حيفا ـ وعادت الخارجية الأمريكية تسأل القائم بالأعمال السوفيتى فيما بلغها ـ ورَدَّ «تشرنياكوف» بناء على تعليمات من موسكو بنَفْيٍ للرواية الإسرائيلية بكاملها. وفى مقابلة لـ«تشرنياكوف» مع وزير الخارجية الأمريكى «دين راسك» فى اليوم التالى بدا من مذكرة (تَرِدُ صورة لها ضمن الأوراق الإسرائيلية) أن «تشرنياكوف» أبلغ وزير الخارجية الأمريكى بالنقل المباشر عن رئيس الوزراء السوفيتى «كوسيجين» أن «إسرائيل التى تطارد الحكومة الأمريكية بمزاعمها عن تهديدات مُوَجَّهة لها ـ هى التى تحشد قواتها الآن «لسياسة مغامرة» يمكن أن تؤدى بمنطقة الشرق الأوسط إلى كارثة».

ومن اللافت للنظر أن الوثائق الإسرائيلية

كان تقدير الحكومة الإسرائيلية أنها بسرعة العمل وبالحسم مهما كان عنيفاً على الجبهة المصرية، يمكنها «تحييد» الموقف السوفيتى وقت نشوب العمليات مع مصر، مع التحوط أن لا يكون هناك استفزاز على الجبهة السورية»

عن هذه المرحلة ـ وكذلك الوثائق الأمريكية ـ تشير إلى «مَصدَر يعرف المصريين ويعرف السوفييت جيداً ومعلوماته عن الطرفين موثوق فيها إلى أبعد مدى ـ وملخص معلوماته الآن أن العلاقات بين السوفييت والمصريين تشوبها شكوك متبادلة، وأن القيادة السوفيتية مُنقسمة على نفسها:

□ زعيم الحزب «بريجنيف» ومعه الماريشالات «جريتشكو» و«جورشاكوف» و«زخاروف» يُؤيِّدون مساندة «ناصر».

□ والعقائديون المؤثرون في الحزب «سوسلوف» وأندروبوف» و«باناماربيف» لا يهمهم «ناصر»، وإنما يهمهم النظام الحاكم في دمشق وعلى رأسه الأطباء الثلاثة الدكاترة «نور الدين الأتاسى» رئيس الدولة، و«يوسف زُعَيِّن» رئيس الوزراء، و«إبراهيم ماخوس» وزير الخارجية ـ وأن هذه ـ مع بعض العناصر في الجيش ـ هي القيادة ذات الاتجاه اليسارى الصحيح.

□ وأخيراً فإن هناك جبهة من «العمليين» يُمَثِّلها رئيس الوزراء «كوسيجين» ـ ترى «عدم المخاطرة في تأييد العرب بأبعد من حَدٍّ مُعَيَّن».

وكان تقدير الحكومة الإسرائيلية «أنها ـ بسرعة العمل وبالحسم مهما كان عنيفاً على الجبهة المصرية ـ يمكنها «تحييد» الموقف السوفيتي وقت نشوب العمليات مع مصر، مع التَحَوُّط أن لا يكون هناك استفزاز على الجبهة السورية».

٧ اتفــــــاق!

وتكشف قراءة الوثائق الإسرائيلية بما لا يقبل مجالاً للشك أنه حتى الأسبوعين الأخيرين من مايو سنة ١٩٦٧ ـ ظَلَّ ذلك الاختلاف بين واشنطن وتل أبيب قائماً ومحسوساً.

لكن الاختلاف لم يكن تناقضاً، ولا تعارضاً في الآراء، ولا حتى خِلافاً. وإنما مجرد «اختلاف».

كان هناك اتفاق في «النوايا» بصفة عامة، وكان هناك اتفاق على أن «التوقيت» مناسب.

وكان ذلك مقروءاً في الوثائق الإسرائيلية (والأمريكية) مبكراً.

وتَحفَل الوثائق الإسرائيلية في الشهور الأولى من سنة ١٩٦٧ بإشارات متكررة إلى أن «الرئيس جونسون قَرَّرَ أن يعطى إسرائيل حرية العمل المسلح ضِدَّ ناصر»، وأنه على وشك أن يعطيها الإشارة لتُطلِق «unleach قوتها على الجيش المصرى «باعتباره قاعدة الاستقرار في النظام المصرى»!

□ ومثلاً فإن في الملفات الإسرائيلية صورة لبرقية كتبها السفير الأمريكى في القاهرة «لوشيوس باتل» بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٦٧ ـ قبل مغادرته لمصر بعد انتهاء مهمته فيها (خمس سنوات تقريباً) وفي هذه البرقية يقول «باتل» ما نصه :

«لقد بدأنا بهدوء في تنفيذ تعليمات الطوارئ فيما يتعلق باحتمال قطع العلاقات بين مصر وبين الولايات المتحدة».

ثم يشير «باتل» في هذه البرقية إلى عشاء وداع له أقيم في بيت «محمد حسنين هيكل» وحضره المشير «عبد الحكيم عامر» والسيد «أنور السادات» ـ ثم يقول في برقيته : «إنني أرى المنطقة مُقبلة على مرحلة خطيرة dramatic، وقد أحسست من كلامى مع «عامر» و«السادات» و«هيكل» أن التوتر في المنطقة سوف تزداد حدته».

□ ومثلاً فإن هناك في الوثائق الإسرائيلية أيضاً إشارات إلى أن شركات البترول الأمريكية أخطِرَت (من واشنطن؟) بالاستعداد للمفاجآت. ومِنَ الظاهر تماماً أن شركة «أرامكو» (العاملة في السعودية) وشركة «جولف» (العاملة في الكويت) كانتا على علم بما هو قادم على الأقل في شكله العام ودون تفاصيل (ظاهرة في الأوراق)، وقد كان مطلوباً من كلتيهما «أن تكونا على استعداد : بزيادة الشحن في الفترة القادمة إلى أقصى حدٍّ ممكن إلى ميناء «روتردام» ـ ثم بتأمين الحقول والآبار وخطوطها إلى أرصفة الشحن» ـ ثم وهذا هو الإجراء اللافت «العمل على ترحيل العائلات الأمريكية في هدوء احتمالا لأى تَطَوُّر مفاجئ في المنطقة» ـ ولم تقتصر هذه التعليمات بترحيل العائلات على مناطق البترول، وإنما وَصَلَت التعليمات إلى عواصم عربية أخرى بينها بيروت والقاهرة!

□ ومثلاً فإن القراءة المتأنية للملفات والأوراق الإسرائيلية توحى أن داعى الاختلاف بين واشنطن وتل أبيب رغم اتفاقهما على «النِيَّة» وقبولهما لـ«التوقيت» ـ يرجع بالتَحديد إلى عنصرين :

● العنصر الأول وهو «إنسانى» مما سبقت الإشارة إليه. يتلخص في أن الأطراف قد يعزمون ويخططون لفعل شيء، لكنهم عندما تجيء لحظة «التنفيذ» تعاودهم مسئولية التأكد من أنه ليست هناك مفاجآت لم يُحسَب حسابها عندما استقرت «النوايا» وحان «التوقيت».

● والعنصر الثانى يتصل بحسابات كل طرف من الطرفين تجاه آخرين يشغله رَد فعلهم. وهنا وفي هذا العنصر بالذات تَمَحوَر الخلاف بين الحليفين في هذه الساعات!

وهكذا فإنه في حين أن إسرائيل كانت تريد أن تَتَحَرَّك بسرعة وتضرب، فإن الولايات المتحدة الأمريكية كان رأيها استنفاد كل وسائل العمل السياسى : عن طريق الأمم المتحدة أولاً، ثم عن طريق قوة بحرية مشتركة من الدول المهتمة بطرق «الملاحة العالمية» تقوم هى بالمهمة الرئيسية لفتح خليج «العقبة».

وكان التقدير الأمريكى «أن الأمم المتحدة لن تنجح»، وأن الدول المهتمة بحرية الملاحة العالمية لن تتفق (على الأقل بسبب رغبة فرنسا بتأثير رئيسها «شارل ديجول» في الاحتفاظ باستقلالية قرارها في طريقة تشكيل ونطاق عَمَل هذه القوة!) ـ لكنه من المهم بالنسبة للموقف مع الاتحاد السوفيتى أولاً ـ وبالنسبة للموقف مع عَدَد من الدول العربية الصديقة ـ أن تتصرف الوِلايات المتحدة بما يظهر «حرصها» على حَلٍّ سلمى أو حَلٍّ دولى ـ حتى وإن كان تقديرها وبنسبة ٨٠٪ أن الأزمة في النهاية لن يحسمها غير تدخل عسكرى مسلح يكسر قوة مصر ويكسر هيبتها في العالم العربى «ويستأصِل خَطَرَها في المشرق العربى».

في ضوء هذا الاختلاف على تهيئة المسرح للعملية الإسرائيلية المقبلة ـ يمكن فهم الكثير من الوقائع التى تَرد الإشارات إليها في الوثائق الإسرائيلية تصريحاً في بعض الأحيان وتلميحاً في أحيان أخرى.

٨ شـــــرخ!

والشاهد أنه في ضوء هذا الاختلاف يمكن فهم الأزمة الداخلية التى أمسكت بخناق إسرائيل وتحديداً في الأسبوع الأخير من شهر مايو ١٩٦٧، وهى أزمة شَرَخَت العلاقة بين الحكومة وبين قادة الجيش في إسرائيل.

□ قادة الجيش (يتزعمهم الجنرالات «وايزمان» و«هود» و«إليعازار» و«إسرائيل تال» و«أرييل شارون»، و«موردخاى جازيت»، و«أوزى ناركيس»، و«أهارون ياريف» ـ يُساندهم من الخارج «موشى ديان») ـ يرون جميعاً ضرورة الهجوم على مصر فوراً قبل أن تَخِفَّ حِدَّة التوتُر وتضيع ملامح الأزمة في دهاليز السياسة الدولية وأروقة الأمم المتحدة، ومن ثم يكون على إسرائيل أن تبحث لنفسها عن «ذريعة» أخرى لضرب مصر ـ بينما هذه الذريعة الآن موجودة (وصارخة من وجهة النظر الإسرائيلية).

ثم إن الجيش اليوم في حالة تعبئة، والانتظار طويلاً ـ حتى لساعات ـ تحت الأعباء الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لهذه التعبئة بمثابة «عَدَّاد» يرفع التكلفة مع حركة عقاربه!

□ وفي المقابل فإن زعماء الحكومة (وفي مقدمتهم رئيس الوزراء «ليفى أشكول»، ورئيسة الحزب «جولدا مائير»، والوزير المخضرم والمستشار الأقرب إلى رئيس الوزراء «إسرائيل جاليلى») ـ يرون أن ضرورات الأمن القصوى تقتضى انتظار الولايات المتحدة الأمريكية حتى ترتب موقفها بطريقة ملائمة لها (سواء مع الخصوم السوفييت أو مع الأصدقاء العرب)، ثم تَقبَل بالمسئوليات والضمانات المطلوبة لإسرائيل. وقد كان زعماء الحكومة يتفهمون الضرورات الملحة في موقف الجنرالات، لكنه كان من رأيهم أن المناخ الدولى العام ـ وبالتحديد «درجة الحرارة» في الولايات المتحدة ـ أهم بكثير من أى شيء يجرى على ساحات القتال!

وقد وصلت الأزمة بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين إلى مشادة عنيفة (يوم ٢٨ مايو) تبودلت أثناءها تُهَم «العقل» و«الجنون»، و«الحماقة» و«التخاذل»، وحتى «الهَرَب من المسئولية» و«الخيانة»! وحاول الوزير «إسرائيل جاليلى» تهدئة الجنرالات مُستشهداً بما قاله «بن جوريون» للجنرال «رابين» قبل ساعات،



كان تقدير الولايات المتحدة وبنسبة ٨٠٪ أن الأزمة في النهاية لن يحسمها غير تدخل عسكرى مسلح يكسر قوة مصر ويكسر هيبتها في العالم العربى «ويستأصل خطرها في المشرق العربى»

وكان الرد عليه «أن بن جوريون مُعتزلٌ، ومَعزولٌ عن دخائل الأمور، ومَقصيٌ عن دائرة صنع القرار، وليس لديه ما يَكفيه من الحقائق ليبدى حكمه على أساس، وهو عندما التقى «رابين» تَحَدَّث معه بانطباعاته!

وفَقَدَ الجنرال «وايزمان» أعصابه وقال مُوَجِّهاً كلامه إلى «أشكول» إنه «لا يُشَرِّفه أن يخدم تحت قيادة سياسية تعجز عن اتخاذ القرار فى لحظة أزمة»، ثم أردف «وايزمان» ذلك بأن خلع علامات الرُتب عن كتفيه وألقاها على مكتب رئيس الوزراء بقوة كادت تقذف بها فى وجهه - وامتقع وجه «ليفى أشكول» حتى أصبح فى لون «عجينة قمح» (كما روى «جاليلى»)!

وكان وزير الخارجية «آبا إيبان» فى واشنطن لمقابلات مع الرئيس «ليندون جونسون» وأركان إدارته، وكان تقريره الأوَّلى قد وَصَلَ فعلاً إلى رئيس الوزراء، وكان مضمونه من العناصر التى أثارت ثائرة الجنرالات. وبعد المشادة فإن التعليمات لاحقت «إيبان» بصورة ما جرى فى مكتب رئيس الوزراء، وبأن تَرَدُّد الولايات المتحدة الآن لا يجب أن يطول.

كانت الولايات المتحدة ما زالت تحسب، تَجمَع وتَطرَح وتَضرب وتَقسِم، وقد بدأت تميل إلى أن الإشارات التى تراها مُتضاربة من موسكو قد لا تكون مُضَلِّلة كما يظن بعض خبرائها، وإنما هى انعكاس لحيرة حقيقية فى الكرملين. ولم يَعُد الموقف السوفيتى هو الشاغل الأول للولايات المتحدة، وإنما أصبح شاغلها المُلِح هو «عزل» أو «تحصين» النظم العربيَة التقليدية الصديقة لها فى العالم العربى من آثارٍ أو ردود فعل أى هجوم تشنه إسرائيل ضِدَّ مصر.

ومن هنا كان «جونسون» يطلب «فسحة وقت» - وهكذا «تَراجَعَ» القلق من الخصوم السوفييت، و«تقدم» القلق على الأصدقاء العَرَب!

□

ويروى تقرير كتبه «آبا إيبان» وزير الخارجية الإسرائيلى عن تفاصيل مقابلته للرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» أن «جونسون» قال له «ما هو الفارق بين أن تتصرفوا الآن أو تتصرفوا بعد أسبوعين أو ثلاثة. هذه مُهلة لازمة لنا لأسباب كثيرة. أنتم تعرفون كما نعرف أن «ناصر» لا يخطط الآن لهجوم على إسرائيل، وإذا تَهَوَّرَ وفَعَل فإن كل خبرائنا يقولون لى «إنكم قادرون على إرساله إلى الجحيم». إذا كنتم مُصرِّين على أن تتصرفوا دون أن تنتظروا كلمتَنا الأخيرة فهذا حقكم، لكنكم لن تكونوا وحدكم إلا إذا قَرَّرتم أن تكونوا وحدكم».

وعلى أساس هذا التقرير لـ«آبا إيبان» وهو موجود بنصوصه (أربع صفحات) فى الوثائق الإسرائيلية، فإن مجلس الوزراء الإسرائيلى قَرَّرَ وبإجماع آرائه (وفق محضر الجلسة) أن «العَمَل العسكرى» لإزالة التهديد المصرى مُؤجَّل لمدة ما بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع استجابة لطلب رئيس الولايات المتحدة»!

....

....

[وكان هذا الطلب من «ليندون جونسون» هو الأساس الذى بنى عليه السكرتير العام للأمم المتحدة وقتها «يو ثانت» رسالته الشهيرة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» برجائه أن يوافق على إعطاء الجهود الدولية لحل الأزمة مدة أسبوعين على الأقل، وأن لديه معلومات بأن كل الأطراف قبلت هذه المهلة، وأنه واثق أن الحكومة الإسرائيلية لن تقوم بأى عمل استفزازى لتحدى الحظر المصرى على خليج «العقبة».

وقد لعبت هذه الرسالة دوراً كبيراً فى طمأنة القائد العام المصرى («عبد الحكيم عامر») وقيادته إلى أن «ساعة الصفر فى ميادين القتال مُؤجَّلة» لأسبوعين وأكثر.

وكانت تلك طمأنينة بتدافُع الوقائع زائفة.]

....

....

ولم يكن جنرالات إسرائيل على استعداد لقبول قرار مجلس الوزراء، وقد راحوا يتهمون القيادة السياسية علانية بأن مستواها أقل من ضرورات الأزمة التى تواجه الدولة، وأن الظروف الآن تقتضى تأليف حكومة وحدة وطنية يرأسها «دافيد بن جوريون» بنفسه (وهو الرَجُل الذى يستشهد به الساسة فى تهدئة ثورة الجنرالات) - كما يكون معه على وزارة الدفاع «موشى ديان» الذى أصبح (باستحقاق أو غير استحقاق) رمزاً للعسكرية الإسرائيلية المقاتلة!

وقد رَفَضَ رئيس الوزراء «ليفى أشكول» هذه المطالب كلها واعتبرها «عُدواناً من «العسكريين» على السلطة المدنية فى دولة إسرائيل الديمقراطية». كما أن «جولدا مائير» رئيسة الحزب رفضتها وكانت علاقاتها مع «بن جوريون» قد ساءت، وكان رأيها دائماً أن «ديان» «عسكرى» «خفيف» و«مغرور»، ثم هو طامح إلى دور سياسى «نابليونى» (حسب تعبير «مائير» نفسها). وكان السياسى المخضرم «إسرائيل جاليلى» يرى أن مطالب الجنرالات شطط - لكنه من الخطأ التعامل معها بمجرد التمسك بحقوق السلطة المدنية (كما يرى «أشكول»)، أو بالتقييم الذاتى المُلَوَّن بالعواطف (كما تفعل «مائير» تجاه «ديان»).

وكان اقتراح «جاليلى» أن تُشَدِّد الحكومة جهدها وتُكَثِّفه لإقناع الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» بأنه ليس لدى الولايات المتحدة ما تخشاه من ردود فعل عربية، وأن القياس على ما كان سنة ١٩٥٦ (السويس) وسنة ١٩٥٨ (الوحدة بين مصر وسوريا) لم يَعُد مطروحاً لأن العالم العربى اختلف كثيراً عما كان عليه من قبل، وأن التناقضات بين «الشيوخ» التقليديين فى شبه الجزيرة العربية والخليج، وبين الثوار المنادين بالتغيير والتجديد - وَصَلَت إلى حَدِّ الحرب الأهلية بين الفريقين (كما هو حادث فى اليمن).

ولم يكن «جونسون» قد اقتنع بالكامل بأن رَدَّ الفعل الشعبى العربى يمكن السيطرة عليه، وكان خوفه أن «الشارع العربى» فى غضبه من أى عمل إسرائيلى يكتسى بموافقة أمريكية - قد يطيح بالعروش العربية فى عواصم تعتبر واشنطن أن أمنها جزء من الأمن القومى الأمريكى.

وقررت القيادة الإسرائيلية المصَغَّرة، ووافقها الجنرالات بنفاد صبر، على إيفاد الجنرال «مائير آميت» رئيس المخابرات «الموساد» إلى واشنطن للقاء مع الرئيس «ليندون جونسون» وأركان إدارته، ولأحاديث صريحة تنجلى بها الأمور (على نَحوٍ مَوثوقٍ به أكثر من تقارير «آبا إيبان» من واشنطن)!

وكان هناك إحساس بأن مساحة الاختلاف بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية سوف تضيق، ولكن تَلزَمها مُهلة لا تقاطعها حركة طائشة يقوم بها الجنرالات الغاضبون من طول الانتظار.



٩ القصور

كان الرئيس «ليندون جونسون» - وبصرف النظر عن حسابه للموقف السوفيتى - ما زال مَيّالاً إلى مُهلة الأسبوعين أو الثلاثة ليتأكد فيهما من أن رَدَّ فعل «الشارع العربى» سنة ١٩٦٧ ليس خطراً داهماً - وعلى غير ما كان عليه الحال سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٥٨.

وفى فترة الانتظار تلك كان الرئيس الأمريكى مُعَرَّضاً لتأثيرات جارفة من قوى يُحسَب حسابها فى واشنطن، ومن أصدقاء شخصيين مقربين منه، وأيضاً من السيدة الجميلة التى تَمَلَّكه هواها فى تلك المرحلة المتأخرة من حياته، وأثناء تلك الأزمنة الملتهبة فى الشرق الأوسط - وهى السيدة «ماتيلدا كريم» (وهى يهودية مُتَحَمِّسة حتى الهَوَس لإسرائيل).

وبالإضافة إلى ذلك كله كان هناك ضغط شديد على البيت الأبيض من إدارة العمليات الخاصة الخارجية فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وكان يرأسها فى ذلك الوقت «جيمس إنجلتون» - وكان رأى هذه الإدارة «ان هذه الفرصة المتاحة مناسبة لضربة قاضية تُوَجَّه لـ«ناصر» - تنهى نظامه وتكسر أسطورته.

وكان تقدير «إنجلتون» أن السوفييت لن يَتَحَرَّكوا بالسرعة الكافية ولا بالمقدرة الكافية لملاحقة الموقف.

وكان تقدير «إنجلتون» - وفى الأوراق الإسرائيلية تفاصيل كثيرة عن آرائه وخططه وملخصها فى حساباته للموقف العربى - أن العنصر الحاسم فى موقف «الشارع العربى» هو «حَجم وقوة الضربة التى تُوَجَّه إلى ناصر» - فإذا كانت عنيفة بما فيه الكفاية، ومُهينة بما هو ظاهر لكل الناس - فإن الشارع العربى سوف تَستَبِدُّ به المفاجأة وتَتَحَكَّم فيه الصدمة، وحين يستفيق لما جرى فإنه سوف يكتشف أن الأوضاع تَغَيَّرَت، وأن «أبطال اليوم السابق ذابوا تحت الشمس مثل تماثيل من الملح».

وكان تقدير «إنجلتون» أن القصور العربية لديها من الكراهية لـ«ناصر» - وتحت تصرفها من الإمكانيات المادية - ما يجعلها قادرة على احتواء حركة «الشارع» خصوصاً إذا كان «حجم وقوة الضربة» بما لا يمكن إخفاؤه أو التَسَتُّر عليه!

□

وفى تقرير مكتوب لـ«إنجلتون» - محفوظ



لندون جونسون لأبا ايبان فى مايو ١٩٦٧:

«ما هو الفارق بين أن تتصرفوا الآن أو تتصرفوا بعد أسبوعين أو ثلاثة. هذه مهلة لازمة لنا لأسباب كثيرة. أنتم تعرفون كما نعرف أن «ناصر» لا يخطط الآن لهجوم على إسرائيل..»

فى الملفات الإسرائيلية ـ تُظهَر صُوَر من تقرير (سبق لى أن استشهدت به فى كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» ـ الجزء الثانى صفحة ١٣٠) عن مقابلة بين السفير الأمريكى فى السعودية وبين الملك «فيصل بن عبد العزيز». وفى هذه المقابلة فإن الملك السعودى يُحَرِّض الرئيس الأمريكى بأصرح عبارة ضدّ «جمال عبد الناصر» ـ وكان «لأحدهم» تعليق أضافه على هامشه مؤداه «أنه إذا كان ذلك موقف الملك قبل أكثر من سنتين، فهو الآن بالتأكيد أكثر حِدَّة عن ذى قبل»!

....

....

[كان نص تلك البرقية من السفير الأمريكى فى السعودية المستر «بيتر هارت» عن محضر مقابلته مع الملك (وهو ضمن وثائق وزارة الخارجية الأمريكية تحت رقم ٤٣/٣٦٦٥١) ـ كما يلى :

«اتصل بى البروتوكول صباح أمس لإبلاغى أننى مطلوب فى الطائف فى الساعة ١٥:٤ بعد الظهر، ولم يعطنى البروتوكول أى إيضاحات فيما عدا أن هناك طائرة سوف تحملنى إلى الطائف بعد الظهر.

استقبلنى الملك فيصل فى قصر «الشبرة» (Al-Shubra) فى الساعة التاسعة مساء فى حضور السقاف وفرعون. وقال الملك إن هناك شيئاً حدث وهو يريد إخطارى به بنفسه كصديق شخصى لى وكممثل لبلد صديق له ولأسرته. ثم قال الملك إنه خلال يومين سابقين قامت ثلاث طائرات مصرية باختراق المجال الجوى السعودى جنوب شرق جيزان فوق مناطق قبائل الحارث وأبو عريش، وأن هذه الطائرات قامت بعدة دورات على ارتفاعات منخفضة فى محاولة ظاهرة للاستفزاز. كما أن معلومات لديه (الملك) من داخل اليمن تؤكد أن هناك قوات مصرية تتحرك صوب الحدود السعودية. وقد حاولت أن أسأل الملك بإلحاح عن تفاصيل أكثر بشأن هذه المعلومات، ولم يكن لديه شىء لا عن حجم هذه القوات ولا عن تسليحها ولا عن مواقعها. وقد قال الملك «إن هذه التطورات تثير فى ذاكرته ما سبق أن سمعه عن مؤامرة بين مصر والعراق والأردن(!) لغزو وتقسيم بلاده على النحو التالى : حسين يأخذ الحجاز باعتبارها مملكة هاشمية فى السابق، والعراق يأخذ المقاطعة الشرقية، واليمن يأخذ الجنوب، وباقى المملكة يدخل تحت سيطرة ناصر».

قال لى الملك أيضاً «إن «ناصر» أوحى إلى صديقه «هيكل» بأن يَنشُر خطة عن إنشاء منظمة عربية للبترول».

ثم أضاف الملك «إن السعودية مُحاصَرة، وقد لا تكون السعودية دولة كبيرة أو قوية، ولكنها دولة تريد أن تحتفظ بأرضها وشرفها، وإذا كان «ناصر» كما هو واضح يريد أن يضع يده على المملكة متصوراً أنه ـ «فيصل» ـ سوف يقف ساكتاً فى انتظار أن يُخنَق، فهو مخطئ فى ذلك». وأشار الملك إلى أنه سوف يقاوم عسكرياً، وهو قد اتخذ عدة قرارات يريد أن يبلغنى بها الآن :

١ ـ قرَّر أن يُدخل أسلحة إلى المنطقة المنزوعة السلاح على حدود اليمن. وقد أصدر أمراً بذلك فعلاً.

٢ ـ إنه أعطى أوامر بالفعل إلى قواته أيضاً بأن تحتشد على حدود اليمن لتكون فى وضع يسمح لها بأن تدافع عن السعودية.

٣ ـ وهو الآن لا يعتبر نفسه مرتبطاً باتفاق فصل القوات فى اليمن. وسوف يساند الملكيين بأى طريقة يراها مناسبة.

إننى أبديت دهشتى للملك، كما أبديت له استغرابى لكل ما قاله عن خطط تُعَد بين مصر والعراق والأردن.

ثم أطلعنى الملك على تقرير مخابرات سعودى يحوى معلومات عن أن ضباطاً من الجيش المصرى رَتَّبوا عملية لقتل «ناصر» يوم ٢٦ يوليو.

وأضاف الملك «إن «ناصر» مريض جداً». ثم أمر الملك بإخلاء القاعة من كل الحاضرين عداه وعداى، وانتهزت الفرصة ورجوت الملك ألا يبعث بقوات إلى حدود اليمن، وأن يحتفظ بما يشاء من قوات فى أوضاع تأهب فى أى مكان يراه بعيداً عن الحدود، وقلت له إننا لسنا متحمسين لتوسيع نطاق الحرب فى اليمن. وتَدَخَّل بحدة قائلاً «أخرجوا القوات المصرية من اليمن وسوف ينهار هذا النظام الذى يدعون بمساعدته فى شهر أو اثنين على أكثر تقدير».

ثم استجمع الملك كل حيويته ليقول لى «إنكم يجب أن تبذلوا أقصى جهد للخلاص من هذا الرَّجُل الذى يفتح الطريق للتسلل الشيوعى» ـ وكان يعنى «ناصر». ثم قال «لماذا تصبرون عليه؟ ألا ترون أنه لا يكف عن مهاجمتكم يومياً، مرة بسبب فيتنام، ومرة بسبب كوبا، ومرة بسبب الكونجو؟ ما الذى يخصه فى الكونجو؟ إن مقترحاته بشأن نزع السلاح فى جنيف جاءته مباشرة فى شكل تعليمات من موسكو».

وأبديت تحفظى. ولكن الملك كان لا يزال مُصراً على أن «ناصر» يعادينا ويخدعنا، وأننا ما زلنا نحاول استرضاءه. وذكَّرتُه بأننا عطلنا توريد القمح إلى مصر طبقاً للقانون ٤٨٠. وعقَّب الملك «أوقفوا عنه الطعام تماماً وسوف ترون ما يحدث»..»]

....

....

[وكان ظهور هذه البرقية فى الملفات الإسرائيلية أمراً له دلالته!]

....

....

□

وفى الأوراق الإسرائيلية (عن مصادر أمريكية) ـ التى تَتَعَرَّض لوقائع تلك الساعات الحرجة أن الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» رأى أن يستوثق من احتمالات غضب الشارع العربى على العروش العربية فى حالة ما إذا شنت إسرائيل هجوماً عسكرياً خاطفاً ضدَّ مصر.

واستقَر رأى «جونسون» بمشورة من وزير الدفاع «روبرت ماكنمارا» وموافقة وزير الخارجية «دين راسك» على التَوَجُّه بالسؤال مباشرة إلى مَلكَين فى المنطقة تعتبر الولايات المتحدة أن عرشهما «مسألة تهمها»!

الملك «حسين بن طلال» فى الأردن..

والملك «فيصل بن عبد العزيز» فى السعودية.

□ وبالنسبة للملك «حسين» فقد توَجَّه إلى مقابلته فى عَمَّان (يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧) المساعد الشخصى للرئيس الأمريكى فى مجلس الأمن القومى وهو «روبرت كومار». وفيما يبدو من إشارات ظاهرة فى الأوراق «أن الملك «حسين» بدا قلقاً من انفجار مشاعر شعبه «ونصفه على الأقل» من الفلسطينيين». وكانت مخاوفه أنه فى حالة حرب خاطفة تشنها إسرائيل ضدَّ مصر فإن «المملكة» سوف تكون فى وضع بالغ الحَرَج «أكثر مما تظنون».

□ وأما بالنسبة للملك «فيصل بن عبدالعزيز» فقد تَوَجَّه إلى مقابلته فى نفس اليوم (٢٨ مايو ١٩٦٧) «ريتشارد هيلمز» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

كان الملك «فيصل» يومها فى زيارة رسمية للعاصمة البريطانية لندن، وكان هدف الزيارة بحث ترتيبات الأمن فى شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج بعد جلاء القوات البريطانية عن المنطقة وفق سياسة الدفاع الجديدة التى أعلنها حزب العمال البريطانى، وهى سياسة الانسحاب من شرق السويس!

وتوافق مع زيارة الملك للندن وقتها مجىء وَفدٍ من مشايخ وسلاطين جنوب اليمن يريدون عقد اتفاقيات مع الحكومة البريطانية ومع الملك لحماية أوضاعهم عندما تنسحب القوات البريطانية من عَدَن (١٩٦٨ كما أعلن رسمياً من مجلس العموم).

وطبقاً للوثائق (وفيها ما هو صادر عن السفارة الإسرائيلية فى لندن) فقد كان الهدف الرئيسى الأصلى لزيارة الملك إلى لندن تخيير الحكومة البريطانية بين أحد حَلَّين :

□ الحل الأول ـ تأجيل تنفيذ «سياسة شرق السويس» واستمرار بقاء القوات البريطانية فى المنطقة لسنة كاملة على الأقل حتى يتمكن الجميع من ترتيب أوضاعهم، وإلا فإن إتمام الانسحاب البريطانى فى المواعيد المعلنة سوف يخلق فراغاً يملؤه الجيش المصرى ويدخل إلى عَدَن ذاتها.

□ والحل الثانى ـ أن تبذل الحكومة البريطانية مساعيها لإقامة تَجَمُّع يضم كل دول شبه الجزيرة العربية والخليج لكى يكون للمنطقة تَجَمُّع إقليمى تتمايز به عن الجامعة العربية، ويكون للسعودية فيه دَوْرٌ مُؤَثِّرٌ يوازى الدَّوْر المصرى فى إطار جامعة الدول العربية «التى يوجد مقرها فى القاهرة»!

وكان الترتيب أن يسافر الملك «فيصل» من لندن إلى بلجيكا فى زيارة رسمية يوم ١٨ مايو، لكن الملك الذى عرف بأنباء الأزمة الطارئة فى الشرق الأوسط قرر تمديد إقامته فى العاصمة البريطانية وتأجيل زيارته لبلجيكا أياماً حتى يظل على صلة بالتطورات من العاصمة البريطانية.

....

....

[لم يكن مزاج الملك «فيصل» عند وصوله إلى لندن يوم ٩ مايو رائقاً أو صافياً، فقد قابَلَته فى المطار مظاهرات معادية له نَظَّمَتها اتحادات الطلبة العرب فى الجامعات البريطانية، واضطر الأمن البريطانى إلى حشد قوات إضافية حول المطار، وهكذا فإن وصول الملك إلى مطار «هيثرو» بدا أشبه ما يكون بعملية عسكرية. وقد اكتشف بعض المحيطين بالملك أن الحرس السعودى الخاص المصاحب له ليس كافياً فى الظروف المستجدة، وهكذا صَدَرَت أوامر



استقر رأى «جونسون» بمشورة من وزير الدفاع «روبرت ماكنمارا» وموافقة وزير الخارجية «دين راسك» على التوجه بالسؤال مباشرة إلى ملكين فى المنطقة تعتبر الولايات المتحدة أن عرشيهما «مسألة تهمها»!
الملك «حسين بن طلال» فى الأردن..
والملك «فيصل بن عبد العزيز» فى السعودية

إلى بعثة دراسية تضم حوالى خمسين من الطلبة الطيارين أن يتركوا دراستهم وأن يلتحقوا بالحرس الشخصى للملك تعزيزاً لأمنه.]

....

....

□

وفى الأيام الأول من زيارة الملك إلى لندن كانت إقامته فى قصر «باكنجهام» ضيفاً على الملكة باعتبار أنها زيارة دولة - وفى القصر اجتمع الملك «فيصل» برئيس الوزراء «هارولد ويلسون» ووزير الخارجية «جورج براون»، إلى جانب قادة عسكريين من هيئة أركان الحرب، واثنين من المسئولين فى هيئة المخابرات البريطانية .M. I. 6 .

ولا توجد فى الأوراق الإسرائيلية (فى حدود ما قرأت) أية معلومات عما جرى فى هذه اللقاءات سوى أن «ملك السعودية تأكد من تصميم حكومة المملكة المتحدة على إجلاء قواتها من الخليج والجنوب العربى وعَدَن فى المواعيد المقررة فى إعلان سياسة الانسحاب من شرق السويس، وأن الحكومة البريطانية على استعداد لأن تسمع أية مقترحات للملك بفكر مفتوح، ولكن فى إطار سياساتها المعلَنة!

وفيما يظهر من الأوراق فإن الملك قضى بعد ظُهر وليلة السبت ١٣ مايو خارج لندن، وهناك سمع بآخر أنباء الشرق الأوسط (حشود القوات المصرية فى سيناء)، ومساء الأحد ١٤ مايو عاد إلى العاصمة البريطانية ونزل فى فندق «دورشستر». وتلاحظ التقارير الإسرائيلية «أن فندق «دورشستر» كان مزدحماً بالضيوف خصوصاً من رجال شركات البترول الأمريكية والبريطانية وغيرهم جاءوا للقاء الملك أو بعض أفراد حاشيته».

وتشير الأوراق أيضاً إلى أنه برغم إجراءات الأمن المشددة فى فندق «دورشستر» فإن نزلاء كثيرين قصدوا إليه لأسبابهم. ولا تشير الأوراق صراحة إلى أنه كان بين النزلاء عُملاء لإسرائيل - لكنه من الظاهر أن «العيون» كانت هناك لأن التقارير عن إقامة الملك فى الفندق كانت يومية، وإن كانت تفاصيل هذه التقارير لا تُبين - على الأقل فيما قرأت!

وفى هذا المناخ وصل إلى لندن، وإلى فندق «دورشستر»، مبعوث «جونسون» السرى إلى الملك وهو «ريتشارد هيلمز» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وتعليماته أن يقيس رَدَّ فعل الملك فى حالة هجوم إسرائيلى على مصر، واتصالا بنفس الموضوع أن يَسمَع من الملك تقديره لما يمكن أن يكون عليه رَدُّ فعل الشارع العربى فى هذه الحالة، ثم وترتيباً على ذلك أن يستطلع رأى الملك فى أية إجراءات يلزم أن تتخذها الحكومة الأمريكية لحماية «أصدقائها» من غضب الشارع العربى؟!

ولا تقول الأوراق الإسرائيلية بعد ذلك شيئاً سوى إشارة عابرة بأن جناح الملك فى فندق «دورشستر» جرت زيادة تأمينه بواسطة خبراء تابعين لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ثم إن «ريتشارد هيلمز» وَصَلَ إلى الفندق قبل الساعة الحادية عشرة مساء يوم ٢٩ مايو، وكان فى انتظاره هناك مستشار الملك الخاص - وشقيق زوجته الملكة «عِفّت» - وهو مدير المخابرات السعودية السيد «كمال أدهم». ولم يكن هناك مع الثلاثة رابع، واتصل اجتماعهم إلى قرب الساعة الثانية صباحاً، ثم خرج «ريتشارد هيلمز» متوجهاً إلى المطار وعائداً إلى واشنطن.

وبعد خمس ساعات كان «ريتشارد هيلمز» فى واشنطن قاصِداً من المطار إلى البيت الأبيض. ■



١٠ سؤال!

■■ يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ دخل إلى البيت الأبيض موفد الحكومة الإسرائيلية المصابة بالقلق - الجنرال «مائير آميت» مدير الموساد، وكان فى صحبته مسئول الأمن القومى الملحق بالسفارة الإسرائيلية فى واشنطن - الوزير المفوَّض «يائير إيفرون».

كان الجنرال «مائير آميت» يتوقع أن يسمع من البيت الأبيض كلاماً مشابهاً لما سمعه «آبا إيبان» قبله بأيام عن ضرورة الانتظار أسبوعين أو ثلاثة. ومع أن الوزير المفوَّض «إيفرون» أبلغ «آميت» قبل تَوَجُّه الاثنين إلى البيت الأبيض أنه «سمع من العصافير (يقصد «إنجلتون» فى الغالب) عن وجود تغيير فى الجو» - فإن الجنرال «آميت» فوجئ بالرئيس «جونسون» يجيء إلى مقابلته فى مكتب مستشاره للأمن القومى «روستو» ثم يُبادره بما مؤداه:

«حسناً.. افعلوا ما تشاءون - ولكن قولوا لنا ماذا تريدون منا؟».

ثم يستطرد «جونسون»:

«بعد أن تفرغ من هنا تَوَجَّه إلى مقابلة ماكنمارا (وزير الدفاع) واطلب ما تريد».

ثم قال «جونسون» ما ملخصه:

«الذى نراه أمامنا الآن أن تشكيل قوة بحرية دولية تقوم بكسر حصار «ناصر» على خليج العقبة مُعَطَّل، وفى نفس الوقت فنحن لا نستطيع أن نطلب إليكم أن تقفوا ساكتين وأمنكم مُهَدَّد، و«ناصر» تجاوز حدوده، والسوفييت فى حالة تَرَدُّد أو حالة انقسام، ونحن نعرف أن فى مقدوركم «ضرب ناصر»، ولكن كل شيء يتوقف على قوة فعلكم وسرعته. تَحَرَّكوا بحسم شديد فيما ترونه لازماً إزاء الخطر الذى ترونه.. القوة والسرعة والحسم سوف تَصُدُّ تَدَخُّل أى أطراف لا تريدونها ولا نريدها - وأطراف أخرى لا نريد إحراجها ولا تريدون أنتم كما أظن!»

ثم يختم «جونسون» بما معناه:

«إننى لا أريدك أن تكشف أمامى أية تفاصيل، ولا أريد أن أقول لك أكثر مما قلت.

لا نريد أن نفعل مثل غيرنا (الراجح أنه يقصد «إيدن» فى السويس). نحن لا نتواطأ معكم ولكننا لا نملك اعتراض حقكم فى عمل ترونه حَيَوياً لأمنكم وتعرفون أنكم قادرون عليه.



«جونسون» للجنرال «مائير آميت» مدير الموساد: نحن لا نستطيع أن نطلب إليكم أن تقفوا ساكتين وأمنكم مهدد، و«ناصر» تجاوز حدوده، ونحن نعرف أن فى مقدوركم ضربه ولكن كل شيء يتوقف على قوة فعلكم وسرعته

لا أريد أن أسمع أكثر لأنى أريد أن أكون فى موقف يسمح لى بأن أنفى علمى المسبق بأية تفاصيل - سوى حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها».

وتَدَخَّلَ «روستو» فى المناقشة ليقول ما مؤداه «إن الرئيس يريد أن يكون فى مقدوره أن ينفى نفياً مُقنعاً (plausible deniability) فى حالة ما إذا سُئِل فيما بعد عما كان يعرف ومتى عرف؟!»

□

وهنا يثور سؤال بالغ الأهمية عن الرسالة التى حملها «ريتشارد هيلمز» مدير المخابرات المركزية إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عن نتائج لقائه مع الملك «فيصل» - بحضور السيد «كمال أدهم» - فى فندق «دورشستر» بلندن يوم ٢٩ مايو ١٩٦٧.

وللأمانة فإنه لا توجد فى الأوراق الإسرائيلية - فيما اطلعت عليه - إجابة عن هذا السؤال، لا مباشرة ولا بالإيحاء!

لكن الملابسات تثير ظنوناً قد يكون لها أساس وقد لا يكون!

....

....

[وسنة ١٩٨٥ كنت أفكر فى كتاب عن عَدَد من الشخصيات الغامضة التى لعبت أدواراً «مُهِمَّة» من وراء الستار فى السياسة العربية، ووَضَعتُ قائمة بأسماء عشرة رجال وَجَدتُ المواصفات تنطبق عليهم، وكان بينهم السيد «كمال أدهم».

وفى لندن ربيع ذات السنة (١٩٨٥) - عرفت أن السيد «كمال أدهم» موجود فى بيته فى العاصمة البريطانية. ومع أنى أعرف الرَّجُل من قبل إلا أننى فضلت أن أطلب موعداً معه عن طريق الدكتور «أشرف مروان» وهو صديق عزيز لى وله - ورجوت الصديق المشترك أن يذكر للسيد «كمال أدهم» سبب طلبى للقائه حتى تكون له فرصة أن يَقبَل أو يعتذر.

واستجاب الرَّجُل (مشكوراً) فحدد للقائنا موعداً فى بيته فى «إيتون سكوير» مُوَضِّحاً أنه لأسباب أمنية لا يستطيع مقابلة أحد - حتى أقرب الأصدقاء إليه - فى مكان عام!

....

....

وحين دخلت على السيد «كمال أدهم» - كان جالساً فى غرفة استقبال على يمين مدخل بيته، ولاحظت أنه لم يتغير كثيراً عن آخر مرة لقيته فيها، فيما عدا أن وزنه زاد إلى حَدٍّ اكتملت معه استدارة وجهه الأبيض (من أصله التركى)، ثم إن شعره (الذى لم أره أسود فى يوم من الأيام) قد أصبح الآن فى لون ثلوج الشتاء. واسترعى انتباهى أن التلفزيون أمامه مفتوح وإن كان صوته غير مسموع بدَرَجَة يصعب معها تمييز ما يَصدُر عنه.

وأراد السيد «كمال أدهم» أن يفسر لى ما لاحظته فقال:

«أنا هنا سجين بيتى. أشاهد تسجيلات خمسة أفلام أو ستة كل يوم، وأتابع بعض

برامج التلفزيون - هذا شاغلي طول النهار. وفي الليل أقابل بعض الأصدقاء هنا أيضاً، ثم أتوجه إلى الطابق الأعلى فأنام - لكني طول اليوم أبقى التلفزيون مفتوحاً حتى ولو كان عندي زوار».

واستطرد بابتسامة: «سوف أقول لك نصيحة أمنيَّة مجانية. بعض الناس يتصورون حين يتكلمون ولا يريدون لأحد أن يَتَسمَّع عليهم أن فتح راديو كفيل بالتشويش، وهذا غير صحيح. الذى يُشوِّش فعلاً هو تلفزيون مفتوح، ذبذباته المغناطيسية تتداخل مع أية أجهزة حديثة وتُشوِّش عليها بما لا يسمح بالتَّنَصُّت».

وشكرته على النصيحة الأمنيَّة المجانية، وإن لم أستطع أن أكتم سؤالاً وجدته منطقياً: «إذا كانت تلك حياتك فلماذا تسافر إلى خارج السعودية؟».

ويظهر أن السؤال أحرجه، وبدا من تقاطيع وجهه أن لديه في السعودية - ومنذ اختفاء الملك «فيصل» بالاغتيال قبل عشر سنوات - أسباباً تجعله يَحِن للخروج من «المملكة» بين وقت وآخر.

وآثر هو أن يَرُدَّ على السؤال بطريقة أخرى فقال:

«أستطيع أن أبقى في المملكة طول الوقت، لكني من آن لآخر أحتاج إلى تغيير جو»!

وقلت: «لكن حياتك على هذا النحو الذى وصفته لي ليست تغيير جو».

ورَدَّ وقد عَلَت نبرة صوته:

«ماذا أفعل يا أخي. صديقك معمر القذافي يهددني. يطاردني ويريد خطفي، وقد كَلَّف عدداً من عملائه الإرهابيين - وبينهم «كارلوس» - أن يخطفوني بأى ثمن من أى مكان».

ولم ينتظر السيد «كمال أدهم» أن أسأله، فسبق جوابه سؤالي:

«تسألني عن السبب الذى يريد القذافي من أجله خطفي؟ هو يتصور أن لدى أسراراً كثيرة عن كل ما جرى ويجرى في العالم العربي، وهو يسعى لخطفي لأنه يريد استجوابي بنفسه ليحصل مني على كل سر أعرفه!»

وكان ذلك مدخلنا إلى أحاديث الرجال العشرة الغامضين، الذين يمارسون أدوارهم من وراء ستار على المسرح السياسي المحلي والإقليمي والدولي في الشرق الأوسط - وقد تَحَدَّث «كمال أدهم» فيما سألته فيه، وكان بعض ما قاله مُشَوِّقاً ومُثيراً!

وفي منتصف الحديث توقفت بسؤال مفاجئ.. عن لقاء الملك «فيصل» بمدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «ريتشارد هيلمز» في فندق «الدورشستر» ليل ٢٩ مايو ١٩٦٧؟

وهل عرف منه الملك أن شيئاً ما يُدَبَّر لمصر أو لـ«جمال عبد الناصر»؟»

(لم أكن وقتها قد اطلعت على الوثائق الإسرائيلية، لكن لقاء مدير المخابرات المركزية الأمريكية مع ملك السعودية كان مذكوراً من وقت مُبكِّر في الوثائق الأمريكية - دون تفصيلات).

على أنه إذا كان السيد «كمال أدهم» قد فوجئ بالسؤال فإنه لم يستغرق وقتاً طويلاً في التغلب على المفاجأة، والحقيقة أنه تمالك أعصابه بسرعة رَجُل مخابرات مُدَرَّب - وأجاب على السؤال بسؤال كما هي العادة مع أى رَجُل مُدَرَّب أمنياً!

قال: «لماذا تسأل هذا السؤال؟»

وقلت: «لأنه بالفعل يُحَيِّرُني منذ قرأت برقية السفير الأمريكي عن مقابلته للملك في قصر الشبرا» (وكنت حصلت عليها (سنة ١٩٨٥) بمقتضى قانون حرية المعلومات!)

وعاد السيد «كمال أدهم» يسألني: «هل تريد أن تتهم الملك بأنه تواطأ مع الأمريكان مباشرة - ومع الإسرائيليين بالوساطة - ضد مصر».

وقلت: «إنني لا أتهم الملك بشيء، ولكني أسألك؟»

وردَّ السيد «كمال أدهم» وقد طلب مني أن أتوقف عن تسجيل إشارات متفرقة استأذنته في كتابتها على صفحات دفتر صغير أحمله حتى يظل سياق الحديث معي.

ووضعت الدفتر والقلم على المائدة بجوار فنجان القهوة - وراح السيد «كمال أدهم» يقول وبعض ما قاله - ولهجته خصوصاً - تُشعِر سامعه بأن الكلام فعلاً من قلبه:

«اسمع.. لست سياسياً مثل الآخرين أقول أى كلام والسلام. ما سألتني فيه لن أرد عليه، ولكني أريدك أن تعلم، وأنا أقولها لك بمنتهى الصراحة:

صديقك الرئيس «جمال» كان في مواجهة مفتوحة وعنيفة ضد المملكة، والمعركة كانت سياسية ونفسية - وأخيراً أصبحت عسكرية (في اليمن).

والملك فيصل مسئول عن مملكته. مسئول أمام أسرته. مسئول أمام إخوته وأبنائه يُسلِّم لهم الأمانة كاملة كما استلمها. واجبه واضح أمام العرش والأسرة، وعليه أن يتصرف بما يحقق «المصلحة». وهذا هو كل شيء وليس هناك شيء آخر.

لا تستطيع أن تُسائل الملك فيصل - عليه رحمة الله - إلا فيما هو مسئول عنه: العرش والأسرة، وهل نجح في حمايتهما طوال حُكمه أو لم ينجح؟ - وهل كانت المملكة أقل أو أكثر استقراراً عندما تركها عما كانت عليه عندما تسلمها؟ - هذا هو «المحك»!

كان الخطر الأكبر علينا أيام مُلكه - عليه رحمة الله - هو صديقك الرئيس جمال. وبالنسبة لنا في المملكة فإن فيصل انتصر في التهديد الذى مثَّله علينا الرئيس جمال، ونحن لا نتعب رؤوسنا بكثرة الأسئلة ولا بالخوض في الحكايات والتواريخ..».

وسكت السيد «كمال أدهم» وهو يشعر أنني أتابعه بتركيز شديد:

«كنت صريحاً معك. لم أتكلم كلام سياسيين. ولم أتكلم كلام رَجُل غامض. كلمتك بصراحة وأنت حُرٌّ فيما تفهمه مما قلت!»]

....

....

[المدهش أنني بعد سنوات من هذا اللقاء مع السيد «كمال أدهم» في لندن سمعت نفس الكلام - بسياقه وألفاظه تقريباً - من أحد الأمراء الشبان اللامعين في الأسرة المالكة السعودية].

....

....



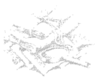
كمال أدهم: الملك فيصل مسئول عن مملكته. مسئول أمام أسرته. مسئول أمام أخوته وأبنائه يسلمهم الأمانة كاملة كما استلمها. واجبه واضح أمام العرش والأسرة، وعليه أن يتصرف بما يحقق المصلحة، وهذا هو كل شئ، وليس هناك شئ آخر

ملحوظة:

فيما بعد، وبعد أن قابلت الرجال الغامضين العشرة الذين اخترتهم، غَيَّرتُ رأيي في مشروع الكتاب كله - واعتذرت للناشر الذى كان يلح في طلبه، وهو «أندريه دويتش» - وكان ظني بمراجعة نفسي أن هناك في المنطقة - وقتها - قضايا أسبق إلى الاهتمام من عشرة رجال غامضين مارسوا أدوارهم من وراء ستار على مسرح سياسي تجرى أخطر وقائعه وراء الضوء - وبعيداً عن عيون الناس!]

....

....



٢٢ حسين

يجيء بعد ذلك أن موقف الملك «حسين بن طلال» طوال أزمة مايو ويونيو ١٩٦٧ يستحق الكثير من التدقيق، ولعله أيضاً يساوى النظر إليه بفهم لعَلَّه يَتَّسِع لما هو أكثر من أحكام «القيمة» المجردة - ولعلَّه يَضَع في اعتباره أحكام «الحقيقة» السياسية (خصوصاً عندما تَمُرُّ السنون وتَتَحَوَّل السياسة إلى تاريخ!)

والحقيقة السياسية في موقف الملك - شديدة الوضوح في الأوراق الإسرائيلية (وفي الأوراق الأمريكية أيضاً) - لكنها في المصادر العربية مُلتَبِسة بكثير من الإنشاء، أكثره يَتَّهم وأقله يُدافع، لكنه بين الاتهام والدفاع يَزداد الالتباس!

وفي الوثائق الإسرائيلية والأمريكية يَظهَر جَلياً أن الملك «حسين» كان يعرف عن ذلك «المَوعد مع الحرب» ضد مصر في صيف سنة ١٩٦٧.

والدليل على ذلك قَدَّمه الملك بنفسه - في ذلك الموقف الجسور - والذى يُحسَب له بصرف النظر عن أى اعتبار آخر - حين طلب من الفريق «عبد المنعم رياض» أن ينقل عنه رسالة تحذير للرئيس «جمال عبد الناصر» تنبهه إلى فَخٍّ يُدَبَّر لمصر وله بمشاركة عناصر من القيادة السورية مُختَرَقة ومُتَواطئة!

لكن هذه المبادرة بالتحذير التى قام بها الملك يوم أول مايو (عن طريق الفريق «عبد المنعم رياض») - تبعتها مبادرة ثانية قام بها الملك بنفسه، وهي مبادرة «بالمشاركة» عن طريق رسالة بَعَثَ بها الملك (إلى «جمال عبد الناصر») مع السفير المصري في الأردن عارضاً أن يجيء بنفسه ليبحث «الدور الذى يمكن أن يقوم به الأردن في مواجهة قومية لا يستطيع أحد أن يَتَخَلَّف عنها»!

□

وفيما تُظهره الوثائق الأمريكية والإسرائيلية (خصوصاً فيما اطلع

عليه ونقل عنه الأستاذ «مايكل بريشر» فإنه لا توجد إشارة إلى أن «مبادرة التحذير» التى قَدَّمَها الملك وَصَلَت إلى عِلم أحد سواء من الأمريكيين أو الإسرائيليين.

لكنه فيما يتعلق بـ«مبادرة المشاركة» وهى مجىء الملك إلى مصر لتنسيق موقفه مع موقف «جمال عبد الناصر»! ـ فى إطار ما هو مُحتَمَل أو ما هو قادم ـ فإن الإشارات كافية لرسم صورة مجملها :

١ ـ أن الملك قَرَّرَ «المبادرة بالمشاركة» ـ أو على الأقل بعرض المشاركة ـ يوم ٣٠ مايو، وهو نفس اليوم الذى تأكد فيه أن الرئيس «جونسون» قد توافق بالكامل مع إسرائيل، وأن الاختلاف بين الجانبين حول التوقيتات والأولويات تَمَّ حله، وأن الجنرال «مائير آميت» مدير المخابرات الإسرائيلية (الموساد) تلقى الضوء الأخضر الذى تنتظره إسرائيل من البيت الأبيض. وبالتالى فإن الحرب مسألة ساعات وأيام!

٢ ـ أن الولايات المتحدة على الأقل جرى إخطارها بأن الملك فى سبيل اتخاذ مبادرة مباشرة مع القاهرة، وأنه قد يَتَوَجَّه إليها ـ إذا ما جاءه الرد الملائم ـ لمقابلة مع الرئيس «جمال عبد الناصر».

وفيما يتعلق بإسرائيل فإنه لا يبدو فى الأوراق أنها عرفت مسبقاً عن مبادرة الملك يوم ٣٠ مايو ـ والمحسوس به فى الوثائق الإسرائيلية (دون نصوص تَدُلُّ بيقين) ـ أن ما عرفته إسرائيل هو ما قيل لها عن طريق الولايات المتحدة، ومؤداه «أن ملك الأردن مضطرٌ إلى مناورة بالغة الصعوبةَ وإلا فَقَدَ عرشه، لأنه فى حالة نشوب معارك بين مصر وإسرائيل فإن الضغوط الشعبية داخل المملكة سوف تَفرض على الملك ما لا قِبَلَ له به، فإما أن يَتَصَدَّى لغضب الشارع فى بلاده بعُنف غير مسبوق، وإما أن يَكتَسِح غضب الشارعَ أمامه كل شىء!

وبالتالى فإنه إذا أريد للعرش الهاشمى أن يَظَلَّ فى عَمَّان، وإذا أريد للملك «حسين» أن يواصل «دوره» الهام فى المنطقة ـ فلا بد من معاملته فى هذه الأزمة بطريقة أكثر مرونة (more liberal) طبق نَصٍّ فى تقرير اطلع عليه الأستاذ «بريشر»، وهو وارد فى تقرير كتبه «يائير إيفرون» الوزير المفوض فى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن، (وهو مسئول الاتصال الرئيسى مع مجلس الأمن القومى الأمريكى فى البيت الأبيض).

٣ ـ إن الوثائق تذهب إلى أبعد من ذلك فى كشفها لدقائق الصورة فتُبَيِّن أن الولايات المتحدة الأمريكية ـ وبعلم إسرائيل ـ تَوَلَّت ترتيب خروج ٢٥ طائرة مقاتلة أمريكية من طراز «ف ١٠٤» ـ قدمتها الولايات المتحدة إلى الأردن وكانت تمثل العمود الفقرى لقوته الجوية، وكان الملك عن طريق الجنرال «عامر خماش» رئيس أركان حرب الجيش الأردنى قد طلب ذلك من السفير الأمريكى فى عَمَّان (فور عودته من القاهرة يوم ١ مايو ١٩٦٧)، وتَمَّت الاستجابة للطلب على وجه السرعة، وانتقلت الطائرات بالفعل إلى قواعد عسكرية أمريكية فى «تركيا» قبل أن تبدأ العمليات الإسرائيلية صباح ٥ يونيو ١٩٦٧.

وكان بين الأسباب التى دَعَت إلى طلب إخراج هذه الطائرات ـ وكما يبدو الآن ـ أن الملك «حسين» اتفق أثناء لقائه مع «جمال عبد النَاصر» فى القاهرة على أن يتولى ضابط مصرى برتبة «فريق» قيادة القوات الأردنية فى المعارك القادمة (وقد وقع اختيار الملك بنفسه على الفريق «عبد المنعم رياض» ليتولى المسئولية الرسمية للجبهة الأردنية!) ـ ولم يكن أحد من العارفين بدخائل الأمور يريد أن يجد «عبد المنعم رياض» أمامه ٢٥ طائرة مقاتلة على مسرح العمليات الذى أصبح مسئولاً عنه ثم يُقَرِّر ـ ولو نظرياً ـ محاولة استعمالها!

٤ ـ إن الملك الذى لم يكن يريد أن يُعَرِّض جيشه لانفلاتات لا داعى لها اعتمد منذ البداية تطبيق نظرية الجنرال «جون باجيت جلوب» («جلوب» باشا القائد البريطانى لجيشه حتى سنة ١٩٥٦) ـ وهى نظرية تَستَنِد إلى «عقيدة» لا تقبل «اللعب» ـ ملخصها :

ـ أن المملكة الأردنية الهاشمية ليس لها عَدُو مسلح يملك جيشاً يستطيع تهديدها، وذلك لأن المملكة مشمولة بنظام أمن غربى يكفل ردع أى جيش محلى (الجيش السورى أولاً لأسباب سياسية ـ والجيش السعودى ربما لأسباب عائلية).

ـ وفيما يتعلق بإسرائيل فإن أى جيش أردنى مهما بلغت درجة تسليحه لا يستطيع الوقوف فى وجهها ـ وأن ما يحمى الأردن فى الواقع من أى خطر إسرائيلى ـ على فرض وقوعه ـ هو ضمان الولايات المتحدة الأمريكية. ويترتب على ذلك أنه إذا حدث فى ظرف من الظروف أن بدا خطر هجوم إسرائيلى وشيك فإن الجيش الأردنى «حفاظاً على قوته وحرصاً على بقائه باستمرار جاهزاً لتنفيذ المهام القتالية الموكولة إليه ـ عليه أن ينسحب دون اشتباك، تاركاً للسياسة العليا الأردنية مهمة استعادة أية أراض قد تدخلها القوات الإسرائيلية».

ـ ومعنى ذلك فى المحصلة أن التهديد المحتمل على المملكة ليس له مَصدَر إلا الأوضاع الداخلية الأردنية وتَحَدِّياتها ـ وذلك معناه أن العقيدة القتالية للجيش الأردنى هى «المحافظة على العرش وعلى النظام العام فى البلاد».

□

كانت هذه السياسة ما تزال مُعتَمَدة فى الأردن، ومقبولة من الأطراف الأخرى، وفى مقدمتها الولايات المتحدة وإسرائيل ـ حتى بعد أن قام الملك «حسين» بزيارته «المفاجئة» إلى القاهرة يوم ٣١ مايو، ثم عاد منها إلى عَمَّان ومعه «الفريق عبد المنعم رياض» قائداً عاماً لقوات الجبهة الأردنية!

والدليل على ذلك هو نص الأمر الصادر إلى قوات الجيش الإسرائيلى بمقتضى توجيه مجلس الوزراء الإسرائيلى الصادر يوم ٤ يونيو (وكان الجيش قد فَرَضَ ـ بشبه انقلاب ـ عودة الجنرال «ديان» قبلها بيومين وزيراً للدفاع).

كانت مقدمة التوجيه تقول إنه «بعد الاستماع إلى تقارير عن الموقفين السياسى والعسكرى قدمها رئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير الدفاع، ورئيس الأركان، ومدير الموساد ـ تأكدت الحكومة أن جيوش مصر وسوريا والأردن مُنتَشِرة بهدف شن عدوان فورى على جميع الجبهات، بما يشكل تهديداً فى الصميم لوجود إسرائيل.

وبناء عليه «خَوَّلَت الحكومة رئيس الوزراء ووزير الدفاع بالتصرُّف مع اختيار ساعة الصفر بالاتفاق مع هيئة الأركان العامة لجيش الدفاع الإسرائيلى».



الولايات المتحدة الأمريكية ـ وبعلم إسرائيل ـ تولت ترتيب خروج ٢٥ طائرة مقاتلة أمريكية إلى قواعد أمريكية فى تركيا من طراز «ف ١٠٤» ـ قدمتها إلى الأردن وكانت تمثل العمود الفقرى لقوته حتى لا يجدها «عبدالمنعم رياض» أمامه على مسرح العمليات ثم يقرر ـ ولو نظريا ـ محاولة استعمالها

لكن تفصيلات تنفيذ القرار كما وضعت بعد ذلك بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس الأركان كانت (حسب ما تقول به الأوراق الإسرائيلية بما فيها مذكرات للجنة الأمن والدفاع فى مجلس الوزراء) ظلت على ما هى عليه:

١ ـ الجهد الرئيسى «لقوات جيش الدفاع الإسرائيلى» مُوَجَّه ومُرَكَّز ضدَّ الجبهة المصرية بمقتضى الخطة الأصليَة بالإضافة إلى التعديلات التى عرضها وزير الدفاع وتَصَدَّق عليها (وهى الوصول إلى «شرم الشيخ» واحتلالها، وبعدها «رأس محمد»، بما يجعل جبال سيناء الجنوبية عازلاً بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية).

٢ ـ ووضع دفاعى فى حدود ما هو لازم إزاء الجبهة السورية.

٣ ـ ولا عمليات على الجبهة الأردنية. وفى حالة حدوث أى تعقيدات غير مُنتَظَرة تجرى العودة إلى وزير الدفاع لتَلَقِّى الأوامر مباشرة منه!

وتشير الأوراق الإسرائيلية فى أكثر من موضع إلى أن المخابرات الإسرائيلية فى تقديراتها «لاحتمالات أى تعقيد غير مُنتَظَر على الجبهة الأردنية» تَحَسَّبَت لتداعيات تَقَع «دون علم الملك» فى مناخ حافل بالفوضى، أو تصرُّف يقوم به «ضابط مجنون» يأخذ الأمور على عاتقه!

وكانت تعليمات رئيس الوزراء إلى وزير الدفاع أنه «إذا طرأ موقف من هذا النوع فإن عليه أن يحاول «حصره» محلياً، وأن يتصل على الفور «بالطُرُق المعروفة» لتنبيه الملك «حسين» كى «يتدارك الموقف»، فإذا لم يكن هناك استجابة فورية تحتوى الأمور، فإن الجنرال «ديان» كان مُخَوَّلاً بأن «ينتهز الفرصة ويدخل القدس القديمة ويحتل حائط المبكى ويَنتَظِر هناك!»

(وبذلك تكون إسرائيل فى زحمة الحوادث قد «لَطَشَت» snatched جائزة يفرح ويُهَلِّل لها الشعب اليهودى فى كل مكان).

□

وهكذا فإن السؤال عن حقيقة موقف الملك «حسين» فى حرب سنة ١٩٦٧ يصبح سؤالاً مشروعاً ـ وأن من «المنطقى» أن تأخذ الإجابة عليه فى اعتبارها أحكام «القيمة» المجردة ـ وإلى جانبها ـ فى نفس اللحظة ـ أحكام «الحقيقة» السياسية.

وفى الأوراق الإسرائيلية ما فيه الكفاية عن موقف الملك «حسين» عندما بدأت العمليات:

١ ـ أَمرٌ منه إلى اللواء «عامر خماش» وزير الدفاع الأردنى بالانسحاب المنظم من الضفة الغربية والقدس إذا بَدَت إشارات تَدُل على أن الجيش الأردنى مُعَرَّض لمواجهة تؤثر على قوته واستعداده، وذلك بصرف النظر عن أية تعليمات يصدرها القائد العام المصرى للجبهة الفريق «عبد المنعم رياض»

٢ ـ تعليمات إليه (اللواء «خماش») بأن يتفادى أى خلافات مع الفريق «عبد المنعم رياض»، وأن يَتَقَبَّل منطوق أوامره دون أن يَتَصَرَّف بمقتضاها إلا بعد الرجوع إلى الجهات العليا!

٣ ـ ثم وفى مُطلق الأحوال أن يتحاشى الجيش الأردنى أية «إشكاليات» مع المدنيين فى الضفة والقدس إذا لاحظوا انسحابه وإفهامهم

عند ساعة الصفر

«بالحسنى» أن تحركات الجيش تجرى وفق خطة مُرَتَّبة مع «القيادة المصرية»!

وبصرف النظر عن «حكم القيمة» على هذه التعليمات فإن «حكم الحقيقة السياسية» له منطق داخلى يَصعُب إغفاله مؤدَّاه (حسب رواية الملك نفسه) :

ـــ أن الملك «حسين» كان يعرف بشكل ما هو قادم، ويَعتَبِر نفسه قد أخلى ذِمَّته بتحذير القاهرة مبكراً منه برغم مَخاطِر كان مُحتَمَلاً أن يَتَعَرَّض لها.

ـــ وأنه كان يدرك تماماً فارق القوة والاستعداد بين الطرفين فى المعركة القادمة، ويرى التَفَوُّق مؤكدا لصالح إسرائيل.

ـــ وأنه إذا كانت محاولته للتحذير المبكر لم تُسمَع فى أوانها ـ فإن محاولته لتغيير مسار الأزمة أكبر من طاقته.

ـــ وأنه والحال كذلك لم يتبق أمامه غير أن يحاول قدر ما يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ـــ على أنه إذا حَدَثَ ما لا يريد فإن أمله الواقعى مُعلَّق بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها ـ وليس على غيرها.

ـــ وأنه مُطالب بقدر من مرونة الحركة يَتَفَوَّق به على كل ما واجهه من قبل فى عمره الحافل بالأزمات ـ ومعنى ذلك أنه مضطر إلى أن يساير إلى أقصى حدٍّ يستطيع فيه أن يساير، ويَكسَب لنفسه وقتاً مهما كان الثمن، ويَتَجَنَّب ما لا بد أن يَتَجَنَّبه مهما بَدَت خسائره.

ـــ وفى كل الأحوال فإن شعبه سوف يرى بعد انتهاء المعارك أن ما فعله كان «عقلاً»، وأنه حتى إذا تَعَرَّض جزء من أرضه لحماقة إسرائيلية غير مُتَوَقَّعة فإن سلوكه أثناء الأزمة هو وحده الذى يكفل له تعاون الأمريكيين فى إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب ـ وحينئذ سوف يكتشف شعبه أن موقف ملكه لم يكن «عقلاً» فقط وإنما كان «صواباً» ـ أى مصلحة إلى جانب أنه «عقلٌ».

□

والحقيقة أن موقف الملك «حسين» (سنة ١٩٦٧) ليس وحده الذى يثير التساؤل، ولكن يثير التساؤل موقف كل الملوك العرب.



١٢ الملوك

بمعيار «القيمة المجَرَّدة» فإن مواقف الملوك العرب ـ دون استثناء ـ سنة ١٩٦٧ يَصعُب قبولها. لكنه بمعايير «الحقيقة السياسية» (التى تَتَحَوَّل الآن بمُضىٍّ السنين إلى تاريخ) فإن مواقف الملوك العرب إذا أمكن فهمها، قد يصعب تبريرها أو الدفاع عنها.

أول أسباب الفهم هو القبول بأن أى طرف فاعل فى أزمة لا يمكن الحكم على تصرفاته خلالها إلا على أساس «مرجعياته».

وهنا فإن «مرجعيات» أى طرف هى: تربيته، ونشأته، ورؤيته لعالمه، ودوره فيه، ومسئوليته إزاء هذا الدور وتقديره هو ـ وليس تقدير غيره ـ لترتيب التناقضات التى تُمَثِّل المخاطر والتهديدات المحتَمَلة أمامه».

وفيما يتعلق بالملوك العرب فإنه يمكن ملاحظة ما يلى :

١ ـ أن رؤيتهم لمصلحة أوطانهم ولأمن هذه الأوطان يرتبط ارتباطا وثيقاً لا ينفصم بفكرة النظام الملكى من البداية حتى النهاية.

٢ ـ أن النظم التى التبس فيها «أمن الوطن» بـ«أمن المُلك» قامت بحقائق الواقع العربى الحديث على أسَرٍ حاكمة تنافست مع أسَرٍ حاكمة أخرى. وكان الحَكَم النهائى بين الطرفين قوى أجنبية (بريطانيا ـ ثم الولايات المتحدة الأمريكية).

٣ ـ أن الاتصال والتعاون بين هذه الأسَر الحاكمة ومع القوى الأجنبية ارتبط تقليدياً بمصالح أمن وثروة يستحيل حمايتها دون هذا الاتصال والتعاون، وأن تقنين هذا الاتصال والتعاون وتحويله إلى إستراتيجيات هو أمرٌ لا بد من إعلانه وإشهاره ليؤدى دوره فى التأثير على «الخصوم» قبل أن تفرض الظروف ضرورة «ردعهم»!

٤ ـ إن عقيدة أى مُلك (على عُهدَة السيد «كمال أدهم» صِهر الملك «فيصل» ومستشاره ومدير مَخابراته) هى : المحافظة على المُلك ـ والأسرة ـ وبقاء العرش ـ واستمرار توارثه بسهولة ابنا عن أب ـ وذلك هو ضمان الاستقرار الملكى .

٥ ـ يضاف إلى ذلك (وهنا يَتَماثل موقف الملوك العرب (رغم فوارق شاسعة) مع موقف ملوك الحلف المقَدَّس للملوك إزاء «نابليون» فى أوائل القرن التاسع عشر) أن هناك نُظماً ثورية ظهرت فى العالم العربى ـ ومهما كانت الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى دَعَت هذه النظُم فإن ظهورها كان خطراً على الملوك، ومُعادياً لهم مباشرة، ومُهَدِّداً لأوطانهم من وجهة نظرهم، ثم إن ظهور بعض هذه النُظَم استقطب مشاعر كُتَل كبيرة من رعايا الملوك رغم إرادتهم وتَحَدِّياً لسُلطانهم .

٦ ـ يزيد على ذلك فى حالة الملوك العرب اعتقادهم إلى درجة اليقين بأن «النظم الثورية» لا تستطيع أن تَتَحَدَّى القوى الكبرى فى المنطقة (وبالتبعية إسرائيل) ـ ومحاولة مثل هذا التَحَدِّى «مُغامَرة وطَيْش» كلاهما مُرتَدٌّ على أصحابه ـ وربما على غيرهم!

ومع أن هذه المقولات يمكن مناقشتها، فإن أى مناقشة مع طَرَفٍ بالتناقض مع مرجعيته جهد ضائع لتعارضه مع طبائع الأشياء .

وربما أعترف أننى فى محاولة فهم موقف الملوك العرب أثناء أزمة ١٩٦٧ استفدت كثيرا من قراءات واسعة ـــ سابقة ولاحقة ـــ تبدأ من «ماكيافيللى» فى كتابه الكبير بعنوان «الأمير» Principe وتصل إلى «ريبيكا وست» فى كتابها الشهير بعنوان «معنى الخيانة» The meaning of treason.

ـ كان «ماكيافيللى» يعطى للأمير (للدولة) ومطالب الحكم والسلطة رخصا مفتوحة يصعب أن تنطبق عليها «معايير القيمة المجردة».

ـ وكانت «ريبيكا وست» تناقش قضية كبرى أثارتها وقائع الحرب العالمية الثانية العظمى ما بين سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥. وهى قضية المسئولية العامة كما يراها الذين يتعرضون لامتحان المفاجآت على غير انتظار.



بمعيار «القيمة المجردة» فإن مواقف الملوك العرب ـ دون استثناء ـ سنة ١٩٦٧ يصعب قبولها. لكنه بمعايير «الحقيقة السياسية» (التى تتحول الآن بمضى السنين إلى تاريخ) فإن مواقف الملوك العرب إذا أمكن فهمها، قد يصعب تبريرها أو الدفاع عنها

وضمن ما ناقشته «ريبيكا وست» فيما كتبته: موقف ماريشال فرنسا «فيليب بيتان» وهو الذى اعتبر فى الحرب العالمية الأولى «بطلا منقذا» لفرنسا من الغزو الألمانى، ثم اعتبر فى الحرب العالمية الثانية «مستسلما مفرطا» فى علاقته مع الاحتلال الألمانى.

كان «بيتان» فى موقفه الثانى ـــ المستسلم المفرط ـــ قد تصرف وفق «الحقيقة السياسية» من منظوره فى لحظة بعينها: بريطانيا تريد أن تحارب عن بعد من جزيرتها ـــ وأمريكا معتزلة وراء المحيط الأطلسى ـ والجيش الفرنسى عاجز أمام قوات «هتلر» سلاحا وتنظيما وإرادة وقيادة، ونصف فرنسا وفيه باريس تحت الاحتلال ـ والنصف الآخر لا داعى لاحتلاله إذا أمكن إنقاذه؟ ـ كذلك كان تقدير الماريشال لمسئوليته أمام المفاجأة غير المنتظرة لهزيمة الجيوش الفرنسية الساحقة!

وفى العالم العربى ظهرت وتوالت نماذج مما تعرض له «ماكيافيللى» مع «أميره»، ومما تعرضت له «ريبيكا وست» فى «معنى الخيانة»، وبينه مثلا:

ـ هل خان الملك «فاروق» ـــ واختار الجانب الخاسر فى الصراع العالمى ـــ عندما قرر أن يجرى اتصالات مع الألمان عن طريق طهران ـــ ليضمن أوضاع مصر بعد «هزيمة بريطانيا» ـــ وكان تقديره أن الحرب سوف تنتهى بهزيمتها؟

ـ هل خان «مصطفى النحاس» (باشا) ـــ عندما قبل الحكم يوم ٤ فبراير من يد السفير البريطانى الذى حاصر قصر «عابدين» بالدبابات فى ذلك اليوم ـــ وفرض على «ملك البلاد الشرعى» قرارا لم يكن ليقبله بمحض إرادته؟

....

....

[وبغير العودة إلى «ماكيافيللى» أو «ريبيكا وست» فقد سمعت الملك «حسين» يقول لى فى لندن مرة:

«لماذا يقال عن جدى الملك «عبد الله» أنه خائن لأنه تعاون مع الإنجليز وهم المنتصرون فى الحرب العالمية الثانية ـــ ولا يقال عن الحاج «أمين الحسينى» مفتى فلسطين أنه خائن لأنه تعاون مع «موسولينى» و«هتلر» وهما الطرف الذى خسر الحرب؟ ـــ ينسى الجميع أنه حين تعاون الحاج «أمين» مع الألمان والطليان فإنه فقد تعاطف الحلفاء مع قضيته (فلسطين) ـــ وأول الحلفاء الأمريكان!]

....

....

وطبقا للوثائق الإسرائيلية، والوقائع تقترب من ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، وذلك «الموعد مع الحرب» تتحدد ساعة الصفر فيه بالدقيقة والثانية ـــ فإن العالم العربى بدأ ـــ بصرف النظر عن كل مطالب «القيمة المجردة» ومطالب «القيمة السياسية» ـــ ومع تحول السياسة بمضى المدة إلى تاريخ ـــ فى أوضاع تدعو إلى فيضان من الحزن يغمر الجميع ـــ أكثر مما يستدعى حصر قوائم اتهام تمسك بتلابيب أحد!



كلينتـــــون

فى حـــديث الــــوداع:

أغـــادر البـــيت الأبيـــض وأنا أكـــثر واقعـــية مما كـــنت!

هـارولـد إيفـــانـز

الأرقام لا تكذب. ذلك أن التأييد الشعبى لكل الرؤساء يهبط فى السنة الأخيرة من فترة حكمهم، ولكن شعبية كلينتون، الذى وجهت له التهم، بلغت رقماً غير معتاد هو ٦٧ بالمائة - وبذلك يتفوق على أى رئيس بعد الحرب العالمية الثانية

سوف أغادر البيت الأبيض وأنا أكثر واقعية مما كنت عليه عندما دخلته. فيما يتعلق باعتقادى بشأن قدرة نظامنا وشعبنا على التغيير وعلى أن يحل المشاكل حلاً فعلياً، أو على الأقل يحد منها. وقد تحايلنا على أمور كثيرة

زار الرئيس كلينتون فلوريدا زيارة توديعية فى الشهر الماضى، فى سياق يتناسب مع اقتراب شمس الآلهة على المغيب. فأزمة الشرق الأوسط كانت على شفا الانفجار. وكان المحامى المستقل قد قدم للتو التقرير النهائى عن قضية وايتووتر. وفى ميامى، انفتحت أبواب السماء وصبت ما ارتفاعه عشر بوصات من الأمطار خلال دقائق كثيرة. وقد أغرق الماء رجال المباحث بحيث بدت من تحت ملابسهم الخطوط الخارجية لأسلحتهم الفتاكة، وكانوا يرتعشون ويغلون غضباً بينما كان الرئيس يقفز سعيداً خلال أشجار النخيل وممرات المنازل الخاصة التى غمرتها المياه، من أجل جمع المال لحملة زوجته هيلارى الانتخابية.

وفى المساء، وفى طريق العودة إلى مطار ميامى، تخلى فريق الصحفيين المصاحب للرئيس عن موقف يتسم بالسخرية والشك بعد ما بدا كلينتون عاقدًا العزم على المخاطرة بحياته وبحياتنا.

كان الكل يصيحون: «ليطلب منه أحد ألا يفعل ذلك! إنه مجنون! إنه مجنون!» كانت المياه تغمر المطار الذى أغلق أمام حركة الطيران. ولكنه توجه إلى الممر على ما كان عليه من حالة مخيفة أثناء البرق والرعد، وصعد درج طائرة السلاح الجوى رقم واحد بكل ثقة فى رحلة إلى شمالى نيويورك. وكان واضحاً أنه لا يمكن لأية طائرة، حتى ولو كانت الطائرة رقم واحد فى سلاح الجو، أن تغامر بالإقلاع، ولكن كلينتون جلس فيها وهو يكاد يطير. وبعد ساعة استسلم للتحدث تليفونياً إلى من أصابهم الإحباط. «لابد من القول بأن لدى شعورًا بالنحس. فكل مرة أعتزم فيها السفر إلى شمالى نيويورك يحدث أمر ما... قد تذكرون أنه فى المرة الماضية انكسرت ساقى. كنت أتطلع بالفعل إلى المجيء». وكان الأمر كذلك بالفعل.

وفى تلك الليلة كان لا يزال يقاوم النحس. ففى فندق بالتيمور بكورال جيبلز، الذى كان يعوم فى الوحل، كان جالساً فى المساء ليشاهد مناظرة جور وبوش حين انقطع إرسال التليفزيون. فعلى كل شاشات التليفزيون فى الفندق لم يكن هناك سوى خطوط رمادية بدلاً من بوش وجور. ونشطت الحركة مرة أخرى، وخلال دقائق كان الرئيس منطلقاً من جديد يندفع بابتهاج عبر العواصف والفيضانات فى الخارج، بحثاً عن منزل به طبق من أطباق القنوات الفضائية.

كنت قد أجريت معه مقابلة فى كابينته على متن طائرة السلاح الجوى رقم واحد وكان مقرراً أن أتحدث معه مرة أخرى فى طريق العودة. ولاحظت عندما غادرنا قاعدة أندروز الجوية فى ذلك الثلاثاء الأول من شهر أكتوبر أنه يعرج عرجاً خفيفاً وهو فى طريقه من الهليكوبتر إلى الطائرة. وقد تمنينا جميعاً ألا يقلل ما بذله من جهد فى الفيضانات - بالإضافة إلى جولة جولف مشبعة بالماء صباح يوم الأربعاء - من حركته. إلا أن آلافاً من أهل فلوريدا فى جاكسونفيل تكدسوا فى صالة ضخمة زينت بالأعلام، حيث كان كورال من السود يردد الأناشيد الدينية بصوت مرتفع، وكانت هتافات الجماهير المتتابعة عند دخوله كأنها أمواج بحر هادرة تتلاطم عند ساحل فلوريدا. انتشى هو. وتحدث بجدية عن الديون وعن شركات الأدوية «التى تعرفون جميعاً أنها تتعامل فى الأسهم الممتازة». واستمر بعد ذلك فى الكلام لمدة نصف ساعة، تشجعه على ذلك الهتافات. ولم يعد يعانى من أى عرج.

كان ذلك جمهوراً على قدر كبير من التنوع: فهناك الرجال والنساء والأطفال من كل الأجناس والأعمار والخلفيات. إلا أننى رأيت الظاهرة ذاتها فى اليوم التالى فى جامعة برنستون، التى كان يلقى فيها محاضرة عن النزعة التقدمية فى التاريخ الأمريكى. إذ كان الطلاب والأساتذة شديدى الصخب من أجله. والأرقام لا تكذب. ذلك أن التأييد الشعبى لكل الرؤساء يهبط فى السنة الأخيرة من فترة حكمهم. ولكن شعبية كلينتون، الذى وجهت له التهم، بلغت رقماً غير معتاد هو ٦٧ بالمائة - وبذلك يتفوق على أى رئيس بعد الحرب العالمية الثانية.

وفى طريق العودة طلبت منه أن يمعن النظر فى السنوات الثمانية المضطربة التى أمضاها فى منصبه - وشهدت الانتعاش الاقتصادى وتوجيه الاتهام والمواجهة مع نيوت جنجريتش وقراره الخاص بإرسال القوات الأمريكية للقتال. جلس مربوطاً فى كرسيه ويتدلى على ظهر المقعد معطف مطر أزرق. بينما يعض من حين لآخر سيجاراً لم يشعل، ويشعر بفرح شديد بما حظى به من استقبال: «أنا أحب فلوريدا... لقد كانوا طيبين معى هناك».

الصلة قوية، إلا أننى عرفت كذلك - أثناء حديثنا الشامل - الحدود التى يمكن أن يصل إليها كى يظل على اتصال. فما إن وصل إلى البيت الأبيض سنة ١٩٩٣ حتى حدد رمزاً بريدياً خاصاً ودعا الأصدقاء والمعارف من أيام الدراسة فى أركانسو ومن جامعات جورج تاون وأوكسفورد إلى أن يكتبوا إليه مباشرة - وكانت تلك خطابات تتضمن شكاوى من المصادر نفسها دون أن تمر من خلال فلتر البيت الأبيض المعتاد. وكانت هناك عدة مئات من الناس يكتبون بانتظام خلال السنوات الثمانية التى أمضاها فى السلطة: كطبيب بيطرى أصيب بعجز فى فيتنام، وعائلة ترعى ابناً يعانى من السرطان، وزميل دراسة فى الجامعة فى الجنوب أصبح رجل أعمال جمهوريا.

وكان تعليق الرئيس الثانى والأربعين على ذلك: «لقد ثبتوا الأرض تحت قدمى».

ثم بدأ حوارى معه:

إيفانز: أريد أن أطرح سؤالاً ليس عن تعليم هنرى أدامز[1]، وإنما عن تعليم ويليام جيفرسون كلينتون. كيف تختلف فى طريقة تفكيرك عن حاكم إحدى الولايات الجنوبية الشاب الذى جاء إلى واشنطن سنة ١٩٩٣؟

كلينتون: لا أظن أن الرئاسة غيرت فلسفتى، إلا أنها كثفت بعض ما أنا مقتنع به. وأول كل شىء هو أننى سوف أغادر البيت الأبيض وأنا أكثر واقعية مما كنت عليه عندما دخلته، فيما يتعلق باعتقادى بشان قدرة نظامنا وشعبنا على التغيير وعلى أن يحل المشاكل حلاً فعلياً، أو على الأقل يحد منها. وقد تحايلنا على أمور كثيرة.

الأمر الثانى هو أنه بات لدى الآن فهم أكثر تطوراً مما كان لدى بخصوص الطريقة التى أفعل بها ذلك. فعندما كنت حاكماً، كنت فى واقع الأمر أعتقد أنه بإمكانى معرفة كل شىء تقريباً يجب أن أعرفه. وكان ذلك ملعباً أصغر حجماً، وكنا نتحرك فيه بطريقة أسرع. إلا أننى لست على يقين مما إذا كان بمقدورنا التغير تغيراً تاماً، مثلما أمكننا على المستوى القومى، حيث كنت أتمتع بميزة وجود مجموعة ممن على قدر كبير من الموهبة فى مجلس الوزراء والبيت الأبيض.

لقد تناقشت كثيراً وضحكت كثيراً مع بوب روبن (وزير المالية). وفى وقت ما (يناير ١٩٩٥) قال إننا لا بد أن ننقذ البيزو المكسيكى وإلا وقعت أزمة مالية. وأظهر استطلاع للرأى معارضة الشعب لذلك بنسبة واحد إلى خمسة. ووقتها قال روبن إن عدم قيامنا بعملية الإنقاذ قد يجعلنى أخسر الانتخابات. ولكنى كنت أثق فيه. وكل ما قلته له: «لنفعلها!» (ولم يتأخر المكسيكيون فى رد الدين).

كما أننى الآن أفضل بكثير فيما يتصل بتقدير الوقت اللازم لتحريك البيروقراطيات الضخمة فى المجتمعات الكبيرة. وهذا أمر لا بد منه. فدور القائد يكمن فى الاتصال بالناس ومناقشتهم وتجنيدهم من أجل المصلحة العامة. غير أنى تعلمت كيف أنه من المهم كذلك أن تكون هناك عملية منظمة يعمل داخلها الجميع معاً على المستوى الداخلى.

الأمر الآخر الذى يدهشنى بالفعل هو أهمية ألا يكون هناك حد لحب استطلاع الرئيس. وأنا لا أظن أنه لا بد أن يكون الرئيس عبقرياً، ولكن لابد أن يكون لديه حب استطلاع من الناحية الفكرية وأن يكون متقبلاً للأفكار الجديدة. وكنت أقرأ عن أهمية تحاشى العزلة. ورغم ما قمت به هنا خلال السنوات الثمانية، فقد كان علىّ باستمرار الاحتراز من الجمود البيروقراطى، لكونى مقيداً بالطريقة التى تتم بها الأمور.

ومن ناحية أخرى، ليست الطرق الشائعة القائمة خطأ دائماً. ولذلك فإن على الرئيس أن يكون حساساً إلى حد ما. وكان ظنى عندما جئت إلى هنا لأول مرة أنها جميعها خطأ. واحتاج الأمر منى عامين لتعديل الميزان. وأعتقد أننى حافظت على اعتداله طوال ست سنوات.

إيفانز: فى خطاب التولية سنة ١٩٩٣، قلت إننا نحتفى بلغز التجديد الأمريكى. ما هو تقديرك للغز التجديد الأمريكى فى السنوات الثمانية الماضية؟ كم من الفضل يعود إلى القيادة، وكم منه يعود إلى الكونجرس، وكم إلى الأعمال التجارية وكم إلى تخفيض ريجان للضرائب؟

كلينتون: أعتقد أنه لا شىء تقريباً من هذا كله. فقد أفاد تخفيض الرئيس ريجان للضرائب فى إخراج البلاد من حالة الكساد وتحسين اقتصادها سنة ١٩٨٤، ولكن التخفيضات كانت أكبر مما يجب، حيث سمحت الحكومة بزيادة أسعار الفائدة إلى حد كبير جداً، مما جعل البلاد فى ظرف لا تحسد عليه. وعندما أعيد انتخابه، كان لا بد أن تفعل ما هو أكثر من ذلك بالنسبة للعجز. فكلما طال أمد ذلك الأمر كان التعامل معه أصعب. وأنا لا أختلف مع كل ما فعله الرئيس ريجان. فما فعله ضد ليبيا كان صواباً. وكان محقاً فى تبنيه لجورباتشوف. ونحن الآن نعرف أن تكديس السلاح لم تكن له أية علاقة بانهيار الاتحاد السوفيتى، وإن كان لابد من قبول جزء من هذا الكلام، وكانت البداية فى عهد كارتر.

إيفانز: وماذا عن انتعاش السنوات الثمانية هذا؟

كلينتون: لا بد أن نرجع جزءاً ضخماً من الفضل إلى إعادة هيكلة التجارة والصناعة الأمريكيتين فى الثمانينيات. فقد أصبحت الطبقة العاملة أكثر إنتاجية وأكثر حساسية لربحية شركاتها باعتبارها أمراً مهماً لوظائفها ورواتبها وأرباحها، لأننا لم نر الكثير من مطالب الأجور التضخمية.

ولا بد أن نرجع فضلاً كبيراً لقطاع تكنولوجيا المعلومات. فالعاملون فى هذا القطاع يمثلون حوالى ٨ بالمائة من حجم العمالة لدينا، ولكنهم قدموا لنا ٣٠ بالمائة من نمونا. كما كان لسياستنا التصديرية دخل كبير فى الانتعاش. وهنا يستحق ريجان وبوش أن نرجع إليهما الفضل كذلك، لأننا جميعاً لدينا سياسة متسقة تتعلق بالسعى إلى مشاركة أمريكا سائر دول العالم من الناحية الاقتصادية.

إيفانز: والحكومة؟

كلينتون: أول كل شىء، كانت لدينا سياسة اقتصادية جيدة. فقد بدأنا بتخفيض العجز وثنينا بالقضاء

عليه. وكانت لنا سياسات اجتماعية جيدة تستهدف محاولة جمع البلاد على كلمة واحدة...فقد خفضنا ميزانية الرفاهية بمقدار النصف. وخفضنا معدل الجريمة. وكنا نحسن التعليم. وكان لدى البلاد إحساس بالتقدم إلى الأمام. وكما تعلم، فقد حاولت ألا أفقد تفاؤلي مهما بلغ ما عليه الأمور من سوء. وكانت حكومتنا تسعى إلى أن يكون الناس في حالة ذهنية إيجابية. وأنا أفكر دوماً فيما يمكن أن يفعلوه بشكل جيد، بدلاً من أن ننهار على أنفسنا وتحدث الفوضى السياسية.

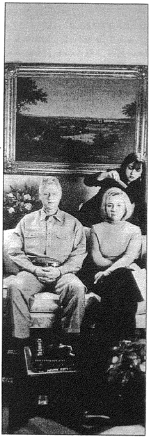
إيفانز:ولكن كيف تقسم الفضل؟

كلينتون:لن يمكن لأحد أن يعرف مقدار ما يستحقه أي إنسان من الفضل.

إيفانز:وهذا جزء من اللغز. فكما يقول مالكوم جلادويل في كتاب The Tipping Point، فإنه حتى التغيير الإضافي البسيط يمكن أن يسفر عن آثار عميقة.

كلينتون:هذا صحيح. فكل شيء يتم في الهوامش. ولكن الكيمياء كانت جيدة، وكان الخليط صحيحاً، وهو ما سرني بالفعل.

إيفانز:يقال إن هناك اتجاهاً في السياسة الأمريكية نحو اللجوء إلى الإجراءات القضائية من أجل أغراض سياسية. ومثال ذلك السعي إلى استخدام القانون في تحقيق ما عجزت الانتخابات عن تحقيقه؛ وأعني بذلك التخلص منك. هل تشعر بأي قلق من هذا الاتجاه على المستقبل؟[٢]



كلينتون:أعتقد أنه سيكون من الصعب فعل ذلك مرة أخرى. فقد كان الأمر برمته مجرد صفقة سياسية. وقد وضع الجمهوريون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه. ففي البداية، كانوا لن يحصلوا ولو على صوت واحد. وبعد ذلك قالوا إنهم لا يمكن أن يحرجوا مديري المجلس. وقد اضطروا إلى الرجوع واجتذاب أعداد كبيرة من الجمهوريين الذين كانوا سيصوتون ضدهم ولصلحتي. وفي الدقيقة الأخيرة تلقينا مكالمة تليفونية من أحدهم يقول فيها:«لقد تلقينا أوامر...لا يمكن أن نحرج مديري المجلس».

لو علم الشعب الأمريكي نصف ما دار هناك، لكانت الأعداد المؤيدة لنا أكثر بكثير مما كانت عليه. فقد تصرف الجمهوريون وكأنهم يسعون وحسب للانتقام لريتشارد نيكسون، وكان جوهر ما حدث لم تكن له بالمرة أية علاقة بالموضوع. وهكذا صعّدوا الموقف من جديد. وليس هناك شكل منظم للصحافة اليسارية في هذا البلد، وليست لدينا تلك الشبكة من البرامج الجماهيرية التي لديهم. كما أنه ليست لدينا بعد مؤسسة في واشنطن مثل الحزب الجمهوري، وهو ما يجعلهم يشعرون أن من حقهم أن يحكموا، وأن أي شيء يفعلونه لاستعادة السلطة لا غبار عليه.

وهناك تحالف غير عادي. وفي سنة ١٩٩١ كانت لا تزال هناك عناصر داخل الصحافة السياسية القومية تعتقد أنها لن تكون لها سلطة ما لم تقصد على شخص ما في كل انتخابات. وبذلك سخّر (الجمهوريون) بعضاً من هؤلاء، وظلوا مسخرين حتى النهاية.

وأنا مندهش من وجود أناس ينظرون إلى السياسة القومية هذه النظرة ويعتقدون أن القضاء على الأشخاص طريقة مشروعة لإدارة مصالح البلاد... وكان ذلك في معظمه من صنع الجمهوريين، غير أن الديمقراطيين لا يسلمون من اللوم، بينما قدمت له الصحافة القومية الدعم والتشجيع. إنها قصة أيسر وأسرع من الاضطرار إلى الخوض فيمن هو على صواب بشأن أدوية الرعاية الصحية...

ومن بين أسباب وجود علاقات طيبة بيني وبين (رئيس مجلس النواب السابق نيوت جنجريتش) هو أنه لم يصرح قط بما لا يضمر. وأقصد بذلك أنه كان على الدوام صريحاً معي في السر، وكان يتعامل معي ومع (رئيس موظفي البيت الأبيض السابق) ايريسكين بولز بطريقة تتسم بالوضوح. وبعد أن فزنا عليهم سنة ١٩٩٨ اتصل تليفونياً وقال: «لا بد أن تفهم أن هذه هي المرة الأولى منذ ١٨٢٢ التي يفوز فيها حزب الرئيس بمقاعد في مجلس النواب في السنة السادسة من الرئاسة، ولكننا سوف نوجه له الاتهام بأي حال من الأحوال». وتساءل ايريسكين: «لماذا؟» فقال: «لأننا نستطيع ذلك».

إيفانز:«لأننا نستطيع ذلك؟»

كلينتون:لقد قال: «هذا هو ما نفعله». وقال ايريسكين: «ألست منافقاً؟ إنهم حتى لم ينتقدوك». فقال جنجريتش: «صحيح، ولكننا سنفعل ذلك ويمكننا أن نفعله». فقال ايريسكين: «ولكن ليست لديك أصوات». فرد عليه جنجريتش بقوله: «سوف نبدد شملهم؛ وسوف يكونون معنا عندما نصل إلى هناك».

إيفانز:وكان محقاً كذلك.

كلينتون:نعم. وبعد ذلك قال جنجريتش - ولن أنسى ذلك أبداً - «إن الجمهور معارض بنسبة ٧٠ بالمائة. وأنا أعرف أننا دفعنا الثمن الآن (في الانتخابات التكميلية)، ولكن بحلول سنة ٢٠٠٠ سيكون الناخبون مهتمين بأشياء أخرى، ولن يضر الاتهام أياً من رجالنا. وبذلك سوف نجعلهم يفعلونها».

إيفانز:لم يكن لتوجيه الاتهام دور كبير في حملة انتخابات الرئاسة، وهو ما يعني أن جنجريتش كان محقاً.

كلينتون:صحيح. وأذكر أنني سألت أحد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين سنة ١٩٩٦ إذا كان هناك ما يتعلق بموضوع وايتووتر، فقال: «بالطبع لا. إننا جميعاً نعرف أنه لو دقق أي شخص في قراءة الأدلة، سيعرف أنها لا تنطوي على شيء».

إيفانز:التحقيقات التي دامت عامين وأجراها جاي ستيفنز (الذي كان يوماً النائب العام الأمريكي) لصلحة «ريزولوشن ترست كوربوريشن» (التي أسست من أجل شراء أصول ومحافظ القروض الخاصة بالبنوك الأمريكية التي تعاني من ضائقة مالية) قالت مثل هذا الكلام سنة ١٩٩٦ مبرئة إياك من أي ذنب في وايتووتر. ولم يكن لذلك دور كبير. فلماذا؟

كلينتون:فعلاً لم يكن له دور كبير. لقد جرى التعتيم عليه. لماذا؟ لأن من كانوا يغطون أخبار وايتووتر كانت لهم مصلحة مطلقة في استمرارها. وكان تعتيم صحافة التيار العام على تقرير «ريزولوشن ترست كوربوريشن» واحداً من الأحداث المخجلة في السنوات الثمانية الماضية.

إيفانز:قال جيفرسون (الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون ١٨٠١-١٨٠٩) إنه كان عليه أن يختار بين حكومة بدون صحف وصحف بدون حكومة، فاختار الأخيرة؛ وإن كان قد غير رأيه في وقت لاحق.

كلينتون:كان ذلك بعد أن صار رئيساً.

إيفانز:كيف تتعامل مع الصحافة التي تتسم بأنها تافهة ومثيرة للأعصاب وموجعة؟ هل تتخذ قراراً بعدم قراءتها؟

كلينتون:لا ينبغي عليّ التعميم فيما يختص بالصحافة. فقد غطى البعض هذه القصة الخبرية بطريقة سيئة جداً، لأسباب لا علاقة لها بالتماس الحقيقة. ومع ذلك كان البعض من تلك المنافذ التليفزيونية والصحفية ذاتها ينقل كذلك وبشكل يومي تقارير عما كنت أقوم به من أجل الشعب الأمريكي وعن جوهر القضايا. لقد كانوا يعطونني فرصة متكافئة.

في الأساس قلت إنه لا بد أن أقضي أقل وقت ممكن في قراءة هذا الموضوع وشغل نفسي به، لأنني في واقع الأمر سوف أسرق ذلك القدر الذي يستنفده من طاقتي الفكرية والبدنية والعاطفية من الشعب الأمريكي... فقد أدركت أن هذا الموضوع يؤذيني بشدة. وأعرف أنني قدمت لهم بعض العون، ولكن ليس بالقدر الذي يساوي ٥٢ مليون دولار وست سنوات من التحقيق الوهمي.

إيفانز:ولكنك أنت الذي وقعت على مكتب المحامي المستقل (الذي أنشئ بعد ووترجيت لضمان عدم خضوع التحقيقات الخاصة بكبار المسئولين في الحكومة لسيطرة الرئيس) كانت تلك واحدة من غلطاتك الكبيرة. فقد نصحك بعض الجمهوريين أنت وجور ألا تفعلا ذلك - كما قيل لنا - لأنها سلطة خطيرة ولا تخضع للمحاسبة.

كلينتون:كانت غلطة بالفعل. ولو عاد الزمن لتركت قانون المحامي المستقل يموت...ولكنني تعهدت أثناء الحملة الانتخابية بأنني سأجدده. لقد كان هناك استغلال لقانون المحامي الخاص... راي دونوفان (وزير العمل في حكومة ريجان، الذي أمر بالمثول أمام المحكمة بسبب ١٣٧ انتهاكاً مختلفاً لقوانين ولاية نيويورك، مع أن المحقق الخاص وجد مرتين «عدم كفاية الأدلة»)؛ أظن أنه يعامل بنزاهة - ولكنه لم يكن هناك شيء كهذا في الماضي. وقد عين كبير القضاة رينكويست القاضي ديفيد سينتل ثم أعاد تعيينه، وكان رجلاً من نورث كاروليا من نوعية جيسي هولمز ولوك فيركلوث (عضوان شديدا المحافظة بمجلس الشيوخ عن نورث كاروليا) كان يعرف أنه حصل على وظيفة العمر وجعل الجمهوريين الحزبيين مسئولين عن التحقيقات الخاصة.

وحتى لو لم أكن متورطاً، فإن كلا من المحققين الخاصين (وزير الإسكان والتنمية الحضرية السابق هنري(سزنيروس) ووزير الزراعة السابق مايك(ايسبي) كانا عميلين جمهوريين لا يهمهما سوى خدمة الرجل الذي في القمر...لم يكن هناك أقل دليل على أن سزنيروس ارتكب أي خطأ في حياته الرسمية (دفع سزنيروس بيطلان تهمة تقديم إفادات كاذبة لمكتب التحقيقات الفيدرالي أثناء مراجعات الخلفية قبل ترشيحه لعضوية مجلس الوزراء بشأن مبالغ دفعها لعشيقة سابقة؛ وبرأت المحكمة ايسبي من ٣٠ اتهاماً خاصة بارتكاب أخطاء تتعلق بقبول هدايا من الشركات) كما لم يكن هناك أدنى دليل على ارتكابي أنا وهيلاري أية أخطاء في أركانسو أو في حياتي الرسمية. فالأمر كله كان متعلقاً بالسياسة والسلطة والتدمير.

ولم يحظ دليل البراءة في حالتنا وحالتيهما بمجرد النشر. فقد كانوا جميعاً يعرفون ما يقومون به، وكانوا يفعلونه عمداً.

إيفانز:ولكن المحكمة العليا بكاملها هي التي حكمت بإمكانية التحقيق مع الرئيس وهو في السلطة في أية قضية مدنية.

كلينتون:كان ذلك في منتهى السذاجة، لأنهم جعلوا الرئيس عرضة للهجوم بلا أي أساس...فيمكنك دائماً أن تأتي بقضية ملفقة ثم تفلس الرئيس على أقل تقدير، وتسيء استغلال عملية الكشف - وكلا الشيئين حدثا في حالتي. وكان لدى القضاة تلك الحجة الطنانة القائمة على المبادئ التي لا تأبه بكيفية سير العالم.

ربما تتعلق المشكلة بوجود قضاة فقط في المحكمة العليا. ويتحمل الديمقراطيون كذلك بعض مسئولية هذا الأمر. فقد صارت عملية تثبيت التعيين معقدة وسياسية بحيث يصعب عليك تخيل الطريقة التي يمكنك بها العثور على شخص مثل هيجو بلاك أو بيل دوجلاس أو إيرل وارن (وقد أثبت ثلاثتهم أنهم مدافعون أقوياء في المحكمة العليا عن زيادة حجم الحقوق المدنية)، الذين لم يكونوا قضاة من قبل.

ولكن في بعض الأحيان يكون أعظم القضاة

في المحكمة العليا أناسًا لهم خبرة في الحياة اليومية. فإذا كان في المحكمة أشخاص دخلوا بالفعل معترك السياسة الأمريكية منذ أن بدأ بالفعل يساء استغلالها من جديد، اعتباراً من السبعينيات مروراً بالثمانينيات والتسعينيات، لعرفوا كيف يفعلون ذلك بطريقة أفضل، وربما استطاعوا أو لم يستطيعوا التحدث باسم الآخرين غير عابئين بهم.

إيفانز: ما هو أصل هذا الحقد الغريب في السياسة الأمريكية؟ الجميع يتذكرون مقدار العداء الذي اكتسبه فرانكلين روزفلت (الذي تولى الرئاسة من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥) وفي انتخابات ١٩٣٦ ألقى خطبة عظيمة في ماديسون سكوير جاردن قال فيها: «إنهم مجمعون على كراهيتهم لي، وأنا أرحب بكراهيتهم».

كلينتون: الكثير ممن كرهوني أنا وهيلاري كرهوا فرانكلين واليانور. والحمد لله أن الحزب الجمهوري لم يمكنه وقتها السيطرة على جهاز المحامي الخاص!

وواقع الأمر أن أمريكا فيها يمين منظم تنظيماً جيداً يتسم بقدر كبير من الحقد. وقد مول ريتشارد ميلون سكيف (ملياردير من بالتيمور يميل إلى العزلة) الكثير من هذا. فقد مدهم بمليوني دولار أنفقوها من خلال صحيفة «ذي أمريكان سبيكتاتور» لمجرد السعي إلى ملاحقتي في أركانسو.

وكثيرون من هؤلاء الناس كانوا جميعًا على صلة بمن تورطوا مع محققي الكونجرس والمحققين الخاصين. وبعد انتخاب الرئيس ريجان تحالفوا تحالفاً وثيقاً مع مؤسسة واشنطن الجمهورية. وسمح لهم هذا التحالف بقدر معين من المصداقية لدى صحافة التيار العام السياسية التي تعشق تلك الأصناف من القصص الخبرية. وهذا هو ما أعتقد أنه أدى إلى إمكانية حدوث المفاسد والسكوت عليها.

إيفانز: وأعيد انتخابك.

كلينتون: يمكنك أن تقول: «لم يحدث الأثر المطلوب»، وبُرِّئت ساحتي. ولكن الأثر المطلوب يحدث، لأنهم يقنعون ١٠ بالمائة من الشعب - وهو عدد لا يستهان به - بأننا جميعاً فاسدون أو غشاشون. وهم على أقل تقدير يجدون سعادة في إفلاسك.

وقال أحد الجمهوريين لصحفي هو صديق مشترك لكلينا: «إننا لا ننال منه أبداً، ولكننا حطمناه من الناحية المالية على الأقل، وكان ذلك أحد أهدافنا». ولا يمكن أن تنثن من ذلك. فليس هذا سوى ثمن القيام بالعمل.

إيفانز: ماذا تقول لو جاءتك تشيلسي في يوم من الأيام وقالت لك إنها تفكر في العمل بالسياسة؟

كلينتون: سوف أشجعها إذا كانت تريد ذلك. وكنت قد قلت لهيلاري، عندما فكرت في ذلك - وقد أمضت كما تعلم ثلاثين سنة في مساعدة الآخرين ولم تطلب من أحد في يوم من الأيام أن يساعدها. قلت لها: «إذا كنت ترغبين في الترشيح، لا بد أن تكوني مستعدة للهزيمة». لقد خسرت سباقين. ولا بد أن تكون مستعداً للهزيمة، وينبغي أن يكون السبب وراء رغبتك في الفوز أكبر من مجرد تولي المنصب. وبعد ذلك عليك أن تسأل نفسك إن كنت ترغب في دفع ثمن الفوز أم لا، وأن تعمل بجد حقاً أم لا، وأن تتلقى الضربات أم لا؟ وإذا أجابت تشيلسي عن هذه الأسئلة الثلاثة كلها بنعم، فحينئذ سوف أشجعها.

إيفانز: كيف غيرت نظرتك بشأن الرؤساء الآخرين، بما أنه كان عليك أنت كذلك أن تكافح من أجل التوفيق بين قيمك وضرورة تسيير الأمور؟

كلينتون: إن لي تقييماً أكثر حدة ودقة لما فعله غيري من الرؤساء؛ ولتحديات هؤلاء الذين أنجزوا الكثير في ظل الظروف المعاكسة أمام من كان لديهم كونجرس يعينهم وبيئة صحفية مُعينة في مجملها. كما أنني أدرك الآن أهمية ما حالَ الرؤساء دون حدوثه، أكثر من إدراكي له في أي وقت سبق.

إيفانز: مثل؟

لا أظن أنه لا بد أن يكون الرئيس عبقريا، ولكن لا بد أن يكون لديه حب استطلاع من الناحية الفكرية وأن يكون متقبلا للأفكار الجديدة. وكنت أقرأ عن أهمية تحاشي العزلة. ورغم ما قمت به هنا خلال السنوات الثمانية، فقد كان علي باستمرار الاحتراز من الجمود البيروقراطي. لكوني مقيداً بالطريقة التي تتم بها الأمور.

كلينتون: كراهية ايزنهاور لجو ماكارثي. فمع أنه كان يمكنه أن يكون أشد قسوة، فإنه لم يحتضنه ولم يمنحه الشرعية بالطريقة التي كان ينبغي عليه منحه إياها كجمهوري.

إيفانز: هذا سلوك نبيل، لأنه يُنتقد دائماً لعدم دفاعه عن الجنرال جورج مارشال ضد هجوم ماكارثي.

كلينتون: كان لا بد أن يدافع عنه. ولكن المسألة هي أن المرء يرى في الأمر جانباً إيجابياً بجوار الجانب السلبي. فإذا كنا نرجع الفضل إلى كنيدي في حله أزمة الصواريخ الكوبية، فينبغي في الوقت ذاته إرجاع الفضل إليه فيما لم يقم به، وهو مهاجمة كوبا. إذ كان من الممكن أن يقصفها بالقنابل وربما أمكنه بذلك حل الأزمة، وكان من المحتمل ألا يطلق خروشوف الأسلحة النووية.

إيفانز: وما هو المثال الثاني؟

كلينتون: من بين موروثات الحكومة المهمة أننا هزمنا ثورة جنجريتش ورددناها على أعقابها - وهذه الثورة محاولة قام بها في المقام الأول الأيديولوجيون اليمينيون والمصالح الاقتصادية القوية بهدف تحريك البلاد بطريقة دراماتيكية نحو اليمين، وزيادة تفاوت الدخول بطريقة دراماتيكية، وإضعاف الحكومة الفيدرالية كعامل توحيد بطريقة دراماتيكية.

إيفانز: ولكن قيل لنا إنك خرجت بانطباع عن جنجريتش أفضل من الذي دخلت به.

كلينتون: كانت تربطني بجنجريتش علاقة شخصية جيدة، لأنه كان يعرف ما يفعله. ولكنه هو الذي أطلق تلك القوى، التي اتهمته في نهاية الأمر، من عقالها. وأعتقد أنه كان يصدق بعضاً مما يقوله ويفعله. إلا أن كثيراً من الأشياء المثيرة للغضب التي قالها وفعلها كان يظنها ستقوي قبضة اليمين الجمهوري على السلطة في البلاد. وحسبما لمسته، كانت السلطة هي ما يهمهم، في المقام الأول. ولكننا هزمناهم عندما عطلوا الحكومة وحاولوا فرض مشروع ميزانيتهم على أمريكا. أما الفصل الثاني فكان توجيه الاتهام. والفصل الثالث هو ذلك التخفيض الضخم في الضرائب الذي أقر هذا العام بتأييد منهم. والآن إذا فاز بوش فإنهم قد يعودون ويفعلون الكثير مما كانوا يحاولون عمله.

إيفانز: متى منعك أحد من القيام بما كنت تريد عمله؟ هناك ضمان اجتماعي محكوم عليه بالانهيار من الناحية الديموجرافية، وسوف تكون مدينين في حياة تشيلسي.

كلينتون: لو أمكنني أنا وبيل آرشر (رئيس لجنة الأساليب والوسائل) نحن اللذان في سبيلنا لترك منصبينا - القيام بذلك بمفردنا، لعقدنا اتفاقاً بشأن الضمان الاجتماعي وربما بشأن قابلية تطبيق الرعاية الصحية لأمد طويل. ولكنه كانت هناك قوى في كل من حزبينا تقاوم ذلك. وواقع الأمر أنني فكرت منذ عامين في إنهاء موضوع الضمان الاجتماعي قبل تركي للرئاسة، وإن لم يكن ذلك فلتكن الرعاية الصحية. وقد قطعنا شوطاً كبيراً فيما يتصل بالرعاية الصحية. وقد بلغ عمر البرنامج الآن ٢٧ عاماً، وهو أطول بكثير مما كان. (في سنة ١٩٩٢ كان متوقعاً أن تعاني الرعاية الصحية من الإفلاس بحلول ١٩٩٨)؛ والآن يمكن للبرنامج تلبية الالتزامات المالية حتى سنة ٢٠٢٥) وبالنسبة للضمان الاجتماعي، ليست السبع والثلاثون سنة بالعمر الطويل. فذلك أقل مما كانت. وسيكون عليهم إجراء المزيد من التعديلات على ذلك في المرة المقبلة.

إيفانز: هل الرعاية الصحية منطقة كنت تود لو أمكنك تحقيق المزيد من التقدم بشأنها؟

كلينتون: لقد قللنا عدد غير المؤمن عليهم مرة أخرى. وما يقوله جورج بوش (المرشح للرئاسة) عن عدم قيامنا بأي شيء عار تماماً من الصحة. وقد أحسن جور الحديث عن الرعاية الصحية في المناظرة الأولى.

وهناك منطقتان أخريان كنت أتمنى لو أنجزت فيهما أكثر مما أنجزت: إحداهما خاصة بالبيئة والطاقة. فهناك ثمار ضخمة العدد بدأنا للتو في جنيها. وعما قريب سوف نعتمد أكثر على أنواع الوقود البديلة والمحركات البديلة. وكنت أتمنى كذلك لو أمكنني إقناع حزبي وبلدي بفوائد التجارة الأكثر انفتاحاً.

وفي الوقت نفسه كنت أتمنى لو حققنا المزيد من النجاح فيما يتصل بسلامة الأسلحة النارية. وأنا أدرك أننا أحدثنا بحراً من التغيير في المواقف العامة باستعدادنا لمواجهة الاتحاد القومي للبنادق، وهو ما لم يفعله أحد بصورة منظمة منذ تبني ليندون جونسون لأول تشريع حديث للحد من الأسلحة النارية، في أعقاب اغتيال روبرت كنيدي. وقد ظنوا أنه مرتد، ويظنون أنني وآل جور مرتدان.

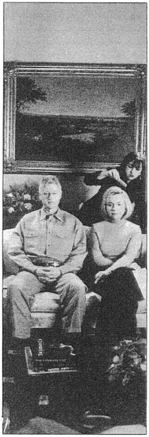
وأحد أسباب كل هذا العداء الذي يكنه لنا الاتحاد القومي للبنادق هو أننا اثنان من البيض الجنوبيين كنا نخرج للصيد ونحن صغيران. وعليه فأنا أفهم هذا، غير أني أرى أنه من غير المنطق أن يتمكن شخص ما من شراء مسدس دون أن يحمل ترخيصاً يبين أنه خضع لفحص الخلفية ويعرف كيف يستعمل المسدس بشكل مأمون. ولا يعقل بحال من الأحوال أن تكون لدينا تكنولوجيا لتأمين الزناد ضد استعمال الأطفال ونقول «نأمل أن تطبقوها: فنحن لن نشترط وجودها». إن وجود حظر على الأسلحة الهجومية سوف يجعل الناس يتحايلون عليه باستيراد أمشاط ذخيرة ذات سعة كبيرة ويعدلون أسلحتهم. وكنت أتمنى لو استطعت تحقيق المزيد من التقدم. فلنا في الريف أغلبية، أغلبية كبيرة، وربما أغلبية في الكونجرس، ولكن القيادة الجمهورية لا تسمح بطرح الموضوع على بساط البحث.

إيفانز: نسمع أن من بين ما تأسف عليه هو عدم تدخلك في مذابح رواندا. كما أنك ترددت قبل تدخلك في البوسنة، وتركت البريطانيين يتحملون اللوم في سيراليون. إلا أنك تدخلت في كوسوفو. فما هي إذن المبادئ التي كانت ترشدك إلى ما اتخذته من قرارات - هل هي النزعة الأخلاقية والويلسونية، أم مبدأ توازن القوى الخاص بتيدي روزفلت؟

كلينتون: لا بد أن تضع عدة عوامل في اعتبارك. أول هذه الاعتبارات هو الأفكار التقليدية الخاصة بالمدى الذي تنطوي عليه المصلحة الأمريكية. وثانيها طبيعة المشكلة: كم عدد الأبرياء الذين سيموتون؟ ما الشكل الذي سيكون عليه العالم أو المنطقة عندما ينتهي الأمر؟ أما الثالث فهو هل يمكنك أن تفعل شيئاً حيال الأمر؟ ما هو الثمن الذي سيكون على الولايات المتحدة أن تدفعه من الأرواح وغيرها؟ والعامل الرابع هو إن كانت هناك آلية متعددة الجنسيات أم لا - وما الذي سيفعله حلفاؤنا.

لقد ذهب البريطانيون إلى سيراليون لحماية أهلهم. وقد كانوا على أتم الاستعداد لأن يكونوا في المقدمة. ولكني كنت أعتقد أن علينا مسئولية. ولذلك فنحن نعمل بجد على تدريب قوات أفريقية للذهاب ضمن بعثة تابعة للأمم المتحدة ونقدم لها الدعم الخاص بنقل الجنود وإيوائهم وإمدادهم بالتموين. وفعلنا الشيء نفسه في تيمور الشرقية، حيث كان الأستراليون وغيرهم على استعداد لتولي دور ريادي. أما في كوسوفو، فلو لم نفعل ما فعلناه، لما كان هناك من يقوم به. وينطبق الشيء نفسه على البوسنة. لقد استغرق الأمر مني عامين ونصفا لتكوين تحالف دولي، واحتاج إلى ذكرى سربرينيتسا الفظيعة والمؤلمة كي تثير انتباه الجميع. وفي رواندا، التي كانت مذبحة، انتهى الأمر برمته خلال مائة يوم. وقد كنا - نحن بصفة فردية والأمم المتحدة كمؤسسة - غير مجهزين التجهيز الكافي، بالمعنى الحرفي للكلمة، للتعامل مع مذبحة بهذه الضخامة وتمت بهذه السرعة.

ما يحدث الآن هو أنني أشركت الولايات المتحدة في أفريقيا إلى حد يزيد عما كان عليه الأمر من قبل بكثير. كما



أعتقد أن الأمم المتحدة لاترغب فى أن تكرر رواندا ما حدث. ولكنها لاتستطيع وقف كل الحروب.

وإحدى الأفكار التى قدمتها للبنتاجون ولكننى لم أتمكن من إقناعهم بقبولها ـ وقررت ألا أفرضها عليهم ـ هى إنشاء فرقة حفظ سلام منفصلة، يتم تدريبها على حدة ويكون أفرادها من المتطوعين تطوعاً مضاعفاً. فهم لن يتطوعوا لدخول الجيش وحسب، بل سيكونون على استعداد بعد ذلك لأن يكلفوا بمهمات حفظ سلام. وكان موقف الجيش من ذلك هو أنه لابد أن تكون الوحدات مترابطة. وظنى أن الرئيس القادم سيكون عليه القيام بمزيد من العمل لتسريع إعادة التنظيم التى بدأت فى عهد الوزيرين بيرى وكوين اللذين يسعيان إلى التكيف مع متطلبات القرن الحادى والعشرين. وأعتقد أنك سترى الأمريكيين مدربين تدريباً أكثر تخصيصاً من أجل هذه المهمات وأكثر مشاركة فيها.

إيفانز:ماذا كان أصعب قراراتك باعتبارك قائداً أعلى؟

كلينتون:هذا سؤال صعب. ولكنى سأذكر لك قرارين. أحدهما هو البوسنة. أما الثانى فقد كان على الدوام هو الصراع من أجل اتخاذ قرار بشأن متى نضرب صدام حسين ومتى لانضربه.

إيفانز:وماذا عن قرار ضربه عندما كانت جلسات الاستماع الخاصة بالاتهام على وشك البدء؟ فقد اتهموك بتنفيذ سيناريو فيلم Wag the Dog (أى شن حرب تصرف الانتباه عن المشاكل الداخلية).

كلينتون:إنهم هم الذين كانوا يفعلون ذلك. فقد أغضبهم بقائى رئيساً. ولو لم أفعل ذلك لتجمع الحشد نفسه لإلقاء تلك الخطب التى يتحدثون فيها عما أصابنى من شلل وعن كونى لم أعد صالحاً للدفاع عن البلاد.

إيفانز:عندما خرج الرئيس أيزنهاور من البيت الأبيض ألقى خطبة وداع تحدث فيها عن الأخطار الشديدة الكامنة فى المجمع الصناعى العسكرى التى تتعرض لها الديمقراطية.هل لديك بعض الملاحظات التحذيرية للشعب الأمريكي، بغض النظر عمن سيخلفك؟

كلينتون:الواقع أننى أفكر الآن فيما إذا كنت سألقى مثل هذه الخطبة أم ستكون هناك سلسلة من الخطب. والشيء الذى يشغلنى، ضمن غيره، هو أنه ينبغى للشعب الأمريكي أن يعرف أن نظامه مستمر فى انفتاحه على التغيير. لقد بلغنا شيخوخة أمريكا، وبلغنا تغير المناخ ـ وهى المشكلة التى يرفض الكونجرس مواجهتها.

لقد فاق الشعب نظامه السياسى بطريقة مقلقة بعض الشيء. وستكون هناك باستمرار مصالح ثابتة فى جعل البلاد أكثر تحفظاً ومعارضةً للتغيير، غير أن العالم يتغير بسرعة كبيرة فى الوقت الراهن.

إيفانز:لقد خمَّنا مقدماً أن من بين همومك بالنسبة للمستقبل المحكمة العليا المعادية للفيدرالية التى تصدر من المبادرات القومية ما يزيد على أية محكمة منذ محكمة روزفلت.

كلينتون:هذه محكمة على قدر كبير من المحافظة. ويدرك معظم الناس أن مصير رو ضد ويد (قرار المحكمة العليا سنة ١٩٧٣ الذى أجاز الإجهاض) سوف تحدده انتخابات الرئاسة، ولكن كثيرين لا يدركون أن التعيينات المستقبلية يمكن أن تؤدى إما إلى استمرار هذا الاتجاه المعادى للقومية أو تقضى عليه. بل إنهم أبطلوا قانون العنف ضد المرأة.

والجدل الذى يقولون به الآن (بشأن النزعة المعادية للقومية لدى المحكمة) هو ببساطة الصورة الجديدة من ذلك الجدل الذى يدور منذ تشكيل ورثة جورج واشنطن للحزب الفيدرالى. وقد كان واشنطن وهاملتون فى جانب وجيفرسون على الجانب الآخر. وفى رأيى أنه أمر طيب أن يكسب جون مارشال (قاضى المحكمة العليا فى القرن التاسع عشر) المعركة فى نهاية الأمر. وهناك دور فى مجتمعنا لحكام الولايات الذى يتمتعون بقدر كبير من النشاط. وقد كنت حاكماً لمدة اثنتى عشرة سنة. ولكن لابد من حل الأمور الأساسية لهوية أية أمة على المستوى القومي.

إيفانز:قرأت كثيراً. فما هى الكتب التى أثرت فيك؟

كلينتون:لقد قرأت الكثير من الروايات البوليسية. ولكنى أحب التاريخ والسير والكتب التى تتناول المسائل الدينية. ووصلنى مؤخراً كتاب عن مذكرات توماس ميرتون. وأنا متشوق لأن أبدأ فى قراءته. وفيما يتصل بالتأثير، لا أدرى. لقد قرأت مئات الكتب منذ مجيئى إلى هنا. وقد تأثرت كثيراً بسيرة جون مارشال التى كتبها جان إدوارد سميث. كما قرأت سيرتى ألكسندر هاملتون وواشنطن بعد وصولى إلى هنا، وسيرتى الرئيسين آدامز[٣] (إلا أن كتاب سميث أوضح لى كيف أن مارشال، باعتباره كبير القضاة فى قضية ماربرى ضد ماديسون (القضية التى نظرت سنة ١٨٠٣ ووضعت الأساس لنهائية أحكام المحكمة العليا) وكل تلك القضايا، كان نبراساً للأمة الأمريكية).

إيفانز: سيرة مارشال وثيقة الصلة بالوقت الراهن.

كلينتون:إنها بالنسبة لى واحد من أهم كتب التاريخ الأمريكي، لأن كل جيل كان مطالباً بإعادة رسم صورة الأمة. فقد كان على إبراهام لنكولن أن يفعل ذلك. وكتب جارى ويلز ذلك الكتاب المدهش عن خطاب جيتيزبرج[٤]. وأهم ما قاله هو أن لنكولن أعاد تفسير الدستور لنا بحيث يكون أقرب لما تعنيه الكلمات، على عكس ما كانت عليه الحقائق عندما كتب. وحينذاك لم تكن الأمة بحاجة إلى أن يعاد رسم صورتها إلى أن جاء تيدى روزفلت وودرو ويلسون. وبعد ذلك كان على ترومان أن يعيد رسمها من جديد، فى الداخل وأمام العالم. وأعتقد أننا الآن فى المرة الخامسة لإعادة رسم صورة الأمة.

وكنت أستشعر على الدوام التشابه بين هذا الوقت وتحول البلاد من زراعية إلى صناعية، ومن مجتمع ريفى إلى مجتمع حضرى فى بداية القرن تقريباً. وبعد ذلك اندماج أمريكا مع العالم، إلى جانب بناء مجتمع الطبقة الوسطى مع وجود شبكة أمان اجتماعى فى عهدى روزفلت وترومان.

إيفانز:هل أصبحت أكثر روحانية وأنت فى المنصب؟

كلينتون:نعم. وأعتقد أن أى إنسان يصبح أكثر روحانية وهو فى المنصب. فهذا ما حدث لكل رئيس تقريباً. وساهمت فى ذلك الظروف غير العادية التى عملت فى ظلها. ومع أن هذا شيء يصعب قوله، ويكاد لا يصدقه أحد، فأنا أعتقد أنه كان مفيداً لى كإنسان أن أجرد من أوهام الحياة وأن أضرب علناً بالطريقة التى ضربت بها. وهذا الأمر إن لم يقض عليك فإنه من الممكن أن يجعل منك إنساناً أفضل. ومن الممكن أن يجعلك أقل اهتماماً بالمظهر ويزيد اهتمامك بالجوهر، ويمكن أن يفرض نوعاً من إعادة النظر فى الحياة التى أعتقد أنه ينبغى على الناس دوماً المشاركة فيها بطريقة أو بأخرى.

وعليه فإننى مدين لخصومى بالشكر إلى حد كبير لمنحهم إياى تلك الفرصة. ولم تعد لدى جبهات أعمل على تقويتها، ولذلك فليس لدى إلا ما هو خاص بى بالفعل وما هو حياتى بحق، وما أحبه، وما أهتم به، والناس الذين أخلص لهم، والقضايا التى أقاتل من أجلها. وليست لدى أية شكوى بهذا الخصوص. وما حدث كان فيه ضرر كبير لأمريكا وللمجتمع الأمريكي. ولكن بالنسبة لى شخصياً، فلا يمكن أن أقول إنه كان بالأمر الضار. وقد ساعدنى مانديلا على التعامل مع هذا. وهو صديق لى وتحدثت إليه مراراً.

إيفانز:هل تحدث إليك أثناء توجيه الاتهام؟

كلينتون:نعم، طوال الوقت. لقد كان شديد الإخلاص لى. بل إنه جاء إلى هنا. جاء يوماً مبكراً، عندما قدم له الكونجرس الوسام الذهبى، وجاء إلى البيت الأبيض وهاجم ما كانوا يفعلونه معى. كما أنه ساعدنى فى طريقة تفكيرى فى الأمر وكيف أتعامل معه ـ وهو شيء لن أنساه أبداً.

إيفانز:كانت له سنواته الطويلة التى أمضاها فى السجن. فهل كانت نصيحته عملية فيما يتعلق باجتياز المحنة أو كونك أصبحت روحانياً؟

كلينتون:كلاهما. كلاهما. فإنك إذا قرأت سيرته الذاتية سوف ترى ذلك. إذ قال لى أول ما قال إن الطريقة الوحيدة التى تمكن هذه الأمور من القضاء عليك هى أن تسمح لها بأن تقضى عليك.

إيفانز:هل تشعر بمرارة؟

كلينتون:لقد قال ما دمت لا تشعر بذلك ـ أى ما لم يجعلك هذا تشعر بالمرارة، وما لم تكن غاضباً على الدوام، وإذا تركت الأمور تسير، وأن تمضى فى سيرها ـ فسوف تكون على ما يرام.

إيفانز:من المدهش أن كل هذه السنين لم تشعره بالمرارة.

كلينتون:سألته ذات مرة. ومضينا فى كلامنا لأقول له: «أنت رجل عظيم، ولكنك سياسى عظيم كذلك، تدعو سجانيك إلى خطاب توليك وما شابه ـ ولكن ألم تكن تكرههم بالفعل؟» فقال إنه كرههم فترة طويلة، إلى أن أدرك أنهم أخذوا منه الوقت الكثير. وقال: «لقد أسيء إلىَّ جسمانياً وعاطفياً. لم يتح لى رؤية أطفالى وهم يكبرون. فصلت عن زوجتى، وهو ما أدى فى نهاية الأمر إلى إنهاء زواجنا. وبعد ذلك أدركت أنه يمكنهم أن يأخذوا كل شيء ما عدا عقلى وقلبى. واتخذت قراراً بألا أتخلى عنهما. ذلك هو القرار الوحيد الذى يجب عليك اتخاذه فى مواجهة كل هذه الأمور التى تحدث لك. عليك أن تقرر ما الذى ستتخلى عنه وما لن تتخلى عنه. لقد أخذوا منك الكفاية، وأنا لن أعطيهم أى شيء آخر. فلماذا تعطيهم أنت؟ إنك لست مضطراً لذلك».

لقد ساعدنى ذلك بالفعل. وقلت: «إننى سأنهض من فراشى وأذهب إلى عملى كل يوم وأدع الشعب الأمريكي يضع استنتاجاته. لدى أناس يدافعون عنى، وأومن بأن الأمور ستسير بالطريقة التى يفترض أن تسير بها». وهكذا بدأت فى الذهاب يومياً إلى العمل ـ وتركت الأمور تجرى فى أعنتها. ■

الهوامش

(١) يقصد السيرة الذاتية التى كتبها المؤرخ الأمريكى هنرى بروكس أدامز بعنوان The Education of Henry Adams سنة ١٩١٨ وهى السنة التى توفى فيها. (المترجم)

(٢) كان هذا بعد ظهور نتيجة انتخابات الرئاسة الأمريكية لسنة ٢٠٠٠، وقد أقام الديمقراطيون أنفسهم دعاوى قضائية لإنجاح مرشحهم آل جور لكنهم فشلوا وفاز المرشح الجمهورى جورج بوش بالرئاسة. (المترجم)

(٣) ثانى رئيس للولايات المتحدة جون آدامز (١٧٩٧-١٨١١) وسادس رئيس جون كوينس آدامز (١٨٢٥-١٨٢٩). (المترجم)

(٤) ألقاه الرئيس إبراهام لنكولن فى بلدة جيتزبرج جنوبى ولاية بنسلفانيا فى نوفمبر ١٨٦٣ عقب معركة فاز فيها الاتحاديون وحالت دون غزو الجنوبيين للشمال. (المترجم)

حوار أجراه هارولد إيفانز مع الرئيس كلينيون، ونشرته جريدة «التايمز» البريطانية يومى ١١و١٣ نوفمبر الماضى.

ترجمة: أحمد محمود

الطبقـــة العليـــا فـى

مـــاجـــدة بركـــة

يكتب الإنسان التاريخ لأن به نزوعاً منذ الطفولة إلى الاستماع إلى القصص، والتاريخ قصة. ويكتب الإنسان التاريخ لأنه الوحيد بين الكائنات الذى يحتاج إلى الفهم كى يعيش. وكما قيل قديماً أن الفلسفة هى أم العلوم لأنها الأصل الذى انبثقت منه جميعاً، فيمكن الآن القول أنه لا علم من هذه العلوم إلا وله تاريخ، كتاريخ الفلسفة ذاتها والتاريخ الاقتصادى وتاريخ العلوم، وهناك تاريخ لجانب بعينه من تاريخ البشر كالتاريخ الاجتماعى والتاريخ الاقتصادى.

ويمكن للأسف أن نقول بأن كتابة التاريخ اقتصرت فى الأغلب الأعم منها على كتابة «التاريخ السياسى». وأحب أن أدافع فى هذا العرض عن منهجية ما أسمته مدرسة الـ Annales الحوليات التاريخية الاجتماعية الفرنسية بالتاريخ الشامل Total History، أى التاريخ الذى يستفيد بمنهجيات العلوم المختلفة كى يطور نفسه. ففى حين يمكن القول بأن التاريخ الاقتصادى استفاد بالفعل من أساليب علمى الاقتصاد والإحصاء فى التحليل، فإن عدد الكتابات التاريخية التى استفادت من منهجيات علمى الإنثروبولوجيا والاجتماع مثلاً هى أقل عدداً، ونجد الآن منهجية «تحليل الخطاب»، التى تنتمى إلى النقد الأدبى فى جذورها، من ناحية، وإلى علم الإنثروبولوجيا، من ناحية أخرى، تدخل فى الكتابات السياسية وتجد طريقها حثيثاً إلى الكتابات التاريخية. ويمكن الدفع بإمكانية الاستفادة من منهجيات تلك العلوم المتعددة فى تجديد علم التاريخ لنفسه باتباع مقاربة تاريخية Interdisciplinary متعددة المنهجيات العلمية. بحيث يمكن عند النظر إلى الطبقة العليا المصرية فى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ مثلا تحليل خطابها بما يتوافر من مصادر كالمحاضر البرلمانية والمذكرات والمجلات السيارة، وتحليل الخطاب المكتوب يأتى من منبع النقد الأدبى. كما يمكن عمل مقابلات مع من بقى على قيد الحياة من هذه الطبقة وذريتهم وهذه منهجية يختص بها علم الاجتماع وعلم الإنثروبولوجيا. وكذلك يمكن إحصاء أعداد هذه الطبقة وفقاً لما تحدده الدراسة من معايير، ويمكن حصر ثروتها وهذه منهجية تنتمى إلى علمى الإحصاء والاقتصاد. كذلك يمكن استكشاف أنماط التجمع المكانى من حيث السكن والعمل والشراء والترفيه، لهذا الأمر منهجية تنتمى إلى ما صار يعرف بالدراسات العمرانية (Urban Studies) التى لا تنفصم بدورها عن علم الاجتماع.

وتنبع الرغبة فى اتباع «منهجية التاريخ الشامل» من عدم الارتياح تجاه مقاربات النظريات الاجتماعية والسياسية لموضوع الطبقة بما يسبغ عليها عمومية تتسم بمقتضاها الطبقات بسمات جاهزة بغض النظر عن الزمان والمكان الذى توجد فيه.

فإذا كانت هناك ملامح حددتها النظرية لكل طبقة، فالأولى مستغلة والثانية تخشى السقوط إلى أسفل والثالثة ثورية بطبيعتها، فكيف يمكن للرواية التاريخية أن تحدد الخصوصية التاريخية والثقافية لهذه الطبقة أو تلك؟ هل الطبقة العليا السورية مثلها مثل المصرية أو الألمانية أو اليابانية فى نفس المرحلة التاريخية؟، أو حتى هل تتماثل ملامح الطبقة العليا المصرية فى حقب مختلفة؟

وهناك مبررات كثيرة لتبنِّى هذا التوجه. فالتاريخ السياسى لفترة مَا يكون قد كتب بالفعل ويصعب الكشف عن أحداث جديدة فيه. كما أن تسييس الكتابة التاريخية يجعل مدى «علمية» و«موضوعية» الكتابة التاريخية محل نظر دائم. فشأن كل «علم» يرتبط بالمصالح تتعدد زوايا النظر. فكما أن هناك فى «علم» الاقتصاد اقتصاداً «ليبرالياً» وآخر «موجَّه» وثالثا «مختلطاً»، فقد حرصت النظم السياسية دوماً على كتابة التاريخ من منظورها. فهى تؤسس لشرعيتها هى وقد تنزع الشرعية عن النظم التى ثارت عليها أو جاءت بديلاً لها. وهى تعبئ وتحشد الجماهير وراء أهدافها السياسية وبرنامجها السياسى وفقاً لهذه الرؤية. وفى ذلك اختلطت السياسة بالأساطير وتلونت بالمصالح. وبودى هنا أن يكون تبنى منظور التاريخ الاجتماعى خروجاً على مأزقى التاريخ السياسى وتسييس التاريخ.

وفيما يتعلق بموضوعنا هنا تحديداً وهو الطبقة العليا المصرية بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢، فهو ليس مكتوباً بمنظور التيار السائد فى كتابة التاريخ السياسى لما قبل ثورة ١٩٥٢، على النحو الذى كتب به محمد صبرى وشفيق غربال وعبد الرحمن الرافعى والذى كان «الفرد» البطل فيه هو محرك التاريخ، ولا هو «بالتاريخ الماركسى النزعة» الذى كتب قبل ثورة يوليو على أيدى شهدى عطية الشافعى وفوزى جرجس من غير المتخصصين وراشد البراوى ومحمد لهيطة وبعدها طارق البشرى (فى الفترة الأولى) ورفعت السعيد وصلاح عيسى وغيرهم، وأسبغ مثالية زائدة على الطبقة العاملة بينما وصم الطبقة الحاكمة وطبقة كبار الملاك بالاستغلال، أو التاريخ القومى الذى كتب بعد ثورة ٥٢ وتأثر لا شك بالثقافة السياسية السائدة فى تلك الحقبة، والذى أسبغ بدوره مثالية مفترضة على الطبقة المتوسطة التى كانت عماد هذه الثورة بينما وصف الطبقة العليا فى المرحلة السابقة عليه بأنها شكلت مجتمع النصف فى المائة ووصمها بأنها كانت من أعوان الاستعمار «وأذنابه».

لا أعتقد بأن دور المؤرِّخ أن يكون وكيل النيابة أو ممثل الادعاء. كما لا أعتقد أن دور هذا المؤرخ هو دور المخرج الذى يوزع - بأثر رجعى - أدوار «الطيب، والشرير». وقناعتى هى أن ضرورة الفهم أسبق على نزعة إصدار الأحكام - بل إن «من يفهم لا يحكم». ولا ينفى هذا إمكانية وقوع ظلم تاريخى من طبقة على أخرى. إلا أنّ النظر التاريخى يتوجب عليه دراسة الظروف التى جعلت هذا ممكناً. كما يتوجب علينا جميعاً تلافى ما يمكن تلافيه منها مستقبلاً. فليس هناك طبقات «شريرة» بالميلاد أو «خيِّرة» بالطبيعة، سواء كانت عليا أو وسطى أو عاملة. وربما كانت مهمتنا أن ندرس الواقع لنرى ما يسفر عنه من أنماط تاتى نتيجة لما نبذله من جهد بحثى، بدلاً من تطبيق منطق أيديولوجى نظرى، يستبعد ما لا يتفق معه من التفاصيل والحقائق ويجعل لكل طبقة صفات مفترضة سواء عاشت هذه الطبقة فى مصر أو فى فرنسا أو اليابان، وسواء كان مسرح عملها ووجودها هو القرن الثامن عشر أو التاسع عشر أو العشرون.

إن دراسة «تاريخ طبقة» لمحاولة إعادة رسم ملامح حياتها الاجتماعية وأفكارها فيما يخص الطبقات الأخرى، وفيما يخصها هى ذاتها كطبقة بالرجوع إلى أقوالها فى هذا الشأن أو ذاك هى محاولة لمساءلة المادة التاريخية وفق منهجية جديدة تسأل أسئلة ربما لم تُسأل كلها من قبل، وتحاول الإجابة على ما سُئل منها من قبل بالرجوع إلى خطاب أصحاب الشأن، أى تقديم رؤية «من الداخل» للطبقة العليا المصرية ما بين عامى ١٩١٩ و ١٩٥٢، لا تعنى فقط بالواقع وإنما أيضاً بالتَّصورات والأفكار، وهذا هو منهج علم الإنثروبولوجيا الذى يستنطق فيه الباحث الأهالى (natives)، دون أن يسقط عليهم مسبقاً نموذجه الإدراكى.

وهى فى ذلك منهجية تقرب أيضاً من منهجية ما عرف فى فرنسا بتاريخ الذهنيات Histoire Des Mentalites، الذى يختلف عن «تاريخ الأفكار» Intellectual History الذى يقتفى خطى أصحاب النظريات الكبرى من المفكرين والفلاسفة، ويبحث عوضاً عن ذلك عن الكيفية التى فهم بها أناس عاديون العالم وشكلوا مواقفهم منه فى قضايا متنوعة.

وفيما يخص الطبقة العليا المصرية - قبل الثورة - يمكننا أن نطرح على المادة التاريخية المتاحة أسئلة من نوع كيف أحبوا وتزوجوا؟ كيف كان وضع المرأة ؟ وكيف كانت النظرة حيال المال؟ كيف كانت معاملة الآباء للأبناء وكيف كان منهاج تربيتهم فى المنزل وتعليمهم فى المدارس؟ هذا على الصعيد الخاص، أما على الصعيد العام فهناك أسئلة أخرى تتعلق بإدارة الأزمات الاقتصادية وتوزيع المزايا التعليمية وتشكيل النظام السياسى الداخلى لضمان سيطرة معينة وإن كنت أوثر الابتعاد عما أفاضت فيه دراسات أخرى فيما يخص تسلسل المفاوضات من أجل الاستقلال. فقد أردت أن أكتب تاريخاً اجتماعيا وليس تاريخاً سياسياً تقليدياً، وإن كنت أدرك أن البحث بهذه الكيفية هو أيضا تاريخ سياسى. فكيف لا تكون العلاقة الاجتماعية - الاقتصادية لمالك الأرض بالفلاح أو لصاحب المصنع بالعمال علاقة تماس وتشابك مع ما هو سياسى؟ وكيف لا يكون النقاش البرلمانى حول موضوع «ثقافى» مثل ما ينبغى أن يكون عليه النظام التعليمى نقاشا سياسيا فى الصميم؟

وأخيراً هناك الإدراك التام سواء تعلق الأمر بمقابلة شفهية أو بقراءة لنص، أن ما سوف تسفر عنه فى آخر الأمر بل ما ينشده الباحث هو بالذات «وجهة نظر» وليس حقيقة «مطلقة»، إذا كان هنالك ثمة حقائق مطلقة فى ميدان البحث العلمى فى مجال العلوم الاجتماعية والإنسانيات.

ولنبدأ بالتعريف، يصعب وصف الطبقة العليا المصرية بأى توصيف يخالف تعبير طبقة. وإلا فما هى التعبيرات البديلة؟ إن تعبير «الصفوة» (Elite) الذى تفضله بعض الدراسات الأمريكية وعلى وجه الخصوص تلك التى لديها حساسية من استخدام لفظة «الطبقة» بما لها من ظلال ماركسية، هذا التعبير لا يؤدى الغرض منه حيث لا ينقسم وفقه المجتمع برمته سوى لمجموعتين هلاميتين هما الصفوة وغير الصفوة. كما أن أهم تعريفات الصفوة تشير إلى «من لديهم السيطرة على قيم المجتمع» بحيث يمكن الحديث عن الصفوة السياسية والصفوة الدينية والصفوة العلمية والصفوة الفنية.

وهذا التعريف لا ينطبق على الفئة التى تهمنى دراستها. فليس كل أعضاء هذه «الصفوات» المذكورة أعلاه من الطبقة العليا، كما أن «الثروة» ليست شرطاً فى تعريف الصفوة ولكنها بكل تأكيد كانت شرطاً فى تحديد من ينتمى إلى الطبقة العليا فى مصر من عدمه. كما لا يمكننى أن أستبدل تعبير «جماعة مكانة» بلفظ طبقة إذ أن مكانة الطبقة العليا المصرية استمدت فى الأساس من ثروتها وليس العكس.

يختلف المنظور الثقافى الذى نتبناه هنا عن الدراسات التى تتناول الطبقة بالاقتصار على المفهوم الاقتصادى البحت، إذ أرى أن العامل «الثقافى» من العوامل المحددة للطبقة وليس «العامل الاقتصادى» فحسب. ويؤكد ذلك أنه عند إجراء مقابلات متعددة مع أشخاص من ذرية هذه الطبقة، بل ومع كثيرين آخرين من الشريحة العمرية لمن كانوا معاصرين لهذه الطبقة وتعاملوا معها بحكم التعليم أو العمل، ظهر أن معايير ثلاثة كانت تؤهِّل لعضوية الطبقة العليا، وينبغى توافر اثنين منها على الأقل حتى يمكن اعتبار شخص ما من الطبقة العليا: الثروة وهى عنصر ثابت، ثم إما الأسرة أو التعليم (وهما معياران ثقافيان «غير اقتصاديين») أو كلاهما، وهما متغيران. بمعنى أنه إذا تمتع أحدهم «بأسرة طيبة»، وتعليم عال ولم يكن حائزاً على «الثروة» لا يمكن اعتباره من الطبقة العليا. وعلى العكس فإن الحائز على «الثروة والأسرة» فقط دون تعليم يذكر (بعض أعيان الريف) أو «الثروة والتعليم» فقط دون «النسب الأسرى» (الباشوات العصاميون)، أمكن اعتباره ضمن عداد هذه الطبقة. وهكذا فمع عدم إمكان استبعاد العامل الاقتصادى (الثروة) فقد توقفت العضوية فى الطبقة بل والتماسك الطبقى فى جزء كبير منه على عوامل اجتماعية - ثقافية غير اقتصادية.

وأرى أنه من الصعب نعت هذه الطبقة بلفظة «برجوازية» أو «أرستقراطية». أولاً، لأن

مصر قبل الثورة

يختلف المؤرخون حول طبيعة الدور الذى لعبته الطبقة العليا فى مصر قبل الثورة، وبالتحديد بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢.. هل كانت طبقة مستغلة تمثل مجتمع النصف فى المائة، وأنها كانت من أعوان الاستعمار وأذنابه؟ أم أنه كان لها دور اجتماعى وثقافى واقتصادى؟ حول هذه القضية قدمت الدكتورة ماجدة بركة رؤيتها من خلال تاريخ مصر الاجتماعى، وليس من خلال مفهوم الصراع الطبقى الذى لجأت إليه كثير من الكتابات للذين استخدموا مصطلح «البرجوازية» فى وصف هذه الطبقة، وركزوا على دورها من المنظور الاقتصادى فحسب. وهذا ما حاول الدكتور عاصم الدسوقى أن يوضحه فى مقال مستقل.



فى أحد صالونات نادى السيارات الملكى فى الثلاثينيات

لفظة «برجوازية» هذه اختلف مدلولها حتى أوروبياً. فكانت تستخدم فى فرنسا فى القرن الثامن عشر للدلالة على فئات تتضمن كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين يعيشون على ريع أراضيهم، بينما جاء مدلولها فى إنجلترا مغايراً تماماً حيث جاءت دالة على طبقة من سكان المدن تعمل «بغير الزراعة»، وتعد طبقة متوسطة بين أرستقراطية الأرض وبين فقراء الريف والمدينة.

تختلف «الطبقة العليا» فى مصر عما سمى بالأرستقراطية فى أوروبا. نعم كان لديها نزعة أرستقراطية، ظهرت فى حب الإنفاق وكثرة الاستدانة اللذين اتسم بهما أرستقراطيو أوروبا، كما ظهرت فى ولعها بالحصول على الألقاب. إلا أن حداثة أصولها التى تعود فى أحسن الأحوال إلى القرن التاسع عشر بينما تعود بعض الأسماء الأرستقراطية فى مجلس الشيوخ البريطانى ستة قرون إلى الوراء، وكذلك انعدام توريث الألقاب كما لدى الأرستقراطية الأوروبية، وقبول الطبقة العليا المصرية إثراء نفسها بالعناصر الناجحة من الطبقة المتوسطة والمسافة التى تفصلها اجتماعياً وسياسياً عن البلاط (باستثناء أعضاء بعض الأحزاب السياسية التابعة للقصر وفى مقدمتها حزب الاتحاد) كانت جميعها من الأمور التى ابتعدت بها عن «النموذج الأرستقراطى الغربى». وبعكس هذه الأرستقراطية (أو نظام الكاست الهندوكى)، لم يكن هنالك فى مصر تعريف قانونى للطبقة العليا بخلاف الشروط الضمنية لعضوية البرلمان.

واتساقاً مع المنهج الأنثروبولوجى الذى يتقصى الأمور «من الداخل» ويهتم بالتعريفات الذاتية والذى أرى أنه يمكن أن يفيد فى إثراء أو تجديد دماء الدراسة التاريخية، يمكن لنا أن نتبنى التسميات التى أطلقها المجتمع المصرى ذاته على هؤلاء حين أشار إليهم بتعبير «الأعيان» للملاك الريفيين، و«الذوات» لكبار رجال الدولة فى الجيش والحكومة والذين كانوا غالباً من أصول تركية شركسية. وبانضمام فئة «المهنيين» من أطباء ومهندسين ومحامين وكذلك «رجال الأعمال» من المشتغلين بالصناعة والتجارة الحديثة إلى هؤلاء ممن لا ينطبق أى من التعبيرين عليهم يمكننا أن نطلق على هذه الفئات الثلاثة تعبير «الطبقة العليا» المصرية.

ولكن وبما أن الثروة هى العنصر الثابت فى تعريف الطبقة، ما هو حد الثروة الذى كان يؤهل صاحبه لكى يصبح فى عداد أبناء الطبقة؟ دعونا نبدأ بمراجعة التوصيف الكلاسيكى جداً لتعبير كبار الملاك وهو توصيف «جابرييل باير» لهم بأنهم من كانوا يملكون خمسين فداناً فأكثر(١).

كان «باير» قد تبنى هذه «العتبة» بناءً على تحديد اللورد كرومر لها فى عام ١٨٩٤ لأسباب ضريبية إحصائية. وكان هذا بدوره قد توصل لهذا التحديد بناءً على أن ملكية بهذا الحجم مزروعة بالقطن كان يمكنها فى ذلك التاريخ أن تدر دخلاً سنوياً مقداره خمسة آلاف جنيه مصرى، وهو ما اعتبر «دخلاً كبيراً» بمعايير ذلك الزمان. ولذا فإن المهم ليس هو حجم الملكية بل ما يمكن أن تدره من دخل. مما يعنى أن هذا الحجم لا يمكن أن يتسم بالثبات طوال المدة حتى قيام ثورة يوليو. وهكذا فإن الحد الأدنى الذى تم اعتباره يوصف ملكية كبار الملاك كان هو ٢٠٠ فدّان، سواء كان ذلك فى مضابط البرلمان التى ناقشت انتشار وباء الملاريا سنة ١٩٤٤ بشكل ملحوظ فى مزارع «كبار الملاك» ممن حددهم النحاس باشا بأنهم من يملكون مائتى فدان فأكثر، أو حتى وفق قانون الإصلاح الزراعى الأول الذى أصدره الضباط الأحرار الذين سعوا بشكل واع إلى تصفية نفوذ هذه الطبقة.

وبما أن الأمر يتعلق بحجم دخل معين تدره مائتا فدان فى الأربعينيات، فإن من يدخل فى عداد الطبقة من المهنيين أو رجال الصناعة أو التجارة هم من يحصلون على هذا المقدار من الدخل أيضاً ـ وهؤلاء حددهم برلمان ١٩٤٤ ـ بأنهم من كانوا يملكون منشآت صناعية أو تجارية يعمل بها ثلاثون شخصاً فأكثر.

والحال أنه من الصعوبة بمكان تحديد عدد أسر الطبقة العليا، لأنه وإن أمكن استخلاص عدد من الأسر من الإحصاءات وفقا لمقياس المهنة والدخل أوالملكية، فإنه يصعب تصفيتها أكثر بمزج ما سبق بالعنصر الثقافى، أى معرفة من تمتع إلى جانب الثروة بشرط الثقافة (متضمن على نحو ما فى المهنة) وخاصة النسب. فهذا ما لم توفره الإحصاءات بشكل كامل، وغاية ما يمكننا التوصل إليه عن طريقها هو عدد من الأسر بلغ خمسة عشر ألف أسرة عام ١٩١٩ (٣٪ من عدد الأسر القاطنة فى المدينة) وزاد إلى خمسة وعشرين ألفاً عشية ثورة ٥٢. وأن «صفوة» هذه الطبقة ربما لم تزد على ألفى أسرة استناداً إلى أعداد سائقى السيارات الخاصة والمربيات الأجنبيات والمقارنة بمن تم إدخالهم فى كتاب (The Egyptian who is who)، الصادر عام ١٩٤٧ (يتضمن حوالى ١٣٠٠ شخص فقط) وهو عدد من الأسر تراوح بين ألفين وخمسة آلاف عشية قيام ثورة ٥٢، زادوا بزيادة أعداد من انضم إلى طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية خلال تلك الفترة من رجال الصناعة وكبار موظفى الدولة وكبار أصحاب المهن الحرة.

إنني أعتبر دراسة الطبقة أحد المداخل لدراسة مصر ومن خلالها وددت التعرف على الآليات التى يحدث بموجبها التغيير الاجتماعى والأنماط والأشكال التى يتخذها هذا التغيير. ولا يمكن إغفال ما حدث من تغيير بفعل «قوى اجتماعية» كان الأفراد والطبقات صنّاعها وصنيعها فى آن واحد. فالتزايد السكانى هو الذى ضخّم الطبقة المتوسطة التى ضغطت بدورها باتجاه مجانية تدريجية للتعليم وانتهت بإزاحة الطبقة العليا القديمة عن قمة الهرم الاجتماعى سياسياً واقتصادياً. والتعليم والطبقة المتوسطة هما اللذان أدّيا معاً إلى تغيير الثقافة السياسية الغالبة من المطالبة بالاستقلال والدستور خلال العشرينيات والثلاثينيات إلى المطالبة بالاستقلال والعدالة الاجتماعية خلال الأربعينيات. والتعليم وازدواجيته أدّيا إلى كسر احتكار الثقافة التقليدية الدينية عندما كسر احتكار الكتّاب والأزهر لصالح المدارس الأميرية والأهلية والأجنبية، وهو ما أدّى من بعد إلى شرخ فى المجتمع اسمه البلدى والإفرنجى الذى طال كل شيء. ففى السكن هناك أحياء «بلدية» وأخرى إفرنجية وفى الملبس وفى التعليم، وحتى فى القانون كانت هناك المحاكم الشرعية والمحاكم المدنية ثم المحاكم المختلطة (الإفرنجية). وطال الانقسام أثاث المنازل وأصناف الخضر والفاكهة حتى لم يكد ينج منه شيء، بل ربما أمكننا أن نقول أنّه أدّى إلى نوع من فصل عقل مصر عن جسدها. فالمثقف العلمانى نازع المثقف الشيخ دوره فى أن يصبح عقل الأمة وضميرها، على حين بقيت الجماهير المتدينة تائهة لوهلة بين الاثنين.

كذلك أدى مزيج الزيادة السكانية مع محدودية الرقعة الزراعية وعدم وجود صناعة كافية لامتصاص الأيدى العاملة الناتجة عن الزيادة السكانية، أدى كل ما سبق إلى استمرار تخلّف الريف. فنمط الاستغلال الزراعى ظل نمطاً كثيف العمالة،

وظلت هذه العمالة ضعيفة الأجر بالرّغم من ظاهرة الهجرة المتزايدة إلى المدينة. وأدّى ما سبق بدوره إلى زيادة حدة الانتقادات لكبار الملاك الزراعيين في صحافة الأربعينيات بل وفي برلمان الأربعينيات.

وبخلاف التعليم هنالك الاستيعاب المتزايد للرأسمالية على النمط الغربي. فلولاها لما انتقلت الطبقة العليا بصفة خاصة ومن خلفها الطبقة المتوسطة بدرجة أقل إلى أنماط الاستهلاك الغربية. فبدلا من الملابس التقليدية الثابتة الطراز والتي تصنعها الخيّاطات في المنازل أصبحت هناك الموضة التي تتغير موسمياً عندما يعطى «ملوك الموضة» من أصحاب تلك الصناعة أوامرهم بذلك حتى تبقى عجلة تلك الصناعة دائرة فيبلى الطراز دون أن تبلى الأثواب.

وبدلاً من الخياطة أصبحت هناك بيوت الأزياء الراقية والبوتيكات التي تمتلك امتياز دور الأزياء الكبرى مثل «بالمان» و«جاك فات». أي أن الثوب لم يعد «وطنياً» ولا تقليدياً وإنما مقرر من الخارج. وهو منطق يجعل من الطبيعي تفضيل المستورد على الأصلي. واستند تحديد الصناعة الغربية والغربية الطابع لنفسها في مجال الأزياء على أسس طبقية فأصبحت الطبقة العليا تهجر «الموديل» القديم عندما ينتشر - وبمفهومها يبتذل - بين الطبقات الأدنى.

ثم كان هناك التقدم التقني الذي أدى إلى اختراع السيارة والكهرباء والتليفون وإمدادات المياه النقية بمواسير داخل البيوت، فأسهم ما سبق في هجرة «الطبقات العليا» الحارة القديمة الضيقة إلى الأحياء الجديدة بشوارعها الواسعة التي تسهل فيها حركة السيارات ومجهزة بيوتها منذ البداية بشبكات المياه والكهرباء، تاركة أحياءها القديمة تعاني من الشيخوخة والإهمال.

هذا التقدم التقني هو الذي أدى إلى الإعادة الشاملة لتنظيم المكان وتغير أنماط السلوك حيث ترجم فيما ترجم إلى سبل مواصلات حديثة كان لها تأثير بالغ على تطور القيم وأشكال الحياة الاجتماعية. فقد خفت حدة «الرقابة الاجتماعية» بعد أن أصبح من الصعب على الأهل مراقبة أبنائهم أو حتى مراقبة أهل الحارة أو الحي وضبطهم لسلوك سكانه الذين لم يكونوا من قبل يذهبون بعيداً قبل ظهور المترو والأومنيباص.

وسمحت المواصلات بارتياد وبالتالي ازدهار أنواع جديدة من الترفيه مثل السينما والمسرح «والصالات» وظهور أنواع جديدة من التسوق بظهور المحلات الكبرى، فكما عرفت باريس لافييت و برانتون والبون مارشيه عرفت مصر صيدناوى وشيكوريل وافيرينو وعمر أفندى. وبين هذا وذاك انتهى التداخل القديم بين مكان السكن والعمل والترفيه الذي كان موجوداً في الحارة القديمة قبل أن يهجرها أغنياؤها والذي ظل قائماً بالنسبة لعناصر كثيرة من الطبقات الدنيا في المدينة.

واختلفت الرموز التي يدور حولها النشاط. كانت الرموز التقليدية للمدينة الإسلامية هي الجامع والسبيل (بكتّابه) والتكيّة والحمام، فجاءت الأحياء الجديدة برموز مخالفة. وإذا أخذنا هيليوبوليس البارون «إمبان» مثالاً لوجدنا الرموز أصبحت هي الفندق والنادي وميدان السباق واللونابارك.

طال التغيير المدينة عموماً، ولكني أحصر نفسي هنا في تغير علاقة الطبقة «بالمكان» على عدة محاور. وبالتغيّر النوعي الذي حدث داخل كل منها. ولنبدأ بالسكن فنقول أن «سقوط الحارة» لم يكن نهاية المطاف. بل انطبق منطق «الموضة» والتغيير نوعا ما على الأحياء، فسقطت بعض الأحياء التي كانت متميزة سابقاً كلما فقدت هدوءها بغزوها من الخارج. مثلا فقدت الأزبكية مكانتها السابقة لقربها من مراكز الترفيه والتسوق، وشهدت السنوات من ١٩١٧ إلى ١٩٢٧ صعود العباسية التي ضمت الكثيرين من ملاك الأرض المهاجرين من الريف، ومصر الجديدة التي ضم الجزء المتميّز منها أعضاء من الأسرة المالكة والبلاط، كما شهدت تلك السنوات الهبوط النسبي للسيدة زينب وشبرا وغيرها. ثم ابتداء من سنوات الثلاثينيات أصبحت الزمالك وجاردن سيتي والمعادي وأجزاء من هيليوبوليس والشريط المحاذي لنيل الجيزة هي الأحياء الراقية بامتياز.

وقد تغيّر الفكر الحاكم للتفضيل السكني نحو مزيد من الانفتاح على الخارج فمن تفضيل الحارة السد التي لا تفضي إلى شيء إلى تفضيل الطريق المفتوح. ومن تفضيل المشربية التي يرى من خلالها أصحاب البيت ولا يُرون إلى الشبابيك ذات الشيش الذي يمكن أن ينفتح على مصراعيه، ومن الإطلال على الفسحة الداخلية إلى الفاراندة المطلّة على الشارع ومن الحواري الضيّقة المنحنية الظليلة إلى الشوارع المستوية الفسيحة المشمسة.

وقد ظهر تيّار عربي معماري تمثّل في فيلاّت أمثال عطا عفيفي باشا وبهيّ الدين بركات باشا ومبنى بنك مصر (١٩٢٧) والجمعية الهندسية المصرية (١٩٣٠)، إلاّ أنّ غالبية المباني والبيوت كانت على الطرز الغربية «الباروك» و«الآرنوفو» و«الآرديكو» والحديث..الخ. ولم ترُق دعاوى معماريين مصريين من أمثال حسن فتحي ورمسيس ويصا واصف للطبقة العليا (أو حتى المتوسطة) رغم وجود كثرة من المهندسين المصريين البارزين من أمثال: سيّد كريم وعلى لبيب جبر وفريد نجم وغيرهم.

أمّا المنزل فقد تأثر أيضاً بالتغيرات الاجتماعية فانقرض الحرملك والسلاملك وانقرض البئر وغرف الخزين والإسطبل الذي تحول إلى جراج في مرحلة مبكرة نسبياً، وفي مرحلة لاحقة انكمش حجم البيت وأعداد الخدم بانكماش حجم الأسرة بل شهدت نهاية الأربعينيات تحولاً متنامياً للطبقة العليا من الفيلات إلى الشقق وظهرت العمارات الفاخرة مثل عمارة صدقي باشا وعمارة على لبيب جبر وعمارة لوبون في الزمالك.

وفي مجال « الترفيه » انفصلت الطبقة تدريجياً عن الشكل الموسمي القديم للترفيه القائم على الاحتفالات الدينية كالمحمل والموالد والأعياد، وعلى دورات الطبيعة والزراعة (وفاء النيل، شم النسيم، فتح الخليج) والمناسبات الأسرية (الزواج، الختان...الخ) وهي أشكال قائمة على «المشاركة» وتحوّلت إلى نمط أكثر قياماً على المشاهدة وأسرع تواتراً وأقل موسمية تنشد الترفيه في ذاته دونما الاحتفال بحدث خارجي.

وفي مجال «التسوّق» كان الشكل القديم هو الأسواق المتخصصة فهناك الصاغة وسوق السلاح والمغربلين ومختلف أنواع الحرف والصناعات تتجاور ولا تختلط، فجاءت فكرة «الوسط التجاري» (Le centre-Ville) الذي تتجاور فيه محلات ذات تخصصات متباينة بل نشأت المحلات الكبرى كصيدناوى وشيكوريل وأفيرينو وغيرها ببضائعها من كل لون وصنف، وهي التي كانت هذه الطبقة تؤمّها.



فيلا البدراوى عاشور بالقاهرة..

وفي مجال «التعليم»، ظهر تأثير المكان جلياً: فوقوع مدرسة الإبراهيمية الأميرية مثلا في حي راق كحي جاردن سيتي جعل نسبة طلبتها من الطبقة العليا أعلى على سبيل المثال من مدرسة الناصرية التي كان موقعها السيدة زينب. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمدرسة السعيدية التي لم تكن تقع في الجيزة فحسب بل كانت أقرب مدرسة أميرية للزمالك. ولم تكن الفروقات بين أبناء هذه المدارس من الطبقة العليا وزملائهم من الطبقة المتوسطة داخل نفس المدرسة إلاّ انعكاساً لثراء الأثرياء مقابل تواضع إمكانات الآخرين حيث يؤدّي دوماً تجاور من يملكون النفوذ والثراء مع من لا يملكون إلى مشاعر متضاربة وقويّة. وإذا كان الفصل المكاني قد حدث تدريجياً بين أحياء السكن وأماكن الترفيه والتسوق في المدينة، فقد بقي التجاور المنشئ للمشاعر القوية المتضاربة قائماً في مكانين: في المدينة كان محلّه المدرسة، وفي الريف كان محلّه «العزبة».

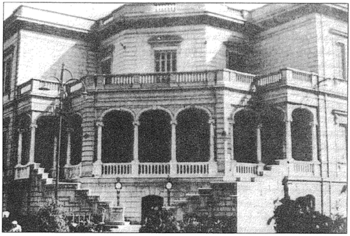
وبهذا ننتقل إلى المجال الثاني وهو مجال التصورات الطبقية، ولنبدأ بالريف. كانت العزبة شكلاً مهمّا من أشكال تنظيم العلاقة بين المالك الزراعي الكبير والفلاح. وفي هذا الإطار، كان المالك والفلاح يخشى أحدهما الآخر. انصبّت خشية الفلاح على إمكان طرده من العزبة التي كان المالك يعطيه فيها سكناً يقطنه وقطعة أرض صغيرة تلبّي الحاجات الغذائية لأسرته، كذلك انصبّت خشية الفلاّح على إمكان اتهامه بأنّه دوماً مدين بناء على سجلاّت يمكن للناظر التلاعب فيها، وصعوبة أن يجد هذا الفلاّح في الدولة نصيراً له فطالما كان الملاك على صلة طيّبة بالمأمور، إن لم يكونوا على صلة صداقة أو تزاور.

وكان هناك إحساس من المالك بغدر الفلاح - فهذا الذي يحادثه بمنتهى الأدب وينزل عن دابّته إذا ما مرّ أمام المالك أو حتى داره - ربما يكون هو ذاته الذي سوف يحرق الزراعات أو السواقي أو يسرق من المحصول تحت جنح الظلام.

إن هذا الشكل الفردي الذي اتخذه رد فعل الفلاحين على الفقر هو الذي مكّن من اعتباره «جرائم» - مدانة أخلاقياً - أمّا حين يأخذ هذا التمرد شكلا جماعيا كما حدث في كفور نجم في أول الخمسينيات فقد اكتسب طابعاً سياسياً دون أن يمنع ذلك الدولة من محاولة قمعه على أية حال. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن سيطرة كبار الملاك على التشريع على المستوى الوطني وعلى الإدارة على المستوى المحلّي أدت إلى منع إصدار أي تشريع ينظّم علاقة العمل الزراعية أو العلاقة الإيجارية حتى قيام ثورة يوليو. ولم يكن هنالك من حكم قانوني لهذه العلاقة حتى ذلك الحين سوى قانون الجنايات العادي.

فإذا ما انتقلنا إلى قيمة «العمل» لوجدنا أنه ينبغي أن نؤكّد من جديد على التنوّع ما بين مختلف فئات الطبقة في بعض نواحي السلوك، فبالنسبة لمن كانوا أبناءً لكبار ملاك أرض على سبيل المثال وعاشوا على ريع أملاكهم، لم تكن قيمة العمل هي العليا، بل اعتبر الكثيرون من أبناء هذه الطبقة العمل عبوديّة. وامتلأت طبعات (The Egyptian who's who) بعبارة «من ذوي الأملاك» في الخانة المخصصة للعمل. ومن المفترض أن يكون ذلك على النقيض مما آمن به قطاع آخر من الطبقة وهو قطاع أصحاب المهن الحرة، أو حتى قطاع الباشوات العصاميين الذين بلغوا ما بلغوه من شأن بالعمل والجهد. وهكذا كانت فئة ملاك الأرض «الصرف» هذه أقرب إلى أرستقراطية الأيام الخوالي الأوروبية بينما كانت القطاعات المرتبطة بالمهن الحرة والصناعة الحديثة أقرب إلى البرجوازية - على النمط الإنجليزي - والتي لم يكن لها من نسب سوى لعملها الناجح.

لم تكن امرأة الطبقة العليا استثناء على النظرة العامة للمرأة في المدينة بوصفها «سيدة البيت»، وإذا كانت ظروف بعض النساء الفقيرات تجبرهنّ على العمل فإن امرأة الطبقة العليا لم يكن هناك ما يضطرها لمثل ذلك. أما



... أحد قصور أسرة البدراوى عاشور فى قرية درين

فكرة تحقيق ذاتها من خلال النجاح المهنى فقد كانت بعيدة كل البعد. كان كل ما يحيط بها من آراء فى الأسرة والمدرسة وفى المجلات النسائية يعلمها أهمية تكريس كل وقتها لبيتها وزوجها وأبنائها مما سوف يستغرق منها ذلك الوقت الذى يستغرقه زوجها فى عمله ـ إذا كان يعمل. فكان يتم تلقينها بكافة الوسائل أن تحقق ملكاتها ونضوج شخصيتها فى بيتها وأن سعادتها إنما تكمن فى التضحية من أجل الآخرين والإيمان بقدسية هذا الواجب الذى تؤديه. أمّا المرأة التى تحلم بالخروج إلى الحقل العام فعليها أن تؤدى هذا العمل فقط قبل الزواج وتقنع بتركه حالما تزوجت وإلا تعرضت لما يكفى من المشاكل وربّما المآسى لردها إلى صوابها. وكم من أفلامنا التى تنتمى إلى فترة الأربعينيات مثل «الأستاذة فاطمة» وغيرها يشهد على ذلك... على جانب آخر كان كبر حجم الكثير من بيوت أسر الطبقات العليا وارتفاع عدد الخدم والمربيات والمدرّسين الخصوصيين يعنى أن إدارة هذا البيت تساوى عملياً إدارة فندق متوسط الحجم، كما ذكرت عفاف لطفى السيد فى مقال لها عن سيدات الطبقة العليا المصريات. وقد ساعدت هذه الخبرة من تطوع منهن للأعمال الخيرية خاصة فى الأربعينيات التى قامت بديلاً عن العمل وشكلا من أشكال العمل العام الذى يخرجهن من النطاق المنزلى.

وبالنسبة للزواج فإن بقاء عدد الملكيات الكبيرة ثابتاً على مدى خمسين عاماً رغم عامل تفتت الملكية بالميراث إنّما يشير إلى إعادة تكون هذه الملكيات عن طريق المصاهرة، وكان كبار الملاك كانوا أسرة كبيرة يتزاوج أعضاؤها فيما بينهم. وكان العنصر الذى يقوم الأهل دوماً بالتركيز عليه هو «النسب» بين أسرتين وليس «الحب» الذى كان بالنسبة لهم مفهوماً غريباً على الزواج. وتتعدد الشواهد على ذلك، فيقول وجيه غالى فى رواية (Beer in the snooker club) التى تضم سيرته الذاتية: «لم تحب أمي زوجها وقناعتها أنها تزوجته كى تمنحنا أباً محترماً». كما يتذكّر الدكتور مجدى وهبة أنّه: «كان هناك هذا الشرخ الفظيع بين المرأة والرجل فى داخل الأسرة ذاتها. كانت النساء مصقولات، متفرنسات، يتحدّثن عربية ركيكة، بينما تحدّث الرجال بالعربية وحدها وبعض الإنجليزية ولم يتمكنوا من التوافق مع زوجاتهم. عاش الرجال حياتهم المنفصلة، ارتادوا المقاهى والنوادى بينما كان هناك فى البيت الصالون الأوبيسون والمرأة التى تسيطر على كل شيء، وأحياناً كانت للرجل حياة أخرى مع غانية أو راقصة..الخ، كانت هنالك هوة بين الرجل والمرأة وكانت الأسرة منقسمة فى التربية والأخلاق».

أما تربية الأبناء فقد تمت بأسلوب سلطوى. أثر بقاء الأب الطويل خارج المنزل على علاقته بأبنائه التى افتقدت لذلك الحميمية فى الغالب وكان الأبناء لهذا السبب أقرب إلى أمهاتهم اللواتى كان سلوكهن المستمد من التربية الغربية (الفرنسية فى الغالب) أول مدرسة اجتماعية لهم. كما تعزز هذا التأثير الغربى بالمربيات الأوروبيات اللواتى قمن على تربية الأطفال حتى يشبوا عن الطوق.

وبالنسبة لتربية الفتيات، فبالإضافة إلى تعلم اللغات الأجنبية، كان المتوقع من فتاة الطبقة الراقية أن تتعلم التصوير الزيتى والعزف على آلة البيانو وإجادة أعمال الإبرة. ولم تكن فى الواقع بحاجة إلى إجادة اللغة العربية والنحو، فاللغة العربية فى صورتها الصرفة ندر استخدامها إلا فى التعامل مع الخدم.

ولم ينج أبناء الذوات من رواج صورة سلبية عنهم يمكن رصدها فى مسرحيات يعقوب صنوع أواخر القرن التاسع عشر، مروراً بحديث عيسى بن هشام أوائل القرن العشرين والصحف السيارة فى الثلاثينيات والأربعينيات، تصور ابن الذوات منخرطاً فى حياة اللهو بما فيها من احتساء الخمور واللعب على موائد القمار. وانعكس هذا فى الصورة السلبية التى أخذتها عنهم «بنات الذوات» أنفسهن ممن استجوبتهن المجلات السيارة فى الأربعينيات، والتى يمكن اعتبارها نوعاً من النقد الذاتى. يضاف إليها ما قيل عن «فقدان الدافع» لدى أبناء الطبقة مما جعلها تلجأ للعناصر المكافحة الناجحة من أبناء الطبقة المتوسّطة «لتخصيب أراضيها» . فكما ذكرت السيدة ليلى إبراهيم (ابنة الدكتور الشهير على باشا إبراهيم) أنها كانت تسمع تعبير "Il faut fumer nos tèrres" بالفرنسية» فى هذا السياق. ولفرز ابن الذوات الصالح حددت بنات الطبقة عنصرين هما حسن الخلق وألا يكون عاطلا عن العمل.

وإذا ما نظرنا إلى مساهمة عناصر الطبقة العليا فى الحياة العامة، فمن المهم أن نضع فى اعتبارنا فى هذا السياق تصارع عاملين متناقضين فى التأثير على أداء النواب من أعضاء الطبقة داخل البرلمان. كانت السياسة المالية المتبعة هى ضرورة ألايكون هناك أى عجز فى الميزانية. وبما أن موارد الدولة كانت محدودة، كان من نتيجة هذا المبدأ تنافس جماعات المصلحة المختلفة من أجل الحصول على قدر أكبر من المزايا وتحمل قدر أقل من الأعباء.

إلا أن دخول هؤلاء النواب البرلمان لم يكن بصفتهم ممثلين لطبقتهم بل لأولئك الفلاحين والعمال الذين ساهموا فى انتخابهم والذين كثيراً ما تتعارض مصلحتهم مع مصالح ممثليهم. لذا تجشم هؤلاء الممثلون عناء بادياً فى تغليف الدفاع عن مصلحتهم الطبقية بلغة الساعة الرائجة: لغة الوطنية وصالح الوطن. وأحياناً صالح أولئك الفلاحين والعمال أنفسهم الذين كانت الدعوى أن مصلحتهم مرتبطة بمصلحة ملاك الأرض وأصحاب الأعمال.

وقد كان هناك زمن لسقوط الأقنعة أيضاً. سقطت الأقنعة فى أوقات الأزمة الطاحنة حينما عجز ملاك الأرض عن إخفاء مصلحتهم بستار من منطق يستلهم مرجعية أوسع من مرجعية المصلحة الطبقية الضيقة. حينئذ لجأ كبار الملاك إلى إعطاء صورة سلبية منمطة للفلاحين من خلال سرد «حكايات» يكونون هم رواتها وشهودها لاعبين بذلك دور الخصم والحكم.

وقد تركّزت المناقشات البرلمانية عن قضايا التعليم خلال الثلاثينيات حول علاقة التعليم بالزراعة حيث برز الخوف من أن يؤدى التعليم إلى هجرة أبناء الفلاحين للزراعة وثورتهم على وضعهم فى السلم الاجتماعى . أما خلال حقبة الأربعينيات فلم يكن الفلاحون هم مصدر التهديد بل الطبقة المتوسطة التى كانت تضغط باتجاه المزيد من فرص التعليم بما هدد فرص أبناء الطبقة العليا فى الالتحاق بالمدارس الأميرية المدعومة من الدولة ـ دون سابق منافسة تذكر ـ كما أثار المخاوف من السيطرة على آلية الصعود الطبقى وأيضاً من انتشار البطالة.

وقد تأثر خطاب هذه الطبقة باللحظات التاريخية كلحظة الوفاق الوطنى فى عام ١٩١٩ التى تم خلالها صياغة مختلف التعريفات للمصلحة الوطنية، حيث كانت الغلبة لمفهوم الطبقة العليا للفكرة الوطنية على المطالبات المحددة للقوى الشعبية الأخرى والتى اختزلتها الطبقة العليا فى إخراج المستعمر، محوّلةً الفلاح المصرى فى أثناء ذلك إلى رمز لأبدية الأمة المصرية. ثم تأثر هذا الخطاب بأزمة «الديون العقارية» فى الثلاثينيات التى اتسمت بتصاعد حدة الآراء المسبقة التى تتسم بتحامل ملاك الأرض الزراعية على كبار موظفى الدولة من ذوى الدخول الثابتة المرتفعة وبدرجة أقل على رجال الصناعة والتجارة. كذلك فقد تأثر هذا الخطاب بذلك المزاج العام الأكثر حدة والأكثر استعداداً لإحداث تغيير فى الأفكار والعادات والمؤسسات السائدة الذى اتسمت به سنوات الأربعينيات التى شهدت تقدم الطبقة بطروح وحلول اقتصادية أكثر تطوراً مما سبق من خلال البرلمان.

ويمكن تلخيص معالم الصورة الإجمالية على النحو التالى :على مدى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ اختلفت هذه الطبقة حجماً وتركيباً وأسلوب حياة وتصورات بتأثيرات متعددة مثل تصاعد اتجاه الهجرة إلى المدينة، والتأثيرات الغربية لمجتمع المدينة وبخاصة العاصمة، والشح فى الأرض الزراعية وضغط الزيادة السكانية وزيادة الدخل المتولد عن أنشطة اقتصادية «غير زراعية».

وكما اختلفت استجابة الطبقة باختلاف ما واجهته من تحديات. فقد اتسمت فى تكوينها وسلوكها بما يتسم به كل تكوين حى من الديناميكية والتغيير والتنوع، بل والتناقض. ومن آيات التغيير الذى ميز سلوك الطبقة كيف غيرت هذه الطبقة من صرعات ملابسها، وكيف غيرت الغالبية «سكناها» من الريف إلى الحضر وكيف انتقلت من حى إلى آخر ومن «شاطئ مصيف» إلى سواه رداً على غزو هذه الأماكن من قبل الطبقات الأدنى وما يحمله ذلك من فقدان الطبقة لما تنشده من الهدوء والخصوصية.

وكنتيجة لما سبق، ازدادت المسافة بين الطبقات بمرور الزمن بسبب اختلاف أماكن وأساليب سكنى الطبقة وتسوقها وترفيهها عن نفسها. وعلى سبيل المثال، فإن «الاحتفالات الدينية» و«الإجازات الأسبوعية» تحولت من ممارسة جامعة للشعب إلى ممارسة مقسمة له. فلم تعد «صلاة الجمعة» أو الاحتفالات الدينية «الأكثر عمومية» كإرسال كسوة الكعبة المشرّفة إلى الأراضى المقدسة تضم الجميع، كما أصبح المصريون الأكثر تفرنجاً يأخذون عطلة نهاية الأسبوع يومى السبت والأحد بدلاً من الجمعة، كما يتضح من حرصهم على حضور «سباق الخيل» خلال هذين اليومين.

أما عن التنوع فى سلوك الطبقة العليا المصرية فقد تبدّى فى اختلاف التفضيلات. سكنيا على سبيل المثال، كان هناك من سكن العاصمة، ومن سكن الإسكندرية ومن فضل أن يقطن عاصمة الإقليم الذى تقع فيه أملاكه الزراعية. كان هناك من قضى الصيف فى أوروبا، وذاك الذى فضل التوجه إلى لبنان على حين فضّل آخرون الإسكندرية أو رأس البر أو حتى عزبتهم. كان هنالك من طرِب لسماع «أم كلثوم» ومن فضل الموسيقى الغربية فاستعاض عنها بالمغنية البرتغالية « أماليا رودريجيز»،وكان هناك المبذرون ومن هم أقل تبذيراً، من اتسموا بعلوّ الثقافة ورقى السلوك، ومن كانوا أقرب إلى السلوك الريفى الخشن غير المصقول. وقد توقف الأمر على مدى بعد أو قرب هؤلاء من الأرض، أى على ما إذا كانوا من أعيان الريف أو من «ذوات» المدن.

أما التناقض والالتباس، فيتضح من تحليل أفكار عناصر الطبقة العليا عن فلاحيهم ومشاعرهم تجاههم،

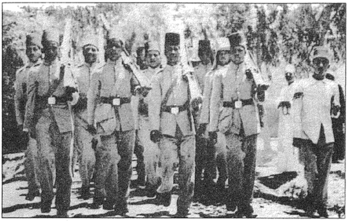
فعلى الرغم من الاعتماد المتبادل لكلا الطرفين على الآخر، فقد حكم هذه العلاقة الخوف وفقدان الثقة . كان هناك التوتر الذى عبرت عنه إحصاءات الجرائم مثل قتل نظار العزب وسرقة وحرق المحاصيل الذى أشار إليه «توماس راسل» فى كتابه: "Egyptian Service".

ويمكن اعتبار هذا التوتر أحد أسباب التحول من «الزراعة على الذمّة» إلى «تأجير الأرض الزراعية» فى الأربعينيات. كذلك كانت طبيعة العلاقات داخل «العزب» حيث يتجاور المالك الغنى ذو النفوذ مع الفلاح الفقير الذى لا يملك أرضاً، كفيلة بخلق ردود فعل قوية ومتضادة على الجانبين. هكذا فإن الفلاح الذى تسبب فى هذه النسبة المرتفعة من الجرائم فى الريف المصرى هو ذاته الفلاح الذى عرف تاريخياً بمسالمته التى كانت محور الكتاب الشهير «للأب عيروط» بعنوان: "The Egyptian Fellah". أما المالك فقد أبدى من جهته مشاعر متضاربة تتراوح ما بين الاستهانة بالفلاح والخوف منه والمسئولية عنه والتماهى معه.

تبدى هذا التناقض فى تصور الطبقة لنفسها كذلك. فقد أراد أعضاؤها أن يقولوا أنهم مثلهم مثل الآخرين وأنهم مختلفون عنهم فى آن واحد. ظهر ذلك التناقض فى وصفهم لأنفسهم. فتارة يقولون: «إننا فلاحون ونحن والفلاحون أسرة واحدة»، وتارة أخرى يصفون أنفسهم «أننا أهم العائلات فى هذا البلد».

وفيما يخص «العلاقات الزراعية»، فقد كان المالك الزراعى أقرب إلى الحاكم منه إلى صاحب المشروع (entrepreneur). كانت له سلطة أبوية يتوجب عليه بمقتضاها فى أغلب الأحوال تقديم العون لفلاحيه وإسكانهم وتوفير نوع من الحماية الاجتماعية لهم، كما تقضى الأعراف السائدة. فكان ذلك بمثابة قفاز الحرير الذى يكسو الحقيقة القاسية للنظام الاجتماعى الذى يحافظ على التفاوت الصارخ بين الطرفين فى الثروة والقوة.

وقد تعدت سلطة المالك الأبوية تلك على الفلاحين علاقة العمل لتمتدّ إلى مجمل سلوكه الأخلاقى العام. صحيح أن «الإقطاع» على النمط التاريخى الغربى لم يوجد فى مصر (لفظة «إقطاعى» أدخلها الناشطون اليساريون إلى مصر فى سنوات الأربعينيات)، إلا أن الزراعة من أجل السوق تعايشت مع نمط «ما قبل - رأسمالى» من العلاقات الأبوية التى أدت فى المحصلة إلى حرمان الفلاح فعلياً من حق الترشيح ومن بعض «حقوق المواطنة»، كحقه فى تعميم التعليم الابتدائى المجانى. وكانت الحجة المستخدمة هى جهل الفلاح، وعدم استعداده للتعلم، وبصراحة أكثر الرغبة فى الحفاظ على الزراعة باعتبارها عماد ثروة الأمة.



يوليو ١٩٥١، قوات البوليس المسلحة تتقدم لحصار قرية «بهوت» بعد هجوم الفلاحين على أملاك البدراوى باشا

ومن ناحية أخرى، لم تكن العلاقة بين العامل وصاحب العمل فى المدينة بعيدة تمام البعد عن نمط «السلطة الأبوية» هذا. إلا أن هذا النمط ميز علاقة أصحاب الأعمال المتوسطة والصغيرة بالعاملين لديهم بينما انخرط أعضاء الطبقة العليا المصرية من الصناعيين ورجال الأعمال فى نشاط واسع وأكثر حداثة. وربما فسر هذا أنهم كانوا أكثر استعداداً لقبول التشريعات العمالية ولعلاقة أكثر تنظيماً وأقل مباشرة بينهم وبين العاملين لديهم.

وفى مجال «التعريف الذاتى»، اعتبر الكثيرون من أعضاء الطبقة العليا أنفسهم «طبقة متوسطة»، على حد تعبير فرغلى باشا، أحد أقطاب تجارة القطن المصرية قبل ثورة ١٩٥٢. لم يكن الأمر مجرد تصور مغرق فى الذاتية، بل تصور ينطوى على قدر من الموضوعية. فقد احتلت هذه «الطبقة العليا» المحلية بالفعل مكانا وسطا فى منظومة السلطة والثروة فى مصر. فهى لم تكن تشعر - على الصعيد السياسى - بأن لها ما للملك والمحتل البريطانى من النفوذ فى إدارة الشئون السياسية للبلاد، أما على الصعيد الاقتصادى فقد ظلت غالبية النشاط الصناعى والتجارة الحديثة (الاستيراد والتصدير) فى أيد أجنبية، بما فى ذلك تجارة القطن المحصول الرئيسى لكبار ملاك الأراضى المصريين. وهكذا نظرت لنفسها عن حق بوصفها فى «موضع وسط» بين الأسرة المالكة والأجانب، من جهة، وبين

«الشعب» بطبقته المتوسطة وما دونها، من جهة أخرى.

وقد عانت الطبقة شعوراً عميقا بافتقاد الأمان (Insecurity)، ربما غذاه تفتت الملكية بفعل تقسيم الميراث وفق الشريعة الإسلامية، وسابق التجربة بمصادرة الحكام لأملاك المغضوب عليهم، وتكرار الأزمات التى هددت الطبقة مثل «أزمة البورصة» عام ١٩٠٧، «وأزمة الديون العقارية» التى بلغت ذروتها ما بين أعوام ١٩٢٩و ١٩٣٣، «وأزمة بنك مصر» عام ١٩٣٩، وأخيرا فقد فاقمت موجة الغضب الشعبى التى عبرت عنها الطبقة المتوسطة والعمال والفلاحون فى العقد السابق على قيام ثورة ٥٢ من هذا الشعور بانعدام الأمن والطمأنينة.

وقد عمد أعضاء الطبقة العليا فى مواجهة هذا الشعور إلى محاولة تدعيم وضعهم الطبقى من خلال آليات أربعة هى: أولاً: مؤسسة الأسرة والمصاهرة. وثانياً: دخول معترك السياسة لحماية وتحسين الوضع الطبقى. وثالثاً: إلحاق العناصر التى نجحت فى تكوين ثروة يعتد بها أو حققت نجاحاً مهنياً كبيراً بالطبقة. ورابعاً: العمل على موازنة تفتت الملكية بفعل الميراث عن طريق العمل على زيادة الملكية عن طريق شراء المزيد من الأراضى خلال حياة المالك.

لقد وعت الطبقة بكل تأكيد وجودها كطبقة تختلف عن الطبقات الأخرى فى المجتمع وذلك برغم كثرة الاحتكاكات الداخلية بين مختلف زوايا النظر الناجمة عن اختلاف درجات التغريب واختلاف الثقافة وعنصر القرب أو البعد عن حياة المدينة. وقد كان القاسم المشترك الأدنى بين أعضائها هو الثروة، فلم يكونوا ينظرون إلى أنفسهم كطبقة صلبة بقدر نظرتهم إلى أنفسهم كتجمع فضفاض للأسر المرموقة. كان مفهوم الأسرة عماداً مركزيا للهوية تم استخدامه على المستويين العام والخاص لتنظيم هيكل العلاقات الاجتماعية. وهكذا فقد تحدث أعضاء الطبقة فى خطابهم عن «الأسر الكريمة»(De bonne (famille وعن «العزبة» كأسرة واحدة وعن مصر باعتبارها الأسرة الأكبر.

وفى خضم ما سبق صيغت الديمقراطية على المقاس كى تستثنى غير المرغوب فيهم وتتسع لأبناء الطبقة . ويمكن القول بأن نظرة الطبقة العليا للسياسة كانت علي أنها مجال عمل يقتصر على الساسة. فقد كانت النظرة إلى كل من هم من غير الذكور البالغين من أعضاء الطبقة هى أنهم دخلاء متطفلون، اللهم إلا عندما تدعو الحاجة إلى توظيفهم سياسياً كما فعل حزب الوفد مع الطلبة والعمال وكما فعل حزب الأحرار الدستوريين مع الطلبة. والخلاصة هى أن الطبقة العليا أرادت ديمقراطية تحد من سلطات الملك، لا ديمقراطية تسمح للطبقات الأخرى بأن تشاركها حكم البلاد.

هكذا فإن تشكيل البرلمان المصرى بمجلسيه جاء وفقاً لدستور وإن لم يشر إلى لفظة «طبقة»، إلا أنه حدد صراحة الفئات التى يتشكل منها مجلس الشيوخ، كما حدد الفئات التى يتشكل منها مجلس النواب ولكن بأسلوب ضمنى بتحديد من يحق له الترشيح لانتخابات المجلس أصلاً. وقد استبعد العمال والفلاحون بذلك من عضوية أى من المجلسين واقتصر دورهم على الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات. وبمقتضى ذلك الوضع صار مفهوماً أن من يتم انتخابه متفوق على من انتخبوه وأن على الناخب لا أن يرشح نداً له بل من هو أعلى منه مركزاً أى أكثر منه ثروة وثقافة ومكانة اجتماعية.

ويتعلق وجه آخر من أوجه النظرة السياسية للطبقة بموقفها من «التغيير». كانت تدعو إلى «التغيير التدريجى» إذ توجّس غالبية أعضائها من أى تغيير ضخم وسريع فى آن واحد. كما ظهر هذا التوجّه فى تكرار مطالبة أعضائها فى البرلمان بضرورة «التريث» كلما كانت هناك مطالبة بتغيير يرونه سريعاً أو غير مطابق لمصالحهم.

ثم كانت هناك العلاقة بالغرب. إذ استفادت الطبقة فى نشأتها وتكوين ثروتها من دخول النظام الرأسمالى على النمط الغربى إلى مصر، ولكنها ثارت على وضعها الهامشى فى هذا النظام واستخدمت فى ذلك خطاباً وطنياً. وكانت الطبقة ترى فى الغرب نموذجاً للتطور والحداثة. وعلى الجملة، فإنها لم تر تناقضا بين بعض توجهاتها الثقافية الغربية وبين هويتها المصرية وإن اختلفت نظرة آخرين لها فى هذا الخصوص، كما أسهمت الثقافة الغربية لنسبة متنامية من أعضائها فى اتساع الهوة التى فصلت بين طبقات المجتمع المصرى. وإذا كان هناك من وجد أن الطبقة أبدت قدراً أكبر من التسامح والليبرالية فى إطار مقارن، فإنها كذلك كانت أكثر ازدواجية فى السلوك. وبتأثير تعدد ما تعلمه أعضاؤها من لغات، فقد كانوا أكثر استعداداً لأن يحملوا بين جوانحهم أفكاراً متناقضة ومشاعر متضاربة لتباين ما تحمله اللغات المختلفة التى تعلموها من ثقافة. ويمكن استخلاص أنهم فشلوا فى صهر تلك «المكونات الثقافية» المتنوعة فى سبيكة جديدة تعبر عن ثقافة خالصة لطبقة عليا مصرية. إذ كان ما توصلوا إليه فى الحقيقة هو موزاييك تجاورت فيه أجزاء ـ متناثرة أحياناً ـ مستمدة من أساليب حياة وثقافات مختلفة.

وقد كانوا من حيث الأفكار والتصورات الطبقية يعتقدون بمسئولية الصفات الشخصية عن المصير الطبقى (أى أن من لم يصعد طبقياً حرمه من ذلك نقص فى ملكاته وليس النظام الاجتماعى العام)، وهى فكرة نجد جذورها لدى أفلاطون. وهذه الفكرة لم تكن بدورها ببعيدة عن نوع من الداروينية الاجتماعية التى آمنت بأن البقاء للأصلح. وقد مكنهم ذلك من القول بوجود نظام قائم على التحيز للكفاءات (Meritocracy) يمنح فرصة الصعود الاجتماعى من خلال التعليم للعناصر المتفوقة من الطبقة المتوسطة. وقد اعتقد الكثيرون من عناصر الطبقة العليا بأهمية وضرورة وجود «الطبقة الوسطى» كطبقة عازلة. أما فرص صعود فقراء الريف والمدينة فلم تكن ذات بال. وانتشرت دعاوى ضرورة عدم التوسع فى التعليم بما يفوق حاجة السوق إلى العمالة المتعلمة، ووجد من عبر عن القناعة بأنه لا ينبغى أن يسمح لتعليم الفلاحين بعرقلة الإنتاج الزراعى أو المساس بالعلاقات الزراعية.

وهكذا فإن الصورة التى يسفر عنها النظر فى خطاب الطبقة وأسلوب حياتها يخالف «التصور المثالى» لكتابات ونقاشات كثيرة استهدفت رد اعتبار هذه الطبقة التى أسقطها «نظام يوليو»، وهى فى ذات الوقت لا تتفق والتقييم التبسيطى الذى يدينها بشكل مطلق والذى هيمن على الكتابات التاريخية باللغة العربية التى كتبت فى أعقاب ثورة يوليو.

---

(١) راجع:

Gabriel Baer, A History of Land Ownership in Modern Egypt, 1800-1950, (London: Oxford University Press, 1962).

الأعيـــــان والـــــذوات

في مطلع ١٩٤٦ نشر الدكتور أحمد نظمى عبد الحميد والدكتور راشد البراوى كتابًا بعنوان: «النظام الاشتراكى، عرض وتحليل ونقد»، تضمن فصلاً عنوانه: «النظرية المادية فى تفسير التاريخ ـ تحليل ثورة مصر سنة ١٩١٩» (الفصل الحادى عشر)، فكان أول تناول أكاديمى لتاريخ مصر الاجتماعى على أساس الصراع الطبقى، وهى إشارة جريئة حقًا بالنسبة للمناخ السياسى فى مصر آنذاك، وإن لم تكن معزولة عن التطورات التى حدثت فى مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وانفجار المظاهرات وتكوين اللجنة العليا للطلبة والعمال، وإثارة المشكلة الاجتماعية والتفاوت الطبقى.

ولم تشهد ساحة الفكر الاجتماعى بعد ذلك كتابات تتناول هذه الزاوية بدرجة أوسع لفهم تاريخ مصر الاجتماعى إلى أن قامت حكومة ثورة يوليو بتاميم قناة السويس ١٩٥٦، وعند ذاك بدأت المدرسة الماركسية فى مصر خارج الجامعة فى تناول تاريخ مصر من وجهة نظر الصراع الطبقى بين «الإقطاع» والرأسمالية والعمال والفلاحين. وكانت أول الأعمال الرائدة فى هذا الخصوص كتاب إبراهيم عامر «ثورة مصر القومية» الذى صدر فى ١٩٥٦، وكتابه الثانى «الأرض والفلاح، المسألة الزراعية فى مصر» الذى نشر فى ١٩٥٨، ثم كتاب شهدى عطية الشافعى «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٥٦» الذى نشر فى ١٩٥٧، وكذلك كتاب فوزى جرجس فى ١٩٥٨ «دراسات فى تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى».

ثم استقطبت هذه الكتابات كتابًا ودارسين آخرين أسهموا بدرجة أو بأخرى فى تجريب معالم الفكر الماركسى فى تناول تاريخ مصر الاجتماعى، وكان ذلك بفضل المناخ السياسى الذى صنعته ثورة يوليو ضد النظام القديم القائم على التحالف الطبقى بين رأس المال الزراعى والصناعى والتجارى ضد الفلاحين والعمال. وكان هذا التجريب أساس بعض الأطروحات الجامعية لدرجتى الماجستير والدكتوراه التى تناولت مختلف الشرائح الاجتماعية فى تاريخ مصر الحديث، بل لقد انسحبت المحاولات على فترات التاريخ المصرى كله منذ عصر الفراعنة.

غير أن دراسة تاريخ مصر الاجتماعى من وجهة نظر المادية التاريخية قابلته دراسات أخرى «مضادة» لا تعترف بالتصنيف الطبقى فى مصر، بل ترى أن مصر غير قابلة للتصنيف الاجتماعى أصلا (الكل فى واحد)، واعتمد أصحابها بدرجة كبيرة على ما أنتجه الفكر الرأسمالى فى الجامعات الأوروبية والأمريكية الذى يذهب إلى أن المجتمع لا ينقسم إلى طبقات اجتماعية Social Classes وإنما ينقسم إلى مجموعات اجتماعية Social groups، وأنه فى حالة وجود طبقة اجتماعية فليس شرطًا أن تتحدد بملكية وسائل الإنتاج كما تذهب الماركسية، وإنما تحددها علامات أخرى مثل أسلوب الحياة، ولغة التخاطب، والتنشئة المنزلية، ونوع التعليم ومدارسه.. إلخ.

وفى هذا الإطار تأتى محاولة ماجدة بركة فى تناول تاريخ مصر الاجتماعى وهى محاولة مفهومة سلفًا من العنوان الذى اختارته لدراستها وهو «الطبقة العليا»، وهو عنوان يبدو محايدًا حتى لا تتورط فى استخدام عناوين تكشف التزام الكاتب من نوع «كبار الملاك» أو «الرأسمالية» أو «البورجوازية».

ومن باب تبرير المصطلح الذى اختارته عنوانًا قالت: إن الكتابات قبل ثورة يوليو لم تكن تعنى بالطبقة الاجتماعية ومن ذلك كتابات شفيق غربال، ومحمد صبرى السوربونى، وعبد الرحمن الرافعى. ومن الواضح أنها لم تعثر على كتاب أحمد نظمى

The Egyptian Upper Class Between Revolutions 1919-1952

(الطبقة العليا المصرية بين ثورتى ١٩١٩ ـ ١٩٥٢)

Magda Baraka

Ithaca Press, 1998, 328pp.



أحمد عبود باشا يتذوق قصب السكر فى مزارعه بمدينة قنا ومساحتها خمسة آلاف فدان.

محاولة لرد الاعتبار!

عاصم الدسوقى

والبراوى الصادر فى ١٩٤٦ كما سبقت الإشارة. وأما الكتابات بعد الثورة، فقد خضعت ـ كما تقول ـ للتأثير السياسى ومن ذلك كتابات محمد أنيس (جامعة القاهرة) وأحمد عبد الرحيم مصطفى (جامعة عين شمس) وتلاميذهما، وهى كتابات فى رأيها تتجه إلى إدانة طبقة الملاك واتهامهم بالإقطاع والاستغلال. وتذهب إلى أنه من الأفضل تناول الطبقة العليا ثقافيًا من حيث البحث عن الكيفية التى عاشت بها، وكيف صنعت التحولات الكبرى، وكيف استقبلت التقلبات الاقتصادية والسياسية وفهمتها وقاومتها أو تكيفت معها. وهى فى هذا المنحنى متأثرة بمفاهيم جوديث توكر فى مقالتها «ما التاريخ الاجتماعى» والبرت حورانى فى كتابه «كيف نكتب تاريخ الشرق الأوسط».

ورغم اعترافها بأن العامل الاقتصادى يلعب دورًا كبيرًا فى خلق الطبقة ومن ثم جاء استعراضها للأوضاع الاقتصادية فى مصر عند مطلع القرن العشرين التى أفرزت هذه الطبقة، إلا أنها ترفض التطبيق الماركسى بشكل آلى لتحديد الطبقة العليا فى مصر كما فعل كل من سمير أمين ومحمود حسين وماريوس ديب. كما أبدت عدم ميلها إلى استخدام مصطلح البورجوازية أيضًا لأسباب تتعلق بالنشأة التاريخية لهذا المصطلح فى التاريخ الأوروبى معتمدة فى ذلك على كتابات طلال أسد (١٩٨٧)، وزيتلين (١٩٨٧). ووالرشتين (١٩٨٨) التى تقول فى مجملها بخطأ البحث عن البورجوازية فى مصر فى القرن العشرين قياسًا على إنجلترا فى القرن التاسع عشر. ولأن البورجوازية تعنى شريحة وسطى بين نبلاء الأرض والفلاحين والحرفيين فى أوروبا. وفى هذا الخصوص تنبغى الإشارة إلى أنها لم تلتفت إلى اجتهادات لمؤلفين مصريين سبقوا أولئك الأوروبيين بسنوات فيما ذهبوا إليه، ومنهم كاتب هذه السطور فى كتابه «نحو فهم تاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى (١٩٨١) الذى اعتمدت عليه كثيرًا فى بعض التفاصيل، وكتابه «البحث فى التاريخ ـ قضايا المنهج والإشكالات» (١٩٨٦)، ومن قبل كتابه «كبار ملاك الأراضى الزراعية فى مصر (١٩٧٦).

وعلى هذا الأساس تفضل المؤلفة استخدام مصطلحى «الأعيان والذوات» للتعبير عن الطبقة العليا، وهما مصطلحان كانا مستخدمين فى الثقافة الاجتماعية فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولو أن «الأعيان» فى دراستها لا يدخلون جميعًا تحت مظلة الطبقة العليا ويقتصر المصطلح على كبارهم فقط.

وكبار الأعيان عندها هم «نبلاء الريف من المصريين الذين استفادوا من سياسات محمد على باشا فى تخصيص أراضى، والمشايخ هم أصل صفوة رجال الأعمال وأصحاب المهن الحرة فيما بعد. وأما «الذوات» فهم ذوو الأصول التركية ـ الشركسية أصحاب الأبعاديات والوسايا حاملو لقب الباشوية والبكوية من لدن السلطان العثمانى حتى خضعت مصر للحماية البريطانية (نوفمبر ١٩١٤)، ثم من الملك بعد عام ١٩٢٢ مع بعض الاختلافات فى أساس المنح، فحتى عام ١٩٤٢ كان الملك يمنح هذه الألقاب لرجال الجيش والإدارة والأعيان حسب ما يقدمه كل واحد من خدمات للدولة أو للبلد. وكان يشترط للباشوية دخلاً سنويًا لا يقل عن ١٨٠٠ جنيه، وللبكوية من الدرجة الأولى ١٢٠٠ جنيه، و٨٠٠ جنيه للدرجة الثانية. ولكن بعد عام ١٩٤٢ تم التوسع فى الألقاب لأسباب أخرى غير التى قررت من أجلها سلفًا إذ كانت الباشوية تمنح مقابل ٢٠ ألف جنيه إلى ٣٠ ألفًا والبكوية تمنح مقابل خمسة آلاف



سيد بدراوى عاشور باشا
ابن بدراوى باشا الكبير
من أهم رموز طبقة
كبار ملاك الأراضى
فى مصر.

إلى عشرة آلاف جنيه تقدم بصفة «تبرع»، وهو وجه آخر للرشوة لم تشأ المؤلفة أن تقوله حرصًا منها على أحاسيس الطبقة.

أما ما يفرق الذوات من الأعيان في رأيها، فهو أن الذوات من أصول عرقية وافدة تولت الوظائف القيادية في الحكم، وأثرت ثراء كبيرًا، وأقامت في المدن. وعندما توقف إمدادهم بدماء جديدة من تركيا منذ أواخر القرن التاسع عشر تناقص وجودهم في الإدارة، فبدأ الأعيان وأبناؤهم في الحلول محلهم. وعندما أقبل الأعيان على شراء أراضي الدولة منذ مطلع القرن العشرين والزواج من بنات الذوات ظهرت صفوة جديدة مصرية ـ تركية.

وفي تحديدها للطبقة العليا في مصر بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠ ترفض المعيار الاقتصادي الواسع الانتشار بين الدارسين، وتاخذ بمعيار يجمع بين الاقتصاد والاعتبارات الثقافية الاجتماعية وتصفه بانه الصحيح والضروري للتحديد. ووفقًا لهذا المعيار تكون عوامل التحديد هي: الثروة (ليس شرطًا ملكية وسائل الإنتاج!..) والمولد، والقرابة، والتنشئة المنزلية، والتعليم، والسلوك. وبناء على هذا التداخل فإن الطبقة العليا في مصر بين ثورتين تتمثل في كل من: ملاك الأراضي الزراعية أكثر من ٥٠٠ فدان، وكبار أصحاب المهن الحرة، وكبار رجال الإدارة، والشريحة العليا من المستثمرين في الصناعة والتجارة وقطاع المقاولات.

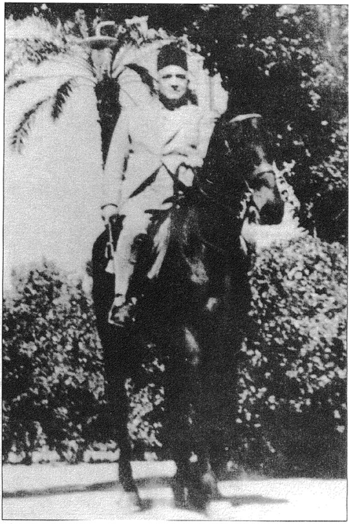
وتخلص من كل هذه الإشكالات إلى القول بان استخدام مصطلح «الطبقة العليا» والحال كذلك يصبح مناسبًا ولائقًا نظرًا لعدم كفاية مصطلح «أرستقراطية» و«بورجوازية»، ولأن مصطلح «أعيان وذوات» اصطلاح جزئي. ووفقًا للمصطلح الذي اعتمدته ذكرت أن عائلات الطبقة العليا في مصر بلغت ٢٥ ألف عائلة عشية ثورة ١٩١٩ زادت إلى ٤٣ ألف عائلة عشية ثورة ١٩٥٢ بزيادة قدرها ٧٢٪ وبنسبة ٥٦٪ من إجمالي العائلات المصرية في الحضر والريف.

وعلى هذا بدأت ماجدة بركة في تعقب أوجه تمايز الطبقة العليا ثقافيًا واجتماعيًا من حيث أماكن الإقامة والسكن، وأماكن التسوق وشراء الحاجيات، وأماكن تمضية وقت الفراغ، وأماكن التعلم. وفي الجملة كانت هذه الطبقة تعيش حياة مختلفة عن غيرها، فقد تركت الأحياء القديمة إلى الضواحي الجديدة التي نشأت بصفة خاصة بين عامي ١٨٩٥ ـ ١٩٠٧ واقيمت مبانيها على الطراز الأوروبي (الإيطالي بصفة خاصة)، فضلاً عن دور السينما والمقاهي الفاخرة، وصالات الموسيقى والبارات، وبقيت الحارة رمزًا لكل ما هو بلدي الطابع. وتقضي هذه الطبقة وقت فراغها في لونا بارك بمصر الجديدة التي أسسها مقاول إنجليزي عام ١٩١١ على نمط Earls Court Park في لندن تاركة روض الفرج لأولاد البلد وملاهي عماد الدين للطبقة الوسطى. وتعيش حياة أفرنجية a la Franka في الملبس والمأكل ابتداء من الجبن الرومي وانتهاء بتربية القطط الرومي. وقد قدمت المؤلفة في ذلك إحصاءات معتبرة من حيث عدد المحلات والفيلات والقصور (١٩٣٧ ـ ١٩٤٧) لتأكيد العلاقة داخل التطور الجديد.

أما التعليم فرغم أنه كان عاملاً أساسيًا في خلق طبقة وسطى جديدة في مصر منذ سياسات محمد علي ودوره في الحراك الاجتماعي باعترافها، إلا أنها ترى أن التعليم عكس بشكل أكثر التمايز الطبقي، وأوجد التوترات الاجتماعية. وفي هذا تذكرني بموقف كبار ملاك الأراضي الزراعية في الثلاثينيات ضد زيادة ميزانية التعليم الإلزامي حتى لا ينسى أولاد الفلاحين طبيعتهم الخشنة.

وطبقًا لهذه الدراسة فإن شخصية الطبقة العليا في مصر خلال هذه الفترة تتحدد بالأندية التي يختلف إليها أفرادها مثل نادي محمد علي ونادي السيارات التي بلغت ٢٦ ناديًا بين عامي ١٩٣٧ ـ ١٩٤٧،

أحمد عبود باشا على حصانه في عزبته



من الشمال أحمد ماهر باشا، أحمد عبود باشا وفؤاد أباظة باشا في نزهة بعزبة عبود باشا ١٩٤٧



صورة خاصة لصور مجلة الاثنين، تاجر القطن الشهير أحمد فرغلي باشا يهدي ابنته باكينام ساعة يد ثمينة يونيه ١٩٥٢.. شهر واحد قبل قيام الثورة



والاستمتاع بأجازة نهاية الأسبوع شأن الغرب الأوروبى ومتابعة سباق الخيل فى الجزيرة ومصر الجديدة، ومشاهدة السينما فى دور معينة موزعة على أيام الأسبوع: رويال (الاثنين) ومترو (الثلاثاء) وتريموف (الأربعاء) وديانا (الخميس) والكورسال (الجمعة)، وحضور حفلات الشاى الراقصة فى بعض الفنادق (سميراميس وميناهاوس)، وقضاء الصيف على شواطئ الإسكندرية ورأس البر وبدرجة أقل فى بلطيم وبورسعيد.

وما يميز هذه الطبقة أيضًا ثقافيًا واجتماعيًا أوجه الصرف والإنفاق على طراز المبانى والملابس والمجوهرات ووسائل الرفاهية وأدوات الزينة. وفى ذلك تذكر المؤلفة أنه تم استيراد عطور من فرنسا (بارفان) بمبلغ ١٠٥٩٦٨ جنيهًا مصريًا، فى عام ١٩٢٢ بلغت ١١٧٠٠٠ فى عام ١٩٢٤. وفى عام ١٩٢٥ تم استيراد ٣٢٣٢ بيانو من ألمانيا لزوم بنات العائلات، وكذا شراء أنواع السيارات التى يعلن عنها فى صحافة هذه الفترة كما لاحظت المؤلفة «للنبلاء فقط». وكذلك قيام محلات الملابس الجاهزة فى مصر مثل شيكوريل وشملا باستيراد أفخر الثياب من بيوت الأزياء فى باريس.

ومن مميزات الطبقة اجتماعيًا كما تقول المؤلفة أنها أحاطت نفسها بسياج طبقى يمنع تسرب الأدنى منها إليها من خلال الزواج والمصاهرة. والزواج عند هذه الطبقة هو اختيار عائلة. وفى هذا الخصوص فإن بنات العائلات يتم إعدادهن ليكن سيدات صالون ومجتمع، ويتطلب هذا تعلم أكثر من لغة وإتقان الإتيكيت عن طريق الأم أو المربية الأجنبية، وتعلم التريكو والرسم والبيانو. ولا تكون الواحدة منهن بحاجة إلى تعلم اللغة العربية لأن المحيط الذى سوف تخرج إليه لا يتكلمها.

ورغم أن وعى الفرد بطبقته أحد الأبعاد المهمة فى بلورة شخصية الطبقة اجتماعيًا لتأثيره فى حركة الطبقة نحو مصالحها، إلا أن المؤلفة رأت فى التأكيد على الوعى مسألة غير موضوعية، وتتبعها تفسيرات ذاتية لدور الطبقة وعلاقاتها، فضلاً عن صعوبة التعرف على هذا الوعى إن لم يكن مستحيلاً. وفى هذا تقول: إن البحث عن الوعى من خلال الخطاب السياسى للطبقة وصناعة القرار أمرصعب بشكل عام، ولكنه ممكن من خلال الأحاديث الخاصة التى كانت تدور همسًا فى الصالونات الخاصة وفى البيوت والأندية ولكنها لم تسجل.

وقد حاولت المؤلفة أن تتغلب على هذه الصعوبة باللجوء إلى المقالات المعاصرة التى كتبها أبناء هذه الطبقة فى حينه حول مسائل معينة، أو من خلال أحاديث صحافية أجريت معهم، وكذلك من خلال المذكرات السياسية التى تركوها. وقد اتبعت فى ذلك منهج جاريث ستيدمان جونز فى بحث «لغة الطبقة: دراسات فى تاريخ طبقة العمال الإنجليز ١٨٣٢ - ١٩٨٢». وفى رأيها أن البحث عن الوعى من خلال مفردات اللغة المستخدمة من شأنه تجنيب التعامل مع الطبقة العليا فى مصر من وجهة نظر المفاهيم الاجتماعية التى رفضتها من البداية.

ومن باب نفى الوعى الطبقى عن أفراد الطبقة العليا وتصويرها إياهم بأنهم فلاحون مصريون، امتزجت دماء بعضهم بدماء تركية - شركسية. تنتقل المؤلفة إلى الخطاب السياسى لقيادات هذه الطبقة فى البرلمان لتنتهى إلى القول بأن البرلمان لم يكن يوجد فيه أحد من طبقة العمال والفلاحين أو من يمثلهم، وبالتالى فإن خطاب هذه الطبقة موجه إلى ذاتهم. وتؤكد أن الدفاع عن مصالحهم لم يشغل جانبًا من المناقشات فى البرلمان خلال العشرينيات بسبب ازدهار كبار الملاك الذين لم يكن أمامهم ما يشكون منه فضلاً عن ضغط المسألة السياسية الخاصة بالعلاقات مع بريطانيا!!. وفى الثلاثينيات لم يكن رأس المال الصناعى والتجارى بحاجة إلى اتخاذ موقف دفاعى حيث تم تعديل التعريفة الجمركية لصالح الإنتاج المحلى!!. وفى الأربعينيات لم يكن غير حكومات الوفد تناصر مطالب العمال وخاصة فى الوزارة الأخيرة (١٩٥٠ - ١٩٥٢) من خلال أصوات الطليعة الوفدية.

وعلى هذا المنوال تنفى المؤلفة ببساطة شديدة ومتناهية وقوف الطبقة العليا موقف الدفاع عن مصالحها فى البرلمان. والحال كذلك تصبح حركات العمال والفلاحين من أجل العدل الاجتماعى التى قامت فى الثلاثينيات والأربعينيات من قبيل وسوسة الشياطين!

بهذا المدخل الثقافى الاجتماعى لفهم الطبقة العليا فى مصر، وبعيدًا عن زاوية الوعى الطبقى، تعتقد ماجدة بركة أنها تأتى بمفهوم جديد واف لتناول تاريخ الطبقة الاجتماعية فى مصر لا يستند إلى التحليل المادى للتاريخ، ولا يقوم على استعارة مصطلحات تطور المجتمع الأوروبى من حيث الأرستقراطية والإقطاع والبورجوازية. غير أنها لا ترى فى الطبقة العليا فى مصر إلا جماعة من الناس من أصول معينة يشتركون فى نوع واحد من الحياة الاجتماعية بما تشمله من مأكل وملبس ومشرب، وتمضية أوقات الفراغ فى أماكن معينة وفرتها لهم ثروة مالية تكفى تلبية هذه الاحتياجات. وغفلت أوتغافلت عن أن الذى حدد هذا المستوى الاجتماعى المعين من الحياة هو المال الذى يأتى من امتلاك وسيلة من وسائل إنتاج الثروة سواء كانت أرضًا زراعية أو شركة صناعية أو تجارية.

وتعترف فى النهاية أن الصورة التى تقدمها عن هذه الطبقة صورة مثالية كما تصورها بعض الكتابات المعاصرة حاليًا فى محاولة لإعادة الاعتبار لها، وتؤكد أن التحليل الذى اتبعته لا بد أن يزيل التقويم الفج لدور هذه الطبقة كما يظهر فى الكتابات «العربية» التى نشرت بعد ثورة ١٩٥٢. ثم تنهى كتابها بالقول إن هذا العمل ليس مدحًا فى الطبقة العليا فى مصر وليس قدحًا فيها، ولكنه محاولة لبناء وجهة نظر «متوازنة» فى تقويم دورها وإسهامها السياسى والاجتماعى والثقافى فى تاريخ مصر الحديث. وهذا فى تقديرى انطباع ذاتى تريد أن تقنع به القارئ سلفًا وتصادر على حريته فى الاستنتاج.

ثم إنها تقع فى تناقض دون أن تدرى بقولها إن الشيء الواضح فى كل هذا أن إسهام هذه الطبقة فى الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين كان له مغزاه، على حين أن موقفها من الديمقراطية والإصلاح الاجتماعى كان قاصرًا، ولو أنها ربطت بين النشاط الاقتصادى «الإيجابى» لهذه الطبقة وموقفها السلبى من الديمقراطية والإصلاح الاجتماعى لاكتشفت وعى هذه الطبقة بمصالحها الذى لم تؤمن به واجتهدت لإخفائه فى دراستها.

ورغم أنها أدانت الاعتماد على الأحاديث الشفهية من خلال المقابلات الحية نظرًا لضعف ذاكرة المتحدث وللموقف الدفاعى والتبريرى الذى يأخذه، إلا أنها اعتمدت على هذه الأحاديث الشفهية بشكل واضح عند تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية لهذه الطبقة ولم تداخلها ذرة شك فى تلك الأحاديث المتعالية.

وأخيرًا.. إذا كانت المؤلفة قد انتقدت الكتابات التى تناولت تاريخ مصر الاجتماعى تحت تأثير المناخ السياسى الذى صنعته ثورة ١٩٥٢، مما ينفى عنها الموضوعية التى تنشدها، فهل لنا أن نقول أنها أيضًا وقعت تحت تأثير مناخ سياسى آخر يسعى إلى إعادة الاعتبار لهذه الطبقة بطريقة أو بأخرى، ذلك أنه عندما بدأت دراستها فى اكسفورد - كما تقول - سقط حائط برلين وتفكك المعسكر الشيوعى، وتم التبشير بنهاية التاريخ وانتصار الليبرالية، وبالتالى وجب إعادة النظر فى هذا «الزمن الجميل» الذى ظلمته أقلام غير منصفة فكان ما كتبته!!.

صورة الفلاح كما رآه رسامو الكاريكاتير قبل ثورة ١٩٥٢ (كاريكاتير للفنان عبدالسميع ١٩٥١)



رمال اليمن المتحركة!

معارك بناء الدولة الحديثة في اليمن

حسن أبو طالب

بعيدا عن الجدل حول القبيلة ومدى صلتها بالدولة اليمنية، فهي الحقيقة الكبرى، وهي كتلة الجماهير وفي غياب الصناعة والزراعة الحديثة هي في الحقيقة الشعب والبروليتاريا

على وقع أزمات وقضايا عدة، تقود إحداها إلى الأخرى، يتنفس اليمنيون حياتهم ليلا ونهارا. فمن سعي الحكومة إلى تعديل الدستور، واللهاث وراء معلومة هنا أو بيان هناك لكشف أسرار لغز تفجير المدمرة الأمريكية «يو اس كول» في ميناء عدن، وما تلاها من سُحب غيّمت قليلا على العلاقات الأمريكية اليمنية، ونفي قاطع لوجود فلول من الإرهابيين العرب أو بقايا خلايا نشطة من زمن الأفغان العرب واليمنيين أيضا، عاش اليمن أياما عصيبة مثيرة. وبالتوازي جاءت دعوة عابرة إلى الحرب؛ حرب ضد إسرائيل لنصرة الفلسطينيين في انتفاضاتهم، ثم تحولت لاحقا إلى دعوة للجهاد بكل أشكاله لتحرير القدس.

ومن قبل وفي مسلسل لم يقل إثارة عن أفلام الرعب الأمريكية كانت قضية المواطن السوداني الجنسية والغامض الأصل، والمعروف بسفاح مشرحة كلية الطب في جامعة صنعاء، وما تلاها من حيث الزمن من تهديد بحل الحزب الاشتراكي بعد أن نجح في العبور بمؤتمره العام الرابع مطلع سبتمبر الماضي بسلام إلى بر الانعقاد، وأعاد تشكيل مكتبه السياسي ومستوياته القيادية المختلفة في سيناريو ديمقراطي حزبي داخلي لم يعرفه الحزب نفسه من قبل، ولا أية أحزاب يمنية أو عربية أخرى. وبين كل هذه القضايا الكبرى ثارت قضية رواية «صنعاء مدينة مفتوحة»، والتي قيل فيها ما قيل في رواية الروائي السوري حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» في بر مصر، ثم كان الحكم القضائي بالبراءة لمن نشروا أو بالأحرى أعادوا نشر الرواية.

ولا تستقيم إثارة اليمن ومُشوقاتها إلا بعد المرور على حوادث خطف السائحين الأجانب، وتفجيرات لأنبوب النفط اليمني، قيل أن وراءها مخربين ومعادين للوحدة، وثبت أن بعضها على الأقل تم بواسطة قبائل يمنية تعيش في الداخل ولا علاقة لها بقوى في الخارج، ويمر الأنبوب النفطي في مناطق نفوذ لها، وكان غرضها الحصول على «إتاوة» دائمة من شركة النفط الأمريكية أو الفرنسية حسب الحالة، وتوظيف لعدد من أبنائها في مصافي الشركة وآبارها. ووصل الأمر إلى قمته مع خطف بعض مهندسين لإحدى الشركات النفطية لغرض الابتزاز نفسه، وهو ما حمل رئيسها إلى التهديد بوقف كل العمليات ما لم يتم وقف تلك الاعتداءات، وتوفير حماية مناسبة للعاملين بالشركة ومنشآتها. وبعدها جاء الحزم الشديد من أجهزة الدولة المختلفة.

تسوية الحدود وتوقعاتها:

لكن الأبرز على الأقل في حدود الشهور القليلة الماضية ما تم في سياق العلاقات اليمنية السعودية، ففي ١٢ يونية الماضي وبعد ستة وستين عاما من العلاقات الصاعدة حينا والهابطة أحيانا أخرى تم توقيع معاهدة شاملة للحدود تنص على ترسيم كافة نطاقات الحدود بين البلدين الجبلية والصحراوية والبحرية، بطول يصل إلى ١٨٥٠ كم مترا، وتبدأ شرقا من نقطة الحدود الثلاثية المشتركة مع عمان والمعروفة بنقطة ١٩,٥٢ وحتى رصيف البحر (رأس المعوج شامي) لمنفذ رديف المطل على البحر الأحمر وامتداده في البحر نفسه غربا ثم إلى الجنوب الغربي.

وانتهى بذلك الجدل الذي استمر طويلا حول مدى إلزامية معاهدة الطائف للعام ١٩٣٤، والتي تحدد خطا في منطقة جبلية يصل طوله إلى ٢٩٤ كم من إجمالي ٥٤٠ كم تفصل بين الجزء الشمالي من اليمن والسعودية، وتقر بتنازلات المملكة اليمنية المتوكلية عن أي ادعاءات بالسيادة أو بالوحدة على مناطق الأدارسة في عسير ونجران حسب نتائج حرب ١٩٣٢، وتفرض - أي معاهدة ١٩٣٤ - عدم السماح باستعمال أي طرف لبلاده كقاعدة ومركز للاعتداء على الطرف الآخر، وعدم القيام بأي نشاط دعائي ضد الطرف المقابل، وأخيرا التمسك بمبدأ التوفيق قبل اللجوء للتحكيم حسب ما هو منصوص عليه في معاهدة الطائف.

أما بشأن الحدود نفسها فقد اتفق حسب المعاهدة الأخيرة على تشكيل عدة لجان؛ عليا وسياسية وفنية وعسكرية لتحديدها بريا وبحريا فيما هو غير منصوص عليه في معاهدة الطائف، ولمنع أي استحداثات عسكرية في مناطق الحدود المشتركة، إضافة إلى لجنة وزارية مشتركة لتطوير العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية.

وما أن وقعت المعاهدة، وإذا بثورة توقعات كبرى تفرض نفسها. وجاءت من الجانب اليمني حيث تمنى كثيرون أن تفتح المعاهدة أبواب الرزق مرة أخرى أمام العمالة اليمنية في ربوع السعودية، كما كان الحال قبل حرب الخليج الثانية التي أغلقت هذه الأبواب أيما إغلاق. وذلك رغم أن المعاهدة لم تتضمن أي شيء محدد حول مسألة العمالة اليمنية. ولكنها التوقعات والآمال.

كما أن المعاهدة لم تتضمن أي شيء بشأن مجالات للتعاون والاستثمارات السعودية داخل الأراضي اليمنية، بيد أن الاعتقاد السائد بين اليمنيين أن ثمة تفاهما ضمنيا اتفق عليه بين القيادتين السياسيتين اليمنية والسعودية، وبمقتضاه تنصح الرياض الشركات السعودية بالاستثمار في اليمن، وفي المقابل تقدم صنعاء التسهيلات والضمانات المناسبة. وعلى أية حال هو تفاهم وليس اتفاقا مكتوبا. ومع ذلك قال مسئولون يمنيون كبار - ربما من باب التمني ومسايرة الرأي العام اليمني - أن المعاهدة تفتح مجالا لعلاقة شراكة دائمة ومستقرة وواسعة الآفاق، أكثر من كونها علاقة جيرة تنزلق أحيانا إلى احتكاكات عابرة، أو ترتفع أخرى إلى تعاون قوي.

هذه الآمال اليمنية العريضة المشروعة على كل حال، تعكس تطلعا مشتركا نحو المستقبل وتجاوزا عمليا لمرحلة حرب الخليج الثانية ونتائجها، كما تعبر عن جديد السياسة السعودية في موضوع الحدود مع الجيران حيث العمل على إغلاق هذه الملفات نهائيا - كما حدث أيضا مع الكويت بشأن الجرف القاري بعد عشرة أيام من التوصل إلى المعاهدة مع اليمن - عبر الحلول الودية والتنازلات المتبادلة، كجزء من مسعى شامل يؤدي إلى التركيز على الداخل ومواجهة التحديات المتولدة عن التغيرات العالمية، وإغلاق النوافذ المحتمل أن يتولد عنها التورط في نزاع عسكري من قبيل النزاع الكويتي العراقي، ومحاصرة الشكوك الموجودة لدى البعض والناتجة عن كون المملكة الدولة الأكبر في إقليم الجزيرة العربية والخليج. وبذلك تكتمل حلقات الحدود السعودية مع كل جيرانها، وتهدأ هواجس الجيران.

والثابت أن المعاهدة حسب قول الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي تفتح الباب أمام منافع أمنية متعددة للبلدين، تشمل التنسيق وتبادل

هذه الآمال اليمنية العريضة المشروعة على كل حال، تعكس تطلعا مشتركا نحو المستقبل وتجاوزا عمليا لمرحلة حرب الخليج الثانية ونتائجها، كما تعبر عن جديد السياسة السعودية في موضوع الحدود مع الجيران حيث العمل على إغلاق هذه الملفات نهائيا. كما حدث أيضا مع الكويت بشأن الجرف القاري بعد عشرة أيام من التوصل إلى المعاهدة مع اليمن. عبر الحلول الودية والتنازلات المتبادلة

خمسون عامًا في الرمال المتحركة.. قصتي مع بناء الدولة الحديثة في اليمن

محسن العيني

القاهرة: دار الشروق، بيروت: دار النهار (طبعة مشتركة) ٢٠٠٠، ٣٥٦ صفحة



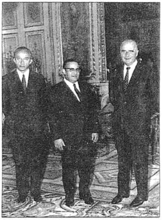
العيني مع الملك فهد بن عبدالعزيز والرئيس الأمريكي جورج بوش والأمير بندر بن سلطان



مع الرئيس أنور السادات



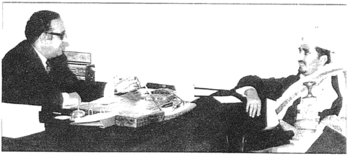
مع الزعيم عبدالكريم قاسم



مع الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو



مع أنديرا غاندي



مع الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر



مع الرئيس أحمد بن بلا



مع الدكتور عزيز صدقي

المعلومات الأمنية وحفظ حدود البلدين من المتسللين ومنع جرائم التهريب. وهو الأمر الذى أثار المخاوف لدى بعض العناصر الجنوبية المعارضة التى تعيش فى السعودية منذ حرب صيف ١٩٩٤.

الثابت أيضا أن المعاهدة لم تتطرق بشكل مباشر إلى الأمور التنموية على جانبى الحدود واستغلال الموارد الطبيعية الموجودة فى المناطق الجبلية والساحلية والبحرية، وما يتعلق بها من مسائل تخص التنمية السياحية والحفاظ على البيئة. ومن المفارقات القدرية، إنه لم تمض سوى بضعة أسابيع على توقيع المعاهدة وانزواء الهواجس المتبادلة وإذا بحمى الوادى المتصدع، وهو مرض خطير ينتشر بسرعة فى الأماكن غير المعتنى بها، وتنتج عنه وفيات سريعة، وإذا به يفرض نفسه على مناطق يمنية وسعودية على جانبى الحدود المشتركة ويصيب عددا من أهل البلدين، ولم يكن هناك مفر من التنسيق الثنائى لمحاصرة المرض ومعالجة المصابين. وكان لافتا للنظر أن تطلب اليمن من السلطات السعودية أن تقوم طائراتها برش المناطق اليمنية الحدودية كما تفعل فى المناطق السعودية نفسها. إنها الأقدار على أى حال.

القات .. بداية مواجهة

لقد أغلقت المعاهدة أبوابا، فى حين بقيت الأبواب الأخرى على حالها، الأولى أبواب لها علاقة بالخارج، والثانية لها علاقة بالداخل اليمنى الذى يتميز بها عن غيرها من الدول والمجتمعات. ولعل أكثر ما يميز اليمن تلك العادة الاجتماعية المعروفة بجلسات القات التى تستهلك أكثر من ثلث دخل الإنسان اليمنى، وما بين سبع إلى عشر ساعات يوميا من عمره، رجلا كان أو امرأة، مسئولا كبيرا أو مواطنا عاديا، مثقفا كبيرا أو إنسانا جهولا.

إنها - أى جلسات القات - لقادرة دون منازع على إفساد وتعطيل كل الأمنيات الطيبة والمقولات الكبرى، جنبا إلى جنب إفساد الاقتصاد وتهميش الزراعة من بن وفواكه التى اشتهرت بها بلاد اليمن عبر قرون، فضلا عن تغييب العقل الفردى والجمعى معا لساعات طويلة.

ففى تلك الجلسات يلوك اليمنيون حاضرهم كما يلوكون الأوراق الخضراء الندية ومعها رشفات من المياه العادية أو الغازية، ويدخنون معها أنواعا من الدخان والنارجيلة التى تنفث فى المكان دخانا أزرق يهيم فى المكان المغلق، يثير الأخيلة والأدمغة ويدغدغ الأعصاب. ويلوكون معها الأحاديث والذكريات، يلعنون فيها واقعهم ويرمونه بكل كلمات الغضب والعنف وعدم الرضاء. وتحت سحب الدخان الزرق ولحظات الوعى الأولى، فلا بأس من تبادل المنافع بين الزائرين، أو إنهاء مهمة لا يسعف الزمن أى امرئ يمنى أو غير يمنى أن ينهيها فى مصلحة حكومية، أو حتى مؤسسة تشريعية أو كيان حزبى. ولا تعز على الحاضرين تبادل الآراء الكبرى فى الخروج باليمن من نفقها الكبير، ولعن العولمة ومواجهة الأعداء فى فلسطين، أو تأسيس حزب سياسى جديد، أو إنشاء منظمة شعبية تطوعية تحمى الديمقراطية الوليدة فى اليمن، أو صياغة بيان قوى للاحتجاج على ارتفاع أسعار سلعة ضرورية، أو المطالبة بتوسيع هامش الحرية فى البلاد، أو الاتفاق على تنظيم مظاهرة شعبية، أو مؤتمر جماهيرى حاشد، أو مراجعة اتفاق دولى أو معاهدة حدودية.

ولا بأس أيضا فى جلسات القات ذاتها أن يجتمع الأساتذة مع بعض طلابهم لتبادل آراء علمية فى الطب والسياسة والتجارة والاقتصاد والهندسة أيضا. أما فى الأدب فالكل يجود بما لديه من شعر أو نثر وقصة صغيرة. وفى نادر الجلسات يشارك أحد السفراء الأجانب الذين يجيدون العربية ويتبادل مع الحاضرين همومهم والرأى حول علاقة بلده باليمن ومستقبلها.

وتمر الساعات سريعة فى أولها وبطيئة فى آخرها. وبعدها يشعر الجميع بالراحة مما قيل. فقد أنجز الجميع كل الذى أمامهم من أوراق خضراء، وأفكار كبرى وانتقادات ومبادرات. ولم يبق إلا النوم لإراحة الجسد والعقل، وللاستعداد ليوم جديد. تكرر فيه نفس الدورة العبثية.

نمط حياة كفيل بأن يُهلك الموارد، ويضيع الطاقات، وينتج الشائعات، ويبقى الوضع على ما هو عليه لسنوات وسنوات. فلا حركة إلى الأمام رغم الشكوى المستمرة المتكررة، ولا تخلص من عادة اجتماعية مدمرة بكل معنى الكلمة.

والحق يقال أن الحكومة اليمنية سعت فى مراحل مختلفة لمعالجة سطوة القات على الحياة الاجتماعية والاقتصادية. لكن سطوة العادة وقيمتها الاقتصادية الكبرى لقبائل نافذة وشيوخ أقوياء ذوى سطوة، وقفت حائلا دون أى إنجاز ملموس. ومنذ نهاية عام ١٩٩٧ بدأت منظمات شعبية وجهات حكومية فى الترويج للمخاطر الصحية لهذه العادة، وتدعو الناس إلى تغيير سلوكها. وفى الخلفية قرارات حكومية بمنع الموظفين ورجال الشرطة والجيش من مضغه فى الأوقات الرسمية أو نوبات أداء الواجب.

وهى صورة قريبة من القرارات التى كانت قد اتخذت قبل ٢٧ عاما، أى عام ١٩٧٠ فى ظل إحدى حكومات العينى، وشملت منع موظفى الدولة ورجال القوات المسلحة من تعاطى القات، ومنع زراعته فى أراضى الوقف والأملاك العامة للدولة، ومنع تقديم أى مساعدات إلى المناطق التى تواصل زراعة القات، والقيام بحملة إعلامية تحض المواطنين على الامتناع عن تعاطيه. وذلك فى محاولة من الحكومة آنذاك لوقف تلك العادة الاجتماعية المكلفة اقتصاديا وتنمويا.

وصحيح القول أن ثمة اقتناعًا آخذا فى التبلور بضرورة المواجهة، لكن أيضا الكل مقتنع أن ما ثبت عبر آلاف السنوات، لن تقل فترة علاجه عن عقود متواصلة من الجهد والطاقة والسياسات البديلة للترويج البرىء عن النفس، والزراعة المجزية، وقبل كل ذلك مزيد من الوعى الجمعى بمضار عادة القات وضرورة الإقلاع عنها.

معارك شتى

عناوين كثيرة من الإثارة والتشوق، تجمع بين الماضى والمستقبل، وتشكل ساحة اليمن السياسية والثقافية والاجتماعية. وتعكس كلها معركة كبرى، عادة ما تُختصر ببناء الدولة اليمنية الحديثة بمؤسساتها وقيمها وسياساتها. وفى كثير من الأزمات الكبرى تثور الأحداث مقرونة باتهامات إما جنائية أو سياسية. وفى الأخيرة تختلط الاتهامات بالعمالة للخارج، مع السعى لإعادة الإمامة فعلا لا مجازا، أو إعادة عقارب الساعة للوراء، أو إحداث التخريب المادى والمعنوى، وتجاوز تراث الشعب اليمنى دينيا واجتماعيا. وهو تقليد يبدو أنه يمنى أصيل، يعود إلى ما قبل بناء الدولة اليمنية الحديثة، والتى يبدأ التاريخ لها مع ثورة سبتمبر ١٩٦٢.

ففى عهد الإمامة كان المعارضون متهمين دائما بالخروج عن الدين الإسلامى الأصيل الذى يمثله الإمام أيا كان جوره وظلمه، وبالمجازفة بتراث الشعب وتقاليده العريقة مهما ثبت أنها تقاليد بالية تعوق التقدم وتضع اليمن فى مصاف الدول المتخلفة، وأيضا بالخروج على حكمه أو بالأحرى حكم الشيوخ المنتشرين فى كل

لبقاع اليمنية وكأنهم حراس للماضي لا بوابات للمستقبل. وكثيرا ما يختفي تحت هذه الاتهامات صراع سياسي / قبلي، وأحيانا مذهبي، يمكن تلخيصه بصراع الحداثة والتخلف، أو التجديد والجمود.

لم يختلف الوضع كثيرا بعد القضاء على الحكم الإمامي في آلياته الكبرى، وإن اختلف في تفاصيله اليومية، على الأقل في السنوات الأولى للثورة. وكيف يستقيم الوضع الذي استقر لقرون إلا بعد معاناة ومجاهدة وفتح أبواب كثيرة دونها عقبات ومغاليق عدة، ويحتاج علاجها عقودا تتغير فيها وخلالها العقول والنفوس والأشخاص والسياسات؟

إنه اليمن بتاريخه العريق، وشعوبه وشعابه الكثيرة، وتقاليده القبلية الراسخة، التي تجتمع جميعا لتشكل مساحة هائلة من الرمال المتحركة ـ والتعبير لصاحبه محسن العيني رئيس الوزراء اليمني الأسبق ـ تبدو من بعيد وكأنها بللور منثور، تُغرى الآخرين بالتحرك إليها سريعا. وفي وسطها كما في أطرافها تغوص الأقدام سريعا، وترتفع الأثمان، أثمان الحياة والنجاة بالنفس، وتعلو الأصوات طالبة العون والسند. وغالبا ما يأتي العون ولكن متأخرا، وبعد فدية كبيرة من الأرواح والأموال والسمعة والجهد.

إنها رمال اليمن المتحركة، التي يُراد لها الاستقرار والثبات، فحركتها دائمة وآفاقها مفتوحة بلا حدود أو قيود. والمطلوب عمل دائم وكثيف. لكن العوائق كثيرة جدا. تتمثل إحداها في التشكيلة الاجتماعية وما يتفرع عنها من عادات ونظم ذات جذور ومصالح كبرى تمتد بطول الوطن وعرضه. فالقبيلة، ذلك النظام الاجتماعي الراسخ منذ آلاف السنين استنادا إلى الطبيعة الجغرافية لليمن نفسها، ما زال ـ في اعتقاد البعض على الأقل في الداخل والخارج ـ يتحدى فكرة بناء الدولة الحديثة رغم التعايش الذي استقر منذ المصالحة الوطنية الأولى عام ١٩٦٨، بعد ست سنوات من الحرب الأهلية الأولى التي يؤرخ لها بفترة قصيرة من قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ـ بامتداداتها المصرية والسعودية.

لكن المدافعين عن القبيلة لا يرون فيها شرا، أو تحديا لفكرة الدولة الحديثة ، فهي نظام اجتماعي ومثال للعادات الحميدة، والتعارف والتمييز بين الجماعات المختلفة ، ولا تعني تعصبا أو مناطقية. وتتوالى الحجج: فالقبيلة تعايشت مع مؤسسات الدولة ولم تعترض عليها ، بل تعايشت مع الحزبية ولم تنفر منها، والدليل على ذلك الأحزاب التي تشكلت بعد إقامة دولة الوحدة ١٩٩٠ ورأسها شيوخ ورؤساء قبائل بارزون، فيما كان أفراد من القبيلة ذاتها أعضاء بارزين في أحزاب أخرى.

وبعيدا عن الجدل حول القبيلة ومدى صلتها بالدولة اليمنية، فهي الحقيقة الكبرى، وهي كتلة الجماهير ـ كما يقول العيني ـ وفي غياب الصناعة والزراعة الحديثة هي في الحقيقة الشعب والبروليتاريا.

تاريخيا اختلف الوضع جزئيا في جنوب اليمن قبل قيام الوحدة ١٩٩٠ عن شماله في مسألة دور القبيلة في الحياة العامة، نظرا للدور الذي لعبه الحكم الاشتراكي بعد الاستقلال في نوفمبر ١٩٦٧، إلا أن الجذور نفسها لم تتأثر كثيرا. ولذلك فمع قيام دولة الوحدة وضعف قبضة الحزب الاشتراكي وانزواء الأضواء عن سياساته ومجمل تجربته في الحكم، أعادت الجذور إنبات الفروع مرة أخرى، وساعدها على ذلك الدعم المعنوي والفعلي من الوضع المستقر في الشمال. وكما حدث مع القبيلة حدث الأمر نفسه مع عادة مضغ القات التي كان يُمنع مضغها في كل الجنوب أوقات العمل وطوال الأسبوع ، اللهم إلا ظهيرة الخميس والجمعة فقط من أجل الترويح وقتل الوقت والتقارب الاجتماعي بين الأصدقاء والمعارف بعيدا عن دوائر الحزب ولجانه المختلفة. ومع الوحدة لم تعد هناك القوانين أو المؤسسات المهتمة بهذا المنع في الجنوب. وامتدت عادات الشمال إلى الجنوب.

البحث عن التوازن

والطريف هنا ـ وإن كنت أعتقد أنه أمر يدعو للرثاء ـ أن أحد ثلاثة مبادئ كبرى استقر عليها منفذو الوحدة اليمنية ومُقيموها حين كان التفاوض السلمي هو الاقتراب المتفق عليه، هو الحفاظ على مكتسبات كل شطر والعمل على مدها إلى الشطر الآخر. وكثير من اليمنيين يرون بعد مرور عقد على قيام الثورة ، أن ما حدث هو العكس تماما، إن لم يكن في كل القضايا ففي معظمها. وربما كان العيب في مبدأ الحفاظ على المكتسبات، أن أحدا لم يُعرِّف أو يحدد ما هي تلك المكتسبات في هذا الشطر أم ذاك، وما هي تلك التي يجب الحفاظ عليها من تلك التي يجب القفز فوقها وإهمالها. ولذا فقد ظهر أن الأمر في النهاية مرهون بتوازن اجتماعي / سياسي / ثقافي / مصلحي يَفرض بحكم الواقع والعادة وأمور أخرى رؤيته وسياسته وتعريفاته للأمور. ولا عجب في ذلك فتلك سنة الحياة، فالمنتصرون هم الذين يفرضون رؤيتهم ويسودون، وما حدث بعد الحرب الأهلية الثانية صيف ١٩٩٤ مثل حي على تلك السُنة الأبدية. فالحزب الاشتراكي المغلوب أُقصي عن كل شيء، والمنتصرون فازوا بكل شيء. وذلك على عكس تلك التسوية السياسية التي جرت وقائعها عام ١٩٦٨ ، حين استقر الرأي بعد معاناة وجهد ، على ان الخروج من نفق الحرب الأهلية مرهون بقبول الجميع للجميع دون استثناء او تمييز. وهكذا كان استيعاب الملكيين في المؤسسات الجمهورية.

إن وضع اليمن التعددي بحكم الطبيعة الجغرافية والتشكيل الاجتماعي وميراث التاريخ اليمني نفسه، لا يمكن تجاوزه بطريقة المنتصر أبدا والفائز كلية، فهذا ما يحدث لفترة، وبعدها تتضح ضرورات البحث عن إقامة توازن معقول يساهم فيه الجميع ولو بدرجات ونسب، وبحيث تغيب عنه ـ أي التوازن الجديد ـ لغة المنتصر أبدا والفائز كلية. وما يحدث في اليمن منذ أربعة أعوام هو نوع من البحث عن نقطة التوازن الجديدة تلك. وهو بحث يواجه بمعارضة وتعالٍ من قبل أطراف وسعي حثيث من قبل أطراف أخَري.

فالذين يدعون إلى مصالحة وطنية شاملة وإعادة نظر في تجربة ما بعد حرب صيف ١٩٩٤ يدخلون في زمرة الباحثين عن توازن جديد يواجه به اليمن تحديات الواقع التي لم يفلح المنتصرون في إيجاد حلول مناسبة لها عبر السنوات الست الماضية. والذين يدعون إلى التريث ويرفضون مجرد مبدأ النظر في المصالحة الشاملة، يرون في ذلك تخليا عن مكاسب وانتصارات تحققت، ولا مبرر موضوعيًا في إهدارها او التنكر إليها.

الفريق الأول يجمع عناصر من الحزب الاشتراكي وأحزاب المعارضة الأخرى، والفريق الثاني يجمع من في السلطة والموالين لها من أحزاب صغيرة هامشية وقطاعات اجتماعية استفادت من نتيجة حرب ١٩٩٤.

وبين هذين الفريقين في الداخل، توجد معارضة في الخارج تصدر البيانات والصحف والتحليلات، وتصر على أن لها امتدادا في الداخل. وبعض هذه المواقف يذهب إلى طرح ما يُسمى بالمسألة الجنوبية، ومواجهة الاستعمار الداخلي الذي تلي فترة الاستقلال التي تلت بدورها فترة الاستعمار الخارجي. وعلى كل حال فهذه المعارضة توصف داخليا بأنها عناصر معادية للوحدة ولفظها الشعب، في حين ترى نفسها طليعة لتصحيح الوضع. ولكن أي وضع؟

إنها ـ أي جلسات القات ـ لقادرة دون منازع على إفساد وتعطيل كل الأمنيات الطيبة والمقولات الكبرى، جنبا إلى جنب إفساد الاقتصاد وتهميش الزراعة من بن وفواكه التي اشتهرت بها بلاد اليمن عبر قرون، فضلا عن تغييب العقل الفردي والجمعي معا لساعات طويلة



مع العقيد القذافي

وفي خضم البحث عن توازن في الداخل، ومواجهة ـ تظهر حينا وتخفت آخر ـ سياسية إعلامية مع قوى في الخارج، تتبلور مواجهة من نوع آخر عنوانها البحث عن الدولة الحديثة. وما حوادث خطف السائحين الأجانب، التي عاني منها اليمن طوال العامين الماضيين، وأثرت على موارده من السياحة، وجرت وقائعها في بعض المناطق الجبلية والطرق الوعرة في وسط وشمال البلاد، إلا تعبير عن سخط الخاطفين لعدم توافر الحد الأدنى من الاهتمام التنموى بمناطقهم. إنها التعبير عن التحالف بين تجذر القبيلة الغاضبة في المكان النائي الذي لم تصل إليه بعد يد الدولة الحديثة. ولنلاحظ تلك المساومات التي كانت تجرى بين الخاطفين وممثلي الدولة، إذ شملت مطالب أقل ما توصف به أنها تعبير عن السخط لغياب الدولة الحديثة برموزها البسيطة الأولية من مخفر للشرطة ووحدة صحية وطريق مُعبدة ومدرسة ومسجد للعبادة، ولن نقول ساحة للعب البرىء.

رمال العيني المتحركة

ومرة أخرى إنها رمال اليمن المتحركة. والتعبير مُعار ـ كما ذكر من قبل ـ من صاحبه الأصلي محسن العيني ، ذلك السياسي اليمني الذي ارتبط بتلك الرمال لمدة نصف قرن، غاص فيها ومعها في محاولات دءوب لجر اليمن بعيدا عن ميراث التخلف. واصطدم خلالها ـ أي السنوات الخمسين ـ بعقبات الفكر التقليدي ومغاليق القبلية وسطوة الشيوخ وندرة الشباب المؤهل، وحرب أهلية وتدخلات خارجية ، وتجاهل دولي.

وفي قصة العيني الذي نشأ يتيما في دار أسسها الإمام أحمد لرعاية الأيتام من أجل تخريج كتبة للديوان، وفيما بعد في مواجهة الإمام كنقابي معارض ومُجاز من حقوق القاهرة ١٩٥٩ ثم كحزبي بعثي لم ينخرط في أطر الحزب التنظيمية، ثم مع الثورة كوزير للخارجية ثم رئيس للوزراء أربع مرات في فترات مختلفة، وسفير لليمن في كثير من البلدان الأوروبية والولايات المتحدة وممثلا دائما لليمن في المنظمة الدولية، ومثقف يمني بارز، في تلك القصة ملامح أساسية من رمال اليمن المتحركة. ففي الكتاب المعنون «خمسون عاما من الرمال المتحركة .. قصتي مع بناء الدولة الحديثة » ، لا يثير الكاتب ذكريات شخصية بقدر ما يلقى الضوء على جزء عزيز من تاريخ اليمن الحديث في مراحل مختلفة ومحطات بارزة إن لجهة الدور المصري العسكري في اليمن أو احتواء الحرب الأهلية أو بناء المؤسسات والعلاقة مع القبائل في الداخل ومع الجيران في الخارج، ويدعونا معه للغوص في بعضها واكتشاف ما فيها من إثارة وتشويق.

وفي بعض الوقائع التي يدلي بها العيني تتاكد قناعات معروفة مسبقا مثل الواردة عن صعوبات الوجود المصري وتعقيداته في اليمن، وفي بعضها الآخر تهتز قناعات شائعة كتلك التي وردت بشأن المقدم إبراهيم الحمدي الذي قاد انقلابا عسكريا يونيه ١٩٧٤ استولى بعده على الحكم وكانت سمته الغالبة قومية

ناصـــرية، لكن العـــينى « يرى أن الأبواب السعودية ـ وكان ذلك عام ١٩٧٢ ـ قد فتحت له ليكون الرجل الأول فى أول فرصة تسنح » (ص ٢٢٨)، وهى الفـرصـة التى تمثلت فى انقلاب يونيه ٧٤.

وفى البعض الثالث يذكر الكاتب بعض التفاصيل ذات الدلالة التى ربما لا تلغى الإطار العام للأحداث التاريخية المعروفة ولكنها تفيد فى كشف بعض ما هو مستور، كالملابسات التى قادت إلى تعريب المواجهة اليمنية بين شماله وجنوبه سبتمبر ١٩٧٢، وما أفرزته من اتفاقية للوحدة أكتوبر ١٩٧٢، كانت وقتها خروجا على مألوف تداعيات الصدام العسكرى الذى جرى بين الشطرين فى سبتمبر على الخطوط الفاصلة بينهما. لكن حقائق الوضع اليمنى وغياب وجود الجيش والأفراد كانت مبررا للعينى لكى يوقع الاتفاق ويترك له فرصة التحقق لاحقا وعلى نار هادئة، بما فى ذلك احتواء المعارضة الداخلية بقيادة قادة القبائل وشيوخها، والتى رفعت شعار « لا وحدة مع الماركسيين والشيوعيين » ، والذى تكرر كثيرا لاحقا، لاسيما أثناء قيام الوحدة عامى ١٩٨٩ و١٩٩٠.

كل ذلك والهدف الأكبر، أى بناء دولة يمنية حديثة بعد قرون من التدثر فى عباءة من التخلف والجهل، ينظم التفاصيل ويوجه الكاتب والكتاب معا.

وفى قراءة بعض تلك الوقائع ما يفسر أوضاعا قائمة بالفعل، رغم مرور عقدين أو أكثر عليها. فالدولة اليمنية الحديثة والمواطنة وقيم المؤسساتية لم تترسخ بعد، رغم كل الجهد الذى بذل الذى لا يمكن القفز عليه أو تجاهله. وفى الإشارات الموجزة لبعض ما يجرى فى اليمن حاليا ما لا يمكن فصله عن التاريخ القريب قبل عقدين أو ثلاثة.

وفى كثير من المحطات الواردة فى الكتاب شىء من الماضى القريب، وحاضر قائم رغم تباين المواقع والأماكن واختلاف الأسماء. فالجوهر ما زال حاضرا.

محطة أولى

من نافلة القول أن مصر لم تكن بعيدة عن ثورة اليمن، فاهتمامها بنسج علاقات مع عناصر فى جيش الإمام تم تدريبهم على أيدى البعثات العسكرية المصرية التى ذهبت أيام طيب العلاقة الناصرية مع الإمام أحمد منتصف الخمسينيات، شكل إلى جانب عوامل أخرى نواة لثورة سبتمبر ١٩٦٢، ومعروف أن الرغبة فى الثورة والإطاحة بحكم الإمام كانت موجودة منذ فترة سابقة، وقد برز فى سياق تلك الرغبة والعمل على تنفيذها تيارات وقضاة وشخصيات يمنية كثيرة ذات مقام عال كأحمد محمد النعمان ومحمد محمود الزبيرى وأحمد عبد الرحمن المعلمى ومحمد على الأكوع وغيرهم من الأحرار اليمنيين، الذين كانوا يعارضون حكم الإمام ويبثون فى نفوس اليمنيين ضرورة الثورة والتغيير والإطاحة بالنظام الحاكم الذى أضر بالبلاد والعباد طويلا.

وحتى قبل الثورة لم تكن علاقات العينى طيبة مع القاهرة لأسباب عدة ؛ منها أنه انضم إلى الحركة البعثية التى كانت تثير الشكوك والهواجس لدى القيادة الناصرية، وعدم تحبيذه ـ أى العينى نفسه ـ للدور الذى لعبه الدكتور عبد الرحمن البيضانى كزعيم للأحرار اليمنيين بمساندة مصرية واضحة نظرا لأنه لم يعرف عنه أى دور معارض للإمام كالأدوار التى لعبها القادة اليمنيون الأحرار الآخرون. وهنا يشير العينى إلى علاقة خاصة بين البيضانى والسادات نشأت بينهما حين كان السادات فى ألمانيا للعلاج أو للنقاهة، حيث اهتم أفراد عائلة البيضانى به اهتماما كبيرا.

وربما جاء وقوف القاهرة وراءه فى اليمن كنوع من رد الجميل لهذا الموقف الشخصى.

المهم أن الثورة قامت، وأُطيح بالإمام أحمد، فى حين أن ابنه البدر ظهر لاحقا دون أن يُمس بسوء، فيما أيدته السعودية والتفت حوله بعض القبائل والتى شكلت المعارضة الحقيقية للثورة وللدور المصرى المساند لها عسكريا وسياسيا. وفى غضون ذلك عين العينى وزيرا للخارجية فى أول حكومة للثورة رأسها عبد الله السلال وكان نائبها الأول ووزير الاقتصاد فيها والنائب العام للقائد العام للقوات المسلحة د. عبد الرحمن البيضانى، وبعدها بدأت المتاعب على اكثر من جبهة.

كانت عضوية العينى فى البعث مثار شكوك مصرية كثيرة، فى الوقت الذى تعاملت فيه القاهرة مع الثورة اليمنية باعتبارها مصدر قلق وفزع لكل من دمشق وبغداد وعمان. وهو ما ينفيه أو على الأقل يشكك فيه العينى، الذى بذل محاولات لدى المعنيين فى القاهرة لتقديم تفسير مختلف لموقف بغداد من ثورة اليمن، لكنها بدلا من أن تزيل الشكوك زادتها، وبدلا من أن تحسن العلاقة بين القاهرة وبين العينى شخصيا فإذا بها تضاعفها أضعافا. وتوالت بعدها مبررات الانزعاج المتبادل، منها سعى العينى فى الفترة الأولى للثورة إلى كسب ود وتأييد القبائل للثورة وضبط النفس، الأمر الذى تصادم مع الاتجاه الذى كان سائدا بقوة فى مجلس الوزراء اليمنى داعيا إلى العمل العسكرى الصريح واتهام الجيران والتهديد بإرسال أفواج المجاهدين لتحرير عدن والجنوب. وهو الاتجاه الذى قاده د. البيضانى، وكان فى الواقع صدى لما هو سائد فى القاهرة.

ويذكر العينى أن السادات الذى كان رئيسا لمجلس الأمة آنذاك فى مقابلة معه، قال له ردا على ملاحظة تضمنت تنبيها بقوة وشراسة القبائل اليمنية وعظم مواجهتها « لا تكن منزعجا إننا نعد لكل أمر عدته .. ألا تعرف أننا الآن فى سبيل إرسال الصاعقة إلى اليمن؟. إننا ندرب جنود الصاعقة على أكل الثعابين فمن يستطيع الوقوف أمامهم؟ ».

ويبدو أن الاستعداد لإرسال القوات المصرية لم يكن قاصرا فقط على القاهرة، فقد كانت هناك استعدادات مماثلة فى اليمن نفسها، إذ أعلن السلال رئيسا وأبعد العينى من منصب وزير الخارجية وعين ممثلا لليمن فى الأمم المتحدة، وتولى البيضانى منصبى نائب رئيس الجمهورية والقيادة العامة للقوات المسلحة، وأبعد عدد من قادة اليمن كالقاضى عبد الرحمن الإريانى واللواء حمود الجايفى والشيخ محمد على عثمان وأحمد المرونى وغيرهم إلى القاهرة. ومع دخول القوات المصرية بدأ فصل جديد ليس لليمن فحسب، بل للمنطقة بأسرها.

رمال اليمن..

قال السادات الذى كان رئيسا لمجلس الأمة آنذاك، له ردا على ملاحظة للعينى حول قوة وشراسة القبائل اليمنية: « لا تكن منزعجا إننا نعد لكل أمر عدته .. ألا تعرف أننا الآن فى سبيل إرسال الصاعقة لليمن، إننا ندربهم على أكل الثعابين فمن يستطيع الوقوف أمامهم؟ »



مع الرئيس جون كينيدى عند تقديم أوراق الاعتماد عام ١٩٦٣

لكن ظل هناك من يدعو إلى حل سياسى قبلى تجتمع اليمن حوله، ولاسيما أن الحل أو الحسم العسكرى لم يتحقق بالصورة التى أملها مؤيدوه. فبعد مرور عامين ونصف تقريبا من الثورة تبلورت دعوة نادى بها القاضى محمد محمود الزبيرى قوامها التخلص من حكم أسرة حميد الدين والانضمام إلى الجمهورية وأن يُعقد مؤتمر لرجالات اليمن للخروج من دائرة العنف والاقتتال. وهى الدعوة التى دفع حياته ثمنا لها بين القبائل التى كان يدعوها للاصطفاف وراء الجمهورية.

بيد أن توازن القوى الداخلى لم يكن يسمح بتمرير مثل هذه الدعوات ولاسيما أن شيوخ القبائل الذين تحالفوا مع الجمهورية كانت لديهم مبررات الانزعاج من عودة شيوخ القبائل الآخرين الذين عرفوا بتأييدهم لحكم أسرة حميد الدين ومعارضة الجمهورية. فى الوقت نفسه كانت هواجس القاهرة من مثل هذه الحلول متعاظمة، إذ يعنى التحول إلى صيغة حل قبلية بعد كل التضحيات المصرية أكثر من مجرد الإنكار، وربما يفتح الباب إلى المطالبة بالخروج كلية.

الاستعمار المصرى!

وما بين الانشقاقات اليمنية والهواجس المصرية تبلورت محاولات تحديد إطار واضح للتفاعل بين القاهرة وصنعاء. جاءت فى صيغة إجابة يمنية على أسئلة مصرية بينت الرؤية اليمنية لطبيعة الدور المصرى فى اليمن، وكيف يُقر السلام وما هى وسائله. وجاءت الإجابات من محمد أحمد النعمان الذى تولى رئاسة الوزراء فى أبريل ٦٥ ١٩. متضمنة الحرص على استمرار المساندة المصرية للثورة اليمنية حتى تستقر أوضاعها ويقوى عودها. أما سبل السلام فكانت عبر المساعى السلمية وليس بالحرب التى لم تحسم أمرا، وأن يُشكل لذلك مؤتمر وطنى للسلام لا تقل مدة انعقاده عن شهرين ولا تزيد على أربعة أشهر، على أن يحضره الجميع ويخرج عنه ما يفيد رغبة المتمردين فى الانضواء تحت لواء الجمهورية والرغبة فى حل الخلاف مع السعودية بالطرق السلمية.

وانعكاسا لهذه الرؤية عقد مؤتمر «خمر» الذى لم تؤيده القاهرة تماما، وإن تركت له فرصة الانعقاد، وقد حضر المؤتمر ما يقارب خمسة آلاف مثلوا جميع مناطق اليمن وقبائله وفئاته، ثم تشكل بعده وفد للسلام برئاسة القاضى عبد الرحمن الإريانى، زار عدة دول عربية منها الكويت ولبنان وسوريا والأردن للترويج لنتائج المؤتمر التى تضمنت إصلاح الحكم الجمهورى ووضع دستور للبلاد وإنشاء تنظيم شعبى وتشكيل لجنة للمصالحة الداخلية. ثم ختم الوفد زياراته تلك بالقاهرة التى يبدو أنها لم تكن متحمسة للسير فى هذا الطريق.

جاء الفتور المصرى لنتائج المؤتمر انطلاقا من اقتناع بأن السير فى هذا الطريق يعنى تجاهل التضحيات المصرية وعدم تعاون القبائل الجمهورية فى الجهود العسكرية والاتكال الكبير على القوات المصرية. وهو ما لخصه الرئيس عبد الناصر للوفد اليمنى بالقول « ليست لنا مصلحة فى البقاء فى اليمن، هو فيه حد يرضى يستعمركم! » ـ والعبارة الأخيرة كانت بمثابة رد على الادعاءات العربية والغربية باستعمار مصر لليمن ـ فلا مانع لدينا من التفاهم مع السعودية، اتصلوا بفيصل».

لكن حقيقة الموقف لم تكن بمثل هذه البساطة، فمطالب اليمن بالمساعدات المصرية التى بدت غير مقررة وغير محبذة مصريا، ووجهت بموقف صريح قوامه أن لا تعاون مصريا مع أى حكومة يمنية بها بعثى واحد. وحسب رواية العينى فقد قال الرئيس عبد الناصر أمام وفد يمنى تشكل من رئيس الوزراء أحمد محمد نعمان والعقيد محمد الرعينى وزير الحربية والعينى نفسه وزير الخارجية آنذاك «ما دمتم تريدون الصراحة، فأحب أن أقول لكم إنى لا يمكن أن أتعاون مع حكومة فيها بعثى واحد، مش بس حتعاون معها بل سأحاربها، سأقاتلها .. أنا فى حرب مع البعثيين فى غير اليمن، ومن غير المعقول أن أسمح بحكومة فيها بعثى واحد فى بلد لى فيه أكثر من خمسين ألف عسكرى، هذا موضوع يجب أن يكون واضحا تماما .. القضية بالنسبة لنا قضية مبدأ». (ص ٩٩)

وفي اللقاء نفسه أنكر عبد الناصر أن يقول أحد أن مصر قد تعبت أو زهقت، مشيرا إلى الاستعداد التام بعدة خطط، سواء للانسحاب من المناطق أو التجمع في صنعاء، أو التجمع في الجنوب، أو الحديدة. وفي نهاية اللقاءات بدت الصورة واضحة، فالقاهرة تريد - حسب رواية العيني - التخلص من عدد من الوزراء وبعض المحررين في الإذاعة والصحافة اليمنية، والذين وصفتهم بأنهم مزعجون وطائشون، وإلا سيكون البديل عدم التعاون.

وبعد محاولات أخرى ظهر أن القاهرة غاضبة أيضا من عدم تعاون الوزراء اليمنيين مع المستشارين المصريين الذين اتفق على قيامهم بتصريف الأعمال على أن يكون الوزراء اليمنيون على سبيل المظهر (ص ١٠٢)

وأيا كان سبب غضب القاهرة آنذاك، بسبب الحرب مع البعث، أو فلتان الوضع في الداخل أو النزعة الاستقلالية لدى بعض الوزراء اليمنيين، أو بسبب السير في طريق سياسي سلمي قبلي، فإن المسألة برمتها تعطي نموذجا على الطريقة التي كانت تدار بها الأزمة اليمنية من القاهرة ومردودها في صنعاء، وكيف أن الضغوط العربية من قبل البعث وغيره كانت عنصرا لا يمكن تجاهله في اتخاذ القرارات المصرية المتعلقة باليمن.

أما يمنيا فقد مثل الوضع محاولة للسير في طريقين متضادين بحكم الطبيعة: أحدهما التسوية من خلال مدخل قبلي لغرض الحفاظ على الجمهورية، وثانيهما التمسك بالوجود والدعم المصري لأنه يجعل التوازن العام في صالح الجمهوريين وهو ما يفيدهم في أي تسوية مع منافسيهم الإماميين. ومن هنا كان الاختلاف بين الرئيس عبد الناصر وبين الوزراء اليمنيين مؤيدي السير في الطريقين، حيال تقييم الوضع في الداخل أمرا حتميا. ولما كانت القاهرة في موقف أقوى، كان طبيعيا أيضا أن يخرج من الصورة هؤلاء الذين يريدون منها الدعم وحسب، وأن يبقى المناصرون لكل الأفكار الواردة من القاهرة.

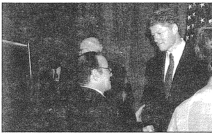
جمهوريون في موقع المعارضة

وهكذا تغيرت الوزارة، وتشكلت وزارة جديدة سميت بحكومة الحرب يوليو ١٩٦٥، ورأسها الفريق العمري، والتي ركزت على تصفية المعارضين في الداخل، فكان أن توجه بعض الجمهوريين إلى الطائف بالسعودية. ثم جاء اتفاق جده بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل، وبعدها دخل الجميع في محاولة للتسوية السلمية برعاية مصرية سعودية مشتركة، تمثلت في مؤتمر حرض نوفمبر ١٩٦٥، والذي فشل لأسباب عدة من بينها غموض الأسس التي بني عليها، وعدم رضاء الجمهوريين أو الملكيين على التفسيرات التي قدمت لهم من قبل لجنة المراقبة المصرية السعودية.

وتوالت بعدها الخلافات المصرية اليمنية من جانب، والمصرية السعودية من جانب آخر. لكن الأمر الذي أدركته القاهرة لاحقا - مطلع ١٩٦٦ - أن السعودية لم تكن متحمسة في خروج الجيش المصريين بسرعة كما كان الأمر من قبل. ولحق ذلك تدهور الوضع في صنعاء، لاسيما بعد استقالة حكومة العمري، وعودة عبد الله السلال، والذي تم في مرحلته تلك محاكمة الكثيرين من العناصر اليمنية الوطنية، بل إعدام بعضهم. وفي القاهرة كان كثير من الرموز اليمنية إما في السجن أو تحت الإقامة الجبرية كالقاضي عبد الرحمن الإرياني. وتسارعت الأحداث سواء داخل اليمن الذي شهد انقسام الجمهوريين على أنفسهم وخروج

رمال اليمن..

كم حاول المسئولون في صنعاء إقناع الرئيس عبد الناصر بإبقاء عدة آلاف من الجنود المصريين بحجة الخوف على الجمهورية، ولكنه كان حاسما، وقال لهم: « يبدو أنكم في واد آخر، ولا تدركون ما نحن فيه »



مع الرئيس بيل كلينتون



مع الرئيس علي عبدالله صالح في أمريكا

البعض ومنهم العيني إلى الخارج لقيادة معارضة لما أسموه بـ «سياسات الحاكمين في صنعاء مع الدفاع عن الجمهورية»، والتي ظلت في مواجهة حرب استنزاف تابعتها القبائل الملكية بإصرار وقوة. فيما ظلت القوات المصرية بكثافة في اليمن في الوقت الذي تصاعدت فيه الأزمة بين مصر وإسرائيل في سيناء، والتي انتهت بهزيمة ١٩٦٧.

الخروج من اليمن

بعد الهزيمة تغيرت أشياء كثيرة في اليمن، فالخروج المصري أصبح أمرا حتميا غير قابل للنقاش، والجمهوريون صاروا يخشون مغبة الخروج المصري، والاتجاه العام عربيا يدعو إلى حل للأزمة اليمنية ومصالحة مصرية سعودية حتى يمكن التفرغ لمواجهة أزمة الاحتلال الإسرائيلي وتحرير الأرض العربية. وكم حاول المسئولون في صنعاء إقناع الرئيس عبد الناصر بإبقاء عدة آلاف من الجنود المصريين بحجة الخوف على الجمهورية، ولكنه كان حاسما، وقال لهم: «يبدو أنكم في واد آخر، ولا تدركون ما نحن فيه» (ص ١٢٣)

ولم يكن أمام اليمنيين الجمهوريين إلا طريق واحد: التضامن وإعادة تنظيم الصف الجمهوري والاستقواء بالداخل. وجاءت الخطوة في صورة عودة من كانوا بالخارج، والتغاضي عن التجاوزات والإهانات التي تعرض لها البعض على يد البعض الآخر، والاتفاق على بعض خطوات مثل تشكيل مجلس استشاري ومجلس شورى وإعلان التمسك بمبادىء الجمهورية.

بيد أن أسلوب الرئيس السلال لم يكن ليرضي بعض الشباب من العسكريين لاسيما في قوات الصاعقة والمظلات، الذين قاموا بالفعل بانقلاب أطاح بالرئيس السلال، فيما يعرف بحركة ٥ نوفمبر١٩٦٧، أي بعد خمسة أشهر فقط من نكسة يونية. وهنا يؤكد العيني أن الذين قاموا بالانقلاب هم ضباط الصاعقة والمظلات وهم على صلة بحركة القوميين العرب وبحكومة عدن. وأن الذين كانوا خارج صنعاء وعادوا إليها قبل الانقلاب أو بعده مباشرة لم يشاركوا فيه، لأنهم كانوا أضعف من أن يحدثوا تغييرا عسكريا يذكر، وأنهم شاركوا بأسمائهم وتولوا المناصب الهامة تسليما بالأمر الواقع وأداء الواجب ليس إلا. وهكذا قبل العيني المسئولية مرة أخرى من موقع رئيس الوزراء.

لقد كانت الحركة سلمية الطابع ومتسامحة في آن، واكتفت بإعفاء السلال من منصبه، ولم تنتقم للمعتقلين ولا للمعذبين في السجون ولا للمطرودين من وحداتهم. وجاء ذلك كله « لكي يبقى الجمهوريون صفا واحدا، لا ينشغلون ببعضهم البعض، بل ينشغلون بما هو أخطر عليهم جميعا وعلى ثورتهم» (ص ١٣٣)، ولم يكن أمام القاهرة التي كانت قواتها موجودة في الحديدة استعدادا للعودة إلى أرض الوطن إلا قبول الحدث دون تدخل. وبعدها بدأ فصل جديد من العلاقات المصرية اليمنية، هذه المرة دون وجود عسكري ودون تدخل ودون رفض لمشاركة أي يمني، سواء بعثيا أم غير بعثي.

أما في الداخل، فلم يكن الواقع اليمني بمثل هذه البساطة، إذ سرعان ما اندلع الاقتتال الأهلي، وهذه المرة بين الجمهوريين أنفسهم. وهكذا لم يثمر التسامح الذي تدثرت به حركة ٥

نوفمبر. إذ سرعان ما تطورت الأحداث مطلع ١٩٦٨، وتخلى العينى عن رئاسة الوزراء لصالح الفريق العمرى، وعاد إلى موقعه القديم مندوبا لليمن لدى الأمم المتحدة. وفى صنعاء بدأ فصل آخر من الصراع بين العسكريين أنفسهم، الذين قاموا بالحركة من صغار الضباط والذين تولوا المواقع الكبرى من كبار الضباط، وبعض الرموز القبلية الجمهورية.

ومرة أخرى تدفع الأحداث إلى الطلب من العينى رئاسة حكومة مرة أخرى، ولم يكن الصراع بين العسكريين قد حسم نهائيا، إذ ظلت هناك ذيول من الصراع القديم الجديد معا. ولم يكن أمام العينى إلا محاولة مأسسة الحياة السياسية فى البلاد، ووضع دستور وضبط موقف القبائل وتحديد الدور الذى ينبغى أن يكون للحكومة، ودور الساسة والشباب وهكذا.

كان الوضع عسيرا مليئا بالأشواك، فهناك الشائعات والمنشورات والعرائض وعمليات الإثارة والتهييج، وهناك الأفكار التى تباحث عليها العينى قبل تشكيل حكومته الجديدة ومن بينها وضع دستور واضح المعالم وتشريعات قانونية ولوائح إدارية، ونيابة عامة ومحاكم، وتنظيم شعبى وتأكيد الارتباط الإدارى والمالى للقوات المسلحة والجيش الشعبى والأمن بالجهاز التنفيذى فقط، وتوحيد القوات المسلحة، وتشكيل مجلس شورى، ومحاولة تهدئة العلاقات مع السعودية، والاهتمام بالتعليم والاقتصاد.

ولما جاءت نتائج المشاورات على غير المأمول، اعتذر العينى أغسطس ٦٩، إذ اكتشف «أن الدولة الحديثة القوية الجادة لا تزال فى نظر البعض خطرا على مصالحهم، وتهديدا لنفوذهم، وعند الحديث عن الإصلاح والتصحيح والبناء يتبارى الجميع ويتسابقون فى الإشادة والتعبير عما يجب وما لا يجب، وعندما يبدأ وضع النقاط على الحروف تظهر حقائق أصحاب المصالح واضحة جلية» (ص ١٤٤). وكان ثلاثين عاما لم تنقض بعد.

وبعد ضغوط من الواقع ومن الأحداث ومن الرفاق، عاد العينى عن اعتذاره السابق وقبل تشكيل الحكومة فبراير ١٩٧٠، والذى شهد فى منتصفه تماما سقوط صعدة فى الشمال فى أيدى القوات الملكية، فيما شكل كارثة وهزيمة كبرى مشينة فى حق الجمهورية والقوات المسلحة، وعاملا مشجعا للملكيين لمواصلة احتلال أجزاء أخرى من البلاد كما حدث فى المدرج، ومن ورائهم دعم واندفاع سعوديان كبيران. أما فى الداخل فكانت ضغوط رجال القبائل وشيوخها على الحكومة من أجل طلبات المال لا تنقطع واحتكاكات العسكريين وبعضهم تتواصل رغم الهزيمة فى صعدة، وأعضاء المجلس الجمهوري لا يقدمون المشورة أو الدعم السياسى اللازم للحكومة، إن لم يكن ممارسة الضغوط عليها.

المصالحة الوطنية

فى ظل هذه الظروف، جاءت فرصة انعقاد المؤتمر الإسلامى فى جدة، وجاء قرار مشاركة اليمن فى المؤتمر بوفد رأسه العينى، الذى حاول أن يوظف تلك الفرصة فى الاتصال المباشر مع المسئولين السعوديين واستطلاع رأيهم بشأن الموضوع اليمنى من منظور حكومتين وبلدين شقيقين، وليس أى منظور آخر، كان يعقد اجتماع بين الجمهوريين والملكيين. وكانت الحجة أن المنظور الأخير يعنى أن الأزمة يمنية يمنية بما فيها ضرورة تحديد مصير أسرة حميد الدين، فى حين أن المنظور الأول يعنى أن الأزمة يمنية سعودية. وشتان بين المنظورين، الأول يصدر الأزمة وينفى أى مسئولية من الخارج الجار، والثانى يورط الخارج ويشركه فى الحل ولو بطريق غير مباشر، لاسيما من خلال وقف المساعدات والدفع إلى حوار سياسى. ويشير العينى أنه بعد أخذ ورد مع المسئولين السعوديين بصورة غير رسمية أمكن التوصل إلى اتفاق من ست نقاط أبرزها: وقف إطلاق النار، ووقف الحرب الإعلامية، وتعيين أشخاص من ذوى النيات الحسنة فى المناطق القابلة للاحتكاك وبالأخص فى المناطق المجاورة للمملكة، وأن يعقد مؤتمر وطنى فى اليمن، وأن تقبل الحكومة والمجلس الوطنى مشاركة عناصر من الملكيين بعد عودتهم. ورغم تعاون صنعاء والرياض لتطبيق الاتفاق، فقد استمر التشكيك فى الداخل من قبل كبار القوم «إن استطاع بعضهم بيع الجمهورية لما ترددوا». وزاد القلق والخوف من قبل العسكريين، وكانت حجة العينى للعسكريين «لقد تركنا لكم القضية ثمانى سنوات، فلم تحسموها، أعطونا أشهرا لنجرب، فإن وصلنا إلى سلام مشرف، وإلا فالميدان أمامكم» (ص ١٦٨).

وبعد مناورات سياسية عدة، أمكن احتواء الموقف فى الداخل، وجاء التعاون مع السعودية ليفسح المجال بدرجة أكبر لتطبيق بنود الاتفاق وتسهيل عودة الملكيين ومشاركتهم فى المؤسسات السياسية المختلفة، الأمر الذى فتح الباب أمام الاعتراف السعودى بالنظام الجمهورى فى صيغته المعدلة، وهو ما تحقق فى ٢٢ يوليو ١٩٧٠. وهو اعتراف فتح بدوره أبوابا أخرى من التعاون الثنائى واعتراف دول غربية كانت فى انتظار الخطوة السعودية أولا.

همـوم الداخل

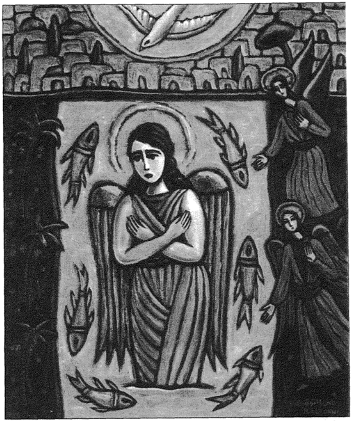
التخلص من عبء الحرب وعودة الرموز الملكية والاعتراف السعودى، رغم كونه خطوة مهمة على طريق بناء اليمن، فالأمر لم يخل من صعاب وعقبات. فمن العلاقة مع الجنوب إثر استقلاله، وتحديد صلاحيات واضحة لرئيس الوزراء ووضع الدستور، وإعادة هيكلة القوات المسلحة وتحديد معايير الصرف المالى فيها، والاستعانة بالضباط والجنود الذين سرحوا فى ظروف سابقة، والعلاقة مع المشايخ النافذين وضبط المقررات المحددة لهم، واستيعاب القبائل فى بنية الدولة الحديثة ومؤسساتها، وإفساح المجال أمام الشباب الجديد، وبناء تنظيم سياسى شعبى يتجاوز الطائفية والقبلية والطبقية، وبناء المدارس وتنظيم الكادر الإدارى للدولة وتقنين الموارد المالية، وكيفية الاستفادة من تجارب الدول الأخرى، ومدى رضاء الدول الكبرى المجاورة عن اتفاق هنا أو بيان هناك.. وكلها عناوين كبرى لأزمات متلاحقة متداخلة مع بعضها البعض من جانب، وتكشف صعوبات بناء دولة حديثة فى ظل منظومة قيم تقليدية لها السيادة والغلبة من جانب آخر، أو هى بالأحرى رمال متحركة غير ثابتة، لم ينقطع بعد امتدادها عبر الزمان والمكان.

والسؤال: هل كتب على اليمن أن يعيش دوما فى رمال متحركة؟ .الجواب بيد اليمنيين أنفسهم. ■

فى معرض حلمى التونى

«تحية إلى الفن القبطى»

الفنان والتراث



«النهر» زيت على قماش وخشب ٨٥ × ٧٠ سم



«الشقيقتان» زيت على قماش وخشب ٨٥ × ٧٠ سم

يظل تعامل الفنان مع التراث الفنى للشعوب والحضارات أكثر القضايا تعقيدًا والتباسًا فى مجال الإبداع، بالرغم مما يقدمه استلهام التراث للفنان من حلول سهلة لاجتياز الزمن وعقد الأواصر مع الماضى وتحقيق التواصل مع الحاضر، وخلق أرض مشتركة مع الجماهير، بما يحمله التراث من لغة خطاب مقبولة من الوجدان الجمعى.

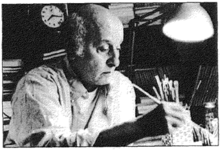
ويمكن التعقيد والالتباس فى اختلاف «المنظومة القيمية» للتراث عن مقابلها فى الحاضر، وأعنى بتلك المنظومة: المكونات العقائدية والأبعاد التاريخية والأنساق الثقافية وليدة البيئة الجغرافية والقيم الأخلاقية.. إلخ، وهى - فى الغالب الأعم - تختلف عما يسود المجتمعات نفسها فى العصر الحديث، من هنا: فإن اقتباس هذه الأنساق - مفصولة عن أرضها وزمنها وسياقها - قد يحمل التباسًا بنزعة سلفية بائدة، أو شعوبية ضيقة، أو قومية منعزلة، أو مظهرية سياحية، وذلك يضعها فى موضع مناهض للحداثة والعصر، ومن ناحية أخرى قد يبدو اقتباس هذه الأنساق فى إنتاج فنى معاصر بمثابة تأكيد للهوية، وللقواسم المشتركة ثقافيًا وذوقيًا بين أبناء الأمة، وتلك تمثل ضرورة للثقافة القومية، خاصة فى مراحل هبوب رياح التغيير العالمية (اقتصاديًا وسياسيًا وقيميًا) عبر فضاءات مفتوحة تسمح لموجات الحداثة، الملغَّمة بمصالح وقيم الكيانات الكبرى المهيمنة على العالم، باختراق الغلاف الجوى - الثقافى والقيمى - لهوية الشعوب!

المعادلة الصعبة فى سؤال الهوية

وبين الاتجاهين خيط وهمى لا يراه ولا يفك اشتباكه إلا قلة محدودة من الفنانين، جعلوا من ذلك الأمر قضيتهم الأساسية عبر مسار رحلتهم الإبداعية، ساعين إلى تحقيق المعادلة الصعبة بين الأصالة (بالمعنى الذاتى والقومى معًا) وبين الحداثة، آخذين فى الاعتبار ذوق الجمهور الذى يتوجهون إليه، واستقطابه على أرض مشتركة معهم، اجتيازًا للعزلة المزمنة للفن عن المجتمع.

بين هذه القلة المحدودة من الفنانين التشكيليين يبرز اسم حلمى التونى بقوة عبر السنوات الخمس عشرة الماضية، باختياره التراث بمراحله المختلفة منبعًا لاستلهامه من خلال سلسلة من المعارض الفنية المتلاحقة، وكان يبدو خفيف الحركة والطيران كفراشة طليقة بين ثمار المنجزات الحضارية المختلفة، من فرعونية ومسيحية وإسلامية، لكن ذلك كله كان يتم من منظور الفنان الشعبى المصرى الذى هضم وتمثل تلك المنجزات برؤى فطرية ذات مذاق خاص، رؤى تعايشت عبر مختلف العصور مع الحياة اليومية للشعب، وتحررت إلى حد كبير من هيمنة النمط الدينى والقالب الطبقى، مكونة بلاغتها الجمالية الخاصة، التى تقارب بلاغة الشعر العامى مقارنة بشعر الفصحى، وهذا ما يسَّر على «التونى» مهمة التعامل مع العنصر الجمالى التراثى بمعزل عن سياقه العقائدى والتاريخى، وتضفيره بالحياة المعاصرة وبما تطرحه من وظائف نفعية وضرورات جمالية مختلفة.

الفنان حلمى التونى فى المرسم



الفن القبطى.. لماذا؟

لكنه فى معرضه الأخير بقاعة اخناتون، يمضى خطوة أكثر جذرية من خطواته السابقة، فبينما كان قبل يستقى رؤاه من «خلاصات» شعبية شبه مهضومة من التراث، بما فى ذلك التراث القبطى، فإنه فى تجربته الجديدة يعود إلى «منجم المادة الخام» للتراث القبطى، يدفعه إلى ذلك دافعان: أولهما فكرى معنوى، يلخصه العنوان الذى أطلقه على المعرض وهو «تحية إلى الفن القبطى» من منظور رد الاعتبار إلى فن أحد عنصرى الأمة،

تحية إلى الفن القبطى.. (معرض لوحات زيتية)

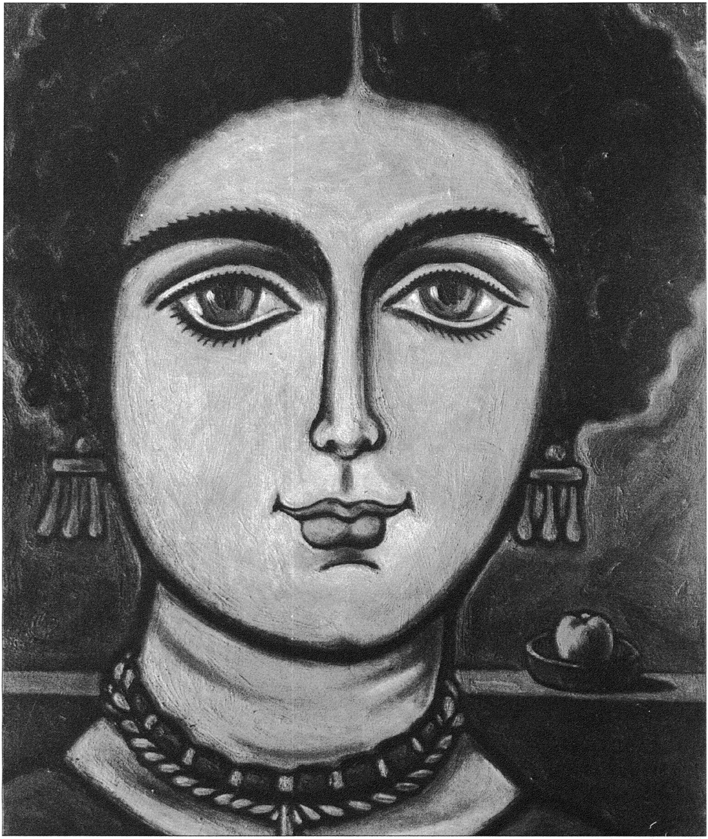
حلمى التونى

القاهرة: مجمع الفنون، من ٣١ أكتوبر، وحتى ١٩ نوفمبر ٢٠٠٠

عــز الــدين نجــيب

وســـؤال الهـــويــة

«وجه وتفاحة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«الملاك في الصحراء» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم

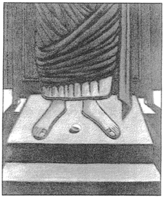




«الخطوة الأولى» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«الرحلة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«العتبــة»



«الحنــو»

الذى يرى أنه جرى تهميشه وظلمه فى ثقافتنا المعاصرة لصالح الثقافة السائدة، تاركين للعنصر الآخر «الأقباط من أهل مصر» الشعور بالغبن والتهميش، أو حسبما يرى التونى فى كلمته بكتالوج معرضه ـ «ظلم حضارى وتهوين ثقافى وتاريخى لدور ونصيب أحد عنصرى الأمة فى صنع وتكوين ثقافتها»، ومن ثم يسعى الفنان بمعرضه إلى «محاولة لفت الأنظار إلى هذه الحضارة وفنونها» على حد قوله.

أما الدافع الآخر فهو «استكشاف ـ أو إعادة استكشاف ـ جماليات الفن القبطى ولغته البصرية، رغبة من الفنان فى مواصلة رحلة البحث فى جماليات الفن الشعبى المصرى ـ بالممارسة لا بالتنظير ـ انطلاقًا من أن الفن القبطى هو فن شعبى أساسًا ولم يكن فنًا رسميًا أو أكاديميًا مثل الفنون المسيحية فى الحضارات الأخرى».

فض اشتباك المصطلح:

وقد أجد من الضرورى هنا أن أوضح أن الفن القبطى يتجاوز مفهوم الدين المسيحى، وقد سبق المسيحية فى مصر بقرون، و معلوم أن كلمة «قبط» تعنى مصر، كما تعنى المصريين فترة الاحتلال الرومانى لمصر وما بعدها، وكانت للمصريين قبل المسيحية فنونهم المتميزة التى تعد امتدادًا شعبيًا للفنون المصرية القديمة، وقد تأثرت لاحقًا بالفن الرومانى، بنفس القدر الذى تأثرت به اللغة القبطية فى بدايتها باليونانية، وآية ذلك التأثر بالثقافة الرومانية المسيطرة ما نجده فى الأزياء والفخار وبورتريهات الفيوم وعمارة «البجاوات» فى الواحات الخارجة (على الرغم من أن بناتها هم المسيحيون الأوائل الهاربون من بطش الرومان، بما يعنى أنهم كانوا أعداءهم وغاصبى أرضهم).. ثم تبلورت هذه الفنون مع الوقت بما يتوافق مع الأغراض والعقائد والمثل العليا للمسيحية، كما امتدت خصائص هذا الفن بعد الفتح الإسلامى لمصر بتجليات شتى من خلال الوحدات الزخرفية داخل منتجات الحرف التقليدية، مثل العمارة والرخام والمشغولات الخشبية والنسيج، ونعرف أن مدينة أخميم كانت أهم مركز لصناعة النسيج والمطرزات مما كان يسمى «القباطى»، وكانت تلك المنتجات الحرفية توظف لأغراض دينية وغير دينية فى العصور الإسلامية التالية، وإذا كان لكل ذلك دلالة فهى وحدة الشخصية المصرية فى الفن واستمراريتها عبر العصور متجاوزة حواجز الديانات، امتدادًا لعمق الخصائص الحضارية فى أعماق هذه الشخصية، ولا يعنى هذا عدم وجود ملامح مميزة لفن كل حضارة أو حقبة تاريخية على حدة، وإنما المقصود هو تطور هذه الخصائص فى



«هز النخلة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«العرش» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«بوابة النخلة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم

سياق حضارى ممتد منذ عهود مصر القديمة حتى الآن، وكانت البوتقة التى انصهرت فيها هذه الخصائص بشكل طبيعى هى الفنون الشعبية، وذلك ما يعيه جيدًا الفنان التونى. الذى لم يتوقف ـ على امتداد العقد الماضى ـ عن محاولة رد الاعتبار إلى الفن الشعبى عامة، وليس الفن القبطى وحده.

منظور إنسانى وعالمى للتراث:

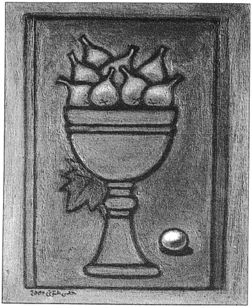
ماذا فعل التونى جماليًا لبلوغ هذه الرسالة؟.. هل استنسخ عناصر من التراث القبطى ورموزه الدينية كما هى؟.. أم استلهم منها قيمًا تشكيلية كأشكال بصرية تشبع حاجته إلى محركات جمالية؟..

الحقيقة أنه لم يفعل هذا ولا ذاك، وإنما أعاد إنتاج هذه العناصر والرموز، ليس من منظور دينى، بل من منظور إنسانى وعالمى، يحتفى بالحياة وبقيم الحب والأمومة والأخوة والتساند والتعاطف والخصوبة والاستمتاع بطيبات الدنيا، مع التحرر من طغيان مشاعر الحزن والاستشهاد والاستسلام السلبى للأقدار، لتحل محلها مشاعر الثقة بالنفس والعزة والكبرياء.. لقد زالت من عيون أبطاله النظرات المنكسرة الذابلة أو الغائمة التى كنا نراها فى وجوه الفيوم أو عيون الأيقونات، لنرى بدلاً منها نظرات قوية واثقة لامعة باسمة، وبات لدينا جو عام مشبع بشاعرية الحلم وبروح الفطرة الطفولية والأمومية، حتى لو جاءت التكوينات محاكية لنفس الصور والأيقونات المسيحية القديمة فى الكنائس والأديرة وعلى قطع النسيج ونوافذ الزجاج الملون والمعشق بالرصاص، لكنه يعيد تشكيلها بحسه الخاص.

أنظر ـ مثلاً ـ إلى لوحة «العذراء والطفل والنخلة» والتى سماها الفنان «الخطوة الأولى»، سترى بنفس اللون، جالسة على حجر وهى فى ثوب أبيض عاجى، وعلى رأسها طرحة بنفس اللون، تتماهى مع الهالة النورانية حول الرأس، فتبدو مثل العروس وهى تنظر نحونا بعيون يقظة محبة، فيما تمسك بيدى الطفل وترفعه واقفًا على ركبتيها، فيبدو أقرب إلى الدمية، وثمة طائر يرفرف بجناحيه أمامها، وسباط النخلة المحمل بالبلح الأحمر يدنو منهما، وبجوار الحجر الذى تجلس عليه السيدة تنبت شجيرة صغيرة مورقة.

وأنظر كذلك إلى لوحة القديسة، والتى سماها الفنان «القلادة»، تجدها أقرب إلى فتاة عصرية ذات شعر كثيف متماوج وفستان يميل إلى اللون الأبيض ويلتصق بجسمها مبرزًا مفاتنه، وفوق الهالة التى حول رأسها يقف هدهد فى فمه وردة، وفى عينيها نظرة تلتمع بالأمل، وكفها مضمومة فوق صدرها فى تعبير ينم عن العاطفة، وندف السحاب تتناثر فى فراغ النافذة المضيئة خلفها وتهفهف بالنسمات المنعشة!

وهذا وجه قمرى لفتاة يذكرنا بوجوه أقنعة الفيوم «لوحة وجه وتفاحة»، لكن عينيها العسليتين الحالمتين تسيلان عذوبة ووعودًا









من مجموعة الطبيعة الصامتة «تين»، «مانجو»، «عنب»، «جوافة»

بالحب، فيما ترفُّ ابتسامة شهية على شفتيها مثل ثمار الفراولة!

وفى عدد غير قليل من اللوحات قدم الفنان تكوينات من «الطبيعة الصامتة» للزهور والفواكه والأسماك والأوانى الخزفية، مستقاة من فكرة القربان فى المسيحية، واستخدم فى رسمها نفس الحلول الفنية التى رسمت بها فى مشاهد الفن القبطى إلى حد كبير، لكنه هنا يضفى عليها حسًا دنيويًا خالصًا بجمال الطبيعة وطيباتها، فوق كونها تعبيرًا استطيقيا عن علاقات بنائية للشكل الفنى بعيدة عن المفهوم الدينى، وأكثر قربًا من ذاتية الفنان وقيم الفن الحديث.

حتى فى لوحته عن الملاك حاملاً الشمعدان الثلاثى «لوحة الملاك فى الصحراء»، نراه طفلاً ظريفًا بزى الفرسان الرومانيين، ينقل خطواته على الأرض بإيقاع ناعم رشيق، وطرف قدمه ـ بالكاد ـ يلامس الأرض وكأنه على أهبة الطيران أو الرقص، ناظرًا نحونا بعيون متألقة وابتسامة عذبة، وعلى الجانب الأيمن تتردد ـ فوق شريط طولى ممتد ـ وحدة الهلال وهو يحتوى الصليب بداخله، رمزًا لوحدة عنصرى الأمة.

الرؤية الجمالية.. طريق الخلاص:

وغنى عن البيان أن الرسالة التعبيرية الرمزية وحدها لا تقيم دعائم عمل فنى، فالفيصل دائمًا هو القيم التشكيلية التى يقوم عليها العمل، والتى تنجح فى تغليف «الرسالة» فتنأى بها عن وسائط التعبير السياسى أو الأدبى أو الدعائى.

فماذا قدم التونى من قيم تشكيلية فى هذا المعرض؟.. وكيف فك الاشتباك مع قيم التراث وتواصل مع قيم الحداثة؟

لقد كان طريق الخلاص بالنسبة له هو نفس الطريق الذى سلكه فى معارضه السابقة، وهو المنظور الشعبى المصرى فى الحلول الفنية للوحة، ليس ـ فحسب ـ من خلال عضوية الفطرة والسذاجة البادية فى نسب التشريح والمنظور الهندسى والخط الصريح الذى يحدد كل الأشكال، بل الأهم من ذلك كله: منظور التعبير الرمزى والمجازى، الذى بين هذه العناصر ـ السابق الإشارة إليها ـ بالرؤية الداخلية لا الرؤية البصرية، فيعطى للأشكال أوضاعًا وأحجامًا بمنطق مختلف عن منطق الواقع، تبعًا لأهميتها ومكانتها بداخله وليس تبعًا لما يراها عليه بالنظر، وتندرج تحت ذلك المفهوم جميع العناصر التشكيلية الأخرى، من لون وخط وتكوين، فهى جميعًا عناصر رمزية بشكل أو بآخر، هذا مع الإقرار باختلاف المضمون الرمزى بين الرسالة التراثية التى استقى منها الفنان نماذجه، وبين رسالته الرمزية الجديدة.

واستطرادًا لهذا المنهج جعل التونى من الخط الأسود بطلاً رئيسيًا فى كل اللوحات، إنه لا يحدد المشخصات والعناصر فحسب، بل يجسم أجرامها تبعًا لسمكه أو رقته، ويشارك فى تحديد الأبعاد الثلاثية للمنظور الهندسى، بما يستحدثه الفنان من إطارات داخلية تحيط التكوينات بوحدات زخرفية، قد تبدو أحيانًا على هيئة نوافذ أرابيسكية، وأحيانًا أخرى على هيئة براويز الصور العتيقة، ويقوده ذلك إلى إيلاء الوحدات الزخرفية أهمية مضاعفة، استجابة للإيقاع النغمى للخط المسترسل بحرية، وكذلك للمفهوم الشرقى والشعبى للتصوير، الذى لا يحبذ ترك فراغ على مسطح اللوحة، فيعمل على توشية كل الفراغات بعناصر خطية مساعدة، قد تكون زخرفية (مثل الوحدات الهندسية والنباتية) أو موضوعية (مثل الطيور والأسماك والملائكة.. إلخ).

ويبدو واضحًا استفادة التونى من رسوم الوشم الشعبية، ومن خطوط زخارف النسجيات القبطية، فى التنوع الإيقاعى للخط، وفى استخدامه العناصر الزخرفية المساعدة، وكذا استفادته من رموز الفن القبطى بالأسلوب التقليدى الذى عرف به، مثل السمكة والوردة والطائر والمثلث والنخلة والملاك والعذراء وفروع الشجر وثمار الفاكهة وأوانى الزهور وثنيات الملابس.. إلى جانب استدعائه رموزه الخاصة التى لازمته فى معارضه السابقة، مثل الهدهد والأهرام والعروسة والسمكة وأرضيات الورود.

ضوء.. أم نور؟

يبقى ثمة عنصر تشكيلى حاسم فى هذه التجربة.. وهو الضوء، ونجد أنه استوحاه من الفنون الشرقية عمومًا، ومن الفنين القبطى والإسلامى خصوصًا، فبالرغم من انشغاله بتتبع انعكاس الضوء الخارجى على المجسمات أى ظلال متدرجة أو كثيفة حادة، تعمل على تأكيد الكتلة والبعد الثالث، فإن القانون الأساسى للضوء عنده يعود إلى مصدر داخلى فى اللوحة لا إلى مصدر خارجى، ونستطيع القول إنه يشع ولا يضىء، وإنه أقرب إلى النور منه إلى الضوء، فهناك سمة روحانية صوفية تجعلك تحار فى معرفة من أين ينبع، خاصة أن السمة الغالبة على جميع اللوحات هى الدرجات اللونية المعتمة، وبالرغم من وجود الكثير من النوافذ الجصية والخشبية خلف الأشخاص فى عدد من اللوحات، تتخلل زخارفها بقع ضوئية، فإنها لا تمثل مصادر للضوء، بل تضفى حالة نورانية شفيفة على جو اللوحة، خاصة مع ما يسودها من درجات ألوان الأزرق والبنفسجى والرمادى.

... إن التجربة الإبداعية المتصلة لحلمى التونى تمثل ـ فى المردود الأخير ـ إحدى الإجابات المهمة على سؤال الهوية المصرية فى الفن المصرى المعاصر، وكم يحتاج هذا السؤال إلى اجتهادات أخرى وإجابات متنوعة من الفنانين بمختلف اتجاهاتهم! ■

من أوراق قديمة

منع أوناسيس من احتكار على مذهب ابن حنبل

وديع فلسطين

> لما كان مذهب ابن حنبل هو المذهب الذى يراعى فى إجراءات التحكيم، فقد استعانت أرامكو بفتاوى شرعية من الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول والشيخ فرج السنهورى وزير الأوقاف المصرى الأسبق اللذين أنزلا حكم الشريعة على مذهب ابن حنبل على اتفاقية الامتياز والتزامات الطرفين بموجبها

هذه قضية لم تتناولها الصحف فى حينها لأن طرفيها حرصا أشد الحرص على التزام السرية المطلقة بشأنها وعدم إفشاء أى من تفاصيلها، بل اعتبراها نزاعًا وديًا تتم تسويته بالتحكيم فى كانتون جنيف بسويسرا.

أما وقد تغيّرت الظروف، وأصبح الطرفان المتنازعان طرفًا واحدًا بعدما اشترت الحكومة السعودية كامل رأس مال الطرف الآخر وهو شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو)، وأما وقد لقى وجه ربه جميع الذين وردت أسماؤهم فى هذا التحكيم، فلم تبق من هذه القضية إلاّ عبرتها القانونية وحجيتها باعتبارها سابقة من سوابق التحكيم الدولى يُرجع إليها فى القضايا المشابهة.

كانت حكومة المملكة العربية السعودية فى عهد مؤسسها الأول الملك عبدالعزيز آل سعود قد منحت شركة أرامكو المملوكة لأربع شركات أمريكية كبرى، امتيازًا لإنتاج البترول فى المملكة العربية السعودية فى المنطقة التى حددت أبعادها فى اتفاقية الامتياز. ونص فى المادة الأولى من هذه الاتفاقية المبرمة فى ٢٩ مايو ١٩٣٣ على منح أرامكو الحق المطلق exclusive right فى «التحرى والتنقيب والحفر واستخراج ومعالجة وصنع ونقل ومعاملة وأخذ وتصدير البترول». ونص فى المادة الثانية والعشرين من الاتفاقية على أن «للشركة أن تستعمل جميع أنواع الوسائط لنقل الموظفين أو الأجهزة أو البترول ومستخرجاته».

واعتقدت الشركة أن هذه النصوص كافية لتأكيد حقها المطلق فى نقل وتصدير البترول «وفى استعمال جميع أنواع الوسائط لنقل البترول ومستخرجاته» ولاسيما أن الشركة درجت منذ اكتشافها للبترول بكميات تجارية على ممارسة هذا الحق دون منازع.

ولكن حدث فى ٢٠ يناير ١٩٥٤ أن عقد وزير المالية والاقتصاد السعودى باسم حكومته عقدًا مع المليونير أوناسيس (واسمه الكامل أرسطو سقراط أوناسيس) اليونانى المولد والأرجنتينى الجنسية والمقيم فى باريس، ويقوم أوناسيس بمقتضاه بإنشاء الشركة العربية السعودية للناقلات البحرية (سكاتو) بأسطول من الناقلات يرفع العلم السعودى ولا تقل حمولته الإجمالية فى أى وقت عن ٥٠٠ ألف طن ديدويت، كما ينشىء مدرسة بحرية فى جدة لتدريب السعوديين على العمل على ناقلات الزيت، ومدة العقد ٣٠ سنة قابلة للتجديد. ونص فى العقد على أن تكون لناقلات أوناسيس أولوية وأفضلية فى نقل بترول أرامكو- وهى شركة البترول الوحيدة العاملة فى السعودية فى ذلك الوقت - على أن يؤدى للحكومة ريعًا royafty قدره شلن وستة بنسات عن كل طن من البترول ينقل بناقلاته. واختار أوناسيس الشيخ محمد عبدالله على رضا وزير التجارة السعودى السابق، ممثلاً له. ومن مؤدّى هذه الاتفاقية أن يحصل أوناسيس على احتكار شبه تام فى عمليات نقل بترول أرامكو، وأن يقوم هو بتحديد أسعار النقل بعملة الدولار الأمريكى بموجب هذه الاتفاقية.

وارتأت شركة أرامكو أن هذه الاتفاقية تتعارض مع اتفاقية الامتياز الممنوحة لها لأن الاتفاقية الجديدة سلبت منها حق النقل الذى نصّ فى اتفاقية امتيازها نصًا صريحًا بأنه حق مطلق excfasive، ولا يجوز بالتالى انتزاعه منها أو أن يشاركها فيه أى طرف آخر.

وحاول الطرفان تسوية هذا النزاع بالاتصال المباشر وبالمراسلات، ولكن تعذر ذلك. وعندئذ توافقا على حسم النزاع عن طريق التحكيم الدولى فى جنيف بسويسرا. وبناء على ذلك، عقد الطرفان مشارطة للتحكيم بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٥ نصت على إقامة هيئة التحكيم قوامها محكمان، يُسمى كل طرف منهما محكمًا، ويقوم المحكمان بتسمية رئيس الهيئة أو المحكم الفيصل فى النزاع Referee ونص فى المشارطة على أن تكون لغة التحكيم هى اللغة العربية والإنجليزية، وأن يتم البت فيها حسب مذهب ابن حنبل المطبق فى المملكة العربية السعودية.

وطبقًا لمشارطة التحكيم قامت الحكومة السعودية بتسمية محكمها الخاص، وهو القاضى المصرى الدكتور حلمى بهجت بدوى بك (الذى اختير فى أثناء ذلك أول رئيس لمجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها) لكنه توفى فى أثناء التحكيم أثناء زيارته للقاهرة فى ٤ مارس ١٩٥٧، فقامت الحكومة السعودية بتسمية محمود حسن باشا سفير مصر الأسبق فى واشنطن ورئيس الجمعية المصرية للقانون الدولى محكمًا خلفًا له. ومن ناحيتها قامت شركة أرامكو بتسمية الوزير السابق الدكتور سابا حبشى باشا المحامى محكمًا لها. واختار المحكمان البروفسير جورج ساوسرهول Georges saures-Hall السويسرى الجنسية وعضو المحكمة الدولية للتحكيم ومعهد القانون الدولى رئيسًا لهيئة التحكيم وفيصلاً فى النزاع Referee.

واختار كل من الطرفين وكيلاً عنه يدافع عن وجهة نظره. فكان الدكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولى فى الجامعات المصرية وكيلاً عن السعودية والدكتور جورج راى George W.Ray.jr. مدير الإدارة القانونية فى أرامكو وكيلاً عنها. واستعان كل من الوكيلين بمحامين معروفين على النطاق الدولى، فكان من جملة محامى السعودية السير ليونيل هيلد Sir Lionel Heald والمحامى المصرى محمد عبدالله محمد، وكان من جملة محامى أرامكو اللورد مكنير Lord Mcnair الرئيس الأسبق لمحكمة العدل الدولية ولويل وادموند Lowell Wadmond الذى كان شريكاً لرئيس أمريكا الأسبق ريتشارد نيكسون فى مكتب المحاماة.

ولمّا كان مذهب ابن حنبل هو المذهب الذى يراعى فى إجراءات التحكيم، فقد استعانت أرامكو بفتاوى شرعية من الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول والشيخ فرج السنهورى وزير الأوقاف المصرى الأسبق اللذين أنزلا حكم الشريعة على مذهب ابن حنبل على اتفاقية الامتياز والتزامات الطرفين بموجبها.

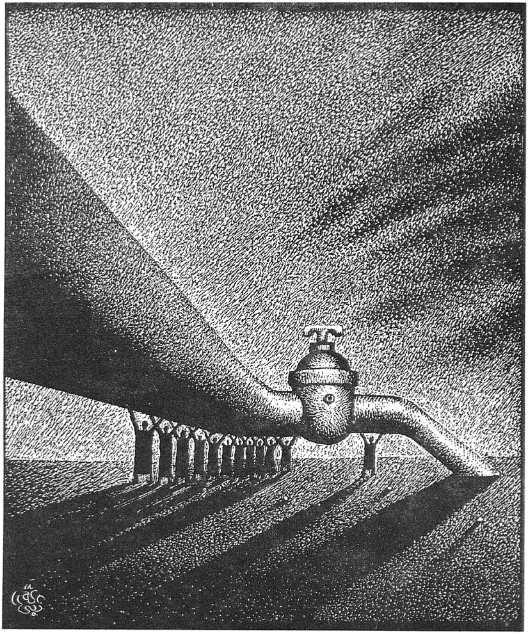
ولما كانت مشارطة التحكيم قد نصت على أن لغة التحكيم هى العربية والإنجليزية، فقد استعان كل طرف بفريق من المترجمين، كما كان لهيئة التحكيم نفسها مترجموها الخاصون، وبحكم صلتى الوثيقة بالدكتور سابا حبشى باشا، اختارنى ضمن فريق مترجمى أرامكو، ولم ألبث أن أسندت إلىّ رياسة الفريق بالتعاون مع القانونى الفلسطينى هنرى كتن. وكان الفريق يضم مترجمين من لبنان والأردن وفلسطين وسوريا والعراق والسعودية ومن الأمريكيين من أصل عربى.

صحيح أن موضوع النزاع تمثل فى الاتفاقية المعقودة مع أوناسيس، ولكن أوناسيس نفسه لم يكن له أى حضور فى هذا النزاع، لا بشخصه ولا بوكيل عنه.

وقد أثار المحامون فى أثناء التحكيم جدلاً حول طبيعة عقود الامتياز، وهل تعتبر عقودًا إدارية أم عقودًا تتعلق بخدمة عامة فيكون فيها طرف أعلى مرتبة، وهو الحكومة، وطرف أدنى مرتبة، وهو الشركة الخاصة، أو أنها عقود يتساوى فيها الطرفان ندًا مقابل ند، وتخضع بالتالى لمبادىء القانون الدولى الخاص. وكان من رأى هيئة التحكيم أن طبيعة الامتياز هى أنه تعاقد بين طرفين، طرف تمثله الدولة التى مارست سلطة سيادتها فى إبرامه، وطرف يمثل الشركة المتعاقدة التى مُنحت فى الامتياز حقوقًا، وفرضت عليها التزامات، ولا يصح انتزاع أى من هذه الحقوق منها دون موافقتها الصريحة.

وقدم وكيل كل من الطرفين مذكرات إلى هيئة التحكيم تتضمن وجهة نظره فى جميع جوانب النزاع، من قانونية وتجارية وفنية واقتصادية وما إليها. ثم قامت هيئة التحكيم بدراسة جميع هذه المذكرات فى ضوء قانون الأمم Law of Nations والمبادىء القانونية المعترف بها والقرارات الصادرة عن عصبة الأمم والسوابق القانونية فى منازعات مشابهة، وكل هذا مع مراعاة مبادىء الشريعة الاسلامية حسب مذهب ابن حنبل، وانتهت إلى أن الامتياز يخرج، بحكم طبيعته، عن كونه عقدًا إداريًا أو عقدًا لتادية خدمة عامة، وإنما هو عقد ذو طبيعة خاصة يضع الطرفين على منزلة متساوية من حيث احترام الحقوق والواجبات المنصوص عليها فيه، وهو ملزم لكليهما ولا يجوز تعديله إلا بموافقتهما الصريحة. فالعقد هو شريعة المتعاقدين حسب الاصطلاح المعروف باللغة اللاتينية Pacta Punt Pervanda.

وفحصت هيئة التحكيم الاتفاقية المبرمة بين الحكومة السعودية وأوناسيس، وارتأت أنها تمثل عقدًا بين طرفين وهو ملزم لهما دون سواهما ولا ينصرف أثره إلى



نقــــل البتـــــرول الســــــــعودى!

أطراف أخـرى، وهـو ليس قـانونًـا صـادرًا من الحكومة السـعودية ويـتـعين تطبـيـقه على أرامكو.

وأمـــا الحق المطلق فى نـقل البـتـــرول «باستخدام جميع أنواع الوسائط» فقد أكدته الممارسـة العملية السابقة للطرفين، إذ إن الشركة منذ إنتاجها للبترول بمقادير تجارية وهى تمارس حقها المطلق فى شحن البترول تحت سـمـع الحكومـة وبصـرها ودون أن ينازعـهـا فى هذا الحق أحـد، مما يدل على أن الحكومـة نفسـهـا فـهمت هذا الحق بنفس مـا فهمته أرامكو عنه، ولم يحدث أبدًا أن اعترضت على الممارسة العملية لهذا الحق من جـانب الشركة.

وأوضحت الشركة فى مذكراتها أن جميع عمليات شحن البترول السعودى تتم من خلال مرافق مملوكة لأرامكو فى ميناء رأس تنورة البحرى، ولا سبيل إلى شحن البـتـرول إلا عن طريق هذه المرافق، فكيف يجوز لأوناسيس أو غيره أن يستخدم هذه المرافق مع أنه لا يملك أى حق فيها.

صـحـيـح أن أرامكو لم تر داعـيًـا لأن تمتلك أسطولاً خاصًا بها من الناقلات و مع أن لها فى ذلك حقًا لو شاءت ممارسته، إلا أنها آثرت بيع البـتــرول بنظام التسليم على ظهـر المركب F.O.B أو ادفـع وانـقـل Cash and Carry فـى مـيناء الشـحن، فـيـجىء المشـتـرى بناقلتـه الـخـاصـة أو المسـتـأجـرة - والأمر سـيّـان - إلى رأس تنورة، ويـسـدد قـيـمـة البـتـرول الذى اشـتراه، ثـم تقوم مضـخات الشـركة بتـعـبئـة صـهـاريج الناقلة، ولم يحدث أبـدًا أن تدخلت أرامكو فى حرية المشـترى فى التـعـامل مع أى من شـركـات تأجير النـاقلات، ولا اشـترطت أن تكون الناقلة ملكًا للمشترى، فهذا أمر لا شأن لها به.

وأثارت أرامكو قـضـيــة أخـرى وهى أن لناقـلات البـتـرول بـورصـة دولـيـة هـى التى تتـولـى تحـديد أسـعـار الشـحن، فكيف يجوز لأوناسيس أن يفرض بنفسه وبصورة تحكمية أسعار الشحن، وأن يحدد العملة التى تدفع مقابل شحن البترول بناقلاته، وهى عملة الدولار الأمريكى؟ وأضافت أرامكو أن اليابان تشترى عُشر إنتاج الشركة من البترول، ولكن ليس لديها أرصدة من الدولارات تمكنها من سداد قيمة مشترياتها، فوافقت الشركة على اقتضاء ثمن البترول بالين اليابانى، وحدا بها هذا إلى فتح مكتب لها فى طوكيو يقوم بشراء ما تحتاج إليه من معدات وسلع تؤدى قيمتها من حـصـيـلة الين المدفـوع لهـا، ولو أنها اشـترطت هى أو سواها على اليابان فى ذلك الوقت أن تسدد قيمة البترول بالدولار، لفقدت عُشر إنتاجها، وبالتـالى عُشر دخلها الذى تتقاسمه مع الحكومة السعودية بمقتضى اتفاقية مقاسمة الأرباح.

وكان محامو الحكومة قد دفعوا بأن قيام أرامكو ببـيـع البـتـرول فى رأس تنورة إلى أصحاب ناقلات البترول، إنما ينطوى على تنازل الشـركـة لهم عن حـقـهـا المطلق فى الشحن، ولكن هيئة التحكيم ردّت على هذا الدفع قائلة إن البيع إلى الشاحنين لا ينطوى على أى تنازل عن حق الشـحـن من جـانـب الشـركـة، وإنما هو ممارسـة لحـقـهـا فى «استعمال جميع الوسائط لنقل البترول». وأضافت هيـئـة التحكيم قائلة إن اتـفـاقـيـة أوناسيس لا يمكن تطبـيـقـهـا من الناحـيـة العـمـلـيـة، لأن أوناسـيـس وإن كـان يملك الناقلات، إلا أنه لا يملك مرافق الشحن البحرى فى مـيـنـاء رأس تنورة المملوكة لأرامكو، ولا سبيل - قـانونًا - لإرغام أرامكو على السماح لأوناسيس باستـخـدام هذه المرافق أو حـتى لإعطاء أوناسيس أولوية أو أفـضلية فى نقل البترول السعودى على ناقلاته.

وانتـهـت لجنة التحكيم فى قرارها Award إلى أن اتفاقية أوناسيس تتعارض مع اتفاقية الامتياز الممنوحة لأرامكو، ولا تسرى أحكامها عليها.

وقامت هيئة التحكيم بالتوقيع على ثلاث نسخ من قرارها، سُلِّم وكيل كل طرف نسـخـة منه، أما النسـخـة الثـالثـة فـقـد أودعت فى مكتب محفوظات مقاطعة وكانتون جنيف مع جـمـيـع المحاضر والمذكرات الخاصة بهذا التحكيم.

ولكن مـحـمـود حسن باشا المحكم عن الطرف السـعـودى رغب فى أن يسـجل رأيًا مـخـالـفًـا Dissenting Opinion للرأى الذى انتهت إليـه هيئة التحكيم، فاعـتـرض على التفسـير المعطى لعبـارة «النقل» الواردة فى المادة الأولى من اتفاقية امتياز أرامكو، وقال أن المعنى المفهوم من سياق المادة هو النقل داخل منطقة الامتياز، وقال: لو أن الطرفين رغبا عند توقيع اتفاقيـة الامـتـيـاز فى عـام ١٩٣٣ أن ينصـرف المعنى إلى النقل البـحـرى لقـامـا بالنص على ذلك صـراحـة وأضـافـا عـبـارة «البحرى» إلى النقل.

وقد صدر قرار هيئة التحكيم فى جنيف فى الثـالث من أغـسطس ١٩٥٨ بتـوقـيـع المحكمين ورئيس هيئة التحكيم والسكرتير العـام للتـحكيم البـروفـسـيـر لاليف Pierre Lalive.

هذا وقد ارتضى الطرفان المتنازعان قرار هيئة التحكيم، وإنفاذًا لـه سـقط مـفـعـول اتفاقية أوناسيس، واستحال عليه أن يحتكر عمليات نقل البـتـرول السـعـودى كـمـا كـان يشتهى. ■

من مبعوث دولى إلى مخبر سرى

الطموح القاتل لريتشارد بتلر

محمد يوسف عدس

أمضيت فى كانبرا (العاصمة الفيدرالية لأستراليا) ما يقرب من ثلاثة أشهر كتملتْ بها عشرة أشهر من الشتاء البارد المتصل، فى رحلة طويلة أخذتنى من النصف الشمالى للكرة الأرضية إلى نصفها الجنوبى بين لندن والقاهرة وأستراليا.

خبرت فى هذه الرحلة ألوانا من المناخ البارد مختلفة باختلاف خصائص المكان والطبيعة وأثر الإنسان فيهما. ولكنى كنت على موعد مع موضوع ساخن شغلنى عما كنت أحلم به من تأمل واسترخاء ومقارنة.

شتاء كانبرا ليس غريبًا عنى، فأنا أعرف مذاقه الخاص، قد تنخفض فيه درجة الحرارة ليلاً إلى الصفر أو ما دون ذلك، ولكن النهار فى كانبرا ينعش الصدر، يتميز بسماء صافية وشمس ساطعة، ولعلها المدينة الوحيدة التى تخلو من التلوث، فالمصانع والمداخن محرم إنشاؤها فى هذه المدينة أو حولها، وبدلا من ذلك تطالعك خضرة طاغية لا يحجبها عن ناظريك سوى الأفق البعيد.

ملف صحفى

كانت وجهتى إلى المكتبة القومية، هذا المبنى الرخامى الضخم الذى يجمع فى مزيج واحد عناصر من فن العمارة اليونانية والرومانية، يضم أكثر من ستة ملايين وعاء من أوعية المعلومات على اختلاف أنواعها وموضوعاتها، وفيه ذكريات عزيزة على نفسى، فقد عملت به سنوات كانت من أخصب سنوات حياتى.

لكننى لم أذهب هذه المرة إلى المكتبة لاستئناف العمل بها، فقد انقطعت صلتى بها منذ انتقلت إلى منظمة اليونسكو فى مطلع الثمانينيات، وإنما ذهبت للبحث والاطلاع، وكان فى رأسى موضوعان محددان أحدهما ما نحن بصدده الآن: ريتشارد بتلر الذى ارتبط اسمه فى وعينا بلجان التفتيش الدولية لنزع سلاح العراق وبمأساة الشعب العراقى الذى ينوء تحت وطأة الحصار والعقوبات الاقتصادية، هذا الرجل الذى اكتسب - فى وسائل الإعلام العربية - سمعة سيئة، من هو؟ وكيف صاغته الأحداث والخبرات قبل أن تلقى به المقادير فى أرض العراق؟

إلى أى مدى يعتبر مسئولا عن القصف الأمريكى البريطانى المتواصل على العراق.. وعن الانقسام الدولى فى مجلس الأمن.. وعن الحرب الدعائية التى اندلعت بين العراق وروسيا والصين وفرنسا من ناحية وبين الولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية أخرى؟

ثارت حول ريتشارد بتلر عواصف من النقد الغاضب وصُوِّبت إليه اتهامات بالتجسس والعمالة لحساب الولايات المتحدة وإسرائيل، وذهبت الولايات المتحدة إلى أقصى المدى فى الدفاع عنه ومحاولة إعادته هو وفريق التفتيش عن الأسلحة لاستئناف عمله بعد أن كفَّ العراقيون عن التعاون معه، فقامت الولايات المتحدة بشن حملتها الشهيرة فى ديسمبر ١٩٩٨م تحت اسم «ثعلب الصحراء»، ولكن شاءت الأقدار أن تكون هذه الحملة بمثابة الإعصار الذى أطاح بريتشارد بتلر، فلم يعد إلى العراق، بل فقد وظيفته كرئيس للهيئة الخاصة للأمم المتحدة التى عرفت اختصارًا باسم «يونسكوم»، وتحطمت أحلامه فى مستقبل دولى زاهر على صخرة الصراع الدولى والشطط الأمريكى، ومضى وحيدًا جريحًا يجتر آلامه ويلقى باللوم كله على صدام حسين فى كتاب صدر له فى يونية ٢٠٠٠م بعنوان: «صدام المتمرد: تهديد أسلحة الدمار الشامل وأزمة الأمن العالمى».

Saddam Defiant

(صدام المتمرد)

Richard Butler

London: Weidenfeld & Nicolson, 2000.

بدأت بحثى فى مكتبة أستراليا القومية بالأرشيف الصحفى وفى رأسى احتمال: إذا كان بتلر شخصية مهمة فلا بد أن يكون له ملف صحفى يجمع أخباره ويتتبع تطورات حياته فى المجال الذى اشتهر فيه، ووجدت بالفعل ملفا خاصا به يحفل بأخباره فى الصحف الأسترالية على مدى ثلاثين سنة، ولأن بالمكتبة ثلاثة مؤلفين آخرين بنفس الاسم وُضع أمام اسمه فى الفهرس «الدبلوماسى» تمييزًا له عن الآخرين. لا بد أن أنبه هنا إلى أن المكتبة لا تعنى بكل الدبلوماسيين، فوجود ملف صحفى لشخص ما معناه أنه ليس شخصية عادية ولا بد أن تكون له إنجازات متميزة، هو إذن دبلوماسى من طراز متميز وليس من هذا النوع الذى ينطبق عليه ذلك الوصف الكاريكاتيرى الساخر لصديقى الراحل الدكتور محمد على العريان عندما قال: «جعلوه سفيرًا فانجعل وحطوه فانحط».

قبل أن أغوص فى ملف بتلر تصفحت عناوين القصاصات الصحفية سريعًا لأتبين بعض ملامحه: إنه ليس من أبناء الأثرياء الذين يولدون وفى أفواههم ملعقة من ذهب، على درجة عالية من الذكاء والطموح، يتميز بصراحته الشديدة وعناده ونزعته القتالية.

الحقيقة التى لا أحب إنكارها أننى عندما بدأت البحث كنت أتمنى أن أجد فى هذا الملف معلومات تدعم فكرتى السيئة عن ريتشارد بتلر، لأن هذا الاسم مرتبط فى عقلى بمأساة الشعب العراقى الذى أعرف من إحصاءات المنظمات الدولية أن ضحاياه بلغ عددهم أكثر من مليون، نصفهم من الأطفال الأبرياء. وقد وجدت بالفعل مادة صحفية مثيرة يمكن أن تسيل لعاب أى صحفى جامع للأخبار باحث عن الفضائح. فهذه فضيحة بكل المقاييس نشرتها الصحف وأثارت زوبعة تحت قبة البرلمان الفيدرالى فى كانبرا يعنى فضيحة (بجلاجل).

نشرت صحيفة الـ «إيدج» The Age فى عددها الصادر يوم ٢٠ أغسطس ١٩٩٢ بملبورن عاصمة ولاية فيكتوريا تحقيقًا صحفيًا عن ضجة قامت فى البرلمان حول اتهامات خطيرة لدبلوماسى كبير هو ريتشارد بتلر الذى يشغل منصب سفير أستراليا فى الأمم المتحدة.

تقول الصحيفة: إن معركة برلمانية حامية اشتعلت بالأمس حول شكوى تقدم بها رجل أسترالى نيابة عن زوجته التايلاندية التى كانت تعمل سكرتيرة فى السفارة الأسترالية فى بانجكوك عندما كان ريتشارد بتلر سفيرًا بها، يتهمه الرجل بأنه تحرش بزوجته جنسيا ودأب على إغرائها واضطهادها حتى تذعن له.

وقد أثارت القضية فى البرلمان النائبة المعارضة «برونوين بيشوب»، واستمر النقاش الحاد بين نواب من المعارضة ومن حزب الحكومة لمدة يومين متتاليين، وكان ريتشارد بتلر حينذاك فى مهمة بكانبرا، فلما سأله الصحفيون عن رأيه فى الاتهام نفى نفيا قاطعًا صحته، وطلب «سناتور إيفانز» وزير الخارجية آنذاك من النائبة سحب اتهامها.. ولكنها لم تفعل وأصرت على مواصلة استجواب الوزير الذى آثر ألا يعطى إجابات مباشرة على الأسئلة التى وُجهت إليه، وإنما أخذ يتحدث عن أسباب شخصية حساسة، وعن اختلاف التفاسير للحادثة الواحدة، واتهم النائبة بأنها لا تفهم كثيرًا فى هذه المسائل الحساسة والخصوصيات التى لا يصح الحديث عنها فى مجالات عامة.

ورغم أننى لم أقتنع بالإجابات الغامضة للسيد الوزير إلا أننى أيضًا داخلنى شك فى دوافع النائبة التى تنتمى إلى حزب المحافظين المعارض (فى ذلك الوقت)، وقدرت أن المسألة برمتها ربما تكون حلقة من حلقات الصراع الحزبى الذى لا يقف عند حد فى تشويه الخصم والمبالغة فى عرض سيئاته، لذلك قاومت هوى نفسى وتجاوزت هذه الواقعة وكأنها لم تحدث.

ثم شرعت أمعن النظر فى صفحات الملف الصحفى:

فى صحيفة «صنداى مورننج هيرالد الأسترالية» بتاريخ ١٤/٢/١٩٩٢ خبر تعيين ريتشارد بتلر سفيرًا بالأمم المتحدة اعتبارًا من أول مارس ليحل مكان «د. بيتر ويلنسكى»، وأن «چون مكارثى» قد خلف بتلر سفيرًا فى بانجكوك.

قبل ذلك بتسع سنوات (أى سنة ١٩٨٣) نشرت صحيفة الـ «أستراليان» الصادرة فى سيدنى يوم ٨ من يولية خبرًا تحت عنوان: هايدن (وزير الخارجية) يعين بتلر سفيرًا لنزع السلاح فى چنيف، وأنه كان يعمل من قبل ممثلاً لأستراليا فى منظمة الاقتصاد والتعاون والتنمية فى باريس.

وفى صحيفة كانبرا تيمز بتاريخ ٢٨/٨/٨٣ خبر تحت عنوان: سفيرنا لنزع السلاح يحاول أن يجعل صوت أستراليا مسموعًا فى العالم.

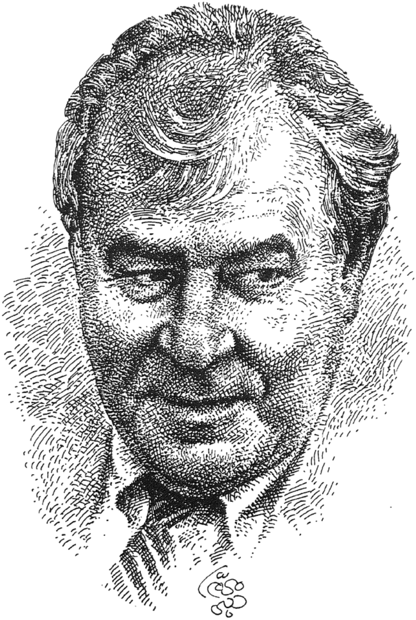
والملاحظ أنه يغلب على التغطية الصحفية فى هذه الفترة نزعة اعتزاز وفخر بما حققه دبلوماسى أسترالى شاب من نجاح فى المجال الدولى؛ تصفه إحدى الصحف فتكتب: إن بتلر يقاتل بشراسة فى سبيل نزع السلاح النووى من العالم ويعارض التجارب الذرية الفرنسية التى استأنفتها فرنسا فى جزيرة «ماروروا أتول» بالمحيط الهادى (وهى قريبة من أستراليا ونيوزيلندة).

واصلت تصفح ملف بتلر فى السبعينيات فوجدت اسمه يظهر فى أخبار متفرقة لعل أهمها - عندى - خبر منشور بصحيفة الـ «إيدج» بتاريخ ١٦/٥/١٩٧٦ تحت عنوان: دبلوماسى يلتحق بمكتب «جوف ويتلام»، وجوف ويتلام هو رئيس الوزراء العمالى السابق، أُقيل من منصبه فى مؤامرة كبرى غير مسبوقة فى تاريخ أستراليا. كان بتلر فى ذلك الوقت يشغل منصب سفير فى سنغافورة، وهو لا يزال فى سن الشباب (٣٤سنة) وأمامه مستقبل عريض فى السلك الدبلوماسى، ولكنه ضحَّى بمركز مرموق ومستقبل مضمون تلبية لنداء الزعيم الوطنى الذى يكنّ له كثيرًا من الحب والتقدير، وقد عبر بتلر عن إعجابه به فى كتابه حيث شبهه بچون كنيدى وما يمثله فى الولايات المتحدة. فويتلام سياسى جسور صاحب مبادئ واسع الأفق، استطاع أن يخترق سياج الأوضاع والأفكار الإمبريالية التى كبَّلت أستراليا وبلغت ذروتها فى عهد چون منزيس.

كان ويتلام أول من تحدث عن الجمهورية فى أستراليا، وهو الذى منح الاستقلال للمستعمرات التى ورثتها أستراليا من بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وهو الذى سعى للتخلص من الهيمنة الأمريكية والانخراط فى جهود لخلق منطقة قوية وحر[illegible] فى جنوب شرق آسيا، وأحسب أن هذ[illegible] التوجهات كلها كانت وراء المؤامرة السياسي[illegible] لعزله ووضع حكومة غير منتخبة فى السلط[illegible] من حزب المحافظين.

يبدو أن جوف ويتلام كان يمثل عند بتل[illegible] المثل الأعلى والشخصية النموذجية، وقد عب[illegible] عن هذا بوضوح فى كتابه واعترف بأنه أثنا[illegible] مرافقته لويتلام تعلم الكثير من حكمت[illegible]

فى كتاب بتلر وصف مستفيض للقاءاته الروتينية مع طارق عزيز ورجاله، وهى لقاءات كان يغلب عليها الملاينة والإغراء، وتسودها مناقشات هادئة أحيانًا وعاصفة أحيانًا أخرى، ثم تحولت فى النهاية إلى مصادمات عنيفة وتهديدات مقنعة من جانب طارق عزيز



بلغت الأمور طريقا مسدودا عندما طالب بتلر بتفتيش القصور الرئاسية بحثا عن أسلحة مخبأة فيها كما زعم، ورفض العراق هذا الطلب بحجة أن القصور الرئاسية مواقع سيادية غير مسموح بانتهاكها ولأن فى ذلك مهانة للعراق، وأطلق العراق هجومًا إعلاميا ضد بتلر ومفتشى يونسكوم واتهم الأعضاء الأمريكيين بالتجسس لحساب بلدهم وطلب منهم مغادرة العراق

وخبرته. وأن الخبرة التى اكتسبها خلال عمله معه ترسبت فى عقله وطبقها فى إدارته ليونسكوم بالعراق. يذكر من ذلك أن ويتلام كان يطلب من مساعديه كل الحقائق عن موضوع معين، فإذا شرع أحدهم يدلى برأيه فى الموضوع كان يدق المنضدة بيده وهو يقول بحسم: «لا أريد وجهات نظر الآن.. أريد الحقائق فقط.. بعد ذلك يأتى التحليل والمناقشة. يقول بتلر معلقا: هذا بالضبط ما كنت أطلبه من المستشارين والخبراء العاملين معى فى يونسكوم.

ولكن ولاءه للزعيم العمالى جوف ويتلام ولحزب العمال أكسبه من ناحية أخرى عداء حزب المحافظين وقادته وكان لذلك أثره فى تدمير مستقبله الوظيفى بعد سقوطه فى العراق.

المواجهة مع طارق عزيز:

وعندما تدهورت العلاقات بينه وبين السلطات العراقية خلال عام ١٩٩٨ إلى الحضيض، بسبب تقاريره السلبية عن العراق إلى مجلس الأمن، فيستمر الحصار والعقوبات الاقتصادية وتتواصل التهديدات العسكرية الأمريكية، انطلقت من العراق حملات دعائية مكثفة ضد بتلر اتهمته بالتجسس والعمالة للولايات المتحدة، ومع ذلك ظل يردد فى تقاريره وتصريحاته لوسائل الإعلام أن العراق يرفض التعاون مع لجان تفتيش يونسكوم ويخفى أسلحته ذات الدمار الشامل.

فى هذه الأجواء الملتهبة كانت عمليات التفتيش تحتاج إلى لقاءات منتظمة بينه وبين طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقى والمسئول عن ملف يونسكوم فى العراق.

ويصف لنا بتلر فى كتابه بعض هذه اللقاءات المثيرة التى حاول فيها طارق عزيز استفزازه لكى تفلت منه عبارة نابية أو تعبير غاضب فتسجله كاميرات الفيديو المسلطة على وجهه، ليثبت بها تحيز بتلر ضد العراق ويستخدمها فى حملته الدعائية ضده، ولكنه كان يبتلع إهانات طارق عزيز واتهاماته ولم يفقد صوابه ورد عليه بإجابات رصينة ومنطقية.

ريتشارد بتلر رغم ما هو معروف عنه من جدية وصرامة فإنه لا يخلو من روح الفكاهة، وقد ذكر فى كتابه أنه كان يحاول التخفيف من التوترات والجهامة التى سادت لقاءاته مع طارق عزيز بإلقاء مزحة أو نكتة ولكنه كان يواجه بصمت مطبق، وكان تعليقه على هذا: «لقد نسيت أن الدكتاتور لا يبتسم ولا يستجيب للمزاح لأن هذه انفعالات الإنسان السوىّ فحسب والدكتاتور ليس إنسانًا سويًا».

وفى كتاب بتلر وصف مستفيض للقاءاته الروتينية مع طارق عزيز ورجاله، وهى لقاءات كان يغلب عليها الملاينة والإغراء، وتسودها مناقشات هادئة أحيانًا وعاصفة أحيانًا أخرى، ثم تحولت فى النهاية إلى مصادمات عنيفة وتهديدات مقنعة من جانب طارق عزيز الذى يصف سلوكه وصفا مطولا تبدو فيه كراهية شديدة واشمئزاز، وبتلر رأى فى شخصية طارق عزيز مزيجًا من الغطرسة والدهاء والمكر والالتواء، ويكشف عن تقلباته المزاجية وحدة طبعه، ولا ينسى أن يصف لنا إدمانه تدخين السيجار الكوبى غالى الثمن ويتعجب: من أين يأتى طارق عزيز بتكاليف هذه العادة المكلفة وشعبه يعانى من الجوع والفقر؟

كــوفي عنان يتـــدخل:

بعد صدامات عديدة بين السلطات العراقية وبين فرق تفتيش يونسكوم تنبه كوفي عنان سكرتير عام الأمم المتحدة أن الأسلوب التصادمي الخشن الذي يتبعه ريتشارد بتلر مع العراق والذي تعززه الولايات المتحدة بالتهديد المستمر بالقصف الصاروخي والغارات الجوية أصبح أسلوبًا عقيمًا لا يجدي وأن الحلقة المفرغة التي تدور فيها المشكلة العراقية لن تنتهي إلا بالحل الدبلوماسي ذي النفس الطويل.

لقد بلغت الأمور طريقا مسدودا عندما طالب بتلر بتفتيش القصور الرئاسية بحثًا عن أسلحة مخبأة فيها كما زعم، ورفض العراق هذا الطلب بحجة أن القصور الرئاسية مواقع سيادية غير مسموح بانتهاكها ولأن في ذلك مهانة للعراق، وأطلق العراق هجومًا إعلاميا ضد بتلر ومفتشي يونسكوم واتهم الأعضاء الأمريكيين بالتجسس لحساب بلدهم وطلب منهم مغادرة العراق، وأنه لن يتعاون مع يونسكوم إلا بعد تغيير تركيبته من الخبراء التي يغلب عليها الأمريكيون والبريطانيون، حيث يرى العراق أنه لا بد من إحلال خبراء من دول محايدة مكان هؤلاء، وأنه لا بد من تغيير ريتشارد بتلر نفسه لأنه متحيز ضد العراق.

استطاع كوفي عنان أن يقنع أعضاء مجلس الأمن بضرورة تدخله الشخصي لنزع فتيل الأزمة العراقية، ومهد لزيارته في أول فبراير ١٩٩٨ بمذكرة إلى مجلس الأمن يقترح فيها مضاعفة كمية البترول المسموح بضخه وبيعه في إطار برنامج (النفط مقابل الغذاء) وأعلن - أكثر من هذا - أنه يعارض الربط بين برنامج المساعدات الإنسانية للأمم المتحدة في العراق وبين مسألة انتهاك الحكومة العراقية لقرارات مجلس الأمن.

وفي ٢٢ فبراير ١٩٩٨ عرف العالم بلقاء مشهود بين كوفي عنان وصدام حسين الذي اقتنع بضرورة تفتيش القصور الرئاسية بعد أن قُبل شرطه: أن يصحب فرق التفتيش فريق من الدبلوماسيين الدوليين المحايدين ليكونوا شهودًا على عملية التفتيش.

وقد اعتبر هذا نصرًا باهرًا لكوفي عنان وتأكيدًا لوجهة نظره أن المشكلة العراقية لا تعالجها إلا الدبلوماسية الهادئة. وهو اتجاه تعارضه الولايات المتحدة التي اتخذت من التهديد والعنف أسلوبًا وحيدًا في التعامل مع العراق، ويقلل من مصداقية ريتشارد بتلر الذي كان متسقا في جهوده مع أسلوب الولايات المتحدة وسياستها في المنطقة.

وكانت مبادرة كوفي عنان هذه هي المسمار الأول والأخطر في نعش نظرية العنف والتهديد، وبعدها بدأ العد التنازلي لنهاية يونسكوم في العراق ونهاية عمل بتلر نفسه.

كان كوفي عنان قد صرح للصحفيين بعد لقائه بالرئيس العراقي: أنه يستطيع أن يتفاهم مع صدام حسين ويتعامل معه، ويتضمن هذا التصريح نقدًا مقنعًا لأسلوب ريتشارد بتلر الذي أدى إلى إخفاق يونسكوم في مهمته، بينما كانت الولايات المتحدة تريد من كوفي عنان أن يعلن في كل تعليقاته عن الأزمة العراقية بأن تعنت صدام حسين هو السبب في استمرار العقوبات الاقتصادية وهو السبب في المأساة الإنسانية للشعب العراقي، وليس ريتشارد بتلر وتقاريره المستمرة إلى مجلس الأمن التي يشكو فيها من عدم تعاون العراق في جهود نزع السلاح، ولا إصرار الولايات المتحدة على حصار العراق وتهديده وقصفه.

وتحت ضغوط مكثفة من الولايات المتحدة كان مجلس الأمن - بعد كل أزمة تنشب بين العراق وبين يونسكوم - يقرر عودة فرق

في ٢٢ فبراير ١٩٩٨ عرف العالم بلقاء مشهود بين كوفي عنان وصدام حسين الذي اقتنع بضرورة تفتيش القصور الرئاسية بعد أن قبل شرطه: أن يصحب فرق التفتيش فريق من الدبلوماسيين الدوليين المحايدين ليكونوا شهوداً على عملية التفتيش



التفتيش إلى العراق لممارسة أعمالها، واستطاع المفتشون خلال نوفمبر حتى أوائل ديسمبر ١٩٩٨ أن يقوموا بزيارة مئات المواقع العراقية المشتبه فيها.

ولكن في يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٨ حاول فريق من المفتشين دخول مقر رئاسة حزب البعث الحاكم فلم تسمح له السلطات العراقية بذلك، وفي اليوم التالي خرج وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي يهدد بأن العراق معرض للهجوم في أي لحظة مالم يذعن لمطالب بتلر الذي زعم في تقرير له إلى مجلس الأمن أن المسئولين العراقيين لايتعاونون وقد حاولوا إخفاء وثائق خطيرة تتعلق بصنع أسلحة كيماوية.

وعلق سيرجي لافروف المندوب الروسي في مجلس الأمن فقال إن تقرير بتلر متحيز وغير دقيق وأن المقصود به هو تقديم ذريعة للهجمات الأمريكية على العراق وطالب مع مندوبي الصين وفرنسا بإبعاد ريتشارد بتلر عن رئاسة يونسكوم.

وفي يوم ١٦ ديسمبر ١٩٩٨ وقبل أن يبدأ مجلس الأمن مناقشة تقرير بتلر الدوري أمر بتلر بانسحاب مفتشي يونسكوم من العراق ليتزامن مع بدء غارات جوية وصاروخية مكثفة قامت بها القوات الأمريكية والبريطانية على العراق، فيما عرف باسم عملية «ثعلب الصحراء».

واتهم بتلر كما اتهم من قبل في أزمة نوفمبر بأنه لم يحط مجلس الأمن بقرار الانسحاب، ولكن بتلر يدافع في كتابه عن نفسه في هذه النقطة بأنه قام بواجبه في إخطار رئيس مجلس الأمن الذي تصادف في ذلك الشهر أن يكون هو المندوب الأمريكي في مجلس الأمن (بيتر بيرليه)، يقول بتلر في هذه الواقعة أنه تلقى دعوة من بيتر بيرليه لمقابلته في مكتبه حيث أوضح له أنه يجتمع به كممثل للولايات المتحدة لا باعتباره رئيس مجلس الأمن، وأخبره أنه نظرًا لرفض العراق تنفيذ قرارات مجلس الأمن وإصراره على عدم التعاون مع يونسكوم قررت الولايات المتحدة سحب أعضاء سفاراتها من المنطقة، ولهذا نصحني بسحب العاملين في يونسكوم من العراق، وكانت استجابتي بالموافقة على سحبهم تأمينا لسلامتهم. ثم عقب: «ولكن عليّ أن أخطر مجلس الأمن من خلالك باعتبارك رئيسه الحالي لكي تقوم بتبليغه إلى الأعضاء الآخرين في المجلس» فرد بيتر بيرليه: «لقد وافقت».

هذه سقطة من سقطات ريتشارد بتلر الذي أخذ الأمور ببساطة تبلغ حد السذاجة، فقد أعطى الولايات المتحدة كل ثقته وربما لم يخطر بباله أن صاحبه الأمريكي يمكن أن يهمل إبلاغ الآخرين في مجلس الأمن باعتزام بتلر سحب فرق التفتيش من العراق، وكان ينبغي على بتلر - وقد أصبح موقفه حساسًا وتحيط بعلاقته مع الولايات المتحدة الشكوك - أن يبادر بإخطار مجلس الأمن كتابة بقرار الانسحاب.

السيـــرة الذاتيـــة للدبلومـــاسي

لعله من المهم وقد وصلنا إلى هذه النقطة في مجريات الأحداث التي نحاول الاقتراب من شخصية ريتشارد بتلر للتعرف عليها، فبدون ذلك يصعب علينا فهم الكثير من مواقفه في قضية نزع سلاح العراق، ويصعب علينا - بوجه خاص - فهم كل هذا العناد والتصلب الذي أبداه في عمليات التفتيش وفي تنفيذ قرارات الأمم المتحدة.

نحتاج - في هذا الصدد - أن نتعرف على الطريقة التي فهم بها طبيعة مهمته ومسئولياته وواجباته، وعلى أسلوبه في إدارة شئون فرق المفتشين والخبراء، كما نحتاج أن نجيب عن أسئلة مهمة مثل: هل كان ريتشارد بتلر يؤمن بمبادىء معينة التزم بها؟، وإذا كان الأمر كذلك فهل سقط فعلا في شباك المخابرات الأمريكية؟ وإذا كان هذا قد حدث فهل كان سقوطه عن وعي منه أم كان محض صدفة أم نتيجة خدعة غابت عنه خيوطها الخفية؟!

أفرد بتلر في كتابه فصلا كاملا هو الفصل الثاني ليكشف لنا فيه عن نشأته وتاريخ حياته وتعليمه، ثم تدرّجه بعد التخرج من جامعة سيدني في السلك الدبلوماسي. ويذكر لنا أن أكثر ما جذبه لهذه المهنة اهتمامه المبكر بالعلاقات الدولية وانجذابه الشديد إلى مجال متخصص بعينه هو نزع السلاح النووي ووقف التجارب النووية في العالم.

ولسنا نتوقع أو نزعم أن ما أورده بتلر في كتابه عن سيرته هو الحقيقة كاملة ومجردة، فهو بالتأكيد يختار ويجتزىء من الأحداث بما يعتقد هو أنه قد شكل حياته وأثر في مواقفه، ولكننا نستطيع أن نعرف الكثير عن شخصيته من مجرد التأمل في اختياراته وطريقته في إلقاء الضوء على أحداث حياته.

إنه يركز على الأحداث التي تبرز خبراته وجدارته وانجازاته التي أهلته لقيادة فريق من الخبراء الدوليين في مهمة خطيرة، هي نزع الأسلحة ذات الدمار الشامل في العراق. كما يبرز أحداثا معينة ليدلل بها على براءته من تهمة الانحياز أو التجسس للولايات المتحدة التي ثار حولها جدل كثير.

يقول بتلر إنه نشأ في بلدة صغيرة تسمى «بوندي» تقع على ساحل المحيط الهادي شرق سيدني عاصمة ولاية «نيوسوث ويلز»، وهي من أشهر شواطىء أستراليا تمتاز برمالها الذهبية. يقول: «كنت الثاني في الترتيب بين ثلاثة إخوة.. من أسرة فخورة من الطبقة العمالية كان أبي يعمل بيديه كمنسّق للحدائق.. تطوع في الحرب العالمية الثانية عندما هددت اليابان أستراليا وشرعت مدفعيتها تقصف الشواطىء الأسترالية فهاجرت أمي إلى الداخل لتستقر في بيت يملكه بعض أقاربها في منطقة ريفية.. وهناك ولدت عام ١٩٤٢م».

يصف أولى خبراته المؤثرة في مدرسة بوندي الابتدائية حيث يقول: «كان نصف زملائي في المدرسة من المهاجرين.. معظمهم من اليهود الإشكناز الذين طردهم هتلر من أوروبا.. وفي الحديث إليهم واللعب معهم عرفت لأول مرة حقائق عن العالم خارج أستراليا.. وأنه عالم مليء بالصراع المسلح والمشكلات السياسية.. وفي المدرسة الثانوية أضيفت إلى خبرتي خبرة أخرى عن لاجئين من المجر فروا من الغزو الروسي سنة ١٩٥٦م»، هذه الخبرات - كما يقول - عزّزت اهتمامه بالعلاقات الدولية.

تخرج بتلر من جامعة سيدني سنة ١٩٦٤ متخصصًا في السياسة والاقتصاد، ثم عُين مساعدًا سياسيًا في مؤسسة الطاقة الذرية الأسترالية بقسم العلاقات الخارجية، وفي سنة ١٩٦٥ تقدم إلى وظيفة بالسلك الدبلوماسي أعلنت عنها وزارة الخارجية، ونجح في امتحان الوظيفة ضمن خمسة عشر مرشحا من بين ثمانمائة من المتقدمين، وأثناء عمله حصل على درجة الماجستير في العلوم السياسية.

وحول هذين المحورين الدبلوماسية والأسلحة النووية دارت حياته الوظيفية أكثر من ثلاثين سنة.

كانت أول وظيفة له بالخارج في سفارة أستراليا بفيينا، وأصبح هو المندوب الأسترالي في الهيئة العالمية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة، يقول بتلر: «شاهدت

في ڤيينا اقتحام حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا وكنت في زيارة لبراج حينذاك.. ورغم حداثة عهدي بالعمل شعرت أنني أستطيع المساهمة في علاج مشكلات حيوية كثيرة وأن أقيم علاقات وتواصلا مثمرا مع الآخرين وإقناعهم بالتصويت إلى جانب القضايا التي تهم أستراليا.. وكانت هذه التجربة بداية لخط مهم من خطوط حياتي الوظيفية فيما يمكن أن يسمى بالدائرة النووية».

وعندما عاد بتلر إلى كانبرا عين في وظيفة بقسم أفريقيا والشرق الأوسط ولكن لم يكد عام واحد يمر حتى تم تعيين سير «لورانس ماكنتاير» سفيرا لأستراليا في الأمم المتحدة سنة ١٩٧٠ فاختار بتلر ضمن ثمانية آخرين لمساعدته في نيويورك.

وفي سنة ١٩٧٣ انتخب جوف ويتلام رئيسًا للوزراء فسعى إليه بتلر بنفسه ومن خلال أصدقائه ليحصل على وظيفة سياسية قريبة من زعيمه المفضل، وكان ويتلام يقابله بالترحاب والود ولكنه لم يعرض عليه الوظيفة التي كان يطمح إليها، وبدلاً من ذلك عينه في منصب الرجل الثاني بسفارة أستراليا في سنغافورة سنة ١٩٧٥، وهنا يعرج بتلر على واقعة جرى فيها سوء تفاهم شديد بينه وبين دبلوماسي من الولايات المتحدة.. وهو هنا حريص على أن يمدّنا بتفاصيل هذا الصدام وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه تهمة العمالة للولايات المتحدة التي لحقت به مؤخرًا حيث يقول: «كنت عضوًا في مجموعة الحلفاء نجتمع من وقت لآخر نتبادل المعلومات والأفكار حول الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية في منطقة جنوب شرق آسيا.. وكان العضو الأمريكي يريد مني أن أكتب تقارير إلى حكومتي أحذر فيها مما أكده هو بوصفه (اختراقا شيوعيا) لڤيتنام نحو الجنوب.. ولكنني قاومت ضغوطه واستهجنت مسلكه.. وفي أثناء النقاش ارتفعت أصواتنا فذكرته حينذاك بأن رئيس الـ (سي آي إيه) في ڤيتنام عندما كان ثوار الڤيتكونج يخترقون أسوار سايجون كان لا يزال يدبج تقاريره إلى واشنطن يطمئن حكومته بأن كل شيء على ما يرام.. ويبدو أنك تريدني أن أساهم بكلام فارغ من هذا القبيل ولكنني لست مستعدًا لذلك»، ثم يعقّب: «لقد ساءت علاقتنا فلم نتصافح بعد هذه الواقعة.. ولا بد أنه كتب في تقاريره إلى واشنطن عن عدم جدارتي الأيديولوچية».

يقول بتلر: لم يكن هذا هو الصدام الوحيد لي مع الولايات المتحدة ففي خريف ١٩٨٤م كان «بوب هوك» رئيس الوزراء العمالي آنذاك يخوض معركة انتخابات جديدة.. وكنت في نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة فتلقيت إشارة من أحد أصدقائي في واشنطن قال فيها: إن إدارة الرئيس ريجان قد حذرت بوب هوك أنه إذا فاز في الانتخابات فإنهم يتوقعون منه أن يتخلص من«بل هايدن» وزير الخارجية الأسترالي ومن ريتشارد بتلر سفير أستراليا لنزع السلاح.. وكان التهديد المبطّن أنه إذا لم يفعل فإن «واشنطن سوف تجد نفسها مضطرة إلى مساندة حزب المحافظين المعارض».

يقول بتلر: «ويبدو أن سعيي المتواصل في إقناع ممثلي الدول في مؤتمر جنيف لنزع السلاح لم يعجب الإدارة الأمريكية».

قام بتلر بإخطار «بل هايدن» في رسالة خاصة عن الموضوع.. ويبدو أنه قد حدثت مواجهة بين الوزير القوي وبين رئيس الوزراء الأسترالي الذي أنكر كل ما يتعلق بهذه

في يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٨ حاول فريق من المفتشين دخول مقر رئاسة حزب البعث الحاكم فلم تسمح له السلطات العراقية بذلك، وفي اليوم التالي خرج وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي يهدد بأن العراق معرض للهجوم في أي لحظة مالم يذعن لمطالب بتلر الذي زعم في تقرير له إلى مجلس الأمن أن المسئولين العراقيين لايتعاونون



التحذيرات الأمريكية وبعث برسالة تحمل هذا المعنى إلى «ديك وولكوت» سفير أستراليا بالأمم المتحدة اطلع عليها بتلر واحتفظ بنسخة منها، ولكن الأمر الغريب في مسلك بوب هوك - كما يقول بتلر - أنه ألحقها برسالة أخرى عاجلة يطلب من وولكوت تمزيق جميع نسخ الرسالة الأولى وحذف رقمها من أرشيف السفارة كأنها لم توجد مطلقًا، وهي سابقة لم تحدث من قبل.

ويخلص بتلر من ذكر هذه الواقعة إلى النتيجة التي استهدفها، حيث يقول: «بعد ذلك يدعي العراق بأنني صنيعة لأمريكا.. فقليلاً ما يعلمون!».

عمل بتلر سفيرًا في تايلاند من سنة ١٩٨٩ إلى ١٩٩١ استطاع فيها أن يحقق تسوية بين الخمير الحمر وبين حكومة الأمير سيهانوك في كمبوديا.. يقول: بعد هذا التاريخ بسبع سنوات كنت في بغداد حيث تلقيت من القادة العراقيين نفس الانطباع الذي حملته في ذاكرتي عن الخمير الحمر: برودة ثلجية وقسوة مروعة واستبداد فكري».

وفي آخر عام ١٩٩١ عُين بتلر سفيرًا لأستراليا في الأمم المتحدة لمدة خمس سنوات من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧، وترأس أثناء ذلك وفد أستراليا إلى مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة.. واختير مع خمسة عشر دبلوماسيا لصياغة إعلان القاهرة المشهور، وفي هذا يصف لنا الصعوبات التي واجهته والصراعات الأيديولوچية والمصالح المتصادمة التي مثلتها المجموعات المختلفة التي حضرت المؤتمر، ولا ينسى أن يذكر مشاهدته لفيلم مقزز عرضته إحدى الجمعيات النسائية المصرية عن فتاة تتعرض لعملية بشعة لقطع جزء من عضوها الأنثوي.

ويبدو أن قدراته التفاوضية ومهاراته في الوصول إلى صياغات يقبل بها الجميع قد اكسبته شهرة كبيرة في الأوساط الدولية، لذلك اختارته الجمعية العامة للأمم المتحدة نائبًا لرئيس مؤتمر التنمية الاجتماعية في كوبنهاجن،وفي سنة ١٩٩٤ انتخبت بتلر رئيسًا لمجلس الاقتصاد والتعاون التابع للأمم المتحدة وكان المجلس في حاجة إلى إصلاح وتجديد فاسهم بنصيب وافر في هذا الجهد، ثم اختير بعد ذلك مع مجموعة من رجال الأمم المتحدة للإعداد لبرنامج الاحتفال بالعيد الخمسيني للأمم المتحدة وإعداد الوثيقة التاريخية التي كان مقررًا إعلانها في ذلك العيد.

وفي نهاية ١٩٩٥ قررت أستراليا بقيادة بول كيتنج رئيس الوزراء العمالي اتخاذ مبادرة كبرى في مجال نزع السلاح النووي بإنشاء «هيئة كانبرا لنزع السلاح النووي» واستدعي بتلر لرئاستها فجاء ومعه سبعة عشر خبيرًا دوليًا في مجال السيطرة على الأسلحة النووية، لوضع خطة آمنة للتخلص من هذه الأسلحة وكان بين هؤلاء روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، والبريطاني «مايكل كارڤر»، وميشيل روكار رئيس الوزراء الفرنسي الأسبق، و«چوزيف روتبلات» الحائز على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٩٥.

واستطاعت هذه المجموعة أن تتوصل إلى خطة عملية مفصلة لنزع السلاح النووي في العالم قدمته إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة وإلى مؤتمر نزع السلاح.

والحقيقة أن تاريخ ريتشارد بتلر الدبلوماسي سجل حافل بالإنجازات والنجاحات والنشاط الذي لايتطرق إليه الكلل، ولديه قدرات ومهارات فائقة في التفاوض والإدارة، يدركها هو في نفسه ويعتز بها وهي مصدر لثقته العارمة بالنفس.

ولكن انحيازه الأيديولوچي لحزب العمال الذي جعله يضحي مرة بوظيفته الدبلوماسية ليلحق بمكتب الزعيم العمالي جوف ويتلام، ثم تفرغه مرة أخرى لقيادة إحدى الحملات الانتخابية لحزب العمال، قد أكسبه عداوة حزب المحافظين وخصوصًا «چون هوارد» رئيس وزراء أستراليا الحالي الذي قام بإلغاء هيئة كانبرا لنزع السلاح النووي ثم ألغى بعثة ريتشارد إلى الأمم المتحدة.

وهنا يعلق بتلر قائلا: «كان فقدي لهذه الوظيفة هو البداية لرحلة طويلة ومثيرة حملتني إلى مكان بعيد لم تطأه قدمي من قبل ولم أحلم بالذهاب إليه في يوم من الأيام ذلك هو العراق».

كيف فهم ريتشارد بتلر طبيعة مهمته في العراق وحدودها وكيف قام بتنفيذها بناء على هذا الفهم؟

في يناير ١٩٩١ كانت العمليات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة والمعروفة باسم «عاصفة الصحراء» قد توقفت بعد إجلاء القوات العراقية من الكويت، وصدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ يحدد أنواع الأسلحة ذات الدمار الشامل في العراق متمثلة في الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوچية وكذلك الصواريخ ذات المدى الأبعد من ١٥٠ كيلو مترًا، وينص القرار على ضرورة تدمير هذه الأسلحة أو إزالتها أو تحويلها إلى مواد لا ضرر لها.

بمقتضى هذا القرار أنشئت هيئة خاصة للأمم المتحدة بالعراق سميت اختصارًا يونسكوم Unscom وهو كيان تابع لمجلس الأمن للقيام بمهمة نزع سلاح العراق، وإنشاء نظام للمراقبة يضمن عدم تمكين العراق من العودة إلى إنتاج أسلحة أخرى من هذا النوع في المستقبل، وجعل قرار مجلس الأمن إتمام عملية نزع السلاح شرطًا لازمًا لرفع العقوبات الاقتصادية عن العراق.

ويرى بتلر أن الهيئة المسماة يونسكوم أداة لمجلس الأمن لم يسبق أن وجدت هيئة مثلها من قبل، فلم يشكل هذا المجلس هيئة تابعة له لنزع سلاح دولة ما في كل تاريخه، وبناء على هذا الفهم أدرك بتلر وتصرف باعتباره مسئولاً فقط أمام مجلس الأمن لا أمام السكرتير العام للأمم المتحدة، وكانت لهذا الموقف آثاره السلبية على العلاقة بينه وبين كوفي عنان.

لجأ بتلر إلى مستشاره القانوني البريطاني «جون سكوت» لموافاته بقائمة مفصلة بالتزامات العراق كما حددها قرار مجلس الأمن، فجاءته القائمة في ٢٨ صفحة كاملة عرف منها: أنه لا بد من تجريد العراق من كل مادة أو برنامج متعلق بإنتاج أو صيانة أسلحة ذات دمار شامل، ويدخل في هذا كل سلاح وكل خطة أو برنامج وكل وثيقة وكل مصنع أو معمل أو جهاز، ولتحقيق هذا الهدف فإن يونسكوم والعاملين فيه لهم الحق كل الحق لاتخاذ أي إجراء والدخول في أي موقع واقتحام أي باب في العراق، وكان هذا مصدرًا لمصادمات كثيرة بينه وبين السلطات العراقية.

وهنا يأتي على نقطة بالغة التعقيد مثيرة للجدل، فكثير من الأجهزة التي استخدمت في صنع الأسلحة المحظورة تنطوي على إمكانات الاستخدام في أغراض سلمية يعني استخداما مزدوجا فمعامل التخمير التي تنتج عنصر «أنثراكس» القاتل يمكن غسلها لكي تستخدم في صناعة مشروب البيرة، ونفس الأجهزة التي تستخدم في إنتاج غاز الأعصاب (سارين) و«تابون» يمكن استخدامها في صناعة أقراص الأسبرين، وكان ليونسكوم الحق القانوني في تدمير هذه الأجهزة، ولكن كيف وإلى أي حد يمكن ممارسة هذا الحق؟

إن بتلر نفسه يعترف في كتابه بأن هذا الأمر يخضع للاختلاف في الرأي كما يخضع للاجتهاد، ويعترف بانه قام بتدمير عدد كبير من هذا النوع من الأجهزة والمعدات ذات الاستخدام المزدوج في المجال الكيماوي، وقد ناشده العراقيون مرات عديدة أن يترك بعض هذه الأجهزة للانتفاع

بها فى الأغراض السلمية والاكتفاء بوضعها تحت الرقابة كما كان يحدث مع مصانع أخرى، ولكن ريتشارد بتلر أصر على تدميرها، أما المعدات الضخمة فقد أمر بصب خرسانة مسلحة فى تجاويفها بحيث يستحيل التخلص منها، وامتدت سلطاته إلى ما هو أبعد من هذا فقد كان يراجع قوائم طلبات العراق من الغذاء والأدوية وكان يشطب منها تلك المواد ذات الاستخدام المزدوج ومنها مثلاً مادة الجرافيت اللازمة لصناعة أقلام الرصاص التى يحتاج إليها التلاميذ فى المدرسة.

فى تقرير نشرته مجلة «كريستيان سينس مونيتور» عام ١٩٩٨ يصف الآثار المدمرة لإجراءات يونسكوم فى نزع سلاح العراق، أشارت إلى ما قام به خبراء يونسكوم لتخريب المؤسسة العامة للتنمية الحيوانية بالعراق، التى كانت تنتج ملايين الأمصال اللازمة لصحة الحيوانات الزراعية ووقايتها من الأمراض بحجة أن معاملها ذات استخدام مزدوج، وبذلك ارتكب خبراء يونسكوم جريمة بشعة عرضت الثروة الحيوانية فى العراق للإبادة، والتفاصيل التى ذكرتها المجلة فى عملية تخريب المعامل شىء بشع لا يصدق أحد أن يجرؤ على فعله بشر متحضرون.

وهكذا تحول يونسكوم إلى غول مدمر فى العراق وبدا أن بتلر يتعسف فى استخدام الحقوق الواسعة التى خولتها له قرارات مجلس الأمن، ودعمتها الولايات المتحدة الأمريكية بالحصار وبترسانتها العسكرية الرهيبة حول العراق وبالقصف الجوى والصاروخى والتهديد المستمر، وقد أكسبه هذا صورة كريهة فى الإعلام العربى.

الكم والكيف فى نزع السلاح:

كان بتلر على وعى تام بأهمية التقارير الدورية التى كان يرسلها إلى مجلس الأمن عن العراق، وقد سجل هذا بوضوح تام فى كتابه فقال: «إذا أصبحت فى وضع يسمح لى أن أكتب تقريرًا يفيد أن العراق قد اتخذ جميع الخطوات اللازمة لنزع السلاح.. ووافق عليه مجلس الأمن فإن العقوبات الاقتصادية والحصار ينتهيان تلقائيًا».

ولكنه لم يفعل هذا طوال فترة رئاسته ليونسكوم التى امتدت عامين زار فيهما مفتشوه آلاف المواقع فلما لم يجد أسلحة وشرع يجادل فيما أطلق عليه نزع السلاح الكيفى تمييزًا له عن نزع السلاح الكمى، وهو مصطلح غامض غير محدد، وإن كنا نفهم من كتابه أنه لكى يتم نزع سلاح العراق نزعًا كيفيًا كان عليه أن يبحث عن برامج ووثائق متعلقة بإنتاج هذه الأسلحة، علم بوجودها فى العراق من مصادر استخبارات عالمية هى على وجه التحديد الـ (سى آى إيه) الأمريكية والموساد الإسرائيلية. وكانت فرق التفتيش تلاحظ تحركات مريبة للسيارات داخل المواقع العسكرية التى جرى تفتيشها، وملفات تم إخفاؤها قبل وصول هذه الفرق، وكشفت الصور الجوية التى التقطتها طائرات التجسس (يو٢) عن تجمعات كبيرة لشاحنات نقل فى قلب الصحراء بعيدًا عن العمران وهو وضع أثار شكوك المفتشين.

جرى كل هذا على خلفية حادث سابق نسف مصداقية بيانات السلطات العراقية التى أكدت فيها أنها تخلصت من كل أسلحة الدمار الشامل، وأقصد بذلك هروب الضابط حسين كامل زوج ابنة صدام حسين الذى كشف عن حقائق مفصلة لسياسة العراق فى إخفاء الأسلحة، ثم جاءت حادثة أخرى فى ٢٧

فى آخر عام ١٩٩١ عُين بتلر سفيرًا لأستراليا فى الأمم المتحدة لمدة خمس سنوات من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧، وترأس أثناء ذلك وفد أستراليا إلى مؤتمر السكان والتنمية فى القاهرة.. واختير مع خمسة عشر دبلوماسيا لصياغة إعلان القاهرة المشهور



سبتمبر سنة ١٩٩٧ استطاع فيها أحد مفتشى يونسكوم مصادرة حقيبة صغيرة مع أحد الموظفين العراقيين كان يحاول الهرب بها من باب خلفى بأحد المصانع، ووجد بها مواد كيماوية تستخدم عادة فى اختبار الأسلحة البيولوجية مثل أنثراكس وبيتولينيم.

وقد وجه بتلر إلى طارق عزيز استفسارًا عن وجود هذه الحقيبة ومحتوياتها وسر تهريبها؟ وكان جواب طارق عزيز أن هذه الحقيبة تخص وحدة عسكرية مسئولة عن أمن الرئيس صدام حسين شخصيًا، وأن المواد التى بها تخص معملاً لفحص الطعام الذى يُقدم إلى الرئيس للتأكد من خلوّه من السموم، ولم يصدق بتلر هذا الكلام وطلب تفتيش هذا الموقع فرد عليه طارق عزيز بأنه موقع سيادى ملحق بالقصور الجمهورية ولا يمكن تفتيشه.

الانزلاق من التفتيش إلى الاستخبارات:

والملاحظ من هذه الوقائع كلها أن ريتشارد بتلر انزلق بالتدريج من مهمة نزع السلاح العراقى إلى دور المخبر السرى الذى يبحث عن وثائق وأوراق مخفاة فى آلاف الملفات، ويتسمع للهمسات والأسرار التى تجرى خلف الجدران والأسوار، وقد أغرته المخابرات الأمريكية والإسرائيلية بقدرتها على تزويده بما يحتاج إليه من معلومات عن الأجهزة والتكنولوجيا التى استوردها العراق من الخارج، وعلى مراقبة حركات وأنشطة علماء العراق وآخرين غيرهم ممن لهم صلة ببرامج صناعة الأسلحة العراقية.

وراح بتلر بثقة كبيرة، يفرض نفسه وطلباته على العراق الذى أصابه الملل وأدرك فى النهاية أنه مهما فعل فلن يرضى بتلر ولن يخرج من الحصار المفروض عليه، وزاد الطين بلة تصريح مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية أن الحصار لن يرفع عن العراق إذا تم تجريد العراق من أسلحته حتى يخرج صدام حسين من السلطة، ولعلها تعلم أن مثل هذه التصريحات تزيد من شعبية صدام حسين وتشبثه بالحكم!

ومن ناحية أخرى، اقتنعت الدول الثلاثة دائمة العضوية فى مجلس الأمن (فرنسا وروسيا والصين) أن بتلر أدخل يونسكوم فى متاهات وراح يبحث عن إبرة فى كومة هائلة من القش ولن ينتهى إلى شىء.

وكان من رأى هذه الدول أن ما تم إنجازه فى نزع سلاح العراق يكفى لرفع الحصار عنه، وأن عمليات يونسكوم ينبغى أن تقتصر على مراقبة المصانع العراقية حتى لا تتحول إلى صناعة الأسلحة ذات الدمار الشامل، وأنه لا بد من تغيير تشكيلة الخبراء لإحداث نوع من التوازن فيها وأن ريتشارد بتلر لم يعد صالحًا لرئاسة هذه الهيئة لتحيزه مع الولايات المتحدة ضد العراق.

وفى مواجهة هذا النقد أخذ بتلر فى لقاءاته الصحفية يكيل الاتهامات لهذه الدول بأنها باعت قضية نزع سلاح العراق الذى يهدد أمن العالم فى سبيل مصالحها الخاصة، واتهم بريماكوف وزير خارجية روسيا آنذاك بأنه - مع آخرين من كبار السياسيين فى الكريملين - يتلقون أموالاً من العراق بصفة دورية، وزعم فى كتابه أنه عرف - من مصادر موثوق بها - قيمة هذه الأموال كما عرف أرقام الحسابات التى حولت إليها فى البنوك.

وفى مقابل هذا اتهمه العراق والدول الثلاثة المذكورة بأنه متواطئ مع الولايات المتحدة وأنه قام بإمدادها بكل المعلومات التى حصل عليها من داخل العراق مدعمة بصور التقطتها ١٥٠ كاميرا مركبة فى مصانعه للمراقبة، وهى معلومات عسكرية وصناعية ومعلومات عن الإدارات الحكومية ومواقعها، وقد استخدمت الولايات المتحدة هذه المعلومات فى تحديد مواقع لأهداف طائراتها الحربية وصواريخها الموجهة وقامت بتدميرها.

وظلت الولايات المتحدة تنكر أنها اتخذت من يونسكوم غطاء للتجسس على العراق وظل بتلر يدافع عن نفسه وعن الولايات المتحدة فى لقاءاته الصحفية، ولكنه اضطر فى كتابه إلى الاعتراف بإمكانية حدوث هذا التجسس وإن ظل ينكر تواطئه أو علمه بهذه الحقيقة ومن ثم فهو لا يستبعد أن يكون هذا قد حدث من وراء ظهره ومن خلال الموظفين الأمريكيين العاملين فى يونسكوم.

وسواء تم هذا بعلم بتلر أو بغير علمه فإنه لا يستطيع أن ينفض عن نفسه المسئولية ببساطة، فهو المسئول عن اختيار جميع الأعضاء العاملين فى يونسكوم وهو المسئول عن إدارتهم وسلوكهم الوظيفى. وقد اضطرت الصحافة الأمريكية إلى الاعتراف بعمليات التجسس وذهبت فى تبريرها مذاهب شتى. ليس هذا فحسب، بل إن أحد كبار مفتشى يونسكوم وهو الخبير الأمريكى «إشكوت ريتر» استقال من عمله وعاد إلى الولايات المتحدة ليهاجم بتلر وينتقد أسلوبه فى إدارة عمليات التفتيش ويشير إلى تورط يونسكوم فى التجسس لحساب الولايات المتحدة.

ويؤكد «إشكوت ريتر» أن تقارير بتلر عن تمرد العراق وامتناعه عن التعاون فى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة غير صحيحة، وأن القصف الأمريكى للعراق ومواصلة حصاره وتجويع شعبه لا مبرر له، وقد طالعتنا الصحف مؤخرًا (فى أغسطس ٢٠٠٠م) أن ريتر ذاهب إلى العراق لتصوير فيلم وثائقى هناك بهدف اطلاع المجتمع الأمريكى على حقائق الدمار الذى لحق بالعراق وشعبه بسبب الحصار والقصف، وقال فى تصريح له: «إن تصور أن العراق دولة شريرة غير صحيح ولا بد من نقاش موضوعى حول هذه القضية».

خلاصة:

بعد انهيار الاتحاد السوفيتى أصبحت الولايات المتحدة هى أكبر قوة فى الأرض، فلما وجدت نفسها منفردة على قمة العالم اعتبرت قيادة هذا العالم حقا خالصًا لها وحدها دون سائر البشر. ومن ثم لم تعد حريصة على التشاور مع الحلفاء وإقناعهم بحكمتها وإنما يكفى - فى نظرها - أن تقرر لكى يتبعها الآخرون.

هذا الموقف الأمريكى المفرط فى تعاليه وغلوائه وهذا الإصرار على إخضاع الآخرين طبع العلاقات الأمريكية مع الدول الأخرى ومع المنظمات الدولية، وقد أدّى - فيما يتعلق بالعراق - إلى مصادمات وانشقاق فى مجلس الأمن، وأصبحت الولايات المتحدة تتصرف بعنف بلغ ذروته فى ديسمبر ١٩٩٨، وتجلّى هذا فى حملتها الجوية الصاروخية على العراق فيما عرف باسم «عملية ثعلب الصحراء».

ولكن الذى حدث - عكس ما توقعت الولايات المتحدة - أن عملية ثعلب الصحراء كانت بمثابة الضربة القاضية التى صرعت ريتشارد بتلر وأنهت حياة يونسكوم فى العراق الذى مضى عليه الآن عامان بدون تفتيش ولا رقابة. فقدت الولايات المتحدة الرجل الذى كانت تعول على تقاريره السلبية إلى مجلس الأمن عن نزع سلاح العراق، وتتخذها مبررًا لمواصلة حصار العراق وقصفه وإبادة شعبه.

الأمر من وجهة نظر ريتشارد بتلر كما يعبر عنه فى كتابه أنه كان يكتب فى تقاريره ما سجله خبراء يونسكوم كنتيجة لجولاتهم التفتيشية، وما هو مقتنع به،

وليس في الأمر افتراء على العراق، وأنه لوكتب غير هذا لكان مجافيا للحقيقة متهاونًا في أداء واجبه متجاوزًا لمتطلبات مهمته التي وُكلت إليه.

أما الولايات المتحدة فلم يكن يعنيها من بتلر وتقاريره إلا الإشارة إلى عدم تعاون العراق مع يونسكوم وتمرده على القرارات الدولية واستمراره في سياسة إخفاء الأسلحة ذات الدمار الشامل.

وقد أثار موقف بتلر المتشدد في نزع سلاح العراق تساؤلات كثيرة عن مصداقيته في تجنيب العالم مخاطر الأسلحة ذات الدمار الشامل بينما تملك إسرائيل ترسانة نووية وأسلحة ذات دمار شامل لا تستطيع إنكارها، وفي نفس الوقت تحتل أراضي جيرانها وتقوم بعدوان شبه يومي على اللبنانيين والفلسطينيين. كثيرًا ما سئل بتلر هذا السؤال: لماذا العراق فقط؟ وكانت إجابته دائمًا واحدة وهي أنه على وعي بوجود ازدواجية في المعايير فيما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط.

وأعتقد أن توجيه هذا السؤال إلى بتلر في غير موضعه لأنه كان مسئولا فقط عن أعماله في إطار مهمة محددة بدولة معينة، والأولى أن يوجه هذا السؤال إلى الولايات المتحدة نفسها: لماذا تصر على تجريد العراق من أسلحته وتغمض العين عن أسلحة إسرائيل، هل يصبح نفس السلاح في يد إسرائيل حلوى لذيذة الطعم وفي يد العراق سماً زعافا؟!

أذكر هذا فقط لأدلل على أن مأساة العراق لا يمكن فصلها عن القضية الشاملة للشرق الأوسط بأكمله فلنتامل الحقائق التالية:

أولا: تجريد العراق من أسلحته الرادعة وصواريخه بعيدة المدى وحصار شعبه عسكريًا واقتصاديًا واستنزاف طاقته الفكرية والاجتماعية والصحية ووضعه تحت التهديد المستمر، كل هذا في إطار عملية إبادة منظمة لشعب أثبت أنه قادر على عمل شيء خطير يمكن أن يؤثر على أمن إسرائيل، والمطلوب هو القضاء على مصدر هذا الخطر والاحتفاظ لإسرائيل بتفوقها العسكري على سائر دول المنطقة.

ثانيًا: التصريحات المتوالية لأمريكا التي تعلن فيها عداءها للنظام العراقي ولصدام حسين ورغبتها في التخلص منه هراء في هراء، فالنظام العراقي المستميت في السلطة بوجهه الاستبدادي وآلياته القمعية ووحشيته الرهيبة وميوله العدوانية التوسعية، يمثل الصورة المثلى التي تحتاج الولايات المتحدة لتوظيفها، وتسعى لتثبيتها في الأذهان لكي تبرر استمرار وجودها العسكري في الخليج والهيمنة على منابع الثروة البترولية واستنزاف عوائدها في شراء أسلحة أمريكية وبريطانية لن تستخدم وإنما ستتحول إلى حديد خردة في بضع سنوات، بينما تعاني شعوب المنطقة كلها من أزمات اقتصادية حادة.

ثالثًا: استمرار النظام العراقي الحالي مع التهديد العسكري من الخارج سيؤدي إلى تقسيم العراق إلى ثلاث وحدات سياسية منفصلة، وفي ذلك القضاء النهائي على العراق كدولة. وأكثر ما تخشاه الولايات المتحدة إذا انهار النظام العراقي أن تأتي إلى السلطة قوى جديدة غير مضمونة يصعب السيطرة عليها، فقد ترى هذه القوى أن من مصلحتها التحالف مع إيران ضد الولايات المتحدة، بينما يحتضن النظام الحالي في العراق قوة معارضة إيرانية شرسة تقوم بعمليات إرهابية مؤثرة في قلب طهران.

رابعًا: في الاحتواء المزدوج للعراق وإيران وتمزيق الصف العربي بحيث لا يصل إلى أي نوع من التضامن أو التنسيق ضمان أكيد لأمن إسرائيل. واستمرار هذه الأوضاع أطول مدة ممكنة حالة مثالية مطلوبة لتمرير تسوية ظالمة مهينة تحاول الولايات المتحدة فرضها على الفلسطينيين والعرب لصالح إسرائيل.

وأرى أنه من اللازم هنا إلقاء بعض الضوء على جانب خفي من السيناريو الأمريكي وذلك هو إصابة الأجنحة الإسلامية البعيدة بالشلل حتى لا تكون ظهيرًا للعرب والفلسطينيين في قضية القدس، وذلك عن طريق إغراق هذه الأجنحة في مشكلات داخلية وإقليمية تهدد أمنها ووجودها.

فلنتامل بعمق شديد الدور الخفي للولايات المتحدة في تصعيد الصراع بين الهند وباكستان حول كشمير وحول السباق النووي، ومن الواضح أن الولايات المتحدة تبدي تحيزًا مع الهند وتعصبًا ضد باكستان.

إنه نفس الدور الخفي الذي تلعبه في إندونيسيا ابتداء من عملية انفصال تيمور الشرقية إلى الضغوط الحالية التي تمارسها على الرئيس الإندونيسي لتمنعه من زيارة بغداد وتضطره إلى التصريح بأنه يؤيد بقاء القدس تحت الإدارة الإسرائيلية. كذلك الأمر بالنسبة للأزمات الاقتصادية والسياسية التي تعصف بماليزيا ونيجيريا وتزلزل الأمن الداخلي فيهما.

لست ممن يحبون تعليق مشكلات هذه البلاد على «شماعة أجنبية» ولا ممن يجهلون أو يقللون من أثر الأخطاء القاتلة التي ارتكبها القادة السياسيون والعسكريون في هذه البلاد في تشكيل المصير الذي آلت إليه، ولكنني في نفس الوقت لا أستطيع أن أغفل عن الأصابع الأمريكية التي تلعب على التناقضات القائمة هنا أو هناك، لتفجيرها في الوقت المناسب أو دفعها إلى مزيد من السوء والتعقيد.

هذا هو جوهر السيناريو الأمريكي الذي يدور من حولنا، ندرك بعض عناصره الظاهرة وتخفى علينا عناصر أخرى دفينة، ولكنها لا تقل خطرا عما ندركه ونراه، وما العراق بمأساته المتشابكة المعقدة، ولا بتلر مهما بلغت أهميته إلا بعض عناصر هذا السيناريو الرهيب.

ربما كان ريتشارد بتلر ضحية لطموح قاتل أو ثقة عارمة بأن الولايات المتحدة قوة كونية فائقة قادرة على كل شيء، ولم يدرك أن الوهية الولايات المتحدة مجرد وهم أو سراب، وأنها ليست قادرة على كل شيء، فلم تستطع حتى المحافظة على وجوده في العراق، ولا إقناع الحكومة الأسترالية بإعادته إلى وظيفته السابقة في وزارة الخارجية، وانتهى به المطاف إلى وظيفة شكلية في منظمة أهلية هي مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك، ليعيش بقية حياته بعيدًا عن وطنه.

هذا المجلس ـ كما تفضل عليه بهذه الوظيفة ـ ساعده في إعداد ونشر كتابه الذي سجل فيه تجربته الدرامية في العراق، والذي صدّره وختمه بحكمة اقتبسها من «إدموند بيرك» تقول: «الشيء الوحيد اللازم لانتصار الشر هو أن يكفّ الصالحون عن مواجهته بالعمل». وفي تراثنا العظيم حكمة بالغة تقول: «الساكت عن الحق شيطان أخرس».

كتاب الزاوية

الأمير

تأليف: نيقولا ميكافيللي

ولد نيقولا ميكافيللي في فلورنسا عام ١٤٦٩ لأسرة كانت ذات ثراء ونفوذ لكن الدهر انقلب عليها. لم يلتحق بالتعليم الرسمي لفقر أسرته واعتمد على نفسه في الدراسة وتمكن من إتقان اللاتينية. بزغ نجم ميكافيللي، ولم يتجاوز عمره ١٩ عامًا.. حيث تولى رئاسة الحكومة المحلية في فلورنسا، وأنشأ جيشًا وطنيًا عام ١٥٠٩. بعد أن احتلت الجيوش البابوية المدينة عام ١٥١٢ تعرض ميكافيللي للسجن، وعندما خرج وجد أسرة ميديتشي الشهيرة تعود للحكم فانهارت أحلامه وعاد إلى حياة الفقر، ولم ينقذه سوى تكليف البابا له بكتابة تاريخ فلورنسا. يعد كتاب «الأمير» أشهر أعماله وجعله هذا الكتاب علمًا على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» واللجوء إلى المكر والخديعة في السياسة. توفي عام ١٥٢٧. ترجم الكتاب للعربية محمد مختار الزقزوقي ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠.

١ـ في أنواع الحكم المختلفة

إن جميع الدول والسيادات التي خضع لها البشر، ومازالوا، إما جمهورية أو ملكية. والملكيات، إما وراثية فيها حكام من أسرة بعينها منذ سنين طويلة، أو ملكية قامت حديثًا. وهذه إما جديدة تمامًا كمملكة ميلانو في عهد فرنتشسكو سفورتسا Francesco Sforza، أو كأجزاء جديدة تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة ويلحقها بها. كمملكة ميلانو في عهد ملك أسبانيا. والممتلكات التي اكتسبت بهذه الطريقة إما أنها قد ألفت حكم أمير آخر فيما سبق، أو كانت ولايات حرة، ويلحقها الأمير بممتلكاته، إما بقوة أسلحته هو، أو بقوة أسلحة غيره.

مارجريت ثاتشر

ابنة البقال

صاحبة أطول فترة فى منصب رئيس الوزراء!



لندا كولى

نحن نعرف الكثير جداً عن مارجريت ثاتشر، ونعرف فى الوقت ذاته القليل جداً عنها. إنها كانت صاحبة أطول فترة فى منصب رئيس الوزراء فى بريطانيا خلال القرن العشرين، كما أنها شغلت هذا المنصب لأطول فترة متصلة منذ اللورد ليفربول فى أوائل القرن التاسع عشر. ومن ثم فإن حجم الأوراق الرسمية التى تمس حياتها العملية مساً مباشراً يتسم بالضخامة، ولم يكشف عنها النقاب بعد. وبما أنها السيدة الأولى والوحيدة التى تزعمت حزب المحافظين، وأول امرأة من غير الأسرة الملكية تقود البلاد، فقد اجتذبت من الكتب والمقالات ما يفوق ما اجتذبه أى سياسى بريطانى حديث بخلاف ونستون تشرشل. إلا أن الكثير من تلك الكتابات كتبها الأحباء أو الأعداء؛ ولذا فهى إما شديدة التأثر بشخصيتها صعبة المراس، أو نافرة منها بالقدر الذى يمنعها من تقديم تقييم متوازن أو شامل لما حققته بالفعل.

يضاف إلى ذلك أن تقييم مارجريت ثاتشر الإنسانة عقّدته أساطير الثاتشرية، وهى العملية التى ساهمت هى نفسها فيها. إن مجلديها الخاصين بسيرتها الذاتية السياسية، The Path to Power (السبيل إلى السلطة) (١٩٩٥) و Downing Street Years (سنوات داونِنج ستريت) (١٩٩٣) قراءة إلزامية وتوليفة من تاريخ فترة ما بعد الحرب الذى له قيمته وإعادة كتابة بارعة لماضى الأمة ولماضيها. وكلما طال أمد ما عليه حزب المحافظين الحالى من ركود، كان احتمال أن تصبح تلك النسخة الثاتشرية أكثر قوة وأشد جاذبية، على الأقل بالنسبة لهؤلاء الذين يميلون لأنه يصدقوا ذلك. والقصة بكل بساطة - وإن لم تقدم من قبل بمثل هذه المهارة - هى شىء من هذا القبيل.

فقد انتصرت بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية، إلا أنها خسرت بعد ذلك إمبراطوريتها وهدوءها. وقد شارك كل من الساسة العماليين والمحافظين فى ذلك الفشل الذى كان مرجعه الشعور بالرضا عن الذات، والافتقار إلى رؤية، والتراخى، والميل إلى شراء جماعات المصالح الخاصة ومثيرى المشاكل، بدلاً من مواجهتهم مواجهة حاسمة وتنفيذ ما تحتاجه البلاد من تغيير جذرى. واستشرى الفساد فى الستينيات، حيث أسفر عن نفسه على المستوى الشخصى فى صورة الفضائح الجنسية، وانهيار الأسرة، وتعاطى المخدرات، وانهيار الاحترام الواجب تجاه المؤسسات.. وتمثل من الناحية الاقتصادية فى الإسراف والتضخم سريع التقلب والنقابات العمالية شديدة القوة. ولم يكن أى من حكومة هارولد ويلسون العمالية ولا إدوارد هيث المحافظ الذى يميل لأوروبا، بقادر على أن يحول دون الانجراف القومى والتحلل. إلا أن المُخلِّصة ظهرت فى آخر الأمر. وكغيرها من المُخلِّصين، كانت من الخارج؛ غير أنها كانت أشد بأساً لهذا السبب.

وفى أوائل السبعينيات، قال كيث جوزيف، وهو واحد من أقرب حلفاء ثاتشر فى الحزب: «إننى لم أصبح محافظاً إلا مؤخراً». (وهو ما يذكرنا بفيلم «إليزابيث» وبإعلان بطلته الذى لا يقل أهمية والمشحون سياسياً: «لقد أصبحت عذراء».) وتكتب ثاتشر فى مذكراتها قائلة إن ملاحظة جوزيف بالنسبة لها كانت بمثابة كشف واستدعاء للعمل. فلا بد من إعادة صياغة حزب المحافظين والنزعة المحافظة، لكى تصنع البلاد نفسها من جديد. وكانت هى، ابنة البقال، من سيقوم بذلك. وما إن حل عام ١٩٧٥ حتى كانت زعيمة حزب المحافظين. وبعده بأربع سنوات، انفتح لها باب رئاسة الوزراء على مصراعيه. وأعقب ذلك ١١ عاماً من الجهد رفيع المستوى، والحماس الذى لا يفتر، والتضحية التى لا تهدأ، والعزم على التجديد. ويقاس نجاحها بترويض النقابات والعودة إلى (زمن) بيروقراطية بروكسل، مما أدى إلى ازدهار الرفاهية فى الداخل، والنصر فى فوكلاند. وفازت النزعة المحافظة الثاتشرية فى انتخابات عامة تلو الأخرى. ولم يتمكن أى خصم من النيل منها. إلا أن انهيارها - وهو شأن سائر المُخلِّصين - كان على أيدى بعض حوارييها العقفين والأنانيين. لقد خلفت وراءها حزباً كان من الطبيعى - بدونها - أن ينفرط عقده ويضل الطريق، وينتهى به الحال فى سنة ١٩٩٧ إلى السقوط فى هاوية هزيمة لا تخفى على أحد.

ومن أمارات عبقرية ثاتشر السياسية أنها استطاعت أن تنسج حول نفسها تلك القصة سهلة الفهم المثيرة للانتباه، التى جعلتها أكثر قوة بما تحويه من عناصر الحقيقة. ومع ذلك فإنها انتقائية وغائية وتعتمد على أساطير قديمة العهد. فهناك أسطورة من الكوخ الخشبى إلى البيت الأبيض، التى تم تغييرها فى هذه الحالة من دكان على ناصية من نواصى جرانتام إلى داونِنج ستريت. إلا أنه استعين كذلك بالروايات الأقدم والأقل علمانية من أفكار مؤثرة خاصة المسيح الذى طال انتظاره وبالخيانات وبقبلة يهوذا. والتحدى الذى وضعه جون كامبل نفسه هو كتابة سيرة موثوق بها لمارجريت ثاتشر، رغم كونها غير مجازة، تعترف بقدر الشخصية التى تتناولها وتغربل الأساطير التى نمت حولها. وهو فى هذا المجلد - وهو الأول من مجلدين - يحقق نجاحاً باهراً فى تتبع الأحداث التى أوردتها ثاتشر نفسها فى The Path to Power وتسلسلها الزمنى.

وكما قد نتوقع، يعثر بطريقة أو بأخرى على بعض التشوهات وعلى قدر كبير من الأمور التى أغفلتها. فمن المؤكد أنه كان هناك دكان بقال فى جرانتام، وهو مسقط رأس مناسب لزعيمة مقبلة لأمة من أصحاب الدكاكين. والواقع أن العبقرى ألفريد روبرتس الذى وجه حياتها كان له تأثيره المهم على ابنته الصغيرة. فقد قدمها - وهو عضو فى مجلس المدينة ثم عمدة - للسياسة والخدمة العامة، تماماً مثلما وفر لها محل المؤن الخاص به تعليماً مبكراً فى أسس التجارة الحرة. كما أنه هو وزوجته المخلصة، التى تبدو وكأنها مغلوبة على أمرها، منحاها حساً دينياً وأخلاقياً قوياً وإقناعاً بضرورة الاجتهاد الدائم. إلا أن أعظم هدية قدماها لها هى أنهما أعطياها رغبة عارمة فى الخروج وفى أن تصبح مختلفة عنهما.

ويقدم كامبل صورتين فوتوغرافيتين مبكرتين للشخصية التى يتناولها كتابه. فى الصورة الأولى مارجريت طفلة فى الرابعة، ذات وجه مستدير وممتلئ وتتسم باليقظة والانتباه وعلى قدر كبير من الشقاوة. أما الثانية فهى البورتريه الرسمى الشهير لألفريد فى ملابس العمودية ومعه بياتريس والبنتان. كانت مارجريت فى الصورة الثانية لا تزال فى العشرين، إلا أن البريق كله كان قد اختفى والواقع أنهم جميعاً بدوا وكأنهم لم يضحكوا منذ سنين. ونجد فى عينى مارجريت، التى كانت تشخص ببصرها إلى ما وراء الصورة فزعاً وعزيمة. لم يدخل والداها الجامعة ولكنها سوف تذهب إلى أوكسفورد. كما أنها ستغادر المناطق الشرقية الرثة إلى لندن

Margaret Thatcher. Vol 1: The Grocer's Daughter

(مارجريت ثاتشر (الجزء الأول): ابنة البقال)

John Campbell

Cape, 2000, 512PP, £25.00

والجنوب السمين بلا عودة. وسوف تشترى أزياء ذات ألوان غير عملية وتزين نفسها بالقبعات واللؤلؤ، ولن ترتدى بعد ذلك الفساتين المفتقرة إلى الأناقة المصنوعة فى البيت التى تجعلها تبدو ممتلئة. وسوف تهجر فى الوقت المناسب عقيدة مذهب الأسرة النظامى وتصبح أنجليكانية، أو تصبح، كما قالتها هى بطريقة مميزة، «أعلى وأعلى». وسوف تحذف على الدوام أمها من الفقرة الخاصة بها فى موسوعة Who's Who، ونادراً ما ستعيد زيارة جرانثام، وقلما تسترجع فضائل ألفريد الفكتورية حتى وافته المنية فى أمان.

غير أنها - شأنها فى ذلك شأن سائر المتمردين - لم تخلص نفسها تخليصاً تاماً ولم تعد اختراع نفسها بالكامل. فقد وفرت لها أوكسفورد التميز والمعارف؛ ولكنها، بالرغم مما جاء فى مذكراتها، لم تغير ما كانت عليه. فقد انضمت للاتحاد المحافظ بالجامعة وكانت زعيمته فى نهاية الأمر. إلا أنها لم تشارك فى المسرحيات الطلابية أو الصحافة الطلابية، ولم تكن هناك زيادة كبيرة فى الاكتشاف الفكرى، ولم تكن هناك ارتباطات عاطفية، وبالتأكيد لم تكن هناك اكتشافات جنسية. وبدلاً من ذلك كله انضمت لجمعية جون ويزلى. ومن بين منجزات كامبل توثيق حس تاتشر الدينى الدائم. إذ كانت وهى طفلة معتادة على أداء أربعة قداسات فى الكنيسة وما لا يقل عن موعظتين كل يوم أحد؛ فقد كانت وهى طالبة تقوم برحلات وعظ أسبوعية إلى قرى أوكسفورد شاير مع زملائها أتباع المذهب النظامى. وكان أثر ذلك كله على حياتها العملية فى المستقبل ضخماً. فقد تعلمت فن الحديث العام، وكذلك لغة كتاب الملك جيمس المقدس البسيطة الطيعة. وكدأب الكثيرين غيرها من الساسة البريطانيين عبر القرون، كانت تنهل من هذا المصدر بانتظام فى خطبها، حيث كانت تستعين بالآيات وتروى الحكايات التى تتضمن العظات والعبر، وكانت تبث فى كل ما تقوله ناراً وجدية تستعيرهما من على المنبر. وحتى بعد أن زاحمت السياسة الحماس الدينى، كانت تحتفظ بحس له قيمته من الانتماء إلى النخبة («واحد منا») ذات الوازع الأخلاقى.

وكان هناك حس تاريخى أعمق كان الدين فيه مهماً لما صارت عليه. إذ كان الدين على الدوام نقطة الانطلاق بالنسبة للنساء اللائى يرغبن فى اجتياز حواجز النوع. فمن قديسى العصور الوسطى، مروراً بالقرن الثامن عشر، وصولاً إلى فلورانس نايتنجيل، كان الاعتقاد بأن الرب هو الذى يأمرهن بالعمل قد سمح للنساء المحطمات للمؤسسات التقليدية بألا يلقين بالاً لمعارضة الذكور من البشر. وكذلك لم تلق تاتشر بالاً للنقد الذكورى وربما كادت تستمتع به، لأنها كانت مسلحة تسليحاً مسبقاً بالاعتقاد بأنها تخدم هدفاً أسمى. ومن الوهلة الأولى يبدو أن هناك مفارقة فى خضوع مجتمع علمانى مثل بريطانيا لأول مرة لزعيمة دينية إلى حد كبير مثل تاتشر، وبعد ذلك بوقت قصير لسياسى ليس متديناً بصورة أو بأخرى، وهو تونى بلير. ولكن الأمم المنهارة دائماً ما تكون لديها رغبة شديدة فى الإنقاذ وتعجز عن مقاومة إغراء أى فجر جديد. وفى هذا الصدد، نجد أن تدين تاتشر خدمها خدمة كبيرة. وكشأن بلير، استطاعت تاتشر إقناع الناخبين أنه - بالجهد - يمكن أن تصبح الأمور أفضل مما هى عليه؛ لأنها هى نفسها كانت تؤمن بذلك.

إلا أنها كانت لها كذلك مزاياها الدنيوية. كانت تاتشر مختلفة تمام الاختلاف وأكثر لطفاً فى اتصالها بالرجال والنساء الذين لم يشكلوا لها أى تهديد. ولكى تكسب أصوات الناخبين أثناء تنافسها على المقعد العمالى المضمون فى دارتفورد سنة ١٩٥٠، لم تبد تاتشر قدراً كبيراً من القوة والحيوية والتنظيم وحسب، بل أبدت كذلك طريقة واقعية فى التعامل مع الناس «العاديين». ذلك أنها كانت تتذكر اسم كل عضو من أعضاء الحزب وتفاصيل تتعلق بأسرته. فقد كانت تتمتع بقدرة مدهشة على استمالة أصوات الناخبين، حيث كانت تصنع «فراديس محبة صغيرة» يشعر فيها كل ناخب تتحدث إليه للحظة وكأنه الشخص الوحيد الذى يهمها. وبعد ذلك أثبتت كذلك قدرتها على الفوز والفاعلية بتعاملها مع الأقوياء الذين يحضرون المؤتمرات السنوية لحزب المحافظين، أو مع مثيرى المشاكل، أو مع جيوشها من السكرتارية المخلصين، أو مع صغار موظفى الدولة، أو مع الأعضاء الجدد فى البرلمان من المحافظين. وهؤلاء الذين كانوا يسخرون من تاتشر باعتبارها ناظرة مدرسة شرسة، ومربية قاسية، بل وامرأة متسلطة، لم يدركوا سوى جانب واحد من جوانب شخصيتها وقوتها. فقد كانت لديها، أكثر من معظم السياسيين، القدرة على اجتذاب الحب والولاء الشديد من جانب أناس ربما لا يكونون على المستوى الفردى بهذا القدر من الأهمية، غير أنهم - مجتمعين - يحدثون فرقاً، وكانت تعرف كيف تحافظ عليهما.

ومع ذلك فقد كانت قدرتها على الترهيب هى الأخرى لها أهميتها. وفى هذا الأمر، كما فى غيره من الأمور، تحدت تاتشر بنجاح الأحكام المسبقة التى كانت تأخذ شكل علم النفس الشعبى. وقبل أن تصل تاتشر إلى ما وصلت إليه، كانوا كثيراً ما يؤكدون على أن المرأة لا يمكن أن تصبح سياسية مسيطرة لأنها تفتقر إلى «غريزة القاتل». إلا أن السبب فى ذلك، فيما قاله الراحل السير جيفرى إلتون عن الملكة إليزابيث الأولى، هو أن تلك المخلوقات كان يتم تدريبها منذ مولدها على الصفات «الذكورية». وفى المقابل كانت النساء «الحقيقيات» يملن «بصورة طبيعية» إلى التنازل والإجماع واحتلال المرتبة الثانية. بل كان هناك من يرى أن طبقة أصواتهن ذاتها لم تكن لتؤهلهن للفوز فى مباريات الصراخ فى مجلس العموم. وكان البعض يقول إن الشكل المستطيل الذى يتميز به هذا المجلس وسياسة المجابهة التى يعززها كان مؤذياً للجنس الناعم. وكان ذلك فى معظمه هراء، كما أثبتت تاتشر. إلا أن الأمر يظل مخيفاً فيما يتصل بمجرد حجم قدرتها على التعبير عن ميلها للقتال والاستفادة من هذا الميل.

وكشأن معظم النساء، لم ترب تاتشر التربية اللازمة لتوجيه غضبها والتعبير عنه، إلا أنها هربت بصورة أو بأخرى وبشكل واضح من ميل النساء إلى كتم الغضب فى صدورهن ورعايته إلى أن يصير اكتئاباً. وكما يرى كامبل هنا، فمن الممكن أن يكون القهر الذى تعرضت له فى شبابها قد شحنها بقدر كبير من الغضب، مما جعلها تعيش على ذلك الوقود الذى يمدها بالقوة طوال حياتها فيما بعد. ومن المؤكد أنه يبدو أن ما لقيته من معارضة وسخرية ونقد حتى نهاية حياتها العملية ما كان إلا ليزيدها عزماً ويجعلها تقاتل بقدر أكبر من الشراسة. وسواء أكان الأمر يتعلق بسيدات الجناح اليسارى من سومرفيل الساخرات من لكنتها ومن سياستها، أم بنبلاء حزب المحافظين الذين يعاملونها بازدراء، أم بالمفكرين الذين ينتقدونها نقداً لاذعاً، أم بالمعارضين من حزب العمال الذين يحاولون أن يبدوا أعلى مما هم عليه، أم بمنافسيها فى حزبها الذين يستشيطون غضباً، أم بالجنرال جالتييرى الذى يتهمها بأنها مصابة بهستيريا سن اليأس: لا يبدو أن أياً من هذا كله قد ترك أثراً فى جلدها السياسى.



تحدت تاتشر بنجاح الأحكام المسبقة التى كانت تأخذ شكل علم النفس الشعبى. وقبل أن تصل إلى ما وصلت إليه، كانوا كثيراً ما يؤكدون على أن المرأة لا يمكن أن تصبح سياسية مسيطرة لأنها تفتقر إلى «غريزة القاتل»

ولأن ما أنجزته تاتشر فى التغلب على المصاعب والوصول إلى غايتها المنشودة كان على قدر كبير من التميز، وكانت شخصيتها شديدة القوة، فإن هذا قد يغرى على مقاربة حياتها العملية من ناحية صفاتها الاستثنائية فى المقام الأول. إلا أن هذا لا علاقة له بالتاريخ وهو فى نهاية الأمر فيه تفرقة ضد المرأة. فهى، كأى من الساسة الناجحين، كانت محظوظة ومستفيدة إلى حد كبير من الأحداث والاتجاهات طويلة المدى التى لم تكن لها يد فيها. فلو كانت قد جاءت إلى الدنيا قبل عشرين سنة من الوقت الذى ولدت فيه لكان من الصعوبة بمكان لمن هى من جنسها أو خلفيتها الاجتماعية أن تتلقى تعليمها فى أوكسفورد وكمبردج، أو أن تحقق تلك البداية المبكرة فى السياسة البرلمانية. وكان ذلك مستحيلاً قبلها بأربعين سنة. ولو كانت من بين أطفال ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكان هناك المزيد من النساء المحترفات اللائى ينافسنها، مما يقلل من قيمة ندرتها فى السياسة. وعندما دخلت البرلمان سنة ١٩٥٩ عن فنشلى، كانت واحدة من بين اثنتى عشرة عضوة برلمان محافظات، وكانت أكثر النساء جاذبية من الناحية الجسمانية فى المجلس - وهو ما كانت وسائل الإعلام وسائر الأعضاء يشيرون إليه دائماً. وما كان ذلك ليكفى فى حد ذاته، إلا أنه لم يكن يضيرها أنها تتمتع بكل من القدرة والجاذبية. وقد ساعدها مساعدة ضخمة كون الرجال أصحاب النفوذ فى الحزب قادرين على دعمها لعدم وجود الكثيرات من طرازها.

وقد منحها هؤلاء الرجال منصباً وزارياً سنة ١٩٦١ وضموها إلى حكومة الظل سنة ١٩٦٧، بل وجعلوها زعيمة للحزب، وهم يدركون أنها ليست سابقة تصطف خلفها مثيلات لها سوف يتبعنها، وأنها لم تكن داعية. وما يبين مقدار أهمية كونها نادرة بالنسبة لنجاحها ولقبولها هو ما

كتاب الزاوية

الأمير

٢ـ فى القوات المأجورة، والمختلطة، والوطنية

لقد اصطلح على أن قوات أحد الجيران الأقوياء التى يطلب أمير مجيئها لنجدته والدفاع عنه قوات مساعدة، وهى عديمة الفائدة كالقوات المأجورة. لقد فعل ذلك فى الأزمنة الأخيرة يوليوس حين رأى فشل القوات المأجورة الذريع فى حملة فرارا، ولجأ إلى القوات المساعدة. قد تكون هذه القوات صالحة فى حد ذاتها، ولكنها دائمًا خطرة بالنسبة لأولئك الذين يستعيرونها. فالهزيمة لك إن هى انكسرت، وإن أنت انتصرت ظللت أسيرًا لها.

فليستخدم هذه القوات من لا يرغب فى الظفر. فهى أشد خطرًا من القوات المأجورة، وهى آلة الدمار الكامل؛ لأنها جميعًا متضافرة وتدين بالطاعة لغيرك، بينما تحتاج القوات المأجورة لكى تضرك، وفى حالة ظفرها، إلى وقت أطول، وفرصة مواتية. لأنها جميعًا لا تكون هيئة واحدة، وأنت الذى تستخدمهم وتدفع لهم الأجور؛ ولذلك فإن فئة عينتها قوادًا لا تستطيع أن تستولى فى الحال على سلطة تكفى لأن تتمكن من الإضرار بك. وقصارى القول: إن أشد أخطار القوات المأجورة فى جبنها وإحجامها عن القتال، ولكن خطر القوات المساعدة فى شجاعتها.

ولذلك يتحاشى الأمير العاقل دائمًا أن يستخدم هذه القوات، ويلجأ إلى قواته الوطنية، ويفضل أن ينكسر بها على أن يكسر بقوات غيره.

وعلى ذلك أختم حديثى بأن أقول: لا سلامة لأمير بدون قواته الوطنية، وبدونها يتوقف مصيره على الحظ تمامًا، مادام لا يملك وسيلة للدفاع يوثق بها حين تضطرب الأمور.



كانت أكثر النساء جاذبية من الناحية الجسمانية فى المجلس ـ وهو ما كانت وسائل الإعلام وسائر الأعضاء يشيرون إليه دائماً. وما كان ذلك ليكفى فى حد ذاته، إلا أنه لم يكن يضيرها أنها تتمتع بكل من القدرة والجاذبية. وقد ساعدها مساعدة ضخمة كون الرجال أصحاب النفوذ فى الحزب قادرين على دعمها لعدم وجود الكثيرات من طرازها

يتعرض له ذلك العدد الكبير الذى لم يسبق له مثيل من عضوات البرلمان العماليات من انتقاد شديد من الصحافة منذ عام ١٩٩٧ وعادة ما يعزى هذا النقد إلى ضآلة قدر هؤلاء النساء وخضوعهن لتونى بلير. ومع هذا فإن أحداً لم يبين أن شابات بلير أقل قدرة من شبابه أو أسلس قيادة منهم. والواقع أن حامية عضوات حزب العمال المتضخمة تتعرض لهجوم عنيف لأنها تنذر بنهاية النساء المميزات فى ويستمنستر وبحدوث تغير هيكلى كبير فى عضويته. إلا أن ثاتشر كانت مختلفة. فبسبب عصرها، وبسبب طرازها، لم تكن فى يوم من الأيام تهدد التركيبة النوعية للنظام القديم برمتها: وكان ذلك مهماً.

ومن الصعب تقدير الفرق الذى أحدثه كونها أنثى على نجاحها فى جوانب أخرى، وهو ما يعود فى جزء منه إلى أنها هى نفسها كانت دائماً متحفظة إلى حد كبير فيما يتصل بهذا الأمر. وإذا كان علينا أن نصدق الوزيرات السابقات فيما يقلنه فى مذكراتهن وأثناء شربهن، فقد كانت فى قمة نفوذها تستغل جنسها بلا رحمة، حيث كانت تستفيد من ديناميكيات الحريم فى الوقت الذى كانت تقضى فيه عليها. فهى قد تعدل ربطة عنق وزير متوسل وتربت على كتفه وتزر معطفه (لا أن تفك أزراره). وقد تكون شفتاها شديدتى الحمرة وعيناها صافيتين، وقد تتحرك طوال الوقت كى تعرض ساقين جميلتين على الدوام فى زوج من الأحذية ذات الكعب العالى. كانت تتصرف فى شبابها ـ إن صحت هذه الرواية ـ وكأنها محظية سلطان تعرض فتنتها أمام من لا يمكنهم اختبارها، وبذلك تحيلهم فى واقع الأمر إلى خصيان. غير أنها لم تكن محظية السلطان، بل كانت السلطان نفسه. فإن كثرت أخطاء الوزير أو عضو البرلمان المحافظ لم ترحمه وقضت عليه على الفور.

أما مدى نقل مثل هذه الروايات للنكهة الحقيقية لديوان مجلس وزراء تاتشر، وليس خيالات بعض زملائها من الرجال ومخاوفهم، فشىء آخر. فإن مارجريت ثاتشر والجنس، باعتباره مختلفاً عن مارجريت ثاتشر وعلاقتها الظاهرية بدنيس زوجها، منطقة لا نعرف عنها غير القليل جداً، ومن المؤكد أن هناك أدلة ضئيلة على الانغماس فى مثل تلك الأهواء فى تحليل كامبل للمراحل الأخيرة من رحلتها إلى رقم عشرة. فكأى شخص شديد الطموح ـ وعلى الأخص أية امرأة شديدة الطموح ـ كانت تلعب بحذر شديد عندما كان لا يزال هناك الكثير الذى يجب أن تظفر به. فقد كانت تؤدى واجبها فى مكتبة مجلس العموم بدقة تامة أعجزت معظم منافسيها. وكانت تدخر جرأتها المخيفة لخصومها العماليين. وكانت تستميل ساسة المحافظين من كبار السن وكذلك قاعدتها الانتخابية. وأهم شىء أنها عندما كانت وزيرة للتربية والتعليم فى حكومة إدوارد هيث التزمت بسياسة الحزب. فقد شجعت المدارس الشاملة، وأنفقت مبالغ كبيرة من المال العام، وقاتلت بضراوة من أجل الجامعة المفتوحة، وكانت تميل إلى أوروبا، وإن كان على الطريقة الديجولية. ففى إحدى المناسبات أشارت إلى أنه لو اتحدت قوى أوروبا فإنها يمكن أن «تشكل كتلة لها من القوة ما للولايات المتحدة أو روسيا».

وحتى بعد أن قاتلت هيث على زعامة الحزب وفازت عليه، كانت على استعداد للتحدى. وكما يوضح كامبل بطريقة مثيرة للإعجاب، فإن معظم من صوتوا لصالحها سنة ١٩٧٩، وكثيرين من مجموعتها البرلمانية، ربما لم يكن لديهم أدنى علم بما ستكافح من أجله فى نهاية الأمر. وسيكون جذاباً أن نرى فى مجلده الثانى مدى قدرته على الارتفاع فوق كتلة الحكم وتفاصيل السياسات والحفاظ على أصالة التحليل التى يبديها هنا. وسيكون شيقاً كذلك أن نكتشف مدى قدرته على الوصول إلى غرضه بعد دخولها فى عباءة رئيسة الوزراء. ويتساءل المرء عن مدى إدراك ثاتشر للتناقضات المتأصلة فى طموحاتها وأفكارها؟ هل كانت تعلم أن آراءها المتطرفة بشأن السوق الحرة لن تتفق بالضرورة مع نزعتها الوطنية الشديدة أو مع تقديس المحافظين للأسرة؟ هل كانت تدرى أنه سيستحيل (وهو ما سيكتشفه بلير كذلك) المضى بقوة فى التغيير الجذرى فى بريطانيا، فى الوقت ذاته الذى يتم فيه مدافعة سلطة الدولة المركزية فيها؟ وتحت ذلك التظاهر بالشجاعة، إلى أى حد كانت واعية بالتنازلات المزرية والهراء المطلوب حتماً من الساسة الرجال والنساء فى زمان الانهيار ومكانه، وكيف تعاملت معها؟

كانت الساعة الرابعة مساء يوم ٤ مايو سنة ١٩٧٩ عندما دخلت ابنة البقال المبنى رقم عشرة رئيسة للوزراء. وكان ذلك من ناحية مجرد بداية. إلا أنه كان من ناحية أخرى أوضح منجزاتها الكامنة فى ماضيها وأقلها تناقضاً. ■



أزمة الموسيقى الجادة

إبداع أم تذوق؟!

حسام الدين زكريا

مفرداتنا الموسيقية العربية لا يحكمها نظام علمى مستقر، ولذا فالموسيقى العربية نفسها مهددة بضياع الأصول، الأمر الذى يفتح الأبواب أمام مقامات الغير (سلالم الموسيقى الغربية، وموسيقى أمريكا اللاتينية)

تتفق جميع المصادر التى تداولت تاريخ الموسيقى العالمية على أن ظهور طوائف التروبادور Troubadour فى شمال إيطاليا، والتروفير Trouvere فى شمال فرنسا، والمينيزينجر Minnisinger فى ألمانيا، بدءا من القرن الحادى عشر، قد شكل أهم روافد الموسيقى غير الكنسية Secular فى تطورها نحو تعدد الأصوات Polyphony والهارمونية Harmony، لتحقق بعد أربعة قرون ذلك الإنجاز النغمى المعمارى Architectonic الهائل لموسيقى الحضارة الغربية.. أما الأمر المثير للدهشة والأسى معا فهو اتفاق معظم تلك الكتابات على التعتيم على المصادر التى استقت منها تلك الطوائف فنونها فى السرد والعزف والغناء. ومن المعروف أن التروبادور والتروفير قد ضموا إلى صفوفهم كثيرًا من النبلاء الفرسان فى الحملات الصليبية على الشرق (جمعت الحملة الصليبية فى عام ١١٤٧ بين فئات من الحجاج ينتمون إلى شمال فرنسا وجنوبها، وكذلك الزيجات الملكية، والتى نقلت معها فنون التروبادور إلى إنجلترا)، ومما لا شك فيه أنهم نهلوا من الشرق تلك المراثى، والأوراد Litanies والسيريناتات Serenatas (Sera بمعنى ليل و Sereno بمعنى الهواء الطلق، ولننظر إلى كلمة عربية مثل سرى أى مشى ليلاً، ولن ننسى بيت الشعر الشهير لبشار: وسارية لا تمل البكا.. جرى دمعها فى خدود الثرى)، وفكرة البكاء على أطلال الحبيبة.. إلخ، ولم يشر أى مؤلف غربى منصف لذلك. والملاحظ أن ما تبقى للغرب من موسيقى الشعراء الجوالين بما فيهم الجوليار Gol-iards (والذين يطلق عليهم رائدنا حسين فوزى اسم الـ «المغزلكون»، و«الأدباتية») كان شحيحًا للغاية، وأغلب الظن أنهم لم يتجشموا عناء تدوين موسيقاهم، ومن الجائز أنهم لم يعرفوا وسيلة التدوين أصلا، رغم أنه من الثابت أن زرياب كان قد وضع الأساس العلمى للتدوين الجدولى Tablature فى المعهد الموسيقى الذى أداره بنفسه فى قرطبة فى القرن التاسع الميلادى، وكان صيته يجوب الآفاق، وقيل أن أحد البابوات سافر إليه متنكرًا ودرس هناك، ولما عاد إلى فرنسا عرض المهارات التى اكتسبها (فى قواعد الغناء من تجويف الصدر، وفى قواعد عزف اللوت) أمام أقرانه، فعد علمه من الخوارق!

وهكذا تعود إلينا بضاعتنا، ولكنها لا تكتفى تلك المرة بأن ترتدى ثوبًا قشيبًا من صنع غيرنا فقط، بل تتخذ لها سكنًا منيعًا يضم عمارة مهولة وأبنية شامخة، فما هى إلا قرون أربعة إلا وكانت السيمفونيات والكونشرتوهات والكانتاتات Cantatas

أمامنا الآن مهمة ليست باليسيرة، وهي رفع مستوى تذوق الموسيقى الجادة، ونعني بها تلك الموسيقى التي تتبع قوالب متعارفا عليها ولها بنية توافقية، ومنطق تتطور من خلاله المادة اللحنية

تنهال علينا من أرجاء أوروبا وكأنها الغموض وقد صار علما!

وإذا كان القرن الخامس عشر هو بداية عصور الانحسار للشرق العربي - وقد كان بالفعل تراجعًا مفجعًا في كل مظاهر الحياة الفنية والثقافية - فإنه كان في نفس الوقت إشراقة عصر النهضة الأوروبية، على أن ذلك لا يطمس حقيقة باقية، وهي أن النظرية الموسيقية العربية قد قامت على أكتاف الأربعة الكبار منذ القرن التاسع، وهم الكندى والفارابى وابن سينا ومسك ختامهم صفى الدين الأرموى، في القرن الثالث عشر، وفي وقت كانت أوروبا فيه دون كيان موسيقى واضح، ولسنا هنا بصدد البحث في أسباب التراجع والبكاء على ماض لن يعود، أو إلقاء التهم على الهيمنة العثمانية (وغيرها). إلا أن الأمر يتطلب أكثر من وقفة شجاعة نواجه فيها الحقائق، بعد أن استسلمنا للنوم في حظائر النسيان. أليس من المخجل أن نعقد أول مؤتمر موسيقى علمى يبحث في شؤون موسيقانا بالقاهرة عام ١٩٣٢، بعد أن شرح الفارابى المتوفى عام ٩٥٠ (المعلم الثانى بعد أرسطو) في كتابه المهول «كتاب الموسيقى الكبير» الأبعاد الموسيقية الطنينية وغير الطنينية، ووضع أصول الهارمونية الحديثة قبل جان فيليب رامو J.P Rameau (١٦٨٣-١٧٦٤) بستة قرون، ورسخ قواعد صناعة الآلات الموسيقية قبل فيرديناند هيلمهولتس Ferdinand Helmtholtz (١٨٢١-١٨٩٤) بتسعة قرون، وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية في القرن الثانى عشر. فالحقيقة المرة أن عدد المقامات العربية - العمود الفقرى لأى موسيقى، بل الكيان الموسيقى ذاته - غير معروف حتى الآن على وجه التحديد، ناهيك عن تعدد الأسماء للمقام الواحد، واختلاف التعريف من باحث لآخر، وتعدد أساليب تدوين المقامات، والتناقض الصارخ في تحليل المقام ذاته مع تفتت الكيان النظرى إلى أحكام علمية مبعثرة لا تربطها قواعد راسخة شأن العلوم الثابتة.

إذن فمفرداتنا الموسيقية العربية لا يحكمها نظام علمى مستقر، ولذا فالموسيقى العربية نفسها مهددة بضياع الأصول، الأمر الذى يفتح الأبواب أمام مقامات الغير (سلالم الموسيقى الغربية، وموسيقى أمريكا اللاتينية) للدخول وملء الفراغات. ولم لا نعلنها بصراحة ونقول إن المقامات والسلالم الأوروبية قد أصبحت تزاحم مقاماتنا العربية، وفي كل قطر عربى على حدة، من خلال الآلات الأوروبية الوافدة كالبيانو، والأورج والجيتار والفلوت، وهى بذلك تفرض لغاتها الموسيقية الدخيلة، كما تفرض قدرًا من التنازل عن لغتنا الفنية المحلية والموسيقى العربية. والموسيقى العربى الآن وهو يستبدل آلاته العربية، بالآلات الوافدة، زاعمًا أنه يطور موسيقانا، ويلبسها ثوبًا حديثًا، لا يدرك أى تضحية يقدمها بحسن نية، وكيف أنه يسعى لأن نحيا ازدواجية مقامية أوروبية / عربية. والحق أن المقامات العربية كانت ثابتة عدديًا ومنتظمة ومترابطة في منظومة العلامة صفى الدين الأرموى إبان عصور ازدهارنا موسيقيا. وكم كانت موسيقانا في أمس الحاجة لجمع وتصنيف مقاماتها الجديدة، خاصة بعد دخول المقامات التركية في القرن السادس عشر، وما واكبها من مقامات ألبانية، وجركسية وكردية وبلقانية، إلا أنها قد عانت من فترات طويلة من التشتت والاندثار طوال حكم المماليك والعثمانيين، هل بوسع أحد أن يتصور ما معنى ألا تملك أمة من الأمم المعاصرة تجميعًا وتصنيفًا موثقًا لأنغامها؟! وكيف يمضى الملحنون والمشتغلون بتلك الموسيقى في اختيار المقامات والسلالم تبعًا للوحى وما تقع عليه أيديهم عفو الخاطر. ولعل هذا يناظر ما تعانيه لغتنا العربية أيضًا، فهناك كلمات تدخل وتخرج من معجمنا، وأخرى تتلاشى دون رصد أو إدراك منا.

إنها لبوادر كارثة حقًا، إذ ما هى الأمة سوى تراثها الفنى ولغتها وأساطيرها وملاحمها القومية!

الآن تتشعب القضية الرئيسية إلى عديد من القضايا وتتوه هى الأخرى في خضم واقعنا اليومى المكدس بالضوضاء والسطحية في تناول الأمور، وهكذا بينما نجدهم في الغرب يبحثون عن علاقة الموسيقى بنظرية المعلومات، ويعمدون في إطارها مفهوم الحدث الموسيقى Musical Event (النغمة - صف نغمى - ميلوديا مكتملة) حيث تحوله سلسلة الأحداث إلى نوع من الاحتمالية المؤسلبة Stylistic Probability، والسياق المؤسلب Stylistic Context، فإذا بنا غارقون في خضم جدل مستعر حول خصائص ومواصفات الأغنية الشبابية! أما من ناقد أو مؤرخ موسيقى ينادى بأن ذلك التكالب على الأغنية الفردية كان مجرد مرحلة عفى عليها الزمن منذ العصور الوسطى في العالم المتقدم، ولعل الفقرة التالية توضح لنا كيف كان الواقع الموسيقى لأوروبا عندما كانت تمر بمرحلة الأغنية الفردية، وقبل أن تدرك معنى التراكيب الصوتية المتآلفة والمتعارضة في آن، ويا ليت تلك الأغنية المزعومة تعنى شيئًا لنا الآن سواء نصًا أو لحنًا، ولنتأمل تلك الفقرة: «عندما كان الحواة Jugglers والأدباتية Minstrels، وأغلبهم من الشعراء والمغنين وعازفى الآلات في مصاحبة الرقص، خليطًا غريبًا، فكان بعضهم ينحدر من بقايا الصعاليك المتخلفين من أنقاض الإمبراطورية الرومانية المنحلة، وبعضهم من الكهان الكلتيين، وانضم إليهم الرهبان الآبقون، وغيرهم من الحرافيش من حثالات المجتمع، ولم يكن هناك حد فاصل بين الموسيقى واللاعب الماهر، الذى كان يسلى النبلاء والعامة بكراته وسكاكينه ورقصه ومشيه على الحبل، وكان الحواة لازمة من لوازم الحياة، ويقابلون بالترحاب كعناصر تسلية. كان أستاذنا الراحل حسين فوزى يطلق على هؤلاء جميعًا طائفة «الخردة».

ألم يدرك أحد منا حتى الآن منذ ظهر مؤسس المدرسة الموسيقية الحديثة في مصر وهو عبده الحامولى (١٨٤٥-١٩٠١)، والذى قاد النهضة الجديدة لتمصير موسيقانا، ومنذ أن تبلورت الموسيقى المصرية الخالصة على أيدى الجهابذة الملحنين الرواد بدءا من سيد درويش، ومرورًا بعبد الوهاب والقصبجى وأبو العلا محمد وزكريا أحمد والسنباطى وأحمد صدقى ومحمود الشريف والموجى والطويل.. إلخ، لم يخرج اهتمامهم أيضًا عن الأغنية الفردية، وهى في معظمها لم تكن سوى كيان أحادى اللحن في عصور ازدهارها مع أصوات أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم وفايزة أحمد وغيرهم، ويجب ألا نخدع أنفسنا ونصادق على القول بأنه كانت هناك بوليفونية أو كونترابونط أو بنية هارمونية مترابطة Chord Structure، ومسرح غنائى، في محاولة للخروج بموسيقانا نحو آفاق تعبيرية أرحب وأوسع نطاقًا، فكل ذلك كان محاولات فردية لا تمثل اتجاها ومسيرة نحو هدف تطويرى ما، بل إن ما يجعلنا نزداد يقينًا بأن تلك الأغنية الفردية ستدور بنا في حلقة مفرغة، هو ما حدث من انحسار في المادة اللحنية ذاتها بعد وفاة كبار المغنين للعصر الذهبى للأغنية: أم كلثوم وعبد الحليم ومحمد عبد الوهاب، وكأن موسيقانا العربية بكل رصيدها التاريخى، ومقاماتها قد كتب عليها أن تظل تدور في فلك الأغنية، تهيب بالكلمات أن تأخذ بيدها، فهل لدينا عائق يمنعنا من القفز داخل نطاق الموسيقى البحتة Absolute Music؟!

أمامنا الآن مهمة ليست باليسيرة، وهى رفع مستوى تذوق الموسيقى الجادة، ونعنى بها تلك الموسيقى التى تتبع قوالب متعارفًا عليها ولها بنية توافقية، ومنطق تتطور من خلاله المادة اللحنية. وسيتطلب ذلك بالطبع، دعم قدرة المتذوق للتعرف على الألحان ككائنات حية تخوض صراعها داخل العمل الموسيقى، ليجدها تارة وقد فاضت بالحيوية، مندفعة في جسارة، وتارة تتقوقع مهزومة، وتارة تأتينا وقد تخفت في أردان مختلفة لا يدركها إلا بشق الأنفس، وتتفتت أحيانًا إلى شذرات مولدة منها، لتعاود الظهور في أبهى حلة، وربما يكون ذلك في وضع معكوس Retrograde أو بالتواء Crabwise كل ذلك وهى تعقد الصلات الهارمونية والكونترابونطية، بحيث يتشابك النسيج ويتعقد مع تفاعل الأحداث، وتلك هى الموسيقى، وإنها لمهمة ليست بالسهلة، فهى مسؤولية المبدعين والمتذوقين على حد سواء، فلا بد أن يواكب برامج التذوق تلك مشروع لإعادة النظر من جديد في موسيقانا القومية، وتجربتنا الموسيقية برمتها مع الموسيقى العالمية، فالملاحظ أن التطور الذى حدث في موسيقانا على المستوى الأكاديمى، وقد قامت تجربته على محاكاة قوالب الغرب وإبداع موسيقى سيمفونية تستلهم تراثنا الشعبى، لم يؤت ثماره حتى الآن وظل غذاء للمتخصصين لا تعرفه إلا قلة من الهواة الجادين، وذلك منذ إنشاء أكاديمية الفنون في أواخر الخمسينيات، وتخريج دفعات من المبدعين الموسيقيين، ورغم ظهور مؤلفات الرعيل الأول من المؤلفين الموسيقيين القوميين: أبو بكر خيرت وحسن رشيد ويوسف جرجس، ومن بعدهم الجيل الثانى وأهم أسمائه: جمال عبد الرحيم وعزيز الشوان، ومن تلاهم من تلاميذ جمال عبد الرحيم وأهمهم راجح داود وزملاؤه، إلا أن تلك المؤلفات لم تتقلد بعد مكانًا يليق بها، سواء على خريطة الموسيقى العالمية، أو على مستوى قاعدة متذوقى الموسيقى الجادة في بلدنا، وقد يدعونا ذلك إلى إعادة التفكير في قوالبنا العربية من جديد على نحو مغاير، ما دامت تجربة محاكاة القوالب الغربية والعالمية لا تزال غريبة علينا، ولم تجد السيمفونية المصرية لها حتى الآن مكانًا يليق بها في قاعات الكونسير حول العالم، بحيث يسمعها العالم من حولنا، فيدرك من فوره أنها موسيقى عالمية متطورة، ومصرية الروح قلبًا وقالبًا. ويبدو أن أقرب الحلول المتاحة أمامنا، هو قيام حركة نقدية تدفع معها بعجلة التذوق للموسيقى الجادة قدمًا، فالإبداع والتنظير والنقد شأن المتخصصين، أما التذوق الموسيقى فهو مسؤولية كل أصحاب الضمائر من مثقفى مصر وكتابها، والمؤمنين بأن خلق المتذوق الجيد هو السبيل الوحيد لظهور المبدع الحقيقى، وأزعم أنه لو كان لدينا تذوق حقيقى للموسيقى في مصر وكتلة حرجة لا يستهان بها من المتذوقين الجادين لاختفى ثلاثة أرباع من يطلقون على أنفسهم اسم المبدعين، وخاصة أن موسيقانا وعلى مدار تاريخها القريب لم تعرف ناقدًا أو مفكرًا موسيقيًا على نفس مستوى نقاد الأدب من أمثال لويس عوض ومحمد مندور، إننا نعرف الكثير عن أدب توفيق الحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ وكذلك فن سيف وأدهم

قد يظن المرء أنهم فى الغرب يتذوقون الموسيقى العالمية وكأنها الغذاء اليومى المعتاد لكل فئات الشعب، والواقع يقول غير ذلك، فهناك شواهد كثيرة تشير إلى أن الموسيقى السيمفونية وموسيقى الحجرة، ما زالت دون قطاع كبير من الشعوب فى دول الغرب

وانلى ومحمود سعيد ونتفهم لوحاتهم، إلا أن ذلك لا يواكبه تذوق حقيقى لموسيقى سيد درويش والدور الهائل الذى لعبه فى تجديد الشكل الموسيقى عندنا على سبيل المثال، ومرد ذلك لغياب الحركة النقدية الموسيقية عندنا تمامًا، وقد تجاسر الكاتب فى إحدى الأمسيات بإبداء رأى غير مطروق عن سيد درويش خلاصته أن الجانب الرومانتيكى فيه لم يتعرض له أحد حتى الآن، فأبدت سيدة من الأكاديميات دهشتها بأنها لا تعرف هذا الجانب على الإطلاق فى موسيقى سيد درويش، وهو رومانتيكى من أخمص قدميه حتى قمة رأسه ـ هذا لو أدركنا أن القومية اللاواعية Unconscious Nationalism إحدى سمات الرومانتيكية، وسيد درويش كان نتاجًا مباشرًا لها!

وعلى ما يبدو فهناك أزمة عالمية فى النقد الموسيقى على مستوى العالم، وقد يظن المرء أنهم فى الغرب يتذوقون الموسيقى العالمية وكأنها الغذاء اليومى المعتاد لكل فئات الشعب، والواقع يقول غير ذلك، فهناك شواهد كثيرة تشير إلى أن الموسيقى السيمفونية وموسيقى الحجرة، ما زالت دون قطاع كبير من الشعوب فى دول الغرب. والتاريخ يروى لنا كيف واجه موسيقيون عالميون عظماء سوء فهم كبيرًا بين أبناء جلدتهم، ولم تذع شهرتهم فى أوطانهم إلا بعد أن هللت لهم الدوائر النقدية خارج أراضيهم، وأقرب الأمثلة لنا: ديميترى شوستاكوفيتش Dimitry Shostakovich (١٩٠٦ـ١٩٨٧) وإيجور سترافنسكى Igor Stravinky (١٨٨٢ـ١٩٧١) وتشارلز إيفز Charles Ives (١٨٧٤ـ١٩٥٤) وأرنولد شونبرج Arnold Shoneberg (١٨٧٤ـ١٩٥٤)، بل إن باخ الكبير J.S.Bash (١٦٨٥ـ١٧٥٠)، عملاق الموسيقى العالمية فى كل عصورها، والذى أطلق عليه بيتهوفن لقب المحيط، لم تعرفه الجماهير العريضة إلا بعد وفاته بحوالى مائة عام!، إلا أنه ما من شك فى أن التربية الجمالية والاهتمام بتذوق الفنون فى مراحل التعليم الباكرة كان له أثره الفعال (ومازال) فى توسيع قاعدة محبى الموسيقى الجادة فى الغرب على نحو أقوى بكثير مما هو حادث لدينا، ولا بد لنا من الاعتراف بذلك النقص الواضح بين ظهرانينا.. مهمة أخرى عسيرة للقائمين على التربية والتعليم مع التكدس الهائل فى الفصول، وغياب التربية الجمالية فى زحام الأولويات الدراسية الراهنة!

وترجع أزمة تذوق الموسيقى الجادة فى العالم أجمع، وهو ما ينصرف إلينا فى مصر أيضًا، لعاملين أساسيين لعبا دورًا حاسمًا (ومازالا يلعبان) فى أن تظل القاعدة العريضة للمتذوقين بمنأى عن أكثر المتع التى تتيحها الموسيقى قيمة، أولهما: هو قيام رجال الأدب بالتصدى لشرح وتحليل الأعمال الموسيقية، وهى تفسيرات ربما تكون قد نجحت فى البداية فى لفت أنظار البعض نحو ذلك العالم الفريد، إلا أنها على المدى الطويل تكون سببًا رئيسيًا فى تضليلهم عندما يظلون أسرى الحكاية المرتبطة بالسياق الموسيقى، وهو ما أطلق عليه الناقد الأمريكى المعاصر دافيد راندولف «أسطورة السرد القصصى فى الموسيقى The Myth of Storytelling in Music»، وثانى هذين العاملين هو الإفراط فى الشروح الفنية التفصيلية، وغالبًا ما يكون ذلك ضمن نصوص كتيبات البرامج لمرتادى الكونسير. وهو ما يبعد الكثيرين عما يمكن تسميته بالتذوق الصحى Healthy Appreciation، وعلى الصفحات التالية سنعرض للكيفية التى نتحرر بها من هذين المفهومين.

لقد حاول رجال الأدب دومًا أن يفسروا ما غمض من الموسيقى لنا، وهو ما صنع مشكلة جديدة منذ الحركة الرومانتيكية فى القرن التاسع عشر، خاصة لمحب الموسيقى العالمية وهو يتحسس طريقه وسط عالمها المملوء بالاصطلاحات والألفاظ المبهمة، والتى يتشدق بها مذيعو الراديو وهم يقدمون برامجها. ولتضع نفسك مكان مستمع برئ يخطو خطواته الأولى فى ذلك الطريق الحافل بالأحاجى الصوتية، عندما ينصت إلى مذيع (أو مذيعة) برنامجنا الثقافى من القاهرة، وهو يقول بكل ثقة: «نستمع الآن من أعمال فولفجانج اماديوس موتسارت إلى السيمفونية رقم ٣٦ من مقام دو كبير تصنيف كوخل Kuchel رقم ٤٢٥، والمعروفة باسم لينتس Linz، عزف الأوركسترا الفلانى وقيادة فلان..!»، إذ كيف يواجه كل هذا السيل من الألفاظ الغريبة على أذنه كمبتدئ، ويبدو أن ذلك قد أصبح اتفاقًا عالميًا، فقد درجت جميع محطات إذاعة العواصم الكبرى على تقديم السيمفونيات، والكونشرتوهات.. إلخ بهذه الطريقة، بل إن الحال فى مصر أخف وطاة، فهناك فى الغرب لابد من شرح مفسر للطابع العام لكل حركة ونشاطها من حيث السرعة والبطء، ولتتخيل نفس المذيع وهو يقول: الحركة الأولى الليجرو كون بريو Allegro con brio (نشط فى حرارة)، والحركة الثانية أندانتى كانتبليلى Andante cantabile (متهادية بروح غنائية) وكأنه يقول للمبتدئين: «دونكم هذا العالم السحرى!، وناهيك عن الاصطلاحات الفنية التى تحفل بها أغلفة الأسطوانات وكتيبات برامج الكونسير. إلا أن محاولات الأدباء جاءت بنتائج عكسية، وربما تسببت بحسن نية فى أن يضل الكثيرون ممن يعشقون الموسيقى طريقهم، وهم يتتبعون تلك التفسيرات الأدبية، ويحاولون عبثًا ربط الموسيقى بقصة أو أحداث بعينها، وبذلك يحرمون أنفسهم من متع تذوقها كموسيقى خالصة، ويرى «راندولف» أن رجال الأدب قد زادوا الموسيقى غموضًا بمحاولاتهم تلك، ويفجر رأيا جريئًا مفاده أن فهم واستيعاب الموسيقى العالمية فى متناول كل من لديه القدرة على مجرد الاستماع إليها، ويشتط فى رأيه مناديًا بأن المتذوق العادى الذى لا يملك أية معرفة بالموسيقى Lay man، هو أقدر الناس وصولاً إليها والاستمتاع بها، شريطة أن تكون لديه رغبة أكيدة لتذوقها.

التفسيرات الأدبية للموسيقى:



ترى لماذا شكل المشتغلون بالأدب اتجاهاتنا الأساسية لتذوق الموسيقى.. ذلك الفن الرفيع الذى سيظل دائمًا وأبدًا متلفعًا بغموضه وهو يهيم فى الزمان مثيرًا معه آلاف المشاعر، دون أن يتوقف لحظة ليزيح الستار عن أى تفاصيل تروى عطشنا لمعرفة أسراره، وصدق من قال هى الغموض وقد تحول إلى علم وفن!

ربما كان المصور Painter أقدر على استشفاف طبيعة الموسيقى الحقة من الأديب المتمرس، فهو كالمؤلف الموسيقى تمامًا، يخلق مادته من وسط غير لفظى Non Verbal إلا أننا قد تعودنا ونحن بصدد تجربة تذوق موسيقى أن نهيب بالكلمات كى تساعدنا على استيعاب كل تلك الأنغام الهادرة، تارة على شكل موجات متلاطمة، وتارة أخرى وكأنها نسمات رقيقة تصافح وجوه النازلين إلى الصباح بلا سلاح (ويبدو أنه لا مفر من أن يدس الأدب أنفه).

كم مرة تعرضت محاولات الأدباء، وهم يدلون بدلوهم ويفسرون الموسيقى، للتمحيص؟

إليك فقرة بقلم الكاتب الفرنسى الشهير رومان رولان Romain Rolan (١٨٦٦ـ١٩٤٤) يصف فيها انطباعاته عن سيمفونية بيتهوفن التاسعة، والتى عمدها أهل الأدب باسم الكورالية Choral، وماهى بكورالية!

«عندما نمت بذور ذلك العمل العظيم الجديد تمامًا فى وجدان بيتهوفن، أراد أن يلخص مأساة الإنسان ويضعها أمامنا بكل أهوالها، نراه يبشر ببعث الروح إلى فرح سرمدى، فرح لا يعرف الحدود، وبسبيل ذلك يهبط إلى أعماق الدياجير بعد أن حلق إلى أعلى عليين فى القداس الحافل Missa Solemnis، مستحضرًا أطياف الماضى، ثم يسمو بنفسه وقد أفلت من قبضة قدره العالى، متذكرًا صراعه اليائس طوال حياته، حينما كانت إرادته تناضل من أجل الفرح الخالص على الأرض، وهو إذ يدرك ذلك الفرح نراه وقد أدار ظهره إلى الدنيا، ويمم بوجهه شطر السماء حيث الملكوت، وجوهر الألوهية الحقيقى، وفى غمار فرحته بتلك الرؤية، يرفع بيتهوفن يديه بالترتيلة المهيبة، ويبتهل فيها إلى القادر سبحانه وتعالى أن يهزم مخاوف الإنسان وأحزانه على الأرض، وإنها لفرحة تقود الإنسان إلى أن ينضم للأبرار، وهو يلج أعتاب الفردوس Elysium».

والآن ورغم أن ذلك التعليق قد وجه اهتمام آلاف المتذوقين فى جميع أنحاء العالم نحو ما فى سيمفونية بيتهوفن من جمال خالص، إلا أننا قد نطرح سؤالاً مخلصًا: هل استطاع الكاتب أن يمد لنا يد المساعدة لفهم أو تذوق العمل الموسيقى الذى نحن بصدده؟! إن سيمفونية بيتهوفن لا تنطوى فى الواقع على أى شئ يمكننا أن نبرهن به على صدق تلك الفقرة، وإذا ما قيل أن مثل تلك الشروح لم يقصد بها إلا وصف رجع انفعالى Emotional Reaction لمستمع واع، فلا بد من ملاحظة أن الشرح لم يحتو على وصف لسيمفونية بيتهوفن التاسعة بعينها، فبإحداث تغيرات طفيفة فى كلمات النص الأدبى، يمكننا وصف أى عمل سيمفونى جاد آخر، وليكن السيمفونية الأولى لبراهمز Brahms (١٨٩٦ـ١٩٣٣)، أو السابعة لبروكنر Bruckner (١٨٢٤ـ١٨٩٦) على سبيل المثال لا الحصر!

وإذا ما كانت الصور الأدبية المغرقة فى الخيال، والتى تذوقنا الموسيقى من خلالها لأجيال عدة تلقى ضوءًا على المؤلفات الموسيقية فإنما هو ضوء يعشو بريقه الأبصار، فتذوقنا للموسيقى يعتمد على درجة فهمنا لما تستطيع توصيله، ويختلف ذلك حسب خلفيتنا الثقافية، وحالتنا المزاجية Mood، كما أن انفعالنا بعازف الموسيقى (أو مجموعة المؤدين) لدى سماعها يعد عاملاً مهمًا أيضًا، ورغم وجود تماثل بين انفعالاتنا بالموسيقى وصيغ الفن الأخرى كالتصوير والنحت والأدب، إلا أن لكل منها صفاتها الذاتية، والمسرح والسينما قد يستطيعان تصوير لحظة معينة فى حياة شخص ما بكل ما فيها من تفاصيل، بينما لا تستطيع الموسيقى بأى حال تصوير تلك اللحظة، كما أن أى مصور متوسط الموهبة يمكنه إقناعنا بمنظر ريفى رائع وقد اجتاحته عاصفة شديدة، على نحو أقوى بكثير من ذلك المشهد المزعوم فى سيمفونية بيتهوفن السادسة الرعوية Pastoral، وخطأ شائع أن نطالب الموسيقى التى لا وجود لها إلا على هيئة أصوات فقط أن تمنحنا المتع البصرية، أو التفسيرات الأدبية أيضًا، وإذا ما عدنا لموضوع الرجع الانفعالى عند الاستماع إلى الموسيقى، فسنجد ـ إذا ما تأملناه مليا ـ انبهاره عن نتاج لعوامل عدة أهمها العوامل العرقية Ethno-

الموسيقى الغربية لا تعنى شيئًا البتة لرجل من شـرق الهنـد أو صعيد مصر، تمامًا كما تبـدو الموسـيقى الشـرقية لرجـل الغـرب، والذين يدعـون فى الغـرب أنهم يتـذوقون الموسـيقى الشرقية إنما يتجـاوبون فى الواقع مع خصائصها الغربية

graphic، فـربما تبـدو مـوسـيـقى الحـضـارة الغربية شيئًا مألوفًا تمامًا لرجل الغرب، وربما يصل عن طريقهـا إلى آفـاق رحـبـة من المتع الحسية والذهنية إلا أنها لا تعنى شيئًا البتة لرجل من شرق الهند أو صعيد مصر، تمامًا كما تبدو الموسيقى الشرقية لرجل الغرب، والذين يدعـون فى الغـرب أنهم يتذوقـون الموسـيـقى الشـرقـيـة إنما يتـجـاوبون فى الواقع مع خصـائصـهـا الغـربيـة عليهم كـالإيقـاع والآلات والموتيفات اللحنيـة المملوءة بالزخارف وكسور النغمات.

ترى ماذا يحدث لو تجـاور رجلان، أحدهما قد أتى لتوه من أعـمـاق أدغال أفريقيا والآخر أوروبى النشـأة وعلى قـدر من الثـقـافـة أمام أوركسترا سيمفونى ضخم اكتملت أدواته؟!، ثم قام ذلك الأوركسترا على حين غرة بعزف تآلفـات Chords شـديدة الوطأة وهو بكامل هيئته.. قد يفزع الرجلان بنفس الدرجة، وقد يميز الأوروبى ـ على فرض معرفته بمكونات ذلك الكيان الصـوتى ـ بعض تآلفـات سـواء كـانت تنافـرًا Dessonance أو تطابقًا Conso-nance، وقـد يـتـوقـع صـدور تآلف آخـر أعلى صوتًا، أما الأفريقى فمن المحتم أن كل ذلك لن يبـدو له إلا هـراء لا مـعـنى لـه، وربما يكون التـأثـيـر الوحـيـد الـواقـع عليـه هو صدمـة الضوضاء الفجائية! ذلك مثال بسيط يرينا أن الموسـيـقى بوجـه عـام تـخـضـع للعـوامل الإثنوجـرافيـة والثـقـافيـة، وفى محـيط نظام موسيقى ذى قوالب وصيغ معينة ويخضع لمثل تلك العوامل، يستطيع التآلف الواحد أن يثـير فى المسـتمع الخـاضـع لها إحـسـاسًـا بالتوقع، أى عـاطفـة مـا، تكون اسـتـجـابـاتها نتـاجًا للعـادات والتـقـاليد والقيم الاجتمـاعيـة السائدة فى عصر بعينه، وتتـغـير تبـعًـا لها أيضًا، وأقرب الأمثلة لذلك فى مجـال الموسيقى العـالمـيـة، موسـيـقى القرن الثـامن عـشـر فى أوروبا، والتى أصبحت تبدو باردة تفتقر تمامًا إلى العنصر العـاطفى إلى جـانب موسـيـقى القـرن التـاسـع عـشـر بمـا فـيـهـا من وفـرة فى الأحاسيس، وغليان فى المشاعر، بينما نجد أن الموسـيـقى العـالميـة فى القـرن العـشـرين قد هجـرت التـعـبيـر الحـار الصـارخ عن العـواطف الجـيـاشـة، واتجـهت إلى نوع من الاسـتـبطان، وكـتـمـان المشـاعـر، وارتادت عـالـم اللاوعى والعقل البـاطن (وهى سمات تتشارك فيها كل الاتجـاهات الموسـيـقـيـة التى جـاءت بعـد الرومانتيكية Post Ro mantic) إن أغنية نواح آريانا Arianna's Lament، التى كتبهـا كلوديو مـــونتـــفـــردى Claudio Montverdi (١٥٦٧ـ١٦٤٣)، كانت تعتبر وقت تأليفها من أعظم مـا كـتب فى تـاريخ الموسـيقى تأثيـرًا، ويقال إنها كانت تدر دموع مئات المستمعين، إلا أنها قد تبدو الآن لآذاننا، التى تعـودت على العـاطفـة الجـامحـة للأوبرا الإيطالية، أغنيـة مـتـحـفظة لا تثـيـر دمـوعًـا البـتـة، بل قد تبدو أحـيـانًا بلا عـاطفـة تذكر، وربما تثـيـر الضـحك أيضًا، خـاصـة عندما يؤديها صوت جهير أول Baritone بأسلوب الـغـنـاء الجـمـيـل Bel Canto الذى كان شـائعًا أيامها، وهل هناك ما يوضح ارتباط الاسـتـجـابة الـعـاطفـيـة للموسـيـقى بعادات العصر وتقاليده (وموقعه الجغرافى، وجـذوره الـعـرقـيـة) أكـثـر من اليـونانيـين القـدمـاء، والذين قـامـوا بتـرتيب مـقـامـاتهم الموسـيـقـيـة طبـقًـا لتـأثيـراتهـا العـاطفـيـة (المزعـومـة)، فكان لا يسمح للـجنود الذاهبين إلى ميدان القتال بسماع موسيقى متراخية فى المقـام تحت الليـديانى Hypolydian، بل كـان لابد لهم من التحـرك على أنغـام مقام حمـاسى مثل الفريجى Phrygian ليشد أزرهم ويشـعل حـمـاسـهم، وقد أكـد أفـلاطون بنفـسـه تلك التـأثـيـرات الأخـلاقـيـة العاطفية للموسيقى فى عصره، ودعا لاستبعاد المقامات الأيونية Ion-ic، والليـديـة Lydian (لما فـيـها من مـيـوعـة وتخـنث..!) فى كـتـابه الجمهورية..! فما الذى يـحـدث الآن فـى أيـامـنا هذه؟ رغم كل مـا نـسـبـه اليـونانيـون لموسـيـقـاهم من تأثيرات عـاطفـيـة، إن المستمع العـادى قد لا يجد لديه حتى لمجرد التميز بين واحد وآخر من المشاعر التى تثيرها تلك المقامات!



إن استـجـابتنا العـاطفـيـة للموسيقى ما هى إلا انفعالات فيها الكثير من الصفات المكتسبة التى يشكلها العرف والتقاليد وتداعى الأفكار، ومن الخطأ الاعتقاد بأن الموسيقى تستطيع أن تحمل لنا إحساسات معينة ـ وطنية مثلا، وفى هذا الصدد لنرى مـا يحدث فى مـجـال الأناشيد الوطنيـة، إن أى لحن يقع عليه الاختـيـار من نشيد قومى لبلد مـا، يتحول إلى رمز وطنى، فبتكراره فى كل مناسبة وطنيـة، وفى كل مرة تضـفى الكلمـات التلوين العـاطفى المطلوب، وحـتى لو تم أداؤه بعـد ذلك سـيلهب حـمـاس صبية المدارس فى كل مرة، والعـامل الحـاسم هنا هو عـمليـة التكرار، وتداعى الأفكار نحـو الأحـاسيس القومية لدى سمـاع النشيد، ولو استطاعت الموسيقى وحدها، دون أى كلمات أن تثير شعورًا وطنيًا لكان لدى مؤلفى الموسيقى القدرة على خلق عواطف وطنيـة ولأصبح من اليـسـيـر كـتـابة مقطوعـة موسـيـقيـة واحدة يسمعها جمهور من قوميات مختلفة، وتثير فى كل جماعة على حدة شعـورًا بالقومـيـة نحـو وطنها بالذات إن قطعة موسيقية كهذه لا يمكن أن تظهر إلى حيز الوجود، وإلا لأصبح فى إمكان مـؤلفى المـوسـيـقى أن يشـعلوا الـثـورة بين المستمعين أو إذلالهم، أو تحويلهم إلى قوم من الجبناء إلى آخر مـا لا حصـر له من المشـاعر، بتـأليف مقطوعـات موسيقية لكل غرض على حدة..! ولعلنا نعرف كم كانت مؤلفات شوبان Chopin (١٨١٠ـ١٨٤٩) من مـازوركات Mazur-kas أو بالادات Ballads، وبولونيزيات Polonais-es تلهب حـمـاس مواطنيه، حتى قال شومان Shumann (١٨١٠ـ١٨٥٦): «لو عـرف العـاهل المستبد الذى يقيم فى الشمال (قيصر روسيا) ما يكمن فى ألحان تلك المازوركات البسيطة من عدو خطير يتهدده لما تردد فى تحريم موسيقاه. فبين الأزهار التى ترصع موسـيـقى شوبان هناك مدافع مخبأة».

ترى هل تثـيـر مـثل هذه الموسيقى الآن مشـاعـر وطنيـة لدى أحد خـارج بولندا؟ بل هل تستطيع أن تلهب مـشـــاعـــر البـولنديين الوطنيـة الآن؟ (إلى جـــانـب مشاعر أخرى توقظها مـوسـيـقى شـوبان الرائعة).

إن التركيبة الأساسية الفسيولوجية والسيكولوجية لبنى البشر من متذوقى الموسيقى حـول العـالم لم تـتـغـيـر على الإطلاق طوال التاريخ، كـمـا أن عـاطفة الإنسـان نحـو الألم والمعـاناة لم تـتـغـيـر هى الأخرى بل درجـة الاسـتـجـابة العـاطفـيـة والقيود الاجتمـاعيـة الراسخة المفروضة علينا هى التى تختلف من بلد إلى آخر ومن عصر إلى آخر.

الإفراط فى الشروح الفنية:

إلى أى حد تؤدى تلك الشروح والتفسيرات التى تزخر بها كتيبات برامج الكونسير، وبطون كتب التـذوق الموسـيـقى، إلى زيادة غـمـوض الموسيقى؟! إن كل من تصدوا بالشرح متبعين هذا النهج قد أدخلوا المتـذوقين فى مـتـاهات لا حصر لها، خاصة من كان منهم على أعتاب ذلك المجال، والفقرة التالية، وهى شرح فنى لجزء من الحـركـة الثـانيـة البطيـئـة Adagio من السـيـمـفـونيـة التـاسـعـة لدفـورجـاك Dvorak (١٨٤١ـ١٩٠٤)، والمعـروفة باسم «من العـالم الجديد From the New World» توضح لنا مدى الصـعـوبة التى يواجـهـهـا مـحـب الموسـيـقى المبتدئ، وهو يـتلمس شـيـئًـا مكتوبًا عن تلك السيمفونية:

«تؤدى الكورانجليـه English Horn اللحن الأسـاسـى، وهو رومـانـتـيكى الطابـع، فـوق مصاحـبة ناعمة من الوتـريات ويمتـد التفاعل، وبعـد أن تـؤدى آلتـا كورنو مكتـومـتـان Muted Horns اللحن الأسـاسى، يـحـدث تغير مقـام دو دييز صغـير Cshrp minor مع زيادة طفيفة فى الحيوية Un Poco Piu mosso. ويقودنا مقطع انتـقـالى قصـيـر إلى اللحن الأسـاسى الثـانى وتؤديه آلات النفخ الخشبيـة على كونترا بونط فى القرار، مع عزف بـالأصابع (نبر Pizzicato) تؤديه الوتريات».

إن الدراسة المتانية لذلك المقطع لن تتيح لنا على الإطلاق أن نستخلص أى مفهوم للموسيقى التى تصـفـهـا، حـتـى لو كـانت كل كلمـة فى هذه الفقرة صحيحة (وهو الواقع فعلاً) فلن يرفع ذلك من درجة استيعابنا لتلك الحركة، ومن ثم درجة استمتاعنا بها، وقد أبدع الكاتب الساخر جورج بـيـــرنـارد شــــو George Bernard Shaw (١٨٥٦ـ١٩٥٠) فى تصويره لعدم جدوى تلك التفسيرات والشروح الفنية العقيمة عندما طبق نفس الأسلوب، الذى يتبعه معلقو الموسيقى من المتحذلقين، على مونولوج «هاملت الشهير» أن يحيى الإنسـان أو يموت To be or not be فكتب قائلاً: «لا يتبع شكسبير الاستهلال التقليدى، ويعلن عن موضـوعـه على الفور فى صيغـة المصـدر To be وسـرعـان مـا تتكرر الصيـغـة واضحة بعد مقطع رباط قصير «or» نستطيع أن نميز فيه، وهو على هذا القدر من القصر صيغ التـردد والنفى التى يـعـتمـد عليها تمامًا مغـزى التكرار، وهنا نصل إلى فـاصلة النقطتين «:» Co-lon لتأتى بعدها شبه جملة الكينونة That is the question ذات نـبـرة حـاسـمـة على اسم الموصـول لتصل بنا إلى أول نقطة!

أى فـائدة تعـود علينا من تلك الشـروح؟ الحقيقة أن جزءًا كبيرًا من صرف الانتباه عن التذوق الموسيقى إنما يكمن فى تلك المسميات، فهل سيضمن لنا التعرف على هذا الاستطراد الهـارمونى أو ذاك أى تجاوب حسى أكثر مع الموسـيـقى؟، ولكى تطمـئن عـزيزى مـتـذوق الموسـيـقى الجـادة فـاعلم أن التـيـقظ الكامل لتعقيدات الصيغة الموسيقية فى نطاق عمل مـوسـيـقى كـبـيـر إنما هو قـدرة لا تتـاح إلا للموسيقى المدرب تدريبًا عـاليًا، وهو بدوره لا يسـتحـضـر مـعـه كل معلومـاته عند استمـاعـه للموسيقى لمتعته الشخصية، وما معلوماته تلك سوى رصيده الذى يستخدمه فى التأليف أو التدريس.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: ما هو الطريق الذى سنتبعه إذن عند تنفيذ برامج تذوق الموسيقى الجادة، والإجابة هى التوفيق بين الأسلوبين، فـلا غنى فى الواقع (عند البداية فقط) عن الاستعانة بالصور الأدبية. ولنسلم بأننا لا نخرج من الموسيقى بعواطف حقيقية، بل نحن نخوض عند استمتاعنا بها تجربة جمالية نخرج منها بما يسمى عواطف جـمـاليـة Aesthetic emotions، وفى كل مـرة نستمع فيها إلى قطعة موسيقية إنما ندخل فى عـقـد ضـمنى مع

المؤلف لنوافق على ما يعرضه لنا (أم لا نوافق)، فى حدود نظام موسيقى له قوالبه وصيغه، وطرقه المتعددة فى التفكير والمعالجة، وعند استماعنا للموسيقى، لا بد أن تكون فى أذهاننا حقيقة مهمة، وهى أننا لن نمر بتجربة حب دنيوى أو سنستشعر إحساسًا بالخلاص، بل سنخوض تجربة عملية تتكون من تتبع طرق المؤلف الموسيقى فى تنظيم الأصوات، ووضعها فى نماذج مجردة Abstract Patterns يتم اختيار الأنغام فيها بعناية فائقة. وربما تحمل الصيغ والنماذج الموسيقية ومعالجة الأصوات تماثلاً مع مشاعرنا وعواطفنا فى سماتها الديناميكية، ثم إن تلك الصيغ، وهى تحمل فى طياتها سريان الأفكار الموسيقية، والتخطيط الجيد للذروات العاطفية Climax ومكان تلك الذروات بالنسبة لبعضها، تثير لدينا كيانًا كاملاً من مشاعر غامضة دون أن نستطيع له تحديدًا، ولا يمكن لنا البتة ممارسة مثل تلك المشاعر فى الحياة الواقعية، وهذا هو مكمن قدرة الموسيقى. ولا غرو أن يعبر إرنست تيودور هوفمان E.T Hoffman ذلك الرومانتيكى المتطرف عن شعوره المضطرم وهو بصددها قائلاً: «أيتها الموسيقى.. إننى أشعر برهبة، بل بخوف، فقد عبرتِ بالصوت عن الأسرار القدسية للطبيعة».

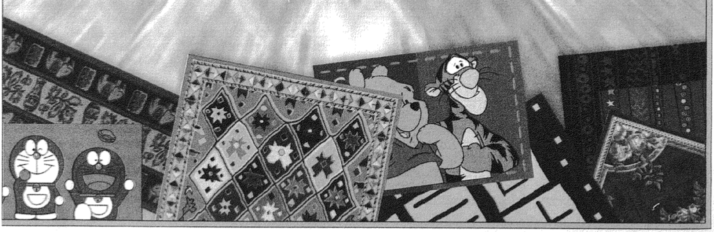


خاتمة:

كثير من مستمعى الموسيقى قد كيفوا أنفسهم، بحيث لا يجدون متعة فى الموسيقى سوى شىء من التنفيس عن عواطفهم. والتحدى المهم الذى يواجهنا فى تلك المرحلة هو ضرورة إقناع متذوق الموسيقى الجادة بأن هناك متعًا أخرى تتخطى مجرد المتعة الحسية sensuous pleasures إلى آفاق رحبة من المتع الذهنية -intel lectual Pleasures، وهى متع تتجاوز الاستماع بملمس الصوت Tone color، والتلوين الأوركسترالى orchestration، وجمال اللحن، بل تأتى من التنبه للعلاقات المتشابكة بين مختلف أجزاء العمل الموسيقى، وإدراك الصيغة Form والبناء الموسيقى، ومنطق المؤلف، وعلى الموسيقى ذات المنطق Logic، أى تلك التى تدفعنا للتفكير ونحن نستمع إليها لكى نخرج منها بمتع ذهنية، أن تحارب من أجل وجودها على مستوى القاعدة العريضة من متذوقى الموسيقى فى بلدنا، فهناك تراكمات صوتية ممجوجة تضع حاجزًا منيعًا أمام شبابنا، وتمنعه من الولوج إلى عالم الموسيقى الرفيعة.

إن التسليم بأن فى الموسيقى نوعًا من الفكر thought سيساعدنا كثيرًا على استيعابها، خاصة تلك المقاطع الصعبة التى لا يمكن التعرف الفورى فيها على ما تحمله من شحنة عاطفية، بمعنى آخر علينا أن نؤمن بأن تلك المقاطع المسترسلة فى العمل الموسيقى -Extend ed Sections ـ قبل وبعد الذروات العاطفية Emotional Climaxes، ليست بالضرورة مجرد حشو Padding، فغالبًا ما تكون جزءًا مهمًا فى صميم المادة الموسيقية اللازمة لنماء وتفاعل العمل، وهناك مثال شهير لذلك وهو سيمفونية مالر Mahler (١٨٦٠-١٩١١) الثانية، والمعروفة باسم سيمفونية القيام أو البعث Resurrection، حيث تبدأ الحركة الأولى بنغمات قصيرة سريعة فى ترعيدات قصيرة فخمة Maestoso توقعها مجموعة التشيللو والباصات تقود لذروة مهيبة تأخذ بلب السامع من فوره لكنه سرعان ما يتبعها بفقرات ناعمة بطيئة ومجموعات لحنية متسعة الجنبات تغلب عليها روح التامل لفترة طويلة قبل أن تاتى ذروة فجائية تتبعها فقرات أشد نعومة، وقد يحار السامع وهو يتتبع النبرات العاطفية المختلفة خاصة إذا ما واصل الاستماع للحركة الثانية والثالثة وتبادر إلى ذهنه أنهما لا ينتميان بأى صلة للموضوع، وفى الحركة الرابعة يسمع صوت المغنية الكونترالتو -Con tralto، وهى تؤدى قصيدة نور الفطرة Urlicht «ليتنى كنت فى السماء» ببطء ونعومة شديدة فيكاد لا يتبين موقعه من تلك التجربة العجيبة، وسرعان ما تاتيه الحركة الخامسة والأخيرة دون استراحة وهى التى أدخل فيها «مالر» نشيد القيام الذى وضعه الشاعر -Klop stock. وإذا كان المستمع جادًا ومهتمًا بالبناء الكلى للعمل سيدرك أن «مالر» إنما كان يمهد فى كل الحركات السابقة لإعطاء تأثير هول ذلك اليوم، كما تصوره كفنان وأطلق العنان لخياله، عندما ظهر ذلك الطائر الذى يختلج وحيدًا فى غسق يوم القيامة وقد أجاد «مالر» تصوير ذلك المقطع ببراعة فائقة.

وهكذا فبقدر ما يثبت لنا أن مادة المؤلف الموسيقى الأساسية التى يستخدمها فى عمله إنما تنبع من عواطفنا البشرية كما نمارسها على أرض الواقع، بقدر ما نستطيع الموافقة على أن عواطفنا الحقيقية تظهر فى الموسيقى، ولا بد لنا من أن نأخذ فى حسابنا أن الاستمتاع بالموسيقى إنما يعتمد على عوامل متنوعة يرتبط بعضها بالصوت كظاهرة فيزيائية لها قوانينها الطبيعية، ثم على الخصائص البيولوجية الموروثة فينا والتى تهيئنا لاستقبال الأصوات الموسيقية، ثم هناك عوامل أخرى مهمة تعتمد على ما نحققه فى مجال التعليم والثقافة، وما نخضع له أيضًا من تقاليد وأعراف اجتماعية، والواقع أن أى محاولة لفهم تأثيرات الموسيقى، ومحاكاتها للعواطف، أو تعبيرها عن مختلف الحالات المزاجية Mood لا تضع فى اعتبارها كل العوامل السابقة ستكون محاولة قاصرة، وليكن ذلك منطقنا لخوض التجربة، وربما يكون ذلك بداية انتفاضة موسيقية ورسالة موجهة لكل من أصابهم الانبهار بالتكنولوجيا الجديدة High tech وتناسوا قدرة الإبهام والغموض الذى تتلفع به الموسيقى وهى شامخة فى عليائها.



لماذا أوقف العراق صادراته البترولية؟



البترول العراقى تحت الحصار الأنجلو أمريكى

حسين عبدالله

لم تكد الحرب العراقية الإيرانية التى استغرقت عقد الثمانينيات تتوقف حتى نشبت أزمة الخليج باحتلال العراق للكويت فى اغسطس ١٩٩٠. وكان العراق قد قام خلال العامين اللذين أعقبا وقف القتال مع إيران فى أواخر ١٩٨٨ بإصلاح ما دمرته تلك الحرب من المرافق البترولية، الا أن «عاصفة الصحراء» أو القصف الذى شنته طائرات الولايات المتحدة وبريطانيا على مدى ٤٣ يوما فى مستهل ١٩٩١ عاد لكى يصيب تلك المرافق بما يقرب من الدمار الكامل. وعلى مدى ٥١٨ طلعة جوية استخدم فيها من القنابل ما تبلغ زنته ١٢٠٠ طن من المتفجرات الشديدة لكى تدمر ٢٨ هدفا بتروليا، وذلك إضافة إلى مرافق غير بترولية مثل محطات توليد الكهرباء، والسكك الحديدية، والمطارات، والعديد من الوحدات الصناعية بما فى ذلك مصانع الصلب والأسمنت والبتروكيماويات.. إلخ. وقد شملت الأهداف البترولية المدمرة الآبار المنتجة، وجميع التسهيلات والمعدات الإنتاجية، بما فى ذلك صهاريج التخزين، ومحطات فصل الغاز عن الزيت، ومحطات المياه، ومحطات الدفع والضخ، ومعامل التكرير والتصنيع، ووحدات التكسير التى تحول الزيوت الثقيلة إلى منتجات بترولية خفيفة. أما أخطر أوجه الدمار فكان ما أصاب محطة الدفع PS1 وخط الأنابيب الذى كان يضخ نحو ١,٦ مليون برميل يوميا (ب/ى) فى خط الأنابيب السعودى الذى يحمل البترول العراقى والسعودى إلى البحر الأحمر ومنه للناقلات التى تبحر إلى الأسواق العالمية. كذلك دمر خط الأنابيب الاستراتيجى ذو الاتجاهين الذى كان يربط شمال العراق بجنوبه، ومعه محطة الضخ الجبارة فى منطقة الحديثة فى الشمال K3 وهو ما أدى إلى تقليص طاقة الأنابيب التى كانت تمر عبر تركيا وتصب فى شرق البحر المتوسط من نحو ١,٦٥ مليون ب/ى إلى نحو ٨٠٠ ألف ب/ى. هكذا كان الدمار الفعلى فى أولى مراحل الأزمة. ثم فرض على العراق حصار شامل بقرار مجلس الأمن ٦٨٧ لعام ١٩٩١، فانهار إنتاج البترول العراقى من نحو ٢,٩ مليون ب/ى قبل الأزمة إلى ما يغطى بالكاد الاستهلاك المحلى من البترول فى حدود نصف مليون ب/ى خلال الأعوام ١٩٩١-١٩٩٦.

فى خط مواز لتلك التطورات عقدت منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) اجتماعا وزاريا بحضور جميع الأعضاء فى ٢٩ أغسطس ١٩٩٠ حيث تقرر خلاله رفع الإنتاج بما يعوض العجز الذى أصاب السوق العالمية للبترول نتيجة لغياب البترول العراقى والكويتى. وبالفعل ارتفع إنتاج أوبك من نحو ١٩,٥ مليون ب/ى إلى ٢٢,٥ مليون ب/ى وذلك باستخدام السعودية ما لديها من طاقة إنتاجية احتياطية لرفع إنتاجها من ٥,٥ مليون ب/ى إلى ٧,٥ مليون ب/ى، ويقدر ما حصلت عليه السعودية حتى الآن من زيادة فى عوائدها البترولية نتيجة للحظر الذى فرض على بترول العراق بأكثر من ١٥٠ مليار دولار. كذلك ارتفع إنتاج الإمارات لتعويض العجز الذى أصاب السوق العالمية للبترول عقب نشوب الأزمة بنحو نصف مليون ب/ى وإنتاج فنزويلا بنحو ربع مليون ب/ى.

وفى سبتمبر ١٩٩١ أصدر مجلس الأمن قراريه ٧٠٦ و٧١٢ بالسماح للعراق ببيع ما يساوى ١,٦ مليار دولار من النفط خلال ستة أشهر مع استخدام الحصيلة فى أغراض إنسانية كاستيراد الأغذية والأدوية للشعب العراقى، وأيضا لتمويل عمليات الأمم المتحدة فى العراق، مع تخصيص ٣٠٪ من الحصيلة لسداد جانب من التعويضات التى استحقت على العراق نتيجة لغزوه الكويت. غير أن العراق لم يقبل العرض الذى تضمنت شروطه ما اعتبره العراق ماسا بسيادته. ومن ذلك إصرار الأمم المتحدة على أن يتم تصدير النفط عن طريق منفذ واحد وهو خط الأنابيب الممتد عبر تركيا إلى البحر المتوسط فيما اعتبر أنه مكافأة لتركيا على تعاونها مع الحلفاء ضد العراق. هذا بينما أصر العراق على استخدام منفذى الشمال والجنوب معا وفقا لما يراه مناسبا. كذلك رفض العراق مطلب الأمم المتحدة الإشراف على توزيع المواد المشتراة من حصيلة البيع للتاكد من توزيعها توزيعا عادلا فى كافة أرجاء العراق.

ولم تنجح أيضا المفاوضات التى دارت بين العراق والأمم المتحدة حول تلك الصفقة فى ١٩٩٣ فاستمر الموقف مجمدا إلى أن عاد مجلس الامن فاصدر فى أبريل ١٩٩٥ قراره رقم ٩٨٦ بالسماح للعراق بتصدير ما قيمته ملياران من الدولارات من النفط خلال ستة أشهر وذلك لمواجهة الالتزامات السابق ذكرها. وقد صيغ القرار على نحو يتيح قدرا من المرونة إذ لا يصر على التصدير بالكامل عبر خط الأنابيب المار بتركيا بل يكتفى بتحديد « النصيب الأكبر». ومع أن حجم ما ينبغى إنفاقه من الحصيلة على المناطق الكردية جاء محددا بالقرار، إلا أن الخطوات التنفيذية بقيت مفتوحة للدراسة، كما أتيح لأمين عام الأمم المتحدة أن يقترح زيادة حصيلة الصادرات فوق المليارين إذا ما تبين أنها غير كافية لمواجهة الالتزامات المخصصة لها، مع إمكان تجديدها لفترات تالية. ومرة أخرى رفض العراق قبول العرض مما كان له بعض الأثر - بجانب عوامل إيجابية أخرى - فى مساندة سعر النفط فى الأسواق العالمية حيث ارتفع السعر من نحو ١٧,١٥ دولار للبرميل خلال مارس ١٩٩٥ إلى نحو ١٨,٢٠ دولار خلال أبريل ومايو.

وفى مطلع ١٩٩٦ عاد أمين عام الأمم المتحدة، بمساندة فرنسا، يحاول إقناع العراق بقبول الصفقة فى ظل مناخ بدا أكثر تفاؤلا، خاصة بعد أن نادت مصر والامارات وعدد من الدول العربية بمراعاة الظروف المعيشية والصحية السيئة لشعب العراق، كما أبدت الكويت تأييدها لخطة الأمم المتحدة ولكنها أصرت على التطبيق الكامل للقرار دون نقص أو زيادة. وانتهت المفاوضات بقبول العراق العودة لتصدير البترول، وإن كانت عائداته لم توضع تحت تصرف الحكومة العراقية كما طلبت، بل كانت توضع فى حساب خاص Escrow account يخضع الصرف منه لرقابة لجنة الجزاءات بالأمم المتحدة UN Sanctions Committee (UNSC). بذلك صارت جميع عقود المشتريات خاضعة لموافقة اللجنة قبل تنفيذها، كما يحول ٣٠٪ من تلك العائدات لدفع تعويضات الحرب وتمويل عمليات الأمم المتحدة فى العراق.

وقد عاد البترول العراقى إلى الأسواق العالمية اعتبارا من ٤ ديسمبر ١٩٩٦ على فترات مدة كل منها ستة أشهر ويصدر بها فى كل مرة تصريح من لجنة الجزاءات. وبرغم ما أعلنه العراق من وقف صادراته اعتبارا من أول ديسمبر ٢٠٠٠ إلا أن لجنة الجزاءات قامت بإصدار ترخيصها بالتصدير يوم ٤ ديسمبر ٢٠٠٠ وهو موعد التجديد المعتاد.

وكان البترول العراقى قد تدفق إلى الأسواق العالمية - علاوة على احتياجات السوق المحلية - بكمية فى حدود ٦٦٠ ألف ب/ى تقريبا خلال ١٩٩٧، ثم ارتفعت الكمية إلى نحو ١,٥ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ بعد أن قررت لجنة الجزاءات السماح بمضاعفة القيمة بمقتضى القرار رقم ١١٥٣ لسنة ١٩٩٨. وبصدور القرار رقم ١٢٨٤ لسنة ١٩٩٩ الذى أزال من الناحية العملية القيد على تصدير البترول العراقى ارتفعت تلك الصادرات إلى نحو مليونى ب/ى عام ١٩٩٩. بذلك لم تعد تلك الصادرات مقيدة بقرارات الأمم المتحدة بقدر ما تحدها إمكانيات العراق على الإنتاج التى انخفضت بسبب ما أصابها من دمار من نحو ٣,٥ مليون ب/ى قبيل حرب الخليج إلى نحو ٢,٥ مليون ب/ى باستخدام الأساليب الفنية السليمة، وإن كان الإنتاج قد ارتفع فى الوقت الحاضر ليبلغ نحو ٢,٨ مليون ب/ى مما قد يرهق الحقول المنتجة بسبب افتقارها للكثير من قطع الغيار ومستلزمات الصيانة والتجديد.

وعلى الرغم مما أقرته لجنة الجزاءات من تخصيص ٣٠٠ مليون دولار كل ستة شهور، ثم زيادتها إلى الضعف، وذلك لتوفير قطع الغيار اللازمة لتطوير المرافق البترولية العراقية، إلا أن العراق لم يتمكن من استغلال تلك المبالغ نتيجة لتراخى لجنة الجزاءات فى اعتماد عقود الشراء بحجة التأكد من عدم صلاحيتها للاستخدام فى الأغراض العسكرية.

وعلى الرغم مما أصاب تلك المرافق من دمار شامل نتيجة للقصف الأمريكى خلال حرب الخليج ونتيجة أيضا للغارات العنيفة التى عادت الولايات المتحدة وبريطانيا تشنها على العراق تحت مسمى «ثعلب الصحراء» خلال ديسمبر ١٩٩٨، فقد قام الخبراء العراقيون - خلافا لما كان متوقعا وفى ظل ظروف عمل قاسية وعدم توفر قطع الغيار اللازمة - بإصلاح الكثير من المعدات والأجهزة التى دمرت، مع نزع قطع الغيار من بعضها واستخدامها فى البعض القابل للإصلاح. وبذلك تم إصلاح ميناء البكر الذى يقع فى

شملت الأهداف البترولية المدمرة الآبار المنتجة، وجميع التسهيلات والمعدات الإنتاجية، بما فى ذلك صهاريج التخزين، ومحطات فصل الغاز عن الزيت، ومحطات المياه، ومحطات الدفع والضخ، ومعامل التكرير والتصنيع، ووحدات التكسير التى تحول الزيوت الثقيلة إلى منتجات بترولية خفيفة. أما أخطر أوجه الدمار فكان ما أصاب محطة الدفع وخط الأنابيب الذى كان يضخ نحو ١,٦ مليون برميل يوميا

المياه العميقة فى الخليج بحيث ارتفعت طاقة التحميل فيه من نحو ٦٠٠ ألف ب/ى عقب تدميره عام ١٩٩١ إلى نحو ١,٢ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر. كذلك أمكن استخدام خط الأنابيب المار بتركيا بحيث ارتفعت الصادرات البترولية العراقية من المنفذين إلى ٢,٢ مليون ب/ى فى الوقت الحاضر. وفى الآونة الأخيرة أعلن العراق عن إصلاح منفذين للتحميل من المنافذ الأربعة الواقعة فى منطقة خور العميا على الخليج مما يسمح بتصدير نحو ٧٠٠ ألف ب/ى. كذلك أعلن العراق وسوريا منذ أسابيع قليلة تسوية الخلاف بينهما حول استخدام خط الأنابيب الذى كان يحمل البترول العراقى عبر الأراضى السورية إلى شرق البحر المتوسط. وقد ظل هذا الخلاف موضع نظر اللجنة القضائية المنبثقة عن منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول (أوابك) لسنوات طويلة ولم تنجح فى تسويته.

ولعل فيما قام به الخبراء العراقيون من إصلاحات على مدى السنوات العشر الماضية ما يخفف بعض الشىء من فاتورة إعادة التعمير التى سبق تقديرها فى عام ١٩٩٢ بمعرفة معهد بروكينجز Brookings بما لا يقل عن ٢٠٠ مليار دولار.

وفى محاولة لتقويم الموقف المالى للعراق - دون التطرق إلى المعاناة الإنسانية لشعبه - فإن الحرب مع إيران لم تمتص مدخرات العراق المالية فحسب بل حولته إلى دولة مدينة. وبحسب تقديرات العراق بلغ الإنفاق على واردات السلاح الذى استخدم ودمر بالفعل أثناء العمليات العسكرية ما يزيد على مائة مليار دولار. وقد خرج العراق من تلك الحرب مدينا - وفقا للمذكرة المقدمة للجنة التعويضات فى جنيف عام ١٩٩١ - بنحو ٤٧ مليار دولار تصل قيمتها فى الوقت الحاضر بعد إضافة الفوائد بمعدل ٨٪ إلى نحو ٨٧ مليار دولار. وإذا أخذ فى الاعتبار أن قيمة المنشآت الاقتصادية التى دمرها القصف الأنجلوأمريكى يحتاج لإعادة بنائه نحو ٢٠٠ مليار دولار، وأن ما فقده العراق من العائدات البترولية نتيجة لفرض الحظر عليها خلال الفترة ١٩٩٠ - ٢٠٠٠ يقدر بنحو ١٨٠ مليار دولار، وأن ما يلتزم العراق بدفعه كتعويضات نتيجة لأزمة الخليج وخصص له ٣٠٪ من عائداته البترولية يمكن ان يبلغ نحو ١٥٠ مليار دولار على مدى السنوات العشر التالية لرفع الحظر البترولى؛ إذا أخذ كل ذلك فى الاعتبار، بالإضافة إلى ما ترتب على الحرب مع إيران من انخفاض متوسط دخل الفرد فى العراق عندما توقفت الحرب عام ١٩٨٨ إلى نصف ما كان عليه عندما بدأت عام ١٩٨٠، وأيضا ما صادف الشعب العراقى من انهيار فى مستوى معيشته عبر عقد التسعينيات نتيجة لفرض الحصار، فإن الشعب العراقى قد لا تخف معاناته قبل أن تتغير الظروف بما يسمح بتدفق صادراته البترولية بالمعدلات المرتفعة التى يتطلع العراق لتحقيقها بعد استعادة حريته فى التعاقد مع الشركات الأجنبية وتنمية الحقول التى تم اكتشافها بالفعل وما زال العراق عاجزا عن تنميتها.

فى ظل تلك الظروف ماذا يتوقع أن تفعل حكومة العراق ؟

على الرغم من أن الحظر الذى فرض على تصدير البترول العراقى كان يقصد به إرغام العراق على الجلاء عن الكويت، وقد تحقق، وعلى الرغم من ادعاء العراق أنه أوفى بالشروط التى نصت عليها الفقرة ٢٢ من القرار رقم ٦٨٧ والتى تقضى برفع الحصار بالكامل متى تأكد قيام العراق بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل، إلا أن الموقف الأنجلوأمريكى لا يسلم بذلك الادعاء ويتوقع أن يستمر على إصراره هذا مادام صدام حسين باقيًا فى موقعه من السلطة الحاكمة. وحتى إذا خفت حدة العناد الانجلوامريكى بعض الشىء امام الوساطة الدولية التى تتعاطف مع الشعب العراقى وتضغط فى طلب رفع الحصار، فان المتوقع ان يظل جانب من آثار ذلك الحصار جاثما على صدر البترول العراقى لسنوات طويلة، وخاصة أن أى قرار برفعه لابد أن يمر بمجلس الأمن حيث يترصده الفيتو الأمريكى. كذلك يتوقف مصير البترول العراقى على الظروف السائدة فى السوق العالمية للبترول ومدى إمكانية استيعابه الزيادة المتوقعة فى الصادرات العراقية، فضلا عن ضخامة التمويل اللازم لتحقيق تلك الأهداف.

وقد أعلن العراق خلال مؤتمر عقد فى مارس ١٩٩٥ أنه يخطط لرفع طاقته الانتاجية إلى نحو ٦ ملايين برميل يوميًا وهو ما يمكن تحقيقه على مدى خمس سنوات بتكلفة تبلغ نحو ٣٠ مليار دولار. وبناء على ذلك قام العراق بالتفاوض مع عدد من الشركات الأوروبية والآسيوية لتنمية حقول سبق اكتشاف البترول فيها ولكنها لم تخضع بعد للتنمية والإنتاج. وقد تم بالفعل توقيع عقود اقتسام الإنتاج مع بعض تلك الشركات (Lukoil الروسية وCNPClNorinco الصينية) وما زال التفاوض مستمرا مع البعض الآخر (فرنسية وايطالية وصينية). ويقضى ذلك النوع من العقود - وهو السائد أيضا فى عدد كبير من الدول من بينها مصر - بأن تقوم الشركة الأجنبية بالإنفاق على الاستكشاف والإنتاج ثم تسترد نفقاتها من حصة فى البترول المنتج مضافا إليها حصة لتغطية ما تحملته من مخاطر أثناء البحث عن البترول. وفى مصر تبلغ الحصة المخصصة لاسترداد النفقات ٤٠٪ من الإنتاج الإجمالى كما تبلغ الحصة المخصصة لتغطية المخاطر ٢٥٪ مما يبقى بعد الحصة الأولى. وقد أسفرت التجربة الفعلية فى هذا النوع من العقود فى مصر عن أن مجموع ما يحصل عليه الشريك الأجنبى مقابل الحصتين لا يقل عن ثلث الإنتاج على مدى فترة العقد التى قد تصل إلى ٣٥ عاما. ويأتى التجاء العراق لهذا النوع من العقود - خلافا لسياسته التقليدية وهى الاعتماد على الذات فى تمويل عمليات الاستكشاف والتنمية والإنتاج - نتيجة لافتقاره إلى الإمكانيات التمويلية اللازمة والذى يتوقع أن يستمر لسنوات طويلة حتى بعد رفع الحظر.

وتقدر الاحتياطيات المتوقع تأكيدها فى ظل العقود التى يجرى التفاوض عليها بأكثر من ٣٠ مليار برميل (مقارنة باقل من ٣ مليارات برميل فى مصر)، كما يقدر الإنتاج المتوقع تحقيقه نتيجة لتلك الأنشطة بنحو ٢,٥ مليون ب/ى، وذلك بالإضافة إلى الطاقة الإنتاجية الحالية والتى تقارب ٣ ملايين ب/ى. ويوجد من التقديرات ما يشير إلى أن احتياطيات العراق التى لم تخضع بعد للاستكشاف والتنمية يمكن أن تصل إلى نحو ٢٠٠ مليار برميل، أو ما يعادل نحو خمس الاحتياطيات العالمية، وهو ما يضعها فى مصاف المكانة البترولية التى تحتلها السعودية. ومن هنا لا يبدو مستعصيا أن يحقق العراق هدفه المعلن بالنسبة للطاقة الإنتاجية، مما يضعه فى المرتبة الرابعة على خريطة الإنتاج العالمية بعد السعودية (٨,٦ مليون ب/ى) والولايات المتحدة (٧,٧) وروسيا (٦,٢). بل إن هناك من يتوقع أن يبلغ إنتاج العراق نحو ١٢ مليون ب/ى فى غضون ١٢ عاما بعد رفع الحظر كلية وبشرط أن يتوفر التمويل اللازم وأن تستوعب السوق العالمية تلك الكميات.

وفى انتظار أن يحدث ما لا يتوقع أن يحدث خلال المستقبل المنظور، يحاول العراق أن يجد لنفسه منفذا لتخفيف حدة المعاناة التى يمر بها تحت الحصار الأنجلوأمريكى، وبخاصة فيما يتعلق بالحصول على قطع الغيار اللازمة لإعادة تأهيل مرافقه البترولية مما يتيح له ضخ كميات متزايدة صار مسموحا بها فى ظل قرارات الأمم المتحدة. وكما ذكرنا فقد تعطل الحصول على تلك القطع بسبب تراخى لجنة الجزاءات فى الموافقة على عقود الشراء خشية أن تكون بعض تلك القطع مما يصلح استخدامه لصنع أسلحة. ومن هنا فكرت حكومة العراق أن تحصل على جانب محدود من عائدات تصدير البترول وأن يوضع ما تحصل عليه بهذه الوسيلة فى حساب خاص يجرى الصرف منه بكامل حريتها دون تدخل لجنة الجزاءات. واقترحت الحكومة العراقية لتحقيق هذا الهدف معادلة سعرية يقوم بموجبها من يشترى البترول العراقى بدفع نصف دولار عن كل برميل يشتريه ويودع هذا المبلغ فى الحساب الخاص بالحكومة العراقية، على أن يعوض المشترى عن ذلك بدفع سعر يقل بنصف دولار عن السعر السائد فى السوق ويسدد هذا السعر للحساب الخاضع لرقابة لجنة الجزاءات. وكان من مقتضى تنفيذ تلك المعادلة أن يحصل العراق على نحو ٤٠٠ مليون دولار سنويا (إذ تبلغ صادراته نحو ٢,٢ مليون ب/ى) لكى يتصرف فيها بحريته بعيدا عما تراكم فى الحساب الخاضع لرقابة لجنة الجزاءات ويبلغ نحو ١١ مليار دولار. غير أن المعادلة العراقية قوبلت بالرفض ليس فقط من جانب لجنة الجزاءات بل أيضا من جانب الشركات التى تقوم بشراء البترول العراقى والتى لم ترغب فى الدخول كطرف فى النزاع العراقى الأنجلوأمريكى.

وإذا كان العراق قد قام بوقف صادراته البترولية اعتبارا من أول ديسمبر ٢٠٠٠، كوسيلة للاحتجاج على رفض معادلته السعرية، فهل يفلح ذلك فى الضغط على المعسكر الأنجلوأمريكى لقبول مطالبه؟

إن الإجابة تبدو ببساطة فيما أصاب أسعار البترول عقب هذا القرار. فقد فقدت أسعار البترول نحو ٤ دولارات خلال أيام، ويتوقع أن يستمر الانخفاض خلال النصف الأول من عام ٢٠٠١ لاعتبارات لم تكن خافية على من يتابع تطورات السوق العالمية للبترول. ذلك لأن الارتفاع الذى طرأ على تلك الأسعار خلال النصف الثانى من عام ٢٠٠٠ لم يكن راجعا لشحة فى البترول الخام بقدر ما كان راجعا لعدم كفاية ما تم تخزينه من وقود التدفئة لمواجهة فصل الشتاء وعجز معامل التكرير عن ملاحقة ذلك العجز بالقدر الكافى. ومن ناحية أخرى، فقد تطوع عدد من الدول المصدرة للبترول بضخ كميات متزايدة من البترول إذا ارتفع السعر فوق حد معين، كما تطوع بتعويض النقص الذى قد يحدث نتيجة لوقف البترول العراقى. وفى النهاية فإن المعسكر الأنجلوأمريكى سوف يكون مستعدا لتقديم أية تضحية، مالية أو غير مالية، لتكريس سيطرته البترولية فى منطقة الخليج وللابقاء على الحصار العراقى كعبرة لغيره، وهى نفس الاستراتيجية التى تبناها الغرب عندما قام مصدق رئيس وزراء إيران بتاميم البترول الإيرانى عام ١٩٥١. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تقف الدول العربية وقفة رجل واحد فى مواجهة تلك العجرفة الأنجلوأمريكية والتى لا يستبعد أن تتحول يوما لكى تلتهم من يناصرها ويتصور أنه بمنأى عن غدرها. ■

لورد بايرون

عِشق احتقار القوانين.. وفعل كل ما يشين!!

كلــــــود روســـــون



بايرون فى زى ألبانى، تصوير توماس فيليبس ١٨٣٥

كثيرًا ما يرى الخيال الشعبى بايرون على أنه الرومانسى، لما تميز به من سياسة ثورية، وحياة خاصة شائنة، وعرجه الذى كان يتباهى به باعتباره دليلاً على ما فعله قابيل. وهو كأجنبى له تأملاته الغامضة، ومنفى من وطنه الأصلى، وبطل متهور من أبطال حروب التحرر الوطنى، يصبح مزيجًا شاعريًا عنيدًا يجمع بين جيمس دين وشى جيفارا. غير أن بايرون كان كذلك لوردًا إنجليزيًا متعجرفًا من الطراز الأول تعبر مناصرته للقضايا الشعبية عن قدر ضخم من الراديكالية الأرستقراطية، وكان يحتقر الأجانب الذين كان يقود كفاحهم من أجل الاستقلال (دون أن يشارك فى القتال) من أعلى.

وكان كونه لوردًا أهم من كونه كاتبًا، كما توضح بينيتا آيزلر فى سيرته هذه التى تتسم بالحيوية (وليست هذه هى المرة الأولى). وكان يرى الشعراء الرومانسيين الآخرين على أنهم كتاب مأجورون وضيعو الأصل، و«موهوبون مدعون وسادة مزيفون»، كما أنهم محافظون سياسيون ومرتدون، ورغم أنه كان يفتقر دائمًا إلى المال، فقد رفض فى بادئ الأمر تقاضى أجر عن كتاباته، باعتبار أن هذا سلوك لا يتفق مع كونه لوردًا، ولكنه لان فيما بعد عندما صار فى حاجة إلى ما أسماه «مال المخ.. ما أحصل عليه بقدراتى العقلية» لتمويل حياته العاطفية المتخمة.

وتعكس قصائده ومسرحياته انفصامًا مشابهًا، فمن ناحية، هناك من يسمون الأبطال البايرونيين، وهم شخصيات شيطانية أصابها حزن أو ذنب خفى، ومنفية فى أماكن منعزلة، وقد استسلمت للإفراط فى الشراب أو الثورة: إنها إسقاطات شعرية لذلك الغريب الذى كثرت فضائحه وتشوه تشويهًا فطريًا، ذلك البايرون الذى كانت أجيال من المعجبات تهفو إلى خصلات شعره وصوره الزيتية المصغرة.

ومن ناحية أخرى، نجد الشاعر الذى كتب «بيبو» و«دون جوان» ويجعله لطفه ودقته الشديدة أستاذًا للنظم الخفيف الجاد، ولتراث دارج فى الشعر الإنجليزى يعود إلى بتلر وسويفت ويتطلع إلى قصيدة ت. س. إليوت Vers de societe وبعض أفضل قصائد أودن.

وقد أعطى بايرون لهذا الأسلوب مسحة أرستقراطية خاصة، هى ذلك الجلال الذى كان ينبئ عن طبقته ويعد فى الوقت ذاته تعبيرًا ذاتيًا متفردًا، وربما كان هذا المسلك هو ما يتفق أشد ما يكون الاتفاق مع أسلوب بايرون فى الرسائل الشخصية والمذكرات، وقد يكون بحق أكثر تعبيرًا عن بايرون «الحقيقى»، غير أنه لن يكون هناك بايرون حقيقى يتم التعبير عنه بدون الجانب المظلم. إن الاثنين يتداخلان، إلا أنهما لا يمتزجان، فقد مارس بايرون الأسلوبين بصورة أو بأخرى فى وقت واحد فى أعمال مختلفة، إلا أنه عادة ما كان يباعد بينهما، وكان يتلعثم عندما يعجز عن القيام بذلك.

وتبين رائعته «دون جوان» مدى إصراره على إبقائهما متباعدين. فالبطل - وهو إسقاط ذاتى عبقرى وخيالى بصورة كوميدية - نقيض للدون جوانات الآثمة كما يبدو فى التراث الأوروبى. ويشترك دون جوان بايرون مع الآخرين فى عجزه عن مقاومة المعجبات، ولا شيء غير ذلك، فهو حيوان جنسى مفترس، ونادرًا ما يكون البادئ فى علاقاته، ويدع النساء يملكن زمام الأمور، إنه سلبى (فى المطاردة، وليس فى الأداء)، وهو هدف للمغازلة أكثر منه مغازلاً. فهو صورة صريحة للأرستقراطى الذى لا يحمل همًا وتلبى حاجاته دون جهد منه، وهذه الصورة الإنجليزية للمغوى طيب القلب، الذى يغوى إلى الإغواء، مصدرها رواية هنرى فيلدنج «توم جونز» وليس مغامرات الدون جوانات فى التراث الدرامى والأوبرالى ممن يبدون وكأنهم يتحسسون خطاهم مقارنة به.

وكانت حياة بايرون تتسم بالفخامة والعبث، وكان اللورد الشاب فى حاضرة الأسرة فى نيوستيد آبى يقلد ممارسات «نادى نار جهنم» التى تتسم بالعربدة والتجديف، فقد كتب أحد أصدقائه يقول: إنه هو وأصدقاؤه كانوا يرتدون مسوح الرهبان ويشربون البورجوندى فى قحف بشرية و«بعد الاستمتاع بأطايب الطعام وأفخر أصناف النبيذ الفرنسى»، كانوا يشرعون فيما لا يصح ذكره من «لهو المساء»، حتى الساعات الأولى من الصباح. وعلاوة على العديد من قصص الحب المعروفة مع بنات الجنس اللطيف، وكذلك سلسلة من العلاقات الغرامية الأقل شأنًا مع الخادمات والعاهرات، كانت له سلسلة من العلاقات الشاذة جنسيًا، فكان إتيان الأطفال، وغشيان المحارم، والمازوكية، وارتداء ملابس الجنس الآخر (حيث رقص فى زى حريمى مع صبى يونانى وكان يحب أن ترتدى زوجته ملابس الرجال) جزءًا من ذخيرته فى هذا الشأن، وكانت أكثر عشيقاته إثارة للفضيحة الليدى كارولين لام، وكانت متزوجة من سياسى بريطانى بارز، تحب ارتداء زى الخادم، ويبدو أنه قال لها إنها تذكره بجون إدستون، أحب عشيق شاذ إلى نفسه، وكان عضوًا بفريق كورال كمبردج ومات بالسل.

وكانت علاقاته على قدر من التعقيد، وقد سعت الليدى ملبورن، حماة كارولين لام وعدوتها، سعيًا حثيثًا كى تصرف انتباه بايرون عن ابنة أخيها أنابيلا ملبانك التى تزوجها، وفى نفس الوقت الذى كان يتودد إليها، كانت له علاقات غرامية عديدة أخرى، بما فى ذلك علاقة غشيان محارم مع أخته غير الشقيقة أوجستا، ومن الواضح أنه ضاجع الليدى ملبورن المسنة بالإضافة إلى ذلك. واستمرت هذه الممارسات بعد زواجه الذى انتهى بانفصال مشهود والنفى الدائم لبايرون وسط ادعاءات بغشيان المحارم والشذوذ الجنسى. وحدث أن كل امرأة كانت ترى مراسلات بايرون مع الأخريات، الأمر الذى خلق شبكة من التعقيدات الغريبة وتمثيليات النفوذ المتبادل إلى جانب حالات الغيرة والنفوس المجروحة، وعندما ولدت زوجة بايرون ابنتها كان يعانى من انهيار عصبى وهدد بقتلهما معًا وطردهما من البيت، وقد تقبل بقدر أكبر من الاتزان مولد ابنته من أخته وابنة أخرى من أخت زوجته غير الشقيقة كلير كليرمونت، وإن بدا على بايرون أنه كان راضيًا إلى حد كبير بأبوته فى كلتا الحالتين.

ما روته آيزلر عن زواج بايرون المفزع وإنهائه لأمر مثير للاهتمام، فمزاج بايرون المتأرجح وإخلاصه المذبذب، وزوجته أنابيلا، وخليلته أوجستا التى هى أخته غير الشقيقة، نقلته كله إلينا بفهم ينم عن حساسية شديدة، وبخصوص معاملة بايرون للنساء وسلوكه الذى كثيرًا ما يتسم بالقسوة والعصبية الشديدة، فإنها لا تخفف شيئًا ولا تسجل أمرًا بدافع من الحقد، ولا تبرز آيزلر أهمية النشاط الجنسى الشاذ فى حياة بايرون وحسب، بل كذلك كثافته اليومية، على افتراض أنه مكمل طبيعى لحياته الجنسية الطبيعية شديدة النشاط. والسهولة التى كان يتنقل بها هو وبعض أصدقائه من نوع إلى آخر قد ترى غير عادية فى زماننا هذا، إذ كانت حريتهم الجنسية تنطلق «دون اعتبار للنوع»، وهو الموقف الذى أعجب به بايرون فى اليونان وتركيا، ولكن يبدو كذلك أنه جرى تطويره فى دوائر مدرسته وجامعته (هارو وكمبردج)، إن لم يكن فى المجتمع الإنجليزى بصورة عامة، قبل سفره إلى هذين البلدين بكثير.

إن هذا الكتاب يحدد بمهارة شديدة الصلات التى تربط بين تحدى بايرون للقواعد الأخلاقية السائدة وراديكاليته السياسية، حيث يفرق بينه وبين روسو وبين ابن طبقته الأرستقراطية شيلى، اللذين كان تمردهما الأخلاقى والسياسى جزءًا من معارضة مبدئية للمجتمع، وعلى العكس من شيلى، الذى كان يسعى إلى إلغاء السلطة وليس التجرؤ على قوانينها، فإن بايرون «ما كان ليقترح قط العيش خارج المجتمع، ولم يكن له اهتمام حقيقى بالإصلاح، فقد كان يرغب فى خرق القوانين وليس تغييرها». وهو ينتمى بقوة إلى طبقة المتمرد النبيل، الذى يؤكد أن أساليبه الأرستقراطية هى حقوقه بالمولد التى لا يمكن لوضيع الأصل أن يطمع فى الحصول عليها إلا من خلال التمرد الناجح. وكشأن النبلاء الفاسقين فى النظام القديم، كان بايرون بحاجة إلى قوانين اجتماعية كى يزدريها ويحتقرها، وكانت لديه نقطة ضعف المستبدين الذين كانوا يستخدمون السلطة المطلقة كشرط يمكنهم من الإشباع الذى لا قيد عليه أو الغزو الكاسح: مثل حاكم ألبانيا المستبد على باشا المنغمس فى الملذات والمحب للغلمان (الذى كون معه صداقة تقوم على الإعجاب المتبادل)، أو نابليون الذى كان بايرون يشعر نحوه بعبادة البطل المتعارضة وجدانيًا، وهو ما كان أمرًا شائعًا بين المفكرين فى العصر الرومانسى.

أمضى بايرون وقتًا قصيرًا وهو يفكر فى خيالات أن يصبح زعيمًا لحزب الأحرار، وقد أثنى على أول كلمة يلقيها فى مجلس اللوردات باعتبارها «أحسن كلمة يلقيها أحد اللوردات منذ زمن لا يعلمه إلا الرب»، غير أن راعيه اللورد هولاند تنبأ بأنه لن «يتفوق فى البرلمان»، وفى تلك الأثناء، وفى ١٠ مارس ١٨١٢، كان لقصيدة Childe Harold أثرها الفورى وأصبح بايرون مشهورًا بين عشية وضحاها، وبذلك كان الشعر وليس السياسة سبيله إلى الأضواء.

ونقطة ضعف الكتاب هى تناوله غير الكافى لبايرون ككاتب، فهناك القليل جدًا عن حياته الفكرية، وعن التقاليد التى كان ينتمى إليها، وغيره من الشعراء (الإنجليز والكلاسيكيين والإيطاليين) الذين شكلوا أساليب قصائده المتعددة، بل إن تعليقات آيزلر على القصائد نفسها تفتقر إلى الأصالة وكانت غير دقيقة فى بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال بدل وصفها لبعض من لغة بايرون المرحة على أنها «سخرية سويفت القاسية» على قراءة غير واعية للكاتبين (ويبدو أن آيزلر معرضة لزلات كثيرة فى موضوع سويفت)، ورأيها القائل بأن «دون جوان» هى «الحرب والسلام، الشعر الإنجليزى» ليس صحيحًا.

بترتيب خاص مع مجلة TLS البريطانية
ترجمة: أحمد محمود

Byron: Child of Passion
(بايرون: طفل العاطفة)
Benita Eisler
Hamish Hamilton, 1999, 848 pp, £ 25.00

كاريكاتور



تميمة معرض لعام ٢٠٠٠
للرسام الإسبانى القطالونى «الروتو»

ق ٢١ !

محيى الدين اللباد

هذا الشهر، احتفلت الأسبوعية الفرنسية الشهيرة «كوريير أنترناسيونال Courier International» (٦٩٠٠٠٠ قارئ للعدد الواحد) بالعيد العاشر لصدورها. والمجلة (ذات القطع الكبير والمستطيل الشبيه بقطع «آخر ساعة» القديم قبل نزول التخفيض على مقاسها مؤخرًا) لا تنشر سوى نصوص مترجمة مختارة من صحف ومجلات القارات الخمسة (حوالى ٨٥٠ دورية)، وتترجم تلك النصوص من لغاتها الأصلية إلى اللغة الفرنسية مباشرة.

من أنحاء المعمورة -أيضًا- تختار المجلة من صحف ومجلات القارات الخمسة رسومًا كاريكاتورية تنشرها مع النصوص، ولا يترجم الرسم منها ما يقوله النص، ولا يفسره بالضرورة، بل يكفى أن يكون نشره مع النص المجاور «مبررًا بشكل ما».

ولا يقتصر تفتيش المجلة، عن نصوص ورسوم، على الدوريات الشهيرة فى العالم، بل تصل ذراعها الطويلة إلى أقصى بقاع الدنيا: فهى -مثلاً- لا تفتش فى منطقتنا فى «الأهرام»، و «الحياة»، و «النهار»، و «السفير»، و «الشرق الأوسط»، فقط، بل تجدها قد اختارت نصًا من مجلة لبنانية صغيرة، أو من جريدة كردية محلية متواضعة، أو تجدها وقد اختارت رسمًا كاريكاتوريًا من بوركينا فاسو. وعلى مدى السنوات العشرة الماضية، نشرت المجلة أكثر من ١٥٠٠٠ رسم لما يزيد على ١٠٠٠ رسام من مختلف بلاد العالم.

واتساقًا مع تركيبتها الخاصة، تورطت مجلة «كوريير أنترناسيونال» -منذ العام الماضى- فى إقامة معرض سنوى دولي لرسوم الكاريكاتور من مختلف بلاد العالم. ويشارك فى معرض هذا العام ١٠١ رسام ورسامة، منهم فقط ٣ رسامات، وكأن صنعة الكاريكاتور هى صنعة الرجال وحدهم!. ولم يحدد المنظمون -كما هى العادة فى أغلب المعارض الأوروبية الأخرى- موضوعًا للرسوم المشاركة، بل كان الشرط الوحيد أن يكون الرسم قد نشر فى الفترة ما بين أول ١٩٩٩ وخريف ٢٠٠٠. ولذا حفل المعرض برسوم الكاريكاتور السياسى والاجتماعى والثقافى الساخنة، وكأن من يحددون موضوعات معينة لمعارضهم الكاريكاتورية يقصدون استبعاد ذلك النوع من الرسوم الذى لا يتمتع ببرودة كافية.

يعكس المعرض الذى أقيم فى مدينة «روان» بمقاطعة «نورماندى» عددًا من الظواهر:

«العولمة» هى الظاهرة البارزة فى المعرض، وتتضح فى عدة تجليات: أولها أن الرسام لم يعد يرسم للصحف الصادرة فى مدينته أو حتى فى دولته فحسب، بعد أن سهلت له وسائل الاتصال الإلكترونى الحديثة وصول الرسم الملون أو بلون واحد مباشرة إلى الصفحة التى سينشر بها، ورأسًا من قرية صغيرة فى قارة بعيدة تفصل المحيطات والصحارى بينها وبين القارة الأخرى التى تصدر فيها المطبوعة. وتستقبل صفحة الدورية الرسم الكاريكاتورى فى دقة بالغة لم تكن ممكنة -منذ سنوات قليلة- حين كان الرسام يرسم رسمه فى الغرفة المجاورة للغرفة التى تُنجز فيها صفحات الجريدة.

كما سهلت «العولمة» غزو رسامى كاريكاتور من بلاد (ليست هى الأكبر ولا الأقوى) بلادًا أخرى (ليست هى الأصغر والأضعف مهنيًا وفنيًا وتقنيًا). غزا رسامو الكاريكاتور الإسبان (خاصة القطالونيين منهم) الصحف الكبرى فى أوروبا، مثلما يحتلون الكثير من مساحات الكاريكاتور المختار والمنشور فى المجلة التى أقامت هذا المعرض. وغزا عدد من أهل «الكار» الأوروبيين الدوريات الكبرى فى الولايات المتحدة، واحتلوا عددًا من أغلفتها وصفحاتها الأولى. وتمددت أراضى الكاريكاتور الروسى والبولندى، وسيطر الكاريكاتوريون الروس الجدد على أراض واسعة خارج حدود بلادهم اقتطعوها من غرب أوربا. وبرزت فى الصحافة الأوروبية ظاهرة بولندية جذبت الانتباه والاهتمام فى كل العالم، هى يومية «غازيتا ويبورتشا» وملحقها اليومى الملون «ماغازين». وتقدم هذه الجريدة وملحقها رسومًا تتعدى الجنس التقليدى لرسم الكاريكاتور المختزل الخطوط والذى غالبًا ما يتسم طابع السرعة. وينحو كاريكاتور الجريدة / الظاهرة البولندية أكثر نحو رسوم فن الحفر المركبة الحافلة بالذاتية والشجن والمهارة التقنية العالية، والتى تعكس ثقافة ووعيًا استثنائيًا وتقترب من طروحات الشعر الحديث والأدب الكبير.

تطل «العولمة» -أيضًا- فى شكل مواقع الإنترنت التى تنشر رسوم الكاريكاتور بشكل دورى، بما ينبئ بظهور قريب للصحافة الكاريكاتورية غير الورقية عندنا، بعد أن أصبحت حقيقة واقعة فى أوربا وأمريكا. فقد ظهر فى المعرض عدد من الرسوم منسوبة إلى موقع فرنسى يدعى webmatin. وهو موقع لا يكرر نشر الرسوم نقلاً عن الصحف الورقية، بل أصبح رسامو الكاريكاتور يقدحون زناد أفكارهم، ويرسمون خصيصًا لهذا النوع من المواقع، التى يزورها القارئ «غير الورقى» -قصدًا وليس بالصدفة- ليتصفح ما عليها من رسوم جديدة أو «بايتة».

يصدر هذا الموقع يوميًا، والرسوم عليه ملونة، وبعضها يتحرك حركة مركبة مثل حركة أفلام الرسوم المتحركة. والموقع مفتوح أمام زواره مجانًا لوجه الله حتى تاريخه. لكن على كل صفحاته إعلان ثابت عن يانصيب فرنسى مشهور يبدو أنه الممول المالى للموقع!. وكان أحد الرسوم المشاركة من هذا الموقع لرسام شاب مغربى (أو من أصل مغربى) اسمه «ياسين» يشارك فى المعرض تحت علم فرنسا.

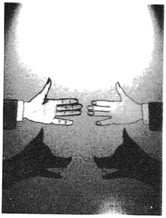
ظهر أيضًا عدد من رسوم الكاريكاتور تتناول الكمبيوتر وعالمه ولزماته التى تكاد مصطلحاتها الحروفية أو المرسومة أن تصبح لغة عالمية جديدة، يفهم أغلب الناس معانيها بدون التباس يذكر.

مُنحت الجائزة الكبرى لمعرض هذا العام، مناصفة بين الرسام اليابانى «نوريو» والرسام الجزائرى الشاب «على ديلم» (٣٣ سنة) الذى هاجر إلى فرنسا لبضع سنوات «هربًا من تهديدات بالقتل»، ثم عاد مؤخرًا إلى بلده ليستانف نشاطه الكاريكاتورى فى الإصدار الجديد لمجلة «المنشار» التى كان توزيعها قد بلغ ١٥٠٠٠٠ أسبوعيًا عند بدء إصدارها قبل ما تعرضت له الجزائر من مصائب سوداء حالكة.

ولا تبدو أعمال «على ديلم» استثنائية إلى هذا الحد، لكن قد تكمن أهميتها فى جنسية الرسام والموضوع المتناول. فالموضوع الجزائرى لا يزال أثيرًا لدى الإعلام الفرنسى منذ عدة سنوات، وتصورهم لهذا الموضوع ثابت و «نهائى»!.

اشترك فى المعرض من الكاريكاتوريين العرب: بهجت عثمان، چورچ البهجورى، محيى الدين اللباد (مصر) ويوسف عبدلكى، سعد حاجو (سورية) ديلم، عمارى، نسيم (الجزائر) وحبيب حداد، ستافرو (لبنان) وأمية (فلسطين)، وهى رسامة شابة من الثلاث رسامات المشاركات فى المعرض!. كانت تلك نسبة اشتراك الرسامين العرب فى المعرض، إلا أن نسبة أعمالهم الكاريكاتورية المنشورة ضمن اختيارات المجلة طوال العشر سنوات الماضية ليست كذلك، بل تبدو أقرب إلى الندرة، وتنحصر فى عدد محدود للغاية من الرسامين العرب.

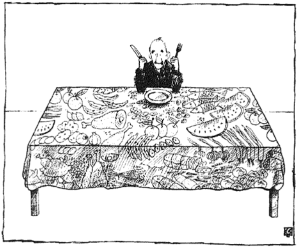
كما عرض المعرض أعمالا لأربعة رسامين من إيران، التى هجرتها -بعد ١٩٧٩- نخبة كاريكاتورييها المثقفين الذين رسموا -من قبل- لنخبة من مواطنيهم المثقفين. ولم يبق على



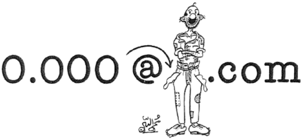
• ألبانيا
ليكه ريكوڤا



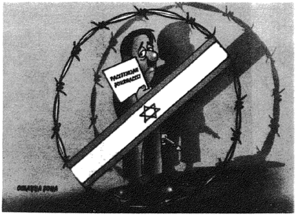
• بولندا
مجلة «غانريتا ويبورتشا»
زبجنيو كولاتشيك



يوسف عبدلكى (سورية) : مائدة جزائرية



محيى الدين اللباد (مصر) الاقتصاد العالمي الجديد [راجع أيضًا العمود الأيسر]

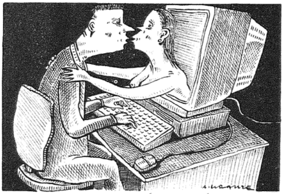


أميّة جحا (فلسطين) : ٣/١ نسبة الرسامات المشاركات، ورسم منجز على الكمبيوتر



ياسين (مغربى تحت علم فرنسا) : إفريقيا : انهيار الأسواق المالية

– ما تخافش. لأنك قريب من الأرض، لما تقع مش ح يجرى لك حاجة! [رسم من موقع webmatin]



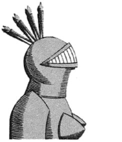
كراوزه (بولندا سابقًا وبريطانيا حاليًا)



باريج (سويسرا)



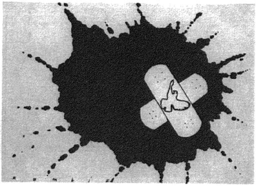
باروس (فرنسا)





• روسيا
مسيوك
بوتين (فى زى هاملت):
أكون أو لا أكون. تلك هى المشكلة !

• إيران



قمبيز درام بخش



مانا نيستانى



أردشير رستامى



أروين

مذاود الكاريكاتور الإيرانى -حينذاك- سوى شر رساميه وأكثرهم ابتذالاً وقلة صنعة ونفاقًا لأولى الأمر. كان أحد الرسامين الأربعة العارضين من رسامى النخبة الذين تركوا بلادهم عام ١٩٨٠، ويعد هذا الرسام: «قمبيز درام بخش» واحدًا من أصحاب الريشات الرفيعة المثقفة المتألقة والمعتمدة فى صحافة أوروبا التى يعيش فيها منذ ترك بلاده، وها هو يشارك فى هذا المعرض تحت علم ألمانيا وليس إيران. أما الثلاثة الآخرون: أروين (مواليد ١٩٨٠) ونييستانى (مواليد ١٩٧٣) ورستامى (مواليد ١٩٧٠) -والذين نلاحظ أن أكبرهم عمرًا فى الثلاثين- فقد قدموا رسومًا أكثر من مقبولة ومتقدمة وعلى الخط الحديث. وكلهم يعيشون وينشرون داخل حدود بلادهم، وكل رسومهم تغمز إلى حرية الرأى وحرية الصحافة.

وقبل موعد الإغلاق، لابد أن نمر -ولو مرور الكرام- لنستطلع كاريكاتور البوسنة والهرسك وألبانيا وكرواتيا وبوركينا فاسو وكينيا ونيچيريا، وسنشاهد فيها عالمًا يركض ويتعلم ويستوعب ويتغير.

فى المعرض كثير مما يدفعنا لأن نتعلم منه، ونتعظ، ونفتح أبصارنا وعقولنا: إذ لم تعد الدنيا هى الدنيا، ولم يعد الكاريكاتور هو الكاريكاتور الذى باهينا به الأمم يوم كنا فى منتصف الخمسينيات (مدرسة «روز اليوسف» و«صباح الخير» فى مصر)، وظللنا نستهلكه ونكرره ونستنسخه ونعيد فيه ونزيد حتى استنفدناه ولم يبق منه -بعد حوالى ٥٠ عامًا- شيء تنبض فيه الروح. ولم يعد الكاريكاتور هو أيضًا ذلك الكاريكاتور الذى ظهر عندنا مع عصر الانفتاح وأعاد إلى مساحات الكاريكاتور الرئيسية تلك الفكاهة الصادرة من المسطولين الغائبين فى دخان الحشيش، والذين يتداولون حوارًا عبثيًا تحشيشيًا «يميت من الضحك» ويجعل قارئه «يستلقى على قفاه».

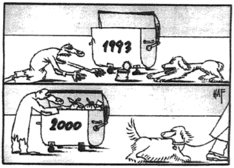
ولم يعد الكاريكاتور هو ذلك الكاريكاتور المكرر المرسوم بتسرع والذى يحمل أيضًا شعارات أو حوارات لفظية «معادية للإمبريالية»، ومفارقات (لفظية هى الأخرى) أعدت على عجل تهاجم الأعداء الخارجيين، وغياب الديمقراطية، وعدم الالتفات إلى سوء حال الشعب، وتشير إلى تبعية الأنظمة إلى الدول الأعظم. تلك الرسوم التى تنساها بمجرد تحول بصرك عنها، ثم تراها مكررة (تقريبًا) فى نفس الأمكنة فى الأعداد التالية. ويكتشف القراء -ببساطة- أن هذه الأعمال قد أنجزت بإهمال، وبدون إعمال العقل والقلب بدرجات كافية، بل جئ بها من أقرب الأبواب.

والكاريكاتور -أيضًا- ليس هو الثبات عند التقليد السهل للكاريكاتور البلقانى الذى توسع رسامو عدد من البلاد العربية المشرقية فى جعله مصدر «إلهامهم» ومنبع كاريكاتوراتهم التى لا تحمل حوارًا ولا تعليقًا، وتعرض بالاستبداد، وتهجو من احتكروا كراسى السلطة لحسابهم. صارت المسألة مكررة يا إخوان، واكتشف القارئ بساطة وسذاجة تلك الماكينة البسيطة، التى يمكن الحصول عليها بسهولة: ماكينة صنع أفكار الكاريكاتور البلقانية!

حتى كاريكاتورات ناجى العلى التى كانت مثقلة بالمأساة والأحزان والنساء الباكيات، لم يعد من الممكن تكرار ما يشبهها من جديد، وليس مضمونًا أن تصدم قراءها نفس الصدمة التى كان الجمهور يطالب بها الفنان الراحل بتلذذ واشتياق فى السبعينيات وأوائل الثمانينيات، مثلما كان يتطلبها من أغانى الشيخ إمام عيسى حينذاك.

يبدو أن علينا أن نبحث عن كاريكاتور جديد لقارئ هذا الزمان، وأيضًا للقارئ القديم المشتاق للجديد لكنه لا يملك القدرة على توصيف دقيق لما ينتظره. وعلينا أن نكف عن استخدام حجة عدم توفر الديمقراطية أمام الكاريكاتوريين. إذ كيف سيكون الكاريكاتور فعالاً وجاذبًا وصادمًا ولماحًا إذا كان الطريق أمامه سهلاً وممهدًا وسالكًا مثل حياة «أولاد الناس المرفهين»؟

وعلى ضوء ما شاهدناه، يكون من البديهى أن نتوقف قليلاً، ونتبين موقع وقوفنا، ونحاول تقييم أحوالنا الكاريكاتورية الراهنة ■



هاف (البوسنة): تغير الأحوال بين ١٩٩٣ و ٢٠٠٠!
[من سلسلة بعنوان «حزب الزبالة»]

كتاب الزاوية

الأمير

٣ـ فى الشدة واللين

يجب على كل أمير أن يرغب فى أن يعد رحيمًا لا شديدًا، وأن يهتم بألا يسىء استخدام هذه الرحمة بأية حال. لقد عد قيصر بورجا شديدًا، ولكن شدته هى التى أتت بالنظام والوحدة فى رومانا، وجعلت الأمن يستتب فيها، والولاء يسود. ولذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يتهم بالشدة مادامت من أجل المحافظة على وحدة رعاياه وولائهم؛ لأنه حين يشتد مع عدد قليل جدًا يكون أرحم من هؤلاء الذين يتمادون فى اللين فيتيحون قيام القلاقل، ومن هنا تراق الدماء، ويحدث النهب. وهذه الأمور كقاعدة تضر جماعة فى مجموعها، بينما تنفيذ الإعدام فى أفراد لا يؤذى غيرهم. ونجد من بين جميع الأمراء أن الأمير الحديث العهد لا مناص له من الاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة حافلة بالأخطار دائمًا.

ومازلنا نقول بأنه ينبغى للأمير أن يجعل نفسه مهابًا بطريقة إذا لم تكسبه الحب فهى تقيه من البغضاء على أية حال، لأن الخوف وعدم الكراهية قد يسيران معاً سيرًا حسنًا، ويصل إليهما على الدوام إنسان يمتنع عن التدخل فى ملكية مواطنيه ورعاياه ونسائهم. وحين يضطر الأمير إلى أن يعدم فردًا ما فدعه يفعل ذلك حينما يكون هناك تبرير صحيح له، وعلة واضحة. ولكنه يجب أن يمتنع أولاً عن أخذ ملكية غيره، لأن نسيان البشر لموت آبائهم أيسر عندهم من نسيان ضياع ملكهم.

وعلى ذلك أقول فى الختام، فيما يتعلق بمهابة الأمير ومحبته، إن الناس يحبون بإرادتهم الحرة، ولكنهم يخافون برغبة الأمير؛ والأمير العاقل يجب عليه أن يركن إلى ما فى سلطانه لا سلطان سواه، وما عليه سوى السعى إلى مجانبة ما يجلب عليه الكراهية.

أدب

حقول عدن الخضراء
أنطونيو غالا
ترجمة: عبد اللطيف عبد الحليم
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠
مسرحية عن الحرب الأهلية الأسبانية، لكنها تحتشد بقضايا فلسطينية عديدة عن الحياة والموت والوجود والعدم وغيرها.

■■■

عاشقة بألوان قوس قزح.. جرح عميق فى برميل مازوت
جورج شامى
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠
مجموعة قصصية للمؤلف بعد فترة انقطاع دامت نحو ٤٠ سنة، وتضم قصصًا يدور معظمها فى إطار اجتماعى، عن الأسرة والخيانة والفقر والحاجة.

■■■

عين السراب
عيسى مخلوف
بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠
نصوص نثرية تلملم سيرة المؤلف الذاتية وذكرياته عن الأمل والوطن، ذكريات تربط الماضى بالحاضر والجدى بالعبث والصبا بالطفولة، والبراءة بعذابات الناس التى لا تنتهى.

■■■

هناك أشياء تغيب
زينب حفنى
بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠
مجموعة قصصية جديدة للقاصة السعودية، تسعى عبرها إلى صياغة الوجود بكلمات بسيطة موحية، تستحضر من خلالها الغائب وتغيب الحاضر، كى تصنع الوجود كما تحب أن تراه، مخلفة مشاهد متحركة للوجود الإنسانى عبر أزمنة مختلفة.

إعـــلام

فى الأنظمة الإذاعية المعاصرة
هويدا فتحى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠
دراسة عن الخدمة الإعلانية الإذاعية المعاصرة، حدودها وطبيعتها ومدى ارتباطها بالأهداف التجارية.
ويتناول الكتاب فى قسم آخر القيود والضوابط التى تنظم العملية الإعلانية فى الأنظمة الإذاعية المختلفة، وحدود مراعاة هذه الضوابط، ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

■■■

The Associated Press: Stylebook and Briefing on Media Law
(كتاب الأسوشيتدبرس لقواعد الأسلوب وموجز قوانين الإعلام)
Norm Goldstein (editor), The Associated Press
Perseus Books, 2000, 352pp., $16.00 (Pb)
دليل ومرجع للصحفيين والكتاب الذين يكتبون باللغة الإنجليزية، يحتوى على إرشادات مختلفة مثل قواعد استخدام علامات الترقيم وأسلوب التوثيق الببليوجرافى وطريقة كتابة كلام الصور. كما يحتوى الكتاب على قسم خاص بقوانين الصحافة والإعلام.

■■■

Anything Goes!: What I've Learned From Pundits, Politicians, and Presidents
(ما تعلمته من العلماء والساسة والرؤساء)
Larry King, Pat Piper
Warner Books, 2000, $25.95
يكتب مذيع قناة CNN اللامع لارى كنج آراءه وملاحظاته حول الأحداث المهمة التى جرت فى العشر سنين الماضية، وذلك من خلال ذكرياته مع أشهر الشخصيات السياسية والعلمية والفنية التى استضافها فى برنامجه «لارى كنج لايف».

اقتصاد وتجارة

الإصلاح الاقتصادى فى سورية
نبيل سكر
بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠
يعانى الاقتصاد السورى، كغيره من الاقتصادات العربية من أوجه عديدة للخلل، وهو خلل يعرقل برامج التنمية وخطط التقدم، المؤلف يقدم مقترحاته للإصلاح الاقتصادى وعلاج بعض المشكلات مثل البطالة وضعف الاستثمارات وغيرها.

■■■

اللغة والاقتصاد
فلوريان كولماس
ترجمة: أحمد عوض
القاهرة: عالم المعرفة، ٢٠٠٠
عن التأثير المتبادل بين اللغة والاقتصاد، وكيف يمكن للاقتصاد أن ينحت فى قاموس اللغة، وتأثير وتنوع المستوى الاقتصادى فى المجتمعات.

■■■

اليورو وأسواق المال الدولية والعربية
منى قاسم
القاهرة: الأكاديمية العربية للعلوم المالية والمصرفية، ٢٠٠٠، ١٢٤ص.
الكتاب الأول فى سلسلة قضايا مصرفية التى تصدرها الأكاديمية العربية للعلوم المصرفية. ويتناول موضوع الاتحاد الاقتصادى والنقدى والعملة الموحدة «اليورو» وما يمكن أن يكون لها من آثار على أسواق المال الدولية والعربية على السواء.

■■■

Maestro: Greenspan's Fed and the American Boom
(مايسترو: جرينسبان والازدهار الاقتصادى فى أمريكا)
Bob Woodward
Simon & Schuskr, 2000, 272pp., $17.99
يتناول المؤلف مدى تأثير آلان جرينسبان رئيس مجلس إدارة الاحتياطى الفدرالى الأمريكى على ازدهار واستقرار الاقتصاد فى أمريكا. بل إن هناك من يرجع له الفضل فى إنقاذ الاقتصاد العالمى من الانهيار. كما أن وجوده فى منصبه حتى عام ٢٠٠٤ يعد السبب الرئيسى فى عدم الاهتمام بمؤهلات رئيس الولايات المتحدة المقبل.

بيئـــة

Ocean's End: Travels Through Endangered Seas
(نهاية المحيط: رحلات فى بحار مهددة بالخطر)
Colin Woodward
Basic Books, 2000, 320pp., $26.00
بعد عام ونصف قضاها فى زيارة محيطات العالم، يكتب وودوارد عن الحالة المؤسفة التى وصلت لها البحار بسبب الإفراط فى الصيد فى بعض الأماكن، وتسربات زيت البترول، والنفايات الصناعية، والتجارب النووية، والمنشآت السياحية. وهو يؤكد أن تدمير الإنسان للبحار من حوله وإهماله إزاءها نابع من اعتقاد خاطئ مرده أن المحيطات تجدد نفسها وأنها خزانات لا نهاية لها. والحقيقة أن المحيطات لها حدود تقع فى نطاق قدرتنا على تدميرها، والمخلفات التى نصرفها فى البحار لا تختفى. ويقدم وودوارد أمثلة من البحار التى دمرت بالفعل وأولها البحر الأسود، ثم خليج مكسيكو، وجنوب الهادى، وغيرها.

■■■

You Can't Eat GNP: Economics as Though Ecology Mattered
(أنت لا تستطيع أن تأكل الناتج القومى الإجمالى: الاقتصاد فى حالة الاهتمام بالنظام البيئى)
Eric Davidson, George M.Woodwell
Perseus Press, 2000, 247pp., $24.00
يحمل الكتاب رسالة واضحة وعاجلة من عالم اقتصاد شهير: «النظام الاقتصادى سوف يفشل إذا لم يدر النظام البيئى بعناية». ويفسر دايفدسون العلاقة بالمثال الآتى: فى حين يضع النظام الاقتصادى السائد قيمة مرتفعة على منتج استهلاكى مثل الخبز، يضع قيمة أقل على أهم مكوناته وهو الدقيق، ثم يضع على القمح قيمة أقل فأقل، أما التربة التى ينمو فيها القمح فيضع لها أقل قيمة على الإطلاق، وعلى هذا يكون الهرم الاقتصادى معاكسًا تمامًا للهرم البيئى، فى حين أنه ينبغى النظر للتربة على أنها مصدر توازن الهرم بأكمله.

تـــاريـــخ

بحوث المؤتمر الدولى حول العلم والمعرفة فى العالم العثمانى
إعداد: صالح سعداوى
تركيا: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٠
حول ما قدمته الخلافة الإسلامية العثمانية للإنسانية فى مجالات العلوم والفنون، والنظم التعليمية العثمانية التى سادت فى الولايات الإسلامية، ويتضمن الكتاب قسمًا خاصًا عن السياسة فى الدول العثمانية.

■■■

غواية إسرائيل.. الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفيتى
أشرف الصباغ
القاهرة: حورس، ٢٠٠٠
بانوراما تاريخية تمتد لنحو قرن ونصف، يحلل فيها الكاتب موقف الصهيونية من انهيار الاقتصاد الروسى، وموقف المفكرين الروس من اليهود، ويعرض لنماذج تطبيقية من الأدب الروسى تدلل على تلك المواقف.

■■■

فى تاريخ العرب
نقولا زيادة وآخرون
دمشق: دار طلاس، ٢٠٠٠
فى تاريخ العرب أحداث ورجال لعبوا دورًا بالغ الأهمية فى توجيه مجريات تلك الأحداث، المؤلف يعرض لتلك الأحداث الحاسمة التى غيرت شكل الحياة فى الوطن العربى وتأثيراتها سياسيًا واجتماعيًا.

■■■

فلسطين فى القرن العشرين.. وقفات إحصائية
فلسطين: الجهاز المركزى للإحصاء، ٢٠٠٠
يلقى الكتاب عبر فصول أربعة، الضوء على تاريخ فلسطين، ويرصد تطورها إحصائيًا فى كافة المجالات، وانعكاس الأرقام ودلالاتها على المجتمع الفلسطينى، فيتناول عدد السكان والمستشفيات والمدارس والجامعات، وكذلك نسبة الفلسطينيين إلى الإسرائيليين وكيف اختلفت هذه النسبة وتحت أى ظروف.

■■■

The View from Nebo: How Archeology is Rewriting the Bible and Reshaping the Middle East
(كيف يعيد علم الآثار كتابة الكتاب المقدس ويعيد تشكيل الشرق الأوسط)
Amy Docksar Marcus
Little Brown, 2000, 272pp., $25.95
يتناول الكتاب النظريات الجديدة التى يسوقها علماء الآثار المعاصرون عن تاريخ منطقة الشرق الأوسط من خلال اكتشافاتهم الأثرية لبعض المواقع التى ذكرت فى الكتاب المقدس.

تـــــراث

زيل الأمالي والنوادر

أبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

عن أخبار العرب ومراثيهم وحياتهم. وأهم الحوادث والنوادر التي وقعت في الجاهلية والإسلام، منها خبر سفانة بنت حاتم الطائي مع والدها وأخواتها. ومرثية محارب بن دثار لعمر بن عبد العزيز، وحديث ثبيت البصري مع بعض الأعراب، وغيرها من أحاديث العرب ونوادرهم.

■■■

شمسات شباطية

بو علي ياسين

دمشق: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠

الطرائف والنوادر من الفنون العربية القديمة، وأهم وأشهر ما عرف من كتب العرب في هذا الباب كتاب «الأغاني» للأصفهاني، و«البخلاء» للجاحظ، المؤلف ينهل من هذا المعين الثري، لكنه لا يغيب عن الحاضر ونوادره خصوصًا السياسية منها، وجميعها من نوع الكوميديا السوداء، لكنها في نهاية المطاف نوادر تستحق أن تروى.

سـيـاسـة

البحرين.. قصة الصراع السياسي

محمد عبد القادر الجاسم وسوسن الشاعر

الكويت: المؤلفان، ٢٠٠٠

تحكي الدراسة قصة البحرين والصراع السياسي حولها قديمًا، وعلاقتها ببريطانيا، ثم كفاح البحرين حتى صارت كيانًا سياسيًا مستقلاً.

■■■

التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية

حسن عبد الرازق

القاهرة: سطور، ٢٠٠٠

وقعت معاهدات سلام بين بعض الدول العربية وإسرائيل، لكن «التطبيع» الذي سعت إليه إسرائيل لم يتحقق لكونه يرتكن أساسًا على الشعوب، والشعوب بحسها التلقائي رفضت التطبيع ولم تتقدم خطوات في اتجاهه، وقد مثل هذا الرفض مقاومة شعبية للغزوة الصهيونية في بعدها الثقافي على الأقل.

■■■

الحركات الإسلامية والديمقراطية:

المواقف والمخاوف المتبادلة

المحرر: علي خليفة الكواري

الكويت: دار قرطاس، ٢٠٠٠

مجموعة أبحاث ألقيت في ندوة عن الإسلام والديمقراطية، وبالأخص عن الحركات الإسلامية السياسية وموقفها من قضية الديمقراطية التي تمثل ركيزة أساسية لبناء المجتمع المدني.

■■■

الجولان بين الحرب والسلام

باحثون إسرائيليون

ترجمة: أحمد أبو هدبة

بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ٢٠٠٠

أربعة عشر باحثًا إسرائيليًا شاركوا في هذا الكتاب، ونقاشاتهم تعكس مختلف وجهات النظر الإسرائيلية الرسمية وغير الرسمية عن مسألة التسويات الإقليمية في المنطقة، وفي السودان على وجه الخصوص. كما يتتبع الكتاب المواقف السورية طوال مراحل الصراع، ويشرح أهمية موقع الجولان في الصراع العربي الإسرائيلي.

■■■

العولمة والجات

عبد الواحد العفوري

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠

اتفاقيات الجات هي أحد إفرازات العولمة في بعدها الاقتصادي، حيث تعني الجات مزيدًا من حرية انتقال السلع بلا قيود بين البلدان المختلفة، وتخفيف الإجراءات الجمركية والحمائية، إنها عولمة للسوق، فهل تمضي المسألة في سبيلها هذا دون تأثيرات سلبية على الدول النامية؟

■■■

الفلسطينيون في الكويت وأزمة الخليج

توفيق أبو بكر

عمان: مركز جنين للدراسات، ٢٠٠٠

انعكس الموقف الرسمي الفلسطيني إبان حرب الخليج الثانية على أوضاع الفلسطينيين في دول الخليج العربي وبينها الكويت، وهذه الدراسة تعنى بهؤلاء الذين دفعوا ثمن المواقف الرسمية ماديًا ومعنويًا.

■■■

المقاومة وتحرير جنوب لبنان

عبد الإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

قدمت المقاومة اللبنانية الباسلة في جنوب لبنان نموذجًا فريدًا لما يمكن أن تثمره حروب التحرير غير النظامية، حزب الله ليس مجرد مجموعات مقاومة ضد المحتل الأجنبي، إنها «حالة» فكر وأيديولوجيا وإيمان بالهدف، مدعومة بتخطيط مدروس تمكن من تحقيق ضربات موجعة، دفعت الإسرائيليين إلى الفرار بعارهم من مستنقع الجنوب، المؤلف يحدثنا عن دور هذه المقاومة في تحرير الجنوب اللبناني، بوصفها نموذجًا قابلاً للاقتداء.

■■■

سنوات الفوضى والجنون

محمد خوجة

الجزائر: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف سنوات حكم الرئيس الشاذلي بن جديد، التي يرى أنها سبب رئيسي فيما آلت إليه الأوضاع في الجزائر من تدهور، كما يحمله المؤلف مسئولية تفشي العنف والإرهاب، وتحويله الجزائر من دولة سياسية إلى دولة إدارية، صار هو - بحسب رأي المؤلف - حاكمها وسيدها الأوحد.

■■■

Nation and Race: The Developing Euro American Racist Subcuture

(الثقافة الفرعية العنصرية الناشئة في أمريكا وأوروبا)

Jeffrey Kaplan and tore Bjorg (editors)

Nor theaskrn Up. 2000, 273pp., $20.00

مجموعة من المقالات الدراسية التي تتناول ظاهرة نمو الثقافة العنصرية الجديدة في كل من أوروبا وأمريكا. وبالرغم من التشابهات العديدة بين اليمين المتطرف في القارتين، إلا أن الكتاب يبين أيضًا أوجه الخلاف، ومن ضمنها خصوصية كراهية المهاجرين في أوروبا كسبب رئيسي لنمو الحركات العنصرية، بينما تنبع العنصرية واليمين المتطرف في أمريكا من المعتقدات الدينية وشيوع نظريات المؤامرة.

■■■

Saddam's Bombmaker: The Terrifying Inside Story of the Iraqi Nuclear and Biological Weapons Agenda

(صانع قنابل صدام: أجندة الأسلحة النووية والبيولوجية العراقية.. القصة من الداخل)

Khidher Hamza, With Jeff Stein

Scribner, 2000.352pp., $26.00

المؤلف عالم طبيعة نووية، عراقي الجنسية، رأس برنامج الأسلحة النووية العراقي لعدة سنوات قبل أن يتخلى عن منصبه. ويروي هنا مشاهداته الشخصية عن دوائر الحكم العراقية، ومدى ضعف الجهود الدولية في الحد من انتشار الأسلحة النووية، حيث يواصل رجال الأعمال الأوروبيون بيع السلاح النووي إلى صدام، حتى أن أجهزة المخابرات في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا تساعد العراق في برنامج تسليحه النووي كما يقول خضر حمزة. ومن ناحية أخرى يبين حمزة كيف أن الوكالة الدولية للطاقة النووية تيسر الانتشار النووي بدلاً من أن تحد من انتشاره، حيث كان العملاء العراقيون يستخدمونها في الحصول على معلومات تقنية مهمة. كذلك استخدم فريق القنبلة العراقية وثائق من مشروع مانهاتن الخاص بالحرب العالمية الثانية، وكان قد أفرج عنها الضباط الأمريكيون ظنًا منهم أنها لا تحوي قيمة تقنية لصناع السلاح النووي المعاصرين. وفي النهاية يؤكد حمزة على أن صدام لا ينقصه سوى بعض المواد القليلة اللازمة لصنع القنبلة النووية، وما أن يحصل عليها سوف يقوم لا شك باستخدامها.

سير ومذكرات

السجل الكامل

افونسو دلبو كيرك، عبد الرحمن الشيخ

أبو ظبي: المجمع الثقافي، ٢٠٠٠

عن أهم أعمال دلبو كيرك، ثاني نواب الملك البرتغالي على الهند، وسياسته الاستعمارية التي أثرت في المجتمع الهندي والدول المجاورة، وموقفه من الحركات التحررية هناك.

■■■

ذكريات أيام السياسة

عبد السلام العجيلي

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

يسجل هنا الأديب والطبيب والوزير السابق ذكرياته عن مرحلة النشاط السياسي التي تولى فيها عددًا من المناصب الوزارية في سورية عام ١٩٦٢. ليس تاريخًا سياسيًا، لكنه كتاب لمفكر وباحث مهموم بالعلاقات بين بلاده والبلاد المحيطة بها. مستفيدًا من خبراته الأدبية كروائي.

■■■

رجال في تاريخ الكويت

يوسف الشهاب

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

حققت الكويت في فترة زمنية وجيزة، نهضة ثقافية وفكرية كبيرة، وبرز في سمائها أعلام في ميادين شتى، والمؤلف يشير إلى بعض هؤلاء الذين لعبو دورًا مهمًا في تاريخ الكويت، حتى باتوا جزءًا من ذاكرتها الوطنية، وهو في سرده هذا، يعرج على تاريخ الكويت السياسي والاجتماعي، كيف كانت، وكيف صارت بعد ظهور النفط.

■■■

عبد الرحمن الكواكبي.. جدلية الاستبداد والدين

حسن السعيد

إيران: رواد الإصلاح - قم، ٢٠٠٠

اهتم عبد الرحمن الكواكبي بالمسألة السياسية وقدم فيها إسهامه المهم «طبائع الاستبداد» الذي حارب فيه أشكال الاستبداد وحذر من مغبة سيادة النظم المستبدة، وتحدث عن كيفية وضرورة مقاومته، لصلاح حال البلاد والعباد.

■■■

عبد الله سنان

فاضل خلف

الكويت: رابطة الأدباء الكويتيين، ٢٠٠٠

دراسة عن الشاعر الكويتي الكبير عبد الله سنان، الذي صارت قصائده جزءًا من ذاكرة الشعب الكويتي، خاض عشرات المعارك بقلمه، وكتب في مجالات عدة، المؤلف يعرض لسيرته ولنماذج من نصوصه.

■■■

في أعقاب النكسة

محمد الجوادي

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف مذكرات كبار الضباط حول فترة النكسة وحرب الاستنزاف وكيف تمكنت القوات المسلحة من تحويل الهزيمة إلى نصر، لقاءات مع الفريق مدكور أبو العز والفريق أول محمد صدقي محمود وآخرين.

■■■

نساء من بلادي
نادیا نويهض
بيروت: دار الحداثة، ٢٠٠٠
سيرة حياة أكثر من ٢٥٠ رائدة لبنانية وعربية، ساهموا في مسيرة النهضة العربية، لعبوا أدوارًا سياسية وثقافية واجتماعية، وغيروا شكل الحياة في مجتمعاتهم، كما قدموا إسهامات في تحرير المرأة وتقدمها، وتنشيط فاعليتها في مواجهة قيود لا تعترف بمكانتها التي تستحقها.

■■■

هارون الرشيد
محمد أبو رحمة
القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠
عن سيرة الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي ربما كان أشهر خلفاء بني العباس، وقد امتزجت في سيرة حياته الحقائق بالأساطير، وصار في ذهن العامة نموذجًا للرفاهية والثراء الواسع، والمؤلف يتجاوز هذه الصورة الشعبية، ويركز أكثر على حركة الأدب والعلوم والثقافة في عصره، ليبين كيف كان هذا الخليفة مشجعًا للأدب والتجديد في الفقه والفكر عمومًا.

شـــعـر

شعراء أم كلثوم
حنفي المحلاوي
القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠
كتب كثيرون من أهم شعراء العربية لأم كلثوم، كما غنت هي نفسها قصائد لشعراء قدامى مثل أبي فراس الحمداني، كما غنت قصائد للشاعر الفارسي عمر الخيام، الكتاب يرصد علاقة أم كلثوم بشعراء عصرها من أمثال الهادي آدم وجورج جرداق ومحمد إقبال وبديع خيري وأحمد شوقي وأحمد رامي.

■■■

عبثا تؤجل قلبك:
حسن. م. يوسف
دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٠
كتابة أقرب إلى النثر الشعري، منمنمات تستنطق الحكمة الإنسانية وتحرث الأفكار التي تغير المجتمع، معتمدًا على إضاءة فكرة أو موقف إنساني أو اجتماعي.

■■■

لفظ في البرد
عباس بيضون
دمشق: دار المسار، ٢٠٠٠
يفكك الشاعر نظام الأشياء والطبيعة، ويمزق اقنعة تتخفى وراءها الحقائق، كي تبدو الحقائق جلية عن صورة الوطن وأحلام الناس.

■■■

يدان إلى الهاوية
جمانة سلوم حداد
بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠
تتحدث الشاعرة عن الذات الأنثوية التي تسعى للفكاك من أسر المجتمع الذكوري، وكيف يمكن لهذه الذات أن تحقق طموحاتها بعيدًا عن نظرة المجتمع الضيقة للمرأة ودورها.

طـــب

متاعب أنفك لها علاج
نبيل الصاحي
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠
يقدم المؤلف معلومات عميقة بطريقة مبسطة عن جراحات تجميل الأنف، والأمراض التي تصيب الأنف والتقدم في علاجها، كما يشرح المؤلف المضاعفات التي يمكن أن تحدث بعد عمليات تجميل الأنف، ويجيب عن أكثر من ٣٠٠ سؤال، مع مجموعة كبيرة من الصور لتوضيح الإجابات وتقريبها.

■■■

The Invisible Enemy: A Natural History of Viruses
(العدو الخفي: تاريخ طبيعي للفيروسات)
Dorothy Crawford
Oxford University Press
بمناسبة موسم الأنفلونزا، تقدم المؤلفة وهي أستاذة في جامعة أدنبرج، تاريخ وأصناف مختلف الفيروسات التي أصابت العالم، ومن ضمنها الأنفلونزا، الذي سجل أول انتشار له في أدنبرة عام ١٥٦٢. تفسر المؤلفة بأسلوب سهل الفرق بين الفيروس والبكتيريا، كما تتعرض للفيروسات التي تهدد العالم في الوقت الحالي وفي المستقبل القريب.

طعـــام

The Chinese Kitchen
(المطبخ الصيني)
Deh-Ta Hsiung, Ken Hom
St. Martins Press, 2000, 240pp., $26.00
كتاب موسوعي يضم معلومات مفصلة وعددًا كبيرًا من الوصفات لأطباق صينية مختلفة. ويبدأ بشرح الأساسيات التي يقوم عليها المطبخ الصيني، فيبين كيف أن جميع أنواع الطعام ينظر إليها في ضوء قيمتها الطبية والغذائية. كذلك يوضح أهمية التوازن بين اللون والرائحة والنكهة والملمس والشكل في كل طبق. يضم الكتاب أيضًا أسماء مائة من المكونات الأساسية في الطعام الصيني بأسمائها اللاتينية والإنجليزية والصينية، إلى جانب طريقة إنتاجها أو زراعتها وكيفية الحكم على جودتها، واستخداماتها الطبية والغذائية.

■■■

Crafting the Culture and History of French Chocolate
(صناعة ثقافة وتاريخ الشوكولاتة الفرنسية)
Susan J. Terrio
University of California Press, 2000, 326pp.
كانت المؤلفة تزور معملاً للشيكولاتة في باريس عندما قررت أن هؤلاء الصناع المهرة يصلحون كموضوع لرسالة الدكتوراه التي تعدها في الأنثروبولوجيا. وقادتها أبحاثها إلى جنوب غرب فرنسا في مدينة «بايون» المركز التاريخي لصناعة الشيكولاتة ذات الجودة العالية والمصنوعة يدويا. وهناك اكتشفت البناء الهيراركي المتصلب الذي تقوم عليه بيوت صناعة الشوكولاتة. فمعظمها يدار بواسطة أزواج، الزوج يصنع الشوكولاتة والزوجة تدير المحل، وأي محاولة للخروج عن هذا النمط تقابل بالمقاومة وتنتهي بتعاسة كبيرة.
كذلك تكتشف المنافسة الكبيرة المريرة بين البيوت المحلية لصناعة الشوكولاتة. ولكنها تتعاطف معهم خاصة عندما يشكون من أصناف الشوكولاتة البلجيكية التي اخترقت الأسواق، وتتساءل عما إذا كانت الشوكولاتة الفرنسية اليدوية سوف تبقى حية في عصر أصبحت فيه الحرف اليدوية نادرة.
وتناقش المؤلفة في أجزاء أخرى من الكتاب المفاهيم الثقافية الإيجابية والسلبية التي ارتبطت بالشوكولاتة في العالم كله، خاصة كهدية طقسية وكرمز للإفراط في الترف.

عمـــارة

رياض القاسمية أو فقه العمران الإسلامي
القاضي كافي أحمد بن إبراهيم الإدروي الحنفي أفندي
دراسة وتحقيق: مصطفى بن حموش
دمشق: دار البشائر، ٢٠٠٠
مزيج من علوم الرياضيات والهندسة وهندسة الديكور، وكذلك عن المساحة وتجميل الميادين والشوارع، ثم عن العمارة وفنونها وأشهر المعماريين المسلمين وأثر الفن الإسلامي في تقدم العمارة.

■■■

موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية
عبد الحكيم العفيفي
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠
موسوعة تقع في ٦٠٠ صفحة، تعرض لألف مدينة إسلامية تجمعها صفات واحدة مثل الاحتفال بالأعياد الإسلامية وكثرة عدد المساجد ووفرة القلاع والحصون والأبنية ذات الفن الإسلامي، وإطلاق أسماء الصحابة والتابعين وأبطال التاريخ الإسلامي على شوارعها وميادينها.

■■■

The Seduction of Place: The City in the 21st Century
(إغراء المكان: المدينة في القرن الواحد والعشرين)
Joseph Rykewrt
Wesdenfeld, 2000, £20.00
تساؤلات حول عمارة المدن في الزمن المعاصر: كيف تتشكل مدن العالم الآن؟ وكيف نشأت؟ ما الذي يجعل بعض المدن سيئة وأخرى جيدة؟ هل من الممكن إنقاذ مدينة مدمرة معماريًا؟

فكـــر

الشرعية الإسلامية والشرعية الدستورية
إبراهيم دعيج الصباح
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٣٦٦ ص.
هذه الدراسة بالأساس قدمت باللغة الإنجليزية كأطروحة لجامعة برمنجهام البريطانية، والهدف منها هو تبيان أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين الدستور الكويتي والشريعة الإسلامية. وقد اثبت المؤلف أن الدستور الكويتي ينسجم مع الشريعة الإسلامية، مؤكدًا على أن الشريعة ثابتة وتفسيرها متحرك حسب القوانين الطبيعية والتطويرية.

■■■

العقل الأمريكي يفكر
شوقي جلال
القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠
سيادة النمط الأمريكي في حياة كثير من شعوب العالم الثالث وربما في دول أوروبية، ربما هو التجلي الأخير لسيادة الثقافة الأمريكية كتعبير عن حالة القطب الوحيد التي يعيشها العالم في أعقاب الحرب الباردة، لكن إلى أين يقود العقل الأمريكي العالم، المؤلف يلقي أضواء على سلبيات عديدة ناجمة عن سيطرة النموذج الأمريكي على العالم ومقدراته، العقل الأمريكي كما يؤكد المؤلف، يفتقد إلى كثير من الرشادة والعدل والمسئولية.

العولمة.. أية عولمة؟
يحيى اليحياوي
الرباط: دار أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠
شاع مصطلح العولمة وتعددت الكتابات بشأنه دون الاتفاق حتى الآن على مفهوم وحيد لمعنى العولمة، والخلافات بشأن تأثيراتها وحدود قبولها أو رفضها أكبر بكثير من الاختلافات حول المصطلح، يقدم المؤلف هنا اجتهادا في مسألة العولمة.

■■■

النهضة العربية الثانية.. تحديات وآفاق
غسان عبد الخالق
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠
حوارات مع كبار المفكرين العرب عن أهم القضايا الساخنة التي شغلت السياسة العربية في الوقت الراهن، كالعلاقة بين الشرق والغرب تاريخيًا وحضاريًا، وأثرها على المجتمعات العربية، ثم كيفية صياغة هذه العلاقة بما يحقق مصلحة الأطراف العربية.

■■■

الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد
رمسيس عوض
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يكشف الكتاب حقيقة المحرقة التي تسميها إسرائيل بالهولوكوست، والتي يزعم الصهاينة أن ستة ملايين يهودي قتلوا أو ماتوا حرقًا بالغاز فيها.

والكتاب يقدم ثلاثة كتب مثيرة للاهتمام والجدل وتتباين في مواقفها من الهولوكوست.

■■■

بدايات الفكر الوطني في المغرب

محمد داود

المغرب: وكالة شراع، ٢٠٠٠

عن بدايات الفكر المغربي منذ عام ١٩٢٢ وحتى الآن، يعرض لها المؤلف كما يعرض لحرب الريف التحررية التي أججت حماس الوطنية بين الشباب الذين كان منهم المؤلف الذي توفي في عام ١٩٨٤، ويشير المؤلف إلى عمق المأساة الناجمة عن هزيمة الريفيين أمام التحالف الأسباني الفرنسي.

■■■

تحديات عصر جديد

أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠

مقالات ترصد ما يجري في عصر يموج بتحولات متسارعة ومدهشة تفرض على العرب أن يواجهوها بالدرجة ذاتها من السرعة، وبقدرة على التجديد والابتكار، والمؤلف يتخير أحداثًا سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية بعينها ليدلل على سرعة تلك التحولات وعمق تأثيرها.

■■■

حرب الثقافة

سمير سرحان

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠

عديد من الموضوعات والأفكار عما آل إليه حال الثقافة العربية من انهيار، وعن أزمة الطبقة الوسطى وما قاد إليه تدهورها من اختلال القيم، ما يريد أن يؤكده المؤلف أن الصراعات التي تبدو في ظاهرها سياسية أو اقتصادية هي في الأساس ثقافية، إنها حرب الثقافة كما يشير العنوان.

■■■

دعوة الجماهير

عبد الله عبد الرحمن

الدوحة: كتاب الأمة، ٢٠٠٠

كيف يمكن أن تتحول الثقافة من فعل يعني النخبة إلى فعل جماهيري، تساهم الناس في صنعه ولا تكتفي بدور المتلقي، كيف يمكن أن ننقل العامة من خانات رد الفعل إلى خانة الفعل والمشاركة في صناعة حياتهم.

■■■

مسالك الإبداع ومناهج البحث في الثقافة العربية.. الأنا والآخر

تونس: كلية الآداب جامعة صفاقس، ٢٠٠٠

عن الثقافة العربية ووضعيتها بين الثقافات العالمية، وعن النهضة العربية الثقافية وما استلهمته وما أضافته للثقافات الأخرى، وعن دور الآخر في حياتنا وكيفية بناء علاقة صحية معه.

■■■

من النهضة إلى الردة

جورج طرابيشي

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

شهدت الثقافة العربية في القرن الأخير، انتكاسات ردة حقيقية، المؤلف تتبع مظاهر تلك الردة ويحلل أسبابها ويقيم نتائجها، ويقدم تصورات وتحليلات نقدية للثقافة العربية في زمن العولمة.

ويأتي كتاب طرابيشي هذا في سياق مشروعه لنقد العقل العربي، الذي بدأ مع كتابه عن العصاب الجماعي لدى النخبة المثقفة، والذي تناول فيه بالنقد كتابات الدكتور حسن حنفي، ثم كتابه «نقد نقد العقل العربي» الذي ينتقد فيه مشروع المفكر المغربي عابد الجابري عن نقد العقل العربي.

فـــكر ديني

أبو الحسن الشاذلي

مأمون غريب

القاهرة: دار غريب للنشر، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف فقه الشاذلي وتصوفه وتلاميذه وأسفاره وأولاده، ويعتبره المؤلف واحدا ممن فهموا معنى التصوف بحق، دون تزيد، ودون خزعبلات تخرجه من المفاهيم الإسلامية الصحيحة.

■■■

الحياة السياسية والفكرية للزيدية في المشرق الإسلامي

أحمد شوقي إبراهيم العمرجي

القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠

عن الزيدية وظروف نشأتها وأفكارها ومعتقداتها، وحدود اتفاقها أو اختلافها مع غيرها من المذاهب الشيعية.

■■■

دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب

شحادة الخوري

دمشق: دار الطليعة، ٢٠٠٠

تمثل الترجمة ـ كما مثلت في بدايات النهضة ـ أهمية كبيرة، المؤلف لهذا السبب يقدم مقترحات لتنشيط عملية الترجمة في الوطن العربي، ويطالب بتعريب العلوم كي تعم الفائدة من الثقافات والعلوم الأجنبية، ويشير إلى التجربة السورية، حيث كانت سورية القطر الوحيد الذي قدم الطب والصيدلة والعلوم باللغة العربية.

■■■

الخوارج والحقيقة الغائبة

ناصر السابعي

مسقط: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠

عن الخوارج، نشأتهم وحياتهم وأفكارهم وأهم ما كتب عنهم، وما إذا كان المؤرخون أنصفوهم أم ظلموهم، المعروف أن الخوارج من أهم الفرق الإسلامية التي لعبت دورًا مهمًا في التاريخ الإسلامي فكريًا وعمليًا.

■■■

المفهوم الإسلامي للتكافل الاجتماعي

منصور الرفاعي عبيد

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠٠

للمال مهمة اجتماعية جليلة في المجتمع الإسلامي، لهذا فإن فرض الزكاة ليس إحدى ركائز الإسلام وشريعة تختص بمؤديها فحسب، وإنما تعم فائدتها في حالة تأديتها على أكمل وجه على المجتمع كله، وتحقق التكافل الذي يزيل الفجوات بين شرائح وفئات المجتمع المسلم.

■■■

الإسلام والفكر السياسي

تحرير وتقديم: رضوان زيادة

بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

مجموعة من الأبحاث التي قدمت في مؤتمر الفكر السياسي الإسلامي، عن مفهوم الديمقراطية في الإسلام ومحاولات التقريب بين مذاهبه، ثم تطبيقات عملية من إيران وغيرها.

■■■

مواقف من حياة الصحابة «الجزء الثاني»

علي الخطيب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف في هذا الجزء لمواقف في حياة ثمانية من صحابة رسول الله هم ثابت بن قيس والطفيل بن عمرو الدوسي وزيد بن الخطاب، وعقبة بن غزوان وصهيب بن سنان وعمير بن سعد وعمران بن حصين وحبيب بن زيد، وأكثرهم غزا مع رسول الله وشاركه في تأسيس دولة الإسلام الأولى.

فنـــــون

أطياف وظلال

عبد الحميد حواس

القاهرة: هيئة قصور الثقافة ـ سلسلة آفاق السينما، ٢٠٠٠

أوراق عن العلاقة بين السينما والمأثور الثقافي، في مقالات تعود إلى ربع قرن مضى، يعيد فيها الناقد القراءة في عدد من أهم الأفلام العربية والعالمية التي تعد علامات في تاريخ السينما العالمية.

■■■

Inferno

(الجحيم)

James Nachtwey (Photographer)

Phaidon Press, 2000, 428pp., $125.00

وثيقة فوتوغرافية عن جرائم حروب التسعينيات، تصور المعاناة الإنسانية في كل من رواندا والصومال ورومانيا والبوسنة والشيشان والهند وكوسوفا.

هذه الصور التقطها المصور الصحفي جايمس ناكتوى وهو أبرز المصورين الحربيين في العالم الآن.

نقـــد

التجريب في القصة القصيرة.. دراسة في قصص يوسف الشاروني

هيثم الحاج

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

دراسة تحليلية لأعمال واحد من رواد القصة المصرية القصيرة، والذي بدأ مرحلة التجريب فيها مبكرًا، مواكبًا للاتجاهات العالمية في القصة القصيرة في أواخر الأربعينيات وسنوات الخمسينيات الأولى، كما تقدم الدراسة تحليلاً لشخصيات بعض القصص.

■■■

سلطة النص

مشرى بن خليفة

الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٠

يضم الكتاب قسمين أحدهما في نقد الشعر، والثاني في تحليل الخطاب الروائي، ويستند المؤلف إلى النظريات النقدية الحديثة كمراجع أساسية في كشف العلاقات داخل النصوص، سواء كانت شعرية أو نثرية.

■■■

Updike: America's Man of Letters

(أبدايك: أديب أمريكا)

William H. Pritchard

Steerforth, 2000, 351pp., $27.00

قراءة متعمقة في الأعمال التي كتبها حتى الآن الأديب الأمريكي المعاصر جون أبدايك. وتتراوح ما بين الأعمال الروائية والقصص القصيرة والشعر والسيرة الذاتية والمقالات الأدبية والنقدية المختلفة. ويرى الكاتب وهو أستاذ في الأدب الإنجليزي في كلية أمهرست، أن أبدايك هو أبرز أدباء أمريكا المعاصرين منذ مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث إنه نجح من وجهة نظره في التعبير عن آلام وأفراح الحياة في أقوى وأغنى دولة في العالم. كما أن أعماله ترصد وتحلل الحالة الأخلاقية والثقافية لبلاده، خاصة من منظور الطبقة المتوسطة الأمريكية.

■■■

Susan Sontag: The Making of An Icon

(سوزان سونتاج: صناعة أيقونة)

Carl Rollyson and Lisa Paddock

Corton, 2000, 370pp., $29.95

يكشف الكتاب عن الحسابات الاستراتيجية وتفاهمات ما خلف الستار التي جعلت من الأديبة الأمريكية سوزان سونتاج تحصل على النجاح والشهرة اللذين وصلت إليهما. يبين الكتاب كيف أن انتهازية سونتاج ومناورات ناشرها إلى جانب مساندة عشاقها وأصدقائها من المثقفين وأصحاب النفوذ العالميين، كانت وراء صعود نجمها كمثقفة وكاتبة.

■■■

عروض موجزة

كتب عربية

الدولة العصرية دولة مؤسسات

حسن أبشر الطيب
القاهرة: الدار الثقافية للنشر ٢٠٠٠، ٢٣٨ صفحة



دولة المؤسسات والمجتمع المدني، تعبيرات شاعت أخيرًا في الكتابة السياسية، لكنها في دول العالم الثالث لم تكتسب - بعد - معناها الحقيقي، وإن ترسخت قناعة لدى نخبتها فإن الدولة العصرية هي دولة مؤسسات، وأن نمو مؤسسات المجتمع المدني ومشاركتها جنبًا إلى جنب مع مؤسسات الحكم هي شرط الدولة العصرية، وما يكسبها شرعية، وبغير هذه المشاركة تتحول النظم إلى شمولية وديكتاتورية.

ويقدم الكتاب عبر سبعة فصول رؤية شاملة للسياسات العامة، معناها وماهيتها والنماذج النظرية لها ومحاورها التجريبية، وكيفية وضع السياسات العامة وتحليلها والتحديات التي تواجهها.

وبشكل عام وبعيدًا عن المعلومات النظرية والأكاديمية التي يحتشد بها الكتاب، فإن ما نخلص إليه هو أن السياسات العامة بوتقة تنصهر فيها العديد من الخيارات والعوامل والمتغيرات، بوصفها محصلة تفاعلات سياسية دينامكية متجددة بين الفعاليات والعناصر التي يتكون منها النظام السياسي، وهي وفقًا لأحد التعريفات التي يوردها المؤلف: تمثل مرحلة التوازن التي يتم التوصل إليها بعد مراحل من الصراع بين المجموعات.

ويشمل تحليل السياسات العامة تصورات كاملة، اقتصادية وسياسية وغيرها، وتسهم هذه التصورات جميعها في تكامل العملية البحثية التحليلية وهذا يعني أن السمة المميزة للدولة العصرية هي أنها دولة مؤسسات، بالقدر الذي أصبح فيه بناء الدولة، وبلورة إرادتها المجتمعية في التنمية وتعظيم قدراتها في التجديد الحضاري، يعتمد كليًا على كفاءة وفعالية مؤسساتها.

ويشير المؤلف إلى أن بناء النظام المؤسسي الفعال وتأمين استمراريته بدرجة عالية من الكفاءة والفعالية لا يتحققان إلا بجهود إبداعية خلاقة معبرة عن الفكر والإرادة المجتمعية.

وقد أفرزت التحديات البيئية على المستوى القومي والعالمي - بحسب المؤلف - تحولات جذرية متسارعة في أوجه الحياة كافة، إضافة إلى ما ينتج عن ثورة المعلومات والاتصالات، بما يستوجب نشوء مفاهيم جديدة للمشاركة بين المؤسسات الحكومية والأهلية.

إن العالم كله في إدارة المستقبلية يتجه إلى تنظيمات ذات سمات لا بيروقراطية، فالبيروقراطية تنحسر كنمط تنظيمي، وتتبلور سمات تنظيمية إدارية جديدة تؤصل للمنهج اللامركزي، وتركز على فريق العمل بدلاً من الأفراد، والتفكير التجديدي الابتكاري الإبداعي بديلاً عن الالتزام الصارم بالقوانين، وهو ما يتوافر أكثر في مؤسسات المجتمع المدني.

□ □ □

الموسيقى والصراع الحضاري في الجزائر

بوزيد عمور
الجزائر: الجاحظية ٢٠٠٠، ١٢٧ صفحة



اشتهرت موسيقى «الراي» بوصفها فنًا جزائريًا خالصًا.

وقد عرف هذا النوع من الموسيقى انتقادات حادة، وصنف عادة ضمن المبتذل والسطحي والغرائزي، وبعض هذا صحيح، لكن كونه صحيحًا، لا ينفي أن «الراي» جاءت استجابة للحظة تاريخية معينة.

لكن ما تعنى به هذه الدراسة هو محاولة البرهنة على أن الاستعمار القديم استخدم الموسيقى للتلهية، فيما يستخدمها الاستعمار الجديد، لهدم الموروث الثقافي الموسيقي، وتقويض المميزات الحضارية. وبحسب المؤلف فإن التربية والتعليم الموسيقي، استغل لتغريب الفكر الموسيقي بكامله، وتوجيه أجيال من الدارسين إلى الموسيقى الأوروبية وحدها بحجة التطوير والعصرنة، فحرمت البلاد من دعامات الإبداع والاستماع على المستوى الابتكاري والتلقي. مما قاد إلى تمزيق الذوق الجماعي.

ويحاول المؤلف عبر دراسة فنية متخصصة، إثبات أن الجزائر عرفت دومًا موسيقاها الخاصة، النابعة من تراثها ومن الموروث القبلي، ويشير في هذا الإطار إلى فرق «الأهليل» في الجنوب، التي تعتمد ألحانها على تعدد الأصوات عبر خطوط لحنية متناسقة بين المغني المنفرد والمجموعة الصوتية وآلة القصبة.. يعتمد الإيقاع فيها على ما يسميه المؤلف «البولي رتم» أي تعدد الخطوط الإيقاعية، ويؤكد على التلاقح المستمر بين الموسيقى الشرقية في الجزائر ونظائرها في مصر والشام، بما يعني أن الاختلاف بين الموسيقى في مصر والموسيقى في الجزائر هو في حقيقته اختلاف بين لهجتين وليس بين لغتين، بعكس الحال فيما يتعلق بالموسيقى الأوروبية.

ويشير المؤلف كذلك إلى ثراء التراث الفني الجزائري الذي عرف الموشحات والأزجال من أمثال ابن خلف وابن زجر البجائي وابن مدين بن شعيب والقاسم ابن سراج وابن عطروز وغيرهم، كما تنوعت الإيقاعات والألحان بتنوع القبائل، فظهرت الموسيقى البدوية والموسيقى الشعبية الحضرية والقدريات وغيرها، ويقدم نماذج عديدة لكل لون، لكن الاستعمار عمد إلى تكوين آذان لا تسمع إلا صوته، وتوجيهها لتصبح بلا موقف، وتركن إلى الانهزامية والانحلال الخلقي ومعاداة الذات الثقافية، وهو الأسلوب الذي اتبعه الاستعمار في مصر بعد رحيله بإشاعته موسيقى تافهة وأغان من نوع «إرخي الستارة اللي في ريحنا»، ولكن ظهور بيرم التونسي وبديع خيري وأحمد رامي، حال دون نجاح هذا المخطط. المؤلف لا يتوقف عند الموسيقى الخالصة، لكنه يتتبع الكلمات المغناة، وفقر أجهزة الصوت ومعاناة المشتغلين في المجال الموسيقي وغيرها من المشكلات التي ترسخ الاستلاب الحضاري في الفن، الذي يعد أنفذ الطرق في واقعنا المعاصر لهدم الذات الثقافية وتذويب الهوية.

□ □ □

الفساد والجرائم الاقتصادية في مصر

أحمد أنور محمد
القاهرة: مصر العربية للنشر ٢٠٠٠، ٢٧٨ صفحة



كانت شركات توظيف الأموال، هي الصدمة الكبرى التي لفتت الأنظار إلى خطورة الفساد وارتباطه بالجرائم الاقتصادية في زمن العولمة وتدويل رأس المال، وبرغم ما نبهت إليه هذه الشركات من مخاطر على الاقتصاد المصري، فإن الجرائم المالية لم تتوقف بل زادت، وهرب حفنة من رجال المال والأعمال بمليارات المصريين إلى الخارج، بعضهم فر بلاحساب، وبعضهم طالته يد القانون.

هذا الكتاب ألفه عالم اجتماع، بما يعني أنه ينصب أساسًا على التفسير الاجتماعي للجريمة الاقتصادية، وهو يركز على شركات توظيف الأموال، ويبدأ من النظريات الكلاسيكية التي ترى أن الفقر هو الدافع الأساسي للجريمة، لكن بعض النظريات الأكثر تطورًا أولت عناية لما بات يعرف مع تطور النظام الرأسمالي وسيادته بجرائم الخاصة، وهي تلك التي يرتكبها أصحاب النفوذ المالي والاجتماعي أو ما يسميهم علماء الاجتماع «أصحاب الياقات البيضاء»، وهي عادة جرائم معقدة، يظهر أصحابها احترامهم للقانون والتزامهم بقواعده، وهم يلعبون أدوارًا متعددة في المجتمع ويشاركون في جمعيات ومؤسسات أهلية وحكومية، وربما كان بعضها ذا طابع خيري، وبفضل هذه الأدوار فإنهم يخترقون مؤسسات عديدة داخل المجتمع بما يمكنهم من اختراقها والتعمية على أنشطتهم المخالفة، ولا مانع لديهم من الرشوة والإفساد في سبيل تحقيق تلك الاختراقات.

وقد كانت جرائم شركات توظيف الأموال - برأي المؤلف - تجسيدًا حقيقيًا لجرائم الياقات البيضاء، وقد بلغ عدد هذه الشركات حسب ما نشر في الصحف الرسمية ١٠٤ شركات، بلغ حجم إيداعات المواطنين لديها ٤،٥ مليار جنيه أودعها نحو ٥١٣ ألف مواطن، وإن كان بيان هيئة سوق المال الذي صدر في أعقاب القانون ١٤٦/ ١٩٨٨، قد أكد أن حجم الإيداعات والمودعين لم يكن معلومًا تمامًا للحكومة.

وقد جاء نمو جرائم تلك الشركات - بحسب المؤلف - مرتبطًا بالتغيرات التي شهدتها مصر في السبعينيات، والتي جعلت الاقتصاد المصري مرتعًا لرأس المال الطفيلي. وقد ساهمت بعض التشريعات التي صدرت في تلك الفترة في إضفاء الشرعية على تلك التعاملات، وكانت شركات توظيف الأموال في تجسيدها الأخير، تعبيرًا عن التحالف بين الأصولية الدينية والرأسمالية الطفيلية تحت مزاعم وهمية من نوع أسلمة الاقتصاد.

ويطرح المؤلف في النهاية عددًا من التوصيات لمنع تكرار ما جرى، بعضها تشريعي قانوني، وأكثرها اجتماعي سياسي، هدفه إعادة تأكيد القيم الإيجابية التي خربتها شركات توظيف الأموال، وأخطرها «ترييع المجتمع» أي زيادة عدد الأفراد الذين يعيشون على ريع مدخراتهم دون جهد أو عمل حقيقي.

□ □ □

عروض موجزة

يد الله
لماذا تضحى الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل؟
غريس هالسل
ترجمة: محمد السماك
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٠، ١١٠ صفحات



يجيب هذا الكتاب عن سؤال يشغل كثيرين من المتابعين للسياسة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، وخصوصًا فيما يتصل بالصراع العربي الإسرائيلي. والسؤال هو: لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها في المنطقة - وهي عديدة وأهمها البترول - من أجل إسرائيل؟

وتحاول المؤلفة هنا أن تجد تفسيرًا فيما وراء السياسي، بالتحديد في الديني، أو بمعنى أدق في كيفية تحويل الديني إلى سياسي وبالعكس، في عملية مزج برع فيها اليهود دائمًا، والمؤلفة هي صاحبة كتاب مهم عن «هر مجيدون»، وهي العقيدة التي يؤمن بها في الولايات المتحدة وحدها أكثر من ٤٠ مليون شخص على رأسهم الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان، وأتباعها يعتقدون أن معركة فاصلة ستنشب بين اليهود وأعدائهم وستبلغ فيها الدماء «ألجمة الخيل»، وسيباد اليهود ولا يبقى منهم إلا ١٤٠٠ شخص يقودهم المسيح نحو النصر وإقامة مملكة الله على أرضه. وتشير المؤلفة إلى ما بات معروفًا الآن، وصدرت بصدده عشرات الكتب عن مدى تأثير الحركة الأصولية المسيحية في الولايات المتحدة على المجتمع الأمريكي، وتغلغل اليمين المسيحي في الأوساط الثقافية العليا وبين العاملين في صنع القرار والقائمين عليه، والقساوسة كي يجذبوا الناس إلى هذه العقيدة، يخبرون أتباعهم أنهم «إذا اعتنقوا عقيدة أرض إسرائيل والعصور القدرية التي يجب أن تبرز هناك، سوف ينضمون إلى جماعة من الخاصة المقربين، وأنهم سوف يكافأون بالسلطة والنظام والأمن والاهتمامات الشخصية».

والمؤلفة لا تكتفي بما تنقله من تجاربها الشخصية ورحلاتها إلى المنطقة العربية وإسرائيل وجولاتها في القدس المحتلة، واستماعها إلى عشرات من القساوسة وأتباع الأصولية الجديدة، وإنما تنقل بعضًا مما يخرج به هؤلاء على أتباعهم في الصحف ووسائل الإعلام المختلفة، ومنها مثلاً ما قاله الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر، الذي وقع معاهدة السلام مع السادات وبيجين، يقول كارتر: يعني خلق إسرائيل في عام ١٩٤٨، العودة أخيرًا إلى أرض الميعاد التي أُخرج منها اليهود منذ مئات السنين.. إن إقامة دولة إسرائيل هو تحقيق للنبوءة التوراتية والتنفيذ الجوهري لها.

الخلاصة التي تقدمها المؤلفة أن ثمة تحالفًا بين اليهود واليمين المسيحي أو الأصولية المسيحية، يقدم هذا التحالف براهينه من التوراة، ويتغنى بنبوءة إسرائيل، لكنه يقدم تجليات أكثر واقعية وفعالية في الواقع السياسي، وقد عبر عن ذلك أحدهم بقوله: إن الأصوليين المسيحيين هم في الدرجة الأولى مؤيدون لإسرائيل.

هذا يعني أن التحالف الأمريكي الإسرائيلي تجاوز السياسي والبراجماتي، إلى الروحاني والعقائدي بصعود الأصولية المسيحية، وهكذا تصبح العروة بينهما، لا انفصام لها.

□ □ □

العرب والتجربة الآسيوية
الدروس المستفادة
محمود عبد الفضيل
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ٢٦٠صفحة، ٨ دولارات



حتى أواسط الستينيات، كانت بلدان جنوب شرق آسيا يضرب بها المثل في الفقر والتخلف، وفي خلال ثلاثين عامًا فقط، حققت المسيرة التنموية لبلدان جنوب شرق آسيا طفرة تنموية هائلة صارت تعرف بالمعجزة الآسيوية، ولكن بدءًا من عام ١٩٩٧، واجهت «النمور الآسيوية» انعكاسة مالية حقيقية، دفعت كثيرين من الاقتصاديين إلى التشكيك في تلك المعجزة، ووصفت النمور الآسيوية بأنها «نمور من ورق».

المؤلف هنا يحلل تجارب خمسة بلدان آسيوية: سنغافورة وماليزيا وكوريا الجنوبية وتايلاند والصين الشعبية، بهدف الاستفادة عربيًا منها، فتجربة سنغافورة وهي مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٣ ملايين نسمة ولا مساحتها على ٢٥٠ كم٢ ، صالحة للتطبيق في دول عربية صغيرة الحجم قليلة السكان مثل البحرين وقطر والإمارات والكويت، وفي المقابل تصلح التجربة الكورية الجنوبية نموذجًا تحاكيه دولة في ظروف مشابهة - سكانيًا على الأقل - مثل مصر، وأما ماليزيا، فهي النموذج الأقرب بوصفها دولة إسلامية، حققت نهضتها بعيدًا عن شروط صندوق النقد الدولي وتحكمات المؤسسات المالية الدولية، وأصر رئيسها «مهاتير محمد» حتى في ظل الأزمة المالية، أن يعبر الأزمة ببرنامج تمت صياغته وطنيًا، لا يُفرِّط في استقلال ماليزيا ولا يساوم على ثوابتها.

ثمة تمايزات بين هذه الدول من حيث شروط التنمية وطرائقها، حيث تعد سنغافورة نموذجًا لاقتصاد «منصة التصدير» - كما يسميه المؤلف - وهو اقتصاد اعتمد أساسًا على الاستثمارات الأجنبية المباشرة، وتحولت سنغافورة إلى محطة تموين ومنصة تصدير للشركات متعددة الجنسية، فضلاً عن اعتماده على السياحة والريع الذي يحققه ميناء سنغافورة الذي يعد من أكفأ موانئ العالم، وقام الاقتصاد الماليزي خصوصًا في مرحلته الأخيرة - حقبة التسعينيات - على الصناعات ذات المحتوى التقني المتقدم، لتعويض النقص في عدد السكان (٢٠ مليون نسمة)، ومثلت التجربة الكورية نموذجًا لأسرع الاقتصادات نموًا وتنوعًا في العالم - دون إغفال أنها واحدة من أكبر دول العالم التي تلقت مساعدات أجنبية خصوصًا خلال الحرب الباردة - وقد اعتمدت أساسًا على المجتمعات الكبرى، وبلورت تجربة الصين استراتيجية معتدلة للإصلاح الاقتصادي والانتقال التدريجي نحو اقتصاد السوق، وقدمت تجربة فريدة في تنمية المدن الساحلية، التي شجعت فيها تدفقات رؤوس الأموال الأجنبية عبر سياسات مالية محفزة، جعلت الصين منذ منتصف الثمانينيات تقترب في سماتها وخصائصها من الدول حديثة التصنيع، وصارت المنتجات التقليدية كالمنسوجات وغيرها، لا تمثل سوى ثلث الصادرات السلعية الإجمالية للصين.

برغم تلك التمايزات، فإن ثمة تشابهات تشير إليها المؤشرات الاقتصادية والتنموية، منها ارتفاع معدلات الادخار والاستثمار في تلك الدول، إذ لا تقل معدلات الاستثمار عن ٣٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي، وتقترب معدلات الادخار من تلك النسبة، ومنها اجتياز هذه البلدان لحواجز التقنية العالية، ودخولها دائرة الابتكار والإبداع في هذا المجال، ومنها قدرتها على تحقيق تغيير جذري في بنيتها الصناعية، وتحولها من الصناعات الخفيفة والوسيطة إلى الصناعات الثقيلة وذات التقنية العالية، ومنها قدرتها على تحقيق احتراف تصديري نافست به الاقتصادات الرأسمالية حتى في عقر دارها. وقد واكب ذلك على المستوى الاجتماعي، سيادة نمط توزيعي عادل لثمار النمو الاقتصادي قلَّل نسبة الفقر والفقراء، ورفع مستوى تراكم رأس المال البشري في زمن وجيز عبر برامج تعليم متقدمة واهتمام بالغ بإتقان العمل وتجويده.

وقد واكب هذا كله مؤسسات عامة وخاصة شديدة الكفاءة، حققت معادلة النهضة: دولة رشيدة + سوق ناضجة، بوعي كبير.

تلك هي بعض دروس النمور الآسيوية التي واجهت اختبارًا صعبًا في أواخر التسعينيات بسبب الفساد والتدخلات الدولية، وتمكنت «النمور» من تجاوز أزمتها سريعًا بسبب متانة هياكلها الاقتصادية.

فهل يمكن الإفادة من هذه التجربة الخصبة؟

□ □ □

اعترافات هنرى ميللر فى الثمانين
كريستيان دى بارتيا
ترجمة: خالد النجار
القاهرة: دار الهلال ٢٠٠٠، ١٧٥ صفحة ، ٥ جنيهات



بالنسبة لكثيرين، فإن «هنرى ميللر» ليس سوى كاتب إباحي، لم يراع أبدًا تقاليد الاحترام في التعبير، فهتك عفة اللغة بهدم الفواصل بين لغة الأدب ولغة الحياة، وكما كانت حياته دعوة لأقصى حالات الإشباع، كان أدبه طامسًا للفوارق بين المحرم وغير المحرم، هكذا كانت روايته الشهيرة «مدار السرطان» (١٩٣١)، التي احتاجت ثلاثين عامًا ليسمح بنشرها في بريطانيا والولايات المتحدة.

«ميللر» الذي توفي عام ١٩٨٠ عن عمر يناهز الثامنة والثمانين، تزوج خمس مرات، وكانت آخر زيجاته في عام ١٩٦٧ من مغنية يابانية تصغره بنصف قرن، وهو الذي قال: «إن الغريزة الجنسية ستبدل كل مناحي الحياة، وأن زمن العفاف الجنسي قد ولى».

وكتابه هذا حوار بين ناشر وصحفي اسمه «كريستيان دى بارتيا» وبين ميللر، يكشف عن الكثير من الجوانب الشخصية له، وآرائه في الحياة وتحولاتها، كما يكشف عن تحولات في آراء «ميللر» نفسه، الذي يرى هنا - بعكس ما قاله في كتابه ذات يوم أحد بعد الحرب - أن زمن العفاف الجنسي لم ينقض بعد، كما يؤكد على كراهيته لعصر التقنية، الذي يسميه عصر الأدوات الزائفة، وهو يمقت تعقيد هذه الآلات التي

عـــــروض مــــوجـــــزة

يراها «لعبا طفولية بالكامل»، كما لا يرى - بعكس ما قاله في بعض كتاباته - أن ثمة مخلصًا سينقذ البشرية مما تعاني. يقول ميللر هنا وفي اعترافاته الثمانينية.. «لا أعتقد أنه سيأتي مخلص، لقد مضى زمن المخلصين، وكل منا موكل بنفسه، وهو ينقذ ما يمكن إنقاذه».

ويبدو «ميللر» في بعض آرائه مؤمنًا تمامًا بتأثير حركة النجوم والكواكب على مصائر البشر، وبين ما قاله بعد تحليل لحركة الأفلاك، أن كلمة شيوعية عام ٢٠٠٠ لن تكون سوى لفظة، لا يفقه معناها إلا علماء اللغة والاشتقاق. ويقول أيضًا: عندما يتكاثر عدد البشر الذين يرغبون في عالم جديد بما يكفي، فسوف يولد هذا العالم.

كان ميللر يرى أن الجنون - وقد مارس بعضه - منشط ومانح للعنفوان الذهني، ولم يكن يثق كثيرًا في ذوق العامة وقدرتهم على التفاعل مع الفن. وكان رأيه أن الفن لم يوجد إلا من أجل النخبة.

هذه بعض آراء «ميللر» التي تضمنتها كتاباته وناقشه المؤلف فيها في حواره المطول معه والذي كشف عن رؤيته المتشائمة للوضع البشري غير الإنساني. وتقييمه المبكر للدور المأساوي الذي تلعبه أمريكا في العالم، وكراهيته للإنسان الأبيض الذي أخضع العالم ولوث يده بدماء السود والهنود الحمر والإسكيمو وضحايا القنبلة الذرية.

بشكل عام، فإن ما كتبه «هنري ميللر» كله، ليس سوى سيرة حياته، فهو لم يكتب عن آخرين، ولم يخلق شخصيات ويجري على ألسنتها حوارات. كتب فقط عن نفسه، عما يعرف، وجعل ذاته محور العالم، إيمانًا منه بقدرة الفرد وملكاته غير المحدودة في صنع الحياة واختيار مصيره.

□ □ □

عرب ومسلمون وعولمة

أحمد صدقي الدجاني

القاهرة: دار المستقبل العربي، ٢٠٠٠، ٥١١ صفحة

يقدم المؤلف في هذا الكتاب رؤية كلية لظاهرة العولمة، ويعالج في سبعة أبواب أغلب القضايا التي تثيرها العولمة وتأثيرها على العرب والمسلمين. في الباب الأول يجري التركيز على التعريف بالعولمة وجذورها التاريخية التي تعود بداياتها إلى عصر النهضة الأوروبية وما تلاه من بروز ظاهرة الاستعمار وتنامي التجارة العالمية.

أما الباب الثاني فيعالج أزمات العولمة وتفجراتها التي تتضح في ثلاث قضايا، أولاها: إساءة توظيف علم الموروثات «الجينات» وما يرتبط به من إشكاليات أخلاقية وقيمية، وثانيها: المضاربات المالية العالمية التي سببت أزمة اقتصادية لعدة دول آسيوية أوقعتها في أسر ما تمليه المؤسسات الدولية للتمويل عليها من سياسات، وثالثها: الخطر النووي في عصر العولمة، كما يتضح من التفجيرات النووية الهندية والباكستانية واستمرار احتكار إسرائيل للسلاح النووي.

الباب الثالث عنوانه: «عن الثقافة في عصر العولمة» ويتوقف أمام الواقع الثقافي في عالمنا الذي يشهد تعدد الثقافات فيه وتفاعلها معًا، بحكم ثورة الاتصال والمعلومات وازدياد الوعي بأثر العامل الثقافي في الاجتماع الإنساني، ويشير المؤلف فيه إلى امتلاك المسلمين ما يمكنهم من أداء دور مسهم في تطوير وترشيد الثقافة العالمية.

في الباب الرابع يجتهد المؤلف في طرح تشخيصه لمظاهر ضعف النظام العربي المتمثلة بتزايد تأثير العامل الخارجي وتفاقم النزاعات العربية - العربية وتجذر مفاهيم القطرية والوطنية وغياب ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان. ويقدم رؤيته لتخطي هذه المشكلات وتحقيق الوفاق السياسي العربي الذي تجلى وظهرت فعاليته في مناسبات عدة في السابق، ويمكن بلوغه بإرساء ثقافة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وتعزيز النظام العربي سياسيًا واقتصاديًا للحفاظ على المصالح العربية المشتركة في عصر العولمة والتكتلات الكبيرة.

قضية فلسطين وتطوراتها هي موضوع الباب الخامس الذي يناقش المؤلف فيه الدورين الأمريكي والأوروبي في عملية التسوية، وتفاعلات قضية القدس واللاجئين وما جرى بشأنهما حتى قمة كامب ديفيد الثانية، ونجاح المقاومة الباسلة في تحرير جنوب لبنان، ويشيع في ثنايا هذا الباب التأكيد على تعميم قراءة صحيحة للصراع العربي الصهيوني والاعتصام بالمقاومة لبلوغ هدف التحرير.

أما الباب السادس فيتناول المؤلف فيه «العرب ودائرة الحضارة الإسلامية»، مؤكدًا على أهمية توثيق التعاون بين النظام الإسلامي ممثلاً في منظمة المؤتمر الإسلامي والنظام العربي لاسيما في ظل تداخل اهتماماتهما ومصالحهما معًا كما يبرز في قضية القدس، ثم يحلل المؤلف حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين، حيث تفاعلت عوامل محلية وإقليمية ودولية لصياغة الاستجابة للتحديات فبرزت ثلاثة تيارات، أولها تيار الانكماش الذي انكفأ على نفسه وبقي أسير الماضي، وثانيها تيار الانغماس الذي انبهر بمنجزات الحضارة الغربية فلم يفرق بين سيىء وحسن، وكلا التيارين ينتمي إلى موقف رد الفعل بعكس التيار الثالث وهو تيار الاستجابة الفاعلة الذي فهم واقعه وماضيه وانطلق يعمل لبلوغ ستة أهداف هي: التحرير، والوحدة، والديمقراطية، والشورى، والتنمية المستقلة التي تحقق الكفاية، والعدل، والتجدد الحضاري.

□ □ □

كتب أجنبية

Crucible of War: The Seven years' War And The Fate of the Empire in British North America 1754-1766

(الاختبار القاسي للحرب.. حرب السنوات السبع ومصير الامبراطورية في أمريكا الشمالية البريطانية ١٧٥٤-١٧٦٦)

Fred Anderson

Faber and Faber, 2000, £25.00



اعتاد العالم على اعتبار أن هناك حربين عالميتين وقعتا في التاريخ فقط هما الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨، والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥ لكن مؤلف هذا الكتاب يرى أن القرن الثامن عشر على سبيل المثال شهد حربين عالميتين فإضافة إلى الحرب التي أعقبت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، والتي انتهت بهزيمة نابليون في ووترلو. هناك حرب السنوات السبع ١٧٥٦ - ١٧٦٣ التي جرت على نطاق كوني وأعطت للشعوب المتحدثة بالإنجليزية سيادة دائمة في أمريكا الشمالية وأنهت آمال فرنسا في أن تبقى لاعبًا كبيرًا في الهند كما أنها سمحت لبريطانيا بالاستيلاء على ممتلكات فرنسا في الكاريبي، وفي النهاية تحول ميزان القوى في أوروبا لصالح بريطانيا وبعيدًا عن فرنسا.

واستمر الأمر على هذا الوضع تقريبًا حتى عام ١٩٠٤ عندما تم توقيع الاتفاق الودي الذي كان من بين بنوده إطلاق يد بريطانيا في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في المغرب.

ورغم أهمية الحرب البريطانية الفرنسية في الهند إلا أن المؤلف يركز على أمريكا الشمالية نظرًا للتأثير الذي استمر حتى الآن، والذي ترتب على النصر البريطاني. وحتى بعد استقلال الولايات المتحدة فقد ظل تأثيرها شديد الأهمية على شتى المجالات. لقد أرادت الإدارة البريطانية في أمريكا الشمالية أن تضمن السيطرة شبه الكاملة على تلك القارة وخططت لها مع الحكومة في لندن، ولذلك خاضت تلك الحرب التي خلقت عالمًا جديدًا أصبحت فيه الامبراطورية البريطانية هي القوة العظمى في العالم آنذاك، وضمنت سيادة اللغة الإنجليزية حتى الآن، ولذلك يعتقد المؤلف أن تلك الحرب تستحق أن تكون حربًا عالمية مثلها مثل الحربين العالميتين في القرن العشرين.

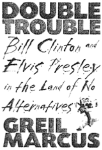
□ □ □

Double Trouble: BillClinton and Elvis Presley in the land of no Alternatives

(مشكلة مزدوجة، بيل كلينتون والفيس بريسلي في أرض اللا بدائل)

Greil Marcus

Faber and Faber, 2000,248PP., £9.99



في ٢٠ يناير الحالي يغادر الرئيس الأمريكي بيل كلينتون البيت الأبيض بعد ٨ سنوات تولى فيه رئاسة الولايات المتحدة وأحدث خلالها إيجابيًا وسلبيًا ما لم يحدث خلال سنوات طويلة خلت. ولو كان الدستور الأمريكي يتيح له أن يترشح لفترة رئاسة ثالثة لكان قد فاز بسهولة رغم أن هناك من أضفى عليه صفات شيطانية لم يحدث لها مثيل منذ رئاسة نيكسون. إذن لماذا يحب الشعب الأمريكي كلينتون مع كل هذا الهجوم ضده؟ مؤلف هذا الكتاب يجيب عن السؤال في عبارة واحدة هي لأن كلينتون هو ألفيس بريسلي ذلك الفنان الأمريكي الذي تحول إلى أسطورة.

ويقول المؤلف إن كلينتون لديه أشياء مما كانت لدى ألفيس، فهو من أصحاب الوزن الثقيل مثل ألفيس بريسلي، لكنه وقبل كل شيء يماثل ألفيس في أنهما من خارج المؤسسة فكل منهم أبيض من الجنوب الأمريكي ليس لديه الأسرة الفاحشة الثراء التي تستطيع أن تحقق له كل ما يريد. لقد ترسخت تلك الفكرة التي تربط بين الاثنين في عام ١٩٩٢ خلال حملة كلينتون الأولى للفوز بالرئاسة، فقد صعد إلى المنصة وعزف على آلة الساكسفون المحببة لديه. وطبقًا لأحد الكتاب الأمريكيين فإن كلينتون فاز بالرئاسة في تلك اللحظة تقريبًا.

وقد أدهش التماثل بين ألفيس وكلينتون مؤلف الكتاب جريل ماركوس وهو أحد أهم نقاد الروك آند رول في الولايات المتحدة.

وهو يتحدث عن جيل كلينتون الذي ناهض حرب فيتنام وتعاطي المخدرات والذي تكن له المؤسسة المحافظة واليمين المسيحي في الولايات المتحدة كراهية بالغة الشدة له لدرجة أن هذه المؤسسة وهذا اليمين اعتبرا فوز كلينتون بالرئاسة

عـــروض موجـــزة

عام ١٩٩٢ بمثابة انقلاب وليس هزيمة ديمقراطية كما أنهما رفضا الاعتراف بشرعية رئاسة كلينتون. ورغم أن كلينتون تراجع عن كثير من أفكاره وبرامجه الاجتماعية والسياسية بسبب معارضة الكونجرس ذي الغالبية الجمهورية إلا أنه يبقى - حسب رأى المؤلف - نموذجًا لأولئك الأطفال المنحدرين من أسر فقيرة الراغبين في تحقيق الحلم الأمريكي مثلما فعل ألفيس.

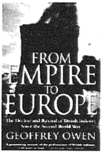
□ □ □

From Empire to Europe

(من الامبراطورية إلي أوروبا)

Geoffrey Owen

Harpercollins, 2000, 335PP., £8.99



صدرت كتب كثيرة للغاية عن الامبراطورية البريطانية وأسباب نهايتها وعن بريطانيا ما بعد الامبراطورية التى كانت لا تغيب عنها الشمس، لكن معظم الدراسات ركزت علي الجانبين السياسى والعسكرى وتأثيراتها علي بريطانيا وعلي العالم. ويأتى هذا الكتاب الذى وضعه جيوفرى أوين الصحفى المتميز في صحيفة «الفاينانشيال تايمز» ليركز علي الجانب الصناعى ومدى تأثير انهيار الامبراطورية علي صناعات بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

ويدهشنا المؤلف بانه لم يتبع الخط الذى سار عليه معظم المؤرخين والكتاب، وهو أنه بعد انهيار الامبراطورية اضطرت بريطانيا للتعامل مع المنافسة الدولية بشكل حقيقى وبالتالى تخلت عن بعض صناعاتها أو انخفضت إمكاناتها في صناعات أخرى.

ويقول المؤلف إن هناك وسط هذا الحديث عن الفشل والانهيار، قصص نجاح عظيمة فى صناعات عديدة، وأن الأمر لم يكن فشلاً علي طول الخط.

ويقدم أوين إحصاءات كثيرة تدعم رأيه هذا إلا أن أهم ما يقدمه الكتاب هو أن المؤلف يقدم شروحًا وحججًا كثيرة ومعقولة لصالح وجهة نظره، ويشير إلي أن الحديث الكثير والكئيب عن وضع بريطانيا كدولة في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات دليل في حد ذاته علي أن بريطانيا كانت في مرحلة تحول من قوة امبراطورية إلي مجرد بلد أوروبى آخر.

ويضيف أنه في تسعينيات القرن العشرين، فإن بريطانيا لم تجد لنفسها دورًا كدولة ذات قوة متوسطة فقط، بل إنها اندمجت بشكل جيد في الاقتصاد العالمي، وهى حصلت علي كثير من الفوائد لدخولها في عصر اقتصاد الإنترنت.

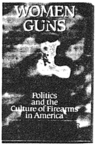
□ □ □

Women Guns, Politics and Culture of Firearms in America

(أسلحة المرأة، سياسات وثقافة الأسلحة النارية في أمريكا)

Deborah Homsher

Cloth, 2000, $32.95



قضية الأسلحة الشخصية تثير جدلاً شديدًا فى داخل المجتمع الأمريكى، خاصة بعد سلسلة الحوادث التى كان أبطالها أطفالاً صغاراً أطلقوا النيران علي زملائهم في المدارس، وهى حوادث أفرد لها الإعلام الأمريكي حيزًا واسعًا من تغطياته. ورغم محاولات الإدارة الأمريكية الحد من انتشار هذه الأسلحة، إلا أن لوبى السلاح القوى للغاية قاوم هذه المحاولات والضغوط معتمدًا في ذلك علي تراث طويل من الملكية الشخصية لهذه الأسلحة، الأمر الذى يجعل من قضية ملكية الأسلحة النارية ذات أبعاد كثيرة لا يدركها كثيرون خارج الولايات المتحدة.

ويعالج هذا الكتاب خبرة المرأة الأمريكية مع الأسلحة وموقفها من هذه القضية ومدى مشاركتها في النقاش العام في الولايات المتحدة بشأن الأسلحة والعنف. وقد أجرت المؤلفة لقاءات مع سيدات من شتى مناحى الحياة الأمريكية سواء كانت مشاركتها في قضية الأسلحة أساسية أو هامشية أو بالمصادفة.

ويحتشد الكتاب بقصص كثيرة عن مخاطر مآسى امتلاك الأسلحة في المجتمع الأمريكي وسهولة وصولها إلى الأطفال، الأمر الذى يجعلها تخرج عن نطاق الاستخدام الرشيد. وستظل قضية الأسلحة الشخصية مثارة بقوة في المجتمع الأمريكي وسيظل هناك من يعارضون أى تنازل بشأن حق المواطن في امتلاك تلك الأسلحة، ومن يطالبون بوقفة حازمة للتخلص من آثارها المدمرة للأسرة والمجتمع. وميزة هذا النقاش أنه ككل المناقشات في الولايات المتحدة مفتوح وحر وملئ بالمعلومات وبالحقائق وبوجهات النظر المتضادة بشكل مثير.

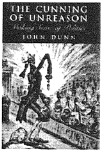
□ □ □

The Cunning of unreason

(المكر غير المعقول)

John Dunn

Harper Collins, 2000, £19.99



ما هي السياسة؟ ماذا تحقق؟ وكيف يمكن فهمها؟ هذه الأسئلة وعديد مثلها يطرحها مؤلف هذا الكتاب «جون دان» أستاذ النظرية السياسية في جامعة كمبردج البريطانية، ومن خلال هذه الأسئلة يناقش المؤلف عديدًا من القضايا حول طبيعة السياسات الوطنية والدولية وطبيعة الدولة وطبيعة الرأسمالية والسلطة والنفوذ ومخاطر التعرض لكارثة بيئية.

ولأن الرأسمالية حاليًا تسيطر علي العالم بعد انهيار الشيوعية، فإن الرأسمالية تسيطر أيضًا علي هذا الكتاب وفي هذا الجانب يقول المؤلف إن ما قيل حول سيطرة الرأسمالية وسيادتها كانت من أسوأ الأشياء التي حدثت خلال السنوات القليلة الماضية. وهو ليس حزينًا بالطبع علي سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار الماركسية وتبخر الأوهام، حسب قوله، حول الماركسية اللينينية لكنه في نفس الوقت لا يرحب بظهور أوهام جديدة حول سيادة الرأسمالية دون منازع وبأنها ستظل إلي الأبد النظام الاقتصادى الوحيد. لكن ذلك لا يمنع المؤلف من الحديث عن سطوة الرأسمالية وتاثيرها علي شتى مناحى الحياة. ويقول إن الرأسمالية استولت علي الإعلام ويستشهد بقول وزير الخارجية البريطاني جورج كاننج عام ١٨٨٢ عندما أبلغ مواطنى دائرته الانتخابية ليفربول بأن القوة العملاقة للرأى العام تتجسد في الصحافة الحرة. ويشير المؤلف إلي أن الإعلام أصبح أقوى مما كان في عصر كاننج، لكن الإعلام اليوم تغير فقد أصبح صناعة ضخمة وهو جزء لا يتجزأ من الرأسمالية العالمية. ويعبر هذا الإعلام عن مالكيه وعن أهدافهم ورغباتهم أكثر من تعبيره عن الرأى العام.

ولأن المؤلف بريطاني فإنه يتحدث بشكل عملى عن سياسات بلاده خاصة الفترة التي أعقبت وصول مارجريت تاتشر إلي الحكم عام ١٩٧٩ والتغيرات التي أحدثتها في المجتمع البريطاني ويوجه انتقاداته إلى بعض سياساتها التى أدت إلي انقسام حقيقي في المجتمع بين أقلية غنية وغالبية فقيرة بحكم المعايير الغربية طبعًا.

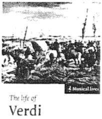
□ □ □

The Life of Verdi

(حياة فيردى)

John Rosselli

Cambridge University Press, 2000, 204PP., $49.95



القراء المصريون والعرب المهتمون بالموسيقى الغربية يتذكرون جيداً الأوبرا الشهيرة عايدة التى وضع ألحانها بعيد منتصف القرن التاسع عشر بمناسبة افتتاح قناة السويس. وقد صدر هذا الكتاب بمناسبة الذكرى السنوية المائة لوفاة فيردى في يناير الحالي.

ولد فيردى في منطقة فقيرة هى رونكول قرب «بارما» وقد مثلت موسيقاه انعكاسًا لمناخ الأمل والطموح والنهضة الذى ساد إيطاليا في عهد الملك فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا الموحدة بعد مئات السنين من الانقسام والتجزئة. وقد أصبح فيردى رمزًا للقومية الإيطالية، بالرغم من أن هذه القومية تطرفت في شعورها بعد ذلك في عهد موسوليني، ورغم أنه لم يكن يمثل معجزة أو عبقرية غير عادية إلا أن فيردى ألف ٢٨ أوبرا وموسيقى جنائزية. ويقول المؤلف وهو أستاذ في جامعة ساسكس في إنجلترا إنه ألف كتبًا عن موتسارت وبلليني، لكن كتابه عن فيردى لم يكن مثار سعادة بالنسبة له نظرًا لصفات شخصية فيردى. ويشير المؤلف إلي أن العمل في الكتاب جعله لا يحب هذه الشخصية الأوتوقراطية، فهو يعمل في العقارات ويخصص جزءًا من وقته للموسيقى، وقد تحول إلى ناقد رجعى في سنواته الأخيرة.

ويتحدث الكتاب عن الظروف السياسية التي سادت إيطاليا لدى ولادة فيردى عام ١٨١٣ ويتناول الحروب النابوليونية في القارة الأوروبية وتأثيرها الواضح علي إيطاليا التى خضعت للحكم الفرنسى في عهد الثورة.

كتاب الزاوية

الأمير

٤ - فى أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء أمير ليس بأمر قليل الأهمية ؛ فالأمناء إما صالحون وإما غير صالحين تبعًا لحجا (عقل) الأمير . ويحصل المرء على أول انطباع عن حاكم وعقله حين يرى الرجال الذين حوله . فعندما يكونون قادرين ومخلصين يمكنه دائمًا أن يعتبر الأمير عاقلاً، لأنه استطاع أن يتعرف ما قدرة أمنائه ، وأن يحتفظ بهم مخلصين ، ولكن عندما يكونون على العكس من ذلك يستطيع المرء دائمًا أن يكوِّن عن الأمير رأيًا غير مقبول ، لأن أول خطأ له يكون فى هذا الاختيار .

وللرجال ثلاثة عقول مختلفة :

الأول : يفهم الأمور دون معونة سواه . والثانى : يفهمها حين يبينها غيره له . والثالث : لا يفهمها بمفرده ولا بشرح سواه . . إن النوع الأول أكثر الثلاثة امتيازًا ، والثانى ممتاز أيضًا ، ولكن الثالث عديم الفائدة .

ولكى يتسنى للأمير أن يعرف وزيرا فثمة هذه الطريقة التى لا تخفق أبدًا . عندما ترى الوزير يفكر فى نفسه أكثر ما يفكر فيك ، ويبحث عن مصلحته الخاصة فى جميع أعماله ، فلن يكون مثل هذا الرجل وزيرًا صالحًا ، ولا يمكنك الاعتماد عليه ؛ لأن واجب من فى يده مقاليد أمور ولاية غيره ألا يفكر فى نفسه أبدًا ، بل عليه أن يفكر فى الأمير بمفرده ، وألا يعبأ بأى شيء سوى ما يخص الأمير . ومن ناحية أخرى ، ينبغى للأمير لكى يصون وفاء أمينه أن يفكر فيه ، ويكرمه ويثريه ، ويعطف عليه ، ويمنحه رتب الشرف ، ويوليه الأعمال ذات المسئولية ، حتى يجعله الشرف والثراء العظيمان اللذان قد منحا له لا يرغب فى غيرهما ، وتجعله السلطات العامة التى لا يتولاها يخشى التغييرات السياسية .

الكتب وجهات نظر رسائل

ملاحظات

لا أظننى فى حاجة لأن أقول إن مجلتكم جاءت فتحًا مهمًا فى ميدان الحياة الثقافية العربية، وأنها تسد ثغرة كبيرة فى احتياجات القارئ العربى الذى لا تسمح له ظروفه بمتابعة الإنتاج الفكرى العالمى فى ميادين السياسة والاقتصاد والعلم.. إلخ. بل إنها تقدم زادًا فكريًا حتى للمثقفين الذين يجيدون لغات أجنبية، وهى بعنايتها بقضايانا الوطنية والقومية تسهم فى نشر وعى صادق نحتاج إليه كثيرًا.

وفى إطار تقديرى للمجلة أرجو أن تسمحوا لى بإبداء بعض الملاحظات التى أتمنى أن تكون مفيدة فى اتجاه تطويرها للأفضل:

أولاً: إن العناية بالعلوم والتكنولوجيا مسألة مهمة فى برنامج مجلتكم دون شك، ولكن ينبغى أن نتذكر دائمًا أنها تخاطب القارئ غير المتخصص فى العلم، ولذلك فقد يصعب على هذا القارئ متابعة مقالات علمية تشغل ست صفحات من نوع صفحات مجلتكم. وأنا بالطبع أدرك أن مسألة الإيجاز مع الوضوح فى قضايا العلم هى أمر صعب، ولكن ينبغى أن نحاول فى هذا الاتجاه.. وأتذكر بهذه المناسبة كلمة بليغة كتبها سعد زغلول فى خطاب مطول أرسله إلى الشيخ محمد عبده فى منفاه بالشام قائلاً: «أرجو المعذرة للإطالة فليس عندى وقت للإيجاز».

ثانيًا: مع الموضوعات الدسمة الضرورية لمثل مجلتكم لابد من بعض الموضوعات الخفيفة والطريفة التى تعين القارئ على المتابعة. وأقترح لذلك أن تنشر المجلة ما أسميه «القصة القصيرة - الطويلة» أحيانًا وذكريات لكتاب معروفين أحيانًا أخرى وقصائد لشعراء حاليين ولا تكتفى بنشر شعر شعراء رحلوا عن دنيانا.

ثالثًا: أعتقد أنه من الضرورة توجيه عناية خاصة لباب رسائل القراء، بحيث تحتوى رسائلهم ليس على ملاحظات نقدية للمجلة فقط، بل تتضمن حوارًا مع كتاب المقالات حول ما يرد فيها من آراء.

د.عبد العظيم أنيس
أستاذ بجامعة عين شمس

التراشق بالحكايات

فى عددها الثانى والعشرين طالعتنا (وجهات نظر) - كما عودتنا دائمًا - بمجموعة رائعة من المقالات، ولأننى من المهتمين بقضية التعليم، وأعدها أخطر القضايا التى تواجهنا فى المرحلة الراهنة، وأعد التعليم بوضعه الراهن سببًا مباشرًا دائمًا وغير مباشر أحيانًا لكل مشكلاتنا الراهنة والمستقبلية، ولأننى بصدد إعداد دراسة موسعة استنادًا لخبرة فى هذا المجال، فقد لاقى مقال الأستاذ محمد فتحى (بطالة التعليم المقنعة: أين نحن من العالم؟) الصدى الواضح لدى، وأثار فى نفسى الكثير من الأشجان، بل نكأ كثيرًا من الجراح.

بداية ترسم السطور الأولى للمقال صورة للحالة التى يقف عليها العالم الآن:

«المتابع لما يجرى فى العالم خلال السنوات الأخيرة والوتائر التى يجرى بها، يدرك مدى العزلة التى تتهدد العربى، حتى أننا بتنا على وشك العيش فى جيتو منقطع الصلة بما يجرى حوله».

وإذا اتفقنا مع الأستاذ محمد فتحى فى أن العزلة توشك أن تقع على المستوى الاجتماعى العام، فإنها قد وقعت بالفعل فى المؤسسات التعليمية، وخاصة فى المراحل الأولى التى تعد بمثابة الأساس لأى عملية تعليمية تربوية (فالطالب يصل الجامعة محملاً ومشبعًا بالكثير من المفاهيم الخاطئة عن التعليم، مما يجعل إصلاحه وتعليمه عملية غاية فى الصعوبة)، ولا تغرنك الدعاية التى تنشرها وزارة التربية والتعليم من أن الكمبيوتر قد دخل المدارس جميعها، فهى حكاية أشبه بحكاية دخول الكهرباء لبعض القرى الفقيرة قديمًا، يكتفى ببعض المصابيح فى الشوارع، ولكن هذه القرى كانت فى حاجة إلى عشرات السنين لتستفيد من هذه النقلة الحضارية من خلال الأجهزة الكهربائية التى تعتمد على الكهرباء، ومازال بعض الأفراد فى هذه القرى يكتفون بدخول الكهرباء قراهم أو بيت العمدة دون أن تدخل بيوتهم، فالواقع يقول إن هذه الأجهزة (أجهزة الكمبيوتر) فى أمكنة أمينة لا يستفيد منها إلا القليلون، ولا أدرى السبب فى تحريمها على مدرسى المدرسة (وكيف نطالب المعلم أن يكون مواكبًا العصر أو معلمًا تلاميذه ما هو محروم منه، وإذا كانت ظروف المعلمين لا تسمح باقتناء أجهزة خاصة، فلماذا نحرمهم من أجهزة تكاد تكون معطلة فى بعض المدارس، ولماذا لا نستثمر فترات العطلات (الصيفية، نصف العام) فى تدريب المدرسين. لقد أصبح الكمبيوتر ضرورة تعليمية وتثقيفية لا غنى عنها لأى معلم أو متعلم، فلماذا لا نبدأ من المعلم أولاً.

إن المعلم (ولست فى حاجة لأن أدلل على أهميته فى العملية التعليمية) يعد فى مصر من أهم قضايا التعليم، والأمر الذى غاب عن وعى وزارة التعليم (كما غابت أو غُيِّبت أمور كثيرة) أن كل تطوير فى المنهج يغفل تطوير المعلم نفسه فمحكوم على هذا التطوير ومعه العملية التعليمية كلها بالفشل الذريع، كل ذلك عزل المعلم وحيَّده تمامًا، فكيف وماذا ننتظر منه وفاقد الشيء لا يعطيه، وكانت نتيجة ذلك أن قتلنا كل الجوانب الإبداعية والعمليات العقلية فى متعلمينا، إذ تحولوا إلى أجهزة كاسيت بفضل التلقين والحفظ.

منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام وقف المثقف الجاهلى الخطيب (قسُ بن ساعدة الأيادى) يقول:

«أيها الناس اسمعوا وعوا» ولم يقل اسمعوا واحفظوا ومع هذا كان المفترض - بفعل التطور الطبيعى للحياة - أن نتجاوز

الكتب وجهات نظر — رسائل

هذه الدعوة بأن نسمع ونعي ونفكر ونبتكر، ولكن هيهات ثم هيهات ثم....!!

ثم يقول الأستاذ محمد فتحي:

«ومن حسن الحظ فإن إمكانات تجاوز هذا المأزق المصيري ممكنة، في حدود الإمكانات المتوافرة، إذا تخلينا عن الارتباك، والتفكير التقليدي، وتحلينا ببعض اليقظة والسلوك الإبداعي».

والسؤال: كيف يتم ذلك يا سيدي ونحن نرى الوزارة المسئولة تعامل العملية التعليمية بمعيار الكم لا الكيف؟ فالعام الدراسي يقاس بعدد الأسابيع لا بما يجب أن يحصله الطالب، والكتاب يقاس بعدد صفحاته لا بموضوعاته، واليوم الدراسي بعدد الحصص لا بكيفية أو نوعية ما يجب أن يُقدم للدارس.

لقد تحول الحديث عن العملية التعليمية إلى كتابة إنشائية لأن الوزارة المسئولة لا تعتد بما يقال، فتخرج لسانها لأية أفكار جديدة (في يوليو الماضي كنت أشارك في مؤتمر عن التعليم، عقد بجامعة الدول العربية، استفزني الكم الهائل من الأفكار التربوية التي تصدر عن عقول تمثل كمًا هائلاً من خبراء التربية في مصر، فكان تعليقي: لماذا نصرخ من مشكلات التعليم ولدينا هذه الخبرات العلمية والتعليمية؟)، لذا لا يعد من نافلة القول أن نقول: أن وجود النص يغني عن تطبيقه.

كيف يتم ذلك والوزارة المنوط بها أن توفر الاستقرار، غير مستقرة في قراراتها أو مبادئها أو مناهجها أو متطلبات نظام العمل، هل يعقل أن تمر عشر سنوات على معلم دون أن يحصل على دورة تدريبية واحدة لرفع مستواه الأدائي والعلمي والتربوي والمهني؟!

لقد تطرق المقال إلى قضايا عدة، تكتسب قيمتها من الوعي بها أولاً، والعمل بها ثانيًا، وبعد أن عرض لأسباب العزلة وخطورتها يضعنا أمام قضية أخطر:

«نحن نبحث بالطبع عن حلول واقعية، ليست من قبيل العمل على إشاعة استخدام الكمبيوتر والأقراص إياها والاتصال بالشبكات العالمية و.... بل نعتمد على إمكانات متيسرة في هذه اللحظة لأوسع فئات المجتمع، ولا تحتاج إلا إلى القرار والمواءمة».

إذ يتوقف عند التليفزيون بوصفه وسيلة فعالة فعلينا أن نفصل بين نقطتين:

- التليفزيون يقدم مادة تثقيفية.
- التليفزيون يمنح وزارة التربية والتعليم مساحة لبث برامج تعليمية بواسطة رجال الوزارة و(خبرائها)، وأكتفي هنا بالإشارة إلى:

١ - من يقدمون هذه المادة من رجال التعليم يحولون البرامج إلى حصة تلقين ويتحولون هم إلى مدرسين، لا فرق بينهم وبين المدرس الذي تركه الطالب في الفصل منذ قليل (ويتفوق مدرس الفصل بأن الطالب لديه الفرصة للحوار والمناقشة) وأكتفي دون ذكر أسماء أو الاستغراق في الأمثلة (وما أكثرها) بالإشارة إلى درس اللغة العربية الذي تُقدم فيه قصيدة صخرة الملتقى لإبراهيم ناجي ومدى التخبط الذي يعانيه مقدم القصيدة، إذ يفرض عليها مثلاً شيئًا ليس فيها (قبل الشرح) يناقضه هو نفسه عند الدخول في النص، فأين استثمار تقنيات التقديم التليفزيوني (العبء هنا على المقدم لا الجهاز).

٢ - التوقيت الذي تذاع فيه البرامج التعليمية ومناسبته للطالب (الجمعة صباحًا حيث معظم الطلبة يعوضون الاستيقاظ المبكر طوال أيام الأسبوع فينامون حتى ساعة متأخرة من صباح الجمعة، خاصة بعد ليلة الخميس التي تمثل الفرصة الوحيدة الممنوحة من الآباء للسهر في غير المذاكرة، أو أثناء تواجد الطلبة بالمدارس أو أثناء فترة الراحة بعد العودة مباشرة من المدرسة).

ويتضمن ما تتلقاه يوميًا السيدة ليلى صالح رئيس الإدارة المركزية للبرامج التعليمية بالتليفزيون من عشرات التليفونات والفاكسات المتسائلة عن: لمن تقدم البرامج التعليمية؟، فمواعيد البرامج في القناة الثانية والثالثة تبدأ في الثانية والنصف وهو موعد انتهاء اليوم الدراسي تمامًا على اعتبار أن المدرسة موجودة في الغرفة المجاورة لغرفة الطالب وما عليه إلا الخروج منها إلى البرامج التعليمية ويشير المنشور إلى أن القناة الثالثة أذاعت البرامج التعليمية يوم الأحد الماضي في الواحدة والنصف أي قبل ساعتين من عودة الطلبة لمنازلهم.

الموضوع أكبر من أن يُحاط به في سطور قليلة تحكمها المساحة ولنا عودة مستفيضة، وكم كنت أتمنى أن تتاح الظروف لأن أتراشق بالحكايات مع الأستاذ محمد فتحي، فلدى الكثير منها مما يخص العملية التعليمية، وأتمنى أن يوسع الكاتب من كتاباته حول الموضوع لخطورته ولأنه يمتلك الكثير (وأنا متيقن من ذلك) مما يقال.

د. مصطفى الضبع
كلية دار العلوم - الفيوم - جامعة القاهرة

الامتناع عن قراءة الصحف

تعليقًا على مقال رئيس التحرير في عدد ديسمبر الماضي:

منذ سفري لقضاء أجازتي السنوية المعتادة في أمريكا الشهر الماضي، وأنا ممتنع تمامًا عن قراءة جميع الجرائد والمجلات المحلية وحتى رؤية جميع قنوات التليفزيون المحلية باستثناء مجلة «الكتب.. وجهات نظر» وقبل ذلك كنت أقرأ صباح كل يوم، فضلاً عن الجرائد الحكومية من ٣ إلي ٤ مجلات وجرائد معارضة أو غير معارضة.

مقال سيادتكم الأخير «يوجع القلب» ويؤكد صوابي في الاستمرار علي ما أنا عليه.

وصفي حنا واصف
القاهرة

كتاب الزاوية

الأمير

٥ - كيف المفر من المتملقين؟

ويجب ألا أغفل عن موضوع مهم، وأن أذكر خطأ الأمراء الذي لا يستطيعون مجانبته بغير صعوبة، إلا إذا كانوا على درجة كبيرة من الحكمة، أو لم يسيئوا الاختيار، وهذا الموضوع هو ما يتعلق بالمتملقين الذين يحفل بهم كل بلاط، لأن الناس يبتهجون لأمورهم الخاصة ويخدعون بها أنفسهم، حتى أنهم لا يستطيعون أن يتقوا شر هذا الطاعون إلا بصعوبة. وحين يرغبون في اتقائه يخاطرون باحترامهم، ويصبحون أزرياء، لأنه لا توجد طريقة أخرى ليقي المرء نفسه شر التملق سوى أن يذر الناس يفهمون أن قولهم الحقيقة لن يؤذيه. ولكنك تفقد احترامهم لك حينما يستطيع كل إنسان أن يخبرك بها. ولذا يجب على الأمير الحكيم أن ينهج على طريقة ثالثة، وهي أن يختار لنصحه رجالاً حكماء، ويعطي لهؤلاء بمفردهم الحرية التامة لكي يذكروا له الحقيقة فيما يتصل بتلك الأمور التي يسأل عنها فقط، ولا شيء سواها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع لرأيهم، ثم يتداول الأمر مع نفسه على طريقته الخاصة، ويوافي هذه المجالس مجتمعة، وكلا من هؤلاء الرجال على انفراد حتى يستطيع كل منهم أن يرى أنه كلما كان حرا في الرأي كان أكثر قبولا عند الأمير. وينبغي له ألا يستمع إلى غير هؤلاء، وأن يأخذ في العمل بأناة وتفكير، وأن يكون في قراراته حازمًا. وكل من يفعل غير ذلك فإما أن التملق يفضي به إلى أن يعمل في عجلة، أو أنه لا يقر له قرار أبداً لتباين الآراء؛ والنتيجة أن يفقده ذلك كل اعتبار.

نون

عــــــــام ٢٠٠٠:

من جنون البقر إلى جنون السياسة

انقضت السنة الأولى فى الألفية الجديدة، مخلفة وراءها من الأحداث ما لن تمحوه الذاكرة، وكأنها افتتاحية سريعة الإيقاع لسيمفونية عالمية تصور ما سوف تكون عليه البشرية فى مستهل عصر جديد. تقلبت فيها المواقف من النقيض إلى النقيض. وتحولت أحلام السلام فى بدايتها إلى أوهام ودماء فى نهايتها. وغاصت ثورة العلم والتكنولوجيا فيها إلى أعماق وآفاق جديدة ضاعفت من سعادة الإنسان وشقائه بنفس الدرجة. وظهرت بوادر أوبئة وأخطار تهدد الإنسان والطبيعة.. وزادت هيمنة التكتلات الدولية وغطرسة القوة العسكرية والسياسية. ولم يخل الأمر من مشهد مأساوى بدا وكأنه ملهاة دولية، حين تعرضت الحياة السياسية فى أكبر دولة ديمقراطية إلى أزمة دستورية ومعارك قانونية، لا تكاد تختلف عما يمكن أن يحدث فى أى دولة نامية، مازالت تحبو على مدارج الديمقراطية.

مشهد العام المنصرم، الذى يمثل افتتاحية حافلة بالمشاكل والأزمات لقرن جديد وألفية جديدة، يزخر بأحداث لم تكتمل. وبدايات لم تنته. وإشارات لم تتجسد. وأحلام لم تتحقق. ورؤى مترعة بالأوهام.. يقف العالم العربى منها موقف المتفرج، الذى يتلقى الطعنات بالصياح والعويل. ويعجز عن تحويل غضبه ومعاناته إلى فعل واع منظم، وإلى موقف صلب متماسك، يذود فيه عن نفسه الضربات، وينزل بخصومه نفس القدر من الألم والشقاء.

بالنسبة لنا فى العالم العربى يبدأ العام المنقضى بأناشيد السلام ترتلها الألسنة والأقلام، بينما تعقد اللقاءات وتشتد سخونة المحادثات فى منتجعات على ضفاف البحر الأحمر أو وسط المروج الخضراء قرب العاصمة الأمريكية فى واى بلانتيشن وكامب ديفيد، مبشرة بقرب الوصول إلى اتفاق سلام ينهى حالة الحرب ويعيد للفلسطينيين حقوقهم. وتتسرب التفاصيل والبنود مادة وراء مادة، غامضة مبهمة، تتحدث عن الحل النهائى وقرب إعلان الدولة الفلسطينية، ويزداد التعاون والتحالف لضرب المعارضين والمشككين وأعداء السلام.. وترسم الخطط وتبدأ الاستعدادات لعقد مؤتمر جامع مانع يضع نهاية لكل الحروب والصراعات، يجعل أعداء الأمس أصدقاء اليوم. ويكثر الحديث عن المشروعات الاقتصادية المشتركة والأموال التى ستتدفق على المنطقة. وأنهار العسل واللبن التى ستشق صحراوات العرب الجرداء وتضعهم على خريطة التقدم والرخاء فى العالم.

ثم تسقط الأقنعة فجأة مع نهاية العام عن مشهد بالغ الوحشية والقسوة، تتحطم على صخرته آمال السلام وأوهامه.. فبعد أن فشلت المفاوضات مع سوريا، أعقبها فشل ذريع مع الفلسطينيين.. كشفت فيه إسرائيل عن وجه عنصرى قبيح، وعادت القوة العسكرية المتفوقة لإسرائيل تفرض وجودها، بضرب القرى والمدن وقصفها بالطائرات والدبابات وقتل الأطفال وسحق الانتفاضة الشعبية دون رحمة، واستخدام سياسة «الأرض المحروقة» التى استخدمتها القوات النازية فى الحرب العالمية الثانية ضد أعدائها. فلا ينتهى العام إلا وقد عادت النهايات إلى بداياتها الحقيقية. وإذا العالم العربى يقف على حافة بحر واسع يضطرب باحتمالات وتهديدات غير محسوبة، لا تجدى معها مؤتمرات قمة تدعى على عجل دون أن تخلص النوايا.

فى مصر بدأ العام بأحداث الكشح التى فجرت فتنة دامية بين الأقباط والمسلمين فى صعيد مصر، أيقظت شكوكًا غير مبررة حول سؤال الهوية فى شعب ذابت فى تراثه معظم العقائد والأديان، وتركت بقعًا من الدماء على صفحات كثيرة.. لم يكن من السهل إزالتها إلا بجهد جهيد. ومع ذلك فقد أعادت وضع المشكلة فى بؤرة الاهتمام.. اهتمام الدولة والمثقفين وأفراد الشعب العاديين. ومازالت ذيولها تنعكس كل يوم فى حادث يقع هنا أو هناك، فى كتاب يطبع، أو مسلسل تليفزيونى يبث، أو انتخابات تشريعية تجرى..

وبقدر ما كانت أحداث الكشح مصدرًا للإحباط، فقد كانت دليلاً على أن تطور المجتمع المدنى فى مصر أصيب بنكسة.. حالت بينه وبين التقدم والارتقاء ليكون بمنظماته وأحزابه ونقاباته وجماعاته المدنية والسياسية، بديلاً عن الانتماءات العصبية والطائفية والعائلية. ومن ثم فقد شهدت البلاد مع نهاية العام انتخابات عامة، توافرت لها ضمانات الإشراف القضائى الذى يحقق درجة من النزاهة غير مسبوقة. ومع ذلك منيت الأحزاب السياسية بأكبر هزيمة عرفتها. فلم يلتفت الشعب إلى الوجود السياسى لهذه الأحزاب. واتضح أن ثمة مسافات شاسعة تفصلها عن الناخبين. وأن الغلبة كانت للانتماءات العائلية والعصبية وجاذبية رأس المال والخدمات الخاصة.. فإذا بالتجربة الانتخابية تصيب جميع الأطراف والقوى بصدمة. ولا أحد يعرف هل تفضى هذه الصدمة إلى الاعتراف بالحقيقة تمهيدًا لتغييرها. أم تنزلق على السطح الأملس الناعم لوعى الأمة دون أن تخلف أثرًا وراءها؟

ومع ذلك، فلم تمض السنة الأولى من الألفية الثالثة دون إنجازات تبعث على التفاؤل.. حين توصل فريقان من العلماء فى وقت واحد إلى خريطة الجينوم البشرى أو ما يمكن أن يسمى سفْر الإنسان. وأزيح الستار عن المادة الوراثية أو منظومة الجينات التى تحدد العناصر الوراثية التى تتحكم فى جسم الإنسان. واعتبر هذا الاكتشاف فتحًا علميًا خطيرًا سوف تنعكس آثاره على تشخيص كثير من الأمراض المستعصية والتنبؤ بها، والتوصل إلى العقاقير والأدوية اللازمة لعلاجها.

ومثل كل الاكتشافات العلمية فإن له جوانبه المخيفة بالنسبة لمصير الإنسان. فكما كانت الطاقة الذرية لدى اكتشافها مصدرًا لسعادة متوقعة، فإنها تحولت وفى غضون سنوات قليلة إلى نقمة على مصير البشرية. وبالمثل فإن اكتشاف الجينوم البشرى قد يؤدى إلى سوء استغلال الحقائق العلمية والأسرار الوراثية للإنسان، فى إحداث ثورة عنصرية تعرض مصير الجنس البشرى للخطر.

وفى واد آخر من وديان الإبداع العلمى والتكنولوجى، أثبتت ثورة الاتصالات أنها مازالت تعدو على طريق المستقبل بسرعة تتجاوز قدرة المجتمعات والحكومات على الاستيعاب. وأن سقوط الحواجز بسبب الإنترنت والفضائيات وأجهزة الاتصال السريعة، يفعل فعله فى تغيير العلاقات الدولية، والهيمنة الاقتصادية، والتأثيرات الاجتماعية والثقافية. وتسير عمليات التكيف مع هذه المتغيرات بدرجات متفاوتة، ولكن حصاد العام المنصرم من هذه الثورة يؤكد أن شعوب العالم الثالث والدول الأشد فقرًا، سوف تدفع ثمنًا باهظًا، وقد تتعرض لموجات حصار وعزل، تحرمها من الانتفاع بثمار هذه الإنجازات.

وفى الأسابيع الأخيرة لم يصدق الناس أن أول استهلال للألفية الثالثة، يمكن أن يشهد حدثين أو فضيحتين على جانب كبير من الإثارة، تبرهنان على أن الشوط مازال بعيدًا أمام تقدم المجتمعات وسعادة الإنسان. وأن الإنجاز البشرى دائمًا معرض للنقص والتآكل.

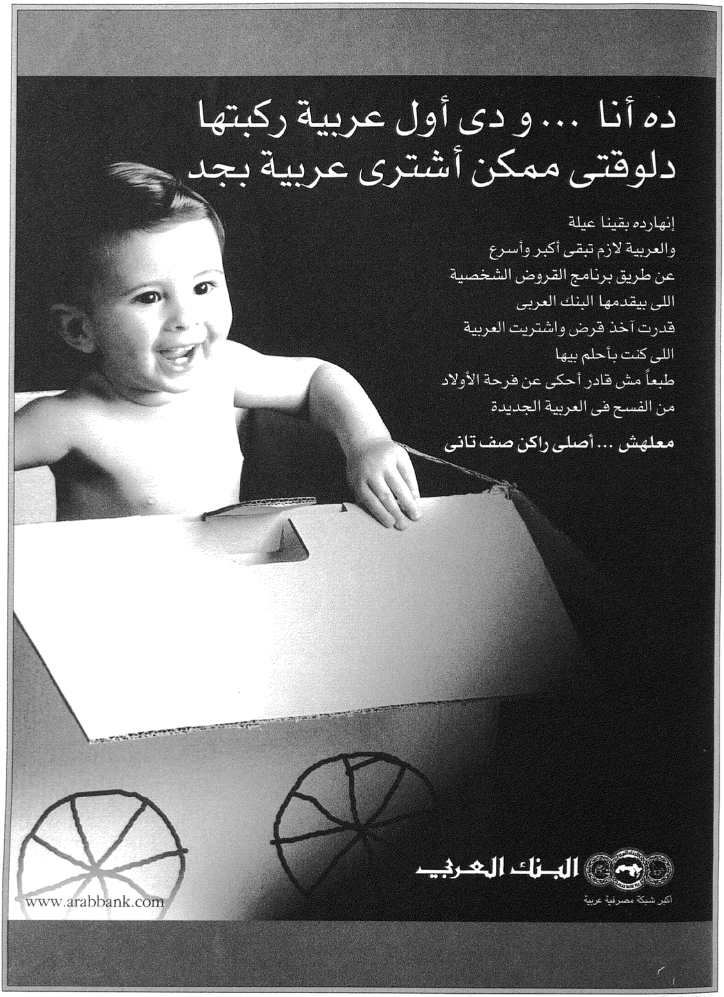
فبرغم كل التقدم العلمى الذى تحقق فى توفير الغذاء وضمان شروطه الصحية التى تكفل تجنب الأوبئة والأمراض الناجمة عن مصادر الغذاء المختلفة حيوانية أو نباتية، طبيعية أو صناعية.. إلا أن انفجار «مرض جنون البقر» على نطاق واسع فى معظم الدول الأوروبية، والفزع الذى أصاب شعوبها نتيجة انتقال هذا المرض من تناول لحوم الأبقار إلى الإنسان.. وهو مرض غامض لا تعرف أسبابه، وينتهى إلى إصابة أعز ما يملك الإنسان العاقل وهو مخه الذى يتحول إلى جسم إسفنجى هلامى.. أثبت أن كل الاحتياطات والذرائع التى تتخذها الدول الغنية المتقدمة، لا تحصن الإنسان من أخطار تهبط عليه من السماء أو تخرج له من باطن الأرض.

وربما استطاعت الدول الغنية المتقدمة أن تحمى نفسها وتوقف انتشار المرض، ولكن الخطر الحقيقى هو ذلك الذى يهدد شعوبًا نامية تعتمد فى طعامها وغذائها على الأسواق الأوروبية.. وهو خطر قد لا تنكشف أبعاده فى بلادنا إلا فى أعوام قادمة.

أما الفضيحة الثانية التى أسدل العام المنصرم أستاره عليها وهو يودع آخر أيامه، فقد كانت فى مرض «الجنون السياسى» الذى أصاب الديمقراطية الأمريكية.. فتحولت الانتخابات الرياسية فيها إلى «سيرك» سياسى وقضائى وإعلامى، عجز عباقرة الديمقراطية وحماتها فى العالم عن وضع نهاية مشرفة له ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية. بجلالة قدرها وقدراتها. فى دوامة من الاتهامات بالتزوير والتضليل والدعاوى القضائية المتبادلة بين مرشحى الرياسة، أخرت تحديد اسم الرئيس الأمريكى المنتخب حتى اللحظات الأخيرة. وظهر أن للديمقراطية عيوبًا جسيمة حتى فى أكثر التجارب الإنسانية نضجًا واكتمالاً، وأن إرادة الناخب ليست وحدها هى التى تقرر من يحكم، بل دخلت عوامل المسرحة وفنون الإبهار وأساليب الإخراج السياسى فى صنع نجوم السياسة ونجوم السينما. وانفتحت بذلك أبواب للخداع والتدليس الإلكترونى جديدة تمامًا.

وهكذا من مرض «جنون البقر» إلى مرض «الجنون السياسى»، ومن أناشيد السلام إلى مواعيد الحرب، ومن عولمة الديمقراطية إلى صعلكة الديمقراطية، ومن ثورة الجينات إلى ثورة الاتصالات، لا يبقى لإنسان القرن الواحد والعشرين غير الانغماس فى فنون الإيهام الأدبى والتصويرى والسينمائى، أو فى مباريات الكرة والدورات الأوليمبية، بحثًا عن قدر من السكينة الداخلية والتوازن النفسى.. كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الخامس والعشرون . السنة الثالثة . فبراير ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 25 - February 2001



قراءة فى الوثائق الإسرائيلية

حُدود السّلاح !

محمد حسنين هيكل

إدوارد سعيد
وقسوة ذاكرة نجيب محفوظ !

التاريخ .. كيف يدرسه التلاميذ فى مصر؟
قاسم عبده قاسم

قصة الصدام بين المنظمات الصهيونية والإدارة الأمريكية
محمد حقى



تفسير جديد لأزمة السيولة والركود
محمود عبد الفضيل

يحيى الجمل ورشدى سعيد .. قصة حياة عادية وأخرى فذّة!
جلال أمين

أزمة الثقافة : وثقافة الأزمة !
سلامة أحمد سلامة

خدمة جديدة من كليك جولد وبنك مصر



الآن تحكم في معاملاتك البنكية

عن طريق أفضل خدمة بنكية محمولة في مصر

CLICK2BANK

معلوماتك البنكية متاحة علي مدار ٢٤ ساعة

خدمة CLICK2BANK الجديدة لعملاء كليك جولد وبنك مصر توفر لك الوقت والجهد عن طريق طلب المعلومات عن معاملاتك البنكية من تليفونك المحمول.

عن طريق خدمة الرسائل القصيرة SMS و**لأول مره بمصر** عن طريق خدمة WAP يمكنك الإستعلام عن:

- معاملات البطاقات الإئتمانية الصادرة من بنك مصر **Visa, Master card.**
- معاملات بطاقات الخصم الفوري **Electron, Cirrus.**
- معرفة أقرب ماكينة صرف آلي.
- حركة ورصيد حساباتك بالبنك
- أسعار صرف العملات الأجنبية

إنضم الآن **مجاناً** لخدمة كليك البنكية بجناح كليك چي إس إم في معرض كايروتليكومب ٢٠٠١ بقاعة المؤتمرات من ١٦ - ١٩ يناير*

* برجاء إحضار أي من بطاقات بنك مصر أو أي كشف حساب

خدمة بنكية مقدمة من

بنك مصر

VISA MasterCard

Powered by Middle East Network Solutions MNS

ClickGold

القمة في مستوي الخدمة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة

العدد الخامس والعشرون

فبراير ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- إدوارد سعيد .. أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا.
- توماس أونيل.. صحفي أمريكي.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة.
- حسين عبد البصير.. مساعد مدير آثار الجيزة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- عبد الرشيد محمودي .. خبير في اليونسكو سابقا وأستاذ الأدب العربي في جامعات فرنسا
- قاسم عبده قاسم.. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.
- محمد العرابي .. سفير بوزارة الخارجية المصرية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- محمد حقي.. صحفي مصري مقيم في واشنطن.
- محمود عبد الفضيل... رئيس قسم الاقتصاد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية
- نسيم مجلي... ناقد أدبي.
- يحيى الرخاوي... أستاذ الطب النفسي بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجي - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة**

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٢ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠ / ٣٩٢٠٤٩٢ / ٣٩٢٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري - اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا. باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري. ص. ب: ٣٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير. اليمن ٢٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــة..

الأولـــويـــات..
فى «جدوى البحث والنظر»

فى أجواء مُثقلة بأسئلة كثيرة وكبيرة، وبعد انتخابات لها أن ترسم ـ بحكم ملابسات عدة ـ خطوطاً وألواناً على خارطة وطن يبدأ عامه الأول فى قرن جديد. وفى خضم محاولات وتكهنات.. و«إرهاصات» لخارطة الجوار و«المحيط» اللصيق بهذا الوطن. وفيما يشبه قنابل الدخان التى من المفترض ألا تستخدم إلا للتعمية أو للتغطية أو للفت الأنظار بعيداً، اندلعت فجأة «أزمة الكتيبات الثلاثة» التى روج لها ـ فى التحليل الأخير ـ من قصدوا الاحتجاج عليها، فشُغلت الصحف والمانشتات بعبارة هنا وعبارة هناك، وبيانات وتصريحات.. و«منشورات». واختفت كالعادة القضية الأصلية تحت ركام شظايا تراشق، هو بالمنطق غير مبرر، فضلاً عن أنه بالضرورة غير مطلوب.

ومرة أخرى ـ وكأنه المشهد ذاته ـ نرى على شاشات التلفزيون وصفحات الصحف من يقف فى مربع لا يعكس فى واقع الأمر «رأيه» اللاحق فى الموضوع، بل «موقفه» المسبق من الآخر.

ورغم أن الصخب كان أهدأ تلك المرة، والغبار كان أقلّ كثافة من ذلك الذى لونته قبل أشهر القنابل المسيلة للدموع، بالدخان والدماء، إلا أن الكثيرين رأوا أن قائمة "أولويات النخبة" بدت بحاجة إلى ترتيب.

خطورة الخلل فى ترتيب الأولويات، وإن كان من زاوية أخرى، وفى شأن آخر، هو موضوع مقال للدكتور يحيى الرخاوى يهتم بمسألة «دراسة جدوى البحث والنظر»، و ينبه فيه إلى أننا «استدرجنا إلى البحث فى مشاكل ليست هى الأولى بالبحث» ويحذر من مخاطر استيراد الأفكار والمناهج والمشاكل موضحاً أن «استيراد الأفكار غير الإلمام بفكر الغير، وغير الاطلاع عليه، وغير الحوار معه..» وأن المشكلة هى فى الاستسلام بلا وعى «لتبنى فكرة سابقة التجهيز، كاملة المعالم، نشغل بها وعينا، ووقتنا، فتحل تماماً محل ما يمكن أن يتفتق فى أذهاننا بما هو نحن».

خلاصة القول إذن ـ يرى الرخاوى ـ أنه قد توجد عندنا المشكلة نفسها، لكنها ليست بالأهمية نفسها ولا بالحجم نفسه ولا بالمضاعفات نفسها التى تجعلنا نترك كل مشاكلنا لنولى هذه المشكلة كل الاهتمام الذى يولونه إياها.

وردا على الذين يقولون بأن «أى مشكلة فى أى مكان هى مشكلة الإنسان فى كل مكان»، يرى المقال أنه حتى لو توحدت المشاكل فإن طبيعتها تختلف، وكذا موقعها على سلم الأولويات».

ومن الأمثلة التى تبقى بلا حصر، يشير المقال إلى بعض ما يتعلق بالطفولة، فيتساءل هل «ضرار الأطفال» أو حسب التعريف الغربى «إلحاق الأذى بالطفل من ذويه» هو المشكلة الأكثر تواترا لدينا وأكثر خطراً وأكثر حاجة إلى البحث والنظر، أم أن «حرمان الأطفال» من مطالب الحياة الأساسية لا لتقصير من جانب الوالدين ولكن لأننا ببساطة فقراء. «كم طفلا ينام فى حجرة ليس لها سقف؟ وكم والدين مازالا فى طور الإنجاب النشط ينامون فى نفس حجرة أطفالهم، لأنهم لا يملكون غيرها، لا لأنهم لا يعرفون أن فى ذلك ما يضر أطفالهم...».

وينبه المقال إلى قضية ربما كانت الأخطر حين يتناول منظومة القيم الأولى بالرعاية متسائلا ألا يعرف الباحثون فى مجال الطفولة والتربية فى مصر أن قيمة «الغش» قد انتشرت فى مجتمعنا انتشاراً مقلقاً بعد أن نعكس مضمونها لتعنى فى الضمير العام مرادفاً للشطارة والفهلوة.. والنجاح. مؤكداً على أن أولى المشاكل بالدراسة عندنا فى هذه المرحلة من تطورنا هى معرفة القيم التى توصلها السلطة التعليمية للمربين (الكبار)، ثم يوصلها الكبار للأطفال. وهى هى القيم التى سادت بشكل أو بآخر فى مجالات كثيرة أخرى، من أول الغش التجارى، حتى البحث العلمى، مروراً على مسلسل الانتخابات فى مختلف المواقع والمناسبات.

ويفترض المقال ـ اتفقنا أو اختلفنا معه ـ أن الأطفال ـ أخذاً فى الاعتبار مستقبلهم ـ يضارون من اهتزاز منظومة القيم أو تشويهها أكثر مما يضارون من الضرب أو ما شابه. وأن هذا الذى يحدث فى أطفالنا مبكراً هكذا هو أخطر علينا من أن يضرب أب طفله لأنه تأخر فى العودة إلى المنزل بعد العاشرة. الأمر الذى فى مجتمعات أخرى، وفرت كل مادون ذلك، ربما استدعى تدخل الشرطة لمنع «قسوة الأب»!

مقال أستاذ الطب النفسى يلتقط ويدلل على أفكاره بنماذج أدبية من أعمال إبراهيم عبد الحليم وطه حسين ونجيب محفوظ وبهاء طاهر، موضحاً كيف يعتبر الإبداع الروائى مصدراً لمعرفة سيكولوجية عميقة بماهية الطفولة وأبعادها. وكيف رسم ديستوفسكى أبعاد الطفولة بكل التفاصيل والعمق فى البطل الصغير، ثم الطفلة نللى فى «مذلون مهانون» والطفل فلالى فى قرية «ستيبانتشكوفو»، وكذلك الطفلة كاتيا فى رائعته التى لم تكتمل «نيتوشكا نزفانوفنا».

دعوة الرخاوى للاهتمام «السيكولوجى» بالأدب، وباعتبار المعايير التى تفرزها الثقافة الشعبية، التى هى «خلاصة تجارب غير معلنة المنهج لكنها حاسمة النتيجة»، تتبدى أيضا فى مقال آخر تنشره «وجهات نظر» باتفاق خاص مع مجلة National Geographic حول الحكايات الخرافية الشهيرة: سندريلا ، الجمال النائم، سنو وايت، ذات الرداء الأحمر..إلخ. والتى جمعها الألمانيان «الأخوان جريم» فى تلك الأيام البعيدة أوائل القرن التاسع عشر (صدرت الطبعة الأولى فى ألمانيا عام ١٨١٢).

واتساقاً مع الطابع الخاص للمجلة، يحكى المقالُ مشاهد من رحلة محرر المجلة إلى بلدة الأخوان جريم. ويقدم تحليلاً تاريخياً رصيناً يرصد كيف أثرت السياسة على تطور «وتلون» حكايات جريم (٢١٠ حكاية) خلال مراحل انتشارها الجغرافى المذهل عبر قرنين من الزمان (ترجمت إلى ما يزيد على ١٦٠لغة، من الإينويتية فى القطب الشمالى إلى السواحلية فى إفريقيا) التى شكلت اقتصادياً جانباً كبيراً من المواد الخام التى أسهمت فى تدشين «ديزنى» كعملاق فى مجاله. و يعتبرها المهتمون بصناعة النشر منافسة للإنجيل «انتشاراً».

ويحكى المقال المتعمق كيف لعبت حكايات الأخوان جريم دورا محورياً فى مقاومة الحكام الجدد والحفاظ على ثقافة موحدة فى وقت تفسخت فيه ألمانيا على يد فرنس نابليون إلى خليط من الإقطاعيات والإمارات. ثم كيف أعيدت كتابة بعض القصص ـ أثناء انتشارها الجغرافى ـ بما يتلاءم مع بعض الأذواق السياسية (فى إحدى طبعات سندريلا نرى البطلة تنظم نقابة للخادمات، ثم تدخل السجن، وبعد هروبها تهاجر إلى الولايات المتحدة..) ثم كيف سقطت الحكايات فريسة للمنظرين ورجال الدعاية السياسية. فمنظرو الرايخ الثالث حولوا ذات الرداء الأحمر إلى رمز للشعب الألمانى، الذى يستنقذ من براثن الذئب اليهودى الشرير. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية منع الحلفاء نشر حكايات جريم فى ألمانيا باعتبار أنها تدعم وحشية النازى.

ويشير مقال توماس أونيل إلى محاورات علماء النفس هناك حول ما إذا كان قذف الأميرة للضفدع يرمز إلى "اليقظة الجنسية" لها كما يؤكد عالم النفس الفرويدى برونو بتلهايم، أم أن الأميرة تقدم نموذجاً للدور النسوى من خلال تحديها للسلطة الأبوية لوالدها الملك؟ أو أن الضفدع ربما كان مجرد ضفدع؟ ثم إلى الجدل حول نظريات بتلهايم المعروف بإعلائه للقيمة العلاجية لحكايات جريم. والتى ينظر إليها على أنها تعد تدريباً للاوعى، ووقاية للمحللين النفسيين.

المقالان: «الرخاوى» و «توماس أونيل» يثيران ـ ضمن أمور أخرى ـ أسئلة كثيرة حول الثقافة الشعبية وأصالتها. وأهمية ـ أو ربما لا أهمية ـ الحفاظ على تلك الثقافة مقابل الانخراط أو «التوحد» فى ثقافة أعم وأشمل. وربما كان السؤال هو نفسه الذى صار مؤرقا للكثيرين أكثر من أى وقت مضى: «السيارة اللكزس أم شجرة الزيتون»؟

وجهات نظر



حُدُودُ السّلاح!



محمد حسنين هيكل

١ التاريخ

■■ نهاية السفر الطويل والبعيد مع الوثائق الإسرائيلية - تصل بأى مسافر إلى مَوقعَين - كلاهما على مقربة من الآخر إلى حَدِّ التَّماس، حتى ليكاد الجوار بينهما أن يعطى الاثنين معاً فضاءً واحداً مكشوفاً لا يقطعه فاصل.

□ الموقع الأول يَبين عليه أنه «لا يوجد» الآن حلٌّ دائم لما اصطلح على تسميته مجازاً بـ: «أزمة الشرق الأوسط» - أو بـ: «الصراع العربى الإسرائيلى» إذا وَقَعَ استعمال تعبير أصرح لا يحتاج إلى «المجاز» كى يَصُك له مُصطلَحاً!

والسبب أن هذه الأزمة - بصرف النظر عن تسميتها - تَنتَمِى إلى نوعٍ من الأزمات يَصعُب حَلُّه بتَفَوُّق السلاح مهما بَلَغَت دَرَجَتُه، لأن هذا النوع من الأزمات مَوصولٌ فى أساسه بثوابت من الجغرافيا والتاريخ، مع ملاحظة:

ـ أن الجغرافيا ليست خرائط مرسومة من خطوط وألوان - وإنما هى حقائق ناشئة ونامية من ارتباط على طول الزمان بين أرضٍ لها طبيعتها، وبَشَر لهم خصائصهم، ومحيط مُتَداخل بتضاريسه مع القارات، مُطِل أو مُتَطَلِّع نَحو البحار.

ـ ثم إن التاريخ ليس «بضاعة» من الممكن «حيازتها» (بتركيبها أو شرائها)، وإنما التاريخ حياة تَصنَع نفسها بنفسها بواسطة العلاقة الخَلاَّقة بين الأرض والبَشَر، وفى عملية حوار خصب لا ينقطع بين الاثنين تَتَحَقَّق نتائجه وآثاره فى رُقِى المجتمعات وعُمرانها، وفى أدواتها الحضارية من اللغة والهَوِيَّة والثقافة والفن - وفى اتساق من القِيَم والتقاليد والأعراف والقوانين تُعَبِّر عن كيانات إنسانية تملك حوافز ودوافع تَقَدُّمها وتَستَشعر موجبات أمنها، ولها فوق الأرض آثارها تَدُل على تَواصُل وجودها وتَتابُع عصور حيويتها - كما أن لها فى بطن التراب قبورها شاهداً على استمرار حياتها بغير انقطاع جيلاً بعد جيل، ومن أزلٍ إلى أبَد.

□ الموقع الثانى يَبين عليه ما هو أخطر - ذلك أنه إذا كان الموقع الأول يُظهِر أنه «لا يوجد» حَل - فإن الموقع الثانى يَبين عليه أن ما كان «صعباً» قبل سنة ١٩٦٧ أصبح «مُستَحيلاً» بعدها، والسبب أن «السلاح» الذى لم يكن من الأصل أداةً صالحة لحَلٍّ «الأزمة» أو حَلٍّ «الصراع» مع اتصالهما بثوابت الجغرافيا والتاريخ - جرى اعتماده فى تلك السنة (١٩٦٧) أداة وحيدة للحَل، وبظن أن تَفَوُّق السلاح قادر. وتَرَتَّبَ على ذلك أن تَفَوُّق السلاح أنساه حدوده فإذا هو يَجور على الحَيز المخصص له فى الإستراتيجية العُليا التى يخدمها. وفى المحَصِّلة النهائية فإن غواية التَفَوُّق أساءت، فى حين كان ظَنُّها أنها أخلصت وزادَت!

وتلك أحياناً كارثة الخطط حين يَتَبَدَّى نجاحها، فإذا هى تَعتَدى على أهدافها بغير أن تَقصِد، ثم إذا هى تُحَقِّق النجاح بمعنى



success ولا تُحَقِّق النصر بمعنى victory - ثم تُواجِه الخطط مصائر لم تكن في حساب هؤلاء الذين وضعوها ورأوها «تنجح» أمام عيونهم في مراحل مُتَقَدِّمة من عملية تنفيذها، وإذا هُم يكتشفون أنه برغم «حصول» النجاح فإن النصر «أفلت» منهم ولم يُحَقِّق وَعدَه أو مَوعِدَه مع النجاح!

□

وهذه ظاهرة تَكَرَّرَت كثيراً في تجارب الأزمات أو الصراعات أو الحروب - على طول التاريخ الإنساني. وربما أن أشهر وأقرب الأمثلة عليها معروفة في وقائع الحرب العالمية الثانية، وهي حاضرة في الذاكرة الدولية المعاصرة على كل المستويات المتعارف عليها للفعل السياسي: مستوى الإستراتيجية العُليا - ومستوى الإستراتيجية - ومستوى التاكتيك.

- ومثلاً وعلى مستوى الإستراتيجية العُليا - فإن السلاح الألماني تَفَوَّق إلى دَرَجَة جعلت من «أدولف هتلر» سَيِّداً على أوروبا كلها (وكانت تلك إستراتيجيته العُليا) - لكن السلاح الألماني تَجاوَز ما يَقدِر السلاح على تحقيقه مهما بَلَغَ تَفَوُّقه - فإذاً «هتلر» يَخرُج من أوروبا إلى الشرق نحو الاتحاد السوفيتي ويُقَرِّر غزوه في أغسطس ١٩٤١ - ثم إذا هو يَخرُج عبر المحيط ليُعلِن الحرب على الولايات المتحدة في ديسمبر من نفس السنة. وانتهى النجاح الألماني في استعمال «السلاح» وتَفَوُّقه إلى هزيمة ألمانيا واستسلامها بلا قَيْد ولا شرط، ثم انتهى «هتلر» - رغم نجاح سلاحه - إلى الانتحار داخل خَندَق مَبْني بالأسمَنت جامد وبارد!

- ومثلاً وَعلى مستوى الإستراتيجية - فإن القائد الألماني الأسطوري «إروين روميل» وَصَل إلى دَرَجَة الإبداع في «هندسة» أسلوب (تتعاون فيه المدرعات مع الطيران على توجيه ضربات صاعقة للعَدُو) - ثم ظَنَّ «روميل» أن التَفَوُّق في استعمال «السلاح» (إلى دَرَجَة الإبداع) - يَسمَح له بالخروج من حدود ليبيا للسيطرة على أفريقيا - بجيشه الذي أطلق عليه وصف «الفيلق الأفريقي» - بادئاً كخطوة أولى بفتح شمال أفريقيا بعَرضه - من مضيق جَبَل طارق إلى برزخ وقناة السويس. وفي ذلك نسي «روميل» أن البحر الأبيض المتوسط - على نفس العَرض - يَمتَدُّ حائلاً بينه وبين قيادته وطُرُق إمداده في أوروبا. ونتيجة غواية «السلاح» فإن الفيلق الأفريقي الذي كانت مُدَرَّعاته تضوي بالخيلاء تحت شمس الصحراء الغربية لمصر - تَحَوَّل إلى أكوام من خُردة الحديد مُتَناثِرة على طول الطريق الساحلي من العلمين إلى تونس - وانتهى «روميل» نفسه - برغم نجاح سلاحه - إلى الانتحار بطلقة مسدس وضعه بيده في أذنه.

- ومثلاً وعلى مستوى التاكتيك - فإن الماريشال «مونتجمري» نجم معركة «العلمين» كاد أن يخسر معركة ألمانيا بـ«جسر واحد أبعَد من اللازم» one bridge too far ☛

هـذا النـوع مـن الأزمـات
مـوصـول فى أسـاسـه بثـوابت
مـن الجـغـرافيا والتـاريخ، فـإن حـلـه يصـعب
بتفـوق السـلاح مـهـمـا
بلغـت درجتـه

ـ على نهر «الراين». وكانت الخطة التى وَضَعَتها قيادة الحُلفاء لغزو أوروبا واحتلال ألمانيا تفترض عبور نهر «الراين» بأربعة جُسور تُقام عليه، لكن «مونتجمرى» بإغراء تَفَوُّق السلاح أضاف على الخطة جسراً خامساً فى منطقة «أرنهايم». وعند هذا «الجسر الواحد الأبعَد من اللازم» ـ كاد الماريشال الألمانى «فون رونشتد» أن يُقَسِّم القوة البريطانية قسمَين، ويَختَرق ثغرةً فَتَحَها بينهما ويُؤَخِّر أو يُعَرقل تحرير أوروبا. ووَعى «مونتجمرى» دَرسَه ولَزَمَ حَدَّه، وتَوَقَّف أسبوعين يَضُمُّ فيهما صفوفه قبل أن يَتَقَدَّم مرة أخرى وفقاً للخطة، وبدون زيادة يغرى بها تَفَوُّق السلاح! ■



٢ كـــاردوم

■■ غواية التَفَوُّق فى السلاح ـ كما يكشف كل مَلَف وكل ورقة وكل سطر فى الوثائق الإسرائيلية ـ أعطت لإسرائيل فى حرب سنة ١٩٦٧ نجاحاً هائلاً ـ لكن جائزة النصر أفلتت بالضبط لنفس السبب وهو أن تجاوز السلاح لدَوره ـ جار واعتدى على أهداف الإستراتيجية العُليا لإسرائيل كما فكَّر فيها ووضعها الآباء الأوائل لمشروع الدولة اليهودية.

وفى حين أن حرب سنة ١٩٦٧ انتهت وقد تَصَوَّر السلاح الإسرائيلى أنه بتَفَوُّقه أخلص وزادَ ـ فإن الحقيقة الواقعة من يومها وحتى الآن تُظهِر أنه حَقَّق نجاحاً، ولم يُحَقِّق نصراً.

وبتفصيل أكثر لأننا الآن أمام نقطة جوهرية مما تَكَشَّف عند القراءة المتأنية للوثائق الإسرائيلية فإن مشروع الدولة اليهودية فى فلسطين كان منذ البداية حُلماً يَستَعصى على التنفيذ، وكانت تلك الحقيقة ظاهرة للعِيان وماثلة أمام الآباء المؤسسين للمشروع.

وكان هؤلاء الآباء المؤسسون يملكون من الذكاء والدهاء ما جعلهم يُدركون أنه إذا كانت هناك فرصة لتنفيذ الحلم المستعصى، فإن «فك» الاستعصاء مَرهونٌ بوضع إستراتيجية عُليا له تَتَعامَل أولاً مع الجغرافيا والتاريخ لأن الموانع الطبيعية هناك، وكانت خُطَّة التعامُل (مُتَماثِلة مع مشاريع استيطانية سبقتها وواكبتها فى القرن التاسع عشر خصوصاً فى أفريقيا) هى عَزل الجغرافيا عن التاريخ ـ أى الفصل بين الناس وبين الأرض، وفتح ثغرة يَنفُذ منها المشروع إلى ميدان معركته.

ومن المفارقات أنه من قبل سنة ١٩٤٨ (قيام إسرائيل) ـ وبعدها حتى سنة ١٩٦٧ ـ كان يبدو أن المشروع الصهيونى يُحَقِّق جزءاً مُهِماً من إستراتيجيته العُليا.

ـ فمن بداية القرن، وإلى وَعد «بلفور» (١٩١٧)، وإلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ـ أخذ المشروع الصهيونى جزءاً من أرض فلسطين (بخديعة الشراء والاستيلاء)، وفى إطار هذا الجزء من فلسطين حَقَّق الفصل بين الأرض والناس، وتمكن من وضع نفسه فى ميدان معركته.

ـ وبعدها وبقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، وبواقع وجوده فى ميدان معركته فوق جزء من أرض فلسطين ـ حصل فى مناخ دولى مُواتٍ على ٥١ ٪ من مساحة الأرض ـ أى القسمَ الأكبر من الأرض

ـ ثم هو بقَدر محسوب من السلاح، وفى أحوال إقليمية مائعة، أتاح لدولته فى إسرائيل تَوسيع النصيب الذى خَصَّصَه لها قرار التقسيم من ٥١ ٪ إلى ٧٨ ٪ من فلسطين.

وذلك كله مَنَحَ إسرائيل الفرصة لتُحَقِّق إستراتيجيتها العُليا فى الفصل بين الأرض والسُكان فى أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين وتَنجَح ـ وتَتَطَلَّع بثِقة نحو تحويل النجاح إلى نصر!

والنصر يَتَأتَّى عندما تَتَمَركَز إسرائيل فوق قاعدة صلبة فى فلسطين ـ ثم عندما تَتَوَسَّع من هذه القاعدة إلى نفاذ أو نفوذ حولها، أى فى كل الشام التاريخى معزولاً عن وديان الفرات والنيل!

□

كان الانفراد بالشام وفى قلبه فلسطين هو مطلب الإستراتيجية العُليا لإسرائيل.

وكانت الإستراتيجية ـ كما يُوَضِّح كل مَلَف وكل ورقة وكل سطر فى الوثائق الإسرائيلية ـ هى عزل سوريا عن مصر بعدما تلاقى الاثنان معاً ضمن حَرَكة تيار قومى عربى مُتَدَفِّق تَظهَر لَه إمكانية فعل مُؤثر إذا سَمَحَت ظروف وسنحت فُرَص!

ولأن الشام كان مطلوباً ـ صحيحاً وسليماً ..

ولأن مصر مُنجَذِبة إليه ـ بقوة الجغرافيا والتاريخ ـ فإن ضرورة إبعاد مصر طَرَحَت نفسها.

وهنا كانت إستراتيجية «الصيد» بأسلوبين:

● بالشَبَكة فى الشام ـ حيث لا جرح ولا دَم قدر الإمكان، لأن الإقليم جواراً ومحيطاً هو الهَدَف المطلوب.

● وبالرُمح harpoon فى مصر ـ ولأن المطلوب تأكيد الاستبعاد ـ فإن الاستئصال كان مطروحاً ما دام ضرورياً!

وكان ذلك فى الواقع محوَر إستراتيجية يونيو سنة ١٩٦٧ كما أقَرَّها مجلس الوزراء المُجتَمِع على هيئة مجلس أمن قومى فى جلسات مُتَواصلة كان آخرها يوم ٤ يونيو ١٩٦٧، والشاهد أن «توجيه العمليات» الذى صَدَرَ إلى السلاح الإسرائيلى كان وبحَسَب المحاضر وبالنص تقريباً:

١ ـ إن العَدُو هو مصر ـ والضربة الرئيسية لجيش الدفاع الإسرائيلى مُوَجَّهة ضدَّها طبقاً للخطة وهى الآن «كاردوم»، بعد أن أضيفت إليها التعديلات التى أدخلها عليها الجنرال «موشى ديان» بالاتفاق مع رئيس الوزراء «ليفى أشكول» فى آخر لحظة.

(والخطة «كاردوم» تقضى باحتلال قطاع غَزَّة والالتفاف داخل الحدود المصرية، والاستيلاء على رَفَح والعريش، والوصول إلى قلب سيناء، واحتلال جَبَل «لبنى»، والوصول إلى «شرم الشيخ» و«رأس محمد» لفتح مضيق «العقبة» ـ وأثناء ذلك تطويق وتدمير قوة الجيش المصرى الرئيسية، وإتمام ذلك بسرعة فى مُدَّة لا تزيد عن ٧٢ ساعة لكى تكون الضربة سريعة وحاسمة.)

٢ ـ عمليات دفاعية فى أضيق نطاق ـ وفى حالة الضرورة على الجبهة السورية ـ وعند الحَدِّ الأقصى دخول المنطقة المنزوعة السلاح بين سوريا وإسرائيل.

٣ ـ تَجَنُّب أى اشتباك مهما كانت دواعيه على الجبهة الأردنية، واليَقَظة فى «تَدارُك أى موقف ينشأ بسبب انفلات وِحدة فى موقع أو جنون ضابط فى قطاع»، وسُرعة الاتصال عن طريق الوسائل (المعروفة) بالقيادة السياسية فى الأردن (الملِك «حسين») ـ فإذا لم تَقَع استجابة سريعة فإن قائد الجبهة الوسطى وهو الجنرال «أوزى ناركيس» مُخَوَّل بالوصول إلى حائط المبكى وما حوله فى القدس، والتوقف فى انتظار تعليمات جديدة (وبذلك تكون إسرائيل قد «لَطَشَت» snatched جائزة وَسَط الزحام يَفرَح بها يهود العالم ويَسعَدون!)

وكذلك فإنه عند مساء ٤ يونيو ١٩٦٧ كان «الصيد» على وشك أن يبدأ:

صَيْدٌ بالشَبَكة حول فلسطين (فى الشام) تَمتَدُّ وتَنتَشِر.

وصَيْدٌ بالرُمحَ المقذوف (harpoon) مُوَجَّهاً إلى مصر مشدود على الآخر ـ وهى لمسة واحدة على الزناد وينطلق! ■



٣ الجـنـرالات

■■ تُزَكِّى الوثائق الإسرائيلية ـ فى كل مَلَف وورقة وسطر ـ صِدق مَقولتَين شهيرتين عن إدارة الحرب:

المقولة الأولى وهى لـ«كلاوزفيتز» الأستاذ الأول لعلوم الصراع فى العصر الحديث، وفيها قوله: «إن الحرب هى السياسة بوسيلة أخرى» (بمعنى مباشر فإن الحِوار بالنيران فى ميادين القتال هو «الاحتياطى» الجاهز للحوار الدبلوماسى إذا فَقَد جدواه فى لحظة تَصادُم مَصالح، وكلاهما (الرصاصة القاتلة أو الكلمة الناعمة) أداة من أدَوات سياسة مُقَرَّرة).

أما المقولة الثانية فهى لـ«كليمنسو» رئيس وزراء فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى، وفيها قوله:

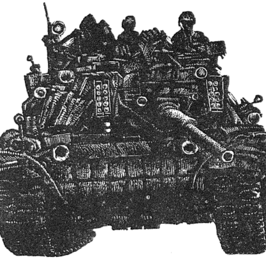
«إن الحرب مسألة أخطر من أن تُترَك للجنرالات» (وبمعنى مُباشر فإن «كليمنسو» هنا يُفَرِّق ـ مثل غيره ـ بين الحرب والقتال. واقتناعه أن الحرب سياسة وأن القتال سلاح).

وعندما بدأت واشتَدَّت واستحكمت أزمة يونيو سنة ١٩٦٧ فإن ما قال به «كلاوزفيتز» وما حَذَّرَ منه «كليمنسو» أصبح مطروحاً للتجربة على أرض الصراع فى الشرق الأوسط ـ ومَعالِم التجربة مكشوفة.

والواقع أن مَسار الحوادث قضى بأن السلاح أصبح كل الحرب، وذلك مُنزَلَق خطير إذا هَوَت إليه السياسة.

والذى حَدَث فعلاً هو أن جنرالات إسرائيل قاموا يوم ٢٨ مايو بنوع من الثورة على السُلطة المدنية الشرعية دَعاهم إليه ما تَصَوَّروه من تَرَدُّد «ليفى أشكول» أمام نصيحة من الولايات المتحدة ـ تقترح عليهَ تأجيل بدء العمليات أسبوعين أو ثلاثة «رَيثما تَتَمَكَّن من قياس موقف خصمها السوفيتى، والاطمئنان على موقف صديقها العربى» ـ وقد فوجِئ رئيس الوزراء وتَحَرَّج موقفه إلى درجة تثير القلق، وبدا غير واثق من نفسه بعد أن أهانه الجنرالات واتَّهَموه صراحة بالجُبن والتخاذل، والعجز عن تَزَعُّم وزارة حرب.

إن الجنرالات الثائرين، وفى مقدمتهم «إيزر وايزمان» (مدير العمليات)، صاحوا فى وجه



رئيس الوزراء أثناء ذلك اللقاء العاصف بينه وبينهم مُطالبين باستقالته وراغبين فى عودة «بن جوريون» من عُزلَته فى النقب ليرأس الوزارة - فى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ إسرائيل - بدلاً من «أشكول»، وكذلك أن يعود «موشى ديان» من صفوف الجنرالات بالمعاش إلى الخدمة العاملة وزيراً للدفاع بَدَلاً من «أشكول» أيضاً.

وبصَوت يرتَعش وبنَبرة كسيرة رَدَّ «أشكول» بأنه لن يترك رئاسة الوزارة لـ«دافيد بن جوريون»، وأنه سوف يَستَعيض عن ذلك بتَحويل وزارته إلى وزارة وحدة وطنية تَشترك فيها كتلة «جحال» ويَدخلها «مناحم بيجين» شخصياً وزيراً للدولة. ثم أذعَن «ليفى أشكول» - ضمن صيغة حل وَسَط وتَرَك وزارة الدفاع لـ«موشى ديان» الذى عاد إلى الساحة عودة قيصر إلى روما (فى ذروة الخلافات التى انقسم فيها الشيوخ على بعضهم فتناً، والقناصل على بعضهم معسكرات، والقوات على بعضها جيوشاً وفِرَقاً!)

وتَظهَر الصورة بائسة من خلال مذكرة عن حديث بين «ليفى أشكول» وبين «إسرائيل جاليلى»، وقد كتبها الجنرال «ليور» مدير المكتب العسكرى لرئاسة الوزارة. وطبقاً لنصوصها فإن رئيس الوزراء يقول لوزير الدولة:

«هُم لا يثقون بى مَسئولاً عن قيادة المعركة القادمة. يظنون أننى لا أفقَه شيئاً فى العسكرية مثل «بن جوريون». وهُم مُخطئون. وسوف يعرفون يوماً من الحقائق ما يَجعَلهم يَخجلون مما فعَلوه معى».

ثم يَستَطرد:

— إننى جئت لجيش الدفاع بسلاح لم يكن يخطر على بال قادته.

— وأنا أول رئيس وزراء لإسرائيل يُدير معركة ويأخذ فى حسابه وجود سلاح نووى، وقد عاصرت صُنع هذا السلاح وذللت كل صعوباته أكثر مما عاصره «بن جوريون» وأدار من شئونه، ولو أن «بن جوريون» هو الذى بدأ.

— وليس هناك إسرائيلى غيرى يستطيع أن يحصل من «جونسون» (رئيس الولايات المتحدة) مثلما أستطيع أنا بعلاقة خاصة تجمعنا سَوِياً، و«جونسون» نفسه دائم الإشارة لها.

— وأنا وإن كنت لم أشارك فى إدارة معركة مُسَلَّحة، وكنت أعتبر نفسى جاهلاً فى الشئون العسكرية - فإنى قد اكتسبت الآن بالممارسة خبرة لها قيمتها وسوف يرون عند التجربة».

□ ثانياً - وَقَعَ أن الجنرالات «استولوا على الحرب». لم يَكتفوا بالقتال وهو اختصاصهم، فى حين أن الحرب (أى ممارسة السياسة بطريقة أخرى - على حَدِّ قَوْل «كلاوزفيتز») كانت اختصاص غيرهم - ووَقَعَ ما حَذَّرَ منه «كليمنسو» من «أن الحرب مسألة أخطر من أن تُترَك للجنرالات».

والحاصل أن جنرالات إسرائيل، وابتداء من يوم ٤ يونيو، استولوا على القرار السياسى فى دولة إسرائيل، ولا زالوا حتى هذه اللحظة يمسكون به، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى إثبات، ذلك أنه من يومها وإلى الآن فإن صُنَّاع القرار السياسى فى إسرائيل ظاهراً وباطناً كانوا ولا زالوا من الجنرالات: «إسحاق رابين» - «موشى ديان» - «ييجال آللون» - «إسحاق موردخاى» - «حاييم بارليف» - «أمنون شاهاك» - «أرييل شارون» - «إيهود باراك». والمدهش أنه فى هذه اللحظة وبعد ثُلث قرن على سنة ١٩٦٧ - أن الصراع على رئاسة الوزارة يَدور بين جنرالين: أحدهما يرأس تحالف أحزاب العَمَل وهو «إيهود باراك»، والثانى يرأس تحالف الليكود وهو «آرييل شارون». والأشد إثارة للدَهشة أن كلاً من الرَجُلين ليس جنرالاً فقط وإنما هو عسكرى تلقى تربيته وتعليمه وخِبرَته وثقافته من العَمَل فى القوات الخاصة حيث قَتَل بيَدِه وخَنَقَ بأصابِعه!

وكانت مَعركة سنة ١٩٦٧ هى نجاح الجنرالات فى القتال ضدَّ العرب دون انتصار - وانتصارهم فى السياسة الداخلية لإسرائيل دون نجاح - على الأقل حتى هذه اللحظة من بداية سنة ٢٠٠١.

والشاهد أن الجنرالات استولوا على «السياسة» فى نفس اللحظة الذى استولوا فيها على «الحرب»، وتَصَرَّفوا كما شاءوا فى ميادين القتال دون تفرقة ضرورية بين المستويات الثلاثة لـ: السياسة - والحرب - والقتال.

— فالسياسة هى تحديد الأهداف بعيدة المدى للدولة (الإستراتيجية العُليا)، وإدارة كافة مواردها - بَشَرِيَّة واقتصادية وطبيعية وثقافية - بما يَخدم هذه الأهداف.

— والحرب هى إدارة «الصراع» مع الآخرين (الإستراتيجية) بهَدَف تحقيق المطلوب.

— وأما القتال فهو مرحلة استخدام القوة العسكرية بالسلاح لإزالة عَقَبة أو لفتح طريق يَعتَرِض أو يُهَدِّد الأمن فى الحاضر الراهن أو المستقبل المنظور.

وعندما استولى الجنرالات على «السياسة» وعلى «الحرب» وعلى «القتال» فى إسرائيل فإنهم حَقَّقوا أسوأ مخاوف «ليفى أشكول» - على حَدِّ ما وَرَدَ مَنسوباً إليه فى المذكرة التى كتبها مدير مكتبه العسكرى الجنرال «إسرائيل ليور» الذى وَصَفَه وكأنه «رَجُل يُكلِّم نفسه بأسى» مُتَسائلاً:

«ماذا يريدون؟ - هل يريدون أن نعيش بالسيف وحده؟ هل يريدون لمستقبل إسرائيل أن يكون بالسيف إلى الأبد؟» «for ever by the sword?» وذلك نَص كلماته كما نقلها وترجَمَها الجنرال «ليور»!



٤ التمرد

من المفارقات المدهشة التى تكشفها الوثائق الإسرائيلية أن حرب إسرائيل سنة ١٩٦٧ (والتى يعتبرها معظم العرب نموذجاً فى الفنون والعلوم العسكرية) - تَظهَر عند أصحابها أشد ما تكون بُعداً عن الفنون والعلوم العسكرية. وليست تلك شهادة الوثائق الإسرائيلية وحدها - وإنما شهادة جهات أخرى وَصَلَت إلى الوثائق الإسرائيلية، وهى جميعاً تُبَيِّن دواعى للخلل أصابت الأداء الإسرائيلى سنة ١٩٦٧:

● الداعى الأول أن سُلطة القرار انتقلت من «السياسة» إلى «السلاح»، وبالتالى فإن الإستراتيجية العُليا - والإستراتيجية - وَقَعَت فى أيدى العسكريين وحدهم، وهُم موظفون فى أحد أجهزة الدولة لم ينتخبهم أحد، ولم يُكَلِّفهم بمسئولية القرار دستور وقانون وناخب!

[وكان من «قوانين نابليون» المشهورة، وهو الشيخ الأكبر فى فِقه الحرب، نَصٌّ يقول: إن الحرب مسئولية الأمة كلها، ولهذا فإن قرار الحرب سياسي. والقتال ليس قراراً عَسكرياً وإنما هو أمرٌ سياسِيٌّ يُنفِّذه العسكريون].

وفى يونيو سنة ١٩٦٧ كان قرار الحرب الإسرائيلى فى يَدِ الجنرالات!

● والداعى الثانى أنه حين انتزع العسكريون فى إسرائيل سُلطة القرار من ساستها المكلفين به والمسئولين عنه - فإن تَصَرُّفهم تَوَسَّع وملأ الساحة كلها.

[ومن «قوانين» الحرب، و«الشيخ الفقيه» هذه المرة هو الفيلسوف العسكرى البريطانى الأشهر «ليدل هارت» قاعدة أساسية تقول: «إن مُهِمَّة الإستراتيجية أن تُقَلِّل من دور القتال فى الحرب قَدر الإمكان].

● والداعى الثالث أنه فى يونيو سنة ١٩٦٧ تَكَفَّلَ الجنرالات بجَعل دور السلاح يَتَوَسَّع بأكثر مما هو ضرورى حتى تَجاوَز وجارَ على الإستراتيجية - وتَجاوَزَ وجارَ على الإستراتيجية العُليا كما وَضَعَها الآباء المؤسسون لدولة إسرائيل!

□

ومنذ اليوم الأول من يونيو ١٩٦٧ - وفى أعقاب ثورة الجنرالات وتَوابعها - كانت القيادة السياسية فى إسرائيل يَداً مُرتَعِشة - بالغضب المكبوت.

وفى ظروف معارك على وشك أن تفتح مدافعها وتَبعَث طائراتها وتَدفع مُدرَّعاتها وتُحَرِّك كتائبها - فإن رئيس الوزراء ومجلس الوزراء، وعندهم القرار السياسى بالحرب - كَتَموا جميعاً مشاعرهم، وتَركوا السُلطة تَنزَلِق بعيداً عنهم!

والجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء شاهدٌ حاضرٌ - وهو يقول فى مُذَكِّرة له: «إن ليفى أشكول» رئيس الوزراء لم يُخامره الشك لحظة فى أنه إذا لم يكن ما قام به الجنرالات انقلابا بالضبط - فإنه كان تَمَرُّداً بالتأكيد.

وقد كان «أشكول» فى تلك الظروف يَنتَفض غضباً لكنه جاهَدَ فى السيطرة على مشاعره إلى حَدٍّ دعانا جميعاً للقَلَق عليه، وقد اعتبر نفسه مسئولاً عن احتواء «التَمَرُّد» حتى ولو ضَحَّى بسُلطَته، خشية أن يَتَحَوَّل «التَمَرُّد» بالفعل إلى «انقلاب» يُسىء فى تلك الأوقات إلى مصلحة دولة إسرائيل وأمنها!»

وعندما قبل «أشكول» بحَلٍّ وَسَط أعاد «ديان» من «التِّيه» إلى «قيادة الجيش» مرة أخرى - مع استمرار «بن جوريون» فى «عُزلته» داخل مستعمرة «سد بوكر» (قلب «النقب») - دون أن يَعود إلى رئاسة الوزارة - فإن رئيس الوزراء اعتبر قبول الجنرالات لهذا الحَل نوعاً من الترضِيَة تَدعوه لأن يُساير رغباتهم.

والغريب أن الجنرالات لم يكونوا فى تلك اللحظة جبهة واحدة، وإنما كانوا جبهتين على الأقل:

● جبهة يمثلها الجنرال «موشي ديان» العائد إلى وزارة الدفاع على «ظهر حُصان أبيض» كما يقولون.

● والجبهة الثانية يمثلها الجنرال «إسحاق رابين» الذى كان رئيساً لهيئة أركان الحرب التى وَضَعَت الخطط. وكان شعوره أن عودة «ديان» فوق رأسه إلى وزارة الدفاع - إهانةٌ لكفاءته وشكٌّ فى قدرته على تَنفيذ خطة تَحمل توقيعه!

وكان أبرز «الصقور» فى جبهة «ديان» هو «إيزر وايزمان» الذى قادَ تَمَرُّد الجنرالات فى مكتب رئيس الوزراء. وكانت العلاقة بين «ديان» و«وايزمان» وثيقة، وكان كلاهما «عديلاً» للآخر، أى أن زوجَتَى الجنرالين - وقتها - كانتا أختين!

وكان «رابين» فى الموقف

«غواية التفوق فى السلاح» أعطت لإسرائيل فى حرب ٦٧ نجاحا هائلا، لكن «جائزة النصر» أفلتت لأن تجاوز السلاح لدوره جار على أهداف الاستراتيجية العليا لإسرائيل

الضعيف رغم أن عدداً من الجنرالات كانوا على استعداد لمساندته، ولم يكن ذلك إعجاباً به، وإنما نُفوراً من «ديان».

وكان شعور هؤلاء الجنرالات - خصوصاً هؤلاء الذين شاركوا فى إعداد الجيش الإسرائيلى لذلك «الموعد مع الحرب» فى يونيو ١٩٦٧ - والذين وَضَعوا خطة العمليات المرسومة لتحقيق هَدَف الحرب - أن مجىء «ديان» جائزة لا يستحقها رَجُلٌ لم يكن له دَور لا فى إعداد القوات ولا فى وضع الخطة، وقد قَفَزَ بمناورة انتهازية على مَشهَد كان بعيداً عنه فإذا هو فى طرفة عين مُقَدِّمَة المشهَد وصانعه وبَطَلَه - بلا استحقاق!

□

وكالعادة - من يومها وحتى الآن - فإن «شيمون بيريز» الباحث دائماً عن دور، والمتلكئ دائما بعد فوات الأوان - ذهَبَ إلى الجنرال «ديان» فَوْر تَوَلِّيه لوزارة الدفاع ولديه - كما هى العادة أيضاً! - اقتراح لم يخطر على بال أحد غيره، وكان مُؤدى اقتراح «بيريز» كما تسجله الوثائق الإسرائيلية فى شبه إجماع بين المصادر - قوله همساً فى أذن «ديان»:

«الوزارة تواجه طلباً أمريكياً بالانتظار حتى يتأكدوا من تثبيت موقف الزعماء السوفييت والاطمئنان على موقف الشيوخ العرب.

والكل - مع تصميمه على ضرورة ضَرب «ناصر» وإهانته - مُتَرَدِّد فى اللحظة الأخيرة تَحَسُّباً لوقوع خسائر كبيرة، واقتراحى عليك ما يلى:

أن تُعلن الآن وفوراً أن إسرائيل سوف تُجرى تجربة على «جهاز نووى» nuclear device».

ويضيف «بيريز»:

«إنه على حَدّ علمى فإن إدارة مشروع «رافائيل» لديها ما يمكن أن «تُجَرِّبه»، وبعد ذلك (وفق تقديره) فإن مجرد صدور إعلان بهذا المعنى كفيل بإسقاط «ناصر» لأن الجيش والشعب فى مصر كليهما سوف يدركان أنهما أمام قوة نووية، وحينئذ تنتهى المعركة قبل أن تبدأ».

ولا يَظهَر فى الوثائق الإسرائيلية أن اقتراح «بيريز» - مثل كل اقتراحاته - عاش طويلاً، فقد تكفل كثيرون فى الوزارة وفى قيادة الأركان بالرَدِّ عليه، وكان ملخص رَدهم:

● أن مثل هذا الإعلان عن مشروع إسرائيل النووى سابقٌ لأوانه.

● أن الولايات المتحدة سوف تجد نفسها مضطرة إلى الوقوف ضدَّ «إعلان نووى إسرائيلى» - وَقَع بدون موافقتها - فى منطقة لا تحتمل هذا النوع من التَصَرُّفات.

● أن الاتحاد السوفيتى قد يَعتَبر «الإعلان» إجراءاً طائشاً، ومن ثم يَتَدَخَّل ويكون لتَدَخُّله فى الظرف الموضوعى الراهن صدى دَولياً مُواتياً.

● أن مثل هذا الإعلان سوف يُوَحِّد بين كل العرب على كل الجبهات، بينما المقصود الأصلى من سياسة «الشَّبَكَة» و«الرُمح المقذوف» هو عَزل الجبهات العربية عن بعضها، فذلك جَوهَر الإستراتيجية العُليا للدولة اليهودية.

وهكذا كان على «بيريز» أن يرى واحداً من اقتراحاته «الخلاقة» يضيع وَسَطَ أناس لا يعرفون قدره ولا يعترفون له بدَور يراه لنفسه، وهو دَور «صانع الأفكار»!



٥ مطارق !

في الساعة العاشرة والربع من ليل ٤ - ٥ يونيو ١٩٦٧ أصدر الجنرال «ديان» أول أمر يَحمل توقيعه:

«إلى كل قوات جيش الدفاع على الجبهة الجنوبية:

الهَدَف: تدمير الجيش المصرى فى سيناء.

المدى: احتلال شمال ووطن سيناء والالتفاف حتى شرم الشيخ».

وكان هذا «الأمر الأول» للجنرال «ديان» قبل ساعات قليلة من بدء العمليات مُتَّسقاً على نحو كامل مع الإستراتيجية العُليا للأمن الإسرائيلى - ومُطابقاً لإستراتيجية وُضِعَت مبكراً لضرب مصر بقصد إخراجها من الشَام، وحصرها تماماً فى أفريقيا بعيداً بالكامل عن آسيا. والدليل المؤكِّد لهذا الاتساق أن «أمر ديان الأول» اقتصر على الجبهة المصرية، وأما على الجبهات الأخرى (السورية والأردنية) - فقد كان ما صَدَرَ عنه فى اللحظة الأخيرة تَعزيزاً للأوامر السابقة (أى دفاع مَحدود على الجبهة السورية، مع احتلال المنطقة المنزوعة السلاح إذا اتسع نطاق العمليات قبل أن يتأتى حصرها - ثم إنه لا عمليات على الجبهة الأردنية إلا بإذن، وإذا جَرَت مفاجأة غير مُتَوَقَّعة فإنه يمكن إلى حين حَلّها «خطف» حائط المبكى وما حوله فى القدس!)

□

كانت الخطة العسكرية الإسرائيلية على الجبهة الجنوبية - فى أصلها - تصميماً كلاسيكياً «التزم بما جاء فى الكُتُب» دون إدِّعاء بعَبقرية ينفرد بها.

□ ووفق كتابات الجنرال «جودريان» وتطبيقاته لها فى الحرب العالمية الثانية فإن الحرب الخاطفة هى الحرب العصرية، والحرب الخاطفة تبدأ بضربة تقصد بالدرجة الأولى شَل أعصاب العَدُو وإرباكه إلى دَرَجة تدعوه للتخَبُّط فى رَدّ فعله بما يُشَوِّش تفكيره ويُؤثر على قراره.

(وكان ذلك هَدَف الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى على كل المطارات العسكرية المصرية، وقد أضيف إليه هَدَفٌ ثانٍ هو حماية عُمق إسرائيل من احتمال غارات مُضادة يكون الطيران المصرى قادراً عليها!)

□ ووفق كتابات «ليدل هارت» فإن كفاءة الجيش الحديث مَرهونة بخفَّة حَرَكَته، وذلك يتأتى حين تكون تشكيلاته المقاتلة «وحدات» قادرة على الفعل السريع بما يُمَكِّنها بكثافة وتركيز النيران أن تخترق بالحَرَكة الخاطفة أية دفاعات وتلف حولها.

وكان «ليدل هارت» ينصح دائماً بأسلوبين:

● أن تَتَحَوَّل «الوحدات» إلى «مطارق» تضرب، والموضع المثالى لضربة «المطرقة» هو أن تَنزل فوقَ الرأس - أى فوق قيادات الجيوش وعُقَد مواصلاتها.

● أن لا يَتَوَقَّف تقدُم «الوحدات» المتحركة بكثافة النيران كى تَحتَل وتُؤَمِّن أرضاً. وإنما نُصيحة «ليدل هارت» إلى كل قائد عسكرى بأنه: «لا داعى لتَعطيل القوات فى احتلال أرض. اكسر الجيش الذى يواجهك تَنفَتِح لك أرجاء الأرض وراءه».

[وكان ذلك بالضبط ما فعلته القوات الإسرائيلية فى سيناء: ضربات «مطرقة» تنزل على الرؤوس - و«ألوية» تتحرك بسرعة، وهى لا تَحتَل أرضاً وإنما تُمَزِّق خطوطاً وتَفتَح ثغرات، وتَلتَف وتُطَوِّق، وفى ذلك فإنها تُؤَكِّد - أيضاً - نظرية قديمة لـ«كلاوزفيتز» تَعتَبر «هَدَف المعركة قتل «أعصاب» العَدُو قبل قتل «أجساد» جنوده!»]

....

....

[ولسوء الحظ فإنه بمقدار ما تَصَرَّفت القيادة الإسرائيلية فى بداية الهجوم وفق ما طلبته «نصائح الكتاب الكلاسيكية» فإن القيادة المصرية فى مواجهة الهجوم تَصَرَّفت بالضبط وفق «نواهى الكتاب الكلاسيكية».

وكان تنظيم الجيش المصرى وخطة عملياته وخطوط تحركه على النظام البريطانى - الفرنسى الذى اعتمد فى مَعارك الحرب العالمية الأولى - وكان تجربة الحرب العالمية الثانية لم تَحدُث.

وكان أن الضربة الجوية الإسرائيلية شَلَّت أعصاب القيادة.

ثم إن «مطارق الألوية» فوق الرؤوس أصابت بالدوار.

وأخيراً فإن الحركة السريعة والالتفاف والتطويق لجيش كبير - ثقيل بذيل إدارى طويل - حَوَّلَت هذا الجيش فى ساعات إلى جُزُر معزولة عن بعضها - وعن قيادتها.]

....

....

[ثم كان ما سمعته بنفسى من الجنرال «أندريه بوفر» وهو الخبير العسكرى الفرنسى المعترف له دولياً - حين قال لى - يوم ٤ سبتمبر ١٩٧٥ - ونحن فى بيته الواقع على نهاية شارع «فوبورج سانت أونوريه»:

«إننى دَرَستُ معارك سنة ١٩٦٧، وناقشت تفاصيلها طويلاً مع القادة الإسرائيليين ومنهم «ديان» و«رابين»، وتقديرى أن جيشكم (الجيش المصرى) انهزم فى حرب نفسية قبل أن يَنهَزم فى حرب عسكرية. القيادة ذُهِلَت من ضربة الطيران، والقوات فى الميدان فوجئت بالتَحَرُّكات الخاطفة للألوية الإسرائيلية، وتَفَكَّك الجيش الكبير نفسياً قبل أن تبدأ معارك القتال الحقيقى، وذلك تفسير ظاهرة أن خسائركم الكبيرة فى المعركة لم تَقَع إلا بعد صدور قرار الانسحاب من القاهرة»!]

....

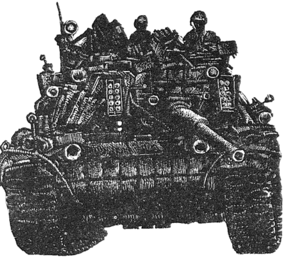
....



٦ جنون !

كان النجاح الإسرائيلى فى سيناء طوال المرحلة الأولى للعمليات ظاهراً وأكيداً، ومُتَوافقاً بالحركة (التاكتيك) مع مطالب الإستراتيجية الإسرائيلية - ومطالب الإستراتيجية العُليا للدولة اليهودية كما وضعها المؤسسون الأوَّل للمشروع الصهيونى. لكنه عند لحظة النجاح بالضبط وَقَعَ التجاوز - لأن النجاح بهذه السهولة جاء معه بغرور القوة - وغرور القوة أغوى العسكريين وأوَّلهم «ديان» - على الخروج من السياق وعلى النص!

ولم يكن وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس مُقَرَّراً أو مطلوباً فى الخطة الأصلية للعمليات كما صَدَرَت بها الأوامر مساء ٤ - ٥ يونيو ١٩٦٧.



بل إن الابتعاد عن قناة السويس وتجنُّبها تماماً كان هو المطلوب ودواعيه (نقلاً عن مذكرة رسمية أشار إليها الدكتور «آفي شلايم» في دراسته الكبيرة ـ صفحة ٢٤٣) كما يلي:

● إن الوصول إلى ضفة القناة يُكلِّف الجيش الإسرائيلي بحماية خطوط مواصلات طويلة لا بد أن تظل مفتوحة باستمرار لضرورات إمداد وتموين الخط الأول من القوات على حافة الماء.

● أن الوقوف على ضفة القناة سوف يُلزم الجيش الإسرائيلي بأسلوب الدفاع، وهو أسلوب في الحرب يأخذ من هذا الجيش أكبر مزاياه وهي سُرعة الحركة.

● إن قناة السويس مَمَرٌّ مائي دولي، واقتراب إسرائيل منه قد يُحَوِّله إلى منطقة عمليات عسكرية، وذلك يُصبح خطراً على الملاحة.

● أنه في حالة وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس فإن مصر سوف تبادر بإغلاقها بادِّعاء الحرص على سلامة الملاحة، وتَقَع المسئولية على إسرائيل.

● إن إغلاق قناة السويس قد يكون استفزازا للاتحاد السوفيتي يدعوه إلى التدخل بأكثر مما ينوى وأبعَد مما يريد.

□

والذي جرى أنه مع النجاح غير المتوقع، ومع الغرور، ومع الغواية ـ فإن الخروج عن سياق الخطة ونصِّها تَرَكَ نفسه ينساق إلى قرارات لا علاقة لها بالخطة الأصلية.

ومثلاً فإنه قبل ظهر يوم الأربعاء ٧ يونيو وَصلت إلى قيادة القوات إشارة من داورية إسرائيلية متقدمة تقول «أنها وَصَلت إلى ضفة قناة السويس، وهي تقف الآن عند حافة مياهها».

وعُرِضت الإشارة في البداية على رئيس هيئة أركان الحرب الجنرال «إسحاق رابين»، وكان تقديره طبقاً لما علَّق به على الإشارة «أن وصول الداوريات الإسرائيلية إلى ضفة قناة السويس نجاح فائق»، وهو يتساءل: «هل تتمسَّك هذه القوات بمواقعها أم تنسحب؟»

وكان ظاهراً أن ظناً ساوَره بأن «بقاء القوات قد يكون فيه تعزيز لقوة «الموقف التفاوضي الإسرائيلي بعد انتهاء المعارك»!»

وعندما وَصلت الإشارة إلى وزير الدفاع الجنرال «ديان» كان تعليقه الأوَّلي عليها حازماً إذ قرَّر أن «وقوف القوات على ضفة القناة والتمسُّك بها مُخالف للخطة ومُتعارض مع السياسات التي قام عليها بنيانها».

وعلى هذا الأساس أصدر وزير الدفاع أمراً «للتنفيذ العاجل» مُوَجَّهاً إلى قائد القوات التي وصلت إلى ضفة قناة السويس، يقول فيه: «ابتعد فوراً عن ضفة القناة واسحب قُوَّتك بعيداً، والزم التعليمات السابقة التي تُحَدِّد مُهمَّتك».

وتَمَّ تنفيذ أمر وزير الدفاع.

لكنه لم تمض غير ساعات حتى أصدَرَ «ديان» نفسه أمراً لقوة لواء كامل أن تتقدَّم على نفس الخُطى التي مشت عليها داورية الصباح ـ وتكون داورية الصباح هي «المرشد» الذي يقود «لواء العصر» إلى حافة مياه القناة.

وكان ذلك تغييراً جوهرياً في الخطة تجاوز به السلاح حدوده وأعطى نفسه سُلطة القرار السياسي. ولم يكن رئيس الوزراء ولا مجلس الوزراء على علم بأن القوات الإسرائيلية الآن ـ وعلى خلاف مع الخطة ـ قد وَصلت إلى قناة السويس.

....

....

[وروى لي الجنرال «أندريه بوفر» في لقائنا يوم ٤ سبتمبر ١٩٧٥ ما نصه:

«إنني سألت الجنرال «ديان» لماذا أمَرَ قواته ـ خلافاً للخطة ـ بأن تعود إلى ضفة قناة السويس وتتوقف هناك، وتحفر خنادقها وتتحصن؟ ـ ولم أجد عنده رداً مُقنعاً.

ولقد أحسست من ردوده أنه يتهرَّب من مناقشة قرار ثبَتَ فيما بعد أنه خطأ على مستوى الإستراتيجية الإسرائيلية، ذلك أنه بالوقوف على خط الماء ألزم الجيش الإسرائيلي بسياسة دفاع ثابت هي ضد عقيدته القتالية ـ ثم إن وقوفه بهذا الشكل على خط الماء أصبح استفزازا يستحيل قبوله بالنسبة للمصريين، والمؤكد أنهم سوف يجدون في أنفسهم «شجاعة تفرض نفسها عليهم فرضاً» وتدعوهم لعبور القناة إلى الناحية الأخرى بأي ثمن».

....

....

واستكمل الجنرال «بوفر» روايته:

«قال لي «ديان» بعد مناقشة طويلة، ولم يكن ما قاله في معرض الجد:

ربما أنني أردت استعادة ذكرى الأيام القديمة حينما قمنا باحتلال قناة السويس ضمن خطتنا المشتركة سنة ١٩٥٦».

(وكان الجنرال «بوفر» في سنة ١٩٥٦ هو قائد القوات الفرنسية البَرِّيَّة التي نزلت في بورسعيد، وكان أيضاً نائب القائد العام (البريطاني) في مؤامرة السويس، وبالتالي فإنه كان مُطلعاً على دخائل السياسة قدر إطلاعه على خطة العمليات).

واستطرد الجنرال «بوفر» في حديثنا (٤ سبتمبر ١٩٧٥):

«حاول ديان أن يروغ من الإجابة وأن ينسب «تجاوزه» إلى «حنينه للماضي» ـ مع أن اعتقادي أن ما قاله لي ديان فيه شيء من الصحة، فقد ساقه syndrome السويس (تداعي الوقائع المستعادة) أن يُرسِّخ لنفسه صورة المنتصر في سيناء سنة ١٩٥٦. وقد وجدت نفسي (الكلام للجنرال «بوفر») مُضطراً أن أذكره بأنه حين وَصَل بقواته إلى قناة السويس سنة ١٩٥٦ فإنه فعل ذلك ضمن خطة نزولنا في بورسعيد، وعزمنا على احتلال كامل منطقة القناة، وذلك لم يفرض على الجيش المصري أن يخلي سيناء دون قتال فحسب، وإنما واجهه أيضاً بجدار عازل أمامه من قوات الحلفاء يحجزه عن سيناء!]

....

....

وكذلك فإن استيلاء الجنرالات على القرار في إسرائيل ـ حَشَرَ السياسة في ماسورة بندقية!



٧ قيادات

صباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ـ لم يكن لدى القيادة الإسرائيلية ـ أو هكذا يبدو من الوثائق ـ أي قلق لوجود الفريق «عبد المنعم رياض» في مقر القيادة العامة في عَمَّان، لأن الكل في إسرائيل كان على علم بأن القيادة العامة الأردنية في ذلك الوقت كانت هيكل قيادة في مدينة الزرقاء تصدر عنه الأوامر إلى غرفة عمليات بعيدة عنه ـ في عَمَّان ـ ثم إن غرفة العمليات في عَمَّان تتصرَّف وفق أوامر سُلطة أخرى ـ لها وحدها شرعية القرار وقُوَّته.

وعلى أي حال فإنه في الضُحى يوم ٥ يونيو حوالي الساعة العاشرة والربع صباحاً فتح أحد المدافع في القدس نيرانه على موقع قريب من جَبَل «المكبر»، وكان تعليق رئيس وزراء إسرائيل أن هذه طلقات «يُبرِئ بها الأردن ذِمَّته ويعفي نفسه». وحين سأله «مناحم بيجين»: «أشكول.. أليست هذه فرصة لتحرير كامل أرض إسرائيل (أرتز إسرائيل)؟» ـ رَدَّ عليه «أشكول» بأنه «لا يوافقه على رأيه». وألح «بيجين» بالسؤال، ورَدَّ «أشكول»: «القضية هي ما إذا كنا نريد الأمريكان معنا أو أننا استغنينا عنهم؟!»

ثم قال «أشكول» بعد فترة صمت: «إن حائط المبكى يُلح عليَّ، ومن الواضح أن الشعب اليهودي كله يريدنا أن نأخذه ـ حتى «ميريام» (زوجته) حَرَّضتني عليه مساء الأمس.»

وحين راح «بيجين» يتساءل عن السبب الذي يدعو الأمريكان إلى الغضب إذا قامت إسرائيل بتحرير كامل أرض إسرائيل ـ كان رَدُّ «أشكول» أنهم «سوف يغضبون لأسباب كثيرة:

أولها أن ذلك يجعل للحرب هدفاً أوسع من إسقاط «ناصر» وتصفية التهديد المصري.

والثاني أن الهاشميين لهم دَور خاص في خطط الغرب.

والثالث أن احتلالنا للقدس كلها سوف يضع الشيوخ من أصدقاء أمريكا في حالة انكشاف!

□

واللافت للنظر أن ذلك كان اقتناع «ديان» أيضاً، فقد كان يَعرف كل الدواعي السياسية الخاصة بالأردن، ثم إنه كان يَعرف الحقائق العملية مما هو جار في عَمَّان. وكانت المخابرات العسكرية الإسرائيلية (آمان) تَضَع أمامه دقيقة بدقيقة صورة كاملة للحقيقة الأردنية في تلك الساعة، وكانت «آمان» تحصل بالتَسَمُّع التليفوني على الأوامر الصادرة من القيادة العامة التي يجلس فيها الفريق «عبد المنعم رياض» ويُصدر من خلالها أوامره، مُتَصَوِّراً أنها واصلة إلى التشكيلات في الميدان ـ وفي نفس الوقت كانت «آمان» تلتقط الإشارات الحقيقية الصادرة من غرفة العمليات الخاصة في عَمَّان إلى التشكيلات، وكان في وسعها أن ترى الفارق الهائل بين الاثنتين.

● الأوامر الأولى (من القيادة العامة ـ في الزرقاء) تُحَرِّض على القتال..

● والإشارات الثانية (من غرفة العمليات ـ في عَمَّان) تَتَوقَّى نشوبه!

وبرغم «الحقيقة» فإن بعض ما تَوقَّعته الخطط الإسرائيلية حَدَث، فقد سُمِعَت على مواقع مُتعَدِّدة من الجبهة عصر يوم ٥ يونيو طلقات مدفعية ودفعات مدافع رشاشة.

وقبل الظهر انتهز «أشكول» رئيس وزراء إسرائيل فرصة مقابلته للجنرال «أودبول» القائد النرويجي للقوات الدولية المراقبة للهُدنة وطلب منه نقل رسالة منه إلى الملك «حسين» يُبدي فيها حرص إسرائيل على عرشه، ويطلب منه تَوَخي الحذر أكثر لأن «بعض مدافعه تُطلق نيرانها الآن».

لكنه ما كاد الجنرال «أودبول» يخرج من مكتب رئيس الوزراء حتى دخله «مناحم بيجين» ومعه الجنرال «بيجال آلون» يُلحّان على رئيس الوزراء أنه «الآن وأصوات طلقات المدافع والرشاشات تُسمَع قرب القدس وحولها فإن الفرصة مُلائمة على الأقل لتحرير القدس، ولن يغفر

كان الانفـــــــراد بالشـــــام
وفـــى قلبــــه إســــــرائيل. معــــــزولاً
عـــن وديـــان الفـــــرات والنيـــــل. هـــو عـــلى الـــــدوام
مطـــــلب الإســــــتراتيجيـة
العليـــــا لإســـــــرائيـل

لنا «الشعب اليهودى» أبداً إذا ضَيَّعنا الفرصة السانحة هذه اللحظة».

□

وصباح يوم ٦ يونيو قام «موشى ديان» بإخطار رئيس الوزراء (مجرد إخطار) بأنه أمَرَ «بمحاصرة القدس» لأنه «لا يريد قتالاً حول المدينة المقدسة يَطول أياً من معالمها ويثير ثائرة العالم الإسلامى والعالم المسيحى».

ويَستَطرد الإخطار:

«لقد لَفَتَ نظرى أن القوة التى بدأت تُحاصر القدس اكتشفت أنه ليس أمامها مقاومةَ من أى نوع، وأن قوات الجيش الأردنى تنسحب بانتظام من المدينة، وإن كان بعض السكان الفلسطينيين يقاومون».

(ولم يَكن فى أيدى هؤلاء سلاح مُؤثّر لأن السلطات الأردنية لم تكن تسمح للمدنيين فى الضفة الغربية والقدس بحمل السلاح).

وفى الصباح الباكر من يوم ٧ يونيو أصدر الجنرال «موشى ديان» أمره إلى القوات الإسرائيلية «أن تنتقل إلى داخل القدس». لم يكن أمره قتالاً، وإنما كان نص أمره: انتقالا «أن تنتقل» . To move

صَدَرَ الأمر إلى القوات فى الساعة السابعة. وقبل الساعة العاشرة (بعد أقل من ثلاث ساعات) كانت القوات الإسرائيلية قد انتقلت وسيطرت على المدينة المقدسة بكاملها، وكان الجنرال «موشى ديان» على موعد لدخولها ومعه الجنرال «رابين» رئيس الأركان، والجنرال «أوزى ناركيس» قائد المنطقة الوسطى. ووقف «ديان» أمام حائط المبكى وفاجأ الجميع بأن «جيش الدفاع الإسرائيلى أتَمَّ هذه اللحظة تحرير القدس موطن المقدسات اليهودية - وأعاد توحيدها عاصمة لإسرائيل غير قابلة للتقسيم مرة أخرى».

وقرأ رئيس الوزراء الإسرائيلى فى البرقيات ما قاله وزير دفاعه، وكذلك كان علمه لأوَّل مرة بهذا القرار السياسى الخطير!

وفى الوثائق الإسرائيلية رواية بالغة الدلالة بلسان الجنرال «أوزى ناركيس» حكى فيها أنه «بعد نصف ساعة تقريباً من وقوف «ديان» و«رابين» وهو شخصياً (الجنرال «ناركيس» قائد الجبهة الوسطى) أمام حائط المبكى هرع إلى الموقع كبير حاخامات الجيش الإسرائيلى الجنرال «شلومو جورين».

ويُسَجِّل الجنرال «ناركيس»: «إننى وقفت بجوار كبير الحاخامات وهو يتلو بعض الأدعية بصوت عال وَسَط تزاحُم ضباط وجنود من الوحدات جاءوا لمشاهدة الحائط وملامسته تَبَرُّكاً. وجاء إلىَّ كبير الحاخامات يأخذنى من يدى جانباً ويقول لى هَمساً: «أوزى - أليست هذه هى اللحظة الملائمة لوضع مائة كيلوجرام من المفرقعات فى مسجد «عمر» و«قُبَّة الصخرة» حتى تَتَوَقَّف دعاوى المسلمين بوجود حق دينى أو تاريخى لهم فى القدس؟» - وقلت لكبير الحاخامات: «أرجوك - ذلك أمر لا داعى له وسوف يثير الدنيا علينا». وسألنى: «أى دنيا سوف يثيرها؟» - وقلت: «المجتمع الدولى وعلى رأسه أمريكا. أمريكا لها صداقات تَحرص عليها فى المنطقة. نحن أيضاً لنا أصدقاء فى العالم الإسلامى: تركيا وإيران بالذات، وإندونيسيا وباكستان، وغيرهم كثيرون»! - ولكن كبير الحاخامات أصَرَّ على مواصلة دعوته قائلاً لى: «أوزى - هذه فرصتك لدخول التاريخ «وأنت تُضَيِّعها»..» ورددت مضطراً عليه: «بأننى سَجَّلتُ اسمى فى كُتُب التاريخ بدخول القدس وانتهى الأمر». وأدار كبير الحاخامات ظهره لى ومشى بعيداً».

□

وحتى مساء يوم ٧ يونيو كان «موشى ديان» يقصر عملياته فى الشرق على القدس وحدها لا يتجاوزها، وكانت قواته التى أحاطت بالمدينة تجس المواقع الأردنية وتَتَحَسَّس أوضاعها. وفى الساعة السابعة مساءً تلقى «ديان» إشارة بعث بها قائد أحد الألوية المدرعة يقول فيها «أن داورية من وحداته المتقدمة بغرض الاستكشاف وصلت إلى مواقع ترى منها «أريحا» بالعَين المجَرَّدة دون أن تقابل فى طريقها أية مقاومة». ورَدَّ «ديان» بنفسه على قائد اللواء المدرع يطلب إليه «أن يستعيد داوريته ويسحبها فوراً».

لكن المثير للدهشة بعد ذلك أنه نتيجة لعملية الاستكشاف التى وصلت إلى حيث ترى «أريحا» بالعَين المجَرَّدة أمامها - فإن مركز العمليات فى عَمَّان أصدر إشارة تأمر بانسحاب عام من الضفة الغربية كلها تَجَنُّباً لمحظور اشتباك واسع بين القوات الأردنية والقوات الإسرائيلية.

وكانت الإشارة الأردنية أمام «موشى ديان» بعد دقائق من صدورها، وكان رَدُّ فعله إزاءها على عكس ما كان عليه موقفه قبل أقل من ساعة، فقد أصدر الأمر - ودون رجوع إلى مجلس الوزراء أو إلى أى سُلطة سياسية بدخول القوات الإسرائيلية وانتشارها فى كل الضفة الغربية، وطول الليل كان ذلك يَتِم بسرعة ونظام. وفى اجتماع حضره رئيس أركان الحرب الجنرال «إسحاق رابين» وعَدَد من ضباط القيادة العليا تساءل «رابين»: «كيف يمكن لقواتنا أن تسيطر على مليون مواطن عربى يعيشون فى الضفة الغربية؟» - وقاطعه أحد ضباط أركان الحرب يُصَحِّح أرقامه قائلاً له: «مليون ومائتين وخمسين ألفاً من العَرَب».

ولم يُعَلِّق «ديان»!

□

ويكتب الجنرال «أوزى ناركيس» قائد الجبهة الوسطى فى تقرير رسمى: «إن ما حَدَث على الجبهة الأردنية ما زال يثير استغرابى، فعندما بدأت بعض المواقع الأردنية تطلق نيراناً مُتَقَطِّعة، خطر لى أنها فرصة نستفيد منها، وكذلك طلَبْتُ إذناً باحتلال منطقة «اللطرون» - لكن الجنرال «ديان» رَفَضَ طلبى.

وأعَدتُ الكَرَّة مرة ثانية بعد ساعة، وللمرة الثانية رَفَضَ «ديان» طلبى.

وكان علىَّ أن أفهَم رَدَّه لطلبى المتكرِّر لالتزامه بسياسات إسرائيل إزاء المملكة الأردنية الهاشمية:

فالحكومة لا تريد احتلال الضفة الغربية - بل تُعارضه بوضوح..

وقوات جيش الدفاع لم تُواجِه أى تَحَدٍّ حقيقى يستفزها للرَدِّ بقوة عليه».

ومع ذلك فإن النتيجة النهائية جاءت شيئاً لم يُخطِّط له أحد - فقد جرى على الجبهة الأردنية نفس ما جرى على الجبهة المصرية مع اختلاف الظروف، والسبب - مرة أخرى - هو أن السلاح أغراه تَفَوُّقه، كما أن الزحف العسكرى أغوَتهُ مساحة الأرض المفتوحة أمامه.

كان الغرور غلاباً، والإغراء لا يُقاوَم، و«الخطيئة أجمَل من أن تُقاوَم» بصرف النظر عن الخطة، وكذلك انحرفت إستراتيجية إسرائيل - وانجرفت الإستراتيجية العُليا التى وَضَعَها المؤسسون الأوَل لمشروع الدولة اليهودية! ■



٨ الجـــــــــــولان

■■ وتعود الوثائق الإسرائيلية (كل مَلَف وكل وَرَقَة وكل سطر) لتؤكِّد أن نفس الشىء وَقَع على الجبهة السورية. بنفس الطريقة، بذات الأسلوب، وللسبب عينه: تَفَوُّق السلاح، وغرور القوة بالنجاح فى الميدان، ونسيان أن الحرب ليست ما يجرى فى ميدان القتال وحده، وإنما الحرب إستراتيجية عُليا تُحَدِّد - وإستراتيجية تُخَطِّط - وتحركات تُنَفِّذ (وضمنها دَورٌ للسلاح لا يتجاوزه، وإلا جارَ على حُدود ليست له، وليس لها!)

وتُظهِر الوثائق الإسرائيلية بما لا يقبل الشك أن أمر العمليات يوم ٥ يونيو كان قاطعاً فى أنه ليست هناك خطة مطروحة للتنفيذ للعمل العسكرى ضدَّ سوريا (رغم أن التَوَتُّر الذى تَحَوَّل إلى أزمة كبيرة فى مايو سنة ١٩٦٧ بدأ كله على الجبهة السورية!)

ولا تُظهِر الوثائق الإسرائيلية هذه الحقيقة فقط، وإنما تُظهِرها ومعها الأسباب المنطقية الداعية إليها، وفى المقدمة منها «أن إسرائيل لا تريد جِراحاً كبيرة يَصعُب مداواتها فى الشام» (وعلى حَدِّ تعبير الجنرال «ياريف» فهى هناك تريد أن تصيد بالشَبَكة لا تُدمى، على عكس صَيْدها فى الجنوب ضدَّ مصر بالرُمح المقذوف يُصيب، وليس مَطلوباً منه أن يُداوى، والأفضل أن لا يكون لإصابته شِفاء).

ومع ذلك فمن الواضح فى الوثائق الإسرائيلية أن عَدَداً كبيراً من القادة الإسرائيليين كانوا يشعرون بغَيْظ يَتَمَنُّون لو استطاعوا التفريج عنه «بتلقين الجيش السورى درساً» على حَدِّ تعبير الجنرال «دافيد إليعازار» قائد الجبهة الشمالية، لكن الخطط الإستراتيجية - على أساس الإستراتيجية العليا - كانت شديدة الوضوح - ومَسنودة بمنطق كامل:

١ - أن أى ضربة فى الشام سوف تجعلها حرباً إسرائيلية ضدَّ العرب وليس ضربة مُوَجَّهة إلى «ناصر» بالدرجة الأولى.

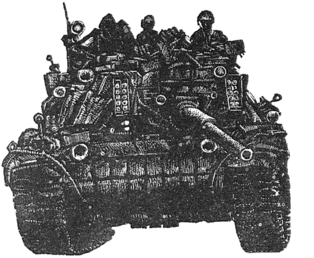
٢ - إذا بَدَت الضربة حرباً إسرائيلية ضدَّ العرب فإن ذلك سوف يُحرِج عَدَداً من أصدقاء الولايات المتحدة التى جعلت موقفها مَعروفاً بجلاء أمام إسرائيل حين صَرَّحَت لها بالعَمَل ضدَّ «ناصر».

٣ - سَبَبٌ إضافى بعد ذلك يَخُصُّ سوريا وهو مُتَعَلِّق بالاتحاد السوفيتى الذى قد يَسكُت «إزاء ضربة تجعل ناصر أكثر تَواضُعاً فى التعامُل معه» - لكن ضربة ضدَّ سوريا (وفيها قيادة تعتبرها موسكو يسارية مُخلصة فى ثوريتها ومُتَشَدِّدة) قد تكون استفزازا لا تستطيع موسكو أن تسكت عليه.

□

وأيام الاثنين ٥ يونيو، والثلاثاء ٦ يونيو، والأربعاء ٧ يونيو، والخميس ٨ يونيو - كان الموقف على الجبهة السورية محكوماً ودَرَجَة تَوَتُّره مضبوطة. ومع أن صوت المدافع كان مَسموعاً من هضبة الجولان، وأزيز الطائرات يسرى فى الأجواء ما بين وقت وآخر - فلم تَظهَر شواهد على أن وحدات سورية نَزَلَت من الهضبة - ولا أن وحدات إسرائيلية صَعَدَت إليها.

ويوم الخميس ٨ يونيو كان شبه مُؤَكَّد أن المعركة الرئيسية على الجبهة المصرية قد انتهت وأن قراراً من مجلس الأمن بوقف



إطلاق النار على وشك أن يصدر. وأن الحكومة المصرية قامت بإخطار الحكومة السورية حتى لا تُفاجأ عندما يتوقف إطلاق النار على الجبهة المصرية. وفي الواقع فإن لا القيادة العسكرية ولا القيادة السياسية في مصر كلتاهما كانتا تعرفان مما يجرى على الجبهة السورية غير ما كانت تحمله برقيات وكالات الأنباء، وكان معظمه مُشَوَّشاً لا تبين من خلاله صورة واضحة يمكن التعويل عليها في تعاون أو تنسيق.

ومساء ٨ يونيو وقد بدا أن العمليات انتهت، تَوَجَّه وفدٌ من المستوطنين في مستعمرات الجليل الشمالي إلى تل أبيب لمقابلة عاجلة مع رئيس الوزراء يطلبون فيها «عمل شيء» يُعَزِّز أمن مستعمراتهم ويفتح الأفق أمامهم. وذلك - في رأيهم - ممكن بعد كل ما جرى على الجبهة المصرية. وحَضَر «موشى ديان» بنفسه بعد عودته من الجبهة جزءاً من الاجتماع بين المستوطنين من الجليل وبين رئيس الوزراء «ليفى أشكول»، وكان تعليقه على حَدِّ ما سَجَّلَت محاضر الاجتماع: «إنه لا يُوافق لأسباب كثيرة:

أولها «أننا بذلك سوف ننشر قوات جيش الدفاع على رقعة شديدة الاتساع بحيث تصبح قوته ضعيفة ببعثرتها في كل مكان»!

وثانيها «أن جيش الدفاع يَلتَزم دائماً بإستراتيجية تُجَنِّب الحرب على جبهتين في وقت واحد».

وثالثها «أننى لا أريد أن أستفز السوفييت لأن النظام في سوريا له وَضعٌ خاص في حساباتهم، وهنا فإن أى عَمَل لاحتلال الجولان مُخالفٌ لخطتنا في هذه الحرب»!»

ثم يستطرد «ديان» يَحكى قصة «هذه الحرب» بخِفَّة ظاهرة:

«الحقيقة أننا بدأنا معارك هذه الحرب لكى نبعد «ناصر» عن فلسطين، ونضربه في سيناء، ونكسر قبضته على مضيق تيران (خليج العقبة).

ثم إننا في الطريق إلى هدفنا الرئيسى وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام القدس بما تُمثله لنا، وأخذناها.

وبعد أن أخذناها اكتشفنا الضفة الغربية كلها مفتوحة لنا فدخلناها.

لكنه أكثر من ذلك لا ينبغى لرحلتنا في ميدان القتال أن تطول».

وحين بدأ بعض الحاضرين من سكان مستوطنات الجليل يناقشون «ديان» في حضور رئيس الوزراء الذى جلس ساكتاً - كان رَدُّ «ديان»: «إننى لا أوافق. الجولان خارج الخطة ويجب أن تظل خارج الخطة لأسباب دولية - وإذا كانت بعض مستعمرات الجليل تشعر بالخطر بسبب وقوعها تحت المرتفعات السورية مباشرة - فإن خط المستعمرات في الشمال يمكن سحبه إلى الوراء قليلاً ولو بعِدَّة كيلومترات!»

وطبقاً لمحضر الجلسة (وهو ضمن أوراق «ليفى أشكول») - فإن رئيس الوزراء شعر بالحَرَج أمام المستوطنين من الأسلوب الذى تَحَدَّث به «ديان»، وتَدَخَّل الوزير «ييجال آللون» وهو نفسه ينتمى إلى مستوطنة «جينوسار» في شمال الجليل - قائلاً أن «خط الحدود السكانى» لإسرائيل، وهو مُلامِس لـ«خط حدودها الدولى» تقريباً لا يمكن تغييره بهذه البساطة. وعاد «ليفى أشكول» إلى مَجرى النقاش ليقول أنه «كفلاح يعرف كيف تعيش المستوطنات الزراعية. وهو يَفهَم أن نقل مستوطنة بسكانها وبيوتها وأرضها وزراعاتها هو شيء خارج الواقع وخارج أى خيال».

ورَدَّ «ديان» بصَلَف بأنه «قال كلمته وهو مُقتَنِعٌ بما قال».

ولاحظ الجنرال «إسرائيل ليور» أن «وزير الدفاع يَتَكلَّم كما لو أنه هو السُلطة العليا في البلد وأنه وحده صاحب القرار. ولم تكن لديه الكياسة - ولا الأدَب - ليراعى أن «أشكول» مُشارك في الاجتماع. وأن وزير الدفاع كان مُحَتَّماً عليه - حتى لو أراد أن يرفض طلب مستوطنى الشمال - أن يقول «أنه سوف يتشاور في الأمر مع رئيس الوزراء»!»

وتَبَدَّى للجميع أن وزير الدفاع يَعتَبر أن القتال بالنسبة له مسالة انتهت.

وعند منتصف الليل ٨ - ٩ يونيو ذَهَب عَدَدٌ كبيرٌ من قادة الجيش الإسرائيلى - بما فيهم رئيس الأركان «رابين» - إلى بيوتهم ينامون فيها لأول مرة منذ نشوب المعارك وظنهم هُم الآخرون أنه لم يَعُد مطلوباً منهم شيء - ما كان مطلوباً تَمَّ أداؤه!

□

وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة ٩ يونيو استيقظ «ديان» واتصل بقيادة الجبهة الشمالية وقائدها الجنرال «إليعازار» يسأله: «دادو» - تدليل «دافيد» - هل أنت جاهز لصعود الهضبة؟ لديك خطة الطوارئ الاحتياطية نَفِّذها على الفور وقُم باحتلال الجولان، وسوف يُؤخذ السوريون على غِرَّة لأنهم يعتقدون، وهذا ظاهر في إشاراتهم، أن المعركة انتهت ولا يُصَدِّقون حظوظهم السعيدة بأنها انتهت وهُم سالمون لم يَحدُث لهم شيء!»

وقبل ظهر يوم الجمعة ٩ يونيو كانت قوات الجبهة الشمالية بقيادة الجنرال «دافيد إليعازار» قد احتلت الجولان و«رَكِبَت الهضبة واستقرت على ظهرها» على حَدِّ التعبير الذى استعمله قائد المنطقة الشمالية!

وعندما وَصلَت أنباء ما جرى على الجبهة الشمالية ظهر يوم الجمعة ٩ يونيو - إلى مكتب رئيس الوزراء - كان «ليفى أشكول» في حالة من الضيق لم يخفها على أحد. ولم يكن غاضباً لأن «ديان» غَيَّر رأيه في ساعات قليلة من النوم نَهَض بعدها من فراشه ليأمُر باحتلال الجولان - وإنما كان غَضَب رئيس الوزراء من أسباب أخرى:

● أن وزير دفاعه غَيَّر رأيه دون إخطاره، وسَمَح لنفسه بتوسيع مساحة العمليات دون إذنٍ منه ولا من أى سُلطة سياسية.

● أن «ديان» وضعه في موقف بالغ الحَرَج أمام المستوطنين الذين سوف يستنتجون بلا شك أن رئيس الوزراء لا يملك سُلطة، وأن الرَجُل الذى «أعطاهم» «أُفُق» و«عُمق» الجولان هو «موشى ديان» وحده.

● أن وزير الدفاع وهو يُخطر رئيس الوزراء عند الظهر وبعد إتمام العملية باحتلال الجولان - لم يُضف إلى إخطاره أى تفسير لتَصَرُّفه وهو مُخالف ليس فقط للإستراتيجية المتَّفق عليها - لكنه أيضاً «بعُمق الاحتلال» - شاملاً لكل الهَضَبَة - مُؤَثِّرٌ على الإستراتيجية العليا لإسرائيل (في الشام).».

وكَتَبَ الجنرال «ليور» - مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء - مُتَأمِّلاً: «إن تصرفات ديان لا تحتاج هذه اللحظة في تفسيرها إلى تحليل سياسى أو عسكرى، وإنما تحتاج إلى تحليل نفسى!»

□

وكان رَدُّ فعل الاتحاد السوفيتى في البداية كما تَوَقَّع الكل - لكن النهاية جاءت مُخالِفة للتَوَقُّعات!

فما بدأ «رَعداً» انتهى «هَمساً»!

صباح يوم الجمعة - ٩ يونيو - وقبل أن تتاكد شائعات تَرَدَّدَت عن تحركات إسرائيلية في اتجاه الجولان - قال السفير السوفيتى في إسرائيل «ديمترى شوفاكين» لنظيره الألمانى السفير «رولف باولس» (حسب تقرير من تل أبيب ضمن وثائق الخارجية الأمريكية برقم ١٢١٨/٠٠٧٧٧٨):

«... بعد ما حَدَثَ على الجبهة المصرية والجبهة الأردنية فإننى خائف من أن الإسرائيليين قد أصبحوا سكارى بنجاحهم إلى حَدٍّ يثير القلق على المستقبل. وإذا تَحَرَّكوا خطوة واحدة بعد الآن فإننى أخشى أن مُستقبل هذا البلد (إسرائيل) سوف يكون مستقبلا حزيناً.»

ولسببٍ ما (يمكن تَصَوُّره) فإن نُسخة من هذه البرقية محفوظة في الوثائق الإسرائيلية.

وفي الوثائق الإسرائيلية بعد ذلك (وأيضاً في مكتبة الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» - الصندوق رقم ١٩ - الملف رقم ٧ - وعلى أوراق مجلس الأمن القومى الأمريكى بتاريخ ١٠ يونيو) - مجموعة من المراسلات الهامة تَرسِم صورة للحوار الذى دار على القمة الدولية في تلك الساعات الحرجة:

□ رسالة من رئيس الوزراء السوفيتى «أليكسى كوسيجين» إلى الرئيس الأمريكى تقول: «إن معلوماتنا تَدُل على أن القوات الإسرائيلية بعد فراغها من العمليات العدوانية التى قامت بها ضدَّ مصر والأردن - تشن الآن هجوماً على سوريا. وهو هجوم يبدو أنه مُوَجَّه إلى العاصمة السورية دمشق. وتستطيعون التاكد من أن الاتحاد السوفيتى لن يقف ساكتاً إزاء ما يجرى في سوريا. كما أنه لن يقبل استمراره ولا أى نتائج تَتَرَتَّب عليه».

□ ويظهر رَدٌّ من الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» مُوَجَّه إلى «أليكسى كوسيجين» يجىء في نصه: «لقد بدأنا بالفعل في اتخاذ إجراءات لتهدئة تَوَتُّر نَظُنُّ أن الأخبار المتوافرة بشأنه لديكم مُبالغٌ فيها».

□ ويُجيب «كوسيجين» بسرعة: «إننا نعتقد اعتقادا جازماً أننا أمام موقف تفرض علينا الحقائق فيه أن نَتصَرَّف. وإذا لم تَتَوَقَّف الأعمال العُدوانية في سوريا فوراً فإن الاتحاد السوفيتى سوف يَتَدَخَّل مُنفرداً لوقف العُدوان الإسرائيلى - لكننا حتى هذه اللحظة نُفَضِّل أن يتوقف العَمَل الإسرائيلى بجهد مُشترك».

□ وتَظهَر في الوثائق الإسرائيلية بعد ذلك مذكرة عن حديث جرى بين المتحدث الرسمى للجيش الإسرائيلى وبين الملحق العسكرى الأمريكى في تل أبيب. وفيها يقول الضابط الإسرائيلى (برُتبَة جنرال) «أن الأسطول السوفيتى في البحر الأبيض يَتَّجِه إلى شرق البحر باقصى سرعة، وقد مَرَّت بعض وحداته قبل ساعات أمام جزيرة كريت».

ويتساءل المتحدث الرسمى الإسرائيلى: «هل تكون تلك مُقَدِّمة لعمليات إنزال سوفيتية على شواطئ إسرائيل وقرب حيفا بالذات؟!»

ويَطول الحوار على القمة الدولية، وقُرب نهايته تُكشف الوثائق الإسرائيلية أن مشهد الختام فيه جرى عندما وَصلَت شائعات الإنزال السوفيتى قُرب حيفا إلى المكتب البيضاوى في البيت الأبيض، وقرأ الرئيس الأمريكى

إن الجنـــــرالات اســـــتولوا علـى «الســـياســـة» فى نفــس اللحظـــة التى اســـتولوا فيهـــا على «الحـــــرب»... وتصــرفوا كمــا شـــاءوا دون تفـــرقة «ضـــرورية» بين الســـياسة والحـــــرب. والقتــــــال

«ليندون جونسون» ما تلقاه منها والتفت إلى وزير دفاعه «روبرت ماكنمارا» وكان يجلس أمامه وسأله: «أين الأسطول الأمريكي السادس (فى البحر الأبيض)؟» - ورَدَّ «ماكنمارا» بأنه وفق آخر معلومات لديه فإن القوة الضاربة لهذا الأسطول ابتعدت قدر ما هو ممكن عن منطقة العمليات «حتى لا نُتَّهَم بالمساعدة فى «شيء» قامت به القوات الإسرائيلية على الجبهة المصرية أو على غيرها»!

ورَدَّ «جونسون»: «أعط الأمر للأسطول السادس بأن يعود بأقصى سرعة إلى شرق البحر الأبيض». وسأله «ماكنمارا»: «وهل نُخطِر السوفييت؟» وقال «جونسون»: «لا داعي لإخطارهم بشيء. دَعهُم يعرفون من الإشارات الملتَقطة أن الأسطول السادس عائدٌ إلى منطقة العمليات، ولا بأس أن يعرفوا أنه مُتَّجِهٌ إلى حيفا».

وتَوَقَّفت لَهجة الحوار على القمة الدولية - وراحت الأزمة تَمشى من اتجاه «التصاعُد» إلى اتجاه «التنازل»! ■



٩ اعـــــتــــــراف

■ ■ إن الإمبراطوريتين الأعظم فى ذلك العصر - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى - تَحاورتا بلُغة التهديد فى مناخ أزمة دولية خطرة، لكن كلتيهما - عن فهم لحدود القوة - تَوَقَّفت قبل أن يتجاوز الحَد ويفلت الزمام.

وفى نفس الوقت فإن دولة صغيرة - بمعايير الإمبراطوريات - لم تعرف حدود القوة، وتجاوزت، وتركت الزمام يَنفَلِت.

والمزعج أنها فعلت ذلك بدون تَصميم مُسبق، وعن غير عَمد مقصود، وإنما هو تَفَوُّقٌ فى السلاح أغرى وأغوى بالخروج عن السياق، وعلى النص!

وفى تقييم للمعارك كتبه رئيس أركان الحرب «إسحاق رابين» تُقدِّم الوثائق الإسرائيلية مذكرة كتبها «رابين» ونقلها عنه كتاب «التاريخ الرسمى لحرب الأيام الستة»:

«إن مسار المعارك فى حرب الأيام الستة لم تُقَرِّره الأهداف السياسية المقَرَّرة، وإنما قَرَّره «المنطق الداخلى» لتَطَوُّر الحوادث».

وبالطبع فإن «المنطق الداخلى» لتَطَوُّر الحوادث هو بذاته تأثير «نَشوة النجاح» فى تَفَوُّق السلاح، ومن الصَعب تَصَوُّر وجود مُؤَثِّر آخر.

ويُسَجِّل الجنرال «دافيد إليعازر» قائد الجبهة الشمالية فى تقريره:

«لم تكن هناك عمليات عسكرية مُقَرَّرة فى الخطة لهجوم على سوريا. ولم تكن هناك فوق ذلك ضرورة لمثل ذلك الهجوم».

والحاصل أن ضغوط النجاح على كل الجبهات حَرَّضَت «موشى ديان» على تَجاوُز الخطة وتَجاوُز الضرورة، وإطلاق العنان للسلاح مادام هذا السلاح قادِرًا على أن يذهب إلى بعيد!»

□

ويَستَحِق التَوَقُّف والاهتمام أن الجنرال «موشى ديان» راجَعَ نفسه وانتقد تصرفاته عندما أخذته النشوة بتَفَوُّق السلاح سنة ١٩٦٧ خصوصاً فيما يتعلق بسوريا. وفى الوثائق الإسرائيلية شرائط مُسَجَّلة بصوته فى حضور ابنته (عضوة الكنيست الحالية) «يائيل ديان».

قال الجنرال «ديان» ضمن «وثائق التاريخ الشفوى المسَجَّل» بصوته، ورَداً على سؤال وُجِّه إليه (وجزءٌ مما قاله نشرته جريدة «يديعوت أهارونوت» بعد وفاته (سنة ١٩٨١) ما نصه:

«إن الهجوم على سوريا واحتلال الجولان كان الخطأ الكبير الذى أتَحَمَّل مسئوليته فى إدارة حرب الأيام الستة. كان ذلك خطأ كبيراً من وجهة نظر الإستراتيجية العليا لإسرائيل».

وطُرِحَ عليه فى التسجيل سؤال: «ولكن ألم تكن سوريا هى مَصدَر الإزعاج فى الحوادث التى سبقت يونيو ١٩٦٧ - بل وكان التَوَتُّر على حدودها هو الذى قاد إلى الحرب؟»

وقاطَعَ «ديان» السؤال كما هو ظاهر فى التسجيل قائلاً:

«كل ذلك كلام فارغ. كنا نحن الذين نصنع هذه الحوادث على الجبهة الشمالية. ثمانين فى المائة منها على الأقل كانت من صُنعِنا لاستفزاز السوريين!

كان دخولنا إلى سوريا خطأ، وأعتَرِف بذلك الآن بعد أكثر من عشرين سنة».

ويستحق الإشارة هنا أن «ديان» لم يكن وحده هو الذى اعترف بالخطأ، وإن كان اعترافه هو الأهم، ربما لأنه كان أشد «السكارى بنشوة النجاح بتَفَوُّق السلاح سنة ١٩٦٧».

ففى وثائق التاريخ الشفوى المسَجَّل يقول الجنرال «أوزى ناركيس» قائد الجبهة الوُسطى:

«لا أعرف لماذا قبلت تعليمات «ديان» بدخول الضفة الغربية للأردن؟ لكننا جميعاً كنا طائرين مع السَحاب لا تُلامِس أقدامنا سطح الأرض!

إننى كنت أعرف أن الحكومة لم تُقَرِّر أية عمليات على الجبهة الأردنية إلا فى إطارٍ مَحدود جداً وفى ظروف «مُعَيَّنة» و«مُقَيَّدة»!

إن الحكومة كانت شديدة الحرص على الأمر الواقع مع الأردن status quo كما هو منذ هُدنة سنة ١٩٤٩.

وفوق ذلك فإن معلومات المخابرات العسكرية أمامنا كانت تُؤَكِّد بما لا يَدع مجالاً للشك إن الجيش الأردنى لن يُشارك فى أية عمليات عسكرية.

وحتى فى مجال التخطيط العملى فإننى وَجَدتُ أن رئيس الأركان (إسحاق رابين) يَسحَب لواء الدبابات الذى كان تحت إمرة قيادة المنطقة الوُسطى، وقد رَجَوتُه أن يتركه تحت تَصَرُّفى تَحَسُّباً للطوارئ - ورَدَّ علىَ الجنرال «رابين» قائلاً: «أوزى .. إنك لن تحتاج إلى هذه الدبابات، ونحن نحتاج إليها أكثر فى سيناء، وتركها عندك هنا معناه إبقاؤها مُعَطَّلة طول الحرب، وذلك «إهدارٌ» لا مُبَرِّر له»!

لكن ذلك كله تَغَيَّر فجاة يوم ٧ يونيو حين عرفنا من الإشارات، ومن التحركات أيضا، أن الجيش الأردنى يقوم بإخلاء الضفة الغربية، وحينئذ فإن إغراء الأرض المفتوحة جعلنا نَتَقَدَّم ونُطيع «ديان» حين قال لنا: هَيَّا بنا!»

□

وهكذا فإن جنرالات إسرائيل الذين انتزعوا سُلطة القرار السياسى وتَصَرَّفوا بمنطق السلاح وحده، واندفعوا وراء تَفَوُّقه إلى حيث قادهم بخَمْرِ النجاح (كما قال السفير السوفيتى فى تل أبيب) - أو تَصَرَّفوا خارج إطار الخطة (كما اعترف الجنرال «إليعازار» قائد الجبهة الشمالية) - أو تَصَرَّفوا بالخطأ فى حق الإستراتيجية العُليا للدولة (كما اعترف «موشى ديان» وزير الدفاع) - أو تَصَرَّفوا «بالمنطِق الداخلى» لسَيْر المعارك (كما قال «إسحاق رابين» رئيس الأركان) - أو تَصَرَّفوا طائرين مع السحاب (كما قال الجنرال «ناركيس» قائد الجبهة الوُسطى) - وهكذا فإن أهم ما فعلوه سنة ١٩٦٧ - إنهم حققوا ما لاحَظه وتَحَسَّب له «ليفى أشكول» رئيس الوزراء الإسرائيلى (وسَجَّلَ عنه مدير مكتبه العسكرى الجنرال «إسرائيل ليور») ومُؤَدَّاه: «أن هؤلاء الجنرالات يريدون لإسرائيل أن تعيش بالسَيْف وحده، وأن تعيش على السَيْف وحده إلى آخر العُمر»!

كان هذا ما تَوَقَّعَه «ليفى أشكول» (يوم ٢٩ مايو ١٩٦٧) ومن قبل أن تنطلق رصاصة واحدة فى الحرب - وما زال هو بالضبط ما يَحدُث حتى الآن (سنة ٢٠٠١).

لقد انتزع الجنرالات بالفعل سُلطة القرار السياسى ونَزَلوا بالإستراتيجية العليا لمشروع الدولة اليهودية إلى «مستوى السلاح» - ثم إن «السياسة حَصَرَت نفسها فى «ميدان القتال»!

وحين أصبح على إسرائيل أن «تعيش بالسَيْف، وبالسَيْف وحده» - على حَدِّ تعبير «أشكول» - فإن مُؤدى ذلك بالدِقَّة أن السلاح الإسرائيلى يُحرز النجاح - لكن السلاح الإسرائيلى لا يُنجِز النصر لأن النصر ليس مُعلَّقاً بنجاح السلاح وحده - وإنما النصر مُعَلَّق بتحقيق أهداف إستراتيجية عُليا للدولة اليهودية كان عليها دائما أن تَتَذَكَّر وتحت كل الظروف مُعادَلة الجنرال «ياريف»:

«إنه الصيد بالشَبَكة (خفيفة لَيِّنة) فى الشام - لا تَجرَح ولا تُقتُل.

وإنه الصيد بالرُمح المقذوف (harpoon صَلبٌ وبارد) فى سيناء - يَجرَح ويَقتُل إذا اقتضى الأمر». ■



١٠ أســـــــئـــلــة

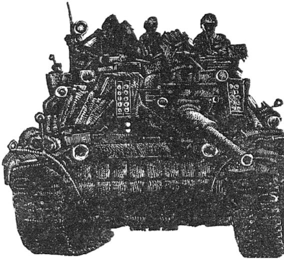
■ ■ عندما طاحَ السلاح مُنتَشِياً بخَمْر النجاح ضِدَّ مصر فى سيناء فقد كان ذلك مفهوماً - ومعقولاً من وجهة نظر الإستراتيجية العُليا للدولة الإسرائيلية.

لكنه عندما طاحَ السلاح ماخوذاً بجنون النجاح ضِدَّ الأردن فى الضفة الغربية - وضِدَّ سوريا فى هضبة الجولان - فقد بان ذلك تَجاوُزاً إلى دَرَجَة العُدوان على الإستراتيجية العُليا للدولة اليهودية.

وكان التجاوز مَحسوساً فى دوائر صُنع القرار الإسرائيلى - على المستوى السياسى - منذ اللحظة الأولى.

والحقيقة أنه كان هناك نوعٌ من الانبهار مَصحوب بالخوف من النتائج التى حققها السلاح الإسرائيلى - ولم تكن بعض هذه النتائج ضرورية ولا كانت وقتها مطلوبة!

وفى يومى ١٠ و١١ يونيو سنة ١٩٦٧ - وقد انكشف الغبار والدخان من ميادين القتال



ـ كان أول ما قاله رئيس الوزراء «ليفى أشكول» لمدير مكتبه العسكرى الجنرال «إسرائيل ليور»:

«لدينا إمبراطورية لم نحلم بها ولم نُخَطِّط لها، ولا كنا نريدها ـ ولست أعرف ما الذى نفعله بها ـ لكن الشعب اليهودى فى كل مكان يحق له أن يَفرَح بسلاحه!»

ثم شارك رئيس الوزراء فى عدَّة اجتماعات لمجلس الوزراء وللجنة الأمن والدفاع التابعة للمجلس، ولجنة الأمن والدفاع التابعة للكنيست ـ وفى كل هذه الاجتماعات كانت حَيْرة رئيس الوزراء الإسرائيلى تزيد وتُفسِد عليه إحساسه بالفرحة.

لكن الشكوك ما لبثت أن عاوَدَت الجميع، فقد كانت لدى «ليفى أشكول» ولدى غيره من كبار الوزراء أسئلة يريدون توجيهها للعسكريين. وفى اجتماع لمجلس الوزراء يوم الأحد ١١ يونيو، وهو أول اجتماع كامل ورسمى يعقده المجلس ـ كان المناخ احتفاليا إلى أقصى دَرَجة. ومع ذلك لم يتمالك رئيس الوزراء نفسه من أن يسأل «ديان» (الذى دَخَلَ إلى قاعة الاجتماع «مُختالاً» نافشاً ريش «عشرة طواويس» ـ كما لاحظ وزير الخارجية «آبا إيبان»!) ـ عن السبب الذى من أجله غَيَّرَ رأيه فاحتل الجولان فى الدقيقة الأخيرة قبل وقف إطلاق النار؟»

وكان رَدُّ «ديان»:

«لم أشأ أن أترك السوريين فوق الهضبة بعد انتهاء المعارك يَتَصَوَّرون أنهم انتصروا لأنهم خرجوا من الحرب سالمين. لو بقوا ومعهم فرصة للادِّعاء بالنصر ـ «لفَلْقوا» رؤوسنا بدعاياتهم ولصَدَّقوا أنفسهم وخَلَقوا لنا كثيراً مَن المشاكل فى المستقبل!»

وتَدَخَّل الوزير «إسرائيل جاليلى» بما معناه «ربما كان السوريون يستحقون ما جرى لهم ـ لكن الملِك حسين لم يكن يستحق».

وكان رَدُّ «ديان» بما معناه «أن انسحاب الجيش الأردنى من الضفة الغربية خَلَق فراغاً فى هذه «المناطق» كان يمكن أن يؤدى إلى مشاكل كبيرة ـ وعلى أى حال فإن فى مقدورنا فيما بعد أن نَتَفاوَض مع الملك حسين على خطوط جديدة تُعطى عُمقاً أكبر للدولة (إسرائيل) خصوصاً فى «خاصرتها» (المنطقة الوُسطى)».

وعادَ «أشكول» يلح:

«إننا حَوَّلنا كل العرب إلى أعداء لنا ـ جعلنا منهم جميعاً جبهة واحدة ضِدَّنا ـ هذا ما أخشاه».

وفى هذا الموضع من المناقشات الدائرة ـ وَرَدَ قول «رابين» المأثور والذى تَكَرَّرَ أكثر من مَرَّة:

«إن ما تَحَقَّق لإسرائيل شىء عظيم ـ ولكنى أشعر بالحُزن فى لحظة الفَرَح التى نعيشها لأنى أفهم أنه سوف يكون علينا ـ وأقرب مما نَظُنُّ ـ أن نُعيد هذه الأرض التى احتلها السلاح الإسرائيلى إلى أصحابها ـ كلها ـ أو معظمها»!

□

كانت المخاوف لدى العارفين بالظروف فى مجلس الوزراء وفى الكنيست، وحتى بين بعض الضباط فى جيش الدفاع ـ تَتَرَكَّز فى عِدَّة نقط:

١ ـ أنه إذا كانت مطالب الإستراتيجية العُليا للدولة تَفرض فك الاشتباك المسلح فى المنطقة المحيطة مباشرة بإسرائيل (أى مع الأردن ومع سوريا ـ الشام) ـ فإن هناك «واقع» أن بعض الأراضى فى هذه المنطقة وقد خَضَعَت الآن لسُلطة إسرائيلية سوف تكون نداء لا يُقاوم بالنسبة للحركة الاستيطانية، وذلك يُعَرقل أى تسوية فى هذه المنطقة.

والملاحَظ أن بعض المناطق الأشد تَعَرُّضاً للنشاط الاستيطانى (والمؤدية بالتالى إلى عَرقَلَة التسوية) جرت الإشارة إليها مبكراً:

● هضبة الجولان بخصوبة أراضيها واعتدال مناخها سوف تكون هَدَفاً مُؤكَّداً للاستيطان إذا طالت فترة احتلالها عن سنة واحدة. والقلق ـ فى ذلك الوقت ـ أنه إذا انفتحت هضبة الجولان لاستيطان كثيف فإنه سوف يكون من «المهام بالغة الصعوبة» إقناع المستوطنين بترك الهضبة لأصحابها مع العلم أن الهضبة مُرتَبِطة بما حولها فى سوريا ارتباطا يَصعُب تغيير طبيعته بغير جراحات مستمرة.

● كانت هناك أيضاً إشارات إلى منطقة الخليل، وكان الخوف هنا من أن الأحزاب الدينية إذا وَصلَت إلى الخليل أو إلى مشارفها فسوف يستحيل إخراجها إلا بمعركة لا تقبل الدولة أن تخوضها «يهودى ضِدَّ يهودى» ـ وبالتالى فإن أية تسوية مع الملِك «حسين» سوف تَتَعَثَّر.

● وكانت مدينة القدس بكاملها كُتلة حَرِجَة اختلطت فيها الاجتهادات والأفكار، وحسب تعبير «إسرائيل جاليلى» فإن أحداً لا يمكن أن يكون له تَحَفُّظ على استيلاء الجيش الإسرائيلى على كل القدس. لكن ذلك سوف يَضَع الدولة أمام قرار مُستَحيل: لأنها تَعرف من ناحية أن استمرار استيلائها على عُموم القدس سوف يظل عنصر إثارة وتعبئة فى فلسطين وحولها عربياً وإسلامياً ومسيحياً ـ ودولياً ـ ومن ناحية أخرى فإنه سوف يكون من الصعب على أى سياسى إسرائيلى يطلب الفوز فى أى انتخابات فى دولة إسرائيل أن يَضَع توقيعه على قرار يُعيد ما استولى عليه الجيش الإسرائيلى من القدس إلى أصحابه. ومَعنى ذلك أن «القدس» تظل دائماً حائلاً دون التسوية ـ حقل ألغام لا يعرف سِرَّ خريطته أحد!

● ومبكراً جداً فقد ظَهَرَ رأىٌ فى وزارة الخارجية الإسرائيلية يُلِحُّ عليه وزيرها «آبا إيبان» نفسه ـ وهو يرى بضرورة الإسراع بالاتصال بالملك «حسين» وفتح باب التفاوض معه «قبل أن تَتَجَمَّد الأوضاع فى القدس». وتقدير «آبا إيبان» أنه «إذا أمكن التوصُّل إلى اتفاق سريع مع الملك «حسين» وظَهَر أن الأردن على استعداد لأن يكون أول دولة عربية حول إسرائيل تَقبَل بتوقيع مُعاهدة صُلح معها فى مقابل استعادة أراضيها ـ فإن الرأى العام الإسرائيلى سيكون ما زال فى حالة سيولة يَقبَل معها انسحاب الجيش الإسرائيلى من «مُعظم» الضفة الغربية ـ بما فيها القدس الشرقية باستثناء حائط المبكى ـ لأنه أثناء حالة السيولة فقد يُمكن إقناع الرأى العام بأن السلاح تَمَكَّن من تحقيق السلام أو جزءٍ منه!»

□

ولكن سيناء كانت هى السؤال الكبير الملح فى طلب قرار «عاجل» و«إستراتيجى» من القيادة السياسية الإسرائيلية، وقد عَبَّرَ عن هذا السؤال «ليفى أشكول» (طبقاً لمحاضر مجلس الوزراء) بقوله: «ماذا نفعل بكل سيناء؟ احتلال شبه الجزيرة كله كان خارج خُطتنا. خطتنا كلها كانت فى الوَسَط والشرق. بالدَرَجة الأولى مَضيق تيران «لكسر قبضة ناصر» عن خليج العَقَبة، وهذا يأخذنا إلى «شرم الشيخ» وليس بعدها».

ودارت مناقشات مثيرة حول سيناء فى مجلس الوزراء (وفى غيره من مراكز صُنع القرار فى إسرائيل) ولم يكن هناك حَسم!

وفى جلسة لمجلس الوزراء المصَغَّر يوم الاثنين عادَ موضوع سيناء يَطرَح نفسه، وعاد «ليفى أشكول» إلى سؤاله: «ماذا نفعل بكل سيناء؟» ـ وكان «أشكول» ما زال مأخوذاً بهواجسه:

« ـ أنه لم تكن لدى إسرائيل خطة لاحتلال كل سيناء.

ـ وأن الاحتفاظ بها عِبء ثقيل من الناحية العسكرية.

ـ وأن ذلك سوف يعكس نفسه على التكاليف الاقتصادية اللازمة لاستمرار الاحتلال.

ـ ثم إن لذلك كله أثره النفسى داخل المجتمع الإسرائيلى.

ـ وأخيراً فهو يخشى أن يكون استمرار احتلال كل سيناء حافزاً على استمرار المقاومة المصرية من حيث إنه استفزاز لكرامة الشعب المصرى ـ حتى فى حالة «سقوط ناصر» ومجىء غيره. «وتقديرى أنه ساعتها لن يكون فى إمكاننا التنازل ببساطة عن سيناء لبديل آخر يَحِل مَحل «ناصر». ومن ناحية هذا البديل فإنه «لن يستطيع توفير أى قدرٍ من المصداقية لنفسه إلا إذا بدأ يُطالب ويَعمَل على إخراجنا من كل سيناء».

وتَدَخَّل أحد الوزراء (وهو فى الغالب «ييجال آللون» أو «آبا إيبان») ليقول «أن ذلك ما حَدَث مع ناصر نفسه حين أقام نظامه بعد الثورة على فاروق ـ فقد كان عليه قبل كل شىء أن يُواجِه الاحتلال البريطانى فى قاعدة قناة السويس!»

وفى هذا الموضع من الجلسة جرى استعراض الأخبار القادمة من القاهرة.

وفى البداية كان هناك استغراب من المظاهرات المؤيِّدة لـ«ناصر» فى كل عواصم العالم العربى، وهى مُظاهرات فَرَضَت عليه أن يعود إلى «السُلطة» بعد أن استقال وخَرَج.

وانقسمت الآراء فى تحليل ما جرى ورَدِّه إلى أسبابه:

□ رأى يقول أن النجاح الإسرائيلى غير المسبوق كان مفاجأة انقضت على العالم العربى، ولم يَعُد لأحد إزاءها غير أن يَتَمَسَّك «بما يعرف» و«بمن يعرف» ـ ولكن ذلك رَدُّ فِعل غريزى سوف تَعقُبُه إعادة تفكير.

□ ورأىٌ ثانٍ يظُن أن «الرأى العام العربى تَصَرَّف بعواطفه دون معرفة حقيقية بحجم خُسارة الجيوش العربية فى المعارك، وأنه عندما يَظهَر الحجم الحقيقى للخسائر فإن الرأى العام العربى سوف تكون له كلمة أخرى».

□ ورأىٌ ثالث يرى أن رَفضَ الخضوع للأمر الواقعِ فى الشوارع العربية ـ هَبَّة سوف تَتَبَدَّد بعد أيام لأن هناك حالة فَوَران وانقلابات خطيرة قادمة فى كل البلدان العربية لعدة أسباب:

ـ الشيوخ العرب سوف يكونون فى وضع أقوى من الثوار العرب.

ـ والمدن العربية سوف يكون عليها أن تتراجع أمام القبائل العربية.

ـ وفى مصر فإن فلول القوات العائدة من سيناء سوف تُهَدِّد السُلطة، وقد تستولى عليها.

ـ وفى سوريا فإن الصدامات سوف تَنفجِر بين أجنحة حزب البعث المتعارضة خصوصاً فى الجيش.

ـ وحتى فى الأردن فإن جناحاً هاشمياً وعشائرياً له حضوره فى

بالنســـــبة لإســـــرائيل، كانت معركة ٦٧ هى نجــــاح الجنــرالات فى القتـــال ضـد العــرب دون «انتصــار». وانتصارهم فى السياســة الداخليــة لإســرائيل دون «نجـــــاح». علـى الأقـــل حـــتى هـــذه اللحظـــة من بـداية ٢٠٠١

عَمّان (ولىُّ العَهد الأمير «الحسن»؟) سوف يلوم الملك «حسين» على مغامرته بالسفر إلى القاهرة قبل نشوب الحرب «بساعات» وهو يعرف أنه مُقبل على مُخاطرة!

□ ثم كان هناك رأىٌ أخير وقد عَبَّرَت عنه تقارير عَدَدٍ من السفراء الإسرائيليين فى أوروبا - وسَاندهم جناحٌ مُهِمٌ من أجنحة المخابرات العسكرية (وضمنه الجنرال «أهارون ياريف» نفسه) وكان تَقدير هؤلاء: أن «ناصر» لديه من الشعبية ما يجعل عودته إلى الحكم بضغط من جماهير واسعة فى مصر وفى العالم العَربى نقطة تَحَوُّل يُحسَبَ حسابها لأنها تُمَثِّل شعوراً طاغياً فى العالم العربى يَعتَقد «أن النتيجة التى انتهت إليها المعارك العَسكرية هى مُحَصِّلة أخطاء أكثر منها نتيجة موازين قوة حقيقية بين العَرَب وإسرائيل. وأن ذلك الاعتقاد حتى وإن لم يكن لديه منطق عقلانى متكامل يسنده، إلا أن الشعور به حقيقة سياسية سوف تفرض نفسها على الصراع فى الشرق الأوسط، خصوصاً إذا استطاع «ناصر» أن «يَتَعامَل» بحزم مع عناصر فى القوات المسلحة (يقصد المشير «عبد الحكيم عامر») تُبدى شكلاً من أشكال الخروج على سُلطته - فإن الرأى العام العربى تحت قيادته سوف يدفع نحو تعبئة شاملة لتصحيح «الخطأ» الذى يعتقد أنه وَقَعَ عندما نَجَحَ الجيش الإسرائيلى فى تحقيق نتائج تبدو زائدة عن كل ما تُحَقِّقه موازين القوة بين العَرَب وبين إسرائيل». ■



١١ تحـــــــــــولات

■ وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - فى واشنطن - على اتصال بكل هذه المناقشات الدائرة فى تل أبيب. وعلى نحو ما ولأسباب مُتعَدِّدة فإن النجاح الإسرائيلى جرى اعتباره فى واشنطن نجاحاً فى ذات الوقت للسياسة الأمريكية فى عِدَّة جبهات:

أولها - جبهة فيتنام، وعليها فقد اعتبر تَفَوُّق السلاح الإسرائيلى نقطة بالزيادة لصالح السلاح الأمريكى فى فيتنام تشير إلى إمكانيَّة انتصاره فى تلك المعركة على مصير الهند الصينية كلها (فيتنام وكمبوديا ولاوس).

وثانيها - جبهة الحزب الديمقراطى، وعليها فقد تَخَلَّى الرئيس «ليندون جونسون» عن الحَذر التقليدى الذى يَلزمه الجمهوريون عادة إزاء الشرق الأوسط حرصاً على المصالح البترولية وغيرها من المزايا الاقتصادية الواسعة فى العالم العربى - واختار إسرائيل حَليفاً إستراتيجياً وشريكاً سياسياً رئيسياً فى المنطقة.

وثالثها - جبهة البنتاجون (أو على الأقل فى جزء منها) وعليها فقد انبهر العسكريون الأمريكيون بما بدا لهم من كفاءة الأداء الإسرائيلى، وظنوا أنه فى الإمكان الاستفادة منها فى الحصول على معلومات كافية عن أسرار وخصائص السلاح السوفيتى الذى وَقَع الكثير من مُعدَّاته فى يَدِ إسرائيل سواء فى سيناء أو فى الجولان. وكان ظن هؤلاء العسكريين أن هذه المعلومات مُهِمَّة لكفاءة الجهد العسكرى فى فيتنام - ثم إن الهالة التى أحاطت بالجيش الإسرائيلى الآن تجعل القرب منه بالصداقة إضافة مطلوبة يَنعَكس جزء من وَهَجها على القوات الأمريكية المتَّهَمة بالعجز فى فيتنام.

ورابعها - جبهة جماعات الضغط اليهودى فى واشنطن، وعليها فقد تَوَلَّد إحساسٌ قوى بأن نجاح السلاح الإسرائيلى حَوَّلَ إسرائيل من «عميل أمريكى» إلى «شريك أمريكى»، وإذا كان ذلك فإن الطالبين باسم إسرائيل ليس عليهم بعد الآن أن «يَستَجدوا» وإنما لهم الحق الآن أن «يُشيروا» وتكون الاستجابة رَدَّ الإشارة!

وخامسها - وهذه هى الجبهة الأهم - وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وإدارة العمليات الخاصة فيها والتى يديرها «جيمس إنجلتون»، وعليها فقد تأكد الآن أنه من الممكن والضرورى إقامة علاقة تَعاون وثيق وكامل بين الوكالة فى واشنطن وبين «الموساد» فى تل أبيب، وكان مدير الوكالة «ريتشارد هيلمز» قد انتقل من معسكر المعتدلين فى وكالته إلى معسكر المغامرين وأصبح مُؤيِّداً «لخُطط وأعمال جريئة» aggressive فى الشرق الأوسط ليس عليها أن تَلتَزِم بالمحاذير التقليدية!

□

كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تُقَدِّر - وذلك ظاهر فى الوثائق الإسرائيلية - أن موقف الرأى العام العربى إزاء استقالة «ناصر» استجابة عاطفية أكثر من أى شىء آخر - لكن هذه الاستجابة العاطفية يمكن أن تكون جسراً يستعمله «ناصر» لتقوية مركزه واجتياز أزمته، وخلق حقائق أخرى فى المنطقة تستعيد ما فات وتَستَرجِع ما ضاع - أو بعضه - ثم تشكل تَحَدِّياً مُتَجَدِّداً مرة أخرى لإسرائيل وللولايات المتحدة التى أظهَرَت مشاعرها ونواياها الحقيقية على مرأى ومَسمَع من العرب جميعاً (رغم حرصها الظاهر على بعضهم)!

لكن ذلك حسب الرأى النافذ الآن فى الوكالة كان حالة يمكن مقاومتها.

ومن المسائل التى تستحق الاهتمام أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبالتعاون الوثيق مع «الموساد» الإسرائيلى (الذى يرأسه الجنرال «مائير آميت») ومع هيئة «آمان» (المخابرات العسكرية الإسرائيلية التى يرأسها الجنرال «أهارون ياريف») - سارَعَت إلى وضع خطة طوارئ عاجلة «لمنع تماسك الموقف العربى وعودة «ناصر» للقيادة والسيطرة على الرأى العام العربى».

وكان تقدير الطرفين أن عودة «الوضع» العربى إلى نوعٍ من التماسك يَصنَع آثاراً خطيرة بينها:

١ - أن ذلك «الوضع» سوف يُمَكِّن «ناصر» من إعادة تنظيم وبناء قوة عسكرية عربية يُمكنها أن تُقاتِل مُستفيدة من دروس «يونيو الأخير».

٢ - أنه إذا حَدَث وظهَرَت علامات تَقَدُّم فى إعادة بناء قوة عسكرية عربية فإن ذلك سوف يُعيد الأمَل ويُعطِى للرأى العام العربى قوة تأثير نشيط ومُستَمر.

٣ - أن هذا «الوضع» قدَ يشكل ضغوطاً على الأنظمة التقليدية الصديقة للولايات المتحدة فى المنطقة، وقد تَفرِض هذه الضغوط على هذه الأنظمة أن تخرج من «حالة الانتظار والتَرَقُّب» التى التَزَمَتها - إلى حالة أخرى تضطر فيها لأنواع من التأييد والمساعدة، مما يخلق تَجَمُّعاً عربياً من جديد ضدَّ إسرائيل - يَتَناقض بالضرورة مع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

٤ - أن الاتحاد السوفيتى وهو واقع الآن فى مأزق حَرِج فى العالم العربى إزاء اتهامات له بخيانة أصدقائه، أو بالتقصير فى حقهم على الأقل (هكذا تلاحظ الوثائق) - قد يجد نفسه راغباً أو مضطراً إلى إظهار تأييده للعَرَب سواء بمواقف سياسية مُتَشَدِّدة أو بإمدادات من السلاح مُتَجَدِّدة.

وكانت «وَصفة» المخابرات المركزية الأمريكية ومعها «الموساد» و«آمان» هى أنه لعلاج الموقف لابد من مَنع «ناصر» بكل الوسائل من تدعيم «موقفه» ومَنعِه من تحويل عودته إلى السُلطة من «فوَران عاطفى» إلى «حقيقة سياسية».

وكان العُنصُر الرئيسى فى «الوصفة» الأمريكية - الإسرائيلية تكثيف الحرب النفسية لتَعميق الشعور بـ«الهزيمة» و«الإهانة» لدى العَرَب بما يؤدى بنظام «ناصر» إلى التآكل ثم إلى السقوط المؤكَّد، وبالتالى تتلاشى كل المخاوف من أن تَتَحَوَّل حالة «فوَران عاطفى» إلى «حقيقة سياسية» - وعسكرية - مُتَجَدِّدة وخطِرة.

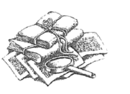
....

....

[وهذه مسالة بالغة الأهمية تستحق العودة إليها فى يوم من الأيام، وساعتها فإن أطناناً من الوثائق سوف تكشف عن «معركة أعصاب» من أخطر ما تَعَرَّضَت له مصر وبقية أمَّتها العربية.] ■

....

....



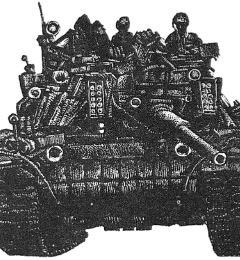
١٢ الخـــــــــــرطـوم

■ ويَستحق التسجيل أن مؤتمر القمة العربى الذى انعقد فى الخرطوم يوم ٣٠ أغسطس ١٩٦٧ - أى بعد عشرة أسابيع من معارك يونيو - كان النقطة التى أدرَكَت عندها المخابرات الأمريكية والإسرائيلية أن «الفوَران العاطفى» العربى يمكن - بقوة الأمر وليس بفَرض الاحتمال - أن يَتَحَوَّل إلى «حقيقة سياسية».

وكان المشهد الأهم فى وقائع الخرطوم (كما تَبَدَّى فى الوثائق والملفات والأوراق) تلك الحَماسة التى استقبلت بها جماهير الشعب السودانى وصول «جمال عبد الناصر» إلى عاصمتها.

كان بين التقديرات الواردة فى حِساب موقف «الشارع المصرى» ليلة ٩ وصباح ١٠ يونيو - أنها حالة «الفوَران العاطفى» وربما «ساعَدها أحد أجهزة ناصر»!

وعلى نفس المنوال كان حِساب رَدِّ فعل «الشارع العربى» فى التوقيت نفسه (٩ و١٠ يونيو).



لكن ما تَبَدَّى فى الخرطوم - وبعد عشرة أسابيع تَكَشَّفت فيها صُوَر ما جرى فى ميدان القتال، وزادت عليها عاصفة حرب نفسية استهدفت تجسيد وترسيخ الإهانة - وَضَعَ الجميع أمام أحوال مُتَغَيِّرة!

والحاصل أن استقبال الخرطوم أكَّدَ فيما رأته الوثائق الإسرائيلية وسَجَّلَته - أن «ناصر» أصبح فعلاً فى الوضع الذى كان يُخشَى منه وهو «أنه عاد إلى قيادة قوة عربية سياسية وعسكرية تَحظى بتأييد واسع داخل العالم العربى وخارجه، الأمر الذى يُمَكِّنه من إعادة تصحيح خطأ تَعتَقِد قطاعات كبيرة من الجماهير - فى مصر وَخارجها - أنه وَقَع فى يونيو سنة ١٩٦٧، وأن هذا الخطأ أتى بنتائج لا يمكن أن تكون مُتَوافقة مع موازين القوة الحقيقية بين العَرَب وإسرائيل، وأن هذه النتائج صَنَعَت خللاً لا يمكن تصحيحه إلا بما وصفه «جمال عبد الناصر» نفسه فى خطاب وُضِع تحت المجهر للدرس والتحليل فى تل أبيب وفى واشنطن - قال فيه: «إن ما أخِذ بالقوة لا يُستَرَدُّ بغيرها»!»

....

....

[وفى وصف زيارة «جمال عبد الناصر» للخرطوم للاشتراك فى مؤتمر القمة اختارت مجلة «نيوزويك» الأمريكية - واسعة الانتشار والنفوذ - أن تضع على غلافها كله صورة لزحام الجماهير السودانية حول الزائر القادم من مصر، واختارت للغلاف عبارة واحدة هى: تحية للمهزوم Hail the conquered بدلاً من التحية التقليدية للمنتَصِر .Hail the conqueror]

....

....

وكان بين النتائج التى لفتت نظر واشنطن أن قرارات مؤتمر القمة فى الخرطوم اشتملت على دعم مالى كبير للدول التى تَعَرَّضت للعدوان الإسرائيلى وهى مصر وسوريا والأردن (وزادت عليها منظمة التحرير الفلسطينية).

وتُظهِر الوثائق الأمريكية - والإسرائيلية نقلاً عنها - أن السودان لعب دَوراً فى هذه القضية عن رغبة من حكومته فى إنجاح مؤتمر القمة الذى استضافته.

ويَذكُر تقرير أمريكى أن رئيس وزراء السودان (محمد أحمد محجوب) ذكر لمبعوث أمريكى (روبرت كومار) زار الخرطوم قبل مؤتمر القمة بأيام - أنه تَوَسَّط بين مصر والسعودية لتسهيل عَمَل المؤتمر. فقد كان الملك «فيصل» يَتَحَسَّب من أنه فى المؤتمر قد يواجِه دعوات بقطع تَدَفُّق البترول عن أصدقاء إسرائيل وأولهم الولايات المتحدة الأمريكية.

وأنه (رئيس وزراء السودان) اتصل بالرئيس «عبد الناصر» ينقل إليه مخاوف الملك «فيصل»، وسمع منه «أن الظروف التى يَمُرُّ بها العالم العربى لا تَحتَمِل أن يقوم طَرَفٌ عربىٌّ فيه بإحراج طَرَفٍ عربىٍّ آخر، لكنه يَتَصَوَّر أن البترول العربى لا بد أن يكون له دَورٌ فى المعركة المقبلة الضرورية لإزالة آثار العدوان».

وكان من خلال هذا الحديث أن دُوَل البترول العربى تَحَوَّلت إلى دُوَل مُساندة لدُوَل المواجهة العربية، ثم جرى اعتماد هذه السياسة على مستوى القمة العربية!

□

وفى أعقاب مؤتمر الخرطوم - تَظهَر مسألة «سيناء» فى الوثائق الإسرائيلية على نحوٍ مُلِحّ.

ذلك أنه بكل ما جرى فى مصر (وأهَمُّه إعادة تماسُك القوات المسلحة) - وبكل ما جرى فى العالم العربى (وأهمه استقبال الخرطوم لـ«جمال عبد الناصر» - وتَحَوُّل دول البترول العربى إلى دُوَل مُساندة لدول المواجهة) - وبكل ما جرى فى العالم (وأهمه تصميم الاتحاد السوفيتى على حِفظ «مركزه» و«دَوره» فى الشرق الأوسط وفى العالم الثالث عموماً) - وبكل ما جرى فى أوروبا (وأهمه موقف الرئيس الفرنسى الجنرال «شارل ديجول») - فقد تَبَدَّى أن الأزمة سوف تطول، وأن الجبهة الخطرة عليها سوف تكون سيناء لأن المواجهة بين الجيش الإسرائيلى والجيش المصرى - وهو أكبر الجيوش العربية - سوف تكون أكثر حضوراً وأكثر قابلية للاشتعال والانفجار على ضَفَّتَى قناة السويس.

وهكذا طلب مجلس الوزراء الإسرائيلى إلى قيادة الأركان أن توافيه برأيها فى «شأن السياسات الواجب إتباعها عسكرياً بخصوص سيناء»!

وطبقاً للتقرير الضافى والوافى (فى ٣٦٧ صفحة زائداً عليها بعضاً من الملحقات) - والذى كتبه الجنرال «إلياهو زائيرا» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية الذى تَسَلَّم عمله فى تلك الظروف - فإن هيئة أركان الجيش الإسرائيلى انقسمت فى الرأى حول سيناء.

وكانت لدى القيادة السياسية الإسرائيلية فكرة سابقة لتَصَوُّر أنه إذا تَمَّ الصَيدُ هادئاً بالشَبَكَة فى الشام، ثم أصيبَت مصر بالرُمح المقذوف جريحة أو أكثر من جريحة - فإن الشام لن يَعود أمامه غير أن يَهتَم بسلامته ويَسكُت. وفى هذه الحالة فإن مصر لا يَعُود لها خيار غير الانسحاب من المشرق، وحينئذ تكون إسرائيل على استعداد لأن تَترُك سيناء - تفادياً لتكاليف احتلالها من ناحية - ولإغراء مصر فى مقابل ذلك بأن تكون أول دولة عربية تُوَقِّع اتفاق صُلح وسلام مع إسرائيل.

لكن القيادة الإسرائيلية بدأت تُدرك أن مثل هذا التَصَوُّر السابق أصبح فى الظروف المستَجَدَّة خارج ما هو مُحتَمَل فى الوقت الحاضر وبالتالى فالبحث فيه لا مجال له. وكذلك فإن التفكير يجب أن يَنصَبَّ على كيفية الاحتفاظ بسيناء وبتكاليف مقبولة: عسكرياً واقتصاديا ونفسياً (وحتى تَتَّضِح الظروف).

وكان أن ذلك البحث أدى إلى انقسامات عميقة يُلَخِّصها الجنرال «إلياهو زائيرا» (صفحة ٨٦ و٨٨ من تقريره) وبنصوصه الأصلية (للترجمة إلى اللغة العربية التى جَرَت فى بيروت وطُبِعَت على الآلة الكاتبة فى نُسَخٍ محدودة هناك) - على النحو التالى:

□ «أولا: المقدمة

١ - لا تُوجَد لدى المستوى السياسى خطط واضحة ومُبَلوَرة فيما يتعلق بمستقبل سيناء.

٢ - الحَدُّ المتَّفق عليه لتَبَلوُر أساس التخطيط هو أنه «لن يَحدُث انسحاب دون اتفاق مع مصر».

□ ثانياً: المشكلة

فى المرحلة الأولى حشد جيش الدفاع الإسرائيلى I. D.F. وحدات مُشاة ومُدَرَّعات على طول القناة بهَدَف السيطرة على الأرض، وأقام نقاطا لمراقبة الضفة الغربية التى يحتفظ بها الجيش المصرى. وقد اعتقد الكثيرون أن المصريين الذين لحقت بهم هزيمة مؤلمة لن يتجرءوا على مهاجمة الجيش الإسرائيلى المنتصر - لكن هذا الاعتقاد تَبَدَّد خلال فترة زمنية قصيرة، فقد بدأت مصر فى عمليات القصف وعمليات الإغارة على المواقع التى لم تكن لها حماية مناسبة من المدفعية. وقد أخَذت الخسائر (الإسرائيلية) تَتَزايَد، ونتيجة لهذا بدأ النقاش على المستوى السياسى وعلى المستوى العسكرى فى هيئة الأركان العامة وفى القيادة الجنوبية بهَدَف تقرير الأسلوب الذى ينبغى إتباعه فى بناء الشَبَكة الدفاعية فى سيناء.

□ ثالثاً: النتيجة

١ - بناء على طلب مجلس الوزراء جَرَت مناقشة المسالة بطريقة مُكثفة خلال الأسبوعين الأخيرين.

٢ - انحصر النقاش فى هيئة الأركان وفى القيادة الجنوبية فى وِجهَتَى نظر:

أ - وجهة نظر ترى أنه يجب انتهاج أسلوب الدفاع الصَلب المستميت على خط المياه (الضفة الشرقية لقناة السويس).

ب - ووجهة نظر ثانية تُفضِّل أسلوب الدفاع المرِن والمتَحَرِّك فى الأرض الواقعة شرق القناة.

وكان الانقسام حاداً بين:

- رئيس هيئة الأركان الجنرال «حاييم بارليف» يُؤَيِّدُه قائد القيادة الجنوبية الجنرال «يشعياهو جافيتس» - وكلاهما يرى التمَسُّك بخط المياه واعتباره أساس الدفاع عن سيناء.

- وأما نائب رئيس هيئة أركان الحرب وهو قائد سلاح المدَرَّعات الجنرال «إسرائيل تال» ويُؤَيِّدُه فى ذلك الجنرال «آرييل شارون» رئيس التدريب والذى يوشك أن يُعَيَّن قائداً للجبهة الجنوبية - فإن كليهما يرى أن أسلوب الدفاع المتَحَرِّك أفضل.

□

وجاء قرار مجلس الوزراء بعد مناقشات طويلة فى صالح التمَسُّك «بخط المياه» وإعتباره خط الدفاع عن سيناء، وتَحَمُّل التكاليف العسكرية والاقتصادية، والعِبء النفسى.

ورغم أن عَدَداً كبيراً من أعضاء المجلس - وبينهم رئيسه «ليفى أشكول» - رأوا أن سياسة الدفاع المتَحَرِّك أفضل من النواحى العسكرية والقتالية - فإن مجلس الوزراء رَجَّح سبباً سياسياً نفسياً على كل الأسباب، ومُجمَل هذا السبب «أن تبقى القوات عامل ضغط وإهانة يومية تَفعَل فِعلها فى مصر - من داخلها ومن خارجها. وذلك ضغط له أثره وسوف يزداد هذا الأثر يوماً بعد يوم حتى يضطر «ناصر» أن يمسك سَمّاعة التليفون ويَتَّصِل بنا قائلا: «إننى جاهز للتوقيع» (حسب تعبير الجنرال «موشى ديان»)!»

□

وكان السلاح الإسرائيلى قد صَنَعَ نجاحاً لاشك فيه - لكن النجاح وحده لا يَصنَع نصراً. ومن الفوارق بين الحالتين:

أن النصر مُهَيَّأ لكى يُسَجِّله التاريخ إلى الأبد..

وأما النجاح فهو مُعَرَّض لأن تنقضه السياسة فى مرحلة تالية - وذلك ما جرى!

محمـــــود عبد الفضيـــل

نحـو تفسـير جـديد
لأزمـة السـيولة والركـود
فى الاقتصاد المصرى

هنـــاك أســـواق وفئـات من المتعـــاملين تعانى من «أزمة ســـيولة خانقـــة»، بينمـــا توجد أقسام وأجزاء فى الاقتصـــاد المصـــرى لديهـــا «فائـض ســـيولة». وذلك يعكــس بدوره «ســـوء توزيع الســـيولة وإدارتهـــا» فى الاقتصـــاد المصـــرى، الأمـــر الـــذى يعتبـــر نتـــاجاً طبيعيـــاً لـ«ســـــوء توزيـــــع الدخـــل والثــــروة» فى المجتمـــع المصـــرى عمـــوماً

امتلأت الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام، خلال الفترة الأخيرة، بكثير من الكتابات والتحليلات حول «أزمة السيولة والركود فى الاقتصاد المصرى». بل أصبحت تلك القضية على رأس جدول أعمال مجلس الوزراء. وبدا للبعض وكأن هذه الأزمة قد ظهرت فجأة على السطح فى حياتنا الاقتصادية، وأنه ليس لها مقدمات ومؤشرات منذ بضعة أعوام!

وواقع الأمر، أن أزمتى «السيولة» و«الركود» أصبحت واضحة بشكل ملموس خلال عامى ١٩٩٨ و١٩٩٩، وطغت على حديث الناس فى الأسواق والمجالس والمنتديات. ويكفى لنا أن نلفت الأنظار إلى عدة مؤشرات تعكس أزمتى «السيولة والركود» خلال العامين الأخيرين، إذ نلاحظ أن:

(١) قيمة الكمبيالات المخصومة قد ارتفعت من ٣٣٢ مليون جنيه عام ١٩٩٦ إلى ٨٥٩ مليون جنيه عام ١٩٩٧، ثم قفزت إلى ١٢٧٠ مليون جنيه عام ١٩٩٨. وذلك يشير إلى ضعف وجفاف السيولة النقدية فى المعاملات التجارية خلال تلك الفترة.

(٢) ارتفع معدل الفائدة فى عمليات الإقراض فيما بين البنوك (Inter-Bank Rate) من ٨,٧٪ فى يونيو ١٩٩٧ إلى ١١٪ فى يناير ١٩٩٩، وهو مؤشر يعكس ضعف السيولة فيما بين وحدات القطاع المصرفى فى مصر.

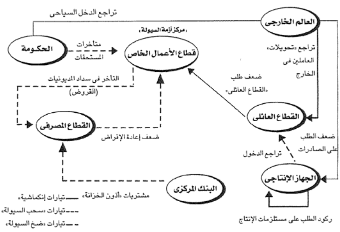
(٣) ارتفاع ظاهرة الشيكات المرتدة: إذ بلغ عدد قضايا جنح إصدار شيكات بدون رصيد مرتدة بدون دفع خلال شهر ديسمبر ١٩٩٩ فقط فى محاكم أسيوط وبورسعيد والإسكندرية ٦٣٢٨٠ جنحة، حيث بلغت قيمة شيكاتها بدون دفع - مرتدة - حوالى ٤٨ مليون جنيه مصرى.

(٤) تراجع حجم الودائع لدى الجهاز المركزى: حيث تراجعت الودائع بالعملة المحلية لدى الجهاز المصرفى بمقدار ١,٧ مليار جنيه خلال شهر ديسمبر ١٩٩٩.

(٥) ارتفاع عدد أحكام الإفلاس التجارى: إذ ارتفعت مديونية التجار المتعثرين إلى ١,٦ مليار جنيه عام ١٩٩٩. وسجلت إجمالى مبالغ «البروتستو» الإفلاس التجارى الصادر بشأنها أحكام إفلاس ارتفاعاً بنسبة ٧٩٪ مقارنة بعام ١٩٩٨.

وتشير نتائج دراسة عينة مكونة من ٦١ من الشركات التى يجرى تداول أوراقها المالية بنشاط فى البورصة إلى انخفاض حجم الإنفاق على السلع المعمرة خلال عام ١٩٩٩ مقارنة بعام ١٩٩٨، حيث سجلت مبيعات عينة الشركات انخفاضاً مقداره ١٠٪، بينما سجل حجم أرباحها نمواً بمقدار ٦٪ فقط. وفى المقابل ارتفع حجم مخزون تلك الشركات بنحو ٥٣٪.

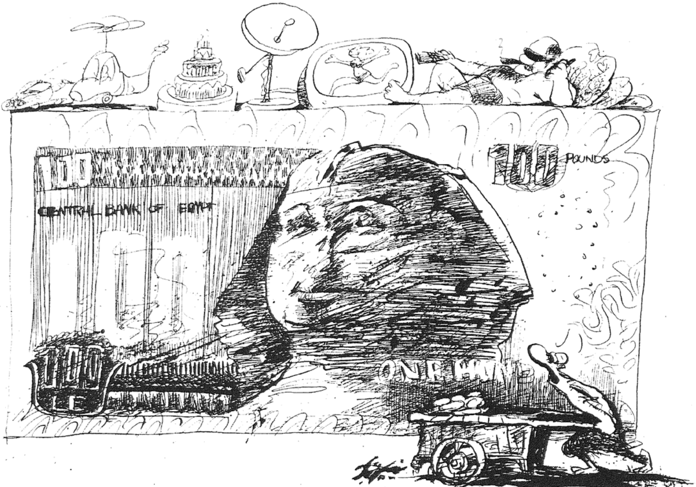
شكل (١): أزمة السيولة والقوى الانكماشية فى الاقتصاد المصرى



هذا بالإضافة إلى العديد من المؤشرات الأخرى التى تشير بوضوح إلى تراكم المديونيات، وجفاف السيولة فيما بين المتعاملين فى الاقتصاد المصرى منذ عام١٩٩٧.

ولكن القضية الجديرة بالعناية هى التفرقة بين وجود «أزمة سيولة» فى مجمل الاقتصاد المصرى، من ناحية، وبين وجود «أزمة سوء توزيع وإدارة السيولة المتوافرة» فى الاقتصاد الوطنى، من ناحية أخرى. إذ إن «أزمة السيولة» ليست موجودة بشكل متماثل عبر الأجزاء المختلفة للاقتصاد المصرى. فهناك أسواق وفئات من المتعاملين تعانى من «أزمة سيولة خانقة»، بينما توجد أقسام وأجزاء فى الاقتصاد المصرى لديها «فائض سيولة» . وذلك يعكس بدوره «سوء توزيع السيولة وإدارتها» فى الاقتصاد المصرى، الأمر الذى يعتبر نتاجاً طبيعياً لـ«سوء توزيع الدخل والثروة» فى المجتمع المصرى عموماً.

ولعل أهم ما يلفت النظر فى العديد من الكتابات التى امتلأت بها الصحف والمجلات لتفسير «أزمة السيولة»، هو إلقاء اللوم (بالدرجة الأولى) على المتأخرات الحكومية المستحقة لصالح قطاع الأعمال الخاص التى قدّرت بنحو ١٢ مليار جنيه مصرى. ولكن إذا ما دققنا فى الأمر ملياً، نجد أن «أزمة السيولة» التى يجرى الحديث عنها، يمكن إرجاعها إلى عناصر عديدة ومتشابكة، ساهم كل منها فى تغذية الأزمة ومضاعفاتها، خلال الفترة ١٩٩٨-٢٠٠٠.



من خلال الإطار التحليلى للمحاسبة القومية، يمكن الإشارة إلى أهم العناصر المسببة للأزمة، على النحو التالى:

أولاً: السلوك الإنفاقى للقطاع العائلى:

إذ اتسم «السلوك الإنفاقى» للفئات عالية الدخل بسوء توزيع السيولة بين أنشطة استهلاكية ذات «كثافة استيرادية عالية»، حيث تتسرب الآثار الإنفاقية إلى الخارج، أو توجيهها نحو أنشطة ذات آثار انتشارية محدودة، أى تضاؤل قيمة ما يعرف «بمضاعف الإنفاق». ومثال ذلك الإنفاق المكثف على «التليفون المحمول»، والإفراط فى الإنفاق على «الدروس الخصوصية»، و«الوجبات الجاهزة»، وغيرها من بنود الإنفاق المماثلة.

ثانياً: سلوك قطاع الأعمال الخاص:

حيث اتسم هذا السلوك «بالمغالاة فى الاستثمار العقارى» ، وخاصة فى مجال الإسكان الفاخر فى المدن الجديدة مما أدى إلى وجود مخزون عقارى كبير راكد غير قابل للتسويق. وتسبب ذلك فى سحب جانب كبير من السيولة(١) المتاحة لدى «قطاع الأعمال الخاص»، ولدى «القطاع المصرفى». ونتج عن ذلك تجميد الأموال «القابلة للإقراض» (و«القابلة للاستثمار») فى هذا الفرع من فروع النشاط الاقتصادى، الذى اتسم «بالتشبع» وبطء الدورة الاقتصادية.

ونفس الشيء ينطبق على سياسة التجار والموردين الذين توسعوا فى شراء السلع المعمرة من بلدان جنوب شرق آسيا، بشكل يفوق طاقة استيعاب السوق المصرية، مما أدى إلى تراكم مخزون سلعى كبير يصعب تسويقه دون «حرق الأسعار» ، وبالتبعية «حرق هوامش الربح». الأمر الذى ساهم فى تفاقم أزمتى «السيولة» و«الركود» فى الاقتصاد المصرى.

وقد نتج عن كل هذه الاعتبارات أن عدداً كبيراً من رجال الأعمال المقترضين من البنوك لم يسددوا مديونياتهم للبنوك خلال السنوات الثلاث الأخيرة، مما أدى إلى صعوبة «إعادة الإقراض» بواسطة هذه البنوك للمقترضين الجدد.

ثالثاً: سياسة الإنفاق الحكومى:

حيث تم الاندفاع نحو تنفيذ عدد من المشروعات القومية الكبرى فى آن واحد ، دون دراسة كافية للجوانب المالية والأعباء النقدية المباشرة وغير المباشرة لتلك المشروعات. وقد أدى هذا بدوره إلى امتصاص جانب مهم من السيولة المتوافرة لدى الحكومة والخزانة العامة للدولة، وتسرب جانب مهم منها للخارج سداداً لثمن المهمات والمعدات المستوردة لإنجاز تلك المشروعات. ولقد نتج عن ذلك تسرب جانب كبير من «آثار المضاعف الإنفاقى» إلى العالم الخارجى، دون أن يساهم ذلك الإنفاق الكبير فى تنشيط الدورة الاقتصادية المحلية.

رابعاً: السياسات المالية والضريبية المرتبطة بخزانة الدولة:

إذ تم الحديث، بشكل متكرر، عن المتأخرات الحكومية التى وصلت إلى نحو ١٢ مليار جنيه مصرى، باعتبارها أحد مسببات الركود وأزمة السيولة (وهذا صحيح فى تفسير جانب من المشكلة)، ولكن لم يهتم أحد بالنظر إلى الوجه الآخر للعملة، حيث بلغت المتأخرات الضريبية للدولة نحو ١٧ مليار جنيه، حسب تصريحات وزير المالية، وهو رقم يفوق رقم المتأخرات الحكومية.

وتلك القضية تستحق وقفة تأملية حول نظام الإدارة الاقتصادية والمالية فى الاقتصاد المصرى. إذ إن المستحقات المتأخرة على الحكومة لها مقابل تمويلى محدد هو المتأخرات الضريبية المتراكمة. ولكن المشكلة تكمن فى وجود خلل جسيم فى نظام الإدارة المالية ينتج عنه تراكم و«عدم تزامن» كلٍ من «المتأخرات الضريبية» و«المستحقات الحكومية» واجبة السداد، رغم وجود مقاصة محاسبية واضحة فيما بينهما. وذلك يقتضى تطوير نظام «المعلوماتية الاقتصادية» لدى وزارة المالية، من حيث حجم المستحقات الضريبية، والالتزامات المالية، على أساس شهرى، إن لم يكن يوميًا، بحيث يكون الموقف المالى واضحاً، بصورة شفافة، و On-line.

خامساً: سلوك القطاع المصرفى:

إذ اتسم هذا السلوك بالإفراط فى الإقراض دون ضمانات كافية، ودون التناسب مع «قاعدة الودائع» لديه (راجع الجدول رقم ١) . وكما تشير بيانات الجدول، فإن نسب «إجمالى الإقراض إلى إجمالى الودائع» تجاوزت لدى العديد من البنوك الحدود المعتادة التى تتراوح بين ٦٥٪ ـ ٧٥٪. وقد أدى ذلك بدوره إلى تضخم حجم الالتزامات لدى قطاع الأعمال الخاص إزاء القطاع المصرفى نتيجة التوسع فى الاقتراض، والمغالاة فى النشاط التجارى (Over trading)، دون دراسة جيدة لأوضاع السوق المحلية .

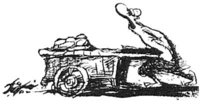
ولقد بلغت نسبة جملة الالتزامات إلى إجمالى أصول بعض الشركات العقارية نحو ٧٠ ـ ٩٠٪ عند منتصف عام١٩٩٨. كما بلغت نسبة الالتزامات إلى جملة «حقوق الملكية» فى بعض الشركات العقارية الكبرى مابين ٢٥٠٪ - ١٠٠٠٪ ، عند نفس التاريخ.

وهذا يشير بوضوح إلى خلل جسيم فى «الهياكل التمويلية» لتلك الشركات، وينبئ باحتمالات كبيرة للتعثر عن سداد تلك المديونيات وكمحصلة لكل هذه السلوكيات، ارتفعت «مخصصات الديون الرديئة» لدى القطاع المصرفى خلال عام ١٩٩٩، كما يوضح ذلك الجدول (٢). وهكذا

(١) يقدّر حجم السيولة التى تمتصها تلك البنود، من الميزانية الإنفاقية للقطاع العائلى، بنحو ١٩ـ٢٠ مليار جنيه فى السنة، تم تقديرها على النحو التالى:

البنـــد	القيمة (بالجنيه)	المســـار
(١) دروس خصوصية	١٢ مليار جنيه	اكتناز (أو تسرب لسوق العقار)
(ب) أفراح ومستلزماتها	١ مليار	استيراد من الخارج (أو تسرب لسوق العقارات)
(ج) تليفون محمول	٢.٧ مليار	(الجانب الأكثر يتسرب إلى الخارج)
(د) حج وعمرة + سياحة وعلاج فى الخارج	٣.٥ مليار	تسرب للخارج

هذا ناهيك عن الأموال المنفقة على استيراد السلع الترفيهية المستوردة، بواسطة القطاع العائلى.



جدول (١)

نسبة إجمالى القروض إلى قاعدة الودائع فى القطاع المصرفى (١٩٩٧ - ١٩٩٩)

م	البنك	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩
	أولاً: البنوك التجارية			
	(١) بنوك القطاع العام:			
١	بنك مصر	٪٥٠.١	٪٤٨.٨	٪٥٢.٣
٢	البنك الأهلى المصرى	٪٦٨.٩	٪٧٠.٣	٪٨٠.٥
٣	بنك القاهرة	٪٦٨.٠	٪٧٠.٣	٪٧٩.١
٤	بنك الإسكندرية	٪٦٩.٣	٪٧٥.٦	٪٧٩.٥
	(٢) البنوك المشتركة والخاصة			
٥	بنك الإسكندرية التجارى والبحرى	٪٨٩.١	٪٩١.٥	...
٦	بنك الدلتا الدولى	٪٨١.٦	٪٩٩.٢	٪١٠٠.١
٧	بنك القاهرة وباريس	٪١٠٣.٥	٪٩١.٧	٪٧٨.٤
٨	بنك التمويل المصرى السعودى	٪١٢٠	٪١٠٠.٦	٪٨٠.٣
٩	بنك مصر أمريكا الدولى	٪٧٢.٤	٪٧٦.٠	٪٧٩.١
١٠	بنك المهندس	٪٨٣.٤	٪٩٠.٩	...
١١	البنك المصرى التجارى	٪٧٨.٢	٪٧٨.٦	٪٧٦.٦
١٢	البنك الوطنى للتنمية	٪٨٧.٥	٪٨٣.٧	٪٨٨.٨
١٣	بنك العمال المصرى	٪٩٣.٢	٪١١١.٢	...
١٤	بنك مصر إكستريور	٪٦٠.٨	٪٦٠.٧	...
١٥	البنك التجارى الدولى	٪٩٥.٠	٪١١٢.٣	...
١٦	البنك المصرى المتحد	٪١٠٩.٧	٪١١٢.٨	٪١٢١.٥
١٧	بنك مصر الدولى	٪٦٢.٧	٪٧٣.٣	٪٧٢.٤
١٨	البنك المصرى الامريكى	٪٧١	٪٧٤.٧	٪٧٦.٥
١٩	البنك الوطنى المصرى	٪٩١.٣	٪٩٤.٥	٪٩٢.٠
٢٠	البنك المصرى الخليجى	٪٧٨.٠	٪٩١.٤	٪٨٧.٣
٢١	البنك المصرى البريطانى	٪٧٤.٠	٪٩٦.٠	٪٨٢.٥
٢٢	بنك مصر رومانيا	٪١٠٢.٩	٪١٣٣.٣	٪١٤٩.٠
٢٣	بنك قناة السويس	٪٨٤.١	٪٨١.٦	٪٨٧.٥
	ثانيا: بنوك الاستثمار والأعمال			
٢٤	البنك الأهلى سوستيه جنرال	٪٩٦.٨	٪٩٦.٩	٪٨٨.٠
٢٥	بنك الائتمان الدولى - مصر	٪١٢٢	٪١١٦.٠	٪١٤٠.٤
٢٦	بنك مصر إيران للتنمية	٪١٣٩.٨	٪١٢٩.٣	٪١١٩.٢
٢٧	بنك التعمير والإسكان	٪١٩٨.٦	٪٢١٣.٦	٪٢٣٥.٠
٢٨	بنك مصر العربى الأفريقى	٪٩٩.٦	٪١١٢.٢	...
٢٩	بنك كايرو باركليز	٪٩٣.٢	٪٩٨.٣	٪٧٤.٧
	بنوك منشأة بقوانين خاصة:			
٣٠	بنك فيصل الإسلامى المصرى	٪١١٢.٧	٪١١٠.٦	٪١١٠.١
٣١	البنك المصرى لتنمية الصادرات	٪١٧٩.٢	٪١٤٤.٥	٪١٢٧.٤
٣٢	البنك العربى الافريقى الدولى	٪٨١.٨	٪٨٧.٩	٪٧٧.٤
	ثالثا: البنوك المتخصصة			
٣٣	بنك التنمية الصناعية المصرى	٪٩٨٢.٢	٪٩٨١.٦	٪٧٢٠.٦
٣٤	البنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى وبنوكه فى المحافظات	٪١٩٤.٦	٪١٩٩.٥	٪١٩١.٠
٣٥	بنك بورسعيد الوطنى للتنمية	٪٩٠.٨	٪١٠١.٥	٪٨٥.٥
٣٦	البنك العقارى العربى	٪٢١٠.٤	٪١٩١.٤	...
٣٧	البنك العقارى المصرى	٪٨٩٧.٦	٪٩٩٣.١	...

المصدر: بيانات تم حسابها من واقع تحليل ميزانيات البنوك التجارية.

تشابكت كل العناصر السابقة لتصنع «أزمة السيولة والركود» خلال العامين الأخيرين. إذ إن سلوكيات «الفاعلين الاقتصاديين الأساسيين» فى الاقتصاد المصرى (القطاع العائلى، قطاع الأعمال الخاص، الحكومة، الخزانة، القطاع المصرفى) قد شارك بدرجة أو بأخرى فى صناعة تلك الأزمة وتفاقمها (راجع الشكل رقم ١).

وبالتالى فإن ما نشهده من أزمتى «سيولة» و«ركود» ليس سوى أعراض لأزمة أكثر عمقاً تتعلق بمجمل السياسات التوزيعية والاستهلاكية والاستثمارية فى الاقتصاد المصرى. ولذا فإن السياسات التصحيحية يجب أن تبدأ بمعالجة تلك المشاكل من جذورها حتى لا نخرج من أزمة سيولة لنواجه «أزمات بنيوية» أكثر عمقاً.

٣

لعل من بين القضايا المهمة التى أثارها الحوار الدائر حول «أزمتى السيولة والركود» فى الاقتصاد المصرى، هو وجود مؤشرات لنمو وتوافر السيولة على صعيد مجمل الاقتصاد الوطنى، بينما يوجد ركود وجفاف للسيولة فى أقسام وأجزاء كبيرة من الاقتصاد الوطنى. ولعل تفسير تلك «المفارقة» يكمن فى أن الاقتصاد المصرى، يعانى من «ثنائية» عميقة فى هيكل الدخول والثروات وبالتالى فى هيكل الطلب. وفى تقديرنا، أن «ثنائية» الاقتصاد الوطنى قد تعمقت بشدة فى ظل سياسات «التصحيح الهيكلى»، التى تم تطبيقها خلال التسعينيات.

فإذا ما قسمنا «الاقتصاد الوطنى» إلى نوعين من الأنشطة :

(أ) قطاعات صاعدة وأنشطة مزدهرة.

(ب) قطاعات هابطة وأنشطة مصابة بالركود والانكماش.

نجد أننا شهدنا خلال التسعينيات انتعاشاً وازدهاراً لبعض الأنشطة التى يجرى الطلب عليها من جانب الفئات «عالية الدخل»: إذ إن حصة العشرين فى المائة فى قمة التوزيع، من جملة إنفاق القطاع العائلى فى مصر تصل إلى نحو ٤١٪، بينما يصل النصيب النسبى للأربعين فى المائة الذين يقعون فى أعلى «السلم التوزيعى» نحو ثلثى إنفاق القطاع العائلى (راجع الجدول «٣»).

ومن ناحية أخرى، نجد أن الركود والانكماش قد أصاب بقية الأنشطة التى تتوجه للجمهور العريض ذى القوة الشرائية المحدودة: «الطبقة الوسطى الصغرى والطبقات الشعبية» (التى تشكل نحو ٦٠٪ من جملة السكان)، حيث يصل «النصيب النسبى» لهؤلاء نحو ٣٧,٧٪ من جملة إنفاق القطاع العائلى. هذا بينما يبلغ النصيب النسبى للعشرين فى المائة، الذين يمثلون قاع «السلم التوزيعى»، ٣,٩٪ فقط من جملة إنفاق القطاع العائلى.

وخير دليل على ذلك ما جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٢ مارس ٢٠٠٠ تحت عنوان: «الركود يضرب أطول أوكازيون»، إنه لم يكتب النجاح لأطول أوكازيون شتوى، امتد منذ الأول من فبراير ٢٠٠٠، حتى ١٠ مارس ٢٠٠٠ وأضافت الصحيفة أن الأوكازيون شهد هذا العام منافسة شديدة بين محلات القطاع الخاص، حيث تراوحت «نسب الخصم» فيها ما بين ٤٥٪ و٧٠٪ على «السلع المعمرة»، بينما تراوحت نسبة الخصم على «الاقمشة» و«المفروشات» ما بين ٤٥٪ و٥٠٪.

ومن ناحية أخرى، أشار بعض العملاء المترددين على المحال، إلى أن «الدروس الخصوصية» كانت هى العامل الرئيسى وراء إحجام المستهلك عن الشراء من الأوكازيون الشتوى، حيث يتم إحلال الإنفاق على «الدروس الخصوصية» محل الإنفاق على السلع الضرورية والمعمرة، فى «الميزانيات الإنفاقية» لأسر الفئات الوسطى محدودة الدخل والفقيرة. وهذا يدل على حجم الضغوط المالية التى تشكلها كتلة الإنفاق على الدروس الخصوصية (نحو ١١-١٢ مليار جنيه مصرى فى السنة)، بالنسبة لأسر «الطبقة الوسطى» المصرية الصغيرة منها والكبيرة.

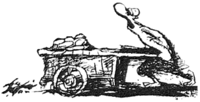
وعلى الجانب الآخر من الصورة، نجد أن عدد بطاقات الفيزا، قد بلغ حوالى ٢٠٤ آلاف بطاقة فى ديسمبر ١٩٩٩، وأن حجم المبيعات التى تمت من خلال هذه البطاقات بلغ ٨٢١ مليون جنيه مصرى، بالنسبة للفئات «عالية الدخل». كما بلغ حجم المبيعات التى تمت من خلال الأجانب «حاملى الفيزا» فى مصر نحو ٣٢٥,٥ مليون دولار. هذا رغم أن عدد التجار الذين يقبلون التعامل بالفيزا لا يتجاوز ١٥ ألف تاجر فى الاقتصاد المصرى. ومن المتوقع أن يكون جانب مهم من إنفاق «حاملى» «بطاقات الائتمان» ينصب على سلع وخدمات «مستوردة»، أو على الاقل «ذات مكون استيرادى» مرتفع، وبالتالى لا تساعد على إنعاش الدورة الاقتصادية داخل الاقتصاد المحلى.

ونتيجة لذلك، نجد أن العديد من الأنشطة الإنتاجية والحرفية والخدمية فى القطاعين «النظامى» و«غير النظامى»، يعانى من ركود وتدهور حاد فى حجم النشاط يتمثل فى انخفاض مستويات استغلال الطاقات الإنتاجية، والتوظف، والربحية. بل إن بعض تلك المنشآت أصبح مهدداً بالإفلاس والتوقف عن النشاط، نتيجة ازدياد درجة سوء توزيع الدخل وانخفاض القوة الشرائية لدى قطاعات واسعة من السكان، (وخاصة الثلاثين فى المائة فى وسط توزيع الدخل الذين يشكلون عصب «الطبقة الوسطى فى مصر»).

وكنتيجة لتلك الأوضاع الهيكلية، لا يجرى نمو وتقدم الاقتصاد الوطنى بوتيرة واحدة، بل ينمو ويتقدم بسرعتين مختلفتين:

* سرعة عالية لأجزاء الاقتصاد المرتبطة باحتياجات وأنشطة فئات المجتمع «الأعلى دخلاً» من رجال الأعمال وكبار المهنيين والتكنوقراط والاستشاريين، باختصار «العشرون فى المائة الأعلى دخلاً».
* سرعة بطيئة، و«قد تكون سالبة» للأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالسوق المحلية (Non-tradable)، وبقية فئات المجتمع «ذات الدخول الأجرية» وذات الدخول الحرة «الكفافية» و«الهامشية».

وهكذا، تصبح عمليات النمو والتوسع



والازدهار متمحورة حول أنشطة بعينها لا تلبى سوى حاجات المجموعات «عالية الدخل» ذات الطلب الفعال والنشط، ويجرى إهمال السوق الواسعة، «ولكن الراكدة»، التى تلبى حاجات غالبية السكان، ولكن «بهوامش ربح» ضعيفة ومنخفضة.

وتدريجياً تصبح عملية «المساكنة» بين «اقتصادين» بل «مجتمعين» منفصمين، أكثر صعوبة مع مرور الزمن، مما يزيد من حدة التوترات الاجتماعية وعدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى.

وهكذا يتضح أن أزمة «الركود »، ليست مجرد ظاهرة نقدية تعود إلى «نقص السيولة»، بل هى «أزمة هيكلية» تتعلق ببنية الاقتصاد ذاته، ونمط توزيع الدخول والثروات السائد منذ منتصف الثمانينيات. إذ إن الذى ينقص الاقتصاد المصرى ليس مجرد الزيوت والشحوم (أى «السيولة النقدية») لتسيير عجلات الاقتصاد الوطنى، بل المشكلة الأكبر والأهم هى أن «التروس» التى تحرك تلك «العجلات» ليست «راكبة» بالشكل الصحيح. وأن «الدورة الدموية الداخلية» للاقتصاد الوطنى، هى دورة «غير صحية»، وتحتاج لضخ «الدماء السليمة» فى المسارات الصحيحة.

* * *

تقاس عادة كفاءة السياسة الاقتصادية، فى أى بلد، بقدرتها على التعامل مباشرة، وأولاً بأول، مع المشاكل الاقتصادية التى تطرأ على الساحة حتى لا تتراكم المشاكل ويصعب العلاج. ففى أحيان كثيرة، تكون إجراءات المعالجة سليمة فى ذاتها، ولكنها قد تجئ متأخرة، فتفقد جزءاً كبيراً من فاعليتها.

ولقد حفلت التصريحات الرسمية بالعديد من الحلول والمقترحات للخروج من الأزمة. ورغم أن هناك نوعاً من الإجماع على أن «نقطة البدء» فى كسر دورة الركود وحل «أزمة السيولة» هى عن طريق أن تقوم الخزانة العامة للدولة بتسوية جانب من المدفوعات المتأخرة عليها لصالح قطاع الأعمال الخاص. إلا أن السؤال الجوهرى يظل يدور حول سبل تمويل هذه المستحقات المتأخرة على الحكومة دون طبع بنكنوت جديد. وبهذا الصدد، فإن لدينا العديد من التحفظات على المصادر التمويلية المقترحة:

١ ـ ليس من حسن الإدارة أن يتم تمويل «السيولة قصيرة الأجل» لتسديد المستحقات المتأخرة على الحكومة من عائدات الخصخصة. إذ إن المبادئ الاقتصادية السليمة تقتضى مبادلة «أصل» بـ «أصل» ، وليس تبديد «عائدات الخصخصة» فى حل مشاكل سيولة قصيرة الأجل. لأنه من المستقر علمياً أن عمليات «الخصخصة» تنطوى على «تسييل» أصل حقيقى من أصول المجتمع الإنتاجية، ولا بد من استخدامها فى تكوين «أصل إنتاجى» بديل ينفع الناس فى الأرض.

٢ ـ إصدار سندات حكومية بالنقد الأجنبى فى أسواق النقد العالمية لحل مشكلة السيولة، لا يعتبر حلاً مواتياً، فى ظروف الاقتصاد المصرى الحالية. إذ إنه يرتب التزامات بالنقد الأجنبى على الاقتصاد المصرى فى وقت تتراجع فيه الاحتياطيات الرسمية بالنقد الأجنبى. كما أنه يرتب على الخزانة أعباء خدمة هذه السندات بالنقد الأجنبى فى المستقبل، لصالح حملة هذه السندات فى الخارج.

٣ ـ بالنسبة لاستخدام الزيادة فى «حصيلة عائدات البترول» ، فإن القاعدة الاقتصادية الأصولية، تقتضى استخدام تلك الزيادة فى تمويل استثمارات حكومية جديدة، وليس فى حل أزمة سيولة قصيرة الأجل. نظراً لأن العائدات من صادرات البترول هى أيضاً مقابل تسييل مورد ناضب من موارد المجتمع، ويجب عدم استخدامها فى تمويل نفقات جارية.

وفى تقديرنا أن الحل الأمثل لتجاوز «أزمة السيولة والركود فى الاقتصاد المصرى» يتمثل فى نوعين من الحلول، حلول «قصيرة الأجل»، وحلول «طويلة الأجل».

(١) حلول قصيرة الأجل: تتمثل فى:

(أ) تنشيط تحصيل الضرائب المتأخرة على المولين المختلفين، بمعدل لا يقل عن نصف مليار جنيه شهرياً، فتلك حقوق ثابتة لخزانة الدولة.

(ب) إعادة توجيه أوجه الإنفاق الحكومى الجارى والاستثمارى فى موازنة الدولة الجديدة (٢٠٠٠ / ٢٠٠١) بما يساعد على تنشيط الدورة الاقتصادية المحلية وعدم تجميد السيولة فى أنشطة بطيئة الدورة أو متسربة للخارج.

(ج) إعادة النظر فى السياسة الاستيرادية لتخفيف الضغط على ميزان المدفوعات والسيولة بالنقد الأجنبى فى الاقتصاد المصرى.

(د) ضبط التوسع فى الائتمان لقطاع الأعمال الخاص ، بما يساعد فى تمويل أنشطة إنتاجية واستثمارية ذات عائد حقيقى ودائم يساعد على توسيع فرص التوظف والتصدير.

(هـ) تصحيح أوضاع توزيع الدخل فى الاقتصاد المصرى من خلال مجموعة من الأدوات المالية (الأجور والمرتبات والضرائب والتحويلات).

(٢) حلول طويلة الأجل:

(أ) استخدام عائدات الخصخصة وحصيلة عائدات البترول فى تمويل استثمارات حكومية جديدة تنشط الدورة الاقتصادية، وتبنى أصولاً إنتاجية جديدة تساهم فى دعم القدرة التنافسية للاقتصاد المصرى، وبما يساعد على ارتفاع معدلات التوظف وحل مشكلات البطالة.

(ب) ترشيد السياسات الاستثمارية لقطاع الأعمال الخاص بحيث يبتعد عن القطاعات «غير القابلة للاتجار دولياً» (Non-tradable) (الاستثمار العقارى، الأنشطة التجارية المضاربية) والتوجه نحو الأنشطة الإنتاجية الحقيقية ذات القيمة المضافة العالية وذات الإمكانات التصديرية العالية.

(ج) تنشيط دور قطاع السياحة فى الاقتصاد المصرى، بعيداً عن سياسة «حرق الأسعار»، للتعويض عن انخفاض تحويلات المصريين العاملين بالخارج وعائدات قناة السويس، بما يساعد على تنشيط الدورة الاقتصادية المحلية، وذلك من خلال مضاعف الإنفاق السياحى.

وغنى عن القول، أنّ الترابط بين الحلول «قصيرة الأجل» والحلول «طويلة الأجل»، فى إطار سياسة إنمائية نشطة هو الطريق الوحيد للخروج من حالة «اللاتوازن الركودى» التى يعيشها الاقتصاد المصرى فى الآونة الراهنة. ■

جدول (٢)

تطور نسبة مخصص القروض الرديئة إلى إجمالى محفظة القروض فى القطاع المصرفى (١٩٩٧ ـ ١٩٩٩)

(٪)

م	البنـــك	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩
	أولاً: البنوك التجارية			
	(١) بنوك القطاع العام:			
١	بنك مصر	٦,٩٪	٧,٤٪	٧,٢٪
٢	البنك الأهلى المصرى	١١,٩٪	١١,٤٪	١٠,٢٪
٣	بنك القاهرة	١٢,٥٪	١٢,٦٪	١٢,١٪
٤	بنك الإسكندرية	١٣,٢٪	١٣,٨٪	١١,٩٪
	(٢) البنوك المشتركة والخاصة			
٥	بنك الإسكندرية التجارى والبحرى	١١,٤٪	٩,٩٪	...
٦	بنك الدلتا الدولى	١٢,١٪	١٩,٠٪	١٦,٩٪
٧	بنك القاهرة وباريس	١٠,٠٪	١٣,٤٪	١٥,٧٪
٨	بنك التمويل المصرى السعودى	٣,٢٪	٣,٨٪	٥,١٪
٩	بنك مصر أمريكا الدولى	١٦,٣٪	١٥,١٪	١٤,٣٪
١٠	بنك المهندس	٩,٥٪	١١,٢٪	٧,٦٪
١١	البنك المصرى التجارى	٩,٨٪	٨,٢٪	١١,٥٪
١٢	البنك الوطنى للتنمية	١١,٩٪	١٢,٢٪	...
١٣	بنك العمال المصرى	١٢,٥٪	١١,٥٪	...
١٤	بنك مصر إكستريور	٢,٢٪	٣,٧٪	...
١٥	البنك التجارى الدولى	٣,٥٪	٣,٥٪	...
١٦	البنك المصرى المتحد	٧,٤٪	٩,٠٪	٧,٥٪
١٧	بنك مصر الدولى	٧,٠٪	٥,٩٪	٥,٧٪
١٨	البنك المصرى الأمريكى	١,٨٪	١,٧٪	٩,١٪
١٩	البنك الوطنى المصرى	٥,٥٪	٤,٨٪	٤,٣٪
٢٠	البنك المصرى الخليجى	٤,٩٪	٤,٦٪	٨,٣٪
٢١	البنك المصرى البريطانى	٢,٥٪	٣,٦٪	٤,٤٪
٢٢	بنك مصر رومانيا	١٠,٨٪	١١,٤٪	١١,٨٪
٢٣	بنك قناة السويس	١٠,٤٪	١٠,٠٪	٩,٩٪
	ثانيا: بنوك الاستثمار والأعمال			
٢٤	البنك الأهلى سوستيه جنرال	٥,٣٪	٥,٤٪	٤,٩٪
٢٥	بنك الائتمان الدولى ـ مصر	٢,٤٪	٤,٦٪	٧,٣٪
٢٦	بنك مصر إيران للتنمية	٢٣,٥٪	٢١,٢٪	٢٠,٥٪
٢٧	بنك التعمير والإسكان	١,٩٪	٢,٠٪	٢,٥٪
٢٨	بنك مصر العربى الأفريقى	١٤,٠٪	١٤,٦٪	...
٢٩	بنك كايرو باركليز	١١,٧٪	١٢,٤٪	١٠,٦٪
	بنوك منشأة بقوانين خاصة:			
٣٠	بنك فيصل الإسلامى المصرى	٧,٧٪	٧,٧٪	٧,٤٪
٣١	البنك المصرى لتنمية الصادرات	٨,٤٪	٧,١٪	٥,٤٪
٣٢	البنك العربى الافريقى الدولى	٨,١٪	١٠,١٪	١٠,٧٪
	ثالثا: البنوك المتخصصة			
٣٣	بنك التنمية الصناعية المصرى	١٨,٠٪	١٨,١٪	١٨,٠٪
٣٤	البنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى وبنوكه فى المحافظات	٨,١٪	٨,٩٢٪	٨,٩٨٪
٣٥	بنك بورسعيد الوطنى للتنمية	٧,١٪	٧,١٪	٦,٩٪
٣٦	البنك العقارى العربى	٣,٨٪	٣,٨٪	...
٣٧	البنك العقارى المصرى	٧,١٪	٧,١٪	...

المصدر: كما جاء فى الجدول (١).

جدول (٣)

هيكل توزيع إنفاق القطاع العائلى فى مصر (عام ١٩٩٨)

فئات الدخل	النسبة من الإنفاق
أعلى ١٠٪	٢٦,٧٪
أعلى ٢٠٪	٤١,١٪
ثان ٢٠٪	٢١,٤٪
ثالث ٢٠٪	١٦,٣٪
رابع ٢٠٪	١٢,٥٪
أقل ٢٠٪	٨,٧٪
أقل ١٠٪	٣,٩٪

المصدر: البنك المركزى المصرى، وزارة التخطيط، البنك الدولى.

"طلبَ الغنى شقفة كسَر الفقير زيره"

مخـاطر استيراد الأفكار والمناهج والمشاكل

خطورة استيراد الأفكار، والمناهج، بل والمشاكل، أخطر بكثير من الإفراط فى استيراد حاجاتنا الاستهلاكية. لن أتكلم عن عجز ميزان مدفوعات التبادل الفكرى لصالحهم، لأن أغلبنا يتصور أنه ليس عندنا ما نصدّره إليهم أصلا، (إلا ما لا يحتاجونه، مثل الفخر بالماضى، والزعم بأخلاق أحسن، وما شابه)، مع أنهم أحوج ما يكونون إلى ما يمكن أن نضيفه إليهم، وإلى المسيرة البشرية عامة، رغم ما نحن فيه من فقر وبدائية.

سوف أكتفى بالتحذير من ظاهرة استيراد واجتزاء الأفكار، تلك الظاهرة التى تستنزف جهدنا ووقتنا ومالنا (أو مالهم الذى يمنحوننا إياه لنفعل ذلك). ثم إنها تخدعنا فى النهاية، إذ نتوهم من خلالها أننا نبحث، وأننا نفكر، وأننا نتكلم لغة حديثة ما دمنا نتبادل رطانا له نفس أصوات - لا مضمون - لغتهم.

بدايةً أود توضيح ما أعنى بهذا المدخل: استيراد الأفكار غير الإلمام بفكر الغير، وغير الاطلاع عليه، وغير ترجمته، وغير الحوار معه. أعنى بالاستيراد: اقتناء فكرة من عندهم، سابقة التجهيز، كاملة المعالم، نشغل بها وعينا، ووقتنا، فتحل تماما محل ما يمكن أن يتفتق فى أذهاننا بما هو نحن.

يختلف استيراد الأفكار اختلافا جذريا عن مواجهة فكر الغير لاستيعابه، وتحريك ما يقابله أويعارضه أو يكمله أو يعدّله. نحن عَادة ما نستورد الأفكار والمشاكل دون تمحيص. نستوردها ليس بما هى وإنما: (١) بما شاع عنها، أو (٢) بما ذاع منها، أو (٣) بما اقتُطف منها، أو (٤) من خلال شجبها بما ليس فيها، أو (٥) بما نتصوره نحن عنها إذ نعيد صياغتها (حسب التساهيل)، أو (٦) بما يحقق لنا الغرض من استيرادها، (سدا لنقص، أو إيهاما بحداثة)، أو بكل ذلك، دون الرجوع إلى أصلها.

أغلبنا يعرف عن الشيوعية ما طبّقه ستالين لا ما كتبه ماركس ولا حتى ما كتبه ستالين نفسه (فماكُتب غير ما جرى)، ويعرف عن التفكيكية ما شاع من اللفظ وما ذاع عن دريدا لا ما قاله وكتبه وعدَلَ عنه وطوّره، ويعرف عن فرويد ما تقوله مسلسلات التليفزيون وأحيانا من هجوم خطباء المساجد أو فتاوى بعض الأطباء وهواة التحليل، لا ما ذهب إليه فرويد وعدل عنه، وتجاوزه. ويعرف عن دارون ما كُفِّر به لا ما «كانه». و يعرف عن بيولوجية المرض النفسى ما نقبله يقينا سَبَبيّا، وهو مازال فرضا تحت الفحص.

ثم إن أغلبنا يجتزئ من الديمقراطية ما يفيداختيار الأقرب والأجهز للخدمات الخاصة والمجاملات، دون معنى المشاركة فى صنع القرار واحتمال تبادل السلطة. كما يجتزئ من الاقتصاد الحر سعار التنافس والجمع التراكمى دون الالتزام الاجتماعى. وفى النقد الأدبى قد تبهرنا ملامح من التفكيكية بعد البنيوية، فنستغنى بهما عن إعادة إبداع النص من خلال قراءة مسئولة. وفى الأمراض النفسية نجتزئ من فكر التحليل النفسى الفرويدى فكر التبرير دون إزالة الوقفة للانطلاق.



استيراد المشاكل (أيضا)

لن أحاول أن أتوقف عند هذا المستوى من اختزال الأفكار أو قصّ بعضها دون الإحاطة بها، لأن ثمة مستويات أخطر للاستيراد ومنها استيرادالمشاكل التى لا تعنينا فى شىء حتى لو كانت الأهم لديهم.

إن الأفكار والمدارس والفروض التى يعلنونها ويبحثون فيها وبها إنما نشأت عندهم نتيجة لتطور طبيعى، فى مواجهة مشاكل قائمة عندهم فعلا. هذه المشاكل عادة كانت مرتبطة بحلول (وأفكار) كانت مطروحة من قبل، وفشلت تلك الحلول فى التعامل معها، فتحرّك الوعى وغامر بمخاطرة الإبداع من واقع الممارسة، فخلّق لهم، من واقعهم، هذه الأفكار المتجاوزة أو الفروض الواعدة.

ولكى نوهم أنفسنا بأن ما استوردناه من أفكار ورؤى هو صالح لاستعمالنا الخاص («الاستعمال الآدمى» بلغة الاستيراد) نقوم باصطناع مشاكل مثل التى كانت سببا فى بزوغ هذه الأفكار عندهم، ثم نقوم بحشرها جاهزة فى خيالنا باعتبارها منا، بل إن الاهتمام المتكلِّف بها، وكثرة الحديث عنها قد ينقلها من هامش هى جديرة به إلى بؤرة انتباه لا تستحقها، لتصبح مشاكلنا نحن دوّن تمحيص، أو إعادة نظر.

نحن نبتدع اهتماما بمشاكل لم تصدمنا، أو تتواتر لدينا، بالقدر الذى يبرر ما نوليها من أهمية لمجرد أنها أصبحت بدعة مكررة لها ما يبررها لديهم، مشاكل يتواتر ذكرها أكثر فأكثر فى دورياتهم، مما لا يعنى بالضرورة أنها لا بد أن تعنينا فى قليل أو كثير، أو لعلها لا تعنينا أصلا.

يدخل فى مسالة استيراد المشاكل هذه عوامل كثيرة غير مجرد التقليد وادعاء التحديث والرغبة فى الحصول على رضاهم السامى بالسماح لنا بالنشر عندهم بلغتهم، وإنما قد يساهم فى ذلك موقفهم هم من نوعية الدعم المتاح، والتوجيه المباشر وغير المباشر، والفرص التى تتاح لمن يتكلم بلغتهم، وينحو نحوهم، حتى لو ضاع عمره وجهده ووقته فيما يخصهم دون ما يخصه أو يخص ناسه الأقربين.

قد توجد عندنا نفس المشكلة، لكنّها ليست بنفس الأهمية ولا بنفس الحجم ولا بنفس المضاعفات التى تجعلنا نترك كل مشاكلنا لنولى هذه المشكلة كل الاهتمام الذى يولونه إياها.

يبدأ الإعلام عندهم بالتنبيه إلى خطورة مشكلة ما، وتفاقمها، وتزايدها، ثم تتبع ذلك الأبحاثُ العلمية (وشبه العلمية !!)، وهات ياتمويل، وهات يا تخطيط، ثم تمتلئ الدوريات العلمية بالحديث عن الموضوع، ثم ينتقل التسويق للدوريات العامة، ويصل الأمر إلى تفصيل التفصيل، أو ما يسمّى لديهم «شق الشعرة».

يقرأ الحاذق منا، المتابع المطلع، كل هذا، فينتبه، وينبهر، ومادام يريد أن يتكلم اللغة الحديثة، ويشارك فى الوليمة الجديدة، وأن يرى اسمه بين أسماء هؤلاء الثقات، فهو يندفع إلى ما اندفعوا إليه، بغض النظر عن قيمة ما

يراودنى ـ مستعيذا بالله من التفكير التآمرى ـ ظن سيىء يقول : إن بعض خبثائهم قد يطلبون «شقفتنا» المتواضعة، مقابل أن يمولوا الجهد المبذول للحصول عليها، وهم يعلمون أننا سوف نسارع بكسر الزير إرضاء لهم

يفعل في مجتمعنا هذا، فى وقتنا هذا. على حساب ماذا (؟!!).

ثم إن السادة الذين قد يموّلون الأبحاث هم الذين يجيزون النشر المُحكَم، وهم الخصم والحكم، (ليس الخصم بمعنى الخصام، ربما بمعنى الاختصام!!) وهم مشغولون بما يشغلهم، وهم يرحبون، أو يوعزون لنا، أن ننشغل معهم بما يشغلهم، ربما من باب اللياقة أو الوجاهة، ثم لعلنا نضيف لهم معلومة شاردة يحتاجونها لتكملة الصورة أوتزيينها، «شقفة» صغيرة تسند زيرهم الملىء بما يهمهم، (الشَّقفُ الخزف، أو مُكَسَّره، الواحدة شَقَفة. الوسيط). لكننا ونحن نعطيهم هذه الشقفة يسندون بها زيرهم، نكسر من أجل ذلك «زيرنا» الذى نشرب منه، (طَلَبَ الغَنَى شَقَفَةً كَسَرْ الفقيرْ زِيرُهْ، كاتَ الفَقير وَكَسَهُ، يا سَوّ تدبيرُهْ)، ويا ليتهمَ يأخذَون منا الشقفة (نتائج أبحاثنا) ليسدوا بها حاجة حقيقية، فهم يعلمون تمام العلم أن الاختلافات الثقافية والحضارية لا تسمح بنقل النتائج بما هى، كما أنهم يعلمون – بوعى أو بدون وعى– خطأ نقطة بدايتنا التى تجعل جهدنا مهما بلغ لا يستاهل إلا الطبطبة، وأنه «برافو»، وقد يولوننا بعض المناصب الشرفية أو الدورية من باب الديكور العوْلَمى.

إنهم لا يطلبون منا–عادة– أن ندرس مشاكلهم، لكننا نحن الذين نندفع لاختلاق مشاكل مثل مشاكلهم، ونتصور أنها على نفس درجة الأهمية، حتى نضمن أن يسمعوا لنا.

يراودنى – مستعيذا بالله من التفكير التآمرى – ظن سيىء يقول : إن بعض خبثائهم قد يطلبون «شقفتنا» المتواضعة، مقابل أن يمولوا الجهد المبذول للحصول عليها، وهم يعلمون أننا سوف نسارع بكسر الزير إرضاء لهم. فنحصل على منحهم، ورضاهم، وجوائزهم، ثم نموت نحن من العطش والتبعية. بعد أن يُسكب على الأرض وقتنا، ووعينا، وفكرنا، وهمومنا بالمرة (فوّت هذه الفقرة فهى تآمرية بوضوح!! أو أنت حر).

يمكن التخفيف من هذا التحذير المندفع برد يقول إن العالَم أصبح قرية واحدة (مع الشكر)، وبالتالى فإن أى مشكلة فى أى مكان هى مشكلة الإنسان فى كل مكان. هذا الرد فى حد ذاته هو نوع من استيراد الأفكار، فلا العالَم أصبح قرية واحدة، مهما تعددت الاتصالات وتسارعت المواصلات، وحتى إذا أصبح قرية واحدة فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن المشاكل واحدة. وحتى لو توحدت المشاكل عبر العالم فإن طبيعتها تختلف، وكذا موقعها على سلم الأولويات.

مشكلة الشذوذ الجنسى –مثلا– ما زالت تمثل قلقا عندنا، وعارا، ورفضا اجتماعيا، ومازلنا نسُبُّ بعضنا البعض بالفاظ تشجب ممارستها، فى حين أنها – والحمد لعلمهم الأحدث وللديمقراطية – لم تعد مشكلة أصلا لديهم، بل إن من يستحق السب والنبذ عندهم هو من يجرؤ أن يتدخل بتعليق عابر على اثنين من نفس النوع يتبادلان الحب والنظرات والهمسات علانية، إن هذا المتوحش الذى يجرؤ أن ينظر إليهما «شذرا»، أو حتى يرفضهما على مستوى النية، لا يستحق إلا الرفض والاتهام بالتخلف وعدم احترام حرية الآخرين وقلة حقوق الإنسان، وقلة الحياء بالمرة.

ثمة مشاكل لم تظهر عندنا أصلا، بالقدرالذى يحتاج أن تصعد إلى قائمة اهتمامنا، نندفع نحوها بكل ما نملك من جهد ووقت ومال (عادة نستدينه من صاحب المشكلة الأصلى، أو يمنحنا إياه بشروطه مع أنه هو الذى طلب الشقفة)، وهات يا بحث، وهات يا صرف، وهات يا نشر،ثم نكتشف، أو لا نكتشف (عادة لا نكتشف ما داموا نشروها) أن الأمر لا يخصنا، أوعلى أحسن الأحوال : هو لا يخصنا إلى هذه الدرجة.

لماذا الطفولة؟

هناك أمثلة بلا حصر توضح ما أردت التنبيه إليه فى مسالة «دراسة جدوى البحث والنظر»، لكننى سأكتفى بالإشارة إلى بعض ما يتعلق بالطفولة بوجه خاص، ذلك لأن مستقبلنا إنما يتحدد بمفهومنا عن الطفولة، وبالتالى بموقفنا منها، وما نقدمه لها. ثم إن الأطفال بوجه خاص يمتصون الثقافة المحيطة بشكل طبيعى وراسخ، فمسئوليتنا عن إحاطتهم بما ينفع ويبقى هى مسئولية مضاعفة. وعلى الرغم من ذلك فإن ما نقدمه لأطفالنا هو مجموعة من المزاعم الأخلاقية المسطحة، والخيال الموصى عليه، والمعلومات المستوردة المنفصلة عن ثقافتنا، حلّ كل ذلك محل تلقائية وعينا الشعبى والخيال الحرالمغامرْ.وأخيرا، ففيما يتعلق بتخصصى، أنبه أننا قد استُدْرجنا إلى البحث فى مشاكل ليست هى الأوْلى بالبحث .



الذاتوية الرضيعية (الأوتزم)

قبل أن أدخل فى المثال الذى اخترته لتوضيح فكرتى تفصيلا، وهو «ضرار الأطفال» أعرج فى عجالة إلى ظاهرة أخرى تسمّى «الذاتوية الرضيعية» (Infantile Autism) بعد أن تزايد الحديث عنها مؤخرا.

الذاتوية الرضيعية متلازمة (زملة= Syndrome) تصف نوعا من الانغلاق على الذات منذ الولادة، حيث يعجز الطفل حديث الولادة عن التواصل مع الآخرين (بدءا من أمه) وإن كان ينجح فى عمل علاقات جزئية (تبدو كانها سرية رمزية) مع أجزاء الأشياء المادية، وبالتالى يعاق نموه اللغوى والاجتماعى والمعرفى، ومما يميز هذا الانغلاق تلك النظرة الذكية (من تحت لتحت) التى قد يلقيها أحيانا هذا الطفل من طرف عينه.

فى بداية تعرّفى على هذا الاضطراب فرِحتُ به باعتبار أن كثيرا مما يشخص على أنه تخلف عقلى هو ذاتوية، وبالتالى هكذا كنت أظن آملاً مغرورا – فإنى قادر على التعامل غير اللفظىِ مع مثل هذا الطفل، مثلما أفعل مع بعض مرضاى الفصاميين خاصة، أو فى العلاج الجمعى، وكان مدخلى إلى هؤلاء الأطفال من باب تلك النظرة «الذكية» التى يتنافى وصفها بالذكاء مع التخلف المعرفى السائد فى كافة قدرات الأوتيزمى. رحتُ أبذل مع أطفال هذا التشخيص جهدا فائقا أملا فى أن يمتد ذكاء هذه النظرة (بالصبر، والتدريب، واللعب، والزمن، والرعاية) إلى مجالات القدرات المعرفية الأخرى. لكن النتائج لم تات كما تصورنا.

تابعتُ بعد ذَلك ما ينشر عن التكهن بمسار هذه المتلازمة ومآلها، ففوجئت أنها ليست أفضل من التخلف العقلى بصفة عامة، إن لم تكن أسوأ. لكن الأمل ما زال يراودنى رغم المزاعم التى راحت تفسر سوء المآل بأصل هذه المتلازمة العضوى والوراثى. ثم عاد البندول يتحرك فى الاتجاه الآخر نتيجة لبعض النتائج الواعدة من خلال برامج تعديل السلوك وعلاج اللعب، جنبا إلى جنب مع العوامل العلاجية الأخرى.

رحت أتساءل : هل وقع الناس (والعلماء) فيما وقعتُ فيه باكرا؟ لماذا عاد الحديث عن هذا الانغلاق الذاتوى هكذا الآن؟ خطر لى تفسير يقول:

إن من يُمْتحن بإنجاب مثل هذا الطفل يفضل أن يتصبّر باى وسيلة، ولو بلافتة خادعة، على قضاء الله، فبدل أن يوصم طفله بالتخلف، أصبح يرحِّبُ أن يوصف بانه ذاتوى (أوتيزمى) كانه – بذلك– ينفى ضمنا أنه متخلف. التقط الأطباء (والإعلام) هذه الحاجة، فاستجابوا لها بسطحية أو حسن نية، ليخففوا عن الأهل آلام المواجهة. من حق الوالدين أن يأملوا ما برح بهم الألم، أو طاب لهم الأمل، لكن ليس من حق مختص أو عالم أو إعلامى أن يعد بما لا يكون. مهما حسُنت نيته.

أين نحن من مشكلة الطفل «الأوتيزمى» هذا ؟ إن من يصابون بهذا الاضطراب عندنا، وعموما،–هم قلّة نادرة، بالقياس إلى نسبة التخلف العقلى. ثم إن ما تمثله عموم الإعاقة نتيجة للذاتوية الرضيعية (الأوتيزم) بالنسبة لمجموع الإعاقات عندنا صغارا وكبارا، (بسبب مرض نفسى أو عقلى، أو بدون سبب!!)، هى نسبة قليلة تكاد لا تذكر. فما هو الأولى بوقتنا وجهدنا ومالنا؟ أن نعطيهم فى الشمال والغرب «شقفة» لمجرد أن يستعملونها «ديكورا» يتوهمون به، أو نوهمُ به أن ثم حوارا، حتى على حساب كسر زيرنا، أم أن نحافظ على زيرنا سليما نغترف منه لنقوم بمسئوليتنا فى محاولة حل إشكال إعاقة الأسوياء، فضلا عن مسئوليتنا تجاه الرعاية الباكرة للمرضى النفسيين قبل أن يُزْمنوا، ناهيك عن تنمية قدرات الإبداع فالانطلاق. ثم بعد ذلك، وربما أثناء ذلك، ، متى بقى فى«الزير» طاقة، لن ننسى أن نبذل ما نستطيع ونحن نرعى إعاقة المتخلفين والذاتويين؟ (أعلم أن مثل هذا التفكير قد يُتَّهم بالنتشوية، لكن نيتشه لم يكن شرا كله)، ثم ننتقل إلى المثال التفصيلى:

ضرار الأطفال

المقصود بضِرار الأطفال هو إلحاق الأذى بالطفل من ذويه عَادة– بالانتهاك أو الإيذاء أو الاعتداء الجنسى أو الإهمال. (فضلت أن أضع هذه الترجمة لتحل محل تعبير«انتهاك الأطفال»، وأيضا«سوء استعمال الأطفال»،لأن مجرد الاستعمال هو ضرار، وقد استلهمتها من القاعدة الفقهية: لا ضرر ولا ضرار). مرة أخرى نتساءل أى المشاكل عندنا أكثر تواترا، وأكثر خطرا، وأكثر حاجة إلى البحث والنظر؟ ضرار الأطفال هذا أم «حرمان الأطفال» من مطالب الحياة الأساسية لا لتقصير من جانب الوالدين ، لكن لأننا فقراء. كم طفلا ينام فى حجرة ليس لها سقف؟ وكم والدين ما زالا فى طور الإنجاب النشط ينامان فى نفس حجرة أطفالهم ، لأنهم لا يملكون غيرها، لا لأنهم لا يعرفون أن فى ذلك ما يضر أطفالهم، وكم أسرة تعيش معا (اثنا عشر طفلا لثلاث أسرات مثلا) تستعمل دورة مياه مشتركة ليس فيها طارد !!، مرة أخرى: كل ذلك يحدث دون أى إضرار مقصود أو عفوى من الوالدين، إن الضرار يقع من الدولة، والقدر، والعالم .

ثم ماذا عن ترتيب منظومة القيم عندنا وعندهم فيما يتعلقِ بما يصل إلى الأطفال والتى بناء عليها نقيِّم الضرار؟ إن منظومة القيم ليست مسألة أخلاقية فحسب. إن الضرر والضرار قد يقاس بمدى الاتساق أوالبعد عن ترتيب معيّن لمنظومة القيم فى ثقافة بذاتها فى وقت بذاته.

خذ مثلا قيمة ملتبِسة مثل قيمة «الحرية»، أين تقع على سلم منظومة القيم عندهم، وعندنا، وكيف يتدخَل المسئول (طبيبا كان أم ضابطا أم قاضيا) إذا أضير طفل عندهم من خلال حرمانه من هذه القيمة (الحرية)، بغض النظر عن مصداقيتها ومضمونها؟ هل ثم فرق بيننا وبينهم فى هذا الصدد؟

وعلى الجانب الآخر خذ قيمة مثل قيمة الغش، (وليس مجرد الكذب حتى)، ألا يعرف الباحثون والباحثات فى مجال الطفولة والتربية والطب النفسى فى مصر أن هذه القيمة قد انتشرت فى مجتمعنا مؤخرا(بعد أن انعكس مضمونها) بما يحتاج معه إلى كل وقتهم وجهدهم قبل أن نستورد من المشاكل ما لا يعنينا أصلا؟

جاءنى شاب نجح فى الإعدادية، نجح بمجموع خمسين فى المائة، وهذاالرقم بالذات، فى الأقاليم بالذات يدعو إلى الشك الشديد. (اسالوا مديرية التعليم

إن الدولة عندنا أضعف من أن تدير شئون الدولة، فما بالك بتولى شئون الأطفال نيابة عن ذويهم إذا هم أضروا بهم. وبالنسبة للغالبية الغالبة فإن أقسى والد هو أرحم من أخصائية فى مؤسسة

وتعليماتها حول نسب النجاح المطلوبة من الوزارة لتفريغ الفصول، ورشوة الإعلام، بغض النظر عن ملء العقول). كان هذا الشاب من الصعيد الجميل المشهور بقيم الشهامة والنخوة والكرم إلخ، شككتُ فى ذكائه واستبعدت نجاحه بالطريق الطبيعى. قلت أُجرى له اختبار ذكاء. أجرتْ له زميلتنا النفسية الاختبار بعد أن أوصيتها أن تتأنى وتعيده لظروف تشككى فى تناسب ذكائه مع دروس الشهادة الإعدادية. جاءت النتيجة شديدة التواضع. أعدتُ الاختبارات بنفسى. جاءت نفس النتيجة التى لا تسمح له أن يجتاز الابتدائية لا الإعدادية، طلبت منه أن يقرأ صحيفة فلم يستطع. سألت والده عن حالته منذ طفولته فأجاب بأمانة بما يفيد أنه كان طول عمره «هكذا». قبلتُ الوضع ونصحت الأب أن يوفر نقوده، وألا يتردد على الأطباء أكثر من ذلك، وأن يركز على تدريبه على صنعة متواضعة تحت إشراف، وألا يأمل فى فعلَ عقاقير لا تفعل شيئا فى الذكاء إلى آخر هذه النصائح التقليدية الموضوعية. شكرنى الرجل وابتسم الشاب، وانصرفا. ترددا علىَّ مرة أو أكثر خلال شهور حتى اقتنعا أنه ليس عندى ما أضيفه، علمت أن الوالد لم يأخذ بنصيحتى وجعل ابنه يكمل باسم الله حارسه وضامنه.

بعد أربع سنوات زارنى الرجل فرحا يشكرنى جدا. على ماذا؟ على أن ابنه أخذ الدبلوم (ثانوى زراعى) والحمد لله، فزعتُ وتصورت أن ثم خطأ فى تقديرى، وفى تقدير زميلتى، وفى اختبار الذكاء إلخ، حاولت أن أحاور الشاب لأعرف كيف تحسن ذكاؤه هكذا ضد كل حسابات العلم، فوجدته كما هو تماما، لم يتغير إن لم يكن قد قلَّ قليلا. سألت والده: هل استطاع أن يحصِّل دروسه رغم كل شىء، فأجاب دون دهشة أنه لم يحصل دروسه ولا حاجة، وحين سألته: كيف نجح إذن؟ قال ببساطة وعرفان: «بالتزكية»، وحين استفسرت منه أكثر، قال كلاما موجزه أن البركة فى سعادتى وسعادة البك الناظر الذى رأف بحالته، وأنه (الوالد) لا ينسى فضلى، أو فضل حضرة الناظر، وكلام من هذا. قاله بمنتهى العرفان والطيبة دون أى خجل، وابنه ينظر إليه فى فخر مناسب.

من هذا المثال وخاصة بعد تيقنى من تكراره على مستوى القطر بالسلامة، يتضح للقارئ أن من البديهى أن تكون أولى المشاكل بالدراسة عندنا فى هذه المرحلة من تطورنا هى معرفة القيم التى توصلها السلطة التعليمية للمربين، ثم يوصلها هؤلاء المربون للكبار، ثم يوصلها الكبار للأطفال. وهى هى القيم التى سادت بشكل أو بآخر فى مجالات كثيرة أخرى، من أول الغش التجارى، حتى البحث العلمى، مرورا بتنويعات مناسبة على مسلسل الانتخابات فى مختلف المواقع والمناسبات.

هيا نفترض أن باحثا من عندنا آلمه ذلك بالرغم مما يقرأ من اهتماماتهم هم فى دورياتهم، ثم إنه رأى أنها ظاهرة قد تخرِّب النفوس والعقول والأخلاق جميعا، الآن ومستقبلا، للكبار والصغار على حد سواء. هذا الباحث حاول وضع فرض يقول «إن قيمة الغش» قد أصبحت قيمة إيجابية، وأن من لا يمارسها علانية قد يوصف بالأنانية أو بالعبط، وأنها أصبحت أساسا فى التعامل منذ الطفولة إلى النضج، فى هذه الفترة من حياتنا. ثم إن هذا الباحث المنتمى فصَّل الفرض ليربط بين هذه القيمة وبين اختلال الحالة الاقتصادية، واهتزاز الأداء عامة، وتفاهة التحصيل الجامعى، وسطحية الأبحاث العلمية (وتزوير بعضها)، ثم إنه وضع خطة بحث منضبطة للتحقق من هذا الارتباط.

من ضمن تفاصيل هذا البحث فرض فرعى يقول: إن هذا الذى يحدث فى أطفالنا مبكرا هكذا هو أخطر علينا من أن يضرِبَ أبٌ طفله لأنه تأخر فى العودة إلى المنزل بعد العاشرة، وهو أيضا أخطر من تشغيل الطفل (بلية) فى ورشة ميكانيكا فى سن العاشرة. لو أن هذا الباحث تقدم لأهل الحل والربط فى بلاد الخواجات يطلب منحة تدعم هذا البحث، أو أنه قام بالإنفاق عليه هو (وهذا مستحيل) ثم حاول نشره، هل سيوافقون على تمويل بحثه؟ أوعلى نشره أسوة بما ينشر عن«ضرار الأطفال»؟ أو عن الطفل الذاتوى؟

إن دراسة جدوى الوقت، وجدوى الجهد، وأولويات المشاكل تتطلب أولا: تحديد حجم المشكلة، وليس مجرد حداثتها أو شيوع الحديث عنها فى ثقافة أخرى فى ظروف أخرى. (هذا ونحن لا نعرف حجم المشكلة مما ينشر فى الصحف فى صفحات الحوادث) وثانيا: تحديد أولوية هذه الظاهرة بالمقارنة بظواهر أخرى، موجودة أكثر أو أقل، أخطر أو أخف، ثم: ثالثا: تحديد أدوات دراستها، وإمكانات دراستها.



أجد مناسبا أن أنبه هنا أن إشكالة المنهج (العلمى) بالنسبة للعلوم الإنسانية لم تُحَل، ولن تحل فى القريب. وأن عدم الدراسة أصلا هو أفضل من الدراسة الزائفة، وأن منهج السؤال والجواب هو من أضعف المناهج بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية خاصة، ويصبح هذا المنهج أكثر زيفا، وأشد كذبا حين يطبق فى بلد متخلف، ثم إنه يصبح جريمة مع سبق الإصرار إذا طبق فى بلد «قيمة الغش»فيه كما ذكرنا.

إننا نسينا مصداقية المنهج الحكائى مع أننا عشنا (كما عاشت البشرية) قرونا عددا بفضله. كذلك أهملنا مصداقية منهج دراسة المحتوى، ولم يعد يبهرنا إلا الأرقام والجداول.

إن مشاكلنا الخاصة جدا لا تتجلى فى مشاهدات العلماء وتقليد السابقين الأولين فى الشمال والغرب. إنها تتجلى فى الواقع المحيط، بكل أشكاله. هذا الواقع ليس فقط واقع الحياة العيانية، ولكنه ينبغى أن يشمل واقع الخيال، وواقع تشكيل هذا الخيال فيما هو إبداع، وواقع الوعى الشعبى الشفاهى. إن والد هذا الشاب الذى حكيت عنه حالا حين قال إن ابنه نجح «بالتزكية»، لم يكن مخطئا تماما، لكنه كان يعلن واقعا ينبغى الوقوف عنده، والبحث عن أدوات تليق بسبر غوره.

فى محاولة لتفسير هذا الاهتمام بظاهرة «ضرار الأطفال» عندهم هكذا، نتبين أن الدولة هناك كادت تحل محل الأسرة، ثم إن حقوق الراشد قد استُكملت أو كادت (على الورق على الأقل، للأغلبية على الأرجح)، فانتقلوا للفئات الأضعف. كما أن فساد الشباب وانحراف المراهقين (بما فى ذلك الإدمان) قد دق ناقوس الخطر، فراحوا يجتهدون فى تقصّى الأسباب (الأخرى) فى الطفولة الباكرة. كل هذا لا يتفق مع ما عندنا كما يلى:

إن الدولة عندنا أضعف من أن تدير شئون الدولة، فما بالك بتولى شئون الأطفال نيابة عن ذويهم إذا هم أضروا بهم. وبالنسبة للغالبية الغالبة فإن أقسى والد هو أرحم من أخصائية فى مؤسسة. (غالبا). ثم إن حقوق الراشد عندنا غير مستوفاة بأى درجة، فما بالك بحقوق الطفل؟. وأيضا نعرف حساسية التدخل بين الوالد وطفله بالصورة التى نسمع عنها عندهم (أول رقم تليفون يحفظه الطفل فى مدارس رياض أطفالهم، أو الابتدائى، هوالرقم الذى يستدعى به الطفلُ السلطاتِ إذا ما نهره والده -جدا- بالسلامة!!!). هذا أمر مرفوض وخطير فى بلد يقدس «السلطة»، و«الستر» طول الوقت، سرا وعلانية.

مصادر المعرفة الأخرى

انتبهت من خلال اهتماماتى الأخرى إلى أن ثمة مصادر للمعرفة، تعرفنا ماهية الطفولة وأبعادها، مصادر لا تقل مصداقية ولا فائدة عن هذه المصادر شبه العلمية، الملتبسة والمستوردة، ومن ذلك:

أولاً: الوعى الشعبى الذى يقوم بأبحاثه بشكل تلقائى، وهو يصدر نتائجه وأحكامه بطريقة يتم المصادقة عليها من مدى انتشار هذه الأحكام وطول مدة بقائها متداولة فاعلة نافعة، صحيح أن هذا الوعى الشعبى قد تراجع عن النمو التلقائى بعد تدخل الإعلام الرسمى والخاص بين الناس وبين خبراتهم، إلا أن النظر فيما وصل إليه هذا الوعى الشعبى فيما مضى ينبغى أن يكون نموذجا نحترم به هذا الوعى وما يفرزه من نتائج.

مثلا: أفرز الوعى الشعبى نتائجه التى تقول: (١) ابن الديب ما يتربّاش، أو (٢) إضرب ابنك واحسن أدبه ما يموت إلا إن فرغ أجله. وأيضا (٣)إكسر للبنت ضلع يطلعلها اتنين. وفى نفس الوقت: (٤) إن كبر ابنك خاويه، ثم على الجانب الآخر (٥) إن جاك النيل طوفان خد ابنك تحت رجليك. لكن أيضا: (٧) لا زرْعك ولا ولِدك تغضب عليه.

هذه الأمثلة ليست متناقضة، رغم أن ظاهرها يبدو كذلك؛ لأن لكلٍّ منها سياقه، ولكل منها دلالات تختلف باختلاف موقف وموقع ظهورها وانتشارها. أنا لا أذكرها هنا لأستشهد بها، أو لأدافع عن بعضها، وأشجب الآخر، أنا أريد أن أعلن أن هذه الأمثلة هى خلاصة تجارب غير مُعْلَنَة المنهج، لكنها حاسمة النتيجة.

ثانياً: الإبداع (الروائى خاصة) إذ لا يوجد إبداع من فراغ، ولا يصب إبداع فى فراغ، والنص الأدبى هو فى نفس الوقت وثيقة معرفية بطريقتها الخاصة، وهى لا تقاس بعدد ما تعرض من حالات، بل بمدى ما تكشف من طبيعة نوعية.

تتجلى الطفولة بشكل مباشر فيما يسمَّى أدب السيرة الذاتية، وفى شكل غير مباشر فى كثير من أعمال المبدعين، وسوف أعدد فيما يلى بعض ذلك كأمثلة: أيام الطفولة (إبراهيم عبد الحليم) حكايات حارتنا (نجيب محفوظ) السقا مات (يوسف السباعى) الأيام (طه حسين) خالتى صفيَّة والدير: (بهاء طاهر).

ولا يقتصر الأدب فى عطائه وكشفه عما هو طفولة على عصر بذاته، فإن المبدع الذى يكشف عن ماهية الطفولة بتحذير خاص، قد يصل إلى غور يسمح له بكشف الطبيعة البشرية فى كل زمان، بل إن التقاء مبدعين مختلفين من ثقافات مختلفة فى زمن مختلف، التقاءهم على رؤية تسبر غور الطفولة وتكشف عن أبعادها ومتطلباتها ومشاكلها، هذا الالتقاء يمثل نوعا مما أسميته «المصداقية بالاتفاق طوليا».

ديستويفسكى يتناول رسم أبعاد الطفولة بكل التفاصيل والعمق: فى البطل الصغير ثم الطفلة نللى فى مُذَلّون مهانون، ثم الأبله، والطفل «فلالى» فى قرية ستيباتشكوفو وسكانها، وتتجلى أستاذيته فى قصته (روايته) غير الكاملة نيتوتشكا نزفانوفنا (التى تناولتُها بالنقد تفصيلا فى مكان آخر) وهو يرسم الطفلة الأم، الطفلة الدمية، الطفلة الحِكْمة، إلى غير ذلك.

وبالنسبة لنجيب محفوظ فإنه كان من أكثر المبدعين أمانة حين أعلن أنه حاول أن يكتب قصصا للأطفال، وأنه وجد صعوبة بالغة أوقفته بعد محاولة واحدة أو بضع محاولات، إلا أن حضور الأطفال فى كل إبداعاته كان شديد الحساسية شديد الدلالة، ولعل من أروع تجليات ذلك ما جاء فى وصف طفولة كمال أحمد عبد الجواد فى «بين القصرين»، ولعل المتتبع لنمو كمال أحمد عبد الجواد وتطور أحواله يتعجّب - لأول وهلة- مما صار إليه هذا الطفل الظريف الجميل الولع بالغناء المتجرئ حتى على والده بما تيسر، كيف آل هذا الطفل إلى ذلك الشاب الانطوائى الكثير الفكر البالغ الحياء، لكن هذا التطور هو من عظمة الفن. وقد كنت دائما أخشى أن يُستدرج المبدعون ليستشيروا أهل علم النفس فيما يخطر لهم، أو أن يغالوا فى تصديق ما يُكتب فى التربية وعلم النفس والتحليل النفسى، لأن محفوظ لو كان قد فعل ذلك مثلا فى حالة كمال أحمد عبد الجواد لكان لزاما عليه أن يرسمه طفلا «نموذجيا» مطيعا إلى آخر ما تقوله كتب علم النفس فى وصف «الطفل النموذجى» كيف يتطور إلى الحيِىّ الانطوائى.

فإذا حددنا الحديث عن أعماله التى فيها رائحة السيرة الذاتية (وكلها تكاد تكون كذلك)

فإننا نركز خاصة على حكايات حارتنا، (أكثر من المرايا)، «والباقي من الزمن ساعة»، «حديث الصباح والمساء» : كلها زاخرة بما أريد إيضاحه هنا، وهو أن هذا الكاتب يعرف هذه المنطقة - منطقة الطفولة - أعمق ما تكون المعرفة. ثم فجاة تطل علينا طفولته فى أصداء سيرته الذاتية بإضافات معرفية دالة تقول : إن الطفولة ليست مرحلة تاريخية نعيشها ثم ننتقل منها إلى ما بعدها، وإنما هى مرحلة بدئية تتطور فينا وبنا حيث تتداخل فيما بعدها متكاملة فى النضج السوى، أو تختفى مُنْكَرة أو منسية. وأصداء محفوظ تعلمنا أيضا أن مرحلة الطفولة قد تظهر مستقلة-الآن- فى الحلم أساسا، أو قد تُقبرك إذا زيّفناها بذاكرتنا. كذلك نرى فى الأصداء كيف أن الطفولة تظل نشطة نابضة عند المبدعين خاصة، لكنها لا تنشط مستقلّة، وإنما تتكامل فى النشاط الناضج الراصد القادر، فيتخلّق الناتج الإبداعى الأصيل (وقد نشرت تفاصيل ذلك فى موقع آخر).

أختم هذا المقال بعودة توضيحية تبيّن لنا كيف يمكن أن يضار الأطفال من اهتزاز منظومة القيم أو تشويهها أكثر مما يضارون من الضرب أو ما شابه. أشرتُ فى مدخلى إلى هذه النقطة إلى قيمتين هما الحرية عندهم (بما لها وما عليها)، والغش عندنا (وكيف أصبح قيمة إيجابية !!). فهل يتصوّر أحد أن قيمة «العدل» يمكن أن تكون قيمة تتكون عند الطفل منذ سنيّه الأولى؟ وهل طُرِحَ هذا الفرض على وعى العلماء باعتبار أنه يمكن أن يغيّر العالم؟ ألا نحتاج نحن، مع كل مستضعفى العالَم، أن نبحث فى هذه النقطة بشكل قد يلوح بوعد تغيير جذرى فى طرق التربية،؟ أم أن علينا أن نكتفى بما يلقون به إلينا من بعض الشظايا المتناثرة من امتحانات القدر لبضعة آلاف من الأطفال المعاقين. (الأوتيزم مثلا).

هل يوجد منهج عند العلماء التقليديين يستدلون به على كيفية التعامل مع قيمة العدل أغلى قيمة عند الإنسان طفلا ويافعا؟ ثم ما تاثير التنبيه على أن تصب نتائج مثل هذا الاستقصاء فى تعديل طرق تربية الأطفال عبر العالم؟ وهل يمكن أن نامل أن تكون نتائج مثل هذاالبحث نافعة فى ترسيخ هذه القيمة (العدل) فيكون هذا هو السبيل الواعد بمواجهة أشكال التعصب والاستعلاء والغرور، وإشعال الحروب تحت مزاعم إرساء السلام، كذا الكيل بعدة مكاييل ببجاحة غير مسبوقة.

إن الأقوياء قد أصبحوا يبررون الظلم من جانبهم باعتباره عدلا خصوصيا، عدلا يستعمل بشفرة سرية، يمارسونه بقواعد ولغة ليس فى مقدور المظلوم أن يفهمها (يمكن العودة إلى ذلك تفصيلا فى الحديث عن فلسطين، وكوزوفو، والبوسنة، وحتى حملات الناتو على صربيا، وكذا حملات أمريكا وإنجلترا على العراق).

ننظر أخيرا فى عينات محدودة تظهر كيف التقط ديستويفسكى حضور قيمة العدل عند أطفال إبداعه:

نيتوتشكا نزفانوفنا يقول واصفا موقف «كاتيا» الطفلة: «فما كان مسموحا به أمس يصبح اليوم ممنوعا.. ، وهكذا الشعور بالعدل يفسَد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع».

أو على لسان نيتوتشكا:«كان الحزن يمزقنى تمزيقا، ثم أخذت فكرة العدالة تذُر قرنها فى نفسى الجريحة، وأخذ يجتاحنى شعور بالاستياء والاستنكار».

ولم ينس ديستويفسكى، وهو يعرج إلى الإشارة كيف تتكون قيمة العدل عند الأطفال، أن يشير بطرافة إلى تعرية قيم أخرى زائفة، مثل الإفراط فى تقبيل الأطفال (على العمّال على البطال)، و كأن هذا هو الحب. يقول، فى طرافة، على لسان البطل الصغير : «وهن يضرعن إلىّ بصوت واحد أنْ أفتح لهن الباب حالفات أنهن لا يردن بى سوءا وأنهن لا يرغبن إلا فى إغراقى بالقبل، وهل هنالك تهديد أشد هولا من هذا التهديد؟».

هذا الطفل وهو يتلقى هذا التهديد «بالإغراق فى القبل» أين يوضع فى ما هو «ضرار الأطفال» (نكتة!).

أنا لا أقول أن هذه المصادر الأدبية هى بديلة عما يسمّى البحث العلمى، لكننى أؤكد أنها تعطِى بعدا نوعيا آخر لمسائل ومشاكل لا ينبغى أن تغيب عن وعى الباحث عن المعرفة تحت كل الظروف.

خلاصة القول:

إن مشاكل «ضرار الأطفال» لا يمكن أن تدرس بعيدا عن الثقافة التى تجرى فيها، كما أنها لا يمكن أن توضع على سلم الأولويات إلا من خلال معرفة أبعاد وطبيعة وماهية الطفولة ومشاكلها بصفة عامة.

عندنا مثلا فى مصر، لاحظنا فى الممارسة الإكلينيكية أن كثيرا من أمراض وأعراض الأطفال ليست إلا إسقاطا لاضطرابات أعمق لما تحمله الأم بالذات، والوالد بدرجة أقل، على أطفالهما ليمرضوا نيابة عنهما، كذلك لاحظنا أن الضرار الخفى هو أصعب وأخطر على الطفل من الضِرار البدنى المعلن. خذ مثلا: استعمال الأطفال كأدوات تبرر استمرار الحياة الزوجية التعيسة لا أكثر، أو تعوّض النقص الذى يعانيه الوالد باعتبارالطفل مجرد مشروع استثمارى (هذا يظهر عادة فى صورة رعاية فائقة مشكورة اجتماعيا بشكل أو بآخر، ولكن ....)

إن أبسط ما نحتاجه مما استقرأناه من الممارسة الإكلينيكية والملاحظات الموضوعية داخل وخارج العيادة النفسية، يمكن أن يفرخ فروضا واعدة بما لايقاس، فروضا يجدر بنا فحصها من خلال مناهل المعرفة مجتمعة دون الاقتصار على منهج إحصائى محدود.

لابد أن نحذر التورط فى لعبة الإلهاء فى الانشغال بدراسة فتات المسائل التى تقع مصادفة تحت موائد ولائمهم الدسمة شبه العلمية.

نحن لم نعد نجرؤ أن نتعرّف على مشاكلنا بعيدا عن وصايتهم، ناهيك عن البحث فيها، واحتمال تصدير نتائجها إليهم ، تلك النتائج التى قد تساعدهم فى إثراء مسارهم، بدلا من أن نواصل لعبة ترديد الصدى، وكأنه صوتنا نحن. ■

كتاب الزاوية

رسالة الغفران

أبوالعلاء المعرى

هو الشاعر والأديب أحمد عبدالله بن سليمان المعرى وكنيته أبوالعلاء. ولد فى بلدة «معرة النعمان» شمال سوريا سنة ٣٦٣ هجرية (٩٧٣ ميلادية). أصيب بالجدرى فى عامه الرابع، ولم يغادره حتى ذهب بعينه اليسرى، وغشى اليمنى بالبياض ثم بالعمى. انتفع أبوالعلاء بعلماء الدين ورجال الأدب فى حلب ثم سافر إلى أنطاكية وبغداد لتلقى العلم ثم عاد إلى بلدته عام ٣٩٨ هجرية، وتوفى عن ٨٠ عامًا. مؤلفاته عديدة لكن أكثرها فُقد ولم يبق منها إلا «سقط الزند» وكتاب «اللزوميات». و«رسالة الغفران» عمل أدبى يصور مقابلة الشاعر لبعض الأشخاص في العالم الآخر ممن نعموا بالغفران أو حرموا منه في تصوره، وتعد الرسالة آية الأدب العربى المنثور من حيث التفكير والخيال والسخرية والحرية، كما ذكر الدكتور طه حسين في تقديمه للنص الأصلى الذى أعده كامل الكيلانى في عشرينيات القرن الماضى.

١ - حواره مع رضوان

فلما صرت إلى باب الجنة، قال لى رضوان: «هل معك من جواز؟» فقلت: «لا» فقال: «لا سبيل إلى الدخول إلا به».

فبعلت (تحيرت) بالأمر، وعلى باب الجنة - من داخل - شجرة صفصاف، فقلت «أعطنى ورقة من هذه الصفصافة، حتى أرجع إلى الموقف، فآخذ عليها جوازًا» فقال: «لا أخرج شيئًا من الجنة إلا بإذن من العلى الأعلى - تقدس وتبارك».

فلما دجرت (حرت) بالنازلة قلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون! لو أن للأمير أبى المرجَّى خازنًا مثلك لما وصلت أنا ولا غيرى إلى درهم من خزانته».

قصـــة الصـــدام بيـن المنظمـــات الصهيونيـــة

محـمـد حـقـى

■■ كل قـصـص الصـدام بين المنظمـات اليهودية والإدارة الأمريكية تبدأ بقصة الصدام بين هذه المنظمـات والرئيس الأسـبق جـورج بوش. فـهناك تاريخ محـدد يعد علامـة على الطريق. قصة تحول ليس في تاريخ المنظمات اليهودية وحدها، وإنما في تاريخ اليهود نفسه. هكذا جعلوها، وأصبحت مقياسًا لمدى صلابة رؤساء أمريكا أمام الضغوط اليهودية، ومدى سطوة وهيمنة هذه المنظمات على مقدرات أمريكا كلها.

هذا التاريخ هو ١٢ سبتمبر سنة ١٩٩١، عندما وقف الرئيس جورج بوش خلف منصة في البيت الأبيض أثناء مؤتمر صحفي يتعلق بالشرق الأوسط. وكانت سياسة الرئيس بوش الخارجية كلها بعد انتهاء الحرب الباردة ومصداقيته ليس أمام العرب وحدهم، وإنما أمام العالم والشعب الأمريكي نفسه، تعتمد على بدء عملية السلام في الشرق الأوسط بعد أن وقفت الولايات المتحدة ومعظم الدول العربية في خندق واحد خلال حرب الخليج، وإذا بإسرائيل تطلب في الأسبوع السابق لهذا المؤتمر ضمانًا بقرض قيمته ١٠ مليارات دولار لتوطين اليهود السوفييت الذين هاجروا إلى إسرائيل.

ولم يكن بوش أحد المعارضين لهجرة هؤلاء اليهود إلى إسرائيل، بالرغم من أن إسرائيل والمنظمات اليهودية دفعوا حكومة الولايات المتحدة إلى الموافقة على محاصرة اليهود، ومنعهم من أحد الحقوق الأساسية للإنسان وهو حرية اختيار المكان الذي يريد أن ينزح إليه، وساقوهم كالأغنام من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل مباشرة، ومنعوهم من الهبوط سواء في فيينا ـ كما كانت الحال في البداية لعدة شهور إلى أن أدركوا أن بعضهم يذهب إلى فيينا ثم يهرب إما إلى أمريكا أو كندا ـ أو في روما، ويفرضون عليهم توقيع تعهد بألا يغادروا إسرائيل لخمس سنوات على الأقل كشرط لهجرتهم إليها!

بل إن الرئيس بوش لم يكن بين المعارضين للمعونة الأمريكية إلى إسرائيل. وهي أكبر رقم للمعونة لأي دولة في العالم، إذ تزيد على ٣,٢ مليار دولار سنويًا.

وبالرغم من أن بوش كان أحد المتحمسين لهجرة اليهود من روسيا إلى إسرائيل، إلا أنه كان يعتقد أن توقيت طلب هذا القرض الإضافي خاطئ، وبدأ بوش مؤتمره الصحفي بمقدمة يشرح فيها أنه بصدد عقد مؤتمر للسلام بين العرب وإسرائيل في مدريد، لم يسبق له مثيل، خلال الأسابيع التي تلت ذلك، وكان يعتقد أن الوقت أصبح مناسبًا لعقد هذا المؤتمر بعد أن أثبتت حكومته أن أمريكا ستحاول أن تلعب دور السمسار النزيه أو الوسيط المتوازن، ولاسيما أن المناخ كان ملائمًا بعد حرب الخليج، ولكن إسرائيل التي كان يرأس حكومتها إسحق شامير، الليكودي اليميني الذي بدأ حياته إرهابيًا قاتلاً، أرادت أن تفسد عليه ذلك، فطلبت هذا القرض لتفسد العلاقة بينه وبين العرب من ناحية، وتفسد فرص عقد مؤتمر السلام الذي كان شامير يعارضه معارضة قوية من ناحية أخرى.

وأعلن بوش أنه سيطلب من الكونجرس أن يؤجل قراره ١٢٠ يومًا، فإذا بشامير يتحداه أن يقف في وجه إرادة إسرائيل، معتبرًا أن الكونجرس أداة في جيبه، ولكي يثبت ذلك لبوش أي أنه يستطيع أن يهزمه في عقر داره، طلب شامير من المنظمات اليهودية أن «تزحف» على الكونجرس لكي يلقن الرئيس الأمريكي درسًا حول من الذي يستطيع أن يحصل على تأييد الكونجرس، وأعلنت المنظمات اليهودية واللوبي الإسرائيلي أنها ستبعث بألف ناشط يهودي إلى مكاتب وأروقة الكونجرس لإقناع الشيوخ والنواب بتمرير القرض فوق رأس الرئيس ورغم أنفه. وهنا نطق بوش بست كلمات أصبحت كالرصاصة التي دوت وسمعت في أنحاء العالم كله، ودخلت القاموس اليهودي على أنها «صيحة الحرب» التي قال فيها: «أنني أقف أمام قوى سياسية قوية» تريد أن تغير من سياسة الولايات المتحدة وأن تلغي إرادته بالقوة. وقال بوش: «لقد سمعت اليوم أن هناك نحو ألف عضو في اللوبي يعملون في الكونجرس، بينما أتيت أنا وحدي بمفردي هنا أحاول أن أنفذ سياستي».

وكان بوش يقف يومًا أمام كاميرات التليفزيون وشاهده ـ يومها وبعد ذلك عشرات المرات ـ وهو يقول هذه العبارة بهدوء، حتى وإن كان غاضبًا، ولكن الكتاب اليهود الذين تناولوا هذه العبارة، مثل كاتبنا اليوم وهو «جيه جيه جولدبرج» J.J. Goldberg، وهو ابن آرثر جولدبرج سفير الولايات المتحدة الشهير الذي كان سفيرًا لدى الأمم المتحدة، وصاغ قرار ٢٤٢ الشهير سنة ١٩٦٧، وحذف منه حرفي «ال» قبل كلمة الأراضي، لتصبح: أن تنسحب إسرائيل من أراض احتلتها في حرب الأيام الستة، بدلاً من «الأراضي» ـ وكان ذلك في النص الإنجليزي وحده، نقول إن كل الكتاب اليهود مثل جولدبرج قالوا إن بوش كان يصرخ ويدق المنصة بقبضته مثل أباطرة الدول الديكتاتورية.

ويمضي جولدبرج في كتابه «النفوذ اليهودي» (Jewish Power) أو القوة أو السلطة الإسرائيلية يقول مغالطًا: «إن هذه القوى السياسية العاتية التي أشار إليها بوش بأنها تواجهه، لم تكن سوى ألف وثلاثمئة زعيم من زعماء المنظمات اليهودية، وهم عبارة عن خليط من الحاخامات والمدرسين والمحامين والخبراء الاجتماعيين ورجال الأعمال، ونسى جولدبرج أن يضيف كلمة «المغلوبين على أمرهم» الذين جاءوا إلى واشنطن لقضاء يوم يتحدثون فيه إلى ممثليهم في الكونجرس عن هذا القرض الذي يهدف لغرض إنساني.

غير أن الكاتب اعترف بأن خبراء بوش في شئون الشرق الأوسط، ومعظمهم من اليهود، أصروا على أن إقرار السلام في الشرق الأوسط له نفس القيمة الإنسانية مثل تهجير اليهود السوفييت إلى إسرائيل، ولكن أعضاء الكونجرس كانوا متحدين مع اللوبي اليهودي(!) وكانت هذه المعركة تتويجًا لحملة إعلامية استمرت أربعة أشهر من أجل تمرير القرض لحوت الكونجرس تحت جناحها، إلى حد أن اللوبي كان متأكدًا من أن الأغلبية التي يتمتعون بها في الكونجرس لا تكفي لتمرير القرض فقط، ولكنها كانت تكفي لفرض رأي الكونجرس على الرئيس ضد الفيتو الرئاسي المحتمل، وهو من حق الرئيس، إلا في حالة حصول القرار على أغلبية ثلثي أصوات أعضاء الكونجرس.

وهنا عدت إلى أوراقي لأراجع ما قاله بوش، فوجدت تذكيره لإسرائيل والكونجرس أنه طالما كافح وهو نائب للرئيس، ثم عندما تولى الرئاسة، من أجل تهجير يهود أثيوبيا والاتحاد السوفيتي، وأن الفضل في هجرة مئات الآلاف إلى إسرائيل، هو «أن أمريكا أعطت إسرائيل هذه السنة وحدها ٤ مليارات دولار ـ أي ما يعادل ١٠٠٠ دولار لكل رجل وامرأة وطفل في إسرائيل، بالإضافة إلى ٤٠٠ مليون دولار أخرى لتسهيل استيعاب المهاجرين السوفييت». وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها الرئيس الأمريكي هذه الأرقام علنًا، والتي لا تدركها غالبية أفراد الشعب الأمريكي، بقدر ما يبدو في هذا الأمر من غرابة. وقد كانت هذه اللهجة وعبارة القوى السياسية العاتية بمثابة عبارات «شفرة» يفهمها اليهود ويفهمها الشعب الأمريكي كله، ثم هدد بوش باستخدام الفيتو صراحة، الأمر الذي لم يفعله أي رئيس قبله سوى الرئيس دوايت أيزنهاور قبله بـ ٣٤ عامًا، وهدد بأن يذهب إلى الشعب الأمريكي مباشرة الذي يؤيده تمامًا ويفهم ما يقوله، وقال: «إن من واجبي أن أشرح لهم بأقصى ما أوتيت من قوة أن مناقشة هذا القرض تتعارض مع مصلحة السلام»، وقال بوش شاكيًا للشعب الأمريكي: إنني أواجه قوى سياسية عاتية، وإنني أقف في مواجهتها وحدي، وواجبي أن أعبر للشعب الأمريكي عما أشعر به بكل صلابة بشأن تأجيل مناقشة القرض، وقال إن الذين يؤيدون إسرائيل يخطئون تمامًا في قراءة مزاج الشعب الأمريكي، وعليهم أن يراجعوا أولوياتهم، وتحدى بوش الحكومة الإسرائيلية قائلاً: إن غالبية الشعب الإسرائيلي معه في تأييد عملية السلام، ويعتقد أن الشعب الإسرائيلي والشعب الأمريكي سيستجيبان له. وأضاف محذرًا: إنني لا أريد أن يخاطر الكونجرس باتخاذ موقف ضد الرئيس الأمريكي لمصلحة طرف آخر، وهو اتهام لم يسبق أن وجهه أي رئيس أمريكي ضد الكونجرس في تاريخ أمريكا كله منذ الحرب الأهلية!

والجدير بالذكر أن وسائل الإعلام الرئيسية فرضت حظرًا على حديث بوش، فلم تذكره «النيويورك تايمز» على الإطلاق، ونشرت

طلب شامير من المنظمات اليهودية أن «تزحف» على الكونجرس لكي تلقن الرئيس الأمريكي درسًا حول من الذي يستطيع أن يحصل على تأييد الكونجرس، وأعلنت المنظمات اليهودية واللوبي الإسرائيلي أنها ستبعث بألف ناشط يهودي إلى مكاتب وأروقة الكونجرس لإقناع الشيوخ والنواب بتمرير القرض فوق رأس الرئيس ورغم أنفه

Jewish Power

القوة اليهودية

J.J. Goldberg

Perseus pr., $12, 1997

«واشنطن بوست» على صفحة رقم ٢٩، وقالت إنه كان فى حالة من الغضب والهياج وأنه كان «يجز على أسنانه»

ونعود إلى رواية جولدبرج، فيقول: «وعندما تخطى بوش الكونجرس وذهب فوق رأسه إلى الشعب الأمريكى مباشرة، شاكيًا لهم سطوة هذا اللوبى، تغير موقف الكونجرس فورًا، وتبخر تأييد إسرائيل مباشرة ووافقت قيادات المجلسين على طلب بوش تأجيل القرض أربعة أشهر.

والواقع أن هذه الواقعة تثبت رأيًا رددناه فى مقالات سابقة، وهو أن اللوبى اليهودى يستطيع أن يضيِّع أو يحطم كل شخصية سياسية فى الولايات المتحدة، ولكنه لا يستطيع تحدى رئيس الجمهورية، ذلك أنه مازالت هناك بعض المقدسات فى أمريكا مثل العلم، والنشيد القومى، واحترام الشعب الأمريكى لمنصب رئيس الجمهورية، مادام لم يخرق القانون، ولا يطيقون أن يتطاول عليه أى أجنبى، ولكن ذلك طبعًا لا يروق للوبى اليهودى.

يقول جولدبرج: ولكن الرئيس بوش، رغم أنه انتصر، فإنه دفع الثمن.

ويمضى جولدبرج فى وصف انتقام المنظمات اليهودية من بوش، فيقول إن شوشانا كاردن، رئيسة اتحاد المنظمات اليهودية الكبرى استمعت إلى خطاب بوش على الراديو، فقررت أن تصرف اليهود لم يكن عليه غبار، وإنما تصرف الرئيس هو الذى يجب النظر إليه على أنه غير مقبول.

هنا تتلون الرواية بالمنظار اليهودى، ولكنها مهمة فى كل الأحوال لأنها تشرح دقائق الصراع بين المنظمات اليهودية وأى رئيس أمريكى، إذ يمضى الكاتب فى شرح المواجهة على النحو التالى:

كان بوش يسعى إلى ضمان مكانه فى التاريخ لتحقيق أغلى هدف فى السياسة الخارجية على صعيد الدبلوماسية العالمية وهو حل الصراع العربى الإسرائيلى، ويحس بان الوقت مناسب لذلك، فقد كان العرب منقسمين وحائرين بسبب ميل صدام للمغامرات، فضلاً عن أنهم لم يعودوا يتمتعون بتأييد الاتحاد السوفيتى لسياستهم العنيدة فى رفض إسرائيل، وكان بوش يعتقد أنهم قد يمكن إغراؤهم بصناعة السلام إذا ما وافقت إسرائيل على إعادة الأراضى «العازلة المتنازع عليها» - طبقًا لتعبير الكاتب الذى لا يعترف بأنها أراض محتلة طبقًا للقانون الدولى بعد أن خدع والده العالم كله بحذف حرفى الألف واللام من قرار ٢٤٢ - والتى استولت عليها إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧.

ولكن إسحق شامير رئيس وزراء إسرائيل حينئذ رفض أن يناقش فكرة مبادلة الأرض بالسلام لأنه اعتبر أن الأراضى المحتلة كلها هى أرض إسرائيل الكبرى، وكان مشغولاً بتوطين الإسرائيليين فى هذه الأراضى المحتلة ذاتها، وكان يحتاج إلى مزيد من الأرض لاستيعاب مليون مهاجر جديد من الاتحاد السوفيتى، أى ما يعادل خمس سكان إسرائيل، الأمر الذى كان سيكلفه ٧٠ مليار دولار أى ضعف الناتج القومى العام لإسرائيل، و«توهَّم» بوش(!) أن حل مشكلة الضفة الغربية أقل أهمية فى نظر إسرائيل من حل مشكلة توطين اللاجئين السوفييت.

وهنا كلمة أخرى مهمة عن هذه المنظمات، التى اتحدت مع اللوبى الإسرائيلى الرسمى لتأييد إسرائيل، فهذه المنظمات كلها كانت تتعمد وتخشى المواجهة مع الإدارات الأمريكية، لأنها جميعاً منظمات معفاة من الضرائب على أساس أنها منظمات دينية خيرية ممنوعة من الاشتغال بالسياسة، وإلاّ فقدت هذه الميزة.

وبالرغم من أن شوشانا كاردن كانت ليبرالية ولا تكاد تطيق سياسات شامير، فإن الجماعات اليهودية كان يتحتم أن تدافع عن إسرائيل، فقررت ألاّ تسمح لأحد بأن يضغط على أو «يبهدل» إسرائيل، فجمعت قيادات المنظمات اليهودية فى نيويورك ودعت إلى مؤتمر صحفى أعلنت فيه أنه بالرغم من تقديرهم لجهود بوش المتعددة فى تهجير اليهود السوفييت فإن عباراته فى اليوم السابق «يمكن أن تخضع إلى تفسيرات مقلقة».. وهى إشارة خفية إلى أنها قد تثير موجة تعاطف مع الرئيس وتفجر طاقات خامدة من كراهية اليهود أو ما يسمونه بمعاداة السامية، وكانت هذه مثل صيحة الحرب للمواطنين اليهود ليهبوا ضد عبارة «القوى اليهودية العاتية»، ذلك أن بوش - والكلام مازال للكاتب جولد برج - يبدو أنه لمس وترًا لم يتوقعه أحد فى أعماق الأمة الأمريكية فبدأت البرقيات والمكالمات التليفونية منذ يوم الجمعة التالى لمؤتمره الصحفى تتدفق على البيت الأبيض تهنئه على «هجومه على اليهود» وهو مالم يكن يهدف إليه.

والواقع أن البرقيات والرسائل والمكالمات كانت بالأطنان بشكل لم يكن يتوقعه مخلوق، بحيث أفزع اليهود - بل والرئيس بوش معًا - وبالرغم من اعتراف شوشانا كاردن بعد ذلك بأن بوش ربما لم يقصد التهجم على اليهود وإنما كان يثير معركة سياسية مع مجلس الشيوخ لإثبات حقه فى صناعة السياسة الخارجية، وأنه اعتذر لها بعد أسبوع بخطاب رقيق يعلن فيه أنه لم يقصد قط أن يثير هذا الجزع بين «الجالية اليهودية» فقد كانت هذه المنظمات قد قررت التخلص من بوش.

وبالرغم من أن ثلثى

والإدارة الأمريكية



اليهود، وعددهم ستة ملايين، صوتوا ضد بوش في انتخابات ١٩٩٨، فقد كان نفوذهم أكبر بكثير من أعدادهم لأنهم يتركزون في الولايات التي تقرر نصف أصوات المجمع الانتخابي، وأنهم يمولون أكثر من نصف أموال الحملة الانتخابية للحزب الديمقراطي، وكانوا نادرًا ما يؤيدون المرشحين الجمهوريين، إذ أعطى ١٠ في المائة فقط أصواتهم لباري جولدووتر، و٤٠ في المائة لرونالد ريجان. ولما كان خطاب ١٢ سبتمبر له وقع الصاعقة على اليهود، واعتبروه «يوم الخيانة» الكبرى في تاريخ اليهود.. حسب كلام الكاتب.

وحاول بوش كل شيء لإرضاء اليهود وكسب ودهم مرة ثانية، واجتمع برؤساء المنظمات اليهودية أثناء حملته الانتخابية، ودعا لأن تضغط أمريكا على الأمم المتحدة في ديسمبر لسحب القرار الذي يقول إن الصهيونية عنصرية بعد عشرين سنة من الكفاح الإسرائيلي، وضغط على سوريا لتهجير اليهود السوريين.

ونشط اليهود ضد بوش، فهزموا كل أنصاره من الجمهوريين مثل ريتشارد ثورنبرج حاكم ولاية بنسلفانيا السابق، وساعدهم على تحطيمه أن الاقتصاد دخل في مرحلة من الركود الطفيف، فاجهزوا عليه!

قال بوش شاكيًا للشعب الأمريكي: إنني أواجه قوى سياسية عاتية، وإنني أقف في مواجهتها وحدي، وواجبي أن أعبر للشعب الأمريكي عما أشعر به بكل صلابة بشأن تأجيل مناقشة القرض، وقال إن الذين يؤيدون إسرائيل يخطئون تمامًا في قراءة مزاج الشعب الأمريكي، وعليهم أن يراجعوا أولوياتهم



وفي عبارة بالغة المعاني، قال الكاتب: «والواقع أن اليهود قوة سياسية لا يستهان بها بلا نزاع، ولكن غلطة بوش أنه صرّح بذلك علنًا»!

كانت قصة الصراع بين الرئيس السابق بوش واليهود هي مقدمة كتاب جولدبرج فقط، ونظرًا لأهمية الكتاب، فسنختار بضع «لقطات» أخرى لها دلالات عميقة على نفوذ وسيطرة وهيمنة هذه الجالية المتناهية في صغر حجمها على المقدرات السياسية كلها. ذلك أنه باستثناء نعوم تشومسكي، وستيفن إيزاكس، عندما كتب الأول عن «التحالف الثلاثي القدري» والثاني عن «اليهود في السياسة الأمريكية»، فإن معظم الكتّاب الأمريكيين الذين تعرضوا للنفوذ اليهودي على السياسة الأمريكية كانوا من غير اليهود، ومنهم ستيفن جرين الذي كتب كتابًا بعنوان «الانحياز» سنة ١٩٨٤، وعضو الكونجرس بول فيندلي الذي كتب عن: «الذين تجرأوا وتكلموا بصراحة» سنة ١٩٨٥ (والذي ترجم إلى العربية) وإدوارد تيفنان «اللوبي» سنة ١٩٨٧، واندرو وليزلي كوبرن عن «العلاقة الخطيرة» سنة ١٩٩١، وجورج بول وهو أعلى سياسي أمريكي تعرّض لهذا الموضوع في كتاب «التعلق العاطفي» الذي كتبه مع ابنه دوجلاس سنة ١٩٩٢.

ومرد أهمية كتاب جولدبرج، فضلاً عن أن الكاتب يهودي، فهو أن النفوذ اليهودي داخل المؤسسات الأمريكية يتعرض لأقل القليل من التحليل والكتابة داخل الولايات المتحدة، بالرغم من كل ما يكتب خارجها، فنحن لا نتحدث هنا عن الكتابات التي تتعرض للمسألة اليهودية ككل في العالم أجمع، أو المشروع الصهيوني، مثل كتابات المفكر الفرنسي روجيه جارودي، أو أي من الكتّاب البريطانيين الذين تشككوا في حجم وحقيقة أبعاد المحرقة اليهودية على يد ألمانيا النازية، فهذه من الممنوعات تمامًا، ولكن حتى الكتب التي ذكرناها سابقًا، مثل كتاب بول فيندلي مثلاً، فإنك لن تجده في أي مكتبة من المكتبات الكبرى، وحتى إذا طلبته سيقال لك أن المورِّد الخاص بنا لا يذكره ولا يتعامل معه، وستجد أن هناك من الكتّاب مثل المؤرخ أرنولد توينبي لا يلقى نفس القدر من الاحترام أو العناية التي يلقاها في أنحاء العالم كله، لأنه كانت له آراء مناهضة لإسرائيل، ومن ثم فقد نفيت آراؤه كما أبعدت أية محاولة للتحليل العلمي الهادىء والمتجرد والعقلاني لخشية كل من يتعرض لها على رزقه وأمنه الشخصي.

يقول جولدبرج إن التاريخ سوف يسجل أنه عندما اقترب القرن العشرون من نهايته، كان يهود أمريكا يواجهون أزمة سياسية عصيبة لم يسبق لها مثيل، فمنذ بدأ تاريخهم في أمريكا منذ ثلاثة قرون ونصف قرن، وربما منذ فجر تاريخهم في الشتات، فإن اليهود لا يواجهون عدوًا أكبر من أنفسهم!

وليس معنى هذا أن كراهية اليهود قد اختفت، بل إن الكثيرين من زعماء اليهود وحاخاماتهم في أمريكا وإسرائيل قالوا إن نهاية القرن العشرين شهدت صعودًا في تيار معاداة السامية مثيرًا للقلق، وإن أعداء إسرائيل بقيادة إيران الإسلامية على وشك الحصول على أسلحة نووية تمكنهم من القضاء عليها بمجرد الضغط على الزر.

ولكن ينبغي للمراقبين المحايدين أيضًا أن يدركوا أن اليهود قد قلبوا هذا التيار كله إلى صالحهم، لاسيما أن واحدة من أعتى الدول الصناعية حاولت أن تقتل كل اليهود بماكينة الحرب، ووقف يهود أمريكا جانبًا عاجزين، وحتى ذلك الوقت كان إنقاذ يهود أوروبا كشيء عارض أو جانبي ولم يكن هدفًا أساسيًا للحلفاء.

وحتى بعد إنشاء دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة صغيرة ولها قدرات عسكرية أكبر من حجمها، عندما كان الصحفيون والدبلوماسيون يتحدثون عن القوة اليهودية فإنهم كانوا يتحدثون عادة عن الجالية اليهودية الأمريكية، حيث برزوا كقوة يشهد لها الناس في شتى أنحاء العالم، وأصبح هناك في العديد من السفارات الأجنبية في واشنطن دبلوماسيون متخصصون في الشئون اليهودية أو قسم خاص بشئونهم لإقامة علاقات طيبة معهم.

وبدأ الناس يشاهدون كيف يجهز اليهود على معارضيهم حتى من الشيوخ والنواب، مثلما تخلصوا من السناتور تشارلز بيرسي والنائب بول فيندلي، بل إنهم أخضعوا التجارة مع الاتحاد السوفيتي لمصلحتهم باستصدار قانون جاكسون - فانيك، وظل هذا القانون قائمًا إلى أن تحطم الاتحاد السوفيتي وانهار، إذ احتفظت الجالية اليهودية بحق الفيتو على كل ما يتعلق بالعلاقات مع الاتحاد السوفيتي.

وبالرغم من أن معاداة السامية اليوم أقل من أي يوم آخر، فإن معظم قياسات الرأي التي أجريت بين أفراد هذه الجالية كشفت عن أن نسبة اليهود الذين يقولون أن تيار معاداة السامية في صعود يتزايد كل يوم، بعد أن كان ٤٥٪ فقط من اليهود سنة ١٩٨٠، يؤمنون بذلك أصبحت نسبتهم سنة ١٩٩٠ - ٨٥٪.

هنا يتخذ الكاتب هذه النقطة ليدحض وجهة نظر هذه الكتب التي ذكرناها جميعًا وهي أن سيطرة اليهود على سياسة أمريكا الخارجية، لاسيما تجاه الشرق الأوسط، لها جانب آخر ربما خفي على غالبية الأمريكيين، وإن لم يغب عن بعض المحللين العرب وهو أن التحالف الأمريكي الإسرائيلي وراءه طرف آخر وهو تجار السلاح.

إذ يقول جولدبرج: إن كل ما يقوله جورج بول صحيح، وهو إن الجالية اليهودية تتمتع بهذا النفوذ كله على سياسات أمريكا بما يزيد من أعدادهم بنسبة هائلة، فهم أولاً يهتمون بالشئون العامة وعلى استعداد لبذل كل جهد في سبيل قضيتهم، وهم يفهمون فهمًا دقيقًا الأسلوب الذي تجري به الانتخابات، ومن ثم فهم ينظمون أنفسهم بقوة لبسط نفوذهم عليه، فضلاً عن أنهم أسخياء في الإنفاق على المشروعات الخيرية، وحاجتهم إلى التكتل مع بعضهم البعض لمواجهة التمييز ضدهم الذي يمارس في كثير من أوجه الحياة في المجتمع الأمريكي، واستطاع قادة إسرائيل استغلال كل ذلك لمصلحتهم.

غير أن هناك وجهًا آخر لهذا التحالف بدأ مع ريتشارد نيكسون، وهو رئيس جمهوري لم ينجح بسبب تأييد اليهود (يعود جولدبرج إلى هذه النقطة فيما بعد ليشرح كيف أن كيسنجر هو الذي وضع القاعدة الخرسانية لهذا التحالف الأمريكي الإسرائيلي) الذي بدأ بصفقة بملايين الدولارات من السلاح، بعد أن كان كل القادة من قبله يحاولون الحفاظ على التوازن بين العرب وإسرائيل، وأسقط نيكسون ذلك كله عندما أعلن أن إسرائيل «رصيد إستراتيجي» في الحرب الباردة، وأخذت أمريكا في عهده مكان فرنسا كمورد أول للسلاح إلى إسرائيل، وقفزت أرقام مساعداتها العسكرية من ٣٠٠ مليون دولار كل عام إلى ٢,٢ مليار دولار، بحيث أصبحت إسرائيل تحصل على أكبر قدر من المساعدات الأجنبية، وأصبح حلفاء إسرائيل وأصدقاؤها في أمريكا لاعبين أساسيين على المسرح السياسي.

والنقطة التي حاول الكاتب إثباتها هي: هل كانت السلطة اليهودية هي التي خلقت التحالف الاستراتيجي أم العكس؟ بمعنى هل يمكن أن نقول «إن هذا التحالف الاستراتيجي هو الذي أعطى ليهود أمريكا هذه السطوة كلها، بما خلقته من تحالف مع كل غلاة الحرب الباردة في أمريكا بما في ذلك الجناح الليبرالي في السياسة الأمريكية.

وهذه لها قصة أخرى تستحق الذكر، عدت إليها بين أوراقي حتى أنقلها بحذافيرها.. ففي مايو سنة ١٩٩٢ عقد مجلس الكنائس من أجل سلام الشرق الأوسط، وهو مجلس حديث النشأة نسبيًا، ندوة مهمة في مجلس النواب الأمريكي، تحدث فيها السفير جيمي ايكنز، سفير الولايات المتحدة السابق لدى المملكة العربية السعودية، والجنرال ماتيتياهو بيليد، أحد قادة حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ بين إسرائيل والعرب، ثم أصبح

عضوًا فى جماعة «السلام الآن» وكانت الندوة بعنوان: «سباق التسلح فى الشرق الأوسط والحاجة إلى إعادة مفهوم الأمن».

وركز السفير ايكنز على أن الحرب الباردة أدت فى النهاية إلى استنزاف موارد الاتحاد السوفيتى وأنهكته إلى حد أنها فتتته. ولكن أعباء هذه الحرب الباردة على البنية الأساسية للاقتصاد الأمريكى لم تكن هينة كذلك، ودلائل ذلك واضحة من خلال المشاكل الهائلة التى تواجهها المدن الأمريكية، وتضاعف الدين القومى بنحو أربعة أضعاف ما كان عليه منذ اثنى عشر عاماً.

وقال ايكنز إن الشعب الأمريكى كان يعتقد أن انتهاء الحرب الباردة سوف يعود عليه بعوائد كبيرة، وأن أمريكا ستحول صناعاتها الحربية كما فعلت فى أعقاب النصر الذى أحرزته فى الحرب العالمية الثانية، وأنها ستوفر مئات المليارات لإعادة بناء أمريكا وتسديد دينها العام. غير أن الحكومة - يومها - قررت تخفيض الإنفاق العسكرى بنسبة ثلاثة فى المائة على خمس سنوات، ولم يختلف الديمقراطيون عن ذلك كثيرًا. إذ اقترحوا تخفيض هذا الإنفاق بنسبة تصل إلى ثمانية فى المائة، ولم يتمكن الرئيس بوش يومها من كسب الأصوات الكافية فى الكونجرس ليستخدم حق الفيتو المخول له، وقال ايكنز إنه عندما قيل للشعب الأمريكى أنه لا ينبغى أن يتوقع أى عائد اقتصادى من السلام، واستمرار الحكومة فى محاولة الإصرار على عدم تخفيض ميزانية التسلح، فقد كان ذلك أحد الأسباب القوية وراء «قرف» الشعب الأمريكى من البيت الأبيض والكونجرس والعملية السياسية برمتها.

إن اللوبى اليهودى يستطيع أن يضيع أو يحطم كل شخصية سياسية فى الولايات المتحدة. ولكنه لا يستطيع تحدى رئيس الجمهورية. ذلك أنه مازالت هناك بعض المقدسات فى أمريكا مثل العلم، والنشيد القومى، واحترام الشعب الأمريكى لمنصب رئيس الجمهورية، مادام لم يخرق القانون، ولا يطيقون أن يتطاول عليه أى أجنبى، ولكن ذلك طبعًا لا يروق للوبى



وقال إيكنز إن سباق التسلح ينطبق على الشرق الأوسط كذلك، فقد واكب هذا السباق، السباق الآخر بين الدولتين العظميين، ولكن آثاره على الشرق الأوسط كانت أكثر دمارًا وتخريبًا لاقتصادياته كلها، ذلك أن الشرق الأوسط فى مجموعه عبارة عن منطقة فقيرة باستثناء بعض الجزر الغنية نسبيًا بينها وهى دول النفط. واستمر إيكنز فى محاضرته وقال إنه حتى بعد أن غيّرت حرب ١٩٧٣ كل المفاهيم السابقة بعد أن خطط العرب لها وخاضوها بكفاءة واستعادوا شرفهم وغيّروا من تفكيرهم وأصبح السلام ممكنًا لأول مرة. فمازال الإنفاق العسكرى ينهك كل دول المنطقة لاسيما دول الطوق المحيطة بإسرائيل مباشرة.

ولكن الجنرال ماتيتياهو بيليد وضع أصبعه على نفس النقطة التى أثارها جولدبرج بعد خمس سنوات تقريبًا . وهى أن أمريكا هى التى قررت حجم المعونة العسكرية لإسرائيل لمصلحتها هى . إذ بدأ حديثه بأن الرئيس بوش أعلن أنه مصمم على تخفيض تدفق السلاح على منطقة الشرق الأوسط. وبناء عليه اتفقت الدول الخمس المصدِّرة للسلاح وهى الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا وبريطانيا والصين، فى يوليو ١٩٩١ على «ضرورة ضبط النفس» بالنسبة لتصدير السلاح إلى دول الشرق الأوسط، غير أن الواقع كان غير هذا تمامًا . وما حدث هو أن زاد تدفق السلاح، ولم تبذل هذه الدول أى مجهود منسق للحد من ذلك. وقال إن مبيعات السلاح لدول المنطقة فى الفترة التى أعقبت حرب الخليج مباشرة، كان نصيب الولايات المتحدة منها وحدها ١٥ مليار دولار فى سنة واحدة، ولا تختلف أوروبا عن ذلك كثيرًا .

ورد بيليد المشكلة كلها إلى المعونة الأمريكية التى تمنحها أمريكا «كهبة» إلى إسرائيل فى كل عام. فقال: «إنه فى خلال الثمانى عشرة سنة الماضية، تلقت إسرائيل منحة سنوية قدرها ١,٨ مليار دولار لتشترى ما تشاء من السلاح».

وقال إنه لا يعرف كيف ولماذا أمكن التوصل إلى هذا الرقم الذى لم تحدده إسرائيل بل ولم تطلبه ولم تكن تحلم به، ولكنه أصبح منحة سنوية إلى إسرائيل، أشبه بالحساب المفتوح، تستطيع إسرائيل أن تشترى بموجبه ما يروق لها من الأسلحة الأمريكية المتطورة، وبمقتضى هذه المنحة، فإنه يتعين على إسرائيل أن تخصص دولارين من عندها مقابل كل دولار تمنحه أمريكا لها، فإذا حسبنا ذلك كان معناه أن إسرائيل تشترى أو تنفق ما قيمته ٥ أو ٦ مليارات دولار من السلاح كل عام، وهى ميزانية الدفاع الإسرائيلية.

وقال الجنرال الإسرائيلى بيليد أنه بالنسبة لشركات السلاح فى أمريكا . فإن هذا يمثل استثمارًا عظيمًا، لأن مقابل منح إسرائيل ١,٨ مليار دولار معناه أن تنفق الدول العربية ما يقرب من ١٠ مليارات من السلاح سنويًا، وهذه مسألة محسوبة بغاية الدقة والذكاء لشراء السلاح من الولايات المتحدة!

وبعد ثمانى سنوات، عاد مفكر إسرائيلى آخر هو ماكسيم جيلان، وهو واحد من حفنة صغيرة للغاية تعد على أصابع اليد الواحدة التى تشعر بالقلق على مستقبل إسرائيل إذا لم تعترف بحقوق الفلسطينيين وبدأت فى الإعداد للعيش فى سلام مع العرب.

فقد قال جيلان فى محاضرة ألقاها فى شهر أكتوبر فى مركز تحليل السياسات الفلسطينية فى واشنطن إن معاهدة فرساى رسَّبت عند الألمان مشاعر الخوف والإحباط والأيديولوجية. فذهبت ألمانيا إلى حروب خططت لها مسبقًا، واندفعت فى عمليات القتل والإبادة الجماعية، ودفع الشعب الألمانى ثمنًا باهظًا. ونفس الشىء ينطبق على أى أمة - مثل إسرائيل - تعانى من هذه العناصر، أو قل المخاطر الثلاثة: الخوف والإحباط والأيديولوجية. وعندما يتحدث شيمون بيريز عن شرق أوسط جديد، فإنه يعرف ما يقوله، وهو: أيها القادة العرب الذين لا تسمحون بأى ديمقراطية بين شعوبكم، دعونا نتعاون ونخلق نظامًا نساعدكم فيه على إبقاء الوضع على ما هو عليه. حيث لا تشارك الشعوب بأى شكل فى حكم نفسها. وهناك قسم من الإسرائيليين يريدون أن يعيشوا مع العرب بشرط أن يبقى العرب تحت سيطرتهم، أما الباقون فلا يريدون حتى هذا. ومستعدون لأن يعيشوا بمفردهم وفى عزلة حتى لو كلفهم ذلك اقتصاديًا.

ثم ينتقل مباشرة إلى العلاقة التى يصفها «بالعلاقة اللصيقة» بين المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية، والمؤسسة العسكرية الإسرائيلية. التى تعطى أمريكا بموجبها الآن ٣,١ مليار دولار سنويًا إلى إسرائيل تستخدم ٩٩٪ منها لشراء طائرات وأسلحة وتكنولوجيا أمريكية متطورة تعود تكاليفها كلها إلى أمريكا، وإلى شركات السلاح ورجال البنتاجون السابقين الذين يديرون هذه الشركات، ورجال الصناعات الإسرائيلية، ومادامت هذه العلاقة باقية فإن أمريكا لن تتخلى أبدًا عن إسرائيل، لأنه ليس أمامها أى سبب يدفعها لذلك. فهذه العلاقة تخلق وظائف وعمالة وترفع سعر الدولار.

وبالرغم من أن جيلان خصص محاضرته عن فكرة طرد الفلسطينيين تمامًا من إسرائيل نفسها ومعظم أراضى الضفة، وميله إلى تحبيذ فكرة توجيه كل هذا الإنفاق العسكرى إلى تحلية مياه البحر فقد عاد مرة أخرى إلى فكرة أن أمريكا خلقت وسيلة فى الشرق الأوسط وليس حليفًا، وسيلة مفيدة لها، وأنه لا يرى أى «برر لأمريكا أن تغير موقفها ولاسيما أن جزءًا من الناخبين يهود، ومن ثم فهم يناصرون إسرائيل مائة فى المائة، ولم يكن ذلك صحيحًا منذ ٤٠ عامًا، لكنه صحيح اليوم. فقد كان هناك يهود ليبراليون مثل ناحوم جولدمان، أما اليوم فإن ٩٠٪ من اليهود وراء أى حكومة فى إسرائيل مهما كانت ميولها.

واللافت أن جيلان - اليسارى الماركسى - يقول: إن اليهود يمولون الحملات الانتخابية خصوصًا لصالح الديمقراطيين، وأنه - برغم انتمائه لليسار - يفضل أن يكسب بوش الابن فى الانتخابات، لأنه أفضل من جور ولو بفارق ضئيل بالنسبة للشرق الأوسط، لأنه أقل ارتباطًا بالحكومة الإسرائيلية عن جور. ذلك أن جور يريد أن يفرض إرادة أمريكا على كل الدول باستثناء إسرائيل، ويريد استخدام إسرائيل فى فرض هذه السيطرة على المنطقة. ففى استطاعة أمريكا أن تفعل شيئًا فى سبيل حل الأزمة لكنها لا تفعل، ولن تفعل، لأنها قامت «بخيار استراتيجى» على حد تعبير عرفات - وهذا مازال كلام جيلان - وهو خطير بالنسبة لأمريكا، وخطير بالنسبة للتعاون بين العرب والأقلية اليهودية التى تسعى إلى السلام فى أمريكا، لأننى لاشك عندى فى أن التيار الحالى سوف يؤدى إلى موجة من معاداة السامية فى النهاية.

وقال إن نمو الجيش الإسرائيلى ليس فى مصلحة المؤسسة الصناعية العسكرية فى أمريكا، ذلك أن النواحى التى تطورت فيها التكنولوجيا العسكرية فى أمريكا ليست نفس النواحى التى تتصل بإسرائيل، وهناك انقسام داخل المؤسسة العسكرية فى أمريكا حول جدوى هذا التعاون، لأن بعض العناصر فى الجيش الذين يريدون تطوير صواريخ وتكنولوجيا أكثر تقدمًا، يقولون إنه لا ينبغى أن نضع كل أموالنا فى دعم هؤلاء الذين قلّت فائدتهم بالنسبة لنا، ومن هنا تستخدم إسرائيل سلاح الصراخ الهستيرى أنهم وحدهم يواجهون العالم كله - الأمر الذى لا علاقة له بالواقع - وواضح أن فريق التكنولوجيا هو الذى سيكسب فى النهاية لأن إسرائيل تكلفهم كثيرًا بلا فائدة منهم، وأصبحت أمريكا تستطيع السيطرة على الشرق الأوسط كله بالأقمار الصناعية، ومن ثم فهى لا تحتاج إلى دبابات أو طائرات، وتكفيها بعض المروحيات لتنفيذ السيطرة التى تريدها. ■

معادلة الانتخابات الإسرائيلية

محمد العرابي (*)

الحياة السياسية الإسرائيلية تتحرك في ظل غياب دستور من المفترض أن يمثل الوثيقة التي تنظم آليات العملية السياسية بصفة عامة، مما يجعل عناصر كثيرة عرضة للتغيير وفقا لتغير موازين القوى وصراع المصالح

كلما اقترب موعد انتخابات رئاسة الحكومة الإسرائيلية تزداد صعوبة التنبؤ بنتائجها بأي قدر من اليقين أو طبقًا لحسابات المكسب والخسارة للأطراف المختلفة، وهي عملية متواصلة ومتكررة سواء في كل انتخابات أو حتى في الفترات ما بين الانتخابات داخل إسرائيل، ولسنا هنا في موضع الحديث عن تحليل وقائع العملية الانتخابية أو مسارها أو الخطاب السياسي لأطرافها من خلال حملاتهم الدعائية وبرامجهم الانتخابية.

وما يعنينا هنا هو الصلة بين عملية السلام الجارية حاليًا، خاصة على مسارها الفلسطيني، وبين الانتخابات القادمة في إسرائيل.

وننوه بداية أن الحياة السياسية الإسرائيلية تتحرك في ظل غياب دستور من المفترض أن يمثل الوثيقة التي تنظم آليات العملية السياسية بصفة عامة، والديمقراطية على وجه الخصوص، مما يجعل عناصر كثيرة عرضة للتغيير وفقًا لتغير موازين القوى وصراع المصالح.

كما نشير هنا إلى أنه لا توجد انتخابات إسرائيلية تم حسمها بتفوق حاسم لطرف على آخر منذ حوالي ربع قرن من الزمان، فالنتائج دائمًا متقاربة - خاصة منذ ابتداع انتخابات مباشرة لرئاسة الحكومة في عهد رابين - حيث يفوز المرشح لرئاسة الحكومة بالمنصب بفارق ضئيل، وهو ما يشكل عنصر تهديد دائم لاستمرار واستقرار الحكومة الإسرائيلية.

ويتصل بذلك أن الانتخابات في إسرائيل صارت بشكل متزايد توظف أحيانًا كحجة وأحيانًا أخرى كمخرج لتجنب الخضوع لضغوط خارجية للتحرك نحو السلام، والتلويح بمخاطر سقوط الحكومة باعتبار ذلك نمطًا تكتيكيًا متكررًا للتهرب من استحقاقات يترتب عليها اتخاذ قرارات بشأن تحقيق التقدم في عملية السلام.

ويتعين علينا أولاً إبراز أنه في الأحوال العادية فإن الانتخابات العامة في أي دولة تكمن محدداتها في تنافس يتركز على مجالات الأوضاع الداخلية من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وتمثل الحالة الإسرائيلية - بصفة عامة منذ معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الموقعة في ٢٦ مارس ١٩٧٩، أو بشكل خاص منذ انتخابات ١٩٩٦ - استثناء من هذه القاعدة.

فأولاً: تعتبر الانتخابات الإسرائيلية حدثًا يتجاوز حدود الدولة وتتخطى تداعياته المستوى القطري وصولاً إلى المحيطين الإقليمي والدولي، سواء بسبب وجود يهود الشتات عبر العالم بتأثيرها الضخم سياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا، أو بفضل ارتباطات دولة إسرائيل ذاتها بدوائر متشابكة من العلاقات والمصالح خارج الحدود.

وثانيًا: ففي إسرائيل ذاتها، كانت القضايا الداخلية هي الأكثر إلحاحًا في الماضي وشكلت معيار التفاضل والاختيار، بل إن البعض فسر انتخاب بنيامين نتنياهو لرئاسة الحكومة الإسرائيلية عام ١٩٩٦ باعتباره دليلاً على وجود نزعة توافق وطني داخل المجتمع الإسرائيلي ترغب في تجاوز محنة اغتيال إسحق رابين ولعق الجراح التي خلفتها، ومنح أولوية لتحقيق الوئام الداخلي دون اكتراث كبير بانعكاسات انتخاب نتنياهو الخارجية، خاصة فيما يتصل بتعطيل مسيرة السلام التي بدأت في مدريد عام ١٩٩١.

أما انتخابات فبراير ٢٠٠١ على مقعد رئيس الحكومة فهي مختلفة نوعيًا وتتجه في مسار متباين عما عرفته إسرائيل منذ نشأتها، فلم يعد التحدي هو بناء الدولة أو تعزيز وحدتها الوطنية أو تماسكها الاجتماعي أو تحديد طبيعة هويتها أو التغلب على مشكلاتها الاقتصادية وتحقيق الانطلاقة العلمية والتكنولوجية أو غير ذلك. بل إن العنوان الرئيسي في الحملة الانتخابية الراهنة - وإن لم يكن الوحيد - هو عملية السلام، خاصة على المسار الفلسطيني، ومدى تقدم المفاوضات بشأن تسوية سواء مرحلية انتقالية مؤقتة أو نهائية، وهي بدورها قد تكون إطارية أو تفصيلية. وسيكون الموقف إزاء عملية السلام هو المؤثر في رأي الناخب الإسرائيلي ونمط تصويته يمينًا أو يسارًا.

ويمكن في هذا السياق أن نفهم تحذير رئيس الوزراء المستقيل ايهود باراك من احتمال اندلاع جولة جديدة من الحرب العربية الإسرائيلية في حالة فوز شارون برئاسة الحكومة، وهو تحذير لا تقتصر بواعثه على اعتبارات التنافس الانتخابي بل يعكس هواجس حقيقية لدى قطاعات لها وزنها في المجتمع الإسرائيلي ونخبته السياسية والثقافية تتخوف من احتمالات انهيار عملية السلام، لما لذلك من تداعيات سلبية على أوضاع الأمن الداخلي والاستقرار الإقليمي وما يرتبط بهما من هروب رءوس الأموال والاستثمارات وتراجع معدلات النمو الاقتصادي.

ولكي نفهم جوهر ما تقدم بشكل أكثر عمقًا، نوضح أنه بالرغم من أن حكومة باراك حققت خلال عام ٢٠٠٠ أعلى معدل نمو اقتصادي وأقل معدل بطالة عرفتهما إسرائيل منذ سنوات طوال، فإن الشعب الإسرائيلي أدرك بوضوح أن اندلاع انتفاضة الأقصى وما ارتبط بها من استخدام إسرائيلي مفرط للقوة ضد المدنيين الفلسطينيين وعزل للمناطق الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، كل هذا أدى إلى تدني معدل النمو في الاقتصاد الإسرائيلي بنسبة ٨٪ في الربع الأخير من عام ٢٠٠٠ مقارنة بالربع الأخير من عام ١٩٩٩، مما يعني بوضوح أن هناك علاقة عضوية غير قابلة للانفصام بين تحقيق تقدم في اتجاه السلام مع «الجيران» الفلسطينيين شركاء الزمان والمكان وبين استعادة عافية الاقتصاد الإسرائيلي ومواصلة انطلاقه إلى آفاق أكثر وعدًا ورحابة في إطار السعي لتميز إسرائيل وريادتها الاقتصادية التكنولوجية في المنطقة.

ومن المهم أن نتعرف على سيناريوهات الانتخابات القادمة، ليس من حيث من يفوز بمنصب رئيس الحكومة، وهو سؤال لم تتعد إجابته حدود التكهنات والرجم بالغيب، بل الأهم هو معرفة خريطة القوى السياسية وأنماط تحالفاتها وثقلها النسبي في الشارع السياسي الإسرائيلي. ويمكن أن نضع أيدينا على خمس كتل سياسية لكل منها وزنها وتأثيرها في الانتخابات القادمة، وهي تتراوح بين اليمين الليكودي، والأحزاب الدينية التي في معظمها يمينية الهوى والتوجه، ثم يسار الوسط ممثلاً في كتلة «إسرائيل واحدة»، وعلى يسارها حزب ميريتس، ثم اليسار الشيوعي، وأخيرًا عرب ١٩٤٨، ولكل من هذه الكتل حساباتها السياسية واعتباراتها التكتيكية.

ويمكن أن نتناول كلاً من هذه الكتل في عجالة. فالأهم هي الأصوات العربية وأهميتها في الانتخابات وهم يقتربون من سدس سكان إسرائيل، إلا أن المرشح لمنصب رئيس الوزراء - أيًا كان لونه الفكري أو السياسي - يتحاشى أن يذكر أنه وصل إلى مقعد رئاسة الحكومة بفضل الأصوات العربية. كما يسعى شارون جاهدًا إلى تفتيت الصوت العربي المشارك في صناديق الاقتراع، ومن تكتيكاته السياسية لهذا الغرض إعلانه أنه لا يمانع في تعيين وزير عربي في حكومته. كما أن انتفاضة الأقصى وفشل كامب ديفيد الثانية عمقا من شكوك عرب ١٩٤٨ تجاه باراك، تمامًا كما فعلت حملة «عناقيد الغضب» في جنوب لبنان تجاه مشاعرهم نحو بيريز خلال انتخابات ١٩٩٦.

وعلى الجانب الآخر، فإن عودة الصوت الروسي إلى أحضان اليمين الليكودي بعد انشقاق حزب «إسرائيل بعاليه» عن الائتلاف الحاكم بزعامة باراك يعني إعادة خلط لأوراق اللعبة السياسية في إسرائيل ويزيد صعوبة حسم التوقعات بشأن رئيس الوزراء القادم. كما أنه يجعل من موقف معسكر السلام وقوى اليسار أكثر صعوبة في ضوء تفكك هذا المعسكر وتصاعد تماسك اليمين وتعزيز قدراته التعبوية، ويتزامن مع هذه التطورات معاودة الأحزاب الدينية - خاصة حزب شاس - اقترابها من اليمين الليكودي.

ولكن هل يعني ما تقدم حسمًا للتوقعات وقفزًا نحو التنبؤ بفوز شارون مرشح اليمين؟ إن هذا الاستنتاج يمكن أن يكون بعيدًا عن الدقة، نظرًا لأن الانتماءات الحزبية للمواطن الإسرائيلي قد تتلاشى - خاصة في حالة انتخابات مقصورة على منصب رئيس الحكومة - ويكون التصويت لمرشح معين ناتجًا عن موقف من عملية السلام مع الفلسطينيين ومدى الرغبة في التقدم فيها وبأي شروط، أي أن الانتماء هنا يكون لموقف ولالتزام بنتيجة أكثر منه انعكاسًا للهوية الأيديولوجية والانحياز السياسي للناخب. وقد يصبح الموقف من عملية السلام مدخلاً للتأثير على المعايير المحددة للحياة السياسية ومجمل العملية الديمقراطية في إسرائيل، بحيث يصبح معيار التصنيف الأساسي هو الموقف من قضية السلام أكثر من أي معيار آخر.

وأخيرًا، نذكر هنا أنه يجب عدم استبعاد العنصر الشخصي في الاختيار فيما بين المرشحين لرئاسة الحكومة الإسرائيلية. بمعنى أنه في حالة بقاء احتمال ولو ضئيل في أن تكون المفاضلة ليست بين باراك وشارون بل بين بيريز وشارون بما يحمله هذا التغير من دلالات في ضوء ما أظهرته استطلاعات الرأي العام في إسرائيل من أنه بينما يتقدم شارون على باراك بنقاط كثيرة فإن المنافسة بين شارون وبيريز ستكون حامية الوطيس مع فرص جيدة لتقدم بيريز غير المرتبط بتعثر عملية السلام - خاصة في الفترة الأخيرة - فإنه سيبقى أمر اتخاذ حزب «إسرائيل أولاً» قرار تغيير مرشحه لرئاسة الحكومة من عدمه مرهونًا باعتبارات تتصل بتحالفات سياسية وحزبية وتوازنات قوى سواء داخل الحزب أو على صعيد المجتمع الإسرائيلي بأسره، ولا تنحصر تلك الاعتبارات في مجرد الرغبة في الاحتفاظ بمقعد رئاسة الحكومة في صفوف الحزب، ناهيكم على أن تكون تلك الاعتبارات مقصورة على هدف إنجاح عملية السلام والتوصل إلى تسوية نهائية، خاصة مع الطرف الفلسطيني.

(*) عمل في السفارة المصرية بتل أبيب

قصة حياة عادية

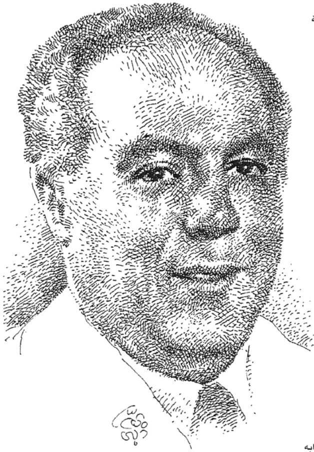
نشرت دار الهلال خلال عام ٢٠٠٠، كتابين فى السيرة الذاتية لا يفصل بين ظهوريهما إلا شهور قليلة، أحدهما بعنوان «قصة حياة عادية» للدكتور يحيى الجمل والثانى بعنوان «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات». والكتابان متقاربان فى الحجم، والمؤلفان متقاربان فى الشهرة، على الأقل فى مصر والعالم العربى، يعرفهما المثقفون المصريون جيدًا، والمهتمون بالشئون المصرية من المثقفين العرب، وإن كان ثانيهما (رشدى سعيد) له من القراء فى خارج العالم العربى أكثر مما للآخر، بحكم ما ألفه من كتب ومقالات بالإنجليزية عن جيولوجية مصر وعن نهر النيل.

لا يسع قارئ الكتابين إلا أن يلاحظ أيضًا أن كلا من المؤلفين يحمل درجة لا يستهان بها من الاعتزاز بإنجازاته، إذ لولا ذلك ما جلس كل منهما لكتابة سيرته الذاتية، فضلاً عن أن العبارات التى تنم عن هذا الاعتزاز كثيرة فى صفحات الكتابين.

فيما عدا هذه الأشياء البسيطة لا يكاد أن يكون ثمة شبه بين الكتابين أو بين المؤلفين. والواقع أن ما بين الكتابين والمؤلفين من فوارق شاسعة، فضلاً عن صدور السيرتين فى نفس الوقت، هو ما جعل لدىّ ميلاً لم أستطع مقاومته للمقارنة. يبدأ القارئ فى ملاحظة هذه الفوارق من أول صفحة ويستمر إلى آخر صفحة، بل ويشعر به القارئ حتى ابتداء من رؤيته لغلاف كل من الكتابين، إذا تأمل هذين الغلافين جيدًا.

فالدكتور يحيى الجمل يسمى كتابه «قصة حياة عادية»، وهو عنوان يوحى برأى معين للمؤلف فى سيرته الذاتية لا يتمشى تمامًا مع ما يرد فى داخل الكتاب من اعتزاز بإنجازاته وجوانب تفوقه.

وصورة المؤلف المنشورة على الغلاف صورة يشع منها الذكاء، ولكنه ذكاء يختلط بدرجة لا يستهان بها من الدهاء تتضح من أن الابتسامة التى ترتسم على الوجه ليست ابتسامة كاملة، بل هى نصف ابتسامة. أما الدكتور رشدى سعيد فيعطى كتابه عنوانًا أبسط «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات»، وهو بالضبط ما تجده داخل الكتاب، كما يحمل الغلاف صورة بديعة له تعكس حبا غامرًا للحياة ورضا تامًا عن النفس تجد لهما أيضًا صدى فى كل صفحة من صفحات الكتاب.



والكتابان، على تقاربهما فى الحجم، يغطيان فترتين متفاوتتين كثيرًا فى الطول. فكتاب يحيى الجمل ينتهى بحصول المؤلف على الدكتوراه فى ١٩٦٢، وهو فى نحو الثلاثين من العمر، بينما لا ينتهى كتاب رشدى سعيد إلا بانتهاء القرن، عندما بلغ الثمانين من عمره. ومن الواضح من نهاية كتاب يحيى الجمل أن المؤلف ينوى كتابة جزء آخر على الأقل، إذ ينهيه بقوله: «وبدأ مرحلة جديدة فى حياته». والأرجح أنه سوف يشجعه على هذا كثرة ما كتب من ثناء على الكتاب فى بعض الصحف والمجلات السيارة، بل ومن جانب بعض الكتاب المرموقين. وقد كان هذا الاعتبار الأخير سببًا آخر حفزنى على كتابة هذا المقال، عسى أن يجد المؤلف فيه من الملاحظات ما قد يؤدى إلى اتخاذ درجة أكبر من الحيطة أثناء كتابة الأجزاء التالية.

مما يشعر به القارئ أيضًا أن د. يحيى الجمل يكتب قصة حياته آملاً أن يقدم لنا فى هذا الكتاب عملاً أدبيًا.

أما رشدى سعيد فإن من الواضح أن كتابه عمل أدبى لم يخطر له على بال وأنه لم يرد من كتابته إلا أن يروى ما حدث له، على أمل أن يتضمن بعض الحقائق المهمة عن السياسة المصرية والمجتمع المصرى التى عرفها خلال حياته ولمسها بيده، ويشفق من أن يطويها النسيان، فتغيب إلى الأبد عن الأجيال اللاحقة من المصريين. ليس لدى رشدى سعيد إذن أى رغبة فى أن يعرض علينا مقدرة أدبية من أى نوع، فهو يستخدم لغة مباشرة وصريحة، ويروى قصته بلسانه، أنا فعلت وأنا قلت، بينما يجتهد يحيى الجمل خاصة فى الفصول الأولى، فى تجميل أسلوبه واختيار عباراته، وهو لا يشير إلى نفسه بلفظ «أنا» (ربما أيضًا من باب التواضع)، بل بلفظ «الفتى» مرة أو «صاحبنا» مرة أخرى. المدهش أن النتيجة كانت عكسية تمامًا (على الأقل فيما يبدو لى) فبينما كاد أن يبلغ أثر كتاب رشدى سعيد فى نفسى ما يتركه فى النفس العمل الأدبى، مثلما وجدت مثلاً لدى قراءة وصفه لشخصية أنور السادات وتصرفاته، أو وصفه لمعاناته الشخصية هو وزوجته بسبب معاملة السادات له، وبسبب انفضاض الناس عنه خوفًا من غضب السادات، أو وصفه لما حدث للواحات الخارجة ولموارد مصر بصفة عامة وما تعرضت له من إهمال وذبول عندما وقعت فى أيدى أشخاص ضعيفى الإحساس بالمسئولية، بينما تأثرت تأثرًا عميقًا بكل هذا، لم ينجح أسلوب يحيى الجمل الأكثر لمعانًا فى أن يترك فى نفسى أثرًا مشابهًا، مما أكد لى مرة أخرى أن لمعان الأسلوب وبريقه لا يكفيان، وأن اللغة فى حد ذاتها لا تصنع أدبًا جميلاً، وإن كانت اللغة الركيكة تخرّبه.

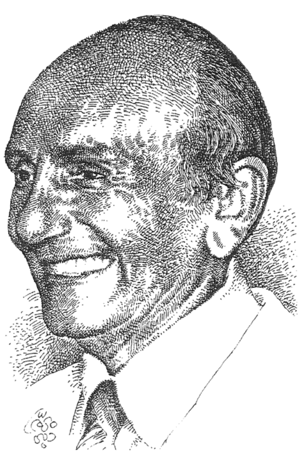
كل الحقيقة أم بعضها؟

لا يجوز أن يطلب أحد من كاتب السيرة الذاتية أن يقول كل الحقيقة، ففى حياة كل منا أحداث ومواقف ومشاعر لا بد أن يخجل منها ويشعر بالندم عليها، ومن حقه أن يخفيها. ولكن من المؤكد أيضًا أن من حقنا على كاتب السيرة الذاتية ألا يقول لنا «أنصاف حقائق»، وأقصد «بأنصاف الحقائق» تلك الأقوال التى لا تناقض الحقيقة، ولكنها قد توحى للقارئ بعكس الحقيقة. وقد صادفت أثناء قراءتى لكتاب د. يحيى الجمل بضعة مواضع مما قد ينطبق عليه هذا الوصف، حتى فيما يتعلق بأمور لم يكن هناك أى بأس ولا ثمة ما ينقص قدر الكاتب لو قال لنا ما الذى حدث بالضبط. من ذلك مثلاً ما قاله عن التقدير (أو الدرجة) التى حصل عليها عند تخرجه من كلية الحقوق. فمن الواضح أنه لم يكن راضيًا عن هذه الدرجة، وهى على أى حال أمر تافه كان من الأجدر ألا يشغل باله به بعد أن حقق كل هذا النجاح فى حياته العملية. ولكنه بدلاً من أن يقول لنا ما هى تلك الدرجة التى حصل عليها وأصابه الحزن بسببها، يمتنع عن ذكرها ثم يحاول أن يفسرها تفسيرًا لا أجده مقنعًا تمامًا. فهو يقول: «يبدو أن اللجنة قد أخطأت خطأ ماديًا إذ رصدت درجة صاحبنا لزميل لم يحصل قط فى حياته الجامعية على درجة امتياز فى أى علم من العلوم». وقد يظن القارئ أن هذا الخطأ المادى يمكن تصحيحه بقليل من الجهد مما لا يعجز عنه رجل له تصميم وعناد د. يحيى الجمل، ولكنه يقول «إنه لم يكن إلى إصلاح هذا الخطأ من سبيل»، ويذكر بعد ذلك

قصة حياة عادية
يحيى الجمل
القاهرة - دار الهلال، ٢٠٠٠

رحلة عمر: ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات
رشدى سعيد
القاهرة - دار الهلال، ٢٠٠٠

وأخرى فذّة



مباشرة ما يوحي للقارئ بأن سبب استحالة تصحيح هذا الخطأ هو أن النتيجة أعلنت يوم ٢٣ يوليو، وهو نفس اليوم الذى قامت فيه الثورة وتوفى فيه عميد الكلية، مما يفهم منه أنه فى هذه الظروف لم يكن من الممكن أن يحصل الطالب يحيى الجمل على الدرجة التى يستحقها.

على العكس من ذلك لا يجد رشدى سعيد غضاضة فى أن يقول لنا إنه فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية كانت نتيجة آخر العام «سيئة للغاية، فقد رسبت فى كل المواد، بما فى ذلك مادة الرسم، ومازلت أذكر وحتى اليوم شهادتى وهى مليئة بالدوائر الحمراء التى لفّت درجاتى فى كل المواد، واضطررت لإعادة السنة. إلا أن هذا الرسوب كان بدء التحدى، فقد عايرنى الأشقاء والأقارب ونبهونى إلى أنى لو رسبت مرة أخرى للحق بى شقيقى الأصغر كمال الذى كان يصغرنى بسنتين وكان ناجحًا على طول الخط. وهكذا أفقت من التوهان الذى عشت خلاله ذلك العام».

بين السياسة والعلم:

يربط د. رشدى سعيد فى سيرته الذاتية ربطًا وثيقًا بين حياته الخاصة والتطور السياسى فى مصر، فهما متداخلان تداخلاً قويًا كما يدل على ذلك عنوان الكتاب. هذا الترابط والتداخل يبدأ من أول صفحة فى الكتاب ويستمر إلى آخره. فبمجرد أن يذكر فى مقدمة الكتاب أنه ولد فى القاهرة فى سنة ١٩٢٠ يتعرض للمناخ السياسى والاجتماعى الذى ساد مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩، وهو فى خاتمة الكتاب، التى تحمل عنوان «العيش فى الغربة» يجد من المهم أن يصف حال المصريين المهاجرين إلى أمريكا ومدى تعلقهم بمصر واهتمامهم بشئونها، وشعورهم بأنهم «فى مازق كبير لأن سياسة وطنهم الجديد تجاه منطقة الشرق الأوسط تتناقص ومصلحة وطنهم الأم، وهم عاجزون عن تغيير هذه السياسة والتأثير فيها». ورشدى سعيد لا يخفى تحيزه لجمال عبد الناصر ومشاعره السلبية نحو السادات، ويذكر فى مدح الأول ونقد الثانى أسبابًا تتعلق بالسياسة العامة أكثر مما تتعلق بحياته الشخصية.

لا تظهر السياسة فى كتاب يحيى الجمل على هذا النحو. فالكتاب يبدأ بداية شخصية بحتة ويستمر كذلك حتى صفحة ٦٥، عندما يأتى ذكر علاقة أخيه سعيد بحركة الإخوان المسلمين، وتردد بعض شبابها المتحمسين لهذه الحركة على أخيه «وكان الفتى (أى يحيى الجمل) يسمع ذلك كله ويعجب به وينفعل معه، ولكنه لم يفكر فى الانخراط فى الجمعية رغم أنه تردد أحيانًا على بعض شعبها. ورغم أنه لم يكن بعيدًا نفسيًا عما تنادى به، ولكن الفتى كان قد اتخذ طريقًا آخر من طرق العمل العام» (ص٦٧). إنه لا يفصح لنا ما هو هذا الطريق الآخر، ولكن القارئ يكتشفه بالتدريج مع استمراره فى القراءة.

فعندما كان طالبًا فى السنة الثالثة بكلية الحقوق كانت هناك مجموعة من شباب الحزب الوطنى تحالفت مع الإخوان المسلمين وتريد أن تخوض معركة انتخابية داخل الجامعة، ضد الوفد. وكان هناك «غزل متبادل» بين التيارين السياسيين، تيار الحزب الوطنى وتيار الإخوان المسلمين، وكان بعض شباب الحزب الوطنى يؤيد هذا التقارب وبعضه يرفضه. أما صاحبنا فإنه «هو والعدد الأكبر من شباب الحزب الوطنى كانوا يرون أن هذه هى الفرصة الوحيدة للبقاء والاستمرار والوجود الفاعل فى الحياة السياسية» (ص٩٠).

ثم حدث فى السنة التالية، أن بدأت حركة الفدائيين ضد القوات الإنجليزية الرابضة على طول قناة السويس، وأخذ بعض شباب الحزب الوطنى فى إعداد كتيبة خاصة بهم.

وعن هذا القول يقول د. يحيى الجمل «ورغم أن صاحبنا كان قريبًا القرب كله من الحركة الوطنية إلا أن اهتمامه كان موزعًا بين الحركة وكتائب الفدائيين من جهة، ودراسته من جهة أخرى، التى كان حريصًا ألا تتأثر وهو فى السنة النهائية، وبين قلبه الذى لم يفتأ ينبض بين الحين والحين متعطشًا دائمًا إلى الحب وإلى الأحلام الرومانسية (ص ١٠٠).

وعندما اشتدت حركة الفدائيين ووقفت أحداث التل الكبير التى استشهد فيها عدد من الفدائيين «لم يكن صاحبنا يهدأ ليلاً ونهارًا وكان ممزقًا بين رغبته فى الحفاظ على تفوقه العلمى من ناحية، واندفاعه للقيام بدور ولو محدود فى الحركة الطلابية وفى الكفاح ضد قوات الاحتلال من ناحية أخرى» (ص١١٦).

فى العشر سنوات التالية لقيام ثورة ١٩٥٢، وحتى انتهاء الكتاب بحصوله على الدكتوراه فى القانون من جامعة القاهرة، لا يحتوى الكتاب على أية إشارة إلى موضوع سياسى، إذ يبدو أن يحيى الجمل قد انصرف فى هذه الفترة من الاهتمام بالسياسة إلى اهتمامات أخرى، أهمها العلم والحب. ويبدو أن رشدى سعيد خلال هذه العشر سنوات قد انشغل بدوره عن السياسة بالعلم والحب. فبعد حصوله على الدكتوراه من جامعة هارفارد فى سنة ١٩٥٠، تزوج فى ١٩٥٣ من زميلته المصرية وداد سعيد، التى كانت قد جاءت إلى هارفارد لتستمع إلى محاضرات أحد أساتذة الفلسفة. ثم عاد رشدى سعيد إلى كلية العلوم مدرسًا بقسم الجيولوجيا، ثم انشغل بتعريب محاضراته فى الجيولوجيا التى كان يلقيها حتى سنة ١٩٥٥ بالإنجليزية، فأعاد كتابتها بالعربية تحت إلحاح وزير التعليم فى ذلك الوقت (كمال الدين حسين) الذى كان يؤمن بضرورة تعريب تدريس العلوم. فكانت هذه أول محاولة لتعريب الجيولوجيا فى مصر. ثم انشغل رشدى سعيد بكتابة كتاب «جيولوجية مصر» الذى أصبح مرجعًا مهمًا فى هذا العلم وترجم إلى عدة لغات.

يبدو أن انشغال كل من كاتبى السيرة الذاتية عن السياسة بأمور أخرى فى العشر سنوات التالية لثورة ١٩٥٢، كان أمرًا طبيعيًا ومفهومًا. فقد كان الاثنان فى بداية حياتهما العملية وفى مقتبل الشباب، فمن الطبيعى أن ينشغلا بترسيخ أقدامهما فى الحياة الأكاديمية من ناحية، وبالحب من ناحية أخرى. ولكن يبدو أن هناك سببًا آخر يتعلق بطبيعة الحياة السياسية فى مصر فى ذلك الوقت (٥٢ ـ ٦٢) إذ كانت هذه الفترة فترة صراع بين قائدى الثورة من الضباط وبين الإنجليز من ناحية، وبين الضباط بعضهم البعض من ناحية أخرى. وقد أبدت الثورة فى تلك الفترة قلة صبر إزاء كل الأحزاب السياسية التى كان يحيى الجمل يتعاطف مع بعضها، وكذلك قلة صبر إزاء أساتذة الجامعة من ذوى الاتجاهات اليسارية، التى كان يتعاطف معها رشدى سعيد.

وإنما بدأ نشاط رشدى سعيد السياسى فى منتصف الستينيات عندما اختير واحدًا من الأعضاء المعينين بمجلس الشعب فى ١٩٦٤. ويتضمن كتابه فصلاً مهمًا عن تجربته كعضو فى مجلس الشعب طوال العشرين سنة التالية (٦٤ ـ ١٩٧٣)، ويرسم فيه صورة قاتمة للغاية، ولكنها للأسف صادقة تمامًا فى رأيى، للحياة البرلمانية

يحيى الجمل



لا يسع من يقرأ كتاب يحيى الجمل إلا أن يلاحظ أنه شديد التقدير لمظاهر العظمة والأبهة والرخاء، سواء تعلقت بالسلوك الإنساني أو بالأشياء المادية البحتة. والظاهر أن هذا التقدير قد بدأ معه مبكرا جدا

في مصر خلال الجزء الأخير من حياة عبد الناصر والنصف الأول من حكم السادات. وهو يلاحظ بحق أيضًا أن دور البرلمان لم يختلف اختلافًا مهمًا في إحدى الحقبتين عن الأخرى، ففي كلتا الحقبتين لم يكن للبرلمان دور يذكر لا من حيث التشريع ولا من حيث الرقابة على السلطة التنفيذية. ففي التشريع كان دور البرلمان مجرد الموافقة على ما تعرضه عليه الحكومة من قوانين، وفي الرقابة لم يتجاوز دور البرلمان نقد وزارات الخدمات دون أن يكون له حق المساس بوزارات ومؤسسات الخارجية والجيش والرئاسة، «ولم يحدث أبدًا أن سُمح للبرلمان بأن يدين وزيرًا أو مسئولاً أو أن يتسبب حتى في إحراجه فضلاً عن دفعه للاستقالة أو تعريضه للإقالة» (ص١٣٢).

كما يرسم هذا الفصل صورة قاتمة أيضًا لتصاعد قوة التيار السلفي في السبعينيات، ولتدهور صورة الأقباط في أذهان المسلمين، وصورة المسلمين في أذهان الأقباط. وهو ما أتيح له رؤيته عندما عُيِّنَ في لجنة تقصي الحقائق في ١٩٧٢، في أعقاب الأحداث الطائفية التي حدثت بمدينة الخانكة في تلك السنة. إنه يصف صورة الأقباط عند المسلمين كما لمسها من عدة لقاءات قام بها كعضو في هذه اللجنة (التي كان يرأسها الدكتور جمال العطيفي) مع عناصر مختلفة من الشعب من سوهاج وحتى الإسكندرية. فهو يقول إن صورة الأقباط عند المسلمين كما لمسها هي أنهم «أثرياء»، كنائسهم وأديرتهم مليئة بالذهب، وهم بخلاء يديرون الاقتصاد المصري من تحت ستار، عددهم كبير في الوظائف، وهم متعصبون ولديهم خطط بعيدة المدى لتنصير مصر وبناء كنائس في كل مكان فيها... وهم يدخلون كليات الطب والصيدلة والتربية للاستيلاء على مهن التطبيب وبيع الدواء والتعليم. ولا تختلف كثيرًا صورة المسلمين عند الأقباط، وإن كان الكلام هنا يتزايد عن الاضطهاد الذي يتعرضون له، والخطط التي تعد لإفقارهم وإذلالهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية أو الحصول على الوظائف» (ص١٣٤).

ولا أظن أن هذه الصورة أو تلك مع كل ما تعكسانه من مرارة، تبعدان كثيرًا عن الصحة، وخاصة أنه يضيف التحفظ الآتي: «إن الصورة التي رسمتها في السطور السابقة عن (الآخر) الديني، هي الصورة التي خرجنا بها من مقابلاتنا مع من كانت لهم علاقة بالفتنة، أو ممن كانوا يعيشون في بؤر التوتر الطائفي، وهي في الأغلب غير الصورة التي يرى بها المصريون عامة (الآخر) الديني. فمعظم الناس ممن لم يتعرضوا للمدرسة أو الجامعة التي وقعت في قبضة المتطرفين الدينيين، أو انضم لهم، أو استمع لدروسهم، يحمل تراثًا عريقًا من التسامح وقبول الآخر واحترام الأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها. وقد قصدت من تسجيل ما سمعته في ميدان العلاقات الطائفية تنبيه المسئولين عن التربية والتعليم والقائمين على مؤسسات المجتمع المدني، لمواجهة هذا الموقف الجديد قبل أن يستفحل، خاصة وأني لاحظت أن الكثير من التوجسات التي ذكرتها والتي تبدو سخيفة وبلا أساس، كان لها صدى وصل حتى إلى آذان صانع القرار نفسه» (ص ١٣٤).

ويفرد الدكتور رشدي سعيد فصلاً طويلاً لفترة رئاسته لمؤسسة التعدين والأبحاث الجيولوجية لمدة عشر سنوات (٦٨ - ١٩٧٧) وهي تجربة فذة تعكس من ناحية إرادة هذا الرجل الصلبة وحبه للإصلاح وتصميمه عليه. ومن ناحية أخرى تعكس ظروفًا سياسية مرّة في فترة كانت من أحلك فترات التطور الاقتصادي والسياسي المصري في القرن العشرين.

ولكن القصة التي يرويها د. رشدي سعيد عن هذه التجربة هي أيضًا قصة محزنة للغاية. فها هو رجل جاد ونشيط ونزيه وطموح ومحب لبلده، يتسلم مسئولية قطاع مهم من قطاعات الاقتصاد القومي، وهي مسئولية هو جدير بها بحكم هذه الصفات، وبحكم خبرته العلمية ودراسته. وهو يتولى هذه المسئولية في ظروف اقتصادية وسياسية بالغة الصعوبة. فالهيئة التي عهد إليه بإدارتها تدير هيئة للأبحاث الجيولوجية وتشرف على تسع شركات للتعدين معظمها كان في حالة يرثى لها عندما تسلمها في أعقاب حرب ١٩٦٧، «فقد أدى احتلال إسرائيل لسيناء إلى أن تفقد الجزء الأكبر من مناجمها التي كانت تقع فيها وإلى أن يُجبر أكثر من ثلاثين ألف عامل ممن كانوا يعملون (بهذه المناجم) على العودة إلى مصر.. كان الجو كئيبًا حقًا: مؤسسة انهارت معظم مقوماتها المادية وعاملون في حالة اكتئاب وشكوى مستمرة دون أن يجدوا أحدًا ليهتم بأمورهم أو يستمع إليهم.

كانت هناك أرامل المفقودين في الحرب واللواتي قطعت عنهن المرتبات ولم تحل مشكلة معاشاتهن، وكان هناك مديرو المصانع الذين كانوا يعتمدون على الخامات التي تصلهم من سيناء والذين جاءوا إليّ يستغيثون من أن مصانعهم قد توقفت، وكان هناك آلاف الموظفين الذين لم يرقوا لسنوات طوال وكان لكل منهم شكوى ووراء كل واحد مأساة، كما كان هناك آلاف العمال المؤقتين الذين عينوا على مكافآت يعيشون وهم خائفون من الفصل. ولم يكن لهيئة الأبحاث الجيولوجية هيكل تنظيمي أو حتى سجل بأسماء العاملين طبقًا لتخصصاتهم. وفوق كل ذلك كانت المخازن مكدّسة دون أي نظام في صناديق لم تكن قد فتحت ومكومة في منطقة خلاء.. وكانت الخرائط والكتب والملفات والعدد في كل مكان فوق الأسطح وفي الطرقات والأحواش.. » .. إلخ.

بدأ رشدي سعيد في إصلاح كل هذا ووضع مشروعات جديدة لتطوير المناجم القائمة وتحديث وسائل استغلالها، واستغلال مناجم جديدة ودراسة ربطها بطريق جديد يصل إلى ميناء الحمراوين، الذي يقع شمال مدينة القصير، وتطويره لكي يصبح صالحاً لاستقبال السفن ذات الغاطس الكبير وقام بدراسة إمكانيات حقل جديد من الفوسفات في أبوطرطور يقع بين الواحات الخارجة والداخلة. فأسفرت عن إمكانية «بناء منجم هائل ينقل صناعة التعدين إلى مستوى العصر وينقل العمران إلى قلب الصحراء» (ص١٠٢).

كل هذه الآمال أصيبت بضربة قاصمة في أوائل السبعينيات، وأخذت آثارها في التفاقم حتى اضطر رشدي سعيد إلى تقديم استقالته في سنة ١٩٧٧ إلى وزير الصناعة «فقبلها في الحال وبعودة البريد وحتى قبل أن يرفعها إلى رئيس الوزراء كما كانت تقضي القوانين» (ص١١٩).

ذلك أنه «توافد على وزارة الصناعة في هذه الفترة وزراء كانوا يتخذون القرارات الخاصة بشئون الثروة المعدنية دون الرجوع إلينا أو إلى أي شخص من المختصين بشئونها. ومن الوزراء من كان لا يعرف شيئاً في شئونها، إلا أنهم كانوا يعملون وفقًا لجدول أعمال خاص أُملي عليهم من الأجهزة ومن أصحاب المصالح الخاصة الذين ارتفع نجمهم في سبعينيات القرن العشرين، وجاء من هؤلاء وزير قام، وفي سرية تامة، بنقل تبعية مشروع فوسفات أبوطرطور من إشراف الهيئة التي أرأسها إلى الجهاز التنفيذي لمجمع الحديد والصلب الذي لم يكن فيه واحد يعرف شيئًا عن التعدين.

واتخذ هذا الوزير ذلك القرار دون إبلاغنا وعلى الرغم من قرار مجلس إدارة الهيئة المختصة بضرورة بقاء المشروع تحت إشرافها حتى تتم دراسة خاماته وجدواه، بل وحتى يتقرر أنسب موقع لاستخراج الخام الذي كان يوجد على طول الهضبة الممتدة بين الواحتين الخارجة والداخلة.

وفي ظني أن هذا الوزير قد جيء به تحت ضغط رجال المقاولات الذين كانوا يدبرون للبدء في تنفيذ أعمال المشروع الإنشائية والتي كنت أرفض القيام بها قبل الانتهاء من دراستنا للمشروع ومعرفة جدواه. ومما يؤكد ظني هذا أن المقاولين كانوا أكبر المستفيدين من نقل المشروع، والذي ما كاد يخرج من إشرافنا حتى ارتفعت على أرضه المباني الشاهقة وبديء في مدّ خطوط الكهرباء والسكك الحديدية وشق الطرق ولما يكن له دراسة للجدوى، كما أنهم كانوا أول من التقط الوزير بعد خروجه من الوزارة وعيَّنوه في خدمتهم.. وفي خلال هذه السنوات الاثنتين والعشرين (حتى سنة ١٩٩٦) أنفق ما يزيد على سبعة مليارات من الجنيهات بُعثرت على المقاولين وبيوت الخبرة الأجنبية التي جيء بها من كل أركان الأرض.. وانتهت بإغلاقه» (ص١١٠-١١١).

لم تتح للدكتور يحيى الجمل هذه الدرجة من الاقتراب من العمل السياسي، على الأقل حتى ١٩٦٢ التي ينتهي عندها كتابه، نحن نعرف أنه اعتلى منصب الوزارة في منتصف السبعينيات ومن ثم فنحن ننتظر منه في الجزء التالي من سيرته الذاتية أن يزوّدنا بحصيلة خبرته في هذا المجال، ونرجو أن يقص هذه التجربة بنفس الدرجة من الصراحة التي اتسمت بها رواية د. رشدي سعيد لتجربته.

النساء في حياة الرجلين:

لا يكثر رشدي سعيد في الكلام عن النساء في حياته، فهن لا يظهرن في الكتاب إلا لمامًا ويختفين بسرعة. إنه يهدي الكتاب إلى بضعة أشخاص من بينهم شقيقته وداد وزوجها قائلاً أنهما: «أضافا الكثير من البهجة والأمل إلى حياتي»، وهو تعبير يمثل طريقة التعبير في الكتاب بأكمله، بسيط ولكنه رقيق، ومن ثم فهو مؤثر. وهو يذكر أمه في فقرة قصيرة نعرف منها أنها كانت من أسرة أكثر ثراء بكثير من أسرة أبيه، مما سمح لها بإرسال البنات إلى مدرسة الأمريكان بالأزبكية التي تخرجت منها أمه في ١٨٩٩» ولم يكن بالدفعة التي تخرّجت فيها أمي غير عشرين فتاة يمثلن كل أو معظم فتيات مصر اللواتي أتيحت لهن فرصة الذهاب إلى المدرسة وكانت معظم الفتيات من الأرمن والشوام، ولم يكن من المصريات الخالصات غير ثلاث». ويذكر أخته إنعام التي أفادت من النهضة التعليمية التي أعقبت حصول مصر على الاستقلال في ١٩٢٢، فقد اختيرت أخته ضمن بعثة حكومية من ست عشرة فتاة من خريجات المدرسة السنيَّة بالقاهرة أوفدتهن الحكومة المصرية إلى إنجلترا، والتحقت هذه الأخت بمعهد للفن التشكيلي لتتعلم الرسم. وعندما عادت بعد سبع سنوات كان لها تأثير كبير في حياة الأسرة، فقد «تغيّر بيتنا تحت تأثيرها، فأعادت تنظيم غرفه، وأضافت عليها لمسة جمالية وملأتها بالرسوم واللوحات، والتي كانت قد رسمتها بنفسها أو اقتنتها، وبالتماثيل التي صبَّتها أو نحتتها خلال دراستها بالبعثة.

كما قامت بتغيير الطريقة التي نتناول بها طعامنا الذي أصبحت له ساعات محددة، نتناوله ونحن جلوس في نظام وبعد أن نرتب المائدة ونضع الشوكة والسكين في المكان الذي ينبغي أن توضعا فيه، ودون أن يسبق واحد منا الآخر في الطعام. وأصبح لنا نحن صغار العائلة ميعاد مبكر للنوم...».

كما قامت هذه الأخت بإلحاق أخيها رشدي سعيد بقسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة، ويقول إن التحاقه بهذه الجمعية كان من أهم ما أثر في تكوينه إذ كان قسم الصبيان تحت رعاية مربٍ كبير (يعقوب فام)، صاحب أفكار رائدة في التربية طبقها في هذا القسم، فكان الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة «ينتظمون في فرق كانت تسمى أندية، كل منها يدير أموره



ورشدى سعيد

> كل هذه الآمال أصيبت بضربة قاصمة فى أوائل السبعينيات، وأخذت آثارها فى التفاقم حتى اضطر رشدى سعيد إلى تقديم استقالته فى سنة ١٩٧٧ إلى وزير الصناعة «فقبلها فى الحال وبعودة البريد وحتى قبل أن يرفعها إلى رئيس الوزراء كما كانت تقضى القوانين»

بنفسه، ينتخب من بين أعضائه رئيسًا وأمينًا عامًا ويقرر برامجه الرياضية والثقافية والترفيهية، ويدخل فى مسابقات مع غيره من الأندية. وشملت هذه البرامج بالإضافة إلى الرياضة البدنية مسابقات القراءة والمناظرات العامة والرحلات والتمثيل والهوايات على اختلافها، والاستماع إلى الموسيقى العالمية والزيارات المنظمة للمتاحف العامة..» (ص٣٦-٣٧).

ثم يصف تعرّفه بوداد التى أصبحت زوجته بقوله «وحدث فى أيام دراستى بجامعة هارفارد أحد أهم وأسعد الأحداث التى غيَّرت حياتى وجعلتها أكثر إشراقًا. فقد تقابلت خلالها بوداد الفتاة المصرية التى حملتها الأقدار لتجىء ولعام واحد استقطعته من بعثتها بجامعة برن مور بالولايات المتحدة.. وأعجبت بهذه الفتاة المصرية وبادلتنى الإعجاب والحب وتعاهدنا على الزواج بعد عودتنا إلى مصر وقد تم ذلك بالفعل فى سنة ١٩٥٣». ولا يأتى ذكر الزوجة بعد هذا كثيرًا فى الكتاب، ولكنك تشعر من المرات القليلة التى يذكرها فيها أنها دائمًا معه، وكأنهما قد أصبحا شخصًا واحدًا.

أما عن النساء فى حياة الدكتور يحيى الجمل فإنه يذكر عن أمه أنها كانت لا تقرأ ولا تكتب ولكنها كانت حادة الذكاء قوية الشكيمة «وكانت أقرب إلى القسوة على نفسها وعلى أولادها لا تكاد تترك خطأ صغيرًا دون أن تعنّف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف. وكانت متحفظة فى عواطفها لا تكاد تعبر عنها أو تبديها».. (ص٣١) وذلك بعكس أبيه الذى كان «الحنان مجسَّمًا فى رجل، كان رجلاً طيبًا بكل ما تعنيه هذه الكلمة عند المصرى العادى من أمور منها الإيجابى ومنها السلبى عند هواة تحليل الألفاظ» (ص٢٧). ولا يخفى الكاتب أنه كان يحس بتعاطف أكثر مع أبيه وبتقدير أكبر لأمه (ص٣٣).

يذكر أيضًا حبه الأول وهو فى الثانية عشرة من عمره، وهو لايزال فى القرية وكان بينه وبين محبوبته قرابة، ثم ضربه أخوها عندما علم بهذا الحب، ولكن سرعان ما أصيبت بالحمى وماتت فلم يطل الحب الأول كثيرًا.

تظهر النساء مرة أخرى أثناء دراسته فى كلية الحقوق، عندما رشح نفسه فى انتخابات اتحاد الطلبة عن طلاب السنة الثالثة، ونجح فعلاً فى هذه الانتخابات. وهو يقول إن أحد أسباب فوزه استعانته بفتيات الدفعة اللاتى كن «رغم قلة عددهن آنذاك يلعبن دورا مؤثرا فى الأغلبية الصامتة. كان عدد الطالبات لا يزيد كثيرًا على عشر طالبات، ولكن هؤلاء الطالبات العشرة كنّ محط أنظار طلبة الدفعة كلها والتى كانت تزيد قليلاً على خمسمائة طالب.. وقد تعاهدت الطالبات على مساعدته والدعاية له وسط أبناء الدفعة» وهو يشير بوجه خاص إلى مساعدة «تلك الفتاة الأخرى التى كان أبوها وكيلاً لمحكمة النقض» (ص٩٢-٩٣).

أما أقوى علاقة يشير إليها بينه وبين امرأة، فهى تلك التى نشأت بينه، عندما كان فى الخامسة والعشرين، وبين امرأة أمريكية تكبره بعشر سنوات، أثناء عمله فى ليبيا، وكانت تقيم هى وزوجها الأمريكى فى طرابلس، بينما يعمل هو فى فزان، فكان يلتقى بها كلما ذهب إلى طرابلس، وهو يصفها بأنها كانت «شعنونة» وقليلة الحظ من الجمال، وإن كانت «مثقفة وحادة الذكاء» (ص٢٢٥). ويصف علاقته بها بأنها كانت «رحلة وعرة وإن كانت قصيرة. وتكررت اللقاءات وأحس أن براكين الشباب المكبوتة قد تفجرت فجأة فى أعماقه. وعاش تجربة لم يعرفها من قبل وغرق فى تجربته تلك حتى أذنيه» (ص٢٤٨).

الكتاب لا يتكلم عن زواجه وأسرته، فهو ينتهى فى ١٩٦٢ والمؤلف لم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر، وإن كان الكتاب يحتوى على إشارة سريعة ربما كانت هى المقدمة لما حدث بعد هذا من زواج. ففى أثناء عمله فى ليبيا قرر فجأة أن يعود إلى القاهرة فى رحلة سريعة لا يذكر سببها. وفعلاً لم تتجاوز الرحلة أربعة أيام «وكان يريد فى هذه الأيام القليلة أن يرى كل الأصدقاء، وأن يرى كل الأماكن ولكنه أدرك أنه ليس إلى ذلك من سبيل، وعندما استيقظ فى الصباح وجد نفسه يتجه إلى المكتب الذى عمل فيه لمدة أسبوع قبل تعيينه فى النيابة العامة والذى يعمل فيه الآن اثنان من أعز أصدقائه».

كان هذا المكتب، مكتب مزراحى باشا وصفوت باشا، من أكبر مكاتب المحاماة فى مصر فى ذلك الوقت ويتولى قضايا بعض من أكبر الشركات والبنوك الأجنبية العاملة فى مصر، وأثناء حديثه فى المكتب مع زميليه القديمين «إذا بفتاة صغيرة تدلف إلى حجرة والدها (صفوت باشا) لكى تصحبه إلى حيث تنتظرهم الأم فى السيارة لكى يذهبوا إلى منزلهم فى ضاحية المعادى»، ويصف الجمل هذه الفتاة التى كان يفكر فى التقدم لخطبتها بقوله:

«إن الفتاة ناضجة ويبدو أنها على قدر من الحياء والخفر وبها ملاحة، حقًا إنها ليست بيضاء وهو يحب البشرة البيضاء، ولكن البشرة لا أهمية لها. المهم هو (الجوهر) ولكن ما يدريه بالجوهر، إنه لا يعرف عنها شيئًا» (ص٢٣٦).

شخصيات تحظى بالإعجاب وأخرى بالسخط

كان لابد أن يصادف كل من المؤلفين خلال حياته العامة، بعض الشخصيات المهمة التى لعبت دورًا ملموسًا فى تاريخ مصر السياسى أو الفكرى أو العلمى، مما يظفر بإعجاب الكاتب أو سخطه.

أما الدكتور رشدى سعيد فيحظى بإعجابه الشديد من بين العلماء المصريين د. محمد عبدالفتاح القصاص، وإليه يهدى رشدى سعيد كتابه (بالإضافة إلى أخته وداد وزوجها وصديق آخر) ويصفه بأنه «صديق العمر».

وهو يتكلم أيضًا بمودة واحترام بالغين عن المرحوم د. جمال العطيفى، القانونى الكبير ووزير الإعلام فى عصر السادات الذى فقد منصبه لأنه، فيما يروى، صدّق الزعم بأن نظام السادات يمكن أن يسمح بجرعة كبيرة من الحرية فى التعبير عن الرأى. ورشدى سعيد يحمل ذكريات عطرة لأستاذه وعميد كليته د. على مشرفة. أما من المفكرين المصريين فيعبر رشدى سعيد عن تقديره الخاص لسلامة موسى.

يعبّر الدكتور يحيى الجمل بدوره عن إعجابه وامتنانه لبعض العظماء الذين التقى بهم فى حياته. من هؤلاء عباس العقاد، الذى حضر يحيى الجمل بعض الجلسات فى صالونه الشهير ولكنه لا يذكر لنا شيئًا مهمًا عن طبيعة المناقشات التى استمع إليها أو عن شخصية العقاد، وإنما يكتفى بالقول بأن صالون العقاد «كان فرصة رائعة للتعرف والقرب من عدد من القيادات الفكرية التى لم يكن يحلم أن يلتقى بها وهو فى تلك المرحلة من العمر» (ص٧٨).

وممن يحتفظ لهم د. الجمل بعاطفة خاصة من أساتذته فى كلية الحقوق الشيخ الجليل عبدالوهاب خلاف، وهو يذكر له قوة منطقه واستنارته وشدة ثقته بنفسه وتيسيره لمادة صعبة (أصول الفقه) حتى تصبح فى مستوى فهم الطلاب، واستطراده أثناء المحاضرة إلى مناقشة موضوعات خارج المادة التى يدرسها وتتعلق بالحياة العامة. ويذكر له أيضًا أنه كان يركب وسائل المواصلات العامة بينما كان كثير من الأساتذة يركبون سياراتهم الخاصة. كما يذكر له رأيه فى الربا، إذ لم يجد الشيخ «خلاف» غضاضة فى أن يتقاضى البنك فائدة من المقترضين وكثير منهم من الأغنياء (مثل عبود باشا) الذين يحققون أرباحًا طائلة من استثمار ما يقترضون، وأن يعطى البنك جزءًا من هذه الفائدة لمن أودعوا أموالهم فى البنك وقد لا يكونون من الأغنياء، وقال إن هذا لا يمكن أن يعتبر من قبيل الربا الذى حرّمه الإسلام. ولكن د. يحيى الجمل يذكر أيضاً ما رواه عن الشيخ خلاف أحد الحاضرين فى صالون العقاد، إذ قال هذا الراوى مستنكرًا أنه رأى الشيخ «خلاف» وهو يسير فى الطريق إلى منزله وفى يده حزمة من الفجل أو الجرجير، فانبرى الأستاذ العقاد يدافع عن الشيخ وقال إنه لا يرى عيبًا فى أن الشيخ «أراد أن يأكل جرجيرًا فاشترى جرجيرا» (ص١٠٥).

يذكر الكاتب أيضًا بإجلال وتبجيل الدكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولى الذى قبل أن يشرف على رسالته للدكتوراة فى موضوع «الاعتراف بالدولة» يبدو أن امتنانه للأستاذ المشرف كان كبيرًا لدرجة أنه عندما أعلن عن حصوله على الدكتوراة «اختلط الفرح بالدموع وأمسك يد أستاذه حامد سلطان، رحمه الله، يريد أن يقبلها فمنعه من ذلك بشدة ومودة فى آن معًا» (ص٣٠٨).

أما الشخصيات التى حظيت بالسخط الشديد من جانب د. رشدى سعيد فأهمها شخصية أنور السادات، الذى وجد فيه أكثر من سبب لإثارة حنقه ونفوره، يقول عنه «على الرغم من أن الرئيس (السادات) كان فى العلن كثير الكلام عن الشعب المعلم صانع الحضارة التى يعود تاريخها إلى سبعة آلاف سنة، إلا أنه كان فى الخفاء غير مؤمن بقدرات هذا الشعب، مفتونًا بالأجنبى....» ويقول أيضًا عنه: «لم يكن للرئيس السادات خلال حياته كلها أية صلة بأى عمل منتج، ويبدو أن الرئيس عبدالناصر عرف عنه هذا القصور فلم يولّه أية وزارة تنفيذية، ولم يكن لأى من الأعمال التى تولاها قبل أن يصبح رئيسًا للجمهورية أية علاقة بالإنتاج» (ص١٨٦).

ويقول رشدى سعيد: «روى لى أحد رجال الإعلام الأمريكيين بأن هنرى كيسنجر كان يتعمد إلقاء كلمات المديح عن حكمة الرئيس ورؤيته الاستراتيجية فى البرامج التليفزيونية، فى الوقت الذى كان يعرف أن الرئيس يشاهد فيه التليفزيون. وقد فعلت هذه الهالة الإعلانية فعلها وعادت للرئيس الثقة وأخذ يعاير الصحفيين المصريين بأنهم لم يكتشفوا عبقريته كما فعل زملاؤهم من الإفرنج» (ص١٨٨).

لا تجد مثل هذا النقد اللاذع لأية شخصية عامة فى كتاب د. يحيى الجمل.

ظواهر الأمور وبواطنها:

لا يسع من يقرأ كتاب د. يحيى الجمل إلا أن يلاحظ أنه شديد التقدير لمظاهر العظمة والأبهة والرخاء، سواء تعلقت بالسلوك الإنسانى أو بالأشياء المادية البحتة. والظاهر أن هذا التقدير قد بدأ معه مبكرًا جدًا، فهو يذكر مثلاً أنه وهو لايزال طالبا فى المدرسة الابتدائية، دخل المستشفى لمرض ألمَّ به ووُضع «فى حجرة فيها سريران فقط»، ولكنه عندما بدأ يقترب من الشفاء وسمح له أن يتحرك قليلاً فى المستشفى «لاحظ أن العنبر الذى كان فيه توجد به حجرة ليس بها إلا سرير واحد. وكان معنى قبول أحد المرضى فى تلك الحجرة أنه صاحب حظوة ومكان كبير، وحرص الفتى أن يعرف من يحتل هذه الحجرة وحده» (ص٤٧) ويقول أيضًا أنه عندما دخل المدرسة الثانوية «ذهب مع والده إلى محلات (عمرافندى) ليشترى تلك البدلة ذات اللون الكحلى التى كان من يراها من أقارب الفتى يثنى عليها وعليه ثناء مستطابًا. وكان الفتى يسر

يحيى الجمل ورشدى سعيد





لذلك سرورًا شديدًا. ومازال حتى يومنا هذا يحب عندما يلبس شيئًا جديدًا أن يسمع رضا عليه أو ثناء ممن حوله». (ص٥٠-٥١). وهو يصف نفسه وهو في سنوات دراسته الثانوية بأنه «كان من علاماته المميزة ذلك الطربوش الذى يلبسه دائما والذى يزيحه إلى الخلف قليلاً على جبهته ويميل به قليلا نحو اليمين. وكانت رقبته أيضًا وهو يسير فيها انحناءة يسيرة، وكلها من علامات الاهتمام بالذات والدوران حولها. وكان والد صديقه يقول دائمًا من باب المزاح إنه يأسى لرقبة الفتى من تلك الانحناءة التى لابد أن دوامها يسبب له ألمًا، ولكن الفتى يتحمله راضيًا لأن ذلك يظهره بالمظهر الذى يريده لنفسه من أنفة واعتداد واعتزاز» (ص٧٥).

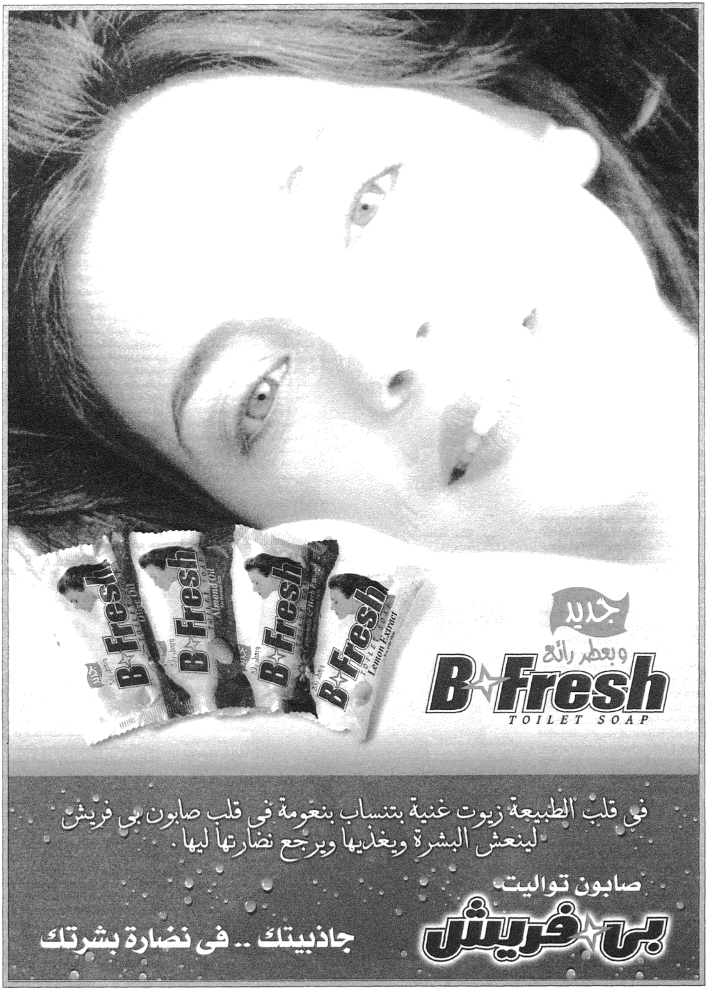
بعد ذلك بسنوات، وأثناء تحضيره للدكتوراة، ذهب مرة لزيارة الدكتور حامد سلطان في بيته، لمناقشة ما كتبه من فصول الرسالة، ويصف د. الجمل هذه الرسالة على النحو التالي:

«أخذته رجفة خفيفة، ما يظن أنه رأى في حياته مسكنًا مثل هذا المسكن في تنسيقه وجماله. كل شيء فيه مرتب وكل شيء فيه جميل.. والحيطان تغطيها لوحات جميلة أصيلة والأرض تكسوها أنواع من السجاد الإيراني الأصيل.. ومازال منذ يومه ذاك إلى اليوم يحب اللوحات ويسعى لاقتنائها ما استطاع إلى ذلك من سبيل، ومازال تعلقه بالسجاد الإيراني واضحًا. وزوّاره يدركون ذلك منذ أن يطأوا عتبات البيت وهو لا يخفى سعادته عندما يبدون تعليقًا جميلاً على البيت...» (ص٢٩٤).

لا يجد قارئ كتاب د. رشدى سعيد مثل هذا الاحتفال بمظاهر الثراء والأبهة، بل إن من الطريف حقًا أن نلاحظ هذا الفارق الصارخ في هذا الصدد بين الكتابين. إن صاحب «قصة حياة عادية»، مفتون بظواهر الأشياء وما يبدو منها على السطح، سواء تعلق بجمال الملبس أو فخامة الأثاث أو جلال المنصب أو لون بشرة من يحب، بينما نجد صاحب «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات» دائم الغوص إلى ما تحت السطح، بحثًا عن حقيقة الشيء وجوهره، الأول يدرس القانون ويختار موضوعًا للدكتوراة لا يتعلق بحقيقة العلاقات بين الناس أو بين الدول بل «بالاعتراف بالدولة»، أما الثاني فيدرس الجيولوجيا ويقضي بقية حياته مكتشفًا لمنجم لم يكن معروفًا، أو منقبًا عن معدن مدفون في باطن الأرض.

وكان لابد أن ينعكس هذا الفارق بين الانشغال بظواهر الأمور والانشغال ببواطنها، في افتتان صاحب «حياة عادية» بعلية القوم ممن بيدهم الحل والعقد والتعيين والنقل والندب والإعارة والترقية، بينما لا يذكرهم صاحب «رحلة عمر» إلا بصدد قضية تتعلق بإصلاح البلد أو تخريبه. ولابد أن يلفت نظر القارئ في كتاب رشدى سعيد أنه عندما ينشر في إحدى الصفحات صورة التقطت لأعضاء قسم الجيولوجيا بكلية العلوم في سنة ١٩٣٩، يذكر تحتها أسماء من ظهروا في الصورة من الأساتذة المصريين والأجانب، ولكنه يذكر أيضًا اسم «عم عفيفي فرّاش القسم»، وكذلك اسم «محمد القاضى» الفرّاش الآخر الواقف في الصف الأعلى. وهو لا يجد غضاضة في أن يكتب وصفًا مطولاً ومؤثرًا للغاية «لعم على»، خادمه المخلص، بمناسبة وفاته في ١٩٧٨ فيقول عنه:

«واجهتني أنا وعائلتي أزمة كبيرة بفقدان (عم على) الذى كان يقوم بخدمتنا منذ أكثر من عشرين سنة، إثر حادث بالطريق صدمته فيه سيارة وهو عائد إلى منزله.. كان عم على -رحمه الله- (على جاد عيسى) أحد أعمدة منزلنا، على الرغم من أنه كان في وظيفة السفرجي، فقد كنا نعتمد عليه في إدارة شئون منزلنا، وكان يشرف على نظافته وترتيب حديقته وشراء حاجاته وإعداد طعامه وإرسال بريده وتسلمه وإيداع وسحب الشيكات والنقدية من البنوك، كما كان يحافظ على أولادى عندما كنا نضطر للخروج من المنزل ونتركهم وحيدين فيه.. وكانت أمانته فائقة ومواعيده مضبوطة يستطيع الواحد أن يضبط ساعته عليها.. كنت أنا ووداد والأولاد نتركه وراءنا طيلة النهار وحيدًا في الفيلا التي أصبحت معروفة باسمه بين سكان المنطقة. وكان عم على طويل القامة أسمر اللون وسيم الشكل حسن الهندام، قفطانه الأبيض يكاد يقطر بياضًا.. وكان بيني وبينه صداقة ومحبة كبيرة، وكنت أقضى الوقت الطويل في الحديث معه، فقد كان على وعى سياسى يفوق وعى الكثيرين ممن كان علىّ أن أتعامل معهم، وكان يتابع الأخبار عن طريق الراديو، وارتفع قدرى عنده عندما سمع في إحدى نشرات أخباره عن مقابلاتى مع عبدالناصر، وكان عم على شديد التدين لا يترك فرضًا، وله احترام كبير للأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها، كما كان شديد الاحترام والحب لامرأته.. كان بعض زملائه ينعون عليه عمله عند الأقباط، ولكنه كان يصدهم ويأتيني شاكيًا وهو في حزن شديد على ما آل إليه فهم الدين على أيدى هؤلاء الجهّال.. كان عم على رجلاً نبيلاً، كلمته واحدة لا يعرف اللف والدوران، يحترم عمله ومواعيده والتزاماته، وصادقًا مع نفسه ومع غيره، وحاملاً لتراث عريق من الحضارة لم تفسده مدرسة أو تطلعات لم يكن بالإمكان تحقيقها، وقد وجدنا تعويضه صعبًا» (ص١٧٢-١٧٣). ■


جديد
وبعطر رائع
B Fresh
TOILET SOAP
فى قلب الطبيعة زيوت غنية بتنساب بنعومة فى قلب صابون بى فريش
لينعش البشرة ويغذيها ويرجع نضارتها ليها .
صابون تواليت
بى فريش
جاذبيتك .. فى نضارة بشرتك

"الأخوان جريم" حكاية الحكايات

توماس أونيل

■■ منذ زمن بعيد، عاش فى ألمانيا أخوان يحبان القصة الجيدة - تلك التى يختلط فيها السحر بالمخاطرة، والملوك بالأوغاد. وكصبيين، لعبا ودرسا سويا، وقضيا طفولتهما فى مدينة صغيرة، لم يفترقا أبدا. لكن، فجأة وعلى غير انتظار، توفى والدهما، وحل الفقر بالأسرة. اعتلَّت صحة أحد الأخوين؛ وشغل الآخر بمتطلبات الحياة. وفى المدرسة، التقيا برجل حكيم قادهما إلى كنز - مكتبة للكتب القديمة تحوى حكايات تفوق كل ماسمعاه سحرا. وبوحى من هذا، شرع الأخوان فى جمع حكاياتهما الخاصة، والحكايات الشعبية ومعظمها على لسان النساء، شابات وعجائز. وسرعان ما أصبح للأخوين كنزهما الخاص - كتاب للحكايات الخرافية التى فتنت الملايين فى أرجاء الأرض على مدار الأجيال التالية.

أطلق الأخوان جريم، جاكوب وويلهلم، على مجموعة قصصهما حكايات الأطفال والأسرة، وصدرت أولى طبعاتها السبع فى ألمانيا عام ١٨١٢. وتضم قائمة المحتويات أسماء العديد من الحكايات الخرافية الشهيرة : سندريللا، الجمال النائم، سنو وايت، رمبلستيلتسكين (وتعرف أيضا باسم القزم وابنة الطحان - المترجم)، ذات الرداء الأحمر، رابونزل، هانزل وجريتل، الضفدع الملك. وفى ثنايا صفحات الكتاب، نلتقى بعشرات الشخصيات الأخرى - حشد من الساحرات، والخادمات، والجنود، وزوجات الأب، والأقزام، والذئاب، والشياطين. وتمثل القصص المائتان والعشر لمجموعة جريم، المستمدة فى معظمها من الروايات الشفهية، أنطولوجيا للحكايات الخرافية وخرافات الحيوان والملح الخرقاء والاستعارات الدينية، التى لايضارعها شىء حتى يومنا هذا.

لقد تغلغلت حكايات جريم الخرافية، كما يطلق عادة على نسختها الإنجليزية، فى ثقافات العالم. يشهد على هذا ترجمة المجموعة إلى مايزيد على ١٦٠ لغة، من الإينوبياتية فى القطب الشمالى إلى السواحلية فى أفريقيا. وفى الولايات المتحدة، يختار القارىء من بين ١٢٠ طبعة. ومجموعة جريم تنافس الإنجيل، من حيث النشر. وقصصها وأبطالها تقفز باستمرار من بين الصفحات إلى كل وسائل التعبير الأخرى : المسرح، الأوبرا، كتب الرسوم الهزلية، الأفلام، اللوحات، موسيقى الروك، الإعلان، الأزياء. وقد شيد اليابانيون، الذين ربما كانوا أكثر المعجبين بالأخوين جريم، حديقتين مستلهمتين من هذه الحكايات. وفى الولايات المتحدة، شكلت المجموعة جانبا كبيرا من المواد الخام التى أسهمت فى تدشين ديزنى كعملاق فى مجاله. ولم تجد سندريللا وسنو وايت صعوبة فى الحفاظ على مكانتهما وسط الأولاد الجدد، سواء كان بيج بيرد أو بارت سيمبسون.

وبالنسبة للأخوين، فإنهما يعتبران روادا فى مجال أبحاث الفولكلور. وقد ترك أسلوبهما المصفى فى القص الخرافى - كان الأخوان جريم يبذلان جهدا كبيرا فى تحرير وإعادة صياغة مسودات المرويات - أثره على أجيال من كتاب الأطفال، ومهد الطريق أمام أساطين هذا الفن، من هانز كريستيان أندرسون إلى موريس سنداك. لكن قصص الأخوين جريم ليست موجهة للصغار وحدهم. وحسب قول الفريد كليهانس، راوى القصص المحترف فى ألمانيا، فإن «سن سماع هذه القصص الخرافية هى من ثلاث سنوات وحتى الممات. فعالمنا يبدو تقنيا وباردا. وكلنا بحاجة إلى هذه القصص كى تبعث الدفء فى أرواحنا».



إن مثل تلك الشهرة الجارفة يمكن أن تصدم الأخوين المتواضعين. فخلال حياتهما، حققت المجموعة مبيعات متواضعة فى ألمانيا، حيث لم يزد عدد النسخ المباعة، فى البداية، على عدة مئات سنويا. بل إن الطبعات الأولى لم تكن موجهة للأطفال. فلم يهتم الأخوان بالرسوم، وشغلت الملاحظات العلمية نفس مساحة الحكايات تقريبا.

وكان جاكوب وويلهلم يريان نفسيهما دارسين وطنيين للفولكلور، لا كمرفهين عن الأطفال. وقد بدآ عملهما فى وقت تفسخت فيه ألمانيا، على يد فرنسا نابليون، إلى خليط من الإقطاعيات والإمارات. وكانت نية الحكام الجدد متجهة نحو القضاء على الثقافة المحلية. وكشباب، وباحثين مجدين، تعهد الأخوان جريم مجموعة الحكايات الخرافية كوسيلة لإنقاذ التراث الألمانى الشفاهى المهدد.

وفى الولايات المتحدة، القرن التاسع عشر، كان كثيرون من المدرسين والآباء ورجال الدين يأخذون على المجموعة محتواها الفج وغير المتحضر. ويشجب أحد المعلمين الأمريكيين المجموعة فى ١٨٨٥، بقوله : «تعكس الحكايات الخرافية بإخلاص جلى مجمل منظور وثقافة العصور الوسطى بكل انحيازاتها الجامدة وفجاجتها وبربريتها». كما كانت العقوبات المخيفة الموجهة إلى الشخصيات الشريرة فى القصص موضع غضب ورفض البالغين. ففى النص الأصلى لقصة سنو وايت، تُجبَر زوجة الأب الشريرة على الرقص حتى الموت وهى ترتدى حذاء حديديا أحمر شديد الحرارة. وفى «الخادمة الأوزة»، تُجرد الخادمة الخائنة من ملابسها ويلقى بها فى برميل تتناثر فيه المسامير الحادة، وتُجرجر عبر الشوارع. وحتى يومنا هذا، فإن بعض الآباء الحمائيين يخجلون من حكايات الأخوين بسبب العنف المعروف عنها.

وعلى الرغم من الإقبال الضعيف الذى صادفته فى بعض الأحيان حكايات الأطفال والأسرة، فإن قصصها نجحت فى الرسوخ فى أعماق الجمهور. ولم يكن للأخوين أن يتوقعا أن يتزامن مع ظهور عملهما ازدهار كبير لأدب الأطفال فى أوروبا. وكان الناشرون الإنجليز فى الطليعة، حيث أصدروا كتبا فاخرة مزودة بالرسوم، مثل جاك وساق الفاصوليا ومجموعات أنيقة من الحكايات الفولكلورية،

وكل هذا من أجل إرضاء جمهور حديث التعلم ممن يلتمسون الأفكار النبيلة للأطفال فى سن الحضانة. وعندما رأى الأخوان هذا الجمهور الجديد، شرعا فى العمل من أجل تنقية وتهذيب حكاياتهما، التى ظهرت قبل ذلك بقرون مثلما ينبت زرع الفلاح من الأرض. وعلى يد الأخوين، أصبحت الأمهات القاسيات زوجات أب بغيضات، وصار العشاق غير المتزوجين أطهارا، والآباء مغتصبو الحُرم أعيد تصويرهم فى صورة الشياطين.

وفى القرن العشرين أصبح لحكايات الأخوين جريم الصدارة فوق أرفف غرف نوم الصغار. ولم لا؟ فالقصص تُقرأ مثل أحلام تتحقق : صبية متأنقون وفتيات جميلات، التسلح بالسحر، والانتصار على العمالقة والساحرات والوحوش البرية. إنها كائنات تفوق الكبار المزعجين والأنانيين حيلة ودهاء. ومن المحتم أن يقع الولد والبنت فى غرامها وأن يتعايشا معها بسعادة، حتى بعد الانتهاء من قراءتها، ويعيدا قراءتها مرة بعد أخرى.

ويداوم الآباء على قراءتها لإقرارهم بما تتضمنه القصص من دروس وإرشادات : احفظ وعدك، لاتتحدث إلى الغرباء، اجتهد فى عملك، أطع والديك. وحسب الأخوين، فإن المجموعة تعد «دليلا للسلوك القويم».

وقد وقع الأمريكيون فى غرام حكايات الأخوين جريم عندما قدم والت ديزنى، فى ١٩٣٧، فيلم الرسوم المتحركة سنو وايت والأقزام السبعة، كواحدة من ثلاث معالجات حققت الشعبية لديزنى. وعند تحويل القصة القصيرة إلى فيلم موسيقى مدته ٨٠ دقيقة، لجأ ستوديو ديزنى إلى تجميل المادة عن طريق إعطاء الأقزام أسماء مثل sneezy و happy. وفى فيلم سندريللا (١٩٥٠)، صقل ديزنى الحبكة بإضافة مركبة تتحول إلى قرعة عسلية عندما يحين منتصف الليل. وقد تعرضت نصوص الأخوين جريم للعديد من التعديلات والتفسيرات، غالبا بهدف حذف ما قد تحتويه من أمور تثير الاعتراضات مثل العنف الموجه للأشرار، أو جعل الموضوعات أكثر تناسبا مع الذوق المعاصر، وهو ما لانراه إلافى الطبعات المنقحة. ويتساءل غلاف إحدى الطبعات المعاصرة، بحزن، عما إذا كانت كل محاولات إعادة القراءة لم «تقلل بصورة كبيرة من سطوة الحكايات فى التأثير على مشاعرنا والاستئثار بخيالنا».

وفى الصف الرابع بإحدى مدارس شتيناو بألمانيا، وهى البلدة التى قضى فيها الأخوان جانبا من طفولتهما، استمعت إلى الفريد كلاينهانز، المعارضة للروايات المتزمتة، تسأل الأولاد والبنات عما فعلت الأميرة لتحول الضفدع إلى أمير فى ذروة «الملك الضفدع»، أول حكاية فى مجموعة الأخوين جريم. وصاح الأطفال : «أعطته قبلة». وقالت كلاينهانز : «لا. إنها قذفت بالضفدع القبيح إلى الحائط بكل قوتها، واستيقظ ليجد نفسه أميرا. هذا ماتقوله القصة الحقيقية». ونظر الأطفال إليها غير مصدقين.

لقد ألقى الباحثون والمتخصصون فى علم النفس، بتعنتهم، بغلالة مضللة على القصص، وذلك بتجاهلهم التساؤل حول مغزاها. هل قذف الضفدع يرمز إلى اليقظة الجنسية



لقد تغلغلت حكايات جريم الخرافية، كما يطلق عادة على نسختها الإنجليزية، فى ثقافات العالم. يشهد على هذا ترجمة المجموعة إلى مايزيد على ١٦٠ لغة، من الإينوبياتية فى القطب الشمالى إلى السواحلية فى أفريقيا. ومجموعة جريم تنافس الإنجيل، من حيث النشر. وقصصها وأبطالها تقفز باستمرار من بين الصفحات إلى كل وسائل التعبير الأخرى : المسرح، الأوبرا، كتب الرسوم الهزلية، الأفلام، اللوحات، موسيقى الروك، الإعلان، الأزياء

للأميرة. كما يؤكد عالم النفس الفرويدى برونو بتلهايم، أم أن الأميرة تقدم نموذجا للدور النسوى، من خلال تحديها للسلطة الأبوية لوالدها الملك، كما يتساءل لوتز روريش الباحث الفولكلورى الألمانى؟. أو ـ ربما ـ كان الضفدع مجرد ضفدع.

كذلك، فقد سقطت الحكايات فريسة للمنظرين ورجال الدعاية. فمنظرو الرايخ الثالث حولوا ذات الرداء الأحمر إلى رمز للشعب الألمانى، الذى يُستنقذ من براثن الذئب اليهودى الشرير. وفى نهاية الحرب العالمية الثانية، منع قادة الحلفاء نشر حكايات جريم فى ألمانيا باعتبار أنها تدعم وحشية النازى.

وفى الجامعات الأوروبية والأمريكية، كانت حكايات جريم، خلال السبعينيات، موضع الازدراء على اعتبار أنها تروج لسيادة منظور نسوى للعالم. فعلى الحوائط بألمانيا شوهدت عبارة «الجنون مصدره الحكايات الخرافية». كما أعيدت كتابة بعض القصص بما يتلاءم مع بعض الأذواق السياسية. وفى طبعة منقحة من «سندريللا»، على سبيل المثال، نرى البطلة تنظم نقابة للخادمات المحليات، مما جعل الملك يقبض عليها، وبعد خروجها من السجن تهاجر إلى الولايات المتحدة هربا من طغيان الملوك والملكات. وعندما سئل برنارد لاور، مدير وأمين متحف الأخوين جريم فى كاسل، عن سر هذا الكم من التفسيرات من قبل المحللين النفسيين والباحثين والمنظرين، نظر إلىّ محتجًا بحزن، وقال: «الحكايات تحف فنية! إنها ليست وجبات يومية».

وحيث إن جغرفيا حكايات جريم (الغابات المنذرة بالسوء، والقلاع الحصينة، والأكواخ التى تضيئها النار وشوارع القرى الصاخبة) قد أسرتنى منذ الطفولة، فقد ذهبت إلى ألمانيا لمعرفة ما إذا كان بإمكانى اقتفاء أثر خطوط خريطتى التى تخيلتها، ومحاولة اكتشاف حقيقة هذين الأخوين وكيف أصبحا أبرز رسامى خرائط الوهم الجميل. كانت خطتى تتضمن زيارة بلدات فى هسه حيث عاش الأخوان وسعيا إلى من حكوا لهما القصص، ومعرفة إلى أى مدى حوَّر الأخوان ما سمعا. وكان على أن أتجول فى الطرق الخلفية لأرى ما إذا كانت المناظر التى استحضرتها الحكايات الخرافية لازالت باقية فى ريف هسه.

عندما غادرت فرانكفورت وناطحات سحابها الزجاجية باتجاه الشرق، قاصدا بلدة جريم، كانت الثلوج ترسم خطوطا على الأرض. فباستثناء سنواتهما الأخيرة ببرلين، قضى جاكوب وويلهلم معظم حياتهما فى بلدات صغيرة ومدن إقليمية من مدن ولاية هسه المعاصرة بالقطاع الأوسط من ألمانيا، بالقرب من ـ ما كان يوما ـ الحدود مع ألمانيا الشرقية. وباستثناء شريط الطرق الألمانية العريضة والمبانى الأسطوانية المعدنية الجامدة على جانبيه، فإن ريف هسه اليوم يبدو مألوفا للأخوين جريم. القرى ذات الأسقف الحمراء تستكن فى ثنايا التلال، وعلى طول أودية النهر.

وترتفع القلاع الحجرية وسط المرتفعات القريبة، والأبراج والحوائط التى تنبت فيها الأعشاب. وتمتد الحقول التى سينضج قمحها وبنجرها قريبا نحو الغابات الكثيفة التى تحيط بالأفق إحاطة الإطار بالكليشيه.

ولد جاكوب وويلهلم، أكبر إخوتهما، يفصل بينهما عام واحد، فى منتصف ثمانينيات القرن السابع عشر فى هاناو، وهى بلدة سوق تبعد عن فرانكفورت مسيرة أقل من يوم بالحافلة. درس أبوهما «فيليب»، ابن رجل الدين، القانون وعمل موظفا ببلدية هاناو، إحدى وظائف الطبقة الوسطى المأمونة. وكان الأب جريم يركز فى وعظه على الإيمان فى الحياة والمثابرة فى العمل والولاء للأسرة. أما أمهما «دوروثيا»، فقد كانت تتيح للأولاد حرية التجوال فى أرجاء البلدة، حيث ربَّت فيهما ـ كما لاحظ ويلهلم فيما بعد ـ «روح هواة الجمع» بينما هما يطاردان الفراشات والحشرات.

لم يبق أثر لمكان ولادة الأخوين فى هاناو. فقد حل بها الدمار بفعل القصف الجوى خلال الحرب العالمية الثانية، كما هو الحال بالنسبة لمعظم المنازل التى عاشا فيها. وهناك تمثال للأخوين فى مواجهة قاعة المدينة. ويمثل التمثال رجلين بشعر طويل يرتديان الفراك ومستغرقين فى قراءة أحد الكتب، أعظم متعهما. وكثيرا ماترى السائحين وقد تجمعوا عند قاعدة التمثال، وأنوفهم ملتصقة فى كتبهم، التى عادة ماتكون دليلا للسياحة. والتمثال يشير إلى بداية طريق الحكايات الخرافية الألمانى، والذى يبلغ طوله ٣٧٠ ميلا. ويتعرج فى أرجاء وسط ألمانيا إلى مواقع ترتبط بالأخوين أو إلى نماذج لأماكن تدخل السائح فى جو إحدى القصص الخرافية.

بحلول عام ١٧٩١، كانت الأسرة قد انتقلت إلى شتيناو، وهى مركز تجارى صغير آخرفى الشمال الشرقى، حيث تولى الأب منصب قاضى مقاطعة. وقد عاش الأخوان عيشة طيبة فى بيت من الحجر ذى أبراج، تمت توسعته ليصبح مقرا لمحكمة المقاطعة. وهو قائم حتى اليوم كمتحف لمخطوطات الأخوين وتذكاراتهما، إلى جانب معروضات من الرسوم المعاصرة للقصص.

ومثل أبطال الحكايات الخرافية، صادف الأخوان حظا عسرا وعقبات جمة قبل أن يلتقيا بالرجل الحكيم الذى انتشلهما من الظلمات. وقد تم اللقاء فى جامعة ماربورج، حيث التحق بها جاكوب عام ١٨٠٢، لدراسة القانون ولحق به ويلهلم فى العام التالى. وفى محاولتى لاقتفاء أثرهما، طلبت العون من روتروت فيشر، وهى دارسة للحركة الرومانتيكية الألمانية. وقد قادتنى، وهى تتدثر بعباءتها الصوفية وتحمل على كتفها شنطة كتب، عبر شوارع ضيقة منحدرة تعج بالطلبة. وانحرفنا إلى شارع بارفوسر، مرورا بالمبنى نصف الخشبى الذى اتخذه الأخوان مسكنا عندما كانا طالبى قانون فقيرين، وبدأنا فى الصعود نحو مرتفعات ماربورج.

قالت فيشر : «نحن نعرف من خطابات جاكوب أنه سار فى هذا الطريق مرات كثيرة. وفى إحدى المرات شكا من أن عدد الدرجات فى الشوارع أكثر من سلالم المنازل». وتجاوزنا كنيسة قوطية، ينبعث منها صوت أرغن، إلى منزل حجرى ذى طوابق ثلاثة أسفل حصن البلدة تماما. فى هذا المكان، تاثر أستاذ قانون أرستقراطى شاب ، هو فردريش كارل فون سافينى، لنهم جاكوب للتعلم، وفتح مكتبته الخاصة أمام الأخوين جريم. وكان من شان هذا تغيير حياة جاكوب. فقد كان يقضى الساعات منكبا على مجموعة سافينى التى تضم مخطوطات نادرة حول ملاحم وحكايات أبطال العصور الوسطى. وقد أيقظت هذه التجربة فى جاكوب شغفا لفك غموض الأدب الألمانى القديم وحكاياته الفولكلورية وصونها، كما أثرت بدورها فى أخيه الأصغر.

لم يكن جاكوب يبدى همة ونشاطا. فقد كان هذا القصير القوى ميالا، بطبعه، إلى العزلة، يكرس كل كيانه للبحث فى الكتب. أما ويلهلم، فقد تزوج، فى التاسعة والثلاثين من عمره، من دورتشن فيلد إحدى صديقات الطفولة وابنة صيدلى، وأحد المصادر الهامة لقصص المجموعة. وكان جاكوب، الذى عاش حياة العزوبية طويلا، هو الشريك الأبرز من الوجهة الفكرية، حيث تصدى للجانب الأكبر من المبادرة فى مشروعاتهما. على أن الأخوين عملا معا على نحو جيد، ووقعا ماتوصلا إليه ببساطة هكذا : «الأخوان جريم».

بدأ أول تعاون بينهما، حكايات الأطفال والأسرة، بصورة مرتجلة تقريبا. فخلال انغماسهما فى تحرير وترجمة مخطوطات العصور الوسطى، بدأ الأخوان جمع الحكايات الخرافية من أجل صديق لهما يعد لإصدار مجموعة من الأدب الفولكلورى الألمانى. وبعد عدة سنوات استطاع الأخوان جمع ٤٩ حكاية، قليل منها من الكتب القديمة والباقى من خلال معارف شخصية فى كاسل. لكن عندما أخفق الصديق فى نشر المجموعة، قرر الأخوان التوسع فى عملهما ونشر كتابهما الخاص.

ولابد أن الظروف المعيشية قد أصابت جهود الأخوين لجمع الحكايات الخرافية بالارتباك. فقد توفيت أمهما فى عام ١٨٠٨. وصارت الأموال شحيحة. وعن طريق العمل كأمين مكتبة بمقر الحاكم الفرنسى البغيض، استطاع جاكوب بالكاد أن يرعى أفراد أسرته الخمسة. فقد كان ويلهلم مصابا بالربو وضعيف القلب وغير قادر على العمل. وفى عام ١٨١٢، العام الذى صدرت فيه الحكايات الخرافية للمرة الأولى، كان آل جريم يعيشون على وجبة واحدة فى اليوم - وهو ما يمكن أن يفسر لنا لماذا تعانى كثير من شخصيات كتابهما من الجوع.

وعلى الرغم من ظهور طبعات جديدة من الحكايات الخرافية حتى عام ١٨٥٧، أى قبل سنتين من وفاة ويلهلم، فإن جمع كل الحكايات الخرافية الشفاهية تقريبا تم عندما كان الأخوان فى عشرينيات عمرهما الحساسة.

وقد بلغ مجموع الأشخاص الذين قصوا الحكايات على الأخوين حوالى العشرين شخصا. وكان كثيرون من رواة القصص يحضرون إلى منزل آل جريم فى كاسل. وكان الأخوان يبديان ترحيبا خاصا بزيارات دوروثيا فيهمان، وهى أرملة كانت تذهب إلى البلدة لتبيع بعض حصاد حديقتها. وقد نشأت فيهمان، ابنة مدبر الفندق، على سماع القصص من المسافرين المتوجهين إلى فرانكفورت. وكانت سندريللا من بين محتويات كنزها.

وباستثناء فيهمان، فإن الأخوين نادرا ما يحددان مصادرهما. فأسماؤهم والحكايات المنسوبة إليهم لم تُعرف فى معظم الحالات إلا بعد الدراسة المتانية للملاحظات المسجلة على النسخ الشخصية للأخوين من الحكايات.

ولم يكشف النقاب عن الهوية الحقيقية لواحدة من أهم الرواة - تدعى مارى - إلا فى منتصف السبعينيات من هذا القرن. وتنسب الملاحظات إلى مارى رواية العديد من أكثر الحكايات شهرة : (ذات الرداء الأحمر)، (سنووايت)، و(الجمال النائم).

وحيث إن أصول كثير من حكايات جريم الخرافية تتجاوز أوروبا إلى الشرق الأوسط والشرق، فإن سؤالا لابد أن يطرح نفسه : إلى أى مدى تعتبر حكايات جريم ألمانية؟ إلى أقصى مدى، هكذا يقول الباحث هاينز رولكه. فحب ضحية الظلم، والبساطة الريفية، والتواضع الجنسى - كلها سمات تيوتونية Teutonic.

كما أن الطابع الخشن للحياة فى ألمانيا العصور الوسطى، وهو الزمن الذى دخلت فيه الكثير من الحكايات الموروث الشفاهى، يصبغ الروايات. فمعظم أطفال أوروبا كانوا غالبا مايلقون الإهمال، مثل هانزل وجريتل. وكانت الساحرات المتهمات يعدمن حرقا، مثل زوجة الأب الشريرة فى «البجعات الست». فـ «القسوة فى القصص لم تكن من نسج خيال الأخوين جريم. إنها تعكس قانون وقواعد نظام الزمن القديم»، كما يرى رولكه.

ولربما كانت أكثر اللمسات ألمانية هى الإلمام غير المحدود بالغابة، وهو المسرح الذى تواجه فوقه بطلات الحكايات الخرافية أعداءهن وتنتصر على الخوف والظلم. والمجتمع الألمانى يعتمد تقليديا على الغابة *Wald* . فهناك، يرعى الفلاحون خنازيرهم على الذرة، ويصطاد الملوك الغزلان، ويختار قاطعو الأخشاب زنود الخشب للعوارض الضخمة لكساء الحظائر والمنازل التى لاتزال تُرى فى بلدات هسه.

وكان رواة القصص على علم بأن وضع الشخصيات وسط غابات غير مطروقة لابد أن تترتب عليه إثارة مشاعر الخطر والغموض. «لم تكن الغابة تعد مكانا آمنا. وكان على سكان المدن تجنبها. كان هناك خارجون على القانون وصيادون غير مرخصين. وكان الألمان دائما يخافون من الذئاب»، هذا ما قاله لى مسئول الغابات هرمان جوزيف راب، ونحن نسير فوق الطرق الرطبة المقطوعة الأشجار عبر رينهاردزفالد، وهى غابة كبيرة فوق تلال هسه الشمالية.

واليوم، تتكاثف فى رينهاردزفالد أشجار الزان وتمد ماكينات النشر المحلية بأشجار



ألقى الباحثون والمتخصصون فى علم النفس، بتعنتهم، بغلالة مضللة على القصص، وذلك بتجاهلهم التساؤل حول مغزاها. هل قذف الضفدع يرمز إلى اليقظة الجنسية للأميرة، كما يؤكد عالم النفس الفرويدى برونو بتلهايم، أم أن الأميرة تقدم نموذجا للدور النسوى، من خلال تحديها للسلطة الأبوية لوالدها الملك؟ فمنظرو الرايخ الثالث حولوا ذات الرداء الأحمر إلى رمز للشعب الألمانى، الذى يُستنقذ من براثن الذئب اليهودى الشرير

الصنوبر. لكن إذا أردنا أن نشاهد تلك السنديانات الخالدة التى كانت العملة المفضلة فى معظم حكايات جريم الخرافية، فإن علينا زيارة بقايا الغابة القريبة من قلعة سابابورج. قادنى راب، الشبيه بجذع إنسان يرتدى سترة خضراء واقية من المطر، إلى تلك الغابة فى يوم غزير الأمطار. هنا، ترى أشجار السنديان الكثيفة، التى يعود عمر البعض منها إلى أربعمائة عام أو أكثر، أشبه بمصاب بالتهاب المفاصل، وتبدو مثل أطلال قوطية. أفزعتنى الحملقة فى الأغصان المقبضة، والطحالب الوحشية الشبيهة بالشعر، والعيون المستديرة، والفجوات المحفورة مثل أفواه فاغرة. كيف طاوع أم «ذات الرداء الأحمر» قلبها كى ترسل هذه الفتاة الرقيقة إلى غابة كهذه؟

وعلى الرغم من المذاق الألمانى الطاغى على الحكايات، فإن الإقبال على الطبعة الأولى كان ضعيفا. وفى متحف الأخوين جريم بكاسل، وضع مديره برنارد لاور أمامى النسخة الشخصية للأخوين من الطبعة الأولى. كان يمسك بها كما لوكانت بيضة فابورجيه. قال: «إنها أثمن شيء فى المتحف. لم يبق سوى عدد محدود من النسخ التسعمائة الأصلية. كان الورق من نوع ردىء للغاية».

ولم تحقق المجموعة نجاحا تجاريا معقولا إلا فى عام ١٨٢٥، عندما أصدر الأخوان الطبعة الصغيرة، وهى طبعة مكثفة تحوى ٥٠ قصة مع رسوم لأخيهما لودفيج. وطبعة ١٨٢٥، التى طبع منها ١٥٠٠ نسخة، أكثر ندرة حتى من طبعة ١٨١٢: فلم يبق بالمكتبات سوى أربع أو خمس نسخ. ومع أول ظهور لـ الطبعة الصغيرة الرخيصة الثمن، استطاع الأخوان أخيرا التعرف على جمهورهما الحقيقى : الأطفال.

ومع الطبعة الثانية، فى عام ١٨١٩، أصبح ويلهلم المسئول الأول عن الحكايات الخرافية، بعد أن تحول اهتمام جاكوب إلى قواعد اللغة الألمانية. وقد أثبت ويلهلم أنه محرر ملهم. فعن طريق تحقيق انسيابية الحبكة لتأكيد الحركة، ونسج القص بالحكم القديمة والأشعار الفولكلورية، واستخدام لغة شعرية فى بناء المشهد، استطاع ويلهلم خلق قالب جديد لايزال مثالا يحتذى فى كتابة الحكاية الخرافية.

وقد واصل ويلهلم صقل وإعادة صياغة الحكايات حتى الطبعة الأخيرة فى ١٨٥٧. ومقارنة الطبعات المتعددة يكشف عن أنه فى سبيل جعل القصص أكثر قبولا عند الأطفال وآبائهم من المنتمين إلى الطبقة الوسطى، اتجه ويلهلم إلى استبعاد أى مسحة من الأفعال الجنسية، مثل علاقات رابونزل قبل الزواج والأمير الذى كان يتسلق قلعتها. كما أضاف مفردات مسيحية، توضح الدروس التربوية للحكايات وتؤكد على دور الجنس. وعلى الرغم من أن الأخوين يلمحان إلى أنهما كانا مجرد مسجلين للحكايات، فإن إعادة الصياغة الأدبية والأخلاقية لتلك المرويات كان لها أثرها البالغ فى جعل الحكايات تتماشى مع الاتجاه

السائد. «لكن بالرغم من كل ما أضافه ويلهلم، فإن جوهر الحكايات لم يمس»، كما يقول رولكه.

إن البصمات التحريرية التى تركها الأخوان تعد خيانة للقيم المحددة للمجتمع الألمانى، فى القرن التاسع عشر، المسيحى البرجوازى. لكن هذا لم يحل دون استقبالها استقبالا حسنا من قبل كل ثقافات وقوميات العالم تقريبا. فما سر هذا الانتشار العالمى والشعبية الطاغية؟ برنارد لاور يشير إلى «الطابع الكونى» للكتابة. «فليس هناك وصف محدد للأرض، أو الملابس، أو الغابة، أو القلاع. وهو ما يجعل القصص بلا زمان أومكان».

والحكايات تسمح لنا بالتعبير عن «أشواقنا الطوباوية»، كما يقول جاك زيبس من جامعة مينسوتا، الذى استطاع فى ترجمته للمجموعة الكاملة من الحكايات الخرافية (١٩٨٧) أن يضع يده على الروح الريفية للنص الأصلى. «إنها تعرض للنضال من أجل السعادة التى لايعرفها أى منا، وإن كنا نشعر بإمكان الوصول إليها. إننا قد نجد أنفسنا فى أبطال الحكايات ويترسخون فى ذهننا كسادة وسيدات لأقدارنا».

إن الحكايات الخرافية تعد تدريبا للاوعى، ووقاية للمحللين النفسيين. وبرونو بتلهايم، المعروف بإعلائه للقيمة العلاجية لحكايات جريم، يطلق على الحكايات الخرافية «المطمئنات العظام» "great comforters". فعن طريق مواجهة الخوف وأشكال الإرهاب، المتجسدة فى الساحرات وزوجات الأب القاسيات والذئاب الجائعة، يتمكن الأطفال من التحكم فى قلقهم. ولاتزال نظرية بتلهايم موضع جدل حاد. لكن معظم القراء الصغار لايهتمون بتدريب لاوعيهم. فابنتى لوسى (١١عاما)، تنظر بفتور إلى هزيمة رقيات الساحرات وفوز البطلات دائما برجلهن. وهناك أولاد أعرفهم يهاجمون ترهات مثل العباءة التى تجعل البطل غير منظور والبندقية التى لاتخطىء الهدف أبدا.

إن حكايات جريم تحقق المتعة بطرق لاتحصى. وفيها شىء ما يبدو وكأنه يعكس مزاجنا أو اهتماماتنا على قراءتنا لها. وهذه المرونة فى القراءة تجعلها تتلاءم مع كل زمان وأى ثقافة.

لقد ترك جاكوب وويلهلم عملهما كأمينى مكتبات فى كاسل وتوجها للتعليم بالجامعات فى جوتنجن وبرلين. واشتركا فى إصدار أكثر من ٣٥ كتابا. كما سجل الأخوان اسميهما فى سجل الوطنيين، مضحيين بروحيهما فى سبيل الإصلاح الديموقراطى. لكن فى سنواتهما الأخيرة، ابتعدا عن السياسة والتدريس كى ينجزا عملهما فى وضع قاموس الألمانية، وهو واحد من أكثر المشروعات العلمية طموحا فى أوروبا القرن التاسع عشر.

ولم يعش الأخوان حتى يتما القاموس أو ليشهدا تحقق حلمهما الأثير: قيام الأمة الألمانية فى عام ١٨٧١. فقد توفى ويلهلم فى ١٨٥٩، عن عمر يناهز الثالثة والسبعين. وفى تأبينه، نعته جاكوب بـ «أخ الحكاية الخرافية».

وتوفى بعده بأربع سنوات. وكان قد فرغ لتوه من كتابة مادة «فاكهة» بالقاموس، فجاءت نهاية مناسبة لحياة خصبة.

لقد اختار الأخوان لختام مجموعتهما من الحكايات الخرافية قصة رمزية قصيرة بعنوان: «المفتاح الذهبى». صبى فقير يذهب إلى غابة شتوية لجمع الخشب على زلاجة. وبين الثلوج، يعثر على مفتاح صغير وبالقرب منه صندوق حديدى. أدخل الولد المفتاح فى الصندوق. أداره. رفع الغطاء.

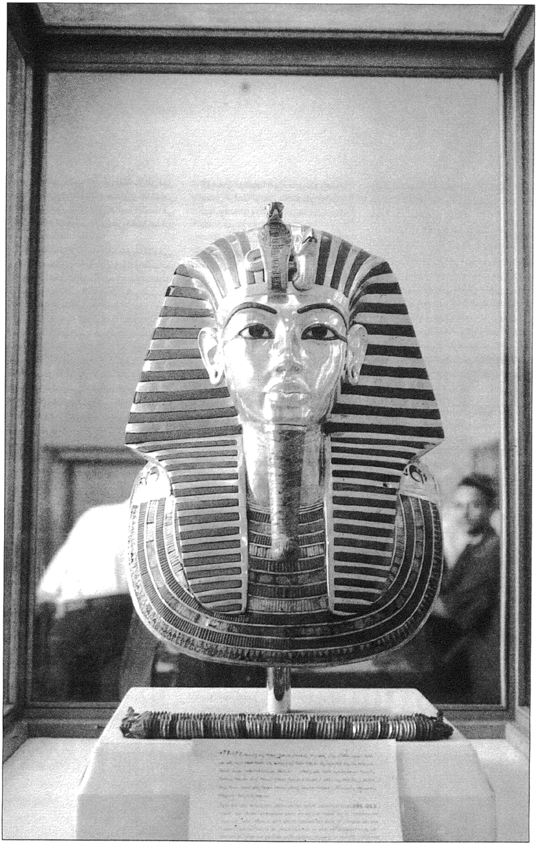
وهنا تنتهى القصة. ولمرة واحدة يبتعد الأخوان عن النهايات المرضية. وبدلا من ذلك، وجها دعوة ذهبية، يقبل بها منذ ذلك الحين أعداد لاتحصى من القراء، لفتح كتب الأخوين بمفتاح الخيال. وهى وحدها الحالة التى يمكن للقراء فيها أن يكتشفوا ما ينتظرهم من أشياء مثيرة. ■

ترجمة: بدر الرفاعى

عن مجلة الناشيونال جيوجرافيك

عندما باحت الأرض بأسرارها ..

حسين عبدالبصير



قناع الفرعون الذهبى الملك «توت عنخ آمون»

خطا القرن العشرون خطوات واسعة فى حقل الآثار فى العالم كله، واتسعت دائرة نطاقه لتشمل اكتشافات أثرية عديدة هزت العالم أجمع منذ لحظة اكتشافها إلى الآن. وإذا نظرنا إلى القرن العشرين نظرة أثرية فاحصة ؛ لوجدنا أنه أعظم القرون قاطبة فى تاريخ البشرية من ناحية الاكتشافات الأثرية، ففيه باحت الأرض باسرارها وحدثت أخبارها، وأخرجت العديد من الروائع الأثرية المدهشة، والتى لم نكن نعرف عنها شيئا من قبل، ونتج كل هذا بفضل التقدم العلمى المذهل وتطور علم الحفائر والبحث والتنقيب عن الآثار واستقلال منهجه عن العلوم الأخرى، وتفرغ رجال بحث ذوى مستوى رفيع كرسوا حياتهم لشىء واحد فقط هو: البحث عن الآثار المفقودة والمدفونة فى باطن الأرض ؛ ففى بحثهم هذا، اللذة والمتعة اللتان لا يعادلهما أى شىء آخر، فضلا عن أنهم ببحثهم عن الماضى لا يبحثون عنه فحسب؛ بل يبحثون عن الإنسان وعن أسلافه الأقدمين وبالتالى عن أنفسهم وتاريخهم القديم وأصولهم المنصرمة، وإمكانية تتبع كيف كانت كينونته ومعيشته فضلاً عن رصد التطور التقنى والحياتى منذ البداية وإلى وقتنا الراهن.

وأوضح لنا هذا القرن الفريد كيفية انتقال أسلافنا الأقدمين من «حياة الكهف» ومن بشر متوحشين إلى فنانين عظام، صنعوا وأبدعوا رسوما أقل ما توصف به أنها بالغة الروعة، تشهد بذلك جدران كهوف فرنسا. وهو أيضا الزمن الذى تعمقت فيه معرفتنا بجذور البشرية بشكل مثير للدهشة لم يسبق له مثيل فى عمق التربة الأفريقية العريقة، وأجاب عن تساؤلات عديدة كانت تشغل أذهاننا لفترة طويلة من الزمن .وفى عقوده الأولى وأعنى العقد الثانى منه تحديدا،اكتشفت مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون»، واتضح أمامنا كوضوح الشمس كيف كانت الثروة، وكيف كان الجمال متجسدا فى آثار مصر القديمة، وهذه آثار ملك لم يحكم طويلا ومات صغيرا فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهوما يزال بعد فى الثامنة عشر من عمره الجد قصير، فما بالنا بآثار ملوك عظماء أمثال «تحوتمس الثالث»، و«أمنحتب الثالث»، و«أخناتون» و«رمسيس الثانى» العظيم! وساهم هذا الاكتشاف فى تزايد حمى «الإيجيبتومانيا» (الولع أوالهوس بمصر) فى جميع أنحاء العالم خصوصا فى فرنسا، بل وفى تعلق الغرب بالشرق وسحره، على اعتباره الملهم وصاحب العديد من الرؤى السحرية التى يفتقدها الغرب العقلانى فى الغالب.

وفى هذه المائة عام الأخيرة التى تشكل صلب هذا القرن المنصرم، تغيرت معارفنا تماما بأهل الماضى الذين صاغوا ماضينا التليد، وكنا نعدهم أقل تقدمنا مما كنا نتخيل. فقد اكتشفت حضارات عديدة،ومقابر فريدة،وأشياء رائعة جديدة عن أسلاف البشرية الأوائل.

ففى شهر مارس من عام ١٩٠٠م، نجح الإنجليزى السير «أرثر إيفانس» فى العثور على مدينة «كنوسوس» فى جزيرة كريت عاصمة الحضارة المينوية العريقة، وحل لغز هذه الحضارة الإغريقية المفقودة التى بحث عنها طويلا. وفى عقد العشرينيات ما بين ١٩٢٠-١٩٣٠م، اكتشف الإنجليزى السير «ليونارد وولى» مدينة «أور» السومرية الشهيرة، واستطاع بعثها من الماضى على نحو جديد

مضفيا صفحة مشرقة جديدة فى تاريخ العراق القديم شديد الروعة والدهشة . وساهم اكتشاف مقبرة الفرعون الذهبى «توت عنخ آمون» على يد المغامر الإنجليزى «هوارد كارتر» فى ازدياد والتهاب الحماس والتوجه إلى الشرق، خصوصا أنها اكتشفت فى توقيت متزامن ـ عام ١٩٢٢م ـ مع اكتشاف «وولى» لمدينة «أور». وفى أثناء سنوات الثلاثينيات، نجح الأثرى الإنجليزى الشاب «جراهام كلارك» فى العثور على عظام وأدوات حجرية فى بحيرة جليدية فى منطقة «ستار كار» فى شمال شرق إنجلترا. وأرجع هذه الآثار المكتشفة إلى «العصر الحجرى» معطيا إياها تاريخا يرجع إلى حوالى عشرة آلاف عام قبل الآن. ثم كانت المفاجأة الكبرى التى فجرها لويس ليكى وزوجته مارى ليكى عام١٩٥٩ م، بالعثور على بقايا إنسان «أوسترالوبيثكوس» (الإنسان الأول المبكر) فى أخدود «أولدفاى» فى شمال شرق تنزانيا فى أفريقيا، وأُرخت هذه البقايا بـ«١,٧٥٠,٠٠٠» سنة.

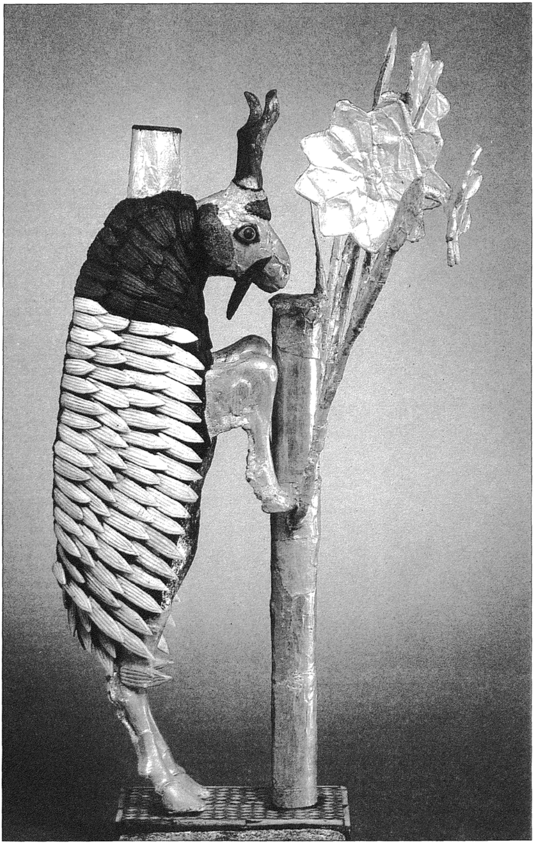
ويحفل القرن العشرون بأسماء العديد من الأثريين والعلماء الذين صنعوا مجده وبهاءه العلمى عبر إنجازاتهم واكتشافاتهم الفريدة، وإضافة إلى ما ذكرنا، نذكر جورج باص «أبا الآثار البحرية»، ودونالد جوهانسون، وموتيمر ويلر، ولويس بنفورد، ووليام فلندرز بترى صاحب الاكتشافات الكبيرة فى مصر ومحيطنا العربى و«أبا المدرسة الحديثة فى علم المصريات»، و ويلارد ليبى . وحققوا نجاحات هائلة فى حقل الآثار ؛ونظراً لكثرة الاكتشافات والمكتشفين، فإننا نذكر أهم هذه الاكتشافات التى غيرت مجرى تاريخ البشرية منذ لحظة اكتشافها، على سبيل المراجعة وإلقاء الضوء عليها بعد أن فارقنا القرن العشرون.

اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» قبل ضياع آخر فرصة !

فى الرابع من شهر نوفمبر عام ١٩٢٢م، كان المغامر الإنجليزى «هوارد كارتر» على موعد مع الرمال المصرية لتمن عليه وتكشف له عن واحد من أهم أسرارها الدفينة واستطاع أن يحقق حلم حياته بعد طول عناء وتعب بالكشف عن مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون»؛ ذلك الأثر الفريد من نوعه الذى أذهل العالم منذ وقت اكتشافه إلى هذه اللحظة، والذى طغى على كل الاكتشافات الأثرية الأخرى فى العالم أجمع، وأصبح بحق أهم اكتشاف أثرى فى القرن العشرين دون أدنى مبالغة.

وانطلقت أسطورة الملك «توت» لتغزو أرجاء العالم كله، وأصبح الفرعون الشاب الذى لم يجلس على العرش أكثر من تسع سنوات، بين عشية وضحاها، أشهر ملك فى تاريخ الإنسانية وكتب لاسمه الخلود.

ولقد ثبت من دراسة مقتنيات مقبرة الملك «توت» التى بهرت العالم أجمع ؛أنها لم تكن تخص وحده، بل كان أغلبها من مقتنيات سلفيه الملكين: والده «أخناتون» العظيم وشقيقه «سمنخ كارع» وتم تجميعها على عجل لإتمام



«كبش فى أجمة» من آثار مدينة «أور» العراقية

عشرة اكتشافات أثرية فى القرن العشرين

مراسم دفن الملك الشاب الذى راح ضحية مؤامرة حيكت ضده من قبل أعدائه فى القصر الملكى وكبار رجال البلاط آنذاك أمثال الكاهن الحكيم «آى» وقائد الجيش «حور محب». ولقد ألهبت هذه المقتنيات والطريقة التى اكتشفت بها خيال الباحثين والمولعين بالآثار وأساطيرها على السواء، فنسجوا العديد من القصص والحكايات حول حياة الملك ووفاته؛ ومن هنا نشأت أسطورة الملك «توت».

تعتبر مقبرة الملك«توت عنخ آمون» هى المقبرة الملكية الوحيدة التى وصلت إلى أيدينا كاملة إلى الآن. فبعد وفاة الملك «توت» بمائتى عام تقريباً، قام عمال الملك «رمسيس السادس»، من ملوك الأسرة العشرين، دون قصد، برمى الأحجار والرمال المستخرجة من حفر مقبرته فوق مدخل مقبرة الملك «توت عنخ آمون»، بل وشيدوا أكواخهم فوق هذا الرديم. ولولا هذه المصادفة العجيبة، لما نجت مقبرة الفرعون الشاب من أيدى لصوص المقابر فى كل زمان، ولما وجدها «كارتر» فى صبيحة الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢م بعد بحث مضن دام خمس سنوات طوال.

وفى عام ١٩١٧م، حصل اللورد«هر برت إيرل كار نافون الخامس» (١٨٦٦-١٩٢٣م) على موافقة مصلحة الآثار المصرية بالتنقيب فى وادى الملوك. وكان حلم «هوا رد كارتر» (١٨٧٣-١٩٣٩م) هوالعثور على مقبرة الفرعون الصغير «توت عنخ آمون» بين مقابر وادى الملوك. فطلب اللورد «كار نافون» من «كارتر» أن يجرى الحفائر لحسابه فى الوادى. وكان «كارتر» يتمتع بسمعة أثرية كبيرة ؛ فقد سبق له اكتشاف مقبرة الملك «تحتمس الرابع» عام ١٩٠٣م، بمساعدة الأمريكى «تيودور ديفيز».

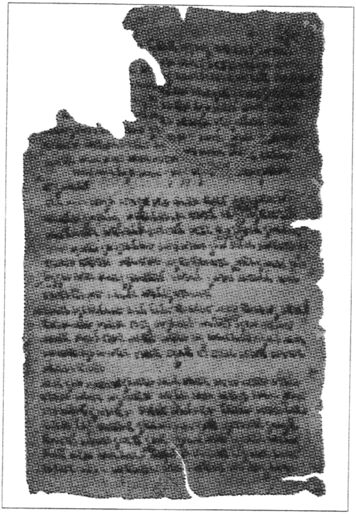
وبدأت الحفائر فى العام نفسه، ومضى دون أية نتائج مشجعة. وتذكر «كارتر» كل ما قاله أسلافه علماء الآثار السابقون أمثال «جان - فرانسوا شامبوليون»، و«جاستون ماسبيرو»، و«جيوفانى بلزونى»، من أن الوادى قد لفظ كل ما بداخله.لم ييأس «كارتر» وواصل العمل . فقد كانت ثقة «كار نافون» تدفعه وحبه وصبره يشدان من أزره الذى لا يلين. واستمر الحفر خمس سنوات أخرى دون نتائج مرجوة. ومر صيف عام ١٩٢٢م. كان إيمان «كارتر» كبيرا بأنه سوف يعثر على مقبرة الملك الصغير ذات يوم. وبدأ اللورد «كار نافون» يقنط ويهمل الأمر كلية ويدعه جانبا. فطلب «كارتر» منه أن يمنحه فرصة أخيرة: هذا الموسم الذى يبدأ فى أول نوفمبر ١٩٢٢م. واستمر الحفر فى مساحة صغيرة مثلثة الشكل أمام مقبرة الملك «رمسيس السادس» لم يسبق الحفر فيها. لقد كان «كارتر» فى مأزق حقيقى إن لم يعثر هذا الموسم الأخير على هذه المقبرة، فسوف يرحل اللورد إلى إنجلترا ويفقد بذلك التمويل المادى وتذهب جهوده المضنية لسنوات طوال وأحلامه أدراج الرياح.

لم يكن «كارتر» يعلم أن صباح الرابع من نوفمبر هو يوم مجده الحقيقى. يقول «كارتر» فى كتابه الممتع عن مقبرة الملك«توت عنخ آمون»فى معرض حديثه عن ظروف الاكتشاف: «هذا هو بالتقريب الموسم الأخير لنا فى هذا الوادى بعد تنقيب دام ستة مواسم كاملة. وقف الحفارون فى الموسم الماضى عند الركن الشمالى الشرقى من مقبرة الملك«رمسيس السادس». وبدأت هذا الموسم بالحفر فى هذا الجزء متجها نحو الجنوب. كان فى هذه المساحة عدد من الأكواخ البسيطة التى استعملها كمساكن،العمال الذين كانوا يعملون فى مقبرة الملك«رمسيس السادس». واستمر الحفر حتى اكتشف أحد العمال درجة منقورة فى الصخر تحت أحد الأكواخ. وبعد فترة بسيطة من العمل، وصلنا إلى مدخل منحوت فى الصخر على بعد ١٣ قدما أسفل مهبط المقبرة. كانت الشكوك وراءه بالمرصاد من كثرة المحاولات السابقة الفاشلة، فربما كانت مقبرة لم تتم بعد، أو أنها لم تستخدم، وإن استخدمت فربما نهبت فى الأزمان الغابرة، أو يحتمل أنها مقبرة لم تمس أوتنهب بعد.كان ذلك فى يوم ٤ نوفمبر١٩٢٢».

ثم أرسل «كارتر» برقية سريعة إلى اللورد «كار نافون» يقول فيها:«أخيرا، اكتشاف هائل فى الوادى، مقبرة كاملة بأختامها، كل شىء مغلق لحين وصولك.تهانينا».

وهكذا سقطت مزاعم علماء الآثار السابقين أمثال «بلزونى»، و«ماسبيرو»، و«شامبوليون» ممن عملوا فى وادى الملوك وزعموا أنه لم يعد هناك شىء فى بطنه،وهكذا تأكد ويتأكد للعالم أن الرمال المصرية لم تبح بكل أسرارها بعد وماتزال تحتفظ بالكثير من الآثار الرائعة فى بطنها لأجيال عديدة قادمة حتى تظل مثيرة للدهشة إلى أقصى درجة ممكنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ثم توالت بعد ذلك مراحل الكشف الأخرى إلى أن تم نقل محتويات المقبرة إلى المتحف المصرى فى القاهرة بينما بقيت مومياء الملك «توت عنخ آمون» فى المقبرة ؛ لتظل شاهدة على حضارة لم ولن تندثر أبدا. وفى النهاية نردد مع «كارتر» قوله: «مازال الغموض فى حياة الملك «توت عنخ آمون» يلقى بظلاله علينا، فعلى الرغم من أن تلك الظلال تنقشع أحيانا، فإن الظلمة لا تختفى من الأفق أبدا». وهذا هو شأن من شؤون الحضارة المصرية القديمة العريقة فى الحقيقة.

إحدى لفائف البحر الميت



مجد «أور» المنسى يضاجئ ويسحر الجميع !

نجح السير«ليونارد وولى» فى الكشف عن مدينة «أور» السومرية القديمة، فى العراق، والتى تعد الموطن الأصلى لأحد آباء التوراة المؤسسين وأعنى أبا الأنبياء سيدنا «إبراهيم» الخليل،عليه السلام، وفقا لما أشار إليه«سفر التكوين:١١». وقد ألهب هذا الكشف خيال الجميع،على الرغم من الاكتشافات الأخرى التى تمت فى المائة والخمسين عاما الماضية فى حقل الآثار فى هذه المنطقة الفريدة فى العالم بآثارها خصوصا الدينية منها، والتى تعد أيضا مهد الحضارات البشرية قاطبة.

وعلى مدار أكثر من ١٢ موسما من الحفائر المتصلة، فى ما بين الأعوام ١٩٢٢ - ١٩٣٤م، طيرت صحف العالم مقالات لا تعد ولا تحصى حول اكتشاف «وولى» فى العراق. ووصفته جريدة «لندن المصورة» - عين إنجلترا على العالم آنذاك - فى ما لا يقل عن ثلاثين مقالة مصورة فى صدر صفحاتها الرئيسية. وجاء هذا الكشف ليؤكد أسبقية الشرق فى إرساء مذاهب ومدارس علم الجمال وتأسيس حضارات عظيمة الثراء، وكشفت أطلال هذه المدينة عن روعة ذلك الشرق الساحر،واكتملت أهمية حفائر «وولى» بالعثور على مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون» فى مصر.

وكان قد اختبر موقع هذا الاكتشاف المهم من قبل، نائب القنصل البريطانى فى البصرة المدعو«جون تايلور» فى ما بين العامين ١٨٥٣ - ١٨٥٤م. وعلى الرغم من أنه لم ينجح تماما فى العثور على آثار هذه المدينة كاملة، فقد نجح بعض الشىء فى العثور على الألواح الطينية المنقوشة بالكتابة المسمارية، التى أشارت إلى مدينة «أور» على أنها «أور الكلدانيين» المذكورة فى سفر التكوين فى التوراة.

ثم جرت أحداث سياسية عالمية، كان من أفدح آثارها إغلاق الموقع الأثرى فى وجه أعمال الحفائر، إلى أن وقع فى قبضة البريطانيين فى الحرب العالمية الأولى. فأجريت حفائر قليلة سريعة إلى أن جاء عام ١٩٢٢م، عندما وافق المتحف البريطانى فى لندن ومتحف جامعة بنسلفانيا الأمريكية على إرسال بعثة حفائر مشتركة. وتولى إدارة الحفائر «ليونارد وولى» الذى كان أثريا وضابطا ذكيا للغاية قضى سنتين فى السجن كسجين حرب! وجاءت بداية الحفائر بسيطة ولم تلفت إليها الأنظار. إلى أن جاء موسم ١٩٢٦ - ١٩٢٧م، حيث عثر على ٦٠٠ مقبرة. ثم توالت الاكتشافات المذهلة بسرعة كبيرة فاقت الخيال وكل تصور.

وانتاب«وولى» وفريقه شعور فياض بالدهشة عندما أخذ الذهب يخرج من الأرض تحت ضربات معاولهم، وعندما ظهرت إلى الوجود المعجزات الفنية الواحدة تلوالأخرى. وعثر«وولى» على عدد كبير من المقابر، قدر بأكثر من٢٠٠٠ مقبرة، ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكان بعضها على قدر كبير من

الثراء؛ مما دفع «وولى» إلى الاعتقاد بأن جميعها مقابر ملكية. وعلى الرغم من أن معظم المقابر قد سرقت، فقد عثر على مقبرة كاملة رائعة تخص السيدة «بو - آبا»، ترجع إلى الفترة التى اصطلح الأثريون على تسميتها بـ «عصر الأسرات المبكر» (٢٦٠٠ - ٢٥٠٠ قبل الميلاد) عندما كانت «أور» ضمن «دويلات المدن» المستقلة على السهل الفيضى الجنوبى لنهر الفرات. واحتوت المقابر آثارا فى غاية الفرادة والروعة مثل القيثارات ذات الزخارف الذهبية، والأوانى والحلى المصنوع من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والأسلحة التى كانت ترافق الموتى فى رحلتهم إلى العالم الآخر والأوعية والخناجر الذهبية، والتمثال الذهبى المطعم باللازورد لـ «الكبش المصيد فى الأجمة»، - حاول «وولى» تفسيره تفسيرات دينية توراتية، حين وصفه بأنه يشبه الذى جاء فى «سفر التكوين ٢٢:١٣» على أنه «كبش يعلق بشجرة»! - ورؤوس الحيوانات المصوغة من الذهب والفضة التى زينت القيثارات الموسيقية، ووشاح الرأس الذهبى الخاص بالسيدة «بو - آبا»، وفوق كل هذا، الخوذة الذهبية الرائعة الخاصة بالسيد «مس - كلام - دوك»، كذلك المواكب الجنائزية الغريبة التى ضمت الموسيقيين مع قيثاراتهم، والجنود بكامل أسلحتهم، وحاشية نساء القصر بملابسهم البهية، كل بمحض إرادته يتجه فى اتجاه حفر الموت الأعظم حيث يتعاطون السم الزعاف المفضى إلى الموت؛ ليدفنوا فى صحبة سيدهم بعد وفاته مباشرة، حتى يخدموه فى العالم الآخر، فى ما يعرف بعادة «التضحية البشرية» فى المجتمعات القديمة.

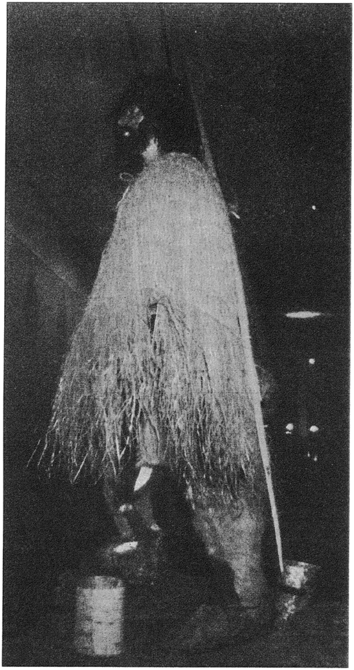
سيبقى أسم «أور» مرتبطا عند علماء الآثار بشكل خاص، وإلى الأبد، بـ «الزقورات» أو الأبراج المدرجة التى أقيمت فى «أور»، وبقيت إلى الآن من أكثر نصب ومعالم «أور» إثارة للدهشة والإعجاب المزدوجين. وأضافت هذه الاكتشافات العظيمة فصلا جديدا فى تاريخ العراق القديم، وأوضحت حجم العلاقات التجارية الكبيرة التى تمتعت بها مدينة «أور» العراقية القديمة الشهيرة. ولا يمكن للذاكرة أن تنسى هذه المدينة الفريدة من نوعها، وسوف تبقى قصة اكتشافات «ليونارد وولى» لهذه المدينة، قصة جديرة بالبقاء ومصدر فخر وسعادة للعلماء فى العالم أجمع لسنوات طوال قادمة، وإن كان «وولى» قد أخذ مكافأته بالعثور على الجبانة الملكية الفخمة فى «أور»، فإن أسرار هذه المدينة لم تعلن عن نفسها كلية ؛ فهى إنجاز حضارى متواصل العطاء لم تسبر أغواره بعد.

أسرار التوراة المقدسة فى جوف الصحراء القاحلة!

لقد أعادت «لفائف البحر الميت» كتابة التاريخ فى عهد السيد المسيح عليه السلام، وغيرت الرؤية إلى التوراة والدراسات التوراتية عموما، وقادت الباحثين إلى فهم جديد للتاريخ، والآثار، والدين. وتوضح هذه اللفائف التى تحوى أقدم المخطوطات المهمة للتوراة العبرية، حقيقة بزوغ اليهودية والمسيحية كديانات قوية.

فى ربيع عام ١٩٤٧م، وفى كهف قريب من البحر الميت، عثر الصبى محمد الديب، أحد رعاة الأغنام من البدو، على مجموعة من الجرار تحتوى لفائف مخطوطات قديمة. وقد أدى العثور على هذه المخطوطات إلى سجال علمى استمر ما يقرب من نصف قرن، وأصبحت مثار اهتمام القراء ووسائل الإعلام فى كل مكان من العالم. وعثر البدو على المجموعة الأولى من مخطوطات البحر الميت وقدرت بسبع مخطوطات. واتضح معنى هذه المخطوطات وأهميتها بعد عام أويزيد من العثور عليها. وبيعت إلى تاجر عاديات فى «بيت لحم» يدعى «كاندو»، فباع منها ثلاثة إلى الجامعة العبرية فى القدس، والأربعة الأخرى إلى «أثاناسيوس صموئيل» رئيس دير «سانت مارك» للكاثوليك السوريين، فباعها الأخير بدوره فى الولايات المتحدة الأمريكية، وانتهى المطاف بها فى المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية. وأخذ اهتمام الدارسين الأمريكيين والأوروبيين يتزايد بها. وعثر الدارسون بين هذه المخطوطات على نسخة من «سفر أشعيا» التوراتى أقدم من النسخة العبرية الأصلية. وساهم هذا الاكتشاف فى خلق صرعة فى وسائل الإعلام وجذب انتباه معظم الباحثين فى العالم.

وانتشرت حمى البحث عن مثل هذه المخطوطات بين البدو وتجار العاديات، واحتوت المخطوطات التى وجدت أجزاءً من نصوص كل كتاب من التوراة العبرية على الأقل. ويرجع تاريخها إلى ما بين عام ٢٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٦٨ الميلادى، وتخص طائفة «العيسويين» نسبة إلى سيدنا عيسى عليه السلام. وهى طائفة إسرائيلية متشددة فى رعاية الأحكام الدينية، وتنتظر الخلاص القريب بظهور المسيح الموعود، وهى أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدران المطامع والشهوات. وقد جعلوا تعاليم الأنبياء جزءاً مهماً من اعتقاداتهم، وعندما أدى هذا العصيان إلى محاربة الكهنة الرسميين لهم، تركوا المدن الكبيرة وخرجوا للحياة بعيدا فى البرية والمدن الصغيرة، وأصبحوا يمارسون



شكل متخيَّل لإنسان الجليد «أوتسى»

عباداتهم سرا حتى لا يبطش بهم الكهنة، وإن كانوا يعتبرون يهودا، فقد كانوا مختلفين عن باقى اليهود فى كونهم يؤمنون بخلود الروح والحساب فى الآخرة، ولا يشتركون فى تقديم الذبائح فى المعبد، ولم يزد عددهم عن أربعة آلاف فرد عند بداية التاريخ الميلادى.

وأصر البعض على أن هذه المخطوطات سوف تبرهن على وجود وألوهية السيد المسيح، فيما أعتقد البعض الآخر أنها احتوت سرا مدمرا للمسيحية على اعتبار محتوياتها الحقيقية تشير بوضوح إلى روح القمع. وتشمل المخطوطات حوالى ٨٠٠ نص، منها حوالى ٢٠٠ نص من التوراة العبرية، أغنت الفهم عن الديانة اليهودية المبكرة، والأصول الأدبية للتوراة، والتبشير بميلاد المسيحية. وكتب معظم المخطوطات أوالبقايا على الرق، والقليل منها على البردى، وواحدة فقط على رقائق نحاسية. وبالإضافة إلى النصوص التوراتية، ضمت تعليقات غير معروفة على التوراة، والأشكال الأخيرة للعهد القديم التوراتى، وقوائم الطقوس والقواعد، والنصائح أوالتعاليم الخاصة بـ «سفر الرؤيا»، وقائمة من الكنوز الدفينة، ومعظمها كتب بالعبرية، والقليل بالآرامية أوالإغريقية.

وتثير لغة ومحتويات هذه المخطوطات بعض الشك فى كون كتابها من اليهود. ويوضح بعض الوثائق أن مجتمعهم كان معارضا نشطا فى مواجهة كهانة يهودية مسيطرة. وعلى الرغم من أن هذه المخطوطات أخذت عقودا من الدراسة، وطبع معظمها فى شكل ما من الأشكال، فإنها ما تزال تمثل التحدى الأكبر أمام الأجيال الجديدة القادمة؛ لتكشف سرها وتميط اللثام عن معلومات كثيرة مجهولة فى تاريخ اليهودية والتبشير بالمسيحية فى عصرها الأول، خصوصا أنها لم تنشر كلها، فقد أخفت إسرائيل كثيرا منها لغرض ما فى نفس يعقوب قضاها، وادعت فى تمثيلية ساذجة وفجة أنها أخرجت كل ما لديها من هذه الوثائق النادرة التى لا تخصها وحدها، وإنما تخص العالم أجمع، ومن حقه أن يعرف أسرار هذه الطائفة اليهودية المنشقة عن الديانة اليهودية الرسمية السائدة آنذاك.

أنقذت سفينة غارقة فنشأ علم الآثار الغارقة!

عندما غرقت السفينة الأسطورية «تيتانك» فى عام ١٩١٢م، وعلى متنها حوالى ١,٥٢٢ راكبا، واستقرت فى قاع المحيط على مسافة تبلغ أربعة كيلومترات، ظن بعض الناس فى العالم أن هذه أول سفينة تغرق بهذه الضخامة فى مياه المحيطات أوالبحار، لكن الحقيقة غير ذلك تماماً.

فقد غرقت من قبل سفن بحرية عديدة، ومن عصور أقدم، فعلى سبيل المثال غرقت إحدى السفن الكنعانية فى حوالى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد ؛ أى ترجع إلى ما يطلق عليه مؤرخو الشرق الأدنى القديم «عصر البرونز المتأخر». وكانت تحوى

اكتشافات أثرية فى القرن العشرين

العديد من الكنوز الأثرية من الذهب والفضة والأبنوس وعاج الأفيال وأفراس النهر، فى منطقة «أولوبورون» فى جنوب غرب تركيا، ونجح غواصومعهد الآثار البحرية من خلال ٢٢,٥٠٠ غطسة منفردة، فى رفع عشرين طنا من آثار هذه السفينة الغارقة فى أعماق تصل من ٤٤ إلى ٦١ مترا،أثناء أصياف الأعوام ١٩٨٤ ـ ١٩٩٤م.

وكان أبوالآثار البحرية«جورج باص» قد قام بتجربة مماثلة فى عام ١٩٦٠م، عندما كشف عن سفينة غارقة تعود إلى عصر البرونز المتأخر فى تركيا أيضا، وكانت قد غرقت حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد فى «كاب جليدونيا» شرق منطقة «أولوبورون». وكانت أول وأقدم سفينة تكشف كلية فى قاع البحر الأبيض المتوسط. وعثروا على أشياء عديدة تفيد الدراسات الهوميرية (نسبة إلى شاعر الإغريق الأعظم هوميروس)، وعلماء المصريات (إذ عثر على أول جعران ذهبى يصور ملكة مصر الشهيرة الجميلة«نفرتيتى» زوجة الملك الفيلسوف «أخناتون» العظيم)، ودارسى تاريخ الموسيقى، والتكنولوجيا، وتاريخ الفن، وتاريخ الكتابة، وتاريخ الاقتصاديات. وعندما قام «جورج باص» بهذا الاكتشاف المهم، كان طالبا ما يزال يخطوخطواته الأولى نحوتاسيس «علم الآثار البحرية»، أوما يعرف بـ«آثار تحت الماء» الذى كرس له حياته،وأصبح المؤسس الأول له، وأسس «معهد الآثار البحرية» فى تكساس فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرجوع إلى الحديث عن السفينة الكنعانية الغارقة فى منطقة «أولوبورون» التى أنقذها «جورج باص» وفريقه فى الفترة من ١٩٨٤ ـ ١٩٩٤م،نجد أنها كانت تحمل العديد من التجار المسافرين بتجاراتهم المتنوعة على ظهرها، وتشير آثارها المكتشفة إلى أنها ذات أصول شرقية. واحتوت السفينة مراسى حديدية ذات أصول شرقية أيضا، ومناضد خشبية للكتابة كالموصوفة فى نصوص الشرق الأدنى القديم، وتمثالا كنعانيا من البرونز لسيدة، مطليا بالذهب، قد يمثل الإلهة الحامية للسفينة؟

وأظهرت هذه السفينة حجم شبكة العلاقات التجارية الضخمة التى كانت عليها حال الشرق الأدنى القديم فى هذه الفترة، ويتضح هذا بوضوح من خلال الآثار المكتشفة ؛ فقد عثر على مواد تجارية كثيرة مثل منتجات أفريقيا الاستوائية، وخرز الكهرمان القادم من شمال أوروبا، والبرونز الإيطالى،ورأس حجرية من ساحل البحر الأسود لرومانيا، والختم الأسطوانى المنحوت فى العراق القديم، وجعارين تذكارية من مصر، وفخار ونحاس من قبرص، وسيراميك وخرز وأختام من اليونان، وقصدير من أفغانستان، وأدوات فخارية وأختام وأسلحة من الساحل السورى ـ الفلسطينى، ومعظم هذه الآثار فى حال جيدة من الحفظ .

وهكذا، قام الرائد «جورج باص» بتأسيس «علم الآثار البحرية» الذى ظل يحلم ويعمل به طيلة حياته المديدة، واستمرت المدارس من بعده فى فتح الآفاق نحوالعثور على العديد من الآثار الغارقة والسفن التى غابت فى جوف المحيطات والبحار الصاخبة والهادئة على السواء منذ زمن بعيد، وكان اكتشاف واسترجاع آثار السفينة الكنعانية التى غرقت فى منطقة «أولوبورون» منذ عام ١٣٠٠ قبل الميلاد، هوالدافع الأساسى نحوالبحث عن هذه الآثار الغارقة، ومن هنا تجىء أهمية «باص» ؛ باعتباره الأول على رأس قائمة طويلة عريضة من علماء وكشاف الآثار الغارقة التى أنقذت فى القرن العشرين من مياه المحيطات والبحار بأنواعها.

عظام بشرية بسيطة تكشف أسرار حضارات أمريكا المدهشة!

يعد البحث عن بقايا سكان أمريكا الأوائل من الموضوعات المثيرة للاهتمام والجدال. ففى بداية عام ١٩٠٠م، وجدت لقية أثرية فريدة بالقرب من «نيومكسيكو»، وأضافت حوالى٧٠٠٠ عام إلى تاريخ الإنسان فى العالم الجديد.إنها قصة رعاة البقر العزل الذين ولدوا عبيدا. وبدأت أحداث قصتنا فى «رد هورس أرويو»، بالقرب من شمال شرق «نيومكسيكو»، فى بلدة«فولسوم»، وتحديدا فى شهر أغسطس من علم ١٩٠٨م، حينما لاحظ «جورج ماك جونكين» وجود كومة من العظام على ضفة «أرويو». ولما تقصى فى البحث، وجد حفرا مصنوعة بمهارة فائقة، وبها مجموعة من الأدوات الحجرية المصنوعة من الظران (الزلط)،منفذة بدقة متناهية،كان الإنسان القديم يستخدمها فى هذا العصر لقتل وصيد الحيوانات المفترسة والأليفة، دفاعاً عن نفسه وجلباً لطعامه. ولم يستطع «جونكين» لفت أنظار الآخرين إلى أهمية العظام القديمة التى عثر عليها.فاهتم بها «كارل شافاخهايم» الذى زار الموقع، وجمع العظام فى عام ١٩٢٢م. وفى عام ١٩٢٦م، ذهب إلى مدينة «دنفر» الأمريكية، وعرضها على «جس فجنس» مدير متحف «كولورادو» للتاريخ الطبيعى.

ومنذ ذلك التاريخ، توالت الاكتشافات الأثرية فى العالم الجديد، وأوضحت «تاريخ ما قبل التاريخ» فى هذه المنطقة من العالم التى كانت جد مجهولة من قبل، ولم يكن العلماء يعتقدون فى وجود حضارات فى هذه المنطقة من العالم الجديد قبل سكانها الأصليين من الهنود الحمر، وتعدد الحضارات داخل الأرض الأمريكية بأقسامها الثلاثة : أمريكا الشمالية، وأمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية أواللاتينية. وعرفنا أشياء كثيرة عن حضارة «الصحراء» وآثارها الموجودة فى نيفادا وأريزونا، وحضارة «فولسوم» وآثارها فى تكساس وكلورادو ونيومكسيكو، وحضارة «كلوفس» وآثارها فى نيومكسيكو وكلورادو وأريزونا وأوكلاهوما. ثم تعد الأمر ذلك وامتد البحث إلى حضارات أمريكا الجنوبية، و أزاحت تلك الكشوف الستار عن حضارات بالغة الروعة لم يكن من المتخيل وجودها مثل المايا،والإنكا، والأزتيك، وصنّاع السلال وغيرها . وكانت هذه العظام القديمة البسيطة هى السبب الرئيس فى العثور على هذه الحضارات التى فتح الطريق إليها «كريستوفر كولومبس» بدخوله الأرض الأمريكية عام ١٤٩٣م،واكتشاف العالم الجديد آنذاك.

عاش «أوتسى» فى نهر الجليد ٥٠٠٠ سنة متواصلة!

عندما عثر على جثة قديمة محنطة، تعود إلى خمسة آلاف عام، فى نهر جليدى فى جبال الألب على الحدود الإيطالية ـ النمساوية، منذ حوالى تسع سنوات مضت،تغير مفهومنا عن أسلافنا تماما. فلم يعد العصر الحجرى القديم المتاخر، مجرد حفائر ومكتشفات فقط. فقد أعطى إنسان الجليد هذا العصر وجها جديدا ودهشة ممزوجة بالحلم والمتعة.

وتبدأ أحداث قصته التراجيدية بموته متجمدا فى العراء وحيدا، ثم تكاثرت عليه الثلوج إلى أن أخفت جثته عن أعين وأنوف آكلى الجيف. وساهم الجليد البارد فى الحفاظ على جثته. ثم جاء صيف شديد الدفء بعد أن غاب فترة طويلة تقدر بخمسة آلاف عام، فاكتشف رجل الجليد «أوتسى»، وأعاد باكتشافه الحياة إلى الأوروبيين القدماء. وقد اكتشفه اثنان من السياح الألمان فى يوم ١٩سبتمبر عام ١٩٩١م، فى طبقة متجمدة يبلغ ارتفاعها ٣,٢١٠متر على الحدود بين النمسا وإيطاليا ـ كما سلف الذكر ـ فى المقاطعة المستقلة «بولزانو» (جنوب تيرول). ولم يحفظ الجسد فحسب، بل حفظت أدواته وأسلحته وملابسه كاملة، التى تكون نادرة البقاء عادة؛ ليختبرها الأثريون. جاءت تسميته بـ«أوتسى» نسبة إلى وادى«أوتس» الذى عثر عليه فيه. وظن البعض عندما عثر عليه فى البداية، أنه واحد من متسلقى الجبال العديدين الذين اختفوا فى جبال الألب فى العقود القليلة الماضية، وقد أحدث اكتشافه صدمة لدى البوليس النمساوى وأهل الجبال المستقلين ؛ لأنهم غير أثريين أومتخصصين فى الحفائر الأثرية، ولم يخطر ذلك على بالهم مطلقا. ولقد عانت الجثة بعض الشىء قبل أن تحدد طبيعتها الأثرية وتأخذ طريقها إلى معامل البحث والدراسة العلمية الجادة.

وعلى الفور، حرر «أوتسى» من الجليد المتراكم عليه، وحفظ فى مخزن بارد يلائم طبيعة البيئة التى جاء منها، وهكذا واجه هذا الإنسان القديم العلم الحديث بكل سلطانه الكبير! واختبر، وقيس، ووجدت طبقة من الغبار على ملابسه. وأرخت خمسة تقارير خاصة بمعامل تاريخ راديو ـ كربون المتطورة، وفاة «أوتسى» بين ٥,٣٥٠ ـ ٥,١٠٠ عام قبل الآن. وكان طول رجل الجليد فى حياته حوالى ١٦٠,٥سم، وعاش ما بين ٤٠ ـ ٤٥ عاما من ناحية العمر. وحمل جسده عددا من الأوشام فى شكل خطين متوازيين حول الرسغ الأيسر، أوعلى هيئة خطوط طولية أومتقاطعة على كل من جانبى منطقة العمود الفقرى، والركبة اليمنى، وربلتى الساقين، ورسغى القدمين.ولم تكن هذه الأوشام وسيلة سحرية أولروابط من نوع ما، فقد أوضحت أشعة «X إكس» أنه كان هناك التهاب فى المفاصل والعظام،ويثبت هذا أنها كانت وسيلة علاجية على نحومن الأنحاء. ولعل الكنز الحقيقى الذى عثر عليه علاوة على ما تقدم، هو ملابس هذا الإنسان وطبقة الغبار التى تعلوها. ويبدو أن «أوتسى» كان إنساناً متآلفاً مع حياة الجبال ومعداً إعداداً جيداً للتعامل معها. وتتكون ملابسه من رداء من الحشائش مما يجلب له أكبر قدر من الدفء والراحة فى الحركة. وحذاؤه مدهش للغاية: فهو ضد الماء ويصده،وواسع تماما وطويل، وصمم بحيث يتناسب مع المشى فى الثلوج. وصنع نعلاه من فرو الدب، أما الأجزاء العليا فصنعت من جلد الغزال، ووجدت حشائش ناعمة حول القدمين وفى الحذاء، وشكلت لتشبه الجوارب فى عصرنا الحالى، وكان الهدف من ورائها هوتدفئة قدميه وساقيه، وكان يحيط جسمه بشبكة مصنوعة من لحاء الأشجار.

ومن خلال دراسة أسلحته، وأدواته، ومخزونه من الأدوات البديلة، اتضح أنها سمحت له بالبقاء فى قريته الأصلية دون الحاجة إلى إمدادات إضافية منتظمة. وقد وجدت معه فاس لها نصل نحاسى، وخنجر ظرانى له جراب مصنوع من الألياف النباتية. وأوضحت البقايا النباتية التى عثر عليها فى أدواته، وملابسه، وأسلحته، أنه عاش فى تجمع سكانى حصد لتوه محصول القمح فى وقت قصير قبل أن توافيه المنية مباشرة. وكانت أدواته فقيرة من ناحية الشكل، ومنها قوسان بسهمين، و١٢ سهماً غير جيد الصنع. ويبدو أنه غادر المكان مضطراً، تحت ضغط ما، دون أن ياخذ معه كل أدواته،وهرب متخذاً طريقه فوق سلسلة جبال الألب الرئيسية. وفشل فى الهرب؛ فاعطته وفاته خلوداً أبدياً مضاعفاً لم يمنح لأحد من أفراد قريته الكثر. وأصبح خير سفير للماضى، وألقى الضوء على أحد أسلاف البشرية

إن الرمال المصرية لم تبح بكل أسرارها بعد وماتزال تحتفظ بالكثير من الآثار الرائعة فى بطنها لأجيال عديدة قادمة حتى تظل مثيرة للدهشة إلى أقصى درجة ممكنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها



من رسوم كهوف «لاسكو» الشهيرة

العظام، وغير نظرتنا تماما عن أهل عصور ما قبل التاريخ. ويحوى متحف «بولزانو» فى إيطاليا نموذجاً متخيلاً لهذا الإنسان، فيما بقيت جثته محل دراسة العلماء المختصين إلى الآن.

بعد طول صمت حضارة «المايا» تتكلم أخيراً !

حاولت أجيال عديدة من العلماء فك طلاسم حضارة «المايا» وحل رموزها السحرية مثل «أهرام الشمس»، والرياضيات، والفلك، والعلوم، والفن. وحاولت كذلك فك شفرة نقوشها السحرية المغلقة، وتعد اللغة الوحيدة المكتوبة فى ما قبل العالم الكولومبى الجديد. وعلى مدار ٤٥٠ عاما، فشلت كل الجهود والمحاولات. ثم انكسر الطلسم وانفتح سحر هذه الحضارة العريقة التى تعد واحدة من أكثر حضارات العالم إثارة وتأثيراً، وأصبحت حضارة حية، وخرجت إلى الوجود لتبهر العالم بعد أن نطقت لغتها الخاصة، وتوقف الوسطاء عن الحديث بلسانها.

لقد مضت عصور طويلة على هؤلاء الذين درسوا حضارة أمريكا الوسطى المعروفة بـ«المايا» دون معرفة حقيقية واضحة. ثم أصبح انهمار المعلومات والمعرفة بهذه الحضارة أشبه بالفيضان الهادر، خصوصا فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين، فقد فكت نقوش«المايا» وأنتجت لغة مكتوبة، لم يعد يقرؤها أحد منذ القرن السادس عشر الميلادى. ويعد هذا الاكتشاف أعظم الاكتشافات الأثرية الأخيرة الجديرة بالاحترام والتقدير. ونستطيع الآن بكل سهولة معرفة كل شىء كان غامضا عن حضارة «المايا» القديمة، وتستطيع من خلالها لغتها الخاصة أن تخبرنا بقصتها، فقد فتحت أبوابها على قلب التاريخ النابض باقصى سعتها، وازدهر الدين المشكل لهذه الحضارة، واستمرت حية فى الفترة من عام ٢٠٠ ـ ١,٥٠٠ ميلادية.

وللوهلة الأولى، تبدو نقوش «المايا» المكتوبة أشبه بشكل الباروك للصورة المكتوبة. واستخدم أهل «المايا» فى كتابتهم أشكالاً ورموزاً عديدة مثل رؤوس الحيوانات، وأجزاء الجسم البشرى، وأشكال الآلهة، وأشياء أخرى عديدة مكتملة الفاعلية السحرية، ورتبت كلها فى كتل كى تكوّن النص المكتوب الأساسى. وكان من الشائع من قبل، ولعقود عديدة طويلة، أن هذه النقوش لا تعنى شيئاً على الإطلاق أكثر من كونها نظام كتابة تصويرية فقط، من خلاله تمثل كل صورة كلمة رئيسية أو فكرة ما. وثبت خطأ هذه الفكرة تماماً؛ وثبت أن كتابة «المايا» ليست كتابة تصويرية فقط بل كتابة صوتية أيضاً، استخدمت مجموعة من العلامات، كل منها يمثل مقاطع ساكنة أو متحركة ؛ لنطق الكلمات.

ولقد درس بعض المناطق القليلة فى حضارة «المايا» مثل «كوبان»، و«بالنك»، فى بداية القرن العشرين، كذلك بعض النصوص القليلة المنقوشة على لوحات حجرية غالبا. وكان معظم كلمات «المايا» القديمة، متفرقاً، إلى أن جاء عام ١٩٥٠م، عندما أقدم اثنان من الدارسين المهمين وعملا باستقلالية تامة وتحرر فى الرؤية مع خلفية كبيرة مسبقة عن هذه الحضارة المهمة، وحققا نجاحاً عظيماً فى إماطة اللثام عن هذه الحضارة ذات الأسرار الدفينة، وعوضا ما فشل فيه الآخرون لسنوات طوال.

الأول هو الباحث الروسى الشاب آنذاك «يورى كنوروسوف»، الذى كان له اهتمام كبير باللغات ونظم الكتابة. وزار أرض حضارة «المايا» أثناء الحرب العالمية الثانية لدراسة لغتها؛ مدفوعاً بقراءة نسخة طبق الأصل مكونة من ٧٤ صفحة مميزة من «كتاب المايا» المحفوظ فى المكتبة الملكية فى «درسدن» فى ألمانيا، والذى أحضر إلى أوروبا من المكسيك فى بداية القرن السادس عشر الميلادى.

وشرع «كنوروسوف» بعينيه الثاقبتين وخبرته الطويلة بالكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، وكتابات أخرى عديدة ـ فى دراسة نقوش «المايا» عن طريق بعض الأفكار المسبقة التى ادعاها الباحثون الغربيون، ثم كرر الزيارة بعد ذلك. ودرس «ألفبائية لاندا»، سيئة السمعة، التى كتبها فى سنوات ١٥٦٠م، الراهب الإسبانى «ديجودى لاندا»، الذى حطم عدداً كبيراً من كتب «المايا» المكتوبة على لحاء الأشجار؛ باعتبارها مدنسة فى رأى قداسته ! وفى صفحات قليلة قصيرة، وصفها «لاندا» قائلاً: «فصول مؤكدة، أو رسائل كتبوها فى كتبهم، وأمورهم القديمة وعلومهم». وأصر فى دراسته غير العلمية أن «المايا» استخدموا «ألفبائية حروفية» مثلما فعل الأوروبيون تماماً! بل وزود النقوش برسوم؛ ليجعلها ممثلة لألفبائية «المايا». وكانت هذه الرسوم المضيفة غير ناضجة بالمرة، ومن الصعب إلحاقها بالنصوص القديمة نفسها. وأقر معظم الدارسين أن الألفبائية لا يمكن أن تكون مكونة من مئات الرموز أو العلامات التى استخدمت فى نصوص «المايا» القديمة.

وغاص «كنوروسوف» عميقاً، واستنتج أن فشل الراهب «لاندا» الأساسى، يرجع إلى أنه أساء فهم معنى كتابة «المايا»ب، وأنه أخضع هذه الكتابة إلى النطق الإسبانى، فضلاً عن اعتقاده أن النقوش تمثل حروفاً. وتحقق «كنوروسوف» من أن هذه النقوش لا تمثل حروفاً، بل مقاطع كتابية. واختبر فكرته عن طريق نسخة مكتبة «در سدن» التى فى حوزته، وبسرعة جاءت النتائج مبشرة، ونشر رؤيته هذه فى عام ١٩٥٢م؛ ونظراً لأنه نشر هذه الدراسة الأولية بشكل أساسى فى بلده الاتحاد السوفيتى، فأخذت سنوات عديدة حتى اعترف بها الغرب. ومع مرور الزمن أصبحت نظرية الشاب الروسى «كنور وسوف» هى الصائبة، خصوصاً تفسيره طبيعة هذه النقوش.

ومن بين الدارسين الذين تعلقوا بدراسة «كنور وسوف»، الباحثة الروسية المولد «تاتنيانا بروسكورياكوف» من متحف هارفارد الأمريكى. فقد أعجبت بأفكار مواطنها «كنوروسوف»، وطبعت بحثها حول لغة «المايا» فى عام ١٩٦٠م، وذكرت فيه أن نقوش مدينة «بيدراس نجراس» ـ إحدى مدن حضارة «المايا» ـ احتوت على نماذج من تواريخ اتبعها مؤرخون معاصرون لهذه الحضارة، مثل الميلاد، وتولى العرش، وموت الملوك وأقاربهم. وهكذا، أوضحت الدلالة التاريخية لهذه النقوش، فيما انصب عمل مواطنها «كنوروسوف» على إيجاد قيمة صوتية وقرائية هجائية لهذه النقوش؛ أى أن عملهما أكمل بعضه البعض.

وفى العقود التالية، تزايد الاهتمام بأدلة «كنوروسوف» اللغوية، وأدلة «بروسكورياكوف» التاريخية. ويدين العديد من الباحثين فى أنحاء العالم من المهتمين بدراسة حضارة «المايا»، لهذين الباحثين الروسيين الدءوبين بالفضل فى الكشف عن أسرار هذه الحضارة التى كانت غامضة زمناً طويلاً، وبفضل جهودهما أصبح أكثر من ٨٠٪ من نقوش «المايا» مقروءاً اليوم، فضلاً عن المعرفة التامة بنظام الكتابة الذى اتبعه أهل هذه الحضارة العريقة الغامضة المثيرة.

عائلة «ليكى» تعثر على جد للبشرية فى أخدود أفريقى !

يعد واحداً من أعظم الاكتشافات الأثرية فى القرن العشرين، فى أصول علم الإنسان، ذلك الكشف الذى قامت به عائلة «ليكى» فى شرق أفريقيا؛ والمكونة من الأب «لويس ليكى»، والأم العالمة وأستاذة الحفريات «مارى ليكى»، والابن «ريتشارد ليكى»، وزوجته «ميف ليكى»، فقد استمروا فى الحفر سنوات طولا، أثمرت فى عام ١٩٥٩ عن الكشف عن واحد من آباء البشرية الأوائل: وأسسوا بذلك آثار علم الإنسان، وأحدثوا ثورة فى تاريخ الإنسان على الأرض، ورجعوا بالفضل إلى صاحبة الفضل: أفريقيا القارة السوداء، أصل الحضارات فى العالم كله، ونجحت هذه الأسرة الفريدة فى تاريخ العالم والحفر الأثرى فى كتابة تاريخ أصول البشرية.

وحباً فى هذا الهيكل البشرى المكتشف الخاص بأحد أنواع الإنسان الأول، أطلق «لويس» و«مارى» عليه «ولدنا» : لأنهما قضيا ثلاثين عاماً تقريباً فى البحث عن هذا الولد المفتقد الذى اعتبراه مثل أبنيهما الحقيقيين. وأطلقا عليه رسمياً «زنجانثروبس بويزىَ»، أو «زنج»، الذى أدخل تاريخ علم الإنسان فى طور جديد من أطواره العديدة.

وقبل عام ١٩٢٥م، كانت الأدلة الحفرية تشير إلى أن إنسان ما قبل التاريخ جاء من أوروبا وآسيا، فهناك بقايا إنسان «نياندرتال» الأولية من أوروبا، وبقايا إنسان «هوموإركتوس» من الصين. ولم يكن لأفريقيا أى دور يذكر فى تاريخ علم الإنسان. وفى عام ١٩٢٥م، أعلن الباحث «ريموند دارت» اكتشافه إنساناً فى جنوب أفريقيا يعتبر سلفاً مبكراً للبشرية. وأطلق عليه «إسترالوبثكوس أفريكانوس»،

اكتشافات أثرية فى القرن العشرين

واشتهر بـ«طفل تاونج». ثم تم اكتشاف حفريات شبيهة فى جنوب أفريقيا أيضاً فى عقود تالية من القرن العشرين. لقد فضّل الأوروبيون أن تكون أصول الإنسان فى أوروبا أوبالقرب منها، ولم يجهدوا أنفسهم فى البحث عن أصول الإنسان فى أفريقيا؛ حتى أن إنسان «بلتدون» الشهير الذى عثر عليه فى جنوب إنجلترا عام ١٩١٢م وظل معترفا به إلى أن جاء ١٩٥٣م، وفيه اكتشفت حقيقته ؛ وأنه ليس إلا رجلا إنجليزيا عاديا، وأنها قصة مختلقة ؛الهدف من ورائها رد فضل السبق إلى أوروبا فى تاريخ علم الإنسان وإقرار هبوط الإنسان الأول بها؛كما يسعى الخطاب الاستشراقى الاستعلائى الذى يجهد نفسه دائما فى التكريس لسيادة وتفوق الجنس الأبيض الغربى عموما والأوروبى خصوصا على غيره من بقية الأجناس الأخرى.

لكن «لويس ليكى» المولود فى قلب «كينيا» الأفريقية السوداء من والدين بريطانيين : أى أنه ينتمى إلى الجنس المسيطر والمتفوق حضارياً كما كان يزعم أصحاب هذه النظرية لأنفسهم آنذاك، لكنه كان متحرراً فكرياً ومن أشد أنصار مذهب الانتخاب الطبيعى والمنهج العلمى اللذين يقران ويرجعان الفضل إلى أصحابه مهما كان الاختلاف أوالاتفاق معهم:فلم يشك مطلقاً فى مقولة «تشارلز دارون» فى كتابه الأشهر«أصل الأنواع» (١٨٧١م) من أن بدايات البشرية نبعت من أفريقيا. واستهل أول أبحاثه الأثرية فى عام ١٩٢٦م، عندما كان فى الثالثة والعشرين من عمره،وكرس لهذا العمل حياته كلها.وشاركته فى ذلك رفيقة كفاحه الطويل زوجته «مارى».وقد وقع وزوجته على أعظم اكتشافاته فى أخدود «أولدفاى» فى «تنزانيا» فى شرق أفريقيا السوداء، عام ١٩٥٩م.ووصف هذا الكشف فى حينه بأنه أقدم جد للبشرية.

وتبدأ أحداث هذه القصة، عندما عثر الزوجان على العديد من الأدوات الحجرية المقدرة بالمئات، لكن صانع هذه الأدوات حيرهما لعقود طوال. وفى يوم ١٧ من شهر يوليومن عام ١٩٥٩م، مرض «لويس»؛فقضى بقية يومه فى معسكر الراحة ولم يخرج إلى العمل. وذهبت زوجته«مارى» إلى العمل بمفردها ولم يشاركها «لويس» الذهاب للمرة الأولى فى حياتهما العلمية العملية المشتركة. فلاحظت حفرة عظام مثيرة، فانحنت عليها لتنظفها؛ فوجدت أسناناً آدمية ضخمة ! فرجعت إلى المعسكر ثانيةً لتخبر زوجها «لويس» بما عثرت عليه.وبعد مرور يوم سجل فيه المصور الحفرية فى الموقع، اكتشف الزوجان العالمان الفك العلوى كاملاً ومئات من البقايا التى جمعتها الزوجة «مارى».

وأحدث اكتشاف«إنسان الزنج» أو «زنجانثروبس بويزى» ضجة كبرى، وأطلقت عليه الصحافة العالمية «الرجل كسار البندق»؛ بسبب أسنانه الضخمة. وأرجعت عائلة «ليكى» تاريخه إلى حوالى ٦٠٠,٠٠٠ سنة مضت، وأطلق عليه «لويس ليكى»: «أقدم إنسان فى العالم». واتضح بعد ذلك، من خلال دراسة علماء جامعة «كاليفورنيا» الأمريكية من الجيوفيزيقيين، مستخدمين وسائل تاريخية حديثة، أن عمر «إنسان الزنج» تقريبا هو١.٧٥٠.٠٠٠سنة مضت. ومن ثم دخلت أثرية علم الإنسان مرحلة جديدة، وكان محل الميلاد : أفريقيا السوداء.ولا يمكن إطلاق صفة «إنسان» على «إنسان الزنج» الذى يطلق عليه «إنسان» تجاوزاً للتقريب إلى الأفهام والوقوف على أرضية فهم مشتركة بين المختصين والعامة على السواء : لأن هناك أسباباً كثيرة تحول دون ذلك ليس هذا مقام ذكرها.

وكان الابن «ريتشارد ليكى»، يجرى أبحاثاً كبيرة فى الآثار والأحافير النباتية والحيوانية عند الطرف الشمالى الشرقى من بحيرة«رودلف»، فاكتشف برهاناً ساطعاً على وجود جنس «الإنسان العاقل» (الهوموسابينس) ممثلاً فى عدد من العينات التى كانت معاصرة تماماً لحفريات الحيوان. ثم عثر الأب«لويس ليكى» على أولى الحفريات الجزئية لما يعرف الآن باسم «الإنسان الصانع» (هوموهابليس) فى رواسب تعود إلى الحقبة التى ينتمى إليه «إنسان الزنج» الذى عثر عليه،ويشترك النوعان فى ثقافة واحدة ؛وهذا الإنسان الصانع هو الذى صنع الأدوات الموجودة فى رواسب أخدود «أولدفاى»، ويعد السلف المباشر للإنسان ؛ لذا أطلقت عليه صفة «الصانع».

ومن الجدير بالذكر، أنه فى ٣٠ من شهر نوفمبر عام ١٩٧٤، عثر على إنسان آخر فى شرق أفريقيا أيضا، أطلق عليه اسم «لوسى»، وعاملته وسائل الإعلام على أنه «شخصية مهمة جداً قادمة من الماضى».واكتشفه الباحث «دونالد جوهانسون» فى منطقة «هدار» فى أثيوبيا، وهيكله العظمى كامل بنسبة ٤٠ ٪، وهو لأنثى كان ارتفاعها حوالى متر، ويؤرخ بحوالى ٣.١٨٠.٠٠٠سنة مضت، وأطلق عليه «أسترالوبيثكس افرانسيس»، وهوسلف مبكر لـ«الإنسان العاقل»(الهوموسابينس).ويشبه الطائفة الإنسانية المعاصرة.ولم يوجد أى دليل على استخدامه للأدوات. وفى عام ١٩٧٥م،عثر «جوهانسون» على ما عرف بـ«العائلة الأولى فى تاريخ البشرية»،وهى مئات من البقايا المتحفرة، العائدة إلى عصر «لوسى»،وربما مات أصحاب هذه البقايا فى كارثة ما معاً؛ مثل فيضان غادر قاتل أوما شابه، مما يوضح ترابطهم فى هذا التاريخ المبكر من عمر الإنسانية الأزلى الطويل.

كلب يكشف أسرار فنانى

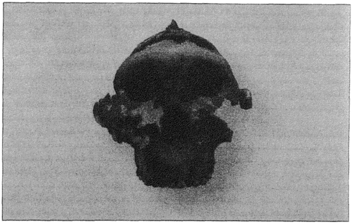
كهف «لاسكو» مصادفة !

عندما شاهد العالم رسوم كهف «لاسكو» فى فرنسا، أذهلت هذه الرسوم ذات الطبيعة البدائية الخاصة بإنسان الكهف، خياله، فقد كان هؤلاء البشر الذين رسموا هذه الرسوم الرائعة، منذ أكثر من ١٧,٠٠٠ سنة مضت، فنانين على درجة عالية من المهارة والاحتراف، وتعد أعمالهم هذه أفضل كثيراً من أعمال فنية عديدة تعود إلى زماننا المعاصر وتمتلئ بها متاحفنا الشهيرة !

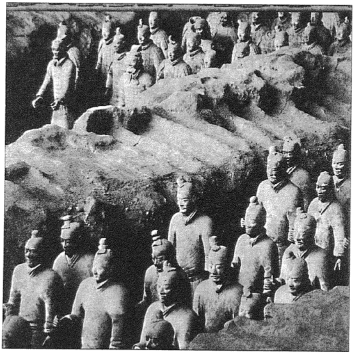
وتعود قصة هذا الاكتشاف الذى جاء بمحض المصادفة البحتة،إلى يوم ١٢ من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٠م، حين جرى الكلب الخاص بالصبى الفرنسى «مارسيل رافيدات» مطارداً أرنباً برياً، فسقط فى فتحة فى مرتفعات «لاسكو»، فى «مونتيناك» فى إقليم«الدردونى»، فى فرنسا.ومن حسن الحظ أن «مارسيل» وثلاثة من أصدقائه كانوا فى أثر الكلب. فاستخدموا سكيناً منزلياً كان معهم لتوسيع الحفرة، وأخذوا شموعاً معهم ليشاهدوا ما بالداخل.وعقدت الدهشة ألسنة الصغار وأزاغت أبصارهم فنون الإنسان القديم التى وقعت عليها أعينهم؛ فهذه رسوم لخيول وأبقار منفذة بأسلوب فنى بديع ذى تفاصيل عديدة،بالألوان،وتبدو هذه الحيوانات المصورة وكأنها حية فى حركتها، وتعددت أساليب التصوير داخل هذا الكهف المثير،واستخدمت أسطحه فى إكمال العديد من المناظر الفنية المصورة. ويبلغ عدد صور الحيوانات الملونة حوالى ٦٠٠ صورة قائمة بذاتها،ويعد هذا الفن المصور على أسطح هذا الكهف مرحلة مهمة جداً فى فن التصوير على أسطح الكهوف فى العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا، الذى بدأ منذ حوالى ٢٠,٠٠٠ سنة مضت.

وفى اليوم التالى، عاد الصبيان بالمصابيح وفحصوا الكهف كله، ثم أخبروا ناظر مدرستهم السابق «ليون لافال»، وطلبوا منه أن يدخل معهم إلى الكهف المدهش . ثم ذاع سر هذا الاكتشاف المدوى، وتوافد أساتذة كبار فى مجالات الفنون والعمارة والآثار لزيارة الكهف الفريد من نوعه. واحتوى الكهف ستة ممرات أو صالات مزينة بحوالى ٦٠٠ صورة و١,٥٠٠ نقش. وليس معروفاً عدد الرسامين الذين زينوا جدران هذا الكهف، وأرخت هذه الرسوم والنقوش ما بين ١٨,٥٠٠ـ١٧,٠٠٠ عام مضى. وتسارع الجميع إلى الحفاظ على هذا الكهف الثمين.وفتح للزيارة عام ١٩٤٨م، وبحلول عام ١٩٦٢م، كان عدد زواره ١٠٠,٠٠٠ زائر فى العام، مما أثر على رسومه التى لا تقدر بثمن: فأغلق فى وجه الزيارة منذ عام ١٩٦٣ م إلى الآن،وصنعت نسخة طبق الأصل منه فى السنوات التالية، وافتتحت للزيارة فى عام ١٩٨٣م،يزورها حوالى ٣٠٠.٠٠٠ زائر فى العام.وليس هذا أول ولا أقدم كهف ملىء بالرسوم أوالنقوش يكتشف فى أوروبا؛ فهناك كهف «ألتاميرا» فى إسبانيا الذى اكتشف فى عام ١٨٧٩م، وكهف «شوفت» فى فرنسا نفسها، الذى عثر عليه فى شهر ديسمبر من عام ١٩٩٤م، ويعود إلى ٣٢.٤٠٠ـ٣٠.٣٠٠ عام مضى، ويحوى رسوماً رائعة أيضاً. وهناك أكثر من ٣٠٠ كهف أوماوى تمتلئ برسوم أونقوش من العصر الحجرى القديم، اكتشفت فى كل أنحاء أوروبا من الأندلس فى إسبانيا إلى «أورالس» فى روسيا.لكن أهمية كهف «لاسكو» تكمن فى أنه غنى جداً برسومه وموضوعاته،وفنه المدهش والأخاذ للغاية، وأظهر براعة «الإنسان العاقل أول مبدع الفنون فى العالم» الذى أخرج هذه الرسوم الفنية الرائعة على هذا النحو المذهل، وأوضح أيضاً كيف أن جذور الفن تضرب عميقاً فى أصول البشرية. وتعددت الآراء التفسيرية لهذه الرسوم، فهناك من رأى أن الهدف من وراء هذه الرسوم هوهدف سحرى قصد به الفنان به أن يسيطر على أكبر عدد من هذه الحيوانات بدلاً من البحث عنها ومطاردتها فى أماكن بعيدة، مما يجنبه عناء البحث، أوأن الهدف من ورائها كان دينياً بحتاً قصد به القوم التعبير عن معتقداتهم وآلهتهم البدائية التى يتعبدون إليها ؛ حتى تمن عليهم بالعطاء الوفير من الصيد،وتقيهم الشر وتدرأ عنهم الأذى، وربما عبرت هذه الرسوم عن رغبة ما فى السيطرة والتسلط على هذه الحيوانات بحسبها أقوى وأهم الكائنات فى هذه الفترة والبيئة لدى هؤلاء، ويعنى هذا أن من يسيطر على هذه الحيوانات،يستطيع السيطرة على هؤلاء البشر بالتبعية والضرورة، فالحيوانات هى مصدر الطعام والثياب والثراء، وتعد أفضل الممتلكات فى هذه الفترة وهذا المجتمع البعيد عن زمننا الحالى، فيما قد تكون هذه الرسوم مرتبطة بأساطير قديمة لدى هؤلاء البشر يعبرون من خلالها عن رؤيتهم للعالم ويتذكرون ما مر فى حياتهم من أحداث وذكريات، ويشيرون فيها إلى أسلافهم الأقدمين المبجلين، على الرغم من عدم وجود صور تمثل آدميين سوى صورة واحدة، أو أنها ترمز إلى أشياء ما فى مخيلتهم لم

جمجمة الإنسان الذى اكتشفته عائلة «ليكى»



يستطيعوا التعبير عنها إلا بقوة الرسم.ولم ندر نحن ماهيتها.وفى النهاية،تجدر الإشارة إلى أن هذا الكهف لم يكن مكاناً للسكنى على الإطلاق، بل كان مكاناً مخصصاً للزيارات الموسمية التى يقوم بها سكان هذه المناطق فى مناسبات معينة للرسم على جدرانه مزيداً من صور هذه الحيوانات الملغزة، وممارسة طقوسهم،والجلوس فى ما بينهم، والتودد إلى بعضهم البعض، ومشاهدة رسومهم السابقة ماثلة أمامهم،وتعديلها إن وجب التعديل،وإضافة ما يرونه مناسباً،إن لزمت الإضافة.



لقطة من جيش التماثيل الذى يحمى امبراطور الصين

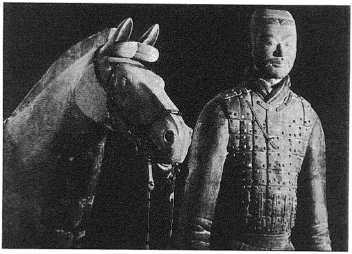
جيش من التماثيل يحرس مقبرة الإمبراطور المتوفى ٢٠٠٠ سنة!

فى سنوات عقد السبعينيات من القرن العشرين،خرجت الصين من عزلتها الإجبارية التى فرضتها على نفسها بعض الشىء، وانفتحت على الغرب، فأتيح لمشاهدى التليفزيون فى العالم أجمع أن يتابعوا مشهداً خارقاً للعادة، تتكون تفاصيله المثيرة التى لا تتكرر كثيراً من جيش قوامه حوالى ٨٠٠٠ جندى من الطمى المحروق (التراكوتا). وكل جندى بالحجم الطبيعى ولا يشبه أحدهم الآخر على الإطلاق، ويرجع تاريخ الاكتشاف إلى ٢٢٠٠ عام مضى، وكان هؤلاء الجنود فى مهمة مقدسة ألا وهى حراسة المقبرة الفخمة لإمبراطور الصين العظيم الأول «جين شيهاونج» .

وفى مقبرة هذا الإمبراطور الصينى العظيم، أول أباطرة الصين، وجد هذا الجيش الجرار،على أهبة الاستعداد للدفاع عن مجد الإمبراطورية الصينية الممتدة الأرجاء،والذود عن سيده الإمبراطور من أية أخطار قد تحدق به.وحكم هذا الإمبراطور الصين ما بين الأعوام ٢٢١ـ٢١٠ قبل الميلاد، أى حوالى ١١ عاماً.ويقف جنوده منذ عام ٢١٠ قبل الميلاد، عام موت الإمبراطور، صامتين فى ١١ صفاً،ويبلغ امتداد هذه الصفوف أكثر من مائتى متر فى الحجرة السفلية من المقبرة التى قسمت إلى سلسلة من الممرات المتوازية.

واستمرت أسرة هذا الإمبراطور تخلفه فى الحكم،وبعد سنوات قليلة من وفاته ؛حدثت حركة تمرد قام بها الفلاحون واقتحموا مقبرته، وانتقموا من جيشه الجرار الذى لم يحرك ساكناً وأصبح لا حول له ولا قوة، بل زادوا أن سرقوا الأسلحة البرونزية الخاصة بهؤلاء الموتى، أهل العالم الآخر، واستخدموها فى حروبهم الدنيوية ضد الأحياء فوق سطح الأرض!

وسوف تأخذ هذه المقبرة، عقوداً عديدة من الأثريين لتكشف كلية : فكل جندى،وكل حصان، وكل عربة حربية بالحجم الطبيعى .ووجد المكتشفون، الجنود ساقطين على الأرض نتيجة ثورة الفلاحين على المقبرة. وصممت أساليب تصفيف الشعر بشكل متقن، وطليت الوجوه بلون أحمر شديد الدموية،ونفذت الأسلحة والسراويل بأسلوب رائع.وصنع كل تمثال من



أحد فرسان الجيش الصينى مع حصانه

الطمى المحروق،وشكل فى نمط فريد حتى لا يشبه الآخر؛فهو عضو مستقل يرمز إلى أحد أرجاء الإمبراطورية الفسيحة. وقد طلب هذا الإمبراطور جيشاً ليضع حداً لعصر التاريخ الصينى المعروف بـ«دويلات الحرب». وأحضر العديد من الأشياء المطلوبة لفن الحرب: السهام البرونزية التى تقتل على بعد مائتى متر، والعربات الحربية التى يقودها زوجان من الخيول والفرسان بأساليب تصفيف شعورهم الفائقة وأردية رؤوسهم المميزة، ورماة السهام، والمشاة،واحتفظ الإمبراطور بكل هذه القوات لحاجته إليها فى العالم الآخر. واحتوت إحدى الحفر، الحيوانات المفضلة لدى عظمة الإمبراطور، ونسخة طبق الأصل من عربته الحربية الفريدة ذات الخيول الأربعة المنفذة بنصف الحجم الطبيعى.

ولعل أهم ما عثر عليه فى هذه المقبرة، هوالهرم غير المكتشف كاملاً الذى يغطى المقبرة نفسها . وصنعت هذه المقبرة الإمبراطورية من البرونز. وتأخذ شكل مملكة السماء الخاصة بالصين القديمة ؛ ووفقاً لمعتقداتهم فإن الأنهار تجرى فيها والبحار بل والمحيطات. واحتوت المقبرة أيضاً ثروة من المصابيح المملوءة بالزيت وعدداً كبيراً من متعلقات الإمبراطور الشخصية المثيرة والبالغة الأهمية.

وعندما انتهى العمل فى هذه المقبرة، وأصبحت معدة أحسن إعداد لاستقبال جثة عظمة الإمبراطور المهيبة، ادخل جسد الإمبراطور إليها وثوى فيها. ودفنت إلى جواره خليلاته الجميلات العديدات اللواتى لم تنجبن أولاداً على الإطلاق. وهكذا قدر لهذا الإمبراطور أن يدفن محاطاً بنسائه وجيشه وعربته الحربية وحيواناته الأليفة. وعمل فى بناء وإتمام هذه المقبرة حوالى ٧٠٠,٠٠٠ عامل طيلة فترة حكم هذا الإمبراطور!

هذا ما كشف عنه الأثريون من سطح «مدينة الموتى»، ودون شك، وكما قال مكتشف مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون» المغامر الإنجليزى «هوارد كارتر» ؛ فإن هناك: «أشياء رائعة» ما تزال تنتظر من يكتشفها. وطيرت وكالات الأنباء العالمية أخيراً خبراً يخص هذا الأثر الإمبراطورى الفريد، يرفع الراية الحمراء للفت أنظار الجميع إلى الخطر الذى يتهدد تماثيل جنود الجيش الحراس البواسل : فقد بدأ العفن المكون من ٤٠ سلالة، العدو الحقيقى للتماثيل، ينخر فى حوالى ١٤٠٠ تمثال منها، فى هجمة شرسة تثير الخوف على مصير هذه التماثيل وغيرها من جنود الجيش العديدين والإمبراطور نفسه ونسائه وعربته وحيواناته الأليفة؛ وعلى الفور تنبه المسؤولون الصينيون إلى فداحة هذا الخطر، فطلبت سلطات مدينة «شيان» فى شمال غرب الصين حيث يوجد أثرنا الفريد، معونة شركة «جانسن فارماكوتيكال» البلجيكية المتخصصة فى أبحاث معالجة الفطر للتخلص من العفن الذى يهدد التماثيل الأثرية . وأعلن مؤسس الشركة «بول جانسن»:«أن ٩٠٪ من العفن يمكن معالجته باستخدام الكيماويات». ونتمنى أن تنجو هذه التماثيل الفريدة من الخطر الذى يتهددها حتى لا تفنى مثلها مثل غيرها من آثار البشرية الكثيرة التى كان مصيرها الفناء .

لقد حفر الأثريون للبحث عن «أشياء رائعة» فى الأرض، خلال المائة عام الماضية. وأضاف كل اكتشاف وراء الآخر، لبنة سميكة فى صرح البشرية الشامخ، ومن ثم ازدادت معرفتنا بماضينا على نحو أكثر دهشة وعمقاً وغنى. ولا تعد بداية القرن الأثرية المعرفية كنهايته على أى نحو من الأنحاء. ويعود بعض الفضل فى تحقيق معظم هذه الاكتشافات الكبيرة خلال قرننا العشرين، إلى واحد من الاكتشافات العلمية المهمة فى مجال الكيمياء،وأعنى «ثورة راديو ـ كربون» التى أحدثها العالم الكيميائى الكبير «وليارد ليبى»، وحصل عن اكتشافه هذا على جائزة «نوبل» فى الكيمياء من ملك السويد«جوستاف» عام ١٩٦٠م. وقد هز هذا الاكتشاف الكبير علم الآثار وزلزل كيانه زلزالاً، وقلب التواريخ رأساً على عقب، وعرفنا كيف يمكن التأريخ عن طريق «راديو ـ كربون» والتحقق من تاريخية الأشياء أو زيفها. وجاء هذا الاكتشاف هذه المرة من العقل البشرى وليس من بطن الأرض ككل مرة، وبفضله أمكن معرفة التواريخ الحقيقية لمعظم الأشياء غالباً، ولم يحدث بعد ذلك ما يماثله من ثورة فى تاريخ مفردات الآثار والحضارات القديمة. وأصبح الآن معظم الأثريين فى العالم يفكرون ويكتبون عن طريق «راديو ـ كربون» الذى يعد دليلاً حقيقياً على مدى قوة وعظم إنجاز «ليبى» العظيم.

وسوف يظل علم الآثار فى تطور دائم واكتشاف مستمر؛ مادام هناك جديد مدهش ومثير، وما تزال الأرض ممتلئة بالعديد من الأشياء والآثار المدهشة التى لم تخرج من بطنها بعد، وسوف يحقق الإثارة والمتعة ويرسم البسمة والفرحة على وجوه الكثيرين فى العالم، سواء أكانوا آثاريين مختصين أو مجرد هواة عاشقين مهتمين. ■

التـــاريخ

وكيف يدرسه التلاميذ المصريون

قاســم عبده قاســم



«التـاريخ ذاكرة الأمـة»، عبـارة تـتردد كثيرًا فى صياغات مختلفةالشكل متشابهة المضمون، ويبدو أن كثرة تكرار العبارة قد أوهم البعض أنها من قبيل العبارات «المعَلّبة» والصياغات الجاهزة، أو الشعارات التى يمكن إخضاعها للسياسة.

بيد أن الأمر جدّ لا هزل فيه ولا لعب. وبناء «ذاكرة الأمة» يبدأ بتلقين تاريخها لأبنائها وهم فى سنى الطفولة، ويتصاعد التلقين تدريجيا مع نمو الطفل ودخوله فى سن الشباب، بحيث يستوعب الخطوط العامة لتاريخ وطنه وأمته قبل الدخول فى معترك الحياة العملية.

والتاريخ ليس مجرد ذاكرة «حافظة» للتاريخ فحسب، وإنما هو ذاكرة «حافظة» و«حافزة» أيضًا، ولعل هذا هو السبب فى أن التاريخ كان نمطًا من المعرفة الإنسانية صاحب البشر منذ خطواتهم الأولى على سطح هذا الكوكب، بل إن الرغبة الطبيعية لدى الإنسان فى معرفة الماضى لازمت الإنسان بشكل يكاد أن يكون غريزيًا، ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان - على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة - به ميل غريزى إلى تخليد نفسه من خلال التاريخ. فقد أدرك الإنسان أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى هذا الكون، وعندما عجز عن قهر الموت توسل إلى تحقيق ذلك من خلال تسجيل تاريخه الذى يحمل أعماله ومنجزاته. وما النقوش البدائية على جدران الكهوف سوى برهان ودليل على هذه الرغبة الإنسانية الغريزية فى الخلود من خلال التاريخ.

وإذا كان التاريخ هو وسيلة الإنسان لمعرفة الماضى من ناحية، ووسيلة الإنسان فى تخليد نفسه من ناحية أخرى، فإن ذلك يعنى فى التحليل الأخير أن التاريخ هو أداة الإنسان فى التعرف على ذاته، وعلى أصول الظواهر والعلاقات والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من حوله، وإذا كان التاريخ «ذاكرة الأمة»، فإن معرفة ما تحويه هذه الذاكرة تساعد الإنسان على بناء ثقته بنفسه فى الحاضر والمستقبل، ذلك أن معرفة الذات هى أولى خطوات المعرفة الحقة، والمعرفة الحقة هى أولى خطوات التقدم والازدهار ومنذ البداية كانت «قراءة الماضى» (أى فحص ذاكرة الجماعة الإنسانية) هى الطريقة التى يفهم بها الإنسان حاضره، ويستعين بها على التقدم نحو مستقبله، وهذا هو السبب فى حرص الجماعات الإنسانية قديمًا على قراءة الماضى لفهم الحاضر، ولما كانت معلوماتهم ناقصة كما كانت وسائلهم العلمية قاصرة، جاءت قراءتهم للماضى من خلال الأساطير ومن خلال شجرات النسب الحقيقية والخرافية تعويضًا للنقص فى «ذاكرة الأمة»، لكن المثير واللافت للنظر أن الحرص على ذاكرة الجماعة تمثل فى أساطير الأصول التى تنسب كل شعب إلى نسب إلهى أو مقدس من ناحية، وتمثل فى الملاحم والقصص والحكايات والأيام (عند العرب) التى تجسد المنجزات المجيدة لكل جماعة من ناحية ثانية، كما تمثل فى شجرات النسب القبلية التى عرفتها كل شعوب الأرض من ناحية ثالثة.

لقد حرصت القبائل قديمًا على تلقين أنسابها وأمجادها لأبنائها فى محاولة منها لبناء ذاكرة الجماعة (القبيلة)، كما تحرص الدول على تلقين تاريخها لأبنائها منذ تفتح زهور طفولتهم بطريقة واعية بقصد بناء «ذاكرة الأمة»، ولا يخلو برنامج دراسى فى بلد من البلاد من تدريس تاريخ هذا البلد أو ذاك بشكل واع يهدف إلى أن يكون الوعى بالتاريخ

مجموعة المناهج الدراسية فى الدراسات الاجتماعية والجغرافية والتاريخ للمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية فى مصر.

أحد المكونات الأساسية لثقافة الإنسان، ولهذا السبب كانت كتب التاريخ التي يتم تدريسها بالمدارس من الأهداف الرئيسية لكل الغزاة والمحتلين والمستعمرين، فعلها النازي في فرنسا، كما فعلها الإسرائيليون في الأرض المحتلة، وفعلها كثيرون غير النازي والصهاينة.

وقد حدثت في مجال التعليم المصري «حوادث» كثيرة متناقضة في العقدين الأخيرين، وقد حاولنا أن نفهم ملامح الفلسفة الكامنة خلف ما يحدث، لكننا أدركنا أن «الحوادث» لا منطق لها ولا فلسفة، ولكن إحدى هذه «الحوادث» كانت من الجسامة، بحيث طرحت أسئلة كثيرة حول ما يجري في مجال التعليم؛ ذلك أنه مع نظام الثانوية العامة الجديد تم استبعاد التاريخ عمليًا من مواد الدراسة على الرغم من وجوده ضمن المواد الاختيارية. واستدرك المسئولون ذلك بعد أن شعروا بعدم رضى الرأى العام، فجعلوا مادة التاريخ مادة تدرس مرة واحدة في عامين!

ويقودنا هذا إلى لب موضوع هذه الدراسة - كيف يدرس التلاميذ المصريون تاريخهم؟ (بداية، ينبغي أن نشير إلى أن كل برامج الدراسة الحديثة في الجامعات الأمريكية، التي يحلو للمسئولين أن يقتدوا بها دائما، تفرض في برامجها «مقررًا» في التاريخ على كل طلبة الجامعة يهتم بتاريخ بلادهم، وفي كليات الإنسانيات تكون هناك مقررات إجبارية في التاريخ بحسب التخصص، والجامعة الأمريكية بالقاهرة تفرض على جميع طلابها مقررًا إجباريًا A Syrvery of Arab History، ثم تتنوع مقررات التاريخ حسب التخصصات في الإنسانيات والعلوم الاجتماعية).

هذه الدراسة اعتمدت على قراءة الكتب التي قررتها وزارة التربية لتدريس التاريخ فيما بين السنة الرابعة الابتدائية ومرحلة الثانوية العامة، وسوف نقوم بقراءة مضمون كل كتاب وتحليل هذا المضمون ثم نسوق ملاحظاتنا العامة في نهاية عرض كل كتاب.

أول كتاب يحمل مادة شبه تاريخية هو كتاب السنة الرابعة الابتدائية الذي يحمل عنوان «الدراسات الاجتماعية» وهو يقع في جزءين، يحمل الجزء الأول عنوانا فرعيًا هو: «محافظتي جزء من مصر» والجزء الثاني عنوانه الفرعي نفس العنوان. وقد شارك في التأليف ستة، اثنان منهم يحملان لقب دكتور وأربعة بدون ألقاب علمية، يقع الجزء الأول في خمس وثلاثين صفحة من القطع المتوسط متضمنة الصور والخرائط والأشكال، وقد تم تقسيم الكتاب إلى خمس وحدات: منها وحدة خُصصت للتاريخ!

يبدأ الكتاب بتمهيد عن معنى الدراسات الاجتماعية، ثم تتوزع الوحدات الخمس على دراسة المحافظة التي تقع فيها المدرسة من النواحي الجغرافية والتاريخية، وما يتوافر فيها من موارد طبيعية وبشرية وبعض النواحي الخاصة بالأعياد والأحداث التاريخية والشخصيات البارزة.

ويحتل التاريخ «الوحدة الرابعة» من وحدات الكتاب (ص٣٧-ص٤٢) تحت عنوان «أحداث وشخصيات»، وتتضمن هذه الصفحات الست الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية المجيدة في المحافظة، أما الجزء الثاني من الكتاب، فليس به ذكر عن التاريخ.

وربما تكتمل الصورة إذا قدمنا نماذج لبعض هذه الأحداث المجيدة التي تضمنها جدول بعنوان «الأحداث التاريخية المجيدة في محافظات جمهورية مصر العربية» مع تنبيه بأن يكتفي التلميذ بدراسة ما يرتبط بمحافظته فقط).

فمن أحداث محافظة القاهرة ثورة ١٩١٩!

ومن الأحداث التاريخية المجيدة في الشرقية بناء مدينة العاشر من رمضان!

ومن أحداث الإسكندرية خروج الملك فاروق.

هكذا يبدأ بناء ذاكرة الأمة عند التلميذ في الصف الرابع من خلال نظرة موظف في الإدارة المحلية يرى الأمور بنظرة جزئية تجعل كل تلميذ في محافظة ما يتعرف على تاريخ مختلف عن التاريخ الذي يتعرف عليه قرينه في محافظة أخرى. والمضحك في الأمر أن نرى حدثًا في جسامة ثورة ١٩١٩ م وأهميتها جزءًا من تاريخ «محافظة» القاهرة وحدها، على حين أن الموظفين الذين ألفوا هذا الكتاب اعتبروا أن خروج الملك فاروق من مصر حدث تاريخي «اسكندراني»!

ومن يطالع جدول الأحداث التاريخية في هذا الكتاب سوف يقع فريسة لنوبة من الضحك ولكنه «ضحك كالبكاء»، وتكتمل الصورة بجدول آخر يضم «الشخصيات التاريخية المجيدة» في محافظات جمهورية مصر العربية مع التنبيه بأن يكتفي التلميذ بدراسة الشخصيات التاريخية في محافظته فقط».

وإذا تأملنا توزيع الشخصيات التاريخية على المحافظات سنجد أننا أمام جماعة مؤلفين يكتبون التاريخ بمنطق موظفي الإدارة المحلية: ففي هذا الجدول (ص٤٢) نجد:

القاهرة: المعز لدين الله الفاطمي - شجرة الدر - مصطفى كامل - صلاح الدين الأيوبي. وقد خطر ببالي أن توزيع الشخصيات التاريخية على المحافظات قد تم حسب البطاقات الشخصية أو العائلية؛ ولكنني تذكرت أن هذا «الاختراع» لم يكن معروفا آنذاك.

الإسكندرية: الإسكندر الأكبر - سيد درويش - بيرم التونسي - سيدي أبو العباس المرسي (هكذا).

المنوفية: عبد العزيز فهمي - محمد أنور السادات - محمد حسني مبارك

أي أن على التلميذ «المنوفي» أن يدرس أن الرئيسين السادات ومبارك من رموز وطنه (محافظة المنوفية) ولا يجوز لأي تلميذ غير منوفي أن يدرس تاريخهما، كما أن الإسكندر الأكبر لا تنبغي دراسته خارج «محافظة» الإسكندرية.

شمال سيناء: أبو الأنبياء إبراهيم.

جنوب سيناء: سيدنا موسى - القديسة سانت كاترين (هكذا)!

هل يمكن أن يكون هناك عبث وعدم إدراك بأهمية التاريخ في بناء الشخصية الوطنية أكثر من ذلك؟ وهل يمكن أن يبدأ التلميذ في سن التاسعة أو العاشرة بناء وعيه بوطنه وتاريخ أمته بهذا الشكل الذي يجعل من كل «محافظة» قبيلة تنافس القبائل الأخرى بأحداث تاريخها ورموز هذا التاريخ؟! وأين بناء الوعي بوحدة الأمة وتجانسها الذي تم بناؤه عبر آلاف السنين؟

إن تركيز التاريخ حول الشخصيات الفردية يرسب في وعي التلاميذ فكرة الفرد القادر على كل شيء من ناحية، ويطمس الفكرة الأساسية من استخدام التاريخ في بناء ذاكرة الأمة لأنه يجعل من الشعب كمًا مهملاً، ويرسخ قيم الحكم الفردي والدكتاتورية من ناحية أخرى

المضحك في الأمر أن نرى حدثا في جسامة ثورة ١٩١٩ وأهميتها جزءًا من تاريخ «محافظة» القاهرة وحدها، على حين أن الموظفين الذين ألفوا هذا الكتاب اعتبروا أن خروج الملك فاروق من مصر حدث تاريخي «اسكندراني»!

في الصف الخامس الابتدائي يدرس التلميذ كتابًا من جزءين بعنوان: (الدراسات الاجتماعية - بيئات وشخصيات مصرية) - الجزء الأول يقع في ست وأربعين صفحة منها خمس عشرة صفحة للتاريخ تتضمن الصور والرسوم والأشكال.

قامت بتأليف الكتاب مجموعة من ستة مؤلفين هم الذين قاموا بتأليف كتاب الصف الرابع الابتدائي، ولنا أن نتأمل ما حواه الكتاب من مادة تاريخية.

الوحدة الثانية (ص١٢/ص١٨) أهدافها: أن يذكر التلميذ مراحل توحيد مصر، وأن يتعرف على شخصية موحد مصر، وأن يوضح أثر وحدة مصر في حضارتها، ويلخص جهود أحمس لطرد الهكسوس، وأن يدرك مظاهر سوء معاملة الهكسوس للمصريين.

كلام جميل، ولكن!

ما يتعلق بالملك مينا وتوحيد القطرين مكتوب في ثلاث صفحات (ص١٤/ص١٦) منها صفحة ونصف للتدريبات وبها أربعة أشكال مصورة تصويرًا رديئًا، أما مضمون هذه الصفحات فيحتاج إلى ما هو أكثر من الدهشة والغضب!

وبقية المادة التاريخية في هذا الجزء تقع في الوحدة الرابعة (ص٢٩/ص٣٨) تحت عنوان شخصيات من التاريخ الإسلامي (عمرو بن العاص - صلاح الدين الأيوبي - قطز) وأهداف الوحدة طموحة للغاية، ولكن مضمون الصفحات متواضع للغاية.

أما الجزء الثاني فيقدم خمس شخصيات من تاريخ مصر الحديث والمعاصر (محمد على - أحمد عرابي - سعد زغلول - طلعت حرب - جمال عبد الناصر)

والهدف من هذه الوحدة (ص٩/ص٢٦) أن يتعرف التلميذ على حالة مصر أيام الحكم العثماني - يفسر أسباب الحملة الفرنسية على مصر - يقدر جهود محمد على في بناء مصر الحديثة - يفسر دور سعد زغلول وثورة ١٩١٩م - يقدر دور طلعت حرب في بناء اقتصاد مصر - يتعرف على إنجازات ثورة ١٩٥٢م.

أهداف تصلح لطالب جامعي متمرس على استخدام المصادر والمراجع، ولكن تلميذ الصف الخامس عليه أن يحققها من سبع عشرة صفحة مكتوبة بطريقة ساذجة ومملة في نقاط ملخصة لكي يسهل حفظها واسترجاعها في الامتحان، ويتخللها حوار ينقصه الذكاء. ومن هذه الصفحات السبع عشرة خصص المؤلفون خمس صفحات لأسئلة وتدريبات تؤكد على الحفظ والاسترجاع.

إن تركيز التاريخ حول الشخصيات الفردية يرسب في وعي التلاميذ فكرة الفرد القادر على كل شيء من ناحية، ويطمس الفكرة الأساسية من استخدام التاريخ في بناء ذاكرة الأمة لأنه يجعل من الشعب كمًا مهملاً، ويرسخ قيم الحكم الفردي والدكتاتورية من ناحية أخرى، فضلاً عن أن إغفال تاريخ الأمة ودور أبنائها صناع التاريخ الحقيقيين يقوض ثقة الفرد في وطنه وأمته، وقد انتهى زمن البطل التاريخي الفرد منذ زمن طويل، ومن ينظر في كتب التاريخ التي يدرسها التلاميذ في الأمم الأخرى يجد اهتمامًا واضحًا بتاريخ الأمة والجماعة مع وضع الأبطال والرموز في سياقهم التاريخي الطبيعي. ومن ثم، فإن ما فعله المؤلفون الستة الذين كتبوا المادة «التاريخية» في المرحلة

الابتدائية يشي بنقص خطير في إدراكهم لأهمية المعرفة التاريخية في بناء وعي الإنسان من ناحية، وبعدم القدرة على صياغة المدخل المناسب لبناء «ذاكرة» الأمة في عقول أطفالها من ناحية أخرى.

فإذا ما انتقلنا إلى المرحلة الإعدادية وجدنا الكتاب الأول للصف الأول الإعدادي في جزءين بعنوان: «وطني مصر المكان والزمان». والكتاب من تأليف ثلاثة، وينقسم إلى خمس وحدات، اثنتان منها للتاريخ: الوحدة الرابعة بعنوان «تاريخ مصر في العصر الفرعوني» (ص٥١/ص٧٥)، ويدرس أربعة موضوعات هي: استقرار الإنسان المصري في وادي النيل - عصر الدولة القديمة - عصر الدولة الوسطى - عصر الدولة الحديثة.

والوحدة الخامسة بعنوان: «من مظاهر الحضارة المصرية القديمة» (ص٧٦/٨٩) ويدرس التلميذ ثلاثة دروس هي: نظم الحكم والإدارة - الحياة الدينية - الحياة والنظم الاقتصادية وتشغل اللوحات والصور والرسوم مساحة تصل إلى ثلث صفحات الوحدتين اللتين تغطيان أقل من أربعين صفحة.

وعلى الرغم من جودة الاختيار في هذا الكتاب فإن كثرة الموضوعات مع أهميتها جعلت الكتابة عنها أشبه بقفزات الضفادع. فإذا ما أخذنا في اعتبارنا أن على التلميذ أن يدرسها ويؤدي الامتحان فيها في أقل من ثلاثة أشهر (هي المدى الفعلي للفصل الدراسي في ظل نظام الفصلين الذي فُرض على التعليم المصري على الرغم من عدم توافقه مع الأحوال الجوية السائدة في مصر)، ولذلك فإننا نعذر المؤلفين الذين أجادوا اختيار موضوعاتهم، لكنهم اضطروا إلى العمل بمنطق «سد الخانة».

أما الجزء الثاني من الكتاب فيتضمن ما يمكن اعتباره استكمالاً لما ورد في الجزء الأول: ففي الوحدة الثالثة (ص٣٨/ص٥٣) ثلاثة دروس هي: الحياة الاجتماعية - الحياة الفكرية والثقافية - العلاقة بين حضارة مصر وحضارات الشرق، ثم الوحدة الرابعة (ص٥٤-ص٦٦) عن تاريخ مصر وحضارتها في عصر البطالمة والرومان.

وكان من الممكن أن نكتفي بملاحظاتنا عن الجزء الأول من الكتاب لولا الخلل الفادح في بناء موضوعات المادة التاريخية في الجزء الثاني: ففي ثمان وعشرين صفحة (ثلثها ضاع في الصور والرسوم والأشكال ذات الطباعة الرديئة والإخراج الذي يفتقر إلى أي حس جمالي) ينبغي على تلميذ السنة الأولى الإعدادية أن يتعرف على جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية في مصر القديمة (ص٣٩/ص٥١) وعلى العلاقة بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات الشرق القديم (ص٥٢/ص٥٣). هكذا يغلب أسلوب «موظفي» الوزارة فيسد الخانة، والتوقيع بالحضور والانصراف دونما عمل حقيقي فيما بينهما.

كتاب الصف الثاني الإعدادي يحمل عنوان: «جغرافية الوطن العربي ومعالم التاريخ الإسلامي»، ألفته مجموعة الستة التي ألفت كتابي المرحلة الابتدائية بعد تعديل بسيط!

يتضمن الكتاب الجزء التاريخي تحت عنوان: «معالم التاريخ الإنساني» (ص٥٥/٩٣) الوحدة الرابعة تحمل عنوان: «ظهور الإسلام»، ويتحدث الدرس الأول عن «العرب قبل الإسلام». ويتصور «المؤلفون» أن العرب هم عرب الحجاز فقط، كما يرددون بعض «الشائعات» التاريخية عن تخلف العرب قبل الإسلام: جاهلين أو متجاهلين، حضارات العرب القديمة في اليمن والخليج والشام وبلاد الرافدين (العراق).



يتصور «المؤلفون» أن العرب هم عرب الحجاز فقط، كما يرددون بعض «الشائعات» التاريخية عن تخلف العرب قبل الإسلام؛ جاهلين أو متجاهلين، حضارات العرب القديمة في اليمن والخليج والشام وبلاد الرافدين (العراق)

والدرس الثاني بعنوان «البعثة النبوية» (ص٥٩/ص٦٢) وهدفه المعلن محاربة التعصب! ولست أدري كيف يمكن تحقيق ذلك بينما الصفحات الثلاث عبارة عن سرد لأعمال الكراهية التي مارستها قريش ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان الأحرى بمن يعلنون أنهم يريدون «محاربة التعصب» أن يتحدثوا عن سلوك الرسول والمؤمنين تجاه الآخر الذي لم يحاربهم.

ويبدو أن هناك أهدافًا مكتبية تم وضعها ومن ثم كانت الرغبة في إرضاء الرؤساء أقوى من القدرة على فهم الموضوع.

والدرس الثالث عنوانه: «قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول» (ص٦٣/ص٧١) وهو عبارة عن عرض لحروب الرسول، وفيه تركيز شديد على الجانب العسكري في السيرة النبوية على نحو يثير العجب.

الوحدة الخامسة عنوانها «الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين (ص٧٣-ص٨٣)، تتضمن هذه الوحدة عرضًا لشخصيات الخلفاء الراشدين بشكل سريع وعرضًا لأهم أعمالهم السياسية والعسكرية، ثم سردا للخطوط العريضة للحرب الأهلية الأولى في تاريخ المسلمين دونما محاولة لشرح أسبابها وتبسيطها أمام عقول التلاميذ الذين يبدأ وعيهم في النضج في هذه السن، ولكن الكتاب يتجاهل هذه الأسباب تماما مما جعل رواية المؤلفين تبدو وكأنها تقول إن المسلمين أهل شغب وعنف وقتال بطبيعتهم!

وفي الحديث عن حركة الفتوحات الإسلامية يحاول الكتاب تبريرها بشكل ساذج ومرتبك يبعث على الشك أكثر مما يزرع اليقين «..عليهم تبليغ الدعوة الإسلامية إلى شعوب البلدان الأخرى.. وحماية دينهم ودولتهم من مؤامرات الفرس والروم» (ص٧٩)، وعند الحديث عن الفتح الإسلامي لمصر يتجاهل الكتاب الحديث عن مساعدة الأقباط للمسلمين في قتالهم ضد الروم ولم يحاول فريق المؤلفين الضخم أن يوضح أن القتال كان ضد الروم بمساعدة الأقباط.

وفي هذا الجزء نرى الاهتمام الأكبر بسرد الأحداث العسكرية، ثم تأتي الأسئلة والتدريبات لتكشف عن أن هدفها الأساسي حشو العقول بالمعلومات المُعلَّبة ثم تفريغها في الامتحان.

الوحدة السادسة (بالمناسبة تقسيم الكتاب إلى وحدات بدعة أمريكية نقلتها وزارة التربية والتعليم حديثاً، ولم أستطع أن أفهم جدواها في مجال الدراسات الاجتماعية حتى الآن).

الوحدة السادسة بعنوان «الدولة العربية الإسلامية في عصر الأمويين والعباسيين» (ص٨٤/ص٩٢) أي ثماني صفحات منها صفحة للأسئلة والتدريبات، وقد ركز المؤلفون على الأحداث العسكرية، على حين كتبوا سطرًا واحدًا (نعم سطرًا واحدًا) عن حركة التعريب، واستغرق الحديث عن حركة الفتوحات ثلاث صفحات.

وفضلاً عن ذلك، فإن عيوب الكتابة تتبدى واضحة في الاختصار المُخل والتركيز المكثف، وكثرة الأسماء والأحداث. ولابد أن نتوقع مثل هذه العيوب عندما يقوم المؤلفون بتغطية فترة تزيد على ستة قرون (٤١هـ/٦٥٦هـ/٦٦١م/١٢٥٨م) في سبع صفحات يشغلها عدد كبير من الصور والرسوم والخرائط!

وأسلوب الكتابة بالغ الجفاف ويشبه أسلوب المكاتبات الحكومية، كما يفتقر إلى القدرة على مخاطبة التلاميذ في هذه السن الحساسة.

وتحمل المادة التاريخية في الجزء الثاني من هذا الكتاب عنوان: «الحضارة الإسلامية» (ص٢٩/ص٧٤)، وتدور صفحات هذا الجزء حول دراسة الحضارة العربية والإسلامية من النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية إلى جانب الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة، ثم كيفية انتقال هذه الحضارة إلى أوروبا وأثرها في نهضة أوروبا.

ومن يقرأ هذه الصفحات التي خصص أكثر من ثلثها للصور والأشكال، لا بد أن يشعر للوهلة الأولى أن من ارتكبوا تأليف هذا الكتاب ليسوا من أهل الدراسات التاريخية، وأنهم يتصرفون بمنطق الموظف المصري التقليدي الذي يهمه «سد الخانة» والوفاء الصوري بما هو مطلوب، وسوف يجد القارئ نفسه أمام سؤال يفرض نفسه بإلحاح: هل يمكن بناء فكرة بسيطة في ذهن تلميذ في الثانية عشرة من عمره عن الحضارة التي ينتمي إليها بهذا الأسلوب وفي هذا الحيز الضيق؟ وهل يمكن طرح موضوع أعظم حضارة في تاريخ البشر؛ سواء من حيث مداها الزمني الذي لا تضارعها فيه حضارة أخرى (أكثر من ألف سنة) أو من حيث امتدادها الجغرافي الذي شمل كل قارات العالم المعروف آنذاك، أو من حيث طابعها الإنساني الذي أتاح لغير المسلمين أن يسهموا في بنائها وأن ينعموا بثمارها - أقول هل يمكن طرح موضوع حضارة مثل هذه على طريقة عناوين نشرات الأخبار، أو «مانشيتات» الصحف؟

ومن ناحية أخرى، فإن تسمية «الحضارة الإسلامية» تغفل حقيقة أن العروبة مكوّن أساسي في هذه الحضارة التي يجب تسميتها «الحضارة العربية الإسلامية». وعلى الرغم من أن الكتاب يقرر أن «الحضارة الإسلامية» قامت على أسس ثلاثة:

١ - الدين الإسلامي
٢ - اللغة العربية
٣ - حضارات الشعوب

فإن الحديث دائمًا عن «الحضارة الإسلامية»، ولست أظن أن هذه مسألة شكلية أو أنها قضية أيديولوجية، ولكنها قضية بناء ذاكرة الأمة ووعي أبنائها، ولا يمكن أن ننتمي إلى «الأمة الإسلامية» بمفهومها الأممي والعالمي قفزًا فوق الانتماء إلى «الأمة العربية الإسلامية» بمعناها القومي، كذلك فإن انتماءنا القومي لا ينفي بأي حال انتماءنا إلى «الأمة المصرية» بمعناها الوطني. وقياسًا على ذلك لا يمكن أن توجد «حضارة إسلامية» تسقط الدور العربي، لغة وبشرًا ودورًا، في بنائها. فهل كان «فريق المؤلفين الضخم» واعيًا وهل يفصل الدور المصري عن الدور العربي ويلحقه بالدور الإسلامي مباشرة؟ أشك كثيرًا.

وهي قضية تعود بنا مرة أخرى إلى تحديد الهوية الحضارية وأسئلتها المطروحة دومًا، ومما يلفت النظر أن مؤلفي الكتاب يزعمون أن هدفهم محاربة التعصب وهم لا يدركون أن تجاهل المكوّن العربي في حضارتنا فيه نوع من التعصب الديني ضد الموروث الثقافي الذي يشترك فيه المسلمون وغير المسلمين من العرب، والعرب وغير العرب من المسلمين.

ويختتم المؤلفون كلامهم بفصل عنوانه: «مظاهر الحضارة الإسلامية في مصر» (ص٤٦ - ص٧٤) وهو فصل حافل بالأخطاء التاريخية التي نتجت عن التسرع والاختصار وعدم التخصص.

كتاب الصف الثالث الإعدادي عنوانه: «جغرافية العالم ودراسات في تاريخ مصر الحديث» ومن تأليف مجموعة الستة التي ألفت كتاب الصف الثاني. الجزء الأول خصص للجزء التاريخي خمسًا وثلاثين صفحة (ص٥٨ - ص٩٣) بما في ذلك الصور والخرائط وأسئلة المراجعة.

وتحت عنوان «الدرس الأول - الفتح العثماني لمصر» نجد «الحكمة» التي توخاها المؤلفون من هذا الدرس:

- نشأة الدولة العثمانية.
- كيف فتح العثمانيون مصر؟



حرصت الجماعات الإنسانية قديمًا على قراءة الماضى لفهم الحاضر، ولما كانت معلوماتهم ناقصة كما كانت وسائلهم العلمية قاصرة، جاءت قراءتهم للماضى من خلال الأساطير ومن خلال شجرات النسب الحقيقية والخرافية تعويضًا للنقص فى «ذاكرة الأمة»

- أحوال مصر فى العصر العثمانى.

أما «القضايا المتضمنة» (وأنا أستخدم لغة الكتاب) فهى الصحة الوقائية والعلاجية (صدق أو لا تصدق) والموارد وحسن استخدامها!

أغلب الظن أن المؤلفين غير متخصصين فى التاريخ.

على أية حال، يبدأ الدرس بمقدمة خاطئة ومغلوطة مؤداها أن مصر كانت دولة مستقلة فى رخاء اقتصادى، ولكن «اكتشاف» البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية، ثم «احتلال» العثمانيين وظلت كذلك حتى «فتحها» الفرنسيون، وقد ساعدت الحملة الفرنسية على إيقاظ الوعى القومى المصرى!

لا بد هنا من وقفة، فمصر كانت قد تدهورت قبل الغزو العثمانى بقرن كامل على الأقل، كما أن البرتغاليين لم «يكتشفوا» طريق رأس الرجاء الصالح وإنما دلهم عليه البحار العربى المسلم «أحمد بن ماجد» لأن ذلك الطريق البحرى كان معروفًا تمامًا للسفن العربية، فضلاً عن أن التدهور الاقتصادى فى مصر حدث قبل ذلك بقرن كامل ولأسباب داخلية تتعلق بطبيعة دولة سلاطين المماليك، ومن ناحية أخرى، فإن استخدام مصطلح «الاحتلال» فى وصف الحكم العثمانى، واستخدام مصطلح «الفتح» فى وصف الغزو الفرنسى يؤدى إلى ارتباك فى المفاهيم وسيادة الإحساس بالدونية تجاه الغرب ولا سيما عندما يتحدث «فريق المؤلفين» عن أن الحملة الفرنسية ساعدت على إيقاظ الوعى القومى المصرى.

إن الكتابة للتلاميذ فى سنى الصبا والشباب تحتاج إلى ما هو أكثر من «حنكة» الموظفين وشطارتهم فى تسديد الخانات على طريقة «كله تمام يا أفندم».

المهم أن الكتاب يتحدث عن «نشأة الدولة العثمانية» فى سطرين لا أكثر، ثم يتطرق إلى اصطدامهم بالمماليك مكررًا ما ذكره عن ضعف الدولة المملوكية، وبعد ذلك يذكر زحف السلطان سليم الأول على مصر وتحويلها إلى ولاية من ولايات الدولة العثمانية بأسلوب ركيك يذكرنا بالكلمات المتقاطعة.

بعد ذلك يتحدث الكتاب عن الحالة السياسية لمصر تحت الحكم العثمانى، ويتحدث عن الزراعة فى سطر ونصف، ثم يطرح سؤالاً عن الأسباب التى جعلت العثمانيين يهملون الزراعة! فهل يتوقع فريق المؤلفين أن يجيب المدرس وكيف؟ أم أنهم يتوقعون أن يقدم الطالب بحثًا عن هذا الموضوع؟!

وجاء حديث الصناعة بنفس الطريقة، ويتحدث عن تدهور التجارة فى نصف سطر ويطرح سؤالاً عن أسباب ذلك؟

أما الحديث عن الحالة الاجتماعية فهو كلام ساذج يكرس الإحساس بذل الشعب المصرى عبر التاريخ، وقد شغل الحديث عن الحالة الصحية والعلمية سطرًا ونصف السطر مع أن المؤلفين جعلوا من الصحة الوقائية والعلاجية إحدى «القضايا المتضمنة» فى هذا الدرس.

وفى التدريبات والأنشطة يطلب المؤلفون من التلميذ تفسيرًا للأمور التالية:

١- انصراف الولاة الأتراك عن القيام بالإصلاح فى مصر.

٢- ظهور حركة على بك الاستقلالية.

٣- تدهور الصناعة فى مصر فى العصر العثمانى.

فإذا أعدنا ما كتبه المؤلفون فى صفحاتهم الخمس والثلاثين أدركنا أن الهدف أن يؤلف التلميذ فى الصف الثالث الإعدادى مادته بنفسه! وهو اتجاه طيب على أية حال إذا ما كانت المادة متاحة للتلميذ من ناحية، وإذا ما كان التلميذ قد لقى تدريبًا تدريجيًا على هذا فى السنوات السابقة، وهو الأمر الذى لم نجد دليلاً إيجابيًا واحدًا عليه فى كتب السنوات السابقة التى قام نفس الفريق السداسى بتاليفها.

يبدو أن الذين وضعوا المناهج كانوا يحسنون الظن بالمؤلفين أكثر مما ينبغى، وربما يكون المؤلفون قد اعتبروا أن الخطوط العامة للمناهج يمكن تحقيقها على الطريقة الإعلامية بدلاً من الطريقة العلمية.

الدرس الثانى «الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م» (ص٦٣-٦٩) درس يغص بتفاصيل الأحداث ويورد الكثير من الأسماء لكنه يبدو مناسبًا، ويبدو أن هناك إصرارًا على تاكيد أن الحملة الفرنسية أيقظت الروح القومية فى مصر وهزت الأفكار القديمة فى المجتمع، كنت أتصور أن يركز هذا الدرس على أن المصريين أدركوا مدى خيبة حكامهم بعد أن شاهدوهم يفرون فى تخاذل أمام الفرنسيين، وعرفوا نقاط القوة فى أنفسهم بعد ثورتى القاهرة الأولى والثانية وبروز الزعامات الشعبية.

تاتى الوحدة الخامسة بعنوان «بناء الدولة الحديثة فى مصر» موزعة على أربعة دروس:

١ - محمد على واليًا على مصر.

٢ - سياسة محمد على الداخلية والخارجية.

٣ - المظاهر الحضارية فى عهد إسماعيل.

٤- التدخل الأجنبى فى مصر.

وتشغل هذه الوحدة الصفحات من ٧١ إلى ٩٣؛ أى ثلاثًا وعشرين صفحة.

والملاحظة الرئيسية على هذه الدروس الأربعة أنها محشوة بالتفاصيل والأسماء دون الإشارة إلى أن مشروعات أسرة محمد على لتحديث الدولة والمجتمع قد اصطدمت بأطماع القوى الأوروبية الاستعمارية من جهة، ودور الشعب فى المقاومة من جهة ثانية، ودور المصريين فى بناء النهضة من جهة ثالثة.

ومن الناحية المنهجية نجد هذه الدروس غاصّة بالتفاصيل التى لا يربط الشرح فيما بينها، ويبدو أن فريق المؤلفين لا يجد أمامه هدفًا واضحًا أو فلسفة محددة غير الحشو والتلقين؛ إذ تبدو الأحداث التى أوردها الكتاب وكأنها نماذج من «حبوب التاريخ» القابلة للبلع دون أن تترك أثرًا.

الجزء الثانى الذى يتم تدريسه فى الفصل الدراسى الثانى يضم المادة التاريخية فى ثلاث وأربعين صفحة مقسمة على ثلاث وحدات (ص ٣٤- ص٧٧)

الوحدة الرابعة: الحركة الوطنية فى مصر.

الوحدة الخامسة: مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى الحرب العالمية الثانية.

الوحدة السادسة: مصر منذ ثورة ١٩٥٢م.

يبدأ هذا الجزء بدراسة الثورة العرابية (٣٥-٤١) «والقضايا المتضمنة» هى:

- الوحدة الوطنية.
- التلاحم بين عنصرى الأمة.
- حقوق الإنسان.

وحين تبحث عن هذه «القضايا المتضمنة» فى ثنايا الصفحات الست تكتشف أنه مجرد «كلام موظفين» يريدون به الإيهام بأن هناك هدفًا وراء ما كتبوه، فالواقع أن الدرس مجرد عرض مكثف لعناوين الأحداث السياسية وأسماء أبطالها وبشكل لايناسب عقلية تلميذ فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، ولم ينل أى قدر حقيقى من المعلومات التاريخية فى السنوات السابقة بفضل «فريق التاليف السداسى» الذى احتكر «مقاولة» التاليف التاريخى. ولا يبقى أمام التلميذ إلا أن يحفظ هذه المعلبات التاريخية لإفراغها فى ورقة الامتحان!

وقد بحثت عبثًا عن «القضايا المتضمنة» فى هذا الدرس فلم أجد شيئًا عن الوحدة الوطنية أو حقوق الإنسان؛ فهل هى متروكة للمدرس حسب ثقافته ووقته؟ أم أنها متروكة للمصادفة؟ أم أن على التلميذ أن يدركها وحسب؟!

أما التدريبات والأنشطة فلا علاقة لها بهذه القضايا المتضمنة، وإنما تسعى إلى الحفظ والاسترجاع.

الدرس الثانى عنوانه «مقاومة الاحتلال البريطانى» يركز على شخصيات الزعماء (مصطفى كامل - محمدفريد) ويخلو الدرس تمامًا من الحديث عن الناس العاديين والزعماء الثقافيين الذين قدموا الكثير لوطنهم فى النضال ضد الاحتلال.

الوحدة الخامسة: تركز فى الدرس الأول على سعد زغلول وتتجنب الحديث عن وقائع ثورة ١٩١٩م، ودور الشعب فيها، أما الدرس الثانى وعنوانه «مصر بين الحربين»: فهو عرض سخيف لعناوين الأحداث ينتهى بحريق القاهرة، ولا يمكن للقارئ - سواء كان تلميذًا فى الصف الثالث الإعدادى أو أستاذًا جامعيًا أو مثقفًا عامًا.. أو غيرهم - أن يفهم شيئًا أو يخرج بفكرة واحدة واضحة من هذا الحشو العبثى للأحداث.

أما الوحدة السادسة: فلا يمكن اعتبارها درسًا فى التاريخ بأى حال من الأحوال؛ وإنما هى نوع من التعبئة السياسية تروج لموقف سياسى مؤقت (ولا تروج حتى لفكر سياسى أو أيديولوجية سياسية) وتقرأ ما هو مكتوب فيها فتشعر أنك واقع فى شباك وسائل الإعلام الحكومية وكلامها المكرر عن «الفضائل السياسية» لحكام هذا الزمان، وتبريراتها الساذجة عن موقف الحكومة المصرية منذ معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩م حتى الآن.

إن أهم ما يلفت النظر فى «المادة التاريخية» التى يدرسها تلميذ المرحلة الإعدادية أنها تصنع هدفًا طموحًا لتغطية تاريخ مصر والمنطقة العربية منذ أقدم العصور حتى الآن ولكن المدى الزمنى المتاح لتدريس هذا التاريخ ضيق بشكل يبعث على الرثاء، إذ أن تلميذ المرحلة الإعدادية يدرس طوال سنوات ثلاث مائتين وعشرين صفحة تقريبًا - ثلثها للصور والرسوم والخرائط والتدريبات والأسئلة - تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى الآن، ويدرس حضارة مصر القديمة وعلاقتها بحضارات المنطقة العربية، ثم يدرس التاريخ الإسلامى وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية - فهل يمكن لأحد أن يتصور إمكانية تحقيق ذلك فى الواقع الفعلى؟

إن المرحلة العمرية لتلاميذ المرحلة الإعدادية (١١-١٤ سنة فى المتوسط) تجفل من الوقوف عند التفاصيل والأسماء، وتميل إلى الرؤية الكلية فى صيغة أقرب إلى الرواية. وهنا ينبغى أن نصرح باننا نرى أن التاليف لتلاميذ المرحلة الابتدائية والإعدادية يجب أن يقوم به كبار الأساتذة المتخصصين على أن يكتب كل منهم فى تخصصه فقط بدلاً من المؤلف الكشكول الذى يكتب فى «المواد الاجتماعية»، أما الصياغة اللغوية والأسلوبية المناسبة لكل مرحلة فيمكن أن يُعهد بها إلى الأدباء الذين تخصصوا فى الكتابة للأطفال والشباب الصغار بشرط أن تكون المراجعة النهائية للأساتذة المتخصصين.

ومن ناحية أخرى، فإن المادة التاريخية تستحق كتابًا مستقلاً لكل صف من صفوف الدراسة الابتدائية والإعدادية، وإذا اتفقنا على أهمية الوعى التاريخى فى بناء المواطن فإن الجدل حول هذه المسالة لن يطول، أما إذا لم نتفق فإن المسالة تستحق نقاشًا واسعًا حولها.

كذلك فإن البرنامج بالغ الطموح للمادة التاريخية لتلاميذ المرحلة الإعدادية يجب أن يتواضع قليلاً؛ إذ إنه سيكون من المفيد تمامًا أن ينهى تلميذ المرحلة الإعدادية دراسته وهو عارف بالخطوط

العريضة لدور بلاده في خدمة الحضارة الإنسانية، وهو عارف أيضًا بانتمائه إلى الحضارة العربية الإسلامية وتجلياتها في صالح البشرية علمًا وفنًا وأدبًا وسياسة واقتصادًا، وهو أمر يمكن تحقيقه بسهولة.

في المرحلة الثانوية نجد أنفسنا في مواجهة موقف صعب، إذ أن طالب المرحلة الثانوية يدرس التاريخ في سنتين دراسيتين فقط ويختفي من السنة الثالثة وهو موقف نتج عن برامج الدراسة التي تم وضعها في نظام الثانوية العامة الجديد، وكان من الممكن - قبل التعديل - أن يتخرج الطالب من المرحلة الثانوية دون أن يدرس التاريخ سوى في الصف الأول الثانوي (صدق أو لا تصدق).

ولهذا السبب فإن المسئولين في الوزارة وجدوا أنفسهم أمام مأزق حقيقي: فكتاب الصف الأول الثانوي عنوانه «مصر وحضارات العالم القديم»، وتم دمج الكتابين اللذين كانا للسنة الثانية والسنة الثالثة الثانوية في كتاب واحد بعنوان «التاريخ للثانوية العامة - المرحلة الثانية (نظام جديد)».

ويحسن بنا أن نفحص كل كتاب من هذين الكتابين على حدة:

كتاب الصف الأول الثانوي يقع في ٢٤٧ صفحة من القطع الكبير، وهو من تأليف ثلاثة من كبار العلماء المتخصصين في هذا المجال، وفي مقدمة الكتاب أوضح المؤلفون هدفهم، كما كشفوا في الوقت نفسه عن مدى فهمهم الصحيح لوظيفة التاريخ؛ فقد جاء في هذه المقدمة:

أولا: دراسة التاريخ من أهم أدوات تعميق الشعور بالانتماء والارتباط بالوطن.

ثانيا: استحالة فهم الذات والتعرف على القدرات دون التعرُّف على الماضي الذي صنعناه.

ثالثًا: مسيرة التاريخ تكشف عن أن النكسات كانت ظواهر طارئة في تاريخنا وهو ما يعمق الثقة بالنفس.

رابعًا: إن معرفة الماضي تساعد على تطوير الحاضر وصنع المستقبل المشرق.

خامسًا: الوعي التاريخي هام لاستكمال مقومات الثقافة الوطنية والقومية.

وهذا الكتاب يُعتبر - بحق - نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه التأليف في كتب التاريخ لطلاب المدارس الثانوية، وماقبلها. فقد تمت صياغة الكتاب على هدى من هدف الدراسة التاريخية كما فهمها الأساتذة الذين ألفوا هذا الكتاب (ولا بأس من أن نكرر أن تأليف الكتب المدرسية يجب أن يقوم به كبار الأساتذة المتخصصين بدلاً من أن يعهد به إلى «موظفي الوزارة» الذين نالوا مواقعهم بالأقدمية).

على أية حال، يتناول الكتاب موضوعاته في ثلاثة أبواب موزعة على أحد عشر فصلاً تتلوها خاتمة بعنوان «فضل مصر على حضارة العالم» مدخل الكتاب يتحدث عن موضوعين: «الحضارة الإنسانية ومقوماتها»، «نبذة عن تاريخ مصر القديم وتطورها الحضاري».

يتميز أسلوب الكتاب بالبساطة والعمق في آن معًا، ويقدم للطالب معلومات مهمة في صياغة جميلة وبسيطة عن الموضوعين اللذين حددهما المؤلفون في المدخل، ثم يقدم الكتاب رسمًا توضيحيًا بعنوان «خريطة زمنية لتاريخ مصر القديم» منذ عصر ماقبل التاريخ حتى الفتح الإسلامي لمصر (٣٢٠٠ق.م - ٦٤١م)



هل يمكن أن يبدأ التلميذ في سن التاسعة أو العاشرة بناء وعيه بوطنه وتاريخ أمته بهذا الشكل الذي يجعل من كل «محافظة» قبيلة تنافس القبائل الأخرى بأحداث تاريخها ورموز هذا التاريخ؟! وأين بناء الوعي بوحدة الأمة وتجانسها الذي تم بناؤه عبر آلاف السنين؟

ومن أجمل الأشياء في هذا الكتاب أنه يعرض للتاريخ السياسي، أي تاريخ الحكام، بسرعة شديدة (ص١١/ص١٩) لينتقل في الفصل الأول إلى الحديث عن الحياة الدينية عند المصريين القدماء (ص٢٠/ص٢٩)، وتعقب ذلك صفحتان بعنوان «قراءات تاريخية» بهما نص جميل لنشيد إخناتون لمعبوده آتون، ثم يقدم للطالب مقترحات بالأماكن التي يمكن أن يزورها لمشاهدة آثار إخناتون.

ثم يلخص أفكار الفصل وعناصره ليقدم الأسئلة والتدريبات.

والخلاصة أن طريقة كتابة هذا الفصل بديعة ويمكن اتخاذها نموذجًا لما يجب أن تكون عليه كتابة التاريخ لتلاميذ المدارس المصرية.

الفصل الثاني عن الحياة السياسية يتناول نظام الحكم وحكومات المدن ثم حكومات الأقاليم، فحكومة الشمال وحكومة الجنوب، ثم الوحدة التاريخية.

بعد ذلك يتحدث عن عناصر الحكم (الفرعون ومهامه - الوزير - الإدارة المركزية - الإدارة المحلية - الجيش - الأسلحة... إلخ)، ثم يتحدث عن معركة مجدو والأسطول.

وتعقب هذا قراءة تاريخية من كتاب الدكتور أحمد قدري (المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفي ومحمد العزب موسى، مراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار، القاهرة ١٩٨٥م).

وقد آثرت الحديث بشيء من التفصيل عن محتويات الفصلين الأول والثاني لكي يتضح للقارئ مدى التوفيق الذي حالف مؤلفي هذا الكتاب في مهمتهم، وربما يكون مفيدًا أن نوضح أن فصول الكتاب التالية تتحدث بالترتيب عن:

الحياة الاقتصادية - الحياة الفكرية - الحياة الاجتماعية، وبذلك ينتهي الباب الأول وقد اقترح المؤلفون قراءات تاريخية بديعة في نهايات تلك الفصول.

وتحت عنوان «كلمة أخيرة» يوجه المؤلفون انتباه الطالب إلى أن المصريين قد نجحوا في تكوين أمة وبناء دولة حوالي سنة ٣٢٠٠ق.م، وأن الوحدة المصرية هي أقدم وحدة لشعب في تاريخ العالم كله، كما أن التقدم كان مرهونًا بالوحدة وقدرة الشعب وقوة الجيش والاهتمام بالعلم والفن، وأن إهمال هذه الجوانب هو الذي أدى إلى الضعف والتدهور.

الباب الثاني في فصلين؛ أولهما عن حضارات العراق القديمة، وهو مكتوب بشكل جيد وأسلوب سهل سلس، وثانيهما عن حضارة فينيقيا، ثم قراءة تاريخية عن اختراع حروف الهجاء.

الباب الثالث عن حضارة الإغريق وحضارة الرومان: الفصل الأول عن حضارة الإغريق وتجلياتها مع نصوص تاريخية من كتاب (هردوت يتحدث عن مصر للدكتور محمد صقر خفاجة تعليق الدكتور أحمد بدوي، القاهرة١٩٦٦م). الفصل الثاني عنوانه «مصر في عصر البطالمة» مع نصوص تاريخية عن مكتبة الإسكندرية.

وهنا نجد أنفسنا في موقف نختلف فيه مع المؤلفين على الرغم من إعجابنا الشديد بأسلوبهم ومنهجهم في تأليف الكتاب، فقد وضعوا العصر البطلمي في سياق علاقة مصر بالإغريق، والحقيقة أن مصر تحت حكم البطالمة كانت دولة مستقلة تمامًا بعد أن أسس بطليموس الأول - أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر - أسرة حاكمة مستقلة غير تابعة لأي حاكم خارج مصر، واستمرت حتى مصرع كليوباترة السابعة في أحداث الغزو الروماني لمصر سنة ٣٤ق.م. ولم تكن المفاهيم السياسية السائدة في العالم آنذاك تحول دون هذا.

إن تاريخ مصر في هذه الفترة يعتبر فصلاً مجيدًا في كتاب تاريخها الطويل، وفي هذا العصر كانت مصر، وعاصمتها الإسكندرية، المعقل الأخير للعلم والفن والثقافة شرق المتوسط قبل قيام الإمبراطورية الرومانية.

الفصل الثالث يتناول حضارة الرومان على حين يتناول الفصل الرابع أحوال مصر تحت الحكم الروماني ومقاومة المصريين للرومان ثم دخول المسيحية إلى مصر وما أعقبه من اضطهاد بيزنطي (الرومان الشرقيين) للأقباط بسبب الاختلاف المذهبي حتى فتح المسلمين لمصر.

وينتهي هذا الفصل الجيد بقراءة تاريخية عن صناعة ورق البردي (الموسوعة المصرية: تاريخ مصر القديم وآثارها - العصر اليوناني/الروماني، جـ٢، القاهرة١٩٧٨م)

خاتمة هذا الكتاب تتحدث عن فضل مصر على حضارة العالم، وهكذا نجد أنفسنا أمام كتاب يصلح مثالاً للكتب المدرسية من حيث مضمونه ومحتواه، ومن حيث منهج التأليف ووضوح هدف المؤلفين، ثم من حيث تشجيعه للطلاب على القراءة ومشاهدة الآثار وزيارة المتاحف بالشكل الذي يحقق فعلاً هدف تنمية الوعي التاريخي لدى الطلاب.

لكن المشكلة أنه الكتاب الوحيد الذي يصادفه التلميذ في حياته قبل الجامعة، فقد رأينا كيف أن «مقاولي» التأليف في المرحلة الابتدائية والإعدادية، كانوا يعملون بمنطق «سد الخانة» وبمفاهيم صغار الموظفين الذين يهمهم الاستيفاء الشكلي للأوراق والمستندات إرضاء لرؤسائهم!

ومن ناحية أخرى، فإن الإخراج الفقير لهذا الكتاب الهام لا بد أن يجعل الطالب ينفر منه؛ لا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن «فريق المؤلفين»، أو «متعهدي التأليف» قد نجحوا في زرع كراهية «التاريخ» في وجدانه طوال سني عمره الدراسي السابق.

ويبدو أن المسئولين في الوزارة قد أخفقوا في الإمساك بتلابيب هذا الكتاب الذي نجح الأساتذة المؤلفون في «تهريبه»، فتشددوا في الحصار في السنتين الثانية والثالثة من المرحلة الثانوية: فهناك كتاب عنوانه «التاريخ للثانوية العامة» والمؤلفون ثلاثة من أساتذة الجامعات الذين يعرف الجميع قدراتهم ومكانتهم العلمية الرفيعة، وثلاثة من موظفي الوزارة.

وتفاءلت خيرًا حينما قرأت أسماء المؤلفين، ولكن التفاؤل لم يلبث أن تخلى عن مكانه لخيبة الأمل حين اكتشفت أن الكتاب مجرد ناتج لدمج كتابين: كان أحدهما مخصصًا للسنة الثانوية الثانية، والآخر للسنة الثالثة، وتضاعف إحساسي بالإحباط عندما قرأت في الصفحة الثانية أن خمسة من موظفي الوزارة هم الذين قاموا بالمراجعة النهائية «بناء على تعليمات السيد الأستاذ الدكتور الوزير».

ولأن الكتاب، تقريبا، من «إنجاز» موظفي الوزارة الذين قاموا بالدمج كما قاموا بالمراجعة النهائية، فإن المقدمة مكتوبة لإرضاء الوزير الذي «تفضل بإعطاء توجيهاته» وليست موجهة إلى الطلاب على نحو ما جاء في مقدمة كتاب السنة الأولى الثانوية، وهكذا عاد منطق الموظفين يفرض نفسه على كتاب التاريخ الذي يدرسها لطالب مرة واحدة في عامين دراسيين!

ولنتصفح الكتاب:

القسم الأول بعنوان «الحضارة الإسلامية» (ص٧-ص٩٦)؛ منها عشر صفحات عن الحضارة العربية قبل الإسلام (ص٧-ص١٦) وثمانون صفحة عن تاريخ الحضارة الإسلامية منها عشرون صفحة للصور والخرائط والأسئلة، وكانت تلك هي أولى الثمار المرة «لدمج» الكتابين، و «المراجعة النهائية» التي قام بها موظفو الوزارة.

الفصل الأول «أصول الحضارة الإسلامية: الحضارة العربية قبل الإسلام والحضارات التي تأثرت بها» (ص٧/ص١٥) منها صفحتان للخرائط والأشكال. «أول القصيدة كفر» كما يقولون؛ إذ يقرر الكتاب «لم يكن لدى

العرب قبل الإسلام تراث حضارى عظيم، وإن كانت بعض مظاهر الحضارة قد قامت فى بلاد اليمن وفى أطراف شبه جزيرة العرب».

ربما لا يعرف الذين تولوا الإخراج النهائى لهذا الكتاب أن حضارات العراق القديم وبلاد الشام القديمة حضارات عربية، أما حضارة اليمن القديمة التى أسهمت فى التجارة العالمية، واستأنست الجبل، وروضت مياه المطر (سد مأرب) فاستحقت أن تسمى «بلاد العرب السعيدة» ـ هذه الحضارة حولها دمج الكتابين إلى مجرد عناوين باهتة، وبطبيعة الحال لم يرد ذكر حضارة عرب الساحل فى عمان والبحرين القديمة الذين كان إسهامهم فى تجارة العالم وحضارته واضحًا بالقدر الذى كشفت عنه الآثار.

وتحت عنوان مثير للعجب «حضارة دول اليمن» (تأمل!!!) يكتب الكتاب سطرين عن مملكة معين، وعشرة أسطر عن مملكة سبأ، وخمسة عشر سطرًا عن مملكة حمير ـ أليس هذا هو أسلوب الموظفين فى سد الخانة.

وتحت عنوان «حضارة ممالك الشام والعراق» يرد ذكر الغساسنة والمناذرة!! إن هاتين الإمارتين كانتا من نموذج الدويلة الحاجزة: فقد اتخذ الروم الغساسنة دويلة حاجزة على حدودهم مع شبه جزيرة العرب، على حين فعل الفرس الشىء نفسه مع إمارة المناذرة، فهل يمكن أن تكونا عنوانًا على «حضارة ممالك الشام والعراق»؟

ألم يقرأ الموظفون المؤلفون حتى كتاب السنة الأولى الثانوية ليتعلموا مما كتبه مؤلفوه شيئًا عن حضارات الشام والعراق الحقيقية؟

ويرد ذكر «حضارة الحجاز» فى صفحتين(ص١٢/ص١٣)، ثم يرد ذكر الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية باعتبارهما من الحضارات التى أخذت عنها الحضارة الإسلامية، ولا يرد أى ذكر لحضارات اليونان والهند والمصريين القدماء فضلاً عن حضارات الرافدين والشام واليمن.

وإذا ما تذكرنا أن الطلاب يتخذون موقفًا عدائيًا من «كتاب الوزارة» ولا يقرأونه، وإنما يلجأون إلى الكتب الخارجية التى تلخص لهم ما جاء بكتاب الوزارة الذى يقدم نوعًا من «الحبوب والبلابيع» التاريخية، فإن لنا أن نتوقع النتيجة!

الفصل الثانى: عنوانه «نظم الحضارة الإسلامية».

هكذا مباشرة دونما تمهيد عن العوامل التى أدت إلى انصهار مكونات الحضارة العربية سويا، أى ما جاء به الإسلام، واللغة العربية، وموروثات الشعوب التى اعتنقت الإسلام.

أما «نظم الحضارة الإسلامية» التى يتحدث عنها هذا الفصل فهى: (النظم الإسلامية ـ بيت المال ـ الخراج ـ الزكاة ومصادرها ومصارفها ـ الجزية ـ الفئ ـ الغنيمة ـ المكوس ـ مصارف بيت المال)، هل يمكن تصور مثل هذا الخلط؟ وهل كانت الحضارة العربية الإسلامية مجرد بنك، أو مكتب محاسبة؟!

أين النظم السياسية والإدارية والعسكرية والتعليمية والمالية.. وغيرها؟ وإذا كان المؤلفون والدامجون والمراجعون جميعًا قد ورطوا أنفسهم فى الحديث عن «النظم»، فلماذا اهتم الكتاب بالنواحى المالية دون غيرها؟

الفصل الثالث: «الحياة الاجتماعية فى الإسلام»

العنوان يحمل نفس مفهوم الاستشراق الذى يرى أن الإسلام هو المعادل الموضوعى لمصطلحات مثل أوروبا، الروم، الفرنج ـ على حين أن الإسلام فى مفهومنا هو الدين الذى يشكل العمود الفقرى للحضارة العربية الإسلامية، ومن ناحية أخرى فإن الحديث فى هذا الفصل يتسم بالعمومية الشديدة.

الفصل الرابع: عن انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية (ص٢٨/ص٣٧) منها ست صفحات للصور والخرائط ومع ذلك يتحدث، بجراة شديدة، عن حضارة المغول بالهند وانتشار الإسلام فى غرب أفريقيا (!!!) فى أربع صفحات بالتمام والكمال.

الفصل الخامس: «الحياة الثقافية وتكوين الفكر العربى الإسلامى» فصل جيد بشكل عام(ص٣٨/ص٦١)

الفصل السادس: «الفنون الإسلامية» (ص٦٦/ص٧٧)ست صفحات من الصور الرديئة التى لا يمكن لأحد أن يتبين منها شيئًا على الرغم من جودة الموضوعات التى يتضمنها الفصل، وكان يمكن التوسع فى هذا الفصل المهم.

والسؤال الذى يطل ملحًا على هذه الصفحات هو: أهكذا تؤخذ الأمور وبمثل هذا الإهمال واللامبالاة؟ ألم يحاول أحدهم أن ينظر فى كتاب للمرحلة الثانوية فى دولة أوروبية أو فى الولايات المتحدة يتحدث عن حضارات العالم ليتعلموا مدى الاهتمام بمثل هذه الكتب؟ طبعًا المؤلفون والمراجعون والدامجون فى مثل هذه الدول ليسوا من موظفى الوزارة الذين يعملون بناء على توجيهات السيد الأستاذ الدكتور الوزير، وإنما يعرفون أن الأمر جد لا هزل فيه، وأنهم يصوغون وجدان الشباب الذين يحملون معهم مستقبل الأمة والوطن.

الفصل السابع بعنوان: «الأخطار التى هددت الحضارة الإسلامية» يفتقر إلى خطة واضحة، كما أنه غير مرتبط منطقيا بما سبقه وبما يليه.

هكذا ينتهى الكتاب الأول فجاة بنهاية الجزء الأول (ص٩٥) ليبدأ الكتاب الثانى المدمج تحت عنوان «تاريخ مصر والعرب الحديث» (ص٩٩/ص٢٥٧)، وهنا يبدو عدم توازن المحتوى التاريخى واضحًا، فقد خصص الكتاب أقل من مائة صفحة لتناول تاريخ العرب والمسلمين والحضارة العربية الإسلامية فى مدى أكثر من تسعة قرون، على حين خصص أكثر من مائة وخمسين صفحة لتاريخ مصر والعرب فى قرنين من الزمان. ومن ناحية ترك الكتاب فجوة واسعة يشغلها العصر العثمانى، من الواضح أن الدمج والمراجعة لم تتم على أى أسس علمية أو منهجية وإنما على أساس من القص واللصق.

على أية حال، يقع الجزء الثانى فى سبعة فصول تتحدث عن الحملة الفرنسية على مصر والشام باعتبارها فتحًا حضاريًا وبعثًا لمصر والمنطقة العربية من سباتها الحضارى الطويل ـ وهو موقف يحتاج إلى مراجعة ومناقشة موسعة، ثم «بناء الدولة الحديثة فى مصر من مطلع القرن ١٩ إلى الثورة العرابية»، وبعد ذلك قصة الثورة العرابية وفجاة يتحدث الفصل الحادى عشر (ص١٨٠ـ ص٢٠١) عن التوسع الاستعمارى فى البلاد العربية، وهو فصل يبدو التسرع فيه واضحًا، كما تتجلى فيه نزعة «سد الخانة».

فالحديث عن الخليج واتفاقيات ١٨٢٠م(صفحة واحدة) وعُمان (ستة أسطر) والدولة السعودية الثالثة (صفحة واحدة)، ثم صفحتان عن الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا، ثم الجزائر وتونس ومراكش وليبيا، وبعد ذلك حديث فى غير سياقه التاريخى عن اليقظة العربية بطريقة «الفلاش باك» السينمائية؛ إذ يتحدث عن بداية احتلال العثمانيين للمنطقة العربية، ثم حركة القومية العربية وأطوارها الأدبية والسياسية.

الفصل الثانى عشر (ص٢٠٢/ص٢٢٥) سمك لبن تمر هندى ويختلف مضمونه عن عنوانه بشكل مُربك ومضلل.

الفصل الثالث عشر والأخير فصل لا يستحق القراءة لأنه نوع من التعبئة السياسية الساذجة يحمل نزعة شوفونية واضحة، كما يتغنى بافضال مصر على العالم العربى بشكل فج يحمل الكثير من المن والأذى.

والخلاصة أن الكتاب الوحيد الذى يدرسه طلاب السنتين الثانية والثالثة الثانوية يلفت النظر بمايحمله من الارتباك وانعدام الوحدة الموضوعية، وعدم الترتيب المنطقى والتاريخى لموضوعاته: فضلاً عن مدى التشابك والتعدد فى موضوعاته الذى يجافى عقلية طلاب المرحلة الثانوية الذين ليست لديهم أية خلفية تاريخية بسبب تهافت المادة التاريخية التى درسوها طوال حياتهم، كما أن مسألة «الدمج» التى تمت على عجل شوهت مضمون الكتابين اللذين كانا موجودين بالفعل لطلاب هذه المرحلة، فقد تم تخفيض الصفحات مع الإبقاء على المدى الزمنى والتاريخى الشاسع الذى تتناوله موضوعات الكتاب، وهكذا فشل الكتاب «المدمج» فى تحقيق أى هدف علمى أو دراسى.



عند الحديث عن الفتح الإسلامى لمصر يتجاهل الكتاب الحديث عن مساعدة الأقباط للمسلمين فى قتالهم ضد الروم ولم يحاول فريق المؤلفين الضخم أن يوضح أن القتال كان ضد الروم بمساعدة الأقباط

ملاحظات ختامية:

* بعد هذا العرض التفصيلى. الممل. للكتب التى تحمل المادة التاريخية التى يدرسها التلميذ المصرى بداية من السنة الرابعة الابتدائية (٩ ـ ١٠سنوات) حتى المرحلة الثانوية (١٧سنة تقريبًا) ـ وهى فترة التكوين العقلى والنفسى الحاسمة فى كل إنسان ـ نجد أن الحقيقة الصادقة الأولى هى غياب أية فلسفة أو غاية تحكم دور كتب التاريخ وتكاملها وتفاعلها التدريجى للوصول إلى هدف ما.

* إن الواضح أن كل جماعة تتولى التاليف حسب قدراتها الخاصة ورؤيتها، بحيث تتوقف النتيجة على هذه القدرات والرؤية دونما خطة تربوية وتعليمية واضحة يعمل الجميع فى إطارها ويهتدون بهديها.

* تدخل موظفى الوزارة، بفضل مناصبهم التى حازوها بالأقدمية السلبية، فى تاليف الكتب من أهم أسباب فساد هذه الكتب، وكتاب الصف الأول الثانوى الذى نجا منهم خير دليل على ذلك.

* الإخراج الردىء والطباعة السيئة، على الرغم من الميزانيات الهائلة للطباعة، تزيد من نفور التلاميذ من كتب الوزارة ولجوئهم إلى الملخصات والكتب الخارجية مما يزيد من سوء الموقف.

* إن هذه الدراسة تطرح المشكلة وتطلب مناقشة واسعة حولها وصولاً إلى ما يحقق الصالح العام، وإذا كانت لغة الدراسة حادة وعنيفة، فإن المشكلة مشكلة وطن وشباب لا يرى طريقه بسبب أخطاء يمكن تداركها، وخطايا يمكن تجنبها.

* إن المقارنة بين كتب التاريخ التى يدرسها طلاب المدارس فى مصر الآن وكتب التاريخ منذ خمس عشرة سنة تكشف للأسف عن أننا تقهقرنا عن موقع كنا نريد أن نتقدم منه إلى الأمام.

* إننى لا أميل إلى نظرية المؤامرة، ولكنى لا أستطيع أن أتصور أن العبث بذاكرة الأمة، وتزييف وعى أبنائها، وبث كراهية التاريخ فى نفوس الصغار والشباب، يمكن أن يكون ثمنًا مناسبًا لتحقيق بعض المكاسب الصغيرة لهذا أو ذاك من «متعهدى التاليف» و «مقاولى التاريخ».

* إن الضجة المثارة فى إسرائيل حول «المؤرخين الجدد»، والمضامين التاريخية التى يدرسها طلاب المدارس فى إسرائيل يجب أن تجعلنا أكثر إدراكًا لأهمية التاريخ، وليس عيبًا أن نتعلم من أعدائنا ما دمنا لا نتعلم من علمائنا.

* مرة أخيرة، هذه دعوة لمناقشة واسعة حول الموضوع. ■

صاحب الكتاب الأشهر عن قراقوش

الأسعد بن مماتي

نسيم مجلي

يقول الأسعد في مقدمة كتابه « الفاشوش في أحكام قراقوش » إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين

من بين أعمال الأسعد بن مماتي الكاتب والشاعر ورجل الدولة في عهد الأيوبيين، والتي تربو على العشرين كتابا، لا يعرف القراء له سوى كتابين فقط هما «الفاشوش في أحكام قراقوش» و«قوانين الدواوين».

وينتمي الكتاب الأول إلى أدب الفكاهة والسخرية والهجاء ويمثل بحق أسلوبًا فنيًا بارعًا في تصوير الغرابة والشذوذ وإحداث المفارقة. وهذا الكتاب الذي أضحك أجيالاً ولازال يضحكنا، كتبه الأسعد باللغة العامية المصرية، ووصل به إلى أعرض الجماهير، حتى صار قراقوش في المخيلة الجماعية للشعب مثالاً لكل حاكم أخرق ينحرف عن طريق العقل والمنطق في سلوكه وتصرفاته.

أما الكتاب الآخر «قوانين الدواوين»، فهو كتاب علمي صرف يتحدث فيه ابن مماتي عن مصر بصفة عامة ونهر النيل ومساحة الأرض وتحقيق أسماء ضياعها وكفورها، وجزائرها وخلجانها، بالإضافة إلى تناوله الأراضي المختلفة، والفصول الزراعية، وأنظمة الري، وأنواع المزروعات وأوقات غرسها وحصادها وغير ذلك من الأمور المهمة.

كذلك يتصدى الكاتب إلى كثير من المسائل الخاصة بأنظمة الحكم في عصر بني أيوب، مثال ذلك «الباب الثامن» الذي استعرض فيه المؤلف وظائف الدولة وشرح اختصاص كل منها، كما أنه أتى في الأجزاء الأخيرة من الكتاب على شذرات كثيرة طريفة عن بعض الدواوين ودور الحكومة وموارد الدولة.

ويقول العلامة الكبير الراحل الدكتور: عزيز سوريال عطية الذي حقق الكتاب إن قيمته ليست مقصورة على سعة اطلاع المؤلف وغزارة علمه وحدة ذهنه، وإنما ترجع كذلك إلى مكانته الخاصة في المجتمع المصري ومركزه السامي في حكومة البلاد، فابن مماتي - كما سيظهر من تاريخ حياته فيما بعد - تقلب في كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة خاصة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم وزراء الدولة المسئولين.

كذلك يخبرنا الدكتور عزيز سوريال أن ابن مماتي اعتذر عن تقديم بعض المعلومات لأنه اعتبرها من أسرار الأمن القومي أو من أسرار الدولة التي لا يجوز إذاعتها، هذه الشخصية التي تجمع بين الخيال الأدبي الساخر والدقة العلمية المفرطة إلى جانب الحس الوطني اليقظ كيف نراها؟

لقد تساءل المستشرق الفرنسي الكبير كازانوفا، الذي حقق كتاب «الفاشوش»، وعلق عليه قائلاً: كيف نوفق بين صورة هذا المؤلف الذي يخوض في كتابات الفكاهة ويكتب فيها بالعامية، ثم يكتب في آخر بالفصحى عن الأرض ومساحة المدن ويعزف عن إباحة أسرار الدولة، فيرتفع إحساسه بالمسئولية إلى هذا الحد المتعقل؟

إن الصورتين تتكاملان لو علمنا أن ابن مماتي كان غاضبًا حانقًا بلا شك على القائد قراقوش الذي يقربه صلاح الدين إليه، وهو حانق من وجهة نظر مذهبية كما يذهب كازانوفا، وهو حانق كذلك لأن أمور مصر ساءت على الرغم من الإنجازات التي حققها صلاح الدين في الخارج من صفحات وضاءة في الفتوحات وصد الصليبيين، ولكن هذه الصفحات كانت مصابة ببقع الحكم الاستبدادي في الداخل وإطلاق الشهوة «القراقوشية».

ولعل هذا الوضع قد يبرز من زاوية الحكام باسم المصلحة العامة (باستخدام أسلوب العصر)، ولكنه لا يبرز من زاوية المحكومين دائمًا، كما أننا نتصور أن حنق هذا الاقتصادي أو هذا المالي ابن مماتي على قراقوش هو حنق له ما يبرره لأن الاقتصادي ينظر للأمور نظرة مخالفة لنظرة القائد العسكري، مما يثير الفرقة في النظر دون شك.

ويقول الأسعد في مقدمة كتابه «الفاشوش في أحكام قراقوش»: « إنني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

فغرضه من هذا الكتاب تحرير الشعب المصري وتخليصه من تسلط قراقوش وقهره له الذي سخر الشعب المصري لبناء أمجاد صلاح الدين وتأكيد سلطانه. فإذا تفكرنا أيضا أن كتاب «قوانين الدواوين» قدم لصلاح الدين أو أحد أبنائه من أجل تحري الواقعية والعدل في تقدير الجزية والضرائب على أفراد الشعب بجميع فئاته، فإننا نكتشف البعد الآخر أو الدافع الرئيسي لابن مماتي، وهو مصلحة مصر والشعب المصري عمومًا. فإذا عرفنا أن صلاح الدين كان كرديًا وأن قراقوش قائد جيشه كان صقليًا من مماليك القوزاق، في حين كان ابن مماتي مصريًا أبًا عن جد، لمحنا أثر الصراع بين المصريين والحكام الأجانب، ولعل هذا ما جعل كازانوفا يقول: إن ابن مماتي يسعى إلى هز الثقة بقراقوش، وهو قائد صلاح الدين الأيوبي ومن أقرب المقربين إليه، لأنه كان يعهد إليه بأمانة الإشراف على مصر نيابة عنه حين كان يضطر إلى السفر إلى سوريا للقاء الصليبيين، فصلاح الدين لا ينيب عنه مصريًا مهما كان قدره أبدًا، وقد كان ابن مماتي مثلاً رئيسًا لديوان الجيش وديوان المال في ذلك الوقت، وهو أهم الدواوين ويذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة أن «قراقوش كان كثير اللجاجة والخصومة، فلا يقر مبدأ المنافسة في الأمور، ولا يحتمل الإصغاء إلى جدل من كبير أو صغير، وله رأي في معاملة السوقة والعامة، هو أخذهم جميعًا بالقهر والقسوة، وهكذا فعل بالأسرى وبالعامة الذين سخرهم في بناء الأسوار والحصون» (الفاشوش في أحكام قراقوش ص٦٣).

وكان هذا سببًا في كراهية ابن مماتي وسخريته منه.

إذن فنحن بإزاء كاتب ومعاصر أيضًا وهو رائد في أدب الفكاهة والسخرية، ورائد في دراسة نظم الحكم ومناضل وطني شريف وضع نفسه في مهب الأعاصير من أجل أهله ووطنه، وكان من نتيجة ذلك أن انتهت حياته نهاية مأساوية بفعل الاضطهاد والمطاردة التي دفعته إلى الهروب إلى ما وراء الحدود، حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب حتى مات بعد عامين في ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) وعمره اثنتان وستون عامًا.

ومن الأمور المؤسفة أن يضيع تراث هذا الرجل بفعل الزمان أو نتيجة الإهمال، وقد حفزني هذا للاهتمام بكتاباته والبحث عنها وتحقيقها حتى تكتمل صورتنا عنه، بل وعن عصره ورجاله، ذلك العصر الذي يبدو واضحًا تمامًا في أذهان بعض الناس بينما هو غامض أشد الغموض عند من يتعمقون النظر في قراءة التاريخ.

وقد قطعت والحمد لله شوطًا أساسيًا في التعرف على مصادر هذا الكاتب وترجماته، واستطعت أن أحدد أماكن بعض مخطوطاته، وحصلت على اثنين منها هما: «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» الذي لخص فيه كتاب ابن بسام المسمى «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وقمت بتحقيق هذا المخطوط - أما المخطوط الثاني فهو «متبلج الأنوار ومتأرج النوار» مما جعله ابن مماتي من رسائل القاضي الفاضل، وقمت بقراءته ونسخه وتصحيحه وتحقيقه أيضًا - وأمامي شوط طويل للحصول على بقية المخطوطات الأخرى، وخصوصًا أن له ديوان شعر قال ابن خلكان إنه اطلع عليه بخط ولده، كما أنه ألف «سيرة صلاح الدين» شعرًا ونظم كتاب «كليلة ودمنة» كما أن كتاب «قرقرة الدجاج في لغة ابن الحجاج» يدل من عنوانه أنه في أدب السخرية، وربما كان مثل الفاشوش، خصوصًا أن الحجاج كان أحد كبار الموظفين في دولة بني أيوب.

والبحث عن هذه الآثار ودراستها يعد مرحلة ضرورية في دراسة أدبنا وفهم تاريخنا الأدبي في عصر الدولة الأيوبية، بل وفي العصور الوسطى عمومًا.

وقد كانت نقطة البداية بالنسبة لي هي هذان الكتابان المطبوعان، قوانين الدواوين والفاشوش في أحكام قراقوش فقرأتهما قراءة متأنية، انتقلت بعدها إلى المراجع المذكورة في هذه الكتب وجمعت كل ما وقع تحت يدي منها بالعربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية، ولاحظت أن ما كتبه المستشرقون بلغاتهم يتجه إلى دراسة الكتب أو المخطوطات، في حين يختص أصحاب الموسوعات القديمة من أمثال ياقوت الرومي وابن خلكان والمقريزي والأصبهاني والعيني وغيرهم حتى الأب لويس شيخو اليسوعي بترجمة حياة ابن مماتي، وياقوت هو عمدة هذه المصادر بغير شك، يأتي بعده في الأهمية والترتيب الزمني ما ذكره ابن خلكان المتوفى ١٢٨٢م في كتابه المشهور «وفيات الأعيان» حيث يقول:- «القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا أبي قدامة بن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية، وفيه فضائل، وله

١- قوانين الدواوين
عزيز سوريال عطية
القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٢م.

٢- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب «معجم الأدباء»
ياقوت الرومي
طبعة ليدن ولندن، ١٩٢٣م.

مصنفات عديدة، ونظم سيرة السلطان صلاح الدين - رحمه الله تعالى - ونظم كتاب كليلة ودمنة، وله ديوان شعر رأيته بخط ولده ونقلت عنه مقاطيع، فمن ذلك قوله:

تعاتبني وتنهى عن أمور
سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عيني
وحقك ما عليَّ أضر منها

وكان الأسعد المذكور قد خاف على نفسه من الوزير صفي الدين بن شكر، فهرب من مصر مستخفيًا وقصد مدينة حلب لائذًا بجناب السلطان الملك الظاهر - رحمه الله تعالى - وأقام بها حتى توفي في جمادى الأولى سنة ست وستمائة من الهجرة يوم الأحد وعمره اثنتان وستون - رحمه الله تعالى - ودفن في المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ على الهروى؛ وتوفي أبوه الخطير في يوم الأربعاء سادس شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وخمس مائة.

ومينا بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف، ومماتى بفتح الميمين والثانية مشددة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها وهي مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها، وهو لقب أبي مليح المذكور، وكان نصرانيًا، وإنما قيل له مماتى لأنه وقع في مصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام وخصوصًا لصغار المسلمين، فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم مماتى فاشتهر به، هكذا أخبرني الشيخ الحافظ زكى الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى - نفع الله به - ثم أنشدني عقيب هذا القول مرثية فيه.

قال المقريزى في خططه:

وأما ابن مماتى فإنه (أسعد) بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن نينا (مينا!) شرف الدين مماتى أبي المكارم بن سعيد بن أبي المليح الكاتب المصرى، أصله من نصارى أسيوط من صعيد مصر، واتصل جده أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمالى وزير مصر في أيام الخليفة المستنصر بالله، وكتب في ديوان مصر، وولى استيفاء الديوان.

وقد علق الدكتور عزيز سوريال على ما جاء في كتب المؤرخين بملاحظات عدة نذكر منها:

رائــــد أدب الســخــريـة



«إن مؤلف كتاب قوانين الدواوين» لم يكن أول شخص عظم شأنه في دواوين الحكومة من بين أفراد أسرته، إذ نجد أن جده أبا المليح الذى عاش بمصر في العصر الفاطمى عمل في خدمة الوزير بدر الجمالى والخليفة المستنصر حتى بلغ في سلم الترقي إلى وظيفة «مستوفى الديوان» وهي من الوظائف الرئيسية في الدولة الفاطمية؛ وبعد موته تولى ابنه واسمه المهذب بن أبي المليح رئاسة «ديوان الجيش» والدولة الفاطمية تحتضر في وزارة أسد الدين شيركوه السنى المذهب، وفي عهده أسلم هو وأولاده؛ وأما ابنه وهو حفيد أبي المليح واسمه الأسعد، فقد قضى الجزء الأول من حياته في عصر الانتقال من الفاطميين للأيوبيين، وورث في بداية الأمر عن أبيه وجده «ديوان الجيش» الذى احتفظ به في عهد صلاح الدين الأيوبى (٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٩-١١٩٣م) وفي سلطنة ابنه العزيز عماد الدين عثمان (٥٨٩-٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م). ويظهر مما ورد في رواية ياقوت الرومى أنه أضيف إليه أيضًا «ديوان المال» الذى يعتبر في كل عصر من العصور أهم الدواوين والوزارات. ويلوح أنه ظل محتفظًا بوزارته ودواوينه أيضًا خلال سلطنة المنصور محمد (٥٩٥-٥٩٦هـ/١١٩٨-١١٩٩م)، وشطر من سلطنة العادل سيف الدين أبي بكر (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م)، ولكن كثرت عليه المؤامرات في عهد هذا الأخير، وأودت بمركزه وماله، وأدت إلى هروبه فقيرًا ذليلاً إلى ما وراء الحدود المصرية في الشام، حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب، حتى مات بها.

ثانيًا: يلاحظ أن الوزارة لم تشغل الأسعد عن الأدب والتأليف، ونظرة واحدة في أسماء الكتب التي صنفها والتي ذكر أكبر عدد منها ياقوت الرومى تكفي لإيضاح هذه الحقيقة؛ ولكن الغريب في ذلك هو أنه لم يتحدث عن «كتاب قوانين الدواوين» من بين قدماء المؤرخين سوى المقريزى، وربما كان ذلك راجعًا إلى أن المقريزى من بين هؤلاء المؤرخين هو الوحيد الذى اهتم بمثل ما ورد في ذلك الكتاب من المحتويات، بينما اقتصر الآخرون على الناحية الأدبية البحتة من تآليفه؛ ورواية المقريزى في هذا الصدد عظيمة الشأن، ويفهم منها أن ابن مماتى ألف الكتاب للملك العزيز، ثم يزيد على ذلك أن الكتاب المتداول في أيدينا إنما هو نسخة مختصرة من الكتاب الأصلى الذى كان يقع في أربعة مجلدات ضخمة.

فإذا صحت نظرية المقريزى، وضح لنا السبب في الاختلافات الكبيرة بين مجموعة المخطوطات الصغرى التي اعتمد عليها ناشر نسخة مطبعة الوطن والمجموعة الكبرى التي اعتمدنا عليها فيما ننشره اليوم في المجلد الحاضر؛ وبالرغم من أن «كتاب قوانين الدواوين» الذى يظهر في هذه الصفحات من أروع الوثائق التاريخية في عصر الدولة الأيوبية، فإنه لا يسعنا إلا إبداء أسفنا الشديد على ضياع الأصل المطول ذى المجلدات الأربعة والتي لم نعثر عليها في أى مكان توجد فيه مخطوطات عربية في أوروبا، ومن لندن وباريس إلى إستانبول والقاهرة وغيرها من العواصم.

وإذا كان الدكتور عزيز سوريال مهتمًا أساسًا بالناحية العلمية والفكرية لكتاب «قوانين الدواوين»، فإن اهتمامنا الأول هو الجوانب الأدبية كما تبدو في كتبه وأولها «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» الذى نتناوله الآن.

محاسن أهل الجزيرة

يتضمن هذا المخطوط تلخيصًا وافيًا لكتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذى صنفه، أبو الحسن على بن بسام الشنتريني، المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، وهذا الكتاب يتناول تاريخ الأندلس السياسى والأدبى في القرن الخامس الهجرى

الأسعد بن مماتي



(الثاني عشر الميلادي) وصنف ابن مماتي هذا التلخيص أثناء إقامته بحلب (بين ٦٠٤-٦٠٦)، استجابة لطلب الوزير ذي البلاغتين، محمد بن الحسين، وزير السلطان الأيوبي الملك الظاهر.

وكان هذا الوزير قد أكرم ابن مماتي، وأحسن معاملته، وأطلعه على خزانة كتبه، ومن جملتها كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» يصفه ابن مماتي قائلاً: هو كتاب جليل المقدار، جميل الآثار، منتظم من عقود الفضلاء، وفصوص فصول الأدباء، ما تغص به الأقطاب والأقطار، ويملأ ساحات ساعات الليل والنهار، وأشار أبقاه الله (يقصد الوزير) إلى أن أختار منه الطائل الطائر، ويقتصر فيه على النادر النادر، فبادرت إلى المرسوم، وثابرت على العمل بالمفهوم.

كذلك يقول ابن مماتي أن الكتاب المشار إليه يشتمل على أربعة أقسام، وأنه لم يلزم قانونًا في تقديم المقدم وتأخير المؤخر، بل ذكر كل اسم على ما اتفق له من ذكره، وخدم ذلك الاسم بما وجده من أخباره ونظمه ونثره، وألم في بعض الأشعار بالتنبيه على ما يشاكلها والإشارة إلى ما يماثلها.

فماذا فعل ابن مماتي إذن؟

يواصل كلامه فيقول: فجردت منه خيار ما وجدت فيه، وأظهرت من محاسنه ما كان الإكثار يغمره ويخفيه، وجعلته ثلاثة أجزاء:

الأول: في المختار من الأشعار على ولاء ما ألف ونسق ما صنف.

الثاني: فيما دل ابتسام نواجذه، على دقائق مآخذه، مما تشاكلت معانيه، وتماثلت مبانيه.

الثالث: في سحر عيون الأخبار، وما يستدل به على أن وجوه الآثار ألسنة الأقدار، وسميته «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة».

ولا يخلو هذا العمل من فائدة كبيرة لمن قرأوه قديمًا ولمن يقرأه الآن، وخصوصًا أنه يقدم تحليلاً للأسباب التي أدت إلى زوال دولة الأمويين في الأندلس، كما يحدثنا عن خراب القيروان وأسبابه، وكذلك عن أفضل ما حوته الذخيرة من أشعار بإيجاز شديد، وفي تنسيق وترتيب ملائم، يساعد على المتابعة والربط بين هذه الأجزاء وعملية الاختيار والتنظيم والتقسيم في ثلاثة أجزاء، تقدم بغير شك رؤية نقدية تتجلى في ناحيتين:

أولاهما: تجريد أغلب المختارات الشعرية، مما يدور حولها من مناسبات وكأنه يقول لنا: هل يمكن تذوق هذه الأشعار وفهمها بدون ذكر المناسبة التي قيلت فيها؟

وثانيتهما: المحافظة على أجمل ما في هذا الأثر من أشعار وأفكار مما سجله هذا الكاتب العظيم ابن بسام في ذخيرته، وخصوصًا أن ابن بسام توفي في ٥٤٢هـ وكتب ابن مماتي «لطائف الذخيرة» في الفترة ما بين ٦٠٤هـ، ٦٠٦هـ تاريخ وفاته، أي بعد وفاة ابن بسام بحوالي ٦٢ عامًا.

كانت أول خطوة في توصلي إلى هذا المخطوط ما جاء في كتاب «تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان»، حيث ورد اسم هذا المخطوط ضمن قائمة مؤلفات ابن مماتي مع إشارة إلى كتابات كراتشكوفسكي في مكتبة لينتجراد، وفي مجلة الأندلس عدد ٣ سنة ١٩٣٤. وانطلقت أبحث عن مؤلفات كراتشكوفسكي في فهارس الكتب والمكتبات ولحسن الحظ وجدت له ثلاثة كتب مترجمة في مكتبة جامعة القاهرة وهي:

١- دراسات في تاريخ الأدب العربي.

٢- «مع المخطوطات العربية»، والذي يتحدث فيه كراتشكوفسكي عن مخطوط لطائف الذخيرة في ص ١٦٢ من الكتاب.

٣- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وخصوصًا أنه وجد في مكتبة هذا الشيخ بلينتجراد مخطوطًا لابن مماتي اسمه «أعلام النصر» وعليه بعض تعليقاته.

ولنعد الآن للنظر في هذا المخطوط ومحتوياته، ونتساءل إن كان ينطبق عليه هذا الحكم الذي أطلقه ياقوت الرومي، حين قال عن ابن مماتي «وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأديب، ويعرضها على الكبراء، لم تكن مفيدة إفادة علمية، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبي» وإذا كان مثل هذا الحكم يجعل قيمة هذا المخطوط العلمية محل نقاش، فإن هناك جانبًا لا يشك في قيمته أحد ألا وهو القيمة الوثائقية للمخطوط، حيث يبدأه ابن مماتي بالحديث عن نفسه وعن مأساته، التي انتهت به إلى الهروب من مصر لاجئًا إلى حلب في حماية ملكها الظاهر، حيث يقول:

فلما عضني الدهر بنابه، وأغرى بي كل غمر ليس بنابه، رأيت أن الخلاص من شراك مصائده، فالتوقي من سهام مكائده، لا ينال إلا بالأسفار، وهي بارتكاب الأخطار، فخرجت من مصر خائفًا أترقب هائمًا لا أدري أين أذهب، حتى أدناني الهرب، إلى مدينة الشهباء حلب، فلجأت إلى جانب سلطانها الملك الظاهر.

حيث قام هناك بتلخيص كتاب «الذخيرة» بناء على توجيه وزيره محمد بن الحسن.

ورغم خلو كلامه من التفاصيل الخاصة بالأسباب والمؤامرات التي حيكت ضده ودفعته للهروب، إلا أنها تعد وثيقة مهمة تؤكد واقعة الهروب وتشير إلى ما تعرض له هذا الكاتب الكبير ورجل الدولة الخطير في نهاية أيامه.

كان أحد تلاميذي يواصل إعداد فهرس المخطوطات الذي قد بدأت العمل فيه لمجموعة الطنطاوي نفسها، فوجدت صورة مختصرة لمؤلف كبير الأهمية لتاريخ الأدب الأندلسي، وفي رأيي أن هذا المخطوط كان فريدًا بالنسبة للمجموعات الأوروبية.

ثم يضيف إلى ذلك قوله:

ومؤلف هذا المخطوط قريب لي منذ وقت بعيد، فقد كان موظفًا كبيرًا في الديوان في عصر المماليك بمصر، وإلى جانب هذا فإنه وجد أيضًا وقتًا لأعماله الأدبية وكنت قد اكتشفت في المكتبة الجامعية أيضًا مؤلفًا آخر له لم يكن معروفًا من قبل.

بدايات طه حسين

من الأزهر



فى بداية عهده بالكتابة كان يطيب له أن يهاجم الكتاب المرموقين فى عصره طلبًا للشهرة، ولا ننسى فى هذا المجال أن طه نظم فى نفس الفترة كثيراً من الشعر إلى أن توقف عن قوله فى سنة ١٩١٣، بعد أن أدرك فيما يبدو أن حظه من الشاعرية ضئيل

عبد الرشيد الصادق محمودى

اتضح لى من خلال بحث أجريته عن تعليم طه حسين من الأزهر إلى السوربون، أننا لا نعرف الشىء الكثير فى هذا المجال، وأننا نجهل خاصة مرحلة تعليم طه فى الجامعة المصرية الأهلية قبل سفره إلى فرنسا. فمن المعروف أنه التحق بهذه الجامعة فور افتتاحها فى سنة ١٩٠٨، وأنه أتم دراسته فيها فى سنة ١٩١٤ عندما حصل على الدكتوراه عن الرسالة التى أعدها عن أبى العلاء. فماذا نعرف حقًا عن هذه الفترة التى استغرقت ست سنوات تقريبًا من حياته؟ نحن نعرف الكثير عن نشأة الجامعة وتطورها؛ كما نعرف أن الجامعة دعت عددًا من كبار المستشرقين للتدريس فيها. ولكننا مازلنا نجهل إلى حد بعيد المناخ الفكرى الذى أحاط بالجامعة وماذا تعلم طه فيها وكيف تأثر بأساتذته الأوروبيين. ومرجع هذا الجهل هو أننا لا نعرف الكثير عن مضامين المقررات التى قدمها هؤلاء الأساتذة رغم أن أهمها قد نشر، وأننا لا نعرف إلا القليل عن الكتابات المبكرة لطه حسين، وهى الكتابات التى واكبت دراسته فى الجامعة وسجلت تطوره فى تلك الفترة. وسوف أركز إذن على هذه المرحلة التى ما زال يلفها الضباب وعلى الكتابات التى واكبتها ولم تحظ حتى اليوم بالاهتمام الذى تستحقه.

بدأ طه نشر كتاباته فى سنة ١٩٠٨ وتواصل إنتاجه بغزارة لافتة للنظر حتى سنة ١٩١٤ عندما ألف رسالته السالفة الذكر عن أبى العلاء. وقد حظيت الرسالة عن جدارة باعتزاز صاحبها واهتمام دارسيه؛ ولكن الحظوة التى لقيتها حجبت عن غير حق ما سبقها من كتابات. فقد عنى طه حسين بنشرها فى سنة ١٩١٥، بينما أهمل جمع مقالاته المبكرة وإعادة نشرها. وتابعه فى ذلك الإهمال دارسوه فصاروا يؤرخون لحياته الأدبية بداية من كتابه عن أبى العلاء، فإذا تطرقوا إلى كتاباته الأولى على الإطلاق كان ذلك من قبيل البحث عما قبل تاريخ طه حسين.

وليس من السهل تحديد الأسباب التى دفعت طه حسين إلى إهمال كتاباته الأولى. من الشائع المشهور أن طه حسين نشر بداية من سنة ١٩٠٩ سلسلة من المقالات هاجم فيها كتاب «النظرات» للمنفلوطى وأنه أعرب فيما بعد عن ندمه لكتابتها؛ فقد كانت كما قال فى الجزء الثالث من الأيام طويلة سمجة فضلاً عن أن كاتبها كان «قديم المذهب فى الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة». وقد نضيف إلى ذلك أن طه فى بداية عهده بالكتابة كان يطيب له أن يهاجم الكتاب المرموقين فى عصره طلبًا للشهرة، ولا ننسى فى هذا المجال أن طه نظم فى نفس الفترة كثيرًا من الشعر إلى أن توقف عن قوله فى سنة ١٩١٣ بعد أن أدرك فيما يبدو أن حظه من الشاعرية ضئيل. وقد يبدو إذن أن طه قد حجب تلك الكتابات لعيوبها التى ذكرناها.

بيد أن هذا التفسير لا يصمد للنقد. فالكتابات التى حجبها طه لندمه على كتابتها أو لضعف موهبة كاتبها أو لتسلط الرغبة فى الشهرة عليه لا تستوعب كل إنتاجه المبكر. فقد جمعت من هذا الإنتاج مجموعة لا بأس بها من المقالات التى تدور فى معظمها على تاريخ الأدب وتخلو من تلك العيوب وتتسم فى مجملها بطابع إيجابى بناء وإن كانت أحيانًا سجالية المظهر. وقد تحكم فى اختيارى قرار اتخذته منذ بداية البحث، وهو أن أستهدف بصفة أساسية المقالات التى تعنى بالنقد (البناء) أو تاريخ الأدب لأنها هى التى تبشر بمستقبل كاتبها العظيم.

ويبدو إذن أن طه عندما ألف كتابه الأول عن أبى العلاء فقد تقديره لمقالاته الأولى لأسباب أخرى. فقد كان يعوزها ما تحقق فى هذا الكتاب من صقل وتماسك واكتمال. وإذا نظرنا الآن فى تلك المقالات لاحظنا بالفعل أن كاتبها لم يكن قد تمكن بعد من مادته وأنها جاءت فى كثير من الأحيان مجزأة ناقصة عليها طابع التجريب ويعوزها ما عرف عن الكاتب الناضج من طلاوة الأسلوب ورشاقته. ومع ذلك فإن لهذه المقالات أهمية قصوى ترجع على وجه التحديد إلى أنها ترينا كاتبها وهو مازال قيد التكوين، وذلك أن طه وهو قيد التكوين قد أدار عن المنهج التاريخى حديثًا فاحصًا مطولاً لم يأت بمثله فى حياته الناضجة. وكان التكوين فى هذه الحالة ذا طابع تأسيسى كما سأبين فيما يلى.

وتنقسم المقالات التى تمكنت من جمعها ورأيت أن أوليها عناية خاصة إلى مجموعتين: أولاهما ترجع إلى سنة ١٩١١ بينما ترجع الثانية إلى سنة ١٩١٤. وسوف أكتفى هنا بنماذج منها للنظر فيها نظرة تاريخية ناقدة فى سياقها التاريخى، أى فى موقعها من حياة مؤلفها وحياة مصر بصفة عامة، وهو ما يقتضى أولاً استعراض أهم الشخصيات والتيارات التى أحاطت به فى الفترة التى شهدت ظهور كتاباته الأولى.

فى سنة ١٩٠٧ التقى طه بأحمد لطفى السيد وأخذ يتردد على مكتبه فى صحيفة الجريدة (لسان حال حزب الأمة) التى كان يديرها، ثم أصبح طه أحد تلامذته المقربين، وفى سنة ١٩٠٨ بدأ طه ينشر كتاباته فى الجريدة تحت إشراف مديرها مباشرة، ولم يمض وقت طويل حتى اتصل طه بعبد العزيز جاويش، وأخذ هذا الأخير يدربه بدوره على الكتابة وينشر مقالاته فى صحف الحزب الوطنى، وفى السنة المذكورة التحق طه بالجامعة الأهلية دون أن ينصرف تمامًا عن الأزهر، فقد ظل يحضر فيه درسى الأدب

من مقدمة للطبعة العربية (تصدر قريبًا) لكتاب:
Taha Husain's Education From the Azhar to the Sorbonne
(تعليم طه حسين من الأزهر إلي السربون)
Abdelrashid Mahmoudi
(Curzon Press, Richmond 1998).

إلى السوربون!

والبلاغة حتى سنة ١٩١٠ عندما سقط أو أسقط في امتحان العالمية، وعندئذ انفصمت العلاقات بينه وبين الأزهر إلى غير رجعة وانصرف من ثم إلى دراسته الجامعية.

وفي الجامعة تعرف طه على أنواع من العلم لم يكن له بها عهد؛ وأخذ لأول مرة في حياته يتعرض على نحو مكثف لتأثير العلوم الحديثة والمعارف الغربية التي كان يقدمها أساتذة بعضهم مصري وبعضهم أوروبي، فقد استدعت الجامعة كما قلت عددًا من المستشرقين من بينهم الإيطاليون الثلاثة إغناطيوس جويدي وكارلو ألفونسو نالينو ودافيد سانتلانا والألماني أوتولتمان والفرنسي لويس ماسينيون.

ومن الواضح إذن أننا بإزاء فترة انتقالية حافلة في حياة طه، كان عندئذ يقف في مفترق الطرق: فيما بين الأزهر والجامعة؛ وفيما بين لطفي السيد وعبد العزيز جاويش؛ وفيما بين هذين كليهما وبين أساتذته المستشرقين. يضاف إلى ذلك أن طه كان طموحًا نهمًا إلى المعرفة فكان ينتقل من أستاذ إلى آخر ويتقاسم اهتمامه وولاءه أناس كثيرون.

وتظهرنا المقالات التي بين أيدينا على أن طه بدأ في غضون تلك الفترة يكتشف ذاته الحقيقية فيتجه إلى ما هو مؤهل له حقًا: وأعني بذلك التاريخ ولاسيما تاريخ الأدب العربي. لا نعرف متى حدث ذلك على وجه التحديد وإن كان من المرجح على ضوء هذه الوثائق أن التحول إلى التاريخ وقع في سنة ١٩١١، أي بعد التحاقه بالجامعة بثلاث سنوات تقريبًا.

ولم يكن هذا التحول من قبيل المصادفة، فقد كان التاريخ يحتل حيزًا كبيرًا من اهتمام الجامعة، وذلك أن نشأتها اقترنت بوعي أنصارها ومؤسسيها بما لدراسة التاريخ من أهمية للنهضة المصرية، فكان أن أعطيت الأولوية لدراسة الآداب بدلاً من العلوم؛ وكانت دراسة الآداب تاريخية الطابع بصفة عامة، وكان جميع الأساتذة المستشرقين تقريبًا ذوي نزعة تاريخية واضحة.

ومن علامات اهتمام الجامعة بالتاريخ أنها أعلنت عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ آداب اللغة العربية ورصدت للمؤلف الفائز جائزة مالية، وقد ألف الرافعي الجزء الأول من كتابه «تاريخ آداب العرب»، بهدف الاشتراك في هذه المسابقة وإن لم يتقدم لها عند صدور الكتاب في سنة ١٩١١، وقد سبقه إلى الصدور بشهر أو شهرين الجزء الأول من كتاب جرجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية».

وتدل استجابة هذين الكاتبين للدعوة إلى الكتابة في تاريخ الأدب العربي على أن الجو الثقافي خارج نطاق الجامعة لم يكن يخلو من الاهتمام بالتاريخ صراحة أو ضمنًا، سلبًا أو إيجابًا. وعلينا إذن أن نضع خارطة تقريبية مؤقتة لمختلف القوى التي أحاطت بطه وأن نحدد مواقعها على ضوء محاباتها للتاريخ أو عدائها له، ولنبدأ بالقوى التي كانت تناصر التاريخ صراحة والتي يبدو أنها كانت تنحصر في الجامعة الناشئة: فقد كانت الجامعة كما ذكرنا تاريخية المنزع من حيث الفلسفة التي قامت عليها والمواد التي قررتها والأساتذة الذين استقدمتهم للتدريس فيها.

وفي مقابل هذا التيار المحابي للتاريخ كان هناك تيار فكري آخر يتخذ من التاريخ موقفًا عدائيًا على نحو أو آخر. كان هناك أولا مذهب إحيائي محافظ في الدراسة الأدبية يسير سيرة القدماء من علماء الأدب ويضمر العداء للتاريخ. ويمثل هذا التيار أفضل تمثيل الشيخ سيد على المرصفي الذي درس الأدب لطه في الأزهر، وفقًا لمنهج لغوي محض في تحليل النصوص الأدبية ونقدها وخاصة من الناحية البلاغية دون اهتمام بتطور اللغة وآدابها وتأثرها بالظروف التي نشأت فيها. يضاف إلى ذلك أن تصور الشيخ لتاريخ الأدب العربي كان ينطوي على إنكار للبعد التاريخي. فقد كان يرى أن الشعر الجاهلي البدوي هو المثل الأعلى للجودة؛ أما ما تلاه من شعر العرب والمولدين من سكان الحضر فهو جيد بقدر اقترابه من ذلك المثل الأعلى ومحاكاته له، وهو مهجن فاسد بقدر ابتعاده عن ذلك الينبوع النقي. وتاريخ الأدب العربي ينحصر إذن في عصر ذهبي وعصور أخرى تحاكيه أو ينبغي إهمالها.

ولا ينبغي أن ننسى أن حركة الإحياء في نطاق الأدب كانت تستمد الدعم من تيار ديني أصولي يضمر بدوره العداء للتاريخ بحكم أصوليته ذاتها. وأعني بذلك حركة الإصلاح الإسلامي التي كان يتزعمها محمد عبده، فقد كان هذا الأخير يفترض بدوره عصرًا ذهبيًا ومثلاً أعلى ينبغي الرجوع إليهما في استقبال الحضارة والعلوم الحديثة، والعصر الذهبي في هذه الحالة هو صدر الإسلام أو عصر السلف الصالح، فهنالك نجد المصادر الأولى للإسلام وهي القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فإذا فسرنا هذه المصادر تفسيرًا يقوم على الاجتهاد اكتشفناها في حالتها الأولى من الصفاء ورأينا فيها عندئذ أن الإسلام دين يتفق مع العقل والمدنية والعلم، وينطوي هذا المذهب على عداء ضمني للنزعة التاريخية لأنه رغم ترحابه من حيث المبدأ بالحضارة والعلوم الحديثة يجعل قبولها رهنًا بإثبات اتفاقها مع مبادئ الإسلام عن طريق التفسير، فكأن لا جديد تحت الشمس أو كأن الجديد لا يقبل في جدته ووفقًا لمسوغاته الخاصة.

وربما كان مصطفى صادق الرافعي أفضل ممثل لمعسكر المعادين للتاريخ لأنه ينفرد بميزة شديدة الأهمية، وهي قدرته على كشف العداء المضمر وصياغته في حجج صريحة تستوقف النظر، فقد كان يعتقد أن دراسة الأدب العربي دراسة تاريخية أمر مستحيل أصلاً. وذلك أن الأدب العربي يتميز في رأي الرافعي بأن من غير الممكن دراسة تطوره، إما لأننا لا نستطيع تقصي ما وقع فيه من أحداث على مر الزمن أو لأنه لم يخضع للتطور أساسًا، ومما يقوله الرافعي في الباب الأول أن تاريخ الأدب العربي «يمتاز عن كل ما سواه بذهاب الكثير من أصول حوادثه، لانقطاع متن التأليف من أول عهده، واضطراب النسق التاريخي فيما ألف بعد ذلك بحيث يستحيل أن تنضد كل حوادثه في متعاقب أزمانه، أو تنزل على مراتب عصوره». (تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، ص١٩).

أما ما يقوله في الباب الثاني فهو أن اللغة العربية وقد وصلت في الجاهلية إلى أوج فصاحتها وبلغت حد الإعجاز في القرآن لم تتغير أو لم تتغير على أي نحو جدير بالذكر، وذلك لأنها ظلت مرتبطة بالقرآن منطوية على سره. يقول الرافعي: إن «تعاقب ثلاثة عشر قرنًا من تاريخ الأدب الإسلامي لم ينشئ لغة أفصح مما نطقت به العرب قبل ذلك، ولا جاء بشعر يباين أشعارهم في الجملة، ولا جعل لأدبائنا مذاهب متميزة، بل ليس في تعاقب تلك العصور الأدبية على الأغلب إلا موت رجال وقيام رجال» (نفس المصدر، ص ٢٠ - ٢١).

وكان هناك فضلاً عن كل ذلك تيار ذو طابع تاريخي سطحي في دراسة الأدب العربي، وقد أسماه الرافعي «تاريخ آداب اللغة العربية» ونسبه إلى دار العلوم وأرجعه في نهاية المطاف إلى المستشرقين. والواقع أنه كان يقصد حسن توفيق العدل الذي درس تاريخ الأدب العربي في دار العلوم بعد عودته من ألمانيا وفقًا لمذهب مستمد من الاستشراق الألماني. وكان المذهب يقوم على تدريس الآداب العربية مقسمة على عصور أو فترات تتحدد بتعاقب نظم الحكم والأسر الحاكمة (العصر الجاهلي، فصدر الإسلام، فالعصر العباسي، فالعصر الأموي، وهلم جرا). أما الأدب الذي يدرس في إطار هذه الفترات فكان يقتصر على نماذج من الشعر والنثر تقدم مع ما يتصل بها من بيانات سطحية دون نقد أو تمحيص أو تعليل.

ولم يقتصر نفوذ المذهب على دار العلوم. فقد شاع في المدارس المصرية وكتب تعليم الأدب العربي، وقد كان طه حسين على وعي به وانتقده - كما سنرى - تحت عنوان «مدرسة الآداب» ورغم أنه كان يتفق مع الرافعي في اتهام المذهب بالسطحية وافتقاره إلى التحقيق، فإنه كان يعتقد على خلاف هذا الأخير أن دراسة الأدب دراسة علمية تاريخية ممكنة وأن ثمة منهجًا تاريخيًا سليمًا ينبغي أن يلتمس لدى فريق آخر من المستشرقين، ولاسيما نالينو. ففي أي فريق ينبغي أن نصنف مدرسة الآداب: أهي من المحابين للتاريخ أم من المعادين له؟

يبدو أن هذا المذهب الذي يناصر النزعة التاريخية على نحو منقوص ينبغي أن يوضع في مكان وسط بين المعسكرين، وكذلك ينبغي أن نصنف جرجي زيدان، إذا أردنا أن نساير طه حسين فسوف نرى فيما يلي أنه يدرج زيدان في عداد مدرسة الآداب، وهو في تجديد ذكرى أبي العلاء يضع المدرسة في منزلة وسط بين النهج اللغوي كما اتبعه المرصفي وبين المنهج التاريخي كما يمثله نالينو.

ولن تكتمل صورة السياق الذي ظهرت فيه المقالات المبكرة لطه حسين حتى نذكر الرجلين اللذين علماه صنعة الكتابة، أي أحمد لطفي السيد، وعبد العزيز جاويش، فلم يكن أي منهما مؤرخًا ولا صاحب نزعة تاريخية واضحة، ولكن أولهما كان يدفع طه نحو التاريخ بينما يصده ثانيهما عنه، فكيف كان ذلك؟ يروي طه في الأيام أن لطفي كان يحثه على «القصد في العبارة والأناة في التفكير»، إلا أن أستاذه الثاني لم يكن من أصحاب القصد أو الأناة، فقد كان عبدالعزيز جاويش هو الذي أغرى طه بنقد المنفلوطي ذلك النقد اللفظي الجارح وأخذ يستزيده منه. وبناء على ذلك يمكننا أن نقول إن جاويش كان يعمل - واعيًا أو غير واع - إلى الرجوع بطه فكريًا إلى تيار الفكر الإحيائي المحافظ، فلم يكن النقد اللفظي الذي شجع طه على ممارسته إلا صورة مبسطة فجة من النهج اللغوي لدى المرصفي. يضاف إلى ذلك أن عبد العزيز جاويش كان من أتباع الشيخ محمد عبده مؤمنًا بمذهبه في الإصلاح الإسلامي.

أما لطفي فكان يدفع طه نحو التاريخ بطرق متعددة، ومن ذلك أنه كان يشجع تلميذه على الدراسة في الجامعة، بل ويمهد لهذه الدراسة تمهيدًا حسنًا بما كان يقدمه من دروس. وذلك أن مدير الجريدة كان ينظم لتلاميذه محاضرات لتعليمهم ما لم يتعلموه في مدارسهم. وكان لطفي يعمل على إخراج الإصلاح من الإطار الديني. فكان يدعو إلى الإقبال على الحضارة الغربية دون قيد أو شرط سوى دافع المصلحة والتسلح بأسباب القوة. كما كان يشجع تلاميذه على دراسة الفلسفة ويتعاطف بصفة خاصة مع الاتجاهات العلمية التجريبية والنقدية والوضعية. وليس من قبيل المصادفة أن تفكير طه في مرحلته المبكرة شهد ميلاً متزايدًا نحو الفلسفة وأن المنهج التاريخي كما اعتنقه عند ذاك كان وضعيًا. ولا بد أن لطفي السيد كان له دور في ذلك.

أما وقد رسمنا خارطة تقريبية للتيارات التي كانت تحيط بطه في الفترة المبكرة، فإن باستطاعتنا الآن أن نرى كيف تفاعل مع كل منها. وأول ما نلاحظه في هذا الصدد أنه أحس منذ بداية التحاقه بالجامعة أن مصيره مرتبط بدراسة التاريخ. لقد راقت له في الجامعة أشياء كثيرة، ولكنه شعر بأكبر قدر من الدهشة ولذة الكشف عندما تلقى أول دروس له في التاريخ. وكانت هذه البيئة (الجامعة) تتيح له علما يخلق نفسه خلقًا جديدًا لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد، وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها في يوم من الأيام، ولم ينس الفتى يومًا خاصم فيه ابن خالته الذي كان طالبًا في دار العلوم ولج بينهما الخصام، فقال الدرعمي للأزهري:

ما أنت والعلم؟ إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه، لم تسمع قط درسًا في تاريخ الفراعنة! أسمعت قط اسم رمسيس أو أخناتون؟

وبهت الفتى حين سمع هذين الاسمين وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ، واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها.

فما سر هذا الافتتان بالتاريخ؟ لا يكفي لتفسير هذه الظاهرة أن نشير إلى شيوع الاهتمام بالتاريخ في الوسط المحيط وينبغي أن نأخذ في الاعتبار أيضًا شخصية طه. واضح أنه وجد في دراسة التاريخ منفذًا للتحرر من قيود الدراسة الأزهرية ودورانها في نطاق المتون وما تراكم عليها من شروح وحواش وتقريرات. وذلك أن هذه الدراسة أتاحت له - هو الكفيف المقيد الحركة - وسيلة للانفتاح على العالم أو للإطلال عليه. وقد سبق لطه أن شعر بنشوة مماثلة عندما اكتشف في الأزهر دراسة الأدب على يدي المرصفي. فقد حرره الشيخ من متون الأزهرية وما تراكم عليها من تعليقات متعددة المستويات ووضعه أمام عيون الأدب القديم وجها لوجه. ولكن لذة ذلك الكشف الأول لا يمكن أن تعدل هذا الكشف الثاني، فقد كان درس الأدب على طريقة المرصفي يفتح الباب لمواجهة النصوص بينما يفتح درس الأدب بالطريقة التاريخية نافذة واسعة على الواقع.

غير أن التحول إلى التاريخ على صعيد الفكر والكتابة لم يحدث كما ذكرنا إلا بعد ثلاث سنوات تقريبًا من افتتاح الجامعة، أي في سنة ١٩١١، وقد استمر طه لفترة بعد ذلك الانتشاء الأول على تأثره بالمرصفي وجاويش، وظل يمارس النقد اللفظي وينحو نحوًا محافظًا في أحكامه النقدية وفي فكره بصفة عامة. يضاف إلى ذلك أن حدوث



التحول كان يشترط قدرًا من التحصيل والاستيعاب. ولم يكن التحصيل والاستيعاب في هذه الحالة قاصرين على اكتساب المعلومات التاريخية، بل كانا يقتضيان أيضًا النفاذ إلى ما هو أساسي في العلم الجديد، ألا وهو طبيعته وقواعده. وذلك أن طه تخير الطريق الصعب إلى هذا العلم، طريق البحث المنظم الرامي إلى بسط قواعد المنهج التاريخي. وقد يحسن إذن أن أبدأ استعراض المقالات التي انتخبتها بمقالة لم تكتب في تاريخ الأدب ولم تكن أسبق هذه المقالات من حيث تاريخ النشر، ولكنها بمثابة إعلان واضح على أن طه أخذ في تلك السنة يقطع علاقاته بماضيه المحافظ ليدخل مرحلة جديدة شديدة الأهمية في حياته تتميز بالتفكير المنظم والبحث عن القواعد المنهجية. والمقالة التي أعنيها عنوانها «النقد: حقيقته. أثره في الأمم. شروطه ومضار الغلو فيه». (البيان، مجلد سنة ١٩١١، ص ٣٧٧ ـ ٣٨٨).

ترينا هذه المقالة طه وهو يحاول أن يتحرر من أسر النقد اللفظي وأن يتبين ما هو النقد «الصحيح». وقد ندهش عندما نقرأ المقالة فلا نجد ذكرا للنقد الأدبي إلا في نهايتها حيث يعد المؤلف بأن يستأنف الحديث في مقاله تالية، وهي المقالة التي لم تصلنا أو لم تنشر أصلاً. والمقالة التي بين أيدينا ناقصة إذن، بمعنى أن لها تكملة لا نستطيع الاطلاع عليها. ومع ذلك فإنها مكتملة بمعنى أنها مكتفية بذاتها محققة للمهام التي حددت لها في العنوان، وهي النظر في النقد بمعناه العام: طبيعته والقواعد التي ينبغي أن يخضع لها. وذلك أن البدء بالنقد وفقًا لأعم تعريفاته ليس إلا إحدى العلامات الدالة على أن طه بدأ يمارس التفكير المنهجي. فكأن مؤلف المقالة قد قرر ألا يتناول النقد الأدبي حتى يبدأ من البداية ويجلو لنفسه طبيعة النقد في أساسه.

يبدأ طه بتحديد حقيقة النقد أو لنقل ماهيته. والتعريف الذي يقدمه للنقد يسير وفقًا لترتيب منطقي يهبط مما هو عام إلى ما هو خاص. فالنقد أساسًا ووفقًا لأعم تعريفاته أو جنسه الأعلى ـ كما يقول المناطقة ـ عملية تمييزية، هو «ميز الخبيث من الطيب واستخلاص الحق من الباطل وفك العقول من إسار التقليد». وعندما يستطرد طه واصفًا النقد بأنه «إعانة الطبيعة على إحياء النافع وتخليد المفيد»، نتبين أن النقد من حيث هو عملية تمييزية ينقسم إلى نوعين رئيسيين: النقد بوصفه «عمل الطبيعة في الحسيات»، والنقد بوصفه نشاطًا يضطلع به العقل في مجال «المعنويات». وذلك أن الطبيعة في رأى طه تمارس نوعًا من الانتقاد أو لنقل «الانتخاب». إن «عمل الطبيعة في تحليل المادة وتركيبها وتحويلها من صورة إلى أخرى ليس إلا نوعًا من النقد الحقيقي، بل هو أصح أنواع الانتقاد، لأن أقرب نتائجه إبقاء النافع وإفناء الفاسد المضر، فالرجل لا يموت إلا إذا حقت عليه كلمة الطبيعة بعد النقد الصحيح وعرفت أنه لم يبق صالحًا للحياة»، وعلى هذا الضوء يمكننا أن نفهم قول طه: إن النقد الذي يمارسه الإنسان في مجال المعنويات فيه إعانة لعمل الطبيعة. وذلك أن العقل حينما يؤدي هذه المهمة يساعد الطبيعة في إحياء النافع وتخليد المفيد. وكلا النوعين تمييز وانتخاب يستهدف الإبقاء على الأصلح والقضاء على الفاسد والضار.

غير أن نقد المعنويات ينقسم بدوره أنواعًا عدة، فالنقد الذي يضطلع به العقل فيما يقول طه «ليس مقصورًا على أنواع القول وفنون الكلام من نظيم ونثير، بل هو عام يستطيع أن يتناول كل شيء من صنائع وأعمال وعلوم ونحو ذلك». وهو لا ينهي مقالته إلا وقد حدد نوع النقد الذي يعنيه بصفة أخص، ألا وهو «النقد الأدبي والعلمي أي الذي يتعلق بفنون الكلام» من نظم ونثر. وعند هذه النقطة تنتهي المقالة، ولكننا نستطيع أن نخمن الخطوة التالية التي كان ينوي اتخاذها، وهي أن يزيد مجال البحث تحديدًا فيستبعد النقد العلمي ويستبقي نقد الأقوال الأدبية ليركز عليه.

ورغم أننا نجهل تتمة الحديث عن هذا النوع الأخير من النقد، فإن المقالة كما وصلت إلينا تتضمن بعض الآراء ذات الصلة بالموضوع، فطه يرى مثلاً أن النقد نشاط يستهدف إظهار الحق وأنه ينبغي إذن أن يخضع لشروط أو قواعد من أهمها الإنصاف: «أقول على سبيل الإجمال أن النقد نوع من أنواع المناظرة، فكل ما يشترط في الجدل يشترط فيه، إذ كلاهما لم يصطنع إلا لإظهار الحق وخذلان الباطل. ولا شك في أن الشتم والسب والتقريع والتأنيب ليس منها شيء بطريق الحق، وإنما الحق نتيجة البحث الهادئ المعتدل الذي يبرأ من الاستجابة لعواطف الحب والبغض ونحوهما، فلا يمكن أن يكون الناقد منصفًا إذا استجاب لعاطفة من هذه العواطف، فمالأ خصمه وانحاز إليه وألح عليه وإنما الإنصاف مزاج لا يعتدل إلا بصدق النية وحسن المقصد وتحكيم العقل ورفض الهوى».

هنا نلاحظ أن أقوال المؤلف تنطوي على عملية من النقد الذاتي وتستبعد من نطاق النقد الصحيح ما كتبه ضد المنفلوطي أو غيره من الكتاب الذين هاجمهم طلبًا للشهرة، كما نلاحظ أن بعض العبارات والأفكار الواردة في المقالة تدل على تأثير لطفي السيد. ومن ذلك مثلاً حديث طه عن البحث الهادئ المعتدل وتعريفه للنقد بوصفه نوعًا من المناظرة أو الجدل. ولا شك أن المقالة بأسرها تدل على أن التنافس بين لطفي وجاويش على توجيه طه قد حسم لصالح الأول لأن التلميذ قد انحاز فيها لمذهب القصد في اللفظ والروية في التفكير.

ورغم أن المقالة التي استعرضناها لم تكتب في تاريخ الأدب، فإنها تتصل بالمقالات التي ألفها طه في هذا المجال بأكثر من سبب. وذلك أن موضوعها هو قواعد النقد الصحيح أو منهجه، والتفكير فيها يسير وفقًا لنظام أو ترتيب صريح أو ضمني، فضلاً عن أنها تتضمن فكرة بسيطة ولكنها نيرة شديدة الخطر. وأعني بذلك القول بأن النقد ينصب على موضوع يراد فيه إظهار الحق. وترجع أهمية الفكرة في هذه المرحلة من تطور طه إلى أنها بمثابة الأساس لكل تفكيره بشأن التاريخ من حيث هو علم. وهي من الناحية المنطقية أول خطوة في تقرير الموضوعية والاستقلال للتاريخ والعلم بصفة عامة. يقول طه في مقالة أخرى عنوانها: «خواطر العزلة» (الهداية، أكتوبر ونوفمبر ١٩١١): «مهما عظمت قوة الاختراع في الإنسان واتسع سلطانها فإنها لا تستطيع أن تتناول الحق لأنه غير خاضع لسلطان، فمظهر الحقائق العلمية ليس مخترعًا لها، بل هي موجودة وصاحبنا قد اهتدى إليها بعد ضلال. فمكتشفا الكهرباء وأسرار البخار لا يقال إنهما قد اخترعاهما إلا إذا كان كرستوف كولمب قد اخترع أمريكا». واضح من هذا أن كاتب المقالة يعتقد أن إظهار الحق الذي يوجد مستقلاً عن الإنسان وغير خاضع لإرادته هدف مشترك لجميع العلوم النظرية وصفة مميزة لها عن أنواع النشاط الأخرى، وقد عبر طه عن نفس الفكرة في التمهيد الذي صدر به تجديد ذكرى أبي العلاء عندما قال: إن عمل المؤرخ الجيد «وصفي لا وضعي، أي أنه يدل على شيء قد كان، من غير أن يخترع شيئًا لم يكن».

ونحن نجد بوادر الوعي بأن التاريخ أحد هذه العلوم التي تكتشف الحقائق كما هي دون أن توجد شيئًا لم يكن في مقالة، لعلها كانت الأولى في تاريخ الأدب بالمعنى الدقيق للكلمة (في مقابل النقد)، وعنوانها «الآداب العربية في الجامعة». (الجريدة، ١٧ مايو ١٩١١). ويبدو من بعض الشواهد الداخلية أن المقالة كانت جزءًا من سجال دار بين مؤلفها وبين أحد أصحاب الرافعي، وأن هذا الصاحب قد اتخذ في السجال دور الناطق بلسان الرافعي بعد أن قرأ الجزء الأول من كتابه عن تاريخ آداب العرب قبل نشره. ومعنى ذلك أن طه حسين كان ينقد في الواقع آراء الرافعي كما وردت في الكتاب المذكور، فطه يدحض رأى الرافعي الذي مر بنا آنفًا والذي يردده صاحبه، ومؤداه أن دراسة الأدب العربي دراسة تاريخية أمر مستحيل. يقول طه: «وأنا أخطئك كل الخطأ وأخطئ الرافعي أيضًا إن وافقك على أنه لا سبيل إلى تحقيق أصول التاريخ لأنها ماتت بأسباب طبيعية. فإن أصول التاريخ لا تزال حية معروفة قد درس بعضها لي الأستاذ المستشرق (نالينو) والأستاذ حفني بك (ناصف). وهل لتاريخ الآداب العربية أصول غير اللغة والدين والحوادث السياسية والأطوار الاجتماعية التي لا يصعب على الباحث المحقق أن يرفع عنها حجاب الجهل والغرور. وإذا كانت هذه الأصول قد ماتت بأسباب طبيعية فهل أحياها صاحبك الرافعي أو هل أتى بأصول أخرى خلقها من عند نفسه، وإلا فمن أين له علم التاريخ؟».

فما هي الأصول التي يعنيها طه؟ هي فيما يقول اللغة العربية والدين الإسلامي والحوادث السياسية والاجتماعية التي وقعت للعرب. وهي باختصار الوقائع أو الحقائق التي ترتكز عليها دراسة تاريخ الأدب العربي إذا أريد له أن يكون موضوعيًا أو علميًا. وهي حقائق مازالت ـ كما يقول طه ـ حية معروفة أو يمكن أن تعرف. وهي لا يمكن أن تكون قد ماتت كما يدعي الرافعي. وهنا يحاول طه أن يثبت صحة ما يقول وخطأ خصمه بحجة مؤداها أن هذا الأخير يفترض هو نفسه أصول تاريخ العرب. وإلا فمن أين له علمه بهذا التاريخ؟ (لا بد أنه استند إلى هذه الأصول في تأليف كتابه، وإلا فكيف تمكن من تأليفه؟). وعندما يتساءل طه عما إذا كان الرافعي قد أحيا هذه الأصول بعد موتها أم أنه أتى بأصول أخرى خلقها من عند نفسه، فإنما يريد أن يقول إن من المحال أن يكون الرافعي قد فعل ذلك لأن وقائع التاريخ لا تخلق ولا سلطان للإنسان عليها. وهكذا استغل طه التباس موقف الرافعي من التاريخ ليفسد بطلانه، فهو يؤلف كتابًا في تاريخ آداب العرب ويفترض بذلك أصول هذا التاريخ في الوقت الذي يدعي فيه أنها قد ماتت.

وطه يعتقد إذن أن تاريخ الأدب العربي ممكن لأن أصوله أو حقائقه موجودة وجودًا موضوعيًا ويمكن الكشف عنها. والواقع أن توصله إلى هذه النتيجة لم يكن يعني فقط دحض رأى الرافعي، بل كان يعني أيضًا أنه قد انسلخ منطقيًا عن مذهب محمد عبده في الإصلاح الإسلامي. وذلك أن القول بأن العلم يرتكز على حقائق مستقلة يعني أن العلم ليس بحاجة إلى مرجع يسوغه أو سلطة يقدم لها أوراق اعتماده سوى هذه الحقائق، وقديمًا حقق ابن خلدون إنجازًا مماثلاً عندما أسس التاريخ كعلم قائم بذاته لأنه فيما رأى يرتكز على وقائع (العمران) ولا يحكم على صدق أخباره أو كذبها إلا بمقدار تطابقها مع هذه الوقائع.

وفي تاريخ لاحق من نفس السنة نشر طه سلسلة من ثلاث مقالات عنوانها: «نقد صاحب الهلال». (الهداية، يونية ويولية، وأغسطس

وسبتمبر، وأكتوبر ونوفمبر على التوالى).

وهى مقالات ذات طابع سجالى صريح لأن كاتبها يفند فيها آراء جرجى زيدان كما وردت فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية. غير أن هذا الطابع السجالى لا ينبغى أن يخفى عنا أن النقد هنا بناء فى حقيقته، فهو يجرى وفقًا لترتيب يؤدى خطوة خطوة إلى توضيح طبيعة المنهج التاريخى الصحيح الذى ينبغى اتباعه فى دراسة الأدب العربى، وليس تفنيد آراء جرجى زيدان إلا مناسبة لبسط مبادئ هذا المنهج بدلاً من المنهج الذى اتبعه صاحب الهلال والذى يرى طه أنه قليل الحظ من الصبغة التاريخية، فإذا كان طه قد دحض فى «الآداب العربية فى الجامعة» رأى أعداء النزعة التاريخية وأثبت بذلك إمكان دراسة الأدب العربى دراسة تاريخية، فإنه يحاول فى نقده لجرجى زيدان أن يتقدم خطوة أخرى فيدحض النزعة التاريخية السطحية ويبين بذلك طبيعة المنهج التاريخى السليم. وربما كانت مقالات طه فى نقد جرجى زيدان هى أول محاولة يبذلها فى التفكير الإيجابى بشأن هذا المنهج.

يتصدى طه بادئ ذى بدء لادعاء جرجى زيدان أنه أول من ألف فى تاريخ الأدب العربى وأول من أسماه بهذا الاسم. وهو لا يدع الفرصة تمر دون أن يحاول وضع الأمور فى نصابها فيما يتعلق بنشأة الموضوع من حيث هو علم وبالمصادر التى ينبغى أن يستقى منها، فهو لا يرى لجرجى زيدان فضلاً فى السبق إلى التاليف فى هذا المبحث أو إلى تسميته بالاسم الذى صار معروفًا به، ويقرر أن العرب القدامى هم أول من ألف فيه فجمعوا مادته فى مصنفاتهم الكبرى (مثل الأغانى)، بينما يرجع الفضل للمستشرقين فى تنظيم المادة على أسس منهجية وفى إكساب الموضوع صبغة العلم، «ونحن لهم فى ذلك تبع» ـ كما يقول.

ثم ينتقل طه إلى نقد تعريف جرجى زيدان للموضوع، وذلك بهدف التوصل إلى تعريف أدق لطبيعة العلم ونطاقه. يقول جرجى زيدان فى تعريفه: «نعنى بتاريخ آداب اللغة العربية تاريخ ما تحويه من العلوم والآداب وما تقلبت عليه فى الأعصر المختلفة أو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم». أما الاعتراضات التى يثيرها طه ضد هذا التعريف فإنها تجرى وفقًا لترتيب منطقى صريح أو ضمنى ينتقل من أعم الاعتراضات إلى أخصها كما يلى:

(١) أن التعريف يهمل قسمًا أساسيًا من تاريخ الآداب، وهو تاريخ اللغة «فى نفسها»: كيف نشأت وكيف تطورت من صورتها البدائية البسيطة حتى وصلت إلى ما هى عليه من تقدم وتعقيد وكيف كانت علاقاتها بغيرها من اللغات. فاللغة ـ كما يقول طه ـ كائن حى وهى عرضة للتغير. ومؤدى هذا الاعتراض أن تاريخ الآداب ـ فى رأى طه ـ ينقسم إلى قسمين رئيسيين: قسم يدرس تاريخ اللغة «فى نفسها» أو «جوهرها»، وهو «علم مقابلة اللغات» (الفيلولوجيا المقارنة)؛ وقسم يدرس تاريخ ما تمخضت عنه قرائح الناطقين باللغة المعنية من علوم وآداب.

(٢) أن التعريف لا يفرق بين تاريخ العلوم وتاريخ الآداب. وذلك أن تاريخ الأدب ـ فى رأى طه ـ ينصب فى المقام الأول على الآداب (أو فنون القول أو الكلام من شعر ونثر)، بينما يتطرق إلى تاريخ العلوم على نحو عارض أو كلما اقتضت دراسة الأدب ذلك.

(٣) أن زيدان لم يحسن دراسة فنون الكلام، فلم يبين كيف نشأ الشعر وارتقى وكيف نشأ الغناء العربى وما علاقته بالشعر وكيف نشأت أساليب الكلام عند العرب.

وفى مجموعة أخرى من الاعتراضات التى ترد تحت عنوان: «كيف ينقسم تاريخ الآداب؟» يحاول طه ـ دون نجاح كبير ـ أن يحدد الطريقة السليمة فى تقسيم عصور الأدب وطبيعة العوامل التى تؤثر فى الآداب وتغيرها من عصر إلى آخر. فهو يأخذ على زيدان أنه قسم تاريخ الآداب بحسب العهود السياسية أو تسلسل الدول والممالك، وهو ما يعنى ضمنًا أن التغيرات التى تطرأ على الأدب تنتج عن التقلبات التى تجرى على نظم الحكم وتفسر بها، والرأى لدى طه أن «الآداب هى المؤثرة والسياسة هى المتأثرة» أو «أن الآداب منتجة للحوادث السياسية وليست نتيجة لها». غير أن عبارة طه فى هذا الموضع من البحث غامضة ولا تخلو من التباس وقصور، فالآداب التى يعنيها فى هذا السياق ويريد لها أن تكون عوامل مؤثرة فى التغيرات السياسية ليست هى الأعمال أو الظواهر الأدبية؛ وإنما الحياة المعنوية للأمة المعنية وما تشمله هذه الحياة من أخلاق وعادات وتقاليد وأفكار (بما فى ذلك الأفكار التى يعبر عنها فى النصوص الأدبية). وبعبارة أخرى نقول إن طه يرى أن تاريخ الآداب هو الوسيلة إلى فهم التغيرات التى تطرأ على نظم الحكم؛ على أن يفهم من هذا أن تاريخ الآداب هو العلم «الذى يقفنا على حقيقة أفكار الأمة وطبائعها وتركيبها النفسى».

ويرجع القصور فى هذا الكلام إلى سببين.. أولاً: أن طه وقد انشغل بإثبات ضرورة الآداب (بمعنى الأخلاق والأحوال المعنوية بصفة عامة) لتفسير التغيرات التى تطرأ على النظم السياسية فاته أن يبين صراحة ما هى العوامل اللازمة لتفسير التغيرات التى تطرأ على الآداب (بمعنى فنون الكلام من شعر ونثر). وقد نتجاوز عن هذا العيب فنقول إن طه قد أدى هذه المهمة ضمنًا. فقد افترض فيما يبدو أن الآداب بهذا المعنى الأخير تفسر بالرجوع إلى الآداب بالمعنى الأول. فإذا صح هذا ظهر على الفور السبب الثانى لقصور آراء طه فى هذا الصدد. وذلك أنه لا يعتقد فى نهاية المطاف أن أخلاق المجتمع وأحواله المعنوية بصفة عامة تكفى لتفسير التغيرات التى تطرأ على فنون الكلام. وذلك أنه يضيف ـ على سبيل الاستدراك ـ عوامل أخرى يرى أنها تؤثر بدورها فى الأدب (بمعنى فنون الكلام)، وأعنى بذلك العوامل البيئية أو ظروف البيئة المادية أو «طبيعة الإقليم» ـ على حد تعبيره ـ وخلاصة القول هى أن طه يرى على عكس زيدان أن التغيرات التى تصيب الأدب لا تتوقف على العوامل السياسية إذا أريد بذلك مجرد تعاقب نظم الحكم (فهذا التعاقب هو نفسه نتيجة وليس سببًا) وإنما تتوقف على مؤثرات عميقة فى صميم بنية المجتمع مثل «طبيعة الإقليم والدين والأخلاق والعادات نحو ذلك».

وهكذا كان السجال مع جرجى زيدان فى ذات الوقت محاولة للتعريف على نحو الإجمال بتاريخ الأدب: مصادره وموضوعه وتحديد عصوره وطبيعة العوامل التى يرجع إليها فى التفسير. وأقول «على نحو الإجمال» لأن هذه المحاولة الأولى قاصرة كما رأينا. فطه لم يستطع أن يقدم تعريفًا واضحًا شاملاً لطبيعة تلك المؤثرات أو أن يدرجها فى أى ترتيب دقيق. غير أن أهم ما فى المقالات التى نحن بصددها هو الحديث المنهجى فى حد ذاته. فطه يستقى أفكاره كلا على حدة من أستاذ أو آخر من أساتذته المستشرقين؛ وهو يعترف على أى حال بأن المنهج التاريخى ينبغى أن يلتمس لديهم. ولكن طه ليس مدينًا لأحد من أساتذته بالحديث المنهجى المفصل. يصدق هذا حتى على نالينو. فطه يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، ولكن نالينو لم يورد فى محاضراته من حديث المنهج إلا ملاحظات عابرة مبعثرة. ويرجع الفضل لطه أنه وهو الطالب المبتدئ قد قرأ أساتذته قراءة تحليلية ناقدة ليستخلص منها حديثًا متصلاً يبين فيه مبادئ المنهج التاريخى فى دراسة الأدب.

ويبقى الآن أن ننظر فى أكبر المؤلفات المبكرة. وأعنى بذلك سلسلة من ثمانى مقالات نشرت فى أوائل سنة ١٩١٤ تحت عنوان «حياة الآداب»[1]، ولاتزال حتى اليوم مجهولة تمامًا لا يعرف عنها إلا ما ورد بشأنها من بيانات فى القوائم البيبليوغرافية؛ وذلك رغم أهميتها القصوى. وترجع هذه الأهمية إلى أن المقالة تعد نقطة تحول أخرى فى نطاق المرحلة المبكرة من إنتاج طه حسين. فهو هنا لا يكتفى بتمثل دروس أساتذته وإعادة صياغتها وإنما يبدى مزيدًا من الاستقلال؛ وهو استقلال يتجلى أول ما يتجلى فى ازدياد وعيه المنهجى وفى نزوعه الواضح نحو مزيد من الدقة والصرامة فى بسط المبادئ المنهجية لتاريخ الأدب العربى. والواقع أن «حياة الآداب» عمل فريد بين أعمال طه حسين لأنها تتضمن أوفى محاولة بذلها على الإطلاق لشرح المنهج التاريخى. وهى على عيوبها مقال طه فى المنهج (بالمعنى الديكارتى) رغم أنه عندما ألفها لم يكن يعرف ديكارت. وإنه لمن المؤسف حقًا أنه تركها ناقصة ولم يشأ أو لم يتح له أن يتناولها بالتطوير والتنقيح، وأنها أهملت وطال عليها الإهمال بحيث لم تظهر أهميتها فى حياة طه وفى حياة الفكر العربى الحديث.

فلنلاحظ كيف يصوغ المشكلة الكبرى التى تواجه دراسة الأدب العربى: «لنا بناء أدبى ضخم قديم عمل الزمان على تشييده من قبل التاريخ العربى.. غير أن بيننا وبين هذا البناء سترًا صفيقًا من أنقاض التاريخ قد جمعتها الحوادث بيننا وبينه فأصبحنا لا نميزه إلا بعد الجهد والعناء» («حياة الآداب» ١، الجريدة، ١٥ يناير ١٩١٤) والمشكلة هى إذن رفع هذه الأنقاض أو اختراق هذا الستر الصفيق حتى نصل ـ نحن العرب المعاصرين ـ إلى تراثنا. فهو ملكنا ولكنه غير متاح لنا، ملكنا ولكننا محرومون منه. وتذكرنا استعارة «الستر الصفيق» بأن المشكلة تمس طه بصفة شخصية، لأنه كان يشعر دومًا بأن بينه وبين الأشياء حجابًا، ولأن وجود هذا الحجاب كان يعنى لديه أقسى أنواع الحرمان. وهو حين يتحدث عن ذلك الستر الصفيق الذى يقف دون التراث يصوغ المشكلة كما تمسه هو نفسه وليس كما وجدها لدى نالينو أو لدى أى من أساتذته. كيف يمكن إذن رفع تلك الأنقاض التى ألقى بها التاريخ فى الطريق إلى التراث؟ ذلك إذن هو السؤال الأساسى الذى يستوجب البحث فى المنهج. فلا سبيل إلى الاتصال بالتراث إلا باكتشاف المنهج الصحيح أى المنهج التاريخى. وسوف نراه فى مقالاته هذه ينتقد فئات شتى من المفكرين ـ قدماء ومحدثين ـ ولكن الهدف الأول من البحث ليس المساجلة، وإنما هو تبين الطريق الحق إلى ثقافتنا.

ومما يلفت النظر أيضًا أن طه يحاول أن يشرح المنهج الصحيح على نحو منظم فيعرض الشرح فى إطار خمس «مقدمات» يمكن أن نعيد صياغتها كما يلى. أولاً مقدمة تمهيدية (ألف) عن جهل العرب المعاصرين بتراثهم الأدبى. ثم تتلو ذلك أربع مقدمات منها ثلاث «لازمة» ومقدمة واحدة «غير لازمة» فأما الثلاث اللازمة فهى: (باء) عن ضرورة الفصل بين الآداب وتاريخها؛ و(جيم) عن ضرورة الفصل بين تاريخ الآداب وتاريخ العلوم، و(دال) عن قصور منهج العلماء العرب الأولين فى مجال النقد الأدبى وتاريخ الأدب. أما المقدمة غير اللازمة فهى (هاء) نموذج من النقد الأدبى على سبيل التوضيح، وموضوعه أبو نواس.

إلا أن مؤلف «حياة الآداب» لم

كان عندئذ يقف فى مفترق الطرق: فيما بين الأزهر والجامعة؛ وفيما بين لطفى السيد وعبد العزيز جاويش؛ وفيما بين هذين كليهما وبين أساتذته المستشرقين. يضاف إلى ذلك أن طه كان طموحًا نهمًا إلى المعرفة فكان ينتقل من أستاذ إلى آخر ويتقاسم اهتمامه وولاءه أناس كثيرون

بـــدايـــات



طـــه حســـين

يستطع الوفاء بهذا البرنامج الذى رسمه لنفسه، ومثال ذلك أنه لم يدرس أبا نواس على الإطلاق، وإن تعرض للعصر العباسى فى مواضع متفرقة. يضاف إلى ذلك أن صياغة المقدمتين (باء) و(جيم) لا تعبر عن مقاصده الحقيقية. فهو لا يريد الفصل بين الأدب وتاريخه، بل يريد على العكس أن يؤكد ضرورة الربط بينهما. وهو لا يريد حقًا أن يفصل كل الفصل بين تاريخ الأدب وتاريخ العلوم، وإنما يرى ضرورة اعتماد تاريخ الأدب على تاريخ العلوم أو على عدد من العلوم. ويمكننا طلبًا للتبسيط أن نقول إن هذا العمل ينقسم من الوجهة المنطقية إلى قسمين رئيسيين: قسم سلبى ينقد المؤلف فيه المذاهب القديمة والحديثة التى تنافى روح التاريخ أو روح العلم؛ وقسم إيجابى يحاول فيه أن يثبت أن المنهج الصحيح لابد أن يكون تاريخيًا وأن يكون من ثم علميًا أى مرتكزًا على عدد من العلوم. وفى هذا الإطار أراد المؤلف أن يوضح هاتين القضيتين بمثال محدد هو أبو نواس كما نوى أو العصر العباسى كما حدث فى واقع الأمر.

وفيما يتعلق بالجانب السلبى من حجاج طه، نلاحظ أنه فى هذا الطور المتقدم من نشاطه المبكر قد أصبح يوجه نقده إلى تيارات فكرية عريضة بدلاً من استهداف الأفراد (كما هو الحال فى نقده لجرجى زيدان). وهو إذن يوسع نطاق النقد بحيث يشمل النزعات غير التاريخية فى التراث العربى قديمه وحديثه على السواء. بل لقد أصبح ينقد هذا التراث ذاته لافتقاره إلى الروح التاريخى. ومعنى هذا بعبارة أخرى أن تفكير طه قد صار ينزع نزعة راديكالية. ففى مقدمة المذاهب التى ينقدها فى نطاق الجزء السلبى من مقالته مذهب يسميه «مدرسة الآداب»: وهى تسمية تشمل - فيما يقول - «أساتذتنا ومؤلفينا فى الآداب». ولنا أن نستنتج إذن أنه يستهدف اتجاهًا شائعًا فى دراسة الأدب لا يقتصر على المدارس بل يمتد أيضًا إلى الحياة الثقافية بصفة عامة. ويحق لنا أن نستنتج أيضًا أنه يعنى حسن توفيق العدل ومن حذا حذوه من الأساتذة كما يعنى جرجى زيدان. ولكن هذه المدرسة ليست إلا الهدف الأول أو المباشر، إذ لا يلبث طه أن يوسع نطاق هجومه حتى يشمل أهدافًا أبعد والصق بالأسس والجذور.

يرى طه أن أتباع مدرسة الآداب يدعون أنهم يدرسون تاريخ الآداب ولكن حظهم من التاريخ قليل لا يتعدى القشور. فهم فيما يقول يقتصرون على «البحث العام غير المعين ولا المحدود». ومعنى ذلك أنهم لا يبحثون الآداب «فى مواطنها الخاصة التى نشأت فيها وتأثرت بمؤثراتها وخضعت لقوانينها» ويرى طه أيضًا أنهم «قد قيدوا أنفسهم بملاحظة الحال السياسية للخلافة الإسلامية»، وهو ما يمكن تفسيره بأنهم يكتفون بدراسة الآداب من حيث ارتباطها بتعاقب العصور السياسية أو نظم الحكم. ومن الواضح أن هؤلاء الدارسين إذ يقتصرون على هذا المستوى السياسى السطحى يقنعون - فى رأى طه - بالقشور من التاريخ؛ وإن دراسة الأدب دراسة تاريخية حقيقية تقتضى الرجوع بالتفسير إلى مستوى أعمق من حياة المجتمع حيث يوجد الأدب فى موطنه المحدد ويتعرض للمؤثرات الحقيقية، مستوى الأخلاق والتقاليد والأفكار.

ومما يأخذه طه على أتباع مدرسة الآداب أنهم يفتقرون إلى روح النقد؛ فهم يتقبلون الأخبار الموروثة على علاتها ودون تمحيص. يقول فى هذا الصدد: «... من المعقول أن يبالغ الرواة أشد المبالغة فى أخبار الشعراء والخطباء والكتاب. ثم تقبل مدرسة الآداب هذه المبالغة من غير نكير. ومن المعقول أن ينتحل الرواة من الشعر والنثر ما يضيفونه إلى بعض الشعراء والكتاب.. وتذعن مدرسة الآداب لهذا كله من غير شك ولا تردد.. ومن المعقول أن ينتحل البيت من الشعر والفصل من النثر لإثبات كلمة فى اللغة ليست بثابتة.. وتصدق مدرسة الآداب هذا الانتحال لأن الراوى فى ظاهر أمره عدل صدوق». («حياة الآداب» ٥، الجريدة، ٢٩ يناير ١٩١٤).

ويتضح من ذلك أن طه بات يدرك أن دراسة التراث دراسة تاريخية لابد أن تقترن بروح النقد والتمسك بالحذر والشك. كما يتضح أن نقد طه لمدرسة الآداب يقترن بالضرورة بنقده لبعض الجوانب فى هذا التراث؛ وهو ما رأيناه لتونا فى أقواله عن مبالغات الرواة وانتحالاتهم. وهو يوسع دائرة النقد لتشمل التاريخ القديم بما فيه من أكاذيب رسمية ولتشمل أيضًا تاريخ الإسلام، فهو فى رأيه «مملوء بالمبالغات التى هى ألصق بالقصص الخيالية منها بكتب التاريخ» وهو يرى أن الإسلام لم يكتب له تاريخ صحيح عربى حتى الآن. وحسبك - فيما يقول - أن «كتب التاريخ الإسلامى لا تعتمد إلا على الروايات (الشفهية) التى تستند إلى الذاكرة وهى مظنة الزيادة والنقص وعرضة للضعف والنسيان». (نفس المصدر). وهذه نقطة أساسية سنعود إليها بعد قليل على أن ننظر الآن فى بعض أقوال طه فى نقد أداء العرب فى مجال التاريخ.

فهو يأخذ على أئمة اللغة أنهم لم يدرسوا اللغة فى نفسها دراسة تاريخية؛ وذلك لأنهم «لم ينظروا إلى الآداب نظرة علمية إلا من جهة واحدة وهى الجهة التى تحتاج إليها العلوم اللغوية كالنحو والبيان فى تكونها. فأما البحث عن أطوارها المختلفة وأشكالها المتباينة على مرور الأيام واختلاف العصور، فذلك شىء لم يعرفوه ولم يأخذوا منه بنصيب». («حياة الآداب» ٣، الجريدة، ٢١ يناير ١٩١٤).

ثم يخطو المؤلف خطوة أخرى فيعزو جهل علماء العرب بتاريخ الأدب إلى ضعف العلوم التاريخية لدى العرب وقلة حظهم منها. فهم - على غرار الشعوب السامية وعلى خلاف اليونانيين والرومان والأوروبيين المحدثين - لم يعرفوا من التاريخ إلا مجرد الرواية وتسجيل الحوادث. وصحيح أن طه يستدرك فيعترف بأن بعض المؤرخين العرب - مثل ابن الأثير - قد ارتقى بصناعة التاريخ شيئًا ما فأخذ يدرس التاريخ لاستخلاص العبرة والموعظة. بل ويلاحظ أن المسلمين قديمًا قد أتقنوا نقد الرواية. إلا أنه يرى رغم ذلك أن كبار المؤرخين العرب - مثل الطبرى والمسعودى وابن خلدون - لم تنقصهم ملكة نقد الحوادث وتعليلها وحدها بل نقصتهم أيضاً ملكة تدوين التاريخ، لأنهم - فيما يقول - إنما أخذوا الحوادث من أفواه الرواة ولم يعتمدوا فيها على أوراق الحكومة وسجلات الدواوين إما لأنهم أهملوها أو عجزوا عن الوصول إليها. «حياة الآداب» ٤، الجريدة، ٢٦ يناير ١٩١٤).

وذلك إذن هو الاعتراض الأساسى على التراث التاريخى العربى. فمؤلف «حياة الآداب» كان يعتقد أن التاريخ بالمعنى العلمى لابد أن يعتمد على مصدر مكتوب وأنه لا تاريخ حيث لا توجد كتابة. ومن الغريب أن هذا المؤلف كان ملمًا على نحو ما بقواعد التاريخ القائم على نقد الوثائق. فهو يضرب مثلاً - على سبيل الافتراض - برسالة دونت فى عصر المأمون عن فتنة خلق القرآن ويعدد الخطوات النقدية التى ينبغى أن تطبق عليها. والغريب فى هذه الأقوال أنها تدل دلالة قاطعة على أن مؤلف «حياة الآداب» كان على علم بكتاب المدخل إلى الدراسات التاريخية للمؤرخين الفرنسيين شارل لانجلوا وشارل سينوبوس(٢). فكيف أتيح لطه فى سنة ١٩١٤ الاطلاع على آراء لانجلوا وسينوبوس؟ وما مغزى هذا الاطلاع؟ ذلك ما سنناقشه بعد قليل.

أما فيما يتعلق بالجانب الإيجابى من «مقدمات» طه حسين فى «حياة الآداب» فهو كما ذكرنا يستهدف أولاً الوصل بين الأدب والتاريخ بحيث تكون دراسة الأدب تاريخية. وهو يقرر هذه الصلة على نحو صريح عندما يرى ضرورة اعتماد هذه الدراسة على مجموعة من العلوم مثل السياسة والاقتصاد والاجتماع؛ وكلها فيما يرى علوم تاريخية. ويمكن القول بعبارة أخرى أن الدراسة المعنية لا تكون تاريخية حتى تربط الظواهر الأدبية بأحوال وبيئة المجتمع الذى نشأت فيه؛ وأن هذا لا يتحقق إلا بالاعتماد على التاريخ بمختلف فروعه.

أما وقد بين طه كيف تكون دراسة الأدب تاريخية، فإنه يريد - ثانيًا - أن يصل بين تاريخ الأدب وتاريخ العلوم، أو إذا شئنا الدقة أن يبين كيف تكون الدراسة التاريخية للأدب علمية الطابع. وهو يرى فى هذا الصدد ضرورة اعتماد هذه الدراسة على عدد من العلوم مثل دراسة اللغات السامية والفلسفة؛ فالفلسفة فى رأى طه علم أو هى أم العلوم. ولكن الصبغة العلمية لا تتحقق لتاريخ الأدب على النحو الأوفى إلا باعتماده على أحد العلوم الفلسفية بالذات، وهو علم النفس. أما كيف كان ذلك، فإن الأمر فى حاجة إلى شىء من الشرح على ضوء ما ورد فى مستهل المقالة ٧ من «حياة الآداب» (الجريدة، ٧ فبراير ١٩١٤).

يرى المؤلف أن جميع العلوم تتطور وفقًا لنمط واحد، وذلك لأنها ترجع إلى مصدر واحد هو العقل البشرى. فقد تطورت العلوم الطبيعية بحيث لم يعد العقل فيها يقنع بتفسير الجسم المادى بوصفه مركبًا من هيولى وصورة، بل أخذ يستعين بالكيمياء ليدفع بالتحليل حتى يصل إلى المكونات الخفية الدقيقة للأشياء. وعلى نفس النحو ينبغى للدراسة الأدبية أن تتطور فلا تقتصر على تحليل الأقوال إلى مادة (الألفاظ الممثلة للمعانى) وصورة (النظام الجامع بين الألفاظ) بل تلتمس الأسباب الخفية للعمل الأدبى فى نفس الأديب. وهى إذن فى حاجة إلى علم النفس؛ فهو بمثابة «الكيمياء» التى تكشف عن هذه الأسباب. ولم يعد البحث الأدبى يقنع بالحكم على الكلام من حيث لفظه ومعناه وسبكه؛ بل صار يطمح إلى تحليل الكلام وتعليله بالرجوع إلى العوامل النفسية، أى كل الملكات والقوى التى تضافرت على إنتاج العمل الأدبى. فالعمل الأدبى فى رأى طه «صورة ناطقة» أو «مرآة» لنفس الكاتب.

غير أن فهم أهمية علم النفس لا يكتمل حتى نضيف إلى ذلك أن تفسير الكلام بالرجوع إلى العوامل النفسية للأديب الفرد ليس إلا جزءًا من تفسير أشمل أو أعمق. فطه يعتقد أن القوى والملكات النفسية للكاتب هى بدورها نتاج لعوامل خارجية أو موضوعية وأن الأديب وأعماله نتاج لمؤثرات اجتماعية (معنوية) وبيئية (مادية). وينبغى إذن تفسير العمل الأدبى على مرحلتين أو مستويين: أولاً: بوصفه نتاجًا أو مرآة لنفس مؤلفه وثانيًا: بوصفه نتاجًا أو مرآة للمجتمع أو للحياة.

وتقتضى الدقة أن يقال أخيرًا أن تفسير الأدب بوصفه مرآة للمجتمع يعنى الرجوع فى نهاية المطاف إلى ما يسميه طه «النفس الاجتماعية». فهو يرى ضمنًا أن الأسباب الخارجية لا تؤثر فى نفس الأديب مباشرة؛ وإنما تعمل عملها بوصفها مكونات لمزاج اجتماعى أو شخصية خاصة بالمجتمع. ومؤدى كل ذلك أن التفسير العلمى للعمل الأدبى يسير على مستويين. فهو يرجع - أولاً - إلى مجموعة من القوى والملكات بوصفها عناصر فى شخصية فردية متميزة ثم يفسر هذه

الشخصية نفسها بوصفها نتاجًا لعوامل خارجية هي في نهاية المطاف مكونات لشخصية اجتماعية متميزة بدورها.

وبذلك تكتمل لدينا الصورة فيما يتعلق بمكانة علم النفس ومكانة النفس سواء أكانت فردية أم جمعية في نسق مؤلف «حياة الآداب» فقد رأينا أن دراسة الأدب لا تكون تاريخية حتى تفسر الأعمال الأدبية مستعينة بالعلوم التاريخية مثل الاقتصاد والاجتماع والسياسة. ونستطيع أن نرى الآن أن هذه الدراسة لا تكون علمية بالمعنى الدقيق للكلمة حتى ترتكز على علم النفس - «كيمياء» الدراسة الأدبية - فترى مختلف العوامل التي كشف عنها البحث التاريخي بوصفها مكونات لشخصية فردية وشخصية اجتماعية.

وعلى ضوء هذا الاستعراض السريع لعدد من المقالات الأولى لطه حسين ينقشع الضباب الذي ظل حتى اليوم يكتنف الفترة المبكرة من حياته ككاتب. ونستطيع أن نتبين معالمها وقسماتها. ويتضح الآن أن تفكير طه قد تطور فيما بين ١٩١١ و١٩١٤. فمن الناحية السلبية نلاحظ نزوعه نحو الراديكالية: من نقد جرجي زيدان إلى نقد مدرسة الآداب فنقد العلماء العرب فالتراث التاريخي العربي بأكمله. أما من الناحية الإيجابية فإن شرح طه للمنهج التاريخي زاد صرامة في نفس الفترة. كما تطور تصور طه للواقع الاجتماعي الذي يستند إليه تاريخ الأدب فيما بين السنتين. ونستطيع هنا أن نميز بين مرحلتين. ففي سنة ١٩١١ كان هذا الواقع يتكون من عوامل شتى: اجتماعية ونفسية اجتماعية واقتصادية وأخلاقية ودينية وفكرية وبيئية وما إلى ذلك. عوامل تنتمي إلى فئات مختلفة لا تخضع لأي حصر أو ترتيب أو لا تنتظمها بنية اجتماعية محددة. وإلى هذا الحد يمكننا أن نصف مذهب طه بأنه نوع من الموضوعية (تفسير الأعمال الأدبية بالرجوع إلى عوامل موضوعية خارج النفس) أو الوضعية الفضفاضة. ويمكننا أن نقول أيضًا أن طه كان إلى ذلك الحد وفيًا لأستاذه الإيطالي ملتزمًا بحدود مذهبه. وذلك لأن نالينو لم يتجاوز حدود هذه الوضعية المعتدلة ولم يقرر أو يفترض أن العوامل المذكورة تخضع لأي حصر كامل أو نظام محكم.

ولكن سنة ١٩١٤ شهدت ظهور مرحلة ثانية ترتبط بشكل جديد من الوضعية. ففي «حياة الآداب» يقدم طه عرضًا صارمًا للمنهج التاريخي في دراسة الأدب ينتهي به إلى شكل من أشكال الوضعية المتطرفة أو العلموية. فهو هنا لا يكتفي بالدعوة إلى أن تكون هذه الدراسة علمية بمعنى من المعاني: وإنما يقرر صراحة ما لم يقرره نالينو، وهو أنها ينبغي أن تحذو حذو العلوم الطبيعية فتفسر الظواهر الأدبية بوصفها ثمرة لشبكة محكمة أو نسق مغلق من العلاقات السلبية التي ترجع في آخر المطاف إلى بؤرة واحدة هي تمحور العوامل الموضوعية جميعًا حول النفس الاجتماعية.

وهذه الوضعية الصارمة أو النسقية هي التي نجدها وقد صيغت صياغة أخيرة مصقولة محكمة في تجديد ذكرى أبي العلاء حيث أسماها طه «الجبر في التاريخ»، فأعمال أبي العلاء وفقًا لهذه الجبرية أو الحتمية لا يمكن أن تعزى إليه وحده لأنه هو نفسه ثمرة ضرورية لعوامل شتى تلتقي في إطار الشعب الذي ينتمي إليه أبو العلاء أو النفس الإسلامية كما كانت في مكان أبي العلاء وزمانه. والجبر في التاريخ ليس إذن إلا نسخة معممة مصقولة من السببية المزدوجة كما رأيناها في «حياة الآداب».

ويترتب على هذا أن الذين يؤرخون لطه حسين بداية من كتابه الأول يخطئون خطا جسيمًا. فلهذا الكتاب تاريخ لا يفسر بدونه؛ وذلك أنه ليس إلا ختامًا أو تتويجًا للبحوث المنهجية التي أجراها طه في مقالاته المبكرة بداية من سنة ١٩١١. وإن ما نراه في الكتاب من صقل وإحكام يوحيان ببداية النضج ليس سوى علامة من علامات الاستقرار بعد مرحلة من التجريب والاستكشاف في المقالات المبكرة. ونقول بعبارة أخرى أن الكتاب المذكور لا يفهم فهمًا وافيًا بمعزل عن المقالات.

والواقع أن كشف النقاب عن هذه المقالات يفتح الباب على مصراعيه لإعادة النظر في تطور طه والبحث المتعمق في المؤثرات التي تعرض لنا. فمن السهل الآن أن نرى بوضوح أنه كان وضعيًا على الطريقة الفرنسية قبل أن يرحل إلى فرنسا. وتتجلى هذه الوضعية في ثلاثة جوانب. أولًا: الدعوة إلى أن تكون الدراسة الأدبية علمًا (على غرار العلوم الطبيعية). ثانيًا: الجبرية التاريخية أو ما وصفناه بالوضعية الصارمة أو النسقية التي لاحظ بعض الباحثين بحق أنها تشبه على نحو لافت للنظر مذهب الناقد الفرنسي هيبوليت تين في تفسيره لتاريخ الأدب في إطار ثلاثة محاور هي: «الجنس» و«الوسط» و«اللحظة». وثالثًا: علم طه في «حياة الآداب» بأطراف من التاريخ العلمي أو الوثائقي أو الوضعي كما قعده لانجلوا وسينوبوس. وهذا الجانب من وضعية طه المبكرة لم يتنبه إليه أحد حتى الآن.

وهنا لابد أن تثار مشكلة محيرة: من أين كان لطه علمه بهذه الجوانب من الوضعية الفرنسية؟ قد يقال فيما يتعلق بالجانب الأول أن طه لم يكن يصعب عليه أن يستشفه - مع شيء من التحوير والتطوير - من محاضرات نالينو. أما فيما يتعلق بالجانبين الآخرين، فإننا لا نجد لهما أثرًا في محاضرات نالينو ولا في المحاضرات التي نشرت لغيره من المستشرقين الذين درسوا لطه. فإذا أضفنا إلى ذلك أن فرنسية طه في تلك المرحلة ما كانت لتمكنه من قراءة المصادر الفرنسية ذات الصلة وأن هذه المصادر لم تكن متاحة في ترجمة عربية، تبين لنا أننا بإزاء مشكلة عويصة.

ولكن لنطرح هذه المشكلة جانبًا فهي لا تحتل مكان الصدارة بين أولوياتنا. والأولى بنا أن نبادر إلى استخلاص نتيجة هامة هي أن الوضعية الصارمة كما طورها طه في «حياة الآداب»، وصاغها بإحكام في تجديد ذكرى أبي العلاء المعري تتجاوز مذهب نالينو منطقيًا؛ وأنها أيًا كان مصدرها تدل على أن طه عقد لنفسه صلات وثيقة مع الوضعية الفرنسية قبل أن تطأ قدماه أرض فرنسا. والأمر نفسه يصدق على تلك الأطراف التي ألم بها طه من التاريخ الوضعي في «حياة الآداب».

وهناك نتيجة أخرى أهم وأبعد مدى؛ وهي أن فهمنا لتطور طه في المرحلة المبكرة أمر لا غنى عنه لفهم تطوره في فرنسا بل وفيما تلى ذلك من مراحل. فلقد كانت تلك الوضعية الصارمة التي تكونت في مصر هي النواة الصلبة التي قام عليها أو تفرع عنها أو دار حولها كل فكره التاريخي. فهو عندما ذهب إلى السوربون وجد الوضعية في انتظاره؛ كانت هي المذهب السائد في جامعة باريس وفي الحياة الجامعية الفرنسية بصفة عامة. كما وجد أعلام الوضعية لذلك العصر في انتظاره بما فيهم شارل سينوبوس الذي درس له مادة التاريخ الحديث. إلا أن الفكر الوضعي كما وجده طه في السوربون كان بطبيعة الحال وبمقتضى التطور أكثر تقدمًا وأشد تعقيدًا وأقل تجانسًا من وضعيته القطعية الساذجة. وقد أدت الدروس التي استخلصها في ظل الوضعية المتقدمة إلى أنه ظل طيلة حياته فيما بعد يتناول وضعيته الصارمة المبكرة بالتنقيح والتعديل والنقد بل وبالتقويض في آخر المطاف.

ومعنى هذا إذن أن طه ظل طوال حياته مشغولاً على نحو أو آخر بكتاباته الأولى التي تكونت فيها تلك النواة الصلبة. صحيح أنه حجب هذه الكتابات عن الناس وأراد لهم أن ينسوها؛ ولكنه احتفظ لها بمكان أمين في ذاكرته وظل طيلة حياته يعود إليها في غفلة من الآخرين ليبني على أساسها أو يعدل فيها أو ينميها أو يرفضها. وسبب ذلك أنها رغم طابعها التجريبي أو بسببه كانت تأسيسية: فقد أرسيت فيها القواعد المنهجية وبذرت فيها بذور فكرية خصبة استخدمها طه فيما بعد في تشييد الصرح الذي أقامه في مجال تاريخ الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. وسأدلل على ذلك ببعض الأمثلة.

إننا لا يمكن أن نفهم تمامًا الأسباب التي حدت بطه إلى اختيار أبي العلاء موضوعًا لرسالة الدكتوراة الأولى دون أن نراعي تطور معرفته في كتاباته الأولى بالمنهج التاريخي وتزايد وعيه بالعصر العباسي وتقديره له لما شاع فيه من امتزاج بالثقافات الأخرى واتصال بالفلسفة اليونانية وازدهار فكري وتجديد شعري.

كلا وليس يمكننا أن نفهم لماذا اختار طه ابن خلدون موضوعًا لرسالة الدكتوراه الثانية التي أعدها في باريس، إذا لم ندرك من الكتابات الأولى أنه كان وثيق الصلة بالمؤرخ العربي قبل سفره إلى باريس، فهو في «حياة الآداب» ينقد ابن خلدون مع غيره من كبار المؤرخين العرب. كما يدل نفس العمل على أنه كان على ألفة بمقدمة ابن خلدون، فهو يصفها هناك بأنها «جميلة»، بل ويحاكيها عندما يحاول أن يبسط مبادئ تاريخ الأدب بوصفه علما في سلسلة من المقدمات»، تمامًا كما حاول ابن خلدون تأسيس التاريخ كعلم قائم بذاته في مقدمات خاصة به. ولقد كانت الرسالة الباريسية إذن استمرارًا بمعنى من المعاني للكتابات القاهرية.

وعندما شرع طه بعد عودته إلى مصر بوقت قصير (ثلاث سنوات تقريبًا) في تأليف سلسلة المقالات التي كانت النواة الأولى لكتابه الضخم «حديث الأربعاء»، بدأ حديثه عن القدماء والمحدثين، وهو الحديث الذي استهله بعجالة سريعة عن العصر الأموي تفرغ بعدها للعصر العباسي واختار أبا نواس ممثلاً له. أفلا يدل ذلك على أنه أراد عندئذ أن يستأنف الحديث من حيث انقطع في «حياة الآداب»؟

كل هذه التطورات وكثير غيرها مما وقع في حياة طه ككاتب ناضج لا يمكن أن يفهم حقا، ناهيك عن أن يلاحظ أصلاً، دون معرفة بالمقالات المبكرة. ومن المؤكد أن القارئ اليقظ لم يفته أن يرى أن كثيرًا من مواقف طه حسين الراديكالية التي اشتهر بها في مرحلة نضجه قد تكونت في الكتابات المبكرة. ومن ذلك دعوته إلى الفصل بين الدين والعلم وتحرير الدراسة الأدبية والتاريخية من سيطرة الدين والوقوف موقف الشك من الأخبار المأثورة وروايات الرواة.

وغني عن الذكر أن من غير الممكن أن ننقد الصرح الذي شيده طه نقدًا فعالاً دون الرجوع إلى تلك النواة الوضعية الصلبة. وقد أصبح ذلك النقد ممكنًا الآن بعد أن رأينا النواة وهي في مرحلة التكوين قبل أن تتصلب أو لنقل قبل أن يكسوها مؤلف «تجديد ذكرى أبي العلاء» بذلك السطح الأملس الصقيل. ■

يروى طه في الأيام أن لطفي كان يحثه على «القصد في العبارة والأناة في التفكير». إلا أن أستاذه الثاني لم يكن من أصحاب القصد أو الأناة. فقد كان عبد العزيز جاويش هو الذي أغرى طه بنقد المنفلوطي ذلك النقد اللفظي الجارح وأخذ يستزيده منه.

---

(١) نشرت في الجريدة، بداية من ١٥ يناير إلى ٨ مارس ١٩١٤. ويبدو من ترقيم المقالات كما نشرت أن السلسلة كان ينبغي أن تتضمن تسع مقالات. ولكن من الغريب أن «حياة الآداب» ٦ لم تنشر.

(٢) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب في عبد الرحمن بدوي، النقد التاريخي، الطبعة الثالثة (الكويت ١٩٩٧).

إدوارد سـعـيـد.. وقـسـوة

ترجمة وتقديم

مـريـد البـرغـوثى

إدوارد سعيد، صاحب البصيرة النقدية والإنجاز الفكرى الذى يحظى بتقدير عالمنا اليوم، يتناول بالعمق والدقة اللائقين به، رؤية نجيب محفوظ، صاحب البصيرة الأكثر شمولاً فى أدبنا العربىّ الحديث، حوارُ هاتين البصيرتين، بحدٍّ ذاته، هو جائزةٌ للقراء العرب، الذين يحترمون مهنة النقد ومهنة الفنّ الروائىّ.

لسنا بحاجةٍ إلى إعلان آخر لحزننا وأسفنا على ما آل إليه جانبٌ كبيرٌ من النقد الأدبىّ فى بلادنا العربية، من انزلاق لزج على الشاشات الملوّنة، وصفحات الإعلام العشوائىّ، غير المتخصص، وتأرجح بين غبار المديح وغبار الذمّ، واعتبار النقد التطبيقى من الوجبات السريعة، والتطاول عليه بالتعامل مع النصوص الأدبية بسهولة لا تليق.

كما أننا لسنا بحاجة إلى التذكير بأن عدد الدراسات الجادة عن رؤية محفوظ ورواياته، لايزال قليلاً إلى حد غير مفهوم، رغم دوى صيته وغزارة إنتاجه!

ولعل هذا ما شكّلَ لى إغراءً لا يُعتذرُ عنه عندما علمت برغبة «وجهات نظر» فى تقديم دراسة إدوارد سعيد إلى قرائها، فقمت بترجمتها عن الإنجليزية دون تردد، رغم أن الترجمة ليست من شواغلى الأولى.

قبل حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ كان نجيب محفوظ معروفا خارج العالم العربى فى أوساط طلبة الدراسات العربية والشرق أوسطية كمؤلف قصص تفيض بالحيوية تتناول حياة الطبقة الوسطى الدنيا فى القاهرة. لكنهم لم يجدوا فيه صاحب أسلوب مميز أو رؤية خاصة، لأن ترجماته المتوفرة لا توازى نصوصه الأصلية على الإطلاق، وأيضاً لأن محفوظ لم يكن له مترجم واحد (وما زال الأمر كذلك إلى الآن) يجعل مشروع حياته مواصلة تقديم روائعه إلى الإنجليزية.

فى عام ١٩٨٠ حاولتُ إثارة اهتمام أحد ناشرى نيويورك، وكان وقتها يبحث عن كتب من «العالم الثالث»، لتقديم عدد من روايات الكاتب الكبير بترجمات مباشرة من اللغة العربية، لكن الفكرة سرعان ما رفضت، وعندما سألت عن السبب قيل لى (دون تندر) إن اللغة العربية لغة إشكالية! بعد عدة سنوات جرت مراسلات ودية، ومن وجهة نظرى مشجعة أيضاً، مع جاكلين أوناسيس بشأنه، وكانت تفكر فى اتخاذ قرار بتبنّى نشره، وأصبحت فيما بعد واحدة ممن قدموا نجيب محفوظ إلى دار نشر دبل داى التى يستقر فيها الآن، وإن كان ذلك فى روايات متفرقة تمر مرور الكرام. ويمتلك قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة حق الترجمات الإنجليزية لأعماله وبالتالى ليس لمحفوظ - الذى يبدو أنه باعهم تلك الحقوق دون توقع منه أنه سيغدو يوما ما كاتبا عالمياً - أى رأى فيما أصبح من جانب واحد مشروعا تجاريا إلى حد كبير دون تماسك فنى أو لغوى ملحوظ.

بالنسبة للقراء العرب يمتاز محفوظ بصوت خاص يعكس سيطرة ملحوظة على لغته، رغم أنه لا يلفت النظر بشكل محدد إلى هذه السيطرة. بينما يبدو فى بعض الترجمات الإنجليزية شبيها بكل واحد من مترجميه الذين (باستثناء واحد أو اثنين) ليسوا أصحاب أسلوب، ويؤسفنى القول إنهم لم يفهموا جوهر رواياته.

سأحاول أن أقترح فيما يلى أن لمحفوظ رؤية لبلده هى رؤية قابضة مسيطرة. إنه، كإمبراطور يستعرض ملكه، يشعر أنه قادر على أن يلخص تاريخ مصر الطويل، وأن يحكم على هذا التاريخ، ويشكّله، ويشكّل مكانتها المركبة كجائزة رائعة مثيرة لخيال الفاتحين كالإسكندر وقيصر ونابليون وأهاليها أيضاً. بالإضافة إلى هذا كله، يمتلك محفوظ الوسيلة الذهبية لنقل ذلك بأسلوب يتفرد به، قوى مباشر وماكر. إنه كشخصياته (التى يبادر إلى وصفها فور ظهورها دائماً) يخرج لك بشكل مباشر ويغمرك بفيض سرده الكثيف ويتركك تسبح فى مياهه، وهو الذى يحدد حياة شخوصه، باتجاهاتها وتموجاتها وتقلباتها - ويقدم لك تاريخ مصر تحت حكم رؤساء وزارات مثل سعد زغلول ومصطفى النحاس وعشرات من التفاصيل المتعلقة بأحزابها، وتاريخ عائلاتها.. إلخ. بمهارة استثنائية.

واقعية، نعم. لكن هناك شيئا آخر أيضاً: رؤية تطمح إلى نوع من الإحاطة الشاملة البالغة الاتساع، ليست بعيدة عن رؤية دانتى التى تُزاوِج بين اليومىّ والخالد، لكن بدون مسيحية دانتى.

لا يستطيع القارئ الأجنبى معرفة أن العائش فى الحقيقة (أضاف الناشر الأمريكى كلمة «اخناتون» إلى العنوان الأصلى) هى من الكتب المتاخرة نسبيا لمحفوظ (١٩٨٥) أو أن موضوعها الفرعونى هو عودة إلى المرحلة المبكرة لدى محفوظ كروائى. (تقول الشائعات إن إضافة «أخناتون» تمت ليتاح بيع الكتاب للسياح الأجانب من زوار الأهرامات!).

بين ١٩٣٩ و١٩٤٤ نشر محفوظ المولود عام ١٩١١ ثلاث روايات - لم تترجم إلى الآن - حول مصر القديمة أثناء عمله كموظف فى وزارة الأوقاف. كما ترجم كتاب جيمس بيكى مصر القديمة قبل أن يعكف على تسجيل حياة القاهرة الحديثة فى خان الخليلى التى نشرت عام ١٩٤٥. وفى عامى ١٩٥٦ و١٩٥٧ توج هذه الفترة بظهور ثلاثيته القاهرية الرائعة التى تتوقف عند١٩٥٢ . وتشكل هذه الروايات فى حقيقة الأمر تلخيصاً للحياة المصرية الحديثة خلال النصف الأول من القرن العشرين.

الثلاثية هى تاريخ النموذج الأبوى للسيد أحمد عبد الجواد وعائلته لما يزيد على ثلاثة أجيال. وهى إذ تقدم كمّا هائلاً من التفاصيل الاجتماعية والسياسية، تشكل، أيضا، دراسة للعلاقات الحميمة بين الرجال والنساء وسجلا لرحلة الابن كمال بحثا عن الإيمان بعد فترة قصيرة من اعتناقه التوجهات الإسلامية.

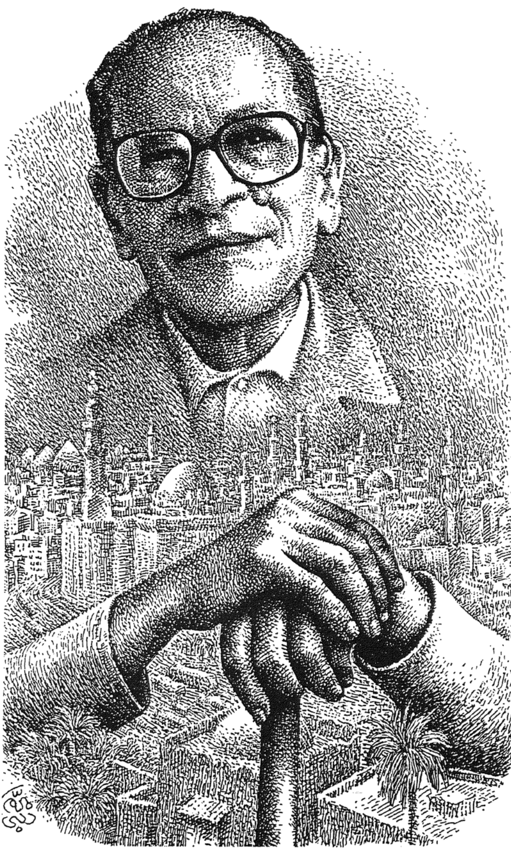
بعد فترة صمت دامت قرابة خمس سنوات أعقبت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ تدفقت الأعمال النثرية من قلم نجيب محفوظ بلا انقطاع. روايات، قصص قصيرة، صحافة، مذكرات، مقالات وسيناريوهات للسينما. ومنذ محاولاته الأولى لتصوير العالم القديم أصبح محفوظ غزير الإنتاج بشكل استثنائى، مرتبطاً بواقعه، دون أن يكفّ عن معاودة اكتشاف مصر القديمة، لأن تاريخها يتيح له العثور على جوانب تتعلق بزمانه الراهن، يقطّرها ويعيد تشكيلها لتلائم أغراضه الفنية المركبة. وهذا، فيما أعتقد، ينطبق على العائش فى الحقيقة، التى تشكل جزءا من انشغاله بموضوع السلطة، وموضوع الصراع بين الحقيقة الدينية والحقيقة الشخصية، والتقاطع بين منظورات متكاملة على ما فيها من تناقض ناجم عن شخصية غامضة يصعب سبر أغوارها.

منذ أن أصبح شخصية عالمية مرموقة يوصف محفوظ كواقعى اجتماعى على طريقة بلزاك وجالزورثى وزولا، أو كخيالىٍّ خارجٍ مباشرةً من ألف ليلة وليلة (من وجهة نظر ج. م. كوتزى فى وصفه المخيب للآمال لنجيب محفوظ[1]). الأقرب إلى الحقيقة أن ننظر إليه كما نظر الروائى اللبنانى الياس خورى، ككاتب تزودنا رواياته بما يشبه تاريخ الشكل الروائى، من الرواية التاريخية إلى الرومانسية إلى الملحمة إلى الحكاية البيكاريسكية، وتاتى بعد ذلك الأشكال الواقعية الحداثية والطبيعية والعبثية.[2]

أكثر من ذلك، وبالرغم من شفافيته وبساطته، فإن محفوظ شديد التركيب، ليس فقط كصاحب أسلوب فى الأدب العربى، ولكن كتلميذ دءوب للعملية الاجتماعية وللمعرفة- أى طريقة البشر فى معرفة تجاربهم - بشكل لا ينازعه فيه أحد فى العالم العربى أو فى أى مكان آخر إن شئت. ورواياته الواقعية التى عليها تقوم شهرته، لا تقتصر على مجرد كونها مرآة لمصر الحديثة، تعكس الالتزام الاجتماعى بل هى أيضاً محاولات اقتحامية بالغة الجرأة للكشف عن الطرق المادية الملموسة لتَشَكُّل السلطة. فالسلطة قد تاتى من المقدس، كما فى أمثولة أولاد حارتنا ١٩٥٨ الممنوعة فى مصر إلى وقت قريب(هكذا فى الأصل) حيث يشكل الجبلاوى شخصية إلهية، يطرد أبناءه من جنة عدن، أو من العرش، أو من الأبوة ذاتها، أو من المؤسسات الاجتماعية كالأحزاب السياسية والجامعات والبيروقراطية الحكومية...إلخ. وهذا لا يعنى أن روايات محفوظ مصممة سلفاً حول مبادئ مجردة: فالأمر ليس كذلك وإلا كانت أعماله أقل قيمة بكثير مما يراها عليه قراؤه العرب الذين لا حصر لهم وأيضاً جمهوره الآخذ فى الاتساع عالمياً.[3]

هدف محفوظ، كما أعتقد، هو تجسيد الأفكار بشكل كلّى فى شخصياته وأفعالهم بحيث لايترك النظرى مكشوفاً وعارياً. لكن ما يفتنه باستمرار هو كيفية تحول المطلق (الذى هو عند المسلمين بالطبع الله بصفته القوة الكاملة) من مادى مدرك إلى ما لا يمكن استعادته وإدراكه كما حدث عندما أخرج

الذاكـــرة عنـــد نجـــيب محـــفـــوظ!



مرسوم الجبلاوى بطرد أبنائه برميهم إلى المنفى، فيتراجع إلى بيته، قلعته الحصينة ويستحيل الوصول إليه إلى الأبد، بينما يظل بوسعهم رؤية البيت من مناطقهم. إن ما يحس وما يعاش يظل واضحاً ومجسداً ولكن لا يمكن القبض عليه فى الإدراك، بينما يتم الكشف عنه بدقة مضنية فى نثر محفوظ البديع.

ملحمة الحرافيش ١٩٧٧ هى تطوير دقيق لهذا الموضوع بعد أولاد حارتنا. إن استخدام محفوظ الذكى للغة يمكنه من ترجمة المطلق إلى تاريخ، إلى شخصية وحدث ومكان وتتابع زمنى بينما، فى نفس الوقت، لأن هذا هو المبدأ الأساسى، يظل هذا المطلق محتفظا على نحو غامض وربما موجع أيضا بنأيه الأصلى العنيد. فى أخناتون يغير إله الشمس إلى الأبد الملك الشاب المؤمن مبكرًا بإله واحد لكنه لا يكشف عن نفسه أبداً، تماماً كما أن أخناتون ذاته لا يُرى إلا عن بعد، موصوفا بروايات عديدة على ألسنة أصدقائه وأعدائه وزوجته الذين يحكون حكايته لكنهم لا يستطيعون حل ألغازه.

هناك أيضاً جانب لا صوفى شرس فى محفوظ لكنه مخترق بذكريات وحدوس حول قوة عظمى مراوغة تزعجه. انظر على سبيل المثال كيف أن قصة اخناتون تتطلب لا أقل من أربعة عشر راوياً يفشلون جميعاً فى تفسير فترة حكمه.

فى كل عمل أتيح لى الاطلاع عليه من أعمال محفوظ هناك تشخيص مركزى للسلطة، وإن كان من بعيد. ونتذكر هنا على الفور السيد أحمد عبد الجواد فى الثلاثية حيث يخيم حضوره على ثلاثة أجيال بعد موته.

فى الثلاثية لا يبدو انحسار قوته أمرا جانبياً، بل يتم تخفيفه عبر وسائط عادية كزواج عبد الجواد، سلوكه المتحلل، أولاده وتغير ارتباطاته السياسية. ويبدو أن الأمور الحياتية تحير محفوظ، وتؤثر فيه وتبهره فى نفس الوقت، خصوصاً فى رصده لكيفية انحسار تركة السيد أحمد عبد الجواد، الذى لاتزال عائلته (وهى الموضوع الحقيقى عند محفوظ) قادرة على التماسك طوال ثلاثة أجيال على امتداد خمسين عاماً، عبر ثورة ١٩١٩ ثم المرحلة الليبرالية لسعد زغلول، ثم الاحتلال البريطانى، ثم حكم فؤاد الأول خلال فترة ما بين الحربين.

ونتيجة ذلك ما إن تصل إلى نهاية رواية من روايات نجيب محفوظ، فإنك تشعر - وهذه هى المفارقة - بالأسف لما حل بشخصياته فى منحدرهم الطويل (كما يحدث فى الثلاثية عندما يدخل أحد أحفاد

منذ محاولاته الأولى لتصوير العالم القديم أصبح محفوظ غزير الإنتاج بشكل استثنائى، مرتبطاً بواقعه، دون أن يكفَّ عن معاودة اكتشاف مصر القديمة، لأن تاريخها يتيح له العثور على جوانب تتعلق بزمانه الراهن، يقطرها ويعيد تشكيلها لتلائم أغراضه الفنية المركبة. وهذا، فيما أعتقد، ينطبق على العائش فى الحقيقة، التى تشكل جزءا من انشغاله بموضوع السلطة، وموضوع الصراع بين الحقيقة الدينية والحقيقة الشخصية

عبد الجواد السجن كشيوعى ويدخله الثانى كعضو فى «الإخوان المسلمون») وتشعر أيضاً بأمل غامض فى أنك، بالعودة إلى بداية الرواية ربما تتمكن من استعادة القوة الطاغية لهذه الشخصيات. وهناك إشارة إلى مثل هذا فى مقطع عنوانه «الرسالة» يضمه كتاب أصداء السيرة الذاتية ١٩٩٤: «قسوة الذاكرة تتجلى فى تذكر ما طواه النسيان». إن محفوظ ليس مسيحى النزعة بل قاضٍ يصدر أحكامه. كما أنه مسجل دقيق لمرور الزمن.

وهكذا فإن محفوظ ليس أبداً ذلك القاص المتواضع الذى يحوم فى مقاهى القاهرة ثم يكتب بعيدا وبهدوء فى زاوية غامضة. إن عناده وافتخاره بصرامة عمله طوال نصف قرن، وبرفضه التنازل للضعف العادى، هى فى صلب ما يفعله ككاتب. إن ما يُمَكِّنُهُ من الاحتفاظ بهذه الرؤية المدهشة والمتصلة للتداخل الوثيق بين الأبدى والراهن، هو بلده، مصر نفسها. فبالنسبة لمحفوظ لا مثيل لمصر، كمكان جغرافى وكتاريخ، فى أية بقعة أخرى من العالم: قديمة فيما وراء التاريخ، ومتميزة جغرافياً بفضل النيل وواديه الخصب. مصر محفوظ هى تراكم هائل للتاريخ، ضاربة فى عمق الزمن منذ آلاف السنين، وهى قادرة على الاحتفاظ بهويتها المتماسكة رغم تنوع الحكام والأنظمة والديانات والأجناس. وأكثر من ذلك، فمصر ذات منزلة فريدة بين الأمم، فهى محط انتباه الفاتحين، والمغامرين والرسامين والكتاب، والعلماء والسياح، لا يضاهيها بلد آخر بفضل موقعها فى التاريخ الانسانى، ورؤيتها التى تتجاوز الأزمنة.

إن النظر إلى التاريخ لا بجدية فقط بل حرفيا أيضاً، هو الإنجاز المركزى لأعمال محفوظ. وشأنه شأن تولستوى وسولنجستين فإن المرء يحيط بشخصيته الأدبية عبر هذا المنظور الحيوى الهائل الاتساع. إن تقديمه مساحات واسعة من تاريخ مصر نيابة عن ذلك التاريخ وشعوره بأنه قادر على سبر أغوار مواطنيها بصفتهم يمثلونها، هو أمر لا نراه إلا نادراً عند الكتاب المعاصرين. أما بالنسبة لقادة مصر الذين شغلوا تاريخها فقد كانوا أيضاً موضوعا لنظرة محفوظ المتفحصة. ففى كتابه الهام (غير المترجم بعد) «أمام العرش» (١٩٨٢) لا يتورع محفوظ عن وضع حكام مصر أمام محكمة التاريخ الأبدية المكونة من أوزيريس الجالس على العرش الذهبى وعلى جانبه إيزيس وحورس ويقوم ثلاثتهم بتقويم مزايا الحكام الذين يعتبرهم محفوظ مسؤولين عن جعل مصر ما هى عليه اليوم.

من الواضح أن هذه الرواية قد كتبت بدافع نفس الرغبة فى التنقيب عن ماضى مصر البعيد الكامنة وراء رواية أخناتون. تبدأ «أمام العرش» بمحاكمة مينا مؤسس البلاد ومرورا بأسماء مشهورة على الطريق، إذ يصل إلى جمال عبد الناصر وخليفته أنور السادات الذى اغتيل قبل فترة قصيرة من ظهور الكتاب. وما يستوقف بشأن هذا الموضوع هو اتخاذه موضوعاً أصلاً. كما لو أن الكاتب شعر أن جزءاً من مشروعه الروائى ومن التزامه الشخصى هو أن يفحص، فى نفس واحد عميق، الأشخاص الذين صنعوا تاريخ مصر. إن الكتاب لا يوافق طموح محفوظ فقط، بل يكشف عما يراه من استمرارية فيما يبدو وكأنه مجرد جزئيات منفصلة عبر امتداد الزمن. وأن عليه أن يتخيل ما يصل بين فراعنة مستبدين ورجال ثوريين شعبيين مثل السادات وناصر ومصطفى النحاس جنباً إلى جنب مع الخديوى العثمانى محمد على (هكذا فى الأصل) والخديوى إسماعيل وبطاركة الأقباط والصوفيين والشعراء ورجال البلاط مما يكشف أكثر وأكثر اهتمام محفوظ العميق بالسلطة، إن لم نقل بالتنافس معها بصفته مؤرخها الذى يحس بالغيرة. إنه يبقى القادة القدماء الذين يستدعيهم للمحاكمة، داخل القاعة كشهود على اللاحقين، يستجوبونهم أحياناً أو يستنكرون أفعالهم أو يمدحونهم أو يناقشونهم بشكل عام. وينجم عن ذلك كله نسيج كثيف من القيم التى كونت شخصية مصر التاريخية بتضافرها مع قادتها العظام عبر العصور!



يجدر بالذكر أنه منذ بداية الستينيات نشأ جدل حول حقيقة الهوية الثقافية لمصر ما زال مستمرا إلى اليوم. كانت دعوة ناصر للقومية العربية هى البداية المحفزة لهذا الجدل، فقد رآها كتَّاب مثل لويس عوض ومحفوظ ذاته على أنها أدت إلى تقطيع التاريخ اللاعربى لمصر بمفاهيم قدمها المتحمسون القوميون مثل التاريخ العربى والاشتراكية العربية، وانضمت الأحزاب الإسلامية ورموزها بعد ذلك إلى هذا الجدل، منادين بأن ما ينبغى التوكيد عليه هو شخصية مصر الإسلامية، بما أن الأزهر، أقدم مؤسسة علمية إسلامية مكرسة للسنة، لا يزال مزدهرا فى القاهرة.

فى الأشهر الأخيرة، نشب جدال مستمر تسببت فيه رواية لكاتب سورى هو حيدر حيدر، هى «وليمة لأعشاب البحر» حيث رأى البعض أنه من غير اللائق توزيعها فى مصر المسلمة بكل ما تحويه من «زندقة وفجور»[٤] إن الجدال حول رسالة مصر وجوهرها وهويتها الثقافية لم يخمد أبداً، مما يضفى على أعمال محفوظ أهمية مركزية عند المصريين والعرب على السواء.

فلا غرو والحالة هذه، أن يكون جمال عبد الناصر وحده هو الذى يتعرض لمعاملة غليظة على أيدى قضاته وشهوده فى رواية «أمام العرش». إن رمسيس الثانى مثلاً، يعبر لناصر عن إعجابه به وقربه منه كقائد عظيم، لكنه يشعر بالأسف لكون مصر فى عهده (عهد رمسيس) كانت قوة أساسية بينما مصر عبد الناصر أصبحت بلداً صغيراً لا يرقى إلى الطموح العريض الذى يصبو إليه. أما مينا فينتقد ناصر بسبب إغراقه مصر التى لا مثيل لها فى القومية العربية. وهذه تهمة خطيرة لكونها موجهة من مينا الذى بسط سلطته على الشمال والجنوب الموحدين.

ولا يقل عنها خطورة الاستنكار القوى الذى يبديه مصطفى النحاس آخر السياسيين المصريين الكبار فى العهد الملكى، والمعروف وزوجته بالذوق المبالغ فى الترف، وأحياناً فى المظهرية والادعاء.

إن محفوظ لا يكتفى برفع النحاس إلى مصاف رجال مصر العظماء بل يجعله يهاجم انتهاك عبد الناصر لحقوق الإنسان وتدميره للمثقفين «طليعة الشعب المصرى» بإذلالهم والحط من إنسانيتهم وتخريبه للتعليم مما أدى جميعه إلى (فى واحدة من أجمل تعبيرات محفوظ): «أساطير فارغة تقوم على تل من الخرائب».

وعندما يرد عبد الناصر ردا أراه ضعيفا إلى حد ما، بأنه استطاع على الأقل أن يوقظ مصر والبلاد العربية ويخرجها من شروط الهزيمة، ينبرى النحاس ثانية لمواصلة هجومه: «ليتك تواضعت فى طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة. إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم، إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن».

وهنا يختم أوزيريس الجلسة بالاعتراف بأن عبد الناصر هو أول زعماء مصر الذين اهتموا فعلا بشؤون شعبهم، لكنه يضيف أن الإله العظيم سيفسح له مكاناً بين الخالدين بشرط أن يترك للزمن إصدار الحكم النهائى على كافة أعماله فى محكمة مناسبة.

يختم محفوظ كتابه الدال بأحكام شخصية حول السياسة المصرية خلال التاريخ بمحاكمة أنور السادات، وهى أصلا مهمة أخف وطأة من محاكمة عبد الناصر. أمران يستحقان التوقف هنا، الأول أن أخناتون يزج بنفسه فجأة فى النقاش مؤكدا أنهما هو والفرعون المعاصر المقتول اغتيالا، يشتركان فى تكريس حياتيهما من أجل السلام، ويشتركان فى تهمة الخيانة أيضاً. والأمر الثانى هو ذلك النقاش المخادع بين عبد الناصر والسادات، وهو نقاش يتسم بمقدار من المرارة فيه شد وجذب متلاحق بين متآمرين ورفيقى سلاح سابقين، وفى نفس الوقت حاكمين متعارضين لمصر الحديثة، ولا يستطيع غير محفوظ الملم بأسلوب الحديث عند المصريين والمالك لناصية النثر العربى أن يرسم هذا المشهد بطريقة مدهشة وأمينة أيضاً:

سأله جمال عبد الناصر:

ـ كيف هان عليكَ أن تقفَ من ذكراى ذلك الموقف الغادر؟

فقال أنور السادات:

ـ اتخذتُ ذلك الموقف مضطراً إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتُها عن عهدك.

ناصر:

ـ ولكنى عهدتكَ راضياً ومشجعاً وصديقاً؟

السادات:

ـ من الظلم أن يحاسَبَ إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!

ناصر:

ـ وما النصر الذى أحرزتَه إلا ثمرة استعدادى الطويل له!

السادات:

ـ ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصاراً. ولكنى أرجعتُ للشعب حريته وكرامته ثم قدتُه إلى نصر أكيد.

ناصر:

ـ ثم نزلتَ عن كل شىء فى سبيل سلام مهين فطعنتَ وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيتَ على مصر بالانعزال والغربة.

السادات:

ـ لقد ورثتُ عنك وطناً يترنح على هاوية الفناء، ولم يمد لى العرب يدَ عونٍ صادقة، ووضح لى أنهم لا يرغبون فى موتنا كما لا يرغبون فى قوتنا كى نظل راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى.

ناصر:

ـ واستبدلتَ بعملاق طالما ساندنا، عملاقا طالما ناصبنا العداء.

السادات:

ـ اتجهتُ إلى العملاق الذى بيده الحل، وصدقت الحوادث ظنونى!

ناصر:

ـ واندلقتَ فى الانفتاح حتى أغرقتَ البلاد فى موجة غلاء وفساد، وبمقدار ما كان عهدى أماناً للفقراء كان عهدك أمانا للأغنياء واللصوص.

السادات:

بالرغم من شفافيته وبساطته، فإن محفوظ شديد التركيب، ليس فقط كصاحب أسلوب فى الأدب العربى، ولكن كتلميذ دؤوب للعملية الاجتماعية وللمعرفة - أى طريقة البشر فى معرفة تجاربهم. بشكل لا ينازعه فيه أحد فى العالم العربى أو فى أى مكان آخر إن شئت. ورواياته الواقعية التى عليها تقوم شهرته، لا تقتصر على مجرد كونها مرآة لمصر الحديثة، تعكس الالتزام الاجتماعى بل هى أيضاً محاولات اقتحامية بالغة الجرأة للكشف عن الطرق المادية الملموسة لتشكل السلطة

- لقد عملتُ لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهرى!

هذا الفحص نفسه الذى رأيناه فى أمام العرش هو فى قلب رواية أخناتون القاتمة التى يعود فيها محفوظ أيضاً إلى إجراءات فى القص تذكّر براشومون والتى ميزت رائعته عن الاسكندرية ميرامار ١٩٦٨.

تدور أحداث ميرامار فى بنسيون حيث تعمل الخادمة زهرة الفتاة الريفية الجذابة التى يشتهيها النزلاء. ويمثل كل واحد منهم شريحة من المشهد السياسى المصرى فى السنوات الأخيرة من ثورة الضباط فى بداية الخمسينيات. وكذا يتيح محفوظ لوفدى ولاشتراكى معارض وناصرى انتهازى أن يقدم كل منهم روايته.

فى أخناتون، يرى مرى مون الشاب ووالده أثناء ارتحالهما جنوباً على امتداد النيل، بمدينة مهجورة. الشاب، مبهورا بما رأى، يتعلم من والده ما يكفى ليقرر البحث عن حقيقة تلك المدينة، وحاكمها المتوفى، وأرملته الملكة التى تعيش فى عزلة.

إنه يفعل ذلك بالطلب إلى كل واحد من المشاركين فى قصة أخناتون أن يخبره بما حدث من وجهة نظره. يفسر مرى مون بعد ذلك لماذا تصدى لهذا البحث:

«بل لعله تحمس لها فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق، ولرسوخه فى العلم الذى جعل من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا»

«For father himself had a passion for knowledge and recording the truth, a fact that made our palace a gathering point for men of both worldly and religious affairs».

المشكلة فى هذه الجملة أن تعبير the truth recording هو تفسير يخص المترجم، وهذا (لو بدرجة ضئيلة) يغير من طبيعة نثر محفوظ غير المسرف.

ينبغى القول هنا إننى لست مترجما ولن أكون، لكن الأمر الذى خطر لى عندما قارنت النسختين العربية والإنجليزية لأخناتون هو تلك التجاوزات الكثيرة للأصل، ومعظمها توضيحات مقحمة.

إن ما لفت نظرى دائما بالنسبة لمحفوظ، ليس فقط هو الطبيعة الإيحائية التى تميز أسلوبه بالعربية، وإنما ثراء إمكانيات المعنى أيضاً.

فالمعنى عنده لا يقدم بطريقة تقريرية بل يرشح بين السطور، كما يقال. فى الجملة المقتطفة أعلاه يمارس المترجم تدخلا لا ضرورة له، تماما عند النقطة التى يغفلها الأصل العربى.

فكلمات had a passion for يغيرها المترجم بثقة قاطعة عن الأصل الذى يقول «لرسوخه فى العلم» وهو ما يمكنه من الإيحاء بحياة الأب الراكدة ورحلة الشاب الساعى للمعرفة التفصيلية طوال ما تبقى من الرواية.

على أية حال، مسلحا برسائل التوصية، يقوم الشاب مرى مون بإجراء مقابلات مع كل الشخصيات الأساسية التى لعبت دورا وآخرهم نفرتيتى، زوجة أخناتون التى لا تزال على قيد الحياة فى مأساة الملك الشاب، وفترة حكمه الكارثية المتسمة بالسلام والمؤامرات التى أحاطت به، والتى أدت فى النهاية إلى موته محتارا ووحيدا وعلى الأغلب مغدورا.



إن اخناتون هو من زوايا عديدة نقيض كيرتس عند كونراد، أى شخصية من النور فى مواجهة الظلام، (و قلب الظلام هى واحدة من الروايات التى يتحدث عنها محفوظ بإعجاب غير مبرر) يتم استعادة ذكرى الملك الغامض من قبل أقربائه ورجال بلاطه وجنرالاته وأصحابه وشُرَطِه، والفنانين والكهنة استجابة لأسئلة مرى مون اللامناسبة.

ومرى مون يعطينا باستمرار انطباعاته لا استنتاجاته. المادة نفسها غنية وفى نفس الوقت معقدة بشكل مربك، فهى خليط متضاد من المواضيع ونقائضها وكلها تدور حول أسئلة من نوع ما إذا كان أخناتون وأمه عاشقين، وما إذا كانت نفرتيتى متآمرة مصابة بجنون السلطة،أو رفيقة مخلصة.

وما إذا كان الملك أكثر عقلا وجنونا من معظم الذين يطورون ويجمعون لغز أخناتون.

وجوهر هذا اللغز هو ما إذا كان أخناتون صاحب رؤية توحيدية وأن إيمانه بالإله الواحد الذى لا يوصف واعتناقه للسلام كان سابقاً لزمانه ومتجاوزاً له، أو أنه مارق ضعيف عاجز ومحتال، كما بدا لأتباع الإله آمون بسبب قضائه على كل الآلهة الآخرين.

ولكن وبالعودة إلى «أمام العرش»، نرى أن الفرق بين الفرعون الغامض والسادات الذى يبدو فى ذهن محفوظ شبيها بأسلافه القدامى، هو أن الحاكم الفرعونى كان يزعم خدمة الآلهة بينما السادات لم يكد يفعل شيئا من هذا القبيل، بل ظل أنانيا بشكل صارخ.

وهكذا فإن انبهار محفوظ بهذه الحقبة القديمة لا يرجع إلى جهلنا بالبطل الحقيقى، بل إلى أن بحث البطل عن حقيقة نائية يزيد من صعوبة إدراكنا لكنهه.

فى أخناتون نرى هوية مصر تتواصل فى سلطتها وتكاملها، كما يراها الكثير من المغامرين مهددة. وفى الحالتين فإن السلطة فى ثباتها وانحدارها تظل مركزية فى الرواية بشكل أساسى لأن أخناتون لا يعرف كيف يستخدمها لدعم قضيته. ولا أعتقد أن مهمة محفوظ الروائى باتت أقل صعوبة نتيجة لكون أخناتون ونفرتيتى وتوت عنخ آمون (خليفة أخناتون الشاب) أشهر شخصيات التاريخ المصرى القديم، أولا : بسبب كثرة ما كتب عنهم وثانيا: لأنهم شخصيات إنسانية أكثر من امنحوتب الأول ورمسيس الثانى وتحتمس الرابع، مما جعلهم محط إعجاب المحللين المعاصرين.

لدى مثال يوضح ما أقصده وهو فيلم المصرى بطولة مايكل وايلدنغ فى دور أخناتون، وجين تيرنى فى دور نفرتيتى وفكتور ماتيور فى دور حور محب صديق طفولة اخناتون. كان هذا فيلما من أفلام هوليوود تأثرت به عندما كنت فى القاهرة فى فترة شبابى قبل سنوات طويلة، رغم أنى نشأت وكبرت محاطا بألق مصر القديمة، ومواقعها الأثرية الحقيقية وقد صور الفيلم الصراع بين روحانية السلطة وماديتها. وفى السنوات القريبة شاهد العالم الغربى توت فى معارض باذخة كما حصل أخناتون على نصيبه من الاهتمام فى معارض عديدة بما فى ذلك واحد نظم هذا العام فى متحف بوسطن للفنون الجميلة[٥]. وأبرزت هذه المعارض مدينة تل العمارنة وقربتها من الذهن المعاصر كما أبرزت أسلوب حكمه الرخو المخنث الممتد بشكل غير مألوف. وذهب كتاب آخر عن اخناتون لمؤلفته كريستين المهدى[٦] فى الاتجاه الآخر تماما إلى القول إن أخناتون يمتلك رؤية دينية أصيلة، ومن المحتمل أنه كان شاذا جنسيا - وهى فكرة لم يبد أنها خطرت ببال محفوظ. هناك مسائل أخرى لا بد من الإشارة إليها هنا ، أحدها انبهار محفوظ بالطريقة التى تنتشر بها المعلومات، وكيف أمكن فى السياق أن يتحول الزمن التاريخى إلى تفاصيل دقيقة (واضحة دائما وغير نهائية) تتعلق بالحياة اليومية. اللغة عند محفوظ لا تعنى فقط نقل المعلومة بل تعنى بتبين التشوهات الحتمية فى المفردات، عن طريق الشخصيات والعواطف والمصالح العادية والهوية. بعد استماعه إلى أعداء أخناتون وأصدقائه يقابل مرى مون أخيرا زوجته نفرتيتى التى كانت أقرب الجميع إلى أخناتون. إننا نتوقع بشدة أن تقوم بحل اللغز بتقديم زوجها كباحث عن الحقيقة كما يعتقد مرى مون. إنها تعترف بأنها تركته لكى تنقذ حياته (ربما فكرت أنه بغيابها قد يتغلب على تردده فى اللجوء إلى العنف) وإنقاذا للبلاد من الغزاة وأنه نتيجة ذلك قد يلجأ للفعل.

غير أن نفرتيتى ذاتها سوف لن تعرف الحقيقة النهائية بشأن زواجها، وستعتمد على تقرير جاف يقول إن المارق مات وحيدا بالمرض، رغم أنه قد يكون مات مقتولاً. كل الشهادات كانت إذاً غامضة بشكل فاقع وبلا توكيد، باستثناء أن كل من قابله كان يشعر أنه مؤمن بعقيدته غير أنه لم يستطع نقلها إلى الآخرين تماماً، ولم يستطع أن يجعلها تعيش بعد حكمه. إن كل الشهادات بما فى ذلك شهادته هو تقدم صورة خاطئة إلى حد ما، كان الحقيقة، مع كل تصريح بها أو إذاعة لها، تتلاشى مع تلاشى سلطة الفرعون. وكلما استولت عليه عاطفته ازداد ضعفاً كحاكم، وكان العقيدة التى يحاول نشرها تزداد ذاتيةً، وباحتباسها داخل نفسه وكونها بعيدة المنال بالتعبير الإنسانى، تغدو أكثر فأكثر - شيئا شبيها بالموت.

تظهر بعض وجهات النظر العامة من خلال ما ترويه لمرى مون شخصيات مثل تايى أم أخناتون النوبية القوية والتى يقال أنها كانت عشيقته، وآى والد نفرتيتى، وتوت الكاتب الرئيسى وميرى را، الكاهن الأعلى لإله أخناتون الأوحد، وماهو، رئيس شرطة أخناتون. إن أكثر ما يؤثر فى الجميع هو إيمان أخناتون الراسخ والكلى فى إلهه الخفى الصامت.

إنه لا يرغب مطلقًا فى السماح للآخر، أى الآلهه التقليدية، بأى مكان فى مصر. ويتم التعبير عن ذلك بشكل غنائى عبر الأناشيد التى يقال أنه كان يغنيها لإلهه الذى أصبح يخصه بشكل شخصى.

الأمر الثانى هو إيمانه الكلى بالسلام، ورفضه استخدام القوة أو العنف، ورغبته أن تشع مملكته بالمحبة، ولا يشير محفوظ إلى أنه يقر بعجز أخناتون كحاكم، بل إنه فى الحقيقة إذا حكمنا على الفرعون من أعمال أخرى لمحفوظ لا يبدى أى تعاطف واضح معه. بل سنلاحظ مسحة من الاحتقار إلى جانب الإعجاب بحماسه الدينى. وهناك موضوع آخر بشأن أخناتون، وهو إغفاله للرموز الدنيوية، ولأمور السلطة مما سيكلفه فى النهاية خسارته

محفوظ ليس أبداً ذلك القاص المتواضع الذى يحوم فى مقاهى القاهرة ثم يكتب بعيداً وبهدوء فى زاوية غامضة. إن عناده وافتخاره بصرامة عمله طوال نصف قرن، وبرفضه التنازل للضعف العادى، هى فى صلب ما يفعله ككاتب. إن ما يمكنه من الاحتفاظ بهذه الرؤية المدهشة والمتصلة للتداخل الوثيق بين الأبدية والراهن، هو بلده، مصر نفسها

تأييد صديقه حورمحب القائد العسكرى العظيم الذى ينتزع من أخناتون السلطة فى آخر عهده.

إن ما يهم محفوظ بوضوح هو استحالة الصلح بين معتقدات أخناتون الصارمة والحفاظ على تماسك مصر كدولة وكفكرة أثناء حكمه. فالمشكلة أن أخناتون لا يسمح بأى حلول وسطى على الإطلاق ويرفض رفضا تاما أن تكون له علاقة بالسياسة. مما يطرح السؤال بقوة عما إذا كان قديسا أو فى واقع الأمر رجلا خطيرا، رجلا مستعدا للتضحية بمصلحة بلده، إذ يرفض الدفاع عن حدودها من أجل معتقداته.

ولا تقدم لنا الرواية جوابا شافيا، فيما عدا إبرازها وتعميقها لهذا السؤال، بنقله من مجال المعرفة إلى مجال التاريخ الدنيوى. تتكرر مفردة الدنيا إزاء مفردة العالم الآخر بالعربية، ويرى محفوظ أن أسمى الأفكار وأفضلها تعجز عن التغلب على العداوات والمنافسات والمصالح التاريخية ليس لأن الأفكار النبيلة ليست قوية بما يكفى، ولكن لأنه لا يوجد زمن خال من التعقيدات ومن الناس بما يكفى لتفعيل تلك الأفكار بما فيها من قوة الخلاص والإصلاح الشافى. كما أن هناك مشكلة أخرى وهى أن الدنيا تتطلب نوعا ما من النظام المركزى الذى يحميها من الفوضى العارمة التى يلمح إليها محفوظ فى قصصه ورواياته اللاحقة والتى ينحى فيها باللائمة على طبقة المثقفين.

تصور مجموعة من روايات محفوظ فى الفترة ما بين ١٩٦٧-١٩٨٠ هذه الحال، وتحديدا ثرثرة فوق النيل وتحت المظلة، فالأولى تدور حول بعض الأصدقاء الذين يجتمعون فى عوامة على النيل حول أنيس زكى الموظف الحكومى الذى فقد زوجته وابنته، وعلى شاكلته يعيش أصدقاؤه فى عالم من نشوة المخدرات والإحباط، ويتعرضون لحادث مرور ينجم عنه قتل أحد الفلاحين. ولا يمتلك أى منهم الشجاعة للإبلاغ عن ذاك الحادث. أما تحت المظلة، المكونة من ست قصص قصيرة وخمس مسرحيات، فتجنح إلى المدرسة التعبيرية، تصور القصة التى تحمل اسم المجموعة أفرادا واقفين تحت مظلة إحدى محطات الأوتوبيس يراقبون بشكل سلبى، أحداثا شديدة الغرابة (حفلات جنس جماعى، رؤوسا تتدحرج على التراب، حوادث سيارات...إلخ) دون موضوع مركزى ودون هدف.

إن مصر محفوظ هى بلد مشحون يعج بالحيوية بفضل دقته وطرافته فى تصويرها. فلا هى مأخوذة تماما بالأبطال العظام، ولا هى قادرة على الاستغناء عن حلم ما بالانسجام المطلق يشبه ما يجاهد أخناتون لتحقيقه دون جدوى. مصر بدون قوة مركزية مسيطرة، قابلة للسقوط فى الفوضى أو فى طغيان عبثى يعتمد إما على العقيدة الدينية الثابتة أو الديكتاتورية الفردية.

إن محفوظ الآن فى التاسعة والثمانين من العمر، فاقد لبصره تقريباً، وبعد أن تعرض لحادث الاعتداء الجسدى عليه، من قبل المتعصبين الدينيين فى عام ١٩٩٤ بسبب موقفه المعتدل من آيات شيطانية لسلمان رشدى، لجأ إلى الاعتكاف والعزلة. إن اللافت والمؤثر فيما يتعلق بمحفوظ هو كيف أنه، باتساع رؤيته ورواياته، يبدو كمن لا يزال يحرس إيمانه الليبرالى المنتمى إلى القرن التاسع عشر بمجتمع إنسانى النزعة يليق بمصر، بالرغم من أن البرهان الذى لا يكف عن التنقيب عنه واستجلائه والكتابة عنه فى الواقع الحى وفى التاريخ يدحض ذلك الإيمان. وتتجلى المفارقة فى أنه - أكثر من أى كاتب آخر - جسد فى أعماله التناقض الذى تمثله مصر كما يراها، بين القيم المطلقة العظيمة من ناحية، وبين تفتت هذه القيم وتآكلها على يد الناس والتاريخ والمجتمع. إنه لم يستطع أبداً أن يصالح بين هذين النقيضين. أما كمواطن، فإن محفوظ يرى أن التمدن، واستمرارية الشخصية المصرية المتسمة باستقرارها وتعدديتها فى أعماله، تملك القدرة على النجاة من عوامل الضعف والوهن الناجمة عن الصراعات والتحلل التاريخى الذى صوره بقوة أكثر من أى شخص آخر قرأته فى حياتى. ■

بترتيب خاص مع مجلة
New York Review of Books

هوامش:

(١) Fabulous Mahfouz," the New York». Review, sep.22.1994

(٢) الياس خورى، مواقف، العدد٥٧، شتاء ١٩٨٩

(٣) أرى أن كتاب رشيد العنانى The Pursuit of Meaning, Routledge, 1993 مفيد جداً. إنه أكثر الدراسات شمولا عن محفوظ باللغة الإنجليزية.

(٤) حول هذا الموضوع انظر مقال «صيد الساحرات فى مصر» لـ Max Rodenbeck فى 16 New York Review نوفمبر، ٢٠٠٠ و صبرى حافظ، The Novel, Politics and Islam, New Left Review, vol. 5 Second Series, (Sept.-Oct., 2000), 117-141.

(٥) "Pharaohs of the Sun:Akhenaten, Nefertiti, Tutankhamen", Nov.14, 1999 - Feb.6 2000

(٦) Tutankhamen: The Life and Death of the Boy-King (St.Martin's 2000).

mcr

أزمة السياسة فى انتخابات الرئاسة

كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل فى العدد الثالث والعشرين - ديسمبر ٢٠٠٠ مقالاً بعنوان «أزمة السياسة فى انتخابات الرئاسة» تحدث فيه وبشىء من التركيز على الخطاب السياسى ودوره فى مجريات العملية الانتخابية مؤكدًا على جانب الدعاية فى هذا المجال، وسائلها وأثرها وانعكاس ذلك على الناخب، وقد كانت الانتخابات الأمريكية الحالية محور الحديث. ولم يفت الأستاذ هيكل أن يذهب إلى أبعد من ذلك ليفصّل فى الناحية الشكلية التى تتعلق بمظهر المرشح وفريق التجميل الذى يرافقه بما فى ذلك المساحيق اللازمة، وقد ضرب مثلاً بحالة المرشح الجمهورى الجنرال دوايت ايزنهاور فى مطلع الخمسينيات وكذلك فقد تعرض إلى التطور التكنولوجى وأثره فى العملية الانتخابية.

ولكن أستاذنا الكبير ابتعد فى حديثه حول السياسة عن لعبة السياسة خاصة فى الانتخابات الأمريكية المشار إليها وبالتحديد فى ولاية فلوريدا التى تستوطن نسبة عالية من السكان اليهود خاصة فى تلك المقاطعات التى طلب فيها إعادة الفرز يدويًا.

لقد ابتعد الأستاذ هيكل عن الخوض فى الأسباب الرئيسية التى أدت إلى المأزق السياسى مدار البحث بكافة الأبعاد المحتملة، سواء تلك التى تتعلق بأطماع اليهود فى التحكم المباشر بالقوى المسئولة عن صنع القرار داخليًا أو سواء تلك المسئولة عن سياسة أمريكا الخارجية وبشكل خاص الصراع العربى الإسرائيلى والشرق أوسطية، وحتى نكون أكثر وضوحًا فلا نقصد بهذه الإشارة أن جورج بوش الجمهورى إذا قدر له أن يصبح سيد البيت الأبيض سيكون أقل سوءًا من منافسه آل جور الديمقراطى ولكن السر يكمن فى نائب الرئيس.

ومهما يكن من أمر فإن أهم ما يلفت النظر فى حديث الأستاذ هيكل هو قناعته بأن سبب الأزمة الانتخابية هو عدم لياقة أى من المتنافسين لكسب المعركة حيث قال «ان أحد الرجلين تنقصه الجاذبية والثانى ينقصه الذكاء» وطبعًا المقصود بالرجلين «جورج بوش وآل جور».

نعم قد يكون فى ذلك شىء من الصحة ولكن فإن جولة حول السير الذاتية وكفاءات الرؤساء السالفين للبيت الأبيض توضح لنا ضعف العديد منهم لحد «الخرف» ومع ذلك تم انتخابهم، حتى رونالد ريجان الذى ورد ذكره فى مقال الأستاذ هيكل لم يكن من الاطلاع والذكاء الذى يؤهله لمحاورة جورباتشوف فى لقاءاتهما لولا فريق العمل الذى كان يرافقه والسيناريوهات التى كانوا يعدونها له على أشرطة فيديو، ليتدرب عليها وذلك على عكس ما قاله الأستاذ هيكل بأنه أدى دوره بامتياز.

على أية حال أرجو أن يتسع صدر الأستاذ هيكل لهذه التساؤلات:

- أفلا يعتقد أستاذنا أن مقالاً كهذا وفى هذا الوقت بالذات يفترض أن يتعرض للإشكالية المفتعلة التى اختلقها الفريق الديمقراطى فى فلوريدا أملاً فى فرض آل جور؟

- وهل يعتقد الأستاذ هيكل أن ما حدث فى ولاية فلوريدا هو محض صدفة فقط لأن أيًا من المرشحين لم يحظ بأغلبية تؤهله لكسب المعركة؟ وبقدرة قادر أسند قرار تعيين رئيس للبيت الأبيض إلى المحاكم؟ وهل لو كان آل جور صاحب السبق الأول فى الفوز وهناه بوش لحصل ما حصل؟

- أفلا يعتقد الأستاذ هيكل أن اختيار «ليبرمان» نائبًا للمرشح الديمقراطى كان فيه دلالات واضحة على خطة مدبرة تستهدف تحقيق الكثير (لشعب الله المختار!)؟

- أفلا يعتقد الأستاذ هيكل أن طموحات اليهود بقيادة الحركة الصهيونية من حكم العالم وبشكل مباشر من موقع القوة كانت السبب الرئيسى فى معركة فلوريدا؟

- لماذا كان الدستور الأمريكى وعلى امتداد ما ينوف على المائتى عام قادرًا على تغطية عملية الانتخابات الرئاسية بكافة تفاصيلها وقد قصر فقط عندما أصبح يفصل اليهود عن حكم العالم مجرد نبضة قلب؟

د. خليل حمدى
علوم سياسية / الأردن

العلاقة بين القارئ والكتاب فى العالم العربى

فى عدد نوفمبر، ٢٠٠٠ من «الكتب.. وجهات نظر»، قرأنا مقالاً ممتعًا ومؤلمًا فى نفس الوقت حول «أزمة الإنسان والكتاب فى العالم العربى» للأستاذ قاسم عبده قاسم.. وفى الحقيقة فقد أفزعنى المقال وجعلنى أقف بانتباه وتساؤل أمام العديد من الفقرات والحقائق التى جاءت به وكان من أهمها «الفقرة التى يقول فيها الأستاذ قاسم عبده قاسم بالنص:

بيد أن هناك بعدًا آخر يمكن أن يساعدنا على تفسير أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى.. فعلى الرغم من كثرة عدد السكان النسبى وعلى الرغم من أن نصفهم على أقل تقدير قد أفلتوا من براثن الأمية.. فإن أوسع الكتب انتشارًا فى العالم العربى لا تطبع منه سوى عدة آلاف قليلة لا تتناسب مع عدد الملايين القارئة فى البلاد العربية، وإذا ما استثنينا الكتب الدراسية فإن توزيع الكتاب فى العالم العربى يعانى أزمة حقيقية على الرغم من كثرة عدد المعارض وأسواق الكتب.

واسمح لى أن أقول بعض الحقائق المفزعة.. هل تتصور مثلاً أن أخطر كتاب سياسى فى مصر لا يوزع سوى ١٠ آلاف نسخة فقط وديوان الشعر فى مصر الذى يحمل على غلافه أسماء كبيرة لو تم توزيع ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ نسخة تعد هذه معجزة!!!

ونصمت قليلاً ونقول: ما هذا؟! وما ذاك؟!

هل هذه هى الحقيقة فعلاً بكل ما تحمله من معان؟ وإذا كانت هذه بالفعل هى حقيقة توزيع الكتاب فى مصر فمن المسئول عن هذه الكارثة.. الكاتب أم القارئ أم الناشر؟!

من مِن هؤلاء على وجه التحديد؟ وإلى متَى سنصمت أمام هذه الحقائق المخجلة والمفزعة فى آن واحد؟! إلى متى سنقف مكتوفى الأيدى أمام تخلف مجتمع تخطى عدد سكانه الـ ٦٥ مليونا، ولم يتجاوز توزيع أشهر كتاب فيه حاجز الـ ١٠٠٠٠ نسخة فقط.

... فى الواقع أنا ألوم الجميع، وأتوجه بأسئلتى واندهاشى إليهم جميعًا كتابا وقراء وناشرين بصفتى شابا مصريا أولاً، وقارئا مهتما متألما ثانيًا.

فأزمة توزيع الكتاب فى العالم العربى وفى مصر على وجه التحديد - من وجهة نظرى - مسئولية الكاتب الذى لم يستطع أن يكتب موضوعًا حيويًا يجذب قارئه ويحس معه أنه يقرأ فصولاً مثيرة من قصة حياته - القارئ «التى هى قصة حياة الجميع» تحتاج إلى إعادة نظر، وإعادة تفكير ليصل إلى حل لمشكلته وقضيته ويستطيع بهذا الكتاب وذاك أن يتغلب على مشكلته سواء كانت اجتماعية أم اقتصادية أو سياسية أو حتى عاطفية ويصحح من رؤيته للحياة والبشر.

ومسئولية القارئ سواء كان أبا أو أمًا أو شابا، لأنه لم يدرك أن الحياة ليست طعاما أو شرابا أو تسلية تلفزيونية وسينمائية فقط، ولكن متابعة فكرية وثقافية أيضًا تخرجه يومًا بعد يوم من حيز التفكير الخاطئ والمعتقدات المغلوطة للحياة المتحضرة. وتضع له حلولاً كثيرة لمشاكل اقتصادية وأسرية وعاطفية وسياسية تقابله وتضغط عليه، ولا يجد من حل أو فرار، فالقراءة غذاء للروح والجسد والعقل وبها نستطيع أن ننجو من براثن الفقر ونحتل مع الأيام القادمة مكانًا متميزًا بين الأمم المتحضرة.

وللأسف الشديد، فإن آخر إحصاء صادر عن البنك الدولى صرح مباشرة بأن نحو أكثر من ٣٣٪ من سكان مصر يعيشون تحت خط الفقر ومستوى الدخل العام للفرد منخفض بصفة عامة، ولذا فقد غالى فى سعر كتابه إلى الحد الذى لم يعد معقولاً على الإطلاق، فرأينا فى السنوات الأخيرة أسعار الكثير من الكتب وقد تخطت حاجز الـ ٣٠ والأربعين والـ ٥٠ جنيهًا للكتاب الواحد، فهل هذا معقول؟ ولن نتكلم عن الموسوعات حتى لا تصد نفس الناس أكثر مما هى مصدودة بالفعل عن الكتاب ويكفى أن نقول إن ثمن موسوعة واحدة تخطى الـ ١٥٠٠ جنيه؟!

وإذا كنا نرى أن هناك العديد من الدوافع التى دفعت الناشر إلى رفع ثمن الكتاب مثل ارتفاع سعر الورق بشكل عام من ناحية، وأسعار آلات الطبع من ناحية أخرى، فيجب ألا يكون أيضًا إلى هذا الحد ولنتذكر تصريح د سمير سرحان عن توزيع كتب مكتبة الأسرة والتى يباع منها الكتاب بجنيهين وثلاثة الذى يقول فيه «الناشر دائمًا كسبان، ونحن نبيع بجنيه واحد ونكسب أيضًا». بالتأكيد هناك فروق واضحة بين جودة كتاب لـ مكتبة الأسرة وكتاب آخر لإحدى دور النشر الخاصة، ولكن لا يمنعنا هذا أيضًا من المطالبة ثانية بخفض ثمن الكتاب قليلاً مع الحفاظ فى نفس الوقت على نسبة الربح المواكبة لارتفاع ثمن الورق. أيضًا من بين أسباب أزمة الكتاب، مشكلة التوزيع وهنا تقع المسئولية بشكل مباشر على الناشر الذى لم يعلن عن كتابه بالشكل الأمثل فى كافة وسائل الإعلام واكتفى ببضعة مربعات إعلانية صغيرة فى أسفل صفحات جريدتى الأهرام، والأخبار.

** وإلى الأستاذ إبراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب، أتوجه برجاء خاص وأظنه جماهيريا أيضًا، بطلب «كتابة تقرير واف، وتحقيق كامل عن حقائق توزيع الكتاب فى مصر من الكتاب الصحفى، إلى الرواية والديوان والموسوعة، وكذلك طلب مقارنة بين توزيع كتب أساتذة الخمسينيات والستينيات وما قبلهم مثل توزيع كتب أ.محمد حسنين هيكل وروايات الأساتذة نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس ويوسف السباعى وغيرهم من العمالقة، وبين توزيعات كتب الكتاب والروائيين الحاليين، لتنتهى المبالغة من حياتنا ومن خلال تصريحات وحوارات الكثير من الكتاب أنفسهم، ونكف عن بيع الأوهام.

و نهاية.. نتوجه وللمرة الثانية إلى الأستاذ إبراهيم المعلم بطلب الكتابة والتوضيح، وكل التقدير للأستاذ قاسم عبده قاسم ومقالة «أزمة الإنسان والكتاب فى العالم العربى» الذى أثار القضية.

وكل الشكر والعرفان.. لمجلتنا المحترمة «الكتب.. وجهات نظر» ورئاسة تحريرها، لإتاحة الفرصة لنا - نحن الشباب - كى نعبر عن آلامنا وطموحاتنا بحرية.. وعلنية واضحة للجميع.

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية

اللوحات الاستشراقية

كعادتها طالعتنا مجلة «وجهات نظر» في عدد ديسمبر بالعديد من المقالات القيمة في مناح ثقافية وسياسية وفكرية شتى. وكعادتها، فقد زودت غالبية تلك المقالات برسومات معبرة وملاحة، تختزل منها نقاطًا مهمة أو تضخم فيها نقدًا، ما عدا مقال الأستاذ قاسم عبده قاسم عن الصور التاريخية المصرية لشهر رمضان الذي استخدم عددًا كبيرًا من اللوحات الاستشراقية مما يستوجب التعليق على أكثر من صعيد، فبالإضافة لعدم التوافق التاريخي بين تلك اللوحات التي تعود للقرن التاسع عشر ووصف القاهرة الفاطمية أو المملوكية التي يستخدمها الأستاذ قاسم، وعدم مواءمة مواضيع تلك اللوحات للصور الرمضانية (كحالة منظر الحريم)، فهناك - برأيي - مشكلة أعمق بحاجة ملحة لأن تطرح على بساط البحث النقدي في عالمنا العربي، حيث يحظى الفن الاستشراقي بإقبال منقطع النظير من قبل مقتني الفن الأثرياء في مزادات «كريستي» و«سوذبي» وغيرهما مما دفع بأسعاره إلى مستويات لا تبررها إطلاقًا قيمته الفنية أو التمثيلية.

فهذه اللوحات الاستشراقية، التي تدعي تمثيل مناظر حقيقية من الحياة اليومية للقاهريين في بيوتهم وأزقتهم وكتاتيبهم وجوامعهم وأسواقهم، على واقعيتها الظاهرية وعلى دغدغتها لإحساسنا بالتواصل التاريخي بيننا وبين ماض نحن إليه، لا تمثل بحقيقة الأمر «شرقنا» نحن. إنها حتى لا تمثل شرقًا حقيقيًا، بل تخلق عبر أساليب الصنعة صورًا «واقعية» للشرق المتخيل، ثم تثبت هذه «الحقيقة الواقعية» من خلال إنتاجها فنيًا على سطح اللوحة نفسها، وهي بواقع الأمر تعطينا صورًا مصنوعة، ومركبة، ومسيسة، ومبنية على تراث الاستشراق الطويل والمفعم بالتناقضات في بلادنا. والاستشراق كما بين إدوارد سعيد في كتابه الرائد، «نظام منهجي تمكنت الحضارة الأوروبية عبره من دراسة وتصنيف وحتى إنتاج الشرق سياسيًا واجتماعيًا وعقائديًا وعلميًا وحتى خياليًا في فترة ما بعد عصر التنوير».

والحال أنه لا يمكننا فهم الاستشراق - والفن الاستشراقي بمدارسه المختلفة من رومانتيكية وغرائبية وواقعية كجزء من الاستشراق - بمعزل عن المشروع الأوروبي الأكبر والأهم، أي الاستعمار، الذي تبنى الاستشراق ووجه خطاه واستفاد منه في توسعه وسيطرته على الشعوب الشرقية وغيرها. وقد ساير معظم الفن الاستشراقي المشروع الاستعماري في خطواته مصورًا ومبررًا ومؤججًا، ونادرًا ما كان ناقدًا أو مصححًا. والنتيجة أن الشرق نفسه قد اختفى تحت غلالة تمثيل تأويلي ذي امتدادات ثقافية بغيضة من تركيز على غرائبية الآخر الشرقي، إلى الجهل والخوف من الجار المسلم، والتمييز العنصري ضد الشعوب داكنة البشرة، والشعور المفعم بالانتصار وبحق السيادة على الحضارات الأخرى، بالإضافة إلى المبررات الأخرى الأقل إشكالية مثل حب الاستطلاع والاستكشاف والمغامرة ورومانتيكية الروايات الشرقية المشهورة والحنين إلى ماض بسيط وأخلاقي والتخوف من الحداثة ومستحقاتها في أوروبا نفسها.

وقد خطت الدراسات النقدية في أوروبا والولايات المتحدة في العقدين المنصرمين خطوات مهمة في تحليل وتفكيك خطاب الاستشراق وتبيان خلفياته السياسية والثقافية المتعالية والمتراكمة. وعليه لا يمكننا اليوم استخدام اللوحات الاستشراقية بالبراءة التي استخدمتها بها مجلة وجهات نظر أو اقتناؤها - كما يفعل العديد من أثرياء العرب - على أنها صور فنية عابقة بتراثنا، من دون أن نعي دورها التاريخي الأساسي في خدمة المشروع الاستشراقي والاستعماري وفي تبريرهما وفي تمثيل نظرتهما للشرق الذي كان، وربما لم يزل، آخر مختلفًا ومرفوضًا، وموضوعًا للبحث والدراسة والتمثيل، ولقمة سائغة للاستغلال.

ناصر الرباط
أستاذ الآغا خان للعمارة الإسلامية
معهد ماساشوستس للتكنولوجيا

تنويه

أنا قارئ دائم لأعداد الظاهرة الثقافية «وجهات نظر»، وأرجو أن تستمر هذه المجلة الغراء على نفس المستوى الرفيع من حيث المادة المقدمة ومن حيث الكتاب العمالقة الذين يثرون الحياة الثقافية في مصرنا الحبيبة.

وقد لاحظت في العدد الأخير (يناير ٢٠٠١) ملاحظتين أرجو أن يتسع صدركم ووقتكم لقراءتهما:

أولاً: ذكر الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل في صفحة ٥ من العدد المشار إليه أن سليم الثاني قد غزا مصر عبر الشام والثابت أن المقصود هو سليم الأول والذي حكم الدولة العثمانية خلال الفترة من ١٥١٢ حتى ١٥٢٠، وليس سليم الثاني والذي جلس على سدة الحكم خلال المدة من ١٥٦٦ حتى ١٥٧٤.

ثانيًا: الصورة المنشورة في صفحة ٣٣ ذكر أعلاها (من الشمال أحمد ماهر باشا..... ١٩٤٧) والثابت أيضًا أن أحمد باشا ماهر قد جرى اغتياله سنة ١٩٤٥ لذا لزم التنويه.

وأخيرًا وليس آخرًا أرجو إبلاغ تقديري لكل من ساهم في إعداد هذه الظاهرة الثقافية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

د. أحمد التونسي

كتاب الزاوية

رسالة الغفران

٢- حديثه مع آدم

فإذا رأى قلة الفوائد لديهم، تركهم في الشقاء السرمد، وعمد لمحله في الجنان، فيلقى آدم - عليه السلام - في الطريق، فيقول: «يا أبانا - صلى الله عليك، قد روى لنا عنك شعر منه قولك:

«نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا، وإليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالي السعود»

فيقول: «إن هذا القول حق، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولكني لا أسمع به حتى الساعة». فيقول: «فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت؟ فقد علمت أن النسيان متسرع إليك، وحسبك شهيدًا على ذلك، الآية المتلوة في قرآن محمد - صلى الله عليه وسلم -: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانًا لنسيانك واحتج (أتي بالحجة) على ذلك بقولهم في التصغير «أنيسان»، وفي الجمع ناس. «وقد روى أن الإنسان من النسيان عن ابن عباس»، وقال الطائي:

لا تنسين تلك العهود، وإنما سميت إنسانًا لأنك ناسي

فيقول آدم - صلى الله عليه وسلم - «أبيتم إلا عقوقًا وأذية؟ إنما كنت أتكلم العربية، وأنا في الجنة، فلما هبطت الأرض نقل لساني إلى السيريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلما ردني الله - سبحانه وتعالى - إلى الجنة عادت على العربية، فأي حين نظمت هذا الشعر، في العاجلة أم الآجلة، والذي قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو في الدار الماكرة، ألا ترى قوله «منها خلقنا وإليها نعود؟» فكيف أقول هذا المقال ولساني سرياني؟

عــروض موجــزة

كتب عربية

الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد

رمسيس عوض
القاهرة: دار الهلال ٢٠٠٠، ٢٢٠ صفحة
٥ جنيهات



يعرض هذا الكتاب باستفاضة لثلاثة كتب حديثة، تدور جميعها حول المعرفة النازية «الهولوكوست» وهى الحدث الذى تمكن اليهود من استثماره دعائيًا وماديًا، وحصدوا بموجبه مئات المليارات من الدولارات، بزعم تكفير «العالم» عن جريمته فى حق اليهود، فالألمان دفعوا ومازالوا يدفعون. وكذلك عديد من دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، أما التعويض الفادح الذى تلقوه، فهو توطينهم فى أرض عربية بالقوة، ودعمهم ماديًا ومعنويًا كى يظلوا فيها بصرف النظر عن أية اعتبارات جغرافية أو إنسانية أو تاريخية.

والكتب الثلاثة تتباين فى موقفها من «الهولوكوست»، فالكتاب الأول وهو من تأليف الكاتب اليهودى نورمان فلنكشتين «صناعة الهولوكوست» لا ينكره، وكذلك يفعل كتاب اليهودية ديبوراه ليبستادت «إنكار الهولوكوست»، أما الكتاب الثالث فيتعرض للحكم الذى صدر ضد الكاتب والمؤرخ البريطانى «دافيد إرفنج»، وهومن أبرز المنكرين للهولوكوست.

لقد حوّل اليهود ـ كما يتضح من الكتب الثلاثة ـ الهولوكوست إلى تجارة، أو نموذج تحيزى للابتزاز، فسويسرا مثلاً التى لا علاقة لها بما جرى لليهود على أيدى النازى، اضطرت إلى الاعتذار رسميًا لليهود بواسطة رئيسها عام ١٩٩٥، أى بعد نصف قرن من نهاية الحرب العالمية الثانية، لأنها لم تفتح أبوابها لليهود الفارين من الاضطهاد النازى، وحين فعلت ذلك، تمادت المنظمات اليهودية وطالبت سويسرا بتسديد مئات الملايين من الدولارات، زعمت أن اليهود كانوا يحتفظون بها فى البنوك السويسرية فى صورة ودائع نقدية وذهبية، وتم تشكيل لجنة لبحث مظالم اليهود، لكن التشهير اليهودى بسويسرا وبنوكها لم يتوقف بزعم احتياج ضحايا الهولوكوست إلى تعويضات عاجلة، وتحت هذا الضغط المكثف والمنظم، اضطرت البنوك السويسرية فى فبراير ١٩٩٧ إلى تخصيص مبلغ ٢٠٠ مليار دولار لتعويض الضحايا بشكل عاجل، ومع ذلك لم تسلم بنوك سويسرا من الضغط اليهودى، الذى أجبر عشرات المؤسسات والبنوك فى أمريكا والغرب، على سحب ودائعها من البنوك السويسرية.

وما جرى فى سويسرا، جرى فى دول أوروبا جميعها وأمريكا، ومازال، وربما أراد اليهود بما فعلوه مؤخرًا مع المؤرخ البريطانى «إرفنج» ومن قبله المفكر الفرنسى «روجيه جارودى» أن يؤكدوا لكل من تسول له نفسه تكذيب الهولوكوست أو حتى التقليل من شأن ما جرى فيه، أنه سيلقى مصير الاثنين باعتبارهما «من أنصار هتلر الذين يضعون على عيونهم العصابات ولا يرون الحقائق». لقد تجرأ «إرفنج» وزعم أن هتلر عامل اليهود بشكل إنسانى، وأنه أصدر أوامره بوقف الهجوم عليهم أو نهب ممتلكاتهم، وتجرأ جارودى وقال أن ما لاقاه اليهود على يد النازى لاقى مثله وأكثر منه البولنديون والفرنسيون والتشيك وغيرهم، فحوكم الاثنان بمقتضى قوانين أوروبية تحرّم التشكيك فى المحرقة أو حتى تنقض وقائعها، وتعرضوا للتشهير و«السحل» المعنوى، كى يظلوا دائمًا عبرة للآخرين، اليوم، وفى المستقبل.

□ □ □

الوفاء والغدر عند النساء والرجال

خازن عبود
بيروت: دار الكتب الحديثة ٢٠٠٠، ١٤٢ صفحة



قيل «أوفى من فكيهة»، وفكيهة هى امرأة من بنى قيس بن ثعلبة كان وفاؤها مضرب المثل، وقيل أيضًا أوفى من أم جميل، وأم جميل هى من رهط أبى هريرة من دوس، وقيل أوفى من السموءل بن عادياء، وكان من وفائه أن الشاعر امرء القيس بن حجر، لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموءل دروعًا، فلما مات امرؤ القيس، غزا ملك من ملوك الروم الشام، وأخذ الملك ابنًا للسموءل وصاح به: هذا ابنك فى يدى وقد علمت أن امرء القيس أودع لديك الدروع، فإن أعطيتنيها عفوت عن ابنك وإلا ذبحته، فأجابه: أجلنى، فأجّله، وجمع السموءل أهل بيته وشاورهم، فأشاروا عليه بدفع الدروع لإنقاذ ابنه، فلما أصبح، قال لملك الروم: ليس إلى دفع الدروع سبيل أيها الملك فاصنع ما أنت صانع، فذبح الملك ابن السموءل، وأعاد السموءل الدروع إلى ورثة امرىء القيس، وقال فى ذلك:

وفيت بأدرع الكندى إنى
إذا ما خان أقوام وفيت

ومن أشهر الشعراء فى الوفاء عنترة العبسى، الذى كان من أشهر فرسان العرب فى الجاهلية، وقد عرف عنه حبه الشديد لابنة عمه عبلة، لكن سيرته وبطولته، جعلت كثيرات من النساء يهمن به، وقد التقته امرأة من بنى كندة، وعرضت عليه أن يتزوجها وأن يقيم فى ديارها سيدًا فى قومها، فأجابها عنترة:

إن حُب عبلة ملك قلبى وشغافه

وأنشد فى ذلك شعرًا يقول فيه:

لو كان قلبى معى ما اخترت غيرَكُمُ
ولا رضيت سواكُم فى الهوى بدلا
لكنه راغب فى من يعذبُه
فليس يقبل لا لومًا ولا عزلا

وعن حبه لعبلة فى معلقته الشهيرة:

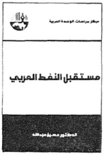
ولقد ذكرتُك والرماح نواهلٌ
مَنى وبيض الهند تقطرُ من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

عشرات من قصص الوفاء والغدر ونوادرها فى التراث العربى يحتشد بها هذا المؤلف، الذى جمع صورًا منها عند الرجال والنساء.

□ □ □

مستقبل النفط العربى

حسين عبدالله
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يستهل الباحث كتابه بشرح مفصل لتطور أسعار النفط وتوزيع الريع النفطى معبرًا عنه بصافى ما يتحقق من البيع فى أسواقه النهائية بعد استقطاع كافة التكاليف. ويوضح فى الفصل الأول كيف أن توزيع هذا الريع بين الدول المصدرة للنفط وبين الدول المستوردة له كان ولايزال ينطوى على غبن بيّن للحقوق المشروعة للدول المصدرة. كذلك يوضح كيف نجحت السياسات التى استخدمتها الدول الصناعية الغربية، بمساندة شركاتها البترولية العملاقة، فى استعادة ما حققته الدول المصدرة للنفط، بفضل حرب أكتوبر، من مكاسب ومن حرية فى إدارة صناعتها الأساسية.

ويشرح الفصل الثانى الاعتماد العالمى المتزايد على النفط العربى، موضحًا اتجاه الطلب العالمى على النفط إلى الارتفاع المطرد حتى عام ٢٠٢٠ وهو الإطار الزمنى للمستقبل المنظور، ومبينًا اتجاه العرض العالمى للنفط إلى التركز فى أيدى عدد محدود من الدول المصدرة وهى المجموعة العربية فى الخليج مضافًا إليها إيران وفنزويلا، ومن ثم سيكون من السهل تنسيق سياسة الإنتاج والتصدير بما يحافظ على استقرار السوق العالمية للبترول وعلى القيمة الحقيقية للعوائد النفطية.

أما الفصل الثالث فيشرح الجوانب الدقيقة للطاقة النووية باعتبارها منافسًا للنفط، ويوضح تفوق النفط عليها اقتصاديًا وأيضًا من حيث عظم مخاطرها. ويتناول الفصل الرابع الغاز الطبيعى باعتباره وقود الغد، ويشرح تجارب الدول المستهلكة للغاز والآفاق المتوقعة لتجارته العالمية والدور الذى يمكن أن تلعبه الدول العربية فى أسواقه العالمية.

وفى الفصل الخامس يتابع الباحث الحوار الدائر بين منتجى النفط ومستهلكيه، موضحًا قصور الحوار وإغفاله أهم المشاكل التى ينبغى أن يتناولها الحوار وهو سعر النفط وتوزيع الريع النفطى. وفى ختام القسم الأول يعرض الفصل السادس توقعات أسعار النفط خلال المستقبل المنظور ويفند حجج الذين يساندون استمرار تدنى الأسعار. كذلك يوضح الباحث أن تلك الأسعار لم تتجاوز خلال عقد التسعينيات ٤ دولارات للبرميل بدولارات عام ١٩٧٣ وأن السعر العادل لا يجب أن يقل عن ٣٢ دولارًا، ويشرح مبرراته، متوقعًا ارتفاع السعر بمعدل ٥٪ سنويًا على الأقل خلال المستقبل المنظور حفاظًا على قيمته الحقيقية.

وفى القسم الثانى من الكتاب يشرح الباحث فى الفصل السابع المبادىء الأساسية لاتفاقيات جات بعد جولة أوروجواى، لكى يتحول فى الفصل الثامن إلى مناقشة القيود التى تفرضها تلك الأحكام على تصدير النفط واتهام جات لمنظمة أوبك بأنها تكتل احتكارى يستهدف رفع أسعار النفط فوق معدلها الطبيعى بالمخالفة لأحكام جات. ويشرح الفصل التاسع العوائق التى تعرقل تدفق النفط ومنتجاته إلى أسواق الدول الصناعية ممثلة فى الضرائب التى تفرضها تلك الدول على استهلاكه فى أسواقها المحلية.

أما الفصلان العاشر والحادى عشر فيعرضان للآثار المنعكسة على صناعة النفط نتيجة لعدد من الاتفاقيات الفرعية والمستحدثة فى إطار جات، ومن أمثلتها الاتفاقية العامة للتجارة فى الخدمات، والتدابير التعويضية للدعم أو الإعانة، ومكافحة الإغراق، والعوائق الفنية للتجارة، والاتحادات الجمركية ومناطق التجارة الحرة، وتدابير الاستثمار المرتبطة بالتجارة.

وأما القسم الثالث من الكتاب فيتناول

عـــــروض موجـــــزة

آثار البيئة على صادرات وعوائد النفط بدءًا بشرح ارتباط الطاقة بالمبتعثات الكربونية، والجهود الدولية التي تبذل لتخفيف الآثار الضارة لتلك المبتعثات.

□ □ □

يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠

عرفة عبده على

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ٥٢٠ صفحة، ٥٧٥ قرشًا



لم تعرف الجماعات اليهودية التي عاشت في محيط ثقافي عربي إسلامي ظاهرة الجيتو التي عرفتها في أوروبا قسرًا».

كان يهود الحضارة الإسلامية مندمجين في هذه الحضارة لغويًا وفكريًا وسياسيًا واجتماعيًا. وبرغم المبالغات التي يسبغها اليهود على ما تعرضوا له في ألمانيا النازية، واستثمارهم الدعائي للمحرقة «الهولوكوست»، فإن ذلك يثبت من ناحية ثانية، أن اليهود عاشوا في أمان في إطار المحيط العربي الإسلامي.

يركز الكتاب أساسًا على يهود مصر، الذين تعود علاقتهم بها إلى أزمنة نزول أولاد يعقوب فيها، وبقاء بعضهم في منطقة الفيوم عقب خروج «موسى» منها.

وقد أثبت المؤرخون - كما يشير المؤلف - أن طائفة يهودية وجدت في مصر في القرن السادس قبل الميلاد، وقد استقر بعضهم في مدن الدلتا، واستقر بعض آخر في جزيرة «إليفانتين» في مصر العليا، وبعد فتح الاسكندر الأكبر لفلسطين عام ٣٢٢ق.م جاءت جماعة أخرى، وشجع بطليموس الأول اليهود على الاستقرار بالإسكندرية، وبعد سقوط القدس في يد «تيتوس» عام ٦٦م، أرسل آلافًا من الأسرى اليهود إلى مصر، وتعرضوا لتقلبات عديدة، حتى كان الفتح العربي لمصر، فتحسنت أوضاعهم، وازدهرت أحوال الطوائف عمومًا وفقًا للتعاليم الإسلامية التي أوصت المسلمين خيرًا بأهل الكتاب، وانتقل كثير من اليهود إلى الفسطاط التي صارت عاصمة لمصر، وصارت أيضًا مركزًا روحيًا كبيرًا لهم.

لم يعش يهود مصر داخل جيتو، ولم يعتبرهم المجتمع جالية أجنبية، واعتنق كثير من المصريين الديانة اليهودية، وفي عصر الدولة الفاطمية والأيوبية وعصر سلاطين المماليك، عاش يهود مصر ازدهارًا اقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا مماثلاً لما شهدته الطوائف اليهودية حتى الأندلس والمغرب العربي، تحت ظلال الحكم الإسلامي.

وحين فتح العثمانيون مصر عام ١٥١٧، حافظ النظام الملي على حقوق والتزامات اليهود، وتحقق لهم نوع من الاستقلال الديني والإداري، واستفادوا من تشجيع محمد علي وأسرته للجاليات الأجنبية، فأثروا كثيرًا من أعمال التجارة والمال والسمسرة، وتولى كثير منهم وظائف عليا في الدولة، وشيدوا لهم مدارس ومعابد ومستشفيات، وأصدروا صحفًا ومجلات، لقد كان النصف الأول من هذا القرن - كما يؤكد المؤلف - عصرًا ذهبيًا لليهود، بعكس ادعاءات مؤرخيهم المعاصرين، التي يدحضها المؤلف في هذا الكتاب الضخم الذي يتتبع حياتهم في مصر منذ عصر الفراعنة وحتى اليوم.

□ □ □

ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٠، ١٠٠ صفحة



يعرض الكتاب للمسألة الثقافية من وجهة نظر إسلامية، وهذه المسألة كانت دائمًا محور جدل ومحل نقاش بين الجماعة الثقافية منذ بدايات النهضة وحتى اليوم، وفي إطار بحث المسألة تشعبت التساؤلات عن معنى الثقافة لدينا، وما هي الثقافة المعبرة عنا حقًا، أهي عربية إسلامية أم إحداهما، وما هي حدود الأخذ والرد من الثقافات الأخرى، وكيف لنا أن نأخذ وندع، دون أن يؤثر ذلك على هويتنا الثقافية والحضارية من ناحية، ودون أن يعزلنا عن العالم من ناحية ثانية.

يحدد المؤلف عددًا من الخصائص لثقافتنا التي يرى أنها عربية إسلامية، فهذه

صناعة الخبر في كواليس الصحف الأمريكية

جون ماكسويل هاملتون و جورج أ. كريمسكى

ترجمة: أحمد محمود

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٠٦ صفحة



لم تكن الصحافة يومًا، ولا يجب أن تكون فرعًا في جمعية ماسونية تحيط نفسها بالسرية والغموض لأن ذلك مناف لطبيعتها علي طول الخط. وإذا كانت الصحافة، بشكل عام، لا تمل من مطالبة الحكومات والمؤسسات بالشفافية والوضوح فإنها مطالبة هي الأخرى بذلك أمام القارئ.

وفي عالم تطورت فيه وسائل الاتصال بشكل مذهل فإن المسافات الشاسعة التي كانت تفصل بين الصحافة وقارئها يجب أن تتلاشى حتى يحرص هذا القارئ علي صحيفته مهما كانت الإغراءات الأخرى، وحتى يمكن للصحافة التي تقدم على ورق أن تعيش في عصر أصبحت فيه حياتها موضوع تساؤل حتى لا نقول شك.

وفي هذا الكتاب الذي ترجمه إلى العربية الزميل أحمد محمود، يقدم المؤلفان، وهما صحفيان أمريكيان جمعا بين العمل الميداني والأكاديمي، منظورًا ثريًا زاخرًا بحقائق التحليل والتأويل والفهم لما يجري وفي كواليس الصحف الأمريكية، كبرياتها وصغرياتها، ويعتقد المؤلفان أن هناك حاجة حقيقية لأن يعرف القراء قواعد اللعبة الصحفية، أي معايير الصحافة وأسلوبها وبنيتها، وكذلك كيفية كتابة الأخبار والسبب في كتابتها.

ومن خلال ثمانية فصول ممتعة يجوب الكتاب عالم الصحافة مبادئ وصناعة وعلاقة بمن هم خارجها دون أن يفتقد القارئ عناصر المتعة والإثارة والإبهار التي تلازمه من بداية الكتاب حتى آخره، وبذلك يقدم المؤلفان دليلاً عمليًا علي أن الكتابة يمكن أن تكون جادة وثرية بالحقائق والمعلومات دون أن تفقد المتعة التي بدونها لن تجد القارئ عند منتصف الطريق أو حتى قبل ذلك.

إذا قالت أمك إنها تحبك، عليك بالتأكد من صحة قولها.. تلك مقولة صحفية أمريكية ربما لا تنم عن الاحترام، لكنها تؤكد ضرورة تعامل الصحفيين مع الحقائق وليس المشاعر، فلا يجب علي الصحفي أن يصدق كل شيء، بل عليه أن يبحث عن الحقائق، وعليه أن يكون مستقلاً عن أي مؤسسة أو أي قضية، فالصحفي بشكل عام ليس مجاهدًا، وباستثناء الصحافة التي نذرت نفسها للدفاع عن قضية معينة والترويج لها، فإن المطلوب من الصحفي أن يعرض كل الحقائق دون أن يخفي شيئًا.

ومن المبادئ إلي البيزنس.. فالصحافة عمل تجاري ربحيته عالية، لكن ذلك لا يعني أن عيون المحررين والمخبرين الصحفيين تكون علي المكسب والخسارة، بل يشير الكتاب إلى أن الصحفي عليه أن يدرك أنه يعمل في بيئة تنافسية لا مكان فيها سوى لأصحاب الامكانات المالية الضخمة والذين يحاولون باستمرار زيادة نسبة التوزيع والإعلانات. وقد هبط عدد الصحف اليومية الأمريكية هبوطًا مطردًا، ففي عام ١٩٩٥ كان هناك صحيفة يومية في حين كان عددها ١٧٧٢ في عام ١٩٥٠، وفي وسط هذا الجو شاعت عبارة.. أعرف أن الصحفي يكتب تلك القصة الخبرية لكي يبيع صحيفته.. ورغم أن ما سبق ليس حقيقة مسلم بها لأن الصحفي لا يفكر في بيع الصحيفة وهو جالس علي مكتبه يكتب قصته، لكن الصحف في أحيان كثيرة تقوم بتشكيل مضمون الأخبار لترضى المعلنين، وحرصًا منها عليهم فإنها قد لا تنشر مثلاً خبرًا عن سقوط إحدى الطائرات في صفحة بها إعلان لشركة خطوط جوية.

وإضافة إلي الحديث بشكل شبه تفصيلي عن كتابة القصص الخبرية وكيفية نشرها ولماذا يأخذ خبر ما طريقه لأعلى الصفحة الأولى بينما يتم إرسال خبر آخر إلى «ظلمات» صفحة داخلية، يتحدث الكتاب عن الصحفي في موقع الحدث وكيف يأخذ زاوية ما ويترك الأخرى، ثم يعرج علي أولويات الصحف الأمريكية في الاهتمام بالأخبار، وبالطبع تفوز الأخبار المحلية علي حساب الخارجية. ثم إن هناك أخبار كثيرة جديرة بالاهتمام، ولكن حينما لا يوجد صحفيون لن تكون هناك أخبار من الحكمة القديمة تقول.. هل تحدث الشجرة ضجة عند سقوطها ما لم يسمعها أحد!

لا يكتفي المؤلفان بذلك، بل يتحدثان عن الصحفيين انفسهم وانتماءاتهم الاجتماعية ولماذا هم مصلحون وليسوا ثوارًا.. إنهم حسب سياسي أمريكي ملوك السلبية الثرثارون، كما يتناولان علاقة الجمهور بالصحافة سواء كان هذا الجمهور موضوعًا للقصة الخبرية أو مرسلاً لرسالة يبدي فيه رأيه في قضية ما. ويثير الكتاب قضايا كثيرة تستحق النقاش والدراسة في الصحافة العربية، وهو مفيد للقارئ العادي ولطلاب الصحافة وقبل كل ذلك للصحفيين انفسهم الذين هم في حاجة للتعرف علي تجارب أخرى متقدمة أكثر خبرة.

عبد الله عبد السلام

عروض موجزة

الثقافة ربانية، امتزجت بها فكرة الإيمان والتوحد، وهي أخلاقية، وهذه سمة لازمتها منذ الجاهلية وجاء الإسلام لتعميقها، حين لم يعترف بأن الغاية تبرر الوسيلة، بل دعا إلى الوسائل الشريفة.. فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

وهي إنسانية تحترم الإنسان وترعى فطرته.. «ولقد كرمنا بني آدم»، وهي عالمية غير متعصبة أو منغلقة على نفسها.. «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، وهي بهذا المعنى متسامحة ومتنوعة، وفيها كما يقول المؤلف سلفية ابن تيمية وصوفية ابن عربي وظاهرية ابن حزم ومقاصدية الشاطبي وعقلانية الفلاسفة والتزام الفقهاء واجتهاد المجددين وتزمت المقلدين.

وهي ثقافة ترحب بالحوار.. «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن»، كما أنها تؤمن بالتجديد، سواء كان هذا التجديد في الدين أو في الحياة، يقول الرسول الكريم: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، وهو تجديد يبقى على الجوهر ويجتهد من داخل مقاصد الشريعة وروحها. ويميز المؤلف في قضية الحوار والتنوير، بين ثلاثة مفاهيم: التفاعل الثقافي والنقل الثقافي والغزو الثقافي. والأول لابد أن يكون متكافئًا، أما الثاني فتلقين دون اختيار أو تفكير، وأما الثالث فهدفه سياسي يتخفى في ثياب ثقافية مبهرة، وعليه يرى المؤلف أن التفاعل بين الثقافات هو أرقى درجات الحوار بين الحضارات الإنسانية، وهو ما حرصت عليه دومًا الثقافة والحضارات الإسلامية، التي شهدت جدلاً فكريًا بين اثنين من أقطابها، الإمام أبوحامد الغزالي، وابن رشد، الأول كان فقيهًا ورفض كثيرًا مما قال به المتفلسفون، والثاني انتصر للفلاسفة وخصوصًا أرسطو، وقد أفاد تراث الإسلام من الاثنين على اختلافهما، فثقافة الإسلام وحضارته قبلت دومًا التنوع في إطار الوحدة كما عبر أحد الفقهاء.

□ □ □

المتخيل والسلطة

علال سنقوقة

الجزائر: منشورات الاختلاف ٢٠٠٠، ٢٩١ صفحة، ٢٠٠ دينار



يلاحظ المؤلف أن الإلغاء والعنف المعنوي والمادي والتشويه المتعمد لمرجعية الآخر، قد سيطر على النصوص الروائية الجزائرية، خصوصًا تلك ذات المنزع الثوري التي بسطت قضية الثورة أيديولوجيًا وجماليًا، مما أدى إلى سيادة الطابع المعرفي التبسيطي للايديولوجيات على النصوص.

ويرى أن الخطاب الأيديولوجي السياسي كان أكثر بروزًا من الروايات الواقعية النقدية والاشتراكية، حتى أنه طغى على البناء الفني. ويشير في هذا الإطار إلى روايات مرزاق بقطاش «البزاة» و«طيور في الظهيرة»، وكذلك إلى رواية الطاهر وطار «اللاز» التي اعتبرها دليلاً على هيمنة الأيديولوجيات (الماركسية في هذه الحالة) على المتن الروائي.

وهكذا، عبر هذه النماذج وغيرها، يرى المؤلف أن النص تحول إلى مجرد وعاء يستوعب الأفكار السياسية التي تتزامن مع فعل الكتابة، لكنها أبعد من أن تستوعب رؤية فنية جديدة تخرجها من اللغة الروائية البسيطة.

وفيما بعد.. أي انقضاء مرحلة الثورية، خفت الخطاب الأيديولوجي السياسي إلى حد ما أو تنوع فلم يبق واحدًا، حضرت مرجعيات سياسية مختلفة، وبعد أن كانت الرؤية الماركسية والوطنية المحافظة هي المهيمنة على النصوص الروائية، ظهرت في الثمانينيات والتسعينيات، روايات تدعو إلى قيم الحرية والديمقراطية والحداثة، لكنها بقيت تمارس العنف والإلغاء، فضلاً عن أنها فنيًا ضعيفة وسطحية كباقياتها.

ويشير المؤلف إلى رواية أحلام مستغانمي «ذاكرة الجسد» التي يرى أنها بلغتها الشاعرية وأفكار شخوصها وقدراتها التعبيرية وأفقها المفتوح، انفلتت من أسر الخطابة والتقريرية والسطحية التي ميزت كتابات أدباء الثورة الجزائريين، وحين يعرض لرواية «الشمعة والدهاليز» للطاهر وطار، يراها لم تبعد كثيرًا عما كانت عليه «اللاز» برغم الفارق الزمني بين الروايتين. وإن كان في الأخيرة، يتضامن مع «عمار بن ياسر» زعيم التيار السلفي الذي يسعى لإقامة النظام الإسلامي في المجتمع، بعكس توجهاته الماركسية الرافضة للتيار السلفي في «اللاز».

يعرض المؤلف بالنقد والتحليل لأعمال أدباء آخرين مثل رواية «فاجعة الليلة السابعة بعد الألف» لواسيني الأعرج، بوصفها توظف التراث وتناقش إشكاليات السلطة العربية الإسلامية والأصالة والمعاصرة والأنا والآخر، والمقدس والحرية، وقد حاولت بذلك أن تكون تعبيرًا عن أزمة الإنسان العربي وأن تطرح بعض تساؤلاته بفنية بعيدة عن التقريرية المباشرة.

وإلى جانب ما تثيره دراسة المؤلف لهذه الأعمال من قضايا فنية، فقد سعى إلى اكتشاف التمايزات بين الواقعي والمتخيل في بعضها، خصوصًا أن عددًا من تلك الروايات أشار إلى شخوص بعينها وأحيانًا بأسمائها الحقيقية، وربما هذا هو سر تسمية الكتاب بـ«المتخيل والسلطة».

□ □ □

كتب أجنبية

The Open Door

(الباب المفتوح)

Latifa Al-Zayyat

Translated by Marilyn Booth

The American University in Cairo Press, 2000, £22.50. L.E 70.00



لم تكن الراحلة الدكتورة لطيفة الزيات مجرد أستاذة للأدب الإنجليزي بالجامعة، بل كانت مناضلة سياسية ومناصرة لحقوق المرأة، وأديبة، وقبل كل شيء رائدة تحلق حولها كثيرات وكثيرون وقدمت لهم نموذجًا لسيدة تجاوزت اهتماماتها حياتها الشخصية لتشمل الوطن وأبناءه.

ككل الشخصيات الموسوعية، كتبت لطيفة الزيات (١٩٢٣-١٩٩٦م) القصة، ومن أهم أعمالها «الباب المفتوح» الذى صدر للمرة الأولى باللغة العربية عام ١٩٦٠، واعتبر النقاد هذا العمل رائدًا آنذاك، فقد تناول فتاة من الطبقة الوسطى وتطرق إلى حياتها السياسية والجنسية في إطار الحركة الوطنية التي سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢، وتتعقب القصة الضغوط التي تعرضت لها الفتاة، والتي يكاد يجمع كثير من النقاد علي أنها الكاتبة نفسها، في ذلك الوقت وكذلك أقرانها في تلك الفئة العمرية من الذكور والإناث نتيجة لمحاولة التخلص من سيطرة الأسرة وقيود المجتمع.

وتدور القصة حول الفتاة ليلى التي تشارك مع شقيقها في الأنشطة الطلابية السياسية في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات والمقاومة الشعبية لاستمرار الاحتلال البريطاني لمصر. وتصل أحداث الرواية إلي الذروة عندما يعلن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ تأميم قناة السويس، الأمر الذى نتج عنه العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي علي مصر.

إن لطيفة الزيات في هذه القصة لم تكن جريئة فقط في تناول قضيتها، بل أيضًا في أسلوبها، فقد استخدمت اللغة العامية في الحوار. وقد أشاد كثير من الأدباء والنقاد، وعلي رأسهم نجيب محفوظ بالمؤلفة، وبالعمل الذى يعد من عيون القصة العربية في عصرنا الحالي.

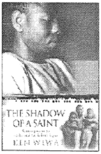
□ □ □

In The Shadow of A Saint: A Son's Journey to Understand his Father's Legacy

(في ظل قديس.. رحلة ابن لفهم تراث والده)

Ken Wiwa

Doubleday, 2000, 216PP., £16.99



في عام ١٩٩٥، جرى تنفيذ حكم الإعدام في كين سارو ويوا نشيط حقوق الإنسان ورجل البيئة والمدافع عن الأقليات في نيجيريا.. كانت التهمة إن سارو ويوا قتل ٤ من زعماء قبيلة «أوجوني» ومن بينهم شقيق زوجته، لكن الحقيقة أنه لم يكن له يد في هذا القتل، وأن حاكم نيجيريا العسكرى آنذاك ساني أباتشا كان راغبًا في إنهاء حياة سارو ويوا لأسباب عديدة بينها دفاعه عن حقوق قبيلة «أوجوني» ووقوفه كرجل مدافع عن البيئة ضد ما تقوم به شركة شل العالمية العملاقة من أعمال تشوه البيئة من أجل استكشاف البترول وإنتاجه. ولهذا كله كان المطلوب هو اسكات سارو ويوا.

ومؤلف هذا الكتاب هو ابن سارو ويوا الذى كان قبل سنوات غير مهتم بالمرة بنشاط والده حتى أنه يذكر تلقيه في خريف ١٩٩٤، رسالة من والده السجين آنذاك يقول له.. عزيزى الابن لم أسمع منك كلمة منذ شهور. والدك كين. وكان الابن آنذاك في لندن يحاول أن يتجاهل محنة والده التي تكاد تسيطر علي حياته هو، بل وتحدد مصيره. وهو أى الابن كان يرغب في أن يحدد مصيره بنفسه، لكن شبح والده ظل يتعقبه.

وعندما تم توجيه الاتهام عام ١٩٩٤ إلي الوالد، ترك الابن -٢٦ عامًا- وظيفته وكرس حياته لإنقاذ والده ومارس ضغوطًا علي السياسيين ورؤساء الدول للتدخل وكتب مقالات وأجرى مقابلات في سبيل ذلك، لكن الجنرال اباتشي لم يحرك ساكنًا. وجرى تنفيذ الإعدام بعد ذلك بعام. وفي هذا الكتاب يحاول الابن تناول حياته مع والده من خلال تتبع نشاط الأب منذ بدايات استقلال البلاد عن بريطانيا في الستينيات ودور الحكم العسكرى في إحباط مسيرة البلاد مرات عديدة، والكتاب أيضًا يبدو كما لو كان أغنية مهداة إلي شعب أوجوني إطراء لكفاحهم، وهو يحكى قصته مع المعاناة في نيجيريا.

□ □ □

عروض موجزة

A child's Year of Stories and Poems

(عام قصص وقصائد الطفل)

Edited by John a Gard

Age 4-7

Puffin, 2000, £12.99



ما أفضل أن نحتفل بقدوم العام الجديد بأن نشترى كتابًا جميلاً ونهديه لأطفالنا. إن ذلك يعطى الطفل سعادة كبيرة وبشكل خاص إذا ما كان الكتاب معدًا بطريقة جذابة وجيدة وبسيطة في آن. وهذه المجموعة من القصص والأشعار تضم أعمالاً لمؤلفين مشهورين بجانب آخرين مغمورين. ومن خلال الرسوم التوضيحية يبدو الكتاب جديرًا بأن يكون هدية جيدة للأطفال. ورغم أن القصص الموجودة في الكتاب نشرت من قبل إلا أن الصور جديدة، وهى تعطى الإحساس بأن الكتاب أيضًا جديد. وقد تم اختيار الكلمات بعناية، لكى يستطيع الأطفال في هذه الفئة العمرية (٤ ـ ٧ سنوات) فهمها.

وقد اجتهدت محررة الكتاب فى أن يتضمن أعمالاً قصصية إنجليزية للأطفال صدرت على فترات زمنية طويلة لكن تجمعها الرغبة في إمتاع الأطفال وإسعادهم وكذلك فتح عوالم جديدة أمامهم.

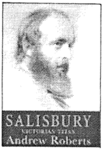
□ □ □

Salisbury: Victorian Titan

(سالزبورى: عملاق فيكتورى)

Andrew Roberts

Phoenix, 2000, £12.99



قبل أيام أحيا البريطانيون ذكرى مرور مائة عام على وفاة الملكة فيكتوريا التى حكمت الامبراطورية البريطانية في الفترة من ١٨٤٠ حتى ١٩٠١، وجعلتها امبراطورية لاتغيب عنها الشمس وتبارى الكتاب في ذكر محاسن ومساوئ هذه الفترة المهمة للغاية في التاريخ البريطانى.

(ومن بين رجالات هذا العهد لورد سالزبورى الذى تولى رئاسة الوزارة ٣ مرات. ويقول مؤلف الكتاب المؤرخ الشاب أندرو روبرتس إنه رغم تلك المدة الطويلة التي حكمها سالزبورى، ذلك السياسى المحافظ، فإن من النادر ذكره الآن، فقد توارى اسمه وراء عمالقة آخرين ظهروا في العصر الفيكتورى مثل دزرائيلى وجلادستون وحتى وراء رؤساء وزراء ظهروا بعد ذلك مثل ونستون تشرشل.

ويتناول الكتاب حياة روبرت آرثر تابوت جاسكون سيسيل كما كان يسمى سالزبورى عند ولادته، وهو سليل أسرة عريقة في التاريخ البريطانى. وكانت أشهر صفاته أنه عملى ومؤمن بقيم الامبراطورية. وقد درس في مدرسة ايتون التى يدرس فيها أبناء النبلاء وتعرض هناك لمعاملة قاسية للغاية أثرت على حياته فيما بعد. وكان سياسيًا يفتقر للعاطفة ويتصرف ببرود يليق بسياسى بريطانى عتيد. وقد أصبح سالزبورى أحد أهم المهندسين «السياسيين» للعصر الفيكتورى سواء على المستوى الداخلى أو المستوى الخارجى.

ومؤلف هذا الكتاب يثير في أعماله التاريخية قضايا جدالية كثيرة، وعلى سبيل المثال فإنه اتهم تشرشل بالرغبة في مواصلة الحرب العالمية الثانية رغم أنه كانت هناك فرص عديدة لوقفها وتجنيب البريطانيين الخسائر الهائلة التى تكبدوها.

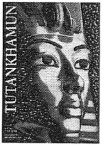
□ □ □

Howard Carter: The Path to TutAnkhAmun

(هوارد كارتر: الطريق إلى توت عنخ آمون)

T.G.H. James

The American University in Cairo Press, 2000, $19.95, L.E 70



كثيرون في أنحاء العالم تستهويهم، بل تسحرهم شخصية توت عنخ آمون والأساطير المحيطة بحياته القصيرة، والتى مازال علماء الآثار ومؤرخو التاريخ القديم يتناولونها بشغف واهتمام كبيرين كما لو كان الفرعون الشاب أحد نجوم عصرنا الحالى. لكن قليلين يعرفون قصة مكتشف هذا الأثر الشديد العظمة والروعة، وهو هوارد كارتر الذى وصل إلى مصر قبل توصله إلى اكتشافه في نوفمبر ١٩٢٢ بثلاثين عامًا، ولم يكن هوارد قد استكمل تعليمه، لكنه علم وطور نفسه ليصبح كبير مفتشى الآثار في صعيد مصر. وقد اقام الشاب هوارد شراكة محظوظة مع إيرل كارنافون وأصبح هوارد مساعدًا له وشارك الشاب هوارد هذا الأرستقراطى في عدد من الاستكشافات، لكن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في وادى الملوك هو الذى ضمن له مكانة في التاريخ. ويتناول المؤلف، وهو رئيس قسم المصريات السابق في المتحف البريطانى، جوانب عديدة من حياة هوارد كارتر لم يتم التركيز عليها من قبل. والكتاب مفيد للغاية بالنسبة لمحبى علم الآثار وعلم المصريات بشكل خاص أو أولئك الذين لديهم ولع بتوت عنخ آمون ومقبرته.

وقد سبق للمؤلف أن نشر عدة كتب عن الفن والتاريخ في مصر القديمة.

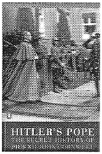
□ □ □

Hitler's Pope: The Secret History of Pius XII

(بابا هتلر: التاريخ السرى للبابا بيوس الثانى عشر)

John Cornwell

Penguin, 2000, £7.99



البابا بيوس الثانى عشر بابا الفاتيكان في الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٥٨، شخصية مثيرة للجدل بشكل كبير، فالكنيسة الكاثوليكية وكتب التاريخ تقول: إن هذا البابا الذى ولد عام ١٨٧٦ وتوفى عام ١٩٥٨، عمل كل ما في جهده للحيلولة دون نشوب الحرب العالمية الثانية، ونتيجة لهذا الدور وأمور أخرى فإن البابا بيوس الثانى عشر مرشح لاعتباره قديسًا من جانب الفاتيكان.

إلا أن مؤلف الكتاب جون كورنويل أجرى تحقيقًا تاريخيًا موسعًا حول هذا البابا وخرج بنتائج مفزعة حول سنوات اعتلائه كرسى البابوية في الظروف التاريخية غير العادية التى مر بها العالم وبشكل خاص خلال الحرب العالمية الثانية.

ويتهم المؤلف بيوس الثانى عشر بأنه كان مستبدًا وحاكمًا مطلقًا كما يردد نفس التهمة التى كررها يهود كثيرون وهى أن هذا البابا كان مناهضًا للسامية. ويقول كورنويل: إنه رغبة من البابا في حماية البابوية فإنه ارتدى «قناعًا» استطاع من خلاله أن يقنع العالم بأنه يكره من النازية، لكنه كان فى الحقيقة يضع أمن البابوية فوق مصير اليهود أى أنه غض الطرف عن الفظائع التى ارتكبها هتلر ضد اليهود في سبيل مصلحته الشخصية. وقد قدم المؤلف أدلته على ذلك بشكل جيد ومقنع، وهو الأمر الذى يتطلب أن ترد الكنيسة الكاثوليكية على هذه الاتهامات التى تطال أحد أهم رموزها في العصر الحديث.

□ □ □

William Shakespeare: His Life and Work

(وليام شكسبير، حياته وأعماله)

Anthony Holden

Abacus, 2000, £7.99



لم يعد وليام شكسبير حكرًا على نقاد الأدب ومؤرخيه والأدباء، بل أصبح أيضًا في قبضة الماركسيين والحركة النسوية والمؤرخين الجدد وما بعد الحركة النسوية والتفكيكيين وما بعد الاستعماريين والامبرياليين الثقافيين. لقد قام كل هؤلاء بتمزيق تاريخه إربًا وفسروا كل شاردة وواردة في أعماله وحياته تفسيرًا يوافق معتقداتهم، لكن مؤلف هذا الكتاب انتونى هولدن يعيد تجميع هذه الأجزاء مرة أخرى ليقدم سيرة ذاتية جامعة لهذا الكاتب المسرحى الذى لا يجادل اثنان في تربعه على عرش الأدب العالمى على مر العصور.

إن كل جيل يعيد تشكيل شكسبير حسب العصر الذى يعيش فيه. والمؤلف هنا يحاول أن يقدم شكسبير بشكل مختلف من خلال تتبع مراحل حياته، وهو يختلف مع من قال إن شكسبير كان شاذًا جنسيًا ويتحدث عن توجهاته الدينية، ولم يكتف هولدن بذلك، بل علق على آراء كثير من النقاد والمفكرين في شكسبير. ومن خلال أسلوب شيق وجذاب ومرتب يتحدث المؤلف عن المعاناة التي عاشها ذلك الفتى شكسبير ورحلته من أجل أن يكون له مكان في الحركة المسرحية في لندن.

وكتاب هولدن لم يكن الأول بالطبع ولن يكون الأخير عن شكسبير الذى لم تخلو لغة في العالم من ترجمة أعماله ومن كتب عن حياته وأعماله. وإضافة إلى المهتمين بالعلوم الإنسانية فإن العلماء لم يبتعدوا أيضًا عن شكسبير، فهناك أبحاث ودراسات علمية عن شكسبير وحقيقة وجوده.

□ □ □

أزيـــــاء

The Fashion Business: Theory, Practice, Image

(تجارة الأزياء: النظرية والممارسة والصورة)

Nicola White, Ian Grifiths (eds)

Berg Ltd. 2000. 256PP., $19.50

يتناول الكتاب صناعة وتجارة الأزياء في النصف الثاني من القرن العشرين. ويحتوي على إسهامات من خبراء في ثلاثة مجالات مثيرة للجدل في هذه الصناعة: أولاً: ثقافة ونظرية الأزياء. ثانيًا: التصميم والصناعة. ثالثًا: التسويق وصناعة الصورة.

وفي هذه المجالات تثار قضايا مثل علاقة الثقافة بالملابس، والتداخل بين الموضة والحداثة، والتحدي الذي تفرضه السلاسل التجارية، وبداية عصر مصمم الأزياء المفكر.

■■■

The End of Fashion: How Marketing Changed The Clothing Business Forever

(نهاية الموضة: كيف غير التسويق من تجارة الأزياء إلى الأبد)

Teri Agins

Harper Collins, 2000, 336pp., $14.00

إن العهد الذي كانت الموضة فيه يحددها مصممو الأزياء الفرنسيون بملابس لا يقوى على شرائها سوى أفراد النخبة قد ولى. فالمصممون الآن يتوجهون للجمهور الواسع من المستهلكين. ويتركز الإبداع في طرق وأساليب التسويق الجماهيري للملابس أكثر من تركزه في تصميمها. هكذا تصف المؤلفة حال صناعة الأزياء في العالم الآن، كما تتناول عددًا من بيوت الأزياء الشهيرة، كيف تعمل وتخطط، والمنافسات التي تنشا بينها، وتروي تفاصيل المنافسة العدائية بين رالف لورين وتومي هيلفيجر.

■■■

Obsessed by Dress

(الانشغال المرضي بالملبس)

Tobi Tobias

Beacon Press, 2000, 176pp., $17.50

إن التزين (أو رفض التزين) كان دائمًا من الدوافع الإنسانية الملحة في كل الأماكن وفي كل الأزمنة. وهذا الكتاب يحاول استعراض صراع الإنسان مع الأزياء والموضة عن طريق تجميع الملاحظات والمقولات المتعلقة بهذه المسألة التي وردت عن فلاسفة وأدباء ومصممي أزياء من أفلاطون مرورًا بأوسكار وايلد ومارسل بروست وحتى كوكو شانيل.

إعــــلام

البحث العلمي في الدراسات الإعلامية

محمد عبد الحميد

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠.

استعراض لأهم أساليب البحث العلمي في مجال الدراسات الإعلامية، وهي في معظمها تطبيقية تتتبع التجارب الصحفية والإعلامية. ما هي الصعوبات التي تواجه الباحثين في هذا المجال وكيف يمكن التغلب عليها؟

■■■

الاتصال الجماهيري

ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم

القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٠.

يعرض الكتاب لأنشطة الاتصال المقروءة والمسموعة والمرئية، وهو يركز على مستوى التطبيق على الولايات المتحدة الأمريكية أساسًا، لكن المنهج العلمي الذي استخدمه المؤلف، يرشح الكتاب لأن يستفيد منه العاملون في مجال الاتصال الجماهيري في أي مكان في العالم.

■■■

A Grain of Truth: The Media, The Public, and Biotechnology

(ذرة من الحقيقة: وسائل الإعلام والجمهور والتكنولوجيا الحيوية)

Susanna Horrig Priest

Rowman & Little Field Publishers, 2001, 160pp., $19.95

يتناول الكتاب دور وسائل الإعلام في انتشار الشعور بعدم الثقة تجاه المواد المعدلة وراثيًا بين الجمهور. فهناك من يتهم وسائل الإعلام بالجهل العلمي أو الرغبة في الإثارة مما أدى إلى تصاعد الموقف السلبي تجاه هذه المواد، ولكن من ناحية أخرى يبين الكتاب أن التغطية الإعلامية لهذه القضايا يسيطر عليها المتحدثون باسم هذه الصناعات. وبعد استعراض الموضوعات الخلافية واستطلاعات الرأي التي نشرتها الصحف حول صناعة هرمونات النمو واستنساخ النعجة دوللي، والمنتجات الزراعية المعدلة وراثيًا.. وغيرها، تنتهي المؤلفة بتوجيه الاتهام لكل من وسائل الإعلام وأرباب هذه الصناعات لتجاهلهم الأشياء التي تقلق الجمهور العام.

اقتصــــاد

أزمة النمور الآسيوية.. الجذور والآليات والدروس المستفادة

إعداد: عمرو محيي الدين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

شهد عام ١٩٨٩ بدء خروج دول أوروبا الاشتراكية عن الفلك السوفيتي واتجاهها نحو نظام اجتماعي واقتصادي جديد تسوده الملكية الفردية وتلعب فيه آلية السوق دورًا فعالاً في تخصيص الموارد، وأصبحت الرأسمالية وصفة جاهزة لأمراض الدول النامية، لكن الأزمة المالية التي حدثت في دول جنوب شرق آسيا وكوريا الجنوبية، ثم تحولت إلى أزمة عالمية تثير علامات استفهام وشكًا حول انتصار الرأسمالية. ويتناول الكتاب أزمة النمور الآسيوية والدور المحوري الذي لعبه الجهاز المصرفي قبل وبعد الأزمة، ثم يدرس آثار الأزمة الجانبية على مناطق العالم المختلفة، كما يتعرض لقضايا جوهرية ومحورية أثارتها تلك الأزمة على مستوى التحليل الاقتصادي والدروس المستفادة وإمكانية منع تكرارها في عالم اليوم.

■■■

The Virtue of Prosperity: Finding Values in an Age of techno - Affluence

(فضيلة الرخاء، البحث عن القيم في عصر من الوفرة)

Dicesh D'Souza

New York: Free Press, 2000, 284pp., $26.00

المؤلف يدافع عن الرأسمالية التكنولوجية الجديدة والوفرة التي جلبتها، فيقول إن الاقتصاد الجديد جعل من فقراء المجتمع الأمريكي أحسن حالاً من الفقراء في أي مكان آخر، وجعلهم أحسن حالاً مما كانوا عليه من خمسين عامًا مضت.

أما الفجوة التي تتسع بين الأغنياء والفقراء، فيدافع أيضًا عنها المؤلف باعتبار أنها تعود إلى الجدارة، حيث لا يوجد عامل اجتماعي أو عنصر في النظام السياسي يمنع أي شخص من صعود سلم النجاح.

■■■

تاريـــخ

التحنيط وفلسفة الخلود في مصر القديمة

أحمد صالح

القاهرة: دار حور، ٢٠٠٠.

يلقي المؤلف أضواءً على فكرة التحنيط من وجهة نظر الإنسان المصري القديم، والتحنيط ليس مجرد عادة أو طقس فرعوني يتعلق بالموت، إنما هو يتعلق أكثر ما يكون بفكرة البعث والخلود عند المصريين القدماء، وهي فلسفة مصرية أصيلة، دفعت المصريين إلى ضرورة الحفاظ على الجسد كي يكون في أبهى صورة عند البعث.

■■■

الحرب الصليبية الثالثة

وليم شتابز

ترجمة: حسن حبشي

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

وثيقة تاريخية مهمة، كتبها شاهد عيان في جيش ريتشارد قلب الأسد، تعبيرًا عن إعجابه بملكه، ومن البديهي أن تنطوي وجهة نظره على آراء مخالفة، لما عرف في أدبيات الحروب الصليبية وما كتبه المؤرخون العرب عنها.

■■■

الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية

محاسن الوقاد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

ملامح من حياة الطبقات الشعبية وعرض تفصيلي لأماكن تجمعاتها في الأسواق والوكالات التجارية والخانات، ودراسة اجتماعية وديموجرافية عن الأحياء التي سكنها أبناء هذه الطبقات وأحوالهم الاقتصادية وسياسة الدولة تجاههم، ثم أهم عاداتهم.

■■■

Crimea: The Great Crimean War, 1854 - 1856

(حرب القرم العظيمة، ١٨٥٤-١٨٥٦)

Trevor Royle

New York: St - Martin's Press, 2000, 465pp., $35.00

تعد حرب القرم في كثير من جوانبها أول حرب حديثة في التاريخ. وقد نبعت أهميتها من كونها متعددة الجبهات، فقد دارت معاركها في البلطيق وفي عدد من شواطئ البحر الأسود. كما كانت تلك الحرب هي الأولى التي قام فيها المراسلون بتغطية أحداثها، ومن أشهرهم «ويليام هوارد راسل»، الأمر الذي أنتج ضغوطًا على السياسيين والجنرالات بسبب دخول عنصر «الرأي العام» في الحسابات الاستراتيجية. أما خلفية الحرب فتتشابه مع الخريطة المعاصرة، حيث شملت مجزرة عرقية في البلقان، وانفلاتًا في القوقاز، واضطرابًا في الأراضي المقدسة، حيث كان سبب قيام الحرب مفتاح كنيسة القيامة ببيت لحم. فقد أصر نابليون الثالث أن مكانه مع رجال الدين الكاثوليك، بينما ساند قيصر روسيا نيقولاس الأول الأرثوذكس، فقامت الحرب بين روسيا ضد الامبراطورية العثمانية وانضمت فرنسا وبريطانيا لمساندة العثمانيين ضد الروس. وهناك بالطبع أسباب أخرى استراتيجية لكل طرف من الأطراف يشرحها المؤلف بالتفصيل في الكتاب، الذي يفسر أيضًا لماذا تعتبر حرب القرم - تلك التي خسرت فيها جميع الأطراف - أكبر خطأ عسكري ودبلوماسي في التاريخ.

تجارة الكتب

Everyday Life in the German Book Trade: Friedrich Nicolai As Bookseller and Publisher in the Age of Enlightenment 1750 - 1810

(الحياة اليومية في سوق الكتاب الألماني: فريدريش نيكولاي ناشرًا وبائعًا للكتب في عصر التنوير ١٧٥٠-١٨١٠)

Pamela Eve Selwyn

Pennylvania Stake Press, 2000, $75.00

عندما كان المثقفون الألمان يقولون في نهاية القرن الثامن عشر إنهم يعيشون في عصر فريدريك، كانوا لا يقصدون الملك فريدريك، وإنما بائع الكتب الشهير في برلين في ذلك الوقت «فريدريش نيكولاي».

وهذا الكتاب يقوم على أساس رسالة الدكتوراة التي أعدتها المؤلفة والتي تكشف من خلال حياة فريدريش نيكولاي الناشر وبائع الكتب والناقد أيضًا، طبيعة سوق الكتاب في ذلك الوقت، ومحاولات الحكومة فرض الرقابة على بيع الكتب، ونوع القرصنة التي كانت سائدة، وأساليب الكتّاب والناشرين في تدعيم قواعد النشر

قـــــــــراءات جــــــــــديـدة

وفي إنجاح تجارتهم وإثراء الحياة الثقافية في ألمانيا في عصر التنوير.

■■■

Book Business: Publishing: Past, Present, and Future

(تجـارة الكـتـاب: النشـر: الماضي والحاضر والمستقبل)

Jason Epstein

Norton & Co., 2000, 144pp., $21.05

يقول جايسون إبستين عن صناعة الكتاب إنها واقفة الآن على حافة تحوّل تاريخي، ويناقش في كتابه هذا، الأزمات الحادة التي تواجه تجارة الكتاب اليوم.. تلك الأزمات التي تؤثر على الكتّاب والقراء، بالإضافة إلى الناشرين. وكان جايسون إبستين قد تولى منصب المدير التحريري لدار نشر «راندوم هاوس»، ويعود إليه الفضل في بداية استخدام الكتب ذات الأغلفة الورقية في عام ١٩٥٢، والتي أحدثت ثورة في تجارة الكتاب في ذلك الوقت.

■■■

1001 Ways to Market Your Books

(ألف ومائة طريقة لتسويق كتبك)

John Kremer

Open Horizons, 2000, 704PP., $27.95

يعمل المؤلف رئيسًا لتحرير مجلة «بوك ماركتنج أبدايت» المختصة بتسويق الكتب. ويقوم في هذا الكتاب بتقديم أكثر من ألف فكرة لتسويق مختلف أنواع الكتب. مستعينًا بأمثلة من الحياة توضح كيف نجح ناشرون ومؤلفون آخرون في تسويق كتبهم.

تـــراث

الأغاني في التراث الشعبي الكويتي

يعقوب الغنيم

الكويت: المؤلف، ٢٠٠٠.

يبحث الكتاب في العلاقة بين الأغنية الكويتية والشعر النبطي، وبين اللهجة الكويتية واللغة الفصيحة الأم، ما الذي أضافه كل منهم إلى الآخر، وما حدود التأثر والتأثير بينهما ومخاطره ومزاياه؟

■■■

المناقب المزيدية

أبو البقاء الحلي

تحقيق: محمد خريسات وصالح دراركة

العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠.

تحقيق لمخطوطة نادرة وفريدة عن أحوال العرب قبل الإسلام في الحيرة والحلة، حيث حكم آل نصر وآل مزيد.

روايــة وأدب

أشجار قليلة عند المنحنى

نعمات البحيري

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠.

رواية جديدة للكاتبة بعد عدد من المجموعات القصصية، والرواية عن معنى الوطن الذي قد يهجره الإنسان جبرًا أو اختيارًا، لكن الوطن يظل عائشًا فيه، يحكم سلوكه ونظرته إلى الكون والعالم.

■■■

المجموعة الكاملة

فؤاد سليمان

بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ٢٠٠٠.

ثلاثة مجلدات تتضمن: «تموزيات»، يأتي إلى أين»، «القناديل الحمراء». وهي تمثل الأعمال الكاملة للأديب والكاتب اللبناني، وموضوعاته تناقش قضايا وطنية وقومية في إطار اجتماعي، كما أن كتاباته تنهل من الواقع اللبناني ذاته وتناقش أزماته الطاحنة كالبطالة وإهدار المال والفساد والتخرب وغيرها.

■■■

لمسة من عالم غريب

مصطفى ذكري

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٠.

نصوص تجول في عالم ميتا فيزيقي وغير مألوف، مثل كثير من كتابات المؤلف السابقة التي تسعى دائمًا إلى استنطاق الأشياء والموجودات بحثًا عن أسرار الكون الشاسع.

■■■

الناب

إلياس العطروني

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠.

رواية تتوزع أحداثها على منعطفات تاريخية مهمة، منها انقلاب المؤججين والانفصال المصري السوري والحرب الأهلية اللبنانية، وعبر هذه الأحداث السياسية، ثمة كوابيس شخصية مبعثها إحباطات الراوي في زمن الانكسارات العربي.

■■■

فتنة الرؤوس والنسوة

سالم حميش

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠.

محور الرواية هو الصراع حول السلطة عبر التاريخ، فالسلطة تفتن الرؤوس كما النساء، والمؤلف يقيم بروايته معادلاً للواقع، ويرسم شبيهًا لأنظمة عسكرية عربية مازالت قائمة إلى اليوم.

■■■

مقام البكاء

نافذ أبو حسنة

دمشق: دار ابن رشد، ٢٠٠٠.

واحدة من الحكايات الفلسطينية الكثيرة التي تطرح تساؤلات الفلسطيني المشرد ومعاناته عبر أجيال متلاحقة منذ نكبة ١٩٤٨، أسئلة الرواية وطنية وسياسية لكنها شخصية أيضًا، كما هي حالة معاناة الفلسطينيين منذ نصف قرن أو يزيد.

■■■

وداعًا بابل

نعيم قطان

ترجمة: آدم فتحي

كولونيا: دار الجمل، ٢٠٠٠.

رحلة في عالم الطفولة المفقود بكل براءته ودهشة اكتشافاته الأولى، يستعيد المؤلف عبرها ملامح حياته في العراق التي غادرها إلى كندا قبل نحو نصف قرن، وهو يعرض لقضايا سياسية بالغة الحساسية، بينها موقف يهود العراق من المشروع الإمبريالي الصهيوني.

■■■

The Stone Woman

(امرأة الحجر)

Tarq Ali

Verso, 2000, $23.00

رواية «امرأة الحجر» هي الرواية الثالثة في «الرباعية الإسلامية» التي يكتبها طارق علي. وتدور أحداثها في نهاية القرن التاسع عشر في اسطنبول، عندما يجتمع أحفاد «يوسف باشا» لقضاء الصيف في القصر الذي كان قد بناه قبل نفيه من اسطنبول على يد السلطان.

ومن خلال مشكلات هذه العائلة يكشف المؤلف عن متاعب الامبراطورية العثمانية في مرحلة احتضارها.

■■■

Hemingway on Fishing

(همنجواي وصيد السمك)

Ernest Hemingway, Jack

Hemingway (Foreward)

Nick Lyons (editor)

Lyons Press, 2000, 320pp., $29.95

يتكون هذا الكتاب من كل ما كتبه إرنست همنجواي عن صيد السمك، سواء في مقالات صحفية ونثرية أو في أجزاء من رواياته. وقام بكتابة مقدمة الكتاب ابنه جاك همنجواي. ومن المعروف عن همنجواي عشقه منذ الطفولة لهواية صيد السمك، وقد ظهرت في كثير من كتاباته مثل «الشمس تشرق أيضًا» و«الرجل العجوز والبحر» و«جزر في النهر».. وغيرها.

ومن خلال المختارات التي يقدمها الكتاب، يظهر التطور في أسلوب وبلاغة همنجواي، منذ مقالاته الصحفية التي تتصف بالخشونة، وحتى رواياته التي حصل بها على جائزة نوبل. كذلك تبين دقة ملاحظته وتمتعه بعقلية علمية، ومهارته في نقل مشاعره إلى مشاعر القارئ.

سيـاســـة

الدور الضائع

مروان اسكندر

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠.

انتهت الحرب الأهلية في لبنان، وتطلع كثيرون إلى دور أكبر للبنان في محيطها العربي وفي العالم، سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا. لكن هذا الدور مازال محدودًا حتى الآن، ومازال مكبلاً بأوضاع وعثرات خارجية وداخلية.

■■■

الطريق الأطول. النســاء في أول برلمان فلسطيني

كتاب الزاوية

رسالة الغفران

٣ـ حديث إبليس

فيطلع فيرى إبليس ـ لعنه الله ـ وهو يضطرب فى الأغلال والسلاسل، ومقاطع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية! فيقول: «الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله».

فيقول: «من الرجل؟».

فيقول: «أنا فلان بن فلان، من أهل حلب، كانت صناعتى الأدب أتقرب به إلى الملوك».

فيقول: بئس الصناعة! إنها تهبُ غُفَّة من العيش لا يتسع بها العيال، وإنها لمزلة القدم، وكم أهلكت مثلك، فهنيئًا لك إذ نجوت، وإن لى إليك لحاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون».

فيقول: «إنى لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت فى أهل النار أعنى قوله تعالى ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

فيقول: «إنى لا أسألك فى شىء من ذلك، ولكن أسألك عن خبر تخبرنيه، إن الخمر حرمت عليكم فى الدنيا، وأحلت لكم فى الآخرة، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدون فعل أهل القريات؟».

فيقول: عليك البهلة (اللعنة) أما شغلك ما أنت فيه! أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قــــراءات جــــديدة

انجيلا جرونرت
ترجمة: سالمة صالح
كولونيا: دار الجمل، ٢٠٠٠.

إلى جانب الرجل، كافحت المرأة الفلسطينية دفاعًا عن حقوق الوطن وحقوقها، ومازالت تشارك الرجل مسئولياته فى بناء المجتمع الفلسطينى الناهض برغم الصعوبات والتحديات التى يواجهها من المحتل الإسرائيلى. النساء الفلسطينيات مثل حنان عشراوى وراوية الشوا وآلاف غيرهن، مازلن يعطين ويضربن المثل لعطاء المرأة العربية فى ظروف بالغة القسوة والضراوة.

■■■

العلاقات العربية التركية
حسن بكر أحمد
أبو ظبى ـ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠.

يفترض أن العلاقات العربية التركية ذات خصوصية تاريخية وجغرافية، لكن المياه جرت فى بحور السياسة على غير ما يشتهى الجميع لتلك العلاقات، التى شهدت تدهورًا فى السنوات الأخيرة بسبب تنامى العلاقات بين تركيا وإسرائيل واستراتيجيات الدفاع المشترك بينهما، فإلى أين تصل هذه العلاقات وما مستقبلها؟

■■■

إيران.. سباق الإصلاح من الرئاسة إلى البرلمان
محمد صادق الحسينى
بيروت: دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٠.

منذ تولى الرئيس محمد خاتمى الحكم فى إيران وهو يسعى للإصلاح، لكن محاولاته الإصلاحية، ووجهت دومًا بمعارضة من قبل المحافظين، وقد نجحوا أحيانًا فى تقويض بعض توجهاته وحدوا من تطلعاته الإصلاحية، ومع ذلك فإن ما تحقق خلال سنوات حكمه يعد بالكثير على المدى الطويل.

■■■

سنوات الفوضى والجنون
محمد خوجة
الجزائر: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف سنوات حكم الرئيس الشاذلى بن جديد، التى يرى أنها سبب رئيسى فيما آلت إليه الأوضاع فى الجزائر من تدهور، كما يحمله المؤلف مسئولية تفشى العنف والإرهاب، وتحويله الجزائر من دولة سياسية إلى دولة إدارية، صار هو ـ بحسب رأى المؤلف ـ حاكمها وسيدها الأوحد.

■■■

مستقبل المجتمع المدنى فى الوطن العربى
أحمد شكر الصبيحى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

يرتبط نشاط المجتمع المدنى بشيوع القيم الديمقراطية وترسخها فى مؤسسات الدولة، التى بديمقراطيتها تمنح هامشًا أوسع من حرية الفكر والتعبير والعقل للمؤسسات الأهلية، كما تمارس دورًا إيجابيًا إلى جانبها، وتبادر فى أنشطة قد تحجم الدولة عنها أو لا ترغب فى القيام بدور فيها. وهذا الكتاب يناقش مستقبل المجتمع المدنى فى ضوء الوضع الحالى للأنظمة العربية واحتمالات تطورها فى المستقبل.

■■■

نحو استراتيجية وخطة عمل للصراع العربى الصهيونى
إعداد: مجدى حماد
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

تصورات عديدة لعدد من كبار الكتاب والمفكرين العرب، تقدم فهما لقضايا الصراع الذى طال أمده وتشعبت وسائله، والخلاصة، أن الوقوف عند بديل واحد بوصفه خيارًا وحيدًا أمر بالغ الخطورة، فباب البدائل والخيارات ينبغى أن يظل مفتوحًا دومًا حتى يغلق تمامًا ملف الصراع بعودة الحق لأصحابه.

■■■

The End of Days: Fundamentialism and the Struggle for the Temple Mount
(نهاية العالم: الأصولية والصراع على جبل الهيكل)
Gersham Gorenberg
Free Press, 2000, 288pp., $25.00

يرصد المؤلف شيوع الاعتقاد بين كل من المسيحيين واليهود والمسلمين فى الآونة الأخيرة باقتراب نهاية العالم. وتزداد بالتالى أهمية ومركزية جبل الهيكل وقبة الصخرة فى سياق هذه النبوءة. يتحدث المؤلف عن المسيحيين الأصوليين فى أمريكا، كيف يؤيدون إسرائيل وفى نفس الوقت ينتظرون تحقق النبوءة التى تتوقع موت اليهود أو تحولهم إلى المسيحية. كذلك ينتظر كل من اليهود والمسيحيين إعادة تشييد الهيكل الثالث فى نفس المكان الذى تشغله الآن قبة الصخرة. ولهذا لا يستبعد المؤلف اشتعال حرب مقدسة بسبب الرغبة فى السيادة على تلك البقعة المقدسة المهمة عند كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين.

شــعــر

أنظر إليك
مرام المصرى
بيروت: مركز للطبوعات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.

قصائد مكتوبة بلغة مكثفة لا زوائد فيها، الحدث الواقعى أو الانفعالى والنفسى هو الذى يخلق الشعر فيها، والشاعرة السورية المقيمة فى فرنسا، تواصل حفر تجربتها الشعرية وتضيف إليها بقصائدها تلك على مستوى الشكل والمضمون.

■■■

ديوان المعتمد بن عباد
جمع وتحقيق: حامد عبد المجيد ـ أحمد أحمد بدوى
القاهرة: دار الكتب والوثائق المصرية، ٢٠٠٠.

عاش المعتمد بن عباد حياة حافلة، فقد

ولد وعاش في ديار الملك في الأندلس، يرفل في النعيم وينهل من عيون الأدب والتراث العربي، كتب الشعر وشجّع شعراء عصره، ويمثل شعره سجلاً لفترات ازدهار دولة بني عباد وانكسارها، ففي فترة الازدهار غلبت على شعره أغراض تعكس تلك الحالة، ومع اندحار الحالة، صبغت شعره صبغة حزينة وكان أكثره في المراثي.

طـب وصحـة

المسنون بين الصحة والمرض.. كيف تزيد من حلاوة سنوات النضج
محمد صادق صبور
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

يلعب العمر دورًا ثانويًا في النشاط الذهني بعد سن الخامسة والخمسين، فنصف تعداد البشر ممن تقل أعمارهم عن ٧٥ سنة وثلث الناس الذين تزيد أعمارهم عن ٧٥ سنة يؤدون وظائفهم العقلية بنفس درجة كفاءة متوسطي العمر. ويهدف المؤلف من هذا الكتاب إلى توضيح ما الذي يجب علينا أن نفعله - أنا وأنت - لكي نظل نشيطين جسديًا وذهنيًا لأطول مدى ممكن في سنواتنا المقبلة، كما يهدف إلى بيان المعتقدات الخاطئة عن المسنين، ثم إسداء النصح لهؤلاء المسنين وبيان السبل التي تزيد من حلاوة سنواتهم الأخيرة. والكتاب ليس فقط للمسنين، بل لمن لم يصلوا إلى سن الأربعين ليتزودوا بما ينفعهم من أفكار في مقتبل أيامهم.

■■■

صحة الثدي
ميريام ستوباره
ترجمة: سامح بيومي السباعي
القاهرة: دار أبو الهول ولونجمان، ٢٠٠٠.

تشغل صحة الثدي وما يصيبه من أمراض، كثيرًا من السيدات، وسرطان الثدي أحد أهم المخاطر في هذا الصدد، والمؤلفة تشير إلى كيفية تفادي هذا الخطر الذي قد تسببه ضغوط الحياة وملوثاتها.

■■■

عالج طفلك حتى يصل الطبيب
نانسي عبد العزيز سليمان
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠.

تواجه الأم مشاكل عديدة فيما يتصل بصحة طفلها لا تعرف كيف تواجهها، المؤلفة الطبيبة تعرض لأساليب المواجهة السريعة حين تظهر أعراض المرض على الأطفال، خصوصًا في حالات القيء والإسهال وارتفاع الحرارة ولدغ الحشرات وتناول الطفل مواد سامة أو كاوية، وهي وصفات سريعة كي لا تتفاقم الحالة وحتى يمكن استدعاء الطبيب.

■■■

كلام جديد عن الكبد والجهاز الهضمي
محمد فريد عبد الوهاب
القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠.

للكبد وظيفة مهمة في الجسم، وقد شاعت في السنوات الأخيرة أمراضه بين المصريين بسبب الملوثات في الجو وفي الطعام، ما يقدمه المؤلف هنا حقائق عن الكبد والجهاز الهضمي وتأثير الكبد على وظائف الجسم عمومًا والأمراض التي تصيبه وكيف يمكن تجنبها بأسلوب مبسط يخاطب به القارئ العادي.

■■■

The Executive Brain: The Frontal Lobes and The Civilized Mind
(المخ التنفيذي: الفصوص الأمامية والعقل المتحضر)
Elknonon Goldberg
Oxford UP, 2001, 288pp., $29.95

يشرح الكتاب - بشكل يستطيع تتبعه القارئ العادي - أهمية الفصوص الأمامية في المخ البشري. فهذا الجزء من المخ هو الذي يتحكم في العمليات العقلية المعقدة مثل إصدار الأحكام، واتخاذ القرارات، كما يتحكم في السلوك الأخلاقي والاجتماعي للإنسان. ويبين الكتاب كيف أن الفصوص الأمامية هذه هي الأكثر عرضة للإصابة، فإذا أصابها أي تلف أو ضرر، يؤدي ذلك في أغلب الأحيان إلى سلوكيات غير منظمة وغير اجتماعية، وأحيانًا إجرامية.

فكـر

أزمة الثقافة الإسلامية
هشام جعيط
بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠.

مجموعة من الدراسات الفكرية التي كتبها المؤلف على مدى أكثر من عشرين سنة، تختص أساسًا بالوطن العربي، لكنها تتجاوزه إلى العالم الإسلامي، والمؤلف يؤكد في دراسته على أن العرب والمسلمين لن يمكنهم أن يشاركوا في العالم المعاصر إلا إذا استمسكوا بالحداثة في المعرفة والفن والأدب وأبدعوا فيها جنبًا إلى جنب الإبداع العالمي.

■■■

الإسلام والأصولية التاريخية
أسامة خليل
القاهرة: المركز العربي الأوروبي للدراسات، ٢٠٠٠.

استفادت الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية، وجرى الأمر نفسه بالنسبة للأخيرة، فهل كانت هذه الإفادة المتبادلة نوعًا من المحاكاة أم التأثر الواعي في الحالتين، وما هي المعايير التي قامت عليها عملية التأثير الحضاري خصوصًا بالنسبة للحضارة الإسلامية؟ المؤلف يتتبع عملية التلاقح الحضاري تلك على الجانبين.

■■■

الحداثة وما بعد الحداثة
صالح أبو إصبع وآخرون
عمان: منشورات جامعة فيلادلفيا، ٢٠٠٠.

يجمع الكتاب أوراق المؤتمر العلمي الخامس لكلية الآداب والفنون الذي يناقش هذه المسألة - مسألة الحداثة - التي تبدو نظرية، لكنها تدخل في صميم تطور المستقبل العربي لسنوات قادمة.

■■■

كـتـاب الـزاويـة

رسالة الغفران

٤ - حديث فاطمة

فطفت على العترة المنتخبين، فقلت «إني كنت في الدار الذاهبة إذا كتبت كتابًا وفرغت منه قلت في آخره «وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى عترته الأخيار الطيبين، وهذه حرمة لي ووسيلة».

فقالوا: «وما نصنع بك؟» فقلت: «إن مولاتنا فاطمة - عليها السلام - قد دخلت الجنة منذ دهر. وأنها تخرج في كل حين مقداره أربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية. فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء. ثم تعود إلى مستقرها في الجنان، فإذا هي خرجت كالعادة فاسألوها في أمري بأجمعكم فلعلها تسأل أباها فيّ»، فلما حان خروجها ونادى الهاتف أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم - اجتمع من آل أبي طالب خلق كثير من ذكور وإناث، ممن لم يشرب خمرًا ولا عرف قط منكرًا. فلقوها في بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: «ما بال هذه الزرفة؟ (الجماعة) ألكم حال تذكر؟» فقالوا: «نحن بخير أنا نلتذ بتحف أهل الجنة. غير أنا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرع إلى الجنة قبل الميقات إذ كنا آمنين ناعمين.

وكان فيهم علي بن الحسين وابناه محمد وزيد وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة عليها السلام امرأة أخرى تجري مجراها في الشرف والجلالة. فقيل: «من هذه؟» فقيل: «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعُزى» ومعها شباب على أفراس من نور، فقيل: «من هؤلاء؟» فقيل: «عبدالله والقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم، بنو محمد - صلى الله عليه وسلم».

قـــــراءات جـــــديـدة

زرافة محمد على.. من مجاهل أفريقيا إلى قلب باريس
مايكل إلين
ترجمة: مجدى شرشر
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١.

رؤية لعالمي الشرق والغرب من خلال زرافة أهداها محمد على والى مصر ومؤسس نهضتها الحديثة إلى الملك شارل ملك فرنسا، وعبر رحلة الزرافة يلقى المؤلف أضواءً على الأوضاع الاجتماعية وأحوال الناس فى المدن التى مرت بها الزرافة.

■■■

فى التربية والسياسة
ناصيف نصار
بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠.

يحمل الكتاب عنوانًا ثانيًا إشكاليًا: متى يصير الفرد فى الدول العربية مواطنًا؟ والسؤال يتضمن إجابته، إذ الفرد لم يرتق بعد فى المجتمعات العربية إلى مرحلة المواطن، يفعل المؤلف ذلك عبر مقاربات بين الفلسفة التى تخصص فيها وغيرها من العلوم فى مجالات التربية والسياسة وسواهما.

فكر ديني

الأنوار البهية فى الوصايا الإسلامية
إسماعيل عبد الفتاح
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠.

عن معنى الوصية فى القرآن والسنة وأهميتها، وكيف أوصى الله سبحانه وتعالى عباده بعمل الصالحات وأكل الطيبات والاستمتاع بكل ما هو طيب وحلال. والوصية فى المحصلة هى عهد بين المؤمن وربه.

■■■

المغازي الأولى ومؤرخوها
يوسف هوروفتس
ترجمة: حسين نصار
القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٠.

دراسة تتناول طائفة من المؤرخين المبكرين الذين وصفوا حياة الرسول الكريم وكتبوا عن غزواته، والدراسة ليست عن الغزوات ذاتها وإنما عن المؤرخين وأهم أعمالهم وسير حياتهم.

■■■

مواقف من حياة الصحابة
على أحمد الخطيب
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠.

أصحاب الرسول هم تطبيق للمنهج الإسلامي الصحيح الذى زرعه فيهم الرسول الكريم مسترشدًا بتعاليم الإسلام السمحة وشريعته، وهذا الكتاب يعرض لعشرات المواقف التى تبين هذا المنهج لدى صحابته الكرام.

فلسفة

مدخل إلى علم الكلام
محمد صالح السيد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١.

يتناول نشأة علم الكلام على يد الحسن البصري وواصل بن عطاء إمام المعتزلة، وأهم موضوعات هذا العلم ومدى ارتباطه بالمشكلات التى ظهرت فى زمنه، والتيارات الدينية والفكرية التى وُجدت فيه، وأثر الفلسفة اليونانية على تطوره، ثم أهم الفرق الكلامية التى ظهرت وأثرت فى مسيرة الفكر الديني والفلسفي.

■■■

الخطاب الفلسفي المعاصر من العام إلى الأعم
محمد السيد الشاهد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١.

دراسة عن أهم المحطات والمنعطفات فى الفكر الفلسفي المعاصر فى عصوره المختلفة، ويربط المؤلف بين الخطاب الفلسفي والخطاب الديني وعلاقة الخطابين بالوحي، كما يناقش قضايا مهمة مثل التراث والمعاصرة، الحداثة والتقليد، شبهات التناقض بين الدين والعلم، ويستعرض فى مناقشته لتلك الإشكاليات الخلفيات الثقافية والتاريخية لها.

فنون

آفاق الفن التشكيلي على مشارف القرن الحادي والعشرين
مختار العطار
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

دراسة معمقة عن الفنون التشكيلية والمقصود بهذه الفنون اللوحات المرسومة والمصورة والتماثيل وكل إبداع صنعه الإنسان. وقد دخلت خامات جديدة وأساليب غير مسبوقة على التعبيرات الفنية خلال الربع الأخير من القرن العشرين وتغيرت المفاهيم التقليدية والفوارق المعتادة بين فنون إبداع التماثيل والرسم والتلوين والتشكيل المرئي.

ويتناول المؤلف الآفاق الجديدة للفن التشكيلي على مشارف القرن الجديد، فقد اختلطت الفنون الجميلة بفنون الرقص والتمثيل والموسيقى والفوتوغرافيا والمسطحات، بل اختلط الفن باللا فن، ودخلت معايير جديدة يدافع عنها فلاسفة ومفكرون جدد.

■■■

Graphic Design in Germany, 1890 - 1945
(تصميم الجرافيك فى ألمانيا، ١٨٩٠-١٩٤٥)
By Jeremy Aynsley
California UP, 2000,$ 60.00

كانت ألمانيا هى مركز الطباعة الدعائية الحديثة وإنتاج الكتب منذ عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٩٣، حيث كانت فنون الجرافيك الألمانية هى الأكثر تقدمًا من بين كل الدول الصناعية، والأكثر تأثيرًا فى باقى

أوروبا. ويضم هذا المجال تصميمات الشعار أو الماركة التجارية «اللوجو»، والملصقات الدعائية، والمجلات والكتب.

ويتناول الكتاب إسهامات أبرز الألمان الذين أرسوا القواعد الحديثة في الفن التجاري أو الدعائي، وأولهم بيتر برنز الذي كان أول من طور نظامًا رمزيًا ثابتًا لشركة الكهرباء الألمانية، ثم لوسيان برنار الذي أبدع الشكل الحديث من الملصق الإعلاني مستعينًا بالصورة بدلاً من الكلمات وغيرها.

■■■

Comedy Is Man in Trouble: Slapstick in American Movies

(الكوميديا هي رجل في مازق: الكوميديا في الأفلام الأمريكية)

Alan Dale

Minneseta UP., 2000, $25.95

يتناول الكوميديا الأمريكية منذ الأفلام الصامتة وتشارلي تشابلن مرورًا بدين مارتن وجيري لويس وحتى جيم كاري.

مذكرات وسير

السجينة

ميشيل ڤينوس. مليكة أوفقير

ترجمة: ميشيل خوري

دمشق: دار ورد، ٢٠٠٠.

قضت أسرة أوفقير عشر سنوات في سجون المغرب إبان حكم الملك السابق محمد الخامس بتهمة الخيانة ومحاولة قلب نظام الحكم، ابنة أوفقير «مليكة»، تروي عن الأهوال التي لاقتها هي وأسرتها، وكيف تمكنت هي وأمها من تعليم أولادها الخمسة خلف الأسوار، إلى أن أطلق سراحهم وهاجروا إلى فرنسا لينشروا هناك قصتهم.

■■■

الغلام القتيل

محمد عبد القادر أحمد

المنامة: جامعة البحرين، ٢٠٠٠.

دراسة في شعر وشخصية طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي الأشهر، كيف أثرت شخصيته على شعره، وكيف كان شعره تعبيرًا عن شخصيته.

■■■

طلاق إمبراطورة: طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية.. القصة الكاملة والأسرار الخفية

كريم ثابت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

مؤلف هذا الكتاب لم يكن شخصًا عاديًا، بل كان قريبًا من الملك فاروق، وهو يزيح الستار عن أسرار موضوع زواج الأميرة فوزية شقيقة فاروق من شاه إيران محمد رضا بهلوي للمرة الأولى، ويتناول قصة الزواج، ثم الطلاق الذي لم يعرف الناس أسبابه، بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية. ويقول المؤلف إن القصة تبدو في بعض أجزائها أقرب إلى القصص الخيالية منها إلى القصص الواقعية، ومع ذلك فهو يؤكد أنه ليس في هذا الكتاب سطر واحد من نسج الخيال.

■■■

هيكل الآخر

مفيد فوزي

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

سِجل لحوارات مطولة أجراها المؤلف مع الكاتب والصحفي الكبير، تناولت عشرات من قضايا عصره التي كان شاهدًا على بعضها كمراقب وصحافي، ومشاركًا في بعضها الآخر بحكم قربه من مراكز صنع القرار، كما لم تخلُ الحوارات من جوانب شخصية حين سعى المؤلف إلى اقتحام الحياة الخاصة لمحاوره، ولمس الجوانب الأكثر حميمية في علاقاته مع الناس والأسرة والأحفاد.

نقد أدبي

الفكاهة في الأدب.. أصولها وأنواعها

أحمد محمد الحوفي

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠١.

دراسة عن الفكاهة وأنواعها، والضحك ودلالاته في الأدب، وكيف استثمر الأدب الساخر في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية، وهو نمط من الأدب عرفه العرب الذين يزخر تراثهم بعشرات النوادر عن البخلاء وغيرهم، كما اخترع العرب شخصيات أجروا على ألسنتهم حكايات ومواقف ضاحكة تحمل الحكمة وسرعة البديهة إلى جانب الطرفة.

■■■

استشفاف الشعر

يوسف حسن نوفل

القاهرة: أبو الهول ولونجمان، ٢٠٠٠.

دراسة مستفيضة عن الشعر العربي من خلال قراءة نقدية لأكثر من خمسة وعشرين ديوانًا، انتقاها المؤلف لتمثل مراحل وتجارب مختلفة في مسيرة فن العربية الأول، عبر منهج يسعى إلى سبر أغوار النصوص لا الوقوف على ظاهرها.

■■■

الأسطورة في القصة العراقية

فرج ياسين

بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ٢٠٠٠.

يكشف المؤلف عن المصادر الأساسية المهمة التي استلهمت منها القصة العراقية الحديثة مادتها الأسطورية، وكيف أسهم هذا الاستلهام في تحديث أساليب السرد وفتح آفاق جديدة للقصة العراقية، ويقدم نماذج تطبيقية لهذا الاستلهام من أعمال محمود جنداري ومحمد خضير وجليل القيسي وغيرهم.

■■■









نون

أزمة الثقافة.. وثقافة الأزمة!

هذه الأزمات التي تهبط من السماء على عالمنا العربي أو تخرج من باطن الأرض، تتوالى من جميع الاتجاهات وتتناول كل مناحي الحياة بدون استثناء. لا فرق في ذلك بين أزمات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.. سرعان ما تنعكس بكل مضاعفاتها على حياتنا الثقافية والروحية، فتشكل غطاء صفيقًا يحجب الرؤية عن حقيقة المعضلة التي تواجه العقل العربي، فتحول بينه وبين مسايرة التقدم الذي حققته المجتمعات الأخرى في الغرب، وتمنعه من الانفتاح على الحضارات والثقافات المعاصرة.

إذ بينما يعبر العالم ألفية جديدة وقرنًا جديدًا، وتستجمع الشعوب والمجتمعات قواها- وبالأخص تلك التي تستشعر خطورة الجمود في وجه متغيرات عالمية متسارعة لتقطع في قفزة كبيرة ما فاتها من أسباب التقدم، تتعثر أقدام المجتمعات العربية في أزمات ثقافية وفكرية حادة، تتقاطع فيها حرية الفكر والإبداع مع القيود والمعوقات الاجتماعية، وتتصادم فيها حقوق الأفراد مع السلطات الراسخة التي تملك قوى البطش والقمع في المجتمع.. وتشتد حيرة الأجيال الجديدة الصاعدة في سعيها للانطلاق نحو آفاق الحرية والتقدم، دون أن تنجح في التوفيق بين ملكات الفرد وتطلعاته من ناحية، والمرجعيات الدينية والفكرية والأخلاقية الثابتة بكل مكتسباتها وامتيازاتها الاجتماعية من ناحية أخرى.

والنتيجة المترتبة على ذلك، أنك تجد نفسك بإزاء حالة من التشرذم الثقافي، والتخبط الفكري، والضلال الروحي، والنكوص المعرفي.. اتجاهات ثقافية متصارعة فقدت القدرة على الجدل البنّاء والحوار المثمر. وَشِلَلٌ من المثقفين أو مدعي الثقافة تغوص في أوحال اليأس والاغتراب عن المجتمع وعن الحياة الحديثة بكل مقوماتها، تظل ساكنة مستريحة عند مرحلة إدراكية لا تتجاوزها إلى المراحل الأعلى، الأكثر تطورًا وتعقيدًا واقتحامًا، والأقدر على الإحاطة بما جَد على العالم من تطورات علمية وتكنولوجية تكاد تغير وجه الحياة على الأرض تغييرًا كاملاً، وتعيد صياغة الإنسان والمجتمعات صياغة جديدة تمامًا!!

في ذات السنة التي خيل فيها للإنسانية أنها حققت نقلة نوعية إلى منظومة معرفية أكثر تعقيدًا ودقة وشمولاً، وأكثر استجابة لحاجات الإنسان والمجتمعات، في إطار ثورة معلوماتية تفتح آفاق المعرفة بغير حدود، وتحرر الأفراد والمجتمعات من قيود كثيرة تفرضها الأوضاع الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.. تفجرت في معظم المجتمعات العربية أزمات ثقافية وحضارية عنيفة.

في مصر تفجرت نفس المشكلة التي تفجرت في العام السابق حول «وليمة لأعشاب البحر».. وفي هذه المرة حول ثلاث روايات لأدباء شبان لم يسمع بهم أحد، ولا هم على شيء من الموهبة والانتشار. ولكنهم يحاولون سلوك طرق غير ممهدة، فيصطدمون بتقاليد جامدة وعقول مغلقة واجتهادات موروثة. ولأن الدولة ممثلة في وزارة الثقافة هي التي تقوم على نشر هذه الكتب وتوزيعها. فإن ما تحمله صفحات الرواية من ابتذال في اللفظ أو الأسلوب أو الفكر سرعان ما يحسب على أنه ابتذال تبيحه وتروجه الدولة، ومن ثم يجب أن تتبرأ منه ومن مرتكبيه. وأن تدفع بالمسئولين عنه إلى مقصلة التحقيق والإقالة والفصل، وإلا اعتبر ذلك خروجًا من الدولة على الدين والأخلاق ودعوة للانحلال.

أصبح هذا المشهد المأساوي يتكرر بين وقت وآخر. على وتيرة متسارعة في مختلف الأقطار العربية وليس في مصر وحدها. وقد شهدت الكويت أزمة ثلاث مبدعات عربيات صودرت كتبهن وصدرت ضد بعضهن أحكام بالسجن بتهمة التطاول على الذات الإلهية. وتجري في الوقت نفسه مصادرة الصحف وإغلاقها في معظم الدول العربية ابتداء من مصر إلى المغرب والأردن والكويت، باستخفاف شديد وبنفس البساطة التي يتم بها إغلاق دكان يقدم أطعمة فاسدة. تتساوى في ذلك كتب أو صحف تتهم بالابتذال والفسوق، أو صحف وكتب تتهم بالإرهاب والتطرف، وفي كلتا الحالتين يصبح طمس الكلمة المكتوبة وتجريم التعبير عنها، وسيلة لقمع الفكر وفرض القيود على محاولة تحريره من أغلاله.

أزمة الثقافة في مصر. كما في العالم العربي. هي أزمة الحرية: حرية التفكير من ناحية وحرية التعبير من ناحية أخرى. وقد ظلت حرية التفكير عندنا ومازالت محصورة في قوالب جامدة، تستند إلى مرجعيات مطلقة. يعطي أصحاب السلطان لأنفسهم حق تفسيرها وتطبيقها. وسواء كان أصحاب السلطان من أهل الدين أو من أهل الدنيا. فإن الفرد في مجتمعاتنا مازال محرومًا من القدرة على التفكير الحر دون أن يصطدم بغائيات مطلقة وغيبيات مفروضة على المستوى الروحي، أو بنظم سياسية ذات سلطات لا حدود لها على المستوى الواقعي والمادي.

ومن المعروف أن النهضة الأوروبية لم تتحقق إلا بعد أن تمردت شعوبها على هذه القيود، وجعلت من أهم حقوق الفرد أن يمارس حريته في التفكير والتعبير داخل إطار الجماعة. فليست هناك حقوق مطلقة للجماعة على حساب الفرد. كما أنه ليست هناك حقوق مطلقة للفرد على حساب الجماعة. ولكن ثمة معايير نسبية، تتغير بتغير الظروف ودرجة التقدم العلمي والرخاء الاجتماعي والتطور السياسي.

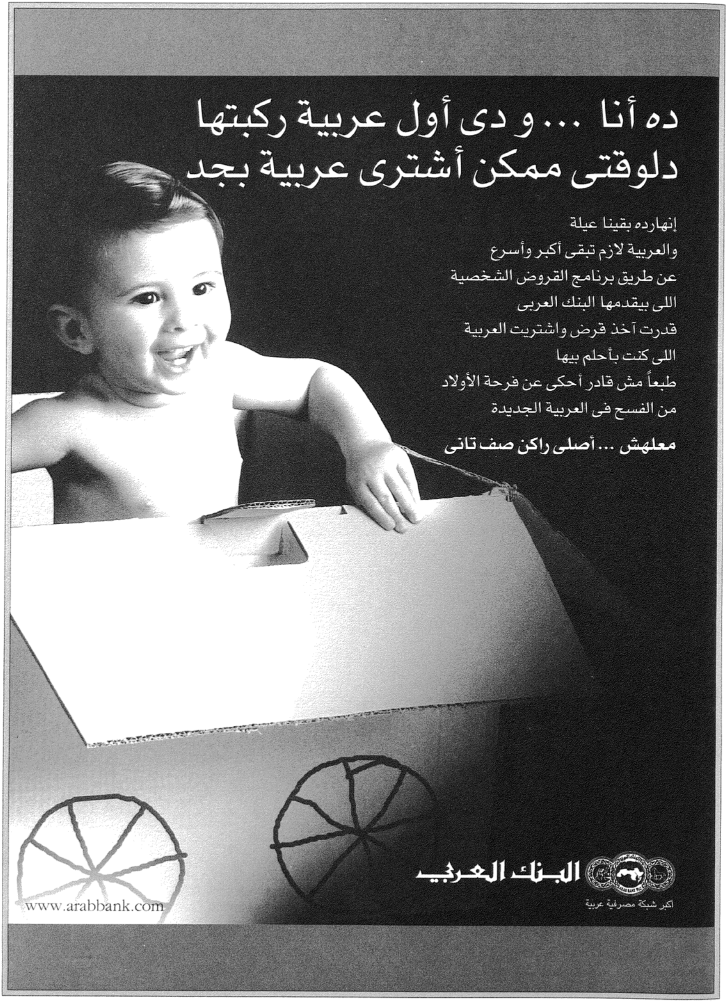
وقد خاض رواد النهضة في أوروبا معارك ضارية من أجل تثبيت الأسس الفكرية والاجتماعية التي تضمن للفرد حقه في ممارسة حريته في التفكير والتعبير. وكانت هذه المعارك هي الأساس الذي أقيم عليه بناء الحضارة الحديثة في كافة المجالات، بعد أن تخلصت من رقابة السلطة الدينية وتعسف السلطة الحاكمة. ولم يكن هذا التغيير الهائل والنهضة الصناعية والعلمية الكاسحة التي اجتاحت أوروبا لتتحقق بدون تحديد دقيق لمفهوم الحرية على جميع مستوياتها، مع الاعتراف للفرد بكيانه المستقل عن الجماعة، والاعتراف للجماعة بحقها في الحفاظ على مصالح المجموع، دون إهدار لكرامة الفرد وإنسانيته وحقه في ممارسة حريته في التعبير والتفكير.

ما هي إذن الأسباب التي حالت بين الأمة العربية وبين المضي قدمًا في طريق النهضة بعد أن طرقت أبوابه في بدايات القرن العشرين؟ لماذا عجزت عن إيجاد نقطة التوازن الصحيحة بين الحرية الفردية والحرية الاجتماعية؟ ولماذا تعثرت أقدامنا في مختلف الميادين السياسية والاجتماعية والفكرية، فضاقت الحياة السياسية إلى درجة الاختناق بينما تتسع آفاق الحرية والديمقراطية على شعوب أخرى من حولنا؟ ولماذا يظل هذا التخلف المعرفي الذي يشغل الأمة العربية من مصر إلى الجزائر ومن الكويت إلى تونس والمغرب، فيحول دون إطلاق حرية التفكير والتعبير في شتى مجالات الفنون الأدبية والموسيقية والغنائية، ويجعل ممارسة الأفراد لهذا الحق عرضة للاتهام بالخروج على الجماعة والعقيدة، وإنزال العقوبات القاسية بهم؟

يعتقد علماء الاجتماع أن ظاهرة «التخلف الثقافي أو المعرفي» تحدث عندما تتغير الثقافة المادية بسرعة تغيرًا شديدًا دون أن تتغير معها الثقافة غير المادية، ويعني بها نظام الحكم والمعايير الاجتماعية والبنى الأخلاقية في المجتمع. ومن الواضح أن معظم المجتمعات العربية لم تخرج بعد من طور البداوة أو الزراعة إلى طور الثورة الصناعية وما بعدها. وعلى حين يتحرك العالم بسرعة بالغة إلى مستويات أعلى وأرقى، وتتحرك معها المنظومات المعرفية، فإن الأمة العربية تجمدت عند حدود الاستمتاع بالمنتجات المادية لحضارة ليست من صنعها هي الحضارة الغربية. وربما تفوقنا في كثير من مظاهرها بدرجة لا تبارينا فيها ذات المجتمعات التي تنتج هذه الأدوات الحضارية، ومن ثم ظهرت هذه التناقضات الصارخة.. التي لا تجد لها حلاً في مجتمعاتنا. فنحن نسمح للمرأة بالعمل والخروج من البيت إلى الشارع، ولكننا لا نعطيها الحق في السفر والانتقال، ونحرمها حتى من قيادة السيارات ومن حقها السياسي في بعض المجتمعات، أي حقها في الترشيح والانتخاب. ونحن نعطي لبعض التيارات الرجعية المتزمتة حقها في التعبير والنشر بأكثر الوسائل الإعلامية انتشارًا، ونحجب عن آخرين حقهم في التعبير لأسباب دينية أو جنسية أو عرقية. وهناك من يطالب بإطلاق حرية السوق دون قيود، ولكنه يعارض حرية تبادل الأفكار والمعلومات ويطالب بوضع قيود على وسائل الاتصال الحديثة مثل الإنترنت. ونحن نسمح بأفلام سينمائية تفرط في الابتذال ونمنعها من الكتب والمجلات، مع أن الأفلام أوسع انتشارًا وتصل إلى جميع الطبقات المتعلمة وغير المتعلمة.

ومعنى ذلك أننا بحاجة إلى انتفاضة ثقافية شاملة، تعيد وضع الأمور في نصابها. وترسي قواعد الحرية في مجالات الفكر والتعبير. وإذا كانت هناك دعوة لعقد مؤتمر للمثقفين، فإن الأولوية يجب أن تنصب على أزمة الثقافة في مصر بالذات. إذ يبدو أن أصداء الأزمات الثقافية المتعاقبة في مصر، تجد لها ردود فعل في الأقطار العربية الأخرى على نحو أشد وطأة وسلبية. ولا جدال في أن الحرية الثقافية تبدأ بالحرية السياسية، وبدونها لن نخرج من أزمات الثقافة إلا لنقع في ثقافة الأزمات دون أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام.

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 26 - March 2001
مجلة شهرية . العدد السادس والعشرون . السنة الثالثة . مارس ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

قمّة عمّان العربية نهايات طُرُق

محمد حسنين هيكل

"مؤسسة" القمة العربية

أحمد يوسف أحمد

باراك .. نابليون إسرائيل الصغير

آفي شلايم

أم كلثوم وملحّنوها

إلياس سحاب

محاربة الاحتكار .. لكن دون قتل المريض

أحمد أبو شادى

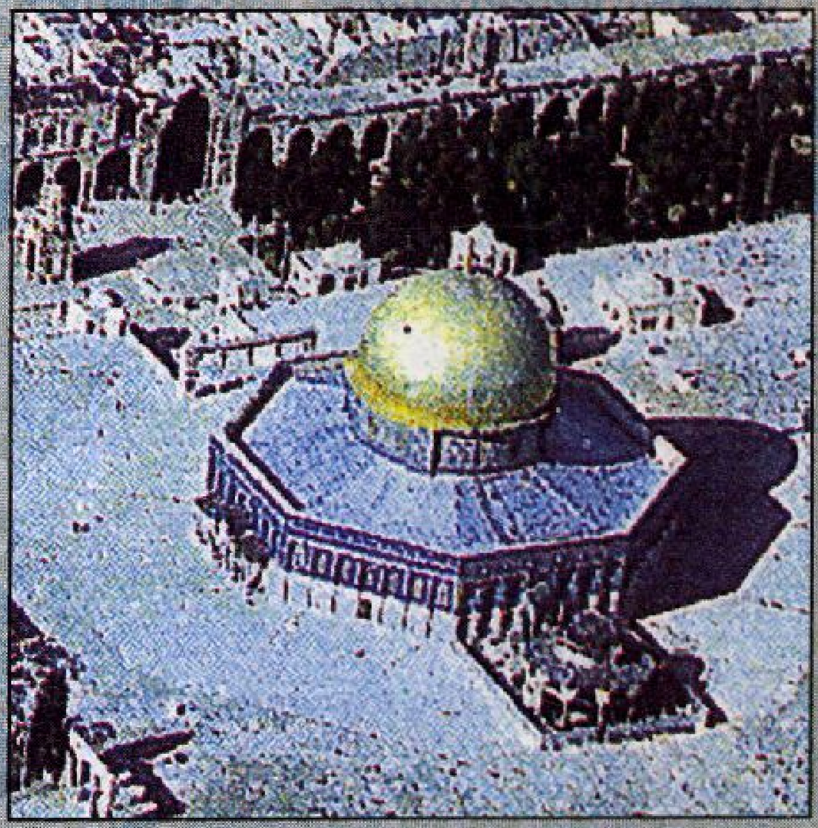
الأقباط يكتبون رواياتهم

يوسف قعيد

لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة؟

سلامة أحمد سلامة

حديث الحفريات الأثريّة



فلسطين لم تكن وطناً لبني إسرائيل

عفيف البهنسى

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد السادس والعشرون
مارس ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

كتّاب العدد:

- أحمد يوسف أحمد.. مدير معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة.
- آفي شلايم.. أستاذ العلاقات الدولية بكلية سانت أنطونز بجامعة اكسفورد. مؤرخ إسرائيلي.
- إلياس سحاب.. ناقد موسيقي من لبنان.
- حازم الببلاوي.. أستاذ الاقتصاد بجامعة الإسكندرية.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفي.
- عفيف البهنسي.. باحث في الفن والعمارة. سوريا.
- قدري سعيد.. رئيس وحدة الدراسات العسكرية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بجريدة الأهرام
- محمد السطوحي.. صحفي مصري مقيم بواشنطن.
- محمد حسنين هيكل.. صحفي.
- نعيم عطية.. ناقد أدبي.
- يوسف القعيد... صحفي وروائي.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجي ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٣٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

عنوان مرحلة

«أصاب إدوارد سعيد.. وأخطأت» هكذا يعترف ـ بوضوح ـ المؤرخ الإسرائيلى الشهير «آفى شلايم» فى مقال مثير نشرته له قبل أسابيع مجلة London Review of Books تحت عنوان لا يقل إثارة : «كيف تخلص آفى شلايم من أوهام باراك».

المقال الذى تنشره «وجهات نظر» بترتيب خاص مع المطبوعة البريطانية الرصينة، يحكى على لسان الكاتب الإسرائيلى القصة المريرة لسنوات أوسلو السبع.

وكانت المجلة اللندنية ذاتها قد نشرت فى أكتوبر ١٩٩٣ وبعد أيام من توقيع اتفاق أوسلو فى حديقة البيت الأبيض مقالين حول الاتفاق. أحدهما للمؤرخ الإسرائيلى والذى تحمس يومها للحدث معتبرا أنه «الخطوة الأولى على طريق السلام الحقيقى» وأنه «أخيراً اعترف كلا الطرفين بالآخر... وقبل مبدأ التقسيم، ووافق على قطع مرحلة تلو الأخرى نحو التسوية النهائية». يومها عبر آفى شلايم عن اعتقاده ـ الذى لم يبد غريباً وقتها ـ بأن الاتفاق سوف يؤدى إلى انسحاب إسرائيلى تدريجى لا رجعة فيه من الأراضى المحتلة، وأنه «لن تمضى خمس سنوات..» (لاحظ أن المقال نشر فى أكتوبر ١٩٩٣!) حتى ـ والكلام مازال لآفى شلايم ـ تكون هناك دولة فلسطينية مستقلة.. وينتهى صراع نصف القرن العربى الإسرائيلى!

المقال الآخر الذى نشرته المجلة يومها كان للمفكر الفلسطينى إدوارد سعيد والذى رفض الاتفاق بوضوح ووصفه بأنه «فرساى فلسطينية» وأنه بتنازله عن الحقوق القومية الأساسية للشعب الفلسطينى.. لن يؤدى إلا إلى مزيد من الدماء.

وبغض النظر عن الجدال الذى لم يتوقف يوما حول «أوسلو» التى يعتقد الكثيرون الآن أن أوراقها قد طوتها أحداث ودماء. فإن آفى شلايم فى مقاله الجديد يعيد «قراءة رأيه القديم» معترفاً بانه كان متفائلاً «أكثر مما يجب» عندما اعتقد أن قادة إسرائيل يستطيعون صنع السلام وبأن خطأه كان فادحاً حينما رحب قبل عام فى مقدمة كتابه الشهير «الجدار الحديدى» بانتخاب باراك. معتبراً أنه «الظهور المبشر بالخير لنابليون إسرائيل الصغير». وأنه يمثل «شروق الشمس بعد ثلاث سنوات مظلمة ومرعبة خضعت فيها إسرائيل لقيادة مؤيدى الجدار الحديدى المتسمين بالجمود».

ويشرح المؤرخ الإسرائيلى كيف أن باراك «الذى خدع الجميع يوم قدم نفسه على أنه التلميذ المخلص لرابين..»، لم يكن مؤهلاً أبدا لصنع السلام. وأنه ـ بحكم تكوينه ـ «يظل جندياً حتى وإن ارتدى الملابس المدنية كرئيس للوزراء». وأننا نسينا يوم جاء أن نطرح السؤال الواقعى «هل يمكنه، وهو أكثر من حصل من الجنود على النياشين والأوسمة، أن ينجح فى صنع السلام مع العرب مثلما نجح فى قتلهم؟» يقول شلايم الذى طرح السؤال أن باراك نفسه تكفل بالإجابة. وأنه هو الذى قضى على اتفاقيات أوسلو، «سيراً على خطى من سبقوه».

ذهب باراك. فلماذا إعادة تقييمه الآن؟

لأنه سواء عاد «نابليون الصغير» إلى المسرح وزيراً للدفاع/ الحرب فى وزارة شارون، أو اكتفى بالانتظار ـ ربما إلى حين ـ على مقاعد الاحتياط خارج الملعب مع غيره من سياسيى/ جنرالات الدولة العبرية، فإن إعادة القراءة فى ملفه ـ وهو المحسوب على الحمائم ـ تبقى «حُكماً باتاً» بشأن سلفه الذى لا يختلف اثنان فى أنه أكثر الصقور تشددا.

أيا ما كانت المقارنة، والفائدة من قراءتها، فإن المؤرخ الإسرائيلى الذى كتب مقاله قبل الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة، يخلص إلى أن هناك إحباطاً فلسطينياً. وشكوكاً عميقة فى قبول الإسرائيليين فى يوم من الأيام طواعية لتسوية تنطوى ولو على النزر اليسير من العدل. فضلاً عن أن هناك اقتناعا كاملا بأن إسرائيل لا تفهم سوى لغة القوة.

لقد تحرر الفلسطينيون ـ يقول شلايم ـ من وهم عملية السلام، فقد افترضوا قبل سبع سنوات أن بإمكانهم التقدم فى اتجاه دولة لهم عن طريق الدبلوماسية وحدها، وليس العنف. أما الآن فليسوا ـ ومعهم كل الحق ـ على يقين من ذلك.

وإذا كانت قراءة مقال آفى شلايم قد تؤدى إلى استنتاج بأن الفلسطينيين ربما وصلوا إلى «نهاية طريق» فإن الأستاذ محمد حسنين هيكل اختار «نهايات طرق» عنواناً لمقاله هذا الشهر. مُطمَئِناً إلى صحَّة القول ـ ومُشفِقاً من دلالته ـ أن مؤتمر القمة العربى المقبل، والذى تستضيفه العاصمة الأردنية عَمّان يومى ٢٧ و ٢٨ من هذا الشهر (مارس ٢٠٠١) ـ سوف يكون «نهاية طريق» فى السياسة العربية. وأنه إذا لم تَتَنَبَّه قِمَّة «عَمّان» إلى أنها قرب «نهاية طريق» فقد يَتأكَّد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بمثل ما أنها «نهاية طريق».

وموضحا أن أول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يَستَخذى فإن الطرَف الآخر مدعو لأن يَستقوى «لأن الغاية النبيلة لا تُحَقِّقها وسيلة ذليلة». يقلب هيكل كعادته فى صفحات «التاريخ» ليبين لنا كيف أنه يُواصِل حركته، ويضع نقاط تَحَوُّله، ويُحَدِّد «نهايات طرُقه»، سواء تَنَبَّه أصحاب القرار فى حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك ـ ومثال ذلك الأشهَر فى التاريخ القريب ـ يحكى هيكل ـ كيف أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ وهو «نيفل تشمبرلين» لم يكن يُدرك وهو يحمل مظلَّته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألمانى «أدولف هتلر» فى «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليُبَشِّر الشعب البريطانى (وشعوب أوروبا) ـ بـ«السلام فى زماننا» ـ أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق» ـ وأنه بوَهم صُنع «السلام فى زماننا» ـ جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافُت على السلام» دليلاً على الضعف والوَهَن، وشاهِداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تَحَمُّل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

ومنبها إلى أن اعتبار «عَمّان» وقمتها المقبلة «نهاية طريق» ـ ليس مُؤدّاه أن تَتَحَوَّل القمة إلى مجلس حرب، يوضح الأستاذ هيكل أنه من الصعب عقلاً أن يكون بديل «التهافُت فى طلب السلام» هو «الاندفاع إلى حمل السلاح»، إذ إن «السياسة» الواضحة تُعزِّزها «الإرادة» قد تغنى عن الحرب المسلحة ونزيفها الدَمَوى ـ فى حين أن «السياسة» المتَرَدِّدة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة فى التّيْه أو مذبحة فى العراء!

ويستكمل الأستاذ هيكل ما طرحه فى مقاله الأخير لـ «وجهات نظر» عن «حدود السلاح» ليوضح أن السياسة الإسرائيلية هى الأخرى عند «نهاية الطريق». وإن كان الذى أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وَهْم السلام» كما هو الحال على الناحية العربية، وإنما «وَهْم السلاح». وأنه عندما يطيح «السلاح» مُتجاوزاً حدوده ـ وكل حدود ـ فإن أداءه يَتَنازل من «القتال» إلى «القتل». وممارسة «القتل» وإن كانت خطرا على الذين يَتعَرَّضون لنيرانها ـ فهى أخطر فى المدى الطويل على الذين يمارسونها.

وبعد أن يلاحظ الأستاذ هيكل أنه منذ بدأت عملية السلام مع مصر فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ فإن رئاسة الوزارة الإسرائيلية ووزارة الخارجية بَقِيَتا فى يَدِ العسكريين طول الوقت أو معظمه، يعرض سيناريوهات مختلفة لما قد يقدم عليه شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى الجديد. والذى قد يُبادر بتوجيه رسالة اعتدال لمؤتمر القمة العربية فى عَمّان بظَنِّ تفويت الفرصة على أى «مُتَشَدِّد» عربى. فيَتَوَهَّم بعض العرب (كالعادة) أنه من المناسب «الانتظار عليه»، و"أنه من العقل تَذَكُّر أن شارون «الجنرال»، غير شارون «الوزير»، غير شارون «المرشح لرئاسة الوزارة»، غير شارون «رئيس الوزراء». ناسين ربما أن «شارون» كـ «ضابط عمليات خاصة» وليس «ضابط تخطيط إستراتيجى» ـ رَجُلٌ بالطبيعة لا يَقدِر على الانتظار. وأنه لم يعد سراً أن الولايات المتحدة الأمريكية ـ سواء أدركنا ذلك أو تجاهلناه ـ قامت بـ«تأميم الشرعية الدولية» بأن نقلت مِلكِيَّتها أولاً إلى مجلس الأمن، ثم قامت هى بعد ذلك «بخصخصة مجلس الأمن» وتحويله إلى مِلكِيَّتِها الفردية، تَتَصرَّف فيه كما يَتَصرَّف المالِك فيما يَملك!

جاء شارون ـ إذن ـ بعد أن عبّد له باراك الطريق، وتقترب «عمّان». ويبدو أن «نهاية عملية السلام» لم يعد مجرد عنوان لآخر كتب إدوارد سعيد. إذ لعله أصبح الآن، باعتراف حتى أكثر المتفائلين: «عنوان مرحلة».

وجهات نظر

قِمَّة عَمَّان القادمة

نهايات طُرُق



محمد حسنين هيكل

"١"

«نهاية طريق»

لا يحتاج أى مُتابع مشغول، أو مُراقب مُهتَم - إلى مقدمات من أى نوع حتى يقول مُطمَئناً إلى صِحَّة القول - ومُشفقاً من دلالته - أن مؤتمر القِمة العربي المَقبل، والذى تستضيفه العاصمة الأردنية عَمّان يومى ٢٧ و٢٨ من هذا الشهر (مارس ٢٠٠١) - سوف يكون «نهاية طريق» فى السياسة العربية.

وليس ضرورياً أن يوافق المشاركون فى القمة على صِحَّة هذه المقولة، ومن ثم يُنشِئون خطاباً مُختلفاً - أو لا يوافقون ويجىء الخطاب بعزمهم على مواصلة «المسيرة» وكأن «السياسة» العربية قافلة على طُرُق التجارة القديمة بين أوروبا وآسيا، تلتزم مسارات تُكرِّر نفسها وتقتفى أثر بعضها حتى لا تتوه أو تتأخر عن أسواقها التى تنتظر التوابل والبُخور .. الذهب والحرير، وغيرها من بضائع الشرق!

والحاصل أن «التاريخ» يُواصل حركته، ويضع نقط تَحَوُّله، ويُحَدِّد «نهايات طُرُقه»، سواء تَنَبَّه أصحاب القرار فى حينه واستجابوا، أو أنهم غفلوا حتى فات الأوان أو أوشك - ومثال ذلك الأشهَر فى التاريخ القريب أن رئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٣٨ وهو «نيفل تشمبرلين» لم يكن يُدرك وهو يحمل مظلّته الشهيرة ويطير لمقابلة الزعيم الألمانى «أدولف هتلر» فى «ميونيخ» ويعود من هناك بعد يومين ليُبَشِّر الشعب البريطانى (وشعوب أوروبا) - بـ«السلام فى زماننا» - أن «ميونيخ» كانت «نهاية طريق» - وأنه بوَهم صُنع «السلام فى زماننا» - جعل الحرب العالمية الثانية حتمية لأن «هتلر» رأى «التهافُت على السلام» دليلاً على الضعف والوَهَن، وشاهداً على تآكل الإرادة السياسية وقصورها عن تَحَمُّل مسئولية الصراع من أجل الحياة والصراع من أجل السلام.

لم يُدرك «نيفل تشمبرلين» وهو يُبَشِّر بـ«السلام فى زماننا» أن استرضاء العَدُو «بأى ثمن» هو أقرب الطُرُق إلى الحرب، لأن التهافُت على الطلب مثير للطمَع، ولأن الغاية النبيلة لا تُحَقِّقها وسيلة ذليلة. فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى طرف لنفسه أن يَستَخذى فإن الطرَف الآخر مدعو لأن يَستَقوى. وتلك طبائع أشياء قبل أن تكون قوانين صراع.

وتؤكد وثائق الحرب العالمية الثانية - وهى اختبار عظيم للسياسات والإرادات - أنه لم يكن مطلوباً من «تشمبرلين» عندما قصد إلى «ميونيخ» أن يصيح بـ«أنها الحرب إذا واصَل هتلر سياسة ضم أجزاء من أوروبا لُقمة لُقمة» - وإنما كان يكفيه فى ذلك الوقت إدراك أنه وَصَلَ إلى «نهاية طريق» مع «هتلر»، وأنه لم يَعُد أمامه غير القول له بوضوح كاف أن «بريطانيا ليس فى مقدورها قبول مَطالب التَوَسُّع الألمانى مهما كانت ذرائعه»، ثم كان عليه أن يقول كلمته فى «ميونيخ» - ويَعود منها إلى لندن ليضع «الإرادة» فى خِدمة «السياسة».

لكن «تشمبرلين» لم يَتَنَبَّه فى «ميونيخ» إلى أنها «نهاية طريق»، وتَصَوَّر أنه هناك يُواصل «مسيرة سلام»، وكان هو أول دافع للتكاليف حين تَحَوَّل «التهافُت» على طلب السلام إلى «عاصفة» حرب تمطر دَماً - ولم يَبق له غير الخروج من رئاسة الوزارة البريطانية، وإفساح المجال لخصمه «ونستون تشرشل» ليُحَدِّد الخط السياسى ويَضَع «الإرادة» فى خدمته، بحيث تكون للسياسة قوة فعل تَحتَرم نفسها، وتَنتَزِع احترام الآخرين حين يرون السلام يَعرض نفسه واقفاً على قدَمَيه وليس راكعا على رُكبَتَيه، مُتَنَبِّهاً إلى أنها الآن «نهاية طريق».

ولكى لا يكون هناك التباس فإن «السياسة» الواضحة تُعزِّزها «الإرادة» قد تغنى عن الحرب المسلحة ونزيفها الدَمَوى - فى حين أن «السياسة» المتَرَدِّدة تجعل «نهاية الطريق» مهلكة فى التّيْه أو مذبحة فى العراء!

وفى الظرف العربى الراهن فإن اعتبار «عَمّان» وقمتها المقبلة «نهاية طريق» - ليس مُؤدّاه أن تَتَحَوَّل القمة إلى مجلس حرب. فمن الصعب عقلاً أن يكون بديل «التهافُت فى طلب السلام» هو «الاندفاع إلى حمل السلاح»، وإذا انحصر الفعل بين المطرقة والسندان على هذا النحو، فتلك دلالة إفلاس السياسة ووقوعها فى مأزق أضاعت فيه خياراتها ولم يَعُد أمامها غير بديلين: «الانتحار» أو «الشهادة» - وكلاهما ليس مطلوباً فى صراعات أزمنة جديدة لا تضع - ولا تملك أن تضع - قيداً على البشر الأحرار فى عقلانية التفكير ومعه جسارة المعرفة، وفى حق الاختيار ومعه حكمة الإرادة!


جامعة الدول العربية

قمة عمان

لأن الغاية النبيلة
لا تحققها وسيلة ذليلة.
فأول قوانين الصراع أنه حين يرضى
طرف لنفسه أن يستخذى فإن
الطرف الآخر مدعو لأن يستقوى

وربما أن الخطر الأكبر على القمة القادمة في عَمَّان أن يَفوت عليها أنها عند - أو قرب - «نهاية طريق»، ثم تأخذها أوهام شاعت أخيراً في التمهيد لاجتماعها بزعم أنه مَطلبٌ لشعوب الأمة اشتد إلحاحه وزادَ، وهنا فإن «مجرد الاجتماع في حَدٍّ ذاته كافٍ لتحقيق المطلوب منه».

وذلك وَهْمٌ لا تُبَرِّره حقيقة. وفوق ذلك خطأ فادح لا يَسمَح به واقع الحال.

ومقولة أن «مجرد وقوع اجتماع ما في حَدِّ ذاته مُحَقِّقٌ لهَدَفه» - مقولة ليست جديدة في العصر الحديث، وفي الواقع فإنها تَعود إلى مُنتصف الخمسينات من القرن العشرين (ولقد أتاحت لي الظروف أن أحضر مناسباتها الشهيرة شاهد عيان - وصَدَّقتُ وصَدَّقَ الجميع) - وأضافَ التاريخ مصداقيته إلى تلك المقولة مَرَّتَين على الأقل (في زماننا!).

■ المرة الأولى كانت في مناسبة مؤتمر «باندونج» (إندونيسيا) سنة ١٩٥٥ - وهو مؤتمرٌ تَجَمَّعَت فيه دُوَل آسيا وأفريقيا المستقلة، ومعها حركات التحرير الوطني في القارتين. وهَدَف المؤتمر إنهاء الحقبة الاستعمارية وتخليص الشعوب من سيطرة استَبَدَّت بالأوطان والناس والموارد طوال قرون، وهنا كان مجرد اجتماع المؤتمر دعوة لا تحتاج إلى قرارات - ونداؤها أنه قد حان وقت النهوض. وكان الصدى الأول لـ«باندونج» هو موقعة السويس، وفيها فإن مصر لم تكن في مقاومة العدوان وحدها، وإنما كان خط المواجهة ممتداً من «داكار» (السنغال) إلى «دكا» (بنجلاديش) ووراءهما حتى «كاراكاس» (فنزويلا).

وقد جَرَت موقعة السويس سنة ١٩٥٦ (سنة واحدة بعد «باندونج»)، وبعدها بسنة أخرى كانت الإمبراطورية البريطانية تتساقط، وكان رئيس وزرائها «أنتوني إيدن» ينهار عَصَبياً وصحياً، ووَقَفَ خَلفه من حزب المحافظين «هارولد ماكميلان» يُعلن في خطاب شهير (أبريل ١٩٥٨ أمام مجلس العموم) «أنَّ رياح التغيير تهب على آسيا وأفريقيا، وأن الإمبراطورية البريطانية عليها أن تتراجع حتى تستطيع الحياة في عالمٍ مُتَغَيِّر».

وهكذا كان مجرد انعقاد مؤتمر «باندونج» هو جدول الأعمال وهو إعلان القرارات في نفس الوقت.

■ والمرة الثانية، كانت في مناسبة مؤتمر القمة الدولية في جنيف سنة ١٩٥٥، وقد شارك فيه الأربعة الكبار حين تَخَوَّفوا من أن تَتَحَوَّل الحرب الباردة بينهم إلى حرب ساخنة، والتقى في جنيف رؤساء الولايات المتحدة («أيزنهاور») وبريطانيا («إيدن») والاتحاد السوفيتي («بولجانين» و«خروشوف») وفرنسا («إدجار فور»)، ولم تكن قرارات المؤتمر المعلنة هي النتيجة الأهم، ولكن الأهم كان ما أطلق عليه «روح جنيف»، فقد كانت هذه «الروح» بمثابة أمَلٍ تَعَلَّقت به احتمالات وفاق دولي يضبط الحرب الباردة لا ترتفع حرارتها وتَصل إلى درجة الحُمَّى بحرب يَصعُب عزلها عن الأسلحة النووية، لأنه في حروب القوى الكبرى الغالبة لا يَسمَح طَرَفٌ لنفسه أن يَنهَزِم، وبالتالي فإنه عند لحظة مُعَيَّنة يراها حاسمة لن يُحَرِّم على نفسه سلاحاً حتى وإن أجمَعَ البَشَر على تحريمه!

وهكذا فإن مجرد انعقاد القمة الدولية الرباعية سنة ١٩٥٥ والأمَل الذي أشاعته «روح جنيف» - كانا أهم من جدول أعمال يعتمده المؤتمر، ومن إعلان قرارات تَصدُر عنه.

وذلك لا ينطبق على مؤتمر عَمَّان القادم.

فلا هو مثل مؤتمر «باندونج» (١٩٥٥) نداء إلى شعوب دخلت حديثاً إلى ساحة التحرير - بأحلامها العذراء..

ولا هو مثل مؤتمر «جنيف» (١٩٥٥) قادر على أن يشيع «روحاً» تَنشُر الأمَل وتَحصُر الشر.

وفي الحالتين - فقد كانت تلك «بداية طريق» - وعلى عَكس عَمَّان التي هي الآن «نهاية طريق».

فلا الأحلام العربية عذراء - ولا الروح أمَلاً مُلهماً!

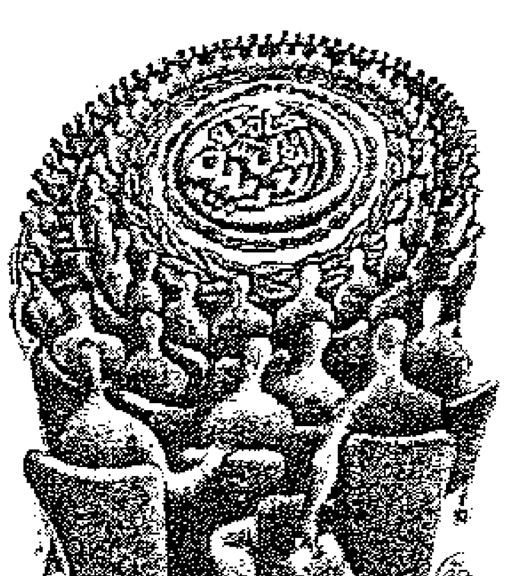
ولعل الأخطر من مقولة أن «مجرد انعقاد» قمة عَمّان يكفيها - هو ذيوع مقولة أخرى تَلحَق بها ملخصها «أنه وقد تَقَرَّر أن تكون القمة العربية دورية - كل سنة - فإن ما قد يفوت في مؤتمرٍ يمكن اللحاق به في مؤتمر يليه، وذلك تَصَوُّر ينقصه التنَبُّه إلى أنها «نهاية طريق»، وأن «الأمة» - خلافاً «للقمَّة» - واعية بقرب النهاية، وذلك سرُّ إلحاحها على الاجتماع وتَزايُد الإلحاح.

والحاصل أنه منذ قمَّة القاهرة (أغسطس سنة ١٩٩٠)، وفي الأجواء الموحشة تلك الأيام، تَحَوَّلَت معركة إخراج العراق من الكويت إلى عملية مقصودة ومنظمة لتدميره - وتواترت الظنون بعدها أن قمَّة سنة ١٩٩٠ سوف تكون آخر القمَم لأن هناك إرادة دولية - أمريكية بالتحديد - رَسَمَت بتجميد الوضع العربي عند تلك اللحظة التي انقَسَمَت فيها الأمة، والتي وَقَعَ فيها وطن من أهم أوطانها أسير محنة طاغية لم تَقتَصر على حصار العراق واعتصاره، وإنما شاعت نتائجها المأساوية إلى كافة أرجاء العالم العربي، وتباعَدَت الأهداف وتقاطعت الطرُق، وتَشرذَمَت الولاءات إلى درجة المساس بالهَوية، وتلك كلها من زمَنٍ طويل مَطالب مرغوب فيها ومَقصودة من جانب قوى كثيرة أولها إسرائيل!

وخلال السنوات من ١٩٩١ وحتى ١٩٩٦ كانت الأمة تستشعر المحنة وتُنادي زعماءها حتى تُطمئن نفسها في أجواء الوَحشة إلى أن هناك مسئولية وهناك مسئولين على مستواها - لكن النداء ظلَّ مُعَلَّقاً بغير جواب!

ووَقَعَ في رَوع الناس أن هناك «فيتو» أمريكي قائم ومرجعه مطلب الولايات المتحدة في استمرار حصار واعتصار العراق، ثم إن الولايات المتحدة - أساساً ومن حيث المبدأ - تَكرَه القمَم العربية «على ظن أن الزعماء العرب حين يجتمعون يشغلهم أن يَستَرضوا جماهيرهم خطابياً - ومن ثم فإن انعقاد أي قمَّة معناه مُزايدات تجيء عند السَقف الأعلى للمطالب العربية. ولكن المشكلة - حتى بـ«اعتدال» التصرفات رغم «حماسة» القرارات - أن ما يَصدُر عن القمَم العربية يُحدث لدى الشارع العربي نوعاً من التعبئة المعنوية تَتَحَوَّل بدورها إلى عنصر ضغط.

وهكذا يبدو الأسلم - من وجهة النظر الأمريكية - «وضع فيتو» يَمنع انعقاد قمَّة عربية، خصوصاً بعد «مدريد» وبعد «أوسلو» - حيث ظَهَرَت احتمالات لتسويات مع إسرائيل قادَ إليها اليأس أكثر مما دَفَعَ الرجاء - وعلى هذا الأساس فتلك أحوال من الأفضل تثبيتها



وتركها لتفاعلاتها لا يمسها أحد بكلمة أو حركة، ولا يضيف إليها ما يُوقظ أو يثير.

وكان ذلك ما وَقَعَ في رَوع الناس ابتداء من قمة سنة ١٩٩٠، وإلى حَدٍّ ما فإن بعض منطقه (وبهدى الوقائع) لم يكن مُجانِباً بالكامل للصواب.

لكنه في يونيو سنة ١٩٩٦ - جرى توجيه الدعوة إلى مؤتمر عربي على مستوى القمة انعقد فعلاً لثلاثة أيام من ذلك الشهر (يونيو) ١٩٩٦ - وتَبَدَّى انقسام بين المهتَمِّين بالأمر حول السبب الذي من أجله جاءت الدعوة إلى القمة ولحقتها الردود بالإيجاب:

- كان هناك مَن رأوا أنها يقظة المسئولية جَعَلَت الزعماء العرب يَعصون «الفيتو الأمريكي» ويَتَحَدَّونه.

- لكنه ظهَرَ في نفس الوقت مَن رأوا أن القمة كانت «سَماحاً» أمريكياً يريد امتصاص مفاجأة العرب بنجاح «بنيامين نتنياهو» «المتَشَدِّد» ضدَّ «شيمون بيريز» «المعتَدل» في انتخابات رئاسة الوزارة (١٩٩٦) في إسرائيل.

أي أن القلق من نتائج الانتخابات الإسرائيلية ووَقع صدمتها على العَرَب هو الذي استوجب «السماح» الأمريكي خشيةً من يأس عربي ينفض يده من التفاوض ويُعاند في رَفض «الحل»!

ولتلافي هذا اليأس جاء «السماح» على أمَل أن اجتماعاً عربياً على مستوى القمة - بعد طول انتظار وإلحاح - يستطيع تهدئة الشارع العربي وتَطرية أجوائه، وبالتالي يخف الضغط عن حُكامه ولعلهم يُجَرِّبون مع «الصقور» الإسرائيليين وأولهم «نتنياهو» - ثم يستمر «التفاوض» وتتواصَل «المسيرة»!

وطبقاً لهذا الرأي فقد زادَ على ذلك وفوقه - أن الذين «سمحوا» بالقمَّة وقتها، أو «لم يَعتَرضوا» عليها، انتهزوا الفرصة «لتمرير» قرار عربي لم يُطالب به - من قبل - أحد باعتبار السلام خياراً إستراتيجياً لكل شعوب المنطقة. وكان الادِّعاء الدافع لـ«تمرير» ذلك القرار أنه «يُحرج نتنياهو أمام العالم - !! - عندما يَتَشَدَّد في مواجهة أمة أجمَعَت رأيها على خيار السلام»!

وهكذا فإن «السماح» بالقمَّة استعار أسلوب «المنشار» في تحقيق أغراضه طالعاً ونازلاً!

ومَضَت سنوات من ١٩٩٦ حتى سنة ٢٠٠٠ والشارع العربي يسأل عن القمة العربية - ماذا جرى لها؟ وأين غابت؟ ومتى موعدها؟ - واشتد الإلحاح مرة أخرى عندما عادَ حزب العمل الإسرائيلي إلى الحُكم مرة ثانية بعدَ سقوط «نتنياهو». والنتيجة أن المدَني الذي ظهر حمقه ترك مكانه لعسكري تأكَّدَ حمقه!

وبخيبة الأمَل في «باراك» لاحقة بخيبة الأمَل في «نتنياهو» - صَدَرَت دعوة إلى مؤتمر جديد لقمة عربية انعقد ليوم واحد - أربع وعشرين ساعة - نهار ٢١ ونهار ٢٢ أكتوبر سنة ٢٠٠٠ - وكان بين قراراته أن تكون القمة دَوريَّة كل سنة - «على نحو ما يجري في مؤتمرات القمة الأفريقية، وفي مؤتمرات قمة دُوَل الأطلسي أو دُوَل السوق الأوروبية».

■ وكان التَمَثل بالقمم الأفريقية - لسوء الحظ - تَشبيهاً غير مطلوب، لأن القارة السوداء - رغم القمم الدورية - دَخَلت إلى ليل غارقٍ في الدَم - وطويل، والشاهد الأكثر صدقاً على ما جرى فيها أحد كبار أبنائها وهو نَفسه الأمين العام الحالي للأمم المتحدة «كوفي عنان»، الذي تَحَدَّث أخيراً - نهاية الشهر الماضي - أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في «دافوس» ليقول إن «القارة الأفريقية تعيش مأساة مُرَوِّعة، والسبب الرئيسي فساد زعمائها وساستها (أبطال القمَم) إلى درجة لا يُرجى معها في الظروف القائمة - صلاح!»

والظاهر أمام الجميع الآن أنه عندما جاء الاستقلال لمعظم الدول الأفريقية - فإن الزعماء الذين وصلوا على القمة تَصَوَّروا أنهم «البديل الوطني» عن المستعمرين السابقين، والنتيجة أن الحكومات الأفريقية الجديدة راحت - بعد الاستقلال كما كان حال الإدارة الاستعمارية قبله - تعتبر نفسها المالك الشرعي للثروة والمقاسم فيها للقوى الكبرى المسَيطِرة والشركات الدولية الطامعة.

■ وكان التَمَثُّل بقمَم دُوَل الأطلسي أو دُوَل السوق الأوروبية ادعاء لا تَقدر عليه القمم العربية، لأن قمَم الأطلسي والسوق الأوروبية تلاقي إرادات تَعرف أنها في خدمة الأوطان

الخطر الأكبر على القمة القادمة في عمان أن يفوت عليها أنها عند - أو قرب! - «نهاية طريق»، وهنا فإن «مجرد الاجتماع في حد ذاته ليس كافيا لتحقيق المطلوب منه»

وليس العكس، وقد وَصَلَت إلى درجة من النُضج تجاوزت الاحتفالات والمراسم - بحيث أصبحت اجتماعات الرؤساء مواعيد عَمَل لا يضيع وقته، وهى في كثير من الأحيان عُطلة نهاية الأسبوع في بَيت ريفي يَعرف فيه الأصدقاء كيف يفتحون قلوبهم لبعضهم، أو قبل أو بعد غداء أو عشاء خفيف في مَطعَم لا يحتاج فيه الزملاء إلى مُبالغات المظاهر. تنزل عليها غلاظة الأمن، ويَتَحَوَّل لقاء خُلَطاء الأصدقاء والزملاء - إلى مُباراة في الشكليات والرسميات والأبَّهَة بين السلاطين!

وبصرف النظر عن أى شيء وكل شيء فإن القضية الأكبر هى ما إذا كانت قمَّة «عَمَّان» تُدرك أنها قرب «نهاية طريق»؟

وهو سؤالٌ مُبهمٌ - وفي نفس الوقت سؤالٌ خطر.

ووجه الأهمية والخطر في السؤال أنه إذا لم تَتَنَبَّه قمَّة «عَمَّان» إلى أنها قرب «نهاية طريق»، فقد يَتأكَّد بأسرع مما يتوقع أحد أنها «نهاية القمة» بمثل ما أنها «نهاية طريق» - ذلك أن أهمية المؤتمرات والاجتماعات لا تتعلق بألقاب المشاركين فيها (ملحوقة بأوصاف الجلالة، والفخامة، والعظمة، والسُمُو، والدولة، والمعالي، والسعادة، إلى آخره!) وإنما تتعلق بقيمة ما تَتَوَقَّعه الشعوب والأمَم منها - فإذا لم تجد الشعوب والأمَم ما كانت تأمله عندما استدعت القمم وطلبتها وألَحَّت في الطلب - فهنا الخطر. حتى وإن تَكَرَّر بعد ذلك انعقاد القِمَم وأصبح لها عَدَد يُحصي دون حِساب يُحسَب!

2

وإسرائيل أيضاً عند «نهاية طريق»

وفي ذات الوقت فإن السياسة الإسرائيلية هى الأخرى عند «نهاية الطريق».

لكن الذى أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وَهْم السلام» كما هو الحال على الناحية العربية، وإنما «وَهْم السلاح».

وكان المشروع الصهيوني منذ بدايته - قبل مائة عام - يُقَدِّر للسلاح دَوراً لا يتجاوزه، ثم تَحَوَّل هذا الدور مع التجربة العَمَلية حتى تَغَيَّر - بالكامل تقريباً.

● والذى جرى فعلاً أنه على امتداد نصف قرن، أى من بداية المشروع وحتى سنة ١٩٤٨ - كان المطلوب من السلاح - طرد أكبر عَدَد من الفلسطينيين من وطنهم، خصوصاً بعد أن اتضح أن فلسطين ليست - كما تَصَوَّر «هيرتزل» - «أرضاً بلا شعب تنتظر شعباً بلا أرض». وقد أدرك «هيرتزل» هذه الحقيقة أثناء قيادته للحركة الصهيونية، وراعه بُعدها عن مُخَيِّلته (وكان الذى حَدَث أن «هرتزل» الذى أراد أن يستوثق من استعداد أرض فلسطين للاستيطان اليهودى بَعَث باثنين من حاخامات «فيينا» لمُهِمَّة استطلاع، ومن فلسطين أرسَل إليه الاثنان «تلغرافاً» يقول له بالرمز أن «العروس جميلة - لكن المشكلة أن لديها زوجاً» - يَقصد الحاخامان أن «الأرض عليها شعب».)

وفي هذه المرحلة - ومن مُخَيِّلة «تيودور هيرتزل» إلى مُخطَط «دافيد بن جوريون» - كانت مُهِمَّة السلاح في المشروع الإسرائيلي أن يَتَكَفَّل بقتل الزوج، أو طرده على الأقل لكى يَحِل شعب مَحَل شعب، أو زوج مكان زوج.

● وعلى مدى ما يَقرُب من عشرين سنة تالية - من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ - كانت الإستراتيجية العُليا لإسرائيل تُعطي للسلاح الإسرائيلي دَوراً مُحَدَّداً مَطلبه إبعاد الواديين الكبيرين - وادى الفرات ووادى النيل - عن منطقة الشام التاريخية الممتدة والواصلة بينهما. والمطلوب من وراء هذا الدور أنه إذا كان لا بد للمشروع الإسرائيلي أن يعيش في «الوطن الموعود» فإن البيت الفلسطيني وحده لا يكفي، وإنما لا بد لسلامة البيت من مُحيط أمني يعطيه مساحة كافية للتمكن والنفوذ، لأن الأوطان لا يُدافَع عنها عند حدودها، وإنما يُدافَع عنها في إقليمها جواراً ومحيطاً.

وفي هذه الفترة تَرَكَّزت قوة السلاح الإسرائيلي أكثر على مصر بالذات تقصد إبعادها عن الشام بالذات. وهنا كانت القوة المصرية - العسكرية أولاً - خطراً لا بد من إزاحته بكل الوسائل حتى يبتعد، أو يَحِل قتله إذا عاند (وهنا وجه شَبَه بين وجود الجيش المصرى على حدود فلسطين - وبين وجود الشعب الفلسطيني على أرضه - كلاهما يَتَعَيَّن عليه أن يرحل بعيداً عن فلسطين بالهجرة - فإذا عاند كان على السلاح أن يَتَكَفَّل به!).

● وفي ظروف يونيو سنة ١٩٦٧ وإلى هذه اللحظة (مارس ٢٠٠١) - وَقَعَ المحظور الذى كان يَخشاه كثيرون من «المعتدلين» الذين شاركوا في إقامة المشروع وساعدوا على تحقيق مهامه، وبينهم على سبيل المثال رَجُل مثل «ناحوم جولدمان» الذى رأس «المؤتمر اليهودى» (وهو قيادة التنظيمات اليهودية في أمريكا وأوروبا)، ورَجُل مثل «موشي شاريت» الذى أدار السياسة الخارجية للوكالة اليهودية قبل قيام الدولة (وأصبح وزيراً للخارجية بعد قيامها، ثم تَولى رئاسة الوزارة لسنة كاملة)، ورَجُل مثل الدكتور «يهودا ماجنس» (الذى قام على بناء النظام التعليمي في دولة جاء سكانها من ٩٢ دولة أخرى). وغير هؤلاء كثيرون فهموا وتَصرَّفوا بإدراك أن قوة السياسة - وليست قوة السلاح - هى أمان اليهود طوال تاريخهم - (قبل الدولة وبعدها).

كانوا جميعاً يدركون حاجة المشروع الصهيوني إلى استخدام السلاح - لكنهم جميعاً جاهدوا حتى يلتزم السلاح حدوده ولا يفسد على المشروع دعاواه المعنوية وضروراته العملية!

ثم وَقَعَ المحظور في تلك الأيام المشهودة من يونيو سنة ١٩٦٧، ففي لحظة انتظار التزمها القرار السياسي الإسرائيلي (عن رغبة في الاطمئنان أكثر إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية وقوتها وقيادتها ورئيسها في ذلك الوقت «ليندون جونسون» - جاهزون جميعاً لمعركة مع مصر) - اندفع السلاح إلى ما يمكن اعتباره نقطة تَحَوُّل في التاريخ الإسرائيلي، إذ اعتبر نفسه مُكَلَّفاً بمستقبل إسرائيل ومصيرها، وهنا قاطع الانتظار السياسي وقطعه، ثم استولى على الحرب، ومع استيلائه على الحرب استولى على السياسة، وتجاوز واخترق حدوداً لم تطلبها إستراتيجية إسرائيل العُليا كما قَدَّرها الآباء المؤسسون الأوائل، بل حاذرتها مُتأكِّدة أنها على المدى البعيد مَحكومٌ عليها!

تَجاوَز السلاح الإسرائيلي حدوده واحتل كل سيناء (في حين كان المطلوب - وفق التخطيط الإستراتيجي - أقل من نصفها)، ثم تَجاوَز السلاح حدوده فاحتل كل الضفة الغربية للأردن بما فيها القدس (في حين كان المطلوب - سياسياً ومعنوياً - وعند الضرورة حائط المبكى وحده)، ثم تَجاوَز السلاح الإسرائيلي حدوده فصَعَدَ إلى هضبة الجولان (ولم يكن ذلك مطلوباً من الأصل لأن الإستراتيجية العليا لإسرائيل كانت تُحاذر من جراحات دموية في الشام، فهى تريد المنطقة سليمة بقدر الإمكان - هادئة بقدر الإمكان - بلا دَم في الحاضر، ولا ثأر في المستقبل!)

وكان تجاوُز السلاح لدوره نذير شُؤم، وقد رآه «ليفي أشكول» رئيس وزراء إسرائيل في وقته، وأدرك مغزاه، وعَبَّر عن قلقه من عواقبه عندما التفت إلى عَدَد من زملائه الوزراء (وفق ما سجله مدير مكتبه الجنرال «إسرائيل ليور») وقال بغضب مكبوت ممزوج بأسي مرير: «ماذا يريد هؤلاء الجنرالات؟ هل يريدون لإسرائيل أن تعيش بالسيف، وأن تعيش بالسيف وحده، وأن تعيش بالسيف وحده إلى ما لا نهاية؟»

وكذلك كان!

● والنتيجة أنه في ثلث القرن الأخير وَجَدَت إسرائيل نفسها في الشام دولة إمبراطورية (وفي الإمبراطوريات كبير وصغير) - لكن الإمبراطورية مهما كان حجمها قد تكون لها مزايا مُغرية، لكن لها مع مرور السنين تكاليف مُرهقة، خصوصاً عندما تتنازل كافة عوامل القوة وتترك مكانها للسلاح وحده.

ولقد تعلَّمَت الإمبراطوريات - حتى تلك الكبيرة والقادرة - أن تكاليف الإمبراطورية - حين يكون اعتمادها على السلاح وحده - عبء ثقيل، خير منه الانسحاب، وحتى بغير شروط - وأحياناً بغير كرامة، كما فعلت الإمبراطورية البريطانية في السويس (مصر)، وكما فعلت الإمبراطورية الفرنسية في «ديان بيان فو»، وحتى كما فعلت الإمبراطورية الأمريكية في «سايجون» (فيتنام).

لكن مثل ذلك لم يكن في مقدور إسرائيل لأن «الإمبراطورية» كانت من حول حدود الدولة نفسها - فإذا كان لا بد من انسحابها فإن الشرط المطلوب

قمة عمان

السياسة الإسرائيلية عند «نهاية الطريق». لكن الذى أوصل إسرائيل إلى «نهاية الطريق» ليس «وهم السلام» كما هى الحال على الناحية العربية، وإنما «وهم السلاح»

توافره أن يكون انسحابها مصحوباً باعتراف كامل «تاريخى» و«قانونى» و«سياسى» و«عسكرى» لا يملك العرب أن يُقدِّموه ـ وحتى إذا قدَّموه فإن إسرائيل لن تُصدِّقه ولن تُصدِّق المتطوعين به لأنها أول من يعرف ـ وإن تأخر غيرها فى المعرفة ـ أن الحقائق على الأرض لها أحكامها، وأولها أن المحيط العربى حول الدولة اليهودية أكبر منها عدَّة مرات، وإذا لم يكن هذا المحيط الآن قوياً بما فيه الكفاية ـ فإن الضعف ليس مضموناً إلى ما لا نهاية!

ولتوفير كافة الشروط والضمانات وتوثيق عُقود التأمين ضدَّ مُتغَيِّرات المستقبل (وأولها الاطمئنان إلى عَزل الشام عن مصر ومصر عن الشام) فقد تَوَصَّلَت إسرائيل ـ بمساعدة الولايات المتحدة ـ إلى عَقد معاهدة مع مصر كان مقصدها الأكبر إبقاء القوة المصرية ـ وفيها الجيش المصرى ـ وراء قناة السويس شرقاً. ولتسهيل ذلك على مصر فإن إسرائيل أصبحت على استعداد للانسحاب من سيناء كلها بما فيها «شرم الشيخ» (برغم مقولة الجنرال «موشى ديان» بشأنها يوماً أنه «يُفضِّل شرم الشيخ دون سلام ـ على سلام دون شرم الشيخ»). ثم إنها كانت على استعداد أيضاً لهدم أى مُستعمَرة أقامتها فى سيناء بما فى ذلك مُستعمَرة «ياميت» (رغم عملية تَمَرُّد وعصيان على القرار تزعمها الجنرال «أريل شارون» فى تلك الأيام).

وفوق ذلك ولتدعيم هذه المعاهدة بين إسرائيل ومصر ـ فإن الولايات المتحدة عَلَّقت عليها ـ ولأجَل طويل ـ حِزمة مساعدات عسكرية ومدنية حجمها خمسة بلايين دولار كل سنة، اثنان منها لمصر وثلاثة لإسرائيل ـ والحِزمة كلها بقرار الرئيس وقرار الكونجرس الأمريكى ذيل للمعاهدة وشرط من شروطها، يقضى ـ ضمن ما يقضى ـ بأن «تبذل مصر جهدها لإقناع بقية العرب بضرورة وجدوى السلام مع إسرائيل»!

● وكان المفروض بعد إبعاد مصر عن الشام «بمعاهدة» أن تعود السياسة فى إسرائيل لممارسة الحَق الذى اغتصبه السلاح منها فى ظروف سنة ١٩٦٧ ـ لكن السياسة ظلَّت ضعيفة أمام السلاح، وتلك طبائع أحوال حين يتجاوز السلاح دوره، وتَضعُف السياسة عن استعادة حقها فى القرار ـ ففى مثل تلك الأحوال تنقلب نظرية «كلاوزفيتز» رأساً على عقب: لا تصبح الحرب ممارسة للسياسة بوسيلة أخرى، ولكن تصبح السياسة ممارسة للحرب بوسيلة أخرى!

والشاهد أنه منذ بدأت عملية السلام مع مصر فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ـ فإن رئاسة الوزارة الإسرائيلية ووزارة الخارجية بَقيَتا فى يَدِ العسكريين طول الوقت أو معظمه:

«رابين» رئيساً للوزراء مرتين ـ «باراك» رئيساً للوزراء مرة ـ والآن جاء الدور على «شارون».

وكان انتقال السُلطة من عسكرى إلى عسكرى ينزل بالسياسة درجة فى كل مرة لأنها الخطيئة الأولى ومعها ثمرة أو ثمرات منها مُضافة عليها!

وفى نفس الوقت فإن وزارة الخارجية تولاها العسكريون من الجنرال «آللون» منتصف السبعينات ـ والجنرال «موردخاى» فى الثمانينات ـ وحتى الجنرال «باراك» نهاية التسعينات. بل إنه حتى فى الاتصالات السياسية غير الرسمية ظلَّ الجنرالات هم الرسُل والرسائل ـ من الجنرال «ديان» إلى «الجنرال «شاهاك» ـ وحتى الجنرال «موفاز» رئيس الأركان الحالى!

لكنه يبقى أن السلاح يظل عاجزاً عندما يملك القرار وحده، وهو يَقدر على النجاح فى معاركه ولكنه يَعجَز عن إحراز النصر فى حربه، ثم تزداد ضراوة السلاح بغرور القوة حتى تصبح إدارة السياسة «ساقية دَم» دَوَّارة!



والذى حَدَث أن ضراوة السلاح مع النجاح زادت من اعتقاده بأن الظروف ملائمة لعَزل الشام عن الوديان: باعتبار أن وادى النيل بَعيدٌ بمعاهدة «سلام» رَعَتها الولايات المتحدة، ووادى الفرات مُدَمَّر بحرب تولتها الولايات المتحدة ـ أيضاً (طالبة من إسرائيل أن تضبط أعصابها ولا تُستَفَز حتى إذا طالتها صواريخ العراق، وحُجَّتها أن تدمير القوة العراقية فى مصلحة إستراتيجيتها العليا. وبالفعل ضبطت إسرائيل أعصابها حتى بعد أن طالتها صواريخ العراق، ثم انتظرت عشر سنوات لتطالب العراق الآن بتعويض قدره ٤٧ بليون دولار تريد أن تخصمها من عوائد النفط العراقى التى تُحَصِّلها الأمم المتحدة بمقتضى قرار العقوبات الصادر عن مجلس الأمن (أغسطس ١٩٩٠).)

ومع «ساقية الدَم» الدَوَّارة ـ بلا نهاية ـ وأوهام فى عَزل الوديان ـ لم تتأكَّد صحتها ـ طاحَ السلاح الإسرائيلى.

وبَلَغَ به الغرور مَداه فاحتل من جنوب لبنان شريطاً حدودياً ظنَّ أنه يستطيع الاحتفاظ به عازل آمن على حدوده الشمالية، وإذا هو يواجه مقاومة لبنانية فاجأته بما لم يكن مستعداً له. ثم حاول فى الجنوب أن يَضغط بقبضته على كُتلة بَشَرية أحس بخطرها فى غزة، فإذا الانتفاضة الأولى تنطلق، ولم يستطع الجنرال «رابين» (بَطَل السلام فى وَهْم بعض العرب الآن) أن «يكسر عظام» الانتفاضة و«يهرس لحمها».. حسب منطوق كلامه.

● وطرأت مضاعفات مُستَجَدَّة. ذلك أنه من قبل اتفاق «أوسلو» (١٩٩٣) ومن بعده عادت إسرائيل ومعها الولايات المتحدة تطلبان من مصر بمقتضى المعاهدة أن تبذل جهدها ونفوذها لإقناع العرب ـ والفلسطينيين بالذات ـ بضرورة وجدوى السلام مع إسرائيل. وتَحَرَّكَت مصر ـ لكن حركتها بالتزام المعاهدة «ذكَّرتها» بدَورها التاريخى.

وحين بدا أن دَعوة وادى النيل إلى ممارسة دوره توقظ ذاكرته ـ ودوره التاريخى بالضرورة ـ وتوافق ذلك مع ظرف بدا فيه أن وادى الفرات يستَجمع قواه ـ زادت العَصَبيَّة الإسرائيلية، وزادَ اعتمادها على «السلاح». وذلك شأن كل محاولة إمبراطورية تقاوم تيَّار التاريخ بظن أنها قادرة على مُغالبته أو على غلبته!

● وعندما يطيح «السلاح» مُتجاوزاً حدوده ـ وكل حدود ـ فإن أداءه يتنازل من «القتال» إلى «القتل».

لكن ممارسة «القتل» خطر على الذين يَتعَرَّضون لنيرانها ـ وهى أخطر فى المدى الطويل على الذين يمارسونها.

ذلك أنه عندما يتواصل سفك الدم تموت الأعصاب، وحين تموت الأعصاب يموت الضمير، وعندما يموت الضمير تموت الثقافة، وعندما تموت الثقافة يتساوى الإنسان فى المدينة مع الوَحش فى الغابة تاركاً روحه وعقله فى كُهوف الظلام!

وكانت تلك هى الأزمة التى استدعت الانتفاضة الثانية ـ وهى مختلفة فى كل شىء عن سابقتها.

■ فى الانتفاضة الأولى كان الشباب الفلسطينى ينتظر القوات الإسرائيلية فى شوارع المدن والقرى وحواريها ثم يطاردها بالحجارة مُتَعَرِّضاً للقتل.

■ وفى الانتفاضة الثانية، وهى لاحقة لقيام السُلطة الفلسطينية، كان الجيش الإسرائيلى قد خَرَج من قلب المدن والقرى إلى أطرافها مُمسكاً بنقط المرور بينها ـ أو مُمسكاً بتقاطعات الطُرُق منها وإليها. وهنا كان على الشباب الفلسطينى أن يخرج فى «رحلة شهادة» نحو القوات الإسرائيلية حيث هى، يَقذفها بالحجارة ويَتَلقى الرَدّ بالرصاص!

وكانت هذه تجربة فى «القتل» لا تُطاق، وقد وَصَل تأثيرها إلى «أداة القتل» وهى الجيش الإسرائيلى نفسه، إلى درجة أن منظمة العفو الدولية أصدرت تقريراً خاصاً نشرته صُحُف الأحَد البريطانية فى الأسبوع الأخير من شهر يناير الماضى (يوم ٢٦ بالتحديد) وفيه أرقام تستحق الالتفات ـ وتستحق الاحترام أيضاً ـ عن مئات من الجنود الإسرائيليين رفضوا الخدمة العسكرية فى قطاع غزة وفى مُدُن الضفة الغربية، ومنهم تسعة على الأقل وُضِعوا فى السجن رَهن المحاكمة، ومنهم أربعون أوقفوا بتهمة عصيان الأوامر. ونشرت جريدة «الأوبزرفر» حديثاً مع جندى إسرائيلى عمره ٢٠ سنة واسمه «إيال روزنبرج» يقول فيه: «إننى أستيقظ كل صباح مُمَزَّقاً بين ما هو مطلوب منى وبين ما أعتقد به»!

ـ ثم يستفيض تقرير «الأوبزرفر» (الذى كتبه مراسلها فى القدس «جاسون بيرك»)، ويروى نقلاً عن جندى إسرائيلى آخر (اسمه «لوتان راز») أنه حين تَرَدَّد فى تنفيذ أوامر بالقتل الصريح لمارة يَعبُرون طريقاً أمامه ـ نَهَرَهُ قائد وحدته واتهمه بأنه «ليس يهودياً إذا لم يقتل أعداء إسرائيل ـ وإنما هو جبان وخائن أيضاً». وكان ختام رسالة «الأوبزرفر» نقلاً عن جندى إسرائيلى: «علىَّ أن أقتل إنسانيتى حتى أواصل قتل الأطفال العرب.. وذلك لم يَعُد فى طاقتى»!

ولم يكن مأزق السلاح فى سُلطان الضمير وحده، فقد سبقه من قبل سُلطان الخوف، ذلك أن السلاح حين يتمادى ويتجاوز يستفز أمامه أنواعاً من المقاومة لم يَتَحَسَّب لها (مثلما حَدَث فى جنوب لبنان، وقبله فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ فى سيناء والجولان، وقبلها فى حرب الاستنزاف عبر قناة السويس.)

● وفى أجواء مُعتمة لا يَلمَع فيها غير ألسنة لَهَب وبُقَع دَم ـ فَشَلَ «باراك» ـ كما فَشَلَ «نتنياهو» ـ كما فَشَلَ غيرهما من قبل ـ فى الحفاظ على أغلبية فى الكنيست، ورأى «باراك» تعزيزاً لسُلطته وحتى يستطيع مواجهة الاحتمالات القادمة أن يدعو لانتخابات على رئاسة الوزارة ـ يعود بها أقوى، وكان ظنه أن فرصة نجاحه كبيرة لأن صندوق الاقتراع سوف يضع إسرائيل أمام خيار لا تستطيع أن تهرب منه ـ وهو الخيار بين النهر والبحر ـ نهر الدَم الذى أساله هو، أو بحر الدَم الذى سوف يَهيج إذا فاز منافسه «شارون».

وكان تقدير «باراك» أن إسرائيل تَقبَل بالنهر، ولا تَقبَل بالبحر!

وكان تقدير «باراك» أيضاً أن العرب سوف يعتبرونه أهْوَن الضررين، لأنه إذا كان النهر دَماً فإن قارب المسيرة يَظل قادراً على الخوض فيه ـ وأما إذا أصبح الدَم بَحراً هائجاً فإن القارب حطام مع نوع من الغرق شديد البشاعة قبل أن يكون شديد الخَطر!

لم يقتنع «شارون» في أى وقت من الأوقات بوجود سلطة وطنية فلسطينية. وهو يعتبرها «اختراعا من اختراعات حزب العمل.. وتقليعة من تقاليع شيمون بيريز»

لكن الوقائع جاءت على خلاف مع التوقعات!

وهكذا يجيء «شارون» رئيساً لوزراء إسرائيل، وتقترب إسرائيل من «نهاية الطريق» بـ«وَهْم السلاح» - وليس بـ«وَهْم السلام»!

وكانت مقدمات مجيء «شارون» تلك التصريحات التي أطلقها حليفه «أفيجدور ليبرمان» رئيس حزب «إسرائيل بيتنا»، وكلها على شكل أسئلة - وفي أثر كل سؤال جواب!

- «مَن هو «عرفات»؟ - إرهابي نستطيع أن نعتقله في غزة أو نطرده منها في أى لحظة نريد».

- «ما هي سوريا ومَن هو رئيسها؟ - نستطيع أن نقصم ظهر سوريا بضربة واحدة قاضية».

- «مَن هي مصر؟ - نستطيع أن نُرسل إليها الطوفان بقنبلة نووية واحدة فوق السد العالي، ويُصبح المشروع الذى تَصَوَّرَته مصر أمَل حياتها - هو نفسه نهاية حياتها!»

ثم قائمة لا تنتهي من الأسماء تطالها التهديدات أو الإهانات: «مبارك» - «القذافى» - «فهد» - «صدام». لا أحد منهم بعيد عن السلاح الإسرائيلي الأقوى!

على أن هذا النوع من «المقدمات» قد لا يكون بالضرورة أسلوب «شارون» من أول ساعة - وإنما الأرجَح أن يَتَّخذ لنفسه أسلوب تَصاعُدَ يَتَدَرَّج خطوات متوالية - حركة بعد حركة!

١ - في الحركة الأولى - فإن «شارون» سوف يحاول أن يثبت للعالم أنه رَجُل دولة إلى جانب كَونه جنرال جيش!

وكذلك فإنه على استعداد لأن يَمدَّ يده للعالم - وللعَرَب. وهنا فإنه:

- سوف يطلب من الرئيس الأمريكي الجديد «جورج بوش» أن يساعده.

- سوف يطلب أيضاً من اثنين أو ثلاثة من الرؤساء العَرَب أن يَسمَعوا منه - ومباشرة إذا أمكن!!

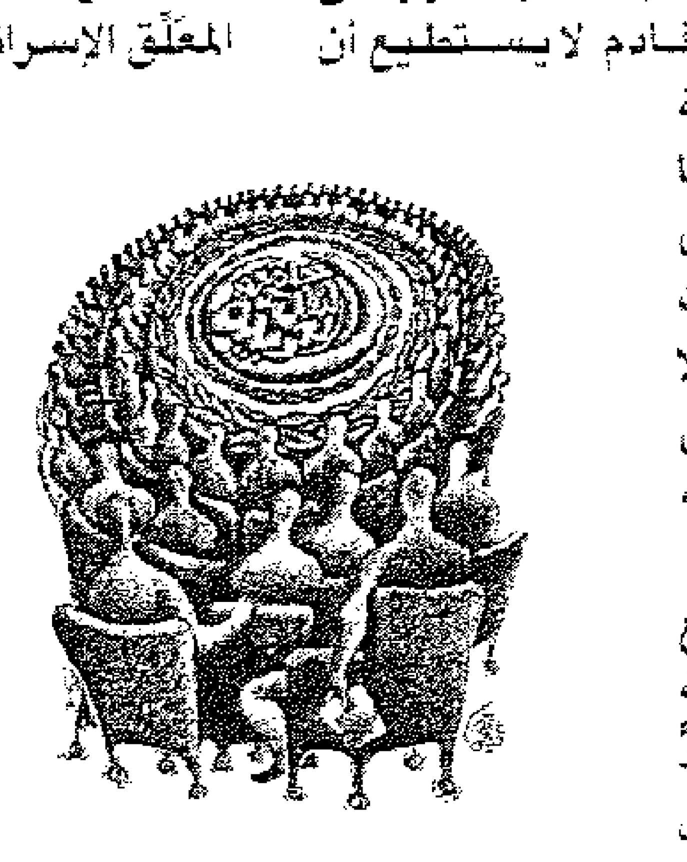
- ثم إنه ليس من المستَبعَد أن «يتواضع» ويمد يده ليُسَلِّم على «ياسر عرفات»، وهو ما امتنع عنه حتى الآن (وفاخر به طوال حملته الانتخابية).

- وأخيراً فمن الوارد أن يُبادر بتوجيه رسالة اعتدال لمؤتمر القمة العربية في عَمّان بظَنِّ تفويت الفرصة على أى «مُتَشَدِّد» عربي، وبتقدير أن ذلك (في نفس الوقت) يزيد من التشَتُّت عندما يَتَوَهَّم بعض العرب (كالعادة) أنه من المناسب «الانتظار عليه»، والتَرَوِّى قبل الحُكم «بحَيثيَّات ما قاله في المعارضة لأن المعارضة جُموحٌ والحُكم مسئولية» - و«أنه من العقل تَذَكُّر أن شارون «الجنرال»، غير شارون «الوزير»، غير شارون «المرشح لرئاسة الوزارة»، غير شارون «رئيس الوزراء».

[إلى جانب كلام كثير من هذا النوع سُمِع من قبل وأثبتت التجربة جَهله قبل أن تُثبت خطأه، لأن أى سياسي يَحتَرم نفسه، مُلتَزم إزاء ناخب أعطاه صوته، ولا بد له أن يَرسم خُطَطَه في الحُكم على أساس برنامجه قبل الصندوق. فضلاً عن أنه ليس في مَقدور أى سياسي أن يُعيدَ اختراع نفسه في كل مرحلة من مراحل حياته! - والواقع أن ساسة إسرائيل جميعاً قالوا ولم يكذبوا - لكن الغريب أن الساسة العَرَب سمعوا ولم يُصَدِّقوا - أو هكذا تظاهروا - حتى لا تَفرض عليهم الحقائق قوانينها!]

والشاهد أن هذه هي الحركة الأولى وتلك أجواؤها، وهي جارية الآن تَستَبق القِمَّة وتُهَيِّئ لها!

٢ - والحركة التالية - أن لا يكون لدى «شارون» ما يُمكن قبوله، وذلك هو الأقرب إلى المحتَمَل، فالجنرال القادم لا يستطيع أن يَعرض على السُلطة الفلسطينية أكثر مما عَرَضَه عليها الجنرال الذى سبقه. وفي نفس الوقت فإن السُلطة الفلسطينية لا تستطيع أن تقبل من «شارون» بأقل مما رَفَضَته لـ«باراك».



وإذن فإنها أسابيع وشهور وتَجد المنطقة نفسها أمام تَفاقم وتَردٍّ في الأوضاع أسوأ من كل ما سبق - ثم يَفقد كل الداعين إلى «الحَذر» و«الانتظار» و«الفرصة» و«العقل!» حُجَجَهم وذرائعهم، ويكون عليهم ولو بالصوت الخافت أن «يَمتَنعوا»!

٣ - وفي الحركة الثالثة - فإن «شارون» وسجل خدمَته في الجيش الإسرائيلي أنه «ضابط عَمليات خاصة» وليس «ضابط تخطيط إستراتيجي» - رَجُلٌ بالطبيعة لا يَقدر على الانتظار لأنه مثل أى «ضابط عَمليات خاصة» مُطالَب بردّ فعل سريع وحاسم - فإذا تَصَوَّرَ «شارون» أن «عرفات» يُعاند في قبول عَرض منه تَصاعَدَ رَدُّه إلى درجة احتجازه في غَزَّة أو منعه عند اللزوم من العودة إليها بعد رحلة من رحلاته خارجها! - وربما تَصاعَدَ بالرَدِّ إلى درجة أن يفرض على السُلطة رئيساً آخر غير «عرفات» تَقبَل به بعض عناصر القيادة الفلسطينية أمام ماسورة بندقية - حتى لا يَفرضه «شارون» عليها من ماسورة مدفع دبابة.

وعندما لا تنجح هذه الحركة - وهي على وجه اليقين فاشلة - فإن «شارون» قد لا يَتَرَدَّد في إنهاء وجود السُلطة الوطنية - من الأصل في غَزَّة - دون أن يعني ذلك عودة الجيش الإسرائيلي إليها - ويكفيه في هذه الحالة أن يُحاصِر القطاع بالنار، وأن يُنزله على ركبتيه بالجوع!

والواقع أن «شارون» مُهَيَّأ لهذا النوع من الإجراءات، فهو لم يوافق على اتفاقية «أوسلو»، ولم يَقتَنع في أى وقت من الأوقات بوجود سُلطة وطَنية فلسطينية، وهو يَعتَبر هذه السُلطة - وقد قالها بنفسه أخيراً لشخصية دولية (لست في حِلٍّ من ذكر اسمها) - وقالها بنبرة باردة خالية من أى حس:

«هذه السُلطة الفلسطينية اختراع من اختراعات حزب العَمَل.

وعرفات؟ كاد يذهب إلى النسيان لولا اعتراف إسرائيل في أوسلو «بمنظمته الإرهابية». وتلك تقليعة من تقاليع «شيمون بيريز!»

٤ - يَتَداعى بعد ذلك - وهذه هي الحركة الرابعة - أن «شارون» قد يحاول نوعاً من العودة إلى الخيار الأردني، بحيث تَؤول إلى الأردن تلك البقايا التي لا تريدها إسرائيل من فلسطين، ويكون لهذه الدولة وما آلَ إليها، أن تختار اسمها النهائي فتكون «الأردن» أو تكون «فلسطين» إذا شاءت. وطبقاً لمعلومات أوردها المعَلِّق الإسرائيلي (الأكثر إطلاعاً في إسرائيل) «زيف شيف» فإن عناصر في الأردن «طلبت إلى إسرائيل قبل اجتماعات «طابا» في شهر ديسمبر الأخير - أن لا تُسَلِّم منطقة «غور الأردن» للسُلطة الفلسطينية لأن ذلك سوف يُوجِد جواراً بين حدود الأردن وحدود الدولة الفلسطينية (الموعودة) - وذلك جوارٌ يريد الأردن أن يتفاداه». لكن الأردن في نفس الوقت «يتَمَنّى أن لا يكون بديل عدم إعطاء «غور الأردن» للسُلطة - قيام إسرائيل بضَمِّ المنطقة إليها» - ثم كان هناك بعد ذلك اقتراح «بأن يظلَّ مصير المنطقة مُعَلَّقاً لمدة ١٢ سنة على الأقل»!

وهذا الطلب - بصرف النظر عن أصحابه - إشارة موحِيَة بأن هناك عناصر على استعداد للتفكير مرة أخرى - أو أنه مطلوب منها التفكير مرة أخرى - في نوعٍ من الخيار الأردني!

٥ - وأخيراً - وليس آخرا كما يقولون - فإن «شارون» ليس عنده شيء لسوريا - ومع ذلك فهو مُصرٌّ على التفاوض معها لعَقد اتفاقية «سلام» - وبذلك فهو يريد من سوريا إقراراً لإسرائيل بملكيَّة الجولان - وذلك ما يُسَمِّيه هو «الأمن في مقابل الأرض» بدلاً من «الأرض في مقابل السلام»!

خمس حَرَكات يمكن التَنَبُّؤ بها مُقَدَّماً - وما لا يمكن التَنَبُّؤ به بَعدها كثير!

تزيد على ذلك حركة أكبر لا يلتفت كثيرون إلى احتمالاتها بالقدر الذي تستحقه، وتلك هي مسألة العرب الذين بقوا في فلسطين بعد سنة ١٩٤٨ وقبلوا - في سبيل التَمَسُّك بالأرض وبالوطن - أن يحملوا جنسية دولة إسرائيل - وتلك قضية بالغة التعقيد:

● فمن قيام الدولة سنة ١٩٤٨ - وحتى حرب سنة ١٩٦٧ - كان العرب الذين ارتضوا بالمواطَنة الإسرائيلية في سبيل التَمَسُّك بالأرض - جماعة معزولة عن الدنيا يتعامل شيوخها مع إسرائيل بالأمر الواقع، بينما شبابها يتأثرون بما يَصِل إليهم من أصداء الحركة القومية في الخَمسينات ومنتصف الستينات.

وبعد سنة ١٩٦٧ فإن هؤلاء «الشباب» أحسوا أن عليهم وحدهم مسئولية مستقبلهم، وهنا بدأ مَسعاهم النشيط إلى طلب العِلم وطلب التأثير. وكان مَخرجهم الوحيد هو ممارسة حق المواطَنة في دولة إسرائيل برغم أى شيء وكل شيء!

● ومع مرور السنين من ١٩٦٧ وحتى «أوسلو» سنة ١٩٩٣ - وهي مسافة رُبع قرن تقريباً - زادت ونَمَت داخل إسرائيل أقلية قومية عربية قادرة ومُهَيَّأة ومُستَعِدَّة لممارسة كل الحقوق الديمقراطية المسموح بها في الدولة اليهودية.

وكانت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تتابع هذه العملية بمزيج اختلط فيه الارتياح بالتَوَجُّس!

الارتياح من أن أقلية عربية (حوالى ١٧٠ ألفا وقتها) تعيش في دولة إسرائيل - وتحترم حدود المواطَنة - وذلك عُنصر جذب يَشهَد لها بالديمقراطية!

وفي نفس الوقت فقد كان داعي التَوَجُّس أن هذه الأقلية قد يَهتَز وَلاؤها للدولة إذا ما طرأ ظرف غير متوقع، وتُصبح «كتلة حرجة» - خطرة على الدولة!

● وفي أكتوبر الأخير - سنة ٢٠٠٠ (وهذه الأقلية قد أصبحت أكثر قليلاً من مليون مواطن) - وَقَعَ المحظور، ذلك أنه عندما زاد «القتل»، وتَدَفَّقت سيالات الدَم، وسَعَت مواكب الشهادة في الانتفاضة الثانية إلى مقاديرها - فإن ذلك الظرف غير المتوَقَّع حَصَل، لأن الأقلية العربية في إسرائيل وإن انتمت إلى الدولة بالمواطَنة لم تقطع انتماءها القومي إلى الشعب الفلسطيني - وإلى الأمة العربية.

وقامت مظاهرات تأييد للانتفاضة في المدُن العربية داخل دولة إسرائيل، وإذا الجيش الإسرائيلي المأخوذ بغرائز القَتل - ينسى الفارق الذى يُمَيِّز مواطني دولة إسرائيل (حتى وإن كانوا عَرَباً)، ويُطلِق النار على المتظاهرين - في «أم الفحم» و«الناصرة» - ويَقتل ما بين خمسة عشر إلى عشرين مواطناً إسرائيلياً (من العَرَب).

وكان على إسرائيل اكتشاف أن القتل داخل الدولة غير القتل خارجها، ذلك أن «سلاح الإمبراطورية» يستطيع أن يقتل «أعداءها» - لكنه حين يقتل «مواطنيها» - إذن فهي مُمارسة الجريمة وليس حق الدفاع - لأن الدَم لم يَعُد خارج الحدود، وإنما هو داخل الحدود، وهي هذه المرة «حدود الدولة» وليست «حدود الإمبراطورية».

قمة عمان

كان لدى العرب طول الوقت اطمئنان إلى أنهم فى نهاية النهاية واصلون إلى صفقة ترضيهم، لأن لديهم من البداية عهداً ـ وعقداً ـ يطلقون هم عليه وصفاً يريحهم وهو وصف «الشرعية الدولية» ـ وهم لا يعرفون أن ذلك العهد والعقد لم يعد فيه الآن نص مقدس!

وهنا فإن «السلاح» يضع الدولة أمام خيارات كلها مُزعجة:

ـ إما أن تكون إسرائيل دولة لليهود وحدهم ـ دون ديمقراطية ـ وتلك دعواها، بل وضمن مُبَرِّرات وجودها فى المنطقة طليعة لقِيَم العصر!

ـ وإما أن تكون إسرائيل دولة لكل مواطنيها بالديمقراطية ـ وذلك لا يجعلها دولة «يهودية» ـ فى حين أن «اليهودية» شرعية الدولة عند الأساس.

وفى الحالتين فهو خيار مُستحيل يطرح: إما التخلى عن الديمقراطية (وهى ميزة الدولة) ـ أو التخلى عن اليهودية (وهى شرعية الدولة).

وفى نفس الوقت فإن هذا الخيار المستحيل يُحَتِّم على إسرائيل أن تقرر لنفسها: إما أن تكون دولة ممكنة ـ أو إمبراطورية مستحيلة فى الشرق الأوسط!

وقد كان الهَمُّ الأكبر فى المأزق بين «ديمقراطية» الدولة و«يهودية» الدولة ـ أن ما حَدَث بين الأقلية العربية داخل حدود إسرائيل فى أكتوبر ٢٠٠٠ أعاد إلى الوَعى خوفاً كبيراً غاب فى اللاوَعى سنين عديدة. وذلك هو الخوف الكبير من «القنبلة الديموغرافية» ـ أى قنبلة الزيادة فى عَدَد السكان، ذلك أن التقديرات التى جرى التنَبُّه إليها مرة أخرى عادَت لتُذكِّر أنه فى سنة ٢٠٢٠ سوف يزيد عَدَد السكان اليهود فى إسرائيل من ٥ ملايين الآن إلى ٧ ملايين ـ لكنه فى المقابل فإن عَدَد السكان العرب مع الخصوبة الزائدة للأمهات الفلسطينيات سوف يَرتفع من مليون واحد إلى سبعة ملايين ـ هذا دون أن يدخلَ فى الحساب حوالى سبعة ملايين من الفلسطينيين (فى الضفة والقطاع وشرقى الأردن)، وبذلك يَصل تعداد الفلسطينيين إلى ١٤ مليونا. أى أنه فى أقلِّ من عشرين سنة سوف يكون من حول سبعة ملايين يهودى فى إسرائيل ـ أربعة عشر مليوناً من الفلسطينيين (داخل حدود إسرائيل وحولها!).

وتلك كلها علامات فى إسرائيل على «نهاية طريق» ـ لأن ما وَصلَت إليه يأخذها مباشرة إلى طريق آخر يجعلها دولة تمييز عُنصُرى بمثل ما كانت عليه جنوب أفريقيا فى زَمَن تَحَكُّم الأغلبية البيضاء (وهو ما عُرف بنظام الـ«أبرتهايد») ـ أو دولة بوليسية فى إسرائيل تُكَرِّر نموذج جنوب أفريقيا فى التجربة وفى النتيجة ـ وبديل ذلك وهو أصعَب منه أن يَسمَع «شارون» من حُلفائه الذين يَدعونه إلى النقل الجماعى للسكان العَرَب Transfer لإخلاء «أرض إسرائيل» من كل إنسان (وكل جَماد) غير إسرائيلى.

(لم يَلتَفِت أحد بالقدر الكافى إلى تعليمات «شارون» الأولى ـ فقد أمَرَ بتنظيف تقاطعات الطُرُق ونقاط العبور من «الحجارة» بكل الوسائل بما فيها الجرَّافات ـ حتى لا يجد الأطفال هناك «حجارة» يستعملونها ـ أى أنه بدأ بعملية «نزع سلاح» ـ وقد تكون تلك إشارة رمزية غير مقصودة إلى نزع البَشَر إذا لم يُجدِ نزع السلاح!)

٣

والولايات المتحدة الأمريكية كذلك!

الولايات المتحدة الأمريكية الآن ـ بدَورها ـ عند «نهاية طريق» ـ رغم أنها الآن المالك والمدير الوحيد لصناعة وتجارة «السَلام» فى الشرق الأوسط. وكان ذلك امتيازها حصلت عليه واحتفظت به منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

والمدهش أن المطلب الأمريكى بامتياز الشرق الأوسط وَقَعَ أثناء الحرب العالمية وبعدها، وتصادَف تماماً مع دعوة يهود العالم للولايات المتحدة كى تتبنى «قيام» الدولة ـ بعد أن أدَّت أوروبا دَورها فى تبنى مشروعها بـ«وعد بلفور» ـ وقد أدت هذه المصادَفة إلى تَداخل أصبحت به معركة الاثنين مُتوافقة حتى وإن لَم تكن طول الوقت مُتطابقة. والواقع الذى عَرَضَ نفسه فى أبسط الأشكال ـ صورة كنز حصل عليه رَجُلٌ يعيش بعيداً عنه، ومصلحته أن يجد حارساً مُسَلَّحاً مُؤتَمَناً قريباً من الكنز ويستطيع حمايته، وخصوصاً أن «الناس» من حول الكنز «لم يصلوا بعد إلى حَدِّ الرُشد»، وأمامهم (فى التقدير الأمريكى) زمان طويل حتى يبلغوه (بالمعايير الأمريكية!). وكان أن عَرَض المشروع الإسرائيلى نفسه، وتَمَّ قبوله ليكون الحارس المسَلَّح (تساعده فى ذلك اعتبارات أخرى أكثر تعقيداً فى اتصالها بأحوال العالم ومتغيرات عصورها)!

كانت الحرب العالمية الثانية هى الفرصة التى أتاحت للحلم الإمبراطورى الأمريكى أن يَرث الشرق الأوسط بما فيه البترول ـ وكانت هذه الحرب أيضاً هى الفرصة التى أتاحت للمشروع الصهيونى أن يَتَقدَّم لإنشاء دولته اليهودية فى فلسطين ـ ثم إن هذه المشاريع الخطرة حَرَّكَت فى العالم العربى ردود فعل تدعو إلى زيادة اليَقَظة. وكذلك وَقَعَ إنشاء جامعة الدول العربية وفى مقدمة المؤسسين لها مصر والعراق وسوريا، وتلك بالضبط هى قاعدة وادى النيل ووادى الفرات. والشام بين الاثنين جسرٌ واصلٌ وفاعل.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة ظنَّت الولايات المتحدة أن الحلَّ الذهبى لأوضاع المنطقة أن يكون لها سبق البداية فى صناعة وتجارة «السلام» بين الأطراف جميعاً: فهى القوة الإمبراطورية الجديدة مالكة الكنز. وإسرائيل حارس مُسَلَّح ومُستَعد. وقد أثبَتَت كفاءته. وجَرَّبَت الولايات المتحدة أن تكون هى والحارس والكنز مثلثاً واحداً تتماسك أضلاعه وتقوى بصُلح بيَن العرب وإسرائيل، وحاوَلَت وفَشلَت. جَرَّبَت مع الملك «فاروق» من ١٩٤٨ حتى ١٩٥٠ ولم تنجَح، ثم جَرَّبَت مع «مصطفى النحاس» من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢ ولم تنجَح ـ واتجهت إلى الناحية الأخرى ـ نحو الشرق من إسرائيل ـ وجَرَّبَت مع «نورى السعيد» فى العراق، و«حسنى الزعيم» فى سوريا، والملك «عبد الله» فى الأردن ـ ولم تتمكن. ثم عادَت مرة ثانية إلى وادى النيل تَختَبر حُظوظها مع «جمال عبد الناصر»، وتَنَوَّعَت أساليبها ليناً وشِدَّة من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٧٠، واستعصت عليها المداخل سواء فى ذلك باب السياسة، أو باب الاقتصاد، أو باب الضغط، أو باب التآمُر ـ ولم تَنفَتِح نافذة أو شرَّاعة! ـ وجَرَّبَت مع «أنور السادات» من سنة ١٩٧٠ حتى خريف سنة ١٩٧٣، وكان حصاد التجربة قَشاً بلا مَحصول!

وخلال ذلك كله شهدت المنطقة حرائق نار لا تنطفئ، ونزيفاً لا يلتئم جرحُه ـ موقعة مسلحة بعد موقعة مسلحة: فلسطين ١٩٤٨ ـ السويس ١٩٥٦ ـ سيناء ١٩٦٧ ـ الاستنزاف من ١٩٦٨ ـ أكتوبر ١٩٧٣.

عندما جاءت معركة سنة ١٩٧٣ (وفيها واجَه السلاح الإسرائيلى أكبر تَحَدٍّ لحماقته) ـ وَقَعَ أن طالب الكنز الراغبِ فى حيازته، وحارس الكنز الذى يطالب بحصَّته ـ كلاهما رأى فى احتمالات المستقبل نُذُرَ خطر يلزم احتواؤه مُبكِّراً.

ثم إن ذلك جرى مع ظرف نَمَت فيه القوة اليهودية (لأسباب كثيرة) فى الولايات المتحدة إلى درجة أصبح معها الدكتور «هنرى كيسنجر» هو «عُضو مجلس الإدارة المفَوَّض» لتسيير «صناعة وتجارة السلام» الأمريكية (والرَجُل يهودى مُخلص وإن كان غير مُتَدَيِّن ـ وهو أستاذ علاقات دولية لكنه عاشق قوة!). وكان «كيسنجر» وقتها مستشَاراً للأمن القومى للرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون»، ثم آلت إليه وزارة الخارجية (مع تَوَرُّط الرئيس فى فضيحة «ووترجيت» إلى درجة اليأس).

وفى تلك اللحظة ومع يَد واحدة تمسك بالبيت الأبيض وبوزارة الخارجية معاً ـ أصبح «هنرى كيسنجر» قولاً وفعلاً وقراراً ـ مسئولاً بالكامل عن «صناعة وتجارة السلام».

وبحساباته، ومعها تسليمه لإسرائيل بحصَّة شريك ـ فإن «سلعة» السلام وبأكثر من أى وقت سبق ـ تَعَيَّن عليها أن تأخذ المواصفات الإسرائيلية فى الاعتبار، ومن الإنتاج وحتى التسويق.

وكان «هنرى كيسنجر» فى البداية (كذلك قال لى بنفسه) يُحاذر من مقاربة أزمة الشرق الأوسط (قبل أن يَتَوَرَّط «نيكسون» فى فضيحة «ووترجيت») وخشيَته (على حَدِّ قوله) «أنه حتى لو حاول أن يكون مُنصفاً فى أى سياسة يقترحها ـ فسوف يسهل اتهامه (من كل العرب ومن بعض الأمريكيين) ـ بأن هواه اليهودى أو هَوِيَّته عَوَّقَت تَوَصُّله لحلٍّ مقبول من كل الأطراف على فرض أنه كان يقدر عليه».

وقال لى «هنرى كيسنجر» بنفسه فى لقائنا يوم زيارته الأولى إلى مصر (٧ نوفمبر ١٩٧٣) ما نصه (وقد عُدتُ لسياقه فى أوراقى): «كنت طول عمرى أحلم بأن ألعب دوراً فى حَلِّ الأزمة بين العرب وإسرائيل ـ وعندما كنت أستاذاً فى «هارفارد» بعثت خطاباً إلى الرئيس «ناصر» أطلب مقابلته

تبقى قمة عمان فى الواقع ترتيبا قبلته معظم الدول العربية على مضض، وإحساسًا بالحرج، والمأزق الحقيقى هو أنهم يتجهون إلى هناك. معظمهم على الأقل. مستعدين لـ«طقس يؤدَّى» أكثر من استعدادهم لـ«مهمة ضرورية»

لأنى كنت فى صَدَد إعداد دراسة عن احتمالات السلام فى المنطقة، ولم أتلق رَدًا». (سألنى: «هل وقع خطابى للرئيس «ناصر» فى يَدِك؟» - وأجبت بالنفى، وهو صحيح) - ويستطرد «كيسنجر»: «عندما أصبحت مستشاراً للأمن القومى مع الرئيس «ريتشارد نيكسون» كان هو الذى صَدَّنى عن الاقتراب من الأزمة، وذكَّرنى - بصراحة جعلتنى أتَصَوَّر أنه يُعايِرُنى - بحقيقة أننى يهودى قائلاً لى: «اترك هذه المنطقة لوزارة الخارجية ووزيرها «ويليام روجرز»..» - أعطانى الرئيس «نيكسون» اختصاص العلاقات مع الاتحاد السوفيتى ومع أوروبا الغربية ومع الصين، وكلَّفنى بحَلِّ أزمة الحرب فى فيتنام، لكنه فيما يتعلق بالشرق الأوسط قال لى بنبرة لها معنى «إننى سوف أكون مُتَحَيِّزاً لصالح إسرائيل كيهودى - وإذا لم أكن فى الواقع مُتَحَيِّزاً فسوف يَسهُل اتهامى بالتَحَيُّز»، ولذلك فمن الأفضل له ولى أن أبتعد عن الأزمة».

ويُواصِل «هنرى كيسنجر» كلامه ونحن ليلتها فى جناحه بالدور الثانى عشر بفندق «هيلتون» مساء يوم ٧ نوفمبر:

«لا أخفى عليك أننى أظن الآن حتى وإن لم يكن ذلك قصدى بوَعى وقتها - أننى عرقلت كل محاولة قام بها «المسكين روجرز» («ويليام روجرز» وزير الخارجية) - وربما أننى كنت دون وَعى (أيضاً) أريد أن تظل الأزمة مُعَلَّقة فى انتظارى حتى تسنح الفرصة وأقوم «أنا» على حَلِّها».

ويستطرد «كيسنجر»: «لقد أصبحت الأمور أكثر تعقيداً مما كانت قبل حرب يوم الغفران (٦ أكتوبر، وكان يوافق يوم «كيبور» عند اليهود) - إننى ألوم نفسى لأننى تأخرت فى الاقتراب من الأزمة حتى بعد أن أصبحت وزيراً للخارجية - وكنت أظن الأنسب أن أقترب منها على مهل وحين أجد الوقت مُلائماً - لكن «السادات» و«الأسد» فاجآنى بحرب فى الشرق الأوسط على جبهتين، وكذلك فإن الأزمة طرحَت نفسها علىَّ قبل أن أكون جاهزاً لها!»

عندما وقعَت حرب أكتوبر فوجئ «هنرى كيسنجر» فعلاً، وكانت مفاجأته الأكبر أن هذه الحرب حققت هدفها فى اليوم الأول وهو «كسر نظرية الأمن الإسرائيلى».

....

....

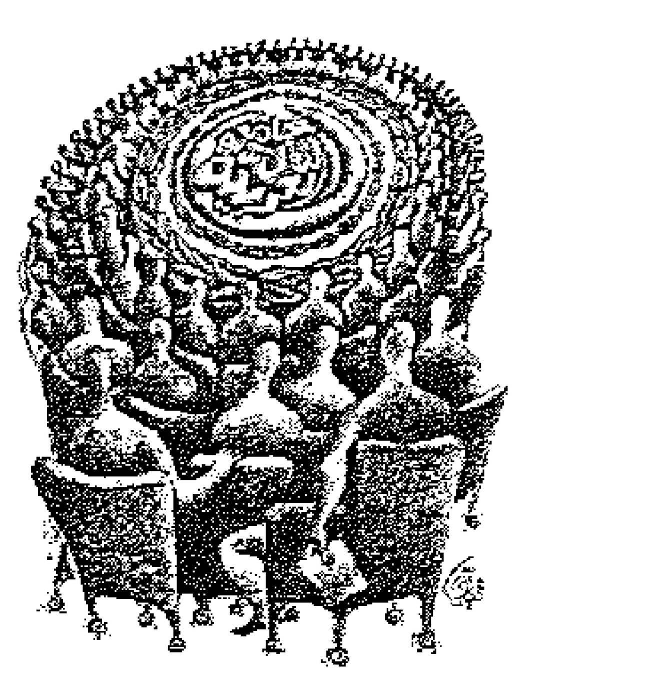
[وكان من حظى أن الرئيس «أنور السادات» طلب منى كتابة التوجيه السياسى بقرار الحرب الذى يُعطيه للفريق «أحمد إسماعيل على» بتحديد الهَدَف الإستراتيجى للحرب، وكتبت ذلك التوجيه بعد مناقشات وحوارات مع الاثنين استغرقت ثلاث ساعات يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣. وكان التركيز فى التَوجيه كله على أهمية «كسر نظرية الأمن الإسرائيلى» بإثبات أن إسرائيل لا تملك أن تفرض أمراً واقعاً مُستقِراً بالسلاح - وبالتالى فإن السلاح العربى مُكَلَّفٌ بصُنع أمر واقع جديد.]

....

....

وقد أدرك «هنرى كيسنجر» - ذكاء وعِلماً - ومن اليوم الأول أن القوات المصرية والسورية حققت هَدَفها الإستراتيجى وهو «كسر نظرية الأمن الإسرائيلى». بصرف النظر عن أية تطورات جرت فى ميادين القتال على الجبهتين فى الأسبوع الثانى من الحرب.

واستنتج «كيسنجر» من ذلك ما استنتج، ورَتَّبَ عليه ما رَتَّب!



وعندما توَجَّهَت «جولدا مائير» لمقابلته فى واشنطن قبل أن يبدأ فى ممارسة دوره فى «صناعة وتجارة السلام» فى الشرق الأوسط - فإن «كيسنجر» لم يتردد فى أن يُصارحها بالحقيقة، «على الأقل لتكون عارفة بها كأساس لحُسن تقدير موقفها». وقد شرح لى بنفسه تجربته مع «جولدا مائير».

«قابلها صباحاً فى وزارة الخارجية وفى البيت الأبيض، وكانت عنيدة مثل «بقرة هندية نامت وسط الطريق وعاقت حركة المرور فيه».

وقابلها بعد ذلك مساءً وقال لها: «القتال انتهى لصالحك ولكن العرب كسبوا إستراتيجياً، وعلينا جميعاً أن نفهم ذلك لكى نتحرك من «هنا» إلى ما يُلائمنا».

«لكنها ظلت طول الليل تُعاند، ومنطقها «أنهم (الجيش الإسرائيلى) استعادوا كل الجولان وأكثر على الجبهة السورية، وأن لهم قوات يقودها الجنرال «شارون» عَبَرَت قناة السويس إلى الشرق «فى أفريقيا»..» وحاوَل ساعات متأخرة من الليل أن يشرح لها الفارق بين القتال والحرب، وأنها فى تلك الجولة التى انتهت ربحت القتال وخسرت الحرب. لكنها ظلت تُعاند».

ويستطرد «كيسنجر»: «ليلة بأكملها - مع امرأة واحدة - وامرأة اسمها «جولدا» - والرَجُل الجالس معها (أى هو «هنرى كيسنجر») - يبذل جهده ليجعلها تفهم بأدَب ورِقَّة «أنها لا تملك «الجَمال» الذى يمكنها من ترويق الواقع، ثم إن عليها الاعتراف بالواقع - حتى تعرف كيف تتعامل معه»!»

كان «هنرى كيسنجر» صباح يوم لقائنا قد قابل الرئيس «السادات» لأول مرة فى قصر «الطاهرة» (الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣)، وقد اعترف لى تلك الليلة (فى فندق «هيلتون» القاهرة) أنه أخطأ فى تقديره لـ«أنور السادات» حين وَصَفَه فى محاضرة ألقاها قبل شهور بأنه مجرد «بهلوان سياسى لا يَصح أن يُؤخذ جَداً» - ولم يقل ليلتها ماذا كان تقديره الجديد لـ«السادات» بعد اعترافه بالخطأ السابق فى حقه».

قبل أن يجىء «هنرى كيسنجر» إلى الشرق الأوسط فى نوفمبر ١٩٧٣ - مديراً مسئولاً عن «صناعة وتجارة السلام» الأمريكى (والإسرائيلى!) - حاول (على حَدِّ قوله) «أن يُثَقِّف نفسه لمهمَّته» لأنه «رغم طول انتظاره للأزمة حتى تجىء إليه - فإن الأزمة نفسها هى التى فاجأته على غير انتظار صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣».

وبصفته وزيراً لخارجية الولايات المتحدة ومستشار الأمن القومى لرئيسها - فإن «كيسنجر» راح يطلب من كل من يعرف من مساعديه (فى البيت الأبيض وفى الوزارة)، ومن زملائه السابقين (فى الجامعات الأمريكية، وفى مقدمتها «هارفارد» وهى جامعته) - أن يَمدُّوه بأوراق تساعده على تناول الأزمة التى فاجأته فى «توقيتها هى» وليس فى «توقيته هو». وكان لـ«هنرى كيسنجر» فيما طلب من الأوراق شرطان:

١ - أن تكون الأفكار جديدة.

٢ - وأن تكون الأوراق مُختَصَرة لا تزيد الواحدة منها على صفحة أو صفحة ونصف على أكثر تقدير!

وفى ظرف عِدَّة أيام تلقى «كيسنجر» عشرات من الأوراق اختار منها ثلاثا بقيت معه حتى جاء موعد سفره:

● ورقة كتبها مساعد وزير الخارجية الأمريكى «جوزيف سيسكو».

● وورقة كتبها الأستاذ «روجر فيشر» (أستاذ تسوية وحَل الصراعات فى «هارفارد»).

● وورقة ثالثة (لم أستطع بيقين معرفة كاتبها، وإن رجحت فيما بعد أنه «ريتشارد هاس» وكان وقتها شاباً مُلحقاً بالأبحاث فى مجلس الأمن القومى فى البيت الأبيض، وهو الآن عضوٌ مُهِمٌّ فى مجلس الأمن القومى تحت رئاسة «ديك تشينى» نائب الرئيس الأمريكى الجديد «جورج بوش»).

وعندما كان «هنرى كيسنجر» يُعد حقيبة أوراقه ليأخذها معه فى السفر إلى الشرق الأوسط (وبداية الرحلة يوم ٥ نوفمبر بزيارة للمغرب ولقاء فيها مع الملك «الحسن») - حاول أن يُخَفِّف من تَكَدُّس الأوراق فى حقيبة يده. وكان يعرف أن مساعديه سوف يأخذون معهم كيلوجرامات بالمئات من التقارير والمذكرات. ولذلك رأى أن لا يحتفظ فى حقيبة يده التى ستحملها سكرتيرته - إلا بما هو «ألزم اللازم».

والذى حَدَثَ أن «كيسنجر» فى عملية الفرز الأخير للأوراق أزاح إلى مساعديه ورقة «سيسكو» وورقة «فيشر» - ووضع ورقة الباحث (الذى أرَجِّح أن يكون «ريتشارد هاس») فى حقيبة يده وبدأ سفرته.

كانت الورقة مُختَصَرة: صفحة واحدة.

وكانت فى نفس الوقت جديدة: عنوانها «الخيمة والسوق».

كانت الورقة فى مُلَخَّصها (رغم قصرها) تقول لـ«هنرى كيسنجر»:

«لا داعى لأن تشغل نفسك - فى الوقت الراهن - بنظريات كثيرة فى إدارة وحَلِّ الصراعات، وفنون التفاوض، ودواعى الأمن.

ما ينفعك الآن هو أن تَتذكَّر «تقليدين» من «ثقافة» الحياة العربية:

«تقليد» «الخيمة» - وفيها شيخ يَتوَسَّط مجلساً يُحيط به، وإن كانت السُلطة عنده وحده. وعندما تَدخل عليه فسوف تجد من حوله كثيرين يدخلون ويخرجون - ويهمسون فى أذنه، ويَهزون رؤوسهم، وقد ترى أحدهم يَتوَجَّه أمامك إلى رَجُل آخر فى الخيمة لينقل إليه شيئاً وهو يُشَوِّح بإحدى يَدَيه. كل تلك مُؤثِّرات شكلية وصَوتية. رَكِّز نظرك على الشيخ وامدحه وبالغ فى مَدحه، وبمقدار ما تُعطيه مما عندك - فسوف يعطيك مما عنده!

■ و«تقليد» «السوق» - والتفاوض فيه ليس علماً وإنما هو «فنّ المساومة» يمارسه أصحابه بـ«مزاج» و«استمتاع». وهُم فى العادة يبدءون أى صفقة بسعر مُبالَغ فيه، وحين تُراجعهم تعلو أصواتهم ليُقسموا لك أنهم لم يُبالغوا، على أنهم من أجل خاطرك سوف يَتَهاوَدون، لكنها كلمتهم الأخيرة سوف يقولونها وأنت حُرٌّ. وحين تسمعها وتُؤكِّد لهم أنها ما زالت أعلى مما أنت مُستَعِدٌّ لدَفعه سوف يعودون لك مرة أخرى حائفين (وبالطلاق ربما) أن ذلك

قمة عمان

من مضاعفات الأزمة أن فى الخليج ظنونا بأن أمنه لم يتحقق عربيا وانما تحقق أمريكيا (وفى بعض الأحيان إسرائيليا). وأن لدى المغرب تصورات تهيئ لأصحابها أن المستقبل ليس فى اتجاه الشرق نحو قلب العالم العربى. وانما هو فى اتجاه الشمال نحو جنوب أوروبا حيث الالتحاق بالسوق الأوروبية. ولو بالشفعة. ممكن!

خارج قُدرَتهم لأن قبولهم به خسارة مُحقَّقة. لا تُصَدِّق كلامهم، وتَمَسَّك بما تظنه معقولاً وصَمِّم عليه، وسوف تجدهم يَتَنازلون أمامك خطوة بعد خطوة (ولو بَدَت الخطى متثاقلة!). وعليك وحدك أن تُقَدِّر بإحساسك - دون أى دليل يساعدك - إذا كانوا قد وصلوا إلى القاع الذى لا يَقدرون بَعده على النزول، أو أنه ما زال تحت القاع الظاهر - قاعٌ آخر لم تره من أول نظرة أو من النظرة الثانية!».

كانت هذه الورقة مع «كيسنجر» حينما وَصَلَ إلى المغرب يوم ٥ نوفمبر فى طريقه إلى القاهرة يوم ٦ نوفمبر، ولموعده مع الرئيس «السادات» يوم ٧ نوفمبر.

والتقى «هنرى كيسنجر» بالملك «الحسن» على العشاء يوم ٥ نوفمبر بالقصر الملَكى على طرف المدينة القديمة فى «فاس».

كان الملك «الحسن» يعرف «هنرى كيسنجر» من أيام سبقت حين زار البيت الأبيض مرات فى السرِّ وفى العلن. كما أن «كيسنجر» زاره فى المغرب مرات مبعوثاً رئاسياً لـ«ريتشارد نيكسون» فى السرِّ وفى العلن أيضاً.

وكما روى لى «كيسنجر» بنفسه فإنه «طلب مشورة الملك الحسن كصديق قديم مَوثوق به يعرف المَنطقة وأحوالها ورجالها، مُؤكِّداً بإخلاص أنه يريد نصيحته لأنه يحمل أوراقاً كثيرة تضاربت فيها التقديرات، وهو يريد رأياً نهائياً من خبير عارف وقدير».

ولم يَقُل لى «كيسنجر» كيف وَصَلَ الحديث بين الملك وبينه إلى ورقة «الشيخ» و«الخيمة»، لكنَ الحديث - فيما يبدو - وَصَل إليها.

ويظهر أن الملك «الحسن» أحَسَّ بنوع من الفضول والدَّهشة من هذه الورقة، وقد استغرق فى التفكير لحظة قال بَعدها لـ«كيسنجر»:

«سوف تُخطئ خطأ كبيراً إذا تَصَوَّرت أن فى المشرق حيث أنت ذاهب شيخاً واحداً وخيمة واحدة.

هناك شيخ وخيمة فى القاهرة - لكن هناك شيخ وخيمة فى الرياض.

لا بد أن تعرف أن «السادات» ليس وحده وإنما له شريك. وشريكه ليس «حافظ الأسد» كما قد يَخطر ببالك. وإنما «فيصل»!»

ثم كَرَّر الملك «الحسن»:

«فى المشرق شيخان وخيمتان: السادات فى القاهرة - وفيصل فى الرياض».

وجاء «كيسنجر» إلى المشرق وزار «الشيخين» وجلس فى «الخيمتين»، ثم زادَ على ذلك وقَصَدَ لزيارة رَجُل ثالث فى دمشق لم يعتبره الملك «الحسن» شريكاً حقيقياً، لكن «كيسنجر» بدقَّة حساباته رآه شريكاً ضرورياً.

[وفيما بعد - وفى لقاء آخر معه سنة ١٩٧٥ - كان تقييم «كيسنجر» النهائى لتجربته فى القاهرة وفى الرياض وفى دمشق قوله مُلخِّصاً وبسرعة:

«أحببت السادات - واحترمت الأسد - ولم أفهم فيصل!»]

وعلى أية حال فقد قام «كيسنجر» بمَدح «الشيوخ» جميعاً، وأسرف فى المديح، وأسبغ على مُحَدِّثيه من الأوصاف دواوين شعر بأكملها - وصَدَّق بعضهم، ولم يُصَدِّق بعضهم الآخر.

وصَدَّقَ الرئيس «السادات» (ولعله كان يريد أن يُصَدِّق لأنه منذ وقت مُبكِّر فَقَدَ ثقته فى فاعلية «ويليام روجرز»، وكان مُنَاهُ أن يَقترب «كيسنجر» من أزمة الشرق الأوسط كما اقترب من أزمات فيتنام - والعلاقات بين القُوَّتين الأعظم - والعلاقات مع الصين)، وقد أسعده «هنرى كيسنجر» حين قال له فى نهاية أول لقاء بينهما: «رَجُلٌ مثلك من صُنَّاع التاريخ لا يصح له أن يناديني بـ«دكتور كيسنجر» - من الآن أرجوك أن تناديني «هنرى»».

وفيما بعد فإن الطلب تَكَرَّر ليس فقط من وزراء خارجية الولايات المتحدة، ولكن أيضاً من رؤساء للولايات المتحدة الأمريكية، فكان قولهم لنظرائهم العرب: «جلالة الملك - أو سيادة الرئيس - نادِنى جيم» (بدلاً من «جيمى كارتر»).

«نادِنى جيرى» (بدلاً من «جيرالد فورد»).

«نادِنى رون» (بدلاً من «رونالد ريجان»).

وفيما بعد كان هناك «جورج» («جورج بوش» الأب) - ثم «بيل» («بيل كلينتون») - وقريباً سوف تصبح «جورج» مرة أخرى (لـ«جورج بوش» الابن).

والفكرة كلها أن تكون العلاقات حميمة داخل كل «خيمة» - مؤثرة على التعامُل داخل كل «سوق»!

ومن المفارقات أن الملوك والرؤساء العَرَب لا يُنادون بعضهم بعضاً بالاسم الأول - بغير كلفة - داخل الاجتماعات، ولا خارجها بالطبع (إلا إذا كان ذلك ضمن مَشادات تجرى بينهم أمام العَدَسات والميكروفونات، أو على صفحات الجرائد - لسَبَب أو آخر!)

وفى المفاوضات بعد ذلك على اختلاف محطاتها من أسوان إلى كامب دافيد، ومن أوسلو إلى طابا، ومن فك الارتباط الأول بين مصر وإسرائيل فى أسوان أوائل شهر يناير ١٩٧٤ - وحتى إعلان شرم الشيخ أواخر يناير ٢٠٠١ - سبعاً وعشرين سنة بالكامل جَرَت المفاوضات مع العرب على طريقة «الشيخ» و«الخيمة».

● «شيخ» فى مجلس داخل «خيمة» وحوله جَمع من الناس، وإشارات وإيماءات، وهَمس أسرار وتمتمات خافتة - ثم يقول «الشيخ» كلمته، ويهز الجميع رؤوسهم بالموافقة!

● و«سوق» صاخبة بصراخ وصياح، وأسعار تَعلو وتهبط، وأيمان مغلظة تُؤكِّد، ونداءات بالتحذير تُقاطِع بين فترة وأخرى بأنها «الفرصة الأخيرة وإلا انتهى الكلام»، وصانع «السلام» وتاجره مُتَمَسِّك، والمشترى أمامه يتراجع. و«السوق» بلا قوانين.

والمشكلة أن أحداً لا يعرف بالضبط «قيمة السلعة المعروضة» - صانع «السلام» وتاجره يعرف سقفه - لكن «الشيخ» فى «خيمته» لا يَعرف أرضه، و«السوق» فى زحامه لا يعرف قاعه!



وهكذا تَتَواصَل المساومة، وحين يظهر «قاع» عربى - يَتَبَدَّى وراءه لسوء الحظ! - وبمواصلة الضغط قاعٌ ثان يغرق. لكن الولايات المتحدة ما زالت تظن أنها قادرة (لا أحد يعرف متى؟) على عَقد صفقة تراها معقولة -! - وأن العرب سوف يَقبَلونها فى النهاية!

ومن المفارقات أن «الشيوخ» العَرَب كان لديهم طول الوقت اطمئنان إلى أنهم فى نهاية النهاية واصلون إلى قاعٍ عليه صفقة ترضيهم لأن لديهم من البداية عَهداً - وعَقداً - يُطلقون هُم عليه وَصفاً يُريحُهم وهو وَصف «الشرعية الدولية» - وهُم لا يعرفون أن ذلك العَهد والعَقد لم يَعُد فيه الآن نَصٌ مقدس!

والسرُّ أن الولايات المتحدة الأمريكية - و«الشيوخ» لا يعرفون، ولا «السوق» تعرف - قامت بـ«تأميم الشرعية الدولية» بأن نقلت ملكِيَّتها أولاً إلى مجلس الأمن، ثم قامت هى بَعد ذلك «بخصخصة مجلس الأمن» وتحويله إلى ملكيَّتها الفردية، تَتَصَرَّف فيه كما يَتَصَرَّف المالِك فيما يَملك!

مراعاة للدقَّة فإن تعبير «خصخصة مجلس الأمن» ليس تعبيرى وإنما هو التعبير الذى تَوَصَّلَت إليه وأقَرَّته حلقة دراسات «بالعُمق» فى السياسة العالمية، و«بالغَوص» فى القانون الدولى، قامت عليها ورَعَتها ونَشَرَتها جامعة «ميتشجان» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد خلص الخبراء الذين جمعتهم حلقة «ميتشجان» إلى نتائج مَحَدَّدة - وشديدة الوضوح:

١ - أن اختصاص حفظ السلام كان محصوراً فى مجلس الأمن طبقاً للبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة.

٢ - وكان هناك إدراك عند كتابة الميثاق بأن القرارات وحدها قد تحتاج (مثلها فى ذلك مثل القانون فى أى بلد) إلى قوة إجبار تفرض احترامها - وكذلك وضع الميثاق فى يد الدول الأعضاء دائمة العضوية وهُم خمسة - اختصاص تكوين لجنة عسكرية (مُكوَّنة من رؤساء أركان حرب جيوشهم)، ومُهمَّتها أن تنظر فى «الإجراءات» المطلوبة لتنفيذ أى تَدَخُّل دولى بالقوة لتنفيذ قرار من مجلس الأمن.

٣ - وتَرَتَّب على ذلك النص على أن أى تَدَخُّل بالقوة لا بد أن يكون تحت إشراف مجلس الأمن (على الأقل أعضائه الخمسة الدائمين)، ورقابته، ومراجعته ابتداء من تَواجُد قوات الأمم المتحدة فى منطقة أزمة - إلى توزيع أعباء هذا التواجد على الدول الأعضاء - وتحديد دَرَجة فعل هذا التواجُد وضبط تدخله عند نطاق متفق عليه - وتوفير ورقابة التكاليف المادية اللازمة للتَدَخُّل - ثم تحديد الموعد الذى يتقرر فيه أن المهمة تحققت، وأن التَدَخُّل حَقَّق مطلبه. أو أن الضرورة تقتضى إنهاءه!

ثم تَتَوَصَّل حلقة «ميتشجان» إلى أن «الولايات المتحدة الأمريكية أثناء أزمة الخليج الثانية فى أغسطس ١٩٩٠ (وفى ظروف مُعقَّدة) حَقَّقت لنفسها حُرِّية عَمَل فى الشرق الأوسط غير مسبوقة، خصوصاً عندما تأكَّدَ لها تَراجُع القوة السوفيتية وانكفاؤها عن التأثير - وبانَ أمامها انقسام فى العالم العربى واسع وعميق».

وعندما بَحَثَ مجلس الأمن موضوع التَدَخُّل بالقوة لإخراج العراق من الكويت، فإن الرئيس السوفيتى («ميخائيل جورباتشوف» وقتها) - اقترح دعوة اللجنة العسكرية لمجلس الأمن، لكن الولايات المتحدة عارضت، وكان لها ما أرادت.

وصدر قرار مجلس الأمن يُفَوِّض استعمال القوة بواسطة «الدول المتعاونة مع حكومة الكويت» إذا لم ينفذ العراق كل قرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالانسحاب الكامل وقبل يوم ١٥ يناير ١٩٩١ (واعترضت كوبا واليمن - وامتنعت الصين عن التصويت - وكذلك مَرَّ القرار).

(وسَجَّلَت «ماليزيا» فى محضر المجلس تحذيراً تقول فيه «إن ذلك القرار بتفويض استعمال القوة نيابة عن مجلس الأمن بمثابة شيك على بياض يُوَقِّعه المجلس لدولة واحدة من الأعضاء الدائمين فيه»!)

أزمـــة المشـــروع اليهـــودى
أنــه حـــاول اختـــراع ذاكـــرة
من الأوهـام يؤسـس عليهـا مشـروع دولة ـ
أو مشـــروع إمبراطـــورية مســـتحيلة التحقيـــق
(وإن كانـت باهظـة التكاليـــف بمجـــرد المحـــاولـة)

وبالفعل جرى التَّدَخُّل العسكرى فى الخليج بواسطة ما سُمِّى بقوات «التحالف الدولى للدول المتعاونة مع حكومة الكويت».

ثم كان أن الولايات المتحدة، ومن يومها وحتى الآن، استغنت عن مجلس الأمن بالتفويض الممنوح للتحالف، ثم استغنت عن التحالف بعد أن أخذت أعلامه ـ ولم تكتَف بتحرير الكويت وإنما راحت ـ وحتى الآن ـ تمارس تدمير العراق!

وطرأ على ذلك أخيراً أن هناك رئيساً أمريكياً جديداً وَصَلَ إلى البيت الأبيض ومعلوماته عن أزمة الشرق الأوسط وغيرها قليلة (وقد سُئل يوماً عن «طالبان»، وكانت إجابته أنه «يظنها فرقة موسيقى جديدة»، وحاول بعض مساعديه أن يؤكدوا خبرته بالسياسة الخارجية وكان قولهم «إنه كحاكم لولاية «تكساس» تَعامَل مع «المكسيك» فى قضايا الهجرة غير الشرعية ـ والحدود ـ والأمن!»)

يتَّصل بذلك مباشرة أن الرئيس الجديد دخل إلى البيت الأبيض ومعه إدارة يظن البعض فى العالم العربى أنهم يعرفونها ويعرفون أولوياتها من أيام حرب الخليج. وقد بدا فى استقبالهم لهذه الإدارة نوعٌ من الترحيب الحار بها على أساس أنها عودة مَرجُوَّة بعد الغياب ـ إلى ما كان قبل عشر سنوات ـ وحتى يُكمِل بوش «الابن» ما بدأه جورج بوش «الأب»، وكأنها ثارات قبائل ـ وليست مَطالِب إمبراطورية!

الطـــريـــق إلـــى عَمـــّـــان!

■■ يوم ٢٧ مارس القادم (٢٠٠١) تَتَوَجَّه «مَواكب» القمة العربية كى تتقابل، وتتلاقى، على تلال عَمّان، ووسط طُرُقها، وداخل قصورها. و«المواكب» ـ فى المناخ السائد اليوم عربياً ـ قريبَة فى كل شىء إلى «القوافل» رغم وصول الوفود العربية إلى عَمّان راكِبَة طائرات من أحدث وأكبر طراز!

ومن المفارقات أن الحمولات الثقيلة ـ تَجُرُّها القوافل وراءها أو تسوقها أمامها، أو تطير بها ـ ليست صناديق تضيق بالملفات والدراسات، وإنما الحمولات رغم ثقلها غير مرئية لأنها حمولات من «هواجس» و«شكوك» تلح على المشاركين فى هذه القمَّة ـ التى هى فى الواقع ترتيبٌ قبلته معظم الدول العربية على مَضَض وإحساساً بالحرج، وهى أول من يعرف أنه «طقس يُؤَدَّى» أكثر منه «مُهِمَّة ضرورية» ـ مع العلم أن أحداً لا يَملك هذه اللحظة تَصَوُّراً «لمهِمَّة ضرورية» فى حين أن الكل مارس ويُمارس كل يوم تجربة «طقس يُؤَدَّى» (تبادُل زيارات ـ قبول دَعوات ـ مُشاركة فى مُناسبات)!

وربما أن المأزق الحقيقى الذى يَتَّجه إليه الجميع مُرتَحِلين إلى عَمّان أنهم ـ معظمهم على الأقل ـ مُستَعِدُّون لـ«طقس يُؤَدَّى» أكثر من استعدادهم لـ«مُهِمَّة ضرورية»:

■ وابتداء فإن المركز الذى تنعقد فيه القمة (وهو الأردن) مأخوذ بمشاغله، فهو يعيش لحظة انتقال تؤثر على الأسرة المالكة، وعلى الوزارة القائمة، وعلى الأحزاب المعترف بها وغير المعترف بها.

والمركز الأردنى من الأصل «خط تماس» ـ كما كان الملك «حسين» يقول ويُكَرِّر القول ـ وذلك يجعل أوضاعه قلقة حتى فى حياة كل يوم، سواء كانت هناك مشاكل انتقال، أو كان السياق مُتَّصلاً لم تعترضه المقادير.

ثم إن التطورات فى الإقليم المحيط بالأردن زحفت عليه بحساسيات بين مُواطنى الأردن القدامى فى الجنوب، وبين مواطنى الأردن الجُدُد الذين جاءوا إليه فرادى أو جماعات من الغرب عندما أسَّس الملك «عبد الله» دولته فى عَمّان، ثم تَدَفَّقوا عليه قبل وبعد نشوب المعارك فى الأرض المقدسة سنة ١٩٤٨ ـ حتى وَجَدَ الكل أنفسهم تحت التاج الهاشمى بعد أن ضَمَّ الملك «عبد الله» ما بقى من ضفة الأردن الشرقية رسمياً إلى مملكته سنة ١٩٤٩.

والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأردن ثقيلة، والبلد بكل مواطنيه القدامى والجُدُد محصورٌ مع موارد محدودة، وذلك يصنع نوعاً من الضيق يحتاج إلى انفراج واتساع لا يُقَدِّره جيران الأردن من أبناء أمَّته، وفى نفس الوقت فإن إسرائيل تستغله، وشاهد استغلالها أن أكبر محطَّة للموساد خارج إسرائيل موجودة فى عَمّان، والمحَطَّة الثانية فى المنطقة بعدها موجودة فى استنبول!

● ومثلاً فإن قافلة الخليج تَظهَر وكأنها تَجُرُّ أقدامها جَرّاً نحو الأردن، تَتَمَنَّى لو أنه لم يكن عليها أن تَصعَد سلالم الطائرات، وتجلس مُستَسلمة على مقاعدها، وتنتظر فى مَلَل إقلاعها، وتَتَحَسَّب فى ضيق لهبوطها!

ذلك أن قافلة الخليج تَشعُر أنها مُعَرَّضة فى مَواطِنها الأصلية لأنواع من التهديد لا تستطيع توصيفها. وتلك ضمن هواجس الغنى ـ ومع أن بعضهم يرى ويُقَدِّر مقاصد الإستراتيجية العليا لإسرائيل ـ فإن إستراتيجية الأمن العربى لا تبدو واصلة إليهم. ذلك أنه من مضاعفات الأزمة ظنون بأن أمن الخليج لم يَتَحَقَّق عربياً وإنما تَحَقَّق أمريكياً (وفى بعض الأحيان إسرائيلياً ـ وهذه مسألة تستحق البحث لأن هناك الآن تَسَرُّباً إسرائيلياً نشيطاً فى شبه الجزيرة العربية نَفَذ إليها من ثغرة الأمن، ثم قام بتوسيع الثغرة كالعادة فى أى خطة للاختراق، ثم وَصَل إلى حيث لم يكن فى الحسبان أن يَصِل. وهناك فى هذا الشأن كلامٌ كثيرٌ ليس هذا أوانه!)

يضاف إلى ذلك أن القوافل من الخليج تشعر أنها تتعرض للغارات فى ذهابها وإيابها إلى الوديان، وهى تُقِر بأن بعض الضرائب مُقَرَّر ومقبول من واقع أن الوديان هى التى مَكَّنت الصحارى من الثروة ـ لكنه حين تزيد الضرائب تَتَحَوَّل إلى إتاوات!

هكذا تَجُرُّ قوافل الخليج أقدامها جَرّاً إلى مطارات السفر، لكنها فى مطارات العودة خفيفة الحركة تَستَعجِل الإقلاع قبل أن يُؤَخِّرها داعٍ لم تَتَحَسَّب له، أو يَقَعَ عُطلٌ فنى أو غير فنى يُؤَخِّر مروقها وراء السُّحُب عائدة إلى حيث أتت!

● ومثلاً فإن قوافل المغرب لديها حمولات من «أوهام» و«هُموم» تختلف درجاتها فيما بينها وبين بعضها ـ وهى تختلف كذلك عن حمولات قوافل الخليج. بين الحمولات تَصَوُّرات تُهَيِّئ لأصحابها أن المستقبل ليس فى اتجاه الشرق نحو قلب العالم العربى ـ وإنما هو فى اتجاه الشمال نحو جنوب أوروبا حيث الالتحاق بالسوق الأوروبية ولو بالشُّفعَة ممكن!

● ومثلاً فإن قوافل الجنوب تَجُرُّ فى أذيالها نحو عَمّان ذيولاً من الفتَن مَسَّتها حرارة أفريقية تُوشك أن تَتَحَوَّل إلى حريق حروب أهلية!

وراء ذلك، وفى ذيله، فإن هناك قوافل وافدة التحقت بالركب فى بداية السبعينات مع الطفرة المفاجئة فى أسعار البترول، وتلك قوافل يستحق أمرها معاودة النظر.

[فقد كانت القواعد الحاكمة لانضمام دولة من الدُّوَل إلى الجامعة العربية عديدة، والأساس فيها ثلاثة شروط:

ـ أن تكون اللغة العربية هى لغة ذلك البلد لأن ذلك هو «الوعاء الثقافى المشترك» إلى جانب «التجربة التاريخية المشاع».

ـ وأن يكون البلد الراغب فى الانضمام إلى الجامعة قد تمكن من تحقيق قدر من الاستقلال الوطنى يكفل نوعاً من الإرادة المستقلة.

ـ ثم أن يكون البلد العربى الراغب فى الانضمام على اتصال جغرافى بالعالم العربى أو أطرافه.

ثم حَدَثَ أوائل السبعينات نسيانٌ ـ أو تَناسٍ للشروط ـ دَخَلَت به بعض الدُّوَل إلى الجامعة، دون أن تكون العربية لغتها ـ ودون قدر من الاستقلال يسند إرادتها ـ ودون اتصال جغرافى يفتح معها بالطبيعة اتصالاً.

وهكذا دَخَلَت إلى الجامعة العربية فى تلك الفترة دُوَلٌ من بينها «جيبوتى» و«جُزُر القمر» (إلى جانب «الصومال» و«موريتانيا»).

أزمة النظام العربي أنه حاول إقناع نفسه - أو حاول إقناعه آخرون - بتأسيس ذاكرة المستقبل على النسيان - وتلك استحالة أخرى (وإن كانت بدورها باهظة التكاليف بمجرد المحاولة!)

و«جيبوتي» كانت ولا تزال مُستعمَرة فرنسية - و«جُزُر القمر» كانت ولا تزال تحت تأثير الكابتن «دينار» وهو مزيج من جندي مُرتَزق وقرصان فرنسي -! - يظهر من البحر ويختفي فيه!

والغريب أن بعض الدُوَل العربية تَحَمَّسَت في حينه لانضمام هذه الدُوَل الأربعة إلى الجامعة العربية، ودون مراعاة لشرط، وحُجَّتها أنه من المصلحة توسيع نطاق الجامعة مع العلم أن التوسيع في بعض الظروف مرادف للتمويع، ولعل ذلك كان بين المقصود يومها.

والنقطة الشائكة هنا أن بعض الوجود المستغني عن الشروط يُصبح عبئاً على الحوار وضاغطاً على القرار لأسباب بدهية!]

وتلك عُقدة ليس من السهل إيجاد حلٍّ لها - ولكن معاودة النظر إليها ولو بمراعاة الظروف لازمة!

● وأخيراً تجيء قوافل الوديان (من النيل والفرات وبردى)، وهذه القوافل قصة متداخلة متشابكة - وأحياناً مُتنافِرة - ففي القاهرة مَن يَرون أنه سلام لا بديل عنه، وفي بغداد مَن يَرون أنها حَربٌ لا مَهرَب منها، وفي دمشق حيرة بين سلامٍ مَرغوبٍ فيه وحربٍ غير مطلوبة!

وتلك كلها أحوال غريبة:

قوافل تَتَصَوَّر لنفسها الحماية (العسكرية) أمريكياً (ولو مؤقتاً)..

وقوافل تَتَصَوَّر لنفسها الحماية (الاقتصادية) أوروبياً (ولو كتجربة)..

وقوافل لا يَعرف أحد كيف جاءت؟ (وما الذي تَعرضه - أو ما الذي تَطلبُه؟)..

ثم قوافل كبيرة جَرَّارة (تُثير في طريقها غباراً يَحجب وضجيجاً يُغطي!)

وإذن ما الذي تستطيعه القمة العربية في عَمّان إذا كانت تلك هي الأحوال والحمولات؟

وحتى هذه اللحظة - والقوافل المتَّجِهة بحمولاتها نحو عَمّان، ولقاؤها هناك على وشك أن يَقَع - فإن هناك حيرة في شأن الموضوع الذي تكون له الأولوية على جدول أعمال القمة، وهل هو بند «استعادة العراق» كما كانت النيَّة ابتداء عندما تَحَدَّد موعد القمة (مارس) - ومكانها (عَمّان) - أو أن الموضوع الرئيسي في جدول الأعمال لا بد أن يكون «انتفاضة الأقصى» باعتبار أن ذلك هو الموضوع الذي طَرَحَ نفسه سابقاً على أي إعداد؟ - أو أن الأولى بالعناية هذه اللحظة وسابقاً لما كان من أولويات - أن تُرَكِّز القمة على وصول «شارون» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية، وتبعات وعواقب هذا الوصول؟

والحاصل أن قمة القاهرة الأخيرة (أكتوبر ٢٠٠٠) كانت مُخَصَّصة لاستعادة العراق، وكان العراق نفسه هو الذي تنازل عن أولوية قضاياه ليعطي السبق للانتفاضة - ثم يكون موعد العراق مع القمة في عَمّان في مارس (٢٠٠١). لكن بعض الدول العربية تقول الآن أن انتفاضة الأقصى يَزداد إلحاحها على «الضمير العربي» لأن أطفال الحجارة يُقتَل منهم بالرصاص الإسرائيلي واحد أو اثنان كل يوم - وتَرُدُّ عليها دول أخرى بأن أطفال العراق يموت منهم باليورانيوم الأمريكي مائة أو مائتان كل يوم!

في نفس الوقت فإن مجيء «شارون» انقض - دون مفاجأة - على الجميع، ولا بد أن يكون لانقضاضه عليهم مكان الصَدارة في جدول أعمالهم!

وقد اجتمع وزراء الخارجية العرب فعلاً، تمهيداً لاجتماع رؤسائهم في عَمّان - ولم يَتَّضِح بَعد ما استقروا عليه من رأي بشأن الموضوع الأول على جدول الأعمال - والذي تنتسب إليه القمة كالعادة لتكون إما قمة «استعادة العراق» أو قمة «انتفاضة الأقصى» أو قمة «التعامُل مع شارون»!



والحقيقة أن ذلك «التسابق» و«التزاحم» على الأولوية والصدارة في جدول أعمال القمة العربية القادم - كلاهما زائد عن الحاجة والاستغناء عنه ممكن - وربما لازم!

لأن البنود الثلاثة «المتسابقة» و«المتزاحمة» على جدول أعمال القمة المقبلة هي في واقع الأمر «مُهِمَّة ضرورية» واحدة.

وبمعنى آخر:

١ - فإن ترك العراق حيث هو الآن - وحتى بصرف النظر عن قيمته في حَدِّ ذاته كوطن عربي عريق يملك مُقَوِّمات التقدُّم ويَقدر على أسباب الحضارة - معناه عزل الشام عن وادي الفرات تماماً - وذلك مطلب الإستراتيجية العليا لإسرائيل في الشرق.

٢ - ثم إن النظر إلى انتفاضة الأقصى باعتبارها مشهداً مأساوياً يستحق العطف - ينسى أنه - بصرف النظر عن جلال الشهادة في صورة الانتفاضة - فإن القصد المطلوب من الشعب الفلسطيني هو الكف عن المقاومة والقبول بأي سلام - وذلك معناه إذا حَدَث عزل الشام تماماً عن وادي النيل - وذلك مطلب الإستراتيجية العليا لإسرائيل في الغرب.

٣ - ثم إن مجيء «شارون» إلى رئاسة الوزارة الإسرائيلية لا يمكن اعتباره مجرد تغيير آخر في إسرائيل «يَستَحِق أن يُعطَى الفرصة ليَعرِض نفسه»، ثم يكون الرَدُّ عليه بما يَستَحِق - قُصور في رؤية الحقيقة لا يُغتَفَر، وهو يَعكس عجزاً عن رؤية وفهم مُجمَل التداعيات التي أخذت إسرائيل إلى «نهاية طريق» - سَقَطَت عليه كافة الأحزاب والمؤسسات والتيارات الفكرية والإنسانية التي شارَكَت في بناء الدولة اليهودية - حتى وَصَلَت الأمور إلى هذا المشهَد البادي في إسرائيل اليوم حيث يَتَحَكَّم اثنان من الحاخامات في تشكيل الوزارة الإسرائيلية، ويَتَنافس اثنان من الجنرالات على رئاستها. والمشهَد بحاخاماته وجنرالاته مجرد إشارة على السطح إلى تفاعلات تحت السطح تُومِئ إلى أزمة عميقة في قلب الدولة اليهودية لا تقل خطراً عن أزمة عميقة أخرى في قلب النظام العربي. وإن اختلفت الأسباب والدواعي مع وجود صلة بالتلازم بين الأزمتين:

■ أزمة المشروع اليهودي أنه حاول اختراع ذاكرة من الأوهام يُؤَسِّس عليها مشروع دولة - أو مشروع إمبراطورية مستحيلة التحقيق (وإن كانت باهظة التكاليف بمجرد المحاولة).

■ وأزمة النظام العربي أنه حاول إقناع نفسه - أو حاول إقناعه آخرون - بتأسيس ذاكرة المستقبل على النسيان - وتلك استحالة أخرى (وإن كانت بِدورها باهظة التكاليف بمجرد المحاولة!)

وإذن - وفي نهاية طَواف طويل - حول القريب والبعيد، والظاهر والخَفي - ما العَمَل؟ ما هو المطلوب؟ - ما هو الضروري؟ - ما هو الممكن؟ وفي هذه الظروف؟

وتقتضي الأمانة أن يَعتَرف كل مُتابعٍ من بعيد لقوافل القمَّة المتَّجِهة إلى عَمّان ويقول لنفسه وللآخرين «أنه لا يعرف؟».

والسبب أن كل هؤلاء الذين يُتابعون من بعيد ليس لديهم ما يكفيهم للفتوى، وبالتالي فليس أمامهم غير اتِّباع مقولة أنه «من قال لا أدري فقد أفتى».

ذلك أن الأساس المطلوب لأي اجتهاد غائبٌ - لأن الحقائق نفسها غائبة:

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يُقَدِّر - من مجرد المتابعة - ما هي «الحقيقة» في حَجم الأعباء الاقتصادية والاجتماعية التي تؤثر في قرار أي بلد عربي؟!

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يصل إلى «الحقيقة» في طبيعة الالتزامات التي تربط أنظمة عربية - في شئون الأمن الداخلي والإقليمي - إزاء أطراف دولية؟

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يحسب «الحقيقة» في الاعتبارات الشخصية، والعائلية، والقبلية، والثقافية، والفكرية، التي تَكمُن في موقع أي قرار عربي في ظلِّ الواقع الراهن؟

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يُحيط بنوعٍ وصفة العلاقات «الحقيقية» بين الملوك والرؤساء العرب في ظروف زادت فيها، ليس فقط «فردية» القرار - وإنما أيضاً «شخصانية» القرار السياسي؟

[وهناك أمرٌ واقعٌ لا مجال لشكٍّ فيه مُؤَدّاه أن مُحَدِّدات القرار العربي لم تكن - وربما منذ العصور المملوكية - شخصية كما هي الآن، وسرِّيَّة كما هي الآن!]

● ومثلاً فمَن الذي يستطيع أن يقترح على القمَّة إجراءات مرحلية أو جزئية تَقدر «حقيقة» على تَدارُك قضايا لم تَعُد تَقبَل التأجيل - ومثل ذلك مرهون بـ«النوايا» و«المشاعر» و«الرغبات» وحتى بـ«الغرائز» - وكله مُخفي لا يَبين؟!

● ثم أخيراً - وليس آخراً كما يقولون - مَن الذي يستطيع أن يَحِلَّ قضية شرعية القرار العربي، سواء من ناحية إدراك صاحب القرار لهذه الشرعية - أو من ناحية القبول الشرعي لهذا القرار في ضمير الناس؟!

تلك كلها مُقدِّمات ضرورية قبل المشاركة الفاعلة في البحث عن جَواب لسؤال: «ما العَمَل؟» - وبغير هذه المقدِّمات تَتَنازل المشاركة إلى التسطيح على طريقة أنه «يَجِب» وأنه «يَنبَغي» وأنه «لابُد» - وتلك كلها أكوام قشٍّ أمام هُبوب عاصفة!

ومهما يكن فإن القِمَم تبدو مُستَغنية عن الوديان وعن السفوح - لكن السؤال المعلَّق في يَد المقادير هو:

هل القِمَم تعرف من الحقائق ما يكفيها حتى تَجعَل اجتماعها في عَمّان «مُهِمَّة ضرورية» - وليس «طقساً يُؤَدّى» بحيث يكفيه مجرد الاجتماع، وتكفيه دوريَّة الاجتماع، وتكفيه المراسم، وتكفيه المآدب حتى تَحين ساعة العَودة إلى الأوطان؟!

أم أن القِمَم لا تَعرف، وبناء عليه فإن «المسيرة» - كل «مسيرة» وأي «مسيرة» - مُستَمِرَّة ويَجب أن تَستمر؟

بَقِيَت مُلاحظة خَتامية مُستعارة من قوانين الصراع وضمنها «قانون فعل الأزمات»، ومُؤَدّى الملاحَظة أنه «إذا لم تَجِد أزمة من الأزمات مَن يُديرها - فإن حركتها لا تَتَوَقَّف، وإنما هي تُواصِل دَوَرانها بحَرَكَتها الذاتية مُتجاوِزة نهاية الطريق»! ■

من أنشاص إلى عمّان

"مؤسسة" القمة العربية

أحمد يوسف أحمد

في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر ٢٠٠٠، وفي سياق أعمال القمة العربية غير العادية التي انعقدت بالقاهرة في أعقاب اندلاع انتفاضة الأقصى في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ٢٠٠٠، شهد قادة الدول العربية الذين شاركوا في تلك القمة مراسم توقيع وزراء خارجية الدول الأعضاء على الآلية الخاصة بالانعقاد الدوري للقمة العربية، والتي وافق عليها مجلس جامعة الدول العربية، واضعين بذلك نهاية ناجحة على الصعيد القانوني التنظيمي لجهود حاولت منذ أكثر من ثلث قرن دعم جامعة الدول العربية بمؤسسة للقمة تنعقد دوريًا، أسوة بمنظمات إقليمية أخرى مشابهة، لعل أقربها إلينا جغرافيًا وأكثرها شبهًا بظروفنا هي منظمة الوحدة الأفريقية.

وتحاول الصفحات التالية أن ترصد مسيرة القمم العربية في سعيها إلى «المؤسسية» ضمن إطار النظام العربي عبر ما يزيد على نصف القرن، وأن تفسر ما ألم بهذه المسيرة من تطورات، وتستشرف ما يمكن أن يكون لنهايتها الناجحة - على النحو السابق بيانه - من دلالات بالنسبة للمستقبل العربي.

دورية القمة بين المبدأ والإنجاز

في الواقع أن إمعان النظر في محاضر تأسيس جامعة الدول العربية سواء تلك الخاصة بمناقشة وإقرار بروتوكول الإسكندرية في ١٩٤٤ أو ميثاق الجامعة ذاته في ١٩٤٥، لا يشير من قريب أو بعيد إلى اهتمام المجتمعين بأن تكون للجامعة مؤسسة على مستوى القمة، أو أن يشارك في أعمالها بأي شكل من الأشكال قادة الدول العربية، ويتسق هذا على أية حال مع الاتجاه القوي الذي ساد تلك المناقشات لجعل التعاون السياسي في أضيق نطاق ممكن، ولذلك جاء النص في المادة الثالثة من الميثاق على أن يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة فيها، دونما تحديد لمستوى التمثيل في هذا المجلس، ولئن رأى البعض لاحقًا أن هذا النص العام يسمح بعقد مجلس الجامعة على مستوى القمة إلا أن قراءة الأعمال التحضيرية للميثاق لا تسمح - كما سبقت الإشارة - من قريب أو من بعيد بقبول مثل هذا التفسير، ويلاحظ اتساقًا مع هذا أن أيًا من الدعوات اللاحقة لانعقاد قمم عربية لم تستند إلى تفسير كهذا، مما يؤيد القول بأن الرأي السابق يمثل «إرهاقًا» للنص، أي تحميلاً له بأكثر مما يحتمل.

ومع ذلك فسرعان ما اتضح أن التحديات والتهديدات والمخاطر التي يواجهها النظام العربي، وبالذات في شقها الخارجي، تتطلب عملاً يتجاوز المؤسسات التي نص عليها ميثاق جامعة الدول العربية، وهكذا وجد «ملوك وأمراء ورؤساء دول الجامعة العربية» أنفسهم مضطرين إلى عقد أول قمة عربية في أنشاص بمصر يومي ٢٨ و ٢٩ مايو ١٩٤٦ بعد أكثر قليلاً من سنة على توقيع ميثاق الجامعة، وتظهر قراءة قرارات القمة بما لا يدع مجالاً للشك - وبغض النظر عن أية دوافع أخرى للدعوة إلى عقد القمة أو حضورها - أن تفاقم الخطر الصهيوني على فلسطين كان هو الهاجس الرئيسي لتلك القرارات. وتكررت نفس السابقة بعد أكثر من عقد كامل بانعقاد قمة بيروت يومي ١٣ و ١٤ نوفمبر ١٩٥٦ متزامنة مع انتهاء الأعمال العسكرية في عدوان بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر في ذلك التوقيت، ومظهرة تأييد مصر في مواجهة العدوان.

وفي الحالتين (قمتي أنشاص وبيروت) لم تظهر القرارات أدنى اهتمام بموضوع دورية القمة، وإلى أن تتاح للباحثين قراءة محاضر هاتين القمتين وما بعدهما سوف تبقى التفاصيل الخاصة بإثارة هذا الموضوع من عدمه، والأطراف المؤيدة والمعارضة له، والحجج المحبذة للدورية وتلك الرافضة لها - إن كان قد أثير - في طي الكتمان.

وفي يناير ١٩٦٤ انعقدت للمرة الثالثة قمة عربية لمواجهة خطر داهم على الأمن القومي العربي تمثل في المشروعات الإسرائيلية لتحويل مياه نهر الأردن، وكانت قمة القاهرة تلك هي القمة الأولى التي يمكن القول بأنها انعقدت في إطار جامعة الدول العربية سواء مكانيًا أو مؤسسيًا، فمن الناحية المكانية كانت هي القمة الأولى التي انعقدت بمقر الجامعة بالقاهرة، ومن الناحية المؤسسية كانت الأمانة العامة لجامعة الدول العربية هي التي وجهت الدعوة لحضور القمة بناء على طلب الخارجية المصرية، كما أن القمة قد عبرت عن نفسها في صدارة قراراتها بأنها «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية في دور انعقاده الأول»، وذلك في مقابل تعبير «نحن ملوك وأمراء ورؤساء دول الجامعة العربية» في قرارات مؤتمر أنشاص، وعدم الإشارة من قريب أو من بعيد إلى الجامعة العربية أو أي إطار عربي آخر في قرارات مؤتمر بيروت.

وبالإضافة إلى ما سبق كانت قمة القاهرة ١٩٦٤ هي أول قمة تقرر مبدأ دورية انعقاد القمة، فقد نص البند السابع والأخير من قراراتها على «أن يجتمع مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية مرة في السنة على الأقل، على أن يكون الاجتماع التالي في شهر أغسطس ١٩٦٤ في الإسكندرية»، أي أن قمة القاهرة فهمت الدورية بمعنى اجتماع يعقد سنويًا على الأقل، وإن لم تحدد توقيتًا ثابتًا له، أو معايير لاختيار مكانه، ويعني هذا أنها تصورت من ناحية إمكان انعقاد أكثر من اجتماع في نفس السنة، بدليل أنها حددت توقيت الاجتماع التالي بعد أقل من ثمانية شهور، وأنها من ناحية أخرى لم تنظم هذا التصور، وإنما ربطته في الغالب بتطور الظروف التي تستدعي انعقاد القمة، حيث إنها لم تهتم مثلاً بأن تجعل توقيت انعقاد القمة تاليًا لانعقاد إحدى دورتي مجلس الجامعة السنويتين.

وقد عقد بالفعل مؤتمر قمة ثان في مدينة

محاضر تأسيس جامعة الدول العربية، لا تشير من قريب أو بعيد إلى اهتمام المجتمعين بأن تكون للجامعة مؤسسة على مستوى القمة

مؤتمرات القمة العربية.. قراراتها وبياناتها (١٩٤٦ - ١٩٨٥)
القاهرة، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ١٩٨٧
قرارات مؤتمر القمة العربية (١٩٨٧ - ٢٠٠٠)
مذكرات محمود رياض (١٩٤٨ - ١٩٧٨)
البحث عن السلام والصراع في الشرق الأوسط
بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١



الإسكندرية فى نفس السنة (١٩٦٤)، وإن كان قد تأخر قليلاً عن التوقيت الذى حددته له قمة يناير ١٩٦٤ (إذ انعقد فى سبتمبر بدلاً من أغسطس)، وواصل فى قراراته النص على الانعقاد السنوى بترحيبه فى البند الحادى عشر من هذه القرارات «بدعوة جلالة الملك الحسن الثانى لعقد الدورة الثالثة لمجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية فى شهر سبتمبر ١٩٦٥ بالمملكة المغربية»، وواصل كذلك الفصل بين هذه التطورات وبين الجامعة العربية كمؤسسة بقراره أن تجتمع لجنة متابعة قرارات القمة مرة «كل أربعة شهور على مستوى رؤساء الوزارات أو نواب الرؤساء فى أحد البلاد العربية»، ويكون هذا الاجتماع «هيئة تنفيذية لمجلس الملوك والرؤساء يبت فى الأمور العاجلة تمشيًا مع قرارات الملوك والرؤساء العرب، ويتولى مباشرة تنفيذ الخطط المقررة ودفعها، كما يقوم بإعداد المقترحات التى تعرض على مؤتمر الملوك والرؤساء، وله أن يطلب اجتماعًا استثنائيًا للملوك والرؤساء، إذا كانت هناك حالة عاجلة، أو أحداث تستدعى اجتماعًا سريعًا».

وفى سبتمبر ١٩٦٥ عقد «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية» دور انعقاده الثالث فى الدار البيضاء فى الموعد المحدد سلفًا فى قمة الإسكندرية، فواصل التمسك بدورية انعقاد القمة بتلبيته لدعوة الرئيس الجزائرى هوارى بومدين لعقد الدورة الرابعة للمجلس بالجزائر فى سبتمبر ١٩٦٦ لتكون قمة الجزائر المفترض انعقادها فى ذلك التوقيت هى أول قمة عربية غائبة، وهو حدث سيتكرر لاحقًا على نحو شكّل ظاهرة - وليس مجرد أحداث منفردة - فى النظام العربى، ولتكون تلك القمة الغائبة إشارة مبكرة إلى الصراع بين الرغبة فى إضفاء الطابع المؤسسى على القمة العربية وبين العوامل البنيوية التى حالت كثيرًا دون حدوث هذا التطور. وبالإضافة إلى ما سبق أظهرت قمة الدار البيضاء واقعية أكبر تجاه آلية متابعة قرارات القمة على مستوى لجنة تنعقد كل أربعة أشهر على مستوى رؤساء الوزارات أو نواب الرؤساء، فنصت قراراتها فى بندها السادس على أن يكون اجتماع «مجلس رؤساء وزارات الدول الأعضاء (أغفلت الإشارة إلى نواب الرؤساء) سنويًا فى شهر مارس من كل عام» دونما تحديد لزمن انعقاده فى علاقته باجتماع مجلس الجامعة الذى ينعقد فى هذا الشهر أيضًا، وكذلك لمكان انعقاده.

وقد فرضت ظروف العدوان الإسرائيلى على مصر وسوريا والأردن فى يونيو ١٩٦٧، والعجز العربى الفادح عن التصدى عسكريًا له إلى انعقاد قمة الخرطوم فى أغسطس / سبتمبر ١٩٦٧، بعد حوالى سنة كاملة من موعدها المفترض فى سبتمبر ١٩٦٦، فى تعزيز واضح لفكرة أن القمم العربية تنعقد لمواجهة تحديات وتهديدات ومخاطر خارجية داهمة مصدرها أساسًا الكيان الصهيونى، وعلى الرغم من نجاح قمة الخرطوم فى التوصل إلى قرارات عملية سواء فيما يتعلق بالموقف السياسى إزاء إسرائيل، أو الدعم المالى العربى لدول المواجهة معها، فإن القمة سكتت تمامًا لأول مرة منذ انعقادها فى ١٩٦٤ عن الإشارة إلى مبدأ دورية الانعقاد، كما يلاحظ أن قراراتها أسقطت الإشارة إلى تسمية «مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية»، كان هذه التسمية كانت علامة على مرحلة من مراحل تطور النظام العربى، ولم تصدر عن مؤتمر القمة العربى الخامس الذى انعقد فى الرباط فى ٢٣/١٢/١٩٦٩ أية قرارات أصلاً أو حتى بيان ختامى بعد واقعة خروج الرئيس جمال عبد الناصر من قاعة اجتماعاته كاحتجاج صامت على الخلافات داخل المؤتمر بشأن زيادة الدعم المالى لدول المواجهة، وركز مؤتمر القمة الطارئ الذى عقد فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٧٠ على إنهاء الاقتتال بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية.

وهكذا أُسقط الحديث عن دورية القمة فى سنوات ١٩٦٧ و١٩٦٩ و١٩٧٠ ليعود من جديد مع الصحوة المؤقتة التى لحقت بالنظام العربى بقيام حرب أكتوبر ١٩٧٣، فانعقدت قمة الجزائر فى نوفمبر من تلك السنة بعد حوالى شهر من توقف الأعمال العسكرية الرئيسية فى الحرب، لتواجه تبعات إدارة الصراع مع إسرائيل، والذى نجحت الحرب فى تحسين موقف العرب فيه، ونصت قرارات القمة فى بندها السادس على أن «تعقد اجتماعات دورية لمؤتمر القمة العربى فى أبريل من كل عام. كما تعقد دورات استثنائية إذا اقتضت الضرورة ذلك بموافقة أغلبية الدول الأعضاء، وبناء على طلب دولة أو أكثر من الدول الأعضاء أو الأمين العام» وهكذا عادت القمم العربية إلى ما بدأت به فى عام ١٩٦٤، ونجحت مرتين فقط فى تحقيقه، إحداهما فى نفس السنة، والثانية فى ١٩٦٥، ويلاحظ أن قمة ١٩٧٣ كانت أكثر تواضعًا فى الحديث عن آليات المتابعة، فلم تشر إلى آليات متابعة خاصة بها على مستوى رؤساء الوزارات أو نواب الرؤساء، تجتمع مرة كل أربعة شهور، كما فعلت قمة سبتمبر ١٩٦٤، أو كل سنة كما فعلت قمة سبتمبر ١٩٦٥، وإنما نصت القرارات فى بندها السابع على أن يقوم كل من مجلس الجامعة والمجلس الاقتصادى بتنفيذ قرارات القمة ومتابعتها، كل حسب اختصاصه.

وبالفعل عقدت قمة عربية تالية (مؤتمر القمة العربى السابع) فى الرباط فى أكتوبر ١٩٧٤ بعد أقل من سنة على عقد قمة الجزائر، وإن لم تعقد فى شهر أبريل كما نصت القرارات، وكان التأجيل بناء على طلب من الرئيس أنور السادات حتى يتم التوصل إلى اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة السورية، ووافقت قمة الرباط فى البند الخامس عشر لقراراتها على تلبية دعوة اللواء محمد سياد برى رئيس مجلس الثورة لجمهورية الصومال لعقد مؤتمر القمة العربى الثامن بالعاصمة الصومالية فى يونيو ١٩٧٥، وبالإضافة إلى ذلك وضعت قمة الرباط أقدامها على بداية طريق تعديل ميثاق جامعة الدول العربية الذى سيفضى لاحقًا - بعد أكثر من ربع قرن - إلى تضمين دورية القمة فى الميثاق، وذلك بموافقتها على تعديل الميثاق، وتكليف لجنة رباعية من وزراء خارجية سوريا والكويت ومصر والمغرب بمتابعة البحوث والدراسات الخاصة

كانت قمة القاهرة ١٩٦٤
هى أول قمة تقرر مبدأ
دورية انعقاد القمة، ولم تحدد
توقيتًا ثابتًا له، أو معايير
لاختيار مكانه

بالموضوع، وعرضه على مؤتمر القمة العربي الثامن.

ومر عام ١٩٧٥ دون أن تنعقد القمة العربية العادية الثامنة في الصومال كما قررت قمة الرباط، وكان واضحًا أن توجهات النظام الصومالي المتهم أمريكيًا ومن قبل عدد من الدول العربية بانه جعل من بلاده قاعدة سوفيتية وراء عدم انعقاد المؤتمر في الصومال، ومع ذلك فإن عدم انعقاد المؤتمر في الصومال شيء يمكن أن يبرر على النحو السابق، وعدم انعقاده على الإطلاق في تلك السنة يحتاج إلى تفسير بنيوى أعمق يتعلق بطبيعة العلاقات العربية ذاتها في تلك المرحلة.

ثم داهمت أحداث لبنان في ١٩٧٦ النظام العربي، فانعقد مؤتمر القمة العربي السداسي غير العادى بالرياض أيام ١٦ - ١٨ أكتوبر ١٩٧٦، لمعالجة الموقف المتفجر في لبنان، ثم انعقد مؤتمر القمة العربي الثامن بالقاهرة بعده بأيام قليلة (٢٥ - ٢٦ أكتوبر) ليصادق على قرارات المؤتمر السداسي غير العادى، وليسقط من جديد الإشارة إلى الدورة التالية للمؤتمر، خاصة وقد بدا أن الوضع العربي آخذ في التعقد إلى حد بعيد مع مؤشرات لا تخطئها عين المراقب على تطورات جذرية في السياسة المصرية تجاه الصراع مع إسرائيل.

ولذلك كان طبيعيًا أن يمر عام ١٩٧٧ دون انعقاد قمة عربية، خاصة وقد تزامنت نهايته مع مبادرة الرئيس أنور السادات بزيارة إسرائيل في نوفمبر من ذلك العام، والتي كانت من حيث تداعياتها سببًا في دعوة العراق لقمة بغداد التي انعقدت في نوفمبر ١٩٧٨ لرفضه اتفاقيتي كامب ديفيد اللتين تم التوصل إليهما بين مصر وإسرائيل في سبتمبر ١٩٧٨، وبلورة سياسة عربية مشتركة إزاءهما، وقد أكدت قمة بغداد ١٩٧٨ في قراراتها قرار القمة العربية العادية السادسة بالجزائر بضرورة عقد اجتماعات دورية سنوية لمؤتمر القمة العربي في نوفمبر من كل عام، وعقد دورات استثنائية إذا اقتضت الضرورة بموافقة أغلبية الأعضاء وبناءً على طلب دولة أو أكثر من الدول الأعضاء.

وبالفعل عقدت القمة العربية العاشرة في تونس في نوفمبر ١٩٧٩، وأكدت في قرارها السادس نفس قرار قمة بغداد، وإن زادت عليه أن يكون اختيار المكان حسب الترتيب الهجائي للدول الأعضاء، كما عقدت الأمور بعض الشيء بالنص على «أن تتنازل الدول التي سبق أن عقد فيها مؤتمر القمة، وتلك التي لا تسمح ظروفها بعقد المؤتمر فيها لمن يليها في الترتيب، على أن تكون الدورة القادمة بالمملكة الأردنية الهاشمية (أى دورة ١٩٨٠) والتي تليها عام ١٩٨١ بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، ثم يتبع ذلك الترتيب الهجائي لأسماء الدول في عقد دورات القمة»، كما قررت قمة تونس «الإسراع بتعديل ميثاق الجامعة العربية في

القمم العربية ودورية الانعقاد
(١٩٤٦ - ٢٠٠٠)

مكان القمة وتاريخها	الموقف من دورية انعقاد القمة	التنفيذ
أنشاص - مايو ١٩٤٦	لا يوجد	-
بيروت - نوفمبر ١٩٥٦	لا يوجد	-
القاهرة - يناير ١٩٦٤	مرة سنويًا، ويعقد الاجتماع التالي في أغسطس ١٩٦٤	✓
الإسكندرية - سبتمبر ١٩٦٤	تعقد القمة التالية في المغرب في سبتمبر ١٩٦٥	✓
الدار البيضاء - سبتمبر ١٩٦٥	تعقد القمة التالية في الجزائر في سبتمبر ١٩٦٦	×
الخرطوم - أغسطس ١٩٦٧	لا يوجد	-
الدار البيضاء - ديسمبر ١٩٦٩	لا يوجد	-
القاهرة - سبتمبر ١٩٧٠	لا يوجد	-
الجزائر - نوفمبر ١٩٧٣	تعقد في أبريل من كل عام	×
الرباط - أكتوبر ١٩٧٤	تعقد في يونيو ١٩٧٥ بالصومال	×
القاهرة - أكتوبر ١٩٧٦	لا يوجد	-
بغداد - نوفمبر ١٩٧٨	تعقد في نوفمبر من كل عام	✓
تونس - نوفمبر ١٩٧٩	تعقد في نوفمبر من كل عام والقمة التالية في عمان	✓
عمان - نوفمبر ١٩٨٠	تعقد في نوفمبر من كل عام	✓
فاس - نوفمبر ١٩٨١	لا يوجد	-
فاس - سبتمبر ١٩٨٢	تعقد في نوفمبر ١٩٨٣ بالرياض	×
الرباط - أغسطس ١٩٨٥	لا يوجد	-
عمان - نوفمبر ١٩٨٧	تعقد في نوفمبر من كل عام	×
الجزائر - يونيو ١٩٨٨	لا يوجد	-
الدار البيضاء - مايو ١٩٨٩	لا يوجد	-
بغداد - مايو ١٩٩٠	تعقد في نوفمبر من كل عام والقمة التالية في القاهرة	×
القاهرة - أغسطس ١٩٩٠	لا يوجد	-
القاهرة - يونيو ١٩٩٦	تعقد بالتشاور بين الرئيس مبارك والقادة العرب والأمين العام للجامعة	✓
القاهرة - أكتوبر ٢٠٠٠	تعقد في مارس من كل عام والقمة القادمة في عمان	؟

اتجاه تقوية العمل العربي المشترك، والعمل على إعادة بناء أجهزتها على أسس جديدة تكفل الفاعلية، والقدرة على التحرك بما يخدم تنمية القدرة العربية الذاتية، ويؤول إلى تحقيق الوحدة العربية».

وفي نوفمبر ١٩٨٠ عقدت القمة العربية الحادية عشرة في عمان وفق مقررات قمة تونس ١٩٧٩، واهتمت القمة في قرارها الرابع على نحو تفصيلي بمسألة دورية القمة، فأكدت التمسك بالمبدأ، وبينت مزاياه، وأضافت التأكيد على «تحييد مسألة انعقاد مؤتمرات القمة، لتكون في منأى عن الخلافات التي من شأنها إضعاف هذه المؤسسة وعرقلة أعمالها» (وإن لم تهتم ببيان كيف يمكن لهذا التحييد أن يتم)، وأعادت القرارات النص على أن يكون شهر نوفمبر من كل عام هو التوقيت المحدد لانعقاد القمة، مع إمكانية عقد مؤتمرات قمة طارئة وفق أحكام ميثاق الجامعة، على أن تعقد الدورات العادية في الدول الأعضاء وفق الترتيب الهجائي، وفي حالة وجود ما يحول دون ذلك ينعقد المؤتمر في الدولة التي تليها أو في مقر الجامعة، على أن يُتفق قبل انفضاض كل مؤتمر على مكان انعقاده التالي، كذلك نصت القرارات على أن يكون تمثيل الدول الأعضاء في مؤتمرات القمة على مستوى رئيس الدولة أو الشخص الثاني فيها أو رئيس الوزراء، ولا يجوز أن تشارك أية دولة عضو بتمثيل يقل عن هذا المستوى، وحدد المؤتمر موعد دورته التالية بالأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ١٩٨١.

وقد حدث ذلك بالفعل، إذ انعقد مؤتمر القمة الثاني عشر في فاس بالمغرب يوم ٢٥ / ١١ / ١٩٨١، ولكنه انفض دون قرارات ليعاود انعقاده في سبتمبر ١٩٨٢ في نفس المكان، ويقرر من ناحية انعقاد مؤتمر القمة العربي الثالث عشر بالرياض في نوفمبر ١٩٨٣، ومن ناحية أخرى تشكيل لجنة وزارية سداسية من وزراء خارجية تونس والجزائر والسعودية وسوريا والعراق والمغرب لدراسة مشروع تعديل الميثاق، ومن المعروف أن هذا المشروع قد تضمن إضافة مؤتمر القمة كأعلى سلطة في الجامعة، ونص على طريقة تشكيله، ودورية انعقاده سنويًا أو في دورات استثنائية، وأماكن انعقاده، والدول التي تتولى رئاسته، وفق قواعد لا تختلف كثيرًا عما استقرت عليه قرارات القمم التي سبقت الإشارة إليها.

ولم تنعقد قمة الرياض في موعدها، وبدلاً عنها انعقدت بعد أقل من سنتين على الموعد المحدد لها (ثلاث سنوات منذ انعقاد قمة فاس) قمة غير عادية في الرباط في أغسطس ١٩٨٥ بدعوة من الملك الحسن الثاني، يظهر إمعان النظر في قراراتها كيف تفاقمت الخلافات العربية - العربية، حيث تضمنت هذه القرارات تشكيل لجان وساطة في أربعة نزاعات عربية - عربية، وهذا فضلاً عن تطورات الحرب العراقية - الإيرانية إضافة إلى تعقيدات الصراع العربي - الإسرائيلي بطبيعة الحال، ولم تتضمن قرارات قمة الرباط ١٩٨٥ أية إشارة إلى تعديل الميثاق، أو انعقاد القمة التالية.

وفي نوفمبر ١٩٨٧ نجح الملك حسين في الدعوة إلى قمة عربية غير عادية جديدة عقدت في عمان لمواجهة تفاقم الحرب العراقية - الإيرانية وانعكاساتها على دول الخليج العربية، وأكد المؤتمر في قراراته على ضرورة عقد اجتماعات دورية لمؤتمر القمة العربي خلال شهر نوفمبر من كل عام، وأن يكون تمثيل الدول الأعضاء على مستوى رئيس الدولة، وفي حالات خاصة الشخص الثاني أو رئيس

هكذا أسقط الحديث عن
دورية القمة في سنوات ١٩٦٧ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠
ليعود من جديد مع الصحوة المؤقتة
التي لحقت بالنظام العربي
بقيام حرب أكتوبر ١٩٧٣

لـــــن يفيـــــدنا كثيـــــرا مجـــــرد اجتمـــــاع القـــــمـم العـــربيـــــة بانتظـــــام لتصـــــدر قـــــرارات لا تجـــــد طريقهـــــا إلى التـــــأثير عـــلى الواقـــع العـــــربى

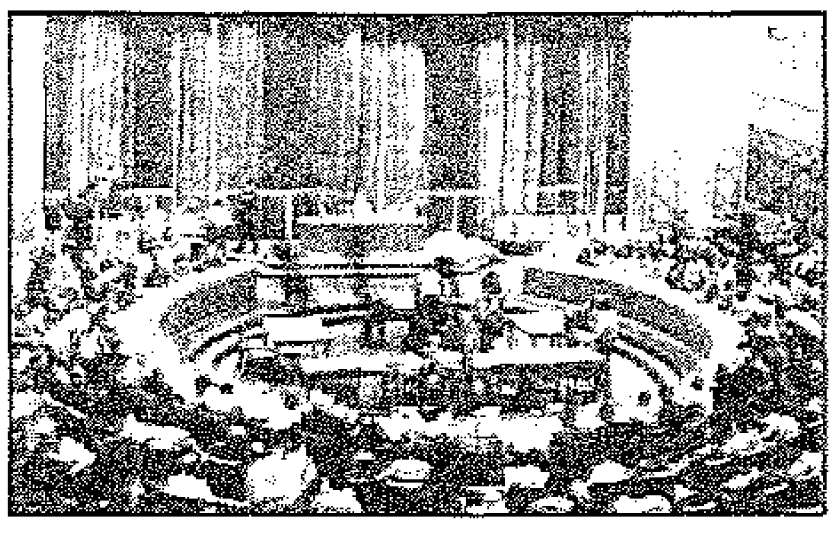
الوزراء، ومع ذلك لم يحدد المؤتمر مكان انعقاد المؤتمر القادم في إشارة واضحة لتعقيدات الوضع العربي في حينه.

ثم فرضت الانتفاضة الفلسطينية التي تفجرت في أعقاب قمة عمان ١٩٨٧ - وربما بسببها - نفسها على النظام العربي، فعقدت في يونيو ١٩٨٨، وقبل مرور سنة على قمة عمان غير العادية قمة غير عادية أخرى في الجزائر، لم تشر من قريب أو من بعيد إلى دورية القمة، وتكرر نفس الأمر بانعقاد القمة غير العادية في الدار البيضاء في مايو ١٩٨٩، فعلى الرغم من أن تلك القمة وضعت اللمسة الأخيرة في عملية عودة مصر للنظام العربي على الصعيد المؤسسي - أي استئناف عضويتها في الجامعة العربية ومنظمات العمل العربي المشترك - بعد أن أتاحت قمة عمان ١٩٨٧ عودة العلاقات الدبلوماسية المصرية - العربية على الصعيد الثنائي، إلا أن البيان الختامي للقمة لم يتناول موضوع دورية اجتماعات القمة ولم يحدد موعدًا لمؤتمر القمة التالي.

ومع ذلك فقد انعقدت القمة التالية - غير العادية أيضًا - بعد عام بالتمام والكمال من انعقاد قمة الدار البيضاء، وذلك في مايو ١٩٩٠ في العاصمة العراقية بغداد بدعوة من الرئيس العراقي صدام حسين، وكان واضحًا أنها وإن ركزت بصفة خاصة على مخاطر هجرة اليهود السوفييت المتزايدة على نحو مقلق لإسرائيل إلا أنها بلورت موقفًا شاملاً إزاء ما يواجهه النظام العربي من تحديات ومخاطر من داخله وخارجه، ولذلك لم يكن غريبًا أن تتضمن قرارات المؤتمر التأكيد على دورية انعقاد القمة العربية في نوفمبر من كل عام وفقًا لقرارات سابقة، والنص على عقد القمة التالية في القاهرة في نوفمبر من نفس السنة، أي عام ١٩٩٠.

وبالفعل عقدت القمة العربية التالية في القاهرة، وإن لم يكن في نوفمبر ١٩٩٠ وفقًا لقرارات قمة بغداد، وإنما بعد أقل من ثلاثة شهور على انعقاد تلك القمة، كذلك لم تكن قمة القاهرة قمة عادية كما تصورت قمة بغداد، وإنما كانت بدورها قمة طارئة أخرى انعقدت لمناقشة ذلك الحدث المأساوي المتمثل في غزو العراق للكويت في أغسطس ١٩٩٠، والذي وجه ضربة شبه قاصمة للنظام العربي في حينه، وقد اقتصرت قرارات قمة القاهرة الطارئة في أغسطس ١٩٩٠ على مواجهة تداعيات ذلك الحدث، وكان واضحًا أن الأهوال التي شهدتها القمة لم تجعل أحدًا يفكر في تحديد أي موعد لقمة تالية تتابع القرارات التي تم اتخاذها على الأقل، فكُلف الأمين العام لجامعة الدول العربية بعملية المتابعة، ورفع تقرير عنها إلى مجلس الجامعة في خلال خمسة عشر يومًا لاتخاذ ما يراه في هذا الشأن.

وتطلب الأمر ست سنوات كاملة، وبروز











التحدي الذي مثلته الحكومة اليمينية الجديدة في إسرائيل لعملية تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي لكي تنعقد قمة القاهرة في يونيو ١٩٩٦، والتي بلورت موقفًا أكثر عملية تجاه موضوع دورية انعقاد القمة، حيث اتفق المشاركون فيها على قيام الرئيس حسني مبارك باعتباره رئيس قمة القاهرة بإجراء الاتصالات والمشاورات اللازمة مع القادة العرب والأمين العام لجامعة الدول العربية للمتابعة والاتفاق بالنسبة لانعقاد القمة التالية. وهو ما حدث بالفعل بانعقاد قمة القاهرة غير العادية في أكتوبر ٢٠٠٠ بالقاهرة كاستجابة للتطورات الخطيرة المتعلقة بانتفاضة الأقصى، التي وافقت - أي قمة القاهرة - على الآلية الخاصة بالانعقاد الدوري المنتظم للقمة العربية، على أن يكون الملحق المتعلق بها مكملاً لميثاق جامعة الدول العربية.

وقد قضت هذه الآلية بانعقاد مجلس الجامعة على مستوى القمة بصفة دورية مرة في السنة في شهر مارس، وعند الضرورة أو بروز مستجدات تتعلق بالأمن القومي العربي، إذا تقدمت إحدى الدول الأعضاء أو الأمين العام بطلب ذلك، ووافق على عقدها ثلثا الأعضاء. وعلى أن تنعقد الدورات العادية في مقر الجامعة، ويتناوب الأعضاء على الرئاسة حسب الترتيب الهجائي لأسماء الدول الأعضاء، وأجازت الآلية انعقاد الدورات غير العادية لمجلس القمة خارج مقر الجامعة بموافقة الدول الأعضاء، على أن تكون الرئاسة للدولة التي ترأس القمة العادية، واشترطت الآلية أن تقتصر الرئاسة على ملوك ورؤساء الدول العربية.

محاولة للتفسير واستشراف المستقبل:

سار النظام العربي إذن طريقًا طويلاً لمدة زادت على نصف القرن (من ١٩٤٦ إلى ٢٠٠٠) لكي يجعل من القمة العربية مؤسسة ضمن تنظيم الجامعة العربية تجتمع في أدوار انعقاد سنوية عادية، وفي تلك المدة انعقدت أربع وعشرون قمة (بحساب أن القمة العربية في فاس في نوفمبر ١٩٨١ وسبتمبر ١٩٨٢ قمتان وليستا قمة واحدة كما تحسبان رسميًا).

ويظهر الجدول التالي أن ثلاث عشرة فقط من القمم الأربع والعشرين - أي أكثر من النصف بقليل - اهتمت بالنص على دورية القمة، ومن هذه المرات الثلاث عشرة تم الالتزام بدورية القمة في ست منها فقط، وظهر العجز عن ذلك في ست أخرى، بينما بقيت المرة الأخيرة تحت الاختبار حتى كتابة هذه السطور، وإن كانت كل المؤشرات تفيد حتى الآن أن قمة عمان سوف تنعقد في موعدها المقرر في مارس ٢٠٠١.

ويعني هذا أن نسبة التزام القمم العربية في السابق بمبدأ الدورية متدنية (حوالي الربع)، وحتى إذا أضفنا لعدد مرات النجاح هاتين المرتين اللتين انعقدت فيهما القمة بعد أقل من عام، وإن يكن خلافًا لقرار القمة السابقة عليها (كما هو الحال في قمة الرباط التي انعقدت في أكتوبر ١٩٧٤ بعد قمة الجزائر في نوفمبر ١٩٧٣، وليس في أبريل ١٩٧٤ حسب قرار قمة الجزائر، وكذلك قمة الجزائر التي انعقدت في يونيو ١٩٨٨ قبل موعدها الذي قررته قمة عمان السابقة عليها، والذي حدد بنوفمبر ١٩٨٨)، كذلك أضفنا قمة عمان في مارس ٢٠٠١ تفاؤلاً بما سيكون فإن النسبة سوف تتجاوز الثلث بقليل (تسع مرات من أربع وعشرين)، وهي نسبة تبقى قليلة.

وتشير المؤشرات الكمية السابقة إلى حقيقة بنيوية في النظام العربي مؤداها أن انعقاد القمم كان يتم عادة استجابة لظروف تحديات أو تهديدات غير عادية للنظام، الغالبية العظمى منها خارجية ومرتبطة بالصراع العربي - الإسرائيلي، وفي الواقع أنه باستثناء القمم الثلاثة غير العادية التي انعقدت في سبتمبر ١٩٧٠ لاحتواء الصدام المسلح بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية، وأكتوبر ١٩٧٦ لمواجهة تداعيات الحرب الأهلية في لبنان، وأغسطس ١٩٩٠ في أعقاب الغزو العراقي للكويت، يمكن القول بأن جميع القمم العربية الأخرى قد عقدت لمواجهة تحديات ومخاطر خارجية خطيرة، كما أنه باستثناء قمة عمان غير العادية في ١٩٨٧ انصبت بقية القمم العربية ذات الصلة بالتهديد الخارجي مباشرة على الصراع العربي - الإسرائيلي، فضلاً عن أن قمة عمان ١٩٨٧ ذاتها قد اهتمت به أيضًا، وإن يكن في مرتبة تالية لاهتمامها الأكبر بتطورات الحرب العراقية - الإيرانية.

وإذا كان انعقاد القمم العربية قد ارتبط على نحو مباشر في الأغلب الأعم بتطورات الصراع العربي - الإسرائيلي فإنه يمكن القول بأن هذه التطورات قد تركت بصمتها واضحة - وليس أي نزعة مؤسسية في النظام العربي - على انعقاد القمم العربية، فعندما بدا التهديد فادحًا اضطر القادة العرب للاجتماع حينًا لمواجهة تطورات سلبية محتملة، كما في قمة ١٩٦٤ بالقاهرة (الخطط الإسرائيلية لتحويل نهر الأردن) وقمة عمان ١٩٨٧ (تطورات الحرب العراقية - الإيرانية) وقمة القاهرة ١٩٩٦ (تحدي الحكومة اليمينية الجديدة في إسرائيل لعملية التسوية السلمية)، أو تطورات سلبية وقعت بالفعل كما في قمة بيروت ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي على مصر) وقمة الخرطوم ١٩٦٧ (نتائج عدوان يونيو ١٩٦٧) وقمة القاهرة ١٩٧٠ (الاقتتال بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية) وقمة القاهرة ١٩٧٦ (الحرب الأهلية في لبنان) وقمة بغداد ١٩٧٨ (توقيع اتفاقيتي كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل) وقمة فاس ١٩٨٢ (الغزو الإسرائيلي للبنان)، أو

كتـــاب الـزاويــة

رسائل إخوان الصفا

جماعة سرية، دينية وسياسية وفلسفية شيعية أو إسماعيلية باطنية. عاش أعضاؤها بالبصرة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، يذكر منهم: محمد بن مشير البستى الملقب بالمقدسى وأبوالحسن على بن هارون الزنجانى ومحمد ابن أحمد النهرجورى وزيد بن رفاعة، وقد تآلف هؤلاء الأشخاص وتصادقوا ووضعوا مذهبًا زعموا أنه يؤدى إلى الفوز برضوان الله. لذلك سموا بإخوان الصفاء وخلان الوفاء. وجمعوا معارف عصرهم العلمية والفلسفية والدينية فى رسائل تزيد على الخمسين، وتقع رسائلهم فى ٤ أقسام فى الرياضيات وفى الجسمانيات (الطبيعيات) وفى النفسيات (العقليات) وقسم فى الناموسيات (الإلهيات).

١ ـ فى أن أصل صناعة الموسيقى للحكماء

اعلم يا أخى، أيَّدك اللَّه وإيَّانا بروح منه بأن الصنائع كلها استخرجتها الحكماء بحكمتها، ثم تعلَّمها الناس منهم، وبعضهم من بعض، وصارت وراثة من الحكماء للعامة، ومن العلماء للمتعلمين، ومن الأساتذة للتلامذة. فصناعة الموسيقى استخرجتها الحكماء بحكمتها، وتعلمها الناس منهم، واستعملوها كسائر الصنائع فى أعمالهم ومتصرفاتهم بحسب أغراضهم المختلفة. فأمَّا استعمال أصحاب النواميس الإلهية لها فى الهياكل وبيوت العبادات وعند القراءة فى الصلوات، وعند القرابين والدعاء والتضرع والبكاء، كما كان يفعل داود النبى، عليه السلام، عند قراءة مزاميره، وكما يفعل النصارى فى كنائسهم، والمسلمون فى مساجدهم من طيب النغمة ولحن القراءة، فإن كل ذلك لرقة القلوب، ولخضوع النفس وخشوعها، والانقياد لأوامر اللَّه تعالى ونواهيه.

على الدوام، كانت القمم العربية تنعقد لمواجهة تحديات وتهديدات ومخاطر خارجية داهمة مصدرها أساسًا الكيان الصهيونى

لترتيب الأوضاع وبلورة موقف عربي مشترك بعد تطورات مهمة فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى تحمل مضمونًا إيجابيًا من وجهة النظر العربية كما فى قمة الجزائر ١٩٧٣ (فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣) وقمة الجزائر أيضًا ١٩٨٨ (فى أعقاب الانتفاضة الفلسطينية) وقمة القاهرة ٢٠٠٠ (فى أعقاب انتفاضة الأقصى).

وتبدو التفاصيل غائبة فى ظل عدم الاطلاع على المحاضر الرسمية للقمم العربية بخصوص موضوع دورية القمم العربية ومؤسسيتها، ومن المرجح أن القمم التى لم تنص فى قراراتها على مبدأ الدورية إما أنها لم تتصور أن تتفاقم المخاطر التى تواجه النظام العربى إلى الحد الذى يستدعى ذلك المبدأ (كما فى حالة قمتى أنشاص ١٩٤٦ وبيروت ١٩٥٦ بافتراض أن النوايا فيهما كانت خالصة)، أو أنها وجدت نفسها فى موقف شائك من منظور الأوضاع العربية تصبح دعوتها فيه لدورية القمة نوعًا من الهزل (كما فى قمة الدار البيضاء ١٩٦٩ التى انتهت أصلاً دون التوصل إلى قرارات، وكذلك قمة فاس ١٩٨١ التى انفضت فيما سمى بدورتها الأولى دون التوصل إلى قرارات أيضًا، أو قمة القاهرة ١٩٧٠ التى ركزت على وقف الاقتتال الفلسطينى ـ الأردنى).

أو قمة الرباط ١٩٨٥ التى وجدت نفسها فى خضم خلافات عربية ـ عربية تشابكت خيوطها على نحو بالغ، أو قمة ١٩٩٠ التى كانت قمة خارقة على صعيد الصراعات العربية ـ العربية.

غير أن السؤال يبقى واردًا ـ إن لم يكن ملحًا ـ حول القمم التى لم تشر إلى مبدأ الدورية على الرغم من أنها حققت إنجازًا طيبًا فى ذاتها، وكانت تواجه أوضاعًا بالغة الخطورة. وتبرز قمة الخرطوم ١٩٦٧ واضحة فى هذا الخصوص، وهى التى نجحت فى ترتيب الأوضاع العربية لمواجهة نتائج عدوان يونيو ١٩٦٧، وقمة القاهرة ١٩٧٦ التى يفترض أنها بلورت موقفًا عربيًا للتعامل مع الحرب الأهلية فى لبنان، وقمة الدار البيضاء ١٩٨٩ التى وضعت اللمسات الأخيرة على عملية استعادة وحدة الصف العربى باستئناف مصر لدورها فى الجامعة العربية ومنظومة العمل العربى المشترك.

أما القمم التى أقرت مبدأ الدورية ثم وقع بعدها عجز عن الالتزام به فتشير الشواهد إلى أن هذا العجز يمكن أن يرد إلى السمة الصراعية السائدة للعلاقات العربية ـ العربية، كما يتضح مما وقع بعد قمة الدار البيضاء فى سبتمبر ١٩٦٥ من استئناف للحرب الباردة ـ بل والساخنة ـ العربية إذا جاز التعبير، وما وقع بعد قمة الرباط فى أكتوبر ١٩٧٤ من اعتراض دول عربية مؤثرة على انعقاد القمة بالصومال فى موعدها المقرر بسبب التهم التى وجهت لنظام سياد برى بالتبعية للاتحاد السوفيتى، وما وقع بعد قمة فاس فى سبتمبر ١٩٨٢ من تعقد بالغ للأوضاع العربية وتشابكاتها الإقليمية سواء فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى أو الحرب مع إيران، وما وقع بعد قمة بغداد فى مايو ١٩٩٠ من غزو عراقى للكويت.

ويلاحظ من ناحية أخرى أن التزام القمم العربية بمبدأ الدورية قد وقع فى سنوات المد القومى والقيادة المصرية للنظام العربى (قمتا الإسكندرية ١٩٦٤ والدار البيضاء ١٩٦٥) غير أنه لا هذا المد ولا هذه القيادة قد ضمنت ـ أو حتى رغبت ـ فى استمرار الالتزام به إزاء استمرار التحدى الذى مثلته القوى العربية المحافظة فى تلك المرحلة مدعومة بالولايات المتحدة الأمريكية، والمعسكر الغربى عمومًا. كذلك وقع هذا الالتزام بمبدأ الدورية فى سنوات التوحد العربى ضد نهج السلام المصرى مع إسرائيل (قمم تونس ١٩٧٩ وعمان ١٩٨٠ وفاس ١٩٨١/١٩٨٢)، لكن التحلل منه بدأ عندما أخذت دماء هذا النهج تسرى فى عروق النظام العربى.

ويعنى التحليل السابق أنه بقدر سعادتنا للإنجاز السياسى والقانونى الذى تم بموافقة الدول العربية فى قمة القاهرة غير العادية فى أكتوبر ٢٠٠٠ على دورية القمة، وكذلك على أن يكون الملحق المنظم لهذه الدورية جزءًا مكملاً للميثاق، يجب أن يكون حذرنا من توقع آثار بالغة الإيجابية لهذه الخطوة فى حد ذاتها. صحيح أن خبرة جامعة الدول العربية على مدار أكثر من نصف القرن تظهر التزامًا صارمًا بانعقاد مجلس الجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية فى دورتين سنويتين وفقًا للميثاق، ومن ثم فإننا نتوقع ـ أو نتمنى ـ أن تنسحب هذه الخبرة الإيجابية على القمة العربية بعد إقرار دوريتها فى ملحق مكمل لميثاق الجامعة، لكن الخبرة علمتنا أيضًا أن التئام شمل مجلس الجامعة وقدرته على إصدار قرارات لم يفضيا بالضرورة إلى تنفيذ هذه القرارات، وعلمتنا كذلك أن نفس الأمر قد انسحب للأسف على قرارات بالغة الأهمية للقمم العربية، سواء فيما يتعلق بالأمن القومى العربى أو التكامل الاقتصادى العربى، ذلك أن بعضًا ـ إن لم يكن كثيرًا ـ من الدول العربية يوافق على القرارات من باب درء الحرج، ثم يماطل أو حتى يمتنع عن التنفيذ بعد ذلك، وعليه فلن يفيدنا كثيرًا مجرد اجتماع القمم العربية بانتظام لتصدر قرارات لا تجد طريقها إلى التأثير على الواقع العربى، وإنما سوف يكون النهج المطلوب هو أن نعمل جميعًا، وفى الصدارة منا مؤسسة القمة العربية إن أمكن ـ على إعادة بناء النظام العربى بما يكفل أن يكون التطور المؤسسى المهم الذى لحق بهذا النظام فى أكتوبر ٢٠٠٠، والذى أصبحت القمة العربية بموجبه مؤسسة من مؤسساته، تطورًا معبرًا عن واقع حقيقى، ومن ثم مفضيًا إلى تغيير دائم ومستمر لهذا الواقع إلى الأفضل، وليس تطورًا شكليًا سرعان ما يصطدم بإشكاليات الواقع العربى، فيتضاءل أثره ـ إن لم ينعدم ـ ويتحول ـ لا قدر الله ـ إلى مصدر لإحباط جديد.

حقيقة «نابليون إسرائيل الصغير»



باراك

آفي شلايم

أدى اندلاع انتفاضة الأقصى في أعقاب زيارة آرييل شارون المستفزة للحرم الإسلامي المقدس في الثامن والعشرين من شهر سبتمبر الماضي إلى إعادة فتح مسألة قدرة اتفاق أوسلو على إيجاد تسوية عملية وناجحة للصراع القائم بين إسرائيل والفلسطينيين. فهذا الاتفاق موضع جدل وخلاف منذ توقيع ياسر عرفات وإسحاق رابين عليه في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٩٩٣ في حديقة البيت الأبيض بأيد مرتعشة ومترددة.

وفي الشهر التالي نشرت مجلة London Review of Books مقالتين حول الاتفاق، إحداهما تعارضه والأخرى مؤيدة له. في الأولى رفض إدوارد سعيد الاتفاق ووصفه بأنه «أداة للاستسلام الفلسطيني، وفرساي فلسطينية». وقال إن عرفات ألغى بتوقيعه للاتفاق ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية، وتجاهل كل قرارات الأمم المتحدة ذات الصلة فيما عدا قراري ٢٤٢ و٣٣٨، وتنازل عن الحقوق القومية الأساسية للشعب الفلسطيني. وأكد إدوارد سعيد أن الاتفاق لم يطرح مسألة تقرير المصير الفلسطيني، لأن تقرير المصير يستلزم الحرية والسيادة والمساواة.

أما أنا فقد أيدت الاتفاق في المقال الذي كتبته. فرغم أنه كان من الواضح أن الاتفاق أقل بكثير مما يطمح إليه الفلسطينيون من استقلال تام وقيام دولة. إلا أنه من ناحية أخرى، لم يقدم على أنه معاهدة سلام شاملة، بل كان أقل تواضعاً من ذلك بكثير، باعتباره إعلان نوايا للحكم الذاتي الفلسطيني الذي يبدأ العمل به كبداية في غزة وأريحا. وقلت إنه رغم كل القيود والغموض، فإن الاتفاق يمثل نجاحاً كبيراً في الصراع الطويل والمرير على فلسطين. وما كان يهم هو أن كلاً من الطرفين اعترف بالآخر، وقبل مبدأ التقسيم، ووافق على قطع مرحلة تلو الأخرى نحو التسوية النهائية. كما أنني كنت أعتقد أن الاتفاق سوف يؤدى إلى عملية انسحاب تدريجية لا رجعة فيها من الأراضي المحتلة، وأنه سوف يؤدى بعد الفترة الانتقالية، ومدتها خمس سنوات، إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة على معظم الضفة الغربية وغزة.

وطوال السنوات السبع الماضية كان عقلي يعود مراراً إلى ذلك الجدل المبكر. من الذى استطاع أن يقرأ الأمور قراءة صحيحة: هل هو إدوارد سعيد أم أنا؟ فتارة كنت أشعر بأن الأمور تسير حسبما رآها هو؛ وتارة أخرى كنت أراها تسير كما رأيتها أنا؛ وثالثة كنت أعود فأراها تسير حسبما رآها هو. وربما ينطبق تعليق شواين لاى الشهير، بأنه لم يحن الوقت بعد للتحدث عن أثر الثورة الفرنسية، على أثر اتفاق أوسلو. واختار إدوارد سعيد «نهاية عملية السلام» عنواناً لأحدث كتبه، وهو حكم أراه سابقاً لأوانه. إذ يكفي أن ما بدأوه في أوسلو لا يزال ينبض بالحياة. ولم تتعطل عملية السلام لأن الاتفاق بطبيعته غير قابل للتطبيق، بل لأن إسرائيل لم تلتزم بالشق الخاص بها في الاتفاق.

ولم يعد اتفاق أوسلو بدولة فلسطينية مستقلة في نهاية الفترة الانتقالية. إذ تركت الخيارات مفتوحة. كما أنه لم يذكر شيئاً عن القضايا التي هي صلب النزاع، مثل القدس والمستوطنات والحدود واللاجئين. فقد أرجئت كل هذه القضايا إلى محادثات الوضع النهائي المقرر إجراؤها في العامين الأخيرين من الفترة الانتقالية. وكان الاتفاق مع الفلسطينيين مقامرة، وهو ما كان رابين أدرى به من أى إنسان آخر. وقد كشفت لغة جسمه في حفل توقيع الاتفاق ما قاله لمعاونيه بكلمات كثيرة: وهو أنه يشعر بمنتهى الانزعاج. وفي الحقيقة أن ماكان يخيفه هو طابع المناسبة ذاته، وليس احتمال قيام دولة فلسطينية. فمادام أمن إسرائيل مصوناً، فهو على استعداد للمضي في الشراكة السلمية مع عدوه السابق، مثلما وقع اتفاقية أوسلو ٢ في الثامن والعشرين من سبتمبر ١٩٩٥. إلا أنه اغتيل بعد ذلك بخمسة أسابيع. وأصيبت عملية أوسلو بأول نكسة خطيرة لها.

أما النكسة الكبرى الثانية فكانت فوز بنيامين نتانياهو على شيمون بيرس في انتخابات مايو ١٩٩٦. وكان نتانياهو عدواً لدوداً لاتفاقيات أوسلو، حيث كان يراها غير متوافقة مع أمن إسرائيل ومع حقها التاريخي في الوطن التوراتي. إلا أنه كان يعلم أن ثلثي الشعب الإسرائيلي يؤيد الاتفاقيات وسياسة الانسحاب المشروط من الأراضي المحتلة (التي تم الاتفاق عليها بعد ذلك). ولأنه انتهازي على الدوام، فقد بدأ في مسايرة الرأي العام، حيث وعد باحترام التزامات إسرائيل الدولية. ولكن ما أن انتخب نتانياهو حتى مضى في طريقته المتسمة بقصر النظر الشديد وعدم الأمانة الجلي في التملص من التزامات إسرائيل وهدم الأسس التي وضعها من سبقوه من قيادات حزب العمل من أجل السلام مع الفلسطينيين. لقد ظل يتحدث عن المعاملة بالمثل، في الوقت الذي يقوم فيه من جانب واحد بتدمير منازل العرب وشق نفق في مدينة القدس القديمة، وفرض حظر التجوال، ومصادرة أراضي العرب وبناء المستوطنات اليهودية الجديدة في الضفة الغربية. وتحت ضغط شديد من أمريكا، وقع نتانياهو مذكرة واى ريفر في أكتوبر ١٩٩٨، حيث وعد بتسليم ١١٪ أخرى من الضفة الغربية للسلطة الفلسطينية. وكعادته، لم يف بما وعد به في هذا الاتفاق. ومن المفارقات أن المعارضة ليست هي من أسقط حكومته، بل إن شركاءه القوميين والدينيين في الائتلاف هم الذين اعتبروا أنه تراخى مع الفلسطينيين وأنه فرّط في سلامة الوطن التاريخي.

وفي انتخابات رئاسة الوزراء المباشرة التي أجريت في السابع عشر من مايو سنة ١٩٩٩ فاز إيهود باراك بخمسة وستين بالمائة من الأصوات، مقابل أربعة وأربعين لنتانياهو – وهو انتصار ساحق بالمعايير الإسرائيلية، وتفويض لاستئناف الكفاح من أجل السلام الشامل بين إسرائيل وجاراتها. وكان هناك إحساس قوى بأنه الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب. وكنت واحداً من الإسرائيليين الذين علقوا آمالهم على القائد الجديد. وفي استهلال لكتابي «الجدار الحديدي: إسرائيل والعالم العربي» قلت إن انتخاب باراك كان أكثر من زلزال سياسي: «لقد كان شروق الشمس بعد ثلاث سنوات مظلمة ومرعبة خضعت فيها إسرائيل لقيادة مؤيدي الجدار الحديدي المتسمين بالجمود». وفي عدد ١٦ سبتمبر ١٩٩٩ من مجلة London Review of Books عاودت الكرة بمقال عن «الظهور المبشر بالخير لنابليون إسرائيل الصغير». وكان ذلك أكبر أخطائي.

فما غاب عن ناظري في ذلك الوقت هو أن الجنرال باراك لم يكن سوى أحدث مؤيد لاستراتيجية الجدار الحديدى التي قادت الحركة الصهيونية منذ أقدم مراحل الكفاح في فلسطين. وجوهر هذه الاستراتيجية ـ كما أعلنها زئيف جابوتنسكي مؤسس الصهيونية التعديلية سنة ١٩٢٣ ـ هو أنه لا يمكن التعامل مع العرب إلا من موقع القوة التي لا سبيل إلى التصدى لها. وعندما يتوافر لإسرائيل الأمن الكافي، يمكن التفاوض مع الفلسطينيين وغيرهم من الجيران العرب على تسوية مُرضية. وقد اتخذ مناحم بيجن، زعيم الليكود وأحد تلاميذ جابوتنسكي، الخطوة الأولى من المرحلة الثانية بإبرامه معاهدة سلام مع مصر سنة ١٩٧٩. واتخذ رابين زعيم حزب العمل الخطوة الثانية شديدة الأهمية بالتفاوض على اتفاق أوسلو مع منظمة التحرير الفلسطينية. وعاد نتانياهو بإسرائيل إلى المرحلة الأولى من استراتيجية الجدار الحديدى، وهو تحاشى الحلول الوسط والاعتماد على القوة بدلاً من الدبلوماسية في التعامل مع العرب.

وأثناء الحملة الانتخابية، قدم باراك نفسه على أنه تلميذ رابين، وأنه الجندى الذى اتجه في مرحلة متأخرة من حياته إلى صنع السلام، ووعد بأن يسير على خطى معلمه في طريق أوسلو. وقد صدّق معظم المراقبين، وأنا منهم، مقولته. وكان السؤال الواقعي هو: هل يمكنه، وهو أكثر من حصل من الجنود على النياشين والأوسمة، أن ينجح في صنع السلام مع العرب مثلما نجح في قتلهم؟ إن سجله كرئيس للوزراء يبين بجلاء أنه لم ينجح في ذلك. فربما كان يرتدي الملابس المدنية، إلا أنه يظل جندياً في المقام الأول. وهو كذلك ما يعرف في اللغة العبرية بـ«بيتخونيست» – أى الذى ينزع إلى الأمن. فكل التطورات التي شهدتها المنطقة، ومن بينها عملية السلام، تُرى من خلال المنظور الضيق لاحتياجات إسرائيل الأمنية، وهي الاحتياجات التي يتم تضخيمها بطريقة غير معقولة – إن لم تكن نهمة لا تشبع. ولا يعدو الأمر كونه مبالغة بسيطة أن نقول إن باراك يقارب الدبلوماسية وكأنها امتداد للحرب بوسائل أخرى.

لقد أيد انشغال رئيس الوزراء الجديد بالقوة العسكرية تلك المقابلة الطويلة التي أجرتها معه صحيفة «هاآرتس» (١٨ يونيو ١٩٩٩) التي أيد فيها السعي إلى التوصل إلى اتفاق مع سوريا أولاً، على أساس أنها قوة عسكرية خطيرة، بينما الفلسطينيون ليسوا كذلك. كما قال: «إن الفلسطينيين هم مصدر الشرعية لاستمرارية الصراع، إلا أنهم أضعف الخصوم كافة. وهم كقوة عسكرية غير جديرين بالاهتمام». وهكذا نصل إلى الحقيقة: فالفلسطينيون ليست لديهم

لم تتعطل عملية السلام لأن اتفاق أوسلو بطبيعته غير قابل للتطبيق. بل لأن إسرائيل لم تلتزم بالشق الخاص بها في الاتفاق

القوة العسكرية ولا يشكلون تهديداً لأمن إسرائيل، وبذلك يمكن وضعهم بكل أمان في موضع قليل الأهمية. وما أوحى به باراك هو أن الاتفاق مع سوريا سوف يضعف الفلسطينيين ويعزلهم، وبذلك يزداد احتمال قبولهم أية شروط تقدمها لهم إسرائيل على سبيل التسوية النهائية. وكان باراك يركز بشكل يكاد يكون تاماً في الثمانية شهور الأولى من رئاسته للوزارة على المسار السوري، إلا أن مساعيه باءت بالفشل.

ولم يكن بالإمكان تحاشي المسار الفلسطيني تماماً، على الأقل بسبب الالتزامات المكتوبة التي كان من سبقوا باراك أطرافاً فيها. وكانت تحفظاته على الاتفاقات معروفة على نطاق واسع. وعندما كان رئيساً للأركان سنة ١٩٩٣ لم يبلغه أحد بالمفاوضات السرية مع منظمة التحرير الفلسطينية في العاصمة النرويجية، وقد انتقد الاتفاق الذي تم التوصل إليه هناك انتقاداً شديداً. وفي سنة ١٩٩٥ كان وزيراً للداخلية وامتنع عن التصويت في مجلس الوزراء على أوسلو ٢. وكان اعتراضه الأساسي على عملية أوسلو هو أنها تفرض عبئاً على إسرائيل بتجريدها على مراحل مما في حوزتها من أراض، دون أن تؤدي بالضرورة إلى حل محدد للصراع مع الفلسطينيين. وكان ذلك اعتراضاً مستغرباً، لأن النزعة التدريجية ومبدأ الأرض مقابل السلام يقعان في صلب أوسلو. واللافت للانتباه أن أول عرض قدمه باراك لعرفات كان تجاهل ما تم الاتفاق عليه في مذكرة واي ريفر من إعادة نشر القوات على نطاق صغير والمضي إلى اتفاق كبير. إلا أن عرفات أصر على ضرورة الوفاء بكل الالتزامات السابقة قبل الدخول في مفاوضات الوضع النهائي.

وفي المفاوضات اللاحقة، مارس باراك ضغطاً مكثفاً على الفلسطينيين. وقد وصفوا منهجه الدبلوماسي بأنه سلام بالتهديد. وكانت النتيجة اتفاقاً جرى توقيعه في شرم الشيخ في ٤ سبتمبر ١٩٩٩. وسمح الاتفاق الجديد – المعروف باسم واي ٢ – بمزيد من الوقت لتنفيذ إعادة نشر القوات المتفق عليه في واي ووضع جدولاً جديداً لمحادثات الوضع النهائي. إذ اتفقت إسرائيل والسلطة الفلسطينية على بذل «جهد صادق» للتوصل إلى «اتفاق إطار» بشأن قضايا الوضع النهائي بحلول شهر فبراير والتوقيع على معاهدة سلام شاملة بحلول سبتمبر من عام ٢٠٠٠ وكشأن كل الاتفاقات الإسرائيلية الفلسطينية السابقة، كان واي ٢ يعكس ميزان القوى بين الطرفين. فقد استغلت إسرائيل وضعها التفاوضي القوي في التفاوض بشأن الاتفاقات المتعاقبة، بل كانت تعدل الاتفاقات بعد التوصل إليها. وكانت لنتانياهو تحفظاته بشأن اتفاقيات أوسلو، وبالتالي عدلها بالصورة التي يراها، وكانت النتيجة مذكرة واي ريفر. وكانت لباراك هو الآخر تحفظاته بشأن المذكرة، وبناء على ذلك عدلها بالصورة التي يراها وكانت النتيجة واي ٢. فكيف كان الفلسطينيون ينظرون إلى هذا كله؟ الإجابة الضمنية عن ذلك هي أن الشحاذين ليس لهم الحق في الاختيار.

ولم تتحقق كل المواعيد النهائية التي نُص عليها في اتفاقية شرم الشيخ. وبدا أن باراك عازم على الإيهام بحدوث تقدم، في حين يتحاشى اتخاذ أية خطوات مهمة. وقد ذكر مراراً أن إسرائيل ستبذل كل ما في وسعها للتوصل إلى تسوية. إلا أن كلماته بدت جوفاء إلى حد ما على تلك الخلفية من انتهاكات إسرائيل المستمرة لاتفاقيات أوسلو. كما أنه لم ينفذ ثالث إعادة نشر خاص للقوات ينص عليه اتفاق واي. ولم تُسلَّم القرى العربية المحيطة بالقدس للسلطة الفلسطينية، وهو ما وُعد به من قبل. ولم يُفتح الممر الآمن بين غزة والضفة الغربية. ولم يُفرَج عن المسجونين الفلسطينيين المحتجزين في السجون الإسرائيلية. وأسوأ ما في الأمر أن السياسة الصهيونية القديمة الخاصة بخلق الحقائق على الأرض مضت بأسرع ما يمكن. فقد صودر المزيد من الأراضي العربية في الضفة الغربية، وأقيمت مستوطنات جديدة على ذرا التلال، وجرى توسيع المستوطنات القائمة، وشُق المزيد من الطرق التي يقصر استخدامها على المستوطنات اليهودية. والواقع أن اتفاق أوسلو لم ينص صراحة على منع النشاط الاستيطاني. والواقع كذلك أن بعض النشاط الاستيطاني كان قد تم في عهد رؤساء وزراء سابقين. إلا أن بناء المستوطنات في عهد باراك مضى بسرعة مخيفة وبتجاهل تام لروح أوسلو. وبدا أن باراك قد عقد العزم على إحكام السيطرة الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية. وكانت فكرة التعايش القائمة على المساواة بعيدة كل البعد عن تفكيره.

كان أحد أوضح الأمثلة على إيمان باراك بقدرته على فرض شروطه على الفلسطينيين هو القمة التي عقدت في كامب ديفيد بولاية ميريلاند الأمريكية في يوليو من العام الماضي. وقد عقدت القمة بطلب من باراك – حيث عقدها بيل كلينتون، «آخر الصهاينة» كما وصفته صحيفة إسرائيلية، خدمة له. وفي القمة عرض باراك صفقة متكاملة غطت كل قضايا الوضع النهائي، بما في ذلك اقتراح لتقسيم القدس الشرقية. وأعلن المتحدثون باسمه أنه فاق أي رئيس وزراء سبقه في تلبيته للمطالب الفلسطينية. كان ذلك صحيحاً، ولكنه لم يكن يعني الكثير، لأن كل رؤساء الوزراء السابقين تملصوا من المسألة. فقد جرت العادة أن يردد كل رؤساء وزراء إسرائيل منذ ١٩٦٧، من العمل والليكود على السواء، شعار أن القدس الموحدة هي العاصمة الأبدية لدولة إسرائيل. وما لم يذكره المتحدثون الرسميون هو أن زعيمهم يصر على أن تتخلى السلطة الفلسطينية عن مطالبة دولة إسرائيل بأي شيء آخر، بما في ذلك حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة، مقابل التنازلات المتواضعة التي عرضها. وكانت غلطة باراك الكبرى هي إصراره على أن يصدر عرفات بياناً صريحاً بشأن إنهاء الصراع، ذلك أنه حتى في حال توقيعه لمثل هذا الإعلان فإن هذا لن ينهي الصراع. وحقيقة الأمر أن عرفات كان يتعرض لضغط شديد من بعض الدول العربية، وخاصة مصر والسعودية، لكي لا يوقع. فقد ذكروه بأن العالم الإسلامي قاطبة له نصيب في القدس، وليس الفلسطينيون وحدهم. وفي نهاية الأمر، وبعد أسبوعين من المحادثات، رفض الصفقة المتكاملة وعاد إلى بلاده ليستقبل استقبال الأبطال.

وقد ولّد انهيار قمة كامب ديفيد إحباطاً فلسطينياً وعمّق الشكوك في قبول الإسرائيليين في يوم من الأيام طواعية لتسوية تنطوي ولو على النزر اليسير من العدل. وكان هناك اقتناع كامل بأن إسرائيل لا تفهم سوى لغة القوة. وبعد ذلك، وفي الثامن والعشرين من سبتمبر، قام آرييل شارون بزيارته التي حظيت بتغطية إعلامية كبيرة للحرم الشريف. وكان باراك قد وافق على الزيارة رغم نصيحة كبار رجال الأمن في حكومته. وزعم شارون نفسه أنه يحمل رسالة سلام. ولكن إذا كان الأمر كذلك، لماذا احتاج إلى ألف رجل أمن لمصاحبته؟ إن شارون هو أكثر من يندد به في العالم العربي. وقد أثارت زيارته لـ«الحرم الشريف» ردود فعل غاضبة سرعان ما تجمعت في هيئة انتفاضة شاملة – هي انتفاضة الأقصى. وأدى التحول من الحجارة إلى البنادق على الجانب الفلسطيني، واللجوء إلى القناصة والدبابات والصواريخ وهجمات الهليكوبتر من جانب الإسرائيليين، إلى تزايد الخسائر في الأرواح بطريقة يصعب وقفها. ففي الشهور الثلاثة الأولى من الاشتباكات التي تكاد تكون يومية، قتل ٢٩٨ فلسطينياً و١٣ من عرب إسرائيل و٤٣ إسرائيلياً آخرين. وتوقفت عملية السلام توقفاً تاماً وأعلن البعض موتها.

أغلقت إسرائيل الحدود مع الضفة الغربية وقطاع غزة، لتودع ٢,٣ مليون شخص سجناً مفتوحاً. كما أن هناك حوالي ١١٠ آلاف من الفلسطينيين العاملين في إسرائيل بلا عمل، وارتفع معدل البطالة إلى ٤٠٪ نتيجة للحصار. وكانت العقوبة الاقتصادية التي فرضتها قوات الاحتلال الإسرائيلي وحشية. فقد جرّف الجيش الإسرائيلي هكتارات من بيارات الزيتون والأراضي الزراعية. وخسر الاقتصاد الفلسطيني ما يزيد على ٣٤٥ مليون دولار في الستين يوماً الأولى من الأزمة. كما محيت ثلاث سنوات من التقدم خلال شهرين من الصراع.

إلا أن أثر الصراع على الجبهة الدبلوماسية كان ضد إسرائيل وفي مصلحة الفلسطينيين. فقد أدينت الوحشية التي حاولت بها إسرائيل إخماد الانتفاضة الشعبية على نطاق واسع. وفي الأيام الأخيرة للرئيس الأمريكي في البيت الأبيض، طرح مبادرة نشطة لرعاية اتفاق سلام نهائي، ومقارنة بـ«مقترحات رأب الصدع» الأمريكية التي نوقشت في كامب ديفيد، تحولت خطته للسلام تحولاً كبيراً لمصلحة الفلسطينيين بشأن مسائل القدس وحدود الدولة الجديدة واللاجئين. وطبقاً لهذه الخطة، تتنازل إسرائيل عن معظم القدس الشرقية (ما عدا الحي اليهودي في المدينة القديمة وممر يؤدي إليه)، وفي المقابل يتنازل الفلسطينيون عن حق عودة ٣,٧ مليون لاجئ الذي تؤيده الأمم المتحدة. وعلى رأس ذلك كله يحصل الفلسطينيون على دولة لهم على ٩٥ بالمائة من أرض الضفة الغربية وكل قطاع غزة.

وقَبِل باراك خطة كلينتون أساساً للمفاوضات. ربما على افتراض أن يرفضها عرفات، فيحقق هو بذلك انتصاراً دعائياً. ولكن عرفات أربك حساباته بقبوله الخطة الأمريكية – على ما فيها من شروط. كما أن الاعتبارات الخاصة بالانتخابات دفعت باراك إلى تغيير اتجاهه وأخذ يبدو أكثر تشدداً وأكثر تشاؤماً بشأن احتمالات الاتفاق الذي ترعاه الولايات المتحدة. حيث كانت استطلاعات الرأي تدل على تقدم شارون بحوالي ٢٠ نقطة. وفي الوقت الذي حاول فيه شارون المتشدد التخفيف من حدة صورته لاجتذاب أصوات الوسط، تبنى باراك خطاب الصقور أملاً في استعادة الوسط. كما ذكر أنه لن يذهب إلى واشنطن لمناقشة السلام قبل أن يوقف الفلسطينيون أعمال العنف. وحذر كذلك من أن الانتفاضة قد تتحول إلى مواجهة إقليمية شاملة، وأثار احتمال قيام إسرائيل من جانب واحد بضم أجزاء كبيرة من الضفة الغربية. ومرة أخرى، وكما حدث مراراً فيما مضى، تسقط عملية السلام رهينة أهواء السياسة الداخلية الإسرائيلية.

ولم تفشل اتفاقيات أوسلو: بل إن إيهود باراك هو الذي قضى عليها، سيراً على خطى من سبقوه. وبينما تتعلق الاتفاقات بتحديد المصالح العامة ورعايتها، فلم يفعل باراك شيئاً سوى القضاء على إيمان الفلسطينيين بإمكانية التعاون والتعايش مع إسرائيل. وما يتعرض للخطر في هذا الصراع ليس هو أمن إسرائيل، ناهيك عن وجودها، بل فتوحاتها الاستعمارية التي تمت في عام ١٩٦٧. وفي ظل قيادة الجنرال باراك، يشن الجيش الإسرائيلي حرباً استعمارية ضد الشعب الفلسطيني. وهي، كشأن سائر الحروب الاستعمارية، حرب شرسة لا معنى لها وموجهة في المقام الأول ضد السكان المدنيين الذين طالت معاناتهم. والمستغرب أن عدداً متزايداً من مجندي جيش الدفاع الإسرائيلي يرفض الخدمة في الأراضي المحتلة.

إن تحرر الفلسطينيين من وهم ما يسمى عملية السلام أكثر انتشاراً ويزداد عمقاً. وعندما شرع الفلسطينيون في هذه العملية سنة ١٩٩٣ اختاروا خياراً استراتيجياً: فقد افترضوا أن بإمكانهم التقدم في اتجاه دولة لهم عن طريق الدبلوماسية وحدها، وليس العنف. أما الآن فليسوا على يقين من ذلك. ويبدو أن انتفاضة الأقصى تبين أنهم لكي يحدثوا أثراً لدى إسرائيل الجنرال باراك، فلا بد أن يدعم الدبلوماسية العنف والتهديد بالعنف. بعبارة أخرى، فقد تعلم الفلسطينيون من التجربة المريرة أن اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل هي لغة القوة. فمنذ توقيع اتفاق أوسلو الأول وعرفات ينادي بسلام الشجعان. وبعد مضي سبع سنوات، يواجهه خصم يبدو أنه عاقد العزم على فرض سلام البلطجية. إلا أن البلطجة لا يمكنها على المدى الطويل أن تحل المشكلة الفلسطينية. والطريقة الوحيدة لوقف الصراع هي إنهاء الاحتلال. بل إن إسرائيل بإنهائها الاحتلال ستؤدي لنفسها خدمة جليلة. فكما أوضح ماركس منذ زمن بعيد، لا يمكن للأمة التي تضطهد أمة سواها أن تظل هي نفسها حرة.

بترتيب خاص مع:
London Review of Books

ترجمة: أحمد محمود

ثلاثة رجال

كعادته دائمًا كل ٤ سنوات، غيّر المشهد السياسى الأمريكى جلده إلا قليلا. وعند مفتتح العام الحالى، انتقلت إدارة جمهورية إلى البيت الأبيض بعد ٨ سنوات من حكم الديمقراطيين. كما دانت الغالبية للحزب الجمهورى فى مجلس النواب، بينما انقسم مجلس الشيوخ بالتساوى بين الحزبين الكبيرين (٥٠/٥٠). وامتد التغيير إلى المشهد الاقتصادى الذى تدل المؤشرات على وجود تباطؤ ربما يفضى إلى ركود بعد نمو وازدهار غير مسبوقين طيلة سنوات الديمقراطيين.

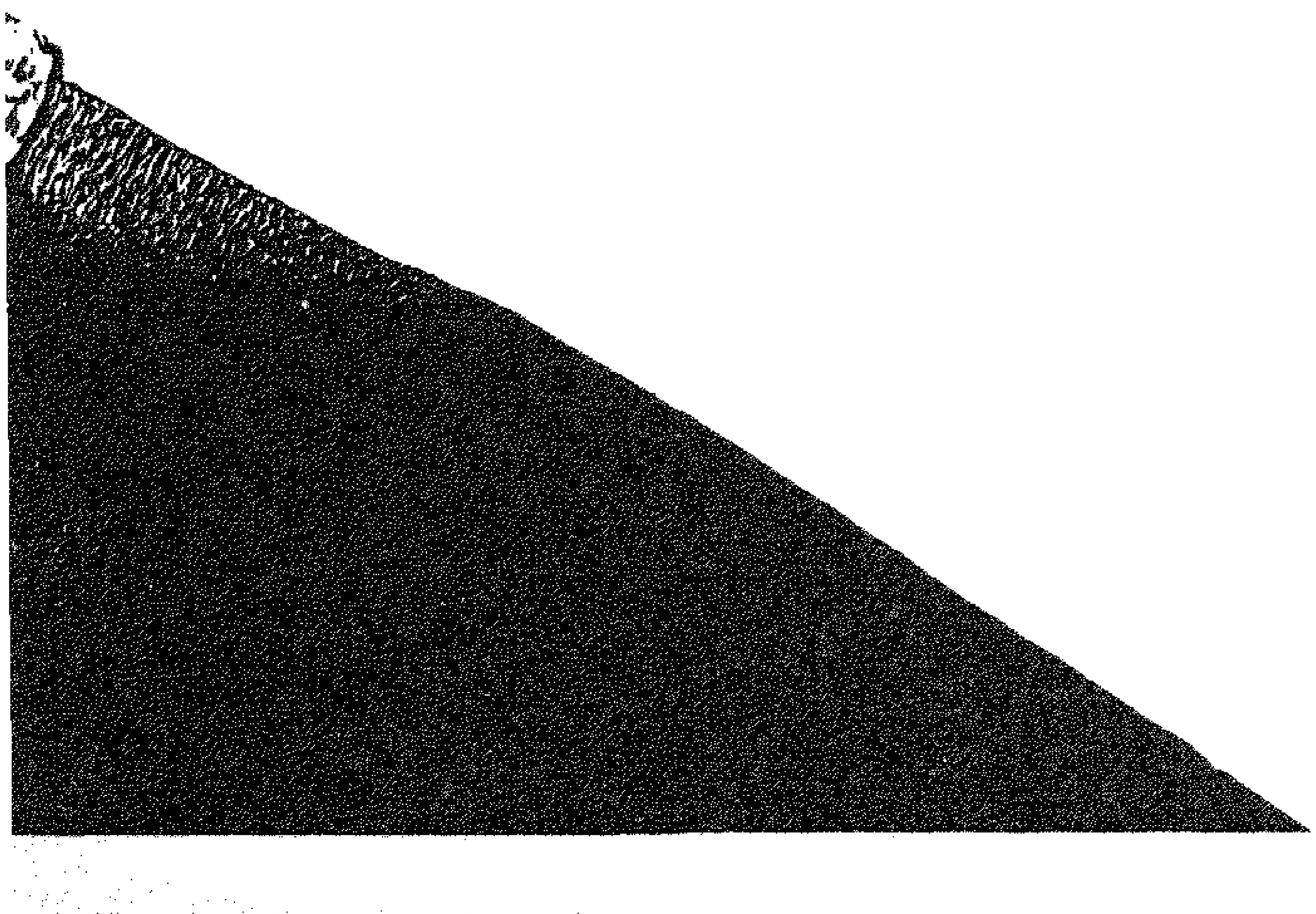
وإذا كان لكل عصر رجاله (أو نساؤه) يغيرون الأذواق والألوان والتوجهات وربما الأفكار، فإن الشواهد تشير إلى أن أبطال العقد الأول من القرن الحادى والعشرين فى الولايات المتحدة، وبالتالى فى العالم هم ٣ رجال وامرأة سيطبعون هذا العقد، على الأقل سياسيًا واقتصاديًا، بسماتهم وستكون لهم لمساتهم التى ستؤثر داخليًا وخارجيًا. ولا يعنى ذلك أن المسرح السياسى سيضيق عن استقبال آخرين، فالولايات المتحدة بحكم نظامها السياسى والاقتصادى وتركيبتها الثقافية والاجتماعية لديها من الكفاءات والقدرات البشرية ما من شأنه امتلاء المسرح وربما مسارح أخرى بشخصيات تتراوح أدوارها بين البطولة المطلقة والسنيد والكومبارس.

لكن الأبطال الأربعة ،الذين يتناولهم هذا الموضوع، مختلفون إلى حد كبير عن الآخرين الموجودين على المسرح السياسى الأمريكى سواء من حيث قدراتهم أو المتوقع منهم. إن جميعهم يشتركون فى أنهم لم يعتلوا خشبة المسرح عند مفتتح العام الحالى، فبعضهم موجود عليه منذ عقود وبعضهم منذ فترة أقل من ذلك. ثم إنهم يشتركون فى أن كلا منهم ترك بصمة لا تخطئها العين، الأمر الذى يؤهلهم لترك بصمات أخرى فى المستقبل، إنهم رجال أو - حتى لا نتهم بالتمييز - «أناس المستقبل» فى كل الأحوال.

ولأن قواعد البروتوكول الغربى تقول: السيدات أولاً، فقد يحسن البدء بهيلارى كلينتون التى تركت لتوها البيت الأبيض مع زوجها بيل كلينتون، لتصبح أول سيدة أولى سابقة فى التاريخ الأمريكى تدخل مجلس الشيوخ ولتصبح السيناتور هيلارى. ولن نقول جديدًا عن الدور غير العادى الذى لعبته فى إيصال زوجها للبيت الأبيض والدور غير العادى أيضًا الذى مارسته من البيت الأبيض، ومع ذلك فإن المستقبل على ما يبدو، مازال يدخر لها الكثير. ومع اختفاء زوجها من الساحة السياسية وهزيمة آل جور فى الانتخابات الرئاسية تبرز هيلارى كأهم شخصية فى الحزب الديمقراطى. ولو تحفظنا قليلاً لقلنا إنها ستكون - على الأقل - النجم اللامع بين الأعضاء المائة فى مجلس الشيوخ، أما إذا نحينا التحفظ جانبًا فيمكن القول حينئذ أن البيت



ديك تشينى — كولن باول — آلان جرينسبان



هيلارى

محمد السطوحى

... وامـــــرأة

الأبيض هو هدف هيلارى، وفى تلك المرة لن تكون زوجة الرئيس، بل الرئيس نفسه.

أما ديك تشينى نائب الرئيس فيتوقع له المراقبون أن يصبح أكثر نواب الرؤساء فعالية فى التاريخ الأمريكى. ولأسباب كثيرة بينها طبيعة الرئيس جورج بوش الابن وقدراته، فمن المتوقع أن يصبح تشينى بمثابة رئيس الوزراء الذى يمارس المهام الفعلية فى إدارة بوش، وسيكتفى الرئيس على الأرجح بتحديد الأهداف العامة واتخاذ القرارات النهائية.

على المسرح أيضًا، الجنرال كولن باول، وهو نجم «سوبر» أعتبره الأمريكيون بطلهم بعد حرب الخليج التى كان خلالها رئيسًا للأركان، ولأنه أسود البشرة، فقد حظى اختياره وزيرًا للخارجية، فى سابقة هى الأولى من نوعها بثناء هائل للقرار وللرجل. أى باول. الذى يروق للكثيرين أن يشبهوه بالرئيس الراحل دوايت أيزنهاور، وعندما سألت شبكة «سى إن إن» باول عما إذا كان سيقتفى خطى وزير الخارجية الأشهر هنرى كيسنجر أو وزير الخارجية «الرمادى» وارين كريستوفر أو وزيرة الخارجية «الحديدية» مادلين أولبرايت، رد بالقول سأكون كولن باول مع احترامى لكل هؤلاء.

وإذا كان النجاح له أكثر من أب، فليس مستغربًا أن يزعم كثيرون أن لهم الفضل فيما حققه الاقتصاد الأمريكى من ازدهار، لكن شخصًا واحدًا لا ينازعه أحد دوره المحورى فى تلك المعجزة، إنه آلان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى (البنك المركزى الأمريكى) الذى فضلنا أن نقدمه من خلال قراءة لكتاب الصحفى الأمريكى الشهير بوب وودوورد عن جرينسبان أو «المايسترو»، كما فضل أن يسميه. ورغم أن جرينسبان تولى منصبه المهم عام ١٩٨٧ وحتى الآن، فإن المستقبل يوفر له دورًا مهمًا، حيث يخوض حاليًا معركة حاسمة لتفادى خطر الكساد الاقتصادى فى الولايات المتحدة، وهى معركة يترقب العالم كله ما ستسفر عنه من نتائج.

هى شخصيات أربعة لا تبحث عن أدوار، بل لديها أدوارها بالفعل وتتطلع إلى المزيد.

1. Shadow: Five Presidents and the Legacy of Watergate 1974-1999

(الشبح.. خمسة رؤساء وتراث ووترجيت، ١٩٧٤ - ١٩٩٩)

Bob Woodward

Simon & Schuster, 1999, 295PP.

2. Blood Sport : The President and His Adversaries

(لعبة دموية)

James B. Stewart

Touchstone Books: 1997, 464PP.

3. Maestro : Alan Greenspan's Fed and the American Economic Boom

(المايسترو)

Bob Woodward

Simon & Schuster; 2000, 464PP.



هيلاري: «السيناتور».. حاليا



■ بعد فوز الرئيس السابق بيل كلينتون في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٢، انتشرت حكاية تقول إنه كان يقود سيارته في إحدى مدن ولاية أركنصو، التي ينتمي إليها، مع قرينته السيدة الأولى الجديدة هيلارى رودام كلينتون، حيث دخلا محطة بنزين لتموين السيارة. كان عامل المحطة يبدو في حالة سيئة بملابس رثة وأسنان متساقطة. وفجأة نظر إلى قرينة الرئيس وقال لها كمن يعرفها جيدا: أهلا! واكتشف كلينتون أن هذا العامل كان صديقا لزوجته في الماضي، وأنها كانت تعتزم الزواج منه. فلما غادرا محطة البنزين قال لها بلهجة تنم عن بعض الخيلاء: لو كنت تزوجته لما أصبحت السيدة الأولى. لكنها ردت عليه بحسم: لو كنت تزوجته لأصبح هو الرئيس الجديد!!

لم يأخذ الكثيرون هذه الحكاية على أنها أكثر من دعابة، غير أن انتشارها في ذلك الوقت كان يعبر عن الدور الكبير وغير التقليدي الذي لعبته هيلارى كلينتون في حياة زوجها، منذ أن فضلت ترك العروض المغرية للعمل في المؤسسات القانونية العريقة بواشنطن، لتسانده في معاركه السياسية بأركنصو، التي أصبح أصغر حاكم لها، إلى أن فاز بعد ذلك بالبيت الأبيض.

وكثيرا ماتداولت الأوساط الفكرية والسياسية بواشنطن الخلفية الدينية لكل من هيلارى وكلينتون باعتبارها مفتاحا لتفسير العلاقة بينهما. فهيلارى مسيحية ميثودية (Methodist)، أما بيل فمعمداني (Baptist) وهناك قول ذائع بأن الميثودي يشعر دائما بأنه صاحب رسالة، أو أنه يبحث عنها. أما المعمداني فيعتقد أنه هو الرسالة ذاتها.

وبهذا المعنى فإن كلينتون كان هو الرسالة التي سعت هيلارى إلى احتضانها والدفاع عنها ودفعها للأمام إلى أن تولى أعلى منصب في البلاد. غير أن هذه الرحلة وصلت إلى قمتها سريعا، وهما لايزالان في منتصف الأربعينيات، لذلك كان عليها أن تبحث عن رسالة جديدة، أو - ولم لا - أن تتحول صاحبة الرسالة بدورها، لتصبح هي الرسالة ذاتها.

وكان أن بدأت هيلارى كلينتون في ممارسة دور غير مسبوق لأي سيدة أولى، فكانت تحضر الاجتماعات المهمة، وتشارك في رسم سياسات الإدارة الجديدة، بل وخصص لها مكتب في الجناح الغربي للبيت الأبيض، وهو مالم يحدث من قبل. وعندما تم توزيع الأدوار والمهام، كان على نائب الرئيس آل جور أن يقبل بالإشراف على برامج أقل أهمية وبريقا، مثل التنظيم الإداري للحكومة الفيدرالية، ليترك أهم برامج الإدارة الجديدة، وهو الرعاية الصحية، للسيدة الأولى.

كانت الضجة كبيرة حول هذا المشروع، لذلك كان الفشل فادحا. فقد عجزت هيلارى عن إقناع الكونجرس بخطتها، رغم أن الديمقراطيين كانوا يملكون الأغلبية في ذلك الوقت. ومن الطريف أن هيلارى كلينتون تم تعيينها مؤخرا في عضوية لجنة الرعاية الصحية بمجلس الشيوخ، وذلك بعد فوزها الكبير بمقعد في المجلس عن ولاية نيويورك، في انتخابات السابع من نوفمبر الماضي. وهي أول مرة ترشح فيها سيدة أولى نفسها وتفوز في انتخابات للكونجرس. إن هذا الإنجاز لا يمكن تقييمه فقط بالمنافسة القوية التي واجهتها في الولاية، ولكن أساسا بالتحديات والظروف التي مرت بها خلال السنوات الثماني التي قضتها في البيت الأبيض.

وهذه الظروف - كما يقول جيمس ب ستيوارت في كتابه «لعبة دموية» (Blood Sport) تكشف عن طبيعة الثقافة والقيم والتفاعلات السياسية الأمريكية، بقدر ماتكشف عن شخصية الرئيس السابق وقرينته. ويمكننا أن نضيف أنها تلقي الضوء إلى حد بعيد، على الأسلوب الذي ستؤدي به واجبات منصبها الجديد في مجلس الشيوخ أو إمكانية أن ترشح نفسها للرئاسة، كما يتوقع الكثيرون عام ٢٠٠٤، لقد أمضت هيلارى كلينتون أغلب سنواتها في البيت الأبيض وسط جيش من المحامين، وخبراء العلاقات العامة المتخصصين في كيفية التعامل مع الفضائح. فقد تفاقمت أحداث قضية وايت ووتر الخاصة باستثمار عقاري في ولاية أركنصو شاركت فيه مع زوجها عندما كان حاكما للولاية، لكن الاستثمار فشل وتعرض بعض المسئولين فيه للمحاكمة والسجن لمخالفاتهم المالية والضرائبية.

وفي سابقة هي أيضا الأولى من نوعها، تم استدعاء السيدة الأولى للشهادة أمام هيئة محلفي الادعاء في يناير عام ستة وتسعين. ويذكر هنا أن دافيد كاندال المحامي المسئول عن القضية عرض عليها أن تذهب خفية إلى المحكمة حتى لاتصورها كاميرات التليفزيون في هذا الوضع المهين. لكنها رفضت أن تتسلل مثل المشبوهين، وذهبت إلى المحكمة مرفوعة الرأس بابتسامة عريضة.

كانت هذه إحدى المرات القليلة التي اتجهت فيها هيلارى بغريزتها السياسية الى الاتجاه الصحيح، لكن التحليل النهائي لأسلوب إدارتها للأزمة لم يكن في صالحها. فقد كانت تدلي بالتصريحات ثم تعود وتضطر لسحبها، حتى إن كاتبا مثل وليام سافاير وصفها في مقاله بصحيفة النيويورك تايمز بأنها «كذابة بالفطرة». كذلك كان أصدقاؤها ومن يعملون معها يستدعون للشهادة في الكونجرس حيث يتعرضون للإهانة والأسئلة العنيفة، دون أن تحرك السيدة الأولى ساكنا.

ولو أخذنا برواية الكاتب المعروف بوب وودوورد في كتابه (الشبح: خمسة رؤساء أمريكيين، وتراث الووترجيت) (Shadow: five presidents and the legacy of water-gate) فإن صمت السيدة الأولى كان عجزا، غير أن صورتها التي انطبعت لدى الناس كانت لامرأة متحجرة، قاسية القلب، تقبل بمعاناة المقربين منها، حماية لنفسها.

كيف إذن تحول الرأي العام تجاهها لتصبح، كما هي الآن، أكثر النساء شعبية وموضعا للإعجاب لدى الأمريكيين حسب استطلاع أخير أجرته مؤسسة جالوب.

هنا أعود قليلا لكتاب بوب وودوورد الذي أورد بعض نصائح المستشار السياسي المخضرم ديك موريس للسيدة الأولى. فقد كان يحثها دائما على أن ترقق من صورتها الجافة، وتلين من مظهرها الصارم، بأن تبدو أكثر ضعفا. وكان يقول لها إن الشخصيات العامة تكون أكثر جاذبية لدى الناس عندما يتحدثون عن نقاط ضعفهم، وضرب لها مثلا بالرئيس الأسبق رونالد ريجان الذي كان يتندر بضعف ذاكرته. لكنها كانت ترد عليه دائما بأنها لاتعرف شيئا معينا يمكنها الحديث عنه، فهي ببساطة لاتجيد هذا الأسلوب.

لكن الأحداث التالية حققت لها - ربما رغم إرادتها - ما كانت تبحث عنه. فقد تفجرت فضيحة مونيكا لوينسكي، واعترف زوجها بعد إنكار طويل بأنه كان على علاقة «غير لائقة» بها. ويروي المتحدث الأسبق باسم البيت الأبيض مايك مكاري، الذي كان صديقا مقربا من هيلارى، كيف أنها وقفت تتساءل في حسرة عما تحس به: هل أنا غاضبة؟ هل أشعر بالخيانة.. بالألم.. بالوحدة أم بالإهانة؟ وقد وصفت الكاتبة مورين داود هيلارى في ذلك الوقت بأنها أكثر امرأة تعرضت للإهانة في التاريخ!! لماذا إذن تمسكت هيلارى بزواجها ولم تنفصل عن الرجل الذي أهانها؟

من يكرهونها يقولون إنها تعشق السلطة، لذلك أرادت الاستمرار كسيدة أولى تبحث عن مستقبلها السياسي. أما الفريق الآخر فيتحدث عن مشاعرها الدينية العميقة، وحبها لزوجها، وثقتها في أن علاقاته النسائية ليست أكثر من نزوات لاتنفي حبه لها وارتباطه بها، كما أن تركها له في هذه الظروف كان سيعرضه لخطر الإقالة من منصبه.

أيا كانت الأسباب، فقد ساد تعاطف عام مع هذه السيدة التي قاست مع زوجها نزواته وهفواته.

نعم.. إنها الآن المرأة الضعيفة التي كان يبحث عنها ديك موريس، ومن هذا الضعف برزت هيلارى كلينتون أكثر قوة وأرفع مكانة. كانت هذه هي الخلفية التي انطلقت منها قرينة الرئيس، عندما رشحت نفسها عن الحزب الديمقراطي لشغل مقعد ولاية نيويورك في مجلس الشيوخ، الذي خلا بتقاعد العضو المخضرم دانيال باتريك موينهان.

ورغم أن مهمتها أصبحت أكثر سهولة بعد انسحاب المرشح الجمهوري عمدة مدينة نيويورك رودي جولياني بسبب إصابته بالسرطان، وترشيح عضو مجلس النواب الأقل خبرة ريك لازيو لينافسها بدلا منه، إلا أنها كان عليها أن تثبت انتماءها لتلك الولاية المعقدة، بينما هي لم تعش فيها من قبل. وهو ما تمكنت من تحقيقه بجدارة. لكنها في سبيل الفوز اتبعت الأسلوب الأكثر سهولة وإغراء لأي مرشح في نيويورك، وهو أن تثبت - على حد تعبير بعض السياسيين المخضرمين في المدينة - أنها «أكثر يهودية» من منافسها! واليهود في تلك الولاية يمثلون نحو ١٢٪ من سكانها، إلا أن نفوذهم فيها يفوق نسبتهم بمراحل من خلال سيطرتهم على الكثير من مؤسسات المال والأعمال في وول ستريت، وكذلك الكثير من الصحف المهمة وأبرزها النيويورك تايمز.

كانت هيلارى حتى ذلك الوقت تحظى بمكانة خاصة لدى الجالية العربية والمسلمة في الولايات المتحدة، نظرا لدعوتها السابقة لإنشاء دولة فلسطينية مستقلة، ولأنها واظبت على دعوة بعض أبناء الجالية ومنظماتها إلى البيت الأبيض لمشاركتهم الاحتفال بعيد الفطر. وقد حضرت أحد هذه الاحتفالات ورأيت بنفسي الدفء والاحترام المتبادل في تلك العلاقة. لكن المرشحة هيلارى كلينتون أصبحت فجأة من المتحمسين لنقل السفارة الأمريكية إلى القدس، كما أن السيدة الأولى التي خالفت السياسة المعلنة لبلدها وزوجها، وطالبت بإعلان الدولة الفلسطينية، عادت وخالفت تلك السياسة ولكن هذه المرة لتدين امتناع واشنطن عن استخدام حق الفيتو في مجلس الأمن ضد قرار بإدانة استخدام القوة المفرطة ضد الفلسطينيين، الذين طالبت بمنع المساعدات الأمريكية عنهم إذا أعلنت السلطة الفلسطينية إنشاء دولتها من جانب واحد. وتنكرت هيلارى أيضا لعلاقتها مع الجالية الأمريكية المسلمة، وأعادت للدكتور عبد الرحمن العمودي المدير السابق للمجلس الإسلامي الأمريكي بواشنطن، مبلغ ألف دولار كان قد تبرع بها لحملتها الانتخابية. وعندما هاجم منافسها الجمهوري ريك لازيو علاقتها بالفلسطينيين، رد عليه البيت الأبيض بأن سرب للصحافة صورته وهو يصافح الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات!!

وقد فازت هيلارى في النهاية على لازيو بفارق كبير، لكن كان عليها أن تثبت مرة أخرى أنها كعضوة في مجلس الشيوخ لن «تقل يهودية» عنها كمرشحة. وكان أن أصدر الرئيس كلينتون - قبل انتهاء فترة رئاسته بساعات - قرارا بالعفو عن ثلاثة يهود في نيويورك كانوا قد أدينوا بالاحتيال على الحكومة الفيدرالية للحصول على ملايين الدولارات لدعم مدارس وهمية لتعليم الديانة اليهودية. وكانت الرائحة تزكم الأنوف حتى إن صحيفة الواشنطن بوست ربطت في افتتاحيتها قرار العفو بالسناتور هيلارى

تشيني: رئيس الوزراء الأمريكي

كلينتون . مشيرة لأهمية الجالية اليهودية بالنسبة لها في نيويورك.

كيف إذن سيكون دور ومكانة السيدة الأولى السابقة في موقعها الجديد بمجلس الشيوخ؟

يقول المؤرخ الشهير مايكل بيشلوس إنها تشبه السناتور الأسبق روبرت كيندى الذى دخل مجلس الشيوخ في الستينيات ليمثل أيضا ولاية نيويورك، لكنه كان يتحدث منذ اللحظة الأولى باعتباره الرئيس القادم.

صحيح أن هيلارى تنفي الآن أنها تفكر في الترشيح للرئاسة عام ٢٠٠٤ ، لكن ليس من المتوقع أن تقول غير ذلك ، بينما الاحتفالات لم تهدأ بعد بنصرها الأخير. مع ملاحظة أن أربع سنوات في السياسة الأمريكية تمثل دهرا كاملا. سوف تجرى فيه مياه كثيرة. ومع اختفاء زوجها عن الساحة ،بشكل رسمي على الأقل ، وهزيمة آل جور في انتخابات الرئاسة، تبرز هيلارى كلينتون الآن كأهم شخصية في الحزب الديمقراطي. وقد أزعجت الأضواء التي تلاحقها في مجلس الشيوخ الكثير من الأعضاء الجمهوريين. حتى إن زعيم الأغلبية الجمهورية ترنت لوت قال بلغة تفتقر للباقة إنه إذا لم تحدث صاعقة وقدر لهيلارى أن تدخل المجلس فإنها ستكون مجرد عضو واحد ضمن مائة عضو آخرين. غير أن غضب الجمهوريين وغيرة بعض الديمقراطيين لن تغير من حقيقة أن هيلارى كلينتون ستكون النجم اللامع بين الأعضاء المائة، وسيكون لمواقفها تأثير أكبر نتيجة تركيز وسائل الإعلام عليها.

كيف ستستفيد هيلارى إذن من تلك المكانة لخدمة القضايا التي تدافع عنها ، وتضع نفسها من خلالها على الخريطة السياسية انتظارا لقرارها بشأن انتخابات الرئاسة القادمة؟

لو أخذنا بتوجهاتها السابقة من خلال مشروعها الفاشل للرعاية الصحية، أو بعض كتاباتها في قضايا المرأة والطفل والتعليم والضمانات الاجتماعية وغيرها ، فإنها بدون شك تتبنى أفكارا ليبرالية واضحة، وهذا قد يساعدها على الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي لها للرئاسة إذا ما قررت دخول السباق إلى البيت الأبيض. لكنها ستواجه حينئذ المشاكل التي يواجهها أغلب المرشحين الديمقراطيين في الانتخابات العامة، حيث سيتعين عليها أن تتجه للوسط لاجتذاب المستقلين.

إن هذا ما نجح فيه زوجها بعبقرية في انتخابات عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٦ حيث شارك في إنشاء ورئاسة جماعة الديمقراطيين الجدد ذات الأفكار الوسطية المعتدلة. وسوف يكون على السناتور هيلارى كلينتون أن توضح للناس ما إذا كانت ستتبع خطى زوجها ومواقفه بشأن العديد من القضايا الاجتماعية والاقتصادية، ومن المؤكد أن المواجهات المتوقعة مع الجمهوريين سوف تضعها سريعا أمام أكثر من اختبار.

أما بالنسبة لقضايا الشرق الأوسط، فلا أظن الأمر يحتاج إلى الكثير من الاختبارات. إن المرشحة لمجلس الشيوخ هيلارى رودام كلينتون حاولت قدر المستطاع أن تثبت أنها « أكثر يهودية» من السيدة الأولى السابقة. أما عضو المجلس والمرشحة المحتملة للرئاسة فسوف يتعين عليها أن تكون « أكثر يهودية » من الاثنتين. ■

■ ■ عندما سئل عضو مجلس الشيوخ جون مكين عما إذا كان يقبل الترشيح لمنصب نائب الرئيس مع جورج بوش مقابل إنهاء الصراع بينهما في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري، كان رده مباشرا وحاسما: «إن لنائب الرئيس مهمتين أساسيتين .. الأولى أن يطمئن صباح كل يوم على صحة الرئيس ، والثانية أن يحضر جنازات الحكام الديكتاتوريين في دول العالم الثالث. وأنا لا أريد أيا منهما». ربما كان في كلمات مكين قدر لايخفى من المبالغة، لكنها تعكس ولاشك بعض الحقيقة فيما يتعلق بطبيعة عمل ودور نائب الرئيس.

صحيح أنه ينتخب مع الرئيس بوضع اسميهما معا على بطاقة انتخابية واحدة، كما أنه يتولى مهام الرئاسة في حالة موت الرئيس أو عجزه عن العمل، أو إقالته من منصبه، إلا أنه فيما عدا ذلك لم يقم أغلب نواب الرؤساء الأمريكيين بما هو أكثر من المهام التشريفية.

فعندما اختار دوايت أيزنهاور ريتشارد نيكسون كنائب له، لم يستشره حتى في اختيار أعضاء حكومته. وعندما حان دور نيكسون لاختيار نائبه ، لم يجد أفضل من سبيرو أجنيو Spiro Agne. يومها وصفت مجلة «الإيكونوميست» ذلك الاختيار بأنه يشبه قيام بنات الهوى في عصر النهضة بباريس، بحمل القرود فوق أكتافهن ، لإثبات جمالهن بالمقارنة. أما دان كويل فقد عجز حتى عن تحسين صورة الرئيس الأسبق جورج بوش ، وكان من أسباب خسارته لانتخابات الرئاسة عام اثنين وتسعين.

ورغم نجاح آل جور -إلى حد ما- في تعزيز دور ومكانة نائب الرئيس خلال الأعوام الثماني الماضية، حيث سمح له بيل كلينتون بتولي العديد من المهام الداخلية والخارجية ، حتى أصبح يشار إلى جور باعتباره أكثر نواب الرؤساء فعالية في التاريخ الأمريكي، إلا أن من يتابع مهام و أعمال نائب الرئيس الحالي ريتشارد تشيني ، ربما يخيل إليه أن آل جور لم يكن لديه مايفعله. فقد كان تشيني هو المسئول عن عملية نقل السلطة إلى الإدارة الجديدة، وكان دوره أساسيا في اختيار أعضاء الحكومة، وبصفة خاصة وزيرا الدفاع والخزانة. ولم يكد بوش يتسلم مقاليد الأمور حتى أوكل إلى تشيني الإشراف على القضية الداخلية الأكثر إلحاحا، وهي أزمة الطاقة التي بدأت تلوح في الأفق، ويستشعرها المواطن الأمريكي. أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، فتكفي الإشارة إلى مانشرته مجلة النيوزويك مؤخرا من أن وزير الخارجية كولين باول اشترط على الرئيس بوش أن يكون المسئول الأول عن تصريف شئونها ، وذلك لتخوفه من هيمنة نائب الرئيس. ومع هذا فإن تشيني يترأس اجتماعات اللجنة المسئولة عن وضع توصيات السياسة الخارجية، وتضم نواب وزراء الدفاع والخارجية ومستشار الأمن القومي ، أى أنه يشرف على وضع التوصيات التي سيشارك بعد ذلك في قرار الأخذ بها. لذلك ليس من المستغرب أن يقول لويس ليبي رئيس هيئة موظفي نائب الرئيس، إنه عندما تطرح أى قضية . فإن السؤال الذى يتبادر لأى شخص في البيت الأبيض هو: كيف يفكر تشيني في هذا الأمر؟

ويزيد من أهمية دور تشيني ، أنه بحكم منصبه يرأس مجلس الشيوخ ، وفي الظروف العادية يعد ذلك من المهام التشريفية لنائب الرئيس . لكن المجلس ينقسم الآن بالتساوى بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي (خمسون مقعدا لكل منهما) .. فإذا التزم كل عضو بالخط الحزبي في عملية التصويت، يكون نائب الرئيس هو صاحب الصوت الفاصل لصالح أى منهما. لذلك يتوقع أن يمضي تشيني وقتا غير قليل في الكونجرس.

إلا أن دور ومكانة نائب الرئيس لا تتمثل فقط في عدد اللجان التي يرأسها ، أو المهام التي يشرف على تنفيذها. فقوته الفعلية تأتي من حقيقة أنه - بشكل أو بآخر - يعوض جوانب النقص في شخصية الرئيس بوش

نائب الرئيس
عمره الآن ستون عاما،
وسبقت إصابته بأربع نوبات
قلبية . كان آخرها في شهر
نوفمبر الماضي بعد الانتخابات.
وهو بهذه المواصفات ليست
لديه طموحات شخصية
لترشيح نفسه
للرئاسة



وأهمها خبرته المحدودة. فقد تولى الرئيس الأمريكي أول مناصبه العامة كحاكم لولاية تكساس منذ ست سنوات فقط، كما أنه يفتقر للعلاقات الشخصية الوثيقة مع شخصيات واشنطن المهمة، التي يحتاج إليها في تنفيذ برامجه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

وهنا يأتي ريتشارد تشيني بسجله الحافل. فقد شغل منصب رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض للرئيس الأسبق فورد، عام ١٩٧٥ بينما كان عمره لايتجاوز الرابعة والثلاثين. وكان العضو الوحيد في مجلس النواب عن ولاية وايومينج لمدى اثني عشر عاما، إلى أن اختاره الرئيس الأسبق بوش(الأب) عام تسعة وثمانين ليشغل منصب وزير الدفاع . حيث أشرف باقتدار على إدارة المجهود الحربي الأمريكي في عاصفة الصحراء ، رغم افتقاره للخلفية العسكرية.

وتمتد خبرة تشيني أيضا إلى مجال الأعمال، حيث ترأس شركة هاليبرتون (Hal-liburton) العملاقة لمعدات الطاقة والإنشاءات منذ عام ١٩٩٥ ، حتى استقالته منها في العام الماضي.

فهو إذن شخصية متعددة الجوانب، وتشمل خبرته العملية المجالات التنفيذية والتشريعية وقطاع الأعمال. وقد سمح له ذلك بتوثيق علاقاته مع أصحاب النفوذ بواشنطن، من أمثال زعيم الأغلبية الجمهورية بمجلس الشيوخ ترنت لوت ، ورئيس مجلس النواب دينيس هاسترت ، ورئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي آلان جرينسبان، صاحب السطوة في تشكيل السياسات الاقتصادية والنقدية.

ومن المدهش أن أضعف الجوانب في ريتشارد تشيني أصبح يحسب لصالحه، وتحول إلى ميزة سمحت له بالاستحواذ على ثقة الرئيس بوش. فنائب الرئيس عمره الآن ستون عاما، وسبقت إصابته بأربع نوبات قلبية ، كان آخرها في شهر نوفمبر الماضي بعد الانتخابات. وهو بهذه المواصفات ليست لديه طموحات شخصية لترشيح نفسه للرئاسة بعد ثماني سنوات، على اعتبار أن بوش سيكون هو المرشح الجمهوري في الانتخابات القادمة. هذه الأمور كلها تنفي عن تشيني شبهة عدم الولاء لبوش، كما تمنع التشكيك في وجود دوافع خفية لمواقفه. وقد انعكس ذلك الوضع على الموظفين العاملين لدى نائب الرئيس ، حيث اختلطوا بسهولة مع موظفي البيت الأبيض ،ولم تظهر بينهم المشاكل والمنافسات التقليدية التي تشوب العلاقات بين موظفي الرئيس ونائبه. بل إن خبيرة سياسية مثل مارى ماتلين ، تعمل كمستشاره للرئيس ونائب الرئيس في نفس الوقت.

ويميل تشيني عادة إلى العمل من خلف الستار، وهو بشخصيته الهادئة والمتحفظة لايبدو مرتاحا أو منتشيا بتركيز الأضواء عليه . وكان الرئيس الأسبق فورد قد تحدث عن خبرته مع تشيني الذي عمل لديه كرئيس لهيئة موظفي البيت

الأبيض. فأشاد كثيرا بدأبه واجتهاده، إلا أن مايلفت النظر حقا هو قوله: إن تشيني لم يكن يفعل ذلك لكي تنشر صورته أو اسمه في الصحف.

ومن الحكايات الطريفة التي تروى عن نائب الرئيس أنه عندما زار موسكو في الثمانينيات، أمضى بعض وقت فراغه في الإجابة عن بعض الأسئلة النفسية التي تحدد له طبيعة الوظيفة التي تناسب شخصيته، وكانت النتيجة هي: مدير مراسم الجنازات. هذه المواصفات الشخصية أثارت شكوك البعض في البداية حول مدى صواب ترشيحه لمنصب نائب الرئيس، في عصر التليفزيون. حيث كان يبدو فاترا، عزوفا، وغير قادر على التفاعل مع الجماهير أثناء الحملة الانتخابية. لكن الانتخابات انتهت، ومايبدو من تشيني الآن هو الجانب القوى من شخصيته، بخبرته العريضة، وقدرته الإدارية المشهود لها، واستيعابه الدقيق لتفاصيل القضايا المطروحة. لذلك لم يكن غريبا أن يصعد نجمه مؤخرا، وأن تركز عليه الأضواء بشكل جعله يطغى أحيانا على الرئيس بوش شخصيا.

هذه العلاقة المقلوبة أصبحت بدورها مادة جذابة لبعض البرامج الكوميدية في التليفزيون الأمريكي. وفي أحد هذه البرامج ظهر ممثل متخصص في تقليد بوش، وهو يشكو متباكيا من صعوبة العمل مع رئيسه العنيف ديك تشيني. وعندما سئل الرئيس بوش عن ذلك لم يجب بشيء، وضحك بطريقة تنم عن عدم ارتياحه. أما المعلقون السياسيون فقد رددوا كثيرا أن تشيني حول النظام الرئاسي الأمريكي إلى مايشبه النظام البرلماني، حيث يمارس هو مهام رئيس الوزراء صاحب السلطة الفعلية، بينما يكتفي الرئيس (بوش) بالمهام التشريفية باعتباره رمزا للدولة. ورغم انتشار هذه المقولة مؤخرا، إلا أنني أعتقد أن بها قدرا كبيرا من المبالغة والظلم للرجلين، وأميل أكثر للأخذ بالتشبيه الذي نشرته صحيفة الواشنطن بوست نقلا عن بعض أصدقاء تشيني والعاملين معه.. وهو أن بوش يعمل مثل رئيس مجلس إدارة المؤسسة الاقتصادية الذي يضع الأهداف العامة ويتخذ القرارات النهائية، بينما يتولى تشيني منصب المدير التنفيذي، الذي يشرف على تحقيق هذه الأهداف وتنفيذ هذه القرارات. مع الاعتراف بأن تشيني يشارك أيضا في تحديد الأهداف واتخاذ القرارات. وهذا الوصف يتفق كثيرا مع طبيعة شخصية الرجلين، فبوش يكتفي عادة باستعراض الخطوط العريضة للقضايا المطروحة، بينما عرف عن تشيني اهتمامه الشديد بالتفاصيل الدقيقة. وهو مايجعل كلا منهما يكمل الآخر.

ويقول العاملون مع تشيني إنه في إدارته «لمؤسسة الرئاسة» سيتبع أسلوبه البراجماتي الذي تميز به، فهو لا يعبأ بالوسائل قدر اهتمامه بالنتائج، بما قد يجعله ميكيافيليا. كما أنه يفرض أسلوب التسلسل القيادي بشكل صارم، يخلو من العواطف أو المشاعر الشخصية. فهو لا ينظر إلى فريق العاملين معه باعتبارهم أسرة، ولكن كمجموعة من الزملاء، تحكمهم الدقة في الأداء، والسعي معا لتحقيق الأهداف المطلوبة، وبالتالي فالخطأ أو الفشل هو آخر مايتمناه شخص يعمل مع تشيني. وقد رأى العالم لمحة من ذلك أثناء فترة الإعداد لحرب الخليج الثانية. فلم يتردد تشيني، الذي كان وقتها وزيرا للدفاع، في إقالة رئيس أركان القوات الجوية الجنرال مايكل دوجان (Dugan) لأنه تحدث للصحفيين عن بعض أهداف العمليات الجوية لقوات التحالف ضد العراق. غير أن تلك الصرامة الإدارية، تواكبها مرونة أيديولوجية ملحوظة في مواقفه، رغم أن سجله التشريعي في مجلس النواب يضعه على يمين التيار المحافظ في الحزب الجمهوري.

وتبدو تلك النزعة البراجماتية لتشيني في موقفه من فرض العقوبات الاقتصادية ضد إيران، فقد انتقدها كثيرا عندما كان رئيسا لشركة هاليبرتون، التي سال لعابها لعقد بعض الصفقات التجارية مع آيات الله. أما الآن فإنه كنائب للرئيس يؤيد موقف بوش باستمرار تلك العقوبات. ومن المنتظر أن يحكم ذلك الأسلوب مواقف تشيني بشأن القضايا الداخلية والخارجية، بما فيها قضية الشرق الأوسط. فهو يميل للتوازن، وإجراء الحسابات الهادئة والباردة لمجموعة العوامل المؤثرة في أي موقف.

أيا ماكان الأمر فسيظل من المثير متابعة ديناميكية العلاقة بين الثلاثة الكبار: تشيني، كولين باول، ودونالد رمسفيلد (وزير الدفاع)، وما إذا كانت مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس سيكون لها صوت عندما يجتمع ثلاثتهم في نفس الحجرة.

أما الرئيس جورج بوش فسوف نرى إن كان سيستطيع جمعهم معا، أم أنهم سيمزقونه فيما بينهم ■

يقول العاملون مع تشيني
إنه في إدارته «لمؤسسة الرئاسة»
سيتبع أسلوبه البراجماتي الذي تميز به، فهو
لا يعبأ بالوسائل قدر اهتمامه بالنتائج، بما قد
يجعله ميكيافيليا. كما أنه يفرض أسلوب
التسلسل القيادي بشكل صارم

جرينسبان: المايسترو

■ كانت انظار العالم تتجه نحو قصر حاكم ولاية أركنصو بمدينة ليتل روك، في تلك الأيام الأولى من شهر ديسمبر عام اثنين وتسعين، حيث يقوم الرئيس المنتخب بيل كلينتون بتشكيل حكومته الجديدة استعدادا لتولي السلطة في واشنطن بعد أسابيع قليلة.

كان الأعضاء البارزون في الحزب الديمقراطي يأتون ويذهبون، سعيا للحصول على منصب ما في الإدارة الجديدة. ولكن في الثالث من شهر ديسمبر جاء إلى القصر شخص أمضى أغلب سني حياته منتميا للحزب الجمهوري، إنه آلان جرينسبان، رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي.

كان كلينتون يريد التقرب من تلك الشخصية القوية، على رأس البنك المركزي الأمريكي، الذي يحظى باستقلالية في إدارة أموره. كما أن جرينسبان نفسه كان مصرا على أن تربطه علاقة جيدة مع الرئيس الجديد. لذلك فإنه سارع بالاستجابة لدعوة كلينتون، وقدم من واشنطن على متن طائرة تجارية في رحلة استغرقت خمس ساعات. لم تكن هيئة الرجل تدعو للانشراح، بوجهه المتجهم ونظارته السميكة والانحناءة البسيطة في ظهره. لكنه سرعان ماأخذ بشخصية الرئيس الجديد وقدرته على التناول العميق للقضايا.

كان جرينسبان يبلغ السادسة والستين من عمره في ذلك الوقت. أمضى منها خمس سنوات في رئاسة الاحتياطي الفيدرالي، بعد أن اختاره الرئيس الأسبق رونالد ريجان لهذا المنصب عام ١٩٨٧. وقد أعاد الرئيس جورج بوش (الأب) تعيينه عام ١٩٩١، رغم كثرة النزاع بينه وبين المستشارين الاقتصاديين لبوش. وكان جرينسبان يريد أن يتحدث مع كلينتون عن حالة الاقتصاد الأمريكي، الذي كان لايزال يعاني من الآثار طويلة المدى للتضخم الذي تجاوز العشرة في المائة في أواخر السبعينيات، وماصحبه من عجز متزايد في الميزانية أثناء حكم ريجان، بسبب الفجوة بين نفقات الحكومة، ودخلها من الضرائب. كانت المؤشرات تدل على أن الاقتصاد بدأ يتحسن وينهض من حالة الكساد البسيطة التي عاني منها، لكنه أيضا معرض لخطر الانهيار. أما روشتة العلاج لدى جرينسبان فكانت: إنهاء العجز في الميزانية. وأوضح رؤيته للرئيس المنتخب بأن يشمل العلاج تخفيض معدلات الفائدة على القروض طويلة المدى، لزيادة الإنفاق الاستهلاكي بما يساعد على توسيع الأنشطة الاقتصادية.

وكانت النتيجة أن حقق الاقتصاد في عهد كلينتون أطول فترة نمو وازدهار في التاريخ الأمريكي، مع أقل نسبة للبطالة منذ عقود، ودون انفلات معدل التضخم. والآن.. بعد ثماني سنوات، يتولى جورج دبليو بوش (الابن) الرئاسة، بينما نحن لا نزال نعيش في «عصر جرينسبان».

غير أن هذه الإنجازات تتعرض الآن للخطر. والقرار الأخير لبنك الاحتياطي الفيدرالي بتخفيض معدلات الفائدة كان اعترافا بأن المنحنى الصاعد للاقتصاد الأمريكي، بدأ يسير في اتجاه عكسي، مع تزايد القلق من أن محاولات الهبوط التدريجي يمكن أن تفلت وتؤدي إلى حدوث ارتطام مدمر.

وهنا يلتفت العالم كله باهتمام إلى جرينسبان، ليرى ما إذا كان سيتمكن من تفادي الكساد الذي سيؤثر بشكل هائل على الاقتصاد العالمي أم لا.

إذن.. من هو هذا الرجل؟

ولد جرينسبان عام ١٩٢٦ في مدينة نيويورك، وكان الطفل الوحيد لأبوين يهوديين، انفصلا عندما كان في الثالثة من عمره، وعاش مع والدته (روز) شمال منطقة مانهاتن، وعمل في محل لبيع المفروشات. واتجه للعبة البيسبول التي أجاد حساباتها، وكان يتمنى أن يصبح لاعبا. وفي عام ١٩٣٥ ألف والده (هربرت) -الذي علم نفسه بنفسه، وكان يعمل كمحلل للأسواق المالية - ألف كتابا تنبأ فيه بتحسن الأوضاع الاقتصادية في العام التالي، وهو ماتحقق بالفعل عام ١٩٣٦، إلا أن السوق عادت للانهيار عام ١٩٣٧. وفي هذا الكتاب كان الإهداء لابنه، متمنيا أن يكمل ما بدأه الأب. وحمل آلان رسالة والده، لكنه تعلم منها شيئا آخر: هو إضفاء الغموض على الكلمات، فهو يمكنه الحديث الآن بعبارات طويلة، لكنه يستطيع عند الضرورة أن يجد مخرجا من كل كلمة نطق بها.

كان جرينسبان متواضع المستوى كطالب في أغلب المواد الدراسية باستثناء الرياضيات التي عشقها. وحاول دراسة الموسيقى، وانضم لإحدى فرق نيويورك حيث كان يعزف الساكسفون وأحيانا الكلارينيت أو الفلوت. لكنه كان يفتقد القدرة على الإبداع، لذلك فشل أيضا في محاولة التأليف الموسيقي. لكنه أعاد اكتشاف مهارته مع الأرقام، واتجه لدراسة الاقتصاد في جامعة نيويورك، ثم أكمل الماجستير والدكتوراه بجامعة كولومبيا، حيث عرف بمهارته التكنيكية، وبتشكيكه في إمكانية معرفة شيء على وجه اليقين.

وقد ساعدته مهارته على العمل كمستشار في أكبر المؤسسات الاقتصادية الأمريكية، إلى أن عينه الرئيس ريتشارد نيكسون كرئيس لمجلس المستشارين الاقتصاديين، واستمر في منصبه هذا بعد استقالة نيكسون، وتولى جيرالد فورد

إذا كان النجاح له أكثر
من أب، فليس مستغربًا أن
يزعم كثيرون أن لهم الفضل
فيما حققه الاقتصاد الأمريكى
من ازدهار، لكن شخصًا واحدًا لا
ينازعه أحد دوره المحورى فى تلك
المعجزة، إنه جرينسبان رئيس
بنك الاحتياطى الفيدرالى
(البنك المركزى الأمريكى)

وقواعــــد اللعبـــة

الرئاسة عام ١٩٧٤، وتمكن جرينسبان من توثيق علاقته مع الرئيس الجديد على المستويين الشخصي والعملي، بشكل أثار حفيظة بعض مسئولي البيت الأبيض، الذين رأوا فيه شخصية تآمرية. لكنه تمكن أيضا من توثيق علاقاته مع العديد من الشخصيات السياسية المهمة بواشنطن، وأثبتت تلك العلاقات قيمتها بعد عقد من الزمان، حين تم تعيينه كرئيس لبنك الاحتياطي الفيدرالي عام ١٩٨٧، لكنه لم يلبث أن واجه أول اختبار عسير له.

ففي يوم الاثنين ١٩ أكتوبر من نفس العام، كان جرينسبان متجها من واشنطن إلى تكساس لإلقاء كلمة أمام جمعية رجال البنوك في اليوم التالي. كانت حركة الاقتصاد متسارعة، مما أدى إلى ارتفاع مؤشرات الأسواق المالية على مدى أسابيع بشكل لايمكن استمراره. ومع إقلاع طائرة جرينسبان صباح ذلك اليوم كانت الهواجس تنذر بيوم عصيب في الأسواق المالية. وعندما هبطت الطائرة في تكساس، اكتشفت أن السوق خسرت ٥٠٨ نقاط، وأغلقت بخسارة تصل إلى تريليون (ألف مليار) دولار، أى نحو ٢٢,٦٪ من قيمتها، وهو رقم قياسي لم يحدث من قبل.

أدرك جرينسبان على الفور حجم الكارثة التي دمرت جزءا هائلا من ثروة البلاد، وتلقى مكالمة من جيرالد كوريجان رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي بنيويورك، يخبره فيها بأن شركات وول ستريت في حاجة ماسة لاعتمادات مالية تغطي بها خسائرها الفادحة، وقال له مشفقا: إن المسئولية كلها تقع الآن على عاتقك.

كان جرينسبان يعرف جيدا كيف تعمل تلك المؤسسات المالية، وأن أى خطأ أو مجرد تأخير في دفع المستحقات أثناء وجود مثل هذه الأزمة، سيثير ردود أفعال قد تؤدي إلى تجمد النظام أو حتى انفجاره. لكنه قال لنفسه: الآن سوف أعرف من أي معدن أنا.

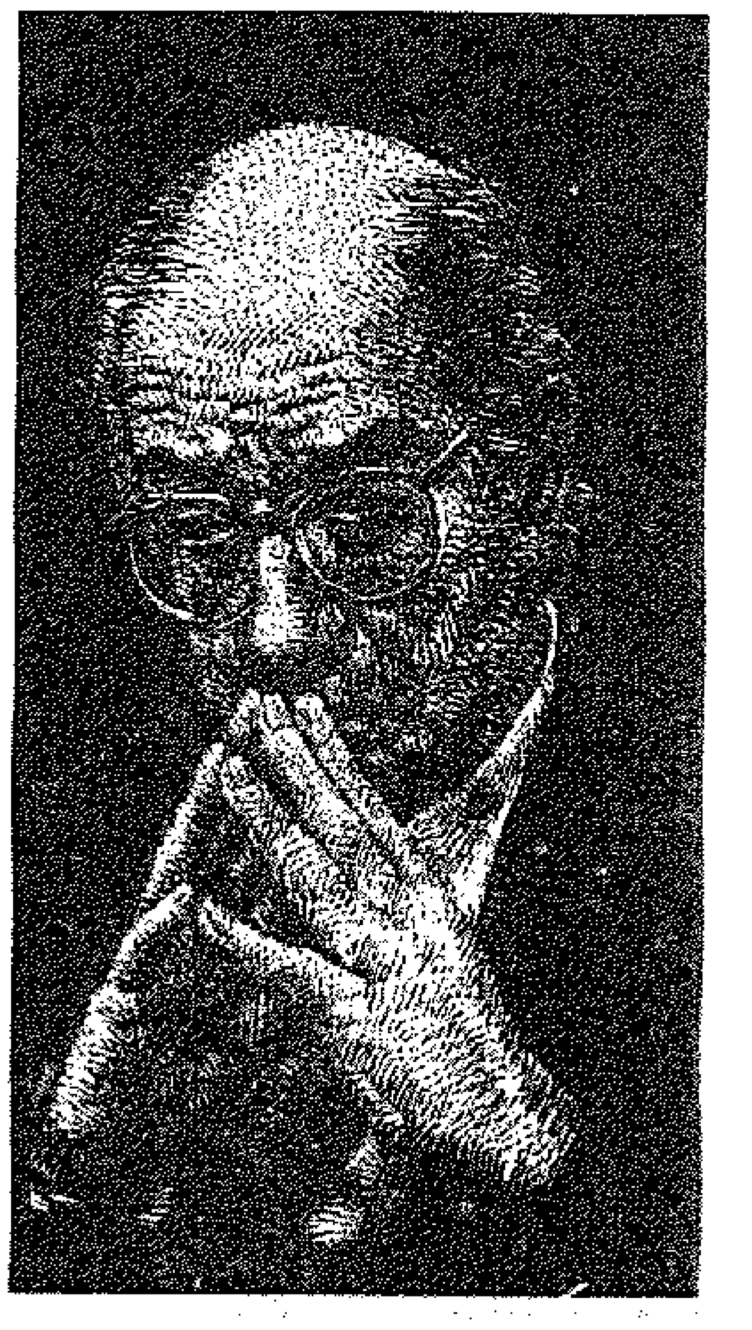
كان السؤال الأول: هل سيتمكن من النوم؟



ولدهشته نام في الفندق خمس ساعات، إلى أن استيقظ على رنين التليفون وكان المتحدث هوارد بيكر رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض، يدعوه بانزعاج للعودة فورا إلى واشنطن. لكن جرينسبان أراد الاستمرار في تكساس حتى تبدو الأمور طبيعية. وكان السؤال الملح الذي يواجهه هو: من الذي سيقدم الاعتمادات أو الأموال للمؤسسات التي تحتاج إليها. وبنك الاحتياطي الفيدرالي يعطي عادة مئات الملايين من الدولارات في شكل قروض روتينية لليلة واحدة، ولكن الآن ماهي حدود ماسيعطيه البنك؟ وإذا ما فتح مجال الإقراض، هل سيؤدي ذلك إلى ضغوط غير محتملة عليه؟

وتشاور جرينسبان مع مساعديه، ثم أصدر بيانا من جملة واحدة يقول فيه: «إن بنك الاحتياطي الفيدرالي، عملا بمسئوليته كبنك مركزي للبلاد، يؤكد اليوم استعداده لأن يكون مصدرا للسيولة، من أجل دعم النظام المالي والاقتصادي». وفي طريق عودته إلى واشنطن استعرض جرينسبان كل خياراته. كان مستعدا لعقد صفقات غير قانونية إذا اقتضى الأمر لإنقاذ الموقف، وأن يقدم قروضا للمؤسسات التي تحتاج إليها على أن تنفذ مايريده منها الاحتياطي الفيدرالي.

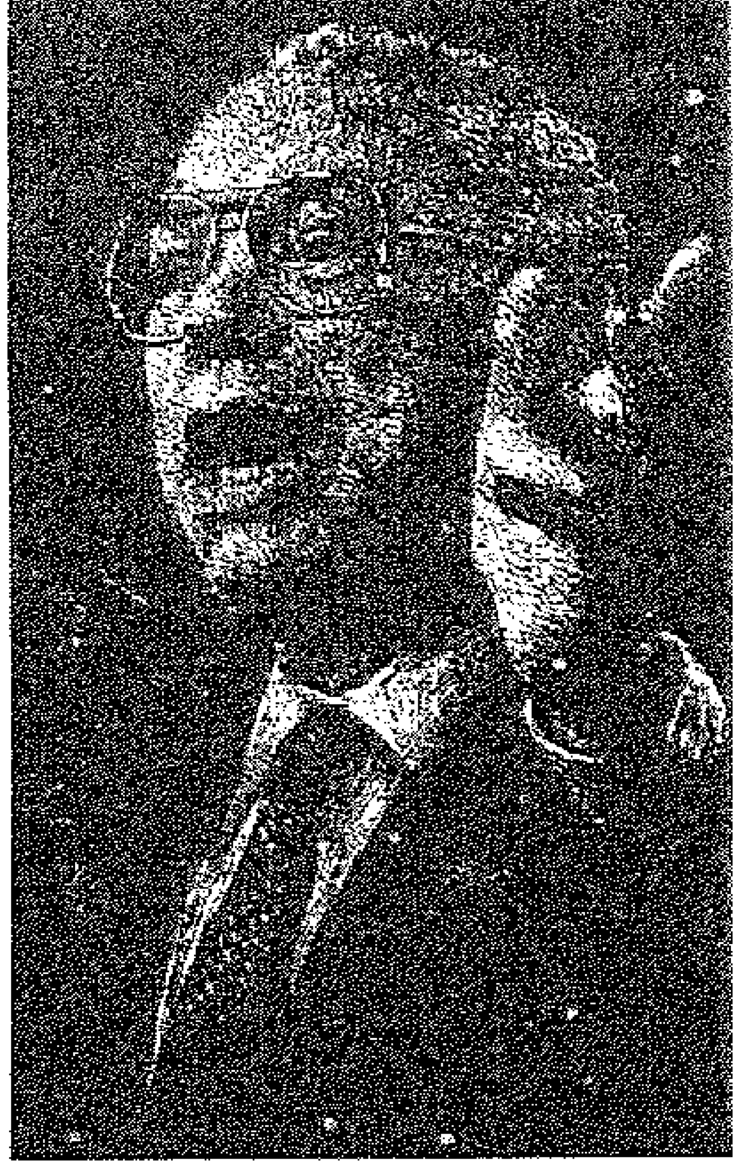
في الحادية عشرة والنصف صباحا، توقفت حركة البيع والشراء لسهم شركة آي بي إم للكمبيوتر، وتبعته عشرات الشركات الأخرى. وبدا المسئولون في الأسواق المالية بنيويورك وشيكاجو يصرخون هلعا أمام انهيار الأسواق، بينما هم عاجزون عن عمل شيء. في هذه الأثناء كان يأتيهم صوت جرينسبان هادئا يدعوهم لعدم الانزعاج، بينما كان يخطط سرا لتقديم ضمانات للتعاملات المالية لشركات السمسرة في تلك الأسواق، كملجأ أخير، لعلمه أن تلك الشركات والبنوك يمكن أن تستخدم هذه الضمانات بدلا من أموالها. وفي الثانية عشرة والنصف، ظهرت أولى العلامات المشجعة، حيث دخلت مجموعة من الشركات الكبرى لشراء بعض أسهمها بأسعارها المنخفضة، مما أعطى رسالة ثقة للمتعاملين. وفي خلال نصف الساعة سجلت بعض المؤشرات أعلى نسبة ارتفاع لها في التاريخ، وأغلق مؤشر داو جونز يومها بارتفاع ١٠٢ نقطة.



وعندما يتذكر هوارد بيكر تلك الأيام العصيبة، فإنه يؤكد أن العامل الحاسم في إنقاذ الموقف كان بيان الجملة الواحدة، الذي أصدره جرينسبان، فلم يكن هناك ما يعوضه من إجراءات يقوم بها الرئيس أو الكونجرس أو أي جهة أخرى. إن أحدا لايعرف حتى الآن حقيقة ما حدث في تلك الأيام، فربما كانت نوعا من المضاربات غير المشروعة، أو معاملات قام بها أصحابها بناء على معرفة وتخطيط، أو جهل ويأس، أو ربما كان هذا هو القاع الذي هبطت إليه السوق، ثم نهضت منه مرة أخرى بشكل تلقائي.

أيا كانت الأسباب فإن ما أدركه جرينسبان هو أنه لم تكن لديهم معرفة بما يمكنهم عمله. فهناك مساحة غامضة بين الأسواق الحرة للرأسمالية، وبين النظم الحكومية، تمثل أرضا مجهولة. وكان هذا هو الدرس الأول الذي تعلمه جرينسبان، ولم يكن مضى عليه في رئاسة بنك الاحتياطي الفيدرالي أكثر من ٧٢ يوما.

باول: جنرال في ثياب مدنية



يروق للكثيرين أن يشبهوا كولين باول، والذى حقق شعبية كبيرة بعد الانتصار في حرب الخليج بالرئيس الأسبق دوايت أيزنهاور الذى بنى أحلامه السياسية على إنجازه الرائع في قيادة قوات الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية

عندما كان كولين باول ضابطا صاعدا في الجيش الأمريكي، سئل أحد زملائه الضباط عما إذا كان لون بشرة باول الأسود سوف يساعده، أم سيكون عقبة في طريقه؟ فأجاب: إن باول سيحقق النجاح حتى لو كان لونه أخضر!! ومرت السنوات وأصبح كولين باول نائبا لوزير الدفاع، ثم نائبا، فمستشارا لشئون الأمن القومي، ليتولى بعد ذلك رئاسة هيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية، ثم كان قرار تعيينه مؤخرا كوزير الخارجية ليكون بذلك أول أسود يشغل هذا المنصب.

ويروق للكثيرين أن يشبهوا كولين باول، والذى حقق شعبية كبيرة بعد الانتصار في حرب الخليج بالرئيس الأسبق دوايت أيزنهاور الذى بنى أحلامه السياسية على إنجازه الرائع في قيادة قوات الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، إلا أن باول في الواقع لم يشأ ترشيح نفسه للرئاسة، لأسباب ربما تتعلق باستعداده الشخصي والأسري، أو ربما كذلك - حسب رأى البعض - علمه بصعوبة الحصول على ترشيح الحزب الجمهوري له للرئاسة، نظرا لأفكاره الليبرالية الواضحة في حزب يشكل فيه المحافظون قوة أساسية. كما كان قد رفض عرضا من المرشح الجمهوري والرئيس الحالي بوش، ليرشح نفسه معه كنائب للرئيس، وذلك قبل أن يقبل دخوله إدارة بوش الجديدة كوزير للخارجية.

ورغم أن الحديث عن اللون والأصول العرقية يعد شائعا في بلد لايعترف كثيرا بالأصول العائلية، إلا أن قضية اللون بالنسبة لباول لم تحظ بتركيز كبير، ربما لانتمائه للحزب الجمهوري في مجتمع لايزال ينظر إلى الحزب الديمقراطي باعتباره المكان الطبيعي للملونين.

وتركز الجدل بدلا من ذلك، وكما كان متوقعا، على آراء باول السياسية، وانعكاساتها على أدائه كمسئول عن رسم السياسة الخارجية الأمريكية. وبات واضحا أن الجدل الذي أحاط بأفكار الجنرال القديم وأسلوبه في العمل طوال سنوات خدمته الطويلة في مواقع متعددة، لم ينته بعد. بل لعله صار أكثر سخونة. خاصة فيما يتعلق بما عرف بـ «مبدأ باول» في استخدام القوة، والذي يقول بعدم التدخل العسكري إلا للدفاع عن مصالح حيوية، على أن يكون الاستعداد كاملا، والتدخل حاسما، والنصر ساحقا.

وفي حين يتفق الكثيرون في الرأي مع التحفظات التي يثيرها المحلل السياسي **لورنس كابلان** في مقال أخير نشرته له مجلة (New Republic) ننشر ترجمة له بجانب هذا المقال، فإن هناك من لا ينفي شعوره بالارتياح للتحفظ المتوقع من الإدارة الجديدة في استخدام القوة العسكرية، حيث تضاعفت مهام القوات الأمريكية خلال السنوات الماضية بينما لم يواكب ذلك زيادة مشابهة في الموارد المخصصة لها.

ورغم أن هناك تفاؤلا لدى البعض بأن يساعد «مبدأ باول» على تصحيح هذا الوضع، إلا أن الواضح أن التزام الإدارة الجديدة به حرفيا، سوف يقيد - بدون شك - من حريتها في الحركة، كما أنه سيحد من الخيارات المطروحة أمامها في استخدام أدوات السياسة الخارجية. كما أننا لايمكن أن نتجاهل مانسبته صحيفة الواشنطن بوست أخيرا لمسئول في الخارجية الأمريكية لم تذكر اسمه، من: «إن مبدأ باول لم يعد مناسبا.. وهو قد يغير رأيه بعد توليه منصبه الجديد». وكانت وزيرة الخارجية السابقة مادلين أولبرايت قد «تعمدت» الإشارة إلى خطأ «مبدأ باول» قبل أن تترك منصبها بأيام، حيث ذكرت أن نجاح العمليات العسكرية في البلقان يؤكد «إمكانية استخدام القوة» بشكل محدود، لتحقيق أهداف معينة في بعض المناطق من العالم.

وربما لا يحتاج باول إلى من يذكره برأي أولبرايت هذا، فكثيرا ما وقعت المواجهات بينهما عندما كانت أولبرايت سفيرة لدى الأمم المتحدة، وكانت

ثلاثة رجال وامرأة

تتزعم جهود المدنيين في إدارة كلينتون المؤيدين للتدخل العسكرى في البوسنة، وقد صرخت فيه مرة متسائلة : ماهي فائدة القوة العسكرية إذا لم تستخدم في مثل هذه المواقف؟

أيا ما كان الأمر فإن السؤال الحقيقي هو: هل سيظل باول وفيا لمبدئه هذا؟ وإلى أى مدى؟

الحقيقة أن من شاركني جلسات الاستماع في مجلس الشيوخ للتصديق على تعيين باول كوزير للخارجية، لاحظ، كمالاحظت أنه أبدى بالفعل استعدادا لتغيير بعض آرائه السابقة بشأن عدد من القضايا. فهو الآن يتحدث عن إحياء نظام العقوبات ضد العراق ، بينما كان من قبل يشكك في جدواها. كما ذكر أنه يؤيد استمرار فرض الحصار على كوبا، بعكس مواقفه التقليدية السابقة. كما أنه أيضا أكثر حماسا الآن لنشر أنظمة الصواريخ الدفاعية. فضلاً عن أنه ضد معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية.

وكلها مواقف جديدة عليه ، وتجعله أكثر انسجاما مع سياسات الإدارة الجديدة، كما أنها تنفي إلى حد ما مقولة كابلان من أنه «سيفرض آراءه في رسم السياسة الخارجية الأمريكية».

كابلان أشار أيضا إلى تحدى باول لريتشارد تشيني في اختيار من يشغل منصب وزير الدفاع ، وهذا حقيقي ، فقد سعى باول بقوة لتعيين صديقه حاكم ولاية بنسلفانيا توم ريدج في هذا المنصب. كذلك فإن دان كوتس الذى كان يتصدر المرشحين لرئاسة البنتاجون سأل بوش صراحة عما إذا كان سيتحول إلى مجرد ديكور ، أمام الهيمنة المتوقعة لكولين باول.

لكن إذا كانت العبرة بالنهاية، فإن ريدج لم يتم تعيينه، وتغلب رأى نائب الرئيس ديك تشيني حيث وقع الاختيار على دونالد رمزفيلد، بكل بتاريخه الحافل، ليشغل هذا المنصب. وهناك اتفاق على أن حكومة بها تشيني ورمزفيلد لايمكن أن تنقاد لرغبات شخص واحد، مهما كانت شعبيته أو مايملكه من كاريزما.

أما القول بأن خلفية باول العسكرية ستحكم تفكيره في الخارجية، فهذا ممكن ولكن ليس بدون حدود. فخبرة باول في واشنطن شغلت أغلب سنوات عمله في الجيش الأمريكي، كما أنه سبق له العمل كنائب وكمستشار لشئون الأمن القومي في عهد الرئيس الأسبق رونالد ريجان، وهو

رجل الماضي .. سياسة باول الخارجية

عندما كان كولين باول رئيسا لهيئة الأركان المشتركة للقوات المسلحة الأمريكية، كان يحتفظ في مكتبه في البنتاجون بحكمة للفيلسوف الإغريقي ثوسيديديز Thucydidezتقول: «إن ضبط النفس هو أكثر مظاهر القوة تأثيرا في الرجال».

وقد أصبحت هذه العبارة بالفعل شعارا للفريق المحيط بالرئيس بوش، في اختلاف جوهرى مع أسلوب إدارة الرئيس السابق كلينتون التى نشطت في استخدام القوة العسكرية بشكل عشوائي.

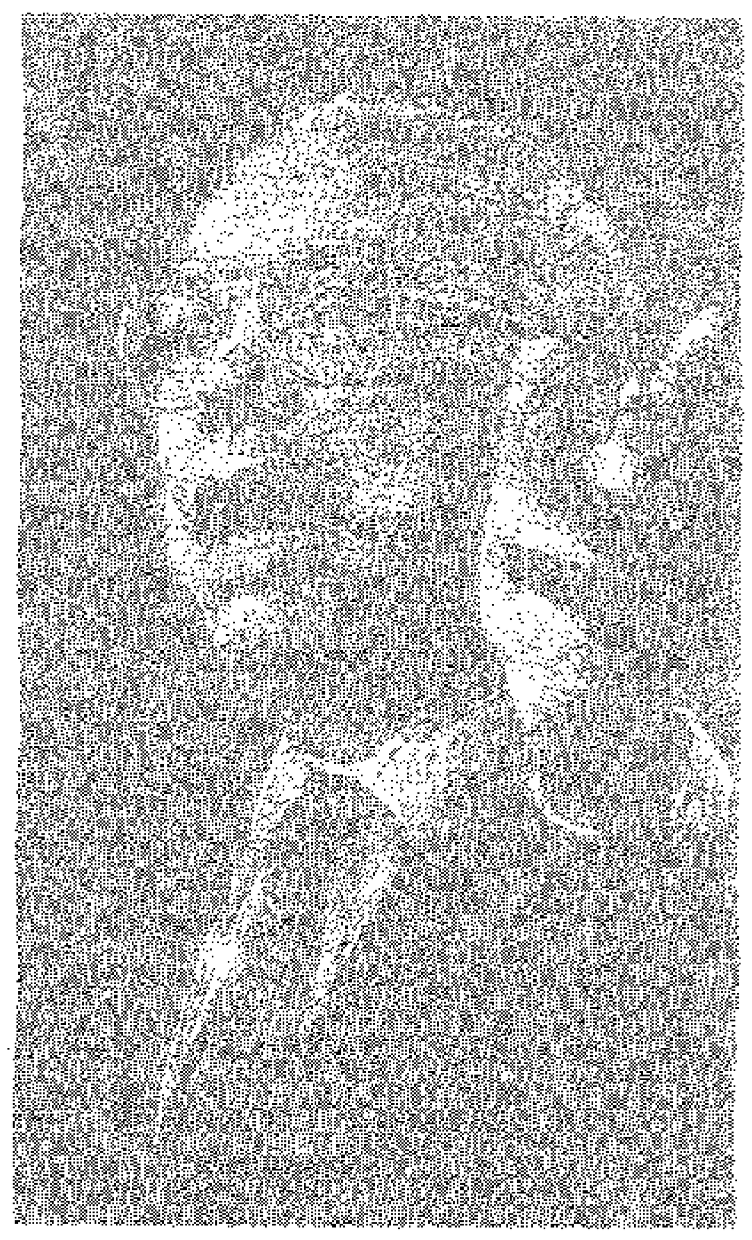
وكولين باول هو تجسيد لهذه العبارة، أما رأيه في القوة العسكرية فهو ببساطة: لاتستخدمها. وهو يفسر ضبط النفس بأنه نتيجة خلفيته كجندى يعرف حجم الخسائر البشرية للحرب، غير أن آراءه هي محصلة لتجربة حرب فيتنام التى تركت بصماتها على جيل كامل من العسكريين، وأصبحت لديهم - كما يقول الخبير الاستراتيجي إليوت كوهين - رمزا للكوارث التى تنجم عن تطفل المدنيين ، ورعونة العسكريين. ويشرح كولين باول ذلك في سيرته الذاتية قائلا: « إن كثيرا من أبناء جيلى من الضباط الذين شاركوا في حرب فيتنام، تعهدوا بأنه عندما يحين دورنا في القيادة واتخاذ القرارات، الايقبلوا صامتين بدخول الحرب، باستعدادات غير كاملة، أو مبررات غير مقنعة، ولا يفهمها الشعب الأمريكي».

ومن هذه العبارة يمكننا أن نستكشف ثلاثة أشياء تشكل في مجملها رؤية كولين باول للعالم: أولا: أن العسكريين يجب ألا يذعنوا صامتين لقرارات رؤسائهم المدنيين بشأن استخدام القوة. ثانيا:الإصرار على أن أى عملية عسكرية محتملة يجب أن تتوافر لها القوة الساحقة، وإلا لاتشن الحرب على الإطلاق. وهذا ما أصبح يعرف «بمبدأ باول». غير أن هذا المبدأ لايتوقف عند كيفية شن الحرب، بل يمتد ليشمل العنصر الثالث وهو: متى نخوض الحرب. فمن وجهة نظره أن الحرب يجب أن تكون لأسباب تتعلق « بالمصالح الحيوية» وليس بدون مبررات قوية ، مثل عمليات «بناء الدول» أو لأسباب إنسانية.

وهذا الكلام يبدو منطقيا ، لكنه لا يناسب العالم الذى تتعامل معه إدارة بوش، كما ثبت عدم جدواه في توضيح كيفية استخدام القوة في عصر مابعد الحرب الباردة. فلو كان كولين باول وزيرا للخارجية خلال السنوات الماضية ، لكانت الولايات المتحدة قد أغمضت عينيها عما قام به الصرب في البوسنة، والتطهير العرقى في كوسوفو، بل لكانت تجاهلت الغزو العراقى للكويت، حيث سبق لكولين باول أن عارض شن حرب«عاصفة الصحراء».

والمفارقة هنا هي أن مكانة باول كبطل قد تحققت له من أدائه أثناء حرب الخليج، ومن خلال المؤتمرات الصحفية، حيث تذكر له عبارته الشهيرة :«إننا سوف نقطع الإمدادات عن الجيش العراقى، ثم نقوم بالقضاء عليه». وهذا الكلام بدا غريبا لأنه جاء مناقضا لكل آرائه منذ بدء الأزمة العراقية. فقد تجاهل تقارير المخابرات عن إمكانية وقوع الغزو العراقى للكويت ، كما عارض إرسال قوة بحرية إلى المنطقة كإشارة إنذار للعراق لمنعه من الإقدام على عملية الغزو. بل حتى عندما وقع الغزو بالفعل قال باول: إننا لايمكننا أن نبرر خسارة الأرواح من أجل الكويت . وقد استمر موقفه على ذلك النحو بعد بدء العمليات العسكرية ، حيث ألح على إنهاء الحرب بعد يوم واحد من الهجوم البرى، وهو ما أمكنه تحقيقه بعد أربعة أيام، رغم أن الوحدات الأمريكية لم تكن قد أنهت حصارها للقوات العراقية. وقد عادت تلك القوات بعد ذلك لارتكاب المذابح ضد المدنيين الذين كانت الولايات المتحدة قد شجعتهم على الثورة ، إلا أن باول أصر ونجح في منع التدخل لوقف تلك الهجمات حيث كان من رأيه أن الإبقاء على نظام صدام حسين سيساعد على تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط . والنتيجة أننا بعد تسع سنوات، لانزال نعيش مع ثمار تلك الحكمة.

وبعد مايقرب من عام على انهيار المعارضة العراقية ، حدثت المجاعة في الصومال . ومرة أخرى تعثر كولين باول. فقد اعترض على الجزء الذى نجح من العملية وهو إرسال قوات أمريكية إلى الصومال في مهمة إنسانية واسعة النطاق. لكنه يتحمل قسطا كبيرا من المسئولية عن الفشل الذى حدث وأدى إلى مصرع ثمانية عشر جنديا أمريكيا. وقد زعم باول أمام إحدى لجان مجلس الشيوخ أنه تردد كثيرا في ارسال قوات عملية رانجرز (Rangers) التى حاولت اعتقال الجنرال الصومالي محمد فرح عيديد.



وهذا غير حقيقي . فقد ذكر وزير الدفاع الراحل ليس أسبن (Les Aspen) أنه تلقى مكالمة هاتفية من باول حثه فيها على إرسال قوات الكوماندوز لاعتقال عيديد. وهذا ماأكده أيضا الرئيس (السابق) كلينتون الذى نقل عن باول أنه قال له «يجب أن يقوم أحد باعتقال عيديد، ونحن الوحيدون الذين يملكون القدرة على ذلك». وتقاعد باول ، ثم فشلت العملية ، لكنه ترك أسبن يتحمل المسئولية بمفرده.

وفي البلقان، ارتكب باول خطأ جديدا في تقييمه الاستراتيجي. فقد اعترض على استخدام القوة ضد الصرب خشية توسع العمليات، وشكك في جدوى الضربات الجوية مؤكدا عدم وجود «مصالح حيوية» للولايات المتحدة في البلقان، وسايرته إدارة بوش(الأب) في ذلك. وعندما تولى الحكم الرئيس كلينتون اضطر مساعدوه للخضوع لرأى باول إدراكا منهم لمكانته، وكان على الولايات المتحدة أن تنتظر لحين تقاعده، قبل أن تضع حدا لعمليات القتل في البوسنة.

إن جاذبية «مبدأ باول» تكمن في بساطته. وكثيرا ما كان يردد أثناء الجدل بشأن البوسنة أنه «عندما يقول لى أحد إنها عمليات عسكرية محدودة، فهذا يعني أنه لايهمه ماإذا كنت قادرا، أم لا، على تحقيق الهدف»، غير أن الحرب المحدودة نجحت في البوسنة، وبعد ذلك في كوسوفو، في تحقيق النتيجة التى كان باول قد أعلن أنها غير ممكنة. لقد كان يفخر أثناء عمله في البنتاجون قائلا: «إننا كنا قادرين على إخضاع القرارات السياسية لما يمكننا عمله عسكريا» غير أن هذا قلب للأمور. فالأهداف السياسية هي التى ينبغي أن تحدد الوسائل العسكرية، ولكن عندما تقلب الأوضاع - كما حدث في حرب الخليج - فإن النتيجة يمكن أن تكون انتصارا عسكريا مبهرا من الناحية الشكلية، ولكن مصحوبا بهزيمة سياسية. وعلى النقيض من ذلك، فإن الانتصار

ماجعله « أكثر الجنـــرالات حنكة سياسيا منذ الرئيس الأسبق أيزنهاور» على حد تعبير الخبير الاستراتيجي إليوت كوهين.

وإذا كان مبدأ باول يتفادى استخدام القوة العسكرية ، فليس هناك بديل لها سوى استخدام الدبلوماسية ، وهذا هو التحدى الجديد لرئيس الأركان المشتركة السابق: فنجاح مهمته في الخارجية هو الضمان الوحيد لعدم إرسال زملائه القدامى لخوض معارك لايريدها.

إن القرن الماضي شهد تولى اثنين من العسكريين لشئون الخارجية الأمريكية : الأول هو جورج مارشال الذى نجح باقتدار ، وارتبط اسمه بالمشروع التاريخي لإعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية.

أما الثاني فهو الكساندر هيج الذى فشل في تحقيق التحول المطلوب ، والنمو خارج إطار تجربته العسكرية السابقة على حد تعبير المؤرخ العسكرى ريتشاردكون.

ترى إلى أى نموذج منهما سيتجه كولين باول؟

إن خبرته السياسية الطويلة ، وشخصيته الثرية متنوعة الأبعاد ، تجعلني أميل بقوة للقول: إنه سيتجه للنموذج الأول. ■

عفى عليها الزمن

العسكرى في البلقان بدا أقل إبهارا، لكنه حرك نسقا من الأحداث المتتابعة التي أدت إلى تخلص صربيا من سلوبودان ميلوسوفيتش، بينما لايزال صدام حسين يحكم في بغداد بعد مرور عقد من الزمان على حرب الخليج.

إن مبدأ باول لايصلح لمواجهة تلك النوعية من الصراعات في الصومال والبوسنة وكوسوفو، فهي صراعات غير تقليدية لاينفع معها أسلوب (مالا يدرك كله.. يترك كله) وتطبيق هذا المبدأ يعني أنه لن تكون هناك عمليات إنسانية، أو لحفظ السلام، أو هجمات جوية عقابية. ووزير الخارجية الجديد لايعترف بمفهوم «بناء الدولة» لأنه يذكره بحرب فيتنام، كما أن الحرب يجب أن ندخلها فقط بناء على حسابات باردة تتعلق بالمصالح الحيوية. غير أن تعريفه للمصالح الحيوية يشمل فقط الخطوط البحرية والقنوات، وآبار البترول ، وهو مايعني تخلى الولايات المتحدة عن دورها القيادى ، ومسئولياتها العالمية. كما أن بعض المشاكل ، مثل أزمة البوسنة ،كان يمكن أن تتفاقم سريعا لتهدد المصالح الحيوية الأمريكية واستقرار حلف الأطلسي.

وأخيرا فإن «واقعية باول» لم تعد تلائم المزاج الأمريكي العام، وتتجاهل تأثير تكنولوجيا المعلومات وعامل شبكة تليفزيون سي إن إن CNN حيث تؤدى صور الجوعى والتعذيب والمعاناة لخلق رأى عام يطالب بعمل شيء، وهو ما أجبر كولين باول نفسه على التدخل في الصومال. غير أن الخطر الحقيقي لايكمن فقط في أفكار باول الحمقاء، ولكن أيضا في عدم وجود من يمكنه معارضته.

صحيح أنه وبوش يقدمان رؤية متشابهة، إلا أنهما يختلفان بشأن قضايا رئيسية مثل معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، التي يعارضها بوش. كما أن باول يبدو أقل قلقا بشأن العراق من بوش وبعض المحيطين به، الذين تحدث عدد منهم عن فصل جزء من العراق.

وهنا تظهر صفة أخرى لباول: إنها تردده في قبول الرأى المخالف. فعندما اختلف مع معاوني الرئيس الأسبق بوش حول حشد القوات الأمريكية في الخليج، كان على وزير الدفاع ريتشارد تشيني أن يذكره أكثر من مرة - بدون جدوى - بأن يهتم فقط بالشئون العسكرية. وعندما جاء كلينتون، فإن باول - كما يقول الخبير الاستراتيجي إدوار لاتواك - Edward Luttwak فرض آراءه بازدراء على الرئيس الجديد، سواء في الميزانية العسكرية،أو رفض خدمة الشواذ جنسيا في الجيش ، أو العمليات العسكرية في البوسنة.

أما الآن.. فمن يمكنه أن يقف في طريق باول.. كوندوليزا رايس (مستشارة الأمن القومي)؟ إن باول يتجاوزها كثيرا في المكانة والمستوى الفكرى. ريتشارد تشيني؟ إن باول لم يكد يعين وزيرا للخارجية ، حتى بدأ يتحدى نائب الرئيس في اختيار شخصية وزير الدفاع.

ماذا إذن عن بوش نفسه؟ إن باول الذى جادل كثيرا في قرارات بوش الأب ، رغم خبرته الكبيرة في السياسة الخارجية ، ليس من المتوقع أن يهتم كثيرا بابنه الأقل معرفة.

ومن الغريب أن عائلة بوش التي تقدر الولاء كثيرا، يمكن أن تكافئ شخصا يفتقر إليه. لقد تم تعيين باول لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية وليس الخارجية، وهذه مشكلة كبيرة، فلن يمر وقت طويل قبل أن يتبين فريق المحيطين ببوش، ليس فقط أن باول لا يعمل طبقا لقواعدهم ، بل أيضا أن العالم لا يعمل طبقا لقواعده. ■

لورنس كابلان
بترتيب خاص من
New Republic Magazine»

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٢ـ في امتزاج الأصوات وتنافرها

اعلم يا أخى ، أيدك اللّه وإيّانا بروح منه ، أن أصوات الأوتار المتساوية الغلظ والطول والخرق إذا نُقرت نقرةً واحدة كانت متساويةً ، وإن كانت متساويةً في الطَول مختلفةً في الغلظ ، كانت أصوات الغليظ أغلظ وأصوات الدقيق أحدّ، وإن كانت متساويةً في الطول والغلظ ، مختلفةَ الخرق ، كانت أصوات المخروقة حادةً ، وأصوات المسترخية غليظة ، وإن كانت متساوية في الغلظ والطول والخرق ، مختلفة في النقر ، كان أشدها نقراً أعلاها صوتًا .

واعلم . . بأن الأصوات الحادة والغليظة متضادان . ولكن إذا كانت على نسبة تأليفية ائتلفت وامتزجت واتحدت ، وصارت لحنًا موزونًا ، واستلذتها المسامع ، وفرحت بها الأرواح ، وسُرَّت بها النفوس ، وإن كانت على غير النسبة تنافرت وتباينت ، ولم تأتلف ولم تستلذها المسامع ، بل تنفر عنها ، وتشمئزُّ منها النفوس ، وتكرهُها الأرواح . والأصوات الحادة حارةٌ تُسخِنُ مزاج أخلاط الكيموسات (كلمة يونانية ومعناها الطعام الذى يفرز بعد فعل المعدة) الغليظة وتلطفها والأصوات الغليظة باردة ترطب مزاج أخلاط الكيموسات الحارة اليابسة . والأصوات المعتدلة بين الحادة والغليظة تحفظ مزاج أخلاط الكيموس المعتدل على حالته كيلا يخرجَ عن الاعتدال . والأصوات العظيمة الهائلة غير المتناسبة إذا وردت على المسامع دفعة واحدة مفاجئة أفسدت المزاج وأخرجته عن الاعتدال وتحدث موت الفجأة ، ولها آلة صناعية كان اليونانيون يستعملونها عند الحروب ، ويُفزعون بها نفوس الأعداء ويسُدُّ النافخون فيها آذانهم عند استعمالها وتحريكها .

حول إصدار قانون للاحتكار في مصر

محاربة الاحتكار..

حازم الببلاوى

يجرى حاليًا التفكير في إصدار قانون للاحتكار في مصر. ومن الطبيعي أن مناقشة مثل هذا القانون تتطلب الإحاطة بأهم الاعتبارات الاقتصادية التي يثيرها الاحتكار. وقد كان الاحتكار دائمًا أحد أهم فصول كتب الاقتصاد. ومع ذلك فإن التطورات الحديثة في العلاقات الدولية خاصة في جوانب التكنولوجيا أضافت إلى هذا الموضوع أبعادًا جديدة. والغرض من هذا المقال ليس طرح رؤية جديدة بقدر ما هو عرض وتبسيط أهم الاعتبارات التي يثيرها موضوع الاحتكار.

الاحتكار Monopoly هو تعبير اقتصادي يقصد به سيطرة منتج «فرد أو شركة أو مجموعة ترتيبات» على إنتاج سلعة معينة وبما يمكنه من السيطرة على حجم المعروض منها وبالتالى التأثير في أثمانها. وقد نظر دائمًا إلى «الاحتكار» نظرة ريبة وتخوف باعتباره مظهرًا من مظاهر السيطرة الاقتصادية وبالتالى الاستغلال، ومن ثم وجب وضع القيود والضوابط على مختلف مظاهر الاحتكار سواء بتحريمه في أحوال معينة أو بوضع ضوابط على سلوكه في أحوال أخرى.

ومع ذلك فقد أبرزت التجربة أن فكرة الاحتكار ليست دائمًا واضحة ومتميزة بل إن الأغلب من الأحوال أن تتعايش عناصر من الاحتكار مع عناصر المنافسة فضلاً عن أنه في أحوال أخرى فإن ظروف الإنتاج تفرض أشكالاً من الاحتكار بما يمكن من تحقيق أفضل النتائج الاقتصادية فيما يعرف بالاحتكار الطبيعي، وأخيرًا فإن مظاهر الاحتكار كثيراً ما تتداخل مع فكرة الإنتاج الكبير وما يحققه من مزايا اقتصادية وبذلك تصبح محاربة الاحتكار محاربة للإنتاج الكبير، ومن ثم تفويت المزايا الاقتصادية لهذا الإنتاج الكبير.

ولكل هذه الاعتبارات فإن مفهوم الاحتكار مفهوم مركب يتطلب قدرًا كبيرًا من المرونة وحسن التقدير، بما يسمح بمحاصرة النتائج السلبية للاحتكار والسيطرة والاستغلال من ناحية، مع عدم تفويت مزايا الإنتاج الكبير والتقدم التكنولوجي من ناحية أخرى.

ولفهم فكرة «الاحتكار» نبدأ بالتعريف بفكرة «المنافسة الكاملة» حيث إن هذه المنافسة تمثل - من وجهة نظر معينة - نقيض الاحتكار، فضلاً عن أنها كانت دائمًا النموذج المثالي لعمل اقتصاد السوق وبالتالي فإن أي انحراف عن أوضاع هذه المنافسة الكاملة يمثل من حيث المبدأ خللاً في كفاءة نظام السوق.

المنافسة والاحتكار:

جرت العادة بين الاقتصاديين على تعريف الوضع الأمثل لاقتصاد السوق بأنه الوضع الذى تسود فيه المنافسة الكاملة «Perfect Competition» ويقال عادة أننا نكون بصدد منافسة كاملة وأن المشروع ينتج في ظل هذه المنافسة الكاملة إذا كان يمثل نسبة يسيرة غير محسوسة من الناتج المعروض في السوق وبحيث لا يستطيع منتج منفرد أن يؤثر في أوضاع السوق فهو ذرة في محيط. فالتأثير في سوق السلعة لا يخضع لمنتج منفرد بل يحدث فقط نتيجة مجموع أفعال المنتجين. فالمشروع في ظل المنافسة الكاملة هو ذرة في محيط لا تأثير لعمله المنفرد على الأسعار السائدة. فهو خاضع لهذه الأسعار «Price Taker» يتعامل معها كمعطاة ويوفق أوضاعه في ضوئها سواء من حيث تكاليف الإنتاج أو من حيث كميات البيع. ويضع الاقتصاديون عدة شروط لتوافر المنافسة الكاملة أهمها:

- تعدد البائعين والمشترين.
- تجانس السلعة.
- حرية الدخول والخروج من الصناعة وإليها.
- توافر العلم التام.

وتتضمن هذه الشروط ألا يتمكن منتج واحد بفعله المنفرد من التأثير في الأسعار. فالتعدد يفيد أن فعل البائع بزيادة أو إنقاص عرضه للسلعة يمثل نسبة ضئيلة وغير محسوسة من العرض الكلي وبالتالي دون أثر على الأسعار. كذلك فإن تجانس السلعة يعني أن المعروض من السلع من البائعين الآخرين هو بديل كامل وبالتالي فإن سلعة لا تمثل أية ذاتية أو خصائص خاصة لها زبائن مخلصون. أما حرية الدخول إلى الصناعة فهي تعني أنه لا توجد عقبات قانونية أو مادية تحول دون اجتذاب مستثمرين جدد إلى هذه الصناعة وبالتالي فتح الباب أمام المنافسة الكامنة «Potential Competition» فالعبرة ليست فقط بمنافسة المشروعات القائمة في نفس الصناعة وإنما أيضًا بإتاحة الفرصة لدخول منافسين جدد إذا كانت الصناعة مربحة، لذلك فإن أية قيود تحول دون دخول منافسين جدد بحجة حماية الصناعة القائمة تمثل اعتداء على حرية السوق وخروجًا على فكرة المنافسة الكاملة. وأخيرًا فإن توافر العلم الكامل عن السلعة وخصائصها وعن البائعين الآخرين يحول دون تمتع أي منتج بوضع خاص متميز نتيجة الجهل بأوضاع السوق.

ويعتقد الاقتصاديون أن توافر شروط المنافسة الكاملة على هذا النحو يؤدي إلى تحقيق الكفاءة الاقتصادية بتخفيض الأسعار على المستهلك والحث على تقليل تكاليف الإنتاج وبالتالي تحقيق مزايا الإنتاجية وجذب الاستثمارات إلى القطاعات التي تتفق مع أذواق المستهلكين. فالمنتج في ظل هذه الأوضاع لا يستطيع أن يرفع الأسعار وعليه أن يوفق أوضاعه في ضوئها وبالتالي فإنه لا يتمكن من زيادة أرباحه إلا عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج الأمر الذي يعود على المجتمع بالخير. كذلك فإن منافسة الآخرين له تقنعه بأن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مزيد من الأرباح إنما تتحقق بزيادة مبيعاته وزيادة حصته من السوق نظرًا لعدم قدرته في التأثير على الأسعار، وهكذا يؤدي تنافس المنتجين إلى الاكتفاء بالحد الأدنى للأرباح وعدم المبالغة فيها، فأي رفع للأسعار عن المستوى السائد يعني تحول المشتري عنه وبالتالي فقده لحصته في السوق.

وأخيرًا فإن توافر أرباح عالية في قطاع معين مع حرية الدخول إلى الصناعة سوف يغري المستثمرين إلى دخول الصناعة للإفادة من فرص الربح، الأمر الذي يؤدي في النهاية مع زيادة العرض إلى اختفاء الأرباح العالية في هذا القطاع.

وهكذا يرى الاقتصاديون أن أوضاع المنافسة الكاملة تحقق أفضل النتائج الاقتصادية من حيث حماية المستهلك بحصوله على السلعة بأقل التكاليف ومن حيث الإنتاجية حيث إن فرص زيادة الأرباح لا تتحقق عن طريق رفع الأسعار وإنما فقط عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة الإنتاجية، وأخيرًا فإنها تسمح بتوزيع الاستثمارات بين القطاعات المختلفة على نحو متفق مع رغبات المستهلكين فحيث يزيد الطلب في قطاع معين وتحقق أرباح عالية تجذب الاستثمارات إلى هذا القطاع للإفادة من فرص الربح فيه.

ما تقدم يمثل النموذج النظري الذي بنيت عليه فكرة اقتصاد السوق وهو - كما لا يخفى - يمثل حالة مثالية قل أن تتحقق في الواقع باستثناء عدد قليل من الأسواق - مثل السلع الزراعية العالمية (القمح والقطن وما شابه) أما الواقع فهو يتضمن عادة خروجًا في جانب أو آخر من هذا النموذج النظري. ويمثل «الاحتكار» الصورة المقابلة للمنافسة الكاملة وحيث لا يوجد إلا منتج واحد في الصناعة وهنا يختلط المشروع بالصناعة. فالصناعة في هذه الحالة هي المشروع والمشروع هو الصناعة. ومعنى ذلك أن المحتكر يسيطر وحده على إنتاج السلعة وهو بذلك لا يخضع لأية تأثيرات أخرى أو منافسة من منتجين آخرين.

وهو من هذه الناحية يمكن أن يقترب من وضع المنتج في المنافسة الكاملة في أن كلا منهما لا يعبأ بما يفعله غيره من المنتجين. ويتحقق ذلك في حالة المنافسة الكاملة لأنه يدرك أن أيًا من المنافسين ليس له - منفردًا - أي تأثير على السوق، ولذلك فإنه لا ينظر إلا إلى السعر السائد في السوق، وفي حالة الاحتكار فإن المنتج لا يعبأ - أيضًا - بالآخرين لأنه وحده في السوق وبالتالي فلا منافس آخر يشغله. ولكن المحتكر يختلف عن المنتج في المنافسة الكاملة في أنه يسيطر على السعر السائد فهو ليس خاضعًا للثمن «Price Tacker» - كما هو الحال في المنافسة الكاملة وإنما هو صانع الثمن «Price Mak-er»، وهذا هو أهم ما يميز سلوك المحتكر فهو يحدد الثمن عن طريق تحديد حجم إنتاجه، فهو يتعامل مع متغيرين يستطيع أن يؤثر فيهما وبما يحقق له أفضل الأوضاع (الثمن والكمية). فالمحتكر يؤثر في الكمية المعروضة من السلعة في السوق وبالتالي في الثمن السائد. فيستطيع المحتكر أن يرفع الأسعار عن طريق تخفيض العرض كما يستطيع زيادة المبيعات عند تخفيض الثمن. وليس الأمر كذلك في حالة المنتج في المنافسة الكاملة حيث لا تأثير له على الثمن الذي يتحدد استقلالاً عن فعله المنفرد لأنه ذرة في محيط، وهذه هي الخاصية الأساسية التي تميز المحتكر عن المنتج في المنافسة الكاملة أحدهما صانع ومحدد

مفهوم الاحتكار مفهوم مركب يتطلب قدراً كبيراً من المرونة وحسن التقدير، بما يسمح بمحاصرة النتائج السلبية للاحتكار والسيطرة والاستغلال من ناحية، مع عدم تفويت مزايا الإنتاج الكبير والتقدم التكنولوجي من ناحية أخرى

ولكن دون قتل المريض !



للأسعار Price Maker والآخر خاضع لها Price Taker. فالمحتكر مسيطر على السلعة وسوقها، يحدد الكمية المعروضة والسعر السائد معًا.

ومع ذلك فإن هناك حدودًا والأمر ليس مطلقًا، فالقول بأنه يسيطر على السلعة يعني أنه لابديل عنها وهو أمر نسبي في نهاية الأمر، فهناك درجات من الإحلال بين السلع، وعندما ترتفع الأسعار فإن الأفراد يتحولون إلى سلع أخرى - تعتبر بديلاً - لإشباع نفس الحاجة رغم أنه في الظروف العادية قد لا تعتبر سلعًا بديلة. فالدجاج قد يصبح بديلاً عن اللحم، والسمك قد يصبح بديلاً عنهما، والإضاءة بالغاز قد تصبح بديلاً عن الإضاءة بالكهرباء، والانتقال بالمواصلات العامة يصبح بديلاً عن السيارات الخاصة.. وهكذا، لذلك فليس هناك محتكر مطلق.

وأول نتيجة تترتب على سيطرة المحتكر على السوق هي أنه لا يستطيع زيادة مبيعاته في ضوء إمكانياته الفنية دون أن يترتب على ذلك انخفاض في أسعار البيع، وبالتالي فإن المحتكر عليه أن يوفق بين رغبته في زيادة مبيعاته من ناحية أو عدم انخفاض أسعار البيع من ناحية أخرى، وهو بذلك يبحث عن الوضع الذي يحقق له أفضل أرباح وإن ترتب على ذلك تخفيض المبيعات عن إمكانياته الفنية للإنتاج، فقد تكون مصلحة المحتكر - حماية للأسعار من الانخفاض - الاكتفاء بالإنتاج عند مستوى دون استخدام جميع الطاقات الإنتاجية المتاحة له خوفًا من انهيار الأسعار أو انخفاض الأرباح. وفي هذا ولاشك إضرار بالاقتصاد القومي حيث تتعارض مصلحة المحتكر في تحقيق أقصى أرباح مع المصلحة العامة في استخدام كافة الطاقات الإنتاجية المتاحة، وهو أمر لا يقوم في حالة المنافسة الكاملة. فالمنتج في هذه الحالة الأخيرة يمكن - نتيجة لضآلة تأثيره على السوق - أن يزيد مبيعاته باستخدام كافة الطاقات المتاحة له دون أن تتغير أو تتأثر أرباحه، وبذلك تتفق المصالح الخاصة في زيادة المبيعات والأرباح للمشروع مع المصلحة العامة في الإنتاج باستخدام كافة الطاقات الإنتاجية في حالة المنافسة الكاملة الأمر الذي لا يتحقق بالضرورة في حالة الاحتكار.

كذلك فإن المحتكر يستطيع - بعكس المنتج - في ظل المنافسة الكاملة أن يزيد أرباحه عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج أو رفع الأسعار. فالمنتج في ظل المنافسة الكاملة - بعجزه عن التأثير في الأسعار - ليس أمامه إلا تخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة الإنتاجية لزيادة الأرباح، أما المحتكر فإنه يستطيع زيادة أرباحه بزيادة الأسعار دون حاجة إلى تخفيض تكاليف الإنتاج. وهكذا يرى الكثيرون أن

المحتكر وهو لا يتعرض لضغط من المنافسين الآخرين يجد سهولة أكبر في زيادة أرباحه عن طريق رفع - الأسعار - بدلاً من تخفيض التكاليف - وبالتالي يفتقد الاحتكار الحافز على زيادة الإنتاجية كما كان الحال عليه مع المنافسة الكاملة.

وإذا كان الاحتكار يتضمن سيطرة مشروع واحد على الصناعة وعدم وجود بدائل قريبة من السلعة التي ينتجها. فكثيراً ما يؤدي ذلك إلى تحقيق أرباح غير عادية في هذه الصناعة تفوق الأرباح المحققة في الصناعات الأخرى. لذلك فإنه من الطبيعي أن نتوقع أن تحاول المشروعات الأخرى الاتجاه إلى هذا النشاط الذي يعرف أرباحاً غير عادية ولكن الاحتكار يحول دون ذلك، فالاحتكار يتضمن وجود عوائق وموانع للدخول إلى الصناعة. لذلك فإن حرية الدخول إلى الصناعة بدون عوائق اصطناعية تعتبر من أهم وسائل محاربة الاحتكار.

منافسة القلة والمنافسة الاحتكارية:

الحديث عن المنافسة الكاملة والاحتكار هو حديث عن الحالات القصوى والتي قل أن تتحقق في العمل. فكما أن المنافسة الكاملة تمثل نموذجاً نظرياً قل أن يتحقق في الواقع، فإن الاحتكار بدوره يمثل حالة استثنائية.. فقل أن يحتكر منتج واحد صناعة بأكملها، والأغلب هو أن تقوم حالات وسيطة تجمع بين عناصر من المنافسة وبين الاحتكار ويطلق عادة على مثل هذه الحالات تعبير المنافسة الاحتكارية، بالإضافة إلى أحوال منافسة القلة التي تمثل حالة بعض الأسواق. أما أوضاع منافسة القلة فهي تعبر عن الوضع الذي يسود الصناعة فيه عدد محدود من المشروعات كما هو الحال في عدد من الصناعات العالمية الكبرى مثل صناعة السيارات، صناعة الأدوية، صناعة الطائرات، صناعة مكونات الكمبيوتر.. أما أحوال المنافسة الاحتكارية وهي تمثل الحالات الغالبة - فإنها تجمع عادة بين تعدد في المشروعات مع تميز كل مشروع ببعض الخصائص المميزة للإنتاج بما يحول دون التجانس الكامل بين السلع.

ويؤدي هذا إلى ظهور «الماركات» المختلفة لكل سلعة، كل منها بديل شبه كامل عن الأخرى، ولكن هناك أيضاً بعض التمايز في خصائص كل منها، وسواء كان هذا التمايز راجعاً إلى صفات حقيقية في السلعة أو إلى انطباعات وهمية أو مبالغ فيها نتيجة الجهود التسويقية لكل منتج. فكل منتج يحاول أن يبرز منتجه على أنه يتميز ببعض الخصائص والمزايا الخاصة التي تميزه عن غيره بين المنتجين للسلعة. فالأسماء التجارية لمختلف السلع إنما تحاول تأكيد التمايز بين السلع بحسب المنتج وصفة التجانس التي يفترضها نموذج المنافسة الكاملة يصعب تحقيقها في العمل. فهناك دائماً اختلاف وفروق تميز بين السلع التي يعرضها المنتجون، وإن كانت بدائل عن بعضها البعض إلى حد بعيد، وبالتالي يمكن تصور وجود فروق في الأسعار بالنظر إلى هذا التمايز، ولكنها فروق لا يمكن أن تجاوز حدوداً معينة، وينبغي أن نلاحظ أن فكرة المنافسة بين المنتجين إنما تتحقق في العمل بشكل واضح في حالة المنافسة الاحتكارية Monopolstec Competition ربما بأكثر مما تظهر في حالة المنافسة الكاملة. ففي هذه الحالة الأخيرة هناك تجانس كامل بين السلع وتعدد كبير من المنتجين، وبالتالي فإن أي مشروع لا يكاد يعبأ بمنافسة الآخرين فهو يعرف أنه لا يستطيع أن يدعي تمايزاً أو اختلافاً عن الآخرين، لذلك فإنه يركز جهوده على تخفيض تكلفة الإنتاج لزيادة أرباحه. أما في حالة المنافسة الاحتكارية فكل مشروع يدعي أن سلعته أفضل من السلع المنافسة وهو لذلك ينفق الكثير في سبيل إبراز مزاياه على الآخرين. ومن هنا نجد أن مصاريف الدعاية والإعلان تزداد في الحالات التي يتعدد فيها البائعون وكل منهم يدعي أن سلعته أفضل من منافسه، فالمنافسة الحقيقية إنما تظهر بشكلها المعروف في حالة المنافسة الاحتكارية وهي تختفي في حالة الاحتكار وتكاد تختفي في حالة المنافسة الكاملة على ما رأينا.

وإذا كانت المنافسة الحقيقية تزداد في حالة المنافسة الاحتكارية التي تتميز بكثرة المشروعات مع عدم التجانس الكامل في المنتج فإن حالات تنافس القلة تثير احتمالاً آخر غير التنافس Competition بين المشروعات وهو التعاون Co-Operation فيما بينها أو الاتفاق، وسواء أكان هذا التعاون أو الاتفاق صريحاً أو ضمنياً، الأمر الذي يثير قضايا الاتفاقات الاحتكارية أو ما يطلق عليه اسم الكارتل Cartel. فمع كثرة المشروعات في حالة المنافسة الاحتكارية فإن هذه الكثرة تجعل فعل كل مشروع قليل التأثير على المشروعات الأخرى فضلاً عن صعوبة الاتفاق بين عدد كبير من المشروعات.

أما إذا كان عدد المشروعات العاملة في الصناعة قليلاً كما هو الحال في تنافس القلة Oligopoly حيث يكون تأثير كل مشروع محسوساً على المشروعات الأخرى العاملة في نفس الصناعة وسواء كان المنتج متجانساً بشكل كامل أم لا. فأهم ما يميز سلوك المشروعات في تنافس القلة هو أهمية ردود أفعال المشروعات الأخرى المنافسة. ففي حالة الاحتكار يقف المحتكر وحده في السوق، لذلك فإنه لا يعبأ إلا باستراتيجيته الخاصة في التوفيق بين حجم المبيعات وأسعار السوق التي توفر له أكبر أرباح ممكنة. وليس الأمر كذلك في حالة منافسة القلة حيث تستطيع المشروعات المنافسة أن تفسد استراتيجية المنتج إذا أخذت بسياسة مخالفة. فقد يعتقد مشروع أن أفضل استراتيجية له هي تقييد حجم المعروض من السلعة لرفع الأسعار، وتحقيق مزيد من الأرباح في حين يرى مشروع آخر منافس له أن أفضل استراتيجية هي على العكس زيادة حصته من السوق، لذا تنخفض الأسعار. وهكذا تتحدد سياسات المشروعات في ظل تنافس القلة في ضوء ما يعتقده كل مشروع عن ردود أفعال المشروعات الأخرى.

وإذا لم تكن هذه المشروعات متساوية من حيث الحجم بأن كان مشروع أكبر حجماً فالعادة أن يصبح هذا المشروع قائداً يحدد السياسات الواجبة وما على المشروعات الأخرى سوى الرضوخ ومتابعته في سياسته وإلا تعرضت لحروب المنافسة مع هذا المنافس القوي. لذلك كثيراً ما كانت علاقات تنافس القلة هي علاقات قائد وتابعين. أما إذا كانت المشروعات من أحجام متماثلة أو متقاربة فالغالب أنها تصل مباشرة أو بعد فترة من الصراع إلى نوع من التعايش والتفاهم الصريح أو الضمني على تحديد الأسعار وتوزيع الأسواق، وتمثل هذه الاتفاقيات الاحتكارية أهم أمثلة لتدخل التشريعات ضد فكرة الاحتكار.

الاحتكار



يمثل «الاحتكار» الصورة المقابلة للمنافسة الكاملة وحيث لا يوجد إلا منتج واحد في الصناعة وهنا يختلط المشروع بالصناعة. فالصناعة في هذه الحالة هي المشروع والمشروع هو الصناعة. ومعنى ذلك أن المحتكر يسيطر وحده على إنتاج السلعة وهو بذلك لا يخضع لأية تأثيرات أخرى أو منافسة من منتجين آخرين

مقتضيات التقدم التكنولوجي وتركز الإنتاج:

يرى كثير من الاقتصاديين أن نماذج المنافسة الكاملة كما تبرزها كتب مبادىء الاقتصاد إنما تمثل مرحلة الرأسمالية الناشئة في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، وحيث كان عصب الإنتاج هو المشروعات الصغيرة والمتوسطة وحيث كانت التكنولوجيا السائدة متاحة إلى حد بعيد، فضلاً عن أنها كانت بطبيعتها قابلة للاستخدام في هذه المشروعات الصغيرة والمتوسطة، أما الاقتصاديات الحديثة فإنها تواجه ظروفاً تكنولوجية مختلفة تماماً وتحتاج بالضرورة إلى المشروعات الكبرى وبالتالي تركز المشروعات الإنتاجية حتى يمكن الإفادة الكاملة من مزايا هذه التكنولوجيات الحديثة. فهناك أولاً مزايا الإنتاج الكبير، أي التكنولوجيات التي تتطلب لاستنفاد مزاياها حداً أدنى من الحجم، فهي لا تصلح للانقسام والتجزئة، وبالتالي تحابي تركز الإنتاج والمشروعات الكبرى. وهناك ثانياً علاقة المشروعات بإنتاج التكنولوجيا، فالمشروعات ليست فقط مستخدمة للتكنولوجيا، وإنما هي في معظم الأحيان منتجة لها، وبالتالي فإن التقدم التكنولوجي أصبح رهناً بتوافر المشروعات الكبرى.

ونتناول هذين الأمرين على التوالي..

ونبدأ بمزايا الإنتاج الكبير. يحتاج الإنتاج كما هو معروف إلى تضافر عناصر مختلفة للإنتاج من عمل، ورأس مال، وإدارة. ويقوم الإنتاج باستخدام وسائل إنتاجية مختلفة هي ما يعرف بالتكنولوجيا المتاحة. وهناك من عناصر الإنتاج ما لا يقبل الانقسام والتجزئة إلى ما لا نهاية، فهناك - عادة - حد أدنى لا يمكن دونه القيام بالإنتاج، وهو ما يحدد الحد الأدنى للإنتاج. وفي كثير من الأحيان تزداد الكفاءة مع زيادة حجم الإنتاج، الأمر المعروف بمزايا الإنتاج الكبير. ومع غلبة الإنتاج الرأسمالي وتقدم الصناعة، أصبح استخدام رأس المال ضرورياً، وقد أبرزت التجربة أن الاستخدام المتزايد لرأس المال تترتب عليه زيادة أكبر في الإنتاج. فالإنتاج الصناعي الحديث - هو إلى حد كبير - إنتاج رأسمالي، يعتمد بشكل متزايد على مدى كثافة رأس المال - من آلات وأجهزة، الأمر الذي لا يتحقق إلا مع زيادة حجم المشروعات.

ولا يقتصر الأمر على الجوانب الرأسمالية للمشروع، بل إن الإدارة أصبحت تتطلب هي الأخرى حجماً متزايداً حتى يمكن الإفادة الكاملة من أساليب الإدارة الحديثة سواء في النواحي الفنية، أو التسويقية، أو التمويلية.

ومن هنا فإن المشروع الكبير يحقق عادة مزايا إنتاجية لا تتوافر للمشروع الصغير أو المتوسط. وهناك صناعات لا تقوى على المنافسة والإنتاج بتكلفة مقبولة مالم يصل الإنتاج فيها إلى حد معين، تعتبر دونه غير اقتصادية، وبالتالي فإن كفاءة الإنتاج تعتمد في كثير من الأحيان على حجم المشروعات، ومالم يتوافر الحد الأدنى اللازم

الاحتكار

لهذه المشروعات فإنها لا تتمكن من البقاء والمنافسة. لذلك قيل بأن اتساع السوق، وبالتالي إمكان قيام المشروعات الكبيرة هو أحد أهم مقومات الصناعة الحديثة.

وعادة ما يتطلب ذلك أجهزة إدارية متقدمة في مسائل إدارة الإنتاج وتطويره، وفي بحوث الأسواق ومتابعتها وتنميتها، وفي توفير أشكال التمويل اللازم وحماية الاستقرار المالي للمشروع. وهي أمور لا يمكن أن تتوافر للمشروعات الصغيرة أو المتوسطة. لذلك لم يكن غريبًا أن كان النمو الصناعي في معظم الدول المتقدمة مرادفًا لظهور عدد محدود من المشروعات العملاقة التي كثيرًا ما لا تكتفي بالسوق المحلية فتفتح آفاقها للأسواق العالمية. وهذه هي ظاهرة الشركات متعددة أو متعدية الجنسيات التي تستقطب أحدث التكنولوجيات في الإنتاج وتستخدم أفضل أساليب الإدارة والتسويق والتمويل حتى تتمكن من المنافسة والتوسع المستمر. ومن الطبيعي أن تمارس مثل هذه المشروعات شكلاً من أشكال الاحتكار أو بالأحرى المنافسة الاحتكارية. فطبيعة الإنتاج في مثل هذه الفروع تتطلب أحجامًا كبيرة ولا تتفق مع منطق التعدد والانتشار بين أعداد كبيرة من المشروعات في شكل من أشكال المنافسة.

ويصل الأمر أحيانًا إلى أن يصبح الاحتكار هو الوسيلة الوحيدة، أو الوسيلة الأكثر كفاءة لتوفير الإنتاج، الأمر الذي يعرف أحيانًا باسم الاحتكار الطبيعي Natural Monopoly. ويطلق اصطلاح الاحتكار الطبيعي عادة على تلك المشروعات التي تنخفض فيها تكلفة الإنتاج مع زيادة التوسع في حجم الإنتاج. فالمألوف عادة هو أن لكل مشروع حجمًا أمثل Optimume Size تبدأ بعده تكاليف الإنتاج في الزيادة، ومن ثم فليس من مصلحة المشروع التوسع فيما جاوز هذا الحجم الأمثل. ومع ذلك فهناك حالات يكاد يكون الوضع الطبيعي هو أن تستمر تكاليف الإنتاج في الانخفاض كلما زاد حجم الإنتاج. وفي مثل هذه الأحوال فإن أفضل النتائج تتحقق إذا قام بالإنتاج مشروع واحد قادر على استيفاء كافة مزايا الإنتاج وتخفيض تكاليف الإنتاج مع التوسع المستمر في حجم المشروع. وهذه هي الأحوال التي يكون فيها احتكار إنتاج السلعة أو الخدمة هو الوسيلة الأكثر كفاءة لتخفيض تكاليف الإنتاج. وهذا الأمر له تطبيقات كثيرة خاصة في ميادين المرافق العامة مثل الكهرباء والتليفونات وتوزيع المياه. فهذه مشروعات تتطلب أحجامًا كبيرة بطبيعتها وتنخفض تكاليف الإنتاج مع زيادة الحجم. لذلك فإنها تتجه عادة لتأخذ شكلاً من أشكال الاحتكار.

ونظرًا لأن مثل هذه الحالات تفرض تعارضًا بين مقتضيات الكفاءة الإنتاجية وما تتطلبه من مراكز احتكارية من ناحية، وبين مقتضيات حماية الأفراد والمستهلكين من استغلال المحتكر من ناحية أخرى، فإن الدول تلجأ عادة إلى تنظيم الإنتاج في هذه الأحوال لظروف الاحتكار الطبيعي. فهي تسمح بوجود هذه الأشكال الاحتكارية لكنها تضع رقابة كافية على التسعير ونوع الخدمات وأشكال التطور بما لا يلحق الضرر بالأفراد والمستهلكين. فإذا كانت الدولة لا توفر هذه الخدمات عن الطريق العام، فإنها تضع ضوابط لضمان عدم استغلال القطاع الخاص لمثل هذه الأوضاع الاحتكارية. وقد يأخذ ذلك شكل منح الالتزام لشركة أو شركات لفترات محدودة، مع وضع الضوابط اللازمة للتوفيق بين مصالح الشركة وبين حماية حقوق المستهلكين.

وهناك أحيانًا ظروف طبيعية تفرض نوعًا من الاحتكار الطبيعي، كأن يستخدم المشروع مزايا خاصة تتوافر في موقع معين بعينه، فقناة السويس مثلاً، وهي ممر مائي لا يمكن أن يكون محل منافسة، فهو يتمتع بمزايا لا يمكن تكرارها، وبالتالي يمثل بالضرورة نوعًا من الاحتكار الطبيعي. وقل مثل ذلك بالنسبة للمناطق السياحية أو الأثرية التي تتميز بطابع خاص غير متكرر. فهذه الأحوال وغيرها تتمتع بنوع من «الريع» الذي لا يمكن تكراره، وبالتالي يصعب إخضاعها لقواعد المنافسة المتعارف عليها. وبذلك فإن التدخل لتنظيم استغلال مثل هذه الأوضاع لا يعتبر إخلالاً بمبدأ الحرية أو تدخلاً في قواعد المنافسة بل لعل العكس هو الصحيح، فتركها دون تنظيم يعتبر إخلالاً بفكرة المنافسة.



مصاريف الدعاية والإعلان تزداد في الحالات التي يتعدد فيها البائعون وكل منهم يدعي أن سلعته أفضل من منافسه، فالمنافسة الحقيقية إنما تظهر بشكلها المعروف في حالة المنافسة الاحتكارية وهي تختفي في حالة الاحتكار وتكاد تختفي في حالة المنافسة الكاملة

تحدثنا فيما تقدم عن المقتضيات التكنولوجية والتي تتطلب أحجامًا كبيرة للمشروعات تحقيقًا لكفاءة الإنتاج مما قد تترتب عليه أوضاع احتكارية. وفي هذا كنا نتحدث باعتبار المشروعات مستخدمة للتكنولوجيات المتاحة ـ ولكن الجديد هو أن المشروعات ـ خاصة الصناعية ـ ليست مجرد مستخدم للتكنولوجيا، بقدر ما أصبحت ـ خاصة في العصر الحديث ـ منتجة لهذه التكنولوجية. فالتطور التكنولوجي الحديث لم يعد أمرًا مستقلاً بقدر ما أصبح إنتاجًا تابعًا By Product للمشروعات الصناعية الكبرى. فهذه المشروعات لم تعد فقط مشروعات لتوفير السلع والخدمات بل أصبحت أيضًا مراكز للبحث والتطوير للتقدم التكنولوجي.

وقد جاءت الترتيبات الدولية الأخيرة، خاصة فيما يتعلق بحماية الملكية الفكرية، مؤكدة لهذا الاتجاه. فقد اكتشفت هذه الشركات أن بقاءها واستمرار نجاحها رهن بقدرتها على تطوير منتجات جديدة أو اكتشاف وسائل مختلفة لتخفيض تكاليف الإنتاج.

ومع الاعتراف بحقوق الملكية الفكرية وتزايد الحماية لها، فقد أصبحت هذه الاكتشافات ـ متمثلة في براءة الاختراع ـ مصدر أرباح هائلة لهذه الشركات. لذلك فإنها تتجه بشكل متزايد لتوجيه مواردها نحو ميادين البحث والتطوير. لذلك فإن القدرة على الاستمرار في المنافسة أصبحت مرتبطة بقدرة المشروعات على متابعة الاكتشافات الجديدة وتطويرها وتطويعها، الأمر الذي يتطلب موارد ضخمة لا تملكها سوى الشركات الكبرى. فصناعة الدواء والاتصالات والحواسب وغيرها تتقدم بقدر ما تستطيع أن تواكب التطورات التكنولوجية الحديثة وبقدر ما تستطيع أن تساهم فيها. وهو أمر غير متاح للمشروعات الصغيرة والمتوسطة.

وهكذا نجد أن العديد من الدول الصناعية المتقدمة لا ينظر إلى المشروعات الصناعية باعتبارها مجرد مشروعات خاصة بقدر ما تمثله من رأس مال قومي للمشاركة في التقدم التكنولوجي. وهو أمر لا تقتصر منافعه على الشركة وحدها بل يعود بالفائدة على دولتها. فالشركات الصناعية فيما تقوم به من استثمارات في البحث والتطوير تحقق ـ إلى جانب مصلحتها الذاتية ـ المصلحة القومية في دفع التطور والتقدم الاقتصادي. ومن ثم فإن النظر إلى المشروعات الكبيرة لم يعد فقط تعاملاً مع شركات احتكارية يمكن أن تهدد مصالح المستهلكين، وإنما تعتبر في نفس الوقت معملاً لتفريخ التطوير التكنولوجي والتقدم الفني.

الاحتكارات في عالم مفتوح:

يتجه العالم حاليًا ـ في ظل ما يعرف باسم العولمة ـ إلى فتح الأبواب وتخفيض الحواجز بين الدول. فالحدود السياسية لم تعد مانعًا أمام انسياب السلع والأموال التي أصبحت تجد في العالم سوقًا واسعة أمام تحركاتها. لذلك فإن مسائل المنافسة والاحتكار لم تعد دائمًا قضايا محلية، بل أصبح يلازمها ـ في معظم الأحوال ـ عناصر دولية وخارجية.

ويمكن القول بصفة عامة بأن فتح الأسواق أمام المنافسة الأجنبية وتعدد هذه المشروعات يقلل من إمكانيات احتكار الأسواق المحلية. فتعدد الإنتاج الأجنبي لا يساعد في ظل فتح الحدود إلى تمكن عدد محدود من المشروعات بالاستئثار بالسوق المحلية.

ومن الملاحظ أنه حتى في الدول التي تضع قيودًا وضوابط على الممارسات الاحتكارية، فإن ذلك يقتصر في الغالب على ممارستها الاحتكارية داخل الدولة الأم ـ أما ممارستها في العالم الخارجي فإنها لا تلقى ـ من الدولة الأم ـ أية ضغوط، بل كثيرًا ما تشجعها في توسعها الخارجي باعتباره مظهرًا من مظاهر القوة الاقتصادية.

كذلك فإنه من الملاحظ أن عددًا من الدول النامية قد بدأت هي الأخرى تشجع إنشاء شركات وطنية كبيرة ـ متعدية الجنسيات ـ لكي تساعدها في فتح الأسواق في الخارج، فهي تعتبرها أداة لكسب الأسواق الخارجية والمنافسة مع الشركات الأجنبية وليست مظهرًا من مظاهر الاحتكار. ويتوقف الأمر في النهاية على نوع نشاطها فمادام جوهر نشاطها هو فتح الأسواق الخارجية وليس استغلال المستهلك المحلي، فإن صفة الاحتكار لا تلحقها حيث إنها تقابل منافسة عالية من الشركات الأجنبية حتى ولو كان حجمها ـ بالمعايير المحلية ـ كبيرًا، فمثل هذه الشركات ينبغي أن ينظر إليه في إطار عالمي مادامت تعمل في السوق الدولية، وكثيرًا ما لجأت الشركات الكبيرة في الدول الصغيرة إلى استخدام السوق المحلية دعمًا لنشاطها في الخارج. فهذه الشركات في سبيل دعم مراكزها التنافسية في الأسواق الخارجية تلجأ إلى سياسات الإغراق Dumping والمقصود بذلك دعم أسعار صادراتها الخارجية بالبيع بسعر أو دون سعر التكلفة وتحميل الأسواق المحلية بفارق هذه الأسعار. وهي ممارسات معروفة في نظرية الاحتكار حيث يستطيع المحتكر أن يميز في أسعاره بين الأسواق، فيرفع الأسعار في أسواقه الاحتكارية ويخفضها في أسواق المنافسة. ورغم أن هذه الممارسات قد أصبحت غير مقبولة في ظل اتفاقية منظمة التجارة العالمية فلازالت الشركات تجد وسائل للتحايل حماية لأسواقها الخارجية. وكثيرًا ما تلجأ شركات الدول النامية الصناعية إلى مثل هذه الممارسات، وفي هذه الحالة فإن حكومات هذه الدول تجد نفسها إزاء مصالح عامة متعارضة هناك من ناحية استغلال السوق المحلية والمستهلك، الأمر الذي يتطلب التدخل لحمايتهما. وهناك من ناحية أخرى فتح الأسواق الخارجية واكتساب موضع قدم في هذه الأسواق في ظل المنافسة العالمية مما يتطلب التشجيع لما فيه من دعم للاقتصاد القومي وموازين المدفوعات.

وهكذا يتضح أن قضايا الاحتكار تثير بطبيعتها

اعتبارات متعددة مما يقتضى حسن التقدير والملاءمة.

ويتضح مما تقدم أن سياسات فتح الأبواب والتحرير الإقتصادى أمام المشروعات والمنتجات الأجنبية يقلل من مخاطر الاحتكار المحلى بالنظر إلى شدة المنافسة بين المشروعات الأجنبية، ولكنه بنفس الدرجة يعرّض الإنتاج المحلى لمنافسة خارجية قد تهدد إمكانيات نمو الصناعة الوطنية الوليدة.

وكذلك تتعارض الاعتبارات المترتبة على سياسات التحرير فهى تضعف إمكانيات تكوين الاحتكارات المحلية مما يعود بالفائدة على المستهلك، ولكنها قد تضعف أيضاً إمكانيات الصناعة المحلية للتركز مما قد يعود بالضرر على الإنتاج المحلى. وهنا أيضًا يتطلب الأمر ملاءمة بين هذه الاعتبارات وحسن التقدير فى الترجيح بين هذه الاعتبارات.

وإذا كانت اعتبارات الموازنة والترجيح بين مزايا وعيوب الاحتكار وحماية الصناعة الوطنية من المنافسة الخارجية تتطلب الكثير من الحصافة وحسن التقدير، فإنه لا يوجد على العكس أى مبرر لإعطاء شركات أجنبية أية ميزة على شركات أجنبية أخرى. الأمر الذى يتفق مع متطلبات منظمة التجارة العالمية التى تتطلب عدم التمييز فى المعاملة بشكل عام. وإنما يجدر هنا التأكيد على أن التمييز فى المعاملة بين الأجانب وإعطاء مزايا لدولة على حساب دولة أخرى يؤدى إلى الإضرار بالمصالح الوطنية. ويستثنى من ذلك بطبيعة الأحوال، ظروف بناء تكتلات اقتصادية اقليمية بغرض إنشاء سوق إقليمية واسعة، كما هو الحال بالنسبة للسوق العربية على سبيل المثال.



ملاحظات ختامية:

يتضح مما تقدم أن «الاحتكار» ظاهرة اقتصادية معقدة.. وبشكل عام فإن الاحتكار يمثل ظاهرة سلبية تؤدى إلى السيطرة الاقتصادية والاستغلال، يعانى منها المستهلك والاقتصاد القومى على السواء. فالاحتكار قد يؤدى إلى ارتفاع الأسعار والإنتاج دون الاستخدام الكلى للطاقات الإنتاجية، ومع تحقيق أرباح غير عادية للمحتكر، فكثيرًا ما يؤدى الاحتكار إلى نقص الحوافز على التجديد والابتكار.

ومع ذلك فقد أشرنا إلى أن الإنتاج الحديث يعتمد على المشروعات الكبرى وبالتالى نوع من تركز الإنتاج، وبذلك تتداخل اعتبارات الاحتكار مع اعتبارات الإنتاج الكبير. والإنتاج الكبير كما هو إحدى نتائج التقدم التكنولوجى الحديث فهو أيضًا أحد محركات هذا التقدم التكنولوجى، لذلك فإنه عند التعامل مع الاحتكار لابد من مراعاة احتياجات التكنولوجيا فى الإنتاج الكبير والقدرة على المنافسة. وبعبارة أخرى فإذا كان من الواجب محاربة الاحتكار كأحد أمراض الاقتصاد فلا ينبغى أن يؤدى ذلك إلى قتل المريض والقضاء على النشاط الاقتصادى بحرمانه من القدرة على الاستمرار والمنافسة.

لذلك فإن التعامل مع الاحتكار قد يتطلب فى حالات المنع الكامل، وفى حالات أخرى فقد يكتفى بوضع القيود والضوابط. وقد تكون هذه الضوابط فى شكل تحديد للأسعار أو الالتزام بالإنفاق على البحث والتطوير، أو بضرورة تخصيص نسبة من الأرباح لإعادة الاستثمار أو غير ذلك مما يعود بالفائدة على تطوير القدرة التنافسية.

وإذا كانت الاحتياجات التكنولوجية للقدرة على الاستمرار والمنافسة تتطلب معاملة مرنة، فإن أحوال «الاحتكار الطبيعى» وأوضاع «احتكارات الريع» تتطلب مزيدًا من الرقابة، حيث إن المحتكر يتمتع بمركز متميز لأسباب بعيدة عن الاحتياجات التكنولوجية. ومن هنا الحاجة إلى تحقيق أكبر قدر من المساواة بفتح الباب للمنافسين للتقدم للإفادة من هذه «الاحتكارات» الطبيعية، وتوقيت هذه الاستخدامات مع فرض قيود على التسعير.

كذلك ينبغى التذكر بأن رقابة وتنظيم نشاط الاحتكارات لا يتوقفان فقط على التعامل مع المشروعات العاملة بل يتطلبان أيضًا فتح الباب للمنافسة المحتملة Potential. فالمحتكر لا يخشى فقط المنافسة القائمة بل بدرجة أكبر المنافسة المحتملة من مشروعات جديدة، ومن هنا أهمية عدم وضع العقبات أمام دخول مشروعات جديدة إلى النشاط الاقتصادى. وقد سبق أن أشرنا إلى أن أحد أهم شروط المنافسة هى حرية الدخول. وكثيرًا ما تلجأ المشروعات الاحتكارية إلى تأكيد وضعها الاحتكارى بوضع القيود والعقبات أمام دخول مشروعات جديدة إلى مجالها الإنتاجى. وكثيرًا ما تنساق الأجهزة الحكومية إلى المعاونة فى هذا الاتجاه. وقد تكون هذه العقبات قانونية مثل اشتراط الحصول على تراخيص وموافقات يصعب الحصول عليها. كما قد تكون هذه العقبات مالية باشتراط رؤوس أموال مبالغ فيها لدخول هذا النشاط، أو غير ذلك من العقبات التى تحول دون فتح الباب أمام الاستثمارات الجديدة فى هذه الميادين.

وأخيرًا فإن أى تنظيم للاحتكار يتطلب عدم الإغراق فى التفاصيل ومراعاة التوازن بين الاعتبارات المختلفة، وتظل أهم الوسائل هى إخضاع مثل هذه الأنشطة لدرجة أعلى من الشفافية فى معاملاتها المالية. ■

حديث الحفريات الأثرية

فلسطين لم تكن وطنا لبنى إسرائيل

عفيف البهنسى

تبين بعد أبحاث طويلة خلال القرن العشرين، أن التوراة لم تتناول أحداث التاريخ القديم إلا ضمن الحدود التى تخدم التاريخ اليهودى أو الأساطير اليهودية، وأن هذا التاريخ المحدود لا ينطبق تماما مع المكتشفات من حيث الوقائع والأسماء أو من حيث التاريخ وتسلسله

اجتمعت الوفود العربية مع وفد إسرائيل لأول مرة في مؤتمر السلام في مدريد، تنفيذا لقرارات الأمم المتحدة التي أوجبت حَل قضية الاحتلال الاسرائيلي عن طريق السلم، والتي اعترفت بالحقوق الأصلية العربية في استرداد الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧، وعلى الرغم من النوايا الطيبة التي دفعت العرب للمشاركة في مؤتمر السلام، وعلى الرغم من ضمانات الدولتين الراعيتين للمؤتمر، أمريكا وروسيا. فإن أول تصريح أعلنه زعماء إسرائيل، هو أن السلام ممكن، ولكن الأرض هي ملك إسرائيل تاريخياً.

إن قيام دولة إسرائيل على أساس وعد بلفور بعودة اليهود إلى فلسطين، وعلى أساس مؤتمر بال وصدور بروتوكولات حكماء صهيون، يجعل السلام - حتى ولو استرجعت الدول العربية أراضيها المحتلة - مجرد هدنة مؤقتة، فالشعار المرسوم على العملة الإسرائيلية والمتمثل بخارطة إسرائيل من النيل إلى الفرات، والمكتوب في الكنيست الإسرائيلي ضمن العبارة التوراتية التي يعدهم فيها ربهم (يَهْوَه) بهذه الأرض، لا تجعل مجالا للشك أن إسرائيل ستمضي بالمطالبة بهذا الحق الإلهي، طالما كان التاريخ التوراتي مصَدّقاً.

وخلال الحفريات الأثرية المكثفة في فلسطين والأردن وسورية، بحثا عن شواهد تؤكد ما ورد في التوراة، تبيّن للعلماء أن التوراة تاريخ ديني، وأن علم الآثار تاريخ موضوعي، وليس من علاقة بين أحداث التوراة الدينية وأحداث التاريخ الحقيقية التي تؤكدها وتكشف عنها حتى اليوم الحفريات الأثرية، تمّ ذلك بجهود علماء الآثار العالميين، ولم يستطع علماء الآثار الإسرائيليون ومنهم سياسيون، تقديم أي دليل يؤكد التاريخ التوراتي.

وأعقب هذا الانتصار الأثري التاريخي، ظهور دراسات تبيّن أن تاريخ التوراة حدث خارج إسرائيل، وحجة هذا الرأي أن حركة التاريخ التوراتي لا تنسجم مع جغرافية المنطقة من العراق إلى الشام وحتى مصر.

ولكن وقبل إعلان انتصار علم الآثار على يد الآثاريين العلمانيين، كان الغرب أكثر يقينا بحق اليهود بالأرض الموعودة من اليهود أنفسهم، فمنذ عهد لوثر، أصبحت التوراة الخلفية الفكرية والتاريخية للعهد الجديد أي الإنجيل، كذلك كان المسلمون يعتمدون على أحداث التوراة في تفسير التاريخ القديم. ولكن تدخل علماء الآثار في أمريكا وأوربا واستراليا في البحث الأثري، وعدم مصداقية الأحداث التوراتية أمام المكتشفات الأثرية، خفف وسيخفف كثيرا من دور التوراة في تثبيت الحق الإلهي المزعوم، ويجعل السياسة الاستيطانية الاستعمارية وحيدة في ميدان الصراع العربي - الإسرائيلي، وتصبح الأساس في تفسير قيام دولة مؤلفة من شعب غريب محتل بقوة المدفع، على أرض تخص العرب منذ بداية وجودها.

في هذا البحث عرضنا مبررات القول، إن إسرائيل أصبحت خارج التاريخ والجغرافيا، نتيجة البحث والتنقيب الأثري، وعرضنا فشل المحاولات السياسية لدعم وجود إسرائيل بالوعد الديني والحق المزعوم، وكشفنا عن إمكان استرجاع العرب حقوقهم إذا هم استطاعوا الاعتماد على انتصار علم الآثار (الأركيولوجيا).

التوراة والتاريخ

التوراة أو العهد القديم كتاب مقدس اعتبر مصدراً للتاريخ إلا انه في حقيقته تاريخ بني إسرائيل، بل تاريخ فلسطين وبعض المناطق التي كانت على علاقة بفلسطين أو باليهود الذين أقاموا في أجزاء من فلسطين أو في أماكن هُجِّروا إليها في أرض المنفى.

والتوراة في حقيقتها كتاب خطه الأحبار خلال الفترة بين ٥٨١ - ٥٣٩ق.م وتابع كتابته اللاحقون لهم. ففي أرض المنفى قرب بابل قام مجموعة من الأحبار بكتابة فصول التوراة الأولى باللغة الآرامية وبقلم مربع آرامي، وقد استفادوا من العقائد والآداب السائدة في بلاد الرافدين، فانشأوا منها عقيدتهم في الخلق، كما انتحلوا نسباً لإبراهيم الخليل باعتباره النبي الأول الذي طور مفاهيم العقائد الرافدية القديمة ونادى بها، مؤمنا بالرب إل، رب السماوات والأرض الذي كان معبودا من بعض الأقوام القديمة. والأسفار الأولى التي كتبت في التوراة كانت متأخرة ١٣٠٠ عام عن إبراهيم و٧٠٠ عام من موسى، فهي بهذا غريبة عن مفهوم التوحيد الإبراهيمي وغريبة عن وصايا موسى الأصلية، كما يؤكد الآثاريون. ويتألف العهد القديم من ثلاثة أقسام: البنتاتيك - النبييم - والكتوبيم. القسم الأول وهو الأكثر أهمية مؤلف من خمسة أسفار (التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية).

ويتحدث سفر التكوين عن قصة خلق الوجود والإنسان. وقد استوحى ميكل أنجلو هذه القصة في رسم سقف كنيسة السكستين. أما سفر الخروج فيتحدث عن قصة موسى وخروجه من مصر مع بعض المصريين الذين أطلق عليهم اسم بني إسرائيل، ويتضمن هذا السفر الوصايا العشر التي نزلت على موسى.

ويختص سفر اللاويين بعرض طقوس الكهنة. أما السفران الأخيران فقد عرضا قصة الاستيلاء على فلسطين (بلاد كنعان) وتوزيع اراضيها على جماعة يشوع. وقد نسب هذا القسم بأسفاره الخمسة إلى موسى، وهذا أمر يتناقض مع ما ورد فيه من حديث عن موت موسى ومقارنته مع الأنبياء والتابعين له. وهذا يؤكد أن التوراة كتبت بعد عهد موسى بوقت طويل، وأن الوصايا العشر أدخلت في سفر الخروج وسفر التثنية في وقت متأخر، وهي مختلفة عما جاء به موسى.

القسم الثاني خاص بالحديث عن الأنبياء في ١٤ سفراً منها سفر أشعيا وأرميا وحزقيال وعاموس وغيرهم.

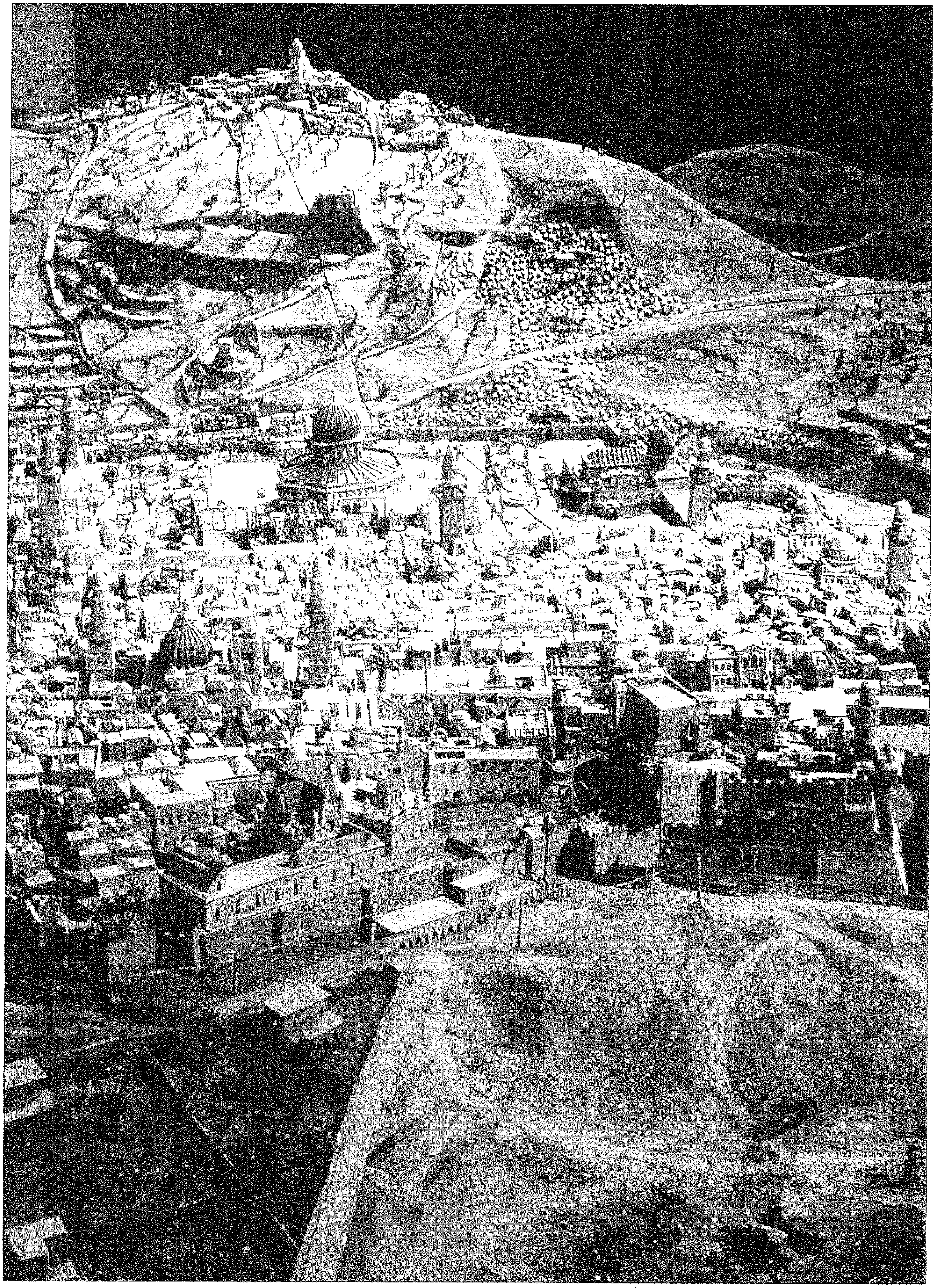
أما القسم الثالث فيحوى في ١٢ سفرا الكتابات والأشعار، مثل مزامير داود وأمثال سليمان وأيوب ونشيد الإنشاد ومراثي أرميا وغيرها.

ولقد أبانت المكتشفات الأثرية أن سفر التكوين شديد الشبه بالأفكار البابلية القديمة التي وردت في أساطير اينوما إيليش عن نشاة الكون. وبهذا تتضمن التوراة عرضا تاريخيا للعقائد الدينية التي كانت سارية قديما.

بيد أن مفهوم الرب في التوراة لا يوضح المعنى الوحداني فيه ولا يؤكد عالمية السلطة الإلهية، بل إن (يهوه) هو رب بني إسرائيل فقط. ولم تعترف التوراة بالإله (إل) رب العالمين الذي كاَن معبود سكان المنطقة من الرافدين إلى سيناء، بل كفّر داود إذ عبده ذات يوم.

لقد جرى اعتبار التوراة مصدرا للتاريخ القديم، واعتبرت هذه المنطقة مقدسة لأنها كانت مسرح أحداث التوراة، وتهافت الآثاريون للبحث عن التاريخ القديم من خلال التوراة، أو لتأكيد التوراة من خلال البحث الأثري. ولكن تهافتهم لم يحقق هدفاً، فلقد تبين بعد أبحاث طويلة خلال القرن العشرين، أن التوراة لم تتناول أحداث التاريخ القديم إلا ضمن الحدود

صورة على لوح معدني - تمثل القدس عام ١٨٧٣ - محفوظة في متحف التاريخ في القدس



فلسطين لم تكن وطنا لبني إسرائيل

التي تخدم التاريخ اليهودي أو الأساطير اليهودية، وأن هذا التاريخ المحدود لا ينطبق تماماً مع المكتشفات من حيث الوقائع والأسماء أو من حيث التاريخ وتسلسله.

كتب اليهود التوراة خلال فترة طويلة لكي يثبتوا فيها مطامعهم ومقاصدهم العنصرية. ولم يكن ذلك خافياً، فلقد كشفت حقائقهم أقلام المحققين كما تصدت لهم المسيحية وندد بهم القرآن الكريم:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (البقرة ٧٩).

واستطاع اليهود أن يضفوا على تاريخهم التوراتي قدسية، مصير من لا يصدقها العقاب في الدنيا والآخرة.

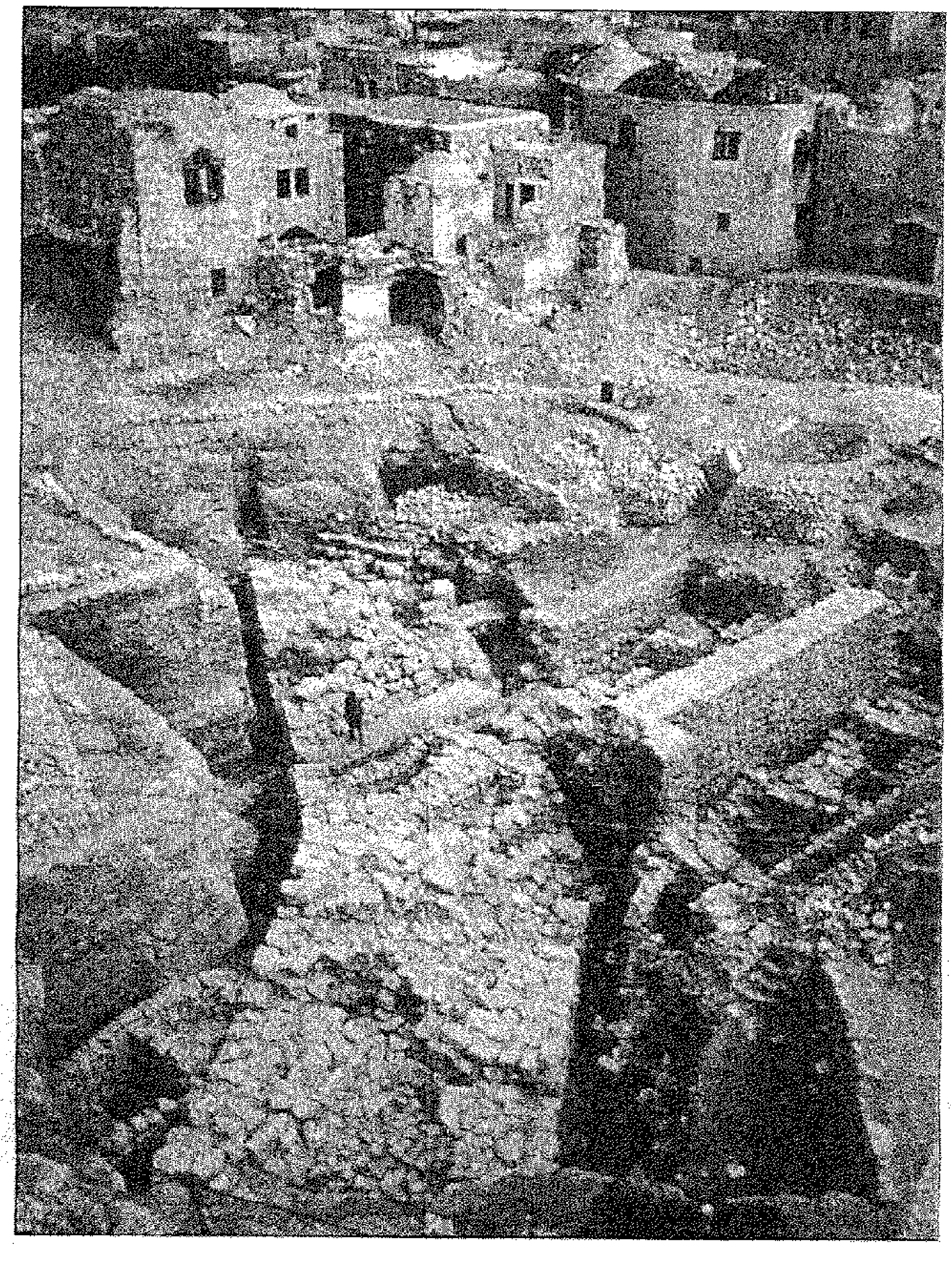
وكان همّ مدوني التوراة أن يجعلوا أحداث التوراة هي أحداث الإنسان في بداية التاريخ، وجعلوا من إبراهيم الخليل (أبو الأمم) بداية الوجود المتحضر، وربطوا وجودهم بهذا التاريخ مركّزين على علاقة أصحاب الدين الجديد (اليهودية) بإبراهيم الخليل نسبا وعقيدة. ولأن آل إبراهيم أطلق عليهم اسم بني إسرائيل، فإن اليهود يسردون تاريخهم من خلال ربط المهاجرين إلى مصر مع يوسف، بالقادمين مع موسى بعد خمسة قرون. ويستمرون في سرد هذا التاريخ حتى العهود الرومانية وأحداثها، ولكن السرد لم يكن موضوعياً ولم يكن متسلسلا، ولقد اختلطت فيه القصص الشخصية العارضة بالأحداث التاريخية.

لقد كانت التوراة مصدراً تاريخياً وحيداً عن العهد القديم عندما كانت المكتشفات الأثرية معدومة. وكان الاعتقاد أن ما ورد في التوراة من أزمنة وأمكنة إنما يعود إلى فجر التاريخ الذي كان محصورا في هذه المنطقة من الرافدين إلى النيل، المنطقة التي كانت تشكل رقعة العهد القديم. ومع أن هذه الرقعة اشتملت على أقدم الحضارات وكانت مسرحاً لأحداث تاريخية لا حصر لها. فإن التوراة لم تتناول هذه الحضارات وهذه الأحداث بل ركزت على أحداث شخصية ضيقة أو عارضة لا قيمة تاريخية لها.

وقد قدمت المكتشفات الأثرية أعداداً ضخمة من الرقع المسمارية والأختام والشواهد التي عرفتنا بتاريخ طويل وحضارات متعددة ظهرت في بلاد الرافدين ومصر وسورية. ولأن معرفتنا هذه ترتكز على شواهد ووثائق أصلية، فإنها معرفة علمية لا مجال للطعن بها، على عكس أخبار التوراة فهي سردية متأخرة عن تاريخها اختلط فيها الوهم والغرض، فلم يعد بالإمكان اعتبارها علمية موثقة.

كان عالم الآثار أحدَ رجلين، إما عالم يبحث عن الحقيقة التاريخية من خلال البحث والكشف، أو إرسالي يحاول تأويل المكتشفات لمطابقتها مع التوراة ولابد من القول، إن عدداً من الإرساليين مازالوا يتابعون مهماتهم ضمن نطاق المعاهد والبعثات التوراتية المعروفة لدينا، ومازالت أبحاثهم التي تنشر في مجلات توراتية خاصة صريحة في أهدافها الإرسالية التي كثيرا ما تتعارض مع الواقع التاريخي المكتشف. ولكن لابد من القول أيضاً إن الكشوف الأثرية على دقتها وصحتها ليست كاملة وليست نهائية، فما زلنا ننتظر المزيد من الكشوف التي تلقي ضوءاً جديداً على الماضي البعيد، ورغم هذا فإن حجم المعرفة التوراتية لم يصل بعد إلى أوليات المعرفة التاريخية العلمية الراهنة.

إن عدداً من الإرساليين مازالوا يتابعون مهماتهم ضمن نطاق المعاهد والبعثات التوراتية المعروفة لدينا، ومازالت أبحاثهم التي تنشر في مجلات توراتية خاصة صريحة في أهدافها الإرسالية التي كثيرا ما تتعارض مع الواقع التاريخي المكتشف



حفريات «أفيغسار»

لقد عاصر مدونو التوراة فترة محددة من التاريخ تعود إلى عهد السبي، فكتبوا عن الأحداث والوقائع القريبة منهم والتي تعود إلى العهد الآشوري والتاريخ الكلداني. ثم نلاحظ انقطاعا في تتابع الأحداث، لكي نقرأ شيئاً من تاريخ اليونان في الشرق في إصحاحي المكابيين كتبا في فترة المكابيين ١٦٧ / ٣٧ ق.م باللغة اليونانية أصلا. ولكن المؤرخين لا يستطيعون الاعتماد كليا على ما ورد في هذا التاريخ، فكثير من الأحداث الواردة فيه لا تطابق الواقع المكتشف.

أما الأحداث الأخرى فهي روائية مستمدة من مصادر مختلفة، وقد حملت طابعاً أسطوريا عندما كانت أصولها تعود إلى أساطير قديمة، أو طابعا قدسيا عندما كانت تتحدث عن أشخاص ترفعهم أفعالهم وحتى أخطاؤهم إلى مرتبة النبوة، فهم محميون لنسبهم الإسرائيلي المقدس.

وإذا تجاوزنا القسم الأول البنتاتيك إلى القسمين الآخرين النبييم والكتوبييم، فإننا نقرأ أخبارا لا أهمية تاريخية لها، بل هي عرض لأخبار شخصيات يهودية، أو هي كتابات شاعرية تحوي كثيرا من الصور الفاضحة.

البحث عن أرض بني إسرائيل:

تبدأ قصة بني إسرائيل بظهور إبراهيم عليه السلام الذي ولد في أور في أرض شنعار ولم تكن أور كلدانية كما ذكرت التوراة لأن الكلدان ظهروا بعد ألف عام من ظهور إبراهيم، تقول التوراة: «خرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران واجتاز إبرام إلى مكان شكيم (نابلس) وظهر الرب وقال لإبرام لنسلك أعطي هذه الأرض» تك ح ١٢.

وهكذا فإن إبراهيم الخليل عاش شبابه في حران (منطقة فدان آرام) وكان آرامي النشأة واللسان ثم جاء إلى نابلس وهناك وعده الرب بهذه الأرض؟!.

وتتابع التوراة الحديث عن قصة إبراهيم فتعرض قصة هذه الأسرة من خلال أخطاء ارتكبوها، وهي أخطاء جسيمة لأنها تمس الكرامة والشرف. وكثيرا ما حاسب العرف اليهودي بقسوة مرتكبيها، ومع ذلك فإنها تعرض هنا وكأنها كرامات وأفعال خارقة ميزت أصحابها عن غيرهم من الناس العاديين.

تقول التوراة: «وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها».

«وانتقل إبراهيم إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور. وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة ... وفي الغد قال أبيمالك لإبراهيم: (ماذا فعلت بنا؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت علي وعلى مملكتي خطية عظيمة؟)».

«وافتقد الرب سارة وفعل الرب لسارة كما تكلم، فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابنا في شيخوخته، ودعا إبراهيم ابنه المولود له الذي ولدته سارة إسحق. وكان إبراهيم ابن مئة سنة».

«وشاخ إبراهيم وبارك الرب إبراهيم في كل شيء» «وقال إبراهيم لعبده أستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وإلى عشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحق».

ومضى العبد إلى آرام النهرين إلى مدينة ناحور. وهناك خطب رفقة الآرامية بنت بتوئيل وجاء بها إلى إسحق فتزوجها وأنجبت له عيسو ويعقوب وكانت أمهما تفضل يعقوب على عكس والدهما الذي كان يفضل عيسو.

ولما شاخ إسحق وكلّ بصره قال لعيسو:

«اذهب إلى الصيد واصنع لي أطعمة حتى تباركك نفسي قبل أن أموت».

فسمعت رفقة ما قاله زوجها فهرعت إلى ولدها المفضل يعقوب ودفعته أن يسبق أخاه إلى البركة، فدخل إلى أبيه مع صيده وطعامه وادعى أنه عيسو، قبّله الأب وباركه وقال: «فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمرة. ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. لتكن سيدًا لإخوتك». وعندما عاد عيسو اكتشف الخديعة ولكنه لم يستطع أن يصلح الأمر، فحقد على أخيه وقرر قتله، فدفعته أمه أن يمضي مؤقتًا إلى حران حيث يقيم أخوها لابان وأمره والده أن يتزوج من ابنة لابان. فتزوج يعقوب راحيل ابنة لابان الآرامي الصغرى.

أما راحيل فقد ولدت متأخرة يوسف الذي جابه إخوةً كثيرين يكنون له العداء ورموا به في الجب وادعوا أن ذئبا أكله، ثم جاء قوم من مَدْيَنْ فأنقذوه وأخذوه إلى مصر فباعوه إلى رئيس شرطة فرعون. ورحل يعقوب وأولاده الاثني عشر إلى حران، بأمر من الرب إل جاءه في أرض كنعان، وفي مكان سمي بيت إل، وظهر الله ليعقوب في بيت أيل وقال له: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل (أى عبد الإله إل).

وذهب يعقوب وأولاده ونساؤهم إلى مصر. وتتحدث التوراة عن عدد هؤلاء وعن حرارة اللقاء مع يوسف الذى استقبلهم وأعطاهم ملكا فى مصر أرض رعمسيس كما أمر فرعون. وهنا يتضح أن أرض بني إسرائيل ليست هي بلاد كنعان، بل إنهم استمروا غرباء، فهي أرض غريبة أما أرضهم الأصلية فهي فدان آرام - حران ومنها اختاروا زوجات لهم.

بل إن أبناء إسرائيل أو (يعقوب) الاثني عشر إنما ولدوا خارج الأرض المقدسة فلسطين، وهم بنو إسرائيل المعنيون في التوراة، فلقد عاش يعقوب في حران عشرين عاما وفيها ولدت ذريته، كما أن ولدى يوسف إنما ولدا في مصر من أم مصرية.

فهل تعتبر أرض كنعان أرض بني إسرائيل من نسل إبراهيم وكيف أصبحت أرضاً لقوم موسى؟ يحاول مدونو التوراة ربط قوم موسى ببني إسرائيل لتحقيق الوعد الإلهي بملكية الأرض. على الرغم من المفارقات التالية:

- إن رحيل موسى وقومه إلى بلاد كنعان كان خروجا ولم يكن عودة ثم أصبح غزوة مصرية كباقي الغزوات.

- إن يوسف اقتطع لأهله أرض رعمسيس علما أن الرعامسة ظهروا بعد خمسة قرون من تاريخ يوسف.

إن قوم موسى كانوا أعداء الساميين الأصليين وهم الكنعانيون.

ولقد ردت التوراة أكثر من مرة خروج الكنعانيين عن الساميين وألحقهم بالحاميين بينما ألحق بالساميين قوماً غرباء كانوا حلفاء قوم موسى فيما بعد. ومن هنا يتضح أن قوم موسى لم يكونوا من بني إسرائيل. وإن قصة بني إسرائيل - أى آل إبراهيم - كما وردت في التوراة لا تكرم أصحابها.

وإذا أخذنا التوراة مصدرا أساسياً لتاريخ إبراهيم الخليل، فإننا نراه يقول (تك ١٤) «فقال لإبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويستعبدون لهم، فيذلّونهم اربعمئة سنة، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة. وأما أنت فتمضي إلى آبائك بسلام، وتدفن بشيبة صالحة».

إن اعتبار التوراة النبي إبراهيم ونسله غرباء عن فلسطين. ثم إن فشل تأكيد التاريخ التوراتي في فلسطين ذاتها، دفع إلى التساؤل عن أرض التوراة، ويرى كمال صليبي أن أرض التوراة لم تكن في فلسطين وحجته أن الحشمونيين وقد دانوا باليهودية، اعتبروا أنفسهم ورثة بني إسرائيل (كما هو شأن اليهود اليوم) وأقاموا دولة يهودية (١٤١ق.م - ٣٦٠ م)، وعملوا على تثبيت الأسماء الجغرافية التوراتية على أرض فلسطين. ثم جاء يوسفوس المؤرخ اليهودي لكي يتحدث في عام ٧٠م عن تاريخ اليهود من خلال الواقع الجغرافي الذى صوره الحشمونيون، وسار المؤرخون بعده على طريقته، وكان المؤرخ ابن إسحاق أول من نقل عن التوراة. ويأخذ ابن النديم عنه، كما أخذ عنه الطبرى وابن الأثير.

إن كتاب (التوراة جاءت من جزيرة العرب) - لكمال صليبي شكك بالجغرافيا التوراتية في فلسطين. ويرى أن تلك الممالك لم تكن أكثر من قرى أو مضارب للبدو، وأن الملوك ما كانوا أكثر من رؤساء عشائر في منطقة محدودة هي عسير حسب اعتقاد المؤلف. ذلك أن هذه الأسماء لم تجد لها محلاً على امتداد الأرض من الفرات إلى النيل.

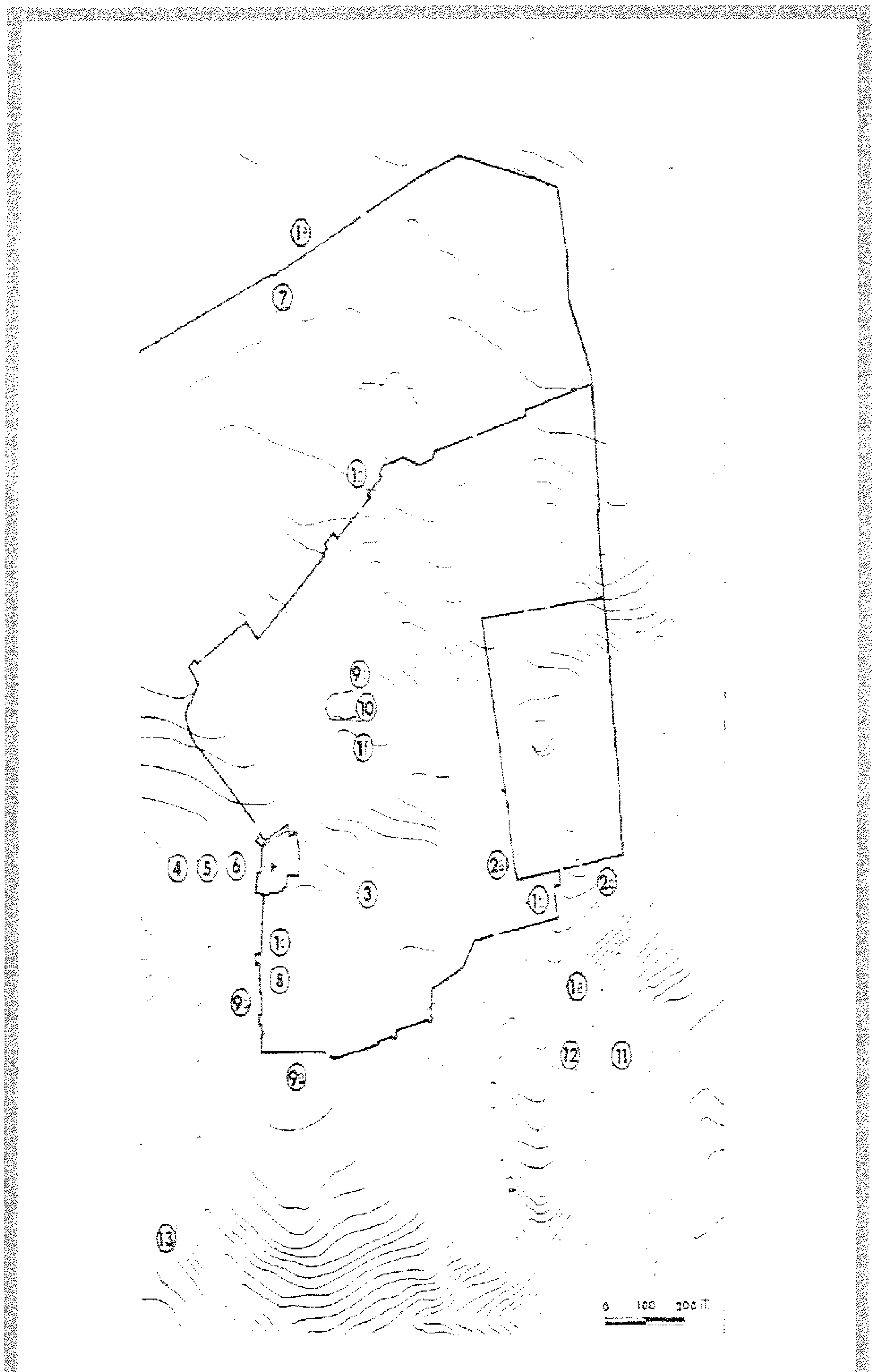
بين التوحيدية وعبادة يهوّه:

يؤكد فرويد في كتابه (موسى والتوحيد) المعتمد على كتاب يوسفوس، أن النبي موسى كان في بدايته قائداً مصريا، وكان من أتباع اخناتون فرعون مصر الذى تبنى الديانة التوحيدية، وهي ديانة تؤمن بإله واحد (آتون) يقع فيما وراء الشمس، فهو خالق الشمس (آمون) وخالق الكون كله وهو رب العالمين وليس إله مصر وحدها، ثم هو إله موجود في كل مكان وزمان، وليس له صورة فهو لا يرى ولا يمس. وتقوم العبادة الأخناتونية على السلم والإخاء الإنساني، وعلى رسالة إنسانية تبنى نشرها الملك امنحوتب الرابع الذى أطلق على نفسه اسم (آخن اتون) أى عبد الله، فنفي عن نفسه الألوهية التي كان يتمتع بها الملوك الفراعنة، وضحى بجميع ميزاته لكي يؤدى رسالة التوحيد، فكان بذلك أشبه بالنبي، فلقد ألغى الآلهة السابقة مثل أمون وايزيس وحتحور... لكي ينادى بإله واحد.

وبعد أن مات أخناتون، خلفه توت عنخ أمون الذى حارب الكهنة من أتباع آمون، فنقض العقيدة التوحيدية، وأعاد البلاد إلى العقيدة الآمونية ونقل العاصمة من تل العمارنة إلى طيبة.

وامتدت موجة الاضطهاد ضد المؤمنين بالتوحيد الأخناتوني، وكان موسى منهم، فهاجر إلى سيناء جامعاً بعض المضطهدين الذين آمنوا بالتوحيد، ولكنهم وقد أنهكهم التيه في سيناء عادوا إلى عبادتهم السابقة وخذلوا موسى وقتلوه وتولى يشوع بعد ذلك قيادتهم للتغلغل والتسرب إلى فلسطين.

لم يكن لهذا الشعب الغريب أى حضور ثقافي أو سياسي أو ديني، فلقد اندمجوا بالشعب الكنعاني وتكلموا لغته وانصاعوا لقياداته. ولم تنتشر العقيدة اليهودية التوراتية إلا من خلال التوراة التي بدئ بكتابتها أثناء وبعد النفي ٥٣٩ق.م. وليس من علاقة بين قوم موسى ويشوع الذين دخلوا فلسطين عام ١٣٥٠ق.م تقريباً، وبين المنفيين إلى بابل عام ٥٨٦ق.م. فرغم القرون الثمانية الممتدة بينهما، فإن كتبة التوراة أرادوا الربط بينهم وبين النبي موسى، الذى نسبوه إلى آل إبراهيم (أبو الأمم) وقصدهم أن يجعلوا دينهم قديمًا عريقًا.



(١) تنقيبات السيدة كنيون في جنوب الحرم وفي حديقة الأرمن، وقرب باب دمشق
(٢) تنقيبات مازار وبن دوف حول الحرم واكتشاف آثار القصور الأموية، وفشل البحث عن الهيكل
(٣) حفريات أفيغاد
(٤) (٥) (٦) حفريات روث أميوان وبروسجي
(٨) حفريات بروسجي في حديقة الأرمن
(٩) حفريات بروسجي على أعتاب الأسوار
(١٠) موقع عمليات البحث عن الهيكل التي قام به باركاى
(١٢) حفريات بإشراف إيغال شيلوح

ولم يفطن كتبة التوراة إلى التقارب القائم بين التوحيدية التي آمن بها إبراهيم الخليل، والتي دمج فيها رب السماء في بلاد الرافدين مع رب الأرض في إله واحد، وبين التوحيدية المصرية التي تقوم على إله هو الخالق لآمون (الشمس) ولجميع الكائنات الصغرى، وهو إله غير مشخص ولا شبيه له، ويعبر عنه بهالة الشمس. أما التوراة فقد جعلت يهوّه إلهاً خاصاً واعتبر هو نفسه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب (إسرائيل) وموسى، باعتبار هؤلاء جميعًا هم أصول اليهودية، ونادوا بأنفسهم أبناء إسرائيل.

ويهوه كان إلهاً إقليمياً آمن به قوم مؤاب، وتزوج موسى من ابنة كاهن هذا الإله فجعل اليهود منه إلهاً لموسى ومن حيث لا يدرى. وأصبح هذا الإله في التوراة هو رب اليهود فقط، وهو رب عات ينادى بالاستيلاء على أرض الآخرين، ويقتل أبنائهم وحرق أرضهم، ولم يكن أبداً هو الرب الذى دعا إليه موسى، فلم يكن إله الناس جميعاً كما هو الدين الأخناتوني، ولم يكن كذلك إله إبراهيم الذى آمن برب العالمين.

موقف علماء الآثار:

يقول العالم والمؤرخ ويلز Wells: «لا أحد يؤكد أن أرض الميعاد وقعت يوماً بيد العبرانيين اليهود. لا قبل النفي ولا بعده، وفي عهد الملوك فإن الملك سليمان لم يكن أكثر من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته هشة انهارت بعد موته ولم يكن سليمان يهودياً ولا عبرياً، بل كان كنعانياً بلغته وعقيدته. ولم يترك منشآت وحضارة، وليست المبالغة التوراتية عن عهده إلا وهما وكبرياء. لقد كان سليمان ضعيفاً أمام غيره، فكان مجرد مساعد للملك الفنيقي أحيرام الصورى الذى بنى له (الهيكال). وكان على ما يبدو بناء بسيطا لم يبق له اثر، كما أن عهد الملوك لم يتأكد أثرياً».

ويقول العالم مندنهول: «إن عهد الملوك كان كنعانياً وثنياً وانهارت دولته بسرعة. وتعزو التوراة هذا الانهيار لغضب يهوه على سليمان: «لأنك لم

تحفظ عهدى وفرائضى التى أوصيتك بها» (ل ١ ـ ١٣) وحتى قبيل النفى لم تكن العقيدة اليهودية واضحة ولم تكن التوراة قد كتبت بعد».

ففى فترة النفى فى بابل ٥٨٦ ـ ٥٣٩ ق.م تكونت الديانة اليهودية التى تقوم بوضوح على إدانة الإيمان بالإله العالمى الذى آمن به موسى فعلاً أو الإله الذى عبده سليمان، والإيمان بإله آخر نسب إلى موسى وهو يهوه، وجعلوا إبراهيم جسرا بين ادبيات المنطقة الرافدية التى نشأ فيها، وبين تاريخ الأرض المقدسة التى انتقل إليها. وربطوا بين دينهم ودين إبراهيم على الرغم من اختلاف الآلهة. وفى التوراة نداء إلهى لموسى: «يقول لبنى إسرائيل، يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق ويعقوب أرسلنى إليكم».

ومن الواضح أن يهوه لم يكن رب العالمين ولم يكن رب إبراهيم بل كان إلهًا خاصاً بشعب، ولم تعرف المنطقة المقدسة هذا الإله بل كان (إل) هو رب السموات والأرض، وجميع الأسماء التى تنتهى باسم (إل) مثل ميكائل إسماعيل إسرائل حزائل... تؤكد هذا الانتماء ولقد ظهرت هذه الأسماء منذ الألف الثالث واستمرت حتى اليوم.

لقد ظهرت اليهودية فى القرن الخامس ق.م. وكان نبوخذ نصر قد نفاهم عن أرضهم كغيرهم من المنفيين بعد احتلاله مناطق واسعة. وكان لابد لهذه الزمرة من البحث عن أرض بعد أن أطلق سراحهم قورش الاخمينى سنة ٥٣٩ ق.م فادخلوا فى توراتهم قصة الوعد الذى قطعه يهوه بالأرض من النيل إلى الفرات. ولعل المنفيين فى بابل لم يرجعوا جميعاً، وقلة منهم خرجت من بلاد الرافدين وانتشرت فى أنحاء مختلفة ومنها فلسطين، ولكنهم لم يستطيعوا إقامة دولة فيها، ولعلهم مارسوا عباداتهم وليس من أثر يؤكد وجودهم فيها إلا كمجموعة دينية كانت كثيراً ما تتعرض للاضطهاد، وبخاصة خلال حكم الرومانى هيرودوس الذى يقال أنه بنى لهم هيكلاً.

وحاول الآثاريون التوراتيون مثل (أولبرايت ودوفو) تحديد تاريخ وجود إبراهيم الخليل فى القرن ١٩ق.م. وذلك بالمقارنة والاستقراء. كذلك تم تحديد تاريخ وجود موسى بعد عهد أخناتون اى فى عام ١٣٥٠ق.م تقريبا. ولقد تأكد لجميع الآثاريين العلمانيين أنه لا علاقة ألبتة بين أعقاب إبراهيم وبخاصة يوسف الذى استقر فى مصر وبين موسى، وكذلك أجمعوا على نفى العلاقة النسبية بين موسى وبين داود وسليمان. كما تبينوا الفرق بين مفهوم التوحيد عند كل من هؤلاء الأنبياء. والفرق البيّن بين العقيدة التوحيدية وبين عقيدة اليهود أو عقيدة يهوه.

فليس اليهود من أعقاب إسرائيل (يعقوب) وليس ربهم هو رب إبراهيم أو رب موسى، ولم تبين البرديات التى تضمنت تاريخ مصر القديم أى وجود لبنى إسرائيل أو لليهود على أرض مصر.

إن هذه الحقيقة العلمية تتأكد بقوة، نتيجة الأبحاث التاريخية والتنقيبات الأثرية التى تقام فى فلسطين المحتلة بقيادة علماء من العالم ومن إسرائيل ذاتها، ولقد كان دافع الإسرائيليين فى التنقيب الأثرى هو تأكيد وجودهم على الأرض المحتلة، وتثبيت ما ورد من تاريخ إسرائيل ومن أساطير ومطامع تتركز فى ما أورده كتاب التوراة فى سفر الرؤيا من نبوءة بظهور المسيح المنتظر الذى سيقيم مملكة الرب فى الأرض والتى ستدوم ألف عام، ومن الوعد الذى قطعه الرب يهوه لإبراهيم بمنحه الأرض من النيل إلى الفرات، وذلك لتبرير قيامهم دولة إسرائيل لتدوم ألف عام على أرض تقع بين النيل والفرات.

وسنرى أن جميع الحفريات الأثرية التى اجريت فى المنطقة كلها وبخاصة فى سورية والأردن ثم فى إسرائيل، لم تقدم أى دليل على الوجود الإسرائيلى تاريخيا أو على اعتبار هذه المنطقة الجغرافية هى أرض إسرائيل، أما الحجر المؤابى، و هو نصب حجرى عليه نقش نص ملك مؤاب ميشع، يتحدث فيه عن حروبه مع إسرائيل، وعن طرد سكانها خارج مؤاب، فلقد شكك العلماء بنص هذا النقش للتاويل والإضافة التى تمّت فيه بسبب زوال كثير من الكلمات.

البحث عن تاريخ إسرائيل:

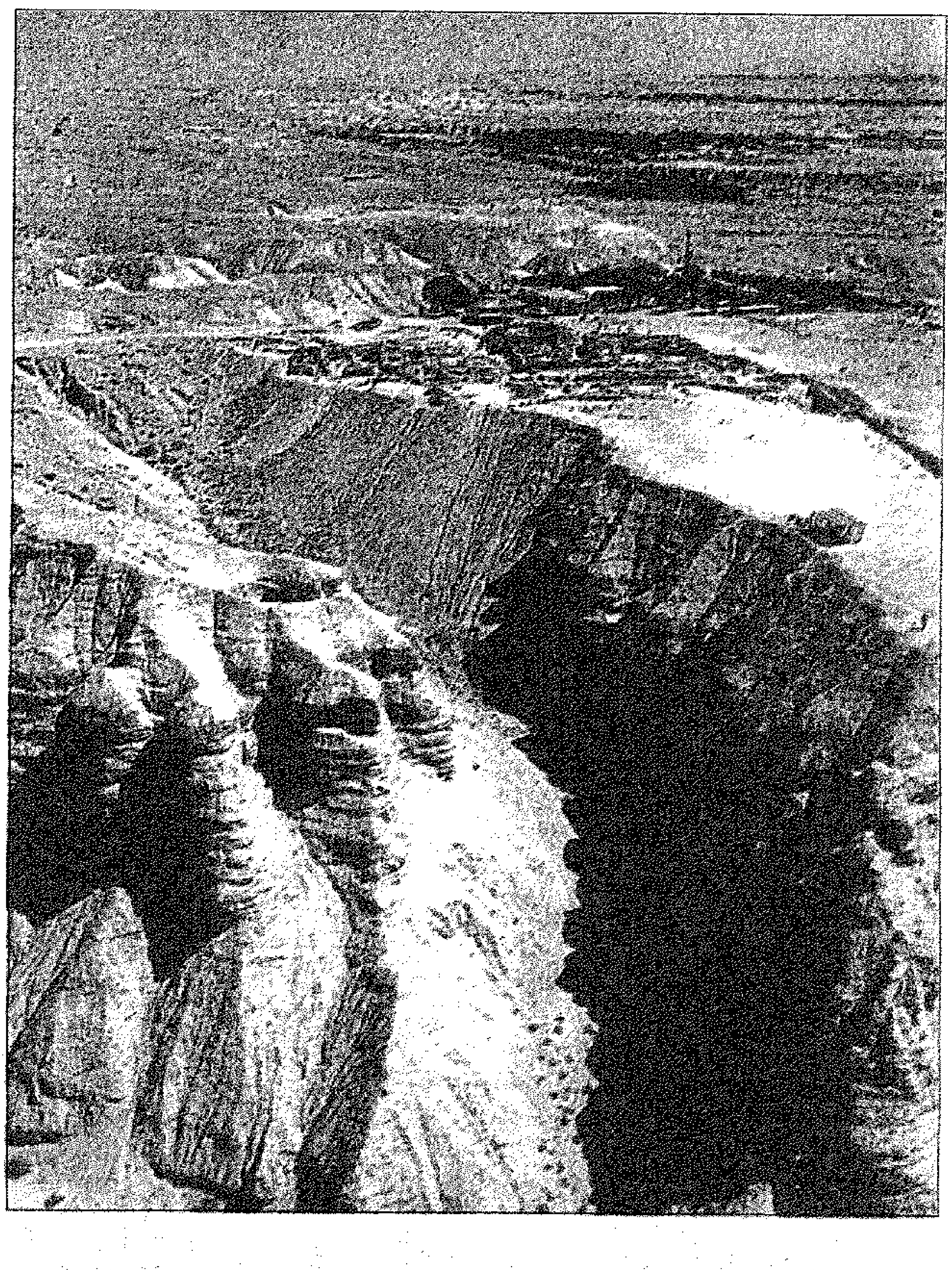
قبل الخمسينيات لم يكن أمام الآثاريين الذين يبحثون فى تاريخ الشرق القديم من مصادر إلا ما روته التوراة، وكان أكثر المتحمسين للمصادر التوراتية، الآثاريون والمؤرخون من أمثال: أولبرايت و أهارونى وغلوك الذين اعتمدوا التصنيف على هدى الأحداث التوراتية، فعندما اكتشفوا تحصينات فى القدس نسبوها إلى داود. وكذلك نسبوا موقعا فى تل المتسلم اعتبروه اسطبلات سليمان... على أن جميع هذه التأويلات الوهمية التى صفق لها التوراتيون بحماسة، لم تلبث أن تراجعت أمام دراسات علماء الآثار بعد عام ١٩٥٢.

كان المنقبون يعتمدون على ما ورد فى سفر الخروج وسفر يشوع (الأصحاح ٧ ـ ٩ ـ ١٠)، وفيه أن العبرانيين خرجوا من مصر بقيادة موسى، ثم تاهوا فى سيناء، وعند مرورهم من شرقى الأردن (كما فى سفر العدد) احتل موسى والقبائل الاثنتا عشرة جزءًا من أراضى مؤاب، وبعد مقتل موسى من جماعته فى موقع يسمى نبو، تولى القيادة يشوع ابن نون فقطع نهر الأردن إلى أريحا، ويخبرنا سفر يشوع أن أريحا كانت مدينة كنعانية مسوّرة ومنيعة، وأن العبرانيين لم يتمكنوا من اختراق أسوارها إلا بمعجزة من يهوه الذى هدم الأسوار أمام العبرانيين الذين طوّفوا حول الأسوار سبعة أيام وهم ينفخون بالأبواق احتفالاً، ثم دخلوا أريحا فهدموها كلها وقتلوا سكانها.

فلسطين

يؤكد فرويد فى كتابه (موسى والتوحيد) المعتمد على كتاب يوسفوس، أن النبى موسى كان فى بدايته قائداً مصريا، وكان من أتباع أخناتون فرعون مصر الذى تبنى الديانة التوحيدية، وهى ديانة تؤمن بإله واحد (آتون) يقع فيما وراء الشمس، فهو خالق الشمس (آمون) وخالق الكون كله وهو رب العالمين وليس إله مصر وحدها

موقع قمران وأماكن العثور على اللفائف



على هدى هذه الأخبار التى فرضت على الآثاريين باعتبارها توراتية مقدسة، فإن الآثارى غارستانغ Garstang خلال حفرياته عام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٦ فى أريحا، قد أعلن أنه عثر على شواهد تؤكد تدمير أريحا زمن يشوع، إذ اعتقد أنها كانت محصنة بسور كان الإله يهوه قد هدمه أيام يشوع، كما تقول التوراة.

ولكن السيدة كاتلين كينيون Kenion قامت فى أريحا ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨ بحفريات مهمة كانت سببا فى هزيمة جميع الأفكار والاستنتاجات السابقة، وكانت السبب فى إعادة النظر فى كل ما كان يعتبر من المسلّمات، واثبتت أن سور أريحا المكتشف يعود إلى العصر البرونزى القديم وأن أريحا لم تكن مسورة خلال العصر البرونزى الأخير. أى زمن يشوع، وأنه لا صحة ولا حجة من أن العبرانيين احتلوا أريحا، بخاصة أن سفر القضاة يتحدث عن معاركهم وأنه لا يوضح أنهم احتلوا كل فلسطين، بل هم الخبيرو الذين كانوا طبقة من المحاربين المرتزقة ذوى أصول حضارية ولغوية مختلفة كما يرى ميك.

لقد بدأت الحفريات الأثرية فى القدس منذ عام ١٨٦٧ بعد إنشاء صندوق الاستكشاف الفلسطينى، وكانت بإشراف السيروارن بحثاً عن مدينة سالم فى عهد اليبوسيين. ثم قامت بعثة بريطانية سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١١ بإجراء تحريات عن الهيكل والقصر فى عهد سليمان. وتابع الأب فانسنت الحفريات بحثاً عن نفق يؤدى إلى خارج الأسوار،وادعى أن الجدار الجنوبى من سور الأقصى يعود إلى عهد سليمان. وفى سنة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥ تم اكتشاف سور وبرج نسب إلى داود، وفى كل مرة كان المنقبون يربطون مكتشفاتهم بالتاريخ التوراتى، دون الاعتماد على تاريخ الفخار.

وفى عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ استمرت السيدة كينيون العالمة البريطانية بالتنقيب فى القدس وأريحا معتمدة على تاريخ الفخار المكتشف، وكان هذا تحولا مهماً فى تاريخ البحث الأثرى، إذ نستطيع تحديد تاريخ الفخار أو أى جسم عضوى عن طريق فحص تبدو أشعة الفحم ١٤ فيه، وخلال الخمسة الآف عام.

لقد استطاعت هذه العالمة الجريئة أن تنقض جميع الفرضيات التى قامت على المدلول التوراتى غير العلمى بنظرها، ولم يلبث جميع الذين خالفوها فى البداية أن أعلنوا صواب وموضوعية اكتشافاتها. وآخر تقاريرها يؤكد أن ما حسبه المنقبون من أسوار وأبراج تعود إلى عهد داود، أو من قوس اعتقد روبنسون أنه يعود إلى عهد داود أيضا، هو خطأ، بل إن جميع هذه المنشآت تعود إلى

القرن الثاني الميلادي، أي إلى العصر الروماني. ونفت أن تكون الأحجار من بقايا الهيكل.

لقد استاء الإسرائيليون من هذه النتائج، وقرروا استئناف التنقيب في المنطقة المتاخمة لجدار الحرم الشريف، في الزاوية الجنوبية الغربية، وكان ذلك بعد احتلال القدس سنة ١٩٦٧، وتولى التنقيب العالم الإسرائيلي مازار ومساعده بن دوف، وكانت المفاجأة باكتشاف آثار ثلاثة قصور ومسجد من العصر الأموي، وأعلنا أن هذه القصور قد استمرت عامرة خلال العصر الأموي والعباسي والفاطمي.

لقد حضر هذا الاكتشاف وزير الدفاع آنذاك موشيه دايان المشجع والمتابع لعمليات الكشف عن الهيكل، فأعلن استياءه وطلب نقض هذه الآثار للبحث تحتها عن سويات قد تكشف عن الهيكل، وتابع المنقبون عملهم ولكنهم تأكدوا أن أقدم ما يمكن العثور عليه يعود إلى عصر هيرودوس في بداية الميلاد، وليس من بين البقايا ما يعود إلى هيكل هيرودوس، حتى تاج العمود المنسوب إليه فهو يتسم بطابع مصري.

وتابعت جميع الحفريات التي تمت في فلسطين بعد حفريات السيدة كينيون انتصاراتها على الروايات التوراتية، ولم يستطع الآثاريون بمن فيهم الإسرائيليون، تقديم أي دليل أثري على مرويات التوراة، بل لقد أثبتت هذه الحفريات أن ما ذكره المنقبون من تصورات تتعلق بما سمي قلعة شاؤول في تل الغسول، وما يسمى بتحصينات داود في القدس، أو اسطبلات سليمان في تل المتسلّم، هي كلها تصورات وهمية قام الآثاريون بافتراضها، ولم تكن هناك ثمة آثار تعود إلى عهد داود أو سليمان، وأن برج داود يعود إلى الفترة الهلنستية وأنه لا وجود لاسطبلات تعود لزمن داود.

صحيح إن فقدان المصادر المكتوبة فيما عدا التوراة، جعل الآثاريين قبل عام ١٩٥٢ يعتمدون على مراحله التاريخية، ولكن علم الآثار في تقسيماته الشائعة يعتمد على ما يثبت من اكتشافات حضارية. وجميع المكتشفات التي تمت في فلسطين والأردن لم تقدم لنا أي إثبات على حضارة عبرانية، بل هي الحضارة الكنعانية التي كانت سائدة وزاهرة، وأن العبرانيين الذين سكنوا فلسطين كانوا أقلية عاشوا في بيوت بدائية واستعملوا الأساليب التي تعود إلى العصر البرونزي الحديث.

فشل البحث عن الهيكل وعن مدينة داود:

تذكر التوراة أنه في طرف على جبل موريا في مدينة القدس، كانت مدينة صهيون التي عرفت باسم مدينة داود، وفيها نشأت أورشليم ضمن مساحة صغيرة بنى عليها الملك سليمان سنة ١٠١٣ق.م هيكلا. تم ذلك بمساعدة ملك صور أحيرام، ولقد اطنبت التوراة بوصف هذا الهيكل الذي هدم سنة ٥٨٨ق.م من نبوخذ نصر، ويذكر أن هذا الهيكل أعيد بناؤه بشكل متواضع سنة ٥١٦ق.م. وفي عصر هيرودوس الذي نصبه الرومان ملكا، أعاد بناء الهيكل، وقد بالغ العالم دوفوغيه بوصف تفاصيل هذا الهيكل استنادًا إلى التوراة وإلى الوصف الذي أورده المؤرخ يوسيفوس، ولقد هدم الرومان هذا الهيكل بأمر تيتوس سنة ٧٠م فأين هي آثار هذه الهياكل؟

إن هذه الأعمدة والتيجان والسواكف والواجهات الحجرية الضخمة التي وصفت، لم يعثر على أي منها رغم التنقيب الكثيف، مع أن الأحداث التي تلت لا تبرر أبداً فقدان أي أثر للهيكل القديم الذي يعود إلى سليمان أو الهيكل الذي يعود إلى عهد هيرودوس. لقد يئس المنقبون من العثور على آثار الهيكلين، وتساءلوا ما إذا كانا قد بنيا من الطين والآجر، أو لعله لم يكن من هيكل بل مجرد مذبح، أو أن أحجارهما قد أعيد استعمالها في أبنية محدثة؟

استمر هاجس البحث عن الهيكل يشغل وزارة الأديان ومصلحة الآثار في إسرائيل، وكثيراً ما حاول الإسرائيليون التنقيب تحت الحرم الشريف مما يؤثر على بناء قبة الصخرة والأبنية الإسلامية الأخرى في الحرم الشريف. ولم تستطع أعمال التنديد وقرارات الشجب والمنع التي وجهتها منظمة الأمم المتحدة، أن توقف أعمال البحث عن الهيكل في منطقة الحرم.

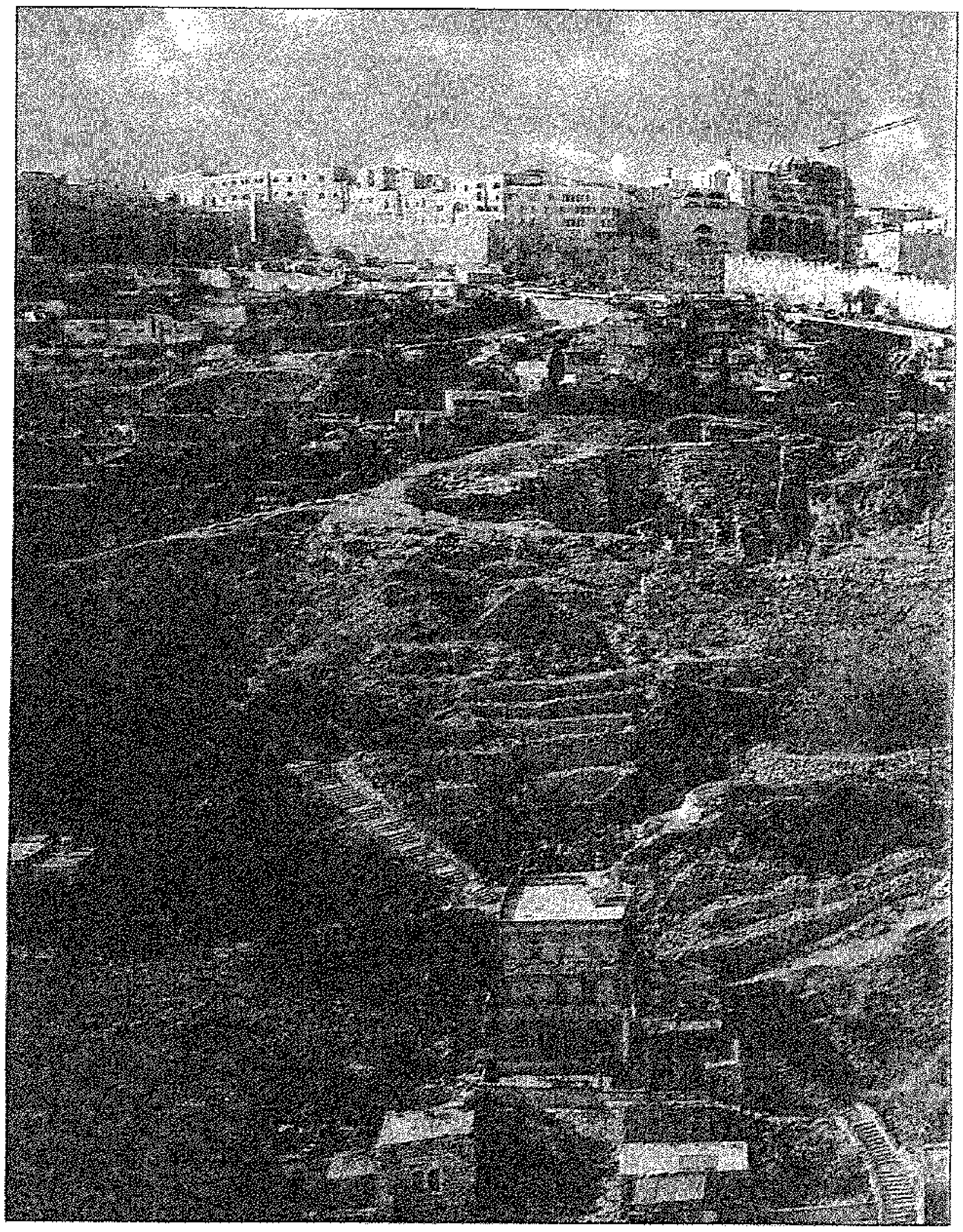
إن العثور على آثار تعود إلى عصر الحديد ولا تنتسب إلى التاريخ التوراتي، أصبح يفزع إسرائيل، ويدفعها إلى التعتيم على نتائج التنقيب الفاشلة. فالفشل في العثور على أثر الهيكل، يعني أن مدينة داود لم تكن حقيقة وأن عدم اكتشاف هيكل هيرودوس يعني أن اليهود لم يتمتعوا بعهده باعتراف السلطة الرومانية، بل إن التوراة تذكر أن هيرودوس كان أكثر الحكام بطشا باليهود، وهذا يتناقض مع القول بتشييد هيكل لهم لا نظير له،لم يعثر على أي أثر لهذا الهيكل.

ومع ذلك فإن النشاط الأثري الصهيوني لم يكف عن البحث عن تاريخ اليهود في فلسطين، فمنذ عام ١٩٢٥ اهتمت الجامعة العبرية بالتنقيب الأثري. وكان سوكنيك Sukenik أول من نقب عن الآثار، وهو والد إيجال يادين، وبعد أن يئس من بحثه التوراتي، اتجه للبحث عن القبور اليهودية في العصر الروماني الميلادي أي في القرن الثاني والثالث. ثم قام يادين نفسه بحفريات في حازور (قرب الحوله) بين عامي ١٩٥٥ـ١٩٥٨.

فلسطين

الملك سليمان لم يكن أكثر من حاكم صغير يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته هشة انهارت بعد موته ولم يكن سليمان يهودياً ولا عبرياً، بل كان كنعانيا بلغته وعقيدته. ولم يترك منشآت وحضارة، وليست المبالغة التوراتية عن عهده إلا وهما وكبرياء

منطقة التنقيب التي أشرف عليها أيغال شيلوح



وفي دراسة موسعة شاملة أصدرتها دورية فرنسية مشهورة هي «الملفات الأثرية» Les dossiersd ,archeolagie, paris -NO-165-166. خصصتها لمدينة القدس تاريخياً وأثرياً. اعتمدت على الآثاريين الإسرائيليين أنفسهم، وعلى نتائج تنقيباتهم في مواقع مختلفة، ولقد عرضت المجلة مجموعة مهمة من الصور التي تمثل مواقع التنقيب ونتائجها. وليس في هذه الدراسات والصور ما يشير أو يثبت الوجود الإسرائيلي والتاريخ الإسرائيلي في هذه المنطقة. وفيما يلي عرض لأهم ما ورد في هذه الحولية.

يعترف الآثاري الإسرائيلي بروسحي، أن التنقيب الأثري قبل حرب ١٩٦٧، كان مرتبطاً بالسلطة الأردنية وكان الآثاريون ينقبون موضوعياً. وبعد ذلك التاريخ يعترف أن السلطة الإسرائيلية وجهت التنقيب الأثري نحو مدينة القدس وحصراً في ما يسمى بمدينة داود وفي المنطقة التي يعتقدون أن الهيكل أنشئ عليها، مع البحث في الأحياء اليهودية القديمة، ويقدم هذا الآثاري ثبتا بالتنقيبات المتعاقبة التي تمت في هذه المناطق مبتدئاً بأعمال ١٩٦٠ التي قامت بها السيدة كينيون في جنوب الحرم في بساتين الأرمن، وقرب بوابة دمشق، وفي منطقة المرستان.

وقام الآثاري الإسرائيلي أفيغاد بالتنقيب في الحي اليهودي بالقدس القديمة وفي القلعة. ثم قام بروسحي نفسه بمتابعة التنقيب في بساتين الأرمن وفي سفوح الأسوار الخارجية. وهناك أعمال وحفريات أخرى قام بها آثاريون إسرائيليون من أمثال شيلوح وبركاي، اهتمت بالمدافن الأقل قدماً.

ويعترف بروسحي بعدم العثور على آثار محددة، بل حتى على أحجار منحوتة يمكن أن تنسب إلى سور أو هيكل أو قصر. ويعزو ذلك إلى كثافة المباني اللاحقة، وبخاصة تلك التي تعود إلى العهود الإسلامية.

ويقول: «لم يعثر أبداً على أي أثر أو شاهد للهيكل أو القصر، وإنما هي مساكن شعبية».

ويتحدث عن قوس روبنسون الذي ادعاه مازار، فنفى أن يكون هذا القوس قنطرة للعبور فوق الوادي باتجاه الهيكل. ولم يعثر فيما عدا هذا على أي أثر لمنشآت أقيمت في عهد هيرودس. بل عثر في منطقة المدافن على كتابات آرامية لا تدل أبدا على علاقة بالعبريين، وهي تعود إلى عام ٤٠م.

ويتحدث الآثاري المشهور مازار، عن تنقيباته الطويلة الأمد حول الحرم والتي لم تقدم له أي سند توراتي، مما دفعه للعودة إلى الرسائل التي ظهرت في تل العمارنة سنة ١٨٨٧ فيقول: «منذ القرن الخامس عشر ق.م. كانت بلاد كنعان جزءاً من الإمبراطورية المصرية. ويثبت ذلك ما تضمنته وثائق قصر أخناتون في تل العمارنة والتي تعود إلى القرن الرابع ق.م وقد أوردت اسم «عبد هيبا» ملكاً على القدس، وهو اسم لأسرة حورية جاءت إلى المنطقة في ذلك الزمن».

ولكن رسائل تل العمارنة التي

استمر هاجس البحث عن الهيكل يشغل إسرائيل، وكثيراً ما حاول الإسرائيليون التنقيب تحت الحرم الشريف مما يؤثر على بناء قبة الصخرة والأبنية الإسلامية الأخرى في الحرم الشريف. ولم تستطع أعمال التنديد وقرارات الأمم المتحدة، أن توقف أعمال البحث عن الهيكل

وردت من الشام إلى مصر كانت مكتوبة بالكتابة المسمارية وباللغة الأكادية، مما يؤكد أن السلطة في القدس كانت سورية حسب مازار الذي يتابع قوله: «وكانت حدود سلطان هذا الملك (عبد هيبا) ليست القدس الحالية فقط، بل الجبل حتى حدود رام الله في الشمال، وبيت لحم في الجنوب. وموضوع رسائل تل العمارنة يتضمن الحرب التي شنها عبد هيبا على الخبيرو، ومساعدة المصريين له بعد أن زار فرعون، واستقر حكم هذا الملك بعد قلق وتراجع، ويقول مازار: «على الرغم من وضوح هذه المصادر، فإن السيدة كينيون في تنقيباتها في الستينيات.لم تعثر على ما يطابق رسائل تل العمارنة وكذلك كان نصيب الآثاري شيلوح». ويذكر مازار:

«في بداية عصر الحديد ١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م (عصر الملوك)، تتحدث التوراة في سفر التكوين أن النبي إبراهيم باركه مليك صادق ملك سالم وكان الإله العلي (إل ايليون)، وسالم كان اسم القدس.. وتذكر التوراة أيضاً اسم أدونيت صادق كملك على القدس. ولكن التوراة تنظر إلى القدس على أنها مدينة أجنبية مسكونة من اليبوسيين حتى عصر داود». ونحن نعرف جيداً من خلال أسمائهم ولغتهم أن اليبوسيين هم من الكنعانيين العرب، ولم يستطع الآثاريون، وحتى الأمريكي المشهور أولبرايت أن يكتشف شيئاً يؤكد هذه المرحلة، على الرغم من عثوره على كثير من الآثار التي تعود فعلاً لعصر الحديد، ولكنها لا ترتبط بأحداث التوراة.

والمثير للانتباه، أن التوراة لم تتحدث عن معبد إله اليهود (يهوه) إلا باكتراث قليل بل ذكر أن سليمان لم يكن قلبه مع الرب كما كان أبوه داود، وانه بنى على الجبل تجاه أورشليم، معبداً لإله المؤابيين وآخر لإله العمونيين، واستمرت هذا المعابد أكثر من ٣٥٠ عاماً. (مل،١١: ١ ـ ٨) مما يدعو إلى الاعتقاد أن الهيكل لم ينشأ للعقيدة اليهودية، إذ أن سليمان انكر عبادة يهوه وعاد لعبادة الإله العليّ، والهيكل لم يكن لعبادة يهوه. ثم إن بناءه وحسب أوصاف التوراة، يشابه الأبنية والمعابد السورية في غوزانا (تل حلف) وحماتا (في حماة) وأوغاريت (في اللاذقية) وشمال (زنجرلي) والساحل الفينيقي. ولقد تأكد للمؤرخين أن أحيرام ملك صور أمر ببناء الهيكل وأرسل لذلك عماله، وأطلق عليه اسم هيكال وهي كلمة فينيقية، وكان لصور سلطان ونفوذ على سليمان.

ويتحدث الآثاريون عن الأسوار التي تحدد مساحة المدن الفلسطينية من القرن السابع والخامس ق.م. فيرون أن القدس ذاتها لم تكن مساحتها أكثر من ١٦ هكتاراً، وأن مدن إسرائيل ويهودا لم تتجاوز مساحتها ٦ ـ ١٠ هكتارات، بينما كانت مساحة المدن المعاصرة في آشور أكبر بكثير، فهي تصل إلى ٧٢٠ هكتاراً في نينوى، و٣٦٠ هكتاراً في كلح. وكذلك المدن الآرامية مثل حماة وحلف، أو الحثية مثل قرقميش، ولذلك فإن الأسوار الفلسطينية كانت محدودة.

وتتحدث التوراة عن عودة اليهود من المنفى في بابل، بمساعدة قورش ملك الفرس بعد نصف قرن من السبي الأول، ويتساءل الآثاري رولي خاريش قائلاً: «إن الحفر الأثري في القدس، أبان أن عدد السكان خلال فترة النفي لم يتناقص، فهل هذا يعني أن النفي لم يكن صحيحاً، أم أن المنفيين كانوا قلة وليس كما ورد في التوراة»؟!.

ويقول هذا الآثاري: «إننا لم نعثر على أثر لإسكان جديد خلال عصر الحديد وفي فترة ما يسمى بالعودة، وبقيت المنطقة المسماة مدينة داود وحدها المسكونة على صغر مساحتها».

وجميع الحفريات التي تهدف الكشف عن عصر الاحتلال الفارسي والحكم الهلنستي، لم تكشف عن آثار مهمة، بل نراها من خلال جرار عليها كتابات روديسيّة واختام باللغة الآرامية، وهي أقدم أختام رسمية وجدت في القدس. أما المباني الرومانية فهي أكثر وضوحاً، ولقد أطلق عليها العامة أسماء توراتية خطأً.

ويقول أفيغاد: «إن الحفريات الراهنة في الحي اليهودي في القدس، أغنت معرفتنا عن حضارة المدينة خلال عهد أسرة هيرودس من ٨٧ق.م ـ ٧٠م أي خلال مائة وخمسين عاماً كانت فيها القدس زاهرة العمران واكتشفت بعض الدور المزخرفة بالفسيفساء والفريسك وهي رومانية الطابع. ولم يكتشف أي أثر للهيكل أو لوجود يهودي».

ويقول الآثاري زافرير: «إن القدس في عام ٧٠م، أصبحت تحت حكم تيتوس الروماني الذي أحرق المعبد وهدم المدينة، ولم يبق منها إلا بعض الأسوار في منطقة الجنوب حيث استفيد منها لحماية جنوده». في ذلك الوقت حملت القدس اسم ايليا كابيتولينا ثم احتل البيزنطيون الشرق، وفي عام ٣٢٦م جاء قسطنطين مع أمه هيلينا لزيارة القدس، وفيها أنشأ الكنائس الأولى وأصبحت القدس منذ ذلك الوقت مركز النشاط المسيحي مع بيت لحم مهد المسيح، ولكن العاصمة كانت قيسارة، ولم تكن القدس أكثر من مدينة مقدسة تعرضت لاجتياح الفرس وتهجير أهلها، ثم تراجعت مكانتها حتى الفتح العربيّ سنة ٦٣٨م، حيث ابتدأت تستعيد هويتها العربية القديمة التي كانت عليها أيام اليبوسيين، وازدهرت معمارياً.

وتعترف الآثارية الإسرائيلية مريام روزن ايليون، أن كل ما نراه ضمن الأسوار يعود إلى الفترة الإسلامية، وتمثل المباني القائمة جميع العهود التي تعاقبت على القدس في العهد الإسلامي. ولقد تمت حفريات خارج أسوار الحرم من جهة الجنوب، وكان القصد منها اكتشاف آثار الهيكل، ولكن الآثار كانت أموية هي قصور ومسجد أنشئت في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان. حتى جدار المبكى المقدس عند اليهود، فلقد أكدت لجنة البراق الدولية أنه يعود إلى عهود إسلامية.

وثائق إيبلا وقمران:

لم تستفد جميع الدراسات الأثرية من أخبار التوراة ولم تؤكد أبداً ما ورد في أي حدث من أحداث التوراة، ونستطيع القول إن علم الآثار خلال الثمانينيات قد تخلى بوضوح عن السند التوراتي، تم ذلك بعد الصدمة القوية التي أصيب بها بعد اكتشاف إيبلا ووثائقها الضخمة عام ١٩٧٥، وكانت حملة التوراتيين بقيادة جماعة (بناي بريث) شديدة. ففي عام ١٩٧٥ امتدت مطامح التوراتيين إلى سورية بعد اكتشاف وثائق إيبلا في ادلب جنوب حلب، فقد هبّت الصحافة التوراتية ومن ورائها جماعة (بناي بريث) الصهيونية، لكي تعتبر هذا الاكتشاف هو ثورة في علم الآثار ثم صدرت كتب وقصص خيالية، تحاول أن تجعل هذا الاكتشاف لمصلحة التوراة، ولقد وصل الوهم والتحريف إلى حد القول أن لغة إيبلا هي اللغة العبرية، وأن إيبلا هي ذاتها أورشليم، وأن إبراهيم وآباءه عاشوا فيها سنة (٢٣٥٠ق.م)، بل إن الإله اليهودي (يهوه) كان معبودًا هناك.

ولقد أحدثت هذه الادعاءات اهتزازًا، مما دفعنا في سورية إلى إنقاذ الوثائق من الاستغلال الصحفي والصهيوني، وتسليمها إلى هيئة دولية من علماء اللغات القديمة لدراسة الوثائق بموضوعية، وعرض نتائج دراساتهم في المؤتمرات الأثرية، وكانت النتيجة كشف التحريف والاستغلال السياسي الصهيوني. وانتصر علم الآثار وتفاقم الشك بالتاريخ التوراتي، وأصبحت وثائق إيبلا مصدرا مهمًا للتعرف على تاريخ هذه المنطقة وعلى حضارتها وآدابها.

وفي عام ١٩٤٧ ومع ظهور دولة إسرائيل، فوجئ الآثاريون في العالم كما فوجئ السياسيون الإسرائيليون العاملون في الحقل الأثري لإثبات التوراة باكتشاف لفائف قديمة في شواطئ البحر الميت، كان عرب التعامرة، قد اكتشفوها مصادفة في قمران وغيرها، ولقد تبين أن مضمون هذه اللفائف أسفار توراتية أصلية، تختلف عن التوراة المتداولة، كما عثر على لفائف نحاسية تبين أنها تحوى معلومات عن أمكنة وجود كنوز ذهبية وفضية، تقدر كميتها من ٨ ـ ١٧٤ طناً. ومع أن هذه اللفائف تعود إلى السلطة الأردنية التي كانت مشرفة على الضفة، وكانت محفوظة في متاحفها، إلا أن إسرائيل قامت بالاستيلاء عليها بعد عام ١٩٦٧ وجعلتها سرية في بيت الكتاب في متحف القدس، ومنعت نشرها وحاسبت من يُسرِّب الأخبار عنها. ويقول عالم الآثار الشهير بيرّو: «إن عدم نشر وثائق قمران يشكل فضيحة، هي الأكثر إثارة في القرن العشرين».

ومن الواضح أن نشر هذه الوثائق سيؤدي إلى المسّ بحقيقة النص التوراتي المتداول، وفي نشأة المسيحية أيضاً، إذ أن الفاتيكان يؤيد كتمان هذه الوثائق.

والفضيحة الأخلاقية التي اكتشفت في عام ١٩٩٥ هي عمليات السلب التي تقوم بها الفرق الإسرائيلية السرية بحثاً عن الكنوز المحددة أماكنها في اللفائف النحاسية في منطقة أريحا، ولا يستبعد المراقبون في الصحافة الأثرية، أن تكون إسرائيل قد حصلت على بعض هذه الكنوز، كما ذكرت «الملفات الأثرية الفرنسية».

الأخبار التوراتية:

تنحصر القصص التوراتية في منطقة صغيرة جداً من جغرافية فلسطين، ولم تشكل الأحداث منعطفات مهمة في تاريخ هذه المنطقة. ورواة هذه الأحداث يخلطون بين الأحقاب والشعوب والأمم، وهم رواة متعاقبون، إذا ابتدوا منذ السبي الأول ٥٩٧ق.م، فإنهم لم ينتهوا حتى بداية الميلاد. ولذلك فإن هذه الأحداث ليست تاريخية صحيحة، وإنما هي لتمجيد بني إسرائيل والأحبار الذين كتبوا التوراة، والذين أعطوا أنفسهم حقوقا مقدسة لأرض ليست لهم من إلههم يهوه، وهو غير الإله العلي إله إبراهيم.

وحتى تاريخ الأنبياء وتسلسل الأمم، لم يستطع علم الآثار الإسرائيلي تأكيده وإثباته، بل تنافى مع الاكتشافات والكتابات التي حددت هوية الأقوام بصورة علمية. فالكنعانيون حسب التوراة ليسوا ساميين بل هم أعداء الساميين، وهو أمر خطير يجعل الثقة بمفهوم الأمم التوراتي معدومة. فالكنعانيون هم أصل سكان هذه المنطقة، ولغتهم هي لغة سامية أصلية تختلف عن الحوريّة والحثّية التي ربطتها التوراة بالكنعانية برباط عرقي واحد.

إن إعادة كتابة تاريخ فلسطين على أساس المكتشفات الأثرية التي قام بها العلماء من إسرائيل ومن أنحاء العالم، يجعل هذا التاريخ مغايراً تماماً لما ورد في التوراة. وجميع الاكتشافات التي تمت في فلسطين على هدى علم الآثار، أبانت أنها تتعارض مع الأحداث التوراتية، ولهذا اتجه أكثر الآثاريين إلى الفصل بين التوراة والتاريخ، ومن أبرز هؤلاء، فرانكن ولاب ودوفو وديفروماتيه.

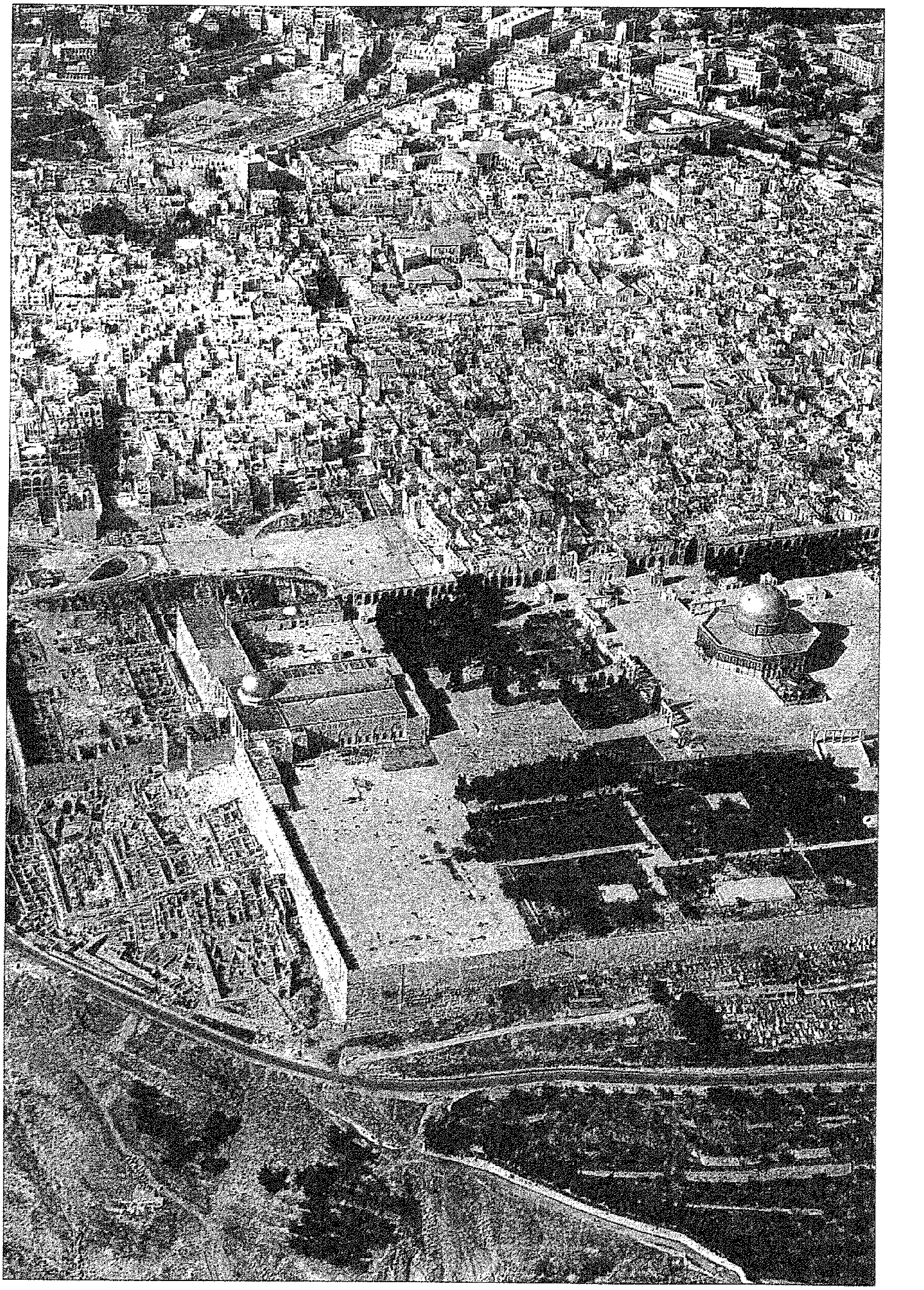
ويبدأ هذا الاتجاه عند ديفر Dever تحت غطاء الحرص على أزلية التوراة، فجوهر التوراة، كما يقول أزلي مرتبط بالإيمان، أما علم الآثار فهو علمي يتبع مناهج البحث النسبية، وإثبات حقائق الإيمان بمعارف زمنية يسيء إلى التوراة إذ يرفع مستوى النشاط الأثري إلى مستوى القدسية.

ويلح العلامة اللغوي فنكلشتاين Finkelstien على ضرورة فصل علم الآثار عن الدراسات التوراتية، على أساس أن التناقض يكمن في اختلاف الطريقة.

ويطالب العالم نوت Noth ومدرسته الأوربية بإلحاح، بفصل مماثل وبضرورة فصل الآثار السورية الفلسطينية عن التاريخ التوراتي.

أما العالم دوفو de veux فيقول بجلاء إن حقيقة الكتاب المقدس أمر ديني من حيث الأساس، ولا يستطيع علم الآثار البرهنة على تلك الحقيقة أو نفيها، ذلك أن نصوص الكتاب المقدس تتضمن تأويلاً دينيًا للتاريخ.

لقد بدا ماتيه Mathiae مؤخراً أكثر وضوحاً في الدعوة إلى الفصل، بعد أن تعرضت مكتشفاته في إيبلا إلى التأويل والابتزاز التوراتي والصهيوني، فهو يقول: «تفترض الأحداث التوراتية من حيث الأساس أنها تعاقب زمني طويل تتخلله أحداث أسطورية مهدت السبيل إلى ظهور الوحي الإلهي، أي أن شعوب هذه الأزمنة التوراتية وحضارتها لم يكن لها بعد تاريخي بل هي مجرد خلفية للأحداث التوراتية المقدسة. ولا يستطيع علم الآثار أن يؤكد أو يثبت صحة ما جاءت به التوراة من أحداث ومواقع. إن مهمة علم الآثار أن يحقق موضوعياً دراسة ميدانية لوثائق تاريخية تكشف عن حضارة ما بخصائصها البنيوية وبتأثيراتها المتبادلة خلال الفترة الزمنية التي عاشتها تلك الحضارة».



الحرم الشريف في القدس. وفي الزاوية الجنوبية الغربية تم اكتشاف آثار قصور أموية

دخول التوراة إلى العقيدة الأوروبية:

إن حكاية هذا الحق المقدس لليهود في فلسطين مازالت تروى بجدية وقناعة بتأثير التوراة. ولكن كيف أصبحت التوراة ناموس العقيدة المسيحية في أوربا. وكيف أصبحت السياسة الأوروبية نصيرا في مرحلة ما للصهيونية؟

تختلف التوراة عن الإنجيل، لقد اعتمد المسيحيون في العالم ومنذ قسطنطين الأول ٣١٠م على الإنجيل فقط، ولم تكن التوراة مصدرا من مصادر العقيدة المسيحية في أوروبا، ولكن الإصلاح الديني الذي دعا إليه مارتن لوثر في القرن السادس عشر أفسح المجال للاهتمام بالعهد القديم، ولقي ذلك معارضة مما دفع إلى وصم لوثر باليهودية، ولقد عرف باسم (الراعي اليهودي) لمعاداته الطقوس المسيحية، ولأنه نشر كتابا بعنوان: (عيسى ولد يهوديا). ونادى بحسن التعامل مع اليهود (وعدم اضطهادهم وعدم معاملتهم كالكلاب). ولكن عندما وجد لوثر أن اليهود ابتدأوا يستغلون هذا الموقف ويجمعون أنصارهم ضد المسيحية، تنكر لهم وأصدر كتابا عام ١٥٤٤ موضوعه (اليهود وأكاذيبهم). ولذلك انقلبت الأمور عليه فكان أول من اتهم باللاسامية من اليهود العنصريين، ولا يزال كذلك في تقديرهم حتى اليوم. على أن أتباعه من البروتستان رضخوا إلى مهادنة اليهودية ودعوا إلى دراسة التوراة واعتمادها. وأصبحت التوراة جزءا من طقوسهم الكنسية. مما أعطى الفرصة لليهود في أوربا أن يعلنوا منذ القرن السادس عشر عن شخصيتهم كاملة، وأن يتعاونوا مع البروتستان لإعلان أساطيرهم الثلاثة: الشعب المختار، والبعث اليهودي للمسيح، وأرض الميعاد.

وسار أتباع (كالفن) في إنكلترا في طريق موازية، بل إن التوراة أصبحت (أبديهم الوحيد)، ومرشدهم وفيلسوفهم، وأصبح أطفال البوريتان (أتباع كالفن) يسمون بأسماء توراتية عوضا عن الأسماء الإنجيلية.

وشهدت إنكلترا في القرن التاسع عشر عودة إلى المفاهيم البوريتانية التي جعلت من أساطير سفر الرؤيا أساسا لفلسفة لا تقوم على العقل والمنطق. وفي بداية القرن العشرين كان المبشرون الإنجيليون قد سلموا نهائياً (بحقوق الشعب القديم) وكانوا هم أصحاب الشعار الذي اعتمدته الصهيونية (وطن بدون شعب لشعب بدون وطن).

ويبدو واضحاً أن هذه المواقف لم تتضمن احتراما كاملا لليهود، بل هي محاولة للخلاص منهم وليس لخلاص أنفسهم، فكان الرأي السائد أنهم (متعجرفون، سود القلوب. منغمسون في الانحطاط الخلقي والعناد والجهل بالإنجيل).

ومع ذلك مازال هناك حتى اليوم من يعتقد أن عودة اليهود كاملة إلى فلسطين، هي بشرى الألف عام السعيدة، التي وردت في سفر الرؤيا، لكن الشرط المهم لتحقيق ذلك هو تحول اليهود للمسيحية، ويعتقد أصحاب هذا المذهب أن عودة اليهود إلى فلسطين هي مقدمة لعودة المسيح المنتظر الذي سيقيم مملكة الله في الأرض والتي ستدوم ألف عام.

ومع أن أوغسطين وضع حداً لهذا الزعم في كتابه (مدينة الرب) إذ اعتبر فكرة العصر الألفي السعيد مجازاً، وهي حالة روحية تحققت في عيد العنصرة أي بعد موت المسيح وبعثه، إلا أن ذلك الاعتقاد مازال مبدأ





صهيونيًا، فما تضمنته بروتوكولات حكماء صهيون في بازل عام ١٨٩٧ من مبادئ الصهيونية، لم يكن أكثر من تثبيت للأساطير التوراتية الثلاثة وهي: أسطورة الشعب المختار أي أنهم أمة منفصلة عن الآخرين، وأسطورة الميثاق التي ترتكز على الارتباط السرمدي الدائم بين الشعب المختار والأرض المقدسة كما وعد ربهم يهوه، والأسطورة الثالثة هي أسطورة عودة المسيح المرتقب.

لقد ضللت هذه الأساطير التي صنعتها الصهيونية المسيحية والإسلام، فالمسيحية مازالت تنتظر مجدها بالعودة إلى موطن المسيح (Decivitate Dei) الذي سيعود بعد تشرد طويل. ومازال خافياً على الفقهاء المسلمين أن الرب في التوراة ليس هو رب العالمين. ومنذ أن ترجمت التوراة إلى اللغات الأوروبية أصبح تاريخ المنطقة العربية لا يعرف إلا من خلال الأساطير والقصص التاريخية والخرافات الواردة في العهد القديم، ولم تؤخذ على حقيقتها بل قبلت دونما تمحيص عقلي.

وكان هذا التحريف التاريخي بدعة كرسها الإصلاح الديني، ومع ذلك فلقد كانت فكرة ترحيل اليهود من أوربا إلى فلسطين مقبولة لديهم، على الأقل لأمر واحد كما كان يقول مارتن لوثر: «إننا سنزودهم بكل ما يحتاجون لرحلتهم، لا لشيء إلا للتخلص منهم، إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا».

وفي القرن الثامن عشر كان فولتير ينتقد بشكل لاذع تقديس التاريخ اليهودي واعتبار الشعب اليهودي أقدم شعب عرفه الإنسان. ولكن الدعوى الصهيونية استمرت شاغل اليهود المنتشرين في أنحاء أوربا، وكانت دعوتهم ونشرهم لأخبار التوراة في كل مناسبة تتم بالاستعانة برجال الدين وبالعلمانيين الذين أفسحوا في المجال لأساطير العهد القديم كي تحل محل الأساطير الإغريقية ـ الرومانية. تم ذلك في الأدب والشعر كما تم في الفن تصويرًا ونحتًا.

ولم تكن الأهداف الصهيونية طارئة، بل هي أهداف قديمة تقوم على نزعة السيطرة والاستنزاف المادي.

إن العنصرية القومية التي كونت العداء بين الصهيونية وباقي الشعوب، رافقتها دائما عنصرية دينية كونت العداء بين اليهودية وباقي الأديان. وإذا كان من جملة أهداف أوروبا أن تبعد اليهودية عنها باحثة لها عن وطن آخر، فإن تحديد هذا الوطن بفلسطين قلب البلاد العربية يعني زرع شعب غريب اللسان والعقيدة والتاريخ والأهداف على أرض العرب المقدسة. لكي يحول هذه القدسية لغير أهلها. ولكي يجعلها قاعدة لبث عمليات التخريب القومي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي في أجزاء الوطن العربي، وبذلك تكون الإمبريالية قد حققت هدفًا مزدوجًا.

لقد أعلن رئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٠٢، وهو كامبل باترمان قائلاً: «ثمة قوم يسيطرون على أرض واسعة زاخرة بالخيرات الظاهرة والباطنة، وتسيطر هذه الأرض على مفترق طرق العالم، وهي مهد الحضارات الإنسانية والأديان، ويجمع هؤلاء القوم دين واحد ولغة واحدة وتاريخ واحد وآمال واحدة. لا يعزل بينهم أي حاجز طبيعي يحول دون الاتصال والاتحاد ولو تم ذلك. أي لو اتحدت هذه الأمة في دولة واحدة في يوم من الأيام، لتحكمت في مصير العالم، ولعزلت أوربا عنه. لذلك يجب زرع جسم غريب في قلب هذه الأمة يكون عازلا من التقاء جناحيها، ويشتت قواها في حروب مستمرة، ورأس جسر ينفذ إليه الغرب لتحقيق طموحاته».

علم الآثار بمجابهة الكيان الإسرائيلي:

على ضوء النتائج العلمية أصبح واضحاً أن فلسطين لم تكن لبني إسرائيل، بل كانوا غرباء فيها، واستمر وجودهم قلقا ومحدودا زمنًا قصيراً. إذا كان منهم من استمر مقيما خلال الفترة الرومانية والمسيحية وحتى الإسلامية، فهذا لا يعني أنهم أصحاب هذه الأرض، فاليهود في قزوين وفي أي جزء من العالم، كانوا أكثر عددا منهم في فلسطين، ولكن الحق العربي يبدو واضحا في مرحلتين. المرحلة الأولى أيام اليبوسيين وهم من الكنعانيين أجداد العرب ومنهم الآراميون أيضاً. والمرحلة الثانية تبدأ منذ العهد الإسلامي واستقرت متنامية بتصاعد وتكريم وتقديس خلال أربعة عشر قرنا. ولكن عندما كان اليهود يبحثون عن وطن في أوغندا أو في أمريكا اللاتينية أو موزمبيق، صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ ليجعل فلسطين وطنًا قومياً لليهود.

ولكن علم الآثار أصبح أقوى فاعلية من أي وعد أو أية قوة أو أي قرار يصدر عن الأمم المتحدة بإنشاء دولة غريبة على أرض عربية ويدعم وجودها ويدعم الاحتلال المتعاقب فيها.

إن هذا العلم وحده قادر على كشف وتعرية المطالب الإسرائيلية وعلى تأكيد الصفة الاحتلالية. وعلى نفي التاريخ الإسرائيلي كله، ونفي الأحداث الإسرائيلية وجعلها أسطورة وخرافة. ولعلنا استطعنا من موقعنا كمشرف مسؤول على عمليات التنقيب في سورية، أن ندفع بالعلم الأثري أشواطا في مجال إيضاح هويتنا القومية التاريخية على هذه الأرض الواسعة، وفي مجال الطعن بجميع الأساطير التي خلقت حقوقاً مقدسة أدت إلى إيجاد دولة إسرائيل التي تهدد الوجود العربي في الحرب وفي السلم.

وإذا أصبح علم الآثار أكثر تحدياً لمبادئ الصهيونية، بات لازماً أن تعتمد المجابهة الحدية مع الوجود الإسرائيلي على هذا العلم الذي يتحدث بلغة موضوعية، تبقى أكثر قبولاً في محافل السياسة الدولية، من الأساطير التي عششت طويلاً في العقائد الشعبية وكانت سبباً في قيام دولة استعمارية غاشمة تطمع بأرض يحدها الفرات والنيل.

اليونان الأخرى في

نافذة على الآداب العالمية

نعيم عطية

■ يدعو الترحيب الذي لقيه عطاء الشاعر اليوناني الكبير يانيس ريتسوس في أوروبا حتى بعد وفاته في ١١ نوفمبر ١٩٩٠ إلى تأمل مصير العمل الأدبي خارج الإطار الضيق لحدود وطنه الأصلي. والذي حدث في أغلب الأحوال بالنسبة لما ترجم من الأدب اليوناني الحديث إلى لغات أوروبية أنه استقبل على أنه لا يتضمن غير ترديد لوجهات النظر الأوروبية دون أن يعثر القارئ خارج اليونان فيما ترجم من آداب هذا البلد الحديثة على جديد يستحق الوقوف عنده والاحتفاء به كثيرًا. ولكن كان لهذه الظاهرة بعض الاستثناءات الجديرة بالاعتبار، مثل كافافيس (١٨٦٣ - ١٩٣٣)، الذي قدر له أن يتجاوز الحدود المحلية ليرقى إلى مصاف الأدب العالمي. فقد وجد القارئ غير اليوناني في عطاء هذا الشاعر على الأخص صورة للإنسان غير تلك الصورة البطولية التي عودتنا عليها «الكلاسيكية». أما سفيريس (١٩٠٠ - ١٩٧١) الذي لم يعترف به إلا متأخرًا، فقد أيقظ - بلا عواطف كاذبة - الحنين إلى حضارات ترقد في بطون السنين نائمة. على أن إعادة التلاقي بين اليونان وأوروبا تتحقق بالأخص في أعمال كازندزاكي (١٨٨٢ - ١٩٥٧)، فقد اكتشف مثقفو أوروبا علاقة وثيقة بين «زوربا» وبين «الإنسان الطبيعي» الذي تحدث عنه الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو صاحب «العقد الاجتماعي» المتوفى عام ١٧٧٨ داعيًا به إلى خلاص الإنسان من أغلال المدنية التي تكبله وتكبت بداخله بذرة التلقائية. ولكن الآثار التي حققها لفت كازندزاكي وسفيريس لأنظار الأوروبيين والأمريكيين إلى اليونان ما لبث أن تحولت إلى آثار سياحية على الأخص. فقد بدت اليونان، بالنسبة لأهل غرب أوروبا الذين انتعشت أحوالهم الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية، بلدًا رخيص التكاليف صالحًا لقضاء العطلات بين ربوعه السابحة في ضياء الشمس وزرقة السماوات والبحر. ولهذا كان الدور الذي أدته أعمال ريتسوس عندما ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية مختلفًا، فقد كان ريتسوس يتحدث عن الإنسان الآخر، الإنسان المثخن بالجراح والمكبل بالأغلال، ولم تكن اليونان في قصائده هذا البلد الساجي المستكين في حضن الشمس والجبل، بل كانت البلد القلق المعذب، وكان ذلك دعوة إلى أوروبا لأن ترى الوجه الحقيقي لليونان المعاصرة، أو بعبارة أدق أن ترى «اليونان الأخرى».

ولم يعرف القارئ الأوروبي يانيس ريتسوس شاعرًا حق المعرفة إلا في مارس عام ١٩٥٦ عندما نشر لوي أراجون في مجلة «الآداب الفرنسية» أول تعريف بالشاعر اليوناني الذي وصفه بأنه «ارتجافة جديدة في الشعر الحديث» وستتأكد هذه المعرفة بما سيترجم له فيما بعد من أعمال مثل «ملاحظات على مجرى الأحداث» و«تدريبات» و«النافذة» و«الجسر» و«الوداع» و«الشواهد».

لم يعرف القارئ الأوروبي يانيس ريتسوس شاعرًا حق المعرفة إلا في مارس عام ١٩٥٦ عندما نشر لوي أراجون في مجلة «الآداب الفرنسية» أول تعريف بالشاعر اليوناني الذي وصفه بأنه «ارتجافة جديدة في الشعر الحديث» وستتأكد هذه المعرفة بما سيترجم له فيما بعد من أعمال مثل «ملاحظات على مجرى الأحداث» و«تدريبات» و«النافذة» و«الجسر» و«الوداع» و«الشواهد»

وتعتبر قصيدته «حادث ليلي» إحدى «شواهده»، وهي تشكل إلى جوار «شواهد» أخرى عالمًا يواكب العالم الواقعي، عالم كل يوم، حيث يتقاتل الناس وتتصادم المصالح إلى ما لا نهاية، ويطلق على هذا التقاتل، ذلك التصادم بين المصالح، في بعض الأحيان «سياسة» وهي عملية ضارية، وقد أودت بالشاعر إلى المعتقلات والسجون أكثر من مرة، حيث عانى من أجل معتقداته صنوفًا من البلاء زاد من طينها بلة مرضه الصدري الذي عانى منه طويلاً. ولنستمع إلى قصيدة «الحادث الليلي» حيث يقول ريتسوس:

«سمر المسمار في الحائط.
لم يكن لديه ما يعلقه عليه..
راح ينظر إليه جالسًا قبالته في المقعد القديم.
لم يكن بقادر أن يفكر في شيء، أو أن يتذكر شيئًا.
نهض وغطى المسمار بمنديله.
وفجأة، رأى يده مخضبة بلون أزرق. دهنها به القمر الذي كان يقف عند النافذة.
كان القاتل قد رقد في سريره.
ساقاه عاريتان وطيدتان ممدودتان خارج الغطاء.
تتعانق الشعيرات عليهما في وله.
وأظافره متسقة، وإن برز من أصبعه الصغير ورم خشن ضئيل.
هكذا تنام التماثيل على الدوام بعيون مفتوحة.
وما عاد أي حلم أو قول يثير الخوف.
لقد توفر لك الشاهد الصادق الأمين الكتوم.
لأن التماثيل - وأنت تعرف ذلك - لا تخون.
وإنما هي تفصح فحسب وتبين.

ولكن أيًا ما كانت أرض الواقع، فإن أرض الشعر يجب أن تبنى على نسق آخر، فهي تبنى من كلمات وظلال ونور ولهب يحيل حتى الروث إلى ذهب مصفى. ولنستمع إلى ريتسوس في قصيدة من قصائده تشبه قصيدة «الحادث الليلي» وهي قصيدة «العجوز الطيب» - لنستمع إليه يقول:

«كان ينظر إلى الشاطئ الآخر ويقول لا أميز الألوان، والأصوات، والأعلام.
ربما كان هناك احتفال، أو ربما كان هناك جناز.
أنا لا أبصر، ويريحني الضباب.
كان كوزماس قليل الكلام، ويعجبني فيه قلة الكلام.
أذكر بيتًا قديمًا في الغابة بلون الورد، مغلق النوافذ.
وكم من كلام بددنا بلا جدوى، ربما لأننا كنا نخاف أن يدركنا يومًا - يدركنا الصمت.
وكان الغراب يتجلى على الدوام مسمرًا على السحب فوق الصناديق الخشبية المتروكة من قديم أمام مدخل المخزن المهدم.
هناك تتجمع القطط وتتوالد.
وهناك على أحد الصناديق أجلس، شبه مغمض العينين، منتظرًا أن يمر أحد فيراني».

ويمضي ريتسوس في «شواهده» على العصر، فيدين غياب الحرية، وعدم الاكتراث بالأحداث الجارية عن كثب، وأيضًا الوهم بأن الخطر إنما يأتي فحسب من بعيد، بينما هو قد يكون أقرب من حبل الوريد، فلا تجدي في اكتشافه ودرئه في الوقت المناسب المناظير المكبرة للرؤية عن بعد. ويقول الشاعر في قصيدته «أبنية ذاتية»..

«أخرج من الصندوق المنظار المكبر والقميص الداخلي.
كان قد أغلق النوافذ.
الذبابة تحط الآن على الكوب. لم يهشها.
بسط على الأرض الورقة. تناول مقصًا، وقص القبعة والسيف والحزام.
ثبت ذلك كله في حذر بدبابيس أكثر مما يلزم لتثبيتها عادة. انتصبت واقفة.
وضع المنظار المكبر جانبًا، وراح ينتظر.
عندما دقوا جرس الباب لم يفتح، كان المنظار المكبر للرؤية عن بعد».

ما الذي فعله ريتسوس كي يبني فنه على ما تجلى في قصائده «الحادث الليلي» و«العجوز الطيب» و«أبنية ذاتية» وغيرها من «الشواهد»؟

إنه رفض بادئ ذي بدء التردي في العاطفية التي فات أوانها. ومثل سفيريس عمد ريتسوس إلى فن تقل فيه - إن لم تنعدم - النزعة العاطفية التي استنفدت أغراضها من قبل في شعر «المدرسة الأثينية الجديدة» وتلامذة بالاماس (١٨٥٩ - ١٩٤٣) ومقتفي أثره. كما رفض ريتسوس الانجراف إلى «شعر فولكلوري سطحي». صحيح أنه مثل سفيريس وجيل الثلاثينيات، الذي هو منه أيضًا، عمد إلى استنباط روح الأغنية الشعبية، وجوهرها، فمضى النبض الشعبي - على الأخص في قصائده الأولى - كامنًا في قصائده دون أن تدخل في عداد التقليد الحرفي الأعمى للأغاني الشعبية أو كل ما هو فولكلوري. وبعد ذلك لجأ ريتسوس إلى بناء قصائد عصرية تمامًا، ومن سمات هذه العصرية، عدم اكتراثه بأن تكون القصيدة أداة تواصل مباشر مع القارئ، واختار طريق التعبير غير المباشر، فامتلأت قصائده بالإيماءات والرموز والدلالات دون أن تكون مقصودة لذاتها. وبدت من أجل ذلك على قصائد ريتسوس حيادية تامة، فلا هي تنحاز أو تفسر أو تتحمس، بل هي ترصد وتومئ فحسب. ولم تتضمن أعماله لذلك حلولاً جاهزة ولا جيشانًا عاطفيًا ولا إدانات عما كان يمكن أن يتردى فيه شاعر لم يتنبه إلى المعنى الحق لكل من الأصالة والمعاصرة. واحتفظ فن ريتسوس في النهاية بنضارة كل ما هو حي، ويعمق كل ما هو تليد، بل وأيضًا بغرابة كل ما هو مؤرق ومحير. ولنقرأ الآن قصيدة لريتسوس بعنوان «رقصة امرأة ليست شابة»:

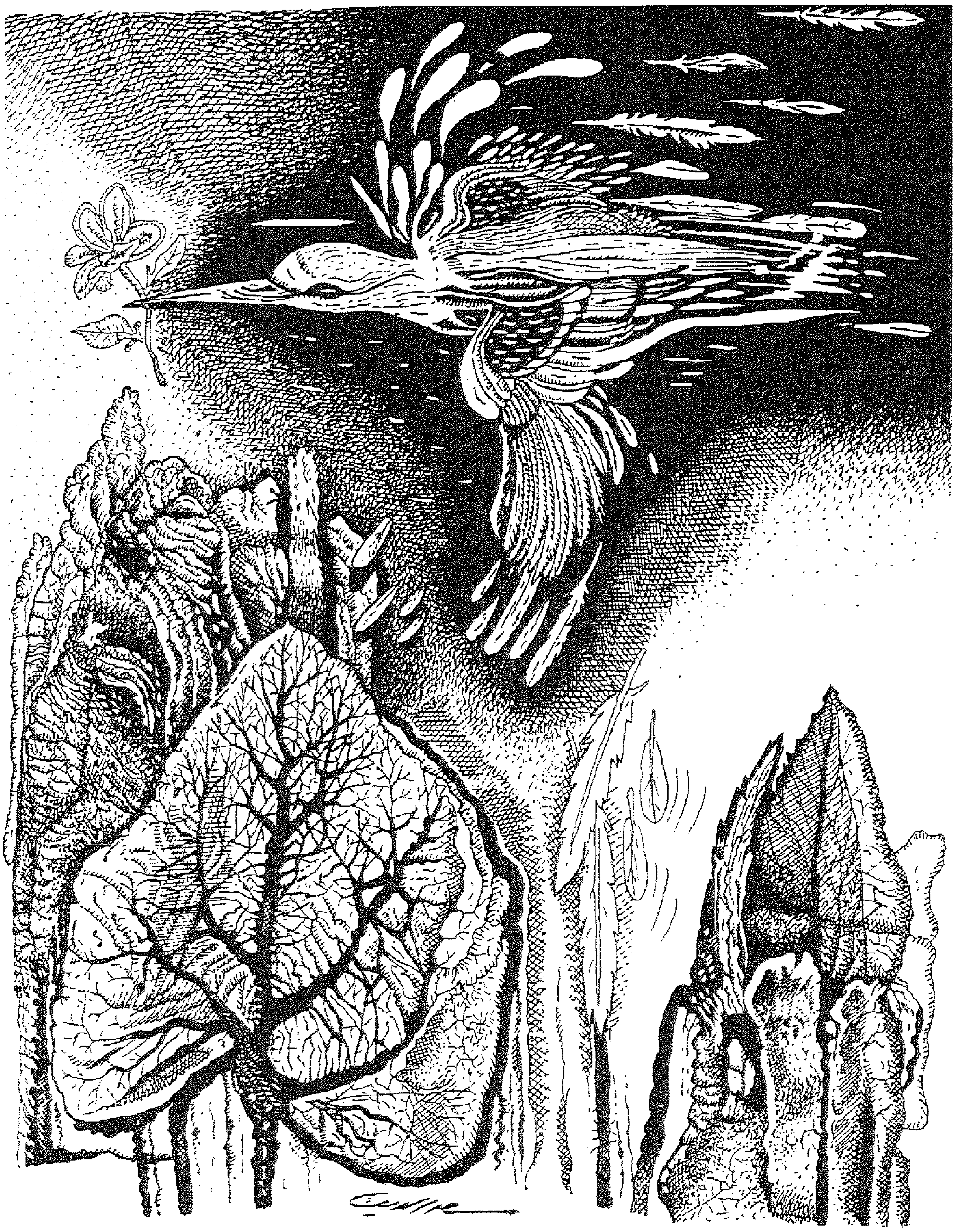
«لا تخبرني، دعني أخمن. قالت أعرف كيف أخمن.
أقفز من شرفة إلى شرفة، وأنا أحرك إحدى ذراعي.
أنزع الستار الأبيض. ألقي به على كتفي.
أنتبه إلى أنني حافية القدمين، يحفزني ذلك على أن أرقص.
أخطر في الهواء. انظر. قدمي اليسرى أكثر رشاقة، واليمنى أكثر حنكة!
فلنواصل الحديث. انظر. هذه أنا.
كل حبل، حتى لا ينفرط خيطه، هناك، على الدوام، في نهايته، عند طرفه القصي، عقدة محكمة.
أليس هذا ما لا نتوقع على الدوام، وفي النهاية تكون المفاجأة؟
وددت أن أعلم أحدًا هذه الرقصة».

وقد وقف القراء إزاء قصائد ريتسوس المجازية المقتضبة، المحتملة لأكثر من معنى، والتي كتبت في أحلك الساعات من حياة الشاعر، وتحكي عن ألاعيب الحكمة والحماقة بأسلوب حيادي - وقف القراء كما لو كانوا يقفون عند حدود «منطقة محظورة».

وفي إحدى قصائده من ديوانه «الحائط في المرآة» يقول ريتسوس:

«وبعد ذلك:
لم يعد لديه ما يضيف. من الواضح أنه كان يتحاشى بحذر شديد أن يتفوه بكلمة «موت»».

وسوف يلاحظ القارئ في هذه الأبيات أن ريتسوس يرفض التفوه بكلمة «موت»، وهذا الرفض يبين كم هو شاعر إيجابي، لا يعترف بالهزيمة والاستسلام والعدم التي هي كلها



شعر يانيس ريتسوس

مرادفات للموت. وكم حاول الوحوش أعداء الإنسان أن يضيقوا الخناق عليه، وأن يحطموه. إن تلك البساطة التي عرض بها ريتسوس دقائق المواقف الإنسانية العصيبة، تصب على أرواحنا طوفانًا من التأثير العميق، وتبث فينا قدرة أقوى على الصمود. وقد تواصل عطاء ريتسوس من القصائد المجازية المركزة منذ عام ١٩٦٧.

وتطلبت هذه القصائد من القارىء إلمامًا بحقائق ومعارف في مجالات أخرى غير الشعر. وبعبارة أخرى أوصلت هذه القصائد إلى نوعية أخرى من التذوق الشعري. وربما ظل القارىء الذي ينتظر عطاء تقليديًا يحس بالغربة إزاء هذه القصائد الحديثة لريتسوس، فقد كانت مقومات تذوق هذه القصائد خارجة عن مجرد نطاق النص الشعري، ويحتاج إلى إلمامة عميقة على الأخص بمجرى أحداث اليونان المعاصرة.

ولئن كانت ستظل هناك فجوة بين قصائد ريتسوس هذه وبين جماهير القراء العريضة، إلا أن ذلك إن دل فعلى السمة الطليعية المستقبلية في شعر ريتسوس. وإذا كان الأمر قد احتاج إلى عشرين سنة كي يتبين القراء أن القصاص التشكيلي الكبير فرانز كافكا كان يصور في قصصه غير المحبوبة إبان حياته الناس في عصره من خلال استبداد البيروقراطية ومعسكرات الاحتجاز، فإن قصائد ريتسوس منذ عام ١٩٦٧ قد احتاجت بدورها إلى زمن كي يجد فيها القارىء تصويرًا فنيًا صادقًا لكثير من أسرار الحياة في عصره، على الرغم من إغفالها الإشارة إلى أية أحداث بعينها. بل إن ريتسوس يقتلع الناس والأشياء والأماكن من واقعها المحدود، ويصفيها من شوائبها اليومية، فتبدو في علاقات جديدة، كما يحدث في الأحلام، ويحتفظ بها في قصائده للمستقبل طلية لا يدركها تلف أو زوال. ويبدو ذلك جليًا في قصيدته «خاتمة المطاف» حيث يقول:

«ينحرف في سيره، يدير أنظاره، إلى الناحية الأخرى، يحاول أن يفلت من الشيء الذي يتعقبه تعقبًا مثل التصاق سترته بظهره.

لا يمكنه أن يخلع ملابسه، فالجو بارد. وعلى الأخص، عند تقاطع الطريق، حيث ينظر أصحاب المتاجر، من وراء الواجهات الزجاجية، أو وقوفًا بالخارج على الأرصفة، نظرات حوارية إلى كل مار.

ويحس هو بنظراتهم في جيوبه، بل وفيما هو أعمق من جيوبه.

ويمضي على هذا الحال إلى أن يصل إلى الميدان المقفر الذي كنسته رياح اللاجدوى، هناك لا توجد سوى قواعد تماثيل أبطال مجهولين.

تماثيل خطفتها ذات ليلة عاصفة نساء غاضبات، أخذتها بين أحضانها، ورحلت بالقطار».

وتدفع صنعة ريتسوس في قصيدة مثل «الحادث الليلي» تدفع القارىء إلى أن يبدأ، ولحسابه، من جديد صعود الدرب الذي شقته القصيدة، دون أن تفرض عليه مسارًا لا حيدة عنه، فلا شيء مفروض في قصائد ريتسوس، بل هناك ما هو مفترض فحسب، ويشبه ريتسوس في ذلك المصور بيكاسو الذي بتمزيقه وتقطيعه صورة الشخص يدعو المتفرج إلى أن يعيد ترتيب المزق، ليستجلي له الوجه على حقيقته من جديد.

وبين فن ريتسوس الشعري وفن بيكاسو التشكيلي وجه شبه آخر، يتمثل في انكباب كل منهما على طرق الموضوع الواحد العديد من المرات من زوايا متعددة. وإذ يحاول ريتسوس أن يشرك القارىء معه في إعادة بناء القصيدة وسبر أغوارها، فإنه أيضًا يحاول أن يوفق بين الإفصاح والإضمار. وينجح في محاولته تلك من خلال الاقتصار على التحكم في إخراج القصيدة، أما بعد ذلك فكل شيء يترك لتقدير القارىء. وإليك هذه القصيدة لريتسوس، وهي بعنوان «قبيل الفجر»:

«عندما يوغل الليل، وتقل الحركة في الشوارع، ويترك عساكر المرور مواقعهم، لا يعرف هو ماذا يفعل.

يطل من الشباك على الواجهة الزجاجية للمقهى الكبير، المعتمة بضباب الأرق، يرى أشباح الجرسونات يتبدلون وراء الخزينة. ينظر إلى السماء بثقوبها البيضاء الرحيبة، ويرى من خلالها عجلات الأوتوبوس الأخيرة.

ثم يسمع هذا القول من جرسونات المقهى «أي خدمة. أي خدمة أخرى».

ثم إجابة من يقول «لا شيء.. لا شيء..».

يدخل الغرفة العارية. يسند جبينه إلى كتف تمثاله (وهو أعلى من القوام الطبيعي) شاعرًا ببرودة الصباح على الرخام، بينما تحت في الفناء ذي البلاط المكسور يجمع الحراس الخيوط المقطعة من أغلال المنفيين».

❖

«من أين يجيء هذا الشعر؟ من أين تجيء هذه الارتجافة، حيث تلعب الأشياء - على ما هي عليه - دور الأشباح.

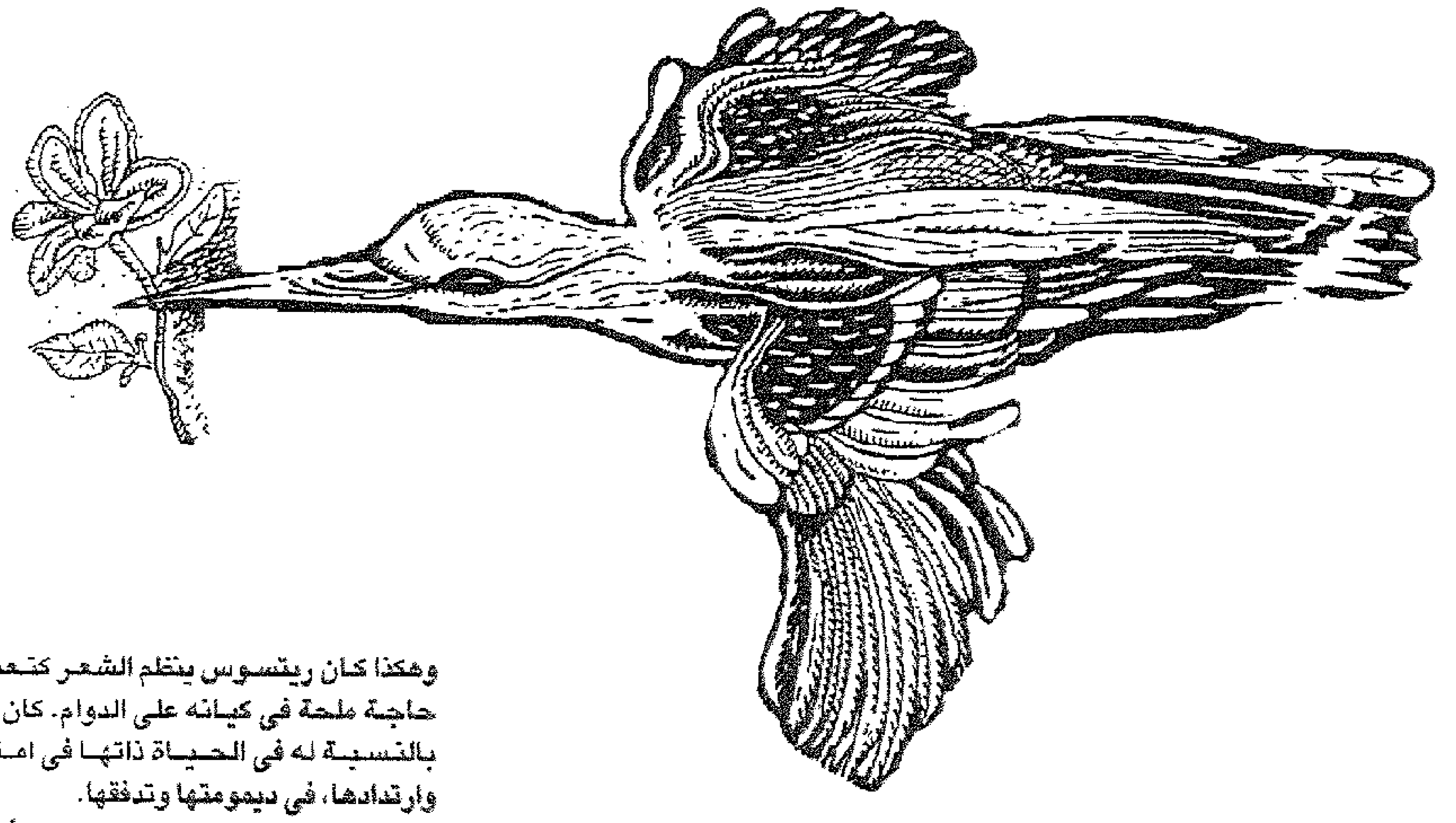
إن هامليت اليوناني ما عاد يواجه الملوك القدامى، وأوديب الجديد لا يلتقي بالهولة، بل بالأوضاع المعاصرة اللئيمة؟».

بهذه الكلمات قدم الشاعر الكبير لوي أراجون قصيدة «سوناتا ضوء القمر» ليانيس ريتسوس، في مجلة «الآداب الفرنسية»، بعددها الصادر في ٢٨/٢/١٩٥٧ عندما ترجمت هذه القصيدة إلى

شعر يانيس ريتسوس

الفرنسية. وقد ظلت التساؤلات التى انطوت عليها كلمات أراجون دون إجابة، وذلك شأن الشعر الجيد على الدوام. يثير فى القلوب الدهشة، ويحفز على التنقيب فى أرجاء القصيدة تقصيًا عن الإجابات. ومثل الصانع الماهر الأريب الذى يخفى أدق أسرار صنعته وراء مظهر يبدو للعيان بسيطًا ساذجًا، يحقق ريتسوس إبداعاته الشعرية المدهشة بزهد مفرط فى الكلمات ومن خلال الحديث عن أشياء مألوفة للغاية، ويحيى ريتسوس فى شعره تقليدًا موغلاً فى القدم، هو ذلك التقليد الذى يمضى فيه الشاعر عبر قصيدته دون أن يقول «أنا» بل يترك الناس والأشياء تتحدث بنفسها عن نفسها. وبهذا «الانمحاء» يترك الشاعر للوجود فرصة أن يزيح اللثام عن وجهه، ويقول ريتسوس أنه بدأ هذه الطريقة من الكتابة التى يسميها «الشواهد» منذ أن عرف نظم الشعر أى منذ سن الثامنة. ويقصد الشاعر بذلك أنه إنما عنى منذ البداية أن يكون شعره نوعًا من «الشهادة».

ومنذ أن وجدت الأمواج والشطآن والصخور، لا تكف الأمواج عن التكسر على صخور الشاطىء، فى حركة مد وجزر دائمة،



وهكذا كان ريتسوس ينظم الشعر كتعبير عن حاجة ملحة فى كيانه على الدوام. كان الشعر بالنسبة له فى الحياة ذاتها فى امتدادها وارتدادها، فى ديمومتها وتدفقها.

«قيل لى أنك تكتب بغزارة.. حسنًا فلنفكر فى عدد ما كتبه هوميروس من أبيات، وعدد ما كتبه أسخيلوس وسوفوكليس من مسرحيات! حقًا، إنى أعمل كثيرًا. وأعتبر أن العمل سمة من سمات الطبع اليونانى، وليس بوسع المرء أن يكون يونانيًا وكسولاً فى آن واحد، لقد سيطر الإغريق على الطبيعة والتاريخ من خلال العمل.....».

ولكن الشعر ليس بالنسبة لريتسوس معادلاً موضوعيًا للحياة والعمل فحسب، بل هو حالة من الوجد والتبتل والعبادة:

«لم أعرف كيف أجنى ثروة من أشعارى ولكن أينتظر الكائن الإنسانى مكافأة عندما يتوصل إلى الله؟ وإنى أكتب الشعر فى الحقيقة كما لو كنت أصلى. وإذا كنت أرفض استخدام الآلة الكاتبة فى الكتابة فلأننى لا أريد شيئًا وسيطًا بين أصابعى وصفحة الورق.. إننى احتاج إلى تحسس ملمسها كما أتحسس مادة حية..».

وتلقى ذكريات ريتسوس وأحاديثه عن كتاباته وأفكاره وفلسفته فى الحياة والفن أضواء ساطعة عليه كإنسان وأديب، وهو فى هذا المقام يقول:

«لم يكن لدى ناشر أول الأمر، فكان علىَّ أن أمول مؤلفاتى بنفسى.. وكنت ما أن أستعيد جزءًا من التكاليف، بعد بيع كتاب، حتى أدفع الثانى إلى المطبعة.

ولم يتسن لى الحصول على شروط عمل ملائمة إلا عند بلوغى التاسعة والأربعين من عمرى. أما قبل ذلك فقد عملت مجرد مراجع فى إحدى دور النشر، ولكن ذلك أفادنى كثيرًا، فقد قرأت وأعدت قراءة دوستويفسكى وغيره من الأعلام. وفى وقت سابق عملت فى المسرح، وكانت مهنة شاقة، وفوق ذلك كان علىَّ أن أهتم بأسرتى، كنت أحتاج إلى نوم عميق، لكننى فى تلك الفترة لم أستطع ذلك حتى نشرت «سوناتا ضوء القمر». ونلت الجائزة الوطنية للشعر، فتحسنت أحوالى. وفى بداية عام ١٩٥٦ وقعت عقدًا مع دار «كيذروس» التى رغم ظروف عديدة لم أتخل عنها قط. إن الإخلاص خصلة مهمة فى نظرى».

لجأ ريتسوس إلى بناء قصائد عصرية تمامًا، ومن سمات هذه العصرية، عدم اكتراثه بأن تكون القصيدة أداة تواصل مباشر مع القارىء، واختار طريق التعبير غير المباشر، فامتلأت قصائده بالإيماءات والرموز والدلالات دون أن تكون مقصودة لذاتها. وبدت من أجل ذلك على قصائد ريتسوس حيادية تامة، فلا هى تنحاز أو تفسر أو تتحمس، بل هى ترصد وتومىء فحسب

وقد كانت السياسة نسيج حياة ريتسوس أيضًا، كالشعر، وقد اكتوى بنارها مرارًا، دخل السجون، وزج به فى المعتقلات. وعانى من تحديد الإقامة بسبب آرائه السياسية، لاسيما فى ظل نظام الكولونيلات، وهو فى هذا يقول:

«لا تقل السياسة أهمية فى حياتى عن الشعر. إن أصل أسطورة ريتسوس - إن كان هناك مثل هذه الأسطورة - لا تكمن فى أشعارى فحسب، بل وفى حياتى كمناضل سياسى».

ولكن ريتسوس ما استخدم الشعر يومًا كتابع ذليل للسياسة، ولا سخره لخدمة أغراض خارج فن الشعر ذاته، ولنضرب مثلاً على ذلك ببعض قصائده، فنشير فى هذا المقام أول ما نشير إلى قصيدته «الآن فحسب» وتجرى أبيات القصيدة بالآتى:

«الآن، وما عاد لديك شىء تقوله، أو تطلع الآخرين عليه، أو تقترحه أو تدافع به عن نفسك. الآن، وقد ضاع كل شىء (وليس ذلك بالنسبة لك أنت فحسب) الآن بالضبط يمكنك أن تتكلم، وأنت تتجول بين أدوات التعذيب، وتدير بخنصرك التروس الحمقاء للساعات التالفة، أو العجلة المعلقة التى استخرجوها توًا من السفينة الغارقة.

الآن، بالضبط، والحبال تنزل من البكرات المثبتة فى السقف ويتردد صخبها من مواضع غير محدودة فوقك، مثل النجوم فى تلك الليلة، عندما عدنا من الريف، فوجدناهم قد وضعوا فى الفناء الرخامى بنظام صارم كرسيين من الخشب أسودين عاليين، وفى الوسط نعش الملك المقفل الذهبى، بلا أعلام، بلا تاج، بلا سيف».

كانت البساطة تنساب كالموسيقى فى حياة ريتسوس وشعره، ويصف أحد أصدقائه بيته قائلاً:

«فى بيته كانت الغرفة التى يشغلها مكتبه متواضعة جدًا: منضدة مثقلة بالكتب والأقلام، مروحة ومصباح نفطى بلون أزرق، أريكة، ومكتبة صغيرة رتبت على رفوفها قطع من الحجارة وأصص ورد. وفى الأرجاء تناثرت لوحات وتماثيل ومنحوتات يمكن أن تملأ صالة عرض صغيرة».

تنطوى قصائد ريتسوس على محاورات درامية فى مسرح يتخذ له من عتبات الدنيا خشبة، تتلاقى عليه أشد الشخصيات تباينًا، تتبادل الإيماءات من قصيدة إلى أخرى. ولنذكر فى هذا المقام على سبيل المثال العجائز فى قصيدة «البيت الميت»، والأم الكليمة فى «الجناز»، والبناءون والمهرجون والنكرات من عابرى السبيل وغيرهم من الشخصيات فى قصائده النابضة بالحياة. يتحدث إلينا كل من هؤلاء بإصرار ويقين عن «الإنسانية التى هى ملك للناس أجمعين».

ولسوف يستوقفنا في شعر ريتسوس على الأخص تلك الرصانة في التعبير، والقناعة البلاغية مع ثراء المحتوى الشيئي فقد حفلت قصائده بالعديد من الجمادات مثل النوافذ والأبواب والمرايا والثياب وشتى الأدوات. وقد نفخ في هذه الماديات الصغيرة، التي لا تستغني عنها حياة البشر العادية، من روح الشعر، ما ارتقى بها إلى مستوى يجعل منها شركاء في مأساة لا تعنيها، فبالنسبة لها «لا شيء يحدث» بينما كل شيء في هذا «اللاحدوث» يحدث حقًا.

وفي قصيدته «مقابلة» يقول ريتسوس:

«لا شيء بالطبع، يأتي من تلقاء نفسه تمامًا، لابد أن تنقب أنت أيضًا لتجد.

في الأصبحة، تدخل الشمس من النافذة الشرقية. فيصير المقعدان الأرجوانيان باهتي اللون. تظل الشمس قليلاً. ثم تنسحب، تاركة وراءها إيحاء بالنعومة التي يخلفها الانطفاء الوئيد.

والزهور على السجادة، التي وطأتها الأقدام من قبل، تلصق آذانها بالأرض، وهي محقة فيما تفعل. إذ تنصت إلى الإيقاع الرتيب الصاعد من سنابك أحصنة تدق الأرض بالطابق السفلي، ثم تدخل المرأة الصموت. إنها تتحاشى - كما ترى - أن تطأ بقدميها تلك الزهور.

إن «غير المدرك» ربما أمكن أن يشارك في تحمله اثنان، وإن كان لا يتجلى في الحقيقة إلا لواحد على الدوام فحسب».

ويمضي ريتسوس في قصيدته «شكل الأشياء الغائبة» فيتحدث عن عالم الأشياء التي توجد في حياتنا وتتحالف مصائرها بمصائرنا، دون أن نعير وجودها التفاتًا، فيقول في مقاطع من هذه القصيدة:

« كل ما رحل انشب جذوره هنا، في المكان ذاته، حزينًا صامتًا، مثل إناء زهر كبير كان في البيت ثم بيع في أوقات عصيبة.

وفي ركن الغرفة، هناك، حيث كان الإناء قائمًا، ظل الفراغ مكثفًا على هيئة الإناء الذي لا يمكن عزله عن المكان. ويلمع بوضوح في الضوء بين الحين والحين عندما يفتح الشباك.

وفي الإناء ذاته الذي تغير جوهره عما كان عليه البلور الخاوي، ظل ذلك الفراغ على ما كان عليه.

كل ما هنالك أن زاد الألم في أصداء الرنين.

من خلف الإناء يبين لون الحائط، وقد زاد إظلامًا وقتامة وإيحاء بالأحلام، كما لو كان الإناء مرتسمًا على مومياء.

وفي بعض الأحيان بالليل في ساعة سكون، بل وبالنهار أيضًا في خضم الأحاديث المتبادلة بين الحاضرين، تسمع في أعماقك صدى حادًا، مريرًا، كثير الذبذبات، كما لو كان ثمة أصبع خفي ارتطم بذلك الإناء البلوري الخجول، بذلك الجماد الذي لا يعرف الإشفاق.

.... صارت هذه الغرفة بئرًا عميقة. المصباح نجم مسمر على صفحة الماء، وسرير أيام الصبا في مكانه القديم، بينما فوق عاليًا، عند سطح الماء تسقط الساعات مثل عشب جاف، بطيئة وبلا ثقل، فتشق الماء بدوائر خفية.

هنا، ما من أحد يتكلم، وحتى إذا كان يتكلم فما من أحد يسمعه، وإذا مال كوب وسقط، فهو يسقط بلا صوت في راحة الصمت، ولا ينكسر.

صرخة الفراق القديمة، وقد ذابت في الماء تجعل وحدها البئر تبدو أكثر إظلامًا وعمقًا.

... في بعض الأحيان، تخيم على الغرف سكينة عميقة غريبة، كما لو كانت رفعت المرساة الكبيرة وضاءة من الأعماق، وصارت الحدود غير محدودة بين هنا وهناك.

عندئذ، أنت لم ترحل، بل نحن فقط تعدينا الحدود، شاعرين خلفنا دون أن نلتفت وراءنا، بخطواتنا المستريحة، بينما يمتد أمامنا الشط المترامي في الضوء الساجي عاريًا.

وعلى الرمال الناعمة المبتلة، ارتسمت آلاف الصلبان الصغيرة من مخالب الطيور البحرية التي كانت تسير هنا، ومرت إلى الجانب المقابل، دون أن تطير».

وقد ربطت بين ريتسوس وبين الناس علاقة حب. ولكن الحب أيضًا كان رباطًا يصل بينه وبين الكون والأشياء.

«لقد هرمت ومازلت أكتب القصائد الغزلية. عندما يعيش الكائن الإنساني حتى يشيخ، يشكل مع الأرض والكون وحدة متكاملة».

ومن قصائد ريتسوس الغزلية القصيدة الآتية:

أغمض جفني،
في الليل الساجي،
وأسمع مئات النجوم
تغني
عندما تنساب أناملك البيضاء على جسدي
أنا سماء الصيف المرصعة بالنجوم.
بحبك
أصبحت عميقًا ووسيمًا للغاية،
أصبحت كبيرًا ورحيبًا
أصبحت أكبر من أن تأخذيني بين ذراعيك وتضميني إليك.
يا حبيبتي
تعالي، نقتسم الهدايا التي جلبتها لي.
هاهي الغابة تنحني أغصانها مثقلة بزهورها البيضاء».

والشيخوخة في نظر ريتسوس تجعل الإنسان لا ينظر إلى ما حوله بعين الحدث اليومي، بل بكل تجارب الماضي.

وعن علاقة القصيدة بكل من الإبداع والالتزام يقول ريتسوس:

«بالنسبة إليَّ ليست هناك قصيدة ملتزمة وأخرى غير ملتزمة. توجد القصيدة أو لا توجد أبدًا. لا ينبع عالم الشاعر من الأيديولوجيا، ولا يمكن أن تكون المسألة في الشعر حدود الالتزام...».

لم تكن البساطة عنوان حياة ريتسوس وحسب، بل كانت أيضًا عنوان شعره، وفي قصيدته «معنى البساطة» يقول:

«خلف الكلمات البسيطة أختبيء. حتى تعثروا عليَّ.

فإن لم تجدوني فسوف تعثرون على الأشياء.

سوف تلمسون تلك التي لامستها يداي.

وبصمات أصابعنا على أديمها سوف تتحد...».

لم يكن ريتسوس في يوم من الأيام يائسًا، فلا مكان لليأس - كما يقول - في الشعر، ويمضي مقررًا أنه عرف دائمًا كيف ينتصر على الخوف، وكانت القصيدة عنده ملاذًا ونهرًا للحرية يعرف كيف يحفر مجراه العميق، وكيف يجرف في تياره ما يعوق سيره:

«إن القصيدة تعرف كيف تنتقم من جميع الطغاة»!..

يقول ريتسوس في قصيدته «تشويهات محتملة»:

«وضعوا المرآة في الصندوق.
وبدثار غطوا الصندوق.
بإمكانهم الآن أن يتحركوا بحرية،
أن يسعلوا ويركعوا، أن يأتوا بإيماءات،
أن يلقوا ماء بإصرار إلى الزهور الورقية الكليمة في الإناء.

ومع ذلك، فقد ظلوا من جديد صامتين، وجلين، يخيم عليهم الحزن، لا يتحركون، خوفًا من أن تكون المرآة قد ظلت تعكس صورهم بمبالغة مهولة، وهي تلتقطهم من أسفل إلى أعلى،

فيبدون بأقدام ضخمة، وبلا رؤوس على الإطلاق».

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٣. في التناسب

اعلم أن التناسب هو اتفاق أقدار الأعداد بعضها من بعض ، والعددان لا يتناسبان . أقل النسبة من ثلاثة أعداد ، وأقل الأعداد المتناسبة بثلاثة أعداد المتناسبة إذا كانت ثلاثة ، فإنَّ قدْر أولها من ثانيها كقدر ثانيها من ثالثها ، وكذلك بالعكس ، كل ثلاثة أعداد متناسبة ، فإن مضروب أولها في ثالثها كمضروب ثانيها في نفسه وهذا مثال ذلك : «٩٦٤» ، كل ثلاثة أعداد متناسبة إذا كانت حاشيتاها معلومتين والواسطة مجهولة . أعني بالحاشيتين الأول والثالث ، فإذا ضُربت إحدى الحاشيتين في الأخرى ، وأخذ جذر المجتمع كان ذلك هو الواسطة المجهولة . فإن كانت إحدى الحاشيتين معلومة ، والواسطة معلومة ، ضُربت الواسطة في مثلها ، وقسم المبلغ على الحاشية المعلومة ، فما خرج من القسمة فهو الحاشية المجهولة . الأعداد المتناسبة ، إذا كانت أربعة فإن نسبتها على نوعين أحدهما نسبة التوالي ، والآخر غير التوالي ، فأمّا الأعداد المتناسبة المتوالية على نسبتها إذا كانت أربعة ، فإن قدر أولها من ثانيها كقدر ثانيها من ثالثها ، وثانيها من ثالثها كثالثها من رابعها مثال ذلك : « ب د ح يو» إذا كانت أعداداً متناسبة غير متوالية ، كان قدر أولها من ثانيها كقدر ثالثها من رابعها ، ولم يكن قدر ثانيها من ثالثها كقدر ثالثها من رابعها ، مثل هذه الصورة : «ح و ح يو» وكل أربعة أعداد متناسبة متوالية كانت أو غير متوالية ، فإن مضروب أولها في رابعها مثل مضروب ثانيها في ثالثها . وإذا ضربت إحدى الواسطتين في الأخرى ، وقسم المبلغ على الحاشية المعلومة ، فما خرج فهو الحاشية المجهولة . فإن كانت إحدى الواسطتين مجهولة ، وسائرها معلومة ، ضربت إحدى الحاشيتين في الأخرى وقسمت المبلغ على الواسطة المعلومة .

من أبو العلا محمد إلى سيد مكاوى

إليـــاس سحاب

من عاداتنا السيئة والكسولة والمدمرة التي تستهوى البعض، اختصار العناصر المركبة للعمليات الإبداعية برمز واحد هو صوت المغنى. ولو تمهلنا قليلاً لوجدنا أن كل ملحن وكل شاعر وكل عازف وراء الظاهرة الإبداعية، موضع هذه الدراسة، وتحمل اسم أم كلثوم.

لم تكن أم كلثوم وحدها نتاجًا لتلك العمليات الإبداعية المركبة، فهناك عبد الحليم حافظ وحتى محمد عبد الوهاب، الذى امتلك ناصيتي الإبداع الموسيقى والغنائى، فإن تاريخ ظاهرته الفنية المميزة التي غطت القرن العشرين، لا يكتمل بغير دراسة دقيقة للبيئة التي كونت حساسيته الغنائية والموسيقية الجديدة (مثل المشايخ على محمود ودرويش الحريرى ومحمد رفعت) وقادة الفرق الموسيقية والعازفين العباقرة الذين كانوا يشكلون فريق عمله الأساسي، من جميل عويس إلى عزيز صادق إلى عطية شرارة إلى عبد الحليم نويرة وعلى إسماعيل وأندريا رايدر في الموزعين، وأنور منسي وكامل إبراهيم وعبد الفتاح منسي وجورج ميشيل وإبراهيم العفيفي ومحمود عفت وأحمد الحفناوى وسواهم فى العازفين.

فى هذه الدراسة، سنحاول التعمق قليلاً فى هذا الاتجاه، فنلقى مزيدًا من الأضواء على علاقة أم كلثوم بملحنيها، مع التركيز على: محمد القصبجى وزكريا أحمد، ورياض السنباطى، واقتراب سريع من علاقتها بملحنى المرحلة الأولى: أبو العلا محمد والنجريدى وداود حسنى، وملحنى المرحلة الأخيرة: الطويل والموجى وبليغ حمدى وعبد الوهاب وسيد مكاوى.

ولا تتوقف أهمية هذه المحاولة عند الإلمام المعمق بصائغى الإبداع الفنى الكبير الذى كانت حنجرة أم كلثوم ناطقة عظيمة باسمه، ولكن تتجاوز ذلك إلى التحليل الموضوعى لعلاقات أم كلثوم بهؤلاء المبدعين. فهذه العلاقات، بكل تعرجاتها وسلبياتها وإيجابياتها، لا ترسم لنا فقط ملامح شخصية أم كلثوم الفنية بكل نتوءاتها، ولكنها تحكى لنا بلسان فصيح، فصولاً من المخاض الثقافى الذى مازالت الأمة العربية تخوض غماره منذ صدمة الاتصال بالغرب والتحدى الغربى التى جاءت بها حملة نابليون بونابرت، والتى مازالت تشكل معضلة فى كل جوانب الحياة العربية (السياسية والثقافية)، كلما اقتربنا من الإمساك بالصيغة العملية والمثالية لعلاقتنا بالغرب وتفاعلنا معه، قذفتنا أمواج الضغوط والمطامع الخارجية، ومفاصل الخلل الذاتى الداخلى، بعيدا عن مثل هذه الصيغة.

سأعتمد فى هذه المحاولة لقراءة العلاقات المعقدة والمتنوعة بين أم كلثوم وملحنيها، على المعلومات المقارنة التى تملأ تلالاً من الكتب والمجلات والصحف والمقابلات الإذاعية والتليفزيونية، كمرجع أولى، ولكنى ساعتمد، بعد ذلك، وربما أكثر من ذلك، على الحقائق الفنية التى يمكن استخلاصها من استقراء الشخصية الفنية لكل واحد من هؤلاء الملحنين (خاصة الثلاثة الأساسيين فى حياة أم كلثوم) عبر المكونات العامة لهذه الشخصية، والمكونات الخاصة التى تتجلى بوضوح شديد فى المقارنة بين نتاج هؤلاء الملحنين لصوت أم كلثوم (ذى الطبيعة المحافظة)، والأصوات النسائية الأخرى، خاصة أسمهان وليلى مراد، اللتين انطلقتا من الأسس المحافظة، إلى آفاق الكلاسيكية العربية الحديثة، بما يتجاوز الحدود التى أصرت أم كلثوم على التوقف عندها، بل العودة إليها بعد مغامرات تجديدية رائعة (مع القصبجى خاصة، وبدايات السنباطى)، أدّت بأم كلثوم (كما سنرى) إلى التردد، ثم التراجع عنها. حتى ليمكن القول بثقة، إنه إذا كان لقصة علاقة أم كلثوم بملحنيها الأحد عشر (وخاصة الثلاثة الرئيسيين) جانب إنسانى يروى دراما العلاقات الإنسانية المعقدة على مستوى القمة الفنية فى عصر ما، فإن لهذه القصة جانبًا فنيًا، ذا ملامح تتداخل بل تتماهى مع ملامح التيارات المختلفة التى صنعت بتنافرها وتفاعلها العصر الذهبى للموسيقى والغناء العربيين فى القرن العشرين. وهذا الجانب الفنى من القصة، هو ما ستحاول السطور التالية تركيز الضوء عليه.

وسيلاحظ القارئ أن الإطار العام الذى توصلت إليه، بعد هذه القراءة المعمقة فى سيرة علاقات أم كلثوم بملحنيها، هو إطار يقسم حياة أم كلثوم الفنية إلى مرحلتين شديدتى الوضوح:

* مرحلة أم كلثوم التلميذة النابغة، التى تشرب كل قطرة فن وثقافة تأتيها من أى أستاذ وضعته الظروف فى طريقها (فى الشعر والموسيقى والثقافة العامة والحياة الاجتماعية).

* ومرحلة أم كلثوم الأستاذة المقتدرة، التى بلغت ثقتها بنفسها، مع نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات، حدود التفرد فى قراراتها الفنية، وهو تفرد (وصل أحيانًا حد التسلط) ستصدم به حتى أساتذتها الأوائل الذين بقوا إلى جانبها، ولكن مع انقلاب كامل فى العلاقة بينها وبينهم.

من التكوين فى الأرياف إلى الاحتراف فى القاهرة

يمكن اعتبار السيرة الفنية لأم كلثوم (متداخلة مع سيرتها الشخصية) حلقة فى سلسلة سير معظم، بل ربما كل رموز العصر الذهبى للموسيقى العربية فى القرن العشرين، حيث لا يشذ أى من هذه الرموز عن قاعدة التخرج من مدرسة الإنشاد الدينى، قبل الانتقال إلى ممارسة التلحين أو الغناء على صعيد الاحتراف. ولا بد هنا من استطراد عام (قبل الدخول إلى السيرة المباشرة لأم كلثوم) ينبه إلى أن الأنظمة الحديثة لمناهج تدريس الموسيقى العربية (فى المعاهد العامة أو الخاصة) قد أهملت هذه القاعدة الذهبية إهمالاً كليًا، بدأت آثاره العملية السلبية تصيب «أرض» الموسيقى والغناء العربيين بالتصحر، الذى تتسع مساحته كل يوم، لأن إلغاء تلك الدراسة التقليدية التى كانت ترضع كل محترفى الموسيقى والغناء من ينابيعها (حتى منتصف القرن العشرين) لم يتم تعويضها ببديل عصرى فى المناهج العصرية لتدريس الموسيقى العربية بأساليب جديدة تتيح لدارسى الموسيقى والغناء العربيين فى العصر الحديث، الارتواء من ينابيع الإنشاد الدينى، الذى كان يؤمنه التلقى الشفاهى المباشر جيلاً عن جيل.

ويتحول هذا النقص الفاضح، إلى كارثة ثقافية حقيقية فى المعاهد الموسيقية الكبرى المنتشرة فى الوطن العربى من محيطه إلى خليجه، والمتخصصة فى تدريس الموسيقى الأوروبية وحدها، فتخرّج لنا أجيالا متعاقبة من محترفى الموسيقى الذين يحملون الهوية العربية، ولكنهم قطعوا الصلة تماما بينابيع الموسيقى العربية، التقليدية والمعاصرة، علميا ووجدانيا، ثم يتصدرون مراكز «القرار» فى الحياة الموسيقية الأكاديمية فى طول الوطن العربى وعرضه، فيخرّجون أجيالا متلاحقة من الموسيقيين العرب (فى جنسيتهم)، والمنقطعى الصلة بينابيع الموسيقى العربية، على الصعيدين العلمى والوجدانى. ولا يستثنى من ذلك إلا نفر محدود جدا، عوض جانبا من هذا النقص بمجهود فردى، خارج مناهج الدراسة فى معهده الموسيقى. ولا غرابة فى ذلك، فقد علمتنا الطبيعة منذ الأزل، أن الثمار مرهونة ومحكومة ببذورها.

نقفل هذا الاستطراد الضرورى ، ونعود إلى أم كلثوم التى دخلت مدرسة الإنشاد الدينى من باب بيئتها العائلية، فكان والدها أستاذها الأول (وربما ملحنها الأول) لأنه تحول من تحفيظها التراث التقليدى للإنشاد الدينى، إلى وضع تواشيح دينية خاصة بها، بعد أن اكتشف أنه قد أنجب صوتا استثنائيا، يستحق الرعاية والاهتمام اللذين كان قد خص بهما ابنه البكر.

بديهى القول بأن أم كلثوم كانت فى تلك المرحلة المبكرة تقبع فى موقع المتلقى الخاضع تماما لتوجيهات الأستاذ، بحكم موقعه كأستاذ أول وموقعه كوالد، فى بيئة ريفية محافظة.

وكان من الممكن لأم كلثوم أن تبدأ حياتها وتنهيها فى هذه البيئة العائلية والفنية الأولى، فلا تتجاوز حدود الإنشاد الدينى فى الموالد الريفية، لولا أن القدر قد وضع فى طريقها اثنين من عباقرة التلحين (أبو العلا محمد، وزكريا أحمد) سيتاح لهما رسم ملامح المنعطف الأكبر فى حياة هذه الفنانة الاستثنائية.

ومع أن زكريا أحمد يحتل فى التسلسل التاريخى لملحنى أم كلثوم المركز الرابع (بعد أبو العلا والنجريدى والقصبجى)، فإن دوره فى إقناع والد أم كلثوم بالقرار التاريخى بانتقالها إلى القاهرة، يوازى دور أبو العلا محمد، بل ربما يفوقه أو يسبقه على الأقل.

ولم يكن انتقال أم كلثوم إلى القاهرة فى البداية يعنى بالضرورة انتقالها من الإنشاد الدينى إلى احتراف الغناء الدنيوى (كما فى التعبير الأوروبى).

ويسمح تسلسل وقائع حياة أم كلثوم بالاستنتاج أن القرار التاريخى بانتقالها من الإنشاد الدينى إلى احتراف الغناء واعتماد «التخت الموسيقى»، قد نضج فى ذهن والدها، وصاحب القرار فى حياتها فى تلك المرحلة، فى إطار الإعجاب الواسع الذى أثاره صوت أم كلثوم لدى من استمع إليها فى إنشادها الدينى من محترفى الموسيقى والغناء فى القاهرة، ومن علية القوم فى المجتمع القاهرى، الذين أتيح لهم الاستماع إليها فى بيوتهم وقصورهم.

ونستقرئ وقائع حياة أم كلثوم عند ذلك المنعطف، فيبرز أمامنا فى البداية اسمان: **الشيخ أبو العلا محمد**، المذهبجى فى فرقة مطرب القرن التاسع عشر الأول عبده الحامولى، والذى احترف الغناء وتلحين القصائد بعد رحيل الحامولى (١٩٠١)، ثم **أحمد صبرى النجريدى**، طبيب الأسنان الذى هوى فن التلحين، والذى لم يحفظ له تاريخ الموسيقى العربية المعاصرة سوى مجموعة حفنة من القصائد، وحفنة من الطقاطيق، لحنها لصوت أم كلثوم.

فى علاقة أم كلثوم بالشيخ «أبو العلا محمد»، من المؤكد أنها كانت علاقة التلميذة المبتدئة فى خطى الاحتراف الأولى، بالأستاذ المخضرم وصاحب الخبرة والشهرة. وقد بدأ الشيخ أبو العلا بتحفيظها قصائد عبده الحامولى (سجلت منها اثنتين: أراك عصى الدمع وأكذب نفسى). أما بقية القصائد من ألحان أبو العلا محمد، التى سجلتها أم كلثوم بصوتها، فهى فى معظمها، بل ربما كلها، لم تلحن خصيصا لصوت أم كلثوم، بدليل وجود تسجيلات سابقة (ولاحقة) لها بأصوات أخرى، كصوت ملحنها أبو العلا نفسه، وأصوات فتحية أحمد وصالح عبد الحى.

أما بالنسبة لأحمد صبرى النجريدى، فمع أن أم كلثوم قد تعاملت معه (فى النصف الثانى من العشرينيات) وهى فى الطور الأول للاحتراف، فيبدو أنه لم يستطع لعب دور الأستاذ فى حياتها، لسببين مرجحين:

* الأول فنى، يتعلق بتواضع حجمه الفنى، كملحن هاو.

*والثانى شخصى، يتعلق على ما يبدو بتسرعه فى الخلط بين العلاقة الفنية والعلاقة الشخصية، الأمر الذى قصر عمر العلاقة الفنية بينهما، حتى وضع حدا لها، فى وقت مبكر.

وقبل الانتقال إلى مركز الثقل فى هذه الدراسة، أى إلى الملحنين الأساسيين الثلاثة فى حياة أم كلثوم (القصبجى، وزكريا، والسنباطى)، لا بد لاستكمال الملامح الأساسية فى هذا العرض، من إشارة سريعة إلى الملحن الكبير المخضرم **داود حسنى**، الذى وضع لأم كلثوم فى سنوات عمره الأخيرة (توفى سنة ١٩٣٧) مجموعة من الأدوار والطقاطيق ذات القيمة الفنية المهمة فى المرحلة الأولى من حياة أم كلثوم. ومن المرجح أن علاقة أم كلثوم بداود حسنى كانت أقرب إلى علاقة التلميذ بالأستاذ أيضا، فقد تم تعاونها معه وهى فى بداية السلم، فيما هو يختتم حياة فنية حافلة

بالإنجازات الكبرى انطلاقا من تنصيب محمد عثمان (عبقرى الموسيقى الأبرز فى القرن التاسع عشر) لداود حسنى خليفة شرعيا له، وانتهاء بالإشراف على تدريب أصوات بارزة أخرى، غير أم كلثوم، بينها أسمهان وليلى مراد ومحمد عبد المطلب.

ومع انتهاء هذه المرحلة التأسيسية، كانت أم كلثوم قد أكملت مع أساتذتها الأوائل، مرحلة التكوين الفنى الأساسى بعقد أواصر صلة متينة مع الينبوعين الاساسيين: تراث التواشيح الدينية، على يد والدها الشيخ إبراهيم، وتراث القرن التاسع عشر، وخاصة فن القصيدة وفن الدور، على يد أبو العلا محمد وداود حسنى. مع إشارة تاريخية ضرورية، إلى تداخل بين تعاملها مع داود حسنى فى مرحلة «التأسيس» الأولى، وبين مرحلة «الانطلاق» الكبرى الثانية، مع القصبجى وزكريا والسنباطى.



محمد القصبجى

لقاء محمد القصبجى مع أم كلثوم كان لقاء حاجة ماسة لدى كل منهما للآخر، لذلك يبدو لنا هذا اللقاء الذى ظهرت أولى ثماره فى العام ١٩٢٨، أنه ينتمى إلى الحتمية أكثر من انتمائه للمصادفة.

فمحمد القصبجى، الذى ولد مع سيد درويش فى عام واحد (١٨٩٢)، لم يكن له عند وفاة سيد درويش فى العام ١٩٢٣ أى إنتاج موسيقى يدخله عصبة عباقرة الموسيقى العربية، التى دخلها فيما بعد من أوسع الأبواب، بينما كان سيد درويش قد أنتج فيما بين ١٩١٧ و١٩٢٣ من الموشحات والأدوار والطقاطيق الشعبية والألحان المسرحية ما أحله (عن جدارة كاملة) فى موقع رائد مدرسة القرن العشرين فى الموسيقى العربية.

وقد تكون أسباب عديدة وقفت وراء ظاهرة تأخر بروز عبقرية القصبجى اللحنية إلى ما بعد وفاة سيد درويش بخمس سنوات. غير أن استقراء وقائع الحياة الموسيقية العربية يضع فى مقدمة هذه الأسباب، أن القصبجى كان قبل لقائه بأم كلثوم، عبقرية موسيقية مكبوتة، لأن مستوى الغناء الرائج قبل ظهور عبد الوهاب وأم كلثوم، ومستوى أساليب الأداء الغنائى حتى لدى الأسماء اللامعة كعبد اللطيف البنا ومنيرة المهدية، كل ذلك كان (باستثناء سيد درويش) أدنى مستوى من الخيال الموسيقى الجامح والتجديدى لمحمد القصبجى.

هذه إذن كانت حاجة القصبجى الملحة لأم كلثوم، أما حاجة أم كلثوم للقصبجى فقد ولدت عندما أكملت تحولها من الإنشاد الدينى إلى احتراف الغناء، الأمر الذى فرض الحاجة إلى فرقة موسيقية تكون على مستوى طموح أم كلثوم إلى الانتقال من الإنشاد الدينى إلى الغناء الراقى، وليس إلى الألوان الرائجة الأقرب إلى الهبوط، والتى كادت أم كلثوم تقع فريسة لها فى لحظة عابرة فى بداياتها الفنية (طقطوقة الخلاعة والدلاعة مذهبى). وهذه الحاجة الماسة لدى أم كلثوم هى نفسها التى

... أم كلثوم وملحنوها

فرضت تلك العلاقة المميزة في حياتها الفنية مع أحمد رامي (كشاعر وكاتب نص غنائي، راق) ومع محمد القصبجي كعازف عود ممتاز وقائد فرقة موسيقية صغيرة في البداية، ثم كملحن عبقري، ذي آفاق بالغة الثراء والرفعة الفنية.

غير أن التساوي في حاجة الواحد منهما إلى الآخر، لم يكن ينطبق بالدرجة نفسها على القدرات الفنية لدى الطرفين. فعدا عن أن أم كلثوم كانت عند اللقاء لم تكمل عامها الخامس في احتراف الغناء، بينما كان القصبجي موسيقيا وعازفا مكتمل النضج وصاحب خبرة عملية طويلة، فإن فارقا مميزا بقي يميز القصبجي ويضعه في موقع الأستاذ المعلم (سواء عندما كانت أم كلثوم تعترف بذلك وتنصاع له، أو عندما كفت عن ذلك) وهو أن القصبجي كان صاحب عقل موسيقي جبار، جعل إبداعه الموسيقي يرتاد آفاقا تجديدية، مما سيجعل مؤرخي مدرسة القرن العشرين ومنظّريها - في اعتقادي - يضعون اسمي محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي في صدارة المجددين، لأنهما صاحبا أغزر وأهم إنتاج (بين زملائهم وأقرانهم من المبدعين المجددين).

هذه الخاصية التجديدية لدى محمد القصبجي هي التي وقفت وراء ذلك التميز الذي برزت فيه ألحان القصبجي لصوت أم كلثوم على مدى ستة عشر عاما (١٩٢٨ - ١٩٤٤)، وهذه الخاصية التجديدية نفسها هي التي وقفت وراء ذلك الطلاق الدرامي المبكر بين ألحان القصبجي وحنجرة أم كلثوم، عندما بالغ الأول في جموحه التجديدي، وشعرت الثانية أنها نضجت بما يكفي لتنفرد بقرارها الفني، بعد مرحلة الطاعة العمياء أو شبه العمياء للأساتذة الأوائل.

تكتفي الدراسات أو الكتابات التي تؤرخ للقصبجي (عبر أم كلثوم غالبا) بأنه مبتكر الشكل الثابت لفن المونولوج في الموسيقى العربية المعاصرة (مونولوج إن كنت أسامح وأنسى الأسية - ١٩٢٨).

غير أن علاقة القصبجي بفن المونولوج تتجاوز بكثير هذه الواقعة التاريخية، حتى يمكن القول بأن خصائص فن المونولوج قد سيطرت على الفكر الموسيقي للقصبجي ودمغت بطابعها كل أعماله، التي لم تتجاوز شكل المونولوج أصلا إلا إلى شكلين آخرين: القصيدة والطقطوقة. وقد يفيد في تفسير هذا الاتجاه الخاص بمحمد القصبجي أنه كان بين أقرانه زعماء العصر الذهبي لمدرسة القرن العشرين، الوحيد الذي يفتقد إلى جمال الصوت (كعبد الوهاب والسنباطي)، أو يعوضه بجمال الأداء (كزكريا أحمد وسيد درويش)، فقد كان ذا صوت قبيح وأداء قبيح (تسجيل رق الحبيب بصوته).

يهيأ لي أن حرمان القصبجي من جمال الصوت والأداء قد فجر فيه انغماسا كليا في أعماق خياله الموسيقي، وترادف ذلك مع افتتانه بالمؤلفات الأوركسترالية العظيمة في الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية.

صحيح أن القصبجي قد استعار فن المونولوج من فن الأوبرا الغنائي (لا الفن السيمفوني الآلي)، غير أن ألحان القصبجي الكبيرة لأم كلثوم (حتى المبكرة منها) كانت تكشف عن أن هذا العبقري إنما كان يؤلف للأوركسترا أكثر مما يؤلف للصوت البشري.

في هذه النقطة بالذات، يلتقي ويتطابق - كما أعتقد - سر العظمة الخاصة لألحان القصبجي، وسر طلاقه الفني المبكر من أم كلثوم. لقد أمضى القصبجي ستة عشر عاما كاملة يبلور حنجرة أم كلثوم وفقا لمتطلبات خياله الفني، ويجرها إلى عالمه الخاص، البعيد عن مزاج أم كلثوم الأساسي الذي اكتسبته من تربيتها الأولى على الإنشاد الديني، وقصائد الحامولي وأبو العلا محمد التقليدية. وكانت الجرأة التجديدية، الطابع الغالب لغالبية ألحانه لأم كلثوم، حتى في بدايتها (إن كنت أسامح)، مرورا بـ«فين العيون» و«ياما ناديت» و«طالت ليالي البعاد»، والقصائد - المونولوج مثل انظري وأيها الفلك، وصولا إلى المونولوجين خطيري الشأن في فيلم نشيد الأمل (يا مجد، ومنيت شبابي). حتى جاءت تجربة فيلم «عايدة» (١٩٤٢) وبروز أسمهان اللامع والصاعق بين عامي ١٩٣٧و١٩٤٤.

لقد سجل مسلسل أم كلثوم فيلم عايدة كمنعطف في علاقة القصبجي بأم كلثوم، وتحوله من موقع أستاذها وملحنها الأول، إلى موقع عازف العود في فرقتها الموسيقية. غير أن سيناريو المسلسل توقف عند نقطة الفشل الجماهيري للفيلم، الذي صدم أم كلثوم، وفسره القصبجي بأن الجمهور هو الفاشل، لا الفيلم.

إن التفسير الفني الأقرب إلى المنطق، لهذا المنعطف الخطير في علاقة القصبجي بأم كلثوم، هو أن صاحبة الحنجرة الاستثنائية، التي تربت في الحضن الدافئ للإنشاد الديني والغناء العربي التقليدي مع قصائد أبو العلا محمد، والتقليدي المتجدد مع أدوار وطقاطيق داود حسني وزكريا أحمد، قد بدأت تشعر بالبرودة في حضن الرحلة التجديدية الجامحة لمحمد القصبجي، التي أوغلت (في فيلم عايدة بالذات) بعيدا في بحار بعيدة، لم تعد تشعر أم كلثوم معها بالراحة الذاتية العفوية، أو تلك الراحة المكتسبة من ثقة التلميذ المطلقة بأستاذه.

ومع أن محمد القصبجي حاول - على ما اعتقد - تصحيح مسار علاقته بأم كلثوم، والخروج من صدمة ألحان فيلم «عايدة» الجامحة في تغريبها، فعصر خلاصة عبقريته وخلاصة تجاربه في مونولوج «رق الحبيب»، تلك التحفة النادرة في خزانة الموسيقى العربية الكلاسيكية المتجددة، فإن عنصرين جديدين كانا قد برزا في سياق العلاقة الإنسانية (لا الفنية هذه المرة) بين أم كلثوم والقصبجي، ليزيدا الأمور تعقيدا:

أ - وصول شهرة أم كلثوم في منتصف الأربعينيات إلى ذروة ذات حجم تاريخي، خرج بها نهائيا من موقع التلميذة المطيعة التي يسيرها أساتذتها، إلى موقع الأستاذة كاملة الاقتدار، طاغية الشهرة الفنية والاجتماعية.

ب - اعتماد القصبجي حنجرتي أسمهان وليلى مراد في التعبير عن بعض أفكاره الموسيقية الجديدة.

وقد شاءت الظروف أن تنضج هذه العوامل كلها وتتزامن مع وصول عبقرية زكريا أحمد إلى ذروتها التاريخية مع مونولوجات مسرحية من طراز «أهل الهوى» و«أنا في انتظارك» و«الآهات»، وتفتح عبقرية السنباطي في سلسلة مونولوجاته الذهبية من طراز «هلت ليالي القمر»، فتضافرت كل هذه العناصر على ما يبدو، لتدق ساعة استغناء أم كلثوم عن محمد القصبجي الملحن، استغناء كاملا ونهائيا، وليس الاكتفاء بتنحيته عن موقع «الملحّن الأول». فوضع لها ثلاثة ألحان أخيرة في فيلم فاطمة (١٩٤٧) لا ترقى أبدا إلى مستوى تراثه التاريخي معها. وتذكر الوقائع أن القصبجي قام بعد ذلك بمحاولات عديدة لاستعادة رضى أم كلثوم عنه كملحن، ولكنها كانت تكرر الرفض، كلما كرر تقديم محاولة لحنية جديدة لها.

أما لماذا قبل القصبجي بذلك الحكم القاسي، الذي أصابه بالصمت المطبق بالنسبة لأم كلثوم وأي صوت آخر، فلم ينفصل عن أم كلثوم بل اكتفى بإطلاق صيحته العبقرية الأخيرة من خلال صوت ليلى مراد بلحنه المدهش (أنا قلبي دليلي - ١٩٤٧) ولحنين جميلين في «شاطئ الغرام»، واكتفى بمقعد عازف العود في فرقة أم كلثوم الموسيقية حتى آخر يوم في حياته (٢٥/٣/١٩٦٦)، فتلك ذروة المأساة الغامضة في حياة هذا العبقري الاستثنائي.

هذه العلاقات، بكل تعرجاتها وسلبياتها وإيجابياتها، لا ترسم لنا فقط ملامح شخصية أم كلثوم الفنية بكل نتوءاتها، ولكنها تحكي لنا بلسان فصيح، فصولا من المخاض الثقافي الذي مازالت الأمة العربية تخوض غماره منذ صدمة الاتصال بالغرب والتحدي الغربي التي جاءت بها حملة نابليون بونابرت، والتي مازالت تشكل معضلة في كل جوانب الحياة العربية



زكريا أحمد

يشير تسلسل الوقائع، إلى أن علاقة زكريا أحمد بأم كلثوم قد نضجت «على نار هادئة». فقد تم لقاؤهما الشخصي الأول الذي استمع فيه الملحن القاهري إلى المنشدة الريفية، في مطلع العشرينيات، بينما تأخر اللقاء الفني الأول بينهما في القاهرة (طقطوقة اللي حبك يا هناه) حتى مطلع الثلاثينيات.

ومع أن زكريا كان صاحب نصيب وافر في إقناع والدها الشيخ إبراهيم بالانتقال إلى القاهرة، فقد بدأت أم كلثوم رحلتها الاحترافية في القاهرة مع ثلاثة ملحنين (أبو العلا محمد والنجريدي والقصبجي)، قبل الدخول في عالم زكريا أحمد. ولم يكن هناك ما هو أكثر بدهية من ذلك اللقاء، فزكريا أحمد شيخ، قبل أن يكون ملحنا، وصاحب فرقة للإنشاد الديني قبل أن يحترف التلحين للمطربين والمطربات. وفيما كان يبدو أن القصبجي قد رسم للحنجرة العبقرية خطا تجديديا يبتعد بها عن أصولها التقليدية الأولى مع الإنشاد الديني، ومع قصائد أبو العلا محمد، تقدم زكريا أحمد، وكأنه شعر بحاجة صاحبة تلك الحنجرة إلى لونه الموسيقي وثيق الصلة بالإنشاد الديني وبتراث القرن التاسع عشر، أو لعله قد تلقى بالفعل إشارة أو دعوة بالتقدم إلى ذلك الموقع، من أم كلثوم نفسها.

هذه المقدمة ضرورية لتفسير المستوى القوي الذي رسم بداية التعاون الفني بينهما (اللي حبك يا هناه، وجمالك ربنا يزيده) وكأنه ثمرة إعداد طويل، وليس وليد اللحظة. فلم تدخل هاتان الأغنيتان في قائمة الروائع الخالدة التي أنشدتها أم كلثوم فقط، بل إنهما دخلتا تاريخ الموسيقى العربية من الباب العريض كمنعطف تجديدي بالغ الأهمية والخطورة في توسيع آفاق شكل الطقطوقة، ونقله من شكل موسيقي بسيط، يقف عند حدود استيعاب المعاني البسيطة، والأفكار الموسيقية البسيطة، إلى شكل أكثر تعقيدا وتنوعا، نافس بعد ذلك شكلي المونولوج والقصيدة، في استيعاب أرقى المعاني، وأجرأ الأفكار الموسيقية المتطورة والمعقدة.

والحقيقة أنه من الظلم، ومن الخطأ أصلا تصنيف زكريا أحمد في خانة الفنانين التقليديين أو المحافظين، برغم كل الظواهر الأولية التي توحي بذلك وتشير إليه. إن استقراء مجمل التراث المهم الذي تركه زكريا أحمد بصوت أم كلثوم، يؤكد أن هذا الملحن العبقري قد يكون استثناء فريدا في الفنون عند سائر الشعوب، وليس عند العرب فقط.

الجديد الذي جاء به زكريا أحمد للموسيقى العربية، وهو المحافظة على مضمون فني تقليدي، في إطار من الثورة الكاملة على الأشكال الموسيقية القديمة، فبقي محافظا حتى آخر ألحانه، «الهوى غلاب» (١٩٦٠) على مضمون فني هو امتداد شرعي لروح محمد عثمان، مع أنه حطم شكل الدور التقليدي بأكثر من تجديد مثير، وطوّر شكل الطقطوقة من مذهب متكرر ومقاطع متشابهة، إلى مذهب متكرر ومقاطع مختلفة في اللحن وفي المقام، واقتحم شكل المونولوج الثوري الذي استعاره القصبجي للموسيقى العربية من الموسيقى الأوروبية، فطعّمه بروح مضمونه الفني التقليدي، وربما بلغ ذروة العظمة الفنية في ذلك مع مونولوج «حلم».

إن استنتاج هذه الملامح الأساسية في شخصية زكريا أحمد ضرورة ملحة في سبر أغوار علاقته الفنية بأم كلثوم. فمن المؤكد، كما

أم كلثوم وملحنوها

إذا كان لقصة علاقة أم كلثوم بملحنيها الأحد عشر (وخاصة الثلاثة الرئيسيين) جانب إنسانى يروى دراما العلاقات الإنسانية المعقدة على مستوى القمة الفنية فى عصر ما، فإن لهذه القصة جانبا فنيا، ذا ملامح تتداخل بل تتماهى مع ملامح التيارات المختلفة التى صنعت بتنافرها وتفاعلها العصر الذهبى للموسيقى والغناء العربيين فى القرن العشرين

يبدو في الخط البياني لتطور سيرة أم كلثوم الفنية، أن لون زكريا أحمد (التقليدى في مضمونه، المتجدد فى أشكاله) كان قريبا جدا (بل ربما الأقرب، قبل ظهور السنباطى) إلى المزاج الفنى الخاص لأم كلثوم. ولا شك أن زكريا أحمد كان يبادل أم كلثوم المشاعر الفنية نفسها، بدليل أنه ظل يعتبرها (حتى فى فترة الخصام) خير من يؤدى ألحانه، ولم يترك مناسبة من المناسبات القليلة التي كان يتحدث فيها للصحافة أو الإذاعة إلا ويصنف صوت أم كلثوم - بلا تحفظ - أنه هبة استثنائية من السماء.

وهكذا، لم يكن فى أى عنصر من عناصر العلاقة الفنية بين أم كلثوم وزكريا أحمد، ما يمكن أن ينذر باختلال تلك العلاقة، فهو أستاذها (سنا وخبرة) وهو صاحب اللون الفني الأثير لديها (حتى ظهور السنباطي). غير أن العوامل الإنسانية تدخلت مرة ثانية، لتلعب دورا صاخبا في تلك العلاقة الفنية الهادئة، وهي عوامل متعلقة بطرفي العلاقة على حد سواء.

فزكريا أحمد كان فنانا صعب المراس، شديد الاعتزاز والاعتداد بفنه إلى درجة لاتعرف المساومة، ولا حتى التعايش مع الألوان أو التيارات الفنية الأخرى (خاصة عبد الوهاب).

هذا من جهة الملحن، أما من جهة أم كلثوم، فيبدو أنها عندما وصلت قمة نضجها الفنى وقمة تألقها فى المجتمع القاهرى فى منتصف الأربعينيات، أصبح ثلاثة من عباقرة الموسيقى العربية متفرغين في بلاطها الفني، الأمر الذى كان فيه ما يكفي من الإغراء لدفع أم كلثوم إلى التصرف فى هذا البلاط كملكة حقيقية، بغض النظر عن سن ملحنيها الثلاثة وعن أحجامهم الفنية العملاقة وأستاذيتهم المستحقة بكل جدارة، وأسبقيتهم في عالم الفن.

ومع أن موضوع الخلاف الذى فجر العلاقة بين أم كلثوم وزكريا أحمد منذ ١٩٤٧ حتى وفاته في مطلع العام ١٩٦١ (باستثناء اللحن الأخير: الهوى غلاب)، كان يتناول الأجر المادى، إلا أن مضمون الخلاف كان كما يبدو فى كل تصريحات زكريا أحمد في فترة الخصام الطويلة، يتعلق بإصراره على الندية فى التعامل كفنان له بلاطه الخاص به، سواء بالنسبة لأم كلثوم (مهما علا شأنها الفني والاجتماعي) أو بالنسبة لزملائه من ملحني أم كلثوم.

رياض السنباطى

هناك الكثير مما يسمح لنا بالاستنتاج أن أم كلثوم، كانت فى نهاية عقد الثلاثينيات ومطلع عقد الأربعينيات، قد وصلت إلى ذروة من النضج الفنى والاجتماعى، أصبحت معه بحاجة نفسية (وربما فنية أيضا) للتخفف (ولو تدريجيا أو جزئيا) من ضغط علاقاتها بأساتذيها، القصبجي وزكريا أحمد، على خياراتها الفنية. غير أن الاستجابة لنداء هذه الحاجة كانت مستحيلة، من غير وجود ملحن كبير، يكتمل فيه شرطان متلازمان:

*أن يكون اصغر سنا من أم كلثوم، حتى تستطيع التحرر من وضعها كتلميذة، لا تملك غير الطاعة تتعامل بها مع أستاذها، شأنها مع أساتذتها الأوائل (والدها، ثم أبو العلا محمد فالقصبجي فزكريا أحمد).

* أن تكون قامته الموسيقية شامخة بحيث توازى (أو تقارب على الاقل) ارتفاع القامة الفنية لأم كلثوم فى تلك المرحلة.

لقد بذلت أكثر من محاولة، فى تلك المرحلة وقبيلها بقليل، فى الأوساط السياسية والاجتماعية والفنية والاقتصادية (أبرزها المحاولة المتكررة لطلعت باشا حرب)، لتكوين ثنائي فني على مستوى القمة من أم كلثوم وعبد الوهاب. غير أن صفة المطرب اللامع عند عبد الوهاب (وعوامل أخرى سنعرضها فيما بعد) كانت تمثل لأم كلثوم عبئا في العلاقة، أين منه أعباء علاقتها بالقصبجي وزكريا أحمد. وكأن القدر كان يهيئ رياض السنباطى، الذى لو لم يكن موجودا، لوجب ايجاده، للتقدم لملء الموقع الموسيقي الذى كان يبحث عن بطل إلى جوار أم كلثوم.



وسيثبت فيما بعد، أن اللون السنباطي - الكلثومي،أو الكلثومي - السنباطي، سيصبح علامة فنية مميزة لكل من أم كلثوم المطربة، والسنباطي الملحن، على الرغم من القيمة الفنية المؤكدة والمميزة لكل منهما، بعيدا عن الآخر. ولكن لنبدأ القصة من أولها.

يروى السنباطى فى مقابلة - وثيقة للتلفزيون الكويتي قبل رحيله بسنتين عن لقائه الأول بأم كلثوم، فى إحدى محطات قطار الصعيد، وكان كل منهما يرافق والده لحفلات إنشاد ديني. ويرجح أن يكون العام ١٩١٤ هو عام ذلك اللقاء. حيث يؤكد السنباطى (المولود ١٩٠٦)، أنه كان يومها في التاسعة من عمره. غير أن اللقاء الفنى بينهما تأخر عن ذلك اللقاء الشخصى الأول عشرين عاما ونيف.

قبل ذلك، كان السنباطي قد التحق بفرقة محمد عبد الوهاب الموسيقية (مشهد أغنية «يااللى شجاك الأنين» فى فيلم الوردة البيضاء - ١٩٣٣).

بعد ذلك بعامين، لحن السنباطى لأم كلثوم فى فيلمها وداد أغنية ذات طابع شعبى (على بلد المحبوب وديني) حولتها فى الفيلم لصوت عبده السروجي، لعدم اقتناعها باللحن، ولكنها عادت وسجلتها بصوتها على أسطوانة، بعد نجاحها الجماهيرى. وكانت تلك بداية لحنية متواضعة للسنباطي.

غير أن العامين التاليين شهدا الانطلاقة الكبرى. ففى العام ١٩٣٦، شارك السنباطى زميله الكبير محمد القصبجى ألحان فيلم أم كلثوم نشيد الأمل. قدم السنباطي في هذا الفيلم ثلاث روائع لحنية، إذا نظرنا إليها اليوم نظرة تحليلية يمكن تصنيفها كما يلي:

١ - نشيد الجامعة (يا شباب النيل) كان السنباطي فيه بادى التأثر بعبد الوهاب (نشيد العلم - فيلم دموع الحب - ١٩٣٥).

٢ - مونولوج «قضيت حياتى»، كان فيه السنباطي كامل التأثر بأسلوب القصبجي، حتى يبدو اللحن لهذا الأخير.

٣ - افرح يا قلبى. ويبدو فيه السنباطى منطلقا من التأثر بالقصبجي، ولكن باتجاه بلورة شخصيته الفنية الخاصة المستقلة.

كما وضع السنباطي لأم كلثوم، فى العام نفسه، لحنه العظيم «النوم يداعب» الذى اعتبره عبد الوهاب بين أهم ألحان السنباطى. وكانت بصمات القصبجي واضحة المعالم أيضا على هذا اللحن.

وحدث عند هذا المنعطف، أن تعاقدت أم كلثوم مع إذاعة القاهرة، على مشروع الحفلة الشهرية الثابتة، المذاعة مباشرة على الهواء، وهو ما سيصبح الإطار الذى تطل أم كلثوم منه على جمهورها، حتى نهاية حياتها الفنية (١٩٧٣ - قبل رحيلها بعامين).

عند هذا المنعطف، ولدت - فى اعتقادى - حاجة أم كلثوم إلى لون فنى تختاره هذه المرة بنفسها، وبقرار تكون هى سيدته، بعد أن ظلت فى السنوات الأولى لحفلاتها الشهرية، تعتمد على ألحان شهيرة قصيرة للقصبجي وزكريا وأبو العلا، سجلتها على اسطوانات مثل (ليه تلاوعيني وأنت فاكراني).

هنا، كانت عبقرية السنباطي اللحنية قد بدأت تنضج، كما بدأت شخصيته الخاصة المميزة تتبلور. فبدأ يزود أم كلثوم بحلقات السلسلتين الذهبيتين اللتين سترسمان ملامح التعاون الفنى الشامخ فيما بينهما بعد ذلك:

١ - سلسلة المونولوجات المسرحية المطولة، التي تعوض جماهير القرن العشرين، عن أطايب وصلة الطرب المنوعة العناصر في القرن التاسع عشر (عبده الحامولي).

٢ - سلسلة القصائد ذات البناء الهندسى العربي المتميز (أشبه ما تكون بقصور العرب فى الأندلس)، والتى أخرج فيها السنباطي كل مخزون وجدانه الصوفي، خاصة في القصائد الدينية، ولكن حتى فى القصائد العاطفية.

بالنسبة للسلسلة الأولى (المونولوجات المسرحية المطولة، المصممة خصيصا للغناء الحى أمام الجماهير)، كانت البداية الخجولة بمونولوجى «فاكرلما كنت جنبى» (١٩٣٧) و«يا طول عذابى» (١٩٣٨). غير أن الانطلاقة الكبرى لهذا اللون السنباطي - الكلثومي كانت من غير شك مع القصيدة - المونولوج «اذكريني» (١٩٣٩) ومونولوج «هلت ليالى القمر» (١٩٤٠)، فظل السنباطي يجوّد فيه ويلوّن ويضيف فى أعمال مثل غلبت أصالح. سهران لوحدى، جددت حبك، يا ظالمني، دليلى احتار، عودت عيني، حيرت قلبي، إلى آخر هذه السلسلة الذهبية مع «ليلى ونهارى»، والقلب يعشق (ذات الموضوع الدينى).

أما بالنسبة للسلسلة الثانية، فقد تم تدشينها مع قصيدة «سلوا كؤوس الطلا»، فى العام١٩٣٧، ومع أنها كانت الحلقة الأولى في هذه السلسلة الذهبية، فإنها حوت - منذ البداية - كل عناصر تلك السلسلة الذهبية التى ستتشعب بين العاطفي والديني. والتى سيكون من أروع نماذجها «سلوا قلبي ونهج البردة» (فى القصائد الدينية)، ورباعيات الخيام والأطلال(فى اللون الوجدانى) حتى آخر سلسلة القصائد العاطفية (ذكريات وقصة الأمس وأقبل الليل ومن أجل عينيك).

ومع أن زكريا أحمد قد شارك السنباطي عشر سنوات كاملة، فى أمجاد الحفلات الجماهيرية الحية (١٩٣٧ - ١٩٤٧)، غير أن السنباطي تفرد بهذه الأمجاد وحده حتى مطلع عقد الستينيات، بعد تلك القطيعة الشهيرة مع زكريا، التي يبدو أنها لم تكن مؤسسة على خلافات فنية، بل شخصية وإنسانية عامة.

لا شك بأن الحصيلة العامة لفن أم كلثوم العظيم، يقدم لنا كل البراهين والحجج التى تؤكد أن أم كلثوم لم تجد نفسها فنيا، كما فعلت مع ألحان السنباطي، ولا يجوز أن يوحى ذلك للحظة بالخلط بين القيمة الفنية والراحة النفسية. ولكن المقصود بالضبط هو أن أم كلثوم عندما وضع لها السنباطي مونولوجات مثل هلت ليالى القمر ويا اللى كان يشجيك أنينى (إلى آخر السلسلة) وقصائد من طراز سلوا كؤوس الطلا وسلوا قلبي ورباعيات الخيام، وجدت أخيرا اللون الأقرب إلى قلبها ووجدانها، اللون الذى لو وهبها الله موهبة التلحين (الذى جربته مرتين وفشلت)، فإنها كانت ستتجه إليه، وهذا افتراض له كل ما يبرره.

ولكن بقى السؤال الأهم فى موضوع تداخل الإنسانى بالفنى فى علاقة أم كلثوم بالسنباطي: هل هناك شبهة فى قيام أم كلثوم (بعد أن تحولت إلى أستاذة، وإلى صاحبة قرار فني مستقل بل متفرد) بفرض هذا اللون على رياض السنباطي؟

هناك حقائق في حياة السنباطي الإنسانية لا تسمح بإطلاق مثل هذه الفرضية، بل قد توحي بعكسها تماما.

فمع أن السنباطي كان يصغر أم كلثوم سنا، بسنوات قد تصل إلى الثماني، ومع أن بداية تعاونهما كانت بين الملحن الموهوب (ولكن الناشئ) والمطربة الأشهر والأهم، فإن من المؤكد أن السنباطي كان يتمتع بشخصية قوية وبثقة بنفسه وبفنه على درجة عالية ومعروفة للجميع.

أم كلثــــوم وملحنوهـــــا

لا يشذ أى من هذه الرموز عن قاعدة التخرج من مدرسة الإنشاد الديني، قبل الانتقال إلى ممارسة التلحين أو الغناء على صعيد الاحتراف. ولا بد هنا من استطراد عام ينبه إلى أن الأنظمة الحديثة لمناهج تدريس الموسيقى العربية قد أهملت هذه القاعدة الذهبية إهمالاً كلياً، بدأت آثاره العملية السلبية تصيب «أرض» الموسيقى والغناء العربيين بالتصحر



ومع ذلك فإننا يمكن بعد نظرة شاملة إلى الرصيد التاريخي الكامل للسنباطي، أن نؤكد وجود تيارين فنيين مختلفين في نتاجه الفني:

*السنباطي غير الكلثومي.

* والسنباطي الكلثومي.

أما السنباطي غير الكلثومي فيمكن أن نرصد ملامحه الفنية المميزة، في كل أو معظم ما لحن لغير أم كلثوم، بما في ذلك ألحانه التي سجلها بصوته، ثم بأصوات سواه (خاصة أسمهان وليلى مراد).

وإذا حاولنا اختصار الفارق الأساسي الذي يميز السنباطي غير الكلثومي عن السنباطي الكلثومي، فإننا نعود إلى الفارق الأساسي بين الفلسفة الجمالية لمدرسة القرن التاسع عشر والفلسفة الجمالية لمدرسة القرن العشرين في الموسيقى العربية. وهذا الفارق يتركز على أن الأولى (مدرسة القرن التاسع عشر) كان الخيال الموسيقي فيها (والأداء الموسيقي) في خدمة الصوت، وفنونه التطريبية والزخرفية، ومدى اتساع مساحاته بين قرار وجواب. أما مدرسة القرن العشرين، فقد أدت كل مؤثرات التفاعل مع الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، إلى انبهار الموسيقيين بالقدرات التعبيرية اللامحدودة للأوركسترا الكبير، مقارنة بالقدرات المحدودة للتخت الموسيقي. فأصبح كبار الموسيقيين العرب، أو معظمهم، يلحن للأوركسترا كما للصوت البشري، بل يعتبر الأداء الصوتي جزءا من التعبير الفني الذي تؤديه الأوركسترا. ومع أن هذه المعادلة ظلت تختلف في توازن نسبها بين ملحن وآخر، إلا أن نسبة توجه الخيال الموسيقي إلى التعبير الأوركسترالي (إلى جانب التعبير الصوتي الغنائي) ظلت بارزة (باستثناء زكريا أحمد بين الكبار) كما رأينا. فإذا عدنا إلى السنباطي، فإن ألحانه تشير إلى تنقله الدائم بين عنصري هذه المعادلة. فكان عندما يلحن لأم كلثوم، ذات الصوت الاستثنائي، وذات الحاجة إلى ألحان تؤديها في حفلات طرب حي أمام الجماهير بشكل مستمر (منذ ١٩٣٧ وحتى توقفها)، كان بديهيا أن يضع خياله الفني في خدمة عظمة ذلك الصوت، وحاجة ذلك الصوت في حفلات الطرب المسرحي الجماهيري المباشر. أما عندما كان يلحن لصوته، أو لأصوات أسمهان وليلى مراد، ثم نجاة الصغيرة ووردة، وحتى عبدالحليم حافظ، فكان يشعر بمزيد من الحرية، فيطلق العنان لخياله الموسيقي في كل ما يحلو له، وفي ما يعبر به عن تطلعه للتلحين للأوركسترا الكبيرة.

غير أن الخط البياني العام لمجمل إبداع رياض السنباطي، يشير إلى طغيان لونه الكلثومي على لونه اللاكلثومي، حتى أنني كتبت مقالا عند رحيل أم كلثوم بعنوان: «ماذا سيفعل رياض السنباطي الآن» ؟

طبعا، كان يمكن الرد نظريا على هذا التساؤل بالقول، أن بوسعه الانطلاق في لونه الثاني اللاكلثومي، ولكن الشيخوخة كانت قد زحفت إلى حيويته الفنية. فآثر الصمت ما عدا ألحان قليلة لوردة وفايزة أحمد وميادة الحناوي وسعاد محمد وفيروز، كلها - ويا للغرابة! - مطبوعة بالطابع السنباطي الكلثومي، وإن لم يرتفع أي منها إلى مستوى الروائع الكلثومية. لهذا العملاق الذي اختارته أم كلثوم ليعوضها عن موهبة التلحين التي لم يمن بها الله عليها، فارتبط معها ارتباطا لا فكاك منه، حتى في رحاب الخلود.

محمد الموجي وكمال الطويل

ما أن انتصف عقد الأربعينيات، حتى كان المشهد واضحا في قمة الغناء العربي الكلاسيكي، يتربع على قمته محمد عبد الوهاب (مغنيا وملحنا) وأم كلثوم وحولها عباقرة اللحن الثلاثة (القصبجي وزكريا والسنباطي). غير أن تعديلا مهمًا اكتمل مع العام ١٩٤٧، وبعد انسحاب القصبجي ثم زكريا أحمد من هذا الثلاثي، فاحتل السنباطي، لفترة طويلة، موقع الملحن الأوحد لصوت أم كلثوم.

وكان بدهيا أن يفتح ذلك شهية الملحنين الطامحين (حتى قبيل اكتمال انسحاب القصبجي وزكريا). فغنت في العام ١٩٤٣ لحنا لفريد غصن «وقفت أودع حبيبي» (بناء على ترشيح من القصبجي فيما يبدو)، ولكن عدم تجاوب الجمهور مع الأغنية دفع أم كلثوم إلى التوقف عن غنائها، بل إلى إعدام التسجيل الوحيد لها، كما هو مرجح.

بعد ذلك، من المعروف أن محاولات عديدة، قد بذلها ملحنون عديدون، منهم أحمد صدقي وفريد الأطرش ومحمد فوزي، دون نتيجة عملية. ولا بد من وقفة، ولو عابرة، عند اقتراب الملحن العبقري محمود الشريف من أم كلثوم، بل اقترانه العابر بها.

لقد أتيح لي في لقاء شخصي مع الشريف في منزل صديقي العبقري الراحل صلاح جاهين، أن أستمع إلى كلمات قليلة رد بها الشريف على سؤالي عن قرانه بأم كلثوم. وأهم ما في هذه الكلمات القليلة تصريحه بأن موضوع الزواج كان مقرونا بمشروع فني بينه وبين أم كلثوم لإحياء زخم المسرح الغنائي. غير أن المشروعين انتهيا إلى فشل (الزواج والمسرح الغنائي).

فإذا كان كلام الشريف دقيقا، فإن من حقنا أن نتخيل أن نجاح مثل هذا المشروع كان سيغير كثيرا في تفاصيل السيناريو الفني لحياة أم كلثوم، بل سيغير في ملامح المنافسة بينها وبين عبد الوهاب، الأمر الذي كان (لو جنح بنا الخيال) سيؤدي إلى إثراء الحياة الموسيقية والغنائية العربية المعاصرة بعناصر من الثراء الفني، لا يمكن تصور حدودها.

غير أن هذا لم يحدث، وأصبحت أم كلثوم سيدة الحفلات المسرحية الشهرية، بعد أن تحول عبد الوهاب عن الحفلات الحية، في مطلع الأربعينيات، مفضلا عليها التسجيلات في استوديوهات الإذاعة، طلبا للحد الأقصى من الإتقان، وتحررا من قيود طلبات الجمهور في الحفلات الحية، وهي تجربة عملية صدمت عبد الوهاب في آخر حفلاته الحية (قبل الحفلة اليتيمة عام ١٩٥٤ التي غنى فيها «كل دا كان ليه»)، عندما رفض الجمهور الاستماع إلى الجندول، رائعة عبدالوهاب الخالدة، وأصر على سماع المواويل وأغنيات الطرب المعروفة (مين عذبك، لما انت ناوى الخ..)، فأطلق عبارته الشهيرة: «أريد أن أشد الجمهور، لا أن يشدني».

التبدل الأول في هذا المشهد الثابت للمنافسة بين عبد الوهاب من جهة، وأم كلثوم (مع ملحنها الوحيد المعتمد السنباطي) من جهة ثانية، جاء مع التحولات الاجتماعية والثقافية التي بدأت ثورة ٢٣ يوليو تطلق لها العنان. فلفت نظر أم كلثوم ظهور ملحنين موهوبين وراء ظاهرة عبد الحليم حافظ الجديدة: محمد الموجي (صاحب صافيني مرة)، وكمال الطويل (صاحب على قد الشوق).

فمن المرجح أن أم كلثوم، بعد أن استمرت على لون فني واضح المعالم مع ملحنها الأثير رياض السنباطي، ترتاح إليه راحة كاملة لأنه ترجمة أمينة لمزاجها الفني الحميم، بدأت تبحث عن تجدد ما، ضمن إطار لونها الذي أصبح واضح المعالم. فكلفت محمد الموجي في العام ١٩٥٤ بتلحين أنشودة الجلاء، التي نظمها شاعرها الأثير أحمد رامي.

ويبدو أن هذا التعاون الأول المحدود مع الموجي، قد شجع أم كلثوم على المضي في «المغامرة» قدما. فعندما أنتجت إذاعة القاهرة بعد ذلك بعام (١٩٥٥) برنامج رابعة العدوية، كان ثلاثي الملحنين الذي تولى مهمة تلحين قصائد طاهر أبو فاشا الصوفية العميقة مكونا من رياض السنباطي ومحمد الموجي وكمال الطويل. وأعطت «المغامرة» كل ثمارها، فخرجت ألحان الفارسين الجديدين موازية لألحان العملاق المخضرم، عدا لحن واحد للطويل (غريب على باب الرجاء) أبدى الطويل عدم اقتناعه به، واتفق مع أم كلثوم على سحبه. بل إن المفاجأة كانت أن لحني الموجي (حانة الأقدار والرضا والنور) ولحن الطويل (لغيرك ما مددت يدا) قد انتشرا أكثر من ألحان السنباطي لرابعة العدوية، على روعتها، ربما لأنها تحمل نكهة جديدة، إضافة إلى الرصانة والمستوى الحرفي الرفيع المتأثر بالسنباطي على أي حال.

وشهد العام التالي (١٩٥٦) مع الأجواء المشحونة والكثيفة لتأميم قناة السويس، اندفاع أم كلثوم إلى مدى أبعد في «مغامرتها»، فاختارت شاعرا شابا أيضا هو صلاح جاهين، ليكتب لها قصيدتين بالعامية، واحدة لتحية مرشدي قناة السويس المصريين (محلاك يا مصري) والثانية لمعركة التحدي في بور سعيد (والله زمان يا سلاحي). فكلفت الموجي باللحن الأول، الذي وضع فيه خلاصة الروح الشعبية العميقة التي تميز بها خط الموجي (إلى جانب رومانسيته الرفيعة)، وكمال الطويل باللحن الثاني، الذي أبدع في صياغته على شكل نشيد حماسي كلاسيكي، أكمل فيه سلسلة «أيها الخفاق» و«نشيد الحرية» لعبد الوهاب، و«يا شباب النيل» الذي غنته أم كلثوم من ألحان السنباطي. وقد وصل الإجماع على قيمة هذا النشيد إلى درجة اختياره نشيدا وطنيا لمصر، قبل النشيد الحالي.

ونترك كمال الطويل يحدثنا عن علاقته الفنية بأم كلثوم، التي يمكن اعتبارها تعبيرا عن علاقة الملحنين الموهوبين الشابين بالمغنية التي تتربع على قمة الغناء العربي المعاصر.

الحكاية الأولى يروي فيها كمال الطويل الرهبة التي انتابته عندما تلقى دعوة أم كلثوم، ومحاولته التملص منها. ثم يروي كيف تصرفت أم كلثوم لكسر تلك الرهبة، بدعوته لتكرار زيارتها في منزلها، قبل مفاتحته بأي عمل فني، الأمر الذي لم يتم إلا بعدما شعرت أم كلثوم بانكسار حاجز الرهبة، فطلبت إليه التلحين لها. ولما طرح كمال الطويل السؤال البديهي البسيط: «ولكن كيف ألحن لك يا ست، لا أدري؟».. ردت ببساطة: «عادي كما تلحن لنجاة الصغيرة».

أما الحكاية الثانية فهي في صميم الخيارات الفنية المتفاوتة بين كمال الطويل وأم كلثوم. فمع أن الطويل قد حاول في لحنه صياغة معادلة يرضي بها طموحاته الفنية الخاصة، وطبيعة صوت وأداء أم كلثوم، فإن التوزيع الموسيقي الذي اقتضاه الطابع الحماسي للنشيد، اعتمادا على آلات النفخ النحاسية والطبل السيمفوني والصنوج السيمفونية، أثار حفيظة أم كلثوم فعلقت بسخريتها المعهودة: ألا ينقضي الأمر بغير هذه «الحلل» (الطناجر).

وفي الترجمة الفنية لهذا الموقف، يمكن أن نعيد الاستماع إلى «والله زمان يا سلاحي». فنكتشف أن أداء أم كلثوم أشد ما يكون تملكا وراحة و«سلطنة»، مع المقطع الثاني على مقام البياتي (يا مجد يا مجدنا)، بينما نستمع في المقطع التالي (مصر الحرة مين يحميها) أداء متوترا قلقا، لأن لحنه يخرج عن نطاق حساسيات الطرب التقليدي، إلى الحساسيات الجديدة التي تفنن في إدخالها إلى نسيج الموسيقى العربية القصبجي وعبد الوهاب. علما بأن أم كلثوم كانت قد أدت مقطعا مشابها

أم كلثوم وملحنوها

القصبجي كان صاحب عقل موسيقي جبار، جعل إبداعه الموسيقي يرتاد آفاقا تجديدية، مما سيجعل مؤرخي مدرسة القرن العشرين ومنظريها - في اعتقادي - يضعون اسمي محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي في صدارة المجددين، لأنهما صاحبا أغزر وأهم إنتاج تجسدت فيه المعادلة الصعبة

في فلسفته الجمالية، براحة كاملة، في لحن السنباطي القديم «يا شباب النيل»، وهو مقطع «يا شباب النيل هيا للعلا تعاونوا». غير أن تلك كانت مرحلة «تتلمذ» أم كلثوم على يدي القصبجي (١٩٣٦) بينما كنا في العام ١٩٥٦ في صميم مرحلة أم كلثوم «الأستاذة».

ولعل في تلافيف هذا الموقف، تكمن محاولة تفسير انقطاع أم كلثوم عن التعاون مع الطويل، واستمرار تعاونها مع الموجي، الذي كلفته بعد ذلك بلحنين طويلين في إطار حفلاتها الشهرية: للصبر حدود (١٩٦٤) واسأل روحك (١٩٧٠). فجاء الأول محاولة صريحة من الموجي للتعبير عن شخصيته في إطار مدرسة السنباطي الكلثومية، أما الثاني (أسأل روحك) فكان فيه الموجي أكثر تحررا، فأطلق العنان لرومانسيته العميقة في لحن رائع، لكن الوقت كان متأخرا، فصوت أم كلثوم في السبعينيات، كان مجرد ظل جميل لصوتها العبقري في العقود السابقة.

بليغ حمدي

غير أن «مغامرة» أم كلثوم الكبرى كانت من غير شك مع بليغ، وذلك لأسباب ثلاثة:

١ - أنه عندما كلفته أم كلثوم باللحن الأول كان لم يتجاوز الثلاثين من عمره بعد، وكانت أم كلثوم قد بلغت ضعف سنه، وأضعاف شهرته الفنية.

٢ - أنها أدخلته رأسا «حرم» حفلاتها الشهرية المطولة، خلافا لتصرفها مع محمد الموجي، الذي تفصل عشر سنوات كاملة بين نشيد الجلاء (لحنه الكلثومي الأول)، و«للصبر حدود» أول ألحان الموجي لحفلات أم كلثوم الشهرية. ومع كمال الطويل الذي لم يدخل هذا «الحرم».

٣ - أن التعاون بين أم كلثوم وأصغر ملحنيها لم يكن مجرد نزوة أو تجربة عابرة، بل تحول إلى علاقة فنية ثابتة. فوضع لها فيما بين ١٩٦٠ و١٩٧٣ أحد عشر لحنا (واحد منها وطني: سقط النقاب، على أثر نكسة ١٩٦٧)، أي بمعدل يقارب اللحن الواحد في السنة. وقد تساوى في ذلك مع محمد عبد الوهاب (عشرة ألحان)، في كونهما الملحنين الوحيدين من خارج قائمة ملحنيها «الدائمين» تاريخيا، اللذين تحول تعاونهما مع أم كلثوم إلى تعامل سنوي ثابت. وتفرد بليغ حمدي بكونه صاحب آخر لحن سجلته أم كلثوم بصوتها على اسطوانة (حكم علينا الهوى - ١٩٧٣)، ومنعها المرض من تقديمه على المسرح في حفلة حية.

في أواخر عقد الخمسينيات كان المشهد العام لامبراطورية أم كلثوم الفنية مسرحا لتدفق هائل للمخيلة الفنية لملحن أم كلثوم الأوحد (في ذلك العقد) رياض السنباطي: أروح لمين، هجرتك، الحب كده، لسه فاكر، قصيدة قصة الأمس، وقصيدة ثورة الشك. وكان تعاون أم كلثوم مع الموهبتين الجديدتين (الطويل والموجي)، قد توقف عند أعمال وطنية قصيرة، إضافة إلى ألحان رابعة العدوية...

ويبدو أن غزارة السنباطي الاستثنائية في ذلك العقد الذهبي من سيرته الفنية، لم يلجم رغبة أم كلثوم (وقد تربعت على العرش بلا منافس)، عن البحث عن نغمة شابة جديدة. ويبدو أن محمد فوزي كان يعمل في لحن لأم كلثوم عندما لفت انتباهه الصعود الصاروخي للموهبة الجديدة بليغ حمدي. وإذا صحت الحكاية التي تقول أن محمد فوزي قد بلغ من إعجابه ببليغ حمدي أنه توقف عن التلحين لأم كلثوم ورشح لها زميله الجديد بقوة، فإن هذه الحكاية تستحق التوثيق الدقيق والمفصل من مؤرخي الموسيقى العربية المعاصرة، لما فيها من معان بليغة. الخميس الأول من ديسمبر



١٩٦٠ (وهي الليلة الأولى في ذلك الشهر) لم تكن عادية في مسيرة أم كلثوم، ومسيرة بليغ حمدي وزكريا أحمد. بل كانت ليلة تاريخية بالنسبة للثلاثة، فقد تكونت الوصلة الكلثومية الثلاثية في افتتاح موسم ١٩٦٠ - ١٩٦١، من:

١ - رائعة رياض السنباطي هجرتك (غنتها للمرة الرابعة عشرة)

٢ - أول لحن كلثومي لبليغ حمدي، حب إيه اللي انت جاي تقول عليه.

٣ - رائعة زكريا أحمد وبيرم التونسي الخالدة «الهوى غلاب»، وآخر ألحانه لها. (يشاء القدر أن يرحل بيرم التونسي بعد الحفلة الأولى للأغنية، وبرحيل زكريا أحمد بعد الحفلة الثانية بأسبوعين. وذلك في يناير وفبراير ١٩٦١ على التوالي).

ومع أن «حب إيه» تعتبر اليوم من أضعف ألحان بليغ حمدي لأم كلثوم، وقد تكون أضعف أغنياتها المسرحية المطولة، فقد فتنت النكهة الجديدة للملحن الشاب الجمهور الكلثومي المتمرس، وأم كلثوم نفسها وهي في ذروة نضج تجاربها الفنية. أكثر من رائعة زكريا أحمد، التي تعتبر من أقوى ما شدت به أم كلثوم في تاريخها الطويل. فمن يراجع جدول الموسم الغنائي لأم كلثوم ٦٠ - ١٩٦١ المكون من تسع حفلات، بين ديسمبر ويوليو (بما في ذلك حفلة مؤتمر المحامين العرب في فبراير، وحفلة أعياد الثورة في يوليو)، يجد أن «حب إيه» لم تغب عن أية حفلة في ذلك الموسم، بينما غابت «الهوى غلاب» عن ثلاث من الحفلات التسع.

ويمكن اعتبار هذه الفاتحة في علاقة بليغ حمدي بأم كلثوم، نموذجا لطبيعة تلك العلاقة، التي أغدقت فيها أم كلثوم على الموهبة الموسيقية الشابة رعاية لا مثيل لها في حياتها الفنية، هي أشبه برعاية الأستاذ لتلميذه الذي آمن بموهبته إلى أبعد مدى.

وللأمانة نقول أن كل الإيجابيات التي طرحتها أم كلثوم بكرم شديد بين يدي بليغ حمدي، كان يقابلها سلبية مهمة. هي أن مرحلة «ربيع» بليغ حمدي الملحن كانت تتعامل مع «خريف» أم كلثوم الصوتي، وذلك واضح كل الوضوح في آخر لحنين غنتهما أم كلثوم لبليغ «الحب كله» (في حفلات حية) و«حكم علينا الهوى» (في أسطوانة).

خلاصة القول في هذه العلاقة أنها إذا كانت قد منحت بليغ حمدي الشهرة من أوسع أبوابها، والثقة الكاملة بالنفس، فإنها منحته شيئا ثالثا، قد يكون هو الأهم فنيا. فالشخصية الموسيقية لبليغ حمدي تقول أنه، بلغة الرياضة، من سباحي المسافات القصيرة، ومعلوم أن سباحة المسافات الطويلة تقتضي قدرات وتقنيات لا يمتلكها سباحو المسافات القصيرة أو المتوسطة.

سيد مكاوي

إنه آخر اسم في قائمة ملحني أم كلثوم الأحد عشر، ومع ذلك فإن محاولاته لدخول بلاطها سبقت كثيرا ظهور لحنه الأول، والأوحد، لها «يا مسهرني». وقد اختصر التوأم الفني لسيد مكاوي، العبقري الراحل صلاح جاهين، اختصر لي «معاناة» سيد مكاوي في الوصول الى حنجرة أم كلثوم، وإحساسه بالإحباط بسبب تكرار فشل محاولاته الأولى، حتى واساه صلاح بعبقرية السخرية لديه: «ولا يهمك، بتهوفن نفسه لم تغن له أم كلثوم، ومع ذلك خلدت ألحانه».

والحقيقة أن الشيخ سيد كان على قدر الفرصة التي أتيحت له في الموسم الغنائي الكلثومي ما قبل الأخير، فصاغ لها لحنا يراعي كل شروط الأغنية الكلثومية المسرحية الجماهيرية، ويراعي في الوقت نفسه حدود صوتها في العقد الأخير من حياتها الفنية. ثم انطلق بعد ذلك لإنجاز لحن ثان، يتميز بالمواصفات نفسها (أوقاتي بتحلو معاك، الذي حوله بعد ذلك للفنانة وردة)، ولكن الكلمة الأخيرة، في هذه العلاقة التي كانت أشبه بالفاكهة الناضجة، في آخر موسمها، كانت للقدر.

محمد عبد الوهاب

نادرا ما استمعت إلى تقييم كامل الموضوعية، للعلاقة الفنية المتأخرة التي جمعت أم كلثوم بعبدالوهاب. ويبدو ذلك طبيعيا ومنطقيا إذا تذكرنا أننا عشنا جميعا عصر هذين العملاقين اللذين طبعا القرن العشرين بطابعهما. كما عبر عن ذلك الموسيقار رياض السنباطي عندما أكد أننا نعيش فنيا في عصر عبد الوهاب وأم كلثوم، وأننا يجب أن «نحمد الله على ذلك». (استقيت هذا الرأي حرفيا من تسجيل لسهرة منزلية في لبنان، كان نجمها رياض السنباطي).

أما سبب صعوبة الموضوعية في الحكم على تعاون عبد الوهاب وأم كلثوم، فهو أن بعضنا افترض - نظريا - أنه ما دام اللقاء بين أعظم ملحني القرن وأعظم مطربات القرن، فلا بد من أن تكون الثمرة أعظم أغنيات القرن وألحانه.

ولكن النتيجة العملية لم تأت مطابقة للتحليل النظري (وما كان لها أن تأتي كذلك). فلا جدال بأن الأغنيات العشرة التي شدت بها أم كلثوم من ألحان عبد الوهاب (ثماني أغنيات عاطفية، وأغنيتان وطنيتان)، ليست بالقطع أجمل أغنيات أم كلثوم، ولا هي أعظم ألحان عبد الوهاب. ومن المؤكد أن سجل خلود عبد الوهاب وسجل خلود أم كلثوم قد كتبا بنصيبهما شبه النهائيين، قبل «انت عمري».

بعد هذا الإقرار بالنتيجة النهائية، يسهل علينا الاقتراب من تحليل العلاقة الفنية بين هذين العملاقين بأدوات موضوعية.

التفسير الأكثر شيوعا لعدم تعاون عبدالوهاب وأم كلثوم قبل عقد الستينيات، وفشل كل المحاولات المتكررة في هذا الاتجاه، من أكثر من مرجع مهم، هو الغيرة الفنية المتبادلة، وخشية أم كلثوم من تكرار مصير منيرة المهدية، عندما كان تعاملها مع عبد الوهاب، مقدمة لأفول نجمها.

أما تفسير اللقاء المتأخر، برأي أصحاب هذه النظرية، فيشير إلى سببين:

* ضعف عامل الغيرة الفنية مع تقدم السنين، واستقرار كل نجم على عرشه.
* تدخل الرئيس عبد الناصر المباشر في موضوع التعاون، وإلحاحه عليه.

غير أن الاقتراب من هذا الموضوع الشائك بأدوات التحليل الفني الموضوعية، تشير إلى أسباب أخرى، مع عدم استبعاد عامل الغيرة الفنية، الإنساني والطبيعي.

فمع أن الفنانين، قد شربا، في مرحلة النشأة، من الينابيع نفسها (تراث الإنشاد الديني، وتراث القرن التاسع عشر)، إلا أن اكتشاف عبد الوهاب لموهبته التلحينية، دفعه إلى مسافة أقرب من الاحتكاك بالموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، والنهل من ينابيعها، والتأثر بها، في أدائه الغنائي، وفي أساليبه التلحينية.

ولأن عبد الوهاب قد انطلق في هذا الاتجاه بعد استكمال استيعابه الكامل والمعمق لتراثه القومي، والتأصل عميقا في جذوره، فإن المحصلة العملية ما كان يمكن لها أن تكون تغريبا (كما كان يصر غلاة المحافظين، خاصة في النصف الأول من القرن العشرين). بل جاءت النتيجة توليد أساليب متجددة من داخل الشخصية الراسخة للغناء العربي والموسيقى العربية، وهو

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٤ ـ فى مثنوية الإنسان

اعلم يا أخى، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الإنسان لما كان هو جملة مجموعة من جسد جسمانى ونفس روحانية، وهما جوهران متباينان فى الصفات، متضادان فى الأحوال، ومشتركان فى الأفعال العارضة والصفات الزائلة، صار الإنسان من أجل جسده الجسمانى مريدًا للبقاء فى الدنيا، متمنيًا للخلود فيها، ومن أجل نفسه الروحانية صار طالبًا للدار الآخرة، متمنيًا للبلوغ إليها، وهكذا أكثر أمور الإنسان وتصرف أحواله مثنويةٌ متضادة كالحياة والممات والنوم واليقظة والعلم والجهالة والتذكر والغفلة والعقل والحماقة والمرض والصحة والفجور والعفة والبخل والسخاء والجبن والشجاعة والألم واللّذة، وهو متردد بين الصداقة والعداوة والفقر والغنى والشبيبة والهرم والخوف والرجاء والصدق والكذب والحق والباطل والصواب والخطأ والخير والشر والقبح والحسن وما شاكلها من الأخلاق والأفعال والأقاويل المتضادة المتباينة التى تظهر من الإنسان الذى هو جملة مجموعة من جسد جسمانى ونفس روحانية.

واعلم يا أخى بأن هذه الخصال التى عددنا لا تنسب إلى الجسد بمجرده، ولا إلى النفس بمجردها، ولكن إلى الإنسان الذى هو جملتها والمجموع منها الذى هو حى ناطق مائت، فحياته ونطقه من قبل نفسه وموته من قبل جسده، وهكذا نومه من قبل جسده، ويقظته من قبل نفسه. وعلى هذا القياس سائر أموره وأحواله المتباينات المتضادات، بعضها من قبل النفس، وبعضها من قبل الجسد، مثال ذلك عقله وعلمه وحلمه وتفكره وسخاؤه وشجاعته وعفته وعدله وحكمته وصدقه وصوابه وخيره وما شاكلها من الخصال المحمودة.

الطابع الغالب على ما سيبقى من تراث عبد الوهاب الموسيقى والغنائى، بعد استكمال عملية الغربلة التاريخية.

وليس صحيحا ما يردده بعض غلاة المحافظين المتشددين، من أن هذا الاتجاه إنما سلكه عبد الوهاب، تحايلا على التحولات الفيزيولوجية التى بدأت تظهر على صوته، فعمد إلى تضخيم دور الأوركسترا على حساب دور الصوت. بدليل أن هذا الاتجاه التحديثى كان خيارا واضحا لعبد الوهاب حتى فى المرحلة التى يسميها غلاة المحافظين «العصر الذهبى» لصوت عبد الوهاب، والذى يرسمون خط نهايته مع منتصف عقد الثلاثينيات. ويسهل كثيرا العثور على عشرات الأدلة لدى مقارنة تراث عبد الوهاب وتراث أم كلثوم المبكر، فيما بين ١٩٢٥ و١٩٣٥، حيث بدأت ترتسم ملامح مدرستين مختلفتين فى الأداء الغنائى، يمكن وصفهما اصطلاحا بالكلاسيكية التقليدية (لأم كلثوم) والكلاسيكية المتجددة (لعبد الوهاب).

ومع أن أعمال القصبجى (وأعمال السنباطى الأولى) قد دفعت أم كلثوم مرات عديدة نحو مساحات الكلاسيكية المتجددة، إلا أن ألحان أبو العلا محمد وداود حسنى وزكريا أحمد، قد شدت أم كلثوم بعد فترة، للاستقرار فى مساحات أقرب ما تكون إلى الكلاسيكية التقليدية، مع تعديلات متجددة اكتسبتها من أدائها لألحان القصبجى، وألحان السنباطى الاولى.

والمؤكد أن عبد الوهاب (إضافة إلى انه لم يكن فى ذروة حيويته الفنية عندما لحن لأم كلثوم، التى كانت هى الأخرى فى بداية نزول سفح هرمها الفنى عندما غنت انت عمرى) قد وضع ألحانه العشرة لأم كلثوم وهو تحت ضغط المواءمة الضرورية بين المدرستين، (إضافة إلى مراعاة قدراتها الصوتية المتراجعة) وخاصة أن أم كلثوم كانت قد أصبحت صاحبة أسلوب ثابت وراسخ فى الغناء، ولم تعد فى سنواتها التجريبية الأولى.

لذلك نجد اللحن الأول «انت عمرى» قد صيغ سعيا وراء التوفيق بين ثلاثة أغراض فنية (بعدد المقاطع الثلاثة للأغنية):

* فجاء المقطع الأول وهابيا خالصا (أد إيه من عمرى قبلك راح).

*وجاء المقطع الثانى أقرب ما يكون للأسلوب الكلثومى (الليالى الحلوة).

* أما المقطع الثالث، فقد استذكر فيه عبدالوهاب الكلثوميات الخفيفة السريعة (على بلد المحبوب للسنباطى، وغنى لى شوى شوى لزكريا، على سبيل المثال).

ولا تبرح مخيلتى، تلك الشروحات التى استغرقت نصف ساعة كاملة، للعبقرى الراحل محمود الشريف، وهو يفصل لى عظمة المقطع الأول فى «انت عمرى»، الذى اعتبره واحدا من أجمل ما سمع فى تاريخ الموسيقى العربية.

أما الأقرب إلى الكمال الفنى، والهندسة المعمارية الموسيقية الشامخة بين ألحان عبدالوهاب الكلثومية، فثلاثة ألحان - فى رأيى - على باب مصر، وهذه ليلتى. ويقترب لحن انت الحب من ذلك، ولكنه لم يلفت الأسماع كما يستحق، ربما لميله إلى الهدوء الشديد. بعد ذلك، تجلت روح عبدالوهاب فى الأصالة المتجددة فى فكرونى ودارت الأيام وأغدا ألقاك، وحتى أمل حياتى وليلة حب، التى تبدو فى آخر قائمة ألحان عبد الوهاب الكلثومية. فإن من يستمع إلى تسجيلها بصوت عبد الوهاب وعوده، يرى فيها حساسيات وهابية ما كان بإمكان صوت أم كلثوم فى آخر حفلاتها الشهرية (١٩٧٣) أن يؤديها بما تستحق وما يكشف عن مكنوناتها.

ولا بد من إشارة أخيرة فى هذا المجال، إلى لحن «أصبح عندى الآن بندقية»، الذى وضعه عبد الوهاب بتحرر كامل من المهمة التوفيقية الصعبة، فجاء اكثر ألحانه لأم كلثوم وهابية.

خلاصة عامة

إن مفتاح علاقة أم كلثوم بملحنيها (خاصة الثلاثة الأساسيين: القصبجى وزكريا والسنباطى) يكمن فى تحديد موضوعى دقيق لملامح موقعها فى تاريخ الغناء العربى المعاصر. وأنا ممن يرون أن ملامح هذا الموقع تقع فى منزلة ما بين المنزلتين، اللتين وقع أصحابهما، فى المبالغة:

* المنزلة التى عبر عنها شيخ نقاد الموسيقى العربية فى القرن العشرين، الراحل كمال النجمى (الذى أطلقت عليه اسم «أصفهانى القرن العشرين» فى مقال سابق لوجهات نظر)، والتى يؤكد فيها، بلا تحفظ، أن أم كلثوم مسؤولة عن ثلاثة أرباع التطور الذى حدث فى الغناء العربى والموسيقى العربية فى القرن العشرين، وهو بذلك يجعلها المبدعة الأولى، وراء إبداع القصبجى وزكريا والسنباطى.

* المنزلة التى عبر عنها المسؤولون عن تقييم المستحقين لجوائز الدولة فى مصر، عندما اعترضوا على ترشيح أم كلثوم، باعتبارها مجرد مؤدية غنائية، وليست مبدعة. ولم يسحبوا اعتراضهم الا بتدخل مباشر من جمال عبد الناصر.

فإذا لم تكن أم كلثوم هى مبدعة الألحان التى صنعت مجدها الفنى، فمن المؤكد أيضا أنها لم تكن مجرد مؤدية لهذه الألحان، وذلك لسببن موضوعيين، لا علاقة لهما بالإعجاب بعظمة صوت أم كلثوم، أو الانبهار به:

١ - أن أم كلثوم، قد عوضتنا فى عهد الإذاعة وآلات التسجيل الإذاعى والتلفزيونى، عن الفلسفة الجمالية العظيمة لفن الارتجال، التى طبعت مدرسة النهضة الموسيقية فى القرن التاسع عشر، فلم تكن مجرد حنجرة عظيمة تؤدى ألحانا عظيمة، بل كانت مبدعا فنيا يقدم لنا هذه الألحان بتفسير جديد وصيغة جديدة فى كل حفلة.

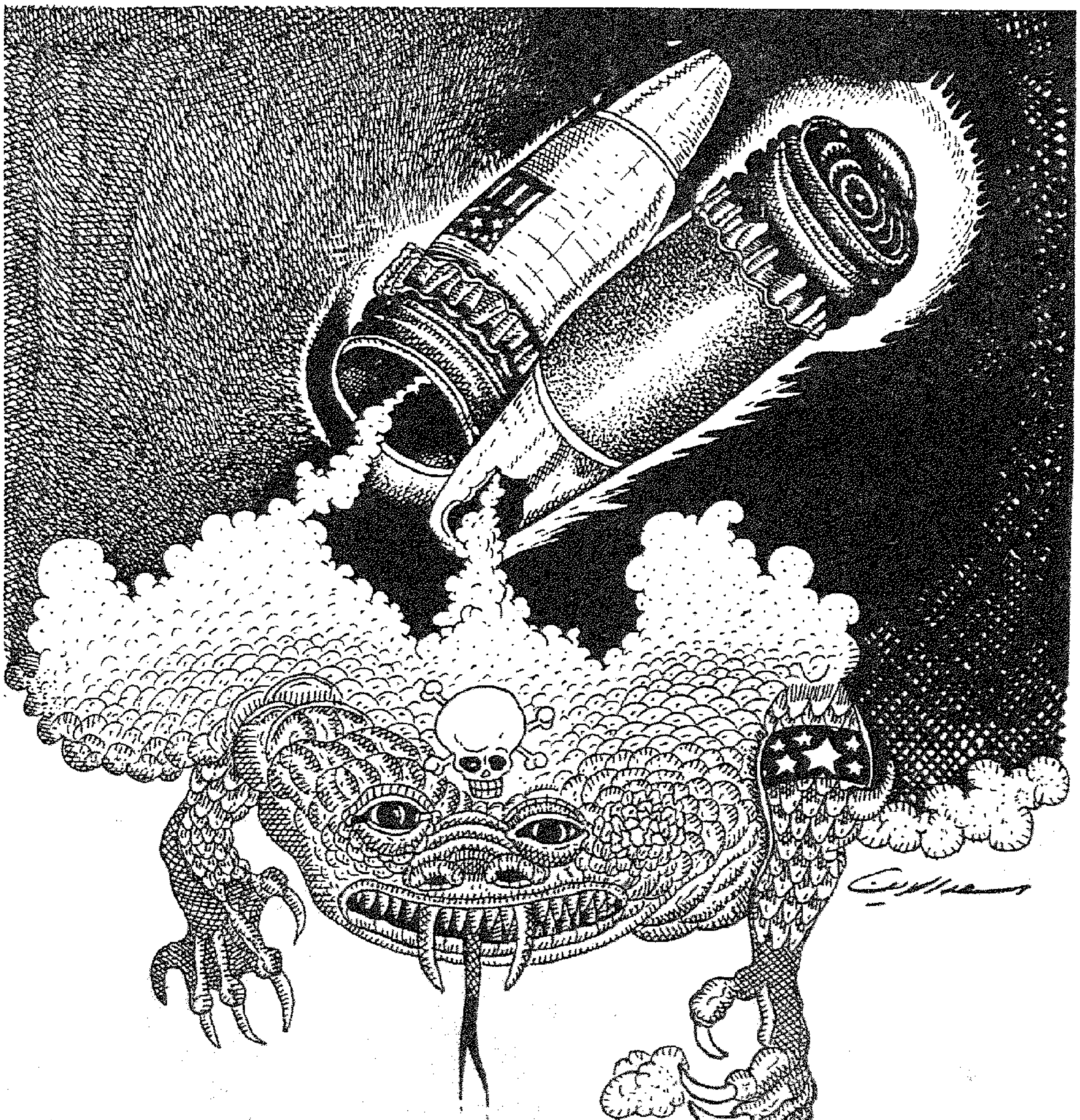
٢ - أن عظمة حنجرة أم كلثوم، وعظمة أدائها الارتجالى المبدع، وقوة شخصيتها، قد جعلت منها مؤسسة فنية «تشحن بالتيار الكهربائى» لحيويتها الفنية، كل ملحنيها وشعرائها وعازفى فرقتها الموسيقية، حتى وإن كانوا فى موقع الأستاذ الفنى لها. وطالما عبر كل من القصبجى وزكريا أحمد والسنباطى عن ذلك، مع أن الأولين نالا من سطوة وقسوة سلطانها الفنى آثارا مدمرة، والثالث لم يسلم من رذاذ ذلك السلطان. صحيح أنهم المبدعون الأوائل، ولكنها بلا جدال، شريكتهم وملهمتهم وحافزهم فى كل ما أبدعوا لصوتها.

ذخيرة اليورانيوم.. الجريمة والعقاب

محمد قدري سعيد

كلعنة نزلت من السماء، سقط مئات من جنود حرب الخليج والبلقان بعد أوبتهم إلى ديارهم ضحايا لأمراض غامضة، تنوعت بين ضعف عام وإرهاق شديد وآلام في العضلات وسقوط للشعر وطفح وأورام سرطانية في الجلد والدم أودت بعدد منهم إلى الموت. ولم يكن الجسد وحده الذي اشتكى، ولكن شيئا ما طال أيضا النفس في بعض الحالات ليضيف أوجاعا نفسية إلى الآلام الجسدية الغريبة. ولولا ثورة الجنود وشكوى العائلات وشبكة الإنترنت لاستمر صمت الساسة والعسكريين والعلماء، ولسقط الأمر كله في جُب الأشياء «غير معروفة السبب». وبرغم أن القصة قد بدأت في أعقاب حرب الخليج ١٩٩١، وكان ضحاياها يتزايدون من جنود التحالف والمدنيين العراقيين، إلا أن السبب وراء «مرض حرب الخليج» ظل ضائعا لمدة عشر سنوات وسط نظريات هائمة واتهامات متبادلة حتى ضرب «مرض حرب البلقان» جنود حلف الناتو من الأوروبيين، وحط الاتهام فجأة فوق ذخيرة أمريكية مصنوعة من مادة «اليورانيوم المنضب» Depleted Uranium كانت قد استخدمت في الحربين -الخليج والبلقان- على نطاق واسع.

ولم تكن هي المرة الأولى التي تردد فيها الحديث حول تلك الذخيرة وخاصة من العراقيين، إلا أن أحدا لم يكن على استعداد لسماع شهادة من العراق، ولم يسقط ستار الصمت إلا عندما تصاعد بقوة ضجيج أوروبي لا يكتم السر بعد موت أعداد من الجنود الإيطاليين. وزاد من سخونة المشكلة وحساسيتها أنها تزامنت مع انتشار مرض غامض آخر في أوروبا اسمه «جنون البقر»، وأنها وقعت وسط تقاطع طرق سياسي يقف في وسطه وصول رئيس جديد إلى البيت الأبيض، يزاحمه عزم أوروبي لصك سياسة دفاعية مستقلة، ومشاريع لتوسيع الاتحاد جهة الشرق، مع تململ أطلسي وإصرار أمريكي على بناء درع صاروخي يحمي الأرض الأمريكية من الآخرين.



وتفاعلت الأزمة وسط إصرار من المسئولين العسكريين في حلف الناتو والعلماء بأنهم لا يملكون دليلا يثبت على وجه اليقين وجود علاقة بين مادة «اليورانيوم المنضب» والحالات المرضية الخطيرة التي أكتشفت حتى الآن في

1- Environmental Exposure Report: Depleted Uranium in the Gulf (II)", Office of Special Assistance for Gulf War Illnesses, Department of Defense, Report No. 1- 800- 497- 6261, December 13, 2000.

2- J. S. Przemieniecki ed., "Critical Technologies for National Defense", US Air Force Institute of Technology, (AIAA, 1991).

بداية المأساة ترجع إلى حرب الخليج ١٩٩١، عندما استخدمت الولايات المتحدة في الميدان لأول مرة ذخيرة جديدة خارقة للدروع مصنوعة من مادة مشعة ذات كثافة عالية اسمها «اليورانيوم المنضب». كما استخدمت أيضا في نفس الحرب دبابات ذات دروع مدعمة بنفس المادة. وقد لعبت تلك الذخيرة دورا مهما في تدمير المدرعات العراقية أثناء مرحلة الحرب

أوروبا وعددها ستون حالة، مات منهم عشرون نصفهم من الإيطاليين. وحاولت إيطاليا وألمانيا والنرويج والبرتغال واليونان في اجتماع مجلس الحلف في منتصف يناير ٢٠٠١ الحصول على قرار بحظر استخدام الذخيرة المصنوعة من اليورانيوم المنضب، إلا أن باقي الأعضاء ناصروا الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا -الدول الثلاثة التي استخدمت تلك الذخيرة- بحجة غياب دليل علمي يثبت أنها السبب وراء المشكلة. لكن الأخبار توالت من الدول التي أكدت في البداية خلو قواتها من تلك الأعراض مثل أسبانيا وهولندا وجمهورية التشيك والمجر باكتشاف مؤشرات جديدة لحالات سرطانية بين جنودها. حتى فرنسا التي وقفت داخل معسكر الإنكار المطلق أعلنت في النهاية اكتشاف ست حالات من سرطان الدم (اللوكيميا) بين جنودها، وحدث نفس الشيء مع بريطانيا. واستجابة لضغوط من الحكومات الأوروبية ومؤسسات الاتحاد الأوروبي، لم يجد حلف الناتو مفرا من إبداء استعداده لتقديم كل المعلومات المطلوبة، وانطلقت في نفس الوقت عمليات فحص للجنود والمناطق التي أستخدمت فيها الذخيرة، واستيقظت منظمات الأمم المتحدة للصحة والبيئة والوكالة الدولية للطاقة الذرية من سباتها العميق، ونزعت عن نفسها قيود التردد والخوف من «البعبع الأمريكي» المتمخض من تلك الصحوة المفاجئة.

بدأ برنامج الأمم المتحدة للبيئة عمله في كوسوفا في نوفمبر ٢٠٠٠ بفريق متخصص قضى هناك ١٢ يومًا، ركز خلالها على الآثار البيئية لحملة البلقان. بدأ الفحص بعمل قياسات إشعاعية لعينات من التربة في ١١ موقعًا تم اختيارها بصفة مبدئية من قائمة تضم ١١٢ موقعًا، كانت عرضة للقصف الجوي بذخيرة اليورانيوم خلال الحرب. ولم يقتصر أخذ العينات على التربة بل امتد أيضا ليشمل المياه والألبان والنباتات. ويمكن تخيل حجم الضرر الذي أصاب البيئة في كوسوفا من معرفة أن حلف الناتو قد أمطرها بأكثر من ٣٠ ألف قذيفة من اليورانيوم المنضب المضاد للدروع على مدى ١١ أسبوعا، وترك فوق أرضها ما يقرب من ١١ طنا من بقايا الذخيرة والشظايا، فضلا عن مقدار غير معروف من الغبار الدقيق المشع ترسب فوق التربة. وما يمكن قوله حتى الآن من ملاحظات، قبل أن تقدم اللجنة تقريرها النهائي في مارس ٢٠٠١، أنها وجدت زيادة «طفيفة» في مستوى الإشعاع في عينات التربة المأخوذة مباشرة أسفل بقايا الذخيرة المتناثرة فوق الأرض، وأيضا داخل الحفر والفتحات الناتجة من الاصطدام، ونصحت اللجنة بأن محاولة لمس تلك الأماكن من التربة تعتبر مخاطرة «لا لزوم لها» an unnecessary risk. لكن اهتمام اللجنة الأكبر كان موجها إلى محاولة تحديد مستوى تلوث المياه الجوفية والمحيط النباتي في تلك الأماكن لأثره الواسع والممتد على الثروة الحيوانية والإنسان.

وبداية المأساة ترجع إلى حرب الخليج ١٩٩١، عندما استخدمت الولايات المتحدة في الميدان لأول مرة ذخيرة جديدة خارقة للدروع مصنوعة من مادة مشعة ذات كثافة عالية اسمها «اليورانيوم المنضب»، كما استخدمت أيضا في نفس الحرب دبابات ذات دروع مدعمة بنفس المادة. وقد لعبت تلك الذخيرة دورا مهما في تدمير المدرعات العراقية أثناء مرحلة الحرب البرية بسبب قدرتها على اقتحام دروع الدبابات الثقيلة مقارنة بأنواع الذخيرة الأخرى عالية السرعة، واشتعال شظاياها بعد نفاذها من الدرع، مما يتسبب في اشتعال الوقود أو الذخيرة الموجودة داخل الدبابة، وأطلق عليها العسكريون للونها ومزاياها «الطلقة الفضية».

والأزمة التي تفجرت بسبب هذه الذخيرة بعد عقد كامل من بدء استخدامها طرحت مرة أخرى -منذ أن ظهرت القنبلة النووية لأول مرة- معضلة الإنسان والسلاح، والثمن الواجب دفعه من أجل تحقيق مستويات جديدة للتدمير. وطرحت أيضا معضلة العلم والعلماء عندما يخوضون في مسائل مركبة متعددة الأبعاد ممتدة في الزمن غير تقليدية بمنطق بسيط وأدوات عاجزة. فهذه هي المرة الأولى التي يضع العلماء في يد «الجندي العادي» ذخيرة مشعة ويقبلون بمخاطر استخدامها وتداولها الصحية والبيئية. وطرحت الأزمة كذلك قضية التجريب في الحرب وتحول ميدان القتال إلى معمل لحروب المستقبل. وأزمة السياسة في عصر ثورة الاتصالات والشبكات وصعوبة إخفاء الحقائق إلى الأبد. والمسألة في جزء كبير منها ليست منقطعة الصلة بعدد كبير من الدول العربية. بعضها يستخدم السلاح الأمريكي ويصنعه، وبعضها الآخر يحتفظ بكميات كبيرة منه على أرضه لأوقات الطوارئ، فضلا عن احتمالات قيام إسرائيل بتصنيع تلك النوعية من الذخيرة أو امتلاكها لها، وما يعنيه ذلك من تهديد مزدوج عسكري وبيئي.

وإذا كانت القصة الأوروبية لذخيرة اليورانيوم مازالت في سطورها الأولى، إلا أن جذورها الحقيقية نجدها في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تطور موضوع ذخيرة اليورانيوم خلال السنوات الماضية بعيدا عن الضوء الإعلامي في صمت. وربما يكون مفيدا قبل أن نتناول جذور المشكلة وتداعياتها في الولايات المتحدة أن نتكلم قليلا عن ماهية «اليورانيوم المنضب» واستخداماته السلمية والعسكرية وكذا آثاره البيئية والصحية.

اليورانيوم المنضب

يقبع عنصر اليورانيوم في بحر الظلمات قرب قاع جدول «ماندليف» الذي يضم عناصر مادة الكون، وسط باقي العناصر الديناصورية الثقيلة الأخرى ذات الذرات المتململة القلقة والمشعة. وتعتبر ذرة اليورانيوم أثقل ذرة لها وفرة معقولة على الأرض، لا يسبقها في الوزن الذري إلا النبتونيوم Neptonium والبلوتونيوم Plutonium وهما من العناصر النادرة. ومن بين الأسباب التي أغرت العلماء باستخدام اليورانيوم في تصنيع الذخيرة أنه لا يعتبر عنصرا نادرا حيث تصل نسبته في القشرة الأرضية إلى ٠,٠٠٠٤ أي أن كل عشرة آلاف طن من القشرة الأرضية يحتوي على أربعة أطنان من اليورانيوم، وهي نسبة عالية مقارنة بالكثير من العناصر الأخرى، فهو على سبيل المثال أكثر وجودا في الطبيعة من الفضة. ومعدن اليورانيوم في صورته الخالصة فضي اللون وينصهر عند ١١٣٢ درجة مئوية، وتشتعل جزيئاته الدقيقة عند درجات الحرارة العالية ذاتيا في الهواء.

ويوجد خام اليورانيوم في الطبيعة Natural Uranium كخليط من ثلاثة نظائر مشعة: اليورانيوم - ٢٣٨ ونسبته في خام اليورانيوم ٩٩,٢٧٦ ٪، واليورانيوم -٢٣٥ ونسبته ٠,٧١٨ ٪، واليورانيوم -٢٣٤ ونسبته ٠,٠٠٥٦ ٪. ومن أجل أن يستخدم اليورانيوم كوقود للمفاعلات النووية يتم «تخصيبه» بزيادة تركيز النظائر القابلة للانشطار أي اليورانيوم -٢٣٥ و ٢٣٤. ويتطلب ذلك فصل كل كمية اليورانيوم -٢٣٤ وثلثي كمية اليورانيوم -٢٣٥ من عينة اليورانيوم الطبيعي، وما يتبقى من هذه العملية يطلق عليه «اليورانيوم المنضب» (اليورانيوم الذي نزعت منه نسبة كبيرة من النظائر القابلة للانشطار) ويتكون معظمه من اليورانيوم - ٢٣٨. والإشعاع الصادر من اليورانيوم المنضب يقل بنسبة ٤٠٪ عن مستوى الإشعاع الصادر من خام اليورانيوم في صورته الطبيعية، أما باقي الخصائص الطبيعية والكيماوية ودرجة السمية فهي متطابقة في المادتين. وانخفاض مستوى الإشعاع لتلك المادة كان سببا إضافيا -بجانب الكثافة العالية والوفرة ورخص الثمن- لاختيارها لتصنيع الذخيرة.

المسألة في جزء كبير منها ليست منقطعة الصلة بعدد كبير من الدول العربية، بعضها يستخدم السلاح الأمريكي ويصنعه، وبعضها الآخر يحتفظ بكميات كبيرة منه على أرضه لأوقات الطوارئ، فضلا عن احتمالات قيام إسرائيل بتصنيع تلك النوعية من الذخيرة أو امتلاكها لها

الصور المختلفة لليورانيوم

اليورانيوم الطبيعي
يورانيوم - ٢٣٤ ٪,٠٠٥٦
يورانيوم - ٢٣٥ ٪٧١٨
يورانيوم - ٢٣٨ ٪٩٩,٢٧٦

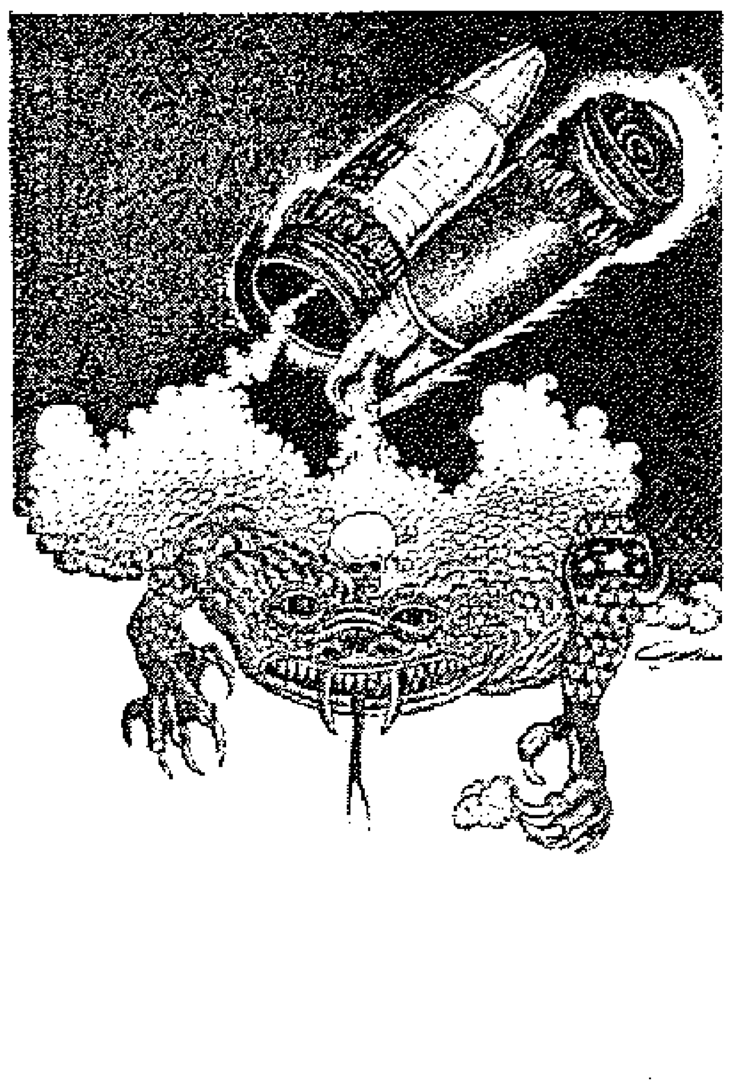
اليورانيوم المنضب
يورانيوم - ٢٣٤ ٪,٠٢
يورانيوم - ٢٣٥ ٪,٢
يورانيوم - ٢٣٨ ٪٩٩,٨

اليورانيوم المخصب
يورانيوم - ٢٣٤ آثار قليلة
يورانيوم - ٢٣٥ ٣ - ٩٠٪
يورانيوم - ٢٣٨ ١٠ - ٩٧٪

الاستخدامات العسكرية والمدنية: يستخدم اليورانيوم المنضب في تصنيع الذخيرة المضادة للدروع التي تطلق من مدافع الدبابات والطائرات، وفي تصنيع الرؤوس الحربية للصواريخ المضادة للدبابات. ويدخل أيضا في تصنيع دروع بعض الدبابات (مثل M1A1 الأمريكية)، وله أيضا بعض التطبيقات السلمية، فتصنع منه قطع معدنية تعمل كأوزان لضبط اتزان الطائرات والقوارب Counter Weights. ولقد تسببت بعض حوادث سقوط الطائرات بالفعل في انتشار بقايا من تلك المادة في منطقة الحادث (كما حدث في أمستردام-هولندا ١٩٩٢، وفي ستانستيد- بريطانيا يناير ٢٠٠٠).

الآثار الصحية والبيئية: لليورانيوم المنضب تأثيرات كيماوية وإشعاعية سلبية على صحة الإنسان. ويتوقف مستوى هذا التأثير ودرجة الضرر الناتج منه على «أسلوب» التعرض لتلك المادة (لمس، بلع، استنشاق) ومدة التعرض. وفي المتوسط يوجد داخل الإنسان العادي حوالي ٩٠ ميكروجرامًا

ذخيـــرة اليـــورانيـــوم



فى حالة اليورانيوم المنضب لا تستطيع أشعة «ألفا» اختراق جلد الإنسان، ولكن وصول المادة إلى داخل الجسم عن طريق البلع أو الاستنشاق يمكن أن يزيد من احتمالات الإصابة بسرطان الرئة نتيجة تعرضها لأشعة «ألفا» وأشعة «بيتا». ويقل هذا الاحتمال مع انخفاض مستوى الإشعاع وزمن التعرض له

(ميكروجرام = ١/١٠٠٠ من الجرام) من مادة اليورانيوم عن طريق الغذاء والماء والهواء موزعة بين الهيكل العظمى (٦٦٪) والكبد (١٦٪) والكلى (٨٪) والباقى فى أنسجة الجسم الأخرى. والتعرض الخارجى لمادة اليورانيوم المنضب ينشأ من العمل داخل مخازن الذخيرة، أو داخل مركبة لها درع أو تحمل ذخيرة من تلك المادة، أو التعرض للشظايا والغبار الناتج من اصطدام الذخيرة بالهدف. والتعرض الخارجى الذى لا يصاحبه بلع أو استنشاق أو تسرب من خلال الجلد له تأثير إشعاعى على الإنسان. أما التعرض الداخلى الذى ينتج عن البلع والاستنشاق أو التسرب من خلال الجلد والجروح فيجمع بين التأثير الكيماوى والإشعاعى. وتوضح الدراسات التى أجريت على اليورانيوم أن أكثر من ٩٥٪ من اليورانيوم الذى يدخل الجسم عن طريق الفم لا يمتص داخله بل يتم التخلص منه عن طريق البراز. أما ما يدخل عن طريق الدم فيتم التخلص من ٦٧٪ منه بعد مرور ٢٤ ساعة عن طريق البول. وتبين بعض الدراسات أن تعرض الكلى لفترات طويلة لليورانيوم يمكن أن يؤدى إلى تلفها وفشلها فى القيام بوظائفها.

وتشع مادة اليورانيوم المنضب ثلاثة أنواع من الأشعة: ألفا وبيتا وجاما، والأنواع الثلاثة لها تأثيرات ضارة على الأنسجة الحية إذا تجاوزت الجرعة المسموح بها. وتتحدد الجرعة بمستوى الإشعاع وزمن التعرض. وفى حالة اليورانيوم المنضب لا تستطيع أشعة ألفا اختراق جلد الإنسان، ولكن وصول المادة إلى داخل الجسم عن طريق البلع أو الاستنشاق يمكن أن يزيد من احتمالات الإصابة بسرطان الرئة نتيجة تعرضها لأشعة ألفا وأشعة بيتا. ويقل هذا الاحتمال مع انخفاض مستوى الإشعاع وزمن التعرض له. ولا يعتقد العلماء أن تعرض بعض العسكريين الأوروبيين لآثار اليورانيوم المنضب أثناء حرب البلقان هو سبب إصابتهم بسرطان الدم. ويبنون اعتقادهم هذا على عدد من الدراسات أُجريت على ضحايا سرطان الدم من الناجين فى هيروشيما ونجازاكى بعد ضرب المدينتين بالقنبلة النووية فى ١٩٤٥ (بواسطة الأمريكيين أيضا)، وعلى دراسات أخرى أُجريت على العاملين فى مجال الصناعات النووية وعمال مناجم اليورانيوم.

وتُرجع الدراستان سبب حدوث سرطان الدم إلى تعرض نسبة من الضحايا إلى أشعة جاما وهى موجودة بمستويات ضعيفة للغاية فى حالة اليورانيوم المنضب. ويضيف العلماء إلى ذلك دليلا آخر من حادث انفجار مفاعل تشيرنوبيل، فبرغم تزايد معدلات سرطان الرئة فى الأطفال بعد حدوث الانفجار بخمسة عشر عاما إلا أن سرطان الدم لم يسجل زيادة ملحوظة بين سكان المناطق الأكثر تلوثا نتيجة للحادث. ولقد قام العلماء بتقدير جرعة الإشعاع التى يمكن أن يتعرض لها الفرد نتيجة استنشاقه للغبار الناتج من اصطدام طلقات اليورانيوم بالدبابات، آخذين فى الاعتبار أقصى الظروف الممكنة، ووجدوا أنها لا تتجاوز نصف الجرعة السنوية المسموح بها للعاملين فى مجال الأشعة. وبرغم أن تلك الجرعة تعتبر كبيرة نسبيا إلا أن العلماء يرون مع ذلك أنها لن ترفع مخاطر الإصابة بسرطان الدم بأكثر من ٢٪ فوق المعدل الطبيعى. ومن المعروف أن المعدل العالمى للإصابة بسرطان الدم تصل إلى ٥٠ حالة لكل مليون من السكان فى الشريحة العمرية بين ٢٠-٤٥ سنة.

قصة ذخيرة اليورانيوم

لا تخرج الطرق التقليدية الشائعة لقتل الأفراد أو المعدات فى الحرب عن اثنتين: الأولى كيماوية تستخدم المواد شديدة الانفجار لتوليد طاقة ضغط وحرارة كافية لإعطاب الهدف أو تدميره والقضاء عليه، والثانية ميكانيكية تستخدم طاقة الحركة وتقوم على الاصطدام المباشر مع الهدف واختراقه وتحطيم أجزائه الحيوية من الداخل. قنابل الطائرات الحاملة للمواد شديدة الانفجار تعتبر مثالا للطريقة الأولى، أما طلقة الرصاص العادية التى تطلق من المسدسات أو البنادق فهى مثال للطريقة الثانية، مجرد قطعة من المعدن الثقيل تخترق الجسد وتحطم الضلوع بفعل سرعتها وكتلتها معا (أو بلغة الميكانيكا بتأثير طاقة الحركة). أما دانة المدفع فهى مثال للطريقتين، تنفجر بالقرب من الهدف وتمطره بالشظايا السريعة فيُقضى عليه بإحدى الطريقتين أو بهما معا.

وتُعتبر المدرعات، بحكم اسمها ورسمها، رمزا للاستمرار والبقاء بين المعدات العسكرية، وظلت لسنوات طويلة هدفا مستعصيا على التدمير، يمكن إعطابها أحيانا لكنها تبقى جاثمة فوق أرض المعركة ربما لسنوات طويلة. وفى الحقيقة لم تفلح الطريقتان المشار إليهما سابقا فى التغلب على الدرع السميك للمدرعات، ونتيجة لذلك كان ضروريا البحث عن أفكار جديدة لتطوير الطريقتين بما يتناسب مع «مفهوم الدرع»، فليس مطلوبا أن «تنطح» الدرع أو تخدشه بل ببساطة أن «تخرقه».

ونتج عن تطوير الطريقة الأولى فكرة «الحشوة الجوفاء» Hollow Charge التى تقوم على «تفريغ» رأس المقذوف من المواد شديدة الانفجار إلا من كمية صغيرة يوضع أمامها مخروط من النحاس، وقبل أن يلمس المقذوف درع الدبابة تنفجر شحنة المتفجرات الصغيرة وتحول مخروط النحاس إلى تيار سريع ساخن من النحاس المنصهر يُذيب الدرع ويخرقه فى نقطة محددة حتى ينفذ إلى الداخل فيحوله إلى جحيم، ويقتل الأفراد ويفجر الذخيرة وتتحول الدبابة إلى قطع متناثرة. وهذه الطريقة كان لها فعل السحر فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأخذت شهرتها الحقيقية من تلك الحرب، فمعظم المقذوفات الشهيرة مثل الـ «آربيجى» و «المالودتكا» و «التو» وغيرها تحمل فى مقدمتها «حشوة جوفاء»، وأنواعها الحديثة تستطيع الآن أن تخترق بسهولة درعا من الصلب يربو سمكه على متر كامل.

لكن الدرع تطور أيضا ليبطل تأثير تيار النحاس المنصهر، فلم يعد درعا من طبقة واحدة بل أصبح يتكون من عدة طبقات، كل طبقة من مادة مختلفة بعضها من المواد الجديدة مثل السيراميك. وتعددت الأفكار فى محاولة تشتيت تيار النحاس، مثل وضع شحنات صغيرة جدا من المتفجرات فوق درع الدبابة تنفجر بواسطة تيار النحاس لكنها تشتته وتحمى الدبابة منه Reactive Armor.

وكان مهما أيضا تطوير الطريقة الثانية – التدمير بطاقة الحركة– عن طريق زيادة سرعة المقذوف وكتلته وقدرته على التماسك حتى يستطيع إتمام رحلته الصعبة داخل الدرع بنجاح، ومن هنا كان الاهتمام بمادة «اليورانيوم المنضب» كمادة يمكن أن تقوم بالمهمة المطلوبة. لكن تلك المادة لم تكن الخيار الأول، ففى نهاية الخمسينيات وقع الاختيار على مادة كاربيد التنجستين لكثافته العالية (١٣ جرام/سم٣) كبديل عن استخدام الصلب الكربونى (٧,٩ جرام/سم٣) الذى كان شائعا فى ذلك الوقت. ومع تطور تصميم الدروع وبنائها من طبقتين أو ثلاث كانت ذخيرة التنجستين تنكسر قبل أن تتم الاختراق بنجاح. وبدأ البحث عن مواد أخرى فى بريطانيا والولايات المتحدة معظمها يقوم على التنجستين مخلوط بمعادن أخرى.

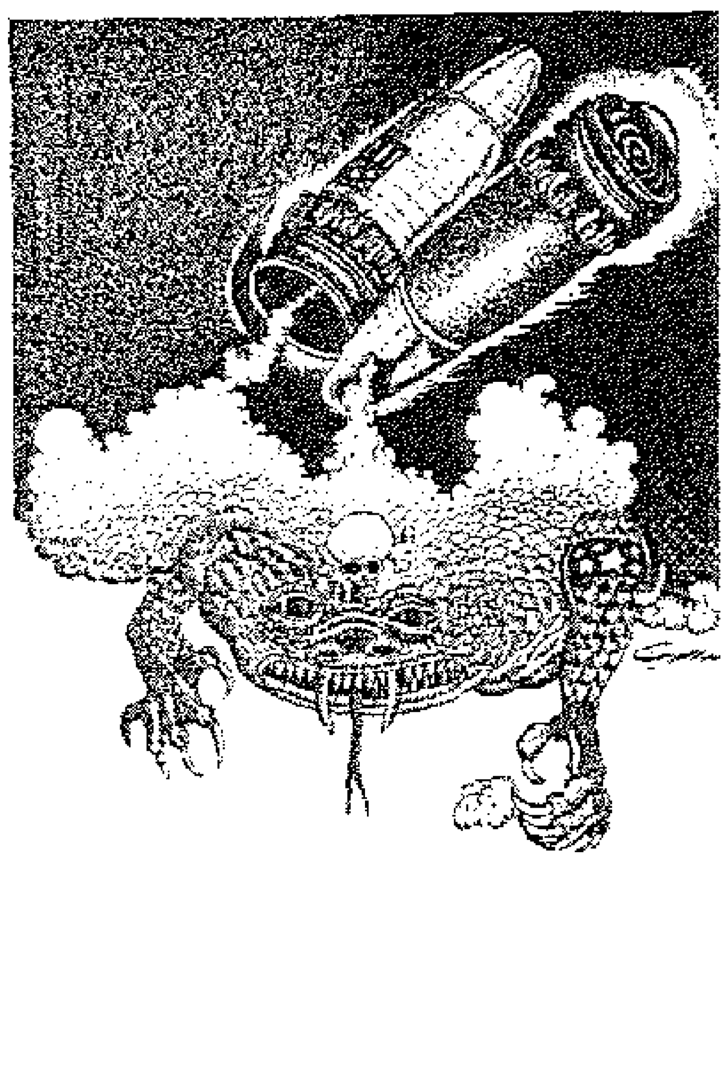
وفى السنوات الأولى للستينيات بدأ التفكير فى الولايات المتحدة لاستخدام «اليورانيوم المنضب» والمتبقى من عملية تخصيب اليورانيوم فى تصنيع الذخيرة المضادة للدبابات بسبب كثافته العالية (١٩ جرام/سم٣) وخواصه الميكانيكية والحرارية. وفى البداية صُنعت الذخيرة من اليورانيوم المنضب مسبوكا مع مواد أخرى ثم بعد ذلك بصورة منفردة، ولم تكن نتائج التجارب الأولية ضد الدبابات الروسية مشجعة. واستمرت التجارب حتى منتصف السبعينيات بدعم من أفرع القوات المسلحة الأمريكية المختلفة، وحققت الأعيرة الصغيرة ٢٠مم و٢٥مم و٣٠مم نتائج مقبولة وأظهرت تفوقا على ذخيرة التنجستين. وتتابع التطوير بعد ذلك ليصل إلى أعيرة الدبابات الكبيرة مثل ١٠٥مم و١٢٠مم، والعيار الأخير هو الذى أُستخدم بكثافة فى حرب الخليج ١٩٩١.

وبالتوازى مع ذلك وفى إطار مفاهيم قتالية جديدة للقتال «من بعد»، بدأت القوات الجوية الأمريكية فى تطوير قدراتها على اصطياد الدبابات، فأضافت إلى ترسانتها الطائرة A-10 المزودة بمدفع عملاق فريد GAU-8/A مكون من ثمانى مواسير عيار ٣٠مم تستطيع الطائرة أن تمطر به حشود المدرعات بمعدل مخيف يبلغ ٤٢٠٠ طلقة فى الدقيقة الواحدة. وطورت القوات الجوية لذلك المدفع ذخيرة عيار ٣٠ مم مصنوعة من اليورانيوم المنضب. وقررت أيضا البحرية الأمريكية استخدام ذخيرة اليورانيوم مع نظام اعتراض الصواريخ البحرية فالانكس Phalanx، لكن البحرية رأت العودة لاستخدام قذائف التنجستين باعتبارها أكثر أمانا من الناحية الإشعاعية، ولأن الهدف المراد تدميره (الصواريخ) يمكن اختراقه بسهولة مقارنة بالدبابات.

وتستخدم الولايات المتحدة حاليا ذخيرة اليورانيوم بالأعيرة الآتية: ٢٥مم (المدفع BUSHMASTER الخاص بعربة القتال برادلى) و ١٠٥مم (مدفع الدبابة M1 و M60)، و ٢٥ مم (مدفع الطائرة AV-8 Harrier) و١٢٠مم (مدفع الدبابة M1A1)، و ٣٠مم (المدفع GAU-8 على الطائرة A-10) (و٢٠مم (المدفع PHALANX المحمول على السفن)، و٣٠مم (المدفع GPU30 على الطائرة F-16).

وبالإضافة إلى ذلك دخل اليورانيوم المنضب كإحدى المواد المكونة لدرع

ذخيـــرة اليـــورانيـــوم



الدبابة M1A1. وأنتجت الولايات المتحدة طلقات للأسلحة الصغيرة من اليورانيوم، على سبيل التجريب، برغم أنباء ترددت بأنها أستخدمت فى حرب الخليج. وثارت أيضا اتهامات بأن صواريخ الكروز التى استخدمت ضد العراق كانت بها أجزاء من اليورانيوم ولكن التحقيقات التى أجريت لم تثبت ذلك على وجه اليقين.

هواجس بيئية وصحية

شكلت المخاطر البيئية والصحية المحتملة هاجسا مستمرا لوزارة الدفاع الأمريكية منذ أن بدأ التفكير فى تصنيع ذخيرة مضادة للدروع من مادة اليورانيوم المنضب. وفى أول بادرة جادة للتعامل مع هذا الهاجس طلب مكتب بحوث وهندسة الدفاع التابع لوزارة الدفاع فى ٩ أكتوبر ١٩٧٣ من لجنة متخصصة تقييم الآثار البيئية والصحية لهذه الذخيرة، وكل ما يتصل بها من تصنيع ونقل وتخزين واستخدام، وكيفية التخلص منها عند الضرورة، على أن يمتد التقييم إلى نظم الأسلحة المستخدمة لتلك الذخيرة مثل الدبابات ومدافع الطائرات والسفن. وتكونت اللجنة من خبراء فى الشئون البيئية والصحية والطاقة النووية. وانتهت اللجنة إلى نتيجة عبرت عنها بكلمات يشوبها الحرص وعدم اليقين: «من المحتمل أن ذخيرة اليورانيوم ليس لها آثار بيئية ذات شأن»، ثم أعقبت ذلك بتأكيد أن تعرضها لظروف غير عادية (مثل سقوط الطائرة A-10) يمكن أن يتسبب فى آثار بيئية مهمة. وبرغم أن اللجنة قد أشارت بأنها وجدت سمية اليورانيوم أقل مما كان متوقعا فى البداية، وأنه ليس أكثر سمية من الرصاص وباقى العناصر الثقيلة، لكنها لفتت النظر بأن ظروف المعركة والاستخدام المكثف للذخيرة سوف تنشأ عنه مشاكل استنشاق وبلع للغبار المشع، وتعرض الجسم والجروح للشظايا الملوثة. وأضاف التقرير عددا من سيناريوهات الحوادث التى من الممكن أن تتعرض لها نظم الأسلحة المُستخدمة لتلك الذخيرة، منها سيناريو سقوط طائرة من طراز A-10 وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من نشر حوالى ٤٠٠ كجم من الذخيرة فوق مكان الحادث من الصعب إزالتها إلا بتكلفة عالية طبقا للمكان والظروف.

والهاجس الأكبر فى موضوع ذخيرة اليورانيوم كان الغبار المشع الناتج من اصطدام الذخيرة بدرع الدبابة أو تعرض الذخيرة للحريق وما ينتج عن ذلك من أكسيد اليورانيوم الذى يتحول بدوره إلى غبار قابل للاستنشاق أو الانتشار فوق التربة والنباتات. وفى سنة ١٩٧٩ أجريت مجموعة من الدراسات لتحديد كمية الغبار انتهت إلى مجموعة من النتائج:

* ينتج عن اصطدام ذخيرة اليورانيوم بالدروع كمية من الغبار القابل للاستنشاق بواسطة الأفراد، ويقل هذا التركيز مع الزمن لكنه يظل لعدة ساعات فى الهواء بعد عملية الاصطدام.

* غبار أكسيد اليورانيوم بعد ترسبه فوق الأسطح يمكن أن يعلق مرة أخرى بالهواء مع استمرار النشاط العادى للأفراد.

* يصل وزن الغبار الناتج إلى ١٠-٢٠٪ من وزن طلقة اليورانيوم قبل الاختراق، وتتوقف الكمية على صلابة الدرع، وتختلف النتائج إذا كان الغبار ناتجا عن حادث حريق للدبابة أو الذخيرة.

وعندما زاد القلق من ذخيرة اليورانيوم بعد حرب الخليج أجريت فى سنة ١٩٩٤ أول تجربة حريق لمركبة قتال مدرعة حقيقية (برادلى) تحمل شحنتها الكاملة من الذخيرة. زُودت المركبة بعدد من صواريخ (التو) و١١٢٥ طلقة من ذخيرة اليورانيوم عيار ٢٥ مم، واستمر الحريق لمدة ست ساعات تقريبا. نتج عن الحريق كمية مهمة من أكسيد اليورانيوم مترسب داخل المركبة المحترقة وحولها. وأظهر التحليل أن ٣٣٪ من أكسيد اليورانيوم المترسب داخل الدبابة وحولها قابل للاستنشاق (أى أن ذراته ناعمة بالدرجة التى تجعله عالقا فى الهواء).

ورغما عن كل ما أثير من محاذير بيئية، قررت وزارة الدفاع الأمريكية نشر نظم الأسلحة التى تستخدم ذخيرة اليورانيوم، وبنت رأيها على أساس أن مخاطر ذخيرة اليورانيوم يمكن تحملها إذا ما قورنت بالمخاطر الأخرى الموجودة فى ميدان القتال، وأن الالتزام بمجموعة من القواعد والتعليمات يمكن أن يخفف من تلك المخاطر، وأن الفوائد العملياتية لتلك الذخيرة تتفوق على المخاطر الأخرى المحتملة. والخلاصة أن القوات المسلحة الأمريكية قررت فى النهاية تجاهل الآثار البيئية والصحية بعيدة المدى على الأفراد وعلى البيئة فى مقابل تحقيق مزايا آنية فى ميدان المعركة.

ماذا حدث فى حرب الخليج ؟!

تعتبر حرب الخليج أول حرب تُستخدم فيها ذخيرة اليورانيوم على نطاق واسع، وعُرفت خلال الحرب بين الجنود الأمريكيين «بالطلقة الفضية». وتتضمن التقارير الأمريكية قصصا كثيرة تحكى عن انبهار القادة والجنود بتأثير تلك الذخيرة على المدرعات العراقية. ومن بين تلك القصص نجاح دبابة أمريكية من طراز M1A1 فى تدمير ثلاث دبابات عراقية مرة واحدة بواسطة ثلاث طلقات من ذخيرة اليورانيوم الخارقة للدروع بعد أن حاولت الدبابات العراقية مهاجمتها بالصواريخ المزودة بحشوة جوفاء دون نجاح. وبشكل عام استخدمت كل فروع القوات الأمريكية البرية والبحرية والجوية ذخيرة اليورانيوم أثناء الحرب، كما استخدمت أيضا الدبابات M1A1 الثقيلة التى يدخل فى درعها طبقات من مادة اليورانيوم المنضب.

والملاحظات الآتية تعرض باختصار حجم استخدام تلك المادة فى حرب الخليج:

* استخدم الجيش الأمريكى فى حرب الخليج ٥٩٤ دبابة ثقيلة M1A1 يدخل فى بناء درعها مادة اليورانيوم المنضب من إجمالى ١٧٧٢ دبابة من هذا الطراز شاركت فى الحرب.

* تعتبر حرب الخليج هى المناسبة الأولى التى أطلقت فيها قوات المدرعات الأمريكية ذخيرة اليورانيوم، حيث لم يُسمح لتلك القوات قبل ذلك باستخدامها فى التدريب.

* أطلقت المدرعات الأمريكية ٩٥٥٢ طلقة يورانيوم أثناء الحرب تزن فى مجموعها ٥٠ طنا.

* استخدمت القوات الجوية طائرات A-10 على نطاق واسع ضد حشود الدبابات، واشترك منها فى الحرب ١٤٨ طائرة نفذت ٨٠٧٧ طلعة أطلقت فيها ٧٨٣٥١٤ طلقة عيار ٣٠مم تزن حوالى ٢٥٩ طنًا من مادة اليورانيوم المنضب.

* لم تطلق القوات البحرية إلا ٤-٥ طلقات يورانيوم من المدفع المحمول PHA-LANX.

* استخدم مشاة الأسطول ٧٦ دبابة M1A1 و٨٦ طائرة AV-8B Harrier نفذت ٣٣٤٢ طلعة جوية أطلقت فيها ٦٧٤٣٦ طلقة خارقة للدروع يصل وزن مادة اليورانيوم المنضب فيها إلى ١١ طنًا.

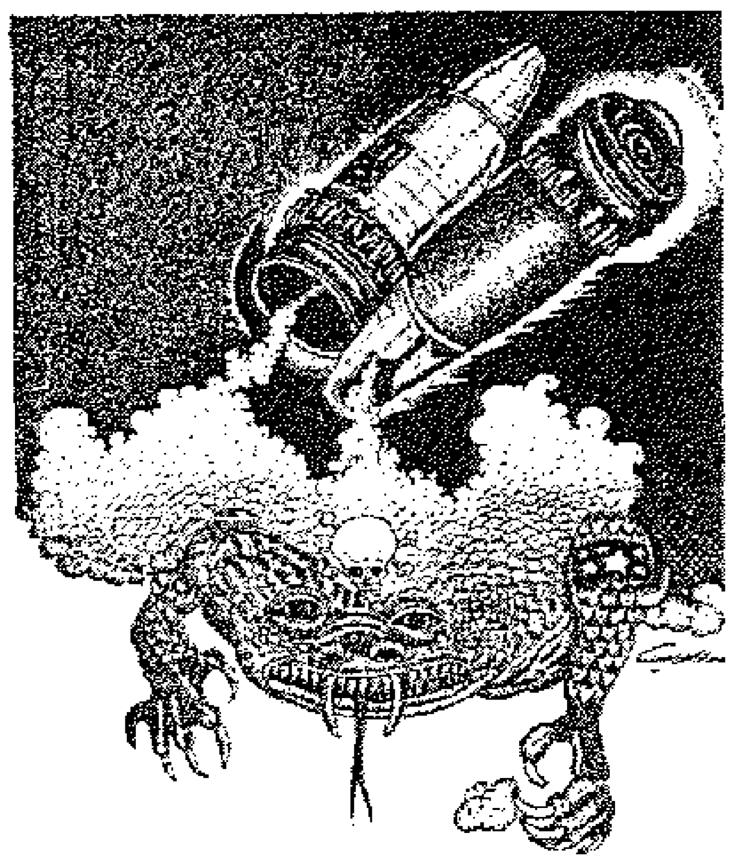
* بريطانيا هى الدولة الوحيدة خلاف الولايات المتحدة التى استخدمت ذخيرة اليورانيوم ضد الدبابات العراقية، واستخدمتها بأعداد قليلة للتدريب أثناء تمركزها بالسعودية، ويصل وزن الذخيرة المستخدمة إلى حوالى طن واحد.

لقد أثبتت أحداث حرب الخليج أنه من التبسيط المخل للأمور تصور أن ظروف الحرب يمكن أن تسمح فى كل الأحوال باتباع قواعد غير عملية لتجنيب الجنود والبيئة مخاطر التعرض لآثار ذخيرة اليورانيوم الضارة. ومن الغريب أن كل السيناريوهات الخاصة المؤدية إلى مخاطر «لا يمكن التحكم فيها» قد حدثت خلال تلك الحرب القصيرة، ونتجت عنها آثار ضارة للبيئة وللجنود الأمريكيين، ويتضح ذلك من الحوادث الآتية:

* التعرض لنيران صديقة : friendly fire

تكرر أثناء الحملة البرية فى حرب الخليج تعرض الأسلحة الأمريكية لنيران صادرة من أسلحة أمريكية أخرى لأسباب كثيرة بعضها يتصل بالأحوال الجوية وانخفاض الرؤية، وأيضا نتيجة للحشد الضخم للمعدات والأفراد فى مسرح العمليات. ونتج عن تلك الحوادث إصابة ٦ دبابات M1A1 و١٥ عربة قتال Bradley بنيران الطائرة الأمريكية A-10 والمدفع Phalanx. وفى كثير من الأحوال ظن الجنود الأمريكيون أنهم قد تعرضوا لنيران عراقية إلا أن فرق تقييم الخسائر كشفت عن آثار لمادة مشعة عند فتحات دخول الطلقات.

* حادثة معسكر الدوحة بالكويت: بعد انتهاء حرب الخليج بأربعة شهور وفى ١١ يولية ١٩٩١ حدث انفجار وحريق ضخم فى معسكر الدوحة بالقرب من مدينة الكويت، وهو مكان تمركز الفيلق المدرع الحادى عشر الأمريكى. ونتيجة للظروف السياسية، واحتمالات تجدد الاشتباكات مع العراق فى أى وقت، كانت الدبابات الموجودة محملة بالذخيرة مع وجود مخزون كبير من الذخيرة داخل المعسكر. بدأ الحريق فى عربة لنقل الذخيرة أدت إلى انفجارها وما عليها من ذخيرة، وانتقل الحريق والانفجارات إلى عربات ذخيرة أخرى ودبابات ومعدات. ولم يسفر الحادث عن قتلى، ولكن أصيب ٤٩ جنديًا أمريكيًا بجروح بالإضافة إلى أربعة جنود بريطانيين أصيبوا إصابات طفيفة. أما الخسائر فى المعدات فكانت تدمير ١٠٢ عربة و٤ دبابات، ودمرت كميات كبيرة من الذخيرة من بينها ٦٦٠ طلقة عيار ١٢٠ مم مصنوعة من اليورانيوم المنضب. الحادث أيضا تسبب فى تدمير ٣ دبابات M1A1 وما عليها من ذخيرة (حوالى ١١١ طلقة يورانيوم) بالإضافة إلى مئات الطلقات من نفس النوع كانت مخزنة فوق عربات الذخيرة. ولقد أثبتت التحقيقات أنه برغم أن قيادة الفيلق كانت على علم بالأخطار الإشعاعية فى الأيام التى تلت الحادثة إلا أن إجراءات محددة لم تتخذ للتقليل من آثار تلك الأخطار.



ويبدو أن حرارة الجو الشديدة والأحوال المتردية للجنود كانتا وراء عدم ارتدائهم لملابس الوقاية واتباعهم لتعليمات التعامل مع حوادث من هذا الحجم.

* تحطم طائرة A-10 في السعودية: في ٢٧ فبراير ١٩٩١ تحطمت طائرة A-10 واحترقت أثناء محاولتها الهبوط في مدينة الملك خالد العسكرية في السعودية. وكانت الطائرة تحمل قبل إقلاعها ١١٥٠ طلقة موزعة بين طلقات اليورانيوم والطلقات التقليدية شديدة الانفجار.

وهناك أحداث أخرى أقل أهمية تسببت في تعرض الأفراد لآثار ذخيرة اليورانيوم، إلا أن الحساب يدل في النهاية على أن الدائرة التي انتشرت فوقها لعنة تلك المادة كانت أوسع مما توقع البعض في البداية، فقد ضمت داخل محيطها العراق والكويت والسعودية وأعدادا كبيرة من الجنود والمعدات لن يتاح أبدا حصرها بشكل دقيق.

بدأ الخطأ في موضوع ذخيرة اليورانيوم من لحظة الموافقة على استخدام وتداول ذخيرة مصنوعة من مادة مشعة، تستهلك بكميات كبيرة في الميدان في تطبيقات حربية «عادية» بواسطة أفراد «عاديين» وسط ظروف «غير عادية»

الحصاد المر لحرب الخليج

لم يكن انتصار الولايات المتحدة في حرب الخليج هو حصادها الوحيد. فلم يكد ينقشع ضباب الحرب إلا وتعالت الشكوى من بعض المحاربين الذين شاركوا فيها من أمراض لا يجدون تفسيرا شافيا لها. ومضى على ذلك أكثر من أربع سنوات قبل أن تحدث استجابة جادة من الإدارة الأمريكية والكونجرس ووزارة الدفاع. ففي يونية ١٩٩٥ قررت الوزارة تكوين فريق عمل لبحث الحوادث والظروف التي أحاطت بمجريات الحرب والتي ربما كانت السبب وراء إصابة الأفراد بتلك الأمراض. وفي ١٢ نوفمبر ١٩٩٦ تقرر تعيين مساعد خاص لنائب وزير الدفاع مهمته متابعة التحقيقات والدراسات الخاصة بهذا الموضوع، وجمع المعلومات عن مادة «اليورانيوم المنضب» التي أشارت إليها أصابع الاتهام. ومن الغريب أنه حتى أغسطس ١٩٩٨ لم يكن قد بدأ بعد برنامج طبي شامل لمتابعة الأفراد الذين تعرضوا لآثار ذخيرة اليورانيوم أثناء الحرب. لكن تصاعد الاهتمام بالموضوع فرض إنشاء برنامج مشترك للمتابعة الطبية تحت إشراف وزارة الدفاع وجمعية شئون المحاربين. وحتى ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٠ كان البرنامج قد سجل ٦٦٢ فردا تقرر متابعتهم طبيا. وصدر التقرير الأول لوزارة الدفاع في ٤ أغسطس ١٩٩٨ بعنوان «تقرير عن التعرض البيئي: اليورانيوم المنضب في حرب الخليج»، وتم تحديثه مؤخرا في ١٢ ديسمبر ٢٠٠٠.

وكان هدف التقرير منذ البداية الرد على عدد من الأسئلة: هل تعرضت القوات الأمريكية لمخاطر صحية «غير مقبولة» بسبب تعرضها لمادة «اليورانيوم المنضب» أثناء حربها في الخليج؟ وهل كان الأفراد مدربين للتعامل مع تلك المخاطر؟ وللإجابة على تلك الأسئلة تتضمن التقرير نتائج فحص الحوادث الموثقة لتعرض الأفراد لمادة اليورانيوم المنضب والآثار الصحية التي يعاني منها الأفراد. ولتحقيق ذلك تمت مئات من المقابلات مع محاربي حرب الخليج، وشهود العيان، والخبراء، واستعان التقرير بالدراسات التي أجرتها العديد من الجهات. وقسم التقرير حالات التعرض إلى ثلاثة مستويات (١) و(٢) و(٣) مقسمة تبعا للأنشطة والأحداث، حيث يمثل المستوى (١) أعلى مستويات التعرض والمستوى (٣) أقلها.

وبرغم عدم اليقين الذي يسود معظم فقرات التقرير ونتائجه ينتهي بفقرة نهائية يعرب فيها عن «اعتقاده» بأن اليورانيوم المنضب ليس السبب في أمراض حرب الخليج، ويضيف أن الدلائل المتوفرة تشير - برغم الاعتقاد أن التعرض لجرعات عالية من هذه المادة عن طريق الفم أو الاستنشاق يمكن أن يؤدي إلى مخاطر كيماوية وإشعاعية - إلى الجنود الذين شاركوا في حرب الخليج لم يتعرضوا لجرعات يمكن أن تعرض صحتهم للخطر.

وبشكل مستقل طلب الكونجرس من مكتب المراقب العام أن يبحث عن إجابات للأسئلة الآتية:

* ماهو الفهم العلمي للتأثيرات الصحية الناتجة عن التعرض لمادة اليورانيوم المنضب؟

* هل يواجه المحاربون الذين اشتركوا في حرب الخليج مصاعب إدارية مع برنامج الفحص الطبي الحالي لتحديد التأثيرات الصحية المحتملة لليورانيوم المنضب؟

* إلى أي مدى قامت أفرع القوات المسلحة بإدخال برامج لتدريب الأفراد على العمل في مسرح للعمليات ملوث باليورانيوم المنضب؟

* العدد ليس نهائيا وجاري تدقيقه

** ملابس وقاية - أقنعة - مرشحات هواء

وفي تقريره إلى الكونجرس أوضح المراقب العام في ٢٩ مارس ٢٠٠٠ بالنسبة لموضوع الآثار الصحية أن العديد من الدراسات قد أكدت أنه «من غير المحتمل» أن يؤدي استنشاق أو بلع اليورانيوم المنضب إلى مخاطر صحية نتيجة الإشعاع وبالتحديد السرطان. وبالنسبة لمسألة المعوقات الإدارية أكد التقرير أن ١٤,٨٪ من بين ١٢٨ محاربا قد واجهوا عقبات للاشتراك في برنامج الفحص الصحي وقياس نسبة اليورانيوم في البول. تراوحت تلك العقبات بين عدم الاتصال بهم لتحديد ميعاد للفحص، أو أنهم لم يجروا اختبار وجود اليورانيوم في البول، أو أنهم لم يستطيعوا فهم نتائج الاختبار. وبالنسبة لمسألة برامج تدريب الأفراد، أوضح التقرير وجود صعوبات للتحقق من وجود هذه البرامج، وأنه بمراجعة ١٧ قاعدة عسكرية تكشفت صعوبات تواجه حصول الجنود على تلك التدريبات لأسباب مختلفة. ونوه التقرير بالصعوبات التي تواجه عملية تقدير الجرعات الإشعاعية التي تعرض لها الجنود نتيجة الحوادث وكذا تحديد كميات الغبار المشع الناتج من اصطدام ذخيرة اليورانيوم بالهدف.

أزمة يقين ومصداقية

تثير مشكلة أمراض حرب الخليج وعلاقتها بذخيرة اليورانيوم قضية «الدراسات العلمية» وعجزها أمام بعض الظواهر المُركبة المتصلة بالبيئة والبشر عن الوصول إلى نتائج واضحة مفهومة ومؤكدة. ولا شك أن العجز يتزايد وربما يتحول إلى انحراف متعمد إذا أضفنا إلى ذلك الحرب والسياسة والمصالح. وهناك قدر من التماثل بين مشكلة ذخيرة اليورانيوم ومرض جنون البقر الذي انتشر في أوروبا مؤخرا. لقد طالب الرئيس الفرنسي جاك شيراك في نفاد صبر بإيقاف استخدام الأعلاف المخلوطة بمكونات حيوانية بدون انتظار إثبات العلاقة بينها وبين مرض جنون البقر الخطير.

لقد بدأ الخطأ في موضوع ذخيرة اليورانيوم من لحظة الموافقة على استخدام وتداول ذخيرة مصنوعة من مادة مشعة، تُستهلك بكميات كبيرة في الميدان في تطبيقات حربية «عادية» بواسطة أفراد «عاديين» وسط ظروف «غير عادية». وذلك اعتمادا على أن مستواها الإشعاعي منخفض وأن قواعد خاصة سوف تحترم عند استخدامها. لكن التجربة العملية وسط ظروف الحرب لم تُثبت صواب هذا التصور. والمشكلة أن معظم الدراسات التي أجريت حول الموضوع قامت بها هيئات أمريكية بتمويل من وزارة الدفاع، وأن هذه الهيئات هي نفسها التي أجازت استخدام تلك النوعية من الذخيرة وراقبت التجارب التي تمت عليها قبل السماح باستخدامها في الميدان، وهي التي وضعت القواعد الإرشادية للتعامل معها طبقا لتصور معين عن طبيعة المخاطر المحتملة عند الاستخدام الفعلي.

ولاشك أن أخطاء كثيرة قد شابت تصور المخاطر وتحديد آثارها، ثم كان الاعتماد على دراسات سابقة أجريت على مجموعات من العاملين في مجال الصناعات النووية والعاملين في المناجم تختلف ظروفهم بصورة جوهرية عن ظروف ميدان القتال حيث يصعب اتباع قواعد أمان معقدة في أجواء ساخنة متسارعة وسط مخاطر أخرى كثيرة. ويضاف إلى تلك الأخطاء قصور في تصور كل السيناريوهات الممكنة للخطأ والخطر ومنها بطبيعة الحال تعرض القوات نفسها لنيران صديقة بنفس الذخيرة. ويضاف إلى ذلك تقصير - يصل إلى حد جرائم الحرب - في تجاهل تلوث البيئة بالغبار المشع، وترسبه فوق النباتات، وتسربه إلى المياه الجوفية بصورة مركزة تختلف كثيرا في قيمة تركيزها عن النسبة الطبيعية المتجانسة لليورانيوم داخل القشرة الأرضية. لقد دارت معارك البلقان والخليج فوق مناطق ماهولة وممطرة مما يزيد كثيرا من احتمالات تسرب الخطر إلى المياه والغذاء ووصوله بسهولة للأطفال عند تعاملهم البريء والتلقائي مع الطبيعة حولهم.

لذلك كان منطقيا وضروريا أن تتولى منظمة الصحة العالمية التحقيق في الأمر بسبب خطورته البيئية الشديدة، خاصة أنه من غير المعروف بدقة عدد الدول التي اشترت ذخيرة اليورانيوم من الولايات المتحدة. لقد وجدت المنظمة بالفعل فجوات كثيرة في المعلومات المتوافرة عن مادة «اليورانيوم المنضب» ومعدلات الإصابة بالسرطان في المناطق المنكوبة، ولا شك أن حقائق الموضوع ينقصها الكثير، فلم نسمع حتى الآن صوتا أو نقرأ تقريرا من دول أخرى - غير الولايات المتحدة - دارت الحرب فوقها أو بالقرب منها أو شارك أبناؤها فيها.

وفي النهاية تبقى معظم تفاصيل القصة أمريكية في ملامحها وعناصرها، الفكرة والسلاح والذخيرة والحرب، وأيضا الضحايا. لقد بذلت الحكومات الأمريكية المتعاقبة بعد مأساة فيتنام جهدا لم يتوقف لتطوير السلاح والذخيرة ومفاهيم القتال للوفاء بوعد قدمته إلى الشعب الأمريكي أن يعود الجنود إلى أحضان أمهاتهم من الحرب سالمين، وبدا أن الوعد قد تحقق أخيرا في حرب البلقان فلم تفقد الولايات المتحدة جنديا واحدا، لكن الأيام نقضت الوعد.. فالجنود يموتون بعد عودتهم لسبب غامض مازالوا يبحثون عنه.

الأقباط يكتبون رواياتهم

يوسف القعيد

ثلاث روايات صدرت مؤخرًا، يجمع بينها الكثير من السمات المشتركة. الروايات هي: «قرية غرب النيل» لنيافة الأنبا الدكتور يوحنا قلته، كما وصفته دار النشر في مقدمة الرواية. و«شبرا» للروائي نعيم صبري. و«وصايا اللوح المكسور» للدكتور غبريال زكي غبريال. والقول بصدور الروايات الثلاث مؤخرًا، ربما كان غير دقيق. فالرواية الأولى صدرت سنة ١٩٩٦. أما الثانية والثالثة فقد صدرتا في شهر واحد من عام واحد: يوليو سنة ٢٠٠٠.

الروايات تطرح سؤالاً واحدًا: هل تعد الروايات الثلاث من الأدب القبطي؟! وذلك باعتبار أمرين: ديانة أصحابها. كاتبان مسيحيان - أحدهما رجل دين مسيحي - والثالث كان مسيحيًا وأسلم. الأمر الثاني: طبيعة الموضوع الذي تدور حوله الروايات الثلاث. وإن كان من حقي أن أبدأ برأيي ونحن في المدخل إلى رواق القضية. فربما كنت ضد تصنيفات الأدب التي راجت مؤخرًا. مثل أدب نسائي وأدب قبطي وأدب نوبي. فالأدب إما أن يكون أدبًا أو لا يكون. ويمكن أن يكون هناك أدب يكتبه قبطي أو مسلم. لكن الأساس هو توافر جماليات الكتابة الأدبية وخصائص النوع الأدبي في هذه الكتابة أم لا. وخطورة مصطلح الأدب القبطي تأتي من المناخ الذي يقوم على ربط أمور الحياة اليومية بالدين. فنحن نعيش زمن الله. والاهتمام بالدين وجعله محور أي كتابة يؤدي إلى رواجها. أو هكذا هو المتصور على الأقل.

وقبل أن يسود مصطلح الأدب القبطي. نجد تعبير الأدب الاسلامي الذي نحته الدكتور نجيب الكيلاني. بل وكتب بعض الروايات التي أطلق عليها تعبير أدب إسلامي. تناول فيها تاريخ الإسلام. وتم تأسيس رابطة للأدب الإسلامي في المملكة العربية السعودية. وأصدرت مجلة فصلية تحمل عنوان: الأدب الإسلامي. الحقيقة أن واحدًا من أصحاب الروايات الثلاث التي نحن بصددها. لم يكتب عليها أنها من الأدب القبطي. ولكن صدورها هو الذي دفعني إلى طرح السؤال.



نحن إذن أمام قسمة جديدة في الكتابة الروائية العربية. تقسم الإبداع الروائي على أساس ديني. سواء كان دين الذين يكتبون هذا النص. أو الموضوع الذي يتناوله. ولعل هذا ما دفعني إلى البدء من كتاب الأدب القبطي: قديمًا وحديثًا. وهو الكتاب الوحيد الذي يتناول ظاهرة الأدب القبطي منذ دخول المسيحية إلى مصر وحتى ثورة سنة ١٩١٩. كنوع من التأصيل الذي لابد منه قبل الانطلاق إلى الروايات الثلاث.

المسيحية أدبًا

الأدب القبطي قديمًا وحديثًا لمحمد سيد كيلاني «١٩١٢ - ١٩٩٨» ماجستير من كلية الآداب جامعة القاهرة. هكذا كان يكتب تحت اسمه في بعض مؤلفاته. يكاد أن يكون الكتاب الوحيد الذي يدرس ظاهرة الأدب القبطي. ولأنه يدرك ذلك. فهو يكتب في السطر الأول من كتابه: «هذا أول كتاب عن الأدب القبطي يحتوي على دراسة مركزة للأدب المتعلق بالشئون القبطية. والذي يصور حالة الأقباط النفسية وحركاتهم الاجتماعية. وميولهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية وخصوماتهم الطائفية ونزعاتهم العاطفية وأمانيهم الوطنية ومشاعرهم القومية. وفخرهم بالأمجاد الفرعونية. ولم أغفل دراسة آدابهم الدينية التي تزخر بآرائهم المسيحية وعقائدهم اللاهوتية. دراسة أدبية خالصة بعيدة عن الجدل والمناقشة. فليس هذا كتاب دين وإنما هو كتاب أدب».

في الباب الأول من كتابه وعنوانه: الأدب القبطي من بدء ظهوره إلى نهاية العصر العثماني. يقرر أنه في سنة ٨٥هـ - ٧٠٥ ميلادية. صدر قرار بنقل الدواوين من اللغة القبطية إلى اللغة العربية. وبذلك أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية في المعاملات الحكومية. فأخذ الأقباط يهملون بالتدريج دراسة اللغتين اليونانية والقبطية ويقبلون على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها. وبدأوا يؤلفون الكتب العربية في القرن الثالث الهجري. وفي هذا الوقت لم تكن حركة التأليف في مصر الإسلامية قد بدأت على نطاق واسع. بل إن الكتب التي وضعت في القرن الثالث لا تكاد تذكر. وفي عصر الدولة الفاطمية ظهر أدباء مسيحيون كثيرون. ولكنهم كانوا يسارعون إلى اعتناق الإسلام ليظفروا بالوظائف الكبرى في ديوان الإنشاء وغيره. ويؤلفون الكتب الإسلامية تقربًا من الحكام وتأكيدًا لأحلامهم.

وفي الباب الثاني الذي خصصه للأدب القبطي في العصر الحديث يقول: كان الأقباط يتلقون مبادىء العلوم في كتاتيب خاصة يديرها عرفاء. وقد ظلت حتى العصر الحديث تتخذ أماكن لها بجوار الكنائس. أو منزل العريف ولم تكن تختلف عن كتاتيب المسلمين. وكان الصبيان يتلقون فيها مبادىء الدين. ويحفظون جانبًا من الإنجيل ومبادىء الحساب. أما الذين يريدون مواصلة التعليم فكانوا يدرسون الأدب العربي والنحو والمنطق والعروض على أساتذة من المسلمين. وقالت صحيفة الوطن في ١٩١٦/٥/٣: ويذكر متتبعو التاريخ أنه كان للأقباط قديمًا رواق بالأزهر المعمور يتلقى فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية. إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة. وممن درسوا في الأزهر من الأقباط: أولاد العسال قديمًا. وميخائيل عبدالسيد صاحب جريدة الوطن. ووهبي بك تادرس حديثًا. وذكرت الصحف تحت عنوان: الأقباط في الأزهر ما نصه: يتردد كثيرًا على حلقات الدروس المختصة لعلوم المنقول والمعقول في الأزهر جماعة من إخواننا الأقباط وقد برع بعضهم فيما تلقوه من دروس المنطق والنحو والصرف والبيان والبديع والهيئة والجبر.

ولما أنشئت المدارس الحكومية، ومدارس الإرساليات الأجنبية أقبل الأقباط على الالتحاق بها. وافتتح الأنبا كيرلس الرابع أول مدرسة قبطية في مدينة القاهرة سنة ١٨٥٣. وقد حاول العرفاء أن يقاوموا حركة افتتاح المدارس القبطية لأنها ستقطع عنهم مورد رزقهم. فطافوا بالمنازل وحرضوا الآباء على عدم إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس. وذكروا أن الحكومة ستأخذ أبناءهم منها وتجندهم في الجيش. وترسلهم إلى ميادين القتال. ولما شعر الأنبا كيرلس بحركتهم استرضاهم بأن عينهم في وظائف التدريس بالمدرسة القبطية. فكانوا يدرسون الأطفال مبادىء القراءة والكتابة ويدرسون الدين لجميع التلاميذ. ثم أخذت المدارس القبطية تنتشر في جميع أنحاء القطر المصري. وظهرت مدارس التوفيق القبطية ومدارس ثمرة التوفيق ومدارس الإيمان

---

١ - شبرا (رواية)
نعيم صبري
القاهرة: الحضارة للنشر، ٢٠٠٠.

٢ - وصايا اللوح المكسور (رواية)
غبريال زكي غبريال
القاهرة: الحضارة للنشر، ٢٠٠٠.

٣ - قرية غرب النيل (رواية)
الأنبا الدكتور يوحنا قلته
القاهرة: دار الثقافة، ١٩٩٦.

والإخلاص والمحبة وغيرها. وامتد هذا النشاط العلمي إلى ربوع السودان.

وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت كلية البنات الأمريكية الكائنة بشارع رمسيس بالقاهرة فظهرت بين أبناء الطائفة الأرثوذكسية فكرة إنشاء كلية قبطية للبنات. وكانت هذه الطائفة تخشى على بناتها أن يعتنقن مذاهب المدارس الأجنبية التي يتعلمن بها. ويتركن مذهب آبائهن. وفي هذا خطر عظيم يهدد تلك الطائفة. لذلك بدأ آباؤهم الدعاية للمشروع وعقدوا الاجتماعات وألقوا الخطب والقصائد حاثين على التبرع للمشروع الذي انتهى بإنشاء كلية البنات بالعباسية. وقد افتتحت سنة ١٩١٦. بعد ثمانية أعوام من ظهور الفكرة. ولما كانت الدعوة إلى إنشاء الكلية. جاءت في نفس الوقت الذي قامت فيه الدعوة لإنشاء الجامعة المصرية. فإن الأقباط لم يهتموا بها وشرعوا في تأليف لجان تطوف بالأقاليم لجمع التبرعات لكليتهم.

هذا عن تعلم الأقباط للغة العربية. وتطور تعليمهم في مصر. لكن ماذا عن الأدب القبطي؟ يقول المؤلف: لقد كثر في الأدب القبطي التحدث عن الفقراء والأيتام، وتصوير ما يلاقونه من البؤس والشقاء والذل والهوان. في صورة تستدر العطف وتستدعي الشفقة وترقق القلوب. ثم يمر المؤلف على اعتقاد بعض الأقباط أنهم من نسل الفراعنة. لم تختلط دماؤهم بدماء أجنبية عربية أو تركية أو غيرها. واتخاذ الأقباط من رمسيس شعارًا لهم. وتلقيب أنفسهم بأحفاد رمسيس. وإنشاء ناد يحمل هذا الاسم. وإطلاق الأسماء الفرعونية على بعض أبنائهم، وظهور حركة ترمي إلى إحياء اللغة القبطية. لأنها كما قالوا لغة البلاد المصرية ولغة العبادة، ولغة المدنية القديمة والجديدة.

قال أحدهم: في مجلة المفتاح، عدد فبراير ١٩١٢:

ـ إننا نتكلم بلغة غير لغتنا. وديننا قد انمسخ بتعاليم غريبة لم نجن من ورائها غير التنابذ والشقاق. فإذا أردنا أن تكون قوميتنا سليمة فلابد من كنيسة واحدة. ولغة واحدة. ننضم تحت لوائها ونحبها ونفخر بها. وأما حال التذبذب وعدم الاكتراث التي نحن فيها هذه، فإن هي إلا من مقدمات الخذلان والموت.

والملاحظ ـ يقول المؤلف ـ أن الذين نادوا بإحياء اللغة القبطية لم يقصدوا إحياءها بين النصارى فقط. بل كان غرضهم إحياءها بين المصريين جميعًا، المسلمين منهم والنصارى. وذلك لأن الألفاظ القبطية منتشرة على ألسنة الجميع مما يدل دلالة قاطعة على أن أصلهم واحد. فهم من نسل الفراعنة وليسوا عربًا. ويمر الكاتب على مشاكل طوائف الأقباط والعلاقة بين المسلمين والأقباط في العقدين الأول والثاني من القرن الماضي. والمؤتمر القبطي الذي عقد في سنة ١٩١١ ومطالب الأقباط التي جرى التعبير عنها في هذا المؤتمر. والمؤتمر الذي عقده المسلمون في نفس السنة تحت مسمى المؤتمر المصري. ويتناول الحركة الوطنية وأثرها في الأدب القبطي من ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٩. والموقف من اغتيال بطرس غالي الجد ويقرر: إذا نظرنا إلى الأقليات في مختلف الدول وجدنا أنها تقف من الأكثريات موقف الشك والحذر نتيجة للمظالم التي وقعت عليها في عصور الاستبداد والطغيان. ولم يكن موقف المسيحيين في مصر ليختلف عن موقف هذه الأقليات. كانوا يعارضون النظام الدستوري ويرفضون فكرة إنشاء مجالس نيابية. لأنها تؤدي إلى تحكم الأكثرية الإسلامية في الأقلية المسيحية. وتوهموا أن حقوقهم ستهضم ومصالحهم ستداس بالأقدام. وكانوا يعارضون طلب المصريين جلاء قوات



قالت صحيفة الوطن في ١٩١٦/٥/٣: ويذكر متتبعو التاريخ أنه كان للأقباط قديمًا رواق بالأزهر المعمور يتلقى فيه أبناؤهم العلوم المنطقية والشرعية. إذ لم تكن توجد وقتئذ مدارس لتدريس هذه العلوم غير هذه الجامعة العظيمة. وممن درسوا في الأزهر من الأقباط: أولاد العسال قديمًا. وميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن. ووهبي بك تادرس حديثًا.



الاحتلال. لأنهم توهموا أن حياتهم ورفاهيتهم رهينة بوجود النفوذ البريطاني. فهم بخير مادام الإنجليز بمصر. وإذا ما غادروها فأغلب الظن أن الأغلبية الإسلامية ستنكل بهم. وفي ١٩١٥/١/١٥ قالت صحيفة الوطن: إن الطوائف المسيحية، يجب أن تخرج من عزلتها، وتندمج في المجموع الوطني. فلا تحرص إلا على معتقدها الديني وما كان له مساس به.

وفي الفصل الخاص بثورة ١٩١٩ وأثرها في الأدب القبطي يكتب: حقًا قبل سنة ١٩١٤ كانت بعض أصوات تدعو إلى اتحاد العنصرين. وخطب بعض علماء المساجد في الكنائس. كما خطب بعض القساوسة في المساجد. ولكن هذه الحركة كانت محددة. ولم يكتب لها النجاح. أما ثورة سنة ١٩١٩ فكانت حدًا فاصلاً بين عصرين مختلفين بالنسبة للمجتمع المسيحي والأدب القبطي. فقد اندفع المسيحيون منذ قيام الثورة للاشتراك في الجهاد الوطني والكفاح القومي في حماسة. ولم يدخروا وسعًا في العمل من أجل الاستقلال وتطهير البلاد من الاحتلال. فكتب كتابهم وخطب خطباؤهم. ونظم القصائد الطويلة شعراؤهم. وكلها تزخر بالعواطف الوطنية الملتهبة.

وفي فصل مهم عنوانه مجتمع الأقباط وأثرهم في أدبهم يكتب:

ـ كان المسيحيون فيما مضى، يعتبرون أنفسهم أمة قائمة بذاتها. لها كيانها وشخصيتها وآمالها. وأفراحها وأحزانها وأعيادها وتقاليدها. وقد ظلوا محتفظين بهذا الرأي إلى ما قبل ثورة ١٩١٩. وألفوا كتبًا تتناول تاريخهم وتاريخ كنيستهم وتراجم عظمائهم مثل «الأقباط في القرن العشرين» لرمزي تادرس و«تاريخ الأمة القبطية» ليعقوب نخلة رفيلة و«نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر» لتوفيق اسكاروس. وأقاموا الجمعيات الخيرية والأندية الثقافية والملاجيء الخاصة بهم. وظهرت صحف ومجلات كثيرة دينية وأدبية تعالج شئون القبط. وشرع كتّابهم يحررون المقالات والفصول في البحث عن أسباب تأخر الأمة القبطية. ويصفون ما انتابها من علل وأمراض اجتماعية. وما فيها من عيوب ونقائص ويشرحون خير الطرق لعلاج هذه الآفات.

ويقف أمام تناول كتّاب الأقباط لهموم ومشاكل الأمة القبطية. مثل تأخر الزواج، وعدم إقبال الأقباط على التعليم، وقضية الطلاق بكل ما تحمله من تعقيدات في المجتمع القبطي. وهناك مشكلة أعرفها شخصيًا للمرة الأولى، وهي تحرير المرأة المسيحية من الحجاب. فقد قالوا أن المرأة المسيحية لم تكن تعرف الحجاب. وإنما الذي فرضه عليها هو أحمد بن طولون. وذكروا أن الحجاب كان السبب في تأخر المرأة القبطية وتخلفها عن نساء العالم. وإن الدين المسيحي نهى عن الحجاب. وعن تغطية وجه المرأة بالبرقع. وعن لف جسمها بالحبرة والإزار. وقالوا أن المرأة القبطية طبعت على العفة والطهارة. وإن هذه الصفات طبيعية فيها منذ عصور الوثنية. وكانوا يقارنون دائمًا بين بنات الفرنجة وهن مسيحيات وبنات الأقباط اللاتي يشاركنهن في العقيدة ومع ذلك فالفرق عظيم.

ويجمل محمد سيد كيلاني كتابه تحت عنوان خاتمة ويقول: إن الأدب القبطي منذ بدايته على يد ابن بطريق وحتى العصر العثماني، كان من الأدب الديني الذي يهدف إلى خدمة المعتقدات المسيحية. والدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق والتنويه بالأعياد القبطية. ولما قامت النهضة المصرية اتسعت دائرة الأدب القبطي وتشعبت أغراضه داخل الإطار القبطي وفي حدود المصالح القبطية. فكانت مهمته هي خدمة أبناء الطائفة في شتى المجالات والعمل على بناء مجتمع قبطي.

وبثورة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق. فاختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة. والذي كان يدعو إلى دوام الاحتلال البريطاني واتجه إلى الاندماج في الأدب السياسي العام. بعد أن اتحدت الأغراض وتوحدت الأهداف. وكذلك أخذت دعوة الشعراء والكتّاب إلى إنشاء المدارس وتشجيع التعليم والحض على طلب العلم تفقد أهميتها. بعد أن أقبل الناس من كل صوب على طلب العلم من تلقاء أنفسهم. وبعد أن كثرت المدارس. ولم يبق من الأدب القبطي إلا الأدب الديني. تقترن به عادة الدعوة إلى البر بالفقراء والمحتاجين. وذلك لأن الترغيب في الإحسان ركن من أركان الأدب الديني.

هناك مسافة بين عنوان كتاب محمد سيد كيلاني ومحتواه. فهو ليس دراسة في قضية الأدب القبطي بقدر ما هو دراسة مهمة عن الكتابة القبطية باللغة العربية. سواء أكانت مقالات أو خواطر أو انطباعات أو قصائد شعرية. مثلاً لم يناقش لماذا لم يكتب الأقباط النص الروائي والسير الذاتية والكتابة المسرحية. مع أن هذه الأشكال كانت معروفة في ذلك الوقت. وكتبها مسلمون لكن الأقباط لم يقتربوا منها. ربما كان السبب هو اعتماده على الصحف والمجلات والمطبوعات الدورية. وبالتالي كان محكومًا بنوعية المادة التي تحت يديه. ولم يخرج من إطارها. ومع هذا يبقى جهده رياديًا وغير مسبوق. وهو نفسه يعترف بهذا القصور في مقدمة كتابه ـ وليس التقصير ـ وذلك حين يقول:

ـ حينما درسنا الأدب المصري العام أهملنا الأدب القبطي إهمالاً تامًا. لذلك جاءت دراستنا ناقصة. فضلاً عما وقع فيه من خطأ في الحكم وسوء في الفهم. وفساد في الاستنتاج، وبُعد عن الصواب في دراستنا لبعض الظواهر الأدبية. أما النقص في دراسة أدبنا السياسي فواضح. لأن أدب الأكثرية الإسلامية. كان يختلف قبل ١٩١٩ عن أدب الأقلية القبطية.

ثم يقول: ما يمكن أن يشكّل اعترافًا بالتقصير:

ـ من الغريب أن الأقباط المعاصرين يجهلون أدب أجدادهم جهلاً تامًا ولا يكاد المتعلمون منهم يحفظون شيئًا من شعرهم. وكان لهذا الجحود الذي لاقاه أدباء الأقباط من أبناء طائفتهم أثره في نفوسهم. فأهملوا نتاجهم الأدبي. حتى عبثت به يد النسيان أو كادت. فلم يهتموا بجمع شعرهم ونثرهم. وقد ترتبت على هذا صعوبة كبرى تعترض سبيل الباحث في الأدب القبطي. وصعوبة أكبر في الوقوف على تراجم شعرائهم وكتّابهم وتواريخ ميلادهم ووفاتهم.

أيضًا فهو لم يناقش أهم قضية يطرحها هذا الكتاب ألا وهي أن الأدباء الأقباط عندما قرروا التعبير الفني عن أنفسهم استخدموا الشعر العربي العمودي التقليدي وهو نتاج عربي إسلامي. ولم يستخدموا أشكالاً فنية آتية من العصر القبطي في مصر. وهذا التناقض الفني والأدبي ـ وليس الديني ـ كان يتطلب الوقوف أمامه طويلاً. مثلما توقف أمام الحب الإلهي وتأثيره في الشعر القبطي المصري.

القسيس روائيًا

نيافة الأنبا الدكتور يوحنا قلته هو نفسه كمال قلته. والأخير اسمه المدني أما الأول فهو اسمه الديني. وكلاهما ـ يوحنا وكمال ـ اسمان لشخص واحد. ولد سنة ١٩٣٧. في القرية التي تدور فيها أحداث روايته. واستمر في دراسته المدنية حتى حصل

على الماجستير وكان موضوعها: أثر الثقافة الفرنسية في أدب طه حسين سنة ١٩٨٤، وقابل طه حسين أكثر من مرة خلال إعداد الدراسة. أما الدكتوراة فقد كان موضوعها عن دراسات المستشرقين الفرنسيين للشعر العربي. حيث درس جهود ستين مستشرقًا درسوا الشعر العربي. وقد سبق له التدريس في أكاديمية الفنون في فترة رئاسة الدكتور رشاد رشدي لها. ويقول أنه عندما فكر في تدريس كتاب ديكارت مقال في المنهج للطلاب حتى يتعلموا طرق التفكير. والمنهج الذي يمكن أن يقودهم إلى الحقيقة. قال له الدكتور رشدي: لاداعي لذلك. وقام بالتدريس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة: من ٨٧ حتى ١٩٩٢. مؤلفاته المنشورة هي: الإنسان هو القضية، وأرواح هائمة ٩٨، وتأملات في الإنجيل وهو دراسة في الإيمان المسيحي ١٩٩٩، وآخر كتبه المسيح دعوة للحرية. فيه نظرة جديدة لشخصية المسيح. ومشروع الدكتور قلته يقوم على حمل لواء العلاقة بين الثقافة والدين. ذلك أنه يرى أن بعض رجال الكنيسة الذين تحرروا من الجو الكنسي والتقاليد الكنسية. تمكنوا من أن يقولوا للكنيسة: «ستوب» هذا يكفي. وقاموا بعملية مهمة وتاريخية وكان لابد منها. وهي نقل الحضارة لقلب الكنيسة. وأخذوا الكنيسة إلى جوهر الحضارة. القضية الثانية التي يهتم بها أنه ضد فكرة قبطية الكنيسة المصرية. ويركز على عروبة الكنيسة. مشروع الدكتور قلته يقوم على مخاطبة الصفوة والمثقفين. باعتبار أنهم هم الذين يقودون المجتمع إلى الأمام. ولا يفكر في الكتابة للقارىء العادي. ولا يخاطب وجدان الفرد العادي.

المنصب الديني الذي يتولاه هو نائب بطريرك الكنيسة الكاثوليكية في مصر. أي أنه الرجل الثاني في هذه الكنيسة. بقي أن أقول أنني عند السؤال عن روايته في أوساط الكنيسة المصرية. فوجئت بحالة من عدم الارتياح تجاهها. وهذا الكلام يتفهمه الإنسان خاصة عندما يدخل إلى قلب الرواية. قال لي الدكتور يوحنا أن أحداث روايته واقعية. وأن بعض أبطالها مازالوا يعيشون حتى الآن. وهو ما كتبه في مقدمة الرواية: هذه قصة وقعت أحداثها في النصف الثاني من هذا القرن «القرن الماضي الآن» كل أبطالها حقيقيون. الأسماء وحدها من صنع الخيال. حتى لا نقلق أرواح الذين رحلوا إلى الخلود. من الصفحة الأولى من الفصل الأول، يفرق الكاتب بين المسلمين والأقباط في قرية «القطنة» وهي قرية من أصغر القرى في محافظة سوهاج في صعيد مصر. أغنياء شرق البلد قلة من المسلمين. وأغنياء غرب البلد قلة من الأقباط. ونحن أمام بطلين الحاج فتحي والخواجة كامل. الذي لم يذهب إلى القدس ولكنه يعشق لقب المقدس. والحاج فتحي الذي لم يذهب إلى الحجاز ولكنه يعجب بمن يقول له يا حاج. يقول صاحب الرواية: لم يذكر التاريخ مرة واحدة أن المسلمين قاموا بثورة ضد الأقباط ولم تشهد مصر في كل عصورها حربًا أهلية بين المسلمين والأقباط. أما الكنيسة فيقول عنها: اطمأنت الكنيسة إلى أن مذهبها الأرثوذكسي سيبقى المذهب السائد الأوحد في مصر.

ولم يقلق الكنيسة القبطية انضمام بعض العائلات الثرية إلى المذهب الكاثوليكي أو المذهب البروتستانتي. لقد كان انضمامًا إلى ثقافة وإلى حضارة أكثر منه انضمامًا إلى إيمان جديد أو كنيسة جديدة. ولكن القلق بدأ يساور الكنيسة القبطية حين تسرب المرسلون وطرقوا أبواب القرى والكفور وأنشأوا فيها المدارس وأقاموا الأديرة. فأقبل الطلاب الأقباط من الطبقات الفقيرة المهملة على تلك المدارس. ورأوا في ذلك تحقيقًا لحلم طالما راودهم بأن يسلك أولادهم المحرومون درب أبناء الأغنياء والمترفين ليشقوا لهم طريقًا في الحياة أكثر أمنًا. ويخرجهم من ظلمات الجهل والفقر والتخلف. وهذا هو الحدث الرئيسي في هذه الرواية.

الفصل الثاني وعنوانه: السفر إلى الدير. يتوقف أمام منزل المقدس كامل أتوبيس خاص من أحدث أنواع السيارات المرسيدس. مكتوب على جانبيه باللغتين العربية والفرنسية: مدرسة العائلة المقدسة. كما رسمت في دائرة صغيرة بجوار العبارة: صورة العذراء تحمل طفلها. فاليوم، موعد سفر بعض الصبية الأقباط، الذين وقع عليهم اختيار الرهبان الكاثوليك ليصحبوهم إلى دير في القاهرة. يعدونهم سنوات طويلة، ليصبحوا بعدها قسوسا في الكنيسة الكاثوليكية. ولا تتجاوز أعمار الصبية العاشرة. صعد المختارون إلى الأتوبيس. عشرة أولاد. اختارهم الرهبان. من العائلات القبطية التي انتمت إلى المذهب الكاثوليكي منذ نصف قرن. لم يكن اختيارهم عشوائيًا. بل تم بعد اختبارات متعددة. فالمعد للكهنوت لابد أن يكون سليمًا جسدًا وعقلاً وروحًا. لا يقبل ذوي العاهات أو أبناء المطلقين أو الذين غُيّر والدهم أو والدتهم الديانة. لا يشترط ثراء الأسرة أو فقرها. لكن الفقراء يودون أكثر من الأغنياء أن يسلك أبناؤهم هذا السبيل. من بين الذين ودعوا أولادهم في شيء من الحزن. الخواجة كامل الذي بعث بابنه البكر غريب. وهو يشعر أن ابنه رحل وفي قلبه الصغير جرح بسبب غيرته التي تنغص حياته. إذ يرى والده قد غمر شقيقه وجيه بمحبة وإعزاز وفيرة عن إخوته. وحنان بالغ لا يدري له سببًا.

الفصل الثالث عنوانه: عاصفة بين الأقباط. وهو يبدأ هكذا: أشيع في غرب البلد وفي شرقها أن الرهبان الكاثوليك صحبوا معهم إلى القاهرة عددًا كبيرًا من الصبيان. ليعدوهم قسوسًا للكنائس الكاثوليكية. كما أشيع أيضًا أن بنات سافرن مع الراهبات ليتحولن إلى راهبات كاثوليكيات. وأن الرهبان سيعودون ومعهم تصريح ببناء مدرسة كاثوليكية. وأن الراهبات أيضًا قد اخترن قطعة أرض خلف بيوت غرب البلد لإقامة دير صغير. وبه مستوصف ودار حضانة. لم يكن الأمر حقيقة. وإنما مجرد أمنية. ألقى بها أحد الرهبان مع الخواجة كامل إذ قال له: إن شاء الله في القريب العاجل تكون مدرسة القطنة، وكنيسة القطنة، وكمان دير رهبان القطنة. فرفع أبوغريب عينيه إلى السماء وقال: من بُقك لباب السما.

وتتم مناقشة موضوع تغيير الملة في الكنيسة. يقول القمص: احنا ناس أرثوذكس. الكنيسة القبطية أم الشهداء. دايمًا كان فيه ناس عايزين يقسموها ولكنها صمدت بنعمة المسيح ودم شهدائها. لازم كلنا نكون يد واحدة ورأي واحد. ونمنع دخول كنائس ثانية. يرد عليه الخواجة تاوضروس أولاً: ماحدش يقدر يغيّر عقيدة إنسان. ثانيًا احنا أصلاً مش فاهمين حاجة في العقيدة. أهو كله في المسيح أرثوذكس. كاثوليك. بروتستانت. هو احنا دخلنا في الإسلام؟ أنا مش فاهم كنيستنا القبطية زعلانة ليه. دي صلواتهم زي القبط بالضبط. أنا مش شايف فرق غير في لبس العمامة. دي عمامة مدوّرة ودي عمامة مربعة. يرد عليه توفيق: يعني مش كله في المسيح؟ بس الكاثوليك أرقى. العلم عندهم كويس. والنظام أحسن والقسيس مش بتاع فلوس.

وفي المدرسة يصف الواقع هكذا: يدق جرس المدرسة في الثامنة صباحًا.. لا يحيي العلم ولا يهتف التلاميذ عاش الملك. كل ما يعرفه التلاميذ أنهم أقباط. وينبغي أن يظلوا أقباطًا. لم تعلق صورة عبدالناصر في المدرسة - بعد ذلك - إلا بعد إلحاح شديد من ضابط النقطة. الذي قدمها هدية للمدرسة. ويناقش العمدة أبوغريب في حكاية ملل الأقباط. الذي يقول له: الكاثوليك تابعين لبابا روما واحنا أولاد بلد تبع الأنبا يوساب.



بثورة ١٩١٩ أخذت دائرة الأدب القبطي تضيق. فاختفى الأدب السياسي القبطي الذي كان يهدف إلى مراعاة مصالح الطائفة. والذي كان يدعو إلى دوام الاحتلال البريطاني واتجه إلى الاندماج في الأدب السياسي العام، بعد أن اتحدت الأغراض وتوحدت الأهداف



لكن غريب يترك الدير بعد أن حصل على شهادة دراسة اللغة الفرنسية. وبعض زملائه ينتظر السفر إلى روما. أما غريب فلم تكن عنده رغبة في إكمال دراسة اللاهوت. لا يريد أن يطلع قسيسًا. إنه بتعبير والده يرفض المسيح لكي يتزوج. وغريب عندما نذره والده للرهبنة كان عمره عشر سنوات. لم يكن من حقه أن يختار. أما الآن وعمره عشرون سنة. من حقه أن يختار. إنه يريد أن يعمل بتدريس اللغة الفرنسية في بنادر الصعيد. أما والده فيرى أنه لابد أن يكمل عمره في التكفير عن ذنوبه. لأن من يخرج من الدير ملعون. وغريب يرى أن الدير فيه أناس مش كويسين. وهناك تمييز أناس عن أناس. لأن البشر موجودون في كل مكان. وغريب لا يعرف أن الفشل في حياة الرهبنة، والخروج من مسلك الرهبنة يمثل في حياة القرى عارًا، يصبح سبة للأسرة. وكأن لعنة قد حلّت بمن يفعل هذا. لأنه لا يوجد طريق للسماء غير الكهنوت والرهبنة. ويقوم كامل بطرد ابنه غريب من البيت عقابًا له على هروبه من الرهبنة إلى الحياة العادية. بحجة حقه في الاختيار. وإن كان لا يعرف أنه بذلك قد اغتال أهم أحلام والده كامل القطناوي. لقد اختلط في أعماقه الورع والتقوى بالطموح والأمل. إن الكهنوت عنده أسمى رسالة وأجمل وظيفة. فهو امتلاك للدنيا والآخرة. إنه يحسد الآباء الذين سيصعد أولادهم إلى درجة الكهنوت. كان قد خطط ليكون غريب قسيسًا. ووجيه تاجرًا. وعجيب وأكمل وجميل وجلال طلبة في الجامعة. كان مُصرًا على أن يخرج من دائرة البؤساء. فالابن الأكبر إن أصبح قسيسًا أمده بالعون المعنوي وارتفع بأسرته من طبقة إلى طبقة. والابن الثاني إن اتقن فن التجارة وأصبح تاجرًا كبيرًا فإنه يستطيع أن يتفرغ لتربية الأربعة الباقين ليتخرجوا من الجامعة. فإذا بالحلم ينهار في لحظة.

في هذه الرواية العديد من الآراء السياسية التي يُنطق بها الروائي الأبطال بها. فرغم قوله أن كامل لم يكن عليمًا بأمور السياسة ولا يحب الدخول فيها. إلا أن الروائي يقول: لا يدرك - يقصد كامل - أنه أحب جمال عبدالناصر دون أن يعرف الأسباب الحقيقية. أعجبته شجاعته وإقدامه. ومواقفه المتحدية للدول الكبرى. ربما أحبه لأنه أعطى الفرصة لأبنائه لدخول الجامعة. أتاح لهم ما لم يتحه ملك أو رئيس. كان يشعر في خطب جمال بتعاطفه مع الفقراء. أما السادات فقد عشق فيه روح ابن البلد. وتبسطه مع الفلاحين. لكن لم يبلغ حبه للسادات مبلغ حبه لجمال دون أن يعرف لذلك سببًا. ربما لأن السادات أنهى عصره بموقف أغضب الأقباط. وبدا متعاليًا عليهم. ربما لأن ابنه مات في الحرب التي قادها السادات «الأدق أن يكتب الروائي استشهد بدلاً من مات».

ولأن ثقافة الروائي فرنسية وفي الرواية جو فرنسي. نقرأ اسم زولا واسم بودلير. وحالة من الإعجاب بالثورة الفرنسية. ومقارنتها بثورة يوليو. فالثورة الفرنسية غيرت العالم وأثرت فيه. ولكن هل كان التغيير إلى الأفضل؟ ألا يكفي أن هذه الثورة حركت نزعتها العدل والحرية. وأيضًا فقد زرعت المادية والإلحاد. ويقول أحد المتجاورين: ليت ثورة جمال

عبدالناصر حذت حذوها. لكانت قد حققت ما عجزت عن تحقيقه اليوم. بعد سنوات من قيامها.

تجـــــــربـة بـكـر

على الرغم من ضخامة عدد صفحات رواية «شبرا» ٢٣٤ صفحة، إلا أن صاحبها نعيم صبرى. باعتباره من رواد جلسات نجيب محفوظ وليس من حرافيشه. قد قرأها لنجيب محفوظ. على مدى جلسات امتدت لشهور طويلة. قبل أن يدفع بها إلى المطبعة. قال لى نجيب محفوظ: إن الرواية أعجبته لسببين: الأول: أنها تقدم حيًا بأكمله. هو حى شبرا بكل سكانه. وهذا لون جديد من الكتابة الروائية. فهو لا يكتفى بتقديم أسرة. أو سكان عمارة. ولكن يقدم حيًا. الأمر الثانى: أنه يقدم أفضل ما فى أبطاله. لدرجة أننى عندما كنت أستمع إليه، وهو يقرأها لى. كنت أتمنى لو أن الناس فى الواقع بهذا القدر من الطيبة ولو كانوا هكذا. لاختفت الهموم والأحزان من الدنيا.

شبرا ليست رواية نعيم صبرى الأولى. أصدر قبلها ثلاث روايات. وثلاثة من دواوين الشعر. ومسرحية شعرية. وكتابا من السيرة الذاتية. ولأن نعيم صبرى ميسور الحال. وكان يمكن اعتباره في وقت قريب من صغار رجال الأعمال. قبل أن يتفرغ للكتابة فقط. وهو تفرغ من جيبه الخاص. وليس من إدارة التفرغ فى وزارة الثقافة. وهو - علاوة على ذلك - ينشر أعماله على نفقته الخاصة. يمكن القول أنه عضو فى حزب أحمد رامى الذى كان يرفض التكسب من الشعر.

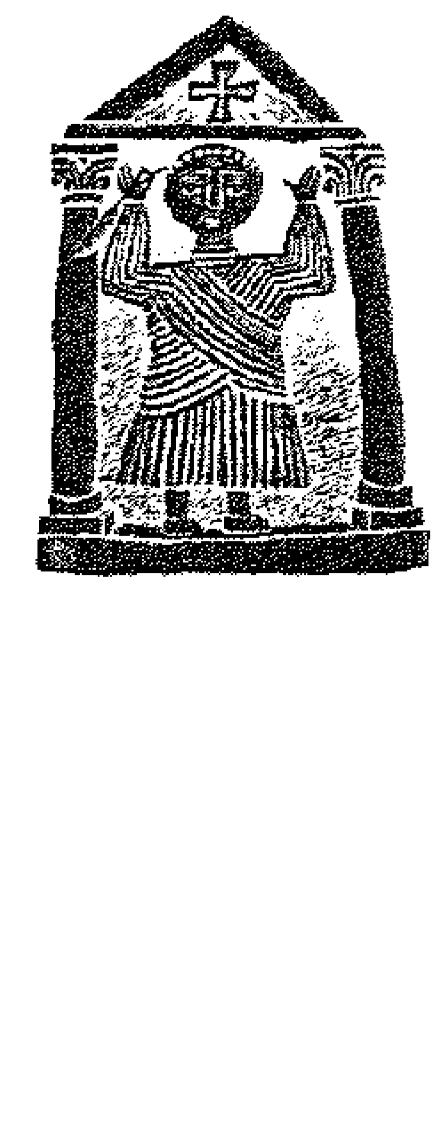
ورواية شبرا تقدم تجربة حياة عدد من البشر يؤمنون بالأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية. وإن كانت هذه الأسرة اليهودية الوحيدة فى الرواية. وهى أسرة راشيل اشكينازى تختفى فجأة. ويبدو أن نعيم صبرى قد آثر السلامة. ولم يحدد ظروف اختفائها ولا توقيتها الزمنى. حتى لا يصطدم بالناصريين، لأنه من المعروف تاريخيًا أن اليهود غادروا مصر خلال العدوان الثلاثى عليها سنة ١٩٥٦. بعد أن تحولوا إلى طابور خامس ضد تجربة عبدالناصر. وعاد القليل منهم إلى وادى النيل بعد معاهدة السادات مع إسرائيل. وإن كان الذين عادوا أطلال بشر متقدمين فى العمر.

وأحداث الرواية تدور فى حى شبرا. وهو حى اشتهر بكثرة سكانه من المسيحيين، وإن كانت هذه الكثرة قد بدأت تذوب مؤخرًا وسط سكان مسلمين كثيرين. وأصل كلمة شبرا فى اللغة القبطية جبروا وتعنى العزبة والعزبة هى الخلية الأولى فى مجتمع الزراعة. والتى تنمو فيما بعد إلى القرية. وسط حشد هائل من التفاصيل. وعدد ضخم من الشخصيات لدرجة أن الإنسان يتوه بينها. حتى إن المؤلف ولمواجهة احتمال هذا التوهان المتوقع قام برسم كروكى للعمارة التى تدور فيها الأحداث. أوضح فيه الشقق والسكان.

التجربة التى تقدمها الرواية ربما كانت المرة الأولى التى تكتب فيها، شاب مسيحى يحب فتاة مسلمة. وهما معا من سكان نفس العمارة، وإن كان المؤلف لا يتوقف أمام الضرورة التى تجعل الفتى يحب الفتاة، والفتاة تحب الفتى، سوى أن كلا منهما يحب الآخر، فهى قصة مثل جميع قصص الحب، وإن كانت قد غيرت من مسار حياة الاثنين. نقرأ فى الرواية: نشأت قصة حب بين نبيلة بنت الست عائشة وسعيد ابن الست عايدة رزق الله منذ



ومـــشـــروع الدكـــتـــور قلتـــة يقـــوم علـى حـــمل لواء العـلاقـــة بين الثـقـافـة والدين. ذلك أنه يـرى أن بـعـض رجـــال الكنيـســـة الذين تحـــرروا من الجـو الكنسى والتـقـاليـد الكنسيـة. تمـكنوا من أن يقـــولـوا للكنيـســـة: «ستـوب» هذا يكفى. وقـامـوا بعملية مهمة وتاريخيـــة كـــان لابد منهـــا. وهى نقـل الحـضـــارة لقلب الكنيـســـة



ثلاث سنوات، قصة حب عميقة جدًا تمر بأطوار متتابعة من الوصل والافتراق. يتفقان على الافتراق بسبب الظروف، ثم لا تلبث نبيلة أن تنهار فتتصل بسعيد تليفونيًا وتطلب لقاءه فورًا. كانت تمر عليه أحيانًا بالشركة دون سابق إنذار وتنتظره حتى انتهاء مواعيد العمل، ثم يخرجان ويمضيان الساعات الطوال معًا، يحدث هذا دائمًا مثل حكاية صخرة سيزيف، ما العمل؟! نبيلة مسلمة وسعيد قبطى. مأزق لا يحسدان عليه، يدفعهما التعقل ونكران الذات إلى الاتفاق على الافتراق من أجل أسرتيهما. ثم لا يلبثان أن يضعفا كآدميين، يخفق قلباهما بالحب العميق ويتطلعان إلى الارتباط وتكوين أسرة. والمؤلف لا يحدد دين المحبين فقط، بل يقدم ما يمكن أن يسمى ببيان أديان لكافة أبطال عمله. مع أن هذا من الممكن أن يتم فى النص الروائى دون اللجوء إلى المباشرة الصريحة من خلال وضع الصليب فى صدر الفتى، أو الهلال فى صدر الفتاة نبيلة طالبة فى كلية الآداب وتدرس الأدب الفرنسى، سعيد أيضًا يجيد الفرنسية، حيث درس بمدارس الفرير بشارع البعثة.

لا يكون هناك من حل سوى أن يعتنق سعيد الإسلام. هكذا يفكران فى الأمر ويتوصلان إلى القرار، ولكن تبقى المشكلة، كيف يواجه الناس والأقارب بعد هذه الخطوة؟ سيقولون إنه أشهر إسلامه ليحل مشكلة زواجه، ولكن كيف سيكون الحال بالنسبة للأبناء، أى دين سيكونون عليه؟ سيجدون عمتهم وجدتهم لأبيهم مسيحيات، وخالهم وخالتهم وبقية أهل أمهم مسلمين، كيف سيشاركون أهل أبيهم وأهل أمهم مناسباتهم الدينية؟ وإذا سألوا أباهم وأمهم: لماذا نحن مسلمون وأهل أبينا مسيحيون؟ ولماذا غير أبونا دينه؟ كيف سيواجهون أقرانهم عندما يكبرون؟

ويذهب الفتى والفتاة من أجل مشاهدة فيلم حسن ومرقص وكوهين. وقد اعتبرتها مصادفة تمت صناعتها من أجل مواجهة أحداث الرواية بفيلم سينمائى. وقصص الحب فى الرواية تدور بين بشر مختلفى الأديان: مجدى وكريستينا، صابر وهيلينا. وبعد أن يتخذ سعيد قرارًا بتغيير ديانته يقول إن ما يعنينى هو الإيمان بالله. وتدور مناقشات فى كل مكان فى العمارة، وتدور الأفكار الطائرة. لقد تزوج النبى محمد «ص» من مارية القبطية. ماذا حدث؟ ومن هنا يختار دينه؟ دارت التساؤلات فى ذهنه بعد زيارته لأخته بشارع الزهور فى اليوم التالى لوصوله وإثارة الموضوع. عن مشكلة الأولاد وديانتهم تقول له أخته: عندما يشب الأطفال ستكون خانة الديانة قد ألغيت من البطاقة الشخصية بإذن الله. يرد عليها: لن ينصلح حال هذا البلد طالما وجدت خانة الديانة فى البطاقة الشخصية.

ويقدم نعيم صبرى تفاصيل إجراءات تغيير الديانة فى الفصل ١١٧ من الرواية هكذا:

- استقل سعيد الأتوبيس المتجه إلى الأزهر لإشهار إسلامه. فكر أولاً. أين يمكن للمرء أن يشهر إسلامه؟ لابد أن يكون فى الأزهر. استعاد فى ذهنه بعض الأخبار التى قرأها بالجرائد فى الماضى عن ذهاب بعض الأجانب إلى الأزهر وإشهار إسلامهم هناك. لم تكن لديه أية فكرة عن الإجراءات، نزل عند محطة الأزهر. سأل أحد المارة عن إدارة الأزهر. ازدادت سرعة نبضات قلبه وهو يدلف من الباب ويصعد درجات السلم. تردد قليلاً. وهو لا يدرى ماذا يفعل أو إلى أين يتوجه. رأى أحد الموظفين خارجًا من إحدى الغرف. فاقترب منه بتردد. وسأله بصوت مرتجف:

- من فضلك.. أنا.. كنت أريد أن أسأل. أنا. أريد. أريد أن أشهر إسلامى. إلى أين أتوجه؟!

- فى الحقيقة. أنا لا علم لى بالإجراءات. لحظة من فضلك سأسأل الزملاء بالإدارة. تركه ودخل إلى الغرفة مرة أخرى. عاد وأخبره بالتوجه إلى مكتب رئيس لجنة الفتوى بالدور الأول.

صعد سعيد إلى الدور الأول وهو يراجع فى ذهنه فاتحة الكتاب والشهادتين اللتين حفظهما بعد أن تصور أنه سيطالب بترديدها أمام المسئولين. دخل إلى غرفة رئيس لجنة الفتوى. الذى كان جالسًا خلف مكتبه مشغولاً بأداء عمله. شيخ جليل ممتلئ القوام ذو وجه سمح، شجعه على أن يتم الحديث. بدأ كلامه وهو يقف إلى جوار المكتب قائلاً بصوت خفيض:

- أريد أن أشهر إسلامى.

دعاه الرجل إلى الجلوس بجواره. ثم سأله بهدوء:

- ما سبب إقدامك على إشهار إسلامك؟

أجابه سعيد:

- بصراحة يا سيدى. أحب فتاة مسلمة وأريد أن أتزوجها.

سأله الشيخ بهدوء:

- وهل هذا هو السبب الوحيد لإقدامك على هذه الخطوة؟!

أجابه سعيد:

- نعم يا سيدى. وقد ساعد على اتخاذ قرارى هذا، أننى نشأت بأسرة متسامحة دينيًا وغير متزمتة، لنا كثير من الأصدقاء من المسلمين، بالإضافة إلى أننى أرى أن جميع الأديان تدعو إلى القيم النبيلة، وفى النهاية إلى الإيمان بالله.

- عظيم. هل تحفظ فاتحة الكتاب؟

- نعم يا سيدى.

طلب منه أن يتلوها. ثم سأله أن ينطق بالشهادتين ففعل. قال له الشيخ بعدها:

- حافظ على نفسك يا بنى، فأنت الآن تملك صفحة ناصعة البياض، خالية من الذنوب، احرص على السلوك المستقيم وعلى خشية ربك.

سأله عن الإجراءات الرسمية بعد هذا، هل سيحصل على شهادة بالإشهار؟! طلب منه النزول إلى إحدى المكتبات المجاورة ويحضر منها شهادة إشهار إسلامه لكى يعتمدها له. يشعر سعيد بارتياح كبير لانتهائه من تلك الخطوة الحاسمة فى حياته ولشعوره باقتراب تحقيق أمنيته بالارتباط بنبيلة. عبر شارع الأزهر باحثًا عن مكتبة للسؤال عن تلك الشهادة. وقف أمام إحدى المكتبات الصغيرة. طلب من الرجل شهادة إشهار إسلامه فأعطاه واحدة. عاد فطلب أربع نسخ أخرى من الشهادة. سيعتمدها جميعًا، لعله يحتاجها فى أكثر من إجراء. من يدرى؟ وقف يملؤها عند كتابة الاسم. سأل الرجل: هل تعرف إن كان من الضرورى أن أغير اسمى؟! سأله الرجل: ما اسمك بالكامل؟! أجابه سعيد: سعيد رمزى نجيب بطرس. قال له الرجل: الاسم الثلاثى مشترك بين المسلمين والمسيحيين فلا داعى للتغيير. أوضح له سعيد قائلاً: اسمى الثلاثى هو سعيد رمزى نجيب بطرس. لأن أبى اسمه مزدوج «رمزى نجيب». قال له الرجل: أنصحك بعدم تغيير الاسم. سيجر عليك مشاكل كثيرة. ستضطر إذا غيرت الاسم إلى تغيير كل شهاداتك الدراسية. وجميع المستندات الخاصة بك، لن تستعمل الاسم الثلاثى إلا فى الأوراق الرسمية. تستطيع أن تكتفى باسمك واسم أبيك المزدوج فى معظم المعاملات.

سأل سعيد فى النهاية: هل سيستخدم هذه الأوراق فى تغيير البطاقة الشخصية؟ قال له: إن الإجراءات التى قام بها هنا هى إجراءات دينية. أما الإجراءات المدنية والإدارية فيجب أن تتم فى مديرية الأمن. ذهب إلى مديرية الأمن فورًا. سأل عن الإدارة الخاصة بإشهار إسلامه. دخل إلى مكتب الرجل المسئول. أملى عليه طلبًا ليكتبه. مفروض أن

يحضر ثلاثة لقاءات أسبوعية مع أحد القساوسة. اللقاء سيكون يوم الثلاثاء. سأله عن ضرورة هذه اللقاءات. فقال له إن هذه تعليمات واجبة التنفيذ قبل السماح بإشهار إسلامه. ويحتار سعيد بسبب هذا المأزق. ماذا سيقول للقساوسة؟ وعندما يقول له إنه عزم أمره. وقام بالإجراءات ولن يعود فيها. يقول له المسئول إن هذه الإجراءات تمت بالاتفاق مع الكنيسة والسلطة المدنية. لا نريد أن نغضب الكنيسة لذلك تم الاتفاق على إتاحة الفرصة للكنيسة للقاء الشخص المتقدم لإشهار إسلامه. حتى تطمئن إلى قراره وتناقشه فيه. ستقابل القسيس ثلاث مرات. تحضر إلى مكتبي الثلاثاء القادم الساعة الحادية عشرة صباحًا، ثم الثلاثاء الذي يليه والثلاثاء الثالث. بعد أن تعتمد الإجراءات ونعطيك شهادة تتقدم بها إلى الشهر العقاري لاستخراج شهادة إشهار إسلام مؤقتة. ثم تتوجه إلى دار المحفوظات العمومية بالقلعة لتغيير شهادة الميلاد أولاً، باستخراج مستخرج رسمي لتغيير الديانة بعدها تتقدم إلى السجل المدني لتغيير البطاقة. يطرق سعيد ساهمًا ثم يسأل: وأين تكون اللقاءات؟ أشار الرجل إلى طاولة اجتماعات أمامه بالغرفة وهو يقول: على هذه الطاولة. في اللقاء الأول مع القسيس يسأله: أين تصلي الأسرة؟ في أي كنيسة؟ انتبه سعيد للسؤال المباغت. ودارت برأسه الظنون، القسيس يريد أن يصل إلى أسرته لمحاولة الضغط عليه. أجابه بعد تفكير: لا أعرف. يسأله: ما عنوانك يا سعيد؟! يقول له سعيد: لنكن صرحاء، حضرتك تريد معرفة عنواني والكنيسة التي تصلي فيها الأسرة لتصل إلى أسرتي، لإثنائي عن عزمي. أود أن أوضح لك أنني لن أبلغك بعنواني، وإنني لا أريدك أن تتصل بأسرتي. هذا شأني الخاص، وأنا رجل بالغ رشيد. ولا يكون هناك من حل أمام سعيد سوى أن يبلغه بعنوان آخر غير عنوانه الحقيقي. وإن ذهب القسيس يتحرى ويبحث عن أهله لن يصل إلى أى شيء. وبالفعل يستخرج بطاقة شخصية جديدة على عنوان صديقه مدحت في مصر الجديدة. وعندما يلتقي بالقسيس. المؤلف لا يوضح هل هو نفس القسيس في اللقاءات كلها. أم أنه يتغير من لقاء لآخر. يسلمه صورة البطاقة المدون فيها العنوان غير الحقيقي. ولا يكون أمام سعيد ونبيلة بعد أن أصبح سعيد مسلمًا سوى الزواج والسفر إلى ليبيا. بعد أن يشعر سعيد بوحشة ضارية. اكتشف أنه يقف وحيدًا ضد الجميع، وأهله ثاروا على قراره الذي نفذه قبل أن يعرفوا به. ويكون السفر إلى ليبيا - الذي يعتبر الحل الوحيد - سهلاً لأن خال زوجته يعمل هناك.

في الجزء الأخير من الرواية وبشكل مفاجئ تمامًا، نقرأ رسائل متبادلة بين الأبطال، خاصة بعد سفر البطلين إلى ليبيا.

سألني نجيب محفوظ في حضور المؤلف، عن رأيي في روايته بعد أن أبلغته أنني انتهيت من قراءتها. قلت له أن الرواية تقدم تجربة جديدة تمامًا على الكتابة الروائية المصرية والعربية، ألا وهي تجربة أن يغير إنسان دينه. بصرف النظر عن الأسباب التي يمكن أن تقوده إلى ذلك. وتلك هي الإيجابية الجوهرية فيها. ولكني أقول: لو كنت كاتب هذه الرواية، هكذا يفكر كل الروائيين بعد أن يقرأوا روايات زملائهم، كل واحد يضع نفسه مكان الروائي الذي يقرأ له، علاوة على أنه ياويل الروائي عندما يقول روائي آخر رأيه في عمله، هكذا تعلمنا من التاريخ الأدبي. قلت له لو أنني كاتب هذا النص، لاكتفيت بتجربة نبيلة وسعيد. وقدمتها كما يجب أن تقدم، ودخلت التجربة حتى أعماقها، لأن نعيم صبرى قدمها ولكن من الخارج. لم يعبر إلى داخل شخصية سعيد أو نبيلة رغم أهميتها وخطورة التجربة. إن العمق النفسي والرحلة الداخلية لإنسان يغير ديانته. هذا إن كان سعيد مسيحيًا تحول إلى الإسلام تجربة خطيرة، أما كونه لم يكن مسيحيًا فهذا معناه أنه لن يكون مسلمًا. هذه التجربة لم نجدها، وإن كنت قد وجدت الحدث الخارجي للعملية. الحركة الخارجية لسعيد. والإجراءات المادية التي أقدم عليها، خاصة أنني أعرف أن نعيم صبرى الروائي قد مر بهذه التجربة في حياته. كان مسيحيًا وأسلم ليتزوج من الإنسانة التي أحبها، وهي زوجته الآن. وعمل فترة من الوقت في ليبيا فعلاً. وهذا يعطيه عمقًا حقيقيًا في الغوص إلى أعماق الشخصية. أيضًا لي مأخذ آخر على رواية نعيم، فهو الوحيد من بين الروائيين الثلاثة الذي كتب الرواية من قبل، ولذلك تكون المحاسبة هنا أشد. في هذه الرواية حشد من التفاصيل، مع أن التفاصيل في النص الروائي اختيار وليست حشدًا، والرواية مزدحمة بالشخصيات بصورة غير عادية، كما أن الكاتب حاول أن يقدم شبرا باعتبارها مكانًا مختلفًا عن غيره من أماكن مصر وهذا غير صحيح فشبرا جزء من مصر.

بقي أن نعرف أن نعيم صبرى مولود في شبرا في ١٥/١٢/١٩٤٦. وعاش فيها حتى تخرج من كلية الهندسة جامعة القاهرة قسم ميكانيكا إنتاج سنة ١٩٦٨. وأنه مر شخصيًا بتجربة تغيير ديانته من المسيحية إلى الإسلام سنة ١٩٧٠. وقضى في ليبيا السنوات من ١٩٧١ حتى ١٩٧٧. أكثر المعلومات طرافة، بل وإثارة عن نعيم صبرى. أنه ابن خالة غبريال زكي غبريال صاحب الرواية الثالثة في هذا المقال.

رسالة خطيرة

وصايا اللوح المكسور هي الرواية الأولى للدكتور غبريال زكي غبريال. وما أن شاهدت صورته المنشورة على الغلاف الخلفي للرواية، وبعد أن جردت الوجه من اللحية الكثيفة التي تحيط به. وقد جرت هذه العملية في خيالي طبعًا. حتى اكتشفت أنني أعرف الروائي، فقد كان مسئولاً عن شئون المقر في حزب التجمع التقدمي الوحدوي في سنوات التجربة الحزبية المصرية الأولى. حوالي منتصف السبعينيات، ثم ذهب كل منا لحال سبيله، وربما عبرت ميوله الأدبية عن نفسها في ذلك الوقت البعيد بكتابة بعض القصص القصيرة، أما الكتابة الروائية، فلا أعرف متى بدأت بالتحديد. الدكتور غبريال حسب المعلومات المدونة على غلاف روايته الخلفي، مولود في مدينة القاهرة سنة ١٩٤٥. وحاصل على بكالوريوس طب بيطري. وخدم كرقيب طبي في الجيش الثالث الميداني في حرب ٧٣، ولم ينشر قبل هذه الرواية سوى القصص القصيرة. لديه الكثير من الأعمال الأدبية ولصعوبات النشر قرر نشر هذا العمل على نفقته وبمساعدة أصدقائه. وروايته مهداة إلى والد الروائي وأمه اللذين تحملا الكثير من عثراته. وأيضًا إلى زوجته «امتدادًا لهما».

والرواية تبدأ بلقاء عاطفي بين البطل بولا عازر جرجس وصديقته التي تطرده من منزلها فيتجه إلى البار ليحتسي الخمر. كان قد تصور أنها كأرملة سترحب بهذه العلاقة والروائي حريص على أن يثبت من الصفحات الأولى أن بطلته مسيحية وأن بطله أيضًا مسيحي. ويصدر قرار بنقل بولا للقيام بأعمال مدير عام بمحافظة بني سويف وذلك كجزء من حركة تنقلات شملت الجميع. يستعرض حاله. وهي فرصة للروائي لكي يقدم لنا ظروف بطله، ابنته مريم في الثالثة بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، ابنه كريم في الثانية الثانوية، زوجته ناهد، بعد رحلة تنقلات تعمل في فرع



قال لي نجيب محفوظ: إن الرواية أعجبته لسببين. الأول: أنها تقدم حيًا بأكمله هو حي شبرا بكل سكانه. وهذا لون جديد من الكتابة الروائية. فهو لا يكتفي بتقديم أسرة أو سكان عمارة ولكن يقدم حيًا. الأمر الثاني: أنه يقدم أفضل ما في أبطاله



للبنك على بعد كيلومترين من منزلهم. أما تريز حبيبته فيفكر في الاتصال بها.

بعد ترتيب أموره يقول له زميله إن هذا النقل فيه مكيدة. وزوجته تضيف أن في المكيدة بعدها الديني، وتصر على أن صاحب هذه المكيدة قبطي متلهم، وهي متأكدة أن كل مكيدة ضد قبطي هناك أصبع قبطي خلفها، وتقول له: المر الذى يختاره الرب لي خير من الحلو الذى أختاره لنفسي.

يحس بولا بالفارق بين الحياة في القاهرة والحياة في بني سويف، يشعر بتصرفات مركبة في هذه البلدة بخلاف العاصمة، ويقابل في بني سويف مسلمًا عائدًا من المملكة العربية السعودية بعد سبعة عشر عامًا من العمل هناك. ولأن الأسماء لها دلالات دينية في مثل هذا النص الروائي، فإن المؤلف يبدو مشغولاً بشرح هذه الأسماء ويقدم معلومات ربما كانت جديدة خاصة بالنسبة للقارئ المسلم.

- وكان اسمها مريم، للدقة كان اسمها - مصطفية - مصطفية.

سأل والده..

- مصطفية أليس اسما مسلما؟!

رد والده المقدس:

- واصطفاك على نساء العالمين.

وكان أن سمى ابنته مريم.

يناقش بولا مع زوجته ناهد وضعه، رأيها أن يطلب إلغاء النقل، وإلا فهو يغوص في الاستكانة، وأن المسيحية في هذه الحالة تعني الخضوع. وهذا ما يعنيه قول من ضربك على خدك الأيمن أدر له الأيسر. يرد عليها: رفضت أن أكون مقتولاً. ونمت الشراسة بداخلي، ولكي تنمو أكثر كان لابد من الابتعاد عن الكنيسة، وعندما تقول له زوجته إنها كانت تحسب عدم ذهابه إلى الكنيسة لأسباب غير هذا. ينصحها بالذهاب إلى الصعيد أولاً ثم تتحدث معه.

ويعزيه زميل مسلم معه في العمل في وفاة أطباء شبان قتلوا في لوكاندة بالمنيا، كانوا يعملون في مجال الدعاية للأدوية، وهذا الخبر لم تنشره الصحف، ولكنه سرى من المنيا إلى بني سويف عبر الأفواه، وبولا يقرر أن تكون أول دعوة يلبيها في بني سويف لزيارة منزلية معلنة لزملاء العمل الجدد من المسلمين تحسبًا لأية تقولات. أما زيارته لمنزل «أبونا إسحق» فلن يعرف بها أحد، ويلاحظ أنه بدلاً من صور القديسين، كانت هناك آيات قرآنية معلقة على الحائط. يصلي زميله المسلم، فيقول له بولا - كما يفعل المسلمون - حرمًا، فيرد عليه المسلم، كما يقول المسيحيون: معًا إن شاء الله.

من قضايا المجتمع القبطي في مصر التي ترد في هذه الرواية قضية سفر الأقباط إلى القدس، تريز تسافر من أجل أن تقدس. «يعني سافرت إلى إسرائيل. البابا قطع حرمانية على أقباط مصر لو سافر أحدهم إلى القدس، مناقشات كثيرة تدور بين الأقباط حول هذا التحريم، البعض مؤيد، البعض رافض، أنجيل زميلة تريز. تتناول الأمر على هذا النحو: انشغلت أنجيل حواريًا حول هذا الموضوع، لكنها لا تتصور أن تقدر على مخالفة البابا، ترددت داخليًا حتى لو كان مخطئًا، لا أتصور مخالفته وإلا انقسمنا على أنفسنا. أنجيل تقابل تريز في الكنيسة وتسألها عن حكاية السفر لإسرائيل. ترد عليها: إنها موظفة حكومية. هل أملك الرفض؟! ثم إن البابا قطع حرمانية على من يذهب ونيته التقديس، هل لو كنت مكاني، أما كنت ستفعلين مثلي؟! وبعد رجوعي أحتفل بالعيد مع كنيستي، وتسرح

أنجيل فى خيالها: أورشليم مرتبطة فى وجدان أنجيل بقول السيد المسيح له المجد: يا أورشليم، ياراجمة الأنبياء وقاتلة المرسلين، كم تتمنى أنجيل السفر إلى مهد المسيح. وكنيسة القيامة لرؤية طريق الآلام وجبل الجلجثة، تتمنى لو قدست وحققت حلمها الباقى. حظيت تريز بسهولة على هذا الحلم، ودون تكلفة، على نفقة الدولة، تردد أنجيل: هل هذا معقول؟!

ويناقشها بولا، فى قضية سفرها إلى إسرائيل. يقول لها بعيدًا عن البابا شنودة وتحريمه، فليس هذا هو موضوعنا، إسرائيل لا، مصر تتفاوض، الفلسطينيون يتفاوضون، الجميع أحرار فيما يفعلونه، وبالنسبة لى إسرائيل لا، لو رأيت إسرائيليين جسدى ينتفض، فما بالك لو ذهبت إليهم؟ لن أتحمل. لا أضمن رد فعلى، إنهم أعدائى، قتلوا زملائى وكان من الممكن أن أكون أنا أيضًا أحد القتلى.

وقرب نهاية الرواية يقرر بولا السفر إلى «أسيوط» إلى قريته أولا. كان حلمه أن يرى الكنيسة التى تربى فيها صغيرًا. كانت مراحل رحلته كما تمناها كالتالى. قريته ثم دير درنكة لحضور عيد السيدة العذراء. كريم مشغول فى التقديم للكليات. مريم ترتب مشاريعها، ناهد تخبره أنها ستحضر مع الأولاد فى ليلة عيد العذراء. أو قبلها بيومين. غادرهم بولا قبل عيد السيدة العذراء بأسبوع. وبعد سفر بولا بيومين، يأتى اتصال غامض أن بولا فى خطر، تسافر الأسرة، تعرف أن القطار الذى كان يستقله تعرض لهجوم. وأن الخبر انتشر فى أسيوط. ولا يقول غبريال من الذى هاجم القطار، ولكننا نعرف هذا ضمنيًا، «لابد أنهم المتطرفون الإرهابيون». تتماسك ناهد، تحير بتماسكها كريم، مريم تحاول أن تتماسك هى الأخرى تقدر أحيانًا وأحيانًا أخرى تضعف، ضابط شرطة يتقدم من ناهد قائلاً: لن يفلت أحد منهم أرجوك. نريد أن نلم الموضوع، الموقف ملتهب. أنت قاهرية ولا تعرفين الصعيد. صرخت فيه ناهد: ما له الصعيد، رجاله أشراف، هوارة، عرب أشراف، ما له الصعيد، أنا من نجاده لقصر «الأقصر» ماله الصعيد. ماذا تخشى؟ مم تخاف هات لى حادث جتل «قتل» ليس للشرف، يتقدم منها أحد الأقارب: المهم الآن، ماذا ترغبين يا بنتى، هنا أم فى القاهرة؟! فهمت ناهد الرجل يتكلم عن الدفن. تبكى ناهد، «جنب جراباته ياعم» بجانب أقاربه يا عم. ألم يأت برغبته؟ لتكن مشيئة الرب.

ويكتب الروائى اسمه هكذا: غبريال زكى غبريال حنا داود حنا، الاسم خماسى ومن المؤكد أن الهدف ليس الإعلان عن الهوية الدينية للمؤلف، فالاسم الأول يعلن عنها بوضوح، سألت المؤلف عن السبب فى هذا الاسم الطويل، فقال لى إن المشكلة فى مصر، أنه بعد ظهور الاسم الثنائى، تاهت أسماء العائلات. وأسماء الأجداد ومن حقهم أن تبقى أسماؤهم فترة من الوقت ـ وإنه يريد أن يعيد ذلك من خلال أن يضرب المثل بنفسه، لكنه عندما يحدد مكان وزمان كتابة الرواية يكتب هكذا: القاهرة ـ أسيوط. أو مصر الجديدة. درنكه، أما تاريخ الانتهاء من كتابة الرواية فيدونه هكذا: ١٣ مايو ١٩٩٧/٦ ذو الحجة ١٤١٧/٥ بشنس ١٧١٣، ولن أتساءل عن تدوين التاريخ الفرعونى القبطى القديم، ذلك أنه مدون فى ترويسات صحفنا السيارة، وإن استغربت كتابته فى آخر الرواية، أما العبارة الأخيرة فهى: وانضمت ناهد إلى زمرة لابسى السواد، وبين البكاء الأول، والسواد الأخير، مجتمع لا يمكن إلا أن يكون فيه عنصرا الأمة، رغم أن الروائى يسخر من مذيعة التليفزيون عندما تقول هذا الكلام، إلا أنه رغم هذه السخرية بالكلام فإنه يكرسها، حتى وإن لم يهدف إلى هذا، من خلال أفعال الرواية، إن كلام هذه الرواية جميل، ولكن المشكلة هى فى أفعالها، والخطير هو الرسالة التى تحاول توصيلها إلى القارئ.

مقارنات

الروايات الثلاثة تنتمى إلى الكتابة الروائية التقليدية، والكتاب الثلاثة من خارج المشهد الثقافى المصرى، بمعنى أنهم ليسوا كتابًا محترفين، وهم رجل دين كان مشتغلاً بالفكر، ومهندس لم يمارس الهندسة، وطبيب بيطرى انشغل بالعمل السياسى فترة من حياته، الرواية الأولى تدور أحداثها فى الصعيد، ثم روض الفرج وقويسنا، والثانية تجرى فى شبرا التى تحتل عنوانها، ثم ليبيا، والثالثة تبدأ من القاهرة ثم تمتد إلى بنى سويف وأسيوط بعد ذلك عن زمان هذه النصوص الروائية. الأولى تحاول أن تستعرض ما جرى فى مصر فى القرن العشرين بأحداثه السياسية وأبطاله الكبار وإن كان فى رواية يوحنا حالة من القفز فوق الأحداث. من أجل وهم التأريخ لكل ما جرى فى مصر فى القرن الماضى. تبدأ من ثورة سنة ١٩١٩، وتنتهى بعد ١٩٧٣ التى يستشهد فى معاركها ابن كامل القطناوى، وإن كان يتجاهل الكثير من الأحداث المهمة الأخرى. ولكنه عندما يتناول الأحداث التاريخية الكبرى يرصدها من زاوية موقف الأقباط منها. عند الكلام عن ثورة يوليو ـ مثلاً ـ يركز على موقفها من الأقباط، أما الروايتان الثانية والثالثة، فأحداثهما تدور فى عصرنا الحاضر، وضمائر الحكى تتراوح بين هو الغائب والمتكلم أنا، ولكن ضمير المخاطب أنت لا وجود له فى هذه النصوص، ونسبة الاقتراب من حياة الروائيين الثلاثة الشخصية ونصوصهم الروائية تبدو شديدة الوضوح، مثل التجربة الشخصية التى مر بها نعيم صبرى، وتجربة تغيير البطل لدينه حتى يتزوج من مسلمة يحبها، وكذلك تجربة حياة الرهبنة فى رواية الدكتور يوحنا قلته، فهو عاشها فى حياته وقدمها فى نصه الروائى، وفى رواية يوحنا نقابل تجربة زواج المسلمة من مسيحى، بل ويناقش المؤلف القضية فى روايته.

وإن كان بطل غبريال يقتل فى القطار فى هجوم للمتطرفين عليه، فإن يوحنا حريص على وحدة عنصرى الأمة، ويؤكد على هذا طوال نصه الروائى، الخواجة كامل يكتب البسملة بخط جميل، ويحضر للعمدة سجادة صلاة من الحاج فتحى ليصلى عنده، بل إن الصداقة بين الخواجة كامل والحاج فتحى توشك أن تكون العمود الجوهرى الذى تقوم عليه الرواية كلها. خلال الرواية يموت الحاج فتحى، وفى السطر الأخير من الرواية يموت الخواجة كامل، إن هاجس الوحدة الوطنية يسيطر على الأنبا يوحنا، ولكن فى المقابل فإن وحدة الأقباط الداخلية لم تكن تعنيه بنفس القدر، تنفرد رواية يوحنا بالكلام عن روح فرنسية تسرى فى مصر، غريب عندما يذهب إلى الدير ويعود، يكلم والده عن القسس الذين يدافعون عن الإسلام، ويتكلم عن جاك جومييه وهو أب موجود فى الواقع. كان يعمل فى دير الآباء الدومنيكان فى العباسية، وله كتاب جميل عن ثلاثية نجيب محفوظ، وصاحب النص الروائى كانت رسالته للماجستير ورسالته للدكتوراه حول التقاء الثقافة العربية بالفرنسية، بل إن طه حسين الذى كان موضوعه للماجستير بالتحديد تأثير الثقافة الفرنسية فيه، نلتقى به فى الرواية، ولكن من خلال اهتمام الأب جاك جومييه به، إن علاقة صاحب الرواية بأحداثها، بالتحديد إن كمال قلته ويوحنا قلته يلتقيان معًا فى هذه النقطة، نقطة الاهتمام بالثقافة الفرنسية فى مصر. ■

كتاب الزاوية

رسائل إخوان الصفا

٥ ـ فى الصورة والهيولى والأداة

واعلم يا أخى . بأن الجسم الواحد يسمَّى تارة هَيُولى، وتارة موضوعًا، وتارة صورةً، وتارة مصنوعًا، وتارة آلة، وتارة أداة. وإنما يُسمى الجسم هيولى للصورة التى يقبلها وهى الأشكال والنقوش والأصباغ وما شاكلها، ويسمَّى موضوعًا للصانع الذى يعمل منه وفيه صنعته من الأشكال والنقوش، وإذا قبل ذلك سمى مصنوعًا، وإذا استعمله الصانع فى صنعته أو فى صنعة أخرى يُسمَّى أداة . مثال ذلك قطعة الحديد، فإنه يقال لها هيولى لكل صورة تقبلها، ويقال لها أيضًا إنها موضوع للحدَّاد الذى يعمل فيه صنعته، وإذا صنع الحدَّاد منه سكينًا أو فأسًا أو منشارًا أو مبردًا أو غير ذلك سمى مصنوعًا .

واعلم يا أخى أن موضوعات الصنَّاع البشريين فى صناعتهم نوعان فقط : بسيط ومركب، فالبسيط أربعة أنواع، وهى النار والهواء والماء والأرض، والمركب ثلاثة أنواع، وهى الأجسام المعدنية، والأجسام النباتية، والأجسام الحيوانية، وهى كلها مصنوعات الطبيعة .

واعلم أن كل صانع من البشر لابد له من أداة أو أدوات أو آلة أو آلات يستعملها فى صنعته، والفرق بين الآلة والأداة أن الآلة هى اليد والأصابع والأرجل والرأس والعين، وبالجملة أعضاءُ الجسد، وأن الأداة ما كانت خارجة من ذات الصانع كفأس النجَّار، ومطرقة الحدَّاد، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، وشفرة الإسكاف، وموسى المزيِّن وما شاكل هذه من الأدوات التى يستعملها الصنَّاع فى صنائعهم، ولا تتمُّ صناعتهم إلاَّ بها .

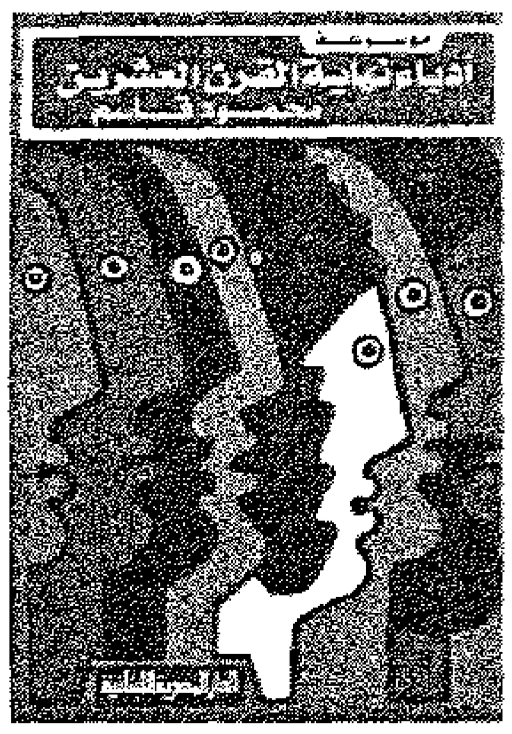
عـــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

موسوعة أدباء نهاية القرن العشرين

محمود قاسم

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠، ٤٤٦ صفحة



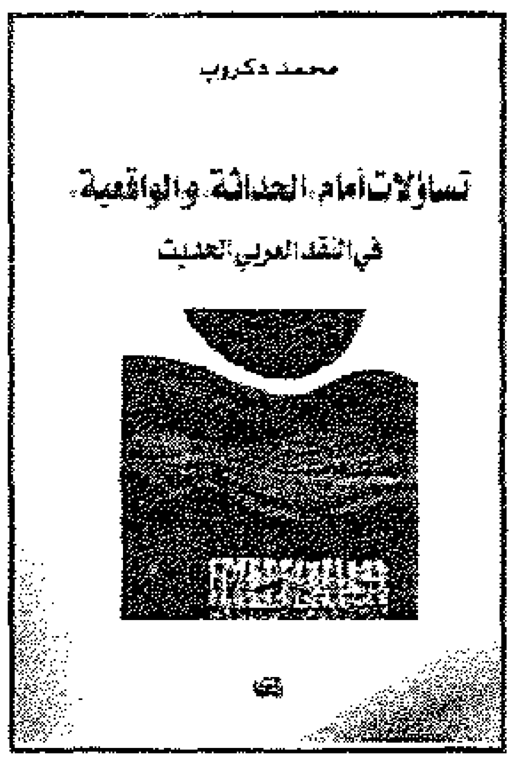
مئات الأسماء تضمها هذه الموسوعة التي يقول مؤلفها أنها لا نظير لها في أية لغة عالمية، وهي تضم أدباء وشعراء ومؤلفين مسرحيين عالميين. أما سبب تفردها كما يراه المؤلف. فكونها تضم أدباء مازال معظمهم على قيد الحياة، ويمارس الإبداع في مجاله، كما أنها لا تكتفي بالمعلومات الأولية البيلوجرافية التي تضمها عادة الموسوعات، وإنما تتضمن آراء منشورة لأصحابها في حوارات أو مقابلات صحافية وإذاعية وتليفزيونية، وأكثرها أو جميعها، من حصاد ما جمعه الكاتب على مدى سنوات طويلة في أرشيفه الخاص، وهي لا تشتمل على مشاهير الأدباء فحسب، وإنما تتضمن أسماءً ربما لم يسمع بها القراء من قبل، من دول كبيرة وصغيرة، في الشمال أو الجنوب، ويبدو أن المؤلف آثر ألا يغضب أدباءنا العرب فقصر موسوعته على من هم سواهم من الأدباء والشعراء والمسرحيين، ووعد بموسوعة تضمهم في خلال أعوام قلائل، ومع ذلك، فإن موسوعته لم تخل من أدباء عرب، أكثرهم يكتب بلغات أوروبية مثل كاتب ياسين والطاهر بن جلّون وأمين معلوف ورشيد بوجدرة - الذي كتب بالفرنسية والعربية - وآسيا جبار وأندريه شديد وألبير قصيري ومولود معمري ورشيد ميموني وألبير ميمي، والاستثناءان الوحيدان ممن يكتبون باللغة العربية هما أديب مصر والعرب الحائز على جائزة نوبل نجيب محفوظ، والأديب الجزائري الطاهر وطار، ولم نعرف - ولم يقدم لنا المؤلف - سببًا لاختياره محفوظ ووطار بالذات من بين مبدعي العربية لينضما إلى موسوعته. كما أن اختياره لأدباء عرب يكتبون بلغة أجنبية ضمن أدباء نهاية القرن العشرين، يعني أن يصنفهم ضمن المبدعين الأجانب وفقًا للغة الكتابة، وهو ما يعني أن موسوعته القادمة عن الأدباء العرب، لن تضمهم. الجهد الذي قدمه المؤلف على كل حال كبير وشاق، آخذًا في الاعتبار أنه عمل فردي لا مؤسسي، لكنه استطاع أن يحشر أسماءً لا نعرفها من مبدعي نهاية القرن أمثال إنيس كانياخ وإيرا ليفين وبريمو ليفي وبرنارد مالامود وميشيل مورت وبيير مورنس وروبير ميرل وماري نيميه وبافو هافيكو وباتريشيا هايسميث وعشرات غيرهم إلى جوار عشرات آخرين من مشاهير مبدعي القرن وعلاماته من أمثال جابرييل جارسيا ماركيز وأوكتافيو باث وجورج أمادو وإمبرتو إيكو وصمويل بيكيت وإيزابيل اللندي ونادين جورديمير وجراهام جرين وتوني موريسون و[illegible]ان جنيبه. وكما ترى فإنهم ينتمون إلى قارات مختلفة وثقافات متباينة وعقود عمرية متفاوتة.

□ □ □

تساؤلات أمام الحداثة والواقعية في النقد العربي الحديث

محمد دكروب

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١، ٢٧٠ صفحة



يتحدث البعض الآن عن «ما بعد الحداثة»، بما يعني أن الحداثة انقضى زمنها وتجاوزها المبدعون. ونهاية الحداثة تعني أنها صارت إرثًا من الماضي، بما يعني بالضرورة أن ما بعد الحداثة ذاتها ستصير بعد سنوات قلائل فعلاً ماضيًا. فهل سيتداولون مصطلحًا جديدًا يدلل على تلك المرحلة، وما عساه أن يكون هذا المصطلح، وهل ستستمر سلسلة الـ«ما بعد» إلى ما لا نهاية، دون أن نعرف بدءًا معنى الحداثة؟

المؤلف يطرح عشرات الأسئلة من هذا النوع، ويبدأ بسؤال عن محنة الشعر الحديث، الذي تفصله عن القراء فواصل منيعة، وينقل المؤلف نصوصًا مما يقوله الحداثيون من الشعراء، وجميعها يشجّع انعزال الشعر عن قرائه، بل إن أدونيس زعيم الحداثيين العرب يؤكد على هذا التنافر ويراه.. «من أبرز خصائص الشعر الجديد وأكثرها أصالة»، وعليه فإن «أنا» الشاعر هي كل شيء، لا وجود للقارئ ولا أهمية للمجتمع وتحولاته، وهو ما يناقض فكرة الحداثة أصلاً التي تعني التواجد الفعّال في العصر والتفاعل معه والإبداع فيه.

وفي قسم آخر من الكتاب يعرض المؤلف للمشروع النقدي للناقدة اللبنانية الدكتورة يمنى العيد، وهي ممن يمتلكون أدوات نقدية حديثة، وتعالج النصوص مستفيدة من نظريات النقد المعاصرة دون أن تقع في فخ «الشكلانية» والعزلة الذي يقع فيه مبدعو الحداثة، ويشير المؤلف إلى أن يمنى العيد حين أخذت بمنجزات المنهج البنيوي لم تحصر نفسها ضمن حرفية أحكام هذا المنهج، بل هي تنتقده من داخله، وتأخذ عليه قصوره عن رؤية العلاقات بين داخل النص وخارجه. وهي لا تغرق في التنظير المجرد، بل تصل إلى التنظير عبر قراءتها النقدية للنص الإبداعي، كما أنها تسعى - من ناحية ثانية - إلى المعرفة بالنص الإبداعي عبر النظرية النقدية.

وفي موقع آخر يتناول المؤلف «إحسان عباس ناقدًا»، ويصفه بأنه عقل متفتح مشرع على الجهات كلها. وهو إذ يكتب النقد والدراسة الأدبية يأتي الكلام في سياق جمالي، ويتجلى الشعر في عمق الكتابة النقدية نفسها، ويشير المؤلف إلى قدرة إحسان عباس على التفاعل مع منجزات الثقافة والفكر البشري دون تقليد أو اتباع أو قيود ثابتة، منبهًا إلى أنه لا يجوز النقل الحرفي من هذا المنجز، وهو أساسًا مستمد من سياق أدبي آخر ومسارات تاريخ آخر.

إلى جانب يمنى العيد وإحسان عباس، يشيد المؤلف بالمشاريع النقدية لمحمود أمين العالم وفيصل دراج وغالي شكري ونزار مروة وسعيد مراد.

والكتاب لا يكتفي بتحليل المشاريع النقدية لعدد من النقاد العرب، ونقد الحداثة خصوصًا الشعرية منها، وإنما أعطى مساحة للمتابعات المسرحية والموسيقية والسينمائية، محتفظًا بالالتزام الماركسي الذي يمثله المؤلف، ومنفتحًا على التجارب المغايرة في الآن ذاته.

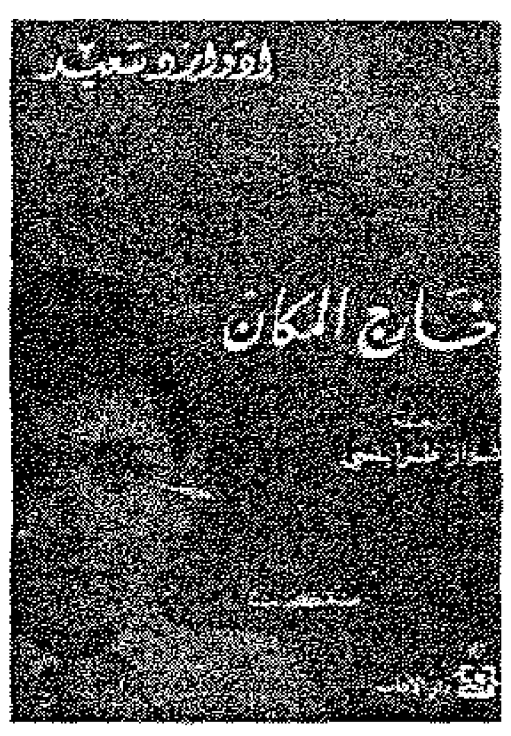
□ □ □

خارج المكان

إدوارد سعيد

ترجمة: فواز طرابلس

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠، ٣٦٠ صفحة



ما أن طرحت هذه المذكرات باللغة الإنجليزية، حتى واكبتها ردود أفعال ناقمة، كان أبرزها هجومًا مذهلاً تعرض له صاحبها في مجلة كومنتري وهي شهرية أمريكية يمينية متطرفة، فقد زعم صاحب المقال الهجومي، أنه أمضى ثلاث سنوات كاملة ينقب في حياة إدوارد سعيد، ويقرأ عشرات الوثائق ويقابل عشرات الأشخاص، وقد انتهى جهده إلى إثبات أن صاحب المذكرات ليس فلسطينيًا.. وأن حديثه عن حق العودة غير ذي موضوع، لأن تلك الأرض لم تكن لهم أصلاً.

والآن.. الطبعة العربية بين أيدي قرائها. وهي تثير عشرات الأسئلة الإشكالية التي تبدأ من عنوان المذكرات ذاته. فـ«خارج المكان» عنوان دال تمامًا على حيرة صاحبه. فالاسم إنجليزي «إدوارد».. عربي «سعيد». ولغته إنجليزية عربية، لا يعرف مُتكلّمها أيهما أسبق، والتعليم والممازجة والتربية والنشأة، كلها صارت في مراوحة بين الكُنهين على نحو لا يستبينه صاحبه.

بدأ إدوارد سعيد كتابة مذكراته في العام ١٩٩٤، بعد ثلاث سنوات تقريبًا من إصابته بسرطان الدم، وقد أيقظ هاجس الموت الذي بدا مؤرقًا وطاغيًا، أسئلة المواطنة والهوية. التي توارت في غمار نجاحاته التي توالت، في التدريس كما في الكتابة والتأليف وسباقات الفكر عمومًا.

تكشف سيرة إدوارد سعيد عن نشأة أرستقراطية باذخة، والمشاهد التي ينقلها لنا من حياته في القاهرة التي عاش فيها سنوات صباه الأولى وتعلم في مدارسها الكولونيالية.. «الجزيرة»، «فيكتوريا كولدج»، «المدرسة الأمريكية»، وقد غادرها في عام ١٩٥١، وكان عمره آنذاك ستة عشر عامًا، كي يكمل تعليمه الجامعي في الولايات المتحدة الأمريكية ويستمر فيها حتى اليوم، هذه السيرة الأولى تبرهن على نشأته الأرستقراطية، الأب صاحب الأعمال التجارية الناجحة وكيل الشركات الكبرى، اعتبر نفسه دومًا مواطنًا أمريكيًا، وحاول أن يغرس في إدوارد، الذي كان أخًا لأربع أخوات، عبر التعليم ونمط الحياة، الشعور بأنه أمريكي أيضًا، لكن بعكس ما أراد الأب، فإن الدراسة في المدارس الكولونيالية، وسّعت الفجوة بين إدوارد وأبناء الجنسيات الغربية والأمريكية، الذين لم يعدوه أبدًا واحدًا منهم، فضلاً عما خلفه الاستعمار سواء في مصر أو فلسطين من حواجز ومشاعر كراهية لم تمح.

أما الأم، التي نستبين بوضوح تأثيرها العارم على إدوارد، ورغبتها الدائمة أن يبقى دائرًا في فلكها، فلم تكن راضية أبدًا عن تغريبة ابنها، كما أنها كانت أقل تأمركًا، وكانت تتحدث دومًا باللغة العربية، وحين جرى التقسيم وحرب فلسطين وفُقد الوطن، شغلتها النكبة وأشعلت حماستها وشعورها اليائس باستعادة الهوية ومعنى المواطنة.

تبرهن المذكرات التي كتبها إدوارد سعيد ردًا على مشقات مرضه المتزايدة، على وعيه المبكر بالكيفية التي تعامل بها مع الازدواجية التي عاشها من ناحية، ومع الوسط الكولونيالي الذي عاش في رحابه، من ناحية ثانية.. فقد امتنع عن «أية صلة حميمة بأي منهم.. مكتفيًا بأن أنتزع منهم ما يملكون تقديمه لي بجهدي الشخصي».

وكان اختياره.. «تعلمت وحياتي مليئة إلى هذا الحد بتنافر الأصوات، أن أوثر ألا أكون سويًا تمامًا وأن أظل في غير مكاني».

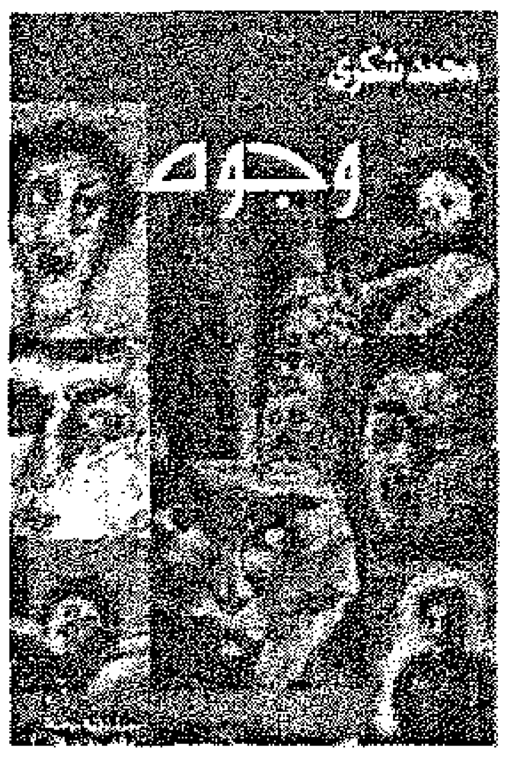
□ □ □

عـــــــروض
مـــــوجـــــزة

وجـــــوه

محمد شكرى

الرباط: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠، ١٥٦ صفحة، ٢٠ درهمًا



لا يقـدم نص «وجـوه» جـديدًا فى مسيرة محمد شكرى الأدبية، فالنص يمثل الجزء الثالث من سيرة المؤلف التى بدأها بـ «الخبز الحافى» ثم «الشطار»، وهو مثلهما ينهل من نفس المعين، تجارب العالم السفلى وحيوات الهامشيين الضالين فى شوارع طنجة وحاناتها. الفقر المعذب وغياب الأمان والطمأنينة واللهاث الدائم من أجل العيش، مجرد العيش ولو بلم القوت من المزابل واغتنام المتع الصغيرة وإشباع نزوات الجسد.

ومثل الجزءين الأولين من السيرة لا شعور بالذنب على ارتكاب المعاصى، ومنطق شكرى هو كما يقول فى الصفحات الأولى من الكتاب.. «عندما تصبح التجربة أقوى من الندم ينمحى الشعور بالذنب».

المرأة، هى الحاضر الدائم فى سيرة شكرى، وأغلبهن نسوة قهرتهن الحياة لأسباب مختلفة. وهى إشكالية يشير إليها فى سطور موجزة يقول: من حسن حظى أنى لم أحب أى امرأة حتى تقهرنى: لا قاهر ولا مقهور. لقد أحببتهن من بعيد. لا يهمنى أن يبادلننى حبى لهن، عندما تبدأ امرأة تبادلنى الحب عن قرب وجدية العشرة معها، فإنها الكارثة هى التى تبدأ.

ويقول فى موضع آخر: المرأة عاشت دائمًا بعيدًا عنى، فهى إما مقدسة لا تُمس أو أنها مدنسة خسيئة. ربما أيضًا أنى أخشى الاستحواذ والغيرة المجنونة أو القاتلة إذا ما أنا خلقت علاقات وأنا لا أبغى إلا حريتى.

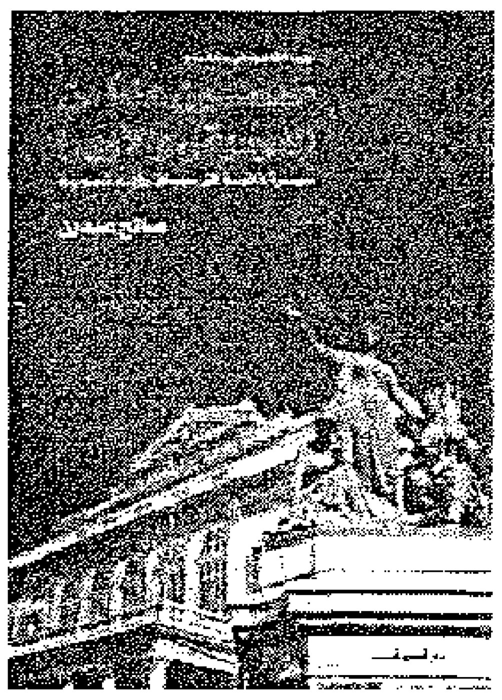
الوجود التى نطالعها فى سيرة شكرى نراها قطعًا بطريقته، ولأنه هنا لا يكتب عن سيرته بالطريقة التى انبنى عليها الجزءان الأولان من السيرة. وإنما عن وجهات نظر فى بعض من التقى، ورؤى لبعض ما رأى، فإن مسحة من العطف والتعاطف تغطى الكتابة. فهو يتعاطف مع نسوة الحانات من أمثال «فاطما» و«للا شفيقة» وأخريات، كما لا تغيب خبرات السنين والنضج الذى اكتسبه المؤلف بحكم انغماسه فى العوالم السفلية وناسها. إلا أن ما يلفت النظر هو كالعادة، تجربة المؤلف الفاحشة وجرأته لا لغته. التى تبقى دومًا بعيدة عن سياق الأدب أو على الأقل، لا توازى تجاربه الكارثية.

□ □ □

خمسون عامًا من الموسيقى والأوبرا

صالح عبدون

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٦٢ صفحة

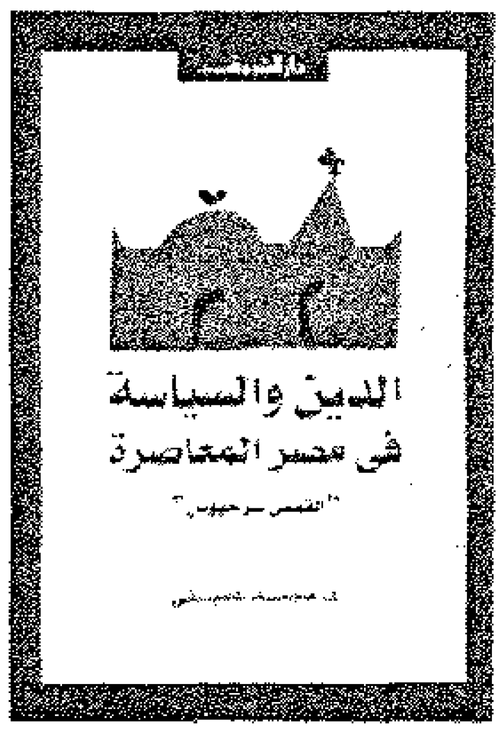


يمثل هذا الكتاب شهادة شخصية تستحضر الذكريات وتضعها فى إطار أشمل، متجاوزًا البعد التسجيلى للدور الفنى المباشر لدار الأوبرا وموقف المجتمع منها، وتأثيرها فى مكونات المواطن، ليمزجها مع التجربة الذاتية والإنسانية فى عمومها. حيث يعرض فى الباب الأول لنشأة المؤلف فى مجتمع ريفى يتمسك بقيم وتقاليد أصيلة. بيئة نقية. كل ما فيها يحب الفن ويبجل الطبيعة ومكوناتها. تليها مرحلة أخرى - قاهرية - يقترب فيها المؤلف من بيئة مدنية حافلة بالعلم والمعرفة والترفيه، وتساؤلات مشروعة عن العلاقة بين فنون وموسيقى الأوبرا. وموسيقانا العربية وتراثنا الشرقى. ويشير المؤلف فى هذا الصدد إلى جهود وطنية رائدة، بينها وقوف محمد حسن الشجاعى على رأى أوركسترا سيمفونى يضم بعضًا من أمهر العازفين إلى جوار أعضاء من فرق الموسيقى العسكرية وآخرين من الأجانب الذين عملوا بدار الأوبرا. ويعرض الباب الثانى لبوادر الصحوة الثقافية فى الخمسينيات. وإسهام المؤلف - كموظف حكومى هذه المرة - فى إنعاش هذه الصحوة وتنمية الإحساس برسالة الفن والأدب، والموسيقى الراقية خصوصًا، فى الارتقاء بالوطن والمواطن. وفى سياق استعراضه لدوره أمينًا عامًا للجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، يعرض للدور الذى لعبه المجلس فى هذا الإطار والصعوبات التى واجهته، ثم يعرض فى القسم الثانى من الباب، لظهور المعاهد الفنية، واستحداث الفرق الموسيقية: السيمفونية والعربية والكورال والباليه، ومشاركاتها اللامعة فى المناسبات الوطنية والدولية.

الدين والسياسة فى مصر المعاصرة

القمص سرجيوس

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ١٢٥ صفحة



حين قامت ثورة ١٩١٩، كان القمص سرجيوس المولود فى جرجا بصعيد مصر، لأسرة توارثت سلك الكهنوت، قد بلغ من العمر ٣٦ عامًا.

شارك «سرجيوس» فى الثورة، مستندًا إلى بلاغته وقدراته الخطابية الفذة وعلاقاته برجال الثورة وزعيمها سعد زغلول الذى منحه لقب: خطيب ثورة ١٩١٩.

لكن الدور الوطنى لسرجيوس بدأ قبل ذلك بسنوات، حين تم تعيينه وكيلاً للمطرانية القبطية بالسودان، فى أعقاب عدد من الأحداث الطائفية التى شهدتها مصر إثر مقتل رئيس الوزراء بطرس غالى فى عام ١٩١٠، وانعقاد المؤتمرات الطائفية عام ١٩١١، وهناك.. فى السودان، بدأ سرجيوس جهودًا لرأب الصدع الذى أصاب العلاقة بين المسلمين والأقباط، وأصدر مجلة «المنارة المرقسية» التى بثت أفكاره، لكن السلطات البريطانية رأت فى هذا النشاط خطرًا يهدد سياساتها فأمرته بالرحيل عن السودان، فعاد إلى جرجا بلا راتب أو أى مصدر آخر للرزق.

وما أن اندلعت الشرارات الأولى لثورة ١٩١٩، حتى شارك فيها سرجيوس بتلقائية وعفوية، دون انتظار لما يسفر عنه موقف الأقباط، الذين سعوا إلى الحصول على ضمانات من زعامات الثورة، تؤكد وضعيتهم فى الحركة الوطنية، ومصيرهم فى حالة تحقيق الاستقلال.

انضم إلى صفوف المجاهدين، وسار فى المظاهرات محمولاً على الأعناق، وخطب فى التجمعات، والصورة التى نقلها فيلم «بين القصرين» لقسيس يخطب فى الأزهر الشريف، كانت للقمص سرجيوس بالذات، ومن جديد اعتقلته السلطات البريطانية وتم نفيه إلى رفح لمدة ثمانين يومًا.

وما أن خفت - نسبيًا - الصوت الشعبى فى ثورة ١٩١٩، وبرزت تحديات من نوع جديد، مثل الدستور والجلاء والمفاوضات، واتسعت الساحة الحزبية لتشمل إلى جانب الأحزاب القديمة أحزابًا جديدة، بعضها يدين بالولاء للملك، وبعضها للإنجليز، وبعضها يلعب على التناقضات بين الوفد والملك. حتى توارى سرجيوس، أو بالأصح، تراجع صوته الوطنى لحساب نزعته الطائفية، ونشر العديد من المقالات عن حقوق الأقباط الضائعة واضطهادهم «كأقلية» فى المجتمع المصرى، وقد جمعت هذه المقالات فى كتب، وصارت الآن مرجعًا لغلاة الأقباط ذوى النزعة الطائفية وخصوصًا فى المهجر. وقد وصل الأمر به إلى حد طلب النجدة من الإنجليز، وهو الاتجاه الذى قاومته زعامات قبطية تاريخية من أمثال مكرم عبيد الذى قال عنه: «قضى سرجيوس السنين فى شتم المسلمين والطعن فى الإسلام بأقذر قلم وأفحش لسان».

والحقيقة، أن التعامل الظاهرى مع مواقف سرجيوس وتحولاته، دون الإشارة إلى ما شهدته الحياة السياسية المصرية ذاتها من تحولات، وبروز جماعة الإخوان المسلمين بقوة بدءًا من العام ١٩٢٨، والتناقضات فى مواقف الأحزاب خصوصًا أحزاب الأقلية، والانشقاقات التى عصفت بحزب الجماهير الكبير «الوفد» يظلمه. وقد رأى سرجيوس فى جماعة الإخوان المسلمين «روحًا بغيضة تقضى على النتائج التى حصلنا عليها بجهدنا فى أيام الثورة، ينبغى علينا أن نحاربها».

كما انتقد بشدة مواقف الوفد، وناصر السعديين، وفى عام ١٩٤٩ رشّح نفسه عن دائرة الشماشرجى بشبرا مستقلاً، ضد مرشح الوفد - القبطى أيضًا - إبراهيم فرج، وفى حملته الانتخابية، التى تولاها أقباط، شهّر سرجيوس بالنحاس باشا شخصيًا، لكنه مع ذلك قبل الصفقة التى عرضها عليه الوفد، بالتنازل لمرشحه مقابل تعيينه فى مجلس الشيوخ، وقد نكث «الوفد» عهده، مما زاد من حنقه على الوفد وزعاماته.

كان «سرجيوس» شديد الولاء للملك، وما أن قامت الثورة حتى أعلن ولاءه لها وكتب يقول: باسم الشعب.. انزل عن العرش لينتهى عهد الطغيان والفساد، وحين جرّب سرجيوس أن ينتقد ثورة يوليو ١٩٥٢ زاعمًا أنها لم تقدم جديدًا للأقباط، أجبرته القيادة الجديدة على الدخول فى مرحلة بيات شتوى طويل، وأنهت دوره التاريخى حتى وفاته فى عام ١٩٦٤.

مواقف «سرجيوس» المتناقضة. وتحولاته الانقلابية، وسفور وجهه الطائفى وتوارى وجهه الوطنى، يمكن فهمها - ربما - بالتصارع داخل الرجل نفسه، بين دوره كرجل دين وطموحاته السياسية، وهى إشكالية غالبًا ما تحسم لصالح السياسيين الذين يستثمرون دور رجل الدين ومكانته فى تحقيق أهداف معينة ويجبرونه فى نهاية المطاف على القبول بالدور المرسوم له، وإن لم يرض فلينتدب حظه، لاعنًا السياسة وساس ويسوس!

عماد الغزالى

عروض موجزة

ويعرض المؤلف في الفصل الثالث للدور الذي لعبه حين تولى الأكاديمية المصرية بروما.

وفي أمتع صفحات الكتاب، ينتقل في الفصل الرابع إلى استعراض الأشكال المتعددة للحياة الموسيقية في كثير من العواصم الأوروبية تحت عنوان «سياحة موسيقية»، يجول فيها من أقصى الشرق الأوروبي إلى أقصى الغرب الأمريكي.

ويخصص المؤلف الباب الأخير لقراءات وتعليقات لعدد من المخطوطات والمطبوعات التي تلخص مسيرة الأوبرا طوال قرن من الزمان، مستفيدًا مما جمعه من أوراق، ترجع إلى العصور الخديوية والسلطانية والملكية، مستعرضًا أهم ما قدم بدار الأوبرا والمسارح المماثلة في عشرات السنين.

□ □ □

جم الزر وعصابة الـ ١٢ المتوحشة

ميشيل انده

ترجمة: نهى الصراف خورست

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١، ٢٧٦ صفحة



مغامرات مشوقة يعيشها «جم الزر» وصديقه «لوقا» مع القاطرة القديمة إيما.

رحلات مثيرة عن مغامرين يعشقان المخاطر، ولا يحدهما عن بلوغ هدفهما أي شيء، كتبها ميشيل أنده، وهو مؤلف ألماني ولد في عام ١٩٢٩، وعاش السنوات الأخيرة من حياته في ريف إيطاليا، والمدهش أن هذا المؤلف الذي أثار خيال الكبار والصغار لم يكمل تعليمه الجامعي لأسباب مالية، لكنه عمل ممثلاً ومخرجًا وكاتب مسرحيات خفيفة وناقدًا سينمائيًا حتى عام ١٩٦١، وقد منح عن كتابه هذا جائزة كتاب الفتيان الألماني، ثم منح الجائزة مرة أخرى عن كتابه «أومو». وفي هذا الكتاب يصادق المغامران ملك البحر وابنته الجذابة سورسولا بيتشي، ويخترعان مستمر الحركة الذي تتعلم القاطرة إيما الطيران بمساعدته، وينتصران على عصابة قراصنة البحر المفزعين.

□ □ □

الفيزياء والطفولة المبكرة

محمد قنديل وحميدة دنيا

القاهرة: النهضة المصرية، ٢٠٠٠، ٤١٠ صفحات



إدراكًا لحقيقة أن «العلم» هو الوسيلة الوحيدة للتقدم في عالمنا المعاصر، وأن «التربية العلمية» للأطفال والأجيال الجديدة هي الضمان الحقيقي لكي يأخذ «العلم» دوره المطلوب في بناء المجتمع. يأتي هذا الكتاب - ولعله الأول من نوعه باللغة العربية - ليقدم مشروعًا لتبسيط العلوم وخاصة الفيزيائية منها للأطفال الصغار في سن الخامسة والسادسة.

يستهدف البرنامج الذي يقدمه الكتاب تحويل المفاهيم الفيزيائية إلى خبرات مرئية تعتمد على شغف الأطفال الطبيعي بالبيئة من حولهم، وكما تعتمد على تحفيزهم للمشاركة في الإجابة عن السؤال المثير «ماذا يحدث إذا؟...

ويقدم الكتاب خلاصة تجربة تم تطبيقها بالفعل لمدة عامين كاملين على عدد كبير من الأطفال والذين أتيح لهم أن يشاركوا بأنفسهم في فحص طبيعة مفاهيم فيزيائية كانت تبدو لهم معقدة قبل أن يختبروها بأنفسهم باستخدام أدوات من بيئتهم الطبيعية.

ويحاول الكتاب التدليل على أننا نظلم الأطفال حين لا نعطي قدراتهم العقلية والذهنية في هذه السن المبكرة قيمتها الحقيقية.

يحاول مؤلفا الكتاب وهما باحثان في الطفولة والتربية، أن يقدما طريقة جديدة لتبسيط مفاهيم فيزيائية مثل الطاقة، والدفع، والحركة، والاتزان، والضوء.. وغيرها. معتمدًا على أدوات بسيطة، رخيصة الثمن، آمنة الاستخدام.

ويعمد البرنامج الذي يقدمه الكتاب إلى ربط المفاهيم العلمية بمعارف الطفل وخبراته، من خلال التمثل الجسدي للمفهوم، حيث يقوم بأداء حركي ذي صلة، يبدأ من خلاله في بلورة خبراته ليصبح مؤهلاً ذهنيًا للتعامل مع باقي أوجه النشاط المرتبطة بالمفهوم.

ويشير الكتاب إلى أن نتائج التطبيق الأولية للبرنامج أكدت استجابة الأطفال التلقائية التي تميزت بالقدرة الفائقة على الملاحظة، والتفاعل مع الموقف بكفاءة وفاعلية عالية. وتمكن الأطفال من القياس، والقيام بالتفكير الإحصائي، وعمل علاقات بيانية وقراءتها رغم عدم تعلمهم القراءة والكتابة بعد، ولكن اعتمادًا على الرسم وقراءة الرموز.

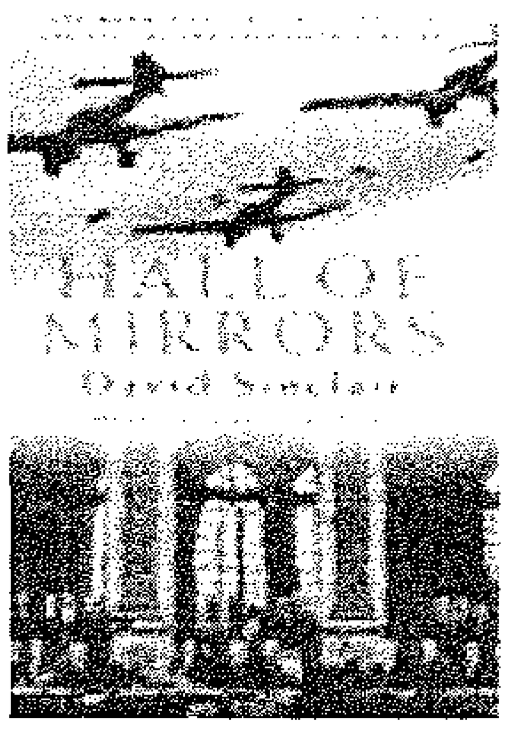
كتب أجنبية

Hall of Mirrors

(قاعة المرايا)

David Sinclair

Century, 2000, 336pp., £16.99



مازالت الحرب العالمية الأولى بدمويتها وبالنتائج التي أسفرت عنها تثير النقاش والجدل بين المؤرخين حتى الآن. إنها الحرب التي كان من المفترض أن تنهي الحرب وتؤسس للسلام والأمن في العالم وخاصة أوروبا. وهو ما لم يتحقق، ورغم انتهاء القرن الذي وقعت فيه تلك الحرب الرهيبة فإن آثارها غير المباشرة لازالت تحدث وليست حرب البوسنة وكوسوفا ببعيدة.

ومؤلف الكتاب ديفيد سنكلير يسترجع ما حدث عند نهاية تلك الحرب وخاصة مؤتمر السلام والمعاهدة التي وقعت خلاله في قاعة المرايا بقصر فرساي في باريس عام ١٩١٩. وقد كان المؤلف يواجه تحديًا واضحًا فماذا سيقول في كتابه، وهل هناك جديد يمكن أن يتحدث عنه. ثم إنه ليس قصاصًا حتى يتحدث عن أمور خيالية لم تحدث وعندها يكون هذا هو الجديد، بل إنه مؤرخ يعتمد على مصادر لبناء تفسير لما حدث. وفي هذا الصدد فإن المؤرخ اعتمد على مجموعات معتبرة من الوثائق الرسمية وغير الرسمية والخطابات والتقارير السرية والمذكرات واليوميات والدراسات التاريخية وتعليقات شهود العيان والسجلات الأخرى في محاولة للإجابة عن سؤال كبير وهو: ماذا حدث في قاعة المرايا وكيف جاءت المعاهدة؟

وهو من خلال ذلك يتحدث باستفاضة عن نجوم ذلك المؤتمر خاصة كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الذي كان يطلق عليه النمر، ولويد جورج رئيس وزراء بريطانيا السياسي الميكافيللي، والرئيس الأمريكي وودرو ويلسون المتمسك بالمبادئ المسيحية، ورئيس الوزراء الإيطالي فيتوري أورلاند.

ويتناول الكتاب كيفية نجاح فرنسا تحديدًا في فرض عقوبات هائلة على ألمانيا وعواقب ذلك فيما بعد حيث انتفض الألمان على الذل الذي تعرضوا له في فرساي. وهو ما كان جون ماينارد كينز الاقتصادي البريطاني الشهير قد حذر منه في كتابه الآثار الاقتصادية للسلام الذي صدر عقب المؤتمر.

والسؤال الذي يثير الكتاب، هو هل المعاهدة التي جرى توقيعها في قاعة المرايا هي المسئولة عما حدث بقية سنوات القرن من حروب ومآس، ماذا لو كان السياسيون أبعد نظرًا وأقل رغبة في الانتقام؟

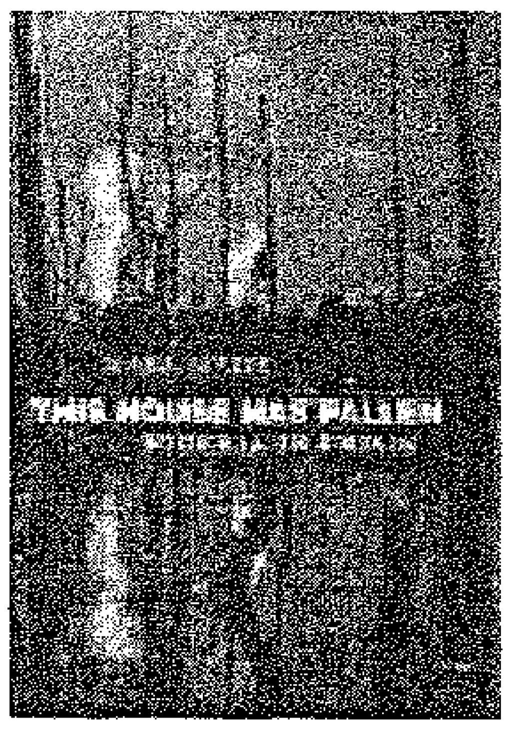
□ □ □

This House has Fallen: Nigeria in Crisis

(هذا المنزل يتداعى: نيجيريا في أزمة)

Karl Maier

Allen Lane, 2001, £20.00



منذ عودة الديمقراطية إلى نيجيريا في مايو ١٩٩٩، عقب نهاية الحكم العسكري بدا أن البلاد دخلت عصرًا جديدًا تحاول فيه أن تتخلص من سمعتها كبلد الفساد والديكتاتورية والمحتالين بامتياز وتعيد للعناصر الموهوبة فيها من العلماء والكتاب وفئات الشعب الأخرى الاعتبار. إلا أن المشاكل الكثيرة والهائلة التي ورثتها البلاد من عصر ما قبل الديمقراطية جعل من الصعب للغاية الخروج من هذه الدوامة. فآلاف الأشخاص يموتون في صراعات عرقية أو دينية، كما أن الديمقراطية لم تفعل شيئًا للفئات المحرومة في بلد ينتج البترول بكثرة، أيضًا تسود مناطق كثيرة من البلاد عمليات اختطاف وتدمير تجري بشكل يومي تقريبًا.

ويقول مؤلف الكتاب، وهو صحفي يعمل بصحيفة الاندبندنت البريطانية، إن الطريق طويل للغاية قبل أن تتمكن نيجيريا من إنهاء «العجز» في الديمقراطية التي وجه لها الحكم العسكري ضربات ساحقة لسنوات طويلة.

ولا يدعي المؤلف أنه يقدم تحليلاً متكاملاً وشاملاً للوضع في نيجيريا والتحديات التي تواجهها، لكنه ينجح في الإحاطة بالمشهد السياسي على تنوعه سواء في قصور الحكم ومؤسساته أو أحياء الفقراء القذرة في لاجوس كبرى مدن البلاد. كما يسرد حكايات وأحداثًا عن الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي. لا يستطيع سوى قليلين الحديث عنها خارج نيجيريا، وذلك لأن

المؤلف ظل لسنوات طويلة يغطي أحداث نيجيريا للإندبندنت. وعلى سبيل المثال يتناول مسألة الأديان الجديدة التي تحاول الانتشار في نيجيريا مسببة المشاكل والصراعات، كما أن هناك جماعات الشعوذة والدجل التي تدعي القدرة على علاج الأمراض خاصة الإيدز. وأهم ما في الكتاب أنه يطرح الأسئلة الحقيقية التي لابد للنيجيريين من الإجابة عنها للخروج من المأزق الراهن، ويقدر محاولته المشاركة في الإجابة إلا أن المؤلف يعتقد جازمًا أن النيجيريين وحدهم الذين يستطيعون الإجابة وحل مشاكل بلادهم. ويضيف أن نيجيريا (أكثر من ١٠٠ مليون نسمة) بلد غني بالإمكانيات المادية والبشرية، وهي قادرة على حل مشاكلها شريطة أن تستعين بخبرات أبنائها الذين هاجر الموهوبون منهم في زمن الحكم العسكري، ومازالوا مترددين في العودة حتى الآن.

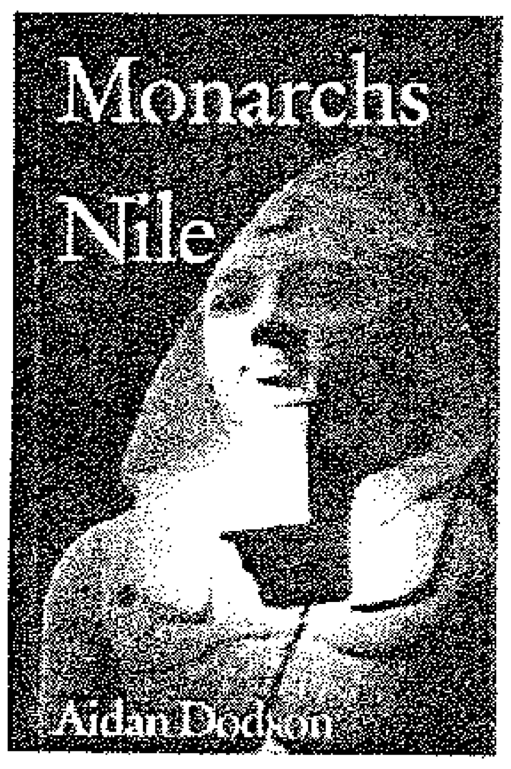
□ □ □

Monarchs of The Nile

(ملوك النيل)

Aidan Dodson

AUC press, 2000, 256pp., $19.95, LE.70



يقدم هذا الكتاب الذي أصدرته الجامعة الأمريكية في القاهرة بانوراما جيدة لحياة وسنوات أشهر ملوك مصر الفراعنة منذ توحيد البلاد على أيدي مينا، حوالي ٣٠٠ قبل الميلاد. وكأي تاريخ ستجد العظماء من الفراعنة والذين مروا مرور الكرام، فلم يتركوا شيئًا ذا بال يعبر عن إنجازاتهم. ويقف في الصف الأول من العظماء تحتمس الثالث الذي طغى تأثيره على زمنه وعصره وامتد إلى ما بعد رحيله وهناك أيضًا توت عنخ آمون الذي نسيه المصريون باعتباره لم يكن فرعونًا ذا شأن، لكن اكتشاف مقبرته في عشرينيات القرن الماضي بعد آلاف السنوات من وفاته فجر طوفانًا من الاهتمام بهذا الفرعون الشاب في جميع أنحاء العالم. وتبارى المؤرخون وعلماء الآثار وحتى رجال البحث الجنائي في محاولة معرفة كيف مات هذا الفرعون في شبابه. ويقدم المؤلف رؤية متوازنة لهؤلاء الفراعنة وإنجازاتهم.

وقد درس المؤلف الآثار المصرية في جامعة «درام» في ليفربول وفي جامعة كمبردج وحصل على الدكتوراة عام ١٩٩٥، وهو يقوم بالتدريس وإلقاء المحاضرات في إنجلترا ومصر وكندا والولايات المتحدة، كما أنه يحاضر بشكل منتظم في المتحف البريطاني وعلى الرحلات النيلية في مصر.

وقد شارك سليمة أكرم في تأليف كتاب «المومياوات الملكية في المتحف المصري» وهو من مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٩٧، وكذلك كتاب المومياء في مصر القديمة وهو من مطبوعات الجامعة الأمريكية أيضًا وصدر عام ١٩٩٨.

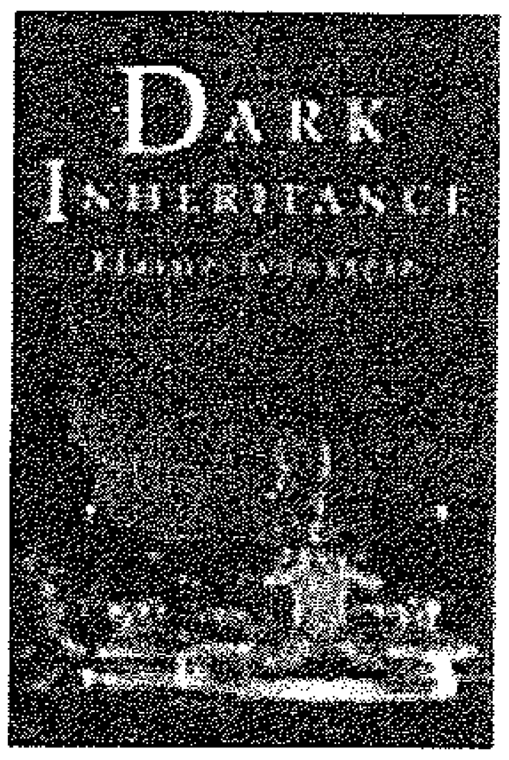
□ □ □

Dark Inheritance

(ميراث مظلم)

Elaine Feinstein

The Woman's Press, 2001, 197PP., £9.99



هذه الرواية من تأليف كاتبة بريطانية فازت بجوائز في الشعر ولها عديد من القصص والسير الذاتية والترجمات. وهي عمل يجمع بين الطابع السياسي والجريمة وكل شيء في هذه الرواية يتفرع من العلاقة بين أمين وولدين. فالبطلة الأولى تدعى راشيل أوعيلي، وهي ابنة لمؤلف مشهور ولها ولد واحد سافر إلى أندونيسيا التي مزقتها الحرب، وفي نفس الوقت فإن هذه الأم تجد نفسها وقد دخلت «عش الدبابير» أو المافيا الإيطالية، فعندما طلب منها أن تكتب مقالة عن إيمانويل سيلينر وهو قصاص إيطالي تكتشف أن والده السياسي رجل كان له علاقة بالمافيا، كما أن هذا الوالد أجبر زوجته على الانتحار. أما البطلة الأخرى فهي ريبيكا السيدة ذات المزاج العنيف ذات علاقات عاطفية متعددة تجعلها تتعرض لمشاكل كثيرة مع رجال المافيا في إيطاليا، ومن خلال هاتين السيدتين تصف المؤلفة بشكل تفصيلي أعمال رجال المافيا وتصف منازلهم وتخوض في أسرارهم وتتخيل العلاقات وأساليب التعامل بين رجال المافيا، وهي لا تعتقد أن الرواية تمثل أصواتًا عديدة، كما ذكر النقاد، بل تقول إن هناك خيطًا واحدًا يربط أجزاء الرواية. وتشير إلى أن عملها ملئ بالسياسة والتاريخ والعاطفة.

□ □ □

One Palestine, Complete: Jews and Arabs under the British Mandate

(فلسطين واحدة كاملة: اليهود والعرب تحت الانتداب البريطاني)

Tom Segev

Little, Brown, 2001, 612PP., £25.00



منذ نهاية الثمانينيات، أعادت مجموعة من الباحثين والصحفيين الإسرائيليين كتابة تاريخ إسرائيل فيما عرفوا بالمؤرخين الجدد وأزال هؤلاء المؤرخون كثيرًا من الأساطير والانحيازات التي لازمت الرؤية الإسرائيلية للصراع العربي الإسرائيلي.

ومن بين هؤلاء المؤرخين توم سيجيف الذي يتناول في هذا الكتاب تاريخ فلسطين تحت الانتداب البريطاني معتمدًا على مصادر جديدة تلقي أضواءً باهرة على تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي. ويعتمد المؤلف على شهادات عربية ويهودية وعلى خطابات كتبها موظفو الإدارة البريطانية إلى أولادهم في بريطانيا. ومن بين هؤلاء الموظفين الجنرال إيفالدين باركر الذي قاد القوات البريطانية في فلسطين في الفترة ٤٥ ـ ١٩٤٧ الذي كتب خطابات إلى سيدة عربية في القدس. وقد استولى الإسرائيليون على تلك الخطابات وهي موجودة بأرشيف الدولة في إسرائيل حاليًا.

لقد نظر كثير من موظفي الإدارة الاستعمارية البريطانية إلى القدس على أنها كالفردوس واعتقدوا أن العرب لا يمكن أن ينافسوا اليهود، فالتركيبة السياسية لهم متخلفة كما أن دعايتهم بشأن أحقيتهم في فلسطين فجة ومعادية للسامية. ويؤكد المؤلف أن البريطانيين انحازوا للصهيونيين وسمحوا لهم بزيادة نفوذهم. وهو رأي مضاد للرؤية الرسمية الإسرائيلية التي تدعي أن البريطانيين كانوا يناهضون التواجد الصهيوني في فلسطين. لقد طرد البريطانيون الأتراك من فلسطين وأرادوا أن يحتفظوا بها وعملوا على إيجاد سبب لذلك فكان احتضانهم للصهيونية لمناهضة العرب.

ويسجل الكتاب كيف كانت شهية الزعماء الصهيونيين مفتوحة للاستيلاء على أراضي العرب وترحيل أصحابها.

ويمثل هذا الكتاب شهادة جديدة على الدور البريطاني في تمكين اليهود من الاستيلاء على فلسطين. وهو يهدم كثيرًا من الخرافات الرسمية في التاريخ الإسرائيلي حول السنوات السابقة على قيام إسرائيل عام ١٩٤٨.

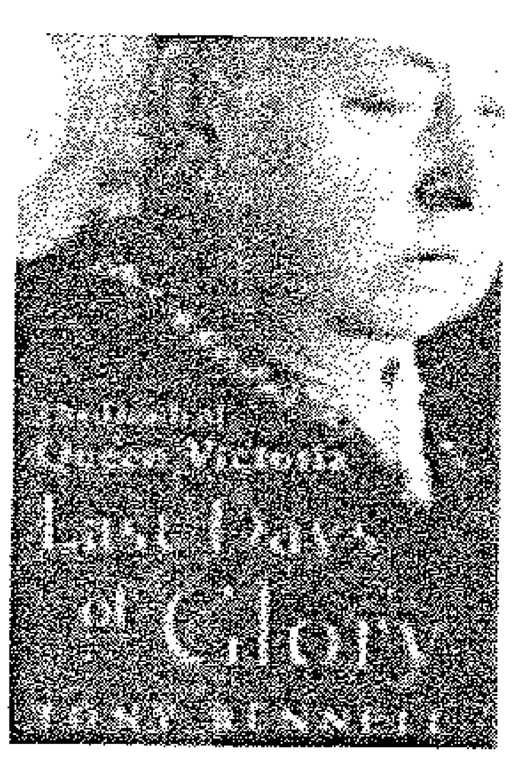
□ □ □

Last Days of Glory

(آخر أيام المجد)

Tony Rennell

Viking, 2001, 326PP., £12.99



قبل ١٠٠ عام، توفيت الملكة فيكتوريا بعد حكم استمر من ١٨٣٧ حتى ١٩٠١، واعتبر كثير من المؤرخين موتها سنة فاصلة وحاسمة في تاريخ الامبراطورية البريطانية التي لم تكن تغيب عنها الشمس. وهذا الكتاب يتحدث ليس عن أعمال وإنجازات الملكة، ولكن عن جنازتها وكيف عم الحزن الشعب البريطاني بصورة لم يسبق لها مثيل، لقد تصرف البريطانيون مع وفاة ملكيين سابقين على حكم فيكتوريا بدون اهتمام وربما فرحوا لوفاتهم لكن الأمر اختلف معها، فقد استطاعت هذه الملكة أن تأسر خيال البريطانيين سواء بالنظام الاجتماعي والأخلاقي الذي ساد في عصرها أو بالنمو الواسع للصناعة والتوسع الامبراطوري غير المسبوق، بحيث أصبحت بريطانيا تستعمر ثلثي العالم. ولذلك لم يكن غريبًا أن ينفق البريطانيون ما يعادل ٣,٥ مليون جنيه إسترليني بمقاييس وقتنا الحاضر على شراء الزهور والورود لوضعها أمام مقبرتها. وأطلق البريطانيون عليها «امبراطورة القلوب» تمامًا كما سوف يطلقون بعد حوالي ٩٦ عامًا على الأميرة ديانا أميرة القلوب.

وكما فجرت وفاة ديانا حزنًا في أنحاء العالم، كان موت فيكتوريا قد فعل الشيء نفسه، فلأول مرة على الإطلاق يتم تنكيس العلم الأمريكي على البيت الأبيض تكريمًا لحاكم أجنبي توفي، كما أن صلوات خاصة أقيمت في الصين وتركيا آنذاك على روح الملكة التي بكاها الأفارقة.

ويشير المؤلف إلى أن الجنائز الرسمية خاصة الملكية في بريطانيا أصبحت تجذب اهتمامًا شعبيًا كبيرًا وتحولت إلى ما يشبه الفن البريطاني الخالص من حيث التنظيم والدقة.

□ □ □

إصـــــــــدارات يـابـانـيــــــــة

أوكيناوا نو كتسودان
(قرارات أوكيناوا)
أوتا ماساهيدي
أساهي شمبيوتشا، ٢٠٠٠، ٢٤٨ ص، ٢،٢٠٠ (ين)



هذا الكتاب يكتبه الحاكم السابق لجزيرة أوكيناوا اليابانية، والذي خدم لفترتين متتاليتين من عام ١٩٩٠ إلى ١٩٩٨ ويروي فيه القصص الخلفية للمفاوضات التي أجراها مع الحكومة المركزية اليابانية حول تواجد القواعد العسكرية الأمريكية على مجموعة جزر أوكيناوا.

فالحكومة اليابانية توفر للقوات الأمريكية الأراضي اللازمة للقواعد العسكرية والخدمات الملتحقة بها. وتتركز في أوكيناوا وحدها ٧٥٪ من القواعد العسكرية الأمريكية في اليابان.

وقد قامت في عام ١٩٩٥ مظاهرات ومسيرات احتجاج جماهيرية بسبب حادثة اعتداء جندي أمريكي على فتاة يابانية من سكان الجزيرة، وتشكلت حركة تطالب بإزالة القواعد الأمريكية. ورفض «أوتا» حاكم أوكيناوا في ذلك الوقت ومؤلف الكتاب توقيع الأوراق التي تجبر مُلاك الأراضي اليابانيين على السماح للقوات الأمريكية بالتواجد عليها، وذلك بالرغم من أنه كان عليه أن يوقعها بالنيابة عنهم إذا هم رفضوا التوقيع. وبموقفه هذا، عبر أوتا عن معارضته لكل من الحكومة اليابانية المركزية والحكومة الأمريكية.

وتواجه أوكيناوا مشاكل أخرى صعبة، من ضمنها البطالة وكيفية بناء اقتصاد محلي لا يعتمد على خدمة القواعد العسكرية الأمريكية. ويرى المؤلف أن مستوى نضج الديمقراطية في اليابان سوف يقاس من خلال الاختبار الذي تتعرض له الديمقراطية اليابانية في كيفية معالجة قضية القواعد العسكرية الأمريكية في أوكيناوا.

وإلى جانب شهادة أوتا الشخصية في هذه القضية يحتوي كتابه هذا على شهادة ٣٣ فردًا آخرين، من ضمنهم رئيس الوزراء السابق موراياما توميتشي.

□ □ □

نيهون نو يومشيناوارتا جونين
(العقد الضائع في الاقتصاد الياباني)
هارادا يوتاكا
نيهون كيزاي شمونشا، ١٩٩٩، ٢٤٨ ص، ١،٦٠٠ (ين)



حتى نهاية الثمانينيات، كان الناتج المحلي الإجمالي الحقيقي في اليابان ينمو بمعدل سنوي قدره ٤،٨٪. ولكن منذ عام ١٩٩٢ ومع بداية الركود الاقتصادي هبط نموه إلى أقل من واحد في المائة، كما ارتفعت نسبة البطالة في عام ١٩٩٩ إلى ٤،٩٪ وكذلك قدرت القيمة الإجمالية للقروض المعدومة أو المشكوك فيها التي تورطت فيها المؤسسات المالية اليابانية بحوالي ١٥٠ تريليون ين ياباني.

يتناول هذا الكتاب السياسات المالية في اليابان ويحاول أن يبين أسباب فشلها. كما يتناول المشاكل الهيكلية في الاقتصاد الياباني، وأوجه الضعف في الفلسفة الاقتصادية القائمة، والتي أدت إلى تعثر مسيرة التقدم الاقتصادي الياباني.

ويتوصل المؤلف بعد تحليله للسياسات المالية والبنوك والهيكل الاقتصادي، وخرافة «قيمة الأراضي» (وهي الاعتقاد بأن أسعار الأراضي سوف تستمر في الارتفاع بشكل لا نهائي)، إلى أن العامل الرئيسي وراء هذا الكساد الذي أصاب عقد التسعينيات هو تبني سياستين متعارضتين: فمن ناحية يوجد إصرار على سياسة تحكمية في عرض النقود، وفي نفس الوقت غابت القدرة على التعامل بسرعة وحسم مع أزمة القروض المعدومة والمشكوك فيها.

وفي النهاية ينصح المؤلف بالابتعاد عن اتباع الولايات المتحدة الأمريكية في إيجاد علاج للأزمة، والبحث عن حلول يابانية خالصة. كما يرى أن عودة اليابان إلى السياسات الحاسمة وروح العزيمة التي ميزت عصر ميجي بعد عام ١٨٦٨، ومرحلة النمو الاقتصادي السريع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، هو الذي سيكفل لها استكمال مشروع التقدم الحديث، بينما سيؤدي استمرار المداراة والتغطية على الإخفاقات وتجاهل معالجتها بسرعة إلى مزيد من الانتكاسات.

□ □ □

طوكيو شوستسو
(حكايات طوكيو)
شينا ماكوتو وآخرون
كينو كونيا شوتن، ٢٠٠٠، ٢١٦ ص، ١،٥٠٠ (ين)



تقوم دار النشر الفرنسية «إيديسيون أوترمون» بإصدار سلسلة من القصص المتصلة بمدن معينة، فتختار مدينة وتطلب من الكُتَّاب الذين يسكنون تلك المدينة أو البلدة كتابة قصة قصيرة تدور فيها.

وهذا الكتاب هو آخر ما صدر في تلك السلسلة، ويحتوي على قصص تدور في ضواحي طوكيو المختلفة. وقد نشر في نفس التوقيت في طوكيو وباريس. في هذا الكتاب تم اختيار ثمانية من الكُتَّاب اليابانيين المعاصرين، ما بين كُتَّاب مشهورين وبعض الشباب، لم يسبق لأحد منهم أن ترجمت أعماله إلى الفرنسية من قبل. وتلقي قصصهم الضوء على هذه العاصمة المزدحمة كاشفة عن تعقيدات وأشكال الحياة فيها.

□ □ □

نيجيرو أوتوكو
(الرجال الطائرون)
أوايا نوبوكو
كوسايدو شوبان، ٢٠٠٠، ٢٤٢ ص، ١،٦٠٠ (ين)



الرجال الطائرون هو التعبير الذي تطلقه الباحثة على الرجال الذين يعانون من «عقدة الأم»، الذين يتجنبون الواقع ويتجنبون الجنس الآخر، رافضين النظر إلى أنفسهم بشكل صادق. وبصورة أكثر تحديدًا ترى الباحثة أن الرجال الذين ينشأون في ظل حماية وتدخل شديد من جانب الأم يكبرون دون المقدرة على التعامل مع مشاعر طبيعية كالأسى والألم والفرح.

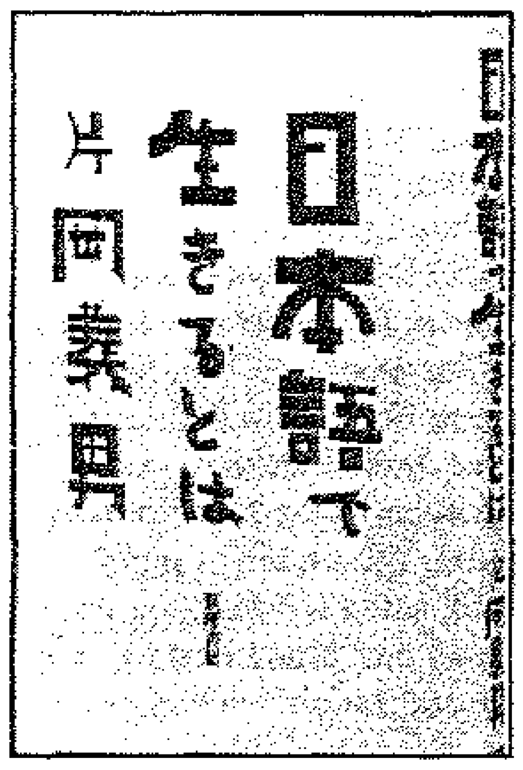
وهذا الكتاب يقوم على مقابلات أجرتها الباحثة مع ثمانٍ من النساء وجدن أن علاقتهن بالرجال انهارت بسبب عقدة الأم لدى شركائهن.

وتحتوي تلك العينة من الرجال الهاربين على طبيب، وآخر وريث لعائلة ثرية، منهم من فسخ خطبته بسبب مكالمة هاتفية، وآخر لم يستطع أن يقرر ماذا يفعل بعد ست سنوات من الارتباط، وآخر لم يستطع مواجهة الجانب الجنسي في العلاقة.

الكتاب لا يقدم وجهة نظر الرجال الذين تم تناولهم، ولكن توجد تعليقات في نهاية الكتاب لسبعة وثلاثين رجلاً يتحدثون عن العلاقات بين الرجال والنساء في المجتمع الياباني المعاصر.

□ □ □

نيهونجو دي إكيرو تووا
(الحياة مع اللغة اليابانية)
كاتا أوكا يوشيو
شيكومو شوبو، ١٩٩٩، ٢٦٢ ص، ٢،٢٠٠ (ين)



يجد اليابانيون صعوبة شديدة في إجادة اللغة الإنجليزية. والسبب كما يراه المؤلف هو اللغة اليابانية. واللغة اليابانية في ذاتها ليست معيبة كما يقول، ولكن العيب يكمن في طرق استخدامها.

يقول المؤلف إن سمة اللغة تعود إلى أسلوب الحياة وثقافة مستخدميها ومفاهيم حياتهم. فهو يعتقد أن اللغة الإنجليزية تساعد على تحديد المشكلات والتحديات، وتوظف في إيجاد الحلول لتلك المشكلات، كما أنها تشجع على إقامة الصلة بين مستخدميها، وتنسب لمستخدميها المسئولية عن أفعالهم وأفكارهم.

أما اللغة اليابانية فتعطي الأولوية فوق كل شيء للمصالح والعلاقات الهيراركية، وتستخدم كوسيلة لمساعدة المتحدثين بها في الإبقاء على تلك العلاقات التراتبية، كما تساعد على المراوغة والتكيف المستمر مع المصلحة.

الكتاب يقدم تقييمًا نقديًا للعقلية اليابانية خاصة في تطورها على مدار الخمسين سنة الماضية.

□ □ □

اجتمـــاع

إعداد الأسرة والطفل لمواجهة الإعاقة
ترجمة: د. إيمان فؤاد الكاشف
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

تواجه بعض الأسر مشكلة طفل معاق، ولا تعرف كيف تتعامل معه، وتشعر أن هذا الطفل عبء شديد على الأسرة فتغلق على نفسها وتحيل حياة الطفل نفسه إلى جحيم. المؤلفة تسعى إلى تحقيق قدر من التكيف مع حقيقة وجود طفل معاق داخل الأسرة، وهو ما يساعد الطفل والأسرة ذاتها على تجاوز العقبات في سبيل إعداده وتعليمه لمواجهة المجتمع.

تقاليد
ألطاف سالم الصباح
الكويت: جمعية السدو التعاونية الحرفية، ٢٠٠٠

دراسة تحليلية تفصيلية عن أهم العادات والتقاليد داخل المجتمع الكويتي، والروافد الثقافية التي تحكمه وتؤثر فيه، وتفاعلاته مع الثقافات والبيئات المحيطة.

جذور السلبية الشعبية في مصر
إبراهيم السايح
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

ثمة سلبية يشكو منها حتى الشعب المصري نفسه لا تخطئها عين، لكن هذه السلبية ليست من سمات المصريين وخصائصهم، بل إنها في كثير من الأحيان تكون ردًا على استبعاد الشعب المصري واقصائه عن إبداء الرأي في حياته وما يؤثر فيها وعليها. المؤلف يبحث في جذور هذا السلوك وأسبابه.

سيكلوجية الفرد في المجتمع
محمود شمال حسن
القاهرة: دار آفاق، ٢٠٠٠

الفرد ابن بيئته، يؤثر فيها ويتأثر بها، وسلوك الفرد داخل مجتمعه وعلاقاته في إطاره، تتحدد وفق المستوى الثقافي والمادي للفرد نفسه، ونظرة المجتمع إليه.

The Price of Motherhood: Why The Most Important Job in the World is Still the Least Valued
(ثمن الأمومة: لماذا تحصل أهم وظيفة في العالم على أدنى تقدير)
Ann Crittenden
New York: Henry Holt & Co., 2000, 323pp., $25.00

تنتقد المؤلفة قوانين العمل التي لا توفر الحماية الاقتصادية الكافية للمرأة التي تترك عملها من أجل الإنجاب. فقد وجدت الباحثة أن السيدات اللاتي يتركن وظائفهن أثناء فترة الإنجاب وتربية الأطفال، يقل بشدة مستواهن الاقتصادي ويتعرضن لخطر الفقر، كما يتعرض نجاحهن الوظيفي إلى التعثر بسبب صعوبة الحصول على وظيفة جيدة بعد فترة الانقطاع عن العمل.

وتنادي المؤلفة بتبني السياسات التي طبقتها بعض الدول الأوروبية والتي توفر تسهيلات وتأمينات اجتماعية واقتصادية للأم العاملة وغير العاملة.

كما تذكر المؤلفة الاقتصاديين والإحصائيين بضرورة احتساب وظيفة الأمومة ضمن الخدمات الاقتصادية غير المدفوعة، حيث دائمًا ما تحتسب الإحصاءات الاقتصادية الأمهات في المنازل بصفتهن غير منتجات، في حين أنهن يقمن بالمساهمة في إنتاج وإعداد رأس المال البشري اللازم للنمو الاقتصادي.

أدب

أخبار أبي نواس.. تاريخه ونوادره وشعره ومجونه
ابن منصور المصري
شرح: محمد عبد الرسول إبراهيم

سيظل أبو نواس علامة فارقة في تاريخ الأدب والشعرية العربية، ويثير جدلاً دائمًا حول أغراض شعره ومراميه وقصائده التي يعتبرها الحداثيون أكثر تحررًا من كثير مما تنضح به قرائح الشعراء المعاصرين، وهذه الدراسة كاملة عن أبي نواس، حياته وشعره معًا.

الحب في زمن النفط
نوال السعداوي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

تعبير زمن النفط يشير مباشرة إلى تغلب المعايير المادية على المعايير الإنسانية وغياب الزمن الرومانسي في العلاقات بين البشر، كيف يمكن للحب أن يعيش في تلك الأجواء التي تجعل المشاعر في الخلفية، فيما يتيح للمادة أن تتقدم وتحتل الصورة الكاملة.

الكاتبات اللبنانيات. بيبلوغرافيا
نازك سابايارد، نهى بيومي
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

تعريف بعشرات من الأسماء المهمة من اللبنانيات اللائي امتهن الكتابة في أفرع عدة في الفترة من ١٨٥٠ وحتى ١٩٥٠ أي قرن كامل من الإبداع النسائي، بما فيها المقالات والقصص التي نشرت في الصحف، وكذلك الإبداع الشعري والروائي والمسرحي، باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية.

جرة قلم
محمد حسن عبد الله
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

مجموعة من المقالات القصيرة التي تتناول عددًا من القضايا في الأدب العربي والإسلامي والعالمي، بعضها ذو طابع تحليلي نقدي، والآخر يثير اشكالات أو يرد على تساؤلات في مجاله.

ديوان الأساطير.. الموت والبعث والحياة الأبدية
ترجمة وتعليق: قاسم الشواف
تقديم: أدونيس
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

لعبت الأساطير ومازالت دورًا مهمًا في الإبداع كما في حياة الناس. ومن بعض هذه الأساطير استخلص الناس الحكمة، وهي وإن تشابهت بين الحضارات في محتواها، فإن كل حضارة صبغت عليها من روحها كي تكتب لنفسها الخلود، وأغلب هذه الأساطير هو ما يركز على فكرة الخلود بالذات، ويناقش فكرتي الموت والبعث من بعده.

آثـــار

آثار العالم العربي في العصرين اليوناني والروماني
عزت زكي قادوس
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

تتناول المؤلفة حقبة زمنية سادت فيها السيطرة اليونانية والرومانية، وحكمت الأذواق والأفكار، وصبغت الحياة إجمالاً بصبغتها، كما خلفت وراءها كمًا هائلاً من الآثار التي بقيت شاهدة على هذين العصرين.

آثار الإسكندرية القديمة
عزت زكي قادوس
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

للإسكندرية مكانة خاصة في تاريخ الإنسانية، ليس فقط عبر مكتبتها التي شعت بأنوارها على العالم كله، وإنما لمكانتها التاريخية والأثرية، والتي بقيت شواهدها حاضرة حتى اليوم، دليل على حضارات سادت ثم بادت.

الفاطميون وآثارهم المعمارية في أفريقيا
عبد الله كامل
القاهرة: دار آفاق، ٢٠٠٠

رحلة في المعمار الفاطمي في أنحاء أفريقيا التي جابها الفاطميون وتركوا آثارًا تشير إلى معالم حضارتهم وثقافتهم، في المساكن والمساجد وغيرها.

The Bible Unearthed: Archeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of its Sacred Texts
(رؤية علم الآثار الجديدة في إسرائيل القديمة ومصدر نصوصها المقدسة)
Israel Finkelstein and Neil Asher Silberman
Free Press, 2001, 385pp., £ 26.00

اثنان من علماء الآثار الإسرائيليين يعيدان النظر في الحقبة التاريخية التي تناولها العهد القديم عن طريق الاستعانة بالأدلة الأثرية. ومن خلال أبحاثهما وأبحاث علماء سابقين، استنتج العالمان أن علم الآثار لا يؤيد معظم القصص التي وردت في العهد القديم. فالخروج من مصر لم يحدث كما وصف. والغزو الشامل والسريع لكنعان لم يحدث. كما أن داود وسليمان عاشا في القرن العاشر قبل الميلاد، ولكن لم يكونا أكثر من رؤساء لقبائل صغيرة. وحسب ما جاء في كتابهما أيضًا، لم يكن هناك عصر ذهبي لمملكة موحدة لإسرائيل لها عاصمة كبيرة أو امبراطورية مترامية. كل هذا حسب نظرية المؤلفين كان جزءًا من ملحمة وطنية صيغت ببراعة في عهد الملك يهودا لكي تتناسب مع طموحاته التوسعية التي تطلبت أقصى شكل من أشكال التوحد.

تاريـــخ

الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية. نجد والحجاز
نجدة فتحي صفوة
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

هذا هو الجزء الخامس من السلسلة عن الوثائق الخاصة بعام ١٩٢٠، وفي هذا العام تصاعد الخلاف الهاشمي السعودي، وينطوي هذا الجزء على مجموعة من المراسلات المتبادلة بين الملك حسين والمعتمد البريطاني في جدة.

الروس والمجتمع الدولي
طارق منصور محمد
القاهرة: دار مصر العربية، ٢٠٠٠

دراسة عن تاريخ المجتمع الروسي، وهو قديم ويمتد بجذوره إلى أعماق بعيدة في تاريخ الإنسانية، والدراسة تعرض لهذا كله منذ بدايات الحروب مع دولة بيزنطة، مرورًا بالتوسعات الروسية في قارة أوروبا على حساب عدد من الدول مثل بلغاريا ورومانيا وغيرها، كما تعرض لسياسات روسيا الخارجية قديمًا وحديثًا وعلاقاتها التجارية بالدول المجاورة لها، وكذلك لدور الحكام في المجتمع الروسي.

ذاكرة فلسطين
المحرر العام: عبد القادر ياسين
القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات والنشر، ٢٠٠١

جزء أول في سلسلة عن الذاكرة الفلسطينية بما هي تاريخ وتراث وتفاعلات بين البشر، ويحتوي هذا الجزء على التاريخ القديم للقدس الشريف وأهميتها الدينية والاجتماعية، وموقف الصهاينة منها ومن أهلها، وكيف كان الرد الفلسطيني الشعبي الذي ترجمته الانتفاضة على الأرض في مواجهة الآلة العسكرية الإسرائيلية.

مدائن صالح.. من مملكة الأنباط إلى قبيلة الفقراء
إبراهيم السايح
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

عن مملكة اليمن قديمًا، والقبائل التي

قراءات جديدة

سكنتها والعلاقات بينها وعاداتها وتقاليدها، وأهم المعتقدات التي كانت سائدة فيها.

■■■

هذا اليوم في التاريخ
نجدة فتحي صفوة
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١

على مدار عقد كامل استمر المؤلف ينشر هذه الرواية التي يروم القراء إلى متابعتها كي يعرفوا كثيرًا عن تاريخهم ويقفوا على أوجه التشابه بين الأمس واليوم، وهذا المجلد هو في حقيقته مجلد في ثمانية أجزاء، يتناول الجزءان الأول والثاني أهم الشخصيات التي أثرت في المسيرة التاريخية والسياسية، وأجزاؤه التالية تعرض لأحداث وشخصيات في العالم كله.

■■■

Kitchener
(كتشنر)
John Pollok
Constable. 2001, 620pp., £ 20.00

من ثلاث سنوات، صدر للمؤلف جون بولوك الجزء الأول من سيرة حياة لورد كتشنر، وكان عنوانه: «الطريق إلى أم درمان». هذا العام صدر الجزء الثاني بعنوان: «كتشنر: منقذ الأمة»، وقد جمع الناشر الجزءين في مجلد واحد. ينتهي الجزء الأول عام ١٩٠٢، بعد نجاح كتشنر في السودان (في حادثة فاشودا الشهيرة) ونجاحه في حروب البوير في جنوب أفريقيا. أما الجزء الثاني، فيبدأ مع وصول كتشنر إلى الهند لقيادة الجيش هناك، وينتهي بمعارك الحرب العالمية الأولى التي قادها كتشنر بعد أن عين وزيرًا للحرب.

دين

أحكام الأسرة الإسلامية فقهًا وقضاءً
حسن حسانين
القاهرة: دار آفاق، ٢٠٠٠

أولى الإسلام الأسرة عناية خاصة بوصفها النواة الأولى في بناء المجتمع، ولذلك فصلت الآيات مسائل الخطبة والزواج والميراث وتنشئة الأبناء وتربيتهم، كما بينت أحكام الطلاق بوصفه أبغض الحلال وحقوق الزوجين والأولاد في حالة حدوثه.

■■■

الذين لمسوا وجود الله
صبحي عمر
القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

تلمس وجود الخالق سبحانه وتعالى يكفيه النظر إلى مخلوقاته في الطبيعة، التي تعج بمعجزات وآيات كونية يستحيل حصرها، المؤلف يعرض لعشرات الآيات التي حولت شك أصحابها في وجود خالق للكون، إلى يقين لا يأتيه الباطل أبدًا.

■■■

السياسة بين الحلال والحرام
تركي الحمد
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يموج عالمنا بالحداثة والتكنولوجيا المتقدمة التي هي الأكثر تعبيرًا عن هذه الحداثة، وتعلو أصوات المعلوماتية والشعارات ذات الأبعاد الإنسانية التي تتناول قيم العدالة والحرية والمساواة وحقوق الإنسان عمومًا، وكيف أن الإسلام في تطبيقاته المثالية، طالب بتلك الحقوق وأكد على أهميتها في العمران الإنساني.

■■■

دولة الإسماعيلية في إيران
السعيد جمال الدين
القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٠

لعبت دولة الإسماعيلية دورًا بالغ الأهمية في نشر المذهب الإسماعيلي الشيعي في إيران، كيف قامت هذه الدولة، ومن هم أهم حكامها، وما أشهر المعارك التي خاضها الإسماعيليون، وكيف كانت التيارات السياسية في حينها، هذا كله مما يعرض له المؤلف.

■■■

قراءة في ميراث النبوة
أنوار وجدي
القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٠

فصلت السنة النبوية الشريفة ما جاء مجملاً في الآيات القرآنية الكريمة، وميراث النبوة ليس الأحاديث الشريفة فحسب، وإنما أيضًا ما يروى عن سلوك الرسول الكريم وأفعاله وحكمته.

سياسة

الكرد.. دراسة سوسيولوجية وتاريخية
باسيلي نيكتين
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

برزت القضية الكردية بقوة على الساحة السياسية العالمية مع الصراع الدائر بين الزعيمين جلال طالباني ومسعود بارزاني، ثم إلقاء القبض بشكل درامي أشبه بشريط سينمائي على الزعيم الكردي عبد الله أوجلان، المؤلف يعني هنا أكثر بالموقع والتاريخ والتنويعات القبلية والعشائرية وتأثيراتها وأهم الرموز التي لعبت دورًا في التاريخ الإسلامي وفي تاريخ المنطقة من بين الأكراد، وأبرزهم بطبيعة الحال صلاح الدين الأيوبي.

■■■

النظم السياسية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية
إبراهيم السايح
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

منطقة شبه الجزيرة العربية ذات أهمية خاصة للعالم كله، وقد تصاعدت هذه الأهمية في العقود الأخيرة عقب اكتشاف النفط في أراضيها فباتت محط أنظار العالم، وما يجرى فيها يؤثر على سياسات العالم واقتصادياته، لهذا فإن دراسة النظم السياسية والاقتصادية لها مما يلقي أضواءً على تحولاتها المحتملة في المستقبل المنظور.

■■■

الديمقراطية وتحديات الحداثة بين الإسلام والغرب
إيليا حريق
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

الديمقراطية في صيغتها المعاصرة هي أيدلوجية غربية، وبشكل ما لم يتم استيعابها تمامًا في البلدان النامية، السؤال الأساسي الذي يعالجه المؤلف هنا هو كيفية المواءمة بين الديمقراطية وحضارات البلدان الآسيوية والأفريقية، وخصوصًا أن الديمقراطية تصطدم أحيانًا بأبعاد عقائدية وفكرية في تلك البلدان.

■■■

جيل السبعينيات
تحرير: محمد عبد الرسول
القاهرة: مركز الفسطاط للدراسات، ٢٠٠٠

حصيلة لأعمال ندوة أجراها المركز عن الحركة الطلابية في السبعينيات، وهي التي كانت ذات تأثير بالغ في المسيرة السياسية والثقافية في مرحلة لاحقة، وجيل السبعينيات من أبناء الحركة الطلابية، هم الذين هبوا يرفضون الهزيمة ويطالبون بالثأر حتى كان انتصار أكتوبر ١٩٧٣. والندوة التي شارك فيها عدد من رموز وأبناء هذا الجيل على اختلاف توجهاتهم، تعرض الدروس المستفادة من حركة الطلاب آنذاك، والروافد الثقافية والاجتماعية لعناصرها، وكيفية تفعيل الدور الطلابي في المرحلة الراهنة.

■■■

دور الصين في البنية الهيكلية للنظام الدولي
عبد القادر فهمي
أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠

يرى كثيرون أن الصين ستلعب دورًا مهمًا خلال العقد القادم، بما تحققه من معدلات تنمية تتجاوز ١٠٪ سنويًا، وبإسهامها في الاقتصاد العالمي بنصيب وافر، وتنوع مصادر دخلها وتعددت صادراتها. لهذه الأسباب عني المؤلف بتقديم هذه الدراسة التحليلية عن الصين المعاصرة.

■■■

While America Sleeps: Self - Delusion, Military Weakness, and the Threat to Peace Today
(بينما تنام أمريكا: خداع النفس، والضعف العسكري والخطر الذي يهدد السلام اليوم)
Donald Kagan and Frederick W.Kqgan
New York: St. Martin's Press, 488pp., $32.95

الكتاب يعقد مقارنة بين الوضع الاستراتيجي للولايات المتحدة في العالم اليوم، وبين الوضع الاستراتيجي لبريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى. ويرى المؤلفان (كيجان الأب، وكيجان الابن) أن قادة أمريكا اليوم يكررون الأخطاء ذاتها التي ارتكبها قادة بريطانيا آنذاك. وهي الثقة في التصريحات بالنوايا الحسنة، والثقة في المنظمات الدولية واتفاقات خفض التسلح، والدبلوماسية السلبية، والسماح للقوة العسكرية بالانخفاض إلى مستوى لا يتناسب مع التزامات الدولة العظمى.

سيرة ومذكرات

نوري السعيد - رجل الدولة والإنسان
عصمت السعيد
بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٠

يحتوي الكتاب على قسمين، يتناول الأول أعمال نوري السعيد كرجل دولة ومساهماته ودوره في القضايا العربية، وفي القسم الثاني وصف لحياة نوري السعيد الأخرى، حياته الخاصة وذكريات عنها.

■■■

An Hour Before Day Light: Memories of a Rural Boyhood
(ساعة قبل ضوء النهار: ذكريات صبا ريفية)
Jimmy Carter
Simon & Schuster, 2001, 284pp., $26.00

هذا هو الكتاب الثالث عشر الذي يكتبه الرئيس السابق جيمي كارتر منذ أن ترك البيت الأبيض عام ١٩٨١. وتقع أهمية هذا الكتاب ليس فقط في قيمته كمذكرات شخصية، ولكن كوثيقة تاريخية اجتماعية لما كانت عليه الحياة في ريف الجنوب الأمريكي أثناء السنوات الصعبة. في العشرينيات والثلاثينيات. تبين المذكرات أيضًا أنه بالرغم من أن والد كارتر كان من ملاك الأراضي الأثرياء، وكان يؤمن بالتفرقة، إلا أن جيمي كارتر نشأ في طفولته وصباه مع السود، وربطته بهم صداقات حميمة، حتى أنه كان يتحدث بلهجتهم إلى جانب لهجته «البيضاء». وقد أثرت صداقاته هذه في مواقفه السياسية فيما بعد، حيث كان من أفضل رؤساء أمريكا مناهضة للعنصرية.

شعر ومسرح

حادثة خط الاستواء
محمد حسن عبد الله
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

مسرحية تستوحي أسطورة حي بن يقظان، التي أثارت أفكارًا وقضايا عديدة لدى الفلاسفة المسلمين بأبعادها العميقة حول كيفية اكتشاف الخالق عبر ظواهر الطبيعة ذاتها حتى في بيئة معزولة عن أية مؤثرات فكرية.

■■■

سنظل نحب
عبد الحكم مندور
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

قصائد تنتمي إلى الشعر الحر. جميعها تؤكد أن لا حياة بلا حب. فالحب نور محض يضيء الجوانب المظلمة في حياتنا، من قصائد الديوان: قيثارتي، حظ العشاق، حبك يغزوني، حكاية حب.

طب

الهرمونات.. صور من الوظائف الحيوية والتطبيق العملي
سعد الدين المكاوى
القاهرة: دار منشأة المعارف، ٢٠٠٠

عن الدور الكبير الذى تلعبه الهرمونات في جسم الإنسان والوظائف التي تؤديها، ومدى تأثيرها على وظائف الجسم وكفاءته. والخطورة الناجمة عن عدم اتزان الهرمونات وما تجلبه من أمراض.

■■■

The Irritable Heart: The Medical Mystery of the Gulf War
(القلب: اللغز الطبى لحرب الخليج)
Jeff Weelwright
New York: W.W Norton & Co., 427pp., $26.95

بعد انتهاء حرب الخليج بدأ الجنود الذين شاركوا في الحرب في الشكوى من آلام في المفاصل والعضلات، ومن الصداع والدوخان وفقدان الذاكرة، ومن الأرق والإسهال والإرهاق وصعوبة في التنفس.

المشكلة أن العلم فشل في إلحاق هذه الأعراض بمرض محدد أو حتى إرجاعها إلى سبب واحد معين. يتحدث الكتاب عن تلك الأزمة والنظريات المتعارضة التي نشأت محاولة لتعيين السبب والذى تأرجح ما بين عدوى بيولوجية غامضة والتعرض للأدخنة والبترول واليورانيوم المستنفد وغازات الأعصاب العراقية. ولكن لم تنجح أى من هذه النظريات في الحصول على الإجماع الطبي.

ويرى المؤلف أنه لا يوجد سبب عضوى وحيد يمكن الرجوع إليه، وإنما ما يتعرض له المحاربون القدامى من أعراض مرضية يقع في المنطقة التي يتقاطع فيها الجهاز المناعي مع العقل مع المشاعر مع الغدد الهرمونية.

■■■

لغة الجسد
فؤاد اسحاق خورى
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

يتناول الكتاب عالم الحركات والإشارات الجسدية الواسع، فحركات الجسد وإشاراته تعكس المزاج النفسي لصاحبه، الذى يحكم علاقاته مع المحيطين به.

فلسفة

قضية الألوهية بين الدين والفلسفة
محمد السيد الجليند
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

تناولت دراسات عديدة قضية الألوهية في الفلسفة الإسلامية، وكذلك كانت قضية الألوهية أحد شواغل الفلسفتين الإغريقية واليونانية. المؤلف يتناول هذه القضية الشائكة وموقف الدين والفلسفة منها.

■■■

معارك من أجل الفلسفة الإسلامية في السياقات الإسلامية
محمد أركون
ترجمة. هاشم صالح
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

يشير المؤلف إلى انهيار الفكر الفلسفي الإسلامي مع انهيار الحضارة الكلاسيكية في القرن الثالث عشر الميلادى. ويكشف عن تيار تنويرى في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، تشكل بفعل اندماج الثقافتين الإسلامية والإغريقية، ونمو تيار ديني عقلاني، كما يقدم نماذج لمفكرين وفلاسفة إسلاميين يعبرون عن تلك المرحلة، بينهم أبو حيان التوحيدى ومسكويه.

■■■

مدخل إلى علم الكلام
محمد صالح محمد السيد
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠٠

علم الكلام أحد أهم العلوم الإسلامية التي اضطلع بها علماء ينتمون إلى فرق إسلامية أثرت الفكر الإنساني في عصوره الأولى، المؤلف يدخل بنا إلى هذا العالم، فيعرض لمؤسسى علم الكلام ومعناه ودوره في الفلسفة الإسلامية والفكر الديني عمومًا.

■■■

Socrates Cafe: A Fresh Taste of Philosophy
(مقهى سقراط: مذاق جديد للفلسفة)
Christopher Phillips
W.W Norton & Co., 224pp., $23.05

ينقل لنا المؤلف في كتابه نتاج رحلاته وحواراته الفلسفية مع مختلف أنواع الأشخاص العاديين، الذين وجدهم وطرح عليهم تساؤلاته في المكتبات وقاعات الجامعة والمقاهي والسجون.

فبالنسبة له الفلسفة ليست شيئًا تقرأه أو تدرسه، وإنما شيء تفعله. وهو يحاول أن يقوم بدور «سقراط» المعاصر، الذى ترك برجه العاجي وألهم أهل أثينا في الماضي بإحياء رغبتهم في التساؤل.

■■■

The Road Since Structure: Philosophical Essays, 1970 - 1993
(الطريق منذ البنية: مقالات فلسفية، ١٩٧٠-١٩٩٣)
Thomas S. Kuhn
Jim Conant, John Haugeland (Editors)
University of Chicago Press, 2000, 335pp., $25.00

البنية المذكورة في عنوان هذا الكتاب، تشير إلى كتاب توماس كوهن الشهير «بنية الثورات العلمية» الذى نشر لأول مرة عام ١٩٦٢. واشتمل على نظريته القائلة بأن المعرفة العلمية لا تتطور بشكل تراكمي متدرج، وإنما تتطور في شكل سلسلة من الانتقالات الثورية التي تحدث في المنظور الكلي للمعرفة ومبادئه الحاكمة. تلك النظرية التي أسرت فلاسفة العلم وامتد تأثيرها لعدد كبير من الأفرع الأكاديمية.

وهذا الكتاب يحتوى على إحدى عشرة مقالة فلسفية كتبها توماس كوهن منذ عام ١٩٧٠، وحتى وفاته عام ١٩٩٦. يناقش فيها منقحًا وشارحًا الردود التي وردت على نظريته الشهيرة. كما يحتوى على مقابلة طويلة أجريت معه قبل عام من وفاته يناقش فيها بشكل صريح وجذاب المنعطفات المهمة في حياته الشخصية والعملية والفلسفية.

فكر

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه
إعداد. هاشم صالح
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

يعني هذا الكتاب بطرح المسألة الاستشراقية، هذه المرة من جانب المستشرقين أنفسهم، فقد تعرض الاستشراق لانتقادات عديدة من جانبنا، بعضها صحيح وبعضها خاطئ. المؤلف هنا يمنح المستشرقين فرصة الرد. ويغوص في العلاقة بين العالمين العربي والإسلامي من جهة، والمسيحي الغربي العلماني من جهة ثانية، وهى أصل إشكالية الاستشراق.

■■■

الرجولة المتخيلة.. الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث
مى غصوب وإيما سنكلير
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

يقوم هذا الكتاب على فكرة أساسية هى أن الذكرية لا تقل عن النسائية بوصفها نتاجًا لبناء اجتماعي ومصدرًا للتعددية، ومن الشائع أن المجتمعات الشرقية ذكورية الطابع، وهكذا تركز المؤلفتان على معنى الذكورية في الثقافة الشرقية وتأثيرها وتجلياتها في الشرق الأوسط كله.

■■■

الفضيلة الواجبة
محمد الرميحى
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

تحدث كثيرون عن فرائض وفضائل غائبة عن المجتمعات العربية والإسلامية كي يمكنها أن تنهض وتحقق تقدمها وتلحق بركاب العصر، المؤلف يشير إلى السباق العلمي والتكنولوجي الذى فرض على مجتمعاتنا وصرنا طرفًا فيه حتى وإن لم نرد، بما يعني أهمية التسلح جيدًا للمشاركة في هذا السباق، وخصوصًا أننا نملك ثروة بشرية هائلة، يمكن إذا أحسن توظيفها أن تكون عونًا بدلاً من أن تصير عبئًا في هذا المعترك.

■■■

جادة الرؤيا
أمين الريحاني
بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

مقارنات بين خصائص المجتمع الشرقي وسمات المجتمع الغربي، وحدود العقل والروح في كل منهما. الصراع بين العقل والروح أحد ثوابت الجدل الفكرى على مر العصور وهى إشكالية يبدو أنها لم تحسم في المجتمعات الشرقية، وتلقى بظلالها على مسألة الهوية وغيرها من القضايا الشائكة.

■■■

ديانة قدماء المصريين
ستيندرف
ترجمة. سليم حسن
القاهرة: دار البستاني، ٢٠٠١

عن المعتقدات التي سادت في العهود المصرية القديمة، والمعبودات التي قدسها المصريون من حيوانات ونباتات وقوى طبيعية كالشمس وغيرها، وكيف استطاع المصريون أن ينسجوا عقيدة التوحيد كأول حضارة إنسانية تعمق هذه الفكرة، نظرًا للدور المهم الذى يلعبه الدين في حياة المصريين.

لغة

الدراسات اللغوية للقرآن الكريم في أوائل القرن الثالث الهجرى
عيسى شحاتة عيسى على
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

عندما بزغ فجر الدراسات اللغوية ووضع الفقه وأسس النحو في القرن الثالث الهجرى، كان القرآن الكريم هو أهم نص للدراسة، بسبب ثرائه بالبيانات والقواعد النحوية وبلاغته التي أعجزت المعاصرين والأقدمين، وهذا الكتاب يعرض للدراسات اللغوية التي استندت إلى النصوص القرآنية.

موارد

زراعة القمح
محمد محمن
القاهرة: منشأة المعارف، ٢٠٠٠

يعد القمح من المحاصيل المهمة ذات الطبيعة الإستراتيجية، فالقمح يعني لقمة العيش، وتحقيق الاكتفاء منه أمر بالغ الحيوية في السياسات العامة. المؤلف يعرض في دراسته تلك لأهمية القمح والمشاكل التي تواجه زراعته وكيفية التغلب عليها.

■■■

مشكلة المياه في الوطن العربي
رمزى سلامة
القاهرة: منشأة المعارف، ٢٠٠٠

يؤكد كثير من الباحثين والخبراء على أن القرن الحالي هو قرن المياه، وأن أية حروب ستنشأ فيه، سيكون سببها نقص المياه، والوطن العربي يعاني نقصًا شديدًا في مصادر المياه، وهو ما يعرض له المؤلف، واحتمالات الصراع التي يمكن أن تنشأ عن هذه الحالة بما يؤثر على مفهوم الأمن في الوطن العربي كله.

■■■

تعقيبان على مقال جلال أمين: «قصة حياة عادية، وأخرى فذة»

مقارنة لا تخلو من طرافة

عندما كنت أتناول أعداد «وجهات نظر» خلال العامين الماضيين (٢٤ عددًا بالتمام والكمال) كنت أبدأ عادة بقراءة تقديم العدد ثم أذهب مباشرة بعد ذلك إلي مقال هيكل. ولم يختل هذا النظام مرة واحدة طوال هذه الشهور، ولكني في هذا الشهر لم أتبع هذه العادة، وذلك لأني رأيت اسمي علي غلاف العدد، وكان طبيعيًا أن أذهب مباشرة إلي مقال الصديق القديم الدكتور جلال أمين.

وكان أول إحساس شعرت به هو العرفان لجلال لأنه قرن اسمي باسم العالم الكبير رشدى سعيد وهو من العلماء الذين انطوى لهم علي إجلال وتوقير كبيرين.

لقد أحسست أن الصديق جلال أمين أراد أن يكرمني بأن قرن بين اسمي واسم أستاذنا الدكتور رشدى سعيد.

وبعد أن قرأت المقال كله جاءني إحساس آخر ليس بعيدًا عن الإحساس الأول.

ذلك أنه منذ أن ظهر كتابي «قصة حياة عادية» وأنا أقرأ عنه لكبار النقاد والكتاب ما جعلني أتصور فعلاً أنني قدمت للقارئ العربي شيئًا جيدًا.

وغير كبار الكتاب والنقاد فإني أشهد أنني سمعت من عديد ممن أحترمهم من الإطراء ما أسعدني سعادة عميقة.

في الأسبوع الماضي قابلت السيدة العظيمة ليلي شرف وزيرة الإعلام الأردني السابقة وعضو مجلس الأعيان وأول ما رأيتها قالت لي أنها قرأت ذلك الكتاب في جلستين اثنتين وأنها لم تستطع أن تتركه إلا بعد أن انتهت من قراءته وأضافت كلامًا آخر جميلاً أشعر بكثير من الحرج في إعادته.

وكثيرون آخرون سمعت منهم نفس الشيء مما جعلني أشعر بالزهو.

وجاء مقال جلال أمين ليشعرني أن الناس لا يمكن أن تجمع علي شيء، فهذا هو جلال يرى في هذا العمل غير رأى الناس جميعًا مما أراحني كثيرًا لأنني - حتى في هذه السن - لا أخشى من شيء قدر خشيتي من الزهو الزائد الذى جعلني أحس به ما قرأت وما سمعت عن هذا الكتاب. شكرًا للصديق القديم.

وبعد ذلك أستأذن الدكتور جلال في بعض الملاحظات.

الا يرى وهو عالم الاقتصاد المبرز أنه قارن بين منهجين مختلفين اختلافًا بعيدًا بحيث لا تجوز بينهما المقارنة؟

كتاب قصة حياة عادية عبارة عن «لوحات نفسية» تصف التطور الوجداني والنفسي لصبي، ثم لشاب عاش بأحلام معينة عن الحب وعن الأدب وعن الجامعة. ويتوقف وصاحبه لم يعدُ الثلاثين عامًا.

والكتاب الآخر «رحلة عمر» هو كتاب علم تختلط فيه رحلة العمر بالجيولوجيا والمساحة والمعادن والمعارك السياسية.

شتان بين الكتابين.

وشتان بين المنهجين.

لا يجمع بينهما إلا أن المؤلف في كل منهما عبر عن جانب من حياته ولكن التعبير مختلف، والجانب المعبر عنه مختلف أيضًا.

لقد كتبت «قصة حياة عادية» وقرأت «رحلة عمر» وأشهد أن الثانية أفضل من الأولي وأكثر نفعًا للناس ولكني لا أستطيع المقارنة بين الكتابين فكل منهما ينتمي إلى عالم مختلف عن الآخر إلى حد بعيد.

ولكن يبدو أن جلال أمين يرى رأيًا آخر وقد يكون رأيه هو الصواب، وإذا كانت هذه هى الملاحظة الأساسية والتى توجز في أن جلال أمين قارن بين عملين كل منهما يسلك منهجًا مغايرًا عن الآخر ويعالج قضايا مغايرة تمامًا للقضايا التى يعالجها الآخر وهو الأمر غير الجائز فيما أتصور.

إذا كانت هذه هى الملاحظة الأساسية فإن ثمة بعض الملاحظات الجزئية الأخرى.

مثلاً يصف صاحب قصة حياة عادية زيارته الأولى لمسكن أستاذه الدكتور/ حامد سلطان وكيف أن نوعًا من الرهبة والهيبة ألم به عندما دخل المسكن الذى لم يكن قد رأى مثله من قبل وعبر عن ذلك بعبارات صادقة - هل يعد مثل هذا الإحساس من قبيل الاحتفال بمظاهر الثراء والأبهة كما قال جلال؟ أم أنها ردة فعل طبيعية لشاب من أسرة متوسطة يعيش في مسكن عادى ويدخل بيت أستاذه الذى كان الكل يعرف مدى أناقته وغناه الفنى - وليس المادى - فيعبر عن ذلك بمثل ما عبر عنه؟

على كل حال هذا اكتشاف جديد يحسب للدكتور جلال أمين.

ويجرى هذا المجرى أيضًا أن الدكتور جلال أمين يرى أن صاحب قصة حياة عادية مفتون بظواهر الأشياء وبعلية القوم ومن بيدهم الحل والعقد والتعيين والنقل والندب والإعارة والترقية، والحقيقة أننى لا أعرف شيئًا من ذلك عن صاحب قصة حياة عادية وما أظن أن الكتاب نفسه يعكس شيئًا من ذلك قط أو أن أحدًا غير الدكتور جلال ببصيرته النافذة قد لاحظ شيئًا من ذلك.

وأجدني مدينًا بشكر خالص للدكتور جلال في أنه جمع بين تعبير عن مرحلة مبكرة من حياة شاب لم يجاوز الثلاثين وبين اسم عالم كبير في مثل قامة رشدى سعيد يكتب عن تجربة عمر ناهز الثمانين.

لقد كانت مقارنة لا تخلو من طرافة.

ولله في خلقه شئون.

د. يحيى الجمل

لماذا كل هذا التحامل؟

لفت انتباهي مقال الدكتور جلال أمين الذى نشر في العدد السابق من مجلة «وجهات نظر».. تلك المجلة التى أحترمها وأتابعها لما تحوى من جهد مخلص، وفكر عميق وديمقراطى يطفو فوق سطورها، وتاتي به مقالات كبار الكتاب والمفكرين في مصر.

والنقطة الأساسية التى أريد أن أنطلق منها هنا هي فكرة «المقارنة» التى عقدها كاتب المقال بين كتابين في السيرة الذاتية نشرتهما دار الهلال خلال عام ٢٠٠٠، ولا يفصل بين ظهورهما إلا شهور قليلة، أحدهما كتاب «قصة حياة عادية» للدكتور يحيي الجمل. والثاني بعنوان «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات». للدكتور رشدى سعيد.

والمقارنة التى جعلها د. جلال أمين موضوعًا للمقالة كانت - في رأيي الشخصي - شديدة الغرابة! لماذا؟ لأن المقارنة يجب أن تقوم بين شيئين يجمعهما الكثير من التشابه.. وتربط بينهما عدة عوامل تصلح لأن تكون قاعدة للمقارنة.

والعجيب أن كاتب المقال يقر بنفسه بأن تلك القاعدة من الأشياء المشتركة بين المؤلفين غير موجودة.. فيقول: «فيما عدا هذه الأشياء البسيطة لا يكاد يكون ثمة شبه بين الكتابين أو بين المؤلفين» ويضيف: «والواقع أن ما بين الكتابين والمؤلفين فوارق شاسعة»!

وهنا أود أن أسأل الدكتور جلال أمين: هل نستطيع أن نفاضل أو ننحاز إلي تجربة إنسانية لحساب تجربة إنسانية أخرى؟! وإذا كان صاحب السيرة الذاتية قد رأى أن في تجربته ما يستحق أن يروى، وأن يقال، فهل من حقنا نحن كقراء أن نصادر علي تجربته أو أن نقيمها؟

ثم لماذا هذا الرأى المتحامل من بداية المقال.. الذى راح يبحث في مساحة طويلة وصلت إلي أربع صفحات ونصف الصفحة من صفحات المجلة ذات القطع الكبير عن حجج وأسباب تثبت حكمه علي الكتابين.. ورأيي أن الكاتب مزج كثيرًا بين رأيه الشخصي في المؤلفين وبين تقييمه الموضوعى لهاتين التجربتين الغنيتين.

ويستطرد كاتب المقال فيقول: «وصورة المؤلف المنشورة علي الغلاف صورة يشع منها الذكاء، ولكنه ذكاء يختلط بدرجة لا يستهان بها من الدهاء تتضح من أن الابتسامة التى ترتسم علي الوجه ليست ابتسامة كاملة، بل هى نصف ابتسامة.(!)

الحقيقة أنني اندهشت من هذا الرأى.. فحتى صورة الدكتور يحيي الجمل التى التقطها مصور ونشرت علي غلاف السيرة الذاتية لصاحبها لا تعجب الدكتور جلال أمين.. فهل هذا ينتمى إلى النقد الأدبى.. أم أنه رأى شخصي واضح وصريح؟!

وتتتابع المتناقضات في مقالة الدكتور جلال أمين. فهو يقر بأن الفترة الزمنية التى تمت تغطيتها في كلا الكتابين مختلفة.. تنتهي عند الدكتور يحيي الجمل بحصوله علي الدكتوراه عام ١٩٦٢.. في حين تمتد في كتاب الدكتور رشدى سعيد إلي نهاية القرن. ومع أنه يدرك هذا الاختلاف بين الفترتين الزمنيتين نجده يمتدح بشدة وحماس الدكتور رشدى لأنه وصف شخصية أنور السادات، وتصرفاته ومعاناته الشخصية هو وزوجته بسبب معاملة السادات له. وكذلك وصفه لما حدث للواحات الخارجة ولموارد مصر بصفة عامة، وما تعرضت له من إهمال وذبول عندما وقعت في أيدى أشخاص ضعيفي الإحساس بالمسئولية.

وينسى كاتب المقال في غمرة حماسة لكتاب الدكتور رشدي سعيد واستيائه من كتاب د. يحيي الجمل أن الكتاب الثاني انتهي عندما كان د. يحيي الجمل شابًا في الثلاثين من عمره.. أى أن الذكريات والتجارب التى مر بها مع الرؤساء، ومن خلال عمله السياسى لم ترد بعد في هذا الجزء من الكتاب.. وطبيعي أن يستكمل الدكتور يحيي الجمل سيرته الذاتية الشيقة والغنية في جزء ثان.. يعكف على الانتهاء من كتابته الآن.

والعجيب أن ينتقد كاتب المقال الدكتور يحيي الجمل لأنه قصد من كتابة قصة حياته أن يقدم لنا في هذا الكتاب عملاً أدبيًا، أما رشدى سعيد فإن من الواضح أن كتابة عمل أدبي لم تخطر له علي بال وأنه لم يرد من كتابته إلا أن يروى ما حدث له، علي أمل أن يتضمن بعض الحقائق المهمة عن السياسة المصرية والمجتمع المصرى.

وأنا أختلف معك يا دكتور جلال.. فهل تجد في الأسلوب الأدبي عيبًا؟! وهل ترى أن مضمون ما صاغه الدكتور يحيي الجمل صياغة جميلة وعميقة لقصة حياته لا يستحق أن يقرأ أو أن يحفظ في أوراق كتاب؟!

رأيي المتواضع أن الأسلوب الأدبى

الجميل هو وسيلة التوصيل الجيدة التي نستطيع من خلالها أن ننقل أفكارنا ومفاهيمنا وتجاربنا إلي الآخرين. وكتاب «الأيام» للدكتور طه حسين.. عميد أدبنا العربي.. تحفة أدبية وهو في ذات الوقت ثروة إنسانية لتجربة فريدة لا تزال تقرؤها الأجيال.

وإذا كان لكل كاتب أسلوبه فكيف نختلف في ذلك أو نعترض. إن الأسلوب مثل الصورة الفوتوغرافية أو الاسم الذي يعرف به الإنسان. وأسلوب الكاتب هو دائمًا صورته من الداخل، وطريقته في التعبير عن نفسه وعن تجربته تشكل جزءًا من ذاته، فكيف لنا أن نقارن بين أسلوبين مختلفين لتجربتين مختلفتين؟!

وفي رأيي أن كل تجربة إنسانية جديرة بأن تروى.. وتزداد أهمية إذا جاءت الرواية علي لسان وبأقلام أصحابها.. ورأيي أن كلتا التجربتين، تجربة الدكتور يحيى الجمل، وتجربة الدكتور رشدى سعيد لها خصوصيتها، ولها غناها المختلف، والجدير بالتسجيل والحفظ في ذاكرة الأجيال. واعذرني إن كنت قد اختلفت معك.. فالاختلاف في الرأى لا يفسد للود قضية.

نوال مصطفى

صحفية

ملاحظات على مقال رشدى سعيد: «مياه النيل فى سوق التجارة العالمية»

كلما قرأ المرء لأستاذنا الدكتور رشدى سعيد لا يملك إلا أن يزداد حبًا واحترامًا لهذا العالم المخلص العظيم، كما أننى أشعر بالفخر لأنى قرأت له واستمعت إليه وشاهدته بعينى.

بغير شك المخاوف التي أطلقها د. رشدى سعيد فى مقاله حول قضية خصخصة وتسعير المياه، مخاوف مشروعة، خاصة إذا تحولت المياه في ظل هذا الوضع الغريب إلى سلعة للتداول بين الدول، وهو الوضع الذى استشعرنا الخوف منه منذ صدور الاتفاقية الإطارية للأنهار الدولية والتي وصفها د. صلاح عامر بأنها سوف تسبب من المشكلات بأكثر مما تحل.

لقد أهملت الاتفاقية الإطارية مبدأ حق الارتفاق على مياه الأنهار الدولية، وهو من المبادئ الأصيلة فى القانون الدولى، لصالح عبارات غامضة حول مصالح الدول، ومنحت دول المنبع حقوقًا أكبر كثيرًا قد تهدد فيما بعد حقوق دول المصب.

لا نستطيع أن نفصل بين مبادرة حوض النيل وبين هذا الفصل التمهيدى المتمثل في الاتفاقية الإطارية المشار إليها. غير أن مبدأ إعادة النظر فى حصص مياه النيل بين البلدان الواقعة على حوض النهر، أمر لا يمكن رفضه أو إنكاره على البلدان المشاركة فى نهر النيل، بحجة وجود اتفاقات من زمن الاحتلال الإنجليزى أمنت لنا حقوقًا مائية ليس لأحد الحق في إعادة النظر فيها حتى ولو تعرضت البلدان المشاركة فى النهر لخطر الجفاف والمجاعات.

لكي تحافظ مصر على حصتها من مياه النيل عليها أن تبادر بفتح الملف المتوقع فتحه بين يوم وآخر، لأن اختيار مصر فتح الملف بإرادتها يسمح لها بتحديد عدد من العوامل المؤثرة على المفاوضات. إذ على الأقل يسمح لنا ذلك باختيار موعد ومكان ومستوى المفاوضات المناسب، وإن كنا قد تأخرنا كثيرًا فى ذلك حتى سمحنا لأطراف غير مرغوب في تدخلها أو ظهور تأثيرها على هذه المفاوضات بالظهور.

لقد حمل أستاذنا د. رشدى سعيد على التفكير الحالى فى أثيوبيا لبناء السدود، فى حين أنه لم يتخوف من ذلك فى كتابه المهم عن نهر النيل (طبعة دار الهلال) من بناء السدود فى أثيوبيا، بل وصل إلى أن بناءها سوف يكون مفيدًا فى تنظيم تدفق المياه، وقد توقع أن يؤدى ذلك إلى زيادة المياه بحوالى ٦ مليارات متر مكعب من المياه، وأنا واحد من الناس الذين أخذوا هذا التفكير بكل اطمئنان لأنه صادر عن الدكتور رشدى سعيد.

من ناحية أخرى لقد سلم أستاذنا بمبدأ المفاوضة على إعادة اقتسم مياه النيل عندما أطلق تحذيراته المهمة جدًا والتي جاءت في محلها تمامًا حول مشروع توشكى، إذ طلب من المسئولين عدم الإقدام على مشروعات ذات تكلفة مائية كبيرة، لأنه يشك فى أن يتمكن المفاوض المصرى من المحافظة على الكمية التي تحصل مصر عليها حاليًا من مياه النيل.

غير أن ريبة الدكتور سعيد فى موضوع مبادرة حوض النيل، فى محلها تمامًا، ولنا أسبابنا في ذلك:

* أن تطرح المبادرة فى علاقة مع اللغط الدائر حول بنوك المياه، فهذا أمر مريب لأن القبول بفكرة بنوك المياه متعارض مع حقوق الارتفاق التاريخية على مجارى الأنهار.

* لأن الجهة أو الجهات التي تقف خلف المشروع وتقدم له الدعم مشبوهة، ولم يحدث أن وقفت يومًا إلى جوار الحقوق المصرية في مياه النيل منذ خرجت مصر من عباءة السيطرة الإنجليزية.

* وأخيرًا، مبادرة بهذه الدرجة من الأهمية والمصيرية لشعب مصر ومستقبل أجياله، نرى أنه من غير المقبول ولا المسموح أن يتم التداول فيها سرًا على هذا النحو، خاصة أن الموضوع لا يخص وزارة الرى وحدها ولا حتى بمشاركة وزارة الخارجية، ولا هو اختصاص مقصور على الحكومة المصرية حتى لو جندت له كل أجهزتها، إننا فى موضع يتقرر فيه مستقبل مصر وأجيالها ربما للأبد، لذلك فإن الجهة التى تتصور فى نفسها المقدرة على حسم هذا الأمر منفردة، لا بد أن تكون جهة غير مقدرة لخطورة الأمر، ومن هنا يتخذ تحذير د. رشدى سعيد أهميته الاستثنائية.

أما فكرة أن البلدان الواقعة فى حوض النيل لا تستفيد بغير ٥٪ من الموارد المائية لحوض النيل، ففى هذا القول قسم من الحقيقة وآخر من المبالغة. فنحن بالفعل لا نستفيد إلا بالقدر اليسير من الموارد المائية المتوافرة. أما إذا تعاملنا مع هذه الموارد المائية من منطلق القابلية للاستخدام الاقتصادى فى ظل أوضاع البنية الأساسية والظروف التكنولوجية السائدة فى منطقة حوض النيل، فإن الأمر يختلف كثيرًا عن هذا التقدير المتفائل، لذلك فإن المقدرة على استخدامها استخدامًا اقتصاديًا تكاد تكون منعدمة، فضلاً عن مخاطر تناقض هذه الموارد المائية بفعل زحف التصحر على مساحات شاسعة من حوض النيل، ومن هنا لا نستطيع أن نتصور دخول مصر لأى حوار أو مفاوضات حول حصتها المائية دون النظر إلى مجمل الأوضاع الاقتصادية والسياسية لمنطقة حوض النيل، وهذه المخاوف التى أبداها الدكتور رشدى سعيد من الدور الأثيوبى، قد لا تكون فى محلها على الرغم من المعرفة بالعناد الأثيوبى واستعداد الأنظمة الحاكمة هناك لاتخاذ مواقف مناوئة لمصر منذ عام ١٩٥٢. وذلك لأن المصالح الحقيقية للمجتمع الأثيوبى مع جيرانه فى منظومة حوض النيل، وليست مع الأطراف الدولية الأخرى التى تستخدم النظام الأثيوبى فى إقلاق راحة جيرانه وشركائه، وكون الدبلوماسية المصرية قد سجلت فشلاً ذريعًا فى ذلك خلال خمسة عقود، فهذا لا يبرر على الإطلاق أن هناك مصالح حقيقية لأثيوبيا مع الأطراف الدولية الواقعة خارج حوض النيل. ومن هنا فليسمح لى أستاذنا الدكتور رشدى سعيد بالاختلاف معه فى التعامل مع أثيوبيا كطرف مناوئ لكل من مصر والسودان فى مصالحهما المائية، بل إن على مصر العمل على حل مشكلاتها المائية مع المشكلات المائية لأثيوبيا فى وقت واحد. لأن المشكلة المائية فى أثيوبيا فى واقع الأمر ليست أكثر من مشكلة تنظيم استغلال الموارد المائية وليست تدبير موارد مائية إضافية وقد سبق أن وصف الدكتور رشدى سعيد أثيوبيا بوصف نافورة المياه فى أكثر من مناسبة، وهو وصف موفق إلى حد بعيد.

وإذا عدنا لمبادرة حوض النيل فإن أى مبادرة حقيقية لتنظيم توزيع الحصص المائية بين بلدان حوض النيل لا تضع فى اعتبارها أن حوض النيل يمثل منظومة بيئية وتنموية واحدة، هى مبادرة محكوم عليها بالفشل، لأنها سوف تبدد طموحات التنمية لبلدان المنبع والمجرى والمصب على حد سواء، ونقصد بذلك الاقتراب الحالى الذى يهدف إلى تحكيم عوامل السوق فى توزيع المياه وما سوف يترتب عليه من خلق تعاقدات مائية خارج منطقة الحوض فتحرم الشركاء الآخرين من حقوقهم القانونية من ناحية، كما تحرم باعة المياه أنفسهم من حقوق أجيالهم القادمة فى المياه. إن اقترابًا تنمويًا ذا بعد بيئى فى التعامل مع منطقة حوض النيل يضمن تنمية الموارد المائية للمنطقة ويتعامل معها كمنظومة تنموية واحدة، وفى نفس الوقت يحقق استدامة مواردها الطبيعية وأهمها المياه. لأن المخاطر البيئية الحالية سوف تكون مسئولة فى المستقبل عن ضياع قسم كبير من موارد المياه، كما أن التخلف الاقتصادى الشديد لأغلب بلدان حوض النيل يقف عائقًا حقيقيًا أمام استفادة أغلب البلدان بمواردها المائية المتنوعة، فضلاً عن أن ضعف البنى الاقتصادية الحالية لأغلب البلدان سوف يكون عاملاً مشجعًا لقبول فكرة بيع الموارد المائية الحالية، لعل عائدها يؤمن قسمًا من الاحتياجات المعيشية للسكان. (وربما لتمويل نيران الحروب الأهلية والصراعات العرقية كما تفعل مناجم الماس والذهب).

على صعيد آخر قد يمثل الاتجاه نحو بيع المياه من وجهة نظر بعض البلدان الشريكة فى حوض النيل حلاً سريعًا لمشكلة نقص مواردها المالية، ولكونها بلدانًا فقيرة، فهى غير قادرة على تمويل التجهيزات الهندسية العملاقة التى تحتاجها عمليات تخزين المياه بوصفها أرصدة مائية فى بنوك المياه التابعة لكل دولة أو ربما لمجموعة من الدول. هذا الوضع سوف يوقعها فريسة الشركات عابرة الجنسيات، فهى القادرة على تمويل هذه المشروعات وبالتالى الدخول كشريك رئيسى فى بيع هذه الأرصدة المائية وتملكها فى بورصات المياه التى ستترتب على هذا الوضع الشاذ.

غير أن هذه التجهيزات الخاصة بالتخزين ونقل المياه سوف تضر ضررًا بليغًا بالمنظومة الهيدروليكية لنهر النيل، وبالقطع سوف تترتب على ذلك تغيرات بيئية حادة ربما تؤثر على مستقبل الموارد المائية نفسه بسبب ما تسببه مسطحات التخزين من اختلال فى الدورات المناخية المحلية من ناحية وما يترتب على شح جريان المياه فى مناطق أخرى من مخاطر التصحر، وبالتالى ظهور مصدر آخر للاختلال المناخى. وفوق هذا وذاك فوضى إدارة الحقوق المائية على امتداد النهر الخالد.

لقد دأب الدكتور رشدى سعيد على دق ناقوس الخطر، وكثيرًا ما تشاغل المسئولون عنه فى عناد غريب. هذه المرة المسألة أكبر من كل شيء، إنه الفخ الذى ينصب لنهر النيل، أى لمصر، تاريخها وحاضرها ومستقبلها.

أستاذنا الكريم تقبل حبى ومودتى، أدامك الله لنا بصحة وعافية.

د. محمد نعمان نوفل

خبير البيئة والتنمية البشرية

مدرس بجامعة المنوفية

نون

لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة؟

ليس هناك في العالم العربي الآن من لا تؤرقه «الأزمة»، أو يثير قلقه اتساع الفجوة بيننا وبين العالم المتقدم.. وفي كل المناسبات يطرح المثقفون والسياسيون والمفكرون سؤالاً لا يتغير بألفاظه ودلالاته، حتى ليكاد يصبح هاجسًا مُلحًا أو وسواسًا قهريًا يتكرر بوتيرة منتظمة: لماذا أخفق النظام العربي في تحقيق أهدافه، كما تساءل أخيرًا في القاهرة الأمير الحسن شقيق الملك الأردني الراحل حسين؟ أو ما الذي حدث للمصريين كما تساءل قبلها الدكتور جلال أمين ونسج على منواله آخرون؟ أو لماذا فشل مشروع النهضة العربية الذي شهدنا بداياته في أوائل القرن ثم سرعان ما انطفأت الشعلة كما تساءل كثير من المفكرين؟ وعندما يفرغ الناس من التحليل والتعليل يبقى السؤال الذي لا تتغير دلالته هو نفسه جوابًا يتكرر مع كل عثرة في الطريق، أو معضلة تبدو بغير حل: لماذا لا تتفق الأمة بكل فصائلها على مشروع قومي واحد، تلتف حوله، وتعبئ جهودها من أجل تحقيقه؟ وقد لخص المتنبي الموقف في بيتين من شعره حين قال:

نحن أدرى وقد سألنا بنجد
أطويل طريقنا أم يطول؟
وكثير من السؤال جواب
وكثير من رده تعليل!

وعلى الأرجح فإن طريقنا سوف يطول ويطول، لأننا لا نسأل السؤال الصحيح، أو لأننا قد اكتفينا بالسؤال عوضًا عن الجواب. وحين تختزل الإجابة في سلسلة من التعليلات والتبريرات، التي تتحدث باسم التمسك بالتراث، أو تختفي وراء العادات والتقاليد، أو ترفع شعار الوحدة والحفاظ على الهوية، أو تحتج بأعذار سياسية مثل: السلام الاجتماعي وتوحيد الصفوف في مواجهة العدو، أو مقاومة الغزو الحضاري والتغريب.. فإن الحقائق سرعان ما تضيع تحت ركام من الزهو الكاذب وخداع النفس.

تذهب بعض التفسيرات التي طرحت لفهم أسباب «الأزمة» أو الإخفاق الذي أصاب النظام العربي، وألحق الهزيمة بالمشروع العربي للنهضة، أيا كانت مسمياته، ثم دفع بالمجتمعات العربية القهقرى.. مختزنًا لدى الإنسان العربي هذا القدر الهائل من التوجس والشك والحذر وعدم الثقة بالنفس.. إلى فشل التجربة الليبرالية العربية وعمليات التحول السياسي نحو الديمقراطية، وما أصابها من نكسات في ظل ظروف دولية معقدة. ضاعف من تعقيدها استمرار الصراع العربي الإسرائيلي أكثر من نصف قرن. استنزفت خلاله الإمكانات والطاقات العربية. ووقف عائقًا دون تطور الحياة السياسية ونضوج التعددية، فلم تنجح المجتمعات العربية في الخروج من مرحلة حكم الحزب الواحد أو الحزب القائد والخضوع لنظام سلطوي. وظل التحجج بالصراع العربي الإسرائيلي تارة، وبمقاومة التيارات الهدامة وقوى الإرهاب والتطرف تارة أخرى، والقضاء على أعداء الشعب تارة ثالثة.. مبررًا لإبقاء الأوضاع الاستثنائية التي تحد من الديمقراطية وتسمح بفرض قوانين الضواري.. التي استمرت ومازالت في بعض البلاد العربية عقودًا طويلة تقترب من نصف قرن، هي الفترة الفاصلة بيننا وبين دول كانت معنا وتجاوزت مرحلة التخلف.

ونسبت تعليلات أخرى هذه الحالة المزمنة من الإخفاق والتردي، إلى السقوط في براثن هيمنة اقتصادية عالمية مدمرة أدت إلى انفتاح اقتصادي استهلاكي مخرب. أحدث انهيارًا في القيم والسلوكيات، وفتح الباب للفساد، وعمل على تعميق حالة الاستقطاب والانقسام الطبقي الحاد، في ظل تآكل لدور الدولة.. ترتب عليه خلل واضح في هياكل الإنتاج والعمالة. وضاعف من حالة التردي بروز ظاهرة العولمة بكل تداعياتها السياسية والاقتصادية والتجارية، تحركها الثورة المعلوماتية التي أسقطت الحواجز، وأذابت الحدود، وتوشك أن تغير أساليب الإنتاج الصناعي تغييرًا جذريًا في العالم.

ولكن التعليل الأكثر رواجًا لدى الطبقات العريضة من الشعوب، هو أن ارتماء المجتمعات العربية في أحضان الغرب والأخذ بأفكاره ومذاهبه، والتخلي عن التراث الإسلامي، واللجوء إلى تشريعات وضعية لا تلتزم بأحكام الكتاب والسنة، هو الذي أفضى بالمجتمعات العربية إلى ما هي عليه من تفكك وانحلال، وخمول في الهمة وقعود عن تحقيق النهضة.. أدى بدوره إلى وهن في مقاومة العدو، وخضوع أمام قوى الاستكبار العالمية المسيطرة التي تتحكم في مصائرنا وثرواتنا وتملي علينا سياساتنا وقراراتنا.

وفي اعتقادي أن هذه التفسيرات لا تصل إلى لب المشكلة ولكنها انعكاس للحالة الفعلية التي مرت بها الأمة على امتداد القرن الأخير.. من مرحلة السعي إلى الاستقلال والتحرر، والسير على طريق الليبرالية الغربية دون أن تنجح في امتلاك المقومات الأساسية لها، إلى مرحلة البحث عن حلول أخرى في إطار النظرية الاشتراكية التي سرعان ما أثبتت فشلها عالميًا وإقليميًا.. وأخيرًا اكتملت الدائرة ببروز تيار العودة إلى الأصول والبحث عن الثوابت الدينية كمرجعية تمتلك الحلول الجاهزة لكل مشكلات العصر.

وسوف نلحظ أن القاسم المشترك الأعظم في كل هذه المراحل، والذي سرعان ما كان يقود إلى جو «الأزمة» ثم الإخفاق، هو أن الشعوب العربية ظلت مستبعدة من المعادلة الأساسية في صناعة مصيرها وتقرير مستقبلها. ولم يحدث في أية مرحلة من هذه المراحل أن وثقت القيادات بشعوبها أو آمنت بقدرتها على اختيار ما تراه صالحًا ونافعًا لنفسها ولأبنائها. فالشعوب إما أن تكون خاضعة لسيطرة أحزاب وزعامات سياسية ارتبطت مصالحها الشخصية بنزوع جامح إلى السلطة، أو هي خاضعة لهيمنة السلطة العسكرية التي قامت بالثورة، أو حتى في ظل النظم الدينية فإن السلطة لا تذهب إلا إلى الأئمة والمراجع الدينية.

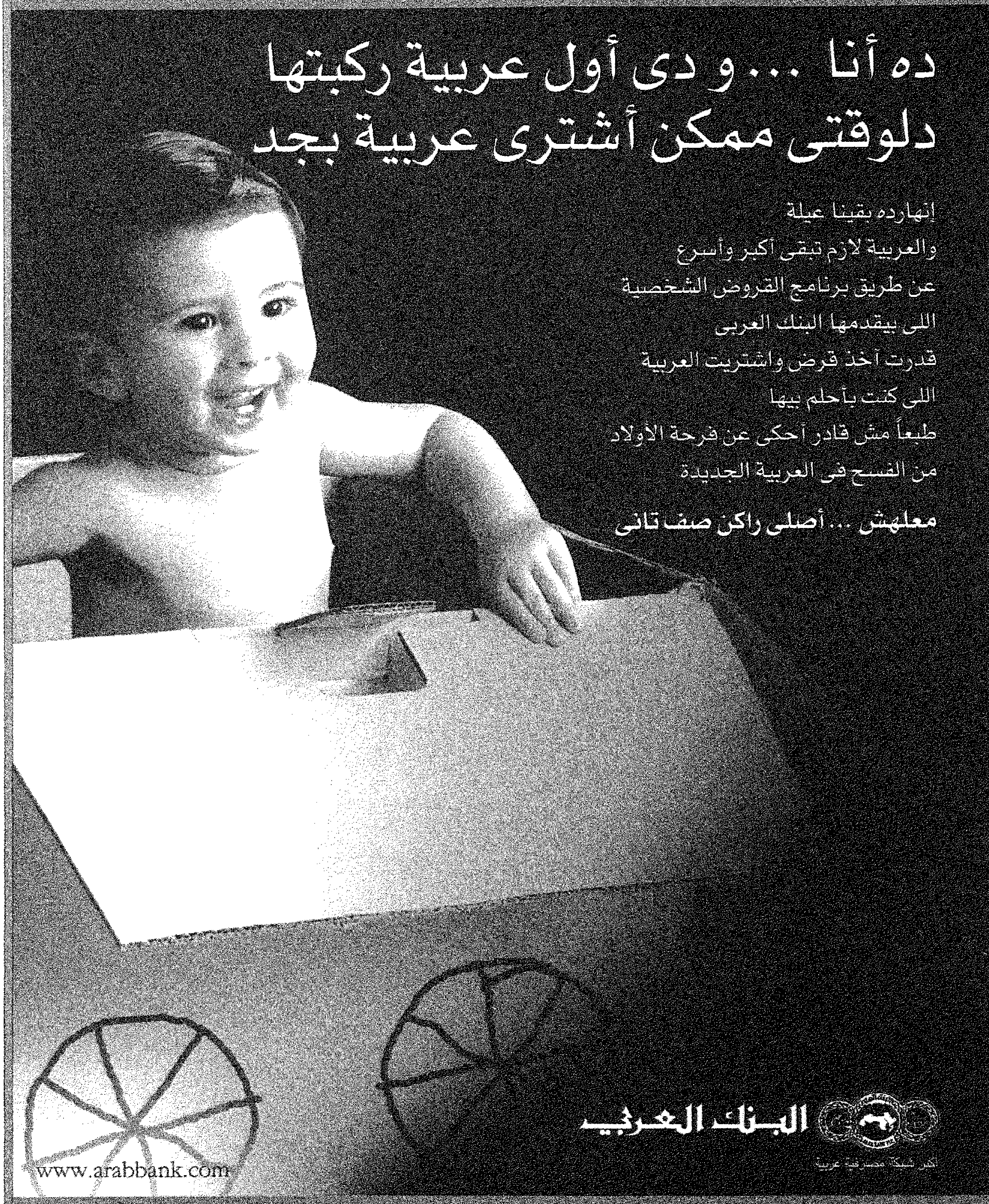
والسؤال الآن: ألم يحن الوقت لكي يثق الحكام العرب بشعوبهم، ونثق بقدرة المواطن العادي على تحديد مصيره وتقدير ما يراه صالحًا لنفسه.. فنعطيه من ثم الحق في استشعار قدراته واستثمارها في خدمة نفسه ومجتمعه؟ ألم يئن الأوان لكي تتحول الرقابة الخارجية من جانب السلطة أو الحكومة أو مقص الرقيب إلى رقابة ذاتية داخلية، تستمد قوتها من مبدأ أخلاقي أو وازع ديني، بقدر ما تستمد فاعليتها من إحساس عميق بالمسئولية المدنية والاجتماعية؟ وكلتاهما لا تنمو وتترعرع إلا في جو من الحريات التي توسع مجالات الفكر والعمل، وفي ظروف تسمح بنشاطها وازدهارها.

هذه الثقة المفقودة التي تنبع من ادعاء ذوي السلطان على كافة المستويات، من البيت إلى المدرسة إلى الجامعة، ومن المؤسسة إلى الصفوة الحاكمة، بأنها وحدها تملك الحقيقة وتحتكر القدرة على التفرقة بين الحق والباطل، والصواب والخطأ.. هي التي أنتجت شعوبًا ضعيفة، ومن ثم حكومات مذعورة خائفة.. سلسلة متصلة الحلقات تبدأ من الفرد الذي عجزت أساليب التعليم والتربية في بيوتنا، ثم في مدارسنا وجامعاتنا عن تنشئته على أساس من حرية التفكير والتعبير، والقدرة على النقد وتكوين شخصية مستقلة تملك روح المبادرة والشجاعة والاعتماد على النفس وانتهاج التفكير العقلاني.. وهي اللبنة الأولى في أي بناء ديمقراطي، يعتمد على قوة الشعوب وقوة الحكام. ويشرك الشعب في تحمل المسئولية ومواجهة تحديات العصر.

وإذا أردنا أن نبحث عن تفسير علمي وموضوعي لأسباب الإخفاق الذي يلاحق الشعوب العربية منذ بداية القرن الماضي، وأجواء الأزمة التي تخيم عليها مثل سحابة سوداء لا تنقشع، فلابد أن نبحث عنها في الخلل الذي أصاب جذور الشخصية العربية عمومًا والمصرية خصوصًا. نتيجة لانهيار نظام التعليم، وتآكل التفكير العلمي، وانحطاط مستوى التربية على مستوى الأسرة والمجتمع، وغياب القدرة على تنفيذ القوانين وإلزام المجتمع باحترامها. إذ سرعان ما تسللت جراثيم هذا المرض إلى خلايا الأمة فأفسدت جيناتها عبر أجيال متتالية أوصلتنا إلى ما نحن فيه من وهن واهتراء.

في ضوء هذا يمكن فهم الأسباب التي تحمل شرائح كثيرة في المجتمع، في السلطة وخارجها، لكي تعطي لنفسها الحق في منع الناس من إعمال عقولهم وتفكيرهم، بفرض وصاية على أي شكل من أشكال الإبداع الحضاري لها بدعوى الدفاع عن القيم والأخلاق والدين. وتصبح هذه الرقابة نوعًا من التكفير، بل هي عقوبة مستترة بغير قانون.. لأنها تمنع الفرد من ممارسة قدراته وملكاته، وتحكيم ضميره، وهي في النهاية تحرمه من إنسانيته وتجعله أشبه بحيوان أليف في قطيع، أو طفل يحتاج دومًا من يعوله. لذلك ظلت مجتمعاتنا العربية عاجزة، لا تشب عن الطوق ولا تصل مرحلة الفطام والاعتماد على الذات في كل شئونها.. وهو نفس أسلوب التربية السائد في البيت وفي المدرسة، الذي تحل فيه الرقابة الخارجية محل الرقابة الداخلية حتى بين الكبار والراشدين. وهذه هي السلبية القاتلة التي تتكفل بالقضاء على الشعوب وإغراقها في «أزمة» لا خلاص منها مهما تبدلت النظم، وتغيرت العصور، واختلف الحكام، لأن جذور «الأزمة» داخلنا وليست خارجنا!

سلامة أحمد سلامة



ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com